تاريخ مصر

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس بن المقفع

الهيئة العامة لقصور الثقافة

الأجزاء التسعة كاملة

1 2 3 4 5 6 7 8 9

إعداد و تحقيق:
عبد العزيز جمال الدين

تاريخ مصر

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس بن المقفع

الهيئة العامة لقصور الثقافة

تاريخ مصر

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس بن المقفع

1

إعداد و تحقيق:

عبد العزيز جمال الدين

لم يكن ابن المقفع آخر المؤرخين المصريين، لكنه ومخطوطته كانا الأشهر فى هذا السياق، وقد تعاقب من بعده من الآباء والرهبان المصريين من عكفوا على استكمال هذا التأريخ حتى بداية القرن العشرين.
وبجهد الباحث المجد عكف المحقق المصرى عبد العزيز جمال الدين على جمع هذه المخطوطات وتحقيقها والتعليق عليها، موضحاً ما كتب فيها وما كتب فى التاريخ الرسمى الشهير، ليضع أمامنا عملاً قل أن نجده فى الثقافات الحديثة، لنقف أمام وجهتى نظر للتاريخ متأملين كيفية عمل الفعل البشرى فى تسجيل الأحداث حسب الانتماء الثقافى، وليفتح الباب على مصراعيه أمام العاملين فى مجال البحث التاريخى ليعيدوا التأمل فى آلية ومسار واحدة من أهم عمليات التدوين الذى حكم مخيلة البشر فى رؤيتهم لماضيهم التليد.

السعر: سبعة جنيهات

تاريخ مصر

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس بن المقفع

الجزء الأول

وزارة الثقافة

مطبوعات
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
سعد عبد الرحمن

أمين عام النشر
محمد أبو المجد

الإشراف العام
صبحي موسى

الإشراف الفني
د. خالد سرور

المتابعة والتنفيذ
عادل سميح

• تاريخ مصر
من خلال مخطوطة
تاريخ البطاركة (الجزء الأول)
• إعداد وتحقيق:
عبدالعزيز جمال الدين
• طبعة:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2012م
17x 24 سم
• تصميم الغلاف: أحمد اللباد
• رقم الإيداع: ٢٦٤٢٠/ ٢٠١٢
• الترقيم الدولي: 978-977-704-939-9
• المراسلات:
باسم / المشرف العام
على العنوان التالي: 16 أ شارع
أمين سامي - القصر العيني
القاهرة - رقم بريدي 11561
ت: 27947897
التجهيزات والطباعة:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابي من الهيئة العامة لقصور الثقافة، أو بالإشارة إلى المصدر.

تاريخ مصر

من بدايات القرن الأول الميلادى
حتى نهاية القرن العشرين

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس بن المقفع

إعداد وتحقيق

عبد العزيز جمال الدين

الجزء الأول

من مار مرقس حتى أنستاسيوس البطرك ٣٦ (٦٠٥- ٦١٦م)

إن أهم الأسئلة هو هذا: أين يبدأ التاريخ؟ ومن الذى يصنعه؟ وكيف حصلنا على آثاره ومدوناته؟.

مبدئياً علينا أن نؤمن بأن هناك ما يسمى بالقوة الطليعية التى واتتها الفرصة لتقود البشرية نحو التطور والتقدم. فمثلاً حين نرى المصريين وقد تحولوا إلى أمة متحدة تقيم الدولة الواحدة لأول مرة فى التاريخ، وحين تظهر الدولة بمؤسساتها الهرمية المتعددة المعقدة، والقوانين التى تنظم علاقاتها الاجتماعية، والسلطة التى يتربع فوقها ملك، وما تمارسه فيها اللغة والكتابة كوظيفة كبرى. حينئذ تماماً يبدأ تاريخ البشرية الذى صنعه المصريون منذ سبعة آلاف سنة على ضفاف نيلهم، وسجلوه كتابة على جدران المعابد والمسلات والأضرحة والأهرامات والتوابيت وأوراق البردى فأمكننا بذلك معرفة أين بدأت البشرية تاريخها، ومن الذى صنعه.

من أجل هذا يُعد التاريخ من الأعمال الأدبية والفنية الرائعة التى أسسها المصريون ومارسوها منذ القدم، وظلوا طوال تاريخهم شغوفون بالتدوين والكتابة التاريخية. لهذا يحفل التاريخ المصرى بالعديد من المصادر الوثائقية المخطوطة التى تكشف عن أحداثه، واشتهرت فى مكتبات العالم منذ مكتبة الإسكندرية أعظم مكتبة فى تاريخ البشر. ولكن مخطوطة «تاريخ البطاركة» لساويرس ابن المقفع تعد أكبر هذه المخطوطات من حيث الفترة التاريخية التى تغطيها، فهى المخطوطة الوحيدة التى تغطى تاريخ مصر منذ الاحتلال الرومانى (أى من بدايات القرن الأول الميلادى على وجه التقريب) وحتى عهد الملك فؤاد فى بدايات القرن العشرين. وبالرغم من ذلك فإن معظم مؤرخى مصر يتجاهلونها بسبب ندرتها بين يدى الباحثين وبسبب ظن من يسمعون عنها أنها تاريخ للكنيسة المصرية فقط غير مدركين للرصد التاريخى الهام لوقائع مصر العديدة التى تترصدها هذه المخطوطة الهامة.

عبدالعزيز جمال الدين

تقديم المحقق

الأهمية التاريخية لكتاب ساويرس

تمهيد

من بين المصادر التي يعتمد عليها الباحثون فى تاريخ مصر فى العصور الوسطى، كتب أرخها كتاب ومؤرخون مسيحيون من مصر، أو غيرها من البلدان، مثل سعيد بن بطريق، البطرك الملكانى فى مصر والمعروف باسم أوتيخا صاحب كتاب «التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق» (ت٩٤٠م) ويحيى بن سعيد الأنطاكى (ت١٠٦٦م) صاحب «التاريخ» أو «صلة كتاب سعيد بن بطريق» وابن مماتى (ت١٢٠٩م) صاحب كتاب «قوانين الدواوين» وابن العبرى «أبو الفرج بن هارون الملطى» (ت١٢٨٦م) صاحب كتاب «تاريخ مختصر الدول» وابن العميد المعروف بالمكين (ت١٢٧٤م) صاحب كتاب «تاريخ المسلمين».

أما صاحبنا ساويرس بن المقفع فقلما يعرفه العلماء والطلاب الباحثون فى تاريخنا الوسيط، ولعل ذلك يرجع إلى أن ساويرس أرخ لبطاركة الكنيسة، فظن الباحثون ـ خطأ ـ أن تاريخ البطاركة والكنيسة المصرية لا يرتبط بتاريخ مصر.

ولم يترجم لساويرس أحد من أصحاب كتب التراجم المعروفة وانما نعرف عنه مما كتب هو

عن نفسه، ومما كُتب عنه في الكتاب المنسوب إليه وهو كتاب «سير الآباء البطاركة» أو تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية».

مصادر كتاب ساويرس:

وقد جمع ساويرس معلوماته وأخباره مما وجده في الأديرة المختلفة مثل دير القديس أبى مقار ودير نهيا ودير وادى هبيب (وادى النطرون) وغيرها من الديارات، ومما وجده في أيدى النصارى، ويذكر ساويرس أنه أضاف إلى معلومات الأوائل ما عرفه هو من سير من شاهدهم من الآباء البطاركة.

ويذكر ساويرس أنه لاقى مشقة كبيرة في ترجمة الوثائق القبطية واليونانية إلى العربية، وأنه استعان ببعض القبط ممن كان لهم دراية باللسان القبطي أو اليوناني. منهم الشماس ميخاييل ابن بدير والواضح بولس بن رجا، وقد ورد خبر الأخير في سيرة أنبا فيلوتاوس البطرك (٦٣).

وقد أتم كتاب ساويرس من أتى بعده من الكتاب والأساقفة، ولكن الكتاب ينسب إلى ساويرس، ولعل ذلك يرجع إلى أن ساويرس كان أول من تكبد جمع السير والوقوف عليها وترجمتها.

منهج كتاب ساويرس:

يعتبر كتاب ساويرس خاص بتراجم البطاركة في مصر من أيام ظهور المسيحية فيها زمن الإمبراطور الروماني أغسطس قيصر، وقد وصل ما نشر من هذه التراجم إلى بداية حكم الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله سنة ١١٠٩م حوالى ٦٨ بطركاً.

ويبدو من هذه التراجم التى صنفها وجمعها ساويرس، أنها كانت بمثابة تقويم أو روزنامة للكنيسة المصرية، وأنها كانت تعتمد على المشاهدات والإتصال بأبطال الحوادث، أو كتابة الأخبار المتواردة حينذاك، فهى أشبه شيء «بالمذكرات» أو «اليوميات»، ولا نتبين من كتابتها الرجوع إلى مؤلفات سابقةأو معاصرة اللهم إلا فى النادر، فنرى ساويرس يستشهد أحياناً بسعيد أبن بطريق لتأكيد صحة بعض ما يكتبه من الأخبار.

ونلاحظ أنه منذ القرن السابع الميلادى (الأول الهجرى) ـ وخاصة منذ غزو العرب لمصر ـ يصبح تاريخ البطاركة أكثر اكتمالاً وأعظم أهمية، إذ يدون الأخبار ويكتب التراجم كتبة معاصرون.

ويهدف ساويرس من تراجم البطاركة وسيرهم إلى غرض دينى بحت وهو تمجيد الدين المسيحى والإشادة بالمذهب الأرتودكسى أو ـ كما يسميه ساويرس ـ الأمانة المستقيمة، وبيان جهاد البطاركة فى سبيل حمل أمانتهم.

فهذا الكتاب يختلف فى هدفه عن الكتب التاريخية العامة أو الخاصة ومع ذلك فهو يشترك معها جميعاً فى أن الدين كان يمتزج بالتاريخ امتزاجاً شديداً وهذه ظاهرة نلمسها فى تاريخ أوربا فى العصور الوسطى كما نلمسها فى التاريخ الإسلامى، ومن هنا نرى أن ساويرس وإن كان قد أرخ للبطاركة وللكنيسة القبطية فى ظل الحكم الإسلامى إلا أنه اشترك مع المؤرخين المسلمين ومؤرخى العصور الوسطى الأوروبية فى أنه مزج بين الدين والتاريخ.

كذلك نرى مؤرخ البطاركة يشترك مع المؤرخين المسلمين ومؤرخى أوربا فى العصور الوسطى فى سرد الأساطير والقصص العجيبة والخوارق والكرامات، فيحدثنا مثلاً عن الدموع التى تسيل من صور القديسين والشهداء، والدم الذى يقطر من هذه الصور والأيدى التى تمتد خارجها، كما يكثر ساويرس من ذكر كرامات بعض البطاركة ورجال الدين المسيحيين، مثل إعادة البصر لمن فقده وإعادة الحياة لمن غرق، وإعادة الصحة لمن استعصى شفاؤه.

وليس هذا الكلام بمستغرب على ساويرس، فإن ساويرس يمثل عقلية العصور الوسطى، إذ كان الاعتقاد بالخرافات والكرامات لا يقتصر على الطبقة العامة كما هو معروف الآن وإنما كان هذا الاعتقاد شائعاً بين مختلف طبقات الشعب، بل أننا نرى أمير مصر فى أوائل القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى، محمد بن طغج الأخشيد، يكرم رجلاً من دمياط قيل أن يده كانت مقطوعة وأنه غاب عن البلد زماناً ثم عاد ويده صحيحة.

ولعل الإكثار من الكلام على كرامات البطاركة ورجال الدين المسيحيين كان الغرض منه حث الأقباط على الاستمساك بدينهم والإلتفاف حول كنيستهم وتقوية روحهم المعنوية فى أوقات المحن والشدائد.

كذلك نرى ساويرس ـ مثل غيره من مؤرخى العصور الوسطى ـ يعلل الأشياء فى الغالب تعليلاً الهياً سماوياً فكل ما يحدث سببه رضا الله أو غضبه وسخطه، ولا يحاول بعد ذلك تعليل الأشياء بالدرس والنقد والتمحيص، فيذكر مثلا أن الله كان يخذل جيوش الروم عند غزو العرب مصر بسبب أمانتهم الفاسدة وبسبب عقيدتهم الخلقدونية، دون أن يحاول بيان أسباب انتصار العرب وخذلان الروم، وليست تلك العقلية ببعيدة عنا، فعندما أرادت وزارة

المعارف العمومية فى مستهل القرن العشرين إدخال مادتى الطبيعة والكيمياء فى الأزهر اعترض بعض رجاله على ذلك وقال أحدهم:

فمن يقل بالطبع أو بالعلة   فذاك كفر عند أهل الملـة

ثم أدخلت هاتات المادتان ضمن برامج الدراسة فى الأزهر الشريف بعنوان: «علم خواص الأشياء التى أودعها الله فى المخلوقات».

ونلاحظ أن مؤرخ البطاركة يستخدم بعض الألفاظ الدخيلة الوافدة مثل كلمة المؤمنين ويعنى بهم الأرثدكسيين، والمصاحف ويعنى بها المجلدات، كذلك يطلق لفظ المصطفى على القديسين فيقول مثلاً القديس مرقص الإنجيلى المصطفى.

أهمية كتاب ساويرس فى تاريخ مصر القومى:

يتعرض كتاب ساويرس ـ خلال تراجم البطاركة ـ لتاريخ العصور الوسطى وطبيعى أن يركز ساويرس اهتمامه بتاريخ مصر، فيبين لنا كيف تم غزوها على يد العرب، ثم كيف كانت معاملة العرب للمصريين من النواحى الدينية والمالية والاجتماعية والإدارية.

كذلك يفصل ساويرس الكلام على الأحداث الهامة السياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية التى حدثت فى العصر الذى اصطلحنا على تسميته «عصر الولاة» وهو الذى يبدأ بغزو العرب لمصر وينتهى بقدوم أحمد بن طولون إليها وتأسيسه الدولة الطولونية فيها، ويبين ساويرس انتقال مصر من التبعية للخلافة إلى الاستقلال الذاتى أيام الدولتين الطولونية والأخشيدية، ثم قيام الخلافة الفاطمية فى مصر التى نافست الخلافة العباسية فى بغداد لفترة من الزمن، كذلك يبين ساويرس علاقة البطاركة المصريين بولاة مصر وأمرائها وخلفائها من ناحية، ثم علاقة هؤلاء البطاركة بالنوبة والحبشة وشمال أفريقية والشام من ناحية أخرى.

وقد أشار ساويرس فى تاريخه إلى الرخاء فى مصر، كما فصل الكلام عن القحط والوباء والمجاعات فى بعض السنين، بل إن ساويرس يهتم بهذه الظواهر التى ترد فى حوليات الكنيسة المصرية أكثر من اهتمام سائر المؤرخين بها، وينفرد بذكر بعض المجاعات التى لم يرد ذكرها لدى غيره من المؤرخين المصريين.

ولاشك أن ساويرس يشترك مع بقية المؤرخين فى ذكر كافة الأحداث الهامة مع العناية بشئون مصر على غرار المؤرخين المصريين مسلمين كانوا أم مسيحيين، لكنه يمتاز عليهم جميعاً بأن كتابه له قيمة الحوليات، والمذكرات، والمصادر المعاصرة، فى وقت نتلمس فيه المصادر

المعاصرة للغزو العربى لمصر وما بعد الغزو بحوالى قرنين ونصف من الزمان فلا نكاد نجدها اللهم إلا فى بعض الأوراق البردية، وكتاب «التاريخ» للمؤرخ حنا أسقف نقيوس[1] الذى توفى فى القرن السابع الميلادى.

وقد وضع حنا النقيوسى كتابه فى تاريخ مصر باللغة القبطية، وجاء فيه ذكر الحوادث التى وقعت زمن الغزو العربى لمصر، وقد ترجم هذا الكتاب إلى اليونانة والعربية، ثم قام أحد القساوسة المصريين بترجمة النسخة العربية إلى اللغة الأثيوبية، ولم يبق مما كتبه هذا المؤرخ المصرى سوى النسخة الأثيوبية التى نشرها الدكتور M.H.Zotenberg مع ترجمة فرنسية لها.

أما أقدم مؤرخ مسلم نعرفه بعد ذلك فهو ابن عبدالحكم صاحب كتاب «فتوح مصر وأخبارها» والمتوفى سنة (٨٧٠ ـ ٨٧١م).

ومما يزيد فى قيمة كتاب ساويرس أنه يبين منذ غزو العرب لمصر وجهة نظر المصريين فى الحكومات الإسلامية المتتالية.

ولا يهمنا الآن الحديث فيما اشترك فيه ساويرس مع بقية مؤرخى الخلافة الإسلامية، وإنما يهمنا الكلام فى حديثنا هذا على بعض ما انفرد ساويرس بالكتابة فيه أو توضيحه.

ولعل من أهم الأمور التى انفرد ساويرس ببيانها أو توضيحها بحكم تأريخه للبطاركة وللكنيسة وللأقباط، ما كتبه عن مركز المصريين فى ظل السلطة الإسلامية من الناحية الاجتماعية، ومدى تمتعهم بالحرية الدينية، وقيامهم بشعائرهم، والاحتفال بأعيادهم، وبناء أو تجديد كنائسهم، وعلاقة المصريين بالمسلمين فى مصر وفى غيرها من البلدان، وموقفهم من الحكومات الإسلامية المتعاقبة فى مصر.

كذلك أفاض ساويرس فى حديثه عن نشر الإسلام فى مصر بل إنه فى بعض الأحيان يعطينا أرقاماً بعدد الذين تحولوا إلى الدين الإسلامى فى ظل الظروف الاقتصادية القاسية تخلصاً من الجزية.

وقد أكد ساويرس أن العرب منذ البداية، انتصروا لكنيسة اليعاقبة على أعداءهم فى المذهب وهم الملكانيين وغيرهم.

وكما اعتبر الأقباط أن الملكانيين هم أتباع الملك البيزنطى، وأنهم ليسوا أعداءهم فى المذهب الدينى فقط وإنما أعداءهم فى القومية. كذلك آزر العرب الأرثوذكس المصريين باعتبارهم أصحاب البلاد، واعتبروا الملكانيين سنداً لأعدائهم الروم.

---

(١) نقيوس: قرية أبشادى الآن ـ مركز تلا بالمنوفية.

ويذكر ساويرس أن الملكانيين في مصر، لم يتمتعوا بالحرية الدينية إلا في فترات وتحت ظروف محددة.

ولم تكن للسلطة الإسلامية سياسة ثابتة بشأن بناء الكنائس والأديرة فكانت تسمح للمسيحيين في بعض الأحيان ببناء كنائس جديدة، وكانت تمنعهم في بعض الأحيان حتى من إصلاح الكنائس القديمة.

كذلك يبين لنا ساويرس أن الأقباط شغلوا كثيراً من الوظائف في ظل السلطة الإسلامية خاصة الوظائف المالية والادارية، ويورد ساويرس في مناسبات مختلفة أسماء كثير من كبار الموظفين الأقباط.

ويشيد ساويرس بتسامح الخلفاء الفاطميين، اللهم إلا عهد الحاكم بأمر الله الذى كان يمتاز بالتقلب مع جميع المذاهب، بل إن ساويرس يذكر أنه فى العصر الفاطمى أصبح «جميع مقدمي المملكة والناظرين فى دواوينها وتدبير أمورها كلهم نصارى».

أما عن انتشار الإسلام فى مصر منذ أواخر عصر الولاة، فيتضح لنا مما كتبه ساويرس أن العامل المالى من أهم العوامل التى حولت أغلبية الأقباط إلى اتباع الدين الإسلامى.

ويتضح من كتابات ساويرس أن الرهبان كانوا يبغضون السلطة الإسلامية لأنهم كانوا يفلتون فى البداية من دفع الجزية والخراج إلى أن بدأ والى مصر عبدالعزيز ابن مروان (٦٨٤ ـ ٧٠٥م) سنة فرض الجزية عليهم.

فمن المعروف أن الرهبنة كانت منتشرة حينذاك في مصر. وقد ساعد على انتشارها ما وقع للمصريين من ظلم واضطهاد زمن البيزنطيين، ففضل الكثيرون أن يعيشوا فى عزلة عن العالم، لذا لم تفرض عليهم أى ضريبة فى عهد الرومان والبيزنطيين بل أعفيت الأديرة والرهبان من الضرائب.

ولما احتل العرب مصر حافظوا على هذا التقليد تقرباً من الكنيسة اليعقوبية وما لبث العرب أن فطنوا إلى أن الأديرة أصبحت تملك ثروات ضخمة والى أن كثيراً من الأقباط لجنوا إليها كي يتخلصوا من الضرائب.

ولذا نرى والى مصر عبدالعزيز بن مروان ـ وأخ الخليفة عبدالملك بن مروان ـ يأمر باحصاء الرهبان وفرض الجزية عليهم. كما أنه ألزم الأساقفة بأن يؤدوا قدراً معيناً من المال سنوياً بالإضافة إلى خراج أوقاف الأديرة والكنائس.

وكانت السلطة الإسلامية تفرض أشد العقاب على الرهبان أو رجال الدين الفارين من الجزية والضرائب، كما كانت تتشدد في جمع الجزية من المصريين.

ويبين ساويرس أن كثيراً من المصريين أسلموا ليتخلصوا من الجزية والضرائب المفروضة عليهم، كما يذكر أن الأقباط الذين بقوا على دينهم قاموا بمقاومة سلبية ضد الحكومة، تنطوى على الهروب من مكان إلى مكان، وهجر الأراضى الزراعية، وذلك منذ خلافة الوليد بن عبدالملك الأموى (٧٠٥ ـ ٧١٤). وفى أثناء ولاية أخيه عبدالله بن عبدالملك أصدر والى مصر أمراً بوسم الفارين الذين وجدوا فى الأقاليم المختلفة، على أيديهم بالإختام المحماة بالنار مثلما يفعل مع البهايم ونفيهم إلى أماكن مختلفة بلغت حد نفى البشمور إلى مستنقعات جنوب دجله والفرات.

واستمرت حركة الهروب فى ولاية قرة بن شريك الذى أتى بعد عبدالله بن عبدالملك. وتشدد قرة فى قمع تلك الحركة والقضاء عليها.

وقد اتخذت حركة الهروب فى عهد قرة بن شريك شكلاً واسعاً. فيذكر ساويرس أن أسر بأكملها كانت تهرب من مكان إلى مكان فراراً من دفع الضرائب والجزية. واضطر قرة إزاء هذا إلى إنشاء هيئة خاصة مسلحة لوقف تلك الحركة واعادة كل شخص إلى موضعه. وظل قرة يقاوم تلك الحركة بنشاط إلى أن توفى سنة ٧١٤م.

ويؤكد كلام ساويرس ما استخلصناه من الأوراق البردية العربية واليونانية التى ترجع إلى عهد هذا الوالى (انظر جروهمان).

وبعد وفاة قرة والخليفة الوليد، ولى خراج مصر أسامة بن زيد التنوخى فى خلافة سليمان ابن عبدالملك.

وقد تشدد أسامة بن زيد فى طلب الجزية والخراج. وأسلم الكثيرون فى أيامه كى يتخلصوا من الأعباء المالية، ولكن حركة الهرب استمرت، من جانب الذين أثقلت كاهلهم الأعباء المالية والجزية ولم يرغبوا فى اعتناق الدين الإسلامى.

ولكى لا يتمكن أحد من الهروب من منطقة إلى أخرى عملت سجلات للأهالى أشبه بالبطاقات الشخصية اليوم. فألزم كل شخصى يريد الإنتقال من جهة إلى أخرى فى أنحاء القطر، أو يريد ركوب سفينة أو النزول منها، أن يحمل معه سجله. أما من فقد سجله أو أتلفه فقد ألزمه الوالى بالحصول على سجل آخر مقابل دفع خمسة دنانير.

والواقع أن ساويرس هو المؤرخ الوحيد الذى كتب وفصل لنا الكلام على حركة الهروب، تلك الحركة التى تنطوى على مقاومة المصريون لسلطة العرب مقاومة سلبية بعدما أصبح الإلتجاء إلى الأديرة، لا يعفهم من الإلتزامات المالية منذ خلافة عبدالملك بن مروان وولاية أخيه عبدالعزيز على مصر.

كذلك يذكر ساويرس أن الخليفة العباسى الأول أبا العباس عبدالله السفاح قرر أن يعفى من الجزية كل من يعتنق الدين الإسلامى ويقيم شعائره، فتخلى كثير من المسيحيين، أغنياء كانوا أو فقراء، عن يدنهم وأعتنقوا الدين الإسلامى بسبب فداحة الجزية والأعباء الملقاه عليهم.

ومما لاشك فيه أن الأمثلة التى يوردها ساويرس، والتى تبين أن الأقباط الأغنياء ضجوا من الجزية والضرائب كما ضج الفقراء، تظهر أن الجزية كانت المورد الرئيسى للمال الذى تعنى به السلطة الإسلامية، وأنها كانت أمراً ثقيلا، ولم تكن بالضريبة الهينة والا لما حملت الكثيرين على التخلى عن دينهم.

وتؤكد كتابات ساويرس أن الحكومة الإسلامية فى مصر لم تحدد الجزية على أهل الذمة بعد الفتح، وإنما أكتفت بفرضها وتركت تقديرها للظروف. وهذا يذكرنا برواية كتبها أقدم مؤرخ مسلم وهو ابن عبدالحكم، إذ يقول أن أحد أصحاب الكور الأقباط (والكورة لفظ مشتقى من اليونانية ومعناه قسم من أقسام مصر) قدم على عمرو بن العاص فقال له: «أخبرنا ما على أحدنا من الجزية..» . فقال عمرو وهو يشير إلى ركن الكنيسة: «لو أعطيتنى من الأرض إلى السقف ما أخبرتك ما عليك. إنما أنتم خزانة لنا إن كثر علينا كثر عليكم، وإن خفف عنا خففنا عنكم.

على أن الأقباط بدءوا منذ سنة ٧٢٥م فى التخلى عن مقاومتهم السلبية وأخذوا يقاومون سلطة العرب مقاومة إيجابية وذلك بالقيام بالثورات العلنية ضدهم.

والمعروف أن العرب بعد احتلالهم لمصر فرضوا على المصريين الجزية وعلى أراضهم الخراج، في الوقت الذى عاملوا فيه الأراضى التى نهبتها قبائلهم البدوية بنظام الزكاة (أى تحصيل العُشر).

ونلاحظ أن الأراضى التى كانت ملكا خاصاً للأباطرة أو التى هرب أهلها أو هلكوا زمن الغزو العربى، آلت إلى القبائل البدوية في مصر. وقد زادت تلك الأراضى زيادة كبيرةأثناء الحكم العربى نفسه بما أضيف إليها من الأراضى المهجورة والمستقطعة والمصادرة وطرح النهر والتى هاجر عنها أهلها بسبب الظلم وفداحة الأعباء المالية المفروضة عليها.

ومن الوجهة النظرية كان المصرى الذى يعتنق الإسلام تصبح أرضه عشرية ولكن الحكام العرب رأوا في هذا جل الخطر على ماليتهم، وأصبح المصرى إذا أعتنق الإسلام لا تعفى أرضه من الخراج حتى لو أسقطت عنه الجزية. كأن الأرض ظلت كافرة رغم إسلام صاحبها.

ثورة البشمور:

وحين بدأ المصريون الأقباط يثورون ضد سلطة العرب بسبب مطالبها المالية المجحفة، وجدوا في المصريين المسلمين الذين زاد عددهم في مصر وأصبحوا يملكون أراضى خراجية، شريكا لهم فى تلك الثورات. ولذلك نرى سائر مؤرخى مصر المسلمين يشتركون مع ساويرس في ذكر تلك الثورات بل يفصلون الكلام أحيانا فيما لا يفصل فيه مؤرخ البطاركة.

وقد تعددت ثورات المصريين وشملت الوجهين البحرى والقبلى. وكانت أعنف هذه الثورات تلك التى كان يقوم بها أهل البشمور أو البشرود، وهى المنطقة الرملية الساحلية بين فرعى دمياط ورشيد.

ولقد ظل المصريون الأقباط يقومون بالثورة بعد الأخرى طوال القرن الثامن الميلادى، وكانت حكومة العرب تقابل تلك الثورات بالقوة.

وكان يتبع أخماد تلك الثورات في العادة تحول عدد كبير من الأقباط إلى الدين الإسلامى.

وكان آخر تلك الثورات وأعظمها تلك التى أنتهت فى بداية القرن التاسع الميلادى (٨٣٢م) بمجىء الخليفة المأمون وإبادته للثائرين والتى كان من نتائجها أن أصبح الإسلام أغلبية فى القطر المصرى.

ويخبرنا ساويرس عن هذه الثورة فيقول أن الخليفة المأمون صحب معه إلى مصر البطرك ديونوسيوس بطرك أنطاكية وأنه استعان به وببطرك الأقباط الأنبا يوساب، لإخماد ثورة البشموريين وسير إليهم قائدة الأفشين لمحاربتهم، ثم سار إليهم بنفسه وجحافلة وقضى على حركتهم.

يتضح لنا مما كتبه ساويرس أن الشعور الوطنى كان ضعيفاً بين المصريين آنذاك، فلم يكن فى ثورات الأقباط ضد سلطة العرب عنصر وطنى، بل كانت كلها بسبب الضرائب والجزية إما لحمل الحكام المسلمين على تخفيفها وعدم اتباع القوة فى جبايتها، وأما للهرب من دفعها. ولعل ضعف هذا الشعور الوطنى كان أكبر عون للحكام المسلمين للقضاء على حركات المصريين.

ويؤكد سلبية الشعب المصرى حينئذ ما نعرفه من أن أهل البلاد لم يشتركوا فى الحركات السياسية والدينية التى قامت فى ظل الخلافة، والتى اشترك فيها الجند العربى فى مصر والإجناد الأخرى الذين أتوا إليها فى عهد الدولة العباسية من الترك والفرس، مثل الثورة التى أنتهت بمقتل الخليفة عثمان بن عفان، والنزاع بين على ومعاوية، والخلاف بين الأمين والمأمون.

أما الأقباط فقد اشتركوا فقط فى معاونة العباسيين الذين كانوا قد نجحوا فى إسقاط الدولة الأموية فى المشرق والذين أتت جيوشهم وراء الخليفة الأموى مروان بن محمد فى مصر.

ولا يدعنا ساويرس نتلمس الأسباب التى دعت المصريين إلى معاونة العباسيين فى مصر فيذكر صراحة أن العباسيين وعدوا الأقباط بتخفيف الجزية والخراج عنهم.

والواقع أننا لا نجد مؤرخاً غير ساويرس يفسر لنا السبب الذى حمل أغلبية القبط على التحول إلى الدين الإسلامى. فساويرس يؤكد دائماً أن الهروب من الجزية ومن الخراج كان أكبر عامل على إنتشار الإسلام فى مصر.

وهو يزن دائما الولاة والأمراء والخلفاء الفواطم بالميزان المالى، ولهذا نرى مؤرخ البطاركة قد يحكم على أمير أو خليفة واحد حكمين على طرفى نقيض، لأن هذا الأمير قد يكون رحيما بأهل الذمة فى وقت من الأوقات، وقد يشتد فى جمع الضرائب والجزية، عندما يحتاج إلى الأموال فى وقت آخر، ومثل ذلك كلام ساويرس على الخليفة عمر بن عبدالعزيز، وهشام بن عبدالملك، والخليفة المتوكل على الله العباسى وأمير مصر أحمد بن طولون والحاكم بأمر الله.

وواضح من كتابات ساويرس أن الأساقفة والبطاركة ورجال الدين المسيحيين كان يفرض عليهم أموال كثيرة، وكان رجال الدين يلجئون بدورهم إلى الشعب المصرى القبطى ليدفع هذه الأموال، وكانت أحسن فرصة للخلاص من كل هذه الأعباء الدخول فى الدين الإسلامى، تحت أمل إعفائهم من أموال الجزية والخراج.

ومن الأمثلة الصارخة التى يبين فيها ساويرس إسلام الكثيرين بسبب الفقر وقلة ما معهم من المال ما حدث فى خلافة المنتصر العباسى (٢٤٧ ـ ٢٤٨هـ ٨٦١ ـ ٨٦٢م) حينما ولى خراج مصر أحمد بن محمد بن المدبر، إذ فرض هذا الوالى ضرائب باهظة على الكنيسة وعلى المصريين عامة مما دفع الكثيرين إلى التحول إلى الإسلام تحت أمل إعفائهم من الجزية والخراج.

والمعروف أنه أنشىء فى العصر العباسى ديوان خاص للنظر فى شئون أهل الذمة المصريين سمى «ديوان الجوالى» وكان على رأسه موظف من كبار المسلمين.

ويحدثنا ساويرس عن شخصيات من رجال الدين الأقباط الذين خرجوا للشكوى فى مقر الخلافة العباسية من الأعباء المالية وأعمال السلب، ومثل ذلك خروج أحد رجال الدين المسيحيين فى مصر واسمه إبراهيم إلى مقر الخلافة فى أيام المعتز (٢٥٢ ـ ٢٥٥هـ ـ ٨٦٦ ـ ٨٦٩م) يشكو تعسف ابن الدبر، فكتب الخليفة سجلاً بالتخفيف عن النصارى، ثم أكد هذا السجل الخليفة المهتدى (٢٥٥ ـ ٢٥٦هـ) الذى ولى بعد المعتز والذى أمر بأن يرد إلى النصارى ما اغتصب منهم من المنقولات والأراضى.

وقد أتيح لأهل الذمة فى مصر وفى مختلف أنحاء الخلافة أن يتقلدوا وظائف مختلفة فى الدولة وأن يزداد نفوذهم حتى وصل بعضهم إلى الوظائف العليا فى الإدارة، كما وصل آخرون إلى أن يصبحوا الكتاب الرئيسيين والوزراء عند بعض الولاة والأمراء والخلفاء، وذلك بسبب عدم كفاءة الجهاز الإدارى وحاجته إلى خبرات غير المسلمين فى إدارته.

وكان هذا يؤدى فى بعض الأحيان إلى احتجاج فقهاء الدين، وثورة المسلمين أصحاب المصلحة للمطالبة بالحيلولة دون سيطرة أهل الذمة المصريين أو ابتزازهم، مما كان يستتبع إصدار تشريعات تحد من نشاط أهل الذمة المصريين وتبعدهم عن وظائف الحكومة وتلزمهم بالتزام زىّ يميزهم عن المسلمين.

ومن ذلك ما حدث فى عهد الخليفة الأموى عمر بن عبدالعزيز الذى أمر بعزل أهل الذمة من مناصب الدولة الهامة ومنعهم من إنشاء الكنائس أو المعابد الجديدة ومن لبس العمائم، ويحدثنا ساويرس عن عمر بن عبدالعزيز بأنه كان يفعل خيراً عظيماً أمام الناس، ويفعل السوء أمام الله، إذ أمر بإعفاء الأساقفة والكنائس من الخراج، وعمر المدن التى خربت، وأبطل الجبايات (الضرائب المستحدثة) فعاش الأقباط فى أمن وهدوء، ولكنه ما لبث أن أرسل كتاباً يأمر فيه الأقباط بالتخلى عن أعمالهم فى الدولة ما داموا على دينهم، أما من يريد منهم الاحتفاظ بعمله فليكن على دين محمد، ولهذا سلم الأقباط ما بيدهم من الوظائف والأعمال إلى المسلمين.

كذلك يذكر ساويرس أن الخليفة المتوكل على الله العباسى ٠٧٣٢ ـ ٢٤٧هـ = ٨٤٧ ـ ٨٦١م) أمر بهدم الكنائس وأن يتميز المسيحيون واليهود فى لباسهم عن المسلمين كما أمر أن

يشغل الوظائف المسلمون فقط، ويذكر ساويرس أن كثيرين أسلموا حينئذ إما لحاجتهم وفقرهم، وإما رغبة منهم فى الإبقاء على مناصبهم.

والواقع أن مؤرخى الخلافة يشتركون مع ساويرس فى تفصيل اضطهاد المتوكل لأهل الذمة المصريين.

لكن من الملاحظ أن التشريعات التى كانت تصدر ضد أهل الذمة، لم تكن تنفذ كاملة فى بعض الأحيان خوفاً من ازدياد التذمر واندلاع الثورات، وكان أثرها يخف كثيراً إلى أن تقوم تشريعات جديدة لتأكيدها.

ولعل أبلغ مثل لذلك أن ساويرس نفسه يعود فيمتدح المتوكل مدحاً كثيراً، فيقول أنه فى أواخر أيام المتوكل استقامت أمور النصارى وأسبغت عليهم النعم العظيمة.

المساجلات الدينية

ونعرف مما كتبه ساويرس أنه كانت هناك مساجلات دينية فى بلاط الخليفة الفاطمى المعز لدين الله (٦٣٢ ـ ٣٦٥ هـ = ٩٧٣ ـ ٩٧٥م) للمناظرة والتحدث فى الأديان السماوية الثلاثة والمفاضلة بينها، وكان ساويرس نفسه ممن جادل شيوخ المسلمين واليهود فى بلاط المعز [انظر قصة نقل جبل المقطم].

استشهد المؤلف فى هذا الكتاب بنصوص كثيرة من الكتاب المقدس ولعله اعتمد فى ذلك على نص التوراة السريانى أو على ترجمة عربية قديمة.

والواقع أن أقساماً من التوراة كانت قد نقلت إلى العربية فى نهاية القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) عن السريانية أو اليونانية، ولكن أول ترجمة عربية هامة للتوراة كانت على يد سعيد الفيومى المصرى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى (النصف الأول من القرن العاشر الميلادى) ولا تزال معتمدة عند اليهود المتكلمين بالعربية إلى اليوم.

الإسكندرية:

ونلاحظ أن ساويرس يعنى بالتأريخ للإسكندرية عناية خاصة، وليس هذا بمستغرب فالإسكندرية كانت مقراً لبطركية الأقباط، ولذا نراه يسميها فى معظم الأحيان المدينة العظمى.

ويذكر ساويرس أن الإسكندرية كانت تعرف باسم مدينة قيسرون ويقول أيضا أنها تسمى باللغة العبرانية مدينة آمون.

ويؤكد ساويرس فى مناسبات مختلفة ما نستشفه من سائر المصادر بأن الإسكندرية كانت

منذ العهد اليونانى حتى عصر الأخشيديين تعتبر فى معظم الأحيان جزءا مستقلا عن مصر حتى فى القضاء.

وبهذه المناسبة عندما وصل إلى الأمير أحمد بن طولون، تقليد بولاية جميع أعمال مصر من الخليفة العباسى، يذكر ساويرس أن هذا الأمر كان بخلاف ما جرت به العادة فإنه لم يكن بين والى الإسكندرية ووالى مصر معاملة ولا خطاباً بل كانوا يتهادون الهدايا فيما بينما وكانوا من تحت سلطان واحد.

كذلك يحدثنا ساويرس عن أهمية الإسكندرية التجارية وأنها احتفظت بتلك الأهمية بعد غزو العرب لها فظلت ميناءا تجاريا هاماً تأتيها التجارة براً وبحراً.

ويثنى ساويرس على الخليفة المتوكل ثناءاً كثيراً لأنه أمر بتوصيل القناة التى تجلب ماء النيل إلى داخل الإسكندرية. وكان الماء العذب لا يصل قبل ذلك إلى الإسكندرية إلا وقت الفيضان، وبعد حفر هذا الخليج أصبحت المراكب الكبار تصل إلى داخل المدينة وكثرت المراكب والتجار فى الإسكندرية كما زرع الناس الكروم والبساتين على جانبى القناة.

ويحدثنا ساويرس عن ثائر من سكان الإسكندرية من بنى مدلج قام بثورة فى أواخر عصر الولاة فى الوجه البحرى وانضم إليه جماعة كبيرة مقاتلة من أصحابه، ومن البدو، وأخذوا يهاجمون عمال الخراج ويأخذون ما لديهم من أموال.

ويذكر أنه لما زادت جماعته، حاصر مدينة الإسكندرية، ولكنه لم يستطع فتحها بأى وجه من الوجوه، وذلك لوقوف حصونها حجر عثرة فى سبيل ذلك، ولعدم وجود آلات لدك الحصون لدى الثوار، ومع ذلك فأنهم حاصروها ومنعوا الميرة من الوصول إليها عن طريق البحر والبحيرة. ويذكر ساويرس أنه لما طال حصار الإسكندرية اجتمع رؤساؤها وتشاورا مع واليها واتفقوا على إحاطتها بسور كبير حولها. وقد اشترك فى بناء هذا السور أهل الإسكندرية، إذ بنى كل صاحب دار أو أرض حائطاً أمامه ووصله إلى حائط جاره، وبذلك أصبح للإسكندرية سور حولها وجعلوا له أبواباً، ولم يكن يفتح إلا باب واحد فى المرة الواحدة وبذلك تحصنت الإسكندرية وأمن أهلها الأعداء.

ولما وصل والى مصر مزاحم بن خاقان (٢٥٣ ـ ٢٥٤هـ = ٨٦٧ ـ ٨٦٨م) استطاع أن يشتت هؤلاء الثوار الذين كانوا قد اتخذوا مراكز لهم بين بنا وأبو صير فى الوجه البحرى فأعمل فيهم القتل بالسيف وأغرق آخرين وانهزم من بقى منهم فى الجبال بالصعيد.

اللواتيون والشدة العظمى

ومن الأمور التى يوضحها ساويرس وتساعدنا على فهم الوضع الحقيقى للأمور ما يذكره عن الشدة العظمى التى حدثت أيام الخليفة المستنصربالله الفاطمى (الشدة المستنصرية).

فقد ذكر المؤرخون المصريون مثل ابن ميسر، والمقريزى، وأبى المحاسن ابن تغرى بردى، أن الشدة العظمى كان سببها انخفاض ماء النيل وانتشار الوباء فى مصر حتى انعدمت الغلات من أرض مصر وأكل الناس البغال والحمير والميتة ثم أكل بعضهم بعضا.

ولكن مؤرخ البطاركة يبين أثر القلاقل والفتن فى إيجاد هذه الشدة، فقد عمت الفوضى والحروب بين الجند وخاصة بين السودانية والأتراك، فكانت القاهرة في يد الجند الترك، وكان الصعيد في يد الجند السودانية، وكانت الإسكندرية وجزء كبير من الدلتا فى يد فريق آخر من الجند التركية تساعدهم قبائل قيس ولواتة. ويبين ساويرس تسلط اللواتيين، وهى قبائل بربرية الأصل، على الريف ويذكر أنهم ملكوا أسفل الأرض أى الوجه البحرى، وأصبحوا يزرعونه كما يريدون بلا خراج ولم يهتموا بحفر الترع أو عمل الجسور وانفردوا بالزراعة دون غيرهم وامتنعوا عن بيع الغلات، وكانت النتيجة أن رزئت مصر بفترة مجاعة قاربت من سبع سنين عرفت بالشدة العظمى (٤٥٩ ـ ٤٦٥هـ = ١٠٦٦ ـ ١٠٨٢م).

وقد استطاع بدر الجمالى (الارمنى) والى عكا الذى استدعاه الخليفة المستنصر لتولى الوزارة فى مصر، أن يقبض على ناصية الحال فيها فأباد اللواتين من الريف، وسار إلى الصعيد ففتحه ثم عاد إلى مصر وأقام بها ورتب الأمور فيها كما كانت عليه فى السابق.

ويذكر ساويرس أن أميراً عرف بكنز الدولة كان قد ملك الصعيد الأعلى فلما وصل بدر الجمالى إلى مصر هرب كنز الدولة إلى النوبة فأرسل بدر الجمالى رسولا إلى ملك النوبة كى يسلم له كنز الدولة. وقد سلمه الملك لرسول بدر الجمالى الذى قتله وصلبه عند باب الحديد الذى يحدد ساويرس موقعه فيما بين القاهرة المعزية وبين مصر أى الفسطاط أو مصر القديمة.

فكرة الحروب الصليبية

وحين يحدثنا ساويرس عن الصليبيين وقدومهم إلى الشرق لا يعتبر أن هذه الحروب حرب بين المسيحية والإسلام. وإنما ينظر إلى الصليبيين كغزاة أعداء للشرق. ويعلق على امتلاكهم لبيت المقدس بأن الأقباط اليعاقبة سوف لا يستطيعون الحج لإختلافهم والصليبيين فى المذهب الدينى.

خطة تحقيق الكتاب

المخطوطات الموجودة الآن لكتاب « سير البطاركة» تتوزع ما بين محفوظة بالمتحف القبطى تحت رقم (١) تاريخ، وأخرى فى مكتبة البطركية تحت رقم (٣) تاريخ ومخطوطة أخرى تحت رقم (١٥) تاريخ، ومخطوطة بالمكتبة الوطنية فى باريس تحت ر قم ٣٠١، ٣٠٢ بالإضافة إلى مخطوطة فى المتحف البريطانى وأخرى بمكتبة الفاتيكان وصورة فوتوغرافية لمخطوطة المكتبة الوطنية بباريس بدار الكتب المصرية تحت رقم «تاريخ ٦٤٣٤ ح».

ولقد عرفت الأوساط الكنسية الأوربية كتاب «سير البطاركة» أول ما عرفته تحت اسم التاريخ اللاتينى للكنيسة القبطية» الذى كان قد نشره المستشرق الفرنسى يوساب رينوده وطبع فى باريس فى القرن الثامن عشر (حوالى عام ١٧١٣م) تحت اسم «تاريخ بطاركة الإسكندرية» Historia Patriarcharum Alixandrinorum 4: Paris, 1713.

ولكن يعيب ما فعله هذا العالم الكبير إنه لم يستطع أن يترجم كل ما فى مخطوط الكتاب والذى يحتوى على كم هائل من المعلومات المتعلقة بمعتقدات الكنيسة المصرية وشعائرها. وما يتعلق بالعلاقات الاجتماعية بين الحكام المسلمين والأقباط، والحالة المزاجية لهؤلاء الأقباط وكذلك التاريخ العام لمصر.

وقد نشر المستشرق إفتس B.Evetts كتاب ساويرس بعنوان «سير الآباء البطاركة» أو «تاريخ بطاركة الكنيسة القبطية فى الإسكندرية» ضمن مجموعة Patrologia Orientalis أى كتابات «آباء الكنيسة فى الشرق»، وذلك فى الجزء الأول من هذه المجموعة الذى نشر فى باريس عام ١٩٠٧م، والجزء الخامس، باريس عام ١٩١٥م.

وتولت جمعية الآثار القبطية، مشكورة، نشر الأجزاء الباقية من هذا الكتاب بمعاونة الأستاذ يسى عبدالمسيح أمين مكتبة المتحف القبطى سابقاً.

ونشرت الجمعية القبطية هذا الكتاب بعنوان «تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المعروفة بسير البيعة المقدسة». واعتمد الناشرون على مخطوطة محفوظة بالمتحف القبطى، وعلى مخطوطة ثانية بمكتبة دار البطركية القبطية.

ونشرت الجمعية القبطية، الجزء الأول من المجلد الثانى فى القاهرة عام ١٩٤٣، ثم ظهر الجزء الثانى، من المجلد الثانى فى القاهرة عام ١٩٤٨م، ونشر أخيراً الجزء الثالث من المجلد

الثاني في القاهرة ١٩٥٩م. ثم تتابعت إصدارات بقية أجزاء المخطوط حتى اكتملت بصدور المجلد الرابع عام ١٩٧٤م.

ولإعداد وضبط وانتخاب نص هذا الكتاب قمت بالإطلاع على المخطوطة المصورة من المكتبة الأهلية بباريس والموجودة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٦٤٣٤ ح في أربعة مجلدات وكذلك مخطوطاته الموجودة بالمتحف القبطي بالقاهرة باعتبارها الأصل في التحقيق، وهي في أربعة أجزاء الأول والثاني في مخطوط تحت رقم ١ أ تاريخ (٩٣عام) باسم تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المعروف بسير البيعة المقدسة لساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين ومن أتى بعده من المؤرخين، يحتوى على السير من مارمرقس إلى البابا شنودة الأول (الخامس والخمسين)، بمقدمة. نسخ في القرن الثالث عشر الميلادى. عدد صفحاته ١٣٣ ورقة، عدد أسطر الورقة حوالى ٢٦ سطرا، قياس الورقة ٢٤ × ١٥ سم، بأوله حاشية مطالعة بالخط الكرشونى والعربى.

أما ا لجزءان الثالث والرابع ففي مخطوط تحت رقم ١ ب تاريخ (٩٤عام) بنفس الاسم السابق. وهو يحتوى السير من البابا خايال (البطرك ٥٦) إلى الباب كيرلس الخامس ـ (البطرك ١١٢)، يبتدىء من الورقة ١٣٣ إلى الورقة ٢٣٣. رممه وأكمل السير من البابا كيرلس الثالث (البطرك ٧٥) إلى الآخر، مرقس بن يوحنا جرجس سميكة باشا سنة ١٨٩٨م بخطه عن نسخة بالدار البطريركية، وذيله بجدول تاريخ البطاركة. مقاس الورقة ٢٤ × ١٥ سم عدد أسطرها من ٢٠ إلى ٢٦ سطرا.

وبعد أن أعددت من هذه المخطوطات نص كتاب تاريخ البطاركة أضفتُ إليه بعض الكلمات والعبارات وضعتها بين قوسين هكذا [ ]، إما للإيضاح، أو لإضافة يستدعيها السياق، واما لأستكمال حروف كلمات المتن.. وأستخدمتُ علامات الترقيم ليسهل قراءة المتن، ووضعت عناوين جانبية، إضافة للمتن للكشف عما يتناوله من أحداث وغيرها.

كما قسمت المتن إلى فقرات، ووضعت له هوامش لشرح معنى بعض الكلمات أو معادلة التواريخ القبطية بالميلادية.

وقد أضفت إلى المتن المحقق للمخطوط (الموجود أعلى صفحات هذا الكتاب) الوقائع التاريخية المواكبة له (في أسفل صفحات الكتاب)، وبهذا نحصل على متابعة إضافية لتاريخ مصر تمتد لأكثر من ألفي عام (منذ الإحتلال الروماني وحتى عصرنا الحديث).

ساورى (ساويرس) ابن المقفع

كل ما نعلمه عن حياة ساورى المعروف باسم «أبى البشر بن المقفع الكاتب» أو «أبى البشرجا ـ رود الكاتب المصرى» ينحصر فى ثلاثة تواريخ:

١ـ نوفمبر ٩٥٠م، وهو تاريخ تأليفه لكتاب «تفسير الأمانة»، الذى استكمل به كتابه السابق لهذا التاريخ وهو كتاب «المجامع»، وهو رد على كتاب «نظم الجوهر» لسعيد بن بطريق البطريرك الملكانى المقرب للفاطميين.

٢ـ سبتمبر ٩٥٥م. تاريخ إعادة تفسير كتابه السابق.

٣ـ سنة ٩٨٧م. مساهمته فى تحرير الرسالة المجمعية إلى بطرك السريان.

هذه هى التواريخ الأكيدة، وكل ما يضاف بعد ذلك هو استنتاج ومحاولة للاقتراب من الحقيقة.

* * *

ولد ساورى حوالى عام ٩١٥م من والد لُقب بالمقفع، وقد درج بعض الكتاب على استعارة

معنى «المقفع» الذى عُرف به عبدالله بن المقفع الكاتب الشهير الذى عاش فى القرن الثامن الميلادى، والذى نقل كتاب «كليلة ودمنة» من «البهلوية» إلى «العربية» والذى اتهم باختلاس مال الخراج، فعوقب بالضرب على يديه حتى «تفقعت أى تشنّجت، كما ذكر البعض فى تفسير «المقفع» إنها تعنى «منكس الرأس أبداً».

وحقيقة تفسير معنى «المقفع» ترجع غالباً إلى الكلمة المصرية «قفَه» التى حُرفت إلى «قفعه» ـ ولكنها ما زالت تنطق حتى اليوم فى لفظها الأول «قفَه» وهى تطلق على وعاء من الخوص أو حبال ليف النخيل، يصنعه عادة الفلاحون فى الريف المصرى، وكذلك الرهبان والمتصوفة، ولعل والد ساورى كان يمتهن هذه المهنة فاشتهر بالمقفع، أى صانع «القفع». أما السين المضافة إلى ساورى فهى من اللواحق المقدونية.

وأغلب الظن أن ساورى نشأ فى منف الشرقية فى المكان الذى كان يعرف باسمه المصرى «كا ـ هى ـ رع» الذى يعنى بيت (معبد) روح الإله رع، والذى حُرّف بعد ذلك إلى كاهرا «القاهرة» التى أسسها فى نفس الموضع جوهر الصقلى بأمر خليفته المعز لدين الله الفاطمى».

تربى ساورى تربة علمية تليق بمثقف ذلك الوقت «القرن العاشر الميلادى» فجمع بين العلوم الدينية، والعلوم الدنيوية، فعرف الفلسفة التى كانت مزدهرة فى الإسكندرية، وعلوم الكلام التى قرأها فى مصادرها، وأتقن اللغة العربية الوافدة وطورها فى شكلها المصرى وعمل فى الوظائف الإدارية والدواوين.

ثم أخذ يتدرج فى الوظائف، أيام حكم الأسرة الأخشيدية حتى أصبح كاتباً ماهراً، وكانت رتبة الكاتب آنذاك رتبة مهمة فى الجهاز الإدارى للحكام الوافدين، وقد عُرف فى هذا الوقت بكنيته «أبى البشر ساورى بن المقفع، والشاهد على ذلك عنوان رسالته إلى الوزير القبطى أبى اليُمن قزمان بن مينا، الذى كان تولى الوزارة على أيام أبى المسك كافور الأخشيد (٩٦٦ ـ ٩٦٨م) ونال ثقة الملك المعز لدين الله (٩٧٢ ـ ٩٧٥) فقد جاء فى عنوان الرسالة: «نبتدى بعون الله وتأييده نكتب رسالة انبا ساويرى أسقف الأشمونيين المعروف قبل رهبنته بأبى البشر ابن المقفع الكاتب، إلى أبى اليُمن قزمان بن ميناء، عامل مصر (أيده الله!) فيما سأله من الكتاب إليه بمذاهب النصارى، على طريق الاختصار والإيجاز» وهذه الكنية «أبو البشر» لا تعنى أنه أنجب ولداً سماه «بشر» وانما تدل على مكانته الوظيفية فى الديوان، ولا ندرى إذا

كان أبو البشر قد تزوج أم لا، إلا أن أغلب الظن أنه كان عازباً، إذا لم يذكر أحد من المؤرخين أنه ترك امرأته عندما ترهب، وإن لم يكن ذلك دليلاً قاطعاً.

ولا يخفى على القارىء أن من أهم شروط وظيفة الكاتب في الدواوين حينذاك أن يكون متضلعا في اللغة العربية الوافدة قادراً على تطويرها وتطويعها للعصر، ومن هنا نكتشف مدى الجهد الشاق الواعي الذى بذله ساويرى لينقل إلى اللغة الوافدة منجزات لغة أخرى أكثر منها تطوراً في صوتياتها ونحوها وكتابتها، ومحتوى ألفاظها الحضارية والدينية والأدبية، فكان ساويرى هكذا واضعا لأول قاموس للترجمة من المصرية إلى العربية (لم يعثر بالطبع على هذا القاموس، ولكن من المؤكد أنه كان متوافرا عنده).

ولقد كان ساويرس يتمتع ـ كما هي عادة المصريين ـ بروح فكاهة عالية تنبع من حدة ذهنه وحضور بداهته، يتضح ذلك من القصة التي ذكرها مؤلف الجزء الثالث، من كتابنا هذا وهي: «اتفق أنه (ساورى) كان جالس عند قاضي القضاه إذ عبر عليهم كلب، وكان يوم الجمعة، وكان هناك جماعة من الشهود، فقال له قاضي القضاة: ماذا تقول يا سويرس في هذا الكلب، هو نصراني أو مسلم؟[١] فقال له: اسأله فهو يجيبك عن نفسه، فقال له القاضي: هل الكلب يتكلم؟ إنما نريدك أنت تقول لنا، قال: نعم يجب أن نجرب هذا الكلب، وذلك أن اليوم يوم جمعة والنصارى يصوموا ولا يأكلوا فيه لحم، فإذا فطروا عشيه يشربوا النبيذ والمسلمين ما يصوموه ولا يشربوا فيه النبيذ ويأكلوا فيه اللحم فحطوا قدامه لحم ونبيذ فإن أكل اللحم فهو مسلم وإن لم يأكله وشرب النبيذ فهو نصراني، فلما سمعوا كلامه تعجبوا من حكمته وقوة جوابه وتركوه».

ترهبه واختياره أسقفا

بعد أن ترقي أبو البشر إلى أعلى المناصب،تخلى عن وظيفته ليترهبن في أحد الأديرة، ولا ندرى أين ترهب، ولا متى، كما أننا نجهل السبب الذى جعله يترك العالم، ليذهب إلى البرية، إلا أن هذا دليل قاطع عن تقواه، وورعه وخبرته بأمور السلطة التى خدمها وعرف عنها الغدر السريع، والانتقام لأتفه الأسباب.

(١) لاحظ هنا حذف أداة الاستفهام وهي الهمزة في قول القاضي: هو نصراني.. ففي اللغة الوافدة تكتب «أهو نصراني..» وكذلك استبدلت «أم» بـ«أو» عند قول القاضي «أو مسلم». كما نلاحظ هنا ظاهرة حذف نون «الأفعال الخمسة بغير ناصب ولا جازم كما جاء في الكلمات «يصوموا»، «يأكلوا»«يشربوا».

ولذ أتقن ساويرس (ساورى) فى ظل رهبنته علوم الكتاب المقدس، وألف فيها بالعربية العديد من الكتب منها كتاب «الدر الثمين فى إيضاح الاعتقاد فى الدين» الذى ينقسم إلى ١٥بابا، يذكر فيها ساويرس ١١٦١ (ألف ومائة وواحد وستون) نصاً من الكتاب المقدس (هذا بصرف النظر عن التلميحات إلى نصوص كتابية)، منها ٣٠٧ مرجع إلى العهد القديم، و٨٥٤ إلى العهد الجديد ترجمها جميعها بجهده الذاتى من اللغة القبطية إلى العربية، دون أن يسبقه إلى ذلك أحد، حتى أن أحد الكتاب يذكر عنه أنه لم يوجد فى عصره من يضاهيه فى معرفة الكتاب المقدس.

كذلك معرفته لآباء الكنيسة تفوق مستوى معاصريه، ففى نفس كتاب «الدر الثمين» المذكور، قد أحصى الناشر الألمانى لهذا الكتاب ١٩١ مرجعاً لآباء الكنيسة، سوى نصوص أخرى لم يعتبرها من التراث الآبائى.

وإذا تذكرنا أن كثيراً من هذه النصوص، أو قل معظمها، لم تكن مترجمة بعد إلى العربية، لفهمنا المجهود الذى بذله ساويرس للتعرف على الآباء فى الأصول.

لكل ما سبق اختير ساويرس ليسام أسقفاً على مدينة الأشمونين(١)، فغير اسمه من أبو البشر إلى الأنبا ساويرس، ولم يذكر ساويرس، اسم البطرك الذى وسمه، وإن كان فى شبه المؤكد أنه البطرك الستينى (تاوفانيوس) الذى أدار شئون الكنيسة القبطية من سنة ٩٥٣إلى سنة ٩٥٦، أو على يد البطرك أنبا مينا الثانى (٩٥٦ ـ ٩٧٥).

(١) الأشمونين: هو إقليم هرموبولس .Hermopolis فى ظل العصر البطلمى، تقع شمال غرب ملوى بحوالى ٨كم. وردت فى كشف الأسقفيات عند أميلنو هكذا: «مدينة الأشمونين» = Schemoun Ermoucno وهى Eshomuncin ، ثم قال: إنه ورد فى بعض الأوراق القبطية مدينتان، أحدهما باسم أشمون رقم (١)، والثانية باسم أشمون رقم (٢) وكانت أشمون رقم (١) واقعة على النيل، فلما شعر أهل المدينة بقرب وصول الملك قمبيز بجيشه إليهم تخلوا عنها من الخوف والتجنوا إلى أشمون رقم (٢).
ثم قال: وإن مدينة أشمون رقم (١) سميت فى عهد البطالمة Kleopatris «كليوباتريس» وكانت هى الميناء لبعد أشمون الأصلية عن النيل، ولما اختفى أسمها صاروا يطلقون بعد ذلك على أشمون (٢) اسم مدينة الأشمونين، التى كانت تسمى بالمصرية Sesounnou، ويقال لها Schemoun . أما كليوباتريس ميناء الأشمونين الحالية فقد صار اسمها «الروضة» اشتهرت الأشمونين بنوع خاص من الثياب الجيدة الثمينة، كما كانت قاعدة لمقاطعة «أونو» فى ظل الممالك الفرعونية، ثم قاعدة لكورة الاشمونين فى ظل الاحتلال العربى، ثم قاعدة لأعمال الأشمونين خلال حكم الأيوبيين إلى آخر أيام المماليك الجراكسة، ثم قاعدة لولاية الأشمونين فى ظل الاحتلال العثمانى.
وفى سنة ١٨٢٦ صدر أمر من الوالى بتسمية ولاية الأشمونين باسم مأمورية أسيوط، وجعلت مدينة أسيوط قاعدة لهذه المأمورية، وبذلك حذف اسم الأشمونين من الأقسام الإدارية بمصر، وأصبحت قرية من قرى مركز ملوى/ محافظة أسيوط.

أول تأليفه

ألف ساويرس قبل سنة ٩٥٠ كتاب «المجامع» وهو رد على كتاب «نظم الجوهر» لسعيد بن بطريق،البطريرك الملكي، وكان الخلاف كبيراً بين الكنيسة القبطية والملكيين،خصوصاً أن الملكانيين كانوا مقربين لدى الفاطميين، حتى أن العزيز ٩٧٥٠ ـ ٩٩٦) اتخذ سرية رومية كانت أخت بطريرك الروم في القدس وفي الإسكندرية.

وفي نوفمبر سنة ٩٥٠م ألف ساويرس كتاب «تفسير الأمانة» ولكنه ضاع منه، فلما فقد الأمل في العثور عليه أعاد كتابته في سبتمبر ٩٥٥م.

علاقته بالملك المعز

كان المعز مؤسس الخلافة الفاطمية رجل علم وسياسة، يقضي أيامه في تعلم العلوم واللغات حتى أنه حسبما قال المقريزي في خططه «أخذ يحفظ اللغات فابتدأ بتعلم اللغة البربرية حتى أحكمها، ثم تعلم الرومية، والسودانية، حتى أتقنهما، ثم أخذ يتعلم الصقلية».

كانت علاقة المعز بالبطرك ابرام (إفراهام) علاقة طيبة، حتى حسده الوزير اليهودي «يعقوب بن كلس» ولما كان ساويرس من أصدقاء ابرام البطرك، وأكبر علماء الكنيسة في ذلك الوقت، كان كثيراً ما يتردد على ديوان الملك وكان المعز يدعوه للمناظرة مع أئمة المسلمين واليهود في حضوره و«دفعات كثيرة جادل قضاة من شيوخ المسلمين بأمر الملك المعز».

الرسالة المجمعية

كانت العادة جارية بين الكنيستين السريانية والقبطية، عند اختيار بطرك جديد، أن يرسل رسالة إلى نظيره في الكنيسة الأخرى يوضح فيها عقيدته، فيرد عليه البطريرك الآخر برسالة يعترف فيها به، ويعلن عن إيمانه وكانت تسمى هذه الرسالة «السنيوديكا» أو الرسالة المجمعية، وقد جمعت هذه الرسائل المجمعية في كتاب «اعتراف الأباء» في سنة ١٠٧٨م.

وفي سنة ٩٨٧ أو بعدها بقليل، أرسل البطريرك الانطاكي أتناسيوس الخامس (٩٨٧ ـ ١٠٠٣م) أربعة مندوبين عنه إلى البطريرك فيلوتاوس (٩٧٩ ـ ١٠٠٣). وهم: توفيل المفسر مطران دمشق، وباسيلوس مطران طبرية، والقمص يوحنا، والشماس سلمون، وكان هؤلاء المندوبون حاملين رسالة من البطريرك الانطاكي تعبر عن إيمانهم[١] .

(١) انظر الخريدة النفيسة جـ٢ ص٢٦٨ ـ ٢٧٣ للأسقف أيسودوروس (القاهرة . د.ت).

وتضمنت هذه الرسالة مسألة لاهوتية يطلب من البطريرك المصرى حلها، وها هى المسألة «أن موت سيدنا المسيح، لما كان من مفارقة النفس للجسد بحيث لم يفارقه اللاهوت، كما لم يفارق النفس حال فارقها الجسد، فلم يكن موتاً لأن اللاهوت أعظم وأجل وأقوى من النفس المخلوقة، وكيف كان حياً حال اتحاد نفسه بجسده المخلوقين، ولم يكن كذلك. فى حين أن اللاهوت لم يفارق الجسد؟»[(١)].

فرحب البطريرك فيلوتاوس بالضيوف الكرام أحسن ترحيب، وطلب من كل أساقفة مصر أن يذكروا البطريرك الانطاكى الجديد فى قداساتهم. إذ يقول: «ونخبركم أنه على أثر مجيهم له «مجىء المندوبين الأربع» وقراءة الرسايل التى بأيديهم، أصدرنا منشوراً إلى عموم الأبروشيات المصرية أن يدرجوا اسمكم الكريم فى الطلبات، ويذكروكم فى كل قداس حسب المعتاد».

ثم جمع فيلوتاوس بعض الأساقفة العلماء وحرر رسالة يرد فيها على مسألة اتناسيوس.

وكان ساويرس فى مقدمة هؤلاء الأساقفة، فزودهم بعلمه وثقافته الدينية، فجاءت الرسالة حافلة بنصوص أباء الكنيسة، مزودة بالتعليقات اللاهوتية، مما جعلها من أجود الرسائل المجمعية لهذا العصر.

وقد اعترف فيلوتاوس بفضل أنبا ساويرس فى تحرير هذه الرسالة، إذ ختمها بقوله: ومن عندنا، يقدم إلى قدسكم السلام بخضوع آباؤنا الأساقفةالحاضرون معنا، كل واحد باسمه، لاسيما أنباساويرس أسقف الأشمونيين، وأنبا مرقس أسقف البهنسا الكاتب، والقسوس والشمامسة، والرهبان، والاراخنه المحبون لله، وعموم شعب كرسى مارمرقس الإنجيلى المؤمنين، وأبو رهبان ديركم الذى عندنا، والأخوة الذين فيه.

فقد ذكر ساويرس أول الكل ولم يذكر معه إلا أسقف البهنسا، وكان ساويرس قد بلغ الثمانين عام وأكثر عند تحرير هذه الرسالة، ولم يزل عضواً عاملاً فى كنيسته، يؤلف الأبحاث اللاهوتية وكتبه التاريخية.

قائمة مؤلفات ساويرس

لساويرس مؤلفات عديدة، بعضها مطبوع وبعضها مخطوط وبعضها مفقود.

وقد ذكر أنبا ميخاييل، أسقف تنيس فى زمن الخليفة الفاطمى المعز لدين الله، وأحد الذين

(١) الخريدة جـ٢ ص ٢٦٩ .

أكملوا كتاب ساويرس، سنة ١٠٥١، عشرين كتاباً له وصلت إليه، ثم أضاف إلى هذه المؤلفات عدة ميامر وتفاسير وأجوبة على مسائل لأبى البشر ابن جارود الكاتب المصرى.

أما أبو البركات بن كبر، المتوفى سنة ١٣٢٤م، فقد ذكر له ٢٦ مؤلفاً في الباب السابع من موسوعته المعروفة بكتاب «مصباح الظلمة في إيضاح الخدمة» وهى كالآتى:

١ـ في التوحيد.

وقد ذكر ساويرس هذا الكتاب في الباب الثانى من «مصباح العقل» إذ قال: «وهذه الأسماء (أعنى: الآب والابن وروح القدس) مما قد استعمله الأوايل وقالوا به ودانوا بصحته، أعنى قدما الفلاسفة، منهم: هرمس (أوزير)، أفلاطون، فيثاغورس، أمونيوس، ونظائرهم، وتوالت به الكتب العتيقة، وأنا أذكر أقاويلهم في كتاب التوحيد.

٢ـ في الاتحاد.

٣ـ الباهر، في الرد على اليهود والمعتزلة.

ذكر ساويرس كتابه عن المعتزلة واليهود دون تحديد عنوان في كتاب «مصباح العقل» مرتين كما يلى:

أ ـ «فمن أنكر ثبات هذه الصفات وقيامها وأزليتها، فقد أنكر ما قد اعترف به، وجحد ما قد أقر بوجوده، كما فعل اليهود وباسيليوس، والمعتزلة الذين يجعلون صفات البارى أسماء خالية من المعانى، ولأنا قد قلنا أن غرضنا ها هنا الاختصار والإيجاز، رأينا ترك الاحتجاج والرد على المخالفين، لأنا قد فعلنا ذلك في كتبنا عليهم».

ب ـ « فأما ما وصفته التوراة من تحريم أشيا بأعيانها، أو تحليل أشيا بأعيانها، فأمر قد نسخ بشريعة المسيح، وذلك إنما كان لعلة ما، قد بينا الأمر، في هذا وغيره، في كتبنا في الرد على اليهود».

٤ـ البليغ، في مثل ذلك.

٥ ـ في الرد على سعيد بن بطريق الملكى، البطريرك المعروف بابن الفراش، صاحب كتاب التاريخ [مطبوع].

٦ـ الشرح والتفصيل في الرد على نسطور وشيعته.

٧ـ رسالة في الديانة. كتبها إلى ابن أبى اليمن قزمان بن مينا الكاتب.

٨ـ نظم الجوهر والدر، فى الرد على القول بالقضاء والقدر.

٩ـ المجالس.

١٠ـ طب الفم وشفا الحزين.

١١ـ المجامع.

١٢ـ تفسير الأمانة الأرتودكسية. [طبعة الأب لورواه].

١٣ـ رسالة فى حال الأطفال، من المؤمنين والكافرين، وكيف تقوم النفس فى الحكم وهى رسالة تربوية.

١٤ـ فى الإستبصار، وهو مصباح العقل [نشرة الأب سمير خليل].

١٥ـ السير.

وهو الكتاب الذى بين يدينا الآن، والمعروف باسم تاريخ بطاركة كنيسة الإسكندرية» وقد طبع مراراً وترجم إلى اللاتينية والإنجليزية والفرنسية، كما طبعت منه أيضاً روايات مختصرة. [انظر ما كتبناه عن هذا المؤلف فى هذا التقديم].

١٦ـ الإنتصار.

١٧ـ ترتيب الكهنوت، وهو الانباء عن طقوس الكنيسة [طبعة يوليوس أسفلج].

١٨ـ فى إختلاف الفرق. [طبعة يوليوس أسفلج، ثم طبع جزءاً منه الأب سمير خليل، ثم طبعه بكامله المطران بطرس كامل مدور].

١٩ـ فى الأحكام. ذكر ساويرس هذا الكتاب فى الباب الأخير من «مصباح العقل» إذ يقول: «لأن الغرض فى هذه الشريعة: معرفة الله وتقديسه وتمجيده، واستعمال العدل والفضايل والإنصاف، والمواساة، وطلب الدايم الباقى، والإعراض عن الزايل الفانى. وأما ما سوى ذلك من الشرايع والأحكام فأثبتها فى كتاب الأحكام»، ويبدو أن هذا الكتاب اليوم مفقود.

٢٠ـ إيضاح الاتحاد، والقول على تجسد الرب. هذا الكتاب إما أن يكون «كتاب الدر الثمين» واما أن يكون المقالة الثانية من «كتاب الإيضاح» وعنوانها «كتاب إيضاح تأنيس ابن الله وصلبه»، وقد ذكر ساويرس نفسه كتاب «إيضاح الاتحاد» مرتين فى «مصباح العقل» كما يلى:

أ ـ «فأما لم تجسد؟» و«كيف تجسد القديم بالمحدث؟» فقد شرحته شرحاً بيناً، وأوضحته إيضاحاً مستفيضاً فى كتابى «فى إيضاح الاتحاد».

ب ـ أنه، لما تجسد، كان تجسده بجسد تام، ذى نفس وعقل، [تجسداً] كاملاً تاماً، أى أنه خلق الجسد، وحدد الصورة، وصار إنساناً كاملاً من غير تغير ذات، فجعله له هيكلاً ومحلاً وحجاباً، على أنه اتحد به اتحاداً تركيبياً، كما بينت فى كتابى «فى إيضاح الاتحاد».

٢١ـ تفسير الأناجيل المقدسة، ذكر ساويرس هذا التفسير للأناجيل عندما تحدث عن صلاة «أبانا الذى فى السموات» فى الباب العاشر، إذ قال: «ومن كان لا يعلم شيأ غير تلك الصلاة أجيز له، لأنها قد جمعت كل الأمور: من الإيمان والإقرار والتسبيح والتمجيد والطلبة والإستغاثة والمسألة، فمن أراد أن يعلم ذلك فلينظر فى «تفسير الإنجيل» فإنا هناك قد بينا معانى تلك الصلاة على الشرح».

٢٢ـ أجوبة مسائل لابن جارود (ساويرس).

٢٣ـ شرح أصول الدين، وترتيب الخدمة، والبخور، ورشم الصليب، ونسبة السيده.

٢٤ـ كتاب البيان المختصر فى الأيمان.

٢٥ـ كتاب المثاليات والرموز. من المحتمل أن يكون هذا الكتاب هو المقالة الثالثة من «كتاب الإيضاح» وعنوانها «كتاب تفسير الكلام من سفر يشوع بن نون، والتوراة بحق المذهب المسيحى، أو المقالة الرابعة «إيضاح تفسير الفصح والحروف، وكيف يصير الخبز والخمر لحم المسيح ودمه» إذ أن المقالتين تطرق موضوع المثالات والرموز.

٢٦ـ كتاب التعاليم فى الإعتراف والذنوب.

وجدير بالذكر أن عناوين مؤلفات ساويرس تختلف كثيراً بين نسخة ونسخة، وكان قد أشار إلى ذلك أنبا ميخاييل أسقف تنيس (١٠٥١م) فيقول: «وهذه الكتب قد سمى بعضها بخلاف ما ذكرناه، وربما للكتاب أسمان» وهذه الظاهرة تدل دلالة واضحة على انتشار كتب ساويرس، إذ أن أسماءها اختلفت لكثرة نقلها وتداولها، وذلك فى أقل من نصف قرن بعد وفاة المؤلف.

ونحن لا نعرف سنة وفاة ساويرس ولكن يتضح لنا مما كتب فى سير الآباء البطاركة أنه عاش حتى زمن الخليفة الفاطمى المعز لدين الله أى فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى وفى أواخر القرن العاشر الميلادى.

مقدمات تاريخية

(١) الإسكندر الأكبر وأسرته

الإسكندر الثالث (الأكبر)[١]	ملكا	٣٣٢	٣٢٣
فيليب أرهيدايوس (أخو الإسكندر)	ملكا	٣٢٣	٣١٧
الإسكندر الرابع (ابن الإسكندر الأكبر)	ملكا	٦/٣١٧	٣١٠[٣٠٥/ ٤][٢].

الملوك البطالمة

بطلميوس الأول	والياً	٣٢٣	٣٠٥/ ٤
(سوتير[٣]	ملكا[٤]	٣٠٥/ ٤	

---

(١) غزا الإسكندر الثالث (الأكبر) مصر في خريف عام ٣٣٢ ق م. ولعله توج في منف (ممفيس) ملكا على مصر في آخر عام ٣٣٢. أسس الإسكندرية في ٢٥ طوبة الموافق ٢٠ يناير عام ٣٣١.

ولكن الأستاذ E.Welles يذهب في مقال له نشرة في: The Discovery of Sarapis, Historia, II, 1962 إلى أن تأسيس الإسكندرية كان في يوم ٧ أبريل عقب زيارة الإسكندر لواحة آمون، وليس قبل هذه الزيارة (قارن إبراهيم نصحي «تاريخ مصر في عصر البطالمة» جـ٢، ص٢٨٢، حاشية ٣). كما يذهب الأستاذ ولز إلى أن الإسكندر هو الذى أمر ببناء معبد سرابيس في الإسكندرية.

- توفي الإسكندر في بابل يوم ١٣ يونيو ٣٢٣. وفي رأى حديث آخر أن اليوم الذى توفى فيه الإسكندر وهو ٢٩ من شهر دايسيوس Daisios (المقدونى) يوافق مساء يوم ١٠ أى بداية يوم ١١ يونيو عام ٣٢٣ (لأن اليوم وفقا للتقويم المقدونى يبدأ في المساء بينما يبدأ اليوم في التقويم المصرى مع طلوع النهار.

(٢) قتل الإسكندر الرابع (ابن الإسكندر الأكبر من روكسانة) في عام ٣١٠. ومع ذلك فقد ظلت الوثائق (الديموطيقية) في مصر تؤرخ باسمه إلى ما بعد موته تأريخا صوريا حتى سنة ٣٠٥/ ٤ ق م، وهى السنة التى اتخذ فيها بطليموس الأول (سوتير) لقب ملك (basileus) بصفة رسمية بدلا من لقب ساترابيس (Satrapês) أى والى نائب عن الملك.

(٣) خلع أهل رودس على بطلميوس الأول لقب «سوتير» (المنقذ) بعد عام ٣٠٤ وفقا لرواية ديودور الصقلى (ك. ٢٠ ـ ١٠٠ ـ ٤) ورواية بارسنياس (ك١ ـ ٨ ـ ٦). لكن يبدو أن هذا اللقب (لقب الإله المنقذ) خلع عليه قبل اتخاذه لقب «ملك» بصفة رسمية، أى بين سنتى ٣٠٨، ٣٠٦، وذلك وفقا لما يفهم من نقش عثر عليه في هليكرناسوس بآسيا الصغرى.

(٤) اتخذ بطلميوس الأول لقب «ملك» بصفة رسمية فيما بين ٧ نوفمبر ٣٠٥، ٦ نوفمبر ٣٠٤، أن لم يكن بين ٧ نوفمبر ٣٠٥، ١ فبراير ٣٠٤. وبينما يفضل الأستاذ «سكيت» التاريخ الأخير، يرجع باحث حديث (الن صامويل) أن بطلميوس الأول أعلن نفسه ملكا في يوم ٧ نوفمبر ٣٠٥ الذى كان في ذلك الوقت يوافق أول توت، رأس السنة المصرية. حيث يتضح أيضا أن شهر «دايسيوس» المقدونى كان ـ=

٢٨٣/ ٢[5]

بطلميوس الثانى	مشتركا (مع أبيه)[7]	٢٨٥/٤	٢٨٣/٢
(فيلادلفوس)[6]	منفردا[8]	٢٨٣/ ٢	٢٤٦

=فيما يبدو - يقابل شهر أكتوبر/ نوفمبر. وقد ظل الأمر كذلك حتى عهد يورجتيس الثانى حين قوبلت (بين سنتى ١٣١/ ١٣٠ - ١١٩/ ١١٨) الشهور المقدونية بالشهور المصرية وصار ديوس يوافق توت، أول شهر فى السنة المصرية. ويلاحظ أيضا أن بداية أى شهر مقدونى توافق دائما يوم ٢١ من الشهر المصرى.
- وبعد مضى سنوات من حكمه كملك، رأى بطلميوس الأول أن يضيف سنوات حكمه كوال عند حساب مدة حكمه، وأرجع بداية حكمه (صوريا) إلى يوم وفاة الإسكندر الأكبر، أى إلى يوم ٢٩ من شهر دايسيوس Daisios (المقدونى) عام ٣٢٣ الموافق ١٠/ ١١ من شهر يونيو عام ٣٢٣. وبذلك يصبح المجموع الكلى لسنوات حكمه (كوال وملك) ٤١ عاما، وكملك فقط ٢٣ عاما. ولدينا وثائق (كلها يونانية) مؤرخة بعام ٤١ من حكمه لكن ذلك لا يظهر فى الوثائق الديموطيقية لأن الكتبة المصريين لم يرجعوا ببداية حكمه إلى عام ٣٢٣، بل حسبوها ابتداء من تاريخ إعلانه نفسه ملكا فى نوفمبر ٣٠٥/ ٤.

(٥) تاريخ وفاة بطلميوس الأول غير معروف على وجه التحقيق. لكنه توفى بعد سنتين (وبضعة أشهر) من إشراكه لابنه معه فى الحكم، أى أنه توفى فى عام ٢٨٣/ ٢، وربما بين يناير ومارس عام ٢٨٢ على وجه أكثر تحديداً.

(٦) بطلميوس الثانى (فيلادلفوس) هو ابن بطلميوس الأول (سوتير) من زوجته الثانية برنيقى (Berenicê). وقد ولد فى يوم ٢٤ من شهر ديستروس (Dystros) المقدونى الموافق ٢١ مارس عام ٣٠٩، فى جزيرة قوس (Côs) قرب ساحل آسيا الصغرى.

(٧) أشرك سوتير ابنه بطلميوس الثانى معه فى الحكم بمناسبة عيد ميلاد (هذا الابن) الخامس والعشرين فى يوم ٢١ مارس عام ٢٨٥.

(٨) حسب بطلميوس فيلادلفوس سنوات حكمه إبتداء من عام ٢٨٣/ ٢ الذى انفرد فيه بالحكم عقب وفاة أبيه. لكن بعد مضى سنوات من حكمه، وفى عام ٢٦٧ على وجه التحديد، قرر - كما فعل أبوه من قبل - (ولسبب لا نعرفه) إرجاع بداية حكمه إلى سنة إشتراكه مع أبيه فى الحكم، أى إرجاعه إلى ٢١ مارس عام ٢٨٥/ ٤. وكان ذلك فى السنة الـ١٦ من حكمه وبمناسبة عيد ميلاده الثانى والأربعين (٢٤ ديستروس = ٢١ مارس عام ٢٦٧). وبذلك أصبح ٢١ مارس عام ٢٦٧ بداية السنة الـ١٩ من حكمه (وفقا للحساب الجديد) وليس بداية للسنة الـ ١٦ من حكمه. وهكذا صار يوم عيد ميلاده (genethlia) ٢١ مارس يوافق يوم عيد جلوسه على العرش (basileia) [كشريك لأبيه فى الحكم] فى يوم ٢١ مارس. ويلاحظ أن عيد الميلاد (والجلوس على العرش) لم يكن يحتفل به سنويا فقط، بل شهريا (فى نفس اليوم ٢١). وكان هذا تقليدا مقدونيا. ويلاحظ أيضا أنه نتيجة للتأريخ بأثر رجعى صارت سنة الحكم المقدونية متقدمة على السنة المصرية بمعنى أن السنة المصريية الثالثة - مثلا - كانت تقابلها السنة المقدونية الرابعة. كذلك كانت الحال فى عهد بطلميوس الثالث.

بطلميوس الثالث (يورجتيس)	ملكا	٢٤٦	٢٢٢/ ١
بطلميوس الرابع (فيلو باتور)	ملكا	٢٢١	٢٠٥
بطلميوس الخامس (إبيفانيس)[٩]	ملكا	٢٠٥/٤	١٨٠
بطلميوس السادس (فيلوميتور)	منفردا	١٨٠	١٧٠
	مشتركا	١٧٠	١٦٤[١٠]

(مع أخويه):

بطلميوس الثامن وكليوبترة الثانية

	مشتركاً (مع أخته):	١٦٣	١٤٥

كليوبترة الثانية

بطلميوس السابع	مشتركاً (مع أبيه)[١١]	١٤٥	

(٩) زوجة إبيفانيس هي كليوبترة (الأولى) وأم فيلوميتور. وجدير بالذكر أن حجر رشيد (Rosetta Stone) يرجع إلى عهد إبيفانيس، إذ يحمل تاريخ ٢٧ مارس عام ١٩٦ . والحجر مدون عليه قرار أصدره الكهنة المصريون في اجتماع عام في منف (Memphis) وهو مكتوب بصورتين أو خطين من اللغة المصرية القديمة (الهيروغليفية والديموطيقية) مع ترجمة باللغة اليونانية. وكان هذا الحجر اكتشفه رجال الحملة الفرنسية في بلدة رشيد عام ١٧٩٩ ، واستولى عليه الإنجليز عام ١٨٠١ وأودعوه المتحف البريطاني.

(١٠) في عام ١٧٠ رأى البلاط البطلمي تدعيما للحكم (ربما بمناسبة غزو أنطيوخوس الرابع أبيفانيس لمصر أن يتخذ إجراء ـ لا مثيل له من قبل ـ وهو أن يشرك مع فيلوميتور في الحكم أخاه الأصغر بطلميوس (الثامن) وأخته ـ وهي زوجته أيضا ـ كليوبترة (الثانية). وبمناسبة هذا التغيير رؤى أيضا تغيير حساب سنوات الحكم فأصبح عام ١٧٠ ـ وهو السنة الثانية عشرة من حكم فيلوميتور وحده ـ يعتبر أيضا السنة الأولى من حكم الأخوة الثلاثة المشترك. ويسود الاضطراب السنوات الأولى من هذا الحكم المشترك، وطريقة التاريخ ليست موحدة أو متناسقة في مختلف أنحاء الوادي. ولعل هذا يرجع إلى الغزو السوري وإلى النزاع الذي احتدم أواره بين فيلوميتور (وزوجته كليوبترة الثانية) من ناحية وبين أخيهما بطلميوس (الثامن) من ناحية أخرى، فقد انحاز الإسكندريون إلى جانب فيلوميتور وكليوبترة الثانية ضد بطلميوس (الثامن)، ومن ثم بدأت كراهية الأخير للإسكندريين وبخاصة أقطابهم وتنكيله بهم، وثورتهم ضده وتمردهم عليه. كذلك انحاز اليهود ـ فيما يروى إلى فيلوميتور وأخته كليوبترة الثانية ضد بطلميوس (الثامن) مما أثار الأخير عليهم وبدأ في اضطهادهم كالإسكندريين سواء بسواء.
وقد طرد بطلميوس فيلوميتور من عرشه فترة امتدت من أكتوبر ١٦٤ إلى ما قبل ٢٩ مايو ١٦٣ . ويبدو أن أخاه الأصغر بطلميوس (الثامن) انفرد بالحكم فترة قصيرة تقع بين أبريل ومايو ١٦٣ .

(١١) حكم نيوس فيلوباتور (أي فيلوباتور الجديد) مشتركا مع أبيه من ربيع إلى خريف عام ١٤٥ (الموافق ٣٦ من حكم أبيه فيلوميتور). وتوفي أبوه قبل ١٩ سبتمبر ١٤٥ . لكن نيوس فيلوباتور لا يظهر هو الآخر=

(نيوس فيلوباتور)			
بطلميوس الثامن	منفردا[12]	١٤٥	١١٦
(يورجتيس الثاني)			

= بعد ذلك التاريخ. وفي أكبر الظن أنه قتل. ولعل هو ذلك الابن (ابن فيلوميتور وكليوبترة الثانية) الذى تخلص منه بطليموس الثامن ولم يلبث هذا الأخير أن تولى العرش في نفس العام منفردا بالحكم. ولقد لقب نفسه يورجتيس (الثاني) أى «الخير» أو «المحسن»، ولقبه الإسكندريون ـ نظرا لسمنته المفرطة ـ بالبدين.

(١٢) تزوج بطلميوس الثامن مرتين، الأولى من أخته كليوبترة الثانية (وهي أرملة أخيه فيلوميتور) في عام ١٤٤ (أى بعد انفراده بالحكم). لكن لم يلبث أن نشب بينهما صراع رهيب على السلطة، وساءت بينهما العلاقة. لذلك تزوج في عام ١٤٢ مع ابنتها كليوبترة الثالثة (التي كانت قد أنجبتها من أخيها وزوجها فيلوميتور). وبذلك يكون قد تزوج أولا من أرملة أخيه (وهي أخته أيضا) المسماة كليوبترة الثانية، وبعدئذ تزوج من ابنتها كليوبترة الثالثة التي كان هو عمها وخالها في الوقت نفسه. ولا ندرى إذا كان قد طلق كليوبترة الثانية عندئذ. لكنها ظلت تحكم معه بلقب «الملكة كليوبترة الأخت»، بينما لقب ابنتها كليوبترة الثالثة (التي تزوجها يورجتيس الثاني) «بالملكة كليوبترة الزوجة».

كيف رضيت كليوبترة الثانية أن تعيش على هذا الوضع؟ ربما بدافع حب السلطة والتمسك بلقب ملكة. وقد كان لها ابنة أخرى (من أخيها فيلوميتور) اسمها كليوبترة نيا، وقد تزوجت ديميتريوس ملك سوريا. ودبرت مقتله، وقتلت أحد أبنائها، وحاولت قتل الآخر عندما اعترضوا سبيل طموحها.

وقد أنجب يورجتيس الثاني من كليوبترة الثانية (أثناء تتويجه فرعونا في منف عام ١٤٤) ابنا فلقب بالمفيسى (Memphites) بهذه المناسبة. وعندما ثار الإسكندريون عليه بتدبير من كليوبترة الثانية، واضطر إلى الفرار مع زوجته كليوبترة الثالثة إلى قبرص (١٣١ ـ ١٣٠)، انتقم من كليوبترة الثانية بأن قتل ابنها منه «ممفيس» الذى كان قد أخذه معه إلى المنفى، ومزقه أربا ووضع أشلاءه في صندوق بعث به إلى كليوبترة في الإسكندرية كهدية عيد ميلاده. ولم يكن هذا الابن الذى قتل بيد أبيه وهو في سن الرابعة عشر، هو الابن الوحيد الذى أنجبه يورجتيس الثاني من أخته كليوبترة الثانية، إذ يبدو أنه أنجب ابنا آخر (ربما في عام ١٤٢).

وتؤرخ ثورة كليوبترة الثانية بتأييد من الإسكندريين ضد زوجها يورجتيس الثاني بعام ١٣١ ـ ١٣٠ وقد أعلنت نفسها ملكة بلقب «كليوبترة فيلوميتور سوتيرا» لكنه لم يلبث أن عاد من منفاه في قبرص بالقوة المسلحة، وطرد كليوبترة الثانية التي لجأت إلى زوج ابنتها ملك سوريا في أنطاكية. ولم يلبث أن عاد الوئام بينهما فعادت إلى الإسكندرية حوالي عام ١٢٤. وفي أحق أن هذه السنوات (١٣٢ ـ ١١٨) هي سنوات حافلة بالاضطرابات وقد سميت بسنوات انقطاع الاتصال أو الفوضى (amixia).

كذلك أنجب يورجتيس الثاني من كليوبترة الثالثة أبناء من بينهم كليوبترة الملقبة بكليوبترة تريفانا (Tryphaena) وكليوبترة «الرابعة» وكليوبترة سيليني (Selênê) هذا عدا من أنجبهم من محظياته (مثل ايريني Eirênê) وقد نصب أحد هؤلاء الأبناء غير الشرعيين (وهو بطلميوس أبيون) ملكا على مدينة قورينة (ومكانها الآن بلدة الشحات في برقة).

ـ وقد توفي يورجتيس الثاني في ٢٨ يونيو ١١٦. وماتت عدوته اللدود كليوبترة الثانية في العام نفسه (قبل ١٩ أكتوبر عام ١١٦).

كليوبترة الثالثة[13]	مشتركة مع أبنيها:		
	بطلميوس التاسع[14]	١١٦/ ١٥	١٠٧
	وبطلميوس العاشر	١٠٧	١٠١
بطلميوس العاشر	مشتركا مع زوجته:	١٠١	٨٨
(الإسكندر الأول)[15]	كليوبترة برينيقى[16]		
بطلميوس التاسع	منفردا	٨٨	٨١
(سوتير الثانى)[17]	(بعد العودة من المنفى)		
كليوبترة برينيقى[18]	منفردة	٨٠	
بطلميوس الحادى عشر	منفردا	٨٠	
(الإسكندر الثانى[19])			

---

(١٣) كليوبترة الثالثة هي - كما ذكرنا - الزوجة الثانية ليورجتيس الثاني. وكانت تؤثر ابنها بطلميوس العاشر (الإسكندر الأول) على أخيه بطلميوس التاسع (سوتير الثاني).
وكانت تلقب بالملكة الربة الخيرة أو «بالملكة كليوبترة الربة أفروديتى الخيرة الشهيرة بفيلوميتور» أى محبة أمها.
وقد ماتت كليوبترة الثالثة قبل ٢٦ أكتوبر عام ١٠١.

(١٤) طرد بطلميوس التاسع (سوتير الثاني) الملقب لاثيروس (Lathyros) (أى الحمص) ثلاث مرات:
من آخر ١١٠ إلى أول ١٠٩، ثم بضعة أشهر أثناء عام ١٠٨، وأخيرا من قبل خريف ١٠٧ حتى ٨٨.

(١٥) مات بطلميوس العاشر (الإسكندر الأول) عام ٨٨ (قبل يوم ١٤ سبتمبر).

(١٦) كليوبترة برينيقى (Cleokpatra Berenice) هي برينيقى (الثالثة). وفي رأى البعض أنها ابنة بطلميوس التاسع (سوتير الثانى) من زوجته كليوبترة الرابعة (ابنة يورجتيس الثانى)، وفي رأى البعض الآخر أنها ابنة سيليني (ابنة يورجتيس الثاني الصغرى) وقد تزوجها عمها بطلميوس العاشر (الإسكندر الأول) وتلقب بالملكة برينيقى الربة محبة أخيها (Thea Philadelphus) لكنها تلقب هي وزوجها معا بالالين المحبين لأمهما (Theoi Philomêtores).

(١٧) عاد بطلميوس التاسع (سوتير الثانى) من المنفى إلى العرش عقب وفاة أخيه الإسكندر الأول مباشرة في خريف عام ٨٨. وكان قد نفى (للمرة الثالثة) على نحو ما ذكرنا قبل خريف ١٠٧.

(١٨) مات سوتير الثانى حوالى مارس عام ٨٠. وحكمت كليوبترة برينيقى حوالى ستة شهور أثناء ذلك العام.

(١٩) خلف بطلميوس الحادى عشر (الإسكندر الثانى) الملكة كليوبترة برينيقى على العرش وحكم ١٩ يوما فقط أثناء عام ٨٠.

بطلميوس الثانى عشر	منفردا	٨٠	٥٨
(نيوس ديونيسوس)[٢٠]			
برينيقى الرابعة[٢١]	مع كليوبترة تريفاينى[٢٢]	٥٨/٧	٥٦
	مع أرخيلاوس[٢٣]	٥٦	٥٥
بطلميوس الثانى عشر	منفردا	٥٥	٥٢
(نيوس ديونيسوس)	(بعد العودة من المنفى مع ابنيه:[٢٤]	٥٢	٥١
	كليوبترة السابعة وبطلميوس الثالث عشر		
كليوبترة السابعة	مع أخيها بطلميوس	٥١	٤٧
(فيلوباتور)[٢٥]	الثالث عشر[٢٦]		=

(٢٠) طرد بطلميوس الثانى عشر (نيوس ديونيسوس) الملقب بأوليتيس (Aulêtês) أى «الزمار» من عام ٥٨ (بعد ٧ سبتمبر) إلى عام ٥٥ (قبل ٢٢ أبريل).

(٢١) برينيقى الرابعة هى ابنة بطلميوس «الزمار» الكبرى من زوجته كليوبترة تريفاينا. (Cleopatra Tryphaena) وقد قتلها أبوها بعد عودته من المنفى.

(٢٢) ليس من المعروف إذا كانت كليوبترة تريفاينا هذه هى زوجة بطلميوس «الزمار» أم ابنته التى كانت تحمل نفس الاسم.

(٢٣) أرخيلاوس (Archelaus) بن أرخيلاوس أحد قواد متريداتيس، ملك بنطوس؛ وقد انحاز إلى الرومان قبل الحرب المتريداتية الأخيرة. وقد أدعى أرخيلاوس الأصغر أنه ابن متريداتيس نفسه. وقد جيء به إلى الإسكندرية ليتزوج برينيقى الرابعة.

(٢٤) اشترك الابنان فى الحكم مع أبيهما ابتداء من ٥ سبتمبر ٥٢.

(٢٥) كليوباترة السابعة (فيلوباتور) ـ أى محبة أبيها ـ هى كليوباترة الشهيرة، آخر ملكات مصر البطلمية. وكان عمرها ١٨ سنة عند وفاة أبيها (بين فبراير ومارس ٥١). وأما أخواها فكان أحدهما عمره ١٠ والآخر ٨. وكان لها أخت أصغر منها هى أرسينوى «الرابعة» وعمرها عندئذ يتراوح بين ١٤، ١٧ سنة.

(٢٦) استبعدت كليوبترة أخاها بطلميوس الثالث عشر لفترة مؤقتة بعد ستة أشهر فقط من موت أبيها خلال عام ٥١.

ـ ثم عادت واستبعدته بصفة نهائية فى السنة الثالثة من حكمها (سبتمبر ٥٠ ـ سبتمبر ٤٩)، وأحلت مكانه أخاها بطلميوس الرابع عشر. ونتيجة لهذا التغيير الجوهرى أعادت نظام حساب سنوات حكمها فأصبحت السنة الأولى من حكمها تسمى أيضا بالسنة الثالثة. ويلاحظ أن اسمها يرد دائما سابقا على أسم شريكها.

ـ وهناك وثيقة أخرى مؤرخة بيوم ٢٧ أكتوبر عام ٥٠ فى عهد ملك غير مسمى وملكة غير مسماة. ومن المرجح أن الملك هنا هو بطلميوس الثالث عشر وأن الملكة أما كليوبترة السابعة متنازلة لأخيها ـ بمقتضى تسوية معينة ـ عن مركز الصدارة بحيث يرد اسمه سابقا على اسمها فى تاريخ الوثائق، أو أن تكون=

مع أخيها بطلميوس الرابع عشر[٢٧]	٤٧	٤٤
منفردة[٢٨]	٤٤	٣٦
مع ابنها بطلميوس قيصر[٢٩]	٣٦	٣٠
ـ سقوط الإسكندرية في يد أكتافيانوس[٣٠]	٣ أغسطس	٣٠
ـ إنتحار كليوبترة[٣١]	١٢ أغسطس	٣٠
ـ بداية الحكم الرومانى فى مصر[٣٢]	٣١ أغسطس	٣٠ ق م

=الملكة هنا (كما يقترح الأستاذ سكيت) هي أرسينوى «الرابعة» أختها الصغيرة، وذلك في الفترة التي طردت فيها كليوبترة من الإسكندرية ولجأت إلى شرق الدلتا قبل اغتيال بومبى [في ٢٨ سبتمبر ٤٨ وفقا للتقويم الرومانى غير المنقح = ٢٤ وليو وفقا لتقويم يوليوس] ببضعة شهور، أى فى الشطر الأخير من سنة حكمها الثالثة (سبتمبر ٥٠ ـ سبتمبر ٤٩) وأوائل سنة حكمها الرابعة (سبتمبر ٤٩ ـ سبتمبر ٤٨)، ولعلها كانت قد طردت منذ ٢١ يناير ٤٨.

وقد مات بطلميوس الثالث عشر غريقا أثناء معركة النيل قبل عام ١٥ يناير عام ٤٧.

(٢٧) قتلت كليوبترة السابعة أخاها الأصغر بطلميوس الرابع عشر فى تاريخ يقع بين ٢٦ يوليو و٢ سبتمبر من عام ٤٤ ق م (أى فى نهاية السنة الثامنة من حكمها، والسنة الرابعة من حكمهما المشترك.

(٢٨) يظهر بطلميوس قيصر مع أمه كليوبترة كشريك لها فى الحكم لفترةقصيرة خلال عام ٤١.

(٢٩) أنجبت كليوبترة ابنها بطلميوس قيصر (وهو بطلميوس الخامس عشر) آخر ملوك البطالمة، من يوليوس قيصر، الدكتاتور الرومانى، أثناء وجوده فى مصر من أكتوبر ٤٨ حتى مايو أو يونيو ٤٧ .ولد يوم ٢٣ يونيو عام ٤٧ . وقد أطلق عليه الإسكندريون لقب قيصرون (Caesarion) أى «قيصر الصغير» وقد أشركته معها فى الحكم بصفة مستديمة فى السنة الـ١٦ من حكمها.

وعن المدة التى قضاها قيصر فى مصر، انظر: عبداللطيف أحمد على «التاريخ الرومانى: عصر الثورة (١٩٦٧) ص٢٧٢، حاشية ٢.

(٣٠) سقطت الإسكندرية فى يد أكتافيانوس يوم ٨مسرى عام ٣٠ ق م. وكان يوم ٨ مسرى يوافق أول الشهر السادس (Sextilis) عند الرومان (وكان يسمى «السادس» لأن السنة كانت عندهم تبدأ أصلا فى مارس). وهذا الشهر «السادس» هو الذى سمي فيما بعد (عام ٢٧ ق م) بشهر أغسطس تكريما لاكتافيانوس الذى خلع عليه السناتو هذا اللقب (Augustus) ـ بمعنى الجليل أو العظيم ـ فى يناير عام ٢٧ ق م، تاريخ ميلاد الحكم الإمبراطورى. كان يوم ٨ مسرى إذن يوافق (فى السنوات غير الكبيسة) أول أغسطس، طبقا للتقويم الرومانى المعمول به وقتئذ من الناحية الواقعية، ولكنه كان يوافق يوم ٣ أغسطس طبقا «لتقويم يوليوس» النظرى المثالى الذ كان متبعا عند المؤرخين.

(٣١) لا يعرف أحد عن يقين متى انتحرت كليوبترة بالتحديد. لكن الأستاذ سكيت حاول أن يثبت أنها انتحرت فى يوم ١٧ مسرى الموافق ١٢ أغسطس عام ٣٠ ق م.

(٣٢) لا تاريخ سقوط الإسكندرية يوم ٨ مسرى الموافق ١ أغسطس (حسب التقوييم الرومانى المعمول به) أو الموافق ٣ أغسطس (حسب تقويم يوليوس النظرى المتبع عند المؤرخين) ولا تاريخ انتحار كليوبترة =

واختتم ثبت الملوك البطالمة بالملاحظات الآتية:

اتضح من إحدى البرديات الديموطيقية (P.Dem. Carlsberg,9) وجودة دورة قمرية مداها ٢٥ سنة بمعنى أن التقويم المقدونى (وهو تقويم قمرى) يحتاج إلى إضافة سنتين كل خمس وعشرين عاما لكى يتفق زمنياً مع التقويم الشمسى. وكان عام ٢٥٧/ ٦ ق م هو بداية الدورة القمرية الثانية مما يدل على أنها قد اتبعت منذ حوالى عام ٢٨٣ (قبل السنة الأربعين من حكم بطلميوس الأول سوتير). وعلى أى حال فمن المرجح الآن أنه للتوفيق بين السنة المقدونية القمرية والسنة الشمسية كان يضاف منذ عام ٢٨٠/ ٢٧٩ (وهو العام السادس من حكم فيلادلفوس) شهر مرة كل سنتين إلى السنة المقدونية. ويسمى بالشهر الكبيسى أو الإضافى أو النسىء (embolimos) وكان يضاف بعد شهر بريتيوس، وهو آخر شهر فى السنة المقدونية وقتئذ (حيث أن ديستريوس كان يوافق توت). ويسمى عندئذ Peritiosembolimos (بريتيوس الإضافى أو النسىء). ومن الجائز أن هذا النظام اتبع ـ كما ذكرنا ـ منذ آخر عهد بطلميوس الأول.

ـ ويتبين من قرار كانوب (OGIS, 56) أن بطلميوس الثالث (يورجتيس الأول) حاول

= يوم ١٧ مسرى الموافق ١٢ أغسطس عام ٣٠ ق م، لا هذا التاريخ ولا ذاك اتخذ كبداية رسمية للحكم الرومانى فى مصر. ذلك أن اكتافيانوس لاحظ أن السنة المصرية تبدأ يوم ١ توت الموافق ٢٩ أغسطس (من الناحية الواقعية) والموافق ٣١ أغسطس (من الناحية النظرية). لهذا رأى أن يتغاضى عن أيام شهر أغسطس الواقعة بين التاريخين المتقاربين (٣ أغسطس، ٣١ أغسطس) حتى لا يجعل للسنة الأولى من حكمه بدايتين متقاربتين، وأن يتخذ من بداية السنة المصرية وهى أول توت (الموافق ٢٩ أغسطس واقعيا، ٣١ أغسطس نظريا) أن يتخذ منها بداية رسمية لحكمه فى مصر. ومعنى هذا أنه قرب أو وفق بين تاريخ سقوط الإسكندرية ورأس السنة المصرية. وهكذا اعتبر يوم ٣١ أغسطس عام ٣٠ ق م هو البداية الرسمية للحكم الرومانى فى مصر، وذلك طبقا «لتقويم يوليوس» النظرى الذى كان يتبعه المؤرخون القدامى (ولو أن ١ توت يوافق ٢٩ أغسطس طبقا للتقويم الرومانى المستعمل فعلا فى ذلك الوقت، ويوافق ٣٠ أغسطس فى السنوات الكبيسة).

ويبقى بعد ذلك سؤال: من الذى كان يحكم مصر من ١ أو ٣ أغسطس حتى ٢٩ أو ٣١ أغسطس عام ٣٠ ق م؟ كان اكتافيانوس هو الحاكم من الناحية الواقعية. لكن كليوبترة كانت لا تزال ـ من الناحية النظرية ـ هى الملكة الحاكمة على الأقل حتى انتحارها فى يوم ١٢ أغسطس عام ٣٠ق م. ولهذا قيل أنها أكملت السنة الثانية والعشرين من حكمها (الذى بدأ فى سبتمبر عام ٥١) يوم ٥ نسىء (آخر يوم فى السنة المصرية) الموافق ٢٨ أغسطس (عام ٣٠ ق م). وفى رأى كاتب قديم (كليمنتس السكندرى) أن أبناءها حكموا مدة ١٨ يوما (من ١٢ إلى ٢٩ أغسطس عام ٣٠ ق م).

إصلاح التقويم المصرى، وربما أيضا تعديل نظام الدورة القمرية. لكن ذلك لم يتم، بل أن نظام الدورة القمرية الذى كان متبعا فى عهد سلفه بانتظام، لم يتبع في عهده إلا نادرا. وقد أعترى كلا من التقويمين المصرى والمقدونى الاضطراب، ولم تعد العلاقة بين التقويمين ثابتة أو مطردة، بل شابها التقلب والتناقض. والخلاصة هى أن التقويم فى عهد بطلميوس الثالث لم يحكمه نظام موحد في كل مكان من مصر أو فى جميع الأوقات، وليس أدل على اضطراب التقويم من عدم إثبات أو اطراد الشهر النسيء (embolimos) فهو تارة يضاف إلى شهر بريتيوس (Peritios) وتارة أخرى إلى شهر هوبربويتايوس (Hyperberetaions) وتارة ثالثة إلى شهر باناموس أو بانيموس (Panemos) وكان الشهر النسيء فى أوائل عهد هذا الملك يضاف بعدئذ إلى السنوات الزوجية. وكانت الوثائق فى عهده تؤرخ أما بسنة الحكم المقدونية أو السنة المصرية أو بما يسمى بالسنة المالية (التى تبدأ من أمشير وتنتهى فى طوبة). وكان من أسباب اضطرابى التقويم - على ما يبدو - عدم الاستقرار على بداية سنة حكمه فكانت سنة حكمه المقدونية تبدأ - بمقتضى طرق مختلفة فى الحساب - في أوقات مختلفة (ديوس - ديستروس - لويوس)، وإن كانت بدايتها في شهر ديستروس هى الأرجح.

- ولم تحدث المقابلة أو التوفيق الزمنى بصفة نهائية بين السنة المقدونية والسنة المصرية ألا فى عهد بطلميوس الثامن (يورجتيس الثانى) بين سنتى ١٣١ / ١٣٠ - ١١٩ - ١١٨ على نحو ما ذكرنا وأصبح شهر ديوس (Dios)، وهو أول شهر فى السنة المقدونية، يقابل شهر توت، وهو أول شهر فى السنة المصرية. وقد استقر الأمر على ذلك الوضع حتى نهاية العصر الرومانى. واليك جدول يبين ذلك ومقابلته مع تقويم يوليوس (أو الجريجورى) المعمول به حاليا:

Dios	= Thôth	(توت)	= 29 Aug.-27 Sept.
Apellaios	= Phaôphi	(بابة)	= 28 Sept .-27 Oct.
Audnaios	= Hathyr	(هاتور)	= 28 Oct.-26 Nov.
Peritios	= Choiach	(كيهك)	= 27 Nov.-26 Dec.
Dystros	= Tybi	(طوبة)	= 27 Dec.-25 Jan.
Xandikos	= Mecheir	(أمشير)	= 26 Tan.-24 Fed.
Artemisios	= Phamenôth	(برمهات)	= 25 Feb.-26 Mar.

Daisios	= Pharmouthi	(برمودة)	= 27 Mar.-25 Apr.
Panêmos	= Pachôn (s)	(بشنس)	= 26 Apr.-25 May.
Loios	= Paüni	(بؤونة)	= 26 May.-24 June.
Gorpiaios	= Epeiph	(أبيب)	= 25 June.-24 July.
Hyperberetaios	= Mesorê	(مسرى)	= 25 July-23 Aug.

ـ ويلاحظ أن السنة المصرية المنتهية بيوم ٢٣ أغسطس كان يضاف إليها ـ لاستكمالها ـ خمسة أيام تسمى بأيام النسيء (epagomenai) تبدأ من يوم ٢٤ أغسطس وتنتهى يوم ٢٨ أغسطس وقد ثبت الإمبراطور اكتافيانوس أغسطس بداية السنة المصرية بأن جعل يوم ١ توت يوافق ٢٩ من شهر أغسطس.

ـ لكن لما كانت السنة المصرية (وهى سنة شمسية) تتألف أصلا من ١٢ شهرا كل منها يشتمل على ٣٠ يوما + ٥ أيام نسيء فإن المجموع الكلى للأيام كان ٣٦٥. معنى ذلك أنها كانت متخلفة عن السنة الشمسية الواقعية بحوالى ربع يوم.

ـ وعلى ذلك فقد قرر الإمبراطور أغسطس أن يزداد عدد أيام النسيء فى السنوات الكبيسة (أى مرة كل أربع سنوات) إلى ستة أيام تبدأ من يوم ٢٤ أغسطس وتنتهى فى يوم ٢٩ أغسطس ومعنى هذا أن السنة الكبيسة تبدأ من يوم ٣٠ أغسطس (ومع هذا فقد تبين من بعض الوثائق البردية أن بعض المصريين كانوا يؤرخون العقود وفقا للسنة المصرية القديمة (Kat'archaious) غير المستقرة (annus vagus) غير حافلين بتنظيم أغسطس).

ـ وقد تعرفنا على السنوات الكبيسة منذ بداية العصر الرومانى، وتبين أنها السنوات ٢٢ ـ ١٨ ـ ١٤ ـ ١٠ ـ ٦ ـ ٢ قبل الميلاد؛ والسنوات: ٣ ـ ٧ ـ ١١ ـ ١٥ ـ ١٩ .. إلخ بعد الميلاد.

ـ وعند مقابلة يوم فى التقويم الجريجورى (يقع قبل شهر Phamenôth برمهات) بنظيره فى التقويم المصرى، يراعى إضافة يوم آخر إلى اليوم الأول وذلك فى السنوات الكبيسة فقط.

ـ وأما فى التقويم المقدونى فكانت السنة قمرية تنقسم إلى ١٢ شهرا أحدها ٣٠ يوما والآخر ٢٩ على التوالى. وقد رأينا كيف طغت عليها السنة المصرية، وكيف قامت محاولات

منذ نهاية القرن الثالث ق م للتوفيق بينهما انتهت عند نهاية القرن الثانى ق م بالمقابلة بينهما بصفة نهائية. ومن الغريب أن التاريخ المقدونى ظل فى بعض الأحيان يوضع قبل التاريخ المصرى (حتى العصر الرومانى) كمجرد تقليد شكلى لا معنى له.

ـ كان تاريخ الوثائق فى العصر البطلمى والعصر الرومانى بسنوات حكم الملوك والأباطرة. وبعد عهد دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥) صار التاريخ بسنوات حكم القناصل. ولما جاء جستنيان قرر فى عام ٥٣٧ أن تؤرخ الوثائق بسنوات حكم الأباطرة أيضا على أن تسبق سنوات القناصل: حيث يقول الأستاذ «بل» أن القنصلية ألغيت على أيام الإمبراطور جستيان [عام ٥٤١]. لكن نظام القنصلية ـ فى الواقع ـ ظل معمولا به حتى عهد الإمبراطور هرقل [عام ٦١٣] وإن كان المنصب اقتصر على الأباطرة أنفسهم، ولم يعد يتولاه سواهم.

ـ ومنذ عام ٣١٢م كان هناك تاريخ حسب الدورة الضريبية المسماة إندكتيو (indictio). ولكنها لا تصلح لتحديد السنة التى دونت فيها الوثيقة، إلا إذا كان أمكن بمعلومات إضافية تحديد موضع هذه الدورة التى كان مداها ١٥ سنة.

(٢) علاقات مصر البطلمية بروما

تتطور علاقات مصر البطلمية بروما وتتخذ مظهراً يتمثل في ازدياد اهتمام الرومان بشئون مصر، والتعرف على أحوالها، طمعاً في ثروتها، وتمهيداً للاستيلاء عليها عندما تسنح الفرصة. ففي عام ١٤٠ ـ ١٣٩ زارت مصر سفارة رومانية على رأسها سكيبيو ايميليانوس (Scipio Aemilianus). وكان سكيبيو، الذى دمر قرطاجة عام ١٤٦ فيما يعرف بالحرب البونية الثالثة، قطباً من أقطاب الرومان، عهد إليه السناتو بمهمة تفقد الأحوال فى ذلك الشرق وتسوية المنازعات القائمة فيها. وقد نزل الإسكندرية حيث استقبله يورجتيس بحفاوة بالغة، ومشى معه من الميناء إلى القصر الملكي وهو يلهث من بدانته. وتروى القصة أن سكيبيو أسر في أذن بنايتيوس الفيلسوف الرواقي، وأحد رفقائه في الرحلة، أن مواطني الإسكندرية مدينون له بشيء واحد وهو أنهم شاهدوا ملكهم يسير على قدميه. ومع أن طبيعة المهمة التى وكلت إليه فى مصر لا تزال غير واضحة، إلا أننا نرجح أنه كان يدخل فى نطاقها توطيد النفوذ الرومانى فيها عن طريق اتصال شخصية كبيرة مثل سكيبيو بعاهلها البطلمى، إلى جانب التعرف على موارد البلاد. فقد تابع سكيبيو جولته فركب النيل حتى ممفيس وشاهد في الطريق الحقول الفسيحة الخصبة والقرى المتناثرة الآهلة بالسكان. ولا يساورنا الشك فى أنه عاد إلى

روما بتقرير وافٍ كان له أثر في توجيه سياسة السناتو إزاء مصر. ولم يقتصر الأمر على المهام الرسمية، فتوافدت على مصر شخصيات رومانية في زيارات لا تتسم في ظاهرها بأي طابع رسمي. والوثيقة التالية وهي بردية من تبتونيس (Tebtunis) (أم البرجات) بجنوب الفيوم، تنهض دليلاً ساطعاً على مدى اطراد اهتمام السناتو بأحوال مصر وما أحرزته روما من مكانه في وادى النيل. وهذه الوثيقة الطريفة صورة من خطاب أرسله أحد كبار الموظفين بالإسكندرية إلى موظف آخر من مرءوسيه يدعى اسكليبياديس بمناسبة زيارة أحد أعضاء مجلس الشيوخ الروماني لإقليم الفيوم في مارس من عام ١١٢[١]:

من هرمياس إلى حورس، تحية. فيما يلي صورة من الخطاب المرسل إلى اسكليبياديس. فلتعمل على اتباع التعليمات الواردة به. والسلام. السنة الخامسة، كسانديكوس ١٧ الموافق أمشير ١٧ (= ٥ مارس ١١٢).

إلى اسكليباديس لوكيوس مميوس عضو مجلس الشيوخ (الروماني)، وهو رجل كبير المقام ويشغل منصبا رفيعا سيقوم برحلة (نيلية) من المدينة (الإسكندرية) إلى إقليم أرسينوى (الفيوم) لمشاهدة مناظرة. فلتعمل على استقباله استقبالا بالغ الفخامة، واحرص على إعداد قاعات الضيافة في الأماكن المناسبة، والانتهاء من تهيئة أماكن النزول إليها، وتقديم الهدايا المذكورة أدناه عند نزوله (من المركب)، وتجهيز أثاث قاعة الضيافة، والطعام لبيتيسوخوس (اله الغيوم) وللتماسيح، وما يلزم للتفرج على اللابيرنت، وكذلك للأضاحي وحفل القرابين. وبالإجمال أبذل أقصى عنايتك في كل شيء لإرضاء الزائر، وأظهر كل اهتمامك.... [وهنا تنتهي البردية].

ولا تلبث روما أن تكشف القناع عن نواياها الاستعمارية، فتتعمد اختلاق مشكلة أوتتلمس عذراً واهياً للتحكم في ملوك مصر وفرض مطالبها عليهم. فما أن ارتقى العرش بطلميوس الثاني عشر أوليتيس (Aulêtês) (الزَمار) في عام ٨٠ حتى بدأت متاعبه التي لم تنته إلا بوفاته. فقد رفضت روما الاعتراف به ملكا شرعياً على مصر، بدعوى أن سلفه بطلميوس الحادي عشر الملقب بالإسكندر الثاني، والذى لم يحكم سوى عدة أيام، كان قد أوصى

(1) P.Teot. 33 = Sel Pap. II, 416

انظر تصويبات قراءة هذه الوثيقة في:

A. Wiihelm "Papyrus Tebtunis 33", J.R.S. 27 (1937), PP. 145 - 151.

بمملكته للرومان، وهي وصية لم تثبت صحتها بصورة قاطعة ولا يستبعد أنها كانت مختلقة[1]. وقضى بطلميوس الزمار حياته مدافعاً عن حقه، مريقاً ماء وجهه في سبيل الحصول على اعتراف الرومان به، فما أن تم له ذلك حتى ثار شعب الإسكندرية في وجهه فعاش طريداً مرتمياً مرة أخرى في أحضان زعماء الرومان، ومبدداً ثروة بلاده عليهم، ومستديناً من مرابيهم، كل ذلك حتى يعيدوه إلى عرشه. وظهرت تبعاً لذلك على مسرح السياسة الرومانية «مسألة مصرية» وهي مسألة استغلتها الأحزاب المتطاحنة لتحقيق مآربها وتدعيم مركز زعمائها. وحسب القارىء أن يرجع إلى الشذرات المتبقية من الخطاب الذى ألقاه شيشرون عن الملك الإسكندرى (De rege Alexandrino) بوصفه نصيراً لبومبى ليرى كيف أن الحرص على المصلحة الحزبية وليس الحرص على مصلحة مصر هو الذى دفعه إلى عرقلة مشروع كراسوس الرقيب، ذلك المشروع الذى كان يرمى به إلى فرض الجزية على مصر فى عام ٦٥، أو أن يقرأ فقرات من خطابه ضد مشروع الأراضى (in Legem agrariam) الذى اقترحه روللوس، نقيب العامة، فى ديسمبر من عام ٦٤ بإيعاز من كراسوس ويوليوس قيصر مستهدفاً به ضم مصر إلى ممتلكات الجمهورية واتخاذها قاعدة لمناهضة نفوذ بومبى. فلما استطاع قيصر أن يوفق بين الزعيمين الكبيرين بومبى وكراسوس وفاز بالقنصلية فى عام ٥٩ وألف معهما جبهة ديمقراطية لمناوأة حزب السناتو أو الحزب الأرستقراطى، وهى ما عرفت فى التاريخ باسم «الائتلاف الثلاثى الأول»، حصل بطلميوس على اعتراف رسمى بحقه فى تاج مصر ولقب «بصديق وحليف الشعب الرومانى» بعد أن دفع لأعضاء الائتلاف رشوة ضخمة.

غير أن ذلك لم ينه المسألة المصرية، التى احتدمت من جديد، وأدت فى النهاية ـ مع عوامل أخرى ـ إلى تصدع هذا الائتلاف. ذلك أن مواطنى الإسكندرية ما لبثوا أن ثاروا على بطلميوس الزمار لتفريطه فى قبرص وتعسفه معهم، وأكرهوه على الفرار من المدينة فالتجأ إلى روما ليناشد أصدقاءه هناك مساعدته على استرداد عرشه. وأكرم بومبى وفادته وأنزله بأحد قصوره. ولكنه لم يكد يستقر بالعاصمة الرومانية حتى جاءها فى أعقابه وفد كبير بعث به الإسكندريون ليشكوه إلى السناتو ويناشدوه ألا يعيده إليهم. واحتدمت المناقشات حول «المسألة المصرية»، فقرر السناتو أن يسند إلى لنتولوس سبنثر، قنصل عام ٥٧، الذى كان يتأهب

---

(1) Cf. E. Volterra. "Le Testament de Ptolémée Alexandre II Roi d'Egypte", Bull Inst. d'Eg., 21 (1938 - 39), pp. 67 ff.

للرحيل إلى قيليقية ليتولى حكمها، مهمة إعادة بطلميوس إلى عرشه. غير أن أنصار بومبى بذلوا كل ما فى وسعهم لنقض هذا القرار وتحويل المهمة إليه حتى تتاح له فرصة قيادة أحد الجيوش الرومانية. ولما وجدوا أن الحزب الأرستقراطى يقف حائلا دون تحقيق غايتهم، بحثوا عن وسيلة أخرى. وحدث أن نزلت صاعقة بتمثال الإله جوبيتر فى يناير من عام ٥٦ ـ وهى ظاهرة كانت تعتبر من نذر الشر ـ فعهد السناتو إلى جماعة الكهنة الخمسة عشر باستشارة كتب النبوءات السيبوليّة فيما ينبغى عمله. وأوصت النبوءة بمساعدة بطلميوس ولكنها حذرت من استخدام الجيش لمساعدته. وعندئذ أرغم أحد نقباء العامة الموالين لكراسوس جماعة الكهنة على إذاعة النبوءة دون إذن من السناتو خلافا للعرف المتبع. وبديهى أن كراسوس هو الذى حمل الكهنة على اختلاق النبوءة وأن المناورة الدينية كان يقصد منها إبطال قرار السناتو واستبعاد لنتولوس سبنثر وتزهيد بومبى فى المهمة بعد أن فقدت صفتها العسكرية. ولكن أنصاره نادوا بأنه طالما كانت الحملة العسكرية قد تحولت إلى سفارة دبلوماسية فليس هناك من هو أجدر منه برئاستها نظراً لمكانته وسمعته فى الشرق، وزعموا أن بطلميوس نفسه ـ الذى غادر العاصمة ـ أرسل يقول إنه يفضل أن تتم عودته إلى عرشه على يديه. وكاد بومبى الذى تظاهر بعدم الاكتراث بالموضوع يظفر برئاسة البعثة إلى الإسكندرية لولا معارضة السناتو ومناوأة كلوديوس الزعيم الديماجوجى الذى وقف له بالمرصاد وأوعز إلى الغوغاء بأن يطالبوا بإسناد المهمة إلى كراسوس.

وهكذا اتضح أن الأخير كان ما يزال يحقد على بومبى ويطمع فى الظفر برئاسة البعثة من دونه. وقد أفضى ذلك بداهة إلى توتر العلاقة بين بومبى وكراسوس، عضوى الائتلاف الثلاثى، مما عجل بتصدعه. وأبديت آراء أخرى بشأن المسألة المصرية، فاقترح فريق تأليف وفد من ثلاثة سفراء متساوين فى السلطة لإنجاز المهمة، ونادى فريق آخر بعدم معاونة بطلميوس إطلاقاً. وجدير بالذكر أن شيشرون كان من أنصار إسناد المهمة إلى لنتولوس سبنثر الذى اقترح وهو قنصل إعادة الخطيب الكبير من المنفى. ولما كان بومبى قد تظاهر بعدم الاعتراض عليه، فقد كتب شيشرون إلى لنتولوس بعد رحيله إلى قيليقية، فى مايو عام ٥٦، يقول إن بومبى يقترح أنه ليس هناك ما يمنع من استخدام الجيش لإعادة النظام إلى مصر، وبعدئذ إعادة بطلميوس إلى عرشه بدون الجيش عملا بما جاء فى النبوءة السيبولية. وإزاء هذا التضارب الشديد وضيق الوقت أرجأ السناتو البت فى المسألة المصرية(١) .

---

(١) عن هذه الأحداث راجع:

Cicero, Pro Caelio; ad jam. I, 1,2.4.7; adQ. fr. II, 2.3.4.

ولم يبق هناك من حل «المسألة المصرية» سوى الالتجاء إلى القوة. وبذلك تنتقل علاقات روما بمصر إلى دور التدخل المسلح. فقد تراءى لجابينيوس، والي سوريا في عام ٥٧، وعميل حكومة الائتلاف الثلاثي، أن يقدم على مغامرة عسكرية مربحة. فقد اتصل ببطلميوس أو اتصل بطلميوس به وهو في منفاه ووعده بمبلغ ضخم إذا هو أعانه على استرداد عرشه. واستجاب جابينيوس إلى طلبه وترك ولايته دون إذن من السناتو منتهكاً إحدى مواد دستور سلا في هذا الصدد. واقتحم مصر في ربيع عام ٥٥ متجاهلا قرار عدم استخدام القوة في إرجاع بطلميوس إلى عرشه، ومتذرعاً بحجة أن الملك الذى ولاه الإسكندريون عليهم كان يتأهب لغزو سوريا. وبلغ جابينيوس بيلوزيوم (الفرما)، فاستسلمت له الحامية اليهودية دون مقاومة، وسار إلى الإسكندرية حيث أجلس بطلميوس على عرشه الذى افتقده عدة سنوات. وسرعان ما عاد جابينيوس إلى ولايته في سوريا التى اختل فيها الأمن تاركاً وراءه في مصر حامية من بضع كتائب مؤلفة من جنود رومان وجرمان وغال لتشد أزر بطلميوس. وكان من الجائز أن تصبح مصر ولاية رومانية منذ هذا التاريخ لولا الحرب الأهلية التى نشبت بين زعماء روما وأرجأت ذلك إلى حين.

ولم تلبث مصر أن تعرضت مرة أخرى للتدخل المسلح من جانب الرومان بعد وفاة بطلميوس الزمار في عام ٥١. وكان قد أوصى بعرشه لكبرى بناته كليوبطرة (السابعة) أشهر ملكات مصر البطلمية، التى كانت تبلغ من العمر ١٨ عاماً، ولأكبر أبنائه بطلميوس (الثالث عشر) الذى كان أصغر من أخته. وقد أرسل إلى روما صورة من وصيته ناشد فيها الشعب الرومانى مراعاة تنفيذها وحماية ابنيه. ولما وجد أوصياء الملك الصغير أن كليوبطرة لم تعد بمرور الزمن أداة طيعة في أيديهم اتهموها بالرغبة في الانفراد بالحكم دون أخيها مثيرين عليها غضب جمهور الإسكندرية. وقد أرغمها ذلك على الفرار إلى الحدود الشرقية حيث استطاعت أن تجمع شيئاً من القبائل الساميّة البدوية القاطنة هناك وتأهبت للزحف على الإسكندرية. وأعد الأوصياء لبطلميوس الصغير جيشاً رابط على مقربة من بيلوزيوم (الفرما) لصد قوات أخته. وفي تلك الأثناء كان مصير العالم الرومانى بل مصير العالم القديم كله معلقاً على نتيجة الحرب الأهلية التى دارت رحاها بين يوليوس قيصر زعيم الحزب الديمقراطى وبومبى الذى انضوى الحزب الأرستقراطى تحت لوائه.

وقد تمخضت هذه الحرب عن انهزام بومبى في معركة فرسالوس (Pharsalus) في بلاد

اليونان عام ٤٨ . ولم يلبث أن فر بعدها إلى مصر حيث كان يأمل أن يجد ملاذاً وعوناً في ساعة الشدة لدى أبناء بطلميوس «الزمار»، الملك الراحل الذى كانت تربطه به صلات ودية. ولم يتجه بومبى إلى الإسكندرية، بل اتجه إلى مكان قريب من بيلوزيوم حيث كانت ترابط قوات الملك الصغير. ولم يكد يدنو بقاربه من الساحل المصرى حتى اغتاله ضابط رومانى بأمر من قائد جيش بطلميوس. وكان القصد من الجريمة ألا تتهيأ لقيصر فرصة لغزو مصر بحجة إيوائها لخصمه وتأييده. ولم تمض أيام ثلاثة حتى وصل قيصر مع قواته إلى نفس المكان وعلم بمصرع غريمه، وحزن عليه، ولكنه لم يرحل بل نزل بالإسكندرية فى أكتوبر من عام ٤٨ . ولم يكد يسير فى شوارعها تتقدمه شارات سلطته القنصلية حتى أثار ذلك المشهد امتعاض جمهور المدينة وغلى مرجل غضبه لما ينطوى عليه من امتهان للسلطة الملكية. وسرعان ما حدثت اشتباكات سقط فيها عدد كبير من الجنود الرومان فى مختلف أنحاء المدينة.

وعندئذ دعا قيصر، بوصفه دكتاتوراً متمتعاً بكامل السلطة وممثلاً للشعب الرومانى، الأخوين لتسريح قواتهما وقبول التحكيم، فجاء بطلميوس إلى الإسكندرية، ولكنه لم يسرح جيشه، بل تركه مرابطاً عند بيلوزيوم تحت قيادة أحد أوصيائه. ولم تلبث كليوبطرة هى الأخرى أن جاءت من الحدود الشرقية عن طريق البحر، وتسللت إلى القصر خفية، والتقت بقيصر لأول مرة، وأثارت عطفه عليها، وفتنته بجما لها ولباقتها. وفى تلك الأثناء كان شعور العداء يشتد ضد قيصر الذى كان الشعب الإسكندرى يرتاب فى نواياه منذ زمن طويل ويتوجس خيفة من تحيزه لكليوبطرة. وعندئذ اتصل كبير أوصياء الملك سراً بالجيش البطلمى ودعاه للزحف على الإسكندرية. وتحرج مركز قيصر لضآلة قواته فقرر أن يتخذ موقف الدفاع فى الحى المجاور للميناء الكبير (الشرقى) ريثما تصله الإمدادات. وأوفد رسولين إلى قائد الجيش البطلمى ا لمهاجم فقبض عليهما، وقتل أحدهما، وجرح الآخر. وكان ذلك إيذاناً ببداية الحرب المعروفة فى التاريخ «بحرب الإسكندرية»، والتى وصفها لنا قيصر أو أحد ضباطه وصفاً مسهباً. ولسنا بحاجة إلى سرد أحداث تلك الحرب المعقدة التى دارت رحاها فى شوارع المدينة وموانيها وعلى مقربة منها، والتى أبلى فيها الإسكندريون بلاءً حسناً فى البر والبحر، وتعرضت فيها حياة قيصر للخطر. وحسبى هنا أن أنقل للقارىء بعض فقرات من كتاب «حرب الإسكندرية» يصور فيها الكاتب الموقف تصويراً صادقاً:

«وإذ كانت (الإسكندرية) مدينة غزيرة الإنتاج وافرة الثراء فقد أخذت تجهز معدات من جميع الأنواع. وكان سكانها أنفسهم على أكبر قدر من الذكاء وسعة الحيلة، وعندما رأوا ما

صنعناه من معدات صنعوا مثلها بمهارة فائقة حتى بدا كأن رجالنا اقتبسوها منهم. كما ابتكروا أنفسهم أشياء كثيرة، ولم يكفوا عن مهاجمة تحصيناتنا فى نفس الوقت الذى كانوا يدافعون فيه عن مراكزهم. وقد أخذ زعماؤهم يسوقون مثل هذه الحجج فى المجالس والاجتماعات الشعبية: أن الشعب الرومانى قد وطن نفسه تدريجيا على اغتصاب هذه المملكة، فقد حضر أولوس جابينيوس إلى مصر مع جيشه منذ سنوات قليلة مضت، كما التجأ بومبى إليها بعد فراره، وها هو ذا قيصر قد جاء مع قواته، ولم يحمله موت بومبى على العدول عن البقاء بينكم. فإذا لم تطردوه، فستصبح مصر ولاية بعد أن كانت مملكة (مستقلة)، ولابد أن يتم جلاؤه بسرعة، لأنه معزول بفضل العواصف فى مثل هذا الفصل من السنة، فلا يستطيع أن يتلقى إمدادات من وراء البحر».

وقد انتهت حرب الإسكندرية بهزيمة قوات بطلميوس الصغير وموته غرقاً وانتصار القائد الرومانى فى يناير عام ٤٧. وحسم قيصر مشكلة الوراثة بأن أقام كليوبطرة ملكة بالاشتراك مع أصغر أخويها بطلميوس الرابع عشر. وأما أرسينوى، أختهما العنيدة فقد أرسلت إلى روما حيث زج بها فى السجن عقاباً لها على مقاومة الرومان. ولم يلبث قيصر أن غادر مصر فى يونيو من عام ٤٧ تاركاً بها بعض الفرق الرومانية لدعم سلطة كليوبطرة.

وفى أواخر عام ٤٦ لحقت كليوبطرة بقيصر حيث نزلت فى أحد قصوره على ضفاف التيبر. ولم تتخل هناك عن مظاهر الأبهة، بل أثارت بكبريائها امتعاض الرومان، الذين عرفوها باسم «الملكة» حتى أن شيشرون يقول صراحة فى إحدى رسائله إلى صديقه الحميم أتيكوس «إننى أكره الملكة»، وإن كان قد وعدت بأن تهديه بعض الكتب من مكتبة الإسكندرية. وكانت كليوبطرة قد أنجبت من قيصر ولداً باسم بطلميوس قيصر فأطلق عليه الإسكندريون اسم «قيصرون». ومع أن قيصر اعترف بهذا الابن إلا أن كليوبطرة لم تكن فى نظر الرومان سوى خليلته، لأن زوجته الشرعية كانت لا تزال على قيد الحياة.

ولما كان سلوك قيصر يوحى حينئذ بأنه يعمل على قلب نظام الحكم الجمهورى، فقد أخذت كليوبطرة تعقد على المستقبل أكبر الآمال، فتصورت نفسها ملكة تتربع إلى جانبه لا على عرش مصر وحدها بل على عرش العالم الرومانى كله. ولمس الرومان فيها هذا الطموح فعز عليهم أن يصبحوا رعايا «ملكة مصرية» كانوا ينظرون إليها شذراً. وأخيراً نجحت المؤامرة التى دبرها أنصار الحزب (الأرستقراطى) الجمهورى، واغتيل الدكتاتور فى ١٥ مارس عام ٤٤. واستيقظت كليوبطرة من حلمها العذب عل الحقيقة المرة فوجدت نفسها بغير نصير، وتحرج

مركزها، فعادت أدراجها إلى الإسكندرية لتقنع بمملكتها الصغيرة على ضفاف النيل. وهناك تخلصت من أخيها الصغير وأشركت معها في الحكم ابنها (قيصرون)، بطلميوس الخامس عشر(١).

٢ـ أكتيوم وكليوبطرة والشعراء اللاتين:

ومن مصر أخذت كليوبطرة ترقب الصراع الهائل الذى دارت رحاه فى أنحاء العالم الرومانى بين أنصار قيصر وخصومه أو بالأحرى بين أعضاء الحكومة الثلاثية (الثانية) التى تألفت فى نوفمبر عام ٤٣ من أكتافيانوس بن يوليوس قيصر المتبنى، وماركوس أنطونيوس، رئيس فرسانه، ولبيدوس من ناحية وبين بروتوس وكاسيوس وغيرهما من أقطاب الحزب الأرستقراطى من ناحية أخرى. وقد تمخض هذا الصراع عن انتصار حزب قيصر فى معركة فيليبى عام ٤٢ ولم تشرك كليوبطرة فية بل آثرت أن تقف موقف الحياد حتى تتيقن نتيجته. ولما آلت إلى أنطونيوس مهمة تنظيم شئون الولايات الشرقية، أرسل من مدينة طرسوس يستدعى كليوبطرة لكى يحاسبها على موقفها السلبى وعدم معاونتها لأنصار قيصر كما كان متوقعاً. ولبت دعوته ورحلت إلى طرسوس فى موكب بحرى فاخر خلال صيف عام ٤١. وهناك استطاعات أن تبرر مسلكها بلباقتها وتفتنه، مثلما فتنت قيصر، بجمالها، وتغريه على المجيء فى أعقابها إلى مصر حيث أمضى معها عام ٤١ ـ ٤٠.

وفيما عدا السنوات الأربع التى تلت هذا اللقاء لم يفترق أنطونيوس عن كليوبطرة إلا مضطراً ليقود حملة على بارثيا أو على أرمينيا. وليس ثمة شك فى أنه شغف بها حباً وأنها ألهته عن واجباته وأثارت حوله الشبهات فى الأوساط الرومانية. وكان طبيعياً أن يؤثر ذلك على علاقته بأكتافيانوس، شقيق أكتافيا التى تزوجها فى عام ٤٠، ولم تدخر كليوبطرة وسعاً لإقصائه عنها. وقد زاد هذه العلاقة توتراً أن أكتافيانوس لم يوف بالتزاماته نحوه ويمده بالفرق الأربع التى وعده بها طبقاً لاتفاقية تارنتوم فى عام ٣٧ لاستخدامها ضد البارثيين. فلما انتهت

---

(١) يتضح من إحدى برديات البهنسا (P.Oxy. 1629) أن شقيق كليوبطرة الصغير بطلميوس الرابع عشر كان لا يزال على قيد الحياة فى ٢٦ يوليو عام ٤٤. ولابد أن كليوبطرة تخلصت منه بعد ذلك التاريخ بوقت قصير لأن بورفيريوس يقول إنها قتلته فى السنة الرابعة من حكمه التى تقابل السنة الثامنة من حكمها أى فى عام ٤٤؛ راجع:

T.C. S.keat, The Reigns of Ptolemies. Münchener Beiträge zur Papyrusforchung und antiken Rechtsgeschichte. Hefl 39 (1954), p. 42.

حملة أنطونيوس على بارثيا بالفشل في عام ٣٦، تزعزع مركزه الأدبي والمادي. هذا في الوقت الذي أصبح فيه أكتافيانوس، بعد انتصاره على بومبي الأصغر وإقصاء لبيدوس عن الحكومة الثلاثية، سيد الجانب الغربي من الإمبراطورية دون منازع. وكان ذلك كفيلا بإلهاب المنافسة وتعجيل الصدام بينهما. وعندئذ اغتنمت كليوبطرة الفرصة وعرضت على أنطونيوس مساعدتها ووضعت تحت تصرفه جميع موارد مملكتها، وزينت له أن يتحدى زميله وينازعه السلطة على أمل أن تحقق على يديه حلمها القديم الذي تبدد بمصرع يوليوس قيصر. ولا مراء في أنها بدأت تحلم من جديد بالسيطرة على العالم الروماني والتحكم في روما نفسها التي استذلت أسرتها منذ عهد بعيد.

وكان الشرق الهلينستي قد بدأ يئن من وطأة الحكم الروماني وفساده وأصبح يتمنى الخلاص من نيره. ولعله وجد في كليوبطرة زعيمته المرتقبة فعقد عليها أمله في الإطاحة به. وليس من المستبعد أن تكون كليوبطرة قد فطنت إلى حقيقة هذا الشعور فاستغلته لترفع من الروح المعنوية بين سكان الشرق باختلاق نبوءات تنذر بسقوط روما على يد ملكة يبدأ بحكمها عصر ذهبي جديد. ولما كان عزمها قد استقر على أن يكون أنطونيوس هو أداتها في تحقيق هذه الغاية، فقد رأت أن تربط مصيره بمصيرها وتنصب حوله شباكا لا يستطيع منها فكاكا. ففي أواخر عام ٣٧ عندما التقت به في أنطاكيه قبيل قيامه بالحملة البارثية، أقنعته بالزواج منها في الوقت الذي كان لا يزال فيه متزوجاً من أكتافيا. ولما أهداها بهذه المناسبة منطقة خالكيس (في شمال ولاية سوريا) في عام ٣٧/ ٣٦[١] اتخذت من هذه السنة وهي السنة السادسة عشر من اعتلائها عرش مصر، بداية لتاريخ حكمها كملكة على تلك المنطقة[٢]. وعندما عاد من حملته على أرمينيا منتصراً في عام ٣٤ شجعته على الإحتفال

---

(١) عن هذه الهبة وغيرها التي حصلت عليها كليوبطرة، انظر:

J. Dobias, "La Donation d'Antoine a Cléopâtre", Ann, de l'Inst. de Philol. et d'Hist., Orient. II (= Mélanges Bidez I), 1934, pp. 287 - 314:

ويتفق الأستا دوبياس مع غيره من الباحثين في أن خالكيس أهديت إلى كليوبطرة في عام ٣٧/ ٣٦ إلا أنه يرى أن جوف سوريا (Koilê Syria) ـ وهو في الواقع جزء من فلسطين ـ أهدى إليها في ربيع عام ٣٤؛ وأن فينيقيا ويريحو (أريحا) والأراضي النبطية أهديت إليها بعد ذلك بقليل في نفس العام.

(٢) ابتداء من تلك السنة تحمل وثائق عهد كليوبطرة تاريخاً مزدوجاً، مثال ذلك، السنة السادسة عشر التي هي السنة الأولى وهكذا حتى السنة الأخيرة من حكمها وهي السنة الثانية والعشرين التي هي السنة السابعة. وهذا التاريخ المزدوج لايشير ـ كما يعتقد مثلا الأستاذ تارن (C.A.H.X, p. 81) ـ إلى حكم=

بانتصاره في الإسكندرية خلافاً للعرف الروماني الذى جرى على أن يقام موكب انتصار القواد في روما ولو في وقت متأخر. وكأنها أرادت بذلك أن توعز إليه باتخاذ الإسكندرية عاصمة بدلاً من رومابعد انفرادهما بالسلطة. ومن العسير التيقن من أن أنطونيوس فعل ذلك استجابة لرغبتها أو أنه تعمد ذلك ليكيد خصمه. وعلى أى حال فقد حملته على أن يهبها هي وابنها قيصرون وأبناءها منه بعض الولايات الرومانية والممالك المتاخمة. ومع أن بعض هذه الهبات ـ التى عرفت باسم الهبات السكندرية ـ لم يكن قد دخل بعد في حوزة الرومان إلا أن الرأى العام الروماني استنكر تفريطه في حقوقه وارتاب في نواياه. ولم تزل كليوبطرة به حتى دفعته إلى البحث عن سلاح يطعن به دعوى أكتافيانوس بأنه الوريث الوحيد لقيصر، فاعترف بشرعية ابنها قيصرون، على أمل إضعاف مركز أكتافيانوس الأدبي بين جنوده وصرفهم عن الولاء له. وقد اتسعت شقة الخلاف عندما أرسل أنطونيوس بعد انتهاء مدة تجديد الحكومة الثلاثية في آخر عام ٣٣ رسالة إلى السناتو يطلب فيها إقرار جميع التدابير والتنظيمات التى قام بها في الشرق، ويعرض أيضاً التنحى عن سلطته الاستثنائية كعضو في تلك الحكومة، وارجاع الدستور القديم. وكان يرمي بالعرض الأخير إلى تدعيم مركزه المنهار واحراج خصمه حتى يحذو حذوه. غير أن أكتافيانوس رفض أن يتخلى عن سلطته العليا، وأحبط نقيب للعامة من أنصاره مشروعاً تقدم به أحد القنصلين لتحقيق ذلك، والتجأ هو نفسه إلى القوة لإرهاب أعضاء السناتو الموالين لخصمه. وقد رد أنطونيوس بإعلان طلاقه رسمياً من أكتافيا، مجاهراً أخاها بالعداوة.

وهكذا أصبح من اليسير على أكتافيانوس، بحكم وجوده بالعاصمة، أن يستغل الأخطاء التى ارتكبها أنطونيوس للدعاية ضده والتشهير به وتأليب الرأى العام عليه. وعندئذ نشر بعض أجزاء من وصية قيل إن أنطونيوس قد أودعها في معبد الربة فستا، وهى أجزاء من شأنها إثارة الرأى العام عليه وعلى كليو بطرة[1] وعندما تأكد من أن شعور العداء نحو الملكة المصرية بلغ

=كليوبطرة وأنطونيوس المشترك منذ عام ٣٧، بل يشير إلى حكمها وحدها بوصفها ملكة على مصر (منذ عام ٥١) وملكة على خالكيس (منذ آخر عام ٣٧).

(١) عن هذه الوصية التى يعتقدالبعض أنها مزورة، راجع:

T.R. Holmes, The Architect of The Roman Empire I (1928), P. 246 f.: R. Syme, The Roman Revolution (1939), p. 282 f., and n.l.

وكانت هذه الأجزاء من الوصية التى يقول المؤرخ ديون كاسيوس (L, 3, 5) إن أكتافيانوس قرأها على=

ذروته، أوعز إلى أعضاء السناتو المتخلفين فى روما وسكان البلاد الإيطالية والولايات الغربية أن يقسموا له يمين الولاء (coniuratio). وكان هذا القسم بمثابة السند الرئيسى لسلطته فى السنوات التالية، لأن أكتافيانوس لم يعد يعتبر نفسه عضواً فى الحكومة الثلاثية التى فقدت مقومات وجودها. وعلى ذلك استصدر قراراً بإلغاء سلطة أنطونيوس العليا وإبطال انتخابه قنصلاً لعام ٣١. ولما كان يدرك أن لأنطونيوس أنصاراً بين الرومان، فإنه لم يعلن الحرب عليه بل أعلنها على كليوبطرة عدوة الشعب الرومانى. وقد أراد بذلك أن يكسبها صفة الحرب القومية ضد الملكة المغتصبة أو صفة الجهاد المقدس ضد الخطر الأجنبى الوافد من الشرق.

ولم تشأ كليوبطرة أن تدع أنطونيوس يخوض المعركة الأخيرة وحده، فرافقته إلى الميدان بوصفها شريكة في المغامرة. وإذا كان هو الذى أخذ على عاتقه إدارة الحرب وقيادتها، فهى التى أمدته بالمال والمئونة اللازمين لها. وكانت نتيجة الحرب تعنيها بقدر ما كانت تعنيه. ولم يدر بخلدها أن مرافقتها له سوف تثير الشقاق فى معسكره.. فقد رأى فريق من ضباط أنطونيوس، ممن سبق لهم الخدمة تحت لواء قيصر، أن فى وجود الملكة بساحة القتال إضعافاً لمركزه فى نظر الشعب الرومانى، وإيحاء للجنود بأنهم يقاتلون من أجلها لا من أجل الزعيم

....

= مجلس الشيوخ والجمعية الشعبية، تتضمن البنود التالية (أ) اعتراف أنطونيوس بأن قيصرون ابن منحدر من صلب يوليوس قيصر (ب) منحه هبات ضخمة لأبنائه من كليوبطرة، (جـ) مطالبته بأن يدفن جثمانه مع جثمان كليوبطرة فى الإسكندرية وأما المؤرخ سويتونيوس (Div. Aug. XVII, I) فيقول:

et quo magis degenerasse eum a civili more approbaret, testamentum. quod is Romae etiam de Cleopatra liberis inter heredes nuncupatis reliquerat, aperiundum recitandumque pro contione curavit:

ولكى يزيد من اقتناع الناس بأنه (أى أنطونيوس) قد خرج على العرف الرومانى، فقد عمل على فتح الوصية التى كان قد تركها فى روما وعين فيها ابناءه أيضا من كليوبطرة بين الورثة، وعلى تلاوتها فى اجتماع شعبى.

وإذا صح أن أنطونيوس ترك وصية بهذا الشكل، فإنها لم تكن كلها قانونية، ولم يكن أكتافيانوس بحاجة إلى تزويرها. ولكن لعل الوصية لم تتضمن فى الأصل سوى أبناء أنطونيوس من زوجتيه الرومانيتين فولفيا وأكتافيا، وأن تزوير أكتافيانوس اقتصر على إقحام أسماء أبناء أنطونيوس (وابن يوليوس قيصر) من كليوبطرة الذين كانوا يعتبرون أبناء من زواج غير شرعى أو زواج غير كامل الأهلية (matrimonium iniustum)، وبالتالى كانوا يعتبرون أجانب (peregrini) ولا يجوز تعيينهم ورثة حيث أن أباهم رومانى.

وعن هذه النقطة القانونية، انظر .

J. Crook. "A Legal Point about Mark Antony's Will", J.R.S. 47 (1957), pp. 36 - 38.

الروماني. ولذلك نصحوا بإعادتها إلى مصر. ولما سمعت الملكة بذلك استشاطت غضباً وأصرت على البقاء. وأثار عنادها بعض أنصار أنطونيوس البارزين فانفضوا من حوله ملتجئين إلى معسكر خصمه. وزاد مركز أنطونيوس وكليوبطرة ضعفاً سوء اختيار مكان المعركة. فقد ركزا قواتهما البحرية والبرية في خليج شبه جزيرة أكتيوم عند المدخل الضيق لخليج أمبراكيا، ووزعا بقية القوات على خط قتال يمتد مسافة طويلة على الساحل الغربى من بلاد اليونان. ولم يكن هذا الخط من السهل اختراقه فحسب، بل كان مكشوفاً أيضاً من ناحية إيطاليا. ولعل كليوبطرة كان لها يد فى هذا الاختيار الذى أملته بعض عوامل كان فى مقدمتها سهولة الاتصال بمصر والاحتفاظ بخط الرجعة فى حالة الانكسار. ولقد قيل إن أنطونيوس كان يجب عليه أن يبادر بالنزول إلى إيطاليا ومهاجمة خصمه في عقر داره. غير أن ذلك لم يكن من المستطاع لأن أكتافيانوس كان قد احتل تارنتوم وبرنديزى وأحكم خط الدفاع عنهما، وهما الميناءان الذان كان من المستطاع إنزال الجنود فيهما.

ولم يأت ربيع عام ٣١ حتى كان أكتافيانوس قد عبر البحر الأدرياتى مع جيش يعادل جيش أنطونيوس (حوالى ٨٥,٠٠٠ مقاتل) وأسطول قوامه ٤٠٠ سفينة، أى يقل بمائة سفينة عن أسطول غريمه. ورابط فى مواجهة خليج أكتيوم حيث اعتصمت قوات أنطونيوس. وفى العمليات العسكرية التى أعقبت ذلك تمكن أجريبا، أكفأ قودا أكتافيانوس، من تطويق أسطول أنطونيوس فى خليج أرتا وأخفقت جميع محاولات الأخير لإرغمام العدو على منازلته براً فى معركة فاصلة أو إعاقة وصول الإمدادات إليه من البر. وباستيلاء أكتافيانوس على كورنثة وغيرها من المواقع الهامة، وبفضل تفوق فرسانه، قطع على قوات عدوه طريق الاتصال بداخل بلاد اليونان. وبدأ جنود أنطونيوس يعانون من قلة المئونة وتفشى الأمراض، واستفحلت حركة التمرد وازداد عدد المتخلين عنه حتى تحرج مركزه ولم يعد أمامه سوى أن يخاطر باقتحام معركة بحرية ضد خصمه. ولا تتضح لنا تماماً نواياه فى تلك اللحظة. لعله عقد عزمه على القتال حتى يحرز نصراً حاسماً. غير أن الأرجح أنه كان قد قرر أن يدع الجانب الأكبر من قواته يدافع عن نفسه فى المعاقل الحصينة على ساحل بلاد اليونان، بينما ينسحب هو وكليوبطرة وبقية القوات مع الأسطول المحمل بكنز الملكة محاولاً اختراق الحصار المضروب عليه. وقد عقد أمله على حشد جنود الحاميات التى تركها فى الشرق واستئناف النضال بعد أن يستجمع قواه. وطبقاً للخطة الموضوعة اخترقت كليوبطرة وسفنها خط الحصار عائدة إلى الإسكندرية. ولم يلبث أن لحق بها أنطونيوس بعد أن تحطمت معظم سفنه أو وقعت فى يد

العدو. وسرعان ما استسلمت للعدو قواته البرية التي تركها وراءه على ساحل بلاد اليونان. ولم يحطم هذا الانسحاب روح كليو بطرة المعنوية فدخلت ميناء الإسكندرية مرفوعة الرأس وقد زينت مقدمة سفينتها بشارات النصر حتى توهم الشعب أنها عادت منتصرة. وقد حاول أنطونيوس أن يستعين بالحامية الرومانية في برقة غير أن قائدها، بيناريوس سكاربوس، تنكر له، فقفل راجعاً إلى الإسكندرية.

وتقدم أكتافيانوس نحو الشرق ونزل آسيا الصغرى. غير أنه لم يلبث أن اضطر إلى العودة إلى إيطاليا ليقمع بعض اضطرابات نشبت بسبب تمرد المحاربين القدماء. ولما فرغ من تهدئة الحال عاد إلى الشرق على وجه السرعة ماراً بجزيرة رودس.. وبعدئذ نزل بسوريا حيث شرع في أوائل صيف عام ٣٠ يعد العدة للزحف على مصر. وفي تلك الأثناء حاولت كليوبطرة، وربما أنطونيوس أيضاً، التفاهم مع أكتافيانوس عن طريق السفراء . وقد عرضت عليه فيما يبدو التنازل عن عرشها لأبنائها، وعرض عليه أنطونيوس اعتزاله الحياة العامة وانزواءه كمواطن عادي. وبينما قبل أكتافيانوس هدايا الملكة ومناها ببعض الوعود، صم أذنيه عن رسائل أنطونيوس. ولا سبيل إلى التحقق من صحة المشروعات التي خطرت لكليوبطرة آنئذ، كالنزول في أسبانيا الغنية بالفضة وإثارة الغرب على أكتافيانوس أو الانسحاب إلى النوبة في جنوب الوادي أو الفرار إلى شواطيء المحيط الهندي، وهي مشروعات لم تخرج أبداً إلى حيز التنفيذ. وزاد الموقف سوءاً أن كورنيليوس جاللوس، أحد قوادا أكتافيانوس، استمال إلى جانبه فرق أنطونيوس المرابطة في برقة واستولى على برايتونيوم (Paraetonium) (مرسى مطروح)، وأحبط محاولة قام بها الأخير لاسترداد المدينة.

واقتحم أكتافيانوس الحدود الشرقية واستولى على بيلوزيوم (الفرما) ثم تابع سيره إلى الإسكندرية. وخرج أنطونيوس لملاقاته وتمكن من إنزال الهزيمة بفرسانه. غير أن سفنه الراسية في الميناء استسلمت لأسطول العدو. ولم تلبث فصائل فرسانه أن حذت حذو وحدات أسطوله، واندحرت كتائب مشاته عند ضاحية المدينة (الرمل) التي أطلق عليها اسم نيقوبوليس (Nicopolis) تخليداً لانتصاره. واستبد اليأس بأنطونيوس فانتحر (أول أغسطس عام ٣٠). وحاولت كليوبطرة أن تضمن العرش لأحد أبنائها ولكن أكتافيانوس الظافر صم أذنيه عن رجائها. ولم يشأ أن يتحمل وزر مقتلها فأوعز إليها بأنه قد يسوقها ـ مثلما ساق قيصر أختها أرسينوي ـ في موكب نصره بعد عودته إلى روما. ولذا آثرت كليوبطرة أن تنتحر على أن

تدخل روما فى ثياب الذل وتعرض كالسبى على رجالها. واختارت أن تموت بلدغة الكوبرا، وهو اختيار له مغزاه، لأن الكوبرا كانت أفعى تاج مصر السفلى، وخادمة رع إله الشمس، التى لا تمنح لدغتها الخلود وحسب بل الألوهية أيضا.

هكذا لقيت كليوبطرة حتفها (١٠ أغسطس عام ٣٠؟)[١]. ولم تكن فى حقيقة الأمر مصرية الدم، غير أنها كانت أكثر أفراد أسرتها تشبعاً بالروح المصرية. فكانت الوحيدة من بينهم التى تعلمت اللغة المصرية، وكان يروق لها أن تنسب نفسها إلى رع وتظهر فى زى إيزيس. ولعلها كانت أقرب البطالمة إلى قلوب رعاياها. ومن الإجحاف وصفها بأنها كانت مجرد غانية لعوب. لقد كانت كليوبطرة ملكة واسعة الثقافة، مليئة بالحيوية، ومنظِّمة بارعة. وحبتها الطبيعة بالجاذبية والذكاء وعذوبة الصوت. وأوتيت من مضاء العزم والشجاعة والطموح قدراً كبيراً. ولا يستطيع مؤرخ منصف أن يأخذ عليها استغلال كل هذه المواهب فى تسخير قادة الرومان لتحقيق أطماعها وصيانة استقلال بلادها. وقد شاء حظها العاثر ـ وهونَ من هزيمتها فى الوقت نفسه ـ أنها اصطرعت مع رجل ليس كغيره من الرجال، لأن أكتافيانوس لم يكن مجرد وريث أو خليفة عاهل كبير، بل كان مؤسس امبراطورية عتيدة وخالق عهد جديد. لكن حسب الملكة «المصرية» خطراً أنها صارت رمزاً للكفاح الجيد ضد روما المغتصبة التى كان الشرق الهلينستى كله يتمنى الخلاص من نيرها، وأنها لم تثر الحقد فقط فى قلوب أعدائها بل أثارت الخوف أيضا. لقد كانت ثانى اثنين امتلأت روما منهما رعبا ولعل خير شاهد على ذلك قصائد فرجيل وهوراتيوس وبروبرتيوس واوفيد، أئمة شعراء العصر الأغسطى. وكان أولهم بمثابة شاعر البلاط، وشغل الثانى مكانه من بعده. وقد قاموا جميعاً بالدعاية للحكم الجديد، وأشادوا به وكالوا المديح لصاحبه.وكان من الطبيعى أن يهجوا خصمه أنطونيوس وزوجته كليوبطرة. ويهبط هذا الهجاء أحياناً إلى حد الإسفاف، لكنه يكشف عن مبلغ الخوف الكامن فى نفوسهم[*].

(١) فى رأى الأستاذ سكيت أن كليوبطرة انتحرت فى ١٧ مسرى الموافق ١٠ أغسطس من عام ٣٠ ق.م. أى فى اليوم العاشر بعد دخول أكتافيانوس الإسكندرية، راجع مقاله:

T.C. Skeat, "The Last Days, of Cleopatra: A Chronological Problem". J.R.S. 43 (1953). pp. 98 - 100.

(*) مصر والإمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية.
تأليف: د. عبداللطيف أحمد على. دار النهضة العربية ١٩٦٥. القاهرة.

(٣) الموقف الدينى للإمبراطورية الرومانية فى مصر قبل اعتناقها المسيحية

احتلت بعض الآلهة الزعامة الرسمية فى البانثيون الرومانى، وظلت لفترة طويلة تعبد فى العصر الجمهورى، وخاصة Jupiter Capitolinus رب الأرباب ويقابل زيوس عند الإغريق وما يرتبط به مثل Minerva و Juno و Mars . غير أن الطبقة المثقفة ورجال السناتو، والنبلاء، والعائلات الثرية والعريقة من حكام المدن والذين يكونون الطبقة المثقفة ورجال السناتو والنبلاء، والعائلات الثرية والعريقة من حكام المدن والذين يكونون الطبقة الأرستقراطية فى الولايات، والتى أشربت منذ الصغر التراث الكلاسيكى اليونانى والرومانى، ربطت مجدها الدينى وتراثها فى الادب والفن وتاريخها بهذه الآله، وان لم يكن هذا فى الغالب أكثر من ارتباط عاطفى تاريخى.

كما وجدت هذه الطبقة إلى حد ما سلواها فى الرواقية[١] بما تنطوى عليه من أخلاق

(١) تقوم الرواقية على جعل المعانى الفلسفية فى متناول الخلق جميعا. وعلى فتح باب الفلسفة على مصراعيه، وهى تقدم للإنسان الحائر فى مجتمع شاعت فيه الفوضى ودب فيه الإنحلال، أساسا=

سامية وإيمان بكل الالهة. وإلى جوار هذه كانت توجد أيضًا الأفلاطونية المحدثة والفيثاغورية الجديدة وكانتا تقومان على نظام ثنوى فى الاعتقاد، وتعتبران المادة شرا، والجسد سجنا، والخلاص لا يتأتى إلا عن طريق إذلال الجسد والتأمل فى طهارة الروح الإلهية وممارسة التصوف والزهد.

ومن بين العبادات الشرقية العديدة كان هناك الآلهة المصرية ايزيس فإنها عبدت كأم عالمية تحب الخير للنوع الإنسانى، وقد عبد معها قرينها سيرابيس (اوزوريس)، ولقيا انتباها خاصا عند كل من التجار والملاحين الذين كانوا يبشرون بهذه العبادة فى كل ميناء من موانى البحر المتوسط يحطون فيه رحالهم وقد ساعد على انتشار عبادة ايزيس فى الإمبراطورية ما انطوت عليه قصة هذه الآلهة من الحنو والرأفة، وما اختصت به طقوسها من الرقة، وما كان يسود هياكلها من جو مرح، وما تشتمل عليه صلواتها المسائية من ألحان موسيقية مؤثرة، ولترحيبها الشامل بالناس جميعا على اختلاف أممهم وطبقاتهم كما أنها رحبت بالنساء.

وقد انتقلت هذه العبادة إلى روما فى غضون القرن الثانى قبل الميلاد إن لم يكن قبل ذلك. وتم هذا على يد الإغريق الذين كانوا يفدون على روما من مصر مباشرة أو من المناطق المجاورة لإيطاليا كبلاد اليونان وجزر البحر الإيجى وصقلية، وقد انتشرت عبادتها بين العبيد وفقراء الرومان وبعض سيدات الطبقة الارستقراطية مما دفع السناتو إلى تحديها، كما أصدر أحد قنصلى عام ١٦٨ق. م أمر بهدم هياكل ايزيس وسيرابيس القائمة بالمدينة، غير أن الحكومة الرومانية تركت أتباع ايزيس يمارسون شعائرهم خارج أسوار روما. وفى عهد صلا Sulla اشتد ساعد هذه الديانة مرة أخرى لانتهاجه سياسة التسامح، ونتيجة لتأثير كليوباترة على يوليوس قيصر ازدهرت عبادة ايزيس خاصة وأنه كان زعيما للحزب الديمقراطى أو الشعبى الذى كان يضم بين صفوفه كثيرين من أفراد الطبقة الشعبية وهى أكثر الطبقات إقبالا على العبادات الأجنبية، وأحرزت ديانة ايزيس تقدما مطردا حتى أن الحكومة الثلاثية (الثانية) اعترفت بها رسميا فى عام ٤٣ ق. م. وقد تعثرت عبادة ايزيس بعد ذلك نتيجة للحرب الأهلية بين اكتافيانوس Octavianus وماركوس انطونيوس Marcus Antonius ثم صدر قرار بتحريم عبادتها داخل العاصمة الرومانية سنة ٣٨ ق. م. ثم طوردت فى كل أنحاء إيطاليا على

=أخلاقيا للسلوك، ومبدأ راسخا للحياة الفاضلة. ومن ثم فهى من هذا الناحية تعد عقيدة أخلاقية. كان من أشهر رجالاتها ابيكتيت Epictetus الذى استطاع أن يضم الإمبراطور تراجان (٩٨ ـ ١١٧) إلى حلقة سامعيه، وكان الإمبراطور ماركوس أوريليوس (١٦١ ـ ١٨٠) من أعلام الرواقيين.

عهد تيبيريوس Tiberius (١٤ ـ ٣٧)م إلا أن هذه العبادة حظيت بالاعتراف الرسمي من جانب كاليجولا Caligula (٣٧ ـ ٤١) واستمرت عبادتها في الازدهار على عهد خلفائه حتى أن أتباعها كانوا يمارسون شعائرهم فوق الكابيتول باطمئنان أثناء الحرب الأهلية سنة ٦٩، وبارتقاء الأسرة الفلافية (٧٠ ـ ٩٦) العرش بدأ العصر الذهبي لعبادة ايزيس في روما.

وعلى الرغم من أنها حوربت أكثر من مرة على يد الحكام الرومان فى العاصمة ذاتها، غير أنها كانت سرعان ما تعود إلى استعادة مركزها ثانية، ولكن بمجيء عصر أنطونينوس بيوس Antoninus Pius (١٣٨ـ ١٦١) بدأت تفقد مركزها متخلية عنه لعبادة الإله الفارسى مثرا Mithra الذى استقرت عبادته لفترة طويلة في شرق آسيا الصغرى ثم بدأت تأخذ طريقها إلى الغرب فى فترة متأخرة في القرن الأول الميلادى، وما أن وافت القرون الأولى من التاريخ الميلادى حتى انتشرت فى جميع انحناء الدولة الرومانية عباده مثرا، الإله الشاب ذى الوجه الوسيم الذى تعلوه هالة من نور ترمز إلى الوحدة القديمة بينه وبين الشمس بأعتباره إلهاً للذكورة والفحولة.

ولقد تركت المثرانية أثارها الواضحة فى روما والولايات الغربية وأخذت فى الانتشار السريع خاصة في الأوساط العسكرية بعد أن أصبح مثرا إلهاً للمعارك الحربية، وحاميا للجنود الذين غدوا أداة تبشير حماسية له على معسكرات الحدود.

وكان قانون العقيدة المثرانية يقسم العالم قسمين، ويجعل الصراع قائما بينهما، بين قوة النور وقوة الظلمة، ومن ثم كان على المؤمنين بمثرا أن يحاربوا فى صفة حتى يستطيعوا الاتحاد به، كما كانت الطهارة والعفة الأخلاقية فى عبادة ايزيس مطلوبة من عبادها إذا كانوا يريدون الحصول على السماح والغفران عند القضاء بعد الموت، ونيل البركات والنعيم المقيم.

وكان يحمل هذا المبدأ الأخير ديانة شرقية جديدة تمثلت فى المسيحية، تبدت عقيدتها فى إله مخلص سار فى طريق الآلام والتعذيب ليكفر عن خطايا البشر. مات ثم قام ثانية من بين الأموات. وكان لهذه العقيدة المسيحية الجديدة أسرارها الخفية، وغموضها الذى كانت تشترك به مع العبادات الشرقية كلها آنذاك.

فاقت المسيحية سائر الديانات الشرقية القديمة لأن يسوع المسيح كانت له جاذبية أحدثت فى النفوس راحة، فهو قد نال الموت من أجل خلاص الناس أجمعين، وتفردت بتعاليم أخلاقية

قابلت الهوى. وعلى خلاف المثرائية التى قصرت عضويتها وإقامة شعائرها على الرجال دون النساء، وعبادتى الحنان الأنثوى كيبيلي وايزيس، ملكت المسيحية على الجموع الأفئدة.

فى ظل هذه الظروف ظهرت المسيحية فى مصر فى ظروف لا تزال معلوماتنا التاريخية عنها طفيفة، إلا أننا نظن أن الدين الجديدى لم يكن ليتأخر فى الوصول إلى أكبر ميناء فى شرقى البحر المتوسط، فى حالة قدومه من الخارج، وأنه لم يكن هناك محيص بعد ذلك عن انتشاره فى سائر أنحاء مصر. ومع هذا فلم يترك الدين الجديد أى أثر فى برديات القرن الأول التى عثرنا عليها حتى الآن، بل لا تمدنا حتى برديات القرن الثانى إلا بمعلومات ضئيلة جدا عن مدى تأثيره. على أننا نستخلص من أوراق البردى الأدبية أن المسيحية قد تغلغلت فى مصر الوسطى ومصر العليا، ولدينا الآن ما لا يقل عن سبع قصاصات من البرديات الإنجيلية، التى يمكن أن ننسبها باطمئنان إلى القرن الثانى، بل إن جميع الباحثين الثقات ينسبون إحدى هذه القاصات، التى تتضمن بعض فقرات من أنجيل القديس يوحنا (أهم الاناجيل التى وضعت بمصر)، إلى مستهل القرن الثانى. ولابد أنه كان يوجد فى مقابل كل بردية مسيحية حفظتها لنا محض الصدف، مئات من البرديات التى عفا عليها الزمن، وأن كل مسيحى كان لديه مثل هذه البردية يقابله عشرات لم يكن لديهم شيء.

ولدينا من منتصف القرن التالى طائفة من البرديات التى توضح بجلاء اضطهاد المسيحيين على أيام الإمبراطور ديكيوس (Decius) وهى عبارة عن شهادات بتقديم القرابين للآلهة (libelli)، كان الإمبراطور قد أصدرأمرا بأن يقدمها جميع رعايا الإمبراطورية للسلطات الرومانية. وكان الذين لا يقدمون هذه الشهادات يعتبرون مسيحيين. على أن بعض ضعاف النفوس من المسيحين سمحت لهم ضمائرهم أن يقدموا للسلطات شهادات مزورة.

وكانت المسيحية فى مصر تميل فيما يبدو إلى «الهرطقة»، أى الأخذ بالمعتقدات المخالفة لآراء الكنيسة، وخاصة بمذهب «الغنوسية» «gnôsis»[(١)]، ولعل ذلك يفسر سبب ذيوع إنجيل

(١) اللفظ اليونانى gnôsis معناه «معرفة أو أدرية» والغنوسية مذهب لشيعة دينية فلسفية، «ومبدؤها أن العرفان الحق ليس العلم بوساطة المعانى المجردة والاستدلال كالفلسفة، وإنما هو العرفان الحدسى التجريبى الحاصل على اتحاد العارف بالمعروف. وأما غايتها فهى الوصول إلى عرفان الله على هذا النحو، بكل ما فى النفس من قوة حدس وعاطفة، وخيال. فالغنوسية صوفية تزعم أنها المثل الأعلى للمعرفة، وترجع بأصلها إلى وحى أنزله الله منذ البدء وتناقله المريدون سرا، وتعد مريديها بكشف الأسرار الإلهية وتحقيق النجاة.=

يوحنا في مصر، ومذهبه عن «اللوجوس» أو الكلمة (Logos)، وإبهامه الصوفي. ويرى بعض العلماء أن هذا الإنجيل كتب في الإسكندرية، الأمر الذى يعيننا دون شك على تفسير عدم معرفة القديس بوليكارب (Polycarpus) بهذا الإنجيل. وبعد ما عانت الإسكندرية كثيراً من جراء الحروب الأهلية والاضطرابات العنيفة التى كدرت صفو الأمن فى مصر خلال الحقبة الأخيرة من عصر البطالمة، وكانت هى نفسها مركزاً لهذه الاضطرابات أكثر من مرة، تمتعت بفترة من الرخاء المطرد تحت الحكم الروماني. كانت الإسكندرية ثان مدن الإمبراطورية، وأعظم موانىء البحر المتوسط، ومركزاً للتجارة الرائجة مع الغرب والشمال حتى إيطاليا والولايات الغربية ومع بلاد الإغريق وآسيا الصغرى، ومع الشر ق حتى الهند. وبرغم أن المدينة لم تعد كما كانت فى القرن الثالث قبل الميلاد موطنا لفحول الشعراء، فقد كانت لا تزال بها مدرسة للشعر والأدب التصويرى، وقد تألق صيتها بفضل العلماء من أمثال بطلميوس وهيرون، كما أنجبت الجالية اليهودية السكندرية بالمدينة كتابا نابهين مثل فيلون، واجتذبت جامعة الإسكندرية الطلاب لا من مصر وحدها بل من وراء البحار.

لكن هذا الرخاء لم يؤد إلى استمالة مواطنى الإسكندرية إلى جانب الرومان. وكان هؤلاء المواطنون قد أثاروا فى وجه الملوك المقدونيين متاعب جمة، غير أن ضياع المركز الذى تمتعت

=فكان العامة منهم يؤخذون بسحر طقوسها، وكان الخاصة يتعلقون بتعاليمها النظرية ... وكانت الغنوسية تعلو على الأديان والمذاهب بالتأويل والتحوير، مدعية تحويلها إلى معنى أعمق. (من كتاب الفلسفة اليونانية) ليوسف كرم ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٤٦، ص٢٤٤).

«وما كادت المسيحية تظهر حتى تناولتها الغنوسية، فتزيت بزيها ونافستها منافسة قوية... فكانت خطرا كبيرا عليها طوال القرون الأربعة الأولى... والغنوسيون المسيحيون بالإجمال يؤولون عقائد المسيحية تبعا لمذهبهم، ويصوغون أساطيرهم بألفاظها. فهم يقيمون الثنائية عل ما يزعمون من تعارض بين التوراة والإنجيل، إذ يقولون أن التوراة تصور إلها قاسيا جبارا؛ بينما الإنجيل يكشف لنا عن إله وديع حليم خير للغاية... وإله العهد الجديد هو الإله الأعلى،الإله الأب، خالق العالم المعقول، أبو المسيحية وإله المسيحيين، وإله العهد القديم صانع العالم المحسوس هو إله اليهود... فالغنوسيون ينبذون التوراة نبذا تاما، ويقبلون من بين الأناجيل ما يروقهم، ويحذفون الفصول والآيات المناقضة لآرائهم» يوسف كرم «نفس المرجع» ص٢٥٥ ـ ٢٥٨.

وعن الكتب أو الدفاتر البردية (codices) القبطية الخاصةبالغنوسية والتى حصل عليها المتحف القبطى فى عام ١٩٤٦ وعرف أنها من خينوبوسكيون (Chênoboskeion) وهى قرية الصياد «المتاخمة لدير الملاك» ودير «أنبا بلامون» قرب نجع حمادى انظر:

J.Doresse, The Secret Books of The Egyptian Gnostics. London, 1960.

The Nag Hammadi Library. San Francisco. Harper & Row. 1977.

به الإسكندرية كمقر للملك البطلمي، وعاصمة لدولة مستقلة، أوغر صدورهم فاستمروا طوال العصر الروماني يناصبون الحكومة العداء الشديد. ولما كان أغسطس قد أقر لليهود جميع امتيازاتهم، في حين أنه رفض مطلب مواطني الإسكندرية بإنشاء مجلس للشورى، فقد اتخذ عداء المواطنين للرومان مظهر عداء لليهود إذ كان الهجوم عليهم أسلم عاقبة للإسكندريين من الهجوم على الرومان مباشرة. وكثيراً ما أدت المذابح الطائفية العديدة التي وقعت في شوارع المدينة إلى تدخل الحامية الرومانية لقمع الاضطرابات، وإلى محاكمة بعض زعماء الإسكندرية أمام مجلس الإمبراطور. وقد نشأ عن ذلك نوع من الأدب الوطني أحرز رواجاً واسعاً بين الجماهير ويسميه العلماء الآن، نظراً لما بينه وبين «أعمال الشهداء المسيحيين» من تشابه «بأعمال الشهداء السكندريين» (Acta Alexandrindrinorum)[(١)]، هذه الرسائل تبالغ في وصف شجاعة زعماء الإسكندرية واعتدادهم بأنفسهم، وتصورهم وهم يخاطبون الإمبراطور بقحة متناهية، حتى أن أحد مديري معاهد التربية بالمدينة يقول لكلوديوس «أنت الابن الذي تبرأت منه سالومي اليهودية» ويصف بازدراء هيروديس أجريبا (Herodês Agrippa)، صديق الإمبراطور، بأنه «يهودي لا يساوي شروى نقير». وقد أحضر الوفد السكندري معه إلى روما ذات مرة تمثالا نصفياً لراعي المدينة الإله سرابيس، لم يلبث (فيما يروى) أن تصبب عرقا بمعجزة فامتلأت قلوب الرومان رعباً. وقد ظلت ذكرى هؤلاء الشهداء ماثلة في قلوب أهل الإسكندرية مدة طويلة، مثلما كان المسيحيون يجلون ذكرى شهدائهم.

وكما شهدت الإسكندرية على عهد البطالمة ترجمة التوراة إلى اليونانية لتستخدمها الجالية اليهودية السكندرية، وكما وضع فيلون هناك في القرن الأول الميلادي فلسفة يهودية باللغة اليونانية، ناهجاً فيها منهج التفكير الفلسفي السكندري، كذلك غدت الإسكندرية في القرنين التالي والثالث مركزا للتقريب بين اسمى الأفكار في الديانات القديمة والأفكار الوليدة في المسيحية. وإنها لحقيقة جديرة بالتنويه أن يختار أهالي الإسكندرية أحد مواطنيهم، وهو أناتوليوس (Anatolius) الذي رسم أسقفا للادقية (Laodicea) في عام ٢٦٩م، أستاذاً للفلسفة الأرسطية في تلك المدينة. وقد ازدهرت جنباً إلى جنب مع الأكاديمية، ودراستها الفلسفية، المدرسة «المسيحية الكبرى» و[وهي مدرسة كانت أصول الايمان تلقن فيها (شفويا) عن طريق السؤال والجواب (Katêchêsis) التي أسسها بنتاينوس (Pantaenus)]، وكان من ألمع نجومها كليمنس السكندري (Clêmens) وأوريجينيس (Origenês). كان الأول [١٥٠

(١) معنى كلمة Acta أما «رسائل» كرسائل القديس بوليكارب مثلا، أو «محاضر جلسات محاكمة الشهداء».

ـ ٢١٢م.] من اتباع سرابيس ثم اعتنق المسيحية، وكان رجلا واسع الاطلاع (ولعله كان شديد الولع بإظهار علمه)، وقد أسهم بنصيب كبير في التوفيق بين الديانة المسيحية والثقافة السكندرية. ومع أنه كان شديد الإيمان بالمسيحية، متمسكا بعقائدها الأصلية القويمة، ونصيرا متزمتاً بل متطرفاً للأخلاق، إلا أنه كان خبيراً بالطبيعة البشرية، فهو يحلل شرب النبيذ بل ويبرره أيضا، ولا يحرم تحريماً باتاً الاستمتاع بما في الحياة من جمال ومباهج. وقد ظل حريصا حتى بعد دخوله المسيحية على قراءة الأدب الإغريقي، وعلى إجلاله لأفلاطون، وأما أوريجينيس [١٨٥ ـ ٢٥٣م.] فكان أقل من كليمنس معرفة بالأدب الإغريقي، ولكنه كان أعمق منه تفكيرا وأرسخ فهما للمذاهب الفلسفية، وأدق إلماماً بمناهج البحث العلمي، وأقدر على الإبتكار.

الحق أنه يعتبر من أعظم رجالات الكنيسة المسيحية. وأخيراً، فكما تركت الإسكندرية أثرا باقياً في نصوص كتاب العصر الكلاسيكي، فقد أسهمت مساهمة جليلة أثناء تلك الفترة في تحقيق نص للإنجيل موثوق به، ولا تزال طبيعة هذه المساهمة ومداها مثاراً للجدل بين العلماء، وان لم يشك أحد منهم في قيمتها الكبيرة، واذا كان أوريجينيس قد أتم مؤلفه العلمي الضخم، المعروف باسم Hexapla، في قيسارية (Caesareal) لا في الإسكندرية، فقد بدأه أصلا في الإسكندرية، مسقط رأسه، حيث تزود بالمعرفة التي تؤهله للاضطلاع بتأليفه.

الإسكندر الأكبر

يوليوس قيصر

[تقديم ناسخ المخطوط]

بسم الآب والابن والروح القدس

الاله الواحد

كتاب سير الابا البطاركه(*)

رزقنا الله بركة صلواتهم [آمين]

خلفا الاب البشير مارى مرقس الانجيلى المبشر بالانجيل المقدس وبشرى السيد المسيح بالمدينة العظمى اسكندريه واقليم مصر واقاليم الحبشة

(*) البطاركة: جمع مفرده بطرك. وهو فى النظام الرومانى من رجال السناتو أى مجلس الحكام فى الإدارة الرومانية. وكان عددهم أثناعشرة، منهم بطرك الاكليروس المختص بالشئون الدينية. والكلمة فى اللغة اليونانية تعني رئيس الآباء، فالبطرك يتربع على قمة الهرم الكهنوتى الذى يبدأ بالشماس فالكاهن «القسيس» فالمطران فالاسقف.

وضع مصر الفريد فى الإمبراطورية الرومانية

سقطت الإسكندرية فى يد أكتاڤيانوس فى اليوم الثامن من شهر مسرى الموافق أول أغسطس عام ٣٠ ق.م.(١). ودخلت مصر فى نطاق الامبراطورية الرومانية. وأصدر السناتو (مجلس الشيوخ) قراراً باعتبار هذا اليوم عيداً وطنياً فى روما ونقطة بداية التقويم المحلى فى مصر. غير أن حكم أكتاڤيانوس لا يبدأ فى الواقع إلا مع رأس السنة المصرية القديمة، أى فى أول توت الموافق ٢٩ أغسطس عام ٣٠ ق.م(٢).

(١) لم يكن شهر أغسطس قد سمي بعد بهذا الاسم بل كان يعرف وقتئذ بالشهر السادس (mensis Sextilis) وفقاً للتقويم الرومانى القديم الذى كانت السنة تبدأ فيه بشهر مارس. وقد سمي بشهر أغسطس تخليداً لذكرى أكتاڤيانوس (الذى منح هذا اللقب، بمعنى الجليل، فى يوم ١٦ يناير عام ٢٧ ق.م) أكبر الظن فى العام نفسه وليس فى عام ٨ ق.م. كما يفهم من بعض الكتاب.

(٢) تاريخ هذه الوثيقة التى يوصف فيها قيصر (أكتاڤيانوس) بأنه إله ابن إله (راجع: Bell. Cults and Creeds. p. 65) ٢٩ أغسطس ٣٠ ق.م. وعلى ذلك فهى أقدم بردية وصلتنا من العصر الرومانى.
ولتفسير ذلك نقول إننا نجد طريقتين متبعتين فى تاريخ الوثائق البردية من عصر أغسطس إحداهما هى التقليدية أى التأريخ بسنوات الحكم، مثال ذلك السنة الرابعة من حكم قيصر، وقيصر إذا ذكرت مجردة فى الوثائق تعنى أكتاڤيانوس والأخرى ـ التى لفت العلامة فيلكن نظر الباحثين إليها ـ هى التأريخ بسيادة قيصر (Kratêsis Kaisaros) فى بعض وثائق غير رسمية، مثال ذلك السنة الرابعة من سيادة قيصر.=

والنوبة والخمس مدن بالمغرب(*) وهى افريقيه ومامعها.

(*) الخمس مدن: بتنابولس، انظر ص٧٩٣.

كل هذه وقعت بالقرعة فى كرازته(*) بالهام روح القدس، وكانت شهادته بعد تمام كرازته وبشارته وكتابته الانجيل باليونانية وكمال سعيه فى مدينة قيسرون وهى اسكندرية، وتسمى باللغة العبرانية مدينة امون.

(*) الكرازه: الدعوة الرسولية وخدمة كنيسة الله.

وقد منع أكتافيانوس جنوده من نهب المدينة أو تخريبها وألقى على مواطنيها خطاباً باليونانية أعلن فيه صفحة عنهم. وعندما أحضروا إليه تابوت الإسكندر الأكبر من قبره تمعن فى جثمانه ووفاه ما يستحقه من تبجيل بأن وضع عليه تاجاً من اذهب ونثر فوقه الزهور. وعندما سألوه ان كان يرغب فى مشاهدة ضريح البطالمة، أجاب أنه رغب فى أن يشاهد ملكا لا أن يشاهد أمواتا ولم يمتهن أكتافيانوس بهذه الملاحظة ذكرى البطالمة بقدر ما جرح كبرياء

= والأخيرة رومانية الأصل إذ يوصف فيها قيصر (أغسطس) عادة بأنه ابن المؤله (Divi filius) أى ابن يوليوس قيصر الذى تبناه ورفعه السناتو إلى مصاف الآلهة بعد موته. ولدينا الآن وثيقة مؤرخة بالصورتين (P. Ryl. 601) ولا يبدأ عصر سيادة قيصر بيوم سقوط الاسكندرية (أول أغسطس ٣٠ ق. م.) ولا بيوم موت كليوبطره (١٠ أغسطس ٣٠ ق.م، بل يبدأ، كصورة للتأريخ بسنوات الحكم، بأول توت أى بيوم ٢٩ أغسطس ٣٠ ق. م. ولعل ذلك يرجع إلى أن أكتافيانوس أراد أن يؤكد فكرة سيادته على مصر كلها لا سقوط الإسكندرية وحدها، فعدل قرار السناتو حتى لا يجعل لسنة الأولى من حكمه فى مصر بدايتين متقاربتين هذا التقارب (أول أغسطس، ٢٩ أغسطس عام ٣٠ ق. م.) «وأما عن المصريين والاسكندريين فقد عفا عنهم جميعا حتى انه لم يهلك منهم أحد، والحق أنه لم يشأ ان ينزل ضررا لا يمكن علاجه بشعب كثيف العدد قد ينفع الرومان نفعا عظيما من نواح كثيرة. ومع هذا فقد برر صفحه عنهم بالاله سرابيس، والاسكندر مؤسس مدينتهم، وبأريوس أحد مواطنيهم الذى انتفع هو بعلمه وصحبته. وقد ألقى الخطبة التى عفا فيها عنهم باليونانية لكى يفهموه، وبعد ذلك شاهد جثمان الاسكندر بل انه لمسه بيده حتى يروى أن جزءا من الانف تفتت، ولكنه لم يشاهد جثث البطالمة ــ مع أن الاسكندريين كانوا شديدى الرغبة فى عرضها عليه ــ قائلا انه رغب فى ان يشاهد ملكا لا امواتا.».

وسيرته تذكر ما جرى له وبشارته وما جرى عليه مشروحة في اول السير الذى تضمنها هذا الكتاب.

وورثوا ابهاتنا الارتدكسين البطاركه من بعده تعاليمه المخلصه للنفوس من الجحيم، وتبتو على ما سلمه لهم من حفظ الامانة الارتدكسيه والتمسك بها والصبر على الشدايد بسببها فى كل زمان الى النفس الاخير، يعنى إلى الموت، وجلسو على

شاهد قبر من الحجر الجيرى عليه شخص فى حالة تعبد (من القرن الخامس)

الإسكندريين. ولعله أراد أن يفهمهم أن نفوذهم فى الدولة قد تلاشى، وأن الأسرة التى كانوا رعاياها بالأمس قد اندثرت إلى الأبد. ولما كان يعلم أن الإسكندريين شعب ميال إلى الشغب يثور لأوهى الأسباب، فقد وضع بالمعسكر الكبير الذى أقامه فى نيقوبوليس[1]، فرقة رومانية، وهى الفرقة الثانية والعشرين التى أضيف إلى رقمها فيما بعد اسم ديوّطاروس (legio XXII Deiotariana)، وعززها بثلاث كتائب مساعدة من المشاة (cohortes). وليس من المستبعد أن يكون مواطنو الإسكندرية ـ كما يفهم من بردية نشرت فى سنة ١٩٣٠ ـ قد تقدموا إليه ملتمسين إعادة مجلس الشورى (Boulê) ـ وهو مجلس كان فيما يرجح قائماً فى المدينة منذ تأسيسها ولكنه ألغى فى وقت غير معروف قبل مجىء الرومان. فإذا كان قيصر المذكور فى البردية هو أكتاڤيانوس، فإنه لم يستجب لهذا المطلب بينما أقر لليهود حقوقهم القديمة. ولعله كان يرمى بذلك إلى إيجاد نوع من التوازن بين الإغريق واليهود حتى لا يطغى فريق على فريق عملا بالمبدأ الرومانى المشهور «فرّق تسد».

وليس من المؤكد إن كان أكتاڤيانوس قد اتجه بعد ذلك إلى ممفيس (ميت رهينة) ووضع عند بابليون (مصر القديمة) فرقة رومانية أخرى، رآها استرابون، ولكن اسمها لا يزال مجهولا

(١) كانت نيقوبوليس تبعد عن الاسكندرية نفسها بحوالى أربعة أميال وفقاً لرواية استرابون، ومكانها الآن ما بين مصطفى باشا (مصطفى كامل) وجليمونوبولو برمل اسكندرية.

كرسيه واحد بعد واحد خلفاً بعد سلف، فكلهم خلفاه ورعاة رعيته ومقتدون به وبايمانه في المسيح.

هذه السير جمعها واهتم [بجمعها] من كل مكان الاب الجليل انبا سويرس بن المقفع اسقف مدينة الاشمونين، ذكر انه جمعها من دير القديس ابي مقار ودير نهيا وغيرهما من الديارات، وما وجده في ايدى النصارى منها اجزاء متفرقه. فلما جمعها اخوكم المسكين في هذا الكتاب الواحد بعد بحث واجتهاد وهب الرب له مدة طويلة من العمر حتى وصل يوم ان كتب هذه السيره واهتم

حصن بابليون
(فسيفساء بيزنطية)

ولم ينس الفاتح الجديد أن جنوب الوادى، مركز عبادة آمون، كان معقلا للحركات القومية ضد البطالمة، فبعث إليه بفرقة رومانية ثالثة، يرجح أنها فرقة كورنيثة الثالثة (legio III Cyrenaica) التى تشير أقدم الوثائق إلى وجود جانب منها فى منطقة طيبة[١]، وعززها بثلاث كتائب مساعدة رابطت على الحدود الأثيوبية (النوبية) عند سوينى Syênê (أسوان). كما وزع أكتاڤيانوس ثلاث كتائب أخرى مساعدة فى بقية القطر. ومن العسير أن نتعرف على مراكزها على وجه التحديد؛ غير أنه من المرجح، استنادا إلى وثائق الفترة التالية، أنها رابطت عند مداخل إقليم هام كأرسينوى (الفيوم)، وهرموبوليس (الأشمونين)، التى كانت محطة جمركية للسلع الواردة من مصر العليا، وكبتوس (قفط)، وهى نقطة تجميع وتوزيع هامة للبضائع الآتية من موانى البحر الأحمر مثل ميوس هرموس Myos Hormos (أبو شعر القبلي؟) وبرنيقى Berenicê (الهرّاس) ولمنتجات المناجم والمحاجر العديدة بجبال الصحراء الشرقية بين النيل والبحر الأحمر. وقد بلغ من اهتمام أكتاڤيانوس بالمنطقة الأخيرة أنه وضعها تحت إمرة ضابط يحمل لقب قائد برنيقى (praefectus Berenicês) أو قائد جبل برنيقى (praefectus

(١) انقسمت مصر إدارياً فى عصر الرومان إلى ثلاثة أقسام أو مناطق كبرى: الدلتا (تقابل مصر السفلى) والأقاليم السبعة، وإقليم أرسينوى (تقابل مصر الوسطى)، وطيبة (تقابل مصر العليا)، وكان على رأس كل منها قائد عام أو بالأحرى مدير عام (epistrategos). ولعل هذا التقسيم لم يستحدثه الرومان بل كان موجوداً منذ أيام البطالمة. =

بها ولم تكمل له إلى كمال تمنين سنة من عمره.

والى الله ارغب الاعانه على فهم ما نقراه منها والطاعه لهم والعمل باوامرهم واتباع اثارهم والتمسك بايمانهم انه سميع مجيب والشكر لله دايما سرمدا امين.

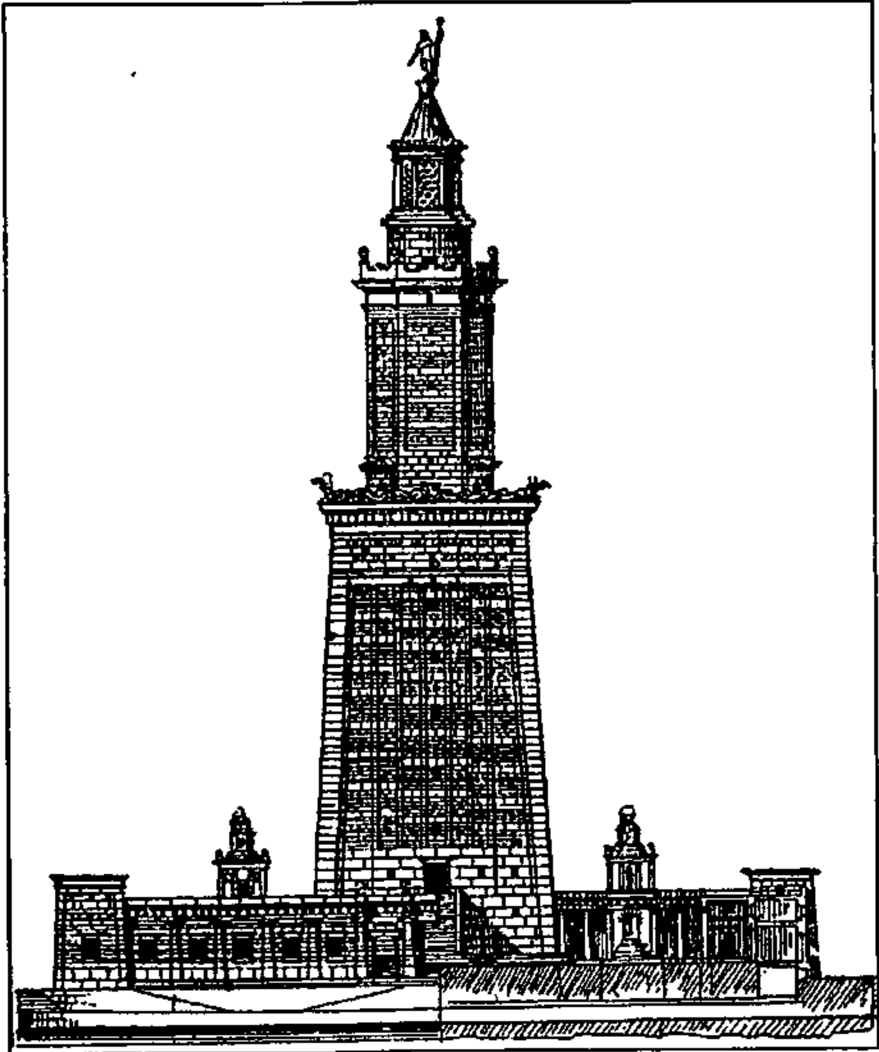

فنارة الإسكندرية إحدى عجايب الدنيا السبع

[تقديم ساويرس لكتابه]

بسم الآب والأبن والروح القدس الاله الواحد

الحمد لله باعث العلوم ومبديها، وخالق الامور ومنشيها، وصانع الخلايق [عبيده] ومكونها ومهدى من يشا ويصطفيه، ورافع من يختاره من عبيده صفوته وخلقه الصالحين وينتخبه ويرتضيه، الذى يرفع من الارض مسكينا، ومن المزبلة فقيرا فيجعله ملكا على خلقه ومسلطا على تدبير عباده .

- -

(montis Berenicidis)، الذى كان يتولى، إلى جانب إدارة المنطقة والإشراف على المناجم والمحاجر بمساعدة مشرف (procurator)، قيادة الحاميات التى وضعت لحراسة هذه المناجم وتأمين الطرق الصحراوية بين النيل والبحر الأحمر، وما فيها من آبار وصهاريج. ويضيف استرابون إلى هذه القوات ثلاث آلايات أو فصائل من الفرسان (alae) وزعت على المراكز الحيوية. ولا جدال فى أن نقطة دفاع رئيسية مثل بيلوزيوم قد عسكرت فيها إحدى هذه الفصائل أو غيرها من الوحدات التى نقلت من الفرق الأصلية أو الكتائب الإضافية لتقوم بحراسة نقط معينة على الطريق الساحلى الممتد بين بيلوزيوم عبر الصحراء إلى فلسطين أو من الإسكندرية حتى برايتونيوم (مرسى مطروح) أو على الطرق الممتدة على جانبى الدلتا بين هاتين المدينتين وممفيس عند رأس الدلتا[١].

وقام أكتافيانوس ببعض إصلاحات عاجلة لوقف التدهور الاقتصادى الذى انتاب مصر فى أواخر عصر البطالمة. ولا مراء فى أنه رسم الخطوط العريضة للنظام الإدارى ووضع الأسس التى

=وكانت هذه المناطق الكبرى بدورها منقسمة إلى أقليم (تقابل المحافظات الحالية) على رأس كل منها قائد أو بالأحرى محافظ (strategos).

(١) عن القوات الرومانية وتوزيعها فى مصر بعد الاحتلال، انظر:

Strabo XVII, 1.12 (Cf.also 30; 53): =

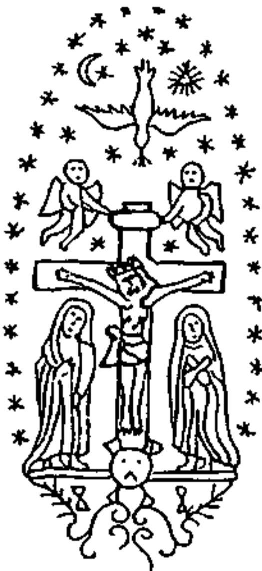
* وشم يمثل صلب المسيح
ينتشر فى صعيد مصر

وبلاده، وكرسى العز يورثه ليحكم فى الارض بالعدل بين الناس بالحق، ليقمع القوى عن الضعيف وينقذ المظلوم من الظالم.

وذلك حكم الله وحكمته التى لا يفهمها احد من المخلوقين، المخفية سرايره عن الحكما وذوى الالباب، الذى يقيم فى كل زمان من يضاهى اهله، الر [ؤ] ف المتحنن السيد المسيح الذى ابذل نفسه بسر تجسده عن خلاص خلقه، وغلب الاقويا بالتواضع والسكون الناطق على افواه انبياه بروح

قام عليها الحكم الرومانى فترة طويلة من بعده. ولم يكن فى وسعه أن يبقى فى مصر مدة أطول فغادرها عائداً إلى روما ليواجه المشكلات الكثيرة التى نجمت عن الحروب الأهلية الطويلة. وهناك تبين له أن العلاج الوحيد هو تغيير نظام الحكم الجمهورى وإقامة حكم تواضع المؤرخون على تسميته بحكم المواطن الأول (Principatus)، وإن كان فى حقيقة الأمر حكما ملكياً تتركز فيه السلطة العسكرية ـ على الأقل ـ فى يد شخص واحد. غير أنه لم يشأ أن يظهر فى صورة الحاكم المفرد المطلق السلطة، فأبقى على بعض مظاهر الحكم الجمهورى القديم، وأشرك معه السناتو فى تصريف شئون الإمبراطورية. وبمقتضى التسوية التى تمت فى ١٣ يناير عام ٢٧ ق.م. ـ وهو تاريخ ميلاد الحكم الامبراطورى الجديد ـ قسمت أعباء إدارة الولايات بينه وبين السناتو الذى منحه فى العام نفسه لقب أغسطس.

لكن ينبغى قبل الكلام عن الدور الذى قامت به مصر فى تاريخ الإمبراطورية الرومانية أن أحدد وضعها فى تلك الامبراطورية. هذا الوضع كان ولا يزال مثار جدل بين الباحثين. ففى

= ويوجد فى مصر ثلاث فرق عسكرية (tagmata = l. legiones) احداها فى المدينة (الإسكندرية) والاخريان فى القطر (chôra). وتوجد غير هذه تسع كتائب رومانية Speirai = L.cohortes ثلاث منها فى المدينة وثلاث على الحدود الاثيوبية (النوبية) فى سوينى (أسوان) وثلاث فى بقية القطر. وهناك أيضا ثلاث فصائل من الفرسان (hipparchiai= L. alae) موزعة بالمثل على المراكز الحيوية.

قدسه، في الوقت الذى شا[ء] ان يظهر فيه على الارض وتجسد لخلاص عالمه الذى خلقهم كشبه صورة سلطانه، ظهر فيهم متجسدا من مريم العدرا افضل نسا[ء] العالمين التى اصطفها من درية ادم، الذى اخطا وخالف ربه واطاع عدوه وترك وصية خالقه فوجب ان يموت بالموت كما قال الله له، وحذره من معصيته فلم يقبل واراد ان يكون الها ويتشبه بخالقه فانوهق(*) فى فخ العثره، فتحنن الله الكلمه عليه ورحمه.

(*) انوهق سقط ووقع.

رأى فريق منهم أن مصر لم تكن ولاية (Provincia) بالمعنى المألوف للكلمة، بل كانت إحدى ممتلكات الإمبراطور الخاصة التى ترتبط بشخصه ارتباطاً وثيقاً وتخضع له خضوعاً مباشراً ويستندون فى ذلك إلى أن أغسطس لا يصفها فى الوثيقة المشهورة باسم «أثر أنقرة»(١) بأنها ولاية، على حين أنه يتحدث عن احتمال تحويل أرمينيا الكبرى إلى ولاية فى الفقرة الثالثة، وأن السجلات الرسمية المعاصرة لا تذكر اسم مصر مقروناً بكلمة ولاية، وأنه إذا كان المؤرخ ديون

(١) أثرأ نقـرة (Monumentum Ancyranum) نقش لا تينى مع الترجمة اليونانية عثر عليه أول مرة عام ١٥٥٥ فى أنقرة (أنجورا Angora قديما) بتركيا (مكان ولاية جلاتيا Galatia الرومانية). وقد نقل نقلا علمياً صحيحاً فى ١٨٦١، وبصورة أدق فى عام ١٨٨١، ونشره العلامة مومسن (Mommsen) فى طبعة ثانية فى موسوعة النقوش اللاتينية (C.I.L.) عام ١٨٨٣. وقد عثر على صورة أخرى يونانية (غير كاملة) من هذا النقش فى بلدة أبو للونيا بإقليم يسيديا بآسيا الصغرى (Monumentum Apolloniense)، وعلى صورة ثالثة لاتينية (غير كاملة) فى بلدة أنطاكية بنفس الإقليم المذكور (Monumentum Antiochenum. وأما الأصل الذى أمر أغسطس بحفره على عمودين مكسوين بالبرونز وإقامهما أمام ضريحه (Mausoleum) فى ساحة مارس (Campus Martius) خارج روما، فلم يعثر عليه. ويحتوى هذا النقش على موجز بأعمال أغسطس فى الناحيتين العسكرية والمالية وقد أشار إليه المؤرخان سويتونيوس (Div. Aug. Cl, 6) وديون كاسيوس (LXI, 33) ويتبين من كل ذلك أن عنوان الوثيقة الصحيح هو Res Gestae Divi Augusti، أى «أعمال أغسطس المؤله». وقد بلغ من أهمية هذا النقش أن العلامة الألمانى مومسن أطلق عليه إسم «غرة النقوش اللاتينية titulus inter Latinos primarius».

وتجسد الغير مخلوق فى لاهوته المر[ء] بناسوته، البرى من كل خطيه، وحملته مريم العدرا الطاهره وولدته بالسر الذى لا تدركه عقول المخلوقين، مفضلها بذلك على جميع العلمين السماوين والارضيين والملايكه والقوات والارباب والكاروبيم والسارافيم وكلمن خلق من السماويين الارضيين، وصارت كرسى الاولين والاخرين من غير افتراق ولا تغيير لا يحويه مكان ولا يحصره زمان.

السيدة العذراء تحمل السيد المسيح

- -

كاسيوس يذكرها بين الولايات التى أسندت إدارتها للامبراطور فى عام ٢٧ ق.م. فإنها لم تتأثر فى الواقع بالتسوية التى تمت فى ذلك العام، بل ظلت النظم التى وضعت لها عند الفتح على ما هى عليه، وهى نظم تختلف اختلافاً جوهرياً عن نظم سائر الولايات. ويستشهد فريق آخر بنفس عبارة أغسطس فى الوثيقة المذكورة «لقد ضممتُ مصر إلى سلطان الشعب الرومانى»، لأنها ـ فى رأيهم ـ من الوضوح بحيث لا تحتمل سوى تأويل واحد، وهو أن مصر كانت ولاية استغلت مواردها ـ كغيرها من الولايات ـ لمصلحة الشعب الرومانى. فقد وصفها أكثر من مؤرخ قديم بأنها ولاية (provincia) واحتلها جيش رومانى، أمدت فرقه الأصلية وقواته الإضافية بكثير من الجنود، ولم يحكمها وكيل مالى (Procurator) من وكلاء الإمبراطورية الذين كان يعهد إليهم بإدارة بعض الولايات الصغيرة التى لا ترابط فيها سوى حاميات ضئيلة، بل حكمها وال تدرب فى سلك وظائف «الفرسان»، العسكرى والمدنى، وتدرج فيه حتى أن منصبه كان فى أول الأمر أرقى مناصب ذلك السلك. وكانت إيراداتها تحول إلى الخزانة المركزية فى روما لكى تنفق مع الأموال الأخرى المحصلة من بقية الولايات فى إطعام الشعب الرومانى وسد حاجات الإمبراطورية. ويستبعد هذا الفريق أن عاهلا كأغسطس ـ اتسمت سياسته بالحذر والحرص على أن لا يزاول سلطات دون تفويض من السناتو والشعب ـ كان يستأثر بمصر وجميع مواردها. وثمة فريق ثالث يرى أن مصر، التى تقول النصوص والوثائق إن

ولما قضى تدبيره بحكمته الغير مدركه واتحاده المخفي سره عن كلمن في السما والارض، اصطفى تلاميذه الحواريين واعطاهم السلطان العظيم وجعل لهم ان يربطو ويحلو، كذلك خلفاهم من بعدهم يرثوا هذه العطيه في كل اقاليم الدنيا خلف بعد سلف، فانتقل ميراث هذا السلطان الذى دفعه المسيح، للاب البشير العظيم مرقس الحوارى الى خليفته الذى يجلس على كرسيه من البطاركه بالمدينه العظمى اسكندريه وما يليها من اقاليم كرازته، فهو اول بطرك رعى رعيه المسيح، ثم تبعوه

ايزيس وعلى رأسها كرسى العرش. (مقبرة سيتي الأول)

أغسطس أخضعها لسلطة الشعب الروماني، كانت ولاية، غير أن الشعب فوض الإمبراطور فى إدارتها باسمه وفقاً لتقاليدها الخاصة ومقتضيات ظروفها السياسية. ومع هذا الاختلاف فى تحديد وضع مصر إزاء الحكومة المركزية، فإن الرأى الراجح الآن هو أنها كانت ولاية، ولكنها من طراز فريد، في الإمبراطورية.

لقد أدرك أغسطس أهمية مصر كمستودع للقمح لاغناء عنه لإطعام الشعب الرومانى فقد كان محصول إيطاليا منه لا يكفي لسد رمقه، وأدرك أهميتها كمورد للمال لابد منه لتدعيم الخزانة التي نضبت من جراء الحروب الأهلية. لذلك وضع فى مصر من الفرق الرومانية (legiones) والقوات المساعدة (auxilia) أكثر مما تستلزمه حاجة الدفاع حتى يضمن تماماً عدم وقوعها في يد عدو من أعداء روما، قد يمنع عنها المؤونة أو يقطع عليها طريق الاتصال بالشرق. كما أدرك ميزة موقعها الاستراتيجي، لأن مصر بلد من السهل الدفاع عنه، وفى وسع من يتحكم فى مدخليها أو مفتاحيها، بيلوزيوم فى الشرق، وفاروس فى الغرب، الذين يوصفان بأنهما النقطتان الرئيسيتان للدفاع عنها من البر والبحر، فى وسعه أن يصد بسهولة أى هجوم عليها ويستقل بها ويناوىء روما منها كما كانت مصر بلداً كثيف السكان، اشتهر أهلها، وبخاصة أهل الإسكندرية، بالميل إلى الفوضى والشغب. لذلك حرص أغسطس أشد الحرص

الاباء البطاركه المويدين جيلا بعد جيل. وهذا الكرسى خاصته دون غيره من الكراسى، لا يتقدم عليه بطرك، و[لا] ينال عند الله المنزلة الشريفه والدرجه العاليه والمنيفه الا من قد جربه وابتلاه ولقى من التعب والنصب ومقاومه الاعدا والجهاد من المخالفين ما ضاها به تلاميذه ورسله المويدين بروح قدسه، والاطهار المبشرين الذين اصابهم من الهوان والضرب بالسياط والرجم والصلب والتغريق فى لجج البحار وحريق النار والجراح، والرمى من الاماكن العاليه الى الارض، والقتل

من الفن القبطى. السمكة والصليب. كانت السمكة رمزاً للمسيح

على تأمينها من الوقوع فى يد المنافسين، فلم يقم عليها، كما هو الحال فى سائر الولايات، والياً من هيئة السناتو، وهى الهيئة الأرستقراطية ذات الميول الجمهورية التى لم يكن ليطمئن إليها كل الاطمئنان، بل أقام عليها والياً من هيئة الفرسان (ordo equester)، وهى فى الأصل هيئة رجال الأعمال الذين اكتسبوا من ممارسة التجارة والتزام جباية الضرائب خبرة بالشئون المالية. ولم يكن هذا الوالى مسئولا أمام أحد سواه. ولم يحمل لقب مندوب أغسطس (legatus Augusti)، كما هو الحال فى ولايات الإمبراطور، ولا لقب نائب قنصل (Pro consule) أو نائب بريتور (pro praetore)، كما هو الحال فى الولايات السناتورية، بل حمل لقباً من ألقاب سلك الفرسان بمعنى حاكم أو وال (Praefectus). وقد أسندت إلى هذا الوالى، الذى عرف رسمياً باسم «والى الإسكندرية ومصر (praefectus Alexandreae et Aegypti) ـ لأن مصر كانت شيئاً والإسكندرية شيئاً آخر ـ أسندت إليه قيادة جيش قوامه من الفرق الرومانية التى لم يكن يتولى قيادتها خارج مصر سوى رجال من طبقة السناتو. وزيادة فى الحيطة استن أغسطس قاعدة حرم بمقتضاها على أعضاء السناتو (بل والفرسان اللامعين من أعضاء السناتو) دخول مصر إلا بعد الحصول على إذن خاص من الإمبراطور. وسواء أكان هذا التحريم يشمل هيئة السناتو بمقتضى قانون خاص أم تحريماً يشمل أعضاءه وغيرهم بمقتضى السلطة الأعلى (imperium maius) التى فى يد الإمبراطور، فإن خلفاءه احتذوا هذه

بالسيف واصناف العذاب، مما لو شرحنا على نصه لطال شرحه وعظم وصفه واقشعرت من سماعه الابدان، ولم تسع الكتب ولا المصاحف بسيره، وكانو فى الصبر والاحتمال لذلك كله مقتدين بربهم ومعلمهم ومسيحهم ومرسلهم ليعمدو الامم والخلايق ويجذبوهم الى الايمان به، وعلموهم ما ينتفعون به على طول الدهور والاجيال والاحقاب الى اخر ايام الدنيا مما فيه خلاص نفوسهم في الاخره والدنيا. وورثو علومهم لخلفاهم الاباهات البطاركه بكل اقليم وصلت اليه

العذراء ترضع سمكة، رمز المسيح. (كنيسة نوتردام دى لوزان)

القاعدة التى غدت بمثابة سر من أسرار توطيد السيادة، ولم يخرجوا عنها إلا بعد أن تدهورت أحوال مصر الاقتصادية وفقدت مركزها الفريد فى الإمبراطورية.

٢. تأمين الحدود وطريق التجارة مع الشرق

وكانت مصر البطلمية قد قامت بدور هام فى سياسة العالم الهلينستى عندما كانت دولة مستقلة قوية فى القرن الثالث قبل الميلاد. وقد شهد ذلك العالم كثيراً من الحروب التى استعر أوارها بين الممالك الكبرى: مصر وسوريا ومقدونيا. ولم تستفد الإنسانية شيئاً من هذه الحروب التى استنفدت موارد تلك الممالك وأنهكت قواها وانتهت بسقوطها الواحدة تلو الأخرى فى يد الجمهورية الرومانية. ولم تلبث روما ـ بعد فترة أخرى من الحروب الأهلية ـ أن بسطت سيادتها على الأقطار المطلة على حوض البحر المتوسط، ولم يأت الامبراطور أغسطس حتى انتشرت فى ربوعها ألوية السلم، الذى يعرف أحياناً باسم «السلم الأغسطى» (Pax Augusta). وكان من الطبيعى أن يتضاءل دور مصر السياسى بعد أن أصبحت ولاية رومانية. غير أن هذا الدور لم يتضاءل إلى الحد الذى يذهب إليه العلامة شوبارت حين يقول إن زيارات الأباطرة لمصر صارت أهم أحداث ذلك القطر. لقد كانت مصر من أكثر الولايات كثافة فى السكان وأوفرها ثراء لذلك احتفظت بمركز هام بين هذه الولايات. ومع أن مصيرها ارتبط بمصير الإمبراطورية، إلا أنها لم تفقد شخصيتها، فأثرت فى مجرى تاريخ الإمبراطورية مثلما تأثرت به.

شرقية (Abside أو قبله) كنيسة من مدينة باويط، عليها رسوم بالفرسكو المتعددة الألوان. وتمثل هذه الرسوم السيد المسيح عليه السلام يجلس على عرش، ويحمل بيسراه السفر، ويومىء بإشارة البركة بيمناه، ومحيط بعرشه حيوانات ترمز إلى الرسل الأربعة؛ فالأسد يرمز إلى الرسول مرقس، ورأس العجل ترمز إلى الرسول لوقا، ورأس النسر ترمز إلى القديس يوحنا، أما وجه الإنسان فيرمز للرسول متى. ويحيط بالعرش يمنة ويسرى رئيسا الملائكة ميخائيل وجبرائيل.

وقد احتوى تجويف الشرقية على رسوم أخرى تحت صورة السيد المسيح، تمثل السيدة العذراء وهى تحمل السيد المسيح، وحولها الإثنى عشر رسولا، وقد حمل كل منهم إنجيلا في يده، وأسماؤهم مدونة فوق رؤوسهم باللغة القبطية.

والأسلوب التصويرى لهذه الشرقية يتبع إلى حد كبير الأسلوب القبطى الذى كان سائدا فى مصر فى العصر الرومانى، وخاصة فى رسوم الأجسام والملابس، ونلاحظ أن الرؤوس كلها حولها دوائر هى عبارة عن هالة التقديس، وعلى ذلك يمكننا القول بأن القبط استخدموا فى الرسوم الحائطية وكذا المخطوطات، أسلوباً فنيا متطوراً، أما فى المنسوجات وحاجياتهم الخاصة، فقد ظلوا يستعملون فناً خاصاً بهم، هو الأسلوب القبطى.

والشرقية بكاملها نقلت من واحة باويط إلى المتحف القبطى بالقاهرة.

ويمكن إرجاع هذه الرسوم إلى القرن (٥ ـ ٦ م).

كــرازتهم وبشــراهم ، لان البطاركــه خلفــاهم واتباعهم بذلو نفوسهم فى حفظ من ايتمنو عليه من بني المعموديه المومنين الارتدكسيين، كما قال الرسول العظيم المعلم الفضل بولس المصطفى سراج بيعه(*) الله: بل قد نفتخر بما نقاسى من الضيق لانا نعلم ان الضيق يكمل الصبر فينا والصبر محنه وابتلا والشدايد داعيه الى الرجا والرجا لا يخيب لانه يفيض على قلوبنا محبه الله بروح القدس. كما قال ايضا: انكم ان اهملتم وتركتم بغير ادب ولم تلدعو بما لدع به الصفوه

(*) بيعه الله: هي الكنيسة المسيحية، وهى ترد بعدة اسماء فى المصادر التاريخية مثل: بيت الله، بيت الصلاة، بيت الشهداء، بيت الجماعة، البيعة، كنيسة الله، اورشليم السماوية، الحمامة الوحيدة، جسد المسيح، سفينة نوح.

ولما كانت حدود مصر الجنوبية هي أيضاً حدود الإمبراطورية الرومانية. فقد حرص أكتاڤيانوس، والأباطرة من بعده، على تأمين هذه الحدود ضد الغزو الأجنبي. ولم يمض عام على الفتح الرومانى، حتى هبّت منطقة طيبة ثائرة فى وجه الرومان إما لتعسف جباتهم أو محاولتهم فرض ضرائب جديدة أو لمجرد الثورة فى وجهى الحكام الجدد. وبلغ من خطورتها أن كورنيليوس جاللوس، وهو أول وال على مصر، اضطر إلى أن يقود القوات الرومانية بنفسه ويزحف جنوباً لقمعها. وقد أشار استرابون إشارة عابرة إلى هذه الثورة قائلا «وقمع (أى كورنيليوس جاللوس) فى زمن وجيز ثورة قامت فى طيبة بسبب الضرائب». ويشاء الحظ أن تصلنا عنها معلومات أوفى سجلها هذا الوالى على حجر من الجرانيت وجدناه فى جزيرة فيلاى Philae (أنس الوجود). وهذا الحجر مكتوب بلغات ثلاث: المصرية واللاتينية واليونانية. ويحمل النص الهيروغليفى تاريخ ٢٠ برمودة من السنة الأولى من حكم قيصر (أكتاڤيانوس) الموافق ١٥ أبريل من عام ٢٩ ق. م. يقول الوالى مفتخراً بانتصاراته:

جايوس كورنيليوس جاللوس بن جنايوس، الفارس الرومانى، أول وال على الإسكندرية ومصر بعد اندحار الملوك على يد قيصر بن المؤله، وقاهر ثورة طيبة فى ١٥ يوما، هزم خلالها العدو مرتين فى معركة عامة، واستولى عنوة على ٥ مدن: بوريسيس وكبتوس وكيراميكى وديوسبوليس مجالى وأوفيون، وأسر زعماء تلك الثورات، وقاد الجيش إلى ما وراء شلال النيل،

من قبلكم من اوليا الله فقد صرتم غربا من الله غير قريبين منه.

ومتل هذه الشهادات كتير فى كتب البيعه منه ومن غيره من الرسل المويدين والابا المعلمين بعد الانبيا المكرمين. ولم يزالوا دافعين لاقوال المخالفين مجتهدين فى الرد عليهم معاندين لهم داحضين مذاهبهم مظهرين للناس كفرهم وفساد اعتقادهم. ويضعون على كل كلمة ميمرا(*) الى ان ملو بيعه الله ميامر ومواعظ وعلوما روحانيه. ولم يهملو

(*) الميمر: الشروح والتفاسير.

وهو مكان لم تبلغه من قبل قوات الشعب الرومانى أو ملوك مصر، وأخضع طيبة، مصدر الذعر لجميع الملوك، واستمع إلى سفراء ملك الأثيوبيين عند فيلاى، وقبل ذلك الملك تحت الحماية، وعينه حاكما على ترياكنتا سخوينوس الأثيوبية. وقد قدم (هذا النصب) هدية للآلهة القومية وللنيل الذى أعانه.

وتحتاج هذه الوثيقة إلى بعض التفسير. فكاتبها هو كورنيليوس جاللوس الذى كان أحد قواد أكتافيانوس وقد أسدى هذا القائد خدمة جليلة له عندما استولى على برايتونيوم (مرسى مطروح) ورد الهجوم البرى والبحرى الذى قام به أنطونيوس على المدينة لاسترداد فرقه العسكرية التى تخلت عنه. ولا مراء فى أنه كان مقرباً من أكتافيانوس لأنه كان أحد رسله إلى كليو بطرة فى أيامها الأخيرة. وقد كوفىء بعد الفتح بتعيينه والياً على مصر (أغسطس ٣٠ ق.م ـ ٢٧ أو ٢٦، ق.م). ويصف جاللوس نفسه بأنه فارس رومانى أى أحد أعضاء هيئة الفرسان (ordo equester) التى كان الانتماء إليها يتطلب امتلاك نصاب لا يقل عن ٤٠٠,٠٠٠ سترتيوس أى حوالى ٤٠٠٠ جنيه. وتؤيد عبارته «أول وال على الإسكندرية ومصر» ما ذكرناه آنفاً، من أن الإسكندرية لم تكن تعتبر فى العصر الرومانى جزءاً من مصر على الأقل من الناحية الرسمية ويقصد هنا بالملوك، ملوك البطالمة، وإن كان قيصر لم يدحر فى الواقع سوى كليو بطرة. لكن لعل المقصود بالجمع هنا أن اندحارها كان خاتمة حكم

درس كتب الله وادابه ووصاياه غير مهملين، ولكل اداب البيعه وغيرها من الالفاظ التى يحتاجون اليها فى وضع ميامرهم طالبين، والى كل جواهر الكلام الالهى والادب راغبين. حتى بلغو وادركو بغيتهم وحضرو دعوه باريهم وداعيهم قايلين كلمتهم: هو دا انا والبنون الذين اعطيتنى ولم يهلك منهم احد . ففازو بالدرجات العاليه والمنازل التى بالنعيم والنور متلاليه التى خيراتها دايمه غير باليه.

البطالمة أو لعل المقصود به كليوبطرة وأبناءها. وأما قيصر فهو أكتافيوس الذى حمل اسم أبيه جايوس يوليوس قيصر الذى تبناه فسمي جايوس يوليوس قيصر أكتاڤيانوس أو بالإسم الأخير فقط، وان عرف بين القدماء باسم «قيصر» واشتهر بلقب «أغسطس». ويستطرد جاللوس قائلا إنه أخمد ثورة طيبة، وهى أحد الأقسام الثلاثة الكبرى التى انقسمت إليها مصر إدارياً منذ الفتح الرومانى، إن لم يكن منذ عصر البطالمة، وتقابل مصر العليا. وليس بين المدن الخمس التى استولى عليها: بوريسيس (غير معروفة) وكبتوس (قفط)، وديوسبوليس مجالى (مجنا فى اللاتينية) أى مدينة زيوس الذى شبه بآمون، وهى طيبة (الأقصر الحالية)، وأوفيون (أو أوفيس) ـ وهى الكرنك الآن ـ وكيراميكى (ميدامود أو البلات)، ليس من بينها ما هى جديرة باسم مدينة سوى طيبة، بل إن المكانين الأخيرين لم يكونا فى حقيقة الأمر سوى قريتين أو حيين تابعين لها. ولعله أسر فعلا زعماء تلك الثورات. وقد يستدل من صيغة الجمع على قيام أكثر من ثورة فى بلاد مصر العليا ضد الرومان. وفى الحق إن الثورات لم تقتصر على مصر العليا وحدها، بل قامت أيضاً فى الطرف الشرقى من الدلتا إذا يحدثنا استرابون بأن كورنيليوس جاللوس «هاجم هيرونبوليس Heroônpolis (تل المسخوطة) التى كانت قد ثارت وأخذها بنفر قليل.

ولنتتبع الوالى الذى يقول إنه قاد جيشه إلى ما بعد شلال النيل، وهو الشلال الأول. وإذا

ولم يكونو فى حين رعايتهم يخافون من الملوك الطاغيــه ولا زالت قلوبهم ونيــاتهم فى حب الله وتعليم الناس ما فيه خلاص نفوسهم سرا وعلانيه. ولا كانو فى رعايتهم ساهين ولا لاهين ولا مقتنين لشى من متاع الدنيا الفانيه. بل سامعين طايعين لامر ربهم، وعلى تاديــهم وتعاليـمهم منكفين، وبقـوانين الله واحكامـه قـايمين. وكـانو فى عيـون رعاياهم عظما عالمين. واذا شاهدهم احد منهم، او من المخالفين لهم ولمداهبـهم، مـجدو الله من اجل اعمالهم لتمام الكلام الانجيلى الذى قال: انتم نور

صدق قوله فى أن هذه المنطقة لم تسبقه إليها قوات رومانية فهو مدع حين يزعم بأن قوات البطالمة لم تبلغها من قبل. وهو صادق فى وصفه طيبة بأنها مصدر ذعر لجميع الملوك (الملوك البطالمة) لأن طيبة بوصفها مركز عبادة آمون كانت معقلا للحركات القومية بزعامة الكهنة المصريين ضد الغزاة الأجانب وكثيراً ما هبت ثائرة فى وجه البطالمة حتى أنها كادت تستقل فى أواخر عهدهم، مما أوغر صدر بطليموس سوتير (الثانى) عليها فدمرها فى عام ٨٨ ق.م. فلا عجب أن سبقت غيرها من المدن إلى شق عصا الطاعة فى وجه الغزاة الجدد. ولعلها نكلت بالجباة الذين جاءوا لتحصيل الضرائب باسم الرومان. ويستطرد جاللوس قائلا إنه استقبل عند جزيرة فيله (قصر أنس الوجود) سفراء ملك الأثيوبيين (النوبيين). ولعل هذا الملك هو تيريتيكاس (Tireteqas)، زوج كنداكى (Kandakê) الملكة الشهيرة، التى حكمت النوبة من بعده. ويزعم جاللوس أن ملك النوبة قبل الحماية الرومانية وأنه عينه حاكما على تريا كنتاسخوينوس[(١)]، وهى منطقة نعلم أنها خضعت مرة للحكم البطلمى وربما كانت تمتد من الشلال الأول حتى الشلال الثانى عند وادى حلفا، أى بين حدود مصر وحدود النوبة الأصلية. ويختتم الوالى سجل انتصاراته بأنه أهدى هذا النصب التذكارى للآلهة الوطنية وللنيل بوصفه

(١) الكلمة يونانية ومعناها ثلاثون اسخوينوس، والأخير يساوى ستين استاديون، والاستاديون ١٨٥ متراً؛ أى مسافة طولها حوالى ٣٣٣ كيلو متراً.

العالم لاتستطيع مدينه تخفى وهى على جبل، ولا يوقد سراج فيوضع تحت مكيال بل على منارة ليضى لساير من في البيت، هكذا يضى نوركم قدام الناس فيروا اعمالكم الحسنه فيمجدو اباكم الذى فى السموات.

كما قال بعض الحكما: من رقى درجات العلوم والهمم عظم فى عيون الامم. ومن كرم خلقه وجب حقه. ومن هان عليه المال توجهت اليه الامال. من عقل ذال ظلمه ومن عدل نفذ حكمه.

نهراً جباراً أثار دهشته أو إلهاً أظهر له بعض آياته، كفيضانه أو غيضانه فجأة أو هدوء مائه الذى يسر لمراكب الرومان الملاحة فيه، وأعان قائدهم أثناء حملته على قمع الثورة.

وهذا النقش على جانب كبير من الأهمية، لا لأنه من أقدم الوثائق التى وصلتنا من الفترة الرومانية فحسب، بل لأنه يبين لنا أيضاً مدى اهتمام الحكومة الرومانية بتأمين الحدود الجنوبية للامبراطورية، ويلقى ضوءاً على سياسة أكتاڤيانوس الخارجية فى عدم توسيع رقعتها والاكتفاء بخلق مناطق حرام، تعترف فقط بالسيادة الرومانية الإسمية متاخمة لحدود الإمبراطورية تجنباً للنزاع مع الدول القريبة منها. على أن النقش يتسم أيضاً بطابع المغالاة ويشبه البلاغات العسكرية التى تجنح عادة إلى التهويل. وليس أدل على ذلك من حملة جاللوس التى وإن كانت قد قمعت ثورة طيبة، فإنها لم تؤمن حدود مصر الجنوبية، على نحو ما سنرى بعد قليل. ولقد روى أن هذا الوالى أسكرته خمر الانتصارات السهلة فسجل أخبارها على الأهرام وتملكه الزهو فنصب تماثيله فى جهات كثيرة من الوادى وطفق يتفاخر بأعماله متفوهاً بكلام فيه مساس بالإمبراطور. واستنكر أكتاڤيانوس مسلكه وتوجس خيفة من أطماعه فعزله من منصبه وجرده من حقوق المواطن ونفاه. ويروى ديون كاسيوس - وروايته لا تخلو من الاضطراب - أن أصدقاء جاللوس أنفسهم كالوا له التهم أمام المحاكم وقرر السناتو بالإجماع إدانته - أكبر الظن بتهمة الخيانة العظمى (maiestas) - ونفيه ومصادرة ضيعته وضمها إلى أملاك أغسطس.

الريس من يذب بملكه عن دينه ولا يذب بدينه عن ملكه. واحسن ما قيل في بعض جواهر الكلام: ان الراعى الصالح يصلح الرعيه وبالعدل يملك البريه. من عدل في سلطانه استغنى عن اعوانه. من كان فضله على الناس بمرتبه الرياسه ومزيه السياسه فحقيق عليه ان يحفظ بحسن الرعايه مرتبته لتدوم له النعمة ويسعد في الدين والدنيا، ومن مكنه الله من ارضه وبلاده وايتمنه على خلقه وعباده ورفع محله ومكانه فحقيق عليه ان يودى شكر الله بالامانه ويخلص الديانه ويجمل

واشتد الحزن بجاللوس فانتحر في عام ٢٦ ق.م. ومن العسير التيقن من صحة الأسباب التي أغضبت أغسطس على صديقه المقرب، وأول وال على مصر، وصديق فرجيل، الذى رثاه كشاعر مثله. وعلى أى حال فإن حادثة عزله تنهض دليلا على مدى حذر الإمبراطور من والى مصر الذى قد تغريه انتصاراته على تجاوز الحد المرسوم له والتفكير في التمرد عليه والاستقلال بالولاية الغنية.

وقد رأى أغسطس ـ كما رأى البطالمة من قبله ـ أن يحول طريق التجارة في البحر الأحمر إلى الموانى المصرية الواقعة على هذا البحر مثل برنيقى وميوس هُرموس وكانت القبائل العربية التى تقطن ببلاد العرب السعيدة Arabia Eudaemon = Ar. Felix (اليمن) والقبائل التى تقطن تروجلوديتيس Troglodytis (الصومال) تحتكر التجارة في سلع هامة كالعطور والتوابل والأخشاب والأحجار الكريمة الواردة من الشرق الأقصى والهند وأواسط أفريقيا ولذلك حاد أغسطس عن سياسة عدم التوسع لتحقيق هدف اقتصادى هام، فعهد إلى آيليوس جاللوس (Aelius Gallus)، ثانى ولاة مصر (٢٦ ـ ٢٤ ق.م.) بتجريد حملة على اليمن. وحشد هذا الوالي جيشاً كبيراً قوامه عشرة آلاف جندى وبعض وحدات مساعدة من الحامية المرابطة في مصر، وألف رجل من الأنباط بعث بهم الملك عبادة (الثالث) مع وزيره سُلاَيوس ليكون دليلاً للحملة، وخمسمائة مقاتل يهودى أرسلهم هيرود. وأعد آيليوس جاللوس في ميناء كليوباتريس

السيره ويحسن السريره ويجعل الخير دأبه المعهود والاجر غرضه المقصود. فالظلم يزل القدم ويجلب النقم ويزيل النعم ويهلك الامم، والعجول مخطى وان ملك، والمتأنى مصيب وان هلك. من استبد برأيه وقع فى شرك اعداه. من ركب العجل ادرك الزلل. من فعل ما شا [ء] لقى ما سا [ء]. زوال الدول من اصطناع السفل. من استعان بذوى العقول ادرك المأمول. من استشار ذوى الالباب سلك الصواب. حسن السياسه نور الرياسه. سو

(أرسينوى) ـ قرب السويس الحالية ـ أسطولاً من ثمانين سفينة ومائة وثلاثين حاملة للجنود. وأقلعت الحملة من هذا الميناء فى عام ٢٥ ق.م. واتجهت إلى ليوكى كومى Leukê Komê (الحوراء)، وهو ميناء نبطى على الساحل الشرقى للبحر الأحمر. وليس من المعروف لماذا نقل جاللوس قواته إلى مكان يبعد عن هدفه (أرض سبأ) بمسافة لا تقل عن ٩٠٠ ميل بدلاً من أن يحشدها فى ميناء جنوبى مثل برنيقى (مدينة الهرّاس) وينقلها بعدئذ عبر البحر إلى الساحل العربى تحت حراسة أسطول صغير بينما تحمى سفنه الحربية مواصلاته مع الساحل المصرى. وقد بلغت الحملة ليوكى كومى بعد خمسة عشر يوماً تكبدت أثناءها خسائر جسيمة فى الأرواح والسفن. فإلى جانب أن أسطوله الكبير كان عديم الجدوى ضد قوم لا يملكون أى سفن حربية، لم يقدر جاللوس خطر الشعاب المرجانية المنبثة قرب ساحل خليج السويس ولا الجزر الصخرية المتناثرة فى البحر الأحمر أو المياه الضحلة عند الشواطىء التى لا تصلح لرسو ناقلاته. ولم يكد يستقر فى ذلك الميناء حتى فتكت الأمراض الناجمة عن سوء التغذية وقلة المؤونة والقيظ والإعياء بعدد كبير من جنوده. واضطر إلى أن يقضى فيه بقية الصيف الحار والشتاء التالى كله ولم يتابع زحفه إلا فى ربيع عام ٢٤ ق.م. وبلغ نجران بعد حوالى خمسين يوماً عانى فيها مشاقاً جمة بسبب جهله بحرب الصحراء. ثم تقدم نحو ماريبا Mariba (مأرب؟)، وحاصرها ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها. وأخيراً نفد الماء فرفع عنها الحصار

التدبير سبب التدمير. اصطناع الجاهل اقبح رذيله واصطناع العاقل احسن فضيله، لان اصطناع العاقل يدل على استحكام العقل واصطناع الجاهل يدل على استحكام الجهل. وكل امر [ء] يميل الى مثله، وكل طير ياوى مع شكله. اعلم بأن سبب هلاك الملوك اطراح ذوى الفضايل واصطناع ذوى الرذايل والاستخفاف بنصح الناصح و الاغترار بتزكيه المادح.

والله الموفق للصواب بجوده وقدرته وعظمته انه على ما شا[ء] قدير له المجد دايما.

وانسحب نهائياً من تلك البلاد. وقد عاد فى هذه المرة عن طريق ميناء غار (ميناء المدينة) وركب البحر إلى ميوس هرموس (أبو شعر القبلى) واجتاز الصحراء الشرقية وبلغ قفط، ومنها سار إلى الدلتا والإسكندرية. ومع أن هذه الحملة أخفقت من الناحية العسكرية إلا أنها حققت جانباً من الهدف الاقتصادى المنشود منها. فقد بدأت هذه المنطقة تستشعر قوة الرومان وتحوّل جانب من تجارة الشرق من ميناء ليوكى كومى النبطى إلى ميناء ميوس هرموس المصرى، كما أتيحت للتجار الرومان فرصة استخدام موان جيدة وهم فى طريقهم من مصر إلى موانى الهند. ولم يتخل خلفاء أغسطس عن سياسة الاهتمام بطريق التجارة فى البحر الأحمر، وسرعان ما انتزعوا السيطرة من القبائل العربية. ويحدثنا مؤلف «دليل الملاحة فى البحر الأحمر» Periplus maris Erythraei ـ وهو كتاب من القرن الأول الميلادى يصف للملاحين والتجار الطرق الساحلية من مصر إلى الهند ـ بأن ملوك سبأ وحمير صاروا أصدقاء للأباطرة. ولم تلبث أدانا Adana (عدن) ـ وهى مركز هام للتجارة العابرة (الترانزيت) ـ أن وقعت تحت سيطرة الرومان، وإن كان تاريخ ذلك لا يزال موضع خلاف.

وقد انتهز الأثيوبيون (النوبيون) فرصة غياب جانب كبير من القوات الرومانية فى الحملة على بلاد العرب ونقضوا اتفاقهم مع كورنيليوس جاللوس وأغاروا تحت قيادة الملكة كنداكى (Kandakê) على المراكز العسكرية الرومانية فى جنوب الوادى وتغلبوا على الحامية

(مقدمة المؤلف)

[قال المصنف لهذه السيره ساويرس ابن المقفع الجامع]

لما علمت انا البايس الخاطى الغارق فى بحار اثامه النادم المفنى باخطايا ايامه المتأسف على تفريطه وتضييع شهور عمره واعوامه بالامل والتسويف المفسدين لدينه وقوامه.

وتحققت ما انعم به السيد المسيح المخلص، [لذكره السجود على جميع بنى المعموديه]الذى اشتراهم بدمه العظيم، ومعطى سلطانه وموهبة

المؤلفة من ثلاث كتائب ونهبوا جزيرتى فيله والفانتين وأسوان ثم حملوا معهم تماثيل أغسطس وأسروا بعض الأهالى. وقد أزعجت هذه الغارات السلطات الرومانية فى مصر فزحف جايوس بترونيوس (G. Petronius)، ثالث الولاة (٢٤ ـ ٢١ ق.م.)، صوب الجنوب على رأس قوة كبيرة قولها ١٠,٠٠٠ جندى من المشاة و ٨٠٠ فارس ليصد هجمات النوبيين ويكبح جماحهم. وقد ردهم على أعقابهم وتعقب فلولهم ودحرهم عند بسلكيس (الدكه)، وتابع زحفه واستولى على حصن بريميس Primis (قصر إبريم). وتوغل جنوباً حتى بلغ نباته Napata (جبل برقل)، العاصمة الشمالية للنوبيين على مقربة من الشلال الرابع فسقطت فى يده. وعندئذ أرسلت إليه كنداكى التى اعتصمت بمكان قريب تطلب المفاوضة. ورأى بترونيوس أن من الحكمة ألا يتوغل أبعد من ذلك فى منطقة وعرة مجهولة فاكتفى بأن استرد من النوبيين الأسرى الذين اختطفوهم من منطقة أسوان وكذلك تماثيل أغسطس. وعاد أدراجه شمالا إلى بريميس التى حصنها وترك بها حامية من أربعمائة جندى وزودها بمئونة عامين. ومن ضآلة الحامية يتبين أن بترونيوس لم يعتزم احتلال المنطقة إلا بصفة مؤقتة. وبعدئذ قفل راجعاً إلى الإسكندرية. ولم تمض سنتان حتى عاد النوبيون إلى مهاجمة الحامية الرومانية المرابطة وراء الحدود. واضطر بترونيوس إلى العودة على رأس قوات جديدة استطاع أن ينتزع بها قلعة بريميس من أيدى النوبيين ويعزز حصونها. وفى قصاصة بردية من مجموعة ميلان إشارة عابرة إلى هذه الحملة التى قام بها بترونيوس ضد الأثيوبيين. ولا تذكر البردية اسم الوالى بل تذكر

روح قدسه لتلاميذه واتباعه الاثنى عشر، والسبعين المنتخبين(*)، ومن يتبعهم مثل بولس معلم البيعه الذى خصه الله بدعوته لعلمه بقوه ايمانه وغيرته، ومن اصطفاه لكرسى شهيده وتلميذه المبشر بانجيله ورسوله الى خلقه وشعوبه.

اول بطاركه اقليم مصر والخمس مدن وهى برقه وفزان والقيروان وطرابلس الغرب وافريقيه والحبشه والنوبه كل هذه وقعت فى كرازته بأمر روح القدس. وكانت شهادته بعد كرازته باسم

(*) الاتباع الاثنى عشر: هم الاثنى عشرة رسولاً: (١) بطرس. (٢) اندراوس، كان أخاً لبطرس. (٣) يعقوب، كان أخاً ليوحنا. (٤) يوحنا. (٥) فيلبس. (٦) برتولماوس، ناثان إيل. (٧) متى، لاوى بن حلفا. (٨) توما. (٩) يعقوب بنى حلفا، وهو ابن خالة المسيح وأخو يهوذا. (١٠) سمعان. (١١) يهوذا. (١٢) متياس، أحصى مع الرسل بدل يهوذا الذى شنق نفسه بعد خيانته للمسيح.

- -

فقط اسم ضابطين من مساعديه، أحدهما روفوس قائد المشاة، والآخر تروجوس قائد الفرسان. وعندئذ كفت كنداكي عن القتال وجنحت للسلم وطلبت الصلح، فأحال بترونيوس الوفد النوبى على الإمبراطور الذى كان يقيم وقتئذ بجزيرة ساموس (شتاء عام ٢١ ـ ٢٠ ق.م.). وقد نص الصلح الذى عقد بين الطرفين على إعفاء النوبيين من دفع الجزية، واحتلال الرومان دوديكاسخوينوس (Dôdekaschoinos)، وهى المنطقة الممتدة بين سوينى (أسوان وهيراسيكامينوس Hierasykaminos (المحرّقة). وقد ألحقها الرومان بإقليم إلفانتين الذى يقع فى أقصى جنوب مصر، وأنشأوا فيها بضعة مراكز عسكرية لا تزال آثارها تشاهد حتى اليوم فى بسلكيس pselkis (الدكه) وتالميس Talmis (كلابشة) وترتزيس Tzitzis (كرتاسى) وبارمبولى Parembolê (دبود). وبفضل هذه الاستحكامات القوية، وولاء كهنة الربة إيزيس فى جزيرة فيله، التى اعتبرت المنطقة المفتوحة من أملاكها الخاصة، استقر السلام فترة طويلة فى الجزء الشمالى من النوبة. وفى نقش يونانى من الدكة يرجع إلى عام ١٣ ق.م، نجد بعض السفراء النوبيين ممن يحملون أسماء يونانية يؤدون ـ بعد عودتهم (من عند أغسطس؟) إلى الملكة كنداكي ـ فرائض العبادة لأحد الآلهة المحلية. وبغض النظر عن الحملة التى أزمع الإمبراطور نيرون القيام بها فى النوبة، فإننا لا نسمع أن هذه البلاد عادت إلى شهر السلاح فى وجه الرومان قبل منتصف القرن الثالث الميلادى.

السيد المسيح فى مدينة اسكندريه على ما شهدت به سيرته. وورثوا ابهاتنا البطاركه تعاليمه المخلصه للنفوس من الجحيم وجلسو على كرسيه واحد بعد واحد خلف بعد سلف [فكلهم خلفاه الناقلون عنه ورعاة رعيته ومقتدون بايمانه فى المسيح]، مارى مرقس الانجيلى الطاهر والناظر وجهه. ومن بعده من خلفاه البطاركه واردة معرفة سيرهم واسماهم وتقلبهم كل منهم فى عصره وزمانه وما لقيه من التعب والنصب والجهاد على

خريطة قديمة لمدينة الاسكندرية بأسوارها. تظهر بها أفرع القنوات التى كانت تربطها بالنيل. لاحظ أن الخريطة رسمت مقلوبة كما كانت عادة رسامى خرائط ذلك العصر بحيث صار الشمال لأسفل والجنوب لأعلى.

اسم سيده ومسيحه، وحفظ رعيته وقتا بعد وقت وزمانا بعد زمان.

وانا ممن لا يجب له ان يكتب بخط يده الباليه الفانيه شيا من اخبارهم فاستعنت بمن اعلم استحقاقهم من الاخوة المسيحين وسألتهم مساعدتي على نقل ما وجدناه منها بالقلم القبطى الى القلم العربى الذى هو اليوم معروف عند اهل هذا الزمان باقليم ديار مصر لعدم اللسان القبطى(*) من اكثرهم ليكتفي بذلك عند وقوفه عليه.

(*) المقصود بعدم اللسان القبطى هنا أختفاءه من الدواوين وليس بين الشعب المصرى.

وفيما عدا التعديلات التى أدخلها أغسطس على نظام الإدارة البطلمية، والإصلاحات العاجلة التى قام بها لتحسين الزراعة وتنمية التجارة كتطهير القنوات وشق الترع وبناء صهاريج المياه على الطرق الصحراوية بين قفط وميوس هرموس مما أدى إلى انتعاش الحالة الاقتصادية في البلاد بوجه عام، لم تقع أى أحداث هامة تمس علاقة مصر بالإمبراطورية. وليس أدل على هدوء الأحوال واستتباب الأمن من أن تيبريوس (Tiberius) الذى خلف أغسطس على عرش الإمبراطورية (١٤م ـ ٣٧م) سحب من مصر إحدى الفرق العسكرية الثلاث حوالى عام ٢٣، هذا إذا لم تكن قد سحبت من قبل فى عام ٧م أثناء عصر أغسطس. وقد اشتهر هذا العاهل بحزمه مع مرءوسيه وحرصه على إنصاف رعاياه فلم يتوان عن حمايتهم من تعسف الولاة وابتزازهم حتى لا تنشب اضطرابات تعكر صفو السلم. وعندما أرسل إليه أحد ولاة مصر الجزية السنوية زائدة عن القيمة المقدرة، لفت نظره قائلاً إنه إنما أوفده إلى مصر ليجز وبرها لا ليسلخ فراءها[1]. ولعل ذلك يفسر لماذا بدأ فى عهده يستبدل بنظام التزام الضرائب المباشرة نظام

(١) الترجمة الحرفية للفقرة اليونانية كما وردت عند المؤرخ ديون كاسيوس (LVII,10,5) هى: «أريد أن يُقص وبر أغنامي لا أن يجز كله جزاً». غير أن الترجمة الواردة أعلاه أدل على المعنى المقصود ويعتمدها القاموس اليوناني ـ الانجليزى. والكلام موجه إلى آيميلوس ركتوس (Aemilius Rectus). الذى لم يكن والياً على مصر إلا في عصير كلوديوس. ولعل المؤرخ يقصد بتيبريوس الإمبراطور «تيبريوس كلوديوس قيصر» غير أن الأستاذ شتاين لا يستبعد أن ايميليوس ركتوس كان والياً في السنة الأولى من حكم=

وابتـهلت الى واهب كل عـتى المنطق، ومفـوه كل بليـد، وداعـى المثـقلين بالاوزار مـثلى كـالقـول الانجيلى القـايل من فـمـه المقـدس: تعـالو الى ايهـا المتـعـوبون الحـاملو الاثقـال لاريحكم وتعلمـو منى فانى سـاكن متواضع القلـب لتجدو راحه لانفسكم، واحملو نيرى خفيف. ومحملى طيب ان يسامحنى بزللى واقدامى على ما يضاهى افعالى الدميمه واثامى وخطاياى العـميـمـة. واسـتنسـخت مـا لم اعلمـه من الاوايل حسبـما تضمنته قوانين البيعه

جبايتها على يد محصلين من قبل السلطة العامة (Praktores) . غير أن عهده شهد أيضاً بداية نظام الخدمات الإلزامية (leitourgiai)، ذلك النظام الذى أرهق الأهالى إرهاقاً شديداً وعاد تطبيقه بأوخم العواقب على اقتصاديات البلاد.

٣. زيارة جرمانيكوس:

وينبغى أن نذكر هنا حادثة زيارة جرمانيكوس لمصر. كان جرمانيكوس ابناً لدروسوس، شقيق تيبريوس[١]. وبعد موت أبيه فى عام ٩ .قم. تبناه عمه فى سنة ٤م تلبية لرغبة أغسطس. فلما اعتلى تيبريوس العرش فى عام ١٤م أصبح جرمانيوس بمثابة ولى للعهد. وبينما كان الإمبراطور رجلا مسناً عبوساً مقتراً سيء الظن بالناس، كان جرمانيكوس شابا بشوشاً كريماً لطيف المعشر محبوباً من الجماهير. وكان قد قمع حركة تمرد بين صفوف الجيش الرومانى المرابط على الرين واسترد ولاءه ثم قاد هذا الجيش، دون استئذان الإمبراطور، عبر النهر حيث

= تيبريوس (١٤م)، وأن الوالى الذى حكم مصر فى عصر كلوديوس، ويرد اسمه فى وثائق كثيرة، هو ابن الأول.

(١) كان دروسوس وتيبريوس ابنى ليڤيا زوجة أكتاڤيانوس (أغسطس) بعد طلاقها من تيبريوس كلوديوس نيرون. وقد خلع عليه السناتو بعد وفاته فى عام ٩ ق.م. وعلى ذريته لقب جرمانيكوس أى قاهر ألمانيا لانتصاراته فى أراضى الرين. وجرمانيكوس الذى نروى قصته أعلاه هو والد كاليجولا الذى اعتلى العرش بعد تيبريوس (٣٧ ـ ٤١م.) وشقيق كلوديوس الذى اعتلى العرش بعد كاليجولا (٤١ ـ ٥٤م.).

على ما يأتي به الشرح وما نادت بهاالاحاديث والاخبار،واضفت الى ذلك ما عرفته من سير من شاهدته من الابا [ء] البطاركه. وسألته،جلت قدرته، ان يغفر لى ما جا[ء] فيه من زايد لفظ او تحسين كلام، وما نسبته الى نفسى الخاطيه من تسطير خبر من لا استحق ان اكون اقل تلاميذه، واشرحه من فضايل رهبان) قديسين مو(ء) يدين بنعمة روح القدس بالمشاهده، ونقل الاخبار. وانا اضع مطانوات (*) عده لمن قرا ما كتبته ان يستغفر

(*) مطانوات: دعوات واسترحامات.

أنزل بالجرمان ثلاث هزائم، ولكنه لم يستطع إخضاعهم إخضاعاً هاماً، بل إن جيشه منى بخسائر فادحة وكاد مرة أن يقع كله في كمين نصبه الأعداء (١٤ ـ ١٧م). ورأى تيبريوس ألا يطيل أمد الحرب فاستدعى ابن أخيه إلى روما، إما لعدم ثقته في كفايته أو قلقه من طموحه أو غيرته منه، ولعله تذرع بالحاجة إليه في ميدان آخر. فقد حدث أن اضطربت أحوال بعض الولايات الشرقية بآسيا الصغرى وبخاصة في أرمينيا. ولما كانت مهمة تنظيم شئون كل هذه الولايات مهمة غير عادية، فقد آثر تيبريوس أن يعهد بها إلى أمير من الأسرة المالكة. وحار الإمبراطور لأنه لم يكن في وسعه أن يتجاهل جرمانيكوس الذى عاد من الرين على مضض منه. ولم يلبث السناتو أن منح الأمير سلطة بروقنصلية استثنائية (imperium Proconsulare maius) أكبر من سلطة حكام الولايات الشرقية المحتاجة إلى التنظيم. وصادق الإمبراطور على قرار السناتور وإن لم يكن في قرارة نفسه واثقاً في مقدرة جرمانيكوس أو مطمئناً إلى سلوكه.

ورحل جرمانيكوس إلى الشرق في رفقة رهط من كبار العسكريين والأدباء، ومر في طريقه ببلاد اليونان وآسيا الصغرى حيث زار أماكن تاريخية شهيرة. وكان يقابل أينما حل بحفاوة منقطعة النظير. فقد نظمت المدن مواكب فاخرة ترحيباً به، واعتبرت يوم ميلاده عيداً قومياً وخلعت عليه ألقاباً إلاهية وشبه إلاهية كالظاهر والمنقذ والخير، وشيدت له تماثيل تكاد لا يحصرها العد، وسكت نقوداً تحمل اسمه، وهو عمل فيه افتئات على حق الإمبراطور. وبعدئذ

لى فيما اقدم عليه ونسبت اليه، ويدعو لى بالعفو والمسامحه والغفران بشفاعة سيدة الاولين والاخرين المختاره كرسي رب العالمين [مريم العدرا]، والملايكه المقربين والطغمات الروحانيات، والانبيا الصديقين المويدين، والرسل الاطهار المنتخبين، والشهدا المجاهدين الابا القديسين، والابرار والشيوخ الصالحين وكلمن ارضاه بعمله من ذرية ادم امين.

اللهم اني اسيلك ان تفتح عيني قلبي وبصرى

شرع جرمانيكوس ينظم شئون بعض هذه الولايات الشرقية مستعيناً بمساعديه في تنظيم بعضها الآخر. وأرهق نفسه بالعمل فشعر بالحاجة إلى الاستجمام. وخطر له أن يزور مصر فرحل إليها في أول عام ١٩ لمشاهدة آثارها على نحو ما يفعل السواح في وقتنا الحاضر. غير أن الحجة التي ساقها جرمانيكوس لتبرير زيارته هو اهتمامه الشديد بأمر الولاية أو رغبته في تخليصها من أزمة اقتصادية ألمت بها بسبب القحط. لقد كانت خطوة جريئة تتفق وما نعرفه عن استهتار جرمانيكوس وتكشف عن استخفافه بالجالس على العرش. وفيما يلي ما ذكره المؤرخ تاكيتوس عن هذه الرحلة [١].

٥٩ـ « في أثناء قنصلية ماركوس سيلانوس ولوكيوس نوربانوس ذهب جرمانيكوس إلى مصر للتعرف على تاريخها القديم، غير أنه تذرع بحجة الاهتمام بالولاية، وقد خفض الاسعار بأن فتح صوامع الغلال واصطنع أشياء كثيرة محببة إلى قلب الجمهور. فقد مشى دون حرس وانتعل صندلا وارتدى زيا كزى الاغريق مجاراة لبوبليوس سكيبيو الذى سمعنا أنه اعتاد أن يفعل عين الأشياء في صقلية مع أن الحرب البونية كانت ما تزال مشتعلة» وقد انتقد تبيريوس (ارتداءه) الزى (الاغريقي) ومسلكه انتقادا هينا ولكنه وبخه توبيخا لاذعا لانه دخل الاسكندرية دون ارادة الامبراطور متخطيا قواعد أغسطس. ذلك أن أغسطس من بين الأسرار

(1) Tacitus, Ann II, 59 - 61 (O.C. T. by CD. Fisher).

لافهم كلامك وسمعى لا سمع واعمل ما ينبغى
وانعم على ان لا تواخذنى عليه وتسامحنى وتغفر
لى هفوة انبساطى اليه واحسن قايلا واثقا. بعفو
الله تعالى.

الأخرى الخاصة بتوطيد سيادته، قد عزل مصر مانعا أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان الرومان اللامعين من دخولها الا باذن مخافة أن يصيب ايطاليا بمجاعة أى شخص قد يحتل تلك الولاية ونقطتى الدفاع عنها من البر والبحر، ولو بحامية بسيطة ضد جيوش ضخمة.

٦٠ـ غير أن جرمانيكوس الذى لم يكن قد بلغه بعد أن رحلته تلك كانت موضع الهجوم، صعد فى النيل (الى مصر العليا) بادئا من كانوب[١]، وهى بلدة أسسها الاسبرطيون تخليداً لذكرى كانوبوس، ربان السفينة الذى دفن هناك عندما هبت عاصفة أثناء عودة مينيلاوس الى بلاد اليونان[٢]، فجعلته ينحرف الى عرض البحر ثم قذفت به على ساحل ليبيا (أفريقيا)، ومن هناك زار مصب النيل التالى، وهو موقوف على عبادة هرقل[٣].

... وبعدئذ زار الاثار العظيمة فى طيبة القديمة[٤]، وكانت لا تزال باقية على الصروح الضخمة كتابات مصرية[٥] تشرح قصة البذخ الغابر..

---

(١) كوم سمعدى جنوبى أبى قير.
(٢) أى عودته من الحملة على طروادة. ومينيلاوس هو أمير اسبرطه وشقيق أجاممنون وزوج هلينى التى أغواها باريس بن بريامـوس ملك طرواده وفرت معه فثارت من أجل ذلك الحرب الطروادية موضوع إليـاذة هوميروس.
(٣) عن هرقل الذى يقارنه الأستاذ بروجش بخونسو ـ نفر حتب، إله القمر وأحياناً إله الشمس فى طيبة، أنظر: Herodotus II. 43 ff..
(٤) الأقصر والكرنك ومدينة حابو.   (٥) أى نقوش هيروغليفية.

بسم الاب والابن والروح القدس الاله الواحد

عظيم هو الرب ومسبح جداً، وعظيمه اعماله لا تفحص اسراره ولا حكمته ولا يقدر بشرى على ادراك شي من اموره العاليه عن افهام الفهما والفقها، وبالمسأله ضارعين قايلين: اللهم الذى خلقتنا ورزقتنا وامرتنا ونهيتنا وخوفتنا بالعقاب على ما نهيتنا عنه، وارشدتنا الى نجاة انفسنا والطرق الصالحه، فهفونا باراتنا وتمردنا باختيارنا. فنضرع اليك يا ذا الطول والاحسان والقدره والامتنان

٦١ـ غير أن عجائب أخرى استرعت كذلك انتباه جرمانيكوس وعلى الأخص تمثال ممنون الحجرى الذى يرجع نغما موسيقيا عندما تمسه أشعة الشمس[١]، والاهرام التى شادها ملوك

(١) ممنون فى الأساطير اليونانية هو ابن ربة الفجر أيوس (Eos) من تيثونوس (Tithonos) الذى عاشرها متقمصاً شكل الفراشة. وقد وفد إلى طرواده من إثيوبيا، بلاد الشمس الشرقية، لمساعدة أسرة أبيه ولكنه هلك على يد أخيليوس (أخيل)، وهى حادثة مفجعة من أساطير البطولة أثارت لوعة ربة الفجر وأغرقها فى حزن عميق. وقد أطلق اليونان اسمه على تمثالى أمنحتب (أمينوفيس) الثالث وزوجته تى (حوالى ١٤٥٠ . ق.م.) فى مدينة حابو. وأول من وصف ظاهرة النغم الصادر من هذين التمثالين هو استرابون (XVII, 1, 46) الذى زار طيبة فى رفقة صديقه آيليوس جاللوس والى مصر فى عام ٢٥ ق. م. وسمع استرابون صفيراً خافتاً فى الساعة الواحدة (بعد شروق الشمس، أى الساعة ١٥ ,٨ إذا كان الوقت شتاء، ٤٠ ,٥ إذا كان الوقت صيفا)، ولكنه لم يستطع أن يجزم إن كان الصوت قد صدر من القاعدة أم من التمثال أم من أحد الواقفين قرب القاعدة. ويضيف أنه ربما صدر من الحجارة المصفوفة على هذا النحو. وعن تمثالى ممنون أنظر أيضاً جوڤينال (Sat.XV, 5-6). ومن بين الشخصيات الرومانية التى زارت هذا المكان فونيسولانا ڤيتولا زوجة الوالى تتيوس أفريكانوس فى يوم ١٢ فبراير عام ٨١ وسمعت الصوت (للمرة الثالثة!) فى الساعة الواحدة والنصف أى الساعة ٤٥ ,٨ صباحا = I.L.S. 8759 C) (Barrow, Selection of Latin Insctiptions, No. 152 كما زاره أيضاً الإمبراطور هدريان فى نوفمبر عام ١٣٠م. مع رجال حاشيته وسجلت بالبيلا، إحدى الوصفيات، بعض الأشعار (epigrammata) على أحد التمثالين: (C.I.G.III. 4725, 4727, 4729-4731). وعندما جاء الإمبراطور سبتميوس سڤيروس إلى مصر فى آخر عام ١٩٩م زار طيبة فى عام ٢٠٠ وأمر بترميم التمثال المتصدع فلم يصدر عنه صوت منذ ذلك الحين.

الغافر لكل من اقبل اليه بنية صادقه ان تنعم علينا وان تكون لنا ابتـدا [ء] وعونا و تماما فى الطريق التى نسلك اليك فيـهـا، وان تفـتح عيـون قلوبنا المظلمه وافكارنا المدلهمه لنحفظ ونعمل بما نقراه فى كتبك المقدسه، واخبار من احببته واصطفيته من اوليـا[ء]ك ومن انتخبتـه، المجاهدين القـاهرين شهواتهم الرافضين العالم لمحبتهم فيك وسماعهم وصاياك واوامرك. وتنعم علينا بخاتمة خير ليكون خـروجنا من هذا العـالم بخـروج من اصطفيـتـه، مـخلصين من الخطايا والذنوب التى لا يسلم منهـا

- -

متنافسون بثرائهم فى ضخامة الجبال وسط رمال متناثرة من العسير اجتيازها، والبحيرة التى حفرت فى الارض لتخزن ماء فيضان النيل[١]، وفى مكان آخر خوانق ضيقة وأعماق شديدة لاتستطيع أن تسبر غورها مسابر المستكشفين. وبعدئذ وصل إلى الفانتين وأسوان، وهما حصنا الدفاع قديما عن حدود الامبراطورية، التى امتدت الآن الى البحر الأحمر[٢].

يتضح من هذا النص الهام أن القواعد التى وضعها أغسطس محرماً بها على أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان اللامعين دخول مصر إلا بإذن صريح من الإمبراطور، كانت تنطبق أيضاً على أعضاء الأسرة المالكة. وفى الحق أن جرمانيكوس بوصفه پروقنصلاً (نائب قنصل) كان فى عداد هيئة السناتو إن لم يكن بحكم مركزه عضواً فى ذلك المجلس. وعلى أى حال فالنص دليل واضح على مدى حرص الأباطرة على تأمين مصر من أطماع الشخصيات الكبيرة حتى ولو كانت من أمراء أسرته. ولا ندرى كيف اجترأ جرمانيكوس على اتخاذ مثل هذه الخطوة. لعله اعتقد أن «سلطته البروقنصلية الكبرى» تخوله ـ مثلما خولت لجايوس قيصر من قبله[٣] ـ حق دخول مصر دون استئذان الإمبراطور، أو لعله لم يفكر فى الأمر

....

(١) المقصود هنا بحيرة موريس، المعروفة الآن ببركة قارون بالفيوم.

(٢) المقصود بالبحر الأحمر، بحر العرب الذى امتدت حدود الامبراطورية إليه بعد فتوحات تراجان فى عام ١١٥/١١٦م.

(٣) جايوس قيصر (c.Caesar) أكبر أبناء چوليا، بنت أغسطس، من أجريپا، أخلص مساعديه. ولد فى=

بشر. ولكي نخلص من المقام المفزع المرهوب اذ انعمت علينا وعتقتنا من سلطان ابليس ومن عبودية الخطيه، وتنعم علينا بحكمه روحانيه ندوس بها الشهوات العالميه [الدنيوية] مع العمل بحفظ وصاياك والخروج من هذه الدنيا الزايله بزاد الحياه المؤبده، وبجواب مقبول امام منبرك الهايل المرهوب، واجعل سعينا فيما انعمت به علينا ايام مقامنا فى هذا العالم فيما يرضيك وفى طاعتك واتباع شريعتك المهديه المحيه، واهدنا الى سيرتك

إطلاقا. ومن العسير أن نعرف الباعث الحقيقي على تلك الزيارة التى أثارت قلق تيبريوس، وإن كنا نستبعد أنها كانت تخفي ورائها أى هدف سياسي.

وقد شاء القدر أن تصلنا بردية يونانية تحتوى على منشورين أصدرهما هذا الأمير أثناء إقامته في مصر. ويثير ذلك السؤال التالي: هل كان من حق جرمانيكوس أن يصدر منشورات فى مصر مع وجود الوالي الشرعي، نائب الامبراطور؟ من الواضح من رواية تاكيتوس أنه لم يكن يجوز له أن يدخل مصر دون تصريح، ومن باب أولى أنه لم يكن يجوز له أن يصدر فيها أى منشورات أو أن يأمر بفتح صوامع الغلال، حتى ولو لم تكن هذه صوامع القمح المعد

= عام ٢٠ ق.م. وتبناه أغسطس في عام ١٧ ق.م. وعين عضواً في مجلس الشيوخ عام ٥ ق. م. وهو في سن الخامسة عشرة ونادى به الفرسان زعيما للشباب (Princeps Iuventutis)، وكان أغسطس ينتوى أن يستخلفه. وعندما طرد سكان أرمينيا بتحريض البارثيين الملك الموالى لروما قبيل عام ١ ق. م. أوفد أغسطس جايوس قيصر إلى أرمينيا لاسترجاع النفوذ الروماني وزوده بسلطة بروقنصلية (imperium proconsulare) أعلى من سلطة حكام الولايات الشرقية. وفي طريقه إلى الشرق زار جايوس قيصر جزيرة سلموس ومنها عرج على مصر ربما ليقف بنفسه على أحوال تلك الولاية ذات الأهمية الاقتصادية الحيوية، وإن قيل إنه زارها ليبدأ الاستعدادات لحملة جديدة على اليمن عوضاً عن حملة جاللوس الفاشلة، أو ـ في أغلب الظن ـ على بلاد العرب البتراء. ومن مصر أبحر إلى سوريا حيث بلغه نبأ اختياره قنصلا لعام ١ م. وقد مات متأثراً بجراح أصابته في إحدى معارك توميتيا أثناء عودته إلى إيطاليا في ٢١ فبراير من عام ٤م. بإقليم ليكيا. وقد حزن أغسطس عليه أشد الحزن وبخاصة أن أخاه لوكيوس قيصر الذى كان يصغره بثلاث سنوات لقي حتفه هو الآخر قبل ذلك بعامين في ٢م.

المهديه لتساق عقولنا الى ملكوتك، وتكون اعمالنا محققه لتعاليم انجيلك المقدس.

انت قلت يا رب: سلو تعطو اطلبو تجدو اقرعو يفتح لكم، وانا اطلب اليك، ثقه بقولك من غير عمل عملته يرضيك و لا لى حسنات قدمتها اليك بل لاجل اسمك المسمى علينا كما قال داود المغبوط في مزمور : ليس لنا يا رب ليس لنا لكن لا سمك اعط المجد على رحمتك وحقك لئلا تقول الامم اين الاههم، والاهنا في السما والارض

للتصدير إلى روما. لقد افتأت جرمانيكوس على حق الوالي لأن سلطته البروقنصلية التي خوّلت له في بعض الولايات لم تكن تسرى في مصر. غير أن جرمانيكوس، وقد اعتقد أن مصر تدخل في نطاق هذه الولايات، اعتقد بداهة أن سلطته ـ وهي سلطة أكبر (maius) من سلطة حكام الولايات ـ تجعله في مركز أعلى من الوالي. ومن ثم لم يعترف بسلطة الوالي ولم يستعن به. ولو أنه فعل ذلك لكان في هذا اعتراف رسمي منه بعدم دستورية وضعه في مصر. وفي رأى أحد الباحثين أن جرمانيكوس لم يدخل مصر بمقتضى سلطته الاستثنائية، بل دخلها وتصرف فيها على هذا النحو بوصفه ولياً للعهد، أى بوصفه ابناً للامبراطور الذى كان بمثابة أحد الفراعنة. وأياً كان الأمر فإن لهجة المنشورين توحي بأن جرمانيكوس أضطر إلى إصدارهما، فقد أصدر الأول ليكبح جماح موظفى السلطة المحلية وأفراد حاشيته الذين استغلوا تعلق الناس به ففرضوا عليهم تقديم مختلف التبرعات والخدمات إرضاء للأمير وحرصاً على راحته، وأصدر الثاني ليناشد الأهالي عدم المغالاة في الترحيب به والكف عن مناداته بالقاب لا تليق إلا بالجالس على العرش. يقول جرمانيكوس في المنشور الأول: «جرمانيكوس قيصر بن أغسطس حفيد أغسطس المؤله[١] نائب القنصل، يعلن: (بلغنى انه بمناسبة زيارتى) قد أكره

(١) المقصود بابن أغسطس، بن تيبريوس (بالتبنى) الذى حمل كسائر الأباطرة من بعده لقب أغسطس. ومعنى حفيد أغسطس المؤله، أى حفيد أكتافيانوس (أغسطس) الذى كان أبا (بالتبنى)لتيبريوس نفسه، ابن زوجته.

كلما شا [ء] فعل. يا رب نجنا وخلصنا وكن لنا في دنيانا هذه حافظا ومسلما في جميع امورنا صغيرها وكبيرها جليلها وحقيرها، وترأف يا رحوم وانعم يا ر[ء]وف بهدايتنا الى ما يرضيك وابعادنا مما يسخطك. فانت قلت يارب: ارجعو الى فاغفر لكم ولو كانت ذنوبكم عدد رمل البحر ونجوم السما. فتمم وعدك لنا نحن الخطاه، ولا تلتمس منا توبه ولا عملا بل برأفتك ورحمتك واحسانك انعم بالمعونه على طلب عبدك الخاطى الغافل عن وصاياك من كتب هذه السير الجليله مبتديا قايلا:

الناس على تقديم مراكب ودواب وان منازل للضيافة قد أخذت بالقوة للاقامة وأن وسائل الارهاب قد استعملت مع الافراد. لذلك رأيت من الضرورى أن أعلن أننى لا أريد أن يستولى احد على مركب أو دابة الا بأمر بابيوس صديقي وأميني: ولا ان تغتصب منازل للضيافة. فان تكن هناك حاجة، فان بابيوس نفسه سيوزع منازل الضيافة بالعدل والقسطاس. وبالنسبة لما يلزمنا من المراكب أو الدواب فانى آمر بدفع الاجور وفقا للجدول الذى قدمته. وانى لارغب في احضار المخالفين إلى أمينى الذى سيتولى هو نفسه منع الظلم عن الافراد أو يبلغنى الأمر. وامنع من يلتقون بالدواب أثناء مرورها بالمدينة من اغتصابها بالقوة، لان ذلك عمل من أعمال اللصوصية الفاضحة».

ومع هذا كله نجد السلطات في طيبة التي يبدو أن هذا المنشور لم يبلغها إلا فى وقت متأخر، تلزم مزارعاً بتقديم مقدار من القمح بمناسبة زيارة جرمانيكوس. فلما عجز عن ذلك ألزمته فى ٢٥ يناير عام ١٩ بتقديم ما يعادل قيمته نقداً. وأما فى المنشور الثانى فيقول جرمانيكوس بعد الديباجة.

«اننى أرحب بالشعور الطيب الذى تبدونه دائما نحوى كلما رايتمونى. غير اننى أستنكر استنكارا تاما مناداتكم اياى بألقاب تثير على البغضاء لانها كالقاب الآلهة، ولا تليق الا بأبى المنقذ الحقيقي للجنس البشرى كافة ومسدى الخير له، وبأمه التي هى جدتي، فكل ما نملك لا

بسم الاب والابن والروح القدس الاله الواحد

نبتدى بعون الله وحسن توفيقه بكتب سير البيعه المقدسه. قال المصنف فيما صنفته انا الخاطى جمعته من دير القديس ابى مقار وديارات الصعيد وتولى نقل بعضه الشماس الدين ميخايل ابن بدير من لغة القبطي الى العربى مما ياتى ذكره فى موضعه سوى ما كان فى المدينة العظمى [اسكندريه] وما وجد منها مختصرا من سير الاول منها، المسيح عونى ورجائى وناصرى وخلاصى.

يعدو أن يكون أثرا من آثار ألوهيتهما، وإذا لم تمتثلوا لامرى فسوف ترغموننى على ان لا أظهر بينكم كثيرا».

وينبغي أن نسأل أولا عن أسباب ذلك الحماس الشديد الذى استقبل به مواطنو الإسكندرية وسكان مصر جرمانيكوس وحفاوتهم البالغة به. لقد ذكر المؤرخ تاكيتوس فى النص الذى تقدمت ترجمته بعض هذه الأسباب: كسلوك الأمير مسلكا من شأنه تحبيب الجماهير إليه وتودده إليهم ببساطته واختلاطه بهم دون حرس، وانتعاله صندلاً يونانياً وارتدائه ـ مثلما فعل ماركوس أنطونيوس ـ قميصاً يونانياً، ومخاطبته إياهم ـ وهذا ما نعرفه من مصدر وثيق آخر ـ بلغتهم اليونانية التى كان يتقنها. كما أنه لم يترفع ـ على نقيض أغسطس ـ عن زيارة معبد أبيس. وأهم من ذلك أنه أمر بفتح صوامع الغلال فهبطت أسعارها فى السوق، وبتوزيع القمح على سكان المدينة دون اليهود. وكان هذا وحده كفيلا بإلهاب حماس الإسكندريين له ورضائهم عنه. وفي وسعنا أن نضيف سبباً آخر. لقد كان جرمانيكوس ـ بغض النظر عن جايوس قيصر، حفيد أغسطس، الذى قيل إنه زار مصر فى عام ١م. ولكننا لا نعرف أى تفاصيل عن زيارته ـ أول أمير رومانى يزور الإسكندرية منذ دخلها أغسطس غازياً فى عام ٣٠ ق.م ويطوف بأنحاء مصر سائحاً لمشاهدة آثارها. وكان هذا أيضاً خليقاً بإثارة حماس الإسكندريين الذين عرفوا بميلهم إلى الصخب والمظاهرات ـ أكبر الظن تنفيساً عما فى

فاول ذلك ما نقل بدير السيده [العدرا] بنهيا عن سبب كهنوت المسيح السيد جل اسمه ودخوله الى الهيكل بسلام الله امين امين امين.

انه لما كان فى زمان يوليانوس الملك الكافر، كان رجل يهودى كاهن لليهود اسمه تاودوسيوس شيخ مقدم، وكان انسان نصرانى صايغ يعرفه، وبينه وبينه موده اكيده، واسم النصرانى فيلبس. ولما كان فى بعض الايام وصل فيليبس الى بعض مدن الشام وارسى مركبه فى المينا ليبيع تجاره

صدورهم من كبت وضيق من استبداد المحتلين ـ واشتهروا بالمغالاة فى مدح المحسنين وذم المسيئين. ومع هذا فنحن لا نستبعد أن يكون سبب تهافت مواطنى الإسكندرية على جرمانيكوس شيئاً آخر. لقد كانوا ـ فيما يبدو ـ على علم بما بين تيبريوس وجرمانيكوس من جفوة ونفور، فبادروا إلى الترحيب بالأمير الشاب نكاية فى الإمبراطور، صاحب السلطة الشرعية فى روما. وسنرى فى الفصول التالية كيف كانت الإسكندرية تسارع دائماً إلى تأييد أدعياء العرش المتمردين على الأباطرة.

وقد بدأ جرمانيكوس يشعر بما قد تجره عليه هذه الزيارة من عواقب وخيمة وأن زمام الموقف قد يفلت من يديه. وزاد من قلقه أن أهالى مصر نادوه بألقاب أشبه ما تكون بألقاب الآلهة، بل هى ترفعه إلى مصاف الآلهة، ولا تليق إلا بالإمبراطور وزوجته. فما هى هذه الألقاب؟ إن سياق المنشور يوحى بأن هذه الألقاب لم تتعد المنقذ (sôtêr) والخيِّر (euergetês). غير أن هذين اللقبين كثيراً ما خلعا على من هم دونه مقاما، فضلا عن أن مدن آسيا الصغرى ـ كما قدمنا ـ قد خلعت عليه عين الألقاب، بل إن بلدة پتارا (Patara) نادته هو وابن عمه دروسوس بالإلهين الظاهرين (theoi epiphaneis). ومع هذا فلم نسمع أن جرمانيكوس صد أهالى تلك المدن أو زجرهم. لابد إذن ـ كما يعتقد أحد الباحثين ـ من أن أهالى مصر نادوه أيضاً بلقب معين آخر لا يجوز خلعه إلا على الإمبراطور وحده. هذا اللقب ـ

كانت معه، فاجتمع فيلبس باليهودى الكاهن تاودوسيوس صديقه فوادده وحادثه وقال له: يا اخى احب ان تكون نصرانيا لتصح مودتنا وتربح الدنيا والاخره.

فاجابه تاودوسيوس وقال له بمحبه عظيمه: قد اهتممت بخلاصى وقد افتكرت فيما اردت اطلاعك عليه ولا ادعك خاليا من معرفة الله تعالى الشاهد علىّ فيما ذكرته لك، ولا تشك فى ذلك لاجل اظهارك لى محبتك، واوثر ان تحفظ ما اقوله

فيما يرجح ـ هو لقب أغسطس (Augustus = Sebastos) الذى يتضمن معنى ذى الجلال أو صاحب الجلالة. ولابد أيضاً أن جرمانيكوس كان قد بلغه عندئذ نبأ انزعاج تيبريوس واستيائه منه وتنديده بمسلكه فى مجلس الشيوخ، فبادر إلى نفى الشبهات عن نفسه. ونحن نعلم من مصادر أخرى أنه عاد إلى سوريا حيث تنازع مع واليها بيسو (Piso)، وأنه مات فجأة فى أنطاكية. واتهم بيسو بدس السم له وحكم عليه بالموت فآثر الانتحار. غير أن أم جرمانيكوس اعتقدت ـ والشائعات راجت ـ بأن الإمبراطور نفسه كان ضالعاً فى المؤامرة التى أودت بحياة الأمير المحبوب.

كاليجولا وكلوديوس ونيرون

١. بدء النزاع بين اليهود والاغريق وفتنة عام ٣٨:

لم يحدث فى مصر خلال السنوات الأخيرة من حكم تيبريوس ما يستحق الذكر سوى ذلك المنشور الذى أصدره الوالى أفيليوس فلاكوس فى عام ٣٥/٣٤، محرما فيه على الأهالى حمل الأسلحة أو إحرازها، وهدد فيه المخالفين بعقوبة الموت. هذا المنشور وصلنا فى شكل بردية أو بالأحرى قصاصة مهلهلة لا يتبين منها سبب ذلك الإجراء. وعلى أى حال فهو يشير إلى توقع حدوث اضطرابات فى ذلك الحين. ولا مراء فى أن لهذا المنشور صلة وثيقة بما ورد عند

لك في قلبك ولا تقوله لاحد، وهو ان الذى بشر به روح القدس والانبيا هو المسيح الذى انتم تسجدون له و تعترفون انه بحق قد جا[ء]، وانا أومن بقلب صادق نقي بغير شك بالجمله لانك اخ وودود ولذلك اظهر لك هذا السر فاثبته لديك لما قد ظهر لى من محبتك وارادتك لى الخير والجيد، فصدقني الان يا اخى فان افكارى الجسدانيه منعتنى ان اتعمد لانى غير متواضع ولا اصلح لانى عاجز، وانا كاهن لهذا الشعب ولى منهم مجد

فيلون، الكاتب اليهودى، الذى يذهب إلى أن فلاكوس كان متحاملا على اليهود فأمر فى عام ٣٧/ ٣٨؟ بتفتيش منازلهم ومصادرة الأسلحة المخفاة فيها، ولكنه لم يعثر فيها على شيء، بينما عثر ـ قبل ذلك بفترة غير طويلة ـ على أكداس منها مخبأة في بيوت المصريين «الذين كثيراً ما ثاروا على السلطات التى ارتابت فى أنهم يدبرون ثورة جديدة». لعل المصريين بدأوا يضيقون ذرعا بتعسف السلطات المحلية ووطأة الاحتلال الرومانى. ومن المؤكد أن موجة التذمر بدأت تسرى فى الإسكندرية أيضاً، لأنه من العسير ألا يقرن المرء بين هذا المنشور ورواية فيلون وبين الاضطرابات التى نشبت عقب اعتلاء كاليجولا العرش.

ولعل القارىء يذكر أن أغسطس اتخذ من التدابير ما يكفل رد الإسكندريين إلى صوابهم إذا ما خطر لهم أن يثيروا الشعب أو يقوموا بالثورة فى وجه الرومان، وأنه وضع فرقة كاملة عند ضاحية نيقوبوليس تحذيراً لهم. غير أن هذه التدابير الصارمة لم تثن مواطنى المدينة عن مناصبة روما العداء، مع أن ضم مصر إلى الإمبراطورية أفاد الإسكندرية من الناحية الإقتصادية. فقد ظلت، كما كانت على أيام البطالمة، عاصمة للبلاد، ومقراً للوالى، تتركز فيها الدور الحكومية الرئيسية والمحاكم الهامة وتودع فيها السجلات الرسمية، ويتردد عليها المتقاضون والتجار وأصحاب الحاجات، وكذلك ضباط وجنود الجيش الرومانى المرابط بمعسكر

عظيم وكرامات وتقدمه وقد كسبت منهم ذخاير اموالا، وانا ان خرجت منهم اعدمت ذلك كله، وليس شعبى وحده يرفضنى بل والنصارى ايضا لما اشاهد من اليهود اذا تعمدوا وكيف يكونون، وسمعت ايضا انكم تقولون: اذا تعمد يهودى كمن عمد حمارا، فبأى وجه الان اتعمد. وايضا انني ارى النصارى يخطون ويغضبون الله ويرفضون الناموس عوض ما يسلكون فى الادب المستقيم والحق الذى قد صار لهم، واشاهد قوما اذا رأوهم

نيقوپوليس الذين كانوا ينفقون فيها عن سعة. لقد كانت بمثابة السوق المزدحمة التى تنبض بالحركة والنشاط، وزاد من نشاطها الأساطيل الرومانية (كالأسطول الأغسطى السكندرى وأسطول ميسينوم) التى كانت تبحر منها بانتظام إلى إيطاليا محملة بالقمح غير متعرضة لخطر القراصنة الذين طهرت روما البحر منهم. جميع هذه العوامل روّجت الأعمال التجارية بأنواعها كافة وزادت من رخاء المدينة على الأقل فى صدر العصر الرومانى. غير أن هذا الربح المادى أو الكسب التجارى لم يله الإسكندرية عن خسارتها الأدبية الجسيمة وأفول نجمها السياسى. فقد ساءها أن تفقد مكانتها القديمة كعاصمة لمملكة مستقلة قوية، بل إمبراطورية واسعة، بينما يصعد نجم روما التى كانت الإسكندرية ـ على حداثة نشأتها ـ تنظر إليها شزراً بوصفها مدينة حديثة النعمة. وحز فى صدر الإسكندريين أن يصبحوا رعايا عاهل لا يقيم بينهم ويتحكم فى مصائرهم عن طريق نائب يتمتع بسلطة تكاد تكون مطلقة. وقد زاد من شعورهم بالمرارة أن أغسطس استحدث فى عواصم الأقاليم (metropoleis) نظاماً قريب الشبه من نظام المجالس البلدية، على غرار ما كان فى الإسكندرية، طامساً بذلك الفارق بين هذه العواصم الريفية وبين مدينتهم. وأدهى من ذلك وأمر أنه رفض مطلباً عزيزاً عليهم، وهو إنشاء مجلس للشورى (boulê) على غرار مجالس المدن اليونانية الحرة، وهو مجلس يرجح ـ كما أسلفنا ـ أنه كان قائماً بالمدينة منذ تأسيسها ثم ألغى فى فترة من فترات الإضطراب فى أواخر عصر البطالمة.

هكذا ضعفت قلوبهم وامانتهم وتأسوا بهم. ولما فتشنا عن الخلاص الذى كان لكم منا عرفنا المسيح بالحقيقه والرسل الذين صارو لكم معلمين فهم ايضا من جنسنا وانتم ترفضون ما بشروكم به وما علموكم اياه، ولا جل ان بقية الامم لم يتعمدو ولم يؤمنو الى الان، كذلك انا ايضا لم اتعمد لاجل مجد العالم والكرامات التى انالها من شعبى، ولاجل ما اشاهدكم تفرطون فيه من امر المسيح لكم ووصيته ووصية تلاميذه لكم به، فامتنعت ان يضيع على مجدى وكرامتي واصير

ولم يشأ أغسطس أن يستجيب لهم لأن مجلس الشورى كان يتعارض والسلطة التى خولها لنائبه فى مصر، فعل أغسطس ذلك بينما أقر لليهود امتيازاتهم القديمة، تاركاً لهم أمر تنظيم طائفتهم الدينية على شكل جالية مستقلة لها رئيس (ethnarchês, genarchês) ومجلس من المسنين أشبه ما يكون بمجلس الشيوخ (gerousia)، ودار للسجلات (archeion) وبيع (synagôgai) يمارسون فيها شعائر ديانتهم وقد زاد الطين بلة عدم قناعة اليهود بامتيازاتهم، فطمعوا فى الظفر بحقوق المواطنة بالمدينة. وأثار ذلك حفيظة الإسكندريين فصبوا عليهم جام غضبهم بوصفهم من أنصار الغزاة عند دخولهم البلاد، وتربصوا بهم الدوائر لأن مهاجمة اليهود كانت أسلم عاقبة من مهاجمة الرومان أنفسهم. وهكذا تحولت الكراهية العنصرية لليهود إلى كراهية سياسية أو أصبحت مزيجاً منهما.

وكان من الطبيعى أن يظهر فى الإسكندرية أثر ضعف الحكومة المركزية ففى ١٨ مارس عام ٣٧ ارتقى عرش الإمبراطورية جايوس قيصر المشهور باسم كاليجولا (Caligula)، وهو ابن جرمانيكوس، الأمير المحبوب الذى تقدم الكلام عن زيارته لمصر. واستبشر سكان إيطاليا والولايات بمقدم العاهل الجديد وتوقعوا على يديه الخير العميم. لكن سرعان ما انحرف عن الطريق السوى وخيب أملهم فيه. فقد تكالبت عليه عدة عوامل حولته إلى حاكم شبه مجنون، وكان من بينها مرض شديد أو لوثة لم يبرأ منها تماماً، ووفاة أخته، أحب الناس إليه،

مفرطا مثلكم فيما قد اعطيتموه، وهذا الذى يمنعنى من المعموديه. واكثر جماعتنا اليهود تحققوا حقيقه امر المسيح وعجايبه اكثر منكم غير انهم بعيدين من الخلاص الذى صار لكم.

والان فانا اطيب قلبك بالاسرار الجليله عندنا من البدء و اظهر ذلك لك لانا عارفون محققون بعجايبه وافعاله اكثر منكم انتم النصارى، ونعلم حقا انه المسيح الذى اتى، فاسمع عنى هذا السر.

فضلا عن حداثة سنه، وتزلف رجال حاشيته، وهلعه الشديد من المؤامرات على حياته، ذلك الهلع الذى انقلب إلى قسوة متناهية. وقد زينت له أوهامه أنه فوق البشر فطالب رعاياه بتأليهه وإقامة تماثيله فى مختلف المعابد. ولعله قد تأثر فى حداثته بفكرة تأليه الملوك الأحياء، وهى فكرة كانت شائعة فى ممالك الشرق الهلينستى ولا سيما فى مصر، ولكنها كانت غريبة على الرومان فلم تلق بينهم رواجاً كبيراً.

واتفق أن وفد أجريبا (Agrippa)، حفيد هيرود الأكبر على الإسكندرية فى أوائل أغسطس من عام ٣٨. وكان هذا الأمير اليهودى قد قضى شطراً من صباه بالقصر الإمبراطورى فى روما مع أبناء الأسرة المالكة فتوثقت صلته بكاليجولا. وقد مر بالإسكندرية يرافقه حرس شخصى وهو فى طريقه إلى فلسطين ليرتقى عرش مملكة صغيرة على حدود بلاد يهودا (Judaea). وكان أجريبا قبل أن يبتسم له الحظ قد بدد ثروته بإسرافه وبذخه حتى أثقلت الديون كاهله ففر إلى الإسكندرية يلتمس المعونة من بنى جلدته، وبخاصة من الإسكندر ليسيماخوس، اليهودى الثرى ـ شقيق الفيلسوف فيلون ـ الذى كان يشغل منصب مدير الضرائب الجمركية (arabarchês) . ولما سددت ديونه وتحسنت أحواله عاد إلى روما حيث نال الحظوة لدى كاليجولا الذى منحه مملكة صغيرة فى فلسطين. ولذلك دهش إغريق الإسكندرية من أن يصبح هذا المفلس ملكاً بين يوم وليلة، وتذكروا مجيئه بالأمس خاوى الوفاض هارباً من دائنيه.

كان فى الزمان الاول والهيكل مبنى باروشليم وكان لليهود عاده يقيموا اثنين وعشرين كاهنا فى الهيكل امر لازما لهم، وكان فى الهيكل كتاب مكتوب بنسبه كلمن يصير كاهنا واسم ابوه وامه ليعلم انه متبع لامر الله تعالى، وكانوا اليهود مستمرين على هذه العاده، وكان يسوع المسيح فى ذلك الزمان فى اليهوديه، وكانت هذه الكتابه قبل ظهوره، فمات كاهن من الاثنين وعشرين كاهنا فاجتمعوا الكهنه وحدهم يختارون من

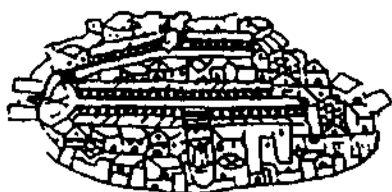
اروشليم، عن فسيفساء ميدبا (قرب جبل نبو، في الاردن. من القرن السادس الميلادى.

جزء من قاع إناء من الخزف ذو البريق المعدنى، عليه صورة المسيح رافعاً يده بشارة التثليث. من القرن ١١ ـ ١٢. المتحف الاسلامى بالقاهرة

يقـدمـونه عـوضـا منه فلم يتـفق رأيهم على من يصلحونه، وكانوا يقاومون بعضهم بعضا وكلما ذكرو احـد لم يرضـو به، ثم انهم تقارعـو على ان من وقعت قرعتهم عليه بعد تخيره يصلحوه اذا لم يكن فيـه عيب ولا عله ولا في جنسه عيب ولا سبب، فـاذا وجـدو من له نسب وليس هو عـالم رفضوه ولا يقدمونه. وهذا كان تدبيرا من الله تعالى لاجل مقاومتهم كيلا يتقدم الاصاحب الكهنوت المستحق لذلك وهو يسوع المسيح، واذا واحد من

وساءهم أن يستقبله اليهود استقبالاً ملكياً فخما، بل ساورتهم الظنون أن لا يكون قدومه آنئذ بمحض المصادفة. ولهذا قرروا أن يعكروا عليـه صـفـو الزيارة المريـة وأن يتـخـذوا منهـا تُكأة لمهاجمة اليهود في شخصه. فأحضروا معتوهاً يعرفه سكان المدينة باسم كراباس Karabas (أى الكرنب!)، وأحاطوه بحرس هزلى واقتادوه إلى الجيمنازيوم (ناديهم الرياضى الثقافى) حيث عصبوا رأسه بإكليل من لحاء نبات البردى ودثروه بسجادة بالية كأنها العباءة، ووضعوا فى يده صولجاناً من ساق البردى، ثم ساروا به عبر شوارع المدينة هاتفين «مارَنْ، مارَنْ»، وهى كلمة سريانية معناها المولى أو الملك. وكان القصد بداهةً من هذا الموكب الهزلى هو السخرية من أجريبا والاستهزاء به.

ولكنهم سرعان ما ندموا على فعلتهم تلك عندما تذكروا ما نسوه فى غمرة حماسهم. لقد تذكروا أن أجريبا صديق حميم للامبراطور وأنه سوف يشكوهم إليه وأن كاليجولا لابد من أن يقتص منهم لإهانتهم صديقه. وتدبروا الأمر ملياً فتفتق ذهنهم عن حيلة تخلصهم من ورطتهم. لقد تراءى لهم أن يوقعوا بين كالجولا واليهود فراحوا يزعمون أنهم لم يدبروا المظاهرة العدائية إلا لأن اليهود رفضوا الامتثال لأمر الإمبراطور الخاص بإقامة تماثيله فى جميع المعابد. ولم يكن من المعقول أن يقبل اليهود تدنيس بيعهم بتماثيل البشر، مهما جل قدرهم، وهم يؤمنون بإله واحد. لذلك اقتحم الإسكندريون معابدهم عنوة ونصبوا فيها تماثيل كاليجولا

الكهنه بعد ذلك قد تحرك فيه روح القدس فغار لله تعالى فوقف في وسطهم و قال: لنا اليوم عشرة ايام مجتمعين ولم نستطع ان نقدم احدا، وانا اتحقق واعلم ان الخطاب وتطويله لاجل من يقدمه الله تعالى وهذا سبب الخلاف بيننا وفساد رأينا وسوف يظهر ذلك بارادة الله تعالى. فقالو له: ان كنت تعرف احدا فاذكره لنا علانيه ونعترف جميعنا لك بمنه عظيمه. فقال لهم: حتى تعاهدونى الا تردو ما اقوله وتقبلو منى وانا قول

بالقوة. فلما قاومهم اليهود اتهموهم بعدم الولاء للامبراطور وأسقط في يد الوالى فلا كوس ولم يدر ماذا يفعل. فقد أحرجه الإسكندريون عندما تذرعوا بحجة أنهم ينفذون أمر قيصر. وزاد موقفه حرجاً أن الإمبراطور انقلب على أوليائه في روما فخشى أن يتخذ خطوة تضاعف سخطه عليه. وأخيراً لم يجد مناصاً من أن ينحاز إلى الإسكندريين على أمل أن يقربه ذلك من سيده. ولم يلبث أن أصدر منشوراً بأن اليهود أجانب دخلاء. وسحب منهم الامتيازات التى اكتسبوها عرفاً بطول إقامتهم في المدينة تاركاً لهم فقط ما اكتسبوه منها بطريق القانون. ولم يتح لهم فرصة الدفاع عن أنفسهم وأدانهم دون محاكمة، وأقام من نفسه «مدعياً وخصماً وشاهداً وقاضياً وجلاداه. وعندما اطمأن الإسكندريون إلى وقوف الوالى فى صفهم انطلقوا إلى مساكن اليهود. وكان بالمدينة خمسة أحياء مرقومة بالحروف الأولى من الأبجدية اليونانية، وإن صدقت رواية فيلون فإن معظم اليهود كانوا محتشدين فى حين غير أنهم انتشروا بمضى الزمن في أربعة من هذه الأحياء. انطلق الإسكندريون إليها وطردوا اليهود منها وساقوهم جميعاً إلى حى واحد، أكبر الظن هو حيهم الأصلى، المرقوم بحرف دلتا "Delta"، أى الحى الرابع، وحصروهم فى قطاع منه ونكلوا بهم تنكيلا. ومع أن الحوانيت كانت مغلقة بمناسبة الحداد على وفاة دروسيلا، أخت الإمبراطور، إلا أن الإسكندريين لم يتورعوا عن اقتحام هذه الحوانيت ونهب ما فيها من بضائع وسلع. وتحولوا إلى دورهم وخربوها وإلى معابدهم ودمروا بعضها

صفحة من مخطوط قبطى تمثل عماد المسيح بيد يوحنا من القرن ١٢. المكتبة الوطنية، باريس

وأضرموا النيران في بعضها الآخر. وعندما عض الجوع بطون اليهود واضطروا إلى الخروج إلى سوق المدينة لشراء ما يقيم أودهم، انقض دهماء الإسكندريين عليهم وأوسعوهم ضرباً ورجموهم بالحجارة وانهالوا عليهم بالهراوات أو قتلوهم بالسيوف أو أحرقوهم أحياء. ولم يرحموا النساء والأطفال والشيوخ. لقد انقلبت المظاهرات الصاخبة إلى معارك حامية بل إلى مذابح رهيبة. وأفلت زمام الموقف من يد الوالى، الذى كان واجبه يقتضى منه أن يأمر الفرقة المرابطة عند ضاحية نيقوبوليس بالنزول إلى المدينة لإقرار النظام. ولكنه بدلا من ذلك ألقى القبض على ثمانية وثلاثين عضواً من أعضاء مجلس الشيوخ اليهودى (gerousia) البالغ عده واحد وسبعون عضواً، وهم قوم كانوا يتمتعون بمكانة كبيرة بين قومهم، واقتادهم عبر السوق مقيدين بالحبال أو بالأغلال من خلاف إلى المسرح، حيث جلدوا بالسياط مثلما يجلد المذنبون من «المصريين» وزاد من بشاعة هذه العقوبة أن اليهود كانوا معفيين منها عرفاً كالمواطنين، وأنها نفذت في يوم ٣١ أغسطس، وهو عيد ميلاد الإمبراطور. ولم يقف مواطنو الإسكندرية عند هذا الحد بل ساقوا كثيرات من نساء اليهود عنوة إلى المسريح حيث أرغموهن على أكل لحم الخنزير [المحرّم دينياً] على مر أى من الجمهور المحتشد. وما إن هدأت العاصفة حتى كان اليهود فى حالة يرثى لها.

ومن محاسن الصدف أن وصلتنا برديتان إحداهما من البهنسا والأخرى من الفيوم يرجع

لكم من يصلح واعلم انكم لا تقدرون على رده. فلما سمعو جميع الكهنه ذلك حلفو له ايمان حق وصدق انهم اذا ظهر لهم من هو مستحق يقبلونه ويقدمونه. فلما توثق منهم قال لهم: يا اخوتى ان الله تعالى طرح فى فكرى من هو مستحق لهذا هو يسوع الذى يعرف بابن يوسف لانه رجل كامل فى جنسه و جماله وافعاله وله القدره على الكلام والفعال قدام الله تعالى والناس، واعلمو انكم لا تجدون مثله في هذا الشعب الذى ليس فيه رياء ولا عله.

أن لهما صلة بهذه الأحداث. وما تبقى من البردية الأولى المشوهة يشير إلى مقابلة بين شيخ وديويسيوس واسيدوروس وامرأة تدعى أفروديسيا وبين فلا كوس فى معبد سرابيس بالإسكندرية. وأما فلا كوس فهو والى مصر (٣٢ ـ ٣٨) الذى سلف الكلام عن موقفه من اليهود أثناء فتنة أغسطس عام ٣٨. واسيدوروس وديونيسيوس قطبان إسكندريان يصفهما فيلون في كتابه الذى هجا فيه فلا كوس بأنهما كانا من متزعمى الحركة ضد اليهود.. ولا نعرف ما هو دور أفروديسيا في هذا الاجتماع وهل كان وجودها فيه من قبيل المصادفة أم حضرته بوصفها على صلة بإسيدوروس وإليك ما يحتويه الجزء السليم (وهو النهر الثانى) من البرديةى اليونانية.

«وعلى ذلك صعد فلاكوس إلى معبد سرابيس بعد أن أمر بتسوية الموضوع (أو اتمام الصفقة) سرا. وصعد إليه أيضا اسيدوروس مع افروديسيا وديونيسيوس. وبعد دخولهم حرم المعبد سجد اسيدوروس وديونيسيوس لتمثال الاله. وعندئذ ألقى الشيخ بنفسه (على الأرض)، وتعلق بديونيسيوس وهو جاث على ركبتيه، قائلا: انظر، يا سيدى ديونيسيوس، إلى، وأنا شيخ في مواجهة سرابيس. لا تستعمل العنف مع فلاكوس، بل اجلس مع الشيوخ (وشاورهم الأمر؟). فإذا سافرت (؟)... فلتعدل، يا ولدى ديونيسيوس، عن رأيك. وأجابه (ديونيسيوس): اننى سأسوى الموضوع، ولكنك لا تريدنى ان أرفض فلاكوس (أو لا تريد أن يرفضنى

فلما سمعو الكهنه كلامه وعرفو منه هذا القول بهتو وتحيرو لاجل الايمان فقالو له بمكر وظنو يردو خطابه: نعم من ذكرت لانا نطلب الجيد لكن ليس هو من قبيل الكهنه والشعب ايضا يقذفون ميلاده لاجل الاطفال الذين قتلهم هيرودس بسببه بالسيف. فاجاب وقال لهم بغير غضب: اثبتو على الحق فانى اهديكم الى الصواب من اجله لئلا تزوغو عن الله تعالى فنبعد من الحق ونصدق الكذب لانى اعلم انه اذا فحصنا عن الحق اظهره

فلاكوس) ثانية؟ فان اقتضى الأمر ان التقى به مع القمر الجديد فسأذهب عن طيب خاطر. وأقبل فلاكوس وعندما رأى اسيدوروس قال: ان الموضوع قد سوى..».

وعلى الرغم مما يكتف النص من غموض شديد حار فيه الباحثون، إلا أنه يكشف على الأقل عن واقعة ثابتة وهى أن ديونيسيوس كان ينتوى القيام بعمل لا يقره عليه «الشيوخ»، وأن أحد هؤلاء «الشيوخ» كان يناشده أن لا يفعله. وإذ كان النص يشير أيضاً إلى رحلة، فقد يستخلص من ذلك أن ديونيسيوس كان ينتوى السفر إلى روما، وفى هذه الحالة كان لابد من الحصول على موافقة الوالى لمغادرة البلاد. وبعد هذا الحديث يدخل فلا كوس فجأة وكأنه كان مختبئاً فى مكان قريب. ويدور حوار بينه وبين إسيدوروس وديونيسيوس. ويقطع هذا الحوار موظف لا نعرف إن كان رئيس سدنة المعبد أو رئيس «مجلس الشيوخ». ويستحلف الوالى بالرب سرابيس ألا يلحق أى أذى بإسيدوروس أو بديونيسيوس. ويستجيب إليه فلا كوس. وبعد هذه النقطة يتعذر استجلاء أى معنى مسلسل لكثرة الفجوات. وأخيراً يأتى ذكر خمسة تالنتات كلها من الذهب، وأنها تحصى أو تدفع فى وسط المعبد، مع الإشارة إلى الفائدة. وقد أثار ذكر هذا المبلغ الضخم فى البردية نقاشاً طويلا بين الباحثين. ففريق يرى أنه رشوة يتقاضاها فلاكوس لكى يمنح ديونيسيوس إذناً بمغادرة الإسكندرية إلى روما ـ وهو أمر ضعيف

الله تعالى. فقالوا طيب قلوبنا كما تعلم لاجل ميلاده وقبيلته ونحن نساعد فيما تذكره. فقال لهم: فتشو لتعلمو ان فى زمان هرون الكاهن قد كان اختلاط من هرون ويهوذا وقد شهد داود النبى على ذلك، وقد فحصت انا كثير لاجل سر عظيم اخر، ومن اجل ذلك انا افرح ان تفتشو لتعرفو بالحقيقه صحة قولى وتعرفو انى عندكم صادق .فظنو انهم بهذا الفكر يبطلو امره وبدأو يفحصون عن الجنس فوجدو مريم توحد القبيلتين

- -

الاحتمال؛ وفريق آخر يرى أن المبلغ المشفوع بالفائدة ينم عن أعمال ربوية يمارسها الوالى نفسه، بينما يرى فريق ثالث أن المبلغ رشوة يتناولها الوالى خفية إما لكى يعيد فتح جمعيات ونوادى الإسكندريين التى أغلقها فى بدء ولايته أو لكى يتغاضى عن اضطهاد الإسكندريين لليهود. وإن صح الرأى الأخير فإن البردية تشير إلى تقارب أو صلح مؤقت بين زعماء الإغريق وبين فلاكوس على حساب اليهود، أكبر الظن أثناء عام ٣٩/٣٨. ولعل هذا التقارب هو الذى دفع الوالى إلى أن يقف موقفاً عدائياً من اليهود، مما عجل بوقوع فتنة عام ٣٨. وفى الحق إن هذا الرأى يلقى تعزيزاً فيما ورد عند فيلون من أن تواطؤاً حدث بين فلاكوس وأقطاب الإسكندريين وأن الوالى ـ وإن بدأ حكمه بداية طيبة تدل على حزمه ونزاهته ـ قد انحرف فى أواخر عهده عن جادة الصواب وتدهورت أخلاقه وفسدت ذمته. وثمة حقيقة أخرى ربما تكشف عنها البردية وهى أنه كان هناك انقسام فى الرأى بين زعماء الإسكندريين. وسنرى بعد قليل كيف كان اليهود منقسمين إلى فريقين، فريق متزمت، وفريق متحلل بعض الشىء من قيود الشريعة الموسوية، ومتأثر بأساليب الحياة اليونانية. لعله كان هناك أيضاً حزبان بين الإسكندريين: حزب المتهورين أو المتطرفين وحزب المتزنين أو المعتدلين فى موقفهم من السلطات الرومانية. لكن ينبغى أن نلاحظ أن هذه البردية ـ وإن عُدَّت من ضمن مجموعة «أعمال الإسكندريين» التى سيأتى الكلام عنها بعد قليل ـ تختلف عنها فى أنها ليست

فـمـا قـدرو ان يزوغـو عنه لاجل الايمان فـبـدو ان
يتـخاصـمـو عن القبيله و قـالو رأى آخر: نريد نعلم
كـيف كـان مـيـلاده لا يكون من زنا. لان امـه لما
سلمت ليوسف تكلمو عـليها. واتفقو جميعهم
على هذا الكلام، واحـضـرو مريم امه الى الهـيكل
وخـاطبـوها بلطف لتعلمـهم السـبب فى حـبلهـا
بيسوع ومن اين هـو. وكـان الناموس فـى ايديهم
شاهد عـليهم مـعها لئلا يظنو بها سـو اذا قالت
الحـق وحـلفـو لها على ذلك. وقـالو لهـا: ايتـهـا

محضر جلسة قضائية، وأنها تصطبغ بصبغة روائية واضحة. ولا مراء فى أن الكاتب الذى أعاد تدوينها فى القرن الثالث لم يشوه الحقائق ويظهر فلا كوس بمظهر المرتشى إلا بقصد الدعاية ضد الحكم الرومانى.

ولعل القارىء لم ينس الإشارة إلى الشيخ (geraios) الذى حاول أن يثنى ديونيسيوس عن عزمه فى معبد سرابيس. وقد ظل الاعتقاد سائداً فترة أن هذا الشيخ لابد أن يكون أحد أعضاء مجلس الشيوخ (gerousia)، الذى كان أحد امتيازات اليهود. وكان هذا الاعتقاد يزيد النص إبهاماً، ولم يفهم أحد دور اليهود فى هذا اللقاء بين فلاكوس وقادة الإسكندريين، بل ارتاب كثيرون فى أنه كان يجوز ليهودى أن يدخل معبد سرابيس. وأخيراً أمدتنا بردية من برديات مكتبة جامعة جيسن بقبس بدد بعض هذا الغموض. هذه البردية التى ترجع إلى أواخر القرن الثانى أو أوائل القرن الثالث الميلادى مشوهة كغيرها من برديات «أعمال الإسكندريين»، بل هى أكثر منها تشويهاً إذ لا يكاد يوجد بها سطر واحد كامل. وقد بذل الأستاذ بريمرشتاين ـ الذى درسها ثم نشرها زميل له بعد وفاته ـ كل ما فى وسعه لملء ثغراتها العديدة وربط شذراتها المشوهة. غير أنه ـ على علمه الغزير ـ قد أطلق لخياله العنان فى ترميم النص حتى يستخرج منه معنى متصلا، فكانت النتيجة أن جاءت معظم تفسيراته خاطئة لقيامها على قراءات ليست تخمينية وحسب بل مجافية لقواعد اللغة اليونانية أيضاً. ومع هذا فإن جهده لم يضع كله سدى. فقد أثبت أن البردية تشير إشارة ـ لا يرتاب فيها أحد ـ إلى مجلس للشيوخ

البشارة (الكنيسة المعلقة)

الامرأة هوذا ترينا كلنا مجتمعين لخير لا لشر بل لامر الله تعالى نقيمه و قد انقضينا على رأى واحد لاجل ولدك لانا نراه يرضى الله تعالى والناس وهو عجيب عندهم وجماعة يمجدون الله تعالى من اجله لانه فى هذا الزمان عندهم شبه سليمان بن داود الذى رزقه من امراه اوريا الحتى، ولذلك اصطفيناه وتقارعنا عليه لنقيمه كاهنا لاجل صلاحه، ولاجل كلمه واحده، نحن شاكون الى الان ونريد ان نعرف منك من اين هو او ممن

(gerousia) يتألف من ۱۷۳ عضواً من مواطنى الإسكندرية. وتلك حقيقة لم نكن نعرفها قبل نشر هذه الوثيقة، وهى ترّجح أن «الشيخ» الذى شهد اجتماع ديونيسيوس واسيدوروس مع فلاكوس فى معبد سرابيس كان أحد أعضاء مجلس الشيوخ الإسكندرى. إذن فقد كان لمواطنى الإسكندرية الإغريق ـ مثلما كان للجالية اليهودية ـ مجلس شيوخ. وليس من المعروف متى أنشىء هذا المجلس، وإنى كانت الأدلة الطفيفة التى لدينا تشير إلى أنه يرجع إلى أيام البطالمة وتتزايد الأدلة على قيامه فى الإسكندرية فى صدر عصر الأباطرة. ولا ينبغى أن يفهم من اسمه أنه كان مجلساً دستورياً يتمتع بسلطة تشريعية، بل كان ـ فى أكبر الظن ـ هيئة اجتماعية، وثيقة الصلة بمعهد التربية (gymnasium)، تتمتع عرفاً بنفوذ أدبى كبير فى الشئون البلدية. لقد كان بمثابة حلقة الاتصال أو أداة التفاهم بين روما وجالية المواطنين الإغريق (politeuma)، ولعله هو الذى كان يختار السفراء المبعوثين من قبل المدينة إلى الأباطرة لعرض شكاوى المواطنين أو الدفاع عن قضاياهم فى بعض الأحيان، ويصدر أيضاً القرارات (psêphismata) الخاصة بتكريم القياصرة. ويرد فى البردية ذكر الرقم ۱۸۰,۰۰۰ مرتين، ولكننا لا نعرف إن كان يدل على مبلغ من النقود أو على عدد من الأشخاص. ويرى بريمرشتاين ـ ويتبعه فى ذلك قلة من الباحثين ـ أن هذا العدد يمثل مجموعة مواطنى الإسكندرية من الذكور البالغين الذين يتألف منهم ما يشبه الجمعية الشعبية. على أن هذا لا يعدو أن يكون مجرد افتراض، وما يزال يفتقر إلى قرائن أخرى لتأييده.

الملاك يبشر مريم بالمسيح

حبلت وولدتيه ليعلم الحق منك لئلا يقال عنك كلام ردى و لا عن الكهنوت، فلهذا احضرناك لنعلم الصحيح ولا نكون مشككين ثم تزيلين الخصومه فيما بيننا، وهو ذا الناموس قدامنا ونحن معترفون قدام الله تعالى الذى لا يرى انه لا ينالك منا شر ولا تبكيت بل نشكرك كثيرا لانك لم تخف عنا الحق.

وكانت تظن ان السر المخفى الذى لولادتها العجيبه اذا اظهرته لهم لا يومنون به لاجل عظم

وفيما عدا هذه الحقيقة الخاصة بمجلس الشيوخ يتعذر أن يستخلص المرء من البردية شيئاً آخر مؤكداً. ومع هذا فليس من المستبعد أن يكون لفحواها صلة ببردية البهنسا التي سبق الكلام عنها وبأحداث فتنة عام ٣٨. فهي تتحدث ـ مثلا ـ عن رحلة قام بها (سفراء الإسكندريين) إلى أوستيا، ميناء روما، حيث اضطروا للبقاء مدة لا تقل عن شهر. وأخيراً جاءهم حاجب تيبريوس وحياهم. فهل معنى هذا أن البردية تتكلم عن مقابلة بين الوفد الإسكندرى والإمبراطور تيبريوس؟ إن هذا أمر جائز، غير أن التفسير الراجح هو أن الحاجب جاء إلى أوستيا ليبلغ الوفد الإسكندرى خبر وفاة تيبريوس فى ١٦ مارس عام ٣٧. وقد يعزز ذلك أن البردية لا تلبث أن تشير إلى الإمبراطور جايوس (كاليجولا) الذى نودى به فى ١٨ مارس عام ٣٧، ولكنه لم يستطع مقابلة الوفد إلا بعد يوم ٣ أبريل عام ٣٧، أى بعد يوم الاحتفال الرسمي بجنازة تيبريوس. وتعقب هذه الإشارة سلسلة من التحيات، ثم إشارة إلى رجل يدعى يولايوس، ومدع (katêgoros)، وشخص ثالث يدعى أريوس، لعله من سلالة أريوس (ديديموس) الفيلسوف الرواقى، ومربى أكتاڤيانوس (أغسطس) الذى قيل إن الأخير عفا عن الإسكندريين من أجله. وثمة إشارة أخرى طريفة إلى عدد من السنين يبلغ ٦٣٠، يفسره الناشر تفسيراً مقنعاً بأنه يمثل عدد السنوات التى انقضت منذ نزول الإغريق، فى شكل حامية مرتزقة وضعها أبسمتيك الثانى، أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين (٥٩٤/٥٩٥ ـ

الامر عليهم، وانه لا تقبله عقولهم ان تلد امرأه من غير رجل او يكون ابن بلا اب.

فقالت لهم: اذا قلت لكم ما اعرفه [لا] تقبلونه منى، فاذا اظهرت لكم السر فى حملى وولادتى العجيبه ما تومنون بكلامى والجيد لى ان اسكت. اما هم فلاجل فكرهم الردى قالوا . لها: يا مريم بالحقيقة نريد ان نسمع منك ابن من هو فقد مات ابوه يوسف وقلبنا يشك فيه ان كان هو اباه، ولهذا طلبنا منك القول الصحيح وتكف كل خصومه

---

٥٨٩ ق.م.)، بالطرف الشمالى الغربى من الدلتا، أى عند قرية راكوتيس (راقوده) التى شيدت عليها مدينة الإسكندرية، لتقوم بحراسة الساحل من إغارة قراصنة البحر. ولعلها حجة يسوقها الوفد الإسكندرى على قدم استيطان اليونان الإسكندرية أو بقائهم على ولائهم للملوك والأباطرة منذ ذلك الحين.

ويلى ذلك خطبة يلقيها أريوس ويشيد فيها بكاليجولا واصفاً إياه بمنقذ الكون والخَير، وهما صفتان تجافيان ما نألفه من روح عدائية ضد الرومان فى مثل هذه البرديات. ويفهم من الوثيقة أيضاً أن محاكمة جرت وأن المدعى ثبت بطلان دعواه فأمر كاليجولا إما بكيه بالنار أو بحرقه حياً. وبعدئذ يقول النص إن كاليجولا كتب رسالة إلى مدينة الإسكندريين، ويرد فيها اسم إسيدوروس، الذى يقول إن ثمة أشخاصاً لا ينبغى أن يحصلوا على إكليل التفوق أو البسالة. وإذ كان الجزء التالى من البردية (النهر الرابع) يتحدث عن اضطرابات والقبض على أشخاص وإعدامهم، فمن المحتمل أن يكون للبردية صلة بالتهم التى كالها إسيدوروس لفلاكوس فى روما بعد عزل الأخير من منصبه نتيجة لسوء تصرفه فى فتنة عام ٣٨.

وكان من البديهى ألا يسكت اليهود على ما أصابهم من هوان تجاوز حد الاحتمال فى تلك الفتنة. ويروى فيلون أن بنى قومه كانوا قد سلموا للوالى قراراً بتهنئة الإمبراطور غداة ارتقائه العرش، ووعدهم برفعه إليه ولكنه احتجزه فى مكتبه. لذلك حرصوا فى هذه المرة على إبلاغ

لاجل ولادتك ونحن نسيلك ان تظهرى لنا هذا السر بالحقيقه بغير شك ولا تحتشمى من احد لانا ما يخفى عنا الصواب ومتى كتمت الامر الناموس يحكم عليك باللعنه الى الابد. قالوا لها هذا وشبهه فاضطربت مريم قايله: انى قلقت من كل وجه لاجل الذى ولدته الغير مدرك،وهوذا اليوم حتى اظهره وانا الان عارفه بالولاده التى تلزمونى باظهارها واذا سمعتموها ما تصدقونها ولا تقبلون ما اقول لكم، ويوسف الذى قلتم مات كان قد

شكواهم لكاليجولا على يد صديقه أجريبا. وكان طبيعياً أن تنصب هذه الشكوى على مسلك فلاكوس الذى وقف من النزاع فى أول الأمر مكتوف اليدين حتى سادت الفوضى وبعدئذ انحاز جهاراً إلى جانب الإسكندريين. وأحيط كاليجولا علماً بما حدث فأرسل إلى الإسكندرية قوة عسكرية تحت إمرة قائد سرية يدعى باسوس. وحرصت القوة على أن تنزل بالميناء ليلاً ثم تسللت إلى داخل المدينة واتجهت أولاً إلى بيت قائد الجيش الرومانى، وأبلغته أمر القبض على الوالى. وبعدئذ بحثت عن فلاكوس فعرفت أنه مدعو فى وليمة عند أحد أصدقائه فاقتحمت المكان وألقت القبض عليه ونقلته إلى روما فى أكتوبر من عام ٣٨. وهناك تعرض فلاكوس للهجوم، لا من جانب أنصار اليهود وحدهم بل من جانب زعماء الإسكندريين: (ديونيسيوس) ولامبون وإسيدوروس. ذلك أن فلاكوس كان قد أمر فى عام ٣٣، أى فى بداية حكمه، بحل النوادى والجمعيات اليونانية وحرّم إحراز الأسلحة مثيراً بذلك غضب مواطنى الإسكندرية. واحتدمت الخصومة بينه وبين إسيدوروس، أحد أقطاب المدينة، والسيطر على هذه الجمعيات والنوادى، الذى ساءه أن لا يعامله الوالى باحترام فشن عليه حملة شعواء. وقدمه فلاكوس للمحاكمة وأرغمه على الخروج من المدينة. ولا نستطيع أن نجزم، إزاء غموض فيلون فى هذه النقطة، بأن إسيدوروس قد عاد إلى الإسكندرية قبل اضطرابات عام ٣٨. غير أن بردية أكسيرنخوس (البهنسا) التى سبق شرحها ترجح ـ إن صح تأريخها ـ أنه عاد إلى المدينة حيث

شــك في حبلي به مثلكم سالني قايلا (ما الذى حل بك) فحلفت له ان لم يمسنى رجل قط فلم يصدقني حتى ظهر له ملاك الله وطيب قلبه، وليس هو حى فيشهد لى عندكم بصحة ما قلته، لان الناموس يقبل شهادة شاهدين اكثر من شهادة واحد، فانا اعترف قدام الله وهذا الناموس انى ولدت ابنى يسوع بلا رجل وانا اذكر لكم كيف كان حبلي به. فقالوا لها: ان الامر ظاهر ونحن نعترف قدام الله وناموسه المقدس انك بالحقيقه

تم بين الأقطاب الإسكندريين وبين فلاكوس تفاهم مؤقت أو صفقة مرية على حساب اليهود في معبد سرابيس. ولم تلبث العلاقة أن ساءت من جديد بين الطرفين وبخاصة بعد غضب كاليجولا على الوالي. وعجل بعض زعماء الإغريق بالسفر إلى روما بعد انتهاء الفتنة للتشهير بفلاكوس وتوجيه تهمة الخيانة ضده. وانتهى الأمر بإدانته وقضى كاليجولا بمصادرة أملاكه ونفيه إلى جزيرة أندروس حيث أعدم فيما بعد. وهكذا انتقمت العدالة الإلهية ـ كما يقول فيلون ـ من الرجل الذى نكل باليهود، إذ قبض عليه في يوم ميمون، هو يوم «عيد المظال» عند بني إسرائيل.

وفي شتاء عام ٣٩/٣٨ أو ٤٠/٣٩ على الأرجح أوفد اليهود إلى روما سفارة من خمسة أعضاء على رأسهم فيلون. وأوفد الإسكندريون سفارة مثلها على رأسها أبيون، لكى يعرض كل من الفريقين قضيته على الإمبراطور. وقد وصف لنا فيلون نفسه في كتاب «السفارة إلى جايوس» ما حدث وصفاً مسهباً شائقا. لقد عاد كاليجولا من حملته الفاشلة على الرين فى أول يونيو عام ٤٠، والتقى بالسفارتين في ساحة مارس خارج أسوار روما وحياهما تحية رسمية عابرة ثم انصرف عنهما على عجل واعداً بتحديد موعد للمقابلة فيما بعد. ولم يلبث أن غادر العاصمة إلى مصيفه في كمبانيا. وتبعته السفارتان إلى بلدة بوتيولى على أمل أن يدعوهما للمثول بين يديه في أية لحظة. وإذا صدق أن اليهود حاولوا الاتصال بكاليجولا عن طريق

ولدت هذا المولود، وهذا شئ غير مخفى لان امرأه تقبل الحبل والاوجاع والم الولاده هى التى تفرح بولادتها دون غيرها، فقد اعترفت الان بالحق انك ولدتيه و نحن لنا زمان ما خطبنا احد والان فنحن جلوس تخاطب امرأه وقد قلنا لك انا ما نبكتك اذا قلت ما يجوز ان نسمعه منك و نقبله. وكانت مريم مفكره حايره خايفه مطرقه بوجهها على الارض باكيه فقالت: الان انا عالمه اننى ولدت يسوع كما تقولون وانا معترفه بذلك، فاما قولكم ان رجلا

ميلاد السيد المسيح من مريم

هليكون، أحد المقربين إليه، فإن الإسكندريين قد تمكنوا من شراء ذمة هذا الرجل حتى لا يسبقهم خصومهم إلى مقابلة الإمبراطور. وشاء حظ اليهود التعس أن يتلقى كاليجولا وقتئذ نبأ تدمير الجالية اليهودية لمعبدٍ أقامه له الإغريق في بلدة يامنيا على ساحل فلسطين، فتثور ثائرته ويبعث إلى بترونيوس حاكم سوريا، يأمره بصنع تمثال له وتنصيبه فى معبد اليهود الكبير بأورشليم.

وفى آخر أغسطس من عام ٤٠ عاد الإمبراطور إلى روما. وعبثاً حاولت السفارتان أن تحظيا بمقابلته، إذ انشغل عنهما بأمور تافهة. وأخيراً مثلت السفارتان بين يديه بعد عناء ولأى فى أوائل أكتوبر من نفس العام. وقد تضمنت مطالب اليهود ـ فيما يبدو ـ حرية العبادة وفقاً للشريعة الموسوية وتحديد وضع جاليتهم فى المدينة أو بالأحرى اكتساب حقوق المواطنة السكندرية. لكنهم صدموا عندما ابتدرهم كاليجولا بأنهم قوم كفرة لا يؤمنون بألوهيته التى آمن بها غيرهم من الناس. وابتهج الإسكندريون عند سماع هذا التقريع واغتنموا الفرصة لإيغار صدره واستثارته عليهم. قال رئيسهم مخاطباً الإمبراطور: إن كرهك لليهود قد يزداد إذا علمت أن البشر جميعاً ما عداهم قدموا لك القرابين. فأجاب اليهود بأنهم نحروا الثيران من أجل الإمبراطور: مرة عند اعتلائه العرش. ومرة أخرى بعد شفائه من مرضه، ومرة ثالثة ابتهالاً بانتصاره فى حملته على الرين. وعندئذ قال كاليجولا: قد يكون صحيحاً أنكم قدمتم القرابين

سرقنى فان خاتم عذرتى يشهد لى بصحة قولى لكم. فلما سمعو هذا اضطربو وقالو: هذا ما لا نقبله لانه كلام عجيب وكيف نقدر ان نكتب اسم ابنك فى النسبه بغير اسم ابوه ومن اى سبط(*) هو كما جرت العاده. فلما سمعت مريم هذا من الكهنه قالت لهم: قد قلت لكم من الاول أنى ما اعرف شيا مما قلتم فافعلو ما اردتم لانى ما اقول لكم ما لم يجرى على.

فلما قالت هذا لم يراددها احد منهم بل تحركو

(*) السبط: هو القبيلة.

من أجلي. ولكنكم قدمتوها لإله آخر، فما فائدة ذلك؟ إنكم لم تقدموا القرابين لشخصي. ثم انصرف ليتفقد أحد المباني الجديدة، وتبعه السفراء وهم يلهثون وراءه من طابق إلى طابق ومن حجرة إلى حجرة. وفجأة استدار موجهاً السؤال لليهود: لماذا لا تأكلون لحم الخنزير؟ وضج الحاضرون بالضحك وأرتبك اليهود ووجموا. وأخيراً قطع سفير يهودى حبل السكوت قائلاً: إن هذا مرجعه اختلاف العادات، فكثير من الناس لا يأكلون، مثلا، لحم الضأن. وعندئذ أجاب الإمبراطور ساخراً: لهم كل العذر فهو طعام غير شهي. ولم يفز اليهود منه بطائل، إذ صرفهم قائلاً: يبدو لي أن من تبلغ بهم الغباوة إلى الحد الذى لا يؤمنون معه بألوهيتي، هم أجدر بالرثاء منه بالعقاب. ولم ينقذ بنى إسرائيل من غضب كاليجولا المخبول سوى اغتياله فى ٢٤ يناير عام ٤١.

٢. رسالة كلوديوس إلى مدينة الإسكندريين:

وخلفه على العرش الإمبراطور كلوديوس (٤١ ـ ٥٤) الذى انتهج سياسة أكثر تسامحاً إزاء اليهود. ويروى المؤرخ يوسف أنه أصدر منشورين أقر فى أحدهما ليهود الإسكندرية الحقوق التى كانوا يتمتعون بها قبل أيام كاليجولا، ومنح فى الآخر الحقوق نفسها لجالياتهم فى جميع أنحاء الإمبراطورية. وجاء أجريبا نفسه الذى نال الحظوة لدى الإمبراطور الجديد، إلى الإسكندرية وقرأ المنشور الأول على الناس فى اجتماع رسمي. وتراءى ليهود المدينة أن الفرصة قد حانت لتسوية

بأمر الله وانفذو واحضرو الثقات عندهم من النسا القوابل وسالوهم باجتهاد وحرص ان يكشفن امرها ان كانت عدرا كما قالت قدام الله والناموس، فكشفنها وقلن لهم: حقا قالت فهى عدرا كما قالت تامه لم تنفك عذريتها عند ولادتها يسوع كما تعرفون جميعكم انه ولد منها.

ثم انهم فتشو من جيرانها ومعارفها لعلهم يجدون احدا يقاوم الولاده فما وجدو، بل كل احد مصدق لولادتها وزمانها الذى ولدت فيه الولاد

حسابهم مع الإغريق. ولعلهم بادروا خلال فترة الهدوء التى أعقبت مذابح عام ٣٨ إلى جمع السلاح من كل مكان تأهبا للمعركة، وسرعان ما نشب تطاحن جديد روى لنا يوسف أخباره، ويؤيد روايته ما ورد فى رسالة كلوديوس إلى الإسكندريين، التى سيأتى الكلام عنها بعد قليل. ويلوح أن اليهود كانوا البادئين بالعدوان فى هذه المرة، وقد شد من أزرهم بعض بنى جلدتهم الذين تسللوا إلى مصر من فلسطين. ولما احتدم النزاع واستفحل الخطر أمر كلوديوس نائبه فى مصر أن يقمع الفتنة بكل الوسائل.

ولم تكد الأحوال تهدأ حتى بادر كل من الفريقين بإرسال وفد إلى الإمبراطور لتهنئته بالجلوس على العرش، والاعتذار عن الاضطرابات الأخيرة، والتقدم ببعض المطالب. كما التمس منه الوفد الإسكندرى أن يقبل قرارا (psêphisma) أصدره مواطنو المدينة، ربما عن طريق مجلس شيوخهم (gerousia) لتكريمه وتأكيد الولاء له. على أن أهم مطلب تقدم به الإسكندريون كان إنشاء مجلس شورى بالمدينة. وأما اليهود فقد طالبوا بحقوق المواطنة الكاملة بها. وفى الحق أن الجنسية السكندرية كانت ميزة كبيرة تكسب حاملها مكانة اجتماعية مرموقة وتعفيه من ضريبة الرأس ومن الخدمات الإلزامية، وتمهد له طريق الحصول على الجنسية الرومانية. لهذا ألح اليهود فى المطالبة بها. غير أنهم تطلعوا إلى أزيد مما كان ينبغى لهم. ذلك أن المدينة اليونانية (polis) كانت مدينة وثنية تؤمن بأكثر من إله واحد، وكان الدين فيها

العـجـيب بالسـر الذى لا يدرك ولم يجـدو الكهنه شيـا يحـتـجـون به عليـهـا او يكذبونهـا بل حـقـا ظاهــرا.

ثم بعد ذلك قدموها اليهم بخوف وقالوا لها: قد فتشنا فلم نجد شيا يخالف قولك وما ذكرتيه، وليس هو صواب ان نكتب ما تقولينه ونحن الان نقـسم بالله الضـابط الكل ان تعرفـينا من هو ابو يســوع الذى ولدتيه منه حـتى نكتب اسمــه فى [المســطـره](*) والنسبه. فـامتلأت مريم من روح

(*) المسطرة: هو الكتـــــاب المسطور فيه انساب الكهنة اليهود.

مرتبطاً بالحياة الاجتماعية والسياسية ارتباطاً وثيقاً، فكان خليقاً باليهود إما أن ينأوا بأنفسهم عن هذه الحيـاة أو أن يتخلوا عن دعواهم بأنهم عبـدة الإله الحق الأوحد. لقد كان مطلب اليـهود يظهرهم بمظهر الطامع فى الظفر بنعيم الدنيوين وينطوى على الأثرة واشتهاء ما للغير والزج بأنفسهم فى حياة طالما تظاهروا باستهجان مقوماتها الروحية والمادية. وقد أقحم الشبان اليهود أنفسهم دون وجه حق فى مباريات معاهد التربية وفى منظمات الشباب اليونانية التى كانت مقصـورة على المواطنين الإسكندريين أو من هم فى سبيلهم إلى أن يصبحوا مواطنين. فعلوا ذلك على الرغم من تحذير شيوخهم المتزمتين من أن الاشتراك فى هذه المباريات ـ التى قد يتجرد فيها اللاعبون من ثيابهم ـ رجس ينبغى اجتنابه. ويرجح كثير من الباحثين الآن أن اليهود كانوا منقسمين فلم يرسلوا إلى الإمبراطور بعثة واحدة كما فعل الإسكندريون بل أرسلوا بعثتين. إحداهما تمثل الطائفة المحافظة، والأخرى تمثل الطائفة المتحررة التى تأثرت بالثقافة وأساليب الحياة اليونانية.

وقد شاء القدر أن يصلنا رد الإمبراطور كلوديوس على مطالب الإسكندريين واليهود فى بردية وجدت عام ١٩٢٠ أو ١٩٢١ فى قرية فيلادلفيا، وهى جرزة الحالية بشمال شرق الفيوم، وآلت إلى المتحف البريطانى، ثم نشرها الأستاذ آيدرس بل فى عام ١٩٢٤. وقد أحدثت هذه البردية التى تعرف عادة باسم «رسالة كلوديوس إلى الإسكندريين» دوياً كبيراً فى

القدس وقالت: ما اقول شيا بمكر ولا كذب والله الذى اقسمتم على باسمه شاهد. وبدت تقول لهم ان جبريل الملاك جا الى وبشرنى. وشرحت لهم قضية حالها فبهتو وتعجبو وطلبو الى الله ان يغفر لهم ما قد ظلموها به من القول. وقال بعضهم: حقا ان هذا هو المسيح الذى تنبت عنه الانبيا انه يأتى من بيت داود و من بيت لحم من سبط يهودا. فدعو يسوع واقسموه كاهنا وكتبوه فى النسبه اليوم والشهر والسنه وقالوا: يسوع ابن الله وابن

سجادة قبطية من القرن السادس عليها رسم للست مريم والسيد المسيح

الأوساط العلمية، وقلما ظفرت وثيقة أخرى بما ظفرت به هذه البردية من اهتمام بين الباحثين. ومن المرجح أن الرسالة حررت أولاً باللغة اللاتينية ثم تولى المترجمون فى الديوان الإمبراطورى نقلها إلى اليونانية. وأرسلت الصورة اليونانية إلى الإسكندرية حيث قرئت على الأهالى. ثم رأى الوالى أن ينشرها فى ١٤ من شهر هاتور (الموافق ١٠ من نوفمبر) عام ٤١ حتى يطلع عليها جميع السكان. ويستهل الإمبراطور رسالته بالتحية:

«تيبريوس كلوديوس قيصر أغسطس جرمانيكوس الإمبراطور، الكاهن الأعظم، حامل السلطة التربيونية، المرشح قنصلا، إلى مدينة الاسكندريين سلاما».

ثم يقول إنه تلقى من السفراء قرار الإسكندريين بتكريمه ويعقب على ذلك قائلا:

«انهم أوضحوا لى ما تكنون من شعور طيب نحونا، وهو شعور ادخرته لكم فى نفسى - كما تعلمون جيدا - منذ زمن طويل، فانتم بطبيعتكم تجلون الأباطرة. كما أعلم من أدلة كثيرة، ولا سيما من اهتمامكم الشديد باسرتى، وهو اهتمام متبادل، لعل أعظم شاهد عليه - ولأذكر أقرب مثل ضاربا صفحا عن الامثلة الأخرى - هو أخى جرمانيكوس قيصر الذى خاطبكم بلغة واضحة صريحة.

وينقسم متن الرسالة إلى ثلاثة أقسام، يتناول الأول منها مقترحات الإسكندريين لتكريم

مريم العدرا الذى ولدته وهى عدرا انه كاهن وهو مستحق. وهذا الذى كان من التدبير كما قال لوقا الانجيلي المتطيب فى فصل من انجيله، ان يسوع لما رجع من الجليل بقوه الروح خرج خبره فى كل الكوره وكان يعلم في مجامعهم ويمجده كل احد، وجا الى الناصره، حيث كن تربى، و دخل كعادته الى مجمعهم يوم سبت فدفع له الخادم السفر الذى فيه نبوءة اشعيا النبى المكتوب فيه:

(روح الرب عليّ ومن اجل هذا مسحني

الإمبراطور. ويقبل كلوديوس بعضها ويرفض البعض الآخر. فهو يقبل، مثلا، أن يكون يوم ميلاده عيداً رسمياً، وأن تقام له ولأفراد أسرته تماثيل فى عدة أماكن. ومن بين تمثالين من الذهب يوافق على أن يقام أحدهما ـ وهو ما يرمز إلى فكرة السلام الذى وطد أغسطس وكلوديوس دعائمه ـ فى روما، وإن كان قد أراد أن يرفضه حتى لا يثير استهجان الناس لولا أن ألح عليه صديقه الأعز بالبيلوس، وأن يحمل الآخر فى مواكب أعياد البلاد والجلوس الإمبراطورية فى مدينة الإسكندرية. ويستجيب لرغبة المواطنين فى إنشاء جمعية تحمل اسمه، وغرس أيك صغيرة مقدسة وفقاً للعادة المتبعة فى مصر. ولا يعترض على أن تنصب له تماثيل يمتطى فيها صهوة جواده، وأخرى تمثله واقفاً فى عجلات حربية تجر كل منها أربعة جياد وتقوم عند مداخل القطر: أحدها عند تابوسيريس (أبو صير) فى الصحراء الليبية، والآخر عند فاروس (رأس التين) فى الإسكندرية، والثالث عند بيلوزيوم (الفرما) فى مصر. ولكن كلوديوس يستنكر تعيين كاهن أعلى وتشييد معابد له، لأنه لا يريد أن يسيء إلى شعور معاصريه «اذ أن المعابد وما شاكلها هى ـ فى رأيه ـ امتيازات خاصة تمنح للآلهة وحدهم فى كل زمان».

ويتناول القسم الثانى مطالب الإسكندريين التى يوافق كلوديوس عليها ما عدا المطلب الأخير. فهو يؤكد حق الجنسية السكندرية لجميع من استوفوا شروط الإندماج فى منظمات الشباب (ephêboi) حتى وقت اعتلائه العرش مع تمتعهم بكل الامتيازات والإعفاءات التى

وارسلني لابشر المساكين وانذر المأسورين بالتخليه، والعميان بالنظر،وارسل المربوطين، وابشر بالسنه المقبوله للرب) ثم طوى الكتاب و دفعه للخادم وجلس، وكانت عيون الحاضرين شاخصه اليه، وبدا يقول لهم: اليوم كملت هذا النبوة في مسامعكم . و كانوا جميعهم يشهدون له ويتعجبون من كلام النعمه الخارجه من فمه.

فلما سمع فيلبس النصراني هذا من تاودوسيوس واليهودى فرح فرحا عظيما ثم قال

تتمتع بها المدينة ما عدا من اندسوا خلسة في هذه المنظمات مع أنهم ينحدرون عن آباء أرقاء. ويرغب الإمبراطور في أن يختار المشرفون (neokoroi) على معبد أغسطس المؤله بالإسكندرية عن طريق الاقتراع على نحو ما هو متبع في حالة المشرفين على معبد أغسطس المؤله بكانوب. ويقر للاسكندريين بالمثل جميع الامتيازات التي منحها إياهم من سبقوه من الأباطرة والملوك والولاة وعلى نحو ما أقرها أغسطس المؤله نفسه. ويحبذ كل التحبيذ اقتراح الإسكندريين بأن تحدد مدة المناصب البلدية بثلاث سنوات «لأن حكامكم سوف يسلكون أثناء فترة توليهم مناصبهم مسلكا حذرا خشية أن يتعرضوا للحساب على اساءة استعمال السلطة».

وأما المطلب الأخير فيروغ منه كلوديوس ويرجيء البت فيه حتى يتحقق من فائدته:

«وأما عن مجلس الشورى، فليس في وسعي أن أقول ما هي السنة التي درجتم عليها في عهد الملوك القدماء. ولكنكم تعلمون جيدا أنه لم يكن لديكم مجلس في عهد من سبقوني من الأباطرة. وحيث أن هذا مقترح جديد يثار الآن للمرة الأولى، ولا يتضح اذا ما كان سيعود بالفائدة على المدينة وحكومتي، فقد كتبت إلى أيميليوس ركتوس (الوالي) ليبحث الموضوع ويخبرني عما اذا كان من الضروري انشاؤه أصلا، وكيف ستكون طريقة انشائه اذا تبين أنه ضروري».

له: انما عرفت هذا وتكلمت به لانى من معلمى الناموس وقاريه وهو الذى ثبت فى قلبى ان الذى ولدته مريم هو المسيح وتمت عليه نبوة يعقوب ليهودا ولده لا على غيره، وانه لا يأتى بعده مسيح اخر، وقد صح لنا انه الذى تنتظره الامم وهو الاتى الى العالم المنجى لمن امن به، ولا يكون بعده ريس ولا مقدم ولا كاهن فى اسرايل، كقول داود النبى عنه فى مزمور ١١٠ : (اقسم الرب ولم يندم انك الكاهن الى الابد كشبه طقس ملكيصداق فمن

والقسم الثالث والأخير من رسالة كلوديوس أكثر من سابقيه طرافة إن لم يكن أكثر أهمية لأنه يتناول النزاع بين اليهود ومواطنى الإسكندرية الإغريق وقد ثار حول تفسيره ـ مثلما ثار حول سابقه ـ جدل شديد وتشعبت فيه الآراء وبخاصة حول موضوع الجنسية السكندرية وهل كان اليهود يتمتعون بها كالإغريق من المواطنين. ولا يعنينا الآن أن نخوض فى وجهات النظر المتضاربة، تاركين للقارىء أن يستخلص لنفسه ما يشاء من رد الإمبراطور:

«وأما عن الفريق المسئول عن الشغب والنزاع ـ وان شئتم الصدق ـ عن الحرب مع اليهود، فعلى الرغم من أن سفراءكم، ولا سيما ديونيسيوس ابن ثيون. قد دافعوا (عن قضيتكم) دفاعا مجيدا عندما ووجهوا (بخصومكم). الا أننى لم أشأ أن أقوم بتحقيق دقيق، مختزنا فى صدرى سخطا دفينا على من يبداون (العدوان) من جديد. وانبئكم بصراحة أنه ان لم تكفوا عن تبادل العداوة المستحكمة القاتلة فسوف اضطر إلى أن أظهر لكم كيف يصير العاهل الشفوق عندما يتملكه غضب هو محق فيه. ولهذا فاننى، من ناحية، اناشد الاسكندريين مرة أخرى، أن يبدوا روح التسامح والود لليهود الذين يعيشون فى المدينة نفسها منذ زمن طويل، وألا ينتهكوا شعائر عبادتهم الدينية، بل أن يدعوهم يمارسون عاداتهم التى مارسوها أيام أغسطس المؤله، والتى أقررتها أنا كذلك بعد أن سمعت أقوال الطرفين. ومن

هو من درية ادم كـاهن يعـيش الى الابد). وداود ايضـا يقـول فى مزمـور ٩٨: من هـو الانسـان الذى يعيش ولا يعاين الموت فهو المسيح الذى قـال عنه داود انه الكاهـن الحى الدايم. فـاجـاب فـيلبس و قـال له: يجب ان تعلم ان كـتـمـانك هذا الامـر يوجب عليك دينونه(*) فى اليوم العظيم انا اوثر ان اظهـر الذى سـمعتـه منك للملك المحب لله وينفـذ ويحـضـر النسـبـه المكـتـوبـه فـى المسطـرة لكى يظـهـر تبكيت اليـهـودى وقلة ايمانهم. فـاجـاب اليـهـود وقـال للنصـراني: انت تعلم انك تأتى على

(*) دينونة: أى يوجب عليه خطية عدم الإفصـاح عن هذه القصـة والحساب عليها.

ناحية أخرى فانى آمر ايهود صراحة ألا يضيعوا جهدهم فى السعى وراء (حقوق) أكثر مما حصلوا عليه من قبل، وألا يرسلوا بعد اليوم سفارتين كأنهم يعيشون فى مدينتين، فذلك أمر لم يحدث أبدا من قبل، وألا يقحموا أنفسهم فى مباريات معاهد التربية أو منظمات الشباب، بل أن ينتفعوا بما فى حوزتهم (من امتيازات)، ويتمتعوا فى مدينة ليست مدينتهم بوفرة من الخيرات الجمة، وعليهم ألا يستقدموا أو يستدعوا يهودا ممن يفدون (إلى المدينة) من سوريا أو من مصر عن طريق النهر، مثيرين فى نفسى مزيدا من الريبة. ولئن لم يمتثلوا لأنتقمن منهم بكل الوسائل بوصفهم قوما ينشرون الوباء الشامل فى انحاء المعمورة. فان كف كل منكما عن هذه الأعمال ورضى أن يعيش فى تسامح وود مع الآخر، فسوف أولى من جانبى اهتماما للمدينة التى تربطها بنا صداقة تقليدية قديمة».

هذه الرسالة المتزنة التى تنم عن فطنة ولباقة دبلوماسية، والتى أنصفت كلوديوس من المؤرخين وغيرت رأيهم فيه، لم ترض اليهود لأنها قضت على أملهم فى الحصول على مزيد من الامتيازات؛ ولم ترض كذلك الإسكندريين لأنها أقرت لليهود حقوقهم وامتيازاتهم القديمة. وأدهى من ذلك أنها أرجأت البت فى طلب إنشاء مجلس الشورى، وهو إرجاء لم يقصد به سوى التخلص من الحرج والتهرب من مطلب لم يكن يتفق ومصلحة الإمبراطور. وقد ظلت

نفسك بدينونه العهد الذى بيننا والامر الذى تظن انك تظفر به فلا تقدر عليه ولا تتمكن منه، لان اليهود اذا علموا بهذا اثارو حربا كبيرا و تجرى امور يموت فيها خلق كثير، واذا الزمو باظهار النسبه وما فيها مكتوب رأو ان يحرقوها بالنار او يقتل جمعهم بالسيف و لا يظهرونها، وتكون انت المخطى وتضيع النسبه بعد ذلك، والنصارى ماهم محتاجين لها لانها مسطرة كهنة اليهودوانتم قد امنتم به وعرفتموه من اقوال الانبيا والرسل وتحققتم امر دينكم، وهذا [المسطره] فهو يبكت اليهود الى

الإسكندرية بغير مجلس شورى حتى عام ٢٠٠. وأيقنت الحكومة الرومانية بعد هذه الاضطرابات الدامية أن الإسكندرية هى منبع الخطر الحقيقى فى البلاد، فنقلت فى عصر كاليجولا أو فى أوائل عصر كلوديوس فرقة قورينة الثالثة (leg. III Cyr.) التى كانت ترابط - على ما يرجح - عند قفط أو طيبة، نقلتها إلى الإسكندرية حيث رابطت مع فرقة ديوطاروس الثانية والعشرين فى معسكر نيقوبوليس بضاحية المدينة.

٢. أعمال الإسكندريين وأدب الشهداء:

ولعل هذا الإجراء العسكرى، إلى جانب تحذير كلوديوس الشديد، قد ردع الفريقين وكبح جماحهما إلى حين. ولكن لم تمض سنوات قليلة حتى تجددت الاضطرابات فى الإسكندرية. ولم تصلنا أخبار هذه الاضطرابات عن طريق المؤرخين، بل وصلتنا فى شكل برديات، هى فى الغالب قصاصات، تؤلف مجموعة طريفة يسميها العلماء الآن «أعمال الشهداء السكندريين» (Acta Alexanorinorum) نظراً لما بينها وبين «أعمال الشهداء المسيحيين» من تشابه. ولعل أوجه الشبه تنحصر فى كتابة كل منهما فى شكل محاضر الجلسات القضائية[1]، وتبادل

(١) ظهرت «أعمال الشهداء المسيحيين» فى صورتين أدبيتين إحداهما هى صورة الرسائل (كاستشهاد پوليكارپوس فى عام ١٥٦) والأخرى صورة محاضر الجلسات القضائية (كأعمال شهداء سكيللى الذين حوكموا أمام مجلس البر وقنصل ساتورنينوس فى قرطاجه فى أعمال أغسطس عام ١٨٠) والثانية هى التى راجت فيما بعد.

الابد في بقاه عندهم، فلماذا تريد ازالته من بينهم.
فصدقني يا صديقي ان كل كتاب قريته من الناموس ومن نبوات الانبيا من اجل المسيح كانت هذه، وهذه نسخه النسبه عندى اقوى بها على ايماني بالمسيح الذى تعبدونه انتم، وقد ظهر هذا لجميع المعلمين وانا اعلم انك ان ذكرتها ضيعتها.
فقبلت انا فيلبس منه مع سؤال كثير ان لا اظهر هذا الامر وخوفني فامسكت لانه استحكم على الله. وقال: ان هذه الشهادات تقنع انه يسوع المسيح بتبكيت اليهود وتثبت لنا و لا مانتنا.

- -

الألفاظ القارصة بين المتهمين والإمبراطور، والقاء الشهداء خطبا طويلة وتجسيم عيوب الحكم الروماني. بيد أن هذا الشبه ظاهرى أكثر منه حقيقى وقد كتبت من وجهة نظر الإسكندريين وبالأخرى من وجهة نظر فريق معين أو طبقة اجتماعية بينهم. ومع أنها لا تعد من قبيل القصص التاريخية أو الروايات الخرافية، إلا إنها لا تخلو من الطابع الخيالى الروائى. وقد أحرزت رواجاً واسعاً بين الإغريق فى الإسكندرية وفى أنحاء مصر الأخرى لأنها كانت تنفس عما فى صدورهم من حقد على الرومان وبغض لصنائعهم من اليهود. ولما كان كثير من هذه الأعمال يدور حول النزاع الذى احتدم أواره لفترة طويلة بين الإسكندريين واليهود، فإنها توصف أحياناً «بالأدب المناهض لليهودية». غير أن «أعمال الإسكندريين» كانت دعاية موجهة ضد الرومان بالذات، ولم تكن مناهضة لليهود بقدر ما كانت مناهضة للرومان، ولم يستخدم اليهود فيها إلا كوسيلة أو تكأة لمهاجمة الحكم الرومانى. لقد كانت بمثابة الأدب القومى الذى يهدف إلى إذكاء الشعور الوطنى فى الإسكندرية وغيرها من مواطنى الإغريق فى مصر، وتمجيد بطولة زعماء المدينة، والهاب روح العداوة ضد الحكم الأجنبى.

لكن ينبغى قبل أن نعرض نماذج لهذا الأدب الشعبى أن نذكر شيئاً عن أصله وتاريخه والهدف منه، وهى مسائل قام حولها جدل بين الدارسين، وما يزال هذا الجدل قائماً حتى اليوم. فلنتناول أولا مسألة تأليف هذه النصوص الأدبية أو شبه الأدبية. ففريق من الباحثين يرى

انا فيلبس كتبت هذا واحضرته قدام جماعة البيعه واساقفه قديسين ورهبان مصطفين، فلما علموا تعجبوا من ذلك و تحققو صحة قول اليهودى وشهادة اليهود للسيد المسيح فى الكهنوت، كما قد كتب فى [المسطره].

ثم كتبو الاساقفه والرهبان كتبا بسبب الكهنوت فوجدو يوسابيوس بنفلوس يذكر هذا فى مواضع كثيره فى سير البيعه، لان يسيبوس [بسنتيوس = باسنت] اظهره فى كتب الهيكل.

تمثال نصفى لكاركالا (٢١١ ـ ٢١٧)

أنها كتبت فى أوقات مختلفة بقلم مؤلفين مختلفين. وفريق آخر، يتزعمه الأستاذ بريمر شتاين، يرى أنها كلها تمثل كتاباً أدبياً واحداً وضعه مؤلف واحد فى مستهل القرن الثالث الميلادى، ربما فى عصر الإمبراطور كراكلا، عندما بلغ عداء الإسكندرية للرومان ذروته وينبغى أن أنبه مرة أخرى إلى أن كثيراً من هذه النصوص مكتوب فى شكل محاضر جلسات قضائية حتى أن العلامة ڤيلكن يعتقد أنها ربما نقلت ـ بطريقة أو بأخرى ـ عن مذكرات الإمبراطور (commenterii Principis) ثم ترجمت إلى اليونانية وأقحمت فيها عناصر خيالية لتخدم غرض الدعاية السياسية. ولا يقبل بريمر شتاين هذا التفسير ويرى أن هذه النصوص لا يمكن أن تكون صوراً محرفة من المحاضر الرسمية، ويذهب إلى أن كتابتها على هذا النحو لا تعدو أن تكون حيلة من الحيل الأدبية القصد منها إلباس هذه النصوص ثوب الحقيقة وإيهاء القارىء بأنها صحيحة غير زائفة. غير أن رأى ڤيلكن ـ كما سنرى بعد قليل ـ هو الأقرب إلى الصواب لأن من يقرأ هذه البرديات لا يستطيع أن ينكر صلتها بمضابط الجلسات القضائية ولن يساوره الشك فى أن هذه المضابط كانت أحد المصادر التى استقى منها كتاب هذه النصوص مادتهم. ويتضح من دراسة مجموعة «أعمال الإسكندريين» ومقارنة بعض نصوصها بالبعض الآخر أنها تختلف فيما بينها إختلافاً بيناً سواء من ناحية الأسلوب أو الإنشاء، ومن ثم لا يمكن أن تكون من تأليف كاتب واحد. فكل قطعة منها تتميز عن الأخرى بخواص لغوية معينة. ففى إحداها

وذكـر هـذا يسـيـبـوس [الاب بسنتـيـوس اسـقف قفط(*)] انه نظر يسوع مع الكهنه يدخل الهيكل في وقت التطهيـر، ثم يذكـر ايضـا شـهـادة لوقـا الانجيلى على ما قدمنا شرحه. ولاجل ان السيد المسيح ايضا صنع مخـصره(*) من حـبل واخـرج [التـجـار] من الهـيكل . صح هذا وجـمـيع هذه الشـهـادات ان قـول اليـهـودى صـحـيح وانه لاجل صدقته مع فيلبس اظهر له هذا الامر المخفي وشهد له به.

(*) هو الأب بسنتيوس مؤلف كتاب الهياكل.

(*) مخصرة من حبل: سوط من حبل.

تغلب الأسئلة البلاغية، وفى أخرى يغلب الأسلوب الروائى، وفى ثالثة يظهر واضحاً أثر اللغة اللاتينية، بينما تتكرر فى رابعة كلمة بعينها فى أول الجمل. وفى خامسة تلمس أسلوب المحاضر الرسمية، وفى سادسة يغلب استعمال أداة العطف المألوفة، وفى سابعة يغلب حذف أدوات الوصل. وأوجه الشبه طفيفة بين هذه القطع من ناحية الأسلوب اللهم إلا بصورة عامة كالتعقيد البلاغى فى بعضها أو المسحة الأدبية الواضحة فى بعضها الآخر. على أن القواعد النحوية فيها بسيطة وأسلوبها واضح لا التواء فيه وهو قريب الشبه من أسلوب المحاضر العادية فى الوثائق البردية.

ولعل ما أوحى إلى بريمرشتاين بنظرية المؤلف الواحد هو أن معظم برديات «أعمال الإسكندريين» ترجع إلى نهاية القرن الثانى أو بداية القرن الثالث على أنه يسوق تأييداً لنظريته حججاً أخرى متعلقة بالتفاصيل، كتكرار نفس الأفكار أو الموضوعات وتشابه طرائق التعبير وتصوير الأباطرة فى صورة تقليدية ثابتة، الأمر الذى يوحى بأن المؤلف يكتب فى زمن بعيد عن زمن الأحداث نفسها. لكن يرد عليه بأن معظم هذه البرديات، وإن كانت قد أُرخت بعام ٢٠٠ على وجه التقريب، إلا أن تأريخها استناداً إلى الخط وحده أمر يحتمل قدر من الخطأ، ولابد من الافتراض بأنها كتبت فيما بين عامى ١٨٠ ، ٢٢٠ أى خلال فترة لا يقل مداها عن أربعين عاماً. وقد سلم بريمرشتاين نفسه بأن إحدى هذه البرديات، وهى النسخة المطوّلة من

فلمـا تمم اليـهـودى تاودوسيـوس هذا الكلام الصـحـيح لصديقـه فيلبس تعمـد وصـار نصـرانيا وختم بخـاتم المعـموديه واخـذ السـراير المقدسـه. وتعجب كل احد من حسن ايمانه بالسيد المسيح جلت قدرته، وكانت مسره عظيمه لى أنا فيلبس مع تاودسيوس المتعمد.

ولما رأى كثير من اليهود ذلك مع معرفتهم به انه من معلمي الناموس عندهم وانه كان مقدما عليهم وينال منهم كرامات عظيمه فرفض جميع ذلك وصار نصرانيا امن منهم جماعه و تعمدو.

- -

«أعمال پاولوس وأنطونينوس» قد كتبت فى النصف الأول من القرن الثانى، أى بعد مدة غير طويلة من وقوع الحادثة نفسها. وفضلا عن ذلك فإن اكتشاف بعض برديات من «أعمال الإسكندريين» فى السنوات الأخيرة تنتمى إلى القرن الأول أو مستهل القرن الثانى كفيل وحده بتجريح نظرية پريمرشتاين القائلة بأن كل هذه البرديات كتبت فى أوائل القرن الثالث. وإذا كان نص معين للدعاية من عصر هدريان قد أعيد نشره بعد تحويره فى نهاية القرن الثانى، فليس ثمة ما يمنع من أن تكون نصوص أقدم منه على شاكلته قد عولجت بالطريقة عينها. وأما عن التشابه بين هذه النصوص فى الأسلوب أو طريقة التعبير أو الموضوع، فإن ذلك لا يعدو أن يكون توافقاً طبيعياً بين نصوص من صنف أدبى واحد، نابعة كلها من مصدر واحد أو بالأخرى من طبقة اجتماعية معينة، وتستهدف غرضاً واحداً هو الدعاية.

وفى رأى الأستاذ «بل» أنه حتى إذا سلمنا جدلاً بأن معظم هذه البرديات يرجع إلى أوائل القرن الثالث، ففى وسعنا أن نسوق تفسيرين أقرب إلى الواقع من تفسير پريمرشتاين. ذلك أن اشتداد عداوة الإسكندرية للحكم الرومانى، وبخاصة للامبراطور كراكلا فى أوائل القرن الثالث قد زاد من رواج هذا النوع من منشورات الدعاية بين الجماهير. وليس من المستبعد أن بعض المنشورات القديمة ظلت متداولة بين مواطنى الإسكندرية. أليس من الطبيعى إذن أن يؤدى ازدياد الطلب عليها إذ ذاك إلى بعثها من جديد؟ ومن الجائز أيضاً أن كاتباً واحداً

فمجدت الله تعالى انا فيلبس على ربحى نفس صديقي اليهودى كان، وهو الان نصراني.

والمجد للسيد يسوع المسيح مع الاب والروح القدس الان و كل اوان والى دهر الداهرين امين امين امين.

[نبتدى بعون الله وارشاده بنسخ قليلا من كثير من سير الاباء القديسين، الفضلا المويدين بنعمة الروح القدس، البطاركه بكورة مصر و ما ينسب اليها خلفا الاب القديس مارى مرقس الانجيلى

خطرت له فكرة جمع ونشر ما أمكنه العثور عليه من الكتابات الخاصة بمحاكمة زعماء الإسكندرية أمام الأباطرة بعد إدخال بعض تعديلات عليها سواء بالإضافة أو الحذف حسبما تراءى له. لعل ذلك يفسر ما بين قطع «أعمال الإسكندريين» من تباين شديد فى الأسلوب والإنشاء تفسيراً أفضل من نظرية العالم الألمانى القائلة بأنها كلها من كتاب واحد بقلم كاتب واحد.

وأما عن نشأة وتطور هذا النوع من الأدب الذى يصور زعماء الإسكندرية فى صورة أبطال يتحدون القوة الغاشمة مضحين بأنفسهم فى سبيل رفعة مدينتهم، والذى يوصف أحياناً «بأدب الشهداء»، فحسبى أن أقول إن كلمة «شهيد» (martus = martyr) هى صفة أطلقت فيما قبل المسيحية بمصر على كل من كان يلقى حتفه أيام الاضطهادات فى سبيل عقيدته الدينية والأقدم من ذلك اوزيريس (الشهيد الحى) أول الشهداء المدافعين عن مصر ضد إله الشر «ست»، ومن بعده بشهداء الغرق فى النيل الذين تعمدوا بالماء المقدس لاوزيريس فنشأت حولهم قدسية خاصة فى المعتقدات المصرية القديمة. لكن بمضى الزمن اتسع مفهوم الكلمة فأصبحت تطلق أيضاً على كل من كان يضحى بنفسه دفاعاً عن فكرة أو مبدأ أو مثل أعلى. وفى وسعنا أن نرجع «بفكرة الموت» أو «الإصرار على الموت» فى الأدب اليونانى إلى إلياذة هوميروس، وموضوع غضب أخيليوس (أخيل). ونلمس نفس النزعة فى مأساة أنتيجونى لسوفوكليس. غير أن أفلاطون الذى عنى بمشكلة خلود الروح هو أول من نلقى عنده فكرة

كاروز الديار المصريه وهو اول بطاركتها، وما لقيوه وما صبروا عليه من الجهاد من قبل الامانه المقدسه من الملوك والولاه وغيرهم وذلك قليل من كثير منقول من سيرهم العجيبه لاجل الاقتصار وعدم ضجر القارى. بركاتهم وصلواتهم تكون حافظه لنا الى الابد امين.

اول ذلك الاب الطاهر البشير مارى مرقس الانجيلى الرسول و هو الاول من العدد].

الارتباط بين الفيلسوف والموت: «فالفلاسفة الحقيقيون هم من يروضون أنفسهم على الموت». ولعل أصدق مثل على ذلك قصة سقراط وإيثاره الموت على التخلي عن مبادئه. وقد كان لموت سقراط الذى أكسبه أفلاطون نحة مثالية تأثير قوى على تطور فكرة الموت بوصفها مثلا أعلى للبطولة. ومنذ القرن الرابع ق.م. كانت هذه الفكرة المثالية موضوعاً للجدل بين فلاسفة أثينا. يقول أرسطو فى إحدى فقرات كتابه «الأخلاق عند نيقوماخوس» إن الرجل الفاضل هو من يجود بنفسه عند الضرورة من أجل أحبائه ومدينته. وتطورت الفكرة عند الرواقيين إلى عقيدة الاستهانة بالموت. كما سمع اليونان عن التضحية بالنفس عند المصريين الذين التقى بهم الإسكندر الأكبر. ولم يأت العصر الهلينستى حتى كانت قد جمعت فى الكتب كثير من القصص التى تروى مصارع الفلاسفة والأبطال (Teleutai). وكان من أبرزها قصة مصرع كاليستيس على يد الإسكندر. ولما جاء العصر المسيحى أعاد آباء الكنيسة رواية هذه القصص. وقد راجت عند المصريين فى العصر الهلينستى قصص كثيرة عن الاستشهاد وإيثار الموت على أكل لحم الخنزير (الذى كان يحرمه المصريين بأعتباره ممثلاً للإله ست) وبخاصة فى زمن اضطهادات الملك السليوكى، أنطيوخوس الرابع، الملقب بالظاهر (١٧٦ ـ ١٦٣ ق. م.). فإذا عدنا إلى عالم الرومان وجدناه حافلاً بحكايات عديدة عن مقاومة الرواقيين لطغيان بعض الأباطرة. وتزخر رسائل پلينيوس الأصغر وإيكتيتوس وفيلوستراتوس الأكبر بمثل هذه الحكايات. ولا ريب فى أن هذه الفكرة، فكرة الموت والترحيب به دفاعاً عن مبدأ أو عقيدة وما نسج

بسم الاب والابن والروح القدس الاله الواحد

السيرة الأولى من سير البيعة المقدسة

سيرة مارى مرقس [يوحنا] الحوارى الانجيلى

ريس اساقفه(*) المدينه العظمى اسكندريه واولهم

لما كان فى زمان تدبير الرب المخلص الرحوم يسوع المسيح عند ما جعل له تلاميذ يتبعونه، كان اخوان ساكنين فى مدينه من اعمال الخمس مدن التى فى المغرب تدعى كيرنابولوس، اسم اكبرهم

(*) اساقفة: جمع اسقف، وهو الراعى لأمانته ورعيته من الناس. والقديس بطرس يطلق هذا اللقب على السيد المسيح فى العهد الجديد حيث يقول: «انكم كنتم كخراف ضالة، ولكنكم رجعتم الآن إلى راعى نفوسكم وأسقفها» [١بط ٢:٥].

حولها من قصص أو أساطير، كانت معروفة بين الأوساط المثقفة فى الإسكندرية. وليس من المستبعد أن تكون «أعمال الإسكندريين» أو «أعمال الشهداء» قد تأثرت بها. غير أن هذا الأثر كان بعيداً أو غير مباشر.

وقد حاول العلامة رستوفتزف أن يثبت تأثر «أعمال الإسكندريين» بتعاليم فلسفة الكلبيين التى شهدت الإسكندرية كثيراً من أتباعها وهم يهيمون فى شوارعها على وجوههم من أمثال بريجرينوس المشهور باسم بروتيوس، ممن كانوا يتسولون فى ثياب رثة وهيئة زرية ويأتون بأفعال منكرة، أو يحضون الناس، مثلما فعل ديوجينس، على انتهاج أسلوب معين فى الحياة، يتخلون فيه عن بذخ الدنيا، ويهبون أنفسهم للشظف والعناء، ويفترشون الأرض، ولا يشربون سوى الماء، ويعزفون عن الزواج ويزهدون فى الأبناء وينكرون الوطن. ويشرون بين الناس قائلين لمن يلتقون به «ينبغى أن تكون جريئاً وقحاً، وأن تهين الناس جميعاً أمراء وسوقة؛ ولتكن فظاً غليظ القلب، ولا تدع التواضع أو الشفقة أو الاعتدال يتسرب إلى نفسك. ولا تتحرج عن أن تفعل فى العلانية ما قد يتحرج سواك عن فعله فى السر..». ونحن نعرف أن ديوجينس هذا كان ينادى بالابتعاد عن الحياة السياسية، وكان فى رأيه أن نبل الأصل وذيوع الصيت وما إلى ذلك إنما هى زخارف أو أقنعة زائفة تخفى تحتها روح الخسة واللؤم. وقد سئل مرة ما هو وطنه، فأجاب بأن العالم وطن له (kosmopolitês). وبغض النظر عن استهتاره الدينى وإباحيته الأخلاقية، فقد سعى جاهداً إلى تحرير الناس مما أسماه أوهام الدين وخزعبلاته، وقد ضرب

ارسطوبولس واسم الاخر برنابس، وكانا فلاحين، وكانا يزرعان ويحصدان، وكان لهما اواسى كثيره، وكانا [يهوديين] عارفين بناموس موسى معرفه جيده وحفظا كتبا كتيره من العتيقه، ونالهما بلايا عظيمه من قبيلتي البربر والحبش [النوبه] ونهب جميع ما كان لهما في زمان اوغسطس قيصر ملك الروم. ولاجل ذهاب مالهما وما نزل عليهما من البلايا رحلا من تلك الكوره واهتما بخلاص انفسهما واتجها إلى بلاد اليهود، و كان لا

ويقابلهما في اليونانية كلمة بمعنى المراقب في ابراج الحصون. وهي تترجم في الكتاب المقدس بكلمة «يتفقده أو «يلاحظه»، ومن هنا كان المسيح رأس الطغمة (Togma تعنى رتبة). والمعنى الوظيفي لكلمة اسقف هو الخادم والوكيل والمؤتمن على تكميل اسقفية المسيح على كنيسته.

المثل بازدرائه للآلهة، ولم يسلم سرابيس من سليط لسانه. فكيف تتفق روح هذه الفلسفة و«أعمال الإسكندريين» التي تؤكد الاعتزاز بنبل الأصل، وحب الوطن، والتقوى للآلهة؟ إن نظرية روستوفتزف عن تأثر أدب الشهداء بالفلسفة الكلبية لا يمكن، على وجاهتها، أن تكون صحيحة. ولابد من أن نبحث عن مؤثرات أخرى تأثرت بها كتابة «أعمال الإسكندريين».

إن هذه المؤثرات المباشرة يمكن حصرها في ثلاث: التمثيليات الهزلية المعاصرة، ومحاضر الجلسات القضائية، والقصة اليونانية الطويلة، وإن كانت «أعمال الشهداء السكندريين» تتميز عنها جميعاً بخصائص فريدة ترجع إلى الديانة الاوزيرية في الاساس التي تؤمن ببعث الشهيد حياً في جنة الخلود. وقد راجت التمثيليات الهزلية، (mimoi) في العصر الهلينستي رواجاً كبيراً[1]. ونلحظ أثرها واضحاً في تلك المسرحيات الفكاهية التي وضعت بتحريض زعيم مثل

(١) وبخاصة الشاعر هيروندااس. وعن سبق الإسكندريين في هذا النوع من التمثيل الهزلي (mimos)، أنظر:

Cicero, Pro Rab. Post. 35: Audiebamus Alexandriam: nunc cognos cimus: illinc omnes praestigiae, illinc, inquam, omnes fallaciae, omnia denique ab eis mimorum argumenta nata sunt: Nec mihi longius quicquam est, iudices, quam videre hominum voltus:

لقد كنا نسمع (من قبل) عن الاسكندرية، والأن نحن نعرفها. انها منبع كل البدع - أقول - انها مصدر كل الحيل، وأخيرا فان سكانها هم الذين ابتكروا كل موضوعات التمثيليات الهزلية. وليس هناك شيء اتوق إليه - حضرات المحلفين - أكثر من أن أرى وجوه قومها. =

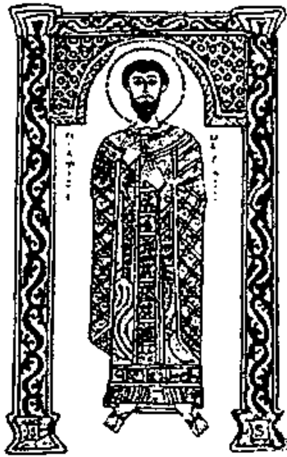

رسم للقديس مرقس (يوحنا) من مخطوط يعود للقرن ١٣

رستوبولس ولد ذكر يسمى يوحنا، فلما سكنوا فى اعمال فلسطين بالقرب من مدينة اورشليم وكان يوحنا الطفل ينمو وينشأ فى قامته بنعمة روح القدس وكان لهذين الاخوين ابنة عم وهى زوجة سمعان بطرس الذى صار ريس تلاميذ السيد المسيح وكان يوحنا المذكور قد سموه مرقس، وكان ياوى عند بطرس ويتعلم منه من الكتب المقدسه التعاليم المسيحيه. ولما كان يوم من الايام اخذ ارستوبولس ولده مرقس الى الاردن، فبينما هما ما شيان لقيهما اسد ولبوه .

إسيدوروس للسخرية من الوالى فلاكوس عندما احتدمت بينهما الخصومة بسبب إغلاق نوادى المدينة وجمعياتها فى عام ٣٣/٣٤؛ وفى الموكب الملكى الهزلى الذى نظمه الإسكندريون للاستهزاء بأجريبا اليهودى فى عام ٣٨؛ والتمثيليات التى عرضت فى الإسكندرية للتفكه بمصائب اليهود إبان محنتهم؛ والأراجيز التى نظمت والمسرحية الهزلية التى مثلت فى الإسكندرية للتعريض بلوكواس ملك اليهود الذى تزعم ثورتهم الكبرى فى برقة ومصر وقبرص

= وعن شغف الإسكندريين بهذا النوع من التمثيل دون تقدير للعواقب التى قد تنجم عنه، راجع:

Dio Cnrysost. Or. XXXII, 86, 89, & Passim.

وعن طبيعته وانتشاره فى مصر وبعض نماذج منه، أنظر:

- T. Grassi, "Musica, Mimica e Danza secondo i documentl papira cel greco- egizi", Studi della Scuola papirologicc III. Mllan (1920). PP. 111 - 135.
- G. Manteuffel, De Opusculis Graecis Aegyptie Papytis, Ostracis Lapidibusque Collectis. Travaux de La Societe des Sciences et des Lettres de Varsovie, No. 12 (Warsaw. 1930), PP. 41 ff.: idem. "Zwei Bemerkungen zu den griechischen Mimen aus Aegypten". Hermes 65. (1930). PP. 123- 128.
- H. Box, philonis Alexandrini in Flaccum. Oxford (1939), P. 88 f. r. 34.
- D.L page, Greek Literary papyri. poetry, vol. I (Loed Classical Library) 1942, Nos. 73-79.
- A. Swiderek, "Le mime grec en Egypte", Eos 47 (1954), PP. 63-74.

فلما نظر ارستوبولوس اليهما مقبلين اليه ونظر شده غضبهما قال لولده مرقس: يا ولدى هوذا تنظر غضب هذا الاسد المقبل ليهلكنا فامض انت الان وانج بنفسك يا ولدى و دعهما ان ياكلانى. كما اراد الله ضابط الكل اجاب تلميذ المسيح مرقس القديس قايلا لابيه: لا تخف يا أبت المسيح الذى اومن به ينجينا من كل شده.

فلما قرب منهم الاسدين صاح عليهما مرقس تلميذ السيد المسيح بصوت عظيم وقال: السيد

(١١٥ ـ ١١٧). وتوحى بعض فقرات فى «أعمال الشهداء السكندريين» بأنها قد تأثرت بفن التمثيل المسرحى، مثال ذلك: مخاطبة أپيانوس لجثة الميت فى روما، ومواساة هليودوروس له، وخطاب أپيانوس المؤثر بعد أن أتشح بأوسمة منصبه الرفيع كمدير لمعهد التربية، وخطبة الموت لپاولوس، والحوار العنيف بين الإمبراطور كلوديوس واسيدوروس، وبين تراچان وهرمايسكوس، وبين كومودوس وأپيانوس؛ وأخيراً تجسيم عيوب الأباطرة وتصويرهم فى صورة ساخرة كرجال خاضعين لزوجاتهم أو طغاة أجلاف لا يعرفون كيف يحكمون العالم الذى فتحوه، والتنديد بافتقارهم إلى الحزم، وتخوفهم من الشعب، واستعانتهم فى آخر الأمر بالجلاد للتخلص من خصومهم. وعلى نقيض ذلك فإن «أعمال الشهداء السكندريين» تنوه باستقامة خلق الإسكندريين وكريم أرومتهم وثقافتهم وشجاعتهم وتحديهم قوى الظلم واستهانتهم بالتعذيب. إن جميع هذه العناصر المسرحية أو شبه المسرحية قد تعزى أصلاً إلى جمهور القراء فى معاهد التربية أو النوادى أو الجمعيات السكندرية. غير أنه لا ينبغى أن نؤكد أثر التمثيليات الهزلية فى «أعمال الإسكندريين». فثمة فرق واضح بينهما وهو افتقار الثانية إلى عنصر الفكاهة والمزاح، واتسامها بروح الجد التى نألفها فى المآسى اليونانية.

والمصدر الآخر الذى اعتمدت عليه «أعمال الإسكندريين» وتأثرت به هو محاضر الجلسات القضائية. غير أن أثر محاضر الجلسات الرسمية لا يظهر فيها كلها أو يظهر فيها لكن بدرجات

يسوع المسيح ابن الله الحى يأمركما تنشقا وينقطع جنسكما من هذا الجبل ولا يكون لكما فيه ولد إلى الابد. فانشقا الاسد واللبوة للوقت و الساعه من وسطهما وماتا لوقتهما من تلك الساعه، وانقطع نسلهما. فلما نظر ارستوبولس ابوه هذه الاعجوبه العظيمه التى ظهرت من مرقس ولده بقوة الرب يسوع المسيح الذى لا يغلب قال لولده: انا ابوك الذى ولدتك يا مرقس ابنى وانت اليوم ابى

متفاوتة. فبعضها مكتوب فعلاً فى شكل محضر قضائى مما يدل على أن مؤلفة اقتبس مادته من صورة وثيقة رسمية وصلت إليه بطريقة أو بأخرى. وبعضها الآخر يمثل محضراً رسمياً محرفاً أو ملفقاً قد أقحمت فيه عناصر روائية أو خيالية ليخدم غرض الدعاية. وبينما يصطبغ نص بصبغة بلاغية واضحة توحى بأنه مستمد من خطبة المحامى الذى تولى الدفاع فى الجلسة الحقيقية، يستقى نص آخر مادته جزئياً أو بصورة غير مباشرة من وثيقة مكتوبة، ويستند ثالث إلى رواية شفوية، ورابع أشبه ما يكون بالقصة الخيالية البحتة[1].

والمصدر الثالث الذى يحتمل أن تكون «أعمال الإسكندريين» قد أخذت عنه بعض موضوعاتها الأدبية هو القصة الطويلة. وقد كان طبيعياً أن يتأثر كتّاب هذه «الأعمال» ومن أعادوا تدوينها بصنف من الأدب الترويحى كان رائجاً فى العصر اليونانى المتأخر والعصر الرومانى. غير أن هذا الأثر كان سطحياً غير عميق. ولا يتبين من المقارنة سوى تشابه طفيف بين أسلوب «أعمال الشهداء» وأسلوب بعض كتاب القصة من أمثال خاريتون وهليودوروس. ولعل ما بينهما من تشابه لا يظهر فى الأسلوب بقدر ما يظهر فى بعض ملامح عامة عاطفية كتقوى الآلهة وحب الوطن.

---

(١) تتضمن قصاصة بردية جديدة، تنتمى فيما يبدو إلى «أعمال الإسكندريين»، خليطاً من الأساليب المختلفة (أسلوب محاضر الجلسات القضائية، والأسلوب البلاغي، والأسلوب الروائي)، أنظر:
Musurillo, "A New Fragment of the Acta Alerandrinorum". J.R.S. 47 (1957), P. 185.

ومخلصى ومنجينى، والان يا ولدى الحبيب انا و اخى نسيلك [نسألك] ان تجعلنا عبيدا للرب يسوع المسيح الذى تبشر به. وحينذ تعلم ابو القديس مرقس وعمه تعاليم المسيح من ذلك اليوم. ومريم امه هى اخت برنابا تلميذ الرسل.

وبعد هذا كان فى تلك النواحى فى بلد يسمى ازدود(*) اصل. زيتون كبير جدا وكان الناس يتعجبون من عظمه وكان اهل تلك المدينه يسجدون للقمر ويصلون لشجرة الزيتون. فنظر

(*) ازدود = اسدود: هى احد موانى الساحل الفلسطينى القديمة.

وفى رأى القس موسير يللو الذى عكف على دراسة هذا الموضوع مدة طويلة أن من الجائز أن تكون «أعمال الإسكندريين» قد نبعت أيضاً من مصدر آخر. فقد استرعى انتباهه عند قراءة نصوصها تكرار أسماء ينتمى أصحابها إلى طبقة معينة، هى طبقة الجيمنازيوم أى معهد التربية الرياضى الثقافى، أسماء كإسيدوروس ولامپون وثيون وديونيسوس وأپيانوس، الذين شغلوا كلهم فى الإسكندرية أرفع المناصب البلدية، وربما كانوا أعضاء فى مجلس شيوخها (gerousia)، وغالباً ما كانوا يمثلون المدينة كرؤساء أو أعضاء فى السفارات الموفدة منها إلى الأباطرة. وفى «أعمال أپيانوس»، التى وقعت حوادثها فى أواخر القرن الثانى إشارة إلى ثلاثة من هؤلاء الشهداء الذين لقوا حتفهم قبل منتصف القرن الأول، وهى إشارة لها مغزاها كان القصد منها استثارة القراء الذين كانوا يعرفون هذه الأسماء عن ظهر قلب وربما كانوا من سلالتهم. لقد كانت «النوادى»، و«معهد التربية»، وربما أيضاً «مجلس الشيوخ» هى مركز الحياة الاجتماعية للطبقة الميسورة. وقد رأينا كيف كان رجل مثل إسيدوروس يسيطر على هذه النوادى فى أيامه وكيف كانت تأتمر بأمره. وقد استخدم نفوذه، على الرغم من منشور الوالى بإلغاء النوادى، لتسخير بعض الكتاب فى تأليف أراجيز ماجنة أو تمثيليات هزلية للسخرية من فلاكوس. ولن نجانب الصواب كثيراً إذا قلنا إن هذه النوادى والجمعيات كانت أشد الهيئات تنديداً بالحكم الرومانى لأنها كانت تمثل آخر مظهر للحياة الثقافية القديمة، تلك الحياة التى ازدهرت فى ظل الاسكندرية.

القديس مرقس صلاتهم وقال لهم: هذه الزيتونه التى تأكلون ثمرتها وتوقدون اغصانها للنار ثم تسجدون لها كالاله ماذا تصنع، هوذا بكلمه الله الذى اعبده امر هذه الشجره ان تسقط على الارض بلا حديد يدنو منها. فقالوا له: نحن نعلم انك تعمل سحر الجليلى صاحبك ومهما اردته فعلته ونحن فندعو الهنا القمر الذى اقام لنا هذه الشجره الزيتون نصلى لها .

اجاب القديس مرقس وقال لهم : انا أطرحها

الالهة نوت متمثلة فى شجرة الجميز تصب الحياة على هيئة علامات عنخ من الوعاء الذى يحمل ماء الحياة والخلود

من الأجدى إذن أن نبحث عن مصدر «أعمال الإسكندريين» بين أسر أقطاب من أمثال إسيدوروس ولامپون وثيون وديونيسيوس ومحيط أصدقائهم أو على الأقل بين أعضاء طبقتهم ونواديهم. وقد كان فى وسع هؤلاء الأقطاب، بفضل تربيتهم اليونانية المقترنة بالاعتزاز بالأصل اليونانى، وبفضل نفوذهم القوى، وربما أيضاً بفضل ثرائهم، أن يوجهوا النوادى، مثلما فعل إسيدوروس، وجهة معينة، ويستأجروا بعض الكتاب لتأليف هذه المقطوعات الأدبية بعد تزويدهم بتقارير السفارات أو صور محاضر الجلسات الرسمية. ولعل هذه المقطوعات لم توضع إلا للتداول الخاص والتوزيع فى دائرة محدودة أى لتلاوتها فى المنازل أو النوادى المحلية أو معاهد التربية. وفى هذه الحالة كانت نصوصها التى كتبت فى أوقات متباينة خلال القرنين الأول والثانى تتعرض للتحريف من وقت لآخر سواء بالحذف أو بالإضافة أو بالتغيير بأقلام عدة كتاب متفاوتين فى الكفاية الأدبية. ولا مراء فى أنه كانت توجد منها نسخ مختلفة خلال القرنين الأول والثانى وأنها كانت توزع بين الأصدقاء أو الأقارب المقيمين فى جهات مصر الأخرى. وأخيراً فإنه من الجائز أن بعض هذه المقطوعات قد نسخت من جديد بإيعاز أفراد من هذه الطبقة، طبقة الجيمنازيوم، فى مستهل القرن الثالث، أى فى عصر كراكلاً، عندما اشتدت عداوة الإسكندريين للحكم الرومانى.

ويرجع العلماء نشأة وتطور «اعمال الشهداء» الى الفكرة المصرية الاصلية التى تؤمن

شجرة الحياة المسيحية في احد كنايس بنتابولس غرب اسكندرية. فسيفساء من القرن ٤. الطاووس في اعلاها والعنقاء في اسفلها رمز للقيامة وبينهما طير في قفص رمزا للروح السجينة في الجسد

على الارض فان اقامها الهكم فانا اعبده معكم. فرضوا بهذا القول منه وابعدو جميع الناس عنها وقالو: انظرو لئلا يكون انسان مختفيا فيها. حينئذ رفع القديس مرقس وجهه الى السما [وصلى] وحول وجهه الى ناحيه المشرق وفتح فاه ودعا و قال: يا سيدى يسوع المسيح ابن الله الحى اسمع عبدك وامر القمر الذى هو خادم تان لهذا العالم الذى يضى فى الليل بامرك وسلطانك ان يظهر صوته على هولا الذين ليس لهم اله، و يعرفهم من

بالبعث والخلود مماجعل المصرى منذ فجر تاريخه لا تلين له قناة فى مقاومة الغزاة فهو يعلم ان نهاية كفاحه إما العيش فى وطن كريم واما الخلود فى الجنة جزاء لا ستشهاده وهكذا لم يكن المصريون هم الذين ابدعوا فكرة الشهيد فقط بل وربطوها بالذود عن الوطن. فقدموا للعالم بذلك انجازا سمت به الحضارة المصرية على كل حضارات العالم.

وفى وسعنا أن نحصر الموضوعات الأدبية التى تميزت بها «أعمال السكندريين» تحت رؤوس ثلاث: الوطنية والاستشهاد والدعاية ضد الرومان. وتتلخص عناصر الموضوع الأول فى التنويه بنبل أصل زعماء الإسكندرية، وتقواهم للآلهة، وحبهم لمدينتهم، وجرأتهم فى الحق، واعتزازهم بمناصبهم البلدية، يتمثل العنصر الثانى فى الإشارة إلى الموت أو القبر أو جثث الموتى بطريقة مؤثرة محزنة والى تعذيب الإسكندريين وترحيبهم بالموت وتحديهم الأباطرة، وان كان الزعماء يظهرون عادة الاحترام لهم إلى أن يستثيروهم فتنطلق ألسنتهم عندئذ بالهجاء؛ وأما عناصر الموضوع الثالث فأبرزها التنديد بظلم الرومان، وضعة أصل أباطرتهم وجشعهم، والطعن فى ذمة ولاتهم، وجبن شعبهم، وفساد حكومتهم، والتدليل على ذلك بتدخل امرأة كأفلوطينا، زوجة تراجان، للتأثير على سير العدالة، وبضعف الأباطرة وترددهم وتأجيلهم الأحكام أو تبديلها فجأة، ورضوخهم لعتقائهم وخضوعهم لزوجاتهم. ويقع تحت رأس هذا الموضوع، موضوع الدعاية ضد الرومان، تندد أعمال الشهداء بوقوع الأباطرة تحت تأثير اليهود، وامتلاء

خلقه جميع الخليقه، ومن هو الله حتى يعبدوه، وانا اعلم يا ربى والاهى ان ليس له صــوت ولانطق ولاجرت عادته ان يكلم احدا لكى يسمع كلامه فى هذه الساعه بقوتك التى لا تقاوم ليعرف هولا الذين لهم الاه ان ليس هو الاها لكنه خادم تحت سلطانك، وانت الهه، وهذه الشجره التى يصلون لها تقع على الارض ليعرف الكل ربوبيتك ان ليس الاه الا انت، والاب الصالح والروح القدس المحى الى الابد امين. وفى تلك الساعه عند تمام صلاته

ألهة تطعم الموتى من شجرتها

مجلسهم القضائى بهم أو تحيزهم لهم، وبالتالى مهاجمة اليهود أنفسهم والتعريض بربهم يَهْوه أو الزراية بملكهم أجريبا، ونعتهم بأنهم كفرة، يسيئون معاملة الإسكندريين، ويندسون خلسة دون وجه حق فى منظمات الشباب الوطنية.

وفى الحق إن هذا الموضوع الأدبى الأخير، موضوع الدعاية ضد الرومان واليهود، هو الذى يميز «أعمال الإسكندريين» ويجعلها صنفاً من الأدب مستقلاً عن القصة الطويلة والتمثيلية الهزلية ومحاضر الجلسات القضائية. ومع أن عنصر الكراهية لليهود ليس أبرز العناصر ـ ولا أقول، كما يذهب البعض، عنصراً ثانوياً ـ إلا أن «أعمال السكندريين» تعكس حالة التوتر التى كانت قائمة بينهم وبين مواطنى المدينة واحتدمت احتداماً شديداً فى بعض الأحيان. غير أن شعور الكراهية نحو الرومان، الذى لا نظير له فى أى مؤلفات أدبية يونانية أخرى، هو ما حدا بالبحاثين إلى وصف هذه «الأعمال» بأنها أعنف دعاية قامت ضد الرومان. ففى هذا الموضوع بالذات نلمس بسهولة التحوير الذى أحدثه قلم الكاتب فى النص عند تدوينه من جديد، وإن كان من العسير التحقق من المرحلة التى ظهرت فيها عناصر هذا الموضوع لأول مرة. وبعض هذه العناصر حقيقية وإن كان كاتب الجلسة الرومانى قد أسقطها من المحضر الرسمى. وبعضها الآخر كان موجوداً على الأقل منذ أن دونت «أعمال السكندريين» المختلفة للمرة الأولى؛ ولعل جانباً منها يعزى إلى التعديل الذى طرأ عليها فيما بعد عند إعادة تدوينها.

حدثت ظلمه عظيمه نصف النهار وظهر لهم القمر مضيا فى السما وسمعو صوتا من القمر قايلا: ايها الناس القليلو الايمان لست أنا الله فتعبدونى بل انا عبدالله ومن بعض خلقه، انا خادم المسيح ربى الذى يبشر به هذا مرقس تلميذه فهو وحده الذى نعبده ونخدمه. عند ذلك سقطت شجرة الزيتون وصار خوف عظيم على كلمن شاهد هذه الاعجوبه. فاما القوم الذين كانو يخدمون الشجره ويسجدون لها فانهم غضبو وخرقو ثيابهم ومسكو

شجرة ماء الحياة

وبقى سؤال هام: ما هو الهدف الأقصى من «أعمال الإسكندريين»؟ إن هذه القصصات البردية ـ كما رأينا ـ لا تمثل كتاباً واحداً صنّفه أو ألتمه كاتب واحد. ويتميز كل نص فيها بطابع خاص نظراً لتأثره بمؤثرات مختلفة عن النصوص الأخرى. ومن ثم قد يبدو من المستحيل أن تكون كلها قد كتبت لتحقيق هدف معين واحد. ومن الواضح أن موضوع الدعاية ضد الرومان يحتل فى معظم هذه القصاصات ـ وإن لم يكن فيها جميعاً ـ مكاناً أبرز من أى موضوع آخر؛ غير أن البعض قد يجدون فى أن مختلف هذه الجذاذات الحافلة بالفضائح والإشاعات والطعون كانت كلها موجهة نحو غاية محددة.

إنه لأمر عسير فى أغلب الأحيان أن نحدد الغرض من العمل الأدبى: متى تكون الدعاية هى الغرض الأساسى من كتابته، ومتى يكون هذا الغرض هو الترويح، وإن يكن مصطبغاً بصبغة سياسية واضحة. فهذه المشكلات لا توجد لحلها قواعد. ولا سبيل إلى الفصل فيها إلا بالاحتكام إلى الطابع العام الذى يتميز به العمل الأدبى، وتحديد البواعث السياسية أو الاجتماعية التى دفعت إلى كتابته. إن الحقائق المتصلة «بأعمال السكندريين» ليست موفورة فحسب بل هى معروفة للجميع. ومع هذا فقد توصل الباحثون فى هذه «الأعمال» إلى نتائج متضاربة على الرغم من استنادهم إلى معلومات ليس بينها أى تضارب! لعل ذلك يرجع ـ كما يعتقد موسير يللو ـ إلى أن بعضهم عالجوها معالجة غير موضوعية. ففى رأيه أن ما تجمع

القديس مرقس وضربوه وسلموه لليهود المخالفين وطرحوه فى السجن.

وفى تلك الليله رأى القديس مرقس فى نومه السيد المسيح يقول لبطرس(*): أنا أخرج كلمن هو معتقل. فلما انتبه من نومه رأى ابواب السجن مفتوحه، فخرج هو وكلمن كان معه فى السجن وكانو حفظه السجن نياما كلاموات. فاما الجموع الذين شاهدو ما كان قالو: ما يتم لنا عمل مع

(*) بطرس: يعتقد أنه ولد فى الجليل. ومهنته كانت صيد السمك. هو أول من آمن بالسيد المسيح من الرسل لذلك سمى «رأس الرسل» صلب فى عهد الوالى الرومانى هيرودس. لامه المسيحيون الاول على تبشيره بين غير اليهود ذوى الغلفة، ولذلك سمى كذلك برسول الأمم.

لدينا من معلومات يحملنا على التسليم بأمرين: أحدهما هو أن معظم برديات «أعمال الاسكندريين» هى «محاضر محوّرة» تستند أصلاً، استناداً مباشراً أو غير مباشر، إلى صور مضابط الجلسات القضائية أو صور «تقارير السفارات». ومن ثم نجانب الصواب إذا وصفنا «شكل المحضر» فيها بأنه مجرد حيلة أدبية؛ والآخر هو أن دراسة الموضوعات الأدبية التى ترد بكثرة فى هذه «الأعمال» تشير إلى أن المقصود منها كان تشجيع اتجاهات طبقة أو جماعة معينة، وهى اتجاهات مناهضة للرومان واليهود، وإذكاء روح الاعتزاز بأمجاد الماضى المنصرم بين أفرادها. ولا مراء فى أن أهل الإسكندرية وأنحاء مصر الأخرى قد تقمصوا شخصيات أبطالهم الذين مجدوهم كضحايا لقوا حتفهم أثناء محاولتهم الاحتفاظ بنقاء حضارتهم ووقايتها من عدوان حضارة (رومانية) متبربرة.

غير أن نظرة فاحصة إلى «أعمال السكندريين» قد تطلعنا على نتيجة أخرى بالغة الأهمية، وهى أن الجماعة أو الطبقة الاجتماعية التى روجت هذه «المنشورات» كانت نفسها منقسمة إلى فريقين أو حزبين، حزب متطرف فى عداوته للرومان يتزعمه رجال على شاكلة إسيدوروس وهرمايسكوس وأبيانوس، وحزب محافظ معتدل فى شعوره نحوهم، إن لم يكن يميل إليهم، ويتزعمه رجال ممن اكتسبوا الجنسية الرومانية مثل جايوس يوليوس ديونيسيوس وتيبربوس كلوديوس باليلوس. ومع أن هذين الحزبين، حزب اليسار وحزب اليمين ـ ان جاز هذا التعبير ـ

أيقونة من الخشب فى كنيسة ابو سرجه عليها حفر يمثل العشاد الاخير للسيد المسيح وحواريه. كنيسة ابو سرجه. مصر عيقة من القرن ١١

هولا الجليليين لانهم يفعلون هذه الافعال بعلزبول ريس الشياطين.

وكان مرقس من السبعين تلميذا، وهو من جملة الخدام الذين استقو الما[ء] الذى صيره سيدنا خمر فى عرس قانا الجليل، و هو الذى حمل الجرة الما فى بيت سمعان القريانى فى وقت العشا السرى، وهو ايضا الذى كان ياوى التلاميذ فى منزله فى زمان الام السيد المسيح ومن بعد قيامته

قد جاهر أحدها الآخر بالعداوة فى بعض الأحيان، إلا أنهما كانا متفقين على شىء واحد، هو حب الاسكندرية. ويتضح تعاون الفريقين من ذلك النشاط المشترك فى إرسال مختلف السفارات الدبلوماسية إلى الأباطرة، وفى السياسة الموحدة إزاء يهود المدينة. وكان يعنى كلاً منهما أن يحتفظ بمحاضر جلسات المحاكمات أو تقارير السفارات وإعادة كتابتها بما يتفق وأغراضه. لكن مع هذا الفارق: وهو أن الحزب المتطرف فى عداوته للرومان هو الذى كان يروج القطع المقذعة الهجاء الزاخرة بالحقد والبغضاء، على حين أن الحزب المعتدل أو الموالى للرومان هو الذى كان يروج القطع الأقل عداوة والتى تتناول مسائل تهم السكندريين كافة.

لكن على الرغم من اختلاف هذين الحزبين فى موقفهما من روما، إلا أنهما لم يختلفا على الأقل فى مسألة هامة. فمن المعروف أنه لم تصلنا أى بردية من برديات «أعمال السكندريين» اليقينية تشير إلى وقائع حدثت بعد عصر الإمبراطور كومودوس (١٨٠ ـ ١٩٢). هذه الحقيقة تحملنا على الإعتقاد أن أحد الأسباب السياسية الرئيسية للسخط على الرومان، والتى ساعدت على ترويج هذه المنشورات يتمثل فى رفضهم المستمر قيام مجلس شورى بالاسكندرية. وبدهى أن الاسكندريين ممن لم يكتسبوا الجنسية الرومانية كانوا أشد من سواهم إحساساً بالمرارة، غير أن الحزبين، حزب اليسار وحزب اليمين، كانا يجدان هنا ـ فى المطالبة بمجلس الشورى ـ نقطة للالتقاء والتعاون. وبعد أن منح الإمبراطور سبتيميوس سفيروس الاسكندرية (وجميع

من الامــوات، حــيث دخل عليـــهم والابواب مغلقـه.

تمثال نصفي لسبتيميوس سفيروس (١٩٣ ـ ٢١١ ب. م.)

وبعد صعوده الى السما مضى مرقس مع بطرس الى يروشليم وبشـرا الجـمـوع بكلام الله. وظهـر الروح القـدس لبطرس و امره ان يمضى الى المدن والقرى التى هناك. فـمـضى بطرس و معـه مرقس الى عمل بيت عنيا وبشرا بكلام الله. واقام بطرس هناك اياما فنظر فى المنام ملاك الله يقـول له: فى

عواصم المديريات) الحق في إنشاء مجلس للشورى عام ٢٠٠، فترت حركة المقاومة ضد روما بالتدريج، وتضاءلت تبعاً لذلك قوة الحزب المناوىء للرومان. غير أن شغف الناس بقصة نضال الاسكندرية من أجل الاستقلال السياسى ظل على شدته، ويؤيد ذلك أن فصولاً من هذه القصة كانت ما تزال تدون للاحتفاظ بها في المكتبات الخاصة في جهات مصر الأخرى حتى بعد أن انتفى الغرض الأصلى منها.

وأخيراً: «إن أعمال السكندريين» كما يقول الأستاذ بل «لا يمكن أن تعد من بين الدرر الأدبية. غير أنها ذات قيمة حقيقية. فهى، من ناحية، تمدنا بنماذج من صنف من الأدب ليس ممثلا سوى تمثيل هزيل بين مخلفات الأدب السكندرى. وهى ليست من تأليف كتاب متفقهين فى اللغة، أو أدباء نوابغ يكتبون للقلة المثقفة، ولا هى من إنشاء خطباء يخطبون فى الكثرة من الناس ولو أنهم يستخدمون للاقناع كل الحيل البلاغية. إنما هى مؤلفات تمثل الأدب الشعبى فى ذلك العصر، وضعت لتحقيق هدف عابر، ووجهت للقارىء العادى؛ وهى مكتوبة بأسلوب حى شائق، ولكنها لم تصقل سوى صقل أدبى طفيف. وفي الحق أنها ذات طابع صحفى. وهى من ناحية أخرى تطلعنا على وجهة نظر جديدة لم نألفها من قبل. فقد ألفنا أن ننظر إلى تاريخ الإمبراطورية الرومانية بأعين الرومان أنفسهم. لكن «أعمال الشهداء السكندريين» تتيح لنا أن ننظر إلى هذا التاريخ من زاوية مضادة: من جانب قوم كانوا يكنون العداوة والسخط

كورتين غلا عظيم. فقال بطرس للملاك: اى الكور تعنى قال له: مدينة اسكندريه وكورة مصر وكورة روميه، و ليس هو غلا من خبز وما [ء] بل هو غلا من قلة معرفة كلام الله الذى تبشر به. فلما استيقظ بطرس من نومه قال لمرقس ما شاهده فى منامه. ومن بعد ذلك مضى بطرس ومرقس الى اعمال روميه وبشرا هناك بكلام الله.

ولما كان في السنه الخامسه عشر من بعد صعود المسيح انفذ القديس بطرس مارى مرقس الاب

الدفين على روما التى لم تكن فى نظرهم تلك الدولة العظيمة التى نشرت النظام والمدنية وحفظت. للأجيال التالية تراث الثقافة السكندرية والعلم السكندرى، بل كانت فاتحاً أجنبياً مستبداً. ومن ناحية ثالثة، أن «أعمال السكندريين» وإن كان غرضها الأساسى الدعاية ضد الرومان أكثر منه الدعاية ضد اليهود.

ونحن لا نعرف على وجه التحقيق الأسباب المباشرة التى أدت إلى إثارة الفتنة من جديد بين اليهود والإسكندريين والتى دعت إلى محاكمة بعض زعماء الإغريق فى عام ثار حول تحديده نقاش طويل، فمن قائل بأنه عام ٤١ ومن قائل بأنه عام ٥٣، وإن كنا أميل إلى الأخذ بالتاريخ الأخير. وعلى أى حال فلسنا بحاجة إلى البحث عن أسباب للفتنة لأن العداوة كانت قد تأصلت بين السكندريين واليهود الذين اتهموا بأنهم أداة طيعة فى يد السلطات الرومانية فى ذلك الوقت.

فسبسيان وتيتوس ودوميتيان

فسبسيان فى الاسكندرية:

يعرف العام التالى لمصرع نيرون ـ عام ٦٩ ـ فى التاريخ «بعام الأباطرة الأربعة». ولا يعنينا من الصراع الذى احتدم بين المتنافسين على عرش الإمبراطورية سوى ما حدث فى الشرق،

الانجيلى الى مدينة اسكندريه ليبشر فيها ويكرز بكلام الله وانجيل السيد يسوع المسيح الذى له ينبغى المجد والكرامه والسجود وللاب و الروح القدس الله الواحد الى الابد امين.

شهادة القديس
مارى مرقس وبشارته بمدينة اسكندريه
وهى الثانيه من سير البيعه

لما كان فى زمان تدبير الرب المخلص يسوع المسيح من بعد صعوده الى السما قسم جميع

الطريقة الجديدة لاختيار الإمبراطور. ما أن يتوفى الإمبراطور القديم، حتى يتجمع أفراد معسكر أحد الفيالق على الحدود وينادون بقائدهم إمبراطور (ويبدو واقفا على المنصة)

الكور على الرسل بالهام الروح القدس ليكرزو فيها بكلام البشاره بالسيد يسوع المسيح. ومن بعد زمان وقع نصيب مرقس الانجيلى ان يمضى الى كورة مصر ومدينة اسكندريه العظمى بأمر الروح القدس لكى يسمعهم كلام انجيل السيد المسيح ويثبتهم عليه لاجل ضلالتهم وانغماسهم فى عبادة الاوثان وعبادة المخلوق دون الخالق، وكان عندهم برابى(*) كثيرة لالهتهم المرذوله يخدمونها فى كل مكان ويعبدونها بكل اثم وسحر ويذبحون لها بينهم

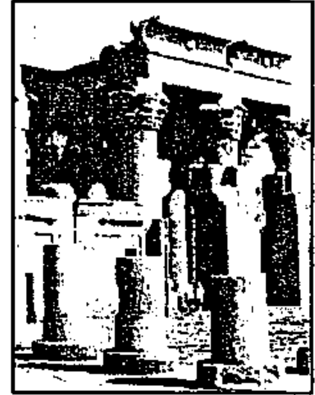

(*) برابى: هى المعابد الفرعونية.

وفى مصر بوجه خاص. ولم تكن مصر قد قامت باى دور سياسى هام فى تاريخ الإمبراطورية حتى ذلك الحين. لكن نجمها سطع فجأة عندما أسهمت فى رفع قائد من قواد الشرق إلى أريكة الحكم، كاشفة بذلك سر الإمبراطورية الذى أفضى فى النهاية إلى انهيارها، ألا وهو إمكان ترشيح الإمبراطور فى مكان آخر غير روما. فقد تعاقب على العرش أربعة قواد: جالبا (Galba) وأوتو (Otho) وڤيتلليوس (Vitellius) الذين حكم كل منهم فترة لا تزيد على شهور قليلة انتهت فى ديسمبر من عام ٦٩، وأخيراً فلاڤيوس ڤسپسيانوس (T. Flavius Vespasianus) أو ڤسپسيان الذى قدر له أن يتربع على عرش الإمبراطورية عشر سنوات (٦٩ ـ ٧٩) وأن يمتد حكم أسرته، أسرة فلاڤيوسى، حتى عام ٩٦. وكان ڤسپسيان هو القائد الذى ولاه نيرون على أرض يهودا (Iudaea) ثم عهد إليه بقمع ثورة اليهود فى عام ٦٧، فاجتاح فلسطين واستولى على مواقعها الحصينة، وتأهب لمحاصرة أورشليم حيث احتشد اليهود واستعدوا لمقاومة الرومان. ولما بلغه نبأ موت نيرون أرجأ الهجوم على المدينة ولم يستأنفه إلا بعد المناداة بڤيتلليوس إمبراطوراً فى أبريل من عام ٦٩.

وهنا يأتى دور مصر فى معركة التطاحن على عرش الإمبراطورية، فقد أثار هذا المدعى الأخير ڤيتلليوس بسوء خلقه تذمر جنود الفرق المرابطة فى ولايات الدانوب. ولما كان لا يوجد بين قواد هذه الفرق من هو جدير بترشيحه إمبراطوراً، فقد اتجهت الأنظار إلى والى أرض يهودا

قرابين، لانه اول من كرز فى كورة مصر وافريقيه والخمس المدن وجميع اعمالها، فلما عاد القديس مرقس من روميه قصد الى الخمس مدن اولا وبشر فى جميع اعمالها بكلام الله، وأظهر عجايب كثيره حتى انه ابرأ الاعلا وطهر البرص واخرج الشياطين بنعمة الله الحالة فيه، وامن كثير بالسيد المسيح من اجله وكسرو أوثانهم التى كانو يعبدونها، و كل الشجر التى كانت الشياطين تأوى اليها وتخاطب الناس منها، وعمدهم باسم الاب

وقائد الحملة ضد اليهود. وعندئذ بادرت الفرقتان المرابطتان فى الإسكندرية بالمناداة بفسپسيان إمبراطوراً فى أول يوليو عام ٦٩[١]. وكان ذلك بإيعاز من تيبريوس يوليوس الإسكندر، والى مصر عندئذ. وكان الإسكندر هو الوحيد بين ولاة مصر الذى يمكن وصفه بأنه «مصرى» لأنه ولد بالإسكندرية، والوحيد الذى شغل فى مصر قبل ولايته عليها منصب مدير عام إحدى مناطقها الإدارية الثلاث (منطقة طيبة) فى عام ٤٢. وكان ـ كما أسلفنا ـ يهودياً من أسرة ثرية مرموقة المكانة، ثم ارتد إلى الوثنية واكتسب الجنسية الرومانية، وانتظم فى سلك الفرسان الرومان وتدرج فى مناصب هذا السلك العسكرية والإدارية المختلفة وأخيراً عينه نيرون والياً على مصر فى عام ٦٦. وقد استطاع بدهائه أن يحتفظ بمنصبه على الرغم من فوضى الحرب الأهلية وتعاقب الأباطرة فى عام ٦٩. ولم تلبث الفرق المرابطة فى فلسطين أن نادت هى الأخرى بفسپسيان إمبراطوراً فى ٣ يوليو من العام نفسه. وحذا حذوها الجيش الرومانى فى سوريا بعد أسابيع قليلة. وزحف فسپسيان إلى مصر بانيا خطته، فيما يبدو، على تأمين

(١) وقد اعتبر هذا اليوم فيما بعد بداية حكمه (Tacitus. Hist. II, 79)، وإن كان السناتو الرومانى لم يعلنه إمبراطوراً إلا فى يوم ٢٢ ديسمبر عام ٦٩ بعد مصرع فيتلليوس. ولم تمتد السنة الأولى من حكمه فى مصر إلا من أول يوليو ٦٩ حتى ٢٨ أغسطس ٦٩ وفقاً للتقويم المصرى، أى من ٧ أبيب إلى ٥ نسىء، آخر يوم فى السنة المصرية (غير الكبيسة) راجع:
Stein. Die Praefekten Von Aegypten in der romischen Kaiserzeit (1950). p. 39.

والابن والروح القدس الاله الواحد. ولذلك ظهر له الروح القـدس وقـال له: قم امض الى مـدينة اسكندريه لتزرع فيها الزرع الجيد الذى هو كلام الله. فقـام تلميـذ المسيح ونهض وتقـوى بروح القدس كمثل مقاتل فى الحرب وسلم على الاخوه وودعهم وقال لهم: السيـد يسوع المسيح يسهل طريقى لامضى الى اسكندريه وابشر فيها بانجيله المقدس. ثم دعا وقـال : يا رب ثبت الاخـوة الذين قد عرفوا اسمك المقدس واعود اليهم فرحا بهم.

مفتاحيها، وبيلوزيوم وفاروس، وارغام منافسه فى روما على الاستسلام بقطع إمدادات القمح عن العاصمة الرومانية.

وقـد روى لنا المؤرخ الرومـانى تاكـيتـوس أحـداث «عـام الأباطرة الأربعـة» فى تواريخـه (Historiae) وصفاً مسهباً مؤثراً، غير أنه لم يعلم أو لعله تعمد أن يغفل حقيقة أخرى كشفت عنها قصاصة بردية. هذه الحقيقة تتلخص فى أن الإسكندرية هبت كلها مرحبة بمغتصب العرش الذى تمرد على ڤيتلليوس، ممثل السلطة المركزية فى روما. وكانت الإسكندرية ـ ثانية مدن الإمبراطورية ـ تحمل ضغناً لروما منذ أيام أكتيوم. فلما سنحت لها الفرصة شفت غليلها وتزعمت حركة التمرد على غريمتها. وسنلمس تكرار هذه الظاهرة فيما يلى من أحداث. فكم تمنت أن تتحرر من ربقة الحكم الرومانى، غير أن قوات الاحتلال كانت أقوى من أن تغلب بالمظاهرات. ولم تجد المدينة بل مصر قاطبة سبيلا للتعبير عن عداوتها للرومان سوى ترويج المنشورات (أعمال السكندريين) وتأييد أدعياء العرش ممن كانوا يشقون عصا الطاعة على روما، عاصمة الإمبراطورية. ولم تكن الإسكندرية قد شهدت أى إمبراطور رومانى منذ سقوطها فى يد أغسطس عام ٣٠ ق.م. فما أن اقترب ڤسپسيان من مشارف المدينة الشرقية (أوائل عام ٧٠) حتى خفت الجماهير إلى استقباله فى ملعب سباق الخيل عند باب كانوب. وغمرها حماس

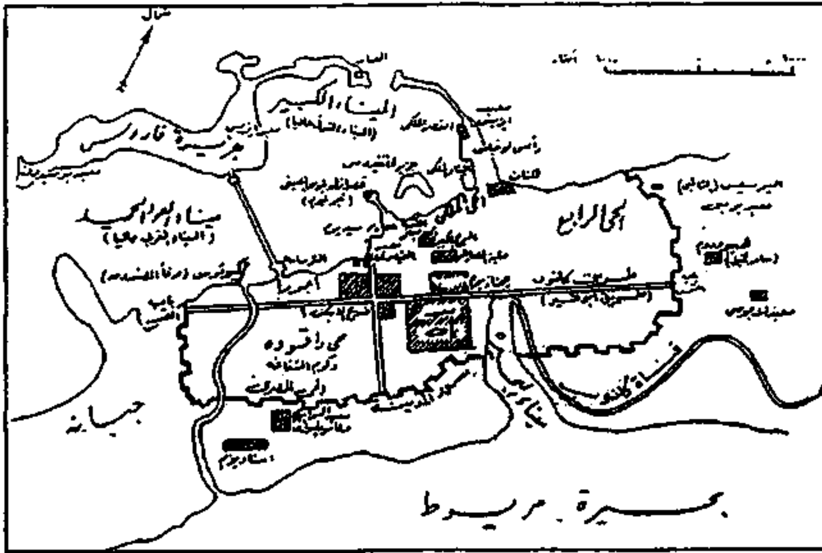

الاسكندرية فى العصر اليونانى الرومانى

شديد وتعالت هتفاتها له. ولعل الموقف أعاد إلى ذاكرة المواطنين مشاهد مماثلة من عصر البطالمة عندما كان لأسلافهم يد في تنصيب الملوك وخلعهم. فإذا كانت هذه الأيام قد ولت إلى الأبد، فلا أقل من أن يوهموا أنفسهم بأنهم أصحاب الفضل الأول فى المناداة بڤسپسيان إمبراطوراً. وقد عومل ڤسپسيان كأنه إله، وظهرت له آيات، إذ هرع إليه ضرير فرد إليه بصره، وتوسل إليه عاجز اليد (أو الساق؟) فشفاه من عاهته. وقد زعم الرجلان أن سرابيس أوحى إليهما أن يلتمسا الشفاء لديه. وأثارت المعجزة فى قلب ڤسپسيان الرغبة فى زيارة معبد سرابيس (Serapeum) ليستنبىء الإله عن حكمه. وقد أمر بإخراج جميع من فى المعبد أولاً ثم دخله حيث غرق في التهجد ومناجاة سرابيس، ورأى رؤيا تبشر بقرب اعتلائه العرش: إذ خيل إليه، وهو يتلفت، بعد أن قدم قرابين كثيرة لاسترضاء الإله، أن باسيليديس، أحد معتقيه، قد أهداه غصوناً وأكاليل وأرغفة (مقدسة)، وفقاً لما جرت به العادة هناك(١).

لكن سرعان ما تبين للاسكندريين أن الإله الجديد إنما هو إنسان كسائر البشر، ورجل مال

---

(١) فى رأى أحد الباحثين أن رواية سويتونيوس عن زيارة ڤسپسيان لمعبد سرابيس أصدق من غيرها. ويرجح أنها مستمدة من مصدر سكندرى. ويقارن هذه الزيارة بزيارة الملك بعنخى الإثيوبى لمعبد هليوبوليس، عندما جاء مصر غازياً، وبزيارة الإسكندر الأكبر لمعبد آمون فى سيوه. ويرى أن ما جرى بداخل المعبد وتقديم الغصون والأكاليل والخبز لڤسپسيان هى طقوس شبيهة بطقوس التتويج الفرعونية، ولكنه لا يرى أن ڤسپسيان توج فى الإسكندرية.

فشيعوه الاخوه و توجه الى مدينة اسكندريه، فلما دخل من بابها انقطع شسع(*) حذاه، فلما رأى ذلك قال: (الان قد علمت ان الرب سهل طريقى. ثم التفت فنظر الى اسكاف هناك فتقدم اليه ودفع له الحذا ليصلحه، فلما اخذه الاسكاف وتناول الشفا(*) ليعمله، ثقب الشفا كفه فقال [ايس او ثاوس] الذى تاويله الواحد الله، فلما سمعه القديس مرقس يذكر اسم الله فرح جدا وحول وجهه الى الشرق وقال: يا سيدى يسوع انت الذى

(*) شسع: سير فى النعل يدخل حول الاصبعين ويشد إلى زمامه.

(*) الشفاء: مخراز أو مثقاب يستخدمه الاسكافية لعمل حزوم فى الجلد ليشد من خلالها الخيط لربط الحذاء أو الصندل بقوة بدلاً

من رجال الأعمال، حريص على تحصيل الضرائب كاملة كغيرة من الأباطرة. فقد خيب ظنهم بفرض ضرائب جديدة وإحياء أخرى ملغاة. وعندئذ لجأ الإسكندريون، إلى سلاحهم التقليدى، سلاح التشهير، وسلطوا عليه ألسنتهم اللاذعة، فلقبوه «بتاجر الأسماك المملحة» (kubiosaktês) وغير ذلك من ألقاب السخرية، وهجوه بأغان مقذعة. واستشاط فسپسيان غضباً فأخضعهم لضريبة الرأس امتهاناً لهم، غير أن ابنه تيتوس توسط لهم عنده فصفح عنهم وأعفاهم منها. وبرغم هذه الوساطة فقد تعالت أصوات الجماهير الغاضبة قائلة «إننا نصفح عنه ـ أى عن فسپسيان ـ فهو لا يعرف كيف يتصرف تصرف القياصرة»(١)!

---

(1) Dio cassius, LXV, 8.C.

تحتوى بردية من البهنسا يكتنفها الغموض الشديد على خطبة موجهة ضد شخص أو أشخاص متهمين بترويج إشاعات كاذبة عن الأباطرة وانتقاد مسلكهم. ويبدو أن أحد المتهمين كان فى المنفى، والآخر قد نفذ فيه حكم الإعدام، بينما كان الثالث قد وجهت إليه التهمة نفسها قبل ذلك بإثنتى عشرة سنة عندما هاجم نيرون وموقفه من الأثرياء والوجهاء. ولا نعرف من هو الإمبراطور الذى ألقيت الخطبة أمامه. لكن القرائن ترجح أنه فسپسيان. ولعل البردية لها صلة بحادثة طرده الفلاسفة الرواقين والكلبيين من روما، والذين كان من بينهم بعض الإسكندريين. وليس من المستبعد أن تكون البردية، برغم خلوها من روح العداء للرومان، قطعة من «أعمال الإسكندريين»، تصور هذا الصدام الذى حدث بين فسپسيان والإسكندريين، وأن مصدرها هو الفريق أو الحزب الإسكندرى الذى لم يكن شديد العداوة للرومان، راجع:

Acta Diogenis = Musurillo. Acta Alerandrinorum, No. V A (Text, pp. 27-30: Comment, pp. 141-6).

من ماكينة خياطة الجلد الحديثة.

تسهل طريقى فى كل مكان. ثم تفل على الارض واخذ منه طينا ووضعه على موضع ثقب الشفا فى يد الاسكاف وقال: باسم الاب والابن والروح القدس الاله الواحد الحى الابدى تعافى يد هذا الانسان فى هذه الساعه ليتمجد أسمك القدوس. فعوفيت يده فى تلك الساعه [ثم] قال له القديس مرقس: اذا كنت تعرف ان الله واحد فلماذا تعبد هذه الالهه الكثيره. قل له: نحن نذكر الله بافواهنا لا غير وما نعرف من هو. وبقى الاسكاف متعجبا

وكان فسپسيان قد عهد إلى تيتوس بقيادة الحملة ضد اليهود فخرج من الاسكندرية قاصداً فلسطين فى مستهل عام ٧٠. وقد خرج معه فى هذه الحملة ليترنيوس فرونتو، قائد معسكر نيقوبوليس، الذى تولى قيادة فصيلتين (vexillationes) قوامهما ٢٠٠٠ جندى، من فرقتى قورينة الثالث ودَيوطاروس الثانية والعشرين. كما خرج معه أيضاً والى مصر نفسه، تيبريوس يوليوس الإسكندر، الذى شغل أثناء حصار أورشليم منصب رئيس هيئة أركان الحرب ضد اليهود. وقد تبين من نقش قصير مدون على عنق مزهرية أن ليترنيوس فرونتو، قائد معسكر نيقوبوليس (praefectus castrorum)، قد ارتقى إلى منصب والى مصر فى عام ٧٨ ـ ٧٩، أى بعد حوالى تسع سنوات من تاريخ الحملة اليهودية. وأما عن تيبريوس يوليوس الإسكندر فلدينا الآن بردية جديدة تشير إلى أنه قد ارتقى إلى منصب قائد الحرس البريتورى (الإمبراطورى) فى روما (Praefectus praetorio) منذ ربيع أو صيف عام ٧١، وهو منصب أصبح أرفع من منصب والى مصر، بل من أكبر مناصب الإمبراطورية خطراً. وبعد سقوط أورشليم وتدمير الهيكل الكبير فى ٢ سبتمبر من عام ٧٠ عاد تيتوس إلى الإسكندرية حيث أظهر من الشعور الطيب نحو مواطنيها ما جعلهم يتعلقون به. ولم يتودد تيتوس إلى الإغريق وحدهم بل تودد أيضاً إلى المصريين حتى أنه حضر حفل اختيار عجل أبيس الجديد فى ممفيس

من قوة الله الحاله فى القديس مرقس ثم قال له : انا اسلك يا رجل الله ان تصير الى منزل عبدك تستريح و تأكل خبزا لاننى اراك اليوم قد رحمتنى. ففرح القديس مرقس وقال له : يعطيك الرب خبز الحياه فى السموات . ومضى معه الى بيته فلما دخل منزله قال: بركة الله تكون فى هذا البيت. وصلى فلما اكلو قال له الاسكاف : يا ابى اريد ان تعرفنى من انت الذى عملت هذه الاعجوبه العظيمه. فاجاب القديس وقال له : انا أعبد يسوع المسيح ابن الله الحى الى الابد. قاله له

وحرص على أن يلبس التاج التقليدى فى مثل هذه المناسبة. ومع أن هذا المسلك كان من شأنه استمالة قلوب الأهلين إلا أن الحكومة المركزية ممثلة فى شخص أبيه لم تنظر إلى مسلكه بعين الارتياح بل ارتابت فى أنه يتطلع إلى العرش قبل الأوان.

وحدث بعد سقوط. أورشليم أن فر إلى الإسكندرية نفر من السفاحين اليهود (sicarii) الذين أفضى تعصبهم الأعمى إلى الكارثة التى نزلت بأمتهم، وحاولوا إثارة الشغب فى المدينة من جديد وتحريض بنى جلدتهم على ألا يعترفوا بحاكم عليهم سوى يهوه. ولكن شيوخ الجالية رفضوا الاستجابة إليهم وتبرأوا منهم وقبضوا على البعض وسلموهم للسلطات الرومانية، وأما البعض الآخر فقد لاذوا بالفرار إلى جنوب الوادى حيث طوردوا وأبيدوا بعد قليل. وعلى الرغم مما أظهره أقطاب اليهود من اتزان وحكمة، فقد قررت الحكومة الرومانية فى عام ٧٣ أن تغلق معبد أونياس (Onias) فى ليونتوپوليس (Leontopolis)[١]، الذى ارتابت فى أنه كان مركزاً لنشاط الحركة اليهودية الأخيرة، وصادرت أملاكه، وهو معبد كان قد شيد حوالى عام ١٦٠ ق.م. لمنافسة معبد أورشليم. وبذلك حالت دون انتقال نفوذ المعبد الكبير فى فلسطين بعد زواله إلى نظيره فى مصر. وذهب الإمبراطور ڤسپسيان إلى أبعد من ذلك فأمر فى صيف عام ٧١ بأن يدفع اليهود جميعاً، ذكوراً وإناثاً، على اختلاف أعمارهم، ضريبة دينارين

(١) فى إقليم هليوبوليس، وهى تل اليهودية قرب شبين القناطر.

الاسكاف: اريد ابصره . قال له القديس مرقس: انا ادعك ان تنظره. ثم بدأ يقص له انجيل البشاره وقوله المجد والعز والسلطان الذى لله من البدايه، ووعظه بمواعظ وتعاليم كتيره يشهد بها سيرته. ثم انتهى معه الى ان قال له: ان السيد المسيح فى اخر الزمان تجسد من مريم العدرا وجا الى العالم وخلصنا من خطايانا. وبين له ما تنبت به الانبيا عليه شيا شيا. فقال له الاسكاف: هذه الكتب التى ذكرتها ما سمعت بها قط لكن كتب الفلاسفه

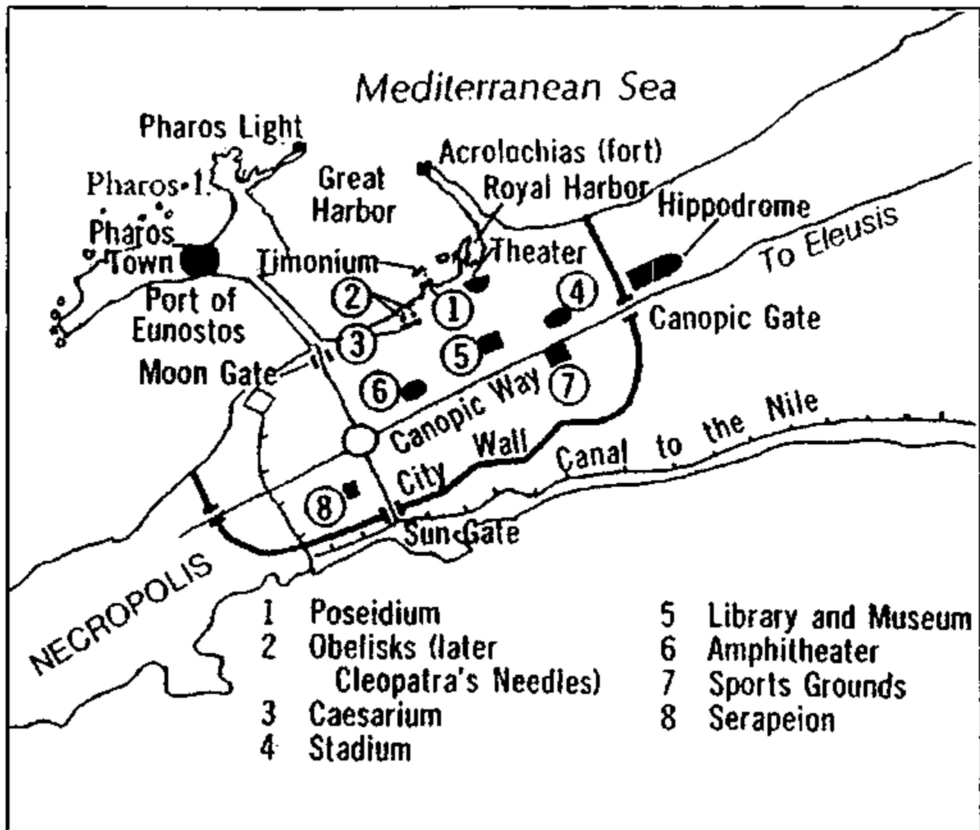

اليونانين هي التى تعلمها الناس لاولادهم هاهنا وكذلك المصريين. فقال له القديس مرقس: فلاسفة هذا العالم باطل عند حكمة الله. فلما سمع الاسكاف الحكمه وكلام الكتب من القديس مرقس ومما نظره من العجب العظيم الذى فعله في يده مال قلبه اليه وامن بالرب وتعمد هو وكل اهل بيته وكلمن يجاوره، وكان اسمه انيانوس(*).

فلما كترو المومنون بالمسيح وسمع اهل المدينه

(*) أنيانوس: هو حنانيا. خلف مارمرقس على رياسة الكنيسة المصرية من سنة ٦٢ إلى ٨٥م. وهو الذى أقام كنيسة باسم مار مرقس فى الموضع الذى استشهد فيه بالاسكندرية فى المكان المعروف بوكلى (مرعى البقر).

سنوياً لمعبد الإله چوپيتر الكاپيتولينى في روما، وهى ضريبة النصف شاقل التى كان الذكور البالغون منهم يدفعونها من قبل لمعبد أورشليم[١].

إيزيس فى روما:

وارتقى تيتوس العرش بعد أبيه ڤسپسيان ولكنه قضى نحبه بعد قليل (٧٩ ـ ٨١)[٢]. غير

(1) Cf. S.L. Wallace, Taxation in Egypt from Augustus to Diocletian. Princeton (1938), PP. 170-176.

إن هذه الضريبة (Ioudaion telesma) قررها ڤسپسيان حوالى صيف عام ٧١ أى فى السنة الثالث من حكمه، على أن تفرض على اليهود ابتداء من عام ٧٠ (السنة الثانية من حكمه) الذى تحدى فيه يهود أورشليم الحصار الذى ضربه عليهم جيش تيتوس. غير أن إعداد كشوف هذه الضريبة وما إلى ذلك أخر جبايتها حتى عام ٧٢، وهى السنة الرابعة من حكم ڤسپسيان، والتى ظهرت فيها أول إيصالات عنها فى أپوللونوپوليس مجنا (إدفو) وأرسينوى (مدينة الفيوم). وفى هذا العام كان مواليد اليهود فى عام ٧٠ قد بلغوا سن الثالثة. ولهذا تقرر أن تجبى الضريبة من اليهود عند بلوغهم هذه السن حتى سن الستين أو الثانية والستين. ويعتقد الأستاذ ولاس (نفس المرجع، ص ١٧٤) أن يهود مصر كانوا يدفعون ضريبة النصف شاقل (didrachmon) لا إلى معبد أورشليم بل إلى معبد أو نياس. ويبدو أن هدريان ألغى ضريبة الديناريين لأننا لا نجد أى إيصالات عنها بعد عام ١١٦.

(٢) فى قصاصة بردية صغيرة تعتبر من أقدم مخطوطات «أعمال الشهداء» لأنها نسخت حوالى منتصف القرن الثانى إشارة إلى محاكمة رجل يدعى هرمياس (Hermias)، لعله زعيم سكندرى، أمام الإمبراطور تيتوس الذى حكم، كما رأينا، فترة قصيرة (١ يوليو ٧٩ ـ ١٣ سبتمبر ٨١). وفيها يطلب هرمياس =

ان رجلا يهوديا جليليا قد دخل اليها وهو يريد ان يقلب عبادة الاوثان الهتهم، وقد منع جماعه من عبادتها، طلبوه فى كل مكان ونصبو له قوما يرصدونه. فلما علم القديس مرقس مؤامرتهم قسم انيانوس اسقفا لاسكندريه وتلته قسوس وسبعه شمامسه، هولا الاحد عشر جعلهم يخدمون ويثبتون الاخوه المومنين. وخرج من عندهم ومضى الى الخمس مدن واقام بها سنتين يبشر ويرسم اساقفه وقسوسا وشمامسه فى كل اعمالها، و عاد

أن ما أظهره ذلك العاهل من احترام للديانة المصرية قد يشير إلى تحول فى موقف الحكومة الرومانية إزاء الآلهة المصرية الخالصة. ولكى نفهم ذلك ينبغى أن نعود بالقارىء إلى ما قبل أيام واقعة أكتيوم لقد انتقلت عبادة الآلهة المصرية ـ وبخاصة عبادة إيزيس إلى روما فى غضون القرن الثانى قبل الميلاد، إن لم يكن قبل ذلك التاريخ. وقد تم ذلك على يد الإغريق الذين كانوا يفدون على روما من مصر مباشرة أو من المناطق المجاورة لإيطاليا كبلاد اليونان وجزر البحر الإيجى وصقلية أو حتى من كمپانيا نفسها. على أن معظم أتباع الربة المصرية كانوا

=أن يسمح لشخص آخر، أكبر الظن أنه رومانى، بالدفاع عن نفسه، ولكن هذا الأخير يأبى ذلك. ومن العسير التحقق من الظروف التى جرت فيها هذه المحاكمة. فالمؤرخ سويتونيوس يكيل المديح لتيتوس ويصفه بأنه أكثر الناس طيبة (Titus, VIII, 1: natura autem benevoientissimus) وأنه حبيب الناس وقرة عينهم (Titus. I: amor ac deliciae generis humani). ويقول ديون كاسيوس إنه لم يقتل أحداً أثناء حكمه(LXVI,18,1) ولم يقر كأبيه تهمة الخيانة العظمى maiestas (LXVI, 19,1)، وان كان ڤسپيان قد عاقب الفيلسوفين الكلبيين هيراس وديوجنيس لانتقادهما الملك تيتوس وعلاقته الغرامية مع برنيقى (Berenicē) اليهودية. ولعل الإسكندريين، مع كل هذا، قد سخروا منه مثلما سخروا من أبيه بسبب هذه العلاقة. ويرجح موسيريللو أن محاكمة هرمياس كانت بسبب تنديده بمسلك موظف رومانى لم يراع تنفيذ الإعفاءات التى منحها الإمبراطور كلوديوس للاسكندريين وأيدها الوالى تيبريوس يوليوس الإسكندر فى منشوره الذى أصدره فى يوليو عام ٦٨. ويرد فى القصاصة البردية اسم ڤستينوس ولعله لوكيوس يوليوس ڤستينوس الذى كان والياً على مصر (٥٩ ـ ٦١)، واستدعاه تيتوس (إلى المجلس القضائى؟) للاستفادة من سابق خبرته بشئون مصر.

الى مدينة اسكندريه فوجد الاخوه قد تثبتو على الامانه وكترو بنعمة الله واهتمو ان يبنو بيعه فى موضع يعرف بمرعى البهايم قريبه من البحر عند صخره يقطع منها الحجاره. ففرح القديس مرقس بذلك فرحا عظيما وسجد على ركبتيه وبارك الله اذ اثبت خدام الامانه الذين رتبهم فى تعاليم السيد المسيح ونكثو عن عبادة الاوثان.

فلما علم اوليك الكفره ان القديس مرقس قد

عادة من الأجانب والعبيد والمعتقين وفقراء الرومان، وان ظهر بين صفوفهم أحياناً بعض سيدات الطبقة الأرستقراطية القديمة والجديدة. فلما تكاثر عدد هؤلاء الأتباع على مر الأيام ارتابت الحكومة الرومانية فى نشاطهم مثلما ارتابت فى نشاط جمعيات الإله باخوس (Bacchus) (ديونيسوس) في عام ١٨٦ ق.م. وعاد السناتو (مجلس الشيوخ الرماني) إلى سياسة التزمت ومكافحة البدع الدينية، وبخاصة بعد زوال خطر الحرب البونية، إذ لم يعد بحاجة إلى عون البطالمة بعد أن انتاب الضعف دولتهم. لذلك نجد أحد قنصلي عام ١٦٨ ق. م. يأمر بهدم هياكل إيزيس وسرابيس القائمة بالمدينة؛ غير أن الحكومة الرومانية تركت أشياع إيزيس يمارسون شعائر عبادتهم خارج أسوار روما (extra pomerium). وفى أيام الدكتاتور سُلا اشتد ساعد أنصار إيزيس فنظموا جمعيات دينية فى ساحة مارس خارج المدينة. ويبدو أن سُلا انتهج سياسة التسامح إزاء العقائد الأجنبية. لكن لم تلبث ديانة إيزيس أن تعرضت لأكثر من اضطهاد خلال فترة الاضطرابات الأهلية التى أعقبت وفاته واستمرت حتى انفرد يوليوس قيصر بالسلطة في عام ٤٧ ق.م. وازدهرت عبادة إيزيس نتيجة لتأثير كليو بطرة على الدكتاتور الرومانى. ولا ينبغي أن ننسى أن يوليوس قيصر كان زعيماً للحزب الديمقراطى أو الشعبى الذى كان يضم بين صفوفه كثير من أفراد الطبقة الدنيا، وهى أكثر الطبقات إقبالاً على العبادات الأجنبية. وأحرزت ديانة إيزيس تقدماً مطرداً حتى أن الحكومة الثلاثية (الثانية) اعترفت بها رسمياً فى عام ٤٣ ق.م.

عاد الى اسكندريه امتلو غضبا لاجل الاعمال التى
يعملها المومنون بالمسيح من ابرا [ء] الامراض
واخرج الشياطين واطلاق السنة الخرس واسماع
الطرش وتطهير البرص، وبحثو عن القديس مرقس
بغضب عظيم فلم يجدوه وصرو عليه باسنانهم
في برابيهم ومواضع اوثانهم بغضب. وقالو: ما
تنظرون ظلم هذا الساحر. فلما كان فى احد
السبوت يوم عيد فصح(*) السيد المسيح اتفق فى

(*) عيد الفصح: كانت اليهود

لكن سرعان ما تعثر هذا التقدم عندما نشب النزاع بين أكتافيانوس وماركوس أنطونيوس. وقد رأينا كيف أعلنت روما الحرب على كليوبطرة وكيف تعرضت ملكة مصر لهجاء الشعراء الرومان، وما صحب ذلك من تشهير بالآلهة المصرية، وبخاصة بإيزيس التى كثيراً ما ظهرت كليو بطرة فى صورتها ولقيت عبادتها رواجاً في روما أثناء إقامة الملكة فيها. واستتبع ذلك صدور قرار في عام ٢٨ ق.م. يقضى بتحريم عبادة الآلهة المصرية داخل العاصمة الرومانية. وعندما ثارت بعض الاضطرابات فى روما سنة ٢١ ق. م. أثناء غياب أغسطس فى الشرق انتهز أنصار إيزيس الفرصة وتسللوا ثانية إلى داخل العاصمة، فصدر قرار بتحريم ممارسة طقوس عبادتها إلى مسافة ميل واحد من روما. ولم تنحسر موجة الإضطهاد فى أيام تيبريوس الذى اشتهر بتحفظه حتى أنه أخذ على عاتقه إصلاح ما اعوج من الأخلاق الرومانية، فأوعز إلى السناتوفى عام ١٩م بإصدار قرار بتحريم عبادة الآلهة المصرية واليهودية وطرد أشياعها من إيطاليا إذا لم يرتدوا عنها ويتبرأوا منها خلال أجل معين. وليس من المستبعد أن يكون الباعث المباشر على هذا الإجراء هو تخوفه من ابن أخيه جرمانيكوس، الأمير المحبوب، الذى زار مصر فى نفس العام دون استئذانه ولقى من سكان الإسكندرية ومصر حفاوة بالغة.

لكن نفوذ ديانة إيزيس عاد إلى سابق قوته عندما اعتلى العرش كاليجولا الذى أعاد بناء معبدها فى ساحة مارس أو أعاد فتحه. وقد ثبت أن المحراب الذى عثر عليه فى القصر

تلك السنه يوم تسعه وعشرين من برموده وكان فيه ايضا عيد الكفار الوثنين، طلبوه باجتهاد فوجدوه على الهيكل فهجمو [عليه] واخدوه وجعلو فى حلقه حبلا و جروه على الارض. وكانو يقولون: جرواالتنين فى دار البقر. وكان القديس اذا جروه يسبح الله ويقول: الشكر لك يارب اذ جعلتني مستحقا ان اتالم على اسمك القدوس. وكان لحمه يتقطع ويلتصق بحجارة الشوارع ودمه

تسميه عيد الأغفال لأن يهوه ترك بيوت الاسرائيلين وقتل بكور العائلات المصرية فقط في منتصف ليلة هروب بني اسرائيل بما نهبوه وسرقوه من المصريين: «وفي منتصف الليل بدأ يهوه هجومه على بيوت المصرين قتل البكور من الاولاد، وليس هذا وحسب بل أهلك أيضا كل بكر من بكور البهائم».

ولكن المسيحين احتفلوا به باعتباره اليوم الذى صلب فيه المسيح. أنظر حول الخلاف على تعييد عيد

الإمبراطورى كان معبداً أقامه ذلك الحاكم للربة المصرية. ولعل القارئ يذكر كيف استقبل كاليجولا السفارتين السكندرية واليهودية فى عام ٣٩ وأنه كان أكثر عطفاً على الأولى منه على الثانية. ويحدثنا فيلون بأنه قد تملكته رغبة جامحة في مشاهدة الإسكندرية التى كان حريصاً على الذهاب إليها بأقصى سرعة حيث اعتزم الإقامة مدة طويلة لعل فكرة تأليهه، التى كانت تشغل باله، تنبثق فى يسر وتلقى رواجاً فى تلك المدينة قبل غيرها. ويضيف فيلون أنه لم يكن هناك بين الناس من هم أكثر من الإسكندريين طواعية لتأييد ألوهيته. وقد شغف كاليجولا بالعقائد الشرقية وطقوسها السرية، ولعله وجد فى الديانة المصرية سنداً ترتكز عليه فكرة عبادته. لذلك يرجح بعض الباحثين أن كاليجولا هو الذى أصدر قراراً بالاعتراف الرسمى بديانه إيزيس، مناقضاً بذلك سياسة أغسطس وتيبريوس. ولم تتعرض عبادة إيزيس للاضطهاد فى زمن خليفته كلوديوس الذى روى أنه طرد اليهود من روما بسبب ما أثاروه من شغب(١)

(١) طرد اليهود من روما لإثارتهم اضطرابات مستمرة بتحريض خريستوس (هل Chrestus هو Christus أى المسيح؟ إن تاكيتوس (Ann. XV. 44) يذكر الإسم صحيحاً ويقول إنه أعدم على يد بنطيوس پيلاطوس، حاكم أرض يهودا، فى عصر تيبريوس)؛ ويؤيد رواية سويتونيوس عن اليهود ما ورد فى أعمال الرسل (الإصحاح ١٨، ٢: لأن كلوديوس كان قد أمر أن يمضى جميع اليهود من رومية). غير أن ديون كاسيو يقول إن كلوديوس لم يطرد اليهود من روما بل حظر عليهم فقط عقد الاجتماعات. لعل الشغب المشار إليه نشأ عن دعاية المسيحين وتبشيرهم بالدين الجديدة بين اليهود المقيمين فى روما.

يجـرى على الارض.فلمـا انتـصف الليل وابواب السجن مغلقه والحراس نيام على الابواب واذا زلزله عظيـمـه واضطراب شـديد، وفنزل له مـلاك الرب من السـمـا ودخل الى القـديس وقال له: يا مـرقس عـبـدالله هوذا قـد كـتب اسـمك فى سـفـر الحـيـاه وعددت فى جمـاعة القديسين وروحك تسبح مع ملايكه في السموات و جسدك لا يهلك ولا يزول من على الارض. فلما استيقظ من نومه رفع عينه

الفصح فى هامش الصفحات الاخيرة من سيرة القديس مكسيموس البطرك رقم ١٥ فى هذا الكتاب.

- -

والى عصره ينسب أقدم نقش عن عودة ظهور إيزيس بعد طردها فى عصر تيبريوس. واذا كان نيرون قد ازدرى العبادات الشرقية ما عدا عبادة الربة السورية (Dea Syria)، فإن بلاطه قد وقع تحت تأثيراً أشخاص ذوى ميول مصرية من أمثال خير يمون النقراطيس مربى القصر، وباليبللوس العالم الفذ الذى برع فى التنجيم، وكان ـ فيما يحتمل ـ والياً على مصر من عام ٥٥ حتى عام ٥٩، ومن أمثال أو تو، صديقه المتفانى فى عبادة إيزيس، وأخيراً سابينا مطلقة أوتو، وزوجة نيرون التى تشبهت بإيزيس وأحاطت نفسها بنفر من المنجمين الشرقيين، وقد ينهض تحنيط جثتها بعد وفاتها دليلاعلى تأثرها بالعقائد المصرية.ولقد تأثر نيرون نفسه بذلك ولم يكن بأى حال يكره المصريين، فقد اعتزم ـ كما رأينا ـ زيارة الإسكندرية وتوسل،عندما تخلى عنه الجيش،أن ينصب والياً على مصر. لهذا كله يرجع بعض المؤرخين أن الاعتراف الرسمى بعبادة إيزيس قد تم فى عهد نيرون، هذا إذا لم يكن قد تم فى عهد كاليجولا. غير أن هذا لا يعدو أن يكون محض افتراض. وأما أوتو الذى نودى به إمبراطوراً بعد مصرع جالبا فى ١٥ يناير عام ٦٩ فكان من أنصار ديانة إيزيس المتحمسين حتى أنه كان يمارس شعائرها علناً ويرتدى الثوب الكتانى الذى تقتضيه عبادتها. وبلغ نفوذ إيزيس من القوة حينئذ ما جعل أتباعها يمارسون شعائر ديانتها فى اطمئنان فوق الكابتول نفسه على الرغم من احتدام الحرب الأهلية فى عام ٦٩. ولقد روى أن دوميتيان ابن الإمبراطور فسبسيان احتمى بالكابتول عندما

الى السما وقال: اشكرك يا ربى يسوع المسيح واسيلك ان تقبلنى اليك لا تنعم بصلاحك. فلما تم هذا القول نام ايضا فظهر له السيد المسيح فى [صورة] الشخص الذى يعرفه التلاميذ [واعطاه السلام وعزاه] وقال له: السلام لك يا مرقس الانجيلى المصطفى فقال له القديس: اشكرك يا مخلصى يسوع المسيح اذ جعلتنى مستحقا ان اتألم على اسمك القدوس. ودفع له السيد المخلص سلامه وغاب عنه، فلما انتبه واصبح الصبح

- -

شق جنود فيتلليوس طريقهم إلى هذا الجبل وأضرموا النار فى معبده الكبير، وقضى الليلة مختبئاً فى بيت حارس المعبد، ولما طلع النهار تنكر فى زى أحد أشياع إيزيس ثم عبر التيبر مع خليط من كهنتها دون أن يكشف أحد أمره.

وبارتقاء أسرة فلافيوس عرش الإمبراطورية يبدأ العصر الذهبى لعبادة إيزيس فى روما. ومع أننا لا نعرف على وجه الدقة ما قام به فسبسيان من أجل الديانة المصرية، إلا أننا لا نرتاب فى أنه غمرها بأفضاله. لقد أنقذت إيزيس ابنه دوميتان من موت محقق، وقام سرابيس بالشئ الكثير لشد أزره. وفى الحق أن سرابيس ـ كما يروى سويتونيوس ـ قد منح هذا الرجل المغمور الأصل ما كان يعوزه من نفوذ وجلال. وكان بلاطه ـ فيما يبدو ـ غاصاً بأشياع إيزيس وسرابيس. ولدينا نقش من عصره كتبه أحد عبيد تيتوس تمجيداً لإيزيس التى لا تقهر (Isis Invicta). وفى عصره أيضاً أقيم تمثال ضخم للنيل مجسداً فى هيئة رجل يحيط به ستة عشر ولداً يرمزون إلى الستة عشر ذراعاً التى إن يلغها ماء الفيضان، يبشر بالرخاء فى جميع أنحاء مصر ـ وهو تمثال شديد الشبه بالتمثال المحفوظ الآن فى متحف الفاتيكان. وتحمل نقود فسبسيان التى سكت فى روما وترا كووليون صورة إيزيس فى معبدها بساحة مارس.

وقد ضربت هذه النقود لتخليد ذكرى أسعد حادثة فى تاريخ إيزيس فى روما عندما أمضى فيبسيان وابنه تيتوس الليلة السابقة على يوم الانتصار الأخير على اليهود فى معبدها بساحة

اجتمع الجمع واخرجو القديس من الحبس وجعلو
فى حلقه ايضا حبلا وقالو: جرو التنين فى دار
البقر. وزحفو بالقديس على الارض وهو يشكر
السيد المسيح ويمجده ويقول: انا اسلم روحى فى
يديك يا الاهى. قال القديس هذا القول واسلم
الروح، فجمع خدام الاوثان الانجاس حطباكتيرا
فى موضع يدعى الانجيليون ليحرقو جسد القديس
هناك، وكان بامر الله ضباب عظيم وريح شديده
حتى ارتعدت الارض وهطلت امطار كتيره ومات

مارس(Iseum Campense). وقد ذكرنا كيف زار تيتوس ممفيس واشترك فى حفل تنصيب أبيس الجديد ولبس التاج التقليدى جرياً على سنة الفراعنة فى مثل هذه المناسبة. وعندما تولى دوميتيان الحكم من بعده وجدت فيه إيزيس راعياً لديانتها إذ كان يشعر بأنه مدين لها بحياته، فضلاً عن أنه وجد فى الديانة المصرية ـ مثلما وجد كاليجولا من قبله ـ ما يبرر به مطالبة رعاياه بتأليهه. ومع أنه كان يبغض الديانات الأجنبية إلا أنه استثنى إيزيس من بغضه. فقد أعاد فى عام ٩٤ بناء معبدها فى ساحة مارس الذى كان الحريق قد دمره فى عام ٨٠. وتحمل المسلة التى أقامها أمام مدخل ذلك المعبد نقشاً هيروغليفياً يخلد عمله.

وفى عام ٨٩/٨٨ شيد لوكيليوس، وهو احد مواطنى بلدة بنيفنتوم بجنوب إيطاليا معبداً لإيزيس من أجل نجاة الإمبراطور وعودته، ونصب أمامه مسلتين تحملان نقوشاً هيروغليفية، توصف فيها إيزيس بأنها سيدة بنيفنتوم. فكان دوميتيان فى الواقع قد أسبغ على عبادة إيزيس صفة شبه رسمية. ولعل ذلك يفسر سبب انتهاج السلطات الرومانية فى مصر سياسة تنم عن التسامح إزاء الديانة المصرية. ويتضح من النقوش بناء معابد لأفروديتى وهى الربة اليونانية المقابلة لهاتور (حتحور) المصرية، ربة كوم أمبو، وكذلك لهيرا التى تمثل سثيت، (Satis) ربة الشلال الأول عند إلفانتين (جزيرة أسوان). ومن العملة يتضح أن صور الآلهة الإقليمية بدأت تحل محل صور الآلهة المصرية ـ السكندرية الشهيرة كإيزيس وسرابيس وأجاتوس دايمون.

زربس سرابيس في هيئة زيوس سيرابيس
بقرني كبش الاله آمون

قوم كثير من الخوف والرعب وكانوا يقولون ان زربس [سرابيس] الصنم افتقد الانسان الذى قتل فى هذا اليوم، فاجتمع الاخوه المومنون و اخذو جسد القديس مارى مرقس من الرماد ولم يتغير فيه شى ومضو به الى البيعه التى كانو يقدسون فيها وكفنوه وصلو عليه كما جرت العاده وحفرو له موضعا ودفنو جسده فيه ليتممو تذكاره فى كل وقت بفرح وابتهال وبركه لاجل النعمه التى دفعها لهم السيد المسيح على يديه فى مدينة اسكندريه،

- -

ولدينا مجموعة من النقود البرنزية التى ضربت فى عام ٨٧/ ٨٨ تحمل صور آلهة محلية، ومع أنها تظهر فى أزياء يونانية إلا أنها توصف بألقابها المصرية. ومنذ هذا التاريخ تظهر أشكال الآلهة الوطنية بكثرة فى العملة السكندرية.

غير أن ما فعله دوميتيان من أجل إيزيس لبواعث شخصية لم يكن فى حقيقة الأمر يمثل شعور الرومان بوجه عام نحو الآلهة المصرية، وبخاصة آلهة الإقاليم المحلية. لقد كان الرومان، ولاسيما أفراد الطبقة الأرستقراطية المثقفة، ينظرون شذراً إلى هذه الآلهة ويستهجنون كثيراً من طقوسها الدينية.

تراجان وهدريان

١ . فضيحة مكسيموس وسلطات الوالى:

استمرت الأحوال هادئة فى مصر على عهد نرفا (Nerva) (٩٦ ـ ٩٨) وأوائل عهد تراجان (Traianus) (٩٨ ـ ١١٧). غير أن وثيقة بردية تطلعنا على محاكمة قضائية جرت بين عامى ١٠٧ ، ١٠٩ على التقريب، إن لم يكن بعد هذا التاريخ بسنوات. وكان المتهم فيها موظفاً رومانياً كبيراً يدعى مكسيموس. وما تزال طبيعة هذه الوثيقة مثار جدل بين المتخصصين، فبينما يرى فريق أنها صورة محرفة من محضر رسمى لمحاكمة حقيقية جرت أمام

وجعلوه فى الشرق من البيعه، فى اليوم الذى تمت فيه شهادته، وهو اول من استشهد من الجليليين على اسم السيد يسوع المسيح باسكندريه فى اخر يوم من برموده للمصريين. وهو ثمانيه من قلنطر مايس[مارس] من شهور الروم و هو اربعه وعشرون يوما من نيسان من شهور العبرانين.

ونحن ايضا بنو الارتدكسين نصعد المجد والتقديس والترتيل لسيدنا مخلصنا يسوع المسيح

الإمبراطور، يرى فريق آخر أنها لا تعدو أن تكون منشوراً من منشورات الدعاية السياسية، وثيق الصلة بذلك الأدب الوطنى ذى الطابع الخيالى الذى روجه السكندريون للتشهير بالحكم الرومانى، أى أنها جزء من مجموعة «أعمال الشهداء السكندريين»، على الرغم من اختلافها عنها فى الأسلوب، وخلوها من الحوار، وافتقارها إلى بعض الخصائص الأخرى التى تتميز بها هذه المجموعة. وأيا كان الأمر، فمن المرجح الآن أن الموظف المتهم كان جايوس فيبيوس مكسيموس (C. Vibius Maximus)، والى مصر فى الفترة بين عامى ١٠٣، ١٠٧. ويتبين من عريضة الدعوى أنها تضمنت عدة اتهامات كالابتزاز والربا واستغلال السلطة فى تعيين مديرى معهد التربية فى الإسكندرية، وإفساد شاب ثرى نعرف من جذاذة بردية أخرى، أنه يدعى ثيون، وهى اتهامات كانت عقوبتها إلحاق الوصمة ومصادرة الأموال المبتزة والنفى فى بعض الأحيان. ومع أن الدعوى الأساسية التى أقيمت على مكسيموس فى روما كانت دعوى ابتزاز (de repetundis)، إلا أن المتكلم بلسان السكندريين ركز اهتمامه فى تهمة إفساد الغلام:

«ولهذا سأضيف، يا موالاى، نقطة أخرى أعتقد أنها سوف تثير دهشتك فترتاب فى صحتها حتى تقرأ المستندات. فقد كان يحكم على بعض الناس بدفع فائدة عن مدة لم يتسلموا

الذى له ينبغى المجد والكرامه و السجود، وللاب والروح القدس ليمحى المساوى الان وكل اوان والى دهر الداهرين امين.

السيره الثالثه من سير البيعه

انيانوس(*) البطرك وهو الثانى من العدد

٦٢ / ٨٥م

فلما توفى الانجيلى مرقس رسول السيد يسوع المسيح جلس بعده انيانوس بطركا وكترت الاخوه

(*) تولى على كرسى الامبراطورية فى عهده سبعة قياصرة هم نيرون، جلبا، اوثون، فيتبليوس، وسباسيان، تيطس، دومتيان.

أثناءها الدين. فما رده على ذلك؟ لقد كنتم غائبين فلم تحاطوا علما بالرسائل التى كتبت لجلالتكم بشأن صرامة مكسيموس ونشاطه فى هذا الصدد....

وبينما نحن نقاسى الاهوال كلما يترك الولاية (؟)... وصدر الأمر بأن يتولى برينيكيانوس منصب رئيس معهد التربية حتى السنة التاسعة عشر من حكم الامبراطور، وأنيكيتوس حتى السنة التاسعة والعشرين. لماذا سكت على هذا؟ أستقول أنه ضلل بك أو تقبلت هدايا؟ أنه من الأنفع اذن ان تعترف بأهون الجريمتين. انما نحن نقول انك لم تأخذ هدايا بل انك اعطيتها.

والمستند الأخير يدمغه بتهمة الشغف بالغلام وهيامه به. ماذا أقول؟ لقد أعتاد شاب يبلغ من العمر سبعة عشر عاماً أن يتناول معك العشاء فى كل يوم. وقلما كان كل فرد من هؤلاء الحاضرين يحظى بشرف المشاركة فى مأدبتك ـ فأنت لم تكن تغدق مثل هذا الشرف على أحد بسهولة بعد أن ارتقيت منصبا ملكيا ـ كل واحد منهم رأى الغلام فى حفل الشراب تارة برفقة والده وتارة وحده. ورأى كذلك النظرات الوقحة وما كان يتبادله هذان العاشقان الخشنان بصورة شائنة. وفضلا عن ذلك فقد كان (هذا الغلام) يقدم التحية (للوالى) يوميا. ويشهد هؤلاء الرجال ـ يا مولاى ـ بروحك الحارسة أنهم بينما كانوا يقفون عند باب (قصره)

المومنون بالمسيح ووسمهم كهنه وخداما واقام اتنين وعشرين سنه وتنيح فى العشرين من هتور السنه التانيه من ملك دوماتيوس[دومتيان](*) ملك روميه.

(*) يذكر ايسذورس فى كتابه «الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة ص ٩١ أنه تنيح سنة ٨٦.

مليانوس (*) البطرك
وهو التالت من العدد
٨٥ / ٩٦م

(*) مليانوس أو ميليوس.

فاجتمع الشعب الارتدكسى وتشاورو واخذو

انتظاراً لتحيته تحية الصباح، قد رأوا الغلام خارجاً من غرفة نومه وقد ظهرت عليه علامات اتصاله بهذا الرجل. وما أن ألف الغلام الوسيم الثرى (هذا) السلوك المشين حتى ازداد رقاعة ووقاحة ، فكان يمزح مع يوتيخوس الحاجب ويتعلق بيديه أمام الجميع ويضحك ضحكا عاليا فى غير كلفة وسط جموع القادمين للتحية. لماذا اذن لم تحاول وقفه عند حده بما عهد فيك من نظرة صارمة وقسوة بالغة؟ لكن أن يتقدم اليك بالشكوى رجل معدم فى ثياب رثة، تأمر بمصادرة أملاكه وأملاك زوجته وأصدقائه. ولقد قضيت بالموت على الرجل الذى جلس فى المسرح دون أن يرتدى ملابس بيضاء. وأما هذا الغلام الوسيم الأمرد الوجه، فكنت تستبقيه كل يوم فى مقرك الرسمي ولم تكن ترسله الى المدارس أو (ممارسة) التدريبات اللائقة بالشباب. وكم كنت تحاسب والده ـ بحق ـ حسابا عسيرا لو أنه لم يعمل على ارساله للمدرسة؟ وها أنت تجوب جميع أنحاء مصر فى صحبة (هذا) الغلام، أو لم يتبعك الغلام ذو السبعة عشر ربيعا حتى الى المحكمة أثناء انعقاد مجلسك الرسمى؟ نعم! وقد كان برفقتك، يا مكسميوس، فى كل من ممفيس وبيلوزيون وحيثما كنت. وأما نحن الآخرين فكنا جميعا نعزف عن (أماكن) جولاتك (التفتيشية) وعن مجالسك القضائية».

هذه الوثيقة برغم جنوح كاتبها إلى المغالاة فى تصوير نقائص الوالى الرومانى وتجاوزه حدود الاحتشام فى وصف الجريمة الخلقية الموجهة إليه، تطوى بين ثناياها، كمعظم برديات

انسانا اسمه مليانوس وقسموه بطركا على كرسى مارى مرقس الانجيلى عوض انيانوس وكان هذا مليانوس ذا عفاف وثبت الشعب على معرفة المسيح وكثر شعب الارتدكسيين بمصر والخمس مدن وافريقيه واقام اثنتى عشره سنه على الكرسى، كانت البيعه فى ايامه تحت سلامه.

وتنيح فى اول يوم من توت فى خامس عشر سنه من ملك الملك المقدم ذكره [دوماتيوس] فسمع الكهنه والاساقفه الذين كانو من قبله على

«أعمال السكندريين»، لمسات واقعية لا يستطيع أن يغفلها المؤرخ المدقق. فلو أمعنا النظر لأمكننا أن نستخلص منها بعض معلومات طريفة وقيمة عن وضع الوالى بوصفه ممثلاً للامبراطور فى مصر: نعرف منها ـ مثلاً ـ صيغة القسم عند الشهادة وكيف كان الشهود يحلفون بالملاك الحارس أو القرين (Daimon). وقد حلت هذه الصيغة محل صيغة القسم بالإمبراطور نفسه منذ عصر دوميتيان. نعرف أيضاً كيف كان بعض ولاة مصر يستغلون سلطتهم فى ابتزاز الأموال أو فى إقراضها بالربا، مستعينين فى ذلك بخبرتهم السابقة بوصفهم رجالاً من طبقة الفرسان وهى ـ كما أسلفنا ـ طبقة رجال الأعمال الذين كانوا يمارسون منذ عصر الجمهورية التجارة والتزام جباية الضرائب والأعمال المصرفية. وتتردد النغمة نفسها فى بردية أخرى، لعلها من مجموعة «أعمال السكندريين» تتضمن ـ كما قدمنا ـ إشارة عابرة إلى ارتشاء الوالى أفيليوس فلا كوس أو ممارسته إقراض الأموال بالربا فى عصر كاليجولا. ومن الواضح أن منصب مدير معهد التربية بالإسكندرية (gymnasiarchos) كان منصباً رفيعاً، لعله كان أرفع المناصب البلدية فى المدينة، وإن كان ذا طابع اجتماعى لا سياسى، ولا مراء فى أن شاغله كان بمثابة زعيم جالية المواطنين الإغريق. وقد حدا ذلك بالوالى إلى استغلال سلطته فى فرض مرشحيه لملء هذا المنصب. ومن المؤسف أن الوثيقة لا

البـلاد بأن البطـرك قد تنيح فحزنـو و اجتمعـو
الى مـدينة اسكندريه وتشـاورو مع الشـعب
الارتدكسى الذين فيـهـا وطرحـو القـرعـه لكى
يعرفو من يستحق يجلس على كرسى القديس
مـرقس الانجيلى تلميذ السيـد المسيح بعـد هـذا
الاب مليانوس، فاتفق رأيهم بتأييد السيد المسيح
ربنا على رجل مـخـتـار خـايف من الله اسـمـه
كردنوس.

يتضح منها إذا كان الوالى يبيعه لأصدقائه أو كان يرغم من لا يدفعون له رشوة على النهوض بأعبائه. ونحن نعرف من مصادر أخرى أنه لم يعد اختيارياً منذ وقت مبكر، بل أصبح بمرور الزمن عبئاً إلزامياً ثقيلاً على أصحابه. غير أن إشارة البردية إلى شغله لمدة عشر سنوات تتعارض وما فهمناه من رسالة كلوديوس بأن الإمبراطور وافق على مقترح الإسكندريين بتحديد مدته بثلاث سنوات فقط.

وتتضمن الدعوى أيضاً إشارة عابرة إلى أن الوالى قد شغل مركزاً ملكياً، وهى إشارة تؤيدها ثلاث روايات أخرى وردت إحداها عند استرابون (XVII, 1, 12) حيث يقول «ومصر الآن ولاية... يحكمها رجال راشدون هم الولاة الذين يبعثون إليها باستمرار، ومن يبعث إليها (من قبل الإمبراطور) يتمتع بمركز الملك»؛ ووردت الأخرى عند تاكيتوس (Hist. I, 11) الذى يقول «تولى مصر... فرسان رومان فى منزلة الملوك»؛ والثالثة عند أميانوس ماركيللينوس (xxii, 16, 6) الذى يقول «ومصر نفسها أصبحت تحكم... بواسطة ولاة لهم مقام الملوك». وإذا كان الولاة فى وضع نواب الأباطرة الذين حلو محل البطالمة والفراعنة من قبلهم فقد كان محرماً عليهم ـ كالملوك القدامى سواء بسواء ـ أن يركبوا النيل فى زمن الفيضان. ويتبين من «محاكمة مكسيموس» كيف كانت جموع الأتباع (clientes) تنتظر الوالى أمام باب قصره (praetorium) لتزجى إليه تحية الصباح (aspasmos). وكان له

كردنوس البطرك

وهو الرابع من العدد

٩٦/١٠٦م

فاخذوه واوسموه على كرسى اسكندريه وكان عفيفا متضعا معفيا فى ايامه كلها واقام احدى عشره سنه فى رياسته وتنيح فى الحادى والعشرين يوما من بوونه فى تسع سنين من ملك ادريانوس الملك(*).

(*) خلا الكرسى بعده ثلاث سنوات بسبب شدة الاضطهاد وعدم تمكن الشعب المسيحى من انتخاب خليفة له.

حاجب (koitônitês = cubicularius) عند غرفة نومه. وإليه كانت ترفع الشكاوى. وكان يتمتع بحق مصادرة الأملاك، وإصدار حكم الإعدام حتى فى حالة جريمة غير خطيرة كإغفال ارتداء الملابس البيضاء فى حفلة هامة، أكبر الظن أن الوالى أمر بإقامتها فى مسرح ديونيسوس ابتهاجاً بعيد ميلاد تراجان. ويعرّف الفقيه أولبيانوس هذا الحق فى كتاب الجامع (Digesta) بحق السيف (ius gladii)، ويشفعه بحق الحكم على المذنبين بالأشغال الشاقة فى المناجم والمحاجر (damnare in metalla). ويتبين أيضاً أن الوالى كان يقوم بجولات تفتيشية (epidêmiai) فى شتى أنحاء الوادى. ونحن نعرف من الوثائق الأخرى كيف كانت السلطات المحلية تحرص على الاستعداد لمثل هذه الزيارات فترهق الأهالى بالمطالب أثناءها. وما أعظم الحفاوة التى كان يستقبل بها الوالى، إذ كانت تنظم له المواكب وتلقى الخطب بين يديه وتزين تماثيل الآلهة فى المعابد بأكاليل الزهر احتفاءً بمقدمه، وتقام الحفلات تكريماً له، وتتعالى الأصوات هاتفة باسمه.

وتؤيد البردية ـ بردية محاكمة مكسيموس ـ ما توصل إليه العلامة فيلكن من أن الوالى، بوصفه المهيمن على شئون العدل، كان يعقد مجلسه القضائى (conventus) ثلاث مرات فى السنة: مرة فى بيلوزيون للنظر فى قضايا أقاليم شرق الدلتا (يناير)، ومرة فى ممفيس للنظر فى قضايا أقاليم مصر الوسطى والعليا (فبراير ـ مارس/ أبريل)، ومرة فى الاسكندرية للنظر فى قضايا أقاليم غرب الدلتا (يونيو ـ يوليو). على أنه لم يكن ثمة ما يمنع من إعلانه مقدماً

ابريموس البطرك
وهو الخامس من العدد
١٠٩ / ١٢٢م

وبعد هـذا كان فى شعب المسيح الارتدكسى انسان اسمه ابريموس وكان عفيفا كالملايكه ويفعل افعالا حسنه بنسك فتشاورو عليه واخذوه واوسموه على الكرسى الانجيلى بطركا فاقام اثنى عشر سنه وكانت السلامه فى البيعه فى ايامه وتنيح فى التالت من مسرى فى

عن عقد مجلسه القضائى فى أماكن أخرى من الدلتا مثل هرموبوليس برڤا (دمنهور) أو نقراطيس (كوم جعيف). أو حتى فى بلدة صغيرة مثل كسويس (Xois) (سخا)، أو فى أماكن أخرى إلى الجنوب من ممفيس مثل أرسينوس (مدينة الفيوم) وأكسيرينخوس (البهنسا). وأنتينوبوليس (الشيخ عباده) وكبتوس (قفط) وما وراءها. وكان ذلك للتيسير على المتقاضين من سكان الصعيد وتجنيبهم مشاق السفر الطويل إلى الدلتا.

وينبغى التنبيه إلى أن مجلسه لم يقتصر على الفصل فى القضايا، بل كان ينظر أيضاً فى مسائل إدارية ومالية كمراجعة التقارير وفحص كشوف الضريبة المقدمة من موظفى الأقاليم. وفى الحق أن الكلمة اليونانية التى تدل على هذا المجلس تعنى أصلاً مراجعة الحسابات أو موازنتها (dialogismos). ويحدثنا المؤرخ تاكيتوس «بأن أغسطس المؤله كان قد أمر بأن يكون للفرسان الذين يحكمون مصر سلطة الفصل فى القضايا وأن تعتبر أحكامهم كأنها قد صدرت عن الحكام الرومان» ، والمقصود هنا ليس فقط حكام روما القضائيين (praetores) والقناصل (consules) بل كذلك نوابهم من حكام الولايات. ويقول الفقيه أولبيانوس أن والى مصر لم يكن له أن يتنحى عن ولايته وسلطته (imperium) قبل أن يدخل خلفه لا مصر فقط بل الإسكندرية نفسها، ويضيف هو أو شارحه «أن هذه السلطة التى منحت بمقتضى قانون فى زمن أغسطس كانت شبيهة بسلطة القنصل». ولا ينبغى أن ننسى أن منصب والى

خـــامس سنه من ملك ادريانوس الملك ودفن مع اباىه.

يستس البطرك
وهو السادس فى العدد
١٢٢ / ١٣٠م

وبعد هذا اجتمع الشعب ووقع اختيارهم على انسان فاضل حكيم منهم اسمه يستس فوسموه بطركا واقام احدى عشره سنه [فى هدو وسلامه لايمل من الوعظ والتعليم] وتنيح فى التانى عشر

بمصر (praefectus Aegypti) كان فى أول الأمر ـ على نحو ما ذكرناه ـ أعلى منصب فى سلك وظائف الفرسان، أى أعلى من منصب قومندان الشرطة (praefectus vigilum) ومدير التموين (praefectus annonae)، وقائد الحرس البريتورى (praefectus praetorio)، وبعدئذ أصبح، منذ عصر أسرة فلافيوس، يلى المنصب الأخير. الذى كان كثير من ولاة مصر يرقون إليه بعد أن أصبح من أخطر مناصب الإمبراطورية.

لكن على الرغم من أن السلطة العليا تركزت فى يد الوالى، العسكرية منها والإدارية والقضائية ـ بغض النظر عما كان فى يد بعض كبار الموظفين المركزيين من سلطات محدودة للفصل فى قضايا معينة ـ فإن هذه السلطة لم تكن مطلقة. وإذا كان حقاً أنه تمتع بسلطة (imperium) شبيهة بسلطة نائب القنصل (حاكم الولاية السناتورية) فإن سلطته هذه كانت خاضعة لسلطة أغسطس التى كانت أكبر (imperium maius) من سلطة حكام الولايات. وكان ذلك أظهر ما يكون فى مصر التى كان واليها لا يعين إلا بأمر الإمبراطور، وكان بمثابة نائبة فيها ويستمد سلطته منه ويعتبر مسؤلاً أمامه وحده. وقد اختار أكتافيانوس ولاة مصر لا من بين هيئة السناتو بل من بين هيئة الفرسان حتى يربطها بالبيت المالك ربطاً وثيقاً ويحكم سيطرته عليها «فمنذ أيام أغسطس المؤله تولى مصر والقوات اللازمة لاخضاعها، فرسان رومان فى منزلة الملوك. هكذا رأى من المصلحة أن يضع تحت سيطرته (المباشرة) ولاية عسيرة

من بوونه في سادس عشر سنه من ملك ادريانوس ودفن مع ابايه.

اومانيوس البطرك
وهو السابع من عدد الابا
١٣٠/١٤٢م

وبعد ذلك وسمو اوما نيوس بطركا على كرسي اسكندريه فاقام تلات عشره سنه يرضى الله والشعب وتنيح في العاشر من بابه في السنه السادسه لانتونيس الملك.

المدخل، وفيرة الغلال، متنافرة الأهواء، سريعة الهياج لايمانها بالخرافات وميلها للفوضى، جاهلة بالقوانين، ولا دراية لها بالحكام».

لقد اختار الفرسان ـ كما قدمنا ـ لأن ثقته فيهم كانت أكبر من ثقته في رجال السناتو الأرستقراطيين الذين قد يدفعهم الطموح إلى الإستقلال بمصر اعتماداً على مواردها الوفيرة وصعوبة غزوها. ومن ناحية أخرى فإن الفرسان كانوا، بحكم خبرتهم العملية في الشئون المالية والتجارية، وممارستهم لمنصب مدير التموين قبل مجيئهم إلى مصر مباشرة، أقدر من رجال الطبقة الأخرى على إدراك الأهمية الاقتصادية وتفاصيل الإدارة في بلد بيروقراطي مثل مصر لم يعرف القوانين بالمعنى الذى عرفه بها الرومان، إذ كان يحكم من قبل بالمراسيم الصادرة من التاج، ولم يألف الحكام المنتخبين على يد الشعب والمسئولين أمامه، بل كان يألف الموظفين الخاضعين للملك المؤله خضوعاً تاماً. وفي الحق أن الوالي لم يكن يزاول سلطته إلا وفقاً للقواعد العامة التي يستنها الإمبراطور. وكان احتفاظه بمنصبه مرهوناً بمشيئة سيده. وقد عزل أغسطس كورنيليوس جاللوس، أول والٍ على مصر، لأن هذا الرجل تملكه الزهو فتجاوز حدود منصبه. وبغض النظر عن النصب الذى أقامه جاللوس في جزيرة فيلاى ـ أنس الوجود مفاخراً فيه بانتصاراته، فلم نعثر في مصر على نصب أقيم لتكريم والٍ دون أن يكون اسمه مقروناً باسم الإمبراطور الذى أوفده. وعندما غضب كاليجولا على فلاكّوس سواء لسوء

مركيانوس البطرك
وهو الثامن من عدد الابا
١٤٢ / ١٥١م

فلما مضى البطرك المذكور اجتمع الشعب واخذوا انسانا محب لله اسمه مركيانوس واوسموه بطركا واجلسوه على كرسى البشير مارى مرقس واقام تسع سنين وشهورا بسيرة عجيبه و تنيح فى اليوم السادس من طوبه فى السنه الخامسه عشره لانتونيس الملك.

تصرفه أثناء فتنة عام ٣٨ أم لغير ذلك من الأسباب، أرسل إلى مصر قوة نزلت بالإسكندرية ليلاً وألقت القبض على الوالي.

وقليل هم الولاة الذين بقوا فى منصبهم مدة طويلة. فقد تبين من دراسة الوثائق البردية أن متوسط طول فترات الولاية على مصر فى زمن الرومان لم يزد على ثلاث سنوات وبضعة أشهر، وهى مدة ـ وإن كانت أطول من مدة الولاية فى عصر الجمهورية ـ إلا أنها كانت قصيرة بالقياس إلى طول عهود الأباطرة. ولا ريب فى أن ذلك كان جزءاً من سياسة مرسومة القصد منها أن لا تمتد ولاية حاكم طموح امتداداً قد يغريه بتوطيد مركزه ومناوأة روما نفسها. وغالباً ما كان الوالي يتغير بتغير الإمبراطور، لأن العاهل الجديد كان يفضل أن يرشح للولاية صديقاً حميماً أو تابعاً شديد الولاء له.

ولقد ذكرت أن سلطة الوالي لم تكن مطلقة، إذ أن الرسائل (epistulae) والفتاوى (rescripta) والتعليمات (mandata) الصادرة من الإمبراطور كانت تنظم مهامه وتحددها من وقت لآخر. فالإمبراطور هو الذى كان يحدد قيمة الضرائب التى ينبغى جبايتها من مصر فى سنة معينة، ولم يكن للوالي أن يعفى أحداً من الخدمات الإلزامية (leitourgiai) إلا بمقتضى الشروط التى استقرت بتعاقب الأباطرة. ولعل القارىء يذكر كيف آخذ الإمبراطور تيبريوس الوالي الذى أرسل إلى روما مقداراً من الجزية أزيد مما قرره، مذكراً إياه بأنه أوفده إلى

كلاديانوس البطرك

وهو التاسع من عدد الابا

١٥١ / ١٦٧م

وكان في تلك الايام في الشعب انسان محب لله اسمه كلاديانوس فاجتمع الشعب والاساقفه الذين كانو في اسكندريه في تلك الايام واخذوه ووسموه بطركا على الكرسي الانجيلي. وكان محبوبا من جميع الشعب، واقام اربع عشره سنه

مصر ليجز صوفها لا ليسلخ جلدها. وقد كان هناك من المسائل ما ينبغي الرجوع فيها إالى الإمبراطور ليبت فيها بنفسه ويصدر قراراته النهائية. ويتضح ذلك من عبارة وردت في المنشور الخطير الذى أصدره الوالى تيبريوس يوليوس الإسكندر في ٦ يوليو عام ٦٨ مشيراً فيه إلى الإجراءات التى وعدت الحكومة باتخاذها للقضاء على ما تفشى في البلاد من فساد وظلم. وفي الجزء الأخير من هذا المنشور يقول الوالى «وأما عن متأخر الضريبة القديم ـ إذ أن شكاواكم تنصب على ذلك الذى أراد البعض تحصيله كاملا بانتظام أو تحديده تحديدا نهائيا فلم ينجم عن عملهم شيء في الغالب سوى اثراء الموظفين وخراب بيوت الناس ـ فسوف أكتب ـ ضمن أشياء أخرى ـ الى قيصر أغسطس الامبراطورا (جالبا)، لأنه هو وحده الذى يستطيع أن يستأصل مثل هذه المفاسد استئصالا تاما».

وقد سبق أن ذكرت ما يفهم منه أن الوالى كان يملك وحده حق عقد المجلس القضائى (conventus). لكن ينبغي أن أضيف أنه إذا زار الإمبراطور مصر انتقلت إليه سلطة الوالى القضائية. وكان مجلس الإمبراطور المؤلف من المستشارين المرافقين له هو الذى ينظر في القضايا ويصدر الأحكام. كما كان الإمبراطور، لا الوالى ـ فيما يرجح ـ هو الذى يصدر الفتاوى (rescripta) سواء في صورة توقيعات (subscriptiones) أو رسائل (epistulae) إلى الأفراد فيما يعرضونه عليه من قضايا كتلك القرارات أو الفتاوى (apokrimata) التى أصدرها الإمبراطور سبتميوس سفيروس وعلقت في رواق معهد التربية بالإسكندرية عندما زار

من ملك اوراليـاس والارياس ولدى الملوك، وتنيح
فى التاسع من ابيب وكفن ودفن مع ابايه البطاركه
المقدم ذكرهم.

اجريينوس البطرك
وهو العاشر من العدد
١٦٧ / ١٨٠م

ثم ان الشعب اجتمعو ايضا باتفاق وجعلو
ايديهم على انسان من الشعب خايف من الله

المدينة فى نوفمبر عام ١٩٩ (ـ ٢٠٠). وبالإجمال فإن الوالى لم يكن له أن يتخذ قراراً فى أى شأن من الشئون الإدارية لا يتفق وسياسة الإمبراطور. صحيح أن الأخير غالباً ما كان يمارس سلطته في مصر عن طريق نائبه، غير أنه مارسها في بعض الأحيان دون وساطته. وإذا كان الوالى فى نظر سكان مصر حاكماً مطلق السلطان، فإنه كان فى نظر الإمبراطور خادماً عليه تنفيذ أتفه رغبات سيده.

وثمة نقطة أخرى تزيدها «محاكمة مكسيموس» وضوحاً، وهى أن سكان مصر بوجه عام لم يكن فى وسعهم الاتصال بالإمبراطورو الرومانى إلا عن طريق الوالى. ونحن نعرف من بعض النصوص التاريخية والوثائق البردية أن الوالى هو الذى كان يملك وحده حق التصريح للأفراد بدخول البلاد ومغادرتها. وقد أحكمت رقابة مداخل مصر ومخارجها إحكاماً شديداً إلى درجة أنه كان يتعذر على أى شخص مبارحتها دون علم السلطات. ففى البردية المعروفة باسم بردية القواعد المالية (P.Gnomon) لمراقب الحسابات الخاصة (Idios Logos)، والتى تعد أهم وثيقة فى دراسة السياسة الاقتصادية والأوضاع القانونية فى مصر على أيام الرومان، نجد عدة مواد تنص إحداها صراحة على أن المسائل المتعلقة بمغادرة مصر عن طريق البحر بدون جواز بالسفر (apostolos) تقع تحت طائلة سلطة الوالى. وتنص مادة أخرى على أن الأشخاص الذين يجوز لهم مغادرة مصر بحراً، إذا غادروها دون الحصول على جواز بالسفر، تصادر كل أملاكهم؛ ومادة ثالثة تقول إن رومانياً غادر البلاد بحراً دون أن يحصل على أوراق

اسمه اجربينوس، ووسموه بطركا و اجلسوه على الكرسى الانجيلى واقام اثنتى عشره سنه وتنيح فى الخامس من امشير فى السنه التاسعه عشره من ملك الملوك المذكورين.

يوليانوس البطرك

وهو الحادى عشر من العدد

١٨٠ / ١٨٩م

كان انسان قس حكيم قد درس كتب الله اسمه

السفر مستوفاة، فغرم عدداً معيناً من التالنتات، وهي غرامة باهظة على أى حال. ولدينا طلب طريف تقدمت به سيدة تدعى أوريليا مايكيانا إلى والى مصر، فاليريوس فيرموس، فى عام ٢٤٦ ملتمسة منه أن يكتب إلى مدير ميناء فاروس (رأس التين) لكي يسمح لها بالخروج من البلاد وفقاً للعادة المتبعة. ولا ندرى أكانت أورليليا فى زيارة لبعض أقاربها فى مصر أم كانت مقيمة فيها وتطلب تصريحاً بالسفر لزيارة أهلها فى موطنها الأصلى ببلدة سيدى (Sidê) فى إقليم بامفيليا (بآسيا الصغرى). وعلى أى حال فإن الطلب يرد فى ذيله تأشيرة للوالى مكتوبة باللاتينية وتتضمن الإذن بالسفر أو ما يقابل جواز السفر. وإذ كان الوالى هو الذى يرفع الشكاوى إلى الإمبراطور فقد كان فى وسعه أن يعرقل وصولها إليه إذا شاء.

ففى بردية من «أعمال الشهداء السكندريين» ما يفيد بأن الوالى كان يحول دون إبلاغ الإمبراطور شكاوى مواطنى الاسكندرية. وقد ورد على لسان محامى الإتهام فى قضية مكسيموس أن الإمبراطور لم يحط علماً بالرسائل (أى الشكاوى) التى كتبها الإسكندريون إليه. ولم يكن مرد ذلك ـ كما يزعم الوالى ـ إلى أن تراجان كان متغيباً (فى حرب داكيا الثانية عام ١٠٥ ـ ١٠٦)، بل أكبر الظن لأن الوالى احتجزها فى مكتبه حتى لا تبلغ مسامع سيده(*).

(*) انظر: مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الاوراق البردية. د. عبداللطيف أحمد على. دار النهضة العربية. القاهرة. ١٩٦٥.

يوليانوس سالكا فى طريق العفاف والتدين والهدو، فاجتمع جماعه اساقفه من السنودس والشعب الارتدكسى بمدينة اسكندريه وبحثوا عن جميع الشعب فلم يجدوا مثل هذا القس فجعلو ايديهم عليه و اوسموه بطركا، فوضع ميامر ومقالات للقديسين واقام عشر سنين. ومن بعد هذا البطرك لم يقم اسقف اسكندريه فيها بل صار يخرج سرا ويوسم كهنه فى كل مكان كمارى مرقس الانجيلى. وتنيح المذكور فى اليوم التامن من

الامبراطورية الرومانية حتى اعتزال دقلديانوس

فى ستينيات القرن الأول الميلادى ثار اليهود فى جودايا ثورة عارمة غير أن جيوش الامبراطورية بقيادة تيطس Titus استطاعت أن تقضى على هذا التمرد. وأن تدمر الهيكل وأن تذبح اعداد كبيرة منهم، وفرض الامبراطور فسباسيان Vespasanus (٦٩ ـ ٧٩) على كل يهودى أن يحول الضريبة التى كان يدفعها للهيكل فى أورشليم الى الهيكل الامبراطورى فى روما. غير أن اليهود ما لبثوا أن جددوا ثورتهم ضد روما مرة أخرى فى عامى ١١٥ ـ ١١٦، وشملت الثورة هذه المرة مناطق عدة من الامبراطورية خاصة فى برقة ومصر وقبرص وأرض الجزيرة ولكن الامبراطور هادريان Hadrianus أخمد بلا هوادة هذا التمرد الخطير، وأصدر فى سنة ١٣١ مرسوما يحرم الختان أو الاحتفال بأى عيد من أعياد اليهود أو إقامة أى طقس من الطقوس اليهودية علانية، وفرضت ضريبة شخصية جديدة وباهظة، وحرم عليهم دخول بيت المقدس الا فى يوم واحد فى العام ليسمح لهم فيه بالمجئ للبكاء أمام خرائب الهيكل.

وهكذا شتت اليهود فى كل ولايات الامبراطورية الرمانية، ونظر اليهود الى ماضيهم فألفوا أنفسهم وقد تعرضوا لتاريخ طويل من الاذلال والشتات، بدأ بالاشوريين فالبابليين فالفرس فالاغريق ثم فى النهاية الرومان، ومن ثم تولد لدى اليهود كبير أمل، وتوقع محدد صريح أن الههم لابد وأن يخلصهم يوما ما من هذه التبعية السياسية للسيد الأجنبى . وكان التفكير

١١ : يوليانوس ١٨٠/١٨٩م

برمهات وقيل فى تانى عشر بابه فى السنه الخامس من ملك سوريانوس الملك.

ديمتريوس [الاول] البطرك

وهو من العدد الثانى عشر

١٨٩ / ٢٣١م

وعند وفاة يوليانوس البطرك جا اليه ملاك الرب فى منامه ليلة وفاته وقال له: الذى يدخل لك فى غد بعنقود عنب هو البطرك بعدك، فلما اصبح جا اليه رجل فلاح متزوج لا يقرا ولا يكتب اسمه

السائد ـ حسبما جاء فى نبوءات أنبياء بنى اسرائيل[١] أن الوسيلة الوحيدة لذلك هو أن يرسل يهوه مسيحا خصيصا لهذا الغرض، يخرجهم من الظلمات الى النور ويعيد لهم على الأرض مملكة داود وسليمان، ويحقق لهم عهداً جديداً من السلام والرخاء، ومن القوة والعظمة، وينهى بقوته والى الأبد حالات الحزن والقنوط والتبعية والاذلال، وأن يهوه لابد وأن يعيد الى شعبه ميراثه الصحيح ووضعه المرموق.

غير أن اليهود أصيبوا بخيبة أمل بالغة عندما جاءهم المسيح يزين لهم ملكوت السماوات. ويعدهم وعدا حسنا فى الدار الآخرة، وأدرك رجال السطوة والنفوذ فيهم من الصدوقيين والفريسيين والكتبة ومختلف الطوائف الأخرى، وأعضاء مجلس السنهدرين اليهودى [٢] أن

(١) جاء فى سفر أشعياء (٦/٩ ـ ٧) لأنه يولد لنا ولد، وتعطى ابنا، وتكون الرياسة، ويدعى اسمه عجيبا مشيرا الها قديرا أبا أبديا، رئيس السلام، لنمو رياسته وللسلام لا نهاية على كرسى داود وعلى مملكته ليثبتها وبعضدها بالحق وبالبر من الآن الى الأبد.
وجاء أيضا فى نفس السفر (١/١١ ـ ٢) «ويخرج قضيب من جذع يسى، يثبت غصن من أصوله ويحل عليه روح الرب».

(٢) هو المجلس الأعظم المكون من كبراء اسرائيل ، ويظن أنه نشأ فى أثناء حكم السلوقيين (حوالى عام ٢٠٠ ق. م.). وكان الحاخام الأعظم هو الذى يختار فى بادئ الأمر أعضاء المجلس من بين طبقة الأشراف الكهنوت ، ويضم المجلس واحداً وسبعين عضوا يدعون لأنفسهم السلطة العليا على جميع اليهود أيا كان موطنهم، وكان اليهود المستمسكون بدينهم فى كل مكان يعترفون لهم بهذه السلطة.

ديمتريوس، وكان قد خرج يقلم كرمه فوجد فيه عنقود عنب في غير زمان العنب فجا به الى البطرك فقال يوليانوس البطرك للشعب الذين حاضرين عنده: هذا بطرككم كما قال لى ملاك الرب البارحه. فأخذوه قهرا وقيدوه بقيد حديد، وتنيح يوليانوس فى ذلك اليوم فكرزوا ديمتريوس بطركا وحلت عليه النعمه الالهيه.

وكان يشبه يوسف بن يعقوب لانه كان متزوجا، وكان افضل من يوسف لانه كان تزوج

مكانتهم الى نهاية، وأن نفوذهم لا محالة ضائع. ومن ثم كفروا بالمسيح وبما جاءهم به، ونالوا منه ومن دعوته وأتباعه ، وراحوا يؤلبون عليه وعليهم جميعا شعب الرومان والحكومة.وبذلك لقى المسيحيون من اليهود كبير عنت.

أما المجتمع الرومانى فكانت نظرته الى المسيحية تختلف باختلاف الطبقة التي ينتمى اليها هذا البعض أو ذاك، هذا بالأضافة الى موقف السلطات ذاتها، فالطبقة المترفة كانت تعتقد أن المسيحية تهدد كيانها بما تحمله من تعاليم تدعو الى المساواة والأخذ بيد الفقراء، والتصدق بالأموال وعدم اكتنازها، واحتقار الحياة الدنيا وملذاتها [1]، وهى مظاهر لم يألفها الرومان فى تلك الأعصر. ومن ثم أتهمت هذه الطبقة المسيحية بأنها تعمل على تبديد الثروات التى جمعوها بطرق مشروعة أو غيرها، وراحوا ينظرون اليها بعين الشك والارتياب.

ولم تكن الجموع الرومانية فى حاجة الى من يثير عاطفتها ضد هذه الدعوة الجديدة وأتباعها، وكان الذى أدى الى هذا الاتجاه هو ذلك الموقف الخاص النابع من المسيحية . ففى الوقت الذى لم يكن لدى روما فيه أى تعصب فى الوصول الى اتفاق معين يتوافق مع

(١) حفل العهد الجديد بالآيات العديدة الدالة على ذلك، «لاتكتنزوا لكم كنوزا على الارض حيث يفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون» (متى ١٥/٦)، «ا ن اردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء» (متى ١٩ /٢١، مرقس ٢١/١٠)، «مرور جمل من ثقب أبرة أيسر من أن يدخل غنى الى ملكوت الله » (مرقس ٢٥/١٠).

ولم يعرف امرأته، واذا قال قايل: كيف يجوز ان يكون بطرك متزوجا. نقول لهم قد قال التلاميذ في قوانينهم ان الاسقف اذا كان متزوجا بامراه واحده فلا يمنع من ذلك لان الزوجه المومنه طاهره وفراشها طاهر و لا ذنب عليه. والبطرك فهو اسقف مدينة اسكندريه وله الرياسه على ا ساقفة اعمالها لاجل انه خليفة مارى مرقس الرسول البشير فيها بشرى بالانجيل، ولهذا وجب ان يكون حكم اسقف اسكندريه على جميعها. وكان

العبادات الأجنبية الأخرى. وكان مذهب تعدد الآلة على استعداد لأن يقبل في البانثيون الروماني ألهة جددا، وتجلى ذلك فى أن آلهة الشرق كانت تقام لها الاحتفالات والأعياد كما لو كانت أى اله روماني، وبينما كان البانثيون لا يرضى طواعية باله واحد، بدأت المسيحية ديانة توحيدية، وقد أظهر هذا الاله نفسه في «العهد القديم» غير متسامح البتة مع الآلهة الأخرى. ولم تكن المسيحية التوحيدية ترضى بحل وسط يمكن استخدامه مع الديانات المتعددة الآلهة في الامبراطورية الرومانية أو غيرها، بل يجب في ـ نظرها ـ الا يكون هناك تسامح مطلقا لا معها ولا مع اتباعها.

وبناء على هذا المعتقد لدى المسيحيين، عزل هؤلاء أنفسهم عن المجتمع الروماني وأنشطته المختلفة، فلا هم يشتركون فى حفلاته وندواته العامة، ولا هم يختلطون بالرومان ويندمجون فيهم، بل اغلقوا على أنفسهم باب العزلة في ظل التعاليم التى اشاعها أباء المسيحية الأول من فساد الحياة الدنيا وغوايتها ووجوب الزهد، وأن من اتبع هواه وأطلق لنفسه وشهواته العنان فى هذه الدنيا فقد ضل وغوى، وأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى وسار فى طريق المسيح وتحمل الآلام والتعذيب، واحتقر الحياة الدنيا. فسوف يلقى جزاء الحسنى بأن يكون رفيق المسيح فى السماوات العلا. ولقد كانت هذه المحاولة لاقامة مجتمع من الاخيار بين الأخوة، والدفاع العنيف عن حياة التبتل، تجرى فى تيار مخالف تماما لما كانت عليه الحال فى تلك الفترة.

الشعب يحب هذا البطرك ويقولون انه التانى عشر من مرقس البشير وكلهم غير متزوجين الا هذا، وكانوا يحسرون عليه.

وكان له موهبه من الله، وذلك انه كان اذا كمل القداس، ومن قبل ان يقرب احدا من الشعب، ينظر السيد المسيح يدفع القربان بيده فاذا تقدم انسان لا يستحق ان يتناول السراير(*) اظهر له السيد المسيح ذنبه ولا يقربه، فيعرفه سبب فعله ويعترف بخطيته ويونبه عليها ويقول له تنح عن

(*) السرائر المقدسة رتب الكنيسة القبطية سر الاعتراف منذ العصور الأولى. كما أنه مازال يعقد حتى اليوم انطلاقا من

ولما كان زعماء المسيحين يحضونهم على أن يتجنبوا غير المسيحيين، وأن يبتعدوا عن الألعاب الهمجية التى يقيمونها فى أعيادهم والايغشوا دور تمثيلهم لأنها مباءة فجور، فقد بدا اعتزال المسيحى للشئون الدنيوية وكأنه هروب من الواجبات المدينة وضعف للروح القومى والارادة القومية. وقد جاء هذا الاعتزال أيضا نتيجة لما كان يعتنقه المسيحيون من أن الحياة الأرضية أضحت غير ذات بال، والمسيحيون فيها غرباء، فموطنهم الأصلى هو السماء، انهم مواطنون فى مملكة الله الآتية. وكانت الكنيسة الأولى تعتقد باخلاص فى قرب مجئ ملكوت السماوات، ومن ثم لم تقدم شيئا لهذا العالم الذى تعيش فيه، بل ركزت كل جهدها للاستعداد للحياة الآخرة.و لما كان قد حرم على المسيحى أن يتزوج بغير مسيحية، وعلى المسيحية الا تقترن بغير مسيحى، ا تهم المسيحيون بأنهم بذلك يبذرون الشقاق فى المجتمع، واتهم الدين المسحى بأنه يعمل على تشتيت الأسر وخراب البيوت، ومما أكد هذا الاتهام أيضا أن حماس المسيحين فى تلك الآونة كان يدفع الواحد منهم، تبعا للتعاليم المسيحية الى أن يهجر عائلته وأرضه فى سبيل ايمانه، وأن يشترك فى وحدة مع جماعته المسيحية الجديدة. واتهم المسيحيون بالتعالى والتكبر على بقية أفراد المجتمع لأنهم كانوا يضعون الصعوبات فى وجه تناول الطعام خارج دورهم، حيث أن معظم اللحوم فى الحوانيت مضحى بها أصلا للآلة الأخرى . وكان اظهار الشماتة من جانب المسيحين اذا ما حل بالامبراطورية مكروه، وما أذاعوه

خطيتك التى تفعلها وحينذ تاتى لتاخذ السراير المقدسه.

و اقام على هذا مده طويله حتى ان المومنين كانو باسكندريه لا يخطون خوفا من هذا البطرك لئلا يفضحهم، وكان كل واحد من المومنين يقول لصديقه او قريبه اياك ان تخطى لئلا يفضحك البطرك قدام الشعب.

وكان بعض الناس يقول: هذا رجل متزوج فكيف يوبخنا و قد وصم هذا الكرسى لانه ما كان

ثبات المبدأ ولسنا في حاجة للقول بأن المبدأ والممارسة قد اختلطا في مسائل عديدة على مدى التاريخ القبطي. وقد قيل ان الأنبا يوحنا البطريرك الثانى والسبعون الذى عاش خلال القرن الثانى عشر قد ألغى هذا السر. وحوالى سنة ١١٧٤ قام مرقس ابن القنبرى بعمل جولة عظيمة فى ربوع مصر معلما بأنه لا غفران للخطايا بدون الاعتراف. وقبل ذلك بحوالى قرنين تحدث الأنبا ساويرس البطريرك الخامس والخمسون فى هذه

من تنبؤات صريحة عن الكوارث والمحن التى تنتظر الامبراطورية، كل ذلك أوحى الى الرومان بانطباع معين عن خطر متوقع من وراء هذه الطائفة.

وبهذا السلوك أدرك جموع الرومان أنهم ازاء جماعة منعزلة تأبى الاشتراك فى الحياة العامة بل وتزدريها وترفض الانخراط فيها، ولا تؤدى أى خدمة للمجتمع الذى فيه تعيش، و من ثم كان سخط الرومان ومعارضتها للدين الجديد أشد من سخط الأباطرة أنفسهم فى بادئ الأمر.

ولم يكن ارتياب الأباطرة الرومان فى المسيحية بأقل منه عند هذه الفئة أو تلك، بل أخذ يزداد بمرور الزمن حدة وصرامة، كانت المشكلة الجوهرية التى أقلقت بال الأباطرة، وزادت من حدة النزاع بينهم وبين المسيحيين هى رفض مشاركة هؤلاء بقية الرومان عبادة الامبراطور وتأليهة ، وتقديم القرابين لتمثاله وحرق البخور أمامه فى المناسبات العامة، وكان احراق البخور أمام تمثال الامبراطور قد أصبح رمزا للولاء للامبراطورية وتوكيدا لهذا الولاء.

وقد آلم الأباطرة كثيرا أن يجدوا المسيحيين لا يشتركون فى تقديس ذواتهم ، وكانت المسألة بالنسبة للمسيحيين غاية فى الأهمية لانها تتصل بجوهر العقيدة المسيحية ذاتها، وكانوا يشعرون أنهم بعبادتهم آلهة الدولة، واعترافهم بالوهية الحاكم سوف يخرجون عن هذه العقيدة التوحيدية الى صفوف الوثنيين، وكانت الكنيسة ترى فى عبادة الامبراطور ضربا من الشرك

---

١٢ : ديمتريوس ١٨٩/٢٣١م

يجلس عليه الى اليوم الا بتول[أعزب]. وبعض الناس كان يقول: ما هذا شى ينقصه لان التزويج طاهر نقى قدام الله. فاراد الله ان يظهر فضايله حتى يتمجد ولا يدع هذا السر العظيم مخفيا كما قال فى انجيله المقدس من فيه [فمه] الطاهر: لا تستطيع مدينه تخفى وهى على جبل. فاظهر لهذا البطرك فضايله ليزداد شعبه به صلاحا. وذلك انه اتاه فى بعض الليالى ملاك الرب وقال له: يا ديمتريوس لا تطلب خلاصك وتدع قريبك واذكر

النقطة بوضوح لأنه كتب فى خطاب حل لشماس معين ـ ما يلى:

«حلت أربطة هذه الشماس بكلمتى، ولذلك لا يوجد سبب يستدعى أن يعوقه أحد من المؤمنين عن التقدم للتناول». وبعد ذلك أعلن رأيه بأن من يتقدم للتناول بدون اعتراف بخطيئته فانه يجعل خطيئته أعظم».

ويتم الاعتراف أمام الكاهن فقط وقد تحدد فى أيامنا هذه بأن يكون القمص أو كبير الكهنة هو الذى

وعبادة الأصنام، وبذلك أمرت أتباعها أن يرفضوا هذه الشعائر مهما تعرضوا له من الاذى بسبب هذا الرفض. لقد كان ولاء المسيحين لدينهم فوق ولائهم للدولة.

كان فى وسع المسيحين أن يصلوا من أجل الامبراطور ولكن ليس للامبراطور، وأن يدعوا للامبراطورية وأن أبوا أن يحاربوا من أجلها. ذلك أن المسيحين فى بادئ الأمر كانوا يرفضون الاشتراك فى الخدمة العسكرية للدفاع عن الامبراطورية، فهم بأدائهم العمل العسكرى ينخرطون فى العبادة الوثنية، وباعتبارهم جنود الرب فانهم لم يكونوا يستطيعون اعطاء ولائهم لقوة أخرى كانوا فى كثير من الأحيان يساوونها مع الشيطان، فالمسيحى كان يدين بالولاء للمسيح لا لقيصر، ويعظم أسقفه أكثر مما يعظم الحاكم الرومانى، ويعرض ما يقع بينه وبين زملائه المسيحين من مشاكل قانونية على رؤساء الكنيسة لا على موظفى الدولة.

فاذا اضفنا الى احتقار المسيحيين لآلهة الدولة، ورفضهم عبادة الامبراطور، وامتناعهم عن الاشتراك فى الخدمة العسكرية، اذا اضفنا الى ذلك كله رفض أثريائهم قبول تولى المناصب العامة فى ا لدولة مما عد تهربا من تحمل مسئوليات المجتمع الذى يحتويهم، أدركنا الى أى حد كان الأباطرة ينظرون الى هذه الطائفة بعين ملؤها الشك والارتياب.

ونتيجة لهذه النظرة التى أحيط بها المسيحيون راحوا يلتقون خفية ويعقدون اجتماعاتهم فى سرية، مما زاد الطين بلة ، وأوقع بهم تحت دعوى الاتهام بأنهم جماعة سياسية خطيرة يخشى

ما قاله الانجيل: ان الراعى الصالح يبذل نفسه عن خرفانه. فقال ديمتريوس للملاك: يا سيدى عرفنى ما تأمرنى به فان كنت تريد ترسلنى للشهاده فانا مستعد ان يسفك دمى على اسم المسيح. فقال له الملاك: اسمع منى يا ديمتريوس واعلم ان السيد المسيح انما تجسد ليخلص شعبه وما يجب لك الان ان تخلص نفسك فقط وتدع هذا الشعب يشك فيك. قال دمتريوس: وما خطيتى الى الشعب يا سيدى عرفنى لكى اتوب عنها. فقال له الملاك:

يمنح الحل. وبعد سماع الاعتراف يأمر بالتأديبات الكنسية التي يراها مناسبة، ويجب اتمام هذه التأديبات قبل منح الحل. ولا يعتبر الاقرار العام بالخطيئة كافيا، كما أن الكاهن لا يستطيع تحديد التأديب المناسب للخطيئة المختفية خلف التعبيرات العمومية وقيل أنه عندما الغى الأنبا يوحنا هذا الطقس اعتبر أن الاعتراف الصامت أثناء انطلاق سحب البخور بمثابة بديل للاعتراف الصريح بالذنب. وقد أنتشرت نفس هذه العادة

بأسها على سلامة الدولة، خاصة وان قيام هيئة دينية تجمعهم منفصلة عن الدولة كان يعد شيئا غريبا تماما عن الفكر الرومانى عندئذ، فتبعا للنظم التى كانت سائدة فى العصرين الجمهورى والامبراطورى، كانت مجموعة واحدة من الحكام أو الموظفين تختص بالشئون المدنية والعسكرية والدينية على السواء، وما دام المواطن الرومانى يخضع للعبادات الرسمية للدولة، فقد كان له مطلق الحرية بعد ذلك أن يعتنق ما يريد، ومن ثم لم يكن يسمح للمواطنين باتخاذ عقيدة تتصارع مع السلام الرومانى والنظام العام.

وكان من المستحيل أن تلتقى هذه الفكرة مع عقيدة الكنيسة التى كانت ترفض من ناحيتها الفكرة الرومانية القائلة بأن الدين خاضع للدولة. وكان من المستحيل بالتالى على الأباطرة أن يقبلوا بوجود دولة داخل الدولة.

ونتيجة لذلك غدا المسيحيون فى نظر الرومان ليسوا الا منشقين متآمرين مبتدعين لعبادة جديدة غير مرغوب فيها.وقد أدى ذلك بالمسيحيين الى أن يتعرضوا للاضطهاد لامن جانب الأباطرة الطغاة فحسب، بل من جانب أباطرة خيرين أمثال تراجان وهادريان وانطونينوس بيوس وماركوس أوريليوس.

ويتضح اتجاه الحكومة الرومانية ازاء المسيحيين فى مطلع القرن الثانى من تلك الرسائل التى تبودلت بين بلينى الأصغر Plinius حاكم بيثينا سنة ١١٢ والامبراطور تراجان (٩٧ ـ ١١٧)،

بين الاحبـاش. و لكن هذا الخـروج على القانون الكنسى كان مؤقتا، رغم أن تجاهل الاعتراف الصحيح استمر فترة طويلة.

ويقف المعترف أمام الكاهن جاثيا على ركـبتيـه ومطاطئـا رأسـه الى الأرض. ويتلو الاثنان معـا الصـلاة الربانيـة وبعـد تلاوة بعض الصلوات الأخرى يمنح الكاهن الحل للمعترف وبـاركـه. وأثناء الصلوات يؤدى المعترف ثلاث ميطانيات أمام المذبح وميطانيـة واحـدة أمام أب الاعتـراف

هذا السر الذى بينك وبين زوجتك وانك لم تقربها قط اظهره للشعب. قال دمتريوس للملاك: ا نا اطلب اليك ان اموت قـدامك ولا تدع احـدا من الناس يعرف هذا. قال له الملاك: يجب ان تعرف ان الكتاب يقول: من لا يطيع فهو هالك. فاذا اصبحت بالغداه بعد فراغ القداس اجمع الكهنه والشعب وعرفهم هذا السر الذى بينك وبين زوجتك. فلما سمع البطرك هذا تعجب وقال: مبارك الرب الذى لا يرفض المتوكلين عليه. ثم

وقد جاء فى رسالة بلينى «أن الطريقة التى اتبعتها مع من اتهموا أمامى بأنهم مسيحيون هى هذه: لقد سألتهم هل هم مسيحيون فاذا اعترفوا بأنهم كذلك أعدت السؤال عليهم مرة أخرى، وأنذرتهم فى الوقت نفسه بأنهم سيقتلون اذا أصروا على قولهم، فاذا أصروا عليها أمرت بقتلهم» وقد جاء فى رد تراجان على بلينى امتداح تصرفه بأنه غاية فى الحكمة، كما أمر الامبراطور بعدم الجد فى البحث عن المسيحين وعدم السماح لاتهامات مجهولة، ولكن اذا وجد المسيحيون ورفضوا اظهار الولاء للآلهة الرومانية وقعوا بذلك تحت طائلة العقاب، أما هادريان (١١٧ ـ ١٣٨) فقد أرسل الى واليه فى أسيا مينوكيوس الفوندى Minucius Fundanus يأمره أن تعطى للمسيحيين فرصة عادلة للدفاع عن أنفسهم فى محاكمة عادلة، ويجب الا يتعرض أى مسيحى للعقوبة الا بعد التحقق من ذلك، وأرسل أنطونيوس بيوس (١٣٨ ـ ١٦١) الى الجمعية العامة فى افسوس رسالة بهذا المعنى أيضا، ولم يكن اضطهادات المسيحين فى ليون على عهد ماركوس أوريليوس (١٦١ ـ ١٨٠) استثناء من السياسة العامة التى درج عليها أباطرة القرن الثانى، وكانت الاضطهادات التى وقعت على عهد هذا الامبراطور نتيجة لما حل بالبلاد من كوارث نجمت من الفيضانات والاوبئة والحروب، فساد الاعتقاد بأن سبب هذه النكبات راجع الى الانصراف عن آلهة الرمان وانكارها، وشارك أوريليوس الجماهير فى ذعرها، أو لعله خضع لها فأصدر فى عام ١٧٧ مرسوما يقضى بعقاب الشيع الدينية التى تنشر الاضطراب باستثارة أصحاب العقول غير المتزنة بتلقينها عقائد جديدة.

غـاب الملاك عنه فلمـا كـان بالغـداة يوم عـيـد العنصـره قـدس البطرك وامـر ريس الشـمـامـسـه ان يعلم الكهنه والشعب ان لا يخرجو من البيعه بل يجتـمـعـوا عند الكرسي. فـقـال الارشي دياقن للجـمـع: ان البطرك يقـول لجـمـيـعكم اني اريد مخاطبتكم فلا يخرج احد منكم حتى يسمع ما اقوله. فلما جلسو امر ان يجمع الاخوه حطبا كثيرا ففعلو ذلك وهم متعجبـون قايلون: ماذا يصنع البطرك. فقال لهم: قومو نصلي . فـصلو وجلسو

الذى يقبل المعترف قدميه ملتمسا صلواته، ويلي ذلك فرض التأديب ولابد من تنفيـذه بدقـة . ويحكى التائب كافة أفكاره وأفعاله للكاهن. وبعد أن ينفذ التائب كافة التزاماته، يصلي عليه الكاهن صلاة تحليل ثانية، وبعد ذلك يسمح له بالاشتراك في التناول.

وقد خفت حدة الاضطهاد في عهد كومودوس Commodus (١٨٠ ـ ١٩٢) وتحسنت أحوال المسيحيين وتمتعت الكنائس بالسلام ولكن سرعان ما عادت الى ما كانت عليه بتولى سبتميوس سفروس Septmuis Severus (١٩٣ ـ ٢١١) عرش الامبراطورية وربما كان ذلك راجعا الى ما تعرضت اليه الدولة من كوارث لحروبه مع البارثيين. وتابع من جديد ماكسيمين قيصر Maximinus ٢٣٥٠ ـ ٢٣٨) سياسة الاضطهاد، وأصدر أمرا بقتل أباء الكنائس باعتبارهم أصحاب المسئولية الأولى عن بث هذه التعاليم، وعلى ذلك كتب أوريجين Origenes اللاهوتي المسيحي الشهير في القرن الثالث مؤلفه عن الاستشهاد.

هذا الموقف الذى اتخذته الامبراطورية الرومانية تجاه المسيحية حتى نهاية النصف الأول من القرن الثالث كان يتميز بالطابع المحلي. اذا لم يكن هناك قانون عام يسرى في الامبراطورية بأسرها يحدد معاملة المسيحيين، ولكن ذلك ترك لحكام الولايات أنفسهم حسبما يقضي به الصالح العام للامبراطورية، ورغم هذه الاضطهادات واجراءات القمع التي اتخذت الا أنها كانت متقطعة ومتباعدة، ولم تتخذ الحكومة الامبراطورية اجراءات نشيطة وحاسمة وعامة ضد هذه العبادات المسيحية، وكان هؤلاء الأباطرة الذين أقدموا على الاضطهاد في تلك الفترة ـ اذا ما قورنوا بأباطرة النصف الثاني من القرن الثالث – غير غنيفين في اضطهاداتهم، كما أن الكنيسة نعمت في عهد كثيرين من أباطرة هذه الفترة بعهود من السلام والهدوء. غير أن الحال بدأ في التغيير التام مع بداية النصف الثاني من القرن الثالث، حيث تعد هذه الفترة

فقال لهم: انا اطلب من محبتكم ان تحضر عندكم زوجتى تاخد بركتكم. فعجبو وقالو فى قلوبهم: ايش هذا الفعل. ثم قالو له: كلما تأمرنا به يكون. فامر البطرك احد عبيده وقال له: ادع زوجتى عبدة القديسين لتأخد بركتهم. فجات الامراه القديسه ووقفت فى وسط الاخوه، وقام زوجها البطرك بحيث يشاهدونه جميعهم ووقف على الجمر وهى تقد، وفرش بلاريته(*) واخذ بيده جمرا من النار، فشهق جميعهم من كترة الجمر التى فى البلاريه

(*) بلارية: جبة كنسية.

تمثال نصفى لدقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥م)

التى تمتد حتى سنة ٢٨٤، عندما اعتلى دقلديانوس العرش الامبراطورى من أحلك الفترات التى مرت بها الامبراطورية وأشدها خطورة، نتيجة للحروب الأهلية التى وقعت بين قواد الفرق الرومانية فى الولايات المختلفة، وغزوات الجرمان من الشمال والغرب، والفرس من الشرق، وازدياد متطلبات الامبراطورية واحتياجاتها لمواجهة تلك الاخطار، ونقص عدد السكان بسبب تفشى الامراض والاوبئة والطواعين، وانحطاط الزراعة وتدهور الصناعة وكساد التجارة وانخفاض قيمة العملة، تلك صورة عامة كانت تدعو للتشاؤم والقنوط.

لقد كان السبب الجذرى لهذه المتاعب التى سادت الامبراطورية على مدى جيلين يتركز فى عدم انتظام الجيش، وفى الطموح السياسى لقواده العسكريين، وكان الاباطرة ولا شك يتحملون جزءا من هذه الفوضى التى تردى فيها النظام العسكرى الرومانى، ذلك أن الأباطرة كانوا يحجمون عن أن يطعموا الجيش بالعناصر الأرستقراطية خشية استيلاء هؤلاء على السلطة الامبراطورية حيث أنه لم يكن هناك نظام ثابت فى وراثة العرش، هذا بالاضافة الى أن الطبقة المالية كانت غير راغبة فى هجر أعمالها للالتحاق بالخدمة العسكرية، ومن ثم لم يصبح أمام الأباطرة الاطريقين لا ثالث لهما لتكوين جيوشهم، اما من العبيد وطبقة العامة، واما من أعداء الدولة ذاتها الرابضين على حدودها والمتمثلين فى القبائل الجرمانية، وأدت الحرب الأهلية التى أعقبت مقتل كومودوس عام ١٩٢ الى نتائج هامة كان أبرزها اقتناع

رسم بالفريسك فى الكنيسة
المعلقة لقديس يرتدى البلين

ولم تحترق، ثم قال لزوجته: افرشي بلينك الصوف الذى عليك.ففرشته و اقلب الاب البطرك تلك الجمر فيه وهى قايمه، ورفع فى النار بخورا وامرها ان تبخر جميعهم، ففعلت كذلك، هذا كله ولم يحترق البلين. فقال البطرك تانى دفعه: قومو نصلى وكانت الجمر تقد فى وسط بلين الامرأه ولم يحترق منه شي.

سمعتم الان يا احباى هذا العجب العظيم، اذا صير انسان نفسه خصيا باختياره فهو اجل من

سبتيميوس سفروس بأن القوة العسكرية هى كل شئ وقد تجلى ذلك فى رفعه مرتبات جنوده، ونصيحته الى ولده قائلا «أجزل العطاء للجند ولا تلق بالا للآخرين».

وليس أدل على هذه الفوضى العسكرية، وتدخل الجيش فى شئون الحكم، وما نجم عن ذلك من الحروب الأهلية من أنه فى فترة نصف القرن الواقعة بين عامى ٢٣٥ ـ ٢٨٥ تولى عرش الامبراطورية ستة وعشرون امبراطورا لم يمت منهم ميتة طبيعة الا امبراطور واحد. وفى غالة وحدها بين سنتى ٢٥٧ ـ ٢٧٣ كان هناك خمسة أباطرة. وساعدت الفوضى أيضا على أن يسيطر أذينه ومن بعده أرملته زنوبيا من تدمر على كل الأقاليم المتمدة من آسيا الصغرى الى مصر بصورة أضطر معها الامبراطر جاللينوس Gallienus (٢٦٠ ـ ٢٦٧) أن يمنح أذينة لقب قائد الشرق ويجعله رئيسا للفيالق الرومانية على الفرات ومصر.

وزاد الأمر سوءا ضغط الجرمان على الراين والدانوب، فعلى الراين الأدنى ظهرت عناصر الفرنجة، بينما هدد الالمان أعالى الراين والدانوب، واحتل القوط الدانوب الأدنى واكتسحت قبائلهم ـ على عهد الامبراطور دكيوس Decius (٢٤٩ ـ ٢٥١) شبه جزيرة البلقان وعادوا لمهاجمتها ثانية، وأخذوا بيزنطة Byzantiun بغتة، وعبروا البسفور الى آسيا الصغرى حيث وقعت معظم مدن بيثينيا فى أيديهم سنة ٢٦٧، ولم تنج الأمبراطورية من شرهم الا بعد أن أوقع بهم الامبراطور كلوديوس هزيمة ساحقة فى ٢٦٩ / ٢٧٠.

الذى يولد خصيا. ولاجل هذا لم يحترق هذا القديس ولا شى من لباسه ولباس زوجته، لانه اطفا لهيب الشهوه.

والان فلنختصر الكلام فى هذا ونعود الى السيره ونمجد الله الى الابد، فنقول ان الكهنه لما صلو قالو للبطرك نطلب من قدسك ان تعرفنا هذا السر العجيب قال لهم البطرك: ليسمع الان جميعكم ما ا قوله، اعلمو انى ما فعلت هذا اطلب مجد الناس، انا عمرى اليوم تلت وستون سنه

ولم تكن المسألة بقاصرة على الخطر الجرمانى فى الشمال والغرب فقط، بل تعرضت لما هو أسوأ من ذلك على الجبهة الشرقية عند الفرات، وتجسد هذه الخطر فى الامبراطورية الفارسية تحت حكم الأسرة الساسانية القوية، وكانت أوضح صورة لهذا الخطر الداهم تلك التى شهدتها الامبراطورية فى مطلع النصف الثانى من القرن الثالث عندما استطاعت قوات سابور الفارسى أن تستولى على الأقاليم الشرقية للامبراطورية الرومانية، وأن توقع بالامبراطور فاليريان Valerianus هزيمة قاسية وتأسره سنة ٢٦٠. فتعرضت هيبة الامبراطورية فى الشرق لهزة عنيفة .

فاذا ما أضفنا الى هذه النواحى ما نجم عنها تبدت حالة الامبراطورية غاية فى السوء، فدولاب العمل الاقتصادى كان لابد له أن يقفل أبوابه ويتوقف نتيجة لاقفار الأراضى الزراعية من منتجاتها وفلاحيها بسبب الغزوات الخارجية من جانب الجرمان والفرس الذين عاثوا فسادا فى أراضى الامبراطورية فى الشمال والغرب والشرق، ولم يكن خطر الحروب الأهلية أقل شأنا من الخطر الخارجى، وأثر خراب الأراضى الزراعية وضعف الانتاج على الناحيتين الصناعية والتجارية، وتوقفت الأخيرة أيضا نتيجة اضطراب الأمن وعدم صلاحية طرق المواصلات لسبب أو لأخر. ومع ازدياد عدد المتنافسين على عرش الامبراطورية الطامعين فيه، ازداد عدد الجيش بما حاوله كل منهم أن يجمعه من الجنود، وترتب على ذلك زيادة أعطياتهم، ولم يكن من سبيل

وزوجـتي الان التي هي قـدامكم هي ابنة عـمي
ومات ابوها وامها وتركوها طفله فدخل بها والدى
علي ولم يكن له ولد غيرى ولم يكن لعمي ولد
غيرها، فتربيت معها في بيت ابى وكنا في مكان
واحد، فلما صار لها خمس عشره سنه اراد ابى
وامي يزوجوني اياها وكان غرضهم في ذلك ان لا
يضيع مالهم للغريب بل نرثه، فعملو العرس كما
تفعل الناس لاولادهم ودخلت عليها، فلما اخلونا
قالت لي: كيف دفعوني لك وانا اختك. فقلت

لزيادة الدخل لسد هذه النفقات الجديدة ألا عن طريق زيادة الضرائب التي أثقلت كواهل الأهلين، ومزقت الأوبئة شمل الصحة العامة في الامبراطورية. فغرقت نتيجة هذه كله حتى آذانها في حالة من الاعياء الشامل والشلل التام، ولم ينقذها من هذا الهول الا اعتلاء دقلديانوس عرشها سنة ٢٨٤.

في وسط هذا الجو المتوتر المخيف اجتاحت الامبراطورية موجة من النشوة الدينية القوية، هرع على أثرها الرجال والنساء الى الهياكل يحيطون بالآلهة ويضرعون اليها بالصلوات والدعوات، في الوقت الذى وقف فيه المسيحيون على البعد وقفة المتفرج الذى لا يعنيه الأمر، وظلوا كسابق عهدهم يستنكرون الخدمة العسكرية ويقاومونها ويسخرون من الآلهة، ويشجعهم على التمادى في ذلك زعماؤهم، ويفسرون انهيار الامبراطورية بأنه هو البشرى التى وردت في النبوءات عن تدمير «بابل» وعودة المسيح.

وقد رأى الامبراطور دكيوس في حالة الشعب النفسية فرصة يستعين بها على تقوية روح الحماس الوطني والوحدة القومية، فأصدر مرسوما يطلب فيه الى جميع سكان الامبراطورية أن يتقدموا الى آلهة روما بعمل يتقربون به اليها ويردون به غضبها، ويلوح أنه لم يطلب الى المسيحيين التنكر لدينهم، بل أمروا أن يشتركوا في التوسل الى الآلهة التى طالما أنقذت روما من الخطر المحدق بها كما كان يعتقد العامة وكان النجاح الظاهرى لهذه الاجراءات واضحا جليا، فقد استسلم الاف من المسيحيين ـ خاصة الطبقات الأرستقراطية ـ لقرارات الامبراطور،

لها: اسمعى منى ما اقوله، يجب ان نكون فى هذا المكان ولا نفترق ابدا، ولا يكون بيننا شى حتى يفرق الموت بيننا، و اذا بقينا هاهنا بطهارة فنحن نجتمع فى اورشليم السماويه و يشبع بعضنا مع بعض فى النعيم الدايم. فلما سمعت منى هذا قبلته وبقى جسدها طاهرا ولم يرجع ابواى يعلمان ما بيننا. وكانو المدعيون فى العرس طلبو ما جرت به العاده(*) من حال الزيجه، كما تعلمون من افعال الناس البطاله، فقالت لهم امى: هولا صبيان والايام

* هى عادة فض غشاء بكارة العروسه بيد العريس على مرأى ومساعدة أمه وحماته، حيث كان العريس يلطخ منديل بدماء فض البكارة لعرضه على المدعوين لإثبات عذريتها.

هذا فى الوقت الذى اختفى فيه كثيرون منهم، وتحدى بعضهم الثالث الحكومة فكان جزاؤه الاضطهاد والتعذيب والاعدام.

كان دكيوس أول الأباطرة الذين جعلوا الاضطهاد عاما فى الامبراطورية ، وكان فيما سبق يمتاز بالطابع المحلى، وقد قتل فى هذا الاضطهاد فابيانوس Fabianus أسقف روما ، وأسكندر Alexander أسقف أورشليم، وبابيلاس Babylas أسقف انطاكية، كما عذب أوريجين السكندرى، وديونيسيوس Dionysius أسقف الاسكندرية، هذا بالاضافة الى أعداد كثيرة احرقت أو القيت لتفترسها الحيوانات فى الاحتفالات والأعياد.

وقد انتهى اضطهاد دكيوس بموته سنة ٢٥١ ، غير أن سياسته سرعان ماعادت من جديد على عهد فاليريان سنة ٢٥٧ . فنتيجة لأزمة أخرى بثت الرعب فى نفوس الامبراطور والرومان، تمثلت فى الأخطار التى كانت تهدد الامبراطور من كل ناحية، فالفرنجة والألمان وقبائل جرمانية أخرى تهدد الراين، والقوط يهددون شواطئ البحر الأسو د وبحر ايجه، وثورات البربر فى شمال افريقيا لاتهدأ، والغزو الفارسى للولايات الشرقية سائر قدما، نتيجة لكل ذلك أمر الامبراطور أن يمتثل كل شخص للشعائر الرومانية، وأن يقوم الجميع بتقديم القرابين للآرباب، وحرم كل الاجتماعات المسيحية، ثم قام باضطهاد المخالفين واعدام عدد كبير من الأساقفة والقساوسة، وتعرض أسقفا الاسكندرية فى عهده ديونيسيوس وخلفه ما كسيموس

قدامهم طويله. وبقينا على ما نحن عليه. فلما ماتا ابواى وابوها بقينا جميعا ايتاما . ولى منذ تزوجتها تمان واربعون سنه ونحن ننام على سرير واحد وفراش واحد وغطا واحد علينا جميعنا، والرب الذى يعلم ويدين الاحيا والاموات هو العارف بخفايا القلوب، وهو يعلم اننى ماعلمت قط انها امرأه ولا علمت هى ايضا انى رجل، بل بعضنا ينظر وجه بعض فقط، ومرقد واحد يجمعنا ومضجع هذا العالم ما عرفناه قط بالجمله، واذا

- -

لاشد أنواع الاضطهاد ونفيا الى ليبيا. وأنهى الامبراطور فاليريان اضطهاده بوقوعه أسيرا فى يد الفرس سنة ٢٦٠.

وكان موت هؤلاء الأباطرة المضطهدين وغيرهم بالطريقة التى تم بها من الاغتيال والأسر و ما شاكله – فى نظر مؤرخى الكنيسة ـ انتقاما عادلا من الرب الذى كان لأعداء رعيته بالمرصاد، ومن ثم عد مقتل دكيوس وأسر فاليريان ضربا من ضروب الانتقام الالهى.

ولقد نعمت المسيحية بفترة من السلام والهدوء دامت أربعين عاماً، دخل الناس خلالها فيها أفواجا، بعد أن أخذوا يفرون من أربابهم الذين لم يجدوا لديهم المأوى، والذين لم يستطيعوا حماية الدولة من أعدائها، ووجدوا السلوى فى المسيحية أكثر مما وجدوها فى غيرها، ونتيجة لتحول عدد من الاغنياء الى المسيحية، شيدت الكنائس الفخمة فى كثير من المدن وترتب على ذلك أيضا أن أخذت الاعتراضات على تولى الوظائف العامة من جانب أثرياء المسيحيين تتوارى، بل وأصبح المسيحيون حكاما للولايات ووجد منهم أيضا من يحتل مناصب عليا فى البلاط الامبراطورى. وكانت هذه الفترة من السلام فرصة كبيرة للكنيسة كى تستكمل فيها بناءها وتنظيمها الداخلى وأصبح التقليد العملى أن يجتمع اساقفة كل أقليم أو ولاية فى عاصمتها بصورة منتظمة، كما كان لا سقف العاصمة أوالمطران سلطات معينة على المناطق التابعة لمطرانيته، وأخذ التنظيم الكنسى يميل الى تشكيل نفسه على أسس مدينة ،

نمنا جميعا ننظر شخصا كالنسر يأتي طايرا يحط
علي مرقدنا فيما بيني وبينها فيجعل جناحه الايمن
علي وجناحه الايسر عليها الى الصباح يروح
ونحن ننظره حتى يغيب. ولا تظنو ايها الاخوه
والشعب المحب لله انني اظهرت لكم هذه الاسرار
طلبا لمجد هذا العالم الفاني ولا اعلمتكم به بارادتي
بل هو امر الرب امرني به الذى يريد الخير لجميع
الناس وهو المسيح المخلص. فلما قال لهم هذا
القول سجدو كلهم علي وجوههم علي الارض

فأصبحت المدينة التي يقيم فيها نائب الحاكم المركز الطبيعي للاجتماعات الكبرى، وحصل أسقفها على سلطات واسعة في دائرة اختصاصه، فقد اعترف بقرطاجنة كعاصمة دينية لافريقيا، وأنطاكية للشرق عدا مصر حيث تبوأت الاسكندرية مركزا مرموقا.

ولقد كان الامبراطور جالينوس صاحب الفضل الأول في بدء اقرار هذه الفترة من الهدوء بالنسبة للمسيحية، ، ذلك أنه صدر مرسوما سنة ٢٦١ يعد أول مرسوم يقضي بالتسامح الديني، اعترف فيه بأن المسيحية مسموح بها، وأمر بأن يرد الى المسيحيين ما كان قد صودر من أملاكهم وقد حفظ لنا المؤرخ الكنسي يوساب صورة رسالة موجهة من الامبراطور الى أسقف الاسكندرية وأسقف أنطاكية جاء فيها «لقد أصدرت أمرى باغداق هباتي على كل العالم، وأن يبتعدوا (الوثنيين) عن أماكن العبادة ولهذا يمكنكم استخدام هذه الصورة من أمرى كي لا يزعجكم أحد.

وهكذا أقدم الامبراطور جالينوس على خطوة جريئة لم يسبقه اليها امبراطور، وسبق هو بها ما صدر من مراسيم بعد ذلك سنة ٣١١ على عهد جاليريوس وسنة ٣١٣ من جانب قسطنطين وليكينيوس، وحظيت المسيحية لأول مرة على صك حكومي يرفع عن كاهل أتباعها ويلات الاضطهاد ويسمح لهؤلاء بممارسة طقوسهم الدينية، ويحرم على الوثنيين التعرض لدور العبادة المسيحية.

وقالوا: حقا يا ابانا انك افضل من كتير من اهل الصلاح وقد رحمنا الرب لما جعلك ريسا علينا. وشكروه وسالوه ان يصفح عن ظنونهم فيه، فبارك عليهم ودعا لهم فانصرفو الى منازلهم يسبحون الله. وبعد هذا امر الامرأة ان تمضى الى بيتها.

فهل سمعتم أيها السامعون بمثل هذه العجايب. واقام هذا الاب الجليل القديس مع هذه الامرأه الجميله الحسنه طول هذه المده وصبر، فاين هم المتزوجون الان الذين يزنون ايضا ويقولون انا

على أن سمعة دقلديانوس قاست كثيرا من جراء اتهامه بالمسئولية الأولى فى الاقدام على البدء بالاضطهاد الأخير والاعظم للمسيحين.

ولا يمكن القول مطلقا ان إقدام الامبراطور على الاضطهاد كان استجابة لثورة جماهيرية غاضبة، كما شهدناه يحدث مثلا على عهدى دكيوس وفاليريان. فالأمور فى الامبراطورية كانت مستقرة بوجه عام فى هذه الآونة سنة ٣٠٣، ولم تكن هناك أخطار خارجية تهددها، وكان دقلديانوس قد أعاد تنظيم الادارة الامبراطورية، والجيش الرومانى، والأحوال الاقتصادية وكافة شئون الدولة. وعلى ذلك فلم يكن هناك غضب جماهيرى يتأجج فى صدور الأهلين يطالب بالانتقام من المسيحيين لسبب أو لأخر.

لقد كان دقلديانوس خير أنموذج للحاكم الأوتوقراطى الذى أراد أن يجمع السلطة المركزية كلها فى يده، ويشرف بنفسه وجهازه البيروقراطى على كل صغيرة وكبيرة فى الدولة، وقد سعى جاهدا ليحقق ذلك ونجح فيه الى حد كبير ، ومن ثم لم يكن دقلديانوس يتصور مطلقا أن تخرج الكنيسة عن دائرة نفوذه، وأن تغدو بذلك دولة داخل الدولة، وكان يعتقد ـ والقلق يملأ عليه كل نفسه ـ أن النظام المسيحى على هذه الصورة سوف يودى بجهوده الضخمة التى بذلها طيلة هذه السنوات فى سبيل وحدة الامبراطورية وتقويتها. ولما كان قد قضى من سنوات حكمه فى نيقوميديا الشئ الكثير، وتشرب مبادئ الشرق الهلنستى

نصارى، يأتون الان ويسمعون الاب دمتريوس البطرك الذى يقول اننى لم اعرف الا وجه زوجتى فقط فيخزو ويفضحو، يا لهذا الاب المجاهد القديس المقاتل للافكار الجسدانيه. يا لهذا العجب كيف لم يضطرب قلبه وهو ينظر هذه الامرأه الحسنه الجميله، وكيف لم تحرك جسمه نعومة جسمها، ما اعجب كلامك ايها القديس فى الخلوه، ولم يرمك صاحب النشاب الذى يرمى جميع الناس، اعنى الشيطان، قال انا انسان ولى

والامبراطورية الفارسية عن عظمة الحاكم وتقديسه، فقد سعى الى تقليد تلك النظم وغدا الامبراطور وكل ما يخصه ذا قدسية وجلال. وأضحى السلطة المطلقة فى الامبراطورية كلها، وبذلك كان يرى أن المسيحية هى أخر العقبات القائمة فى سبيل هذه السلطة.

ولنضف الى هذا سببا على جانب كبير من الأهمية ، ذلك أن عددا ليس بالقليل من أفراد الجيش كان قد اعتنق المسيحية، فامتنعوا بذلك عن ممارسة الطقوس الوثنية الخاصة بتقريب الاضحيات واحراق البخور أمام تمثال الامبراطور رأس الدولة ـ كما قدمنا ـ وأدرك دقلديانوس بذلك أن هذه العقيدة سوف تعصف بولاء الجند لشخصه وهو أخشى ما كان يخشاه الامبراطور، فما «الحكومة الرباعية» التى انشأها لادارة شئون الامبراطورية الا نظام قصد به القضاء على تلاعب الجيش بالأباطرة فكيف يصبح الحال الآن والجند لا يكنون لقوادهم الوثنيين ولا لامبراطورهم الوثنى كذلك أى عاطفة من الولاء؟

ولعل مما يدعم هذا القول ما يذكره المؤرخ الكنسى يوساب من أن الآضطهاد بدأ «بالاخوة الذين فى الجيش».

على أيه حال تضمن اضطهاد دقلديانوس مراسيم أربعة صدرت ثلاثة منها عام ٣٠٣، ينص الأول على تدمير الكنائس المسيحية، واحراق الكتب المقدسة، ويقضى الثانى والثالث بالقبض على كافة رجال الاكليروس بمختلف طبقاتهم وعدم الافراج عنهم الا بعد أن يقدموا

جسد مثل جميع الناس. ولكنى اعلمكم الجواب، كنت اذا اضطرب على قلبي بالفكر الردى ذكرت العهد الذى قررته مع المسيح وانى اذا فسخته خفت ان ينكرنى فى السموات قدام الاب وملايكته القديسين، وايضا اذا رأيت حسن جسمها ونعومته تذكرت الاجساد التى تصير فى القبور ونتن ريحتها الكريهه فامنع نفسى من كلام غريب خوفا من النار التى لا تطفأ والدود الذى لا ينام فى الاخره حيث لا يقدر يكون فيها من يفتح فاه.

القرابين لآلهة الدولة، أما المرسوم الرابع فقد صدر سنة ٣٠٤ ويلزم كل فرد فى الدولة أن يقرب للآلهة أضحياته.

على أية حال فان الاتجاه العدائى السافر من جانب الامبراطورية الرومانية تجاه الكنيسة المسيحية فى هذه الفترة بالذات جاء متأخرا جدا، فلقد كان من المستحيل فى هذه الآونة أن تجتث جذور نظام أصبح يدين له بالولاء قرابة خمس سكان العالم الرومانى.

الحروب الأهلية وسياسة المتصارعين ازاء المسيحية

بدا لفترة ما أن نظام «الحكومة الرباعية» الذى أقامه دقلديانوس قد أضحى وطيد الأركان. ولكن هذه النظام لم يكن راجعا فى ثباته الى طبيعته فى حد ذاته بقدر ما كان راجعا الى سطوة الامبراطور التى وضعت حدا لطموح شركائه، ولم يستطع ذهن دقلديانوس أن يتصور أنه إذا كان هؤلاء الشركاء قد ارتضوه امبراطورا لهم وسيدا، حيث كان ولى نعمتهم، فلقد كان من الصعب على أحدهم أن يعترف لزميله بهذه الأولوية بعد اعتزال دقلديانوس ـ طالما كانوا جميعا شركاء فى حكومة واحدة حتى ولو كان بعضهم يحمل لقب الأوغسطس والاخر لقب القيصر. فما أن القى هذا النظام فى ميدان التجربة بعد أن تخلى دقلديانوس وزميله ماكسيميان Maximianus عن السلطة سنة ٣٠٥ حتى عصف طموح أولئك الرفاق وصراعهم، بما قضى دقلديانوس يقيم منه القواعد سنين عددا.

يا احباى هذا الاب مصطفى من الله فى جهاده وشجاعته اشجع ممن يقتل السباع كما قال بعض المعلمين: ليس الشجيع من يقتل الاسد لكن الذى يموت وهو طاهر من مضاجعه الامراه ومن مصايد النسا، فطوبى لهذا القديس لانه قد تعالت درجته مثل يوسف لما كان فى بيت المصريه، وكانت تخاطبه فى كل وقت تجد السبيل الى خطابه، وهذا كان يقاتل افكاره فى كل يوم وليله.

وهكذا تم جهاده وحفظ بتوليته وامانته المستقيمه واقام تلت واربعين سنه بطركا.

قسطنطين (٣٠٦ ـ ٣٣٧)

ما أن تخلى الرفيقان عن السلطة الامبراطورية فى مايو ٣٠٥ حتى ارتقى كل من جاليريوس Galerius وقسطنطيوس Constantius الى مرتبة الأوغسطس بدلا منهما، أولهما فى الشرق، وثانيهما فى الغرب.

ولفترة قصيرة جدا اتخذت «الحكومة الرباعية الثانية» شكلها فأخذ جاليريوس أو غسطس الشرق Pontica, Asiana, Thrae, Moesia بينما أضاف قسطنطيوس ـ أو غسطس الغرب ـ اسبانيا الى أقاليمه الأصلية فى غالة وبريطانيا، أما سفروس فقد خصصت له ايطاليا وأفريقيا وبانونيا Pannonia، على حين حكم ماكسيمين المناطق الشرقية (مصر وسوريا). وبذلك كان جاليريوس يسيطر بالفعل على ثلاثة أرباع الامبراطورية بسيادته على تابعيه سفروس وماكسيمين بالاضافة الى دائرة نفوذه. وكانت الأحلام تداعب خياله فى الانفراد بحكم الامبراطورية كلها بلا منازع. ومن ثم كان ينتظر بقلق بالغ موت قسطنطيوس، غير أن أحلام جاليريوس سرعان ما تحطمت على صخرة واقعتين هامتين عصفتا بطموحه فى توحيد الامبراطورية تحت سلطانه وحده، هما اختيار قسطنطين خلفا لأبيه فى الغرب، والمناداة بما كسنتيوس امبراطورا فى روما سنة ٣٠٦.

وعلى الرغم من أن جاليريوس كان يتميز غيظا لما اعتبره اغتصابا للسلطة من جانب قسطنطين، الا أنه أثر قبول سياسة الأمر الواقع. فاعترف بقسطنطين قيصرا وليس امبراطور،

وكان قد جرى هيج باسكندريه ونفاه الملك سوريانوس الى موضع يعرف بمدينة موسين وتنيح هناك في اليوم التانى عشر من برمهات واظنه يوم ظهور بتوليته.

واستشهد في ايام سوريانوس الملك شهدا كثيره بمحبه، منهم والد رجل يعرف ببرجانوس(*) [أورجانوس] قد تعلم العلوم البرانيه(*) ورفض كتب الله وبدأ يطعن عليها فلما علم به الاب دمتريوس ورأى الجمع قد ضل بعضهم الى كذبه ابعده عن البيعه.

(*) العلوم البرانية: هى العلوم الفلسفية وغيرها من العلوم الغير دينية.

(*) اورجانوس:
ولد هذا العلامة العظيم بمدينة الاسكندرية سنة ١٨٥م من والدين مسيحين تقيين وكان أبوه يدعى ليونيدس وله سبعة أولاد أكبرهم

بينما انعم على سفروس بلقب الامبراطور، فهبط قسطنطين بذلك من المرتبة الثانية الى الرابعة وهكذا - ولزمن يسير - عادت الحكومة الرباعية من جديد، فحمل كل من جاليريوس وسفروس لقب أو غسطس، بينما استحوذ كل من ماكسيمين وقسطنطين على مرتبة القيصر. ولقد قبل قسطنطين هذا اللقب «المتواضع» انتظارا لما تأتي به الأيام.

غير أن ثورة شبت فى نفس العام فى روما، قام بها الحرس البريتورى، وقتل محافظ المدينة وأعلن ماكسنتيوس بن ماكسيميان امبراطور فى ٢٨ أكتوبر، وبدا أن ايطاليا كلها قد اضحت فى قبضة ذلك المغتصب، وقد سعى ما كسنتيوس لضمان اعتراف جاليريوس به، وسمى نفسه على عملته عندئذ «الأمير الذى لا يقهر». وقد اضطرب جاليريوس لدى سماعه بهذه الأنباء ولكنه لم يفزع، وملأ الكره قلبه نحو ما كسنتيوس، الذى كان زوجا لابنته، لما لم يكن هناك مكان لقيصرثالث، فقد رفض جاليريوس أن يمنحه هذا اللقب. وترجع هذه الثورة التى أتت بما كسنتيوس للعرش الى ما أقدم عليه سفروس من اجراء تعداد للسكان فى ايطاليا وروما مما سبب سخطا وتذمرا بين الأهلين الذين كانوا يعيشون لقرون خلت متحررين من عبء الضرائب. وان كان لاكتانتيوس يحمل مسئولية ما أقدم عليه سفروس، وازاء ذلك أرسل جاليريوس الى سفروس يستحثه على استعادة سلطته وأقاليمه الضائعة من قبضة ما كسنتيوس، ووضع تحت امرته ذلك الجيش الذى كان ما كسيميان يرأسه من قبل وكان على

اوريجـانوس قـيل ان ابا اوريجـانوس كـان من مـعلمي الفـصـاحـة والمنطق فـرباه باعظم اهتـمـام ولـم يكتف بأن يروضـه في العلوم والقـوى العـقليـة والرياضيـة بل فقهه أيضاً في الكتب المقدسة وكان يختبر ذكاءه فيأمره بأن يحفظ كل يوم بعض آيات منها حتى حـفظ أغلب نـصـوص الكـتـاب المقدس.

ولما اسـتكمل قـواه وضـعـه في المدرسة اللاهوتية فـتـلمـذ للعلامة اكلمينـدس وقرأ عليه الكتاب المقدس وتوسع في درس مـؤلفـات افـلاطون والرواقين. وحالا تحقق حسن ظن أبيه

فـأمـا الشـهـدا الذين هم فلوترخس وسـرنس فـاحـرقـوهم احيـا، واما اركـلادا وارون فـاخـذوا روسـهـمـا، وكـذلك سـيـرنس وأرائي الامـرأه و بسيليتس وابتومينا [بوتامينا] وامها مركلا فلحقهم تعب عظيم وجهاد شديد، وانتلاس هو اب الملوك و اوسابيـوس ومـقـاريوس هو خـال قـلاديانوس، ويستس وتادرس المشرقي هولا الشهدا كلهم اقربا بعضهم لبعض، وايضا عدرا اخرى اسمها تكلا،

ما كسنتيوس أن يستعد لمواجهة هذا التحدى، فبعث الى أبيه ما كسيميان يطلب اليه العون، محييا اياه ثانية بلقب «الأوغسطس» واهتبل الأب، الذى كان قد تخلى كارها عن السلطة مع دقلديانوس، الفرصة وعاد من جديد الى ارتداء العباءة الامبراطورية. وهكذا اصبح فى الامبراطورية أباطرة أربعة هم جاليريوس وسفروس وماكسنتيوس وماكسيميان، وقيصران هما ما كسيمين وقسطنطين.

ولم يكد يمضى على هذه الأحداث عام حتى مات جاليريوس (مايو٣١١)بعد أن دهمه المرض فترة طويلة، فأعطى موته اشارة البدء في ذلك الصراع المتوقع بين الأباطرة الأربعة، فقسطنطين كان يسود غالة وبريطانيا، بينما كان ماكسنتيوس يحكم ايطاليا واسبانيا وأفريقيا، أماليكين فخضعت له الليريا وبلاد الونان وتراقيا، على حين اختص ما كسيمين بكل ما يقع وراء البسفور من الأراضى الاسيوية ومصر وقبل أن نشهد هذه الصراع العنيف يجدر بنا أن نتوقف بعض الشئ لنتعرف على سياسة جاليريوس ازاء المسيحية.

كان جاليروس يكن للمسيحية والمسيحين كبير عداء، ومنذ كان قيصرا على عهد الامبراطور دقلديانوس، فلما اعتلى عرش الامبراطورية تمادى فى عدائه هذا وصب عليهم جام غضبه في الولايات الخاضعة لحكمه فى تراقيا وآسيا والمناطق الخاضعة لقيصره ما كسيمين فى سوريا وفلسطين ومصر، ففى سنة ٣٠٦ أعدت قوائم والزم الامبراطور الأفراد جميعا بتقديم

وكـان بسـيلـتس [باسـيلوس] من الجند فـتـقـدم باختياره ولما سألوه قال انا نصرانى لانى رأيت منذ ثلثة ايام فى منامى امرأه ظهرت لى وجعلت على رأسى اكليلا من عند يسوع المسيح، وكذلك نال اكليل الشهاده.

وهكذا جماعة كثيره استشهدو وكانت ابتومانيا [بوتامينا] الامرأه تظهر لهم فى المنام وتدعوهم الى الامانه بالسيد المسيح حتى نالو اكليل الشهاده.

به فـرز أوريجانوس على جمـيع أترابه ونشـأ وقلبه مفعم بحب الدين والغيرة عليه وبه وجـد وهـيام الى نيل اكليل الشهادة حتى أنه عرض نفسـه مرات ليكون فى عداد الشهداء.

وفى سنة ٢٠٢م لما أثار ساويرس قيصر الاضطهاد قبض على ليونيدس واودع السجن. فأرسل لابيه خطاب تعزية يشجعه فيه على احتمال الخطوب ويطلب منه أن لا يشتغل بهم بقوله «حذار أن يغير العذاب رأيك فى دعوانا لا تهتم بـاولادك فـان ←

- -

القـرابين، وفى سنة ٣٠٨ صـدرت الأوامـر لرؤسـاء المدن والموثقين الذين يحـتـفظون لديهم بسـجلات التعداد بتنفيذ المرسوم السابق الذكر وامعانا فى تنفيذ هذا الأمر وضع الحراس على أبواب الحمامات العامة لقهر الداخلين على تقريب الأضحيات للامبراطور ولم يقتصر الأمر على هذه الاضطهادات بأنواعها المختلفة بل تعداه الى كل شئون الحياة، «فتوقفت دواليب العمل وأهملت سيادة القانون وذهبت أدراج الرياح صيحات الخطباء. وما زاد الطين بلة. تلك الضرائب الفادحة التى فرضت على كل ولاية ومدينة، وانتشر الصيارفة فى مختلف الأحياء يحصرن كل شئ، الناس والشجر والدواب.

غير أن جاليريوس فجأ الجميع فى ٣٠ أبريل سنة ٣١١ بمرسوم أصدره جاء فيه:

«كان من بين الأمور التى رتبناها حفاظا على الصالح العام ما سبق أن أبدينا من الرغبة فى ر د الأوضاع الى الحالة اللائقة بالقوانين القديمة ونظام الرومان العام، وضمان عودة المسيحيين الذين هجروا ديانة أجدادهم الى حالة طيبة، لأنه تملكهم الكبر الى حد، وغلبت عليهم الغباوة حتى رفضوا اتباع الشرائع القديمة التى سبق أن أسسها أجدادهم، وأقاموا لهم قوانين حسبما تهوى أنفسهم، واجتمعوا جماعات متفرقة فى أماكن مختلفة. ولما اصدرنا أوامرنا بوجوب رجوعهم الى نظم الاقدمين خضع الكثيرون لأوامرنا. ولكن عددا ليس باليسير رفض الانصياع وتحمل صنوف الموت، ورغم أن كثيرين قد استمروا فى حماقتهم لا يقدمون لآلهة

الله سبحانه وتعالي يعتني بنا» وقيل أن اوريجانوس كان معتادا أن يرسل أمثال هذه الخطابات لتشجيع المؤمنين الذين كانوا واقعين تحت طائلة عذاب الاضطهاد(قد جمع اوسابيوس المؤرخ مجموعة تحتوى على اكثر من مائة مكتوب رقمتها يد اوريجانوس في مثل تلك الظروف الحرجه ولم يبق منها شئ الآن بل ذهبت طعاما للنار التي أحرقت المكتبة في الاسكندرية واوسابيوس هو أول من اعتني بكتابة تاريخ أوريجانوس آخذا بعضه عن رسائله وبعضه عن تلامذته الذين بقوا احياء الي أيام أوسابيوس في القرن الثالث).

أما ليونيدس فقطعت رأسه ٢٠٣م وتبعاً لقوانين الاضطهاد حينئذ ضمت أملاكه الي الحكومة فباتت أرملته وأولاده في فقر مدقع وأصبح اوريجانوس مكلفا بالقيام باودهم وكان عمره وقتئذ سبع عشرة سنة. ولم يكد يشعر بضيق الحال حتى سخرت له العناية الالهية امرأة غنية فاضلة كانت ملجأ لكثيرين من المنكوبين في ابان الاضطهاد فرقت لحال اوريجانوس وآوته في بيتها ولبث عندها طول مدة الاضطهاد وهي تنفق على تعليمه في مدرسة اكليمندس.

وخرج أوريجانوس من ذلك المأوى وأخذ يزاول مهنة التعليم ليقوم بنفقة نفسه وفي أثناء ذلك كان يذهب يفتقد من كان باقيا من المسيحيين في السجون وطفق يعزيهم بكلمات روحية ويشجعهم على شرب كأس الموت بصبر. وكان يرافق الكثيرين منهم الى الحاكم وحتى الى منقع العذاب ويشدد عزائمهم على الثبات في الايمان تارة بالاشارات وتارة بالخطب البليغة مراراً شتى عرض حياته للخطر وهو يباشر أفعال الغيرة هذه. فاشتهر بعمله هذا واستحق اعجاب الجميع لا سيما البابا ديمتريوس الذى قربه اليه وأظهر له سروره من سعيه المبارك وزاد ابتهاجه به عندما رآه فضلا عن تعبه في تخفيف ويلات المتضايقين منكبا على الدرس ومواصلا المطالعة فشجعه على الاستمرار في جهاده.

وكانت المدرسة اللاهوتية حينئذ مغلقه بسبب هروب أساتذتها من وجه الاضطهاد فجد البطريرك حتى جمع بعض الطلبة في تلك الاوقات المخيفة وكلف اوريجانوس بتعليمهم فشرع يعلم مبادئ الآداب اليونانية ثم تعاطى تفسير الدين المسيحي للموعظين. وكانت للتلاميذ مرتبات من الاموال المخصصة للفقراء.

ولم يكد اوريجانوس ينجح في عمله حتى قبض اكويلا والي مصر بأمر كاركلا قيصر على خمسة من تلاميذه وبعد أن عذبوا عذابا شديدا حكم عليهم بالموت المريع لانهم أبوا أن ينكروا ايمانهم. وكان بين الخمسة اثنان باسم ساويرس أحدهما حرق والاخر قطعت رأسه بعد أن عذب طويلا. وهيراكليدس وهرون قطعت رأساهما أيضا. أما الخامس وهو ياروكلا فكان صديقا حميما لا وريجانوس فلم يتركه عند القبض عليه بل رافقه الي موضع الاعدام. ولما شاهد الجنود يقتربون من ياروكلاس تقدم اليه بشجاعة وقبله قبلة الوداع على مشهد من الجميع فاغتاظ منه الرعاع وهموا برجمه ولكنه أسرع بالهروب ويظهر أن مطاردتهم له مكنت ياروكلا من الفرار بطريقة ما وعاش حتى صار رئيسا للمدرسة اللاهوتية فبطريركا للكرازة المرقسية (٢٣١/ ٢٤٧) انظر ص٢٣٥. الا أن التعليم في تلك المدرسة أبطل من ذلك الحين وطرد أوريجانوس من المدينة.

وفي سنة ٢٠٢م عينه البابا ديمتريوس رئيسا للمدرسة اللاهوتية .

ويظهر أن انعكافه الزائد وسعيه المتواصل لنوال أسمى درجة في العلم والفضيلة قد

جعله زاهدا في الحياة لدرجة متناهية فرفض جميع ما كان يقدم له جزاء لا تعابه وتقسى على جسده فكان يقتات فقط بما يدرأ عنه الم الجوع ولا يشرب شيئا من المشروبات وكان ينام على الارض دون فراش ويلبس ثوبا واحداً ويمشي دون حذاء. يصرف كل النهار في التعليم والاشغال المتعبة ويقضي أكثر الليل في الدرس والمطالعة. وفي تلك المدة تخلى عن مكتبته التي جمعها من مؤلفات الفلاسفة والتي كتبها بيده من مكتبة الاسكندرية لرجل وثني مقابل راتب يومي قدره أربع بارات.

وكان اوريجانوس حريصا على عفته وطهارة ذيله ويخشى أن يرشقه حساده وخصماؤه بنبال اغتيابهم. وكان يشعر بأن مضطرا الى التردد على بيوت المؤمنين لتعليم العائلات أصول الدين ورأى كثيرات من التلميذات يتبعنه. وفيما كان سنة ١٠٦م يطالع في الاصحاح التاسع عشر في انجيل متى انتبه للآية الثانية عشر وأخذها على ظاهر معناها فخصى نفسه لكي يمنع عنه التجربة ولم يكاشف بأمره الا البابا ديمتريوس. قيل ان هذا ما كان يرومه اوريجانوس كي لا يكون أهلا لنوال درجة الكهنوت.

ولم يكتف أوريجانوس بما حصله من العلوم الكثيرة في المدرسة اللاهوتية فعكف على درس العلوم الطبيعية والادبية في المدرسة الفلسفية التي كان يديرها أمونيوس السقاص وما سطره الاقدمون من الاقوال المفيدة ولما عاب عليه البعض ذلك كتب يقول «لما كنت قد كرست نفسي لخدمة كلمة الخلاص وكان قد ذاع صيتي في الآفاق نظرا لبراعتي واقتداري وكثيراً ما كنت معضدا لهراطقة وأهل البدع الذين يجيئون لزيارتي والبحث معي وكنت مرمرقا بجماعة من المغرمين بالعلوم اليونانية خصوصا المتعمقة في الفلسفة ـ قصدت أن أفحص أفكار الهراطقة وأمتحن تآليف الفلاسفة الذين أحيانا ينطقون بحقائق مهمة وقد اتبعت في هذا خطوات بنتينوس الذي أفاد الكثيرين قبل أن أوجد أنا ولم تكن معارفه قاصره على هذا الحد كما انني قفوت آثار هاراكلامي الذي كان عضوا في مجمع الاسكندرية وقد علمت انه واظب مدة خمس سنوات يحضر عند معلم الفلسفة قبل أن ابتدئ أنا في استيعاب هذه العلوم».

فأنكب أوريجانوس على درس الفلسفة على مذهب فيثاغورس وأفلاطون ولهذا كان أيضا صديقا لامونيوس السقاص.

وفي سنة ٢١١م زار مدينة رومية فقوبل فيها بكل اجلال كما يليق بعالم فاضل مثله وتقابل بزفرينوس أسقف تلك المدينة بعد فكتور. فثبت هناك في ما عزم عليه من عمل شئ يكون له نفع عظيم لعلماء التوراه واذ صرف في الامر غايته لم يرَ بداً من أن يشرك معه في تدبير المدرسة اللاهوتية يا روكلا أحد تلاميذه المتقدمين. ثم انصب على درس اللغة العبرانية فلم يلبث أن برع فيها وكان غرضه أن يستقصى معاني آيات الكتاب المقدس الحقيقة ليضع لها تفسيرا وافيا وليؤهل نفسه الى ترجمة الكتب المقدسة الى ست لغات وهو عمل يعد من أعظم الاعمال التي قام بها اوريجانوس في حياته ولو ان هذه الترجمة لم تنشر الا بعد وفاته بسنين قليلة.

وكان صيته حينئذ قد قرع كل الاسماع ودوى في جميع الاماكن فتوافد عليه الكثيرون طلبا للاستفادة من معلوماته. وكان من أجل خدماته قيامه بثلاث رحلات الى بلاد العرب أولها كان بين سنة ٢١٢ و٢١٣، وسبب ذهابه هو أن حاكم بلاد العرب أرسل بعد هدوء الاضطهاد

الى والى مصر وبطريرك الاسكندرية يطلب منهما ارسال الرجل المسيحي المسمى اوريجانوس بدون تأخير وذلك لكي يشرح له تعاليم الديانه المسيحية ويرشده الى طريق الخلاص فترك أوريجانوس في مكانه ياروكلا وذهب لاتمام هذه المهمة ولم يستمر فيها طويلا لان البطريك عين شخصا اسمه بيرلوس أسقفا على البصرة لهداية بلاد العرب. والمرة الثانية كانت ليحضر مجمعا انعقد بسبب سقوط بيولوس أسقف بصرة المتقدم ذكره في الهرطقة فتمكن اوريجانوس من ارجاعة الى حضن الكنيسة. والثالثة كانت لدحض بدعة انتشرت هناك ومؤداها ان اللاهوت مات مع الناسوت وقام معه ثانية في وقت واحد.

وفي سنة ٢١٢م تعرف أوريجانوس برجل من أرباب الثروة والنفوذ يدعى امبروسيوس وكان تابعا لضلالة فالنتينوس فهداه أوريجانوس الى الايمان وصار له صديقا حميما وتمكن بواسطته من توسيع دائرة تعليمه وجعل درس جميع الفلسفة المعروفة تمهيداً لدرس اللاهوت المسيحي. ولم يكتف امبروسيوس بمساعدته على التعليم بل حثه على وضع أكثر الكتب التي ألفها ونسخها على مصاريفه الخصوصية. فاشترى واستأجر سبعة نساخ وكان يملي عليهم أوريجانوس متعاقبين (لايلقنهم معا كما توهم البعض) فنشر في الاسكندرية تفسيره لسفر التكوين والمزامير ومراثي ارميا والاقسام الخمسة الأولى من كتابه في انجيل يوحنا ورسالة في القيامة ورسالة عنوانها (ستروماتا أي مجموع فوائد) وتأليفه المعنون «بالمبادئ» وقد روى بعض الكتاب أنه كتب بعد ذلك الى فابيانوس أسقف رومية أن امبروسيوس نشر المؤلف الاخير خلافا لارادته لان في ذلك الكتاب المذكور خلط المبادئ المسيحية بالفسلفة الافلاطونية فجعل لمضاديه سبيلا الى رجمه بتهمات قوية. ولكن أفضل المحققين يصرحون بأن كتاب المبادئ كان خاليا من كل عيب بشهادة البابا اثناسيوس الرسولي الذي رفع شأن هذا الكتاب ودفع عنه كل تهمة وحكم بقصر نظر من يرون فيه ضلالاً ولقد أشار القديس اثناسيوس على من يطالع هذا الكتاب بأن يفرق بين آراء أوريجانوس وبين الآراء المناقضة التي أوردها ذلك العلامة للرد عليها (قرارات مجمع نيقية رقم ٢٧) وقال العلامة ديديموس الضرير «ان كتاب المبادئ هو ارثوذكسي المبنى والمعنى. أما الذين يرون فيه هرطقة فقاصرون عن ادراك مكنون اسراره» (سقراط ك ٣ ف ٢٣).

وفي سنة ٢١٥م اشتد الاضطهاد في الاسكندرية في عهد كاركلا قيصر فهرب أوريجانوس الى قيصرية في فلسطين حيث لقي كل اعتبار واكرام. ومع أن وظيفة الوعظ كانت حينئذ خاصة برجال الكهنوت ولم يكن اوريجانوس قد نال رتبة كهنوتية مع نوافر علمه وتقواه بسبب زهده في الرتب والوظائف الا أن اسكندر أسقف أورشليم رفيقه في التلمذة وثيوسيتوس أسقف قيصرية طلبا منه أن يشرح الاسفار المقدسة جهاراً لفائدة الجمهور بحضورهما ولما سمعاه أطلقا عليه لقب «سيد مفسري الكتاب المقدس» وكان ميليانوس أسقف قيصرية الكبادوك ينتظر حضور أوريجانوس بفروغ صبر ولما استبطأه أسرع الى فلسطين ليتلقى العلوم ممن كان يفتخر بأن يدعوه استاذه.

فلما وصلت أخبار أوريجانوس الى مسامع البابا ديمتريوس اعترض على أولئك الاساقفة لسماحهم لاوريجانوس بمزاولة مهنة خاصة بالكهنة فجاوبه

الاساقفة بما يدل على احترامهم له ودافعا عن أنفسهما بأنهما سارا على منوال السالف الصالح الا أن البابا ديمتريوس لم يقتنع فأرسل رسائل لأوريجانوس مع بعض الشمامسة يأمره بعدم القيام بأية خدمة ويخبره بهدوء الاضطهاد ليحضر ويمارس أعماله فرجع أوريجانوس بسرعة الى الاسكندرية واستلم زمام أعماله.

ولم يمض الا القليل بعد ذلك حتى أتيح لا وريجانوس زيارة العربية حيث اجتمع بهيبوليتوس أحد فلاسفة المسيحية وفند وقد وضع هذا كتاب عنوانه (Philosophumena) نسب الجزء الاول منه الى أوريجانوس.

وسنة ٢١٩م استدعته ماميا أم الملك اسكندر محب المسيحيين الى انطاكية لتسمع وعظه واستمر مدة كان فيها موضوع الاجلال والاكرام. وكان لمعارفه وادابه تاثير عظيم وبسببه خف الاضطهاد الذى كان واقعا على المسحيين أو انتذ.

وفى سنة ٢٢٨م أرسله البابا ديمتريوس الى اخانيه ببلاد اليونان ليقاوم الهراطقة الذين أقلقوا راحة الكنيسة هناك فزار فى طريقه فلسطين وكان فى كل مدينة أو قرية نزلها يدعى الى الوعظ فى الكنائس ولما مر بفلسطين عند رجوعه خاطبه اسقفها ثوبستوس بالاشتراك مع اسكندر أسقف أورشليم بأنه لا يجوز باستاذ الكهنة والاساقفة أو يكون مجردا من كل الكهنوت. ويظهر ان أوريجانوس كان بسيط القلب بكلامهما وارتضى أن يقبل منهما درجة القسوسية وهو فى السنة الثالثة والاربعين من العمر.

غير ان ديمتريوس البابا الاسكندرى اعتبر هذه السياسة تعديا على حقوقه. ومن ذلك الحين بدأ سوء التفاهم يجد مكانا بين أوريجانوس والبطريرك وا لحقيقة فى هذا الأمر كما يرويها المدققون ان البطريرك الاسكندرى امتنع عن ترقية أوريجانوس لدرجة كهنوتية لسببين أولهما لأنه خصى نفسه. ثانيهما نحول جسمه وضعفه. وفى سنة ٢٣١م عقد البطرك (يمتريوس مجمع حرم فيه أورجانوس ونفاه وعين مكانه ياروكلا اخر تلاميذ اورجانوس.

ولما رجع أوريجانوس الى الاسكندرية بعد رسامته رأى البطريرك ديمتريوس حاقدا عليه ووجد مركزه قد سقط فحصل بينه وبين البطريرك نزاع عقد بسببه هذا مجمعا بالاسكندرية سنة ٢٣١م حكم فيه بنفى أوريجانوس وبحرمه لانه رسم من أسقفين غير تابعين للكرازة المرقسية ولانه خصى نفسه الامر الذى بالغ أوريجانوس فى كتمانه وساعده البطريرك على ذلك ولكنه اضطر الى اشهاره رغما عنه ثم أرسل خطابات الى جميع الكنائس يعلمها بحكمه على اوريجانوس.

أما أوريجانوس فمع كونه عرف ان هذا الحكم فى غاية القساوة الا انه تدارك الامر بحكمته ولم يشأ أن يمكث فى الاسكندرية ليوسع هذا الخلاف بل تركها تركا لارجوع بعده. وكان قد أكمل القسم الخامس من كتابه فى انجيل القديس يوحنا ففزع الى قيصرية. وفى تلك الاثناء عقد ديمتريوس البطرك مجمع آخر فى الاسكندرية طارد فيه اوريجانوس وفحص كتاب «المبادئ» وحكم بأنه هرطوقى وحرم مؤلفه.

ولما وصل أوريجانوس الى فلسطين استقبل فيها استقبال القائد المنتصر فاستاء البابا ديمتريوس من كثرة تعدى أساقفة تلك الجهة على حقوقه. ولحق باوريجانوس امبروسيوس وعائلته وتبعه كثيرون من طلاب العلم ولهذا عزم على فتح مدرسة فى قيصرية فلسطين يعلم فيها تفسير الكتاب المقدس وكمل فى تلك

المدينة المذكورة تفسيره لا نجيل يوحنا.

وقد كتب حينئذ عما كان يجول بصدره قائلا «وحدث بعد هذه الامور أن الله أخرجني من أرض مصر بيت العبودية كما خلص شعبه منها قديما. ثم قام عدوى (يعنى البطريرك) وأقام في وجهي حربا عوانا بواسطة مكاتيبه التافهة التي تغاير مبادئ الانجيل تماما وحرك ضدى ريحا صرصرا فرأيت من الصواب أن أقاوم جهد استطاعتي مدافعا عن المبدأ المهم الذى اختطيته لنفسى وسرت عليه وهو الافادة والاستفادة وكنت أخشى من أن هذه المماحكات العقيمة يستفحل شرها فتثير ثائرة النفس الأمارة فتضعف الذاكرة حينئذ وأعجز عن اتمام شرح الكتاب المقدس الذى بدأت به قبل أن ينطمس ذهني خصوصا وأن ابتعادى عن النساخ الذين كانوا يكتبون الخط المختزل منعني من تملية ما يخطر على بالى من الافكار. أما الآن وقد بعدت عن كل عوامل التأثير وقدر الله جل وعلا ان تخيب تلك السهام النارية التي صوبت نحوى وتذهب في الهواء الفت نفسي حينئذ وقوع الملمات التي كانت تصيبني بسبب لتبشير بكلمة الانجيل واضطرت هذه النفس أن تتحمل بطيب خاطر جميع المصائب التي انتابتني فهدأ روعى وسكن جأشي لجودة الهواء وحسن الطقس فعقدت النية على عدم تأجيل نسخ وتملية المؤلفات المطلوب منى اتمامها».

وفي ذلك الحين كان أساقفة الكنائس الشرقية يطعنون في سيامة أوريجانوس ويظهرون هرطقته. أما اساقفة فلسطين وفينيقية فكانوا يعضدونه ويدفعونه عنه الملامة. أما مدرسة قيصرية فاستمرت تزهو وتزهر ونبغ من تلاميذ أوريجانوس جماعة مشهورون فنشروا صيته وأذاعوا مبادئه في التفسير وكان منهم كثيرون هداهم الى الايمان وصاروا فيما بعد قديسين منهم اغريغوريوس ثافماتورغوس (صانع العجائب) الذى سقف فيما بعد على قيصرية الجديدة من أعمال تيطس وأخوه اثينودوروس الذى صار أسقفا أيضا على تلك البلاد. أما أوريجانوس فلم يعدل عن مشروعاته الادبية بل زاد همة ونشاطا وحمية والف رسالة في فائدة الصلاة وأخرى في تفسير الصلاة الربانية وكان يراسل كثيراً أشهر اساقفة آسيا ودعي الى كثير من المجامع الكنسية.

ومع انه مدح كثيرا لتجلده الذى أظهره ازاء ما أصابه الا انه لم يسلم من الغلطات التي يرتكبها كثيرون ممن يكونون في حال كحاله. فقيل انه وجه خصمه البطريرك كثيرا من الانتقادات وتحرك أحيانا للانتقام منه لولا تبكيت ضميره وصفاته المسيحية. وحدث انه كان يعظ يوما بأورشليم على الآية القائلة «وللشرير قال الله مالك تحدث بفرائضي وتحمل عهدى على فمك» (مز ٥٠: ١٦) ولم ينته من قراءة هذه الآية حتى وبخته حواسه وخشي أن يفهم السامعون انه يقصد توجيه الكلام لديمتريوس وانهالت الدموع على خديه بغزارة وارتفع صوته بالبكاء حتى لم يقو على التفوه بكلمة واحدة فشاركه السامعون في التأثر والبكاء. وعقب ذلك تنيح البابا ديمتريوس وخلفه ياروكلا تلميذ أوريجانوس ويظهر انه كان موافقا لسلفه على اجراءاته ضد أوريجانوس فلم يفكر في اثناء رئاسته أن يدعوه ليعود الى الاسكندرية (انظر دور اوريجانوس في انقاذ ياروكلا من الموت ص٢٠٢).

وفي ابان الاضطهاد الذى قام به مكسيمينوس قيصر سنة ٢٣٦م سجن امبروسيوس صديق أوريجانوس وبروتكتيتوس احد

قـــوس قـيـصـرية وعومـلا بمزيد القساوة فالف لتعزيتهما رسالة فى الاســتــشــهـاد وقبض أيضـا على كثيرين من اتباعه واكره هو نفسه على الفرار من قيصرية فالتجأ الى فرميتيانوس أسقف قيـصـرية فى كبدوكية أحد أصدقائه المعجبين به كـثـيـرا. ولما حـدث الاضـطـهـاد هناك أختبـأ مـدة سنتين فى بيت يوليانه امرأة غنية فاضلة وأذنت له فى استعـمـال مكتـبـة ابتاعـتـهـا من سيماخوس أحد علماء الابيونيين (كانوا يعتقدون بحفظ ناموس موسى وبأن المسيح خاص باليهود ورفضوا رسائل بولس لانها توجب الخلاص لـلام) الذى ترجم العهد القديم الى اليـونانيـة فانكب اوريجـانوس على مطالعـة مـا فى هذه المكتـبـة من الـصـحـف وكـمل فـيـه مـقـابلة النسخة العبرانية والنسخة اليونانية من الـتـوراة وتهـيـأ بذلك لعـمـله العظيم بوضع كتاب «المـسـدسات» اى وضع آيات الكتـاب المقـدس فى سـتـة حـقـول ليظهـر للعـالم الكتاب المقدس منشورا فى ست لغات كما سيأتى ذكره.

وفى السنة الستين من عـمـره أى فـى ٢٤٥م ســــــــمـح للـسـتـينوغرافين (أى الذين يكتبون بخط مـخـتـصـر) أن ينقلوا خطبـه وكـانـت المجـامع تسـتـشـيـره فى المسـائل الصعـبـة وتنتهى اليـه فى عظيم المشاكل.

وفى الاضطهـاد الذى قـام به ديـــيـــوس قـــيـــصـــر نظر الى أوريجـانوس كـأكـبـر مـدافع عن حقائق الديانة المسيحية فقبض عليه وطرح فى السجن وعـذب عذابا شديدا وكتب فى السجن رسـالة تتـضـمن النـصـيـحـة والتشجيع لمشاركيه فى العذاب الا أن صـحـتـه اعتلت لما حل به من الآلام وقد كتب يوسـيـبـيـوس عما عاناه أوريجانوس فى سياق كلامه عن استشهاد القديسين اسـكـنـدر أسـقـــف أورشـليـم وبـيـمـلـيـوس أسـقـف انطاكـيـه يقـــول «يصـــعـب على الكاتب الماهر وصف ما قاساه أوريجانوس واحتمله بصبر وفرح من العذاب الشديد والآلام القاسية أثناء هذا الاضطهاد اذ وضعوه فى مقطرة من حديد وزجوهد فى اعـمـاق الـسـجن حـيـث ظل بضـعـة ايام مطروحاً على خشبة وهو مشدود بأربعة وثاقات لا يستطيع معها الحـراك وهم يشـعـلون النار من حوله تهديدا له وتخويفا وغـيـر ذلك من مـرائر شرحـهـا يطول ووصفها يهول ذاقها هذا المسيحى من اعدائه العديدين ولكنه لم يـد ضجرا ولا أظهر مللا ولم يقل يا أزمة انفرجى. وعندما انتهى القوم من تجريع أوريجانوس كل أصناف العـذاب قـدمـوه للحكم عليـه بالموت فـســعـى القـاضى الموكل بالحكم جـهـده فى تأخيـر مـدته ليس لينجى أوريجـانوس منه بل ليطيل عـذابه باطالة أيام حيـاته. فـالذى تم لاوريجـانوس من آلام وعذاب يجدر بأن يكون عبرة لم يعتبـر وذكرى لمن يذكـر وتعـزية للذى وقع فى مـصـاب أو أصـابة شر و تجربة.

والمعلوم انه لم يفـــرج عن أوريجانوس الا بعد موت ديسيوس قيصر وأمسى بعد ما عاناه من التعذيب اكسح من قبل الجراح التى انزلتها القيود فى رجله فلبث مـدة بعد خـروجـه من الـسـجن يتجرع الاما مـبـرحة ويتقلب على فـــراش الضنى والنـحـــول وهو يقترب بسـرعـة الى حافة الموت. ولكن انتعش حينئذ عندما وصله كـتـاب من البـابا ديونـيـسـيـوس البطريرك الاسكندرى الذى خلف ياروكلا يشجعه فيه على احتمال المشقات ويظهر له حزنه العميق على حالته التعـيـسـة. غير أن حياة اوريجانوس لم تطل بعد خروجه الا أربع سنوات على قـــول بعضهم كان فيها غير منكف عن جـهـده فى التـأليف والمكاتبـات والخطب وعلى قـول آخـرين لم يعش سوى سنة واحدة وعلى كل حال فقد اثر عليه ما عوقب به

من الالام المبرحة التى انهكت جسمه وسحقته فمات سنة ٢٥٤م فى مدينة صور وله من العمر ٦٩ سنة ويحق لنا أن ندعوه شهيدا ودفن في المكان الذى مات فيه بصور وظل قبره معروفا حتى شيدت فوقه كنيسة وذكر كثيرون من أصدقائه انه مات تحت العذاب سنة ٢٥٤م وحفظ ضريحه مد قرون عديدة بقرب المذبح فى كنيسة صور الاسقفية واستمر قبره مزار للكثيرين حتى القرن السادس. قال مؤرخ «واذا سألت أهل صور عن مكان قبره لاشاروا لك الى اطلال كنيسة قديمة بنيت عليها أكواخهم وقالوا لك هنا قبر (أورسنيوس) يريدون أوريجانوس مدفون فى قباب تلك الكنيسة وهو الآن تحت الارض».

فرجل مسيحى فاضل كهذا كيف يتهمونه بالهرطقة وقد كانت حياته كلها بريئة من كل ما يشين وأجمع الكل على طهارة ثيابه ونزاهة نفسه حتى قال عنه يوسابوس «ان حياة هذا الرجل أفضل مفسر لعظاته» وقال موسهيم المؤرخ «ان بيانه الساحر وعلمه الكثير وطبعه المحبوب وصيته الحسن فى التقوى الحارة الخالصة أعطته سطوة عظيمة. ولا سيما بين العلماء وذوى المراتب الاولى فى الهيئة الاجتماعية. ولم يقم أحد منذ زمن الرسل أكثر منه مناضلة واجتهادا فى اذاعة المعرفة وتفقية المسيحيين وتنويرهم وتوقيرهم فى عيون البشر».

ومن يطالع أقوال آباء الكنيسة بشأن اوريجانوس لانعلم انما شجبت تلك الضلالات التى اذاعها الخصوم. وتاريخ الكنيسة مشحون بأخبار الانشقاقات التى قامت بين الاباء بسبب اوريجانوس فمنهم من كانوا يعتبرونه هرطوقيا ومنهم من كانوا يعتبرونه من معلمى البيعة الافاضل فمن خصومه

(١) البابا ديمتريوس كما ذكر.

(٢) ميوديوس أسقف اولمبيا. وضع ضده ثلاثة كتب غير انه فى اخر حياته ادرك خطأه وذكر اويجانوس بكل احتراد

(٣) ابيفانيوس أسقف قبرص. هو اول من اذاع البدع عن اوريجانوس وعنه أخذ الاخرون.

(٤) ثوفيلس بابا الاسكندرية.

(٥) ايرونيموس أحد علماء سوريا فى القرن الرابع كان فى مبدأ الامر من انصار أوريجانوس ولكنه بسبب منازعات مع روفينوس المذكور أنه نقل كتب اوريجانوس للاتينية صار من الد أخصامه الا انه كتب عنه قبل ان يكون خصمه قائلا «لم يكن اوريجانوس مجرد كاتب عذب المشرب يرتاح اليه امراء الكتاب أو مجرد مؤلف فاق نظراءه بمؤلفاته الدانية القطوف بل كان بلا جدال المعلم الاول لجميع الكنائس بعد الرسل ولا مشاحة فى أن اراءه تعبر عن الارثوذكسية التى لم يشبها ضلال اما الذين استوقد الحسد ضلوعهم فاتهموه بالهرطقة فان هم الا كلاب كلبة». ولما اصبح يقاوم الاوريجانيين قال لهم «وافقونا على انا وريجانوس اتخدع فى بعض المسائل فلا يبقى لى ما أقول وان اعترضنا من يحسدونه على فخره ببعض اغلاط له فليعلموا ان الخطأ من شيم كبار الرجال فلا نتشبث بزلات من لا نستطيع مباراته فى فضائله».

ومن محبى اوريجانوس والمدافعين عنه:

(١) البابا ديونوسيوس الاسكندرى البطريرك الرابع عشر

(٢) ثيوسيتوس أسقف فلسطين.

(٣) غريغوريوس العجايبى.

(٤) اخوه ثينودوروس

(٥، ٦) غريغوريوس النزينزى وباسيليوس الكبير. درسا العلم عن مؤلفات أوريجانوس وخصا منها رسائل عرفت باسم فيلوكالى

(محب الجمال) لتعليم الناشئة المسيحية واطلق عليها هذا الاسم لميل اوريجانوس الى كل مبدأ سام.

(٧) غريغوريوس أسقف نيصص بالكبادوك. كان كثير المطالعة لمؤلفات اوريجانوس حتى حفظ أغلبها وسار على منواله في ماكتبه من الكتب وكان يلقب اوريجانوس بزعيم فلاسفة المسيحين.

(٨) بمفيليوس البيروتي تلميذ بيروس مدير المدرسة اللاهوتية نسخ معظم مؤلفات اوريجانوس بيده وشغف بمطالعتها وكتب عنه وهو سجين يقول «أن خصوم هذا الفيلسوف عقولا قاصرة عن الخوض في عباب مباحثه الواسعة وعاجزة عن ادراك سمو المعاني التي يرمي اليها من كان معلما للكنيسة بعد رسل الرب».

(٩) ديديموس الضرير مدير المدرسة اللاهوتية مدح كتاب المبادئ.

(١٠) البابا اثناسيوس الرسولي البطريرك العشرون دافع عن كتاب المبادئ.

(١١) القديس يوحنا فم الذهب. مات منفيا في سبيل الدفاع عن مبادئ اوريجانوس التي كان كلفا بمطالعتها كما يتضح من تاريخ البابا ثاوفيلس البطريرك الثالث والعشرون.

(١٢) توتيم أسقف سيثي. أعترض على ابيفانيوس عندما قاوم القديس يوحنا فم الذهب لغرامه بكتب اوريجانوس بقوله «اعلم يا ابيفانيوس انه لا يمكننا أن نسئ الى الذى مات نقيا وليس في استطاعتنا ان نحرم اسفارا اعتبرها آباؤنا ارثوذكسية فضلا عن أننا لم نجد فيها أثرا للهرطقه».

(١٣) ايسيذوروس مدير مدرسة الاسكندرية والاخوة الطوال القامة. دافعوا عن اوريجانوس دفاع الابطال وطردوا من الاسكندرية وصادفوا الاهوال في سبيل تمسكهم باحترامه وقد اقسم هو والاخوة المذكورون على أن اوريجانوس برئ من كل هرطقة.

(١٤) يوحنا ٢ أسقف اورشليم. هام بكتب اوريجانوس وحاول ابيفانيوس وايرنيموس ان يجعلاه ينكف عن مدح اوريجانوس برسالة بعث بها اليه الاول ولكنه لم يفعل بل كتب محاماة عن اوريجانوس رسالة أرسلها الى البابا ثوفيلس البطريرك الاسكندرى حينما كان يجل اوريجانوس فيظهر لنا أن اصدقاء اوريجانوس أكثر اعتبارا في نظر الكنيسة من خصومة فلو كان اوريجانوس هرطوقيا لما دافع عنه أولئك وبالتالى كانوا يعتبرون مثله محرومين لغرامهم بمطالعة كتبه واجلالهم لشخصه العظيم

أما أكثر مؤلفات اورجانوس فقد وصلت الينا في ترجمات غير صحيحة بقلم ايرونيموس وروفينوس وكثيرون من العلماء القدماء اقتبسوا منها واشهر مصنفاته الى وصلت الينا في اللغة الاصلية هي:

(١) كتاب عنوانه «الرد على كلسوس» كتبه في ثمانية اجزاء.

(٢) مجموع مقالات في «الصلاة الربانية» وهو الكتاب الثاني الذى وصل الينا بتمامه في اللغة الاصلية.

(٣) كتابه في «الشهداء».

(٤) في «الرئاسات» وهو كتاب بالغ الخصوم في انتقاده وأجزاؤه أربعة:

١ - يبحث عن الاقانيم في الثالوث الاقدس وعن السقوط وعن الطبيعة العاقلة وعن المخلوقات المادية والروحية وعن الملائكة.

٢ - يبحث عن العالم وما فيه ويثبت ان اله العهد القديم واله العهد الجديد واحد ويفصح عن التجسد والقيامة وعقاب الصالحين.

٣ - يبحث عن حرية الارادة وعن الشيطان وعن تجربة الانسان وعن أصل العالم ونهايته.

٤ - يبحث عن الاسفار المقدسة وأصلها الالهى وعن كيفية مطلعتها ودرسها. ويوجد

الآن من هذا الكتاب قطع كبيرة في اللغة الاصلية ولا سيما من الجزء الثالث والرابع.

(٥) شرح الكتاب المقدس في ثلاثة أجزاء:

١ - يتضمن تفسير بعض الاسفار المقدسة كسفر التكوين والخروج وحزقيال الخ وانجيل متى ويوحنا والرسالة الى أهل رومية الخ ولم يبق من هذا الجزء سوى أوراق قليلة.

٢ - يتضمن ملاحظاتت على آيات غامضة من الكتاب وهو لا يعرف الا من الماع المعلمين الاولين اليه واقتباسهم منه

٣ - يتضمن مواعظ ومقالات قدمها في قيصرية أو ارتجلها بعد ان اتى عليه من العمر ستون سنة بعضها موجود الان في اللغة الاصلية ولكن اكثرها مترجم الى اللغة اللاتينية بقلم ايرونيموس وروفينوس.

(٦) كتاب موسوم «بالمتنوعات» في عشرة اجزاء الفه اقتداء باكليمندس استاذه غير ان هذا الكتاب فقد ولم تبق منه سوى فصول قليلة استشهد بها ايرونيموس في مصنفاته.

(٧) كتاب سماه «القيامة» لم يبق منه الا اجزاء قليلة.

(٨) كتاب عناه «بالمسدسات» وضع فيه آيات الكتاب المقدس في ستة حقول متوازية:

١ - يتضمن المتن في اللغة العبرانية. وبحروف عبرانية.

٢ - آيات الكتاب المقدس في اللغة العبرانية بأحرف يونانية.

٣ - الترجمة اليونانية التي وضعها اكويلا الدخيل اليهودى في أوائل القرن الثاني.

٤ - الترجمة اليونانية لسماخوس الابيوني السامرى الذى نبغ في القرن الثالث.

٥ - الترجمة السبعينية التي نشأت في الاسكندرية في القرن الثالث قبل المسيح.

٦ - الترجمة اليونانية التي وضعها ثيودتيون الدخيل اليهودى بعد اكويلا بزمن قليل.

(٩) رسائل عديدة دوّن منها يوسيبيوس مائة رسالة غير أنها فقدت ما خلا القليل منها.

وقد وضع اوريجانوس في بعض كتبه ترجمة خامسة وسادسة وسابعة للكتاب المقدس وكان قصارى مرغوبة تنقيح الترجمة السبعينية بمعارضتها بسائر الترجمات فكان يدل على الآيات غير الواردة في الاصل العبراني بهذه العلامة × ويدخل الآيات المحذوفة في الترجمة السبعينية واضعا قبالتها هذه العلامة. وقد كانت نسخة هذا الكتاب الاصلية محفوظة في مكتبة قيصرية التي انشأها بامفيلوس الشهير المناضل عن اوريجانوس والارجح انها احرقت ولم تكن نسخة اخرى مثلها وقتئذ اذا كانت الترجمة السبعينية المنقحة متواترة وحدها. ولا يبعد أن اوريجانوس الف كتبا أخرى عديدة على الاسفار الالهية وكتب رسائل جمة ضد بعض البدع ولما كان جدول مؤلفاته الذى وضعه يوسيبوس وايرونيموس مفقودا عزيت اليه رسائل لم يكن يعرفها مطلقا. كما انه اول من كتب كتبا لتعليم الديانة للمبتدئين ويعتبر كتاب «ستروماتا» وكتبه الاربعة المبادئ شرح اكثر تعليم المسيحية.

وقد جد العلماء في طبع مؤلفات اوريجانوس لا سيما ترجمات الكتاب المقدس وأهتموا باعادة ما فقد منها وجعلوها على نسق القطع الموجودة وطبع الجميع عدة طبعات اشهرها طبعة منتفوكون وهي في مجلدين طبعا في باريس سنة ١٧١٣م وطبع كتب المبادئ حسب ترجمة روفينوس اللاتينية مع نقصه وتغييره وتحريفه طبعه ردينينغ في ليبسيك سنة ١٨٣٦م وطبعة ثينسر في شتوتجارت وطبع رسالة في الاستشهاد في بازل سنة ١٦٧٤. وطبعت تآليفه كلها في باريس بين سنة ١٧٣٣ و١٧٥٩ فجاءت في اربعة مجلدات ضخمة.

١٢: ديمتريوس ١٨٩/٢٣١م

وجـا الى اسكندريه وال عـوضـا من بنطنوس اسمه اكليموس وكان واليا الى تلك الايام، وصنع اكيلمس كتبا من نفسه يطل به التواريخ.

ثم ان انسانا يهوديا كاتبا كان اسمه يهودا كان يقرا فى كتاب رويا دانيال النبى فى عاشر سنه من ملك سويرس وكان يسوى السنين والتواريخ الى زمان الدجال باختياره ويقول قد قرب الوقت من اجل افعال سويرس(*) الملك العدو، فلما نظره

(*) سويرس الملك: تولى سنة ١٩٣م. و جاء فى زيارة إلى مصر توغل فيها حتى طيبة في الجنوب. وقع في عهده اضطهاد للمصريين على يد نائبه بها ليتوس.

السماء ما يليق بها من عبادة، فان محبتنا وما الفناه من الصفح عن الجميع قد دفعتنا الى أن يشمل عفونا هذه الأمور أيضا، حتى يعودوا الى مسيحيتهم ويعيدوا بناء تلك الأماكن التى اعتادوا الاجتماع فيها، شريطة أن لا يقوموا بعمل ضد النظام العام. وفى رسالة أخرى سوف نبين للولاة ما يجب عليهم اتباعه. وبناء على ذلك يجب عليهم أن يضرعوا لالههم من أجل سلامتنا وسلامة الشعب، لكي يتم بذلك لهم وللشعب كافة الصالح العام، وحتى يحيوا فى ديارهم أمنين.

صدر هذا المرسوم فى ٣٠ أبريل ٣١١، ومات جاليريوس فى مايو بعد أن تمكن منه المرض.

وما أن تلقى ماكسيمين نبأ وفاة جاليريوس حتى هرع ليبسط سيطرته على أقاليمه فى الشرق، فلما دخل بيثينيا حاول اجتذاب الأهالى الى صفه فأمر بالغاء الضرائب التى كان الامبراطور الراحل قد فرضها. هذا بينما تباطأ ليكين فى أوروبا ليدعى لنفسه ملكية المناطق الممتدة حتى المضيق الخلقيدونى، وأنذرت الحوادث تلك بوقوع صدام سافر بين الامبراطورين الطامعين، وسرعان ما دب النزاع بينهما على اقتسام الغنيمة، ووقف كل منهما بجيوشه قبالة الآخر على شاطئ البسفور، ولكن الامبراطورين آثرا التمسك بأهداب سلام مؤقت، فتباعدت الحرب بينهما الى أجل أت لا ريب فيه، ولما اعتقد ما كسيمين أن كل شئ قد أنتهى عاد أدراجه الى نيقوميديا.

اروجـانوس، الذى قطعـه الاب ديمتـريوس بسـبب
فعله ما لا يجـوز من كـتب السـحر ورفضـه كتب
القـديسين، وانه وضـع كتب كثيره عن نفسـه فيـها
تجـديف كـثيـر، منه ان الاب خلق الابن وان الابن
خلق روح القــــدس، ولـم يقل ان الاب والابـن
والروح القـدس اله واحـد، وان الثالوث لا يعـجـزه
شى بل قـوته واحـده وربوبيتـه واحـده. ولاجل سـو
اعتقاده رفضته البيعه اذا كان غريبا منها وليس هو
من واولادها لفسـاد مـقالتـه. فلمـا طرد منهـا وزال

أمـا في الغـرب فكان الزمن يجـرى سـراعـا ليـعـجل صـراعـا مـحـتـومـا بين قـسطنطين وماكسنتيوس، فقد وجد هذا الابن العاق، الذى رفض مرارا أن يقبل والده شريكا له فى الحكم فى مقتل أبيه على يد قسطنطين نهزة لاشعال نيران الحرب ضده، ويسخر لاكتانتيوس من هذا التصرف من جانب ما كسنتيوس الذى غدا فجأة ابنا بارا بوالده.

وهكذا كـان طمـوح الأباطرة الأربعـة وأهواؤهم سـبـبـا فى اذكـاء نيـران حـرب أهليـة فى الامبراطورية استمرت قرابة ثلاث عشرة سنة. وفرضت ظروف التنافس بين الجيران على كل منهم أن يبحث عن حليف ضد جاره. فامبراطورا الشرق ليكين وما كسيمين يتربص كل منهما بصـاحـبـه الدوائر لينفرد بحكم الجـزء الشـرقي، وهكذا كـان امـبـراطورا الغرب قـسطنطين ومـاكسنتيـوس. وأملت طبيـعـة الصـراع على كل منهـم أن يوطد صـداقـتـه مع الحليف الأبعـد ضدجاره القريب فقفز قسطنطين عبر ايطاليا وما كسنتيوس ليتحالف مع ليكين، بينما خطا ماكسـيمين خطوة واسعـة فوق الليريا وتراقيـا وليكين ليـصـل الى مـا كـسنتيـوس، ذلك أن قسطنطين قد رحب بزواج أخته قسطنيا من ليكين وكان هذا الزواج مدعاة لتوكيد الشكوك التي ساورت ما كسيمين عن نيات الامبراطورين فى التحالف ضده، خاصة بعد ما كان بينه وبين ليكين عقب وفاة جاليريوس، فـأرع الى ارسال سفرائه الى روما تعرض التحالف على ماكسنتيوس فرحب هذا بهم وأكرم وفادتهم، واعتبر ذلك العرض عونا الهيا، حيث كان على

طقسه خرج من اسكندريه ومضى الى فلسطين وتحيل حتى نال درجة الكهنوت واقسم قسا من يد اسقف قيساريه فلسطين، ثم عاد الى اسكندريه واعتقد ان يتم له فيها كهنوت ويفعل ما اراده، فلم يقبله الاب القديس ديمتريوس وقال له: يوجب قانون الابا الرسل ان لا يفارق كاهن المذبح الذى قسم عليه فامض الى الموضع الذى قسمت فيه قسا فاخدم فيه هناك باتضاع كالقانون، وانا فما احل قانون البيعه لجل مجد الناس، فبقى مطرودا.

وشك الدخول فى حرب مع قسطنطين. وقد تأكد أمر هذا التحالف بعد أن عثر قسطنطين فى روما على بعض الرسائل التى كان ما كسيمين قد بعث بها الى حليفه.

يذكر المؤرخ لاكتانتيوس أن قسطنطين قد أقدم على طرح تماثيل ما كسيميان أرضا وازالة الصور التى كانت قد أقيمت له. فرد عليه ماكسنتيوس باجراء مشابه، فحطم تماثيله وصوره فى روما ومدن ايطاليا. وهكذا أعلنت الحرب رسميا بين الامبراطورين. وكان لدى ماكسنتيوس من المشاة مائة وسبعون ألفا، وثمانية عشر ألف فارس، فاذا أسقطنا من حسابنا تلك القوات الموجودة فى أفريقيا وسردينيا وكورسيكا وصقلية، فان ماكسنتيوس لم يتمكن الا من وضع نصف هذا العدد فقط على خط القتال، هذا على حين كانت قوات قسطنطين تسعين ألفا من المشاة وثمانية آلاف على الخيل، وان كان قد ترك جزءا من هذه القوات لتحمى جبهة الراين.

وكانت خطة ماكسنتيوس تقوم على أساس الحيلولة دون اتصال قوات قسطنطين وليكين اذا ما حاولت قوات الآخير أن تنضم الى صهره، فمركز عددا ضخما من قواته عند فيرونا Verona التى تعد مدخل ممر برنر Brener بجبال الألب فى شمال ايطاليا، غير أن قسطنطين عبر الألب عن طريق Mont Cenis وهبط الى Susa حيث كانت توجد بعض التحصينات الصغيرة، واستطاع رجاله الاستيلاء عليها بعد أن أشعلوا النيران فى أبوابها، وتسلقوا اسوارها، وان كان

وكان هذا من قبل ان يعرف الاب البطرك تجديفه وكفره وهذا صار شكا لجميع الناس لانه صير نفسه معلما وهو لا يستحق ان يكون تلميذا.

واما سويرس الملك فاقام ثمان عشره سنه ملكا ومات وملك بعده انطونينوس ابنه، وبعدذلك ظهر قوم اقويا بتأييد المسيح بتدبير الله اسم احدهم الاكسندروس وهو المعترف و صار اسقفا على اورشليم بعد نركسوس. وهذا الانسان نركسوس

قسطنطين قد أصدر أو أمره باخماد هذه النيران وكبح جماح جنوده عن نهب المدينة. وأمام تورينو Augusta Taurinourm قوبل قسطنطين بخيالة عدوه فاستطاع بمناوره عسكرية أن يوقع مذبحة مروعة بهؤلاء الفرسان، فتحت على أثرها تورينو أبوابها للظافر، ثم استسلمت على أثرها ميلانو، فمكث فيها قسطنطين قليلا ثم واصل سيره، فالتقى بجزء آخر من فرسان عدوه عند بريشا Brescia (Vrixia) فكانت الغلبة لجنوده.

وكانت القوة الرئيسية لما كسنتيوس عند فيرونا تحت قيادة روريكيوس البومبي Ruricius Pompeianus، وكان موقفه قويا الى حد كبير حيث كانت المدينة محصنة وقد فرض قسطنطين عليها الحصار. الا أن القائد استطاع الافلات خلسة ليعود من جديد وفي صحبته مدد آخر وبعد صراع عنيف قتل روريكيوس واستسلمت قلعة فيرونا ولم تلبث المدن الآخرى أن أسلمت للمنتصر قيادها، فأصبح الطريق مفتوحا الى روما، فشق طريقه ليصبح أمام التيبر في ٢٦ أكتوبر ٣١٢.

وأثناء هذه الرحلة الموفقة تراءى لقسطنطين في السماء ـ ما أخبر به المؤرخ المسيحي يوساب وهي تلك الهالة المضيئة تحيط صليبا ارتسمت تحت عبارة «بهذا ستنتصر Tou Tw vika ثم زاره السيد المسيح أثناء نومه مؤكدا له ما سبق أن تراءى له».

كان يصنع عجايب كتيره فى حياته حتى انه لما عجزت البيعه عن زيت [القناديل] امرهم ان يملاو القناديل ماء، وكانت جمعه البصخه، وصلى فصار الما [ء] زيتا ووقدت القناديل. فعل هذا دفوعا عدة لايمانه باتحاد السيد المسيح، و كل احد يشهد له بذلك، وعرفنا خبره من الثقات، فحسده قوم بشرهم وارادوا قتله وكذبوا عليه وحلفو انه يفعل الردى، فوقف احدهم يوقد نارا فاحرقته، واخر نزل

كان واضحا أن ماكسنتيوس بعد أن تلقى الأنباء المتتالية عن هزيمة جيوشه فى الشمال، قد قرر البقاء فى روما وتحصينها، وكانت أسوارها منيعة للغاية، كما أنه كانت لديه كميات وفيرة من قمح مصر و أفريقيا، وقوة من الجند لايستهان بها، وقوى من هذا الاقتراح عنده ما أنبأ به العرافون من أن خروجه سيسبب له كارثة فادحة. غير أن اضطرابا وقع فى المدينة بعد ما أشيع بين الناس القول بأن قسطنطين لا يقهر نتيجة لهذه الانتصارات المتتالية، فانزعج ماكسنتيوس وأمر حاملى الكتب السيبيللية باستطلاع الغيب، فأخبروه أن هناك نبوءة تقول أنه فى يوم ٢٨ أكتوبر سوف يهلك أعداء الرومان، ولما كان ما كسنتيوس يؤمن بالطيرة والعرافة كما يذكر مؤرخو الكنيسة، فقد تأثر بهذا التلميح الذى يعنى يوم اعتلائه العرش، ومن ثم فقد عزم على أن يقابل عدوه فى هذا اليوم، وبناء على هذا الوحى الغامض عبر ماكسنتيوس التيبر ليلتق بعدوه فى مكان سمى الصخور الحمراء Saxa Rubra قرب القنطرة الملفية Mulvius Pons وكانت هذه الخطة التى أقدم عليها ماكسنتيوس جهلا بفنون الحرب، اذا بدلا من أن يترك خصمه مشقة عبور النهر فيسهل القضاء عليه، تطوع هو للقيام بهذه المغامرة، فكان عاقبة أمره خسرا، حيث تمكن قسطنطين من انزال الهزيمة بقواته واجبارها على التراجع نحو التيبر حيث غرق الكثيرون منهم، ولما حاولت بعض الجموع وعلى رأسها ما كسنتيوس الدفاع عن القنطرة خارت قواهم وغرق الامبراطور، وهكذا تحققت النبوءة الغامضة بهلاك أعداء الرومان

كلما فى جوفه ومات، واخر مرض وذاب جسمه، واخر عمى. فعلموا الناس كذبهم عليه لما ظهر من قدسه. وصير اسقفا ولم ينله شى من السو لانه كان متعبدا حكيما معترفا بالسيد المسيح.

وكان امره انه هرب من البيعه واوى البريه لان الشعب كان مشتتا وبعضهم قذفوه بالمحال. فلم تصبر العين التى تنظر كل شى وجازى المخالفين باعتقادهم الردى وايمانهم الكاذب عليه، فالاول

فى ٢٨ أكتوبر ٣١٢ ويشبه يوساب ما حدث هنا بما كان من أمر فرعون وموسى حيث غرق فرعون وجنوده فى اليم لأنهم ـ كما كسنتيوس من بعد ـ عصوا أمر الرب.

وفى اليوم التالى لهذه الأحداث دخل قسطنطين روما دخول الظافر حيث قوبل بترحاب كبير من السناتو والأهالى الذين عمد هو منذ البداية الى التودد اليهم، وفرض بعض العقوبات على أتباع ماكسنتيوس، وفرق الحرس البريتورى وكانت تلك خطة بارعة أقدم عليها قسطنطين ليجرد المدينة من قوتها، وخلع السناتو الرومانى على قسطنطين لقب Maximus، بينما استخرجت جثة ما كسنتيرس من التيبر حيث احتزت رأسه وطيف بها فى روما حتى يشهدها العامة، ثم أرسل بها الى أفريقيا لتقر بتغيير سيدها.

بهذا غدت روما وايطاليا وأفريقيا واسبانيا فى قبضة قسطنطين، بالاضافة الى غالة وبريطانيا، فأضحى بذلك سيد الغرب الفرد بلا منازع، ولكن طموح قسطنطين كان أكبر من أن يتسع له هذا الجزء، فقنع مؤقتا بما جادت به الأيام وانتظر ما تجئ به، ولم يكن فى انتظاره سلبيا يتوقع الحوادث، بل يحركها ويدير دفتها حتى صار للامبراطورية كلها سيدا.

لم يمكث قسطنطين فى روما طويلا، فبعد أن تأكد لديه أن الأمور قد استقرت غادرها الى ميلانو حيث وافاه هناك ليكين ليتسلم زوجته قسطنديا. وشهدت المدينة الى جوار الاحتفالات الضخمة التى أقيمت فى هذه المناسبة اجتماعات عقدها الجانبان لتوكيد عرى الصداقة

---

١٢ : ديمتريوس ١٨٩/ ٢٣١م

منهم مات هو وكل بيته بحريق نار نزل عليهم، والاخر لحقه وجع من راسه الى قدمه بحرقه عظيمه، وبدا الاخر يهرب لعلمه بما صنع وعاجله الله وعمى للوقت واعترف على نفسه عند كل احد بعقله السو الذى صنعه فى القديس الاسقف، واكله قلبه وندم وبكى لاجل انه عدم بصره.

فاما نركسوس الاسقف فانه اختفى فى البريه

والتحالف، وللاتفاق على رسم سياسة معينة واضحة تجاه هذا البعض (المسيحيين) من رعايا الامبراطورية الذين قضوا من عمرهم أعواما طوالا يقاسون ويلات التعذيب والاضطهاد، ووضع حد لهذه المشكلة الدامية التى أرهقت السياسة الداخلية للامبراطورية دون أن تفلح هذه فى ايجاد حل لها، فاتفق الطوفان على اطلاق حرية العقيدة لجميع الرعايا الخاضعين لسلطانهم شريطة ألا يتعارض ذلك مع الصالح العام للامبراطورية وهو الاتفاق الذى شاع عند المؤرخين باسم «مرسوم ميلانو» فى عام ٣١٣.

هذا على حين كان ماكسيمين فى الولايات الشرقية من الامبراطورية ينهج نهجا مخالفا، فقد كان من أكبر أنصار اضطهاد الرعايا المسيحيين طيلة عهد جاليريوس، بل انه اشتط فى هذه السياسة حتى فاق بها كثيرين ممن سبقوه. فلما أصدر جاليريوس مرسوم التسامح سنة ٣١١، لم يكن ماكسيمين راغبا فى اتباعه، ولذلك فانه بدلا من ارسال نص المرسوم الى ولاته أعطاهم أوامر شفهية لتخفيف حدة الاضطهاد عن المسيحيين، لأنه لم يكن بمقدوره أن يبدو فى صورة المعارض لأوامر سيده. غير أن سابينوس Sabinus محافظ البريتورى، وجه رسائل خاصة الى كل حكام الولايات التابعة لماكسيمين جاء فيها:

«سبق لأصحاب الجلالة الأباطرة أن وجهوا تفكير رعاياهم دوما للسلوك فى سبيل الحياة النقية السليمة، وحتى يقدم أولئك الذين يحيون بصورة لاتتفق مع الرومان والعبادة الواجبة

ولم يعرف موضعه الابعد زمان كثير فاوجب الحال لاجل خلو البيع التى كان اسقفا عليها ممن يدبر ها ان وسموا عوضه انسانا اسمه ديوس فلم يقيم الا مده يسيره وتنيح، واوسم اخر عوضه يسمى كومانيون. وبعد ذلك ظهر الاب الجليل نركسوس كمثل من قام من الاموات، وسألوه ان يعود الى كرسيه وفرح به الشعب فرحا عظيما وكان قد افرغ نفسه للحكمه والنعمه التى استحقها من الله فلم يعد الى الخدمه لكرسيه.

للارباب الخالدين، ولكن عناد البعض وعزمهم الذى لا يلين ذهب الى حد بعيد فلم يتزحزحوا قيد أنمله عن مقصدهم رغم ما أعطى اليهم من أوامر، ولا خارت نفوسهم رغم ما توعدهم من قصاص. ونظرا لان الكثيرين ـ بمثل هذا السلوك ـ قد وضعوا أنفسهم تحت طائلة العقاب فان أصحاب الجلاله الاباطرة بسبب ما جلبت عليه نفوسهم من نبالة وتقى، وجدوا أنه مما يتنافى مع مقصد جلالتهم أن يعرضوا - نتيجة لذلك ـ أناسا للخطر، فامروا خادمهم الأمين ـ أعنى شخصى لكى أكتب الى فطنتك بأنه لا يجب أزعاج أى مسيحى يمارس طقوس ديانته أو تعريضه للخطر، لذلك احرص على أن تكتب لأولى الأمر والقضاة ورؤساء المدن مخبرا اياهم بهذا الأمر».

وبناء على ذلك قام حكام الولايات بنقل هذه الأوامر الى من تعنيهم، وسعوا بأسرع ما يمكن لاتمام ما حسبوه رغبة الامبراطور الحقة، فأطلقوا سراح اولئك المسجونين، واعادوا من النفى من كانوا قد بعتوا بهم إلى المناجم لأنهم. على حد قول يوساب، ظنوا خطأ أن هذه هى رغبة الامبراطور.

على أن ماكسيمين لم يسمح بذلك أكثر من ستة أشهر ثم عاد من جديد يمارس سياسة اضطهاد ا لمسيحيين، وكان ثيوتيكنوس Theoticnus والى انطاكية يوافق الامبراطور ميوله فصب جام غضبه على ا لمسيحيين، وأقام تمثالا هناك لرب الأرباب جوبيتر، وأوعز الى

واما الاكسندرس المقدم ذكره فانه كان فى كرسى اخر فرأى ملاك الله فى منامه يأمره بمساعدة نركسوس هذا ويخدم الله، لانه كان قسم اسقفا فى كبادوكيا اولا وجا الى يروشليم فى ذلك الزمان ليصلى فنظر البيع المقدسه التى كان يشتهى ان يراها وطاف حول المواضع المباركه كلها وعول على الرجوع الى كبادوكيا بلده، فمنعوه الاخوه. واعلم فى المنام وسمعو باجمعهم صوتا فى البيعه يقول اخرجو الى الباب فاول رجل يدخل منه

الامبراطور أن الآلهة أمرت بطرد المسيحيين - كأعداء له - خارج حدود المدينة وما جاورها من أقاليم، وقد أدى نجاحه فى ذلك الى اغراء كل مواطنى المدن الواقعة فى نفس المنطقة على أن يحذو حذوه ما دام ذلك يرضى الامبراطور، ومن ثم أنهالت على ماكسيمين رسائل عديدة من مختلف المناطق تطلب اليه منع المسيحيين من البقاء أو الاقامة داخل أسوار هذه المدن. وقد عين ما كسيمين فى كل مدينة كاهنا أعلى كانت مهمته مراقبة تقديم الأضحيات للأرباب ومنع المسيحيين عن التضحية للالهة، فاذا ما رفضوا وجب عليهم المثول أمام الحاكم المدنى لينالوا جزاءهم. واذا أصروا - المسيحيون - على ضلالتهم اللعينة، فليطردوا من مدينتك ومقاطعتك كما أردت لكى تستطيع مدينتك - اذ تتحرر من كل دنس وكفر - ممارسة الشعائر المقدسة للالهة الخالدة.

غير أنه قبل نهاية عام ٣١٢ عاد ماكسيمين من جديد يؤثر سياسة التراجع عن التمادى فى الاضطهاد، فبعث برسالة الى سابينوس، حاول فيها أن يبرر سياسته السابقة فى أمر الاضطهاد وأن يخفف عن نفسه مسئولية عنف هذه الاجراءات وتطالعنا افتتاحية الرسالة برغبة دقلديانوس وما كسيميان فى اعادة أولئك الذين هجروا عبادة الالهة واعتنقوا المسيحية الى سابق عهدهم عن طريق التأديب العلنى والقصاص، ويذكر أنه سعى الى تخفيف حدة هذه الاجراءات بعد ما رأى من امكانية الاعتماد على كثيرين ممن يتعرضون للتعذيب فى تأديه

تلقونه اجعلوه اسقفا ففعلو ذلك وتلقو الاكسندرس وتعلقو به فامتنع وقال: ما افعل. فاصلحوه قهرا بحضور جماعه من الاساقفه ببلد اورشليم وبامرهم وبرأى واحد واتفاق واحد.

وكتب الاكسندرس كتبه التى كان انفذها الى انصنا وذكر فيها نركسوس وانه معه بامانه واحده واتفاق واحد فى بيعه يروشليم.

وكان فى كل كتبه يقول: نركسوس يقرا

الخدمات العامة، فأمر القضاة ألا يشتطوا فى تنفيذ الأوامر السابقة، غير أنه عندما أتى الى نيقوميديا بعد وفاة جاليريوس، تقدم اليه بعض أهلها يلتمسون منه آن لا يسمح للمسيحيين بالاقامة بين ظهرانيهم، وتابعهم فى ذلك كثير من المدن الأخرى، فلم ير بدا من اجابتهم لما يريدون، ولكنه كان يرى، كما يذكر، أن الاقناع هو خير وسيلة لاعادة هذه القبيلة من الناس الى قدس الأرباب ثانية. ومن ثم فانه يجب أن لا يضار أحد بسبب عقيدته، بل تترك الحرية الدينية للجميع، وان كان من المفضل استمالة المواطنين بالنصح والترغيب، وليس بالعنف والترهيب، الى عبادة الالهة.

كانت الحرب بين ماكسيمين وخصمه أمرا لا مندوحة عنه خاصة وأن هذا الأخير لم يكن قد أشرك فى أى جزء من الأقاليم التى غنمها مؤخرا قسطنطين، بل تركه ليمد نفوذه هو الاخر على حساب جاره ماكسيمين ولم يكن هذا الأخير يقل طمعا عن صاحبيه، فقد كان لا يقنع بتلك المنطقة التى يسيطر عليها. وكادت الحرب أن تنشب بينه وبين ليكين عقب موت جاليريوس مباشرة سنة ٣١١ الى أن استبدلا بها معاهدة للسلام مؤقتة.

كانت خطة ماكسيمين تقوم على أساس أن حليفه ماكسنتيوس سوف يقاوم قسطنطين لفترة طويلة، مما يجعل ليكين يدفع بقواته لمناصره حليفه، وبهذا تمنح الفرصة لما كسيمين ليهاجم أقاليم جاره أثناء خلوها من القوات. ولكن الأمور سارت على عكس ما توقع وعلى

عليكم السلام الذى هو قبلى فى الاسقفيه فى هذا المكان وهو الان معى ويويدنى و يشدنى بصلواته لاقوى على هذه الخدمه. وقد اقام ما يه و ست عشره سنه على هذه الخدمه، وانا طلب اليكم ان تكونوا معى بقلب واحد.

ومنهم سرابيون الذى صار بطركا على انطاكيه وتنيح، ووسم اسكليباتوس المعترف ايضا وعلت درجته. وكان الاكسندروس قد كاتب اهل انطاكيه

غير ما كان يهوى فؤاده، ذلك أن حربا خاطفة طاحنة انقشعت عن ابتلاع التيبر لما كسنتيوس وجنوده، وماهو ألا يوم أو بعض يوم حتى فتحت روما أبوابها لقسطنطين، فهلل أهلوها ورفعه السناتو مكانا عليا، ثم لم تكن الا أشهر قلائل حتى التقى الحليفان فى ميلانو يرسمان للمستقبل سياستهما، ويدشنان تألفهما بحفل زواج ليكين وقسطنديا، ودخل فى روع ماكسيمين أن فى خطتهما للمستقبل نهايته، وأن فى ا نشغالهما بهذا العرش فرصته. ومن ثم صمم على أن يهتبلها ليضرب ضربته قبل أن تضيع الى الأبد.

التقى الجيشان قرب هرقليا Herraclia وأصبحت المعركة وشيكة الوقوع، يقول لاكتانتيوس أن ماكسيمين قد نذر لان أظفره جوبتر بعدوه ليمحون من الوجود اسم المسيحين، ولكن هذا القول لا يتفق وما ذكرنا عن الخطة التى اتبعها ما كسيمين للتودد الى رعاياه المسيحيين بذلك المرسوم الذى أصدره فى شتاء ٣١٢ /٣١٣ يرفع عن كواهلهم نير الاضطهاد، ولم يكن ما كسيمين من البلاهة بحيث يظهر هذا التحدى السافر لشعور جزء كبير من رعيته وهوعلى أبواب معركة يحتاج فيها لأن يجمع الصفوف كلها حوله ومن خلفه. أضف الى ذلك أيضا أن ما أقدم عليه ما كسيمين بعد هزيمته أمام ليكين ازاء المسيحين من العفو عنهم يضع قول لاكتانتيوس فى محك الاختبار.

وان جعل لاكتانتيوس اعتماد ما كسيمين على جوبتر، فلابد أن يعتمد ليكين على قوة الهية

بسببه وقال هكذا الاكسندروس عبدالله المعترف يسوع المسيح يكاتب البيعه المقدسه بانطاكيه بالرب بفرح على يد القس العفيف اكليمنتس: يا اخوتي احب ان تقدمو اسكليباتوس فهو مستحق لهذه المترله فوسموه.

وكتب ايضا اليهم كتابا يقول فيه ان انسانا يهوديا اسمه مركيانوس عمل كتاب نسبها الى بطرس رأس التلاميذ وذكر فيها كلاما كذبا

مضادة ولما كان قد اتفق وقسطنطين في ميلانو على منح المسيحين حرية العقيدة فقد اعتمد على المسيح.

وفي ٣٠ أبريل ٣١٣ التقي الجمعان، فتحقق لما كسيمين بذلك بعض ما كان يبغى، غير أن أمله في النصر لم يأته أبدا، ففى معركة خاطفة هزم ماكسيمين هزيمة ساحقة وهرب إلى نيقوميديا.

حالما وصل ماكسيمين الى نيقوميديا أراد من جديد استرضاء رعاياه المسيحيين ليضمن وقوفهم الى جواره في معركة فاصلة قادمة بينه وبين ليكين، فأصدر مرسوما في صالحهم ذكر فيه حرصه الدائم على توفير أسباب الراحة والهدوء لمواطنيه، وأنه قد اتضح له أن كثيرين من الموظفين قد ارتكبواعديد من حوادث السلب والنهب تحت ستار تنفيذ الأوامر التى كان قد أصدرها دقلديانوس وما كسيميان لتحريم اجتماعات المسيحيين، ونلاحظ أنه يلقي بالتبعية كاملة هنا وفي رسالته السابقة الذكر الى سابينوس على هذين الامبراطورين، ويستطرد في مرسومه موضحا أنه نتيجة ذلك عمل على تخليص هؤلاء المسيحيين من عسف أولئك الموظفين، ثم يذكر ما كان من أمر رسالته الى سابينوس وما جاء فيها من حرية العبادة للمسيحيين، ولكن قضاته وموظفيه - على حد قوله ـ حرفوا هذه الأوامر، لذلك رأى أن يذيع أمرا امبراطوريا بحرية العقيدة لجميع مواطنيه، وممارسة الطقوس الدينية وبناء دور العبادة، كما

فاحرسو نفوسكم من هذه الكتب. ونحن نقبل بطرس وباقى التلاميذ كقبولنا امر المسيح لانهم شاهدوه وسمعو كلامه منه، واما هذه الكتب الكاذبه فليس نقبلها بل نبعدها لان ليس فيها شى من تعليم ابهاتنا. فلما وصل اليهم القس بالكتب قال لهم: اثبتوا على الامانه الصحيحه ولا ترجعو الى الكتاب الباطل الذى نسب الى بطرس فهوكذب وضلال وفيه بداية الخلف، ولهذا جيت

أمر برد الكنائس المصادرة الى ملكيتها المسيحية. غير أن ذلك كله لم يجده نفعا، فقد ضاعت فرصة النصر من يديه بهزيمته فى هرقليا، وأضحت جهوده اليائسة للم شعث جنود جدد من آسيا وسوريا محاولات لاجدوى وراءها.

ومن نيقوميديا ارتحل ماكسيمين وبصحبته أهله، وفى معيته بلاطه ميمما شطر سوريا، ولكنه توقف فى كبادوكيا حيث ارتدى من جديد عباءته الامبراطورية وكان قد خلعها أثناء فراره. فكان ذلك ايذانا بعزمه على مواصلة الحرب ضد ليكين، وكان هذا قد وصل الى نيقوميديا، وبعث فى ١٣ يونية ٣١٣ رسالة الى حاكم بيثينيا، وهى الرسالة التى ذاعت فى التاريخ خطأ باسم مرسوم ميلانو.

تقهقر ما كسيمين حتى وصل الى طرسوس Tarsus وتحصن بها، ولكن عاجلته المنية فوضع موته المفاجئ فى هذه اللحظة ليكين سيدا على الولايات الشرقية. وهكذا أصبح فى الحكم امبراطوران، ليكين فى الشرق، وفى الغرب قسطنطين.وكانت صفحة من صفحات الحروب الأهلية داخل الامبراطورية قد بقيت لم تطو بعد لتسجل صراعا عنيفا بين حليفين لدودين.

لما كان ليكين يتوجس فى نفسه خيفة من قسطنطين، فقد كان يدرك تماماً مبلغ طموح هذا الرجل منذ عرفه قيصرا، فامبراطورا شريكا، فحليفا، وكان فى سياسة قسطنطين قبل

ليكم مسرعا. وقد علمنا بان هذا مرقيانوس اليهودى قد اضل جماعه بكتبه و صارو مخالفين لان هذا المخالف قد كتب كتبا كثيره وشرح بعضها فى السيره، ولما فيها من التطويل استغنى عن كتبها.

فاما ديمتريوس بطرك اسكندريه القديس فاظهر العلوم و الحكمه بعد ان كان اميا لا يقرا ولا يكتب، وكانو جميع اولاده موبخين منه. فلما رأى

ماكسيميان وولده دليل واضح على نياته، مما زاد الشكوك فى صدر ليكين، وذهبت به الظنون كل مذهب، وقويت لديه بما أتت به الأحداث، فأقدم على ا رتكاب عدة حماقات وجد فيها قسطنطين فرصة عمر لم يتوان لحظة عن اهتبالها، فأضحى على أثرها سيد الامبراطورية.

ولقد كان لدى قسطنطين ما يثير شجونه وأحقاده ويدفعه لتلمس المبررات الضرورية لقتال حليف الأمس، فقد كانت قوته ترتكز أساسا على جزء يعد أشد مناطق العالم الرومانى فقرا وأقلها سكانا فى الوقت الذى كان فيه ليكين يحور اقليم الليريا الذى طالما قدم للجيش الرومانى أقوى الرجال، ولم يكن قسطنطين بالذى يغفل عن هذه الناحية، فقد كان يدرك مدى ما لهذا الاقليم من أهمية بالنسبة لمشروعاته القادمة، ومن ثم عول على أن تكون وثبته التالية فوق هذا المعين البشرى الذى لا ينضب.

وقد أعطى ليكين بسياسته التى انتهجها الفرصة لمنافسه ليحقق منتهى آماله، ففى الوقت الذى سار فيه قسطنطين خطوات بعيدة المدى نحو تنفيذ السياسة الدينية التى اتفق عليها فى ميلانو، وحظى المسيحيون ورجال الاكليروس فى المناطق الخاضعة لسلطانه بامتيازات عديدة وحريات واسعة، لم يحاول ليكين أن يكون جادا فى تنفيذ هذه الاتفاقية. ومع أنه حتى عام ٣١٩ لم يكن قد أظهر عداوة ما نحو المسيحيين، الا أنه لم يتقدم بعد خطوة واحدة نحو كسب صداقتهم أو لضمان تأييدهم وحماسهم كما كان يفعل قسطنطين. ونتيجة هذا كان

انه قد شاخ وكبر فى الفحص على العلوم والكتب
الالهيه [حتى انه كان يحمل الى البيعه فى محفه]
وهو لا يفتر من التعليم من الغداة الى الليل،
والاخوه ماضون وجايون اليه ليستفيدو من تعاليمه،
واستخلف ياروكلا وكان رجلا مختارا عارفا بكتب
الله معلما بتعاليم البيعه ومعرفة كلام الله ويحفظ
قوانين البيعه.

فلما رأى اورجانوس، الذى احرمه ديمتريوس،

مسيحو الشرق ينظرون بعين الحسد والغيرة الى زملائهم مسيحى الغرب لما يتقلبون فيه من نعم أغدقتها حكومة قسطنطين، وكانوا بالطبع فى نظرتهم هذه يعتبرون ليكين المسئول الأول عن عدم تمتعهم بنفس الامتيازات والمكاسب، فى نفس الوقت الذى رأوا فيه فى قسطنطين «محبوب الرب» فتعاطفت معه قلوبهم، فوجد انعدام الثقة بذلك باب نفذ منه بين ليكين وشعبه، فاعتبروه مضطهدا جديدا، وعدهم هو صانع قسطنطين.

وخلال هذه الفترة راح قسطنطين يعد العدة لمعركة قادمة يضرب فيها ضربته الأخيرة ليحقق حلمه الكبير بالسيطرة على الامبراطورية منفردا، ولما أنس قسطنطين من نفسه قوة سنة ٣٢١، أقدم على أول عمل استفزازى ضد ليكن، فأعلن ولديه كريسبوس Crispus وقسطنطين قنصلين دون موافقة ليكين. وفى سنة ٣٢٢ عبر قسطنطين الدانوب وشن حملة ناجحة ضد السارماتيين Sarmatans، وقام بهجوم ضخم على القوط سنة ٣٢٣، واقتضاه تتبع القوط اجتياز اقليم تراقيا الخاضع لليكين، فلم يستطيع هذا أن يكظم غيظه أكثر من ذلك، فاحتج لدى قسطنطين على انتهاك حرمة أراضيه، ولكن هذا الأخير وجدها الفرصة التى كان يبحث عنها منذ أمد طويل، فرفض أن يقدم ترضية ما لزميله. فأعطى ذلك اشارة البدء لحرب أهلية أخيرة فى هذه الفترة.

كانت كل الظروف مهيأة لانتصار قسطنطين فى هذه الحرب، فهو قد أعد للأمر عدته منذ استولى على البلقان بعد حرب عام ٣١٤ وضمن تأييد المسيحيين الخاضعين لليكين، أو على

بان البيعه قد ابعدته مضى لليهود وفسر لهم كلاما من الكتب العبرانيه على غير جهتها واخفى ما فيها من نبوات الانبيا عن السيد المسيح، حتى انه لما جا الى ذكر الشجره التى كان فيها كبش ابراهم الخليل مربوطا بقرنيه وفسر الاباء انها مثال خشبه الصليب، اخفى ذكرها وازاله. وفسر كتبا كتيره كذبا ليست لها صحه. وصار معه مخالف اخر اسمه ساماخوس ظهر منه شقاق كثير قال

نقش لصليب مثمن على جدار صومعة ناسك بمدينة أسنا

الأقل تخليهم عن نصرته، وبالطبع كانت هذه فى حد ذاتها ـ أعنى رغبته فى نصرة المسيحيين وتحريرهم من رق العبودية تحت أضطهاد ليكين ـ هى الحجة التى تذرع بها ووجدها مبررا ليشن من ورائها هذه الحرب، وكانت تلك خطة بارعة ضمن بها ولاء المسيحيين فى الشرق وتعاطفهم معه، ومن هذا السياق يتضح أن قسطنطين كان هو البادئ بالعدوان فعلا فى هذه الحرب، وأغراضه من هذه الحرب بادية للعيان ، ومن ثم فما يقدمه يوساب فى هذا السياق من اعتبار قسطنطين يحارب دفاعا عن المسيحية يعد حجة واهية اذا قيست بالوقائع القوية التى حفزته لأن يستولى على الجزء الباقى والهام من الامبراطورية.

وعند أدريانوبل (حاليا ادرونه Edrene) فى الثالث من يوليو ٣٢٣ لقى ليكين أول هزيمة فى هذا الصراع، وما لبث كريسبوس أن فرض الحصار على بيزنطة وتمكن من أن يحقق نصرا بحريا كبيرا على أسطول خصمه، وفى ١٨ سبتمبر حدثت الموقعة الفاصلة فى خريسوبوليس Chrysopolis حين فقد ليكين كل شئ، أسلم نفسه لقسطنطين فأمر بنفيه الى تسالونيكا، ولكنه سرعان ما أعدم فى العام التالى.

وهكذا قدر لحرب أهلية طويلة أن يخمد أوارها، وأن تشهد الامبراطورية من جديد عصر وحدة يتربع على عرشها فيه امبراطور فرد. وجنى قسطنطين بذلك النصر الباهر فى الشرق الآسيوى ثمار بذور غرستها يداه فى الغرب الأوروبى..

ان المسيح مولود من مريم ويوسف، وانكر قوه الولاده العجيبه، وان السيد المسيح المولود (هكذا) ولد من العدرا بلا تعب هو الاله، وهو الانسان بالحقيقه، وهو واحد من اتنين. وخالف الانجيل الصادق كما شهد متي وما قال في الولاده، ولا تقدر ابواب الجحيم ان تقاومها. وكان هذا المخالف يظهر انه نصراني ودفعه يقول انه حكيم وقد قرا كتب الصابئه والمعتزله ثم صادق ارجانوس واضل جماعه من السواذج . وكان في ذلك الزمان

قسطنطين والمسيحية

لم يختلف الدارسون في شيء اختلافهم حول مسيحية قسطنطين، ولقد صاغت المشكلة ذاتها في سؤال ذى شقين، هل كان رفع قسطنطين عن المسيحيين اصرهم والاغلال التى كانت عليهم نابعا عن معتقد يقيني بربهم، أم كان للدوافع السياسية كبير شأن في اتخاذه جانبهم؟ وانجذابا إلى هذا الشق أو ذاك جاء من الدارسين قبيل هنا وراح غيره هناك، واعتلى كل منصة حججه يدفع بأسانيد جمعها عن صدق رأيه، ويدحض بها قول معترضه. على أن الآراء على اختلافها وتعددها لا تخرج عن شقى سؤال سبق توا ذكره، يدعم أولهما مؤرخو الكنيسة مضيفين إلى حواريى المسيح الاثنى عشر رسولا جديدا، ويؤكد ثانيهما جل الدارسين المحدثين جاعلين من قسطنطين سياسيا حاذقا.

كان يوساب القيسارى أول من زاد قائمة الحواريين واحدا. ونسج بقلمه خيوط ضوء قدسى مهيب يزين في جلال جبين قسطنطين، سداه احتواء كل فضيلة، ولحمته ترفع عن أية رذيلة، فحفظ للبشر على مر الأعصر، «حياة قسطنطين Vita Constantini».

ولم يكن قسطنطين في رأى يوساب ومؤرخى الكنيسة ليهتدى إلى المسيحية على لسان بشر، اذن لغدا أحدهم، ولكنهم جعلوا السماء داعيه في يقظته، ويسوع المسيح مبشره في نومه، والصليب شارته، وخدام الرب مشاعل جنده، والرب يبارك منه الخطى!! كان ذلك في

انسان فاضل قديس له حكمه الاهيه اسمه امونيوس فرد عليهما واظهر كذبهما وما فسراه من الكتب بضد الواجب وكذبهما. ثم مضى ارجانوس الى قيساريه فلسطين التى كان صير فيها قسيسا وجا الى اسكندريه بكتب عنايه [توصية] فلم يقبله الاب ديمتريوس و انفاه لمعرفته بفعله، فمضى الى موضع يعرف بتمى من كوستانكيه ومره على اسقفها، وكان اسمه امونه، فجعله فى احدى البيع فلما انتهى خبره الى ديمتريوس القديس سار بنفسه

خريف عام ٣١٢ وقسطنطين يزحف بقواته إلى روما «ليخرج من الظلمات الى النور، أناسا طال عليهم الأمد، وليقضى على «طاغية» بها تجبر، عندما مالت شمس الظهيرة الى الغرب قليلا مؤذنة بنهار بدأ يمسى، واذا بهالة تضىء كبد السماء تعانق صليبا خط تحته بأحرف من نور «بهذا ستنتصر» Toutw vika فعقدت لسانه وجيشه الدهشة، وساورت الشكوك قسطنطين لهذا الذى يرى، وذهبت به الظنون كل مذهب، وتأخذه سنة من النوم فيتبدى له مسيح الرب والعلامة التى رأها بيمناه. يأمره أن يتخذ اياها له شعارا، وأن يجعل منها حارسا أمينا فى كل معاركه الآتية. وأسرع قسطنطين فى اليوم التالى فاستدعى الصناع وأمرهم أن يصنعوها تباعا بعد أن راح يصفها لهم بدقة، وأوصاهم أن تكون من الذهب والحجارة الكريمة لتوضع على رأس كل جندى من جيشه. وما لبث قسطنطين أن دعا اليه حاملى أسرار الديانة المقدسة ليخبروه عن هذا الذى فى نومه قد رأى، فأعطوه صفته وأنه الرب، الابن الوحيد المولود من الآب الواحد، وأن ما رآه هو علامة الخلود، فوطن قسطنطين نفسه منذ ذلك على قراءة الكتاب المقدس، واتخذ له من قساوسة الرب مستشارين، ومنى بعراض الآمال نفسه، ثم جهزها لملاقاة عدوه ماكسنتيوس.

بهذه الصورة يسوق يوساب قصة اهتداء قسطنطين إلى المسيحية، وعلى منواله ينهج مؤرخو الكنيسة التالون وعلى رأسهم سقراط وسوزومين.

الى تمى قاصدا نفى اورجانوس، وقطع الاسقف امونه الذى قبله وشق عليه واقام عوضه اسقفا غيره. ولما علم وتحقق انه قبل هذا الخالف وعرف حاله وكذبه اقسم عوضه اسقفا اسمه فلاوس وكان رجلا خايفا من الله مومنا، فقال ما اجلس على الكرسى وامونه بالحياه فلما مات امونه جلس الاسقف فلاوس المذكور واستشهد بعد ذلك بزمان ومضى الى الرب بسلام.

ومضى اورجانوس الممنوع الى مدينة قيساريه

دخل قسطنطين دخول الظافر روما، فرفعه الشعب والسناتو الى عليين، فأمر فى الحال أن يوضع فى يد تمثاله صليبا لالآم المخلص تذكارا، ونقش على قاعدته «بهذه العقيدة المقتدرة، رمز الشجاعة الخالصة، أنقذت مدينتكم، ومن نير الطاغية فككت عقلها، وحررت السناتو وشعب روما وأعدتهم الى قديم مجدهم وشرفهم».

بهذا السلوك أظهر قسطنطين تسامحه مع المسيحيين، ولكنه لم يقف عند حد المسامحة بل ذهب ـ بعد دخوله روما مباشرة ـ الى ما هو أبعد من ذلك، فأظل الكنيسة بوارف رحمته، وشملها بعطفه ورعايته، وهذا واضح من رسالة بعث بها فى شتاء عام ٣١٣/٣١٢ الى أنوللينوس Anullinus بروقنصل أفريقيا، يقول:

«أنوللينوس.. عزيزى. تحياتى. نظرا لما كشفت عنه ظروف كثيرة من أنه عندما تزدرى ديانة فيها يكمن أعظم التقدير للقوة السماوية المقدسة. يتعرض الصالح العام لأفدح الأخطار، على حين ينعم بالخير والرخاء الاسم الرومانى وكل مصالح بنى البشر، تهديهما رحمة الرب اذا ما حظيت بالاحياء والحماية ذات العبادة، فقد تقرر يا عزيزى أن ينال أولئك الذين يقدمون خدماتهم بالقداسة الواجبة وبمراعاة هذا القانون، متبعين هذه الديانة الالهية، تعويضا عن هذه الخدمات، ويسرنى أن يعفى تماما من أداء الواجبات العامة، أعضاء الكنيسة الجامعة التى يرأسها كايكليانوس Caecilianus والمدعوون رجال الدين، القائمون بخدمة هذه الديانة

فلسطين وصار يقدس هناك اسقفا، فكتب الاب ديمتريوس الى الاكسندرس اسقف يروشليم يقول له: ما سمعنا سابقا مارقا يعلم في موضع فيه اساقفه قيام. ويعتب على اسقف قيساريه المسمى باودكتس ويلومه عنده ويصعب عليه الامر، ويقول: ما ظننت ان هذا يكون في قيساريه على هذا الاسقف، وقد وجدنا في كتب هذا اورجانوس يقول ان الابن مخلوق والروح القدس. فقرا اسقف قيساريه كتاب الاب ديمتريوس في البيعه

- -

المقدسة، المقيمون في دائرة ولايتك، حتى لا تلهيهم عن خدمة الرب خطية، أو يصرفهم دنس، ولشرائعهم بلا أى عائق يجب أن يكرسوا أنفسهم. فكم من خير تفيده الدولة حالما للاله قدم هؤلاء خالص العبادة. صحبتك السلامة عزيزى المحبوب أنوللينوس».

بهذا القول أعتق قسطنطين رجال الاكليروس من ربقة الواجبات العامة التى كانت تمثل عبئا ثقيلا ناءت به كواهل سراة القوم في الامبراطورية، وكانت تلك من جانب قسطنطين خطوة موفقة بارعة سبح له وبحمده نتيجة لها رجال الكنيسة، وصرفهم بها عن المشاركة فى شئون الدولة، وكف أيديهم بصورة لبقة عن التدخل فى أمور ولاية تعد آنئذ من أهم الولايات بالنسبة له من الناحية الاقتصادية، وحثهم على نحو لا يدع مجالا للشك أن ينصرفوا الى ممارسة شعائرهم وطقوسهم، ولا يعوقهم عن توقير ربهم عائق

ولم ينته الأمر عند هذا الحد، فاذا كان قسطنطين قد حرر رجال الاكليروس من عبء صدورهم به ضاقت، وهيأ لهم الفرصة الاجبارية لممارسة طقوسهم والشعائر، الا أن هؤلاء كانوا يتطلعون فى حسرة إلى دور عبادتهم وملحقاتها التى نقلتها عاصفة الاضطهاد الى أيدى أفراد أخر. ولم يغب عن فطنة قسطنطين حيرة تلك العيون وتطلعاتها، فكانت أوامره لنائبه بأن يرد على الكنيسة ما كان قبل الزوبعة لها حقا. قال:

«سلاما عزيزى أنوللينوس.. ان طبيعتنا التى جبلت على حب الخير أيها العزيز تأبى الا أن

لان اسقف يروشليم انفذه اليه فقطع اورجانوس واخرجه من كرسى قيساريه، فعاد بقله حيا الى اسكندريه.

ولما تغيرت ملوك روميه [روما]وانطاكيه وبطاركتها، وصار على انطاكيه بطرك اسمه فيلبس، وظهر في ايامه رجل مخالف كتب كتبا برانيه. ومات فيلبس فسار عوضه على انطاكيه بطرك اسمه زاينوس فامر ان لا تقرا كتب هذا المخالف ولا كتب اورجانوس الذى نفى من

ترد على الآخرين حقوقهم، لذا فمقصدنا حالما تصلك هذه الرسالة أن تقوم على التو تعيد الى الكنيسة المسيحية الجامعة كل ما كان ملكا لها وهو الآن في حوزة المواطنين أو غيرهم، حيث قررنا أن تعود تلك الأشياء الى أصحابها. ولما كانت فطنتك تدرك مدى وضوح سياق أمرنا فأعد الى الكنائس كل ما كان في السابق لها ملكا، حدائق ودورا وأملاكا، حتى نعلم انك قد وضعت أمرى هذا موضع الطاعة والتنفيذ بكل حرص. ولتنعم بالسلامة أيها العزيز المحبوب أنوللينوس.

وهكذا ثنى قسطنطين خطوته الأولى، ولكن بقى شيء كان على الامبراطور حتما أن يفعله ليأسر بجميل فضله الكنيسة ورجالاتها ورعاياها، ذلك أن يهب الكنيسة ما حرمت منه سنين عددا، وهو عطف الدولة عيها عطفا واقعيا لا يقتصر على الناحية المعنوية بمنع الاضطهاد، بل يمتد للناحية المادية بالمساهمة في رفع القواعد من بيوت العبادة لهؤلاء المسيحيين، وكان ذلك في حد ذاته شيئا يبهر أعين جماعة لم تحظ من الدولة قبلا الا بأوامر تهدم كنائسها، وتصادر أملاكها وتضطهد أفرادها، فاذا بقسطنطين يحرر الأنفس، ويعيد الأملاك، ثم ينعم بالاموال، فكيف للكنيسة بعد أن ترفع للدولة رأسها متمردة ثائرة؟! وكيف لا تسبح بحمد مبعوث العناية الالهية على الأرض وفى هذا المجال تلقى أسقف قرطاجة Carthage رسالة من الامبراطور جاء فيها:

اسكندريه، لان كتبه اشتهرت. وقال من يحب ان يقرا الكتب فليقرا الكتب التى هذه اسماها: الكتب العتيقه خمسة اسفار التوراه، كتاب يوشع بن نون، سفر القضاه كتاب روث الموابيه، اسفار الملوك البرالوبومانون، كتاب عزرا، مزامير داود النبى، كتاب حكمه سليمان، كتاب اشعيا، كتاب ارميا، كتاب حزقيال، كتاب دانيال، كتاب ايوب، كتاب استر، كتاب صمويل، كتاب شربيت، كتاب الاثنى عشر انبيا الصغار، انجيل متى كتبه بالعبرانى

«قسطنطين أوغسطس الى كايكيليانوس أسقف قرطاجة.. لما كنا قد قررنا أن نخصص فى كل ولايات أفريقيا ونوميديا وموريتانيا منحا يستعين بها على سد نفقات خدام الكنيسة الكاثوليكية، لذا سطرت الى أورسوس Ursus مأمور الحسابات فى أفريقيا أمره أن يدفع الى فطنتكم ثلاثة آلاف فلس... واذا تبين لك أن عجزا هناك يحول ورغبتنا فى هذا الخصوص تجاه الجميع، فاطلب وبلا تردد من هراكليدس وكيل أملاكنا، ما أنت اليه فى حاجة، فقد أمرت شخصه أن يقدم دون تأخير أى مبلغ يطلبه جنابكم».

سلوك هذه مرآته حقيق أن يضع فى قبضة قسطنطين ولاء طائفة من الناس ذات نفوذ على جموع رعايا المسيحيين، وكان سيد الغرب فى تلك الآونة أشد ما يكون حاجة لمثل هذا الولاء، والى أن يأتلف قلوب الأهلين فى تلك المنطقة التى كانت قبلا تحت سيادة ماكسنتيوس واقعا، ومن أملاك ليكين قانونا. أما وقد نال الأول هزيمة فلابد أن تقع هذه الأقاليم وغيرها تحت سطوة المنتصر وتدخل ضمن دائرة نفوذه بمنطق القوة والغصب. أما ليكين صاحب الحق الشرعى فما عليه أمام هذا المنطق الا أن يوجه نشاطه نحو ناحية ثانية فى الشرق يطبق عليها الشريعة ذاتها. ومن ثم كان على السيد الجديد قسطنطين أن يقدم على مذبح الولاء قربانا. ولنا أن نتصور ما شاء لنا التصور ذلك الأثر النفسى الذى يحدثه انتشال جماعة، قاست صنوف العذاب ألوانا طيلة قرون ثلاثة، من غيابة الاضطهاد، ثم رد اليها ما كان لها، والاغداق عليها

فى ورق طومار وهو فى قيساريه عند انسان و ذريته يحفظونه جيلا بعد جيل وفسر بالرومى[اللاتينية]، ونقل الى كل اللغات بتقوة السيد المسيح، انجيل مرقس كتبه بالرومى. وكان بطرس ريس الرسل هناك، وقرى فى مجمع الملوك ايضا، انجيل لوقا تلميذ بولس كتبه باليونانى فى انطاكيه. انجيل يوحنا بن زبدى، سالوه التلاميذ بعد كبره سوالا كتيرا الى ان كتبه باليونانى فى افسس . كتاب اخبار الرسل والتلاميذ وهو كتاب الابركس. كتاب

من جانب امبراطور كان أسلافه الذين قذفوا بها فيها. وكان قسطنطين بارع الدعائية، فقد احتزت رأس ماكسنتيوس وطيف بها ولاية أفريقيا تعلن جهارا نهاية عصر «الطاغية» فى روما، وتومىء ضمنا أن ذلك جزاء من يقاوم السيد الجديد، وفى الناحية الأخرى اعفاءات تمنح وهبات تغدق.

ويلفت النظر فى رسائل قسطنطين إلى أنوللينوس وكايكيليانوس قوله «الكنيسة الجامعة»، تلك العبارة التى ترددت دوما فى تلك الرسائل، ثم يزيد الأمر وضوحا عندما يحدد ما يعنيه بهذه الكنيسة من أنها تلك «التى يرأسها كايكيليانوس، وقد دفع قسطنطين إلى هذا التحديد ما يذكره هو نفسه فى رسالته الى أسقف قرطاجة كايكليانوس يقول: «لما كانت مسامعى قد صكتها أنباء تردد أن بعض ذوى العقول السقيمة يتحايلون لصرف الجموع عن الكنيسة المقدسة الجامعة بخزى المزاعم ودنسها» ـ وهو يشير ها هنا الى الدوناتيين ولنا بالطبع أن نتساءل عن المصدر الذى وجه قسطنطين الى تخصيص رعايا «الكنيسة المقدسة الجامعة» بالذات دون أتباع دوناتوس؟

جاء فى رسالة الامبراطور السالفة الى أسقف قرطاجة: «متى تسلمت المبلغ المشار اليه، فانى أرى أن يوزع على جميع المذكورين أعلاه وفقا للقائمة التى بعث اليك بها هو سيوس Hosius. ونعلم من سقراط أن هوسيوس هذا كان أسقفا لقرطبة، وأنه كان عندئذ مستشار

رسايل بولس المنتخب وهواربع عشر رساله. كتاب القتاليقون. كتاب جليان يوحنا الانجيلى وهو الابوغالمسيس. كتاب الدسقليه وهو تعليم الرسل وقوانين البيعه التى كتبوها قبل افتراقهم للبشاره. هذه الكتب التي سلمت للبيعه الجامعه الرسوليه. وبعده كتب الاباء المعلمين التى وضعوها بتلقين روح القدس وهى الميامر وغيرها لم يزيدو عليها ولم ينقصو منها. فاما ما كتبه اورجانوس المخالف فهو مرذول من الله وليس فى كتبه شى مكتوب بالروح القدس، كما قال بولس الرسول: انا لم

قسطنطين للشئون الدينية، ومجيء أسمه هنا دليل على أنه كان فى معية قسطنطين على أقل تقدير قبل معركة القنطرة الملفية. ويذكر بوركهارت أن هوسيوس كان ذا دور كبير فى استمالة الامبراطور الى جانب المسيحيين بداءة. ومهما يكن من أمر فسنجد هوسيوس ناصحا لقسطنطين، متحركا نشطا فى الاحداث التى وقعت بعد ذلك خاصة فى مسألة الصراع الآريوسى، وسيظل كذلك الى أن يفقد مكانته عندما يهوى الآريوسيين فؤاد الامبراطور قسطنطيوس من بعد.

وربما كان اختيار قسطنطين لهوسيوس بالذات مستشارا دينيا راجعا الى أن كنيسة قرطبة لم تكن على درجة من الشهرة فى الأوساط المسيحية الغربية كبيرة، ولما كان قسطنطين يكره أن يكون لأحد ما أى سيطرة عليه فى توجيه دفة مختلف شئونه، ويخشى اذا استعان بأسقف كنيسة ذات مكانة مرموقة أن يستغل هذه الفرصة للتدخل فى سياسات قسطنطين، كان «هوسيوس» المغمور هو خير من يحقق لقسطنطين حب الانفراد بالسلطان وبلا منازع، ودليلنا على ذلك أنه كانت فى الغرب أسقفيات ذات شهرة ومركز ممتاز، لكنه أغفل أساقفتها، بل تغاضى عن أن يجعل أسقف روما هاديه حتى بعد دخوله روما، وظل مبقيا على هوسيوس يستشيره الرأى فى المسائل الكنسية والدينية التى عرضت له الفترة طويلة من عهده، وكان

ناخذ روحا من هذا العالم بل الروح الذى اعطيناه من الله.

واما الاب الجليل ديمتريوس فاقام تلت واربعين سنه وتنيح كما ذكرنا.

السيره الخامسه من سير البيعه المقدسه

ياروكلا البطرك(*)

وهو من العدد التالت عشر

٢٣١ / ٢٤٧م

كان هذا الاب فى زمان ديمتريوس البطرك

(*) ياروكلا: وهو أول من أطلق عليه لقب بابا، فيذكر القمص حنا سلامه فى كتابه «اللآلئ النفيسة فى شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة» هامش ص ٣٤١ مايلى: «قال سعيد بن بطريق وهو أوتيخا البطرك ٦٨

أولها كما رأينا ما يختص بقصر هبات الامبراطور عىى الكنيسة الكاثوليكية فقط دون أتباع دوناتوس.

بهذا الاعتراف الحكومى غدت المسيحية والديانات الأخرى داخل الامبراطورية على قدم المساواة، إن لم تفضل عليها، وأضحت دينا شرعيا وآن لها بعد ثلاثة قرون أن تتنسم عبير الحرية، وساد الكنيسة سلام طالما اليه تاقت، وقد هللت الكنيسة لهذه الفترة الجديدة التى توشك شمسها أن تبزغ، ولا أدل على ذلك مما عبر به يوساب عن هذه الفرحة التى تملكت نفوس المسيحيين آنئذ بقوله:

«أخيرا.. أشرق نهار صحو جميل لا يعكر صفوه غمام، وبأشعة نور سماوى أضاء فى العالم كنائس المسيح، وحتى أولئك الذين ليسوا من جماعتنا لم يحرموا من نعمة البركات، أو على الأقل من الانتفاع بمزاياها والتمتع بجزء من النعم التى أغدقها الرب علينا».

ويضيف يوساب ان الامبراطور خط بيمينه رسالة الى سكان الامبراطورية جمعاء يدين فيها الديانات السابقة ويمجد المسيحية، أورد فيها تقريرا عن الأخطاء الناجمة عن القول بتعدد الآلهة أو الشرك بالله، وبدأها بمقدمة عن الفضيلة والرذيلة.

وتنتاب قسطنطين من الحماس فورة فيكتب الى ملك فارس رسالة يردد فى صدرها من

معلما فى البيعه يتمجد بعلوم الله، وكان برمليانوس اسقف قيساريه كبادوكيه قد وجد اورجانوس قد اختلط هناك باليهود واقام معهم زمانا، وكان الاكسندرس قد ملك روميه تلت عشره سنه ملك بعده مكسيموس قيصر، فاقام على مقدمى البيعه خاصه اضطهادا كتيرا لانهم المعلمون لبنى المعموديه. واستشهد فى ايامه كتير ا منهم!. ومات مكسيموس وملك كرديانوس بروميه، وكان بطركها بنطيوس اقام ست سنين ومات، وصار بعده

للملكانيين بالاسكندرية (٩٣٣ - ٩٤٠م) فى تاريخ المطبوع سنة ١٦٦١م: ان «لفظ بابا مركب من «أب أباء»، ثم تطورت إلى أبابا» وخففت بلفظ «بابا» ... وكان القبط هم الذين بدأوا بتلقيب بطاركتهم بالبابوات حيث أطلقوا لفظ بابا على الانبا يا روكلا».

ويذهب رأى آخر إلى أن كلمة «بابا» مأخوذة من ا لكلمة اليونانية «باباس» ومعناها الأب.

جديد أنغام فضله على المسيحين وما نالهم تحت حكمه من جم الفوائد وأعظمها، فيفتتحها قائلا:

«انى كما تبرهن أعمالى أعترف بأقدس عقيدة، فهذه العبادة ذاتها تقودنى الى معرفة الرب القدوس، الذى بعونه وقوته أنهضت من الرقاد من أقاصى المحيط، كل أمة فى هذا العالم لتلمح الأمل فى الأمان، وعليه فان كل أولئك الذين يئنون تحت وطأة العبودية ويقاسون أعظم الويلات لأشد الطغاة قسوة، قد بعثوا من جديد بفضل حكمى وارسائى قواعد أسعد دولة».

ولكن الرسالة تضمر غير هذا المعنى معانى أخرى:

«هذا الرب.. وأنا على ركبتى جاث، اياه استعيذ من هول دماء تلك الأضحيات، واليه أبتهل أن يبدد رائحتها الكريهة المقيتة، ويطهر من الأراضى كل نار شيطانية، وما ذلك الا لأن هذه الشعوذات الدنسة الرجسة بشعائرها المستهجنة، قد أوردت جل لا بل كل أمم العالم الوثنى ورد الهلاك. فرب الكل السيد، وهبها البركات، ومن ثم لا يرضى جلاله ولا يسمح لقلة تعبث بها وتنحرف ارضاء لخاص الشهوات. وليس للرب على الانسان الا نقاوة عقل، واستقامة روح، وهو بهذا المعيار يزن صالح الأعمال وفاضلها، فمسرة الله لكياسة من البشر واعتدال. يحب الحليم ويبغض اللئيم.. يبتهج للايمان ومن الكفر يقتص. يهوى بجبروته كل عات، ومن

١٣: باروكلا ٢٣١/٢٤٧م م

انتارس بطركا اقام شهرا واحدا وطلبوا منه من يوسمونه عوضا منه، فوجدو انسانا فى الغيط قد عمل اعجوبه ظهرت له وحلت عليه روح القدس كالحمامه فاخذوه و جعلوه بطركا لروميه.

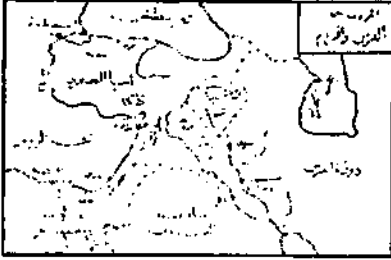

وتنيح زاوينوس بانطاكيه وجعل فيها بعده واويلاس وجعل ياروكلا بطركا لاسكندريه بعد ديمتريوس، وكان مستحقا لخدمة الهيكل، وجعل النظر فى الاحكام باسكندريه الى ديونوسيوس وفوض اليه جميع امور بطركيته، وكان هذا من

صلف كل متكبر ينتقم. وفى الدرك الأسفل يطيح بكل متعجرف غطريس، ولكنه يجزى المتضع، وبما استحق من جزاء يثيب، وبمثل هذا يمد الرب عونه لمملكة بالعدل قائمة، ويدعمها ومليكها بسكينة السلام... وبعد يا أخى.. فانا على يقين بأنى غير مخطىء فى اعترافى بهذا الاله الواحد. المبدع، الآب لكل الاشياء، الذى جافاه كثير من أسلافى، مقودين بجنون الخطيئة، مما جر عليهم رادع العقاب حتى راح ما تلاهم من آجيال يتندر بما حل بهم تحذيرا لمن تداعبه الرغبة فى سلوك الدرب، ومن عداد هؤلاء واحد حدت به صاعقة العذاب فراح من هنا طريدا، وكانت أراضيكم له المنفى والمصير. وكان العار الذى لحق بسمعته مدعاة لذيوع صيت انتصاركم[١] وانها لمن اليقين مناسبة طيبة حيث أضحى الانتقام الذى حل بكل أولئك ـ على النحو الذى أوضحت ـ بينا للجميع فى عصرنا، ذلك أنى قد عاينت نهاية أولئك الذين، بكافر مراسيمهم، ناكدوا عباد الرب. وبهذه النهاية وجب تقديم الشكران لله. فبعونه الفياض سعد بشر يرعون ناموسه المقدس بعد أن عاد من جديد هناء السلام. وعليه فانى لموقن بأن الأمور كافة قد اتخذت الوضع الأفضل الآمن. فاذا ما اتقى الناس وآمنوا وتمسكوا بناموس الرب ولم يتفرقوا، يقدسون ذاته، تعطف الرب فآواهم الى رحابه».

---

(١) يشير قسطنطين هنا الى ما كان من أمر هزيمة الامبراطور الرومانى فاليريان (٢٥٧ ـ ٢٦٠) على يد الفرس وأسره.

جنس جليل ومعلما مقدما وربى باسكندريه، وكان السبب في دعوته ودخوله في الامانه الارتدكسيه ما يأتي شرحه: كان هذا ديونوسيوس رجلا يعبد الاوثان على رأى الصابئه مقدما فيها وكان حكيما، فبينما هو جالس في بعض الايام اذا عبرت به عجوز ارمله ومعها كراسه مكتوبه من رسايل بولس الرسول، فقالت له: تشترى مني هذه. فاخذها وتأملها فاعجبته ووقعت منه موقعا عظيما وحلت من قبله محلا جليلا، ولما فهمها اعجب بها جدا

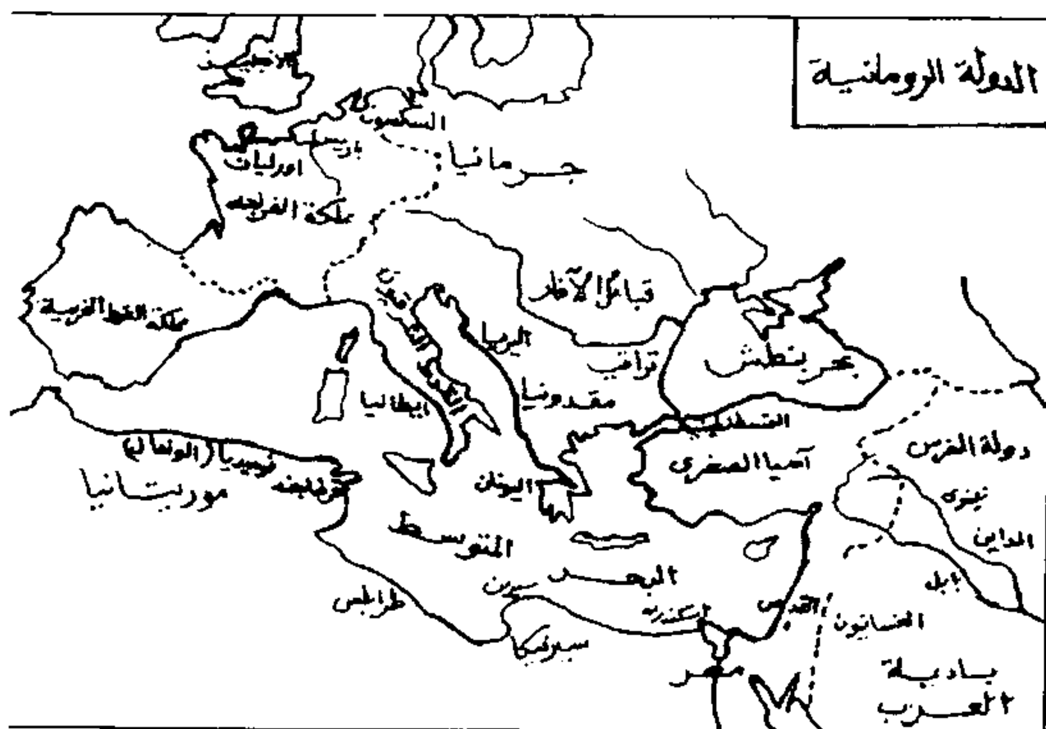

١٣ : ياروكلا ٢٤٧/٢٣١م م

وفرح بها فرحا شديدا. ثم قال للعجوز: كم تطلبين فيها. فقالت له: قيراط ذهب. فدفع لها تلت قراريط وقال لها: امضى وفتشى الموضع الذى وجدت هذه الكراسه فيه فمهما وجدتيه ايتينى به وانا ادفع لك اوفى من تمنه. فمضت العجوز وعادت اليه بتلت كراريس فاخذها منها ودفع لها تسعه قراريط وقراها فعلم ان قد بقى من الكتاب شى اخر فقال لها : ان وجدت بقيه هذا الكتاب دفعت لك ستة الدنانير. فقالت له العجوز لما رأت

بهذا الترديد في رسالته يقدم قسطنطين لشيء واحد يريد قوله منذ البدء، ذلك هو حث سابور الثانى Sapor II على أن يرفع عن كواهل المسيحيين فى مملكته نير الاضطهاد، ولم يكن قسطنطين ليذكر ذلك جملة فى رسالة مقتضبة تحمل معنى عرف الساسة، ولكنه بعث بهذه الرسالة المسهبة منصبا من نفسه داعية ايمان يعظ أمام المذبح جموعا!!.

لقد كان فى مقدور الامبراطور الرومانى أن يهيب بالملك الفارسى انصاف عباد الاله الواحد بداءة وينتهى. ولكنه آثر أن يأتى بما يبتغى فى ختام رسالته، واذا جاز لنا أن نسبر غور نفس الامبراطور لرأيناه عمد الى ذلك قصدا مقصودا. فهو يعلم يقينا أن سابور لا يدين بذلك الاله الواحد الذى ملأ قسطنطين الدنيا ضجيجا من أنه بعبادته قائم، ولا يرتاب فى أن ما امتلأ به رسالته من ابتهالات لهذا الرب وضراعة لا تعنى البتة شيئا لدى هذا الملك الثنوى، وأن صراخ قسطنطين حول صحة اعترافه بمبدع كل الأشياء لا تهم سيد فارس من قريب أو بعيد. رغم علمه بكل ذلك، الا أنه ذكره مقرنا اياه بصور أخرى مضادة عن أولئك الأسلاف الذين ناهضوا هذه العبادة وآذوا ناسها، ولا تكاد فقرة من الرسالة تخلو من تصوير غضب سيد الجميع. وكم من أمة وثنية عصفت بها يد القادر، وكم من متجبر طاغية أطاحت به قوة العلى. وكأن قسطنطين أراد بذلك أن يضع أمام أعين الملك الفارسى صورة لما يمكن أن تصبح عليه مملكته وعليه هو يمسى، طالما أنه لا يؤمن بالواحد، وطالما كان يضطهد عباده. أما قسطنطين فالرب على الدوام آخذ بيده، ويبارك خطاه، وينصره على أعدائه أعداء الرب، لأنه

امانته واجتهاده وعلمت انه قد قبل نعمة الروح القدس عند قراته الكراريس: لا تتعب نفسك امض الى البيعه واطلب الكتاب مكملا من الكهنه فهم يدفعونه لك تقراه، وانما انا وجدت هذه الكراريس في كتب ابائي وكانوا قراء ومزمرين. فقال لها: واهل البيعه يؤمنوني على هذا الكتاب. قالت له: نعم ما يمنعون احدا من علم اذا طلبه بل يدفعون لكل من طلبه مجانا. فمضى الى اوغسطس احد خدام البيعه فدفع له رسايل بولس كامله فقراها

يسلك سبل دينه، ويهتدى بنور شرعه. والا فبماذا نعلل كل هذا السياق اذا لم يكن قسطنطين قد قصد الى ذلك فعلا؟.

ومهما يكن من أمر فقد أحدثت الرسالة رد فعل عنيفا في الأوساط الفارسية، وساورت الشكوك الملك الفارسى في نيات امبراطور الرومان وولاء هذه الطائفة من رعاياه معتبرا اياهم صنائع عدوه وربما يعود ذلك لما نمى الى علم الامبراطور من خاصته بأن كل المسيحيين في مملكته يمثلون حزبا مؤيدا للامبراطورية الرومانية، وأن أسقف سلوقية Seleucia يرسل الى القسطنطينية أخبارا عن كل ما يحدث في فارس ولعله مما يرجح هذا القول ما جاء في رسالة قسطنطين سالفة الذكر الى سابور حيث يقول: «انه لفي روعي والسرور يملأني، بعد أن اتتني أنباء سارة تتناغم ورغبتنا، أن أكثر بقاع فارس تزخر بأولئك الرجال الذين من أجلهم أتحدث اليكم الآن.. أعنى المسيحيين». وهكذا اذكت رسائل قسطنطين الريبة والشك في نفس الملك الفارسى الذى هاله انتشار المسيحية بين رعاياه وخاصة في بابل وسلوقية وجندنسابور وآشور وغيرها فأنزل بهم اضطهادات واسعة النطاق ثلاث مرات في سنوات ٣١٧، ٣٢٩، ٢٣٠، واستمر الاضطهاد الأخير أربعين عاما. وعقد في سنة ٣٢٥ مجمعا زرادشتيا يضم كهنة الدين الفارسى أقر فيه نصا رسميا نهائيا لكتاب الأفستا.

وزاد في خوف الملك الفارسى أن تيريداتس الثالث Tiridates III (٢٦١ - ٢١٧) ملك أرمينيا، الذى أعاده دقلديانوس الى عرشه، قد تحول في مطلع القرن الرابع الى المسيحية،

وحفظها من قوة ذكاه، ومضى الى ديمتريوس المتنيح وطلب منه الميلاد التانى(*)، فقبله وعمده واعطاه النعمه وصار ملازما له مقيما فى البيعه. وبعد ان كان معلما للصابئه الوثنيين صار معلما فى البيعه، وصار له تلاميذ كتير. وعوض تعليمه الاول واخذه الاجره الفانيه. نقله الرب الى الكرسى العظيم بعد ذلك عوضا من تعبه وجعل بيته بيعه الى الان مسماه باسمه، وكان اسما تلاميذه تاودورس واغريغوريوس واثنادورس هولا كان

(*) الميلاد التانى: أى تعميده وقبوله فى الديانة المسيحية.

- -

وفرض بحماس جارف عقيدته الجديدة على رعيته. مما أدى بالتالى الى حدوث التباعد والنفور بينه وبين مملكة الساسانيين، ومن ثم لم يدخر قسطنطين وسعا فى تعضيد هذا الشريك المسيحى واحياء التحالف القديم ثانية. ولا شك أن ذلك كان يشكل خطورة ليست بالقليلة على الملك الفارسى ودولته. وهكذا تطورت الخصومة بين سابور الثانى وزميله الرومانى مما دفع الملك الفارسى الى القبض على تيجرانس Tigranes ملك أرمينيا المسيحى واحتلال بلاده، فاستنجد الحزب الموالى للرومان والمسيحية بقسطنطين وعرض عليه المملكة، فقبل على الفور وتوج عليها هانيباليان Hannibalianus ملكا، وكان هذا بالطبع يعنى الحرب مع فارس، ولم يؤخر انفجارها الا موت قسطنطين.

لم يقف عون قسطنطين للمسيحية عند حد الدعم المادى بصورة المختلفة، والتأييد المعنوى البادى فى رسائله العديدة، بل تخطاه الى حيز الواقع العملى، أعنى اقامة دور العبادة، فينبئنا يوساب أن الامبراطور بعد ارفضاض مجمع نيقية سنة ٣٢٥ نذر نفسه لعمل جديد فى خدمة المسيحية فى منطقة فلسطين بالذات، وكان هذا العمل هو انشاء كنيسة فى الموضع الذى «قام فيه المسيح ثانية من بين الأموات». بصورة تليق بالمخلص، واقامتها بصورة تبز بها سائر كنائس العالم المسيحى المعروف آنذاك فى جمال عمارتها. ويضيف يوساب أن الامبراطور زين هذه الكنيسة بما لا يمكن وصفه من الذهب والفضة والأحجار الكريمة. وقام الامبراطور أيضا بانشاء كنيستين آخريتين فى بيت لحم وفوق جبل الزيتون وزارت هيلينا Helena أم الامبراطور،

١٣: ياروكلا ٢٣١/٢٤٧م

علمهم الحكمه البرانيه اولا ثم عند تعميده وتقدمه نقلهم الى الحكمه البيعيه حتى انهم امتلوا من نعمة روح القدس، واقامو معه خمس سنين بعد تقدمته، ثم نالو رتبه الكهنوت. وكان له تلميذ اخر اسمه افريكنوس كتب خمسه كتب [من كتب الصابئة] وتعب فيها، فلما سمع بحكمه ياروكلا البطرك مضى الى اسكندريه ليتعلم منه، وكان ديونوسيوس يقول له اعلم ان كل دابه تاكل البرونيا(*) لا تنفع بها ولا تنجح، وكل انسان لا

(*) البرونيا: الطعام الجسدى وليس الروحي.

الشرق لتسير فى نفس الطريق التى سار فيها المسيح يحتمل الصعاب والآلام، ولتشرف بنفسها على تشييد وتزيين هاتين الكنيستين. وحظيت مناطق أخرى عديدة بما نالته فلسطين، وخاصة نيقوميديا وأنطاكية. ويذكر يوساب أيضا أن الامبراطور قام فى سنى حكمه الأخيرة بانشاء كنيسة الرسل فى القسطنطينية، ويعطينا وصفا دقيقا لفخامة هذه الكنيسة وعظمتها.

وفى الناحية الأخرى أقدم قسطنطين على هدم عدد من معابد الديانات المخالفة مثل معبد أسكليبيوس Asclepius فى ايجى بكيليكيا Aegae (cilicia) ومعبدى Apheca و Hiliopolis فى فينيقيا Uhoenicia وأقتلع أبوابها وأسقط أسقفها وامتدت يداه فيما وراء ذلك لتنزع عنها ما زانها قبلا من نفائس وآيات فنية رائعة. ويعلق جونز على ذلك بقوله ان قسطنطين استغل ما انتزعه من الذهب والفضة من تلك المعابد فى اصلاحه النقدى. كما صادر ضياع هذه المعابد.

وفى نفس الوقت من باب توكيد سلطاته الدينية أصدر قسطنطين مرسومين ضد بعض الفرق المسيحية، التى تنعتها الكنيسة بالهرطقة، مخافة الانقسام فى الدولة. وقد جاء فى المرسوم الأول:

«على رنين هذا انتبهوا الآن معاشر النوفاتيين Novatians والفالنتينيين Valentinians والماركيونيين Marcionites والبيالصة Paulians انتم أيها البلهاء Cataphrygians وجميعكم يا من تعضدون الهراطقة ولهم تخططون فى اجتماعاتكم السرية. انتبهوا الى أنكم

ياكل الطعام الروحانى فهو هالك. وقد كنت انا مشغولا بالطعام الفانى وغافلا عن خبز الحياه الباقى حتى هدانى الرب واستجذب التلميذ بهذا الكلام الى التعليم السماوى، حتى ان من فضله عرف صحة النسبتين فى انجيل متى ولوقا، ولم يجد فيها خلفا بالجملة. واقام يارو كلا(*) تلت عشرة سنه وتنيح فى اليوم التامن من كيهك ولحق باباه.

(*) انظر قصة انقاذ اورجانوس له من الاعدام ص٢٠٢ فى الجزء السفلي منها.

بنسيج زيف وغرور، وسام الضلالة ومهلكها، تحيكون عقيدتكم. من أجل ذلك، وبكم تصاب بالداء كل روح طيب، ويمسى الحى فريسة هلاك مقيم، يا كارهى الحق. يا أعداء الحياة. يا أحلاف الخراب. ان آراءكم كلها للحقيقة ضد، تنضح بالخسة، تغص بالسخافات والأوهام. بها تصوغون النفاق، وتجيرون على البرىء وتحجبون الضياء عن ذوى الايمان. بآثامكم دوما تحت قناع التقوى. تملأون بالدنس كل شيء، وتنفذون بعميق الجراح فى تقى الضمائر، وتسلبون من أعين البشر ضياء النهار. ولكن مالى أطيل؟ ان الحديث عن جرمكم يتطلب من الوقت والفراغ مزيدا عما أعطيه. فكم هى مفعمة قائمة خطاياكم وكم هى شنيعة مقيتة.. يقصر عن سردها يوم، وكم يحسن بالمرء أن يصم الآذان عنها ويغمض العيون لئلا تضار بالخوض فى هذه الآثام نضارة مؤمن حسن الطوية. انى لأسائل نفسى.. علام الصبر اذن على شر مستطير، خاصة ان هذا الحلم تسبب فى أن يتسخ بعض الأصحاء بهذا الداء الوبيل. لم اذن لا يجتث من الجذور هذا الخبث؟ وما ذلك الا بأن نعلن على الملأ الاستياء».

ثم أردف مرسومه هذا بآخر يقرر فيه ما سبق أن حذر به فى السابق يقول:

«أما وقد ضاق الصدر عن تحمل ويل ضلالكم، فانا بهذا المرسوم نحرم عليكم الآن وبعد الآن عقد أى اجتماع. وبهذا أصدرنا أوامرنا.. نخرجكم من ديار جمعتكم، وامتدت ارادتنا لتبسط الحرمان أيضا على مقابلات لكم فى السر والعلن بالخزعبلات طفحت والخرافة. فلتدعوا أذن ذلك النفر منكم، الراغبين فى اعتناق دين الحق، ليسلكوا سبيل الصواب

السيره السادسه من سير البيعه
ديونوسيوس(*) البطرك الحكيم
وهو الرابع عشر من العدد
٢٤٧ / ٢٦٤م

(*) كـان من الصـابئـة ثم آمن بالمسيحية.

اوسم بطركا من بعد ياروكلا وهو الذى تقدم ذكره، وكثرت البيع والمومنون في ايامه وكانت ممتليه من تعاليم الله علانيه. وفي ذلك الزمان وضعوا قوم مقاله في اعمال ارابيا بأن النفس

- -

بالانضواء في الكنيسة الكاثوليكية والاتحاد معا في زمالة مقدسة حيث يستاهلون الوصول الى الحقيقة. ومهما يكن من أمر فان هوس فهمكم الأضل لابد وأن يحجم عن أن يشوب أو يعطب غبطة زماننا، نعني ميلا مزدوجا لدى الهرطقة والمنشقين تعسا ملحدا. فانه من واجب الوفاء بالنعمة، التي بفضل الرب منحنا، أن ندأب لنخرج أولئك الذين عاشوا في الماضي يحلمون بنعمة المستقبل، من الشذوذ والآثام الى الصراط المستقيم، من الظلمات الى النور، من الضلال الى الحق، من الهلاك الى النجاة، وحتى يصبح هذا الحل ذا شأن أصدرنا أوامرنا ـ كما قيل من قبل ـ بانتزاع بيوتات لقاءاتكم المشعوذة، أقصد دور الصلاة، ان جاز استخدام هذا اللفظ، التي يملكها الهراطقة وبرصدها على الفور للكنيسة الجامعة، ومصادرة أى مواضع لصالح الدولة، ولن يشهد المستقبل لكم أية تسهيلات للقاء. فمن اليوم وبعده لن يسمح لاجتماعاتكم غير الشرعية ان تعقد في السر أو العلن وليكن ذلك للجميع معلوما.

وأول ما نسجله على هذين المرسومين، والثاني منهما بخاصة أنهما يعتبران خروجا على السياسة التي جرى في ميلانو رسمها سنة ٣١٣، فقد منحت رسالة نيقوميديا المتحدثة باسم سياسة ميلانو «سائر الناس الحرية في اتباع ما ترضاه من الديانة نفوسهم، وأن لا يحرم أى انسان من حرية الاختيار في اتباع عقيدة المسيحيين، أو في اعتناق الديانة التي يراها متناغمة وهواه». ومن ثم فقد تخلى قسطنطين بقراراته هذه عما وعد بانتهاجه ازاء سائر العقائد. بل

تموت مع الجسد وتقوم معه فى يوم القيامه، فابعدت البيعه المقدسه هذه المقاله بعد اجتماع مجمع للنظر فيها وظهرت مقاله اخرى مفسوده ثم اضمحلت وبطلت، بمعونه الله تعالى فى مملكة فيلبس الملك الذى اقام سبع سنين وملك بعده داكيوس، وكان بينه وبين فيلبس الملك عداوة عظيمه، فاقام على البيعه بلايا كثيره. واستشهد فاويانوس البطرك وصار كرنيليوس بطركا عوضه، وكذلك الاكسندروس بطرك اورشليم اعترف

لقد ذهب الى حد اضطهاد أتباع فرق المسيحيين هذه أو تلك، ومصادرة دور عباداتهم، وهى اجراءات طالما قاسى منها المسيحيون جميعهم قبل ذلك. ولا شك أننا نلحظ هنا تغييرا فى سياسة الدولة تجاه المسيحية بصفة خاصة. فقد ذكرنا أن الامبراطورية كانت تنظر الى المسيحية بجميع فرقها المختلفة نظرة واحدة كلية، ولم يكن يعنيها أن تنقسم الكنيسة اى عدد من الفرق قليل أو كثير ـ أما الآن وقد أصبحت المسيحية ديانة شرعية في الدولة، فان أى انقسام فى الرأى بين أولئك الاتباع لابد وأن يضر بالسلطة المركزية للامبراطورية. ومن ثم عول قسطنطين على القضاء على أى مظهر من هذا النوع. وتلك كانت سياسته دوما مع المسيحية(*).

هراطقة وأرثوذكس

تمسك آباء الكنيسة الأولون بالسيرة التى تواترت عن تلاميذ المسيح وبإيمانهم الذى كان من إلهام الروح القدس. والرسل هم أول من عقدوا مجمعاً مسكونيا، أى عالميًا، بمعناه الصحيح، ونجد أخباره فى سفر أعمال الرسل:

«ولما حضر يوم الخمسين كان الجميع معاً بنفس واحدة. وصار بغتة من السماء صوت كما من هبوب ريح عاصفة وملأ كل البيت حيث كانوا جالسين. وظهرت لهم ألسنة منقسمة كأنها من نار واستقرت على كل واحد منهم. وامتلأ الجميع من الروح القدس وابتدأوا يتكلمون

(*) انظر: الدولة والكنيسة. د. رأفت عبد الحميد جـ٢.

دفعتين واظهر الامانه قدام المخالفين والقى فى السجن وتنيح فيه بعد ان لقى امور صعبه، وكان فيه من القدس والصبر والجهاد موهبه عظيمه جدا، وسمعوه فى الحبس يعترف ويمجد الى أن تنيح.

وجلس بعده بطرك يسمى ماساوانوس. وبطرك انطاكيه واويلاس اعترف ايضا وحبس وتنيح فى السجن. وجلس بعده فاوياس.

واما ديونوسيوس البطرك فقال: اذكر ما لقيته واشهد الله على. ثم قال: ان داكيوس ملك روميه

بألسنة أخرى كما أعطاهم الروح أن ينطقوا... فرتيون وماديون وعيلاميون والساكنون ما بين النهرين واليهودية وكبدوكية وبنتس وأسيا وفريجية وبمفيلية ومصر ونواحى ليبية التى نحو القيروان، والرومانيون المستوطنون يهود ودخلاء كريتيون وعرب».

وللرسل قانون للإيمان ورد فى رسالة تعرف باسم «رسالة الرسل» Epistola Apostolorum، وهى قد كتبت أصلا باللغة اليونانية، وليس لدينا الآن سوى صيغتها الأثيوبية، كما حفظ جزء منها باللغة القبطية وجزء صغير آخر حفظ باللغة اللاتينية. ويكاد معظم الدارسين يجمعون على أن تاريخها يسبق عام ١٥٠م، ورسالة الرسل على هذا هى أقدم نص تاريخى يحدد قوامه الإيمان وأركانه ومن ثم يوضح المفهوم الأول للأرثوذكسية السليمة. ولأهمية هذه النقطة رأينا أن نورد مضمون كل من رسالة الرسل، وقانون الإيمان فى الكنيسة القبطية، وقانون ارينايوس، ثم قانون الإيمان الإفريقى على الترتيب(١).

رسالة الرسل: «أؤمن بالله الأب، وبيسوع المسيح مخلصنا، وبالروح القدوس الباراقليط، وبالكنيسة المقدسة، وبغفران الخطايا».

قانون الإيمان القبطى: «أؤمن باله واحد الله الأب، وبابنه الوحيد مخلصنا يسوع المسيح، وبالروح القدس معطى الحياة، وبالكنيسة الأرثوذكسية المقدسة، وبالحياة الأبدية».

(1) See Badcock, F.J., The History of the Creeds, pt. II.

طلبنى طلبا شديدا وسترنى الله عنه ولم يعرف مكانى، ومن بعد اربعه ايام امرنى الله بالنقله فهربت وتلاميذى وجماعه من الاخوه ومشينا مشيا كثيرا، ولما مضى النهار وقد قربنا من أبو صير اخدونا الجند بعد اربعة ايام فتخلص منهم تيماتوس احد تلاميذى، وعاد الى البيت بعد أن التقى بزارع قال له: ما خبرك فعرفه خبر البطرك وانه أخذ من كان صحبته. ولما أخذوا الجند ديوناسيوس البطرك

قانون ارينايوس : «أؤمن بالله الأب، وبيسوع المسيح ابنه الذى تجسد، ومات، وقام من الأموات، وبالروح القدس، وبغفران الخطايا، وبالحياة الأبدية».

ولا يختلف قانون الإيمان الإفريقى كثيراً عن قانون ارينايوس[(١)].

والمشاكل العويصة فى اللاهوت المسيحى تدور حول الثالوث (الأب، الابن، الروح القدس) فى القضايا الآتية: هل الابن مساو للأب فى الجوهر؟

هل للابن طبيعة واحدة أم طبيعتان؟

هل الروح القدس إله كامل؟

هل العذراء مريم أم للمسيح فى طبيعته البشرية أم فى طبيعته الإلهية؟

(1) "Credo in Deum Patrem omnipotentem universorum Creatorem,
Credo in Jesum Christum, Filium Eius unicum, Dominum nostrum, qui natum est,
Crucifixus, resurrexit;
Credo in Spiritum Sanctum;
Remissionem peccatorum;
Carnis resurrectionem
Et vitam aeternam per sanctam Ecclesiam".
(Enchiridion Symbolorum Definitionum et Declarationum, Auctore Henrico Denzinger). See Bibliography.

ركبوه حمارا عاريا، كما حكا عن نفسه، ومشوا تلاميذه.

وكان قد انفذ الى فاويانوس بطرك انطاكيه واعلمه بحال الشهدا الذين استشهدهم دكيوس باسكندريه [وما قاسوا من أنواع العذاب وجميع البلايا الذى صبرو عليها. وفى آخر كتابه قال له أن فى أوان الشدة أنكرو جماعة وعادو إلينا]، وكتب له قصصهم ، حتى أن إنسانا شيخا اسمه مطر

هذه القضايا التى اختلف حولها الأولون وتنازعوا هى التى من أجلها عقدت المجامع المسكونية لمدارستها ولاتخاذ قرارات صار الالتزام بها هو الشرط الأساسى لتحديد الأرثوذكسية. ومن خرج على ما اتفق عليه الآباء فى هذه المجامع دمغ بالهرطقة.

انعقد المجمع المسكونى الأول فى مدينة نيقيا سنة ٣٢٥ برياسة الإمبراطور قسطنطين العظيم لمناقشة تعاليم آريوس القس السكندرى، الذى نادى بأن الابن (المسيح) أقل من الآب فى الجوهر، بل ووضع المسيح بين سائر المخلوقات. حقيقة أنه قال بسمو هذا المخلوق، ولكنه وضعه بين سائر البشر. وبعد نقاش طويل تجلت خلاله مواهب اثنا سيوس السكندرى وقوة حجته رفض المجلس آراء أريوس وأدانها بالهرطقة لأن «ألوهية المسيح هى الأمل الوحيد الذى يربطنا بالله الآب؛ لأنه لا أحد سوى الله وحده بقادر على احتواء المخلوق وضمه فى الخالق. والمسيح على هذا من نفس جوهر الآب، وهو ليس بشبه إله أو مخلوق مميز بل إله حق من إله حق، نور من نور، مولود غير مخلوق قبل كل الدهور، مساو للآب فى الجوهر»[1].

(1) "Credo in unum Dominum, Jesum Christum.
Filium Dei, natum de Deo, Deum de Deo.
Lumen de lumine.
Deum verum de Deo vero.
Natum ante omnia saecula, non factum.."

اخـذوه وقـالو له تسـجـد للاصنام فلم يفـعل ذلك فـضربوه ضـربا موجعـا وجرحو وجهه ثم اخرجوه خارج المدينه ورجموه حتى تنيح.

وكذلك امرأه مومنه قدموها لتسجد للاصنام فامتنعت فضربوها وعروها وربطو رجليها وجروها على الحجاره حتى تقطع لحمها وجرى دمها على الأرض في الشـوارع وهى تجلد الى أن اخـرجـوها من المدينه وقتلوها ورموها هناك، وعادو الى بيوت

والى جـانب هذه المشكلة اللاهوتيـة عـالج المجمع وسائل تنظيم الكنيسـة فـرتب القـانون السادس الكنائس الرسولية على الوجه الآتى: روما، الإسكندرية، أنطاكية. أما أسقفية أورشليم، التي كانت واقعة تحت إشراف أبروشية قيسارية، فيأتي ترتيبها بعد هذه الكنائس الثلاث سالفة الذكـر[١]. وبالطبع لم يرد ذكر بيزنطة في هذا التنظيم الكنسى لأن مدينة القسطنطينية لم تفتتح إلا بعد مجمع نيقيا بخمسة أعوام لتكون عاصمة للإمبراطورية. ولقد ظلت كنيسة بيزنطة خاضعة ـ كما كانت الحال من قبل ـ لأبروشية هيراقليا.

أما المجمع المسكونى الثانى فقد انعقد في القسطنطينية فى سنة ٣٨١ على عهد الإمبراطور ثيودوسـيـوس العظيم، لمناقشة آراء ماسيدونيوس الذى علم بأن الروح القدس أقل من الآب والابن في الجـوهر. ولذا عـرف مـاسـيـدونيـوس وأتبـاعـه باسم «أعـداء الروح القـدس» Pneumatomachoi. وكانت هذه النظرية تهدد أقنوما من الأقاليم الثلاثة ـ هو الروح القدس ـ بنفس القدر الذى هددت به الأريوسية نظرية التثليث. ولذلك جدد الآباء المؤتمرون في مجمع القسطنطينية قانون الإيمان النيقى، وأكدوا ألوهية الروح القدس «الرب المحى المنبثق من الآب المسجود له مع الآب والابن الذى نطق به الرسل الأطهار»[٢].

(١) راجع المخطوطة الخاصة بقوانين مجمع نيقيا ص ٢٨٠ .

(2)"... et in Spiritum Sanctum, Dominum et vivificantem, ex Patre procedentem, cum Patre et Filio adorandum et conglorificandum, qui locutus est per sanctos prophetas. Et unam Sanctam catholicam et apostolicam Ecclesiam.

المومنين فنهبوها واخربوها وأخذو ما فيها من ذهب وفضه وأثاث.

أيقونه للشهيده أوفيميه وأولادها الخمسة (الكنيسة المعلقة. مصر عتيقه)

وفى هذا الزمان استشهد بولس السكندرى واخذ اكليله بفرح ولم يكن احد يقدر يتظاهر بمعرفة الله.

وفى تلك الأيام ايضا اخذت عدرا مومنه اسمها بلونيه كسرت اعضاها كلها واحرقت بالنار وهى بالحياه خارج المدينه لأنها لم تطعهم فى الكفر ولم تجحد السيد المسيح. وكانت تنظر لهيب النار وهم

استقرت مسألة الثالوث بعد مجمع القسطنطينية هذا. على أنه يجب أن نذكر أن الكنيسة اللاتينية قد أضافت إلى قانون الإيمان النيقو قسطنطينى عبارة تقول بانبثاق الروح القدس «من الابن أيضا» Filioque. وهذه الإضافة الدخيلة على قانون الإيمان ظهرت أول ما ظهرت فى إسبانيا فى مؤتمر طليطلة (٥٨٩م)، ثم تبنتها الكنيسة الفرنجية. وقد كان لهذا آثار بالغة الخطورة فى تعميق الخلاف بين الكنيسة الشرقية وكنيسة روما مما أدى إلى الشقاق بين الجانبين.

ولقد قرر الآباء المجتمعون فى هذا المجمع المسكونى الثانى رفع كنيسة بيزنطة إلى الرتبة الثانية بعد كنيسة روما؛ لأنه لم يكن من اللائق تجاهل عاصمة الإمبراطورية المسيحية. وعلى هذا فإن القانون الثالث لهذا المجمع وضع كنيسة القسطنطينية قبل كنيسة الإسكندرية ذاتها، وصار أسقف بيزنطة «يتمتع بالشرف الذى يتلو الشرف الذى يتمتع به أسقف روما لأن القسطنطينية هى روما الجديدة».

كان قانون الإيمان الذى اتفق عليه فى مجمعى نيقيا والقسطنطينية والمعروف باسم Symbolum Nicaeeno Constantinopolitanum نتيجة لجهود القديس آثاناسيوس السكندرى بطل الأرثوذكسية الذى اهتدى إلى كلمة Homoousios «مساو للآب فى الجوهر» والتى سهلت على الآباء مشكلة صياغة قانون الإيمان هذا[1]. ولقد حمل رسالة الأرثوذكسية

---

(1)"Credimus i unum Deum Patrem omnipotentem... Et in unum Ddominum Iesum =

يحـرقـونهـا فلم يهـولهـا بل صبـرت على ذلك واسلمت روحـها. واخـذ رجل اخر اسـمـه سرابيـون وعـذب عـذابا شـديدا ورمى من تالت طبـقـه فتكسرت عظامه واستشهد.

ولم يكن للمومنين ملجا ولا مسكن لا نهارا ولا ليلا فمكثو هكذا زمانا كتيرا. وكان هذا من فعل داكيوس الملك، واستشهد شهدا كتير لا تحصى اسماهم، واخذ أيضا المغبوط يوليانوس وكان رجلا جسميا كبير البطن لا يقدر يمشي ومعه رجلان

من بعد القديس آثاناسيوس ثلاثة من آباء كبادوكيا هم القديس جريجورى من نازيانزوس الشهير بجريجورى اللاهوتى (٣٢٩ ـ ٣٩٠)، وبازيل الأعظم (٣٣٠ ـ ٣٧٩)، ثم شقيقه الأصغر جريجورى من نيسا (توفى سنة ٣٩٤).

ولقد ظهرت صيغة لاتينية لقانون الإيمان فى غرب أوربا نسبت إلى القديس أثاناسيوس ذاته، وهي الصيغة المعروفة باسم «إلى من يريد الخلاص». Quicunque vult salvus esse ولقد دس الغرب اللاتينى على هذا النص قول القديس أثاناسيوس بانبثاق الروح القدس من الابن مثلما هو منبثق من الآب(١). وهذا تزييف مؤكد.

يمكننا أن نلمس من قصة المجامع إلى جانب الجدل اللاهوتى العميق تطلعات إلى الزعامة الكنسية بين الآباء الأساقفة، ذلك أن كل كرسي من كراسي الأسقفيات الرسولية أراد أن

=Christum.. Et in Spiritum Sanctum, Dominum et vivificantem, ex Patre procedentem.. Et unam Sanctam Catholicam et apostolicam Ecclesiam, confitemur unum baptisma in remis- sionem peccatorum. Exspectamus resurrectionem mortuorum, et vitam futuri saeculi. Amen".

(1)"Fides autem Catholica haec est, ut unum Deum in Trinitate, et Trinitatem in unitate veneremur.. et tamen non tres domini, sed unus est Dominus..
Spiritus Sanctus a patre et Filio non factus nec creatus, nec genitus' sed procedens.?

وجـازوا بهم الى الايوان، فـانكر أحـد الرجلين واعترف الأخر مع الشيخ يوليانوس فجروهما فى المدينه واحرقوهما بالنار. وكانوا شرطا شرطة كثير منتبهين لعذاب الناس.

وأخذو احدا فصرخ وقال: يارب تقبلنى إليك سريعا. فقطعت راسه واحرق بالنار. واثنان اخران أيضا استشهدا معه. وأخر يسمى الاكسندروس ومعه جماعه ساقوهم الى الحبس ثم اخرجوهم منه وقتلوا. وامرأه تركت اولادها وقتلوها. وامرأه مومنه

يجعل من مدرسته الحكم الأوحد للأرثوذكسية، مما أدى إلى بروز النعرات المصرية والأنطاكية والطموح البيزنطى والمطامع الرومانية.

والواقع أن كلا من الإسكندرية وروما قد غضبتا من القانون الثالث لمجمع القسطنطينية الذى رفع كنيسة بيزنطة من العدم إلى المرتبة الثانية على حساب الإسكندرية، وتحرشاً بنفوذ روما. والإسكندرية حتى ذلك الوقت كانت صاحبة القول الفصل فى المسائل اللاهوتية، فهى كرسى القديس مرقص، ويكفيها اثناسيوس على مدى التاريخ لتطالب بصلاحياتها الأرثوذكسية وبتفوقها فى تفهم المشكلات اللاهوتية المستعصية. أما روما فقد رأت فى تحركات أسقفية بيزنطة ما يدعو إلى الريبة:

فالقسطنطينية وهى العاصمة الجديدة للإمبراطورية ومقر الإمبراطور المسيحى قد لا تكتفى بالرتبة الثانية بين الكنائس وإنما قد يأتى اليوم الذى تتطلع فيه إلى المكان الأول مما يضيع على أسقفية روما ما تستند إليه من مقومات رسولية وادعاءات فى الإمارة على الكنيسة العالمية. ولذا فقد رفضت روما الموافقة على هذا القانون الثالث إلى أن انعقد مجلس اللاتيران فى عام ١٢١٥، أى أن روما لم توافق على هذا القانون إلا بعد مرور ٨٣٤ عاماً من إصداره، وذلك حينما كانت الإمبراطورية البيزنطية قد سقطت بالفعل فى أيدى جنود الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٤) التى كان قد بشر بها البابا أنوسنت الثالث. ومعنى هذا أن البابوية لم تعترف لكنيسة

---

١٤١ : ديونوسيوس ٢٤٧/ ٢٦٤م

أيضـا من شـده غيـرتهـا لدينهـا دعت على الوالى فقتلها. وجماعه كتيره لا تحصى كانو يتقدمون للاستشهاد على اسم السيد المسيح بفرح عظيم كمثل من يسعى الى العرس. وكذلك جماعة من أهل المدن والقرى استشهدو. وساح فى الجبال جماعة كتيره لا تحصى هربو من الكفار ومات منهم كتير بالجوع والعطش والحر. وشيخ اسقف من مدينة تسمى مليج. من كورة مصر هرب ومعه امراه تبعته فلم يقدرو عليهما ولا عرف لهما خبر.

- -

بيزنطة بالمرتبة الثانية بين الكنائس الرسولية الخمس إلا بعد أن أصبحت بيزنطة خاضعة بالفعل للسلطان البابوى. هذا عن موقف روما.

أما عن الإسكندرية فقد دخلت بعد صدور هذا القانون الثالث فى صراع عنيف مع بيزنطة دام سبعين عاماً، وكان النصر خلال هذه الفترة فى جانب مدرسة الإسكندرية التى نجحت بالفعل فى إذلال أساقفة بيزنطة فى أكثر من موقف. والانتصار الأول الذى أحرزه السكندريون على بيزنطة كان فى عام ٤٠٣ عندما نجح ثاوفيلوس أسقف الإسكندرية فى خلع ونفى يوحنا ذهبى الفم من منصب الأسقفية لبيزنطة[١]. أما الانتصار الثانى للإسكندرية فكان فى المجمع

(١) يوحنا ذهبى الفم: ولد فى أنطاكية فى عام ٣٤٧ وتوفى فى كومانة بنطس فى ١٤ سبتمبر عام ٤٠٧. وكان يوحنا الابن الوحيد لأحد القواد فى الجيش الإمبراطورى، ولقد ربته والدته على تعاليم المسيحية، ولكنه لم يعمد إلا فى سن الرجولة. ولقد درس يوحنا القانون وتتلمذ على يد الفيلسوف العظيم ليبانيوس. على أنه غير رأيه فجأة وتوحد فى الجبال، وفى عام ٣٨١ سيم قسا فى أنطاكية. ولقد ذاعت شهرة يوحنا كواعظ ينطق بدرر الكلام وبالحكمة فسمى بذهبى الفم. وفى عام ٣٩٨ اختير اسقفا لكرسى بيزنطة. ولقد اصطدم يوحنا بالإمبراطورة يدوكسيا زوج اركاديوس لأنه كان يوبخها علانية بسبب إسرافها ومجونها. وفى عام ٤٠٣ نجحت المؤامرة التى دبرتها يدوكسيا ضد الأسقف واجتمع مجلس خارج القسطنطينية برياسة ثاوفيلوس أسقف الإسكندرية، ولفق المجلس بعض الاتهامات ضد ذهبى الفم وقرروا عزله. ولقد نفاه الإمبراطور ولكنه سرعان ما استدعاه من المنفى. ولكن مؤامرات الأعداء كانت لا تكف فنفاه الإمبراطور مرة أخرى إلى أرمينيا، وفى عام ٤٠٧ أمر بترحيله إلى بتيس فى إيبيريا، ولكن القديس توفى أثناء هذه الرحلة المضنية. =

(*) البرطيل: الرشوة.

(*) هنا: زوراً.

وجماعة كانوا الشرطيون يلقونهم فيأخذو منهم البرطيل * ويطلقونهم. وقوم هامو على وجوههم ولم يعودو. هذا كله لم اقله أنا ديونوسيوس البطرك هنا* ولا باطلا، لكني اعلمت ابوتك يا اخي فاويانوس جميع البلايا التى أحاطت بنا وما صبرنا عليه ولقيناه، وقد استحق الملكوت كلمن ذكرته لك يا أخي بتعبهم وجهادهم على اسم السيد المسيح.

وممن كان انكر الشدة جماعة عادوا إلينا

المسكونى الثالث الذى انعقد فى أفيسوس سنة ٤٣١ على عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني. وفي هذا المجمع نوقشت آراء نسطور Nestorius أسقف القسطنطينية الذى تبنى آراء المدرسة الأنطاكية التى كانت تنادى بضرورة التمييز بين طبيعتى المسيح البشرية والإلهية. وراح نسطور يفصل فى أمر الطبيعة الناسوتية للمسيح إلى حد بدا معه أن هنالك ازدواجاً فى شخصية المسيح: من ذلك قول نسطور أن مريم العذراء لم تكن أمّاً للمسيح فى طبيعته الإلهية وانما هى أم للمسيح فى طبيعته البشرية فقط (والدة المسيح وليست والدة الإله). ووجد كيرلس أسقف الإسكندرية - وهو ابن أخ وخليفة ثاوفيلوس سابق الذكر - فرصته لإذلال أسقف بيزنطة مرة أخرى، فأخرج للآباء المجتمعين فى أفيسوس الإصحاح الأول من إنجيل يوحنا وقرأ عليهم «لقد صارت الكلمة جسداً». وأدين نسطور والنساطرة بالهرطقة، وقرر مجمع أفيسوس أن العذراء مريم هى والدة الإله»(1) Theotokos وكسبت الإسكندرية الجولة الثانية وصار شعارها «الجوهر الواحد ووالدة الإله» - للتدليل على انتصارها على كل من الأريوسية والنسطورية - ولتتخذ منهما مبرراً لزعامتها فى الأرثوذكسية.

= ويعتبر ذهبي الفم واحداً من الأربعة المعلمين للكنيسة البيزنطية. وأهم مؤلفاته تعليقاته على رسائل القديس بولس، ومواعظه العديدة، ومدائحه لسيرة الشهداء، وشروحه لطقوس المعمودية.

(1) Anathematismi Cyrilli Contra Nestorium:

"Si quis non confitetur, Deumesse veraciter Emmanuel, et propterea Dei genitricem sanctam virginem: peperit enim secundum carnem factum, Dei verbum, anathema sit".

فقبلناهم بفرح لمعرفتنا بفرح من يريد توبه الخاطى ولايريد موته حتى يرجع فيحيا. وبحكم ما احققته من مشاركتك لى ايها الأخ الحبيب شرحت لك ما نالنا لأجل أنا[وأنت] روح واحده وأمانه واحده، وكذلك أنتم أيضا الأخوه والاولاد اردت اذكر هذا لكم بسبب الاولاد المباركين وصبرهم لتعلمو ما نال اخوتكم المومنين من الجهاد على الأمانه الارتدكسيه، وما صارو إليه من النعيم بصبرهم لأجل من صبر على الالام عنا وعنهم، واشترى

على أن النصر على ما يبدو كان قد أسكر السكندريين فتجاوزوا الحدود: ذلك أنهم عقدوا مجمعاً آخر فى أفيسوس سنة ٤٤٩ لتأكيد ألوهية المسيح. ولقد أدى حرص أتباع كيرلس على تأكيد هذا المعنى إلى أن جاءت براهينهم لتهدد ناسوت المسيح، فبدا وكأن لاهوته قد استوعب ناسوته. ومن وجهة نظر هذا الفريق لم تعد للمسيح طبيعتان بل طبيعة واحدة هى الطبيعة الإلهية، ومن ثم عرف السكندريون وعلى رأسهم أسقفهم ديوسقورس بأصحاب مذهب الطبيعة الواحدة: المنافزة أو المونوفيزيتيين Monophysites (مونو = واحد، فيوزيس = طبيعة).

وكان لديوسقورس السكندرى مؤيد مونوفيزى كبير هو أوطاخيا Eutyches الذى كان وكيلاً لأحد الأديرة فى القسطنطينية. ولقد لقيت تعاليم ديوسقورس وأوتيخا قبولا وتأييداً من جانب الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨ - ٤٥٠). ولكن أسقف القسطنطينية والبابا ليو الأول العظيم وقفا بشدة يعارضان فكرة الطبيعة الواحدة. وبرغم هذا نجح ديوسقورس فى إقناع الإمبراطور بعقد مجمع فى أفيسوس سنة ٤٤٩. وقد ترأس ديوسقورس هذا المجمع وأجبر أعضاءه - برغم أنفهم - على الاعتراف بتعاليم أوتيخا المونوفيزيه.

ولقد صدق الإمبراطور على قرارات المجلس. ولكن البابا ليو لم يهدأ وشن حرباً ضد هذا المجمع حتى أسقطه من عداد المجامع المسكونية وعرف باسم «مجمع اللصوص» Latrocinium.

وفى سنة ٤٥١ انعقد المجمع المسكونى الرابع فى خلقيدونية على عهد إمبراطور مارقيان

جمعنا بدمه فتصبرو من اجله، ولم يجحدوه في مجلس الكفار ولم يهولهم في محبته حد السيف ولا نهب الأموال ولا حريق النار، فأظهر الله فضايلهم في الدنيا ولهم في الأخره جزيل الثواب وحسن الماب.

وكان قس من أهل روميه قد. افتخر وقال ليس يجوز أن نقبل احدا ممن انكر المسيح في زمان الشده والاضطهاد ورجع الى الرب لاجل انه قد سقط ولم يصبر، بل يجعل من جملة المخالفين

(٤٥٠ ـ ٤٥٧) وبدعوة من البابا ليو الأول العظيم، وذلك لمحاكمة تعاليم الإسكندرية المونوفيزية. وأكد الآباء المجتمعون في خلقيدونية أن للمسيح طبيعتين: بشرية والهية. والحق أن الفضل في حسم هذا النزاع يرجع إلى البابا ليو الذى قدم مقولته الشهيرة باسم Tomus وفند فيها آراء أوتيخا وديوسقورس، وأكد أن ناسوت المسيح كامل كما أن لاهوته كامل أيضا في غير لبس ولا امتزاج، فهو إنسان كامل واله كامل[١]. وبهذا أدينت تعاليم المنافزة على أنها غير أرثوذكسية. والى جانب ذلك أكد مجمع خلقيدونية من جديد القانون الثالث لمجمع القسطنطينية الخاص برفع مركز أسقفية بيزنطة إلى الرتبة الثانية بعد أسقفية روما. وكان هذا إذلالا آخر للسكندريين الذين فقدت كنيستهم المركز الثاني. كذلك منح آباء خلقيدونية أساقفة الكنائس الخمس لقب بطريرك، وهي بالترتيب الخلقيدوني: روما، القسطنطينية، الإسكندرية، أنطاكية، وأورشليم.

(1)"Unum eundemque Christum Filium Dominum unigenitum, in duabus naturis inconfuse... unum eundemque confiteri Filium et dominum nostrum Iesum Christum consonan- ter omnes docemus, eundemque perfectum in deitate, et eundem perfectum in humanitate.."

"Qui enim verus est Deus, idem verus est homo, et nullum est in hac unitate mendacium, dum invicem sunt et humilitas hominis et altitudo Deitatis".

وكان يسمى الذين تنبتو الانقيا. وكان هذا القس ريسا على جماعته، فاجتمع بروميه مجمع فيه ستون اسقفا واقسا وشماسه بسبب هذا القس وغيره وكتبو الى كل موضع بما جرى.

وكان إنسان يسمى نواتوس مساعدا لهذا القس مبغضا للتايبين، وكان يساعده على إخراج كلمن يريد الرجوع الى البيعه منها، فاقبل يمنعهم أن يدفعوا للناس الدوا، وهو التوبه والندامه والصوم والسهر والبكا والتضرع الى الله فى المغفره، فكتبو

غير أن البابا ليو قد عارض القانون الثامن والعشرين لخلقيدونية الذى أعطى لكنيسة بيزنطة المركز الثانى بعد روما، فكتب إلي الإمبراطور مارقيان يستنكر هذا القرار ويلقى تبعة هذا التطرف فى أطماع كنيسة بيزنطة على أناتوليوس أسقف القسطنطينية متهماً إياه بالطمع الزائد والتطاول على حقوق روما، مذكراً الإمبراطور والبطريرك بأن القسطنطينية أصلا لم تكن لتستحق حتى مجرد لفظة «أسقفية» لأن ليس لها أصل رسولى(١).

ولعله من الضرورى هنا أن نوضح أن مبدأ الطبيعتين للمسيح، هذا المبدأ الذى أكده مجمع خلقيدونية هو من قول كل من ثيودور من مصيصه (موبوستيا) ونسطور ذاته. ولكن الغريب أن مجمع خلقيدونية وقد أمر بإعادة الأساقفة من أتباع مدرسة نسطور وثيودور إلى أبروشياتهم، إلا أنه أصر على إدانة نسطور بالاسم وذلك بسبب تجديفه السابق على العذراء مريم. والحق أن هنالك تناقضاً مريباً بين قرارات المجمع المسكونى الثالث فى أفيسوس وبين قرارات المجمع المسكونى الرابع فى خلقيدونية: فالأول يمثل انتصار آراء مدرسة كيرلس السكندرية القائلة «بتجسد الكلمة» في طبيعة واحدة، بينما يمثل الثاني انتصار مدرسة البابا ليو

(1)"Satis sit praedicto Anatolio quod vestrae pietatis auxilio, et mei favoris assensu. Episcopatum tantae urbis obtinuit. Non dedignetur Regiam civitatem. quam apostolicam non potest facere sedem' nec ullo sperst modo, quod per aliorum possit offensiones augeri".

كهنه روميه الى كهنه انطاكيه بما جرى فجاوبوهم
واتفقو جميعا أن يقبلو العايدين الى البيعه ويغفرو
لهم ويعاونوهم على التوبه، لأن الله هو الذى
يقبلهم. ثم اخرجو القس المفتخر المتعاظم على
هولا العايدين واحضرو كتب نواتوس بمساعدتهم
وعرفو ما كتبه لأجلهم. ثم أن نواتوس غصب
اسقفيه بغير استحقاق، وأقام تلت سنين و أوسم
كهنه قوما جهالا لا يعرفون شيا، ثم وهمهم انه
ريس اسقافه فكانو يكرمونه لأجل ذلك حتى

والمدرسة الأنطاكية أو النسطورية القائلة بالطبيعتين الكاملتين للمسيح. ويتضح هذا جليًا إذا علمنا أن أتباع ديوسقورس السكندرى كانوا قد أصدروا قراراً بالحرمان ضد النساطرة وأيضاً ضد البابا ليو ذاته بسبب مسألة الطبيعتين.

لم يشارك الآباء المصريون فى أعمال مجمع خلقيدونية أو بالأحرى لم يسمح لهم بذلك، وقد أدانهم المجمع بالهرطقة فنعتوا تارة باسم المنافزة وأخرى باسم اليوطاخية. ولعل النقطة التى يمكن أن تميز بين المنافزة وبين آراء أوطاخيا هى أنه فى حين علم المنافزة بالطبيعة الإلهية الواحدة للمسيح قال أوطاخيا بوجود طبيعتين فى المسيح قبل أن تتحدا، وطبيعة واحدة بعد الاتحاد، ولعله يقصد بذلك بعد قيامة المسيح من الأموات بعد الصلب.

ولقد ظهر فريق من غلاة المنافزة فى مصر وسوريا الذين نادوا بأن جسد المسيح لا يمكن أن يكون فاسداً، ولهذا فإنه لم يتألم وقت الصلب إلا ظاهريًا. وقد عرف هؤلاء باسم اليوليانيين أى أتباع يوليانوس من هاليكارناسوس الذين أطلقوا على أنفسهم لقب افثارتودوكيتاى Aphthartodocetae أو فانتازياستيس Fantasiastes أى الذين يؤمنون بنقاوة جسد المسيح، ومن ثم فإن هذا الجسد لم يكن أكثر من طيف عارض للمسيح الله.

على أن منافزة مصر تنكروا لتطرفات اليوليانيين وراحوا يتكلمون عن «خاصتين» للمسيح بدلا من «طبيعتين»، الأمر الذى قربهم بهذا من آراء خلقيدونية. على أن النقطة الكبرى

انتهت أخباره الى روميه فصار بينهم سجس وافتراق عظيم. ثم اجتمع بعد ذلك جماعه من الأساقفه وابطلو جميع ما كان نواتوس عمله بكذبه، فاعلمو الذين قبلوه بانهم قوم سادجون لا معرفة لهم، وان كل ما اوسمه وعمله لا صحه له. فتقدم حينذ واحد ممن كان نواتوس اوسمه واعترف بخطيته وبكى فقبلوه وسامحوه. وكاتبوا عنه الكراسي وحذروهم من قبول نواتوس ولا شي من تعليمه. وكان عدة من اشتهر امره ومن اوسمه

للخلاف بين الفريقين هي عدم اعتراف المنافزة بوجود طبيعة بشرية دائمة للمسيح، خاصة بعد القيامة.

والواقع أنه لو شارك آباء الإسكندرية مع الفريق الأخير المعتدل ربما كان سيقدر لهم أن يشرحوا وجهة نظرهم هذه. ولكن بطريركيتي بيزنطة وروما قد تعمدتا إذلال المدرسة السكندرية وانتزاع الزعامة منها. ويحدد عام ٤٥١ انفصال الكنيسة المصرية عن الكنيسة الأرثوذكسية، فبعدها نبذ المصريون كل ما هو يوناني ولا تيني وانطوت الكنيسة المصرية على نفسها واستخدمت اللغة الوطنية وهي اللغة القبطية في قداساتها علامة على سخطها. وتسمت الكنيسة القبطية بالكنيسة الأرثوذكسية، ولكن أتباع خلقيدونية من لاتين ويونان لا يعترفون لها بهذا الاسم وانما ما زالوا يدمغونها بوصمة المونوفيزية. أما فريق الكتاب الذين يقللون من قيمة الخلافات اللاهوتية بين المنافزة والخليقيدونية فهم يعالجون تاريخ الفترة بروح «أقيومينيقية» أي مسكونية تهدف إلى تبسيط الخلاف بين الطرفين سعياً وراء الفكرة الهادفة إلى وحدة الكنائس العالمية، فيما يعرف بالحركة المسكونية Ecumenical Movement.

أما المجمع المسكوني الخامس فقد انعقد سنة ٥٥٣ في القسطنطينية بأمر من الإمبراطور جستينيان العظيم (٥٢٧ ـ ٥٦٥) وذلك للبحث عن حل وسط يرضى المنافزة في سوريا وفلسطين ومصر. والمعروف أن الإمبراطورة ثيودورة زوج جستينيان كانت متعاطفة مع المنافزة

سبعة وأربعون قسا وسبعة أبودياقنين وسبعة أغنسطسين وبوابين. وكان عمل اشيا كتيره غير صحيحة لا حاجة الى ذكرها.

ثم كتب ديونوسيوس البطرك الى جميع المواضع كتبا يأمر بقبول من يرجع عن انكاره وجعل هذا قانونا باقيا لكلمن يعود من غلطة [ويأمر جميع الأساقفة الذى بكرسية بذلك. ثم أن داكيوس الملك الكافر مات]. وكتب أيضا الى قونون اسقف الأشمونين كتابا مفردا بمثل ذلك

هى وأنثيموس بطريرك القسطنطينية. ولكن البابا أغابيتوس وحزب الأرثوذكس المتطرفين من جماعة أكويميتوى Akoimetoi، أى السهارين الذين يواصلون الليل بالنهار فى الصلاة والطلبات من أجل نصرة قرارات خلقيدونية الأرثوذكسية، هاجموا سياسة البطريرك أنثيموس والإمبراطور جستنيان اللينة تجاه المنافزة. وأمام هذا اضطر جستنيان إلى التراجع فى موقفه فأقال أنثيموس وأحل محله ميناس وهو من غلاة أتباع خلقيدونية. ولكن جستنيان ظل يسعى ـ برغم هذا ـ لمصالحة المنافزة ومال نحو تأييدهم فى ضرورة إدانة الآراء النسطورية فى كتابات كل من ثيودور من مصيصه وثيودوريت من قورس وعباس الرهاوى والمعروفة باسم «الفصول الثلاثة» Tria Capitula بل ذهب إلى حد أنه عاب على مجمع خلقيدونية تواطؤه فى هذا الشأن. وعليه فقد استدعى البابا ڤيجيليوس إلى القسطنطينية، ثم وجه الدعوة إلى ساويرس بطريرك أنطاكية المونوفيزى الثائر لمدارسة الأمر. ولما وصل ساويرس إلى القسطنطينية أعلن أنه لن يتنازل عن مطالبه في ضرورة إنزال اللعنة بمقولة البابا ليو وبإدانة مجلس خلقيدونية «الحقير المدنس». وقد كانت هذه الآراء العلنية المتهورة سبباً فى إثارة الرأى العام فى القسطنطينية ضد جستنيان، فاضطر إلى إيداع ساويرس السجن لمدة عامين، ولكن ثيودورة أطلقت سراحه وهرب بعدها إلى مصر. ولقد نجح الإمبراطور جستنيان فى إقناع البابا فيجيليوس بضرورة إدانة آراء أصحاب «الفصول الثلاثة» سابقى الذكر، ووافق البابا على ذلك وأصدر إدانته ضدهم

سوى باقي الأساقفة. وكان ينبه الشعب المقيم معه باسكندرية ويعرفهم جميع ما عمله اورجانوس في جميع البيع ويحذرهم منه. ثم كتب قوانين وخلدها في البيعه فيها تعاليم وأداب شرعيه. ثم أن ديونوسيوس البطرك العظيم على مدينة اسكندرية العظمى كتب بما جرى عليه وما حل به في مدة رياسته، وقد عرفنا ذلك من رسايله وتعاليمة التي رأيناها في جميع البيع في كل موضع.

وبجميع ما أقام داكيوس الملك سنتين ولأجل

بالفعل فيما عرف باسم Judicatum. ولكن موقف البابا قوبل باحتجاج شديد خاصة من جانب أساقفة أفريقيا الذين استنكروا إدانة الموتى في قبورهم، واضطر البابا إلى سحب قراره هذا.

والواقع أن البابا فيجيليوس قد تهرب من حضور جلسات المجمع المسكوني الخامس متعللا بأسباب واهية. ولقد قرر المجمع إدانة الآراء النسطورية في «الفصول الثلاثة» وانزال اللعنة على أصحابها. ولما لم يوافق البابا فيجيليوس على هذه القرارات نفي إلى إحدى جزر بحر مرمرة، ولم يسمح له بمغادرة منفاه إلى روما إلا بعد أن وقع على قرارات المجمع الخامس[1]. على أن البابا قد مات أثناء رحلة العودة. ولم يعترف غرب أوربا بالمجمع المسكوني الخامس هذا إلا على عهد البابا جريجورى الأول العظيم وذلك في أواخر القرن السادس (٥٩٠ ـ ٦٠٤).

(1)"Si quis defendit impium Theodorum Mopsuestenum, qui dixit alium ese Deum Verbum, et alium Christum a passionibus animae et desideriis carnis molestias patientem, talis A.S..

Si quis defendit impia Theodoriti conscripta, quae contra rectam fidem et contra primam EPHESINAM sanctam Synodum, et Sanctum. Cyrillum et duodecim eius Capitula exposuit, talis A.S.

Si quis defendit epistolam, quam dicitur Ibas ad Marin Persam haereticum scripsisse, quae abnegat quidem Deum Verbum de sancta Dei genitrice semper virgine Maria incarnatum... talis A.S.".

اضطهاده لأولاد البيعه وقتله إياهم قتل هو وأولاده وأخذ ملكه وجلس بعده كلس ملكا، فكتب إليه ديونوسيوس كتبا، وكان كلس الملك قد عرف جميع ما عمله داكيوس، لأنه كان قد خلف صنم حجر كان يعبده ويقول إنه الذى دفع له الملك، وقتل الكهنة الذين كانوا يطلبون الى الله فى خلاصة وثبات ملكه. ثم كتب أيضا الى بطرك روميه كتبا قصدا منه فى إتصال المكاتبه بينهم وقبول من يعود إليه ممن انكر فى وقت الإضطهاد

تمثال لرأس الامبراطور كونستانس الثانى (٦٤١ ـ ٦٦٨م)

كان المنافزة يشكلون شوكة فى جنب الإمبراطورية، وظهرت المشكلة بشكل حاد بعد أن استردت الإمبراطورية البيزنطية أقاليم سوريا وفلسطين ومصر من يد الفرس. ولهذا فقد اقترح الإمبراطور هرقل (٦١٠ ـ ٦٤) مشروعاً لإعادة الوئام بين كل من النساطرة والمنافزة من جانب وبين أتباع مجمع خلقيدونية من جانب آخر. ويقضى اقتراح هرقل بأن يعترف الخلقيدونيون بوجود طبيعتين للمسيح وارادة واحدة (Thelema)، ومن هنا جاءت كلمة «مونوثيليتية» Monotheletism أى مذهب الإرادة الواحدة. ولقد وافق على هذا الحل الوسط كل من بطارقة أنطاكية والإسكندرية والقسطنطينية كما أيده البابا هونوريوس (٦٢٥ ـ ٦٣٨). غير أن الراهب سوفرونيوس، الذى كان يعيش فى الإسكندرية ثم اختير بطريركا لأورشليم فيما بعد، عارض هذا الحل معارضة كاملة. ولما اشتد الجدل أصدر هرقل مرسوماً يعرف باسم Ecthesis أى «تفسير الإيمان» على أساس الاعتراف بطبيعتين للمسيح وإرادة واحدة له. ولكن البابا سيفرينوس (٦٤٠) استنكر موقف سلفه هونوريوس ورفض المشروع الهرقلى «المونوثيليتى» ودمغه بالهرطقة.

ولما توفى هرقل خلفه على الحكم ابنه كونستانس الثانى (٦٤١ ـ ٦٦٨) الذى كان أيضا متحمسا للمذهب المونوثيليتى فأصدر مرسوماً جديداً عرف باسم Typus أى «أنموذج

في أيام داكيوس، وذكر له فيه زوال كل اضطهاد كان في كرسيه بأسكندرية، وإن السلامة قد صارت في البيعه، وارداع نواتوس الضال عن فعله حتى لا يبقى للبيعه ضد، لأنه اغتصب الكهنوت لنفسه فقط ولم يكفر، ويحثهم على إتفاق الكلمة.

وكان يومئذ دمتريانوس بمدينة انطاكية وتاوكتستس بقيساريه وماسابانوس باورشليم، وهي إيليا، ومرينوس بصور وتنيح الأكسندروس بلادقية،

الإيمان» يقضي بالاعتراف بطبيعتين للمسيح وبإرادة واحد في أسلوب غامض. ولكن «أنموذج» كونستانس هذا جاء ليزيد من بلبلة الأفكار وتعقيد الأمور. وعليه نقد عقد البابا مارتن الأول (٦٤٩ ـ ٦٥٥) مجلساً لاتيرانيًا في روما عام ٦٤٩، حضره ممثلون من رجال الكنيسة البيزنطية، وفيه اتخذ قرار اللعنة ضد مشروعي هرقل وكونستانس(١).

ولقد عاقب الإمبراطور كونستانس هذا البابا على موقفه، فأرسل إليه حاكم راڤنا البيزنطي الذي قبض عليه وأرسله إلى القسطنطينية حيث حوكم واتهم بالخيانة ثم نفي إلى جزيرة القرم حيث خضع لصنوف من التعذيب والتجويع حتى مات بائساً في منفاه. ولقد اضطر خلفه البابا ڤيتاليان (٦٥٧ ـ ٦٧٢) إلى عقد صلح مع الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الرابع (٦٦٨ ـ ٦٨٥) خوفاً من أن يحل به نفس المصير الذي كان كونستانس قد أوقعه بمارتن.

وفي عام ٦٨٠ ـ ٦٨١ دعا الإمبراطور قسطنطين الرابع إلى عقد المجمع المسكوني السادس في القسطنطينية، حيث تقرر إدانة المذهب المونوثيليتي، واعترف الآباء المجتمعون بطبيعتين

(1) "..et super haec impiissimam Ecthesim, quae persuasione eiusdem Sergii facta est ab Heraclio quondam imperatoreadversus orthodoxam fidem, unam Christi Dei voluntatem.. et cum illis denuo scelerosum Typum, qui ex suasione praedicti pauli nuper factus est a serenissimo principe Constantino imperatore contra catholicam Ecclesiam.."

ايقونه قبطية فريدة مرسومة على الخشب للسيد المسيح واضعا يده على كتف الانبا مينا من كنيسة باويط من القرن السابع الميلادى. موجودة حاليا بمتحف اللوفر فى باريس

وكانت جميع البيع متفقه على الأمانة الارتدكسيه ووحدانية المسيح فى كل موضع وصقع، ببهجه وتعظيم واتفاق قول الحق بمجد الله الاه السما وسيدنا يسوع المسيح الكلمه وروح القدس الاله الواحد بكل موضع يكون فيه إجتماع، بقول واحد ومحبة للأخوة. هذا قول ديوناسيوس.

ثم كتب أيضا الى استفانوس سبب تعميد الذين رجعو من انكارهم المسيح فى الإضطهاد وأن يميزو هذا الأمر فإنه عظيم جداً. وإن جماعة

وأرادتين للمسيح(١). وكان هذا كافياً لإرضاء مشاعر روما، على حساب مشاعر المنافزة بطبيعة الحال.

أما المجمع المسكونى السابع والأخير فقد انعقد فى نيقيا سنة ٧٨٧ لفض النزاع الطويل الذى دار حول الأيقونات. والأيقونات هى صور المسيح والعذراء والقديسين، وتشمل أيضا الصلبان والتماثيل والمخلفات المقدسة، التى كانت بيوت العبادة فى الإمبراطورية البيزنطية وبخاصة البيوتات الديرانية تزخر بها. ولقد تورط المجتمع المسيحى فى العصور الوسطى فى تبجيل هذه الأيقونات إلى حد وصل إلى مصاف العبادة، مما يعيد للأذهان تجدد العادات المخالفة القديمة. ومنذ وقت مبكر حذّر الآباء الرعية من هذه الشعوذة: فذكر المؤرخ الكنسى يوسبيوس أنها عادة وثنية، كما وأن المجلس الذى عقد فى الفيرا Elvira بإسبانيا فى بداية القرن الرابع أدان عبادة الأيقونات أيضاً. كذلك عبر البابا جريجورى العظيم (٥٩٠ ـ ٦٠٤) عن معارضته لعبادة الأيقونات ورأى فى هذه الصور «مجرد أدوات للتعليم الدينى للعامة الذين «لا يجيدون القراءة».

(1) "et duas naturales voluntates in eo, et duas naturales operationes indivise, inconvertibiliter, inseparabiliter, inconfuse secundum sanctorum patrum doctrinam adaeque praedicamus.."

الأساقفة المجتمعين قد ذكرو هذا كما سمعنا. وان الذين يدخلون التعليم ويتركون الشقاق والخلاف يجب أن يحمو حتى يصيرو جدد بصبغة ليتخلصو من اختلاطهم بالإنجاس. ويكلم أيضا ديونوسيوس فى كتابه بسبب خلف وشقاق سابليوس(*) لإنه سبب العله التى كانت طريقا الى التجديف على الله ضابط الكل. وقال ديونوسيوس فى كتابه: فقد انفذ الى بسبب الذين يحبون أن يعمدو الكل من المريدين وهم او ليانوس وديكسانوس وجماعة معهم.

(*) سابليوس: هوصاحب عقيدة «مؤلمي الأب» التى تعتقدان الله نفسه لا أحد اقاينمه هو الذى كفر عن خطايا البشر. وقد حرمه البطرك ديونوسيوس فى مجمع عقده بالاسكندرية سنة ٢٦١م

وكان أول من اعتنق بدعة نونيتوس وسابليوس زفيرينوس أسقف رومية وكاليسطوس خليفته وساعدا المبتدعين على نشر بدعتهما حتى انتشرت وعمت أنحاء الغرب.ومما زاد الطين بلة أن كاليسطوس سام أساقفة

والأباطرة الذين شنوا حرباً على عبادة الأيقونات هم افراء الأسرة الأيسورية أو السورية التى أسسها ليو الثالث (٧١٧ ـ ٧٤١) وانتهت بانتهاء حكم ثيودورة (٨٢٩ ـ ٨٤٢). ويعرف الأباطرة الذين حاربوا الأيقونات «بمحطمي الأيقونات» Iconoclasts، فى حين أن عبادها يعرفون باسم Icondules. وقد كانت حرب الأيسوريين ضد الأيقونات على فترتين: الأولى من عام ٧٢٦ إلى ٧٨٠، والثانية من ٨١٣ إلى ٨٤٣[1]. ولقد اتسمت هذه الحركة بالشدة والقسوة، وكان جل الضحايا من الرهبان الذين عارضوا هذه السياسة اللاأيقونية فى عناد شديد. ويرى المؤرخون فى هذه السياسة اللا أيقونية إصلاحاً اجتماعياً واقتصادياً ودينياً فى حين واحد: فهى محاولة من جانب الأباطرة لتطهير الكنيسة من العادات الوثنية، كما وأنها كانت فرصتهم أو حجتهم لتجريد البيوت الديرانية من أموالها الطائلة التى تكدست فيها من النذور والهدايا الوفيرة، وهى فى نفس الوقت تأكيد من جانب الجالس على عرش قسطنطين بأنه صاحب صلاحيات الرأس الأعلى للكنيسة إلى جانب مهامه كقيصر: فالإمبراطور ليو الثالث (٧١٧ ـ ٧٤١) عندما كتب إلى البابا جريجورى الثانى أكد له أنه ذاتيًا لا غبار على أرثوذكسيته، وانما هو ثائر على العادات الوثنية الرذيلة المتفشية فى كنائس الإمبراطورية، ثم أصر على حقه فى أنه «رجل دين وقيصر» فى آن واحد، وهذا هو حقه التقليدى المعروف

(1) See Vasiliev, op. cit., "The Isaurian Dynasty".

وأقامت البيعه هادية مدة يسيره حتى توفى الملك وملك بعده ملك كافر اسمه ولاريانوس فأخذوا نوابه ديونوسيوس واعتقلوه بامره، وقتلو جماعة شهدا لا يحصون، حتى إنهم كانو يشقون بطون الأطفال ويأخذون مصارينهم ويصلحونها لفايفا على أنابيب القصب ويرمون بها للشياطين.

ثم إنهم عاقبو ديونوسيوس البطرك وطالبوه أن يسجد لأوثانهم، فقال لهم: نحن نسجد لله تعالى وأنتم تسجدون لما تحبون وسجودنا للسيد المسيح

وقسوسا وشمامسة من الذين تزوجوا ثانية وثالثة ثم أباح العماد لمغفرة الخطايا وادعى بأن الاسقف لا يقطع من الكهنوت مهما جنى من الاثام. ولما لم يوافقه سابليوس على ذلك حرمه فجاء الى مصر سنة ٢٥٧م وأخذ ينشر فيها بدعة «مؤلهى الآب» فجذب اليه كثيرين ولما اتصل أمره بالبابا ديونيسيوس قاومه بشدة كما مر بنا في تاريخ حياة هذا القديس وانتهى الامر أخيرا بحرم سابيلوس فى مجمع عقد سنة ٢٦١م.

بالقيصر ـ بابوية Caesaropapism الذى كان العامل الأكبر فى الصراع على مدار العصور الوسطى بين البابا وبين الإمبراطور.

والملاحظ أن جميع الأباطرة الذين أقدموا على تحطيم الأيقونات كانوا من أصل شرقى، ولعل هذا يعكس أثر الديانتين اليهودية والإسلامية على طريقة تفكير هؤلاء الأباطرة، ولقد عبر عن هذا المعنى المؤرخ المعاصر ثيوفانيس فى قوله بأن ليو الثالث كان صاحب «عقلية متأثرة بالتعاليم الإسلامية». ومما يلفت النظر أيضاً أن إرجاع عبادة الأيقونات قد تم على يد سيدتين من أصل إغريقى وهما: الإمبراطورتين إيرينى (٧٩٧ ـ ٨٠٢) وتيودورة (٨٢٩ ـ ٨٤٢).

هذا وفى سنة ٧٥٤ عقد الإمبراطور قنسطنطين الخامس كوبرونيموس (٧٤١ ـ ٧٧٥) مجلساً فى القسطنطينية حضره ثلثمائة من رجال الدين، ولكن لم يشارك فى هذا المجلس أحد من كراسى روما وأنطاكية وأورشليم والإسكندرية. وقرر المجلس اعتبار من يعبد الأيقونات عدواً للأرثوذكسية وللدولة وحقت لذلك محاكمته. واستمرت موجات العنف بين أنصار الأيقونية ودعاة اللا أيقونية إلى أن تولت الحكم الإمبراطورة إيرينى فدعت بمعونة البطريرك تارازيوس إلى عقد المجمع المسكونى السابع فى القسطنطينية فى عام ٧٨٦. وقد حضر إلى هذا المجمع

خالق السما والأرض الذى نحبه. فقال له الوالى: انت ما عرفت صبر الملوك عليك فإن سجدت لألهتهم أكرمناك وقدمناك وإن لم تفعل وخالفت الأمر ولم تسجد للآلهة فسترى ما يجرى عليك. وأخذ جماعة كانو معه فقتلهم بعد أن خاطبه خطابا كتيرا، ثم اخرجه ونفاه الى موضع يقال له قولوثى، وتفسيره حاجب، فعمل أهل ذلك الموضع معه الجميل ومع كلمن كان معه ممن لم يسجد للأصنام. وبعد ذلك اعادوه ليحكمو عليه بالموت

مندوبون من قبل البابا هادريان الأول. وبدأت الاجتماعات في كنيسة الرسل بالقسطنطينية، غير أن كتائب الجند التى كانت ما زالت تؤيد الأباطرة الراحلين فى سياستهم اللا أيقونية هجموا على أعضاء المجمع شاهرين سيوفهم في وجه البطريرك وأعضاء مؤتمره. واضطر المؤتمرون إلى الهروب والتفرق. ولكن الإمبراطورة إيرينى سرعان ما نجحت في طرد العناصر المعارضة لسياستها من صفوف الجيش. ثم تابع المؤتمر جلساته في سنة ٧٨٧ في نيقيا هذه المرة. وقد عقدت الجلسة الختامية للمجمع المسكوني السابع في القصر الإمبراطورى في مدينة القسطنطينية، وفيها تقرر إعادة تبجيل الأيقونات كما كانت الحال من قديم، كما قدم المؤتمرون الشكر للإمبراطورة الأم إيريني ولابنها القاصر قسطنطين السادس وخلع عليهما لقب «قسطنطين الجديد وهيلانه الجديدة»[1].

* * *

(1) ".. Regiae quasi continuati semitae, sequentesque divinitus inspiratum sanctorum patrum nostrorum magisterium, et catholicae traditionem Ecclesiae, definimus in omni certitudine ac diligentia, sicut figuram pretiosae ac vivificae crucis..: tam videlicet imaginem Domini Dei et Salvatoris nostri Iesu Christi, quam intemeratae dominae nostrae sanctae Dei genitricis, honorabiliumque anglorum, et omnium sanctorum simul et almorum virorum.."

فاحضروه الى الوالى فقال له: بلغنا إنك تنفرد فى الموضع وتقدس انت وأصحابك. فقال له: نحن ما ندع صلاتنا ليلا ونهار. وخاطبه خطابا كتيرا، ثم تركه والتفت البطرك الى الذين كانو معه وقال لهم: أمضو الى كل موضع وصلو وقدسو فإن غبت عنكم بالجسد فأنا معكم بالروح. ثم أن البطرك اعيد الى الموضع الذى كان فيه منفيا فحزن الذين كانو معه لأنه افترق منهم، لكنهم قالو: نحن نعلم أن السيد المسيح معه فى كل طرقه.

هذا عن الهرطقة وتاريخها فى النصف الشرقى من الإمبراطورية الرومانية. أما عن الهرطقة فى الغرب فإنا نكتفى هنا بالحديث عن طائفتين فقط هما الدوناتية والبيلاجية(١).

وترجع جذور الدوناتية إلى عهد دقلديانوس وشركاءه فى الحكم على زمن الاضطهاد. وقد ظهرت هذه الفرقة فى شمال أفريقيا، الذى كان واقعاً تحت نفوذ الإمبراطور ماكسيميان الذى ابتلى المسيحيين الأفريقيين بنار الاضطهاد ما بين عامى ٣٠٣ ـ ٣٠٥. فلقد أمر ماكسيميان محاكم التفتيش بإرهاب الكنائس الإفريقية، وكانت هذه القسوة سبباً فى أن البعض من رجال الإكليروس فى الشمال الإفريقى قد ضعفوا واضطروا إلى تسليم الكتب المقدسة والأوانى الخاصة بخدمة الأسرار الكنسية إلى السلطات التى تناولت هذه المقدسات بالتدنيس أو التدمير. ولقد ندم نفر كبير من هؤلاء الذين ضعف إيمانهم وقت الشدة ورغبوا فى التوبة والعودة إلى حظيرة الأرثوذكسية، ولكن فريقاً مغالياً رفض السماح لهم بالعودة ووصمهم بلقب الخونة Traditores أو المرتدين. ولعل فى قصة منصور (منسوريوس) أسقف قرطاجة ما يكشف عن أبعاد الموقف: فهو لم يقاوم السلطات عندما أقدمت على إزالة الكتب المقدسة من كنائس أبروشيته، ولم يتحرك وهو يرى المراسيم الوثنية تقام فى بعض الكنائس. ولهذا اتهمه فريق

(1) See Fliche et Martin, Histoire do l'Eglise' Hughes, P., A History of the Church' Hefele et Leclercq, Histoire des Conciles.

ثم استشهد فى تلك الأيام جماعة من الأخوه لا يحصى عددهم على اسم السيد يسوع المسيح لامتناعهم من السجود للأصنام، واستشهد ولاريانوس الملك قوما كثيرا فى كل صقع وكل موضع، ثم إنه ثار عليه جماعة من البربر واتعبوه تعبا عظيما، وكان له ولد حكيم جدا قام فى الملك وكان قد ربى فى أيام الإضطهاد، فدفع هذا لديونوسيوس واصحابه كتاب اطلاق [افراج] وأمر ان يكتب فيه: يوليوس قيصر ضابط الملك المحب

«المعترفين» أو «المتطهرين»، وهم ذلك النفر الذين لاقوا صنوف التعذيب والآلام فى صبر وجلد، بالخيانة والردة. ولم يكتف هؤلاء الغلاة بهذا الموقف وانما نصبوا من أنفسهم حكاماً للكنيسة وراحوا يتحرشون بالحقوق الشرعية للأساقفة ومن بينهم منصور أسقف قرطاجة. ولكن منصور أعلن أن هنالك فرقاً شاسعاً بين الضحايا الحقيقيين للاضطهاد وبين بعض الناس الذين يتخذون من الاضطهاد ذريعة كاذبة لتحقيق مكاسب ذاتية مادية على حساب النظام الكنسى وشرعية الأساقفة. ورداً على هذا قامت جماعة «المعترفين» بقطع منصور من شركة التناول فى الكنيسة. ولما توفى منصور فى عام ٣١١ انتخبت الكنيسة القرطاجية خلفاً له الشماس سيسليان الذى قرر السير على سياسة سيده الراحل تجاه جماعة «المعترفين» الغلاة. ودبت الفرقة والحزازات الشخصية بين الجماعتين:

فريق سيسليان وجماعة المعترفين التى برز من بين أنصارها الخطرين امرأة مرموقة هى لوسيلا، وعدد من أساقفة نوميديا ثم دوناتوس Donatus أسقف مدينة Casae Nigrae فى نوميديا والذى كان يعيش وقتها فى قرطاجة. والى دوناتاس هذا تنسب الطائفة الدوناتية.

ولما احتدم الخلاف اضطر رئيس أساقفة نوميديا إلى الحضور إلى قرطاجة وفى معيته سبعون من الأساقفة للفصل فى هذا الموقف المتأزم. غير أن سيسليان تجاهل هذا المجمع تماماً، فأعلن المؤتمرون أن سيسليان غاصب لعرش الأسقفية وعينوا بدلا منه واحداً من حاشية السيدة

لله يكتب لديونوسيوس البطرك وديمتريوس ولباقى الأساقفه ويأمر بمراعاتهم، ومن كان يبغضهم فليبعد عنهم. وتفتح لهم بيعهم فيتقوو بكتابنا ولا ينالهم بعد اليوم عذاب ولاخزى ولاغم بعد هذا الزمان، لكى يكملو خدمتهم لله وصلواتهم، وقد أطلقناهم، وقد وليت أريليوس كيريلنوس وامرته أن يحفظهم ويراعيهم، ويصلون صلواتهم ويقدسو قداساتهم. وكان هذا الكتاب مكتوبا باليونانية. وكتب كتابا أخر للأساقفة بأن يأخذو دياراتهم

لوسيلا واسمه مايورينوس. كذلك قرر المؤتمر أن فيلكس أسقف أبتونجا، الذى كان قد رسم سيسليان للأسقفية، هو أيضاً من «المرتدين» الخونة، ومن ثم فإن نعمة الاكليروس يجب أن تسقط عنه لأنه لا يصح لمرتد أن يمارس أسرار الكنيسة من عماد وميرون وتناول وزيجة إلخ. وهذه الآراء ليست بالشيء الجديد على كنيسة شمال إفريقيا فهى ترديد لنظرية القديس كبريان.

ولقد تفاقم الموقف فى شمال إفريقيا فى عام ٣١٢، وهو نفس العام الذى شهد انتصار قسطنطين العظيم على أعدائه فى واقعة قنطرة ملفى، وهو أيضاً نقطة التحول فى موقف قسطنطين إلى جانب الديانة المسيحية بوجه عام. ولما وصلت تفاصيل النزاع إلى مسامع الإمبراطور جاء حكمه فى جانب الأسقف سيسليان، كما أمر بخلع الأساقفة الدوناتيين عن كراسيهم. ولكن الدوناتيين احتجوا على هذا القرار وطعنوا فى شرعية حكم سيسليان، طالبين تحكيم أساقفة غالة.

وافق قسطنطين على مطارحة المسألة من جديد، وشكل محكمة فى روما من عدد من أساقفة غالة وإيطاليا وعلى رأسهم البابا ذاته للفصل فى النزاع الدوناتى، وكان ذلك فى أكتوبر ٣١٣. وانعقدت المحكمة فى قصر اللاتيران Lateran، واستمع القضاة إلى رأى كل من الفريقين، وانتهوا إلى قرار بأن دوناتوس ليس على صواب فى موقفه، وبأن سيسليان هو

ومواضعهم كلها. وكان في ذلك الزمان كستس اسقف رومية وديمتريانوس اسقف انطاكية وبرميليانوس اسقف قيسارية كبادوكية واغريغوريوس اسقف بنتس واخوه اثاندرس أسقف قيسارية فلسطين واوماناوس أسقف يروشليم، وهو الذى أخذو رأسه لاعترافة بالمسيح. فلما طعن ديونوسيوس في أيام ضعف جسده من كثرة ما لحقه من الإضطهاد ولم يفتر مع هذا ليلة واحدة من قراة الكتب المقدسه، فلما علم الله تعالى

الأسقف الشرعي لقرطاجة. ولكن هذا القرار لم ينه الصراع وانما زاد النار ضرما؛ إذ تحفز لكل أسقف كاثوليكي خصم دوناتي ينغص عليه حياته وعلى أبروشيته. وأمام هذا أمر الإمبراطور قسطنطين موظفيه المدنيين بفحص الأمر عن كثب. وتركزت القضية الآن حول شخصية فيلكس الذى اتهمه الدوناتيون بالخيانة والردة أيامي الاضطهاد. ونبش موظفو الإمبراطور في ملفات محاكم التفتيش كما عثروا على القاضي الذى قيل إنه كان قد أصدر قراراً بالقبض على فيلكس. وأدلى القاضي بشهادته ونفى جميع الشبهات عن فيلكس، فهو لم يقبض عليه ألبتة. وكشفت التحقيقات أيضا عن أن الدوناتيين قد زيفوا بعض الوثائق لتجريم فيلكس البرىء. وقد أرسل الإمبراطور بهذه الوثائق الخطيرة إلى المجمع المنعقد في مدينة أرلس Arles بغالة (أغسطس ٣١٤). وقرر المجلس أن طائفة الدوناتية «متهوسة تعصباً»، وأنها خطر يهدد المسيحية ذاتها. وانتصر المجلس لسيسليان على خصومه.

لم يكف الدوناتيون عن شغبهم واحتجوا مرة ثالثة إلى قسطنطين. واضطر الإمبراطور إلى أن يستدعى كلا من دوناتوس وسيسليان للاجتماع به في مدينة بريشيا، وبعد مدارسة الأمر مع مستشاريه قرر في صالح سيسليان، وأمر بأن تنزع الكنائس التى في يد الدوناتيين وتسلم للكاثوليك، كما حرم على الدوناتيين عقد أية اجتماعات فيما بينهم. وقد تبع هذا قيام عدة ثورات خاصة في نوميديا حيث كان الدوناتيون يسيطرون على الموقف، فأرهبوا الكاثوليك وقتلوا منهم أعداداً وفيرة.

محبته للكتب أنعم عليه بقوة بصره حتى إنه صار يبصر كما كان في أيام شبابه. ولما لم يقدر يمضي الى المجمع الذى اجتمع على بوله السميساطى(*) أرسل رسلة برسالة مملوه حكمه وتعاليم الى الاساقفه المجتمعين بسببه، لأن بوله كان كالديب الذى يهر على الخراف، فمضى اساقفة المجمع مسرعين الى انطاكية بمجد السيد المسيح. ومن جملة من حضر المجمع برمليانوس أسقف قيساريه كبادوكية وغريغوريوس المقدم ذكره واخوه

(*) بولس السميساطى: ولد فى سميساط قرية فيما بين النهرين، وكانت له حظوة عند الملكة زنوبيا ملكة تدمر حتى أنها وكلت له جباية الخراج وبذلك تقلد وظيفة دوسناريوس (أى والى من الدرجة الاولى). زعم أن ابن الله لم يكن من الازل بل ولد انسانا حل فيه كلمة الله وحكمته عندما ولد من العذراء وأن هذه الحكمة التى مكثته من أن يعلم ويعمل العجائب فارقته حين قدم

والدوناتية، هذا التعبير عن الخلاف المذهبى فى ظهرها، إنما كانت ثورة اجتماعية عارمة فى حقيقة أمرها، فهى الفرصة التى أتاحت الانفلات للعواطف المكبوتة والكراهيات القديمة والأحقاد الدفينة ضد السادة الرومان والنبالة الرومانية الفاحشة الثراء. وليس أدل على صدق ذلك من حقيقة أنه حيثما انتصرت الدوناتية انقضت عصابات من المفلسين والمعدمين، وهم يرفعون لواء الأسقف الدوناتى تميمة تحميهم، ترتكب جرائم السلب والقتل. وهكذا هلك كثير من كاثوليك شمالى إفريقيا وبخاصة من الأثرياء، فالدوناتيون كانوا يبغون من النبلاء والأساقفة الأعداء رؤوسهم وروؤس أموالهم على حد سواء. أما هذا النفر من الكاثوليك الذين رفعوا راية الاستسلام للدوناتية فقد أجبروا على قبول المعمودية من جديد وفق المراسيم الدوناتية، وان كانوا من الإكليروس أعيدت مراسيم سيامتهم مرة أخرى. وأما الكنائس الكاثوليكية التى سقطت فى أيديهم فقد غسلت ثم أعيد غسلها لتطهر من طقوس الردة، فى حين أن ما تبقى فيها من قربان التناول قد ألقى به على قارعة الطريق وجبة ممقوتة للكلاب الضالة.

ولم تهدأ الأمور إلا فى عام ٣٢١ عندما أصدر الإمبراطور قسطنطين قرارا بالتسامح للدوناتية، وأمنهم على عقيدتهم وحقوقهم فى المناطق التى كانوا قد سيطروا عليها. واستغل الدوناتيون هذا القرار وراحوا يثبتون مراكزهم ويدعمون حركتهم لمدة خمسة وعشرين عاما.

اتاندروس والنوس أسقف طرسوس ونيكوموس اسقف ايكونيا واوماناوس اسقف اورشليم ومكسيموس اسقف وسترا وجماعة معهم اساقفة واقسة وشمامسه فاحضرو بولها السميساطى[وسألوه عما قاله ووبخوه على تجديفه على السيد المسيح، فلما لم يرتد قطعوه ونفوه.

وفى هذا الزمان تنيح ديونوسيوس بطرك اسكندرية وكان مدة مقامه على الكرسى سبع عشره سنه، وتنيح فى تلته عشر يوما من برمهات، وفى نسخة بدير ابى مقار أن مقامه على الكرسى

على الالام. وبسبب اتحاد الكلمة الألهية هذا بالانسان يسوغ القول ان المسيح هو الله وليس بمعناها الحقيقى. ونشا عن ذلك ضلاله أخرى وهى انه كان فى المسيح اقنومان وابنان لله أحدهما بالطبيعة والآخر بالتبنى. وبذلك شايع سابليوس فى انكار الثالوث الاقدس بقوله يوجد اله واحد تحسبه الكتب المقدسة بالاب وان حكمته وكلمته ليست اقنوما بل انها فى العقل الالهى بمقام الفهم فى العقل الانسانى.

- -

وفى عام ٣٤٧ رأى الإمبراطور كونستانس (قنسطانز) ضرورة تحرير كاثوليك شمالى إفريقيا من إرهاب الدوناتيين، فقبض على جميع الأساقفة الدوناتيين فى نوميديا ونفاهم، ثم سلم كنائسهم إلى الكاثوليك. وساد السلام حتى ارتقاء جوليان المرتد العرش: فلقد رأى المرتد أن أكبر ضربة يمكنه أن يسددها للمسيحية هى أن يعيد الأساقفة الدوناتيين من المنفى، وذلك ليثير الفتنة من جديد بينهم وبين الكاثوليك فتضعف بذلك شوكة المسيحية. ولكن جوليان توفى بعد عام من إصدار هذا القرار.

ظلت الاضطرابات تعكر صفو الكنيسة فى شمال إفريقيا على عهود الأباطرة ڤالنتينيان الأول وجرانيان وڤالنتينيان الثانى. ولكن باعتلاء ثيودوسيوس العظيم العرش انكسرت شوكة الدوناتية؛ ذلك أن هذا الأمير الإسبانى الكاثوليكى العنيد لم يكن ليعرف أنصاف الحلول. ولعل العامل الآخر الذى ساهم فى كسر جناح الدوناتية هو ارتقاء القديس أغسطينوس عرش الأسقفية فى مدينة هيبو فى عام ٣٩٦. ولقد جادل أغسطينوس بحسن منطقه الأساقفة الدوناتيين وحاول إقناعهم بشتى الطرق، ولكنه تعفف عن سبل العنف والاضطهاد برغم أنه قد تعرض للهلاك ذات مرة على أيديهم. ولم يتوان أغسطينوس فى إصدار سيل من الرسائل والمواعظ والمقولات والأناشيد الكنسية لتفنيد النظريات الدوناتية، وكانت هذه تعلق على أبواب الكنائس والمساكن العامة لسد الطريق أمام الدوناتية. وقد وقف الأساقفة الكاثوليك صفا

ولما بلغت القديس ديونيسيوس البطريرك الاسكندرى أخبار بولس أرسل اليه رسائل عديدة وبين له فيها مخالفة غواياته لنصوص الكتاب وشهادة الآباء. وقد جاوب بولس على بعض هذه الرسائل ولأجله عقد مجمع فى انطاكية تكرر انعقاد مرارا. وكان المتقدمون فيه فرميليانوس أسقف قيصرية واغريغوريوس أسقف قيصرية الجديدة وأخاه ايثنوذورس وايلينوس أسقف طرسوس وايماناوس أسقف أورشليم وغيرهم كثيرون. أما سبع سنين. وقد شهد سعيد ابن بطريق فى كتاب التأريخ إنها سبع عشرة سنة وهو موافق للسيرة التى نقلت منها هذه النسخة. ولربنا المجد دايما سرمدا.

مكسيموس البطرك

وهو من العدد الخامس عشر

٢٦٤ / ٢٨٢م

وجعل بعد ديونوسيوس مكسيموس على كرسى القديس مرقس بمدينة اسكندرية العظمى فى سبع

- -

واحداً وراء أغسطينوس في جهاده هذا ضد الوناتية ما بين عامى ٤٠١ ـ ٤٠٣. وفى عام ٤٠٥ أصدر الإمبراطور هونوريوس مرسوماً باعتبار الدوناتيين هراطقة يجب استئصال شأفتهم. وفى عام ٤١١ قرر مجمع قرطاجة إدانة الدوناتية واستمطرها اللعنات. وفى عام ٤١٢ أصدر هونوريوس أوامره بتنفيذ قرارات مجمع قرطاجة هذا، وبالفعل تم القضاء على فرقة الدوناتية أو هرطقتها ـ إن شئت.

أما عن البيلاجية فهى تنسب إلى بيلاجيوس الراهب الإنجليزى الأصل الذى عاش فى روما فى أواخر القرن الرابع، واشتهر بالزهد والتقشف. ويرتبط بالبيلاجية اسمان آخران هما سلستيوس البريطانى، وجوليان من اكلانوم الذى كان أرسطاطيلى النزعة. والنظرية البيلاجية تؤمن بحرية الإرادة عند الإنسان فى قضايا الخير والشر، وبأن ليست هنالك ثمة عوائق تتدخل فى حرية الاختيار للبشر، وعلى هذا فإنه فى مقدور الإنسان القوى الإرادة أن يعيش حياة تصل إلى مرتبة الكمال.

وفلسفة بيلاجيوس هذه تهدم الرأى الكاثوليكى التقليدى الذى يقول بأن الخطيئة الكبرى للإنسان الأول ـ آدم ـ قد أسقطت عن بنى البشر الامتيازات الفضال التى كان الله قد أودعها فى آدم وقت الخلق. كما ترفض البيلاجية من هذا المنطلق فكرة أن السقوط الأول فى جنة

عشرة سنه من ملك جليانوس ووالاريانوس. واعان الأخوه فى أمور البيعة بكل موضع، وأخرج بوله السميساطى من البيعه لما عرف بأنه مخالف، لأن كل ما جرى فى المجمع بإنطاكية على بوله كتبوا به الى ديونوسيوس بطرك رومية والى مكسيموس بطرك اسكندرية لما جلس بعد ديونوسيوس، وكتب جميع المجمع بإتفاق روحانى قطع بوله وقالوا إنه لا يجب أن يسمى باسم بولس الرسول.

وكتبوا الى ديونوسيوس بطرك رومية

القديس ديونيسيوس فلم يتمكن من أجابة دعوة المجمع لداعى شيخوخته واكتفى بما أرسل من الرسائل للمجمع.

وفى النهاية عزلة القيصر الرومانى أورليان عن الكرسى الانطاكى.

عدن قد أورث بنى آدم جميعاً نزوعاً نحو الإثم. وإنما بشر بيلاجيوس بأن الطبيعة البشرية لكل مخلوق فرد تشبه طبيعة آدم البكر النقية وقت الخلق؛ أى قبل السقوط، وهذا يعنى أنها لم ترث أوزار الإثم الأول. ومن هنا فالإنسان حر تماماً، بل وليس فى حاجة إلى أى عون خارجى لكى يسلك الصواب. واذا كانت البشرية قد ضلت فإنها ضلت بمحض اختيارها وبحرية إرادتها: «لقد اختطت لنفسها الاختيار الخطأ». وفى وسع البشر أن يمارسوا بما زودهم الله به من ملكات تبيح لهم حق الاختيار للصواب، ولا يستلزم هذا إعادة لخلق الآدمية من جديد، ومن ثم فليس هنالك مبرر لمعمودية جديدة ولا لنظرية الفداء. وطقوس العماد ـ عند البيلاجيين ـ مراسيم ظاهرية لا تمس روح الإنسان فى شيء، فما هى إلا طقس خلقى يقصد به الموعظة، ويمكن الاستغناء عنه تماماً.

والصلاح إنما يكمن فى أعماق النفس البشرية التى هى من صنع الله، الخير الأعلى. وهكذا أفرغ بيلاجيوس سر «الفداء» المسيحى من مغزاه، بل إن تجسد «الكلمة» ذاتها لم يعد أكثر من معجزة كبقية المعجزات الأخرى كإحياء الموتى مثلا. وأخيرا يخلص بيلاجيوس إلى رأى جرىء: لئن نجح الإنسان فى الحصول على الخلاص تلقائيا، أى دون عون خارجى، فإن هذا يعنى أنه غنى بذاته عن وسطاء السماء (الإكليروس والكنيسة) بل عن السماء ذاتها.

ومكسيموس بطرك اسكندرية والى جميع اساقفة المسكونه والقسوس والشمامسة وجميع بنى المعمودية والبيعه السماويه المتفقه ويسمونهم ويقولون في كتابهم: الينس وهمناوس وتاوفيلس وتاوتكنص ومكسيموس وبركلس ونيكوموس وايليانوس وبولس وبروتجونوس وولانوس وهيركس واوتاخيوس وتادروس وملخيون ولوكيوس وبقيتهم الذين في المدن والقرى القريبة منا[والبعيدة عنا] قد كتبنا إليكم ياإخوتنا الاساقفة القديسين

ويتساءل الفيلسوف الإنجليزى: هل هنالك إذن حاجة إلى الدين؟. والصلاة بشكلها المعروف تصبح عند بيلاجيوس مجرد هراء وعبث؛ لأن الله لا يهتم إلا بالقلوب وبالأفعال.

وصل بيلاجيوس ورفيقه سيلستيوس إلى شمالي إفريقيا فى عام ٤١٠ فراراً من جحافل آلاريك المحاصرة لروميا. وتقدم سيلستيوس إلى أسقف قرطاجة ليرسمه قساً، ولكن الأسقف رفض طلبه واتهمه بالهرطقة ثم أصدر ضده قراراً بالحرمان. ولهذا ترك سيلستيوس شمالى إفريقيا مخلفاً وراء نفراً من الأتباع. ولما وصل إلى أفيسوس نجح فى الحصول على منصب كنسى دون عناء. أما بيلاجيوس فقد سافر إلى أورشليم وقوبل هناك بالترحيب الزائد، وافتتن الكثيرون بعظمة لسانه وحياته الزاهدة. ولكن القديس جيروم، الذى كان مقيماً آنذاك فى أورشليم، لم يلبث أن هاجم آراء بيلاجيوس برغم الحماية التى كان أسقف أورشليم قد بسطها على بيلاجيوس. ولما اشتد الجدل حول البيلاجية عقد مجلس في أورشليم، ولكن المجلس لم يصل إلى نتيجة حاسمة فأحال الأمر إلى روما فى عام ٤١٥ . كذلك التأم مجلس آخر فى مدينة ديوسبولس Diospolis فى عام ٤١٥ ، حضره أوروزيوس الإسبانى نيابة عن القديس أغسطينوس، وأسقفان من غالة، وتدارس المؤتمرون النظرية البيلاجية ولكنهم لم ينتهوا فيها إلى شيء. وفى عام ٤١٦ تلقى البابا أنوسنت الأول رسالة من القديس أغسطينوس ضمنها شرحاً وافياً لطبيعة الجدل حول البيلاجية، وبناء على هذا قرر البابا التصديق على قرارات

[١٥ : مكسيموس ٢٦٤/ ٢٨٢م]

والشعوب المحبين للسيد المسيح ابن الله، ندعوكم الى الصلاة للرب أن يزيل عنكم موامرة بوله السميساطى فالذى معه يولد له الموت أكثر من كل أحد، لكى تكونو معنا بقلب واحد مثل ديونوسيوس بطرك اسكندرية وبرمليانوس أسقف [قيسارية] كبادوكية الذين كتبو إلينا الى انطاكية حتى هدمنا ريس الضلاله الذى لم يعلمو شيا من اقاويله الرديه، لأنا نحن الذين قرانا كتبه فى المجمع بالأمانه الفاسدة وشهدنا بهذا ومن معنا. ومن بعد

- -

الحرمان ضد بيلاجيوس وسيلستيوس. وفى عام ٤١٨ أرسل البابا زوزيموس قراره المعروف باسم «تراكتوريا» Tractoria إلى شمالى إفريقيا يدين فيه البيلاجية صراحة بالهرطقة. وقد أصدر مجمع قرطاجة السادس عشر (سنة ٤١٨) قراراته بالآناثيما ضد أتباع البيلاجية[1]. أما جوليان من أكلانوم فكان واحداً من أساقفة جنوب إيطاليا المناصرين للبيلاجية، وقد هرب إلى الشرق عندما أصدر البابا زوزيموس ضده قراراً بالحرمان. وقد وصل جوليان إلى مصيصه حيث تعرف على اللاهوتى الشهير ثيودور أسقف المدينة، وقد تأثر ثيودور بالبيلاجية إلى حد كبير.

ولقد أفاض القديس أغسطينوس فى الرد على البيلاجية، وجاء رده متوافقاً، بطبيعة الحال، مع آراء الكنيسة الكاثوليكية. يقول القديس: إن الله خلق آدم ولم يكن محتاجاً إلى عبوديته بل إن البشر هو المحتاج إلى الربوبية. وزود الرب أبانا الأول بهبة الخلود وبإرادة خيرة تماماً، كما

(1) Carthaginense Conc., Can. 2.: "Item placuit, ut quicunque parvulos recentes ab uteris matrum baptizandos negat, aut dicit in remissionem quidem peccatorum eos baptizari, sed nihil ex Adam trahere origmalis peccati, quod lavacro regenerationis expietur, unde sit conse - sed nihil ex Adam trahere originalis peccati, quod lavacro regenerationis expietur, unde sit conse- quens, ut in eis forma baptismatis "in remissionem peccatorum" non vera, sed falsa intelligatur- A.S."

ذلك عاهدنا إنه يتوب وكان ذلك منه هزوا[ء]ا وغدرا وقسا قلبه ولم يتب ويبقى على ضلاله مفتريا على الله بكلامه، فأنكر جحد الرب فى أمانته.

وصفة حال هذا بوله إنه انتقل من أمانته الى الكفر والضلالة والهلاك، وكان فقيراً فى جنسه فقراً ظاهرا لأنه لم يرث شيا عن سلفه ولم يرزق شيا من صنعته بيده، واستغنى من مال البيعه. وكان ينهب الهياكل بالناموس، ويقطع مصانعات

- -

صاغ فيه العقل والحواس وتوج آدميته بالمعرفة. ولكن آدم «اشتهى» ثمرة الشجرة المحرمة، ثم أكل منها بغواية الحية وحواء وبهذا يكون آدم قد «هجر الله»(١). وتعرى آدم وعرف حواء وولدت بالإثم، وتوارث بنو آدم هذا الإثم(٢). وتشهد سجلات التاريخ بتعاسة البشرية منذ هذا السقوط الأول. ولن يفلت من البشر واحد بسبب الخطيئة الكبرى وهى الجنس، فابن آدم يجرى وراء الشهوة فيطأ بقدميه القوانين والضوابط.

وهذه النوازع الآدمية الآثمة الموروثة قد وأدت فى ذرية آدم عنصر الخلود وحرية الإرادة التى كان الله قد أودعها أصلا فى «الوعاء النقى»، فى آدم الطيب قبل السقوط الأكبر. ولولا «الرعاية» الربانية والعطف السماوى لظلت البشرية متردية فى هلاك الهاوية إلى الأبدية،

(1) De Civitate Dei, Liber Decimus Tertius, Cap. XV, Col. 387: "Nam in eo quod inobediens motus in carne animae inobedientis exortus est, propter quem pudenda texerunt, sensa est mors una in qua deseruit animam Deus. Ea significata est verbis ejus, quando timore dementi sese abscondenti homini dixit, Adam, ubi es? non utique ignorando quaerens, sed increpando admonens, ut attenderet ubi esset in quo non esset Deus. Cum vero corpus anima ipsa deseruit aetate corruptum et senectute confectum, venit in experimentum mors altera, de qua Deus peccatum adhuc puniens homini dixerat, Terra es, et in terra ibis.."

(2) "Hoc est malum peccati in quo nascitur omnis homo."

الأخوه في الحكم، وإذا زادوه خصومهم برطيلا عاد معهم عليهم فاكتسب له غنى باطلا من كل وجوه الظلم. وكان مع هذا يظهر إنه [يحب] لله وكان يمشى مع الأعوان ويتسلط على[الصغار] ويدور في الشوارع ويحب أن يسمى باسم الأسقفية ويقلق الناس بكثرة من يصحبه من الجمع. وكان معه كتب يقراها كأنه يطلب الخراج ويوجب الناس إنه مقدم، ويصحبه قوم متسلحين قدامه وخلفه، وكان يبغض التعليم الروحاني ويحب

ولكن الله أرسل «الكلمة» فصارت فى بطن العذراء جسداً، وولد المسيح ليفدى البشرية ويغسل آثامها. أما وقد صعد المسيح إلى السموات، فقد ترك لنا على الأرض كنيسته بأسرارها المقدسة مجسماً للفداء والخلاص، وما شركة التناول إلا تكرار للفداء وغفران دائم للذنوب والخطايا. والمسيحية على هذا رسالة كنسية تقوم على الفداء وتحيا «بالنعمة» الإلهية التى لا خلاص للبشرية من إثم هذا العالم بدونها.

وبهذه النظرية يكون أغسطينوس قد محا حرية الإرادة وحكم على الجنس البشرى بشىء أشبه بالإعدام، لأنه لا خلاص إلا من فوق! أليست هذه ردة إلى القدرية واليأس؟!

التعاليم البرانية. ويرفض الغريب إذا دخل فى البيعه، ويطلب المجد من المقدمين، ويحتال على المجد الفارغ بكل نوع، حتى إنه وضع له كرسيا له منبر عال كأنه تلميذ المسيح وهو غريب من البيعة، وكان قد جعل النسا يقرأن فى ليالى الأعياد وفى جمعة الفصح عوض المزامير والتسابيح، وكان الأخوة المومنون يسدون اذانهم إذا سمعوهن يقرأن. وكان لا يقبل شيا من الكتب، ولا يقول أن المسيح ابن الله ولا إنه نزل من السما وتجسد من مريم

قوانين المجمع المسكونى الأول
نيقيا سنة ٣٢٥م

هذه المخطوطة جزء من كتاب «خطى» لكاتب مجهول الاسم. على أننا نستدل من فصله بعنوان «القول الفاتح» أنه من إكليروس أنطاكية الأرثوذكسيين وذلك من قوله «أما بعد فيقول الأب الجليل الأقدس والراعى النبيل الأنفس كير سيلبسترس البطريرك الأنطاكى الكلى الغبطة، أدام الله تعالى رياسته، وأعاد علينا آثار بركاته من طيب أنفاس قداسته آمين». وكير (أو مار ويقابلها فى اللاتينية لقب دومينوس) سيلبسترس هذا جلس على كرسى أنطاكية سنة ١٧٢٤ وتوفى فى مارس ١٧٦٦. وفى عهده تمت ترجمة لهرطقات اللاتين. وعلى هذا فإن كاتبنا معاصر لهذه الفترة، وأغلب الظن أنه كتب كتابه هذا أثناء تولى هذا البطريرك للكرازة الأنطاكية. والكاتب على درجة رفيعة من العلم، وربما أنه كان يشغل منصب الأسقفية، ونستدل على ذلك من قوله: «إن كان حفظ الناموس من أهم الأمور وأعمها فى سياسة المؤمنين ونظام أحوال المسيحيين فيما يخص الرؤساء ويعم المرءوسين، لأجل ذلك قد ينبهنا الرسول الإلهى قائلا: احترسوا إلى أنفسكم والى جماعة الرعية التى أقامكم روح القدس عليها أساقفة لترعوا كنيسة الله التى اقتناها بدمه».

ويحدثنا الكاتب عن الدافع الذى حثه على كتابة هذا المصنف القيم فيقول: ولما كان نظام الأصول جاريا على هذا المنوال، حذراً من التشويش والاختلال فى أمر الأحكام الشرعية

العدرا، بل كان يجدف تجديفا كثيرا، ويظهر إنه من جملتنا. فوجب أن اجتمعنا فى مجمع وقطعناه، واقمنا عوضه إنسانا خايف من الله اسمه دمنوس ولد الطوباني ديمتريانوس، وهو الأن فى البيعه مستحق لمجدها. وقد كاتبناكم بهذا لتكاتبو هذا الجديد وتقبلو كتبه بالسلامه كترتيب البيعه. فاما بوله السميساطى فقد مرق من الأمانة وأخذ دمنوس اسقفيته ونحن بانطاكية.

وبدأ الملك وريليانوس [اورليان] يقيم الإضطهاد

والحدود الواجبة المرعية البيعية، لزم أننى راجعت النظر والاطلاع على القوانين المقدسة والحدود المدونة فى كتاب الناموس الموجود فى اللغة العربية، وقابلته على موضوع أصله فى اللغة اليونانية فرأيت أكثر القوانين التى فيه مشوشة المعانى مختلفة العبارات والمبانى. محرفة عن صحة أصلها اليونانى مع ما تداخلها من الزيادة الباطلة وما نقص منها من القوانين والحدود الكاملة. فقمت حينئذ على ساق الجد والإقدام وشمرت عن ساعد الجهد والاهتمام فى رد ما خل عن أصلها وتصحيح ما زل عن موضوع ذويها وأهلها، أعنى بها قوانين الرسل القديسين والآباء الإلهيين وحدود المجامع المقدسة المسكونية والمكانية المدونة فى داستير البيعة المقدسة الرسولية الجامعة الكلية بإلهام الروح القدس الواهب للأنام مراسيم العدل والحرية».

وقد اعتمد الكاتب فى مصادره عن هذه القوانين على «كتب مجموعات عمدتى الآباء الأفاضل وقدوتى العلماء الأماثل: يوحنا زوفراس (القرن ١٢) الشهير فضله، والأب الأكرم كير تاودروس بلصامون البطريرك الأنطاكى الجزيل قدسه، وغيرهما من العلماء الفاضلين الذين جمعوا القوانين المقدسة على أكمل صحة وسداد وأصدق نقل ما لا طعن عليه ولا انتقاد».

المخطوطة

قوانين المجمع المسكونى الأول الملتئم فى نيقية

القانون الأول: أى من خصى من الأطباء فى مرض، أو قطع من البربر فليقم فى الكليرس.

على البيعه ولم تكن معونة الرب معه فيما هم أن يفعله.

وبعد ست سنين مات وصار بعده فروبوس الملك.

وفى زمان هذا الملك ظهر إنسان ردى يسمى مانى(*) واظهر افعالا رديه وجدف على الرب ضابط الكل وعلى الابن الوحيد وعلى الروح القدس المنبثق من الأب، وجسر ان قال ان جميعه بارقليط. وكان هذا [مانى] عبدا لامرأه ارمله كان

(*) مانى: ولد حوالى سنة ٢٣٩م، وكان قد اسره الفرس فتعلم فى بلادهم علوم الديانات الفارسية والفنون والفلك والطب والفلسفة. وبعد أن اعتنق المسيحية خرج بمذهب خاص طفق ينشره منذ عام ٢٦٨م ويدعى فيه أنه البارقليط الذى بشر به عيسى ليكمل رسالته. فى هذه الفترة من حياته حاربه ملك الفرس وحكم باعدامه، ولكنه هرب منه لفترة حتى قضى عليه وسلخ

وأما من أخصى ذاته فى حال الصحة، هذا وإن كان معدوداً فى زمرة الكليرس، يجب أن يعزل عن خدمته. ومنذ الآن فصاعداً لا ينبغى أن ينتدب أحد مثل هذا، وهو لأمر واضح بأنه كما قيل فى الذين يفعلون مثل هذا الأمر ويجسرون بأن يخصون ذواتهم هكذا. فإن كان قوم قد أخصوا من البربر أو من مواليهم كانوا على جهة أخرى مستحقين. فالذين مثل هؤلاء قد يقبلهم القانون فى الكليرس.

القانون الثانى: من حيث إنه قد حدث من إلزام الناس أو من ضرورة لازمة، أو من وجه آخر صارت أمور كثيرة واقعة بخلاف القانون الكنسى، حتى إنهم يقدمون إلى الحميم الروحانى بسرعة قوماً قادمين إلى الأمانة حديثاً فى عيشة أممية، وموعوظين فى زمن يسير، ومع معموديتهم قد ينتدبون إلى الأسقفية أو إلى القسوسية فلاح لنا أنه لجيد بأنه منذ الآن فصاعدا لا يصير أمر مثل هذا ألبتة، لأن الموعوظ قد يحتاج إلى زمان ومهل، وبعد المعمودية إلى اختبار أكثر، كالقول الذى كتبه الرسول القائل: لا يكون غرسة جديدة لئلا يتصلف فيسقط فى دينونة وفى فخ المحال. وأما إذا كان مع تمادى الزمان وجد فى ذلك الشخص خطية ما نفسية واشتهر بها من شاهدين أو ثلاثة، فمن كان مثل هذا فليبطل من الكليرس. وأما من فعل بخلافه بما أنه متقح ضد المجمع العظيم، فإنه قد سقط فى مخاطرة أن يعدم ذاته من الكليرس.

القانون الثالث: إن المجمع العظيم منع من السكنى مع امرأة، على أنه لا يجوز للأسقف ولا

لها مال كثير، وكان قد اوى اليها ساحر عظيم من اهل فلسطين وقع من فوق السطح فمات، فاشترت الامرأه ذلك العبد السو وعلمته فى الكتب[المدرسة] ، فلما كبر دفعت له كتب ذلك الساحر فلما قراها وعرف منها السحر مضى الى الفرس وحضر الى الموضع الذى فيه السحره والعرافون والمنجمون، فلما قوى فى علم الخطيه ظهر له الشيطان وقواه وحبب له بغض البيعه، فأضل قوما كثيرا بسحره وصارت الاموال تحمل اليه وصار له صبيان وصبايا يخدمون شهواته

جلده وسلمه للوحوش لتأكله ثم حشى جلده تبنا وعلقه على باب المدينة. وبعد موته (نشط تابعوه فطاف أقدرهم وأفصحهم في سوريا وفارس ومصر وأفريقيا وأكثر أماكن العالم وبصرامة آدابهم وبساطة ديانتهم تلمذوا في كل مكان تلاميذ ومع كل الاضطهاد الذى ألمّ بهم فإن نسلهم باق للآن في الجبال بين فارس والهند.

أما افكار مانى فيوضحها أحسن ايضاح موسهيم المؤرخ فروى انها كانت مؤلفة من تعاليم المسيحية

للقس ولا للشماس ولا بالجملة لكل من كان من آل الكليرس عموماً بأن يساكن امرأة دخيلة، أى أجنبية، ما خلا إذا كانت أمه أو أخته أو عمته أو خالته وتلك الأشخاص السالمة من كل ظن وحدها فقط[١].

القانون الرابع: إنه ينبغي أن يقام الأسقف خاصة من كافة أساقفة الأبروشية، فإذا كان ذلك عسراً لضرورة لازمة، أو لأجل طول مسافة الطريق، فلابد من اجتماع ثلاثةٍ معاً بعد شركة الغائبين في الانتخاب ومطابقتهم لهم بواسطة كتبهم. حينئذ تصير الشرطونية[٢]. وأما إثبات الأمور الصايرة في كل أبروشية ينتهي إلى المطروبوليت[٣]. ويتفوض إليه.

القانون الخامس: في الذين قد امتنعوا من الشركة من أساقفة كل أبروشية، إن كانوا من طغمة الكليروسية أو من العوام، حسب القانون الذى يأمر بأن المرذولين من آخرين لا يقبلون من غيرهم. إلا أنه يجب أن ينفحص في أمرهم لئلا يكونوا قد أخرجوا من الجماعة من تلقاء صغر نفس أو مما حكة وحب الغلبة أو من تكره الأسقف لذلك الشخص. فلكيما يحصل التفحص الواجب في هذا الأمر قد استبان صواباً بأن تصير المجامع في كل أبروشية مرتين في

(١) زواج رجال الدين في الكاثوليكية ممنوع تماما، وعند الأرثوذكسيين يتحتم على الرهبان والأساقفة والمطارنة البتل ولكن القسيين والقمامصة يجب عليهم أن يتزوجوا قبل سيامتهم. ويرى الكاثوليك في زواج رجل الدين إثماً ويعرفونه بالنيقولاوية Nicolaism.
(٢) أى قانونية وشرعية سيامة الأسقف.
(٣) رئيس الأساقفة أو المطران أو Metropolitan.

وفلسفة الفرس القديمة التي تلقنها في مدارسهم وهو صغير. وما تكلم به الفرس عن ملكهم ميثراس تكلم به ماني عن المسيح فعلم بأنه يوجد لكل شئ مادتان الواحدة نور والاخرى ظلمة وللاثنتين ربان رب النور سمى الله ورب الظلمة سمى الشيطان وكلاهما متضادان في الطبيعة والاميال ولان اله النور سعيد فهو رحوم محسن ولان اله الظلمة شقي يسعى ليجعل الغير أشقياء وكل واحد منهما أوجد طائفة كبيرة من النجسة، وكان يستعبدهم بسحره ويضل جماعه من الناس ويقول لهم إنه البارقليط الذى وعد السيد المسيح في انجيل يوحنا بارساله.

وكان انسان نصراني غني اسمه مرقلس ريس مدينه من اعمال الشام، وكان لها اسقف اسمه ارشلاوس، وكان ذلك الريس معه روح وبركه ابراهيم واسحق ويعقوب، وهو تلميذ البيعه وهو ملازم لها بكرة وعشيه مثل الفقير الذى ليس له شى، وكان يسمع مواعظ الاسقف كما يجب، ويفعل الخير من ماله مع اهل مدينته وكان بابه

السنة، لكيما باجتماع كافة أساقفة الأبروشية عموماً معاً يصير التفحص عن مثل هذه المسائل، وعلى هذه الحالة يستبان أولئك الذين أغاظوا الأسقف عند الكل باثبات أكيد، بأنهم قد امتنعوا من الشركة بالصواب، إلى حين ما يان لجماعة الأساقفة العامة بأن يبرزوا فيهم الأمر الصادر بالرفق والإشفاق. وأما هذه المجامع فليصر الواحد منها قبل صيام الأربعين، لكى بعد دحض كل صغر نفس تصير تقدمة القربان لله، أى الصوم. وأما الثانى فليكن نحواً من فصل الخريف.

القانون السادس: فلتحفظ السنن القديمة التى فى مصر وليبيا وبنطابوليس، فى أن أسقف الإسكندرية يكون له السلطان على هذه كلها، من حيث إن أسقف رومية له هذه العادة أيضاً. ومثل ذلك فلتحفظ الكرامة سالمة أيضاً فى الكنائس التى فى أنطاكية وفى الأبروشيات الأخرى. وذلك واضح عياناً مطلقاً بأن أيما أسقف سيم من غير رأى المطر وبوليت قدام المجمع العظيم، بأن مثل هذا لا ينبغى أن يكون أسقفاً. وأما إذا كان اثنان أو ثلاثة من تلقاء مما حكة تخصهم قاوموا انتخاب الكل العام الصاير بمقتضى الصواب وبموجب قانون كنسى، حينئذ فليثبت انتخاب الأكثر[١].

(١) كان هذا القانون السادس سبباً فى الصدام بين كنيستى روما وبيزنطة، لأنه على ثقل هذا القانون راحت كنيسة روما تطلب بالإمارة على الكنيسة العالمية.

مفتوح لكلمن يأتيه من المساكين والمظلومين بالخراج وغيرهم، متل ايوب القديس.

ولما كان في ذلك الزمان سبى الفرس اهل ضيعه قريبه منه واخربو البلد وقتلو اناسا كتيرا، فانفذ اليه المسببون وسالوه ان يفعل معهم رحمه، فاجاب سوالهم بمحبه واستدعي مقدم الفرس واخذ منه عدة المسببين. فلما رأو فعله الحسن امتنعو من ذلك وقالو له ما نفعل هذا لكن ادفع لنا ما شيت عن الرجال الذين معنا فاستقر الحال بينهم على تلت دنانير عن كل نسمه، فخلص

نسلة على شكله ووزعها في مملكته.

واستمر اله الظلمة مدة طويلة لا يعلم بوجود نور أو اله له ولكنه شعر بذلك من حرب حدثت في مملكته فحاول أن يستولى على اله النور فعارضه هذا بجنودة غير أن قائدهم المدعو الانسان الاول لم ينجح وتمكن جنود الظلمة من أخذ جانب عظيم من العناصر السماوية ومن النور ذاته الذى هو مادة حيوية فمزجوها بالمادة الفاسدة فقام من جنود النور قائد آخر يسمى بالروح الحي ومع انه

- -

القانون السابع: من حيث إنه قد جرت السنة القديمة والتقليد القديم في أن أسقف إليا[1] يكرم فلتستمر له الكرامة أيضاً مع إبقاء المقام الذى لمطر وبوليته[2]. سالماً لها.

القانون الثامن: في الذين كانوا وقتاً ما يسمون أنفسهم أنقياء[3]، ثم يقبلون إلى الكنيسة الجامعة الرسولية: لقد لاح للمجمع المقدس العظيم بأنهم يقيمون في الكليروس على هذه الحالة التي فيها مشرطنين. إلا أنه قبل كل شيء ينبغي لهم أن يعترفوا مقرين بكتابة منهم؛ وهو أنهم ينضمون ويتبعون معتقدات البيعة الجامعة الرسولية، أعني بهم أنهم يشاركون ذوى الزيجة الثانية والذين سقطوا في الاضطهاد. وقد فرض عليهم زماناً وتحدد لهم أواناً؛ حتى إنهم يكونون في كل الأمور تابعين معتقدات الكنيسة الجامعة. فحيث ما وجد جميعهم سواء كان

(١) أورشليم. الاسم مشتق من الإمبراطور الروماني آليوس أدريانوس الذى أعاد بناء المدينة بعد الخراب الذى حل بها وقت الأسر البابلي.

(٢) يقصد القانون مطروبولية قيسارية فلسطين لأن أورشليم كانت في وقت ما أسقفية تابعة لقيسارية.

(٣) تفسير هذا أن جماعة الأنقياء «هم أتباع نواتس (Novatianus) أحد القسين في روما الذى دعا إلى عدم قبول من ارتد عن المسيحية وقت الاضطهاد إلى شركة المؤمنين مرة أخرى. كما وأنه أصر على بتولية سائر رجال الإكليروس تعففا منه وصحبه الذين عرفوا بالنواتية أو «الأنقياء» (Catheros). وقد عقد البابا كورنيليوس مجمعاً في روما على عهد الإمبراطور داكيوس لعن فيه نواتس وهرطقته هذه. ونواتس هذا. أو نوفاتيانوس فريجي شرقي كما ذكر فيلوستورجيوس في تاريخه الكنسي (٨: ١٥). وقد أذاع خصمه كورنيليوس أسقف روما خاصة في رسالته إلى فافيوس أسقف أنطاكية أن نوفاتيانوس تعمد مريضا ولم يثبت (يوسيبيوس ٦: ٤٣) وبالتالي فلم يكن لائقا للكهنوت.

نجح كثيرا الا انه لم يتمكن من تحرير مادة النور التى مزجت بالعناصر الرديئة.

وبعد ذلك أوجد اله الظلمة آدم وحواء فكل مولود من هذا المزيج قائم بجسد من المادة الفاسدة وبنفسين احداهما شهوانية من اله الظلمة والاخرى عقلية خالدة لانها من النور الالهى ولما صنع رئيس الظلمة الناس من عقول غطاها بالاجساد خلق اله النور بواسطة الروح الحى أرضنا هذه من المادة الرديئة وجعلها مسكنا

جميع من كان معهم وقام لهم بالمال، واكرمهم بشى اخر خارجا عن الثمن، وتسلم السبى منهم وقام بهم سبعة ايام. وكان يعامل المرضى منهم متل اولاده، وانفذهم الى بلادهم، ودفن من قتله الفرس منهم ثم بنى للاحيا الذين افتكهم [فكّ اسرهم] مواضعهم وطمن قلوب من بقى فى البلد، وبنى لهم جميع البيع واسكنهم فى بلدهم. فلما مضو الفرس من عنده الى بلدهم تحدتو بجميع ما فعله وكترة ماله ومحبة اهل بلده له.

فلما سمع ما نخاوس[مانى] الفاجر. ما فعله

فى قرى أو فى مدن، إن كان هم يوحدهم فقط قد يوجدون مشرطنين. فالموجودون فى الكليروس يكونون فى ذلك الزى نفسه. وأما إذا قبل قوم بوجود أسقف الكنيسة الجامعة أو القس، فمن البين الواضح هو أن أسقف الكنيسة يمتلك رتبة الأسقف. وأما المسمى أسقفاً عند الذين يقال لهم أنقياء فيمتلك كرامة القس، ما خلا إذا استبان للأسقف بأن يشاركه بكرامة الاسم. وأما إذا ما رضى بذلك فيجد له مقام خوريوبيسكوبوس أو قس، لكيما بالجملة يبان أنه فى الكليروس حتى لا يكون أسقفان فى مدينة واحدة.

القانون التاسع: إن كان قوم سيموا قسوساً من غير تفحص عنهم، أو عند التفحص قد اعترفوا بخطاياهم، وبعد إقرارهم بها قد تحرك قوم فوضعوا اليد عليهم وشرطنوهم بخلاف القانون فمثل هؤلاء لا يقبلهم القانون ألبتة؛ لأن الكنيسة الجامعة قد تنتصر لكل شيء عديم العيب والذلل.

القانون العاشر: أيما رجل من الذين سقطوا قد سيم كليروسياً، سواء كان من تلقاء الجهل به أو بمعرفة منه قد سامه، فلذلك الأمر لا يتقدم حكمه على القانون الكنسى؛ لأن من اشتهر بذلك قد يقطع.

القانون الحادى عشر: أما الذين خالفوا[1] من غير ضيق اضطرهم لذلك، أو من غير نهب أموالهم ولا استلاب أملاكهم أو فى غير خطر دهمهم ولا حيف طرأ عليهم وما يشبه ذلك من

(١) أى الذين جحدوا الله جل شأنه.

هذا الرجل ففكر وقال: ان انا ملكت وقبلت هذا الرجل فجميع الشام يكون تحت امرى. فكتب اليه كتابا يقول فيه: البارقليط مانى يكاتب مرقلس، انى سمعت جودة افعالك فعلمت انك تكون لى تلميذا مصطفى لاعرفك الطريق المستقيم الذى انفذنى المسيح لاعلم الناس بها، والان فقد اضلكم معلموكم اذ يقولون ان الله جل ذكره حل فى بطن امرأه، وقد قالو الانبيا قولا غير الحق عن المسيح، لان إله العتيقه شرير لا يريد أن يوخذ منه شى، فاما

تخليص النفوس تدريجيا من أجسادها وافراز الجيد من الردى.

ثم أخرج الله بعد ذلك من نفسه كائنين عظيمين وهما المسيح والروح القدس لأعالة النفوس المغشاة بالاجساد فالمسيح هو الشخص الذى يدعوه الفرس ميثراس وهو مادة سامية جدا من أنقى نور الله واجبة الوجود حيوية فائقة الحكمة مسكنها الشمس. وكذلك الروح القدس مادة حيوية براقة منتشرة فى كل الجلد المحيط بأرضنا يدفئ نفوس البشر ويبهجها

النوائب الطارئة مما جرى فى عهد ليكينيوس الملك[1]، قد لاح للمجمع بأنهم وإن كانوا غير مستحقين للشفقة والمحبة البشرية، إلا أن الأولى بهم أن يعاملوا بلطف المعاملة والرفق؛ على أن كلا منهم قد تاب وندم حق الندامة الصادقة. فليقف المؤمن منهم مقيما مع السامعين[1]. ثلاث سنين، وسبع سنوات يقيم متخضعا مع الجاثين[2]، وليشارك الشعب فى الصلوات سنتين، ما خلا شركة القربان[3].

القانون الثانى عشر: أما الذين قد دعيوا من النعمة وأظهروا النهضة الأولى وطرحوا عنهم النطاق، ثم رجعوا مثل الكلاب إلى قيئهم حتى إن بعضهم أعطوا أموالا وجعلوا رجعتهم إلى الجندية بهدايا، هؤلاء فليخضعوا جاثين عشر سنين، بعد مدة استماعهم ثلاث سنوات. وبعد هذا كله ينبغى أن يتفحص عن عزمهم وعن كيفية توبتهم ونشاطهم؛ لأن أولئك الذين يظهرون الرجوع بالفعل لا بالشكل، بل وبخوف ودموع وصبر وفعل الخير. هؤلاء بعد أن يتموا زمان الاستماع المحدود، فمن الواجب أنهم يشتركون فى الصلوات، مع تفويض أمرهم إلى الأسقف أيضا، على أنه يتصور أمرهم بوجه أرفق وأشفق. وأما أولئك الذين استساروا بعدم

(١) ليكنيوس الإمبراطور (٣١١ ـ ٣٢٤) شريكا لقسطنطين فى الحكم.
(١) أى يسمح لهم فقط بالوقوف بخارج الكنيسة ويسمعون الصلوات.
(٢) أى داخل الكنيسة.
(٣) أى بعد انقضاء مدة السبع سنين يشاركون المؤمنين فى الصلاة ولكن لا يحق لهم شركة التناول إلا بعد مرور عامين من شركة الصلاة.

ويجعل الارض مثمرة ويخرج منها تدريجا نطفات النار الالهية المنتشرة وينهضها حتى ترجع الى عالمها التي أتت منه.

وبعد أن أنذر الله طويلا النفوس المحبوسة في الاجساد بواسطة ملائكة وأناس علمهم مشيئته أرسل أخيرا المسيح ابنه وأنزله من الشمس الى عالمنا هذا لكي يسرع برجوع الناس الى وطنهم السموى. فظهر المسيح بين اليهود لا بسا صورة وظل جسد انساني لا جسدا حقيقيا وأعلن لهم أنه الواسطة الوحيدة لخلاص النفوس

إلاه الحديثه فهو صالح إذا أخذوا منه لا يتكلم. وقال فيه كلاما كثيرا تجديفا لا يجوز ذكره، ولا قال الشيطان قط مثله. وسلم الكتاب الى واحد مثله وانفذه الى مرقلس. فلما سار الرسول الى الشام لم يقبله احد من الناس فى طريقه ليأويه عنده، وناله صعوبة عظيمه من الجوع، وكان يغتذى بالحشيش الى ان وصل الى مرقلس. فلما اخذ مرقلس الكتاب وقراه انفذه الى الاسقف ارشلاوس وجعل الرسول فى مكان وقام بحاله،

تمييز وظنوا بأن شكل دخولهم إلي الكنيسة قد يكفيهم للرجوع، فهؤلاء على كل حال سبيلهم أن يتموا مدة الزمان المحدود.

القانون الثالث عشر: إن الذين يتوفون فليحفظ فيهم الناموس القانونى القديم، والآن أيضاً: وهو أنه إذا توفي أحد لا يعدم الزواد الأخير الضرورى جداً بالكلية. وأما إذا هو ينس[١] من الحياة وحظى بالشركة أيضاً ثم وجد فيما بين الأحياء فليكن مع المشاركين للمؤمنين في الصلاة وحدها فقط. وعلى الإطلاق أى من كان من المدنفين إذا طلب أن يتناول قربان الشكر فليناوله الأسقف القربان بتفحص واختبار.

القانون الرابع عشر: لقد لاح للمجمع المقدس العظيم بأن الذين سقطوا من الموعوظين يكونون مع السامعين ثلاث سنين، وبعد ذلك يصلون مع الموعوظين.

القانون الخامس عشر: إنه من تلقاء كثرة السجس والتشويش والمشاجرات الحادثة، لقد استبان لنا بأن ترفع بالكلية تلك العادة الواقعة بخلاف القانون في بعض النواحي: وهو أنه لا ينتقل من مدينة إلى أخرى؛ أسقفاً كان أو قساً أو شماساً. فأى من باشر أمراً مثل هذا بعد حدوث حد المجمع المقدس العظيم، أو أسلم ذاته وتورط متوهراً فى أمر مثل هذا، فليكن فعله

(١) في الأصل أيس.

فلما قرا الاسقف الكتاب نتف شعر لحيته وراسه وقال: ليت انى مت ولم اقرا هذا الكتاب التجديف. وانفذ الى مرقلس فأتاه بالرسول، فسأله عن سيرة هذا مانى وكيف حاله، فاعلمه ذلك. ورغب الرسول ان يقيم عندهما لما سمع كلامهما ورأى خيرهما وجودتهما، فعرض مرقلس عليه الرجوع بجواب الكتاب ودفع له تلت دنانير، فقال: اغفر لى ياسيدى اننى لا اعود اليه. ففرحو بخلاص نفسه من شباك الموت. وكتب مرقلس

من أجسادها وبرهن على لاهوته بعجائبه. ولكن اله الظلمة أغوى اليهود ليصلبوه. ولما لم يكن له جسد لم تؤثر عليه الآلام ولكن اليهود حسبوه صلب فرجع المسيح الى الشمس مسكنه الاول بعد أن ترك تلاميذه لتعليم الناس ديانته ووعدهم بارسال رسول أعظم يفصح عن حقائق أسمى وهو البارقليط الذى كان يدعى مانى بانه هو

والذين يؤمنون بألوهية المسيح ينبغى أن لا يعبدوا اله اليهود وهو إله الظلمة وأن يطيعوا شرائع المسيح التى

هذا غير ثابت على كل حال، وليرجع مقيما فى تلك الكنيسة التى فيها قد سيم ذلك الأسقف أو القس.

القانونى السادس عشر: إن كافة القسوس والشمامسة وبالجملة كل من كان تحت تفحص القانون؛ الذين من تلقاء تورطهم فى المخاطرة وعدم امتلاكهم مخافة الله تجاه أعينهم ولجهلهم فى القانون الكنسى قد ينصرفون من كنيسة ما، فهؤلاء لا ينبغى أن يكونوا مقبولين فى كنيسة أخرى ألبتة، بل ينبغى أن يجتلب عليهم كل إلزام حتى يرجعوا إلى سكناهم، أو إذا بقوا مقرين على ما هم عليه من العناد، يجب أن يكونوا عادمى الشركة. وأما إذا تجاسر أحد بأن يختطف من كان يخص آخر غيره ويسميه فى كنيسته من غير أن يوافق لذلك رضى أسقفه الذى نزح عنه، ممن كان تحت تفحص القانون، فلتكن تلك الشرطونية غير ثابتة.

القانون السابع عشر: من حيث إن الكثيرين من الذين هم تحت تفحص القانون قد يسعون وراء الطمع والاستكثار والأرباح القبيحة، وقد تناسوا ما كتب فى النص الإلهى القائل: وفضة لم يعطها بالربا[1]، فيدينون مالا طالبين أرباح تعشير المئات بالربا، قد حكم المجمع المقدس العظيم بأن بعد صدور هذا الحد أى من وجد من الكليروسية آخذا أرباحا بالربا من معاملة يمارسها للمعيشة، أو أنه استعمل ذلك على وجه آخر طالبا نصف جملة المرابحة، أو أنه

(١) مزمور ١٤: ٥٠.

الى مانى جواب كتابه وبعته اليه مع احد عبيده. وقال الاب ارشلاوس لذلك العبد: لا تاخذ منه شيا ولا تأكل ولا تشرب عنده. ثم سيره، وبعد سبعة أيام وصل مانى الى مرقلس وهو لابس اسكيم دقيق لطيف لنطن واستخاره دقيقه من تحته، واشتمل برداء نازل على رجليه مزين بصور من قدامه ومن خلفه، ومعه اتنين وتلاتين صبيا وصبية يمشون خلفه. فلما دخل منزل مرقلس عمد الى كرسى فجلس عليه فى وسط المنزل. وكان يظن

أوضحها مانى ويقاومون بثبات شهوات النفس الشريرة وهكذا يتخلصون شيئا فشيأ من مادة رئيس الظلمة الفاسدة. غير أن كمال التطهير لا يفوز به الانسان فى هذه الحياة ولكن بعد الموت يحصل للنفس تطهيران الاول بالماء المقدس الموجود فى القمر ويلبثون فيه خمسة عشر يوما والثانى بالنار المقدسة الموجودة بالشمس وهذه تطهرهم تماما أما الاجساد فتنحل الى عنصرها الاصلى.

يحدث شيئاً آخر بالجملة لأجل اغتنام مرابحة قبيحة فليخلع من الكليروس، ويكون غريباً من القانون.

القانون الثامن عشر: لقد بلغ المجمع المقدس العظيم بأنه فى بعض المدن والأماكن الشمامسة قد يناولون القربان للقسوس، وذلك ما لم يسلمه قانون ولا عادة أصلا، وهو أن الذين لم يمتلكوا سلطاناً على التقدمة بأنهم يناولون جسد المسيح للذين يقدمونه. وقد عرف هذا أيضاً: وهو أن بعض الشمامسة قد يتناولون القربان قبل الأساقفة. فليبطل هذا كله، ولتقف الشمامسة عند حدودها، عارفين ذواتهم أنهم خدام الأسقف، وأنهم أدنى مرتبة من القسوس، وليتناولوا القربان بحسب رتبتهم بعد القسوس، على أن الأسقف يناولهم أو القس. بل ولا يجوز للشمامسة أيضاً بأن يجلسوا فيما بين القسوس؛ لأن حدوث هذا الأمر هو واقع بخلاف القانون والترتيب. فكل من لا يريد الخضوع أيضاً والرضوخ بعد صدور هذا الحد أيضاً فليعزل عن خدمة الشموسية.

القانون التاسع عشر: لقد وضح الحد على أولئك الذين تبعوا رأى بولس السميساتى ثم التجئوا إلى الكنيسة الجامعة راجعين: فى أن تعاد معموديتهم على كل حال لا محالة. فإن كان قوم فى الزمن الماضى قد حسبوا فى الكليروس فإن هم قد استبانوا عدموا العيب والملامة فليساموا من أسقف الكنيسة الجامعة بعد إعادة معموديتهم. وأما إذا كان بعد التفحص عنهم

انهم استدعوه ليتعلمو منه. فانفذ مرقلس الى الاسقف ارشلاوس. فلما راه جالسا على الكرسى تعجب من قلة حياه. فسأله الاسقف وقال له: ما اسمك. قال: اسمى البارقليط. قال له ارشلاوس: انت البارقليط الذى قال السيد المسيح انه يرسله الينا. قال: نعم انا هو. قال له الاسقف: كم عمرك. قال: خمس وتلتين سنه. قال له ارشلاوس الاسقف: المخلص المسيح قد قال لتلاميذه اقيمو فى اورشليم ولا تمضو ولا تبشرو حتى تتدرعو بالقوه

أما النفوس التى لم تهتم بالتطهير فتسكن بعد الموت أجساد البهائم والبشر حتى تطهر. والاكثر انحطاطا يسلمون للارواح الشريرة المقيمة فى جلدنا ليعذبوا زمانا ما. وحين تتحرر أكثر النفوس وترجع الى عالم النور فحينئذ بأمر الله فتخرج نار جهنم من مقرها وتحرق وتلاشى هذا العالم. وبعد ذلك يرغم رئيس الظلمة وجنوده على الرجوع الى مقرهم الاصلى ويدومون فيه فى حال الشقاوة ويحاطون بحرس قوى من النفوس التى يئست من خلاصها حتى لا يقووا على محاربة اله النور ثانية.

قد يجدهم غير مناسبين، فينبغى أن يقطعوا. ومثل هذا الرسم نفسه فليحفظ فى أمر الشماسات المحسوبات فى الزى أيضاً، من حيث لم تكن عليهم شرطونية، إنما فليحصوا مع العوام على كل حال لا محالة.

القانون العشرون: من حيث إن قوماً قد يحنون الركب فى أيام الآحاد وفى الأيام الخمسينية، فلاح للمجمع المقدس بأننا نقدم الصلوات لله ونحن منتصبون وقوفاً، لكى تكون كافة الأمور محفوظة فى كل أبروشية.

حاشية

«اعلم أن هذا المجمع الأول المقدس لم تثبت له قوانين قط غير هذه القوانين العشرين، وهى الموجودة باللغة اليونانية واللاتينية فقط. وجميع العلماء الذين جمعوا قوانين المجامع المسكونية والمكانية ما نقلوا غير هذه العشرين قانوناً لهذا المجمع الأول المقدس فقط. وأما الأربعة والثمانون قانوناً الموجودة فى اللغة العربية التالية لهذه القوانين فى كتاب الناموس العربى لا صحة لها أصلا. واللاتينيون أيضاً قد نقلوها عن العربى، مترجمينها لاتينيًا أيضاً، كما هو مضمون عنوانها عندهم، وذلك رغبة منهم لأجل القانون الرابع والأربعين الداخل فيها الذى يستندون عليه نوعاً ما فى امتداد سلطان البابا مطلقاً على زعمهم. وقد قال بعضهم إنها قديماً

من العلا وهو البارقليط روح القدس، ومن بعد عشرة ايام من صعوده الى السما كما قال، حل البارقليط على الرسل فى يوم العنصره وهو تمام خمسين يوما بعد الفصح، والتلاميذ الى الان كما تذكر انت ينتظرونك باورشليم لهذا الامر نحو تلتمايه سنه منذ بشرو وخرجت اصواتهم فى جميع الارض وانتهى كلامهم الى اقطار المسكونه، ولو كان الأمر كما قلت ما كانو بشرو وما كانو باقين احيا فى اورشليم الى الان، ومن اين رأيت

ولكي يجعل ماني سبيلا لقبول مبادئه رفض أكثر العهد الجديد معتقد بأنه حرف عن اصله ولا سميا العهد القديم الذى كان يعتبره من انشاء اله الظلمة الذى يعبده اليهود ووضع انجيلا دعاه (ارتن) مجاهرا بأنه موحى به اليه من الله. ثم وضع لتابعيه عيشة صارمة فأمرهم بممارسة كل ما يضعف الجسد الذى هو عمل رئيس الظلمة. وقسم تابعيه الى قسمين المختارين الذين ينبغي أن يتمتعوا من اللحم والبيض والحليب والسمك والخمر وكل انواع المسكرات والزواج

قد كانت اغتالت من الأريوسية، وفيما بعد انوجدت محررة عربية. وذلك هذا كله لغو لا حقيقة له أصلا. والدليل على ذلك:

أولا: إن الآباء الثلثمائة والثمانية عشر الملتئمين فى هذا المجمع ما كتبوا قوانينهم باللغة العربية، بل باليونانية.

ثانيا: إن مضمون ذلك القانون الرابع والأربعين هو خلاف مضمون القانون السادس الذى هو فى جملة العشرين قانوناً الصحيحة ويناقضه؛ لأن هذا القانون السادس يأمر كلا من البطاركة أن يكون مسلطاً على أبروشياته التى وليها والمختصة به، وهم الرومانى والإسكندرى والأنطاكى والأورشليمى. وأما مضمون ذلك القانون الرباع والأربعين الزور يريد أنه كما أن للبطريرك[١] سلطاناً على من هو دونه، كذلك لبابا رومية سلطان على البطاركة، وما يتلوه من نصه.

ثالثا: إن المجمع الثانى المسكونى المقدس[٢] الذى اعتقبه فإنه فى قانونه الثانى يأمر بأن كلاً من الأساقفة أى البطاركة يدبر أبرشياته وألا يتعدى أحدهم على حدود أبرشيات آخر غيره. وفى قانونه الثالث رتب أن تكون تقدمات الكرامة لأسقف القسطنطينية بعد أسقف رومية؛ لأن

(١) فى الأصل يريد أن كالبطريرك.
(٢) مجمع القسطنطينية المنعقد عام ٣٨١.

انت السيد المسيح وعمرك خمس وثلثين سنه، وهو قد امر ان لا نجلس في صدور المجالس وها انت قد جلست في اعلى موضع في البيت. فقال له ماني: اليس الانجيل يقول انى انفذ اليكم البارقليط. قال له ارشلاوس: ان كنت تومن بالانجيل فهو يقول للسيده مرتمريم العذرا: روح القدس تحل عليك وقوة العلى تظللك والذى تلدينه قدوس وابن الله يدعى. ثم اخرج له كتابه الذى انفذه الى مرقلس وهو يجحد فيه ميلاد المسيح من امرأه وينكر موته

وكل تمتع ناتج من مخالطة الذكور الاناث. وقد صرح لهم بامتلاك البيوت ويأكل قليل من اللحم والتزوج بنساء. ويغلب أن المختارين هم الاساقفة والقسوس و الشمامسة والعلمانيين هم السامعون.

القسطنطينية هى رومية الجديدة. وقد اقتدى به أيضاً المجمع الرابع[1] فى قانونه الثامن والعشرين، والمجمع السادس فى قانونه السادس والثلاثين؛ الذين حدوا بأن أسقف القسطنطينية يكون له التقدم بسوية أسقف رومية القديمة، وأنه يعظم فى الأمور الكنسية مثل ذاك أيضاً، وأنه يكون ثانى رتبة. فلو كان لذلك القانون الرابع والأربعين المذكور صحة، كيف كانت لعمرى الآباء القديسين فى المجامع المسكونية تجترىء على ذلك التقدم؟

رابعاً: إن زوسيموس البابا، كان قد ادعى بأن المجمع الأول بنيقية حدد بقانونه لأسقف رومية بأن دعاوى الأساقفة ترفع لديه، ويرجع استئنافها إليه، وهو يحكم بها، وطلب إجراء ذلك من المجمع المنعقد وقتئذ فى قرطاجنة من أعمال إفريقية. وأما الآباء هناك فما سلموا له بذلك، إذ لم يوجد مثل هذا القانون مقيداً عندهم، وراجعوا التفحص عنه فى سجلات قوانين المجامع المودع قيدها يونانياً منذ القديم فى كنيسة القسطنطينية وكنيسة الإسكندرية وكنيسة أنطاكية، وعند ذلك أتاهم الجواب من القديس كيرلس بطريرك الإسكندرية ومن أتيكوس بطريرك القسطنطينية مع نسخات قوانين مجمع نيقية الأصيلة وحدوده. واذ لم يوجد فيها أمر هكذا كما ادعى به البابا المذكور ألبته، فحينئذ المجمع رد الجواب إليه يتضمن نقض ما ادعى به من مطلوبه وباطل إسناده. فلو كان لهذا القانون صحة لكان ظهر فى ذلك الحين من السجلات

(١) مجمع خلقدونية (٤٥١م).

وقيامته من بين الاموات. فبدا مانى يتكلم بقوله الباطل: انه ألاهان احدهما النور والاخر الظلمه. وما يشبه هذا من الكفر. فقال له الاسقف ارشلاوس: اذا انا ارذلتك بقدر كذبك فانت تثبت لى على مقالتك لكن هو ذا انفذ احضر لك امة لا يعرفون الله الاه السما ليرذلوك من كلامك. وانفذ أحضر له رجلين احدهما حكيم طبيب والاخر كاتب وقال لهم: اسمعو ما يقوله هذا الرجل، هل فى كتبكم كلام تقبلونه وكلام ترفضونه قالو بل

المرقومة القديمة؛ مع أن ادعاء البابا فى ذلك الوقت كان بصدد آخر خلاف نص هذا القانون الزور المذكور.

خامساً: إن المجمع الرابع الخلكيدونى لما أصدر القانون الثامن والعشرين فى باب تقدم أسقف القسطنطينية، رومية الجديدة، ومساواته أسقف رومية القديمة بالكرامة. وأما نواب لاون البابا فى ذلك الحين قاوموا ذلك القانون، وادعوا بالنيابة عن البابا المذكور بأن المجمع النيقاوى هذا قد حدد فى صدر قانونه السادس من العشرين قانوناً هكذا: إن الكنيسة الرومانية لها التقدم دائماً[(١)]. فعند ذلك لما راجعوا نص القوانين المذكورة، وتلى هذا القانون فى المجمع عياناً، لم يوجد فيه ذلك النص المزيد فى صدره أصلا. وعند ذلك خجل النواب وخابوا تجاه المجمع العظيم والقضاة ذوى النباهة المعينين من قبل الملك مركيانوس[(٢)] الحسن العبادة والجزيل الورع. فلو كان هذا القانون معلوماً حقاً لكان النواب إذ ذاك قد أوردوه فى المجمع[(٣)].

سادساً: إن اللاتينيين فى مجمعهم الفاورنتينى قط ما أوردوا هذا القانون عند ادعائهم فيما كانوا وقتئذ يحاولون على قيام تلك الرياسة المطلقة التى يرومونها.

(1) Romana Ecclesia semper habuit primatum.

(٢) الإمبراطور مرقيان (٤٥٠ ـ ٤٥٧).
(٣) فى الأصل: لكانت... أوردته.

كلما في كتبنا نقبله ولا نرفض منه شيا ومتى ميزنا بعضها من بعض لم تستقيم لنا قراته ولا قبوله.

فاجاب الاسقف وقال لهما: هذا الرجل يبشر ويقول انه تلميذ المسيح وهو يرفض اوامر المسيح. فقالا له: ما نقبله ولا نقرب شيا من اموره. فلما تكلم وسمع الجميع كلامه المملو تجديفا وثبو عليه ليقتلوه فمنعهم الاسقف عنه وقال لهم: يقتل بيد غيرنا. ثم نفاه من المدينه، وقال له: احذر ان توجد في اعمالنا لئلا تموت. فلما خرج مضى الى ضيعه

سابعاً: إن يوسف المصرى الذى كان من أبناء العرب فى عصر تاريخ الستة آلاف والتسعمائة لكون العالم يعيش بمصر[1]، وهو ترجم قوانين الأربعة مجامع المسكونية الكبار من اللغة اليونانية إلى اللغة العربية، فإنه أورد ذكر العشرين قانوناً التى لمجمع نيقية الأول مترجماً عربيًا. وما أورد غيره لذلك المجمع قطعاً. وفى كتب قوانين المجامع عند ملة السريان وغيرهم من ملل النصارى المشارقة أيضاً لم يوجد أكثر من العشرين قانوناً لهذا المجمع أصلاً. فالملحوظ إذاً أن اللاتينيين لما تملكوا فى هذه البلاد العربية دسوا هذه القوانين فى ذلك الكتاب ونسبوها للمجمع الأول المسكونى المقدس. وعنها قد أخذت نسخات عديدة، الموجودة الآن فى هذه البلاد العربية»[2].

(١) فى رأى العلامة جراف (المرجع السابق ذكره) أن يوسف المصرى هذا ما هو إلا قارىء مخطوطة أو مالك لمخطوطة مجهولة المؤلف. وأغلب الظن أن يوسف كان من رجال الإكليروس المصريين على المذهب الملكانى. سنة ٦٨٩٩ للعالم توافق ١٧ توت سنة ١١٠٧ للشهداء = ٣ شوال سنة ٧٩٢ للهجرة = سنة ١٣٩٠م.
هنالك ثلاثة تقاويم لكون العالم على النحو الآتى: ـ
فى التقويم السكندرى يبدأ الكون ٤٥٠٠ سنة قبل ميلاد المسيح فى التقويم الأنطاكى يبدأ الكون ٥٤٩٠ سنة قبل ميلاد المسيح فى التقويم البيزنطى يبدأ الكون ٥٥٠٨ سنة قبل ميلاد المسيح (يلاحظ أن الكاتب اتبع التقويم البيزنطى لكون العالم).
(٢) فى الأصل: اتتاخدت.
(*) انظر: د. اسحق عبيد: الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية: دار المعارف القاهرة ١٩٧٢. ط١.

فيها قس يحب الغربا فاوى اليه وقام عنده شهرا وهو لم يعرفه، فكلم القس باقاويله الرديه فقال له القس ما سمعت انا بهذا الكلام قط لكنني انفذ الى ارشلاوس ياتي ويسمع منك ما تقوله فان كان جيدا فقبلناه. فلما سمع مانى اسم ارشلاوس قلق لذلك لمعرفته بشجاعته وحكمة الله فيه وعاد من وقته الى بلاد الفرس، وجرى على عادته فى التجديف فحكم عليه البارقليط الحقيقى بحكمته وسلط عليه ملك الفرس فسلخ جلده ورماه

ما ترتب على مجمع خلقدونية

ما ترتب على مجمع خلقدونية سنة ٤٥١ ، من سخط وكراهية في مصر والشرق، ظل زمناً طويلا يهدد الإمبراطورية، وأدى إلى ما قام به زينون من محاولة لإعادة الوحدة الدينية بما اتخذه من صيغة التوفيق Henotikon، وما قام به جستنيان من محاولة لتهدئة ثائره المونوفيزتيين بما لجأ إليه من إنكار الفصول الثلاثة Three chapters. غير أن هاتين المحاولتين لم تحرزا نجاحاً ملحوظاً. وما أحرزه الفرس من الانتصارات عاجلة، جذب انتباه هرقل إلى هذه الأمور، وجعله يحاول تحقيق ما اقترحه سرجيوس، وهو سورى الأصل، الذى رأى أن المونوفيزتيين قد يقبلون صيغة «الطبيعتين» إذا اقتنعوا أنها لا تدل على «قوتين أو عملين». ولذا كتب سرجيوس حوالي سنة ٦١٨ إلى جورج ارساس المصرى، وهو ينتمى إلى الفئة البوليصية Paulianist، من المونوفيزتين ومن اتباع بولص أسقف أنطاكية، المعزول سنة ٥٧٨، يسأله الأسانيد التي تؤيد مذهب الفعل الواحد، ويعرض الاتحاد على هذا الأساس. وما تلى ذلك من خطوات أوقفها احتلال الفرس لمصر. وفي سنة ٦٢٢ تحدث هرقل أثناء حملته في أرمينيا، مع قائد مونوفيزتى اسميه بولص، ودعاه إلى مذهب الإرادة الواحدة، غير أنه لم يصب نجاحاً. ثم أصدر قراراً ضد بولص، أرسله إلى أركاديوس أسقف قبرص، أبطل فيه عقيدة الفعلين أو الإرادتين. وبينما كان هرقل في لازيقا، سنة ٦٢٦، تحدث في هذه المسألة مع كيرس أسقف

للوحوش فاكلوه. وأقام هذا الأب مكسيموس على كرسى اسكندرية بطركا ثمانية عشر سنه، وتنيح فى رابع عشر برموده. صلاته وبركاته تكون معنا إلى الابد، آمين. وفى تلك الايام توفى فليكس بطرك روميه وجلس بعده او طيخيانوس، وكان مقام فيلكس فى البطركيه خمس سنين، واقام او طيخيانوس عشره شهور وتنيح وجلس بعده مرقلينوس. فى ذلك الزمان اخذ بطركية انطاكيه من بعد دمنوس تيماوس، ومات اورليانوس الملك

فاسيس Phasis، الذى كان فيما يبدو عالما بالموضوع، فكتب إلى سرجيوس يطلب منه مزيداً من التفاصيل. فرد سرجيوس على اعتراضاته، وبعث إليه بصورة خطاب من مينا أسقف القسطنطينية إلى البابا فيجيليوس، الذى تضمن الإشارة إلى الإرادة الواحدة، وعندئذ أظهر كيرس أنه مقتنع. ولما عاد الاتصال بالشرق فى سنة ٦٢٨، أرسل سرجيوس كتاب ميناس إلى تيودور، أسقف فاران بالقرب من سيناء، الذى قرر قبوله، وهذه الرسالة، وكتاب مينا جرى توجيههما إلى بولص المونوفيزتى أسقف أرزروم (أرض الروم) Theodosiopolis.

ولما تم استرداد الشرق، نشطت فكرة التوفيق بين المذهب الخلقدونى والمونوفيزتى. ففى سنة ٦٣٠ أو ٦٣١، اجتمع الأمبراطور هرقل فى هيرابوليس فى الشام بالبطريرك أثناسيوس، ووعده بأن يكون بطريركا على أنطاكية (بعد أن ظل كرسيها شاغراً منذ سنة ٦١٠)، إذا قبل مشاركة الخلقدونيين فى عقيدتهم على أساس الفعل الواحد، فأبدى استعداده لقول ذلك. غير أنه لما مات البطريرك سنة ٦٣١ تحطم المشروع، على الرغم من أن بعض الأديره، لا سيما دير ماروت فى لبنان، قبلت الاتحاد. وفى سنة ٦٣١ قدم إلى سوريا، بناء على دعوة هرقل، جاثليق الأرمن، عزرا، وجرى حثه على قبول مشاركة الخلقدونيين، فلما عاد أقر الاتحاد فى مجمع انعقد فى أرزروم Theodosiopolis، غير أنه لم يعترف رسميا بمجمع خلقدونية. وفى سنة ٦٣٢، عند وفاة البطريرك جورج، تقرر تعيين كيرس بطريركا فى الإسكندرية، فبادر إلى

جندى رومانى يعذب أحد القديسين

واخـذ المملكه بعـده ابروبوس واقـام ست سنين ومات ثم ملك بعده كاروس وكرنوس ونوماريانوس اقـامـوا ثلث سنين ومـاتوا، وملك بعـدهم ديقـلاديانوس الذى حل-منه على البـيعـه جـهـاد عظيم اكثر ممن تقدم، وهدم البيع واحرق الكتب وقتل الاساقفه والكهنه وخلقا كثيرا من المومنين. واما سقراطيس فانه توفى فى لادقية وصار عوضه اوساويوس، هذا جا من اسكندريه من اجل المجمع الذى اجتمع بانطاكيه على بوله السميساطى.

- -

المفاوضة مع الحزب المونوفيزتى الأساسى بالمدينة، وهو حزب التيودوسيين. وتم الاتفاق مع هذه الفئة من المونوفيزتيين (٣ يونيه ٦٣٣). وتضمن الاتفاق تسع نقط، بمقتضاه جرى الاعتراف بنظرية الطبيعتين وصفتهما، واقرار الفعل الواحد، ولم يجر الاعتراف بمجمع خلقدونية، أو إقرار لفئة القادة المونوفيرتيين.

وعندئذ ظهرت المعارضة، إذ توسل إلى كيرس، صفر ونيوس أحد الرهبان الذى كان وقتذاك بالإسكندرية، بألا يذيع هذه المواد، فأحاله كيرس إلى سرجيوس. ولما لم يستطع سرجيوس أن يقنع صفر ونيوس، كادت محاولة التوحيد (الاتحاد) تسبب انشقاقاً، وعندئذ وافق على إجراء اتفاق ينبغى أن يستبعد فيه الإشارة إلى «الفعل الواحد» أو «الفعلين». وعاد صفر ونيوس برسالة فى هذا المعنى، إلى بيت المقدس، حيث جرى انتخابه بطريركا لها فى أوائل سنة ٦٣٤. وفى تلك الأثناء كتب سرجيوس إلى كيرس بشأن التوفيق، ولما لم يرض كيرلس (بطرك اسكندرية) بنقض ما قام به من عمل، لم يقبل رأى سرجيوس. وأرسل سرجيوس إلى هرقل برسالة مينا التى تحتوى على ما يؤيد نظرية «الفعل الواحد» و «والإرادة الواحدة»، غير أنه اقترح أنه لابد من أن تتوقف المناقشة فى هذا الموضوع. وكتب سرجيوس إلى البابا هو نوريوس يقترح ابطال الصيغتين «الفعل الواحد» و«الفعلين». ووافق البابا على

وصار بعده اناتوليوس وكان قد وصل الى الشام من اسكندرية وجعل سبب دخوله اليها ومقامه بها ان يعلم اولادهم. وتمهر في العلم حتى بلغ خبره الى روميه.

وزحف عسكر من روميه الى مدينة اسكندريه وحصرها ولم يزل اناتوليوس المعلم يسفر بينهم بالسداد حتى اصلح الحال وثبت السلامه وزال الحرب. وكانوا كبرا المدينه قد وجدوا عليه لانه الزمهم بما لا يريدون، فقال لهم: دعوا الشيوخ

ابطال الصيغتين، غير أنه أقر نظرية «الإرادة الواحدة» التي يسمى أنصارها بالمونوثلستيين Monothelctes. وكتب بذلك إلى صفرونيوس، الذى أراد أن يجتذب البابا إلى جانبه، فأعلن موافقته على كتاب البابا متى ووافق كيرلس بطريرك الإسكندرية على ذلك. على أن ما حدث من سقوط بيت المقدس في يد المسلمين سنة ٦٣٧، وما تلى ذلك من وفاة صفرونيوس، أوقف كل ما يتعلق بذلك. وما حدث في مصر من التخلي عن العقيدة التي قام عليها الاتحاد، حطمت الاتحاد نفسه، وما اتخذه كيرس من اجراءات عنيفة لتنفيذ غرضه؛ جعل الأمور تزداد سوءا.

والخطوة التالية التي اتخذها سرجيوس، تتمثل في وضع الصيغة المعروفة باسم Ecthesls، تضمنت المبادىء الواردة في الرسالة الموجهة إلى هونوريوس، والتي اتخذت صورة اعتراف قانوني بالعقيدة. وأقر هرقل هذه الوثيقة، وجرى إعلانها على أسوار كنيسة القديسة صوفيا (خريف سنة ٦٣٨). وأرسلت منها صورة إلى كيرلس والى سفيرنيوس Severenus الذى صار بابا بعد هونوريوس (أكتوبر سنة ٦٣٨)، وقرر مجمع القسطنطينية انزال العقاب بكل من يقول بالفعل الواحد أو الفعلين. وكان ذلك آخر عمل قام به سرجيوس الذى مات سنة ٦٣٨.

والعجايز والاطفال يخرجون من المدينه لانهم غير مطلوبين وافعلو انتم ما تختارون ببلدكم وتبقون بما في ايديكم من الغـلات المخزونه عندكم. فطابت قلوبهم بذلك واجتمع بالغداة جند المدينه وريساها وتشاورو في ذلك فرأوه صوابا فاخرجو الشيوخ والعجايز والاطفال وقوم كثير غيرهم خرجو من الابواب في الليل، فأمر الملك [ديقلاديانوس] بعد هذا بقتل جند المدينه لانهم ساعدو اهلها على الخروج منها واخربوها. وكان

«الشرق بعد مجمع خلقدونية وحتى الغزو العربي»

كانت النتيجة المباشرة لقرارات مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م، هي الانقسام الأول لكنيسة المسيح. فقد وصمت الكنائس الغربية، الكنائس الشرقية على أنها مونوفيزية Monophysite (أى تؤمن بطبيعة واحدة فى المسيح)، بينما وصفت الكنائس الشرقية الكنائس الغربية بأنها Diophysite (أى تؤمن بطبيعتين فى المسيح). وقد قاد أقباط مصر حركة المونوفيزية (الأرثوذكسية) فى كل الشرق... على أنه يجب أن ننظر إلى هذا الأمر ـ بالاضافة إلى كونه موضوعاً إيمانيا ـ على أنه تعبير خارجى لنمو الاتجاهات القومية فى مصر ضد الاحتلال البيزنطى المتزايد، الذى بلغ أقصى مدى فى حكم جستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥).

وقد بلغ الجدل اللاهوتى بين الأرثوذكسيين (المونوفيزيين) فى كنيسة الاسكندرية وبين أصحاب مذاهب الطبيعتين فى روما والقسطنطينية مبلغا تجاوز حد اللياقة. وكان هو أساس الصدع الذى حدث بين الكنائس الشرقية والغربية... ولكننا لا نبحث هذا الأمر بالتفصيل على المستوى اللاهوتى، فان هذا لا يدخل فى دراستنا فى مادة التاريخ الكنسى..

لقد تأثرت العوامل التاريخية الخاصة بهذا الصراع من جراء كثرة التعقيد والتشابك، ولذا تعتبر دراسة تلك الفترة من أكثر المواضيع تعقيداً وصعوبة... لقد اتهم الغربيون كنيسة

١٥: مكسيموس ٢٦٤/٢٨٢م

اوسابيوس ايضا فيما بينهم مثل الطبيب او الاب يداوى الجهتين جميعا. وكان هذا الرجل اسقف اللادقيه وجا الى كرسيه مع الاسقف الاخر من اسكندريه باتفاق جيد.

ومن بعد القتال الذى كان باسكندريه كتب اناتوليوس تعاليم كتيره ونفع به اهل المدينه وكتب لهم حساب الفصح(*) ايضا.

وفى اول يوم من الشهر بعد المجمع الذى كان بانطاكيه على بولا السيميساطى اقيم تاوتكنس

(*) عيد الفصح: كان يسمى يوم تذكار موت المسيح وتكفير الشعب «الفصح» وسمى كذلك لأن المسيح صلب يوم حفظ اليهود فصحهم. ولم

الاسكندرية بالأوطاخية، كنتيجة للتآمر الذى حدث فى خلقيدونية ضدها. فى الوقت الذى اعتبرت كنيسة الاسكندرية الأوطاخية بدعة حرمتها مرارا وتكرارا، لأنها علمت بأن طبيعة المسيح الناسوتية تلاشت فى طبيعته الالهية. هذا بينما يؤمن الأقباط (كنيسة الاسكندرية) بأن المسيح طبيعة واحدة من طبيعتين أو أن طبيعتى المسيح اللاهوتية والناسوتية صارا طبيعة واحدة ـ باتحادهما الفائق السرى ـ بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير... وقد أثبت آباء كنيسة الاسكندرية ومعلموها هذا المعتقد، مستندين إلى نصوص الكتاب المقدس، وما قرره مجمع نيقية المسكونى الأول سنة ٣٢٥، وتعاليم القديس كيرلس الكبير فى مجمع أفسس الأول سنة ٤٣١.

والدوافع التى دفعت كنيسة روما والقسطنطينية على وجه الخصوص، إلى اتخاذ هذا الموقف المشين من كنيسة الاسكندرية والكنائس الشرقية، أمر لا يحتاج إلى كثير عناء لاظهاره.. فقد كان لآباء كنيسة الاسكندرية والكنائس الشرقية، وبالأخص آباء كنيسة الاسكندرية الدور القيادى فى المجامع المسكونية الثلاثة الأولى.. يكفى أن نقرأ للمؤرخ ستانلى فى كتابه «محاضرات عن الكنائس الشرقية» المطبوع فى اكسفورد سنة ١٨٦٤ قوله «وأصبح بطريرك الاسكندرية بعد مجمع نيقية قاضى المسيحية فى المسكونة كلها»! ويكفى أن نقرأ فى تاريخ المجمع المسكونى الأول بنيقية عن الملك قسطنطين الكبير أنه وقف وسط المجمع الكبير الذى

اسقفا على كرسى قيساريه فلسطين واوسابيوس المقدم ذكره على اللادقيه، وكان رجلا عظيما عند الرب وكذلك اناتوليوس، فكانا كلاهما مويدين بروح القدس والتعاليم الروحانيه. ثم تنيحا احدهما بعد الاخر وصار استفانوس اسقفا على اللادقيه وكان رجلا ممتليا حكمة ويتعجب منه كل احد، وليس حكمه الكلام فقط بل والامانه المستقيمه. وبنى البيع التى كانت هدمت فى مدينته وجددها بمعونة الله له.

يكن يعيد سنويا فقط بل كان يعيد ذلك التذكار الخلاصى كل أحد. فكان يوم الاحد يعتبر أيضا من جميع المسيحين يوم فرح وبهجة فيقضونه بالصلاة وقوفا وبلا صوم. غير ان الفصح السنوى كانت له شعائر خصوصية وكان يحتفل فيه بتذكار الآلام والقيامة معا.

غير أن فى ذلك الحين قام خلاف شديد بشأنه بين مسيحى آسيا الصغرى وكيليكيا وسوريا وبين النهرين وبين غيرهم من المسيحين. فكلاهما صام الاسبوع المسمى الآلام

ضم ٣١٨ أسقفا من أنحاء العالم المسيحى، ليصافح الشماس اثنا سيوس (البابا اثناسيوس فيما بعد)، ويقول له «أنت بطل كنيسة الله»... ثم يأتى المجمع الرابع الذى انعقد فى أفسس سنة ٤٤٩م برئاسة البابا ديسقورس وتسيطر عليه كنيسة الاسكندرية... كل هذا، كان له أثر عميق في المدينتين الامبراطوريتين روما والقسطنطينية... إذ وصف الغرب مجمع أفسس الثانى بأنه «مجمع اللصوص» ليظهر مدى الغيظ الذى أعمل فى نفوس هؤلاء الغربيين ضد كنيسة الاسكندرية وآبائها. وكدليل على مدى هذا الغيظ، فقد وحد مركيان وكنائس الغرب جهودهم فى حشد أكبر عدد من الأساقفة الغربيين في مجمع خلقيدونية بلغوا نحو ستمائة أسقف، اجتمعوا لينقضوا قرارات مجمع أفسس الثانى، وليؤكدوا بصورة علنية تقدم كرسى الامبراطورية فى روما على سائر كراسى العالم المسيحى.

لقد حاولت السلطة الحاكمة فى القسطنطينية فرض تعليم مجمع خلقيدونية بالقوة على الكنائس الشرقية. ولكن هذه الكنائس ـ وفى مقدمتها وعلى رأسها كنيسة الاسكندرية ـ لم تلن لها قناة، وتصدت لهؤلاء الهراطقة مهما بلغت مناصبهم، وفضلت أن يتجدد عصر الاستشهاد على أن يفرطوا فى الأمانة أو يعوجوها.. وهكذا قامت الفتن، واختل الأمن فى بلاد كثيرة، لاسيما فى مصر وفلسطين وسوريا وبلاد ما بين النهرين (العراق الحالية)، وأرمينيا وفارس (ايران الحالية).

١٥: مكسيموس ٢٦٤/٢٨٢م

وكان تاودوتوس الاسقف فى زمان الاضطهاد وكان مستحقا الاسمين المسمى بهما لان اسمه تفسيره عطيه الله واسم الاسقفيه، وكان محبا للشعب وراعيا وطبيبا ماهرا لصلاح نفوسهم حتى قيل انه لم يكن له شبه فى محبته. وكان اجابيوس اسقف قيساريه فلسطين مثله ايضا، وكان قد تعب مع شعبه بمحبه عظيمه وكان محبا للفقرا وممسكا شعبه مثل عبد امين لله، واستحق بعد ذلك اكليل الشهاده مع كثير من قسوس اسكندريه.

الذى مات فيه المسيح وفيه حفظوا عيدا مقدسا أو أكلوا خروفا كما كانت تفعل اليهود تذكارا لعشاء مخلصنا الأخير. غير أن مسيحى آسيا وما يجاورها كانوا يحفظون الفصح فى اليوم الرابع عشر من شهر نيسان العبرى فى الوقت الذى اكل اليهود فصحهم فيه. وفى اليوم السادس عشر حفظوا تذكار قيامة المسيح فى اى يوم من الاسبوع اتفقا اعنى من دون مراعاة يومى الاحد والجمعة. فكانت تعتبر أهمية اليومين فى عددهما الشهرى ١٤ و ١٦ نيسان اللذين

وفى ٧ فبراير سنة ٤٥٢ أصدر مركيان مرسوماً يقضى بعزل الاكليروس وأصحاب المناصب فى الدولة إن هم ناقشوا موضوع الايمان بصورة عامة وعلنية. أما بالنسبة لغير الموظفين فى الدولة ممن يقيمون فى القسطنطينية فكان جزاؤهم النفى خارجها وتقديمهم للمحاكمة... وأثار مركيان اضطهادا عنيفاً ضد الأرثوذكسيين. واستشهد فى هذا الاضطهاد عديد من الأساقفة والكهنة والرهبان والمؤمنين فى الشرق، ممن رفضوا الخضوع لقرارات وتعليم خلقيدونية.. أما الأساقفة الذين زاغوا عن الحق إرضاء للملك وطمعاً فى مآرب خاصة، فقد كانوا سبباً فى إهدار دماء زكية لاسيما فى فلسطين ومصر.

إن ما حدث فى مجمع خلقيدونية من هزيمة لكنيسة الاسكندرية على المستوى المسكونى، ومحاولة إذلالها بحرم ونفى بطريركها البابا ديسقورس، لم يكن هو خاتمة المطاف فى ذلك الصراع، بل كان هو البداية.. وصل رسول امبراطورى إلى الاسكندرية يحمل قراراً بعزل البابا ديسقورس وتعيين القس الاسكندرى بروتيريوس Proterius (٤٥٢ ـ ٤٥٧). وقد تم ذلك بالقوة المسلحة. والى جانب هذا القرار كان رسول الملك مركيان يحمل معه رسالة امبراطورية بمعاقبة كل من يجرؤ على العصيان. على أن الأقباط لم يقبلوا هذا الوضع وأضرموا نار ثورة فى الاسكندرية وتجدد عصر الاستشهاد ثانية. ولكن على يد مسيحيين.. قيل أن عدد من سقطوا قتلى فى هذا الاستشهاد يعدون بالآلاف (ذكر البعض أن عددهم بلغ أربعة وعشرين

فيهما بالتمام تألم وقام لا فى غيرهما. وقالوا انهم أخذوا هذه القاعدة من الرسولين يوحنا وفيلبس وعضدوها أيضا بمثال المسيح ذاته الذى عمل فصحه مع اليهود. وكانوا يعتبرون يوم الآلام من وجه عقائدى يوم تحرير من العبودية وخلاص فكان يعد عندهم يوم فرح ويمنعون بعد انقضائه الحزن والصوم معا.

ولكن الكنيسة المصرية لم تعتبر الاهمية فى عدم اليوم من الشهر بل فى اسمه الاسبوعى أعنى الجمعة والاحد. فكانت ترى من الضرورى ان

واستشهدوا ايضا الذين معهم بيريوس ومليتيوس الذى صار اسقف بنتس وهو المعروف بالعسل الشهد لاجل حلاوة لسانه المملوه من تعليم الله وحكمته. وكان محبا للصدقه على المساكين ولا يدخر شيا بالجمله، وكان جميع تعليمه من الانجيل، وكان فى زمان تشتيت الناس واضطهادهم، وكان ثابت التعليم.

ولما تنيح همنايوس اسقف اورشليم جعل عوضه زبداس، ولما تنيح صار بعده ارمون، وكان هذا متعبا

ألفا) معظمهم من الأساقفة والكهنة والرهبان.. ومن بين من استشهدوا القديس مقاريوس اتكو Tkoy بالصعيد. كان بالاسكندرية وحاول والى الاسكندرية أن يرغمه على أن يوقع قرارات مجمع خلقيدونية، لكنه رفض. فما كان من أحد الجنود إلا أن ركله فسقط على الأرض ميتاً نظراً لشيخوخته.. أما بقية الأساقفة الذين رفضوا التوقيع فقد نالهم النفى والتشريد.

توفى مركيان فى فبراير سنة ٤٥٧، وخلفه لاون الأول (٤٥٧ ـ ٤٧٤)، فاتخذها الكسندريون فرصة لرسامة بطريركا خلفاً للبابا ديسقورس المعترف الذى تنيح فى منفاه فى ٤ سبتمبر سنة ٤٥٤. وهكذا رسم البابا تيموثاوس الثانى البطريرك ٢٦ فى ١٦ مارس سنة ٤٥٧، ويعرف فى المراجع باسم تيموثاوس ايلوروس Aelurus. وتبع ذلك أن انشقت اسقفية الاسكندرية بين سلسلتين من البطاركة: الملكانيين Melkites وكانوا من الروم (الاغريق)، وتتم رساماتهم فى القسطنطينية غالباً، ويخضعون لمجمع خلقيدونية. والسلسلة الأخرى الأرثوذكسيين (مونوفيزيين) وكانوا أقباطا وطنيين تمسكوا بقوميتهم ورفضوا زعامة وسيطرة الروم والخلقيدونيين.. لكن رسامة البابا تيموثاوس الثانى، وما تبعها من عقده مجمعاً بالاسكندرية حرم مجمع خلقيدونية وبروتيريوس الدخيل، جعلت والى الاسكندرية يلقى القبض على البطريرك تيموثاوس ويبعده إلى أبو صير Taposiris أما النتيجة فكانت مزيد من القتلى.

فى بداية الأمر لم تنظر السلطة المدنية بعين الاكتراث إلى هذا الصدع الجديد الذى حدث

يكون تذكار الآلام يوم الجمعة وتذكار القيامة يوم الاحد. ولهذا السبب كانت في السنين التي لا يتفق ان يكون اليوم الرابع عشر من نيسان يوم جمعة تعيد الآلام أول يوم جمعة بعده ثم القيامة يوم الاحد واسندوا هذه القاعدة الى بطرس وبولس الرسولين قائلين انهما أصلها. وكانوا يعتبرون اليوم على وجه تاريخي يوم حزن ولم يسمح عندهم بحل الصوم قبل تذكار القيامة وقد وافق اساقفة رومية وانطاكية واورشليم اذ ذاك على أن يتبعوا ما اتبعه مسيحيو الاسكندرية بناء على ما كتبه اليهم البابا ديمتريوس في ذلك.

فكانت الكنائس متفقة على ضرورة تعييد الفصح ولكنها اختلفت في تعيين اليوم الذى يعيد فيه حتى كان بعضها يعيد بعد الآخر باسبوع أحيانا. وبين سنة ١٦٠ و ١٦٣م سافر القديس بوليكربوس أسقف ازمير الى رومية لينهي بعض مسائل من جملتها مسألة الفصح آملا باقناع أسقف رومية نيشيوس العاشر في اساقفتها في ان تعيد كنيسته الفصح مثل كنائس آسيا. وبعد جدال طويل لم يتمكن أحدهما من اقناع الآخر. وهكذا استمر كل من الفئتين على عادته المختصة به الى ان ابطل مسيحي آسيا المجمع النيقاوى في القرن الرابع وأناط بالاساقفة الاسكندريين تحديد يوم عيد الفصح فظلوا يعينونه لجميع الكنائس المسيحية قرونا طويلة وترتب من ذلك الحين ان يصدر بابوات الاسكندرية رسالة في كل عيد فصح يرسلونها لجميع الكنائس المسيحية عموما والمصرية خصوصا في اليوم الذى يقع فيه عيد القيامة من كل سنة. وكانت لهذه الرسائل أهمية عظمى حتى عند غير المسيحيين لما تضمنته من الحساب الفلكي الدقيق الذى جرى عليه المصريون القدماء بالضبط ولذلك عهد بكتابتها الى بطريرك الكنيسة القبطية المصرية وحده لعلمه بهذا الحساب التاريخي علما تاما.

وقيل ان الذى وضع ذلك الحساب المشهور بالابقطى (الابقطى هو عمر القمر في أول توت من كل سنة هو بطليموس الفلكي الفرماوى صاحب كتاب المجسطى في عهد البابا ديمتريوس فنسب اليه ودعى بحساب الكرمة.

ولبثت الكنائس سائرة على هذا الترتيب حتى سنة ١٥٨٢م حين وضع اغريغوريوس الـ١٣ أسقف رومية تقويمه الغريغورى الذى ادخل به اصلاحا على التقويم اليولياني ولذلك صارت الطوائف الغربية التي سارت على التقويم الغريغورى تعيد الفصح بعد اكتمال البدر الذى يلي الاعتدال الربيعي مباشرة بدون نظر الى تاريخ ذبح الخروف اما الطوائف الشرقية فظلت باقية على العادة الاولى الى اليوم.

ففي بعض السنين يتفق ان يكتمل اول بدر عيد الاعتدال الربيعي في الوقت الذى يأتي فيه ذبح الخروف فتعيد جميع الطوائف المسيحية في يوم واحد ولكن في سنين اخرى يكون اكتمال البدر قبل ذبح الخروف فيأتي عيد الفصح عند الغربين متقدما على الشرقين ومدة هذا التقدم تتراوح بين أسبوع على الاقل وخمسة أسابيع على الاكثر ولا يأتي عيد الشرقيين قبل عيد الغربيين مطلقا.

فالغرض من حساب الابقطى انما هو تعيين يوم ذبح الخروف عند اليهود. ومنه يمكن تعين عيد الفصح والاعياد المرتبطة به كعيد الصعود وعيد العنصرة وذلك لانه بين السنة التوتية القبطية والسنة اليهودية فرقا نشأ من أن السنة الاولى شمسية والسنة الثانية ذات اشهر قمرية ولكي يقع الفصح اليهودى دائما بعد الاعتدال الربيعي يضيف اليهود شهرا على سنتهم كل سنتين أى انها في السنتين الاوليين ١٢ شهراً وفي الثالثة ١٣ شهراً وبذلك جعلوها سنة شمسية ولو أن شهورها قمرية.

في زمان الاضطهاد وتنيح مكسيموس بطريرك اسكندريه في اربع عشر برموده بعد ان اقام تماني عشره سنه.

(*) ساونا البطرك

وهو من العدد السادس عشر

٢٨٢ / ٣٠٠م

ولما تنيح مكسيموس جلس بعده ساونا على الكرسي باسكندريه بعد اجتماع الشعب واتفاق

(*) روى الانبا يؤنس مطران دمياط في مجموعته لتاريخ البطاركه أن الآباء البطاركة نصبوا بطركا قبل ساونا هذا اسمه ببنوده جلس على الكرسي المرقسي ستة شهور في نهايتها اجتمع الاساقفه ضده وقرروا تجريده من رتبته لأنه قد خصى نفسه وأقاموا بدله البابا ساونا في شهر

في كنيسة الاسكندرية نتيجة إقامة بطريرك يفرض عليهم من الخلقيدونيين. ولكن خطورة الموقف بدت واضحة حينما استغل شعب الاسكندرية فرصة انشغال حاكمها بمحاربة الوندال بشمالي افريقيا وقبائل البلميس Blemyes في صعيد مصر، فانقضوا على بروتيريوس الأمر الذى انتهى إلى قتله وسحله في شوارع الاسكندرية، وأحرقوا جثته وذروا رمادها في الهواء إمعانا في التشفي والانتقام. وكان ذلك في ٢٨ مارس سنة ٤٥٧ .. وانتهى الأمر بصدور قرار الملك لاون بنفي البابا تيموثاوس الثاني إلى جزيرة جنجره Gangrain في بفلاجونيا Paphlagonia حيث نفي البابا ديسقوروس. وان كانوا قد نقلوه إلى منفى أخر... أما البابا تيموثاوس الثاني فقد كرس جهوده في المنفى لكتابة ضد النساطرة والخلقيدونين والأوطاخيين.

بعد نفي البابا تيموثاوس أقام الخلقيدونيين بالاسكندرية بطريركا خلفاً لبروتيريوس دعوه تيموثاوس أيضاً وهو المعروف باسم تيموثاوس سالوفاكيولس Salophaciolus وكان تعيينه بقرار من الامبراطور زينون Zeno. لكن الشعب قاطعه، وكانوا يقصدون الأديرة للصلاة. لكنهم كانوا لا يفتأون عن رفع الاحتجاجات إلى الامبراطور طالبين إعادة البابا تيموثاوس ثانية مين المنفى.. وما أن تولى زينون حتى لجأ إليه أقباط الاسكندرية الأرثوذكسيين يلتمسون عودة بطريركهم تيموثاوس الثاني من المنفى. لكن القائد باسيليسكوس Basiliscus تمكن من عزل زينون وملأ مكانه. ويبدو أن باسيليسكوس أراد أن يستعين بقوة الارثوذكسيين فأصدر أمره سنة

رأيهم على صلاحه فقدموه فى اول سنه من ملك نومريانوس وكاروس وكلوينوس الملوك وبنى بيعه حسنه على اسم السيده مرتمريم(العدرا) وسميت تاوماتار. والى هذا الوقت كانت الشعوب يقدسون فى المغاير والكهوف والمواضع المخفيه. فمن مارى مرقس الانجيلى الى السنه التالته من بطريركية ساونا مايتان وتسع عشره سنه. وتنيح فى التانى من طوبه بعد ان اقام تسع عشره سنه.

وكان فى ايام هذا الاب البطرك ساونا كاهن

كسيهك سنة ٢٨٢م فى عهد الامبراطور بروفس.

ولما تولى القيصر ديوكلتيانوس عرش رومية أدخل فى معيتة عددا كثيرا من الاقباط المسيحين فأرسل اليهم هذا البطريرك رسائل يأمرهم فيها أن يقوموا بواجبهم وأن يميزوا أنفسهم كمسيحين عن الموظفين الوثنين بأعمالهم الصالحة وسيرتهم الطيبة فمن ذلك رسالة الى لوسيان ناظر بيت الملك وهو موظف مسيحى ارتقى الى رتبته بعد تملك

---

٤٧٦ باعادة البابا تيموثاوس من المنفى. وفعلا ترك منفاه ووصل إلى القسطنطينية حيث استقبل استقبالا حاراً بواسطة المؤمنين وحل ضيفاً على البلاط الملكى. وهناك زاره كثيرون للاستشفاء والتبرك.. ترك القسطنطينية إلى الاسكندرية وعرج على أفسس. وفى الاسكندرية استقبل استقبالا حافلا من كل الشعب والاكليروس والرهبان والراهبات، وهم يهتفون «مبارك الآتى باسم الرب».. ودخل الكنيسة الكبرى بعد أن غادرها البطريرك الدخيل.. ومما هو جدير بالذكر أن البابا تيموثاوس - بموافقة الامبراطور - نقل جسد البابا ديسقوروس فى صندوق فضى إلى الاسكندرية حيث جنز فى احتفال مهيب كمعترف، ووضع جسده فى مدفن الآباء البطاركة.

ومما يذكر أنه فى سنة ٤٧٦ حين تقابل البابا تيموثاوس الثانى مع الملك باسيليسكوس، طلب إلى الملك أن يصدر مرسوماً بحرم طومس لاون والزيادة التى أضافها مجمع خلقيدونية على الإيمان النيقاوى.. استجاب باسيليسكوس لهذا المطلب وعقد مجمعاً فى القسطنطينية حضره خمسمائة أسقف يتقدمهم البابا الاسكندرى تيموثاوس، ومار بطرس الثانى الانطاكى فحرموا المجمع الخلقيدونى ولاون الرومانى وطومسه ووضع صيغة قرار المجمع الراهب بولس أحد الرهبان الوافدين من الاسكندرية وأصدر به منشوراً عاماً وفيه أعلن وجوب التمسك بالايمان النيقاوى الذى ثبتته ثلاثة مجامع مسكونية فى القسطنطينية سنة ٣٨١، وأفسس

قديس وكان له زوجه طاهره وكانو جميعا سالكين في طريق الرب حافظين وصاياه عاملين باوامره متمسكين بقوانين الديانه ثابتين على الامانه، ولم يكن لهما ولد وكانو حزيني القلب، لاجل ذلك كانا يكثران الصوم والصلاه والصدقه لينعم الرب عليهما ويرزقهما ولدا تقر عيونهما به، فلما حضر عيد التلميذين الجليلين بطرس وبولس في اليوم الخامس من ابيب وحضرو جميع المومنين للبيعه ليعيدو لهما، وحضرت زوجة هذا الكاهن الى

ديوكلتيانوس بقليل يقول له «ان الراحة التى تتمتع بها الكنيسة الآن تعزى الى سبب واحد فقط هو سلوك المسيحين الحسن وأعمالهم الممدوحة التى تضيء كالشمس فى رابعة النهار ينعكس ضوؤها أمام أعين الكفرة والملحدين فتبهر أبصارهم وبذلك يتمجد أبونا الذى فى السموات. أما غرضنا الذى نرمي اليه والغاية القصوى التى نسعى خلفها هي أن نكون مسيحين فعلا لا بالاسم فقط وأن نعمل أعمال المسيحين الحقيقين

الأول سنة ٤٣١، وافسس الثانى سنة ٤٤٩، كما أمر باحراق طومس لاون وتعليم مجمع خلقيدونية حيثما وجد.. وقد وقع هذا القرار تيموثاوس الاسكندرى وبطرس الانطاكى وبولس الافسى ومعه أساقفة آسيا الصغرى والشرق، وانستاسيوس الأورشليمي وأساقفة ولايته وغيرهم نحو سبعمائة أسقف. أما أكاكيوس Acacius بطريرك القسطنطينية فقد تردد فى التوقيع.

الملك زينون والأرثوذكسيين:

لم يسترح أكاكيوس بطريرك القسطنطينية للنصر الذى أحرزه الأرثوذكسيين بقيادة البابا تيموثاوس. حرض الاكليروس والرهبان فى القسطنطينية، وأغلق الكنائس، ونظم مظاهرة صاخبة ضد باسيليسكوس مدعيا أنه هرطوقي. فاضطر باسيليسكوس إلى إلغاء مرسومه السابق لاسيما وأن الظروف. السياسية كانت فى غير صالحه، إذ أن زينون كان قد أعد جيشاً كبيراً لمقاتلته واسترداد عرشه.. وفعلا انتهى الأمر بعودة زينون وطرد باسيليسكوس فى سبتمبر سنة ٤٧٦. وبعودته أصدر مرسوماً بالغاء منشور باسيليسكوس الدينى ونفى بولس الافسى وبطرس الانطاكى، وأرسل يتهدد البابا تيموثاوس الاسكندرى، لكن هذا الأخير تنيح سنة ٤٧٧.. وأقام الأرثوذكسيين بطريركا خلفا لتيموثاوس هو بطرس الثالث المعروف باسم بطرس منجوس Mongus (٤٧٧ ـ ٤٩٠) البطريرك ٢٧، وكان هو أحد تلاميذ البابا ديسقورس ورئيس

حيث صورتهما فابصرت المومنين يقدمون اولادهم ويدهنون بزيت القنديل الموقود قدام الصورتين، فتنهدت بقلب قريح واستشفعت بهما الى الرب وتناوات من السراير المقدسه واخذت السلام الالهى وانصرفت الى منزلها شاكره للرب سبحانه. فرأت فى تلك الليله فى منامها شخصين بلباس البطاركه يقولان لها: لا تحزنى فان الرب قد سمع

لانه اذا كنا نطلب مجد أنفسنا الذاتى فنكون كمن يطلب شيئا تافها لا فائدة منه. فاذا يجب على كل مسيحى أن يهتم بمجد الله الآب وبمجد الله الابن الذى سمر لاجلنا على خشبة الصليب وفدانا بدمه فداء أبديا لا يقوم بذهب أو بفضة. فلذلك أيها العزيز لوسيان أريد أن يعرف عنك التباهى والفخر لانك أهديت كثيرين من خدمة البلاد الملوكى الى معرفة الحق وأدخلتهم فى حظيرة المسيح بل الاحرى بك أن تشكر الله الذى

شمامسة كنيسة الاسكندرية.. عقد مجمعاً فور تنصيبه وقرر حرم مجمع خلقيدونية ولاون وطومسه.. فأرسل إليه الملك زينون يتوعده، فأخذ يتخفى فى بيوت المؤمنين بالاسكندرية. وفى نفس الوقت أعاد الملك البطريرك الخلقيدونى تيموثاوس سالوفاكيولوس Salophaciolus لكنه توفى سنة ٤٨٢.. توسل الأقباط لدى الامبراطور زينون أن يجعل بطريركهم بطرس منجوس هو البطريرك الوحيد، لكن الامبراطور رفض طلبهم، وأقيم بطريركا خلقيدونيا هو يوحنا طلايا Talaia كان يحوز على مساندة روما، لكنه لم يكن على علاقة ود مع دوائر القصر والكنيسة بالقسطنطينية. وانتهى أمر هذا الدخيل بالهرب إلى روما.. وفى هذا الوقت بدأ التقارب بين أكاكيوس بطريرك القسطنطينية (٤٧١ ـ ٤٨٩) وبطرس الثالث (منجوس) البطريرك السكندرى، فى الوقت الذى أخذ زينون يفقد الأمل فى كسب الأرثوذكسيين (المونوفيزيين) فى الاسكندرية عن طرق العنف وبات واضحاً أنه لابد من التفكير فى إيجاد حل لاعادة السلام للكنيسة الذى يؤثر بدوره على سلام الامبراطورية ووحدتها.

الهنوتيكون Henoticon:

كانت الفكرة الجديدة لحل المشكلة الدينية هو ما عرف باسم الهنوتيكون أى وسيلة الاتحاد أو عمل الاتحاد أو كتاب الاتحاد أو مرسوم الاتحاد. كانت الميول الأولى لكل من الامبراطور زينون والبطريرك القسطنطينى أكاكيوس خلقيدونية. لكن ثورة باسيليسكوس ـ وإن كانت

اختارك آله نافعة للبيان وجعلك واسطة خير لنفع الآخرين وأعطاك نعمة في عيني مولاك لحد تمكنت فيه من نشر كلمة الخلاص واذاعة معرفة فادى المسيحيين وذلك لمجد اسمه وخلاص الكثيرين».

وأوصى كافة أمناء بيت الملك المسيحيين فقال «ان الله ينهاكم عن أن تبيعوا الآخرين شيئا من متعلقات القصر خلسة أو تأخذوا رشوة ولا تقولوا للامبراطور كلاما ضد الحق

دعاك ووهب لك ولدا يقر عينك به ويكون ابا لشعوب كثيره ويظهر اسمه وقدسه مثل صمويل النبي لانه ابن موعد فاذا اصبحت امضى باكرا الى الاب ساونا البطرك واعلميه بهذا ليبارك عليك فان الله برحمته يهب لك ولدا مباركا، فلما أصبحت أعلمت زوجها الكاهن بذلك فقال لها امضى واعلمى ساونا البطرك كما قيل. فمضت اليه واعلمته بذلك فبارك عليها وقال لها يتم الله

وقتية ـ لكنها أثبتت لكليهما بدون شك مدى قوة الأرثوذكسيين (أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة) وأهمية مسالمتهم. لذا كان من الضرورى أن توضع صيغة إيمان يقبلونها بدلا من صيغة الايمان الخلقيدونى ـ والحقيقة أن واضع الهنوتيكون كان هو أكاكيوس ـ كانا يهدفان إلى العودة بالكنيسة إلى المفهوم اللاهوتى السابق لخلقيدونية أى قبل الانقسام.. وفى سنة ٤٨٢ تمكن من إقناع الامبراطور زينون ـ دون كبير عناء ـ بالموافقة على المحاولة الجديدة. لقد اعترف الهنوتيكون بقرارات المجامع المسكونية الثلاثة الأولى، حرم كل من نسطور وأوطاخى واتباعهما. ولم يتعرض للنقطة الحساسة وسبب الانقسام وهى الخاصة بطبيعة المسيح. وحرم كل من يؤمن بايمان آخر.

كان المرسوم صورة رسالة موجهة من الامبراطور زينون إلى «الأساقفة والاكليروس والرهبان والمؤمنين فى الاسكندرية ومصر وليبيا والخمس مدن الغربية».

أما خلاصة الهنوتيكون فكانت كالآتى:

«بما أن الإيمان الذى لا عيب فيه وحده ينجينا وأمور الجيش، لذلك قدم إلينا محبو الله رؤساء الأديرة والرهبان عرائض ملتمسين فيها بدموع أن يتم اتحاد الكنائس المقدسة فتضم إلى بعضها البعض. تلك الأعضاء التى فرقها عدو الخير منذ زمن، حتى مات بعض المؤمنين بدون

طلبتك ويجيب مسئلتك فالرب صادق واعماله عجيبه في قديسيه. وانصرفت الى منزلها فحملت بعد ذلك بمده يسيره، وكانت تحرس نفسها بكل الطهاره ومداومة الصوم والصلاه ليلا ونهارا الى يوم عيد القديسين بطرس وبولس فى الخامس من ابيب، فولدت ابنا فمضى المبشر الى انبا ساونا البطرك واعمله بانها قد ولدت ابنا ففرح بذلك جدا وفرح زوجها

ابتعدوا عن الطمع والجشع اللذين يتمسك بهما الوثنيون لا المسيحيون واعلموا أن الربح القبيح والغش هما صفتان لا تلائمان من قبل المسيح. فعولوا على الاقتداء به ذاك الذى كان فقيرا ومعدما. لا تتكلموا بشر فيما بينكم ولا تخرج كلمة قبيحة من أفواهكم بل لتكن كل أعمالكم مقرونة باللطف والتأدب مع العدل والحق بذلك يتمجد اسم ربنا والهنا يسوع المسيح فيكم وفي أعمالكم. تمموا واجباتكم التى اسندت اليكم

اقتبال سر العماد، وآخرون بدون تناول القربان المقدس. فضلا عن سقوط ربوات من القتلى، الذين بدمائهم الغزيرة تخضبت الأرض والهواء. ولذلك فقد قررنا نحن والكنائس الأرثوذكسية في كل مكان، ورؤساء الكهنة الذين يدبرونها، ألا نعرف إيمانا آخر سوى الذى وضعه الآباء القديسون الذى اجتمعوا فى افسس وحرموا نسطور ومن نسجوا على منواله. فنحرم نحن أيضاً نسطور وأوطاخي اللذين علما خلافا للإيمان المذكور. ونقبل الفصول الاثنى عشر التى كتبها الطيب الذكر ومحب الله كيرلس الذى كان رئيس أساقفة كنيسة الاسكندرية الجامعة. ونعتقد بأن الوحيد ابن الله والاله يسوع المسيح، الذى نزل وتجسد حقا من الروح القدس ومن مريم العذراء والدة الاله، والذى هو من طبع الآب باللاهوت ومن طبعنا بالناسوت(١)، وهو واحد لا إثنان(٢)، وأن العجائب والآلام التى احتملها بالجسد هى لهذا الوحيد ابن الله الواحد(٣). أما الذين يميزون(٤)، أو يبلبلون أو يقولون بالخيال(١)، فلا نقبلهم البتة. ذلك أن التجسد الحقيقى المنزه عن الخطيئة الذى من والدة الاله لم يزد على الابن شيئاً. فقد ظل الثالوث ثالوثا، وما بعد تجسد الاله الكلمة الواحد من الثالوث أيضاً. إننا نكتب بهذا إليكم لا لنعلن إيمانا

(١) ملاحظة: نلاحظ أن العبارة الموضوع فوقها (١) هى ضد أوطاخي، والموضوع فوقها.
(٢) هى ضد نسطور، والموضوع فوقها.
(٣) هى ضد طومس لاون، والموضوع فوقها.
(٤) تعني النساطرة والخلقيدونيين..

بخوف من الله وبمحبة للامبراطور وبغاية الدقة والاجتهاد واعتبروا أن الاوامر التى تصدر لكم من مولاكم الذى لم يسىء الى أحد من رجال الله كأنها صادرة من الله نفسه لانه مقام منه ولم يتقلد السيف باطلا. وأخيرا يا أبنائى الاعزاء البسوا الصبر كرداء وتمطقوا بالفضيلة وامتلئوا بالرجاء والايمان والمحبة».

ثم أرسل لأمين الخزانة الخاصة يأمره بأن يتحلى بالامانة ويصرف بدقة حساب وكتب لأمين الملابس

الكاهن الابروتس، وقال لهما انبا ساونا البطرك:

اسمواه بطرس. ففعلا ذلك، وكان الصبى يشب وينشو وينمو مثل يوحنا المعمدانى حتى بلغ تلت سنين فحمله ابواه الى البطرك وقالا له: هذا ابن صلواتك. فبارك عليهما وعليه وعمده. ولما صار فى خمس سنين دفعه ابواه للتعليم فتعلم الحكمه فى اسرع وقت وصار احفظ ممن فى البيعه من ابناء جنسه. وفى سابع سنه جعله اغسطس وامتلا من

جديداً، لكن لنبين أننا نحرم كل من ارتأى أو يرتأى شيئاً أخر سواء أكان ذلك فى مجمع خلقيدونية أم فى أى مجمع آخر، ولا سيما نسطور وأوطاخى، والذين ينسجون على منوالهما».

واضح مما تقدم أن الهنوتيكون كان خطوة كبيرة نحو تفكير الأرثوذكسيين القائلين بالطبيعة الواحدة فى المسيح... فكانت النتيجة المباشرة هو التقارب بين كنيستى الاسكندرية والقسطنطينية، على الرغم من أن كنيسة روما لم ترحب بالأمر برمته، بل ذهبت إلى ما هو أبعد من هذا فى الاتجاه المضاد.

فى ذلك الوقت سنة ٤٨٢ توجه بعض علماء الاسكندرية ليشفعوا لدى زينون فى بطريركهم البابا بطرس الثالث (منجوس). وحالما التقوا بالملك بسطوا أمامه ما حل بالمؤمنين والكنائس من شدائد من جراء مجمع خلقيدونية. اقتنع الملك بعودة البطريرك بطرس إلى كرسيه بشرط أن يقبل الهنوتيكون ويوقع عليه، ويدخل فى شركة مع الأساقفة الآخرين الذين يقبلونه.

رد الفعل فى الاسكندرية:

بدراسة الهنوتيكون وجد البابا بطرس أنه لا يضاد الايمان الأرثوذكسى. فهو يقبل إيمان وقرارات المجامع الثلاثة الأولى المسكونية نيقية والقسطنطينية وافسس، وحرومات كيرلس الكبير

النعمه الروحانيه. فلما صار في اثنتى عشره سنه كمله شماسا. وكان يصول على الشمامسه بالمعرفه والنسك وما وهبه الله له من النعمه الروحانيه السماويه. فلما كمل له ست عشره سنه قدموه قسيسا لما راه البطرك من عفافه وصيانته وعلمه ونسكه وصحة امانته وجودة معرفته وطهارته وملازمته خدمة البيع ليلا ونهارا. وكان قد ظهر في تلك الايام رجل مجدف يقال له

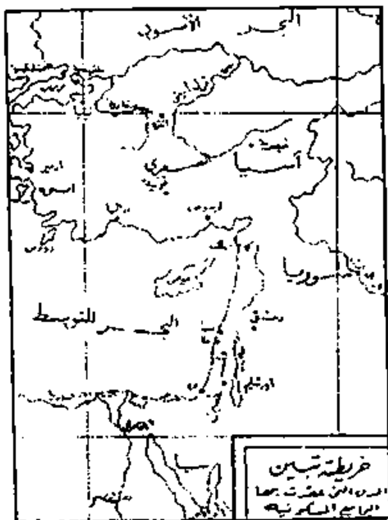

خريطة تبين المدن التى عقدت بها المجامع المسكونيه

يوصيه بملاحظة الترتيب والنظام وختم كلامه بقوله «وعلى الامين أن يفعل كل هذا بتواضع وطول أناة لكي يتمجد اسم المسيح حتى في مثل هذه الاعمال القليله الأهمية» أهـ.

وأوصى أمين المكتبة بأن يحسن تنظيمها ويجد في نسخ ما بها من الكتب الهامة وأن لا يفتأ يذكر أمام القيصر عظيم قدر الترجمة السبعينية للكتاب المقدس وأن يمزج كلامه مع القيصر بشواهد من سيرة المسيح.

وكان في عهد هذا البطريرك كاهن قديس لم يرزق بنسل يدعى ثيودوسيوس وحدث أن امرأته صوفية شاهدت بالكنيسة يوم عيد الرسولين بطرس وبولس أولاد المسيحيين يقدمون الى المعمودية فانكسر قلبها ورجعت الى البيت حزينة النفس وطلبت من الله بلجاجة أن يمن عليها بنسل. وفي ليلة ذلك اليوم شاهدت رؤيا في نومها واذا بشخصين وقفا بها وأخبراها أن طلبتها أجيبت وسترزق ولدا وأمراها أن تذهب باكرا الى البطريرك وتخبره بذلك. فلما أصبح الصباح أخبرت زوجها بالأمر وانطلقت الى البابا ثاؤنا وأعلمته بما جرى فباركها وصرفها بسلام. وما أتت السنة حتى رزقت ولدا أتت به الى البطريرك ليعمده فدعاه بطرس

ولما كبر تتلمذ له وأدخله المدرسة اللاهوتية فبرع براعة غريبة جذبت اليه أنظار جميع الشعب.

ولما حضرت البطريرك الوفاة جاء اليه جميع الكهنة والشعب باكين قائلين «أتتركنا يا أبانا مثل الايتام» فقال لهم «لستم أيتاما بل هذا بطرس أبوكم وهو البطريرك بعدى» وقدمه البطريرك قبل أن يتنيح ثم رقد في الرب في ٢ طوبه سنة ١٧ للشهداء و ٣٠٠م.

وفي أواخر حبرية هذا البابا ثار اضطهاد ديوكلتيانوس قيصر فجعلت الكنيسة القبطية السنة الاولى لملك هذا الطاغية مبدأ لتاريخ سنيها وهو المعروف بتاريخ الشهداء.

(*) سابليوس: انظر هامش ص٢٦٥.

حمامات ذات صلبان. نقش في صومعة ناسك بمدينة اسنا

سابليوس(*) فقال مقاله خارجه عن الامانه. وذلك انه اعتقد اقنوما واحدا للاب والابن والروح القدس الثالوث المقدس وليس هو تلت اقانيم بل تلت اسماء. وهو كفر بالانجيل، ولم يسمع الى المكتوب فيه، ان سيدنا يسوع المسيح عندما اعتمد من يوحنا ابصر روح القدس قد حل عليه شبه حمامه، وسمع صوت الاب من السما يقول هذا ابنى الحبيب الذى به سررت. فلما سمعه جماعه

الاثنى عشر، ويشجب نسطور وأوطاخي.. ومن ثم فقد قبله ووقع عليه، ووعد بأن يقبل فى شركته الذين يرجعون تائبين ومعترفين بما في الهنوتيكون.. وفى الكنيسة الكبرى بالاسكندرية أخذ يفسر للاكليروس والرهبان والمؤمنين مضمون الهنوتيكون، موضحاً أنه يتضمن الايمان الصحيح، شارحاً لهم لماذا قبله.

لكن بعض الاكليروس المغالين تحفظوا ضد الهنوتيكون، محتجين بخلوه من حرم صريح للزيادة التى أدخلها المجمع الخلقيدونى على الايمان. وأخذوا يناهضون البطريرك بطرس لقبوله، وعلى وجه الخصوص كيف يصبح فى شركة مع الخلقيدونيين. وكادت تحدث فتنة كبيرة لوّلا أنه حرم علناً طومس لاون ومجمع خلقيدونية. وشرح لهم لماذا قبل في شركته من قبلوا الهنوتيكون الذى نقض ما أضيف إلى المجامع الثلاثة الأولى، حتى لو كانوا قبلا خلقيدونيين.

رد الفعل فى روما:

عقد فيلكس أسقف روما مجمعاً سنة ٤٨٤ حرم فيه أكاكيوس، على الرغم من القبض على مندوبيه وحبسهم في القسطنطينية بأمر زينون.. أما رد الفعل فى القسطنطينية فكان حذف اسم أسقف روما من القداسات. لقد حدثت ثغرة بين القسطنطينية وروما عرفت فى الكنيسة الكاثوليكية باسم انقسام أكاكيوس. وقد دامت هذه الفرقة نحو ٣٥ عاماً.

تبعوه واضلهم بطغيانه، ثم انه جمع شعبه واتى الى البيعه عند حضور الاب البطرك انبا ساونا في يوم عيد كبير، فوقف على الباب وانفذ اليه رسولا قال له: اخرج ناظرني في هذا اليوم فان كنت على صواب تبعتك والا اعلم الشعب انك على الغلط. فقال الاب البطرك لبطرس القس: اخرج الى هذا الكافر اسكته عنا. فلما خرج ونظره سابليوس قال: انظرو الى صلف ساونا وبذخه لم يرسل الى

خلفاء زينون:

على الرغم من وفاة أكاكيوس سنة ٤٨٩ وبطرس منجوس سنة ٤٩٠ والملك زينون سنة ٤٩١، فقد ظل الهنوتيكون مرعياً من الامبراطور الجديد انستاسيوس الأول (٤٩١ ـ ٥١٨). وكان على أساقفة القسطنطينية أن يوقعوا على الهنوتيكون عند تنصيبهم.. وظل الأمر على هذا النحو حتى توفي انستاسيوس.. وكانت تلك الفترة هي التي برز فيها القديس ساويرس الأنطاكي (٥١٢ ـ ٥١٨) المحامي الكبير عن عقيدة الطبيعة الواحدة في عظاته اللاهوتية الشهيرة.

حدث رد الفعل عندما تبوأ الامبراطور جوستن الأول (٥١٨ ـ ٥٢٧) للعرش الامبراطوري يساعده ابن عمه جستنيان وكانا خلقيدونيين.. عزل ساويرس الأنطاكي، وأنقذ حياته بالهرب إلى مصر. أعيدت الوحدة بين كنيستي القسطنطينيه وروما بواسطة هورميسداس Hormisdas أسقف روما، الذي أرسل مندوبين إلى القصر الامبراطوري في القسطنطينية بصيغة أخرى للايمان، فيها يلعن ويحرم أوطاخي ونسطور وديسقوروس واكاكيوس، وكل أصحاب عقيدة الطبيعة الواحدة.

تبوأ جستنيان العرش (٥٢٧ ـ ٥٦٥)، وأحس كخليفة للقياصرة الرومان، أن عليه واجباً، هو أن يعيد الامبراطورية الرومانية. وفي نفس الوقت أراد أن يكون لها إيمان واحد وقانون واحد

الا اقل من عنده من الصبيان الصغار. فقال له بطرس: ان كنت انا عندك صغيرا فانا عند ابى ساونا كبير، والرب يظهر كفرك اليوم بان ينصرنى عليك كما نصر داود النبى على جالوت الجبار ويظهر الرب لعنته فيك وينتقم منك ويهلكك مع اصحابك ويبطل قولك ويفسد رأيك حتى لا يبقى لك ذكر ولا مقال. فما استتم قوله حتى تعوج وجه سابليوس وصار خلف قفاه وسقط على الارض ميتا وتهاربوا اصحابه وكلمن كان معه،

وكنيسة واحدة.. هذه باختصار كانت سياسة جستنيان.. وهكذا بدأ جستنيان العمل فى القضية الايمانية اللاهوتية صمم على تحقيق الوحدة في الكنيسة كخطوة أساسية لتحقيق طموحه في السيطرة على الكنيسة.. كان خلقيدونيا وبدأ يظهر ميولا نحو الخلقيدونيين لكنه تراجع عن الدخول فى نزاع مع الأرثوذكسيين أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة.. كانت زوجته الامبراطورة ثيودورا Theodora أرثوذكسية فى الخفاء، ودافعت عن الأرثوذكسيين ومقتنعيها بكل ما أوتيت من قوة، وما استطاعت إلى ذلك سبيلا، لكن بحكمة حتى لا تثير ثائرة الامبراطور. كانت ثيودورا امرأة متدينة، ذات شخصية قوية، ظهر نفوذها فى تشكيل سياسة الدولة الدينية. وبفضل جهودها سمح جستنيان للأساقفة الأرثوذكسين المنفين بالعودة إلى ديارهم وكراسيهم. كما دعا كثيرين من الأرثوذكسيين إلى القسطنطينية إلى مؤتمر دينى للتصالح، وطلب إليهم أن يناقشوا كل الأسئلة التي يكتنفها الشك مع خصومهم.. وهكذا تمكن ساويرس الأنطاكى أن يأتى فى أمان إلى القسطنطينية سنة ٥٣٢ على رأس مجموعة قوية من مصر لهذا الغرض، ومكث هناك سنة كاملة. لكن إجراء أو قراراً حاسماً لم يتخذ، فقد كانت المشكلة بما يكتنفها من تيارات خفية وأهواء شخصية أعقد من أن تحل.

وكخطوة نحو الأرثوذكسيين أصدر جستنيان فى سنة ٥٤٤ مرسوماً أدان فيه ثلاثة من عمد النسطورية عرفوا باسم الثلاثة فصول Tria Kephaiaia وهم تيودور من مبسيتيا Theodore

وهلك وباد ذكره وانقطعت مقالته ولم يبق له ذكر. هذا منتهى ما كان من امر سابليوس. واظهر الرب ايه اخرى على يدى بطرس القديس، وذلك انه كان عيد الكهنه والشعب يمجدون الله ويعيدون فوقف انسان منهم به شيطان مارد على الباب، فجعل يرجم المومنين بالحجاره ويزبد ويزئر مثل الجمل فيهرب الشعب منه الى داخل البيعه. واعلمو البطرك بحال المجنون فقال للقديس

---

of Mopsuestia وثيودوريت من سيروس Thedoret of Cyrus واياس من اديسا Ibas of Edessa وقد رحبت كنائس الشرق بادانتهم، بينما تذبذبت كنائس الغربيين قبول هذا المرسوم أو رفضه.. ولم تهدأ المسألة التى أثارها مرسوم جستيان المعروف باسم الثلاثة فصول إلا بموت جستيان، وارتقاء الامبراطور جوستن الثانى (٥٦٥ ـ ٥٧٨)، الذى أصدر هنوتيكون آخر سنة ٥٧١.

أحوال مصر:

تميزت أحوال مصر السياسية خلال تلك الفترة بسوء التنظيم الادارى. ولعل الخلافات الدينية كانت سبباً جوهرياً ساعد على ذلك.. كان فى مصر الملكانيون تسندهم قوات الدولة. بينما الأرثوذكسيين كان عليهم أن يعتمدوا على قدراتهم فى كل المجالات.. كما تميزت تلك الفترة بنمو الاحساس بالقومية المصرية، الأمر الذى كان يقوده ويغذيه الأرثوذكسيين.. كانت هذه هى حالة البلاد بينما كان البرابرة من البدو وغيرهم يحومون كالجوارح على حدود مصر.. وازاء هذه الحالة قسم جستيان مصر إلى قسمين إداريين: الاسكندرية والوجه البحرى وجعل له حاكما، وصعيد مصر وجعل له حاكما آخر، كانت خطة جستنيان التخفيف عن كاهل الحاكم الواحد لكل البلاد، لكن عملية التقسيم بذرت بذور التنافس وسوء التنظيم بين الحاكمين لاقليم واحد.

بطرس: اخرج له فاطرد عنه هذا الشيطان. فاخذ صحنا وجعل فيه ما [ء] وقدمه الى الاب البطرك وسأل ان يصلب عليه ففعل ذلك، وخرج بطرس ومعه وعاء الما الى حيث الرجل المجنون وقال: باسم سيدى يسوع المسيح الذى اخرج لا جاون(*) وابرا من ساير الامراض والاسقام اخرج منه ايها الشيطان بصلوات ابى ساونا البطرك ولا تعد اليه. فللوقت خرج منه الشيطان وبر ا ء ا الرجل وصار سالما عاقلا وديعا.

(*) لاجون: الشيطان.

كما استحدث جستنيان أمرا خطيرا كان له أسوأ الأثر على نفسية الأقباط ومستقبل مصر السياسي. فحينما نصب أبو ليناريس Appollinaria لكرسي الاسكندرية سنة ٥٤١م قلده بالاضافة إلى وظيفته الدينية سلطات عسكرية لتنفيذ سياسته الدينية. وما لبث أن أعطى هذا البطريرك الملكانى حق جمع ضرائب مباشرة لصيانة الكنائس وللرعاية. كانت هذه سابقة خطيرة لمن أتى بعده من الأباطرة.. لقد أعطوا لأنصارهم الوسائل التى يمكنهم بها أن ينكلوا بخصومهم الدينيين ويجددوا الاضطهاد الدينى مرة أخرى وفى صورة أخرى بين المسيحيين والمسيحيين... كانت بداية المأساة على يد الأسقف الدخيل ابوليناريس الذى حاول كبح جماح العناصر الأرثوذكسية الهائجة. فكانت النتيجة مذبحة مروعة.

ومما يذكر لجستنيان اهتمامه بالقضاء على الديانات المصرية التى كانت ما تزال حية فى أطراف الامبراطورية. فشجع الارساليات إلى بلاد النوبة. لكن زوجته ثيودورة سارعت وأحبطت خططه بارسال بعثات أرثوذكسية إلى تلك البلاد مقابل الارساليات الملكانية.. كما أغلق جستنيان معابد ايزيس فى جزيرة فيلة ومعابد آمون فى واحة سيوة، وحل محلها كنائس مسيحية. كما بنى الدير الذى يحمل الآن اسم سانت كاترين فى جبل سيناء، وكان يعرف سابقاً باسم دير الاستحالة (استحالة الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه).

ولو وصـفنا العـجـايب التى ظهـرت من هذا القـديس بطرس لطال شـرحـهـا وضـاقت الكتب عنها.

فلما حضـر ساونا الوفاه لينتقل الى ابايه حضـر جميع الكهنه والشعب باكين قايلين: يا ابانا تخلينا مـثل اليـتامى. فقـال لهم: ليس انتم ايتام بل هذا بطرس ابوكم وهو البطرك بعدى. وقدمه انبا ساونا قبل يتنيح لذلك.

المونوثيليتية Monotheletism

(القول بمشيئة واحدة فى المسيح):

السنوات المتبقية للحكم البيزنطى في مصر تؤلف واحدة من أكثر فترات التاريخ المصرى امتلاء بالأسى.. فمن مشاكل اغتصاب السلطة الامبراطورية فى القسطنطينية، وما ترتب على ذلك من مطامع فى إدارة إقليم مصر، إلى ما أحدثته المنافسة بين حاكمى شطرى مصر من اضطراب وتشويش فى شؤون الحكومة.. وهكذا تعرضت مصر إلى عناصر الشر من الداخل، وأطماع الغزاة من الخارج.. وهكذا ظهرت عصابات منظمة لنهب بعض المدن كما حدث فى بوصير وكانت على مقربة من مركز السلطة في الاسكندرية، بينما كان أحد الحكام منشغلا بانزال أخر والاستيلاء على السلطة في المدينة العظمى! كان عرش الامبراطور فوكاس Phocas (٦٠٢ ـ ٦١٠) يترنح فى ذلك الوقت، ووقع فى قبضة مغتصب آخر للعرش الامبراطورى هو هرقل، وكان قائداً بيزنطياً لجيوش الدول فى أفريقيا. عبر البحر المتوسط وتمكن من إسقاط خصمه، واستولى على العرش ٦١٠م.

وبينما كان ذلك يحدث، إذا بالجيش الفارسى بقيادة Chasroes parirz يجتاح أقاليم الدولة الآسيوية فى سوريا وفلسطين. وفى لحظة تبوأ هرقل للعرش (٦١٠ ـ ٦٤١)، كان

بطرس ا لبطرك الشهيد

[٣٠٠ / ٣١١م]

وهو السابع عشر من العدد

ولما تنيح أنبا ثاونا البطرك اجتمعو كهنة اسكندريه والشعب ووضعو ايديهم على بطرس القس ولده وتلميذه فاجلسوه على كرسى اسكندريه كما امرهم ثاونا الاب القديس وذلك فى السنه السادسه عشره لديقلاديانوس الملك.

الجيش الفارسى على مقربة من مدينة أنطاكية. فى سنة ٦١٣ دخل دمشق، وفى سنة ٦١٤ سقطت أورشليم فى يده، وحمل الصليب المقدس وآلات تعذيب المسيح. وفى سنة ٦١٩ بينما كانت إحدى فرق الجيش تتجه إلى البسفور كانت فرقة أخرى تغزو مصر التى ظلت فى قبضة الفرس قرابة عشر سنوات.

كانت حالة الامبراطورية الرومانية تدعو للرثاء، وبدا كل شىء وكأنه قد ضاع. وبينما كان هرقل يفكر فى الهرب إلى قرطاجنة بشمالى أفريقيا، وضع البطريرك البيزنطى سرجيوس أموال الكنيسة وكنوزها تحت تصرف الامبراطور للقيام بأول حملة لاسترجاع الصليب المقدس. كانت الخطة التى وضعها هرقل أن يضغط على الفرس فى أماكن قريبة نسبياً من القسطنطينية حتى يضطرهم للانسحاب من مصر. وبالفعل تم ذلك سنة ٦٢٧، وتمكن هرقل من استعادة الصليب المقدس ووضع فى القبر المقدس بأورشليم.

عادت مصر ثانية إلى الحكم البيزنطى، لكن هرقل لم يستفد شيئاً من الدرس القاسى ولم يكتف بأنه أحيا سياسة جستنيان فى مصر، بل بالغ فيها بزيادة. فقد عين بطريركاً ملكانياً، صار هو حاكم مصر كلها فى نفس الوقت، مع منحه سلطات دينية وحربية ومالية وتنظيمية وقضائية واسعة.. وفى محاولة جديدة لكسب فريق الأرثوذكسيين من أصحاب مذاهب الطبيعة

فلمــا راى [رأى] ان اريوس الردى قــد بلبل كل الاماكن بكفره قطعه ونفاه من البيعه.

ولما كـان فى السنه التـاسعـه عـشـره من ملك ديقلاديانوس وصلت كتبـه الى اسكندريه ومصـر [بعبـادة الاصنام] وانزل البـلايا على النصـارى واخـرب كنايس الله وقـتل خلقـا كـثـيـرا بالسـيف وهرب المومنون بالمسيح للبرارى والكهوف والمغاير، فـحينذ اقام ديقلاديانوس حراسا وحفظه فى كل

الواحـدة، دون أن يخسـر الخلقيـدونيين الغـربيين، لجأ إلى صياغـة إيمانيـة جديدة تحل مـحل الهنوتيكون الذى لم يحقق النجـاح الكامل.. اتحد هرقل مع سرجيوس بطريرك القسطنينية (٦١٠ ـ ٦٣٨)، وأعلن فى سنة ٦٢٢ العـقـيـدة الجـديدة التى عـرفت باسـم «المونوثيليتـيـة» Monotheletism وهى القول بمشـيـئة واحـدة فى المسـيح، على أمل أن تحل مـحل الاعتقـاد بطبيعة واحدة فى المسيح فى الأقاليم الهائجة فى سوريا ومصر.

ودون التعرض للموضـوع الحساس الملتهـب بطبيعـة المسيـح، وهـل هـو طبيعـة واحـدة أم طبيعتين، ركزت المونوثيليتية على وحدة مشيئتى المسيح الناسوتيـة واللاهوتيـة وأنهـمـا كـانتـا متطابقتين، متوافقـتين، غير متغيـرتين.. كـان هرقل يأمل أن يقبــل الأرثوذكسـيين الصيغــة الجديدة، وهى فى نفس الوقت لا تتعارض مع أنصار خلقيـدونية الغربيين، وقولهم بالطبيعتين.

فى البدء بدت هذه الفكرة وكـأنها مقبولة لدى بعض رؤساء الكنائس من الجانبين.. وممن قبلوها أثناسيوس بطريرك أنطاكية (٦٢١ ـ ٦٢٩)، وهو نوريوس الأول أسقف روما (٦٢٥ ـ ٦٣٨).. على أن قبول هذه الصيغة لم يدم إلا بين موارنة لبنان بينما قوبل هونوريوس بمقاومة عنيفة من أساقفة الغرب.

مكان من كورة مصر والصعيد الاعلى الى بلنطن [بلطين بلطم] وامرهم بقتل كلمن يجدون من النصارى، ثم ان اوليك الحراس اخدو المغبوط بطرس بطرك اسكندريه ورموه فى السجن، واعلمو الملك بانهم قد قبضوه وقيدوه، فامر الملك الكافر بان ياخدو رأسه، فلما اتاهم الكتاب بذلك اسرعو ليتمو امر الملك، وفيما هم يريدون اخرجه من الاعتقال ليأخذوه ويقتلوه اجتمع الشعب الى باب

في سنة ٦٣٨ طبع هرقل مرسومه الذى عرف باسم «اكتيسيس» Ecthesis وعزم على إرغام الجميع على قبول المونوثيليتية... لكن المقاومة الكبرى لتلك العقيدة الجديدة كانت فى الاسكندرية، حيث رفض الأقباط أى حل بيزنطى ابتداء من خلقيدونية إلى الهنوتيكون والمونوثيليتية.. كان الخوف من الابتعاد عن عقيدة اثنا سيوس وكيرلس عمود الدين، فضلا عن شعور الأقباط بقوميتهم، جعلهم أكثر الرافضين للحيدة عن التقاليد القديمة، ليقابلوا السلطة الامبراطورية فى منتصف الطريق فى المسائل الخاصة بالايمان.

لكن مصر كانت ذات أهمية خاصة للامبراطورية، إذ كانت تعتبر مخزن غلالها. لذا فقد رفض هرقل الاستسلام للنزعة الانفعالية الدينية والمدنية. كان مصمما على فرض معتقدة بأى وسيلة. كانت الخطوة الأولى فى تنفيذ هذا المخطط، هى تعين سيروس Cyrus أسقف فاسيس Phasis فى القوقاز قرب البحر الأسود ـ والذى كان ذا ميول نسطورية ويتمتع بذكاء وولاء ريائى للامبراطور ـ تعيينه بطريركا ملكانيا على الاسكندرية والحاكم الامبراطورى لاقليم مصر، تحت شريطة أن يقهر الأقباط لكى يقبلوا الايمان الخلقيدونى والمونوثيليتية بأى وسيلة.. وسيروس هذا هو المعروف فى المراجع العربية باسم المقوقس وكان وصوله إلى الاسكندرية فى سنة ٦٣١. وبدأ فى تنفيذ خططه بلا أدنى شفقة. وفى خلال عشر سنوات غدا من أكثر

السجن وجلسو عليه يحرسون راعيهم وقالو: اذا قتلنا كلنا حينذ توخد رأسه. وكانو اوليك الجند مفكرين كيف يخرجونه حتي لا يموت خلق كثير بسببه. لاجتماع كل الشعوب بسببه الشيوخ والشباب والرهبان والنسا والعدارى وهم باكون بدموع عزيزه وتشاورو الجند فى ان يدخلو ويخرجوه ومن قاومهم من الشعب يقتلوه كما ورد به كتاب الملك.

- -

الطغاة المكروهين في تاريخ مصر... لقد استخدم الصليب وصوجان الحكم لسحق المقاومة الوطنية.

كان ذلك سبباً فى انخفاض شعبية هرقل إلى الحضيض، بعد شهرته التى نالها نتيجة استرداد الصليب المقدس من الفرس... لقد أزال سيروس بتصرفاته كل ولاء للقسطنطينية فقد أخذ يتعقب ويطارد أساقفة الأقباط والقوميين من الأقباط. كان عليهم إما أن يقبلوا معتقده أو يفقدوا حياتهم. ويذكر كتابنا تاريخ البطاركة للأنبا ساويرس «ولعظم البلاء والضيق والعذاب الذى أنزله (المقوقس) بالأرثوذكسيين لكى يدخلوا فى الامانة الخلقيدونية، ضل جماعة منهم لا يحصى عددها. قوم منهم بالعذاب، وقوم بالهدايا والتشريف، وقوم بالسؤال والخداع. حتى أن كيروس أسقف نيقيوس وبقطر أسقف الفيوم، وكثيرين منهم خالفوا الامانة الأرثوذكسية، لأنهم لم يسمعوا وصية الأب المغبوط بنيامين، ولم يختفوا كغيرهم، فصادهم بصنارة ضلالته فضلوا بالمجمع الخلقيدونى الطمث»(*).

ومن فرط الضيق هرب البطريرك القبطى الأرثوذكسى البابا بنيامين الأول ٣٨ (٦٣٣ - ٦٦٢) إلى دير صغير بالصعيد، واختفى خلال السنوات الأخيرة للحكم البيزنطى فى مصر

(*) أنظر: ساويرس ص ٥٧٢.

وكان السبب فيما امر به الملك من طلب هذا الاب البطريرك وقتله انه كان بانطاكيه انسان اسمه سقراطيس وكان من جملة امرا الجند المستخدمين في القصر [الملكى]، وهو رفيق لبديرا [ابادير] الذى استشهد واخته ايراني، وكان هذا سقرطيس اوله نصرانيا متعمدا فجحد دينه وصار مبغضا للنصارى، وكان له امراه [امرأة] صالحه خيره نصرانيه فرزق منها ولدين فلما كبرا وصلحا ان يعمدا قالت الامراة لزوجها: انا اسيلك يا اخى ان

- -

وحتى الغزو العربى... ومن الذين نالهم الشدائد واستشهدوا في تلك الفترة مينا شقيق البابا بنيامين. يقول تاريخ البطاركة «قبض على الطوباوى مينيا شقيق الأب بنيامين البطريرك، وعذبه عذابا شديدا، وأمر بوضع مشاعل تحت جنبيه حتى خرج شحم كليته من جنبه وسال على الأرض. وقلع أضراسه وأسنانه باللكم لاعترافه بالامانة. وأمر أن يملأ جوالق رملا ويجعل القديس مينا فيه ويغرق فى البحر».

وقد خلفت زيارات المقوقس لمدن وقرى الدلتا والصعيد فزعاً عظيماً.. فالضرب بالسياط والسجن والقتل كانت مقرونة بمصادرة الممتلكات وأوانى الكنائس. وحتى الأديرة لم تنج منه قصدها ليصطاد مخالفيه فى الرأى والمعتقد. ورهبان الأديرة إما أنهم قاوموه مقاومة خاسرة، وإما أنهم هربوا من أمامه. حتى المتوحدون والنساك قبض عليهم وعذبوا حتى الموت. ولدينا قصة الأنبا صموئيل المعترف فى دير القلمون بصحراء الفيوم كمثال لمقاومة الأقباط البطولية أمام إرهاب البيزنطيين.. لقد جروا الأنبا صموئيل من منسكه بالسلاسل، وحول عنقه طوق من حديد كأشر المجرمين. أقتيد إلى مدينة الفيوم حيث أهين وجلد وضرب على أسنانه، وأخضع لكل أنواع العذابات الشيطانية وأمر الجنود بقتله. ولم ينقذه من أيديهم سوى سدول الليل، الأمر الذى مكن تلاميذه من سرقته وهو بين الحياة والموت..

---

١٧ : بطرس ٢١١/٣٠٠، .

تسير معي لاسكندريه نعمد ولدينا ليلا [لئلا] يموتا بلا تعميد فيغضب علينا السيد المسيح لغفلتنا عن ولدينا. فقال لها الكافر: اسكتي فانك لا تعرفين الصعوبه التي علينا اليوم ليلا يسمع الملك فيغضب علينا جدا. وكان غرضه تخويفها بهذا حتى تدع ولديها بلا معموديه، فلما علمت انه لا يطيعها ولا يسير معها اخدت ولديها وغلامين مامونين كانا لها وخرجت الى البحر وصلت قالت: ياربي يا ضابط الكل ابا سيدنا ومخلصنا يسوع

في تلك الفترة حل بالاقباط من الاذلال ما لا عهد لهم به من قبل في كل العصور. وتحملت الكنيسة القبطية الأرثوذكسية عذابات المجدفين على يد المستعمر الملكاني... والعجيب أنها استطاعت تحمل كل هذه الضيقات دون أن تلين لها قناة، واستمرت حية شاهدة للايمان الحق والشجاعة البطولية. حقيقة أن بعض أبنائها ضعفوا واستسلموا للمستعمر لسبب أو لآخر، لكن تلك كانت حالات فردية وليست جماعية. أما نتيجة كل ذلك فهي أن الأقباط يحملوا لمضطهديهم من البيزنطيين، ولكل ما هو بيزنطي كراهية عميقة. وقد عبر الأقباط عن كل ذلك، ليس فقط في العقيدة الأرثوذكسية، بل في اللغة القبطية والأدب القبطي أيضاً، وفوق كل ذلك في الفن القبطي... لقد اتسعت الهوة بين الكنيستين القبطية والبيزنطية، ولم يعد ممكناً تخطيها. لقد ذهبت الخلافات إلى ما وراء حدود المعقول. وكأن الموقف كان يعد لتمييز كبير.

مهما يكن هذا التغيير لقد وقع الغزو العربي لمصر... وكان ذلك إيذانا ببدء صفحة جديدة من تاريخ كنيسة الاسكندرية العريقة، ذلك السجل الحافل بالام الأقباط وثباتهم وبطولتهم وشجاعتهم وحبهم لالههم.

المسيح ان كنت تسهل طريقي فوفق لي مركبا اسير فيه. فبينما هي تصلي ابصرت مركبا يريد يقلع فنادت بواحد من البحاره وقالت له: الى اين تسيرون. قال لها: الى اسكندريه. قالت له: احملوني معكم وانا ادفع لكم اوفي اجره. فاجابها الى ذلك وطلعت ومعها ولداها وغلاماها. فمن بعد يومين هاجت عليهم ريح عظيمه حتى قلق كلمن في المركب فقالت تلك الامراه [المرأة] المومنه: ان الله لا يسمع لمثلي من الخطاه لكن الذى

المسألة الدوناتية

لم يكن قسطنطين يدرى حالة سمح لنفسه أن يرى في الأفق ضياء وصليبا، أن وراء الأفق هذا يكمن الخطر، وما دار بخلده لحظة اتفق مع حليفه ليكين في ميلانو، أن يضعا عن المسيحية اصرها والأغلال التى كانت عليها، أن رجالات كنيستها سيحملون الى جفنيه الأرق ويسلبون عينه الكرى، ولا أمل حين فك عقال عبادها أن أولئك الأشياع ستعصف بوحدتهم حرية الفكر والجدال، وذلك شيء يخفق له قلب الامبراطور رعبا وهلعا، فوحدة الرعية أساس وحدة الدولة.

كانت دنيا الامبراطور التى يحياها آنئذ غرب الامبراطورية، والامبراطورية كلها عالمه الذى يأمل. أما وهو الآن سيد الغرب فحسب بعد أن دحر منافسه ماكسنتيوس، فلا أقل من أن تكون الوحدة شاملة هذا الغرب.

في سبيل ذلك حرر المسيحيين، فضمن أن يقف إلى جواره في مشروعات له آتية لاريب فيها، قاطني جزء الامبراطورية الغربي، أنه يتطلع إلى الشرق، وفؤاده يهفو اليه، ولابد أن يتراص الغرب كله وراءه يدفعه ويسانده، لا محل لخلاف أو نزاع، ولا مجال لفرقة أو انقسام.

١٧: بطرس ٣٠٠/٣١١م

خطر بقلبي انا افعله. ثم قامت فبسطت يديها وحولت وجهها الى الشرق وصلت قايله: يا الله الذى يعلم كل شي قبل ان يكون ، انت تعلم ما في قلبي وأنني لا احب روحا ولا مالا مثلك حتى اولادى ولا نفسي ايضا، وهو ذا نموت في اللجج من اجل اسمك المقدس يا مخلص يارب يا الاهي ومخلص نفسي وجسدى انظر لولدى اللذين صارا يتيمين من اجل اسمك المقدس ولا تدعهما يموتان بغيررشم المعموديه. ولما تمت هذا القول اخذت

ولكن قسطنطين انتقل الى الشرق وترك وراءه غربا قد كلم، يئن لجراح انقسام ألت به، ولم يستطع الامبراطور ازاءها أن يفعل شيئا. حقيقة حاول الكثير، ولكن جهوده لم يقدر لها نجاح، ولم يكتب لها في عهده اخفاق، بل كانت أشبه شيء بسياسة تهدئة. وصلت في نهاية أمرها الى حد العنف ثم هوت الى لا شيء!

كان ذلك نتيجة طبيعية للسياسة الجديدة التي اتبعتها الدولة في مسألة العقيدة، فلم يكن الأباطرة قبلا يهتمون بما يجرى بين جماعة المسيحيين وأنفسهم، بل كانت نظرتهم لهم كلية، تختلف من امبراطور لآخر عداوة أو مسامحة، أما نزاعات المسيحيين العقائدية ومحاوراتهم الجدلية فلم يكن لها عند الدولة قليل اهتمام، أما وقد اعترفت الدولة بحق المسيحيين في حياة عقائدية حرة، فانه أصبح لزاما عليها أن تنظر بعين الاعتبار الى كل ما يجرى بين هذه الجماعة من جدل أو تخاصم قد يضر بالدولة مباشرة أو مواربة.

علمنا أن قسطنطين بعد ظفره عند القنطرة الملفية قد ضم اليه أقاليم خصمه ماكسنتيوس وبها ولاية أفريقيا، ثم شخص الى ميلانو ليزف الى ليكين أخته، وليحالفه الى حين، وعلمنا أيضا ما انتهى اليه تحالفهما من اطلاق حرية العقيدة لرعايا العاهلين الكبيرين، وبدا لقسطنطين أنه قد وضع في جيبه ورقة ربح جديدة، ولكن سرعان ما جاءته الأنباء في بادىء الأمر تمشي على استحياء تقول ان في كنيسة أفريقيا انقساما، وتدعوه الى تدارك الخطر، وما تلك الا

سكينا وقالت يا رب يا ضابط الكل انت تعرف قلبي. وشرطت بالسكين ثديها اليمين فاخدت منه ثلث نقط دم فصلبت به على جبين ولديها الاثنين وفوادهما [فؤادهما] باسم الاب والابن والروح القدس وغطستهما فى البحر وقالت: قد عمدتكما ياولدى باسم الاب والابن والروح القدس. ثم جعلتهما في حضنها وقالت: ان كان لنا موت فاموت الآن انا وولداى. فلما نظر الرب أمانتها الثابته هكذا هدا ذلك الريح الشديد وصار

رسالة[1] بعث بها أنوللينوس حاكم الشمال الأفريقى متضمنة شكايات فريق الدوناتين الذى كان على خلاف مع الكنيسة الكاثوليكية فى قرطاجة والتى يرأسها كايكيليانوس أنئذ.

وربما كان قسطنطين على علم يسير مسبق بحدوث هذا الانقسام، كما يتضح من رسائله الى نائبه فى أفريقا والى أسقف قرطاجة، ولكنه لم يكن يتصورها بهذه الخطورة التى ستعلن بها بعد ذلك بقليل عن نفسها.

وتعود بنا الأحداث الى ذلك الوقت الذى اشتدت فيه وطأة الاضطهاد الدقلديانى عندما صدرت الأوامر الامبراطورية باحراق الكتب المقدسة، فاختلف موقف رجال الكنيسة من هذه التعليمات وتباين سلوكهم بين ستر وعلن، وهوادة وعنف. فبعضهم أثر حياة الحرمان والضياع فأسرى بما تحت يديه من أسرار الديانة المسيحية، وأخر استمع فى دهاء للنغمة الامبراطورية فألقى فى النار كتبا أخرى تنعتها الكنيسة بالهرطقة، وثالث راقه آثر الحفاظ على العز والجاه فأسلم ما لديه للحريق من كتب مقدسة، وأودع ما تبقى فى قلبه من ايمان معها قسرا أو طواعية، عندما سعى الى الأوثان يضحى على مذبحها، وآخير رفض الاذعان وناوأ جبروت السلطان فلقى الشهادة، وامتدت بالانقاذ للقلة منهم يد السماء!

(1) Jones, Constantine, pp. 103-104.

هدوكـثيـر. ووصلو بعـد ثلثـة ايام إلى مـدينة اسكندريه. فلمـا دخلو الى المدينه بمعـونة الله الرحـوم، وكـان ذلك اليـوم يوم من جـمـعـة المعـمودية، وهى سـادس جـمـعه من الصـوم الذى تعمد فيها الاطفال، فتقدمت تلك الامراه إلى احد الشـمامسه وقالت له: يا ابى اريد اجتمع بالبطرك. فقال لها وما حاجتك الى البطرك؟. فقالت له: يا أبى انا غـريبه واريد اعـمد ولدى هاذين. فقال لها الشماس مالك حاجه غير هذا؟ قالت لا. قال لها:

وكـان منسـوريوس Mensurius أسقف قرطاجة معتدلا، فلقد فضل أن يتوارى ومعه الكتب المقدسة، تاركا فى كنيسته بعض كتب تخالفها الكنيسة الرأى لتستولى عليها السلطات الحاكمة ارضاء لرغبات الامبراطور، وعلى ناحية يقف سكوندوس Secundus أسـقف تيجيسيس Tigisis مطرانية نوميديا، يعارضه الرأى ويستهجن هذا السلوك، وبينما لام الأول من دفعوا أنفسهم الى ساحة الشهادة باعلانهم أن فى حوزتهم كتبا مقدسة رافضين تسليمها، مدح سكوندوس هذه الفئة ممجدا استشهادها[1]. وكان موقفه حازما تجاه موظفى البلاط الذين أتوه يطلبون اليه تسليم ما لديه مما يبتغون، فصاح فيهم بأنه مسيحى وليس مارقا على الدين[2].

وانقضت سنو الاضطهاد بقسوتها وعنفوانها، وساد الكنيسة سلام، ولكن خلافات العقيدة والكنيسة أبت الا أن تعكر صفو هذا الهدوء الذى تمتنه الكنيسة طيلة قرون ثلاثة، فازدادت حدة الخلاف بين حزبى منسوريوس وسكوندوس، وأخذ كل منهما يحدد موقفه ازاء من زلت فى الخطيئة أقدامهم ابان فترة الاضطهاد، فقربوا للاوثان، أو دفعوا بالكتب المقدسة حتى يدرءوا

(1) S.M. Jackson. The new Schaff-Herzog encyclopedia of religious knowledge. III' F. Jackson. op. cit. pp. 290-201; Lietzmann' from Constantine to Julian. p. 84.

(2) Jones. Censtanine. p. 105.

اجلسى فى البيعه هو ذا البطرك يحضر ويعمد الاطفال ويعمد اولادك معهم. ففعلت فلما جا الوقت وكمل الاب البطرك القداس قدموا له الاطفال المعدين للمعمودية فعمدهم، ثم قدموا له الولدين الذين للامراه الانطاكيه، فلما اخذ البطرك الطلفلين ليعمدهما جمد الما [ء] وصار كالحجر، فلما راى بطرس البطرك القديس هذا تعجب وامر بأفرادهما. ولم يعلم احدا بجمود الما ثم امر ان يقدم له غيرهما، فلما قدم له غيرهما

عن أنفسهم الموت أو العذاب. وقد احتدم الخلاف حول جواز تعميد الخطاة وقبولهم فى رعية الكنيسة.

ويقر القديس أو غسطين مع ذلك الدوناتيين على ضرورة العماد لديهم كما هو حادث فى الكنيسة الكاثوليكية، ولكن ينكر عليهم مراسيمه. وأن طالب المعمودية عليه أن يعى حقيقة الخلاف بين وجهتى النظر حتى يتم تعميده على نحو سليم يتوافق وطقوس الكنيسة الجامعة ويستقيم جوازه[1]. ونرى أوغسطين يستطرد مؤكدا «.. فالعماد قائم فى الكنيسة الكاثوليكية.. هذا ما نجهر به وهم له منكرون، وطقوس العماد فى الكنيسة الكاثوليكية على نهج قويم.. ذلك شىء آمنا به وهم به كافرون، أما عندهم فلا تحظى مراسيمه بالصواب فى شىء، تلك حقيقة نعيها وهم عنها معرضون»[2].

واذا ما أخفق انسان فى التوفيق بين أصرارنا على أن العماد لا يتم على حق اليقين عند جماعة دوناتوس، وبين اعترفنا بأنه قائم بينهم فعلية أن ينتبه الى أننا ننكر تماما وجوده بينهم على نهج قويم، وذلك فى مقابل عدم اعترافهم بكيانه بين الذين لا يشتركون فيه وأياهم»[3].

(1) AVG. bapt. I. 4.

(2) Ibid. 1,3,4.

(3) Tbid. 4.

من بعض الاطفال انحل الماء وصار كما كان اولا، وعمد الذين قدموا له ثم امر ان يقدم ولدا الامراه تانى دفعه، فلما قدموا له جمد الما ايضا وصار كالحجر فابعدهما، وقدموا اليه من اطفال المدينه ايضا فانحل الما وعمدهم، ثم استدعى ولدى الامراه تالت دفعه فجمد الما ايضا وصار مثل الحجر، فامرالبطرك ارشى دياقن البيعه ان يحضر امهما فاحضرها بين يديه فقال لها: عرفينى ايتها الامراة حالك وما دينك؟ فقالت له: انا من انطاكيه

وكانت المسألة في جوهرها تمس شخص من يقوم بالشعيرة، وتصل الى أغوار خلقه، وتوغل فى صلاحه، ونادى الدوناتيون بأن من يفتقد الطهارة والقداسة لا يمنحها، ونظروا الى الاضطهاد كما لو كان قد طبعهم بميسم الكنيسة الحقة الواحدة، يقفون والضد من الكنيسة الكاثوليكية، أما هذه فتفرق بين فريقين من الخارجين عليها، الهراطقة، والمنشقين، وتعتبر الدوناتين فصلا فى الأخيرين، وان كانت تنعى عليهم تعليمهم لبعض التعاليم الهرطقية[1]. واحتج الدوناتيون على وضعهم فى عداد الهراطقة، ذلك أنه يمكن القول ان كل الهراطقة منشقون على الكنيسة. فى الوقت الذى لا يجوز فيه اعتبار كل الانشقاقات الكنسية هرطقة[2]. اذ أن الانشقاق يقع لخلاف فى النظام الكنسى أو التعاليم.. على عكس الهرطقة التى تمس جوهر العقيدة.

ومما هو جدير بالذكر، انه بينما غرق الشرق الرومانى فى لجة عميقة من الصراع الدينى حول طبيعة المسيح، واكتسى بحلة الجدال قرونا طويلة، أفلت الغرب من دائرة هذا النزاع الفكرى العميق العقيم، وحصر نفسه وخلافاته في دائرة البحث عن وضع أسس التنظيمات الكنسية. ولا شك أن هذا يعود فى الدرجة الأولى الى التكوين الحضارى والفكرى لكل من

(1) S.M. Jackson, op. cit. Art. Donatism.

(2) A dictionary of Christian biography, art. Donatism.

اباى [آبائي] نصارى. قال لها البطرك: فما الذى صنعتيه لأن هو ذا الرب لم يقبل اولادك للعموديه. قالت له: اسمعني يا سيدى الاب وطول روحك على فان ابوتك تعرف العذاب الذى هو على نصارى المسكونه في هذه الايام واكثره بانطاكيه، ولما كبرا ولداى هدان ولم اجد سبيلا لتعميدهما هناك قلت لابيهما ان يسير معي الى هاهنا ليعمدهما فلم يفعل، فاخدت ولدى هادين وخرجت بهما الى البحر وركبنا في مركب، فلما

المنطقتين، فقد ازدهرت مدن الشرق وخاصة الاسكندرية وأنطاكية وبرجامه الى جانب أثينا، بالمدارس الفلسفية العديدة، والثقافات الاغريقية. بالاضافة الى الأصول الحضارية القديمة للشرق.

على هذه النظرة كانت المشكلة بين الدوناتيين وخصومهم تنحصر فى صلاحية أو شرعية الأعمال الكهنوتية التي يقوم بها غير المقدسين أو الثقاة من رجال الاكليروس ذاتهم، وبينما أصر الدوناتيون على أن صلاحية الطقوس الكنسية تعتمد على أخلاق وشخصية رجل الاكليروس القائم[١]، لم تطلب الكنيسة الكاثوليكية القداسة فيمن يباشرون المعمودية، فكل رجل دين سواء[٢].

ويوقفنا المؤرخ نورمان كانتور على أسباب هذا النزاع ويعلق عليه فيقول انه لما كان زمن الاضطهاد الدقلدياني سلك حاكم ولاية أفريقيا جادة اللين، فطلب اليهم أن يقدموا، رمزا لنكران العقيدة، الكتب المقدسة، فارتضى ذوو اليسار المسيحيون هذا الرأى، فلما انقشعت غمة هذا الاضطهاد، الفى ذلك الفريق نفسه وقد وصم بالعار مارقا على الدين من جانب زمرة من المتحمسين غالبهم يندرج فى عداد الطبقات المعدمة، راحت تحاج بأنهم القديسين الأطهار،

(1) Latourette, expansion of Christianity, I.p. 348.

(2) McGiffert, op. cit. p. 380 n. 16.

توسطنا اللجج قام علينا نو حتى كاد المركب ان يغرق، فاخدت سكينا وجرحت ثديي اليمين واخدت منه ثلث نقط دم وصلبت على وجههما وفوادهما [فؤادهما] وغطستهما في البحر باسم الاب والابن والروح القدس تلت دفعات، هدا هوالسبب في منع الرب لهما من المعموديه، فهدا وحق ابوتك المقدسه الذى فعلته. فقال لها البطرك: يشتدقلبك يا ابنتي، لا تخافى فان الرب معك، وفى الوقت الذى جرحت فيه ثديك واخرجت

ولم يصب ايمانهم دنس، هم وحدهم عمد الكنيسة، وأشاع الدوناتيون المطهرون أن المارقين قد فقدوا أهايتهم ومسيحيتهم لذلك، وراحوا ينادون بحتمية اقامة المعمودية على يد قسيسين شفافي النفوس، هذا وأكدت الكنيسة الكاثوليكية حجية التبعية الاكليركية سندا لحسن المعمودية، لا السجايا والخلال. ذلك الخلاف. كنيسة للطهار، والكنيسة الجامعة[١].

وهكذا فالدوناتية فكرة تجادل تقليد الكنيسة الكاثوليكية هذا، وكانت مدعاة للشقاق داخل الكنيسة هذه، وهي تمثل تحديا لاتجاه بدأت المعمودية بمقتضاه تنتقل على مر الوقت الى محفل من البشر ينتظم مختلفا أخلاقيا، مقدمة للخلاص الحق وسيطا هو الفضيلة، غير أن هذه الفكر الدوناتية ووجهت بمدافعة كاثوليكية تصر على طقس العماد في حد ذاته بعيدا عن ممارسيه. وتفصل فصلا تاما بين طهارة الكنيسة وقداسة رجالها.

على هذا النحو راحت هوة الخلاف تتسع بين الكنيسة الكاثوليكية والخارجين عليها، الا أن ذلك كله لم يعد خلافا في الرأى، وكان لابد من حادثة بعينها تفجر الصراع وتنقله الى حيز الواقع العملى، وما لبث الأحداث أن قذفت بشراكها عندما التقط الموت منسوريوس أسقف قرطاجة عام ٣١١ وثار الخلاف من بعده عمن يلي منصبه الشاغر[٢].

(1) Cantor, op. cit. p. 49.

(2) Palanque-Bardy-Labriolle, Histoire de l'église depuis les origines jusque à nos jours III, p. 42' F. Jackson' op. cit. p. 291, McGiffert, op. cit. p. 391 n. 20.

منه الدم وصلبت على وجـه ولديك بامـانه الله الكلمة المتجسد الذى طعن جنبه على الصليب بالحربه وخرج منه الما [ء] والدم هدا الذى صلب على ولديك بيده الالهيه [هو ذا عماد ولديك صار برشم يد الله الالهيه]. ثم ان البطرك صلى عليهما فقط مع المعمدين ولم يقدر يعمدهما دفعه تانيه لأن الرب قبلهما في البحر. وقال البطرك: لا يقدر احد ان يعمد دفعتين لانها معموديه واحده، وهدان قد تعمدا دفعة واحدة بنية امهما وامانتها وما

اتجهت أنظار الكنيسة الكاثوليكية الى رئيس شمامسته كايكيليانوس Caecilianus وكان ساعد منسوريوس الأيمن وعضده في معارضته لمسلك أشياع كنيسة القديسين، كما كان شديد التحمس لمبادىء الاعتدال في النظام الكنسي[1]. وكانت العادة قد جرت على أن يحضر مندوبون عن كنائس نوميديا للمشاركة في اختيار أسقف قرطاجة[2]، ولكن أساقفة الفريق الكاثوليكي تغاضوا عن هذا العرف، وأقدموا في شيء من العجلة على اختيار كايكيليانوس للأسقفية[3]، ويمكننا أن نعلل سلوكهم هذا بعلمهم أن أسقف تيجيسيس لن يوافق على مثل هذا الاختيار، فقد كان سكوندوس ومنسوريوس على طرفي نقيض، ولما كان كايكيليانوس تلميذا لمنسوريوس فقد كان من البدهي أن يكون سكوندوس ورجال كنيسته أول المعترضين على اختياره لهذا المنصب. ومن ثم أرادت كنيسة قرطاجة أن تضع خصومها أمام الأمر الواقع.

من هنا عمد رجال الاكليروس في قرطاجة الى سرعة اتمام اجراءات اختيار كايكيليانوس، وقد قام بهذا العمل ثلاثة من أساقفة المدن المجاورة هم فيلكس Felix أسقف أبتونجا APtunga ونوفللوس Novellus أسقف تيزيك Tyxicum وفاوستينوس Faustinus أسقف

(1) McGiffert, op. cit. p. 391 n. 20.

(2) S.M. Jackson (op. cit. III. art. Donatism; Hefele, op. cit. I, 1. p. 266.

(3) Jones, Constantine, p. 106; Duchesne: Histoire ancienne de l'église, II, p. 106, 107.

فعلتـه. ثـم انه وضـع في ذلك ميـمـرا يقـول فيـه: رحـمـة الله التى تتنزل على الناس. وناول الطفلين من السـراير المقدسه ومسكهـما وامهـما عنده حتى عيـدوا عيد الفصـح المقدس ثم سـاروا الى مدينتـهم بسلام.

فلمـا علم زوجـهـا مـا فـعلتـه مـضى الى ديقلاديانوس الملك الكافر وقال له: اعلم يا سيدى الملك ان زوجـتى قـد زنت في هذه المدينه ولما منعتها مضت الى الاسكندريه وزنت مع النصارى

توبوربو Tuburbo. وتولى سيامته فيلكس Felix الأبتـرنجى[١]. وكانت كنيسة نوميديا قد أرسلت من لدنها مندوبين لحضور مراسم الاختيار، وكان بين هؤلاء الرسل دوناتوس Donatus أسـقف مـدينة Casae Nigrae[٢]. وهو غـير دوناتوس الكبـير الذى تولى الأسقفية بعد مـاجـورينوس أول أسـاقـفـة هذه الطائفـة، والذى يرجح أن تكون الطائفـة قـد اشـتـقت منه اسمها[٣]، وان كان من العسير حقيقة أن نجزم لأى من الرجلين تنسب[٤].

ألفى أساقفة نوميديا أنفسهم وقد خرج الأمر من أيديهم، فتملكهم الغضب وراحوا يبحثون عن سـبـيل ينفـذون منه لتـحقـيق أغـراضـهم، ولما لم يجـدوا فى شـخص كـايكيليـانوس ثلمة تمكنهم من مهاجمته وتجريحه، أشاعوا أن الطريقة التى تم بها اختياره جرت على نهج سقيم، فقلة من الأساقفة فقط هم الذين اختاروه لهذا المنصب، ولكن هذا لم يكن شيـئا الى جوار الاعتراض الاخر القائل بأن فيلكس مارق، لما أتاه ابان فترة الاضطهاد[٥]. وعليـه يغـدو رسم كايكيليانوس غير ذى صلاحية. وقد حاول أسقف قرطاجة الجديد تهدئة خواطر الفريق المضاد،

(1) Palanque-Bardy-Labriolle, op. cit. III, p. 42; Lietzmann, op. cit. p. 84.

(2) S.M. Jackson, op. cit. III, art. Donatism.

(3) Palanque, Bardy, Labriolle, op. cit. III 43; Hefele, op. cit. I. 1, p. 270.

(4) A dictionary of Christian biography, art. Donatism.

(5) Ibid. MsGiffert, op. cit. p. 280 n. 16.

من ايام كثيره، واخدت ولدى وعملت عليهم شيا
يقال له المعموديه وهو ذا هى قد عادت الى هاهنا،
ما ترى ان اصنع بها. فتقدم ديقلاديانوس الى
سقراطيس زوجها باحضارها وولديها ففعل ذلك،
فلما وقفت بين يديه قال لها: ايتها الامراه
المستحقه الموت لماذا تركت زوجك ومضيت الى
الاسكندريه زنيت مع النصارى. فقالت له تلك
القديسه: النصارى لا يزنون ولا يعبدون اوثانا
فمهما اردته افعله فانك لا تسمع منى كلمه

فعرض عليهم أن يمر من جديد بعملية رسم ثانية. ولكن أساقفه نوميديا رفضوا بالطبع هذا الملتمس وذهبوا فى عنادهم[1]. والتأموا فى مجمع عقدوه فى قرطاجة ضم سبعين أسقفا، قرروا فيه عدم الاعتراف بشرعية اختيار كايكيليانوس أسقفا وعزله، وقاموا برسم أسقف جديد يدعى ماجورينوس[2]، ثم قام المجمع بارسال رسالة الى جميع أساقفة أفريقيا يطلعهم فيها على ما تم أجراؤه[3]، وهكذا انقسمت كنيسة قرطاجة الى حزبين متضادين، أحدهما معتدل يمثل الكنيسة الكاثوليكية ويتزعمه كايكليانوس والاخر يمثل كنيسة القديسين ويرأسه ماجورينيوس Magorinus.

وعلى مدى عامين من وقوع هذه الأحداث استفحلت شقة النزاع بين الجانبين، وراح كل فريق يجذب الى صفه الأنصار، وينادى بأنه على الحق المبين، وتلك كانت الصورة التى أضحى عليها الشمال الافريقى غداة انتصار قسطنطين على «طاغية روما» سنة ٣١٢. وانه لجدير بالملاحظة أن سيد الغرب كان على علم بهذا الانقسام الذى أمست فيه الكنيسة الأفريقية، ويتضح ذلك من أنه قصر أعطياته ومنحه على الجانب الذى أخبر أنه على الحق، وهو الكنيسة

(1) Lietzmann. op. cit. p. 84.
(2) Id.
(3) Palanque. Bardy. Labriolle. op. cit. III. p. 42.

اخـرى. قـال لهـا الملك: عـرفـينى مـا كـان منك بالاسكندريه. فلم تجاوبه فامر الملك ان تشد يديها الى خلفها وان يجعل ولداها على بطنها ويحرقو التالته بالنار، فحولت القديسه وجهها الى الشرق وولداها معها، وهكذا اسلمو نفوسهم واخدو اكليل الشهاده. ثم قال الملك لزوجها سقراطيس: من يفعل هذا باسكندريه؟ قال له: بطرس البطرك الذى للنصارى. فلما سمع هذا امتلا غضبا وغيظا لانه كان مملوا حنقا على القديس بطرس

- -

الكاثوليكية[1]. وكان المصدر الذى استقى منه الامبراطور هذه الايضاحات هوسيوس أسقف قرطبة[2]. ولكن قسطنطين لم يكن يدرى حقيقة النزاع فى الشمال الأفريقى، فلا هو أحيط علما بفحوى الجدل، ولا كان على بينة من طبيعة الخلاف، وظل الامبراطور هكذا الى أن جاءته المكاتيب من الفريق الدوناتى تخبره حقيقة الأمر[3]، وفى الحقيقة يبدو أن الدوناتيين كانوا يحتجون على القرار الذى اتخذه قسطنطين بلفظهم خارج دائرة الهبات الامبراطورية التى أنعم بها قسطنطين على الكنيسة[4].

غير أن شيئا آخر لابد وأن يكون دافع الدوناتيين فى احتجاجهم لدى قسطنطين، ولنبحث عن هذا الشيء عند الامبراطور ذاته. ففى رسالته الى كايكيليانوس، والتى يحدد فيها مبلغا من المال للكنائس، اختتم قسطنطين هذه بقوله:

لما كانت مسامعى قد صكتها أنباء تردد أن بعض ذوى العقول السقيمة يتحايلون لصرف الجموع عن الكنيسة المقدسة الجامعه، بخزى المزاعم ودنسها، حق أن تعلم أنى قد زودت

(1) EVSEB. hist. eccl. X. 6-7.

(2) Jones. Constantine. p. 81.

(3) Palanque. Bardy. Labriolle. op. cit. III. p. 42.

(4) C.A.H. XII. p. 692.

البطرك لاجل ما وضعه من الكتب ردا على عبادة الاوثان، فكتب الى النواب عنه باسكندريه بان ياخدو راسه. وفيما الجند مزمعون على ما امر به الملك وبطرس في السجن كما قلنا، علم اريوس الكافر انهم يريدون قتله فخاف ان يتنيح البطرك فيبقى هو مربوطا[*]، فمضى الى قساوسه وشمامسه وجماعه من الشعب وسالهم الدخول الى السجن وان يترامو على رجلى البطرك ويسالوه ان يحله من رباطه. وظنو انه فعل ذلك

(*) مربوطا: أى محروما من الكنيسة.

أنوللينوس البروقنصل، وباتريكيوس Patricius نائبه، عندما كانا فى حضرتنا، بأوامر فحواها أنه الى جانب كل مسئولياتهم الأخرى، عليهم أن يبذلوا لهذا الأمر فائق عنايتهم، وأن لا تغفل لحظة أعينهما عن تدارك أى حدث، وعليه. فأن عاينت أناساً ماضون فى عدتهم، فاشخص على التوالى موظفينا هذين، وأجل لهما القضية، فيسلكان معهم حسب رأيى، وليحفظك لاهوت الرب العظيم سنين عددا[١].

واضح من مقتطف رسالة قسطنطين انحيازه الى جانب واحد دون أن يتحقق فحوى القضية، وهو في اتخاذه جانب الكنيسة الكاثوليكية يفصح عن مدى وحى ذلك الأسقف الأسبانى اليه. وسلوكه سبيل العنف ازاء فريق لم يسمع بعد شكايته، تعطينا معنى واحدا لسياسته، ذلك أنه لم يكن يسمح بحدوث أى صدع فى رعية تملك زمام أمرها البارحة. وهذا هو ما يجعلنا نميل الى القول انه بالاضافة الى حرمان الفريق الدوناتى من الهبة الامبراطورية، فان احساس هذا الفريق بميل دفة الدولة الى خصومهم دون تقص للحقيقة أو تمحيص، جعله يبعث الى الامبراطور ملتمسا.

كان رجاء الدوناتيين الى الامبراطور يتضمن الطلب بتعيين أسقف من غالة لنظر القضية، فالد وناتيون لم يلجأوا للبابا مباشرة لعلمهم أنه رأس الكنيسة الكاثوليكية، وان لم تكن البابوية

(1) EVSEB. hist. eccl. X, 6.

(*) مطاوناث: التماسات ودعاوى.

ديانة فاجابو سواله ودخلو الى السجن وسجدو بين يديه وصلو ثم وضعو له مطانوات(*) وسالوه ان يحل اريوس من رباطه، فصرخ البطرك بصوت عظيم [وزاده حروم] وقال: تسالونى فى اريوس. ثم رفع يديه وقال: يكون اريوس فى هذا الزمان وفى الاتى ممنوعا من مجد ابن الله سيدنا يسوع المسيح. فلما قال هذا نزل عليهم خوف عظيم ولم يجسر احد يرجع بكلمه، فلما راهم قد خافو منه طيب نفوسهم ونهض من وسطهم واخذ معه

بعد قد حققت سموا فى المرتبة، وعلى ذلك فهو يخالفهم الراى(١)، ولكنهم لجأوا الى الامبراطور رأس الدولة، ولكن لا ليفصل هو بنفسه بينهم، بل ليكل القضية برمتها الى أحد الأساقفة الغاليين ضمانا للحيدة. ذلك أن غالة لم تكن قد قاست كغيرها من ولايات الامبراطورية أثناء الاضطهاد(٢). ويعلق المؤرخ جونز على ذلك بقوله: «انه لما يجدر ذكره أن الأساقفة المنشقين لم يلجأوا الى قسطنطين بكونه هو نفسه مسيحيا. فربما لم تكن هذه الحقيقة المفزعة قد حازت بعد الثقة فى أفريقيا(٣).

على أن ما يعنينا من هذه الحقيقة أن تلك كانت المحك الأول فى علاقة الدولة بالكنيسة بعد التسامح، وكانت سابقة خطيرة فى تاريخ الكنيسة اذ عدت دعوة صريحة للتدخل فى شئونها الداخلية(٤)، لقد كانت الكنيسة طوال القرون الثلاثة الماضية قد أغلقت على نفسها باب خلافاتها الداخلية، وعقدت المجامع المكانية العديدة لمعالجة الانشقاقات أو لعن الهرطقات. ولم تكن الدولة تدرى من أمر ذلك الاصطراع الداخلى بين المسيحيين وأنفسهم شيئا، بل لم

(1) Davis, op. cit. p. 16; Duchesne, op. cit. II, p. 109.

(2) Lietzmann, op. cit. p. 85.

(3) Jones, Constantine, p. 104.

(4) Backhouse, Early Church history to the death of Constantine, p. 372.

الشيخين ارشلا واكسندروس تلميذيه وانفرد بهما
وقال لهما: الاه السموات يعينني على كمال
شهادتي، وانت يا ارشلا القس تكون تجلس على
هذا الكرسي بعدى واخوك الاكسندرس بعدك ولا
تقول ان ليس فى رحمه فانا رجل خاطء، لكن فى
اريوس مكرا [كفراً] مخفيا، وليس انا احرمته بل
المسيح احرمه. انا اعلمكم انى فى هذه الليله لما
اكملت صلاتى ونمت رايت شابا قد دخل على
ووجهه يضى كضو الشمس عليه ثوب متشح به

يكن يعنيها فى شىء البتة. أما الان، وقد أصبح على رأس الامبراطورية حاكم يظهر ميله تجاه المسيحية، فلا عجب اذا رأينا الكنيسة تسعى اليه، تعرض عليه خلافاتها، وتضع أمامه ما يعتمل فى داخلها، وتطلب اليه الرأى. وكان قسطنطين ذكيا غاية الذكاء، أراد أن يرسى من البداية ثابت القواعد فى هذه العلاقة حتى يستطيع أن يسير أمور دولته، بما فيها الكنيسة، حسب ارادته ووفق صالحه وكانت تلك فرصة جاءته على غير توقع، فاستغلها بغير انتظار. ومنذ هذه اللحظة وحتى منتصف القرن الخامس عشر، عندما دالت الدولة البيزنطية، لم يتخلف امبراطور واحد من السير فى الطريق الذى حدد معالمه منذ البدء قسطنطين، وارتبطت أمور الدولة بشئون الكنيسة، وهذه بتلك، حتى أصبح من الصعب أن نفصل بينهما، وقد لمس هذه الحقيقة حتى فى فترة مبكرة، سقراط مؤرخ الكنيسة فى القرن الخامس الميلادى، حيث يقول: «اذا ما ساد الاضطراب أمور الدولة، عمت الفوضى شئون الكنيسة، وكأن انجذابا روحيا يربط بينهما».

الدوناتيون اذن يرغبون فى الاحتكام الى أسقف غالى، وقسطنطين يبغى اثبات ذاته فى القضية وسطوته للوهلة الأولى، فعهد بفض النزاع الى البابا فى روما واشترك معه ثلاثة من أساقفة غاليا. وبعث برسالة الى أسقف روما ضمنها عدة معان:

١٧: بطرس ٣٠٠/٣١١م

الى رجليه وهو مشقوق وهو يمسك موضع الخرق بيديه ويغطي به صدره وعريه، فلما رايته نهضت مسرعا وصرخت بصوت عال وقلت: يا سيدى من الذى شق لباسك. فقال لى: اريوس خرقه فلا تقبله ولا تكن له معك شركه، واليوم ياتيك قوم يسالونك فيه فلا يرض قلبك عليه وقد نهيتك عن ذلك، وكذلك تلميذيك ارشلا والاكسندرس اللذين يجلسان بعدك على الكرسي اوصهما ان لا يقبلاه. وهاهنا انقطع الكلام معه، وانا الان اكمل

«قسطنطين أوغسطس الى ملتيادس Miltiades أسقف روما، والى مرقس[١] Marcus، حيث أن رسائل عدة قد اتتنى من أنوللينوس العظيم، بروقنصل أفريقيا، يتبدى فيها أن كايكيليانوس أسقف قرطاجة قد وجه اليه من الاتهامات الكثير من جانب زملائه فى أفريقيا، ولما كان الأمر يدو لى جد خطير، حيث أنه فى هذه الأقاليم التى وضعت العناية الالهية ثقتها فى اخلاصى لادارتها، وحيث أنها منطقة بالأهلين أهلة. سوف يجد الناس أنفسهم فى حالة من الشقاق، وفى حال من الكآبة دائم، والأساقفة فيما بينهم منقسمون، ولذا قررت أن يبحر على الفور الى روما كايكيليانوس وبصحبته من الأساقفة عشرة يرى من المناسب تواجدهم لقضيته، وعشرة آخرون ممن يبدون له الاتهام، فهناك يمكن سماع أقواله بما تجده يتناغم وجلال القانون المهيب. وذلك فى حضرتكم وزملائكم رتيكيوس Reticius [٢] وماترنوس[٣] Materius وماربنوس[٤]، Marinus الذين أمرتهم بالاسراع الى روما لذات الغرض. وحتى تكون على علم تام بهذه الأمور فقد ضمنت رسالتى نسخا من الوثائق التى بعث بها الى

(١) شخصية غير معروفة وربما كان مساعدا لملتيادس المسن.
راجع: Jones. Constantine. p. 107
(٢) أسقف Auton فى غالة. ويخبرنا جيروم أنه كتب تعليقا على نشيد الانشاد وأخرج عملا ضد النوفاتين.
(٣) أسقف كولون.
(٤) أسقف أرل. راجع McGriffert. op. cit. n. 23, 24 p. 381.

شهادتي وقد اوصيتكما ما امرت به، وانتما يا اخوان تعلمان كيف كنت معكما زماني كله وما لقيته من التجارب ومؤامرة الكفره عباد الاوثان، وكيف كنت هاربا من مكان الى مكان من سادميا إلى الشام إلى فلسطين والرمله وللجزاير، ولم افتر من مكاتبتكما سرا وجهرا وتقوية الشعب بقوة السيد المسيح نهارا وليلا، ولم اغفل عن القطيع الذى اوتمنت عليه، وكان قلبى متالما جدا، ومع هذا كله لم ادع الاهتمام بفيلا وسيخوس وبخوم

أنوللينوس، وأرسلت منها صورا كذلك الى زملائك المشار اليهم، وحالة تسلمك اياها يمكنكم نظر هذه القضية بعناية والفصل فيها بالعدل، حيث لا يخفى على فطنتك أنى أكن كل اجلال للكنيسة الكاثوليكية الشرعية، ولى كبير الأمل أن لا تخلفوا وراءكم أى صدع أو انقسام، ولتحفظك ياسيدى العزيز عناية الاله العظيم أعواما طوالا»[١].

من هذه الرسالة يتضح لنا مدى الدور الذى لعبه قسطنطين فى أول اتصال مباشر بين الكنيسة والدولة، فهو الذى اختار القضاة، وعين مكان التقاضى وزمانه، وحدد عدد المتقاضين من كلا الحزبين، ورسم الخطوط العامة لسير القضية، وأوحى الى القضاة بمنطوق حكمهم عندما أعلن فى رسائله اليهم أن قلبه يحمل كل الاحترام «للكنيسة الكاثوليكية الشرعية». حقيقة لقد كان قسطنطين يتفق أساسا والرأى القائل به هوسيوس عن الحالة فى أفريقيا من اعتبار خصوم كايكيليانوس مردة منشقين، وكان شديد الاقتناع بما ينطوى عليه الانشقاق من أخطار وبلاء، وظل هذا الاقتناع قرين فكره حتى يوم رحيله الى عالم الموتى. ولكنه من ناحية أخرى أقدم الان على خطوة مستقلة، واتجاه قضائى فى مسألة الفريق الذى أحدث الشقاق، وقرر من عندياته وجوب فحص القضية. فاختار القضاة، ودعا الفريقين، وكانت رسالته الى ملتيادس تحمل فى طياتها نغمة تفيض «مكتبية»، لقد كانت حسب تعبير جونز أشبه شيء

(1) EVSEB. hist. eccl. X, 5.

وتاودوروس الذين ســجنو لجل [لأجل] الامــانة
بالسـيد يسوع المسيح واستحقوا النعمة من الله،
وكنت اكاتبهم واذكرهم في رسايلي من سادميا،
وكـان على تعب عظيم ومجاهده لأجلهم ليـلا
[لئـلا] يجرى عليـهم شي مع الكهنه الذين في
السجن، واكثر من ستمـايه وستين نفسـا صارو
شهدا، وانا الان كما تعلمان انتما مهتم بجميعكم،
فلما سمعت انهم استشهدو سجدت وشكرت
الذي قواهم يسـوع المسيح واعـدهم مع شـهداه،

بمذكرة بعثت الى موظف مدني»[١]!! وليس أدل على صحة هذا القول من أن قسطنطين قد وجه رسالته الى ملتيادس وآخر يدعي مرقس على قدم سواء، ولا ندرى من هو مرقس هذا، وربما كان أحد مساعدى البابا، ولكن ذكره مع البابا قرينا يدل على مدى النظرة التى ينظر بها الامبراطور الى رأس الكنيسة الكاثوليكية الشرعية «التى يكن لها كل اجلال»!!

شيء آخر يجذب الاهتمام، ذلك أن قسطنطين يبنى انزعاجه لهذه الأحداث على شيئين جاءت بهما رسالته، فتلك مناطق عهدت اليه بحكمها عناية الرب القدير، وهذه نغمة ألفناها من قبل، وهى أيضا أقاليم قد غصت بالسكان، واختلاف أساقفتها فيما بينهم سيجر بالتالى الى تحزب الأهالى الى أى الفريقين. وتلك نقطة على جانب كبير من الأهمية. فقسطنطين كان قد فرغ لتوه من حملته على الراين لتأديب قبائل الفرنجة هناك، وأصبح السلام فى غالة مستقرا بعد ذلك لفترة طويلة[٢]. والامبراطور يعد لجولة جديدة في الشرق. فلا أقل أذن من أن يضمن هدوء هذه المنطقة التى خضعت له حديثا حتى ينصرف لانجاز المرحلة التالية من مشروعه الكبير، خاصة وأن هذا الاقليم «الآهل بالسكان»، على حد قوله، يمكن الاعتماد على رجاله الاشداء فى قابل الايام. فاذا ما أدخلنا فى اعتبارنا أن قمح روما كان يأتيها من

(1) Jones, Con stantine, p. 108.

(2) C.A.H XII, p. 69.

كـذلك اسيله [أسئلة] ان يعـدنى مـعـهم. وقـد علمـتـمـا الشـرور التى لحـقـتنى من مليـتـيـوس الاسـيـوطى(*) الذى قسم بيعة الله التى اشـتـراها السـيـد المسـيـح كلمـة الله بدمـه المقـدس، ووضع نفسه عنها.

وجـعـل الاب البطرك انبـا بطرس يعلمـهـمـا و يوصـيـهـمـا بالتـحـفظ من مكر مليـتيـوس [اريوس] المذكور [و] ان لا يختلطا معه، وقال لهما: هو دا

(*) مليـتـيـوس الاسـيـوطى: هو أسـقف مـدينة ليكوبوليس (أسـيـوط) وقـد روى عنه البـابا أثناسـيـوس انه فى أثناء اضطهاد ديوكلتيانوس نجى نفسـه بأن ذبح للاوثان رغـما عن النصـيـحة التى أرسلها اليـه أربعة من الاسـاقفـة كـانوا فى السـجن ثم ذاقـوا كـأس الحـمـام. ولم يكتف بذلك بل انتـهـز فـرصـة غـيـاب البطريرك وجلس على

شمال أفريقيا(١)، وأن حدوث أى اضطراب فيها يمكنه أن يحرم روما أقواتها، أدركنا لماذا كان قسطنطين حريصا أشد الحرص على استتباب الأمن والنظام، وفوق هذا وذاك وحدة الدولة.

اجتمع الأساقفة في روما فى ٢ أكتوبر ٣١٣(٢)، لا بالطريقة التى أرادها قسطنطين، ولكن بالصورة التى ارتآها البابا ملتيادس، والتى جرت عليها الكنيسة قبلا فى بحث مثل هذه المسائل التى تهم الكنيسة عقيدة أو تنظيما. ولم يشأ قسطنطين أن يعترض على اجراء البـابا لعلمه التام أن ذلك لن يغير من الأمر شيئا، وانما هو اجراء شكلى ارتضته الكنيسة، فلا ضير من اتباعه. فقـد قام ملتيـادس بتـحـويل ذلك المجلس الامبـراطورى الى «مـجـمـع كنسى» بعـد أن ضم الى أعضـائه خمسـة عشر أسقفا من كنائس ايطاليا المختلفة(٣) فى ريمنى وفلورنسـة وبيـزا وكـابوا وبنفنتـو وتراكـينا(٤). وبحث المجمع القـضـيـة المطروحة أمـامه، وفـى النهـاية تمخـضت مناقشـاتهم عن تبرئة سـاحة كايكيليـانوس من التهم التى وجهـت اليـه ورفض دعوى الفريق الدوناتى(٥).

(1) Jones, Later Roman Empire II, p. 823.

(2) Backhouse, op. cit. p. 373.

(3) Palanque, Bardy, Labriolle, op.cit. p. 45.

(4) Lietzmann, op. cit. p. 86.

(5) Hefele, op. cit. I, 1, p. 273; Duchesne, op. cit. II, p. 12.

تشاهداني مرتبطا بمحبه الله، وانا منتظر ارادته لان اعوان ديقلاديانوس توامروا كل يوم بالقتل كما تعلمان وهم مزمعون على ما امروا به فانا غيرخايف على نفسي بل مشته ان اكمل سعيي الذي قدمني الله له وخدمتي التي قبلتها من الرب يسوع المسيح الاهي، وهو يعينني على كمالها، ومن الان ما تريان وجهي في الجسد بعد هذا اليوم، وانا اشهد لكما اني قد اظهرت لكما لكل شي وخلصت وبريت من الآثم، فاحفظا القطيع

كرسي البطريركية وأخذ يتداخل في شؤونها وصار يرسم قسوسا بل سلم أساقفة لابروشيات أخرى غير ابروشيته حتى بلغ عددهم ثلاثين أسقفا جاهروا فيما بعد بخروجهم على الكرسي الاسكندري واستقلالهم عنه وادخلوا أنظمة مخالفة في عبادتهم.

فعقد البابا بطرس آخر الشهداء مجمعا حكم فيه بحط ميليتس من درجته وأبلغه الحكم فلم يذعن بل صرح بانشقاقه وظاهره اريوس الهرطوقي. وبعد هذا كله اعتزل ميليتس في بلدته عن كل عمل وفيما بعد نظر مجمع نيقية في أمر

ومن رسالة قسطنطين الى أسقف سيراكوز نتبين أن الدوناتيين لم يقبلوا قرار مجمع روما محتجين بأن أعضاءه لم يفحصوا القضية على الوجه الصحيح، وأنهم تعجلوا في اصدار حكمهم، في هذه الرسالة شرح الامبراطور للأسقف الأمور من بدايتها وأطلعة على سير الأحداث منذ اللحظة التي وصلته أنباء هذا النزاع، قال:

«لما كان البعض في خبث وزيغ قد فسح للشقاق بينهم مكانا، فيما يتعلق والعبادة الطاهرة، وقوة السماء، والعقيدة الجامعة، حدثتني الرغبة في أن أحسم هذا الجدل، فأصدرت أمرى بأن يجيء من غالة بعض أساقفة، وأن يستدعى من أفريقيا الحزبان المتنازعان دوما وعنادا. ففي مثولهم وحضرة أسقف روما يمكن فحص داعية ذلك الاضطراب بعناية فائقة. ولكن الذى حدث أن بعضا قد تناسى خلاصه، والتوقير الخليق بالعقيدة المقدسه، فلم يضع للعداوة حدا، ولم يمتثل لحكم سبق صدوره، وزعم أن أول الذين أدلوا بفكرهم وقرارتهم كانوا قلة، أو أنهم كانوا على عجلة من أمرهم فأصدروا حكمهم قبل أن تفحص بدقة أمور غاية في الأهمية، من أجل هذا فان هؤلاء الذين كان من الحتم تشبثهم بالأخوة والوئام، أمسوا، ويا للعار والشناعة، على أنفسهم منقسمين، وغدوا أضحوكة رجال أرواحهم عن العقيدة المقدسة بعيدة. لذلك يبدو لى ضروريا أن هذا الانقسام، الذى كان من الواجب توقفه

الذى ايتمنكما عليه روح القدس واحرسا بيعة الله التى اشتراها بدمه، وانا اعلم بعد مفارقتكم يقوم قوم من الشعب ويتكلمون بكلام تجديف غرضا فى ان يقسمو البيعه كما فعل مليتيوس ا اريوس ا الذى تبعه جمع من الشعب،وانا اطلب اليكما ان تتيقظا لانكما تلقيان قلقا، وقد علمتما ما لحق الاب ثاونا الذى رباني وجلست بعده على كرسيه وما لقيه من الشرور من عباد الاوثان، وارجو ان يصير لى متل نعمته ونعمة الاب ديونوسيوس الذى

انشقاق ميليتس فقرر بشأنه ما ذكر بالرسالة التى أرسلها للكنيسة المصرية وذكرت فى الكلام على أعمال مجمع نيقية.

وقد رضخ ميليتس لحكم هذا المجمع وخضع للبابا الاسكندروس خليفة البابا بطرس الى أن مات سنة ٣٣٠م بعد أن انضم للاريوسيين فى حبرية البابا اثناسيوس الرسولى. وقد خلفه فى رئاسة حزبه يوحنا أركاف الذى اشتهر بعدائه للبابا أثناسيوس. أما حزب ميليتس فقد بقى بعد موت اركاف قائما فى مصر حتى القرن

نتيجة القرار الذى سبق لجماعة اتخاذه بمحض اختيارهم، يتعين على الفور، اذا كان ذلك ممكنا، شجبه بحضور الكثيرين»[١].

وأول شيء نلمسه فى نبرات قسطنطين رنة الأسى والحزن تتملكه وتسيطر عليه فى كثير من فقراتها، وما ذلك الا لخشيته من انقسام قد يودى بجهوده ويحطم أماله. وعبارة قسطنطين الأخيرة دالة على ذلك، فرغبته الجامحة فى وضع حد لهذا النزاع «على الفور» تفصح عن مدى قلقة وهلعه. فنحن الان فى عام ٣١٤، واذا علمنا أن الامبراطور قد وجه الدعوة الى أساقفة الغرب لعقد اجتماع جديد فى مدينة أرل Arles قبل نهاية أغسطس، وأن الحرب الأولى بينه وبين حليفه ليكين قد نشبت فى أكتوبر[٢]، وأنه كان يعلق على هذه الحرب أهمية بالغة لما يتغيه من ضم أقاليم جديدة غنية باقتصادها والرجال، أدركنا لماذا كان قسطنطين يذوب رعبا لأنباء هذا الانقسام الأفريقى، ويتحرك شوقا لرأب ذلك الصدع فى صفوفه الخلفية. فما كان له أن يواجه عدوه، وظهره بسهام الفرقة تطعن!

لهذا كتب الامبراطور فى رسالته السالفة يقول:

(1) EVSEB. hist. eccl. X,5.

(2) Gibbon. op. cit. I, p. 464.

كـان مـخـتـفـيـا من مكان الى مكان من اجل سـابليـوس المخالف. ومـاذا اقـول من اجل يار وكـلا ودمتريوس الاتنين المبغوطين وما لقيا من الشغب والمشاحنة من ارجانين [ارجانوس] المعتوة وجميع ما كان منه واباينا الذين كانوا قبلنا، وما احتملوه عن بيعه الله. لكن نعمة الله التى كانت معهم هى التى كانت تظللهم وتحفظهم وقد سلمتكما الان الى الله بكلمة النعمه التى لها القدره ان تحفظكما وتحفظ قطيعه. ولما قال هذا جثا على ركبتيه وصلى

الخامس وكان يقوده بعض الرهبان الذين أدخلوا على مبادئه شيئا منا القوانين المخالفة. أنظر هامش ص٣٥٧ السفلى.

«لما كنا قد أمرنا بأن يجتمع فى مدينة أرل الأساقفة من مختلف المناطق، وذلك قبل نهاية أغسطس، فقد رأيناه مناسبا أن نكتب اليك أيضا لكى تحصل من العظيم لاتورنيان Latornianus والى صقلية على عربة عامة مصطحبا معك اثنين من ذوى الرتبة الكهنوتية الثانية. يقع عليهما اختيارك. مضيفا اليهم ثلاثة من الخدم ليقوموا على راحتك طوال رحلتك، وأسع جاهدا لتكون فى المكان المحدد قبل الميعاد المضروب، ونحن على يقين انه بحزمك وحكمة الباقين وائتلافهم سوف يحسم هذا الشقاق، ذلك الذى لا زال بشكل معيب قائما، وما جلبه الا جدل مخجل. فليصغ كل لما يدلى به الحزبان المتنازعان، وليع ذلك أيضا من أمرناهم بالحضور، ولينته الأمر وفق الايمان الأمثل، وليعد من جديد أخوى الوئام. متعك بالصحة سنين عددا اله مقتدر»[1].

والى آرل، ومن كل بقعة يمتد اليها فى الغرب سلطان قسطنطين، توافد الأساقفة[2]. لحسم هذا الجدل، واعادة النظر فيما سبق أن قرر مجمع روما، ويعلق نورمان بينز Norman H. Baynes على ذلك بقوله «لم ترفع الكنيسة صوتها معترضة على مراجعة القرار الرومانى والذى صادقوا عليه بكامل حريتهم[3].

---

(1) EVSEB. HIST. ECCL. X.5.

(2) C.A.H. XII, 693.

(3) C.A.H. XII, 693.

وسجد معهما وشكر وضمهما اليه معتنقا لهما وقبلهما وكانا يقبلان يديه ويودعانه بالبكا (اعنى ارشلا والاكسندرس) لجل [لأجل] قوله لهما انكما لا تريانى بعد هذا اليوم فى الجسد. ثم عاد إلى الجمع الذى كان قايما فيه فوقف معهم وخاطبهم وقواهم وصلى عليهم وباركهم وعزاهم واصرفهم بسلام.

فلما مضو عنه حدثو الشعب بما قال وبما جرى منه فى السجن بسبب اريوس. فلما سمع

كان مجمع آرل الخطوة الثانية التى أقدم عليها الامبراطور للخلاص من هذه المشكلة بعد أن أخفقت خطوته الأولى فى ذلك. واذا كان قسطنطين قد فوض المسألة فى أول الأمر الى ثلاثة من أساقفة غاليا، يترأسهم أسقف روما الذى أضاف الى المؤتمرين خمسة عشر أسقفا ايطاليا، فانه فى هذه المرة قد وسع دائرة قضائه حتى يكون الحكم الذى يصدر عنهم عاما وشاملا ونهائيا. فمجمع آرل اذن يمثل من هذه الزاوية «العالمية». ولكن فى النطاق الذى يسيطر عليه قسطنطين وهو نصف الامبراطورية الغربى[١]. وقد حرص الامبراطور على ابراز هذه الناحية فى رسالته مرتين فى قوله «يتعين على الفور اذا كان ذلك ممكنا، شجبه (الانقسام) بحضور الكثيرين» والأخرى عندما ذكر أنه أمر «أن يجتمع فى مدينة آرل الأساقفة من مختلف المناطق».

وفى أول أغسطس ٣١٤ اجتمع فى آرل ثلاثة وثلاثون أسقفا[٢]. ومع أن الحاضرين لم يقصروا نشاطهم على المسألة الدوناتية فحسب[٣]، الا أن هذه هى التى تعنينا هنا، وقد قرر المجمع تبرئة ساحة فيلكس وكايكيليانوس من التهم التى وجهها الدوناتيون[٤]، وأيد الحكم

---

(1) Hefele. op. cit. I. 1.p. 277.

(2) McGiffert. op. cit. p. 382 n. 32; Palanque-Bardy- Labriolle, op. cit. II, pp. 46-47.

(3) Lietzmann. op. cit. p. 88; Hefele. op. cit. I, I, pp. 280-295.

(4) S.M. Jackson. op. cit. III. art. Donatism.

الشعب ذلك تعجبو وعلمو ان الله معه. وقد افرق اريوس منهم. وعلم اريوس بهذا الامر فسكت واخفى روحه وامره ومكره لانقطاع رجاه من بطرس البطرك.

فلما علم الاب بطرس ما صار بين الجند وبين اهل المدينه بسببه ومنعهم الجند ان يدنو من الحبس الذى هو فيه خاف ان يقتلو احدا بسببه واراد حفظ شعبه المومنين [و] ان يفديهم بنفسه،

الذى أصدره قبلا مجمع روما. وكان ذلك بالطبع يعنى ادانة الدوناتيين ثانية[1]. وأرسل المجمع تقريرا عما دار فى جلساته وصورة من قراراته الى البابا سلفستر حتى يمكن نشرها فى مختلف الكنائس[2].

قرت عين قسطنطين بما قر عليه رأى المجمع، وهيء له أن حكما اشترك فيه أساقفة الغرب اللاتينى على هذه الصورة من الاجماع لقمين بأن يردع الدوناتيين ويعيد الوحدة والسكينة الى هذه المنطقة، وما لبث قسطنطين أن هاجم أراضى حليفه ليكين سنة ٣١٤ ولم ينته العام حتى كان قد حقق انتصارات رائعة ضم بها كل ما فى حوزة ليكين فى أوروبا عدا تراقيا. فحقق بذلك بعض حلمه، وراح يستعد لجولة جديدة وأخيرة يقفز بها عبر البسفور الى جناح الامبراطورية الشرقى، ولم يكن قسطنطين يتصور أن مسيحيى أفريقيا سيقتحمون عليه هدوءه ثانية بعد مجمع آرل. غير أن الأحداث سرعان ما خيبت فأله وجاءته بما لم يكن يتوقع أو يهوى، ذلك أن الدوناتيين رفضوا الانصياع لقرارات المجمع الأخير، وسلكوا هذه المرة مسلكا مخالفا، اذ لجأوا الى الامبراطور ذاته يطلبون قراره الشخصى فى هذا النزاع[3].

(1) Jones. Constantine. p. 112.

(2) Lietzmann. op. cit. p. 89.

(3) C.A.H. XEI, p. 693. Hefele. op. cit. I. 1. p. 296.

فانفذ الى الجند سرا وقال لهم: تعالو الليله الى حايط السجن الذى ادقه لكم من الداخل فانقبوه وافعلو ما امركم به الملك. فلما سمعو ذلك قبلو قوله ومضو فى تلك الليله سرا الى الموضع الذى قال لهم وهو مكان كان فيه مفردا عن المعتقلين لا يعرفه احد منهم، فدق الحايط من داخل فلما سمعوه نقبو موضع الدق وفتحوه فصلب على وجهه واخرج راسه لهم من الطاقه التى فتحوها وقال: الاصلح ان اسلم روحى ولا يهلك من اجلى

وجد قسطنطين نفسه ازاء موقف جديد تماما. فالدوناتيون قد رفضوا لمرتين على التوالى حكم رجالات الكنيسة، وها هم الان يحتكمون الى الامبراطور طالبين اليه نظر قضيتهم بنفسه، ولم يقبل قسطنطين ذلك بداءة، ولم يرفضه فى الوقت نفسه جملة، بل ظل مترددا لفترة طويلة بين الاقدام والاحجام[1]، غير أنه فى نهاية الأمر قرر اجابة ملتمسهم ونظر قضيتهم. فدعا الحزبين للمثول بين يديه فى روما سنة ٣١٥ حيث كان الامبراطور يحتفل بمرور عشر سنوات على حكمه[2]، فلبى الدوناتيون الدعوة ولكن كايكيليانوس لم يظهر[3]. فوجدها الدوناتيون فرصة سانحة لاصدار حكم غيابى ضد أسقف قرطاجة، واستعدوا لمغادرة المدينة، ولكن قسطنطين اعتقلهم[4]، وفى نوفمبر ٣١٦ انتقل الامبراطور الى ميلانو[5]، واليها أحضر الأساقفة الدوناتيين، واستدعى اليه كايكيليانوس الذى سارع بالذهاب الى حضرة الامبراطور[6] وفصل قسطنطين بين المتنازعين، وما كان ليخريج فى قراره عما أقره قبلا مجمعا

(1) Id.

(2) Lietzmann, op. cit. p. 90; Hefele, op. cit. I, 1, p. 297.

(3) S.M. Jackson, op. cit. III, art. Donatism.

(4) Jones, Constantine, p. 118; Hefele, op. cit. I, 1.p.297.

(5) C.A.H. XII, p. 693.

(6) S.M. Jackson,op. cit. III, art. Donatism.

الشعب. فقطعو الجند راسه ومضو، فيا لهذا الفعل العجيب جدا.

فحدث في تلك الساعة ريح شديدحتى لم يسمع احد من الشعب الذين كانو يحرسون باب السجن حس النقايين، ولا سمع احد من المعتقلين فيه. وكمل هذا الاب المغبوط قول الانجيل المقدس وما حكاه من قول اليهود يوم الصلبوت: ان الاصلح ان يموت واحد عن الشعب ولا يهلك

روما وآرل. ويتساءل البعض في عجب بعد أن يوضحوا موقف قسطنطين تجاه الحزبين المتصارعين واهماله اياهما، والتلاعب بهما من روما الى بريشا الى ميلانو، هل كانت المسألة تستحق هذه السنوات الثلاث. وأن تطرح للبحث من جديد الأحكام الكنسية التي صدرت في روما وآرل للوصول الى هذه النتيجة التي انتهى اليها الامبراطور[1]!

على هذه الشاكلة تسنم قسطنطين مرتبة مرموقة بعد أن احتل مركز الفيصل في شئون الكنيسة. ومنذ اللحظة هذه وقسطنطين لم يتراجع عن غنمه هذا قيد أنملة، فقد غدا مهيمنا على أمر دين هذا الفريق الجديد من رعاياه، ولم تحتج الكنيسة على ذلك ولم تطلب اليه أن يعيدها حقا سلبه اياها. فقد أعطاها الكثير. ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تعداه الى ما هو أخطر من ذلك، الا وهو تعين الأساقفة!.

ذلك أن قسطنطين بعد أن أعطى تأييده لكايكليانوس، وأنكر على الدوناتيين حججهم، رأى أن يخلص هذا الاقليم من أسباب هذا النزاع، فأبقى لديه زعيمي الفريقين كايكليانوس ودوناتوس الكبير خليفة ماجورينوس، وأرسل من لدنه أسقفين هما يونوميوس Eunomius وأوليمبيوس Olympius الى قرطاجة ليقوما برسم أسقف جديد يرتضيه طرفا النزاع لحسم هذا

(1) Palanque, Bardy, Labriolle, op. cit. III, pp. 48-50.

الشعب كله. تشبه بسيده الراعى الصالح الذى بذل نفسه عن خرافه.

وكان الشعب جلوسا عند باب السجن ولم يعلموا بما كان من امره. وقيل في نسخه اخرى انه خرج من النقب واخذوه الجند ومضو به إلى مكان يعرف ببكوليا وتفسيره «دار البقر»(*) وهو الموضع الذى تمت فيه شهادة الاب الجليل مارى مرقس البشير، وان الجند لما راو القديس بطرس انه

(*) دار البقر: حيث كانت حظائر للثيران التى كانت تقدم لسيرابيس. وهنا أقيمت أول كنيسة بالاسكندرية حوالى عام ٦٥م.

الخلاف[١]، غير أن سياسة الحل الوسط هذه لم تؤت شيئا مما علقة قسطنطين عليها، اذ سرعان ما فر دوناتوس عائدا الى أفريقيا حيث تبعه كايكيليانوس[٢]، وعند ذلك فقد قسطنطين صوابه وخاصة بعد أن جاءته الأنباء من نائبه في أفريقيا توضح له سوء الأحوال واضطراب الأمور هناك بين أتباع الفريقين[٣]، وبدأ الرجل الذى أقر فى ميلانو سياسة المسامحة مع مختلف العقائد، أول اضطهاد في المسيحية، فقد أمر قسطنطين بمصادرة كنائس الدوناتيين وبيعهم[٤]، وجرت كثير من الاضطهادات والمذابح بين أفراد هذا الفريق[٥]، مما جعل الدوناتيين يعتبرون ضحاياهم الذين قتلوا نتيجة هذا القمع العسكرى في عداد الشهداء[٦]. ويبدو أن الفوضى فى الولاية الأفريقية قد بلغت حدا عجزت معه السلطات المحلية عن قمعها مما اضطر الامبراطور الى ارسال قوة عسكرية بقيادة أورساكيوس ursacius[٧]، لم يتوان دوناتوس الكبير عن مقاومتها والتصدى لها.

(1) Ibid. 48.
(2) Jones. Constantine. p. 119.
(3) Palanque. Bardy. Labhiolle. op. cit. III. p. 49.
(4) C.A.H XII. 693; Hughes. A history of the Church. p. 5.
(5) S.M. Jackson. op. cit. III. art. Donatism.
(6) C.A.H. XII. p. 693.
(7) Lietzmann. op. cit. p. 91; Backhouse. op. cit. p. 375.

اسلم نفسه للموت خافو ولحقهم الفزع فسألهم وقال لهم: احب منكم ان امضى اتبارك من جسد الاب مارى مرقس الانجيلي فاجابوه وهو محتشمون منه مطرقون الى الارض وقالو: مهما اردت ايها الاب افعله بسرعة. فمضى إلى حيث جسد الاب مارى مرقس الانجيلى البشير وصلى وتبارك منه وجلس عنده كانه [كأنه] يخاطبه قايلا: يا أبى الانجيلي البشير بالسيد المسيح الابن الوحيد الشاهد باوجاعه، انت اول شهيد واول بطرك كان فى هذا

بعد قسطنطين باجراءاته هذه عن الصواب، وجر على نفسه واقليمه هذا كثيرا من الويلات، فقد راح الدوناتيون يسلكون هم الاخرون مسلكا يتسم بالعنف دفاعا عن مبادئهم وكيانهم، وأخذت مبادىء الدوناتيين تلقى رواجا كبيرا بين الجموع الفقيرة المعدمة التى آلمها ما أضحت عليه الكنيسة الكاثوليكية من ثروة ورخاء نتيجة العطايا التى حصلت عليها من الامبراطور، والتى لم تتذوق منها هذه الطبقات شيئا. فتألفت جماعات من الفلاحين وعامة الناس، وتحزبوا للدوناتيين ودافعوا عنهم بقوة السلاح، وأشاعوا القتل والفوضى فى ولاية أفريقيا[1] يعلق أحد المؤرخين على ذلك بقوله «لابد لنا أن نعترف أن كل هذه الأحداث كانت أولى ثمار التحالف بين الكنيسة والدولة»[2]، وبلغت ذروة التحدى من جانب الدوناتيين للامبراطور ذاته عندما أرسل اليه أساقفتهم يقولون أنهم لن يتعاملوا قط مع أسقفه الوغد، وأنهم على استعداد لتحمل أى عذاب يفرضه عليهم[3].

عندما أدرك قسطنطين أن عليه أن يختط لنفسه سياسة جديدة، بعد أن ضاعت جهود عنفه هباء، فأرسل فى عام ٣١٧ الى نائبه فى أفريقيا والى كايكيليانوس والأساقفة باتباع سياسة

(1) F. Jackson, op. cit. p. 294.

(2) Backhouse, op. cit. p. 376.

(3) Jones, Constantine, p. 123.

الكرسى وانت [الذى اصطفيت ابهاتى واحدا بعد واحد انظر الى حقارتى لانى] يا طاهر يا قديس الذى اصطفاك المسيح القدوس الحقيقى، و انت كرزت باسمه فى كورة مصر وبهذه المدينه والاعمال المحيطه بها ونظرت فى الخدمه التى فعلتها واخدت اكليل الشهاده، ومن اجل ذلك ايها الاب الانجيلى البطرك التلميذ الشهيد استحقيت ان تظهر الايمان بالله الكلمه المخلص السيد يسوع المسيح. وانت اصطفيت انيانوس (*)

(*) ثانى البطاركة انظر

جديدة تقوم على الاعتدال والتسامح(١)، وأرسل هو بدوره أوامر بالسماح للأساقفة الدوناتيين المنفيين بالعودة الى ديارهم(٢).

وفى ٥ مايو ٣٢١ أرسل الامبراطور مرسوما الى نائبه فى أفريقيا بالعفو عن الدوناتيين وأن ترد اليهم كنائسهم المصادرة(٣)، ثم دعا الفريقين الى حل مشاكلهما عن طريق السلام، وليس أدل على ذلك مما أقدم عليه الامبراطور ذاته، فقد بنى كنيسة للكاثوليك فى Cirta، فقام الدوناتيون بالاستيلاء عليها، فلما احتج الكاثوليك على ذلك لدى الامبراطور طالبين منه المساعدة، جاءتهم هذه على نحو لم يكونوا يتوقعونه، فقد أمر الامبراطور بارساء قاعدة كنيسة جديدة لهم ممتدحا مسلكهم حيث لم يقابلوا العنف بمثله تاركين الانتقام لعدل الرب(٤). ولعل قسطنطين قد أقدم على هذه السياسة لأنه كان على وشك الدخول فى صراع مع ليكين ومن ثم لم يكن يرغب فى أن يترك وراءه الغرب يئن تحت هذه المتاعب التى تشيع الانقسام، كما أنه لم يكن راغبا أيضا فى أن يتحدث عنه الشرق المسيحى - الذى كان الامبراطور يتطلع اليه فى لهفة - على أنه امبراطور مضطهد، فراح يعظ الأساقفة الكاثوليك

---

(1) F. Jackson. op. cit. p. 295; A dictionary of Christian biography. art. Donatism.

(2) S.M. Jackson. op. cit. III. art. Donatism.

(3) Palanques. Bardy. Labriolle. op. cit. III. p. 51.

(4) Lietzmann. op. cit. p. 92.

الطوباني لنه [لأنه] كان مستحقا وبعده مليانوس(*) ومن كان بعدهما، ثم ديمتريوس وياوركلا وديونوسيوس ومكسيموس والمغبوط ثاونا ابى الذى ربانى حتى وصلت إلى خدمة هذا الكرسي بعده، وانا خاطى لا استحق هذه الكرامة، لكنى بكثر رافته [رأفته] نلت ذلك فاشفع في [فيّ] ان اكون شهيداً بالحقيقه ان كنت مستحقا تمام صليبه وقيامته، ويجعل فى [فيّ] روايح االامانه المحييه لكى اكون له بخورا طيبا

ص١٦٦.

(*) البطرك الثالث. انظر ص١٦٧.

ويطلب منهم الاعتدال تجاه عنف الخصوم[١] ولم تحاول الحكومة التدخل في هذه المشكلة حتى نهاية عهد قسطنطين[٢].

كانت المسألة الدوناتية تجربة جديدة فى العلاقة بين الدولة والكنيسة، خاضها قسطنطين. وتأرجحت سياسته فيها بين اللين والعنف واللامبالاة! ولئن كانت جهوده قد أتت اليه بغير ما اشتهى، الا أنه كسب خلالها مكانة جعلته فيصلا أعلى فى شئون الكنيسة. ذلك غنم لم يتنازل عنه قسطنطين طيلة محياه، ولم يتخل عنه خلفاؤه ما بقى للامبراطورية حياة.

ورغم أن الدوناتية ظهرت على مسرح الأحداث فى الغرب الامبراطورى نتيجة خلاف فى النظم الكنسية مع الكنيسة الكاثوليكية، الا أنه لا يمكننا أن نغفل أثر العامل الاقتصادى فى اتخاذها سبيل العنف من بعد. فأثرياء المسيحية هم الذين اذعنوا للاوامر الامبراطورية زمن الاضطهاد الدقلياني الجاليرى وقربوا للأرباب، فى الوقت الذى لقى فيه العنت نفر كبير من ذوى المسغبة، فلما انقشعت غمة الاضطهاد وأصبح قسطنطين سيد الغرب الفرد، وراح يغدق أنعمه على الكنيسة الكاثوليكية ورعاياها دون غيرهم، وأعيدت للكنيسة والاثرياء أملاكهم، تملك الحقد أفئدة هذه الطبقة المعدمة، فأعلنتها ثورة عنيفة على هؤلاء الاثرياء، والكنيسة

(1) palanque. Bardy. Labriolle, op cit. III. 52; Duchense, op. cit. II, p. 124.
(2) F. Jackson, op. cit. p. 295.

بسفك دمى على اسمه القدوس، وقد حضر وقت زوالى، فصل [فصلّ] يا ابى على [علىّ] ان لا اكون بقلبين ونيتين ويقوينى الرب حتى افارق هذا العالم. وهو دا اترك لك الرعية التى ايتمتنى عليها وسلمتها لى ولمن كان قبلى ايضا، فأنت معلمنا يا سيدنا فكن معنا ومع اولادك كما اعطاك السيد المسيح. ثم قام من عند القبر ورفع يديه الى السما وقال : يا ابن الله يا يسوع المسيح كلمةالاب ادعوك واسيلك ان تزيل عنا هذا الاضطهاد الذى

الكاثوليكية، متخذة من المبادىء الدوناتية عن التطهر والشهادة وسيلة لها. ويتضح هذا بصورة جلية فى الهجمات التى شنها فقراء الدوناتيين على حقول وقصور سراة المسيحية فى ولايتى أفريقيا ونوميديا.

ولا يعد أن تكون الدوناتية وسيلة وجد فيها أهالى هذه المنطقة، الفرصة التى يبحثون عنها من زمن بعيد، ليخلعوا عن أنفسهم تلك القشرة الرقيقة التى يتحلون بها من الحضارة الرومانية، نتيجة لهذا الكره الدفين الذى جاء نتيجة لعملية الاستنزاف الاقتصادى المستمر من جانب روما لموارد هذه المنطقة، اذ كانت أفريقيا تمثل الى جوار مصر قبو الحنطة للامبراطورية. وقد يكون ذلك هو الذى دفع مؤرخا مثل Hughes الى أن يطلق على أعمال العنف التى قام بها فقراء الدوناتية «حرب الفلاحين»[1].

(1) Hughes, A history of the church, p. 6.

على شعبك ويكون سفك دمي انا عبدك ازالة لهذا الاضطهاد عن رعيتك الناطقه.

وكان بالقرب من القبر مسكن فيه صبيه عذرا وأبوها رجل شيخ، وكانت قايمه تصلي ولما تمت صلاتها سمعت صوتا من السما يقول: بطرس راس الحواريين بطرس هذا تمام الشهدا.

فما اكمل الاب القديس دعاه قبل القبر وقبور الاب التي هناك ثم صعد الى الجند فنظروا وجهه

الآريوسية والمليتية

توارت بالحجب أنجم ليكين، وهتكت ستر المشرق شمس قسطنطين، وتطلعت الدنيا تتسمع أجراس نصر في خريستوبوليس تعلن في الملأ أن هذا قد أصبح للامبراطورية العاهل الأوحد، واذا بقسطنطين يخر ساجدا يسبح بحمد قدر قد واتاه من حيث لا يحتسب، وأغدق عليه نعمة ظاهرة لا باطنة، فاذا الامبراطورية كلها طوع أمره، واذا هو لبشرها سيد!!

نفض قسطنطين عن نفسه غبار معركة فرغ منها لتوه، وراح يعود الى ذلك الوراء البعيد وهو بعد على الناحية الأخرى لبحر الشمال يخترق بصره اليباب والوديان، وتجاه تلك البقعة القصية التي يهواها فؤاده، الشرق، ومرت بمخيلته تلك الأحداث المتلاحقة منذ نادى به جند أبيه ورفعوه مكانا عليا، وكيف حالفه ذلك الطاعن ماكسيميان، ثم كيف تألب عليه، وما كان من أمر ما كسنتيوس واندحاره عند القنطرة الملفية ثم دخوله مدينة الظافرين وعهده مع ليكين وحربه ضده. وأفاق من نشوة النصر قسطنطين على رنين تلك الأجراس ليرى نفسه وقد غدا سيد الامبراطورية الواحدة الأوحد.

ولم يغب عن بال الامبراطور طيلة هذه الرحلة الشاقة انه قد أنقذ من الضياع المسيحيين، وشد من أزرهم، وأنعم بالكثير عليهم، وكم ألمه أن يرى وحدتهم في الشمال الأفريقي تنفصم،

كوجه ملاك الله فخافو منه ولم يخاطبوه لن ا لأن|
الله لا يتخلى عمن يتوكل عليه، ثم رفع يديه الى
السما وشكر الرب وصلب على وجهه وقال أمين
وقلع بلينه وكشف رقبته الطاهره للرب وقال لهم:
افعلو ما امرتم به. فخافو من ان تلحقهم عقوبه
بسببه فنظر بعضهم إلى بعض ولم يجسر احد
منهم يقطع راسه لما وقع عليهم من الخوف، ثم
تشاورو وقالو: من قطع راسه يدفع له كل واحد منا
خمسة دنانير. وكانو ستة وكان مع احدهم دنانير

وأن يرى جهوده في لم شعث هذه الجموع تذهب أدراج العناد، وكم أمل أن يجد في الشرق تلك الوحدة الدينية التي افتقدها في الغرب[١]. وهي «محبوب الرب» أن وجوده في هذه الأقاليم الجديدة التي تزخر بأشياع المسيحية والتي فيها نبتت هذه، سيهئ له ضمينا قويا يمده العون، ويكفل له النجاح، ويرتل له على أنغام الوحدة أنشودة السلام[٢].

ولكن قسطنطين لم يكن مع المسيحيين في الشرق بأسعد حظا منه في الغرب، فاذا كان دوناتيو الغرب أفسدوا عليه بهجة نصره على «طاغية روما» فان أريوسيي المشرق والمليتيين قد عكروا عليه صفو انتصاره على حليف الامس ليكين، ولم يكن قسطنطين ليسمح لجمهور النظارة في هذه البقعة أن يشهد مسرحية «الانشقاق» التي كانت فصولها لا تزال تمثل على مسرح كنيسة أفريقيا. ولم يكتمل بعد مشهدها. فقد كان قسطنطين يعي تماما أن أي حادث كذلك الذى جرى في ولاية أفريقيا يتعرض له الشرق لابد وأن يعصف بجهوده وآماله تماما. فجمهور الشرق كثير وأبطال مسرحية من هذا القبيل هنا يحظون بالطبع بشهرة فائقة وعظيم الصيت، ولابد أن يهلل المشاهدون لهذا أو ذاك ممن يجذبون روعهم ويلقون الرضى !!

(1) C. A. H. XII, p. 697.
(2) EVSEB. Vita Const . II, 67.

فاخرج منها خمسه وعشرين دينارا وقال: الذى يتقدم اليه ويقطع راسه ياخذ هذه الدنانير عنى وعن الاربعه الباقين. فتقدم احدهم واستجرا وقطع راس الشهيد القديس بطرس البطرك فى التاسع والعشرين من هتور [فى السنة التاسعة عشر من حكم دقلاديانوس].

كان مدة مقامة على الكرسى الانجيلى احدى عشره سنه. فاما ذلك الجندى الذى جعل نصيبه

لم يكد قسطنطين يغدو سيد الامبراطورية الفرد حتى حملت اليه رياح الشرق أنباء حدوث انشقاق في كنيسة الاسكندرية، وأن هذا قد تخطئ هذه ليشمل كنائس سوريا وآسيا الصغرى، لم يكن قد ذهب من مخيلة الامبراطور بعد صورة تلك الفوضى الحادثة في الولاية الافريقية نتيجة انشقاق كنسى أيضا، ومن ثم صمم على أن يحسم الأمر بنفسه هذه المرة وبلا توان.

وقد كان طبيعيا أن تنشأ الاتجاهات العقيدية الجديدة في الاسكندرية فقد كانت لقرون خلت مركز الثقافة فى الشرق حيث تدفق النشاط الفكرى فى تيار جار[1]، فلما جاءتها المسيحية، لم يكن لها أن تتخلى فى ظل هذه العقيدة الجديدة عن مركزها المرموق، ولما كانت واسطة العقد بين الشرق والغرب، فقد أضحت تمثل بؤرة الثقافات المختلفة والعديدة، وقدر لها بذلك أن تؤدى دورا بارزا فى المسيحية انتشارا وفكرا، إلى الحد الذى دفع واحدا من المؤرخين[2] الى القول بأنه ليس هناك بلد من البلاد، أثر فى تطور العقيدة المسيحية مثلما فعلت مصر بل ليس ثمة مدينة تركت بصماتها على المعتقد المسيحى بصورة أشد عمقا من الاسكندرية.

(1) F. Jaclson, op. Cit. PP. 269 - 270.

(2) Creed, Egypt and the Christian Church, P. 300.

مع يودس الاسخريوطى فانه [فإنه]اخذ الدنانير وهرب هو واصحابه خوفا من الشعب. وبقى جسد القديس ملقى الى وقت كثير من النهار حتى عرف الشعب الجلوس عند الحبس الخبر ونظرو النقب فى الحايط فمضو اليه مسرعين ووجدو جسده وثوبه عليه، والشيخ والصبيه العدرا جالسين يحفظانه [يحنطانه] فالصقو الراس بالجسد ونشرو عليه سبيبه(*) وجمعو دمه ووقفو باكين، وتبلبلت المدينه واضطربت عند مشاهدتهم الشهيد الذى

(*) سبيبه: قماش رقيق من الكتان.

وقد قدمت الاسكندرية للعالم المسيحى أشهر أبانه فى الفكر اللاهوتى فى القرون الثلاثة الأولى للميلاد، كان أبرزهم على الاطلاق كليمنت Clemens (حوالى ١٥٠ ـ ٢١٥)، وأوريجن Origenes (١٨٥ ـ ٢٥٤) وديونيسيوس Dionysius (٢٤٦ ـ ٢٦٥)، وأضحى الثغر المصرى مركز نمو الفكر اللاهوتى فى الشرق، وأحرزت كنيسته شهرتها فى العالم المسيحى بوصفها كنيسة فكرية لم يعيها البحث فى أدق المشاكل فى الدين والعلم[1].

وكان الخلاف فى الرأى بين أريوسArius رجل الكنيسة السكندرية، واسكندر Alexander أسقفها، حول مسألة شغلت أذهان رجال الفكر واللاهوت وآباء الكنيسة فترة من الزمن غير يسيرة وهى العلاقة بين الآب والابن، الكلمة المتجسدة [2]، داعية هذا الجدال الذى اشتد أواره بين كنائس الامبراطورية على حد قول الامبراطور نفسه فى رسالته اليهما[3].

أما معلوماتنا عن أريوس فنستقيها من مخاصميه. وان لم ينكر عليه هؤلاء واسع علمه واطلاعه واضطلاعه من المنطق حتى أنه كما قيل لم يغادر من المعرفة صغيرة ولا كبيرة الا

(1)Vasiliev, op. Cit. I. P. 54.

(2) Thompson, op cit. P. 39; Latourette, expansion of Christianity. I. P. 348; Painter, op. cit. p. 15.

(3)EVSEB. vita Const. II. 69.

للسيد والمسيح، ثم حضر مقدمو المدينه ولفو جسده في النطع(*) الذى كان ينام عليه ومضو به الى البيعه وجعلوه على الترنس(*) [السترنس] الى ان قدسو واتمو القداس ودفنوه مع الابا. صلواته تكن معناومع جميع بنى المعموديه امين.

(*) النطع: فى اللغة قطعة كبيرة من الجلد توضع اسفل رقبة المحكوم عليه عند قطعها حتى لا يتناثر دمه على الأرض.

(*) الترنس: كرسى البطرك أو الاسقف، موضعه شرق الهيكل.

أحصاها [1]، الا أنهم عارضوه الرأى حول المسألة الكريستولوجية ورموه بالهرطقة، وذلك شأن مؤرخى الكنيسة جميعاً. ويخبرنا سوزومين [2] ـ دون غيره ـ أن أريوس كان أول من وافق مليتيوس Melitus أسقف أسيوط الذى انشق على كنيسة الاسكندرية فى اسقفية بطرس وشايع رأيه. ولكنه تاب وأناب ورسم سنة ٣١٠ شماسا على يد بطرس أسقف الاسكندرية، وفى عام ٣١١ حرمه بطرس نتيجة اعتراضه على سياسة الكنيسة ازاء الأساقفة [3]. ولما مات بطرس خلفه أشيلاس Achillas على الأسقفية [4]، وتمكن أريوس من الحصول على الغفران وأعيد فى عام ٣١٣ الى وظيفته الكنسية التى كان عليها قبلا، ثم رقى الى مرتبة القسين لما لمسه فيه الأسقف السكندرى من فطنة ومقدرة [5].

أما تعاليم أريوس فنقف عليها من رسالة لاسكندر أسقف الاسكندرية الى سمية اسقف بيزنطة، وأخرى بعث بها الى عموم الأساقفة ينبئهم فيها بفحوى النزاع بينه وبين أريوس والدوافع التى حفزته الى حرمه من الكنيسة، ومن مقالات أثناسيوسAthanasius خليفته

(1) SOZOM. hist. eccl. I. 15.

(2) Id.

(3) Id.

(4) SOCRAT. hist. eccl. I, 5.

(5)SOZOM. hist eccl. I, 15.

ارشلا البطرك

[٣١٢/٣١١م]

وهو من العدد الثامن عشر

فلما تنيح الاب بطرس وعدموه اهل الاسكندريه انفدو وجمعو الاساقفه وصيرو ارشلا القس بطركا عوضه كما كان اوصى قبل وفاته، فلما جلس ارشلا على الكرسى الرسولى الانجيلى تقدم اليه جماعه من الشعب وسألوه فى قبول اريوس فقبل سوالهم وجعله شماسا، ولما قبله وخالف وصية ابيه

ورسائله ضد الآريوسيين وعرضه لتاريخ الآريوسية وردودة على ما أثاره الفريق الآريوسى حول ما دار فى مجمع نيقية. ثم من رسالة آريوس الى زميله أسقف صور ووثيقة ايمان آريموس الى زميله أسقف نيقوميديا يوساب، ورسالة هذا الى بارلينوس Paulinus أسقف صور ووثيقة ايمان اريوس التى قدمها الى قسطنطين بعد عودته من المنفى.

تضمنت رسالة الأسقف السكندرى الى صديقه الأسقف البيزنطى فى بدايتها أسفا بالغا لروح الشر التى نفثت سمومها فى نفوس أناس ضعيفى الايمان، دفعتهم جسارة وقحة الى التهجم على الايمان القويم، وتحذيرا مخافة أن يستطيع هذا البعض الدخول فى الكنيسة بزيف القول وغروره، ثم يفصح بعد ذلك عن زعيمى هذه الحركة وهما اريوس وأشيلاس الكاهن Achillas ويروح بعد ذلك فى اطناب بالغ يشرح لزميله مبادئ اريوس ويورد الادلة التى اعتمد عليها هذا الأخير من الكتاب المقدس، ويتولى الرد على هذه الفكر الآريوسية محاولا دحضها، ولا تختلف أقواله بطبيعة الحال هناعنها فى رسالته الى عموم الأساقفة فى مختلف الكنائس[١]، ومن الرسالتين معا يمكننا أن نقف على آراء اريوس كما يراها اسكندر.

فالله عند آريوس لم يكن دوما آبا. فهناك فترة من الزمن لم يكن فيها الله آبا. وكلمة الله لم

(1)THEOD. hist. eccl. I, 3.

بطرس لم يقم على الكرسي سوى ستة شهور وتنيح في تاسع عشر بوونه سنة.

السيرة السابعه من سير البيعه

الاكسندرس[اسكندر]البطرك

[٣١٢ / ٣٢٦م]

وهو التاسع عشر من العدد

فلما تنيح ارشلا البطرك اجتمع الشعب ووضعوا ايديهم على الاب الاكسندرس [اسكندر] القس

تكن دواما، ولكنها من العدم نشأت، فالله قد جعل هذا الذى لم يكن من ذلك الذى لا وجود له. وعليه فقد كان هناك زمان لم يكن هذا. ذلك أن الابن مخلوق. ولا يساوى الآب فى الجوهر، ليس الكلمة الحق الطبيعية للأب. ليس حكمته الحقة. انما هو أحد الخلائق. دعى الكلمة خطأ والحكمة، فهو قد نشأ بذات كلمة الله. وبالحكمة الكامنة فيه ـ التى بها سواه الله وسواه. ومن ثم فهو بطبيعته عرضة للتغيير والتغاير شأن كل الخلائق. والكلمة غريبة عن جوهر الآب ـ بعيدة عنه ومنفصلة. والآب.. كيف يصفه الابن ؟! ان الكلمة لا تعرف الآب كنهه. والابن لا يعاين الآب يقينا. والابن لا يعرف ذات الجوهر. هو من أجلنا جبل. يخلقنا الله به. به اذن يؤدى. لم يكن يوجد لولا أن شاء الله خلقنا. واذا ما سألهم سائل عن تحول كلمة الله كما هو حادث فى الشيطان ماخجلوا عن الايجاب، حاجين أنه جبل وخلق. فطبيعته للتحول قابلة[1].

أما أثنا سيوس ففى رسائله ضد الاريوسيين، وردوده عليهم حول ما دار فى مجمع نيقية، يفسر عقيدتهم بما لا يخرج على الاطلاق عن شروح أسقفه اسكندر. ويضيف صراحة أن الفريق الآريوسى ينكر لاهوت المسيح، فالابن عندهم ليس الها حقا[2].

---

(1)THEOD. hist. eccl I, 3; ATHANAS. depos. Ar.

(2)ATHANAS. de decr. III, 6; Epist. C. Arian.

وصار بطركا كما اوصى الاب بطرس أخر الشهدا وجلس على الكرسى فتقدم اليه بعض الشعب وسالوه ان يقبل(*) أريوس، فلما راه الاكسندرس الفاضل رفضه ولم يقبله. وقال لمن ساله فيه: قال لى الاب بطرس وهو فى الحبس ولا خى ارشلا ان السيد المسيح احرم اريوس فلا تقبلاه ولما خالفه ارشلا اخى لم يقم على الكرسى غير ستة اشهر، وانا فما اقبله بالجمله وهو مفروز. فمكث اريوس منفيا تحت الحروم فمضى بعد ذلك الى

(*) قام البطرك الاكسندرس بحط آريوس من درجة الكهنوت سنة ٣٢١م ولكن اثنان من الاساقفة و١١ شماسا رفضوا ذلك فقطعهم البطرك، وهكذا أستمر آريوس فى دعوته واستمر البطرك فى محاربته ثم قطعه نهائيا عن العمل بالكنيسة.

وتتلخص تعاليم الآريوسية فى أن الاب هو الاله الحق فى مقابل الابن الذى ليس الها حقا. فهما متعارضان بالضرورة على أساس التعارض بين غير المخلوق والمخلوق. ومن ثم فليس هناك اثنان غير مخلوقين، الهان لامتناهيان [١] والابن ليس غير مولود وليس جزءا من غير المولود، ولا يستمد كيانه من مادة، وانما بالارادة والقصد وجد قبل كل العالمين. وانه قبل أن ولد أو خلق أو قصد. لم يكن. لأنه كان غير مولود [٢]. وعلى ذلك فالله لم يكن دائما أبا. لأنه كان وحيدا، ولم يكن اللوجوس والحكمة قد وجدت بعد ، ثم اراد الله أن يخلق موجودا معينا أسماه اللوجوس، الحكمة. الابن، حتى يمكن أن يخلقنا بواسطته. ولهذا توجد حكمتان: حكمة خاصة بالله وأخرى يشارك فيها الابن . كما أن فى الله لوجوس آخر غير الابن وقد سمى الابن تكريما له باللوجوس [٣] ولله قوة طبيعية ليس كمثلها شئ سرمدية. أما المسيح فهو ليس ا القوة الحقيقة لله، وانما هو احدى هذه القوى، وفى علاقته بالمخلوقات يعتبر الخالق، أما علاقته بالأب فهو مخلوق، وألة للخلق وآداة [٤]. والآريوسيون فى ذلك يتصورون مسافة

(1) Dict. theol. Cath. 1..2, Col. 1784.
(2) THEOD. hist. eccl . 1, 4.
(3) Dict. theol. Cath. 1.2, Col. 1786.
(4) Id.

القسطنطينيه وشكا حاله لقسطنطينوس ابن الملك قسطنطين المغبوط وانه قد تاب ورجع عن مقالته وحلف على ذلك وهو يخفى المكر [الكفر] فى قلبه إلي أن اظهرالله له قدرته فيه ونزلت امعاه [امعاءه] من دبره فهلك كما سيذكر ذلك فيما بعد. وبسببه كان المجمع المقدس بنقيه [بنيقيه] واحرم فيه واستقرت الامانه المستقيمه، وايام الصوم، ويوم عيد الفصح، وكان ابونا الاكسندروس البطرك مقدم المجمع وبعد ذلك تنيح

شاسعة بين الله والمخلوقات، الأمر الذى يلزم منه أن الخلق المباشر محال. الابن فى رأى آريوس قمة الخلائق، غير متغير وثابت ، وليس كباقي المخلوقات، ولكن الثبات وعدم التغير هنا لا يعنى ثباتا فى ماهية الابن ذاتها، ولكنه ثبات بحكم الواقع حسب ارادة الله [١]. ومعرفة الابن بالله معرفة غير كاملة، وذلك لأن الاب غير منظور للابن، فالابن لا يتأمل ولا يعرف تماما الآب. وما يراه الابن وما يعرفه فانما يعرفه بالنسبة لقواه،ان الابن لا يعرف حتى طبيعته هو [٢].

خلاصة القول عند الاريوسين ان المسيح لم يعد الها حقا، لأن اللوجوس المتجسد ليس هو الاله الحق. وبالتالي فهم يرتبون على ذلك أن الخلاص يتم على المستوى الأخلاقى أو بالحرى المستوى الانسانى[٣].

ويشبه اسكندر أسقف الاسكندرية فى رسالته الى عموم الأساقفة آراء أريوس ورفاقه بأخرين سبقوهم قبل ذلك وادانتهم الكنيسة [٤] ويقول: «ان هؤلاء الأفراد فى سعيهم الدائب بكل

---

(1) Id.

(2) Id.

(3) Dict. theol. Cath. I.2, Col. 1786; F. Jaclson, op. cit. P. 109; Davis, PP. cit P. 17; Ault, op. cit. p. 51; Painter, op cit P.d16; Adictionary of Christian biography. art. Arianism.

(٤) كان من نتيجة خروج المسيحية عن نطاق التبشير بين اليهود، ومضيها الى طريق أمم، أن تخلت عن=

وهو متمسك بالامانه الارتدكسيه. وكانت نياحته في التاني والعشرين من برموده وكانت مدة مقامه على الكرسي ست عشره سنه.

اثناسيوس الرسولي
من المدافعين عن أورجانوس

السيرة التامنه من سير البيعه

اتناسيوس الرسولي البطرك

[٣٢٦ / ٣٧٣م]

وهو من عدد الابا العشرون

فلما تنيح الاب المغبوط الاكسندروس [اسكندر]

مغالطاتهم لانكار الوهية الكلمة قد زكوا موقف من سبقوهم» [١] ومن رسالته الى اسكندر البيزنطي يشير الى هؤلاء الأفراد وهم «ايبون Epionوأتمارس Artemas وبولس Paul السميساطي أسقف أنطاكية الذى نادى بأن المسيح مجرد أنسان وصل الى درجة الألوهية بكماله الخلقي. وأنكر بولس أقنومي الابن والروح القدس، معتبرا اياها مجرد قوتين في الله كقوتي العقل والتفكير في الإنسان وقد حرم على يد مجمع عقد في سنة ٢٦٢. ويذكر يوساب أن كلا من ايبون وبولس ينكران لاهوت المسيح، كما أن أرتماس نادى بنفس العقيدة، وحرم على يد أسقف روما زفيرينوسZephyrnus (٢٠٢ ـ ٢٢١)[٢].

= أسلوبها التبشيرى البسيط بمعجزات المسيح، واختلطت بأفكار هؤلاء الأممين وفلسفاتهم، واخذت عنهم وأعطتهم، ومن ثم كان على المسيحية أن تتفلسف حتى تستطيع أن تواجه تحديات المفكرين والفلاسفة، ونتيجة لذلك ظهرت في المسيحية منذ نهاية القرن الأول للميلاد فرق عديدة تجادل من حول المسيح، في محاولة لارساء العقيدة المسيحية على أسس عقلانية. وكان من بينها المرقيونية Marcionism نسبة الى مرقيون الذى فرق بين الله المسيح والاله يهوه ـ وأصدر عهدا جديدا غير العهد الجديد المعروف يضم أنجيل لوقا ورسائل بولس فقط. والمونتانية Montanisn التى نددت بتعلق المسيحين بهذا العالم وازدياد سلطان الأساقفة. وأتباع كيرنتوس Cryinthusالقائلين بان الله لم يكن هو الخالق للعالم بل قوة متميزة عنه. وفي القرن الثالث ظهرت دعوة بولس السميساطي. وفي القرن الرابع كانت دعوة أريوس.

(1) THEOD hist. eccl. I, 3.

(2) ECSEB. hist. eccl. III, 27; V, 28.

ترملت البيعه اياما يسيره واجتمع الشعب وتشاورو وقدمو الاب اتناسيوس واجلسوه على الكرسى الانجيلي وكتب مقالات حسنه وميامر كثيره، وسمى في بطركيته «الرسولى» لشرف افعاله المتشبهه بالرسل.

وفي ايامه كان المجمع في جلاتيه [غلاتيا] وكان فيه باسيليوس الكبير صاحب القداس، وقطعو الاريانوس [اريوس] في ايام يوليانوس الملك الكافر، وكان يوبيانوس البطريق على هذا المجمع.

وهذه الآراء احتوتها وثيقة هامة وهى رسالة بعث بها يوساب النيقوميدى الى باولينوس أسقف صور جاء فيها:

«البتة لم نسمع بكائنين ليسا بمولودين، وما علمنا بانقسام الواحد الى اثنين، ولم نع على الاطلاق ولم نعتقد أن الواحد في صورة بشرية قد تجسد. ولكنا نؤكد أن الغير مولود واحد. وواحد كذلك الذى يحيا فيه بالحق. ولكنه من جوهره لم يجبل، ولم يشترك أبدا والغير مولود طبيعية أو جوهرا. متميز تماما في الطبيعة والاقتدار. جبل على شبه بالخالق سجية ومقدرة. انا تؤمن بأن كيف بدايته لا يمكن التعبير عنه بالقول ولاحتى بالفكر، كما أنها على البشر خافية. ومن من الكائنات منهم أعلى. تلك آراء ندعو بها لا لأنها من نسيج خيالنا استقينا بل من الكتاب المقدس من حيث نعلم أن الابن خلق. ثبت... وقد قال السيد «الرب قنانى أول طريقه من قبل أعماله منذ القدم، منذ الازل مسحت منذ البدء منذ أوائل الأرض. اذ لم يكن غمر ابدئت اذ لم تكن ينابيع كثيرة المياه، من قبل أن تقررت الجبال، قبل التلال ابدئت» ٠ أمثال ٢٢/٨ ـ ٢٦).

ذلك أنه لو كان من خلاله أو منه. جزء منه أو منبثق من جوهره. لاستحال القول بخلقه. لأن ماهو من الغير مولود لا يمكن القول بخلقه، سواء به أو سواه. لأنه غير مولود منذ البدء ولكن اذا كانت حقيقة تسمية الابن المولود، تدعو البعض الى الجهر بأنه قد أتى من نفس

٢٠ : أتناسيوس ٣٢٦/٣٧٣

وقـتل يوليـانوس الملك بيـد الشـهيـد الجليل مرقوريوس، وجلس يوبيانوس البطريق ملكا فاراح [فأراح] البيعه في ايامه.

وصبر اتناسيوس البطرك على بلايا كثيره بعد وفاة يوبيـانوس وتولى ولا نديانوس ونفى ونصب له فخاخ السو حتى ابعد عن كرسيه لكثرة ما ناله، ومضى الى صعيد مصر وأقام هناك [في ايام الملوك الكفرة] سنين كثيره، واظهر انه عامل بنا وصير

جوهر الآب، ويحمل من الآب في الطبيعة شبها، لأجبناهم أنه ليس وحده الذى تحدث عنه الكتاب المقدس بأنه المولود، بل عن آخرين مخالفين له في الطبيعه، فقد ورد على لسان بشر «ربيت بنين ونشاتهم. أما هم فعصوا على» (أشعياء ٢/١) وأيضا «من ولد ما جل الطل» (أيوب ٢٨/٣٨). والتعبير هنا لا يعنى أن قطرات الندى شريكه لله في طبيعته ولكن المعنى بالحرى أن كافة الأشياء قد تمت وفق ارادته. ليس هناك والحق أقول شئ من جوهره، وانما كل ما في الوجود من صنع ارادته. هو الله، كل شئ قد جبل مثيله وعلى وفق كلمته، خلقت بمحض ارادته هو. كل شئ من الله[1].

ويصف آريوس آراء خصومه في هذا الجدال بقوله «انهم يقولون بأن الله على الدوم كان. وكذا الابن كان. مثلما يكون الاب.. الابن يكون أزلي. الاب لا يستبق الابن في الفكر أو لبرهة. أزلي الاله. أزلي الابن. الذى من الغير مولود مولود. الابن من الله»[2].

ويعطينا أسقف الاسكندرية عقيدته ومؤيديه بقوله:

«نؤمن كما تكرز الكنيسة الرسولية، بالآب الوحيد الغير مولود، الواجب الوجود، لا يتغير

(1) THEOD. hist. eccl. I, 5.
(2) Ibid. 4.

نفســه اجيـرا ولم يظهـر انه بطرك. واقـام الملوك الكفـره، اعني ولاس ولا نديانوس احـدى عـشـره سنه.

فلما اراد الرب اعادته الى كرسيه دفعه اخرى بصلواته المقدسات المقبولات اهلك هولا [هؤلاء] الملوك بموت ســو لجل [لأجل] مــا فــعلوه بالارتدكـسيـه، واقـام الرب ملكا مـومنا اسـمـه تاودوسيوس، فابتهجت البيعه في ايامه وكان هدو

ولا يزول، هو هو غـاية الكمـال. لا يتكثـر عليـه نقـصـان أو زيادة. معطى الشـريعـة والأنبيـاء والأناجيل. رب الأنبيـاء والرسل وكل القـديسين، وبرب واحـد يسـوع المسيح ابن امه الوحيـد المولود. ليس مولودا من العدم بل من الآب. على نحو لا يدركه العقل، فوق التعبير. ووجوده غير مدرك عند الكائنات المائتة. والأب غير مدرك لأن طبيعة الخلائق العاقلة لا تقوى على فهم هـذه الولادة الالهيـة مـن الاب. ولاتـزال فـى آذاننا تتردد اصـداء قـول المخلص «ليس احـد يعرف الابن الا الآب. ولا أحـد يعـرف الآب الا ابـن» (متى ١١/٢٧).الابـن يتغيـر، والاب. الابـن لا ينقص عن الآب شيـئـا سـوى أنه ليس غيـر مولود وهو الابن الكامل وصـورة الآب التامة[١].

هذان خصـمان اختـصـموا فى دينهم، راح كل يـشر بدعـواه فى دوائر الكنيسة، وبخبرنا سـوزومين أن أسـقف الاسكندرية لـم يرد فى أول الأمـر أن يشـجب هذا الجدل دفـعـة واحـدة، ولكنه فضل السـماح للفريق المضاد أن يعرض وجهة نظره فى حرية تامة حتى يستطيع الجمع المفاضلة على أساس قويم[٢]. وسواء صح هذا القول أم أظلته سحابة من الشك، فالذى يعنينا أن عديدا من المجامع قد عقدت هنا وهناك أثيـرت فيها تلك النقاط موضـوع الخلاف، ولكن

(1) THEOD. hist. eccl. I, 3.

(2) SIZOM. hist. eccl. I, 15.

وامن وسلامه. وعاد اتناسيوس الى كرسيه. وكان في ظهوره فرح ومسره في بلاد مصر اذ جعلهم الرب مستحقين لرجوع راعيهم اليهم. واقام هذا الراعى الصالح الروحانى على كرسي مارى مرقس الانجيلى سبع واربعين سنه وتنيح فى السابع من بشنس وهو ضابط البيعه وغالب المعاندين للحق المناصبين للدين الارتدكس و لابس كرامة السيد المسيح، فحزن الشعب لجل [لأجل] هذا الراعى الرسولى الذى عدموه.

اتفاقا فى الرأى لم يصل اليه الحزبان. وتخلى اسكندر فى النهاية عن اعتداله وأمر أريوس بقبول القول باتحاد الابن مع الاب فى الجوهر ومساواته فى الأزلية. ولكن أريوس لم يذعن لهذا الأمر، فعقد اسكندر مجمعا فى الاسكندرية سنة ٣١٩ قضى بأدانه تعاليم آريوس[١].

وعلى الرغم من الموقف المتشدد الذى اتخذه اسكندر الآن تجاه آريوس، الا أنه يبدو أن أفكار الأخير وقد لاقت رواجا بين عدد ليس باليسير من رجال الدين فى كنيسة الاسكندرية. ونقف على ذلك من رسالة اسكندر إلى الأساقفة حيث يذكر أن من ارتدوا عن الدين القويم من القساوسة وتابعوا آريوس هم .. أشيلاس Achillas الكاهن، ايثالس Aeithales. كاربونس Carpones، وأخر يدعى آريوس Arius وسارماتس Sarmates ومن الشمامسة يوزيوس Euzoius، ولوقا Lucius يوليوس Julius ميناس Menas، هيلاديوس Helladius جايوس Gaius[٢]. هذا بالاضافة الى أن كثيرا من المثقفين قد اتخذ جانب آريوس ورفاقه ايمانا منهم أن عقيدتهم هى الحق، بينما تعاطف معهم بعض آخر مدخلين فى اعتبارهم أن الآريوسين قد اسيئت معاملهم وان حرمانهم ليس من العدالة فى شئ[٣].

---

(1) Id.

(2) ATHANAS. depos. Ar. THEOD. hist. eccl. I, 3.

(3) SOZOM. hist. eccl. I15.

فاما سيرته فانه كان قد غاب عن كرسيه تلت دفعات للشدايد التي نالته وتغلب المخالفين على كرسيه، وكانت غيبته في الدفعة الأخيره احدى عشره سنه. وكان كتب من النفى الى عذراى بمدينة الاسكندريه يقول لهن: ان عروسكن هو المسيح الذى لا يرى ولا يموت فما دمتم تحت محبته [ثابتين في محبته] فماتكن ارامل، واعلمن انني كنت اعمل كاتبا لابى الاكسندروس [اسكندر]، وكان ما يقرا قط الانجيل في قلايته ولا

- -

كان ذلك هو الوضع في الاسكندرية في مطلع عشرينات القرن الرابع، غير أن الفريق الآريوسى رأى من الحكمة والحصافة، على حد تعبير سوزومين[١]، أن يبحث عن نصير خارج المدينة، فارسلوا من لدنهم مندوبين الى بقية المدن الآخرى في الامبراطورية وزودوهم بمكاتيب فحواها عقيدتهم سائلين اياهم . اذا ما ارتأوا أنهم على الحق، أن يرسلوا الى اسكندر يرجونه أن يحسن معاملتهم، واذا ما استهجنوا تلك العقيدة فعليهم أن يبعثوا اليهم يعلمونهم الايمان القويم[٢]. ويعلق سوزمين على هذا السلوك من جانب الآريوسيين بقوله: لم يكن الاجراء الذى لجأ اليه فريق الآريوسيين عديم الاهمية، فقد نقل المشكلة من النطاق المحلى الى الدائرة العامة وأضحى حديث كل الأساقفة، وكتب بعضهم الى اسكندر يتوسل اليه الا يقبل أشياع آريوس في شركة الكنيسة مالم يطلقوا آراءهم بلا رجعة، بينما أرسل آخرون يستحثونه أن يكون بهم رحيما[٣].

ومن رسالة آريوس الى صديقه الأسقف النيقوميدى نعلم مدى انتشار الآراء الآريوسية في الولايات الشرقية للامبراطورية، فقد جاء فيها ذكر الأساقفة الذين شايعوا الآريوسية وهم

(1) Id.

(2) Id.

(3) Id.

في غيرها جالسا بل قايما والضو قدامه، وكان الله تعالى قد حبب له قراة الكتب، فبينما هو ليله قايم يصلي ويقرا في الانجيل اذ اتين رهبانات واستاذن عليه ثم طلع اليه فسجدن بين يديه وقلن له: عندنا عذارى يصمن ستة ايام ولا يعملن شيا بايديهن ليفضل منهم ما يطعمنه للمستورين، ونريد منك يا ابانا ان تتقدم لهن ان يعملن ويكون صومهم بقدر. فقال لهن: صدقني يا اخواتي ما صمت قط يومين ولا افطرت قط بالنهار ولا اكلت الا بقدر، ولا

يوساب أسقف قيساوية، ثيودوتوس Theodotus أسقف اللاذقية Laodicea وبارلينوس أسقف صور، وأثناسيوس Athanasius أسقف بيروت Berytus وآيتيوس Aetius أسقف اللد Diosopolis. ثم يضيف آريوس قائلا: وكل أساقفة الشرق عدا ثلاثة هم فيلوجون Philogonius أسقف أنطاكية . هيللانكرسHellanicus أسقف طرابلس، ومكاريوس Macarius أسقف أورشليم(١).

حتى ذلك الحين، ورغم هذا الانتشار السريع للعقيدة الأريوسية في الولايات الشرقية للامبراطور، الا أن الدولة لم تتخذ ازاءها أى مسلك، ذلك أن هذا الصراع الدائر في الكنيسة بين رجالاتها لم يكن ليعنى الدولة عندئذ في شئ. فقد كان ليكين لا يزال سيد الشرق، وكان قد بدأ في سنة ٣١٩ ـ كما قدمنا ـ يمارس من جديد سياسة العداء نحو المسيحية وأهلها، ومن ثم لم تختلف نظرته لاشياع هذا الفريق عن نظرة من سبقه من الأباطرة وهى النظرة الكلية. ولم يكن امبراطور الشرق يخشى من هذا الذى يدور في الكنيسة رحاه، فانقسام الرأى في الكنيسة المسيحية لا يضيره في شئ ما دام لايفرق بين مسيحى وآخر وحيث أن حكومته تقف من المسيحية جملة موقفا عدائيا.

....

(1) THEOD. hist. eccl. I, 4.

اتعبت نفسي ولا ادبت جسمي، لانه جيد ان يكون الصوم بقدر والشراب بقدر والنوم بقدر، فاذا اكل الانسان كما يجب قوى على الصلاه، وكذلك اذا نام بقدر، وللطعام حد وللشراب حد وللنوم حد، فقلن لهن يفطرن بقدر، ويعملن كل شي جيد بقدر ليلا [لئلا] يكثر الكلام فينسى اوله. هذا ما كتب به اتناسيوس الرسولي وحكى به عن ابيه القديس الاكسندروس [اسكندر] وانه كان كلامه كالعسل لمن يسمعه، وكان يكثر النعمة [الشكر] للسيد المسيح.

أما الكنيسة ذاتها فقد كان يهمها ما يعتمل في داخلها من صراعات عنيفة، كان أسقف الاسكندرية على رأس المتحمسين بطبيعة الحال لرأب هذا الصدع الذى أخذ يستفحل ويشتد خطره ويهدد بانقسام خطير، وحتى يتجنب اسكندر وقوع مثل هذا الحدث، دعا الى عقد مجمع في الاسكندرية عام ٣٢١ ضم أساقفة مصر وليبيا، وبلغ عدد من حضره أكثر من مائة أسقف قرر لعن آريوس وأتباعه الذين سبق لنا ذكرهم بالاضافة الى سكوندوس Secundus أسقف بطوليمايا Ptolemais احدى المدن الخمس الغربية وثيوناس Theonas أسقف مارماريكا Marmarica[1].

وكان على آريوس أن يتصرف بسرعة حتى يدعم مركزه وآراءه، ومن ثم رحل عن الاسكندرية شاخصا الى فلسطين ومنها الى نيقوميديا حيث صديقه يوساب الذى كان يحتل مكانة مرموقة في القصر الامبراطورى [2] وراح يشكو إليه حزنه وما أنزل به ورفاقه اسكندر من اضطهاد. وكانت رسالته السابقة اليه قد أفصحت عن ذلك. حيث يقول آريوس: «لقد أمسينا نعاني تلف الحياة لاضطهاد أنزله الأسقف بساحتنا، وما من حجر الا وقذفت به وجوهنا، لفظونا ملاحدة خارج المدينة»[3].

(1) ATHANAS. depos. Ar.; THEOD. hist. eccl. I, 3.

(2) SOZOM. hist. eccl. I, 15.

(3) THEOD. hist. ecll. I, 4.

وقــد قــيل ان اريوس كــان اتى الى هذا الاب الاكسندورس [اسكندر] وسال ان يدخل اليه فقال الاكسندروس: قـولو له اوصـانى ابى ان لا اقـبلك ولا تدخل الى ولا اجـتـمع بك لان ابى شـهـد ان السيـد المسيـح اراه فى منامـه ثوبه مـشـقـوقا منك وامره ان لا يقبلك، او ما تعلم ان لسانك هو الذى ابعـدك منه بما قلتـه فـاطلب من السـيـد المسـيح المخلص واعترف له بخطيتك فاذا قبلك فهو يامرنى بقبولك كـما امر بطرس ابى ان لا يقبلك. قد امر

دعا يوساب الى عقد مجمع سنة ٣٢٢ ضم أساقفة بيثينيا، قرر اتخاذ جانب آريوس وكتب الى جمهور الاساقفة يدعوهم الى نصرة الآريوسيين وقبولهم فى الشركة، وطلب الى الأساقفة أن يسعوا جاهدين لدى اسكندر لاعادة آريوس ثانية الى الكنيسة [١]. غير أن اسكندر وقف من هذا الرجاء موقف المعارضة، وكتب بدوره الى أولئك الاساقفة يشرح لهم نواحي الخطيئة فى عقيدة آريوس وعمد الاستقامة فى ايمانه «فانا وقد عاينا دنسهم صببنا عليهم اللعنة وأعلنا كفرانهم بايمان الكنيسة القويم، وقد أحببنا أن نحيطكم أحبابى علما. فاذا ما تجاسر بعض بالقدوم عليكم، فلا تقبلوهم، ولا تنصاعوا لرغائب يوساب ومشايعيه. وانه لخليق بنا نحن المسيحيين أن نولى دبرنا كل من يضاد المسيح بالقول وفكرا. ا نهم أعداء الرب للأرواح مفسدون[٢].

هكذا تحزب الفريقان، ازدادت فى واقع الأمر هوة الخلاف ، وعد الفريق الآريوسى رفض اسكندر قبول زعيمه فى الكنيسة ثانية اهانة بالغة فساده شعور بالسخط والاستياء واشتد عزم مريديه وحماسهم لتأييد العقيدة الآريوسية [٣]. وأرسل آريوس بدوره رسائل الى كل من

(1) SOZOM. hist. eccl. I, 15.

(2) ATHANAS. depos. Ar: ; THEOD. hist. eccl. I, 3.

(3) SOZOM. hist eccl. I, 15.

عشرة سنه من ملك جليانوس ووالاريانوس. واعان الأخوه في أمور البيعة بكل موضع، وأخرج بوله السميساطي من البيعه لما عرف بأنه مخالف، لأن كل ما جرى في المجمع بإنطاكية على بوله كتبوا به الى ديونوسيوس بطرك رومية والى مكسيموس بطرك اسكندرية لما جلس بعد ديونوسيوس، وكتب جميع المجمع بإتفاق روحاني قطع بوله وقالوا إنه لا يجب أن يسمي باسم بولس الرسول.

وكتبوا الى ديونوسيوس بطرك رومية

القديس ديونيسيوس فلم يتمكن من أجابة دعوة المجمع لداعي شيخوخته واكتفى بما أرسل من الرسائل للمجمع.

وفي النهاية عزلة القيصر الروماني أورليان عن الكرسي الانطاكي.

- -

عدن قد أورث بنى آدم جميعا نزوعا نحو الإثم. وإنما بشر بيلاجيوس بأن الطبيعة البشرية لكل مخلوق فرد تشبه طبيعة آدم البكر النقية وقت الخلق؛ أى قبل السقوط، وهذا يعنى أنها لم ترث أوزار الإثم الأول. ومن هنا فالإنسان حر تماماً، بل وليس فى حاجة إلى أى عون خارجى لكى يسلك الصواب. وإذا كانت البشرية قد ضلت فإنها ضلت بمحض اختيارها وبحرية إرادتها: «لقد اختطت لنفسها الاختيار الخطأ». وفى وسع البشر أن يمارسوا بما زودهم الله به من ملكات تبيح لهم حق الاختيار للصواب، ولا يستلزم هذا إعادة لخلق الآدمية من جديد، ومن ثم فليس هنالك مبرر لمعمودية جديدة ولا لنظرية الفداء. وطقوس العماد ـ عند البيلاجيين ـ مراسيم ظاهرية لا تمس روح الإنسان فى شيء، فما هى إلا طقس خلقى يقصد به الموعظة، ويمكن الاستغناء عنه تماماً.

والصلاح إنما يكمن فى أعماق النفس البشرية التى هى من صنع الله، الخير الأعلى. وهكذا أفرغ بيلاجيوس سر «الفداء» المسيحى من مغزاه، بل إن تجسد «الكلمة» ذاتها لم يعد أكثر من معجزة كبقية المعجزات الأخرى كإحياء الموتى مثلا. وأخيراً يخلص بيلاجيوس إلى رأى جرىء: لئن نجح الإنسان فى الحصول على الخلاص تلقائيًا، أى دون عون خارجى، فإن هذا يعنى أنه غنى بذاته عن وسطاء السماء (الإكليروس والكنيسة) بل عن السماء ذاتها.

ومكسيموس بطرك اسكندرية والى جميع اساقفة المسكونه والقسوس والشمامسة وجميع بنى المعمودية والبيعه السماويه المتفقه ويسمونهم ويقولون فى كتابهم: الينس وهمناوس وتاوفيلس وتاوتكنص ومكسيموس وبركلس ونيكوموس وايليانوس وبولس وبروتجونوس وولانوس وهيركس واوتاخيوس وتادروس وملخيون ولوكيوس وبقيتهم الذين فى المدن والقرى القريبة منا[والبعيدة عنا] قد كتبنا إليكم ياأخوتنا الاساقفة القديسين

ويتساءل الفيلسوف الإنجليزى: هل هنالك إذن حاجة إلى الدين؟. والصلاة بشكلها المعروف تصبح عند بيلاجيوس مجرد هراء وعبث؛ لأن الله لا يهتم إلا بالقلوب وبالأفعال.

وصل بيلاجيوس ورفيقه سيلستيوس إلى شمالى إفريقيا فى عام ٤١٠ فراراً من جحافل آلاريك المحاصرة لروميا. وتقدم سيلستيوس إلى أسقف قرطاجة ليرسمه قساً، ولكن الأسقف رفض طلبه واتهمه بالهرطقة ثم أصدر ضده قراراً بالحرمان. ولهذا ترك سيلستيوس شمالى إفريقيا مخلفاً وراء نفراً من الأتباع. ولما وصل إلى أفيسوس نجح فى الحصول على منصب كنسى دون عناء. أما بيلاجيوس فقد سافر إلى أورشليم وقوبل هناك بالترحيب الزائد، وافتتن الكثيرون بعظمة لسانه وحياته الزاهدة. ولكن القديس جيروم، الذى كان مقيماً آنذاك فى أورشليم، لم يلبث أن هاجم آراء بيلاجيوس برغم الحماية التى كان أسقف أورشليم قد بسطها على بيلاجيوس. ولما اشتد الجدل حول البيلاجية عقد مجلس فى أورشليم، ولكن المجلس لم يصل إلى نتيجة حاسمة فأحال الأمر إلى روما فى عام ٤١٥. كذلك التأم مجلس آخر فى مدينة ديوسبولس Diospolis فى عام ٤١٥، حضره أوروزيوس الإسبانى نيابة عن القديس أغسطينوس، وأسقفان من غالة، وتدارس المؤتمرون النظرية البيلاجية ولكنهم لم ينتهوا فيها إلى شيء. وفى عام ٤١٦ تلقى البابا أنوسنت الأول رسالة من القديس أغسطينوس ضمنها شرحاً وافياً لطبيعة الجدل حول البيلاجية، وبناء على هذا قرر البابا التصديق على قرارات

[١٥ : مكسيموس ٢٦٤/ ٢٨٢م]

والشعوب المحبين للسيد المسيح ابن الله، ندعوكم الى الصلاة للرب أن يزيل عنكم مؤامرة بوله السميساطى فالذى معه يولد له الموت أكثر من كل أحد، لكى تكونو معنا بقلب واحد مثل ديونوسيوس بطرك اسكندرية وبرمليانوس أسقف [قيسارية] كبادوكية الذين كتبو إلينا الى انطاكية حتى هدمنا ريس الضلاله الذى لم يعلمو شيا من اقاويله الرديه، لأنا نحن الذين قرانا كتبه فى المجمع بالأمانه الفاسدة وشهدنا بهذا ومن معنا. ومن بعد

- -

الحرمان ضد بيلاجيوس وسيلستيوس. وفى عام ٤١٨ أرسل البابا زوزيموس قراره المعروف باسم «تراكتوريا» Tractoria إلى شمالى إفريقيا يدين فيه البيلاجية صراحة بالهرطقة. وقد أصدر مجمع قرطاجة السادس عشر (سنة ٤١٨) قراراته بالآناثيما ضد أتباع البيلاجية[1]. أما جوليان من أكلانوم فكان واحداً من أساقفة جنوب إيطاليا المناصرين للبيلاجية، وقد هرب إلى الشرق عندما أصدر البابا زوزيموس ضده قراراً بالحرمان. وقد وصل جوليان إلى مصيصه حيث تعرف على اللاهوتى الشهير ثيودور أسقف المدينة، وقد تأثر ثيودور بالبيلاجية إلى حد كبير.

ولقد أفاض القديس أغسطينوس فى الرد على البيلاجية، وجاء رده متوافقاً، بطبيعة الحال، مع آراء الكنيسة الكاثوليكية. يقول القديس: إن الله خلق آدم ولم يكن محتاجاً إلى عبوديته بل إن البشر هو المحتاج إلى الربوبية. وزود الرب أبانا الأول بهبة الخلود وبإرادة خيرة تماماً، كما

....

(1) Carthaginense Conc., Can. 2.: "Item placuit, ut quicunque parvulos recentes ab uteris matrum baptizandos negat, aut dicit in remissionem quidem peccatorum eos baptizari, sed nihil ex Adam trahere originalis peccati, quod lavacro regenerationis expietur, unde sit conse - sed nihil ex Adam trahere originalis peccati, quod lavacro regenerationis expietur, unde sit conse- quens, ut in eis forma baptismatis "in remissionem peccatorum" non vera, sed falsa intelligatur- A.S."

ذلك عاهدنا إنه يتوب وكان ذلك منه هزوا[ء]ا وغدرا وقسا قلبه ولم يتب ويبقى على ضلاله مفتريا على الله بكلامه، فأنكر جحد الرب فى أمانته.

وصفة حال هذا بوله إنه انتقل من أمانته الى الكفر والضلالة والهلاك، وكان فقيراً فى جنسه فقراً ظاهرا لأنه لم يرث شيا عن سلفه ولم يرزق شيا من صنعته بيده، واستغنى من مال البيعه. وكان ينهب الهياكل بالناموس، ويقطع مصانعات

صاغ فيه العقل والحواس وتوج آدميته بالمعرفة. ولكن آدم «اشتهى» ثمرة الشجرة المحرمة، ثم أكل منها بغواية الحية وحواء وبهذا يكون آدم قد «هجر الله»[1]. وتعرى آدم وعرف حواء وولدت بالإثم، وتوارث بنو آدم هذا الإثم[2]. وتشهد سجلات التاريخ بتعاسة البشرية منذ هذا السقوط الأول. ولن يفلت من البشر واحد بسبب الخطيئة الكبرى وهى الجنس، فابن آدم يجرى وراء الشهوة فيطأ بقدميه القوانين والضوابط.

وهذه النوازع الآدمية الآثمة الموروثة قد وأدت فى ذرية آدم عنصر الخلود وحرية الإرادة التى كان الله قد أودعها أصلا فى «الوعاء النقى»، فى آدم الطيب قبل السقوط الأكبر. ولولا «الرعاية» الربانية والعطف السماوى لظلت البشرية متردية فى هلاك الهاوية إلى الأبدية،

(1) De Civitate Dei, Liber Decimus Tertius, Cap. XV, Col. 387: "Nam in eo quod inobediens motus in carne animae inobedientis exortus est, propter quem pudenda texerunt, sensa est mors una in qua deseruit animam Deus. Ea significata est verbis ejus, quando timore dementi sese abscondenti homini dixit, Adam, ubi es? non utique ignorando quaerens, sed increpando admonens, ut attenderet ubi esset in quo non esset Deus. Cum vero corpus anima ipsa deseruit aetate corruptum et senectute confectum, venit in experimentum mors altera, de qua Deus peccatum adhuc puniens homini dixerat, Terra es, et in terra ibis.."

(2) "Hoc est malum peccati in quo nascitur omnis homo."

في نفسها ان توانيت عنه مضى عنى وبقيت وحيده. فحينذ[حينئذ] نهضت واخدته معها ومضت به الى الاكسندروس [اسكندر] وقالت له قضية حال اتناسيوس ابنها وجميع سيرته، ثم تعمدت هى وولدها. وبعد زمان توفيت وبقى هو عند الاب الاكسندروس مثل الولد، ورباه بدعه بكل فن وحفظ الاناجيل وقرا كتب الله، فلما كبر اوسمه شماسا وجعله كاتبه وصار كانه ترجمان الاب المذكور وخادما للكلام الذى يريد يقوله.

- -

نشب، بعد أن أغفلتما حق الأخوة، ووقعت الرعية المقدسة في تمزق حزبى. ولم يعد للجسد الواحد وجود!

والآن .. أكلاكما على أستعداد لتبديا من الرفق والتحمل قدرا واحدا فتقبلان نصح رفيق لكما يقدمه بارا قويما ؟!![1].

هكذا القى قسطنطين على اسكندر وآريوس تبعة الاحداث وحمل اياهما دوافع صراع كان من الممكن تجنبه لو أن آريوس أغلق على الرأى الحر فكره. ويتساءل الامبراطور.

«كيف ياترى يكون نصحى؟!

خطأ في البدء أن تطرح القضايا على هذا النهج، والخطأ بعد في نقاشها، فمسائل الجدال هذه وليس لها من الشرعية نصيب، وتمليها روح صراع وليدة فراغ أسئ شغله ، حتى ولو قصد بها رياضة الذهن، ينبغى أن تظل حبيسة فكرنا، بعيدة عن آذان الجموع. اليست قلة تلك التى تعى مثلها؟ فهى أمور علوية ذات طبيعة خفية، ولنقل أن واحدا قادر على ادراكها، فكم يا ترى من الجمع يلم بها؟ وحتى هذا الذى يعيها تراه لا يحيد عن سوى الصراط. يتحتم علينا من ثم أن نقصد في القول لاننا لا نقوى وطبيعة الحال على أن نفسر تلك المسائل، ولئن

(1) EVSEB. vita Const. II, 69.

فلمـا تنيح قسطنطين الملك المومن بشيخوخه حسنه وجلس بعده قسطنطيوس ابنه فلم يثبت على الامانه المستقيمه وانما كان يخاف ويحتشم من الناس، وفوجد اريوس حينذ الفرصه ومال الى اخذ الملك وجذبه الى قلبه وافسد قلبه، وحمله على استمال الملك الى مقالته واغواه الى ان انفذ احضر الاكسندروس [اسكندر] من الاسكندريه الى القسطنطينيه، ولم يعلم الملك قدر الاكسندروس [اسكندر] ولا سبب حرمه لاريوس وابعاده له عن

استطعنا الى ذلك سبيلا فمن من السامعين عساه أن يفهم. فالرعية لسبب أو لآخر قد تجدف أو تنشق»[1].

فالخلاف كما يبين من حديث قسطنطين لا يهمه في شئ قدر ما يعنيه جدل الرعية، فلو أن آريوس واسكندر أغلقا على نفسيهما أبواب الكنيسة وراحا يقلبان ظهر الأرض وباطنها وصولا الى لقاء، ما حرك ذلك شعرة من رأس الامبراطور، أما أن ينفتح باب البيعة وتغشى الجموع حكاية الخلاف فذلك شئ يثير غضب الامبراطور ويؤرقه! فالناس على جهلهم سائرون الى فرقة أو زيغ، ومن ثم أفصح الامبراطور عن دفين غيظه، وراح بلهجة خالية من كل وقار يكيل للرجلين أقذع العبارات، يحملهما تبعة الفوضى، ويحذرهما مغبة ما ورطا فيه نفسيهما والجموع. قال:

«ولنر هل أصبنا حيث أختلفنا في كلمات العبث والغباوة أن نعادى بعضنا بعضا، وتمزقت جماعتنا خلف أصابنا بكما. أنتما يا من يتعالى صياحكما حول نقاط كم هي تافهة وضيعة، سوقية هي. وخلة حمق صبياني، تقف والضد من حصافة الاكليروس والعقلاء، ذلك حديث أقوله لكما دون رغبة في قهركما على التوافق حول هذه المسألة العقيمة مهما كان كنه

(1) EVSEB. vita Const. II, 69.

البيعه، وكان الاكسندروس [اسكندر] قد شاخ وكبر غير انه ثابت الجنان سالم الحواس، كان اتناسيوس ترجمانه وكاتبه والمتكلم عنه بقوة الروح القدس لمعرفته بالامانه الارتدكسيه، فجلس الاب الاكسندروس بحضرة الملك واحضر اريوس وتكلم كلامه الطمث واكثر الكلام السمج فخصمه اتناسيوس بالاقوال التى اوردها وابطل كلامه، فقلق اريوس وافسخ المجلس وقال: يكون لنا مجلس اخر. ولما علم اريوس انه لا قوة له باتناسيوس دفع مالا

طبيعتها. وفيما يختص بشجاركما على أمور لا جدوى منها، فعليكما ان صعب الوئام، أن تقصرا تلك على دواخل فكركما والعقل»[1].

واختتم قسطنطين رسالته بقوله «أعيدوا الى أياما خوالي. وليالي غفت فيها جفوني حتى ينالني بهجة الضوء الوهاج ومسرة سكينة الحياة»[2].

على هذا النحو أبدى قسطنطين رأيه في أمر الخلاف العقائدى المحتدم بين كنائس الامبراطورية في قسمها الشرقي، وواضح من حديثه مدى بعده عن هذه المسائل الكريستولوجية وقلقه البالغ لما نجم عن هذا الصراع من فرقة وانقسام بين رعايا المسيحية.

جاء هوسيوس برسالة الامبراطور الى الاسكندرية، وحاول رأب الصدع الذى هز كنيستها وامتد الى الكنائس الأخرى. فدعا الى عقد مجمع دينى في الاسكندرية عام ٣٢٤ قرر حرم آريوس ورفاقه[3]. وعاد الى الامبراطور يحمل اليه أنباء اخفاق مسعاه فى التوفيق بين آريوس واسكندر. وفي طريق العودة توقف في أنطاكية منتهزا فرصة وفاة أسقفها فيلوجون

(1) Ibid. 71.

(2) EVSEB. vita Const. II, 72.

(3) Ibid. 73.

لاصحاب ابواب الملك وقرر معهم ان يمنعو اتناسيوس من الدخول معهم في المجلس الاخر، فلما كان بالغداه امر الملك باحضارهم فلما دخل الاكسندروس [اسكندر] منعو البوابون اتناسيوس الرسولي من الدخول، فلما جلس الملك والبطرك بحضرته تكلم اريوس واكثر الكلام، فالتفت الاب الاكسندروس يمينا وشمالا فلم ير اتناسيوس كاتبه فسكت فقال له الملك: لم لا تتكلم؟ قال له الاكسندروس [اسكندر]: كيف اتكلم بلا لسان

Philogonius حيث دعا في ديسمبر سنة ٣٢٤ الى عقد مجمع كبير ضم الأساقفة من كل الاقاليم التي تنظر الى أنطاكية باعتبارها عاصمتها الروحية، من كيليكيا وميزوبوتاميا في الشمال حتى فلسطين جنوبا، وكان المجمع في جملته معاديا للآريوسية فقرر اختيار يوستاتيوس Eutstathius خصم الآريوسية العنيد أسقفا للمدينة خلفا لفيلوجون[1]. وقرر المجمع ايضا أدانة العقيدة الآريوسية[2] وثلاثة من مؤيدى آريوس هم ناركسيوس Narcissus أسقف Neronias (بانياس)، وثيودوتوس أسقف اللاذقية Laodicea ويوساب أسقف قيسارية Caesarea فلسطين، وبعث المجمع بقراراته هذه لا الى أساقفة الشرق فحسب بل الى اسقف روما أيضا لاذاعتها في الغرب[3].

بهذا السلوك نقل أساقفة مجمع أنطاكية صراعا خاصا بالقسم الشرقي من الامبراطورية عدة سنوات الى الغرب، وأضحى الجدال حول العقيدة الآريوسية يغطى كنائس الامبراطورية بضوضائه. وقد انعكس هذا على سلوك الامبراطور ذاته ومحاولته حل هذه المشكلة التي اتسعت حلقة روادها، فقد كانت النية متجهة في أول الأمر، بعد أن تبين اخفاق هوسيوس في

---

(1) Jones, Later Roman Emire, I, P. 86.

(2)Downey, op. Cit. p. 351.

(3) Jones, Constantine, P. 150.

مترجم. فعلم الملك انه يعنى اتناسيوس فامر باحضاره، فلما راى اريوس ان اتناسيوس قد دخل خرج مسرعا ولم يقف، فقال الاكسندروس [اسكندر] للملك: اعلم ايها الملك ان قطع هذا اريوس كان في المجمع وليس انا قطعته وحدى بل ابوك المغبوط الملك واهل المجمع كلهم قطعوه وكتب الملك حرمه بخط يده، واذا نظرت كتب ابيك وجدته بخط يده، وانا اقول من يقطع الملك قسطنطين واهل المجمع. فاحله انا فيكون ذلك منى

الاسكندرية، الى عقد مجمع يضم أساقفة الشرق فى مدينة أنقره. وقد ظهرت هذه الفكرة أولا لدى المجمع الذى عقد مؤخرا فى أنطاكية[١]. على اعتبار أن هذا الجدل قائم فى الولايات الشرقية. فلما أنبأ مجمع أنطاكية البابا بحقيقة النزاع، وأصبحت المسألة معلومة لدى الغرب. قرر قسطنطين أن يكون مجمعه المقبل مسكونيا يضم أساقفة الامبراطورية كلها، ليكون قرارهم عاما حازما، ورأى قسطنطين عقد المجمع فى مدينة نيقية Nicaea فى بيثينيا (مكانها الآن قرية ازنيق Isnik التركية)[٢] حتى يتمكن أساقفة أيطاليا وباقى كنائس أوربا من حضور المجمع ولملاءمة مناخها، وفوق هذا وذاك حتى يكون نفسه على مقربة من متابعتهم والاشتراك فى مناقشتهم[٣].

كان مجمع نيقية أول مجمع مسكونى Ecumenical شهدته الكنيسة، وقد عقد بناء على دعوة وجهها الامبراطور قسطنطين الى مختلف كنائس الامبراطورية ويعد يوساب ذلك العمل من جانب الامبراطور اعترافا منه بأيادى المخلص البيضاء عليه[٤]، وكان فى حد ذاته محاولة

(1) Downey, op cit. P. 351; Palanque, Bardy, Labriolle, op. cit, III, P. 80.

(2) Backbouse, op. cit. p. 399.

(3) EVSEHB. vita Const, III, 6, 7.

(4) Ibid. 8.

بدعه، لان اباك بالحقيقه كتب حرمه وقطعه بخط يده في المجمع الذى كان بنيقيه. فلما سمع الملك هذا القول خاف، من اخيه، ان يحل امر الملك ابيه فيجد اخوه بذلك الحجة للنفاق عليه، فاطلق الاب الاكسندروس واعاده الى كرسيه وبقى اريوس محروما ومربوطا بعدل [لأنه] ظن انه يبلغ بقوته من ا لملك وبذل المال لحاشيته، بغيته.

وتنيح الاب الاكسندروس مع آبايه بعد ان اوصى الكهنه والشعب عند نياحته ان يجلسوا

جديدة وجريئة لحل الخلاف الحادث في الكنيسة. حقيقة جرت عادة الكنيسة قبلا على عقد المجامع الدينية لادانة «بدعة» جديدة أو القضاء على «انشقاق» ولكنها كانت في معظمها مجامع محلية Synods يلتقى فيها الأسقف والقسوس والشمامسة فى مركز كل أبروشية، وربما اتسعت قليلا لتشمل كنائس الولاية أو الاقليم(١).

لعل قسطنطين قد أفاد من التجربة التى قاساها فى ولاية أفريقيا، خاصة وان الدوناتيين رفضوا الامتثال لقرارات مجمعى روما وآرل، وعلى الرغم من أن الأخير كان يضم معظم أساقفة الغرب عندئذ، ويمثل عالمية عالم قسطنطين انذاك. الا أن الدوناتيين لم ينصاعوا لما أسفر عنه لقاء الاساقفة، فلا يبعد اذن أن يكون الامبراطور قد أراد بمجمع نيقية المسكونى أن يكون قاضيا جملة وتفصيلا على هذا النزاع المستفحل فى الكنيسة. ولابد أن يكون قسطنطين قد وعى تماما مدى الخطورة التى تهدد وحدة الامبراطورية من جراء هذا الصراع. فاذا كانت المسألة الدوناتية اقتصرت على ولاية أفريقيا وحدها، فأخذت بذلك الطابع الملكانى، فان الاريوسية لم تكن كذلك حيث امتدت من الاسكندرية لتشمل طيبة وليبيا وفلسطين وسوريا وآسيا الصغرى، وهى مناطق طالما هفا اليها فؤاد الامبراطور وكم راودته

(1) Thompson & Johnson, op. cit. PP. 46 - 47.

اتناسيوس بعده على الكرسى ففرحوا بذلك لمحبتهم له، فلما جلس على الكرسى الرسولى اخرج شيعة اريوس من البيعه(*)، واخرج الحرم الذى فى خط قسطنطين الملك واهل المجمع المقدس وقراه فى البيعه على الجماعه، فلما سمع اريوس بذلك غضب جدا والتهب شيطانه كالنار ومضى الى الملك وقال له: ان قبلنى الاكسندروس بطرك القسطنطينيه بامرك بلغت غرضى. فدعاه الملك وقال: هو دا بطرك اسكندريه قد امتنع من قبول

(*) أى حرمهم من الكنيسة واعتبرهم من الخارجين عن الدين.

آمال هدوء وسلام آمل أن يجدها هناك، ومن ثم فقد أراد الامبراطور أن يحسم الامر دفعة واحدة بهذا المجمع الذى يضم هذا العدد من رجال الكنيسة فى الشرق والغرب، ولعل هذا بين فى خطاب قسطنطين الذى وجهه الى أعضاء المجمع، يقول:

«أحسست وخزا فى روحى، وبدا لى أن الأمر ليس بقليل فى الأهمية، ومن ثم فقد حدتنى الرغبة فى تقديم حل لهذا الشر، وعليه فقد دعوتكم للحضور، وانى أشعر بارتياح عظيمم وأنا أشهد مجمعكم، لعلى يقين بان آمالى ستغدو حقيقة اذا قدر لى أن أرى وحدة قراركم»(1).

ثم ها هو قسطنطين يبتهل الى الاساقفة آمرا أن يجدوا طريقهم على الفور الى الوحدة والوئام قائلا:

«يا رفاقى الاعزاء.. يا رجال الله، يا أتباع من هو سيدنا والمخلص.. بالله لا تتباطأوا.. لا تتوانوا، لتبدؤن على التو فى نبذ دواعى فرقه شاعت بينكم، ولتمحون ركائز جدالكم، وما ذلك الا بأن تحتضنوا أغصان السلام، فان فعلتم كنتم فى ذات الوقت تسلكون طريقا رضى عنه الرب العلى، وتقدمون لشخصى فضلا كبيرا.. أنا وليكم والصفى»(2).

(1) EVSEB. vita Const. III. 12.

(2) Id.

اريوس وخالفنا وانت تعلم اننا اقمناك واجلسناك بطركا على كرسى القسطنطينيه ويجب ان لا تخالفنا كغيرك وانت طيب وتاخد اريوس اليك وتقبله. قال له البطرك: ان البيعه لا تقبله ولا يجب ان نقبل الا من هو موافق لامانتها، وهذا [اريوس] قد جعل الثالوث مخلوقا وقد ابعد من البيعه بحق. قال له الملك: لا يفعل بل هو معترف بالثالوث قال له البطرك: فيكتب لى خطه بامانته حتى اعرفها. فاحضره الملك، وكان ذلك شيا من الله تعالى،

أراد قسطنطين بجمع هذا الحشد من الاساقفة، بناء على دعوته، أن يثبت سلطانه فوق الكنيسة وأن يظهر للرعية المسيحية مدى حرصه على العقيدة وحدبه على تخليصها من أية شائبة، وذلك شئ نلمسه فى رسالته التى دعا فيها الأساقفة لهذا المجمع حيث أبدى رغبته الأكيدة في الاشتراك فى المناقشات الجدلية العميقة وأصر على متابعة أعمال المجلس[1] رغم عدم المامه بالمسائل الكريستولوجية التى يدور الجدل حولها كما وقفنا على ذلك من رسالته الى اسكندر وآريوس.

على أية حال فقد كان مجمع نيقية فى حد ذاته مظاهرة دينية قصد بها الامبراطور اعلاء شأوه وبسط نفوذه على الكنيسة المسيحية ورجالها، فكما كان الامبراطور فى الدولة الرومانية هو الكاهن لاعظم Pontifix Maximus وهو لقب لم يتخل عنه قسطنطين، فقد أراد بالتالى هنا أن يغدو رجل المسيحية الأول الذى اختارته العناية الالهية ليقر على الأرض السلام، وليمجد الرب فى الأعالى!!

ولم يقف دور قسطنطين عند حد ارسال دعوته الى الاساقفة وحسب، بل تخطاه الى التكفل بنقل المدعوين الى نيقية، فسمح للبعض باستخدام وسائل النقل العامة، وأمد البعض

(1) EVSEB. vita Const. III, 6.7.

وكتب خطه بالامانه وهو يضمرخلافها في نفسه. ثم استحلفه البطرك، ان ما بقى في نفسه شك منها. فحلف له. فقال الملك للبطرك: اى شي تبقى لك عليه بعد هذا؟. فقال الاب الاكسندروس بطرك القسطنطينية للملك: ان الاب اتناسيوس بطرك اسكندريه قد جدد قراة [قراءة] حرم اريوس المكتوب بخط الملك قسطنطين ابيك المغبوط وخطوط جماعة نيقيه باسكندريه ونفي شيعته من بيعته، فان لم يجر على اريوس هذا شي من الافات

الآخر بالخيول اللازمة لسفرتهم حتى لا يشعر رجال الله بضائقة أو مشقة[١]. ولبى الجميع الدعوة وارتحلوا الى هناك يحدوهم جميعاً الامل فى نتائج طيبة يمكن أن يسفر عنها هذا الاجتماع[٢]. ومثل فى المجمع أساقفة من سوريا وكيليكيا وفينيقيا وبلاد العرب وفلسطين ومصر وطيبة وليبيا وميزوبوتاميا وآسيا وفريجيا وجالتيا وباميفايا وكبادوكيا ومقدونيا وأخايا وايبروس وتراقيا واسبانيا، وكما حضره مندوبون من فارس وسكيثيا وبونطس. أما سلفستر أسقف روما فلم يحضر وأرسل فيتو Vito وفيكينتيوس Vicentius مندوبين عنه [٣]، ويذكر سقراط أن قسطنطين دعا الى الاجتماع أكسيوسAcesius أسقف النوفاتيين [٤]، ويضيف أن أحدا قبله لم يذكر هذه الواقعة ولا حتى يوساب نفسه، ويقول انه تلقاها عن رجل طاعن فى السن كان على مقربة من هذه الأحداث[٥].

(1) Ibid. 6.

(2) Id.

(3) SOCRAT. hist, eccl. I, 13; SOZOM, hist. eccl. I, 17.

(٤) نسبة الى نوفاتيانوس Novatianus أحد رجال الكنيسة المتطرفين فى روما، الذى ناصب كورنيليوس Cornelius أسقف روما فى خمسينيات القرن الثالث، العداء، للخلاف حول قبول المارقين زمن الاضطهاد ثانية فى الكنيسة، ويطلقون على أنفسهم المتطهرين، شأن الدوناتيين فى أفريقيا والمليتيين فى مصر، وكان سقراط المؤرخ يميل الى هذه الطائفة.

(5) SOCRAT. hist. eccl. I, 10.

من اليـوم الى يوم الاحـد فـأنا اقـبله واسـتـدعـيـه للشـركه مع الكهنه. فـخـرج اريوس وكـان منتظرا ليـوم الاحـد. فلما كان يوم الاحد دخل الى البيـعه وقـد لبس ثيـابا فـخـره تعطر وتطيـب وجلس عند باب الاراديون في طقس الكهنه، وكـان البـطـريرك ومن معه قـد اقامو الجمعه لكها صياما قياما بين يدى السيـد المسيح يسـألونه ان لا يحسـب عليـهم خطيـه اريوس، لان الملك كـان قـد اقسم له ان لم تقـبل اريوس يوم الاحـد بعد يمينه لاخسـرن البـيـعه

ويختلف المؤرخون في عدد أساقفة المجمع، فيذكر يوساب[1] أنهم حوالى ٢٥٠ أسقفا، على حين يحددهم سقراط بـ ٣٠٠ أسقف [2]، أما سوزومين فيقول أن عددهم كان ٣٢٠[3]، ويخبر أثناسيوس أنهم كانوا ٣١٨ أسقفا [4] وان كان عددهم عند ثيودوريت يصل الى ٢٧٠[5] ربما كان هذا التفاوت راجعا الى تعمد هؤلاء، وكلهم للآريوسية عدو، اغفال ذكر أسماء الأساقفة الاريوسيين وان كان الشائع أن عددهم ٣١٨ أسقفا [6]. وكان أغلب الحضور يمثل أساقفة الكنائس الشرقية أما كنائس الغرب فلم يتجاوز عدد مندوبيها الثمانية. وقد شهد مجمع نيقية عدد من الشخصيات البارزة من رجال الدين في الشرق على غرار اسكندر أسقف الاسكندرية وشماسه أثناسيوس الذى نال شهرة فائقة نتيجة حواره مع الاريوسيين، ويوساب أسقف قيسارية، ويوساب الأسقف النيقوميدى، ويوستاتيوس أسقف أنطاكية، وماركللوس أسقف أنقرة، ومكاريوس أسقف أورشليم[7].

....

(1) EVSEB. vita Const. III, 8.

(2) SOCRAT. hist. ecct. I. 8.

(3) SOCRAT. hist. eccl. I, 17.

(4) ATHANAS. hist. Arian. 66.

(5) THEOD. hist. eccl. I, 7.

(6) Duchesne. ip. cit. II. 144.

(7) SOCRAT. hist. eccl. I. 13; SOZOM. hist. eccl. I. 17.

مالا كثيرا. فلما اجتمعو الكهنه والشعب في ذلك اليوم في البيعه واريوس حاضر اهتم الاب البطريرك بالقداس وهو حزين، فلما قرا القارى تحركت احشا اريوس عليه فمضى الى زاويه بالبعد يتغوط فنزلت جميع امعاه [أمعاءه] وكلما في جوفه بره. ولما غاب عنهم سالو عنه فلم يجدوه ففتشو عليه فاصابوه وهو قاعد جامدا فارغا خاويا يابسا وكل ما كان في بطنه قاعد قدامه، فاعلمو الاب البطريرك بذلك فتعجب منه وسكت وشكر الرب

ويرسم سوزومين صورة حية لما كانت عليه الحال في نيقية عندئذ، ويحدثنا حديثا شيقا عن أولئك الأساقفة شهود المجمع، فبعضهم تحنى له الهام تقديرا لعلمه وفصاحته ووعيه للكتاب المقدس، وبعض ثان تعرف في وجوههم مسحة الزهد وجلال الخشوع، وثالث مع هذا كله، ومن الرجال من مهر في الجدل وبرع في النقاش. ولكن هذا لم يحل دون ارتحال بعض الاساقفة الى هناك لقضاء حاجياته وشئونه الخاصة بعد أن وجدها فرصة سانحة ليتخلص من حيف نزل به أو ظلم آلمه، وغيرهم راح يتلمس أخطاء الآخرين ليقدمها في شكاية الى الامبراطور طالبا منه العدل والقصاص[1].

وفي ٢٠ مايو ٣٢٥ التأم عقد المجمع[2]، ويصور يوساب اللحظات التي سبقت دخول الامبراطور القاعة ثم تلك اللحظة الحاسمة التي «شرف فيها قسطنطين جموع الحاضرين بمقدمه بكونه رسول السماء». ويمضي المؤرخ الكنسي بعد ذلك يخلع صفات التمجيد على امبراطوره [3]. ويرسم صورة لأولئك الجلوس الذين أحاطوا به، والذى كان هو أحدهم، ثم يقول ان الاسقف الذى كان يحتل المكان الرئيسي عن يمين الامبراطور نهض وخاطبه شاكرا

(1) SOZOM. hist. eccl. I. 17.

(2) Hefele. op. Cit. I. I. PP. 416 - 419; Palanque - Bardy .

(3) Labriolle. op. Cit. III. 10.

يسوع المسيح ومجده الذى حكم على اريوس
واهلكه عاجلا لجل [لأجل] يمينه الكاذبه وامانته
الفاسده. فاظهر للملك والجمع جميع صحة ما
قاله الاب بطرس الشهيد بطريرك اسكندريه، فتمم
الاكسندروس بطريرك القسطنطينيه القداس فى
ذلك اليوم بفرح ومجد وتهليل وارسل [الاب].
اتناسيوس بطريرك الاسكندريه يقول نحن نمجد
الله ونعلمك ايها الاخ ان اريوس مات موتا عجيبا
وانقطعت مقالته وتبددت شيعته. ولم يكتف الملك

حسن صنيعه الذى اسداه للدين القويم، مثنيا على فضائله وعظيم خلاله وسجاياه [١]. وعلى الرغم من أن يوساب لم يفصح لنا عن شخص ذلك الأسقف، الا أنا نعلم من سوزومين أنه لم يكن سوى يوساب نفسه[٢].

انتهى يوساب من القاء كلمة الافتتاح والترحيب بالامبراطور، فظلت القاعة برهة من الصمت تعلقت فيها كل العيون بالامبراطور الذى ما لبث أن قطع هذا السكون وراح يردد فى نغمة هادئة:

«أعزائى.. لكم داعبنى الأمل منذ أمد أن أحظى برؤياكم والكل متحد. والان وقد تحقق الأمل، أشعر لزاما على أن اتقدم بالشكران لاله الكون، فقد أنعم على بخير جديد، ، ومنحنى من البركات ما فاق ما سبق، فها أنذا أشهدكم وقد جمعكم على الوحدة وئام عاطفة واحدة. الى الله ابتهل أن يكف أيدى السوء والفحشاء عنا وان لا يسمح لخصم أن يعكر صفو سلام بلدنا السعيد واليه أضرع بعد أن زالت بيد الرب مخلصنا، بغضاء الطواغيت الآثمين، الا تقدم نفس أمارة بالسوء تحيك المؤامرات الدنيئة من أجل تعريض شريعة الله للتجديف والزيغ. فالصراع الداخلى فى الكنيسة ـ يعد فى رأيى ـ أشد خطرا من أى حرب أو نزاع . ان

(1) Ibid. 11.

(2) SOZOM. hist. eccl. I, 19.

بذلك لاجل اصـدقـا [ء] اريوس وهم سـوريانوس وجرجيوس ومن معهما هولا الذين وثبو على بيعة اسكندرية، وذلك أن الملك دفع لجرجيوس خمس مايه فارس من جنده وانفـدهم معـه ليـصيـروه بطركـا على اسكندريه. وكـتـبـا الى كل مدينه وكرر فيها كلام اريوس ان ابن الله مخلوق، فلم يقبله احد في ارض مصر. وكانوا يتقربون من قسـوس [قساوسه] كان اتناسيوس اوسـمـهم فدخل هذا جرجيوس الى بيعه اسكندريه بحيلة

خلافاتنا هذه تبدو لي أكثر فاجعة آذا ما قورنت بأى شكل خارجي ، وعليه لما كنت بمشيئة الرب وعونه قد قهرت الاعداء، قدرت أنه لم يعد باقيا الا ان أقدم فرائض الشكر لله والثناء، وأشارك بهجة هؤلاء الذين رد اليهم الله الحرية بي»[١].

ثم راح يحدثهم بعد ذلك عن الأسباب التي حفزته الى توجيه الدعوة اليهم للاجتماع، وأمله الكبير في أن تلتقى آراؤهم على قول واضح لا خلاف عليه، حتى تتحقق الوحدة ويسود السلام. ورغم أن الحضور كان جلهم من الشرق الذى يتحدث اليونانية، الا أن الامبراطور القى كلمته باللاتينية.

ويبدو هذا أمرا طبيعيا وقلة المامه باليونانية وذلك شئ نعلمه من يوساب وسوزومين[٢]. وان كان المؤرخ جونز يعلق على ذلك بقوله ان قسطنطين فعل ذلك لا لجهله باليونانية ولكن لأنه وجدها الفرصة السانحة ليؤكد رسمية اللاتينية كلغة للامبراطورية[٣]. خاصة وأن اليونانية كانت عندئذ لغة الكنيسة[٤].

....

(1) EVSEB. vita Const. III, 12.

(2) EVSEB, vita Const. III, 13; SOZOM. hist. eccl. I. 20.

(3) Jones. Constantine. p. 156.

(4) Davis, op. Cit. p. 18.

وقتل بيد الجند الذين جاو [جاءوا] معه خلق كثير من الشعب المسيحى الذى على رأى اتناسيوس حتى انتهى الدم فى البيعه الى الركب، ونهبو انية البيعه وافسدو العدارى اللاى [اللائى] كن فيها . وكان اتناسيوس مخفيا.

واقام الناس زمانا طويلا يتقربون فى المغاير والبرارى والحقول فى جميع اعمال مصر كلها الى الصعيد. وكانو الاريوسيون اصحاب الملك قد انتشرو فى كل مكان، وكان سرابيون اسقف

أعطى قسطنطين بنهاية حديثه اشارة البدء لرجال الكنيسة فى عرض قضاياهم، ولكنهم بدلا من أن يبحثوا بداءة ما لأجله دعوا، راح بعضهم يكيل للآخر الكثير من الاتهامات. واستحالت القاعة الى ميدان يتبارى فيه المتخاصمون[1]، فوقف الامبراطور بذلك على حقيقة ما كان يتمنى رؤياها، ووضح له أن أمل وحدة الامبراطورية عقيديا ليس بالسهولة التى طواها به سياسيا وعسكريا.

ومرت الأيام والامبراطور يشهد كل يوم مزيدا من هذه الشكايات، فلما هاله ما رأى حدد يوما و أمر بالاتهامات وردودها فجئ بها، ثم راح يتفرس وجوه الحاضرين مخاطبا ضمائرهم وعقولهم قائلا:

«ترى.. ما كل هذا؟! ذاك شئ يؤتى به يوم الدينونة للعرض والحساب يفصل فيه القاضى الأعظم.. أما أنا فلست الابشرا مثلكم. وانه لشر لى أن تشملنى فى كل الأمور صلاحية، فما بالكم وكل الخصوم رجال الله !! ما كان لهم أن يقفوا واياهم طرفى نقيض، فلتقتدوا بالمحبة السماوية ورحمة الرب، وليحل بينكم الوئام، اذن.. لنطرح على التو شكاياتنا، ولنعط كل اهتمامنا لشئ من أجله جئنا. ذلكم هو الايمان»[2].

(1) SOZOM. hist. eccl. I, 17.

(2) Id.

تمى(*) يكاتب البطرك اتناسيوس وجميع الشعب ان يتحفظوا من الايروسيين.

(*) تمى: غالبا تمى الامديد مركز السنبلاوين/ دقهلية. وربما تمى المندثرة من مقاطعة الجيزية.

وبعد ست سنين ظهر اتناسيوس ومضى الى الملك ظنا منه انه يقتله فياخذ اكليل الشهاده، فامر الملك ان يحمل فى مركب صغيره ولا يعطى خبزا ولا ما ولا يكون معه ملاح ولا احد يدبرها، بل ينزل فيها وحده ويطلق فى البحر، ففعل به ذلك وسارت به الامواج والله حافظه ومدبره حتى وصل الى اسكندريه فى اليوم التالت بغته، فخرج اليه

وعليه فقد أصدر الامبراطور أمرا فجمعت حصيلة الأيام من الاتهامات وأطعمت بها النيران[1].

تفرغ المجمع بعدئذ لمناقشة موضوع العقيدة، ومحاولة التوصل الى صيغة للايمان ترضاها الكنيسة كلها، وعقدت اجتماعات جانبية عديدة دعى اليها اريوس ليوضح عقيدته، وراح كل فريق يعرض حججه وأسانيده، ولكنها لم تسفر عن شئ سوى شهرة اكتسبها بعض الشخصيات منها أثناسيوس السكندرى[2]. وعادت حمى الجدال والنقاش من جديد تسرى بين أعضاء المجمع. ويمتدح يوساب صبر الامبراطور وسعة صدره لتحمل هذا الفريق أو ذاك، مثنيا على أولئك الذى أحسنوا الحديث، مستهجنا من أبدى ميلا للعناد والمهاترة، وقد أخذ نفسه بالشفقة والرحمة على كل فرد، بل انه قاد أحيانا أشد المتخاصمين وأعتاهم الى التسامح والوئام، وتمكن ببشاشته التى كان يوجه بها حديثهن الى الجميع، أن يظهر بصورة جذبت اليه أفئدة الحضور وازداد حبهم له وتعلقهم[3].

---

(1) SOCRAT. hist. eccl. I, 8.

(2) Id.

(3) EVSEB, vita Const. III, 13.

الكهنه وتلقوه بالفرح والقراه [القراءه] الى ان دخل البيعه واخرج منها جرجيوس ومن يعتقد امانته الفاسده، وصنع اتناسيوس في ذلك اليوم عيد للرب وفرح الشعب فى أعمال مصر كلها.

ومن بعد سبع سنين وصل انسان اسمه اغريغروريوس ومعه الفا رجل من الجند ونهب البيعه واقام اربع سنين اخذ اتناسيوس وسلمه الملك لرجل اسمه فليغريوس كافر وثنى فأراد قتله وقتل ليباريوس [انباريوس] بطريرك رومية وديونوسيوس

أما ما دار فى المجمع وما تمخض عنه، فلنترك الحديث لشيخ مؤرخى الكنيسة يوساب يروى ذلك. كما رواه من قبل لأهل بيعته فى قيسارية فى رسالته التى بعث به اليهم ابان انعقاد المجمع يقول: «لعله قد نمى الى علمكم من مصادر آخرى ما تقرر بشأن ايمان الكنيسة فى مجمع الأساقفة العام فى نيقية. فصيت جليل الأعمال يسبق الرواية عنه. ولكن خشيتى من تسرب شائعات لا تتفق والصدق، قدرت لزاما على أن أوافيكم أولا بصيغة الايمان التى عرضناها، وأثنى بتلك التى نشرت مع الاضافات التى أدخلت على دستورنا، وفيما يلى سأتلو عليكم ما قرأته فى حضرة امبراطورنا الورع، والذى قيل عنه انه على الحق المبين. ذلكم قانون ايماننا.

«وفق ما تعلمنا بادئ ذى بدء، وما لقنا وقت العماد وما تلقينا عن أساقفة سبقونا، وما علمنا من الكتاب المقدس وفق ما يؤمن به القسيسون والأساقفة وبه يبشرون، نؤمن نحن، ونفصح على الأساس عن ايماننا.. نؤمن باله واحد. أب قدير. خالق كل شئ. ما يرى وما لا يرى، وبرب واحد يسوع المسيح، كلمة الله.. اله من اله. نور من نور. حياة من حياة. الابن الوحيد المولود. أول من ولد دون سائر الخلائق، مولود من الأب قبل كل الدهور. كل شئ به كان، الذى من أجل خلاصنا تجسد، وعاش بين البشر، تالم وقام فى اليوم الثالث، وصعد الى الاب وسيأتى ثانية فى مجده ليدين الأحياء والأموات، نومن بالروح القدس الواحد. نؤمن

٢٠ : اتناسيوس ٣٧٣/٣٢٦

بطريك انطاكيه هولا الذين هم ابا الامانة الارتدكسيه فانقذهم الرب من يده وخلصهم، فمضى اتناسيوس مع ليباريوس الى روميه فلم يزل عنده الى ان مات قسطنطيوس وملك ابنه قسطس بعده. وكان ارتدكسيا، فساعة جلوسه امر باعادة اثناسيوس الى كرسيه.

وكان في ذلك الزمان كيرلس بطريرك اورشليم وظهر على يده اعجوبه عظيمه، وذلك ان عمود نور ظهر على قبر السيد المسيح مخلصنا، وشاهده

بوجود ودوام كل ذلك.الآب في الحق هو الآب، والابن هو الابن، والروح القدس هو الروح القدس. كما فعل سيدنا حين بعث تلاميذه ليبشرا بالانجيل قائلا: «اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس (متى ٢٨ / ١٩).

نحن مستمسكون بالايمان هذا، وعليه نحيا ونموت، لاعنين كل هرطقة دنسة، ونشهد الله القدير وربنا يسوع المسيح، ا ننا كنا نعتقد هكذا بملء قلوبنا وبروحنا منذ وعت نفوسنا ذواتنا، ونملك من الأدلة ما يريكم بل ويقنعكم أنا بهذا أمنا وكرزنا.

«عندما أفصحنا عن هذه العقيدة، لم يكن هناك من يفندها، بل ان امبراطورنا الحبيب نفسه كان أول الشهود على صدق ايماننا، وتوافقت معها آراؤه، وراح يحث الآخرين على التوقيع عليها وقبول كل ما احتوته من عقيدة على أن تضاف اليها عبارة واحدة هي «من نفس الجوهر» «الهوموسية "Homoousius" (Consubstantial) وأوضح الامبراطور أن هذه الاضافة لاتعنى أية صفات جدية أو تحول، لأن الابن لم يشتق وجوده من الآب بانقسام أو انبثاق، ذلك أن الطبيعة اللامادية المجردة اللاجسدية لا يمكن بحال أن تخضع لصفة جسدية أو تحول، تلك أمور ينبغي ادراكها باعتبارها تعاليم علوية خفية، على هذه الشاكلة حاج امبراطورنا التقي الحكيم. وقد أسفرت اضافة عبارة «من نفس الجوهر» عن ايجاد الصيغة التالية:

جماعه من الروم وكل من في المدينه وما يجاورها حضروا وشاهدوه، ومكث من الساعه التالتة الى التاسعه والناس يسعون الى نظره من كل مكان، وكتب كيرلس الي قسطنطيوس الملك فعلمه بهذه العجوبه.

وكان الملك يحب اتناسيوس. لما عاد [اتناسيوس] الى كرسيه اقام خمسا وعشرين سنه في هدو وسلامه وكان له قبل ذلك في الكرسى اتنان وعشرون سنه في النفي والجهاد والاضطهاد.

تؤمن باله واحد. الله الاب. ضابط الكل. خالق السماء والأرض مايرى وما لا يرى، نومن برب واحد يسوع المسيح، المولود من الاب قبل كل الدهور. نور من نور. اله حق من اله حق. مولود غير مخلوق. مساو للاب في الجوهر. الذى كل شئ به كان. هذا الذى من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء، تأنس وصلب على عهد بيلاطس النبطى. تالم وقبر وقام من بين الاموات في اليوم التالت كما في الكتب. وصعد إلي السماوات وجلس عن يمين أبيه، وأيضا يأتى في مجده ليدين الأحياء والأموات، الذى ليس لملكه انقضاء».

وعندما سجلوا هذه الصيغة لم نتركها دون فحص في جزئها القائل بأن الابن من نفس جوهر الآب وبرزت مساءلات ونقاش، وبحث بدقة تامة مضمون هذا القول وعليه فقد اقتيدوا للاعتراف بأن عبارة «من نفس الجوهر» تعنى أن الابن من الاب، وليس جزءا منه، ومن ثم فقد رأينا من الصواب تقبل هذا الرأى حبا في السلام، وخشية الانحراف عن قويم الايمان. ولنفس العلة قبلنا عبارة «مولود غير مخلوق» فقد قالوا ان كلمة مخلوق تنسحب على سائر الخلائق، ولا يصح أن يكون الابن شبيها بها ، وعلى هذا فهو ليس بشئ مخلوق، ولكنه من جوهر أعلى عن كافة الخلائق. والكتاب المقدس يعلم بأنه مولود من الآب بطريقة يصعب ادراكها ولا يمكن التعبير عنها لبنى البشر. ونفس الشئ يخص عبارة «من نفس الجوهر مع الاب» وعندما

ومات قسطس وملك بعده يوليانوس [چوليان] الكافر الرومى الوثنى، وكان ابن اخت قسطنطين الملك الكبير فبدا من ساعته بفتح البرابى. وكان بانطاكيه مقيما لنه [لأنه] لم يستحق ان يكن فى مسكن العظيم قسطنطين. ومضى الى موضع الاوثان واخذ صقرا دفعه لكاهن الاوثان فقربه للشيطان واخذ هو قلبه فاكله. وكان له ابن اخت اسمه ايضا يوليانوس كافر مثل خاله فاخذ القس تاوضوريتس المومن فقتله، وجا الى خاله

يوليانوس [چوليان المرتد]

- -

فحصنا ذلك قبلناه لا على معنى اتصاله بالجسد أو مشابهته بالكائنات الفانية، وقد اتضح أيضا أن هذا لا يعنى انقساما فى الجوهر أو انبثاقا أو تحولا أو تغييرا أو تضاؤلا لقدرة الاب، فذلك كله غريب عن طبيعة الغير مولود. ولقد استقر الرأى على أن القول بعبارة «من نفس الجوهر مع الاب» تعنى أن ابن الله لايشبه، بأى حال من الأحوال المخلوقات التى جبلها، ولكنه بالنسبة للآب، الذى ولده، مثيل له تماما فى كل شئ لأنه من جوهر وفحوى الاب. وبعد أن أعطى هذا التفسير للعقيدة، بدا لنا صواب موافقتنا عليه، خاصة وأننا ندرك أن القدامى من مشاهير الأساقفة والكتبة، قد استعملوا عبارة «من نفس الجوهر» للتدليل على الوهية الاب والابن.

«وتلكم هى الظروف التى رأيت لزاما على ابلاغكم اياها حول الصيغة التى نشرت عن الايمان، ولقد وافق عليها جمعنا بعد تمحيص وفحص للآراء دقيق فى حضرة امبراطورنا الحبيب. ومن أجل الدواعى التى سبق لنا ذكرها قبلنا جميعا هذه الصيغة، لانها تحرم استخدام الالفاظ التى لم ترد فى ا لكتاب المقدس، والتى بسببها قام النزاع والشقاق داخل الكنيسة، وحيث أن الكتاب المقدس أو ماهو من شكلها، بدا لنا عدم معقولية تداول هذه العبارات، واقتناعا بهذا الرأى، رأينا صواب الموافقة لاننا لم نسمع من قبل ولا اعتدنا مثل هذه التعبيرات.

---

٢٠ : اتناسيوس ٣٢٦/٣٧٣

واعلمه بقتله فغضب عليه وقال له: ما كنت اريد ان تقتله لان النصارى يفتخرون اذا قتلو ويقولون انهم قد صارو شهدا، لكن انا اقرر ان عدت من قتال الفرس ان يوخد من كل واحد من النصارى تلت اواق بقطا(*). يريد بهذا ان يضيق على النصارى حتى يعبدو اوثانه لانهم لا يقدرون على البقط.

(*) البقط: هو الغرامة والضريبة.

وكانت البيعه يوم اذ [يومئذ] غنيه ولها اربعة اعمده يحملونها وهم اتناسيوس البطرك

وزيادة على ذلك فان ادانة القول بأن «الابن لم يكن قبل أن يولد» لم يرد عبارات من قبيل «من العدم» و«وكان هناك وقت الابن فيه لم يكن» لاتبدو متضمنة عدم تناسب أو ملاءمة، فالجمع متفق على حقيقة أنه ابن الله قبل ولادته بالجسد. ولقد راح امبراطورنا محبوب الرب يفسر أصل الابن الألهى ووجوده قبل كل الدهور، لأنه بحق كان فى الآب دون توالد حتى قبل ولادته، فالآب دوما هو الآب. تماما كما أنه على الدوام الملك المخلص، وبحق هو كل شئ لم يعتوره تغير أو تبديل»[١].

هذه صورة لما دار فى المجمع النيقى المنعقد فى مطلع القرن الرابع للبحث عن قانون للايمان القويم ترتضيه الكنيسة الجامعة، ونعلم من أثناسيوس [٢] أيضا أن مسألة الاتفاق على صيغة لهذا القانون لم تكن سهلة ميسرة. فقد طلب بداءة الى الفريق الاريوسى أن يعرض آراءه، ولما تم ذلك تولى الأساقفة المعارضون الرد عليها وشجبها، واستغرق ذلك فترة من وقت المجمع ليست بالوجيزة، وبعدها راح المؤتمرون يناقشون حول الصيغة التى يبتغونها حتى توصلوا اليها على النحو الذى اعلمنا اياه يوساب.

(1) SOCRAT. hist. eccl. I, 8; THEOD. hist, eccl. I, 11.

(2) ATHANAS. de decr. II, 3.

وانطونيوس وبخوم الراهبان بمصر، وباسيليوس اسقف قيساريه كبادوكيه. وكان ليواريوس بطرك روميه، وباسيليوس المذكور كان صديقا ليوليانوس الملك وتربى معه فى المكتب [المدرسة]، فلما سمع مقالته الرديه اخذ اسقفين معه ومضوا اليه فتامل لباسهم ولحاهم ثم قال لهم: ماذا تطلبون؟ قالوا: نطلب راعيا جيدا يرعانا. فقال لباسيليوس: اين خليت ابن النجار وجيت [جئت] الى هاهنا؟. قال له باسيليوس: تركته يعمل تابوتك ليجعلك

يتضح من رسالة يوساب أن أهم نقطتين للخلاف بين الفريقين انحصرت فى مساواة الابن بالآب فى الجوهر والأزلية، فهذه تمسك بها مناهضو الاريوسية التى أصر أتباعها على القول بأن الابن مشابه للأب فى الجوهر «الهومويوسية» Homoiousius وليس مساويا له فى الأزلية لأن الرب سابق عليه فى الوجود وهناك فترة لم يكن فيها الابن[١]. والثانية القول بالخلق أو الولادة. فالآريوسيون لم يفرقوا بين كلمتى مولود ومخلوق، فهم يستخدمون اللفظتين للتعبير عن نفس المعنى، وتلك حقيقة تلمسها من رسالة يوساب القيسارى الى أهل بيعته، ففى قانون ايمانه الذى قدمه الى المجمع النيقى لم يذكر شيئا من هذا القبيل، ولكنا وجدنا عبارة «مولود غير مخلوق» قد احتواها قانون الايمان النيقى، ويذكر يوساب بعد ذلك أن المجمع ارتأى وضع هذه العبارة معللا بأن كلمة مخلوق تنسحب على سائر الأشياء التى خلقت بالابن، ولا يصح أن يكون الابن شبيها بها، وعلى هذا فهو ليس شئ مخلوق شأن ما خلقه بيده، ولكنه من

(١) من الطريف أن هذا الخلاف العقيدى بين الفريقين، ينحصر لغويا فى حرف اليوتا "i" اليونانى فالمساواة فى الجوهر «الهوموسية Homoousius» التى أقرها مجمع نيقيةن، اذا ما ادخلنا عليها حرف "i" تحولت الكملة الى ا لفريق المضاد لتعنى «لتشابه فى الجوهر» الهومويوسية Homoiousius». وان كانت هذه الأخيرة لم تأخذ حظها من الذيوع والانتشار الا فى عهد الامبراطور قسطنطيوسConstantius (٣٣٧ - ٣٦١) ابن قسطنطين، عندما أصبحت العقيدة الرسمية لاحدى الفرق التى تشعبت اليها الآريوسية فيما بعد، والتى أصبحت تعرف باسم أنصاف الآريوسين Semi - Arians.

فيه. قال له الملك: لو لا انك صديقي ولك عندى محبة لضربت الساعه رقبت. قال له باسيليوس: اليس قد كنت محبا للعلم مشتهيا له فكيف تركت الحكمه. قال له الملك: قرائتها وحفظتها ورذلتها. قال له باسيليوس: ما قرائتها جيدا ولا حفظته ولو عرفتها وحفظتها ما رذلتها. قال له الملك: الواجب ان اعتقلكم الى ان اعود من قتال الفرس فتنظرو ما يكون . قال له باسيليوس. ان مضيت وعدت ما تكلم الله في. قال يوليانوس

جوهر أعلى عن كافة الخلائق[1]. أما الفريق الآريوسى فلا يفرق فى المعنى بين هذه وتلك، وذلك واضح من قول آريوس حيث يذكر «انه قبل أن ولد أو خلق.. لم يكن»[2].

على أن الذى يعنينا من رسالة يوساب وكتابات المعاصرين ذلك الدور الذى لعبه الامبراطور فى المجمع، فقد أسلفنا أنه أمسك بدفة المناقشة يديرها يستحسن ويستهجن ، ويؤيد هذا ويعارض ذاك ، وكان من قبل قد دعا الحضور الى سحب شكاياتهم ثم أمر بحرقها جميعها، الى هذا الحد يمكن مجاراة قسطنطين فيما قام به، أما أن يتدخل الامبراطور فى شأن العقيدة ذاتها بالاضافة أو الحذف، فذلك شئ يدعو للتساؤل حقا، اذا كان الامبراطور قد سمح لفسه أن يفعل هذا، فكيف تسمح له الكنيسة اذن أن يقدم على ذلك؟!

لقد وقفنا على عدم المام الامبراطور بأمور العقيدة من رسالته التى بعثها الى اسكندر وآريوس منذ عدة أشهر، وبينما هو ينعت نقاط الجدال بالتفاهة، اذا به يترأس مجمع الأساقفة ويوجه المناقشة، ثم يقترح أيضا نصا فى جوهر العقيدة، يصبح أحد عمد قانون الايمان القويم بعد ذلك، والكنيسة به معتزة له حافظة ! لقد علمنا أن حقيقة الخلاف بين الآريوسيين وخصومهم كامنة فى مساواة الابن بالآب فى الجوهر أو عدمه، ولما عرض يوساب قانون ايمان بيعته، جاء

(1) SOCRAT. hist. eccl. I, 8.

(2) THEOD. hist. eccl. I, 4: Lietzmenn, op. cit. p. 109.

الملك: ماذا اصنع بهذا الجليلى الكذاب القايل ساهدم الهيكل الذى هو بنا [بناء] اليهود، وابنيه بنا الملك ويظهر لكل احد ان قوله لا ينى كذب.

ثم انه طرح باسيليوس والاثنين اللذين معه فى الاعتقال، وسار الى بلاد الفرس وعبر على يروشليم وراى الهيكل قد خرب ولم يبق فيه حايط قايم، لانه كان اسباسيانوس الملك قد اخربه لما اهلك اليهود وسباهم وامر [يوليانوس] ان يكنس ويبنى جديدا. وسار يوليانوس المذكور بعد

خلوا من هذه العبارة، ورغم لك فقد ارتضاها الجمع وشهدوا بأرثوذكسيتها، وراح الامبراطور يحثهم على تعضيدها مقترحا فى نفس الوقت اضافة عبارة «من نفس الجوهر» وتلك نقطة على جانب من الأهمية كبير، ذلك أن وثيقة هامة يرتكن اليها أعداء الآريوسية أعنى رسالة اسكندر السكندرى الى زملائه الأساقفة، لم تتضمن شيئا من هذا القبيل، كما أن رسالته الى سميه البيزنطى لم تحوها. يضاف الى هذا أيضا أن مجمع أنطاكية المنعقد سنة ٣٢٤ تحت رئاسة هوسيوس الأسقف الأسبانى، ولم يشر الى هذا النص فى قليل أو كثير. وان كان الحزب المعادى للآريوسية يمتلك سببا وجيها لتجنب مثل هذا القول، فديونيسيوس Dionysius الكبير أسقف الاسكندرية خلال اضطهاد دكيوس Decius وفاليريان Valerianus كان قد رفضها صراحة أثناء محاوراته مع بعض أساقفة ليبيا، ولو أنه احتراما لسميه أسقف روما اضطر أخيرا لقبولها، وان كان قد فعل ذلك على كره منه وبتحفظ شديد[1]. ويقول جونز انه اذا كانت الهوموسية مكروهة تماما فى الشرق لدى عدد كبير من المثقفين، فأنها كانت مقبولة فى الغرب الغير فلسفى لمدة تزيد على قرن. وقد رأينا البابا ديونيسيوس يضطر الأسقف السكندرى للموافقة، ولو مع التحفظ، على هذا المصطلح[2].

---

(1) Hefele, op. cit. I. 1. 342 - 346. Jones, Constantine, p. 161; Lietzmenn, op. cit. PP. 95 - 99; Duchesne, op. cit. II, p. 154.

(2) Jones, Constantine, p. 162.

ان استخلف من يتولى العماره، فبدا متولى عمارة الموضع بان هدم بقية الهيكل حتى لم يبق فيه حجر على حجر كما قال الانجيل المقدس، وشرع في البنا الجديد ليبنيه بربا، فكانو الفعله يبنون النهار كله الى الليل وينصرفون فاذا جا[ء]و بالغداه يجدون كلما بنوه مهدوما بغير يد إنسان، بل يجدون الحيطان مقلوعه من اصولها مطروحه على الارض. فمكثو هكذا شهرين لم يقدرو على عمارة شى، فقالو لهم اليهود احرقو هذه القبور

ولكن الذى يدعو للتساؤل حقا، هو انه اذا كان الأساقفة قد أجازوا ايمان كنيسة قيسارية الذى قدمه أسقفها. فما الذى حدا بالامبراطور اذن الى اقتراح مثل هذه الاضافة؟ ولم يكن اقتراح الأمبراطور الا أمرا واجب التنفيذ.

لعله من معقول القول أن نذكر أن الامبراطور كان واثقا تمام الثقة أن أساقفة الشرق وعلى رأسهم اسكندر لن يعارضوا هذه الارادة التى فرضت قولا ما كانوا يقبلونه قبلا، ولما كان الامبراطور غير عالم بمسائل العقيدة الغامضة، وكان هذا المصطلح سائدا فى الغرب، فلا يبعد أن يكون مستشاره لشئون العقيدة هوسيوس الأسقف الغربى هو الذى أوحى اليه بهذا المصطلح [1]، وربما يكون هويسوس قد ضمن سكوت الأسقف السكندرى وعدم احتجاجه على هذا الاقتراح باتفاق أجراه معه خاصة وأن أسكندر كانت أمامه سابقة فى تجاوز سلفه ديونيسيوس الكبير عنها وان كان مرغما[2].

وكان نفور قسطنطين من غموض المسائل العقيدية دافعا له على تقبل أى اقتراح يوحى به اليه ذلك الأسقف الأسبانى، فقد كان هوسيوس يمثل على الاقل فى هذه الآونة وجهة نظر الغرب. وقد رأى الأمبراطور أن اجابة هوسيوس الى مطلبه كفيلة بأن تجعل كنائس غرب

(1) Hefele, op. Cit. I, 1. pp. 342 - 346; Duchesne, op. cit. p. 155.

(2) Jones, Constantine, p. 162.

التى فيها النصارى وحينذ يثبت لكم البنا الذى تبنونه ففعلو ذلك وطرحو النار فى القبور، وبدو بقبرين فيهما جسد اليشع النبى وجسد يوحنا المعمدانى فلم تتسلط عليهما النار بالجمله، فكثر تعجبهم، واقامت النار عدة ايام تشعل ولم تدن منهما، فمضى بعض المومنين الى الوالى وبذلو له مالا على ان يمكنهم من اخد الجسدين اللذين فى القبرين فاخد المال وفسح [سمح] لهم فى ذلك، فاخدو الجسدين القدسين وانفدوهما الى الاب

الامبراطورية تقف مؤيدة لأى قانون يصدره المجمع بخصوص العقيدة، ومن نفس الزاوية ننظر أيضا الى موافقة الامبراطور والأساقفة على قانون الايمان اليوسابى القيسارى. فقد كان يوساب بعقيدته يمثل الفريق المعتدل بين الأحزاب المتصارعة [١]، وقد اتضح هذا فى موقفه وزملائه أساقفة فلسطين تجاه آريوس واسكندر سنة ٣٢٤.

وهكذا أيقن الامبراطور أن الموافقة على قانون للايمان تقبله كنائس الغرب، ولا ترفضه كنائس الشرق، واضافة نص ترتضيه هذه ولا سبيل لتلك للاعتراض عليه، طريق الى توحيد صفوف الكنيسة فى الشرق والغرب وجمعها على كلمة سواء. وذلك واضح من قول يوساب فى رسالته أن الامبراطور كد لشرح معنى هذه الاضافة وراح يحث جموع الأساقفة على الايمان بها، ولم يجد الامبراطور عناء فى حمل هؤلاء على التصديق على ما يريد خاصة وأن معظم المعادين للآريوسية حاضرى المجمع كانوا على درجة من السذاجة تؤهلهم لعدم معرفة هذه الأمور اللاهوتية العميقة، وذلك شئ نقف عليه من سوزومين نفسه عند حديثه عن صفوف الوافدين [٢]. وان كان هذا لا ينفى وجود بعض المتضلعين من المسائل اللاهوتية. وتفصح رسالة يوساب أن الأساقفة أجبروا على الموافقة، ونلمح فى قوله طوال رسالته نبرة

(1) Latourette, Christianity, 154 - 155.

(2) SOZOM. hist. eccl. I, 17.

اتناسيوس بطرك اسكندريه، فلما وصلا اليه فرح بهما كانه قد شاهدهما حين واخدهما واخفاهما في موضع الى ان يجد السبيل فيبنى عليهما بيعه.

وبينما اتناسيوس جالس ذات يوم وعنده جماعه من المومنين ليسمعوا كلامه الذى به حياة نفوسهم اذا رفع عينيه فنظر اكواما اطلالا مقابل المكان الذى كان فيه فقال: أن وجدت زمانا بنيت هذه الاكوام بيعه ليوحنا المعمدان واليشع النبي. وكان تاوفيلس كاتبه جالسا معه على المايده [المائدة]

امتعاض لما أدخل على عقيدته من أضافات لم تعرفها قبلا. وذلك شئ واضح فى مقدمة رسالته ونهايتها. وكأنه يعتذر لرعيته عن الاسباب الى دفعته الى قبول ذلك «ايثارا للسلام وخشية الانحراف عن قويم الايمان»، ويؤكد هذا القول ما يذكره سوزومين[1] من أن يوساب قد تباطأ قليلاً فى التوقيع على قانون الايمان النيقى.

ولقد كان طبيعيا أن يعترض الفريق الاريوسى على قانون الايمان هذا، ويخبرنا سوزومين أن عدد من وقفوا الى جوار آريوس فى أول الأمر قد بلغ سبعة عشر أسقفا [2]، استسلمت غالبيتهم حتى وصلوا بعد ذلك الى خمسة أساقفة هم يوساب أسقف نيقوميديا وثيوجنيس Theignis أسقف نيقيه، وماريس Maris أسقف خلقيدونية، وثيوناس Theonas أسقف مارماريكا Marmarica وسكوندوس Secundus أسقف بطوليمايا Ptolemais[3] وان كان مجمع نيقية فى رسالته الى الاسكندرية بخصوص هذا الأمر قد ذكر أسماء الأساقفة الثلاثة الاخيرين فقط [4]. إلا أن هؤلاء الاساقفة قد وافقوا فيما بعد على قانون الايمان النيقى وان لم

(1) SOZOM. hist. eccl. I, 24.
(2) Ibid. 20.
(3) SOCRAT. hist. eccl. I, 8.
(4) THEOD. hist. eccl. I, 8.

وجماعة من المومنين، فسمعه اذا قال هذا القول وبقى فى نفسه.

فأما يوليانوس الملك الكافر فمضى الى الفرس فاسلمه الله فى يد اعداه لاجل القديسين الذين اعتقلهم قبل مسيره وتواعدهم وكان موته انه نظر فى الليل جندا وقد نزلو عليه من الجو وضربه احدهم برمح فى راسه حتى انتهى إلى بطنه، فعلم انه احد الشهدا فملا يده من الدم ورمى به الى فوق وقال. خد هذا يسوع فقد اخدت المكان

يوافقوا على قرار حرمان آريوس [١]. ولم يعترض على قانون الايمان جملة وتفصيلا سوى آريوس وزميل آخر له يدعى يوزيوس Euzious[٢]. ويخبرنا سوزومين أن الامبراطور قد تهدد بالعقاب والنفى كل من يخالف رأى المجمع [٣]. على هذا النحو ندرك أن مجمع نيقية كانت تمثل فيه اتجاهات ثلاث، حزبان متطرفان يقف كل منهما ضد الآخر، الأول يتزعمه اريوس وثيوناس وسكوندوس ويوساب النيقوميدى، والآخر على رأسه ما ركللوس أسقف أنقره وأثناسيوس الشماس المصرى، وبين هذين الحزبين ثالث معتدل يكره الابتداع[٤].

هكذا أقر المجمع أن الابن مساو للاب فى الجوهر والأزلية، وحرم كل من يقول بغير هذا، أو أنه قبل ولادته لم يكن، أو أنه من العدم وجد[٥] وكذلك تقرر حرمان آريوس ومريديه ومنعه واياهم من دخول الاسكندرية[٦]، كما قرر المجمع اعدام عمله الذى وضعه فى هذا المعنى والمسمى ثاليا Thalia[٧].

(1) SOCRAT. hist. eccl. I. 8.
(2) SOZOM. hist. eccl. I. 20.
(3) Ibid. 25.
(4) F. Jaclson op. cit. pp. 306 - 3/7.
(5) SOZOM. hist. eccl. I. 21.
(6) Id.
(7) ATHANAS. orat. C. Arian. I. 4.

كامل. فلما جدف وقع ميتا ونجى الله شعبه وعاد الروم الى مساكنهم.

وكان ياسيليوس القديس قبل موت يوليانوس بتلته ايام وهو في السجن قد استيقظ من النوم فقال للاتنين اللذين معه: رايت الليله الشهيد ابا مرقوره وقد دخل الى بيعته واخذ رمحه وقال حقا ما اترك هذا الكافر يجدف على الهي ولما قال هذا غاب عني ولم ارجع ابصره. فقال له كل

وحملت الأنباء هذه الى كنيسة الاسكندرية رسالة بعث بها أساقفة المجمع جاء فيها:

«الى كنيسة الاسكندرية، التى حازت بفضل من الله ونعمة كل عظمة وقداسة، الى الاخوة الأحباء في مصر وليبيا والمدائن الخمس.. ترسل نحن أساقفه المجمع العظيم المنعقد فى نيقية تحية من عند الرب.

أما وقد انعقد مجمع نيقية بنعمة من الله، ورشد امبراطورنا التقى، الذى دعانا من مختلف الولايات والمدن، وجدناه حريا بنا أن نوافيكم برسالة المجمع المقدس، نعلمكم أى الأمور أثيرت ونوقشت وما تم عليه الاتفاق وتقرر:

بداءة، وفى حضر ة امبراطورنا الدين قسطنطين فحصت عقيدة اريوس الدنسة، وأجمع المجمع على ادانتها ولعنها، سواء مع لغة التجديف التى روج لها زاعما أن ابن الله جاء من عدم، وأنه ما كان قبل أن ولد. وأن هناك وقت لم يكن. وأن بمقدوره، وفق ارادته الحرة أن يتحكم فى الفضيلة والرذيلة.

لقد لعن المجمع المقدس كل هذه المهاترات ورفض السماع لهذه الآراء الدنسة الحمقى التى تفيض تجديفا. ولعلكم تعلمون القرار النهائى المتعلق به، أولعلكم ستسمعونه قريبا، ولكنا

٢٠: اتناسيوس ٣٢٦/ ٣٧٣

واحد منهما: حقا لقد رأيت انا ايضا هكذا سوا. فقال بعضهم لبعض : نحن نومن بذلك بالحقيقه انه يكون ، وانفدو الى بيعة الشهيد ابى مرقوره لينظرو رمحه الذى كان فيها هل هو باق ام لا، فلم يجدو الرمح فتحققو المنام. ومن بعد تلته ايام وصلت الكتب والاخبار الى انطاكيه بموته، فاجتمع وجوه المملكه واجلسو رجلا اسمه يوبيانوس على المملكه، وكان مومنا قديسا خايفا من الله منذ صباه. فساعة جلوسه اطلق الابا [ء]

نمسك الآن عن اذاعته حتى لا نبدو فى أعين الناس وكأنا نطأ رجلا نال لأجل خطاياه عادل القصاص»[1].

وقد بدأ الامبراطور فعلا ينفذ تهديداته التى قصد بها الأساقفة المخالفين لعقيدة المجمع الخارجين عن قانون ايمانه. فأمر بنفى آريوس خارج الاسكندرية هو وزميله يوزيوس[2] والحق بهما سكوندوس وثيوناس الى الليريا [3] وامتد قراره ليشمل أيضا يوساب النيقوميدى وثيوجنيس النيقى الى غالة [4] وخلفهما على كرسيى الأسقفيتين أمفيون Amphion وكرستوس Chrestus على التوالى [5]، وذلك راجع لما يذكره سوزومين من أنه بعد مجمع نيقية مباشرة، اشتعلت مرة أخرى المناقشات الجدلية بين الفريقين فى كثير من المناطق وخاصة فى بيثينيا وهلسبونت والقسطنطينية، وراح يوساب وثيوجنس يعلمان، خلافا لما وقعا عليه فى نيقية، بأن الابن ليس من جوهر من الأب واحد، لما اتهم يوساب بذلك صراحة أمام الامبراطور، أصر فى جرأة على رأيه وقال موجها حديثه لقسطنطين «هب أن هذا الرداء قد

(1) THEOD, hist. eccl. I, 8.

(2) SOCRAT. hist. eccl. I, 25.

(3) Hefele, op. cit. I, 1, p. 450; Duchesne, op. cit II, p. 156.

(4) SOCRAT. hist, eccl. I, 8; Duchesne, op, cit, II, p. 156.

(5) SOZOM. hist, eccl, I, 21.

من السجن. وصح قول عمود الحق باسيليوس ليوليانوس الكافر انه لا يعود، كما كان ميخا النبي. قال لا خاب الملك الكافر ملك بنى إسرائيل لان الله صانع العجايب [العجائب] هو اله الاثنين، اعني ذلك النبي وهذا الاب القديس الذى قبل قولهما. وقدم يوبيانوس الملك التلته الايا واكرمهم ودفع لهم كرامات كتيره وسيرهم الى كراسيهم. وكان يواصل الصلاه في البيع فكتب الى اتناسيوس بطريرك اسكندريه كتابا يقول فيه: ايها

انفصم أمام ناظرى شطرين، لعجزت أن أحاج بأن أيا منهما ينتهى الى نفس المادة». فازداد الامبراطور حنقا وتولى حزنا ألا يجد أن المسألة العقاندية الشائكة لم تنته كلية بقرار مجمع نيقية، وهاهو يراهم ثانية ينشقون على أنفسهم [1]. ويضيف أن الامبراطور أسف أشد الأسف لما أقدم عليه كل من يوساب وثيوجنس من قبول بعض السكندريين المعاقبين في الكنيسة على الرغم من أن المجمع نصحهم بالتوبة على ما ورطوا فيه أنفسهم من «هرطقة»، وعلى الرغم من أن الامبراطور نفسه قد أوصى بنفيهم خارج اراضيهم باعتبارهم داعية الانقسام[2]. ولقد ضمن قسطنطين ذلك كله في رسالة بعث بها الى أهالى نيقوميديا تقول:

«من تراه لقن الرعية البريئة هذه العقائد؟! من الواضح أنه يوساب شريك الطغاة جبروتهم سبب كل ما أقدم عليه ذلك الطاغوت[3]، ولقد انجلت الحقيقة فأثبتت أن من ذبح من الأساقفة كانوا آخيارا».

ولست هنا بصدد سرد ما لحقنى من اهانات أتاها متأمر الفريق المضاد، بل لقد جاء امر ادا،

---

(1) Id.

(2) Ibid. II. 22.

(٣) يشير قسطنطين هنا الى ليكين وما كان من أواصر الصداقة التى تربط بين الأسقف وامبراطور النصف الشرقى من الامبراطورية قبل ذلك.

الاب الحقيقى الراعى المامون شهيد المسيح الاله، مملكتى ترتجيك جسدا فوق قلبك، وامسك قضيب الكهنوت واطرد به الدياب [الذئاب] الخاطفه عن الرعية الناطقه، اوليك الذين افواههم مملوه لعنه ومراره سم الأفاعى، وهم قتلة الانفس.

وقرى هذا الكتاب فى بيعه اسكندريه وانفده اتناسيوس البطرك الى اعمال مصر وقرى فى كنايسها تثبيتا للمومنين وتقوية لهم. فانطرد اصحاب اريوس وشتتو وحزنو، ثم مضى بعد هذا

اذا بعث بالعيون ترقبنى، ولم يأل جهدا فى جمع كتائب للجبابرة معضد، ولا يعتقدن أحد انى مدع شيئا أنا على اثباته قادر، عندى الدليل، فقد جئ بالأساقفة والقسيسين من أتباعه وقد قبض عليهم. ولكن لنتخط هذه الحقائق كلها، وماذكرتها الا لأجعل القوم من سلوكهم فى خجل، لا من أجل آثارة شعور بالندم.

غير أن هناك أمرا أخشاه، بات يقض مضجعى، رأيتكم قد جمعكم الاتهام واياه. لقد تأثرتم بعقيدة يوساب فضللتم بذلك طريق الصواب. ولكن ابلالكم يرجى اذا ما غنمتم أسقفا قلبه بقويم الايمان معلق، واذا ما جعلتم على الاله اتكالكم، ذلك شئ أنتم عليه قادرون، وقد كنتم ولا ريب تمنون انتهاجه لولا أن صرفكم عنه ذلك اليوساب، وطغمة تؤيده عاتية، استغلت السلطان فضاع النظام.

وانى لأرى لزاما على أن أحدثكم شيئا ماعن يوساب؛ فلعلكم تذكرون أن مجمعا عقد فى نيقية حضرته استجابة لنداء ضميرى، يدفعنى الرجاء فى الوحدة، وتسوقنى الحمية لاستئصال أذى أوقعته فتنة آريوس السكندرى، التى تأجج لهيبها بفعال يوساب الحمقى، ولكن، اخوتى وأحبابى، لا تدرون كيف أن يوساب ظل سادرا فى غيه الذى من الجمع أدين. ولقد راح يبعث لى خفية أناسا يرجوننى لأجله، وبذاته توسل الى يطلب عونى لوقف قرار عزله من أسقفيته، رغم أن جرائمة للعيان بادية. انى لعلى يقين بأن الله الذى يشملكم واياى بوافر أنعمه شاهد

٢٠: اتناسيوس ٣٢٦/٣٧٣

(*) دفعوا هنا بمعنى دسوا له أكاذيب عند يوبيانوس.

بعضهم الى يوبيانوس الملك ودفعو(*) على الاب اتناسيوس فلم يلتفت اليهم لمعرفته بشرهم.

ثم ان اتناسيوس شاخ وكبر بعد انت كتب عده ميامر ومقالات وكتب لجل [لأجل] ملكيسداق ولاجل الاب انطونيس وذكر سيرته. وكتب سبعه واربعين ارتستكا. وكتب لاجل الصليب المقدس، وان السيد المسيح عمى به على ابليس حتى ظن انه انسان ساذج فلما تقدم اليه خرمه السيد فى انفه باصبعه التى تلى الخنصر وابهامه لما صيرها

على صدق قولي، ولقد غرر بى يوساب وخدعنى بعدئذ كما ستعلمون جليا، لقد كان يعمل وفق رغائبه، لقد امتلأ عقله بخفى الشرور. وانى وان كنت أحجم عن ذكر بقية أثامه. آراه حسنا انباءكم بخطية مؤخرا جناها، ومتواطئا مع ثيوجنس شريك تآمره، ولقد بعثت الى الاسكندرية بأوامرى فيما يخص أولئك الذين هجروا الايمان القويم وزادوا بوسائلهم نار الفرقة اشتعالا، ولكن هذا النفر من الاساقفة الذين شملتهم رحمة المجمع وعطفى أووا اليهم أولئك، وشاركوهم دنس أعمالهم. ومن ثم فقد قررت عقاب هؤلاء الجاحدين بالقبض عليهم ونفيهم الى مكان قصى[(1)].

أنه الآن واجبكم أن تتجهوا الى الله بنفس الايمان الذى تمسكتم به دوما. دعونا نسعد بتعيين أساقفه قويمين للخير محبين، واذا ما جرؤ أحد على أن يؤتى من لدنه ذكرا لهؤلاء المخربين فليعلم تماما أن قحته ستقمع بيد سلطة منحت لى لكونى للرب خادم. ليحفظكم الرب اخوتى الأحبة»[(2)].

وأرسل الامبراطور الى الأساقفة والأهلين فى كل مكان من الامبراطورية يخبرهم أن آريوس

---

(1) تم هذا الاجراء بعد ثلاثة أشهر من انتهاء مجمع نيقية حيث نفيا الى غالة. راجع:
Lietzmann. op. cit. p. 121; Jones. Constantine. p. 174.

(2) THEOD. hist. eccl. I, 19.

خلفه، أى انه اخرق قوته وشقها واضعفها، وارانا انه قد غلب قوة ابليس بالضعف، لان الاصبع الثانية للخنصر لا يعمل الانسان بها شيا وهى اضعف الاصابع ولم يقتله سريعا بل اضعف قوته كما قال الكتاب مزمور ٦٧ : يقوم الله ويهلك اعداه. وكتب تعاليم كثيره واشيا لا تحصى. وكان يكتب الى باسيليوس ويجاوبه باسيليوس عليها، وكان يخاطبه بابى. وكتب ايضا رساله الى ارسانيوس يعزيه بتاودورس اخيه لما تنيح، وقال فيه:

ورفاقه مبتدعون مضللون، وأن عليهم لعنة الله والامبراطور والأساقفة أجمعين[(١)]. أما كتاباتهم «فاذا عثر على أية مقالة لأريوس، فلتقدم طعما للنار، وذلك بغية سحق مبادئه الدنيئة ومحو ذكراه الى الأبد، ومن ثم فانى قد قررت لئن ضبط أحد يخفى كتابا من وضع آريوس، ولم يتقدم به على التو ملقيا آياه فى النار، موتا يموت جزاء هذه الخطيئة، وفور انتهاء المحاكم سوف يلقى المذنب رادع الجزاء»[(٢)].

هكذا قرت عين الامبراطور بهذا الذى وصل اليه المجمع المسكونى الأول، وخيل اليه أنه بذلك قد كسب الجولة الثانية على أعداء الكنيسة حسب دعايته، فاذا كانت الأولى قد اقتنصها فى ميدان القتال، وضمن بلا ريب سياده منفردة فى طول الامبراطورية وعرضها، فقد نال الثانية لبعض حين وسط صراع جدلى عنيف، وعد الامبراطور هذا الأخير نصره الثانى على أعداء الله [(٣)]. ويقول نورمان بينز تعليقا على ذلك «لقد كان مجمع نيقية فى حد ذاته تتمة ضرورية لنصر خريستوبوليس»[(٤)]. وتدشينا لهذا النصر دعا قسطنطين جموع الأساقفة

(1) SOZOM. hist, eccl. I, 21.

(2) SOCRAT. hist. eccl. I, 9.

(3) EVSEB. vita Const; III, 14.

(4) C. A. H. XII, p. 697.

ليت كلا منا ينال موضع تاودورس اخيك، وليت مركبنا ترسي في مرساه. وكتب مقاله بين فيها ان الشر من ابليس خزاه الله وان ليس عند الله شر بالجمله.

ويقال ان هذا الاب اتناسيوس البطرك حمله ملاك الرب في بعض اسفاره عندما كان هاربا من الملوك الكفره حتى اوصله إلى حيث اراد ، كما حمل الملاك حبقوق النبى من اورشليم الى بابل، وكما حمل حزقيال النبى من بابل الى يروشليم. وليس ذلك مستصعبا من فعل الله تعالى.

الحضور لحضور احتفاله بالعيد العشرينى Vicennalia لجلوسه على العرش [1]. ويعطينا يوساب صورة رائعة لهذا الاحتفال الذى شارك فيه الأساقفة الامبراطور طعامه وشرابه[2]، ولما أذن مؤذن الرحيل دعا الامبراطور اليه جموع الأساقفة وطلب اليهم المثابرة للحفاظ على السلام وتجنب المناقشات والجدال الذى يقود الى النزاع والتخاصم، وأوصاهم بالتسامح مع بعضهم البعض، والتغاضى عن أخطائهم والتمسك بالمحبة والوئام[3]، ثم تفضل الامبراطور فزود كلا منهم بهدية تتفق ومرتبته الكهنوتية، وامتدت نعماؤه لتشمل أيضا أولئك الذين لم يسعدهم قدرهم بحضور المجمع[4] واتسعت دائرة عطاياه لتشمل كافة الناس فى المدن والقرى ابتهاجا بهذه المناسبة السعيدة، وهى الاحتفال بعيد جلوسه العشرين الذى وافق انتصار الكنيسة في مجمع نيقية[5]. وسلم الامبراطور كل أسقف رسالة الى كنيسته تضمنت تمجيدا لشخصه وفضله فى عقد مثل هذا المجمع الكبير واشادة بجميل صنعه[6]، وحثا للجميع على

(1) ECSEB. vita Const. III. 14.
(2) Ibid. 15.
(3) Ibid. 21.
(4) Ibid. 16.
(5) EVSEB. vita Const. III. 22.
(6) Ibid. 17.

وكـــان باسكندريه صنم يســـمى «زرابل» [زرابيس] فلما توعك اتناسيوس وقربت نياحته قال: ان وجدت عند سيدى المسيح رحمة فانا اسجد بين يديه ولا ارفع وجهى حتى يغلق باب هذا الصنم، فشهدو كهنة اسكندريه ان بعد سبعة ايام من يوم وفاته انفذ الملك وسد باب البربا الذى فيـــه الصنم. [وهذا الاب اول من لبس شكل (تياب) الرهبنه من يد القديس العظيم انطونيوس وجعله رسما لكل البطاركه والاساقفه، وهو الذى

اتخاذ هذه الوحدة التى تمت باجتماع هؤلاء الأساقفة مثلا يحتذى، والانصياع لقرارات المجمع. ثم راح يحدثهم قائلا:

«يقينا بالبرهان. حفاظا على رخاء ورفاهية الامبراطورية، فكم كان فضل الله علينا عظيما. قررت أنه ينبغى أن يكون أول هدف فى مسعاى تحقيق وحدة الايمان وصادق المحبة، وجماعية المشاعر فيما يخص عبادة القدير، وذلك لأنا نبغى أن تحفظ هذه الوحدة بين الرعية الكبيرة التى تكون جماعة الكنيسة الكاثوليكية، ولما كان الحفاظ على هذا لا يتأتى لا اذا تلاقى فى الاساقفة جمع كبير أو على الأقل غالبيتهم فى مجمع واحد، والا اذا تدارسوا كل التفاصيل المتصلة بعقيدتنا المقدسة ـ لم يكن هناك بد من جمع أكبر عدد ممكن فى مجمع عام. وقد حضرت بنفسى هذا المجمع فردا عاديا وكأنى أحدكم، وأنى لفرح فخور بأن أجد نفسى زميلكم، وقد فحص كل موضوع بعناية فائقة حتى تبين لنا قضاء الله وحكمه الذى أحاط بكل شئ علما، والذى شاء لنا باقرار ما اتفقنا عليه ذلك الأمر الذى يهدى خطانا الى الوحدة والوئام، وعلى مرأى من الجميع انبلج هذا القرار، فلم يعد هناك مكان لجدل ولا محل لنزاع يخص الايمان [1].. فلتقبلوا اذن بكل رغبة وحازم الارادة هذا الايضاح الالهى الحق. ولتنظروه

---

(1) Id.

اوسم القديس انطونيوس قسا وقمصا. تنيح هذا الاب في السابع من بشنس وقيل في العشرين من توت. بركة صلاته تكون معنا امين] .

السيرة التاسعه من سير البيعه المقدسه

بطرس البطرك

[٣٨٠ / ٣٧٢]

وهو من العدد الحادى والعشرون

ولم تنيح اتناسيوس الرسولى البطرك اجتمع

بأنه الحق المبين، ومن عند الله هبة. فما يقره مجمع الآساقفة المقدس لخليق أن يعد تعبيرا لارادة السماء»[1].

واضح من هذه الرسالة مدى الجهد الذى بذله قسطنطين فى سبيل تجميع أكبر عدد ممكن من رجال الكنيسة ومدى الرغبة التى كانت تحدوه من وراء السعي الدائم الى اتخاذ هذا العمل ونجاحه، وهى «وحدة الرغبة» على حد تعبيره، وبالتالى وحدة الدولة، فقد كان هذا هو كل ما يحرص عليه قسطنطين.

واذا كان قد جاء فى رسالة الامبراطور هذه أنه «واحد من الأساقفة» أو أنه «زميل لهم» فهذه النغمة ليست جديدة على قسطنطين ولا تصرفنا عن الحقيقة الواضحة وهى يقينه الكامل بأنه رأس الدولة والكنيسة، والحاكم السياسى والقائد العسكرى والكاهن الأعلى ورئيس الاساقفة، وهذا شئ أنبأتنا عنه الاحداث، وافصحت عنه رسالته الى ملتيادس أسقف روما، وسياسته تجاه الدوناتيين، ورئاسته لمجمع نيقية، «وقهره» الاساقفة فيه على قبول صيغة الايمان التى ارتضاها بوحى من مستشاره الدينى وسوف تكشف عنه أيضا سنوات عمره الاتية.

لم يقف نشاط المجمع عند بحث المشكلة الآريوسية وحدها، بل تعرض لعدد آخر من

---

(1) Ibid. 20.

الاساقفه والكهنه والشعب الارتدكسى ووضعو ايديهم على رجل قس اسمه بطرس واوسموه بطركا، فجرى عليه بلايا كثيرة من رجل كافر اسمه لوكيوس من قبل بلاديوس الكاتب بغير امر الملك، ومن بعد ايام بلغ الخبر الملك فانفد اميرا قبض على لوكيوس الكافر وبلاديوس الكاتب وانفدهما الى النفى ومكثا فيه الى حين وفاتهما.

واقام الاب بطرس بطركا ثمانى سنين وتنيح فى العشرين من امشير.

المسائل الى تهم الكنيسة، مثل مسألتى تحديد عيد الفصح وعماد الهراطقة[1] الا ان هذه الأمور لا يعنينا منها الان ما قر عليه فيها رأى المجمع ولكن الذى يهمنا حقا هو المشكلة الآخرى التى تعرض مجمع الأساقفة لبحثها وهى المسألة المليتية الكامنة فى مصر [2].

تعود جذور هذه المشكلة الى الأيام العصيبة التى عاشتها المسيحية ابان فترة الاضطهاد الأعظم على عهد دقلديانوس وجاليريوس وماكسيمين، فيخبر يوساب أن بطرس أسقف الاسكندرية الذى خلف ثيوناس فى هذا المنصب [3]، قد قبض عليه وسيق مع عدد من القسوس هم فوستوس Phostus وديوس Dius مون Ammonius الى ساحة السجن واقتيد معهم أيضا فيلياسPhileasأسقف كنيسة تمويسThmuis (تمى الأمديد)، وهو رجل اشتهر بعلومه الفلسفية وكريم أصله[4] وهسيكيوس Hesychius وباخوم Pachomius وثيودور Theodore وهم الأساقفة فى الكنائس المصرية المختلفة [5] وفى السنة التاسعة للاضطهاد «كلل بطرس ورفاقه بأكاليل الشهادة» [6].

(1) EVSSB. vita Const, III, 18; Hefele. op. Cit. I, 1.

(2) Hefele. op. cir. I, 1, p. 488.

(3) EVSEB, hist eccl. VII, 32.

(4) EVSEB, hist. eccl. VIII, 9.

(5) Ibid. 13.

(6) Ibid. VII .32.

السيره العاشره من سير البيعه المقدسه

تيماتاوس [الاول] البطرك

[٣٨٠ / ٣٨٥]

وهو من عدد الابا التانى والعشرون

واجتمع الشعب والاساقفه بعد وفاة الاب بطرس ووضعو ايديهم على قس اسمه تيماتاوس وجلعوه بطركا [على الكرسى الانجيلى المرقسى] وفي ايامه كان الجمع بالقسطنطينيه [سنة ٣٨١م] وعدته مايه وخمسون اسقفا، وقطعو

بايداع أولئك الأساقفة سجن الاضطهاد، آلت العناية الروحية لهذه المحافل الكنيسة الشاغرة الى أيدى جماعة من الأساقفة أو المبشرين الطوافين الذين كانوا لا يتمون عملهم مطلقا، وحتى الاسكندرية ذاتها غدت بلا رئيس روحى مذ أكره بطرس على ترك أسقفيته. في هذه الظروف العسرة كان هناك رجل واحد أظهر أنه رجل الساعة هو مليتيوس Melitius أسقف أسيوط Lycopolis، فلم يكن يتنقل بين هذه البيع اليتيمة فحسب، بل راح يعين لها أساقفة جددا [١]، غير ان هذا السلوك لم يكن يتفق وتقاليد كنيسة الاسكندرية. فنحن نعلم من سوزومين ان لكل كنيسة في الاسكندرية قسيسها وكنائس أخرى فى بعض مدن مصر عليها أساقفتها، ولم يكن يحق لأحد الانتقال من أسقفيته أو كنيسة الى غيرها، ثم يقول وتلك حال الاسكندرية دائما [٢] باعتبار أن أسقفها قد احتفظ لنفسه منذ فترة طويلة بهذا الحق فى رياسة كنائس الاقليم كله، وذلك شئ أكده مجمع نيقية في قوانينه التى أصدرها، ففى القانون الخامس عشر حرم انتقال الأساقفة والقسيسين والشماسة من كنيسة لأخرى، ونص القانون السادس على اعطاء بطريرك الاسكندرية كل الحقوق التى كانت له من قديم على أساقفة مصر وليبيا والمدائن الخمس [٣].

(1) SOCRAT. hist. eccl. I. 24; Lietzmann, op. cit. p. 103; Hefele, op. cit. I, 1. p. 491.

(2) SORAT. hist. eccl. 1, 15.

(3) Percival, the seven ecumenical councils, (Nicene and P.N.F.) PP. 15. 32.

مكدونيوس(*) الكافر بطرك القسطنطينيه مكان المجمع، واخر يسمى اونوميوس لانهما جدفا على روح القدس وقالا بكفرهما انه مخلوق، وذلك فى ايام تاودوسيوس الملك المومن. واقام تيماتاوس جميع ايامه فى هدو وسلام. وكان مدة مقامه على كرسى الاسكندريه تسع سنين ونصفا، وتوفى فى السادس والعشرين من ابيب وهو متمسك بالامانه الارتدكسيه [حافظ رعيته بدعة وصار إلى المسيح الذى احبه صلاته معنا امين.

(*) مكدونيوس: كان أولا من حزب الاريوسيين وتمكن هؤلاء بواسطة نفوذهم عند قسطنس قيصر من أن يرسموه بطريركا لكرسى القسطنطينية سنة ٣٤٣م فدخل المدينة محفوظا بالجنود وثار شغب بين المؤمنين والاريوسيين قتل فيه كثيرون. وكان مكدونيوس يضطهد أتباع بولس البطريرك الشرعى المعزول حتى قيل أنه أرسل فخنقه.
وفيما بعد تغير قسطنس عليه لأنه نقل جثة أبيه قسطنطين من مدفن إلى

وربما يكن مليتيوس قد أراد بهذا العمل أن يجعل من نفسه أسقفا أعلى لمصر وأن ينقل الى أسيوط ما كان للاسكندرية حقا معلوما، أو لعله أراد الانتقال من أسقفيته الى الاسكندرية[1] وينبئنا تيودوريت أن هذه الفعال قد نمت الى علم بطرس وهو بعد فى سجنه، فاستهجن هذا سلوك أسقف أسيوط ومن ثم قرر عزله من منصبه وحرمه[2]. غير أن الأسقف الأسيوطى لم يذعن لقرار العزل هذا وملأ طيبة والمناطق المجاورة لها فى مصر بالاضطراب والقلاقل على حد قول ثيودوريت[3] الذى لابد أنه يعنى بذلك استمراره فى تعيين الأساقفة والقسس فى الكنائس الشاغرة، لأنه يضيف قائلا أنه تجاسر على التدخل فى شئون أسقفية الاسكندرية ذاتها، فعزل اثنين من قساوستها ورسم أخرين مكانهما[4].

تلك رواية نقلناها عن شتات ماتبعثر حول مليتيوس عند مؤرخى الكنيسة، على أن هناك رواية أخرى يذكرها أيفانيوس Epiphanius، وهى تقترب من سابقتها تقول ان بطرس بعد أن قبض عليه، دخل معه السجن مليتيوس وعدد من رجال الاكليروس، واستمر الاضطهاد فترة من الزمن نال فيها فريق من المسيحيين الشهادة بينما اشترى البعض الاخر أنفسهم

(1) Hefele, op. Cit. I, I, p. 501.
(2) THEOD. hist. eccl. I, 8.
(3) Id.
(4) Id. ; Duchesne, op. cit. II. PP. 98 - 99.

هذا الاب اطلق اكل اللحم للبطاركه والاساقفه والرهبان بسبب المنانيه لان المذكورين ما ياكلون اللحم، وبركه صلاته معنا امين].

السيره الحاديه عشره من سير البيعه المقدسه

تاوفيلس البطرك

[٣٨٥ / ٤١٢م]

وهو من عدد الابا التالت والعشرون

ولما تنيح الاب تيماتاوس اجتمع الاساقفه والشعب وقسمو تاوفيلس بطركا، وكان كاتب

آخر فأمر بطرده من كرسيه فطرد منه سنة ٣٦٠م على أنه لما كان بطريركا لم يكن يعلم الا تعليم اريوس الا أنه لما عزل أراد أن يكون مبتدعا بدعة جديدة. وكان المبتدعون الذين سبقوه قد انكروا لاهوت الآب ولاهوت الابن فــاراد هو أن ينكر لاهوت الروح القدس فادعى أن الروح القدس عمل الهى منتشر في الكون وليس باقنوم متميز عن الآب والابن واعتبره أنه مخلوق يشبه الملائكة لكنه ذو رتبة اسمى منهم.

وأموالهم بأن قدموا الأضحيات على مذبح أرباب الوثنية.وهكذا حرم هؤلاء بسلوكهم أنفسهم من الكنيسة، غير أنهم سرعان ما ندموا بعد بذلك واجتهدوا ليقبلوا فى الكنيسة ثانية عن طريق طلب الشهادة،وكان على رأس هؤلاء مليتيوس الذى أظهر اتجاها متذبذبا ـ على الأقل ـ طوال فترة الاضطهاد، ثم اختط لنفسه طريقا متشددا بعيد الأضطهاد، بينما ترأس بطرس قبل موته وخلفاؤه فريقا آخر تبنى الاتجاه المعتدل، وكانت مسألة الخلاف بين الفريقين هى قبول الخطاة ثانية في الكنيسة، وهكذا وجدت كنيسة للشهداء يتزعمها مليتيوس تقف والضد من الكنيسة، الكاثوليكية[1] ولما أن راح أسقف أسيوط يرسم الأساقفة من لدنه غافلا بذلك عما جرى عليه العرف في الكنيسة السكندرية، لم يكن أمام بطرس الا ان يصدر ضده قرارى العزل والحرمان، وتلك كلها مسائل أوقفتنا عليها رسالة مجمع نيقية الى كنيسة الاسكندرية بخصوص هذا الامر[2].

ويمكننا التوفيق بين هاتين الروايتين اذا ذكرنا ما أورده لنا ابيفانيوس عن أصل هذا الخلاف، مما أوجد هذه الهوة العميقة بين بطرس ومليتيوس، فاختط الأخير لنفسه طريقا مخالفا، وأخذ يعين الأساقفة والقسيسين فى بعض الكنائس مما اضطر بطرس الى عزله وحرمانه.

---

(1) S. M. Jaclson. op. cit. VII, art. Meletianism.

(2) THEOD. hist. eccl. I, 8.

اتناسيوس البطرك، كان مستقيم الحال عند الله والناس. فلما جلس على الكرسى بلغه ان الوثنيين قد مضو الى يروشليم يفتحون بيت اصنامهم، فانفذ رهبانا إلى هناك ليطردوهم فلم يقدرو الرهبان على الوثنيين، فانفذ تاوفيلس البطرك الى دير بخوم بصعيد مصر واحضر السواح الرهبان المتجولين وانفذهم إلى يروشليم، فلما دخلوها صلو فهربت الشياطين من البربا، وصيرو ذلك الهيكل(*) مسكنا لرهبان يورشليم.

(*) الهيكل
كان الهيكل، بعد أن رمّمه هيرودس، ينتصب في وسط ساحة تقارب مساحتها ٣٠٠× ٥٠٠ متر. إنه المكان المقدس الذى يحضر الله فيه والذى نُظمت مداخله تنظيماً دقيقاً. كان فيه قدس الأقداس، وهو عبارة عن غرفة مفصولة بستار الهيكل وكانت تحتوى فيما مضى على تابوت العهد، ولا يدخلها إلاّ عظيم الكهنة مرّة فى السنة يوم الكيور. وكان حول المذبح فناء أوّل مخصص للكهنة، ثمّ

ذلك مشهد ثالث يكاد يطابق تماما ما حدث في روما وأفريقيا، أعني المسألتين، النوفاتية والدوناتية، فنقطة ثار حولها الجدل عند هذه الفرق واحدة، وموقف كنيستي روما والاسكندرية تجاه آراء الفريق المضاد متفقة، وما نجم عن هذا الصراع من قيام كنيسة الطهار عند الدوناتيين وكنيسة الشهداء لدى المليتيين وثيق الصلة، لذلك ليس من غريب الحديث أن يقال ان المليتيين كانوا بمثابة دوناتيي مصر[1].

ولاشك أن فترة الاضطهاد التي قاست منها المسيحية لزمن طويل بعامة، ولفترة عنيفة أخيرة بخاصة، قد أحدثت في الكنيسة كثيرا من أمور الجدل حول العقيدة والتخاصم حول مسائل التنظيم الكنسي، وأورثت الكنيسة الجامعة شقاقا ما بعده شقاق، ورزقتها بعدد لا حصر له من الفرق المخالفة في الرأى، ساعدت الأحداث على الاتيان بها، فطفرت الى السطح أمور كانت كامنة وتولدت عنها مشاكل ما كانت قائمة.

كان على مجمع نيقية أن يعالج هذا المسألة بحزم حتى لا يستفحل خطرها، أما الامبراطور فلابد أنه قد أفاد مما وقع له في أفريقيا مع الدوناتيين، فمجمع مكاني الذى عقد في روما سنة ٣١٣ لم يكن كافيا لشجب النزاع الدوناتي الكاثوليكي، ومجمع يقترب من العالمية في أول سنة ٣١٤ لم يكن أسعد حظا من سابقه، وقضاء امبراطوري في القضية في ميلانو سنة ٣١٦

(1) C.A.H. XII, p. 697; Duchesne, op. cit. II, p. 113.

ولما عادو ضبطهم [احضرهم] تاوفيلس البطرك ليكونو ياكلون معه وحدهم من يوم الاحد الى يوم الاحد ودفع لهم بستانا كان للاب اتناسيوس البطرك.

ثم ان الاب تاوفيلس البطرك ذكر قول اتناسيوس لما كان ياكل معه وهو كاتبه انه يشتهى ان ينظف الاكوام التى راها ويبنى فى موضعها بيعه على اسم [يوحنا] المعمدانى واليشع النبى، وعند ذلك جات امراه كان لها ولدان فكنست الاكوام

يأتي فناء اسرائيل (للرجال) وفناء النساء المفصول عن فناء الأمم بدَرابزين لا يجوز لأىّ وثنى ان يجتازه تحت طائلة الموت.

على المذبح الواسع الذى يبلغ ضلعه ٢٥ متراً وعلوه ٧,٥٠ متراً، كانوا يذبحون صباحاً ومساءً حَملاً «ذبيحةً دائمة» إلى جانب الذبائح الخاصة التى لا يُحصى عددها. وكان عدد الذبائح يرتفع فى ايام الاعياد، فينهمك اللاويّون وتزدحم الجموع...

ما ردع الفريق الدوناتي ولا أتى بجديد في عالم الصفاء مع الكنيسة الكاثوليكية، بل كل ما جاء به عنفا بلا هوادة وتحديا صريحا لسلطة الامبراطور ذاته، واضطهادا مسيحيا ضد أشياع كنيسة الطهار لم يثمر ثمرته المرجوة، هكذا أدرك قسطنطين أن لا طريق أمامه سوى الصفح والمهادنة، فأفرج عن الدوناتيين وأعاد اليهم بيعهم علهم بذلك يقدرون له حسن الصنيع.

كانت تلك تجربة أفاد منها قسطنطين، فلم يقدم على شئ من هذا على الاطلاق فى معاملته للمليتيين فى مصر، وساعده قدره وفكره بعقد هذا المجمع المسكونى الكبير الذى ضم أساقفة الشرق والغرب، فراح قسطنطين يحث الجمع على اتخاذ سبيل وسط يرضى هذا ولا يغضب ذاك، وعمل الحضور بنصح الامبراطور، وقد حفظ ثيودوريت ما تم بشأن المليتيين فى مجمع نيقية فى وثيقة هامة هى رسالة المجمع الى كنيسة الاسكندرية جاء فيها:

«أحباءنا.. هانحن الان نخبركم بما قر عليه رأى المجمع في هذا الصدد. لقد تقرر بواسطة مجمعنا أن يعامل بالرأفة مليتيوس، مع أنه، وحتى نكون مع أنفسنا صادقين، ما كان يستحق من الشفقة أقلها، لقد سمح له بالبقاء فى مدينته مجردا من كل سلطة تجيز له تعيين الغير أو سيامتهم، محروما حتى الظهور فى اية ولاية أو مدينة لهذه الدواعى. ولكن ليحمل لقبه عاريا من كل نفوذ»(١).

(1) THEOD. hist. eccl. I, 8.

على ما يشهد به كاتبه، وظهرت البلاطة المكتوبه عليها تلت تيطات، وشرح حديثها وقصة تاوفيلس مع رفايل الملاك لم تكتب فى هذه السيره، فلما قلع تاوفيلس البلاطه وجد المال تحتها فبنى منه الكنايس، وبنى فى موضعه كنيسه فى جانب البستان وحمل اليها جسد القديس يوحنا المعمدان وجسد اليشع النبى، وظهرت منهما عجايب كتيره فى ذلك اليوم وبرى جماعه من الناس كانو مرضين ومسقومين من امراضهم.

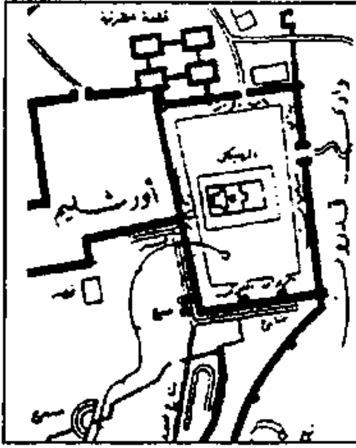

* الهيكل فى أورشليم.

هكذا التقت آراء المجمع على أمر قد قدر، فذلك هو الجزاء الذى تلقاه مليتيوس جزاء خروجه على كنيسة الاسكندرية وأسقفها، تخالف ما شهدناه قبلا فى موقف مجمعى روما وآرل وموقف قسطنطين ازاء الدوناتيين، ولا شك أن هذه السياسة الجديدة التى لجأ اليها مجمع نيقية تجاه المليتيين كانت رد فعل صريحا لفشل السياسة التى سار عليها الامبراطور فى علاجه للمشكلة الدوناتية، ومن ثم فقد منح المجمع مليتيوس من اللقب اسمه وسحب مضمونه، وأعطاه من الوظيفة الكهنوتية رتبتها وحرمه جوهرها!!

وأضافت رسالة المجمع:

«أما أولئك الذين رسموا على يديه فعليهم أن يمروا من جديد برسم تقى، على أن يقبلوا ثانية فى الكنيسة، وتبقى لهم رتبتهم الكهنوتية فى سائر الأبروشيات على أن تكون فى مرتبة أدنى من تلك التى منحت لغيرهم من قبل على يد اسكندر ا الكسندروس ا، زميلنا الكاهن المبجل، وعليه فليس لأولئك حق اختيار أو تعيين أخرين للكهنوت أو الاقدام على أى شئ دون موافقة أساقفة الكنيسة الكاثوليكية [1] الرسولية المنضوين تحت نفوذ أسكندر.

(١) حتى منتصف القرن الخامس كان لفظا كاثوليكى Catholicus (عالمى) وأرثوذكسى Orthodoxus مستقيم) يطلقان على الكنيسة عامة، على اعتبار أنها كنيسة واحدة جامعة ذات ايمان قويم. وفى سنة ٤٥١ عقد مجمع خلقيدونية وصدر عنه قانون الايمان القائل بكمال الطبيعتين الالهية والبشرية فى المسيح، ورفضت كنيسة الاسكندرية هذا المعتقد، وبقيت على عقيدتها القائلة بطبيعة واحدة من =

وكتب تاوفيلس فى مدة حياته عدة ميامر(*) ومقالات. واقام ولندیانوس الملك اثنتى عشره سنه ومات وملك بعده ولديانوس وكرديانوس ولداه، وكانا مومنين محبين لله جل اسمه. وكان تاوفيلس اذا عمد ينظر قضيب نور يصلب على المعموديه بين يديه، فلما كان فى بعض السنين وقف فى جمعة التنصير يصلى على المعموديه فلم يظهر له عليها صليب النور فحزن فاوحى اليه انه ان لم يحضر ارسانيوس الشماس يصلى معه والا فما

(*) ميامر: جمع ميمر من هذه الميامر ما عرف باسم «ميمر تاوفيلس» يروى فيه أنه توسل إلى العذرا فى صلوات حارة إليها لتكشف له عن سر رحلتها وتنقلاتها فى مصر، فظهرت له فى رؤيا وكشفت له عن ذلك السر. وقد دون تاوفيلس هذه الرحلة فى مخطوط بمكتبة الدير المحرق تحت رقم ١٤/٩. ويقال أن هناك نسخة من هذا المخطوط بمكتبة الفاتيكان بروما وثالثة بالمكتبة الوطنية فى باريس.

ولكن هؤلاء من بنعمة الله، وفضل صلواتكم، لم يدنسهم تيار الانشقاق، فظلوا طاهرى الذيل فى الكنيسة الرسولية الجامعة، فلهم سلطة اختيار وتعيين من يرون الصلاح فيهم للوظائف الكنيسة، بل ويسمح لهم بما هو أبعد من ذلك فى التصرف فى أى أمر يتفق وقانون الكنيسة وسلطانها، فاذا ما شاء القدر واختطف الموت واحدا ممن يتسنمون الان احدى الوظائف الكنيسة، فليرتق الجدد الى شرف الراحلين إذا كانوا للمنصب مستحقين، وعلى يد الرعية مختارين، ما دام هذا يثبت بموافقة أسقف الاسكندرية الكاثوليكى»(١).

لم يقف قرار المجمع اذن فى هذه المسألة عند حد التعرض للمشكلة المليتية فى حد ذاتها، ولكنه تخطاها، آخذا من أحداثها مدارا لمزيد من قرارات التنظيم الكنسى حول تعيين القسس والأساقفة فى مختلفة الكنائس، ولا شك أن دافعه الى ذلك حرص الحضور على أن لا تتكرر

=طبيعتين، كما آمن بها أسقفها كيرلس Cyrllus وخليفته ديوسقورس، وأختصت منذ ذلك الحين بلقب الأرثوذكسية. وان كانت قد شاركتها فيه كنيسة القسطنطينية أيضا بالأرثوذكسية الخلقيدونية. أما كنيسة روما فقد احتفظت لنفسها بالصفة الكاثوليكية، وتدعم ذلك فى عام ١٠٥٤ عندما وقع الانشقاق الأعظم بين روما والقسطنطينية نتيجة للخلافات العقيدية المتراكمة ومن بينها مسألة الروح القدس التى تعود الى القرن التاسع، عندما أضافت روما على قانون الايمان عبارة «والابن» Filioque.

(1) THEOD. hist. eccl. I.8.

يظهر له شي، فصرف الناس في ذلك اليوم وانفذ طلبه فوجده في اعمال اشمون، فاتاه مسرعا ففرح به وطيب نفسه فظهر الصليب النور. ولما رأى تاوفيلس البطرك تواضع الشماس المذكور وفعله اراد ان يصيره قسا فلم يفعل وساله ان يعفيه من ذلك وان يصلى عليه ويدعه يمضى الى وطنه، ففعل له ما التمسه.

وكان لتاوفيلس البطرك ابن اخت اسمه

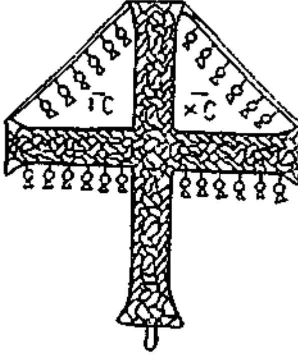

صليب على جدار صومعة راهب بدير اسنا

في الاسكندرية أو غيرها من مدن الامبراطورية تلك الحوادث التي جرت من قبل على يد مليتيوس من قيامه بسيامة أساقفة وقسيسين.

ثم تعود الرسالة فتعرج بعد ذلك ثانية على الرجل فتقول «أما عن مليتيوس على أية حال، فهناك استثناء قد وقع، بسبب عصيانه السالف، ونتيجة مزاجة المتهور وطبعه الطائش، ذلك لأنه ان منح أقل سلطان فانه سوف يسئ استغلاله باثارة الاضطراب من جديد»[١].

وبعد أن يخبر المجمع السكندريين في رسالته بأن أسقفهم سوف يروى عليهم تفاصيل ما دار في المجمع وما قر عليه رأى رجال الاكليروس حضور نيقية، ويزف اليهم بشرى الاتفاق على تحديد يوم للاحتفال بعيد الفصح تشترك فيه كنائس شرق الامبراطورية والغرب[٢] يختتم المجمع رسالته بقول الأساقفة:

«فلتفرحوا اذن لنجاح ما تعهدنا القيام به، ولتبتهجوا بسلام عام ووفاق، واستئصال دنس الهرطقة، لتستقبلوا بشرف عظيم وبحب متقد اسكندر [الكسندروس] محبوبنا، أسقفكم الذى جلب على مجمعنا البهجة بحضوره، والذى رغم تقدم العمر به قد تحدى المشاق والمتاعب بغية اعادة السلام اليكم.

---

(1) THEOD. hist. eccl. I, 8.

(2) Id.

كيرلس قد علمه ورباه احسن تربيه ثم انفده الى جبل النطرون الى بريه ابى مقار القديس، فاقام هناك خمس سنين فى الديارات يقرأ الكتب العتيقه والحديثه، وكان يوصيه بالمواظبه على التعليم ويقول له: انك بذلك تصل الى اورشليم العلويه التى هى مسكن القديسين. وكان ملازمة فى قلاية البطركية وكان اغنسطسا. ولما انفده للبريه سلمه لسرابيون الحكيم ووصاه ان يعلمه علوم البيعه التى هى علوم الله الحقيقه،

صلوا من أجلنا حتى يبقى ما اتفقنا عليه ثابتا وطيد البنيان بنعمة ربنا يسوع المسيح، ان كل ما أتممناه بنعمة الله الرب وبوحى القدس صار.. له المجد أبد الآبدين»[1].

على هذا النحو أتم مجمع نيقية أعماله وارتحل الأساقفة عائدين الى كنائسهم يسبحون بحمد الامبراطور مبعوث الرب الذى أغدق عليهم نعمه، فجعلهم يرفلون فى رغد من العيش وسعة، ولا شك أن قسطنطين كان يرمى من وراء هذه السياسة الى جعل هؤلاء الأساقفة حملة مشاعل الدعاية لحكمة وتقوية سلطانه فى آرجاء الامبراطورية بما يملكونه من تأثير على نفوس رعاياهم. وقد أتت هذه السياسة أكلها، وآمنت الكنيسة بأن قسطنطين «مبعوث الرب» حاميها، وباعث حياتها، ورفعته مكانا عليا، الى الحد الذى تطوع فيه واحد من أشهر أساقفتها فى زمانه، أعنى يوساب القيسارى، ليضع عنه كتابا يرفعه به الى مصاف الرسل، جاعلا منه الحوارى الثالث عشر كما سبق وذكرنا.

خيل للامبراطور ساعتئذ أنه قد حقق بذلك أعظم انتصاراته، فقد تبدى له أنه حفظ على الامبراطورية وحدتها سياسيا وعقائديا، وأنه أعاد بذلك السلام الى الكنيسة وأنجاها من شر مستطير كاد يؤدى بوحدتها، وبالتالى يهدد أمن الدولة وسلامتها. ولقد تحمل قسطنطين العبء الاكبر. بل العبء كله فى الاعداد لهذا المجمع الكبير، وأثناء انعقاده وبعده، ولعب دورا هاما

(1) Id.

فحفظ جميع الكتب وكان يقف قدام معلمه يقرا وفي يده سيف حديد فاذا نعس ينخسه به فيستيقظ. وكان في اكثر لياليه يقرا في ليلة واحده الاربعة اناجيل القتاليقون الابركسس، ورسالة بولس المغبوط الاولى الى اهل روميه. فاذا كان بالغداه ينظر معلمه وجهه فيعلم ا نه قد وقف ليلته كلها. وكانت معه نعمة الله حتى انه كان اذا قرا كتابا دفعه واحده يحفظه فحفظ في تلك السنين جميع

وشارك مشاركة ايجابية في كل حركة وسكنة من أداء المجمع، فحقق بذلك رغبته التي أبداها في رسالته التي بعث بها الى الأساقفة يدعوهم للحضور الى نيقية.

ولقد وضع قسطنطين بسياسته هذه في الدعوة لعقد المجامع سنة سار عليها خلفاؤه من بعد، فما من مشكلة عقائدية عنت للكنيسة الاووجهت الدعوة لعقد مجمع مسكوني لبحث هذا الأمر، ولم تكن الدعوة بطبيعة الحال صادرة من رأس الكنيسة أو من غيره، بل موجهة من الامبراطور ذاته، حتى بلغ عدد المجامع المسكونية التي عقدت في الكنيسة الشرقية سبعة على مدى أربعة قرون بين عامي ٣٢٥، ٧٨٧ على عهد الامبراطورة ايرين.

وعلى هذا النحو أيضا وضع قسطنطين قواعد القيصرية البابوية Caesaropapism التي بلغت في عهد من جاء بعده من الأباطرة شأوا عظيما، وأضحت الكنيسة الشرقية في هذا السبيل دائرة من دوائر الحكومة أسقفها موظفا كبيرا لدى الامبراطور، وتمتع هذا بسطوة واسعة وسلطان كبير على الكنيسة ورجالاتها الذين أضحوا في غالب فترات تاريخ الكنيسة لشرقية جند الامبراطور.

واذا كان هذا حال أسقفية القسطنطينية والكنائس التابعة لها بصفة خاصة، فان الكنائس الأخرى في النصف الشرقي من الامبراطورية، والاسكندرية على رأسها لم تكن كذلك أبدا. فأساقفة الاسكندرية كانوا يعرفون يقينا ويقدرون مركز كنيستهم في عالم المسيحية، ومدينتهم

الكتب الشرعيه، وبعد هذا انفذ تاوفيلس البطرك اليه واعاده الى اسكندرية، وكان معه فى قلايته ويقرأ بين يديه فتعجب منه الكهنه العلما والفلاسفه ويفرحون به لحسن صورته وطيب جرمه الذى لا يتغير كما هو مكتوب «أني فتحت فمي واستنشقت روحاً». وكان كل الشعب اذا سمعوه يقرا يشتهون ان لا يسكت لحلاوة قراته وحسن صورته. وكان خاله الاب تاوفيلس يفرح به جدا ويشكر الله اذ رزقه ولد روحانيا قد نشا بالنعمه

فى دنيا الفكر والحضارة. فاذا كانت القسطنطينية تحاج بأنها مقام الأباطرة، وأنها نشأت على المسيحية، ولم تدنس جبهتها لوثن، وأنطاكية تتعالى بأن القديس بطرس هو الذى وضع عمد الكنيسة فيها قبل روما، فان القديس مرقس الانجيلى، ابن بطرس بالتبنى، وتلميذه، ورفيقه، هو الذى رفع القواعد من كنيستها، ولكنها الى جانب كل ذلك كانت تتسامى بمدرستها اللاهوتية الشهيرة، وفكر آبائها، ولم تكن القسطنطينية أو غيرها من مدن الامبراطورية تستطيع أن تتطاول الى هذه المكانة، بل ان عالم المسيحية كله فى هذه القرون الباكرة من عمر المسيحية، كان يسعى الى الاسكندرية ينتظر من أمر العقيدة، القول الفصل من كنيستها.

من أجل هذا، وللخلاف العقيدى الدائم بين القسطنطينية والاسكندرية بخاصة، وقفت كنيسة الاسكندرية تعارض الاباطرة الرأى وترفض تهديداتهم، وشهد تاريخها حتى القرن السابع صراعا عنيفا بين أباطرة بيزنطة وأساقفة الاسكندرية، ولم تستسلم فيه الاسكندرية طيلة هذه الفترة.

احياء الأريوسية وصحوة المليتية

كان قلب قسطنطين يهوى الشرق، ولكن بصره كان معلقا بالغرب. وبين قلب الامبراطور وبصره تأرجحت سياسته، وراح فؤاده والحواس ينتقل بين هذا الجانب أو ذاك، وما كان فى مقدور قسطنطين أن ينظر الى قلبه والنار تأكله لفتنة فى الشرق حادثة، وان كان باستطاعته أن

والحكمه، وكان له سيره حسنه وتواضع ولا يخرج
عن العلوم الروحانيه والنظر فى اقوال الابا معلمى
البيعه الارتدكسيه اتناسيوس، وديونوسيوس،
واكليليوس بطريرك روميه، واوسابيوس وباسيليوس
اسقف ارمنيه، وباسيليوس اسقف كبادوكيه. هولا
الابا الارتدكسيون الذى قرا تعاليمهم. وكان يرفض
مقالة اورجانوس ولم يمسك كتابه بيده يوما
قط فاذا بلغه ان احدا من المومنين قراه رفضه
وابعده.

يغمض عينيه على الغرب لهدوء متقطع فيه باد. وكم حزن الامبراطور ودمى قلبه وهو يرى شرقه ومبتغاه تفتك به حمى جدال اتشح مرضاه بمسوح الدين، وكم طاب خاطرا لغرب آثر أن يقى نفسه عدوى وباء فى الشرق ساد!!

فقسطنطين وان كان لم يخرج الغرب البتة من تفكيره، الا أنه جعل الشرق كل فكره، وكان قد قضى من عمره فى الشرق سنين عددا رهين قصر نيقوميديا، ولمس بنفسه أساليب الحكم فى المنطقة وطرائق الادارة، وكانت نظم الحكم هنا تنحو الى طابع الاستبداد سواء فى الملكيات الهلنستية القديمة أو الامبراطورية الفارسية ، وشاهد قسطنطين بعينى رأسه دقلديانوس وهو يمارس نفس الأنظمة، فلما جاء الى الشرق كان مصمما على أن يكمل خطا سلفه. فترك روما بتقاليدها الجمهورية والغرب بكيانه الاقتصادى المتصدع، وراح يضع على أطلال بيزنطة المدينة الاغريقية القديمة أسس عاصمة جديدة، فأظهر للجميع بذلك عزمه أن يكون الشرق مستقره ومثواه، وأمل أن يجد فى هذه البقاع سكينة كان ينشدها والهدوء، وتعلقت آماله برعاياه المسيحين عله يجد فيهم خير عون لنظم حكومته، ويقول ول ديورنت، لقد كان قسطنطين يأمل أن يكون حاكما مطلق السلطان، وهذا النوع من الحكم يفيد لامحالة من تأييد الدين، وقد بدا له أن النظام الكهنوتى وسلطان الكنيسة الدنيوى يقيمان نظاما روحيا يناسب نظام حكومته، ولعل هذا النظام العجيب بما فيه من أساقفة وقساوسة يصبح آداة

وكان كيرلس لما قرا فى الانجيل المقدس: «اسيلو [اسألوا] تعطو اطلبو تجدو» فهم ذلك وطلب من الله العلم فاعطاه اياه. وكان كالنحل الذى يخرج يرعى من على كل النبات والاشجار ويجمع ربح نفسه الى ان يملا وعاه عسلا خالصا بغير دنس.

الامبراطور تاودوسيوس الكبير

وسيرة الاب تاوفيلس كثيره جداً، منها ما جرى له فى اسكندريه مع تاودوسيوس الملك الكبير، وعجايب رفايل الملاك معه، وخبر الامراه الارمله

لتهدئة البلاد وتوحيدها وحكمها[١]. ولعل فى مسلك قسطنطين تجاه أساقفة مجمع نيقية وما أغرقهم فيه من المنح والعطايا خير شاهد على ذلك.

لكن قسطنطين فجع وهو بعد فى الغرب بالصدع الدوناتى، ثم فجع أخرى أشد وأقسى عندما وطئت قدمه الشرق، فسارع الى دعوة أولى الأمر فى العقيدة المسيحية، ولما جمعت نيقية شملهم وقر على قانون الايمان رأيهم، قرت كذلك عين الامبراطور، ونفى مخالفيه وعلى رأسهم زعيمهم آريوس، ثم رجلى الفريق الشهيرين يوساب النيقوميدى وثيوجنس النيقى. وهئ لقسطنطين أنه بذلك قد نجا والامبراطورية من خطر كبير كان يهدد وحدة الدولة وأمنها، ولكن الأحداث سرعان ما أطاحت بكل حلم داعب خيال قسطنطين.

ما كاد المجمع المسكونى الأول ينهى أعماله ويعود أساقفته كل الى بيعته حتى عادت الفتنة ترفع رأسها من جديد، ولقد علمنا مما سبق أن يوساب أسقف نيقوميديا وثيوجنس أسقف نيقية، قد عادا سيرتها الأولى وراحا يبشران بأن الابن ليس من نفس جوهر الأب، مما اضطر الامبراطور الى أن يصدر قرارا بعزلهما ونفيهما، وتعيين بديلين عنهما، وبذلك ضمن قسطنطين ـ الى حين ـ هدوء هذه المنطقة.

(١) ديورنت: المصدر السابق، مجلد ٣ جـ٣ ص ٣٨٨.

وولديها اللذين صيرهما اسقفين، والتلت تيطات المكتوبات على بلاطة الكنوز الموجوده باسكندريه. وما اظهره رفايل الملاك من العجايب فى البيعه التى بناها تاوفيلس فى الجزيره(*)، ثم تسليط الملك له على مال البرابى من اسوان الى حدود ارض الشام وما مع ذلك. [وفى زمانه كان يوحنا فم الذهب، بركة صلاة الجميع تكون معنا امين].

(*) لعلها البيعة التى بنيت فى جزيرة الروضه ثم هدمت بعد ذلك.

أما فى مصر فيخبرنا يوساب القيساوى أن الحال فيها كانت غاية السوء عقب المجمع نتيجة انقسام داخلى[١]، آلا أنه لم يوضح سبب ذلك ولا طبيعته مما دفع سقراط الى اتهامه بالمكر والمراوغة، وأنه كان يتجنب ذكر أسباب الانقسامات هذه وذلك لميله الى الفريق الآريوسى[٢]. ولكن سوزومين يفسر هذه الأحداث بقوله ان اسكندر [الكسندروس] بعد عودته الى الاسكندرية عقب ارفضاض مجمع نيقية، قام مليتيوس بتسليمه الكنائس التى كان قد أخذها قبلا[٣]، وعاد ثانية الى مقره فى أسيوط تنفيذ لقرارات المجمع المسكونى الا أنه لم يمض على ذلك زمن طويل حتى أحس مليتيوس دنو أجله فعين شخصا يدعى يوحنا Iohannes خلفا له كان يعد أقرب أصدقائه، وذلك خلافا لما أقره المجمع النيقى[٤]. وهكذا برزت الى الوجود قضية المليتية ثانية وأضحت مثارا للخلاف والشقاق. ويمضى سوزومين قائلا. وعندما علم الآريوسيون بما أبتدعه المليتيون بدأوا هم الآخرون يناوئون الكنيسة السلطان، فتبعهم من جديد أناس كثيرون، بينما مال الى المليتيين جمع رأوا من حقهم ترؤس كنائسهم. وعلى الرغم من أن الفريقين لم يكونا على وئام الا أنه جمعهما شئ واحد هو معارضة الكنيسة الجامعة

(1) EVSEB. vita Const. III, 28.

(2) SOCRAT. hist. eccl. I, 23.

(3) SOZOM. hist. eccl. II, 21; ATHANAS. Apol. C. Arian. 71.

(4) SOZOM. hist. eccl .II, 21.

السيرة الثانية عشره من سير البيعه المقدسه
كيرلس الأول البطرك
[٤١٢/ ٤٤٤م]
وهو من العدد الرابع والعشرون

فلمـا تنيح الاب تاوفـيلس البطرك جلس الاب كيـرلس على الكرسى الرسولى ورفع الاساقـفـه الاناجيل الاربعه على راسه وصلو عليه وقالو اللهم قو هذا الرجل الذى اصطفيته لنا. وبدا فاقام قومه

وعداوتها للاكليروس السكندرى، وبلغ من تقاربهما أن راح البعض يطلق على المليتين صفة الآريوسـيـة [١]. وان كان انشقاقهم، كما يعلق مؤرخنا، يعود الى مسألة تنظيمية بحتة بصدد رئاسة الكنائس فى الوقت الذى كانت فيه الآريوسـيـة مـسألة عقائدية، وعلى الرغم من أن كليهما ينكر تعاليم الاخر الا أنهما اصطنعا المداهنة سبيلا يعامل به أحدهما الاخر فى سبيل تحقيق مصلحتهما فى مواجهة خصمهما المشترك[٢]. ومنذ ذلك الزمن تقبل المليتيون، بعد مناقشات حادة، العقيدة الآريوسية وحملوا نفس افكار آريوس عن الاله. وقد أحيا هذا من جديد الجدل حول آريوس وعقيدته، وأدى بالتالى الى انشقاق طائفه من العلمانيين ورجال الاكليروس عن غيرهم من الكنيسة، وحمى وطيس الجدل ثانية حول اريوس وعقيدته كثير من مناطق الامبراطورية[٣].

تلك كانت حال المسيحيين عقب انتهاء مجمع نيقية حيث يبدو من أقوال سوزومين أن قرار المجمع فى هذا السبيل لم يؤد الى امانة العقيدة الاريوسـية أو رأب الصدع المليتى. أدرك قسطنطين بثاقب نظره أن محاولة لحسم الخلاف واعادة الوحدة للامبراطورية لن تؤتى ثمارها اذا بقى زعماء الفريق الاريوسى خارج حظيرة الايمان النيقى، واذا ظل اريوس بالذات يتحدى

(1) Id.

(2) Id.

(3) SOZOM. hist. eccl. II., 21.

للبيع التى فى جميع الكرسى ليلا [لئلا] تشتغل عن الطعام الروحانى الذى به تتقوى على الامور المرضيه لله وبدا فى الحكمه المحبيه.

واما الملك تاودوسيوس الصغير المحب لله فانه اتبع وصية ابايه فكان يجمع اليه الرهبان ويتعبد معهم، ولم يكن له ولد وكانت أخته تدبر الملك.

وكان كيرلس البطرك لا يفتر من وضع الميامر والمقالات بقوة الروح القدس الناطقه فيه حتى ان

قرار أساقفة المجمع المسكونى، ومن ثم عزم على استمالته الى آرائه حتى ينجو بذلك من شبح الانقسام المخيف. وتلك كانت سياسة قسطنطين دائما، يمسك بقبضته الذكية عصا التسيار من وسطها، يقرب اليه فريقا من المتصارعين، حتى اذا أدرك أن زعماء هذا الفريق قد بدأوا يحسون بثقل مركزهم ورجحان كفتهم ، قلب لهم ظهر المجن، وعاد الى استمالة الفريق الاخر الذى كال لزعمائه ورجاله الويلات والاضطهاد، بعد أن تكون نفوسهم قد سئمت هذا العنت. لقد كان كل همه أن يظل حاكما قويا فردا فى امبراطورية موحدة، ومن ثم لم يكن ليسمح لفريق بأن تقوى شوكته أو يستشعر السلطان.

وأمامنا الان روايتان لسقراط وسوزومين حول عودة آريوس، تشير أولاهما الى أن الامبراطور قد عفا عن أسقفى نيقوميديا ونيقية المنفيين وأعادهما ال منصبيهما ثانية، وتكفل يوساب بعد ذلك بمحاولة اعادة آريوس الى الكنيسة ثانية، وتبرئة ساحته. ويقول سقراط ان الأسقف النيقوميدى استطاع أن يتحالف مع أحد رجال الدين الضالعين فى الاريوسية كان فى معية قسطنديا أخت قسطنطين وأرملة ليكين، وأوحى اليه يوساب أن ينتهز فرصة أحدى عظاته الودية مع قسطنديا ليخبرها أن قرار المجمع النيقى بادانة آريوس كان بعيدا عن روح العدالة، وأن التقدير الشائع الذى ينسب الى آريوس غير حقيقى. وقد أعطت الأميرة ثقتها الكاملة لهذاالرجل، غير أنها لم تطلع الامبراطور على شئ من ذلك. فلما أحست دنو أجلها وجاء اليها

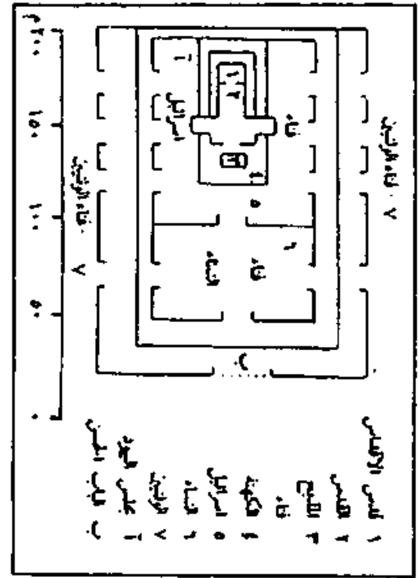
الهيكل

اكتر رويسا اسكندريه قسمو النساخ ينسخون لهم ما يضعه الاب. فقال له قوم من الفلاسفه: ان هناك ميامر وضعها يوليانوس الملك يرذل فيها موسى وجميع الانبيا ويجعل المسيح انسانا ساذجا، وكنا نقراها لان الملك وضعها وقال ان كلام الجليلي ساجعله كذبا لانه قال: لا يبقى حجر على حجر فى هيكل يروشليم الا ينقض، وانا اريد ابنيه وابطل قوله. وهدم يوليانوس المذكور ما كان بقى من الهيكل ليبنيه فمات ولم يبن فيه شيا، فقد

- -

أخوها يعودها راحت تمتدح للامبراطور محاسن ذلك الرجل مثنية على ورعه وتقواه، ولكنها لم تفض اليه بشئ عن آريوس وظلامته. فلما توفاها الموت غدا واعظها أقرب ثقاة الامبراطور، وازداد على الأيام قربا منه، وودا له، فلما أمكن منه قص على مسامعه ما سبق أن ردده على آذان أخته، مؤكدا له أن اريوس ليس لديه أية آراء أخرى غير تلك التى أقرها المجمع، واذا ماسمح له بالمثول أمام الحضرة الامبراطورية فلسوف يقدم موافقته الكاملة على ما أقره الأساقفة فى نيقية. ولما تبدى ذلك عجبا لد الامبراطور انبسطت أساريره وصرح بأنه اذا وقع آريوس مع المؤتمر وتمسك بآرائه، فليسمحن له بالوقوف أمامه وليعيدنه الى الاسكندرية مبجلا. وقام الامبراطور من فوره ليرسل الى آريوس بهذا المعنى[1].

ولكن هذه الرواية لا يمكن قبولها على علاتها، فمجمع نيقية أدان الاريوسية وأشياعها، وتتبع الامبراطور أولئك الأشياع بالنفى والاضطهاد حتى يضمن استقرار الأمور وهدوءها تمشيا مع قرارات رجال الكنيسة وكان من الطبيعى أن يبدأ قسطنطين بتطهير بلاطه وقصره من هذا الفريق، فكيف نفسر اذن بقاء رجل من الضالعين فى العقيدة الاريوسية فى القصر الامبراطورى هاديا لأخت الامبراطور ؟ وما كان هذا براغب فى اثارة الشكوك حول نفسه، ولا أن يجلب

(1) SOCRAT. hist. eccl. I, 25.

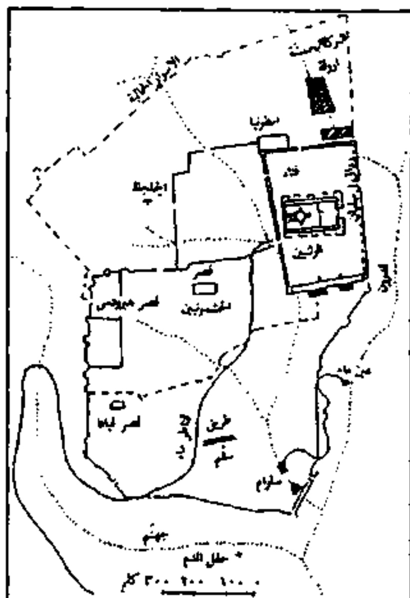

صح لنا كلام المخلص وعرفنا ربوبيته لانه لم يطل شي من كلامه.

فلما سمع كيرلس هذا قلق جدا الى ان وجد ما وضعه يوليانوس وقراه فوجده اشد مما وضعه اورجانوس وبرفاريوس [فرفوريوس] فلما لم يقدر الاب كيرلس ان يجمع النسخ التى تفرقت من تلك الكتب فى ايدى الناس كتب الى تاودوسيوس الملك يعلمه بذلك ويقول له: ان شيت [شئت] هلاك ما وضعه يوليانوس وابادة كفره

عليها نفور رجال الكنيسة وهو طالما سعى الى جمع شتاتهم لبلوغ مطمحه، وكان عليه اذا ما نفذ قرارات المجمع، الذى عده فى رسائله يصدر بوحى من الروح القدس[1] أن يبدأ بنفسه أولا وعشيرته الأقربين، هذه ناحية. والأخرى أنه لو كان صادقا ما يرويه سقراط لكانت قسطنديا، بفعل ذلك الرجل، أشد حبا لآريوس وأكثر حماسا لقضيته، ومن ثم يضحى تأثيرها على الامبراطور أوقع. الا أنها لم تخبر أخاها بشئ عن آريوس ولم تطلب منه عنه عفوا ولم تسأله صفحا. وفوق هذا وذاك ما يكنه الامبراطور ليوساب جزاء تحديه للاساقفة وتبجحه فى حضرة الامبراطور. وفى رسالة قسطنطين الى أهالى نيقوميديا نقف على مدى الاتهامات التى يقذف بها الامبراطور أسقف المدينة. ويقول زنوس Zenos أن سقراط ذكر تلك الحادثة فى غير موضعها، والذى نعلمه أن قرار العفو عن يوساب وثيوجنس قد صدر فى سنة ٣٢٨ أى بعد أن أمضيا فى النفى ثلاث سنين سويا [٢].

أما رواية سوزومين فنقف منها على أن الامبراطور قد أعاد آريوس من منفاه أولا، ولكن قرار منعه من دخول الاسكندرية ظل ساريا، وسرعان ما عاد كل من يوساب النيقوميدى وثيوجنس

(1) EVSEB. vita. Const. III, 17.

(2) Zenos, introduction to (SOCRAT. hist eccl. Nicene) II, p. 19, n. 1.

(*) كان حرق الكتب فى هذه الفترة وحتى المانيا النازيه من وسائل محاربة الأفكار المخالفة.

فاجمع هذه الكتب التى وضعها واضل الناس بها واحرقها(*). ففرح الملك بكتابه ومجد الله وفعل كل ما قاله له. وكتب الجواب يساله ان يصلى على مملكته، ففرح الاب كيرلس بذلك ووضع ميامر ومقالات يدحض فيها اقوال يوليانوس الملك، ويبكت افعاله وان الملاك اهلكه فى الحرب مثل شاول، وقال فيه اقوالا كثيره.

(*) نسطور والانشقاقات المذهبية:

وبعد هذا وصل إليه خبر نسطور(*) ومقالته الفاسده، فحزن لذلك وقال: ما مضى بعدكفر

النيقى الى كنيستهما بعد أن قدما الى الأساقفة وثيقة توضح عقيدتهما وأنهما انما يتبعان الايمان القويم حسبما قرره مجمع نيقية[١].

ويبدو أن الأمر اختلط على سقراط فعد جهاد يوساب بعد عودته من المنفى لقبول آريوس فى كنيسة الاسكندرية ثانية، وكان الامبراطور قد عفا عنه ولم يعد إلى الاسكندرية بعد، سعيا للعفو عن آريوس الذى كان الامبراطور قد أصدر فعلا قرار عفوه عنه.

والذى نراه أن الامبراطور وقد رأى المجمع لم ينجح فى القضاء على الآريوسية وأن خطرها لازال كامنا فى أفئدة الكثيرين، وهاهم الان يعودون من جديد لجمع صفوفهم فى مصر متضامنين مع الفريق المليتى، فى الوقت الذى أحست فيه الكنيسة الجامعة بقوتها، بعد هذا الاجماع الكبير على صيغة قانون الايمان النيقى، وبعد أن رأت نفى زعماء خصومها على يد الامبراطور، ولهذا أيقن قسطنطين تمشيا مع سياسته أن السبيل الوحيد لايجاد التوازن أن يعيد زعيم الآريوسية الى دائرة الكنيسة، وحتى يضمن أيضا بذلك صمت مشايعيه والتخلص من خطر هذا الانقسام فى الرأى، على هذا النحو بدأ قسطنطين يكاتب آريوس يدعوه للعودة الى حظيرة الايمان القويم. وقد حفظ سقراط رسالة بعث بها الامبراطور الى آريوس جاء فيها:

(1) SOZOM . hist. eccl. II, 16.

يوليانوس حتى جا تجديف نسطور بطريرك القسطنطينيه. فلما تحقق كيرلس فساد مقالة نسطور كتب إليه يقول هكذا: كيرلس بطريرك اسكندريه يكاتب نسطور بطريرك القسطنطينيه بسلام الاخوه في الله الحقيقي الذى وهب لنا النعمه واحده، وجعل جميع المسكونه في اتفاق وفكر واحد بسفك دمه التي هي الامانه بابن [بأبن] يسوع المسيح. وباقي الرسالة معروف لم يكتب في هذه السيره. وأعاد [نسطور] اليه

نسطور: ولد بجرمانيقية المعروفة الآن بمرعش في سورية وأظهر في مبدأ أمره غيرة ضد الاريوسيين والابوليناريوسيين حتى ارتقى الكرسي القسطنطيني وقال في خطاب يوم رسامته «سلمني أيها الملك الأرض خالية من الهراطقة فاسلمك السماء» وقال بعضهم «أن نسطور حارب جميع الهرطقات ليمهد السبيل الى هرطقته» فانه ما عتم أن جلس على الكرسي حتى أخذ يعلم أنه لما كان الجزء اللاهوتي من طبيعة المسيح لم

«لزمن مضى بلغ نيافتكم أن في مقدوركم الوفود الى مقامنا بغية الحصول منا على لقاء، وكم كانت دهشتنا بالغة لتوانيكم في الاقدام. وعليه اذن.. بادروا بالارتحال مسرعين الى بلاطنا، وعندما تحسون رحمتنا بكم وتقديرنا اياكم تضمنون العودة الى دياركم. دعائي الى الله أن يحفظكم عزيزي»[١].

ويعلق سقراط على هذه الرسالة بقوله: تلكم هي رسالة الامبراطور الى آريوس وما أنا بمستطيع القول شيئا سوى أن أبدى اعجابي لتلك الغيرة والحماسة التي أظهرها الامبراطور من أجل الديانة[٢]!!

ويتضح من رسالة الامبراطور عدة أمور على جانب كبير من الأهمية، فهذه الرسالة لم تكن الوحيدة بين الرجلين، ولكنها كانت الأخيرة كما نعلم من سقراط[٣]. فحديث الامبراطور يوحي أنه بعث الى آريوس قبلا يدعوه للحضور اليه، وآريوس يتجاهل. ويبدى الامبراطور دهشته الكبيرة لذلك الاحجام من جانب آريوس، والرسالة تحمل في طياتها نغمة عتاب للرجل على توانيه في المثول أمام الامبراطور رغم أن ذلك عرض عليه أكثر من مرة، كما

(1) SOCRAT. hist. eccl. I, 25.

(2) Id.

(3) Id.

يولد من العذراء فلا يحق أن تسمى أم الله بل والدة المسيح الإنسان وقصد بذلك أن يمهد السبيل الى أنكار الوهية المسيح الذى قسمه الى شخصين معلما أن اللاهوت لم يتحد بالناسوت بل ساعده فقط. وصرح مرة فى خطبة قائلا «كيف أسجد لطفل ابن ثلاثة شهور قد سجد له المجوس» وقال أيضا «كيف يكون لله أم فاذا يستحق المعذرة الحنفاء الذين كانوا يأتون بأمهات آلهتهم فى ملاعبهم. وقد كتب الرسول عن

الجواب بتجديف. فكتب انبا كيرلس الى الاساقفه يعلمهم حال نسطور، فاجتمعو اليه وقالو له قد سمعنا خبره وهذه حادثه صعبه لن [لأن] اريوس واشياعه وبولا ومانى وغيرهم من المخالفين ما كانو بطاركه، وقد اضلو جماعه من الناس فكيف هذا بطرك القسطنطينيه. فكتب اليه الاب كيرلس كتابا ثانيا [مملو نعمه وحكمه ويحذره ويخوفه] يقول فيه كلاما كثيرا من جملته: اننى ما اصدق ما حكى لى عنك. ويعظه ويخوفه ويعرفه الايمان

- -

يتضح أيضا مدى لهفة قسطنطين على استقبال الرجل وكأنه يغريه بفيض رحمته وسماحته بالاذن له بالعودة الى الاسكندرية، ولعلنا ندرك من قول الامبراطور هذا مدى حرصه على الحفاظ على وحدة الامبراطورية واقرارا السلام بها، وذلك شئ يفسره سقراط بغيرة الامبراطور وحماسته الدينية!!

أمام الحاح الامبراطور جاء آريوس الى القسطنطينية بصحبه يوزيوس الشماس الذى كان اسكندر [الكسندروس] قد حرمه باعتباره نصير اريوس عند بداية الجدال بين الرجلين(١)، وقد استقبلهما الامبراطور وسألهما عما اذا كانا قد وافقا على قانون الايمان النيقى، فأعطياه موافقتهما، فطلب اليهما أن يقدما اليه مكتوبا يؤكد قولهما(٢)، فاستجاب آريوس وصحبه لأوامر الامبراطور وقدما اليه الصيغة التالية:

«آريوس ويوزيوس.. الى سيدنا التقى الورع قسطنطين الامبراطور.. أيها السيد الحاكم، وفقا لأمر جنابكم البار ها نحن نعلن ايماننا، ونعترف أمام الله كتابة أنا وأشياعنا نؤمن هكذا.. تؤمن باله واحد.. الآب القدير.. وبالرب يسوع المسيح ابنه المولود منه قبل الدهور. الله الكلمة الذى نزل وتجسد، وتألم، وقام ثانية وصعد الى السماء،وسوف يأتى ثانية ليدين الأحياء

....

(1) THEOD. hist. eccl. I, 3.

(2) SOCRAT. hist. eccl. I, 25.

المستقيم ويسيله [يسئله] ان يرجع عن قوله الكفر، ويعلمه انه لا يقدر ان يضاد الله الذى صعد على الصليب من اجلنا. وهذه نسخته: الى الاخ الشريك فى الخدمه، ما صدقت فيك ما قيل عنك اولا، والكتب التى وصلت إلى وقيل انك كتبتها لم اصدق ايضا ما فيها انه منك، لان الاقوال الكذب قد تنسبت الى القديسين، لانها كتب مملوه تجديفا وانا الان اوصيك ان تبعد عن هذا التجديف وهذه الخصايم فليس لك قدره على محاربة الله الذى

لاهوت المسيح انه بلا أب ولا أم ولا ميلاد. ان مريم لم تلد الهاً بل ما يولد من الجسد ليس الا جسد وما يولد من الروح فهو روح. ان الخليقة لم تلد الخالق بل ولدت انساناً آله للاهوت».

ولما انتشرت بدعته قاومها البابا كيرلس كما ذكر وفرز حرمه ونفى الى ديرة الأول عله يرعوى عن غيه فلم يقلع عنه بل صار ينفث سمومه برهبان ذلك الدير ولذلك نفى إلى أخميم بصعيد مصر وظل منفياً حتى مات.

والأموات . (نؤمن) أيضا بالروح القدس، بقيامة الجسد، بالحياة الاخرة، بملكوت السماوات. بكنيسة لله واحدة تمتد فوق كل أرضين.

هذا الايمان عن الأناجيل المقدسة تلقيناه، حيث يقول السيد لتلاميذه: اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الاب والابن والروح والقدس (متى ١٩/٢٨).

وانا ان لم نؤمن ونتقبل بحق الآب والابن والروح القدس كما تبشر الكنيسة الكاثوليكية والكتب المقدسة (التى نؤمن بكل ما جاء فيها) فالله قاضينا كلينا الان ويوم الدينونة، أيها الامبراطور القانت. نضرع الى تقواكم، نحن يا من كرسنا للاكليروس، يا من نتمسك بعقيدة وفكر الكنيسة والكتب المقدسة.. هلا سمح ورعكم وتقواكم بعودتنا ثانية الى أمنا الكنيسه. ولنلق جانبا سطحى المسائل والجدال. عندما نغدو كلانا والكنيسة وقد احتوانا سلام.. لعهدكم الأمين، ولأجل الاسرة كلها نقدم صلواتنا والابتهال»(١).

وأول ما يلفت النظر أن صيغة الايمان هذه جاءت خلوا من عبارة «من نفس الجوهر» (الهوموسية) وهى التى دار حولها الجدل طيلة طرح هذه القضية فى المجمع، وهى العبارة التى أخبر يوساب القيسارى ان الامبراطور نفسه هو الذى اقترح اضافتها الى العقيدة. يضاف الى

(1) SOCRAT. hist. eccl. I. 26.

صلب عنا بالحقيقة ومات بالجسد وهو حى بقوة لاهوته وهو الجالس عن يمين الاب، والملايكه له تسجد والسلاطين والقوات، وهو الملك الازلى الذى اسلم الاب كل شى فى يديه، وهو خالق الكل ولا قدرة لك على مقاومته، فانى انا قلت لك ما حل باليهود مقاوميه فليس انت غير عالم به وبما حل بالهراطقة اعنى سيمن [سيمون] الساحر ويوليانوس الملك واريوس. وهو ذا ايوب الصديق يقول: انظرو جراحاتى وخافو ومجدو الله. وانا

أما أتباع نسطور فاهتموا بنشر بدعته بعد موته وأسسوا لهم مدرسة بالرها ثم طردوا منها فلجأوا الى نصيبين وشرطنوا لهم رئيسا أطلقوا عليه لقب «جاثليق» واستمروا يذيعون بدعتهم ويوجد منهم لليوم فريق فى جبل سنجار على حدود ايران وفى ملبار بالهند.

مجمع أفسس المسكونى الثالث:

انعقد سنة ٤٣١ بأمر ثيودوسيوس قيصر تحت رئاسة البابا كيرلس الاسكندرى حضره مائتا أسقف

هذا خلوها أيضا من عبارة «مولود غير مخلوق» وهى التى ادخلت أيضا برأى المجمع على مرسوم الايمان القيارى. ويقول جونز ان صيغة الايمان التى قدمها آريوس ويوزيبوس كانت فى جملتها مختصرة ماكرة[1]. وعلى الرغم من كل هذا فان الامبراطور لم يلق بالا الى هذه الموضوعات التى كانت سببا فى الانقسام، لعدم ادراكه لعمق هذه الخلافات اللاهوتية، متلهفا على اعادة الوحدة الى الكنيسة والدولة، فعد هذه الصيغة اعترافا من الزعيم الآريوسى بمرسوم الايمانن النيقى، وقبل منه وزميله ذلك، وقد رآه حسنا، واستجاب لنداء الرجلين الذى جاء فى نهاية ملتمسها، وأصدر أو امره بالعفو عن آريوس وصاحبه. ولم يلبث الامبراطور أيضا أن قرر استدعاء كل من يوساب وثيوجنس من المنفى، وأمر بعودتهما ثانية كل الى كنيسته بعد أن قدما وثيقة توضح عقيدتها وأنهما يتبعان الايمان القويم[2]. وكان هذا يعنى بداهة عزل الأسقفين البديلين أمفيون وكرستيوس اللذين اختيرا من قبل.

ولعلنا ندرك خلال كل هذه الحوادث دور الامبراطور فى تحريكها، فلقد تكفل بمراسلة آريوس ودعوته الى بلاطه وطلبه اليه تقديم صيغة للايمان موافقة الكنيسة، وقبوله بنفسه لهذه

(1) Jones, Constantine, p. 175.

(2) SOZOM. hist. eccl. II, 16.

اقول، ان البيعه لا تصبر عليك ان تشتم الاهنا وهى التى ابواب الجحيم لا تقهرها، وانت تعلم ما نالها من التجارب [المحن] ولم يقدر احد عليها لانها هى كالصخرة فى الامانه، فانظر انت ما تفعل الان والسلام.

فلما وصلت هذه الرساله الثانية الى نسطور كتب ايضا رساله مثل الاولى ملانه تجديفا، فلم ان وصلت الى الاب كيرلس كتب اليه رساله تالته من نبوات الانبيا ومن الانجيل والرسايل وارسلها له.

لمحاكمة نسطور الذى أنكر أن السيدة العذراء والدة الاله وعلم باقنومين فى السيد المسيح فحكم المجمع بحرم هذه البدعة وأثبت ان فى السيد المسيح اقنوما واحدا وطبيعة واحدة من بعد الاتحاد بدون اختلاط ولا امتزاج ولا استحالة ثم وضعوا مقدمة دستور الإيمان التى هى «نعظمك يا أم النور الحقيقى ونمجدك أيتها العذراء القديسة والدة الاله لانك ولدت مخلص العالم أتى وخلص نفوسنا. المجد لك يا سيدنا وملكنا المسيح فخر الرسل اكليل الشهداء تهليل

الصيغة دون أن يرجع فى شئ من هذا كله الى أى من رجال الكنيسة، ولم يطلب اليها رأيا أو يستمد نصحا. وذلك شئ لم يكن من غير الطبيعى فى شئ ما دامت الكنيسة قد هللت للامبراطور وهو يترأس مجمع أساقفتها ويتدخل بنفسه فى أمور العقيدة بالحذف والاضافة، فلا غرو اذن أن يحرم الامبراطور، ويمنع، وأن يعفو ويصفح دون أن يرهق فكر الكنيسة بشئ من هذا. واستسلمت الكنيسة طوعا وكرها، فوضع قسطنطين بذلك لخلفائه سنة احتساب الكنيسة دائرة من دوائر الحكومة، للأباطرة حق تعيين كبار موظفيها وعزلهم.

غير أن شيئا لم يكن فى الحسبان جاء قسطنطين على غير توقع، وبدد حلم سلامه وأمل الوحدة لديه، ذلك أن كنيسة الاسكندرية رفضت الانصياع لأوامر الامبراطور، ووقفت وحدها، على الأقل، من بين كنائس الامبراطورية تدافع عن الايمان النيقى الأرثوذكسى متحدية الامبراطور، ضاربة بعرض الحائط قراراته ورغبات بطانته الكنسية الجديدة. وذلك فى عهد شخصية تعد من أقوى الشخصيات المصرية هو أثناسيوس، أسقف الاسكندرية، شماس المجمع النيقى الشهير، الذى تولى الأسقفية خلفا لسلفه اسكندر عام ٣٢٨ [٣٢٦ عند ساويرس]، فبدأ بهذا الرجل فصل جديد من فصول الصراع بين الكنيسة والدولة لم يسدل عليه الستار الا فى القرن السابع والمسلمون على أبواب مصر.

٢٤: كيرلس ٤١٢/٤٤٤م

يقول: انك لم تكن اسقفا ولم يكن احد يعرفك إلا جيرانك واقرباك، فلما جلست على كرسي ابن الله عرفك كل واحد لجل [لأجل] مجد البيعه فوثبت على الرب بكلام تجديف لاتقدر تثبته ولا تحققه، واذا فتشت [الكتب] العتيقة لم تجد فيها ان المسيح يسمى انسانا محضا كما تزعم، وانما انت تظهر انك تقاوم الله خالقك الذى اشتراك بدمه وهو الله الابن ابن الله الاب كما سمي في الكتب العتيقه والحديثه، وكما سمي في انجيل يوحنا انه

الصديقين ثبات الكنائس غافر الخطايا نكرز ونبشّر بالثالوث المقدس لاهوت واحد نسجد له ونمجده يارب ارحم يارب ارحم يارب بارك آمين» ثم أمروا بأن يقرأها كل المسيحيين من الكهنة والشعب شيوخاً وصبيانا ورجالا ونساء في الصلوات والقداسات وبعد أن ثبتوا الكنيسة بالقوانين انصرفوا إلى بلادهم.

أوطاخي: كان راهبا مترأسا على دير بالقرب من القسطنطينية به ٣٠٠ راهب وكان قد قاوم نسطور وأساقفته برسالة وشكاه لمجمع أفسس حيث

- -

خيل للامبراطور أن سنوات عمره الباقية ستنقضي في هدوء كان دائما ينشده، فها هو آريوس نفسه قد عاد الى الاعتراف. على الأقل من وجهة نظر الامبراطور، بالايمان النيقى، وها هم صحبه قد سلكوا أيضا نفس السبيل، ولم يبق اذن الا أن يقبل الأسقف السكندرى أثناسيوس آريوس في الكنيسة ثانية. ولكن الامبراطور كان واهما في تصوره، فالأساقفة الآريوسيون وان كانوا قد أبدوا موافقتهم وبصورة غامضة على ما قرره أساقفة نيقية الا أن ذلك لم يكن صادرا عن رغبة أكيدة في اعتناق هذا الايمان فعلا. وذلك شئ برهنت عليه أحداث ما يقرب من قرن من الزمان. ولكنهم كانوا في حقيقة الأمر يؤمنون تمام الايمان أن آريوس على اليقين وأن خصومه عن الحق بعيدون. ومن ثم راحوا يسعون جاهدين لكسب الامبراطور الى جانبهم لتأييد قضيتهم . وساعدتهم على ذلك الأحداث.

يخبرنا سقراط [١] وسوزومين [٢] أن يوساب النيقوميدى وثيوجنس النيقى قد حظيا لدى الامبراطور وعقب عودتهما من المنفى بمكانة كبيرة وحرية في القول وتأثير كبير على الامبراطور، وقد يبدو ذلك عجيبا اذا ما عدنا الى الرسالة التى بعث بها الامبراطور الى أهالى

....

(1) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.

(2) SOZOM. hist. eccl. II, 22.

الابن الوحيد الذى فى حضن ابيه، ومتى الانجيلى يقول انه «عمنويل» الذى تفسيره «الله معنا» كما قال اشعيا فى نبوته، ومرقس يشهد فى انجيله انه لما ساله ريس الكهنه وقال له:انت ابن الله قال له: نعم انا هو ومن الآن ترون ابن الله جالسا عن يمين القوه ومقبلا على السحب ليدين الاحيا والاموات. اليس هذه الشهاده هى التى يشهد بها بولس. انها الاعتراف الحسن الذى به قدام بلاطس البنطى، هذا الاعتراف هو الذى البيعه ثابته عليه، ولاجله

ذهب بشخصه ليشهد على ضلاله ولهذا كان أصدقاء البابا كيرلس يعتبرونه من المحامين عن الإيمان. وفى سبيل المدافعة عن مقام المسيح ضد نسطور تطرف فى التعبير عن طبيعته فقال أن طبيعته الناسوتية اندمجت فى اللاهوتية وحرم هذا التعليم فى المجمع الافسى الثانى سنة ٤٩٤م الذى ترأسه البابا ديوسقوروس الا أن أوطاخى اعترف بايمان مجمع نيقية فحل من حرمه وقام بنشر مذهبه الآب بارسوما وتلميذه صمونيل بين الارمن سنة ٤٦٠م.

نيقوميديا يوضح لهم فيها خبائث يوساب ورفيقه، ولكن سرعان ما يزول العجب اذا أدركنا أن الامبراطور كان يبغى كسب ولاء انصارهما، ومن ثم قربهما الامبراطور اليه متغاضيا عن كل ما جرى على قلمه عنهما أنفا. هذا من ناحية، ومن الأخرى فقد قدم الرجلان لقسطنطين وثيقة ايمان عدها قويمة وارتضى بها أرثوذكسيتهما. أما الثالثة فقد كان للاتجاه الذى اتخذه أثناسيوس السكندرى أكبر الأثر فى ايغار صدر الامبراطور عليه وتقريبه بالتالى لخصومه الذين وجدوا فى ذلك أعظم الفرص لبلوغ غاياتهم.

سعى الشيخان لدى الامبراطور لاعادة آريوس ثانية الى كنيسة الاسكندرية، وكان قسطنطين على وعده الذى وعد به آريوس فى رسالته الأخيرة اليه، فكتب الى الأسقف السكندرى يطلب اليه قبول آريوس[1].كما كتب يوساب النيقوميدى أيضا الى أثناسيوس بهذا المعنى، وان كانت لهجة يوساب تحمل ضمنا معانى التهديد [2]. غير أن أثناسيوس أرسل الى الامبراطور ما يفيد عدم قبوله الزعيم الاريوسى فى بيعته [3].

(1) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.

(2) SOZOM. hist. eccl. II, 18.

(3) ATHANAS. Apol. C. Arian. 60.

صارت ربوات شهدا لا يحصى عددهم. الم تسمع جبرايل الملاك يقول للست السيده(*) مرتمريم ان الذى تلدينه هو من روح القدس وابن الله يدعى، الذى على الكل الممجد الى ابد الابدين. من هذا الذى حمل خطايا العالم. اليس هو يسوع المسيح ابن مريم الذى ولدت لنا الله الكلمة متجسدا. ان كنت تعتقد انه نبى كموسى فما قدر موسى ولا احد من الانبيا يحمل خطايا العالم، لكن ريس الصلاح المسيح حمل خطايا

(*) الست السيدة مرتمريم: تعنى الست هنا «إيزت» أى إيزى: ايزيس، وليس معناها كما يتوهم البعض السيدة لأنه، كما هو واضح هنا أن إيزت لحقت بها كلمة السيدة. ومن الملاحظ أن المصريين يطلقون على كل القديسات ونساء آل البيت لقب «الست».

ذلك أمر لم يكن يتوقع الامبراطور حدوثه. فقد حسب أن أحدا من رجالات الكنيسة قل شأنه أو كبر لا يملك المقدرة للاعتراض على أى قرار للامبراطور، ومن ثم استشاط غضبا لهذا الذى يسمع ويرى!! وزاد الطين بله أنه قد بلغه أيضا أن أثناسيوس رفض قبول المليتين فى الكنيسة، واحتج على اختيار يوحنا المليتى خلفا لمليتيوس[1]. وكان المليتيون قد جأروا بالشكوى للامبراطور من المعاملة التى يلقونها على يد أسقف الاسكندرية، ويصور سوزومين حالة قسطنطين عندئذ أحسن تصوير حيث يقول «أصبح الامبراطور من أمره فى حيرة.. أى الفريقين يصدق؟! لقد كان أمامه كثير من الاتهامات التى الصقوها ببعضهم، وهناك أيضا العديد من البيانات والأدلة التى قدمها الطرفان، فلما عاين الامبراطور ذلك كله استبد به القلق وبلغ به الغضب حدا كبيرا» [2]. فكتب فى محاولة لاعادة الوئام، الى أثناسيوس متوعدا، وحمل الرسالة اثنان من موظفى القصر هما سينكلتيوس Syncletius وجاودنتس Gaudentius[3] وجاء فيها:

«أنك ولا شك تعى تماما ارادتنا، لا تحل البتة بين أى فرد ورغبته فى دخول الكنيسة،

(1) SOZOM. hist. eccl. II, 22.
(2) SOZOM. hist. eccl. II, 22.
(3) ATHANAS. Apol. C. Arian. 60.

العالم بصعوده على الصليب من اجلنا. الم نسمع بولس الرسول يقول: ليس هو انسان بل هو الله صار انسانا. ويقول ايضا بولس: ان ليس ملاك ولا شفيع خلصنا بل يسوع المسيح والله الاب اقامه من الاموات. أرايت الان كيف اعترف انه الاه، وكيف اعترف بالالام التى قبلها بجسده المقدس، فان كان ليس هو الاها فكيف اعترف بولس ان خلاصنا ليس هو من انسان ولا من عند انسان ولا ملاك ولا شفيع لكن من عند الله يسوع المسيح،

ولتدرك جيدا أنه اذا ما نما الى علمنا أن أحدا ممن يرغبون فى العودة الى الكنيسة قد حيل بينه وبين ما يشتهى لأبعثن على التو من يقوم بعزلك انفاذا لمشيئتى ويرسل بكم الى المنفى»[١].

ويبدو أن الامبراطور لم يكن جادا فى تهديده هذه المرة، فقد قصد بذلك مجرد قهر أثناسيوس على الامتثال لأوامره، وذلك شئ دلت عليه الأحداث بعد ذلك وأوضحه تعليق سقراط على هذه الرسالة بقوله ان الامبراطور ما أقدم على ذلك الا مدفوعا بالرغبة فى نشر الخير العام وعدم رؤية الكنيسة ممزقة، فطالما جاهد الامبراطور ليجمع على الوئام صفوفهم»[٢].

ومهما يكن من أمر فقد اتضح الآن أن الفريق الاريوسى قد بدأ يفيق الى حد بعد الكلمة التى كالها له مجمع نيقية، وأخذ الامبراطور بالتالى يدخل هذ الظاهرة فى اعتباره ويحسب بدقة حسابها، الا أن أحداثا أخرى وقعت خارج الاسكندرية جذبت اهتمام الامبراطور الى حين، وكان منشؤها كما يقول سقواط ما تبين خلال الرسائل التى تبودلت بين الأساقفة عقب مجمع نيقية، أن عبارة «من نفس الجوهر» قد سببت المتاعب للكثيرين منهم، ولذلك فانهم شغلوا أنفسهم بفحص دقيق حول فحواها مما أدى بالتالى الى اشعال نيران الجدال بينهم ثانية، ويضيف سقراط، يبدو أن المسألة كانت نزاعا فى ظلام لأن أحدا من الحزبين لم يحاول فهم

(1) SOZOM. hist . eccl. II, 22.

(2) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.

السمكة والحمامة رمزا المسيح

واعترف ايضا بموته، اذ قال ان الاب اقامه من بين الاموات فرايت الان هذه الحكمه المملوه امانه بسيدنا المسيح، والان فقد انفدنا اليك هذه المكاتبه ايها الاخ لتدخرها في وسط البيعه، وليس انت غيرعارف فاقرا الكتب لتعلم منها هداواكثر منه، وقد انفدت اليك الاخوه وسالتهم ان يقيمو عندك لتبحث وتجتهد شهرا وتفحص الكتب وتكتب لنا بما عندك والسلام.

فلما وقف نسطور على هذه الرساله لم يقبل

موقف الآخر والأسس التي يعتمد عليها، فهؤلاء الذين يعارضون هذه العبارة يعتقدون أن أنصارها يتحمسون لاراء سابليوس ومونتانوس، ومن ثم أطلقوا عليهم مجدفين أو ملاحدة. هذا على حين يتهم أصحاب هذه العبارة خصومهم بالشرك والقول بتعدد الآلهة معتبرين أياهم وثنيين يؤمنون بالخزعبلات، وعلى هذه الشاكلة أتهم يوستاتيوس Eustathius أسقف انطاكية يوساب أسقف قيساوية بالمروق عن قانون الايمان النيقى، فأنكر يوساب ذلك ورد التهمة اليه بأنه مدافع عن أفكار سابليوس،ونتيجة لذلك أو لسوء الفهم هذا، على حد تعبير سقراط، كتب كل منهما كما لو كان يناضل عدوا لدودا.

الحقيقة أن لدينا عديدا من الروايات عن الاتهامات التى سيقت ضد يوستاتيوس، فيوساب صاحب النزاع معه لا يعطينا أى تفصيلات عن أسباب هذا النزاع، ولعل ذلك قد يبدو متفقا مع نهجه في كتابه «حياة قسطنطين»، ولا يذكر شيئا عن هذه الحوادث سوى أن «تدابير الشيطان وعيون الحاسدين» هي التى أحدثت هذه الاضطرابات فى أنطاكية بزعامة يوستاتيوس[1]. أما أثناسيوس فانه يثنى على الأسقف الأنطاكى ويمتدح خصاله وقويم ايمانه مما لم يرضى خصومه الآريوسيين فكالوا له التهم عند الامبراطور مدعين بأنه أهان هيلينا[2].

---

(1) EVSEB. vita const. III, 59.

(2) ATHANAS. hist. Arian. 4.

الاخوه الواصلين بها اليه ولا قبلها ولا كتب عنها جوابا. فاقاما شهرا كاملا هناك كما امرهم انبا كيرلس البطرك وهم يترددون الى نسطور فلم ياذن لهم فى الدخول بل قسى قلبه متل فرعون. وكان نسطور صديقا لتاودوسيوس الملك منذ كانا فى المكتب [الكتاب او المدرسة] وكان الملك يقول له: ما سمعت احدا من معلمى البيعه يقول مثل قولك قط. فلم يسمع منه. فعاد الرسل الى الاب كيرلس وأعلموه بما كان، فعند ذلك تقوى

على حين أن ثيودوريت يوسع دائرة الخلاف لتشمل يوساب النيقوميدى معتبرا اياه سبب كل هذا البلاء، ويقول انه أبدى رغبته للامبراطور فى السفر الى أورشليم لحضور الاحتفالات المقامة لتدشين الكنيسة التى أقامها الامبراطور هناك. ولما كان قسطنطين قد اطمأن لأقواله فقد سمح له بذلك وزوده بكل ما يحتاج اليه فى حله وترحاله، ولما كان ثيوجنس أسقف نيقية صديقه الحميم فقد اصطحبه معه فى سفره، فلما وصلا الى الأماكن المقدسة تلاقت وجهتا نظرهما مع من يشاركونهما الرأى فى فكرهما خاصة يوساب أسقف قيساوية، وباتروفيلوس أسقف بيسان، وآيتيوس أسقف اللد وثيودوتوس أسقف اللاذقية، وأخرين غيرهم يتعاطفون مع العقيدة الاريوسية، وقر رأيهم على تدبير «مؤامرة» معينة. ومن ثم رحلوا الى أنطاكية وكان ادعاؤهم الذى زعموه لهذه الرحلة هو رد اعتبار يوساب[1]. ولكن الغموض يكتنف هذه القصة، فالاحتفال بتدشين كنيسة أورشليم تم عام ٣٣٥، بينما وقعت هذه الاحداث سنة ٣٣٠[2]. وعلى الرغم من تعدد هذه الروايات الا أن الاجماع عندهم على أن مسألة العقيدة والخلاف بين الرجلين بشأنها كان السبب الرئيسى فى حدوث هذه الاضطرابات. ولحسم هذا الخلاف

(1) THEOD. hist. eccl. I, 20.

(2) McGiffert, op. cit. p. 21; Latourette, Christianity, p. 158; F. Jackson, op. cit. p. 316; Palanque, Bardy, Labriolle, op. cit. III, p. 102.

كيرلس بسلاح ابويه الاكسندرس واتناسيوس ولبس درع الايمان الذى خلفوه ابهاته فى بيعة مارى مرقس الانجيلى وخرج الى الحرب مثل داود وقلبه ثابت بالمسيح الله، وكتب الى بقية الاساقفه وكاتبو الملك يسالونه ان يكون لهم مجمع للنظر فيما قاله نسطور، ويذكرون له ان أبهاتهم الذين ملكو قبله كانو فى كل وقت وزمان يرتبون البيعه، وكان لهم الصبر الجيد ومساعدة الاساقفه على تثبيت الامانه المستقيمه لكي يصلوا على

دعا الى عقد مجمع فى أنطاكية[١] ترأسه يوساب القيسارى[٢]. ويسوق ثيودوريت صورة من الاتهامات التى وجهت ضد يوستاتيوس[٣]، ولكن هذه الاتهامات تبدو غير حقيقة لأنها لم ترد فى كتابات سقراط أو سوزومين أو أثناسيوس. ولكنا نعلم من سقراط أن كيروس Cyrus أسقف بيرويا Beroea (حلب) قد تولى مهمة الادعاء ضد يوستاتيوس، فاتهمه بأنه يردد نفس الآراء السابيلية[٤]. ولما كانت غالبية الحاضرين فى المجمع من مؤيدى يوساب تم عزل يوستاتيوس من منصبه[٥]، وأصدر الامبراطور أوامره بنفيه الى ترجانابوليس فى تراقيا[٦]. وحول ما يقوله سقراط عن عزل أسقف أنطاكية تتضح الحالة التى كانت تسود الكنيسة عندئذ، والعداوات المتاصلة بين رجالها، فبعد أن يسوق حادث العزل يقول ان هذا الاجراء قد اتخذ لأسباب غير مقنعة، وقد كان هذا أمرا شائع الحدوث، فقد اعتاد الأساقفة أن

(1) EVSEB. vita Const. III, 60.

(2)Downey, op. cit. p. 352.

(3) THEOD. hist. eccl. I, 20.

(4) SOCRAT. hist. eccl. I, 24.

(5) EVSEB. vita Const. III, 60; SOCRAT. hist. eccl. I, 24;

(6) HIER. vir. ill. 85.

ملكهم ، والان فهذا نسطور قد شتت البيعه وليس هو بعيدا من ضلالة عبادة الاوثان بقوله المجدف المملو تجديفا اذ قال ان المسيح انسان فقط، وانه نبى لا غير وقد جا الى العالم انبيا كثير ولم يعبد احد منهم، فاذا كان هذا يعبد انسانا فقد صار عابد وثن. ولما قال بطرس لسيدنا المسيح: حسنا يا معلم ان نكون هاهنا ونتخذ تلت مظال واحده لك وواحده لموسى وواحدة لايليا لانه خالقهما والاههما، واظهر مجده لتلاميذه باحضارهما

يفعلوا ذلك فى كثير من الأحوال، يتهمون ويعلنون فساد أولئك الذين يعزلونهم دون أن يقدموا تبريرا لهذا العمل[١].

ما كاد المجمع يصدر قراره بعزل يوستاتيوس حتى شبت الثورة فى انطاكية وانقسم الناس الى فريقين، بين مؤيد للقرار ومعارض، وحمل كلاهما السلاح وأضحت المدينة على شفا الحرب الأهلية، وارتاع الامبراطور لهذه الأحداث، وأصبح الامر فى نظره غاية فى السوء، وامتلأ على حد تعبير سوزومين غيظا وحنقا، وأرسل على الفور من لدنه قائدا كبيرا خوله سلطات ضخمة لاخماد هذه الفتنة[٢] هو موزونيانوس Musonianus[٣] ووضع حد لهذا الاضطراب دون اللجوء الى العنف كلما أمكن ذلك[٤].

وتضطرب الروايات فيمن خلف يوستاتيوس على أسقفية أنطاكية، فسقراط[٥] وسوزومين[٦] يعطيانا اسم يوساب القيسارى مباشرة مرشحا لهذا المنصب، على حين نعلم من

(1) SOCRAT. hist. eccl. I, 24.
(2) SOZOM. hist. eccl. II, 19.
(3) Downey, op. cit. p. 352.
(4) SOZOM. hist. eccl. II, 19.
(5) SOCRAT. hist. eccl. I, 24.
(6) SOZOM . hist. eccl. II, 19.

الواحد من السما والاخر من الارض. ونحن نسيل ملكك الضابط ان يكون لنا مجمع للنظر في هذ، ونصلي عليك وعلى ملكك لتخلص ايها المحب لله. فلما قرا الملك الكتاب تحرك بقوة الرب وجمع الاساقفه الى مدينه افسس هو والبطرك، فاجتمع هناك ما يتا اسقف من ساير المدن كل واحد منهم معه قسيسان وشماس من كرسيه، وانفذو الى نسطور ليحضر وانتظروه عدة ايام فلم يحضر، فكتبو الى الملك واعلموه ان نسطور لم يحضر

رواية أخرى أن باولينوس أسقف صور قد خلف الأسقف الأنطاكي المعزول مدة ستة أشهر فقط[١]، ثم تبعه بعد ذلك يولاليوس Eulalius والذى لم يمض عليه الا زمن يسير وذلك حسب رواية ثيودويت[٢]. ثم رأى الأساقفة بعد ذلك ترشيح يوساب القيسارى لشغل كرسى الأسقفية الشاغر[٣] ويقول سوزومين: لقد دخل فى روع أولئك الأساقفة الذين اجتمعوا فى أنطاكية وأصدروا قرارهم بعزل يوستاتيوس، أن هذا القرار سوف يلقى استحسان الجميع عامة والامبراطور خاصة اذا ما رفعوا الى الكرسى الأسقفى بدلا منه رجلا يميل الى ارائهم معروفا لدى الامبراطور قريبا منه، مرموقا فى علمه وفصاحته. ومن ثم قر رأيهم على يوساب القيسارى، وكتبوا الى الامبراطور بخصوص هذا الموضوع وأكدوا له أن هذا الاقتراح يلقى استحسان الأساقفة ورضاء الرعية [٤]. غير أن يوساب رفض قبول هذا المنصب وكتب الى الامبراطور رسالة بهذا المعنى[٥].

---

(١) مات بالولينوس قبل مجمع نيقية. أنظر:

(2) McGiffert, op. cit. p. 45.

(3) THEOD. hist. eccl. I, 21.

(4) SOZOM. hist. eccl. II, 19.

(5) Id.; SOCRAT. hist eccl. I, 24.

فانهم ينتظرونه. فسال نسطور الملك ان ينفذ معه مقدما يحفظه وقال له انهم كثير وانا خايف ان يقتلوني، فانفذ معه بطريقا يقال له قنطيطيانوس وكان رايه راى نسطور. فلما وصل الى المجمع اخذ كيرلس في الليل حبسه في موضع فيه قمح هو واصحابه فقال كيرلس لاصحابه: اى شي تحت ارجلنا؟. قالوا له:قمح. قال الشكر لله المبارك الذى اعطانا الغلبه لانهم جعلونا في بيت الحياه. وكان فعل قنطيطيانوس هذا مساعدة لنسطور ليخيف

وكان قرار يوساب بعدم قبول هذا الكرسى الشاغر دليل حصافة وحسن رأى من جانبه. فقد رأى أن انقسام الأنطاكيين سوف يزداد حدة اذا ما رأوا أن يوساب خصم يوستاتيوس اللدود قد أصبح أسقف المدينة، وكان يوساب غير راغب في احداث صدع في الكنيسة(1). هذا بالاضافة الى أن هذا المكان الجديد ما كان ليجذب رجلا في مثل عمر يوساب كان مزاجه آنئذ محبا للسلام وذوقه مدرسيا، ففى قيسارية قضى يوساب الجزء الأكبر من حياته، وبها مكتبة أستاذه بامفليوس تحت تصرفه،و كما أن الفرصة له هنا سانحة لمتابعة أعماله الأدبية والعقائدية. أما في أنطاكية فلسوف يجد نفسه مرغما على الغوص في فتن من كافة النواحي.وسوف يجد نفسه ملزما لتكريس انتباهه في انجاز مهامه الرسمية وحدها.

هذا من ناحية، ومن الأخرى لا يخفي علينا علاقة يوساب بالامبراطور، وكان الأول يعلم مدى حرص قسطنطين على وحدة الكنيسة وبالتالى وحدة والدولة، ويدرك تماما ما انتاب الامبراطور من ضجر وغيظ لدى سماعه بانقسام رجال الكنيسة في مصر وما جره هذا الانقسام على كنائس الشرق من فرقة وتخاصم. ولذلك ما كان يوساب يرغب مطلقا في أن يزيد الى آلام الامبراطور جرحا آخر بالعمل على استفحال الفوضى والاضطراب والشقاق في أنطاكية. وما كان ليجر على نفسه غضب الامبراطور ونقمته، بل لا شك أن يوساب كان يعلم

(1) McGiflert op. cit. p. 22.

كيـرلس ومن معه من الاساقفه المجتمعين به حتى يتفرقو فلم يتم له ذلك، فانهم ماكانو اجتمعو الا وقد ابذلو نفوسهم للموت على الأمانه. فلما تحقق منهم ذلك اطلق كيـرلس واصحـابه، وخـاف ان يتصل الامر بالملك فيهلكه فجعل يحفظ الطرقات ومنع اصحاب الاخبار ان يكتبو بشى من ذلك الى الملك، ثم اقـامـو الابا عـدة ايام ومـعـهم اسـقف افسس مجتمعين مصلين ونسطور منفرد عنهم ولم ياتيهم، فانفذو اليه تلته اساقفه يسالونه ان يحضر

أن الامبـراطور سوف يرفض مثل هذا الاقتـراح، لهـذا آثر الانسحاب بنفسـه قبل أن يرغمـه الامبراطور.

تبـدى اهتـمـام قسطنطين البـالغ بهـذه المشكلة فى الموقف الذى اتخـذه حيالها، فقـد بعث بثلاث رسائل الى شعب أنطاكية ويوساب ومجمع الأساقفة بها، وتعد الأولى أهم هذه الرسائل على الأطلاق لانها تفـصح بجلاء عن قلق الامبـراطور واضطرابه ورغبتـه فى حسم هذا الأمر بصورة فعالة. وقد بدأ قسطنطين رسالته بمقدمة طويلة عن السـلام والتمسك بالقانون الألهى وضرورة احلال الوئام بين الجميع. ثم يقول:

«لعلكم الآن تقفون مشدوهين، ولعلكم أيضا فى حيرة من أمركم تتساءلون ماذا يعنى بهذا التمهيد ؟! بلا حذر سأجيبكم وبلا تردد. أصدقكم القول.. ما أن طالعت كتاباتكم الى والتى تعلى فى الخافقين ذكر يوساب أسقف قيسـاوية، ذلك الرجل الذى أعرفه حق المعرفة وأكن لعلمه واعتداله كل تقدير، حتى أدركت أنكم به متعلقون، وفى الاستئثار به راغبون.. اية أفكار اذن تظنون أنى أحملها حول هذا لأمر، وأنتم تعلمون رغبتى فى البحث من أجل الحق وانقاذ مبادئه؟! ألا تدرون أى قلق انتابنى لرغبتكم هذه ؟... ان الذى جعل من الحفاظ على السلام مبتغاه يغدو سيدا على النصر ذاته. وحيث يبدو الطريق عند أى اختيـار قويما بيناً، فلن يتردد امرؤ أن يسلك جادته. والآن.. اخوتى، إنى لأتساءل.. لماذا نقدم على اختيار قد يلحق بالاخرين

معهم الصلاة فلم يمكنوهم الجند اصحاب قنطيطيانوس من الدخول اليه فلما احتجب عنهم وطال عليهم الامر لبعدهم عن كراسيهم احتاجو ان يبعدو عدو الله من بيعته فاحضرو الاربعة اناجيل واحضرو كتبه المملوه كفرا من كلامه المجدف، وكان لكيرلس كاتب شماس يسمى بطرس عالم فاهم وكان يعرف مواضع تجديف نسطور الذى فى كتبه فجعل يخرجها للمجمع المقدس من مواضعها بسرعه، فلما وقفو عليه اتضح لهم كفره

- -

بالغ الضرار، لماذا تشتهى أمورا لابد ملحقة بسمعتنا الدنس! انى لأكن لهذا الذى أوليتموه كل احترامكم والحب، التقدير. الا أنه بالرغم من ذلك لا يصح بنا أن نغض الطرف عن تلك المبادئ التى يجب على جميعنا مراعاتها، فينال كلنا حقه المشروع، وليس من الصواب عند النظر فى ادعاءات مرشيحين آخرين، افتراض أن واحدا بعينه استحوذ الصلاح كله. فقد يكون هناك كثيرون بالمنصب جديرين. وحيث أن الكنيسة لا تتعرض كرامتها للعنف والغلظة، فان هؤلاء جميعا يصبحون على قدم المساواة ويستحقون اذن منا نفس التقدير»[1].

على هذا النحو راح قسطنطين يرغب أهالى أنطاكية بجميل القول عن اختيار يوساب القيسارى أسقفا خلفا ليوستاتيوس وأوضح لهم بمعسول الحديث أن هناك غير يوساب كثير الكفاءات والقدرات التى يمكن أن تقوم بنفس علمه هذا. على أن الشئ الواضح فى هذا الجزء من الرسالة هو ما عبر عنه قسطنطين صراحة من قلقه الشديد لهذه الرغبة التى تراود أهل البيعة الأنطاكية. وهذا شئ يفيض به الجزء الباقي من الرسالة، وفيه نهج الامبراطور نهج الحزم والصرامة مبديا سخطه وامتعاضه لما ينتوى الأنطاكيون القيام به. يقول:

«اذا كان الأمر كذلك فدعونى أقول لكم أنكم بهذا تضعون أنفسكم موضع الاتهام، لا

(1) EVSEB. vita. Const. III, 60.

فاحرموه وقطعوه وكتبو خطوطهم في كتاب حرمه وانفذ اليه فلم يقبله ولم يرجع عن كفره فارادو انفاذ ما كتبوه الى الملك فلم يقدرو لاجل من جعله قنطيطيانوس البطريق لحفظ الطريق فتشاورو الى ان اخد احدهم الكتاب وجعله في قصبه غليظه وغير لباسه وسار حتى وصل الى القسطنطينية وسلم الكتاب لتلميتوس واوتيخيس السايحين [وانا بقطر (*) السايح رفيقه، سلمته] للكاتب ليقراه على الملك فلما قراه كان فيه: قال

(*) الراوى هنا بقطر الراهب.

بالاستئثار بهذا الكاهن فحسب، بل بنقله بغير طريق الصواب، وعندها يتسم مسلككم بالعنف لا بالعدل، وعلى أى نحو فكر الآخرون فاني أؤكد لكم صراحة وبلا مواربة أن هذا الاجراء سوف يفجر أسوأ اضطراب حزبى، ذلك أن الرعية حتى ولوكانت مسالمة الا أنه في مقدورها ابداء سلطان الحق في قوة عندما تبدأ عناية راعيهم في التقلص، ويجدوا أنفسهم وقد افتقدوا حسن رعايته.. واذا كانت المسألة اذن بهذا الشكل، واذا لم يخدعنى التقدير، فليكن هذا ايها الأخوة أول الاعتبارات أمامكم، فهناك العديد من هام القضايا لا يلبث أن يفرض نفسه عليكم، اذا أنتم ما ضون على عزمكم.. ولكن أليس معنى هذا أن يتعرض الحب والتناغم القائم فيكم للانحسار، ولتتذكروا ثانية أن هذا الذى حل بينكم يخلص النصح، ينعم الآن بما يستحق من ثواب علوى لأنه تلقى جزاء غير عادى من واقع شهادتكم الصادقة عن مسلكه القويم.

وأخيرا.. وتمشيا مع تقديركم الصائب، هل باختياركم هذا الرجل الذى تشعرون بالحاجة اليه، قد أبديتم الحصافة اللازمة في هذا الاختيار وانتم تعلمون ما يتبع ذلك من قيام الشغب والفرقة، وهل تعلمون أن هذا هو الخطأ بعينه وان الصدام بين الفرق المختلفة قد يولد شرارا ولهيبا»[1].

---

(1) EVSEB. vita Const. III, 60.

المجمع المجتمع با فسس نحن نعلم ان عمنويل هو
الله المتانس [المتأنس]، قبل ان لا يشاركنا نسطور
في هذه الامانه فلذلك هو غريب من الاب والابن
والروح القدس، وغريب من ميراث الحواريين
وغريب من البيعه الواحدة [المقدسه] وكل من لا
يقول أن يسوع عمنويل، أى هو الله المتانس، فهو
محروم وكلمن لا يقول ان العذرا مريم ولدت الله
الكلمه متجسدا بالحقيقة فهو محروم [من] يسوع
الخالق يسوع الغالب، يسوع المخلص للكل له المجد

واختتم قسطنطين رسالته بقراره النهائى الذى لا يقبل الجدل أو المناقشة والذى أضحى تنفيذه على الجميع واجبا:

«انى لأحتج بشدة على مسلككم، فذلك شئ لا يرضى الله. وليس من صالحكم فى شئ، كما أنى أرى فى موقفكم هذا تهديدا لمشاعرى التى تبغى الاستمتاع بالسعادة والغبطة التى تجمعنى واياكم وأمنياتكم.. انى لأحبكم، خاصة وقد لفظتم من بينكم تلك الضلالة وأقمتم مكانها سامى الخلق والوفاق، فثبتم بذلك عالم السلام المقدس، حتى ليحق للمرء أن يقول انكم محصنون بخوذة حديدية وأنتم تصعدون درج السماوات العلا. ولتحملوا فى سفينكم تجارة لا تفسد، لأنكم قد أفلحتم فى نتح ماء كان يتهددها بالغرق. ولتعنوا من الآن فصاعدا، لضمان الحفاظ على النعم التى تتقلبون فيها، حتى لا يقول عنكم الناس فيما بعد أنكم تمسكتم بنزوة خاطئة أو حماس معيب. أو أنكم أندفعتم فى حمق تتخبطون فى دروب المجهول. لعل الله يحفظكم أيها الاخوة الأحباب».

هكذا أفصح قسطنطين صراحة عن رأيه فى ترشيح يوساب، فقد كان الرجل صديقه الحميم، وكان الامبراطور يحمل له كل تقدير واعجاب، ولكن صالح الدولة العام أهم بكثير من كل هذه الاعتبارات، ومن ثم راح يحذر الرعية الأنطاكية من الاقدام على مثل هذا الاجراء لما سينتهى اليه ذلك من ازدياد حدة الانقسام وعموم الفوضى والاضطراب.

الى الابد امين. فلما قرى هذا الاعتراف على الملك صرخ كلمن [كل من] في قصره وقالوا: يسوع هو عمنويل الله المتانس [المتأنس] فقال اوطيخيس: تكتب جلالتك حرمه وتكتب للاساقفه ان يحضرو عندك ويسلمو على رياستك ويباركو على ملكك. ففعل ذلك فسار الجمع الى القسطنطينيه، فقبلهم الملك احسن قبول وجلس دونهم وسجد لهم واخذ بركتهم وامر بان ينفى نسطور فسير الى النفى وصحبته حاجب يوصله

وكم كانت سعادة الامبراطور عندما أتاه خطاب يوساب يعلن له فيه رفضه قبول هذا الشرف الذى اقترح أهالى أنطاكية والأساقفة خلعه عليه، معلنا تمسكه بالتقاليد الكنيسة التى تحرم انتقال الأساقفة من بيعهم الى أخر. فرد عليه الامبراطور برسالة امتدح فيها خلقه القويم وحسن سلوكه.. جاء فيها:

«لقد طالعت باهتمام كبير رسالتك، وأدركت منها مدى تشبثك بالقاعدة التى ارتضتها الكنيسة. وان التزامك بما يبهج الاله ويتفق والعرف الرسولى لبرهان على تقواك.

وبهذا يحق لك أن تشعر بغبطة أنت بها جدير، لأنك قمين بأن تكون أسقف عالم بأسره. فأنت تملك البصيرة التى تتمناها أية كنيسة. وما من شك فى أن الرغبة التى أبداها الجميع للاحتفاظ بك (راعيا) قد برهنت على مستقبل لك باهر يحسدك الكل عليه.. وعلى الرغم من ذلك، فان نيافتكم، فى اصراركم على مراعاة الشرائع الالهية والقوانين الرسولية، قد فعلت حسنا برفضك أسقفية أنطاكية. ورغبتك البقاء فى بيعتك التى رسمت عليها من قبل بارادة الله.

ولقد كتبت فى هذا الصدد الى شعب أنطاكية، والى زملائك الأساقفة الذين تقدموا الى فى هذا الأمر يطلبون نصحى، واذا ما أطلعتم على هذه الرسائل فلسوف يتبين قد استكم أن العدالة لا تتفق مطلقا وما يرتجيه هؤلاء. لقد كتبت اليهم بوحى من الله. على أنه يحسن

الى ديار مصر وانفذو له الاساقفه قبل مسيره يقولون له: اعترف بان المصلوب اله متجسد ونحن نقبلك ونعفيك من النفي فقسي قلبه مثل فرعون ولم يجبهم بشي. فلما قال للحاجب: نستريح هاهنا قد تعبت. فقال له الحاجب: قد تعب ربك اذ مشي الى السادسه وهو الاله فما تقول انت. قال له نسطور: اجتمع مايتا اسقف يطلبون مني ان يسوع هو الله المتانس فما قلت فاقول لك انت ان الله تعب.

التواجد فى مؤتمرهم حتى يعتمد هذا القرار فى كنيسة أنطاكية.. حفظك الله أخى الحبيب»[1].

اطمأن قسطنطين بذلك الى أن شعب أنطاكية لن يقدم على ما انتواه بعد أن أنذره بالويل والثبور بغوامض الكلم أو صريحه، وازداد اطمئنانه وهو يرى المرشح نفسه يقرر رفض الكرسى الأنطاكى، وبقى على قسطنطين أن يضع بنفسه خاتمة هذا المشهد الأخير على مسرح أنطاكية.ولم تكن تلك هى الأولى من نوعها، بل لقد سبقتها مشاهد أخرى قام فيها قسطنطين بنفس الحق مذ ادعى أن السماء دون البشر هدته، وتقدمت به اليه الكنيسة مذ سمحت له أن يقرر فى العقيدة ما يشاء، فاذا كان هذا شأنه والعقيدة. فما باله والرجال!!

كان الأساقفة المجتمعون فى أنطاكية لا يزالون يقلبون الأمر بحثا عن أسقف جديد يخلف يولاليوس الذى لم يستمر فى منصبه سوى ستة أشهر فقط، وأنقذتهم من حيرتهم رسالة الامبراطور اليهم، أشار فيها قسطنطين الى رسالته التي بعث بها الى أهالى أنطاكية، وأرفق بها صورة هذه الرسالة حتى «يقفوا على رأية فى هذا الخصوص» ثم أو ما الى رسالة يوساب اليه والتى تضمنت اعتذاره عن قبول الأسقفية الأنطاكية، واختتم رسالته بهذا الأمر الصريح.

---

(1) EVSEB. vita. Const. III, 61.

وسار به الحاجب حتى اوصله إلى اخميم(*) من اعمال الصعيد فاقام هناك منفيا محروما مقطوعا الى ان مات. وقد كتب الأب القديس كيرلس عدة رسايل منها رساله الى انبا يوحنا بطرك انطاكيه اولها: تفرح السموات وتتهلل الارض». ورساله الى اكاكيوس اسقف ملطية أولها: «ما احلى اجتماع اخوه كاملين يتذاكرون التعاليم الروحانيه.ورساله الى ولاريانوس اسقف قونيه أولها: «الاخ الحبيب الشريك فى الخدمة».ورساله الى الكهنه والشمامسه

(*) أخميم: شرق سوهاج بصعيد مصر. من مراكز صناعة السجايد فى مصر منذ القدم.

كانت أخميم مركزا لطائفة من النساك السابقين للمسيحية (انظر الهامش السفلى ص٥٠٨). ومنها الصوفى المصرى ذو النون النوبى الأصل، الذى قامت فلسفته الصوفية على دعامتين اساسيتين هما المعرفة والمحبة مما جلب عليه سخط الفقهاء وقالوا عنه انه احدث علما لم تتكلم فيه الصحابة، وسعوا به إلى الخليفة

«يحسن بنا أن نطلع نيافتكم فى هذا الأمر رأينا. ذلك أنه قد نمى الى علمنا أن يوفرونيوس Euphronius الكاهن، أحد مواطنى قيسارية كبادوكيا، وجورج كاهن آرثوذا (الرستن).. Geouge of Arethusa الذى رسم قبلا على يد اسكندر [الكسندروس] فى الأسكندرية، انما هما رجلان ذوا ايمان عميق، وعلى هذا فانه يجدر بفخامتكم عند اختيار من يستأهل شرف الأسقفية من بين هذين الرجلين وسواهما، أن تصدروا فى قراركم بوحى من تقاليد الرسل وبهذا يغدو فى مقدوركم توجيه سير الانتخاب بما يتواءم ونظم الكنيسة والعرف الرسولى حتى يتحقق النظام الكنسى.. رعاكم الله اخوتى الأحبة»(١).

لم يكن أمام الأساقفة أن يسلكوا سبيلا غير الذى رسمه لهم قسطنطين. فقد اقترح عليهم أو بتعبير أدق أمرهم بالمفاضلة بين رجلين، وعلى أثر تسلم هذه الرسالة قام الأساقفة برسم بوفرونيوس الكبادوكى أسقفا على أنطاكية (٢). ولكن هذا لم يمكث فيها الا عاما واحدا وبضعة أشهر، فخلفه فلاكيللوس Flaccillus(٣)، ويعلق ثيودوريت على ذلك بأن كل هؤلاء الأساقفة كانوا يدينون بالعقيدة الاريوسية (٤).

(1) EVSEB. vita. Const. III, 62.
(2) SOZOM. hist. eccl. II, 19.
(3) THEOD. hist. eccl. I, 21.
(4) Id.

والرهبان والنساك الثابتين على الامانه المستقيمه بعد قطع نسطور ونفيه. ورساله الى اولوقيوس القس الاسكندراني الذى كان مقيما بالقسطنطينيه اولها: «ان اناسا واجدون علينا بسبب المقاله التى قالها اساقفة المشرق. ورساله الى انستاسيوس والاكسندروس، ومرتنيانوس، ويوحنا، وبرجوريس القس، ومكسيموس الشماس اولها: انا امدح جدا محبتكم للعلم. وفى كل رساله يذكر الامانه المستقيمه ويبين كفر نسطور وفساد مقالته وانها

العباسى المتوكل، ورموه عنده بالزندقة ولكنه أعجب به وصار من مريديه كان ذى النون ملم باللغة السريانية، والهيروغليفية وقرأها على جدران المعابد المصرية ولازم احد معابد اخميم وأقام بها.

وكان هذا الاجراء الذى أقدم عليه قسطنطين، بتعيين الأساقفة، كما حدث بوضوح عقب عزل يوساب النيقوميدى وثيوجنس النيقى سنة ٣٢٥، أو بترشيح أثنين للمفاضلة بين أحدهما، كما هو حادث فى المشكلة الأنطاكية، وهو ترشيح يحمل صيغة الأمر، كان هذا كله سابقة خطيرة فى تاريخ الكنيسة، لم يتخل عنها خلفاء قسطنطين، وأضحت فى الوقت ذاته مثار جدل عنيف لقرون طويلة من تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى، فيما عرف بمشكلة التقليد العلمانى، وما صحبها من نزاع بين الامبراطورية والبابوية.

ولقد كانت أنطاكية تمثل مركزا اغاية فى الأهمية باالنسبة لأباطرة الرومان، فقد كانت دائما مبتغى ملوك فارس فى صراعهم المستمر مع الامبراطورية الرومانية. ولم يكن يغيب عن بال قسطنطين خطط سابور الثانى لاستعادة الأقاليم التى ضاعت أثناء الحرب الأخيرة بين الدولتين على عهد دقلديانوس، كما لم يكن يخفى عليه أيضا مركز أنطاكية الاستراتيجى فى أى حرب مقبلة مع فارس. وقد قدمنا أن الملك الفارسى كان ينتهج سياسة عدائية ازاء الرعايا المسيحيين هناك. وعلى ذلك فمن المحتمل أيضا أن يكون قسطنطين قد سارع جاهدا لحل المشكلة الأنطاكية حتى يجنب المدينة اندلاع حرب أهلية قد تغرى الملك الفارسى بمحاولة استغلالها. هذا بالطبع الى جوار السبب الرئيسى لدى قسطنطين وهو محاولة القضاء على أى انقسام قد تتعرض له الامبراطورية.

مخالفه لامانة الابا القديسين وما تتضمنه كتب الله العتيقه والحديثه. بين ذلك بشهادات واضحات صحايح من الكتب المقدسه التى نطق بها الروح القدس على السن الانبيا الصادقين والرسل المنتخبين والابا القديسين معلمى البيعه المقدسه الجامعه الرسوليه. سوى رسايله الى نسطور قبل نفيه التى كتبها بلطافه ويعظه ويوفقه ويرشده فلم يسمع منه ولا رجع عن سو رأيه وقساوة قلبه وفساد اعتقاده.

هدأت بهدوء الأحوال في أنطاكية سريرة الامبراطور، ولكنه الهدوء الذى يسبق العاصفة، ذلك أن الفريق الآريوسي، ما كان ليرضخ بصورة نهائية وهو يعتقد أنه يدافع عن عقيدة هى الصواب وحق اليقين، وها هو الآن يتقدم وئيد الخطو محاولا تثبيت أقدامه، فالامبراطور قد عفا عن زعمائه، واستطاع هؤلاء ازاحه خصم لهم لدود من كرسي أسقفية أنطاكية، ولم يبق أمامهم اذن الا الد هؤلاء الخصوم على الأطلاق، أثناسيوس الأسقف السكندرى!

وكان قسطنطين قد بعث برسالة الى الاسكندرية يتوعد أسقفها بالعزل والنفى اذا رفض الامتثال لأوامره فى قبول أولئك الذين يرغبون فى العودة الى الكنيسة، يعنى بذلك الآريوسيين والمليتيين، غير أن أثناسيوس أصر على موقفه متحديا رغبة الامبراطور، وكتب اليه محاولا اقناعه بأن أولئك «المهرطقين» لا يمكن قبولهم فى الكنيسة الكاثوليكية (١). وكانت تلك اذن فرصة سانحة اهتبلها الفريق الآريوسى ليوغر صدر قسطنطين على أسقف الاسكندرية (٢). وكان يوساب أسقف نيقوميديا هو الذى يتراس الان جماعة الاريوسيين، كما كان من أبرز رجالهم ثيوجنس أسقف نيقية، ماريسMaris أسقف خلقيدونية، أورساكيوس Ursacius أسقف سنجيدونوم Singidunum (بلجراد)، فالنزValens أسقف Mursa (أوسيك فى

....

(1) ATHANAS. Apol. C. Arian. 60.

(2) Id.

السير الثالثه عشره من سير البيعه المقدسه

ديسقرس البطرك

[٤٤٤/ ٤٥٨م]

وهو من العدد الخامس والعشرون

وجعل بعد نياحة انبا كيرلس البطرك القديس ديسقرس بطركا على كرسي مدينة اسكندريه ولقى من الجهاد على الامانه الارتدكسيه شدايد صعبه من مرقيان الملك ومن زوجته، ونفوه عن كرسيه

يوغسلافيا)[١] وراح هذا الفريق يوثق صلاته بجماعة المليتيين في مصر في محاولة لتوحيد جهودهما ضد الأسقف السكندري[٢]. وخمس سنوات تالية نشب صراع عنيف بين الفريقين، أستخدم كلاهما كل ما لديه من أسلحة الدعاية والاتهام،و الامبراطور ينفذ سياسته بدقة، فتارة ينتصر لهذا الفريق، وأخرى يعدل عن رأيه، وهو في هذا وذاك تلهث أنفاسه في محاولة للخلاص من هذا الشقاق في الكنيسة الذي يهدد الدولة كلها.

رسم الحزب اليوسابي خطته على مرحلتين، الأولى اثارة غضب الامبراطور على أسقف الاسكندرية، والثانية اشاعة روح السخط والتذمر عند الاساقفة جميعا على زعيم الايمان النيقي.

كان يوساب ورفاقه يعلمون تماما مزاج الامبراطور وطبعه الأوتوقراطي ورغبته الجامحة في الاستبداد بالسلطة، ولم يكن من العسير على أحد عايش قسطنطين فترة من الزمن وعاين الأحداث التي مر بها، أن يدرك على الفور نفسية قسطنطين. لقد كانت سياسته تتبلور حول شئ واحد دلت عليه أحداث عصره مذ كان بعد في بريطانيا، ذلك هو دولة واحدة وحاكم

(1) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.

(2) Id.; ATHANAS. Apol. C. Arian. 60.

(3) SOZOM. hist. eccl. II, 22.

بتحامل مجمع خلقدونيه وميلهم الى هوى الملك وزوجته حتى انهم سموا «الملكيه» هم وكلمن يتبع امانتهم الفاسده لاجل اتباعهم راى [رأى] الملك وزوجته في إظهار مقالة نسطور وتجديدها.

وكانت عادة الاوايل ان يكتبو سير المتقدمين فى كل جيل، واما فى زمان بنى اسرايل فكتب فيلون الفارى، ويوستوس ويوسابوس، واكيسبوس بعض سيرة سيدنا يسوع المسيح وخراب اروشليم بيد اسباسيانوس وطيطس ابنه وماكان من بعدهما.

واحد. ولم يكن قسطنطين ليقبل مطلقا بانقسام فى امبراطوريته، كما لم يكن يسمح لانسان مهما بلغت منزلته أن ينازعه السلطان، أو على الأقل ينتقص منه شيئا. من أجل هذا أشاع فى الناس، وروج له مادحه» يوساب القيسارى أنه «مبعوث السماء الى الأرض»، «حوارى المسيح»!!

وعلى أوتار الوحدة الامبراطورية وأنغام السلطان راح الفريق اليوسابى يعزف للامبراطور لحنا واحدا طوال خمس سنوات، حتى استطاع أن يجبره فى النهاية على أن يصفق له ويخرج من حفل الترانيم تلك النغمة الشاذة الصادرة من كنيسة الاسكندرية!!

لما كان من غير المعقول اتهام أثناسيوس بالهرطقة أو الزيغ، فقد كان لابد من البحث عن طريق أخر غير طريق العقيدة، ومن ثم اتهم الأسقف السكندرى بأنه قد فرض ضريبة على المصريين يؤدونها من الكتان لا ستخدامه فى الرداء الكهنوتى[1]. كما وأن هذه الضريبة قد جبيت عنوة ممن تقدموا بهذا الاتهام[2]. وكان ازيون Ision ويودايمون Eudaemon وكاللينيكوس Callinicus وهم من الفريق المليتى أصحاب ذلك الاتهام[3]. ويجمع

(1) ATHANAS. Apol. C. Arian. 60.

(2) SOZOM. hist. eccl. II, 22.

(3) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.

ومن بعد ذلك كتب افريقنوس، واوسابيوس ومينا
التجارب والجهاد الذى نال الرعاه والشعوب فى
ايام انبا كيرلس الحكيم البطرك، وما جرى بينه
وبين نسطور وما لقيه الاب ديسقرس بعده من
مجمع خلقدونيه، ثم أفترقت الامانه والكراسى
حتى انه لم يبق من يكتب سيره وانقطع ذلك،
والرب باق الى الابد، ولذلك لم توجد سيرة
القديس ديسقرس البطرك بعد نفيه وحفظ الامانه
الارتدكسيه الباقية فى كرسى البشير مارى مرقس

المؤرخون الكنسيون على أن ذلك كان نتيجة اغراء يوساب ورفاقه. ولعلنا نلمس مدى الأهمية التى علقها الامبراطور على هذا الاتهام، فقد كان فى حد ذاته اعتداء على سلطانه. اذا أرسل يستدعى اليه فورا أثناسيوس ليدفع عن نفسه ذلك القول، ما كان أيسر على قسطنطين أن يرسل أحد موظفى البلاط مندوبا عنه لبحث القضية فى المنطقة ذاتها، ولكن استدعاء أثناسيوس اليه يحمل فى طياته مدى نفوذ قسطنطين على رجال الكنيسة ورغبته الجامحة فى اخضاعهم لسلطانه. ويعد فى الوقت ذاته تحذيرا للأسقف السكندرى على مسلكه السابق تجاه الامبراطور، وبرفضه تحقيق قسطنطين فى اعادة آريوس الى شركة كنيسة الاسكندرية.

ولقد تصادف وجود قسيسين مصريين فى العاصمة الامبراطورية عندئذ هما أبيس Apis ومقار Macarius فتقدما الى الامبراطور ينفيان هذا الاتهام عن أسقفهم، ويؤكدان له أن ذلك القول محض افتراء(١). ولكن ذلك لم يكن ليثنى الامبراطور عن عزمه فى استدعاء أسقف الاسكندرية. وما أن جاء هذا الى البلاط الامبراطورى حتى كان الفريق اليوسابى قد أعد ضده اتهاما جديدا يمس حياة الامبراطور ذاته، فقد أذاع أن أثناسيوس يتآمر ضد الامبراطور، وأنه أرسل صندوقا مملوءا بالذهب الى شخص يدعى فيلومنوس Philumenus كان رئيسا للحرس

(1) ATHANAS. Apol. C. Arian. 60.

الى الان والى الابد حتى أخذ اكليل الشهاده بجزيرة جاجرا من مرقيان الملك وتنيح هناك.

[بعد ان رد اهل تلك البلاد الى الامانه] وصار الى الرب الذى احبه، صلواته وبركاته معنا امين.

تيماتاوس (الثانى) البطرك

[٤٨٠ / ٤٥٨]

وهو من العدد السادس والعشرون

ومن بعد ان تنيح الاب المجاهد ديسقرس البطرك

لتنفيذ مخططه[١]. وقد قام الامبراطور بفحص هذه القضية، فلما اتضح له فى النهاية كذب الدعوى لام المدعين، وأطلق سراح المدعى عليه وسمح له بالعودة الى بيعته[٢]، وشعيه برسالة الى رعيته يمتدح أسقفهم ويثنى على خلقه ونقاوة روحه معترفا به رجلا من رجال الله، ومبينا أنه لما كان الحسد وحده هو سبب أتهامه الان، فانه بذلك ارتفع فوق مستوى متهميه والشبهات[٣]. ولم ينس قسطنطين فى رسالته أن يحث كلا من الفرق المتنازعة على الانصراف الى تبجيل الاله ورعاية حق أثناسيوس، وأوصاهم بحسن السلوك تجاه بعضهم البعض. ويعلق سوزومين على ذلك قائلا: هكذا كتب الامبراطور الى الرعية يستحثها على الوئام والوحدة ساعيا الى منع حدوث أى انقسام فى الكنيسة[٤].

وعلى الرغم مما يبدو من سياق هذه الأحداث أن الامبراطور قد أعاد أثناسيوس الى كنيسته معززا مكرما، الا أنه قد تأكد لديه أيضا أن وجود الأسقف فى حد ذاته بعدائه الذى يتبادله والفريق الآريوسى يعد مصدر خطر كامن وحقيقى، وكان هذا هو ما يسعى اليه الحزب

(1) Id.

(2) Id.

(3) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.

(4) SOZOM. hist. eccl. II, 22.

اقام السيد المسيح بطركا يسمى تيماتاوس على كرسي مدينة الاسكندريه وصبر على الشدايد وجهاد المخالفين ونفى هو واخوه اناتوليوس الى جزيرة جاجرا ايضا الى كمال سبع سنين وعاد بنعمة الله بامر الملك الى اسكندريه، وكان تكريزه فى ايام لاون الملك. واقام بطركا أتنين وعشرين سنه وتنيح فى اليوم السابع من مسرى.

اليوسابى، وكانت تلك هى الخطوة الأولى التى خطاها. وان كان الامبراطور قد أدرك أن الوقت لم يحن بعد للتخلص من أثناسيوس.

بقى اذن أن يثير يوساب ورفاقه الأساقفة ضد أثناسيوس، ولا يتأتى ذلك الا باظهاره فى صورة رجل الدين الذى لا يحترم زملاءه رجال الاكليروس ويحتقر ذوى المرتبة الثانية منهم.

كانت مريوط Mareotes اقليما تابعا للاسكندرية، وكانت تضم قرى عديدة تمتلئ بالسكان وبعدد من الكنائس الزاهرة، وكانت كل هذه الكنائس تحت سلطان أسقف الاسكندرية[١]. الا أن شخصا يدعى اسخيراس Ischyras لم يكن من رجال الاكليروس ادعى لنفسه حق حمل لقب قسيس[٢]. وكان هذا فى حد ذاته اعتداء على نفوذ الأسقف السكندرى، وقد علم أثناسيوس بأنباء هذه الأحداث من قسيس هذه المنطقة عندما كان الأسقف يقوم بزياراته المعتادة للاقليم، فأوفد الأسقف السكندرى قسيسا يدعى مقار بصحبة قسيس المنطقة لاحضار اسخيراس، غير أنهم ألفياه يعانى الام المرض، فطلبا الى أبيه تحذير ابنه من التمادى فى غيه، ولكنه ما أن أبل من مرضه ومنع بواسطة والده وأصدقائه من الاستمرار

(1) SOCRAT. hist. eccl. I. 25.

(2) Id.

بطرس [منجوس] البطرك

[٤٨٠ / ٤٨٨م]

وهو من العدد السابع والعشرون

فلما مضى تيماتاوس للرب كرز بامر الله بطرس القس ببيعة اسكندريه وجعل بطركا. وكانت مملكة الروم باقيه ثابته جدا على تجديد ذكر مجمع خلقدونيه الطمث فى كل وقت لانه غير مبنى على اساس الصخره الثابته التى لله الكلمه يسوع

فيما كان يدعيه حتى فر هاربا الى المليتيين(١). ونعلم من سقراط أنه ارتحل بعد ذلك الى نيقوميديا ليكون على مقربة من زعيم الفريق اليوسابى، ويخبرنا أيضا أن يوساب استقبله لا كأحد رجال الكنيسة فحسب بل وعده أن ينعم عليه شرف الأسقفية كذلك اذا ما استطاع أن يجد اتهاما ضد أثناسيوس(٢). فاذاع اسخيراس تقريرا يعلن فيه أن مقار وصحبه أثناء حضورهم اليه اندفعوا تجاه المذبح وقلبوا المائدة، وكسروا الأوانى المقدسة وأحرقوا الكتب، وأن أسقفا يدعى أرسنيوس Arsenius قد قتل على يد أثناسيوس أيضا وجاء بيد مقطوعة ادعى أنها لهذا القتيل (٣) ويخبرنا سقراط أن الاتهام الأول الخاص بمقار قد أعد بعد ذلك فى وقت تال، بينما كان الاتهام الأخير هو الذى شغل الاذهان بادئ الامر(٤).

ويذكر سوزومين(٥) أن أرسنيوس هذا أسقف لمدينة Hypselitae (شطب جنوب أسيوط)، لابد أن يكون قد أتى أمورا تخالف العقيدة أو النظام الكنسى، وان كان سوزومين لم يدل الينا بأية تفصيلات فى هذا الخصوص. ثم يضيف أنه خوفا من عقاب أسقفه هرب الى

(1) ATHANAS. Apol. C. Arian. 64.

(2) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.

(3) ATHANAS. Apol. C. Arian. 63, 64, 65.

(4) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.

(5) SOZOM. hist . eccl. II, 23.

المسيح. وبعد ذلك بمده كتب اكاكيوس بطرك القسطنطينيه الى بطرس بطرك اسكندريه يساله ان يقبله اليه برسايل كثيره انفذها اليه ومكاتبات لانه رفض مجمع خلقدونيه وسماهم مخالفين، وتومس لاون المملو تجديفا، وكذلك مقالة نسطور رفضها. وكتب له بطرس كتبا ليتحقق من عجوبتها صحة قوله. فلماوصلت اليه قبلها بفرح ومسره واظهرها لمن يريد ممن يعتقد الامانه الارتدكسيه.

مكان ما فاستغل الآريوسيون والمليتيون هذه الفرصة وبحثوا عنه حتى وجدوه وأظهروا له كثيرا من العطف والشفقة ووعدوه بالأمان اذا أطاع أمرهم. هكذا يقول سوزومين[1]. ويبدو أن أرسنيوس كان واحدا من المليتيين، يدل على ذلك موقع المدينة التى كان راعيا لكنيستها، ومن ثم كان على خلاف مع أسقف الاسكندرية، فاعتكف فى أحد الأديرة حيث وجد العطف من الفريق المضاد لاثناسيوس، وراح ينتقل من مكان لاخر هربا من أسقف الاسكندرية الذى جد فى طلبه.

هذه روايات يبدو فيها التوليف، لا تثبت للنقد، جرت بها أقلام مؤرخى الكنيسة، وكلهم يحمل العداء الدفين للآريوسية والمليتية، ولكنا سقناها استكمالا لجو الصراع العقائدى الدائر آنذاك.

عندما شاعت هذه الاتهامات، وملأت آذان الناس أدرك أثناسيوس أنه من العسير عليه تماما أن يدافع عن نفسه أمام أناس حكموا عليه بارتكاب هذا الجرم مسبقا دون انتظار لفحص أو تمحيص، ولكنه أصر على أن لا يضيع الحق وسط زحام الأباطيل[2]. وفى نفس الوقت علم

(1) Id.
(2) Id.

(*) سنوديكا: رسالة ايمانية.

ثم كــتـب سنوديكا(*) وانفــذها الى بطرس المغبوط، وكان بعض الاساقفه لم يحضرو فى وقت ان كــتب الكتب من البطركين بطرس واكاكيوس، وأثار الشيطان خزاه الله السجس فى قلوب اوليك الاساقفه وصار لهم ريسا يعقوب اسـقف (صـا)(*) ومـينا اسـقف (منية طامه)(*) وسارو الى مدينة اسكندريه وقالو للبطرك : كيف قبلت اكاكيوس وهو من جملة من حضر المجمع الخلقدونى. فاجابهم بدعة ومسكنه: انما

(*) صا: ربما صا الحجر مركز كفر الزيات.

(*) منية طامه: منية كانه، كانت قرب البرلس واندثرت.

الامبراطور بكل ذلك، فسارع بالكتابة الى دلماتيوس Dalmatius رقيب أنطاكية يأمره ببحث هذه المسألة واستدعاء الأحزاب المختلفة لتمثل أمامه للتحقيق، وطلب اليه معاقبة من تسببوا فى اشاعة هذه الفوضى بالقول وأرسل الى هناك أيضا كلا من يوساب وثيوجنس بعد أن رأى ضرورة مناقشة القضية أمامهما[١]، وقد أرسل دلماتيوس رسالة الى أثناسيوس يستدعيه فيها للذهاب الى أنطاكية للدفاع عن نفسه[٢]. ويقول أثناسيوس أنه على الرغم من علمه أن كل ما جاء فى اتهامات الفريق المضاد باطل وافتراء، الا أن تحرك الامبراطور لبحث المسألة والاهتمام بأمرها جعله يعطى للامر اهتمامه البالغ[٣]. فقد كان الأسقف يعلم جيدا مدى حرص الامبراطور على القضاء على مثل هذه الفوضى، وكان لديه سابقة فيما يختص بموقف الامبراطور لدى سماعه بضريبة الكتان والتأمر على حياته.

وعلى هذا الأساس ما أن تسلم الأسقف السكندرى رسالة دلماتيوس حتى سارع بالكتابة الى كل زملائه من رجال الاكليروس فى مصر يستحثهم على الادلاء اليه بأية معلومات عن شخصية أرسنيوس هذا ومكان اختفائه، لأنه على حد تعبيره لم يكن قد رآه خمس سنوات

(1) SOCRAT. hist. eccl. I. 27.

(2) ATHANAS. Apol. C. Arian. 65.

(3) ATHANAS. Apol. C. Arian. 65.

قبلته لرجوعه عن ذلك الراى. وعرفهم ما وصل اليه من رسايله التى تشهد برجوعه واعترافه بالامانة المستقيمه وذكر لهم انفاذه الاساقفه اليه يسمعوا لفظه بحكم قانون البيعه. فلم يقبلو قوله لاستحكام الكبر فى قلوبهم وافرزو نفوسهم من كرسى الانجيلى مارى مرقس الرسول، وقالو بجهلهم كما قال بنو اسرايل (اسرائيل): ان ليس لهم نصيب فى داود ولا ميراث مع ابن يسا. وافترقو من البطرك القديس بطرس ولم يدخلو

تقريبا[1]، كما قام من ناحيته أيضا بارسال أحد شمامسته للبحث عن أرسنيوس فى كل مكان، وقد جاء هذا الشماس الى طيبة واستطاع أن يعلم من بعض الرهبان أين يختبئ أرسنيوس[2] فلما وصل لأحد الأديرة هناك، أنكر باترينس Patrines الراهب ويسميه أثناسيوس بينس Pinnes[3] وجوده لديه، وكان المعتقد أنه مختف هناك[4]، ذلك أنه كما يقول سوزومين ما أن علم بقرب وصول الشماس حتى ارتحل خفية إلى مصر السفلى، فقام الشماسي بالقبض على بينس وساقه الى الاسكندرية مع زميل له يدعى الياس Elias قيل انه سهل لأرسنيوس مهمة الفرار الى مكان آخر، وسلم الأثنين الى السلطات الامبراطورية فى مصر، فاعترفا أن أرسنيوس لا يزال على قيد الحياة، وأنه يعيش فى مصر[5].

وهذه الأقوال عينها نعلمها أيضا من رسالة حفظها أثناسيوس بعث بها بينس هذا الى يوحنا الأسقف المليتى ينبئة فيها تفصيلا بكل هذه الاحداث ويعتذر اليه عن اعترافه ببقاء أرسنيوس حيا، لان بعض كهنة الدير مثل بكيسيوس Pecysius وسلفانوس Silvanus أخ الياس،

(1) Id.

(2) SOZOM. hist. eccl. II, 23.

(3) ATHANAS. Apol. C. Arian. 67.

(4) SOZOM. hist. eccl II, 23.

(5) Id.

تحت طاعته حتى ان الارتدكسيين سموهم الذين لا راس لهم. وكانت الرسايل المكتبه بين البطركين المذكورين خمس عشرة كراسه، وكان هذا بطرس لما صار بطركا على اسكندريه لقى شدايد من المخالفين ونفوه وسلمو كرسيه لرجل يسمى تيماتاوس ويدعى انتونيوس، وتاوغنستس الذى لقانوبوس، ثم يوحنا الدوانيسيادس الذى جعلوه بعد موت انتونيوس.

ثم عاد بطرس البطرك الى كرسيه بمجد عظيم

وبولس Paul راهب Hypselae قد اعترفوا صراحة بأن أرسنيوس كان يقيم بينهم، ثم يحذر يوحنا من التمادى فى اتهام أثناسيوس بهذا الادعاء خاصة بعد تكشف كل هذه الحقائق فى مصر[١]. فلما تم ذلك كتب أثناسيوس الى الامبراطور يطلعه على كل هذه الأمور[٢]. فأصدر قسطنطين أو امره الى دلماتيوس بوقف اجراءات التحقيق فى هذا الحادث[٣]. وأمر يوساب وأعوانه الذين كانوا فى طريقهم الى الشرق للاشتراك فى نظر القضية بالعودة ثانية الى كنائسهم[٤]. وكتب رسالة الى أثناسيوس دعاه فيها الى الالتفات الى شئونه الكنسية والسهر على مصلحة رعيته دون أن يلقى بالا الى ترهات وأباطيل أولئك الحسود[٥].

ويتضح من رسالة الامبراطور مدى الدور الذى لعبه المليتيون فى هذا السبيل، فهو يعزو اليهم كل هذه الأحداث ويتهمهم بالزيغ والضلال خاصة «بعد أن ظهر للجميع أن من ادعوا ذبحه لا يزال حيا باستطاعته أن يحدثهم». ثم أنحى باللائمة على كل من يتبع خطاهم معلنا أن العناية الالهية لا يمكن أن تمد لهم بعد هذه الافتراءات يد العون أوالرشاد، واختتم رسالته

....

(1) ATHANAS. Apol. C. Arian. 67.

(2) Ibid. 65.

(3) SOCRAT. hist. eccl. I. 27.

(4) ATHAMAS. Apol. C. Arian. 65.

(5) Ibid. 65.

وكان مدة جلوسه على الكرسي تماني سنين وتنيح بسلام وكرامه كثيره في التاني من هتور. وجميع رسايله ثابته في دير ابى مقار وفيها رسالة لزينون الملك المغبوط جوابها وفيها جواهر الكلام. وقدس واعترف الامانه المستقيمه.

اتناسيوس [الصغير] البطرك

[٤٨٨/ ٤٩٤م]

وهو من العدد التامن والعشرون

ولما تنيح الاب بطرس القديس قدم اتناسيوس

برغبته الأكيده أن تقرأ على القوم جميعا حتى تصل الى آذان أولئك الذين تسببوا فى اثارة مثل هذه الاضطرابات، ثم صرح بأنه قد قرر محاكمة هؤلاء الناس اذا ما أقدموا ثانية على ارتكاب مثل هذه الفعال لا تبعا للشرائع الكنسية بل حسب القوانين المدنية، لأنهم بذلك لا يتآمرون ضد الانسانية بل ضد العقيدة الالهية ذاتها[١].

ويذكر أثناسيوس أن اسخيراس قد بعث اليه برسالة بعد أن اتضحت كل هذه الأمور[٢] يعلن له فيها أن كل الادعاءات التى ساقها ضده انما صدرت منه قسرا بعد أن أجبره على ذلك الفريق الآريوسي المليتي، ويعين له أسماء رجال منهم مثل اسحق Isac وهيراكليدس Heraclides واسحق أسقف لتوبوليس (أسنا) Letopolis، وأن شيئا من هذه الاتهامات لم يكن صحيحا بالمرة، ثم يرجوه أن يعفو عنه وأنه يقبله ثانية فى جماعته[٣]. ثم عاود اسخيراس الكرة ثانية، فكتب الى الأسقف السكندرى يستعطفه ويعلن له توبته ورغبته فى العودة الى حضن الكنيسة الكاثوليكية، ووعده أن لا يصغى ثانية الى أقوال أولئك الذين

(1) Id.

(٢) لابد أن يكون هذا قد حدث بعد مجمع صور سنة ٣٣٥ لأنا نعلم أن أسخيراس كان احد متهمي أثناسيوس فى المجمع.

راجع: SOZOM. hist. eccl. II. 25.

(3) ATHANAS. Apol. C. Arian. 64.

وكان قيما في بيعة اسكندريه وصير عليها بطركا، وكان رجلا صالحا مملو امانه وروح القدس وتمم ما اوتمن عليه. ولم يكن في ايامه شعت ولا اضطهاد في البيعة المقدسه واقام سبع سنين وتنيح في العشرين من توت.

يوحنا البطرك الراهب

[٤٩٤ / ٥٠٣م]

وهو من العدد التاسع والعشرون

ولما تنيح اتناسيوس الصغير قدم يوحنا الراهب

جرفوه بادئ الأمر في تيارهم، وألايشترك معهم في محفل أو يوافقهم الرأى ورجا أثناسيوس أن يرسل اليه ردا يطمئنه بتحقيق أمانيه، وأن يكتب بالتالي الى الكنائس المختلفة يعلمها أنه قد عفا عنه وأنه عنه راض[1].

وقد أدرك يوحنا رئيس كنيسة الشهداء أن قرار الامبراطور بمحاكمة المليتيين أمام المحاكم المدنية اذا ما استمروا في عنادهم للاسقف السكندرى، يعد تهديدا خطيرا لكيانهم وأدرك أن الامبراطور لن يتورع فعلا عن تنفيذ ما اعتزمه، ومن ثم بادر بالكتابة الى قسطنطين يخبره أنه قد عاد الى الوئام مع أثناسيوس وأن السلام قد حل بينهما ثانية[2].

وما أن تلقى الامبراطور هذه الرسالة حتى طرب لها وعد ذلك نهاية المطاف في هذه الفوضى المستشرية في مصر، وقد كان قسطنطين ينظر بعين الخوف والريبة الى ما يمكن أن يحدثه النزاع بين المليتيين وكنيسة الاسكندرية. فربما أدى به الأمر في النهاية الى أن يمسى على شاكلة ذلك الصراع الكبير القائم في ولاية أفريقيا بين الدوناتيين والكنيسة الكاثوليكية. بل أن هذا الخطر القائم في مصر يفوق قرينه الغربي، فاذا كان الأخير قد اقتصر على أفريقيا وحدها، الا أن المسألة المصرية شاركت فيها كل كنائس الشرق، وعلى ذلك فقد سارع

(1) Ibid. 69.

(2) Ibid. 70.

وصير بطركا على الكرسي الانجيلى فسلك سيرة من تقدمه من الابا [ء] الفضلا. وكان البيعه والشعب واهل البريه في ايامه في امن وسلامه بنعمة السيد المسيح. وكان على عهد القديس زينون الملك المغبوط، ولا مانته وصلاحه امر الملك في ايامه ان يحمل الى دير ابى مقار بوادى هبيب كلما يحتاجون اليه من قمح وخمر وزيت وجميع ما كان يحتاجونه لعمارة قلاليهم.

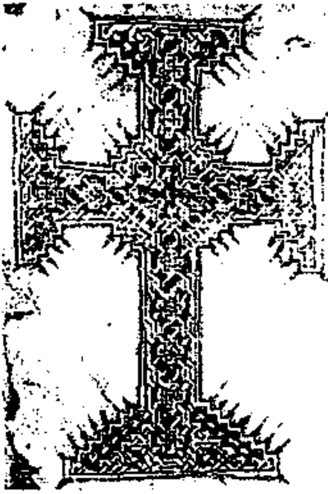
نقش لصليب من دير ابومقار

وكمل انبا يوحنا البطرك خدمته امنا مطمينا

الامبراطور بالرد على رئيس الأساقفة المليتيين يعبر له عن سعادته الغامرة حالة معرفته أنباء عودة السلام بينه وأثناسيوس مرة أخرى، تلك الأنباء التى كان يتوق الى سماعها لفترة طويلة مضت، ويثنى على سلوكه، هذا الرأى أدخل السرور على قلب الاله، وأعاد الى الكنيسة وحدتها وأمنها، ولم يتمالك قسطنطين نفسه فدعا يوحنا للشخوص على الفور الى البلاط الامبراطورى حتى تشمله عن كثب بركات الامبراطور ورعايته(١).

هكذا تبدى للجميع وقسطنطين خاصة أن الحال آخذة فى الهدوء فالاتهامات التى سيقت ضد أثناسيوس من جانب خصومه قد ثبت بصورة أو أخرى عدم صحتها، ورئيس الأساقفة المليتيين أعلن للامبراطور عودة الوئام مع الأسقف السكندرى، وها هو الآن يتأهب للرحيل الى العاصمة الامبراطورية لينال حظوة الامبراطور، ولكن على الرغم هذا الهدوء الظاهرى الا أن الفريق الآريوسى كان يؤمن بعدالة قضيته، فأريوس حقا قد شمله عفو الامبراطور وعاد من منفاه، ولكن كنيسة الاسكندرية لا زالت تلفظه خارجها، ولن يتحقق نصر الآريوسية وبالتالى لن يعود السلام الى الكنيسة مابقى آريوس خارجها. ولن يعود هذا الى الكنيسة اذا ظل فى الأسقفية أثناسيوس. والامبراطور بين هؤلاء وأولئك أشبه شئ بقبطان تحطمت على الأمواج دفة سفينته، فراح يضرب بيده يمنه تارة ويسرة أخرى، ليصل بالسفينة الى بر النجاة.

(1) ATHANAS. Apol. C. Arian. 69.

[مطمئنا] في ايام زينون الملك المغبوط المومن وتنيح في الرابع من بشنس بعد ان اقام ثماني سنين بطرك ولحق باباه [بآبائه].

يوحنا البطرك

[٥٠٣ / ٥١٥م]

الحبيس، وهو من العدد الثلثين

فلما تنيح انبا يوحنا البطرك جعل عوضه رجل حبيس يسمي يوحنا كان ذلك بامر الله وكان قرابة

عاود الفريق اليوسابي نشاطه ثانية في دوائر البلاط، وراح يوحي الى الامبراطور أن أثناسيوس لابد وأن يبرئ ساحته أمام مجمع من الأساقفة يدعى لهذا الغرض، ووافقت الفكرة هوى الامبراطور، وحسب أن في عهد المجمع قضاء أخيرا على هذا الاضطراب، وربما عد ذلك استكمالا لجهود المجمع النيقي، وعلى هذا الأساس وجه قسطنطين الدعوة سنة ٣٣٣ الى الأساقفة للاجتماع في قيسارية فلسطين لبحث الاتهامات المثارة ضد أسقف الاسكندرية،وطلب الى هذا القدوم الى المجمع «ليدافع عن نفسه في حضرة رجال الله»[1].

قلنا آنفا أن سياسة الفريق اليوسابي قد قامت على مرحلتين، اثارة غضب الامبراطور على أثناسيوس، واثارة سخط الأساقف ضده، وحتى الآن لا يمكننا القول أنهم أفلحوا في المرحلة الأولى تماما، وان كانوا قد أدخلوا على الأقل في روح قسطنطين أن ثمة عقبة تهدد سلام دولته والكنيسة ماثلة في الأسقف السكندري، وكانت الدعوة لعقد مجمع الاساقفة في قيسارية نجاحا تاما للمرحلة الثانية من نضالهم ضد أنصار نيقية، بل ان نجاح هذه الخطوة امتد آثرها ليشمل الامبراطور أيضا. وهكذا وفي جولة واحدة كسب اليوسابيون الى صفهم الأساقفة والامبراطور، وقد ساعدهم على ذلك سلوك أثناسيوس نفسه وموقفه تجاه هذه الدعوة.

كان اختيار مكان المجمع دليلا على سياسة قسطنطين في ارتضائه الحلول الوسطى في هذه

(1) THEOD. hist. eccl. I. 28.

للبطرك المتنيح وكتب في ايامه كتبا وميامر كثيرة، واظهر الله في ايامه امرا عجيبا واقام مملكه وكهنوتا معا للبيعه وهو الملك انسطاسيوس المومن التقى والبطرك ساويرس الفاضل لابس النور صاحب كرسي انطاكيه الذى صار قرن خلاص للبيعه الارتدكسيه الذى جلس على كرسي الكبير اغناطيوس، وكتب سنوديقا الى الاب يوحنا البطرك بالاتحاد في الامانه ويبشر فيها بالاتفاق بينهما بالامانه الواحده الارتدكسيه التى للابا القديسين،

المشاكل المعقدة، فقيسارية فلسطين كانت تحت رعاية أسقفها يوساب صديق الامبراطور والمعروف بميوله المعتدلة، فلا هو بقلبه يؤيد اليقيين، ولا هو صراحة مالأ الأريوسيين. ولما كان من البدهي أن يصبح يوساب القيسارى رئيسا لهذا المجمع المقترح، فقد أمل قسطنطين أن يجد في جهده رمزا ما للسلام. ولكن أثناسيوس كان يرى في يوساب هذا خطرا مباشرا عليه، خاصة وهو يعلم أن يوساب لن يكون صاحب الكلمة العليا الأولى في المجمع ما دام الى جواره أساقفة آخرون يمثلون العداء الصارخ له على رأسهم النيقوميدى وكثيرون غيره من رجال الآريوسية، فتوجس في نفسه خيفة أثناسيوس، ورفض دعوة الامبراطور لحضور هذا المجمع وظل على عناده هذا طيلة ثلاثين شهرا رغم الالحاح المستمر في طلبه[1].

هكذا أضاع الأسقف السكندرى من يده فرصة كسب الامبراطور الى صفة ثانية، فقسطنطين لم يعتد من قبل أن يعترض أحد قراراته، أو يحول دون رغائبه، فعد هذا الرفض من جانب أسقف الاسكندرية تحديا لسلطانه، أما الأساقفة فأيقنوا أن أثناسيوس يسخر بهم ولا يعيرهم اهتماما، وبذلك وفي وقت واحد، ثارت حفيظة الامبراطور والأساقفة ضد أسقف الاسكندرية العنيد.

صمم الامبراطور اذن على أن يسير في الشوط حتى منتهاه، فوجه الدعوة من جديد لعقد

(1) SOZOM. hist. eccl. II, 25.

فقبلها يوحنا البطرك واساقفته وقروها فى كنايسهم وكورة مصر، واصعدو صلوات وشكر للسيد المسيح الذى اعاد الاعضا المقطوعه الى مواضعها. وبفرح عظيم وابتهاج روحانى.

وكتب يوحنا البطرك القديس الى الكبير ساويرس جوابها بكلام قانونى مملو من الامانة المستقيمة التى لمعلمى البيعه، كما كتب اليه المغبوط ساويرس. ولماعاد اليه الرسل بهذه الهديه التى تشبه خلالته، فرح وتهلل جدا. واقام يوحنا

مجمع للأساقفة فى صور نعلم من سقراط أن عددهم بلغ ستين أسقفا[١]. وأرسل قسطنطين الكونت ديونيسيوس Dionysius الى هناك، وكانت مهمته كما يتضح من رسالة الامبراطور الى الأساقفة، «رئاسة وضبط أعمال المجمع والحفاظ على النظام»[٢]. كما كتب الى أثناسيوس يأمره بالذهاب الى صور، ولكن الأسقف على حد تعبيره لم يكن راغبا فى ذلك، الا أنه امتثل للامر على كره منه[٣]. ويتطوع سقراط للدفاع عنه قائلا ان امتعاض أثناسيوس من الذهاب الى هناك كان صادرا عن ايمانه ببراءته من كل التهم المنسوبة اليه، هذا بالاضافة الى خوفه من حدوث أى اتجاه مضاد لقانون الايمان النيقى [٤]، ثم يفصح سقراط عما حدث صراحة حين يقول« ان أسقف الاسكندرية أكره على الحضور تحت وابل من خطابات التهديد التى كتبها اليه الامبراطور متوعدا اياه بحمله على الحضور عنوة اذا لم يحضر طواعية [٥].

وقد كتب قسطنطين الى الأساقفة المجتمعين فى صور رسالة أبدى لهم فى بدايتها أمله الكبير فى أن تعود الى الكنيسة ثانية وحدتها، ولام أولئك الذين أحدثوا هذا الشقاق والفوضى، وحث

(1) SOCRAT. hist. eccl. I, 28.

(2) EVSEB. vista. Const. IV. 42.

(3) SOCRAT. hist. eccl. I, 28.

(4) ATHANAS. Apol. C. Arian. 71.

(5) Id.

بطركا احدى عشره سنه وتنيح فى السابع والعشرين من بشنس.

ديسقرس الجديد البطرك

[٥١٥ / ٥١٧م]

وهو الحادى والثلثين من العدد

ولما تنيح الاب يوحنا البطرك كان له كاتب اسمه ديسقرس وكان رجلا كاملا فى جميع اسبابه، وديعا صالحا ليس فى زمانه من يشبهه،

الأساقفة جميعا على التزام جادة الحق والصواب فى تقصى الحقائق واظهار الحقيقة، ثم اختتم رسالته بتهديد صريح جاء فيه:

«ولئن تجاسر أحد، مع اعتقادى بأن ذلك لن يكون، على عصيان أمرى، ورفض الحضور الى المجمع، فلأرسلن اليه من يطرده بواقع مرسوم امبراطورى ويلقنه أنه لا يليق بمثله أن يعترض قرارات الامبراطور حين يكون عن الحق دفاعه»[١].

ولاشك أن هذا التهديد موجه صراحة الى أثناسيوس. وهكذا أقفل باب سلام يرتجى بين الامبراطور والزعيم السكندرى ، ولم يكن الامبراطور فى حاجة من بعد لمن يملأ قلبه حقدا على أثناسيوس أو كرها له، فمالت كفة القدر مسرعة تجاه الفريق اليوسابى المليتى.

وفى منتصف عام ٣٣٥ التأم عقد مجمع صور، واصطحب أسقف الاسكندرية معه عددا كبيرا من مؤيديه بلغ ثمانية وأربعين[٢]، وسيق مقار من الاسكندرية الى صور مكبلاً فى أغلاله [٣]. ويصف أثناسيوس الحالة فى المجمع عندئذ بقوله: تقاسم المليتيون الذين طردهم بطرس من الكنيسة، والآريوسيون المؤامرة فيما بينهم، وعلى حين وقف فريق منهم ازائى

(1) EVSEB. vita. Const. IV. 42.

(2) ATHANAS. Apol. C. Arian. 78.

(3) SOCRAT. hist. eccl. I, 28.

فكرزوه بطركـا على الكرسي الانجـيلى، فكتب سنوديقا الى الاب ساويرس يذكـر له فـيهـا نيـاح الاب المغـبوط يوحنا وجلوسه بعده على الكرسى الرسـولى، فكتب اليـه يعـزيه ويثبتـه على الامـانة المستقيمه ويوصيه بتعليم الشعب وان لا يفتر من التعليم، ويوكـد عليـه في ذلك، واقـام ديسـقـرس بطركا تلت سنين، وفي سيـره اخرى انه اقام سنة واحـده ونصف وتنيح في السـابع عـشر من بابه ولحق باباته.

موقف المدعي، وجلس الحزب الآخر في منصة القضاء، وقد اعترضت لدى يوساب موضحا أنه ليس من العدل أن يكون خصومي قضاتي، وأوضحت للجميع أن اسخيراس الذى اتهمنى قبلا لم يكن في يوم من الأيام قسيسا، واستشهدت على ذلك بتلك القائمة التى كان مليتيوس قد أعدها حسب رغبة اسكندر [الكسندروس] عن أتباعه في أنحاء مصر كلها[١]، ومن خلالها لا يظهر اسم اسخيراس على الاطلاق، ولم يبد البتة أنه كان أحد رجال الاكليروس في مريوط. وعلى الرغم من كل ذلك الا أن خصومنا لم يتخلوا عن اتهاماتهم، وكان الكونت على استعداد لاستخدام العنف ضدنا وتسيير جنوده في ذلك[٢].

تولى المليتيون اقامة الدعوى ضد أثناسيوس، فاتهمه كاللينيكوس Callinicus أسقف بلوزيوم Pelusium أنه عزل من منصبه، وعين بدلا منه شخصا آخر، ووضعه تحت حراسة عسكرية،، وراح يذيقه العذاب ألوانا حتي يحصل منه على اعترافات تدحض اتهام أثناسيوس بتحطيم الأواني المقدسة، واتهمه اسخيراس بأنه وضعه في الاغلال رغم مرتبته الكهنوتية، وأذاعوا أيضا أنهم أنبأوا قبلا هيجينوس Hyginus احد موظفى الامبراطور[٣]، في مصر أنه قذف بالأحجار تماثيل الامبراطور وأشيلاس Achillas وباخوم Pachomius واسحق Isaac

(1) ATHANAS. Apol. C. Arian. 71.
(2) Ibid. 72.
(3) SOZOM. hist. eccl. II, 25.

تيماتاوس التالت البطرك

[٥١٧ / ٥٣٥م]

وهو من العدد التانى والتلتين

وجلس تيماتاوس بطركا عل كرسى اسكندريه وتوفى انستاسيوس الملك المومن واقامو بعده رجلا رديا مخالفا اسمه يوستنيانوس ليدبر المملكه، فلما جلس بذل جهده في ان يعيدكل المومنين الارتدكسيين الى امانة المجمع الخلقدونى. واول ما

أما يوبلوس Euplus وهرمايون Harmaeon وكلهم أساقفة مليتيون، فقد راحوا يشككون فى الطريقة التى تم بها اختيار أثناسيوس للأسقفية، وأن ذلك تم بطريق غير شرعى بناء على تأمر بعض الأفراد، مما دفع بهؤلاء الأساقفة الى قطع أنفسهم من الكنيسة احتجاجا على ذلك، فكان جزاؤهم أن ألقى بهم فى غيابة السجون[١]. كما أثيرت من جديد مسألة مقتل أرسنيوس[٢].

وفيما يخص هذا الاتهام الأخير، يذكر سقراط أن أرسنيوس، متجاهلا التحذيرات التى وجهت اليه من الفريق اليوسابى المليتى، جاء الى صور متنكرا ليشهد أحداث المجمع، وقد نمى الى علم خدم أرشيلاوس Archelaus حاكم الأقليم، أن أرسنيوس، الذى من المفروض كونه فى عداد الأموات الآن، موجود متخفيا عند أحد المواطنين، فما لبثوا أن نقلوا ذلك الى سيدهم الذى أصدر أوامر بالبحث عن الرجل، فلما عثر عليه وجئ به أنكر شخصه، ولكن بولس أسقف صور تعرف عليه، وعندما أحضر الى المجمع ورأى الجميع أن يديه سليمتان خاطبه أثناسيوس قائلا: «أرسنيوس.. ها أنت كما ترى تمتلك كفين، فدع متهمى يشيرون الى مكان اليد الثالثة التى قطعت»[٣].

(1) Id.

(2) Id.

(3) SOCRAT. hist eccl. I, 29; SOZOM. hist. eccl. II, 25; THEOD. hist. eccl. I. 28.

ابتدا بان اخذ القديس ساويرس البطرك وجمع
مجمعا فى مدينة القسطنطينيه من نفسه وكان فيه
وكليوس بطرك روميه، وابوليناريوس الذى صيره
الملك بطركا على مدينة اسكندريه واوتيخيوس
بطرك مدينة القسطنطينيه، والاساقفه الذين تحت
ايديهم، وانفذ ليحضر الاب ساويرس البطرك
واساقفة المشرق، وكان يظن انه يطيب قلب
القديس ساويرس ويستميله الى رايه لكى ينقاد له
الكل ليقينهم به وبامانته فيقولو بمقالته الرديه، فلم

وقد استطاع اثناسيوس أن ينفى عن نفسه كثيرا من هذه الاتهامات التى وجهت اليه. غير أن الحيرة انتابته أمام هذا الجم الغفير من الشهود الذين احضرهم خصومه، ومن ثم أدرك الأسقف السكندرى أن أعداءه عازمون على تحطيمه تماما. وقد عقد المجمع جلساته التى غرق فيها فى بحر من الفوضى والاضطراب، وتعالت صيحات الكثيرين تطالب بعزل اثناسيوس، ولم يحسم الامر الا تدخل ديونسيوس المندوب الامبراطورى[١].

وكانت مسألة اتهامه بتحطيم الأوانى المقدسة الموضوع الذى شغل الأساقفة لفترة طويلة، واحتاج الامر الى تأليف لجنة لتقصى الحقائق تقرر ارسالها الى مريوط لبحث القضية فى موضعها[٢]. وتألفت اللجنة من ثيوجنس، وماريس، وثيودور، وماكيدون، وأورساكيوس وفالنز[٣]. احتج أثناسيوس على تشكيل اللجنة بهذه الصورة لأنها تضم أبرز خصومه، كما احتج أيضا على اصطحاب اسخيراس معهم فى الوقت الذى بقى فيه مقار رهين قيوده[٤].
وكان أثناسيوس قد اعترض بداءة على ايفاد لجنة الى مريوط على الاطلاق مبينا لديونيسيوس

(1) SOZOM. hist. eccl. II, 25.
(2) SOCRAT. hist. eccl. I, 31.
(3) Id.
(4) ATHANAS. Apol. C. Arian. 72.

يلتفت الكبير ساويرس اليه ومضى هو واساقفته الى القسطنطينيه ليتبت الامانه، كان يظن ان ذلك الملك الكافر يرجع عن رأيه الفاسد. فلما وصل الاب ساويرس الى القسطنطينيه فاكرمه الملك فى البدايه اكراما عظيما ورفع منزلته وكلمه كلاما طيبا طالبا منه انه يساعده على طومس لاون ويبلغ امانته، فاما هو المجاهد فى الله فكان قد جعل فى قلبه قول بطرس الرسول لسيمون الساحر: ان كراماتك وأنت يكن فى الهلاك لانى ارى انك مملو

عدم جدواها[١]. ويعلق جونز على ذلك بأن اعتراض الأسقف السكندرى على ارسال اللجنة يشير الى احتمال صحة هذه الأحداث فعلا، يعنى تحطيم الأوانى المقدسة[٢].

وكتبت رسالة الى حاكم مصر، وزودت اللجنة بالعون العسكرى اللازم لحمايتها[٣] أما أعمال اللجنة فى مصر فنقف عليها من رسالة قساوسة مريوط الى الأساقفة المجتمعين فى صور، وقد ذكروا فيها ما سبق أن أوضحه أثناسيوس من أن اسخيراس هذا لم يكن فى يوم من الأيام رجلا من رجال الاكليروس، وأنه انما تم رسمه على يد كوللوثوس Colluthus الكاهن الذى ادعى الأسقفية على عهد اسكندر [الكسندروس] ورسم عددا من القساوسة، وتمت ادانته واعادته الى رتبته الكهنوتية (قسيس) بواسطة المجمع الذى عقد فى الاسكندرية سنة ٣٢٤ تحت رئاسة هوسيوس القرطبى.

أما فيما يختص بعمل اللجنة فذكروا أنها أصطحبت معها فيلاجريوس Philagrius والى مصر وعددا من جنده، ولما تقدم اليهم رجال الاكليروس يطلبون اشراكهم فى اجراءات التحقيق، رفضت اللجنة سماع مقترحهم، وتمكنوا عن طريق القوة والتهديد من جانب

(1) Id.

(2) Jones, Constantione, P. 195.

(3) ATHANAS. Apol. C. Arian. 72.

مراره امر من التنين. وكان يوستنيانوس الملك مثل نسطور. فلمـا كـان فى بعض الايام امـر الملك ان يجتمع الغير اساقفه الى ذلك المجمع فلم يحضر معهم الاب ساويرس الشجاع ولا احد من اساقفته لانه قـال ان لم يحـرمـو اولا طومس لاون والمجـمع معهم الخلقدونى الطمث المرذول والا فما اجتمع معهم فى قول الكفر.

ثم جـرى من الملك امـور يضـيق الكتـاب عن شرحها ليلا [لئلا] تطول السيره بذكرها. فلما بلغ

الوالى، كما تقول الرسالة، من الحصول على البيانات التى يريدونها، وعادوا أدراجهم ثانية[1]. وعلى غرارها كتب هؤلاء القسيسون رسالة الى فيلاجريوس يوضحون له حقيقة الأمر[2]. أمـا الأسـاقفة المصـريون الذين صـحبـوا أثناسيـوس إلى المجمع فقد كتبـوا رسالة الى ديونيسيوس المندوب الامبراطورى أوضحوا له فيها أن المسألة محض مؤامرة حاكها ذلك الفريق اليوسابى بغية تقويض الايمان القويم والتخلص من زعيمه المدافع عنه أثناسيوس، وأضافوا أن مريوط لم يكن بها أحد من المليتيين قبلا، أما الان فهى تفيض بهم بعد أن أرسل المليتيـون الموجودون فى المجمع رسولين من لدنهما بعد أن سمعوا بقرب سفر اللجنة لتجمع المليتين وحشدهم فى مريوط، هذا بالاضافة الى الآريوسين والكالكاللوثيين، وحذره من التمادى فى اطاعة هذا الفريق حتى لا يجلب على نفسه غضب الرب ورجاله[3].

ويبدو أن ديونيسيوس لم يلق بالا الى هذا الاحتجاج فما كان من الأساقفة المصرين هؤلاء الا أن بعثوا اليه خطابا شديد اللهجة جاء فيه:

«أنا نرى أنفسـنا مرغمين على الشكوى ثانية، لقد لاحظنا أن تأييدا كبيرا قد أصبح الان فى

(1) ATHANAS. Apol. C. Arian. 72.

(2) Id.

(3) Ibid. 78.

ساويرس البطرك امر الملك فلم يجتمع معهم ولا مضى اليهم انزلو عليه البلايا وحلت به الشدايد. ومن بعد سنتين بسوال الملكه تيودوره(*) المومنه افرج عنه وهبه لها فسيرته الى كرسيه.

وكان في تلك الايام تيماتاوس باسكندريه، فلما اخرج ساويرس البطريرك من انطاكيه واساقفته الذين من الشرق ووصلو الى مصر جا [ء] الاساقفه الى مدينة اسكندريه فطردو رهبانات كتيرا عذارى من الديارات، وكان الاب ساويرس

(*) الملكة تيودوره: يقال أنها من الاسكندرية خرجت مع والدها وأمها في سيرك متنقل استقر في القسطنطينية، كان من روادها حاكم برقه وحنا الكابودكي محافظ المدينة و«جستنيان» ابن أخي الامبراطور «جستان» ووارث عرشه. مات ابوها مدرب الدببة على يد أحد الدببة، وماتت أمها بالسل فعملت راقصة في القسطنطينية مما عرّضها لرغبات

جانب المليتيين، وأن مؤامرة ضد الكنيسة الكاثوليكية في مصر، في أشخاصنا، قد دبرت. وعلى ذلك، نقدم هذه الرسالة أليك راجين أن تضع في عقلك قوتة الاله القدير الذى يحمي مملكه امبراطور نا التقى الورع قسطنطين، وأن تنقل الى مسامع الامبراطور ذاته كل هذه الأمور التي تهمنا. لقد بعثت من قبل عظمته لتعي تماما هذه الأحداث، ولتعلم انا لم نعد نحتمل أن نغدو على الدوام هدفا لخيانات ودسائس أولئك السابق ذكرهم. يوساب وبطانته ،عليه نرجوك أن تعرض قضيتنا على الامبراطور الورع محبوب الرب، أمام ذلك الذى يمكننا أن نعرض عليه شكياتنا والكنيسة ونحن واثقون أنه عند سماعه قضيتنا، لن يديننا. ولذلك لنا شدك ثانية بالاله القدير، وبامبراطورنا المحبوب الذى فاق الصغار في تقواهم، فكسب النصر وحقق كل هذه النعم طوال هذه السنين، لا ترهقوا أنفسكم في محاولة عرض أمرنا على المجمع ثانية، بل أبلغ الامبراطور أمرنا»(١).

ولعل هذا القول الأخير يذكرنا بالتيار الذى سارت فيه المشكلة الدوناتية قبلا، عندما رفض زعماؤها الامتثال لأوامر مجمعي روما وآرل واحتكموا للامبراطور شخصيا. وها هم الأساقفة المصريون يسلكون نفس السبيل، بعد أن أصبح واضحا لهم أن الاتجاه السائد في مجمع صور قد نحا نحوا مضادا لهم. ومن ثم أدركوا أن شيئا من الأنصاف لن يتيسر لهم الحصول عليه،

(1) ATHANAS. Apol. C. Arian. 79.

في زمان هذا التعب يهرب من مدينه الى مدينه سرا وعلانيه، ومن دير الى دير، وكاتب الاساقفه اصحابه الذين باسكندريه ويعزيهم ويوصيهم ان يتثبتو على الشدايد بشجاعه. وكان معهم غير اسقف اسمه يوليانوس واظهر انه يشارك مجمع خلقدونيه لانه يقسم السيد المسيح الواحد اتنين ويجعله طبيعتين بعد الاتحاد الغير مدروك، فلما وجد هذا [اليوليانوس] زمانا بغيبة الاب سويرس كتب طومار بموامره سو لقوم سكارى مرضى في

حاكمها فهربت مع حاكم برقه عند عودته إلى مقر حكمه في برقة. ولكنها في الطريق نزلت من سفينته في سوريا وذهبت إلى انطاكيه ثم عادت للقسطنطينية والتقت بجوستيان وتزوجها بعد فترة عقب وفاة الامبراطورة التي كانت تعارض هذا الزواج. وبعد وفاة الامبراطور تولى جوستيان العرش وجعل تيودوره شريكة في السلطة سنة ٥٢٧م.

وفي الوقت الذي انصرف فيه جوستيان إلي اعداد مدونته الشهيرة

- -

فلما لم يصغ ديونيسيوس لرجائهم، لم يجد زعيمهم بدا من عرض الأمر بنفسه على الامبراطور، وعلى هذا النحو شخص أثناسيوس الى القسطنطينية لمقابلة قسطنطين والاحتكام اليه(١).

أدرك ديونيسيوس أن الأمر قد أفلت من يديه، وخاصة بعد أن أرسل اليه اسكندر أسقف سالونيكا رسالة يستنكر فيها سماحة لهؤلاء الأفراد بالذات الذهاب الى مصر، ويحيطه علما أن تلك مؤامرة مدبرة ضد أثناسيوس، ويلومه على هذا التخاذل ازاء الفريق اليوسابي المليثي(٢).

وعلى ذلك فقد كتب ديونيسيوس الى يوساب واتباعه رسالة ينبئهم فيها بقول اسكندر مؤيدا ما جاء فيها، ويبدو من عبارات رسالته أنه يستعطف هذا الفريق لالتزام جادة الصواب حتى لا يكون عملهم محل لوم أو نقد(٣).

أخذ يوساب ورفاقه الان بيدهم زمام المبادرة، وانتهزوا فرصة غياب أثناسيوس عن المجمع قبل أن ينهي هذا أعماله، وكانت التقارير التي أعدتها لجنة تقصي الحقائق العائدة من مريوط

(1) SOZOM. hist. eccl. II, 25.

(2) ATHANAS. Apol. C. Arian. 80.

(3) ATHANAS. Apol. C. Arian. 81.

«مدونة جوستنيان» انفردت تيودورا بالحكم. توفيت سنة ٥٤٨م.

امانة اوتيخيوس الكافر، وابوليناريوس، ومانى، واودكسيس الكفره، وملاه ايضا تجديفا من اعتقاد الذين يعتقدون التخيل وينكرون الام المسيح السيد المحيية. وانفذه الى اعمال مصر والى رهبان البريه فقبلوه ووقعو فى الفخ الا سبعة نفر اضا [أضاء] الله قلوبهم فلم يقبلوه وسمعو صوتا يقول هذا الطومار نجس. فقام عليهم الذين وقعو فى ضلالة يوليانوس فقتلو منهم اتنين، فتفرقو البقية وصارو يقدسون في قلاليهم بدير ابى مقار وغيره.

قد أعدت واطلع عليها الجميع [١]، فأصدر المجمع قراراته بادانةن أثناسيوس وعزله من منصبه، وحرم عليه الاقامة فى الاسكندرية خشية أن يؤدى وجوده فيها الى اشعال نيران الفوضى والانقسام من جديد، كما أعيد يوحنا رئيس الأساقفة وتابعيه ثانية الى الكنيسة ورد الى كل منهم مركزه الاكليروسى [٢].وكان من بين المقبولين ثانية أرسنيوس، وقد وقع على قرار عزل أثناسيوس بوصفه أسقفا لمدينة Hypsaloplis [٣]). وبعث المجمع بتقرير عن عمله الى الامبراطور، وبمثله الى أساقفة مختلف البلدان ناصحين اياهم بعدم قبول أثناسيوس فى زمالتهم وأن لا يكتبوا اليه أو يتلقوا منه أية رسائل. وذكر وا فى رسالتهم هذه أنهم أضطروا للموافقة على ادانة أسقف الاسكندرية لأنه رفض الامتثال للامر الامبراطورى الصادر اليه قبلا بالحضور أمام الأساقفة فى قيسارية، مستخفا بالاساقفة، متحديا أوامر الحاكم، هذا بالاضافة الى أنه حضر الى صور وبصحبته عدد كبير من الاتباع بغية اثارة الاضطراب والفوضى فى المجمع، كما أن أثناسيوس رفض فى كثير من الأحيان الاجابة عن الاتهامات الموجهة إليه، وأهان بعض الأساقفة، وأوضحوا فى نفس الرسالة أنه أذنب ولا شك حين سمح لمقار بتحطيم الأوانى المقدسة كما شهد بذلك أعضاء اللجنة[٤].

(1) SOCRAT. hist. eccl. I, 32.
(2) SOZOM. hist. eccl. II, 25.
(3) SOCRAT. hist. eccl. I, 32.
(4) SOZOM. hist. eccl .II. 25.

وهذا السبب فى تفريقهم وكثرة الضلاله فى الاربعة ديارات وفى الجواسق. فبقوة الروح القدس ونعمته كانت المعونه للخمسة نفر الرهبان الباقين من السبعه، فمنعو الرهبان ان لا يقبلو الطومار. وكان ينبوع هذه الضلالة يوليانوس لا يفتر من انفاد كتبه الى البلاد ليضل الناس ويجذبهم اليه. فلما علم الاب ساويرس ذلك بقوة روح القدس الساكنة فيه كتب الى كل موضع ليتبدد امره ويبدد فكره، واعلم الناس فى كتبه ان يوليانوس

تميمة قبطية تمثل صلب المسيح من القرن ٦ ــ ٧. متحف اللوفر

هكذا اختتم مجمع صور جلساته بعد أن أدان وعزل وطالب بنفى أثناسيوس وقدم فى ذلك تبريراته الى الامبراطور والأساقفة، على أنه ينبغى لنا أن ندرك أن هذه الاتهامات العديدة التى سيقت ضد الأسقف السكندرى وان كان فيها الكثير من الغموض وربما الزيف. الا أنها لا شك أيضا تحمل جانبا ولو يسيرا من الحقيقة، ولعل دليلنا على ذلك أن هذه المعلومات كلها استقيناها، من أقلام أثناسيوس نفسه ومؤرخى الكنيسة الاخرين، وهذا ولا شك شئ يدعو للحذر، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فان تتبع هذه الأحداث يرينا أن أسقف الاسكندرية كان بلا ريب يتمتع بشخصة قوية ونفوذ كبير، ويبدو من سلوكه طوال هذه الفترة مدى صلابة رأيه وتمسكه الشديد بكل ما تقر عليه ارادته. هذا واضح من تحديه المستمر للفريق الآريوسى، بل ورفضه الفريق المليثى الذى كان اسكندر قد قبلهم ثانية بناء على قرارات المجمع المسكونى الأول فى نيقية، فلا شك اذن أن يؤدى ذلك الى اثارة حفيظة وغيرة كثير من زملائه رجال الاكليروس لافى مصر وحدها بل فى كنائس الشرق الأخرى. وكانت نيقوميديا على رأس هذه الكنائس، واذا أدخلنا فى اعتبارنا أن نيقوميديا قد ظلت لفترة تقترب من نصف قرن عاصمة الامبراطورية، فلا عجب أن يتطلع أسقفها الى شئ من الزعامة على سائر الكنائس الأخرى، بل وأن يتطلع هو نفسه لأسقفية أكبر من نيقوميديا، وسينجح يوساب فعلا فى ذلك عندما يصبح أسقفا للقسطنطينية ، وان كان ذلك قد تم بعد وفاة قسطنطين. ومن ثم

تنين ردى ممتلى تجديفا. وكان القديس ساويرس
مهتمابمن ضرب بهذه الضربة ليداويه وتثبيتا لمن
لم يتبع الطومار، وكان من ذلك قلق ومقاومه.
وعند ذلك تنيح الاب طيماتاوس البطرك المغبوط
وهو تابت فى الامانه المستقيمه، وكان مجاهدا
عنها متل الاب ساويرس ودحض يوليانوس وجميع
مقالاته.وكانت مدة مقامه بطركا على كرسى
اسكندريه سبع عشرة سنه وتوفى فى التالت عشر
من امشير.

رأينا يوساب يتزعم حركة المعارضة ضد كنيسة الاسكندرية، واذا كانت هذه تعتز بتراثها التليد وفلسفتها ومدرستها اللاهوتية وأثرها الواضح على المسيحية، وما كان لها بكل هذه العظمة أن تقبل الخضوع لمدينة لا تدانيها فى شئ من هذا، فان نيقوميديا وليس لها من هذا شئ، لابد وأن تعتز بأنها مقر الأباطرة عاصمة ملكهم، وأنه ليس من حق أسقفية ولاية أن تنازع أسقفية العاصمة وحتى عندما انتقلت العاصمة الى القسطنطينية فى ١١ مايو سنة ٣٣٠ لم يكن لكنيستها خلال الفترة الباقية من حكم قسطنطين شأن يذكر فى تسيير دفة الأحداث.

لقد تحولت المسألة بعد مجمع نيقية الى صراع على الزعامة تحت ستار العقيدة، ويقول جلانفيل دونى Glanville Downey «ليس غريبا أن يظهر نوع من الأساقفة الدنيويين السياسيين الذين لم يكرسوا أنفسهم لرعاية رعيتهم فى البلدان النائية بقدر ما وجهوا عنايتهم الى المناورات الدبلوماسية فى البلاط الامبراطورى، وذلك عندما قامت الخلافات العقائدية وتدخل الامبراطور لحلها، فأصبح واجبا على الجهات المتخاصمة فى الكنيسة أن تسعى الى كسب الامبراطور ومستشاريه الى صفها[١]. فآريوس صاحب هذه الأحداث منذ البداية أخلد بعد نفيه الى الهدوء، ولم يأت به الى مسرح الأحداث ثانية الا الامبراطور ذاته وربما على كره

(١) دونى أنطاكية فى عهد ثيودوسيوس، ترجمة دكتور البرت بطرس، ص ٨٣. بيروت ١٩٦٨.

تاودوسيوس البطرك

[٥٦٧ / ٥٣٥]

وهو من العدد الثالث والثلثون

وبامر الله اجتمع الاساقفه والشعب الارتدكسى بعد نياحة تيماتاوس وبتدبير السيد المسيح قسمو الاب القديس تاودوسيوس بطركا وكان بتولا عارفا بالكتابة البيعيه. وبعد ايام قلايل اقام المبغض للخير تجربه عليه وطرح سجسا بين اقوام اشرار من اهل المدينه اصحاب صنايع مرذوله.

من آريوس نفسه كما اتضح من رسالة الامبراطور اليه، وحتى بعد عودته ظل بعيدا لايشارك فى شئ من هذه الحوادث كلها. لقد كان الرجل شيخا طاعنا، ولم يكن له مطمع فى جاه أو مطمح الى سلطان، بل كل ما كان يرجوه أن يقر الناس عقيدة آمن بها وأيقن أنها الحق المبين، وما عداها افك وضلال. على حين كان يوساب هو المحرك الأول لكل هذه الأحداث بعد مجمع نيقية وطوال عشر سنوات كاملة (٣٢٨ ـ ٣٣٧)، ولم يأت على لسان الأطراف المتنازعة، ولم تسجل أقلامهم خلال هذه المرحلة التى شهدناها بعد نيقية شيئا من أمور العقيدة، ولم تمس الاتهامات التى وجهت الى أثناسيوس طرفا من رداء الدين، ولم يتعرض مجمع الأساقفة فى صور الى العقيدة فى قليل أو كثير، بل حتى لم يطلب اليه بحث مسألة اعادة آريوس الى الكنيسة وهى المشكلة التى كان يجب أن تحتل المكان الأول فى قائمة موضوعات الساعة، وحتى مبررات الحكم ضد أثناسيوس كانت كلها تدور حول مسائل بعيدة تماما عن الديانة وأسرارها. ولكنها كانت كلها تسير هذين المسارين الواضحين اللذين اختطهما رجال الفريق اليوسابى منذ البداية، أعنى اثارة غضب الامبراطور وجلب حنق الأساقفة. وكان الفريق اليوسابى يعلم مزاج الامبراطور، فعرف كيف يصور له أثناسيوس فى صورة المعترض على قراراته المتحدى لسلطانه، وساعد أثناسيوس بسلوكه وعناده على تثبيت هذه الفكرة لدى الامبراطور.

وكـان انسـان قـد كـبر وطعن فى السـن اسـمـه كـيـانوس(*)[غايانوس] وكـان ارشي دياقن البيعه باسكندريه وكـان قـايما في وقت قـسـمـة الاب تاودوسيوس بطركا مع الاساقفه والكهنه ومقدمي المدينه حتى قسموه وكتبو تقليده وقدموه لرتبة الرياسه على الكرسي الرسولي وكملوه باتفاق من جميع الشعب المسيحى المحب لله، ومن بعد هذا اضله قـوم وغـيـرو فكره، اعنى الارشى دياقن بسداجته، واشارو عليه قايلين هذه الرتبه والتقدمه

(*) كـيـانوس: غـيـانوس: ينسب اليه شيعة مذهبية تسمى الغايانيون ظهـرت عـام ٥٣٥م. نازع البطرك تاودوسيوس الأول كرسي اسكندرية، وبعد أن أقام فيه مئة وثلاثة أيام نفاه القيصر يستنيانس الاول إلى جزيرة سردينية وفيها مات بعد مدة وجيزة.

وبما أنه كان ميالا إلى الأسقف يوليان الخيالى تمسك حزبه بها وانتشروا فى بعض البلاد المصرية، وفى سنة ٥٤٩م انضمت شيعته إلى

وان كان اليوسابيون قد حرصوا على أن يغلفوا ذلك بستار العقيدة أيضا، ولهذا فانهم رغم سعيهم الدائب لاثارة الامبراطور ضد أثناسيوس، لم يضعوا ذلك فى اطار النزاع الشخصى بين قسطنطين وأثناسيوس، حتى لا يجعلوا من الأسقف السكندرى بطلا فى نظر رعيته يناضل ضد الامبراطور.

ما كاد المجمع ينهى جلساته ويصدر قراره حتى تسلم رجاله رسائل من الامبراطور يدعوهم فيها للتوجه الى أورشليم لحضور حفل تدشين الكنيسة الفخمة التى أقامها الامبراطور هناك، والذى يوافق الاحتفال أيضا بالعيد الثلاثين لحكم الامبراطور(1). ويصور يوساب ذلك بقوله ان المدينة قد غدت مسرحا ضم عديدا من مختلف الشخصيات الكنسية، فقد جاء الى هناك اسكندر أسقف سالونيكا، ومن بانونيا حضر أورساكيوس وفالنز، وأحد أساقفة فارس، ومن بيثينيا وتراقيا ثيوجنس هذا بالاضافة الى أساقفة كليكيا وكبادوكيا وسوريا وميزوبوتاميا وفينيقيا وبلاد العرب وفلسطين ومصر وليبيا وطيبة، الى جانبى عدد هائل من موظفى القصر الذين أرسلوا للاشراف على هذا الحفل والارتفاع به الى ما يناسب مقام الامبراطور السامى(2)، ثم يخبرنا يوساب بعد ذلك أن أولئك الموظفين قد قاموا بناء على الأوامر الامبراطورية بتوزيع

(1) EVSEB. vita Const. IV, 43.
(2) Id.

شيعة يوليان وأقامو لهم رئيسا واحدا باسم بطرك.

تجب لك ولا يجوز لاحد ان يتقدم عليك. ودخلو في عقله قليلا قليلا بالكلام الردى حتى قبل مشورتهم، فاخذوه ومضو الى بيت قس اسمه تاودورس، وكان ردى الفعل وله مال كتير، فقسمو كيانوس الارشي دياقن بطركا، وكان معهم معاونا لهم يوليانوس الفاسد الامانه باتفاق مع تاودورس القس لان تاودوسيوس المغبوط كان لما صار بطركا قد احرم يوليانوس لانه كا ملجا [ء] للمخالفين. ثم انه مضى الى الوالي والى متولى المعونه

الهدايا والمنح والعطايا التى أنعم بها الامبراطور على رجال الله(١) . وقد قابل الأساقفة ذلك بالقاء عديد من الخطب التى تدور كلها حول تمجيد الامبراطور والاشادة بورعه وتقواه وهذا العمل النبيل الذى أقدم عليه، والدعاء الى الرب بأن يحفظه ويرعاه، ويذكر يوساب أنه شارك هو الآخر فى هذه المباراة وأوضح فى خطبته أن تلك الكنيسة وتمامها فى ذلك الوقت بالذات كانت مما جاء في نبوءات الأنبياء قبل ذلك(٢) !!

ولا شك أن الامبراطور عندما واتته أنباء هذا الاجتماع بهذه الصورة التى كان عليها داعبه من جديد أمل السلام والوحدة، فها هو يشهد أساقفة الشرق جميعا، وقد اتحدت كلمتهم مهما كان نوع هذا الاتحاد، ثم نظر فاذا بآريوس لا يزال خارج الكنيسة، فأيقن أن هذه هى الفرصة المناسبة ليعيد آريوس الى كنيسته فينتهى بذلك من مشكلة آلمته من حكمه سنين عددا، وعلى هذا بعث بآريوس وصحبه يوزيوس الى مجمع الأساقفة في أورشليم سنة ٣٣٥، وأخبرهم أنه قد اطلع على وثيقة ايمانهما التى قدماها اليه، وأنه مقتنع بكل ما جاء فيها، وحثهم على قبول هذه الوثيقة واعادة آريوس وصحبه الى الكنيسة(٣). ولم يكن الأساقفة فى حاجة الى توصية الامبراطور، فقد كانوا جميعا من مؤيدى آريوس، فأصدروا على الفور قرارهم

(1) Ibid. 44.

(2) Ibid. 45.

(3) SOZOM. hist. eccl. II, 27.

وصانعهم وطيب قلوبهم بكثرة الهدايا حتى اقامو على الاب تاودوسيوس البطرك وعلى البيعه شرا عظيما، وطردو تاودوسيوس القديس عن كرسي الاسكندريه الى حرسانوس، فمكث هناك ستة شهور، وكتم الوالى عن الملك امره وقسمتهم غيره، وكلما [كل ما] جرى من يوليانوس وتاودورس المجتمعين عليه.

وكان الحكيم ساويرس البطرك يسمى تاودوسيوس اخا ومعينا وشريكا في الفعل الواحد

بقبول صيغة الايمان التى قدمها الرجلان وهى التى أشرنا اليها آنفا. واعادة قبولهما فى الكنيسة. وعودتهما الى كنيسة الاسكندرية، وكتبوا الى الامبراطور يخبرونه بكل ما حدث[١].
كما أرسلوا أيضا رسائل بهذا المعنى الى عموم الكنائس فى الاسكندرية وطيبة وليبيا ومختلف رجال الاكليروس فى مصر حاثين اياهم على قبول آريوس وشيعته، وشفعوا ذلك بأقوال تضع حديثهم فى صيغة أمر واجب التنفيذ، فذكروا أنهم أقدموا على هذا بعد أن تأكد لديهم صدق ايمان آريوس وصحبه، وأن الامبراطور محبوب الرب التقى الورع، قد شهد فى خطابه لهم بصحة ايمان الرجلين بقبولهما فى الكنيسة[٢].

ويبدو أن رسالة الامبراطور الى المجمع بخصوص قبول آريوس وصحبه فى الكنيسة، قد بعثت قبل أن يلتقى الامبراطور بأثناسيوس الذى انسحب وبعض خاصته أثناء انعقادمجمع صور، وشخص الى القسطنطينية ليعرض على الامبراطور صورة لهذا الحيف الذى وقع به، ذلك أن الأمبراطور ما أن التقى بالأسقف السكندرى وسمع له حتى أرسل رسالة عنيفة الى الأساقفة الذين كانوا قد اجتمعوا فى صور وهاهم الآن فى أورشليم، ويبدو أن الامبراطور قد تأثر الى حد كبير بما سمعه من أثناسيوس، وذلك واضح مما جاء فى مقدمة رسالته حيث يقول:

(1) SOCRAT. hist. eccl. I, 34.

(2) ATHANAS. Apol. C. Arian. 84.

الانجيلي الحقيقي. وكان يعزيه ويقويه على ما ناله لاجل الامانه الارتدكسيه، ويشبهه بالعظيم بولس الرسول في اول اصطفايه وامانته بالمسيح، وكيف طردوه اهل بيته وخاصته وكيف انزلوه المومنون من الحصن في قفه حتى هرب من دمشق.

وكان الاب تاودوسيوس تحت القلق من المخالفين واضطهادهم له، كان ذلك في سنة مايتين واتنين واربعين لديقلاديانوس، وكان ساويرس البطرك مختفيا من يوستنيانوس الملك المخالف في قريه

«أني في واقع الأمر لا أعلم شيئا عما اتخذه مجمعكم من قرارات في جو عاصف صاخب، غير أنه يبدو لي أن الحق قد تعرض لتحريف نتيجة اجراءات فوضوية مضطربة. ذلك لأنكم، كما يقال، حبافي الجدال، أغفلتم أمورا يرتضيها الاله، وانى الأرجو الله، وكلي ثقة، أن تعمل العناية السماوية على إذابة مآس خلفها التنافس الحاد، وذلك عندما يتم فحص تلك الأمور بدقه، وانى لامل أن توضحوا اذا ما كنتم قد راعيتم في مجلسكم مضمون الحق، واذا ما كنتم أيضا قد أصدرتم قراراتكم دون ما تحيز أو تعصب»(1).

وبعد أن يخبرهم قسطنطين أن سلوكه قد ادخل البرابرة في حظيرة المسيحية، ويوجه اليهم اللوم قائلا:

«أما نحن معاشر الذين يتشدقون باحترام العقيدة، وأسرارها المقدسة،(ولا أقول حراسها)، لا نفعل الا ما يبذر بذور الشقاق والعداوة، ولأكون معكم صريح، نعمل على دمار البشرية»(٢).

ولندع قسطنطين الان يحدثنا بنفسه عن المقابلة التي حدثت بينه وبين أثناسيوس، حيث يتضح من حديثه أنه لم يكن لديه الرغبة للقاء الأسقف السكندري، يقول الامبراطور:

(1) SOCRAT. hist. eccl. I. 43.

(2) Id.

محبه للمسيح تعرف بسخا من اعمال مصر عند
رجل اسمه دروتاوس المهتم بامور الشيوخ الرهبان
الذين رفضو ضلالة يوليانوس الكافر، وكان الرجل
المذكور قد امكنه ان يمضي الى والي اعمال مصر
وهو ارستاماخوس وساله ان يتراف [يترأف] على
شيوخ الرهبان الذين في البريه بان ينعم عليهم
ويمكنهم ان ينو بيعا وجواسق عوضا مماخذ منهم
يوليانوس واصحابه، ويسمح للرهبان [بذلك].
فرسم له بذلك وشكر الله تعالى.

«بينما أنا داخل المدينة التى تحمل اسمنا، فى هذه الديار الزاهرة، القسطنطينية. وكنت ساعتها متطيا صهوة جوادى. اعترضنا فجاة الأسقف أثناسيوس، يحيط به بعض من رجال الدين، يبتغون السماح لهم بمقابلتنا، ويعلم الله، الذى أحاط بكل شئ علما، أنى لم اتبين للوهلة الأولى شخصه حتى انبانى عنه بعض خاصتى، بعد أن سألتهم ذلك. وانباونى أيضا كم من الآلام قاسى، وحتى ذلك الحين لم أحادثه، أو أجرى اتصالا معه، ولكنه راح يلح طالبا الأذن له بلقائنا، ورغم أنى رفضت ذلك مرارا، وأمرت بابعاده عن حضرتنا الا أنه أعلن فى جراءة فائقة أنه لا يطلب سوى شئ واحد، هو أن تمثلوا جميعا الى هنا، حتى يجد فى حضرتنا فرصة عادلة لبحث مظلمته» .

وقد وجه قسطنطين أوامره الى هؤلاء الأساقفة بالحضور على وجه السرعة الى بلاطه، ويتضح مدى اهتمامه بهذا الأمر ولهفته على وصول الأساقفة، من أن دعوته اياهم للحضور قد جاءت فى رسالته هذه فى ثلاثة مواضع متقاربة، كلها تتعجل رحيلهم الى القسطنطينية لحسم هذه الأمر فى حضرة الامبراطور.

ويبدو أن هذه الرسالة قد وصلت بعد أن غادر كثير من الأساقفة أورشليم عائدين الى بيعهم بعد أن حصلوا على الهدايا الامبراطورية، وان كان أثناسيوس وسقراط وسوزمين يخلعون

وكان ساويرس البطرك قد وضع كتبا قهر بها الهارسيس اصحاب الطبيعتين واباد اكثر معتقديها بمجد الله وتعاليمه بلسانه السيف الروحاني. وكان يدرس في كتب الحكمه الالهيه دايما الى ان كبر ودنت ايام انتقاله من التعب الى النياح لانه اقام في الجهاد والصبر على اضطهاد المخالفين تلتين سنه على كرسي انطاكيه في عناد وقلق ست سنين، ولم يفتر في هذه المده من الجهاد على الامانه الارتدكسيه حتى الى الموت، فلما اكمل سعيه وهو

على الأساقفة حالة من الرعب والهلع دفعت بالبعض الى الأسراع بالرحيل عن أورشليم والعودة الى ديارهم. غير أن يوساب النيقوميدى جمع مشاهير رجالاته وسافر لملاقاة الامبراطور في القسطنطينية. وكان من بين هؤلاء الأساقفة ثيوجنس، وماريس، وباتروفيلوس، وأورساكيوس، وفالنز. ويقول سوزمين ان هذا الجمع قد بين للامبراطور أن مجمع صور لم يقدم على شئ ضد أثناسيوس، وانما توخى العدالة تماما، وأعادوا على مسامعه سابق الاتهام بتحطيم الأواني المقدسة. وان كان أثناسيوس ينفي ذلك ويقول ان هذا الأمر شئ ثبت بطلانه فلم يجرؤ الأساقفة على ذكره، ولكنهم جاءوا الى الامبراطور باتهام جديد فحواه أن أسقف الاسكندرية هدد بمنع ارسال القمح من الاسكندرية الى القسطنطينية. وأكدوا أن هذا التهديد جاء على شفتي أثناسيوس وسمعته أذان عدد من الأساقفة من بينهم آدامانيوس Adamantius وأنوبيون Anubion، وأرباثيون Arbathion، وبطرس Peter. ويصف أثناسيوس حالة الامبراطور لدى سماعه هذا الاتهام بقوله: «اشتعل على الفور غيظ الامبراطور واشتد حنقه، وبدلا من أن يرسل الى لسماع قولي، أمر بنفيي الى غالة»[١]. ويقول سقراط معلقا على ذلك بأن الامبراطور أصدر هذا القرار بدافع الرغبة في توحيد الكنيسة حيث أن أثناسيوس رفض المصالحة مع آريوس[٢].

---

(1) ATHANAS. Apol. C. Arian. 87.

(2) SOCRAT. hist. eccl. I, 35.

حافظ الامانه الصحيحه مضى الى السيد المسيح الذى احبه واخذ اكليل الغلبه مع الابا القديسين فى بيعه الابكار السماويه.

واما الاب المغبوط تاودوسيوس فاقلقوه كثيرا شديدا جدا، اعنى كيانوس المخالف ومن معه. وكان يوحنا مقدم اسكندريه وغيره مجتهدين فى خلاصه منهم فتشاورو مع الابا واخذوه وانزلوه فى مركب فى البحر [النيل] ومضو به الى قريه تسمى مليج من اعمال مصر اقام بها سنتين، فقلق شعب

ولقد أصاب سقراط بقوله هذا كبد الحقيقة، فبالاضافة الى أن الامبراطور كان يتميز غيظا لدى سماعه بهذا الاتهام الجديد، سواء كان هذا الادعاء باطلا أم حدث فعلا، فقسطنطين كان يدرك يقينا الأهمية الاقتصادية لمصر وما تمثله غلالها من أهمية للعاصمة الجديدة، ولم يكن قسطنطين يتصور مطلقا أن يتسبب شخص مهما بلغت مكانته فى احداث مجاعة فى روما الجديدة! هـذا مـن ناحية. والأخرى أنه ضاق ذرعا بعناد أثناسيوس، فقـد حاول كثيرا أن يلتقى واياه على طـريق وسط، ولكن الأسقف السكندرى لـم يكن ممن يقبلون هذه السياسة. فقد كان متشددا فى موقفه لا يقبل المساومة، ووصل به الأمر ذات مرة الى حد رفض الاذعان لأوامر الامبراطور عندما قـرر الامتناع عن الظهور أمام مجمع الأساقفة فى قيسارية سنة ٣٣٣، ولم يتراجع عن موقفه تجاه الآريوسيين أو المليتيين، ولـم يحاول بذلك اعادة السلام الى الكنيسة والوحدة، وذلك شئ كانت تتوق اليه نفس الامبراطور، وأدرك قسطنطين خلال هذه الرحلة الطويلة الشاقة أن أثناسيوس هو العقبة الوحيدة الباقية فى سبيل اعادة الوحدة الى الكنيسة، ومـن ثم قرر التخلص منه بنفيه، وفكسبت الدولة بذلك جولتها الأولى ضد الكنيسة.

على هذا النحو حقق الفريق اليوسابى نصره على زعيم الايمان النيقى، وفى نفس الوقت حقق نصرا أخر، ذلك أن ماركللوس Marcellus أسقف أنقرة كان قد كتب عدة كتابات ضد

اسكندريه وكهنتها ومقدميها لبعده عنهم وقال للوالي: لماذا ابعـــدت عنا الراعي الصـــالح تاودوسيوس. فخاف الوالي منهم وكره ان ينتهي الخبر الى الملك فاخرج كيانوس المخالف من المدينه.

ثم مضى بعض المقدمين لقضا[ء]حوايج له من الملك فاعلم الملكه تاودوره المومنه نفي المغبوط تاودوسيوس من مدينة اسكندريه، لان اصلها منها، فدخلت الى الملك بسكون وحكمه ووداعه

الآريوسية(١) ردا على رسالة كان آستريوس Asterius أحد مواطني كبادوكيا قد كتبها يدافع عن العقيدة الأريو سية، وراح يذيعها في عدة مدن وينشرها بين كثير من الأساقفة، ومن ثم أخذ ماركللوس عن عاتقه مهمة دحض هذه الأقوال، فأدى ذلك به سواء بوعي أو بلا وعي الى ترديد آراء بولس السميساطي(٢).

وقد عده اليوسابيون خصما لهم، فاتهموه بأنه لم يوافق على القرارات التي أقرها مجمع أورشليم عام ٣٣٥ بخصوص قبول آريوس وصحبه ثانية في الكنيسة، وأنه رفض حضور تدشين كنيسة أورشليم حتى لا يشترك والأساقفة في اتخاذ قرارات هو عنها غير راض، ويذكر سوزومين أن الفريق اليوسابي ركز على هذه النقطةبالذات وأثارها لدى الامبراطور مبينا له أن ذلك يعد اهانة كبيرة لشخصه بعد أن رفض هذا الأسقف حضور حفل تدشين كنيسة أورشليم(٣). ولعل هذا يؤكد ما نذهب اليه من أن المسألة كانت في حقيقة أمرها تستتر برداء العقيدة، ولم تكن سوى نزاع شخصي ولذلك كان الفريق اليوسابي يصور المسألة للأمبراطور باعتبارها تمس شخصه مباشرة، وتمثل انتقاصا لسيادته، مما يثير بالتالي غضبه. وعلى هذا

(1) HIER. vir. ill. 86.

(2) SOZOM. hist. eccl. II, 33.

وراجع أيضا SOCRAT. hist. eccl. I, 36.

(3) SOZOM. hist. eccl II, 33.

واعلمته بكلما جرى على الاب تاودوسيوس البطرك بمدينة اسكندريه بغير امره. فلما سمع ذلك فرح في قلبه بما نال الارتدكسيين من القلق والجهاد اذ لم يرضو ان يشاركوه في امانته الفاسده الخلقدونيه الطمثه، ثم اراد [الملك] ان يرضى الملكه ويطيب نفسها فاعطاها السلطان ان تفعل بامره في ذلك ما تريده فارسلت الى مدينة اسكندريه لتكشف عن الخبر وتعيد الاب تاودوسيوس البطرك الى كرسيه وامرت الرسل ان

النحو اجتمع الأساقفة هؤلاء في القسطنطينية وأصدروا قرارهم بعزل ماركللوس من أسقفيته[1].

أما ما كان من أمر آريوس فانه عاد ثانية الى الاسكندرية بعد أن أصدر مجمع أورشليم قراره بقبوله ورفاقه في الكنيسة، الا أن الأساقفة المصريين أنصار أثناسيوس رفضوا الامتثال لقرارات المجمع، فأدى هذا بالتالي الى حدوث الاضطرابات من جديد في الاسكندرية[2]، ولما كان الامبراطور غير راغب في السماح بوقوع فوضى جديدة تعكر صفو سلامه، فقد أرسل الى آريوس يستدعيه فورا الى القسطينية. وكان أسقف المدينة في هذا الوقت اسكندر [الكسندروس] الذي دخل في صراع مع اريوس منذ وصوله الى العاصمة كما ينبئنا بذلك سقراط[3]. ولعل ذلك يرجع الى ما يكون قد نمى الى علم آسكندر من رغبة الفريق اليوسابي في أن يقوم أسقف القسطنطينية بقبول اريوس في الكنيسة حتى يكو ذلك أنموذجا تحتذى به بقية كنائس الامبراطورية. وقد تأكد هذا فعلا عندما طلب الامبراطور اليه الاقدام على هذه الخطوة، وهدده يوساب بالسعي لدى الامبراطور لعزله اذا ما رفض قبول آريوس[4].

(1) SOCRAT. hist. eccl. I, 36.

(2) Ibid. 37.

(3) SOCRAT. hist. eccl. I, 37.

(4) Id.

يعلموها كيف كانت بطركيته عند قسمته وهل هى مكمله بقانون البيعه.

فلما وصلو رسلها الى المدينه على ما امرتهم به كشفو عما امرتهم بكشفه واستوضحو كيف كانت قسمة قيانوس الارشى دياقن، ومن كان منهم الاول. فدس الوالى وصاحب المعونه قوما لاجل ما اخذاه من الهدايا والبراطيل ويصرخون ويقولون: كيانوس اول فى القسمه، فلم يثبت قولهم، وكتب مايه وعشرون رجلا من الكهنه

على هذه الشاكلة انتقلت الفوضى من الاسكندرية الى القسطنطينية، فانقسمت المدنية الى فريقين، أحدهما يتمسك بقانون الايمان النيقى، والآخر يناضل من أجل آريوس. وأدرك الامبراطور خطورة الحال، فدعا اليه اسكندر [الكسندروس] وآريوس وطلب الى الأخير الاعتراف بقرارات مجمع نيقية والقسم على صحة ايمانه(١) ففعل، وقبل الامبراطور من صيغة ايمانه ودعا اسكندر [الكسندروس] الى قبوله في الكنيسة. ولكن هذا كان غير راغب فى ذلك تماما، وتحرج موقفه أمام الامبراطور الذى حدد يوما يتم فيه ذلك على مرأى من الجميع، وتعقدت المشكلة ولكنها لم تلبث أن حلت فجأة بوفاة آريوس فى نفس اليوم من عام ٣٣٦. وعد خصومه وفاته دليلا على الغضب الالهى، كما جرت بذلك أقلام مؤرخى الكنيسة جميعهم!! وان كانت مسألة موته فجأة تنتظر رأى محكمة التاريخ.

ولعلنا نتساءل الآن عن موقف الغرب الامبراطورى طيلة هذه السنين، الحقيقة أنه أخلد الى الهدوء بعد مجمع نيقية اذا استثنينا احداث ولاية أفريقيا. وقنع بقانون الايمان الذى قر عليه رأى الأساقفة هناك خاصة بعد أن تضمن هذا القانون نصوصا كانت فيه سائدة أو على الأقل معروفة. وبدا أن المشكلة برمتها لم تكن تعنى الغرب فى قليل أو كثير. فوقف من الأحداث

(1) Id.

ومقدمى المدينه خطوطهم بان تاودوسيوس هو اول
فى القسمه،ثم اجتمعو ومعونة السيد المسيح معهم
وحضر امرا [أمراء] الملك وقواده الذين هم رسله
وامناه واجتمع جميع السكندريين معهم فى البيعة
المقدسه وقدموا الانجيل المقدس وسجل [مرسوم]
الملك الذى فيه خاتمه وصورته، وقدمو الاب
تاودوسيوس البطرك المغبوط وجماعة الاساقفه
الذين كانو حاضرين بقسمته، وفرقو بينهم، وسايلو
واحدا واحدا وكتبوا ما قالوه. فصح اعترافهم كل

موقف المتفرج. وكان الامبراطور قرير العين بهذا السلوك. فكفى من الغرب جزء تعصف به رياح الانقسام. ولكن الغرب والامبراطور لم يقدرا أنه لن تمضى على وفاة قسطنطين سنوات قلائل حتى يشمله ذلك الصراع، كان لوجود أثناسيوس هناك منفيا أو من بعد هاربا أكبر الأثر فى ذلك. ولم يكن كلاهما يدرى ما خطته يد القدر من ويلات تنتظر ذلك الغرب الذى أقحمت عليه فى عهد خلفاء قسطنطين المشكلة الآريوسية، حتى يأتى زمان تنعكس فيه الآية، فترحل الاريوسية من الشرق مكرهة لتمكث فى الغرب قرونا للجرمان دينا!!

وكان قد بقى لقسطنطين من عمره عام واحد، قدر له فيه أن يشهد هدوءا مشوبا بالقلق فى أمر العقيدة، وراح يجتر أحلاما داعيته طيلة هذه السنوات عن الوحدة والسلام. لقد حقق الامبراطور بقوته العسكرية وحدة الدولة، ولكن «مبعوث الرب» عجز عن أن يضمن للكنيسة وحدتها، فتركها أكثر انقساما من البدء وأشد فرقة، وراح ليموت والألم يعتصر فؤاده على عمر أفناه فى رجاء تلاشى وأمل تبدد!!

كان قسطنطين على قدر كبير من الذكاء، أدرك من خلاله الى أين يتجه تيار المسيحية وقدرها، فركب أمواج الحماسة لهذه العقيدة، وعرف كيف يفيد منها الى أقصى درجة.

لقد شهد بعينى رأسه وهوبعد فى بلاط نيقوميديا رهينة، اصرار المسيحيين وعنادهم رغم

واحـد بغيـر خـوف ولا اخـتـلاف فى القـول ان تاودوسيـوس المغبـوط هو المقسـوم اولا باتفاق من الاساقفه والشعب بحكم قانون البيعه.

وبعد ذلك بشهرين سمعو ان كيانوس صير بطركا، فتقدم كيانوس قدام الجماعه واعترف لهم بصحة ذلك وسال الصفح عنه وطلبت الجماع للاب المغبوط تاودوسيوس ان يقبله ويسالوه قبول توبته على ان يكتب بخط يده انه فعل هذا خارجا عن القانون البيعى، وانه يبقى فى شماسيته ارشى

الاضطهاد العنيف الذى تعرضوا له على عهد دقلديانوس وجاليريوس قيصره، وتأكد لديه ذلك بصورة أكثر وضوحا خلال الحملة العسكرية التى قادها دقلديانوس الى مصر، وعلى طول الطريق عبر آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين، ولهذا أيقن بفطنته أن يدا رحيمة تمسح عن هذه القلة المستضعفة جراحاتها، وتخفف عنها ويلات الامها، يمكن أن تجعل منها أنصارا مخلصين وجندا أوفياء.

ولم يتردد فى الاقدام على هذه الخطوة بل سارع اليها على مهل، واهتبل فرصتها فى روية، واستغل أخطاء، بل ربما حماقات خصومه ومنافسيه على العرش الامبراطورى ماكسنتيوس وماكسيمين دازا وليكين، وليسحب الأرض من تحت أقدامهم، لقد عادى هؤلاء جميعا المسيحيين ونكلوا بهم أن عنفا أو فى هوادة، وفى الوقت ذاته لم يقدموا للديانات السابقة جديدا يمكن أن تنهض به، أو يبعثها من الرقاد.

كان قسطنطين حصيف الرأى، يفوق معاصريه من العلمانيين ورجال الدين فطنة وذكاء، فاختار مستشاره للشئون الدينية من الغرب الامبراطورى، هو سيوس أسقف قرطبة، وهو رجل ترضى عنه الأوساط الكنسية على قلتها فى الغرب آنذاك، وانتقى أيضا مادحه ورئيس جهاز دعايته من النصف الشرقى، يوساب أسقف قيسارية فلسطين، صاحب الآراء اللاهوتية المعتدلة، والذى حاز ثقة كل الأطراف والفرق الدينية المتصارعة . ولم تكن الصلة بين الامبراطور

دياقن كـمـا كـان، وانه يتـضع ويخـضع للاب تاودوسيوس ويطيعه الى حين وفاته. ففعل ذلك كله وختم جـمـيـعهم ان هدا كله حق وصـدق، وفرح الجمع كله ومجدو الله وشكروه اذ عاد اليهم راعيهم الصالح تاودوسيوس البطرك وجلس على كرسيه ليدبر البيعه والشعب بسلام.

واما يوليـانوس وتاودورس ومـاني وجـمـيـع من خلف وتبعهم فثبت الاثم عليهم انهم مخالفون ولم يتـوبو، فـامـا كـيـانوس فـصـار تحت طاعـة

والأسقف القيسارى حديثة عهد عندما انفرد قسطنطين بحكم الامبـراطورية ، ولكن يوساب القيسارى ـ كما تشير المصادر المعاصرة ـ تعرف الى قسطنطين وهو فى طريقه الى مصر فى حملة دقلديانوس. ولا شك أن اللقاء الذى تم بين الرجلين فى هذا الوقت المبكر، قد ترك أثره الكبير فى نفس كل منهما ازاء الآخر، وان كان قد أفاد امبراطور الغد كثيرا، فرسم للرجل فى مخيلته صورة تتفق وما يعتمل فى داخله من واسع الطموح.

لقد حرص قسطنطين طوال فترة حكمه التى امتدت ما يزيد على ربع قرن، أن لا يثير شكوك رعـيـتـه، والتى تمثل جل امبـراطوريتـه، بل ظل فى نظر هؤلاء الرجل الذى وحـد الامبراطورية وأنقذها من ويلات الحروب الأهلية الطاحنه. حقيقة سمح للمسيحيين بممارسة طقوس عبادتهم، وأعاد اليهم أموالهم وأملاكهم المصادرة، وأباح لهم حرية اقامة كنائس جديدة واصلاح ما تهدم من دور العبادة تحت وطأة الاضطهاد، وأعاد المنفيين وأطلق سراح المسجونين، وحقيقة أيضا أصدر أوامر بهدم عدد من المعابد فى كيليكيا وفينيقيا، ولكن قسطنطين مع ذلك كله لم يذهب كما فعل سلفه دقلديانوس فى سياسته تجاه المسيحية، فلم يصدر ضد الديانات القديمة مرسوما عاما بالاضطهاد أو بهدم معابدهم فى كل أنحاء الامبـراطورية، وأو باحراق كتبهم المقدسة، أو بسوق كهنتهم الى العذاب زمرا، أو بتعقب جموعهم وحرمانها من ممارسة الطقوس نحو أربابها، بل أن هذه المعابد التى تم هدمها، لم يكن

تاودوسيوس البطرك. فلما استقام امر البيعة والشعب المومن المسيحى فرح الاب تاودوسيوس وكتب كتبا يشكر فيها الملك والملكه وارسلها مع رسلهم وهو ارستيتنس، ونيقيتس، وفيلودورس وشكرهم على ما فعلوه.

فلما وصلو وسلمو الكتب للملك وعرفوه جميع ما جرى كانت افكاره مايله موجعه [أى الملك] وقال: هو دا انا قد سلمت كرسى اسكندريه لتاودوسيوس ولو اضفت له جميع

ذلك بصفتها المخالفة للمسيحية ولكن لأنها كانت قد أمست غير مناسبة للمنحى الدكتاتورى القيصرى بسبب ايمانها بالتعددية وكفرها بالواحدية.

وفى الوقت الذى اختار فيه قسطنطين الأحد المقدس عند المسيحين وجعل منه عيدا أسبوعيا، دعاه يوم الشمس ولم يدعه أبدا بيوم السيد، وبينما جعل من لابرومة المسيح شعارا له، استمرت العملة تصدر حتى سنة ٣٢٣ تحمل شعار الشمس التى لا تقهر.

لقد سعى قسطنطين إلى دعم إله المسيحين الذى لا يقبل معه إله آخر، وسعى هو إلى أن يجعل من نفسه ممثلاً لهذا الإله الذى وحّد كل الامبراطورية تحت ظله، وسعى باسمه إلى القضاء على كل الديانات الأخرى، وتستر به فى حربه ضد الفرس وغيرهم من أصحاب الديانات المخالفة.

وكان قسطنطين بارع الدعاية، أغرق الكنيسة فى هباته وخيراته، وأغدق عليها من فيض أنعمه، ويبدى اهتمامه البالغ، بل وقلقه، من أجل الانشقاقات التى تحدث فى الكنيسة، ويدعو لعقد المجامع كى تفصل فى النزاع اللاهوتى، ويحمل الأساقفة على المركبات العامة، ويحمل الخزانة نفقات حلهم وترحالهم، ويشترك فى مناقشاتهم، ويرسل الى ملك فارس يحثه على حسن معاملة رعاياه من المسيحيين، فغدا بذلك فى نظر الكنيسة راعيها وحاميها، والملجأ لها

ولايات ارض مصر [واساقفة] كورتها وافريقيه
وكل البلاد ما ساعدني على الامانه التي اورثها
لتكون البيعه كلها امانه واحده. ثم انه، اعني الملك
يوستينيانوس [يستنيانس الاول]، بعد ذلك فكر
وكتب الى والى اسكندريه ومقدميها وللاب
تاودوسيوس يجتذبه اليه وان يقبل طومس لاون
ويساعده على ذلك وتكون له الرياستان البطركيه
والولايه ويكون جميع اساقفه افريقيه تحت طاعته
ويكون له الامر في جميع ذلك، وان هو لم يطع

والملاذ. ولكن قسطنطين طوال رحلة الحكم التي سارها وفي علاقته بالكنيسة، لم ينس مطلقا أنه امبراطورية، وأن نظرية السياسية الرومانية لا يمكن أن تقبل مطلقا بقيام هيئة مستقلة داخل الدولة، أو بمعنى أكثر دقة، دولة داخل الدولة، ومن ثم ترأس قسطنطين المجامع الكنسية، وصدق على قراراتها، وتدخل في تعيين الأساقفة وعزلهم. لقد أصبح الامبراطور الآن الاسقف الأعلى، بعد أن كان في السابق الكاهن الاعظم. وان ظل يحمل هذا اللقب الوثني طيلة حياته، بل ولم يتخل عنه خلفاؤه المسيحيون حتى عهد الامبراطور جراتيان Gratianus (٣٧٥ ـ ٣٨٣).

وكان كل ما يشغل بال قسطنطين أن يظل سيدا مطلقا لامبراطورية موحدة، قضى ثمانية عشر عاما (٣٠٦ ـ ٣٢٤) في سبيل جمع شتاتها. ولهذا فان حدوث أى أنقسام، في هذه الجماعة الجديدة التي ولى أمرها رغم قلة عددها يمكن أن يؤ دى بصورة ما الى التأثير في وحدة الامبراطورية. ولا تكاد رسالة أو خطبة صدرت عن قسطنطين تخلو من ترديد هذه النغمة، وانطلاقا من ذلك فقد أراد أن يعالج بالحزم منذ البداية أول مشكلة للكنيسة الكاثوليكية ولم يلق بالا لجماعة الدوناتية ولا حتى لسماع دعواهم. فلما فشلت هذه السياسة رأى أن يطبق النظرية السياسية بشكل آخرعن طريق إيجاد التوازن بين مختلف الأطراف،

ولم يرض فيلخرج من البيعه ويمضى الى حيث يشا[ء] لان من لا يوافقنى على امانتى لا تكون له رياسه لا على شعب ولا على بيعه.

فلما سمع الاب المجاهد المغبوط البطرك تاودوسيوس المعترف بالمسيح كتاب الملك وما قاله، قال امام الجمع والوالى والرسل: قال الانجيل المقدس «ان ابليس اخذ السيد المخلص واصعده الى جبل عال وأوراه جميع ممالك العالم ومجده وقال له هذا كله لى وانت ان سجدت لى دفعته لك».

بحيث يصبح الامبراطور الرومانى فى النهاية هو الحكم الفيصل بينها. ومن ثم نراه يؤيد العقيدة النيقية سنة ٣٢٥ فى المجمع المسكونى الأول، وبعد ثلاث سنوات فقط يعفو عن آريوس وصاحبيه، ويقبل منهم وثيقة ايمانهم دون الرجوع الى الكنيسة، ولعل القرار الذى اتخذه المجمع النيقى ازاء المشكلة المليتية فى مصر، والذى جاء بوحى من الامبراطور، يعد خير دليل على سياسة الحلول الوسطى التى لجأ اليها قسطنطين.

ولقد كان بلاط قسطنطين أنموذجا حيا لهذه السياسة، يجمع أضداد الخلائق وشتى الفكر. فهناك المستشارون العسكريون والمدنيون كلهم من اصحاب الديانات المغايرة للمسيحية. والى جوارهم مستشاره الخاص لشئون الكنيسة، هوسيوس أسقف قرطبة، النيقى المتحمس. وفى الناحية الأخرى يقف يوساب النيقوميدى الآريوسى العنيد، صاحب الحظوة لدى الامبراطور بعد عودته من المنفى. وبين هؤلاء وأولئك صديقه الحميم يوساب القيسارى، رجل الفكر المعتدل. وقد استطاع قسطنطين أن يوحى الى هؤلاء جميعا أنه «مبعوث الرب» الذى عهد اليه بادارة الامبراطورية، وأن عليه أن يقود سفينها وسط الأنواء الى شطان النجاة. ولقد حاول قسطنطين الكثير، ونجح فى أن يضع لخلفه أسس العلاقة بين الدولة والكنيسة. ولكن مشاكل الكنيسة وخلافاتها اللاهوتية كانت أشد تعقيدا مما توقع قسطنطين.

هكذا ما وعدتمونى به وهو هلاك نفسى ان فعلته
واصير به غريبا من المسيح الملك الحقيقي. ورفع
يديه قدام الرسول المنفذ من الملك والوالى وذلك
الجمع العظيم وقال: بالحقيقه احرم طومس لاون
ومجمع خلقدونيه وكلمن يعترف به فهو محروم
من الان والى الابد امين. ثم قال للوالى ولجميع
جيش الملك: ليس للملك سلطان الا على جسدى
والسيد يسوع المسيح الملك الحقيقى العظيم له
السلطان على نفسى وجسدى جميعا. والان هو ذا

الاحتلال البيزنطى لمصر

أدت الإصلاحات التى قام بها دقلديانوس إلى تغيير جوهرى فى نظام مصر الادارى؛ فقد أصبحت البلاد وقتئذ تنتظم ثلاث ولايات بعد أن كانت ولاية واحدة، وحدث فصل تام بين السلطتين المدنية والعسكرية، ونظمت جباية الضرائب وطريقة تقديرها على أسس جديدة.

وكانت النتيجة النهائية التى تمخضت عنها هذه التغييرات هى أن أصبحت مصر أكثر شبهاً بولايات الامبراطورية الأخرى عما كانت من قبل، برغم أن العوامل الجغرافية وغيرها أبقت على قسط معين من الاختلاف. والواقع أن أهم هدف سعى إليه دقلديانوس من وراء إصلاحاته كان توحيد النظام الادارى وتبسيطه، الأمر الذى يؤدى بطبيعته إلى تدعيم قوى الامبراطورية. وتحقيقاً لهذا الهدف اتخذت خطوة أخرى نرى آثارها واضحة فى وثائقنا البردية، تلك هى اعتبار اللاتينية لغة رسمية حتى فى الولايات التى كانت الاغريقية لا تزال تحتل فيها هذه المكانة مثل مصر. لكن التغيير الفعلى كان تافهاً.

الجدل حول طبيعة المسيح

ولم ينقطع الاضطهاد تماما بعد ذلك، لكنه كان منقطعا ومحليا إزاء سياسة التسامح التى انتهجها كل من قسطنطين (Constantius) وماكسنتيوس (Maxentius) فى الغرب. وفى عام ٣١٢ قص قسطنطين بنفسه، وكان عندئذ قد اختلف مع ماكسنتيوس وتأهب لمحاربته،

البيع قدامكم وكلما فيها، فمهما اردتم فافعلوه، واما انا فتابع لاباى الذين تقدمونى معلمى البيعه الرسوليه اتناسيوس، وكيرلس، وديسكرس وتيماتاوس، وما كان قبلهم الذين صرت انا لهم نايبا بغير استحقاق. فقام خرج وقال: من كان يحب الله فليتبعني لانى خرجت من بطن امى عريانا وامضى اليه عريانا والذى يهلك نفسه في هذا الزمان لاجل الامانه فهو يخلصها. فمضو به الى الايوان محتاطا عليه يوما وليله. فلما كان

رؤياه الشهيرة على مؤرخ الكنيسة يوسيبيوس (Eusebius): فقد رأى صليبا على قرص الشمس وعليه عبارة (Toutw Vika) أى «بهذا انتصر». وطبيعى أن يرفض عالم متشكك مثل سيك (O. Seeck) قبول قصة كهذه باعتبارها «فرية واضحة»، وأن يعزو التغيير الذى طرأ على موقف قسطنطين إلى دوافع سياسية خالصة. لكن هذا المؤرخ، بصرف النظر عن مكانته وشهرته، رجل متحرر يحاول تفسير تاريخ القرن الرابع على الأسس العقلية المنطقية الحديثة. وليس هناك سبب كاف يحدونا الى الشك فى أن قسطنطين قد اعتقد أن وحياً هبط عليه. وبرغم أن الاعتبارات السياسية كانت، فيما يدو، توحى باتباع سياسة التسامح الدينى، فإننا بلا ريب نجانب الصواب إذا افترضنا أن قسطنطين ـ وقد عبد إله الشمس الذى لا يقهر ـ لم يتأثر بالأفكار الدينية أيضا. وليس من شك فى أنه كان على ثقة تامة من إحراز النصر حتى لقد غزا إيطاليا وأقدم على اقتحام حصن روما المنيع بقوات غير كافية دون أن يعبأ بنصيحة قادته أو نبوءات عرافيه. وكان الصليب مرسوماً على دروع رجاله عندما خاضوا غمار معركة جسر ملفيا (pons Mulvia) التى اتاحت له السيادة على الغرب. وفى عام ٣١٣ أعلن هو وحليفه ليكينيوس (Licinius) وفقا لشروط اتفاقية «ميلان»، مبدأ التسامح الدينى. وعندما انتصر على ليكينيوس فى سبتمبر عام ٣٢٤، ووجد نفسه الامبراطور الوحيد، أصبح الطريق معبداً أمام المسيحية كى تصبح أولا ديانة الامبراطورية الرئيسية، ثم الديانة الرسمية الوحيدة فى جميع ارجائها وتحريم وتدمير كل الديانات المخالفة.

بالغداه اطلقوه كما امر الملك فى كتابه ليمضى
الى حيث يشا. فخرج من المدينه وقوة السيد
المسيح ترشده، فاهتم ارستاماخس [والى اعمال
مصر] بامره واعد له ما يحتاج اليه وحمله فى
مركب الى صعيد مصر ، فاقام هناك يعلم الناس
والرهبان فى ا لديارات ويثبتهم على الامانه
الارتدكسيه و يصبرهم على الجهاد حتى الموت،
واما رسول الملك فانه عاد اليه وعرفه جميع ما
جرى وكيف خرج تاودوسيوس البطرك من المدينه

- -

ولكن فى وسعنا مع ذلك أن نشعر أن اعتناق الامبراطور للمسيحية لم يكن خيراً كله. فلم يعد اعتناق هذا الدين يعنى مجرد الأمان وانما أصبح بدعة العصر، واسرع كثير من منتهزى الفرص إلى اعتناق الدين الجديد.

وفضلا عن ذلك، فقد أصبحت الكنيسة حرة فى تشجيع هذا الميل إلى الجدل الدينى الذى سبب لها المتاعب حتى فى أيام الاضطهاد. وليست قصة المهاترات الدينية التى شهدها القرن الرابع والقرون التالية بما تخللها من أحقاد مريرة، وأطماع وخصومات فردية، وأساليب تنطوى على الخداع والتضليل والتى سبق ذكرها، ليست هذه القصة التى لا نجد فيها أثراً لتعاليم المحبة المسيحية بالقصة المحببة إلى النفوس. وقد نتسامح فنعتبر هذه المهاترات بمثابة آلام المخاض المتزايدة التى عانت منها الكنيسة وهى تبذل جهدها المضنى لتصوغ هذه الديانة الجديدة، التى قامت على تعاليم وسيرة فرد بعينه، فى قالب فلسفى تجريدى. ولم تكن البدع التى انكرها المتزنون من رجال الكنيسة سوى محاولات لهذه الصياغة. وحتى هؤلاء الذين ينكرون مذهب الطبيعة الواحدة لابد أن يعترفوا لرجال الكنيسة الأوائل بقدر كبير من الذكاء الفطرى، فقد كانت معظم البدع التى أنكروها أشبه شيء بالطريق المسدود، الذى لا يؤدى إلى شيء، أو كانت صوراً من الانحراف الفكرى.

ولم يقبل من جميع مواعيد [وعود] الملك شيا. فلما سمع ذلك الملك هو وجميع جيشه تعجبو من رفضه هذه المملكه ومخالفته لامره وثبوته على الامانه، ثم فكر في نفسه وقال ان تركته بحيث هو فجميع الناس يتبعون امانته فلا يدعهم يقبلو طومس لاون. فكتب كتابا مملو ايمانا وعهودا للبطرك تاودوسيوس انه لا يلحقه منه الم ولا اذيه، بل كل صلاح وخير، وارسله مع كاتب وقال له الطف به الى ان تاتيني به، قل له غرض الملك

وينبغي أن نلحق بالفئة الأولى بدعة أو «هرطقة» آريوس (Arius) التي أحتلت مكانا بارزا في تاريخ مصر والامبراطورية كلها في خلال القرن الرابع. وكان آريوس الذى ابتدع هذا المذهب قسا في كنيسة الاسكندرية. أما أكبر معارضيه فكان القديس أثناسيوس (Athanasius) أحد أبناء الاسكندرية وأسقفها خلال أعوام كثيرة. ولابد من الاعتراف بأن أثناسيوس لم يكن الطف شخصية بين آباء الكنيسة الأوائل. لقد كان رجلا حر التفكير، محباً للسلطة، طموحاً، لا يطيق المعارضة.

وبرغم ذلك فانه كان يقل صلابة ويزداد تسامحاً كلما تقدمت به الأعوام، ولقد استطاع آريوس بإنكاره مذهب الطبيعة الواحدة أن يقطع هذا الاتصال الذى أوجدته المسيحية بين تعالى الإله وتفاهة الانسان. ومن ثم فانه عندما كانت الأوامر الامبراطورية تصدر متوعدة الاساقفة المتمردين، وكانت المجامع الكنسية تجتمع من أطراف الإمبراطورية، وعندما كان بعض رجال الكنيسة يصدرون قرارات الحرمان ضد البعض الآخر، وكان الدهماء يسطون على الكنائس فيخربونها ويحطمون رؤوس معارضيهم، لم يكن الجدل حول طبيعة المسيح وهل هى نفس طبيعة الأب (homoousios) أو مشابهة لها (homoiousios)، لم يكن كما قيل عنه مجرد مهاترة حول حرف واحد من حروف الأبجدية اليونانية، هو أصغرها جميعاً؛ وذلك برغم أن الكثيرين ممن اشتركوا فى هذا الجدل لم يفهموا من خفاياه اللاهوتية إلا النزر اليسير. وأياً

مشافهتك. فلما وقف البطرك المغبوط على كتاب الملك استعان بقوة السيد المسيح واخذ معه من الكهنه رجالا حكما [ء] عارفين فضلا[ء]، وركبو وسارو حتى وصلو قسطنطينيه ودخل الى الملك والملكه، فلما عاينو سكينته وتواضعه وفضله استقبله [استقبالا] حسنا فانزلوه في موضعا اعدوها له ومن معه، ثم استدعاه الملك دفعه تانيه وتالته الى سادس دفعه وهو في كل دفعه يخاطبه بلطف يريد منه ان يساعده على تتبيت مجمع

- -

كانت الأطماع التى جالت بخاطر اثنا سيوس، وسواء أكانت شخصية أم سعياً وراء كرسى أسقفية، فقد كان اثنا سيوس فى خضم المعركة، وكان يعرف أنه يقاتل لتقرير مبدأ خطير فى الديانة المسيحية، وكان حتماً عليه أن يحتمل الكثير من الآلام بسبب صلابته وشدة عناده[1]. ولقد نفي ثلاث مرات، ولكن الأقدار أبقت على حياته ليشهد انتصار مبدئه. وبرغم وجود معارضين له في مصر نفسها. وهم أتباع مذهب آريوس والمنشقون من أتباع ميليتيوس (Meletius)، إلا أنه كان يستطيع أن يطمئن إلى معونة صادقة من جمهور الكنيسة المصرية.

(١) لدينا بردية محفوظة بالمتحف البريطانى (P. Lond. 1914) وهى خطاب أرسله أحد المنشقين اتباع ميليتيوس في الاسكندرية الى زميل من زملائه. ويمدنا هذا الخطاب بصورة واضحة لاعمال أثناسيوس ضد هؤلاء المارقين اذ جاء فيه: «لقد قبض على أحد أساقفة مصر السفلي واحتجزه فى سوق اللحوم، كما سجن أسقفا من نفس الجهة وشماسا في السجن الرئيسي. وحتى الثامن والعشرين من شهر بشنس (Pachôn). ظل هيرايسكوس أيضا (الذى يحتمل أنه أسقف من الاسكندرية نادى به اتباع ميليتيوس بدلا من أثناسيوس) حبيسا فى المعسكر ـ والحمد لله ربنا أن انتهت الآلام التى قاساها ـ وكان (اثناسيوس) فى السابع والعشرين قد طرد سبعة أساقفة من البلاد». كما يصور لنا الخطاب أيضا تردده عندما استدعاه قسطنطين لمجمع صور فى عام ٣٣٥ «أن أثاسيوس لشديد اليأس، فكثيرا ما استدعوه، لكنه لم يغادر البلاد حتى الآن، فقد كان يضع أمتعته فى السفينة كما لو كان ينوى الرحيل، ثم لا يلبث أن يسترد أمتعته غير راغب في ترك البلاد».

خلقدونيه، واعطاه كرامات كتيره وتقدمة ورياسه، وهو يقول: لا حياة ولا موت ولا غلا ولا تعرى ولا سيف يصد قلبي عن امانة أباى ولا ارفض يوطه ولا خط مما كتبه ابا المعلمون المويدون قبلى رعاة القطيع الناطق الذى للمسيح من مرقس الانجيلي الى اليوم الذى جعلنى فيه الاب تيماتاوس شماسا وصرت انا بعده بطركا بتدبير الله. فلما لم يقدر الملك على اجتذابه الى مقالته توجه وارسله الى النفى مزعجا. وارضى كهنة اسكندريه ووسم لهم

قيام الرهبنة وانبعاث القومية وظهور القبطية:

وفي تلك الآونة طرأ على الموقف عامل جديد أدى إلى حدوث تغيير كبير في طابع هذه الكنيسة. ونعني به ظهور الرهبنة التي تعتبر أهم نظام استحدثته مصر في الديانة المسيحية. ومن الممكن أن نربط هذا النظام بنظام الزهد أو التنسك الذى عرف في عبادة سرابيس، ومقتضاه أن بعض الناسكين كانوا ينقطعون لخدمة هذا الإله، فيقيمون داخل معبده الكبير في منف أو غيرها. وكان ذلك يحدث بطريقة غامضة، فلعلهم كانوا يستجيبون لوحي مقدس هبط عليهم في صورة حلم.

ومنذ وقت قريب لفت الدكتور ويلز (C.B. Welles) الأنظار إلى احتمال وجود شبه بين حياة جماعة دينية ورد ذكرها في نقش من بانوبوليس Panoplis [إخميم]، وبين الرهبنة التي عرفتها المسيحية فيما بعد، ولا مراء في أن المسيحية قد داخلها على الدوام لون من ألوان الزهد، وأن الميول الرهبانية قد وضحت في الكنيسة المصرية منذ فجر تاريخها؛ ومن الأمور ذات الدلالة أن أول راهب مصرى نسمع عنه ـ وهو القديس بولس الطيبى ـ كان أحد أبناء الصعيد. وفي وسعنا أن نلمس بين أسباب حركة الرهبنة، ظهور لون من التفكير ذى طابع مصرى خاص. لقد كانت منطقة طيبة، كما أسلفت، أكبر معقل للقومية المصرية وللعبادات الكهنوتية التي تعبر عن هذه القومية تعبيراً صادقا؛ وعاش أهل هذه المنطقة ـ بعيدين عن

٣٣: تاودوسيوس ٥٣٥/ ٥٦٧م

انسانا يسمى بولس التنيسى(*) بطركا على كرسى اسكندريه بيد مينا بطرك القسطنطينيه، وارسله وصحبته عسكرا الى مدينة اسكندريه، فلما وصل اليها لم يقبله احد من اهلها وكانو يقولون هذا يودس الجديد. فاقام سنه وهو لا يسمع احد منه ولا يتقرب من يده احد الا الرسول الذى جا صحبته والواصلون معه والوالى ومن معه فقط. وكانو اهل المدينه يشتمونه ويقولون هذا يودس الدافع.

فكتب الى الملك يعلمه بما جرى عليه وهروبهم

(*) تنيس: نسبة إلى الفرع التنيسى وهو أحد فروع النيل الذى كان يصب قديما فى بحيرة تيس (المنزلة) وحيث توجد مدينة داخل البحيرة بنفس الاسم.

البحر الذى اصطبغ بالحضارة الهيلينة - فى واديهم الضيق تحف بهم الصخور التى دفعت عنهم غائلة الصحارى المترامية، فأدى ذلك إلى إحتفاظهم أكثر من غيرهم بالذكريات القديمة. ويميل البعض، ميلا شديداً إلى أعتبار الرهبنة جبناً وهروباً من مواجهة الحياة القاسية والضرائب الباهظة ومسئولياتها، ولعل بولس الطيبى كان كغيره من الذين لجأوا إلى الصحراء فرارا من اضطهاد الامبراطور ديكيوس (Decius).

وذلك عكس الرهبنة الاوزيرية القديمة التى كانت تهاجر إلى الصحراء لمحاربة اله الشر ست = شت = شيطان وتتخذ من المعابد مواقع متقدمة فى هذه الصحراء لمحاربته ومحاربة اعوانه من البدو. ذلك بأن الصحراء كانت تعتبر من قديم الزمن مأوى الأرواح الشريرة، ومملكة الاله ست عدو أوزيريس؛ فإذا ما اتخذ منها أحد الرهْبان سكناً، فقد كان يجازف باقتحام معقل العدو ليحارب كتائب الشيطان ست من البدو الطامعين فى أرض اوزير الخضراء (مصر) غير معتمد إلا على عون الاله. وهناك فى كنف هذه الوحدة الرهيبة حيث تلفح شمس النهار صخور الصحراء بشواظها المحرقة، وتتراقص فوق الرمال أشعتها التى تخطف الأبصار، وحيث ترسل نجوم الليل أشعتها الناصعة من قلب السماء الصافية إلى ظلام الصحراء البهيم، كان الرهبان الاوزيريين والمسيحيين من بعدهم يصارعون قوى الشر مجتمعة. ولقد يرى عالم النفس الحديث فى معركتهم هذه صراعاً باطنيا ضد شهوات الجسد ووساوس النفس الأمارة بالسوء. لكنهم والمعجبين بهم كانوا يتمثلون عدوهم واضحاً ملموساً فى شياطين الجحيم. وينبغى أن

منه كهروب الضان من الديب، وارسله مع بطريق فحنق الملك وارسل كتابا مع بطريق اخر يامر فيه ان تغلق ابواب البيع التى بمدينه اسكندريه ويختم عليها بخاتمه ويجعل عليها حراس حتى لا يدخل احد بالجمله. فلما وصل ذلك الكتاب المملو اثاما الى المدينه كان منه حزن عظيم وضيق ونوح لاحد له ولا صفه على الشعب الارتدكسي، ومكثو على هذا سنه كامله بلا قربان ولا بيعه يصلون فيها ولا موضع يعمدون فيه، لكن كانت كتب ابيهم

نذكر أنهم لم يحاولوا مجرد حماية أنفسهم فحسب عن طريق عزلة تنطوى على الأنانية والأثرة، فقد صلوا دون ملل من أجل الآخرين، وفى وسعنا أن نقول إنهم كانوا جند الفداء المجاهدين فى سبيل وطنهم ثم الكنيسة، الذين كانت صلواتهم سلاحاً فعالا فى المعركة المريرة التى خاضتها ضد قوى الشر والظلام.

وقبل منتصف القرن الرابع، وضع باخوم (Pachomius) نظامه الجديد، فأصبح فى الواقع منشىء الرهبنة الجماعية فى ظل المسيحية، وهى النظام الشائع فى الغرب، وإن كان هناك أيضاً عدد كبير من الرهبان المعتزلين. وبرغم ذلك بقيت الرهبنة الانفرادية محتفظة بمكانتها الهامة إلى جانب الرهبنة الجماعية فترة طويلة.

لكن الباحثين فى الطبيعة البشرية قد يرون أن أزدهار حركة الرهبة المسيحية فى القرن الرابع لم يكن على أحسن الفروض خيراً خالصاً: ذلك أنها كانت تعنى اعتزال آلاف الناس ميدان الحياة العملية، وغالباً ما كان هؤلاء ذوى همة عالية وإرادة قوية، بينما كانت البلاد تعانى نقصاً خطيراً فى الأيدى العاملة، كما كانت تعنى أيضاً تبديداً شديداً لميدان النشاط البشرى وإقفاراً بالغاً فى الحياة الثقافية. وفى وسعنا ونحن ندرس تاريخ مصر البيزنطية أن نستبين بجلاء هذا الاطراد فى ضيق الأفق، وهذا الجمود العقلى والفكرى. ونجد حتى فى سيرة أثناسيوس نفسه نذر الخطر الكامن فى اعتماده على عون جماعات من الكهنة المتعصبين، وهو خطر ازداد وضوحاً فيما بعد: فأمثال هؤلاء الكهنة هم الذين حرضهم البطريرك كيرلس

تاودروسيوس السعيد تتواصل اليهم من النفى تذكرهم بالامانه وتعزيهم وتصبرهم.

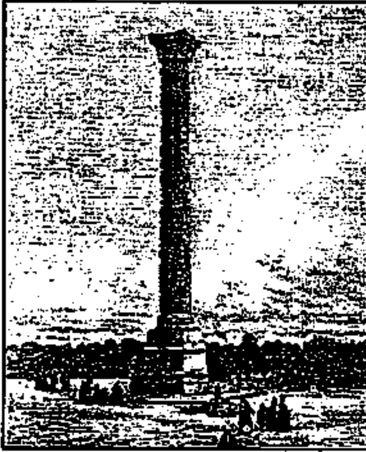
عمود السوارى

فلما زاد قلقهم اجتمع جماعة الارتدكسيين كهنه وعلمانيون فتشاور فى ان ينو بيعه يلتجو اليها لكيلا يصيرو مثل اليهود، ففعلو ذلك وبنوها بقوة المسيح فى غرب اسكندريه فى الموضع المعروف بالسوارى والصربيون [السرابيون] وهى الانجيليون، سرا فى المايه وخمس درج. وقوم اخر من الشعب بنوا ايضا بيعه اخرى على اسم قزمان

(Cyrillus) على مهاجمة يهود الاسكندرية وطردهم من المدينة، وهم الذين قتلوا الفيلسوفة الفاضلة هوپاتيا (Hypatia) بعد ذلك بأعوام قليلة (٤١٥م)، وهم أيضاً الذين يبرز نشاطهم فى كثير من الأحداث المماثلة التالية.

ولقد وفق كليمنس (Clemens) وأوريجنيس (Origenes) فى المزج بين الفكر الإغريقى والعقيدة المسيحية، وبرهن الأول على أن المسيحى المخلص لابد أن يقدر الأدب اليونانى تقديراً عظيماً. لكن حركة الرهبنة المصرية كانت تناهض، بصفة عامة، الحضارة الهلينية وكل ما تتمثل فيه هذه الحضارة.

ولا يصح الإعتقاد بأن مصر كانت بلداً يتكلم الإغريقية، فنغفل الثقافة الوطنية التى تكشفها لنا الوثائق الديموطيقية القانونية، وإيصالات الضرائب القليلة المحررة بالديموطيقية، أو التأشيرات الديموطيقية على الإيصالات الإغريقية، وكذلك بعض شذرات من الأدب الديموطيقى. لكن الحياة المصرية الوطنية ظلت قائمة طوال الوقت، برغم أنها كانت مكبوتة لا تلقى من الرعاية إلا قليلا، تناصب الحضارة الهلينية عداء خافياً وتعتز بكبريائها القومى.

فمن المرجح أن الكتابة الديموطيقية الصعبة لم تكن معروفة لغير عدد قليل من الأفراد، ثم بدأ الناس فى القرن الثالث يستعملون الأبجدية الإغريقية لكتابة اللغة المصرية، بعد إضافة ستة أحرف إليها فى كتابة النصوص المصرية. ومن الجائز جداً أن الأبجدية الإغريقية، بحروفها

ودميان شرقى الملعب [الرومانى] وغربى العمد قليلا، وكملوها وذلك فى سنة مايتين وتمان وسبعين لديقلاديانوس.

فعلم الملك بذلك فانفذ وضع جميع البيع وجعلها تحت سلطان الخلقدونيين. فلما علم الاب المغبوط تاودوسيوس انه لم يبق له غير هاتين البيعتين المستجدتين، بيعه الانجيليون وبيعة قزمان ودميان الشهدا تنهد وبكى لانه كان عارفا بشعب

اللينة، قد حلت أول الأمر محل الديموطيقية التى لا تعرف هذه الحروف، فى كتابة النصوص السحرية التى تستلزم صياغتها دقة بالغة[1]. لكن سرعان ما أدرك المسيحيون إمكان الأخذ بهذا التجديد للكتابة. وقد بدأت ترجمة الأناجيل إلى القبطية أولا على شكل شروح بهذه اللغة على الهوامش بين السطور، وبعدئذ ترجمت نصوصها كاملة إلى القبطية، وهو الإسم الذى أطلق على الكتابة الجديدة التى تعتبر صورة من صور كتابة اللغة المصرية[2]. وقبل نهاية

(١) المقصود بالحروف اللينة حروف الحركة (vowels) وعدد الحروف المضافة الى الحروف اليونانية فى اللغة القبطية هو سبعة فى بعض اللهجات.

(٢) كان للغة المصرية القديمة ثلاث صور أو خطوط هى الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية؛ و القبطية.
وكان دكيوس (Decius) الذى حدث فى أيامه أضطهاد للمسيحيين (حوالى ٢٥٠م) هو آخر امبراطور رومانى يدون اسمه بالهيروغليفية على المعابد المصرية. ويرجع آخر نقش هيروغليفى معروف الى عام ٣٩٤م، وآخر نص ديموطيقى معروف الى عام ٤٥٢م.
ويمكن ارجاع اللغة القبطية الى تاريخ يتراوح بين ٢٥٠ ، ٣٥٠م. وأهم لهجاتها هى البحيرية، والصعيدية (من منف الى أسيوط) والاخميمية، والفيومية. وحروفها هى حروف اللغة اليونانية مضافا اليها ستة (وأحيانا سبعة) حروف أخرى مأخوذة من الديموطيقية للتعبير عن أصوات خاصة باللغة المصرية لم توجد فى اللغة اليونانية.
ويبدأ التقويم القبطى بيوم ٢٩ أغسطس عام ٢٨٤ م (فهو ذكرى استشهاد كثير من المسيحيين فى أيام اضطهاد دقلديانوس). ويلاحظ أن يوم ٢٩ أغسطس يوافق أول شهر تحوت (توت) وهو بداية السنة المصرية القديمة.

اسكندريه وانهم محبون الفخر والكرامه وخاف ان يرجعو عن الامانه المستقيمه طلبا لكرامة الملك، فكان يصلى ويقول: يا ربى يسوع المسيح انت اشتريت هذا الشعب بدمك الشريف وانت المهتم بهم فلا تدع يدك عنهم بل تكون ارادتك.

واقام تمانيه وعشرين سنه فى النفى وغيره، وفى صعيد مصر اربع سنين وهو حافظ الامانه الارتدكسيه. ووضع من الميامر والتعاليم فى مدة

القرن الرابع كان الكتاب المقدس كله فى متناول أيدى القراء المصريين، وأصبح عدد الذين يستطيعون قراءة الخط أضخم بكثير من قراء الديموطيقية. فضلا عن ذلك فإن الكتاب الأقباط كانوا يستخدمون من صور اللغة المصرية صورة تعتبر أحدث وأوسع انتشاراً من تلك التى كان يستعملها كتاب الديموطيقية. وظهرت تبعاً لذلك مجموعة وافرة من الأدب القبطى تناولت مواضيع إنجيلية ولا هوتية وشعائرية، وقلما كانت تتناول الموضوعات غير الدينية. وهكذا وجد المصريون للمرة الأولى منذ القرن الثالث قبل الميلاد، متنفساً للتعبير عن مشاعرهم. ولقد كان كثير من الرهبان والنساك ينحدرون من أصل مصرى. والواقع، كما أسلفت، أن الرهبنة كانت ابتكاراً مصريا يعود للأوزيرية. وكانت نتيجة ذلك أن اكتسبت الكنيسة المصرية طابعا قوميا قويا ولا شك أن الرهبان الذين تبعوا بطارقتهم إلى المجاميع الكنيسة كانوا لا يفهمون المشاكل اللاهوتية المعروضة على بساط البحث إلا فهماً ضئيلا، أما الأمر الذى استطاعوا فهمه حقاً فكان معارضة مصر السياسية للحكومة الإمبراطورية؛ لقد كان طبيعيا أذن أن تعتنق مصر المذهب الكاثوليكى عندما كانت القسطنطينية ـ العاصمة الجديدة ـ تدين بالهرطقة كما حدث على أيام الامبراطور قسطنطيوس الآريوسى.

النزاع الكنسى:

وشهد القرن الخامس حدوث النزاع الكنسى الذى قطع الأسباب بين الكنيسة المصرية

بطركيتـه وهي اتنين وتلتين سنة ما لا يحـصى. وانتقل بسلام السيد المسيح الذى يحبه في اليوم التامن والعشرين من بوونه واخذ اكليل الغلبه مع جماعه القديسين في كورة الحيا الى الابد. ونحن المومنين الباقين على الامانه الارتدكسيه الذين استحقينا ان ندعى تاودوسيين كاسمه، نتضرع ونتوسل الى الله الاب والابن والروح القدس ان تكون لنا ضماير روحانيه وتثبيت حافظين الامانه المستقيمه بلا تعب كما حفظها هذا الاب القديس

والكنيسة الكاثونيكية، وبدا أن الخلاف يدور حول مسائل تتصل بجوهر العقيدة. والواقع أن الفكر اللاهوتى كان لا يزال منصباً على محاولة توضيح الغموض الذى اكتنف مشكلة «التجسد». لقد كان المسيح إلها وبشراً فى آن واحد، فهل هو ذو طبيعتين؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما هى حقيقة العلاقة بين هاتين الطبيعتين؟ وقد أنكر آريوس أن «الابن» و«الأب» من طبيعة واحدة، وإن لم ينكر الوهية المسيح إنكاراً مطلقاً ولقد كان وجه الخطأ عند معارضيه يكمن فى إنكار الطبيعة البشرية أو التهوين من شأنها. وبرغم أن مذهب الطبيعة الواحدة، فى أقصى درجات تطرفه كان لا ينكر وجود طبيعتين قبل إندماجهما فى «التجسد» فقد ذهب إلى وجود طبيعة واحدة فقط بعد حدوثه، وبناء على ذلك تلاشت الطبيعة البشرية تماما أمام الطبيعة الإلهية، أى أن هذه الأخيرة لم تتضمن الأولى، وهكذا انمحت للمرة الثانية تلك الوسيلة التى تصل ما بين الله والناس.

وتربع على كرسى كنيسة الاسكندرية بين عامى ٤١٢، ٤٤٤ القديس كيرلس الذى ظل يزعم تأكيده ألوهية المسيح بصفة خاصة، ملتزما بالمذهب الأرثوذكسى. وبينما كان يفتقر إلى فضائل سلفه العظيم أثناسيوس، فقد ارتكب نفس أخطائه بصورة أفحش فهو الذى حرض الرهبان والسوقة على طرد اليهود من الاسكندرى، وهو الذى بذل غاية جهده للقضاء على المدرسة الفلسفية فى جامعة الاسكندرية وعلى رجالها. وإذا لم يكن قد أوحى بالاضطرابات

الريس المعترف امام الهراطقه المخالفين والملوك والرويسا السلاطين الذين كانو فى ذلك الزمان الردى، وتكون سيرتا امامه بلا عيب ولا نحيد عن ارادته،ويكون لنا اتفاق معه فى النصيب الاوفر فى ملكوت السما بنعمه ورحمه ورافه [رأفة]، الهنا محب البشر يسوع المسيح، ربنا ومخلصنا له المجد مع الاب والروح القدس المحيى الان وكل اوان والى دهر الداهرين امين.

التى أدت إلى مقتل هيباتيا، فقد أبدى على الأقل موافقته عليها بموقفه السلبى منها. وفى مجمع أفسوس (Ephesus) الذى عقد عام ٤٣١، كان المسئول الأول عن إدانة ونفى نسطوريوس (Nestôrius) بطريرك القسطنطينية. أما خليفته ديوسقورس (Dioscorus) فقد ارتكب نفس الأخطاء، لكنه كان دون سلفه كياسة ولباقة، فقيد نفسه بمذهب الطبيعة الواحدة. وقد حالفه النصر فى مجمع أفسوس الذى عقد عام ٤٤٩، غير أنه اتبع لكسب هذا النصر وسائل العنف والاستفزاز، فتألف ضده تحالف قوى. وعندما عقد مجمع خلقيدونية فى عام ٤٥١، وصدر القرار الشهير الذى جاء فيه أن المسيح «يتفق فى الطبيعة مع أبيه بوصفه إلها، كما يتفق معنا بوصفه بشراً» و «أننا عرفناه صاحب طبيعتين»، أدين ديوسقورس وخلع من منصبه، وخلفه بروتيريوس (Prôterius). لكن تيموثيوس الملقب آيلورس (Timotheos Ailouros) أى «تيموثيوس القط»، وهو واحد من خصومه، أتباع مذهب الطبيعة الواحدة، أثار عليه جماعة من السوقة مزقته إرباً. ومنذ ذلك الحين ظلت الغالبية العظمى من المسيحيين المصريين فى نزاع طائفى مع الكنيسة الكاثوليكية.

وبرغم أن النزاع الدينى قد يكون ضروريا فى بعض الأحيان، إلا انه شر فى كل الأحيان: ذلك لأنه يبرز نقط الخلاف ويؤكدها، ومن ثم يؤدى إلى ضيق الأفق حتى بين أقطاب النزاع وأتباعهم، والى حصر التفكير فى المجال الطائفى وحده. والى مثل ذلك أدى النزاع الدينى فى

السيره الرابعة عشر من سير البيعه المقدسه
بطرس البطرك
[٥٦٧ / ٥٦٩]
وهو من العدد الرابع والتلتون

وكان لما نفى الاب تاودوسيوس البطرك بيد يوستيانوس [يستنيانس الاول]الملك وجعل عوضه قبل وفاته بولس التيسى الذى اصلح بالقسطنطينيه فصار هذا الرسم لبطاركه الملكيه ان يقسمو بالقسطنطينيه ويسيرو لاسكندريه.

مصر: فالكاثوليك أو الملكانيون (Melkites)[١]، كما كانوا يدعون، كانوا يعتمدون على تأييد الحكومة الامبراطورية، ولهذا كرهتهم الغالبية العظمى من الناس، فتضاءلت مكانتهم ولم يظفروا بغير قليل من الاتباع. أما الاقباط، أتباع مذهب الطبيعة الواحدة، فكان يؤيدهم الرهبان الذين ناصبوا جميع صور الحضارة الهلينية عداء شديدا، ولهذا لم يكن فى وسعهم أن يسهموا بأى نصيب يذكر فى النشاط الفكرى حينئذ. وهكذا غدت مصر، كولاية فى الإمبراطورية، أشبه شيء بتيار مضاد فى مجرى الحركة الثقافية، مركزا لمدرسة مسيحية ذائعة الصيت، وأنجبت فى القرن الرابع شخصية لها مكانتها العظيم فى التاريخ الكنسى، هى شخصية أثنا سيوس.

لقد عجز كيرلس عن القضاء على مدرسة الاسكندرية الفلسفية. وظلت جامعة الاسكندرية حتى النصف الثانى من القرن الخامس تضم طائفة من الفلاسفة. ولدينا وثيقة بردية[٢]

(١) أى ملكيون نسبة الى تبعيتهم للحكومة الامبراطورية واعتمادهم عليها، وكان يرأسهم بطارقة يرسمون فى الخارج ثم يرسلون الى مصر.
(٢) انظر: P.Cairo Masp. III, 67295
I. 12- 16, 18-20
حيث جاء ما ترجمته: «فى وسعى أن أقول ـ اذا لم يكن ثمة خطأ فى أن يمتدح المرء نفسه ـ اننى=

وبعـد زمـان قليل اهلك الرب بولس التنيـسى بموت سـو، وجـعلو عـوضـه ابوليناريوس. فـتـسلط ايضـا على البيع بامر الملك وامر ان لا يظهر احد من الاساقفة المومنين فى مدينة اسكندريه.

وكان اتحاد بين بيعة انطاكيه وبيعة اسكندريه فى الامـانة والارتدكسيـه والمحبـه المسيـحيـه لن [لأن] تاودوسيوس اعترف هو ومن معه قدام الملك باتحاده مع الاب سـويرس بطرك انطاكيـه، وقـال: انا اقبل

تتضـمن شكوى تمدنا بطرف شائق عن حياة هؤلاء الفلاسفة الذين تأصلت الروح القومية فى نفوسهم برغم أن ثقافتهم كانت بلا ريب مصطبغة بالحضارة الهلينية، وقد كان أحدهم هو المؤلف الشهير لبحث لا يزال موجوداً عن الكتابة الهيروغليفية. والواقع أن الحضارة الهلينية كانت تتهددها الأخطار حتى فى الاسكندرية نفسها، أما فى باقى أنحاء مصر، فإن التيارات المضادة لهذه الحضارة، وهى التيارات التى أحدثتها حركة الرهبنة وحركات المقاومة الوطنية، قد ازدادت حدة نتيجة للتدهور الاقتصادى الذى عجزت إصلاحات دقلديانوس عن وقفه.

نظام الضرائب ونظام الحماية:

وكان تبسيط النظام الضريبى من أبرز مظاهر تلك الاصلاحات، غير أن المزايا التى انطوى

= حظيت خلال فترة طويلة بسمعة طيبة بين سكان مدينة الاسكندر العظيمة حيث أشرفت على ادارة احدى مدارس جامعتها. وكنت أعيش دائما عيشة فاضلة، وقد كرست مواهبى الفطرية للنشاط الثقافى، وعلمت الفلسفة للراغبين فيها. والواقع أنى ورثت اهتمامى بالفلسفة عن آبائى وأجدادى، فقد علمنيها أبى مثلث الرحمات أسكليبياديس الذى قضى حياته كلها فى الجامعة يدرس للشبان وفقا للمنهج القديم.. ولقد جهدت فى أن أجعل حياتى فى نفس المدينة صورة من حياة أبى... وكنت وزوجتى، وهى ابنة عمى، أبناء لشقيقتين، وعشت واياها سويا مع أبوينا متفقين فى المشرب والمسكن وتقوى الآلهة، وفى شغفنا جميعا بالفلسفة، حتى لقد شك الكثيرون فيمن يكون والدينا: فهل كنت أنا ابنا لوالدها أم كانت هى ابنة والدى» وكاتب هذه العبارات هورابولون (Hôrapollôn) الذى ألف كتابا عن آثار مدينة الاسكندرية، ولعله أيضا صاحب البحث الموجود بين أيدينا عن اللغة الهيروغليفية.

جـمـيع مـا قـاله مـار يوحنا فم الذهب والحكيم كيرلس.

ولما تنيح تاودسـيـوس فـرح ابو ليناريوس المنافق بذلك جدا، وعـمل وليـمـه عظيـمـه للكهنه واهل المدينه وظن انهم يوافقـونه على مـا هو عليـه لن [لأن] الابا [ء] الاسـاقـفـه مـا كـان احـد منهـم يستطيع الظهور باسكندريه وانطاكيه لجل ما امر به الملك المخالف.

عليها كانت وهمية. صحيح ان الاصلاح قد راعى عند تحديده وحدات الانتاج، اختلاف نوع الأراضي، ولم يغفل الجزئيات، غير أن طريقة تقدير الضريبة لم تكن مع هذا محكمة بحيث يمكن الإطمئنان عند حدوث ضائقة إقتصادية.

وقد ترتب على ذلك أن الأراضي بدأت تجدب في أنحاء كثيرة من إفريقية وسوريا وكذلك مصر. وفي وسعنا أن نتبين أثر ذلك التطور بوضوح وخاصة في الفيوم، حيث أقفرت قرى في أوائل القرن الرابع من معظم سكانها، بعد أن كانت مزدهرة وآهلة بالسكان في القرن الثاني، وكانت لا تزال حتى القرن الثالث مراكز عمرانية هامة، ولم ينته القرن الرابع حتى كانت هذه القرى قد أضمحلت وتحولت، كما تبدو اليوم، إلى تلال رملية كبيرة تغطى أطلال المساكن المهجورة. وقد أخذ دخل الولايات التي أجدبت أراضيها في الانكماش بينما لم تقل نفقات الحكومة، إذا اقتضت الحالة على الحدود الشمالية مرابطة قوات عسكرية ضخمة لتعرضها باستمرار لغزو البرابرة التيوتون، كما أن الفرس لم ينقطعوا عن تهديد الحدود الشرقية للامبراطورية. وفضلا عن ذلك فقد استلزمت إصلاحات دقلديانوس إنشاء جهاز بيروقراطي محكم، وابتكرت الحكومة منعا للاختلاس والابتزاز نظاما دقيقا حافلا بالمراقبات والمراجعات، يراقب فيه الموظفون بعضهم بعضا. وكان على الحكومة أن تدفع مرتبات هؤلاء الموظفين

وبرحمة ربنا يسوع المسيح ولى اسكندريه انسان فاضل محب للناس كان له نصيب فى الارتدكسيين فامر ان يقسمو لهم بطركا فى السر عوضا من الاب تاودوسيوس، فقال لهم: اخرجو الى دير الزجاج [بالاسكندرية] كانكم تريدون الصلاة فيه فقدمو عليكم من تختارونه بطركا. فشكرو الله ومجدو السيد المسيح وارسلو الى بلاد ارض مصر البحريه، واحضرو تلتة اساقفه وخرجو معهم الى دير الزجاج وقسمو رجلا قسا اسمه

جميعاً والمكافآت الإضافية (sportula) التى كان جميعهم يطالبون بها. وقد أصبحت هذه المكافآت حقاً مسلماً به حتى صارت تجبى آخر الأمر مع الضرائب، ولم يعد فى وسع الحكومة، حتى إذا شاءت، أن تحد من نفقاتها، واضطرت مجالس [الشورى] البلدية ولجانها التنفيذية، وهى المسئولة عن تحصيل ضرائب المناطق التابعة لها كاملة، إلى اغتصاب أموال الفلاحين فاذا عجزت عن تحصيل المقدار المطلوب أخذ من ثروة أعضائها الخاصة ما يغطى العجز. وهكذا لم يقع العبء الاقتصادى على فريق دون الآخر، بل وجدت كل من طبقة الفلاحين وطبقة أعضاء المجالس البلدية نفسها مهددة بالخراب الشامل.

وقد رأت السلطات، إزاء إرتباط الدخل بإنتاج الأرض إرتباطاً شديداً، أنه لابد من أن تمنع المزارعين من مبارحتها، وأن تربطهم إليها، ولابد من أن تبقى الطبقة التى يختار منها أعضاء مجالس الشورى، قوية حافظة لكيانها، فهى المسئولة آخر الأمر عن نصاب الضريبة، وأن يخلف الابن أباه فى عضوية المجلس ليحمل أعباءه، وبالمثل يتحتم على ابن الملاح، المنوط بنقل القمح والضرائب النقدية إلى القسطنطينية، أن يخلف أباه فى حرفته، وأن يرث ابن المكارى مهنة أبيه. وهكذا أفضى ذلك الجمود فى التفكير إلى قيام دولة الأذلاء البيزنطية، حيث كان المجتمع يتألف من طوائف إحداها فوق الأخرى، ولكل منها مهنتها الوراثية التى لا سبيل

بطرس بطركا وتعزى به الشعب وقويت امانتهم، لكن ما كانو يقدرون يدخلون به المدينه ظاهرا خوفا من الملك ومن ابوليناريوس بطرك المخالفين. وكان مقامه خارجا عن اسكندريه مقدار تسعة اميال فى البيعه التى هى على اسم يوسف، وكانو يحملون اليه جميع ما يحتاج، ولم يعلم الملك به. وبعد هذا ظهر الامر ان بطرس صار بطركا عوضا عن المتنيح تاودوسيوس، فلما علم ابوليناريوس غضب جدا وكتب الى الملك يعلمه

إلى التملص منها[١]. وقد يقال إن ذلك الجمود لم يكن مطلقاً، لأننا نسمع عن أشخاص من

(١) انظر:

A.E.R. Boak, "An Egyptian Farmer of the Age of Diocletian and Constantine", Byzantina Metabyzantina I, 1946, PP. 39-53.

حيث يقول ملخصا دراسته لبعض برديات من ثيادلفيا [هريت] بالفيوم: «ويمكننا أن نستخلص من دراستنا السالفة لحياة ايسدوروس ومقارنتها بحياة سكاوون، نتيجتين هامتين، الأولى أن الزراعة في الفيوم، كما سبق أن ألمعنا، كانت لا تزال في أوائل القرن الرابع مهنة رابحة، طالما كانت أعمال الرى منتظمة. ولما كان الرى قد أهمل في ثيادلفيا، فقد أجدبت الأرض وأقفر المكان من سكانه. وأما في كرانس [كوم أوشيم حاليا] حيث لم تنقطع العناية بالقنوات، فقد ظلت القرية عامرة بالسكان مدة قرن آخر. والنتيجة الثانية هي أن ملاك الأراضي في القرية كان عليهم وهم في سن متقدمة أن يوطنوا أنفسهم على تولى ست وظائف الزامية مختلفة أو ازيد، وبعضها لاكثر من فترة واحدة. ولا شك في أن ذلك كان عبئا ثقيلا في زمن الرخاء، فاذا ما أضفنا الى ذلك عبء الضرائب في وقت استنزفت خلاله نفقات الحكومة موارد البلاد الأخرى حتى آخر قطرة، فلا عجب أن جاوز العبء بمرور الزمن حد الاحتمال. وتنهض سيرة ايسدوروس دليلا جديدا على صحة الرأى السند بأن نظام الالزام كان هو المسئول الى حد كبير عن القضاء على طبقة الملاك في عواصم الاقاليم والقرى المصرية في فجر العصر البيزنطي». لا ريب أن العبء المالي وما ترتب عليه من فرار الذين ناء كاهلهم به، وتناقص الأيدى العاملة تبعا لذلك، زاد مشكلة العناية بالرى تعقيدا، كما أدى اهمال الرى بدوره الى اشتداد الضائقة المالية.

أنظر أيضا:

A. E.R. Boak, "A Fourth Century Petition for Relief from.

بما كـــان. ومن قـبل ان يصل كـتـــابه الى يوستينيانوس الملك فى القسطنطينيه ضربه ملاك الرب فمات موتة سو مثل موت هيرودس.

فاما بطرس فكان رجلا حسن الصورة بهى المنظر مزينا بكل فعل جميل محبا لمن فيه علم الله، ومن اجل ذلك طلب انسانا فاضلا عالما بالقوانين المقدسه ليكون له كاتبا فارشدوه الى راهب شماس اسمه دميانوس فى دير تابور وكان عارفا بالكتابة، فمضى الاب بطرس البطرك الى

أصل وضيع يبلغون أرفع المناصب، وخاصة عن طريق الانخراط فى سلك الجندية، أو الالتحاق بسلك الوظائف المدنية، أو الكنسية. غير أن هؤلاء الأشخاص كانوا ذوى مواهب نادرة لا تعوزهم ملكة الابتكار. وأما عامة الناس فكانوا مقيدين طيلة حياتهم برباط المهن التى فرضت عليهم منذ نشأتهم.

وكان فى استطاعة الفلاح على عهد البطالمة، إذا ضاق ذرعاً بحالته، أن يلوذ بحمى مذبح الملك أو ساحته (bômos-temenos= skepê) أو بأحد المعابد العديدة (hieron) التى كانت تتمتع بحق حماية المستجيرين، ولا يبرح مكانه إلا بعد أن تزول أسباب شكايته. فلما جاء الرومان حصروا هذا الحق فى أضيق نطاق، فلم يعد أمام الفلاح إلا الفرار إلى الأدغال أو الصحراء أو الانضمام إلى أحدى عصابات اللصوص. على أنه كان هناك مخرج آخر؛ فقد ظهر حتى فى القرن الثالث، رجال استغلوا حالة التدهور لصالحهم، واستطاعوا بفضل إقدامهم ونشاطهم وما لديهم من رؤوس أموال، أن يجعلوا من مصائب غيرهم فوائد لهم. وقد أخذت الضياع الكبيرة تتكون فى ذلك الوقت. وكان فى مقدور أصحاب هذه الضياع، بموازنة خسائر بعض ضياعهم بأرباح الأخرى، أن يستجيبوا دون تعريض أنفسهم لارتباكات مالية خطيرة، إلى مطالب جباة الضرائب، وليس ثمة شك فى أن الأثرياء كانوا لا يعدمون وسيلة فى عصر فسدت فيه الذمم لحمل السلطات على معاملتهم معاملة خاصة. فقبل نهاية القرن الرابع

الدير فتحدث معه وساله ان يسامحه ويتعب معه في اعمال البيعه، وطلب اليه وطيب قلبه ان يقيم معه في الدير كانه اسقف، اذ كان لا يقدر يظهر انه بطرك ولا يتمكن من الدخول الى مدينة اسكندريه جهرا. فاجابه الشماس الراهب دميانوس الى ذلك واطاع البطرك فيما امره به.

وكان في ذلك الموضع ستمايه دير عامرة كلها بالارتدكسيين وجميعهم رهبان ورهبانات مثل خلايا النحل [فلم يبق] من عمارتهم سوى اتنين

حصل أثرياء الملاك (potentiores) من الحكومة على حق عرف باسم «أوتوبراجيا» (autopragia)، الذى يخول لهم جباية الضرائب المستحقة على ضياعهم الخاصة، ودفعها لخزانة الولاية مباشرة، دون وساطة الجباة المحليين؛ ومن المحتمل أن ذلك يرجع إلى أن الحكومة قد تعذر عليها تحصيل النصاب المطلوب بغير هذا السبيل. ولذلك كان المالك الصغير عندما يتهدده الخراب يلتجىء إلى أحد جيرانه الأقوياء لحمايته. على أن يتنازل له عن أرضه، ويزرعها له كمستأجر، ويقوم خدمة سيده وحاميه (patronus)، الذى يأخذ على عاتقه فى مقابل ذلك مسئولية دفع كافة الضرائب. وهكذا تحول المالك الصغير إلى مستأجر مربوط إلى الأرض، التى آلت حينئذ إلى غيره، أى أصبح "colonus adscripticius" لا يختلف وضعه فى الواقع عن أقنان الأرض.

ولم تكن الحكومة راضية عن انتشار نظام الحماية (patrocinium) فأصدرت المرسوم تلو المرسوم لحظره، ولكن من غير طائل. فقد كانت النواهى غير مجدية إزاء حالة الضيق الاقتصادى التى لم يكن هناك سبيل إلى علاجها. وأخيراً سلمت الحكومة فى عام ٤١٥م بالأمر الواقع، فأصدرت مرسوما فى نفس العام ينص على أن يبقى جميع من اقتنوا أراضى قبل سنة ٣٩٧ بمقتضى نظام الحماية، محتفظين بها، على أن يتعهدوا بأداء كافة الالتزامات المفروضة على مؤاجريهم (coloni) وأن يلغى لقب «حامى» (patronus). وقد أكسب هذا

وتلتين ضيعه تسمى سكاتينا جمعيهم ارتدكسيون وكان الاب البطرك بطرس مدبر جميع احوالهم. فلما سمع شعب انطاكيه الارتدكسيون بما فعله اهل اسكندريه عمدو هم ايضا الى انسان اسمه تاوفانيوس فجعلوه بطركا عوض الاب المغبوط ساويرس واجلسوه في دير يعرف بدير امونيوس لان الهراطقه منعو الاساقفه الارتدكسيين ان يدخل احد منهم الى مدينة انطاكيه كما فعل باسكندريه. فكانا البطركان على هذه القضيه مقيمين في

- -

المرسوم المؤاجرين المربوطين إلى الأرض صفة قانونية، ولكنه لم يحل، كما قصد منه، دون تفشى نظام الحماية.

النظام الاداري الجديد:

فإذا ما بلغنا القرن السادس الحافل بالوثائق، يسترعى انتباهنا التغيير الإدارى الجديد، وأول ما نلحظه هو اختفاء المراكز (Pagi) التى كانت تنقسم إليها المنطقة الريفية (territorium) أو الاقليم (nomos)، والتى كان على رأس كل منها مدير يسمى (Praepositus) وأصبحت المنطقة الريفية كلها تؤلف وقتئذ مقاطعة واحدة (pagarchia) يدير شئونها المالية موظف يسمى باجارك (pagarchês)، ومن المقطوع به أن هذا التغيير حدث فى القرن الخامس، وفيما يرجح على عهد الإمبراطور ليو الأول Leo I (٤٥٧ ـ ٤٧٤). ولم يكن إشراف الباجارك يشمل، فى الأحوال العادية، كافة أنحاء المقاطعة، لأن ضياع كبار الملاك المتمتعة بحق جباية ضرائبها لم تكن تدفعها عن طريقه، وإنما لأمين خزانة الولاية (chrysônês) مباشرة. وقد منح نفس الحق لأديرة وكنائس عديدة وذلك بعد أن حرمت معابد الديانات المخالفة من أوقافها واملاكها. وكذلك لبعض القرى الكبيرة (وذلك دون شك لإيجاد نوع من التوازن بينهما وبين النبلاء الأقوياء. وكان الباجارك موظفاً تابعاً للامبراطور، معينا من قبله، ومسئولا أمامه. ولم ت

ديرين خارجا عن مدينتهما. ثم ان بطرس بطرك مدينة اسكندريه اعتل وتنيح بعد ان اكمل سعيه وخدمته المرضيه لله. وكان مدة مقامه بطركا سنتين وكانت نياحته في الخامس والعشرين من بوونه صلواته معنا امين.

داميانوس البطرك

[٥٦٩ / ٦٠٥م]

وهو فى العدد الخامس والتلتون

ولما تنيح الاب القديس بطرس اجلسو عوضا

الامبراطوره تيودورا والامبراطور جوستنيان. تفصيل من لوحة بالفسيفساء سنة ٥٤٧. كنيسة القديس فينالي. رافنا

منه كاتبه داميانوس الشماس الراهب وكان قويا بالفعل والكلام، ونعمة الرب حاله عليه لانه كان راهبا من صباه داخلا في برية وادى هبيب(*)، ورباه قديسوه في دير ابى يحنس، واقام هناك ست عشره سنه يتعبد كعبادة السواح القديسين قبل ان يجى بهاناطون [دير طور تابور] اى دير الابا[ء] في زمان عمارة الاربع ديارات بوادى هبيب، وكان بنيانها ينمو مثل نبات الحقل في الامن والهدو واهلها ياتيهم جميع ما يحتاجون اليه، وكانو ينون

(*) وادى هبيب: يسمى كذلك برية شيهات وهو اسم قبطي معناه ميزان القلوب. وتسمي كذلك اسقيط وهي قبطية تعني دار النساك. واطلق عليها في العصور المتاخرة وادى حبيب، وهو شيخ قبيلة بدوية من قطاع الطرق نزلت وسكنت في ذلك الوادى.

تكن له سلطة على المدينة أو البلدية (civitas) التي لم تعد منذ انشاء منصبه، مسئولة عن الشئون المالية للمنطقة الريفية.

وقد حدث تغيير آخر في الإدارة على جانب كبير من الأهمية في عام ٥٥٤، عندما أصدر جستنيان (يوستنيانوس) (Iustinianus) مرسومه الثالث عشر، الذى وصلنا في صورة مبتورة، وإن كان من الميسور استكمال مواده الرئيسية في ضوء الجزء المتبقي. وكانت ولايات مصر، حسب تقسيم دقلديانوس، قد أدخلت عليها تعديلات كثيرة، وانفصلت في عام ٣٨٢ عن الإدارة الشرقية (dioecêsis Orientis)، وأصبحت إدارة مستقلة بذاتها، وصار لوالى مصر، الذى منح لقب الأغسطس "Augustalis" السيطرة التامة على جميع البلاد. وقد ظلت نظرية دقلديانوس الخاصة بفصل السلطة العسكرية عن السلطة المدنية مرعية حتى ذلك الوقت، ولكن حكومة جستيان تخلت عن هذه النظرية عندئذ، فتمزقت بمقتضى التنظيم الجديد وحدة مصر لأول مرة: فلم يعد لوالى مصر الأغسطى "Augustalis"، أى سيطرة على الولايات الأخرى التي وضعت كلها تحت الاشراف المباشر لحاكم عام الشرق (praefectus praetorio per Orientem) وزود كل حاكم في ولايته بسلطات عسكرية ومدنية: فقد انقسمت مصر (فيما عدا ليبيا) منذ ذلك الحين إلى أربع ولايات، متساوية في المركز، وهي آيجوبتوس "Aegyptus" أى مصر [غربى الدلتا بما في ذلك الاسكندرية] وعلى رأسها دوق (Dux) يحمل لقب الأغسطى (Augustalis)؛ وأغسطامنيكا "Augustamnica" [شرقى

مداومين. وكان معهم المليتيانيون اعنى اصحاب مليتيوس الذين كانو ياخذون الكاس دفعات كثيرا فى الليل قبل ان يحضرو الى البيعه [يحتجو بذلك ان سيدنا له المجد قد فعله عدة مرات فى العشا السرى ليلة الصلب ولم يقول هذا هو دمى الا فى اخر مره].

لجل [لأجل] هذا لما استحق الاب داميانوس البطرك الجلوس على الكرسى الانجيلى كتب الى الجبل المقدس وامر ان ينفى منه المليتيانيون.

الدلتا حتى الفرما والعريش) وعلى رأسها دوق؛ وأركاديا "Arcadia" [مصر الوسطى حتى البهنسا] ويرأسها كونت (Comes) ثم منطقة طيبة "Thebais" [من الأشمونين حتى أقصى الجنوب] ويديرها دوق يحمل هو الآخر لقب الأغسطى (Augustalis). وقسمت كل ولاية من الولايات المذكورة، فيما عدا أركاديا "Arcadia" إلى ولايتين فرعيتين على رأس كل منهما مدير ذو سلطات مدنية بحتة يسمى برايسيس (praeses)، بمعنى رئيس أو حاكم.

أخطار تحدق بالامبراطورية: الغزو العربي:

فى عام ٦٠٨، أعلن هرقل (Hêraclius)، حاكم إفريقية، الثورة على فوكاس (phôcas)، ذلك المغتصب المتحجر القلب الذى اغتال الإمبراطور موريس (Mauricius) بعد أن أطاح بعرشه. وكان هرقل نفسه رجلا طاعناً فى السن، لا تسمح له شيخوخته بتحمل أعباء الإمبراطورية. وكان القدر قد كتب لابنه هرقل الأصغر أن يعتلى العرش. وقد وضعت خطة تقضى بأن يقوم نيكيتاس (Nicêtas)، ابن القائد الثانى لهرقل، بمحاولة غزو مصر، بينما يزحف هرقل الأصغر على سالونيك (Thessalonica). وتقدم نيكيتاس [من برقة] على الساحل الشمالى [لإفريقية]، واستطاع بعد قتال عنيف أن يستولى على مصر فى أواخر عام ٦٠٩. وكان هرقل فى تلك الأثناء قد عاد ادراجه، فأبحر فى سنة ٦١٠ متجها صوب القسطنطينية، وظهر اسطوله أمام المدينة فى ٣ أكتوبر من السنة عينها. واذ كان طغيان فوكاس قد ألب عليه السواد الأعظم من الشعب، فانه لم يمض يومان حتى وقع أسيراً فى يد هرقل

ومن بعد زمان يسير جا صوت من السما على تلك البرية يقول الهرب الهرب، فلما خرجو اهل الاربعة ديارات منها خربت. ولما اتصل ذلك بدميانوس البطرك حزن جدا، وكان هذا الاب القديس البطرك منفردا فى دير طور تابور كما قلنا بديا [بداية]. وبطقس اسقف وحكمة الله الموهوبه له كان كتب اللوغس وهو كلام حكمه، وكتب ايضا مستاغوجيات خارجا عن الارتستيكات وعن القاتكسيسيات وكان اصحاب الهارسيس

الذى أمر بقتله. وهكذا آل اليه عرش الإمبراطورية. ولكن كان هناك فى الواقع من الأسباب ما يكفى لإثباط همته: فقد منيت جيوش الامبراطورية خلال السنوات الأخيرة بعدة هزائم وغزا خسرو (Chosroês) ملك الفرس، الإمبراطوية من الشرق، ولم تنقطع قبائل الآفار والسلاف والصقالبة عن تهديدها من الشمال، وحامت الشبهات حول إخلاص بريسكوس (Priscus)، القائد الاعلى للجيش، ونضبت الخزانة من نصف ما فيها، وتناقص عدد الرجال اللائقين للخدمة العسكرية تناقصا شديدا. وفضلا عن ذلك فقد خيم على كافة أرجاء الامبراطورية شعور باقتراب النهاية، وسرت فى أوصالها روح التخاذل والاستسلام.

وقد أخذت الأحوال فى بادىء الأمر تسير من سىء الى أسوأ برغم ما بذله هرقل من جهود مضنية، ولكن خسرو كان لا يفتأ يتوغل فى قلب الامبراطورية. ثم وقعت الطامة الكبرى وسقطت أورشليم فى ٦١٤. وغزا الفرس مصر واستولوا عليها ٦١٦، وكان معظم آسيا الصغرى قد سقط هو الآخر فى أيديهم وقتئذ، وأصبح فى وسع جنودهم أن يروا عاصمة الامبراطورية من الضفة الأخرى لمضيق البسفور متألقة على سفوح تلالها. وبدا كما لو كانت الامبراطورية مشرفة على الهلاك. ولو كان للفرس فى البحر أسطول فى قوة جيشهم، لسقطت القسطنطينية ولتجردت أوروبا من حصنها الشرقى المنيع. وفى ٦٢٢ عبر هرقل البحر الى آسيا الصغرى بعد أن وكل القسطنطينية فى حفل دينى لعناية المسيح ومريم؛ وقد انتهت حملته الموفقة بتحرير جميع أراضيها. ثم خرج فى ٦٢٣ غازياً فارس نفسها وأحرز انتصارات باهرة.

النجسه ياتون اليه يجادلونه على الامانه، وبنعمة الرب التى معه كان يحل موامرتهم مثل العنكبوت ويلطف بهم ويفهمهم بالاقوال العجيبه ويجعلهم مثل اخاب قدام ابينا ايليا النبى.

ولما كان في السنة التامنه من بطركيته وقع فى قلوب الذين لا راس لهم(*)، وكانوا يسكنون شرقى مصر، فكر شيطانى وكانو اربعة اقسا [قساوسه] قد فضلو من ذلك المجمع الطمث

(*) هم اتباع الاسقف يعقوب المصرى اصله من مدينة منفيس (بالجيزة) ذهب الى اسبانيا وتلمذ له أولا امرأة اسمها أجايا ثم جذبت تلك المرأة أحد معلمى الفصاحة اسمه

لكن فى ٦٢٣ ظهر خطر جديد عندما تدفقت جحافل الأفار من الشمال وحاصرت القسطنطينية براً وبحراً. وأشرفت الامبراطورية مرة أخرى على الهلاك وساد الذعر فى كل مكان، وبدا كما لو كانت العناية الربانية وحدها هى القادرة على إنقاذ المدينة؛ فانطلقت الدعوات من جميع الكنائس تبتهل الى أم المسيح أن تأتى لنصرة عبادها؛ وكان من بين كراماتها أنه بينما التهمت النيران كنائس القديسين كوسماس ودميان ونيقولا، فقد نجا معبدها فى بلاكرناى (Blachernae) من الدمار. واستجابت السماء للدعوات؛ فردت سفن السلاف على أعقابها وأغرقت، وتقهقر جيشهم شمالا. وفى ٣ أبريل عام ٦٢٨ وفدت على هرقل سفارة فارسية لتبلغه نبأ موت خسرو، واعتلاء ابنه العرش، ورغبة الفرس فى عقد الصلح. وقد نصت شروط الصلح على انسحاب القوات الفارسية من جميع أراضى الامبراطورية، وبذلك تم الجلاء عن مصر أيضا فعادت ادراجها الى حظيرة الامبراطورية البيزنطية.

وفى تلك الأثناء كان هرقل، رغبة فى تدعيم أركان الامبراطورية، قد بذل قصارى جهده لرد أقباط مصر إلى الكنيسة الكاثوليكية. وقد قبل مرضاة لهم بدعة أو الإرادة الواحدة (monothelêma) التى تقول ـ خلافا لمذهب الطبيعة الواحدة ـ إن للمسيح فى الواقع طبيعتين، ولكن له إرادة واحدة فقط. وقد اعتقد أن ذلك قد يؤدى الى التقريب بين أصحاب مذهب الطبيعتين وأصحاب مذهب الطبيعة الواحدة (monophusitai). غير أن المصريين كانوا غير مستعدين للتفاهم؛ فقد انحصرت رغبتهم فى معارضة القسطنطينية. وفى ٦٣١ عين

فقالو: ماذا نصنع قد فنينا ولم يبق لنا اسقف فانهضو بنا نجعل واحد منا اسقفا ليلا [لئلا] يبيد ذكرنا من على الارض . ثم انهم اختارو اكبرهم وكان اسمه بارسنوفه فاخذوه التلتة اقسا وجعلوه اسقفا وسميت مقالته المخالفه كاسمه، فلما سمع اهل غربى مصر بذلك غضبو جدا لجل انهم فعلو ذلك ولم يشاوروهم. فافترقو منهم ولم يساعدوهم.وبهذا الحكم لم يكن لهم من يعمدهم ولا يقربهم ولا يصلى بهم، فوسمو الاخر

البيديوس وهذان الاثنان علما بريشيليانوس الذى سميت البدعة باسمه فيما بعد. أما تعليمهم فكانوا يقولون أن النفوس من جوهر الله وانها تنحدر باختيارها الى الارض جايزة في السموات السبع بواسطة درجات قوات للمحاربة ضد الملك الشرير الذى كان يضعها في اجساد لحمية مختلفة.

هرقل بطريركا على الاسكندرية وحاكما أغسطيا (Praefectus Augustalis) على مصر في نفس الوقت، أسقفا يدعى قيرس Cyrus [المقوقس] وهو من الذين اعتنقوا مذهب الارادة الواحدة. ولم يكن هرقل موفقاً في اختياره لان قيرس هذا، الذى تجعلنا قلة المصادر في حيرة من شخصيته الغامضة، كان فيما يبدو رجلا ضيق الصدر. فلما وجد أن من العسير عليه استمالة الأقباط الى المذهب الجديد، أخذ يضطهدهم اضطهاداً رهيباً، مما نفر منه هؤلاء الذين أوفد ليعمل على استرضائهم، هذا في وقت اشتدت فيه الحاجة إلى الولاء حيثما كان مستطاعاً.

وفي ٦٣٩ استطاع عمرو بن العاص، أحد كبار قواد العرب الذين قاموا بدور هام في غزو سوريا، أن يحصل بعد الحاح من عمر بن الخطاب ثانى الخلفاء الراشدين، على إذن بغزو مصر.

ولم يكن فتح مصر على يد العرب معجزة كما يعتقد بعض الناس. صحيح أن عمرو لم يكن تحت إمرته سوى أربعة آلاف جندى عندما اجتاز الحدود، غير أنه تلقى من الخليفة قبل معركة هليوبوليس الحاسمة مدداً يبلغ حوالى اثنى عشر ألف رجل هذا غير آلاف البدو الذين كانوا في جنوب الشام وسيناء والذين قدموا معه من أجل الغنائم. وقد بالغ المؤرخون كثيراً في عدد القوات الرومانية التى يرجح انها لم تزد في مجموعها عن حوالى ثلاثين ألف رجل، موزعين في أنحاء البلاد بين الحاميات المختلفة، ولم يكن كثير منهم، فيما يرجح، جنودا من

لهم اسقفا. وكان الملك ذلك الزمان موريق وكان محبا للمال جدا وكان يطرد الارتدكسيين.

ولما تنيح الاب البطرك تاوفانيوس ومضى الى الرب عمد اهل انطاكيه الى رجل من كهنة البيعه اسمه بطرس فجعلوه بطركا وكان غليظ القلب مظلما فى افكاره مضطرب العقل مقاوما للامانه المستقيمه، كما قال الحكيم فى الله كيرلس البطرك القديس لجل اصحاب اناتوليوس «انهم مظلمو الافكار» ومن اجل الاتحاد الذى بين الكرسيين

حصن بابليون (قصر الشمع) نقلاً عن البقايا التى كانت موجودة عام ١٨٨٢م

كتب بطرس رساله سنوديقا(*) الى الاب داميانوس البطرك كما جرت العاده، فلما وصلت السنوديقا اليه فرح بها وجمع الاساقفه، وفيما هو يميزكلامه المنصوص فيها وجد فيه عشره فى الاعتراف بالثالوث المقدس، وطلب بحكمته ودعته ان يجذب اليه بطرس المذكور برفق حتى لا تنقسم البيعه و لا يفترق الاتحاد الذى بين الكرسيين، فكتب اليه ميمرا يذكر فيه جميع المخالفين والتعليم الذى وضعه ساويرس البطرك غرضا فى ان يفهمه

الطراز الأول، وفضلا عن ذلك كان من المستحيل تركيزهم بسرعة فى مكان المعركة، وقد ظهرت حينئذ العواقب الوخيمة لسياسة چستنيان فى تمزيق وحدة مصر وتخويل جميع حكام ولاياتها سلطات متساوية، إذ حصر كل منهم همه فى ولايته، حتى لقد قيل إن دوق طيبة، عندما سمع باقتراب العرب، جمع الضرائب على وجه السرعة وفر بها إلى الاسكندرية.

وبعد أن هزم عمرو الرومان عند هليوپوليس (Hêliopolis) ضرب الحصار على بابليون (Babylôn)، الحصن المنيع الواقع عند رأس الدلتا.

ولكن بابليون صمدت لهجومهم. وشرع عمرو فى مفاوضة المقوقس، الذى وافق على مشروع معاهدة تنص على استسلام الرومان. وسافر المقوقس إلى القسطنطينية ليعرضها على الامبراطور الذى رفضها على الفور وأمر بنفيه. ولكن هرقل كان فى ذلك الوقت يخطو الى قبره، فلما قضى نحبه فى ١١ فبراير ٦٤١، حالت الخلافات التى نشبت بين المجالس الامبراطورية دون إرسال الامدادات الى مصر، فسقط حصن بابليون فى ابريل ٦٤١، وزحف العرب على الاسكندرية ولاقوا فى طريقهم مقاومة شديدة من جانب جنود الامبراطورية الذين أبدوا على نقيض قوادهم روحا معنوية عالية. وكان المقوقس قد أعيد آنئذ الى منصبه، فوجد الاسكندرية نهباً للمنازعات، وقد تطرق اليأس بسرعة إلى نفوس أهليها، فعقد مع العرب معاهدة تنص على أن يدفع سكان المدينة الجزية، وأن تجلو القوات الرومانية عنها خلال أحد عشر شهراً، وأن تؤمن حياة المسيحيين واليهود. ولم يصل من القسطنطينية أى مدد فغادر

الامـانه ليـدبر عـقله، لان بطرس قـال بحكمـتـه الربانيه ان لا حاجه الى ذكر الثالوث، وكانو معلمو البـيعه اجـمعـون وكـيرلـس الحكـيم ومن جا بعده الى ايام دميـانوس فى كـتـبـهم يعتـرفـون بالثـالوث المقدس انه تلت اقانيـم، طبيعه واحده لاهوت وحد. خالق ليس فيه مخلوق، وانه مفترق بالاقانيم متحد بالجـوهر والاسـم بـوحـدانيـه، وان الله خالق النيـرين العظيـمين، فـالشـمس لسـلطان النهـار والقـمـر النيـر

الجيش الامبراطورى ميناء الاسكندرية فى ١٧ سبتمبر ٦٤٢، ودخل العرب المدينة العظيـمة فى ٢٩ من نفس الشهر، وقد بهرت أنظارهم بواكيها المرمرية وقصورها الفاخرة(*).

اليهود فى بنتابوليس (برقه)
قبل المسيحية

مقدمة

من الراجح ان اليـهـود قد بدءوا يتـوافـدون على ليـبيـا مع الاسكندر الاكبـر، حينمـا زحف بجيـشـه على بمصـر، من فلسـطين (٣٣٢ ق. م.). وقد ازدادت أعدادهم باضطراد ـ فى مصـر وبنتابوليس ـ فى عهد خلفائه البطالمة.

يروى المؤرخ اليهودى يوسيفرس ان بطليموس الاول (المدعو سوتير): «قد أرسل فريقا من اليهود، ليستقروا فى سيرين [سرينيكا]، لانه كان مهتما بتشديد قبضته عليها، وعلى مدن ليبيا «الخمس الأخرى»[١] .

كما نقل يوسيفوس عن استرابون اشارته الى: «وجود جماعات منتظمة (Syntagmata) من اليـهـود فى سيـرن». ونفـهـم من هذا النص بأن العناصـر التى توافـدت على بنتابوليس (فى

(*) انظر : هـ. آيدرس بل، مصـر من الاسكندر حتى الفتح العربى. ترجمة: د. عبداللطيف احمد على. دار النهضة العربية. القاهرة ١٩٦٨.

(1) Josephus, Antiquities of the Jews, II. 44.

الاصــغــر لسلطان الليل، وكــان الفــعل يســبق التسميــه.

وقال الله: لتجتمع المياه ويظهر اليبس [اليابس] فسمى الله موضع اجتماع المياه بحور وسمى اليبس ارضـا، ان الفـعل يسـبق التـسـمـيـه. وهكذا يجب عليك ان تفـهـم هذا ان طبـيـعـة الخـالق الواحـده الفاعله لكل شي. فمن الذى عرف ضمير الرب، و من كان له مشيرا، من يدفع له حتى يطلب منه العـوض، لان كل شى من عنده، والمجـد للشـالوث

النصف الأول من القرن الرابع ق. م) كانت على ما يبدو ذات صبغة عسكرية[١]، والراجح انهم كانوا من أسرى بطليموس الاول، نتيجة لغزواته المتكررة لفلسطين، ونجاحه في السيطرة على سيرين، بعد ذلك[٢]. ولم يحل وضعهم ـ كأسرى حرب دون استخدامهم كجند للحاميات[٣]وقيل ان أعداد هؤلاء قد وصلت الى نحو ٣٠,٠٠٠ يهودى، في بنتابوليس[٤]. والغالب أن اليهود قد وجدوا في سيرينيكا بيئة صالحة للحفاظ على الشريعة اليهودية، وهربوا اليها من محاولات الملك أنطيوخوس على حملهم على التأغرق[٥] والوثنية.

ويشهد الكاتب اليهودى سلوش (Slousch) بأن منطقة البنتابوليس كانت لها أهمية كبرى، في تاريخ بني اسرائيل، عن بقية مناطق الشتات (Diaspora) الاخرى[٦] ، وربما يعنى

(١) كمال عبدالعليم دراسات في تاريخ ليبا القديم، ص١٧١.

(٢) ابراهيم نصحى، تاريخ مصر في عهد البطالمة (١٩٦٠) جـ١ ص٦٦ ـ ٧٣ وراجع ايضا:

- Diodor Sicul., XvIII, 18.

- Tichericover & Funks, Corpus Papyrorum Judaicarum (1957), vol. I, 2 seg.

(3) Josephus, Antiquities, xiv, 99.

(4) Morio Dall'Arche, Scomparsa del Cristianesimo, (Roma 1964) p. 29.

(5) Spadafora, Corpus Iscriptionum Judaicurum del Vaticano (Roma 1915), tom. II. p. 352.

(6)Slousch. Jewish Monuments & Judaism in Ancient Cyrenaica; an Appendix to the Report on the work of the commission sent by the Jewish Organisation, London 1909.

ـ (عن كمال عبدالعليم. المصدر السابق ص٢٠٨ حاشية رقم ٦).

المقـدس المسـاوى الكامل فى كل شى، الذى لا يقبل شيـا جديدا ولا اسـمـا جـديدا بالجـمله، بل اساميه ثابته وافعاله معا.

هذا الكلام كتب به الاب دميانوس البطرك الى بطرس بطرك انطاكيه، وكان بطرس بطرك انطاكيه مثل الافعى الصـمـا التى تسـد اذنيـهـا فـلا تسـمـع كـلام الحـاوى، ولا دوا يصنعـه حكيم . بل بقي مـدمنا على فكره الضـال يعتـرف ويقـول بلسـانه الذى يسـتـحق القطع: مـا الحـاجـه الى تسـمـيـة

بذلك أهميـتـهـا كـمـوطن لعدد كـبيـر من المهـاجـرين، أو لانهـا كـانت مكانا صـالحـا لممارسـة شعائرهم الدينية بحرية، أو للقيام بأعمالهم المدنية (التجايرة)، لازدهارها حينذاك.

هذا وقد أكثر البطالمة الآخرون من ايفاد اليهود الى سـائر مدن بنتابوليس، وخاصـة طوكـرة وبرنيس، على نحـو مـا تؤكـده الشـواهد الاثرية هناك. ومن مـشـاهيـر اليـهـود فى تلك الفـتـرة «جاسون» (Jason) القوريني (القرن ٢ ق. م)، كاتب سفر المكابين الثانى[١].

وقد عثرت بعثة معهد الدراسات الشرقية بجامعة شيكاغو على عملة من البرونز (من فئة الربع شـاقل) بطلميتة [٢]، من النـوع الذى اصدره سمعان المكابى بفلسطين (١٣٩ ـ ١٣٥ ق. م)، مما يؤكد وجود بعض اليهود بهذا الميناء التجارى الهام فى تلك المرحلة من التاريخ.

ومن قراءة الشـواهد الخاصـة بالقبـور (Eqitaphs) اليـهـودية والاضـرحـة التى عثـر عليها فى سيرينيكا، وخاصة فى مدينة طوكرة. يتضح لنا أن بعضهم قد ولدوا فى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد، وقد استخدمت الشهور المصرية (القبطية) فى كتابة هذه الشواهد[٣]، كـمـا نرى، من النماذج التالية، (وهى مترجمة عن اليونانية).

(1) Duchesne, Early Church History (London 1950), vol. I. p. 350.

(2) Kraeling, op. cit. p. 268.

Gray, The Jewish Inscriptions in Greek & Hebrew at Tocra, Cyrene and Barca (1955) p. 43.

(٣) ظللت الشهور «القبطية» (المصـرية) مستعملة فى سيرينيكا، حتى دخول العرب، وقد اسـتمرت أيضا فترة طويلة الى أن حلت محلها الشهور العربية.

الثالوث. وكان يقسم الثالوث الغير منقسم، فصار بين المصريين والمشرقين خصومه بهذا السبب، واقامو هكذا عشرين سنه مختلفين بغير اتفاق حتى رحم الله شعبه الذى هو يهتم به فى كل حين وقصف عمر المخالف واباده من العالم.

وكان دميانوس البطرك المغبوط مهتما فى كل ايامه بما يقهر به المخالفين بكتبه وميامره واقاويله. وكان فى زمانه اساقفه يتعجب منهم ومن طهارتهم

أ ـ «فى السنة ١١، ٨٠ من (شهر) برمودة، جوليات ابنة نيكايوس، عمرها ٢٠ سنة». ويرجح الآن روى[١] (Rowe) ان السنة الحادية عشر هذه تحسب بعد معركة أكتيوم البحرية الشهيرة (٢١ ق. م.)، وعلى ذلك يكون تاريخ النقش سنة ٢١ ق. م.

ب ـ «السنة الرابعة، ٢٠ طوبة، ثيئودورا ابنة جيمالوس (غمالائيل) عمرها ٥٠ سنة» (ويرجع النص الى عام ٢٧ ق. م)[٢].

جـ ـ «السنة ٢٠، ٢٠ بؤونة، مارين ابنة كاسيوس ٧٠ عاما» (نحو ١١ ق. م)[٣].

د ـ «سنة ١١١، ٣٠ توت، اكسينيتا ابنة أريماس (احيرام أو ارميا) عمرها ٣٥ سنة[٤]، ويرجع هذا الشاهد لعام ٧٩م.

هـ ـ «السنة الثامنة (٨ أو ٣ من شهر) مسرى، غايوس بن ارتيوس عمره (...) ـ ويرجح الاثرى تود Tod ان هذا الاثر يرجع لعام ١٠٠م[٥].

(1) Alan. Rowe, Cyrenaican Expedition of. Univ. of Univ. of Manchester (1952) p. 43.

(2) Idem., p. 44.

(3) Idem., p. 44.

(4) Idem., p. 44.

Cfr. Oliverio, Iscrizioni di Tocra, Documenti Antiche dell'A-Frica Ital. tom. II.

(5)Cyrenaican Expedition, Ibid. p. 44.

وفضلهم، فمنهم يوحنا البرلسى، ويوحنا تلميذه، وقسطنطين الاسقف، واكليستس، واخرون كثير مهتمون بكرم رب الصباو[ء]ت ولم يكن دميانوس البطرك يفتر من التعليم كل ايام حياته، ومن كترة صومه وصلاته ومجاهدته وتكميل سعيه اعتل وتنيح بسلام الرب بعد ان اقام بطركا ستاوتلتين سنه حافظا للامانه الصحيحه في شيخوخه حسنه، ومضى الى السيد المسيح الذى احبه في اليوم التامن عشر من بوونه.

هذا ونظفر بأدلة اثرية أخرى على وجود اليهود في مدن سيرين [سرينيكا] وطليمتة وبرنيس. وقد وجدت في الاخيرة جالية يهودية كبيرة وقوية، في أوائل العصر الروماني. فقد تم الكشف عن نقشين في «برنيس»، يتضمن كلاهما قرارات أصدرتها الجالية اليهودية هناك، ويرجع القرار الاول الى عام ١٠٠م، ويتضح منه أنه كان لتلك الجالية سبعة «أراخنه» Archon ، والقرار الثانى اقدم عهدا (نحو ٢٥ ق. م)، ويفيد بأنه كان يحكم الطائفة تسعة[١] أراخنة (كبار رجال الطائفة).

كما وجدت لوحة رخامية سنة ١٩٤٠ بشارع عمر المختار ببنغازى، أثناء حفر أساس أحد المباني، وتسجل قائمة بأسماء مجموعة من اليهود المتبرعين لترميم «مجمع يهودى» Sinagogue عام ٥٦ م (في عهد نيرون)، وهم ١٦ رجلا وسيدتين. ويحمل الاوائل لقب أرخون، أما الحادى عشر فقد حمل لقب «حبر»[٢]. ومنها يتبين أنه كان هناك رجل دين كبير، لاقامة الشعائر الدينية الموسوية، كما تدل المبالغ الواردة في القائمة على ثراء اليهود هناك في تلك الفترة.

---

(1) Roux, Un Décret en Cyrenaique au Musée de la Pidaire de Carpentra, p. 286.

(عن كمال عبدالعليم، المصدر السابق ص٢٩ حاشية ١٤).

(2) Caputo, La Sinagoga di Berenice, in Una Iscrizione Greca inedita. La Parola del Passato, F. LIII (Roma 1957) p. 132-34.

انستاسيوس البطرك

[٦٠٥ / ٦١٦م](*)

(*) يرى الفريد بتلر أن مدته كانت من يونيو ٦٠٤ إلى ١٨ ديمبر ٦١٦.

وهو من عدد الابا السادس والتلتون

والسيد المسيح نظر الى شعبه،اذ هو ريس الرعاه وهاديهم، واقام انسانا حكيما مزينا بالفضايل اسمه انستاسيوس من اهل اسكندريه من اقسا بيعتها عارفا بالكتب وحقيقه الامانه، فاجلس باحكام الله الغير مدركه على الكرسي الرسولى، وكان يصلح

وقد عثرت بعثة جامعة منشستر الاثرية عن آثار يهودية أخرى، منها مصباح عبرى، نقش عليه شكل «المنارة ذات السبع شعب» المقدسة[1]، الوارد وصفها في سفر الخروج (٢٥: ٣١ـ ٤١)، بالاضافة الى عملة من فئة الربع شاقل[2]، نقش على احدى وجهيها بالعبرية كلمتى «العام الثانى» (من الثورة اليهودية ٧٠م)، وعلى الوجه الآخر عبارة «خلاص صهيون».

كما اكتشف أثر اخر (بطوكرة)، يشير الى تمجيد جماعة من اليهود للحاكم الرومانى المدعو مرقس سيكستوس، لحسن ادارته (ويرجع لنحو عام ٢٤ أو ٢٥م)، وربما كان الهدف منه شكره على وقوفه بجانبهم، فى صدام ضد الاغريق هناك[3].

كما أثبتت الدراسات الاثرية وجود عدد آخر من السكان اليهود بمدينة أبولونيا، فى العصر الرومانى الاول، وكان لهم فيها مجمع، يرجع أن مرقس الرسول تحدث فيه عندما نزل الى الساحل الليبى[4] حيث كان من أهل هذه المنطقة.

(1) Rowe, Cyrenaican Exped. (Manchester 1959) p. 31.

(2) Oliverio, Iscrizioni Cirenaiche, in Quad. di. Arch. della Libia (Roma 1961) pp. 33-4, N. 7.

(3) Goodchild, Benghazi, op. cit. p. 3.
Romanelli, La Cirenaica Romana, p. 182.

(4) Oliverio, Carratelli & Morelli, Supplemento Epigraphico Cirenaico, in Ann. della scola Arch. di Atona (1961) tom. 39. p. 219.

الاساقفه والكهنه كقانون البيعه. وكان قوى القلب يمضى الى المدينه فى كل وقت ويدخلها ويقسم فيها الكهنه. وقد ذكرنا فيما تقدم ان الاساقفه الارتدكسيين كانو ممنوعين من الدخول الى اسكندريه وكان يجذب اليه كتيرا من الشعب بحكمته لانه كان انسانا عالما معروفا بالتقدمه فى الديوان، وكان قسا مقدما فى البيعتين اللتين ذكرناهما اعنى الإنجيليون، وقزمان ودميان وديارات العذارى، واكثر الديارات، وبدا يبنى بيعه بعد بيعه،

وعلى ذلك ترى بعثة جامعة مانشستر أن المدن الساحلية (أبولونيا، بتوليمايس، وطوكرة، وبرنيس) كانت كمراكز تجارية أنسب من غيرها لسكنى اليهود، لانهم اشتغلوا بالتجارة والاعمال الحرة، وكذلك أعمال الشحن والتفريغ فى الموانىء[١].

ويذكر جلوفر Glover انه نظرا لان اليهود كانوا يستقرون فى العواصم التجارية الكبرى، فقد استوطنوا ـ بأعداد كبيرة ـ فى سيرين، وعملوا على تطوير تجارتها[٢]، وكان لهم بها مجمعا كبيرا.

ومن وثائق العصر البطلمى، يتضح ان البطالمة كانوا يمنحون جندهم المرتزقة اقطاعيات زراعية، فى مصر[٣]، ولا نستبعد أنهم فعلوا نفس الشيء بالنسبة للجنود اليهود فى ريف بنتابوليس. ومن الثابت أن هذه المنطقة كانت تضم عددا قليلا من المدن، وعددا كبيرا من القرى الكبرى، فوق هضبة الجبل الاخضر، التى ضمت عدة مساحات زراعية واسعة تابعة مباشرة للملوك البطالمة فى مصر[٤].

(1) Rowe, Ibid, p. 31.

(2) Glover, Life& Letters in the Fourth Century (1910) p. 321.

(٣) ابراهيم نصحى، تاريخ مصر فى عهد البطالمة (القاهرية ١٩٦٦) جـ٢ ص٤٩٢.

(4)Rostovtzeff; Social & EconomicHistory of the. Hellenistic World (Oxford 1960), p. 139.

واخذ البيعه التى هى بربوة اثارات، وبيعه على اسم ميكايل.

وكان له تعب عظيم من جماعة تيباريوس وابلساريوس اللذين صار عليهم اسم كيانوس واصحاب المجمع الخلقدونى الطمث، واخر كان يدعى اولوكيوس هذا كان حنق على الاب انستاسيوس جدا وكان يشتهى ان يوقع به كل الاسوا والعذاب فلم يسلمه الله في يديه.

وتشير البرديات البطلمية أيضا الى تشغيل اليهود فى الادارة المالية. وخاصة فى وظائف الحكومة، المتعلقة بجباية الضرائب، وادارة الاقطاعيات المملوكة للبطالمة، وقد أكد ذلك العثور سنة ١٩٠٩ على اثار لمستوطنات يهودية كثيرة فى قرى بنتابوليس[١].

ويقول الاستاذ د. كمال عبدالعليم: «... واذا سلمنا بذلك، فهذا يعنى أن اليهود كانوا يشكلون عنصرا هاما من عناصر سكان القرى المنتشرة فى ريف بنتابوليس»[٢]. وهذا يفسر ـ فى رأيه ـ انتشار المسيحية على نطاق واسع فى القرى (كما سنرى فيما بعد)، كما يفسر أيضا ظاهرة وجود «أساقفة قرى» بكثرة فى ريف سيرينيكا.

ومن المؤكد أنه كانت ليهود بنتابوليس صلة قوية بفلسطين، وبهيكل أورشليم، وكانت الزيارة سهلة، سواء عن طريق دلتا النيل، أو عن طريق البحر. وقد هاجرت أعداد من يهود ليبيا الى الارض المقدسة، فى القرن الاول الميلادى[٣]، واستقروا بها، ثم شيدوا لهم مجمعا فى أورشليم (أ ع ٦ : ٩). ومن هؤلاء المهاجرين أسرة القديس «مرقس» الرسول.

(١) كمال عبدالعليم، المصدر السابق ص١٨١.
(٢) المصدر نفسه ص١٨١.
(3) Schurer, Gechichte des Judischen Volkes in Zeitalter Jesud Christi. (Leipzig 1909) vol. III, p. 79.

وفى تلك الايام قـام انســان من الايوان ريس بطاركه اسمه فوكا وقتل الملك وجلس موضعه وفعل افعالا قبيحه، وكان محبا للشهوه افسد جميع بنات البطاركه، وكان ميالا للشقاق بغير خوف، فلما علم هذا اولوكيوس وسمع خبره كتب في الاب انستاسيوس سعايه [دعوى] الى الملك [فوكا] مملوه كذبا وباطلا وقال: انه لما كرز انستاسيوس فى بيعة يوحنا المعمدانى احرمه هو والملوك الغالبين والمجمع الخلقدونى، ولقد عجبت

ويذكر المطران سينسيوس الليبى أنه أحصى المسافرين معه، فى السفينة المتجهة من مدينة الاسكندرية الى بتوليمايس، فوجد أن نصفهم من اليهود، وكان منهم القبطان نفسه[1].

والخلاصة أن يهود بنتابوليس قد تغلغلوا في كافة أوجه النشاط الاقتصادى، واتصلوا بغيرهم من الدول الاخرى، فى حوض البحر المتوسط، وقد ساعدهم فى ذلك اتقانهم للغة اليونانيية، واستعمالهم الزى، والاسماء الاغريقية[2].

أما بالنسبة للوضع الاجتماعي ليهود سيرينكا في تلك الفترة: فقد روى المؤرخ يوسيفوس عن استرابون قوله: «ان سكان سيرين (اليهود)، فى عهد أغسطس قيصر (٣٠ق. م – ١٤م)، كانوا يشكلون جالية مستقلة واضحة عن غيرها[3]. ويذكر الاستاذ البرغوتى أنهم لم يكونوا قد اكتسبوا بعد حقوق المواطنة الكاملة (الجنسية الرومانية)، ويؤيد هذا الرأى، ان الامبراطور كراكلا قد منح هذا الحق لليهود رسميا سنة ٢١٢م[4].

هذا وقد تمتع اليهود – دون سواهم من الاجانب – ببعض الامتيازات الطائفية[5] منذ عهد

(1) Synesius, Epist. 4.

(٢) ابراهيم نصحى، المصدر السابق، جـ٢ ص١٥١.

(3) Josephus, Antiquities, xiv, vII, vII, II, p. 295.

(٤) البرغوتى، المصدر السابق ص٤٠٤ – ٤٠٥.

(5) Cambridge Ancient History, Vol. xI, p. 671.

إذ لم تجف العيون والمياه. هذا كتب به الى الملك ليثير على الارتدكسيين البلا. فلما سمع فوكا المتغلب على الملك هذا قلق، وكتب الى الوالى الذى باسكندريه ان ياخـــذ من الاب البطرك انستاسيوس بيعة قزمان دميان وجميع رباعها وكلما لها ويدفعها لاولوكيوس الضال، فاخذو البيعه، وحزن الاب انستاسيوس المغبوط وعاد الى الدير بحزن شديد وتنهد عظيم، وكان يشتهى ان يجمع الله اعضا البيعه التى فرقها الشيطان، اعنى

يوليوس قيصر، بسبب مساعدتهم له، في حروبه ضد مصر. ومن هذه الامتيازات اشتراكهم ـ كأعضاء ـ في مجلس الشيوخ الرومانى (Senato) كما أصبح لهم نفس حقوق الاغريق، في التمثيل فى المجالس المحلية، واصبحت لهم مؤسساتهم الثقافية المستقلة. وقد عثر على نقش بسيرين، يرجع الى عهد المسيح، ويتضمن قائمة بأسماء أعضاء (منظمة رياضية للشباب اليهودى)(١) ..وبذلك اكتسبت الجالية اليهودية ـ فى كل مدن سيرينيكا ـ صفة الثبات والاستقرار(٢) الى أن قرر هؤلاء الثورة على الرومان، أسوة بزملائهم فى فلسطين، فحل بهم الهلاك، وفقدوا امتيازاتهم.

وقد سمح الرومان للقائمين بالاشراف على الجالية اليهودية فى بنتابوليس بتحصيل العشور التى حددتها التوراة(٣)، وكانوا يداومون على ارسالها الى هيكلهم بأورشليم، كما قال يوسيفوس، الذى يشير أيضا الى السماح لهم بتطبيق الشريعة الموسوية على أحوالهم الشخصية، منذ عهد البطالمة(٤).

(1) Mario dall'Arche, Scomparsa del Cristianesiom, p. 30.

(2) Romanelli, La Cirenaica Romana, p. 39.

(٣) راجع سفر الخروج ٢٣ : ١٩. ونحميا ١٠ : ٣٣ ـ ٣٤.

(4)Josephus, ibid, xlv, p. 214.

Juster, Les Juifs dans L'Empire Roman (1914) p. 378.

فرقة انطاكيه واسكندريه التى كان سببها بطرس بطرك انطاكيـه فسمع الله صلواته ومات بطرس المذكـور وجلس عـوضـه على كـرسى سـاويرس بانطاكيه انسان راهب قس عالم اسمه اتناسيوس حكيم جدا طاهر القلب، وهو الذى قال ميمرا يذكر فيه القديس ساويرس، وكلمن قراه علم ان السيد المسيح معه وحكمته فيه.

فلما سمع الاب انستاسيوس بجلوس اتناسيوس بطركا على كـرسى انطاكيـه سبق وكـتب اليـه

الثورات اليهودية في بنتابوليس ونتائجها:

أـ نقل يوسيفوس عن استرابون روايته بأن الدكتاتور الرومانى سيلا (تولى الحكم عام ٨١ ق. م) قد بعث بقوة حربية بقيادة لوكللوس Locullus، لاخماد فتنة قام بها يهود سيرين. ولكن المؤرخ بلوتارك Plutarch، وهو أقدم عهدا من استرابون، يشير الى هذه الحادثة دون ذكر لليهود[١]، ويروى أيضا ان هذا القائد جاء يطلب سفنا حربية، يستعين بها على حماية السفن التجارية، من القرصنة التى سادت الساحل الجنوبى للبحر المتوسط، فى تلك الفترة. وهو أقرب الى الحقيقة فى نظر الكثير من الباحثين[٢] وبالتالى لا نعتبرها الثورة اليهودية الاولى، طبقا لرواية استرابون، المجافية لحقيقة.

ب. الثورة اليهودية الأولى (٧٠م)

اضطربت العلاقة بين اليهود والرمان فى فلسطين بسبب امعان الرومان فى اذلالهم، على أساس انهم شعب مغلوب[٣]..وقد أجبرهم الرومان على دفع «ضريبة» للاله الوثنى «جوبتر»، ابتداء من سن الثالثة (Denarii Judecorum) كانت فى الاصل هى «العشور» (نصف

(١) البرغوتى، ص٤٧، وكمال عبدالعليم، المصدر السابق ص١٨١، ١٨٢.
(٢) البرغوتى، الصمدر السابق ص٤٧، وكمال عبدالعليم، ص١٨٢.
(٣) البرغوتى، ص٤٠٩.

ماری مرقص

سنوديقا مملوه حكمه وجعله فيها شريكا له واخا وصاحبا ومدبرا، غرضا في الامانه واصلاح ما افسده بطرس الضال المتوفي وجميع اسرايل الروحاني قطيع واحد وتوحده لكي تاخذ اكليل الشهاده والاتحاد.

وكان اتناسيوس ارضا جيده مثمره، فقبل البذر الروحاني بفرح واخذ السنوديقا الواصله اليه وجمع الاساقفه الذين في كرسيه وقال لهم: اعلموا ان المسكونه اليوم تفرح بالسلامه والمحبه

الشاقل) التي كانت تدفع لهيكل أورشليم. مما عده اليهود نوعا من الامتهان لكرامتهم، والاحتقار لدينهم(١).

فثاروا في الارضي المقدسة، ضد روما، ثم اندلعت ثورة مكثفة في مدينة أورشليم سنة ٧٠ م (وقدساهم فيها يهود من سيرين). وقد نجم عنها خراب الهيكل، وموت عدة آلاف، وتشتت اليهود في العالم، كما فر بعض غلاة اليهود الى سيرين، وعلى رأسهم ثلاثة من أبناء رئيس الكهنة، المدعو اسماعيل، وهناك لقوا مصرعهم شنقا، طبقا لرواية يوسيفوس(٢).

وكان من هؤلاء الفارين - الى بنتابوليس - يهودى متعصب يدعى «يوناثان (Jonathan) النساج. وقد أثار ثائرة اليهود في سيرين، مناديا بضرورة الثورة ضد الرومان، لانقاذ فلسطين من يدهم (ولم يغفر اليهود للرومان ما فعلوه بمدينتهم المقدسة، وكانوا بذلك معبئين للشرارة، التي أشعلها يوناثان، ويقول يوسيفوس انه حرض الطبقة الوسطى بالذات، (دون الأغنياء)، ونجح في استمالة عدد ليس بقليل، وقادهم الى جوف الصحراء الليبية، بزعم أنهم سيريهم بعض الظهورات الالهية (apparitions).

(1) Tchericover & Funks, Corpus. Corpus Papyrorum Judalcarum (Tlervard Univ. 57) vodl. I, p. 81.
(2) Josephus, Wars of the Jews, vII, xI, pp. 604-5.

لان الظلمه الخلقدونيه قد جازت وقد بقى هذا الغصن الواحد المنير المثمر من الكرمه الحقيقيه الذى هو كرسى مرقس الانجيلى وكورة مصر، وقد كنا نحن مختلفين مبددين من بعد البطرك ساويرس الذى كان لنا مرشدا وطريقا للخلاص، وقد عرفتم ان بطرس الرسول ومرقس الانجيلى كانت بشارتهما واحده وبها كانا يبشران، وكذلك ساويرس وتاودوسيوس ان لهما امانه واحده واتحاد واحد وصبروا على النفى والجهاد الى التمام.

الا أن بعض الشخصيات اليهودية، التى خافت على ثروتها، ابلغت الحاكم كاتوللوس (Catollus). فأرسل لهم الفرسان والمشاة، وقهرهم حيث هم، ثم استدار الى أثرياء سيرين، من اليهود، وقتل منهم نحو ثلاثة آلاف، وصادر أملاكهم، واستطاع أن يقبض على يوناثان، وساقه مقيدا الى روما. الا أنه اراد أن يفر من قدرة المحتوم، فزعم ان بعض كبار اليهود، فى روما والاسكندرية وأورشليم (ومنهم المؤرخ يوسيفوس نفسه)، هم الذين حرضوه على الثورة ضد الرومان. وبعدما ثبت كذب دعواه، أحرقه الامبراطور الرومانى فبسيان حيا[١]. وبذلك وضعت هذه الثورة حدا لما تمتع به اليهود ـ سيرينيكا ـ من امتيازات، خلال الفترة السابقة، من العهد الرومانى الاول.

جـ. الثورة اليهودية الثانية (١١٥-١١٧م):

لا شك أن اليهود قد حاولوا الانتقام من الرومان، بأية وسيلة، بعد تخريبهم لهيكلهم بالقدس سنة ٧٠ م، ودفنوا غيظهم فى قلبهم، منذ أن انتقم الرومان من يهود سيرينيكا، فى ثورتهم ضدهم. بالاضافة الى حقدهم الشديد على منافسيهم، من اغريق بنتابوليس. ونلمس ذلك مثلا فى كتابات سينسيوس، الذى نقرأ قوله (عن اليهود): «انهم مقتنعون تماما بأنه

(1) Josephus, Wars, op. cit. VII, xi, p 505.
Hyslop & Applebaum, Cyrene, pp. 9 - 10.

فلما سمع الابا الاساقفه كلامه فرحو جدا واتفقو على قبول السنوديقا وان تكون البيعتان واحده ويكون البطركان روحا واحده وسراجا منيرا للارتدكسيين. فقام المغبوط اتناسيوس واخذ معه خمسة اساقفه فضلا[ء] معلمين وسار فى مركب الى اسكندريه، فلما وصلو اعلموهم ان الاب انستاسيوس البطرك فى الديارات فخرجو اليه، فلما سمع ان بطرك انطاكيه قد جا [ء] اليه جمع الاساقفه والكهنه والرهبان وقام بتواضع كثير

ينبغي ارسال جميع الاغريق الى الجحيم»، ويضيف رأيه الشخصي، بقوله: «انهم جنس خال من النعمة[١]. ويوضح هذا النص وجود عداوة بين اليونايين واليهود، الذين كانوا ينافسونهم في التجارة، وفي الحرف الاخرى، في بنتابوليس، حتى هذا الوقت المتأخر.

وقد انتهز يهود سيرين فرصة انشغال الامبراطور تراجان، في حربه ضد مملكة بارثيا (قرب بحر قزوين)، وقيامه بسحب بعض الحاميات من ليبيا (سنة ١١٥ م)، لتعزيز قواته في آسيا، وانفجروا في غضبهم ضد الرومان في سيرينيكا.

وقد بدأت هذه الثورة على شكل «فتنة» (Statis)، لا تخرج عن كونها صداما عاديا بين اليهود وجماعة من الاغريق، كما كان يحدث مرارا. ولكنه سرعان ما تطور الموقف الى «حرب حقيقية» (Polémos) ضد الحكومة الرومانية نفسها. وكان زعيمهم «اندرية Andreas» (حسب رواية دوكاسيوس)[٢]، أو «لوقا» Lucas (حسب ما ذكره يوسابيوس القيصرى)[٣]، قد استطاع الاستيلاء على سيرين واستباحها أتباعه، الذين ظنوه المسيح المنتظر، فأطاعوه طاعة عمياء.

هذا وقد أخبرنا المؤرخ «ديوكاسيوس» ان تراجان قد ارسل قائده «تيربو» Turbo على رأس

(1) Synesius, Epist. 16.

(2) Dio Cassius, Mistory, Lxlll, 32,20

(3) Eusebius. Eccles. History, lv. 2, 116.

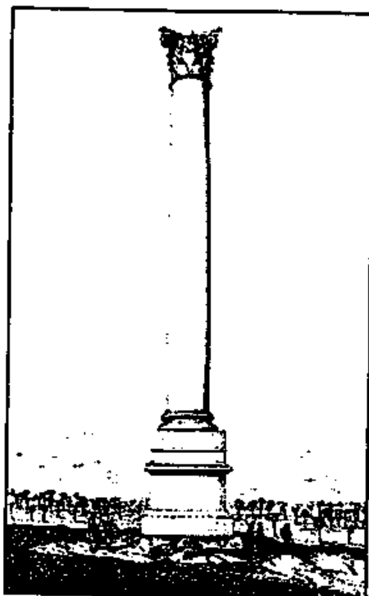
عمود بمبى بالاسكندرية
(رسم من القرن ١٨)

عظيم وخرج ماشيا حتى تلقاه بالقراه [بالقرأة] والتسبيح والفرح والبهجه، ودخلو جميعا الى الدير الذى هو [على] ساحل البحر شرقى بحرى الديارات وجلسو فيه هناك بسلامه وفرح، وانفذ الاب انستاسيوس للوقت واحضر كهنة اسكندريه كلهم ليحضرو اجتماع الابا وليكملو القداس معهم ويتناولو من السراير المقدسه.

وتكلم اثناسيوس فى ذلك المجمع بكلام عجيب مملو حكمه حتى تعجب كلمن كان حاضرا. ثم

حملة ضخمة، نزلت فى ميناء أبولونيا، ولكن الثوار اليهود استطاعوا أن يقطعوا عليها الطريق، وتحصنوا على مشارف سيرين، حيث دارت معركةرهيبة ولكنه أمكن ـ فى النهاية ـ التغلب على الثائرين، والتنكيل بهم، واعادة المنطقة مرة أخرى الى سيادة روما (سنة ١١٧م).

ويذكر ديوكاسيوس أن الرومان قتلوا ٢٢٠,٠٠٠ يهودى فى سيرين[١] !!، وهو رقم كبير جدا بلا شك، والراجح ان هذا العدد قد قتل فى كل أنحا بنتابوليس، استنادا الى قول المؤرخ الرومانى أورسيوس بأن «الثورة قد عمت كل ليبيا»[٢]، ومن الجدير بالذكر أن هذه الثورة قد امتدت ايضا الى مصر وقبرص، وأماكن اخرى لتجمعات اليهود فى مناطق الشتات).

وهكذا نشر اليهود الذعر فى الجبل الاخضر كله، وخربوا معظم المنشآت الاغريقية والرومانية فى سيرينيكا. ويرى الباحثون[٣] أن المنطقة كان يمكن أن تظل مجرد صحراء

(1) Dio Cassius, op. cit., I. LxIII, p. 1148.
Goodchild, Cyrene, op. cit. p. 21.
Salomn, History of the Roman World (1936) p. 289.
Gibbon, op. cit. II, p. 73, note I.

(2) Orosus, History, VII, 126, quoted by Applebaum, The Jewish Revolution, pp. 180-2.

(3) Alexander Funks, Aspects of the Jewish Revolt, A. D. 115-17, in the Journal of the Roman Studies, LXVIII (London 1961) pp. 28-104.

قال: فى هذه الساعه يا احباى [احبائى] يجب ان ناخـذ قيـثارة داود ونرتل بصـوت المزمـور ونقـول بالرحمه والحق تلاقيا اتناسيوس وانستاسيوس [و] قبلا بعضهما بعضا. الحق من ارض مصر ظهر، والبر من الشرق اشرق وصارت مصر والشام مقاله واحده، وصارت اسكندريه وانطاكيه بيعه واحده وعـدرا واحـدة لعـريس واحـد طاهر نقى هو الرب يسوع المسيح الابن الوحيد كلمة الاب.

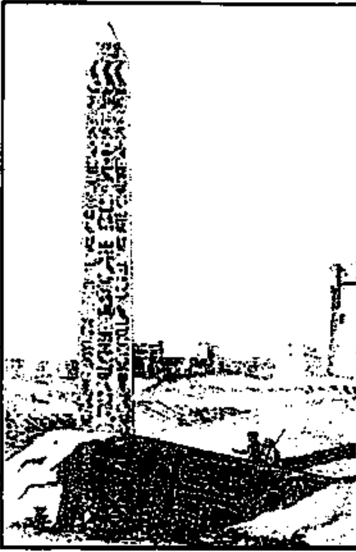

احد مسلات كليوباتره بالاسكندرية
(رسم من القرن ١٨)

قاحلة، بعدما قتل معظم مزارعيها، لولا قيام الامبراطور هدريان (١٣٤ م) ببذل جهود كبيرة فى محاولة لتعميرها واصلاحها.

وقام ببناء مدينة جدية سميت باسم «Hadrianopolis» على بعد ٢٩ كيلو مترا شمال بنغازى) وأسكن فيها جنوده المسرحين من الحرب. وقد عثر على نقش فى أبولونيا (حاليا بمتحفها)، يخاطب فيه أهلها الامبراطور الرومانى بـ«معمرى ليبيا»، ومعنى ذلك أنه أمر - كما يقول البعض - باحلال عناصر جديدة من السكان فى أبولونيا، بدلا من الذين ماتوا من اليهود، والسكان المحليين، ويؤيد ذلك العثور على نقش أثرى آخر، يفهم منه أن ثلاثة آلاف من الجند والرومان من الفرقة السيرينية الثالثة قد سكنوا سيرين(١). ولذا كان من المنطقى أن نجد على نقود هدريايت عبارة «مصلح ليبيا» (Restituter-Libyae).

(1) Applebaum, Hadrian & Cyrene, p. 87.

(عن كمال عبدالعليم، المصدر السابق ص٢١٦ حاشية رقم ١٦٨).

Kraeling, op. cit. p. 17.

Goodchil, Roman Milestones in Cyrenaica, in the Papers of the Brit. School at Rome, XVII (1950) p. 89.

Stucchi, L'Agora di Cirene (Roma 55), pp. 221-2.

Gra, Cyrenaican Exped. of Univ. of Manchester, (1953) p. 143.

واقام الاب اتناسيوس عند الاب انستاسيوس شهرا واحدا ينظران كلاهما فى الكتب المقدسه والكلام المربح ويتكلمان على ذلك ويتحدثان فيه. ثم عاد الى كورته بسلام وكرامه عظيمه.

ومن ذلك اليوم صار الاتفاق بين كرسى انطاكيه وكرسى اسكندريه الى يومنا هذا. وكان الاب انستاسيوس مهتما بامور البيعة يحرص عليها،و بالعلوم الروحانيه لان [لأن] الرب انعم عليه بهدو.

تميمة مصرية لصلب المسيح بين اللصين
(من القرن ٦ ـ ٧)

وقد لاذت بقية اليهود الناجين ـ بعد فشل ثورتهم ـ الى خارج حدود سيرينيكا، بينما التجأت أعداد محدودة منهم، من المدن الخمس، الى ريف برقة، بناء على عدة شواهد أثرية. فقد عثرت بعثة جامعة مانشسترسنة ١٩٥٢، على حجر، ارتفاعه ١٠٣سم، تدل كتابته على أنه شاهد مقبرة يهودية (ويوجد حاليا بمتحف سيرين)، ونصه العبرى يترجم هكذا: «متان بن الرابى سليمان، ليت (روحه) تستريح فى أرض الاحياء، ليته يقوم سريعا، من بين الاموات»(١) ويعتقد الاثرى روى (Rowe) انه يرجع للعصر الرومانى المتأخر (أوائل القرن الرابع). كما عثر أيضا على نص مشابه لشخص يهودى، يدعى (حسان بن الرابى اسحق»(٢)، ويرجع ايضا لفترة متأخرة (سنة ٣٠٠ م).

وقد قطن بعض اليهود، فى مدينة منعزلة، تدعى «بوريوم» جنوب بنغازى، (على خليج سيرت)، وقد أفادنا المؤرخ البيزنطى «بوركوبيوس»» ان الامبراطور جستيان حول مجمعهم، الذى كان بها، الى كنيسة، بعدما آمن يهودها بالمسيحية، وكان ذلك فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى.

وقدهرب يهود سيرينيكا الى الواحات الليبية الجنوبية، والى بقية الشمال الافريقى. وقد أشار

(1) Rowe, Cyrenaican Expedd. p. 57.
(2) Idem. p. 57.

ومن اول سنة جلس على الكرسي بدا من اول الحروف AB وجعله اول حرف يكتب به في كل سنة في كتاب مستاغوجي وسنوديكا وستاتيكا وارتستكا وميمر.

واقام على الكرسي اثنتى عشره سنه ضابطا الامانه المستقيمه الارتدكسيه وكتب فيها اثنتى عشر كتابا. فلما كان في اربعين يوم ا لصوم لذى للميلاد نظر السيد المسيح اليه المتفقد للمومنين به صانع

ابن خلدون إلى وجود قبائلي يهودية بين البربر(١) (مثل قبائل الكاهنة، وزناتة، ونفوسة، وبهلول)، وقد أسهمت في مقاومة الفتح العربى، فى شمال افريقيا(٢)، وقد ذكر المؤرخون العرب الكثير مما عاناه الفاتحون المسلمون من الزعيمة اليهودية، التي تدعى «كاهنة» (في منطقة تونس).

ومن ناحية أخرى، فان الباحثين يرون ان هولاء اليهود الفارين، قد التجأوا الى القبائل البربرية المناهضة للرومان، فى جوف الصحراء الليبية، وأسهموا في تنظيمها وتدريبها على مقاومة الرومان، لفترة طويلة من التاريخ(٣).

وكان تقارب العادات بين اليهود والبربر سببا في وجود علاقات تزاوج بينهما. وقد نجحت الجاليات اليهودية، في نشر الشريعة الموسوية بين البربر، في وقت مبكر، وهذا يفسر لنا ظاهرة أشتراك أعداد كبيرة من الثوار، فى الثورة اليهودية الثانية،فى بنتابوليس(٤)، وبالتالي يقرب الى الاذهان الارقام الكبيرة، التي قضى عليها الرومان، في اخمادها.

....

(1) Romanelli, p. 222 & Mario dall'Arche, p. 34.

(2) Wrught, The Nations of the Moodern World (1969) p. 70.

(٣) البرغوتي، المصدر السابق ص٤١٥، ومحمد سليمان أيوب، المصدر السابق ص١٨٨.

(4) Oric Bates, The Eastern Libyans, p. 208, 237.=

العجايب فى قديسيه واراد ان ينقله الى كورة الاحيا الى الابد فتنيح فى التانى والعشرين يوما من كهيك سنة تلتميه وتلتين لديقلاديانوس قاتل الشهدا الابرار شفاعتهم معنا امين.

ويبدو من كتابات المؤرخين والجغرافيين العرب انه قد وجدت اعداد قليلة من اليهود، فى المدن الليبية (برقة)، بعد الفتح العربى. فقد قال الادريسى (١١٥٥م): «ان أغلب سكان أجدابية (جنوب بنغازى) من اليهود، والمسلمين التجار»[١]. وذكر الرحالة ابن سعيد (١٢٨٦م) «ان بدرنة جالية يهودية، وكلهم على جزيتهم»[٢].

ويقول أبو الفدا: «ان طلميتا مرسى برقة على البحر، وعلى طرف الغابة (الجبل الاخضر)، وهى فرضة مشهورة، وبها قصر فيه يهود، تحت خفارة العرب، ومنها تحمل المراكب الشعير والعسل الى غيرها. وقصر اليهود المذكور على هيئة برج كبير، وعدة اليهود الذين به الى يومنا هذا (أى عام ١٣٣١ م)ما يزيد عن مايتى يهودى. وطلميتة عن الاسكندرية على نحو مسافة شهر، والمراكب ترسى قبالة قصر اليهود، وبالقرب منه، وتحضر العرب، وتبايعهم بالبضائع مقايضة.

= وفي «تلمود أورشليم» نجد مناقشة بخصوص الليبيين (البربر) المتهودين حديثا، وكان السؤال المطروح للمناقشة يتعلق بالمدة التى يجب أن تقضيها العائلة البربرية فى تفهم وتعلم العقيدة اليهودية قبل أن يوافق على قبولها.

Jerusalem Talmud, Killim, vVIII, and Sabbath, V. quoted by Bates, Ibid. p. 208.

(١) الأدريسى، نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، جـ٣ الاقليم التالث، فصل ٩٩.

(٢) ابن سعيد، بسط الأرض بالطول والعرض، فصل ٨٠.

فهرس الجزء الأول

• رقم الإيداع: ٢٦٤٢/ ٢٠١٢
• الترقيم الدولي: 978-977-704-939-9

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقاً)
ت: 23904096 - 23952496

الهيئة العامة لقصور الثقافة

تاريخ مصر

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس بن المقفع

2

إعداد و تحقيق :

عبد العزيز جمال الدين

لم يكن ابن المقفع آخر المؤرخين المصريين، لكنه ومخطوطته كانا الأشهر فى هذا السياق، وقد تعاقب من بعده من الآباء والرهبان المصريين من عكفوا على استكمال هذا التأريخ حتى بداية القرن العشرين. وبجهد الباحث المجد عكف المحقق المصرى عبد العزيز جمال الدين على جمع هذه المخطوطات وتحقيقها والتعليق عليها، موضحاً ما كتب فيها وما كتب فى التاريخ الرسمى الشهير. ليضع أمامنا عملاً قل أن نجده فى الثقافات الحديثة، لنقف أمام وجهتى نظر للتاريخ متأملين كيفية عمل الفعل البشرى فى تسجيل الأحداث حسب الانتماء الثقافى، وليفتح الباب على مصراعيه أمام العاملين فى مجال البحث التاريخى ليعيدوا التأمل فى آلية ومسار واحدة من أهم عمليات التدوين الذى حكم مخيلة البشر فى رؤيتهم لماضيهم التليد.

وزارة الثقافة

السعر: سبعة جنيهات

تصميم الغلاف: أحمد اللباد

تاريخ مصر

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس بن المقفع

الجزء الثاني

وزارة الثقافة

مطبوعات
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
سعد عبد الرحمن

أمين عام النشر
محمد أبو المجد

الإشراف العام
صبحي موسى

الإشراف الفني
د. خالد سرور

المتابعة والتنفيذ
عادل سميح

• تاريخ مصر
من خلال مخطوطة
تاريخ البطاركة (الجزء الثانى)
• إعداد وتحقيق:
عبد العزيز جمال الدين
• طبعة:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2012م
17 x 24 سم
• تصميم الغلاف: أحمد اللباد
• رقم الإيداع: ٢٦٤٢/ ٢٠١٢
• الترقيم الدولى: 978-977-704-039-9
• المراسلات:
باسم / المشرف العام
على العنوان التالى: 16 أ شارع
أمين سامي - القصر العيني
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947897

التجهيزات والطباعة:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابى من الهيئة العامة لقصور الثقافة، أو بالإشارة إلى المصدر.

تاريخ مصر

من بدايات القرن الأول الميلادى
حتى نهاية القرن العشرين

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس بن المقفع

إعداد وتحقيق

عبد العزيز جمال الدين

الجزء الثانى

من أندرونيكوس حتى بنيامين الأول البطرك ٣٨ (٦٢٢-٦٦١م)

اندرونيكوس البطرك
[٦١٦ / ٦٢٢م(*)]
وهو السابع والثلثون من العدد

(*) يرى الفريد تبلر أن مدته كانت من ديسمبر ٦١٦ إلى ٣ يناير ٦٢٣.

فلما تنيح انستاسيوس اجلسو على الكرسى إنسان عالما شماسا من كتبه الانجيليون بتولا كاتب اسمه اندرونيكوس، وكان غنيا جدا يحب الصدقه، مقدما فى الشعب محبا للرحمه لا يفتر من الاعطا وكان اهله مقدمي المدينه حتى انهم ولو ابن عمه ديوان اسكندريه. ومن اجل قوة سلطانه

فى تواريخ الغزو الفارسى لمصر

مما يشك فيه أن نستطيع اليوم أن نعرف على سبيل البت تاريخ الحوادث المتصلة بالفتح الفارسى لمصر فقد ذهب بعض المؤرخين المحدثين إلى أن ذلك الحادث كان بعد سنة ٦١٦ للميلاد. ويقول (جلزر)، وقد كتب رسالة غزيرة العلم عن هذا الأمر ("Leontius Von Neopolis" صفحة ١٥١) إن الاسكندرية لا يمكن أن يكون فتح الفرس لها قبل سنة ٦١٩ وهو يخالف فى ذلك رأى (فون جوتشمت) الذى يذهب إلى أن ذلك الحادث كان قبل ذلك بسنة أو سنتين.

والحجج التى يوردها(جلزر) هى كما يلى: أن تيوفانز يجعل الفتح الفارسى فى سنة ٦١٦، ويقول ابن العبرى إنه كان فى السنة السابعة من حكم هرقل آخذا ذلك عن البطريق ميخائيل إذ يقول(طبعة بيت المقدس صفحة٢٩٣) إن شاه - ورز غزا مصر فى السنة السابعة من حكم هرقل ويذهب ايزيدور.Roncalli,chron.Minالجزء الثانى٤٦١) إلى أن الفتح كان فى سنة ٦١٦، ويقول الطبرى إن مفاتيح الاسكندرية أرسلت إلى كسرى فى السنة الثامنة والعشرين من حكمه أى سنة ٦١٧ - سنة ٦١٨،، وهو فى ذلك يثبت التاريخ الذى سبق أن روى عن ميخائيل،،.

ويجدر بنا أن نلاحظ هنا أن السنة السابعة من حكم هرقل هى من أكتوبر سنة ٦١٦ إلى

وتقدمته لم يقدرو الهراطقه يخرجونه من اسكندريه الى الديارات كما كان تقدم [لمن] قبله بل جلس في قلايته في بيعه الانجيليون ايامه كلها.

وكان قد قام في الفرس ملك اسمه كسرى فجمع امة كبيره وجا[ء] بقوه عظيمه على جيش الروم فاهلكهم وابادهم وافناهم وتسلط على ارض الروم وارض الشام وسبى ارض فلسطين ودميا [دمياط] وارض مصر وداسهم كما تدوس البقر الاندر، وجمع اموالهم وكلما

أكتوبر سنة ٦١٧ في حين أن السنة الثامنة والعشرين من حكم كسرى تقع في منتصف سنة ٦١٧ إلى منتصف سنة ٦١٨، ولا يقع أى جزء منها في سنة ٦١٦؛ وعلى ذلك فليس الاتفاق واضحا بين خبر الطبرى وخبر ميخائيل وفوق ذلك أن ابن العبرى (أو أبا الفرج) يذكر بوضوح في موضع آخر«His.Dyn.»(طبعة بوكوك) صفحة ٩٩ أن فتح الفرس لبيت المقدس كان في السنة الخامسة من حكم هرقل وهو في ذلك يناقض نفسه كما فعل في مواضع كثيرة.

ويقول(جلزر) فوق ذلك إن (فون جوتشمت) قد بين بيانا دقيقا (Kleine Schriften» الجزء الثالث صفحة ٤٧٣ وما بعدها) أن غزوة الفرس لا يمكن أن تكون وقعت قبل سنة ٦١٧ لأن،، المراجع السورية تدل على أن زيارة أثناسيوس الأنطاكى للبطريق انستاسيوس المونوفيسى بالاسكندرية كانت في سنة٦١٦،، في حين أن المعروف أن البطريق الذى كان على ولاية الدين عند ما فتح الفرس الاسكندرية كان أندرونيكوس. وفوق ذلك لقد كان (نيقتاس) هو المساعد على توحيد الكنستين وصاحب الفكرة في هذا كما يقول ابن العبرى وقد هرب نيقتاس مع حنا الرحوم عند مقدم الفرس. ويذهب (فون جوتشمت) إلى أن وفاة أنستاسيوس كانت في ١٨ ديسمبر سنة ٦١٦، وقد أقام خلفه أندرونيكوس في المدينة ويقول (جلزر) إن هذا يدل دلالة واضحة على أن الاسكندرية كانت على الأقل في أول ولاية أندرونيكوس

كان لهم الى خزاينه، وكان لكترة محبته فى المال يقتل انسانا على دينار واحد وعلى ما مقداره تلته دنانير لانه كان كتير الشعب لا يعرف الله بل كان يعبد الشمس. فلما اخذ مصر وتسلط جعل اهتمامه ان يفتح المدينه العظمى اسكندريه وكان هناك ستماية دير عامرة بهاناتون مثل ابراج الحمام، وكانو مستغنين بطرين بلاخوف من كترة نعمتهم ويفعلون افعال الهزوا[ء]، وكان جيش الفرس قد احاط بهم من غربى الديارات ولم يبق لهم ملجا

للبطرقة (آخر سنة ٦١٦) لا تزال تحت حكم الروم. وعلى ذلك فلا يمكن أن يكون فتح الفرس قبل صيف سنة ٦١٧، كما يذهب اليه (فون جوتشنت).

وانا نرى على وجه الإجمال أن تواريخ (فون جوتشمت) صحيحة على أنها لا تخلو من الصعوبة. وأقل اعتراض هو أنه ليس من الثابت أن السنة التى يوردها المؤرخون السوريون تتفق مع سنة ٦١٦ وذلك لأن هؤلاء المؤرخين ولو أنهم يتبعون التقويم اليونانى أو (السلوقى) فى تاريخهم يختلفون عنه عادة فى حسابهم بسنة إذ يجعلون بدأه من سنة ٣١١ قبل الميلاد بدلا من سنة ٣١٢ (راجع Tresor de Chronolgic المجموعة ٣٦). وعل ذلك فمن المحتمل أن يكون الدليل المستند إلى الكتاب السوريين أميل إلى سنة ٦١٥ لا إلى سنة ٦١٦، وفى هذه الحالة يتفق ذلك التاريخ مع ما جاء فى (الديوان الشرقى) إذ يذهب إلى أن زيارة أثناسيوس لمصر كانت فى السنة التى فتح الفرس فيها بيت المقدس عنوة. وفوق ذلك يقول كاتبنا المصرى ساويرس إن وفاة البطريق المصرى أنستاسيوس فى كيهك (١٨ ديسمبر) من سنة ٣٣٠ للشهداء أنظر ص٥٥٠ المتن العلوى، وقد أخطأ(رينودو) إذ ذهب إلى أن ذلك يوافق سنة ٦١٤ لأن كيهك يقع فى سنة ٦١٣ وهذه الأخبار لا يمكن التوفيق بينها ولكن لا يمكن على الأقل أن نجعل فتح بيت المقدس فى سنة ٦١٣.

على أنه يجدر بنا أن نذكر أدلة سوى هؤلاء من المؤرخين السوريين إذ من المعلوم أنه توجد

فقتلو جميعهم بالسيف الا قليلا منهم اختفو فخلصو. وجميع ما كان هناك من المال والاوانى نهبوه الفرس واخربو الديارات الى الان، ولما وصل الخبر الى اسكندريه فتحو ابواب المدينه. وراى الوالى الفارسى مقدم الحرب النايب عن الملك كسرى فى منامه شخصا فى الليل يقول له فى منامه: سلمت هذه المدينه لك وبنا[ء]ها وكلما فيها فاياك ان توذيها بل لا تبق اهلها فيها لانهم منافقوا الدين. ويدعون [الفرس] مقدمهم بلغتهم

نسخ مخطوطة سورية من الإنجيل تاريخها فى القرن السابع وقد كتبت فى دير الهانطون بقرب الإسكندرية كتبها توما الهركلى وبولص التلوى، وأمر بكتابتها البطريق اثناسيوس نفسه وهو فى زيارته لمصر. وكانت هذه المخطوطات جزءا من مراجعة شاملة للنص السوريانى على النص اليونانى نص (philoxenus) فتاريخ هذه المخطوطات ذو أهمية عظمى.

«ومن المعلوم أن توما الهركلى أتم ترجمته لنص العهد الجديد إلى السوريانية فى سنة ٩٢٧ من التاريخ اليونانى» وسنة ٩٢٧ هذه إن لم تكن موافقة لسنة٩٢٦ المعتادة كانت من ابتداء أكتوبر سنة ٦١٥ إلى أكتوبر ٦١٦؛ وتوجد أيضا نسخة مخطوطة أخرى (سوريانية ذات ست روايات) فى المتحف البريطانى (Add.Mss.144,376) وقد كتب فيها أنها تمت فى السنة عينها سنة ٦١٥ ـ ٦١٦ والنسخة الخطية للكتاب الثالث للملوك مؤرخ فى شباط سنة ٩٢٧ وذلك يوافق فبراير سنة ٦١٦، ونسخة الكتاب الرابع للملوك كتب بها ما يدل على أن بولص وأثناسيوس كانا يقيمان فى السكندرية فى سنة ٩٢٨ وهى تقع بين أكتوبر سنة ٦١٦ وأكتوبر سنة ٦١٧ وهذا يحدد وقت زيارة البطريق السورى فى خريف سنة ٦١٦؛ وقد ذكر فى نسخة أخرى خطية من النسخ السريانية ذات الروايات الست وجدت فى ميلان تاريخ تمامها كان فى سنة ٩٢٨ وذلك فى سنة ٦١٦ ـ ٦١٧، ففى كل هذه النسخ الخطية ذكر دراسة علمية تجرى فى سلام فى دير الهانطون مدّة سنتين بين سنة ٦١٥و٦١٧، وهذا يحدّد عرضا وقت زيارة

السلار اى الامير، فلما اخذ السلار ملكهم، وهو الذى بنى فى اسكندريه الايوان الذى يدعى تراوس، وهو الان يسمى قصرا فارسيا، وتفسيره بيت الملك، جعل بمكره امرا فامر كل شاب فى المدينه من ابن تمان عشره سنه الى خمسين سنه ان يخرجو ياخذون عشرين دينارا كل واحد، فاجتمع جميع شباب المدينة وكتب اسما هم يظنون انهم ياخذون العطيه التى وعدهم بها، فلما علم ان جميعهم قد خرج ولم يبق احد منهم امر

- -

البطريق السورى ويجعلها فى أكتوبر سنة ٦١٦ لأن مضيفة البطريق القبطى توفى فى ديسمبر من ذلك العام. وقد كان حساب تلك التواريخ على حسب ما اعتاده الناس من التاريخ بالحساب اليونانى على أننا إذا ذهبنا إلى أن حساب تلك التواريخ كان على حسب التاريخ السورى الخاص كان لزاما علينا أن نجعل وقت تلك الزيارة فى سنة ٦١٥ ـ ٦١٦ وأن نجعل العمل من سنة ٦١٤ الى سنة ٦١٦، فاذا ذهبنا هذا المذهب وقع الاتفاق بين قولنا وبين قول ابن العبرى إذ يقول فى كتابه (تاريخ الكنائس ـ صفحة ٢٦٧ ـ ٩) «إن أثناسيوس ذهب إلى الاسكندرية وكان بطريقها أنستاسيوس وعقد معه وفاقا واتحادا ووقع هذا الاتحاد بين كنيستنا السورية وكنيسة مصر فى سنة ٩٢٧ من التاريخ اليونانى» (وهى من أكتوبر سنة ٦١٥ إلى أكتوبر سنة ٦١٦) إذ أن ابن العبرى لا يتبع الطريقة السورية التى تخالف التاريخ المعتاد. ولا يمكن التوفيق بين وجوه هذا الخلاف إلا إذا سرنا على طريقة أخرى فى حساب التاريخ ولما كان سريان بابل خاصة هم الذين قدّموا حسابهم على التاريخ اليونانى بسنة لم يكن بعيدا أن يكون توما الهركلى وبولص التلوى قد سارا على تلك الطريقة وإذن يقع الاتفاق بين الديوان الشرقى وبين النسخ الخطية من الانجيل وأبى الفرج وكل هؤلاء يجعلون تاريخ توحيد الكنيستين فى أكتوبر سنة ٦١٥ ويلوح لنا أن هذا حل عادل قريب إلى الأذهان.

ونرى أنه لا يزال من الضرورى أن نجعل وفاة البطريق القبطى فى ١٨ ديسمبر سنة ٦١٦ وليس فى سنة ٦١٥ وذلك لأننا لا نجد طريقة أخرى نجعل بها ولاية خليفته أندرونيكوس توافق

جيشه ان يحيط بهم ويقتلهم الجميع بالسيف، فكان عدد من قتل ثمانين الف رجل. ولما فعل هذا عاد الى الصعيد ، وكان في مدينة نقيوس التى هى ابشدى قوم فاعلموه حال الرهبان الذين في الجبال والمغاير وتقديرهم سبع ماية راهب وان الحصن يجمعهم وان افعالهم ذميمه من كثرة ما عندهم من النعم، فلما سمع السلار خبرهم ارسل جيشه فاحاط بهم فلما اشرقت الشمس دخلوا فقتلو

التواريخ المعروفة في مدّتها وفي تاريخ انتهائها فإن مدتها معروفة بأنها كانت بضعة أيام وست سنوات آخرها ٨ طوبه (٣ يناير). فإذا قلنا إن يوم ٣ يناير من سنة ما هو تاريخ وفاة أندرونيكوس وبدء ولاية بنيامين لم نجد سنة فيها كل الشروط المطلوبة إلا سنة ٦٢٣، فمن جهة لا شك في أن أندرونيكوس شهد بدء غزوة الفرس، ونرى أنها كانت في أواخر سنة ٦١٦؛ ومن جهة أخرى لا شك في أن هذا البطريق كان حيا في أول أمر الاسلام، فإن الديوان الشرقي يجعل مدة ولاية أندرونيكوس بين سنة ٦١١ ـ ٦١٧، ولكنه يذكر بعد ذلك« أن في مدته علا أمر المسلمين» وذلك في يولية سنة ٦٢٢، ويوافق على هذا مكين إذ يجعل اختيار بنيامين في السنة الأولى للهجرة سنة ٦٢٢ ـ ٦٢٣ وشهادة أبي صالح كذلك واضحة صريحة فإنه يذكر أن أندرونيكوس كان بطريقا «في أول ظهور المسلمين في السنة الثانية عشرة من حكم هرقل» (طبعة Butler, Evetts صفحة ٢٣١) وهذا التواتر في الأدلة على أن تاريخ ولاية بنيامين كان في شهر يناير سنة ٦٢٣ برهان قوى لا يكاد شئ يقف له. وأما(Le Quien) فإنه يتبع تاريخ ساويرس إذ يقول إن ولاية أندرونيكوس كانت من سنة ٦١٩ ـ ٦٢٢.

فإن تم لنا إثبات أن وفاة أندرونيكوس كانت حوالى ٣ يناير سنة ٦٢٣ وأن مدة ولايته كانت ست سنوات تزيد قليلا أولها ١٨ ديسمبر، ويخيل إلينا أننا قد أثبتنا ذلك، كان أول ولايته في سنة ٦١٦، وكانت وفاة أنستاسيوس في ١٨ ديسمبر سنة ٦١٦، وهذا التاريخ يوافق

جميعهم بالسيف ولم يبق واحد منهم. وفعل هذا السلار من البلايا كثيرا لانه ما كان يعرف الله، والزمان يضيق عن ذكر افعاله.

فلما كمل البطرك اندرونكوس ست سنين فى بطركيته وقاسى هذه الامه وراى هذه الامور الصعبه التى لقيها وصبر عليها تنيح ومضى الى الرب بسلام كامل وهو ضابط الامانه المستقيمه امانة اباية [آبائه] في التامن من طوبة.

ما أثبته (فون جوتشمت) (راجع Kleine Schriften.ii صفحة ٤٧١ ـ ٤).

ولقد ساقنا هذا الكلام إلى الاستطراد والبعد عما كنا فيه من ذكر النسخ المخطوطة من الانجيل التى كتبت فى دير الهانطون ولكن من الضرورى أن نعود إلى ذكرها.

فهذه النسخ المخطوطة تدل على:(١) أن توما الهركلى كان يعمل فى الترجمة مدة سنتين على الأقل قبل زيارة البطريق السورى.(٢) أن الزيارة نفسها يغلب أن تكون وقعت فى أكتوبر سنة٦١٥(٣) أن بولص التلوى بقى يعمل مدة ثلاثة أشهر على الأقل بعد الزيارة أى إلى يناير سنة٦١٦ وهنا تقوم صعوبة إذ ذكر عرضا أن أثناسيوس ذهب مع خمسة من الأساقفة السوريين، فى حين أن سياق قول ابن العبرى يدل دلالة قاطعة على أن توما الهركلى طرد من أسقفيته فى(مابوج) وهرب الى مصر لاجئا. ولا موضع للشك فى أن توما وبولص كانا فى مصر وقت تلك الزيارة ولا فى أن ثلاثة أساقفة آخرين إما جاءوا مع أثناسيوس، وإما طردوا ولجأوا إلى مصر هاربين من فتح الفرس لفلسطين.

ولدينا عبارة صريحة ذكرها حنا مسكوس وهى أن أساقفة كثيرين هربوا إلى مصر لا جئين، ولكن الأقرب إلى الاحتمال أن هؤلاء العلماء السوريين بمقامهم فى الاسكندرية واتصالهم الناشئ من ذلك بالبطريق القبطى قبل زيارة بطريق أنطاكية، قد مهدوا السبيل إلى الاتحاد الرسمى الذى تم سريعا بعد اجتماع البطريقين.

وبعد فقد بقي جزء واحد من الدليل الذى يمكن أن نستخلصه من هذه النسخ المخطوطة وذلك أنه من أكبر الأمور دلالة أن كل الكتب الأخرى من الانجيل التى تنسب إلى بولص التلوى ليس بينها كتاب واحد يذكر فيه تاريخ. وآخر تاريخ هو كما بينا أول سنة ٦١٦، ويلوح لنا أنه ليس من المقبول عقلا أن يقال إن العمل مع ذلك قد تم في الدير نفسه دير الهانطون في الظروف نفسها، وأن نجعل غزوة الفرس على ذلك فيما بعد سنة٦١٦، بل إن الأمر على عكس هذا فان هؤلاء العلماء السوريين الذين رأوا أو سمعوا بما أحدثه الفرس من التخريب العظيم ببلادهم كان لابد لهم أن ينزعجوا عند أول نبأ يصلهم عن مقدم الفرس إلى مصر، وانه لمن أقرب الأمور أن يكونوا قد هربوا فى البحر فى صيف سنة٦١٦ ومعهم رهبان دير الهانطون بما معهم من ثمين المتاع، ومن ذلك النسخ المخطوطة اليونانية للكتاب المقدس. ولكنا بغير أن نأخذ بهذا الرأى نرى دوننا رأيا آخر محتملا في تفسير ما كان، وهو يتفق مع استمرار العمل في مصر. ويدفعنا ذكر ذلك إلى القول فى أمر أهمل إهمالا عجيبا، ويجمل بنا على ذلك أن نؤكده بعض التأكيد، فان من عادة الكتاب الذين كتبوا عن هذا العصر أنهم دائما يذكرون فتح الفرس كأنه حادث واحد يجعلون له تاريخ سنة واحدة.ومعنى هذا أنهم «يعجزون عن أن يميزوا بين غزوا مصر وبين فتح الاسكندرية». وهذان الحادثان لابد كان بينهما سنة على الأقل. ومما لاشك فيه أن الكتاب القدماء كانوا أحيانا يذكرون لفتح الفرس تاريخ أحد الحادثين وأحيانا يذكرون له تاريخ الحادث الآخر. وهذه الحقيقة تفسر كثيرا مما يسود ذلك الأمر من الخلط والاختلاف.

ويمكننا أن تقول إنه قد صار من المدلل عليه أن الفرس يكونوا قد ساروا إلى مصر فى أول سنة ٦١٦، ولئن قلنا إنهم كانوا يستطيعون أن يدخلوا فى حرب جديدة عقب فتح بيت المقدس فانه ليس من المحتمل أن يقدموا على عبور الصحراء في فصل الصيف. فيمكن على ذلك أن نذهب الى أن سيرهم الى مصر بدأ فى خريف سنة ٦١٦، وأن جيشهم فتح الفرما ونهب الأديرة فيها قبل آخر تلك السنة. ثم كان عليهم بعد ذلك أن يسيروا الى منفيس والى فتح الحصن المنيع حصن بابليون، وأن يحاربوا الروم فى طريقهم على فرع النيل الغربى مارين بمدينة نقيوس، (ونعلم أنهم فعلوا ذلك)، حتى يبلغوا الإسكندرية. ونعرف كذلك أنهم قضوا وقتا طويلا في حصار المدينة قبل أن تسلمها اليهم الخيانة. ولا يمكن أن يكون ذلك قد استغرق أقل من سنة. وعلى ذلك فمن المحال أن نجعل فتح الاسكندرية قبل آخر سنة ٦١٧، أو أول ٦١٨، على أى مذهب من مذاهب التاريخ.

وعلى ذلك فمن السهل أن نقول إن العلماء السوريين بقوا في عملهم في دير الهانطون حتى قربت جيوش الفرس ثم هربوا الى المدينة، وكان الهرب منها في البحر ممكنا في كل وقت، وبهذا كان يمكنهم أن يقوا سنتين آخرين قد تكونا كافيتين لاتمام عملهم.

حسبنا ما ذكرناه عن المراجع السورية ولكن يجدر بنا أن نتنبه إلى أن تلك الحجة التي ساقتنا الى القول إن شتاء سنة ٦١٧ ـ ٦١٨ وهو الوقت الذى لا يمكن أن تكون الإسكندرية قد فتحت قبله تسوقنا كذلك إلى اتفاق دقيق مع التاريخ الذى ذكره الطبرى، وهى كذلك تسوقنا إلى قريب من الاتفاق مع ماذهب اليه فون جوتشمت ولو أننا سلكنا مسلكا مخالفا لما سلكه وكانت الحقائق التى بنينا برهاننا عليها فيها شئ من التضارب مع حقائقه. فقد ذهب إلى» أن الإسكندرية كانت في ديسمبر سنة ٦١٦ لاتزال مع الروم وأنه لا يمكن أن يكون الفتح الفارسى قد وقع قبل صيف سنة٦١٧»(إذا كان يقصد بقوله«الفتح الفارسى» فتح الإسكندرية)، والطبرى يتجاوز هذا التحديد قليلا إذ يقول إن مفاتيح الاسكندرية لم ترسل إلى كسرى قبل الشتاء، وانا نتفق معه فى هذا الرأى. فنقول على ذلك إجمالا إن التواريخ كانت كما يلى:

(١) فتح بيت المقدس كان فى آخر مايو سنة ٦١٥.

(٢) زيارة أثناسيوس للاسكندرية كانت فى أكتوبر سنة ٦١٥.

(٣) سير الفرس إلى مصر كان فى خريف سنة ٦١٦.

(٤) موت البطريق القبطى» فى ١٨ ديسمبر سنة٦١٦.

(٥) فتح بابليون » فى ربيع سنة ٦١٧.

(٦) فتح الاسكندرية » فى آخر سنة ٦١٧.

(٧) إخضاع مصر جميعها » فى سنة ٦١٨.

ولعلنا نقول فوق ذلك إن فتح الصعيد لا يمكن أن يكون قد تم قبل شتاء سنة ٦١٨ بزمن طويل، لأننا نعرف من ورقه بردى قبطية مؤرخة أن (أرسنويه) أو الفيوم كانت لا تزال فى ملك الروم فى التاسع من يونيه سنة ٦١٨ Corpus Papyrorum Raineri) الجزء الثانى صفحة ٢٢Koptische Texte (ed.j.krall.) ولكنا نقول على وجه الاجمال إن هذا البيان يدل على أنه قد وقعت بين فتح بيت المقدس وتمام فتح مصر مدّة ثلاث سنوات وهو يوافق كل الموافقة ما ذكره أبو الفرج (طبعة Pococke).

وهذا النظام يمكننا من أن نقول إن بعث حنا الرحوم لمساعدة بيت المقدس كان في شتاء ٦١٥ ـ ٦١٦ فان من بعثهم ذهبوا عن طريق البر وما كانوا ليستطيعوا ذلك لو كانت جيوش الفرس في طريقها إلى مصر . وعلى ذلك يكون هروب حنا الرحوم مع نيقتاس في خريف سنة ٦١٦، إذا كانا قد هربا عندما جاءهما نبأ غزوة الفرس. على أن قول Leontius يفيد أنهما هربا قبيل فتح الاسكندرية أى بعد ذلك التاريخ بعام ولكنا فوق كل هذا نرى أن هذا النظام فى التاريخ يتفق مع تأريخ مؤرخى العرب فى ذكرهم تاريخ حياة البطارقة، وفى ذكرهم مدة احتلال الفرس لمصر، وهذه المدة كما يقول جلزر كانت عشر سنوات وهو حق.

وأما البطارقة القبط فنرى أن تواريخهم كما يلى:

(١) انستاسيوس من يونيه ٦٠٤ الى ١٨ ديسمبر سنة ٦١٦.

(٢) اندرونيكوس« ديسمبر سنة ٦١٦ إلى ٣ يناير سنة ٦٢٣.

(٣) بنيامين« يناير سنة ٦٢٣ إلى يناير سنة ٦٦٢.

وأما البطارقة الملكانيون فتاريخهم كما يلى:

(١) تيودور قتل فى سنة ٦٠٩.

(٢) حنا الرحوم من سنة ٦٠٩ إلى سنة ٦١٦ أو سنة ٦١٧ .

(٣) جورج من سنة ٦٢١ إلى سنة ٦٣٠ أو سنة ٦٣١

(٤) قيرس من سنة ٦٣١ إلى سنة ٦٤٢

فاذا نحن اتبعنا (جلزر) فيما ذهب إليه معتمدا على حجة واحدة وهو Thomas) Presbyter) من أن اتحاد الكنيستين المصرية والسورية قد وقع فى سنة ٦١٨ وجب علينا أن نغير كل نظامنا فى تتابع تواريخ بطارقة القبط ووجب علينا فوق ذلك أن نجعل ولاية بنيامين على الأقل فى سنة ٦٢٥ فى حين أن المؤرخين المصريين يكررون أن ولايته بدأت فى سنة ٦٢٢ـ ٣ وهى سنة هجرة النبى وظهوره.

وأما نحن فنرى أن هذا الاتفاق برهان قاطع ولو لم يكن لدينا برهان غيره على تاريخ ولاية بنيامين. ولكنه من أسهل الأمور أن نورد براهين كثيرة من المؤرخين المصريين على تنفيذ قول من قال إن ولايته كانت فى سنة ٦٢٥.

وأما احتلال الفرس لمصر مدة عشر سنوات فقد ذهب(جلزر) إلى أن تلك المدة انتهت

سنة ٦٢٩ أى بعد سنة على الأقل من صلح هرقل وشيرويه. ولكنا نرى ثلاث حجج قوية تنقض ذلك الرأى:

(١) أن القصد من كل خطة هرقل في سنة ٦٢٢ والسنوات التى بعدها كان تخفيف ضغط الفرس عن عاصمته وعن مصر، وانه لمن أقرب الأمور أن تكون مصر قد أخليت بسبب هذا الضغط منذ ربيع سنة ٦٢٧ حتى ولو لم يقم على ذلك برهان ومدة هذا تكون عشر سنوات تزيد قليلا منذ أول الغزو كما قلنا.

(٢) ولو لم يكن الأمر كما ذكرنا فقد ذكر سبيوس أن شيرويه فى صلح فبراير سنة ٦٢٨ رضى أن يخلى في الحال كل ما كان يملكه من بلاد الروم وأخرج جيوشه منها.

(٣) أن النبى محمدا بعث رسله إلى الأمراء فى صيف سنة ٦٢٧ أو خريفها على الأكثر كما روى الطبرى لأنه يذكر أن الرسل الذين أرسلهم كسرى إلى اليمن حجزوا هناك بضعة أشهر حتى أتت أنباء موت الملك وكان موته فى فبراير سنة ٦٢٨ ولا شك فى أن النبى عند ما بعث رسوله إلى مصر كانت مصر قد عادت إلى دولة الروم وكان يحكمها والى هرقل« المقوقس» كما يسمونه خطأ.

وليس اعتماد (جلزر) على (نيقفوروس) مما يدعم اتخاذه تاريخ سنة ٦٢٩ فإن نيقفوروس يقول« إن سار باروس بعد أن سمع بموت كسرى وشيرويه وقباذ وهر مزداس رجع من بلاد الروم» ثم قال« ولما تم الصلح أعاد سار باروس مصر وسائر بلاد الشرق إلى الروم وأخرج منها مسالح الفرس وبعث بالصليب ـ واهب الحياة إلى الامبراطور» ولكن الشاه ـ ورز لم يصر ملكا باتفاقه مع هرقل إلا فى آخر سنة ٦٢٩ على الأقل (Journal Asiatique 1866 صفحة ٢٢٠) فى حين أنه من المؤكد أن هرقل استعاد الصليب فى سنة ٦٢٨ وفوق ذلك إن نيقفوروس نفسه قال بعد أن ذكر عدة حوادث أخرى إن الصليب أخذه هرقل بعد ذلك إلى بيت المقدس ثم أعاده إلى القسطنطينية وتلقاه فيها البطريق سرجيوس» وقد كان حدوث ذلك فى الخمسة عشرة سنة الثانية (أى فى سنة ٦٢٩). واذا كان لنا أن نستخلص شيئا من هذا الخبر المفكك استخلصنا أن الفرس خرجوا من مصر قبل استعادة الصليب أى قبل سبتمبر سنة ٦٢٨، ولكن ذلك الخبر لا يدل على شئ سوى أن نيقفوروس هذا شاهد غير عدل لا يعول على قوله».

والحقيقة هى أن مدة احتلال الفرس وهى السنين العشر يمكن أن يعد أولها: إما عند دخول

الفرس إلى مصر، وإما من أول فتح الاسكندرية، وإما من إتمام فتح مصر إلى أسوان ويختلف مدى تلك المدة باختلاف الوقت الذى يعتبر الابتداء منه.

ولقد سعينا فى هذا التعليق أن نظهر أن كثيرا من الخلط ناشئ عن إغفال التمييز بين غزو مصر وفتح مصر فهما معنيان غير مترادفين وحادثان لم يقعا فى وقت واحد.

ولذلك الخلط سبب آخر وهو إغفال التفريق بين السنة الميلادية (التى أولها أول شهر يناير) وبين السنة اليونانية من تاريخ الاسكندر (التى أولها سبتمبر)، وهى تقع فى جزأين من سنتين من سنى الميلاد. وفوق ذلك سبب ثالث وهو إغفال الانتباه إلى طريق حساب السنة اليونانية عند السوريان فانها أحيانا تختلف عن التاريخ اليونانى المعتاد بسنة وفيها تبدأ السنة فى أول أكتوبر بدل ابتدائها فى أول سبتمبر. والسبب الأخير فى الخطأ يصح لنا أن نذكره وهو الاعتماد فى حساب التواريخ على أساس غاية فى الضيق. ويحدث هذا من طريقين: إما بالمبالغة فى تضييق الفترة التى يستمد الدليل منها، وإما بتضييق المجال الذى يستمد من الدليل فإنه لا يكفى أن نبحث فى تواريخ فترة نحو عشر سنوات أو اثنتى عشر ة سنة ثم ننتهى من ذلك المبحث إلى نهاية بغير أن ننظر ما ينشأ عن ذلك من النتائج أعنى بغير أن ننظر إلى علاقة هذه التواريخ بما قبلها وبما بعدها من التواريخ ونتحقق من أن ما ينشأ عن ذلك من النتائج يخرج ثابتا بعد التمحيص والنقد. ويجمل كذلك أن نذكر أننا إذ نعالج هذه الحوادث التى وقعت فى القرن السابع نعتمد على مراجع تاريخية مختلفة الأنواع كثيرة العدد ففيها اليونانى والأرمنى والسريانى والعربى والمصرى وفى كل منها شئ يجب الرجوع إليه، وليس من العدل أن نضع نظاما للتاريخ نستمده من طائفة أو اثنين من هؤلاء الكتاب بغير أن نأبه كما ينبغى بالآخرين. وانا ونحن نكتب هذا نشعر أعمق الشعور بالصعاب التى تحيط بمثل هذا السعى الى التوفيق بين المراجع التى قد تكون فى الحقيقة كما هى فى الظاهر غير قابلة للتوفيق.

ويجمل بنا أن نقول إننا وان اختلفنا مع (جلزر) نفعل ذلك وفى نفوسنا كل الاعجاب بمؤلفه النفيس الغزير العلم الدقيق البحث. ولسنا ندعى أن نظام التاريخ الذى وضعناه خال من الصعاب، ولكنا قد ندعى أننا قد وضعناه على أسس واسعة وأنا قد وفقنا به بين عدد عظيم من مراجع كل منها منفصل عن الآخر كل الانفصال ومباين له أكبر المباينة(*).

(*) انظر: الفريد.ج. بتلر: فتح العرب لمصر . ترجمة: : محمد فريد أبو حديد. مكتبةالاسرة. القاهرة ١٩٩٩.

بنيامين [الأول] البطرك
٦٢٢/ ٦٦١م(*)
وهو الثامن والثلثون من العدد

(*) يرى الفريد بتلر ان مدته من يناير ٦٢٣ إلى يناير ٦٦٢.

وكان قبل نياحة الأب أندرونيكوس [اندرونيكو] بسنة واحدة أخ خايف مومن اسمه بنيامين فى دير يعرف بدير كنوبوس [كانوب(*)] أتى اليه فى ذلك الوقت(*) واوى فيه الى شيخ قديس اسمه ساونا، لان هذا الدير لم تخربه الفرس معما [مع ما] أخربوه لأنه كان فى شرقى بحرى المدينة

(*) كانوب: قرب ابوقير الحالية.

(*) كان ذلك فى آخر سنة ٦٢١م كيهك سنة ٣٣٧ ش قبيل عيد الميلاد.

استيلاء العرب على مصر

كانت البلاد كلها عند ذلك تحت يد قيرس (المقوقس) يصرفها كيف شاء، ولم يتحرك القبط بطبيعة الحال عندما عاد جند الروم الى البلاد بعد انسحاب القوات الفارسية منها ولكنهم وجدوا بعد قليل أن حكم الفرس إن لم يكن مما يحب ويرغب فيه فإن حكم الروم الجديد لم يكن حدثا يحمدونه ويفرحون من أجله. فقد وجدوا فيه أنواع العقاب وصنوف العذاب، فكأنهم وقد خرجوا من حكم الفرس الى حكم الروم قد رفع عنهم التعذيب بالسياط ليحل بهم تعذيب آخر من لسع العقارب. إذ بينما كان غزاة الفرس بعد أن استقر بهم الأمر في البلاد لا يحولون على الأقل بين القبط وبين التدين بما يشاءون من الدين، جاء قيرس (المقوقس) فعول على أن يحرمهم تلك الميزة الكبرى وينزعها من أيديهم. وابتدأ الاضطهاد الأعظم عند ذلك. ويتفق المؤرخون جميعا على أنه بقى مدة عشر سنوات أى أنه بقى كل مدة ولاية قيرس رياسة الدين. فان اكبر الظن أن مجمع الاسكندرية كان فى شهر أكتوبر من سنة ٦٣١، وقد بدأ عهد الاضطهاد بعد ذلك بشهر واحد أو بشهرين. ولا يشك أحد فى فظاعة ذلك الاضطهاد وشناعته، فقد جاء فى كتاب مؤرخنا (ساويرس) «لقد كانت هذه السنين هى المدة التى حكم فيها هرقل والمقوقس بلاد مصر، وقد فتن فى أثنائها كثير من الناس لما نالهم من عسف الاضطهاد والظلم، ومن شدة العذاب الذى كان يوقعه هرقل بهم، لكى يحولهم

[اسكندريه]، وكان ثاونا حافظا لها، وهذا الأخ بنيامين هو من أهل البحيرة ومن ضيعة تعرف ببرشوط(*)، وكان قد رغب فى الرهبنة والزهد ورفض والديه وكلما كان لهم، وكانو أغنيا جدا، ومضى الى الدير فالبسه الشيخ القديس ثاونا اسكيم الرهبنة ورباه بخوف الله، حتى أن الذى حل بالكبير بولس حل به مثله لان بولس تربى باورشليم عند رجل اسمه عمالانيل، فرفعته همته ونعمة السيد المسيح حتى صار اوفى وافضل من

(*) صحح هذا الاسم صالح كامل نخله فى كتابه «البابا بنيامين الاول» ص ٣١ وذكر أن اسمها بيرشوط نقلاً عن كتاب «تاريخ البطاركة لأسقف فوه، حيث يذكر ان البابا بنيامين من بلدة بيرشوط من اعمال البحيرة.

على رغمهم عن مذهبهم إلى مذهب خلقيدونية. فكان يعذب بعضهم ويعد البعض أحسن الجزاء ويمكر بالبعض ويخدعهم» وقد جاء فى ترجمة (بنيامين) أن أخوه كان ضمن ممن عذبوا ثم قتل غرقا. وكان تعذيبه بأن أوقدت المشاعل وسلطت نارها على جسمه، فأخذ يحترق «حتى خرج شحم كلاه من جنبه وسال على الارض»، ولكنه لم يتزعزع عن إيمانه، فخلعت أسنانه ثم وضع فى كيس مملوء من الرمل وحمل فى البحر حتى صار على قيد سبع غلوات من الشاطئ، ثم عرضوا عليه الحياة إذا هو آمن بما أقره مجلس (خلقيدونية)، فعلوا ذلك ثلاثا وهو يرفض فى كل مرة، فرموا به فى البحر فمات غرقا. وقال الكاتب الذى كتب ترجمة حياة بنيامين «ولم يغلبوا هذا المجاهد (مينا) بل غلبهم بصبره المسيحى» (انظر المتن العلوى ص٥٧٤).

واليك دليلا آخر جاء فى ترجمة حياة صمويل (القلمونى)[1] وقد كتبت تلك الترجمه فى أيام (قيرس). وجاء فيها وصف جلى لما فعله (قيرس) نفسه من الأفاعيل فى هذا الاضطهاد، ولهذا كان لنا العذر اذا نحن نقلنا هنا بعض ما جاء فيها فى شئ من الإفاضة. تصف القصة أن البطريق (قيرس) جاء الى الدير فوجده خلاء ممن فيه إلا من خازنه، فقبض عليه وجلده

(١) نشر هذه الترجمة (اميلنو) فى "Mon pour servir This. de TEg. Chert. aux IVe -VIIe Sieeles" (Mem Miss Arch. Franc. an (aire) الجزء الرابع وصفحة ٧٧٤ وما بعدها.

معلمه دفعات كثيره، وكذلك هذا بنيامين كان يعذب نفسه بالنسك ولا ينام ليله يكون فيها اجتماع في البيعه. وكان أكثر قراته في انجيل(*) يوحنا المغبوط لانه حفظه. فنظر في بعض الليالي في منامه رجلا منيرا وقف به وقال له: افرح يا بنيامين الخروف المتواضع والراعي معا الذي يرعى القطيع الناطق الذي للسيد المسيح. فلما سمع هذا الكلام اضطرب وقلق ثم، انه فرح بما انعم به عليه من السما وقام مسرع فاعلم اباه ثاونا فصدق

(*) كان انجيل يوحنا أشهر الاناجيل في مصر.

وأخذ يسأله، فقال له الخازن: «لقد جمع صمويل الزاهد رهبان الدير وخطب فيهم فأطال ووصفك بالكفر وبأنك يهودي من أتباع (خلقيدونيه)، ولا تؤمن بالله، وبأنك لست أهلا لأن تقيم الصلاة ولا أن يعاملك المؤمنون. فلما سمع الرهبان قوله هذا هربوا قبل مقدمك» فلما سمع الكافر الفاسق ما قاله الخازن ثارت ثائرته وعض شفتيه من الغيظ وسب الخازن والدير ورهبانه ومضى عنه. قال كاتب الترجمة «ولم يعد للدير بعد ذلك الى يومنا هذا»(١).

(١) هذا القول يدل على أن النسخة الأصلية المخطوطه قد كتبت قبل موت قيرس في سنة ٦٤٢ فقد مات صمويل في قلمون بعد أن تنبأ بقدوم العرب وانتهاء غزوتهم بنصر المسيحيين (الجريدة الأسيوية ١٨٨٨ صفحة ٣٨٤) ومن هذا نستنتج أن تاريخ حياته كتب في أول الغزو وقبل أن يظهر العرب أى أنه كتب في أوائل سنة ٦٤٠ وكانت تواريخ الحياة تكتب عادة وتلقى بصفتها مديحا بعد موت قديس عظيم أو رجل كبير من أهل الدين فلنا أن نقول إن صمويل مات سنة ٦٣٩ ويقول (Pereira) إنه قيل إن صمويل لقي في قلمون رجلا آسمه جريجور اسقف قيس وان ساويرس يذكر مقابلة بين رجل اسمه جريجور اسقف قيس وبين البطريق حنا السمنودي (سنة ٦٨٠ ـ ٩٠).
وان البطريق اسحق بعد اختياره واقرار عبدالعزيزله دخل الاسكندرية في سنة ٦٨٥ وكان معه عند ذلك رجل اسمه (جريجور) أسقف قيس وهذا التاريخ الأخير يجب أن يكون سنة ٦٩٠ بدل سنة ٦٨٥ ولكن هذا التصحيح يقوى حجة (بريرا) وهي أن هؤلاء الأشخاص الثلاثة الذين اسمهم (جريجور) إذا كانوا شخصا واحد كما تدل عليه الأدلة واذا كان صمويل قد مات سنة ٦٣٩ وجب علينا أن نقول إن جريجور بقى على الأسقفية أكثر من خمسين سنة وليس هذا بمستحيل بالطبع ولكنا بدل أن نقول إن موت صمويل كان بعد هذا التاريخ نقول إنه من الجائز أن يكون بمصر في ذلك الوقت =

الشيخ قوله فى هذه الرويا لكنه قال له: لا تطيح يا ولدى فان الشيطان اراد بهذا ان يهلكك بالكبريا فامض الان واستيقظ لنفسك ولا تعثر بالمجد الفارغ لان هو ذا لى فى هذا الدير خمسون سنه ما رايت شيا من هذا ولا قال لى احد انه راى مثل هذا. فسكت بنيامين وقبل قول معلمه وكانت النعمة تتزايد عنده يوما بعد يوم من عند الله سبحنه وكان جميع كلامه وتقلباته بتايد سماوى. وكان الشيخ ساونا وكلمن يعرفه يبهتون عن نعمة الله التى عليه

فلما ذهب رجع الإخوان إلى ديرهم آمنين، وأما الكاوخيسوس (المقوقس) ذلك البطريق الدعى فقد ذهب إلى الفيوم والغيظ يأكل قلبه، ودعا هناك اصحابه وأتباعه وأمرهم أن يأتوا له بالعابد (الأبا صمويل) مكتوف اليدين من خلاف، وأن يضعوا فى عنقه طوقا من الحديد، وأن يدفعوا به كما يدفع باللصوص. فذهبوا إلى الدير الذى كان فيه وقبضوا عليه.

وذهب صمويل مستبشرا فى صحبة الله وهو يقول «سأمنح إن شاء الله اليوم الشهادة بأن يسفك دمي في سبيل المسيح»،ثم جعل يسب المقوقس لا يخشى شيئا. وأدخله الجنود عليه، فلما رأى المقوقس ذلك الولى أمر جنده أن يضربوه حتى سال دمه كما يسيل الماء ثم قال له: «صمويل أيها الزاهد الشقى. من ذا أقامك رئيسا للدير وأمرك أن تعلم الرهبان أن يسبونى ومذهبي؟» فقال له العابد (الأبا صمويل) «إن البرفى طاعة الله وطاعة وليه البطريق (بنيامين) وليس في طاعتك والدخول في مذهبك الشيطانى ـ يا سلالة الطاغوت وأيها المسيخ الدجال» فأمر (قيرس) جنده أن يضربوه على فمه وقال: «لقد غرك يا صمويل أن رهبانك يجلونك ويعلون من شأن زهدك ولهذا تجرأت وقويت نفسك. ولكنى سأشعرك أثر سابك

= رجلان اسمهما جريجور كما قد كانت عند ذلك مدينتان كل منهما اسمها قيس واحدة منها على ساحل البحر المتوسط والأخرى عند البهنسا في الجنوب.
(أنظر كتاب كاترمير "Mem Geog et His" (صفحة ١٤١ و٣٣٧ من الجزء الأول) وقال أبو صالح إن جريجور أسقف قيس أنشأ كنيسة فى حلوان (صفحة ١٥٦).

وظنوا انه قد اختل حتى ان الشيخ ساونا اخذه ومضى الى الاب اندرونيكوس [اندرونيكوا] البطرك وشرح له حاله. فقال: قدمه لى لاسمع كلامه. فلما دخل إليه سجد بين يديه فراى الاب اندرونيكوس البطرك نعمة المسيح عليه فسأله بسكون ان يعلمه ما شهده، فاعترف وقال صفة الحال. فامسكهما البطرك تلك الليلة فلما كان بالغداة طلب ساونا ان ياذن لهما فى المضى الى ديرهما بسلام. قال له البطرك اندرونيكوس: اما

للعظماء إذ سولت لك نفسك ألا تؤدى لى ما ينبغى عليك أن تؤديه لعظيم رجال الدين وكبير جباة المال فى أرض مصر» فأجابه صمويل «لقد كان إبليس من قبل كبيرا على الملائكة ولكن كبره وكفره فسقا به عن أمر ربه. وهكذا أنت أيها الخادع (الخلقيدونى) فان مذهبك مذموم وانك أشد لعنة من الشيطان وجنوده» فلما سمع المقوقس ذلك امتلأ قلبه بالغيظ على ذلك الولى وأومأ إلى الجند أن يقتلوه.

وقصارى القول أن ذلك الكافر أراد أن يقتل الولى ولكن حاكم الفيوم خلصه من يديه، فلما رأى قيرس أن صمويل نجا منه أمر به أن يطرد من جبل نكلون[1].

وقد جاء مثل هذا الخبر فى الترجمة الأتيوبية لحياة (الأبا صمويل) وقد جاء فيها ذكر رجل اسمه (مكسميانوس) وأنه أتى الى دير صمويل فى الصحراء ومعه مائتا جندى وأنه أعطاه كتابا يؤمر فيه بالإيمان بمذهب خلقيدونيه فمزقه صمويل ورمى به من باب الكنيسة وهو يقول «ليس لنا من رئيس إلا بنيامين ولعنه الله على ذلك الكتاب الكفار الذى جاء من الامبراطور

(١) كانت نكلون وهى بالعربية (النقلون) فى جوار قلمون على ساعتين الى الجنوب الغربى من مدينة الفيوم وأما الدير المسمى دير الخشب فقد وصفه أبو صالح وذكره متصلا بدير القلمون وقد وصفه كذلك المقريزى ولكن الظاهر أنه اندثر من زمن وقد جاء فى (Bulletin ٧٢ الجزء الاول صفحة d' Arch. Or. (l'Arch. Or.) de L'Institut Franc أن دير النقلون فى الجبل شرق كوم بشا وأن دير القلمون عند سفح الجبل فى مدخل الفيوم وأنه كان فيه اثنتا عشرة كنيسة.

انت فامض بسلام، وأما هذا الأخ بنيامين فليس هو لك من الان بل الرب قد اصطفاه ليكون له خادما. وللوقت اخذه وقسمه قسا وصار عنده مساعدا له في البيعه وملكه على الكل، وفرح به اندرونيكوس فرحا عظيما، ولما دنت وفاته أوصى بأن يكون بعده، فلما تنيح جعلو بنيامين المذكور بطركا على الكرسى الإنجيلى.

ومكثو الفرس بعد ذلك ست سنين اخر ملوك [لـ] مصر وأعمالها. ثم أن هرقل مقدم البطاركة

الرومانى ولعنة الله على مجمع خلقيدونيه وكل من آمن بما أقره» فضرب صمويل حتى ظن أنه مات ثم غودر ولكنه عاد الى نفسه وسار الى القلمون حيث عاد لمحادثه لقيرس وما أعقبها كما أسلفنا وصفه.

واذا كان مثل هذا العسف يجرى فى الصحارى فما بالنا بما كان يحدث للقبط فى بلاد مصر السفلى والصعيد ـ فلقد كان حظ من يأبى منهم أن يتخلى عن عقيدته أو ينازع قيرس فى أمره أن يجلد ويعذب أو يلقى به فى السجن أو يلقى الموت.

فكانت تقام أساقفة للملكانية فى كل بلد من مصر حتى انصنا[١] من بلاد الصعيد فى حين كان قسوس القبط يقتلون أو يشردون فى أنحاء الأرض يلتمسون فيها ملاذا.وكان السعى حثيثا غير منقطع وراء بنيامين، ولكن لم يعثر عليه فى مكان.وقد جاء فى كتاب مؤرخنا (ساويرس) أنه كان يتنقل من دير محصن الى آخر. وجاء فى ترجمة حياة شنوده[٢] ما يفهم

(١) كانت (انصنا) وهى (أنتوبه) عند ذلك عاصمة (التيبانيد) وكانت تجاه هرموبولس مجنا الى الشمال من لاكوبولس (وهى سيوط) فالظاهر أن سلطان قيرس لم يكن عظيما فى جنوب سيوط.

(٢) جاء ذكر ما وقع بين بنيامين وقيرس على صورة نبوءة ويجدر بنا أن نذكر ذلك هنا «سيخرج الفرس من مصر ثم سيقوم «الدجال» (وهو الاسم المعتاد للمسيخ المفسد) وسيذهب أمام إمبراطور الروم بعد أن يحصل منه على الرياستين رياسة الدنيا ورياسة الدين سيدخل مصر ويملك أرضها وملحقاتها وسيحفر الخنادق ويبنى الأسوار حول المدن فى الصحراء وسيخرب الشرق والغرب وسيحارب الراعى أكبر =

من قبل فوكا الملك الكافر اخذ المملكه وصرف اهتمامه لقتال الفرس وبنعمة السيد المسيح سار اليهم فقتل كسرى ملكهم الكافر وأخرب مدينته وجعلها بريه وحمل نعمتها وسبيها بفرح الى قسطنطينيه. فلما ملك الأرض اقام الولاه فى كل موضع وانفذ واليا الى ارض مصر يدعى قيرس ليكون بطركا ووالى معا، فلما وصل الى اسكندرية اعلم الاب بنيامين ملاك الرب به وامره ان يهرب، فقال له الملاك: اهرب انت ومن معك

منه أن بنيامين لجأ الى دير الأنبا شنوده وهو الدير العظيم المعروف بالدير الأبيض، على أن هذه الرواية تختلف عما تواتر من الأخبار عن أنه إنما لاذ بدير فى الصحراء قريب من (قوص). ولعل الدير الأبيض كان مع قوة حصونه ومنعة أسواره العظيمة غير كفيل بحماية بنيامين مدة طويلة لقربه من النيل، فى حين أنه كان يستطيع أن يجد ملاذا آمنا لا تصل إليه أيدى أعدائه فى جبال صحراء قوص، وما بها من المغاور الكثيرة والكنائس المنقورة فى الصخور.

وليس من العجيب أن يفتتن كثيرون ممن لم يستطيعوا الهجرة و الهرب وأن يخضعوا لما شاء قيرس منهم، فقد كان حكمه حكم إرهاب. واذا كان القبط لم تخمد نفوسهم فما كان لشعب بأجمعه أن يستشهد فى سبيل الدين. فدخل جماعة من الأساقفة فى المذهب الجديد مذهب عدوهم ومن هؤلاء أسقف (نقيوس)[1] واسمه (قيرس) وأسقف الفيوم (فكتور)، ولا شك أن عدواهم انتقلت الى سواهم. أما من لم يستطع الهرب من الناس والخروج الى الصحراء وكان مع ذلك غير راضى عن ترك مذهبه فقد لجأ الى التقية، وأظهر غير ما يبطن.

= أساقفة الاسكندرية والوالى على دين المسيحين فى أرض مصر وسيهرب منه ذلك الراعى الى أرض (تيمان) حتى يعود الى ديرك وهو حزين متألم وعند ما يعود الى هناك سأعيده الى حاله وأرجعه الى عرشه».

(١) تذكر النسخة المخطوطة فى المتحف البريطانى لكتاب (ساويرس) «قيرس أسقف (سفنوش)» ولكن نسخة القاهرة المخطوطة تذكر (نقيوس) وهذا حق. وأما المقريزى فانه يذكر بطوس بدل (قيرس).

هاهنا لان شدايد عظيمة تنزل عليكم لكن تعز، فما يقيم هذا الجهاد الا عشر سنين، واكتب الى جميع الاساقفه اللذين في كرسيك ليخفو [ليختفوا] حتى يجوز غضب الرب. فدبر الاب بنيامين المعترف المقاتل بقوه ربنا يسوع المسيح حال البيعه ورتبها، وتقدم الى الكهنه والشعب وأوصاهم بالتمسك بالامانه المستقيمة حتى الى الموت. ثم كتب الى ساير اساقفة كورة مصر بان يخفو من قدام التجربة الاتيه. وبعد هذا خرج من طريق

حتى لقد بقيت في الاسكندرية ذاتها بقية من القبط في سنى الاضطهاد العشر، مع أنهم لم يكن لهم بها إمام من مذهبهم اللهم إلا قس واحد من أهل مريوط اسمه (أجاتو)، وكان كل يوم يخاطر بحياته في سبيل دينه. فكان يخفي نفسه في لباس نجار ويسير في أنحاء المدينة في النهار يحمل على ظهره كيسا قد وضع فيه آلاته وعدته، فاذا ما جاء الليل ذهب الى الكنيسة كي يقيم شعائر العبادة لإخوانه القبط. وقد صار هذا القس فيما بعد أكبر أصدقاء بنيامين وخلفه بعدموته على ولاية الدين.

وروى أن دير (مطرا) ويسمى بدير (البسقوبيون) نجح في مقاومة (قيرس)، وكان ذلك الدير في الاسكندرية أو قريبا منها، وكان السبب في أنه بقي على عهده لم يتغير أن كل رهبانه كانوا مصريين خلصا ليس فيهم غريب واحد[١].

والظاهر أن المصريين سعوا مرة الى التخلص من (قيرس) مع ما كانوا عليه من الصبر والاحتمال الطويل، فقد أثار حفيظتهم ما رأوه من فعله، واذ تارة ينهب أواني كنائسهم الثمينة لا يرقب فيها إلا ولا ذمة، وتارة يضربهم أو يسجنهم. فاجتمع أتباع الطريقة (الجايانية) في كنيسة (دفاشير) بقرب مريوط، وتامروا على قتل ذلك الظالم. ولكن سمع بهذا الاجتماع (ضابط) روماني اسمه (أودوقيانوس) وهو أخو (دومنتيانوس)، وكان عدوا شديد العداوة

(١) ساويرس نسخة المتحف البريطاني المخطوطة صفحة ١٠٧ (الكتاب ١١). (انظر كذلك المتن العلوى ص٥٨٨، ٥٨٩ من كتابنا هذا.

مربوط وهو ماش على رجليه ليلا ومعه اثنان من تلاميذه حتى وصل الى (المنى) ومن هناك مضى الى وادى هبيب. وكان الرهبان هناك قليلا، لانه عقيب الخراب الذى كان فى ايام دميانوس البطرك وكانت البربر لا تدعهم يكترون هناك. ثم انه خرج من الديارات بوادى هبيب ومضى الى الصعيد واقام مخفيا هناك فى دير صغير فى البريه الى كمال العشر سنين كما قال له ملاك الرب وهى السنين التى كان فيها هرقل والمقوقس(*) مسلطين على ديار مصر.

(*) المقوقس: لاحظ انه ذكره باسم قيرس فى ص٥٦٩.

للقبط، فأرسل جندا وأمرهم أن يذهبوا الى المتآمرين فيقتلوهم. فكان ذلك وقتل الجنود بعضهم وجرحوا منهم البعض بسهامهم، وقطعوا أيدى طائفة منهم بغير أن يسمعوا منهم شهادة أو يقوموا معهم بشئ يشبه القضاء، وبذلك قضى على المكيدة ونجا قيرس من الخطر[1].

وقد أوردنا هذه القصص جميعها لكى ندل بها دلالة واضحة على شدة الاضطهاد وعنفه. وانه ليخيل للانسان أنه من المستبعد أن يبقى مثل هذا الاضطهاد عشر سنوات، ولكن هذا هو الحق الذى لا مراء فيه فقد جاء فى ديوان (حنا النقيوسى) ما يأتى: «وظل قيرس الى ما بعد موت هرقل عندما عاد الى مصر» (وذلك فى سنة ٦٤١ بعد نفيه من البلاد أو غيابه عنها فترة)، «لم يذهب عنه حقده على عباد الله ولم يمتنع عن اضطهادهم بل زاد قسوة على قسوة»، وقد جاء مثل هذا القول فى كتاب (ساويرس) عن هرقل إذ قال: «وكمثل الديب الخاطف كان يأكل القطيع الناطق ولا يشبع، وهذا الشعب المبارك هم التاودوسيون[2]. ولكن

---

(١) حنا النقيوسى صفحة ٥٦٦ ويقول زو تنبرج بحق أن الفقرة التى بها هذا الخبر خارجة عن موضعها فان هذه الحادثة كانت قبل غزوة المسلمين. انظر ما قاله أميلنوفى (دفاشير) (Geog Copte) صفحة ١٢٢.

(٢) أنظر المتن العلوى ص٥٧٤. هذا القول عجيب وهو يدل على أنه فى أيام (ساويرس) كان القبط لا يزالون يسمون أنفسهم (التاودوسيون) وأن لفظ «القبط» فى الحقيقة كان مرادفا للفظ «تاودوسيين» وكان «الجيانيون»
=

ولعظم البلا والضيق والعذاب الذى انزله بالارتدكسين لكى يدخلو فى الامانة الخلقدونيه ضل جماعة منهم لا يحصى عددها، قوم منهم بالعذاب وقوم بالهدايا والتشريف، وقوم بالسؤال والخداع. حتى ان قيرس اسقف نيقيوس وبقطر اسقف الفيوم وكتيرا متلهم خالفو الامانة الارتدكسيه لانهم لم يسمعو وصية الاب المغبوط بنيامين ولم يخفو كغيرهم فصادهم بسنارة ضلالته فضلو بالمجمع الخلقدونى الطمث. وظفر

ما كان الاضطهاد إلا ليزيد من استطاعوا مقاومته إيمانا على إيمانهم، بدل أن يفتنهم عنه ويقضى عليه. فكانت الشدائد تتوالى بمذهب القبط والمصائب تفتك بأصحابه، ولكنه ظل قويا لم تلن قناته، وبقى أكثر الناس على إيمانهم ثابتين أقوياء. ولكن حد ذلك البطش كان قد بلغ نفوسهم فثلمها وجعل الداء ينخرفى جراحهم مدة ظلم تلك السنوات العشر وظلامها فكان ذلك سببا فى ضياع كل أمل فى عودة السلام والوفاق بين الطائفتين المتنازعتين، إذا استفحل الأمر واستمر مرير العداوة والكراهة لسلطان الدولة البيزنطية ودينها جميعا.

مسير العرب الى مصر

الظاهر أنه بعد أن سلم البطريق (صفرونيوس) الشيخ مدينة بيت المقدس سار عمر بن الخطاب الخليفة وعمرو بن العاص القائد وذهبا كلاهما نحو الشمال. وقد ارسل عمرو مددا للعرب المحاصرين لقيصريه[1]، أما عمر فقد أقام فى دمشق. ولعل عمراً قد أفضى اليه برأيه

= طائفة صغيرة فى وقت قيرس ومع ذلك فالأستاذ (Bary) عندما ذكر تولية قيرس يقول إن «أول عمل قام به هو أن يستميل اليه الطائفه الكبرى طائفه التاودوسيين أو (الفطار تولاتربين) أنظر كتابه (Later Rom Emp) (الجزء الثانى صفحة ٢٥١).

(١) أنظر كتاب "Conquête de la Syrie" De Goeje صفحة ١٣٠، وقد جاء فى ابن خلدون وابن الأثير أنه «لما أخذ عمر بيت المقدس سار عمرو الى مصر» ولكن البلاذرى وهو أسبق منهما وأثبت يقول إن مسير عمرو كان عند حصار قيصرية وهو يروى رواية يفهم منها أن عمرا سار بغير =

هرقل بالمغبوط مينا اخى الاب بنيامين البطرك فنزل عليه بلايا عظيمه واشعل فى جنبيه المشاعل حتى خرج شحم كلاه من جنبه وسال على الارض، وقلع اضراسه واسنانه باللكم لاعترافه بالامانه، وامر ان يملا جوالق [جوال] رملا ويجعل القديس مينا فيه ويغرق فى البحر. وكان هرقل الكافر قد اوصاهم وقال: ان قال احد ان مجمع خلقدونيه حق خلوه، ومن قال انه ضلال وكذب غرقوه فى البحر. ففعلو ذلك ورموه فى البحر وهم يمسكون

فى فتح مصر منذ كانا فى بيت المقدس، ولكن الخليفة رأى أن وقت ذلك الفتح لم يحن بعد. فلما ظهر العرب وانتهت الحرب أو كادت عاد عمرو الى عرض رأيه، وجعل يبين للخليفة ما كانت عليه مصر من الغنى وما كان عليه فتحها من السهولة، وقال له إنه ليس فى البلاد ما هو أقل منها قوة[١] ولا أعظم منها غنى وثروة.

فبعث له عمر بن الخطاب بكتاب مع (شريك بن عبده)[٢] يقول له فيه إنه قد رضى بغزو مصر، وتقدم اليه أن يجعل الأمر سرا وأن يسير بجنده إلى الجنوب سيرا هينا. فسار عمرو بن العاص فى الليل فى جيش صغير من الخيل يرافقه المداد كبيرة من بدو الشام وسيناء ولم يحدث له حدث حتى صار عند الحدود بين مصر وفلسطين، وسار بعد ذلك حتى صار عند رفح[٣] وهى على مرحلة واحدة من العريش أرض مصر.

= علم عمر، وروى رواية أخرى أن عمرا كان فى مسيره مؤتمرا بأمر الخليفة، ويروى المقريزى الروايتين معا.

(١) أخذنا هذا عن معجم البلدان لياقوت (الجزء الثالث صفحة ٨٩٣).

(٢) جاء اسمه ذاك فى المقريزى إذا قال. «ويقال إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب الى عمرو بن العاص بعد ما فتح الشام أن اندب الناس الى المسير معك الى مصر فمن خف معك فسر به وبعث به مع شريك بن عبده».

(٣) وقد جاء فى النص العربى للواقدى أن عمراً «ترك الصحراء وجعل الحصون التى فى طريقه الى مصر عن يمينه وهى رفح والعريش والعداد والبقارة والفرما.

الجوالق واخرجوه من البر مقدار سبع غلوات وقالو له قل أن مجمع خلقدونية جيد لا غير ونحن نخليك فلم يفعل، وفعلو هذا به تلت دفعات فلما لم يفعل غرقوه. ولم يغلبو هذا المجاهد مينا بل غلبهم بصبره المسيحى.

ثم ان هرقل اقام اساقفه في بلاد مصر كلها الى انصنا، وكان يلى اهل مصر بلايا صعبة وكمثل الديب الخاطف كان ياكل القطيع الناطق ولا يشبع. وهذا الشعب المبارك هم التاودوسيون.

غادر العرب العريش وما حولها من بساتين النخيل وساروا في الطريق إلى الغرب بعيدين عن البحر، فإن الطريق بعد العريش تسلك قطعة من الصحراء تتخللها بعض عيون وقرى، وهى الطريق القديمة المؤدية الى مصر وكانت فوق ذلك فى كل الأوقات طريق التجار وأهل الأسفار والحاج تتردد عليها القوافل بين آسيا وأفريقيا. وقبل أن تبلغ الطريق مدينة الفرما ببضعة أميال تنحدر إلى الشمال الغربى فتقتحم الكثبان وهى التلال المتحركة من الرمال ولم يلق العرب احدا من جنود الروم حتى اقتربوا من المدينة.

ومدينة (بلوز) اسمهابالقبطية (برمون) ويسميها العرب (الفرما) وكانت على نهد من الأرض على نحو ميل ونصف من البحر، وكان لها مرفأ لعله كان متصلا بالمدينة بخليج يجرى من البحر. وكان فرع من النيل اسمه الفرع (البلوزى) يصب فى البحر بقربها. وكانت مدينة قديمة قوية الحصون بها كثير من آثار المصريين القدماء كما كان بها كنائس وأديرة، وكان لها شأن كبير إذ كانت مفتاح مصر من الشرق تشرف على طريق القادم من الصحراء، وتملك ناصية البحر ويجرى اليها فرع من النيل يؤدى الى مصر السفلى. ومع كل ذلك فالظاهر أنها لم تكن منيعة فإن الفرس وقد كانوا مبرزين فى فنون الحصار لم يعانوا مشقة كبرى فى فتحها، ولعلهم دكوا أسوارها وخربوا حصونها كما خربوا كنائسها.

وليس لنا علم بعدد جندها ولكن من الواضح أن حاميتها كانت تهبط اليهم من حصنها

وفى تلك الايام راى هرقل مناما وقيل له انه ستاتي عليك امة مختونة وتغلبك وتملك الارض، فظن هرقل انهم اليهود فامر ان تعمَد جميع اليهود والسامره فى جميع الكور التى تحت سلطانه.

ومن بعد ايام يسيرة ثار رجل من العرب من نواحى القبله من مكه ونواحيها اسمه محمد فرد عباد الاوثان الى معرفة الله وحده، وان يقولو ان محمد رسوله. وكانت امته مختونة بالجسد لا بالناموس، ويصلون الى الجهة القبليه مشرقين الى

بين حين وحين لقتالهم. واستمرت الحرب متقطعة مدة شهر، ويقول أحد المؤرخين[1] بل شهرين، ثم خرج اليهم جنودها مرة ليقاتلوهم ولما عادوا لائذين الى مدينتهم تبعهم العرب فملكوا الباب قبل أن يقتحموه، وقد روى المقريزى وأبو المحاسن أن قبط الفرما ساعدوا العرب أثناء الحصاره.

فلما ملك العرب الفرما صار فى أيديهم معقلا يؤمن لهم الطريق المؤدية الى بلادهم، ويضمن لهم سبيل الرجوع اذا نزلت بهم هزيمة. وقد فطنوا بعد فتح الفرما الى ماهم مقبلون عليه من الأمر الخطير اذا أتيح لهم فتح حصن بابليون والاسكندرية العظيمة، ولابد أن يكون عمرو قد أدرك أنه لن يستطيع شيئا اذا لم يوافه عمر بن الخطاب بما وعده من الامداد. ولكنه فى نفس الوقت قام بتجنيد كل من صادفه من البدو فى سيناء والصحراء الشرقية والغساسنة والانباط الذين كانوا يقيمون فى هذه المناطق تحت وعود الاسلاب والغنائم فأصبحت له عدة كبيرة إلى جانب الامدادات التى وصلته من الحجاز. سار عمرو من الصالحية أو (القصاصين) الى الجنوب فاجتاز تلال وادى الطميلات فى موضع قريب من مكان اشتهر اليوم بوقعة كانت فيه وهى وقعة التل الكبير ١٨٨٢. فلما خرج من الوادى لم يبق دونه إلا سير هين حتى يبلغ بلبيس.

---

(١) جاء فى ياقوت أن المدة كانت شهرين وأما ابن بطريق والمقريزى وسواهما فيقولون انها كانت شهرا.

موضع يسمونه الكعبه. وملك دمشق والشام وعبر الاردن وسادها. وكان الرب يخذل جيش الروم قدامه لجل امانتهم الفاسدة والحروم التى حلت بهم لجل مجمع خلقدونية من الابا الأولين. فلما راى هرقل ذلك جمع جميع جيشه من مصر الى حدود اسوان. ومكث يدفع القطيعه (الجزيه) التى سال حتى يقررها على نفسه وعلى جميع جيوشه تلات سنين للمسلمين. وكانو يسمون المقرر البقط، أى أنه بقط روسهم، الى ان دفع لهم معظم ماله.

ويقال أنه فى ذلك الوقت جاءت جماعة عليها أحد الأساقفة، وانهم فاوضوا عمرا فى ذلك الوقت. ويقول الطبرى فوق هذا إن عمرا طلب الى القبط أن يساعدوا المسلمين لما كان بينهم وبين العرب من قرابة في النسب إذ تجمعهم (هاجر). ولكن قائد الحامية الرومانية للمدينة الذى يسميه العرب أرطبون وصحة اسمه (أريطيون) هو نفسه حاكم بيت المقدس[١]، وكان قد هرب الى مصر قبيل تسليم المدينة لعمر بن الخطاب. هاجم جيش العرب ولكن الدائرة دارت عليه فهزم وتمزق جيشه. غير أن العرب لبثوا عند بلبيس مدة شهر حدث فى أثنائه قتال كثير وقتل من العرب فيه عدد ليس بالقليل، ويقال إن الروم خسروا ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير.

وصار عمرو بعد ذلك على مسيرة يوم من مفترق فرعى النيل، فمر بمدينة (هليوبولس) سائرا على جانب الصحراء ثم هبط الى قرية على النيل إسمها (أم دنين) وكانت إلى الشمال من حصن (بابليون)، وموقعها اليوم فى قلب (القاهرة)[٢]. وكانت فى أم دنين حامية قوية،

(١) ظاهر فى الاسم تحوير (أريطيون) إلى (ارطبون). وقد ذكر أبو المحاسن الاسم الصحيح.

(٢) نظن أنه ليس من شك من أن هذا الموضع الذى يسميه العرب (أم دنين) هو الذى يسميه (حنا النقيوسى) (تونديس) فانه إذا أزيل الحرف الأول منها وهو دليل على المؤنث فى اللغة القبطية صار التشابه بين الاسمين عظيما. قد جاء فى ياقوت والمقريزى أن (أم دنين) هى المقس على الضفة الغربية=

ومات كثير من الناس من التعب الذى كانوا يقاسونه.

فلما تمت عشر سنين من مملكة هرقل والمقوقس وهو يطلب بنيامين البطرك وهو هارب منه من مكان الى مكان مختفيا فى البيع الحصينه، انفذ ملك المسلمين [عمر بن الخطاب] سريه مع امير من أصحابه يسمى عمرو بن العاص فى سنة تلتمايه وسبع وخمسين لديقليديانوس قاتل الشهدا، فنزل عسكر الاسلام الى مصر بقوة عظيمة فى

ولهذا كان في استطاعة الجيش الرومى الأكبر الذى فى الحصن أن يهبط فى أى وقت شاء إلى العرب ثم يعود إذا شاء إلى حصنه آمنا وراء أسواره العظيمة. ومضت على ذلك أسابيع عدة في مناوشة وقتال خفيف.

ولكن مهما كان من أمر القتال وشدته فقد أتم العرب ما قصدوا اليه وأخذوا (أم دنين)، فملكوا بذلك منزلا على النيل جعلوا فيه حامية منهم، واستطاع عمرو أن يأخذ من السفن ما يكفى بقية جنده لاجتياز النهر.

وقعة هليوبولس

سار عمرو بمن معه الى الجنوب بعد أن عبروا النهر سالمين، وكان سيرهم بجوار المزارع حتى بلغوا (ممفيس). وكانت تلك المدينة القديمة قد اضمحل أمرها منذ بناء الاسكندرية ـ

= للخليج (خليج تراجان)، وعلى نهر النيل ويقول المقريزى إنها كانت ميناء مصر في وقت الفتح. ومن المعلوم أن المقس كان فى الموضع الذى فيه اليوم حديقة الأزبكية وقد كان النيل عند ذلك يجرى بجوار حصن بابليون ودير (أبي سيفين) فكان مجراه إلى شرق المجرى الحالى بكثير وكان بعد مروره بالكبش يتجه شمالا الى ذلك الموضع (المقس) وعلى ذلك فقد كان الحصن الرومانى (تنونديس) هناك قرب الأزبكية ومعه ميناء مصر ومراسيها وكان هناك ميدان القتال الذى حدث. وليس من العجيب أن يكون النيل قد غير مجراه هكذا فى مدة اثنى عشر قرنا وان ابن دقماق لا يترك فى ذلك الأمر شكا.

اليوم الثانى عشر من بوونه وهو السادس من يونيو من شهور الروم. وكان الامير عمرو قد هدم الحصن واحراق المراكب بالنار واذل الروم وملك بعض البلاد وكان مجيه للبريه، فاخدو الخيل للجبل حتى وصلو الى قصر مبنى بالحجاره بين الصعيد والريف يسمى بابلون فضربو خيمهم هناك حتى ترتبو لمقاتلة الروم ومحاربتهم، ثم انهم سمو ذلك الموضع اعني القصر بلغتهم بابلون الفسطاط وهو اسمه الى الان. وبعد قتالهم تلت

ولم يبق منها اليوم باق ـ على أنها كانت فى وقت غزوة العرب لا تزال اطلالها ماثلة فى الموضع الذى كانت فيه عاصمة لدولة الفراعنة، وكانت فيها مساكن عدة لاتزال آهلة. وكانت فى الجانب الآخر من النيل مدينة نما أمرها وزاد سكانها حتى لقد كان يطلق عليها اسم ممفيس[1] أحيانا، وتلك هى مدينة مصر، وكان أكثرها الى جنوب حصن بابليون. ولعل العرب رأوا عند ذلك لأول مرة وهم فى الجانب الغربى للنيل مصر واضحة تشرف عليها صروح حصن بابليون سامقة فوق ماء النهر من وراء جزيرة الروضة.

وأما سيرهم إلى الفيوم فليس لدينا علم بين بوصفه. وكان حاكم مدينة بيوم (الفيوم) اسمه (دومنتيانوس) وأما حاكم الإقليم فاسمه (تيودوسيوس)، وكان عند ذلك مع حاكم الاسكندرية (أنستاسيوس) فى بعض بلاد مصر السفلى بقرب (نقيوس)، ووكل أمر الدفاع عن الإقليم الى (حنا)[2] قائد كتيبة (الخفر)، وهى كتيبة من أهل البلاد. وكان تحت إمرته رجل آخر اسمه

---

(١) قال اليعقوبى إن «مدينة ممفيس متهدمة» وقد كانت المدينة التي حول قصر الشمع محلة مصرية قديمة فقد وجدت بها آثار فرعونية وكان عند الباب الجنوبي للحصن تمثال مصرى معروف ووجدت حجارة فى أسوار الحصن عليها نقوش هيروغليفية وكان اسم المدينة «مصر» ولكن كالظاهر أن «مصر» و«منف» كانا يستعملان مترادفين فى بعض الأحوال فقد قال عبداللطيف «وتوجد الآثار التى بمصر القديمة وهذه المدينة بجوار الجيزة التى وراء الفسطاط وكانت مسكن الفراعنة ومقر ملوكهم».

(٢) جاء فى بعض المصادر القديمة أن حنا هذا هو حنا حاكم برقة أو برقينه ولدينا ما يحملنا على الظن أنه كان مرسلا من قبل هرقل ولقدكان هو بعينه «قائد الرديف» الذى أتى بنص المذهب الجديد موفدا =

دفعات غلبو المسلمون الروم، فلما راى ريسا المدينة هذه الامور مضو الى عمرو واخذو امانا على المدينة ليلا [لئلا] تنهب. وهذا العهد الذى اعطاهم اياه محمد ريسهم سموه الناموس [العهد](*) يقول فيه: كورة مصر و مدينتها تستقر مع اهلها [متى] دفع الخراج لكم وان تعهد لسلطانكم عاهدوهم ولا تظلموهم. ومن لا يرضى ذلك ويخالفكم انهبوهم وايسروهم. فلذلك مسكو ايديهم عن الكوره واهلها واهلكو جنس الروم وبطرقهم

(*) العهد هو النص القرآني القائل: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ [التوبة: ٢٩].

(حنا الماروسى) .وقد وضع الجنود عند ثغور الفيوم التى يدخل الى الاقليم منها، وحرست حراسة حسنة، وأقام الروم ربيئة لهم فى حجر اللاهون(١) ليرصد العدو ويعرف أخباره ومسيره، ويحمل أنباء ذلك الى (حنا)وكان مقيما قرب شاطئ النهر. ثم أرسلت سرية من الفرسان والرماة الى العرب لتحول بينهم وبين السير، ويلوح لنا أن جنود العرب لم يقووا على أن يخلصوا ممن لاقاهم من الروم، فعدلوا الى جانب الصحراء وجعلوا يساقون الغنائم، فأخذوا منها عددا عظيما، وضم إليه العديد من بدو هذه المناطق. وما زالوا كذلك حتى بلغوا مدينة البهنسا(٢) ففتحوها عنوة وقتلوا من وجدوا بها من رجال ونسوة وأطفال. ثم سمع عمرو بأن (حنا) كان يسير وراءه فى قلة مع خمسين من فرسانه يرقبون سيره، فبعد به عمن كان وراءه من جنده ثم كر عليه مباغتا. فلما رأى(حنا) ذلك وأن الخطر محدق به أراد أن يعود

= من (سرجيوس) الى (قيرس) وهو الذى حمل مع هذا النص الصليب الذى جاء ذكره فى (حنا النقيوس).

(١) إذا أردت معرفة أخبار هذا الموضع فارجع الى كتاب الدكاترة "Hunt & Grenfell" وهو "Fayoum Towns and their Papyri" (صحفة ١٣ شكل١٨) واللاهون على بحر يوسف على نحو عشرة أميال من مدينة الفيوم وكانت عند مدخل الوادى الذى بين الجبال المحيطة بكوره (أرسنويه) وكانت موضعا ذا شأن فى الأمور الحربية للدفاع عن الاقليم.

(٢) البهنسا المقصودة هنا هى فى كورة الفيوم بالطبع وليست البهنسا المعروفة التى فى موضع المدينة القديمة "Oxyrhynchus" فقد كانت تلك على بعد خمسين ميلا الى الجنوب من بعد بهنسا الفيوم.

المســــمى مــــاريانوس. ومن سلـم منهـم هربـو الى اسكندريه واغلقو ابوابها عليهم وتحصنو فيها.

وفى سنة تلتمايه وستين لديقلاديانوس فى شهر دكنبريوس [ديسمبر] من بعد ان ملك عمرو مصر بتلت سنين ملكو المسلمـــون مـــدينة اسكندريه وهدمو سورها واحرقو بيعا كتيرا بالنار وبيعة مارى مرقس التى هى مبنية على البحر حيث كان جسده موضوعا هناك وهو الموضوع الذى مضى اليه الاب البطرك بطرس الشهـيد قبل استـشهـاده وبارك فيـه وسلم اليه القطيع الناطق كما تسلمه.

سريعا إلى عسكره فى (أبويط)[1] وهى واقعة على النيل على مسافة قليلة من موضعه، فكان يسير بجنوده فى الليل ويكمنون بالنهار فى النخيل والآجام، ولكن عمرا علم بمكمنه إذ دله عليه أحد شيوخ البدو، فحاصره ومن معه وقتلهم فلم يدع منهم أحدا. فقتل فى ذلك (حنا) قائد الكتيبة ووكيله لأن العرب لم يتخذوا منهم أسرى وكان هذا دأبهم طوال طريقهم منذ دخولهم مصر.

فلما بلغ القائد (تيودور) نبأ هذه النكبة بكى وأعول، ثم هب بعد ضياع الوقت فحشد من دونه من الجنود وبعث بهم صعدا فى النهر إلى جزيرة (لكيون)، ثم أسرع (انستاسيوس) و(تيودوسيوس) بالعودة من (نقيوس) إلى حصن (بابليون) ليساعدوا من به، وأرسلوا من الحصن سرية جعلوا عليها قائدا اسمه (ليونتيوس) إمدادا للعسكر فى (أبويط). فلما بلغ (ليونتيوس) مضرب العسكر فى (أبويط) وجد المصريين حيال العرب، ووجد أن (تيودور) قد لاذ بجنوده فى مدينة الفيوم، يخرج منها بين حين وحين فيهوى إلى العرب فى البهنسة يقاتلهم.

(١) بين أميلنو فى كتاب (Geog Copte) (صفحة٣) أن هناك موضعين باسم (أبويط) والمدينة المقصودة هنا لابد أن أن تكون فى مديرية بنى سويف فى الوقت الحالى وهى قرية من (بوصير كوريدوس) فى الشرق من حجر اللاهون.

فاحرقو هذا الموضع وما حوله من الديارات.

وكانت اعجوبه عند خرق البيعه المذكوره فعلها الرب، وذلك أنه احد ريسا المراكب وهو ريس مركب الدوكس سانوتيوس(*) تسلق ونزل الى البيعة واتى الى التابوت فوجد الثياب قد اخذت لانهم ظنو ان فى التابوت مالا، فلما لم يجدو شيا اخذوا الثياب من على جسد مارى مرقس وبقيت عظامه فيه، فلما جعل ريس المركب يده فى التابوت وجد راس القديس مرقس واخدها وعاد

(*) كان سانوتيوس من كبار المؤظفين البيزنطيين الذين تعاونوا مع عمرو بن العاص وذلك بقيادته للأسطول البحرى الذى واكب سير الحملة العسكرية التى كانت بقيادة عمرو بن العاص فى تقدمه نحو بنتابولس (برقه).

ولاشك أن العرب لم يستطيعوا فتح مدينة الفيوم، وأنهم عادوا أدراجهم إلى الشمال منحدرين مع النهر، وكان (تيودور) قد أمر بالبحث عن جثة (حنا) وكانت قد ألقيت فى النهر، فانتشلها الناس فى شبكة، ثم حنطت ووضعت على سرير وحملت فى النيل الى حصن (بابليون) تحيط بها آيات الحزن، ومن ثم بعثوا بها إلى هرقل(١).

وكان أول سير عمرو إلى الفيوم نحو أول شهر مايو، و قضى فى غزوته بضعة أسابيع أضاعها. ولعل قدوم أمداد المسلمين التى بعث بها عمر بن الخطاب كان فى السادس من شهر يونيه، وكان عدتها ٤ آلالف جندى، والتقى الجميع قريبا من هليوبولس، كان الأمير على المدد الزبير بن العوام. ثم جاء فى عقبه كتيبتان كل منهما من أربعة آلاف رجل، فكان جميع من جاء من الأمداد اثنى عشر ألفا(٢). وقد علم الروم أن النيل يعلو فى مجراه العميق فى وسط الصيف، ولهذا أرادوا أن يناجزو المسلمين بمن اجتمع منهم قبل أن يفيض النهر، ولكنهم

(١) وهذا الحادث يدل على أن حنا كان موفدا من قبل الامبراطور نفسه لغرض معين وكان (تيودور) بغير شك يعتمد على مقدرة حنا فى الحرب ولذلك اهتم اهتماما عظيما لموته.

(٢) اختلف الرواة فى عدد الأمداد فقال ابن عبدالحكم إنها كانت ٤٠٠٠، وقال البلاذرى ١٠,٠٠٠ أو ١٢,٠٠٠، وقال ياقوت ١٢,٠٠٠، وأورد المقريزى نقلا عن الكندى خبرا رواه يزيد أن جيش عمرو كان ١٥,٥٠٠ وتفصيل ذلك أن جيشه الأول كان ٣,٥٠٠ ثم زاد ١٢,٠٠٠، وقال السيوطى على اليقين إن الإمداد جاء أرسالا الى أن بلغ ١٢,٠٠٠ وهذا مارآه المقريزى. وقال أن كتيبة منها كانت مع الزبير =

الى مركبه ولم يعلم به احدا وخباها فى الخن فى قماشه. فلما ملك عمرو المدينة ورتب امورها خاف الكافر والى اسكندريه(*) وهو كان واليها وبطركها من قبل الروم ان يقتله عمرو فمص خاتما مسموما فمات لوقته.

(*) يذكر بتلر أن هذا الوالى هو (قيرس). انظر ص٦٤٣.

فأما سانوتيوس الدوكس المومن فإنه عرف عمرا سبب [اختفاء] الاب المجاهد بنيامين البطرك وانه هارب من الروم خوفا منهم، فكتب عمرو بن

عجزوا كل العجز عن أن يحولوا دون اجتماع جيوش المسلمين المتفرقة، مع أنهم كانوا يملكون حصن بابليون وكان نهر النيل فى يدهم، وعادوا إلى حامية (أم دنين) فملكوها. فلو كان عندهم علم بالحرب وحزم فى الرأى لا ستطاعوا أن يمنعوا عمرا من العبور إلى الجانب الشرقى، فكانوا يجعلونه بذلك فى معزل عمن جاء يمده، ولعلهم كانوا يستطيعون بذلك القضاء عليه.

ولكنهم لم يفعلوا ذلك مع كل ما لديهم من ميزة عليه، واستطاع عمرو أن يعبر النهر إما عنوة وإما على غرة منهم. وأغلب الظن أنه عبر النهر فى موضع أسفل من موضع(أم دنين) الى الشمال منها، لأن ترعة (تراجان) كانت عند ذلك مطمومة منذ أهمل أمر حفرها، ولم تكن لتعوق سير العرب حتى فى وقت فيض النيل. وكان عمرو وقد علم بأن أمداد المسلمين

= وعددها ٤,٠٠٠، وهذا يفسر السبب الذى جعل مؤرخى العرب يقولون إن الامداد كلها كانت ٤,٠٠٠ ومن العجيب أن (حنا النقيوسى) يقول إنها كانت ٤,٠٠٠ ويزيد على ذلك أن قائدها كان اسمه (والواريا) وكان أسود وهو من الهمج ولا نستطيع أن نعرف الاسم المقصود، على أنه قد كان منهم قائد أسود وهو عبادة بن الصامت، والمقداد بن الأسود، ومسلمة بن مخلد كان على ألف رجل وان الزبير مثلهم . وانه لا يوجد نوع من الخلط إلا وقع فيما كتبه العرب وعلى ذلك فليس عجيبا أن نرى المقريزى يؤجل وصول الامداد وهى ١٢,٠٠٠ مع الزبير ـ الى الوقت الذى كان العرب يحاصرون فيه حصن بابليون.

العاص الى اعمال مصر كتابا يقول فيه: الموضع الذى فيه بنيامين بطرك النصارى القبط له العهد والامان والسلامة من الله فليحضر امنا [آمنا] مطمينا [مطمئنا] ويدبر حال بيعته وسياسة طايفته. فلما سمع القديس بنيامين هذا عاد الى اسكندريه بفرح عظيم بعد غيبة تلت عشره سنه، منها عشر سنين لهرقل الرومى الكافر، وتلت سنين قبل ان يفتحو المسلمون اسكندريه، لابسا اكليل الصبر

سائرة فى طائفتين ميممة شطر (عين شمس) وهى (هليوبولس)، وعلم أن مقامه فى الجانب الغربى خطر والحق أنه فزع خوفا من أن يفطن الروم إلى الأمر فيحولوا بينه وبين الاتصال بالمدد الذى جاء به الزبير، ولكن (تيودور) ضيع الفرصة على عادته، فلم يضرب الضربة القاضية، واستطاع عمرو أن يسير للقاء المدد ويبلغ عسكر المسلمين فى هليوبولس.

كانت هليوبولس فى الأزمنة القديمة إحدى مدن مصر الكبرى واسمها (أون). وكان أسمها لا يزال باقيا يطلقه القبط عليها فى القرن السابع، ويفيد ذلك الاسم معنى (مدينة الشمس). ولا شك أن اليونان أخدوا ذلك المعنى فجعلوا اسمها عندهم (هليوبولس). وقد احتفظ العرب كذلك بذلك المعنى فجعلوا اسم الموضع (عين شمس)[1]. وكانت هذه المدينة معروفة بعظمة آثارها كما كانت معروفة بأنها قبلة لأهل العلم وكعبة للدين. ولما زارها (سترابو) قبل ذلك الوقت بستة قرون كان الناس هناك يدلونه على المواضع التى كان أفلاطون يتلقى فيها العلم من قبل. على أن الزمن عند ذلك كان قد غير المدينة وجرت صروفه وحروبه وحصاراته ذيل العفاء على أكثر معابدها وتماثيلها، فلما أتى العرب لم يكن باقيا من مجدها

(١) الظاهر أنه قد غلب الاسم الجديد (المطرية) على الاسم القديم(عين شمس) والموضع معروف للسياح من أجل شجرة العذراء والعين التى استراحت الأسرة المقدسة بجوارها.

وشدة الجهاد الذى كان على الشعب الارتدكسى من الاضطهاد من المخالفين.

فلما ظهر فرح الشعب وكل المدينه واعلمو بمجيه سانوتيوس الدوكس المومن بالمسيح، الذى كان قرر مع الامير عمرو حضوره واخذ له منه الامان، فمضى لذلك الامير وعرفه بوصوله فامر باحضاره بكرامة واعزاز ومحبه، فلما راه اكرمه وقال لاصحابه وخواصه: ان فى جميع الكور التى

مسلة سنوسرت الأول بمدينة أون (هليوبوليس: عين شمس = المطريه). وهى المسلة الوحيدة الباقية من المسلات المائة التى كانت ترتفع فى سماء أون.

القديم إلا قليل من أسوار مهدمة، وتماثيل (لأبى الهول) قد دفن نصفها تحت الثرى، وعمود واحد مما يعرف (بالمسلة) ولا يزال باقيا إلى اليوم ذكرى من ذلك العالم الغابر.

وكانت المدينة على نهد من الأرض، يحيط بها قديما سور غليظ ولم يكن لها خطر فى الحرب فى ذلك الوقت، ولكنها كانت تستطيع المدافعة، وكان فيها ماء كثير، وتصلح لإمداد الجيش بالمؤونة، ولهذا اتخذها عمرو مقرا وجعل يتجهز منها لما هو مقبل عليه من القتال. وقد وصفنا فيما سلف من قولنا مقدم (تيودور) الى حصن بابليون وأنه جعل يحشد فيه الجنود من بلدان مصر السفلى، ولكن لعله ما أتم حشد الجيش الذى كان يستطيع به قتال العرب والخروج به الى عين شمس حتى كانت الأمداد التى بعث بها عمر بن الخطاب قد بلغت عمرو بن العاص، فأصبح بها أميرا على جيش عدته خمسة عشر ألفا، من بينهم طائفة من أكبر فرسان العرب[١] هذا غير الاعداد الوفيرة من البدو الذين انضموا للجيش العربى منذ دخوله مصر ولسنا نعرف عدد الجيش الذى حشده الروم إلا بالظن والحدس.

(١) ذكر ابن الحكم كما جاء فى كتاب أبى المحاسن الأسماء الاتية للزعماء العرب الذين شهدوا فتح مصر: عمرو وابنه عبدالله والزبير وعبدالله بن عمرو سعد بن أبى وقاص (وهذا مختلف فيه) وخارجة بن حذافة وقيس بن أبى العاصى السهمى والمقداد بن الأسود وعبدالله بن سعد بن أبى سرح ونافع بن عبد قيس الفهرى وأبو رافع وابن عبدة وعبدالرحمن وربيعة ابنا شر حبيل بن حسنة ووردان مولى عمرو. ومن=

ملكناها الى الان مـا رايت رجل الله يشـبـه هذا. وكان الاب بنيامين حسن المنظر جدا جيد الكلام بسكون ووقـار. ثم التـفت عـمـرو اليـه وقـال له: جميع بيعك ورجالك اضبطهم ودبر احوالهم واذا انت صليت عليّ حتى امضى الى المغرب والخمس مدن واملكها مثل مصر.

واعـود اليك سـالما بسـرعـه فـعلت لك كلمـا تطلبه مني. فدعا له القديس بنيامين واورد له كلاما

كـانت خطة عمرو أن يجعل الـروم يخـرجون اليه فيقاتلونه فـي السهل وهم بعيدون عن حصن بابليـون، فلما أحس (تيـودور) مـن نفسـه القوة جعـل يناجـز العـرب، وسـار اليهم بجيوشه نحـو (هليوبولس)، وكانت على مسافة ستة أميال أو سبعة عن عسكر العرب. وكـان على الخيل (تيودوسيوس) و(انستاسيوس)، ولكن أكثر الجمع كانوا رجالة بعضهم رماة وبعضهم يحملون الرماح. وكانت عيون البدو القاطنين بصحراء المنطقة قد أسرعت فحملت الى عمرو ما عزم عليه الروم، فاستطاع أن يوجه جنوده إلى مواضعهم ويعبئهم للقتال. فسار هو من هليوبولس مع أكثر الجمع من العرب للقاء الروم، ولكنه أرسل تحت الليل كتيبتين: إحداهما الى (أم دنين)، والأخـرى وعليها خارجة بن حذافة الى مكان واقع الى الشرق، ولعله كان في ثنية الجبل[1] بقرب الموضع الذى فيه اليوم قلعة القاهرة حيث كانت توجد آثار

=الأنصار: عبادة بن الصامت ومحمد بن مسلمة وأبو أيوب خالد بن يزيد وأبو الدرداء عويمر بن عامر ويسمى عويمر بن يزيد. وقد آتى نفس الكاتب بأسماء أخرى ممن شهد الفتح.

(١) ولعل هذه هي الحادثة التي ذكرها المقريزى في غير موضعها حيث يقول إن عمرا أرسل ٥٠٠ فارس بقيادة (خارجة بن حذافة) وأمرهم أن يكمنوا فيهبطوا على العدو اذا خرج من بين الأديرة قال: «فساروا بالليل ودخلوا مغاير بنى وائل قبل الصباح» فلما بدأت الوقعة بعد الفجر نزلوا على مؤخرة الروم بغتة وأكملوا ما بدأ من اضطرابهم واختلال أمرهم.

حسنا اعجبه هو والحاضرين عنده فيه وعظ وربح كثير لمن يسمعه، واوحى اليه باشيا وانصرف من عنده مكرما مبجلا.

وكلما قاله الاب الطوباني للامير عمرو بن العاص وجده صحيحا لم يسقط منه حرف واحد. فلما جلس هذا الاب الروحاني بنيامين البطرك في شعبه دفعة اخرى بنعمة المسيح ورحمته فرحت به كورة مصر كلها وجذب اليه اكثر الناس الذين اضلهم هرقل الملك المخالف، وكان يجذبهم

لبعض المعابد المصرية. فكان سير الروم على ذلك بين هذين الكمينين من العرب وكان عمرو قد أمرهما أن يهبطا على جانب جيش الروم ومؤخرته اذا ما سنحت لهم الفرصة[1] وخرج الروم من بين البساتين والأديرة التي كانت الى الشمال الشرقي من الحصن وانتشرو في

(١) يقول (زوتنبرج) إنه لا يستطيع فهم الموقعة نظرا للمسافات التي بين هذه المواضع وقد أخطأ بجعل تنونديس (أم دنين) إلى جنوب بابليون بدل أن يجعلها في شماله. ولا شك أن (حنا النقيوسي) جعلها أبعد الى الشمال الغربي ولهذا يقول إن المكان الآخر في شمال بابليون ولكنا فيما عدا الاعتراضات الأخرى لو وضعنا كمين عمرو في جنوب بابليون لجعلنا خطته في منتهى الجهالة في حين تكون كتيبة أخرى من جيشه في الشمال ومعظم جيشه في هليوبولس وفوق ذلك كان حصن بابليون ومعسكر الروم يسدان الطريق الذاهب الى الجنوب. ولو قلنا إن عمرا ذهب الى لقاء العدو ولم يبق في عسكره لانتظاره هناك لذهب الاعتراض ببعد المسافة. ولقد نسى (زوتنبرج) فوق هذا أن النيل كان يجرى في موضع شرق مجراه الحالي بكثير. فاذا نحن وضعنا كمينا عند (أم دنين) (الأزبكية) وآخر عند القلعة أو الجبل الأحمر صارت خطة الموقعة واضحة ولنا كلمة أخرى فقد كانت هليوبولس قديما تغطى مساحة أكبر مما يمكن تصوره اليوم هذا واضح ليس فقط من الأطلال الباقية بل من شهادة ابن دقماق إذا يقول صراحة « وكانت عين شمس في الزمن الماضي مدينة عظيمة متسعة متصلة بمصر القديمة التي في موضع الفسطاط في الوقت الحاضر» (الجزء الخامس صفحة ٤٣) ومعنى هذا أنه لابد قد كانت المسافة بين أرباض المدينتين قصيرة على أن أرباضهما كانت عبارة عن منازل وكنائس متفرقة.

للرجوع الى الامانه المستقيمه بسكينة ووعظ وملاطفه وتعزيه، وكثير من هرب الى الغرب والخمس مدن خوفا من هرقل الملك المخالف فلما سمعو بظهور راعيهم عادو اليه بفرح ونالو اكليل الاعتراف، وكذلك الاساقفه الذين خالفو امانته دعاهم ان يعودو الى الامانة الارتدكسيه فمنهم من عاد بدموع غزيره ومنهم من حيا [يستحى] من الناس ان يشهر عندهم بانه كان مخالفا للامانه فبقى على كفره الى ان مات.

السهل[1] وكان ذلك فى الصباح الباكر ولم يكن عندهم علم بمكيدة عمرو بل رأوا

(١) يظهر لمن يطلع على هذا الوصف الذى وصفنا به موقعة عين شمس أنها على اختلاف كبير مع ماجاء في الطبرى فقد جاء في الطبرى: (١) أن الوقعة كانت بعد فتح حصن بابليون. (٢) أن المقوقس كان مع جيش القبط فى عين شمس وقد أز مع السير الى مصر.(٣) أن جيش عمرو سار الى أبواب عين شمس. (٤) أن جيش القبط تشتت عند أول صدمة وخسر عددا عظيما بين قتيل وأسير. (٥) أن العرب غنموا غنيمة عظيمة وأرسلوا الأسرى الى المدينة . وانه ليكون من الإسراف أن نكذب خبرا مثل هذا الخبر المفصل ولكنا فوق ما نشعر به من ضرورة الأخذ بما جاء فى كتاب حنا الذى كان قريبا من ذلك العهد يظهر لنا أن الطبرى قد أخطأ خطأ وصف البلاد فان وصفه للوقعة صحيح ولكنها لم تكن وقعة عين شمس والدليل على هذا: (١) ترتيب الحوادث فان هذه الوقعة لايمكن أن تكون بعد فتح مصر في حين أن مواقع أخرى يمكن أن تقع بعد ذلك وقد وقعت فعلا بعد فتح مصر . (٢) الطبرى نفسه يكشف عن خطئه بوصفه عين شمس بأنها كانت «مدينة عظيمة في بلاد القبط وأنها واقعة في الغرب» ومعنى هذا إما أن يكون أنها في غرب النيل أو في غرب مصر السفلى، ولكن عين شمس لايمكن أن توصف بأحد هذين الوصفين وعلى ذلك فالظاهر أن ا لوصف السابق انما هو وصف بعض المواقع التى كانت فيما بين بابليون واسكندرية وقد وقعت في الغرب وسيأتى ذكر هذا فيما يلى.

وقد كانت غلطة الطبرى سببا في خلط كثير من مؤرخى العرب مثل ابن الأثير وابن خلدون (وقد كان الطبرى غريبا عن مصر لا يعرف كثيرا من وصف بلداتها) وهذا مثل جديد من الأمثلة الدالة على ما يجده الانسان من الخلط في وصف حوادث هذا ا لعصر من التمحيص والمقارنة ولكنا نرى أن هناك سببا بسيطا في مثل هذا الخطأ الذى يقع فيه المؤرخين العرب فانا اذا وجدنا أن ابن الأثير يذكر أن قوّاد العرب حاصروا عين شمس ويقول إن (الزبير) تسورها (وسنرى أنه انما تسور قصر الشمع) نجد أنفسنا حيال خلط شبيه بما سبق ذكره وسبب كل ذلك اسم (بابليون) فان العرب أو بعضهم فهموا ذلك الاسم على أنه باب ال (أون) أو (باب أون) هي عين شمس (الاسم العربى لهليوبولس) ومن =

م3 -تاريخ مصر ج2 (الهيئة العامة لقصور الثقافة)

ومن بعـد ذلك سـار عـمـرو من اسكندرية وعـسكره وسـار معـه الدوقس سانوتيـوس المحب للمسيح.

وفي تلك الليلة راى الاب [بنيامين] في مناحه انسانا منيرا لابسا ثياب التلاميذ وهو يقول له: يا حبيب اعـمل لى عندك موضعا اقيم فيه في هذا اليوم لانني احب موضعك، وكان الموضع الذى فيه البطرك موضعا طاهرا بلا دنس في دير يعرف بدير مطرا الذى هو البـسـقـوبيـون، لان سـاير البـيـع

أنه كان يسير اليهم في جمعه آتيا من هلبوبولس. ثم حدث اللقاء بعد ذلك ولعله كان في مكان وسط بين معسكرى الروم والعرب عند الموضع الذى اسمه اليوم (العباسية). وكانت كل من الطائفتين موقنة بأن ذلك اليوم سيكون يوم الفصل في أمر مصر، فكانت كل تقاتل قتال المستميت. فلما حمي وطيس القتال وعض الناس على النواجذ أقبلت كتيبة خارجة تهوى من مكمنها في الجبل، كأنما هى عاصفة تجتاح مؤخرة الروم. فلما رأى الروم أنهم قد أخذوا بين جيشين من عدوهم، وقع الفشل في صفوفهم، واتجهوا بعض الاتجاه الى يسارهم نحو (أم دنين)، فلقيهم الكمين الآخر فظنوا أنه جيش عربي ثالث. فانتثر نظامهم وحلت بهم الهزيمة، ففر وا لا يلوون على شئ يطلبون النجاة من سيوف العرب فاستطاع الأقل منهم أن يبلغ الحصن برا فيلوذ به، وكثير منهم ساقهم الفزع الى النهر فنزلوا في السفن وعادوا الى الحصن، ولكن طائفة كبيرة هلكت. واستولى العرب بعد انتصارهم على (أم دنين) مرة أخرى،

= هنا نشأ الخطأ بين المكانين فان البلاذرى يذكر أن الفسطاط كانت عند الفتح أسمها (أيون). وقال المؤرخون بعد ذلك أن اسمها كان (اليون)، وأخذوا ذلك اللفظ على أن معناه (أون) وهي (عين شمس) فبني على هذا الخطأ أنه قد حوصرت عين شمس ونقلت الحوادث من بابليون اليها. وفي رأينا أن لم يسبق أحد هذا التفسير يفسر كثيرا من الصعاب التى نلقاها في تواريخ العرب وقد أسئ فهم اللفظ الرومانى (بابليون) فصار في صور متعددة مثل (باب اليون) ومدينة (ليون) و(قصر اليون) و(لونها) و(أيون).

والديارات التى للعدارا والرهبان تنجست من هرقل المخالف عند الزامهم بامانة خلقدونيه، الا هذا الدير وحده فان الذين فيه اقوام اقويا كتيرا مصريون وجميعهم أهل ليس بينهم غريب فلم يقدر يميل قلوبهم اليه، ولجل ذلك لما عاد بنيامين من الصعيد نزل عندهم لحفظهم الامانة الارتدكسية وانهم لم يحيدو عنها.

فلما أراد [ت] المراكب التى فيها زاد العسكر(*) وتقاله وحوايج الدوكس سانوتيوس

(*) كانت هذه المراكب تحت قيادة سانتوس تحمل زاد ومؤن خاص بجنود عمرو بن العاصي المتقدمين نحو مدن بنتابولس في شمال أفريقيا.

وقد قتل فى الوقعة كل من كان بها من الجنود إلا ثلاثمائة. ولاذ كل من نجا من الروم بحصن (بابليون) وأغلقوا عليهم الأبواب، ولكنهم منذ علموا بما أصاب اخواتهم الروم من القتل حملهم الخوف على أن يتركوا الحصن فساروا فى النهر الى (نقيوس) على فرع رشيد حيث توجد حامية بيزنطية قوية.

ولكن النصر أفاد العرب فوائد جمة، فقد أصبحت مدينة مصر فى قبضة يدهم بغير قتال، وكانت من قبل يحميها الجيش الذى فى الحصن، وأصبحوا يملكون ناصية شاطئ النهر من ناحيتى الحصن وشرقه بين البساتين والكنائس، وذلك هو الموضع الذى صار يعرف بالفسطاط فيما بعد. وقد صارجيش العرب بعد ذلك النصر كافيا لحصار (بابليون) لا يعوقه عائق من التضييق عليه، بعد أن قضى على جيش الروم فلم تبق منه إلا الفلول التى لاذت بالحصن أو هامت على وجهها فى بلاد مصر السفلى. ولما بلغت أنباء نصر العرب الى الفيوم غادرها من بها من الحاميات البيزنطية ، فخرج (دومنتيانوس) عند ما علم بذلك من المدينة فى الليل وسار الى (أبو يط)، ثم نزل فى النهر بجنوده وجد هاربا الى (نقيوس) حيث الحامية البيزنطية، ولم يخبر أهل (أبو يط) بما كان منه من ترك الفيوم لأعدائه لا يدافع عنها أحد. ولما بلغ نبأ (دومنتيانوس) وهربه الى عمرو بن العاص بعث كتيبة من جنده عبروا النهر، وفتحوا مدينتى (الفيوم) و(أبويط)، وأحدثوا فى أهلها مقتلة عظيمة وأصبح ذلك الإقليم تحت الحكم الاسلامى منذ ذلك الحين.

المومن واصحابه تقلع وقف المركب الذى لخاصته ولم يقدر يقلع فاجتمع إليه جمع كتير فظنو انه قد وحل، فربطو فيه لبانات [حبال] وجروه بجهدهم فلم يتحرك بالجملة فمضو الى الدوكس واعلموه ذلك لانه كان ركب مع الامير، فتعجب جدا وارسى المركب الذى الامير عمرو فيه وعاد منه الدوكس ومعه جمع كتير فلما وصل الى المركب راى عنده خلقا كتيرا لا يحصى عددهم وهم لا يقدرون يحركونه، فقال لهم: اديرو مقدم هذا

ولما قضى عمرو بذلك على كل مقاومة له من الفيوم وخلص له أمرها، أرسل جنوده الى موضع اسمه (دلاص)[1]، رآه أصلح المواضع للنزول من النهر الى ذلك الإقليم، وأصبح العرب بذلك الى حين سادة النهر.

غير أن الروم كانوا لا يزالون يملكون جزيرة الروضة وهى جزيرة ذات حصون تتصل بحصن بابليون، تسير بينهما السفن والقوارب، وبقيت الأسفار على ذلك فى النهر على عادتها يكاد لا يعوقها عائق، لأن العرب لم يكونوا من أهل البحار إذا لم يحذقوا بعد تسير السفن، وكانوا فى شغل مما هم فيه من القتال والفتح فى الأرض. وعاد عمرو فأمر جرائد الخيل بالعودة اليه، وكان أنفذهم يجمعون الغنائم خلال البلاد بعد وقعة عين شمس، ثم أمر (أباقيرس)[2]

(١) كانت (دلاص) على الضفة الغربية للنيل فى جنوب (ممفيس) وهى الى شرق مدينة الفيوم وهى بالقبطية (تيلوج) وباليونانية (نيلوبولس).

(٢) وهذا هو (أبا كيرى) الذى جاء ذكره فى ديوان حنا صفحة ٥٥٩) وقد حار (زوتنبرج) فى ذلك الاسم فقال «وليس من المؤكد أن يكون هذا للفظ علما على شخص» ولكن كل شك قد زال عند كشف وثائق (قرة باسك) "Papyras Erzherzog Rainer: Fuhrer durch die Ausstellung" ورقم ٥٥١ منها هو خطاب من خارجة المشهور كتبه الى (أبا قيرس) حاكم (هرقليوبولس مجنا). ورقم ٥٥٨ منها مكتوب باليونانية والعربية بتاريخ ٢٥ أبريل ٦٤٣ وهو من عبدالله بن جابر الى (كريستوفوروس) و(تيودوراكيوس) ابنى (أبا قيرس) عنه. وهذا الخطاب الأخير أقدم وثيقة إسلامية فى مصر أن لم يكن أقدم ما فى العالم.

المركب الى المدينة. فلما اداروه للدخول الى المدينة جرى اليها مثل السهم. فقال لهم: جروه الى برا فجروه حتى انتهى الى مكانه الاول فوقف ولم يتحرك، ثم اعادوه الى داخل فجرى، وعادو جروه الى برا فوقف هكذا تلت دفعات، فعند ذلك قال الدوكس لريس المركب: اصعد اليّ بقماش النواتيه افتشه لكى انظر ما هو واعرف السبب الذى اوجب وقوف هذا المركب دون جميع هذه المراكب كلها: فخاف الريس الذى كان اخذ راس

حاكم دلاص أن يمد المسلمين الذين كانوا بالفيوم بالسفن لينتقلوا فيها من الجانب الغربى الى الجانب الشرقى، وكان يقصد بذلك أن يفتح كل إقليم مصر وهو الإقليم الذى كان يلى مفترق فرعى نهر النيل.

ولعل وقعة عين شمس كانت فى النصف الأول من شهر يوليه سنة ٦٤٠، وقضى العرب فى فتح الفيوم نحو أسبوعين. وعلى ذلك لم يبدأ فتح مصر السفلى (الدلتا) قبل شهر أغسطس. وكان عمرو يطمع أن يبسط يده الى هناك قبل أن يحول فيض النيل بينه وبين ذلك. وأما ماكان من أمر (جورج) حاكم إقليم مصر فأما أن يكون قد وقع فى الأسر عند فتح مدينة مصر أو أنه أذعن للعرب وخضع لأمرهم. فالحق أن الرهبة من العرب أخذت عند ذلك بقلوب الناس فى كل البلاد، ولا سيما ما كان منها على كثب من سيوفهم، اللهم إلا المواضع ذات الحصون.

غير أن مصر السفلى كانت تشقها الترع الكثيرة وكانت بعض هذه الترع لا يمكن اجتيازه خوضا، فجاء الأمر الى (جورج) أن يقيم قنطرة على الترعة عند قليوب، وقال حنا النقيوسى: «وأخذ الناس يساعدون المسلمين» وانه لمن سوء الحظ أن قول الأسقف هنا ليس بالواضح البين. غير أنا اذا قرنا ذلك القول مع سائر ما جاء فى ديوانه رأينا أن معناه لا يزيد على أن الناس قاموا بتلك المساعدة إذا أمروا بها، أى أنها لم تكن مساعدة الراغب المختار بل

القديس مرقس الانجيلى فطرح نفسه على رجلى الدوكس واعترف له بما فعله وان الراس مخبا فى قماشه فصعدو بقماشه من الخن فوجدو الراس فيه، فمضو بسرعة واعلمو الاب بنيامين بالخبر على جليته فركب لوقته واخذ معه جماعة من الكهنة واتى الى الدوكس وحدثه بالمنام الذى راه فى ليلته. فقال جميعهم: حقا ان هذه راس القديس مرقس الانجيلى. وفى الوقت الذى جا فيه بينامين البطرك الى المركب واخذ الراس الطاهره

- -

عمل الجبر المضطر. وفى الحق انا لو أنعمنا النظر لرأينا فى قول الأسقف نفسه ما يدل على ذلك دلالة واضحة فانه بعد أن قال إن العرب فتحوا المدينتين الكبيرتين (أتريب) و (منوف) وملكوا ريفهما وبسطوا سلطانهم على إقليم مصر كله، قال«انهم لم يكفهم هذا بل أمر عمرو أن يؤتى بالحكام من الروم مجموعة أيديهم فى الأصفاد وأرجلهم فى القيود، ثم أخذ من الناس أموالا عظيمة وضاعف عليهم الجزية، وأمرهم أن يأتوا له بالأعلاف لخيله وظلمهم ظلما كثيراً» وليس من العجيب أنه بمثل هذه الشدة قضى على كل مقاومة وجعل الناس لا يعصون له أمرا.

على أن مدينة (نقيوس) ـ وكانت على الفرع الغربى للنيل ـ بقيت بنجوة من العرب بعد أن أخذوا (أتريب) و(منوف)، وذلك لأنها كانت ذات حصون قوية وأسوار منيعة، فما كانت لتؤخذ حتى يحاصرها العرب حصارا تاما، ولم يستطع العرب ذلك عندئذ إذ كانوا لا يملكون العدة للحصار ولا يتسع لهم الوقت له. وعلى ذلك بقيت (نقيوس) كأنها حلقة تصل من كانوا بحصن (بابليون) بمن كانوا فى الاسكندرية. غير أن كبار الروم الذين كانوا فيها لم يستطيعو ا البقاء بها عندما جاءتهم أنباء فتوح العرب وفوزهم، فهاجروا الى العاصمة ولم يتركوا فى المدينة إلا (دومنتيانوس) فى قلة من الناس للدفاع عنها، وبعثوا الى (داريس) فى سمنود يأمرونه أن يحفظ ما عنده من البلاد التى بين فرعى النيل. وعند ذلك زاد الخوف

واطلقه فاقلع المركب لوقته اقلاعا مستقيما، فعلم هو والدوكس وجميع الشعب صحة الخبر وشاهدو هذه الأعجوبة ومجدو الله ودفع الدوكس للبطرك مالا كثيرا وقاله له: ابن بيعه القديس مارى مرقس واساله السلامة لنا. وعاد الاب البطرك الى المدينة والراس فى حضنه يحملها والكهنه قدامه بالقرا [القراءة] والتسبيح كما يشاكل [يستاهل] استقبال تلك الراس الشريفة الجليله، وصنع تابوتا من خشب الساج وقفلا عليه وجعل الراس فيه،

وذعر الناس، وغلب الرعب كل بلاد مصر، فأخذ الخلق يفدون افواجا من كل حدب الى الاسكندرية تاركين أرضهم وبيوتهم وما فيها من زرع وضرع ومتاع.وبذلك خرج أهل مصر من عهد المقوقس (قيرس) واضطهاده الذى عصف بهم عشر سنين الى عهد آخر من الخوف والفزع.

ولكن عمرا لم يكن عند ذلك ليستطيع أن يسير الى الشمال فى أثر تلك الأفواج الهاربة، فان النيل كان اخذا فى مده يعلو به الماء علوا سريعا فى أواخر شهر أغسطس، فأصبحت البلاد لايمكن السير فيها، وكان فوق ذلك لا يريد أن يخلف وراءه ذلك الحصن العظيم حصن (بابليون) بغير رده من جنوده يدرأ عنه، واذا هو شاء أن يجعل من جنوده رد‌ءا كان لابد له أن يخلف جانبا عظيما من جيشه، فلا يبقى له بعد ذلك من الناس من يقدر بهم على فتح الاسكندرية. فلم يكن له مفر من أن يعمد بعد ذلك الى فتح حصن (بابليون).

حصن بابليون

بقى من حصن بابليون الى نحو أوائل القرن العشرين مايدل على ماكانت عليه هيئته وعظمة خطره. وكان الفضل للقبط فى حفظ تلك البقية إذا أجتمعت لهم كنائس عدة فيه منذ أول عهد المسيحية، لأنهم وجدوا وراء أسواره منعة لهم فى أيام المحنة والشدة، وكانت كل

وكان ينتظر زمانا جيد فيه السبيل الى بناء بيعه. وكان اهتمامه ليلا ونهارا فى اعادة اعضا البيعه التى تفرقت فى ايام هرقل، لا يشغله شى عن ذلك وهو ممتلى من الامانه ومن الروح القدس ونعمة الروح القدس التى كانت مع اتاسيوس الرسولى كانت معه فى كلامه وافعاله، وعلى يديه وبصلواته تراف الرب على شعبه، وبطلبته بدت عمارة ديارات وادى هبيب والمنى. وكانت اعمال الارتدكسين الصالحة تنمو، وكانت الشعوب

أسوار الحصن للقبط إلا ما كان منها للملكانيين وهو موضع كنيسة (مارجرجس)، وإلا ما كان منها لليهود وهو موضع يعتهم.

وقد سبب اسم (بابليون) ارتباكا كبيرا لكتاب العرب، وبقى ذلك الاسم الى اليوم ولكنه لايطلق على الحصن نفسه، فاسمه الآن «قصر الشمع» بل يطلق على دير صغير على مسافة قليلة من الحصن نحو الجنوب وهو (دير بابليون). وكان اسم الحصن باللغة القبطية فى وقت الفتح (بابلون ـ آن ـ خيمى) ومعناه (بابليون مصر) فكان من السهل تحريفه فى اللغة العربية لأن أول جزء منه «باب» ويمكن أن يفهم أن الجزء الثانى منه مضاف الى الأول. ومهما يكن من أمر العرب وتحريفهم لاسم الحصن فقد ظل كتاب أوربا فى القرون الوسطى يطلقون على ذلك الموضع اسم (بابليون) وليس اسم مصر، وحفظوا تلك التسمية الى ما بعد بناء القاهرة، فصاروا يطلقون على مدينة مصر اسم (بابليون) ويسمون حاكمها (سلطان بابليون).

وبعد فلنا كلمة أخرى فانه لم يرد لنا إلا القليل من أخبار ما كان فى داخل الحصن من البناء فى وقت حصار عمرو له، ولكنا نعرف أنه قد كان به مقياس للنيل بقيت آثاره الى أيام المقريزى[١] وكذلك نعرف أن بعض مابقى به الى اليوم من الكنائس كان عند ذلك قائما

(١) وقال عن ديرالبنات فى قصر الشمع «وكان هناك مقياس النيل قبل الاسلام ولا تزال توجد آثار منه الى يومنا هذا» (نقله أبو صالح عن الخطط فى ذيل الكتاب صفحة ٣٢٥).

فرحين مثل العجول الصغار اذا حل رباطهم واطلقو على لبان أمهاتهم.

فلما عاد عمرو الى مصر خرج منها الى معونه كبيرهم وانفذ الى مصر عوضه رجل يسمى عبدالله بن سعد(*) فوصل ومعه خلق كثير وكان محبا للمال فجمع له بمصر أهرا. وهو أول من بنى الديوان بمصر وامر ان يستخرج [يجمع] فيه جميع خراج الكوره.

(*) هو عبدالله بن سعد ابنى أبى سرح ا ت: ٦٥٧م] كان قد صحب عمرو بن العاصي عند غزو مصر ثم تولي مصر سنة ٢٥هـ= ٦٤٥م= ٣٦٢ قبطية: بعد عزل عمرو بن العاصى، فأستمر ١٢ سنه، مات بعسقلان فجأة بعد أن انضم إلى معاوية سنة ٦٥٧م = ٣٧هـ.

تصلى به جنود الروم، نضرب لذلك مثل الكنيسة الكبرى كنيسة (أبو سرجة)، ولعل منها كذلك كنيسة (المعلقة) نراها اليوم بعد أن مضى عليها من الدهر ثلاثة عشر قرنا[1].

حصار حصن بابليون وفتحه

عاد عمرو منذ أوّل شهر سبتمبر إلى حصن بابليون وجهز نفسه لكي يضيق عليه الحصار، وكان العرب قد غنموا بعض آلة الحرب في غزاة الفيوم ومن حصن تراجان في منوف.

(١) الظاهر أنه لا محل للشك فيما يخص أبا سرجة. على أنه عندما كتبنا كتاب «Coptic Churches» لم نجرأ على أن نذهب إلى أن شيئا من هذه الأبنية قديم مثل هذا القدم وقد ذكر (أبو سرجة) حوالي سنة ٦٩٠ في كتاب أميلنو «Vie du Pat. Isaac» صفحة ٤٦ ونعلم كذلك من القطعة التي وجدت عن حياة بنيامين أنه كان عند الفتح أسقف لحصن بابليون وأسقف لحلوان وهذا دليل قوى على كثرة عدد الكنائس في هذه الجهة، وقد كتبت لوحة ذكر فيها أن المعلقة قد افتداها القبط من عمرو. على أن الكنيسة وان وجدت يشك الانسان في أنها كانت على ما هي عليه الآن فوق الباب الروماني فان الأسوار الخارجية ليست رومانية في شيء وجزء من الكنيسة قائم على أسوار بناؤها يجعل استعمال الباب غير ممكن وعلى ذلك فهي مبنية بعد الفتح العربي وقد أخطأ الواقدى إذ قال إن (دير بولص) وهو قصر الشمع وبه المعلقة ودير بولص الذى ذكره وهو لا بدّ الدير الصغير الواقع خارج الحصن واسمه (دير بولص) قائم على غور بين الأطلال التى فى جنوب الحصن.
وتوجد بالحصن بيعة لليهود كانت في الأصل كنيسة مسيحية ترجع إلى ما قبل الفتح وهي ذات دلالة عظمى. ولقد هدمها اليهود حديثا ليقيموا محلها مكانا آخر لعباداتهم وقد هدم اليهود كذلك جانبا عظيما من السور.

وحدث فى ايامه غلا عظيم لم يحدث مثله من زمان اكلوديس الملك الكافر والى ايامه، وانحدر كلمن فى الصعيد الى الريف فى طلب الغله وكان الموتى مطروحين فى الشوارع والأسواق مثل السمك الذى يرميه الما [ء] على البر لا يجدون من يدفنهم، واكلو بعضهم بعضا. ولو لم يتراف الرب بكثرة رحمته وصلاة ابينا بنيامين القديس ويزول ذلك الغلا بسرعة كان قد فنى كل يوم من الناس ربوات لا يحصين. لكن الرب قبل صلاة

ولا خلاف بين مؤرّخى العرب أجمعين فى أن المقوقس كان بالحصن عند ابتداء الحصار، وكان تيودور كذلك بالحصن قبل وقعة عين شمس. ولا ندرى اذا كان قد حضر الوقعة بنفسه أم لم يحضرها، ولعله كان هناك ثم لحق بالهاربين بعد الهزيمة ولاذ بالاسكندرية. وعلى ذلك كان (قيرس) القائد الأكبر فى الحصن وهو خليفة هرقل على مصر، ولكن القائد الذى كان يدبر أمر الجنود هو من يسميه العرب (الأعيرج) ولعل ذلك تحريف منهم لأسم (جورج). ولو كان الأمر كذلك لكان هذا الرجل خلاف الحاكم (جورج) الذى أمره عمرو أن يقيم له جسرا على ترعة قليوب. وكان فى الحصن كل الجنود التى كانت تحت إمره جورج تبلغ الخمسة آلاف أو الستة آلاف لا يمكن أن تزيد على ذلك كثيرا، وكان بالحصن كثير من الأزواد والذخائر من كل نوع، وكان قد اجتمع به عدد عظيم من غير الجند من أهل مدينة مصر والأديرة المجاورة، ولكن أغلب الظن أن هؤلاء أخرجوا عن طريق النهر ليوسعوا على الجنود. ويجدر بنا هنا أن نذكر أن كل الكنائس التى كانت فى داخل الحصن كانت تؤمها قسوس على المذهب (الخلقيدونى) أو الملكانى، ولم يبح لأحد هناك أن يتعبد على غير ذلك المذهب، فان قيرس كان لا يزال على عهده العدوّ الأكبر لمذهب القبط، وبقى على ذلك إلى آخر أمره. وإن فى وجوده بالحصن لأقوى دليل إذا احتاج الأمر إلى دليل على أنه لم يبق بالحصن من

البطرك ورحم شعبه واشبعهم من خيراته وافتقد ميراته بصلاحه، كما هو مكتوب: ان اعين الكل اليك ناظره ترجوك لتعطيهم طعامهم فى حينه واذا اعطيتهم يعيشون ومن الطيبات يشبعون.

وكان القديس بنيامين معه انسان مملو نعمة وحكمه وديع مثل الحمام اسمه اغاتون كان قسا فى الكنيسة وهو من اهل مريوط وكان فى زمان هرقل يتزيا بزى العلمانيين فى مدينة اسكندريه

القبط إلى من أزالهم الاضطهاد عن عقيدتهم. بل إن الروم أساءوا الظن ببعض هؤلاء فوضعوهم فى السجن وأنزلوا بهم فيه نكالا فظيعا.

ومن ذلك نعرف أن مؤرّخى العرب ومن قال قولهم إنما يمسخون الحقيقة ويقلبونها قلبا إذ يقولون إن جند الحصن أو كل من كان به كانوا من القبط. فان القبط لم يكونوا فى شيء من القتال ولا الجيوش، وكان الاضطهاد فى مدّة السنوات العشر قد شطر مذهبهم وفرقهم، فكان منهم من ذهبوا أفرادا وجماعات فهربوا الى الجبال والكهوف أو أووا الى الصحراء أو لاذوا بالأديرة الحصينة فى الصعيد. وأما أقباط مصر السفلى وبابليون والاسكندرية فقد اضطروا الى الدخول فى مذهب الدولة ولم يغن عنهم شيئا ما كان فى قلوبهم من كره لما دخلوا فيه. وقد كتب مؤرّخو العرب بعد الفتح بقرون فكانوا يذكرون جيوش المصريين وقوّاد المصريين لا يميزون بين القبط والروم، فكثرت من ذلك زلاتهم وعظم خلطهم.

كان المقوقس آمنا الى حين فى قصره المنيع تحيط به مياه النيل. ولكن ما كانت تلك الحال لتبقى فان الماء فى الخندق كان لابد له أن يهبط بعد حين.

فما مضى شهر من الحصار حتى جمع (قيرس) من وثق بهم من رؤوس الحرس ودعا معهم أسقف بابليون الملكانى، واستشارهم سرا فى الأمر وبسط لهم رأيه. وكان ذلك فى أوائل شهر

ويطوف فى الليل يثبت الارتدكسيين المختفين ويقضى حوايجهم ويعطيهم من السراير المقدسة. واذا كان بالنهار حمل على كتفه قفة فيها [الآت] النجارين ويظهر أنه نجار يعطيهم من السرار ويصبرهم ويعزيهم. فمكث هكذا عشر سنين إلى حين ظهور المسلمين فلما عاد المغبوط بنيامين الى كرسيه بسلام جعله معه مثل ابنه فى تدبير البيعه المقدسه. ولحق الاب المغبوط بنيامين مرض فى رجليه معما [مع ما] انتهى إليه من الشيخوخه،

أكتوبر سنة ٦٤٠ ؛ وقال لهم إن الدورة فى الحرب كانت عليهم فقضى أعداؤهم على أكبر جيوشهم، ثم أتوا لحصارهم بما لا قبل لهم به، من قوم أكثر منهم عددا وأشدَ فى الحرب بأسا. وقال إنه لا يتوقع أن يأتى اليهم مدد يرفع عنهم الحصر قبل مضى أشهر، واذا كان الحصن يستطيع المقاومة والصبر وهو أمر لاشك فيه، فان عقبى الحرب كانت كذلك لا شك فيها، وما كانت تلك العقبى إلا وبالا عليهم. ومنذ كان الأمر كذلك كان خيرا لهم أن يفدوا أنفسهم بالمال فيعطوا اعداءهم منه ليرحلوا عنهم، فاذا هم استطاعوا ذلك وأمكنهم أن يعدو العرب عن البلاد بمال يبذلونه لهم كان فى ذلك كل الخير، إذ يخلصون مصر فتعود الى دولة الروم.

رأى المجتمعين على أن يذهب قيرس وأصحابه تحت ستار الليل إلى جزيرة الروضة بغير أن يحس بهم أحد، ويبعثوا الى قائد العرب بما أرادوا فيفاوضوه ولم يطلع على الأمر مطلع[1].

ولما بلغ جزيرة الروضة أرسل إلى عمرو جماعة كان منهم أسقف (بابليون) فلقيهم عمرو وبعد أن قراء رسالتهم قال لهم: «ليس بينى وبينكم إلا احدى ثلاث خصال إما أن دخلتم فى الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم مالنا وان أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون واما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو أحكم الحاكمين».

(١) جاء فى المقريزى أن الآراء مختلفة فى وجود (جورج) مع المقوقس ويقول السيوطى إنه بقى فى الحصن أوّلا ثم لحق بالمقوقس.

فاقام بهذا المرض سنتين حتى سالوا [سألوا] فيه القديسون ان يخرجه الله من سجن هذا العالم المملو احزانا وان ينقله اليهم فى الموضع الذى لا حزن فيه ولا كابه، والمملو فرحا فى كورة الاحيا، فقبل دعاهم واخذ اليه تلتة أشخاص وهم اتناسيوس الرسولى، وساويرس، وتاودسيوس البطاركه. فحضرو نياحته وكانو قدام نفسه الشريف والملايكه المقدسون يحملونها على اجنحتهم الطاهره صاعدين بها الى السما بالمجد

فاجتمع عند ذلك المقوقس بصحابه فقالوا: «أما الأمر الأوّل فلا نجيب إليه أبدا فلن نترك دين المسيح إلى دين لا نعرفه» وبذلك أبوا شرط الإسلام فلم يبق إلا الجزية عن يد وصغار أو الحرب. قالوا: «فانا إذا أذعنا للمسلمين ودفعنا الجزية لم نعد أن نكون عبيدا والموت خير من هذا».

مالت نفس المقوقس (قيرس) إلى الاذعان؛ فقد كان وقع في قلبه أن المسلمين لابد منتصرون فذهب ذلك بجرأته وقوّة نفسه. ولكن المسيحيين لم يكونوا جميعا على ما كان عليه بطريق الاسكندرية الرومى، ويلوح لنا أن (جورج) قائد جنود الحصن أتى عند ذلك فلحق بالمجتمعين، ولقى المقوقس من أصحابه عزما شديدا على القتال ورفض ما كان يراه من الإذعان. وهنا ينسدل ستار على الحوادث كما يحدث في كثير من الأحيان فى تاريخ هذا العصر. فلم يبق لنا إلا أن نتلمس ما كان ونتحسس أخباره من وراء ذلك الستار.

ويظهر لنا أن كبار الروم عندما اختلف رأيهم على قبول شروط العرب أو رفضها طلبوا أن يهادنهم العرب شهرا ليروا فيه رأيهم، فأجابهم عمرو جوابا قاطعا إذ قال إنه لن يمهلهم أكثر من أيام ثلاثة. غير أن عمل المقوقس لم يلبث أن ذاع بين الناس، فلما رجع أصحابه إلى الحصن عائدين من الروضة إذا بالناس قد ثار ثائرهم على المقوقس، وأبى جند الإمبراطور إلا القتال، وظهر أمر الذين كانوا يأبون الإذعان، واستقر الأمر على هذا سريعا، فما انتهت أيام

والكرامه واصوات التسبيح والتمجيد بين ايديها حتى وصلت الى كورة القديسين كما يدخل العريس الى خدره والملك الى قصره، فمضى الى تسبيح مالكه، بعد ان اتم جهاده واكمل سعيه وحفظ امانته ولم يهلك واحدا من قطيع رعيته، فى التامن من طوبه بعد ان كان بطركا تسعا وتلين سنه وهو حافظ الامانه لابس اكليل النفى من عند السيد المسيح الذى له المجد مع الاب الرحوم وروح القدس المحيى امين وذلك كما راى فى تكريز بيعة القديس الجليل أبو مقار الذى بنيت فى وطا

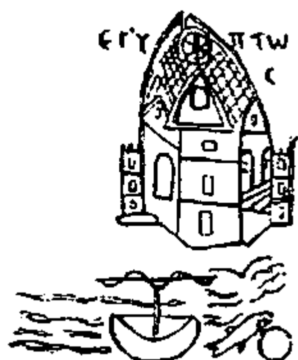

حصن بابليون.
نسيفساء من فترة الاحتلال البيزنطى.

الهدنة الثلاثة حتى أخذ أهل الحصن يتجهزون للخروج إلى المحاصرين يناجزونهم، ولم يبعثوا ردا إلى عمرو. وفيما كان عمرو فى اليوم الرابع بعد انتهاء الهدنة يفكر فيما يصنع إذا بالروم قد خرجوا اليه فوق قناطرهم، غير أن العرب تواردوا اليهم منذ نذروا بهم فتكاثروا عليهم، فما استطاعوا إلا أن يتراجعوا حتى دخلوا إلى الحصن بعد أن قتلت منهم مقتلة عظيمة.

أما المقوقس فانه مازال رأيه من الاذعان والتسليم للعرب مستقرا فى قلبه. ورأى فى انهزام الروم فرصة له إذ أن من عصوه ونبذوا رأيه احتكموا إلى السيف. ورأى المقوقس وهو خليفة الامبراطور على مصر أن النصر على هؤلاء العرب لن يتأتى له، وزادته تلك الهزيمة الجديدة يقينا أنه لن يستطيع طرد العدوّ من البلاد. ثم رأى من كانوا يعصون رأيه وينادون بالقتال قد ضعفت نفوسهم، فلم يلق منهم بعد عصيانا، وأذعنوا له مرغمين جاهمين، على أن يعيد الكرة على عمرو فيبعث إليه فى أمر الصلح.

فعقد الصلح على أن يبعث به إلى الامبراطور فاذا أقره نفذ، وأخذ قيرس على نفسه أن يبعث به إلى هرقل. واتفق الروم والعرب على أن تبقى الجيوش حيث هى إلى أن يجئ رد هرقل، ولا سيما الحصن فقد اتفقا على أن يبقى مع الروم إلى أن يقرّ هرقل الصلح.

ولقد احتار المؤرخون فى موقف المقوقس من الغزو العربى ولم يتمكنوا من كشف حقيقة

الصخرة فيما بين القلالى، ورأى القديس ابو مقار في وقت التكريز وهو قايما بين اولاده بفرح عظيم وخاطبه السارافيم [الملاك] من اجله وقال له: هذا ابو مقار اب البطاركه والاساقفه. وراى ايضا يد السيد المسيح المخلص فى وقت التكريز يمسح الهيكل بالميرون المقدس. وكانت اعجوبه فى ذلك النهار، وهو أن واحد ارخن وله ولد عليل فحضر به الى البيعة المقدسة لياخذ بركة الاب القديس ابو مقار، فظهر القديس للصبى وشفاه من مرضه. وحدث الاب البطرك بجميع ما راه وان السارافيم

موقفه، حتى ان بتلر فى كتابه «فتح العرب لمصر» اتهمه بالخيانة وبانه كان قد وطد نفسه على تسليم مصر للعرب.

ونحن هنا لا يمكننا، بعد استقراء الاحداث، إلا أن نطرح وجهة نظرنا فى هذا الأمر، فنقول: ان المقوقس، وهو من الجند القوقازى المرتزق والذى تمكن من الوصول إلى أرفع المناصب الدينية في بلاده، وقع عليه اختيار الامبراطور هرقل ليحكم مصر جامعاً في يده السلطتين الدينية والإدارية للتوفيق بين مذهب الكنيسة القبطية ومذهب الكنيسة البيزنطية، معتقدا أن تركيز السلطنين فى يد المقوقس سوف يسمح له بإحكام يده على مصر خاصة وانها كانت خارجة في التو من تحت يد الاحتلال الفارسى.

ولكن المقوقس رغم كل هذه المجد الذى منحه له الامبراطور فى مصر كان يطمع فيما هو أكثر من ذلك، خاصة وان الظروف المحيطة بمصر والفوضى التى كانت تعم الامبراطورية وهجوم العرب على الشام واستيلائهم عليها كشفت له عن مدى ضعف الامبراطورية من هنا اتت المقوقس فكرة ان يمالئ العرب ويستقل بمصر عن الامبراطورية البيزنطية ويقبل بحماية العرب فى مقابل أن يُسهل لهم احتلال مصر. والشواهد على ذلك كثيرة منها:

١ـ انه صاحب فكرة تسليم العرب لمصر ودفع الجزية.

اخبر أبينا الاب بنيامين بانتقاله في مثل ذلك النهار الذى هو التامن من طوبه وكان كذلك صلاته تكون معنا امين]. قال انبا اغاتون: ان الذين عقولهم في السما يضوون بمجد الله الذى هو ابو النور ومحبة الله الروحانية تكون فيهم كما هو مكتوب. دوقو وانظرو ان الرب طيب. كذلك الاب بنيامين البطرك معلم الارتدكسيه الذى عرف تفسير الكتب وسكن البريه وظفر بسراير كتيره لانه اقما [قمع] جسده وقطع شهواته لاجل محبة السيد المسيح الاهنا الذى هو فوق الكل، فاما انا الخاطى

٢ـ انه ظل قائماً بمصر رغم عزله من الامبراطور حتى توفى بالاسكندرية ممنيا نفسه بجنى ثمار تحالفه مع العرب.

٣ـ انه حاول فى أخر ايامه اصلاح علاقته مع القبط لهدفين، الأول قبولهم له كحاكم، والثاني قبولهم له كبطرك، بعد القضاء على بنيامين الذى كان مختفيا من الساحة منذ حوالى عشر سنوات، خاصة وانه كان من دعاة التوفيق بين الكنيسة القبطية والكنيسة البيزنطية. وهذا سر قول سعيد بن بطريق (وهو البطريرك افتيخوس الملكى) فى تاريخه ، بان المقوقس كان يعقوبيا في الباطن ولكنه كان فى الظاهر ملكيا.

٤ـ كما لا نستبعد أن العرب قبلوا بذلك فى وقتها كما حدث وقبلوا من الحاكم الفارسى على اليمن الذى قبل بحكم اليمن تحت سلطة العرب مقابل ان يجمع لهم الجزية من اليمنيين.

سافر المقوقس عند ذلك مسرعا فى النهر حتى بلغ الاسكندرية، وبادر بأن بعث إلى الامبراطور كتبا يبين فيها ما كان منه، ويعتذر عنه بأن الحاجة ألجاته إلى ما لجأ اليه من صلح العرب، ويسأله أن يقرّ الصلح حتى يكفى مصر شر الحرب ووبالها. وليس بعجيب أن يكون هرقل قد حار فى أمر تلك الكتب التى جاءته من المقوقس، فانها لا تبين إذا كان الصلح خاصا بحصن بابليون، أو أنه كان صلحا على ترك بلاد مصر جميعها حتى الاسكندرية للعرب، ولا

اغاتون فكنت ولد الاب بنيامين وعرفت كثيرا من فضايله لملازمتي معه، وقال لي ما راه من السر العظيم ظاهرا في تكريز الهيكل المقدس الذى للأب الجليل ابى مقار بوادى هيب وما رتبه من القوانين والطقوس. فمن ذلك قوله لي: لما كنت في مدينتي اسكندريه ونجيت زمانا بسلامه وخلاص من الاضطهاد ومن محاربة المخالفين، وحضر يوم عيد ميلاد السيد المسيح في التامن والعشرين من كيهك ونحن مجتمعون في بيعة السيد الطاهره مرتمريم ام النور التى تدعى «اسطوا

- -

تبين هل يبقى العرب فى البلاد بعد أخذ الجزية، أو يرحلون عنها. فهل كان معنى ذلك الصلح نزع مصر من دولة الروم وإسلامها لأعداء المسيحية؟ لقد كان الامبراطور منذ شهور يلوم قوّاده ولا سيما(قيرس) خليفته على مصر لأنهم فرطوا فى الأمر، حتى استطاعت فئة قليلة من العرب أن ترفع ألويتها فى مصر وتغلب جيوش الدولة. فاذا به وقد بعث اليه بصلح ليس يدرى هل معناه رشوة العدوّ بمال يأخذه على أن يخرج عن تلك البلاد، أم معناه إسلامها له فيبقى ذلك العدوّ سيد الأرض يجبى له خراجها ويتنعم بقمحها وبخيراتها. عجب الامبراطور ولم يدر ما الذى أدّى إلى ذلك الاذعان وعزم على أن يدعو(قيرس) المقوقس ليحاسبه على ما كان منه فى مصر.

فبعث اليه رسالة يأمره فيها بأن يأتى اليه على عجل. ولعل ذلك كان فى وسط نوفمبر. ولم تكن الرسالة مما يطمئن اليه القلب. ولعل المقوقس قد أحس بما أجرم وخشى العاقبة منذ جهز فى نفسه ما يقوله لمولاه إذا هو حاسبه. فلم يكن لأحد سواه علم بما أدّى من أمانته وما أختان منها، ولا بما اتبع من أوامر مولاه بنصها أو بالمقصود منها. ولكن هرقل ثارت ثائرته وعظم غيظه واتهم المقوقس بأنه خان الدولة وتخلى للعرب عنها. ثم حكم عليه بأنه مرتكب جرم، ما كان دونه إلا الموت جزاء ذنبه. ثم شرع يقرعه ويؤنبه على ما كان منه قائلا إنه لم

الجالون» قد عملنا صلوات كثيره بمحضر من جماعة الكهنه ومقدمى المدينه وجميع الشعب الكبار والصغار لنعيد للسيده العدرا التى ولدت الله الكلمه المتجسد بالحقيقة فى العالم رب الارباب وملك الملوك الذى يحق له المجد مع الاب والروح القدس الاله الواحد، ونعيد ايضا فيه للسيد المسيح الابن الوحيد الذى تجسد وصار انسانا وولدته الطاهره العدرا فى بيت لحم يهودا مسيحا واحدا غير مفترق، فرايت رهبان قد دخلو الى وسط الشعب ومنهم كهنه من برية القديس ابى مقار

- -

يكن أكثر غناء من بعض فلاحى مصر، ونعته بالجبن والكفر وأسلمه الى حاكم المدينة فشهره وأوقع به المهانة ثم نفاه من بلاده طريدا.

ولابد أن رفض الامبراطور للصلح كان فى هذه الأثناء قد بلغ العرب وهم فى حصار الحصن، قرب نهاية عام ٦٤٠؛ وانتهى بذلك أمر الهدنة وعاد القتال، وكان النيل عند ذلك يهبط سريعا وهبطت بهبوطه المياه التى فى الخندق، وكلما هبطت خبت معها آمال من فى الحصن إن لم تخب شجاعتهم. فلما فرغ الخندق من مائة استعاض الروم عنه بأن رموا فى قاعة حسك الحديد، وجعلوا ذلك الحسك كثيفا عند مدخل أبواب الحصن ولابد قد كان المسلمون لقاء ذلك يسعون إلى طم الخندق وهدم جوانبه فيه حتى ينفذوا منه.

غير أننا لا نعلم إلا قليلا مما كان فى أثناء ذلك الحصار، فلا نجد غير ذكر الترامى بالالات والضرب بالدبابات وخروج جنود الحصن إلى العرب وهجوم العرب على من بالحصن، ولكن يلوح لنا أن العرب لقوا شيئا من المساعدة فى ذلك الحصار من جماعة لعلهم من أهل الفيوم بعد فتحها، وكانوا أحابيش من الحزبين الأخضر والأزرق فكانت عصبة من الحزب الأخضر يقودها(ميناس)، وأخرى من الأزرق يقودها (كزماس بن صمويل) تعبران النهر ليلا إلى الروضة فتنهبان فيها، أو تهبطان على ما قد يكون بالنهر من سفن الروم أثناء عبورها إلى الحصن أو

وعليهم سكينه ووقار كأنهم من الملايكه فلم يقدرو يصلون لى من كثرة الشعب، فتقدم الى احد الكهنه وعرفني بدخولهم فقلت له: قد رايتهم. وامرته فاستدعاهم فلما دنوا مني استعلمت منهم سبب مجيهم ووصولهم. فقالو: جينا اليك قاصدين نسال ابوتك بمطانوه من اجل الله ان تتكلف مشقه الطريق الى الدير في الجبل المقدس وادى هبيب مسكن ابينا ابى مقار الكبير لتكرز البيعه الجديده التي بنيت له في وطا اسفل الصخره فيما بين القلالي لن [لأن] كثيرا من الشيوخ

رسوّها إلى جانب الباب الحديدى، فكانت هذه الغزوات تؤذى حامية الحصن أذى كبيرا وتنقص من هيبة الروم وسلطانهم فى النهر.

ولما مضى الشتاء قل خروج الروم من الحصن وقتالهم للمسلمين، فى حين كثر هجوم المسلمين على الحصن وزاد شدَة، واشتدّت وطأة القتال على الروم وخارت قواهم عن الدفاع. على أن حصونهم مازالت على عهدها لم يصدع الحصار منها إلا قليلا. ثم فتك المرض بأهل الحصن[1] فقل عددهم ولم يأتهم المدد، يتطلع حراسهم وهم فوق صروحهم إلى ما حولهم من الآفاق فلا يجدون أثرا يلوح من رماح الروم ودوروعهم طالعا من بين قباب الأديرة البيضاء التى تملأ السهل فى شمال الحصن.

وكان النهر عند ذلك قد هبط وجفت الأرض، وإذا كان ثم أمل فى قدوم جيش من الروم لإمداد الحصن فقد كان ذلك وقته وتلك فرصته.

ومر اليوم بعد اليوم ولا شئ يبشر أهل الحصن ولا كتاب يدخل إلى قلوبهم الرجاء. فلم تبلغهم إلا أنباء سوء وشوم. فقد بلغهم نبأ غضب هرقل على المقوقس، ونقضه لأمر الصلح

(١) جاء ذكر هذا المرض فى كتاب ياقوت ولنا أن نصدّق هذا الخبر مع أنه مقرون بخبر آخر لا يمكن تصديقه وهو أن عدد الذين قتلوا داخل الحصن بسهام المسلمين كان ١٢,٣٠٠.

والضعفا سكان قلالى بعيده من الما [ء] ويتعبون اذا صعدو الى فوق، وانعم علينا يا ابانا وتحمل التعب لتاخذ الابا الرهبان بركتك لانهم كلهم مشتهون لنظر قدسك. فلما سمعت هذا منهم قلت لهم بمسكنتي بفرح: اترى حقا يجعلني الله مستحقا لهذا الامر. فاقامو حتى كملنا العيد ذلك اليوم وغده الذى هو تسعة وعشرون يوما من كيهك، ثم قلت لك يا اغاتون ولقزما الكاتب رفيقك: اهتمو لنا بحاجات المسير الى وادى هبيب لنتبارك من الاب ابى مقار ومن الاخوه الرهبان.

وحكمه عليه بالنفي، ولكن لم يبعث الامبراطور أحدا من جنوده الذين كان بهم معجبا، ولم تغن عن الحصن شيئا أوامره التي بعث بها إلى فؤاده.

غير أن الروم المحاصرين مازالوا يعللون النفس بالآمال إلى أن سمعوا يوما تكبيرا عاليا في عسكر المسلمين، وذلك في أوائل شهر مارس سنة ٦٤١. فلما استطلعوا الأمر عرفوا أن هرقل قد مات. فخارت عند ذلك نفوسهم (١)» وحسبنا بقوله هذا دليلا على ما أحدثه موته من الأثر في جند مصر. وأما العرب فقد زادهم نبأ موته شدّة وجرأة وضاعف من همتهم في فتح الحصن.

ولكن قد بقي الحصن بعد ذلك شهرا لا يسلم، فلما أبطأ الفتح قيل إن الزبير أقبل مع جماعة يقودهم لفتح الحصن بعد أن أعدّ لذلك الأمر عدّته. وكان الخندق قد طم جزء منه استعدادا للهجوم، ولم يعق العرب عن ذلك دفاع أهل الحصن، وكانوا يفتك بهم اليأس والمرض. ولكن ساعة الهجوم بقيت سرا: فلما جاء وقتها أقبل الناس سراعا تحت جنح

(١) عن السيوطي وهو يأتي بالتاريخ الخطئ أى سنة ١٩ للهجرة ثم يذكر التاريخ الصحيح رواية عن الليث وهو عام ٢٠ للهجرة(٦٤١ للميلاد) وقد مات هرقل في ١١ فبراير سنة ٦٤١ أى قبل بدء حصار الاسكندرية بشهور ويخطئ المقريزى نفس الخطأ ولكنه يقول«واستأسدت العرب عند ذلك وألحت بالقتال على أهل الاسكندرية».

ففعلنا ذلك وقدمنا مسيرنا فى اليوم التانى من طوبه فلما وصلنا الى تروجه تلقانا أهلها بفرح عظيم، ثم وصلنا برية المنى التى لابا اسحق عند جبل برنوج ففرحو بنا ايضا الاخوه الذين هناك واقمنا يومين وودعونا وسار بعضهم معنا ليدلونا على الطريق الموديه الى البريه والى الجبل، وكانو قديسين فضلا، فوصلونا الى غايه بريه جبل النطرون، ثم توجهنا الى دير برمسوس، ومكسيموس، ودوماديوس. ونزلنا بيعة القديس ايسيدورس واقمنا هناك يوما واحدا، ومضوا الاخوه

الليل[١]، ووضع الزبير سلما على السور ولم يفطن اليه أحد[٢]، فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبر وسيفه في يده.

وهكذا اجتمع كبار جند الروم على عجل فى أول الصباح الباكر فسألوا عمرا الصلح،

(١) اليعقوبى هو المؤرّخ الرحيد الذى يذكر أن الهجوم كان بالليل.

(٢) ليس من السهل أن نعرف فى أى موضع وضع سلم العرب فان المقريزى وأبا المحاسن يذكران أنه كان بقرب الموضع الذى كان معروفا فى أيامهما باسم«سوق الحمام» ويقول ياقوت إنه كان بقرب الموضع الذى بنى فيما بعد«بيت أبى صالح الحرانى» بقرب حمامات «أبى نصر السراج» بجوار السو ق المتقدم الذكر. ويقول ابن بطريق إنه كان بجوار سوق الحمام ثم يقول إنه كان فى الجانب الجنوبى من الحصن وهو تفصيل يتفق مع ما قاله البلاذرى فان هذا المؤرّخ بعد أن وصف مجئ الزبير وهو بالطبع آت من الشمال يقول إنه وضع السلم على«الجانب الآخر» أى الجنوبى ولكن الموضع المسمى«سوق الحمام» كان فى الغالب جزءا من مدينة الفسطاط وقد زالت الآن زوالا تاما والظاهر لنا أن الهجوم كان على مقربة من الركن الجنوبى الغربى من الحصن ولا تزال الأسوار هناك قائمة.
ولا شك فى هذه الحادثة فى نظرنا فالبلاذرى يذكر أنه عند اختطاط الفسطاط بنى الزبير لنفسه بيتابها فورثه ابنه وقال انه لا يزال فيه السلم الذى صعد عليه الحصن(وذلك فى القرن التاسع). ويقول ياقوت إنه يقال إن سلم الزبير كان محفوظا فى منزل بسوق وردان حتى احترق المنزل فى سنة ٣٩٠(حوالى سنة ١٠٠٠ للميلاد).
ويذكر ياقوت سلما آخر ويقول إن شرحبيل بن جحيرة المرادى صعد عليه فى موضع بقرب«شارع الزمارين» ولكن هذه الدلالة قد ضاعت مع مدينة الفسطاط.

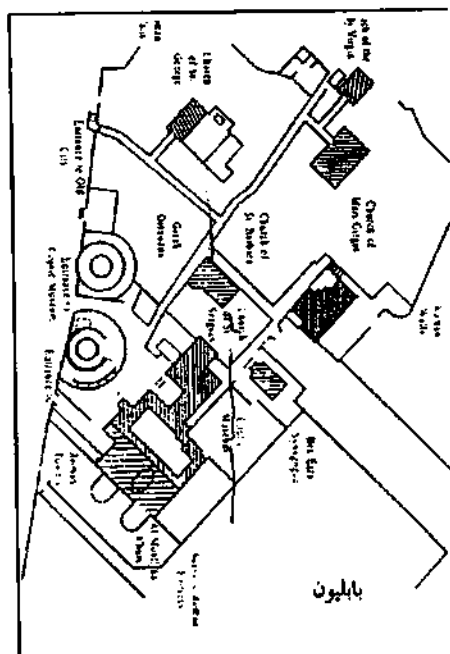

الرهبان الذين كانوا اتونا الى مدينة اسكندرية فاعلموا رهبان دير أبى مقار بوصولنا وبقى عندنا اتنان من كهنتهم مع الاخوه الذين صحبونا من المنيا، فخرج إلينا بعض الرهبان وتوجهنا فى اليوم السابع من طوبه الى بقية الديارات وتباركنا منها، وتوجهنا الى دير القديس أبى مقار فلما قربنا منه تلقانا رهبان شباب بزعف [سعف] النخل فى ايديهم وبعدهم شيوخ فى ايديهم مجامر البخور وجماعة الكهنة يقررون مثل الملايكة متشبهين بمن تلقى السيد المسيح من أورشليم يوم الشعانين.

وعرض(جورج) قائد الجند فى الحصن أن يسلم على أن يأمن كل من هناك من الجند على أنفسهم. فقبل عمرو منهم الصلح وخالفه الزبير خلافا شديدا فى ذلك، وقال له إنه كان على وشك أن يفتح الحصن عنوة، وقال«لو صبرت قليلا لنزلت من السور إلى داخل الحصن ولكان الأمر على ما نشتهى». ولكن عمرا لم يلتفت إلى ما قاله وكتب عهد الصلح على أن يخرج الجند من الحصن فى ثلاثة أيام، فينزلوا بالنهر ويحملوا ما يلزم لهم من القوت لبضعة أيام، وأما الحصن وما فيه من الذخائر وآلات الحرب فيأخذ العرب كل ذلك[١] ويدفع أهل المدينة للمسلمين الجزية.

(١) كان من أصعب الأمور أن تؤلف قصة لفتح بابليون فان خبر صعود الزبير أسوار الحصن جاءت أوّلا من ابن عبدالحكم ولكن مؤرّخى العرب غيروها وبدلوا فيها حتى خرجوا بها إلى حدّ السخف فيقول المقريزى إن الروم قد هربوا عندما سمعوا صياح المسلمين وفتح الزبير الباب فدخله العرب فخاف المقوقس وعرض الصلح ودفع الجزية. على أن المقوس لم يكن هناك عند ذلك وليس من المعقول أن يفاوض فى الصلح لو فتح الحصن عنوة. وقد روى أبوالمحاسن القصة على هذه الصورة عينها والسيوطى مثلهما فى الخلط فانه يذكر أن المسلمين لما دخلوا الحصن أرسل المقوقس إلى عمرو يعرض عليه الصلح ولكن الرواية التى ذكرناها هنا مأخوذة عن الطبرى وانها لواضحة وقريبة إلى الذهن فلسنا نتردّد فى قبولها ولو أن ذلك المؤرّخ قد خلط فى كثير من أخبار الغزو. ويجدر بنا أن نذكر أن المؤرّخين متفقون على أن مدّة الحصار كانت سبعة أشهر فى حين أنهم يختلفون فى ذكر التسليم ويخلطون بينه وبين تاريخ الصلح الذى عقده (قيرس) ولم يقره الامبراطور. وعلى ذلك يجعل ذلك التاريخ فى وقت فيضان النيل.

وجعلو يعطون ضعفى ما لا استحقه. وكان معهم المعلم الكبير بسيليوس أسقف نيقيوس فمجدنى السيد المسيح إذ جعلنى مستحقا دفعة اخرى ان انظر هذه البرية الجليلة وهولا الأبا والاخوه القديسين واظهار الامانة الأرتدكسيه وخلصنى من اضطهاد المخالفين ونجى نفسى من التنين العظيم المطغى الطارد لى لجل الأمانة المستقيمة، ووهبنى ان أشاهد اولادى دفعة اخرى وهم محيطون بى. ثم ساير جميع الكهنه والاخوه الرهبان امامى الى ان دخلت البيعه المسيحيه المستجده

وكانت حملة العرب الأخيرة على الحصن في يوم الجمعة السابق لعيد الفصح وذلك فى السادس من أبريل سنة ٦٤١ وكان خروج الروم منه فى يوم الاثنين وهو عيد الفصح. وفى مدّة تلك الأيام الثلاثة جمع الروم السفن من جزيرة الروضة ووضعوا فيها المؤونة وأخذوا فى التجهز للهبوط فى النيل إلى مصر السفلى (الدلتا) والاسكندرية.

ويجدر بنا أن نذكر هنا أن كبار الروم لم يتعظوا بما كان ولم ترق قلوبهم لما نزل بهم من ذهاب أمر المسيحيين فى مصر، ولم تقع فى نفوسهم حرمة ليوم الفصح الذى خرجوا فيه، فبقيت فى صدورهم العداوة والشحناء المذهبية لم يذهب منها شيء. وقد ذكرنا من قبل أنهم سجنوا فى أوّل الحصار كثيرا من القبط الذين كانوا فى الحصن، وذلك لأنهم أبوا أن يتركوا دينهم أو لأنهم رابهم منهم أمر. فلما جاء يوم الفصح الذى كان فيه الخروج من الحصن جعله الروم يوم وقعة ونقمة من هؤلاء المسجونين التعساء، فسحبوهم من سجونهم وضربوهم بالسياط وقطع الجند أيديهم، أمرهم بذلك كبيرهم (اودوقيانوس). ولا عجب مع هذا أن نجد حنا النيقوسى يسبهم فى ديوانه حانقا ويسميهم «أعداء المسيح الذين دنسوا الدين برجس بدعهم وفتنوا الناس عن إيمانهم فتنة شديدة لم يأت بمثلها عبدة الأوثان ولا الهمج، وعصوا المسيح وأذلوا أتباعه. فلم يكن فى الناس من أتى بمثل سيئاتهم ولو كانوا من عبدة الأوثان».

فصرت كانى قد دخلت الفردوس مجمع الملايكه ومسرة القديسين وموضع راحة الصديقين. واذكنا بغداة اليوم التامن من طوبة فقلت: ايتونى بالقس أغاتون الذى تعب معى على الأمانة فى زمان الشدايد التى لحقتنى عند مطاردة المقوقس عدو الحق لضعفى، فلما اتيتنى قلت لك: يا ولدى اخرج الكتب التى تصلح للتكريز. فاخرجتها لى ثم بدأنا الصلاة ومعى أبا باسيليوس اسقف نقيوس وكل الكهنة محيطون بى وجميع الرهبان كما قد رأيت، فبينما انا كذلك إذ

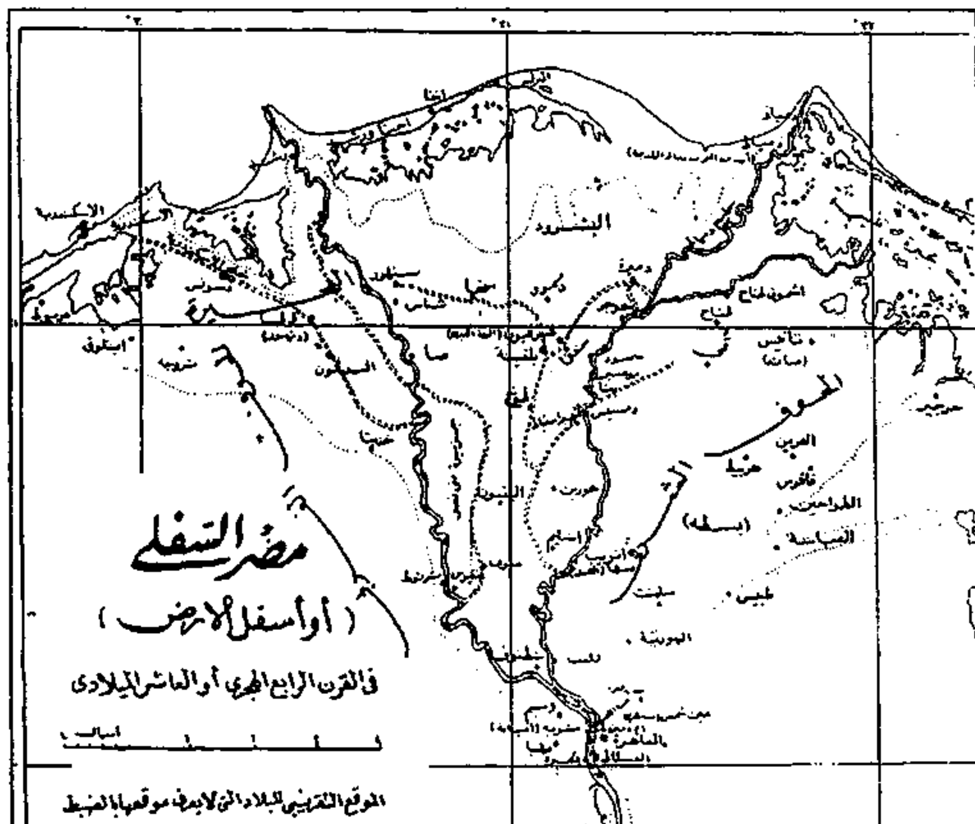

رايت شيخا على وجهه نور عظيم وضو ساطع فشخصت اليه وتاملته وقلت فى نفسى هذا يصلح ان يجعل اسقفا ليرعى شعبا كتيرا، فان اراد الرب إذا خلا كرسى جعلته عليه لن [لأن] هذا الشخص رجل قديس يصلح لهذا الأمر. فبينما انا مفكر فى هذا إذ رأيت سارافيم قد ظهر لى وله ستة اجنحة وهو قايم الى جانبى فقال لى: يا اسقف لماذا انت مفكر فى هذا الشيخ هذا أبو مقار أبو البطاركة والأساقفة والرهبان الذين فى هذه البرية قد حضر لتكريز هذه البيعة. فبهت اليه

ويصف الأسقف المصرى أنين أولئك الأسرى الذين مثل بهم وبكاءهم إذ يساقون مطرودين من الحصن يشيعهم السباب. وأنه ليس بغريب مع ذلك من مثل الأسقف المصرى أن يقول إن فتح الحصن للمسلمين لم يكن إلا عقابا من الله على ما فعله الروم من الأفاعيل فى القبط، ولو أن مثل هذا القول ليس مما يصح فى الأذهان. على أن ذلك الأمر له معنى إذ يدل على ما كان بين شيعتى المذهبين المسيحيين من عداوة لا تحل عقدتها، بقيت فى قلوبهم لم تخب ولم تخمد نارها مع ما ظهر من ثمار اختلافهم وعواقب تخاذلهم من فوز الاسلام وعلوّ أمره.

السير الى الاسكندرية

انتهى حصار بابليون فى اليوم التاسع من أبريل سنة ٦٤١ بعد أن لبث سبعة أشهر، وهذا أمر قد ورد جليا فى أخبار العرب. على أن جل مؤرّخيهم إن لم يكونوا كلهم يخلطون الصلح الأخير الذى سلمت به الروم الحصن بعد أن نفى المقوقس من مصر، بالصلح الذى حدث قبل ذلك فى أوان الفيضان بعد بدء الحصار ببضعة أسابيع، وهو الذى عقده المقوقس ولم يقرّه الامبراطور.

ولكن الصلح الذى أبرم عند بابليون لم يكن إلا عهدا حربيا، ولم يكن عقدا سياسيا. فقد رضى فيه عمرو بأن يشترى الحصن ويدفع ثمنا له تأمين من كانوا فيه، وخروجهم منه بغير أن يسلموا أو يدفعوا الجزية، وانما دفع الجزية من بقى. واذ كان ذلك العهد لا يمس إلا مدينة

وتاملتـه وهو قـايم بين اولاده بفـرح عظيـم وكـان صوت ذلك السارافيم يطن في مسامعي وقد خفت منه. ثم قال لي: ان سلكوا اولاده الطريق المستقيم الذى سلكه فـسيـدخلون معـه الى مـوضع الملك ويفـرحـون مـعـه، ومن خـالف وصـاياه لم يكن له مـعهم نصـيب بل يطرد من القطيع و لا يكون له مـعـه ميـراث. فـقـال له القديس أبو مـقـار: تختم يا سيـدى عل اولادى بهـذا القـول لانه إذا وجـد في العنقود حبه واحده لا يتلف لان بركة الله فيـه فانا ايضـا اومن بالمسيـح حبيب نفسي انه إذا وجـد في

مصر والحصن فقد كانت الجزية قليلة ومؤقتة، فقال مؤرّخ إنها كانت دينارا لكل من جنود العرب ولباسا[1]، وكانوا في أشدّ الحاجة إليه.

ولكن هذا الصلح أحدث في دولة الروم أثرا كبيرا، مع أنه لم يكن إلا صلحا مقصورا على جماعة صغيرة. وسبب ذلك مكانة ممفيس أو بابليون ، فإنها وان لم يبق لها المحل الأوّل في البلاد إذ مضى عليها زمن طويل وليست هي عاصمة البلاد، كانت لا تزال ذات شأن عظيم إذ كانت باب إقليم الصعيد وإقليم مصر السفلى. وكان حصنها منيعا لا يكاد ينال، فإذا هو وقع في يد عدوّ دانت له بلاد الصعيد جميعا وهابته بلاد مصر السفلى في الشمال. ولسنا ندرى ماذا كان قـوّاد الروم يصنعـون طول مدّة الشتاء وما الذى حـملهم على أن يخلوا مـا بين المسلمين وبين الحصن حتى استطاعوا على مر الزمن أن ينزلوا من فيه. ولكنا نعلم حق العلم أن الروم ضعفت قوّتهم وخارت عزيمتهم عندما فتح العرب ذلك الحصن، في حين أن العرب زادوا قوّة وجرأة، وأصبح في يد عمرو ملك الفرما وبلبيس وأتريب وعين شمس. فكان باسطا سلطانه على الجانب الشرقي كله من مصر السفلى، فلما دان له الحصن صار سلطانه ثابتا

(١) يذكر المقريزى حديثا لابن وهب نقلا عن عبدالرحمن بن شريح جاءت فيه هذه العبارة وهى قريبة الى الأذهان. وكانت الملابس عبارة عن جبة وبرنس وعمامة وخفين فاذا قلنا إن عدد العرب كان عند ذلك قد نقص الى ١٢,٠٠٠ أمكن أن نفسر ما ذكره بعض الكتاب من أن الجزية قد بلغ قدرها ١٢,٠٠٠ دينار ويخطىء من يقول إن هذا هو مجموع الجزية التى فرضت على مصر جميعها وسبب ذلك أن اسم مصر يطلق كما هو حادث في كثير من الأحوال على القطر كله فيسمى باسم المدينة.

اولادى وصية واحدة وهى المحبه بعضهم لبعض او يرفعون اعينهم الى السما الى السيد المسيح ولو دفعة واحده فى كل يوم فالرب لا ينساهم من رحمته بل ينجيهم من عذاب الجحيم الابدى لان الرب محب البشر قد جعل للخاطى التوبه وليس يريدى موت الخاطى الى ان يرجع ويتوب فيقبله . فلما سمعت كلام القديس أبى مقار مع السارافيم عرفت محبته لولاده. وتفسير اسم الاب ابى مقار «المكرم من الله ومن الناس الطوبانى» هذا هو «الشبكه» التى تجمع من كل جنس الى ملكوت

على مجمع النهرين، وجمع فى يده أزمة وادى النيل الأوسط، وتم له بذلك الشطر من فتح مصر.

وكان عمرو شديد الرغبة فى أن يسير جنوده نحو الاسكندرية، بعد أن طالت مدّة إقامتهم بالعسكر فى مصر. وكان يعرف أنه لن تمرّ ثلاثة أشهر حتى يكون النيل قد أخذ يعود إليه مدّة وفيضه، فكان الوقت دونه غير متسع وفى ضياعه مضيعة وخسارة، فأرسل الى عمر بن الخطاب يصف له ما كان ويستمدّه. على حين شرع يدبر أمر المدينة التى فتحها وما حولها من إقليمها. وأخذ يرم بناء الحصن وجعل فيه قوة مسلحة من المسلمين عليهم خارجة بن حذافة السهمى. وما كان أعظم سرور عمرو إذ رأى نفسه على ظهر جواده مرة أخرى يسير مع جيشه إلى الاسكندرية وقد جعلوا الحصن وراء ظهورهم وساروا نحو الشمال يتبعون شاطىء الفرع الغربى للنيل.

ولا شك أن أول ما قصد اليه عمرو فى سيره نحو الإسكندرية كان مدينة نقيوس (شمشير الحالية)، وكانت مدينة [1] ذات شأن عظيم وحصنا ذا منعة وقوّة، وهى على الشاطىء

(١) إن اسم وردان الذى لا يزال محفوظا فى قرية على الجانب الغربى للنيل إذا أضفنا إليه ما جاء فى المقريزى من الأخبار بدا لنا أن عمرا سار أوّلا على الجانب الغربى للنيل فى مسيرة إلى نقيوس . حقا إن هذا الطريق كان قليل العقبات وأسهل سيرا من الأرض التى بين فرعى النيل وهى تعترضها الخلجان والترع ما دام عمرو واثقا من أنه يستطيع عبور النيل عند العتريس أو بنى سلامة. وقد قال المقريزى «وكان عمرو حين=

الله اعنى الاب ابا مقار تلميذ الله، الرب، فقلت بحيث يسمعنى من هو قريب منى: طوباك يا ابا مقار وطوبى لطقسك وطوبى لولادك اذ استحقو ان تكون لهم شفيعاقويا امام موضع حكم الله محينا اذ اتى ملكنا والاهنا يسوع المسيح في ظهوره التانى ليجازى كل احد كاعماله، بالحقيقة يا ابا مقار السفينه العظيمه الحامله الانفس الكتيره المودية بها الى مينا السلامه والخلاص والشفيع لجميعنا كما قال داود في مزمرره: طوبى للرجل الذى لم يسلك في موامرة المنافقين وفى طريق

الشرقى لفرعى النيل الغربى الذى هو فرع رشيد، على مسيرة يوم من حصن بابليون، وعلى ساعتين من مدينة منوف، وكانت منوف إذ ذاك فى ملك العرب. وكانت نقيوس فوق عظمتها مدينة قديمة بها الآثار الجليلة من أيام الفراعنة، وكانت مقر أحد كبار رؤوس الدين المسيحى، ولها مكانة حربية كبرى فى حفظ الطريق بين حصن بابليون والاسكندرية. فكان لابد للروم أن يجتمعوا هناك مرة أخرى للقاء العرب.

والظاهر أن عمرا ابتدأ سيره أولا على الضفة الغربية للنهر من ناحية الصحراء، ففيها مجال أوسع لخيله لا يعوقها هناك ما يعترض مصر السفلى من الترع الكثيرة. وكان الروم على توقع أن يفعل ذلك فلا قوّة هناك، وكان أوّل ما التحموا بجيشه عند مدينة قديمة معروفة وهى (طر نوتى) أو (طرنوط)، أو كما يسميها العرب (الطرانة). وكان فى تلك المدينة فرضة يعبر النيل عندها فى الذهاب الى الاسكندرية، وفيها كذلك بدء الطريق المؤدّية الى أديرة القبط فى صحراء وادى النطرون. فكان لابد للروم على ذلك من أن يقفوا وقفة فى الدفاع عنها.

=توجه إلى الإسكندرية خرب القرية التى تعرف اليوم بخربة وردان واختلف علينا السبب الذى خربت لأجله. فحدّثنا سعيد بن عفير أن عمرا لما توجه إلى نقيوس عد إلى وردان لقضاء حاجته عند الصبح فاختطفه أهل الخربة فغيبوه ففقده عمرو وسأل عنه وقفا أثره فوجدوه فى بعض دورهم فأمر باخرابها واخراجهم منها (وقيل كان أهل الخربة رهبانا كلهم فغدروا بقوم من صحابة عمرو ووجه اليهم وردان فقتلهم وخربها فهى خراب إلى اليوم) .

الخاطين لم يقف، وعلى مجالس المستهزين لم يجلس(*). انت المجاهد بالحقيقة الملك، طوباها البطن التي حملتك وولدتك في العالم، اذكرني يا قديس الله الحقيقي. فقلت لي أنت يا أغاتون وقال لي اسقف نيقوس: لمن تخاطب يا أبانا فقلت لكما انا اخاطب ابا مقار ابا هذا الجبل لانه زمان كلام وزمان سكوت. وانا صعدت الى الهيكل وقلت صلاة الميرون وتناولته لا نقط على الهيكل المقدس، وسمعت صوتا يقول: تأمل يا اسقف، فلما نقطت الميرون على الهيكل رأيت يد السيد

(*) انظر المزمور الأول.

فقاتلوا العرب هناك[1] وأبلوا بلاء حسنا غير أنهم انهزموا واستطاع عمرو أن يستأنف السير الى مدينة نقيوس.

وقد مر بنا أن مدينة نقيوس على الشاطىء الشرقي للنهر على مقربة من الموضع الذى تتصل فيه بالنيل الترعة التى بين أتريب ومنوف. وكان عمرو لا يستطيع أن يتركها على جانبه ويسير عنها، إذ هى حصن منيع. فعبر النهر اليها حتى إذا ما فتحها عاد الى الغرب وواصل السير، وكانت تلك فرصة دون القائد الرومانى (تيودور) إذا أراد المناجزة، ولكنه لم يغتنمها فلم يخرج للعرب بنفسه فى عامة جيشه، بل أرسل القائد الجبان الضعيف (دومنتيانوس) ليذود عن نقيوس، وبعث معه كتيبة ضعيفة. وكان عند (دومنتيانوس) كثير من السفن قد أعدّها لكى يدافع بها عن المدينة، أو لكى يهبط بها على جيش عمرو فى أثناء عبوره للنهر، وكان عمرو لابدّ له من عبور النيل اذا فتح المدينة، واذا هو فشل ولم يفتحها كان أغلب الظن أنه يحاول العبور. غير أن قائد الروم عندما رأى المسلمين على كثب منه خانه جنانه، وترك

(١) قد ذكر يافوت هذه الوقعة وقال إن عمرا حارب الروم فى وقعة عند (طرنوط). وقد أخطأ المقريزى خطأ غريبا فى ذلك الأمر فانه عندما ذكر سير عمرو من بابليون الى الاسكندرية قال (الجزء الأول صفحة ١٦٣ طبعة بولاق) «فلم ير أحدا حتى بلغ مريوط فلقى فيها طائفة من الروم» ثم قال بعد بضعة اسطر من ذلك إن عمرا بقى فى مريوط فى حين كانت طلائعه عند كوم شريك! ويمكن أن يصحح ذلك الخطأ بأن نجعل (طرنوط) محل (مريوط) وهو الصحيح. وهذا الخطأ يوضح لنا نوع الخطأ الذى يضلل التاريخ من جراء تحريف الكتاب أو النساخ الذين يجهلون وصف البلاد.

المسيح المخلص على الهيكل تمسح الهيكل فنالنى لذلك خوف عظيم ورعده كما رايتنى ولم تعلم انت ولا الحاضرون سبب ذلك ولا ما رايته وسمعته. ثم قلت مع الاب يعقوب: ان هذا الموضع مخوف وهذا بيت الله بالحقيقة وهذا هو باب السما وموضع راحة العلى. قال اغاتون القس: فى هذا الوقت نظرنا اليه وهو كالنار ووجهه يشرق بالنور فلم يستطع احد منا يكلمة بلفظة بل كنا باهتين له. فقال الأب: بنيامين: هذه مظلة الاب

جيشه وسفنه ولاذ فى سفينة هاربا نحو الإسكندرية. فلما رأى الجنود أن قائدهم يفرّ عنهم ذلك الفرار وضعوا سلاحهم وهبطوا إلى الترعة سراعا[1]، وقد أذهلهم الخوف، يريدون أن يقتحموها أو يبلغوا السفن فيها. ولكن عدوى خوفهم أعدت نوتية السفن فلم يأبهوا لشيء إلا سلامتهم، فحلوا سفنهم مسرعين وهبطوا بها إلى الشمال يطلبون النجاة، فعمد كل منهم الى قريته. وعند ذلك طلع العرب على جنود الروم وهم فى الماء بغير سلاح فقتلوهم عن آخر، فلم ينج منهم إلا رجل اسمه (زكريا) بدت منه شجاعة عظيمة عند ذلك، ولعل نجاته كانت لما بدا منه من الشجاعة. ثم دخل العرب المدينة من غير مقاومة إذ لم يكن فيها جندى واحد يقف فى سبيلهم، ومع ذلك فقد أوقعوا بأهلها وقعة عظيمة.

ثم انتشروا فيما حول نقيوس من البلاد فنهبوا فيها وقتلوا كل من وجدوه بها، فلما دخلوا مدينة (صورنا) وجدوا بها (اسكوتاوس) وعيلته وكان يمت بالقرابة الى القائد (تيودور)، وكان مختبئا فى حائط كرم مع أهله، فوضعوا فيهم السيف فلم يبقوا على أحد منهم. ولكن يجدر بنا أن نسدل الستار على ما كان فإنه لا يتيسر لنا أن نسرد كل ما كان من المسلمين من المظالم بعد أن أخذوا جزيرة نقيوس فى يوم الأحد وهو الثامن عشر من شهر (جنبوت) فى السنة الخامسة عشرة من سنى الدورة» ويقع ذلك التاريخ فى اليوم الثالث عشر من شهر مايو سنة ٦٤١.

(١) هذا الوصف يدل على أن الترعة كانت فى شمال نقيوس ويثبت أن موضع نقيوس هو شبشير.

والابن والروح القدس ودار الهيكل تلت دفعات وهو يقول الليلويا. ثم زمر مزمور [٨٤] قايلا: ما احب مساكنك يارب القوات تاقت نفسى واشتاقت الى ديار الرب... مذابحك يا رب القوات ملكى والهى. وكمل قول المزمور إلى اخره، فلما كمل تكريز القبه خرج الى البيعة يكرز حيطانها وعمدها ثم عاد وجلس فى القبه فقال لنا: لقد مضى بى اليوم الى فردوس رب الصباوت وسمعت اصواتا لاينطق بها ولا تخطر على قلب

وقد كانت نقيوس معقلا من معاقل الدين القبطى، ولا شك أن أناس كانوا مع ما نزل بهم من الاضطهاد لا يزالون على عقيدتهم يضمرونها فى قلوبهم، ولو أظهروا الخروج منها تقية لما نالهم من عسف قيرس. وكان العرب فى وقعتهم لم يفرقوا بين قبطى ورومى، وليس فيما وصلنا من أخبار ذلك لفظ واحد يدل على أن القبط كان لهم شأن آخر فى معاملة العرب. وكذلك ليس من شك فى أن الشقاق والاضطراب قد دهما البلاد واجتاحاها كما يجتاح الطاعون الأرض، فلم يمض طويل زمن حتى عمت الفوضى واندلع لهيب الحرب الأهلية بين أهل مصر. فكان ذلك ضغثا على أبالة فانقسمت مصر السفلى الى حزبين: حزب مع الروم، وحزب يريد أن يتفق مع العرب. ولسنا ندرى اذا كان الفارق بين ذينك الحزبين فارقا من جنس أو من مذهب أو من تشيع سياسى. على أننا نرجح الرأى الأخير.

ولما فتحت مدينة نقيوس[1] وتفرّقت السفن الرومانية التى كانت بالنيل هناك، أصبح الطريق خاليا من العقبات دونهم اذا شاءوا السير الى الاسكندرية. وكان جيش الروم عند ذلك يقوده (تيودور) ويتراجع به شيئا فشيئا نحو تلك العاصمة.

وسار عمرو يدفع العدوّ أمامه، ولعله سار إلى الشمال الغربى على جانب الترعة التى تلى الصحراء حتى بلغ الدلنجات، ومنها سار إلى الشمال فى أتجاه دمنهور. فوجد الروم يعترضون

(١) لا يعرف المؤرّخون العرب شيئا عن هذا الحادث وهم يمرّون عيه بغير ذكر شيء عنه. وأما موقعة نقيوس التى جاء ذكرها فى كتاب ياقوت فهى الموقعة التى حدثت فى أثناء ثورة منويل.

بشر كما قال الرسول بولس الحكيم فصدقونى
يااخوه فانى رأيت اليوم مجد المسيح قد ملا هذه
القبه ونظرت بعينى الخطيتين الكف المقدس،يد
السيد يسوع المسيح المخلص العالية، تمسح ما يده
[مائدة] هذا الهيكل المقدس، وشاهدت اليوم
السارافيم والملايكه وريسا الملايكه وجميع قوات
العلى القديسات يسبحون الاب والابن والروح
القدس فى هذه القبه، ورايت ابا البطاركة
والاساقفه ومعلمى البيعة الارتدكسيه قايما فيما

سبيله عند سنطيس[1]، وهى على ستة أميال فى جنوب دمنهور. ووقعت هناك وقعة شديدة انهزم فيها الروم وتقهقروا أمام العرب. ولم يحاولوا أن يقفوا لعدوّهم فى دمنهور أو يملكوها، بل تدافعوا نحو الشمال فانتهى بهم الانهزام الى الطريق الأعظم المؤدّ إلى الاسكندرية، فعبروا الترعة وكانت عند ذلك لا يكاد يوجد بها شيء من الماء، ثم ساروا حتى أظلهم حصن (كريون) بعد مسيرة نحو عشرين ميلا. وكانت مدينة (كريون) آخر سلسلة من الحصون بين حصن (بابليون) والإسكندرية وكان لها شأن عظيم فى تجارة القمح سوى ما كان لها من خطر عظيم فى الحرب، إذ كانت تشرف على الترعة التى عليها جل اعتماد الإسكندرية فى طعامها وشرابها. ولكن حصونها لم تكن فى المنعة على مثل ما كان عليه حصن بابليون ولا ما كان عليه حصن نقيوس، مع أن الروم رمّموا حصونها وزادوها قوّة. ومهما يكن من الأمر فقد عوّل (تيودور) على أن يقف هناك وقفته الأخيرة، ولم يكن فى وسعه أن يختار مكان أليق من ذلك. فكانت حصون المدينة تساعد الجنود وتشدّ أزرهم، وكان جنوده أكثر عددا من العدوّ،

(١) جاء اسم هذا الموضع فى المقريزى هكذا (سلطيس) وجاء ذلك الاسم فى ترجمة ابن بطريق هكذا (Salstan) وهو تحريف ظاهر وقد قال (Weil) عند ذكره ذلك الاسم سلطيس انه لابد أن يكون (سمياتيس) أو كما زعم (Ewald) أنه (سنطيس) ولا شك أن الاسم الأخير هو الصحيح وسنطيس قرية كبيرة فى نحو منتصف المسافة بين كريون وكوم شريك.

بيننا هاهنا فى وسط الاخـوة اولاده بفـرح، اعنى الاب ابا مقـار الكبيـر. حقا ان هذا الهيكل تحت كـرسى ضـباط الكل هذا الهيكل هو الذى ذكـره اشـعيا النبى اذ قـال: يكون لله بارض مصـر مذبح ودكه وخمس قرى يتكلمن بالكنعانيه، قوموا الان يا اولادى نكمل القداس ونغتنم بركة الابا ونمجد الله تعـالى. قـال اغـاتون القس، قـال لى الاب البطرك: فلما كملت الخدمه الالهية وقربت الكهنه رأيت ايضا نعمه عظيمه لا يجب ان اخفيها عنك،

وكانت الترعة تحميهم من بين أيديهم، وكان الطريق من ورائهم يفضى الى الاسكندرية ومن السهل عليهم حفظه.

وقـد قـاتل جنود الروم فى هذا الوقت قتـالا شـديدا حتى شـهد بذلك مـؤرخـو المسلمين أنفسـهم، ولم يخذلهم مـا أصابهم من قبل من النكبات من سـقوط بابليـون ونقيـوس فى يد عدوّهم، ولا ما حل بهم من خيانة بعض قوّادهم أو جباتهم. ولم يكن الروم فى قلة إذ أتتهم الأمداد من وراء البحر من (قسطنطينية)، وكان قائدهم (تيودور) غير متهم فى شجاعته ولا إقدامه فى القتال، غير أنه لم يكن قائدا ذا رأى فى الحرب. وقد عرف الناس جميعا فيما يحيط بذلك الموضع كـمـا عـرف الجنود الذين كانوا بالاسكندرية أن ذلك اليـوم، يوم كـريون، له ما بعده، فأتت الكتائب تترى من كل مكان الى لواء الروم من سنطيس ومن مدائن أبعد منها، مثل (خيس) و(سخا) و(بلهيب)(١). ولم تكن تلك الوقعة قتال يوم انجلى عن مصير (كريون)، بل كان قتالا شديدا استمر بضعة عشر يوما.

(١) نقلنا هذا عن البلاذرى (صفحة ٢١٠) وهو يجمع القبط والروم فى معركة كريون. أما سخا فهى بين فرعى النيل على نحو عشرين ميلا فى الشمال الغربى من سمنود ولا نستطيع أن نجد موضعا فى خرائط مصر الحديثة يشبه اسم بلهيت (أو بلهيب كما جاء فى ياقوت وهو أصح) الموضع كان معروفا وحدثت فيه ثورة للقبط سنة ١٥٦ هجرية وقد بحث كاترمير فى موضعها وهو يبين أن ابن حوقل يجعلها على ست (ساكات) الى الشمال من سنديون على نهر النيل عند ملتقى فرع صغير بفرع رشيدفاذا جعلنا (الـ (ساك) نحو ميل وربع كانت بلهيب (كما جاء فى كاترمير) على مقربة من (منطوبس كما يسميها هو)=

فلما تقدم. الشيوخ الى القربان رأيت دخان بخور
يصعد كالعطر من افواههم حتى ظننت ان كل
واحد من اوليك الابا الرهبان يحمل بخورا عند
تقدمه الى القربان، ثم انفتح سقف البيعه فصعد
منه ذلك العطر وتاملت افواههم ودعاهم عند
دنوهم من القربان فرأيت الكلام يخرج من
أفواههم والبخور يخرج من أفواههم صاعدا الى
السما فتحققت حينيذ [حينئذ] انه دعاهم
وصلاتهم التي يقولونها عند اخذهم السراير

ولكن الفتح أبطأ عليهم . ويلوح لنا أن تلك الوقعة لم تكن نصرا لاحدى الطائفتين بل تساوت فيها الكفتان، ولكن مؤرّخي العرب يقولون إنها كانت نصرا عظيما للمسلمين. ومهما يكن من الأمر فلا شك في أن المسلمين لاقوا نصرا بعد قتالهم في تلك الأيام العشرة، وذلك أنهم استطاعوا أن يفتحوا مدينة كريون وحصنها وهزموا الروم عنها. ولا نستطيع أن نقول شيئا عما حدث بعد ذلك في ارتداد تيودور. فلا ندرى أكان ارتداد جنوده انهزاما لا يلوون فيه على شيء حتى بلغوا أبواب الاسكندرية، أم كان تقهقرا وئيدا في نظام. على أن ديوان (حنا النقيوسي) يشتم منه بأن التقهقر كان وئيدا وهو قول لا يتهم صاحبه.

ولابدّ قد خسرت الطائفتان كلتاهما في ذلك القتال بين الطرانة وكريون خسارة كبرى.

ولما فتح العرب كريون خلا أمامهم الطريق الى الاسكندرية.

=ولكن الاسم الموجود على خريطة الدومين هو (مطوبس) ومن الظاهر أن بلهيب كانت على الجانب الغربي للنهر وليست على الشرقي وقد زال الفرع الصغير من زمن طويل وصار موضعه مستنقعا ولكن هناك قرية صغيرة اسمها (ديبي) في الموضع المطلوب ولعل هذا الاسم صدى للاسم القديم (بلهيب) وهي عند ثنية النهر على نحو عشر أميال أو اثنى عشر ميلا الى جنوب رشيد وقد أخطأ ميلنو اذ قال إن الملتقى الذى ذكره ابن حوقل كان قديما عند مدينة (ديروط) فان ديروط قريبة من (سنديون) ولو أنها على الناحية الأخرى من النهر ولعل أميلنو لم يحسن قراءة كاترمير. وكانت خيس في جوار دمياط، ويذكر ياقوت (فرطا) أو (قرطا) بين البلاد التي قاومت عمرا ثم يقول ان عمرا صالح (بلهيب).

المقدسة التى هى جسد ودم الرب يسوع المسيح الطاهر. ورأيت الملايكه يتسلمون صلواتهم تلك ويصعدونها امام كرسى الرب، فمن عظم داعهم وصلواتهم قلت حقا ان هذه المنارة الذهب التى عليها المصباح والجوهره الثمينه وكوكب الصبح المشرق المضى على كل المسكونه، سبحت بتسبحة التلتة فتيه حنانيا، عزاريا، وميسايل، التى قالوها فى اتون النار الموقد: مبارك انت يارب الاه ابانا ومسبح وممجد الى الابد ومبارك بالحقيقة

مضى عند ذلك أكثر شهر يونيه ولم يكن قائد العرب بالرحل الذى، بخادع نفسه عن المدينة ويعلل نفسه باستطاعة فتحها عنوة. فقد علم حق العلم أنه لن يستطيع أخذها بالهجوم، وانما كان واثقا من شىء واحد، وهو أن أصحابه إذا خرج لهم العدوّ وناجزهم القتال صبروا وثبتوا وغلبوه، وإن كان أكثر منهم عددا. وعلى ذلك عوّل على أن يخلف فى عسكره جيشا كافيا للرباط، وأن يسير هو مع من بقى من الناس فيضرب بهم فى بلاد مصر السفلى، قبل أن يتعذر[1] على المسلمين السير بها إذ كان فيض النيل يقترب أوانه. وكان الروم قد هاجروا من حول الإسكندرية فصارت قصورهم البديعة ومنازلهم الجليلة فيما وراء أسوار المدينة فينا للعرب، فغنموا منها غنيمة عظيمة وهدموا كثيرا منها ليأخذوا خشبها وما فيها من حديد، وأرسلوا ذلك فى سفن بالنيل إلى حصن (بابليون).

ولم تكن السرية التى سار بها عمرو بن العاص فى مصر السفلى سرية كبيرة، فما كان يتوقع كيدا كبيرا ولا قتالا شديدا اللهم إذا عند البلاد المحصنة، ولم يكن فى الوقت متسع لحصارها لو شاء. وكان عمرو إنما يريد جمع الاسلاب والغنائم لنفسه وجنوده ومن سار معهم من البدو وغيرهم ثم القفول الى (بابليون)، ولكنه أحب أن يعلم أهل مصر السفلى بقربه

(١) لعلنا لا ينبغى أن نمرّ على عبارات مؤرّخى العرب فى قبط هذا العصر بغير أن نقول كلمة فيه. فقد قال ابن عبدالحكم إن القبط ساعدوا العرب فى كل ما احتاجوا اليه وان رؤساء القبط حفظوا الطرق وأقاموا لهم الجسور وفتحوا الأسواق فى سيرهم الى الاسكندرية.

الرب الاه هولا القديسين الذين استقامة العالم بهم وبامثالهم هذا مجمع الملايكة ومينا كل الانفس الذين هربو الى الله منجى كل الانفس. ثم مجدت وشكرت الرب يسوع المسيح الذى جعلنى مستحقا ان اشاهد ما رأيت. ولما نمت فى تلك الليله رايت وقد وقف امامى رجل منير وقال لى: استيقظ يا أسقف وقم لترتب قوانين هذه البيعة وهذه القبة معا ليحترز كل احد فى سلوكه فيها من قس وشماس بصبر تام وسكون صالح لأن

ويشعرهم شوكته. فسار إلى كربون ومن ثم الى دمنهور ثم سار إلى الشرق يجوس خلال الإقليم الذى يعرف اليوم باسم الغربية، حتى بلغ (سخا). وكان ذلك الموضع الى شمال المدينة الحديثة (طنطا) على نحو اثنين وعشرين ميلا منها، وقد ظل الى ما بعد ذلك الوقت بزمن طويل وهو قصبة الإقليم، وكان موضعا حصينا. ولم يفلح عمرو فى تحقيق ما كان يريده من النزول على تلك المدينة بغته وأخذها على غرة، ورأى العرب أنفسهم مرة أخرى وقد عجزوا عن أخذ مدينة تحيط بها الأسوار وتكتنفها المياه. فساروا نحو الجنوب ولعلهم اتبعوا (بحر النظام) حتى بلغوا (طوخ) وهى على نحو ستة أميال فى الشمال الغربى من موضع (طنطا). ومن (طوخ) ساروا الى (دمسيس)[1]، وقد ارتدوا كذلك عن هاتين القريتين ولم يستطيعوا فتحهما ولم يجد أهلهما مشقة فى صد العرب. ويرد مع هذه الأخبار ذكر غزوة للقرى التى على فرع النيل الشرقى، قيل إن العرب قد بلغوا فيها مدينة دمياط، ولعل تلك الغزوة كانت على يدى سرية عمرو فى هذا الوقت نفسه. ولم يكن من أمرها غير إحراق المزارع، وقد أوشكت أن ينضج ثمرها، فلم تفتح شيئا من المدائن فى مصر السفلى. ولنذكر أن العرب

(١) طوخ: يوجد فى مصر السفلى على الأقل ست قرى بهذا الاسم: طوخ الا كلام فى الدقهلية، وطوخ دلكه، وطوخ بلفطه، وطوخ طنبشا فى المنوفية، وطوخ الملك فى القليوبية، وطوخ مزيد فى الغربية؛ ولعل الأخيرة هى المقصودة هنا نظرا لموضعها. وأما (دمسيس) واسمها الآن (ميت دمسيس) فعلى نحو تسعة أميال الى شرق طوخ مزيد وهى على الجانب الشرقى لفرع دمياط.

المسيح ربنا وجميع ملايكته هاهنا، واكتب هذه القوانين تذكارا لهذه البيعه المقدسه الى الابد لأنه سياتى جيل معوج يحبون مجد الناس اكثر من مجد الله، ويدوسون هذا الموضع المقدس التى اعطاها لشعبه بالذهب ويقاومون القوانين الرسوليه، فمن اراد ان يكون له ميراث فى هذا الموضع المقدس وهو بلا مخافة من الرب ولا تجرب نفسه بديا . و يبدل مجد هذا الموضع المقدس الجليل المكروم ويكون عنده مثل مواضع البهايم فى

قضوا فى عملهم فى هذا الإقليم اثنى عشر شهرا إلى ذلك الوقت. وبعد تلك الغزاة التى أوقع وأحرق فيها عمرو البلاد وغنم منها عاد إلى حصن (بابليون) ومن معه.

تسليم الاسكندرية

حدث فى أثناء غياب قيرس فى منفاه أن ثارت بمصر فتنة بين الناس، يتقد لهيبها بين حين وحين، فثار القتال مرة بين أهل كورة مصر وأهل الكور التى فى الشمال، ثم عاد السلام بينهم بعد أحداث كثيرة، وما كاد الأمر يستقر حتى استعر القتال فى العاصمة ذاتها. وكان كبار الروم أحزابا وشيعا، تباعد بينهم الإحن ويغرى بينهم التحاسد. وكان حرص كل من الحزبين الأخضر والأزر ق على القتال فيما بينهم أعظم من حرصهم على حرب العدوّ الرابض عند أبواب مدينتهم. فكان (دومنتيانوس) الذى أسلم الفيوم و(نقيوس) يناصب (ميناس) العداء وينافسه فى التطلع الى القيادة العامة فى الجيش، وكان (ميناس) يحقد على (أودوقيانوس) أخى (دومنتيانوس) لما كان منه من شنيع الأفاعيل بالقبط الذين كانوا فى حصن بابليون فى يوم عيد الفصح المشهور، وكان (تيودور) لا يزال غاضبا على (دومنتيانوس) لما كان من جبانته فى الهروب من (نقيوس) تاركا جيشه ومتخليا عن واجبه. وأنه لمن العجيب أن يبقى (دومنتيانوس) فى منصبه لم يؤاخذ أو يقتص منه بالقتل، فليس غضب رئيسه عليه بالجزاء الوفاق على ما جناه. ولعله لم ينج مما كان يحق عليه من القصاص إلا لمحاباة الامبراطورة له ولقرابته من قيرس إذ كان صهرا له بزواجه من اخته. على أن (دومنتيانوس) لم يرع فى

دخـوله اليــه ، فـهــولا الذين هم هكذا قلوبهم كقلوب البهايم لا يقرون ولا يفهمون وجميعهم قد زاغ ورذل، وهمتهم في بطونهم ومجدهم بخزى وهم يجرون على بطونهم مثل الحيات وينفخون ويلدغون المرئين [البشر] شتامين مبغضين لأخونهم متطلعين للمأكل والمشارب كالبهايم التي لا فهم لها ومشابهتها، والبيعة الرسولية تفرزهم فلا(*) يصعد قس الى هذا الهيكل الا بعد ان يلبس بلينه اولا قبل ان يحمل البخور عليه، ولا يتقرب فيه

(*) قانون بيعة أبو مقار وهو من سبعة مواد.

(قيرس) إلا ولا صداقه، ولم يحفظ له جميلا، إذ كان لا يظهر له إلا ازدراء وحقدا غلب عليه عقله. وكان معه الحزب الأزرق، فاتخذ من رجاله عصبة استعان بها في نضاله، فلما رأى (ميناس) ذلك استعد له بمثل عدّته فاتخذ من الحزب الأخضر له عصبة.

وفيما كان الأمر على هذا التحرّج الخطر، نزل الى الاسكندرية رجل اسمه (فيليادس) وكان حاكم الفيوم وأخا (لجورج) وهو سلف (قيرس) على بطرقة المذهب الملكاني. وكان (ميناس) قد أحسن الى (فيليادس) ولكنه أساء جزاءه، وكان (فيليادس) فوق هذا مقارفا للخيانة إذ كان يضع يده في الأموال العامة، وكان الجند يكرهونه كراهة تعدل حبهم (لميناس). ولم يمض زمن طويل حتى اشتدّ الأمر وتأزمت الأزمة، ففيما كان (ميناس) يوما يصلي باخوانه الأقباط في الكنيسة الكبرى كنيسة (قيصرون)، إذ ثار أهل المدينة بفليليادس يريدون قتله. ولكنه فرّ منهم ولجأ الى منزل صديق له فاختبأ فيه، فذهب الثائرون الى بيته فنهبوه وأحرقوه، وكانوا من الحزب الأخضر، وعند ذلك أخرج (دومنتيانوس) اليهم عصبته من الحزب الأزرق، والتقت العصبتان في قتال شديد في طرق المدينة فقتل منهم ستة وجرح كثيرون، ولم يستطع (تيودور) أن يقضي على الفتنة إلا بعد مشقة وعناء. وبعد أن انتهى الأمر أعيد الى (فيليادس) ما سلب منه، وعزل (دومنتيانوس) من مرتبته في الجيش. ولكن يلوح لنا أنه أعيد فيما بعد الى ما كان عليه، وذلك بعد أن أمر (تيودور) بالعودة الى القسطنطينية. فالحقيقة أن (دومنتيانوس) كان مع عداوته لقيرس يرى رأيه في السياسة، وكانا كلاهما سواء

كاهن ولا شماس إلا بعد لباسه البرنس او بلينا. ولا يتكلم قس ولا شماس فى هذه القبة المقدسة بكلام فارغ ولا يجلس فيها ليقرا كتابا من الكتب، من قاوم هذا القانون يكون محروما. [و] أى كاهن أو راهب دخل إلى هذه القبه من غير أن يكون مرسوما لخدمه هذا الهيكل فليكن محروما. [و] أى كاهن من كهنة هذا الموضع يدخل بكاهن غريب من كهنة مصر او ريس الى هذه القبه الاسكنا المقدسه لاجل مجد الناس فليكن محروما

فى تقريب الامبراطورة والحظوة عندها، وكان كلاهما يشير عليها ويزين لها رأى الإذعان للعرب.

ولنذكر هنا أن (حنا النقيوسى) يصف نضال الأحزاب فى الاسكندرية وكأنما يقرّ بانه عاجز عن إدراك أسبابه. فان سياق قوله يدل على أن منشأ ذلك النضال كان بعضه من عدوات خاصة، وبعضه كان من أثر الشيع السياسية. على أنه يذكر بعد ذلك أن بعض الناس يذهبون الى أن اشتداد ذلك النضال واستعار لهبه إنما يرجع الى اختلاف المذاهب الدينية. ولكنه لا يوضح الأمر ولا يجلو الظلمة عن حقيقة النضال، فلا ندرى أكان بين (المونوفيسيين) و(الملكانيين)، أم كان بين (الملكانيين) و(المونوثيليين)، أم بين اليهود والمسيحيين، فالحق أن الأمر مشكل لا يستبين المرء فيه وجها للرأى، ولكنا إذا ذكرنا أن كثيرين من أهل مصر السفل والصعيد أتوا الى الاسكندرية لائذين، وإذا ذكرنا أن (حنا النقيوسي) يروى لنا خبر اجتماع القبط بكنيسة (القيصرون) للصلاة[1]، إذا ذكرنا ذلك أمكن أن نقول إن عدد القبط فى الاسكندرية زاد فى ذلك الوقت زيادة كبرى، وأنهم استطاعوا أن يتنسموا شيئا من نسيم الحرية وأن يعود الى نفوسهم شىء من القوّة منذ غاب المقوقس عنهم فى منفاه، وارتفع عنهم عسفه واضطهاده. فلعلهم عند ذلك شعروا من أنفسهم بالقوّة فرموا سهمهم مع الرامين، يناصرون من أحبوا ويحاربون من كرهوا ويلقون بدلوهم فى مياه الإسكندرية، التى كانت

(١) ما كان ليصف أية صلاة أخرى غير الصلاة القبطية بقوله «اجتماع المؤمنين».

[و] أى انســان اسـتطال ودخل الى هذه القبــه المقدسه يخرجه الرب يسوع المسيح خارجا. واى انســان يتـعـدى ليكون له نصيب فى هذا الموضع المقــدس بمال او هدية فليكن هو وكلمن [كل من] يساعده على دخوله اليه لاجل مجد الناس لا سيـما ان كـان معـروفا بالشـر والتـجـبـر مـرذولين. اعلمو يا اخوتى ان نصيب يعقوب لا يكون لواحد من هولا والقوه السـاكنه فى هذا الموضع والهيكل المقــدس لا ترضى بشى من هذه الامـور بل يكون

تضطرم من عداوة الأحزاب ونضالها. وان تعجب فعجب أن يقرأ الإنسان نبأ نزول المقوقس بالاسكندرية فى ذلك الصبـاح من شـهر سبـتمبر، وأن أهل المدينة ملكهم الفرح فخرجوا «يظهـرون سرورهم ويشكرون الله على عـودة بطريق الإسكندرية[1]، وتوافـد الناس من كل جانب يحيونه ويكرمونه من رجال ونساء كبارا وصغارا، فما كنت تسمع كلمة مخالف ولا همسة خوف. ولكن ما كان للقبط أن يدخل الى قلبهم فرح بمقدم (المقوقس)، بل ما كان لهم أن يبقى أمل فى قلوبهم من وراء عودته. ولا يسعنا على هذا إلا أن نذهب الى نتيجة من هذا القول، وذلك أن القبط ما كانوا فى الاسكندرية مهما بلغ عددهم إلا فئة قليلة ضائعة بين أهله الكثيرين لا يحس أحد بها.

(١) هذه كلمات الدكتور شارل فى ترجمته للنص الأتيوبى. وليس أدل من هذا الوصف لعودة قيرس على نقاء ضمير حنا النقيوسى وقلة تحيزه ولقد كان من السهل عليه أن يصف مقابلة الناس له بالفتور أو أن يغفل ذكرها ولكن حنا يصفها بأنها كانت بحفاوة عظيمة وأن السرور لم يكن سرورا بمقدم قيرس شخصه بل بمقدم «بطريق الاسكندرية» صفحة ٥٧٤ ومن العجيب أن أميلنو يعلق على ذلك القول تعليقا يلوم فيه الكاتب على وصفه فيقول «وفيما عدا ذلك فانى فى عجب عظيم من حنا النقيوسى وهو الأسقف اليعقوبى اذ يصف قيرس بأنه بطريق الاسكندرية وهو الذى كان يجب عليه أن يذمه ويلعنه فى حين أن (بنيامين) وهو البطريق الحقيقى فى نظره كان فى ذلك الوقت طريدا فى الصعيد (حياة البطريق القبطى إسحاق صفحة ٧١ XX) ولكنا نرى أن صراحة حنا تزيد من ثقتنا فيه واعتمادنا على أخباره كمؤرخ.

متواضعا طاهرا وديعا تاما فى جميع الخصال المرضيه، كما شهد المعلم بولس فى قوله على هذه الرتبه اذ يقول ماهو ثابت فى مكاتبته الجليلة ، ثم قال لى الشخص المضى: لا استحق ان يخاطبنى خروجك يابنيامين من هذا العالم الذى هو مفارقة نفسك لجسدك يوافق يوم تكريز هذه البيعة، وتمضى الى السيد المسيح الذى تحبه لتستريح فى يروشليم السماويه مدينة المنتخبين مع جميع المختارين فقلت له: يا سيدى ارجو أن يجعلنى الله

أما قيرس فانه عمد قبل أن تصحو المدينة ويذيع بين أهلها نبأ مقدمة، فذهب سرا مع (تيودور) الى دير رهبان (التبنيسى) ولعله كان قريبا من الموضع الذى نزل فيه من البحر[1]. وأمر باقفال باب الدير، وأنفذ الى (ميناس) يدعوه للحضور الى الدير، فلما جاء جعله (تيودور) قائد حامية المدينة وعزل (دومنتيانوس) عن تلك القيادة، فأسرع أهل المدينة الى إخراجه منها. وكانت عودة قيرس فى مثل اليوم الذى أقيم فيه الاحتفال باعلاء الصليب، وقصد بذلك أن يعيد الى نفوس جند الروم ما ضاع من قوتها، وقد بذل الجهد فى الانتفاع بتلك الذكرى ما وجد الى ذلك سبيلا. ولنذكر أنه عندما بعث حنا قائد الشرطة الى مصر وقد وجهه إليها هرقل يحمل المذهب الدينى الشهير الى (قيرس) حمل معه الى البطريق صليبا من أجل الصلبان شأنا، لعله كانت فيه قطعة من الصليب الأعظم نفسه، وقد أودع هذا الأثر الثمين فى دير رهبان (تبنيسى). فلا عجب اذا حمله (قيرس) فى موكبة الى الكنيسة العظمى كنيسة (القيصرون)، التى أقيمت فيها صلاة التحية. وقد فرشت النمارق فى طريق ذلك الموكب من الدير الى الكنيسة، وكانت الرايات والألوية من الحرير تخفق فوق رأس (قيرس) إذ

(١) كان (تبنيسى) موضعا على عشرة أميال من (تنيروس) وهى (دندرة فى الصعيد) وكان مقرّ أخوة طائفة (الباخوميين). ولقد كانت هذه الطائفة قبطية محضة ولكن الدير الذى كان فى الاسكندرية استولى عليه قيرس وجعله للمكانيين والا فان من فيه من الرهبان لابد كانوا بين الألوف الكثيرة التى نزعها الاضطهاد من مذهب القبط.

مستحقا لما قد ذكرته ويقبلني انا العبد الخاطى
واصير اليه في اليوم المذكور ومبارك سيدى يسوع
المسيح حبيب نفسي وروحي لان رحمته سابغه
على. وعند هذا غاب عنى السارافيم. وقال انا
بنيامين البطرك: لا تظنوا يا اخوتي اني كتبت هذه
الحروم على الجيل بل كتبتها لاجل انه سياتي جيل
اخر في اخر الزمان يستحق ما كتبته على ما
اخبرني به السارافيم الذى خاطبني، فيجب لكل
مومن ان يحذر اتباع مجد الناس ويعمل ما

- -

يسير بين عبق البخور وترتيل الأناشيد، وازدحمت طرق المدينة العظمى بالناس على سعتها حتى ركب بعضهم بعضا، ولقى الحبر الأعظم مشقة كبرى في السير في ذلك الزحام الى الكنيسة. ولكن الموكب سار على أى حال سيرا وئيدا حتى بلغ (المسلتين) المصريتين القديمتين فمرّ بينهما ثم سار في فناء ذى أروقة الى أن بلغ باب كنيسة قيصرون فولجه داخلا.

ولما أن صار في الكنيسة أقام الصلاة وجعل عيد الصليب واعلاءه موضوع خطبته كما ينبغي له، وكانت الكنيسة الشرقية في ذلك الوقت ولا تزال إلى وقتنا هذا تحتفل بهما معا. وانه لمعنى جليل ذلك المعنى الذى جعله (قيرس) قطبا لخطبته، معنى يخلع على قائله رونقا إذا أعوزته الفصاحة، فما بالك بقيرس وهو رب البيان والبلاغة.

ولكن لم تنته تلك الصلاة إلا على كدر ونحس. فإن المصلين أقبلوا بعد الخطبة على الصلاة فقرأ الشماس بدل ما كان يجب عليه قراءته من الأناشيد في ذلك اليوم مزمورة أخرى فيها اشارة لرجعة البطريق، يريد بذلك أن يتملقه ويهنئه. فلما سمع الناس ذلك ضجوا قائلين إنه قد خالف السنن وتطيروا به على البطريق. وجاء في تلك القصة أنهم قالوا إن البطريق لن يشهد عيدا للفصح بعد ذلك. ولا شك أنهم قد رأوا عليه تغيرا واعتلالا إذ كان النفى قد أسقم جسمه، وكان السير في الزحام ذلك اليوم قد أتعبه، ثم أجهدته بعد ذلك

يضاهي مجد الله ويحبه من كل قلبه وانت يا ولدى اغاتون القس اكتب عندك تاريخ هذا التكريز واذكرني به في كل وقت وكل يوم لأذكر قول السارافيم فيه لي ان فيه يكون خروجي من هذا العالم الذى هو التامن من طوبه اللى كان فيه تكريز البيعة المقدسة على اسم القديس ابى مقار ابينا.

ونذكر ايضا اعجوبة كانت في اليوم المذكور،

الخطبة وما بذل فيها. ولابد فوق كل ذلك أن وجهه كان ينم عما كان في قلبه من أشجان تجيش به فتمزقه، فقد كان يرى الناس من حوله يثقون به ويرفعون ذكره ويرونه نصيرا لهم ومعينا في محنتهم، وكانوا جميعا عند ذلك قد طهرت قلوبهم وامتلأوا إيمانا بالصليب حتى ليجاهدون في سبيله ويلقون النصر على وعده، ولكن فيما كانوا والآمال تطلع عليهم وتملأ نفوسهم، كان الحبر الأعظم يحس في نفسه وكسا و وهنا ويشعر في قلبه الوخز الأليم، إذ كان مقبلا على خيانتهم بعد قليل، لقد كان في مقامه ذاك بين شجون شديدة تنتابه، ولا غرابة أن ينم مظهره الكليل على ما كان يثقله ويهزهز نفسه العاتية، وأن يرى الناس في أمارات وجهه أمارات الموت.

قضى قيرس مدة قصيرة بعد مقدمة يعالج طائفة من أمور الدين والدولة كان لابد له من الاسراع بمعالجتها في الاسكندرية، وفي الحق أن القبط تنفسوا الصعداء منذ رحل عنهم قيرس ومنذ انقطعت الصلة بين سلطات الروم وبين أجزاء كبيرة من بلاد مصر. ولكن (قيرس) لم ينس بعد عودته ما كان في قلبه من الحفيظة على ديانة القبط، فكان يرضى بالإذعان للعدوّ واسلام البلاد له ومصالحة من لا يؤمنون بدين المسيح، ولكنه ما كان ليمضي بأن يسالم القبط.

وانه لمن العجيب أن يرى المقوقس جدوى في العودة إلى اضطهاده وعسفه. فلعله كان

وذلك انه كان بمدينة نقيوس ارخن عظيم مقدم كانت عادته ان يدخل كل وقت الى الديارات المقدسه بوادى هبيب فحضر يوم تكريز بيعة ابى مقار ومعه ولد له كان مبتليا وظهرت منه ايضا ايه عظيمه ظاهره من الاب المغبوط ابى مقار الذى هو ابو الجبل المقدس بوادى هبيب وعز جميع البطاركه والاساقفه والرهبان والمعلمين فى جميع المسكونة، الذى روايح بخور اعماله وحسن افعاله قد ملا الاقليم، واضا [ء] مصباحه على كلمن

يتستر وراء ذلك ليدارى عن أهل الاسكندرية حقيقة أغراضه وهى إسلام بلاد مصر جميعها للعرب. ولا شك فى أنه كان فى ذلك ينفذ أمرا من مليكه، ولكن أى أمر! لقد كان أمرا غصبه من مليك لا حول له ولا طول، وتوصل إليه بالخداع والدناءة، حتى أنه لم يستطع أن يظهره لكبار قادة الدولة فى الاسكندرية، ولا أن يعلنه للناس. فخرج وحده ذاهبا إلى حصن (بابليون)، أو لعله قد استصحب جماعة من قسوسه كانوا على علم بسره، وكان النيل عند ذلك مرة أخرى فى أوان فيضه[١]، وذلك فى أواخر شهر أكتوبر بعد عام من صلح بابليون الذى لم يتم، إذ مزقه الامبراطور الشيخ (هرقل) فى غضب وحنق. وكان عمرو بن العاص عند ذلك قد عاد منذ قليل إلى (بابليون). بعد أن فتح بلاد الصعيد أو على الأقل بلاد مصر الوسطى كما يستريح بأصحابه فى أوان فيض النيل. وفيما كان هناك فى ذلك الحصن وافاه (قيرس)، وقد جاءه يحمل عقد الإذعان والتسليم. فرحب به عمرو وأكرم وفادته، ولما علم منه ما جاء من أجله من أمر الصلح قال له «لقد أحسنت فى الشخوص الينا». فقال البطريق له إن الناس قد عوّلوا على دفع الجزية لكى تقف رحى الحرب.

(١) اذا علمنا أن المقوقس فاوض العرب مرتين فى أوان فيضان النيل اتضح لدينا سبب الخلط الذى وقع فيه العرب بين حصار بابليون وحصار الاسكندرية ورأينا فى ذلك عذرا لهم.

ياتي اليه، وكانت عادة هذا الارخن ان يحضر الى الدير فى كل وقت فى اعياد الميلاد والغطاس والفصح، فحضر فى يوم التكريز وولده معه وسلمه لراهب قديس ومعه غلام يخدمه، فلما كمل التكريز والقداس وتقرب الشعب كان ولد الارخن نايما فى البيعه المقدسه فصرخ فى النوم حتى ارعب الناس الحاضرين من صراخة، فقوى ذلك الراهب قلبه وتقدم الى الصبى وانبهه فلما استيقظ تامله الجمع فاذا هو عوفى وكانه كما

فتح بلاد الساحل الشمالى

أمضى عهد الصلح فى (بابليون) فى يوم الخميس الثامن من شهر نوفمبر من سنة ٦٤١، وكان لابد له من إقرار إمبراطور الروم كما كان لابد له من إقرار خليفة المسلمين عمر، وكان فى مدّة الهدنة وهى أحد عشر شهرا متسع يكفى لذلك وما يلزم له من الرسوم، ثم عاد قيرس مسرعا الى الاسكندرية يحمل معه كتاب الصلح.

وكان أوّل ماعنى به أن يرسل شروط الصلح الى (تيودور) وهو القائد الأعلى، ثم الى قسطنطين وهو قائد الحرس، ومن أعجب الأمور أن (تيودور) لم تكن له يد فى مفاوضة الصلح ولم يحضر كتابته فى (بابليون)، مع أنه كان حاكم المدينة من قبل الإمبراطور. والحقيقة أن كل ما يمس (تيودور) محير مدهش، فلسنا ندرى من أمره شيئا حتى لنجهل هل كان قد علم بعزم (قيرس) فى تسليم المدينة للعرب قبل أن ينفذه. فاذا كان قد علم بذلك فلابد إنه قد غير رأيه وأصبح من أشياع الصلح مع العرب. وأما إذا كان غير عالم بذلك فمن أعجب الأمور أن يسارع الى الموافقة على أمر لا يمكن أن نصفه إلا بأنه كان تسليما شائنا.

على أنه من المعلوم ما كان عليه (تيودور) من العجز فى قيادة الحروب وضعف الرأى فيها، فموافقته على الصلح على ذلك لا قيمة لها، وحكمه فى أمر الحرب مدافع لا يعتمد عليه.

ولد جديد في يومه هذا فمجدو الله لهذه الاعجوبه العظيمة التى كانت. قال الاب بنيامين البطرك القديس: فلما فرغت من القربان استدعيت الارخن والد الصبى واستعلمت منه حال ولده فاخبرنى بمرضه وجميع ما حل به، ثم استدعيت الصبى وقلت له يا ولدى اشرح لى ما رايته فى منامك ولا تخف عنى شيا منه . فقال الصبى: بينما انا نايم رايت رجلا طويلا شيخا بلحية خفيفه نازله على صدره وهو يعصر جسمى بيديه فصرخت من الوجع، ثم انه امسك بيده طرف

ومهما يكن من الأمر فان (قيرس) عندما أحس بأنه مهد السبيل الى اعلان الأمر فى الاسكندرية، دعا كبار قواد الجيش وعظماء رجال الدولة، ولما انعقد عقدهم جاءوا وعليهم (تيودور) و(قسطنطين)، حتى إذا مثلوا بين يدى البطريق (قيرس) جعل يبين لهم ما تضمنه الصلح من شروط بما أوتى من فصاحة وبراعة، ويسهب في ذكر الضرورة التى استوجبت عقده وما فيه من مزايا، فما زال حتى فاز بما أراد من حمل سامعيه على الإيمان بقوله، ولكنه كان فوزا ما أشأمه.

وبهذا خطا (قيرس) خطوة جديدة فى سبيل إنفاذ خطته فى الإيقاع بمصر، على أنه ما كان ليستطيع أن يبقي خطته في ستر الخفاء بعد ذلك طويلا، فعلم الناس بما كان ولكن علمهم لم يأت عن قالة قالها (قيرس)، ولا إشاعة تردّدت وذاعت بينهم، بل علموا بالأمر بغتة وقد فجأهم طلوع فئة من العرب على المدينة فدقت الأبواق إيذانا بمقدمهم، وأسرع الناس من كل جهة ليقفوا فى أماكن الدفاع من الاسوار والحصونا، ولكن العرب ساروا على خيلهم لا يلوون على شيء ولا يعبأون بالضجة. وجاء قواد الروم عند ذلك بعد أن كانوا قد قضوا على حماسة الجنود واقدامهم، فجعلوا يهدئون من روع الناس وينادون فيهم أن لا جدوى فى القتال ولا أمل من ورائه. وقبل أن يقترب العرب حتى يصيروا على مدى رمى المجانيق أبصرهم الناس وهم يحملون أعلام الهدنة والسلام، فأشير إليهم بعلامة الرد فاقتربوا، حتى إذا ما صاروا

ثوبى واصعد من راسى فرايت جميع وجعى وجراحى ملتصقه بثوبى وقد انقلعت معه عن جسمى، وقال لى تقو يا ولدى هو ذا قد عوفيت، فلما انتهى هذا الاب الراهب قمت وانا معافى، هذه قضية حالى يا سيدى الأب. فشاهدته انا بنيامين بعينى فى ذلك اليوم وقد برى [الصبى]. فمجدت السيد يسوع المسيح الذى اظهر لى قواته وعجايبه على يد القديس ابى مقار الذى يعافى

بحيث يسمعون ويسمع منهم أفضوا الى جنود الروم بما كان. وما كان أشدّ عجبهم ودهشتهم مما علموا، إذ عرفوا عند ذلك أن العدوّ لم يأت ليقاتلهم بل أتى ليحمل الجزية التى اتفق عليها مع (قيرس) المقوقس فى عقد الصلح الذى طلبه من العرب وكتبه معهم على تسليم المدنية. فهاج الناس وثار ثائرهم لما سمعوا وذهبوا غير مصدّقين حتى أتوا قصر البطريق، فاطلع عليهم منه بعد لأى، وكان الخطر فى تلك اللحظة محدقا بحياته إذ تهافت الناس إليه يريدون أن يحصبوه.

غير أن كبر سنه وعلو مكانته خذلا الناس عنه، وحمياه من الخطر. فأشار الى الناس إشارة فهدأوا، ثم استطاع الكلام واستعان بما أوتى من بلاغة وفصاحة على تخفيف جنايته وتهوين خيانته فى مقالته التى قالها بين الناس. وجعل يبرر ما كان منه قائلا إنه إنما اضطر إلى ركوب الصعب اضطرارا إذ لم يكن بد منه، وما قصد إلا مصلحة قومه وفائدة أبنائهم فان العرب قوم لا يقوم لهم شىء إلا غلبوه، وقد أراد الله أن يملكوا أرض مصر، فما كان للروم إلا أن يصالحوهم، فانهم إن لم يفعلوا جرت الدماء فى طرق مدينتهم ونهبت أموالهم وقتلوا، ومن بقى منهم حيا خسر ما كان يملك وضاع أمره. ولكن الصلح حقن دماءهم وأمنهم على أنفسهم وأموالهم وديانتهم.

النفوس والاجساد بشفاعته عند الله الذى صار مينا خلاص العالم. فطوبى لجبل النطرون الذى استحق أن يكون فيه ابو مقار شفيعا، ولجميع من ياوى اليه، ايها الجبل الذى سر الله به ايها الجبل الذى جمع اليه هولا المصطفون الذين يضوون فيه اكثر من نور الشمس نهارا وتصعد صلواتهم كالنار المشتعله. ايها الجبل الذى اثمرت فيه الشمار الروحانية تلتين وستين ومايه، ايها الجبل الذى

بهذا استطاع (قيرس) مرة أخرى أن يفوز برأيه المشئوم، فإذا بالناس وقد عادوا إلى رأى الجيش ورضوا بالتسليم والنزول بمدينتهم العظيمة للعرب، على شرط العقد الذى تم. وجعل الثائرون يتلاومون على ما اقترفوا من الوثوب والحنق على ذلك الحبر الطاهر، في حين كان يسعى جهد طاقته ليحول بينهم وبين الهلاك على يد الغزاة. وأخذوا يجمعون قسط الجزية التى فرضت عليهم وزادوا عليها مقدارا كبيرا من الذهب، ووضع ذلك المال فى سفينة خرجت من الباب الجنوبى الذى دخل منه الترعة وذهب قيرس بنفسه ليحمله الى قائد المسلمين.

وبذلك تم فتح الإسكندرية، واذا حسبنا تاريخ ذلك وجدنا أن أداء ذلك القسط الأول من الجزية قد يكون فى أوّل المحرّم من سنة احدى وعشرين من الهجرة، وذلك هو اليوم العاشر من ديسمبر من عام ٦٤١. وليس فى مصادر التاريخ ما يثبت ذلك التاريخ وينص عليه صراحة، ولكن الرواية التى تناقلها العرب تجعل فتح المدينة فى ذلك اليوم. ولعل منشأ تلك الرواية كان عمن حضر ذلك اليوم وشهد إذعان أهل الإسكندرية بحملهم أوّل قسط من جزيتهم، ومع ذلك فإن مؤرّخى العرب يجعلون أوّل المحرّم فى يوم الجمعة مع أن أوّل المحرّم لم يقع فى يوم جمعة فى ذلك العام ولا فى عام قريب منه إلا فى عام ٦٤٥. وعلى ذلك يكون لنا أن نقول إن الرواية لا يمكن أن تكون صحيحة فى كل أجزائها، بل لقد تكون كلها غير صحيحه. ولكنا نتردّد فى الأمر ونحمل أنفسنا على القول إنها لابد أن يكون لها أساس من الحقيقة، لأنها

يملح الانفس ويردها من الخطيه وينقيها بالتوبة
فتبيض كالثلج، انت الجبل الحقيقى الذى تجتمع
فيه الملوك والاغنيا والفقرا ليخدموا الله فيك، أنت
جبل الملح بالحقيقة المملح الأنفس الذى تثبت
بالخطيه والأثم انت الذى جعلت اللصوص معلمين
وشهدا وصالحين ، فليدعو الان بغير ملل بين
يدى سيدنا يسوع المسيح ان يتبتنا على الأمانه
الارتدكسيه في بيعته المنيره لنفتخر نحن جميع بنى

رواية من أثبت الروايات في أخبار الفتح العربى. وعلى أى حال فانه من المفيد أن نوجه الأنظار إلى اتفاق عجيب آخر يلوح من خلال ما اختلط من تواريخ ذلك العصر، ولعله يفيدنا فى بيان أسباب ذلك الخلط بعض التبيين، وذلك أن بعض مؤرخى العرب يقرر أن فتح الإسكندرية لم يقع إلا بعد ثلاث سنين من دخول جيش عمرو فى مصر، فى حين أن طائفة سواهم تقول إن فتح حصن بابليون وفتح الإسكندرية وقعا كلاهما فى عام واحد وهو العام العشرون من الهجرة. ومع ما يظهر من الخلاف بين الطائفتين نقول إن كلاهما على الحق، فقد سلم حصن بابليون فى شهر أبريل من عام ٦٤١، وسلمت الاسكندرية فى شهر نوفمبر من ذلك العام، وكلا التاريخين واقع فى سنة عشرين. ومن جهة أخرى قد دخل عمرو فى أرض مصر فى عام ٦٣٩ من الهجرة، ولكن جيشه لم يدخل الاسكندرية إلا بعد ثلاث سنوات من ذلك، أى فى شهر أكتوبر من عام ٦٤٢ عندما انقضت مدّة الهدنة وهى أحد عشر شهرا. وأنه لما يسر النفس أن تفوز بكشف الحقيقة من وراء هذا الغطاء من خلاف يخمرها.

وماذا عسانا نقول فى هذا الصلح العجيب فليس فى طاقتنا أن نملك أنفسنا ونلزم القصد فى القول اذا ما أردنا أن نصف فعلة المقوقس، وما أتاه ذلك البطريق من حرصه المدهش فى كل وقت من أوقات القتال مع المسلمين على أن يسرع بالاذعان والتسليم لهم. فليس مرّ

المعموديه فى كل زمان بها ونساله ان ينجينا من شدايد المتولين علينا ومكر الصياد عدو الحق الشيطان الاركون الشرير. والمجد لله الاب والابن والروح القدس والقدره والعظمه الان وكل أوان والى دهر الداهرين أمين.

كمل بعون الله الجزء الاول من كتاب سير البطاركة بالمدينة العظمى اسكندريه خلفا مارى مرقس الانجيلى رزقنا الله بركة صلواته وصلواتهم

الأيام بمستطيع أن يمحو عن ذكره وصمة جنايته، والقصد الى تضييع أمرها بعد أن لطخته من قبل جريرة حمقه وقسوته في اضطهاد القبط مدّة أعوام عشرة.

وانا نعيد هنا ما سبق لنا قوله أن الاسكندرية كانت من المنعة بحيث لا تكاد تنالها قوّة عمرو ومن جاء معه من الجنود، فكان طول أسوارها نحو تسعة أميال أو عشرة، ثلاثة منها مما يلي البحر وأكثر ما بقي منها تحميه الغياض والبحيرات والترعة. واذ كان العدوّ لا يستطيع أن يقترب إلا من جزء يسير من تلك الأسوار فقد كان من السهل على جند المدينة أن تجعل همها دفع حملاته على هذا الجزء. وان العرب لو استطاعوا إسكات ما على الأسوار من المجانيق القوية المربعة، وقدروا على الاقتراب منها، لما أمكنهم أن يصدعوا الأسوار بما لديهم من الوسائل وما كان أقلها وأضعفها. وانا لا نكاد نعرف فى تاريخ الاسكندرية أنها أخذت مرة عنوة بغير أن يكون أخذها بخيانة من داخلها.

فمن ذلك نرى أن ذلك الصلح الذى عقده قيرس لم تكن ثمت من ضرورة فى الحرب تدعو اليه، ما دامت أساطيل الروم تسيطر على البحر، والعرب بعد أبعد الناس عنه لا يمرّ بخاطرهم أن يتخذوا فيه قوة. قد يقول قائل إن فتح بابليون قد أوهن الروم وان جنودهم امتلأ رهبة من العرب منذ رأوا أنهم لم يصبروا على لقائهم فى موطن من المواطن منذ ابتدأت

الحرب، وإن الجيش الرومانى كان لا يثق فى قواده ولا يرى منهم إلا الجبانة والعجز. وهذا كله صحيح لا شك فيه. ولكن كان فى الاستطاعة تغيير الحال بأن ترسل جنود غير تلك الجنود وقوّاد غير أولئك القوّاد لا تزال فى جنانها شدّة وفى قلوبها قوّة، غير أن ذلك لم يسع اليه أحد. فإن الدولة منذ مات عنها هرقل لم تجد حاكما يلم شعثها ويصرف أمورها ويحملها على سبيلها. وكان أهل الاسكندرية شيعاً وطوائف، تقطع ما بينهم الأحقاد والأطماع، فما كانت تخلو من هيعة أو وثبة. وجاء بعد ذلك موت هرقل فزاد الحال سوءا إذ شطر حكومة قلب الدولة شطرين ليس بينهما إلا الشحناء والعداوة. فالحق أن موته «كسر شوكة الروم» كما قال المؤرخ العربى، ولكنه كسرها كسرا أبلغ مما قصده ذاك المؤرخ، فان الدولة أغفلت بعده همها الأكبر وهو الدفاع عن حياتها. فشغلها دسائس (مرتينه) ومكائد (قلنتين) فتركت مصر تجرى فى قضائها، وكانت الاسكندرية إذ ذاك قطب الحوادث يدور عليها أمر مصر ومصيرها، فلم تجد فى الدولة من يأخذ بيدها، ولو وجدت نصيرا يمدّها لنجت من عدوّها ولناجزته بعد ذلك على سواء حتى تخرجه من أرض مصر.

ولا نزال نسائل النفس عن السبب الذى حمل أهل الاسكندرية على قبول ذلك الصلح، والمبادرة الى الرضى عن قيرس بعد أن كانوا قد وثبوا به وأرادوا أن يحصبوه لما رأوا من خيانته. فقد كانوا معروفين بالنزق والتقلب فى الأحوال، ولكنهم لم يكونوا صادرين عن نزق فى انصرافهم عن دولتهم وصدوفهم عنها ورضائهم بالاذعان لحكم العرب. وليس ثمت إلا رأى واحد فوق ما سبق لنا ذكره نفسر به ما كان منهم، وذلك أنهم كانوا قد سئموا من كثرة ما أصابهم من الحدثان وكرهوا فسادا الحكم الذى أثقل كواهلهم مدّة أربعين عاما، وقالوا فى أنفسهم لعلنا نجد فى حكم العرب قرارا واطمئنانا نأمن فيه على ديننا فلا نكره على شيء فيه وعلى أموالنا فلا تتحمل من الخراج والجزية إلا قدرا نطيقه.

ومنذ كان شعور المصريين الوطنى ضئيلا كان تأثرهم بما يمس أموالهم شديدا. ولعل ما كان الناس يتوقعونه من العرب من تخفيف حمل الضرائب كان من أكبر العوامل على فوز المسلمين فى فتوحهم جميعها. وأما فى الإسكندرية فلعل هذا الأمر كان أعظم الأمور أثرا. على أن ما طمع فيه أهل الإسكندرية من تخفيف هذه الأحمال لم يتحقق لهم بل خاب أملهم خيبة ما كان أمرها.

أقرّ الامبراطور عهد الصلح ولعل ذلك كان آخر ما أتاه في حكمه، إذ انتهى في ذلك الشهر عينه وهو نوفمبر، ويلوح لنا أن عمرو بن العاص كتب شروط ذلك الصلح وأفضى بها إلى أهل مصر، وكانت تلك الشروط تعدهم بالأمن على أنفسهم وأموالهم وذمتهم وكنائسهم وصلبانهم. ولكن المقاومة لم يخب لهبها ولم يخذلها ما كان من تسليم الإسكندرية العظمى، ولا ما وعد به عمرو من الشروط الحسنة. فقد بقيت بعض البلاد في شمال مصر السفلى (الدلتا) ترفع لواء مقاومة الغزاة العرب ولا ترضى بالتخلي عنه، مع أن فتح الإسكندرية كان قد قضى على الأمل كله في دولة الروم، وأصبح بعدها من أشدّ الحماقة أن تصر طائفة على القتال وتأبى الدخول فيما دخل فيه سائر الناس من العهد. فكان لابد للعرب من فتح تلك البلاد حتى يتم لهم الأمر، وكان عمرو قد فرغ مما يشغله ويستطيع السير إليها في أى وقت شاء.

ولاسيما ما كان منها على شاطىء البحر المتوسط إذ أبت أن تدخل فيما دخل فيه الناس من العهد. وكان لعمرو أن يسير اليها إذا شاء فيقاتلها ولو كان ذلك في مدّة الهدنة، ويلوح لنا أنه قد وجه لقتالها جيشا في ربيع سنة ٦٤٢؛ ومن العسير أن نصف ما كان من سير جيش العرب لا سيما وأن حنا النقيوسى لا يذكر شيئا من أمر القتال في هذه المدة، فلابد لنا من الاعتماد على مؤرّخى العرب وما جاء في أخبارهم، ومن أشق الأمور فهمها أو الربط بين أجزائها.

فلا نجد مع هذا ندحا من أن نلجأ الى التصوّر والحدث، فنقول إن جيش العرب لابد قد سار من كريون نحو الشرق على ساحل النهر. وكان في الاقليم الذى كان يعرف بالحوف الغربى مدينة اسمها (إخنا) ليست بعيدة عن الاسكندرية. وكان حاكمها اسمه (طلما) فأتى اليه كتاب من عمرو يعرض عليه فيه شروط الصلح الذى صالح عليه (قيرس)، ولكنه لم يقنع بما جاءه في ذلك الكتاب، فأرسل الى عمرو يطلب الاجتماع به، فسأله عن مقدار الجزية. فلم يطق قائد العرب احتمال هذه المراجعة وأشار إلى كنيسة قريبة وقال «لو أعطيتنى من الركن الى السقف ما أخبرتك إنما أنتم خزانة لنا إن كثر علينا كثرنا عليكم وإن خفف عنا خففنا عنكم». ولابدّ أن (طلما) كره هذا الرد وعزم على ألا يذعن، وعلى ذلك سار المسلمون إلى (إخنا) وما لبثوا أن أرغموها على التسليم لهم. وقد أخذوا منها أسارى كثيرة وبعثوا بهم الى الخليفة عمر في المدينة، مع أن تلك القرية سلمت إليهم صلحا بعقد وعهد. وقد حدث

مثل ذلك لمدينة (بلهيب)[١]، وكانت مدينة منيعة في جنوب رشيد تبعد عنها بضعة أميال. والظاهر أن عمرا أتاه هناك رد الخليفة عمر باقرار صلح الإسكندرية.

ويذكر مع صلح (إخنا) صلح آخر عقد مع (قزمان) ـ ولعله قزماس ـ حاكم رشيد وصلح مع (حنا) حاكم البرلس[٢]. ويلوح لنا أن العرب ساروا من بعد البرلس على شاطىء البحر حتى بلغوا دمياط[٣] ولم يقف لهم حاكم المدينة (حنا)، وأصبح العرب بفتح دمياط مسيطرين على منافذ النيل إلى البحر جميعا. ثم فتحت (خيس) في الإقليم المعروف بالحوف بقرب دمياط[٤] وأكبر الظن أن سلطان العرب صار يمتد عند ذلك على كل بلاد مصر السفلى، اللهم إلا بلادا قليلة كانت في الجزائر التي في رقارق بحيرة المنزلة الفسيحة.

وكانت الأرض التي تغطيها مياه تلك البحيرة الى ما قبل الفتح العربي بقرن واحد

(١) يسمى البلاذرى هذا الموضع بلهيت وهذا خطأ نقله أبو المحاسن والسيوطي ولكن ياقوت يذكر الاسم الصحيح.

(٢) كانت رشيد بالطبع مشرفة على مدخل فرع النيل الغربي وبلهيب مشرفة على المجرى الذى بين فرع رشيد والاسكندرية وكانت البرلس مدينة على مصب الفرع السبنيتي للنيل ولا تزال المدينة وإقليمها محتفظين بهذا الاسم الى اليوم مع أن فرع النيل السبنيتي قد طم منذ زمن طويل وتكون من ذلك بحيرة لا يحجزها عن البحر إلا قطعة ضئيلة من الرمل وقد ذكر المقريزى أسماء البلاد اخنا والبرلس ورشيد مجتمعة.

(٣) جاء في البلاذرى ذكر فتح دمياط فقال إن البعث الذى أرسل الى تنيس ودمياط وتونة ودميره وشطا ودقهلة وبنا وبوصير كان أميره عمير بن وهب الجمحي وإنه أقرب من الاحتمال أن يكون عمرو قد وكل قيادة هذا البعث الى أمير نائب عنه ولا يذكر البلاذرى أى قتال بل يقول إن عمير صالح أهل تلك البلاد على شروط الصلح العام الذى صالح عليه عمرو.

(٤) يختلف مؤرّخو العرب كثيرا في أسماء البلاد التي قاومت العرب فيذكر البلاذرى بلهيت (وهي بلهيب) والخيس وسلطيس في موضع ويذكر في موضع آخر كما رأينا أسماء البلاد سخا وبلهيت والخيس وسلطيس ويقول إنها ساعدت الروم في وقعة سنطيس ويضم ياقوت الى هذه البلاد مدينة (فرطا) ويقول إن عمرا بعد أخذ الاسكندرية أسر أهل تلك البلاد وبعث بهم الى المدينة ويعين ياقوت موضع الخيس ويذكر المقريزى عقود صلح مكتوبة مع إخنا ورشيد والبرلس وسلطيس ومسيل وبلهيب وكذلك يقول السيوطي، وأما الخيس فيجب أن تكون المدينة التي يصفها ياقوت بأنها في الحوف الغربي وأن الذى فتحها خارجة بن حذافة وقد وصف الحوف الغربي بأنه بقرب دمياط وهذا غير صحيح، في حين أن الحوف الشرقي كان مما يلي الشام.

لاتضارعها في بلاد مصر كلها أرض أخرى في جودة هوائها وخصبها وغناها، إلا إذا قلت بلاد الفيوم فقد تكون عدلا لها. وكانت أرضها ترويها ترع لا تنضب مياهها تأتي من النيل، فكانت تنبت نباتا يانعا من القمح والنخيل والأعناب وسائر الشجر. غير أن البحر طغى عليها فاقتحم ما كان يحجزه من كثبان الرمل، وكانت المياه تزيد طغيانا عاما بعد عام حتى عمت السهل الوطيء كله، ولم يبق فوق وجهها إلا عدد من الجزائر بعد أن أكلت المياه ما كان هناك من حقول وقرى، فلم ينج منها إلا ما كان عاليا لا تناله المياه. وأعظم مانجا من قرى تلك الأرض مدينة (تنيس) الشهيرة، وكانت مدينة لها شيء من الاتساع والكبر، وكانت ذات بناء جميل تجود بها صناعة المنسوجات الدقيقة. وكانت في البحيرة التي تخلفت مدائن أخرى اشتهرت ببراعة صناعها في النسيج مثل (تونه) و(دميرة) و(دبيق)، ولكن لم تبلغ إحداها مبلغ (تنيس) إذ كانت تضارع دمياط وشطا في دقة منسوجاتها وجودة أنواعها فما كان في البلاد كلها غير (تنيس) و(دمياط) ما يستطيع أن يخرج ثوبا من الكتان النقي يبلغ ثمنه مائة دينار. وقد ذكر المسعودى في تاريخه أن ثوبا صنع هناك للخليفة من عرض واحد بلغ ثمنه ألف دينار. وكان مصنوعا من خيوط الذهب مخلوطة باليسير من رقيق الكتان. وقد ورد في الأخبار كذلك أن تجارة (تنيس) مع العراق وحده بلغت من عشرين ألف دينار الى ثلاثين ألفا في السنة الواحدة، ولكن ذلك كان قبل أن تقضى عليها الضرائب الفادحة.

كانت تنيس على جزيرة[١] فسيحة وكانت تصل اليها من الجنوب ترعة اسمها بحر الروم، ولعلها كانت بقية فرع النيل التنيسي الذى كان يبلغ (الصالحية). وكان الاتصال كذلك سهلا في الماء بينها وبين الفرما، أو على الأقل بينها وبين (الطينة) وهي ثغر الفرما على ساحل البحر. وقيل إن (تنيس) كان لا يزال بها الى القرن العاشر آثار قديمة سوى ما كان بها من المساجد

(١) يزعم كاترمير أن اسم هذه المدينة مشتق من اللفظ اليونانى (تيوس) وقد أضيفت في أوله علامة التأنيث القبطية فاذا صح ذلك كان لابد أن تلك البلاد غمرت من زمن بعيد قبل القرن السادس وفي الحق أن (كاسيان) وكان في مصر في سنة ٣٩٠ ـ سنة ٣٩٧ للميلاد يقول على وجه البت أن تنيس يحيط بها من جميع جهاتها بحر أو مناقع ملحة حتى أن أهلها كانوا يعتمدون كل الاعتماد على البحر في الانتقال من مكان إلى مكان وكانوا يأتون بالطين في السفن إذا أرادوا أن يوسعوا أرضا ليبنوا عليها بناء. وقد دمرت (تنيس) في سنة ١٢٢٧م على عهد الملك الكامل الأيوبى فلم يبق منها إلا الاطلال ولاتزال الجزيرة تعرف بهذا الاسم عينه ولا تزال عليها آثار قديمة.

وعدّتها مائة وستون، تزين كلا منها مئذنة عالية، وما كان بها من الكنائس وعدّتها اثنتان وسبعون كنيسة. وكان بها من الحمامات ستة وثلاثون، وكانت لها أسوار حصينة فيها تسعة عشر بابا مصفحة بالحديد الثقيل. وقيل إن الموتى فى الجزائر الأخرى كانت تحمل فى الماء الى جزيرة (تنيس) لتدفن بها والظاهر أن هذه الموتى كانت تحنط هناك. وقد زارها بعد ذلك بقرن الرحالة الفارسى (ناصرى خسرو) فى عام ١٠٤٧ للميلاد فعجب مما رآه من ثرائها ورواج أسواقها فهو يذكر أنه كانت بها عشرة آلاف متجر وخمسون ألفا من الناس. وكانت فى مراسى جزيرتها ألف سفينة ولم يكن بها شيء من الزرع بل كانت تعتمد فى كل أقواتها على تجارتها. وكان النيل اذا علا وفاض طرد ما حول الجزيزة من مياه البحر الملح، وملأ بالماء العذب ما كان فيها من الصهاريج ومخازن الماء الدفينة فى الأرض، وكانت تلك كافية لشرب الناس طول الحول. وقد بلغت منسوجات القبط البديعة ذات الألوان شأنا عظيما لم تبلغه فى وقت من الأوقات. فكان للسلطان مناسج خاصة به تنسج فيها الأثواب له وحده. وكان الثوب لعمامته تبلغ نفقته أربعة آلاف دينار، ولكن الأثواب التى كانت تصنع للسلطان لم تكن مما يعرض فى الأسواق. وقد طلب إمبراطور الروم أن يأخذ (تنيس) ويعوض عنها بمائة مدينة من مدائن دولته ولكنه لم يجب الى ذلك. وكان مما يصنع فى تلك المدينة سوى هذه الأثواب الملكية نوع من الأثواب اسمه (بوقلمون)، وكان من الحرير المتغير اللون، وكانت لمعته زاهية حتى قيل انه كان يبدو فى ألوان متغيرة فى كل ساعة من ساعات النهار. وكانت صناعة السلاح المتخذ من الصلب من الصناعات التى كادت تبلغ فى تنيس مبلغ منسوجاتها، فكانت على ذلك مدينة من أعجب المدائن وأعظمها شأنا.

ويروى فى القصص أن حاكم (تنيس) كان فى وقت الفتح العربى رجلا من العرب النصارى [الغساسنة] اسمه (أبو طور)، وأنه خرج لقتال المسلمين على رأس عشرين ألفا من القبط والروم والعرب، فلقيهم فى سيرهم إلى (تنيس) بعد أن فتحوا دمياط، فناجزهم فى مواطن كثيرة قبل أن يظفر العرب ويهزموا جيشه ويأخذوه أسيرا. ومنذ تم لهم ذلك فتحوا المدينة وغنموا أموالها وقسموها ثم ساروا إلى (الفرما). ولم يجد المسلمون ما يحبب إليهم المقام فى هذه المدينة ولا فى أشباهها من الجزائر التى كانت فى وسط هذه البحيرة تساورها أمواجها الزرقاء مثل (تونه) و(بورا)و(دبيق). وعلى ذلك نستطيع إن نقول إن هذه الجهات

ظلت على دينها النصرانى زمنا طويلا بعد ذلك لا يكاد يمسها دين الاسلام[1]، ثم قضى عليها وزالت أخبارها من التاريخ وكان ذلك فى وقت نستطيع أن نعينه.

كانت جزيرة (تنيس) مكشوفة للغزو من البحر على أنها كانت محصنة فيها رباط قوى، وأمر صلاح الدين باخلائها فى سنة ١١٩٢، لإنه كان يشك فى ولاء أهلها من القبط ثم جاء الملك الكامل فى سنة ١٢٢٧ فهدم حصونها وأسوارها التى كانت تحميها من البحر حتى تركها أطلالا.

وتتصل بفتح هذه الجهات قصة أخرى يجدر بنا أن نشير إليها فإن المقريزى عند ذكره مدينة شطا يصفها بأنها مدينة بين (تنيس) و(دمياط).

وتذكر القصة أن العرب عندما حاصروا دمياط وفتحوها خرج إليهم حاكمها (شطا) ومعه ألفان من الناس، فأظهر إسلامه، وقد كان من قبل عاكفا على درسه والنظر فيه زمنا طويلا. ثم إن ذلك الرجل لما رأى أن العرب أبطأ عليهم فتح (تنيس) جمع جيشا من البرلس ودميره وأشمون طناح وجهزه ولحق بامداد المسلمين الذين بعث بهم عمرو، ثم سار حتى التقى بالعدوّ وأظهر من الشجاعة وحسن البلاء ما يظهره الأبطال، وقتل بيده اثنى عشر رجلا من فرسان أهل (تنيس) وشجعانهم، ومازال يقاتل حتى قتل فى ذلك اليوم، ودفن فى ظاهر المدينة، ويقول المقريزى إن قبره لا يزال معروفا يزوره الناس من كل أنحاء البلاد المجاورة ليتبركوا به فى يوم مقتله، وهو يوم النصف من شهر شعبان.

---

(١) ذكر فى سنة ٨٢٤ للميلاد أن (ديونيسيوس) بطريق أنطاكية ساقته الرياح وهو فى السفينة الى ميناء (تانيس) وقيل إنه قد خرج اليه منها ٣٠,٠٠٠ من المسيحيين للترحيب به فرحين وقد رحب به بطريق الإسكندرية وجماعة من الأساقفة وقالوا إنه لم يأت إلى مصر بطريق من بطارقة أنطاكية منذ أيام ساويرس ولكن ديونيسيوس كان أحفظ منهم للتاريخ فذكرهم بزيارة أثنا سيوس وكانت فى أوائل القرن السابع وقال لهم إنه قد تم عند ذلك الاتحاد الرسمى بين الكنيستين (أنظر ابن العبرى الجزء الأول فصل ٣٦٠) والمقصود بميناء تانيس لابد أن يكون الميناء الذى عند مصب الفرع التانيسى للنيل وهو بالطبع أقرب الى تيس منه الى مدينة تانيس وهى أبعد منها فى داخل الجزيرة والاسم العربى الآن صان أو صان الحجر وأثر موضع الميناء لا يزال موجودا على الشاطىء بين الفرما وبورسعيد.

انقضاء حكم البيزنطيين بمصر

كانت بلاد الصعيد قد تم فتحها ولا سيما إلى حدود إقليم (طيبة) قبل أن تخبو نيران الحرب في بلاد مصر السفلى بزمن طويل، وأخرج الروم من بلاد وادى النيل فى عام ٦٤١ حتى لم يبق منهم فيه إلا قليل، فلا تذكر الأخبار شيئا من القتال فى هذا الاقليم بعد ذلك. ولنا أن نقول إن بلاد الصعيد أذعنت للعرب بغير قتال بعد فتح الإسكندرية.

وفى هذه الايام مات قيرس بالاسكندرية وقد ذكر حنا النقيوسي وفاته فى موضعين: فقال فى الأول إنه «أثقلته الهموم فمرض بالدوسنطاريا ومات منها». وقال فى الثانى إنه «بكى بدمع لا ينقطع خوفا من أن يصيبه ما أصابه من قبل وذلك هو النفى وفيما كان غريقا فى حزنه مات كما جرت به سنة العالم» ولكنه فى موضع منهما يوصف بأن أكثر ما أصابه من الحزن كان لرفض العرب شفاعته فى أمر المصريين. وليس من سبب يحملنا على أن نشك فى شيء مما جاء فى هذا الوصف لآخرته، على أنه في رواية قبطية يرجع عهدها إلى أيام مؤرخنا ساويرس[1] وهى تصف موته وصفا آخر. فتقول «إن عمرا لما أخذ الإسكندرية واستقر الأمر على يديه فى المدينة خاف الحاكم أن يقتله عمرو، وكان ذلك الحاكم رجلا سيء الظن يلى أمر الدنيا والدين معا فى المدينة، فلما بلغ منه الخوف جعل فى فمه خاتما مسموما فمات من ساعته». على أننا نعرف أن المقوقس لم يخش عمرا خشيته من الإمبراطور، ولكن القصة أظهرت فى سياق عجيب وتأليف بديع أنه كان يخاف خوفا شديدا، وأن ذلك عجل بموته. بقى شيء آخر مما له اتصال بقصة موت قيرس ويجدر بنا ذكره، فقد رأينا أن عمرو بن العاص كان يشتد فى وقت الفتح شدّة عظيمة فى معاملة المصريين، ولهذا نجد المؤرخ القبطى يذكره كلما ذكره بالتقبيح والاستهجان على ما أثقل به قومه من الأحمال. ولهذا فإنه عند وصف الأيام الأخيرة من حياة البطريق نراه يقول إن «عمرا لم تكن فى قلبه رحمة بالمصريين ولم يرع العهد الذى عقده معهم إذ كان رجلا من الهمج». ونراه فى موضع آخر يصف ما وقع وصفا مفصلا فيحكى قصة رجل اسمه (ميناسى) كان هرقل اختاره حاكما لمصر السفلى فأقرّه العرب فى مكانه، وكان رجلا غرا جاهلا يكره المصريين كرها شديدا. ويذكر رجلا آخر اسمه (شنوده) أو (سينوتيوس) أقرّه العرب على حكم الريف و(فيلوخينوس) أقروه على حكم

(١) نسخة المتحف البريطاني صفحة ١٠٦ وفى نسختنا هذه ص٥٨٢. أنظر كذلك كتاب حياة «الأنبا صمويل» صفحة ٥٨ وقد أقتبس فيه من تقويم حياة القدّيسين.

(أركاديا) وهى الفيوم. ويصف المؤرخ القبطى هؤلاء الثلاثة بأنهم كانوا يكرهون المسيحيين ويوالون أعداءهم ويثقلون كاهلهم بالأحمال الباهظة. وكان القبط يكرهون على أن يحملوا للعرب مؤونة لدوابهم وطعاما لأنفسهم كثيرا من اللبن والعسل والفاكهة والخص وسوى ذلك من الأشياء فوق ما كانوا يؤدّونه من الطعام المعتاد وهو الضريبة التى كانوا يأخذونها من ثمار الأرض. وكان القبط يؤدّون كل ذلك تحت ظل خوف لا اطمئنان معه.

وهذا الوصف له شأن كبير من وجهين: الأول أن هؤلاء الحكام الثلاثة الذين سماهم المؤرخ كانوا أكبر حكام مصر بعد حاكم الإسكندرية، وكانوا من الروم الملكانيين أتباع قيرس، ولم يكن بهم عطف على القبط لا فى دينهم ولا فى دنياهم، وهذا يدل على أن الذين دخلوا فى الإسلام لم يكونوا كلهم من القبط فإن بعض من أسلم من كبراء القوم كانوا من الروم، وأما الوجه الثانى فهو أنه قد ثبت أن عمرو بن العاص كان يعامل المصريين قبل فتح الإسكندرية وبعدها أشدّ المعاملة.

لم يبق بعد ما ذكرنا إلا قليل من القول فى وصف الشهور الستة التى مرت على الإسكندرية بين موت قيرس وبين دخول جنود العرب فيها. فإننا لا نعرف شيئا أكيدا من حوادث هذه المدّة إلا اختيار خلف للمقوقس بطريقا للمذهب الملكانى، ولم يحدث ذلك إلا بعد أن مضى نيف وثلاثة أشهر على موت المقوقس. ففى الرابع عشر من شهر يوليه فى عيد القديس (تيودور) ألبس الشماس بطرس لباس البطرقة، وجلس على العرش الذى خلا من آخر بطارقة الإسكندرية تحت حكم الروم. ولعل ذلك الابطاء كان لاستشارة القسطنطينية، أو لعله كان لتردّد أهل الدين فى قبول تلك الولاية بعد أن انشقت الولاية الدينية فى مصر عن السلطة الدينية فى الامبراطورية، وأصبح أمرها مخوفا مضطربا، مع أن أهل مصر كانوا قد أخذوا يعرفون بطلان أحلامهم التى كانوا يمنون بها أنفسهم من الاطمئنان إلى حكومة العرب واستقرار الأمور معها، وثبوت ما يطلب منهم فيها من ضرائب لا تزداد عليهم. إذ جاء أن أهل البلاد جميعا كانوا يئنون من شقائهم فى حكم العرب، وكان أجل المصاب ما أصاب مدينة الإسكندرية من ذلك، فقد فسد حال التجارة التى كانت تدر الخير على أهلها، وخرج منها جماعة من أغنياء أعيانها وتجارها عوّلوا على الهجرة والنزوح عنها؛ فصار عبء الضرائب والجزية التى فرضها العرب الى كواهل من بقى فى المدينة من الناس فأبهظها، وأخذ الناس

يحسون ما فى دخول العدوّ فى بلادهم من ذل لهم وتضييع لملتهم، ولم تجدهم فى ذلك ألفاظ معسولة وأقوال ناعمة كان قيرس يزجيها إليهم.

فكان الهم والغم يظلان المدينة فى الأسابيع الأخيرة من مدّة الهدنة، وكان كثير من المنازل قد خلا من أهله، وهدأت ضجة الارتحال من مراسى المدينة بعد أن تحملت سفن يتلو بعضها بعضا بالنازحين من الروم ومتاعهم وأثاثهم، وسارت بهم إلى الشمال إلى حيث لا عودة، ولم يبق إلا أسطول كبير يتجمع فى مرفأ الإسكندرية ليحمل من بقى من جنود الروم. والظاهر أن الذى كان يقوم على ترحيل جنود الروم من بلاد مصر السفلى اثنان من القادة وهما (تيودور) الذى أصبح حاكم مصر بعد موت قيرس، و(قسطنطين) الذى أصبح القائد الأعلى لجيش بيزنطه بعد (تيودور)، وكانا يقومان بما يقومان به بالاتفاق مع العرب. وكان النيل عند ذلك قد أخذ يزداد، وصارت الترع صالحة لسير السفن ونقل الأشياء، ولهذا السبب وقع الاختيار على ذلك الوقت لخروج الروم. فما أن حل حتى ركبت بقية جيش بيزنطه فى السفائن مع (تيودور) و(قسطنطين)، وهبطوا نحو الإسكندرية. وعند ذلك أطلق سراح من كان فى يد العرب من الرهائن الذين أودعوهم حصن بابليون، أو لقد ذهب العرب بهم حتى لحقوا بأصحابهم فى العاصمة.

دار الفلك دورته وعاد عيد الصليب، وكان من عجائب المقدور أن اتفق فى ذلك اليوم الرابع عشر من سبتمبر من العام المنصرم مجيء المقوقس رئيس الأساقفة الخائن فى رجعته الى مصر، ثم عاد اليوم بعد عام ليشهد آخر مشهد من زوال ظل السلطان البيزنطى عن مصر. فكانت صلاة إعلاء الصليب تردّد أصداؤها فى الكنيسة، فى حين كانت السفن تتجهز آخر جهازها فى الميناء ويؤذن لها بالسير. فما طلع اليومى الثالث بعد هذا وهو اليوم السابع عشر من سبتمبر حتى كان أسطول (تيودور) يحل قلاعه ويرفع مراسيه ويسير إلى قبرص بمن كان عليه من فلول جيش الروم يرفرف عليهم الأسى.

فتح بنتاپولس

ما أن أمن العرب على مصر ولما ينقض فيها القتال كله، حتى عوّل قائدهم على إنفاذ حملة الى بنتاپولس، حتى اذا ما انقضت تلك الهدنة ودخل العرب الاسكندرية لم يبق عليه إلا

أن يقيم للمدينة وحدها نظامها. ولو كان الأمر غير ذلك لما استطاع عمرو أن ينفذ حملته الى بلاد المغرب بعد مثل ذلك الزمن القصير من فتح العاصمة، فانه أنفذه فى تاريخ لا يمكن أن يقع بعد أوّل عام ٦٤٣[١] بزمن طويل.

لقد كان في القرن السابع سلسلة من المدائن والمنازل على الطريق بين الاسكندرية و(قيرين)، وأن أكثر الطريق كان في أرض خصبة ذات زرع. وإذا قلنا إن السير فى ذلك الطريق كان سهلا على جند الروم فانه كان نزهة لفرسان العرب خاصة وانه صحبهم فى البحر اسطول بحرى محمل بالمؤن والعتاد تحت قيادة الدوكس سانوتيوس.، ولم يلقوا فى سيرهم هذا كبير كيد، فلا يذكر أنه قد وقع قتال حتى بلغ العرب (برقة). والظاهر أنها سلمت لهم صلحا، على أن تدفع للعرب ثلاثة عشر ألف دينار جزية معلومة كل عام[٢].

وقد جاء في شروط ذلك الصلح شرطان عجيبان: الأوّل أنه أبيح لأهل برقة أن يبيعوا أبناءهم ليأتوا بالجزية المفروضة، والثانى أنه كان عليهم أن يحملوا الجزية الى مصر حتى لا يسمح بدخول جباة الجزية الى بلادهم، ولعل المشترى هنا كان العرب انفسهم.

وسار عمرو بعد فتح برقة الى طرابلس وكانت أمنع حصونا وأعز جيشا، فقد كانت بها

(١) جاء فى ابن الأثير (الجزء الثالث صفحة ١٩) أن غزو برقة كان فى سنة ٢٢ للهجرة (أى من ٣٠ نوفمبر سنة ٦٤٢ الى ٢٠ نوفمبر سنة ٦٤٣) وجاء في الكتاب نفسه (صفحة ٣٨) ذكر التاريخ الصحيح لوفاة عمر وهو أجدر بالتصديق من ياقوت وابن خلدون إذ يذكر أن الغزوة كانت فى سنة ٢١ للهجرة. وقد ذكرنا فى موضع آخر أن ذلك الخلاف قد يكون ناشئا عن أن عمرا بدأ سيره بعد أوّل السنة الهجرية بزمن يسير. ولقد أرسلت بلا شك سرية أخرى الى بنتابولس فى سنة ٢٥ للهجرة ولكن كلتا الغزوتين مميزة عن الأخرى على الأقل فى ابن الأثير. والأمر ليس فيه شبهة من الشك لأن الغزوة الثانية تتفق كل الاتفاق مع ترتيب تاريخ الحوادث المعروفة فى حين أننا لو ذهبنا الى أن المقصود هو الغزوة الأولى لحدث اضطراب فى نظام حوادث أخرى معروفة التاريخ وفوق ذلك فان ابن بطريق يفيدنا هنا فائدة كبرى فانه يقول «إن عمرا فتح طرابلس للغرب فى سنة ٢٢ للهجرة فى السنة الثانية والعشرين من حكم هرقل والسنة العاشرة من خلافة عمر» فأما تاريخ هرقل فيجب علينا إغفاله لأن (ابن بطريق) لا يفتأ يخطىء فى ذكره ولكن سنة ٢٢ للهجرة تتفق مدّة نصف عام مع السنة العاشرة من خلافة عمر فقد بدأت خلافته فى ٢٤ يوليه سنة ٦٣٤ فالسنة العاشرة من خلافته تبدأ فى أوائل الصيف من عام سنة ٦٤٣ فى حين أن سنة ٢٢ للهجرة تنتهى فى نوفمبر سنة ٦٤٣ ولعل فتح مدينة طرابلس كان فى مايو أو يونيه من ذلك العام.

(٢) يتفق ابن الأثير وياقوت وابن خلدون فى أن عمرا صالح على هذه الشروط ولكنهم لا يذكرون قتالا.

حامية كبيرة من الروم، فأقفلت أبوابها وصبرت على الحصار الذى وضعه العرب عليها بضعة أسابيع لم يأتها إمداد من البحر حتى اذا ما كاد جيشها يهلك من جهد القتال وشدّة الجوع، عرف العرب أن المدينة كانت غير محصنة من قبل البحر، وأنهم يستطيعون النفوذ اليها من هناك. فدخل جماعة منهم بين أسوار المدينة والبحر وقاتلوا عدوّهم من هناك، فذعر المدافعون عن المدينة وحملوا ما استطاعوا حمله من متاعهم وأسرعوا الى السفن وحلوا قلوعها، وفى أثناء ذلك ترك الحرّاس الأبواب ودخل عمرو بجيشه الى المدينة.

سار عمرو مسرعا كما اعتاد السير فطلع بغتة على مدينة سبرة (زراره حاليا)، وهاجمها فى أوّل الصباح، وأخذ الناس على غرة إذ كانوا يظنون أن العرب لا يزالون فى شغل فى حصار طرابلس. ولهذا فتحت المدينة عند أوّل حملة حملوها عليها، وكان أخذها عنوة. فاعمل فيها العرب النهب وكان هذا ختام تلك الحرب السريعة، فعاد عمرو الى برقة وجاءت اليه من بدو البربر قبيلة لواته فدانت له، وهى جل من كان يسكن تلك البلاد. فلما تم له ذلك عاد بجيشه الى مصر ومعه عدد عظيم من الأسرى ومقدارى كبير من الغنائم.

ولعل عودة عمرو إلى حصن بابليون كان فى صيف سنة ٦٤٣، وكان جسر النيل قد أعيد هناك فيما بين الروضة وبابليون على الشاطئ وبينها وبين الجيزة على الشاطئ الغربى .ولكن الشاطئ الغربى ومدينة منف التى كانت عليه كانا عرضة للغارات المباغتة من القبائل الصحراوية الضاربة فيما وراء الأهرامات، فأمر عمرو ببناء قلعة فى الجيزة تدفع المغيرين من قبلها، وتمكن للعرب فى جانب النيل الآخر، فيكون سلطانهم مبسوطا على الضفتين معا. فتم ذلك قبل حلول شهر نوفمبر من ذلك العام.

أصبح السلام سائدا عند ذلك فى كل بلاد مصر السفلى وبلاد وادى النيل الى حدوده الجنوبية عند أسوان، ولكن النوبه كان عند ذلك قذى فى عين حكام مصر، وهو لا يزال كذلك فى كل العصور، وذلك لأن قبائله لا يسهل قيادها. وكانت فى جبالها أو صحرائها لا ترضى بدين المسيح بدلا ولا تحب الدخول فى الإسلام، ولا تزال تنظر الى بلاد مصر ذات الخيرات أنها غنيمة لها كما كانت لآبائها وأجدادها لا تدع الاغارة عليها. وقد أرسل عمرو الى بلاد النوبة جيشا يغزوها ولكنه لم يستطع أن يهزم أهلها بل اضطرّ للعودة، بعد أن لحقت به خسارة عظيمة مما أصاب الناس من سهام رماة النوبة الذين سماهم العرب بعد ذلك رماة

الحدق. وبقي القتال بعد ذلك ينشب بين حين وحين مدّة بضع سنين الى أيام خلافة عثمان، فعقد صلح مع أهل النوبة على أن يدفعوا كل عام جزية من العبيد الى والي مصرى، وشرط لهم العرب أن يرسلوا اليهم خلعة ومؤونة. ومن ذلك يظهر أن الصلح كان صلح ندين إذ لم يكن الوقت قد حان لفتح بلاد النوبه.

إعادة بنيامين

لما مات البطريق الروماني (قيرس)، ورحلت عن مصر جيوش الروم التى كان سلطانه يعتمد عليها، حدث تغير كبير فى حال الأحزاب الدينية، فقد أقيم خلف لبطريق الرومان فى الإسكندرية ليقوم على ولاية أمر المذهب الملكاني، ولكن ولايته كانت لا تتعدّى أسوار المدينة، وذهب عنه سلطانه وانفض من حوله كثير من أتباعه. ولكن بطريق القبط كان لا يزال على اختفائه طريدا يضرب فى أنحاء الصعيد، ويهيم على وجهه فيه. فكان يخيل إلى الناس أن مذهبه قد بات صريعا لا تكاد الحياة تدب فيه، مما أصابه من الوطء والعسف فى محنته التى تطاولت به مدّتها نحو عشر سنوات على يد قيرس الذى كان لا يعرف الرحمة، ولا تخطر على قلبه هوادة. وقد أصبحت مصر بعد وليس دينها دين المسيح، إذ وضعت عليها حماية الاسلام تعلو أحزابها جميعا، وأصبح سيفه بينها فيصلا حائلا. فأدّى ذلك الى تنفس الناس فى عباداتهم واختيار ما يشاءونه فى تدينهم، فلم يكن بالمسلمين اهتمام لمنازعات الأحزاب فى شأن مجمع خلقيدونية، واختلافها فى صدق ما أقرّه ذلك المجمع أو كذبه، وأصبح القبط فى مأمن من الخوف الذى كان يلجئهم إلى إنكار عقيدتهم أو إخفائها تقية ومداراة. فعادت الحياة إلى مذهب القبط فى هذا الجوّ الجديد، وما لبث أن صار مذهب الكثرة الذى يحق له أن يكون مذهب الأمة السائد. وقد قضى عمرو بن العاص بأنه كذلك، وأنفذ قضاءه بأن كتب أمانا لبنيامين وأقرّ عودته.

وقيل إن الذى حدا بعمرو إلى المبادرة بهذا الأمر ما أبلغه إياه رجل اسمه سنوتيوس (أو هو شنودة)، وكان من قبط مصر، إلا أنه كان مع ذلك من بين قواد جيش الرومان[1]. ولكن الموضع الذى كان به (بنيامين) كان مجهولا لا يعلم به أحد، ولا يعرفه (شنودة) نفسه. وعلى

(١) ساويرس النسخة الخطية بالمتحف البريطاني صفحة ١٠٦ سطر ١٠ وص٥٨٢ من كتابنا هذا، وأكثر الحقائق التى أوردناها هنا مأخوذة عن ذلك المصدر.

ذلك كان لابد من كتابة أمر الأمان على هيئة كتاب لا تخصيص فيه، وكانت صورته كما يلى:

«أيما كان بطريق القبط بنيامين نعده الحماية والأمان وعهد الله فليأت البطريق إلى هاهنا فى أمان واطمئنان ليلى أمر ديانته ويرعى أهل ملته». وليس بالمستبعد أن يكون سعى (شنودة) هذا كان فى الوقت الذى جاء فيه رهبان وادى النطرون إلى عمرو يظهرون له الطاعة لحكيم المسلمين. فقد روى المقريزى نقلا عن بعض مؤرخى المسيحيين أن سبعين ألفا من الرهبان خرجوا من تلك الأديرة للقاء عمرو بن العاص، وكان كل منهم يحمل فى يده عصا. فلما دانوا له بالطاعة أعطاهم كتابا لا شك أنه كان (عهد أمان)، ولعله كان العهد الذى نذكره الآن وهو عهد بنيامين(١).

ولم يلبث عهد الأمان أن بلغ بنيامين فعاد من مخبئه ودخل إلى الاسكندرية دخول الظافر، وفرح الناس برجوعه فرحا عظيما بعد أن بلغت مدة غيابه ثلاثه عشر عاما منذ هجر مقرّه وهرب إلى الصحراء الغربية عند مقدم (قيرس). ومن هذه المدة عشر سنين وقع فيها الاضطهاد الأكبر والثلاث الباقية كانت فى مدّة حكم المسلمين(٢). وكان بنيامين فى كل هذه المدة يتنقل خفية بين أصحاب مذهبه، أو يقيم مختبئا فى أديرة الصحراء.

ولما أبلغ شنودة عمرو بن العاص مقدم بنيامين أمر عمرو باحضاره إليه، وأمر بأن يقابل بما يليق به من الترحاب والتكريم.

وجعله أميرا على قومه لا يدافع فيهم أمره، وجعل له ولاية أمر دينهم.

ولقد كان لعودة بنيامين أثر عظيم فى حل عقدة مذهب القبط وتفريج كربته، إن لم تكن عودته قد تداركت تلك الملة قبل الضياع والهلاك، إذ لم يكن قبط مصر فى وقت من

(١) ذكر المقريزى ذلك الخطاب ويقول إنه لا يزال موجودا فى وادى النطرون. ويذكر كتابا آخر من عمرو عن خازن الأقاليم الشمالية ويقول إنه محفوظ فى دير مقاريوس ولا يذكر ساويرس شيئا عن الوفد بل يكتب أنه كان «سينوتيوس القائد المؤمن الذى سعى فى عودة البطريق وحصل له على الأمان من قائد المسلمين». وقد جاء ذكر وجود هذا الخطاب فى دير مقاريوس فى كتاب اميلنو (Hist. des Monastéres de la Basse Egypte)

(٢) اتفق المؤرّخون فى مدّة نفى بنيامين وتقسيمها فيقول ساويرس إنه رجع بعد «غياب ثلاثة عشر عاما: عشرة منها فى حكم هرقل، وثلاثة فى حكم المسلمين» أن عودة بنيامين كانت قرب الخريف من سنة ٦٤٤ أى فى آخر سنة ٢٤هـ.

الأوقات أشدَ حاجة منهم فى ذلك الوقت إلى ذى رأى حصيف وخلق متين يقودهم ويلى أمرهم، فقد كان منهم من خرجوا من عقيدتهم وهم ألوف، ورضوا باتباع مذهب (خلقيدونيه) خوفا من اضطهاد قيرس. ولاشك أن الخروج من الدين كرها أو خوفا لا يكون في مبدأ أمره حقيقيا، ولكن لقد مضى على ذلك الأمر عشر سنين واعتاد الناس السير على ما دخلوا فيه، وما كان بناء عشر سنين ليتهدّم في لحظة ويزول. ولقد كان أشدّ خطرا على القبط من كان يخرج منهم إلى الاسلام.

ولم يكن من اليسير أن يعاد من خرج من المسيحية إلى حظيرتها بعد أن قطع أسبابها، فان ذلك كان لا رجاء فيه. ولكن الأمر كان على غير ذلك فى أكثر من اضطر إلى اتباع مذهب الملكانيين خوفا أو كرها. وقد كان لعودة بنيامين إلى عرش الإسكندرية وأبنائها رنة طرب في قلوب أهل مصر جميعا، فعاد جل العامة إلى راعيهم القديم والفرح يملؤهم، «ونالوا أكليل الاعتراف»[1]. ونادى البطريق المطارنة الذين اتبعوا مذهب الدولة أن ارجعوا إلى سابق عهدكم وملتكم، فعاد بعضهم يذرفون الدمع السخين ندما، ولكن قيل إن واحدا منهم أبى أن يعود حتى لا يلحقه العار خوف أن تعرف عنه الردّة الأولى. ولعل الكثيرين كانوا مثله فى هذا. ومهما يكن من الأمر فقد نما أمر القبط وزاد اتباع ملتهم. وكان هم بنيامين فى أوّل الأمر أن «يقدح فكره ليلا ونهارا فى أمر رعيته وإرجاع من ضل منهم فى أيام هرقل». فلما أن تم له جمع قومه ولم شعثهم اتجهت همته إلى إصلاح ما تهدّم من الأديرة، ولا سيما ما كان منها في وادى النطرون، وقد لحقها من التخريب فى أوائل القرن السابع ما لم تعد معه إلى سابق عهدها.

وقد استطاع أن يجد ما يلزم لذلك الإصلاح من المال، ثم أتمه على ما أراد. وقد وصف (ساويرس) ما يتصل بهذا الأمر من الحوادث وصفا شائقا فقال إن جماعة من الرهبان وفدوا إلى الاسكندرية حتى دخلوا بيعة السيدة الطاهرة مرتمريم ام النور التى تدعى «اسطوا انجالون»[2]، وكان بنيامين عند ذلك يصلي بالناس صلاة عيد الميلاد. فطلبوا إليه أن يذهب

(١) ساويرس ص٥٨٧ من كتابنا هذا.

(٢) اللفظ المستعمل هو (Stoa Angelion) وهو نقل عن اللفظ اليونانى ويشير إلى الكنيسة التى اسمها الانجيليون ولعل هذا دليل على أن اسم (Angelion) أصح من (Euangelion). انظر ص ٦٠٣ من كتابنا هذا.

معهم ليبارك الكنيسة الجديدة التى بنيت فى الصحراء بوادى النطرون وهى كنيسة القدّيس (أبى مقار)، فأجابهم بنيامين إلى ما طلبوا وسافر معهم الى (المنى) و(جبل البرنوج) حتى بلغ (دير البراموس)، وذهب بعد ذلك من هناك لزيارة الأديرة الأخرى. وجاء فى اليوم الثانى من شهر يناير إلى (دير مقاريوس)، فلقيه هناك المعلم الأكبر (بازل) مطران نقيوس، ورحب به فى موكب حملت فيه بين يديه المباخر وسعف النخيل. وفى اليوم التالى وهو الثامن من شهر طوبة احتفل بمباركة الكنيسة واتفقت له عند ذلك ـ كما قال ساويرس ـ آيات وكرامات لا محل لذكرها هنا. ولعله من المستحسن أن نذكر هنا كلمات (بازل) الذى شكر الله على ما أولى البطريق من زيارة الصحراء المباركة مرة ثانية، وأن يرى من فيها من الآباء المقدسين والأخوة الطيبين الأبرار، ويشهد بها شعائر الدين القويم. ثم شكر الله على أن أنجاه من الكفرة وحفظ قلبه من ذلك الطاغية الأكبر الذى شرده، فعاد إلى أبنائه يراهم ملتفين حوله مرة أخرى[1].

وان هذا القول لا ينم عن قوم يشعرون بأنهم فى قيد الذل، بل ينم عمن يبتهج بالنجاة والخلاص. وقد جاء فى غير هذا الموضع من كتاب الكاتب عينه ما يؤيد هذا المعنى ويوافقه. قال على لسان بنيامين «كنت فى بلدى وهو الاسكندرية فوجدت بها أمنا من الخوف واطمئنانا بعد البلاء، وقد صرف الله عنا اضطهاد الكفرة وبأسهم»[2]. وقد وصف قومه بأنهم «فرحين مثل العجول الصغار إذا حل رباطهم واطلقوا على لبان أمهاتهم[3]».

ثورة الاسكندرية بقيادة منويل

ظهر بعد أن فتح مصر لم يتم، فان الحرب بعد أن ظن الناس أنها قد وضعت أوزارها، عادت جذعة، إذ جاء الروم يسعون سعى المستميت أن يسترجعوا ما فقدوه من ملكهم، ولا يسعنا إلا أن نصف هذا السعى ولو على وجه الايجاز.

وقد أخطأ عمر بن الخطاب فى أنه كان مع عماله جميعا على سوء الظن يتوقعون منه العزل والمحاسبة، فقتل لبضعة أيام بقيت من ذى الحجة من عام ٢٣ للهجرة، ودفن فى غرة المحرم من عام ٢٤ للهجرة ٧ نوفمبر سنة ٦٤٤، وفى ذلك اليوم أختير عثمان خليفة له. على

(١) ساويرس ص٥٨٤ متن ساويرس العلوى.
(٢) نفس الكتاب نفس الصفحة.
(٣) انظر ص ٥٩٥ متن ساويرس العلوى.

أن عمر وإن أخطأ في بعض أمره فقد كان عثمان الذى جاء بعده يعزلهم. وكان من آخر ما أتاه عمر في حياته أن قلل من سلطان عمرو بن العاص، وذلك بأنه ولى عبدالله بن سعد بن أبي سرح حكم الصعيد والفيوم، وجعل اليه جباية الخراج. فأتم عثمان ما شرع فيه عمر بان عزل ابن العاص عن ولاية مصر، وجمع ولايتها جميعا لعبدالله بن سعد.

الذى يصفه الطبرى بأشنع الصفات فيقول عنه: «لم يكن في وكلاء عثمان أسوأ من عبدالله والي مصر». وكانت ولايته هذه في وقت ساء فيه حكم الولاة وثارت ثورة الناس عليهم وعلى الخليفة لجورهم في الحكم. والظاهر أن من وصف عبدالله وصفا حسنا إنما يدل على سخافته وحماقته، وليس لوصفه قيمة في التاريخ فانه لا مراء فيما ارتكبه في مصر من الظلم. وقد ولاه الخليفة قصدا لكي يزيد في جباية الجزية، وإن لدينا من الأسباب ما يحملنا على أن نقول إن عبدالله قد جعل أوّل همه زيادة الضرائب على أهل الاسكندرية، إذ لا شك أنهم كانوا عند ذلك يرزحون تحت عبء ثقيل من الضرائب. ولقد كان من أثر هذا العبء الثقيل أن جماعة من زعمائهم أنفذوا كتبا إلى الامبراطور (قسطانز) في قسطنطينية، يسألونه أن يخلصهم من ظلم المسلمين. وقالوا له إن الاسكندرية ليس فيها إلا حامية ضعيفة لا تقوى على دفع جيش روماني.

فأثرت هذه الكتب في الامبراطور، إذ أنه لم ينس ما أصابه في عزته وما لحق دولته من الضرر من ضياع مصر، فأمر بإعداد قوّة عظيمة وتكتم أمرها كتمانا شديدا. وكان الروم الى ذلك الحين لا يزالون على سلطانهم في البحر غير مدافعين ولا معاندين.

لم يكن للعرب في الوقت الذى نصفه الآن سفن تأتيهم بأنباء أسطول الروم الذى بعث به الامبراطور بقيادة منويل للاستيلاء على الاسكندرية. فما فجأ العرب إلا أسطول عظيم يدخل ميناء الاسكندرية في عدّة ثلثمائة سفينة، وألقى فيها مراسيه غير مدافع[1]. ولم يكن

(١) اختلفت المصادرة على عادتها في هذا الأمر فقال ابن خلدون إن الأسطول بقى بعيدا عن الشاطئ لأن المقوقس منع الروم أن ينزلوا بالأرض ولكن المقوقس كان قد مات طبعا. وقال ابن عبدالحكم ان الأسطول رسا في الاسكندرية وإن الروم الذين كانوا في المدينة انضموا الى جنود الامبراطورية. وأما غيرهما من مؤرخي العرب فيقولون بوضوح إن الروم أخذوا المدينة وقتلوا حاميتها.

بالمدينة إلا ألف رجل من العرب للدّفاع عنها، فغلبهم الروم وقتلوهم جميعا إلا نفرا قليلا منهم استطاعوا النجاة، وعادت بذلك الاسكندرية الى ملك الروم. بعد أن كانوا قد سافروا في البحر ورحلوا عن مصر، فأخذوا العرب على غرة وهم متفرّقون، فملكوا المدينة مرة ثانية، ولبثوا يحكمونها بعد ذلك حينا قصيرا. وليس ثمت من حقيقة لهذه الرواية فانما منشؤها خطأ في التأويل، وذلك أنهم خلطوا بين فتح الاسكندرية في المرّة الأولى وفتحها في المرّة الأخيرة، ومزجوا بين وصفي الحادثين. فهم يقولون مثلا إن فتح الاسكندرية كان في المرّة الأولى عنوة وجعلوا بناء روايتهم كله على أنها فتحت عنوة، في حين أنا قد بينا بيانا واضحا لا نزاع فيه أن فتح الاسكندرية في المرّة الأولى كان صلحا، وأن العرب جعلوا لأهلها هدنة مدّتها أحد عشر شهرا، ثم دخلوا بعد ذلك الى المدينة مسالمين، وظلوا بعد ذلك على ملك المدينة لا يحدث لهم حدث حتى جاء منويل في بعثه[1].

وقد اتفق مؤرّخو العرب اتفاقا يقل مثله على أن استرجاع الروم لمدينة الاسكندرية قد وقع في أوائل السنة الخامسة والعشرين للهجرة وذلك نحو آخر سنة ٦٤٥ للميلاد[2]. ولكنهم لم يتفقوا مثل هذا الاتفاق في ذكر المكان الذى كان فيه عمرو بن العاص عند ذلك فإذا صحت

(١) تثبت هذه القصة من قول السيوطي إذ قال «لما هزم الله الروم وفتح الاسكندرية وهرب الروم في البر والبحر خلف عمرو بن العاص بالاسكندرية ألف رجل من أصحابه ومضى عمرو ومن معه في طلب من هرب من الروم في البر فرجع من كان هرب من الروم في البحر الى الاسكندرية فقتلوا من كان فيها من المسلمين إلا من هرب منهم» (حسن المحاضرة صفحة ٧٣) ولكنى هذا خلط ناشيء من مؤلف يجمع الأخبار وهو يجهل ترتيبها التاريخي الصحيح وهذا الحادث ليس إلا ترجيع ما حدث فيما بعد في أيام غزوة منويل ونقول كذلك إن هذا الخبر الذى يذكر فيه نزول الروم على الاسكندرية مرتين يرد في كتاب ابن بطريق وهذا دليل بغير شك على أن كلا المؤلفين نقل عن مصدر واحد وهو مصدر فاسد فاذا ما قام الدليل كما فعلنا من قبل على أن فتح الاسكندرية الأوّل كان صلحا نقضت هذه القصة من أساسها فجمل القول أن القصة لا يقوم عليها دليل صحيح وهي تعارض حقائق قام البرهان عليها وثبتت بغير شك ولا يذكر حنا النقيوسي شيئا عنها وعلى ذلك يجب علينا أن نبعدها عن حقائق التاريخ.

(٢) ذكر البلاذرى هذا التاريخ ثم ذكر احتمال أن يكون ذلك سنة ٢٣ هجرية. وأما ابن الأثير فانه يذكر أن ذلك كان سنة ٢٥ للهجرة ويتفق معه في ذلك ياقوت وأبو المحاسن. وأما المقريزى فانه يذكر أن فتح الروم للاسكندرية كان سنة ٢٤ هجرية وأن فتح العرب لها وقع سنة ٢٥ للهجرة. وذكر ذلك أبو المحاسن وقال إن هزيمة الروم كانت في ربيع الأول وهو يوافق يناير سنة ٦٤٦ ولكن هذا لا يكاد يترك وقتا كافيا لحوادث ذلك القتال.

رواية الطبرى، وروايته جديرة بالتصديق، كان عمرو عند ذلك فى مكة[1] معزولا، فلما جاءت أنباء هذه الثورة أمر بأن يعود إلى قيادة الجيش بمصر. وعلى أى حال فالظاهر أنه عزل قبل مجيء الروم، ولم يلتفت خلفه العاجز إلى حماية البلاد فأهمل تحصينها، حتى بدا عجزها واشتدّ خللها. ولم يقف جيش (منويل) عند الاسكندرية بعد أن ملكها وخلصت له، بل سار إلى ما يليها من بلاد مصر السفلى ينهب فيها ويغصب القمح والخمر والأموال من أهل قراها، لا يدافعه مدافع. والظاهر أن الروم لم يعبأوا بمن تودّد إليهم، فكان جندهم أينما حل أو سار فى البلاد يعامل الناس معاملة أعداء قد فتحت بلادهم.

غير أن القبط كانوا على وجه الاجمال لا يرجون خيرا من وراء رجوع سلطان الروم، إذ كانت ذكريات قيرس وعسفه لا تزال منقوشة على قلوبهم، وكانوا غير ساخطين على ما هم فيه مع ما أخذ يظلهم عند ذلك من خوف العرب وظلمهم، إذ كانت لهم طمأنينة على دينهم ودنياهم ما كانوا ليحتفظوا بها إذا عاد حكم الروم. ولسنا نعلم علم اليقين أبقى البطريق بنيامين عند ذلك فى الاسكندرية أم هرب قبل مجيء جيش الروم، على أننا نرجح هروبه وغيابه عن العاصمة فى ذلك الوقت. والأدلة على ذلك قوية، ولكن لا شك فى أنه وقف مع قومه من القبط يشدون أزر العرب ويساعدونهم ويظهرون لهم الود حافظين بذلك عهدهم الذى تعاهدوا عليه فى صلح الاسكندرية.

---

(١) انظر الطبرى طبعة (Zotenberg) الجزء الثالث صفحة ٥٥٩ قال إنه فى أول السنة الخامسة والعشرين للهجرة أخذ عثمان فى عزل عمال عمر ولكنه لما سمع بثورة الاسكندرية جعل عمرا (يسافر الى مصر) وهذا يفيد أن الفتح الثانى كان بعد أول سنة ٦٤٦ بمدّة طويلة. ويذكر البلاذرى أن عمرا عزل من الولاية فى سنة ٢٥ للهجرة وحل محله عبدالله بن سعد. وقال النواوى إن استعماله كان فى تلك السنة ولكن ابن الأثير يذكر أن ذلك كان فى سنة ٢٦ للهجرة. وأما ابن عبدالحكم فانه عند ذكر الثورة يقول إن عثمان كان قد عزل عمرا فى ذلك الوقت وقد نقل عنه المقريزى هذا! (الخطط الجزء الأول). وقال المقريزى فى موضع آخر عند ذكر ولاة الفسطاط يذكر عبدالله ابن سعد إن منويل الخصى هاجم الاسكندرية فطلب الناس من الخليفة أن يستعمل عمرا لقتال الروم وبالاجمال يظهر أنه من الثابت أن عمرا قد عزل قبل الثورة ولكنه ليس من الجلى إذا كان قد ترك مصر. فأما ابن بطريق فانه يذكر صراحة أنه كان لا يزال فى مصر. وأما أبو المحاسن فانه يقول إن عثمان أزال عنه أعباء الولاية حتى يفرغ لقتال منويل.

وفيما كان الروم يتمتعون بما في مصر من ملاذ ويضيعون الفرصة على عادتهم في تضيع ثمين الفرص إذا ما سنحت لهم، عاد عمرو إلى قيادة جيش العرب في بابليون. وقد دعاه العرب لذلك وألحوا فيه منذ رأوا أنه رجل داهية لا يدانيه مدان في مكيدة الحرب، ولا يثق الناس في أحد ثقتهم فيه لما اعتادوا من النصر على يديه، وشعروا بأنهم في أشدّ الحاجة إليه في ذلك الوقت العصيب الذى لم يأت عليهم وقت أشدَ منه منذ غزوا بلاد مصر. ولو لم يضع الروم وقتهم في بلاد مصر السفلى بل ساروا لا يلوون على شيء قاصدين إلى الفسطاط لما بعد عليهم أن يهزموا عبدالله ويأخذوا حصن بابليون، ولكنهم لم يفعلوا ذلك بل تهاونوا حتى استطاع عمرو أن يحضر إلى مصر ويجهز جيشه بها، ولم يكن من رأى عمرو أن يسرع في أمره وهذا غير ما كان يراه خارجة بن حذافة الذى كان عند ذلك قائد حامية حصن بابليون، إذ كان يرى أن التأخر ضارّ بالمسلمين مصلح لأمر الروم، وأشار على عمرو أن يبادر إلى العدوّ قبل أن يأتيه المدد أو يثب أهل مصر جميعها وينتقضوا على العرب. ولكن عمرا كان يرى خلاف ذلك فقال: «لا ولكن ادعهم حتى يسيروا إليّ فإنهم يصيبون من مروا به فيخزى الله بعضهم ببعض».

وعلى هذا سار الروم على مهل حتى استدرجوا إلى نقيوس، وهناك لقيتهم طلائع العرب. ولعل جيشهم كان إذ ذاك خمسة عشر ألفا. ولم يذكر التاريخ هل استولى الروم على مدينة نقيوس، غير أنه يذكر أنه قد وقع قتال شديد بين الجيشين تحت أسوار حصنها فيما يلي الخليج أو النهر الذى يجرى قرب المدينة.

ولما قتل قائد الفرقة البيزنطى في المعركة رجع القتال بين الناس واشتد، وانتهى أمره بهزيمة جيش منويل، وفرّ الروم لا يلوون على شيء نحو الاسكندرية. فبلغت فلول جيشهم العاصمة والعرب في آثارهم، فأقفل الروم الأبواب واستعدّوا للحصار. وكان عمرو في أثناء سيره في بلاد مصر السفلى يلقى مساعدة من قرى القبط حيث سار، فكانوا يأتون إليه بمن يقيم له الجسور ويقدّمون له ما كان في استطاعتهم تقديمه بعد ما حل بهم من نهب الروم وغصبهم. فلما بلغ جيش العرب أسوار الاسكندرية ورأى عمرو ما عليه المدينة من المنعة اشتد به الألم لأنه رأى أنه أخطأ في ترك أسوارها قائمة، ولم يجعل بها من الجند حامية قوية، وحلف لئن أظفره الله بها ليهدمن أسوارها حتى تكون مثل بيت الزانية يؤتى من كل مكان. وجعل عسكر العرب في الجانب الشرقي من المدنية وهو الجانب الذى كان الحصار منه ممكنا، وقيل إنه فتح

- -

المدينة بخيانة من داخلها، كما وقع لها فى حصار دقلديانوس. فقد قيل أنه كان فى الاسكندرية بواب اسمه (ابن بسامة)، سأل عمرا أن يؤمنه على نفسه وأهله وأرضه ويفتح له الباب، فأجابه عمرو إلى ذلك[١].

ومهما يكن من الأمر فقد أخذ العرب المدينة عنوة ودخلوها يقتلون ويغنمون ويحرقون حتى ذهب فى الحريق كل ما كان باقيا على مقربة من الباب فى الحى الشرقى، ومن ذلك كنيسة القدّيس مرقص. واستمر القتل حتى بلغ العرب وسط المدينة، فأمرهم عمرو أن يرفعوا أيديهم، وبنى مسجد فى الموضع الذى أمر عمرو فيه برفع السيف وهو «مسجد الرحمة». وقد لاذت طائفة من جند الروم بسفنهم فهربوا فى البحر، ولكن كثيرا منهم قتل فى المدينة. وكان منويل بين من قتل، وأخذ العرب النساء والذرارى فجعلوهم فيئا.

وكان هذا الفتح الثانى فى صيف سنة ٦٤٦، وكان عنوة بالسيف، وبهذا يكون بين الفتح الأول والفتح الثانى فروق تميز بين وقت وقوع كل منهما وحوادثه. ولكن من سوء الحظ أن كتاب العرب لم يفرّقوا بين الفتحين، وإنه لمن أصعب الأمور وأشدّها استعصاء أن يعيد باحث الى الحوادث نظامها فى كل من الحالين، إذ يجد بعضها داخلا فى بعض مختلطا به اختلاطا من كل وجه. وإنا نرى أن هذا الوصف موضع لذكر حادثة قد وضعت فى غير موضعها فى وصف الفتح الأوّل فنشأ عن ذلك خلط عظيم، وتلك الحادثة هى الزيارة التى قيل إن المقوقس زارها لعمرو ليعرض عليه فيها أمورا عجيبة. ولا شك أن المقوقس قد مات منذ زمن طويل غير أن العرب كانوا يطلقون ذلك اللقب خطأ على أشخاص عدّة، فقد سموا به الحاكم الذى كتب اليه النبى كتابه قبل فتح العرب لمصر، ثم أخطأوا فسموا به بعد الفتح بطريق القبط بنيامين. وعلى ذلك فإنا اذا قرأنا أن المقوقس جاء إلى عمرو فى وقت الحصار ووعده أن يساعده على شروط ثلاثة، كان لابدّ لنا أن نعزو تلك القصة الى (بنيامين)، وما كان منه عند ثورة الاسكندرية واستيلاء منويل عليها.

وفى هذا الوقت إذن نرى أن القبط يمالئون العرب راغبين وهم على عهد معهم، وما زالوا على ذلك حتى هزم الروم وتشتت شمل جيشهم، وفتحت الاسكندرية مرة أخرى.

....

(١) جاء هذا الخبر فى كتاب السيوطى ويظهر أنه يذكر ذلك مع الفتح الأوّل ولكنه مخطيء فى ذلك على أن القصة قد تكون وقعت فى الفتح الثانى وهذا الخلط بين حوادث الفتحين الأول والثانى لا دواء له.

فى تواريخ غزو العرب لمصر

ما أكثر الصعاب التى تعترض الانسان اذا عالج مسألة التواريخ فى ذلك العصر حتى ليخيل الينا أن الوصول إلى الحقيقة فيها يكاد يكون مستحيلا فليس على الكاتب فيها أن يقابل مسألة واحدة بل عليه أن يقابل عدّة مسائل متشابكة متداخلة يلوح للأنسان أنه اذا حل عقدة منها فى ناحية دعا ذلك إلى تعقد جديد فى ناحية أخرى ولكن المستر (E.W.Brooks) قد عمل كثيرا على تسهيل الأمور فان مقاله الغزير العلم فى ذلك الموضوع بمجلة (Byzantinische Leitschrift ١٨٩٥ صفحة ٤٣٦ ـ ٤٥) يمكن أن يقال أنه أخرج تواريخ ذلك العصر من حيز الظن وجعله قائما على أساس علمي فبحثه يجب أن يكون أساس أى دراسة سواء أكانت دراسة للتواريخ أم كانت لترتيب الحوادث فى ذلك العصر.

والمراجع اليونانية لا قيمة لها كما دل على ذلك المستر بروكس فلا يذكر تيوفانز ولا نيقفوروس فتح الاسكندرية ولو أن الأخير يذكر أن هرقلوناس أعاد قيرس إلى بطرقة الأسكندرية بعد موت أخيه من أبيه قسطنطين فى مايو سنة ٦٤١ وهذا يفيد أن المدينة لم تكن عند ذلك قد فتحت ولا قربت من الفتح وتاريخ نيقفوروس ينتهى إلى سنة ٦٤١ ولا يبدأ بعد إلا من سنة ٦٦٨ ولكن نيقفوروس وتيوفانز لا يوثق بهما فيما يتعلق بأوّل جزء من تاريخ الفتح فتاريخهما ملئ بالمتناقضات وكلاهما يخلط فى ترتيب الحوادث خلطا لابد أن يؤدى فعلا إلى تضليل المؤرّخين الذين يعتمدون عليهما تضليلا كبيرا.

وأما مؤرّخو السوريين والأرمن فيلوح أنهما لا يفضلون اليونانيين فمثلا اليشع النصيبى(نسخة المتحف البريطانى الخطية ٧ ـ ١٩٧ صفحة ٢٩، وقد نقل عنها المستر بروكس) يجعل فتح الاسكندرية فى سنة ٢٠ للهجرة(ديسمبر ٦٤٠ ـ ديسمبر ٦٤١). وأما أبو الفرج فانه لا يذكر شيئا إلا ما ذكره عن القصة المعروفة قصة إحراق مكتبة الاسكندرية. وكذلك سبيوس فانه لا يذكر شيئا.

وأما المؤرّخون العرب فانهم مثل اليونانيين فى إغفال ذكر الحوادث والخلط والتناقض، ولكن لا يخلو درس كتبهم من فائدة.

ابن عبد الحكم ـ نقل عنه(Weil) فى كتاب(Geschichte der Chalifeu) وهو يقول إن عمرا كان عند العريش فى يوم الأضحى أى عاشر ذى الحجة سنة ١٨ للهجرة.(١٢ ديسمبر ٦٣٩). ويذكر أن حصار الاسكندرية بقى تسعة أشهر بعد موت هرقل. ونقل السيوطى عن ذلك المؤرّخ أنه قال إنه بعد فتح مصر أرسل عمرو جرائد الخيل إلى القرى والمدائن التى فى جوار مصر وبقيت الفيوم لا يعرف العرب عنها شيئا مدّة سنة.

البلاذرى ـ يذكر أن غزوة مصر كانت فى سنة ١٩ للهجرة(وهى تبدأ فى ٢ يناير سنة ٦٤٠) ويذكر أن وقعة عين شمس وغزوة الفيوم كانتا بعد فتح حصن بابليون. ويقول إن عمرا سار إلى الشمال أى إلى الاسكندرية فى سنة ٢١ للهجرة(١٠ ديسمبر سنة ٦٤١ ـ ٢٩ نوفمبر سنة ٦٤٢) بعد أن مكث مدّة فى حصن بابليون وانه فى الساعة عينها عام الرمادة كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو يأمره بارسال الجزية بالبحر، ويذكر كذلك عبارة أن مصر قد فتحت فى سنة ٢٠ للهجرة. وقد جرت العادة أت تفهم معنى«مصر» على أنها القطر المصرى كله فى حين أن المقصود بها هنا بغير شك مدينة مصر(أو منفيس) التى سبقت الفسطاط.

ابن قتيبة ـ يذكر أن وقعة(باب اليون) قد انتصر فيها عمرو فى سنة ٢٠.

الطبرى ـ يذكر أن الأمر بفتح مصر بلغ عمرا فى أوائل سنة ٢٠ للهجرة(أواخر شهر ديسمبر سنة ٦٤٠). ويذكر أن فتح بابليون كان على وجه التعيين فى ربيع الثانى من السنة عينها(من ٢٠ مارس ـ ١٧ أبريل سنة ٦٤١) وان بين هاتين العبارتين لتناقضا فانه من المحال أن يكون حصن بابليون قد فتح بعد ثلاثة أشهر من ورود الأمر إلى عمرو وهو فى فلسطين بأن يغزو مصر، ولكن لقد عززت المراجع الأخرى صحة التاريخ الثانى، وعلى ذلك فالتاريخ الاوّل لا بد من أوائل سنة ٢٠. وقع الاتفاق تقريبا على تاريخ أوّل الفتح بين ابن عبد الحكم والبلاذرى والطبرى. وفى الحقيقة نرى أنه من المؤكد أن الطبرى لا بد قد كتب سنة ١٩ لأنه عند ما ذكر خبر وفاة عمرو قال إنه قضى أربع سنوات على ولاية مصر فى مدة عمر بن الخطاب. وكانت وفاة عمر فى سنة ١٩ للهجرة وانه لا يعقل أن يقال إن مدّة ولايته تبدأ قبل ابتداء الغزوة.

وقد ذكر الطبرى أيضا أن الاسكندرية سلمت بعد حصار خمسة أشهر وأن الثورة(التي نسميها ثورة منويل) كانت في أوائل سنة ٢٥ للهجرة.

أوتيكيوس ـ أوتيخا (وهو ابن بطريق) وأما عبارة أوتيكيوس فهى كما يلي:

فتحت الفرما (وهي بلوز) بعد حصار شهر وفتح حصن بابليون بعد حصار سبعة أشهر وخرج المقوقس من الحصن في وقت الفيضان وحدثت ثلاث وقعات بين بابليون والاسكندرية وفتحت(المدينة العظمى) في يوم الجمعة مستهل شهر المحرم من سنة ٢٠ للهجرة وهى السنة العشرون لحكم هرقل والثامنة من خلافة عمر.

ثم تلا ذلك فتح برقة وفتحت طرابلس سنة ٢٢ للهجرة فاذا كان يقصد بيوم الجمعة من محرم أوّل يوم فى ذلك الشهر من سنة ٢٠ وافق ذلك يوم ٢١ ديسمبر سنة ٦٤٠ ولكن أوّل يوم في المحرّم من السنة الثامنة لخلافة عمر كان يوافق العاشر من ديسمبر سنة ٦٤١ ولم يقع أى هذين اليومين فى يوم الجمعة والتاريخ الأوّل لا يقع إلا فى السنة الحادية والثلاثين من حكم هرقل وكان هرقل قد توفى قبل ذلك التاريخ. وحسبنا هذا من ابن بطريق.

ساويرس ابن المقفعـ يذكر أن «أنفذ ملك المسلمين سرية مع امير من اصحابه يسمى عمرو بن العاص في سنة ٣٥٧ لديقليديانوس قاتل الشهداء فنزل عسكر الاسلام إلى مصر فى قوّة عظيمة في ١٢ بؤونه يوافق ٦ يونيه. ويذكر المقريزى على وجه التعيين أن القبط يذكرون أن تاريخ فتح (الحصن) هو ١٢ بؤونه. ويذكر ساويرس أيضا أن المسلمين فتحوا الاسكندرية في سنة ٣٦٠ للشهداء (وهدموا أسوارها) وهذه الاضافة تدل على أنه يقصد الفتح الثانى بعد ثورة منويل أنظر: ص ٥٧٨.

أبو صالح ـ لا يزيد على ما نعرف إلا قليلا فانه يذكر نقلا عن كتاب الجناح أن عمرا فتح مصر في ١٩ للهجرة(٢ يناير ـ ٢٠ ديسمبر سنة ٦٤٠) وأنه عسكر خارج موضع اسمه «جنان الريحان» (صفحة ٧٣). ويقول أيضا إن عمرا فتح مصر فى غرة المحرّم من عام ٢٠ للهجرة وينقل(أو يسئ نقل) التاريخ الذى ذكره ساويرس.

ياقوتـ هذا كاتب عظيم الشأن وهو يذكر أن عمرا طلب إلى الخليفة عمر أن يأذن له فى فتح مصر سنة ١٨ للهجرة(من ١٢ يناير سنة ٦٣٩ ـ ٢ يناير سنة ٦٤٠) وأن الروم لقوا عمرا

أوّل مرة في مصر عند الفرما واستمر القتال شهرين وبعد ذلك لم يلق العرب أى مقاومة حتى بلغوا بلبيس ثم قاتلوا الروم هناك مدّة شهر قتالا متصلا. ثم ساروا سيرا سهلا الى أم دنين أو المقس وبقوا هناك يقاتلون نحو شهرين.

ومعنى هذا أن القتال استمر ستة أشهر من أوّل الغزوة مع حساب المدّة اللازمة للسير وهذا يوصلنا بدقة عظيمة من ١٢ ديسمبر الى ٦ يونيه.

وقال ياقوت: إن عمرا عند ذلك أرسل يطلب الامداد وإن فتح الحصن كان مدّة فيضان النيل أى في سبتمبر أو بعد ذلك بقليل على أن ذلك الكاتب يقول بعد صفحة أو قريبا من ذلك إن فتح بابليون كان في يوم الجمعة أوّل المحرّم من سنة ٢٠ للهجرة(٢١ ديسمبر سنة ٦٤٠) وهو التاريخ الذى يذكر عادة أن الاسكندرية قد فتحت فيه وفى هذا ما فيه من التضليل. وقد قال ياقوت بعد ذلك إن عمرا سار إلى الاسكندرية في ربيع الأوّل من سنة ٢٠ للهجرة(٢٠ فبراير ـ ٢٠ مارس سنة ٦٤١) ـ ولعل هذا تحريف وأنه يقصد ربيع الثاني ـ ثم قال إن عمرا لما بلغ الاسكندرية حاصرها مدّة ستة أشهر وقال فى موضع آخر إن فتح الاسكندرية كان في سنة ٢٠(وآخرها ٩ ديسمبر سنة ٦٤١) وان عمرا صالح أهل برقة سنة ٢١ للهجرة(١٠ ديسمبر سنة ٦٤١ ـ ٢٩ نوفمبر سنة ٦٤٢).

أما(ابن خلدون): فانه ذكر أن عمرا استأذن فى فتح مصر عقب فتح بيت المقدس وأن ذلك كان في سنة ٢١ للهجرة وأن عمرا سار الى أفريقية(برقة) في سنة ٢١ نفسها!

وأما (المقريزى): فقد أفاض فى القول فقد كرر أن عمرا كان عند العريش في يوم الأضحى. وأنه قضى شهرا في الفرما وأن المقوقس خرج من الحصن في مدة فيضان النيل وأن مدّة الفيضان كانت لم تنقض عند ما فتح العرب الحصن. ولكنه روى عن الكندى أنه قال إن عمرا سار إلى الاسكندرية بعد فتح حصن بابليون وأن ذلك كان في ربيع الأول سنة ٢٠ للهجرة. وروى عن آخر أن ذلك كان في جمادى الثانية(أوّل ربيع الأوّل فى ٢٠ فبراير، أوّل ربيع الثاني في ٢٠ مارس وأوّل جمادى الأولى في ١٧ أبريل سنة ٦٤١، وأوّل جمادى الثانية فى ١٨ مايو والتاريخ الصحيح هو جمادى الأولى كما سنرى). وقال إن موت هرقل كان فى سنة ١٩ للهجرة وهو غير صحيح. ويقول المقريزى إن ذلك شجع المسلمين فضيقوا الحصار

على الحصن، ولكنه روى عن الليث تاريخا أخر وهو سنة ٢٠ للهجرة وهو الصحيح وقال إن فتح الاسكندرية كان بعد موت هرقل تسعة أشهر وخمسة أيام وانه كان في يوم الجمعة أوّل المحرّم سنة ٢١ للهجرة(١٠ ديسمبر سنة ٦٤١ ولكن ذلك اليوم كان يوم اثنين). ويذكر الليث أن الفتح الأوّل كان فى سنة ٢٢ للهجرة (وأوّلها ٣٠ نوفمبر سنة ٦٤٢) ويورد المقريزى أسماء جماعة من المؤرخين روى عنهم تواريخ لها علاقة بالفتح وهم يختلفون بين سنة ١٦ وسنة ٢٦ للهجرة. ويقول بعد ذلك إن الأرجح أن سنة ٢٠ هى الصحيحة وهى التى يقبلها أكثر المؤرخين.

أبو المحاسن ـ ينقل عن الذهبى أن عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو يأمره بغزو مصر فى سنة ٢٠ للهجرة(أوّلها ٢١ ديسمبر سنة ٦٤٠). وينقل عن ابن الحكم أن حصار بابليون بقى سبعة أشهر. أما هو فيذكر أن فتح مصر(ولعله يقصد بها مدينة مصر) كان فى أوّل المحرم سنة ٢٠ للهجرة. وينقل عن ابن كثير والواقدى وأبى معشر أن فتح مصر كان فى ذلك العام نفسه ويذكر الواقدى أن فتح الاسكندرية كان فى السنة نفسها. أما أبو معشر فيذكر أنه كان فى سنة ٢٥ للهجرة. وأما سيف فانه يذكر أن مصر والاسكندرية فتحتا فى سنة ١٦ للهجرة وأن ولاية عمرو على مصر تبدأ فى سنة ٢٠ للهجرة.

السيوطى ـ بعد أن ذكر نقلا عن الليث أن موت هرقل كان فى سنة ٢٠ للهجرة قال إن حصار الاسكندرية استمر تسعة أشهر بعد ذلك إلا أنه ابتدأ قبل وفاة هرقل بخمسة أشهر ولكنه قال مع ذلك إن فتح الاسكندرية كان فى أوّل المحرّم سنة ٢٠ للهجرة وهذا سهو لأن السيوطى يذكر بعد صفحات من هذا أن فتح الاسكندرية الأوّل كان فى سنة ٢١ للهجرة وأن الفتح الثانى كان فى سنة ٢٥ للهجرة وينقل عن القضاعى نقلا عن ابن قتيبة أن عمرا عاد من الاسكندرية(إلى بابليون) فى ذى القعدة سنة ٢٠ للهجرة(أكتوبر ـ نوفمبر سنة ٦٤١).

وحسبنا هذا من المراجع العربية الكبرى. وإن ما بينهم من الخلاف عظيم ومن الواضح أنه لايمكن التوفيق بينهم فيه ولكن من السهل أن نعين بعض أسباب هذا الخلط الذى يقع فيه هؤلاء الكتاب جميعا وهو الذى ضلل المؤرّخين المحدّثين وحيرهم، فلعله ليس فى التاريخ عصر فى مثل قصر تلك المدّة وفيه مثل هذا العدد الكبير من المساقط التى يقع فيها من أراد البحث

فى ترتيب التواريخ، فان دوننا هنا عصرا مدّته ثلاث سنوات وهى مثل مدّة الفتح الفارسى. ويذكر لنا من غير تدقيق تاريخ واحد على أنه تاريخ الفتح، ولكن يقصد به أحيانا مدينة مصر(وهى منفيس بقرب بابليون من الجنوب) وأحيانا يقصد به القطر المصرى وهذا مما يؤسف له.

وعلى ذلك فذكر «فتح منفيس» فى كثير من الأحيان لا يمكن التفريق بينه وبين «فتح بلاد مصر» ثم إن فتح حصن بابليون كان حادثا مخالفا لفتح مدينة مصر فى حين أن هذين الموضعين قريبان كل القرب وكان لا مناص من الخلط بين حوادثهما ثم إن الاسكندرية لم تفتح مرة واحدة بل مرتين. وقد وجد المؤرخون حتى أقدمهم من الذين كتبوا بعد الفتح بمائتى عام أن أخبار الفتح غير جلية وقد نسى ترتيب الحوا دث فيها، وعلى ذلك فنحن أميل إلى أن نعدّ أخطاءهم وتناقضهم أمرا يؤسف له وأنه ليس عجيبا ولا غير متوقع.

ولكن قد أشرق على تاريخ فتح العرب وترتيب حوادثه نور جديد لم يسبق للناس عهد به وذلك من كتاب حنا الأسقف القبطى لمدينة نقيوس وقد كان حاضرا تولية البطريق اسحق فى سنة ٦٩٠ للميلاد ولعله قد ولد قريبا من وقت الفتح، ولكن لا بد له أن يكون قد سمع أخبار ذلك الفتح ممن شهده فشهادته على ذلك ذات قيمة كبرى فيما يشهد فيه. حقا إن بعض أجزاء ذلك التاريخ ناقصة لا ذكر لها فى ذلك الكتاب وهو أمر يؤسف له، كما أن أجزاء أخرى منه قد دخلها كثير من المسخ وتغيير الترتيب فلا نكاد نستبين لها معنى، ولكن مع كل ما فى النسخة الخطية الأثيوبية قد جاء فيها بعض تواريخ جديدة تسترعى النظر بدقتها العظيمة وهذه التواريخ بمثابة معالم ثابتة نستطيع أن نستدل بها على نظام علمى فى ترتيب التواريخ.

لقد رأينا فيما سلف أن كتاب حنا قد أغفل فيه ذكر كل ما يتعلق بمدّة الفتح الفارسى وهذا النقص يبدأ من استيلاء هرقل إلى ما بعد ذلك بثلاثين عاما أى من حوالى سنة ٦١٠ إلى حوالى سنة ٦٤٠، ولا يرد فيه ذكر لدخول العرب إلى مصر وأوّل استئناف لذلك التاريخ بعد ذلك هو عند ما علم(تيودور) قائد جيوش الروم فى مصر بهزيمة(حنا) قائد فرقة الحفر فى الفيوم وموته. وذكر بعد ذلك أن جيوش الروم اجتمعت عند حصن بابليون وقد عوّلت على أن تلقى العرب قبل أوان فيضان النيل والنيل يبدأ مدّه فى أواسط الصيف ويبلغ ذروته فى

الاعتدال الخريفي، وعلى ذلك يمكن أن نقول إن وقعة هليوبولس كانت في (يوليه) أو فى (أغسطس) فإذا نحن اتبعنا قول ابن عبد الحكم أو البلاذرى أو الطبرى فى أن دخول العرب كان في سنة ٦٤٠، وكان أول إمداد جيش العرب أبصرها الروم من بروج حصن بابليون فى ٦ يونيه وهو اليوم الذى قام الدليل من قول ساويرس وغيره على أنه كان من أثبت الأيام ذكرا عند القبط، على أنه لم يكن يوم حادث خطير من حوادث الفتح. والمستر بروكس محق بغير شك في أنه اعتبر البابين الرابع عشر بعد المائة والخامس عشر بعد المائة من تاريخ حنا فى غير موضعهما فعنوان الباب الخامس عشر بعد المائة هكذا«كيف استولى المسلمون على مصر فى السنة الرابعة عشرة من الدورة القمرية واستولوا على حصن بابليون فى السنة الخامسة عشرة» فى حين أنه مما يؤسف له أن الوصف الذى يصدق عليه هذا العنوان ساقط من الكتاب. وقد ورد فى الفصل السادس عشر بعد المائة أن موت هرقل كان في«السنة الحادية والثلاثين من حكمه في الشهر المصرى(يكاتيت) وهو يوافق الشهر الرومانى(فبراير) فى السنة الرابعة عشرة من الدورة وهى سنة ٣٥٧ للشهداء». وقد جاء فى الباب السابع عشر بعد المائة«أن فتح(نقيوس) كان فى يوم الأحد الذى بعده (١٨ جنبوت) فى السنة الخامسة عشرة من الدورة». وقد قال المستر(بروكس) متبعا في ذلك رأى(زوتنبرج) إن تاريخ هرقل هو التاريخ الوحيد بين هذه التواريخ الذى يمكن أن نفحصه وهو مذكور فى ذلك الكتاب في منتهى الدقة فانا نعلم أن هرقل قد مات فى ١١ فبراير سنة ٦٤١ وقال إن هذه الحقيقة دليل قوى على أننا يمكن أن نعتبر التواريخ الأخرى صحيحة دقيقة. ولكن كلا هذين المؤرخين وجد نفسه مضطرا بعد هذا القول إلى أن يظهر أن التواريخ الأخرى صحيحة بعض الصحة لا كل الصحة، فقال المستر بروكس فى عرض ذكره سنى الدورة التى ورد ذكرها فى عنوان الباب الخامس عشر بعد المائة«ولا تظن أننا نستطيع أن نثق ثقة كبرى بهذه التواريخ»(صفحة ٤٣٩) ثم أظهر بعد ذلك أن يوم(١٨ جنبوت) الواقع فى يوم الأحد لم يكن فى السنة الخامسة عشرة من سنى الدورة كما قال حنا. وقصارى قوله هو أن الواجب أن نغير التاريخ الذى ذكره حنا وهو (١٣ مايو سنة ٦٤٢) فجعله(١٣ مايو سنة ٦٤١). ومعنى هذا أن نبرهن على خطأ جزء من قول(حنا النقيوسى).

وبعد فإنا نجرأ أن نقول إن هذا الرأى لا حاجة بنا اليه ولا ضرورة تدعو اليه. فإن الخطأ إنما نشأ من خطأ فى فهم ما قصده حنا بقوله«سنى الدورة» فان ناقديه أخذوا ذلك على أن المقصود منه سنى الدورة التى ابتدعها قسطنطين(وكل منها خمسة عشر عام)، ولكن حنا نفسه يسميها بوضوح (الدورة القمرية) وليس يقصد دورة قسطنطين. حقا إن التأريخ بتلك الدورة القسطنطينية كان فى عصر حنا غير مهمل بل كان لا يزال مستعملا فى مصر ولكن المقصود هو أن الدورة لم تكن مستعملة فى التاريخ المدنى ولكن ما دام التاريخ بدورة قسطنطين كان غير شائع فى مصر فقد كان حنا معذورا كل العذر فى أنه يعمد إلى التاريخ بالتقويم الدينى الخاص بالكنيسة وقد كان على تمام الإلمام به إذ كان رجلا من علماء الأساقفة، وعلى ذلك فانا موردون ما جاء فى كتابه فيما يلى:

(١) فتح مدينة مصر فى السنة الرابعة عشرة من سنى الدورة.

(٢) موت هرقل فى السنة الرابعة عشرة من الدورة فى ١١ فبراير سنة ٦٤١.

(٣) فتح حصن بابليون فى السنة الخامسة عشرة من الدورة فى الاثنين(الفصح) أى فى ٩ أبريل سنة ٦٤١.

(٤) فتح نقيوس فى السنة الخامسة عشرة من الدورة فى ١٣ مايو سنة ٦٤١ ويظهر من هذا البيان أنه إذا كان قد نقل ما كتبه حنا على حقيقته كانت سنة الدورة التى يؤرّخ بها تتغير فيما بين ١١ فبراير ٩ أبريل، وهذا هو الأمر الواقع بالدقة فان الدورة القمرية الديونيسية كان أوّلها ٢٣ مارس(راجع كتاب(S.Butcher) فى(Ecclesiastical Calendar) صفحة ٧٣وكتاب(Handy - book of Dates)تأليف Bond صفحة ٢١٨) والسنة الرابعة عشر من الدورة تقع ما بين ٢٣ مارس سنة ٦٤٠، و٢٢ مارس سنة ٦٤١ وكذلك السنة الخامسة عشرة فانها تبدأ من ٢٣ مارس سنة ٦٤١ وتنتهى فى ٢٢ مارس ٦٤٢، فاذا صح رأينا هذا ثبت أن تواريخ هذا المؤرّخ تزداد زيادة عظمى.

ويجدر بنا أن نزيد على هذا أن الدورة القسطنطينية التى كانت تستعمل فى مصر قبل الفتح كانت قد صارت لا قيمة لها فى التاريخ إذ أنها كما دل عليه «Wilcken» فى كتابه(Hermes) ١٩ صفحة ٢٩٣ وما بعدها) بدل أن تبدأ من شهر توت وهو أوّل السنة

المصرية فتكون بذلك متفقة مع أوّل سنة من سنى التقويم كانت تبدأ أحيانا من أوّل حكم الامبراطور الحاكم وأحيانا أخرى من أيام أخرى مختلفة من أيام الصيف متبعة فى ذلك نظاما لا يستطيع أحد أن يفهمه وهو نظام أشبه شئ بالفوضى المطلقة ولهذا كان الأجدر بنا أن نحمد كاتبا قديرا مثل حنا على أنه استعمل تاريخا ثابتا لا يطعن أحد قيمته.

على أنه قد وردت عبارة أخرى في تاريخ حنا وذكر فيها تاريخ سنة من سنى الدورة يخيل إلى من يراها أن رأينا الذى ذكرناه غير صحيح فقد جاء فى الباب الحادى والعشرين بعد المائة قوله«وفى السنة الثانية من الدورة القمرية جاء حنا من دمياط. وساعد المسلمين كيما يمنعهم من تخريب المدينة» وهذه السنة يكون أوّلها ٢٣ مارس سنة ٦٤٦، وآخرها ٢٢ مارس سنة ٦٤٧، وعلى هذا فلا بد أن يكون هذا الحادث قد وقع بعد ثورة منويل ولم يذكر عن تلك الثورة لفظ واحد فى كل تاريخ حنا ومع ذلك فانا نرى أن ذلك التاريخ صحيح لأن وجود فجوة أخرى فى آخر ذلك الكتاب أمر غير مستغرب فاذا نحن لم نذهب إلى هذا الرأى واعتبرنا أن المقصود هو السنة الثانية من الدورة القسطنطينية كان التاريخ المقصود هو عام(٦٤٣ ـ ٤) ولكن هذا فى حكم المستحيل إذ لم يرد أى خبر عن حادث وقع فى ذلك العام يمكن أن يحدو بالعرب إلى تخريب الاسكندرية فى حين أنه قد جاء فى كل الأخبار أن ثورة منويل وعودة الروم الى الاسكندرية كانتا حوالى نوفمبر سنة ٦٤٥ ولم تهزم جيوشه إلا بعد عدّة أشهر ولا يكاد يشك فى أن فتح العرب للاسكندرية ثانية وقع بعد ٢٣ مارس سنة ٦٤٦، ونعلم كذلك أنه عند الفتح الثانى للمدينة أحرق جانب كبير فيها وهدم عمرو جانبا من الأسوار فلا يبعد أن يكون قد فكر فى تخريب المدينة كلها. وفوق ذلك يظهر أن(زوتنبرج) أغفل فى ترجمته كلمة ذات شأن فانه قال فى ترجمته «وبعد أن استولى(عمرو) على الاسكندرية جفف الترعة التى توصل الماء الى المدينة» فى حين أن الدكتور شارل يقول فى ترجمة هذه العبارة عينها «ولما استولى عمرو على مدينة الاسكندرية كان كثيرا ما يجفف الترعة» وهذه الكلمات تدل على أن الكاتب كان وهو يكتب هذه العبارة التى ورد فيها ذلك التاريخ يسبح بفكره فيما بعد الفتح الأوّل للمدينة بمدّة طويلة وسنرى أن ذلك الفتح الأوّل كان فى سنة ٦٤٢، وعلى ذلك يكون التاريخ الذى نحن بصدده يوافق رأينا فى أن المقصود

هو التاريخ بالدورة الديونيسية القمرية، ولهذا نجرأ على أن نعدّ هذا الرأى لا وهن فيه ولا وجه للطعن.

نقبل الآن على ذكر تاريخ من أهم التواريخ على أنه تحيط به عقد يحار المرء فيها وذلك هو تاريخ عودة البطريق قيرس الى الاسكندرية من قسطنطينية فقد دعاه هرقل حوالى نصف نوفمبر سنة ٦٤٠ بعد أن صالح العرب على تسليم بابليون ذلك الصلح الذى لم يتم ويلوح أنه نفى عند ذلك ثم أعاده قسطنطين الثالث خلف هرقل الى الحظوة وكان عازما على أن يعيده الى مصر فعاجلته المنية بعد أن حكم مائة يوم فمات ذلك الامبراطور فى مايو سنة ٦٤١، وخلفه على الملك هرقلوناس ولكن ثورة فلتين فى ذلك الصيف نفسه عملت على أن يشرك أخوه من أبيه معه فى الحكم وهو قنسطانز. وقريبا من ذلك الوقت أرسل قيرس الى مصر ومعه الامداد وقد كان فى (رودس) فى أوائل سبتمبر ـ ولعله كان يأخذ ما كان فى دار الصناعة البحرية(الترسانة) من الذخائر وكان(تيودور) قائد جيوش مصر فى رودس كذلك وخلع بيعة الامبراطورة(مرتينة) إذ حرضه على ذلك فلنتين وأراد أن يسافر الى بنطابولس ولكنه نزل الى الاسكندرية مع قيرس فى فجر يوم ١٧ (مسكرم) أو(توت) وهو عيد الصليب أى فى ١٤ سبتمبر.

هذا ما يمكن أن نستخلصه من تاريخ حنا الذى تغيرت معالمه تغيرا يؤسف له وهذه الأخبار يعززها ما جاء فى تاريخ نيقفوروس إذ يقول إن(قيرس) أعاده هرقلوناس الى مصر، ولكننا الآن آتون الى خبر من تلك الأخبار التى كتبت بعد حدوث حوادثها على صورة النبوءة وهى كثيرة فى تواريخ القبط وهى تستلزم أن تكون عودة قيرس فى عيد الفصح فقد روى حنا أنه بعيد عودته أقيم احتفال فى الكنيسة العظمى كنيسة القيصرون فى عيد الفصح واختار القمص للصلاة ترتيلا غير ما كان يجب أن يختاره لذلك اليوم أى المزمورة التى مطلعها «وهذا هو اليوم الذى جعله الله» الخ(راجع المزمورة الثامنة عشرة بعد المائة ٢٤ـ ٢٦) وقد عدّ هذا التغيير فألا سينا وذاعت كلمة قالها القسوس وهى أن قيرس لن يشهد بعد ذلك اليوم عيدا آخر للفصح. فلما مات قيرس بعد ذلك فى يوم الخميس المقدس(٢٥ مجابت) أى قبل عيد الفصح التالى بثلاثة أيام تذكر الناس النبوءة وقالوا إنها قد تحققت. وقد قال المستر بروكس

بوضوح مقنع إن يوم (٢٥ مجابت) أو (فامنوت) يوافق ٢١ مارس، وليس ٢ أبريل، كما زعم زوتنبرج في حسابه، ثم قال إن عيد الفصح في سنة ٦٤٢ كان في يوم ٢٤ مارس من ذلك العام وانه في ذلك العام وحده قد وقع يوم الخميس المقدّس في (٢٥ مجابت) وعلى ذلك «فقد ثبت تاريخ وفاة قيرس ثبوتا لا شك فيه وأنه كان يوم الخميس ٢١ مارس من سنة ٦٤٢» وينتج من ذلك أن يوم الفصح الذى ذكر في ذلك الخبر أن قيرس قد عاد فيه كان يوم الفصح من عام ٦٤١ وهو يوم ٨ أبريل.

فاذا أجملنا ما قاله حنا كان كما يلي:

(١) نزل قيرس في مصر في ١٤ سبتمبر بعد موت هرقل أى سنة ٦٤١.

(٢) أنه أقام عيد الفصح سنة ٦٤١ وهو يوم عودته.

(٣) أنه مات في ٢١ مارس سنة ٦٤٢.

وهذه الأخبار ظاهرة التناقص ولا يشك زوتنبرج في أن قيرس نزل في أرض مصر في يوم ١٤ سبتمبر. ويرى أنه من الغريب أن تقام صلاة بمناسبة عودته بعد سبعة أشهر منها ولكنه مع ذلك قبل هذا الأمر الغريب هذه الغرابة وجعل موت قيرس في سنة ٦٤٣، وأما المستر بروكس فانه يرى رأيا آخر فانه برهن برهانا قاطعا على أن قيرس مات في يوم الخميس الذى قبل عيد الفصح من سنة ٦٤٢ ثم برهن على أن زوتنبرج مخطئ فيما ذهب اليه من أن عوده(تيودور) وعودة(قيرس) كانتا في وقت واحد وجعل عودة قيرس كانت بعد وفاة قسطنطين الثالث وما يعززها من قول نيقفوروس، ولكنه يميل إلى أن يقول إن كتاب حنا قد داخله شي من الخطأ في ذلك الموضع ثم يقول في ختام حجته«وأما البت في مسألة عودة قيرس وأنها كانت قبل عيد الفصح من عام ٦٤١ فأمر يجب أن يبقى موضعا للنظر والبحث، وأما ما قصده حنا فلا شك عندنا في أنه كان يقصد أن يقول إن قيرس قد عاد في ذلك الوقت المذكور وانه لمن المحتمل أن التاريخ قد غير قصدا لادخال ذكر النبوءة».

ولسنا نوافق على هذه الآراء كل الموافقة فان التاريخ الذى ذكر زوتنبرج أن قيرس قد مات فيه لا يؤيده شئ. هذا من جهة أخرى فانا نرى أن المستر بروكس مخطئ في قوله إن عودة

قيرس لم تقع مع عودة تيودور فى وقت واحد وإن عودة تيودور كانت وحدها فى ١٤ سبتمبر من سنة ٦٤١، ويقول المستر بروكس إن هذين الحادثين «منفصلان كل الانفصال» ولكن نص الكتاب فيه ما يلى:

«فدخل الاسكندرية (تيودور) في ليلة السابع عشر من شهر(مسكرم) فى عيد الصليب وخرج أهل الاسكندرية أجمعين من نساء ورجال وهم بين شبان وشيب ليلقوا البطريق قيرس وهم فرحون يشكرون الله على عودة بطريق الاسكندرية، وصحب تيودور البطريق خفية إلى كنيسة (التبيونيسيين) وأقفلا الباب وراءهما» وانا إزاء هذا القول لا يسعنا إلا أن نرى أنه من المحال أن يكون هذان الرجلان قد أتيا في وقتين متفرقين أو أنه عندما أتى (تيودور) كان قيرس قد مضى عليه في الاسكندرية خمسة أشهر أو يزيد وفوق كل ذلك فانا لو قلنا إن قيرس قد عاد في يوم الفصح من سنة ٦٤١ لنشأت من ذلك صعاب أخرى، فأوّل شئ يجب علينا أن نكذب كل ما ذكره حنا عن حوادث القسطنطينية بعد موت هرقل أو على الأقل أن نكذب كل نصيب قيرس من تلك الحوادث، كما أنه يجب أن نكذب ما جاء فى كتاب(نيقفوروس) وفوق كل ذلك يجب علينا أن نكذب عبارة أخرى فى كتاب حنا وهى فى منتهى الوضوح فانه ذكر بعد وصفه للصلاة فى القيصريون أن قيرس عاد (حينذاك) إلى بابليون والمستر بروكس يقبل هذا القول ويضيف إليه أن حصن بابليون. «كان قد صار قبل ذلك بقليل الى يد العرب» إذ أنه قد فتح كما برهن هو على ذلك. فى ٩ أبريل سنة ٦٤١ غير أنه عاد فى الصفحة التالية لذلك فقال إن تسليم الاسكندرية.الذى اتفق قيرس عليه مع عمرو فى بابليون وهو بغير جدال القصد الذى قصد اليه من زيارته لحصن بابليون قد حدث فى الشهر الذى بين ١٢ أكتوبر و١٠ نوفمبر من سنة ٦٤١، فكيف لنا أن نوفق بين هاتين العبارتين وفوق ذلك فانا نعرف من كتاب حنا ومن سواه من المراجع أن عمرا غادر حصن بابليون عقب فتحه فكان فى مدينة نقيوس فى ١٣ مايو فلم يكن فى فترة مقامه بالحصن متسع لزيارة قيرس ومفاوضته ثم أننا اذا قلنا إن تاريخ تسليم الاسكندرية كان فى تلك الفترة كنا بذلك عاملين ـ كما لا بد أن يقرّ المستر بروكس ـ على نقل التواريخ من مواضعها واضطرابها.

وعلى ذلك فانا إذا واقفنا زوتنبرج على أن قيرس نزل بأرض مصر مع تيودور فى يوم الصليب أى فى يوم ١٤ سبتمبر سنة ٦٤١ وأذا واقفنا المستر بروكس على أن قيرس مات فى

يوم خميس العهد التالي أي في يوم ٢١ مارس سنة ٦٤٢ كان لا بد لنا من التوفيق بين قولنا هذا وبين ما جاء في كتاب حنا وانا نستطيع أن نجد المفتاح الذى يفتح لنا ما استغلق من هذا الأمر بدرس ما جاء بذلك الكتاب فإنا إذا فحصنا ما جاء به اتضح لنا من خلاله أن العيد الذى أقيمت فيه الصلاة بمناسبة عودة قيرس ورتلت فيه المزمورة التى فى غير موضعها لم يكن عيد الفصح بل كان عيد إعلاء الصليب أى العيد الذى نرى أن قيرس نزل الى أرض مصر في يومه وذلك لأسباب أوّلها أن الخبر يذكر لنا صراحة أن الخطبة التى خطبها قيرس كانت كلها عن الصليب الذى أحضره اليه القائد حنا قبل منفاه وسار بذلك الموكب من دير التبيونيسيين وكل هذه التفاصيل تكون لا موضع لها اذا كان المقصود هو عيد الفصح وهى كلها فى موضعها الصحيح إذا كان المقصود هو يوم الصليب المقدّس وفوق ذلك فقد ذكر أن قيرس جاء من دير التبيونيسيين الى كنيسة القيصرون لحضور الاحتفال بعيد الفصح المزعوم، كما قد ذكر قبل ذلك بأسطر أن تيودور قد عاد عقب نزوله الى البر الى دير التبيونبسيين فى صحبة قيرس واذا كان ذلك الحادث قد وقع فى يوم عيد الفصح حقيقة لما كان لوجوده فى دير التبيونيسيين فى ذلك الوقت معنى فى حين أنه اذا كان المقصود هو عيد الصليب كما نرى نحن كان الوجود بالدير حينئذ ضرورة من ألزم الضرورات إذ يكون قيرس عندما نزل الى البر ذهب الى الدير ثم ذهب من هناك فى موكب الى كنيسة القيصرون. ثم إن المزمورة «هذا هو اليوم الخ» هى التى كانت تستعمل«فى الأعياد السيدية وكامل أيام الفطر» ولسنا نستطيع أن نعرف اذا كان استعماله فى الترتيل فى الصلاة يدل دلالة واضحة على أن اليوم المقصود هو يوم الفصح أو هو يوم آخر. وانا نرى على وجه الاجمال أنه لا شك فى أن تلك الصلاة التى حضرها قيرس عند عودته كانت صلاة عيد الصليب أى أن عودته كانت فى يوم ١٤ سبتمبر سنة ٦٤١.

ولكن اذا كان الأمر كذلك فما القول فى النبوءة؟ وجوابنا على ذلك يتناول أمرين:(١) أن تلك النبوءة تبقى على مالها من القيمة فاذا كانت قد قيلت فى وقت صلاة عيد الصليب كان المقصود منها عيد الصليب الذى بعده أو كان المقصود منها يوم الفصح المقبل وقد صحت على كلا الحالين.(٢) أن التفسير المقبول عقلا هو أن قيرس عندما عاد رأى الناس عليه أمارات المرض أو التغير وأولوا حادث الترتيل بما أحسوه من التطير فى نفوسهم فقد كانت عبارة

النبوءة كما يلى«إنه لن يشهد عيدا آخر للفصح» فلما مضت بضع سنين على ذلك أصبحت وفاته قبيل عيد الفصح قطب تلك القصة فحوّرت عبارتها بعد أن نسيت تفاصيل الحادث الذى حدث وعزى أصل النبوءة الى يوم عيد الفصح ما دامت وفاة قيرس قد وقعت قبل يوم عيد الفصح الذى بعده. وذلك تجوز لم يراع معه ترتيب التواريخ والحوادث وعلى ذلك قد كان من الطبيعي أن تزاد على عبارة حنا العبارة الآتية«في يوم عيد القيامة» وذلك فى موضع يظهر فيه هذا القول غريبا في غير موضعه. وهذه العبارة بغير شك زيادة من بعض النساخ أدخلها على النص الأصلي واذا نحن حذفناها زالت كل أسباب الحيرة واتضح سياق الحوادث واستبان بعد أن كان مختلطا خفيا.

وتسير عبارة حنا بعد ذلك سيرا طبيعيا فانه بعد يوم الصليب بقليل ذهب قيرس الى بابليون يطلب لقاء عمرو وقد أثبت ابن قتيبة أن عودته من غزوته فى الدلتا كانت فى ذى القعدة من سنة (١٢ أكتوبر ـ ١٠ نوفمبر سنة ٦٤١) وهى الغزوة التى لم يتم فيها شيئا من الفتح. وهذا معناه أن ذهاب قيرس الى بابليون كان نحو آخر أكتوبر وعلى ذلك لا يمكن أن نجعل تاريخ الصلح فى ١٧ أكتوبر كما يزعم المستر بروكس فان عمرا اذا كان قد عاد الى بابليون فى أوائل ذى القعدة (وهو أمر لم يذكر) كان لابد من مضى أيام عدّة قبل أن يستقر الأمر على شروط الصلح ولهذا لا نرى أن الصلح قد تم قبل آخر ذى القعدة. ونرى فى الحقيقة أن الصلح الذى اتفق قيرس مع عمرو عليه قد وقع فى ٨ نوفمبر على وجه التعيين وقد كان من شرط هذا الصلح أن تباح مدّة هدنة قدرها أحد عشر شهرا وكان على جنود الروم أن تجلو عن الاسكندرية فى أثنائها. وقد اختار المستر بروكس لذلك تاريخ ١٧ أكتوبر لأن هذا التاريخ يقع قبل يوم ١٧ سبتمبر سنة ٦٤٢ بأحد عشر شهرا إذ أنه يزعم أن ذلك التاريخ الأخير هو يوم إخلاء الاسكندرية للعرب. ولكن ليس ثمت من سبب يحدو بنا الى أن نقول إن جيش الروم قد بقى فى الاسكندرية الى آخر يوم من أيام الهدنة، إذ كانوا قد تجهزوا قبل ذلك للسفر. وانا اذا حسبنا مدّة الهدنة بالشهور العربية من يوم ٨ نوفمبر كانت نهايتها يوم ٢٩ سبتمبر. وأما المستر بروكس فانه يؤكد أن تاريخه (أى ١٧ أكتوبر) «يتفق كل الاتفاق مع ما ذكره ابن عبد الحكم من أن الحصار استمر تسعة أشهر بعد موت هرقل» وكانت وفاة هرقل فى يوم الأحد ١١ فبراير سنة ٦٤١ فاذا نحن عددنا المدّة بالحساب العربى وقع آخر أجل الهدنة فى شهر

نوفمبر ـ ولكن المقريزى قد ذكر أن فتح الاسكندرية كان بعد موت هرقل بتسعة أشهر وخمسة أيام، واليوم الحادى عشر من شهر فبراير سنة ٦٤١ يوافق يوم ٢٣ صفر فاذا حسبنا تسعة أشهر وخمسة أيام من هذا التاريخ بلغ بنا الحساب يوم ٢٨ ذى القعدة وهو يوم الخميس ٨ نوفمبر.

هذا ما نراه التاريخ الصحيح. وقد لاحظ المستر بروكس أن الصلح لا يمكن أن يكون قد وقع بعد نوفمبر لأن قيرس عند عودته من بابليون الى الاسكندرية طلب من تيودور أن يحمل ذلك الصلح الى الامبراطور هرقل (أى هرقلوناس) وقد كانت وفاته فى انتهاء هذا الشهر (نوفمبر) ولكن من الأمور التى تستحق البحث أن نرى هل مؤرّخو العرب إذ يوردون المدة الصحيحة بين وفاة هرقل الأوّل وتسليم الاسكندرية يجعلون وفاته فى يوم ١١ فبراير أو فى ١١ مارس، فقد ذكر تيوفانز وقيدرينوس خطأ أن وفاته كانت فى ١١ مارس ولعل هذا قد ضلل مؤرخى العرب فانه من العجيب أننا إذا حسبنا مدّة الأشهر التسعة والأيام الخمسة بادئين من ١١ مارس (أو ٢٢ ربيع الثانى) بلغ الحساب بنا يوم ٢٧ من ذى الحجة (أى ٧ ديسمبر) وهذا اليوم السابع من ديسمبر كان يوم جمعة وهو قريب من أوّل المحرم (١٠ ديسمبر) الذى ثبت فى أخبار العرب أنه كان يوم فتح الاسكندرية.

وبعد فقد برهن المستر بروكس برهانا قويا على أن التواريخ الباقية الى الآن من التواريخ التى ذكرها حنا إذا فسرت على حقيقتها تنص على أن ولاية البطريق بطرس خلف قيرس على بطرقة الملكانيين كانت فى ١٤ يوليه سنة ٦٤٢ وعلى أن الروم أخلوا الاسكندرية فى السابع عشر من سبتمبر من ذلك العام نفسه (صفحة ٤٤٣) ويجدر بنا أن نزيد على هذا أن عودة بنيامين من منفاه فى الصعيد كانت فى سنة ٦٤٤ ولعلها كانت أقرب الى نهاية العام منها الى أوّله.

ولكنا مضطرون إلى أن نخالف المستر بروكس فى أمر أو أمرين فى رأيه ذاك فانه ينقل عن (ابن بطريق) وابن عبد الحكم ومكين أنهم اتفقوا على أن مدة حصار الاسكندرية كانت أربعة عشر شهرا وعلى ذلك جعل بدأ ذلك الحصار فى أواخر أغسطس من سنة ٦٤٠، وكذلك ينقل عن (ابن بطريق) أن حصار بابليون بقى سبعة أشهر، ولما كان فتح بابليون قد وقع فى ٩

أبريل سنة ٦٤١ كان أوّل الحصار فى أوائل شهر سبتمبر سنة ٦٤٠ وعلى ذلك يكون العرب قد حاصروا المعقلين في وقت واحد تقريبا وذلك أمر غير ممكن من الوجهة الحربية المحضة فان عمرا لم يكن معه في وقت من الأوقات جند كاف لحصار الحصنين معا وفوق ذلك ليس ثمت مؤرخ يدعم حجة المستر بروكس فيما ذهب اليه بل إن المراجع كلها تنقض رأية فان حنا نفسه يقول إن عمرا غادر حصن بابليون بعد فتحه فى ٩ أبريل سنة ٦٤١ وانه فتح نقيوس بعد ذلك بشهر وأذا نحن أرخنا سقوطها بشهر جمادى الأولى وهو وسط بين ربيع الأوّل الذى ذكره الكندى وياقوت وبين جمادى الثانية وهو الذى ذكره المؤرخ الذى نقل عنه المقريزى كان ذلك موافقا كل الموافقة لما جاء فى كتاب حنا. وسار جيش عمرو بعد فتح نقيوس إلى الشمال وانه لمن الغريب أن يكون قد حاصر الاسكندرية فى آخر شهر يونيه أو فى أوائل شهر يوليه من عام ٦٤١ ومن هذا الوقت تبدأ مدّة الحصار الأربعة عشر شهرا وليس من شهر أغسطس ولا من شهر سبتمبر سنة ٦٤٠ ذلك إذا أردنا الأخذ بما جاء فى تواريخ ابن بطريق (اوتيكيوس) وابن عبد الحكم ومكين. أى أن مدة الأربعة عشر شهرا يجب أن تحسب من تاريخ الصلح الذى كان فى سنة ٦٤١.

هذه النتيجة تفضى بنا إلى اتفاق يكاد يكون تاما مع ما جاء فى الطبرى إذ يقول إن مدّة الحصار كانت خمسة أشهر (قبل التسليم): وإذا حسبنا ما بين أوّل يولية و٨ نوفمبر كان ذلك تمام أربعة أشهر ونصف من الشهور العربية ويلوح أن هذا الاتفاق يعزز التاريخين اللذين أخدناهما وهو فى نفس الوقت يبين لنا سبب ذلك الاختلاف الكبير بين المؤرخين فى تقدير مدة الحصار. فمن الواضح أن بعضهم بدا حسابه من أوّل وقوف العرب دون الاسكندرية إلى معاهدة التسليم وبعضهم حسب المدّة إلى وقت إخلاء الروم للمدينة فعلا، والظاهر أن عبارة السيوطي التى نقلناها آنفا فيها خلط بين ما جاء فى الطبرى وما جاء فى أوتيكيوس وهى خطأ واضح وأما اليعقوبى والبلاذرى وابن خلدون وسواهم من المؤرخين فانهم يذكرون أن مدة الحصار كانت ثلاثة أشهر وظاهر أنهم يقصدون أنه قد مضت ثلاثة أشهر من الحصار قبل معاهدة الصلح فاذا أضفنا إلى تلك المدة مدة الهدنة وهى أحد عشر شهرا رجعنا إلى أن المدة بين أول مجيء العرب أمام المدينة ودخولهم فيها كانت أربعة عشر شهرا. ومن ذلك يتضح أن

هذه الأخبار وإن ظهر عليها شيء من الاختلاف يمكن التوفيق بين مواضع الخلاف فيها أو التقريب بينها تقريبا يسترعى الأنظار.

وكذلك نخالف ما ذهب إليه المستر بروكس من أن «فترة الأشهر الأحد عشر قضاها عمرو في غزو بنطابولس» (يقصد مدة الهدنة) فانا نسلم بأن نص عبارة كتاب حنا كما هي تساعد على الأخذ بهذا الرأى وذلك لأن الفقرة القصيرة التى ذكرت فيها هذه الغزوة جاءت قبل ذكر موت قيرس مباشرة، ولكن قد جاء ذكر موت قيرس فى موضع آخر بعد ذلك وظاهر أن ذلك الباب ممسوخ الترتيب فلا يمكن أن تقوم حجة على ترتيب أخباره. وإن الأسباب الحربية بغير شك كانت تمنع عمرا من أن يغامر بالقيام بغزوة بعيدة قبل أن يملك الاسكندرية وهي القاعدة الوحيدة التى كان يمكن أن تبدأ منها مثل هذه الغزوة. وأما ابن الأثير فانه يورد قولا قاطعا في ذلك التاريخ فيجعل تلك الغزوة في سنة ٢٢ للهجرة. وأما سواه من مؤرخى العرب فإنهم مهما اختلفوا في ذلك التاريخ متفقون على أن فتح برقة إنما كان بعد سنة من تملك الاسكندرية(راجع ابن بطريق وياقوت) وعلى هذا فانا جعلنا تاريخ غزوة بنطابولس في الشتاء الذى أعقب إخلاء الاسكندرية. وقد بدأت السنة الثانية والعشرون للهجرة فى ٣٠ نوفمبر سنة ٦٤٢ فاذا كانت الغزوة قد وقعت بعد أوّل السنة بقليل كان ذلك إيضاحا سهلا لما وقع فيه مؤرّخو العرب من الاختلاف بين سنة ٢١ وسنة ٢٢ للهجرة.

ولسنا نشك في أن عمرا كان كثير الأعمال في بابليون ولعله كان يتجهز لاتمام فتح الصعيد أو إخضاعه وقد كان بغير شك يستعد لإعادة حفر قناة تراجان فقد جاء فى البلاذرى أن عام القحط فى بلاد العرب كان سنة ٢١ للهجرة (وأوّلها ١٠ ديسمبر سنة ٦٤١). وجاء في تاريخ ابن الأثير أن عمرا أرسل فى ذلك العام القمح إلى المدينة فى الخليج الذى حفره ولعل ذلك كان فى أغسطس أو سبتمبر من عام ٦٤٢.

وما كان حفر ذلك الخليج بممكن إلا فى الشتاء فى وقت انخفاض النيل كما أنه ما كان سير السفن فيه ممكنا فى غير فصل الصيف عند فيضان النيل وكان عمرو فى شتاء (سنة ٦٤٠ ـ ١) مقبلا على حصار حصن بابليون مشتغلا به فلم يكن من الممكن حفر ذلك الخليج إلا فى شتاء (سنة ٦٤١ ـ ٢) كما يفهم من تاريخ ابن الأثير وقد جاء فى ذلك التاريخ

عينه أن تاريخ غزو عمرو لبرقه كان على وجه التعين فى سنة ٢٢ للهجرة وهى تبدأ من يوم ٣٠ نوفمبر ٦٤٢ وتنتهى في يوم ٢٠ نوفمبر سنة ٦٤٣ وعلى ذلك فإنا موردون التواريخ الآتية:

(١) كان جيش عمرو فى العريش فى ١٢ ديسمبر سنه ٦٣٩ وقد ذكر هذا اليوم فى كتاب ابن عبد الحكم، ولكن البلاذرى والطبرى وياقوت ومكين يكادون يتفقون فى إيراد تاريخ الغزوة.

(٢) فتح الفرما حوالى ٢٠ يناير سنة ٦٤٠ وقد اتفق ابن بطريق وياقوت وغيرهم على أن المدينة فتحت بعد حصار شهر واحد.

(٣) غزوة عمرو لاقليم الفيوم فى مايو سنة ٦٤٠ ولا يذكر هذا التاريخ غير حنا النقيوسى وحده.

(٤) وصول إمداد العرب فى ٦ يونيه سنة ٦٤٠ وهذا مأخوذ من ساويرس ولكنه مشكوك فيه.

(٥) وقعة هليوبولس في يوليه سنة ٦٤٠ وقد تبع ذلك فتح مدينة مصر.

(٦) بدء حصار حصن بابليون بدأ في سبتمبر سنة ٦٤٠ وهذا يتفق عليه ابن عبدالحكم وابن بطريق (اوتيكيوس).

(٧) معاهدة قيرس المقوقس التى رفضها هرقل فى أكتوبر سنة ٦٤٠.

(٨) تسليم حصن بابليون فى ٩ أبريل سنة ٦٤١، وقد جاء ذكر هذا اليوم فى كتاب حنا النقيوسى وهذا اليوم هو تاريخ«فتح مصر» أو بعبارة أصح تاريخ فتح مدينة مصر وأوثق المؤرخين يجعلون ذلك فى سنة ٢٠ للهجرة، كما ذكر المقريزى ومن بين هؤلاء الثقاة ابن قتيبة وابن بطريق وياقوت وأبو المحاسن وأبن كثير والواقدى وأبو معشر الخ على أنهم لا يتفقون جميعا فى قصدهم من عبارة«فتح مصر» فبعضهم يعنى بها فتح حصن بابليون وبعضهم يقصد بها فتح الاسكندرية، ولكن الطبرى يجعل فتح بابليون فى ربيع الثانى من سنة ٢٠ للهجرة (٢٠ مارس ـ ١٧ أبريل سنة ٦٤١)، وعلى ذلك فهو متفق كل الاتفاق مع ما جاء فى كتاب حنا النقيوسى.

(٩) فتح نقيوس فى ١٣ مايو سنة ٦٤١.

(١٠) الهجوم على الإسكندرية فى آخر يونية سنة ٦٤١.

(١١) عودة قيرس فى ١٤ سبتمبر سنة ٦٤١.

(١٢) تسليم الاسكندرية فى ٨ نوفمبر سنة ٦٤١.

(١٣) حفر خليج تراجان فى شتاء (سنة ٦٤١ ـ ٢).

(١٤) موت قيرس فى ٢١ مارس سنة ٦٤٢.

(١٥) ولاية خلف قيرس فى ١٤ يوليه سنة ٦٤٢.

(١٦) إخلاء الروم للاسكندرية فى ١٧ سبتمبر سنة ٦٤٢.

(١٧) غزوة بنطاپولس (برقه) فى شتاء (سنة ٦٤٢ ـ٣).

(١٨) عودة بنيامين فى خريف سنة ٦٤٤.

(١٩) ثورة منويل فى أواخر سنة ٦٤٥.

(٢٠) فتح العرب الثانى للاسكندرية فى صيف سنة ٦٤٦.

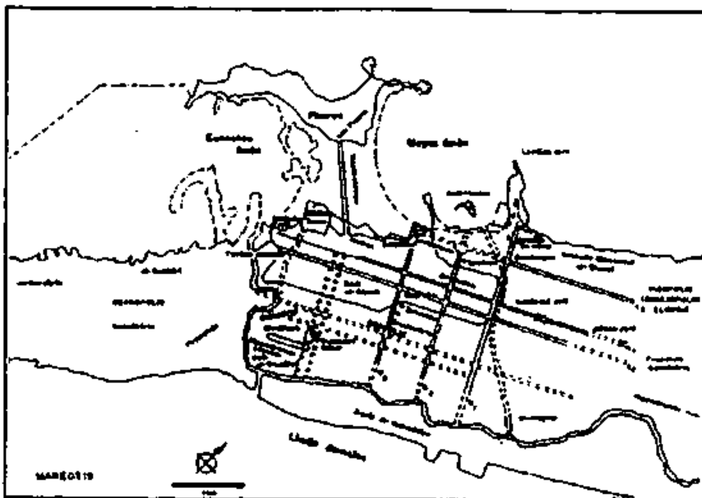

فى تواريخ بطاركة مصر بعد بنيامين فى القرن السابع

قد اضطرتنا معالجة المسائل التى لها علاقة بتاريخ الفتح العربى الى أن نشير أحيانا إلى خلفاء بنيامين وإن فى إثبات تواريخهم لشأنا يذكر فيما نحن فيه وليس أقل هذه المسائل شأنا إثبات التاريخ الذى كتب فيه حنا النقيوسى كتابه واثبات ذلك لا يكون إلا من طريق غير مباشر كما هى العادة، ولكن ذلك الاثبات قائم على الأكثر على اثبات التاريخ الذى تولى فيه البطريق اسحق إذ كان حنا أحد من شهدوا الاحتفال بتوليته. وكان اسحق البطريق الثالث بعد بنيامين وكان البطريقان المتوسطان بينه وبين بنيامين هما أغاثيون (أجاثو) وحنا السمنودى. ويلوح لنا أنه من الممكن أن نثبت تاريخ تولية اسحق على وجه الدقة، ولهذا نرى أن خير طريق نسلكه هو إثبات هذا التاريخ ثم الرجوع منه الى التواريخ السابقة.

والمرجع الأكبر لنا فى استمداد الأخبار هو الكتاب القبطى«حياة اسحق» وقد نشره مع ترجمة له العلامة أميلنو فى كتاب(His.du patr. Copte Isaac)وقد أظهر ذلك الكاتب فى مقدّمته القيمة أن تلك الوثيقة القبطية لا تذكر سوى أن اسحق توفى فى التاسع من هاتور(وهو يوافق ٥ نوفمبر وليس ٦ نوفمبر كما ذكر هناك).

قال الكاتب «وقد اقتصرت كل الأخبار التاريخية على ذكر ذلك التاريخ ومعنى ذلك أنها لا تفيدنا بشئ مطلقا» ولكن مكين يذكر فى تاريخه أن تاريخ وفاة اسحق سنة ٦٩ للهجرة ومن ذلك يستخلص أميلنو أن اسحق مات فى ٦ نوفمبر سنة ٦٨٨، وأما فون جوتشمت فانه يذكر أن وفاته كانت فى الخامس من نوفمبر سنة ٦٩٢.

على أن أميلنو قد أخطأ الصواب إذ قال إن الوثيقة القبطية لا تذكر شيئا آخر من الأخبار التى تحدّد التواريخ إذ أنه قد أغفل عبارة لها شأن كبير فقد جاء فى تلك الوثيقة أن اسحق قد احتفل بولايته فى ٨ كيهك «وكان ذلك يوم أحد» وهو اليوم اللائق بهذا الاحتفال ـ ولم يقع يوم ٨ كيهك حوالى هذا العصر فى يوم أحد إلا فى سنة ٦٨٤ وسنة ٦٩٠، فأما سنة ٦٨٤ فانه من المحال أن تكون هى المقصودة وعلى ذلك فان اسحق قد احتفل بتوليته فى (٨ كيهك ـ الموافق ٤ ديسمبر سنة ٦٩٠) وعلى ذلك فهذا هو التاريخ الذى شهده حنا النقيوسى. وقد

قال ساويرس فى مدّة ولاية اسحق أقوالا مختلفة فى النسخ المخطوطة المختلفة فهو يجعلها بين سنتين وتسعة أشهر وبين ثلاث سنوات، ولكنا إذا علمنا أن اسحق قد مات فى ٥ نوفمبر واذا قلنا إنه توفى فى الخامس من نوفمبر سنة ٦٩٣ كانت مدة ولايته سنتين وأحد عشر شهرا وهى المدّة التى ذكرها المقريزى.

وقد يكون من السهل أن تقرأ مقدّمة أميلنو كلها ثم نظهر السبب فى أنه أخطأ الخطأ كله فى اثبات تاريخ ميلاد اسحق إذ يجعل ذلك التاريخ قبل الفتح العربى. ويجعل اسحق فى نحو الثمانية عشرة من عمره فى وقت ذلك الفتح (ويذكر أن الفتح كان سنة ٦٤٠) فهو يجعل تاريخ ميلاده سنة ٦٢٢ وقد ساقه الى هذه النتيجة على الأخص ما ذكر من أن اسحق كان فى صباه ملحقا بقريب له اسمه (Mencson)وكان هذا القريب ناموسا لجورج حاكم أرض مصر وهذا اللقب عجيب إذ يظهر كيف بقيت الألقاب اليونانية مستعملة فى مصر بعد الفتح العربى ولسنا نشك لحظة فى أن تلك الألقاب قد بقيت فى مصر بعد ذلك الفتح فقد جاء فى الوثيقة عينها ذكر عامل لقب بلقب (Augustal)وأنه كان متصلا اتصالا مباشرا مع«ملك العرب» «عبدالعزيز». وقد ذكر اسمه قبل ذلك ببعض صفحات فوجود هذا اللقب على ذلك لا يدل على أن اسحق قضى صباه تحت حكم الروم. والحق أنه قد ثبت أنه هرب فى الصحراء وكان بعد لا يزال فى سن الصبا وكان ذلك بعد الفتح إذ أنا نجد أهله بعد ذلك بقليل يستشيرون بطريقا قبطيا فى الاسكندرية فى أمره.

وليس من الممكن أن يكون هذا قد وقع بين سنة ٦٣١ ـ سنة ٦٤٤ إذ لم يكن ثمت فى الاسكندرية بطريق قبطى وقتئذ كما أنه ليس من الممكن أن يقع هذا قبل سنة ٦٣١ إذ قد ذكر عنه عقب هروبه أنه حادث قسيسا من قسوس الريف.

وقد جاء فى ذلك الخبر«أنه قد شهد الكثيرون أن ذلك القس كان من القدّيسين أهل الايمان وأنه كان ممن أحضر بين يدى قيرس فحكم عليه بأن يجلد عدّة جلدات لأنه أظهر إيمانه» وهذا القول يدل على أن مدة الاضطهاد التى أنزله قيرس كانت قد انقضت وهى بين سنة ٦٣١ ـ ٦٤١، وعلى ذلك فان لجوء أهل اسحق الى البطريق كان ولابدّ بعد سنة ٦٤٤، وعلى ذلك نقول إن البطريق كان بنيامين.

وليس ثمت من دليل يدل على تاريخ لجوء أهل اسحق الى البطريق وفى أى عشرة من عشرات السنين كان ولا ندرى أكان حوالى سنة ٦٥٠ أو حوالى سنة ٦٦٠ أو حوالى سنة ٦٧٠ على أننا نميل الى ترجيح التاريخ الأوّل وذلك لأننا نهتم أكبر الاهتمام بالعبارات المتكررة التى تنص على صبا اسحق إذ ذاك ونحن فى ذلك نخالف ما ذهب اليه أميلنو فانه مثلا لا يجد صعوبة فى تأويل معنى (Jeune Garcon) (صبى صغير) على أنه كان رجلا متوسط السن مع أن هذا اللفظ قد ورد نقيضا للفظ«الهرم» فإذا ذهبنا الى أن ذلك التاريخ المقصود كان حوالى سنة ٦٥٧ كان ميلاد إسحق حوالى سنة ٦٤٠ وكانت سنة عند وفاته ثلاثا وخمسين سنة وقد كان البطريق الوحيد الذى ذكر حنا النقيوسى اسمه هو(حنا السمنودى) وهو الذى رشح إسحق لولاية الدين بعده.

ويجدر بنا أن نزيد على هذا أن أميلنو إذا كان مصيبا فيما ذهب اليه من ترتيب التواريخ أى أن ميلاد إسحق كان فى سنة ٦٢٢ فان مدّة الاضطهاد الأكبر وهى بين سنة ٦٣١ وسنة ٦٤١ تقع إذ كانت سنّ إسحق بين التاسعة والتاسعة عشرة ولكنا قدّمنا أنه لم يكن للقبط إذ ذاك بطريق فى الاسكندرية كما يستلزمه ذلك الخبر فى حين أننا إذا ذهبنا كما فعلنا إلى أن مولد إسحق كان حوالى سنة ٦٤٠ وأنه هرب الى الصحراء حوالى سنة ٦٥٧ استوى لنا القول وأصبح طبيعيا فان بنيامين قد عاد إلى الاسكندرية قبل بثلاث عشرة سنة، وكانت هذه المدّة فى الحقيقة أكثر مدّة صبا إسحق.

وبعد أن أثبتنا تاريخ الاحتفال بولاية إسحق وموته نقول إن سابقه حنا السمنودى توفى فى أوّل كيهك (٢٧ نوفمبر) من احدى السنين بعد أن ولى أمر الدين تسع سنين، وعلى هذا تكون وفاته فى ٢٧ نوفمبر سنة ٠٩٦ ولكن ذلك لو صح يوجب علينا أن نسلم أن الاحتفال بتولية إسحق حدث بالضبط بعد أسبوع من موت سلفه فى حين أن تاريخ حياته القبطى يحتوى على ذكر مفصل لما وقع من الخلاف فى المدّة التى كانت ولاية الدين فيها شاغرة بعد موت سلفه وما وقع من المسعى لتولية رجل آخر اسمه (جورج) إذ ادعى أنه الذى وقع عليه الاختيار الصحيح على أن كبير الشمامسة أمر أن لا يولى (جورج) حتى جاء أمر من قبل الحاكم العربى فاجتمع الأساقفة عنده فى بابليون ليعرضوا عليه الأمر، فلما فحص تاريخ

(جورج) في حياته الماضية وجد أنه لم يكن على ما يجب أن يكون عليه وقد جاء الناس من جميع البلاد ليسمعوا حكم «عبدالعزيز» فى ذلك الأمر فلما حكم بما أرادوا من إحقاق أمر إسحق طربوا ورقصوا جميعا وعم السرور البلاد من بابليون الى الاسكندرية ومن الجلى أن ذلك لابد يحتاج إلى وقت طويل فنحن مضطرون إلى القول إن وفاة حنا السمنودى كانت فى أوّل كيهك (٢٧ نوفمبر) سنة ٦٨٩ مع أننا نقول إن الاحتفال بتولية إسحق كان فى ٨ كيهك سنة ٦٩٠ أو بقول آخر إن ولاية الدين بقيت شاغرة مدّة عام وهذا الاستنتاج يؤيده ما جاء في الديوان الشرقى إذ جاء فيه أن حنا مات فى أوّل كيهك وكان ذلك يوم السبت، وقد رأينا أن يوم ٨ كيهك كان في سنة ٦٩٠ يوم أحد فيكون أوّل كيهك من ذلك العام يوم أحد أيضا ولكن أوّل كيهك كان يوم السبت كما هو المطلوب في عام سنة ٦٨٩.

فاذا نحن حسبنا مدّة ولاية حنا تسع سنين رجع بنا الحساب إلى أن أوّل تلك الولاية كان فى سنة ٦٨٠ وقد مات سلفه (أجاثو) فى ١٣ أكتوبر وعلى ذلك يكون الاتفاق قريبا كل القرب بين حسابنا والتاريخ المذكور وكانت وفاة اجاثو فى ١٣ أكتوبر سنة ٦٨٠ بعد أن ولى أمر الدين مدّة تسع عشرة سنة كما جاء فى الأخبار ولكنا رأينا أن وفاة بنيامين كانت فى ٨ طوبة (وذلك يوافق ٣ يناير سنة ٦٦٢) والمدّة بين التاريخين ثمان عشرة سنة وعشرة أشهر تنقص قليلا وذلك تقريب شديد القرب وعلى ذلك نرى أن حساب التواريخ يتفق بعضه مع بعض اتفاقا وثيقا.

وانا نستطيع الآن أن نورد التواريخ مرتبة وقد كان جل اعتمادنا فيها على ما جاء فى كتاب ساويرس وقرناها بما جاء فى تاريخ حياة اسحق وسوى ذلك من المراجع فاتفقت اتفاقا عظيما يجعلنا نستبعد احتمال الخطأ، وقد اتفق فون جوتشمت معنا فيما أثبتناه من تواريخ وفاة بنيامين وأجاثو، ولكنه يخالفنا في تاريخ وفاة حنا السمنودى فيجعلها فى ٢ مايو سنة ٦٨٩.

ولكن ذلك لا يعتمد على مرجع كاف وهو فوق ذلك يجعل الاحتفال بتولية إسحق فى فبراير سنة ٦٩٠ ووفاته فى ٥ نوفمبر سنة ٦٩٢ ولكن هذين التاريخين قد ظهر فسادهما مما جاء فى تاريخ حياته القبطى فالتواريخ الحقيقية على ما يلوح لنا هى الآتية:

البطريق	تاريخ التولية	مدّة الولاية	تاريخ الوفاة
(١) بنيامين	يناير سنة ٦٢٣	٣٩ سنة	٣ يناير سنة ٦٦٢
(٢) أجاثو	يناير سنة ٦٦٢	١٩ سنة	١٣ أكتوبر سنة ٦٨٠
(٣) حنا السمنودى	أكتوبر سنة ٦٨٠	٩ سنوات	٢٧ نوفمبر سنة ٦٨٩

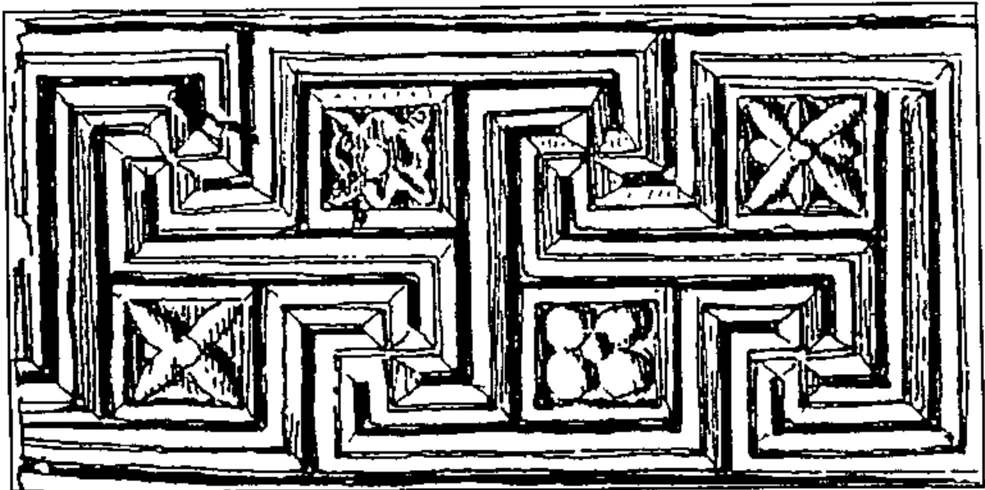

زخرفة بالخشب من أحد أبواب الكنيسة المعلقه

بحث فى شخصية المقوقس

فلنبدأ بذكر المؤرخين العرب ما قالوه حول شخصية المقوقس، وفى هذا لا نقول عن هذا الأمر شئ سوى شك وخلط وأنهم فى ذكرهم لأخباره يبدون أكبر الاضطراب والتناقض. وليس خلطهم في ذكر الأخبار الا نتيجة لاختلاط الأمر عندهم واستغلاقه عليهم ولئن كان ثمت شئ مؤكد فهو أن مؤرخى العرب تلقفوا لقب المقوقس سماعا أو رواية نقله بعضهم عن بعض بغير أن يفهموا له معنى وأن الاسم بقي بينهم دون سواه واختلط عليهم الاسم الحقيقى للشخص الذى كان يلقب به وأن ذلك اللقب كان لقبا مبهما أصله غير عربى يطلق على حاكم مصر. فيسمون حاكم مصر فى زمن النبى المقوقس ويسمون حاكمها فى زمن الفتح المقوقس. ولا يهمنا كثيرا فيما نحن بصدده من الحجة أن نبحث في أول ما أستعمل العرب ذلك اللقب له. أأطلقوه على حاكم مصر في وقت رسالة النبى ثم أطلقوه بعد ذلك من باب التوسع والتمثيل على حاكم مصر فى زمن الفتح أم قد سمعوه (كما نظن نحن) أولا فى زمن الفتح ثم أطلقوه خطأ على الحاكم الذى جاءته رسالة النبى؟ وعلى أى حال فقد كان ذلك يطلق على العامل على مصر من قبل أمبراطور الروم أى على الحاكم العام لمصر.

الطبـــرى ولنبدأ بالطبرى فلا ينكر أحد أنه يفرق فى رواية من رواياته بين المقوقس وبين جاثليق مصر. فلننظر فيما هو المقصود من لفظ جاثليق مصر فهو لفظ لا يطلقه أحد اطلاقا صحيحا على عظيم من عظماء رجال الكنيسة ولم يستعمله أحد لذلك المعنى فهو اصطلاح أرمنى أو سورى أو نسطورى وقد عرفه الطبرى فى طبرستان أو في بغداد ثم أطلقه خطأ فى مصر ولا شك فى أن معناه (المترانوس) ولكن ليس من اللازم أن يقصد به البطريق. وفوق ذلك قد رأينا أن لفظ مصر له مدلولان إما قطر مصر واما مدينة مصر وعلى ذلك فجاثليق مصر قد لا يكون معناه سوى (مترانوس مدينة مصر) وقد ورد ذلك اللقب كثيرا فى التاريخ القبطى وقد كان فى بابليون أسقف وهو حصن بابليون وكان فى منفيس أسقف وفى حلوان أسقف وقد كان أسقف مصر مقدّما على سائر أساقفة ذلك الاقليم وكان لقب (مترانوس) يطلق فوق ذلك على أسقف دمياط وانه من العسير أن نتصوّر مصر ـ وقد كانت العاصمة الثانية بعد الاسكندرية ـ يكون أقل شأنا وأحط مقاما من سواه وذلك إذا لم يكن (مترانوس) ويجمل بنا أن نذكر هنا أننا نرى أنه من المحال أن يقال بطريق مصر لأن هذا يكون لقبا غير

ممكن الوجود فقد كان البطريق يقال له(بطريق الاسكندرية) ولم يطلق عليه غير ذلك اللقب أبدا ولم يذكر مرة لقب(بطريق مدينة مصر) أو(بطريق للقطر المصرى). ولقب(مترانوس مصر) ليس مستمدا من الظن والحدس إذ قد وجدناه مستعملا حوالى سنة ٧٥٠ للميلاد إذ وصف رجل إسمه تيودور بأنه كان (المترانوس أسقف مصر).

فاذا نحن ذهبنا مع هذا الرأى زالت من أمامنا كل الصعاب التى نشأت من التمييز بين الجاثليق والمقوقس فقد كانا شخصين متفرّقين ولم يقل أحد مرة أن أسقف مصر كان هو المقوقس.

وقبل أن ننتقل من القول فى عبارة الطبرى يجب علينا أن ننبه إلى تناقض فى قوله فبينما هو يقول فى رواية إن عمرا عند ما جاءه الزبير قابله أبو مريم وأبو مريام وقاتلاه، إذا به يقول فى رواية أخرى إن عمرا والمقوقس التقيا فى عين شمس والتحم جيشاهما فى القتال. ولسنا نرى موضعا للشك فى أن هاتين العبارتين تشيران إلى حادثة واحدة، وهذا مثل من الأمثلة التى تدل على ضرورة درس روايات الطبرى مفردة ثم قرن بعضها إلى بعض ودرسها معا فاذا سلمنا بأن الحادثة المقصودة واحدة وأن رواية من الروايتين تشير إلى أن جاثليق مصر هو الذى قابل عمرا ثم أعقب ذلك وقعة عين شمس، وأن الثانية تشير إلى أن المقوقس هو الذى فعل ذلك أمكن أن نقول إن المقوقس هو جاثليق مصر وأن ذلك الجاثيلق قد يكون جاثليق القطر المصرى أى أنه قد يكون هو البطريق قيرس. وإذا صح ذلك كانت الرواية التى تميز قيرس وتجعله شخصا آخر غير المقوقس رواية مخطئة. ويجب أن نذكر أنه لا يصح أن نثق بمختلف الروايات ثقة متساوية إذا كانت روايات متناقضة فيجب علينا أن نميز بينها ونوازن بين ذلاتها لنرى أيها أوثق وأصدق.

ابن عبد الحكم والآن فلننظر إلى المؤرّخين الآخرين فقد جاءت فى تاريخ ابن عبد الحكم(حوالى سنة ٨٥٠ للميلاد) عبارة ذات شأن، فقد جاء فيه قوله«فوجه هرقل ملك الروم المقوقس أميرا على مصر وجعل إليه حربها وجباية خراجها ونزل الاسكندرية»فما معنى هذا القول سوى أنه كان الحاكم الأعلى بمصر؟

وإذا كان ابن عبد الحكم يذكر أن المقوقس كان على جباية الخراج فى مصر فقد ذكر ذلك أيضا سعيد بن البطريق(٨٧٦ ـ ٩٣٩) كما أن قوله هذا يوافق ما جاء فى وثيقة قبطية

متخلفة من القرن السابع وفيها ذكر زيارة (المقوقس البطريق الكاذب) لدير القلمون وفيها يوصف ذلك البطريق بأنه«مراقب الخراج في أرض مصر» ولا شك في أن هذا الدليل ذو خطر عظيم. وقد ذكرت هذه الحادثة عينها في النسخة العربية من التقويم القبطى لحياة القدّيسين فقد جاء فيه صراحة أن الشخص الذى حاول أن يجعل صمويل يعترف بالعقيدة الخلقيدونية أو الملكانية كان اسمه المقوقس.

وفوق ذلك جاء في وثيقة مخطوطة أخرى وصف (البطريق) بعد اسم المقوقس. وعلى ذلك فقد قام الدليل من هاتين الوثيقتين القبطيتين على أن الشخص الذى كان مراقبا للخراج في مصر هو المقوقس كما قال ابن عبد الحكم وكذلك كان هو البطريق الملكاني وكبير الأساقفة. أى قيرس.

ولكنا نجد فوق ذلك اتفاقا آخر يسترعى النظر بين ابن عبد الحكم ومؤرّخ آخر مستقل عنه: فقد ذكر المؤرّخ العربى عبارتين عن المقوقس: إحداهما تنص على عمله الحربى؛ والأخرى تنص على عمله في جباية الأموال. فأما فيما يخص عمله الحربى فانا موردون هنا تعزيزا عجيبا نأخذه من وثيقة سريانية تخلفت من القرن السابع وقد ترجمها وعنى بنشرها الأستاذ جويدى وكانت كتابتها في القرن السابع بعيد فتح العرب لمصر. وقد جاء فيها أن العرب قد عاقهم عن الفتح في أوّل الأمر أن حدود مصر كانت يدافع عنها جيش قوى كبير حشده بها بطريق الاسكندرية.

فأنى لبطريق أن يدبر هذه الأمور الحربية المحضة؟ ولكن إذا عرفنا أن البطريق كان عند ذلك قيرس، ولا ينكر أحد أنه قد كان، واذا كان قيرس هو المقوقس، كانت عبارة هذه الوثيقة السريانية القديمة متفقة كل الاتفاق مع وصف ابن عبد الحكم لحاكم مصر وأنه كان صاحب الحرب المطلق فيها.

البلاذرىـ(٨٠٩ ـ ٩٣ للميلاد) ـ ليس قوله في المقوقس شديد الدقة فهو يذكر أنه صالح عمرا على عهد ردّه هرقل. ونحسب المقصود بذلك معاهدة مصر ثم يذكره بعد ذلك قائدا في الاسكندرية في مدّه حصار العرب لها، ثم يذكر أنه فاوض عمرا في تسليم المدينة ـ وفي الحقيقة يتفق ما جاء في تاريخ البلاذرى في هذا الشأن مع ما جاء في كتاب حنا النقيوسى من أخبار قيرس.

اليعقوبى ـ (المتوفى سنة ٨٧٣ للميلاد) ولم يكن من أهل مصر وهو يذكر أن المقوقس صالح عمرا وأن هرقل ردّ ذلك الصلح.

ابن الأثير ـ (١١٦٠ ـ ١٢٣٢ للميلاد) والظاهر أنه ينقل عن الطبرى ولكنه يصف (أبو مريم) بأن المقوقس أرسله ليقابل عمرا ويصفه بأنه جاثليق منفيس وهذا يدل على أنه فهم من لفظ (جاثليق مصر) أنه يقصد به أسقف مدينة مصر وليس بطريق الاسكندرية. وعلى ذلك فليس فى قول ابن الأثير ما يناقض الأدلة على أن المقوقس كان هو قيرس بعينه. ويصح لنا هنا أن نزيد على ذلك أن مؤرخى العرب لم يميزوا واضحا بين الأسقف وبين كبير الأساقفة. فان أبا المحاسن يذكر (أبو مريم) بأنه كان جاثليق مصر ثم يذكر (بنيامين) بأنه كان أسقف الاسكندرية. وكذلك ليس لفظ (أسقف رومة) باللفظ الغريب عن عرف التاريخ بل إنه يرد فى الأخبار هكذا (ويقصد به بابا رومه) ولكن ابن الأثير يذكر أن المقوقس أمر بالقتال فى عين شمس متبعا فى ذلك رأى الأطربون الحربى ويذكر كذلك أنه فاوض فى الصلح فى الاسكندرية.

ياقوت ـ (١١٧٨ ـ ١٢٢٨ للميلاد) يذكر أن المقوقس هو صاحب الصلح الذى عقد باسم القبط والروم وأنه صالح على شرط أن ينفذ بالعهد إلى الامبراطور ليقره.

المكين ـ جرجس بن العميد السريانى المصرى ـ (١٢٠٥ ـ ١٢٧٣ للميلاد) يذكر أن المقوقس كان حاكم مصر من قبل هرقل ـ أى أنه كان نائب الملك فيها.

ابن دقماق ـ (حوالى ١٣٥٠ ـ ١٤٠٦ للميلاد) يروى عن ابن وهب أنه روى عن الليث بن سعد أن المقوقس الرومى الذى كان ملك مصر صالح عمرا.

المقريزى ـ (١٣٦٥ ـ ١٤٤٢ للميلاد) يروى عن يزيد بن أبى حبيب أنه قال إن المقوقس الرومى كان واليا على مصر وأنه صالح عمرا ويقول إن قائد الحصن (أى بابليون) كان (الأعيرج) من قبل المقوقس ويذكر بعد ذلك أن المقوقس كان حاكم البلاد من قبل هرقل. ويذكر أنه عقد صلح مصر وأن الأمبراطور ردّه ولم يقرّه. وأنه لام ذلك الحاكم النائب عنه على أنه رضى «أن يكون ومن معه من الروم فى حال القبط أذلاء» الخ. وليس ثمت ظل من الشبهة فى أن المقريزى يعدّ المقوقس نائب الملك فى مصر.

أبو المحاسنـ(١٤١١ ـ ١٤٦٩ للميلاد) وهو يذكر أن قائد قصر الشمع(أى حصن بابليون) كان(الأعيرج) من قبل المقوقس.

ويقول هذا المؤرّخ مرة أخرى«ثم بدأ حصار الحصن وكان قائده المندفور من قبل المقوقس بن قرقب اليونانى» ثم يذكر بعد ذلك عظماء المصريين وحاكمهم المقوقس.

السيوطي ـ(١٤٤٥ ـ ١٥٠٥ للميلاد) وكان مثل أبى المحاسن متفقا معه فى الرأى فقال إن الإمبراطور هرقل رد صلح المقوقس مع العرب وأمثال ذلك القول.

وها نحن قد عرضنا أدلة مؤرّخى للعرب واخترنا ما بها من تعريف بسلطة المقوقس وعمله فى مصر مبتدئين بابن عبد الحكم إلى أن انتهينا بالسيوطى فلنمض الآن إلى الشعبة الثانية وهى المؤرخين القبط.

ولنا أن نزيد هنا بداية أن جمع السلطة العليا فى أمور الدين والدنيا معا فى شخص واحد لم يكن بدعة جديدة، بل كانت له سابقة واضحة فى القرن السادس. فقد عرض جستنيان على تيودوسيوس أن يكون بطريق الاسكندرية وحاكم مصر معا إذا هو قبل كتاب ليو ومذهبه الدينى. وإذا كان الأمر كذلك لم يكن عجبا من هرقل أن يجمع الرياستين فى شخص قيرس. وقد أورد ساويرس فى كتابه الذى بين ايدينا هذين الخبرين أو لعلهما وردا فى تاريخه ـ فإن ديوان تاريخه وما أضيف اليه بعده مجموعة قيمة من الأخبار يقرّ أهل البحث والدرس لها اليوم بالفضل.

وقد قال (Evetts)عن كتاب ساويرس «إن تاريخ بطارقة الاسكندرية هو الكتاب العمدة فى تواريخ البطاركه للكنيسة القبطية والجزء الأوّل منه مجموعة جمعها ساويرس أسقف الأشمونين بالصعيد نقلها عن وثائق يونانية، وأخرى قبطية، وجدها فى الأديرة التى فى بلاده فترجمها بمساعدة بعض القسوس.

وقد صار كتاب تاريخ البطاركة أتم وأكثر فائدة وأكبر قيمة منذ القرن السابع ولا سيما فى وقت فتح العرب فنجد فيه سلسلة من تواريخ حياة حقيقية كتبها كتاب من أهل عصرها» وليس يخالف أحد هذا الرأى إذا كان ممن درس كتاب ساويرس حق دراسته.

ويظهر أنه قد جرت العادة منذ أقدم الأزمان على أن تكتب أخبار الكنيسة القبطية فى صورة تراجم للحياة على الأكثر وعلى أن تحفظ فى مكتبة الدير المعروف دير مقار فى وادى النطرون.

ولم يكن مأمن أصلح لذلك الغرض من ذلك المكان وراء أسوار ذلك الدير المحصن البعيد فى الصحراء. وقد حفظت فى ذلك الدير الوثائق المخطوطة التى استمد منها ساويرس تاريخه. وقد وجدت فقرة مؤرّخة فى أوّل يونيه من سنة ١٠٨١ للميلاد قد أضيفت إلى ذلك الديوان وفيما ما يلى:«إلى هنا انتهى الفصل السادس عشر الذى تم به تاريخ الآباء إلى سيمون الثانى والأربعين من البطارقة وسيلى ذلك ما ترجمناه عن الوثائق فى دير القدّيس مقار وهو تاريخ البطارقة من ميخائيل الأخير إلى سنوتيرس الأوّل. وقد ترجمنا فى هذا الدير تاريخ حياة تسعة آخرين من البطاركة فى سنة ٧٩٦ للشهداء(سنة ١٠٨٠ للميلاد). وقد كتب هذا(أبا قيروس) الدمنهورى بمشيئة الله التى أعانتنا على أن نجد هذه الأخبار فى دير القديس مقار بمساعدة الأخ تيودور الخازن بن بولس فى يوم الأحد السادس من شهر بؤونة من عام ٧٩٧ للشهداء الأكرمين. وقد قارنا الوثائق بعضها إلى بعض ووجدنا أنها تتفق مع ما لدينا من الصور فاقتنعنا بصحتها».

وهذا خبر يدل على دراسة المصادر الأصلية بعناية ودقة ومحاسبة للنفس ـ وفى استطاعتنا أن نرى مثل هذا السعى الدقيق متصلا إلى ما قبل هذا التاريخ بنحو أربعة قرون. فاننا نجد نبذة أخرى نعلم منها أن الحوادث التى وقعت إلى أيام خلقيدونية و«ديوسكوروس» (حوالى سنة ٤٥٠ للميلاد) كانت«تدوّن فى الجزء الثانى عشر من دواوين تاريخ الكنيسة» ثم إذا أردنا أن نطلع على تاريخ الحوادث من أيام (قيريل) إلى أيام الاسكندر«أمكن أن نجد ذلك فى كتاب المعلم الكاتب جورج كبير شماسى البطريك سيمون وكاتبه» (٦٨٩ ـ ٧٠١ للميلاد) وقد كتب ذلك الرجل كذلك تاريخه فى دير القديس مقار ـ ويقول الكاتب بعد ذلك «وعلى ذلك فأنا العبد المخطئ الذليل أرجوكم أن تدعو لى السيد المسيح أن يفك عقدة لسانى الضعيف وأن يشرح قلبى المظلم وأن يهبنى من البيان ما أستطيع به أن أبين لكم أيها الاخوان وأيها الأب ما سألتمونى بيانه. ولست أرجو أن أبين لكم شيئا أكون فيه معلما لكم أومر شدا أتعالى عليكم بل أكون فيه باحثا دارسا إذ قد رأيت بعينى ما كتبت وإن عظم الحوادث التى رأيتها تجعل من

واجبي أن أدونها ـ ذلك عدا ما سمعته ممن هم أكبر مني سنا من أصحابي الذين أثق في قولهم واعتمد على صدقهم. والسيد المسيح يعلم أننا لم نزد شيئا على الحقائق بل قد ذكرنا ما وقع إلى أيام وفاة الأب المرحوم تيودور بطريق الاسكندرية وما جرى من أمور الدول في أيامه إلى آخر الفصل السابع عشر من التاريخ الذى أتممناه آنفا» (أى إلى سنة ٧٤٣ للميلاد) ثم قال المؤرّخ«والآن فانا كاتبون الفصل الثامن عشر من تاريخ الكنيسة» ثم بعد بضعة أسطر من هذا تراه يعلق على عبارة من عباراته فيقول «إذ قد شهدنا بأعيننا مرار عدّة» ثم قال أيضا«وأقاموا ملكا اسمه كرياكوس (في بلاد النوبة) وبقى ملكا إلى الذى نكتب فيه هذا التاريخ» وفي هذا دليل على أن. الكاتب يكتب عن عصره في القرن الثامن من الميلاد وقد كان ذلك المؤرّخ كاتبا لموسى أسقف أوسيم بالقرب من الجيزة وهو يتكلم دائما عن نفسه في ذكر الحوادث فيقول مثلا «فذهبنا إلى القصر وكان معنا الأباتيودور أسقف مصر» إلى غير ذلك ويقتبس قطعة من مذكرات البطريق ميخائيل (في موضوع دير مينا بقرب مريوط) وقد أرسلت تلك المذكرات إلى كاتب عبد الملك. ونرى ذلك المؤرّخ من جهة أخرى يدافع عن نفسه لحذف بعض الحوادث بقوله «وقد ذكرنا هذه الأمور في كتاب تاريخ حياة(ميخائيل) وهو منفصل عن هذا التاريخ» ولكنه يذكر بعد ذلك حوادث تاريخية مثل موت مروان فيقول«وقد قتلوه ومثلوا به ونكسوا رأسه بعد أن أسروه وقد كنا من شهود هذا الحادث».

وفي القرن السابع كتب كاتب في ذلك التاريخ ترجمة حياة حنا الثالث(٦٧٧ ـ ٨٦ للميلاد) ووصف قصة رحلة حنا الأخيرة إلى الأسكندرية فقال«وكان كاتب هذا الخبر معه فانه كان ابنه في الله» ويمضى الكاتب بعد ذلك في ذكر تفاصيل دقيقة لا يستطيع أن يورد مثلها إلا كاتب من أهل العصر نفسه.

وبعد فانّ كثيرا من الأمور التي يشير إليها الكاتب في تاريخ ساويرس يمكن تحقيقها وقد ظهرت صحتها ظهورا جليا فمثلا جاء في أخبار سيمون الأوّل قوله «وفي يوم من أيام الأحد جاءت الأخبار إلى الأمير إن جيش الروم ثار بالملك جستنيان وعزله وولى مكان(ليونتيوس)» وقد كانت ولاية سيمون للبطركة من ٦٨٩ إلى ٧٠١ للميلاد أو هى إلى سنة ٧٠٠ للميلاد وكان عزل جستنيان الثاني في سنة ٦٩٥ ، ومثل آخر قوله: وكانت مملكة الروم في ذلك الحين تتخبط تخبط الصبية في لهوهم فان الروم بعد أن عزلوا ملكهم جستنيان جعلوا مكانه ليو

(ليونتيوس) ملكا عليهم ولكنه قتل قبل أن يتم السنة الثالثة من حكمه وولى بعده (أيماروس) ويسمى (تيبريوس) بعده ولى (فليبيكوس) وبعد سنتين ولى (أنستاسيوس) ملكا على الروم ولا يزال يلى الملك.[وقول الكاتب«ولا يزال يلى الملك» يقصد به الوقت الذى كان يكتب فيه تاريخه].

ونرى أنه يكفينا مثل آخر بعد هذه الأمثلة ـ وذلك عندما كان قرّة الظالم والى مصر ـ فقد جاء عنه أنه عسف عسفا شديدا وابتز أموالهم واستصفى أملاكهم الخاصة وأراضيهم وأرزاقهم وأوقافهم حتى صار الناس إلى الفقر المدقع قال الكاتب «فجعل الناس يهربون من مكان إلى آخر ولكن لم يعصمهم مكان منه» فان قرّة كان يرسل رسله وراء الهاربين. قال الكاتب عن هؤلاء الرسل إنهم كانوا يجمعون الهاربين من كل مكان ويرجعونهم إلى بلادهم مقيدين ويعاقبونهم. وهذه الأخبار كلها تذكر على أنها وقعت فى أيام بطرقة الاسكندر الثانى (٧٠٥ ـ ٣٠ للميلاد) وهذه الحقائق قد ثبتت بغير شك عندما كشفت ورقة اليونانية وتاريخها(٧٠٨ ـ ٧١٠ للميلاد). وهذا الاتفاق بين الخبرين دليل قوى على دقة كتاب «تاريخ البطاركة».

حقا إنه لا يمكن فى بعض الأحوال أن نعرف الكاتب الحقيقى لخبر من أخبار ذلك الديوان وسبب ذلك أن التراجم والوثائق الأخرى التى أدخلت فيه قد كتبها كتاب مختلفون فى مدّة حياة البطارقة المتعاقبين أو بعد موتهم بقليل. وعلى ذلك فان حكاية الكاتب عن نفسه يقصد بها أشخاص مختلفون فمثلا قال المصنف فى آخر ترجمة حياة ميخائيل الأوّل«وقد بقى البطريق على كرسى الكرازة ثلاثا وعشرين سنة ونصف سنة كما وجدنا ذلك فى مكتبة دير القدّيس مقاريوس إلى سنة ٧٦٨» ولا يمكن أن يكون هذا المصنف هو عين الكاتب الذى يذكر(أنستاسيوس) أنه صار أمبراطور الروم وأنه كان لا يزال على عرش الدولة إلى وقته مع أن هذا الكاتب لابد أن يكون هو الكاتب الذى علق على قوله«لا يزال» فالحقيقة أن النسخ المخطوطة التى كانت فى المكتبة كانت تنقل حرفا حرفا ولفظا لفظا عن أصحابها وهى ترجع إلى أقدم الأزمان وأكثرها كتب فى وقت حدوث الحوادث التى تصفها وهذه الحقيقة تجعل لتلك الوثائق أكبر قيمة. حقا إن تلك الدواوين لا تخلو من ذكر خوارق المألوف والمعجزات كما أنها لا تخلو من الأخطاء كما لا يخلو ديوان مؤرّخ عربى منها، ولكنا إذا استبعدنا من وثائق التاريخ القديم كل ما تشوبه الخرافات أو تتخلله الأخطاء وإذا نحن أغفلنا تلك الوثائق فلم

فلم نعتد بدلالتها لم يبق لنا إلا القليل فى أى باب من أبواب التاريخ ـ وانا نقول إجمالا غير وجلين ولا موارين إن أخبار دواوين تراجم البطارقة صادقة فى جملتها فيما تنص عليه من أخبار التاريخ وقد ثبت ذلك وخلص من كل شك.

وقد تمسك المؤرخ(لين بول) بكلمة خيل إليه أن ساويرس قالها وهي اعتراف بعدم معرفة اللغة اليونانية أو القبطية. حقا لقد حدث هذا الاعتراف وصاحبه هو كاتب المقدّمة الثالثة للكتاب ولكن قام الدليل القوى على أن اسم ساويرس قد ألصقه الناسخ خطأ بتلك المقدّمة ولم يكن في الإمكان أن يكون ساويرس كاتبها. فاذا نحن فحصنا الأمر لم نجد إلا تبريرا ضعيفا ـ أو لعلنا لا نجد تبريرا لقول من يقول إن ساويرس لم يعرف اللغة اليونانية ولا اللغة القبطية واذا أمعنا النظر وجدنا كل ما يدل على أن تاريخه كان تصنيفا بالغا مبلغا عظيما من الدقة قائما على أساس من الوثائق الصحيحة. فمن الخطأ على ذلك أن نجرح دلالته. وفى الحق انا لا نعلم أن مؤرّخا واحدا من المؤرّخين العرب يمكن أن نظهر أن تاريخه يعدل كتاب ساويرس فى أنه قائم على سلسلة غير منقطعة من الأخبار المدونة التى كتب أكثرها كتاب عاشوا فى عصرها فان المؤرّخين العرب يروون أخبارا عدّة عن العصور القديمة ولكنهم قلما ينقلون عن الوثائق الأصلية نصوصها أو يسندون أخبارهم إليها. ومعنى هذا القول أن التاريخ القبطى قائم على أساس أقرب إلى العلم وأمتن فى الدلالة، ألا وهو أساس الوثائق المخطوطة.

وبعد فان ماذكرناه آنفا يدل على أن لكتاب ساويرس قيمة عظيمة بين مصادر التاريخ وعلى أن قوله فى المقوقس وشخصيته لا يجوز أن يغفل بغير روية ولا فحص.

فلنمض الآن إلى قول ساويرس أو بقول أدق لنمض إلى قول المؤرّخ الذى ترجم حياة بنيامين لنرى ما فيه. قال:

«فلما ملك الأرض (هرقل) اقام الولاه فى كل موضع وانفذ واليا إلى أرض مصر يدعى المقوقس ليكون بطركا ووالى معا، فلما وصل الى اسكندريه اعلم الاب بنيامين ملاك الرب به وامره ان يهرب... واقام مختفيا هناك فى دير صغير فى البريه إلى كمال العشر سنين» انظر ص ٥٦٩ وبعدها قال المؤرّخ «وهى السنين التى كان فيها هرقل والمقوقس مسلطين على ديار مصر» ثم قال بعد ذلك عن قيرس إنه «حاكم الاسكندرية الكافر الذى كان بطريقا وحاكما

من قبل الروم» وهذا القول يؤكد أن قيرس كان هو المقوقس تأكيد لا إبهام فيه وقد بينا أن هذا يتفق كل الاتفاق مع ما جاء فى النسخة العربية من تقويم القديسين إذ جاء فيها «كان المقوقس كبير المذهب الخلقيدونى وقد جعل حاكما على مصر وبطريقا لها» كما أنه يتفق مع النسخة الأتيوبية من ذلك التقويم إذ جاء فيها«المقوقس أى الحاكم والبطريق فى الإسكندرية وفى جميع بلاد مصر» وقد أظهرنا كذلك الاتفاق التام مع ما جاء فى الوثائق المخطوطة (البودلية) وهى مما تخلف عن ذلك العصر وفيها نص على أن المقوقس كان يجمع الرئاستين رئاسة الدين ورئاسة جباية الأموال فى مصر كما أننا أظهرنا أن وثيقة مخطوطة سريانية تختلف عن زمن قريب من ذلك العصر وهى الديوان المجهول الكاتب (chrouicon Anouymum) قد جاء فيها أن بطريق الإسكندرية هو الذى دافع العرب عن مصر فى حين أن ابن عبد الحكم يصف عامل هرقل على مصر بأنه كان يجمع سلطة الحرب الكاملة وسلطة جباية الأموال ويسميه بالمقوقس.

وقول مؤرّخى اليونان يوصلنا إلى النتيجة نفسها فان نيقفوروس يذكر أن هرقل أرسل (ماريانوس) إلى الاسكندرية ليشترك مع قيرس بطريق الاسكندرية فى الاستقرار على خطة يسيران عليها مع العرب ثم يقول فى موضع آخر إن قيرس كان أسقف الاسكندرية.

وتيوفانز أصرح قولا إذ يقول «ولما مات جورج (البطريق الملكانى أو الخلقيدونى) أرسل قيرس ليكون أسقف الإسكندرية بعده» ولما ذكر العرب قال«فغزوا مصر واتهم قيرس بأنه سلم ذهب مصر إلى العرب فأرسل إليه الأمبراطور رسالة شديدة يأمره فيها أن يعود من مصر».

فالحقائق التى يدل عليها قول هذين المؤرّخين هى أوّلا أنهما متفقان على أن قيرس كان بطريق الاسكندرية ويقول نيقفوروس إن(مريانوس) كان قائدا حربيا أرسله هرقل وأمره أن يشترك مع قيرس فى الاحتيال فى أمر العرب خاصة، وهذه عبارة تدل على أن قيرس كان له أمر الدنيا، كما كان له أمر الدين فى مصر، فى حين أن تيوفانز يقول إن قيرس عند ما رضى بدفع الجزية للعرب غضب عليه هرقل وأمره بالعودة من مصر، وهذه العبارة كذلك تدل على أن قيرس كان له أمر الدنيا إذ كان نائبا عن هرقل ولا شك أن تيوفانز يعنى بقوله هذا معاهدة مصر التى رضى بها قيرس ثم ردّها هرقل غاضبا.

وما أقرب الصلة بين قول هذين المؤرخين اليونانيين وبين قول مؤرخي العرب اللهم إلا في أمر واحد وهو أن العرب يذكرون اسم المقوقس في المواضع التي يذكر فيها اليونان اسم قيرس فان مؤرخي العرب متفقون على أن الذى صالح عمرا هو المقوقس وأن ذلك الصلح كان مشروطا فيه الرجوع إلى هرقل لموافقته وأن هرقل غضب وردّه حانقا ـ حقا إن العرب لا يذكرون أن هرقل أمر المقوقس بالعودة من مصر، ولكن المؤرخ الذى كان قريبا من ذلك العصر وهو حنا النقيوسى ذكر أن قيرس أمره هرقل بالعودة والخروج من مصر.

بقي علينا أن نذكر باختصار ما قاله مؤرخان مسيحيان وهما أبو صالح وسعيد بن البطريق (أوتيكيوس) فقد قال أبو صالح إن المقوقس ولاه هرقل على مصر وقال كذلك إن السنوات العشر التى كان فيها البطريق بنيامين طريدا فى منفاه كانت السنوات التى حكم فيها المقوقس مصر. ولسنا ننكر أن أبا صالح يقول إن اسم المقوقس هو جورج بن مينا ولا ننكر أن سواه من المؤرّخين يذكرون له أسماء أخرى، ولكن حسبنا أن نقول إنه لم يورد أحد من المؤرّخين الأوّلين إسما ما لحامل ذلك اللقب المقوقس فاذا جاء ذكر اسم له بعد موت المقوقس بخمسة قرون أو ستة لم يكن ذلك دليلا يقاوم الأدلة المتراصة المتراكمة التى تدل على أن المقوقس هو قيرس، وعلى ذلك يمكن أن نقول إن أبا صالح الأرمنى يتفق مع مؤرّخي القبط واليونان والمصريين فى ذكر العمل الذى كان يعمله المقوقس ويتفق مع ساويرس فى أن المقوقس كان المضطهد الخلقيدونى الذى اضطهد القبط وطرد بنيامين إلى منفاه.

وأما سعيد بن البطريق (سنة ٨٧٦ ـ ٩٣٩) فقد كتب قبل أبى صالح بنحو ثلاثة قرون ويجب أن نذكر أنه لم يكن خلقيدونياً فحسب، بل قد كان بطريقا ملكانيا لمصر وهو يقول«وبعد هرب جورج صار قيرس بطريق الاسكندرية وكان مارونيا على مذهب هرقل» وقال فى موضع آخر«وكان العامل على الخراج بمصر المقوقس من قبل هركل الملك» ثم قال«وكان يعقوبيا (أى قبطيا) يكره الروم ولكنه كان يخشى أن يظهر عقيدته اليعقوبية خوفا من أن يقتله الروم».

ولا شك فى أن ذلك المؤرّخ الذى كان بطريقا ملكانيا كان شديد الحرص على أن يزيل عن قيرس معرّة تسليم مصر إلى العرب فاضطره ذلك إلى أن يتورّط فى أقوال عجيبة، فلما قال إن قيرس جاء إلى مصر عند تولية هرقل ليكون بطريقا للاسكندرية، قال فى نفس

الصفحة إنه لم يول بطريق ملكانى للاسكندرية لمدّة سبع وتسعين سنة بعد هرب جورج وهذا قلب جرئ ومسخ لحقائق التاريخ فالظاهر من هذا أن ابن البطريق لا يرضى بأن يسلم بأن قيرس كان بطريقا ملكانيا وهو فى الوقت عينه يتهم المقوقس بأنه كان قبطيا يخفى عقيدته فى قلبه وهذه التهمة اعتراف منه بأن المقوقس كان ملكانيا فى ظاهره ـ حقا إن ابن البطريق لا يقول صراحة إن قيرس كان المقوقس ولكن هذا الاتفاق فى قوله ذو دلالة عظمى ـ ولقد قال إن المقوقس كان العامل على الخراج من قبل هرقل فهو بذلك يتفق مع ابن عبد الحكم ومع الوثائق القبطية(البودلية) وابن البطريق مثل سائر مؤرّخى العرب يذكر أن المقوقس كان حاضرا فى حصن بابليون عند الحصار ثم خرج منه إلى الروضة لمفاوضه عمرو وأنه صالح عمرا بعد ذلك على معاهدة مصر ولكنا نرى أن ابن البطريق لم يذكر أن قيرس هو المقوقس لأنه كان يجهل ذلك الأمر لا لأنه كان يقصد التضليل والتدليس ولقد ظهر جهله بذلك الأمر فى موضع آخر إذ قال إن المقوقس كان حيا فى وقت ثورة منويل.

إلى هنا بينا ما هنالك من أدلة بينها اتفاق عجيب فى بعض الأحايين واختلاف واسع فى أحايين أخرى وقد استمددنا تلك الأدلة من وثائقها الأصلية ومنها ما تخلف عن العصر الذى نصفه وهى من أصول متباينة: منها اليونانى والقبطى والسريانى والعربى، وكلها تدل على أن المقوقس إنما هو قيرس بطريق الاسكندرية والعامل على الخراج والحاكم العام على مصر فى وقت الفتح. وليس ينقض هذا الرأى أن يقول قائل إن مؤرّخى العرب قد يطلقون لقب المقوقس أحيانا على شخص يسمونه ليس هو قيرس، ولسنا ننكر أن الأمر كذلك ولكنا نكرر كل الانكار تلك النتيجة التى يذهب إليها أصحاب ذلك القول وهى أن لقب المقوقس لم يكن علما على شخص معين واحد وحجتهم فى ذلك أنه قد أطلق خطأ فى بعض الأحوال على أشخاص متعدّدين.

بحث تاريخى عن المقوقس

بقلم الأستاذ كامل بك صالح نخله

أطلق مؤرخو العرب والقبط اسم المقوقس على الوالى الذى كان له اعظم نصيب فى حوادث الفتح العربى وكان العامل القوى على تسليم مصر اليهم.

واختلف العرب على حقيقة شخص المقوقس واسمه وجنسه وخلطوا فى ذلك بأن لقبوه بعظيم القبط ودعوه باسم المقوقس جريج بن مينا.

ولم يكن المقوقس قبطيا كما توهم مؤرخو العرب ومن جاراهم من الغربيين بل انه رومى الجنس وهو قيرش Cyrus اسقف فاسيس بارمينيا من بلاد القوقاس بآسيا. وقع اختيار الامبراطور هيرقل عليه لمهمة توحيد المذاهب الدينية المسيحية فى مملكته وعلى الاخص فى مصر وسائر المشرق فعينه بطريركا ملكيا للكرسى الاسكندرى بدل البطريرك جورج الملكى وولاه جباية الخراج فى الوقت ذاته واصبح يجمع بين يديه السلطتين الدينية والمدنية فى مصر.

ولم يكن فى ذلك بدعة جديدة بل كانت له سابقة معروفة حدثت فى القرن السادس عندما عرض الامبراطور على البابا الارثوذكسى تيودسيوس الاول البطريرك ٣٣ ان يكون بطريركا على الكرسى الاسكندرى وحاكما على مصر معا إذا هو قبل طمس لاون واعتنق مذهبه الدينى الخلقدونى وقد رفض هذا العرض (تاريخ البطاركة) فليس مستغربا ان يمنح هيرقل الرياستين الدينية والمدنية الى شخص قيرش البطريرك الخلقدونى

هذا ولم يحصل قط فى عهد حكم الرومان والروم البيزانطيين ان تقلد ولاية الحكم فى مصر منذ اغسطس قيصر الى وقت هيرقل وال قبطى اى مصرى الاصل.

ولبثت حقيقة مسألة واسم المقوقس ومنصبه وجنسيته زمنا طويلا غامضة ومعضلة عسرة الحل الا انه امكن الوصول الى حلها بالرجوع الى كتاب التاريخ المحققين المعاصرين لهذا المقوقس والذين دونوا حوادث الفتح العربى واظهروا شخصية المقوقس وجنسيته بكل وضوح فى كتبهم سواء كانت بالقبطية الصعيدية أو البحيرية أو العربية وأيدهم علماء التاريخ الاوربيين وغيرهم.

(١)المصادر القبطية

ولنبدأ بذكر المصادر القبطية التى هى أقدم عهداً من سائر المصادر الاخرى وأصحها.

أولا ـ تاريخ حياة القديس انبا شنوده رئيس المتوحدين الذى نشره العلامة اميلنو عن اصل قبطى كتب فى القرن السابع (طبعة باريس سنة ١٨٨٨ صفحة ٣٤٠) جاء فيه الخبر الآتى فى شكل نبوة وهو : ـ

«ثم سيظهر المسيح الدجال يمثل بين يدى ملك الروم فيجمع له ولاية الدين والدنيا وسيجئ الى مصر ويناصب فيها كبير الاساقفة بالاسكندرية العداء وسيهرب منه هذا الى أرض تيمان» وهذا بلا شك وصف دقيق لقيرش وما كان منه من معاملة البابا بنيامين.

ثانيا ـ تاريخ الانبا صموئيل القلمونى رئيس دير القلمون المكتوب فى الجيل السابع الميلادى المعروفة بالوثيقة البودلية

(١) جاء باللغة القبطية باللهجة الصعيدية شذرة من تاريخ انبا صموئيل القلمونى وما جرى له مع المقوقس نقتطف منها الشواهد الآتية (نقلا عن المجلة الاسيوية عدد نوفمبر ـ ديسمبر سنة ١٨٨٨)

(ص٣٦٥) وترجمته: «واما من جهة المقوقس البطريرك الكاذب فانه صار حاقدا لحين وصوله لمدنية الفيوم».

ص ٣٦٧ وترجمتها «لانك لم تكرمنى بصفة كونى بطركا ولم تراعنى أيضا أنا وسلطانى بصفة كونى عاملا على خراج كورة مصر».

(٢) جاء أيضا فى النسخة العربية لتاريخ صموئيل القلمونى الشذرات الآتية ـ

(أ) «فى ذلك» الزمان ظهر رجل يعرف بالمقوقس يقول بأمانة لاون مجمع خلقيدونية وتولى على الديار المصرية من قبل هرقل الروم وكان على الخراجات والثغور بالديار المصرية فابتدأ يضطهد الارثوذ كسيين فى كل مكان ويكلفهم الاعتراف بأمانته. وطلب ابانا البطريرك انبا بنيامين ليقتله ويجلس موضعه على كرسى البطريركية فهرب إلى صعيد مصر وستره الله

وخلص من يديه. ثم بعد ذلك جلس المقوقس على الكرسى الرسولى وأخرج الطومار الذى للاون المخالف فقرأه على الشعب وأمرهم باجابته وقبوله. ووجه جنديا قاضيا وبصحبته سياف إلى جبل شيهات وعلى يده ذلك الطومار النجس الذى لخلقدونيه وأمره أن يكلف الشيوخ الذين بشيهات أن يعترفوا به من كبيرهم إلى صغيرهم لأن جميع الكورة المصرية تابعة لأولئك الشيوخ وأوصاه قائلا: «أطلب باجتهاد وفى قلالى الرهبان والأماكن المقفرة الشيوخ لعلك تجد رئيس هذا الشعب المدعو بنيامين وارسله لأنتقم منه فما دام هو حيا لاتثبت لى رياسة البطريركية بالكورة المصرية. هكذا وصل ذلك الجندى إلى الجبل المقدس بفنطسة عظيمة ومعه مئتا جندى وجلس فى الكنيسة العظيمة التى للقديس مكاريوس وأمر أن يجتمع الرهبان من كبيرهم الى صغيرهم ثم سأل عن الايغومانس بجبل شيهات المدعو الانبا يوحنا فلم يجده...».

(ب) «واذا بقيرش المقوقس قد اقبل مصعدا من كورة مصر فى طلب البطريرك بنيامين». وجاء ذكر ذلك عندما سكن صمونيل دير القلمون فى الفيوم كما جاء فيه أيضا-

(جـ) «وأما المقوقس المدعي البطركية فقد اضمر الغش فى قلبه الى مدينة الفيوم وسير للوقت غلمانا ومجندين ليأتوه بالقديس انبا صمويل وهو مربوط اليدين الى خلف وفى عنقه سلسلة ينقاد كمثل اللص فمضوا الى الدير وأتوا به فكان يتمشى متهللا بفرح قائلا: لعل أن يكون فى هذا اليوم سفك دمى على اسم المسيح ومن أجل ذلك يكتب المقوقس علانية لعله أن يظفر بما قد أضمر فى نفسه» وهكذا أقامه الجند قدام المقوقس فلما رأى ذلك الكافر رجل الله امتلأ غضبا وأمر الجند بضربه الى أن يسيل دمه على الأرض وكان يقول له: «أنت صمويل المدعى النسك. من الذى أقامك مدبرا على الأديرة ومن أمرك أن تعلم الرهبان أن يبتعدوا عنى وعن أمانتى؟ » فقال له القديس: جيدا أن نطيع الله وقديسيه البطاركة وما نطيعك وتعليمك الشيطانى. يا ابن الشيطان والمسيخ الدجال المضل. فلما سمع القديس يقول هذا أمر أن يضرب على فيه قائلا: «يا صمويل ان المجد الباطل الذى يمجدك به الناس أفسد عقلك ولكن ساؤدبك وأعلمك أن تتكلم حسنا لأنك لم تمجدنى كبطرك ولم تكرمنى لسلطانى وكونى رئيسا على الخراجات والثغور بكورة مصر».

ثانيا: ديوان لا يعرف كاتبه وهو عبارة عن وثيقة سريانية متخلفة من القرن السابع جاء فيها أن قيرش كان صاحب السلطة الحربية في مصر وأنه هو الذى دافع العرب عن مصر.

ثالثا: كتب البابا أغاتون البطريرك (٣٩) (من سنة ٦٦٢ ـ ٦٨٠م) يصف ما جرى للبابا بنيامين البطريرك (٣٨) سلفه عندما دعي لتكريس هيكل بنيامين ببيعة القديس مكاريوس المستجدة ببرية شيهات باللغة القبطية جاء فيها العبارة الآتية: وهذه ترجمتها العربية: ودعوت القس أغاتو الذى لى الذى تألم معى على الايمان في زمن البحرية لما كان قيرش المقوقس يطاردني عدو جميع الخيرات. (القبط تأليف جرجس فيلوتاوس ص ٢٣).

رابعا: كتب ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين من علماء القرن العاشر والذى كان معاصرا للبابا ابرآم بن زرعه البطريرك (٦٨) (من سنة ٩٧٥ ـ ٩٧٨م) في كتاب تاريخ البطاركة باللغة العربية في سيرة البابا بنيامين.

(١) «ثم أن هرقل مقدم البطاركة من قبل فوقا الملك الكافر أخذ المملكة وصرف اهتمامه لقتال الفرس وبنعمة السيد المسيح سار اليهم فقتل كسرى ملكهم الكافر وأخرب مدينته وجعلها بربة وحمل نعمتها وسبيها بفرح الى القسطنطينية فلما ملك الارض أقام الولاة في كل موضع وانفذ واليا الى أرض مصر يدعى قيرس ليكون بطركا وواليا معا فلما وصل الى الاسكندرية أعلم الاب بنيامين ملاك الرب به وأمره أن يهرب» (كتاب مخطوط ١٣ تاريخ بالدار البطريركية ص ٨٨ VR) انظر كذلك ص٥٦٩من متن ساويرس.

(٢) «كمال العشر سنين كما قال له ملاك الرب وهي السنين التى كان فيها هيرقل والمقوقس مسلطين على ديار مصر» (V٨٩) انظر ص٥٧١ من متن ساويرس.

(٣) «انه حاكم الاسكندرية الكافر الذى كان بطريركا وحاكما من قبل الروم» (V٩٠).

(٤) «وأذكنا بالغداة اليوم الثامن من طوبه فقلت ايتونى بالقس أغاتون الذى تعب معى على الامانة في زمان الشدايد التى لحقتنى عند مطاردة المقوقس عدو الحق لضعفى» (R٩٦). انظر ص٦٠٩من متن ساويرس.

خامسا: جاء في السنكسار القبطي باللغة العربية المطبوع في باريس عن عدة نسخ خطية من الجيلين الرابع عشر والخامس عشر في تذكار اليوم الثامن من شهر طوبه ما يأتي:ـ

(١) «في هذا اليوم كان تكريز الاسكنا المقدس بدير أبى مقار على يد الاب الطاهر بنيامين

الطاهر بطريرك الاسكندرية وهذا بعدما حل به شدايد من المقوقس وكيف كان هاربا منه فى الصعيد الى كمال عشر سنين وملكوا المسلمين فأما المقرقز فمص خاتماً مسموماً ومات وكان على أمانة خلقدونية وكانوا قد جعلوه وزيراً وبطريركا على بلاد مصر».

(٢) «وفيه ايضا كانت نياحة الأب القديس بنيامين البطريرك... ولما انتخب للبطريركية جرت عليه هو وبقية الأساقفة فقدس الأب وقرب الشعب ووصاهم واعلمهم بما سيكون ثم ارسل كتباً إلى ساير الاساقفة ورؤساء الديارة بأن يهربوا ثم مضى إلى ديارة ابو مقار ثم منها الى الصعيد وبعد خروجه من المدينة وصل والى وبطرك من قبل هرقل فتسلط على البيع وعلى المؤمنين وعاقب كثيراً منهم ومسك اخا القديس بنيامين وعاقبه وكان اسمه مينا واحرق جنبيه ثم غرقه أخيراً.

سادسا: جاء في السنكسار الاثيوبى: «المقوقس اى الحاكم والبطريك فى الاسكندرية وفى جميع بلاد مصر» ص ١٧٣ اصل وص ١٨٠ ترجمة.

سابعاً: ان تاريخ يوحنا النقيوس وهو من علماء واساقفة القبط فى أو اخر الجيل السابع للميلاد يؤيد بكل يقين ان قيرش البطريرك الملكى كان واليا على مصر لأنه كان متوليا كل شؤون الدولة مدنيا ودينيا فهو الذى كان يدير حركة مقاومة الغزو العربى وهو الذى تولى جميع مفاوضات الهدنة والصلح والتسليم وهو الذى كان آلة الامبراطور هيرقل فى اضطهاد اتباع مذهب المستقيمى الرأى وهو الذى كان اكبر محرض عليه (صفحة ٥٦٢ فصل ١١٧ وصفحة ٥٨٤ فصل ١٢١).

ثامنا: جاء فى جداول مقتطفة من تواريخ البطاركة وغيرها من كتب خطية قديمة العهد ما يأيتى: (وكان المقوقز جريج بن مينا الهيراطيقى نايب هرقل بالديار المصرية).

تاسعا: جاء فى كتاب تاريخ ابن الراهب من علماء القرن الثالث عشر الميلادى ما يأتى:-

(وقتل هرقل فوقا (الملك) وأخذ الملكة وصرف اهتمامه لقتال الفرس واخرب بلادهم وملك مصر وولى عليها قيرش وجعله بطركا وواليا) (ص ٧٢٢٢ من كتاب التواريخ المخطوط).

عاشراً: جاء فى الكتاب المنسوب الى ابى صالح الارمنى المكتوب حوالى سنة ١٢٠٠م

الذى طبعه العلامه افتس باكسفورد سنة ١٨٩٤ ما يأتي في صفحة ٣٨ (ان محمدا بعث حاطب بن ابى بلتعه من لخم الى المقوقس صاحب الاسكندرية) وجاء ايضا في صفحة ١٠١ (ان هرقل استعمل على مصر جريج بن مينا المقوقس) ثم ذكر احد أديرة الصعيد دون تعيين اسمه وقال: (ان بنيامين اختفى هناك في حكم الامبراطور الرومانى هرقل الخلقيدوني وحين كان جريج بن مينا حاكما على مصر حتى تمت مدة السنوات العشر وكان ذلك هربا منهما كما انذره الملاك).

نقل ابو صالح من كتاب الجناح ان اسقف الروم في مصر والاسكندرية كان قيرش (صفحة ٢٨).

حادى عشر: جاء في تاريخ البطاركة لانبا يوساب اسقف فوة في سيرة البابا بنيامين: «ثم قام هرقل أول البطارقة قتل فوقا ملك الروم وتقدم الى الفرس وسبى أصحابه وارسل الى أرض مصر واحداً يقال له المقوقز وزير وبطرك فهرب منه بنيامين الى الصعيد وألى وادى هب، ص ٧٤٠.

(النتيجة) يتضح جلياً من الادلة المتقدم ذكرها ان المقوقس كان يقول عن نفسه في قصة القديس صموئيل انه كان بطريركا وواليا في آن واحد جامعا بين يديه السلطتين الدينية والمدينة، ومن اقوال ساويرس بن المقفع والاستشهادات الاخرى الصريحة ان قيرش هو المقوقس وانه لم يكن قبطيا بل روميا وانه كان له السلطان في امر الدين وامر الدنيا من قبل الامبراطور هرقل كما دلت عليه الحقائق التاريخية لهذا العصر والتى لم يختلف فيها مؤرخو القبط وان الفتح العربى تم على يديه وانه كان العامل على تسليم البلاد اليهم.

وقد أثبت يوحنا النقيوسى في تاريخه بالدليل القاطع ان الذى سلم مصر هو قيرش أما ما رواه ابن المسكين فليس حقيقيا اذ لم يحدث صلح بين العرب وعظماء القبط بل كان الصلح بين العرب والروم مباشرة وعلاوة على ذلك فانه مؤرخ متأخر وليس لتاريخه قيمة ما لأنه استقى الاخبار والحوادث من تأليف العرب وخصوصا من الطبرى الذى اختصر تاريخه.

وقد افرد العلامه جرجس فيلوثاوس عوض في كتابه (القبط) باباً للمقوقس اثبت فيه انه لم يكن قبطيا بل اجنبيا وانه هو نفس قيرش البطريرك الملكى الذى سلم البلاد للعرب وهو رومى الجنس جمع بين يديه الرئاسة الدينية وولاية الحكم.

هذه هى ادلة المؤرخين القبط الدامغة وحججهم الصريحة التى لا تحتاج الى تأويل أو تفسير.

(٢) المصادر الاسلامية

ولنذكر الآن ما جاء في كتب اشهر مؤرخى المسلمين نقلا عن كتاب الفتح العربى تأليف العلامه بتلر ص ٥١٧.

اولا ـ البلاذرى من رجال النصف الاول من الجيل التاسع للبلاد يذكر المقوقس ويقول انه صالح عمرا وانه كان قائدا فى الاسكندرية مدة حصار العرب لها ثم يذكر انه فاوض عمرا في تسليم المدينة وانه كان في جانب القبط بعد ان ابى هرقل اقرار صلحه ويذكر عند ثورة منويل ان بعض الرواة يذهبون انه ساعد العرب والبعض الآخر انه مات قبل ذلك ويتضح ان قوله فى المقوقس لم يكن دقيقا الدقة اللازمة فى تدوين الحوادث التاريخية الخاصة بالفتح العربى ـ ص ٥٠٧.

ثانيا – اليعقوبى من رجال النصف الاخير من الجيل التاسع للميلاد وهو لم يكن مصريا وذكر ان المقوقس صالح عمرا وان هرقل رفض الصلح ـ ص ٥٠٧.

ثالثا ـ الطبرى من رجال القرنين التاسع والعاشر ميز بين حاكم الاسكندرية وحاكم منفيس ويذكر ان الاخير كان المقوقس وانه كان عظيم القبط وانه ارسل الى منفيس جيشاً تحت قيادة الجاثليق الذى كان كبير أساقفة النصارى واسمه ابن مريم ص ٥٠٧.

رابعا ـ ياقوت من رجال القرن الثانى عشر يذكر ان حصن بابيلون كان حاكمه المندفور الذى اسمه الاعيرج نايبا عن المقوقس ابن قرقب اليونانى الذى كان يقيم فى الاسكندرية ويذكر ان المقوقس هو صاحب الصلح الذى عقد باسم القبط والروم وانه صالح على شرط ان ينفذ بالعهد الى الامبراطور ليقره. وهذا المؤرخ يعتبر المقوقس حاكما على مصر (٥٠٨).

خامساً ـ ابن الأثير من رجال القرن الثانى عشر: يذكر أبا مريم وأبا مريام وأن الأول كان جاثليق منفيس وأن الثانى كان أسقفا وأن المقوقس أرسلهما ليقاتلا عمرا ولكنهما فاوضاه وصالحاه على شروط رفضها المقوقس وأن المقوقس كان يقود الجيش بنفسه فى موقعة عين

شمس ثم ذكره بعد ذلك أنه حاكم الاسكندرية فى وقت الحصار وأنه صالح عمرا وكان حيا عند ثورة منويل.

ويظهر أن هذا المؤرخ كان يخلط بين الأسقف ورئيس الأساقفة والجاثليق (ص٥٠٧).

سادسا: ابن خلدون من رجال القرن الرابع عشر: يتبع ابن الاثير فى روايته غير أنه جعل المقوقس قبطيا.

سابعا ـ المقريزى من رجال القرن الرابع عشر: يروى عن يزيد بن ابى حبيب عبارة أن المقوقس الرومى كان واليا على مصر وصالح عمرا ويروى عن ابن عبدالحكم خبر حياة المقوقس في ثورة منويل وابن الحكم هذا هو مؤرخ قديم مات سنة ٨٧٠ ميلادية.

ويتفق المقريزى مع ياقوت فى ذكر الاعيرج وفى أن المقوقس بن قرقب أو فرقت كان يونانيا ويذكر أن القبط كان لهم فى الاسكندرية أسقف اسمه أبو ميامن وأن المقوقس صالح العرب على أن هرقل لم يقر صلحه وعنفه. وذكر قيرش فقال ان هرقل أقام قيرش بطرك الاسكندرية (ص٥٠٨).

ثامنا ـ ابن دقماق من رجال القرن الرابع عشر يذكر المقوقس الرومى الذى كان ملك مصر وصالح عمرا (ص ٥٠٨).

تاسعا ـ أبو المحاسن من رجال القرن الخامس عشر يذكر بنيامين أسقف الاسكندرية ويقول أن قائد قصر الشمع كان الاغيرج (بالغين) وكان تحت أمر المقوقس وذكر أن اسم المقوقس جريج ابن مينا وذكر كذلك أن قائد الحصن كان المندوفور المسمى الاغيرج من قبل المقوقس بن قرقب اليونانى. وروى عن ابن كثير أن المسلمين عندما دخلوا مصر قابلهم أبو مريم جاثليق مصر وأبو مرتام الاسقف ثم ذكرهما عند بناء الفسطاط (ص ٥٠٨ و ٥٠٩).

عاشرا - السيوطى من رجال القرن الخامس يتفق مع أبى المحاسن فى رواياته ص ٥٠٩.

النتيجة

يظهر جليا من أقوال كبار مؤرخى العرب المسلمين هذه أنهم كانوا فى حيرة عظيمة وأن اختلافاتهم كثيرة إذ ليس لديهم عن هذا الحادث سوى معلومات غير وثيقة ولكنهم ذكروا

المقوقس ولقبوه بعظيم القبط أو أمير القبط ولم يذكروا أنه كان قبطيا وأنه لم يكن من القبط إلا أن البعض منهم ذكر أنه كان يونانيا وكان واليا من قبل هرقل وأنه عقد الصلح مع العرب وأن هرقل لم يقر صلحه ودعاه العرب في الجيل الثاني عشر بجريج بن قرقب وذهب بعضهم إلى أن قرقب تحريف لابن قرقر كما رواه أبو صالح الارمنى ولم يعرف المقوقس باسم جريج بن مينا إلا في أوائل الجيل الثالث عشر للميلاد.

وأن جريج ربما كان محرفا عن قيرش بقلب القاف جيما وقلب الشين جيما معطشة وكذا لقب المقوقس أو المقوقز قد يكون نسبة إلى القوقاز أو القوقاس التى كان أسقفا عليها قبل توليه بطركية الاسكندرية.

وقد يكون اسم جريج خلطا بين اسمه واسم جورج قائد حامية حصن بابيلون الذى حرف العرب اسمه باسم أعيرج.

وقد ذهب بعض المحققين أن جريج مشتق من جريجوريوس أو غريغوريوس أو كركور وهو اسم أرمنى ومنها أتى لقب ابن قرقر وأن اسم والده جريجوريوس فيكون قيرش بن جريجور وجريجور بن مينا.

وقد أجمع مؤرخو العرب على تعيين العمل الذى كان يعمله المقوقس ولكنهم لم يتفقوا على الاسم الذى كان يسمى به ولا على تعيين جنسيته.

أما معنى كلمة المقوقس فأصعب وأعسر من ذلك وقد قال بتلر أن هذه الكلمة كتبت فى النصوص القبطية «ابقفقيوس» وفى اليونانية (قفقاسيوس) أى القوقازى لأن موطن قيرش وأصله كان من أهم مواضيع التساؤل بين آل الاسكندرية الذين اعتادوا الفضول والاهتمام بمثل هذه الامور وكان الجواب على تساؤلهم (قفقاسيوس) وذلك لأن هرقل نقل قيرش من مركز الرئاسة الدينية فى فاسيس ببلاد القوقاز ونشأ من هذه الكلمة الاسم العربى المقوقس.

أما ابن مريم وابن مرتام فهما اسمان لا سقفى منف وبابيلون الملكيين. أما أبو الميامن فهو اسم للبطريرك الارثوذكسى بنيامين.

(٣) مصادر العرب المسيحيين

ولنذكر الآن ما دونه مؤرخو العرب المسيحيون (غير القبط).

أولا ـ سعيد بن بطريق وهو سورى الاصل ويعرف باسم البطريرك افتيخوس الملكى الاسكندرى المولود ٨٧٦م يذكر فى تاريخه المطبوع أن المقوقس كان عاملا على الاموال فى مصر لهرقل وأنه كان يعقوبيا فى الباطن ولكنه كان فى الظاهر ملكيا وأنه منع الجزية التى كان عليه أن يرسلها للامبراطور هرقل منذ حصار الفرس للقسطنطينية ولم يذكر للمقوقس اسما وذكر أنه كان حيا إلى مابعد ثورة منويل وأن هرقل صير قيرش بطريركا على الاسكندرية وكان مارونيا وذكر أن البطريرك فاوض عمرو أثناء الاقتتال فى الاسكندرية ولم يذكر بعد ذلك شيئا عنه كما لم يذكره بالاسم (جزء ثانى ص ١٢ و ٢٢ و٢٣ و٢٤).

ثانيا ـ أبو الفرج بن ا لعبرى وهو سريانى الاصل من رجال الجيل الثالث عشر ولم يذكر شيئا عن المقوقس فى تاريخه.

النتيجة

قرر سعيد بن بطريق صراحة أن المقوقس كان عاملا على الخراج فى مصر من قبل هرقل وأنه اغتال أموال الدولة التى أؤ تمن عليها وانه كان من ذوى الاعتقاد بالطبيعتين فى الظاهر ولكن تحاشى الاعتراف بأن قيرش البطريرك الملكى هو نفس المقوقس حتى لا يلصق لمركز البطريركية الملكية الخيانة والغدر وهو من خلفائه على الكرسى من الملكين ورغم شدة حرصه فى كتابته فقد اعترف أن عمرو بن العاص مثل امام البطريرك وقت الاقتتال فى الاسكندرية فكيف يقابل القائد الأعلى البطريرك ولا يقابل الوالى فى المفاوضة إن لم يكن الاثنان واحداً وله عذر فى مراوغته لأنه يسعى فى كتابته كى يزيل عن قيرش تهمة تسليم مصر إلى العرب فاضطر كما قال العلامة بتلر إلى المراوغة والتورط فى أقوال عجيبة ويقلب كل حقائق التاريخ ويمسخ الوقائع الصحيحة التى تقرأ من بين سطور كتابته أن البطريرك والوالى شخص واحد.

(٤) مصادر اليونانيين

ولنذكر بعد ذلك ما قاله مؤرخو اليونان:

أولا ـ ذكر نيقوفوروس أن هرقل أرسل ما يانوس إلى الاسكندرية ليشترك مع قيرش بطريرك الاسكندرية الملكى فى الاستقرار على الخطة التى يتخذانها مع العرب ثم قال فى موضع آخر أن قيرش كان أسقف الاسكندرية.

ثانيا ـ ذكر تيوفانس أنه لما مات جورج أرسل قيرش ليكون أسقف الاسكندرية بعده وقال عن العرب أنهم غزوا مصر واتهم قيرش بأنه سلم ذهب مصر إلى العرب فأرسل اليه الامبراطور رسالة شديدة يأمره فيها أن يعود من مصر.

النتيجة

ويتضح من أقوال هذين المؤرخين أن قيرش بطريرك الاسكندرية الملكى وكانت له الكلمة فى الأمور المدنية والمالية والحربية بدليل اشتراكه مع مندوب القيصر فى تدبير أمور الدفاع وعقده للمعاهدة مع العرب وهى المعاهدة التى رفضها هرقل وتفريطه فى أمواله الدولة التى كان موكلا عليها وهذا يتفق كل الاتفاق مع الحقائق التى ذكرها مؤرخو القبط ويوضح ماغمض فى كلام ابن بطريق الذى سلم معهم أن البطريق كان يفاوض عمرو.

(٥)المصادر الافرنجية

(١) يزعم فون رنك Von Rank أن المقوقس كان حاكم مصر وأنه كان قبطيا وقد كان هذا العلامة يشك فى حقيقته التاريخية.

(٢) يذكر العلامة دو جوج De geoje أن مؤرخى العرب خلطوا فى بعض المواقع بين المقوقس وقيرش البطريرك الملكى وأنه كان شخصا آخر عمله غير عمل المقوقس.

(٣) ذهب الأستاذ كرابيسكKarabacek إلى أن اسم المقوقس هو جورج بن مينا برقيبوس وبهذا يفسر اسم فرقب أو قرقب الذى يسمى به بعض المؤرخين أبا المقوقس ورأى هذا الأستاذ أن المقوقس كان حاكما لأقليم وأن لقبه تحريف عربى للفظ اليونانى الذى كان لقبا تشريفيا.

(٤) وقال المستر ملن Milne أن المقوقس كان جورج حاكم الأقليم الشرقى الذى ذكره يوحنا النقيوسى.

(٥) ذهب الاستاذ استانلى بولStanley Pool إلى أن الاسم تحريف للقب اليونانى التشريفى ويتبع رأى الاستاذ ملن فى زعمه أنه كان حاكم الاقليم الشرقى وعدل أخيرا عن هذا الرأى بعدما اطلع على الابحاث الاخيرة التى بحثها العلامة بتلر واقتنع معه بأن المقوقس لم يكن حاكم الاقليم الشرقى بل انه هو نفس قيرش البطريرك الملكى.

(٦) سماه الاستاذ بورى الحاكم القبطى.

(٧) استنتج أميلينو Amelineau ما يأتى:

(أ) إن خبر ارسال النبى محمد كتابا إلى المقوقس فى عام ٦٢٧م غير حقيقى.

(ب) إن اسم المقوقس هو جورج بن مينا وأما اسم ابن قرقب فهو تسمية أخرى.

(جـ) أن أحد أبوى المقوقس كان قبطيا ان لم يكونا كليهما قبطين وأنه كان فى خدمة الامبراطور وأنه كان فى أول الامر على المذهب الملكى.

(د) انه كان بطريركا ملكيا ولكن تاريخ ولايته غير معروف إلا بالظن والحدس.

(هـ) ان اللفظ المقوقس كان لقبا مشتقا من لفظة أطلقت على اسم قطعة صغيرة من النقود البرنزية، وقد علق العلامة بتلر على هذا الاستنتاج بأن اميلينو اخطأ فيما ذهب اليه وأنه أخذ برأى بعض من سبقه من المؤرخين دون أن يفحصه فحص ناقد وأنه اضطر أن يعترف بأن المقوقس كان بطريركا ملكيا ولكنه لم يذكر أنه هو نفس قيرش ولم يرجع فى أبحاثه إلى ما كتبه ساويرس بن المقفع اسقف الاشمونين فى سير البطاركة ولا الى كتاب السنكسار.

(٨) استنتج العلامة بريره Periera ما يأتى:

(أ) ان صاحب الاضطهاد هو شخص عرف باسم المقوقس .

(ب) انه كان من أصل يونانى.

(جـ) انه كان بطريرك الاسكندرية وحاكم مصر ومراقب الاموال.

(د) ان اسمه قيرش.

(هـ) ان اسم المقوقس مشتق من لفظ يونانى.

(٩) وصل العلامة بتلر فى ابحاثه الجديدة التى بحثها لتحقيق شخصية المقوقس ونشرها بعد نشر كتابه «الفتح العربى لمصر» بعشر سنوات الى ان اثبت علميا ان المقوقس لم يكن سوى قيرش البطريرك الملكى بالاسكندرية الذى جمع له هرقل ولاية الدين وجباية الخراج بارض مصر وانه كان يونانيا ولم يكن قبطيا وانه هو المقصود بالمقوقس فى وقت غزو العرب لمصر.

(١٠)وعمل العلامة جان ماسبرو بحثا عن المقوقس وصل به الى ان المقوقس لم يكن شخصا آخر غير قيرش بطريرك الاسكندرية الملكى ووالى مصر فى عهد هيرقل (٦٣١ - ٦٤١م) وهو بذلك يتفق فى الرأى مع العلامة الفريد بتلر (كتاب تاريخ بطاركة الكرسى الاسكندرى تأليف جان ماسبرو طبعة باريس سنة ١٩٢٣ ص ٣٥٣)

النتيجة

قد طابقت ابحاث العلامة بتلر ما وصل اليه العلامة بريرا والعلامة جان ماسبرو فى استنتاجاتهما اما باقى المستشرقين فقد استقوا اخبارهم من المصادر العربية الاسلامية دون المراجع القبطية واليونانية ونقلوها بلا فحص وتمحيص ونقد ولذلك لا يمكن التعويل عليها والاعتداد بها.

(٦) الاستنتاج العام

يستنتج مما تقدم ما يأتى: -

(١) ان المقوقس لم يكن قبطيا بل انه رومى الجنس.

(٢) ان المقوقس هو نفس قيرش البطريرك الملكى الاسكندرى.

(٣) ان قيرش جمع بين يديه السلطتين الدينية والمدينة فى عهد الامبراطور هرقل.

(٤) ان المقوقس قيرش اغتال خراج مصر ولم يقدمه لمولاه الامبراطور هرقل.

(٥) انه هو الذى قام جيوش الروم وفاوض العرب فى الصلح وسلم البلاد اليهم.

وصف الاسكندرية عند الغزو العربي

أرسل عمرو إلى الخليفة كتابا مشهورا يصف فتح الاسكندرية، والرواية المتداولة عنه هي «لقد فتح الله علينا مدينة من صفتها أن بها أربعة آلاف قصر، وأربعة آلاف حمام، وأربعمائة ملهى، واثنى عشر ألف بائع للخضر، وأربعين ألفا من اليهود أهل الذمة». ونرى أن هذه الأعداد فيها مبالغة، ولعلها لم تكن كذلك في الكتاب الذى بعث به عمرو بل نقلها النساخ خطأ. ومع ذلك فانها تدل دلالة واضحة على ما كان للمدينة من الأثر العظيم فى نفوس الفاتحين، وقد أدهشهم عظمها وفخامتها،

وما كانت دهشة العرب من رسم المدينة باعظم من دهشتهم مما كان تحت أرضها من المبانى فقد رأوا بها عددا عظيما من الصهاريج العجيبة تحت الأرض كان لبعضها طبقات تلى بعضها بعضا أربعة أو خمسة. وكان فى كل طبقة منها عدد عظيم من الحجرات والأعمدة، حتى لقد قال السيوطى إن الاسكندرية مدينة قائمة على مدينة، وانه ليس فى البلاد مثلها على وجه الأرض. وكان بها عدد عظيم من الأعمدة لم يرمثلها فى موضع آخر فى علوها وعظم حجمها. وكانت هذه الحجرات الدفينة تستخدم لخزن المياه توصل إليها فى قنوات تجرى من الترعة الحلوة [قناة كانوب] التى كانت تشق المدينة فى حى المصريين [كوم الشقافه]، وكانت تملأ فى أوان الفيضان فيشرب الناس منها مدة الحول. ولعل أجمل احياء الاسكندرية فى ذلك الوقت كان حى البروكيون [الحى الرابع، الملكى] والذى كان يحتوى على قصور البطالسة والمقبرة الكبرى التى كانت فيها جثة الاسكندر فى غشاء من الذهب، وكان فيه المتحف وتتصل به مكتبته العجيبة التى كانت مقرّ العلوم فى العالم أجمع. وكان فى ذلك الحى الى الشرق معبد مكشوف اسمه (الترابيلوس)، وهو إيوان به أربعة صفوف من الأعمدة تحيط به، الى جانب كنيسة القديسة (مارية ـ روثيا) بناها (أولوجيوس)، والى شرقها فيما يلى الأسوار على مقربة من البحر الكنيسة الكبرى كنيسة القديس (مرقس) وكانت عند ذلك لا تزال مائلة وفيها مدفن من المومر به جثمان ذلك الرسول. وقد قال (أركولفوس)[١] «اذا أتيت من بلاد مصر ودخلت المدينة ألفيت عند جانبها الشمالى كنيسة كبرى فيها جثمان مرقس الانجيلى

(١) كان (Arculfus) فى مصر حوالى سنة ٦٧٠ للميلاد (Pa'l. Pil. Text. Soc) الجزء الثالث صفحة ٥٢ وقد اضمحلت المدينة بعد مائتى عام حتى أن (برنار الحكيم) حوالى سنة ٨٧٠ يقول «ووراء الباب الشرقى دير القديس مرقص ويعيش الرهبان فى تلك الكنيسة التى كان فيها مدفنه ولكن البنادقة أتوا =

وترى قبره أمام المحراب فى الجانب الشرقى وقد أقيم فوقه شاهد من المرمر» وكان فى الحى نفسه كنيسة القديسين (تيردور) و(اثناسيوس).

وقد عجب العرب أشد العجب من المسلتين من الصخر المحبب الأحمر (الجرانيت) اللتين كانتا فى صدر الكنيسة.

ومن المعلوم أن (الفاروس) أو المنارة كانت أثرا غير المسلتين وهى بناء متين من الحجر شاهق العلو، وأنه لمن المضحك أن يتصور أحد أن بناءها العظيم يقوم على كرسى من الزجاج على هيئة السرطان، ومع ذلك فإنه مما يسر النفس أن يصل الإنسان إلى أصل هذه الخرافة التى تظهر فى مبدأ الأمر سخيفة لا معنى لها. فإنها إنما نشأت من سوء فهم لما ذكره مؤرخو العرب الأوائل من الحقائق التاريخية وتحرّوا فى ذكره الدقة العظيمة، فلا شك فى أن المسلتين اللتين كانتا أمام كنيسة (القيصرون) عند دخول عمرو فى الاسكندرية كانتا على قاعدتين على هيئة السرطان كما وصفهما العرب الأوائل. فقد قام الدليل على هذا عند نقل إحدى المسلتين إلى نيويورك، إذ وجد أن هذا الحجر الهائل كان قائماً على أربع صور من المعدن على هيئة السرطان، وكانت هذه تفصل بين المسلة وبين القاعدة. وكانت القاعدة من قطعة واحدة من صخر (الجرانيت) وكان من تحتها ثلاث طبقات مدرجة من الحجر. ولم يكشف عند نقل المسلة إلا تمثال واحد من التماثيل الأربعة التى عل هيئة السرطان، لأن القاعدة كانت قد مضى عليها زمن طويل وهى مدفونة تحت الأرض. وكان ذلك التمثال نفسه مشوّها، وهذا مثل من الأمثلة الظاهرة التى كانت فيها أعمال الحفر والتنقيب مساعدة للتاريخ مصدقة له.

وقد يقول قائل وماذا كان من أمر الجعلان أو العقارب الزجاجية التى تحت المسلة الأخرى، وما نحسب ذلك القول إلا إحدى الأقاصيص. وليس شئ أشد خطأ من مثل هذا القول لأننا اذا سمعنا وصف أمرين متصلين اتصالا وثيقا وصدق أحدهما صدقا لا شبهة فيه وكان من آيات الدقة، فإن أعجب العجب أن نقول إن الأمر الآخر مكذوب لا صدق فيه، فما يكون قولنا هذا إلا تكذيبا لامبرر له للتاريخ كله. وليس فى وصف هذه المسلات ما يجعلنا فى حيرة

= فى البحر وحملوا جثته إلى جزيرتهم وفى سنة ١٣٥٠ كانت الكنيسة التى استشهد فيها القديس «مرقس» على نحو ميلين شرق الاسكندرية» ومن هذا يتضح مقدار اضمحلال المدينة.

بين ما يقتضيه العلم وما يقتضيه التاريخ. لا جرم أننا لا نصدق أن تقول قطعة عظيمة من الصخر في حجم تلك المسلة التي نسميها مسلة كليوبتره على جعالين من الزجاج مما يصنع في أيامنا هذه، وما كان في الزجاج قطع تبلغ من الحجم ما يكفي لمثل هذا القصد. ولكنا نعلم في المعادن معدنا عظيم الصلابة والرونق وهو الحجر الأسود (الأيسيدى) الذى يشبه الزجاج، ويعرف بالزجاج الطبيعي. ولعل الجعالين التي كانت تحت المسلة الثانية ـ وهي القائمة اليوم في لندن ـ وكانت من ذلك الحجر الأسود. وإذا كان هذا غير ممكن فلعلها كانت من حجر آخر متين شديد الصقل. وإنا نؤثر أن نصدق ما قاله كتاب العرب بنصه كما جاء في قولهم، على أن نكذبهم فيه بعد ما ظهر من صدقهم فيه صدقا جليا. فإنا لا نشك في أن المصريين كانوا فوق براعتهم في صناعة الزجاج يعرفون من عظيم أسرار صناعته ما نجهل، وليس بالمستبعد أن يكونوا قد استطاعوا صناعة صنف من الزجاج يبلغ من المتانة أن يحمل مثل ذلك الكتلة الصخرية العظيمة. ومن المفيد هنا أن نقول إن المسلة التي حملت إلى لندن كانت قد وقعت على الأرض قبل الأخرى بزمن طويل.

إذن نقول إن أثرين عظيمين كانا قائمين أمام القيصرون على قاعدتين ذات طبقات. وكان أحدهما قائما على أربع سرطانات من النحاس أو الشبه، وكان الثاني قائما على أربع تماثيل من الزجاج المتين أو الحجر الابسيدى على صورة العقارب. وإذا نحن أزلنا ما طرأ من الخلط على هذا الوصف بين المنارة والمسلتين عرفنا أن التماثيل النحاسية التي يذكرها المقريزى لم تكن في أعلى المنارة حيث لا تكون ظاهرة لرأى العين، ولكنها كانت في أعلى المسلات. وكان التمثال «الذى يشير إلى الشمس» بغير شك تمثالا ذا جناحين يمثل «هرميس» أو «نيكى» (Nike) (آلهة النصر عند اليونان) وأغلب الظن أنه كان قائما على قدم واحدة فوق قمة المسلة[١] يمد يده اليمن على عادة اليونان، في تصوير تماثيلهم، وكان التمثال الآخر الذى «يشير إلى البحر» صورة أخرى لا يقصد بها التجميل والزينة، وإيجاد التماثل في المنظر. ولا بد أن هذه الأعمدة العظيمة القديمة كانت باهرة الرونق الجمال في صنعها ورسمها الذى أبدعته يد الصناع في عصر أغسطس، تقع في النفس موقع الجلال إذا ما وقعت العين على قمتها الشاهقة إذ تمر بها السفن في دخولها إلى المرفأ أو خروجها منه.

(١) قام الدليل على أن المسلات كان لها غطاء على قمتها من المعدن.

وأما المتحف فلا نجد له ذكرا باقيا إلى يومنا هذا ولا بد لنا أن نقول إنه تخرب وزال قبل ذلك بزمن طويل. ولعل زواله كان في الحريق الكبير الذى أحدثه يوليوس قيصر عندما حاصره المصريون فى ذلك الحى تحت قيادة (اخيلاس)، أو لعل ذلك حدث أثنا الصراعات التى قامت بين المسيحيين وأصحاب الديانات الأخرى.

حسبنا ما تقدم فى ذكر الكنيسة، ولنصف بعد ذلك (السرابيوم) وهو طائفة من الأبنية ذات جمال رائع كان لها أثر عظيم في نفوس العرب. وكان فى حى آخر من أحياء المدينة فى الموضع الذى به اليوم عمود (دقلديانوس). وكان هذا الحى معروفا بالحى المصرى الذى لم يختفى اسمه فى وقت من الأوقات، وذلك الاسم هو (رقوتى). فإن القبط لم يسموا فيما بينهم مدينة الإسكندرية باسم بانيها العظيم، بل كان أكثر حديثهم عنها باسم القرية التى كانت لبعض الصيادين قبل الاسكندر بزمن طويل. وهذا دليل على شدة احتفاظهم بقديمهم. وقد عرف موضع السرابيوم معرفة لا موضع للشك فيها مما جاء فى وصفه فى الكتب القديمة، ومما أسفر عنه البحث الأثرى فى العصور الحديثة.ويقرن ذكر السرابيوم عادة بذكر عمود دقلديانوس وهو الذى سماه العرب (عمود السوارى)، وكان على مقربة من الباب الجنوبى للمدينة وهو الذى يسميه العرب باب الشجرة. ومهما يكن من الأمر فقد كان حصنا معظمه من صنعة الإنسان مع علوه وإشرافه فوق المدينة. فقد كان قائما على نهد له نواة من الصخر الطبيعى، ولكن سائره كان من صنع الإنسان. وكانت أسواره المنيفة تحيط بآزاج معقودة تحت الأرض طبقات بعضها فوق بعض، فكان حصنا عظيما مربع الشكل أعلاه مسطح تزينه أبنية بديعة. والظاهر أنه كان يدخل إليه من طريقين: أحدهما تسير عليه العجلات، والآخر سلم له مائة درجة. على أننا لسنا نعرف القصد الذى من أجله بنى ذلك السلم وكان موضعه فى الجهة الشرقية من البناء،

ولكن المنارة كانت موضعا لأعظم أعجاب العرب وأكبر دهشتهم. وقد كان ذلك البناء الضخم كما هو معروف قائما فى الشمال الشرقى من جزيرة (فاروس). وكانت تلك الجزيرة متصلة ببر المدينة بطريق طويل قائم على عقود اسمه (الهبتاستاديوم). وكانت الجزيرة فى وقت الفتح العربى يحيط بها مرسى السفن وفيها أبنية مختلفة كان أكبرها كنيستان: إحداهما (للقديسة صوفيا)، والأخرى (للقديس فوستوس) وبينهما نزل للأغراب. وقد قال قيصر عن

المنارة إنها قطعة عجيبة من البناء ووصفها سترابو بأنها برج ذو بناء عجيب من الحجر الأبيض وله طبقات عدة، وقد كان بناؤها على يد (سوستراتوس الكنيدى) فى أيام (بطليموس فلادلفوس) وكان القصد منها هداية السفن، وقد أصابها هدم من فعل البحر ومن أسباب أخرى، ولكنها كانت ترم كلما دعت الحال إلى ترميمها، فكانت فى أيام فتح العرب صالحة لم يفسد منها شئ، تلمع فى النهار فى ضوء الشمس وتضئ بنورها فى الليل على البحر إلى بعد عدة فراسخ من الاسكندرية. وكان شاطئ تلك الجهات ضحلا لا مرفأ له، وكانت السفن الآتية إلى الإسكندرية تعبر إليها بحرا فسيحا لا معالم فيه من البر، فكان من أكبر النعم أن يقام علم ظاهر فى النهار والليل على مسافة ستين ميلا أو سبعين.

وقد عجب العرب من عدد غرف المنارة ومن تداخلها فقال المقريزى: ويقال إن كل من دخل هذه المنارة اختبل وضل الطريق مما بها من الغرف العدة والطبقات والمماشى. وقيل إن المغاربة عند ما جاءوا إلى الإسكندرية فى جيش فى خلافة المقتدر دخل جماعة منهم إلى المنارة على ظهور الخيل فضلوا طريقهم حتى جاءوا إلى شق فى كرسى الزجاج الذى على هيئة السرطان وهو الذى يقوم عليه البناء، فوقع كثير منهم فيه وهلكوا. ولكن قيلت فى المرآة قصص أعجب من هذا(*).

(*) انظر: فتح العرب لمصر. الفريد بتلر. ترجمة: محمد فريد أبو حديد. لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة.

بقايا أثرية من آثار الاسكندرية ظلت باقية حتى القرن ١٩ ثم نهبت ودمرت.

ترتيب قيام (انتخاب) الأسقف
وقسمته أو رسامته

المرجع:

من أهم المراجع المعتبرة أساساً للتشريع الكنسي القبطي ولترتيب الكهنوت في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، كتاب التقليد الرسولي للأسقف الروماني هيبوليتس (عاش حوالي سنة ٢١٥م.) والمسمى في كتب ومخطوطات الكنيسة باسم «ترتيب نظام الكهنوت» لمؤلفه «أبوليدس» (النطق العربي لكلمة هيبوليتس). ويعتبر كتابه هذا أحد أقسام مخطوطة القوانين الكنيسة المحفوظة بمكتبة البطريركية، ومعظم مكتبات الأديرة.

بعض التعريفات والمصطلحات الهامة

١. كلمة «إبيسكوبي Episcopos»

تعني حرفياً «النظر من أعلى» أو بلغة المخطوطات الكنيسة «الإشراف أو المراقبة من أعلى»، وهي الوظيفة التي اشتقت منها كلمة إبيسكوبوس «Episcopos» أي «أسقف» (وهي النطق العربي للكلمة اليونانية) والتي تعني الخدمة الأسقفية وما يقوم به الأسقف من رعاية النفوس التي يؤتمن عليها حين رسامته.

٢. مفهوم أساسي في فهم ترتيب نظام الكهنوت:

الرب يسوع المسيح هو أصل ورئيس الأسقفية:

«الأسقفية» هي أصلاً خدمة ومهمة وعمل الرب يسوع المسيح التي تنبأ عنها الأنبياء في العهد القديم. إذ تنبأوا عن مجئ الراعي الذي «سيشرف أو يطلع» أو «ينظر من أعلى» على نفوس رعية الله. وهذه الأفعال الثلاثة هي ترجمة كلمة إبيسكوبي Episcopei وإن كانت تترجم أحيانا في الكتاب المقدس بكلمة «يفتقد» أو «يلاحظ»، كما سنرى في النصوص الكتابية والإنجيلية الاتية:

نبوة حزقيال ٣٤:١١، ٢٢ ـ ٢٥

«هاأنذا أسأل عن غنمي وأفتقدها (الكلمة اليونانية هي فعل الأسقفية «Episcopsomai»

أى الافتقاد). كما يفتقد الراعى قطيعه»... «وأقيم عليها راعياً واحداً فيرعاها عبدى داود، هو يرعاها وهو يكون عليها راعياً. وأنا الرب أكون لهم إلهاً وعبدى داود رئيساً فى وسطهم»

إذن، يكون الله هو الإله، والمسيح هو الراعى والأسقف الممسوح بالروح القدس (أى المسيأ الذى كان ينتظره شعب الله)، الذى يفتقد شعبه.

وفى العهد الجديد يستعير القديس بطرس الرسول من هذه النبوة لقب المسيح «الأسقف» وهو يذكر المؤمنين بها حين يقول: «أنكم كنتم كخراف ضالة، لكنكم رجعتم الآن إلى راعى نفوسكم وأسقفها» (١ بط ٢: ٢٥). وللقسوس يحثهم أن يرعوا رعية الله التى فى أمانتهم «نظاراً» (أى «إبيسكوس» بمعنى نوع العمل وهو الافتقاد والإشراف على النفوس) لا على مثال الرعاة الأردياء، بل بالاختيار وبنشاط، وكأمثلة للرعية، مذكراً إياهم بمن هو رئيسهم الرب يسوع المسيح: «ومتى ظهر رئيس الرعاة تنالون إكليل المجد الذى لا يبلى» (١ بط ٥: ١ - ٤).

ويأتى القديس بولس الرسول فى الرسالة إلى العبرانيين ليستعير من نبوة أخرى فى العهد القديم، ولكنها نبوة تحمل الوجه السلبى للرعاية:

نبوة زكريا النبى ١١: ١٦

«فقال لى الرب خذ لنفسك، بعد، أدوات راع أحمق لأنى ها أنذا مقيم راعياً فى الأرض لايفتقد (إبيسكوبى) المنقطعين ولا يطلب المنساق ولا يجبر المنكسر، ولا يربى القائم. ولكن يأكل لحم السمان (يسلب أموال الرعية)، وينزع أظلافها (أى يجردها من حريتها فى المسيح)». ويوجه القديس بولس الرسول رسالته إلى العبرانيين الذين يعرفون هذه النبوة ذات الوجه السلبى عن الراعى «الأحمق» فيقول:

«لذلك قوموا الأيادى المسترخية والركب المخلعة واصنعوا لأرجلكم مسالك مستقيمة لكى لا يعتسف الأعرج (يعرج أو ينحرف عن الطريق) بل بالحرى يشفى.. ملاحظين (Episcopountes إبيسكوبونتس، مفتقدين) لئلا يخيب أحد من نعمة الله» (عب ١٢: ١٢ - ١٥).

فبدلاً من الراعى الأحمق فى العهد القديم الذى لا يجبر المنكسر، يأتى راعى العهد الجديد

«راعى الرعاة الأعظم» ليقومَ الركب المخلعة، ويمارس الأسقفية (أى مهمة الافتقاد والملاحظة Episcopountes) لئلا يخيب أحد من نعمة الله.

وهكذا يُدعى الراعى المسيحى أسقفاً، ليس كمجرد لقب، بل كقائم بعمل ومهمة «راعى الرعاة الأعظم» ربنا يسوع المسيح، نالها منه بالوكالة له، ليعطى عنها حساباً فى اليوم الأخير (مت ٢٥ : ١٩).

وبناء على هذا المفهوم الإنجيلى، يأتى التقليد القانونى الكنسى فى مقدمة كتاب «ترتيب قيام الكنيسة» ليذكر الجميع أن رأس الطغمة (Tagma تعنى «رتبة») الكهنوتية هو الرب يسوع المسيح نفسه:

[الأول فى الطغمة هو رأس الكهنة، وهو الوحيد، يسوع المسيح من حيث بشريته، الذى لم يغتصب لنفسه كرامة ولكن صير كاهنا مؤبداً].

هذا هو أساس ورأس ومرجع خدمة الأسقفية وأصل الكهنوت المسيحى، ربنا يسوع المسيح. لذلك فالراعى والأسقف فى الكنيسة إنما هو بمثابة الخادم والوكيل والمؤتمن على تكميل أسقفية المسيح ـ له المجد ـ على كنيسته، لذلك فهو يتمثل فى شخصه شخص المسيح راعى الرعاة العظيم وأسقف النفوس ورأس الكهنة، مخفيا ذاته، باذلا إياها، ليظهر المسيح أمام الشعب . فالاسقف هو الأداة البشرية لحضور وظهور ربنا يسوع المسيح رئيس الكهنة وراعى الرعاة الذى أتى إلى خرافه ليفتقدها ويخلصها ويشفيها، بحسب النبوات.

٣. تاريخ ومعنى وضع اليد على رأس المنتخب للكهنوت:

وضع اليد طقس قديم قدم كنيسة العهد القديم، وكان يكنى عنه أحيانا بكلمة «مسح» مثلما مسح صموئيل شاول ملكا ثم داود (صموئيل الأول (١ : ١ ؛ ١٦ : ١٣). ولكن «وضع اليد» ذكر صريحا حينما اختار موسى يشوع وأمره الرب: «ضع يدك عليه» (العدد ٢٧ :١٨). وكان يمارس على خدام الهيكل الذين يقومون بالخدمة الكهنوتية، ثم صار يمارس على «شيوخ ـ بريزفيتيروس» المجامع اليهودية حيث كانت توضع عليهم أيادى الشيوخ المرسومين السابقين بقصد أن ينقلوا إليهم «الروح» الذى حل على موسى ومنه على كل شيوخ إسرائيل (كما فى سفر العدد ١١ :١٧).

وهكذا أصبح وضع اليد طقسا حتمياً لكل خادم سيقوم بخدمة (أو ليتورجية) في مجال العبادة الإلهية.

ومن هنا أصبح وضع اليد لرسامة الإكليروس المسيحيين المدعوين من الله والمفرزين ليخدموا ليتورجية الإفخارستيا، بالأساس، هو استمرار لتقليد إلهي قديم قدم بدء تدبير خلاص الله للبشرية منذ العهد القديم ليتأهلوا للقيام بهذه الخدمة أو «الليتورجية» المقدسة(*).

وبحسب شرح لقديس يوحنا ذهبي الفم، فإن وضع اليد، في الواقع وفي حقيقته السرية يمثل:

[وضع يد الله غير المنظورة التي يرمز لها الفعل الخارجي]

العظة الرابعة عشرة على سفر أعمال الرسل: ٣

هذا الشرح ينطبق على وضع اليد سواء أيدي الأساقفة على رأس الأسقف الجديد أو وضع يد الأسقف على رأس القس الجديد.

٤ - معنى كلمة «ليتورجية»

كلمة «ليتورجية» لها معنى خاص منذ ما قبل المسيحية. ولكن ما يهمنا هنا أولاً هو معناها في الكتاب المقدس (الترجمة السبعينية) أو في كنيسة العهد القديم. فهي استخدمت كترجمة لكلمة «خدمة» نيابة عن أو باسم الشعب ولكن في إطار العبادة المنتظمة والطقسية في هيكل أورشليم. وقد استعيد استعمال هذه الكلمة في كنيسة العهد الجديد سواء في الإشارة إلى خدمة الكهنوت الأعظم لربنا يسوع المسيح (عبرانيين ٨:٦)، أو إلى خدمة خدام كنيسة العهد الجديد (أعمال ١٣ : ٢ ؛ رومية ١٥ : ١٦)، أو لأي «خدمة» لله سواء تقدم لله مباشرة أو للناس من أجله وبدعوة منه (فيلبي ٢ : ٢٥ ؛ رومية ١٣ :٦).

(*) وهنا لابد من التفريق بين وضع يد الأسقفية أو القسوسية لرسامة Cheirotonia (الشرطونية - شيروطونية) وبين وضع اليد للبركة (Cherothesia الشيروتيسيا) على رأس المعمد بعد جحده للشيطان واعترافه بالإيمان (حيث يصير بعد مسحه بالزيت المقدس عضوا في جسد المسيح الناضح على كهنوت المسيح)، ومثل بركة المسيح للأطفال (كليمندس في كتابه المربي ١ :٥)، ووضع اليد على الموعوظين (كما في قداس سيرابيون ٤)، و وضع اليد على رأس التائب المعترف وهو يتلقى صلاة الحل من الكاهن (مجمع نيوقيصرية ٩، الدسقولية ٢ : ١٨ : ٧، ٢ :: ٤١ : ٢)، ووضع يد الكاهن على المريض في سر مسحة المرضى.

م7 -تاريخ مصر ج2 (الهيئة العامة لقصور الثقافة)

وفي ترتيب خدمة قداس الإفخارستيا تقول الدسقولية إن لكل قسم من شعب الله ليتورجيته المنوط به القيام بها: الكهنة لهم ليتورجيتهم أى دورهم فى إقامة الليتورجية، والشمامسة لهم ليتورجيتهم أى المردات والأعمال المنوط بهم أداؤها، والشعب له ليتورجيته أى الصلوات والمردات الخاصة به. ولايمكن إقامة ليتورجية الإفخارستيا بدون أى قسم من الشعب بليتورجيته.

٥. الفرق بين «الإقامة» و«الشرطونية»

ولابد في هذا المجال من التفريق بين «الإقامة» وبين «الشرطونية»

١ ـ فالإقامة هى الانتخاب والاختيار الحر للأسقف الجديد، والتى تسميها اللغة اليونانية (Katastasis كاتاستاسيس)، وتتضمن عمليات الترشيح للمستحقين للرتبة، واجراء الانتخاب الشعبى بطريقة قانونية حرة صحيحة تتحقق فيها إرادة الشعب فعلاً، وهذه يسميها كتاب الرسامات: «اصطفاء حسنا» أى اختياراً صحيحاً، ثم تصديق السلطات الكنسية أى المجمع المقدس وأسقف الكرسى الرسولى المتقدم. ومن بين شروط الاصطفاء الحسن امتلاء المرشح من الروح القدس ومواهبه. فالشعب يقيم بالاختيار الذين لهم مواهب فى الخدمة، والشرطونية تأتى لكى تختم على ما رآه الشعب.

٢ ـ وأما الشرطونية فهى القسمة أو التكريس أو الرسامة، والمسماة باليونانية Cheirotonia شيروطونية» والتى أخذت منها الكلمة المعربة «شرطونية» وترجمتها: «وضع اليد».

والشرطونية هى أهم مرحلة فى رسامة الأسقف أو القس أو الشماس، بينما فى بعض درجات الشموسية مثل الإيبيذياكون والأغنسطس والأبصلتس لا يشرطنون أى لا توضع عليهم الأيادى عند الرسامة، بل فقط يقامون أو «يختارون» بالاسم، وكذلك رتبة الأرملة والعذراء حيث يصف القديس بولس وضع هذه الرتبة بأنه «اكتتاب» (١ تى ٥:٩).

وبهذا، فإن انتخاب الأسقف أى إقامته لا يكفى ليصبح الشخص المختار أسقفاً، بل لابد من الشرطونية والتى تتمثل فى «وضع الأيادى» عليه، أى أيادى الأساقفة السابقين عليه، لأنه بوضع الأيادى، وبصلاة الكنيسة أى الأساقفة والشعب الذى انتخبه وأقيم هو عليه، يحل عليه

نفس الروح القدس الذى حل من قبل على الرسل قديماً ليعطيهم السلطان والقوة على الخدمة، وهذا هو أساس وأصل التعاقب الرسولى الذى يحمله الأساقفة فى الكنيسة: حلول نفس الروح القدس الذى حل على الرسل يوم الخمسين، بصلاة الكنيسة أى الأساقفة والشعب الذى انتخبه، وبوضع أيدى الأساقفة الذى نالوا قبله نفس الروح القدس بتسلسل رسولى يرجع إلى الرسل أنفسهم. ومعروف أن الرسول الذى أطلق شرارة الروح الرسولية فى كنيسة الإسكندرية القبطية الأرثوذكسية هو القديس مرقس الرسول والإنجيلى والشهيد (استشهد سنة ٦٨م).

٦. معنى «القسمة»:

فى الكتب الكنسية مثل كتاب الرسامات الكهنوتية وكتب قوانين الكنيسة، يطلق على عملية «الرسامة» للدرجات الكهنوتية لفظ «قسمة» (مثل «قسمة» الأسقف أو القس أو الشماس). وهذه الكلمة العربية ليست غريبة عن المفهوم اللاهوتى الكنسى للرسامة. ولهذا رأينا أن نشرح هذه الكلمة «القسمة» وما تتضمنه من مفاهيم كنسية هامة:

١ ـ فمن المعروف أن رسامة شخص للأسقفية تعنى «فرزه»، أى انتخابه من بين أعضاء الكنيسة للتكريس لخدمة معينة، وقد وضح ذلك فى سفر الأعمال ١٣ : ٢، حينما أمر الروح القدس أن «افرزوا لى برنابا وشاول للعمل الذى دعوتهما إليه»، وهذا الفرز تم من بين أسماء أخرى كثيرة ذكرها هذا النص فى الآية السابقة على هذه الآية «وكان فى أنطاكية فى الكنيسة هناك أنبياء ومعلمون برنابا وسمعان. ولوكيوس ومناين... الخ» وبعد هذا الفرز يقول النص «فصاموا حينئذ وصلوا ووضعوا عليهما الأيادى». وبهذه الصورة نستطيع أن نرى أن هذا الفرز من أجل الرسامة هو فى طبيعته «قسمة»، أى تخصيص وفرز واختيار أدى إلى «قسمة» بين الأشخاص.

٢ ـ كما يمكن فهم معناها أيضاً من وصف عمل الروح القدس فى توزيع المواهب الروحية على أعضاء الكنيسة بأن الروح القدس «قسم لكل واحد بمفرده موهبة ما» (١كو ١٢ : ١١). وكلمة «قسم» هنا هى الترجمة للكلمة اليونانية diairoun ومعناها «يقسم».

فقسمة الأسقف تعنى على ضوء هذين المفهومين السابقين أنها فرز لخدمة معينة، مما أدى

إلى قسمة (أو نصيب) حدده الروح القدس لهذا الخادم المفرز لأداء هذه الخدمة الخاصة، وهو قسَمه بهذا عن أشخاص آخرين كان هو من بينهم.

٣ ـ فإذا ما تقدمنا قليلاً في فحص مضمون قسمة مواهب الروح القدس لوجدنا أن مواهب الروح القدس كما تكلم عنها القديس بولس الرسول (وبالتالى كل الخدمات الكهنوتية في الكنيسة) تتحدد، ليس كل موهبة في ذاتها، بل باعتبار المواهب كلها مرتبطة بعضها بالبعض.

٤ ـ ويجهد القديس بولس قلمه للتأكيد على أنه لا توجد موهبة قائمة وحدها بمعزل عن المواهب الأخرى. وموهبة الروح القدس الحقيقية (أى التى هى حقاً من الروح القدس)، هى التى ترتبط وتربط نفسها بالمواهب الأخرى وبجسد المسيح كله. فأعضاء جسد المسيح كلهم يرتبطون معا ويعملون معاً، وما يربطهم في هذا العمل المشترك هو «المحبة» التى خصص لها القديس بولس الأصحاح ١٣ (بعد الأصحاح ١٢ الخاص بالمواهب). فإصحاح المحبة (١ كورنثوس: ١٣) هو الخاتم والختم الذى يختتم به القديس بولس على أصحاح المواهب (الإصحاح ١٢). حيث كان لا يمكن أن يشرح القديس بولس مواهب الروح القدس دون أن يؤكد على حتمية المحبة التى هى «رباط الكمال» الذى يجعل من جسد المسيح كياناً كاملاً متكاملاً بتآلف وارتباط المواهب بعضها بالبعض، وبأدائها معاً بالمحبة.

٥ـ إذن، فالقسمة (قسمة مواهب الروح القدس) مرتبطة أشد الارتباط بالمحبة. فالمقسوم الذى قسمت له موهبة ما، لابد أن يعرف أنه سيمارسها بالمحبة. ولكن تجاه من ؟

فلا يمكن أن نقول «محبة» دون أن نحدد موضوع وهدف هذه المحبة. فموضوع وهدف المحبة هنا هو الجماعة من البشر الذين قسم لهم هذا الشخص وهم قسموا له. والمحبة لا يمكن أن توجه إلا نحو أشخاص بشريين محددين بهويتهم سيتلقون هذه المحبة ويقبلونها. فالقسمة، مثلها مثل الزواج، وكما يشرحها علم اللاهوت الكنسى (الاكليريولوجى)، هى عهد ارتباط سرى بكيان محدد من البشر، (فى سر الزواج يكون هو الزوج بالزوجة، وفى سر الكهنوت الكاهن بالجماعة المسيحية فى إيبارشية ما الذين يكونون الشركة المسيحية أو الكينونيا، وحقا ما يقال أن الزواج قسمة ونصيب، كذلك الأسقفية قسمة ونصيب الأسقف لشعبه والشعب لأسقفه).

٦ ـ إذن فالمضمون الهام للقسمة هو، عهد الارتباط بشركة الجماعة المسيحية فى موقع جغرافى معين، أى الشعب «اللاؤس» فى موضع جغرافى محدد، وهذه الشركة تسمى فى العرف الكنسى «الإيبارشية». إنه عهد ارتباط مثل عهد ارتباط الزواج تماما، شرحه علم اللاهوت الكنسى بأنه عهد زيجة الأسقف بجسد المسيح فى إيبارشية، وما يترتب على ذلك من ترتيبات كنسية وتحريمات قانونية، (مثل تحريم الزيجة الثانية للمؤمن يقابلها تحريم اقتران الأسقف بإيبارشية أخرى، وثانيها تحريم الطلاق والزواج بأخرى ويقابلها تحريم الانفصال عن الإيبارشية التى قسم عليها والتنصيب على إيبارشية أخرى). وهى تماماً مثل المحبة فى سر الزيجة فهى محدد موضوعها الذى هو الشخص البشرى المحددة هويته الذى سيرتبط بالشخص الآخر المقسوم على هذه الزيجة، ولهذا الارتباط ترتيبات كنسية وتحريمات قانونية.

٧ ـ وأيضا أهم نتيجة لهذا الارتباط بشركة الجماعة، هى أن عهد الارتباط الذى تحمله «القسمة» لا يكون تجاه أشياء غامضة: أفكاراً كانت أو مثلاً أو خدمات أو مكاتب أو مؤسسات، أو حتى تجاه البشرية ككل بلا تحديد، بل تجاه أشخاص بشرين محددة هويتهم بالموضع والموقع الجغرافى المكانى، تماما كما تتطلب المحبة الزيجية شخصاً محددة هويته، توجه المحبة نحوه ويتم الإقتران به.

فالقسمة، إذن، تعبير كنسى تعنى إقامة ورسامة أسقف لرعاية أشخاص بشريين فى موضع جغرافى محدد مكانه. وبهذا يكون من المستحيل تصور قسمة أسقف أو قس على لا شعب مسيحى غير محددة مدينة إيبارشيته، أو كما يقولون بالتعبير اللاتينى: in absoluto.

وهى بالتالى طقس شركة، أى طقس تشترك فيه الكنيسة كلها: الشعب أى شعب الإيبارشية، والمرشح الذى انتخبه شعب الإيبارشية، وموافقة الأساقفة السابقين عليه.

بهذه المفاهيم الأساسية، يمكننا أن نتقدم إلى فحص ودراسة:

المعانى المنطوية فى صلوات قسمة (تكريس) الأساقفة:

إن صلوات القسمة كما أوردها لنا القديس هيبوليتس (أو أبو ليدس حسب التسمية فى المخطوطات) تفرق بين عملية الإقامة (Katastasis كاتاستاسيس)، وبين عملية القسمة أو

التكريس والمسماة باليونانية «Cheirotonia شيروطونية». والشرطونية ـ كما قلنا ـ هى أهم مرحلة فى رسامة الأسقف، وذات طقس مقدس مهيب، ولها أثر خالد إلى الأبد فى شخص الأسقف، لا يمحى. لذلك حرمت قوانين الكنيسة تكرار «وضع اليد» على الأسقف، تماماً مثلما حرمت تكرار «المعمودية» بالنسبة للمؤمن. كما يقول القانون ٤٨ من مجموعة قوانين الكنيسة على يد إكليمندس وعددها ٥٦ قانوناً محرماً ومعاقباً تكرار وضع اليد على الأسقف أو القس أو الشماس:

[لأجل من يقسم دفعتين ـ إذا نال أسقف أو قسيس أو شماس قسمتين (أى وضع اليد بالنسبة للرتبة الواحدة) فليقطع هو والذى قسمه].

١. مقدمة القانون: انتخاب الأسقف بإجماع الشعب:

[الأسقف يختار من كل الشعب]

القانون الثانى من كتاب أبو ليدس عن قوانين الكنيسة

[يجب للأسقف أن يقسم وبأمر كل الشعب اصطفا (اختيارا) حسناً مقدساً فى كل شئ هذا إذا ذكر ورضيهم (أى إذا ارتضوا به). فليجتمع كل الشعب والقسوس والأساقفة الذين يجتمعون فى يوم الأحد.

وليسأل الكبير الذى فيهم القسوس والشمامسة ويقول: هل هذا الذى ارتضيتموه أن يكون لكم رئيساً؟ فإذا قالوا نعم فليسألهم ويقول: هل هذا يستحق هذه التقدمة الجليلة؟... فإذا أجابوا كلهم معا وقالوا إنه هكذا بحق وليس بمراءاة، والله الآب والمسيح والروح القدس الحاكم لهؤلاء، فليسألوا أيضا ثالث دفعة: هل هو مستحق هذه الرياسة؟.. فإذا قالوا ثالث دفعة أنه مستحق فليصافحوه بأيديهم كلهم..]

عن قوانين الرسل ـ القانون ٥٢

٢. اجتماع الشعب والإكليروس يوم الأحد لقسمة الأسقف:

[وفى الأسبوع الذى يقسم فيه يقول كل الشعب إنا نؤثره، وحينما يقدم اسمه ويرى أنه

لاقى القبول العام، يصدق على هذا الاختيار باجتماع الشعب والقسوس معاً فى يوم الأحد مع الأساقفة].

القانون الثانى من قوانين أبوليدس

٣. طقوس التكريس:

[ويضع الأساقفة عليه الأيادى.

بينما يقف القسوس وكل الشعب، ويكون سكوت فى كل الرعية.

ويقول الكل عليه: «يا الله قو هذا الذى أعددته لنا»] ـ نفس المرجع السابق

[وليأخذ كبير الأساقفة أسقفين آخرين معه. وبقية الأساقفة كلهم قيام والقسوس على المذبح يصلون بسكوت والشمامسة يمسكون الأناجيل المقدسة وهى مرفوعة على رأس من يقسمونه.]

القانون ٥٢ من قوانين الرسل

طقس وضع اليد (اخطر وأقدس لحظة في رسامة الأسقف):

[ويجعل (كبير الأساقفة) يده على رأسه ويصلى ويقول]

القانون الثانى من قوانين الرسل

٤. صلاة القسمة ووضع الأيادى:

[يا الله أبا سيدنا يسوع المسيح

أبو الرحمات وإله كل عزاء

الساكن فى العلا والناظر إلى المتواضعين.

العالم بكل شئ قبل أن يكون.

أنت الذى أعطى القوانين البيعية (قوانين الكنيسة) بابنه الوحيد يسوع المسيح ربنا والروح القدس،

الذى سبقت ورسمت منذ البدء طقس الأبرار، منذ إبراهيم الأسقف الكبير.

والذى تقيم الرئاسات والسلاطين.

والذى لم يترك موضعه المقدس بغير خدمة (ليتورجية)،

الذى سُرَّ أن يتمجد فى أصفيائه.

انظر على فلان عبدك.

أفض عليه قوتك وروحك القادرة (الروح الرئاسى ـ المزمور ٥٠)

هذا الذى دفعته (أعطيته) للرسل المقدسين، بواسطة سيدنا يسوع المسيح ابنك الوحيد،

هؤلاء الذين أسسوا الكنيسة فى كل موضع، كرامة ومجداً لاسمك القدوس.

لأنك أنت العارف بقلب كل أحد.

اجعل له أن يرعى شعبك بلا خطية.

وأن يستحق أن يرعى رعيتك العظيمة المقدسة.

وأن تجعل سيرته أعلى من كل شعبه بلا اعتراض.

وأن تجعله محسوداً (منظوراً إليه نظرة القدوة) بالصلاح من كل أحد.

وأن تقبل صلواته وقرابينه التى يرفعها لك نهاراً وليلاً، وتكون رائحة ذكية.

وتعطيه، يارب، الاسقفية وروحاً رحيمة وسلطاناً لغفران الذنوب.

وتعطيه قوة أن يحل كل رباط ظلم الشياطين ويشفى المرضى.

وأن ترضض (تسحق) إبليس تحت قدميه سريعاً.

بسيدنا يسوع المسيح هذا الذى من جهته المجد لك معه والروح القدس إلى الأبد آمين.

ويقول كل الشعب آمين.

وبعد هذا يلتفتوا إليه كلهم ويقبلوه بسلام لأنه يستحقه]

القانون الثالث من قوانين أبو ليدس

وفى مخطوطة القرن الثالث عشر ومخطوطة ابن كبر تحدد الصلوات اسم المدينة التى يرسم عليها الأسقف الجديد وذلك تنفيذا لمقررات المجامع والمكانية والمسكونية بتحديد حدود خدمة الأسقف:

[ندعو صفى الله فلان أسقفاً فى الواحدة المقدسة الغير المنحلة كنيسة الله الغير المنظور والحى التى لمدينة الأرثوكسيين المحبة للمسيح فلانة وتخومها...]

مخطوطة القرن الثالث عشر ومخطوطة ابن كبر

وبعد ذلك:

[والشماس يأتى بالقرابين مع القسوس ويكمل القداس الإلهى]

المبادى التى نستنبطها من صلوات القسمة:

الجزء الأول من الصلاة يعبر عن المبدأ الأساسى والحاكم لكل التقليد الليتورجى:

إنه الله نفسه الذى أسس ونظم وأمر بالعبادة الحقيقية التى تقدم له. كما قال رب المجد للمرأة السامرية «الله يطلب (أو يبحث عن) هؤلاء الساجدين بالروح والحق» (يو ٤ : ٢٣).

فمنذ تأسيس العالم، والله هو الذى يرتب للناس كيفية عبادته.

وما التجسد إلا التعبير النهائى لهذا التدبير، والفداء هو الذى يكمل ويقدس العبادة لله. والعبادة لله هى النهاية والغاية لكل الوجود البشرى. والعبادة التى تؤديها الكنيسةعلى الأرض «فى كل موضع» إنما تؤديها «كرامة ومجدا لاسم الله القدوس»، وهى تعبر به فى إطار الزمن عن العبادة الكاملة الحقيقية فى السماء.

فى هذا الوضع والإطار من العبادة الكاملة الحقيقية التى رتبها الله نفسه للكنيسة، يمكننا أن نرى مكان رتبة الأسقف. فلن يمكننا أن نفهم الجزء الأول من الصلاة، إلا إذا رأينا الأسقف ومهامه وعمله فى إطار هذه العبادة الإلهية التى رسم الله نفسه قوانينها وحدودها.

المحاور الثلاثة لكيان الكنيسة المنظور:

الكنيسة كجماعة مؤمنين متحدة بالروح القدس فى المسيح وحوله، وترتكز فى كيانها

المنظور على ثلاثة محاور متحدة ومترابطة معاً، لا غنى لأحدها عن الآخر ولا غنى عن أى منها لقيام كيان الكنيسة:

المحور الأول: المذبح المقدس:

وهو الشئ الوحيد من دون الخلائق المادية (غير العاقلة) الذى يمسح بالزيت المقدس ويكرس لله. والزيت المقدس، كما يصفه ديوناسيوس الأريوباغى، «يمثل المسيح» . وهذا الموضع المقدس هو علامة سرائرية محسوسة دائمة ومستمرة على حضور الله وسط الخليقة: «هو ذا كائن معنا على المذبح عما نونيل إلهنا» (القسمة ـ القداس الإلهى)

لذلك فمن على المذبح تبدأ كل خدمة ليتورجية وكل عبادة مسيحية، وتفيض ـ كما من ينبوع - كل بركة وكل عطية تأتى من الله للبشر. فهذا المذبح الحجرى بعد مسحه بالزيت المقدس، يمثل يد المسيح نفسه التى تبارك وتقدس القرابين الموضوعة عليه والتى تعطى عطية الحياة الأبدية للمؤمنين.

لذلك فالمذبح فى الكنيسة الأرثوذكسية هو مركز وقوة حياة الكنيسة كلها.

المحور الثانى: الأسقف:

فهو الذى يقوم بتكريس المذبح. والأسقف هو مثال المذبح. فالطبيعة البشرية هى المدعوة أصلا أن تكون هيكلاً لله، ومذبحاً للآب السماوى، والكاهن هو ذبيحة حية لله. والأسقف الذى يكرس المذبح، هو نفسه لابد أن يكون بالدرجة الأولى مذبحاً وهيكلاً وذبيحة لله ليكون صورة حقيقية للمذبح والهيكل الماديين.

المحور الثالث: شعب الله

والشعب هو الذى أقيم المذبح من أجل أن ترفع عليه قرابينه. وكما الأسقف، كذلك الشعب مدعو أن يكون قربانا مستعداً لأن يحل عليه روح الله القدوس تماماً كما يحل على القرابين الموضوعة على المذبح، لأن القرابين الموضوعة على المذبح هى باكورة قربان الإنسان نفسه الذى يقدمه لله كل يوم.

هناك إذن، علاقة باطنية أساسية بين المذبح، والأسقف ، والشعب، وهذه الثلاثة تشترك فى

مركز واحد لها هو المسيح. فكما المذبح «يمثل المسيح»، كذلك الأسقف يمثل المسيح، كذلك الشعب المجتمع والمتناول من الأسرار المقدسة يتحول بتناوله من الجسد المقدس إلى جسد المسيح. فالثلاثة المحاور مرتبطة بعضها بالبعض في المسيح : فالأسقف لا يتصور أن يكون أسقفا بدون مذبح «يلازمه» (عب٧:١٣)، أو دون شعب يقسم له وعليه ليرفع قرابينه على المذبح ويوصل له عطايا الله («... الرعية التي أقامكم الروح القدس فيها أساقفة لترعوا كنيسة الله التي اقتناها بدمه» (أعمال الرسل ٢٠ : ٢٨)، والشعب لا يتصور أن يتقدس ويقدس ذبيحة أجساده بدون أن يقدسها على المذبح في ذبيحة المسيح الواحدة بيد الأسقف «حتى أكون خادماً ليسوع المسيح لأجل الأمم مباشراً لإنجيل الله ككاهن ليكون قربان الأمم مقبولاً مقدساً بالروح القدس» (رو ١٥ : ١٦)، والمذبح لابد من كاهن ليرفع القرابين عليه باسم الشعب.و كل هذه الثلاثة تصل إلى كمالها وتوفى حقها في سر الإفخار ستيا سر الأسرار. وبدون أحد هذه الثلاثة لا يمكن إكمال سر الإفخار ستيا، وبالتالي لا يمكن قيام الكنيسة، وبالتالي أيضا لا يصير الشعب جسد المسيح.

أما الجزء الثاني من الصلاة فتحدد:

معالم ومهام الأسقف وأداؤه:

وهذه المهام ذات علاقة مزدوجة:

* الأسقف يقف ممثلاً لله امام الكنيسة،

* وممثلاً للكنيسة أمام الله.

أو كما يصفه هيبوليتس بتحديد أكثر أنه يمارس مهام ربنا يسوع المسيح نفسها التي هي:

* كراع صالح لرعية الله في مدينة أو موضع ما محدد.

* ككاهن يستعطف الله بقرابين الكنيسة.

هيبوليتس ليس وحده الذى ينظر إلى الأسقفية بهذه النظرة إلى مهام الأسقفية. (كأمثلة: ترتليانس في كتابه عن المعمودية فصل ١٧ ـ والقديس كبريانوس في رسالة ٦٦ ـ وغيرهما

من القديسين وعلى الأخص الذين كتبوا عن الكهنوت مثل القديس يوحنا ذهبى الفم والبابا الرومانى غريغوريوس الكبير. ولكن ما فعله هيبوليتس هو أنه صاغ هذه المهام فى صلاة قسمة الأسقف.

من أجل هذه المهام يحتاج الأسقف إلى مطلب هام أن يكون هو المختار حقا وبصدق من شعبه وكنيسته وبتعبير صلاة الرسامة «اصطفا حسناً»، وبهذا وحده يمكنه أن يقف باسمهم أمام الله ليسترضى وجهه، وأمام العالم ليعلن تدبير الله لخلاص العالم من خلال الكنيسة التى يمثلها. بهذا أيضا تصبح الكنيسة هى أيقونة جسد المسيح وسط العالم، ويصبح الأسقف (إما بشخصه أو بالقسوس الذين ينوبون عنه فى كنائس الإيبارشية):

* خادم الأسرار الإلهية لشعبه.

* المعلم الذى ينطق بالتعليم الصحيح خلال الاحتفال الإفخارستى بذبيحة المسيح، مما يجعله الحارس للتقليد الصحيح والمتكلم باسم شعبه المؤمن وكنيسته بالتقليد الإنجيلى والكرازة الرسولية والعقيدة الآبائية التى تسلموها من الآباء والتى يؤمنون بها.

* ثم هو الذى يقيم ويكرس الدرجات الكهنوتية اللاحقة فى الرتبة من أجل خير وصالح رعيته.

* ثم هو ممثل كنيسته وشعبه أمام سائر الكنائس والإيبارشيات فى العالم كله ليساهم فى إعلان جامعية الكنيسة.

* والقائم على حفظ السلام والوحدة فى كنيسته.

* وموزع صدقات وعطايا شعبه على المحتاجين.

* وحامل القلب المحب المترفق بشعب الله، وطالب الحل من الله لشعبه، من الخطايا ومن كل رباطات الشيطان، والمصلى على المرضى لشفائهم.

* وأخيراً، هو مركز وقطب الوحدة من خلال تعددية المواهب الروحية بين أبناء شعبه، أى الذى يحتضن ويجمع سائر المواهب والطاقات والوزنات ويؤالف بين مختلف الاراء

والأفكار بين أبناء شعبه، ليجعل الكل ـ ليس صوراً متكررة لشخصية واحدة ـ بل صورة للثالوث الأقدس المتميز الأقانيم ولكن المتساوين في الجوهر والواحد في الذات الإلهية بحسب تعليم القديس إغناطيوس الأنطاكي (القرن الثاني).

من التأكيد على حتمية الاختيار والانتخاب الشعبي للأسقف (كما في مقدمة الصلاة)، يمكن أن نستنبط أن ترتيب نظام الكهنوت المسيحي يقوم على المبدأ القانوني الكنسي:

* وحدة الأسقفية في موضع معين (أي إيبارشية واحدة لأسقف واحد، وأسقف واحد لإيبارشية واحدة).

* وبالتالي فلا يوجد في النظام الكنسي الرسولي الأوضاع التالية:

١ ـ ممارسة أساقفة لسلطان الأسقفية دون أن يكونوا مرسومين على شعب في مدينة أو موضع ما، ضداً للمبدأ القائل: [إن الم يكون علمانيون، فعلى من يكون الأسقف والقسيس] ـ القانون ٤٩ من قوانين الرسل على يد إقليمندس.

٢ ـ أساقفة معاونون أو مساعدون، أو أي مسمى اخر له اسم الأسقف بجانب أسقف الإيارشية. تحقيقاً لمبدأ رأس واحد في الإيبارشية الواحدة (القانون ٨ مجمع نيقيه).

٣ ـ انتقال أسقف من كرسي إلى كرسي آخر. (القانون ١٥ من قوانين مجمع نيقية المسكوني، والقانونان ١٤ و٣٦ من قوانين الرسل، ٢١و ٢٢ من قوانين مجمع أنطاكيه المسكوني)، وعلى الأخص من كرسي مدينة ما إلى مدينة الكرسي الرسولي.

أهم وأول سند في الخدمة الأسقفية:

وكما يتضح من الجزء الأول من صلوات القسمة، فإن أقوى وأول ما يتشح به الأسقف ليتمم وظيفته هو «القوة والروح القادرة ـ أو الروح الرئاسي» وهو الروح القدس نفسه الذى أكمل به الرب مهامه ومسحته بالروح القدس تجاه كنيسته، والذى سكبه على رسله القديسين الذين أسسوا الكنائس في كل موضع. والروح القدس يعمل من خلال الرسامة بسبب وعد الرب أنه يكون مع كنيسته وفي كنيسته يقودها ويرشدها («ها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر» ـ مت ٢٠ : ٢٨؛ «ارسل الروح القدس إليكم.. ومتى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم

إلى جميع الحق» - يو ١٦ : ٧، ١٣). وهنا تظهر العلاقة الوثيقة في الرسامة بين الأسقف والرسل الأطهار والمسيح له المجد. وهي العلاقة المسماة بـ «التعاقب الرسولي».

هذه العلاقة تتمثل أول ما تتمثل في نوال نفس الروح القدس الذى حل على الرسل يوم الخمسين، بما يحمله من ثماره التسعة (غلاطية ٥ : ٢٢)، والثلاثة (أفسس ٥ :٩).

المعنى الروحى الكنسى للتعاقب الرسولى:

هناك عمق روحى فى مفهوم التعاقب الرسولى. فلا يمكن تحقيق التعاقب الرسولى بمعزل عن الوحدة فى التعليم، والجامعية أى سلامة البنيان الكنسى غير المنقطعة فى الكنيسة. كما لا يمكن أن نفصل التعاقب الرسولى عن الحياة الروحية الرسولية التى تعيشها الكنيسة على مدى الأجيال. فالتعاقب الرسولى الذى يحمله الأسقف هو فى إطار وحدة شعب الله فى الإيبارشية مع أسقفه، وفى إطار أرثوذكسية التعليم، ووجود حياة روحية رسولية للشعب. فمثلاً فى حالة اعتلاء أسقف كرسى الأسقفية بدون رضاء الشعب مثلاً، لا يكون جوهر المشكلة أن هذا التصرف يمثل كسرا للقوانين الكنسية فقط، بل إن الحالة الروحية للكنيسة نفسها هى التى تهتز وتتأثر لأى تعد وكسر لقوانين الكنيسة، إذ تتعرض الكنيسة فى هذا الوضع إلى الإنقسام والتحزب داخل الكنيسة مما يضعف وحدة الكنيسة ويفقد التآلف بين الأسقف وشعبه، وهذا يعنى عزلة الكنيسة وتغربها عن الحياة الرسولية. لأن التعاقب الرسولى تأسس أصلاً على الوحدة والألفة بين الراعى والشعب، اللتين هما ضمان جامعية الكنيسة أى سلامة البنيان الكنسى، ما لا يمكن أن يتحقق فى أجواء الانقسام والتشتت والتشيع والشجار والخصومات.

والمعنى الثانى هو أن التعاقب الرسولى ليس فقط تسلسل الماضى، والأمانة للتقليد لا تعنى التصميم والعناد من أجل كل ما هو قديم . بل التقليد الرسولى فى عمقه وحقيقته هو الحياة الروحية الصحيحة. إنه التدفق المستمر للحياة الروحية من مرتفعات عليه صهيون يوم الخمسين. والأمانة للتقليد بهذا المعنى تربطنا بالقديسين الذين تعاقبوا على مر العصور، وتجعلنا شركاءهم فى القداسة والعلم والنسك والتسبيح والصلاة والمحبة ومنهج التدبير وسياسة الكنيسة، وتحفزنا على أن نمتد ونكمل ما مارسوه هم من حكمة وتعليم وإبداع وصلاة وسيرة. فسلطان التعليم المعطى للأسقف هو هذا كله وواضح أنه يجب أن يمارس فى إطار شعب الله

الذى يحيا الحياة الروحية الرسولية داخل الكنيسة التى انحدرت إليه من الرسل من خلال الأساقلفة السابقين.

* فالتعاقب الرسولى قائم على استمرار مزدوج:

* استمرار غير منقطع للحياة الروحية التى هى دوام اقتناء والامتلاء من الروح القدس من خلال الأسرار والصلاة والنسك،

* واستمرار تعاقب خدام كهنوت المسيح فى الكنيسة الذين يقامون ليحيوا أولا هذه الحياة الروحية، ثم ليرعوها ويشجعوها ويقدموها للشعب بالتعليم الصحيح وتقديم الأسرار الإلهية.

* لذلك فالتسلسل الرسولى هو تسلسل للحياة الروحية. والحياة الروحية تنتعش بسيادة المحبة على القلوب، ولكن تمكش وتتعثر فى صخب المجادلات الغبية والعراك والتنافر بين الأشخاص، وفى هذه الحالة يتحول التعاقب الرسولى إلى مجرد عقد يتحلى به الأسقف من الخارج دون فاعلية داخل الكنيسة.

* أما سلطان التعليم فهو لا يعنى أن التعليم قاصر على الأسقف بمعزل عن شعب يحيا الحياة الرسولية ويؤمن بتعليم الرسل ويعتنق عقيدة الآباء. وبالعكس فليس فى الكنيسة انحصارية. ولكن كنيستنا الأرثوكسية تؤمن بأن الأسقف هو الذى يملك وحده سلطان التعليم والتحدث باسم الكنيسة فى الأمور الإيمانية والعقائدية فقط، ولكن فى إطار كنيسة وشعب يحيا الحياة الرسولية. والشعب الحى بالروح مدعو، لأ أن ينصت فحسب، بل وأن يفهم ويتعلم ويزداد علماً ودراسة لإيمانه المسيحى من مصادر وينابيع الدراسة والعلوم الكنسية، لكى يمكنه أن «يثبت فى الحق» وبالتالى هو مدعو أن :«عظوا أنفسكم كل يوم بهذا الكلام» (عب ٣ : ١٣)، «تتذكرون كل حين بهذه الأمور» (٢بط ١ :١)، «واعظين بعضنا بعضا». (عب ١٠ : ٢٥)، «معلمون ومنذرون بعضكم بعضا» (كو ٣ :١٦).

* فخدمة الوعظ والتعليم والإنذار والتذكير التى يقوم بها أعضاء موهوبون من شعب الله بعضهم للبعض (مثل خدمة الوعظ وتعليم وتربية النشء و الشباب والافتقاد وخدمة

الأرامل والأيتام والتعليم بالكتابة والتأليف والنشر الخ.) إنما هي أقوى عضد وسند للأسقف في مهمته وسلطانه في التعليم والافتقاد ، لأنها ـ أى خدمة أعضاء الشعب لبعضهم البعض ـ هى كمن يحرث الأرض ويقلبها ويجعلها أرضاً صالحة لانتشار بذار التعليم الذى يؤديه الأسقف بمقتضى «موهبة الحق الذى لا يخطى» التى عنده، ولرعاية شعب الله في الإيارشية المؤتمن عليها.

يخاطب القديس يوحنا ذهبي الفم شعبه في أنطاكية قائلا:

[أريدكم بل وأحثكم أن تكونوا معلمين . لا تكونوا مجرد منصتين فقط لعظاتنا. بل أذيعوا تعليمنا للآخرين! هيا اصطادوا الذين هم في الخطا حتى يسلكوا هم أيضا في سبل الحق].

العظة الثامنة على سفر التكوين

وباختصار ، فالتعاقب الرسولى يتحقق من خلال الكنيسة الجامعة في موضع ما، أى شعب الله المؤمن الإيمان الرسولى وعلى رأسه الأسقف، والمجتمع حول ذبيحة الإفخارستيا. وأمامنا مثل واضح هو رسائل الرسل التى كانت توجه إلى: شعب الله في الكنائس (وفى رسالة فيلبى فقط أضاف «وأساقفة وشمامسة») ـ راجع افتتاحيات رسائل القديس بولس الرسول (ما عدا الرسائل الرعوية التى كانت ترسل إلى رعاة الكنائس بأسمائهم) وكذلك رسائل باقى الرسل.

وظيفة الايكونوموس (المدبر أو لاوكيل):

كانت موجودة في الكنيسة القبطية منذ القديم:

تحتم القوانين الكنسية على كل أسقف (بما فيه أسقف مدينة الكرسى الرسولى العظمى) تعين من تسميه «إيكونوموس» أى «مدبر» لإدارة أموال مقر الإيبارشي وممتلكاتها، وفى حالة إيبارشية الأسقف المتقدم يسمى هذا الإيكونوموس بـ«الإيكونوموس الكبير» ويقول بإدارة إيرادات ومصروفات المقر البطريركى ومصاريف معيشة البطريرك. وهذا الوضع كان معروفاً فى الكنيسة القبطية منذ القديم.

وأول ما نقرأ عنه في وثائق الكنيسة القبطية فى عهد البابا ثاوفيلس الإسكندرى (ارتقى الأسقفية سنة ٣٨٠م) حيث اصد أمراً بتعيين «إيكونوموس» جديد بدلا من الـ «إيكونوموس»

القديم فى إيبارشية الأسقف أبو لو، وقد صار هذا الأمر البابوى الصادر فى غضون القرن الرابع أحد قوانين الكنيسة الجامعة. كما عين اثنين من الرهبان (المسمين بالاخوة الطوال القامة) فى وظيفة الإيكونوموس مشرفين على مالية المقر البابوى بالإسكندرية. كما ورد ذكر هذه الوظيفة عرضا فى رسالة للقديس إيسيذوروس البيليوزومى (أحد آباء الرهبنة القبطية فى القرن الخامس وأب اعتراف بابا الإسكندرية القديس كيرلس الكبير) رسالة رقم ٢٦٩ : ١ وفى رسالة أخر له أيضا يحث الباب كيرلس الكبير على أن يغير الإيكونوموس ما رتينيانوس بأخر كفء وكذلك ورد ذكرها فى رسالة القديس كيرلس الكبير (البابا الإسكندرى فى القرن الخامس) الرسالة رقم ٢ :١٢٧ . كما يذكر التاريخ اسم «بروتيريوس» ايكونوموس المقر البابوى لبابا الإسكندرية القديس المعترف ديوسقوروس (البابا ال ٢٥ اعتلى الأسقفية عام ٤٤٤)[١].

ويقول الباحثون إن وظيفة الـ «إيكونوموس» كانت توكل عادة لأعضاء من الشعب المخصصين فى الحسابات وإدارة الأموال وغير المتقلدين رتبة كهنوتية. كما يحظر القانون أن تؤكل إدارة أموال الكنيسة ومقر الأسقفية أو البطريركية إلى أى من أقارب الأسقف أو البطريرك.

٧. يشرف على الاهتمام بإخوة المسيح الصغار:

الأرامل والإيتام والمعوزين والفقراء وزيارة المحبوسين ويدير خدمة الكنيسة (وتحوى الدسقولية تعاليم الرسل الفصول من ١٦ ـ ٢٠ تعليمات عن هذه المسئولية بالتفصيل)، وهو يؤدى هذه الخدمة من خلال رتبة الشماسية، من خلال رئيس الشمامسة فى إيبارشيته. ومن بين النصوص الملفتة للنظر فى قوانين الكنيسة هذا القانون التاسع والثلاثون من مجموعة قوانين القديس باسيليوس المذكورة فى مخطوطة قوانين الكنيسة والتى تظهر مدى اهتمام الكنيسة بممارسة الأسقف الإشراف على هذه الخدمة بل والاهتمام بهذه الفئة من أبناء كنيسته:

يقول القانون التاسع والثلاثون من قوانين الرسل:

[لأجل أسقف لابس برفير وحرير وفقرا مدينته جياع وعراة. أسقف يلبس برفيرا وحريرا

(١) راجع المرجع المشهور لأعمال المجامع: Mansi, iv., 1017

وفقراء مدينته جياع أو عراة ليس هو أسقفاً، و(يجمع) على مائدته أطعمة مختلفة، وينسى ضيقة الفقراء فهو يهودى جديد].

وينطبق هذا القانون على كل نوع من البذخ والمصاريف الزائدة التى تصرف تحت أية مسميات وتتنافى مع روح التجرد والفقر الذى نذرهما الأسقف يوم رهبنته.

٨. يمارس القضاء والتحكيم والمصالحة بين أفراد الشعب

وفى هذا السياق يحتم كتاب الدسقولية أن يمارس الأسقف قضاءاً عادلاً (الدسقولية ٣: ٥٩ ـ ٧٩)، ويتبع الإجراءات القانونية المحددة بدقة (الدسقولية ٤: ٤٦؛ الفصل الثامن كله، حيث يحذر من التسرع فى الحرم من الكنيسة، كما ينصح بالأخذ بالإجراءات المدنية فى القضاء الكنسى وفى طريقة إصدار الأحكام).

٩. ممارسة أعمال الرعاية بالشركة مع القسوس:

إن سلطان الأسقف ليس مطلقاً، بل هو يمارسه بالشركة مع مجمع القسوس ومجمع الشمامسة ومقدمى شعب الكنيسة (أى مجلس الأراخنة). والقائد المسئول بحق يعرف جيداً أنه يجب أن يكون على أتصال دائم بكل من شركائه فى الخدمة السابقين عليه والمستجدين وتابعيه ورعيته، لأنه هو وهم شركاء فى نفس الجسد. يخاطب القديس كبريانوس أسقف قرطاجنة بشمال أفريقيا فى القرن الثالث قسوس كنيسة قرطاجنة:

[منذ اللحظة التى تقلدت فيها الأسقفية، آليت على نفس ألا أتخذ موقفاً بناء على قرارى الخاص بدون مشورتكم وموافقة الكنيسة].

الرسالة ١٦: ٣

لذلك فمن أهم المؤسسات التى تعاون الأسقف فى مهمة الرعاية مجلس القسوس. فالأسقف حينما يباشر خدمة الرعاية لنفوس شعب الإيبارشية وإدارة أموال ومقتنيات الإيبارشية، فإن ذلك يتم من خلال «مجلس القسوس» الذى يجمع قسوس إيبارشيته.

آداب المكاتبات، والقرارات، ومخاطبة الرتب الكنسية والشعب:

تقول مخطوطة ابن كبر «مصباح الظلمة فى إيضاح الخدمة» أنه حينما كان آباء الكنيسة

من البطاركة والأساقفة يخاطبون أحد البطاركة الآرثوذكسيين فكانوا يدعونه بالأب، وما يجرى هذا المجرى من آدب الخطاب والتواضع فى الكتاب والجواب؛

وكذلك مع المطارنة والجثالقة (أى البطاركة التابعين لبطريرك آخر، مثل بطريرك جاثليق الكنيسة الإثيوبية التابع لبابا الكنيسة الإسكندرية) والخارجين عن إيبارشيته.

أما الأساقفة فيكاتبهم بالأخ مع التبجيل اللائق بهم.

والإيغومانسيون وقسوس إيبارشياتهم، فكان يلقبهم بـ: «شركانى القسوس».

والأراخنة وأكابر الجماعة فيكاتبهم بالأخ رعاية لحرمتهم وحفظاً لمرتبتهم وأما بقية الشمامسة وجمهور الشعب فيكاتبهم بالأولاد المباركين.

والعادة أن يكون ابتداء مكاتباته بالسلام الإلهى وختامها بالدعاء الصالح.

ولأن الأسقف لا يتصرف فى شئون إيبارشيته بلا سند إنجيلى وآبائى، بل هو على أساس ناموس الله والتقليد الكنسى يؤسس كل تصرفاته، مستلهما المبادئ والسوابق التى اتبعها سلفاؤه الأساقفة فى القديم ، لذلك تعود الأساقفة الآرثوذكسيون أن يستهلوا قراراتهم وبياناتهم وتصريحاتهم بالرجوع إلى سلفائهم من آباءالكنيسة مع ذكر المراجع التى استندوا عليها فى هذه القرارات والبيانات والتصريحات والتصرفات.

الأسقف وأصول رعاية النفوس بتنوع أحوالها:

ولأن الرعاية هى أهم وأول عمل للأسقف، إذ أن الأسقف معتبر أولاً أنه راع (الدسقولية - المقدمة)، لذلك تشرح الدسقولية ما يمكن أن نسميه مبادئ «فن» أو «علم» الرعاية. فهى تعرض لمعظم أنواع النفوس التى قد يقابلها الراعى وتصف كيف يجب أن يعاملها الأسقف كلا بحسب نوعيتها. وفى الكلمات التالية يمكننا أن نحس بمعنى الرعاية ونرى صورتها كما كان يحس بها الرسل الذين سطروا ذلك فى تعاليمهم:

[أما تنظرون يا أولادنا الأحباء، وبأى مقدار أن الرب إلهنا كثير التحنن والصلاح والمحبة للبشر. والذى هو مستوجب عقاب الخطية لا يرذله، والذى يعود يقبله إليه ويحييه ولا يعطى موضعاً لقساوة الذين يريدون أن يدينوا بقساوة وعدم رحمة ويرذلوا الذين أخطأوا لكى لا يشتركوا معهم فى كلام العزاء الذى يستطيع أن يردهم إلى التوبة.

هكذا أيضا الأسقف ، فليحب أعضاء الشعب لأنهم أولاده. وليشفق عليهم بحرص المحبة مثل دجاجة تشفق على بيضها حتى يصير فراخاً. وليقبلهم إليه مثل فراخ حتى يصيروا دجاجاً. وليُعلم الكل، وينتهر المحتاج إلى الانتهار، لكي لا يوجعهم كثيراً. ويوبخهم ليستحوا، لكن لئلا يرجعوا إلى خلفهم يؤدبهم ليتجددوا، وينتهرهم ليدركوا ويسلكوا باستقامة.

ويحرس القوى، أى الذى هو ثابت فى الإيمان، يحرسه بدراية. ويرعى الشعب بسلام، ويقوى المتعبين، أى يثبت فى التعليم من يجرب، ويشفى العليل الذى بقلبين فى الإيمان]

الدسقولية ـ ٤: ١و ٣٢و ٣٣

ختاماً ـ هذه كلمة للقديس أغسطينوس أسقف هبو بشمال أفريقا فى القرن الخامس:

[خدمة الأسقف تنطوى على عمل أكثر منه كرامة! وكلمة «أسقف» مشتقة من كلمة «إبيسكوبوس». فالأسقف مفروض أنه هو الذى «يشرف» «وينظر من أعلى» على الذين هم تحت رعايته . كلمة «سكوبيا» Scopeia تعنى «الإشراف والنظارة»، وهكذا تكون الأسقفية تعنى «النظارة من أعلى»، أى أن يعتنى الأسقف بمن هم تحت رعايته. إذن، لا يستطيع أحد أن يكون أسقفا صالحاً إن كان يحب لقبه وليس واجبه] ـ القديس أغسطينوس فى كتابه «مدينة الله»

شروط رسامة الأسقف
والكفاءات الواجب توفرها فيه

لا شك أن الوضع الرئاسى الشديد الحساسية للأسقف كما عرضناه فى المقالات السابقة، سواء من دراستنا لطقس رسامة الأسقف أو لعرضنا لمهام الأسقف وأعماله المنوط به القيام بها، إنما يتطلب شخصيات مملوئين من الروح القدس، ذوى حياة روحية باطنية عالية قائمة على عمق وطول زمان فى الاختبار الحى للشركة مع الله وفى الانتصار على شهوات النفس، حتى يمكن أن يكون حامل هذه الوظيفة هو الصورة الحسنة لله وللمسيح أمام جمهور المؤمنين والعالم أجمع، لذلك يذكر القديس بولس تلميذه تيموثاوس الأسقف الذى أقامه على أفسس، قائلاً: «لا يستهن أحد بحداثتك بل كن قدوة للمؤمنين فى الكلام فى التصرف فى المحبة فى الروح فى الإيمان فى الطهارة» (٢تى ٣: ١٢).

وتوصى الدسقولية فى شأن شروط الأسقف بهذه الشروط العامة هكذا:

[هكذا سمعنا من ربنا يسوع المسيح أنه يجب على الراعى الذى يجلس أسقفاً على الكنائس فى كل إيارشية:

* أن يكون بغير لائمة ولا علة.

* طاهراً من كل غضب الناس،

* ليس بأقل من خمسين سنة،

* وقد هرب من حركات الطفولية وأباطيل الخارجين،

* وصار طاهراً من التجديفات التى يأتى بها قوم من الاخوة الكذبة على كثيرين.

* وليكن أيضا، وإن كان ذلك ممكنا ممتلنا من كل تعليم، وكاتباً، بل يجب أيضا أن يكون بصيراً بالكلام،

* متوسط القامة].

الدسقولية ٣:١،٢.

كما يقول القديس كبريانوس فى شرط القدوة المبادئ الآتية:

* [الأسقف يجب أن يكون النموذج الحى لأعضاء كنيسته]

الأسقف المتقدم والأول بين الأساقفة

أسقف مدينة الكرسى الرسولى

البطريرك هو «أسقف مدينة كرسيه»

هذا هو الوصف المبسط والأولى الذى تصف به المدونات القديمة المختصة بترتيب نظام الكهنوت رتبة البطريرك الإسكندرى (المجموع الصفوى لابن العسال ـ ص ٩٢٩. وهو يعنى أول ما يعنى أنه أولا أسقف المدينة العظمى المحبة للمسيح «الإسكندرية»، مقر كرسى الرسول الإنجيلى الطاهر القديس مرقس كاروز الديار المصرية، والمدينة التى استشهد فيها. وهو ما

اعترف به مجمع نيقية المسكونى (عام ٣٢٥م) وسجله في القانون رقم ٦ من مجموعات قوانينه العشرين:

القانون ٦ من مجمع نيقيه:

[فلتحفظ العادات القديمة فى مصر وليبيا والمدن الخمس فى أن لأسقف الإسكندرية الرئاسة عليها كلها].

لذلك فالإسم الكنسى الرسمى التقليدى للبابا البطريرك هو: «صاحب الغبطة والقداسة بابا وبطريرك ورئيس أساقفة المدينة العظمى الإسكندرية وكل أرض مصر وأورشليم المدينة المقدسة، والنوبة، والحبشة (إثيوبيا)، والخمس المدن الغربية، وسائر أقاليم الكرازة المرقسية». وأضيف عليه أخيراً «بلاد المهجر وأفريقيا». والجزء الأول من اللقب هو تعريف اقتران أسقف الإسكندرية بإيبارشيته التى قسم عليها: «بابا وبطريرك ورئيس أساقفة المدينة العظمى الإسكندرية». وهو الإسم الذى يستعمل فى كل الصلوات الطقسية والليتورجية، مثل الخولاجى المقدس وكتاب صلوات الرسامات وغيرهما.

ثم بحسب القانون الرسولى رقم ٢٥، وبحسب القانون السادس من مجمع نيقية المسكونى، فإن أسقف مدينة الإسكندرية العظمى هو الأول والمتقدم بين (متساوين) أساقفة مصر وليبيا والنوبة والخمس المدن الغربية.

وكلمة «بطريرك» هى النطق العربى للكلمة اليونانية باترياrشيس PATRIARCHIS ومعناها كما ورد فى كتاب الجوهرة النفيسة فى علوم الكنيسة ـ تأليف العالم القبطى فى القرن الحادى عشر يوحنا بن زكريا المعروف بابن السباع كما يلى:

[معناها الأب الرئيس أو الأب الأول أو رئيس الرؤساء أو أب الآباء أو أب لكل الأمة].

إذن فهى ليست رتبة مستقلة بل اسم ولقب رتبة أسقف المدينة العظمى أو مدينة الكرسى الرسولى.

وبحسب هذا الوضع، أى كون البطريرك هو أولاً أسقف على مدينة الإسكندرية، فيقال فى كتب قوانين الكنيسة إنه لا يجوز له أن «يقيم أسقفاً للإسكندرية» ـ بسبب وجوده فى القاهرة

بعيداً عن الإسكندرية. ولذلك جرت العادة منذ انتقال مقر الحاكم السياسي من الإسكندرية إلى القاهرة أن يعين البطريرك «وكيلا» له في الإسكندرية بدرجة «إيغومانس» متحاشياً حتى إيفاد «أسقف» منعاً من اللبس ومن شبهة وجود أسقفين في إيبارشية واحدة. بل كان آباؤنا البطاركة يرسمون أحياناً أسقفاً للقاهرة (ومن بين الأسماء المشهورة الأنبا بولس البوشي أسقف مصر في القرن الثالث عشر) ليقوم بأعمال الرعاية للعاصمة، بينما يتفرغ البابا البطريرك لرعاية مدينة كرسيه «الإسكندرية» بجانب مهامه الأخرى كرئيس ومتقدم بين الأساقفة.

شروط وكفاءات البابا البطريرك:

إن تحديد واستيفاء شروط وكفاءات البابا البطريرك في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية أمر في منتهى الخطورة، ذلك لأن شخصية بابا الإسكندرية، حسبما نقرأ في تاريخ الكنيسة، كانت في معظم الأحوال ذات تأثير روحي خاص عالي المقدار على مجريات الكنيسة في عصره بل وعلى الأقباط عموماً، بل وأيضاً على الوطن كله. بحيث أن أحداث الكنيسة القبطية كانت دائماً تتمركز وتستمد دفعاتها، إن إيجاباً أو سلباً، من شخصية البابا، حسب درجة روحانية البابا ومدى علمه وقوة حكمته وسلامة أحكامه وحسن تدبيره ومدى تمسكه بالقوانين والتقاليد الكنيسة القبطية العريقة.

ولهذا السبب كان عملية اختيار بابوات الإسكندرية تشغل حيزاً كبيراً في كتب التاريخ الكنسي، وكثيراً ما كانت تشغل أيضا فترات زمنية طويلة قد تمتد في بعض الأحوال إلى عشرات السنين!

لكن هناك، بلاشك، مبادئ عامة وثوابت متفق عليها أجملتها الكتب القانونية الكنسية في باب اختيار البابا البطريرك. نعرضها هنا باختصار.

فشروط وكفاءات البابا الإسكندري هي نفسها شروط الأسقف، كما ورد ذلك في كافة الكتب الكنسية المختصة. ولكن يضاف عليها بعض الصفات الواجب توفرها في من سيكون في موقع المركز والبؤرة للوحدة في الكنيسة (وقد نقلناها عن المجموع الصفوي ـ ص ٢٨، ٢٩):

١ ـ أن يكون قادراً وأهلاً لحفظ الإيمان بأصوله المستقرة وأقوال الرسل وقرارات المجامع، ليكون (الإيمان) محروساً من الخلل، والأمة ممنوعة من الزلل.

٢ ـ تنفيذ الأحكام بالحق وقطع المنازعات (أى صحة إجراءات وعدالة المحاكمات الكنسية).

٣ ـ تقدير العطاء للمستحقين من غير إسراف ولا تقصير (أى الحكمة فى تدبير أموال الكنيسة والصرف على ما يستحق الصرف، ومنع ما لا يستحق الصرف).

٤ ـ تقليد الرئاسات لمستحقيها أى الحكمة والتدبير السليم في رسامات الأساقفة والكهنة، وأموال الصدقات للكفاة الأمناء.

٥ ـ أن يباشر الأمور العامة، ويأخذ القرار في الأحوال الخاصة بنفسه، ولا يكتفي بالتفويض فى كل الأمور. (أى لا يوكل شئون الكنيسة إلى يد أحد مساعديه أو خدمه أوحتى إلى مجموعة من المحيطين... الخ بل يفحص بنفسه الأمور العامة ويتخذ القرارات بمنتهى الإحساس بالمسئولية الشخصية).

٦ ـ وينبغي أن يتشاور مع أهل العلم في الأحكام وأهل الرأى فى النقض والإبرام.

(أى الركون إلى أهل العلم والرأى من الشعب ذوى المناصب المدنية العليا أو الأخصائيين في العلوم المدنية والاجتماعية والسياسية ليأخذ مشورتهم فى مناحى الصواب واللياقة في التصرف والسلوك والقول وما أشبه تجاه القضايا الدينية وغير الدينية، أى معتمداً على أهل الخبرة والعلم والحكمة المشهود لهم). (انتهى الاقتباس من المجموع الصفوى).

إذن فللشعب (بحسب قوانين الكنيسة) دور فى الشركة والمشاركة فى ا تخاذ القرار الكنسي، وعلى الأخص فيما يختص بالمعاملات المالية للكنيسة وبالعلاقة مع السلطة والهيئات المدينة. وهذا هو الوضع السائد فى الكنيسة منذ ا لبدء والواجب استمراره على الأخص فى مجتمعاتنا الحديثة وفى نظام الدولة الحديث، الذى لم يعد فيه مركز البطريرك مثل مركزه فى نظم ا لحكم القديمة قبل الاستقلال (مثل حكم الدولة العثمانية قديماً)، التى جعلت من البطريرك فى وقت واحد رئيساً دينياً ومدنياً وقاضياً فى الأمور الدينية والمدنية للشعب القبطى، مما أفقد هذا المركز الجليل روعته وبهاءه الدينيين، وفى الوقت نفسه اذى الكنيسة وغير من مفهوم ونظام رئاسة الكنيسة، وكأنها «ملة» مغلقة على نفسها داخل الوطن.

فالبابا البطريرك، في و ضعه الكنسى الصحيح، وفى نظام الدولة الحديثة القائم على دستور يساوى بين المواطنين جميعاً فى الحقوق والواجبات والحريات والتقاضى والأحكام والسفر.. الخ، والقائم على الديمقراطية الاجتماعية والسياسية بأحزابها المتعددة ، وحرية إبداء الآراء السياسية،وعدم التفرقة بين المواطنين بسبب الدين أوغيره، فى مثل هذا النظام يعود مركز البطريرك إلى موقعه الكنسى الصحيح والمؤثر داخل الكنيسة جسد المسيح، ومركزاً للوحدة الروحية بين المؤمنين، ومبشرا بالخيرات السماوية، وكارزاً ومعلماً بإنجيل المسيح وتعليم الرسل وعقيدة الاباء، داعياً المؤمنين للالتزام بوصايا الإنجيل والفضائل المسيحية، وبالإقناع والترغيب مستنداً على «برهان الروح وقوة الله» (١ كو ٢ : ٤ و ٥)، تاركاً لشعبه أن يحولوا التعليم الروحى الكنسى الذى تعلموه داخل الكنيسة إلى طاقة وطنية بناءة، كل فى موقعه داخل المجتمع،فيما رسوا حقوقهم وواجباتهم الوطنية والسياسية وإبداء آرائهم فى هذه المجالات بمنتهى الأمانة والصدق والحرية، نائياً بنفسه وبالكنيسة (أى كل مصاف الإكليروس) عن الانخراط فى تداول وتناول الشئون المدنية والسياسية من بعيد أو من قريب. أى، باختصار، تعود الكنيسة أيقونة رائعة لجسد المسيح: شعب الله وعلى رأسه أسقف يعلن سر وحدة الكنيسة مع رأسها الرب يسوع المسيح (التى هى الصورة والمثال لوحدة البشرية الجديدة المرتجاة)، وتكون صوتاً لمن لا صوت لهم وشفيعاً لمن ليس لهم أحد يذكرهم، منادية فى كل مصارف الإكليروس)، بالقدوة أولاً وبالخطاب الهادئ الوديع ثانياً، رمزاً ومثلاً أعلى روحياً بين كافة المواطنين، مثابراً على الدعوة إلى السلام والمحبة والعدل وكل القيم الإنسانية السامية التى تنادى بها المسيحية، مشاركاً الوطن فى كل اهتماماته وجهاده وآماله وتطلعاته بالصلاة والتشجيع والبذل والتضحية على قدر ما تستطيع الكنيسة أن تعطى وتبذل من أجل الوطن، دون أن تتخلى عن مبادئ الإنجيل وتعليم الآباء وتقليد الكنيسة الأرثوذكسية بخصوص علاقة الكنيسة بالدولة والسياسة.

شروط طاعة وتعظيم وإكرام البابا البطريرك:

ويتبع المجموع الصفوى قانونه السالف هذا بقوله:

[وإذا دام قائماً بما يلزمه، مستمرة شروطه، لزمهم طاعته وتعظيمه وإكرامه وحقوقه]

كيفية اختيار البابا البطريرك:

يقول كتاب الجوهرة النفسية فى علوم الكنيسة»:

[يجتمع المطارنة والأساقفة والكهنة والأراخنة والرؤساء، ويقدموا الصلاة لله بالصوم والتضرع والتقديس عشية كل يوم أحد وغيره، لكى يرشدهم إلى انتخاب من يصلح لهذه الوظيقة لينظر فى أحوالهم الوقتية، (يلاحظ أن هذا الواجب كان هو السائد أيام الحكم العثمانى حينما كان المسيحيون فى الشرق معتبرين ملة مستقلة عن الوطن)، وأحوالهم المستقبلة، ويرويهم من تعاليمه وإرشاداته الإلهية. فيحولوا نظرهم إلى كل أهل العلم والعمل والدين والتدبير والسياسة. وبانتخاب الإله واختياره الذى قبل تضرعاتهم كما قبل من لعازر الدمشقى عبد إبراهيم سؤاله فى انتخاب زوجة لإسحاق ابن سيده، يرشدهم إلى من هو قادر على صد هرطقة ومغيرى الأمانة وأرباب البدع بعلمه ورد سهام إبليس وجنوده أعداء الكنيسة بطهارته وقداسته.

وبعد الاتفاق عليه من الأراخنة والرؤساء وأعيان البلاد باتفاقهم مع المطارنة والأساقفة الذين لهم رأى فى ذلك ولهم تقدمته ووضع اليد عليه كما وضع هو اليد عليهم، بعد ذلك يأتون به مقيداً إلى هيكل الله. فإن كان راهباً فبالإسكيم، وإلا رهبنوه بالإسكيم أولا. وإن كان شماساً فليقدموه قسيساً، وإن كان قسيساً فليقدموه إلى رتبة إيغومانس. وإن كان إيغومانساً فيأخذوه إلى ثغر الإسكندرية لوجود كرسى البطريركية ووجود الملك الأرضى هناك أيضا (طبعاً كان ذلك قبل انتقال مقر الحكم إلى القاهرة).. ثم يلبسونه حلة الملك السماوى ويوصلوه إلى الكنيسة الجامعة بالإسكندرية بملاقاة أهل الثغر بالفرح والتهليل والابتهاج، فيقيدونه... الخ.]

هذه صورة للإجراءات التى اعتاد الأقباط اتخاذها فى ا نتخاب بطريركهم:

١ ـ اجتماع الإكليروس مع الشعب بالصلاة والصوم والتضرع.

٢ ـ يبدءون فى التفتيش عن أهل العلم والدين والتدبير والسياسة (يقصد الذين يعرفون كيف يسوسون الكنيسة، وليس «السياسة» بمعناها العصرى Politics).

٣ ـ حينما يتم الاتفاق على شخص المرشح من جانب الشعب ممثلاً فى الأراخنة والرؤساء

وأعيان البلاد، ويكون هذا بالاتفاق مع الآباء الأساقفة والمطارنة، يأتون به مقيداً إلى هيكل الله. حيث أن المرشح من المفترض أن يكون راهباً يسكن البرارى، وعادة يكون قد حاول الاستعفاء والهروب من هذا المنصب، وهذه كانت عادة كل القديسين أن يهربوا من مناصب الكرامة والرئاسة (أى لا يسعى إلى اعتلاء المنصب بسعاياته أو بسعايات الآخرين من أنصاره).

٤ ـ كما تذكر وثائق أخرى أن المسئولين عن الانتخاب كانوا «يسالون شيوخ البرية» أى الآباء الروحيين الكبار في الأديرة لكي يرشدوهم عمن يصلح لهذه الدرجة الكهنوتية المقدسة. لأن أقدر من يستطيع أن يعرف أصحاب المواهب من الرهبان هم آباؤهم الروحيون ومدبروهم، لذلك جرى التقليد على التوجه أولاً إلى هؤلاء الآباء الشيوخ. فالعملية هى، بحق، عملية «تفتيش» و«بحث» و«استرشاد بمشورة الآباء الشيوخ» مقترنة بالصلوات والصوم والتضرع إلى الله عمن هو مستحق وجدير بهذه الدرجة الجليلة.

كما نقدم صورة أخرى من صلوات الرسامة نقلاً عن مخطوطة القرن الثالث عشر المطبوعة في رومية. حيث يلقى الأرشيدياكون يوم الرسامة خطاباً «جهيراً» أى بصوت عال قائلاً لشعب الإسكندرية المجتمع لإكمال رسامة أسقفهم الجديد:

[أيها الذين هم من مدينة الإسكندرية العظمى المحبة للمسيح وتخمها. لكونكم وادّين الآباء جدا ولم تستطيعوا الصبر على مناحة اليتم، بل صنعتهم بنشاط هذا الرأى والاتفاق، وهو أن تطلبوا لكم أبا، وحرصتم على ذلك، ولهذا إذ اجتمع الأساقفة الجزيل برهم والقسوس الزائدى العبادة لله والشمامسة المحبين لله جداً، ومعهم الرهبان الجزيلى الورع رؤساء الأديرة، وكل الشعب المحب للمسيح جداً الذى من مدينة الإسكندرية العظمى وكل كورة مصر، الذين باتفاق إذا بذلوا في هذا الأمر غاية ما يمكن من الحرص، واعتمدوا التفتيش فى كل مكان ليجدوا المستحق الذى يجب أن يرعانا ويسكننا على مرعى صالح ومكان خصيب، ولهذا تضرعنا بتوسل إلى الإله الناظر الكل أن يرينا من يجب أن يكون مستحقاً لهذه الرتبة وملائماً لها، فألهمنا أن نبصر (فلان) الجزيل العبادة لله القس الراهب الزائد الورع من الدير البهى (الفلانى) لنجعله راعياً عظيماً ورئيس أساقفة

جالساً بالخلافة فى كرسى الإنجيلى الباهر القديس مرقس الناطق بالإلهيات والرسول لتثبيت واصلاح كنائس الله المقدسة..)(*).

وهذه الإجراءات التى تعطى الروح القدس حقاً الفرصة لاختيار البابا الجديد، أحيانا كثيرة روعيت، ولكن للأسف كسرت أحياناً أخرى.

وثائق طقس الرسامة:

وفى القسم الأخير من ملاحق البحث نقدم ثلاثة وثائق هامة وأساسية فى صلوات الرسامة على بابا الإسكندرية بحسب الأصول الكنسية بوضع الأيادى عليه التى هى أخطر وأقدس لحظة فى رسامة بابا ورئيس أساقفة الإسكندرية، وهى التى تمت فى رسامة المثلث الرحمات البابا كيرلس السادس البطريرك ١١٦ (١٩٥٩ ـ ١٩٧٠) وذلك يوم الأحد ٢ بشنس سنة ١٦٧٥ للشهداء الموافق ١٠ مايو سنة ١٩٥٩ وهى:

١ ـ التزكية

٢ ـ صلوات وضع الأيادى على رأس أسقف الإسكندرية

٣ ـ تقليد رياسة الأسقفية لكنيسة الإسكندرية

وقد نقلنا نص هذه الصلوات عن مجلة رسالة المحبة الغراء فى عددها التاريخى رقم ٦ من السنة الخامسة والعشرين الصادر عن شهر بشنس ١٦٧٥ مايو يونيو ١٩٥٩. وقد ضاهينا هذه الصلوات على أقدم ما فى أيدينا من مخطوطة تكريس ورسامة البطريك المطبوعة فى روميه عام ١٧٦١ للميلاد ١٤٧٨ للشهداء وترجع المخطوطة الأصلية إلى منتصف القرن الثالث عشر تقريباً، فوجدناها مطابقة تماماً فيما عدا بعض الاختصارات الطفيفة جداً التى لا تغير فى مسار الأصول التقليدية أو المعانى العامة.

ولنا بعض التعليقات الختامية على هذه الصلوات:

١ ـ التزكية وصلوات وضع الأيادى وتقليد التجليس كلها تشير إلى إيبارشية «مدينة الإسكندرية العظمى» القديمة جداً المدينة التى يرسم عليها الأسقف البابا البطريرك وتوضع

(*) الإفخولوجيون، المخطوطة المطبوعة برومية.

عليه الأيادى لإعلان اقترانه بشعب هذه المدينة المحبة للمسيح. وكلها تخاطب أهل ثغر الإسكندرية بأنهم هم الشعب والرعية أصحاب الحق الأول (ولكن ليس الوحيد) لانتخاب البطريرك الجديد أسقفهم وراعيهم هم أولاً. والنعمة الخاصة الحالة على البطريرك الجديد لتأييده وتعضيده من فوق من لدن الإله الناظر على كنيسته تأتى من خلال طقس وضع الأيادى الأسقفية عليه.

ولكن كل هذا لا يكون ممكناً حدوثه، لو كان المرشح سبق له أن وضعت عليه الأيادى فى أيبارشية أخرى، أو كان بحسب الوضع المستجد: أى وضعت عليه الأيادى دون اقترانه بإيبارشية. ذلك لأن القانون الكنسى يمنع تكرار وضع اليد للأسقفية على رأس المرشح:

[لأجل من يقسم من دفعتين - إذا نال أسقف أو قسيس أو شماس قسمتين (أى وضع اليد بالنسبة للرتبة الواحدة) فليقطع هو والذى قسمه].

القانون ٤٨ من قوانين الكنيسة

على يد إكلمندس وعددها ٥٦ قانوناً

وفى الوقت نفسه يمنع انتقال أسقف من إيبارشيته التى قسم عليها إلى إيبارشية أخرى وعلى الأخص لإيبارشية الكرسى الرسولى، أو اقتران أسقف بإيبارشيتين خرقاً لشريعة الزوجة الواحدة، باعتبار أن قسمة أسقف على شعب إيبارشية هو بمثابة اقتران عريس بعروسه، وذلك حسب العرف الكنسى، ومفهوم طبيعة الكنيسة جسد المسيح وقوانين ترتيب الكهنوت فى الكنيسة القبطية الأرثوذكسية.

٢ - لم نشهد فى انتخابات هذه الرسامة (مايو ١٩٥٩) التى نشرنا صلواتها (فى ملاحق البحث) أية محاولة من جانب من المرشحين للدعاية لأنفسهم أو لتزكية أنفسهم على المرشحين الآخرين أمام الجماهير (على نسق الانتخابات السياسية والمدنية)، وهذه الملاحظة مقترنة بملاحظة أخرى أن كل المرشحين كانوا من الرهبان ذوى الدرجة الكهنوتية «القس» (وكانوا ملازمين قلاليهم أو مناسكهم بأديرتهم مسلمين الأمر لمشيئة الله).

٣ - يلاحظ أنه، فى وصف إجراءات اختيار المرشحين، يقوم المسؤلون بالتفتيش فى كل

مكان ليجدوا المستحق، وهم يقرنون هذه العملية بالصوم والتضرع والتقديس لكى يرشدهم الله إلى انتخاب من يصلح لهذه الوظيفة. فعملية الانتخاب عملية روحية بحتة أى أنها تتم بإرشاد وتوجيه الروح القدس الذى فى النهاية سيحل على من يختاره الله. والمرشح الصالح هو الذى يحس ـ بالصدق وبالحق ـ أنه غير مستحق لهذه المسئولية العظمى فإن طقوس الرسامة تقول: «يأتون به (من مكان خلوته) مقيداً إلى هيكل الله» لأنه فى الغالب يكون هارباً من أمام الذين يبحثون عنه. وهذا يضمن للكنيسة أن يكون البابا الجديد معضداً من الله مسنوداً بنعمة الروح القدس، وليس بأى قوة بشرية أو ذاتية إذا كان قد سعى إلى المنصب بنفسه أو بسعاية آخرين.

الجدل حول ترشيح الأساقفة والمطارنة للكرسى البطريركى:

لقد ثار الجدل حول هذا الموضوع منذ ممارسة أول مخالفة لقانون الكنيسة، وذلك عام ١٩٢٨. وهذه هى أول ممارسة مضادة صريحة لطبيعة وأساس قيام الكنيسة، وهوانتقال أسقف أو مطران من إيبارشيته التى سبق أن رسم عليها إلى إيبارشية مدينة الإسكندرية العظمى (وبالتالى احتفاظه بالإيبارشيتين معاً ـ خرقاً لشريعة الزوجة الواحدة). وقد قام علماء الكنيسة وآباؤها وأبناؤها المخلصون بكشف خطأ هذه المخالفة وخطورتها على قداسة الكنيسة وطهارة خدامها وخلاص أنفسهم، منذ ذلك الوقت، بلا كلل ولا ملل،مما يقطع بأن جسد الكنيسة القبطية الأرثوذكسية غير قادر ولا قابل لاحتواء أو الرضا بهذه المخالفة.

وهذه المخالفة بالرغم من أنها اقترفت فى القرن الرابع (فى كنائس أخرى ولكن ليس فى كنيسة الإسكندرية القبطية الأرثوذكسية)، إلا أنها رفضت واستنكرت فى عدة مجامع مسكونية ومكانية، بأعتبارها «خطية»، وكثيراً ما وضعت فى مصاف خطية «الزنا»، كما فى قرار المجمع المقدس لكنيسة الإسكندرية القبطية الأرثوذكسية المنعقد فى الإسكندرية عام ٣٣٩م. كما أن أصوات العلماء اللاهوتيين قدامى ومحدثين لا تفتأ تدين هذه المخالفه، ناعتين إياها بأنها مخالفة بالرغم من تكرارها. لكن قانون مجمع نيقية المسكونى هو أقوى مانع فى وجه ارتكاب هذه المخالفة، ولا يمكن أن يبطل هذا القانون تكرار حدوث المخالفة، وذلك حسب المبدأ الكنسى القائل: إن المخالفات لا يجب أن ترتكب بذريعة أنها سبق وارتكبت فى الماضى كما قرر ذلك القديس كبريانوس.

ولسنا نريد الخوض فى البراهين التى قدمها المدافعون عن طهارة الكنيسة ونقاوتها. ولكننا نضع نصب أعين الجميع نص هذا المبدأ الكنسى الذى يحكم على مخالفات القانون الكنسى أيا كانت، وسواء كثرت أو قلت

[ليس معنى أن خطأ حدث فى وقت ما، أن يسمح بأن يتكرر هذا الخطأ فيما بعد]

القديس كيريانوس فى الرسالة رقم ٧٢:٢٣.

فالمخالفات لا يجب أن ترتكب تحت ادعاء أنها سبق وارتكبت فى الماضى. لقد كان هذا المبدأ هو الذى يحكم ضمير الكنيسة الحى على مدى الأجيال. فإذا حدث أن المعنى الحقيقى للقرارات القديمة للكنيسة نسى أو تشوه، أو استبدلت التقاليد الصحيحة بتقاليد أخرى مخالفة، فهذا لم يكن يعنى البتة أن يتحول الخطأ المتكرر ليصير قانوناً، مهما كان المخالف كبيراً أو صغيرا، قديساً أو غير قديس، من كنيستنا القبطية الأرثوذكسية أو من رؤساء الكنائس الأخرى.

وهذا هو الموقف الملزم أمام كل مخالفة فى الكنيسة يحتج مؤيدوها بأنها سبق أن ارتكبت فى عصر سابق أو أنها ترتكب فى الكنائس الأخرى. علماً بأن «عامل الزمن» لا يستطيع أن يحول الخطأ فيكون صحيحاً ولا المخالفة فتصير هى الوصية والقانون، بسبب تكرار الخطأ والمخالفة، وإلا لكانت الخطايا قد تحولت بسبب تكرار ارتكابها من البشر ملايين المرات فى كل الأزمان إلى أعمال بر أو على الأقل لم تعد خطأ منهياً عنه ويقع تحت دينونة الله!

ولكننا نفضل أن نسجل هنا المواقف التاريخية الإيجابية لمجامع مقدسة وآباء قديسين من بطاركة وأساقفة كنيسة الإسكندرية القبطية الأرثوذكسية، لنقتدى بشهود الحق فى مواجهة مواقف المخالفة.

شهود الحق فى مواجهة مواقف المخالفة:

١ ـ قرار المجمع المقدس لكنيسة الإسكندرية القبطية الأرثوذكسية المنعقد فى مدينة الإسكندرية عام ٣٣٩م. باعتبار انتقال أسقف إلى إيبارشية أخرى بمثابة خطية «زنا»

٢ ـ قانون أصدره المجمع المقدس للكنيسة القبطية الأرثوذكسية فى أثناء حبرية* البابا خائيل الأول البابا الـ ٤٦ (٧٤٣ ـ ٧٦٦م.) صرح فيه البابا قائلاً:

[السيف أو النار أو الرمى إلى الأسد أو النفى أو السبى فما يقلقنى. ولست أدخل تحت حرمى الذى كتبته بخطى وبدأت به بأن لايصير أسقف بطريركاً... فكيف أحلل اليوم ما حرمته بالأمس، وما أنكرته بالأمس أرضى به اليوم.

تأمل أمانة البابا لمبادئه السابقة التى كتبها بخطه وعدم تراجعه عنها بالرغم من تهديد الحاكم المدنى آنذاك، الخليفة جعفر بن المنصور العباسى، للبابا بالموت فى حالة الرفض.

٣ ـ المجمع المقدس للكنيسة القبطية الأرثوذكسية عام ١٨٦٥ أصدر القرار التالى:

[لا نسلم ولا نسمح قط للكهنة وشعب الكرازة المرقسية بحل وتعدى الحدود الأبوية. وكل من يطلب هذه الرتبة من الأساقفة أو المطارنة أصحاب الكراسى أو سعى فيها أو رضى بها، أو أحد سعى له فى شأن يطلبونه لها - كاهناً أو رئيس كهنة أو علمانياً يكون محروماً.

٣ - ثم نسجل بكل الفخر والإعزاز موقف الآباء مطارنة وأساقفة الكنيسة القبطية الأرثوذكسية فى العصر الحديث الذين عاصروا رسامة البابا كيرلس السادس حيث وقف فى اجتماع المجمع المقدس نيافة الأنبا أثناسيوس مطران كرسى بنى سويف والبهنسا السابق وكبير الأساقفة نفسه ـ واتفق مع أعضاء المجمع المقدس بالإجماع أن يتجنبوا ترشيح أى منهم للكرسى البطريركى خضوعاً وطاعة لمشورة العلى والتى سجلتها قوانين الكنيسة الرسولية وقوانين المجمع المسكونى الأول المنعقد فى نيقية عام ٣٢٥م . وهكذا كان كل المرشحين ممن لم تزد درجتهم الإكليروسية عن القسوسية.

٤ ـ كما نسجل بكل الفخر والإعزاز موقف المتنيح الأنبا أنطونيوس مطران سوهاج وكبير الأساقفة وقائم قام البطريرك فى فترة خلو الكرسى البطريركى (١٩٧٠ - ١٩٧١) الذى رفض بإباء وشمم ما عرض عليه من ترشيح نفسه للكرسى البطريركى ليكسر إجماع الإكليروس والشعب آنذاك على حتمية احترام قوانين الكنيسة بعدم ترشيح الأساقفة والمطارنة للكرسى البطريركى. وقد سمعناه يصرح آنذاك إلى الذين عرضوا عليه ذلك قائلاً:

{إني مرتبط بشعبي وإيبارشيتي، فلا أنا مستعد للطلاق منها، ولاهم مستعدون للتفريط في اقتراني بهم لأن شعبي يحبني وأنا أحب شعب إيبارشيتي}.

وقد نشر بياناً بهذا المعنى في الصحف العامة آنذاك.

إذن، فشهود الحق الكنسي في مصفّ المجمع الأسقفي لكنيسة الإسكندرية يقفون في كل جيل وزمان، يكملون ويحققون موهبة التعاقب الرسولي الذي تحمله كنيسة الله الأرثوذكسية.

* أما موقف الشعب وشهادته للحق الإلهي في هذا المجال فهو معروف ويمكن الرجوع إلى هذه المواقف منذ عام ١٩٢٨ وحتى الآن.

الأصول الأولى لرتبة «الشيوخ» أو «القسوس»

القسوس فى بداية المسيحية

مركز الشيوخ فى العهد القديم:

كانت المجامع اليهودية فى فلسطين يدبرها من يسمون بـ «الشيوخ» واسمهم بالعبرية «ذقنيم» وباليونانية «بريزفيتروى ـ والمفرد بريزفيتيروس» وكان هؤلاء الشيوخ يكونون مجلس السنهدريم الذى يرأسه رئيس الكهنة فى أورشليم. وكانوا ينتخبون لمدى الحياة. ومن بين أعضاء هذا المجلس كان هناك من يسمون بـ «الكتبة» أو «الرابيين» والذين كانوا يمارسون تأثيراً كبيراً على الشعب، إذ أنهم هم حفظة الناموس الذين يجلسون على كرسى موسى يعلمون الشعب شريعة الله بكل تفاصيلها ودقائقها. (ويقابل هذه الوظيفة فى العهد الجديد من يسميهم الرسول بولس «الشيوخ المعلمون» ١ تى ٥ : ١٧).

هؤلاء الشيوخ/ البريزفيتيروى كانوا يرسمون، أى توضع عليهم اليد لينالوا الروح الذى حل على موسى، والذى انتقل من موسى إلى يشوع،ومن يشوع إلى شيوخ بنى إسرائيل. فالشيخ «البريزفيتيروس» اليهودى كان مفرزاً وموشحاً بالروح من أجل القيام بعمل روحى، ويماثل هذا العمل ما كان يقوم به «القضاة» بعد ذلك فى العهد القديم.

(ولكن كانت هناك فى نفس الوقت وظائف أخرى داخل مجامع اليهود بخلاف الوظيفة الروحية المشار إليها أعلى الخاصة بالكتبة الرابيين، هذه الوظائف كان يقوم بها أعضاء من الشعب يسمون باليونانية» «أرخونتس» وبالعربية «أرخنة» أى «رؤساء» أو المقدمين من الشعب، وهؤلاء لم يكونوا من الكهنة الهارونيين أى لم يكونوا يقومون بتقديم الذبائح فى الهيكل، بل كانوا يؤدون أعمالاً مدنية. هؤلاء هم الذين يسميهم الإنجيل «الرؤساء» أو «رؤساء المجمع» وكانوا مسئولين عن مبنى المجمع المنتمين إليه وباقى الخدمات التى تجرى فيه. كما كان هناك مسئولون آخرون عن أعمال الخير والصداقات. وهؤلاء الخدام من أعضاء الشعب كانوا يسمون أيضا الشيوخ ولكن لم يكونوا رابيين. (وهؤلاء يقابلهم فى العهد الجديد من يسمون بالأراخنة

ومقدمى الشعب الذين بالرغم من عدم نوالهم أية رتبة كهنوتية إلا أن لهم مسئوليات مدنية داخل الكنيس، مثل الأعمال الإدارية والمالية والخيرية وغيرها).

ولأن الشيوخ المعلمين كانوا معتبرين أنهم حفظة الناموس، لذلك أقيموا رؤساء لمجامع اليهود.

مركز الشيوخ/ القسوس

فى الكنيسة المسيحية:

أما فى الكنيسة المسيحية فالوضع منذ البداية كان مختلفاً. فالكنيسة لم تكن تحيا بالناموس وعلى الماضى، بل باختبارها الحى لسلطان الله، وبرجائها فى الاستعلان النهائى والحاسم لهذا السلطان فى المستقبل متمثلاً فى المجئ الثانى للرب. والعهد القديم لم ينته فى العهد الجديد، بل تحقق واكتمل فيه. وبهذا، فإن العهدين لابد أن يشرحا بطريقة جديدة: العهد القديم كممهد ومتنبئ للعهد الجديد، والعهد الجديد كاستعلان وشرح واستيضاح لكل غوامض العهد القديم.

مركز الكنيسة فى العهد الجديد:

والكنيسة فى العهد الجديد هى الأداة الأساسية لكل هذا. فهى التى اقتنت العهد الجديد والتعليم الجديد للرب، وعليها أن تحافظ عليه. والرب الذى تخدمه الآن بالطاعة ـ ليس بالطاعة الناموسية بل بالطاعة الحرة الإرادية ـ هو المسيح معطى الناموس، الذى هو الآن حقيقة شخصية حاضرة ومنظورة، بالعيان للرسل وبالإيمان للمؤمنين بالرب بواسطة كلام الرسل. لذلك فقد أصبح الإيمان بتعاليم المسيح وحياته وقيامته ثم المعمودية هو الختان الجديد (بدلاً من الختان بالجسد الذى كان فى العهد القديم) أى هو المدخل الذى يؤهل المؤمن للدخول فى عضوية شعب الله الجديد بسر المعمودية.

و فى هذا الإطار يصبح الشيوخ الجدد هم الذين يمثلون التقليد الجديد ويقدمونه للأجيال اللاحقة. وكل هذا يتم بالروح القدس، الذى أصبح مرافقاً وماكثاً فى الكنيسة يكمل عمل المسيح ويستعلنه ويظهره ويشرحه للمؤمنين بعد صعود المسيح.

لذلك فسلطان الشيوخ البريزفيتيروس / القسوس ليس سلطاناً مأخوذاً من البشر، بسبب انتخابهم بواسطة البشر وليس بواسطة الرب على مثال تلاميذ المسيح الأوائل، بل إن سلطان

الشيوخ هو سلطان روحي مأخوذ من الله، بموجب اختيار شعب الكنيسة لهم. لذلك لابد أن تكون ممارسة هذا السلطان قائمة على طاعة روح المسيح، وفي خدمة إنجيل المسيح، ومن أجل بنيان الكنيسة، ومن أجل كل ذلك منح الرب لهم هذا السلطان.

أما إذا انقلبت هذه العلاقة الأصيلة بين السلطان ومانح السلطان أى الله، لدى حامل السلطان الذى انتخبته الكنيسة، وصارت هذه السلطةن تمارس وكأنها مطلقة بلا حدود وليس بحسب مشيئة الله ولا من أجل بنيان الكنيسة، فنكون قد ابتعدنا عن مفهوم الإختيار الإلهى للشيخ / البريزفيتيروس.

طقس السبعين شيخاً مع موسى

وعلاقته بطقس القسوس:

هذا من الناحية التاريخية، أما من الناحية التقليدية الكنسية، فالشيوخ صاروا يقامون فى الكنيسة المسيحية على نسق الشيوخ السبعين الذين اختارهم موسى النبى ليعاونوه فى تدبيره لأمور إسرائيل وهم فى البرية (ونجد قصتهم كاملة فى سفر العدد إصحاح ١١ :١٦ ـ ٢٥).

وقد ورد هذا الربط فى نص صلوات رسامة القسوس المبكرة والمتأخرة، منها خولاجى القديس سيرابيون: ٢٧، وكما ورد فى الدسقولية (٨ : ١٦ : ٤)، وكذلك فى مخطوطة الأفخولوجيون من القرن الثالث عشر المطبوعة فى رومية.

مركز مجمع الرسل، ودور الشيوخ معهم:

على هذا الخلفية يمكننا أن نتبع أصل المؤسسات الإكليروسية المسيحية:

فجماعة المسيحيين الأوائل فى أورشليم كان يرأسهم «مجمع الرسل» وكان هؤلاء الرسل معتبرين «معلمين» أو «رابيين» ومعروف أن المعلم أو الرابى لابد أن يكون تلميذاً لمعلم أو رابى أسبق منه (مثل بولس الذى تتلمذ على يدى غمالائيل قبل إيمانه بالمسيح).

وقد كان الاثنا عشر فعلاً تلاميذ متتلمذين لـ«المعلم» و«الرابى» الكبير والوحيد فى الكنيسة، ألا وهو ابن الله المتجسد الرب يسوع المسيح. ولكن لأن أى واحد يدعى بلقبه الأعظم، لذلك لم يسمى الرسل باسم« الشيوخ» (بالرغم من أنهم كانوا يعتبرون أنفسهم

هكذا، كما يدعو بطرس الرسول نفسه» أنا الشيخ (القس) رفيقكم «(بطرس الأولى ٥ :١)، وكما يسمى القديس يوحنا الرسول نفسه في رسائله باسم «الشيخ» (يوحنا الثانية ١ :١، يوحنا الثالثة ١ :١)] ـ إلا أنهم كانوا يدعون باللقب الأكبر وهو «رسول» يسوع المسيح.

سلطان «الرسول» في المسيحية:

وكلمة «رسول» كان لها دور كبير في نظام الكنيسة اليهودية في العهد القديم. فالرسول اليهودي واسمه بالعبرية «شليح» أو «سليح» كان هو الشيخ المبعوث من مجلس السنهدريم في فلسطين إلى مجامع الشيوخ خارج فلسطين ليبلغهم رسائل الكهنة والشيوخ في فلسطين، أو ليجمع منهم تقدماتهم للهيكل. وكان سلطان هذا الرسول المبعوث مستمداً ممن أرسله أى من رئيس الكهنة في أورشليم.

وأما «الرسول» في العهد الجديد فهو يستمد سلطته من رئيس كهنة العهد الجديد الرب يسوع المسيح.

وهكذا كان الرسل الاثنا عشر هم نواة إسرائيل الجديد، أرسلوا باسم شخص ربنا يسوع المسيح نفسه ليكملوا ويمتدوا بإرساليته، مزودين بسلطانه الشخصي وقوة حضوره الإلهي، ومن خلال عطية الروح القدس التي نالوها من الرب نفسه بعد قيامته من بين الأموات، ثم في يوم الخمسين في العلية، تحقيقاً لوعد الرب لهم قبل صعوده إلى السموات: «دفع إلي كل سلطان في السماء وعلى الأرض. فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس، وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به. وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر. أمين «(متى ٢٨ : ١٨ ـ ٢٠).

هذا هو سلطان الرسول المستمد من سلطان المسيح في السماء وعلى الأرض.

مركز الشيوخ/ القسوس بالنسبة لمجمع الرسل:

إلا أن «مجمع الرسل» ظل خارجاً عن المؤسسات الكنسية المسيحية المكانية وأعلى منها كما سنرى فيها بعد.

وأول ما نقرأ عن «الشيوخ» في العهد الجديد، نقرأه في سفر أعمال الرسل (أع ١٥ :٤)

في سرده لا نعقاد أول مجمع كنسي. فنقرأ عن وجود «الشيوخ» جنباً إلى جنب مع الرسل، ولكن دون الإفصاح عن متى رسم هؤلاء الشيوخ ومن الذى رسمهم فى أورشليم. إلا أن سفر الأعمال يقدم لنا رواية فى مكان آخر أن بولس وبرنابا وهما يبشران فى أنطاكية «انتخبا لهم (للمؤمنين الجدد فى أنطاكية) قسوساً (شيوخاً) فى كل كنيسة» (أع ١٤: ٢٣)، أما «الشيوخ» الموجودون فى كنيسة أورشليم فلم يذكر عنهم شئ من قبل. على أى حال، فقد ظهر أن هناك هيئة جديدة إلى جانب مجمع الرسل هى «مجمع الشيوخ أو القسوس» الذين نالوا وظائف روحية غير وظائف شيوخ اليهود.

لكن مجمع الرسل كان له التأثير الأول والأساسى على مجمع القسوس فى أورشليم وعلى مثيله فى الكنائس التى تأسست خارج فلسطين. ونجد فى الرسائل الرعوية التى أرسلها الرسل إلى الكنائس، أن الرسل كانوا يملكون زمام السلطة على هذه المجامع القسوسية وان كانوا يتعاملون معها كهيئات معترف بسلطانها.

وكانت علاقة «الرسول» بالكنائس ذات تأثير خاص، لأن الرسول كان يستمد سلطانه من الرب يسوع المسيح نفسه. فبهذا السلطان. كان الرسل يحثون ويقنعون المؤمنين، وأحياناً يمارسون السلطة الفائقة التى للرب نفسه، مثلما حدث فى موقف القديس بولس من أحد الخطاة الزناة فى كنيسة كورنثوس حينما أمر بأن «باسم ربنا يسوع المسيح، واذ أنتم وروحى مجتمعون مع قوة ربنا يسوع المسيح أن يسلم مثل هذا للشيطان لهلاك الجسد لكى تخلص الروح فى يوم الرب يسوع» (١كوه: ٤، ٥).

معالم رتبة القسوس ورتبة الأسقف:

لكن مثل هذا التدخل لم يكن يحدث باستمرار، لأن الرسل أوكلوا سلطة إصدار مثل هذه الأوامر إلى مجامع القسوس فى كل كنيسة. ثم تحددت السلطة فى يد أحد هؤلاء القسوس الذى انتخب ليكون رئيساً لمجمع القسوس باسم «إبيسكوبوس».

وهذا الاسم مقتبس من الكلمة التى تصف أهم وظائف هؤلاء القسوس وهى: حراسة النفوس وافتقادها وملاحظتها والإشراف عليها من أعلى (كما تدل عليها معنى كلمة «إبيسكوبى Episcopei»). لأن خدمة رعاية النفوس التى يقوم بها هؤلاء الشيوخ/ القسوس

تتضمن هذه الوظائف المعبر عنها بكلمة «إبيسكوبى»، بالإضافة طبعاً إلى الوظائف الأخرى مثل تقديم ذبيحة العهد الجديد بخبز وخمر (الوظيفة الكهنوتية)، ووظيفة التعليم، ووظيفة التدبير وغيرها.

لذلك لا نعجب حين نقرأ فى سفر الأعمال أن بولس الرسول استدعى «قسوس الكنيسة» فى أفسس وقال لهم».. أقامكم الروح القدس فيها أساقفة»... فليس هنا فى هذا النص اختلاط بين القسوسية والأسقفية اللتين نعرفهما اليوم متميزتين، لأن «قسوس الكنيسة» هم خدام الكنيسة ورعاتها، أما كلمة «إبيسكوبوس» فهى هنا ليست «لقبا» لرتبة بل «مضمون الوظيفة» التى يقوم بها هؤلاء القسوس أى الافتقاد.

ويمكن أن تتضح هذه الآية إذا ترجمناها هكذا: «... التى أقامكم الروح القدس فيها نظاراً / حراساً / مفتقدين/ ملاحظين» (وكل هذه المترادفات هى مشتقة من وظائف راعى الخراف واستعيرت لتصف عمل القسوس). وهذه الترجمة العربية لكلمة «إبيسكوبوس»: «نظاراً»، هى التى ترجمت إليها نفس الكلمة اليونانية «إبيسكوبى» فى رسالة بطرس الرسول الأولى ٥:٢ «ارعوا رعية الله التى بينكم نظاراً».

كما ندرك نفس هذا المفهوم ونحن نقرأ توجيه رسالة فيلبى إلى «اساقفة وشمامسة» (فى ١:١) إذ ليس من المعقول كنسياً أن يكون فى مدينة واحدة أساقفة عديدون؟ فواضح أيضا أن اللغة التى يستعملها بولس الرسول وهو يقول «أساقفة» يقصد بها مضمون مهام الافتقاد والملاحظة الروحية للنفوس التى يشترك فيها القسوس وليس لقب الوظيفة الأسقفية.

أصل الوظيفة الكهنوتية للأسقف والقس

إن سر الإفخارستيا هو محور العبادة المسيحية منذ البدء. وحسب إيمان الكنيسة الأرثوذكسية، فقد تأسس هذا السر يوم خميس العهد فى العشاء الأخير للرب مع تلاميذه.

هذا العشاء كان طقساً من طقوس وليمة عشاء ذى صبغة دينية يمارسه فى بعض المناسبات أفراد البيت اليهودى أيام المسيح، وبالرغم من أنه لم يكن له أية صفة ذبائحية، أى لم يكن يذبح فيه خروف الفصح، بل كان طعاماً عادياً، إلا أن المسيح أعطاه معنى جديداً تماماً فى هذه الليلة.

فقد رأى الرب يوم خميس العهد وهو جالس على مائدة العشاء الأخير، رأى بعين النبوة أن موته الكفارى الذى سيتم غداً الجمعة، هو موت ذبائحى، أى أنه سيموت كذبيحة العهد الجديد المقدمة عن خلاص وحياة كل العالم، أى أنه سيصبح غداً هو حمل الفصح الحقيقى، وليس الخروف الذى تعود اليهود أن يذبحوه فى كل عيد للفصح والذى سيكون موعده غداً الجمعة.

ولأن المسيح تقدم إلى الصليب بإرادته وسلطانه وحده، لذلك اعتبرت ذبيحة الصليب ذبيحة إرادية. ومن أجل أن يبين المسيح هذه السمة الإرادية فى ذبيحته، سبق وقدمها بالسر يوم الخميس بقوله لتلاميذه وهو يشير إلى الخبز والخمر الموضوعين على مائدة العشاء: «هذا هو جسدى الذى يبذل عنكم. اصنعوا هذا لذكرى... وهذه الكأس هى العهد الجديد بدمي الذى يسفك عنكم» (لوقا ٢٢ : ١٩ ـ ٢٠).

فهذان المقطعان اللذان نطقهما المسيح ارتبطت فيهما وليمة العشاء اليهودى القديم بموت المسيح كذبيحة. لذلك فإن هذا العشاء دخل فى هذه اللحظات المقدسة إلى المجال الذى لابد فيه أن يكون مقدم هذه الذبيحة (وهو هنا المسيح له المجد) كاهناً. وهذه هى الصفة التى فى المسيح والتى أستعلنت لنا لأول مرة فى العهد الجديد، صفة كهنوت المسيح، وهو يقدم نفسه ذبيحة جسداً ودماً، يبذلان كفارة من أجل حياة العالم.

وكما كان مقدم ذبيحة الفصح فى العهد القديم هو فقط رئيس الكهنة وليس غيره، كذلك فالمسيح يطلق عليه لقب رئيس الكهنة (آرشى إيريفس) أو الكاهن الأعظم، بسبب تقديمه ذبيحه نفسه كفارة عن خطايا العالم أجمع.

ومنذ ذلك اليوم المبارك، وتنفيذاً لأمر الرب: «اصنعوا هذا لذكرى» (لوقا ى٢ى٢ :١٩)، أصبح كل من يرأس الاحتفال الإفخارستى ويقدم الخبز والخمر فى الكنائس المسيحية، إنما يتركز عمله فى أن يعيد ويحقق ويعلن حضور «رئيس الكهنة الأعظم» الرب يسوع المسيح ويفسح له أن يكهن لشعبه. فكهنوت المسيح فريد، كون المسيح هو وحده الكاهن الأعظم، مقابل الكهنة ورؤساء الكهنة الكثيرين فى العهد القديم، وذبيحته واحدة وحيدة لكنها حية، ولذلك لم و لن تتكرر، مقابل تعدد وتكرار ذبائح العهد القديم.

ومن ذلك الوقت أصبح هذا الكهنوت الجديد الذى للمسيح ينضح من المسيح على جسده أى الكنيسة، كما يصف ذلك المزمور ١٣٣ بروح النبوة: «هو ذا ما أحسن وما أجمل أن يسكن الأخوة معاً (إجتماع المؤمنين فى الكنيسة). مثل الدهن الطيب على الرأس(دهن مسحة كهنوت المسيح رأس الكنيسة) النازل على اللحية لحية هارون (رمز الإكليروس) النازل إلى طرف ثيابه (و على جسم الكنيسة كلها أى شعب الله اللاؤس)، دون أن يحسب كهنة العهد الجديد كثرة فى العدد، بل هم كلهم محتوون فى كهنوت الكاهن الأعظم الواحد الأوحد، الرب يسوع المسيح، ويمثلونه أى يعلنون حضورة مجدداً كاهنا أعظم يقدم جسده ودمه عن حياة العالم.

الحركات الطقسية للكاهن أثناء القداس تعلن حضور المسيح وسط شعبه:

وكل هذا يتضح بأروع صورة فى الحركات الطقسية التى يلتزم بها الكاهن فى القداس الإلهى: إذ بعد تقديس الذبيحة (بعد كلمات التأسيس والرشومات) تتغير الطريقة التى يعطى بها الكاهن البركة للشعب. إذ لا يعود الكاهن يلتفت إلى مواجهة الشعب ويرشمهم رافعاً يده معطياً البركة. لهم ، لكنه وهو واقف على المذبح يتنحى قليلاً بعيداً من أمام الذبيحة لتكون الذبيحة المقدسة التى على المذبح (الجسد والدم الأقدسين اللذين لربنا يسوع المسيح) فى مواجهة الشعب، ويقول «السلام لجميعكم» دون أن يرشم أى دون أن يرفع يده بوضع من يبارك، لأن المسيح نفسه الآن هو الذى يبارك.

كما فى ذلك الزمان، الآن أيضاً:

وهكذا أيضا صار المقطعان من قول المسيح ليلة خميس العهد ينطقان بفم مقدم الإفخارستيا فى كل احتفال بالافخارستيا بعد ذلك (فيما يعرف بكلمات التأسيس والتى تبدأ بقول الكاهن: «لأن فيما هو راسم أن يسلم نفسه للموت عن حياة العالم...») وذلك فى كل قداس يقام، على مدى الأجيال وفى كل كنائس المسكونة، وبالتالى أصبحت كلمات المسيح هذه التى قالها ليلة خميس العهد تحمل فى ذاتها كل قوة وفاعلية لإتمام السر، كونها سبق أن نطقت بفم المسيح الكاهن الأعظم الأوحد مرة واحدة ليلة خميس العهد، فصارت هى التى تعطى للتقدمة المقدسة من الخبز والخمر سمتها الذبائحية، باعتبار أن المسيح حاضر وهو الذى

يقدسها بكلماته ذات الفاعلية الأبدية، وإن كان ينطقها بفم مقدم الإفخارستيا خادم مذبح العهد الجديد، فهو الذى كما صنع فى ذلك الزمان، هكذا الآن أيضا يبارك بنفسه الآن. ويقدس، ويكسر، ويعطى كنيسته وكل شعبه، (كما يصلى الكاهن بذلك فى القداس الغريغورى).

هذه هى أهم التغييرات التى حدثت فى وظيفة الشيخ اليهودى، حينما انتقلت إلى المسيحية. فالمشيخة أو مجمع القسوسية بالإضافة إلى أنها ظلت فى المسيحية، كما فى اليهودية قديماً، جماعية، وتمارس مهامها فى التدبير والتعليم؛ إلا أنها، فى المسيحية، أضيفت إليها مهام ليتورجية مسيحية جديدة ذات صبغة وسمة «كهنوتية» بسبب خدمة رفع القرابين وتقديم ذبيحة المسيح فى شكل خبز وخمر، أى بسبب السمة الذبائحية لطقس عشاء الإفخارستيا، الذى أسسه الرب يسوع المسيح ليلة عشاء الخميس الكبير.

الإيغومانس (القمص) وهو كبير القسوس

كلمة «إيغومانس» (ونطقها العربى المتداول محرفاً «قمص») يونانية الأصل Hegoumenos ومعناها: مدبر، أو كما يسميه كتاب الرسامات «الهادى»و«المرشد»، وهاتان صفتان من صفات وأسماء قبطان الباخرة وقائدها، وهما تنطبقان على مهام الإيغومانس.

إقامة أو انتداب الايغومانس، وليس ترقية:

وعملية إقامة الإيغومانس لا يسميها كتاب الرسامات «رسامة» بل «انتداب» و«انتقال من طغمة (أى رتبة) القسوسية إلى الإيغومانسية»، حيث لا يعاد وضع اليد على رأس القس المنتدب للإيغومانسية. إذن، فليس لائقا أن توصف هذه العملية بأنها «ترقية» على نسق ما يحدث فى المؤسسات المدنية. فهى «دعوة إلهية» كما يسميها كتاب الرسامات، ولها مهام محددة تضاف على مهامه كقس قبل الانتداب.

مهام الايغومانس:

١ ـ من بين مهام الإيغومانس (كما وردت فى مخطوطة صلوات الرسامة) ـ بالإضافة إلى مهامه كقس ـ أن «يصير أباً ومدبراً» للرعية فى الموضع الذى أقيم عليه. كأن يكلف بقبول اعترافات الرعية والنطق بالحل لهم، وكذلك التدخل فى المسائل الشخصية العويصة، مثل

حالات النزاع الأسرى ومحاولات الطلاق. وهذه المهمة الأخيرة تحتاج إلى من يكون حاملاً لمواهب الأبوة والتدبير والروح الرئاسى، وبعد خبرة طويلة فى خدمة القسوسية.

لذلك كان إيغومانس الإيبارشية يسمى بوكيل شريعة الأقباط فى الإيبارشية، حيث كان مساعداً للأسقف أو المطران فى إنهاء وفض النزاعات الأسرية وإصدار التصاريح الشرعية المختصة بالزواج وغيره.

٢ ـ ومن بين المواهب التى تحل على الإيغومانس موهبة «الروح الرئاسى» وهو فى هذا يماثل الأسقف فى نوال هذه الموهبة. إذن فيمكن أن نقول أن من مهام الإيغومانس أن يكون مركز وحدة وأداة تدبير حسن وتنسيق بين قسوس الكنيسة التى أقيم عليها من بينهم.

كما أن من عمله ـ كما أوضح كتاب الجوهرة النفيسة ـ «قراءة التحليل على كل قسيس يقدس»، أى يتلو صلاة التحليل قبل بدء القداس الإلهى، وذلك فى حالة غياب الأسقف والمطران، فهو يعتبر بمثابة نائب أو وكيل الأسقف أو المطران فى بعض الأعمال الرئاسية فى إيبارشيته . ولهذا السبب، فإنه أجدر من يكلف بأداء الخدمات العامة والمؤسسات التى تتبع الأسقف والمطران، حيث أن صفته الرئاسية والتدبيرية والنيابية عن الأسقف تؤهله لذلك.

بعض ما يمكن أن يوكل للإيغومانس من مهام

إن الإيغومانس فى كل إيبارشية يمكن أن يكون خير معاون للأسقف أو المطران فى تكميل مهامه المتشعبة الصعبة فى الرعاية.

ففى المدن الكبيرة مثل مدينة العاصمة أو مدينة الكرسى الرسولى، فيمكن للإيغومانس أن يكون مسؤلا ومنسقاً لخدمات الرعاية فى حى أو ضاحية، معاوناً كفؤا للبابا البطريرك فى حل النزاعات والمشاكل الرعوية اليومية. فيمكن أن يعين «وكيل البطريركية لشئون الحى الفلانى أو الضاحية الفانية» من أحياء وضواحى العاصمة المترامية الأطراف، أو «النائب البابوى» لبعض الخدمات العامة مثل تنظيم والإشراف على مدارس التربية الكنيسة أو المعاهد اللاهوتية أو خدمة اخوة الرب أو فى المؤتمرات أوحمل الرسائل إلى الكنائس الشقيقة الأخرى أو لأعمال السكرتارية الخ. وذلك على مستوى الإيبارشية أو الكرازة.

ولاشك أنه في هذه الحالة سيكون مستوجباً كرامة خاصة من الموفد إليهم بسبب صفته النيابية عن الأسقف أو البابا وبموجب تكليفه البابوى أو الأسقفى، وحسب ما أمر به القديس بولس الرسول: «أما الشيوخ (البريزفيتيروس) المدبرون حسناً (أى الإيغومانسيون) فليحسبوا أهلاً لكرامة مضاعفة» (١تى ٥:١٧).

وان حسن اختياره من بين القسوس وتكليفه بالمهام التى تتناسب مع المواهب الروحية التى نالها بصلوات الانتداب للإيغومانسية يمكن أن تعطى للخدمات العامة المختصة بالرعاية والتدبير فى الإيبارشية أو الكرازة دفعات قوية وتساهم فى التنسيق بين قسوس الكنيسة الواحدة أو المنطقة أو الإيبارشية الواحدة أو كافة إيبارشيات الكرازة.

سر التوبة والاعتراف بالخطايا

الاعتراف بالخطية فعل أساسى وهام فى عملية التوبة والمصالحة منذ عصر الكنيسة المسيحية الأول. وقد اختلفت طريقة ممارسته على مدى التاريخ من اعتراف علنى إلى اعتراف سرى عن بعض الخطايا المحددة.

١ ـ والاعتراف بالخطية مذكور فى الأناجيل كممارسة تلقائية من إنسان يحس بضعفه فيعترف بأنه خاطئ، مثل «بطرس» الرسول: «.. خر عند ركبتى يسوع قائلاً: أخرج من سفينتى يارب لأنى رجل خاطئ» (لو ٨:٥). ونجد المسيح يؤكد على مبدأ الاعتراف بالخطية فى مثل الابن الضال «فقال له الابن: يا أبى أخطأت إلى السماء وقدامك...» (لو ١٥: ١٨، ٢١)، وكذلك فى مثل العشار التائب (لو ١٨: ١٣). وفى سفر الأعمال نجد الاعتراف مرتبطاً بالتجديد للتوبة والإيمان بالمسيح «وكان كثيرون من الذين آمنوا يأتون مقرين ومخبرين بأفعالهم» (أع ١٨: ١٩).

والاعتراف بالخطايا تفصيلا نجده مذكوراً فى الرسالة الأولى ليوحنا كوضع قائم فى الكنيسة فى عصر الرسل، حيث يشير إلى الاعتراف بالخطايا كتمهيد لغفرانها: «أن اعترفنا بخطايانا، فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم» (١يو٩:١) وفى رسالة يعقوب يحث قارئى رسالته أن يعترفوا بخطاياهم: «اعترفوا بعضكم على بعض بالزلات (يع ١٦:٥). فالاعتراف هنا يتم على يدى القسوس.

فى الكنيسة الأولى:

وفى نهاية القرن الثانى الميلادى، يصف العلامة ترتليانس (من شمال أفريقيا) إجراءات مصالحة الخاطئ، حيث كان المسيحيون يعترفون بخطاياهم، ويلتمسون معونة الكنيسة، ويعلنون ثقتهم فى رحمة الله:

[هذا الاعتراف Exomologesis هو عمل نسكى ذو صفة تواضعية عظيمة.. فهو يعلم التائب أن يلقى بنفسه عند أقدام الشيوخ / البريزفيتروس، وأن يرتمى بركبتيه أمام محبة الله، ويلتمس من كل الإخوة أن يتشفعوا من أجله) ـ كتاب التوبة: ٩.

فعل الاعتراف بهذ الصورة، كان يتم أثناء الاضطهاد الرومانى تحت إمبراطورية «ديسيوس» فى منتصف القرن الثالث، حينما كان من الضرورى فى الكنيسة مواجهة الذين جحدوا المسيح تحت وطأة الاضطهاد ثم أرادوا التوبة والرجوع مرة أخرى.

وفى هذا الإطار يصف القديس كبريانوس عملية المصالحة مع الكنيسة أنها تتضمن «الاعتراف» Exomologesis، ثم وضع أيدى الأسقف على رأس التائب المعترف كإشارة إلى عودة القبول الكامل له فى شركة الإفخارستيا.

وحوالى القرن الخامس استبدل الاعتراف العلنى بالاعتراف السرى. وهذا التغيير فى طريقة الاعتراف يصفه المؤرخ «سوزومين» هكذا:

[ولأن طلب الغفران أصبح يستلزم الاعتراف بالخطية، بينما قرر الأساقفة منذ البدء، وهذا الحق، بأنه ثقل شديد جداً أن يعلن الواحد خطاياه فى محفل عام أمام الكنيسة المجتمعة كشهود، فقد اختاروا لهذا الغرض شيخاً/ بريزفيتيروس /قس، رجلاً على أعلى درجة من النقاء، رجلاً هادئاً، حكيماً، لكى يأتى الخطاة إليه ويعترفوا بأفعالهم..]

ومنذ ذلك الوقت والكنيسة تمارس سر الاعتراف بهذه الصورة الدقيقة على رجال تحتم أن يكونوا «على أعلى درجة من النقاء، هادئين، حكماء». كان الأسقف هو الذى يختارهم من بين مجمع القسوس، إذ لم يكن يسمح لأى قس / بريزفيتروس مرسوم حديثاً أن يسمع اعترافات التائبين، بل فقط الذين يختارهم الأسقف ويعطيهم حلاً لتلقى اعترافات الشعب بموجب خطاب رسمى بذلك، وكان يسمى «معلم الاعتراف». (والى وقت قريب جداً كان

هذا النظام مطبقاً في الكنيسة القبطية). لذلك تذكر مخطوطة الإفخولوجيون (القرن الثالث عشر) في نهاية صلوات رسامة القس / البريزفيتروس وصية للقس في قبول الاعتراف هكذا:

[ولا بأس أن تقبل الاعتراف إذاجاء إليك أحد معترفاً بخطيته، إن كنت مدرباً بهذه الصناعة. فإن القانون المقدس يقول: «إن الكاهن الذي لا يقبل المعترف، ينفى من الجماعة». ويعقوب الرسول ينذر المعترف ومعلم الاعتراف معاً ويؤكد أن ذلك واجب وفرض، بقوله للمعترف: «وليعترف بعضكم لبعض بخطاياكم»، ويقول للمعترف له: «وليصل بعضكم على بعض»، أي الكاهن يصلي على الرعايا. «لأن من يرد الخاطئ عن ضلاله يخلص نفساً من الموت ويستر على خطايا كثيرة»].

ويشترط الطقس الخاص بتلقي الكاهن القس المسمى «معلم الاعتراف» لاعترافات الشعب، أن عليه أن يتعلم أولاً ما يسميه الآباء «الطب الروحي» أو «طب النفوس»، وذلك على يد أب روحي وشيخ خبير بالمعالجة مشهور بالنجاح:

[ويجب أن تتخذ لك قبل ذلك ـ أي قبل ممارسة تلقي اعترافات الشعب ـ أباً وشيخاً خبيراً بالمعالجة، مشهوراً بالنجاح، حتى يعلمك أن تضع الدواء والمرهم بما يلائم الوجع والجراح].

محاذير ممارسة تلقي الاعتراف دون خبرة روحية:

فليس كل قس مرسوم حديثاً مسموح له بأن يتلقى اعترافات الشعب إلا بعد أن يتعلم طب الأرواح والنفوس أولاً. وهذا العلم الروحاني تشرح الوصية محاذير الجهل به:

[لكي لا تضع دواء العين على الرِّجْل فلا ينتفع بذلك، وتتشدد على العضو الترابي الزمني فيصير هالكاً. وكن سائلاً عن السن والعادة والوضع والزمان والطبع، والمكان والإمكانية والمزاج والتحصن «أي القدرة على احتمال التأديبات»، معتمداً في ذلك الرافة على بنيك والتحنن. ولا طف كلا مما ذكرناه لما يلائمه من الدواء، حتى يعود العليل من مرضه إلى حالة الصحة والاستواء.].

وتوصي الوصية المقروءة على القس يوم رسامته أن تكون حياته وخبرته الروحيتين كما يريده عليهما المسيح راعي النفوس وأسقفها هكذا:

[لتكن مركباً روحياً، يحمل البركات إلى ميناء الخلاص.

ومعلماً روحانيا نورانيا، ترفع المتعلمين إلى درجات الاختصاص.

لتستحق بهذه الصفة الأجر المتضاعف، ويسبغ الرب عليك الخير المترادف].

إذن فمهمة الكاهن في سر الاعتراف تشمل أيضاً، ليس فقط سماع الاعتراف وإعطاء الحل، بل وأيضاً إعطاء الدواء الروحي والتوجيه المناسب لكل فرد على حدة، حسب قامته الجسدية والنفسية والروحية. لذلك فهذه المهمة تستلزم جداً من الكاهن المعرِّف أن يكون متدرباً على يد شيخ روحاني مختبر ناجح في تدبير النفوس سبق أن تتلمذ عليه الكاهن قبل البدء في تلقيه اعترافات الشعب.

وقد صار هذا التقليد في الكنيسة أن يتخذ كل كاهن له أب اعتراف (يسمى في اللغة الكنيسة: أب ذمة)، شيخاً مختبراً هادئاً حكيماً قادراً أن يشفي النفوس المعتلة ويترقى بالمتعلمين والأصحاء إلى أعلى درجات الكمال. وقد وضع الآباء الكهنة والأساقفة والبطاركة أنفسهم في وضع التلمذ «لأب ذمة» أي أب اعتراف قبل وبعد رسامتهم، ومازال الآباء الحريصون يسلكون هكذا.

الاعتراف السرى أثناء العبادة الليتورجية:

ومن بين ما شمله الاعتراف السرى، نوع آخر من الاعتراف أثناء الخدمات الليتورجية ويشمل الاعتراف «على المجمرة» ـ مجمرة البخور. وهو لا يغنى عن الإعتراف على يد الكاهن. ويشرحه ابن كبر في مخطوطته «مصباح الظلمة في إيضاح الخدمة» هكذا:

في خدمة رفع بخور باكر وعشية

[وينزل الكاهن يبخر باب الهيكل ثلاثاً، ويمسح البيعة كلها، والشعب والنساء والشمامسة يقبلون يده، و هو يباركهم. ويسحب اعترف الإنسان بخطيته وطلبه المغفرة عند وقت تبخيره، سرا وبوجيز من الكلام. فقد قال بعضهم إن إخراج البخور للشعب هو بمنزلة الحيوان الذى كان يخرج ـ في العهد القديم ـ إلى خارج المحلة ويعترف من يقدمه بخطيته في أذنه، ثم يقرِّب عنه ـ (يقصد طقس تقديم تيس «ذكر الماعز» الذى يعترف على رأسه رئيس الكهنة

بخطايا الشعب ثم يقدمه ذبيحة رمزاً لغفران خطايا الشعب بالاعتراف وتقديم الذبيحة ـ راجع سفر اللاويين١٦).

وإذا فرغ الكاهن من تبخير الشعب كله، الرجال والنساء وأماكن الهياكل وأيقونات الشهداء والقديسين، يعود ويطلع فوق قدس الأقداس، كأنه يرفع اعتراف الشعب للإله ويقول: «يا الله الذى قبل إليه اعتراف اللص على الصليب المكرم، اقبل إليك اعتراف شعبك واغفر لهم جميع خطاياهم ، من أجل اسمك القدوس الذى دعى علينا، كرحمتك يا رب ولا كخطايانا»)

ويقول الخولاجي ا لمقدس إن هذه الصلاة واسمها «سر الرجعة» يقولها الكاهن فى رفع بخور عشية وباكر وفى القداس الإلهى أثناء قراءة رسائل بولس الرسول والإبركسيس.

وواضح أن الاعتراف على المجمرة أو الشورية ممارسة قديمة مكمّلة لممارسة الاعتراف السرى على يد الكاهن (وليست بديلة عنه). ومنها يتضح أن تكرار الفرص التى يمنحها الطقس الكنسى للمؤمنين أثناء القداس الإلهى للاعتراف بخطاياهم ومنحهم الحل، إنما يهدف إلى تطهير ضمائر المتقدمين للتناول من الأسرار المقدسة ليكونوا فى حال استحقاق لقبول هذا السر الرهيب، حتى إلى آخر لحظة قبل التقدم للتناول.

العلاقة التاريخية بين القسوس والأسقف

١. المجال الجغرافى لخدمة كل منهما:

مجال عمل الأسقف:

مجال عمل الأسقف هو الـ Diokesis(باليونانية) وبالإنجليزية Diocese، وبالعربية تسميها «إيبارشية» وهى النطق العربى للكلمة اليونانية Eparchia، والتى توصف بها الوحدة الإدارية فى التقسيم الإدارى للدولة فى النظام المركزى للحكومة الرومانية قديماً.

وتشمل الإيبارشية الكنسية مدينة أو عدة مدن فى المحافظة فى التقسيم الإدارى للدولة والقرى المحيطة بها. وفى القديم كان لكل مدينة فى المحافظة أسقف، بينما أسقف عاصمة المحافظة كان يدعى «المتروبوليتيس» باليونانية وتعنى أسقف المدينة الأم أو أسقف أم المدائن.

وتنطق «المطران» بالعربية، وهو الأسقف المتقدم بين أساقفة مدن المحافظة، وكان يشكل معهم مجمع أساقفة مدن المحافظة.

مجال عمل القس:

أما مجال القس فهو يسمى بالـ Paroichia (باليونانية) وتنطق باريخيا، وتسمى بالإنجليزية Parish. و«الباريخيا» مصطلح مأخوذ عن الترجمة السبعينية للكتاب المقدس (العهد القديم). ويعبر عن مجموعة من المرتحلين معاً الغرباء فى أرض غريبة عن وطنهم، أو تعنى مجموعة من السكان المتجانسين الذين يعيشون متجاورين فى مكان واحد. وليس لهذه الكلمة فى اللغة العربية فى كنيستنا القبطية ترجمة. ومن المهم تحديد اسم لهذا المجال الرعوى للقس لاستخدامه فى التعامل اليومى الكنسى بين الأسقف والقسوس، ويمكن تسمية مجال خدمة القس باسم «رعوية» أى المجال الرعوى للقس. والقس يسمى «كاهن الرعية». فيقال رسم فلان قساً على مذبح كنيسة العذراء ليخدم رعوية منطقة كذا أو مدينة كذا أو حى كذا.

٢. كيف اختارت الكنيسة لقب «الأسقف»

وميزته عن لقب «القس»:

١ ـ فى المجتمع اليونانى القديم، كانت الوحدة الاجتماعية هى «المدينة» POLIS ذات الحكم المحلى الذاتى كأنها جمهورية قائمة بذاتها؛ بينما لدى اليهود كانت الوحدة الاجتماعية هى الجماعة العابدة فى «المجمع اليهودى». لذلك كان يوجد أحياناً فى «المدينة» الواحدة عدة «مجامع»، وبالتالى عدة مجالس شيوخ متعددة.

٢ ـ أما فى الكنيسة المسيحية، فقد اتخذت لنظام رعايتها:

أ ـ «المدينة POLIS» كوحدة أساسية (حسب النظام الرومانى) ويرأسها الأسقف،

ب ـ ويتبعها الجماعات المسيحية العابدة فى الأنحاء المتفرقة من أحياء المدينة (حسب نظام المجامع اليهودية). وكل جماعة من هذه الجماعات تسمى «الباريخيا Paroichia». وهذه يرأسها القسوس كمندوبين عن الأسقف.

حتى القرن الثانى الميلادى كان لقب «الكنيسة» أو «كنيسة الله فى مدينة كذا» مرادف

لمعنى «الكنيسة الجامعة» ، ولم يكن هناك أى رباط للتنظيم بين الكنائس المحلية بعضها والبعض، بل كانت كل كنيسة تدبر نفسها بمجمع قسوسها ويرأس هذه المجامع الأسقف.

٣ ـ وفى القرن الثالث بدأت الكنائس تحس باحتياجها إلى الاتحاد فيما بينها، ولكن دون أن تشكل تنظيماً اتحادياً (على نمط الاتحاد الرومانى بين ولايات الإمبراطورية الرومانية فى العالم التى كانت كل ولاية فيها تدبر نفسها ولكن تحت إمرة الإمبراطور الرومانى). وهكذا بدأت تظهر هذه الوحدة الكنسية بطريقة تلقائية بين الكنائس الأربع الكبرى: روما، الإسكندرية، قرطاجنة، أنطاكية.

٤ ـ وكان الأسقف هو المعتبر أنه الكاهن والمعلم لكل رعيته الذين سبق أن ولدهم جديداً من جرن المعمودية. وكان هو الذى يقيم ليتورجية الإفخارستيا بمعاونة كل الشمامسة ومحاطاً بكل القسوس، وهو الذى يناول الأسرار للشعب.

* ولكن ظهرت الحتمية التى واجهت الكنيسة بسبب الاضطهاد الجديد الذى أثاره ديسيوس وفاليريان على المسيحية، ثم نتيجة لموت الأسقف استشهاداً أو لنفيه أو لجوئه إلى مكان آمن، إذ وجدت كثير من الكنائس نفسها فى منتصف القرن الثالث محرومة من رئيسها الليتورجى السرائرى. فالقديس كبريانوس أسقف قرطاجنة كان غائباً عن كنيسته لمدة ١٤ شهراً. ولنفس السبب وفى نفس الفترة الزمنية كان أسقف الإسكندرية ديونيسيوس غائباً عن الإسكندرية. وفى نفس الوقت تقريباً ترملت كنيسة روما مرتين، وذلك لمدة عامين، بعد استشهاد اسقفها سيكستوس الثانى مع مجمع شمامسة الكنيسة الرومانية.

* ولأن الاحتفال الأسبوعى بالافخارستيا فى كل كنيسة كان أمراً حيوياً من أجل تجديد وتثبيت الحياة المشتركة للمؤمنين، أصبح واضحاً أنه يتحتم وجود مندوبين للأسقف فى الكنائس المختلفة للقيام بالخدمات الليتورجية والصلوات على الراقدين وتذكارات الشهداء والاهتمام بالمسجونين بسبب الإيمان (والذين يسمون «المعترفون»).

كل هذا جعل من القس أنسب من يمثل الأسقف فى الاحتفالات بإقامة الإفخارستيا فى أحياء المدينة، ولا عجب فالأسقف كان قبل رسامته قساً وعضواً فى مجمع القسوس.

* وفى مجمع نيقية المسكونى (سنة ٣٢٥م) والمعتبر المرجع لكل المجامع المسكونية

والمكانية اللاحقة، اعترف المجمع في سياق نص القانون ١٨ أن القس معتبر ضمن الذين «يقدمون / يرفعون Prospherousi» القرابين.

* ولكن القس لم يعد فقط يتشابه مع الأسقف في رفعت القرابين، بل وأيضا في إجراء سر المعمودية، وكذلك في سر المسحة المقدسة الذى كان يؤديه الأسقف وحده (بوضع اليد قبل شيوع المسح بالزيت المقدس).

* ويقول أحد الكتاب المسيحيين في أواخر القرن الرابع هو أمبروزياستر (حوالى سنة ٣٨٠م): [إنه في الإسكندرية وفى كل مصر حينما يكون الأسقف غير متواجد، يعطى القس سر المسحة المقدسة أو التثبيت].

* كما أنه بتداعى نظام الاعتراف العلنى والتوبة العلنية وتحولهما إلى اعتراف وتوبة سريين، أصبح للقسوس مسئولية إعطاء الحل عن الخطايا، بعد أن كانت قاصرة على الأسقف وحده.

* ويقول القانون ٤ من قوانين هيبوليتس: [الأسقف يساوى القس في كل شئ، عدا الكرسى والرسامة، حيث أنه لم تمنح هذه السلطة للقس].

والكاتب المسيحى أمبروزياستر يوضح مزيداً من التفاصيل هكذا:

[كل من الآثنين (الأسقف والقس) هو الكاهن. ولكن الأسقف هو الرأس. فبالرغم من أن كل أسقف كان قساً قبل رسامته، ولكن ليس كل قس أسقفاً. لأن الأسقف هو الرئيس وسط مجمع القسوس. ويوضح الرسول أن تيموثاوس أنتخب ورسم «قساً» بوضع أيدى القسوسية، ولكن لأنه لم يوجد من هو أعلى منه رتبة، فقد كان معتبراً أنه هو الأسقف].

٤ ـ وفي القرن الرابع، وكما نقرأ في كتاب التقليد الرسولى لهيبوليتس وفى رسائل القديس كبريانوس أسقف قرطاجنة، كان مجمع القسوس هو الأداة الجماعية في يد الروح القدس. ومن ذلك التاريخ بدأ مركز القسوس يتثبت بالنسبة للأسقف: كل قس في الموضع الذى رسم عليه. وهكذا منع قانونى ١٥ و١٦ من قوانين مجمع نيقية المسكونى (سنة ٣٢٥م) انتقال الأساقفة من الإيبارشيات التى رسموا عليها، وكذلك أمر أن القسوس يخدمون في الكنيسة التى رسموا عليها حتى الموت. ودرجت المجامع الكنيسة الإقليمية على تقرير نفس المبدأ

أى تحريم انتقال القسوس من كنائسهم إلى كنائس أخرى، كما حرمت أن يستخدم أسقف قسوس أسقف آخر أو أن يقبل القسوس المتنقلين من مكان إلى مكان دون خطابات من أسقفهم (مجمع أنطاكية قانون ٣، مجمع سرديقا قانون ١٧، ١٨).

٥ ـ وابتداء من الربع الثانى من القرن الرابع، وبعد السلام الذى أرسى قواعده حول الكنيسة، ثم بسبب النمو السريع فى أعداد المنضمين للإيمان وازدياد بناء الكنائس، أصبح هذا الوضع (قيام الاسقف بممارسة كل الأسرار وحده) غير ممكن، وأصبح الحل الوحيد هو فى ازدياد مندوبى الأسقف فى أداء واجبات الأسقف الليتورجية.

وهكذا أوكل الأسقف بعض مهامه إلى القسوس.

٦ ـ وهكذا بدأنا نرى قسوس الكنائس يرسمون على مذابح الكنائس التى تقع فى دائرة إيبارشية الأسقف. فكان القس هو الذى يعلم ويخدم الأسرار للجماعة المسيحية البعيدة عن موضع كنيسة الأسقف المسماة« الكاتدرائية». كان الأسقف يزور الكنائس التابعة لإيبارشيته بين الحين والآخر باعتباره رئيس الكهنة ورئيس مجمع القسوس. ومن هذا الحين بدئ فى إطلاق لقب «كاهن» على القس، كان هذا اللقب قاصراً على الأسقف وحده. وكان ذلك منذ النصف الثانى للقرن الرابع.

٧ ـ ولكن ظل الأسقف هو الذى يجرى سر المسحة المقدسة ويقوم بالرسامات الكهنوتية. وللقديس جيروم وصف فى إحدى رسائله للأساقفة وهم ينتقلون إلى ضواحى المدينة ليعطوا سر المسحة المقدسة للمعمدين الذين عمدهم القسوس.

٨ ـ وفى القرن الخامس استقر الوضع، فلم يعد الأساقفة هم الوحيدين الذين يعطون سر المسحة ، ولكن ظلوا هم وحدهم الذين يقومون بتقديم زيت الميرون الذى يستخدم فى سر المسحة. واقتصر إجراء الرسامات الكهنوتية عليهم.

نشأة وظيفة «الخوري إبيسكوبوس» أو أسقف (أو رئيس) القرية:

وكان على أسقف المدينة أن يوفر لكنائس القرى خداماً مولودين فى هذه القرى لكى يقوموا أساساً بأداء سر الإفخارستيا. ولكن لم يكن مسموحاً لهؤلاء برسامة الدرجات الكهنوتية

اللاحقة. وسمى هؤلاء «خورى إبيسكوبوس» أى أسقف القرية، وكان ذلك قرب منتصف القرن الرابع ـ فى مجمع سرديقا (سنة ٣٤٣). ولكن لم يكونوا معتبرين أساقفة بكل صلاحيات الأسقف، بل قسوساً ولكن بكرامة خاصة أعلى. وكانوا يسمون أحياناً «رئيس القرية».

على أن نظام الخورى إبيسكوبوس لم يكتب له الاستمرار بسبب المشاكل التى نجمت عن تداخل الاختصاصات بين أسقف المدينة ومن يتبعونه من الخورى إبيسكوبين، فبدأ هذا الطقس يتوارى إلى أن اختفى نهائياً من الكنيسة بسبب المشاكل التى حدثت من جراء أى نظام يتعدد فيه أكثر من أسقف واحد فى الإيبارشية الواحدة.

أساس العلاقات الصحيحة السوية
بين الأسقف والقسوس

ومن هذا المنطلق والأساس الرسوليين لوظيفة كل من الأسقف والقس، يكتب القديس جيروم معلقاً على بعض آيات وردت فى سفر أعمال الرسل ورسائل الرسل ما قد يوحى بتبادل اسم الإسقف مع اسم القس، معلقاً التعليق الروحى العملى الذى يحدد أساس العلاقة بين الأسقف والقسوس، قائلاً:

[لذلك، فبينما يجب أن يعرف القسوس كيف يخضعون لمن أقيم رئيساً عليهم بحسب عادة الكنيسة، فليتذكر الأساقفة أنهم يرأسون القسوس بحسب عادة الكنيسة أيضا.. ولذلك فيجب أن يدبروا الكنيسة بالاهتمام المشترك، متشبهين بموسى الذى بالرغم من أنه كان يحوز السلطان أن ينفرد بالرئاسة فوق شعب إسرائيل، إلا أنه اختار سبعين شيخاً (بريزفيتروس)، ليساعدوه فى تدبير الشعب. (كما ورد فى سفر العدد ١١: ١٦ وما يليه)].

القديس جيروم ـ فى تفسير رسالة تيطس (١: ٦ ـ ٧).

بهذا التعليق الروحى للقديس جيروم، وعلى خلفية هذا العرض التاريخى الكنسى للعلاقة بين الأساقفة والقسوس، وليبرز درجة الأسقف من بين مجمع القسوس، يمكننا أن نعرض للأوضاع الصحيحة أولاً، ثم للمشاكل المعاصرة، التى تحيط بعلاقة الأسقف بالقسوس، وكيفية التصدى لها ومعالجتها.

ارتباط الرتبتين الأسقفية والقسوسية وتعاونهما معاً من أجل بنيان الكنيسة:

من حيث أن كنيسة الرعية (في حي أو منطقة أو مدينة) تكون هي والكنائس الأخرى في الإيبارشية الواحدة الكنيسة الواحدة، هكذا خدمة الأسقف وخدمة القسم تكونان معاً الخدمة الافتقادية والكهنوتية الواحدة التي أسسها في كنيسته المقدسة الرب يسوع المسيح رئيس الكهنة الأعظم.

رتبة الدياكون

أولاً: جذور هذه الرتبة في العهد القديم

الدياكونوس Diakonos كلمة يونانية معناها «خادم» أو «مساعد» ويقابلها في الاستخدام اليهودي، في العهد القديم:

١ ـ «خادم» المجمع، واسمه بالعبرية «خازان». وكان يقوم بمهام كثيرة تنوعت على مدى العصور وفي أماكن مختلفة:

* فكان يساعد في طقوس العبادة،
* يعتني بمباني المجمع،
* يعلم الأطفال (معلم الأطفال ـ رومية ٢ : ٢٠).

٢ ـ شبه الدياكون في العهد الجديد، برتبة «اللاوى» في العهد القديم:

وكانت مهام اللاوى كالآتي:

* خادم خيمة الاجتماع وأمتعتها (عدد ١ : ٥٠)،
* خدمة رئيس الكهنة هارون (عدد ٥ :٣).
* حمد الرب وتسبيحه كل صباح وكل مساء (١ أى ٢٧ : ٢٣).

والقديس كلمندس الروماني، وهو يعدد الرتب في كنيسة الله يذكر «الدياكون» الذى يسميه «اللاوى».

«للكاهن الأعظم ليتورجيته المختصة به ـ أى خدمته القانونية ودوره في الخدمة الليتورجية،

وللقسوس موضعهم TOPOS الخاص الذى تخصص لهم، وللاويين خدمتهم ـ دياكونيتهم ـ التى وضعت عليهم، وعضو الشعب ـ اللانيكون ـ محدد له طقوسه الخاصة. ليؤدى كل واحد منهم افخارستيته لله ـ أى يؤدى دوره المرسوم له فى الاحتفال الإفخارستى ـ ، دون أن يتعدى القانون المرسوم له].

الرسالة الأولى إلى كورنثوس ٤١:٤٠

٢ ـ الشيوخ السبعون الذين عاونوا موسى النبى: ففى سفر العدد ٤:١١ ـ ٣٢ (أحد الموضعين اللذين ذكرت فيهما قصة السبعين شيخاً مع موسى)، نقرأ كيف أن موسى تواجه مع الجمهور المختلطة أجناسهم الذين خرجوا مع بنى إسرائيل من مصر (وتسميهم ترجمة بيروت للعهد القديم «اللفيف»)، وهؤلاء كانوا من الأمم، أنهم اشتهوا أكل اللحم وطلبوه بإلحاح من موسى. فاشتكى موسى أمام الرب: «ألعلّى حبلتُ بجميع هذا الشعب، أو لعلى ولدته حتى تقول لى احمله فى حضنك كما يحمل المربى الرضيع إلى الأرض.. من أين لى لحم حتى أعطى جميع هذا الشعب...».

فكلفه الرب تكليفين، أن يجهز الشعب لوليمة لحم معجزية من السماء، وأن يجمع للرب سبعين رجلاً من شيوخ إسرائيل، كما ورد فى الموضع الثانى لقصة الشيوخ فى سفر الخروج ١٨ ، لمعاونته فى تدبير الشعب.

وفى هذه القصة نجد مشابهة مع قصة اختيار الدياكونيين السبعة (كما وردت فى أعمال الرسل ٦) كالآتى:

* الأمم فى العهد القديم، وكذلك الأمم فى العهد الجديد، هم الذين تذمروا من جهة الطعام.

* اختيار صف جديد من الخدام ليعاونوا: موسى فى العهد القديم، والرسل فى العهد الجديد.

٤ ـ الخادم اليهودى، فى الوليمة الدينية (والمسماة «الشابوراه») فى البيت اليهودى، والتى فيها أسس الرب يسوع المسيح سر الإفخارستيا يوم خميس العهد. وخادم الوليمة هذا كان يؤدى المهام الآتية:

* يصب الماء على أيدى الضيوف ليغسلوا أيديهم مستخدماً إبريقاً وطستاً ومنشفة.

* يقدم الخبز لرئيس المحفل ليكسره.

*يمزج الخمر ليباركه رئيس الوليمة.

* يوزع الطعام والشراب على ضيوف الوليمة.

* ورئيس الوليمة كان غالباً هو أب الأسرة، وكان له امتيازات شرفية تختص بهذا الوضع. أما خادم الوليمة فكثيراً ما كان أحد الشباب من أعضاء الجماعة المجتمعة، وأحياناً كان أحد تلاميذ «الرابى» أو «المعلم» اليهودى(*).

٥ ـ البارناسيم (جمع بارناس بالعبرية): وهؤلاء كانوا يقومون بخدمة إطعام الفقراء اليهود فى بعض الأماكن داخل أورشليم. وكان عددهم سبعة فى كل مجمع..

من هذه الخدمات الخمس فى العهد القديم، أخذ الدياكون فى العهد الجديد مهامه كما سنرى، وأصبح له مكانته ومكانه داخل المثلث الكهنوتى المسيحى.

الدياكون والدياكونية فى العهد الجديد (المعنى العام):

لقد أطلقت كلمة «دياكونوس» فى كتابات العهد الجديد على أشخاص عديدين: «الساقى» (يو ٥:٢)، والموظفين الحكوميين (رو ٤:١٣)، وعلى تلميذ المسيح (متى ١١:٢٣)، وعلى حامل الرسالة (كو ٧:٤ ,١ تس ٢:٣)، والمبشرين والمرسلين (١ تى ٦:٤ ,٢ كو ٢٣: ١١)، بل وعلى الرسل أنفسهم (متى ٢٦ : ٢٠، ٢ كو ٦:٣)، ثم أطلقت على المسيح نفسه أنه «خادم الختان» Diaconon (رومية ٨:١٥).

الدياكون والدياكونية (فى الاستعمال الكنسى):

صار لكلمة «دياكونوس» معنى كنسى فى العبادة وترتيب الكهنوت.

(*) «الرابى» أو «الربان» بالأرامية (تعنى المعلم). و«ماران» تعنى السيد. وهذه الألقاب هى أعلى ألقاب التكريم للمعلمين اليهود. وقد استخدمها المسيح فى وصف نفسه حينما قال: «إن كنت وأنا المعلم (المرابى) والسيد (ماران) قد غسلت أرجلكم.. «الخادم» (دياكونوس) ليس أعظم من سيدة، ولا الرسول (السليح) أعظم من «مرسله» (يو ٤:١٣).

- -

١ ـ فقد ذكرت فى ديباجة الرسالة إلى فيليبى «إلى أساقفة وشمامسة» (فى ١ :١)، وفى الرسالة الأولى إلى تيموثاوس عن شروط وكفاءات «الشمامسة» (١تى ٨:٣ ـ ١٣). وقد اقترن اسم الدياكونوس بالأساقفة فى كثير من مراجع ترتيب الكنيسة، مثل الديداخيه (القرن الثانى): «انتخبوا لأنفسكم أساقفة وشمامسة» (الديداخيه فصل ١٥)، رسالة كلمندس (النص السابق ذكره: ٤٢)، كما ورد اسم الشماس الدياكونوس مقترنا بالقسوس /البريزفيتروس كما فى رسالة بوليكاربوس (القرن الثانى) ٢ :٥) وكتاب «الستروماتا» للعلامة كلمندس الإسكندرى ١٠: ١٢: ١٣، ٣: ١: ٧٢.

٢ ـ و«الدياكونيا» هى «الخدمة». وقد أوضح المسيح أن معيار الحكم على أية موهبة من مواهب الروح القدس هى أن تؤدى بروح اتضاع الخدمة والخدام، كما عبر عن ذلك المسيح نفسه بقوله: «إذا أراد أحد أن يكون أولاً، فيكون... خادماً Diaconus للكل» (مر ٩ :٣٥).

٣ ـ ومن بعد المسيح وعلى هدى تعليمه، يصف القديس بولس عمل إستفاناس هكذا: «وأطلب إليكم أيها الأخوة، أنتم تعرفون بيت استفاناس أنهم باكورة أخائية. وقد رتبوا أنفسهم لخدمة (دياكونيا Diakonia) القديسين. كى تخضعوا أنتم أيضا لمثلهم هؤلاء ولكل من يعمل معهم ويتعب» (١كو ١٦ : ١٥ ـ ١٨).

* والقديس بولس هنا أمين لروح الإنجيل ولكلمات المسيح. ولكى تتحقق هذه القاعدة المختصة بمن يخدم، يجب أن يقابلها من المخدومين الطاعة الإرادية الحرة له. فكما رتب إستفاناس نفسه هو وأهل بيته لدياكونيا «خدمة» القديسين، هكذا أيضا بالمقابل يجب على الباقين أن يخضعوا لهم ولتوجيهاتهم.

* من جهة أخرى، فإذا كان إستفاناس قد نال كرامة الرئاسة على كنيسة كورنثوس، فإن أهل بيته اعتبروا أنهم «دياكونيون» أى «خداما» ، لأنهم أعطوا أنفسهم لخدمة «الدياكونيا».

٤ ـ ثم نقرأ فى مقدمة رسالة فيلبى توجيه الرسلة: «إلى جميع القديسين فى المسيح يسوع.. مع أساقفة وشمامسة» (فى ١ :١).

ومن هنا بدأ تلقيب القائمين بالخدمة الدياكونية بـ «دياكون». ومرجعنا هنا هو رسالة القديس كلمندس الرومانى أسقف رومية بعد ٤٠ سنة من كتابة رسالة فيليبى. إذ يذكر قارئية

برسالة القديس بولس إلى أهل كورنثوس، فيذكر أن الرسل عينوا «باكوراتهم» (جمع باكورة - أى أوائل الذين آمنوا فى كورنثوس) أساقفة وشمامسة. والشمامسة موصوفون فى الرسالة إلى كورنثوس أنهم أبناء الأسقف إستفاناس. وفى نفس الرسالة نجد نفس الوضع الرسولى فى مكان آخر فى كنائس آسيا:

- «أكيلا وبريسكلا مع الكنيسة التى فى بيتهما» (١كو ١٦ : ١٩).

* فأهل بيت أكيلا وبريسكلا كانوا يؤدون خدمات متعددة Diaconioe للكنيسة المجتمعة هناك. ومن بين هذه الخدمات الواجبات الليتورجية للشمامسة، مثل إعداد الخبز والخمر للإفخارستيا. فإن كان أكيلا هو الذى يرأس الكنيسة، فأهل بيته هم الذين كانوا يؤدون خدمة الدياكونيا.

* ولكن فيما بعد، وبعد أن اتسع نطاق المؤمنين، وتم ترتيب الأمور لتأخذ الوضع التنظيمى الأكمل، لم يعد الشمامسة هم أهل البيت (الذى فيه الكنيسة)، بل اختيروا من أعضاء الكنيسة.

٥ - ونفس الوضع نجده فى كولوس : فليمون كان عنده كنيسة فى بيته (رسالة فليمون ١, ٢). ولقد تلقى ابنه «أرخبس» كلمة تشجيع من القديس بولس فى سياق رسالته إلى أهل كولوسى:

* «وقولوا لأرخبس انظر إلى الخدمة (الدياكونيا) التى قبلتها فى الرب لكى تتممها» (كو ٤: ١٧).

«فالخدمة» التى قبلها أرخبس فى الرب هى بلا شك خدمة «الدياكونيا».

٦ - فإذا رجعنا إلى ١كو ١٦، لنقرأ عن الكنيسة التى فى بيت أكيلا وزوجته الفاضلة بريسكلا، فإذا كان أكيلا هو رئيس الكنيسة هناك، فإن زوجته لا شك صارت هى «شماسة» «دياكونوس Diaconus» الكنيسة فى أفسس.

* وهذا هو نفس اللقب المعطى لشماسة أخرى اسمها «فيبى» ذكر اسمها فى ديباجة الرسالة إلى رومية (١٦ :١): «أختنا فيبى التى هى خادمة (دياكونوس) الكنيسة التى فى كنخريا».

* وقد وصف عملها بالتحديد أنها «مساعدة (أو معاونة Prostatis) لكثيرين ولى أنا أيضاً» (رو ١٦: ٢). وكلمة Prostatis التى يصف بها بولس الرسول عمل فيبى (مساعدة) أصبحت تستخدم لوصف علم الشمامسة عموماً وأنهم «معاونون» للأسقف (الدسقولية ٧).

المسيح الدياكون الأول والنموذج والقدوة:

وقد سمى الرب يسوع المسيح نفسه بالخادم. وبالرغم من النبوة القديمة عن المسيح التى وصفته بأنه «الخادم Pais والعبد Doulos للرب» (إش ٤٢ : ١)، إلا أن الأناجيل استخدمت كلمة دياكونوس Diaconus ، لتعبر عن المسيح كخادم خلاص البشر.

٢ ـ وفى إنجيل لوقا ١٢ : ٣٧، فى مثل العبيد الساهرين، نقرأ أن السيد بعد أن يعود من العرس هذا المثل رمز لشخص المسيح نفسه، الذى تمنطق وخدم تلاميذه ليلة خميس العهد.

٣ ـ ثم فى العشاء الأخير، يوم خميس العهد، وصف الرب يسوع نفسه بأنه «كمن يخدم» Diaconon. لذلك فلا عجب إن كان القديس إغناطيوس الأنطاكى (القرن الثانى) يعلق على وصف المسيح لنفسه بأنه «دياكون ـ أى خادم» قائلاً:

[لقد وضع نفسه، وخدم «Diakonon» الأثنى عشر. لذلك فالدياكونيون يمثلون تواضع المسيح] ـ الرسالة إلى مغنيسيا ٦.

* نعم، «الدياكون» هو صورة تواضع المسيح وإخلائه لذاته. فأية رسالة خطيرة ومهمة سامية يحملها الدياكون وسط رتب الكهنوت فى الكنيسة!!

رتبة الدياكونية، بين دياكونية الموائد ودياكونية الكلمة:

كما يظهر من نشأةرتبة الدياكونية (كما وردت فى سفر الأعمال ٦ :١ ـ ٦)، أنها خدمة موائد أى جمع وتوزيع أموال على أرامل اليونانيين اللواتى كان يغفل عنهن أثناء التوزيع على المسيحيين الذين كانوا يهوداً. وقد نشأت فكرة هذه الدياكونية بعد تذمر المسيحيين اليونانيين، فطلب الرسل من التلاميذ (أى جمهور المؤمنين) أن ينتخبوا سبعة من ذوى الأصل اليونانى ليقوموا بهذه الخدمة، ليكونوا أقدر على تفهم والتفاهم مع هؤلاء المسيحيين.

وقد قال الرسل فى حيثيات تأسيسهم لطقس الدياكونية: «وأما نحن فنواظب على الصلاة وخدمة (دياكونية Diakonia) الكلمة» (أع ٦: ١ ـ ٦).

أ ـ خدمة (دياكونية) الموائد ويختص بها الدياكونيون الجدد.

ب ـ وخدمة (أو دياكونية الكلمة) ويختص بها الرسل.

ولكن إن كان الرسل الإثنا عشر قد امتنعوا عن الدياكونية الأولى دياكونية الموائد، إلا أن الدياكونيين الجدد لم يمتنعوا عن الدياكونية الثانية أى خدمة الكلمة.

فيذكر سفر أعمال الرسل أن استفانوس كان مملوءاً إيماناً وقوة، وكان يصنع عجائب وآيات عظيمة فى الشعب، وكان يتكلم حكمة بالروح القدس (أع ٦: ٨، ١٠، وإصحاح ٧). ثم اختتم شهادته بالكلمة بشهادته بالدم بعد أن صلى وطلب المغفرة لراجميه، وبعد الرؤيا السماوية التى رأى فيها: «السماء مفتوحة وابن الإنسان جالساً عن يمين العظمة».

فخدمة (دياكونية) الموائد لا تعنى استبعاد خدمة الكلمة وغياب مواهب الروح القدس. فالدياكونيون هم خدام كلمة، وصانعوا آيات، وعجائب عظيمة، ومعلمون، وكارزون لا يقلون فى كرزاتهم عن الرسل. وأمامنا مثل فيلبس الذى بشر السامرة، ومهد لكرازة القديسين بطرس وبولس اللذين تبعاه إلى هذا المكان. ثم بشر وزير كنداكة ملكة الحبشة. وكانت هذه الكرازة فاتحة وتمهيداً لإنتشار المسيحية إلى كل مملكة أثيوبيا فى القرن الرابع.

رتبة «الدياكون» وتطور وضعها خلال الأجيال

الدياكونوس فى القرون الأولى (القرون الخمسة الأولى)

أدى الدياكونوس فى القرون المبكرة للمسيحية مهام متعددة:

١ ـ فقد كان يوزع الإفخارستيا فى احتفال يوم الأحد (يوستين، الاحتجاج الأول: ٦٧).

٢ ـ وكان يعاون فى بعض الأعمال الليتورجية الأخرى مثل المعمودية ووليمة الأغابى (التقليد الرسولى ٢١، ٢٦): [(فى أثناء خدمة المعمودية) الشماس يحمل زيت الاستحلاف ويقف على يسار القس، ويأخذ شماس آخر زيت الشكر ويقف على يمينه.. الشماس يلقن المعمد قانون الإيمان] ـ قانون ٣٣ من قوانين الرسل الـ٧١.

---

٣ ـ كما كان يقوم بدور ضابط النظام بين المصلين داخل الكنيسة أثناء القداس الإلهي (الدسقولية ١٠ : ٢٩)، ويحرس الأبواب (الدسقولية ١٠ :٢٣).

٤ـ كما كان يخدم الأعمال الخيرية للكنيسة تجاه الأرامل والأيتام (هرماس، الراعى، الأمثال ٩ : ٢٦ : ٢). وكان أحياناً يرعي ويعتني بالمرضى [يعرفوا الأسقف من هو المريض لكى يفتقده] (هيبوليتس قانون ٣٤، المراسيم ٢ :٣٢ :١).

٥ ـ كما كان يكلف كمرسل إلى الكنائس الأخرى (رسائل القديس أغناطيوس: فيلادلفيا ١٠، أزمير ١٢).

٦ ـ ويؤدى خدمات روحية للمعترفين أثناء سجنهم المنتظرين استشهادهم (كما في قصة استشهاد بربتو ٢، ٦، ١٠).

٧ ـ وكان يدير ممتلكات الكنيسة (القديس كبريانوس ـ الرسالة ٥٢ :١).

٨ ـ وأحياناً كان الدياكونيون يأخذون مسؤلية دفن الموتى (التاريخ الكنسى ليوسابيوس ٧: ١١ :٤٢). وفي روما عين أحد الدياكونيين على كنيسة المدافن (كتاب الهرطقات لهيبوليتس ٩ك٧).

٩ ـ والدياكون مرتبط بالأسقف، يخدمه وينفذ تعليماته، ويقدم له التقارير عن الحال الروحية للشعب (التقليد الرسولى ٩ :٢، ٣٠ ـ قانون ٢٣ من القوانين ٧١). ولذلك فهو يسمى «أذن» و«عين» و«فم» الأسقف (الدسقولية ٨: ٥٠). وهو على اتصال دائم بالشعب ،يحذرهم ويعظهم، ويبحث عن المحتاجين منهم، ولا يأخذ بوجه الأغنياء (الترتيب الرسولى ٢٠ : ٢٢)، (قانون ١٥ من القوانين٧١).

١٠ ـ كان يحمل الرسائل الأسقفية (التاريخ الكنسى ليوسابيوس ٦ :١٩ :١٩)، ويكلف بمهام قصيرة أو بنقل رسائل شفوية من الأسقف (القديس أثناسيوس، الاحتجاج ٦٧). وكان يحضر مع الأساقفة للمجامع، أو قد يمثل الأسقف فى حضور المجمع (التاريخ الكنسى ٦ : ٤٣ : ٢، ٧ : ٢٨ : ١) (سوز ومين ٤ : ١٦ : ١٦).

١١ ـ يبشر ويعظ ـ مجمع أنقرا (سنة ٣١٤م) قانون ٢.

١٢ ـ يعاون في المحاكم الكنسية «مجالس الحكم» (المراسيم الرسولية ٢ : ٤٧ : ١)، الدسقولية: ٨.

١٣ ـ له دور مهم في رعاية الخطاة التائبين الذين يفرزون من الكنيسة أثناء فترة فرزهم:

[وليطلبوه (الخاطئ الذى أخرجه الأسقف من الكنسية كتدبير من أجل قبوله بعد ذلك)، ويمسكوه خارج الكنيسة، وليدخلوا فيسألوك من أجله (أى الشمامسة يتشفعون من أجله أمام الأسقف) لأن المخلص كان يسأل أباه من أجل الذين أخطأوا كما كتب فى الإنجيل : «يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعرفون ما الذى صنعوه»] ـ المراسيم ٢ : ١٦ : ١ والدسقولية ٤ :٥.

١٤ ـ وفى القداس الإلهى يمارس أعمالاً هامة وكثيرة، ويسميه القديس ايسيدوروس البيليوزى [دياكون «خادم» المذبح المقدس] ـ رسالة ٤ : ١٨٨، كما يسميه القديس إغناطيوس الأنطاكى [خادم أسرار يسوع المسيح] ـ ترال ٢ : ٣.

ومن خدماته داخل الكنيسة أثناء الاحتفال بسر الافخارستيا:

١ ـ إعداد المذبح قبل بدء القداس الإلهى.

٢ ـ تلاوة الإنجيل (المراسيم ٢ : ٥٧ : ٧، الدسقولية ١٠ : ٢٠) ـ يقول سوزومين المؤرخ الكنسى أنه فى الاسكندرية كان الأرشي دياكون وحده هو الذى يقرأ الأنجيل، أما فى غير ذلك من المواضع فكان الدياكونيون هم الذين يقرأون (سوزومين ٧ : ١٩ : ٦).

٣ ـ يعلن تعليمات العبادة للمصلين:

* يحذر المتخاصمين ويأمرهم أن يتصالحوا قبل التناول:

[فليكن الشماس واقفاً بجانبكم (يوجه الكلام للأساقفة) وليقل بصوت عظيم: «لا يترك أحد بينه وبين أخيه لائمة ولا غشاً ولا رياء»] ـ (المراسيم ٢ : ٥٤ ١١؛ الدسقولية ٩ : ٥).

* والموعوظون غير المتعمدين للخروج قبل بدء قداس الموعوظين. [وليصرخ شماس آخر: «لا يقف هاهنا موعوظ ولا يكن هنا أحد سامع الوعظ لا يشارك فى السرائر. ولا أحد غير مؤمن ولا أحد منشق. إمسكن أيتها النساء أولادك. لا يدع أحد فى قلبه وجداً لأحد. ولا يقف

أحد هنا برياء. كونوا مستقيمين بالرب. وليقف كل واحد بخوف ورعدة] ـ قوانين الرسل الكتاب الخامس بيد إقليمس (اكليمنضس).

* ويعلن موضوعات الصلاة (أى مردات الأواشى) ـ (الدسقولية ١٠ : ٣٦.

* ويدعو إلى السكوت والانتباه والإنصات قبل القراءات الكنسية ـ الدسقولية ١٠ : ٣.

* ويدعو إلى القبلة المقدسة.

* ويعطي التسريح من الكنيسة للانصراف في نهاية القداس:

[ثم يناول الشماس الكأس ويقول : هذا هو دم المسيح هذا هو كأس الحياة. ويقول متناوله: أمين. ويرتلون إلى أن يتناول جميعهم. وإذا تناولوا جميعهم، فيتناول النساء.

وعند فراغ المرتل مما يسبح، يصيح الشماس ويقول: نلنا من الجسد الكريم الذى للمسيح، فلنشكر الذى أهلنا أن نشارك في سرائره المقدسة الكريمة. وبعد ذلك يصلى الأسقف ويشكر على النيل من جسد المسيح والشرب من دمه.

فإذا فرغ مما يصلى، يقول الشماس: إحنوا رؤوسكم قدام الرب ليباركِكم. وإذا فرغوا مما يتباركون به، يقول الشماس: امضوا بسلام (يقولها الكاهن الخديم الآن)] ـ قوانين الرسل الكتاب الخامس بيد إقليمس (اكليمندس).

* يأتي بالقرابين (الخبز والخمر) إلى الكاهن المحتفل بسر الافخارستيا وقت التقدمة (التقليد الرسولي ٢٣ : ١، قانون ٣ : ٢٠). ويقف بجانب القرابين على المذبح وبيده المراوح ليطرد الهوام الطائرة عن الكأس المقدس (قوانين الرسل ٥٢).

* يحضر الماء للأسقف والقسوس في المذبح ليغسلوا أيديهم.

* كان يناول الشعب (يوستين الشهيد ـ الدفاع الأول ٦٥ : ٥).

* ويناول الكأس: يضع هيبوليتس في قوانينه هذه المهمة هكذا، أنه عند شركة الإفخارستيا أيام الآحاد.

[فإن القسوس إن كان عددهم لا يكفى فإن الشمامسة أيضاً يناولون الكأس]

التقليد الرسولي XXIII,5 وقانون ٥٢ من القوانين الرسولية (الـ٧١).

وعلى أساس هذا الطقس يصف القديس الشهيد إغناطيوس الأنطاكى (القرن الثانى الميلادى) الدياكونيين أنهم:

[خدام «Diaconus» أسرار يسوع المسيح، وأنهم ليسوا مجرد خدام طعام وشراب، بل هم خدام «الكنيسة ـ الإكليسيا»] ـ الرسالة إلى ترال ١٥.

١٥ ـ وفي إقامة الأساقفة ورساماتهم، الدياكون هو الذى يعلن ويؤكد إرادة الشعب في اختيار راعية ويأتى بالمرشح إلى الأساقفة لكى يرسموه، ويضع الأناجيل فوق رأسه أثناء الرسامة (المرسيم ٨: ٤: ٦).

١٦ ـ كان الدياكون يكلف أحياناً بمهام أخرى فى الكنيسة، مثل رئاسة دير، ويسمى القديس كيرلس الكبير شماساً اسمه «مكسيموس» بهذا اللقب [الارشمندريت جزيل التقوى الدياكون مكسيموس] رسالة ٦٩.

١٧ ـ ويشبه الدياكون بعريف الملاحين فى السفينة الذى يراقب المجاديف على الجانبين (رسالة كلمنضس الرومانى ١٤)، (المراسيم ٢: ٥٧: ٢)، أو «النوتى» كما سمته الدسقولية بالنسبة للأسقف كمدبر السفينة.

هذه هى مهام الدياكون المتعددة، بعضها توقف إسناده إلى الدياكون لعدم رسامة دياكونيين مكرسين. وبعضها أو كل إلى الأساقفة والقسوس. وبعضها يقوم به الآن من يطلق عليهم خطأ اسم «شمامسة» مع أنهم مقامون أغنسطسين أو أبصلتسين غير متفرغين لخدمة الكنيسة.

وتجد فى الدسقولية الفصل السابع واجبات الشمامسة بالتفصيل.

التغيرات التى حدثت فى رتبة الدياكونية:

لقد عبرت رتبة الدياكون خلال مراحل متنوعة من التغيير:

١ ـ فدياكونيو ما قبل مجمع نيقية (عام ٣٢٥)، كانوا مجموعة من «المعاونين» وعددهم ٧ عادة، ملتحقون شخصياً بخدمة الأسقف بمقتضى مهامهم. بهذه الصورة كانوا يشكلون أهمية كبيرة فى الكنيسة، كمنفذين حقيقين للقرارات التى يتخذها الأسقف والقسوس.

٢ - وفى القرن الثانى والقرن الثالث وحتى القرن الرابع، كثيراً ما كان الأرشى دياكون هو الذى ينتخب، وليس أحد القسوس، ليخلف الأسقف المتنيح فى كرسيه، لأن إحاطة الأرشى دياكون بأحوال الكنيسة باعتباره الساعد الأيمن للأسقف ميزه لأن يكون أكفأ من يخلف أسقفه.

٣ ـ وفى نهاية القرن الرابع، كثر عدد الدياكونيين وانتشروا فى كنائس الإيبارشية، والتحقوا بخدمة القسوس فى الكنائس المنتشرة كمعاونين للقس فى مهامه الليتورجية والرعوية.

* وعندنا نموذج رائع لمركز الدياكون فى الكنيسة القبطية فى القرن الرابع ـ وهو القديس أثناسيوس الرسولى الذى كان دياكونا أو أرشى دياكوناً، ورافق الباب الكسندروس البابا التاسع عشر فى عداد البابوات الأقباط، إلى مجمع نيقية المسكونى (سنة ٣٢٥م) حيث كان الساعد الأيمن لباباه فى المجمع. وكان له دور رائد فعال فى صياغة دستور الايمان الذى أصدره المجمع. وبعد نياحة البابا ألكسندروس، أجمع الشعب على اختيار الدياكون أثناسيوس بابا للاسكندرية.

٤ ـ وحتى القرن العاشر، كانت رتبة الدياكون بكامل مواصفاتها مازالت قائمة بكل مهامها فى الكنيسة القبطية. فالأنبا ساويرس ابن المقفع (حبرية البابا إفرآم السريانى من ٩٧٥ ـ ٩٧٩م)، حدد واجبات الشماس (الدياكون) هكذا:

[وله فى رتبته حمل كأس دم المسيح..

وله قراءة الانجيل على الأنبل (النطق العربى للكلمة القبطية Anbon وتعنى منبر) ، إذا لم يقرأه القس..

وعلى الشماس أثناء الصلاة والقداس تبليغ الشعب وانذارهم] ـ كتاب ترتيب الكهنوت ١٣

بدء ضمور رتبة «الدياكون»:

يرصد العالم القبطى يسى عبد المسيح بدء ضمور رتبة الدياكون فى الكنيسة القبطية من القرن الرابع عشر أو قبل ذلك.

إذ نجد فى كتاب «مصباح الظلمة فى إيضاح الخدمة» لابن كبر (القرن ١٤) أول إشارة

إلى رسامة «شمامسة صغار السن» . إذ يقول ابن كبر: [وأجازوا (الآباء) قسمة الشمامسة صغاراً]. وغير معروف معنى رسامة «شمامسة» «صغار»، لأن السن التى اشترطتها القوانين الكنسية للرسامة أن لا يقل عمره عن ٢٥ سنة، وأن يكون زوج امرأة واحدة مدبراً أولاده وبيته حسناً (١ تى ٣: ١٢).

و يرجع العالم يسى عبد المسيح هذه العادة الجديدة إلى الاضطهاد والتهاون فى التمسك بالقوانين.

سبب آخر: التغيير فى النظرة إلى درجات الكهنوت:

إلا أن هناك عاملاً آخر، قد يكون هو الذى أدى بطريقة غير مباشرة إلى ضمور هذه الرتبة. وهو دخول فكرة «التدرج السلمى» بين رتب الكهنوت، ثم تبعها مفهوم «الترقية» بين هذه الرتب من رتبة إلى رتبة «أعلى»، وذلك منذ أواخر القرن الرابع. ولشرح ذلك يقول:

١ ـ ففى المرحلة ما قبل مجمع نيقية (عام ٣٢٥م) كان النظر إلى رتب الكهنوت المختلفة: الأسقفية، القسوسية، الدياكونية قائماً على مبدأ «العضوية فى جسد المسيح». فكل رتبة كانت تؤدى واجباً وتمارس سلطاناً لتكميل مهمة محددة، (تسمى فى الطقس الكنسى «ليتورجية» حسب التعبير الكنسى الوارد فى قوانين الكنيسة)، فى إطار جسد الكنيسة الواحد المتماسك القائم بعضه بالبعض. وكل رتبة كانت ضرورية من أجل اكتمال وسلامة عمل الجسد الواحد، وهى تأخذ وضعها كعضو فى الجسد كله، ودون مقارنته بالنسبة للرتب الأخرى (ولكن دون إغفال مبدأ إعطاء الكرامة الواجبة لكل رتبة حسب كرامتها). فإذا أختير واحد لرتبة الأسقفية، فكان يرسم أسقفا دون الحاجة إلى رسامته أولاً دياكوناً ثم قساً. وهكذا رسم الشماس أثناسيوس الرسولى أسقفاً للأسكندرية، وعضو الشعب («العلمانى» كما يقولون) كبريانوس أسقفا لقرطاجنة دون أن ينال أى منهما وضع اليد للرتب الأسبق.

٢ ـ و لكن بعد مجمع نيقية دخلت ممارسة هذا التدرج السلمى فى الرسامة إلى الرتب الكهنوتية، ربما بسبب التعدي في حدود مسئوليات بعض أصحاب الرتب على مسؤليات الرتب الأخرى. وبمرور الزمن، أدى هذا الاجراء إلى فهم أن كل رتبة تحوى فى داخلها

سلطان الرتب الأخرى (هذا السوء في الفهم أدى عند الكنيسة الرومانية إلى إمكانية إقامة قداس إلهي بواسطة الكاهن دون الحاجة إلى وجود شماس وشعب باعتبار أن الكاهن يحوز في نفسه بمقتضى الرسامة رتبة الشماسية والشعب. لكن في الكنيسة القبطية مازال الفهم الصحيح لتنوع ولزوم رتب الكهنة الثلاث على أنها عضوية في جسد الكنيسة قائماً، إذ لا يمكن الاستغناء عن حضور رتبة من رتب الكنيسة الثلاث (الكاهن، الشماس، الشعب) لإقامة قداس إلهي قانوني. وهذه مأثرة من مأثر الكنيسة القبطية في حفظ روح التقليد الكنسي القديم.

٣ - وبعد القرن الخامس وبسبب الانشقاقات والصراعات المذهبية بين رؤساء الكنائس إثر مجمع خلقيدونية (سنة ٤٥١م)، أدى هذا الصراع ضمن ما أدى، إلى الفتور الروحي الذي صاحب هذه الإنشقاقات، مما أدى بالتالي إلى آثار كثيرة في مفاهيم رتب الكهنوت ودرجاتها المختلفة، فتحولت النظرة إلى الدياكون على أنه أقل من القس أو أدانى منه في الكرامة، وليس خادماً مكملاً في خدمته لخدمة القس وخدمة الأسقف، وسادت نفس النظرة على علاقة القس بالأسقف، وعلاقة الأسقف الكرسي الرسولي المتقدم بين الأساقفة، ومحاولة جعل الرسامة إلى رتبة أسقفية الكرسي الرسولي المتقدم «ترقية» «يرقى» إليها أسقف سبق أن قسم على إيبارشية أخرى وكأن رتبة البطريرك أعلى من رتبة الأسقف. وفي الغرب تطور هذا التغير في المفاهيم إلى حد تشويه العلاقة الأخوية بين بطاركة المسكونة الخمسة، فتغير مفهوم «الأولية في المحبة» بين هؤلاء البطاركة إلى مطالبة بابا روما بجعلها «رئاسة بالقانون» على البطاركة الأربعة الآخرين.

٤ - وكما أدى تحول النظرة إلى التدرج السلمي لرتب الاكليروس، إلى النظر إلى الرسامات أيضاً على أنها «ترقية» وليست «دعوة» و«انتداب» و«تكريس» كما يسميها كتاب «الرسامات» (الأفخولوجيون - طبعة رومية)، حيث لم تذكر كلمة «ترقية» إطلاقاً في أي من نصوص صلوات الرسامات؛ هكذا انطبع مفهوم «الترقية» على تعامل «الشمامسة» مع رتبتهم. فأصبح من يسمون «الشمامسة» يطمحون إلى «الترقية» إلى رتبة البريزفيتروس / القس، كمكافأة لهم على جدارتهم في حفظهم صلوات القداس وإتقانهم للألحان وجودة صوتهم وهذا الاتجاه أثر بدوره على رتبة القسوسية، إذ تركز الاهتمام في اختيار وانتخاب

القس على جودة الصوت دون كفاءة ووقار الشخصية والذى يسميه القانون الكنسى «زى الشيوخ» أى حكمة وسمات الشيوخ، وغيرها من مؤهلات وكفاءات هذه المرتبة الجليلة.

٥ ـ وليس أدل على صحة هذا التحليل، من وضع رتبة «القسوسية» حالياً التى تثبتت على أنها الخدمة الكهنوتية الأكمل والأكثر نشاطاً، والتى لم تشهد ضموراً أو انحساراً مثل رتبة الشماسية / الدياكونية. وذلك يرجع فى المقام الأول إلى إغلاق باب «الترقية» أمام القسوس ليصيروا أساقفة، بسبب أن القس لابد أن يكون متزوجاً بينما الأسقف لابد أن يكون متبتلاً. وهكذا أصبحت استحالة «الترقية» سبباً فى الحفاظ على رتبة القسوسية وصونها من الضمور، بل جعلها هى الرتبة السائدة والحاملة لعبء الخدمة فى الكنيسة أكثر من أية رتبة أخرى.

٦ ـ أما رتبة «الأسقفية»، وفى خضم هذا التغيير فى المفاهيم وقيام رتبة القسوس بأكبر قسط فى الخدمة أخذت وضع الرئاسة والسلطة الإدارية العليا على القسوس (وخفت بالتالى دور مجمع القسوس حول الأسقفية فى المشاركة مع الأسقف فى إصدار القرارات وفى ممارسة الرعاية فى الإيبارشية). وقد أدى هذا الوضع الجديد للأسقفية بما تغلبت عليه الروح الرئاسية وممارسة السلطان الأسقفى، المجرد عن الاتحاد بالكنيسة جسد المسيح وصفة التمثيل لشعب الله فى موضع ما، إلى ظهور ما يسمى بالأسقف على غير إيبارشية وشعب، والذى يمارس سلطات الأسقفية دون أن يكون له الصفة السرائرية كرأس لجسد الكنيسة فى موضع ما.

٧ ـ و فى هذا الإرتباك فى آلية الرعاية فى الكنيسة، ضمرت رتبة «الدياكونية». فبعد أن كان يقوم بها رجال متخصصون مكرسون متفرغون، يحسون ويعتزون بكرامة رتبتهم وثبات وضعها ضمن رتب الكهنوت، وبعد أن كان «الدياكون» نادراً ما يدعى حتى ليكون قساً / بريزفيتروس؛ أصبح الآن الذين يقومون ببعض أعماله أعضاء من شعب الكنيسة غيرمكرسين للخدمة الدياكونية، واختزلت بعض المهام الأخرى إلى مجرد المعاونة فى الخدمة الليتورجية داخل القداس الإلهى عدة ساعات فى يوم أو أكثر من أيام الأسبوع، مثل ترتيل الألحان والقاء المردات والنداءات المنوط بالدياكون أداؤها. وبعد ذلك سمح

للصبية الصغار بأداء هذا العمل، وأطلق عليهم اسم «شمامسة» بالرغم من أن الدرجة التى أقيموا عليها، (بغير رسامة ووضع يد)، هى «الأغنسطس» أو «الأناغنوستيس» أى القارئ، أو «الأبصالتس» أى «المرتل». وبهذه الصورة تدنت صورة «الدياكون» (وحتى صورة الأناغنوستيس) ومركزهما فى أذهان الشعب وفى نظر المسؤلين فى الكنيسة، بالرغم من أهمية تنوع وتعدد المهام التى يجب أن يؤديها الدياكون لتكميل الخدمة الأسقفية والقسوسية.

وهكذا فقدت الكنيسة القبطية رتبة هامة، تمثل ـ حسب تعبير العالم القبطى يسى عبد المسيح ـ «أحد أضلاع المثلث الكهنوتى منذ العهد الرسولى».

الشماسة فى الكنيسة:

ونفس الأمر الذى حدث لرتبة الشماس حدث لرتبة الشماسة. إذ اختفت هذه الرتبة تماماً. ورتبة الشماسة مذكورة فى الكتابات الرسولية الأولى:

١ ـ فإذا رجعنا إلى ١ كو ١٦، لنقرأ عن الكنيسة التى فى بيت أكيلا، فإن زوجته الفاضلة بريسكلا صارت هى «شماسة» دياكونوس Diaconus» الكنيسة فى أفسس.

* وهذا هو نفس اللقب المعطى لشماسة أخرى اسمها «فيبى» ذكر اسمها فى ديباجة الرسالة إلى رومية (١٦ :١): «اختنا فيبى التى هى خادمة (دياكونوس) الكنيسة التى فى كنخريا».

وقد وصف عملها بالتحديد أنها «مساعدة (أو معاونة Prostatis) لكثيرين ولى أنا أيضا» (رو ١٦ : ٢). وكلمة Prostatis التى يصف بها بولس الرسول عملى فيبى (مساعدة) أصبحت تستخدم لوصف عمل الشمامسة عموماً وأنهم «معاونون» للأسقف (الدسقولية ٧).

دور الشماسة فى خدمة الكنيسة:

وفى التنظيمات الكنيسة المبكرة نجد للشماسة دوراً محدداً هو خدمة النساء ولكن ليس لهن خدمة شخصية لأى من رجال الإكليروس: [على الأسقف أن يقسم شماسات نسوة مختارات قديسات لأجل خدمة النساء] ـ الدسقولية ١٥ : ١٤.

١ ـ مساعدة النساء المتقدمات للمعمودية [وقبل كل شئ لأجل امرأة تتعمد.. لأنه عمل غير ضرورى ولا لائق أن يتأمل الرجال النساء إلا فى وضع اليد فقط] ـ الدسقولية ١٥ : ١٥.

* تعلمهن التعليم المسيحى. [ليقمن بتعليم النساء المتقدمات للمعمودية بدقة وحذق الأجوبة على الأسئلة التى تطرح عليهن فى وقت المعمودية] ـ قانون ١٤ مجمع قرطاجنة (سنة ٣٩٨).

* المساعدة فى إجراء التغطيس فى مياه المعمودية ودهنهن بالزيت المقدس، بينما يدهن الأسقف جبهة المعمدة فقط. [لكى يدهن الأسقف رأس المرأة.. والأنثى تصبغها المرأة الشماسة] الدسقولية ١٥ : ١٥, ١٧.

٢ ـ الخدمة الروحية للنساء وتمريضهن وخدمة المسنات. [والشماسة المرأة أيضا لتكن مجتهدة أن تربح النساء وتعينهن] ـ الدسقولية١٥ : ٢٥.

٣ ـ لا تأتى امرأة إلى الأسقف لتسأل أى شئ إلا مع الشماسة. [وخارجاً عنها لا تأتى واحدة من النساء إلى الشماس أو الأسقف لتسأل عن عمل متعلق بدرجته] ـ الدسقولية ٤ :٩.

٤ ـ إراحة النساء فى الكنيسة ومراعاة نظامهن. [وشماسات يحرسون النساء لئلا يكون فيهم قلق أو تومىء إحداهن أو تنام. وتقف الشماسات عند أبواب (الكنيسة الخاصة بدخول) النساء لئلا يخرج أحد] ـ قوانين الرسل بيد إقليمس ـ الكتاب الخامس، الدسقولية١٠ :٢٣.

٥ ـ افتقاد النسوة فى البيوت. [لأنك لا تقدر ترسل شماساً إلى المنازل إلى النساء بسبب غير المؤمنين. فترسل شماسة امرأة بسبب فكر الناس الأشرار] ـ الدسقولية ١٥ :١٤.

شروط تسمية الشماسة:

قديماً، كانت الشماسات يخترن أحياناً من بين الأرامل اللواتى أخترن لرتبة الأرامل واللواتى ذكرهن القديس بولس الرسول فى الرسالة الأولى إلى تيموثاوس الإصحاح الخامس:

ـ «ولكن التى هى بالحقيقة أرملة ووحيدة فقد ألقت رجاءها على الله وهى تواظب الطلبات والصلوات ليلاً ونهاراً.. لتكتب أرملة إن لم يكن عمرها أقل من ستين سنة، إمرأة

رجل واحد (أى لم تتزوج بعد ترملها)، مشهوداً لها فى أعمال صالحة، إن يكن قد ربت الأولاد، أضافت الغرباء غسلت أرجل القديسين، ساعدت المتضايقين، اتبعت كل عمل صالح».

ولكن ليست كل أرملة شماسة، بل فقط التى سميت شماسة. وفى هذه الحالة يمتنع عليها أن تتزوج ثانية بعد اختيارها شماسة، {وهى لا ترشم بل تجعل بالإسم} ـ قانون ٢٥ من قوانين الرسل ال ٧٠. وهذا الفرق بين الأرامل والشماسات يظهر من النص التالى الخاص بوجوب خضوع الأرامل للشماسات: [فالواجب للأرامل أن تكون هادئات قنوعات خاضعات للأساقفة والقسوس والشمامسة وأيضا للشماسات] ـ الدسقولية ١٢:٤٤.

وأحياناً كن يخترن من بين العذارى المتبتلات غير المتقدمات في السن، على شرط عدم نكث نذر بتولتهن بالزواج بعد إقامتهن شماسات. وعندنا مثل الشماسة أوليمبياس (٣٦٥ ـ ٤١٠)، التى كانت زوجة حاكم مدينة القسطنطينية. ثم ترملت وهى فى مقتبل العمر، ولكنها رفضت الزواج بالرغم من إلحاح الإمبراطور البيزنطى. وقد صارت تلميذة للقديس يوحنا ذهبى الفم فيما بعد.

ولكن يمكن أن يخترن أيضا من بين السيدات التقيات المتزوجات المتقدمات فى السن، إذا توفرت فيهن الشروط الروحية الأساسية مع روح الأمومة الروحية.

٣. وثائق طقس الرسامة

١. التزكية

باسم الآب والابن والروح القدس، الثالوث القدوس غير المفترق، الإله الواحد، إلهنا. نحن المسيحين الأرثوذكس، نتكل عليه إلى النفس الأخير، ونرسل إليه فى الأعالى المجد والإكرام إلى الأبد.

نحن المطارنة والأساقفة والكهنة والشمامسة وكل الشعب المحب للمسيح بمدينتى الإسكندرية والقاهرة وأقاليم مصر جميعاً.

عندما حلت بنا جانحة اليتم بانتقال طيب الذكر مثلث الرحمات البابا الأنبا يوساب الثانى

إلى الأخدار السمائية، الذى نال جميع المواعيد المقدسة ومضى إلى الله الذى أحبه فسمع منه تعالى ذاك الصوت المملوء فرحاً القائل: نعماً أيها العبد الصالح الأمين أدخل إلى فرح سيدك: عندما ترملت كنيسة الله المقدسة التى كان يرعاها بتعاليمه، تضرعنا إلى العلى أن يرشدنا إلى من هو مستحق لهذه الرئاسة العظيمة، ليرعانا فى طريق الرب ويهدينا ميناء الخلاص، فبمنحة علوية واختيار الروح القدس اتفقنا جميعاً بطيب قلب على القمص مينا المتعبد لله الراهب الذى من دير البرموس، باب ورئيس أساقفة على الكرسى الرسولى الذى للقديس مرقس ناظر الإله الإنجيلى كاروز الديار المصرية واثيوبيا والنوبة وخمس المدن الغربية وسائر أفريقيا، وقد وقع اختيارنا عليه لأنه رجل متعبد لله محب للغرباء، معلم، طاهر، مجمل بالفهم والمعرفة. مُجِد فى نشر تعاليم الإنجيل، ساهر على حفظ طقوس الكنيسة وتقاليدها، أقمناه رأس رعاة وبطريركاً لبيعة الله المقدسة لكى يرعانا بالرأفة والوداعة. لهذا سطرنا هذه التزكية ووقعنا عليها مقدمين الشكر للثالوث الأقدس الآب والابن والروح القدس. آمين.

٢. صلوات وضع اليد

ووضع كبير الأساقفة يده على رأس القمص مينا متوسلاً أن تحل عليه نعمة الروح القدس وأن يجعله الرب أهلا لدعوة رياسة الكهنوت.

ثم وضع الآباء المطارنة والأساقفة أيديهم على رأسه وتلا نيافة الأنبا ميخائيل مطران أسيوط هذه الصلاة:

أيها السيد الرب ضابط الكل الأزلى، مصدر كل الرأفات واله كل عزاء. أبو ربنا والهنا ومخلصنا يسوع المسيح الذى خلق جميع الأشياء بقوته وحكمته ومشورته، وثبت أسس المسكونة. اللهم العارف كل الأشياء قبل تكوينها، الذى زين أكاليل المختارين من قِبَله، الذى جعل خوفه فى قلوب خليقته لكى تخضع لعزته، الذى أنعم علينا بفهم حقيقى لنعرف روح صلاحه، الذى أضاء كنيسته بنوره غير الموصوف واصطفى إبراهيم خليله لميراث الأمانة، ونقل قديسه أخنوخ إلى الكنوز النورانية لأنه أرضاه، الذى وهب موسى الوداعة وهرون كمال الملكوت. الذى مسح الملوك والرؤساء لكى يقضوا بين شعبه بالعدل، الذى لم يدع مذبحه المقدس السمائى بغير خدمة منذ إنشاء العالم حتى اليوم. اللهم الذى أقام كهنة فى بيعته

ليخدموا اسمه القدوس، نسأل ونضرع إلى صلاحك عن عبدك (الأنبا كيرلس السادس) الذى اصطفيته رئيس كهنة على بيعتك ليكون رئيساً لشعبك وراعياً له. أشرف عليه يا رب بنور وجهك لكي يضيء قلبه بينبوع مجدك فيعرف أسرارك الإلهية. أفض عليه روحك القدوس، روح الحق روح الكمال المعزى الذى أعطيته لرسلك القديسين وأنبيائك الأطهار، امنحه يارب روح الحكمة والفهم، روح المشورة والقوة، روح المعرفة والتقوى، املأه من مخافتك يا الله ليقضى بين شعبك باستقامة، ويتمسك بالإيمان الأرثوذكسى القويم. ألْبسه حلةِ مجدك المقدسة، وضعْ على رأسه تاجاً، وامسحه بدهن الفرح، دهن صلاحك ليكون رئيساً لكهنتك، أميناً على بيعتك، ليخدمك بلا لوم كل أيام حياته بذبائح طاهرة، وصلوات نقية، ونفس مضيئة بأصوام وأعمال صالحة، ومحبة ووداعة وأمانة بلا رياء، ويرفع القرابين عن جهالات شعبك وينتشلهم من فخاخ الخطية، ويردهم إلى حظيرتك المقدسة. اللهم امنحه سلطان روح قدسك ليحل كل وثاق ربطه العدو بالخطية ويجمع أبناء الكنيسة لكى تصبح الرعية واحدة لراع واحد، واحفظ كهنوته بلا عيب إلى التمام ليخدمك بذبائح روحية كل حين كرتبة رئيس الكهنوت الأعظم الذى في السموات يسوع المسيح ربنا، هذا الذى يليق بك معه والروح القدس العز والمجد والإكرام إلى الأبد آمين.

٣. تقليد رياسة الكهنوت

تقليد الأنبا كيرلس السادس رئيس أساقفة مدينة الإسكندرية العظمى

باسم الآب والإبن والروح القدس الإله الواحد له المجد دائماً

نحن المطارنة والأساقفة خدام بيعة الله الطاهرة الأرثوذكسية، بجهات الكرازة الرسولية المرقسية، المجتمعين برحمة الله العظيمة العلوية، نكتب إلى الجزيلى الحب الإيغومانسيين المكرمين، والقسوس الورعين، وباقى مصاف البيعة المباركين، والآباء الرهبان العابدين، والأراخنة المحترمين، وقاطبة شعب المؤمنين الأرثوذكسيين، الكائنين بالمدينة العظمى الإسكندرية، وفسطاط مصر، والقاهرة، وكل الأقاليم المصرية، والنوبة، والحبشة، وكافة التابعين للكرازة المرقسية الرسولية، من إخوتنا وأحبّتنا الروحيين التابعين إليهم، سلاماً دائماً بهياً وتبريكاً روحياً أبوياً.

أيها الإخوة: بوّقوا بنغمات الفرح والحبور، وهللوا معيِّدين عيد الابتهاج والسرور، سبحوا

ومجدوا عظائم إلهنا الذى لا يُحدُّ غناه، ولا تستقصى حكمته، ولا يدرك علمه، ولا تفحص أحكامه وقدرته، سيدنا كلنا يسوع المسيح الإله الحقانى، العارف الأشياء قبل كونها، والمُطلّع على غوامض الأفكار الإنسانية وشئونها، كلمة الله الذاتية الذى لم يزل كائناً مع أبيه وروحه القدوس بوحدة جوهرية، وإذ هو الملك الحقيقى الذى كنوز الحكمة لديه مخفية، وأعماله عن إدراكات العقول محجوبة خفية، فبإرادته غير المفحوصة اقتبل اليه الأب الطوبانى، والراعى الأرثوذكسى الروحانى، أبينا البطريرك الأنبا يوساب الثانى ال ١١٥ فى عداد البطاركة الأرثوذكسيين، ونقله إلى دار البقاء والخلود حيث آمال الصالحين، وثقة العابدين، وغاية الفائزين، فالضرورة قادتنا أن نجتمع باتفاق واحد حسب الرسوم الرسولية، نحن مطارنة وأساقفة الكرازة المرقسية وكهنة الكنائس وأراخنة الملة الأرثوذكسية، وتشاورنا فى جلسات متنوعة، بأوقات متعددة، مبتهلين إلى الله تعالى، أن يُظهر لنا خيريته، فى من يريده لهذه الخلافة الممجدة، متداولين باجتهاد عمن يستحق للرياسة الكهنوتية الفخيمة، ليرعانا فى طريق الرب، ويرشدنا إلى ميناء الكنيسة الهادئة القويمة. إذ نحن عارفون بعواطف قلوب الشعب المرقسى («أهل مدينة الإسكندرية» فى مخطوطة القرن الثالث عشر)، التائقة دائماً للأبوة العظمى، وحبهم للسيد المسيح الذى منح كنيسته هذه الرياسة الأسمى وأنهم لا يؤثرون أن يمكثوا فى حالة اليتم إلى زمن مديد، ويبقوا بدون راع إلى زمن بعيد.

فلهذا شرعنا بجد واجتهاد فى أن نتمم الرسوم الإلهية، مقدمين مع الشعب عواطف الضراعات والابتهالات القلبية، إلى أن ارشدتنا الحكمة العجيبة وأسعفتنا المقدرة السامية الرهيبة، (بطريق القرعة الهيكلية)(*) إلى اختيار المتعبد لله الإيغومانس الجليل، الأب مينا الراهب البتول، من برية شيهيت من المجمع البهى المحروس، بدير السيد بالبرموس، المتربى فيه منذ شبوبيته تحت نظارة آباء ورعين، وشيوخ عابدين، وقد نال نعمتهم مثل أليشع مع إيلياس

(*) ما بين القوسين غير مذكور فى مخطوطة القرن الثالث عشر فهى مضافة على هذه الصلوات بالذات لأن إجراء عملية القرعة ليس داخلاً ضمن طقوس رسامة البابوات أصلاً. وقد دخل هذا الإجراء فى القرن الحادى عشر نقلاً عن عادة نسطورية وبإيعاز من الوزير غير المسيحى بسبب المشاكل التى حدثت أثناء انتخاب البطريرك فى عصره، راجع: ألفريد بتلر، الكنائس القبطية القديمة، مترجم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣، صفحة ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

نعمة مضاعفة، من قبل أعمال التقوى والعبادة، والطاعة المشرفة، كما هو مكتوب فى الأسفار الرسولية هكذا، «نحن نعلم أن أولئك الذين يحبون الله يعينهم فى كافة الأعمال الصالحة المرضية، أولئك الذين دعاهم كسابق رسمه، إذ الذين سبق فعرفهم، هم الذين تقدم فرسمهم، والذين رسمهم هم الذين دعاهم، والذى دعاهم هم الذين بررهم، والذين بررهم هم الذين مجدهم». وقوله أيضاً «لن ينال أحد الكرامة لذاته وحده إلا المدعو من الله مثل هرون الحبر عبده». كذلك الذين أتوا بعده، فى كل جيل إلى الأبد، وإلى انقضاء الزمان، وبما أننا واثقون بسموّه حسب التزكية، المقدمة منا ومن الجمهور، وشهادة الآباء العابدين باستحقاقه لهذا المقام الرياسى المبرور، فقد جعلنا الله الذى هو مصدر الخيرات العلوية، المنتخب هذا الأب حسب دعوته السمائية، معينا لنا ومقصداً، ومكملاً ومؤيداً، واجتمعنا احتفالياً، بالكنيسة الكاتدرائية، الرسولية المرقسية، بحضور جمهور أراخنة ونبلاء ونجباء وأبناء الكرازة المرقسية الأرثوذكسية، مقدمين سر الشكر الشريف المنير، بعبادة وورع لعزة الله العلى القدير، وبهذا الاحتفال الروحانى والجمع الطوبانى، فى يوم الأحد العظيم الموافق ٢ من شهر بشنس قبطى سنة ١٦٧٥ للشهداء الأبرار الموافق ١٠ من مايو سنة ١٩٥٩ مسيحية، رقيناه إلى الدرجة السامية البهية التى للرياسة الكهنوتية السنية، واسميناه باسم كلمة الله الأقدس الأب البطريرك البابا أنبا كيرلس السادس المائة والسادس عشر فى عداد بابوات الاسكندرية وبطاركة الكرازة المرقسية، ليكون لنا أباً وراعياً، ومرشداً للخلاص، وراعياً يرعانا فى مروج الأمانة المخصبة الروحية، التى للمعرفة الحقيقية، رافعين إياه، إلى خلافة الإنجيلى الناطق بالالهيات، القديس مرقس الرسول المبشر بالخيرات الأبديات، ولقد أفعمت نفسه الزكية من النعم الروحية السماوية، عندما منح موهبة الروح المعزى بالأصوات الرسولية القدسية، واذ ألبسناه حلة الرياسة الحبرية، وتوجناه بتاج الأمانة الرعائية، من لدن العزة الالهية، الكلية الاقتدار، ببركات طغمة الرسل الأطهار الأبرار، والتلاميذ الأفاضل الأحبار، أضحى رئيساً للكهنة وراعياً ومعلماً وأباً عاماً للمؤمنين مقدماً نائلاً هذا السلطان، من الله ملك السمائيين والأرضيين، ليربط ويحل كالحدود القانونية، ويتصرف كالرسوم الشرعية فى سياسة وارشاد المؤمنين، ويشرطن الاساقفة بالانتخاب والاستعداد والتزكية ويقيم الاكليروس لخدمة الأسرار القدسية، ويقدس المذابح، ويكرس البيع المتجددة وبيوت الشهداء المؤيدة ويمارس السلطان الذى منحه سيدنا يسوع المسيح لتلاميذه وصفوته،

جامعاً إلى داخل المرتسمين بأسرار بيعته، ويكرس الميرون الذى هو الدهن السرى الروحى الشريف، بالسر المكتوم الذى للخدر الأكرم العلوى، الذى للعروس المزينة السماوية المدعوة عروس الابن المنيف، ويتمم فعل حميم الميلاد الثانى الجديد، الذى للروح القدس كالأمر الصادر من المسيح إلهنا الذى صار له خليفة، وواسطة بيننا وبينه، وكرتبة موسى خادم الله وواضع الشريعة، وهارون اللاوى المؤتمن على خدمة قبة الشهادة، ورعاية الجماعة. هذا وقد توطدت نفسه باسم يسوع المسيح الفادى الوسيط، وامتلأ من نعمة الروح القدس الفارقليط، وأضحى انساناً جديداً، بالرتبة العظمى، المنعم عليه بها، من كنز نعم الله العلى، وفضله الأسمى ذلك الذى يرفع المتواضعين، ويرفع المسكين من الحضيض، ويجلسه مع رؤساء شعبه الفائقين. ولقد امتلأنا من الفرح الدائم والسرور السيدى، الذى دعينا إليه من قبل سيدنا المسيح كلمة الآب السرمدى المتجسد من العذراء وصار انسانا واقتبل الآلام والموت بجسده وقام فى اليوم الثالث، من بين الأموات بعزة جبروته ومجده، وصعد إلى السموات، جالساً عن يمين الآب فى الأعالى، وأرسل الروح المعزى مالئاً تلاميذه الأطهار من تقديسه ومواهبه ذات المعالى، مكملين بالرتبة السماوية والرسالة الالهية، إلى أن جمعوا شمل المتبددين، وأقاموا منار الدين واصطفوا بهدايته تعالى المستحقين، لرعاية المؤمنين، وانا لمؤمنون ومتيقنون، بأن سيدنا وملكنا يسوع المسيح قد أنعم علينا وأقام لنا هذا الأب الصالح المأمون.

والله الذى اصطفاه راعياً لكرازتنا، ورئيساً لبيعتنا، ينعم عليه بحكمة الكلام عند افتتاح فمه، ربحاً لانفسنا وفائدة لهدايتنا، ويبررنا واياه من كل خطية ويجعل دعوته التى نالها مصدراً للسلامة فى الكنيسة الأرثوذكسية، وداعياً للخير لكافة أبناء الكرازة المرقسية، وينعم علينا جميعاً بمراحمه ويمتعنا بدوام مكارمه، بشفاعة الستالسيدةكليةالقداسةالعذراء فى كل حين الطاهرة مريم وطلبات أبينا القديس مرقس الرسول الطاهر، الانجيلى الأكرم، وآبائنا المتوشحين بالنعم الالهية، الأب القديس أنبا أثناسيوس الرسولى والأب القديس أنبا كيرلس الكوكب المنير الإسكندرى وكافة الآباء البطاركة القديسين، الذين جاهدوا باستقامة محامين عن الدين.

ثم إننا نعلن ايماننا باله واحد فى الجوهر، الآب ضابط الكل، وابنه الوحيد ربنا يسوع

المسيح، الكائن باتحاد غير منقسم، ندعوه حقاً مثل الآب ونعرف أن الابن ليس هو ابنين لكن ابناً واحداً وحيداً، لا بالنعمة والإضافة، بل بالحق هو ابن حقيقى للآب والروح القدس المنبثق من الآب، المساوى للآب والابن فى الجوهر، وقيامة الأجساد وبالكنيسة المقدسة الجامعة الرسولية، وربنا يسوع المسيح فليمنحنا كلمة التعليم عند افتتاح أفواهنا لنعيش بسيرة هادئة ورعة، ونوجد لديه بكل تقوى وعفاف بنعمته وجوده هذا الذى له المجد والجلال، والعزة والكمال، مع أبيه الصالح والروح القدس فى وحدانية جوهرية، الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين آمين(*).

(*) انظر التدبير الألهى فى تأسيس الكنيسة. مجموعة من الكتاب والعلماء القاهرة ١٩٩٧.

مصادر ومراجع البحث

أولاً. مصادر البحث

١ـ الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد.

٢ـ كتاب الإفخولوجيون EUCHOLOGION مطبوع بمدينة رومية عن مخطوطة ترجع إلى القرن الثالث عشر، رومية عام ١٧٦١ للميلاد عام ١٤٧٨ للشهداء، وتحوى الكثير من الصلوات الطقسية مثل الرسامات وصلوات طبخ الميرون وغيرها على نهرين قبطى وعربى. ويرجح أنه عن هذه المخطوطة أخذ ابن كبر صلوات الرسامات التى أوردها فى كتابه «مصباح الظلمة لإيضاح الخدمة» فى القرن الرابع عشر وذلك بمضاهاة النصوص فى كلتا المخطوطتين.

٣ـ مخطوطة قوانين البيعة ـ محفوظة بمكتبة البطريركية والكنائس القديمة.

ثانيا. مراجع البحث

١ـ وليم سليمان قلادة، دكتور، كتاب تعاليم الرسل الدسقولية، الطبعة الثانية ١٩٨٩، دار الثقافة.

٢ـ مجموعة NICENE & POST-NICENE FATHERS ، المجموعة الثانية، المجلد ١٤ الخاص بقوانين المجامع.

٣ـ البيذاليون باللغة اليونانية وترجمته باللغة الإنجليزية باسم THE RUDDER ، وقد طبع فى شيكاغو عام ١٩٥٧، تجميع لمخطوطات، ومراجع عدة لقوانين البيعة الأرثوذكسية.

٤ـ حنانيا الياس كساب، مجموعة الشرع الكنسى، جمع وتعليق، ١٩٨٥ منشورات النور، بيروت ـ لبنان. وهو تجميع لمخطوطات ومراجع عدة لقوانين البيعة الأرثوذكسية.

٥ـ عونى برسوم، المستشار، التقنين الكنسى، ١٩٩٤، بيت الشمامسة القبطى بالجيزة.

٦ـ القمص مرقس داود، تاريخ الكنيسة تأليف يوسابيوس القيصرى، ترجمة، الطبعة الثانية ١٩٧٩، مكتبة المحبة.

٧ـ إيريس حبيبى المصرى، قصة الكنيسة القبطية، الأجزاء الثالث والسادس إلى الثامن.

٨ـ جرجس فيلوثاوس عوض، ناشر، المجموع الصفوى لابن العسال، (مخطوطة من القرن ١٣)، ١٦٢٤ ش. (١٩٠٨م).

المدن الخمس الغربية بنتابوليس Pentapolis

مقدمة:

يختلف العلماء فى تحديد الفترة التى تسمت فيها المنطقة باسم «بنتابوليس» Pantapolis. أو اتحاد المدن الخمس. فهناك من يرجعه الى العهد الجمهورى، (٤٥٠ ـ ٣٢٢ق.م (*). والبعض الآخر يرجعه لعهد البطالمة ٣٢٢٠ ـ ٩٦ ق. م).

ويوجد من يرجع به الى ما بعد هذا التاريخ، باعتبار أن هذه التسمية لم ترد الا فى نص متأخر، فى كتابات، المؤرخ الرومانى بلينى الكبير Pliny (القرن الاول الميلادى)، وهو يقول: «سيرينيكا هى نفسها «أقليم» بنتابوليس» . ولكن هذا النص ربما يوحى أيضا بقدم الاتحاد عن الفقرة التى عاش فيها المؤرخ، والتى تسميت فيها المنطقة باسم: «سيرينيكا». حيث سيطرت عاصمتها سيرين ، وهى الاسم الذى لا تزال تعرف به منطقة المدن الخمس (بنتابوليس،فى جميع المصادر الغربية الحديثة.

ويرى البعض أن اصطلاح «بنتابوليس» كان رمزا للتحالف القائم بين المدن الخمس الاغريقية فى ليبيا الشرقية، كنتيجة للاصلاحات الدستورية التى اقترحها المشرعان اليونانيان «اكديموس، وديموفانس» Ecdemos & Demophanes نحو ٢٥٠ ق. م)، على أساس قيام «اتحاد فيدرالى» (Koinon) بين المدن الخمس، بعدما قررا ـ فى مشروعهما ـ فصل مدينة سيرين، عن مينائها البحرى«أبولونيا» ، لتصبح كلا منهما مدينة مستقلة، بهدف التقليل من قوة سيرين، وجعلها فى مصاف قوة المدن الاربع الاخرى، وبمعنى آخر تتعادل كفة المدن الخمس، ولا تطمع سيرين فى السيادة على بقية المدن الاخرى.

وقد اعلن الدكتور كمال عبدالعليم أنه لم يقف على اسم «أبولونيا» فى مصادر سابقة على القرن الاول، بوصفها مدينة منفصلة عن سيرين. ويستبعد الاستاذ جونز Jones ان يكون اسم أبولونيا قد أطلق على ميناء سيرين فى عهد البطالمة، بزعم أنهم اعتادوا اطلاق أسماء ملكية على مدن برقة.

(*) الكلمة اليونانية مركبة من مقطعين: «Penta» (خمسة) «Polis» أى مدينة. وقد سميت فى مصر بالمدن الخمس الغربية هذا وقد وجدت خمسة مدن شرقية (فى فلسطين)، وهى التى اتحدت ضد الملك كدر لعومر. وهى «سدوم، عمورة، صوغر. أادمة، صبوييم» (تكوين ١٤ : ٨).

ويبدو أن هذا الاسم كان مستعملا فعلا في هذا العهد، خاصة وأنه ظل حتى العصر الروماني المتأخر كميناء هام. ومما يدعم رأينا عثور الأثريين «هيسلوب وأبلبوم» على عملة نقدية في المنطقة من القرن الثالث ق . م ومدون عليها كلمة «الاتحاد» (Koinon). وقالا أن أبولونيا كانت ـ بالتأكيد ـ أحدى مدنه الخمس.

ولانسمع عن اصطلاح «البنتابوليس» حتى قيام الثورة اليهودية في سيرينيكا عام ١١٥م، ثم شيد الامبراطور هدريان الروماني مدينة باسمه (Hadrianopolis) فأصبح في المنطقة ستة مدن كبرى. وقد عثر على نقش أثرى (يرجع للفترة بين ١٨٥ ـ ١٩٢م) يشير إلى أن المدينة الاخيرة، قد أصبحت عاصمة سيرينيكا . ولكنها انحدرت واختفت، وعاد الاصطلاح المشهور «بنتابوليس» الى الظهور من جديد، في عهد الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥م). كما ظل معروفا في أيام المطران الليبي سينيسوس Synesiua(٤٠٥م)، حيث يأتي ضمن سطور رسالة منه الى ابن عمه ديوجينيس القيريني. وقد استمر نفس الاسم شائعا خلال الفتح العربي، وقد ورد محرفاً في كتب المؤرخين العرب القدماء هكذا: «أنطابلس».

وقد ظل نفس الاصطلاح شائعا، في مصر. خلال العصور الوسطى، وحتى العصر الحديث «ضمن القاب بابا الاسكندرية». في المراجع التاريخية المسيحية (المدونة باللغة العربية) ، وأن اختلف الكتاب المصريون ـ القدماء والمحدثون ـ في تحديد أسماء المدن الخمس. ومواقعها الفعلية، لاسباب عديدة، سنحاول مناقشتها فيما يلي:

اسماء المدن الخمس في المخطوطات القبطية:

فيما يلي بيان بأسماء مدن بنتابوليس، على حسب الترتيب التاريخي للمصادر القديمة منها، ثم الاكثر حداثة وهكذا:

١ ـ حسب رواية البطريرك الملكاني افتيخيوس (ابن بطريق) كما وردت في تاريخه (٩٧٠م) هي : مدن برقة وزولا وزويلة وأوجلة وسنترية، وهي مدن شائعة في ليبيا، في أيام الكاتب . ربما استقاها من التجار المصريين، الذين التقى بهم في مصر.

٢ ـ أما صاحبنا ساويرس (أسقف الأشمونين الشهير، في القرن العاشر)، فقد أجملها (في تاريخه) بقوله «ان الخمس مدن بالمغرب هي أفريقية وما معها».

ثم عاد وفصلها، في موضع آخر من كتابه، موضحا أنها «برقة وفزان والقيروان وطرابلس الغرب وأفريقية»، وهي خمس مناطق أكثر منها خمسة مدن.

٣ ـ أما ابن كبر (كاهن كنيسة المعلقة بمصر القديمة في القرن ١٤م. فقد حسبها مدن برقة، طرابلس الغرب ، وتونس، وافريقية، وقيريني).

٤ ـ وقد وردت هذه الاسماء عينها في مخطوط قبطي (عربي، باسم تكريس الكنائس».

٥ ـ وفي مخطوط آخر، عن رسامة الاساقفة أشير إلى المدن الخمس بانها : «برقة (برقين)، طرابلس. افريقية. والقيروان، وتونس.

والواضح ـ من هذه النصوص ـ أنه حدث خلط كبير، بين موقع مدن البنتابوليس الحقيقية (في شمال شرق ليبيا)، وبين مواقع مدن أخرى. في شمال أفريقية، وذلك يرجع ـ في رأينا ـ إلى أسباب عديدة، ربما كان منها خراب المدن الخمس الاصلية، عمرانيا وسكانيا، بعد الفتح العربي، وطول الفترة التي تقع بين تدوين هذه الكتابات، وبين اندثار هذه المدن فعلا، ولعدم وصول هؤلاء الكتاب الى مواقعها الاصلية. وكما كان يفعل الجغرافيون القدماء. بالاضافة الى عدم توفر المادة المكتوبة عن بنتابوليس، في وقت مبكر في مصر. فاعتمدوا ـ على الارجح ـ على معلومات مستقاة من الجماعات القبطية، التي كانت ترد الى مصر من مناطق استقرارها بالشمال الافريقي، بعد الفتح العربي للمغرب.

هذا ونوافق قداسة البابا شنوده الثالث في قوله بأن أسم «تونس». الذى أشار اليه ابن كبر. وتكرر في مخطوطات أخرى، قد أتى من الخلط بين مدينة «القيروان» التي شيدها عقبة بن نافع ٦٧٠م) في تونس. لتكون عاصمة للمغرب العربي. وبين مدينة قيرون (Cyrene) عاصمة بنتابوليس. التي أقامها الاغريق. على الجبل الأخضر، في ليبيا الشرقية)، كما سبقت الاشارة.

وأكبر الظن أن منطقة تونس الحالية (بين القيروان وقرطاج القديمة)، كانت تضم أسقفية قبطية في العصور الوسطى. ومن المعروف أن العرب قد أخذوا ـ بعد فتحهم للمغرب ـ كثير

من أمهر العمال الفنيين والاداريين الاقباط، ليحلوا محل البيزنطيين ، الذين غادروا الشمال الافريقي. بعد الفتح العربي، وعلى ذلك لا نستبعد أن يعتبر المؤرخون «الاقباط» القيروان» كاحدى المدن الخمس. بدلا من «قيرين» الاغريقية. التي تقترب معها في نطقها.

وكذلك الحال بالنسبة لتفسير اسم «افريقية» الوارد في المخطوطات السابقة، فهو يثير الدهشة، في نظر قداسة البابا شنوده، ويطلب له تفسيرا!!

وبالاطلاع على آخر الابحاث الجغرافية والتاريخية عن شمال أفريقية، ا تضح ان كلمة (افريقية) اطلقها العرب ـ نقلا عن البيزنطيين ـ على المنطقة الواقعة بين تونس والجزائر الحالية (قرطاجنة القديمة)، وسماها البيزنطيون «ولاية أفريقية» Provincia ، وكانت اسقفية قبطية، ترعى الاقباط المصاحبين للفاتحين العرب فقد نشرت مجلة «المقطف» (عدد سبتمبر ٣٧، ١) بحثا مترجما (عن الفرنسية) «لجاستون فييت»، عن الاقباط في تونس ضمن موضوع الموصلات في مصر في العصور الوسطى استند فيه كاتبه على كتابات المؤرخين «البلاذرى. والبكرى»، وقال ما نصه. ص ٣٣): «... ولكن غارات القراصنة البيزنطيين حملت الخليفة الاموى) على زيادة دور الصناعة، فأمر بأنشاء واحدة بعكا، مستعينا بالنجارين المصريين وأخرى بتونس، على يد ثلاثة آلاف قبطى» كان معظمهم من مدينة تنيس المصرية التى جاء منها اسم تونس.

ومن هذا كله، نخلص أن المؤرخين الاقباط، فى العصور الوسطى، قد استعاروا الاصطلاح اليونانى الشهير «بنتابوليس» (المدن الخمس الغربية).، الذى كان عالقا بأذهانهم، لأنه كان ـ ولا يزال ـ ضمن ألقاب البابا القبطى، فاحيوه من جديد جغرافيا، وأطلقوه ـ على ما يبدو ـ على خمس مناطق أو مستوطنات فى المصادر الغربية «Coptic - Settlements» كانت عامرة بالاقباط، شمال افريقية العربى لبنتابوليس. و(منطقة) طرابلس،ومنطقة تونس (الممتدة من قرطاجنة القديمة حتى الجزائر الحالية)، ثم أخيرا (منطقة) القيروان (عاصمة المغرب العربى، وتمتد بهذا المفهوم ربما الى مراكش أيضا (المغرب)، وقد ظل هذا التفسير سائدا حتى الآن فى مصر، يتناقله الخلف عن السلف، بلا معرفة للحقيقة.

وأما الكتاب المحدثون، فى مصر، فهم ينقسمون حسب آرائهم ـ الى مجموعتين: ـ

أ ـ المجموعة الاولى:

وقد نقلت اسماء المدن الخمس عن المصادر القبطية السابقة، كما هى بدون تعديل (*).

ب ـ المجموعة الثانية:

وقد اعتمدت على المصادر الاجنبية الحديثة (الغربية) في معرفة اسماء مدن بنتابوليس الحقيقية، ولكن اكتفت بذكر أسمائها فقط، دون ان تقدم لنا مادة علمية كافية عنها (*)، بسبب عدم وجود المصادر الغربية، التى تتحدث عنها، في مصر.

ومن ثم كانت الحاجة ماسة الى دراسة علمية سليمة ومفصلة، عن المدن الخمس، مع ضرورة اتباعها ببعض النواحي الجغرافية، والظروف التاريخية المتعلقة بنشاتها، وتطور اسمائها، عبر التاريخ، و ظروفها الطبيعية. حتى تكون فرشة أساسية، للحديث عن المسيحية فيها بعد ذلك.

(*) من هذه المجموعة: ابراهيم صبرى. مار مرقس الانجيلى (القاهرة ١٩٦٨، ص١٤٤)، ونصيف حبيب، الذى نشر مخطوطة تضم سيرة أنبا صموئيل القلمونى (القاهرة ١٩٥٢). وقد أشار (فى ص ١٧ حاشية١) الى و جود المدن الخمس الغربية بشمال افريقية. أما الاستاذ عزت سامى، فقد نشر مقالا عن الخمس مدن،بجريدة وطنى (عدد ٤٦٧ فى ١٩٧١/١٠/١٠)، أشار فيه الى أن طرابلس هى احدى هذه المدن الخمس. بينما ذكر الدكتور صابر جبرة (فى كتابة مجد الكتاب المقدس، نشر الانجلو، القاهرة، ص ١٦٠) أن: «مقاطعة المدن الخمس كانت تضم القيروان وبرقة وغرب أفريقية» !! وتكرر نفس الخطأ فى كتاب تاريخ الكنيسة جـ ١ نشر جماعة مدارس الاحد بالجيزة (القاهرة ١٩٦٢، ص ٣٢)، وفى كتاب عن القديس مرقس الانجيلى للمرحومين حبيب جرجس. وكامل جرجس القاهرة١٩٣٧، ص ١٧ حاشية رقم ١.

ومن أمثلة المجموعة الثانية:ـ

قداسة الباب شنوده الثالث. المصدر السابق ص ٣٩ ـ ٤٤. زاهر رياض، كنيسة الاسكندرية فى افريقية (ص ٢٥ ـ ٢٦)، ويسطس الدويرى المتنيح الانبا دستورس. أسقف المنوفية الراحل) فى كتابه «موجز تاريخ المسيحية» (القاهرة ١٩٤٩، جـ١، ص ٧٥) وقد ذكر اسماء مدن بنتابلويس بدقة، نقلا معجم لاروس (الفرنسى. لكنه أوقع المدن الخمس خطأ، على الخريطة ص ٨٤، بأن جعلها فى منطقة تونس، وقد وردت أسماء مدن بنتابوليس الحقيقية. فى مقالة عن بنتابوليس للمرحوم كامل صالح نخلة، بمجلة جمعيةن التوفيق القبطية، عدد ٨ (القاهرة، ديسمبر ١٩٣٨)، وكذلك فى كتابه عن مار مرقس (القاهرة ١٩٤٩)، وكذلك كتاب تاريخ الكنيسة للقمص منسى يوحنا (ص ٧)، كما أورد القمص تاوضروس السريانى بيانا مختصر بأسماء المدن الخمس، حسب المصادر القبطية والأجنبية، ضمن مقالة مفصلة عن مار مرقس بمجلة المحبة (يونيو ١٩٦٨) ص ١٩٠.

ونبدأ أولا بالاشارة إلى أسماءالمدن الخمس الحقيقية (القديمة)، ثم نشير الى ظروفها الطبيعية التى نشأت فيها، على أن نتبعها بدراسة تفصيلية لكل مدينة منها، على حدة، استكمالاً للنقص الواضح فى المعلومات عنها، طبقاً لما أتضح لنا من الاطلاع على الدراسات المنشورة عنها فى مصر.

تحديد المدن الخمس الحقيقية:

من واقع المصادر القديمة المعتمدة، نجد أن المدن الخمس هى: «سيرين، وأبوللونيا، وتوكرة، وبرنيس ، وبرقة طبقا لرواية أسترابون، ونقل عنه بعض الكتاب الغربيين، أمثال رينو، والسيدة بوتشر، ومن الشرق الاستاذ هانى المبارك الليبى . وغيرهم من سبقت الاشارة اليهم فى الحاشية السابقة.

الا أن المؤرخ الرومانى «بلينى» Pliny (٢٣ (٧٨م) استبدل «برقة» بمدينة «بتولمايس» أو «طولميته». واختلف فى ذلك الدارسون، فمنهم من وافقه على رأيه، ومنهم من عارضه.

ويبدو ان مدينة «برقة» (Berca) قد تأسست قبل ميناء بتولمايس، ومن الراجح أنه كان يوجد ميناء صغير على الساحل (وقيل مجرد قرية صغيرة) فى المنطقة المحيطة ببرقة شمالاً ، والتى دعاها هيرودت « بركايا» (Barcaia)، وهو ميناء مجهول الاسم، ربما أقيم بعد أنشاء مستوطنة برقة كمنفذ لها على الساحل.

وقد قام البطالمة بتطوير هذا الميناء، وفى أيامهم أصبح مدينة حديثة. جيدة التخطيط، وقد حملت اسم الملك الافريقى الاسكندرى، فدعيت «بطليموسة» (Ptolemais) و قد حلت محل «برقة» الام ــ فى الاتحاد القيرينى ــ فى القرن الثالث ق. م، بعدما تضاءلت أهمية المدينة الثانية. ربما بسبب الهجرة الى الميناء الجديد. وعلى ذلك لانميل الى الاخذ برأى الاستاذ البرغوتى ، الذى ينادى بنشأة بتولمايس قبل مدينة برقة، لأنه يتعارض ــ فى الواقع ــ مع تطور نشأة المدن الخمس، على حسب رواية هيرودت، الذى زار المنطقة وكتب عنها.

كما أن الاستاذ البرغوتى يعود الى القول بأنه «لم يبق من أثار برقة (مدينة المرج الحالية) ما يوضح شيئا من ماضيها، وأغلب الظن أنها لم تزدهر. بعدما خربها الفرس سنة ٥١٥ ق . م.

وعلى ذلك أضحت «برقة» مجرد قرية صغيرة، تابعة لميناء بطوليمايس، في العصر البطلمي، وربما أصبحت هكذا في القرن الميلادى الاول، طبقا لرأى المؤرخ الرومانى «ميلا» Mela، ولكنها استردت بعض أهميتها الاقتصادية، بعد نقص مصادر المياه في بتوليمايس، ويؤكد ذلك وجود اسقفية مسيحية ـ في مدينة برقة ـ في وقت متأخر ، كما سنرى فيما بعد.

ونخلص من هذا كله، الى أن المدن الخمس الغربية تقع جميعها فى منطقة الجبل الاخضر الحالية (شرق ليبيا)، وليس في بلاد المغرب، أو.تونس، كما وردت في المصادر القبطية السابقة الاشارة اليها.

وبذلك يكون موقعها الجغرافي بين منطقة «مارماريكا»(*) Marmarica وخليج سيرت الكبير (Syrtis Major)، أى بين خطى عرض ٢٩ ـ ٣٣° شمالاً وبين خطى طول ٢٠ ـ ٢٥° شرقا.

وقد دعاها الاب شينو باسم «المدن الخمس الليبية»، كما تسمت في السنكسار القبطى باسم (ليبية مصر) ، لاتحادها معها سياسيا ودينيا، فترات طويلة، كما سنر ى في حينه.

الظروف الطبيعية لبنتابوليس:

يقسم هيرودت المنطقة إلى ثلاث مناطق طبيعية، على هيئة أشرطة موازية لساحل البحر المتوسط، ويرتفع كل منها عما يليه كلما اتجهنا جنوبا. وهى على التوالى: الشريط الساحلى ثم الشريط الجنوبى له، وبينهما هضبة سيرين (الجبل الاخضر حاليا). وهذا التقسيم يتفق مع الواقع الجغرافي. لحد كبير.

أما السهل الساحلى فيمتد من بنغازى الى طوكرة. وبعرض كبير. وهو عبارة عن أرض شبه مستوية، كثيرة الحصى والحجر الجيرى، وبعض اجزائها مغطى بتربة صلصالية حمراء ، وبه بعض البحيرات العذبة. والى الشرق من طوكرة يضيق الشريط الساحلي وتقترب التلال من البحر اقترابا شديداً ، خاصة عند مدينة أبولونيا(مرسى سوسة الحالية) وكان الساحل الشمالى

(*) «مارماريكا» : هى المنطقة الواقعة بين درنة والسلوم الحالية. وقد امتدت حدودها الادارية ـ في العصر الرومانى المتأخر ـ حتى مرسى مطروح الحالية. والى واحتى الجغبوب وسيوة جنوباً. وقد تسمت بهذا الاسم نسبة الى سكانها القدماء من قبائل «المارمريدى» طبقا لما جاء في كتابات المؤرخين سكيلاكس Scyiax (القرن ٤ ق. م)، وبلينى، ديودور الصقلي. ودعيت «مراقية» في المصادر العربية القديمة.

غير صالح لرسو السفن، لكثرة تعرضه للعواصف المحلية.ويروى المطران الليبى سينيسيوس أن العاصفة منعت سفينته من الوصول إلى الشاطىء لمدة اسبوع رغم قربها منه، هذا بالإضافة إلى ندرة الماء العذب بالمنطقة ، مما جعلها مناطق طرد السكان.

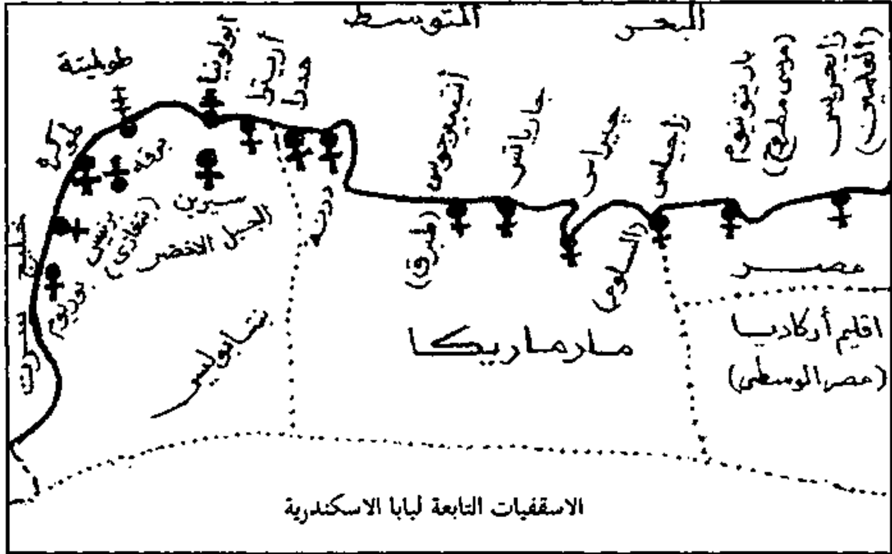

الاسقفيات التابعة لبابا الاسكندرية

ويلى هذا المرتفعات الساحلية التى تحيط بخليج سدرة من الشرق، وتبرز على شكل قوس ممتدة شمالا فى البحر المتوسط. وهى فى الواقع هضبة شبه مستوية (تسمى حاليا الجبل الاخضر)، وترتفع الى نحو ٨٧٠ متراً فوق سطح البحر، ولكنها تنحدر تدريجيا نحو الجنوب (نحو الصحراء) حيث توجد الواحات الليبية المعروفة.

وتكسو الهضبة غابات خضراء، تشمل أشجار الزيتون البرى. والصنوبر والسرو، وبعضها مزروع. ويغلب على سطحها الصخور الجيرية. وتنحدر منها بعض المجارى المائية نحو البحر المتوسط ، وتمتد الهضبة نحو ٢٥٠ كيلو مترا بموازاة الساحل حتى تصل الى جبل «عقبة» عند السلوم (٢٠٠ متر)، ويسير فوقها الطريق البرى الحالى، وتقع مدينة سيرين على تلك الهضة، بينما تقع طولميته وطوكرة وأبولونيا على الشاطئ، وترتفع أرض طولميته بسرعة من

الشاطئ الى سفح الجبل، فى مسافة ميل وربع فقط. اما مدينة برقة (المرج الحالية فتقع فى وسط سهل يرتفع ألف قدم فوق سطح البحر، ويمتد ٢٠ ميلا طولا و٨ أميال عرضا . وقد وصفه الكاتب العربى ابن رسته (سنة ٩٠٣م). بأنه : «مرج واسع وتربته حمراء شديدة الحمرة».

أما من الناحية المناخية، فانه نظراً لوقوع منطقة بنتابوليس بين البحر شمالا، والصحراء الكبرى جنوبا، فالمناخ كثير التقلب. وينتمى الساحل الى مناخ البحر المتوسط، أى يتميز باعتدال الحرارة صيفا، والدفء شتاء. أما الجبل الاخضر فهو أكثر أعتدالا فى الصيف، لهذا تعتبر سيرين مصيفا هاما، أما الشتاء فيها شديد البرودة ، ويشبه جنوب أوربا، وربما كان ذلك من أسباب جذب الاغريق الى استيطان المنطقة، وتأسيس المدن الخمس بها.

ومن ناحية أخرى، يعتبر الجبل الاخضر أكثر مناطق ليبيا مطراً (٥٠٠ ـ ٦٠٠م) ، ويرجع سبب ذلك الى وجود ثنية على شكل قوس، تتعامد مع الرياح الغربية ا لعكسية المطيرة. وتتجمع المياه الجوفية، فى التربة الصلصالية، التى لا تنفذ منها مياه الامطار، مما ساعد على الاستفادة بها فى الزراعة المنتظمة على الهضبة، منذ العهد الاغريقى الاول ، والتى بلغت مساحتها نحو خمسين الف هكتار. ويندر المطر بشكل ظاهر،كلما أتجهنا جنوبا، حيث توجد منخفضات تضم واحات أوجله وغدامس وجالو. ويستفاد سياحياً من غابات الجبل الاخضر، بسبب مناظرها الطبيعية الجميلة، التى تذكرنا بجبال لبنان واليونان.

وكانت منطقة بنتابوليس قد تعرضت لعدة حملات متتالية من الجراد. ذكرها المطران سينسيوس فى رسائله عدة مرات. وقد سببت هذه الهجمات سلسلة من الدمار للاقتصاد الزراعى فى المدن الخمس، فى العصر الرومانى. هذا وقد اشار سينسيوس أيضا الى وجود حيوانات مفترسة كثيرة فى زمانه (٤١٠م)، مثل الضباع والذئاب والثعابين السامة وغيرها.

دراسة جغرافية للمدن الخمس الغربية

أولا: مدينة سيرين (قريني):

أول المدن الخمس التى أنشاها الاغريق عام ٦٣١ق. م (*)، على حافة الجبل الاخضر

(*) يؤرخ الاب لوكوين تاريخ انشائها بعام ٣٥٦٣ للعالم، وعام ١٤٣ لتأسيس روما، واشار المؤرخ=

الشمالية (٦٢١ مترا)، وتمتد المدينة على هضبة مستوية، تمتد من الشرق الى الغرب. وتمتد نحو الشمال خمسة أميال. ثم تنحدر بشدة نحو البحر المتوسط.

وقد تسمت بعدة أسماء مترادفة منها قيريني وسيرين وقرنة، وقورين أو تورينا ، وسماها الرومان سيرينية. وقد وجدت بها عملات فضية أغريقية (٤٥٠ ـ ٤٠٠ ق.م) مدون عليها اسم المدينة باليونانية «كيرانا»، وقد نقش حولها صورة «نبات السيلفيوم» الطبى، أحد مصادر رخاء المنطقة.

وقد دعيت المدينة بهذا الاسم نسبة الى العذراء الاسطورية «الحورية قورينا» (Nymph Corena)، فى الادب الاغريقى القديم،(*) التى روت الاساطير أنها كانت بطلة صيد الأسود، وأنه لما رآها الاله «أبوللو» أحبها، وأخفاها عن الربة «ليبيا».

وقد عثر الشريان» بروشر وسميث» (١٨٦١م) على نقش بارز، نقلاه الى المتحف البريطانى، ويمثل المعبودة (ليبيا) وهى تضع اكليلا على رأس الحورية قورينا، بينما هذه تحاول الفتك بأسد، ويرمز هذا النقش الى زعامة سيرين للمدن الخمس الغربية.

ويقول الكاتب الليبى مصطفى بعيو: «العرب لم يهتموا بسيرين، أو التحقق من اسمها، اذ كثيرا ما خلطوا بينها وبين مدينة القيروان، كما فعل ياقوت (الحموى) فى معجمه».

وقد انتقل هذا الخطأ عينة الى الكتب التاريخية القبطية، التى كتبت فى العصر العربى، كما يتردد أيضا فى المقالات الصحفية التى تنشر، وفى الترجمة البيروتية (البروتستانتية) للكتاب المقدس، كما نرى فى النصوص التالية:

* أنجيل مرقس (١٥ : ٢٠) «فسخروا رجلا. مجتازا، كان أتيا من الحقل ، وهو سمعان القيروانى، أبو الكسندروس وروفس، ليحمل صليبه».

* انجيل لوقا (٢٣ : ٢٦): «ولما مضوا به (يسوع) أمسكوا رجلا قيروانيا..».

=الرومانى سوتينوس الى قيامها عام ٥٩٧ ق. م، بينما يرى المؤرخ الكنسى يوسابيوس القيصرى أنها أنشئت سنة ٦٣١ ق. م، وهو ما أجمع عليه غالبية الدارسين . أنظر أيضا: محمد مصطفى بازامة، بحث منشور بعنوان «اسم ليبيا» (بنغازى) ١٩٦٣).

(*) توجد مدن أخرى باسم هذه الحورية. منها «كيرينيا» بقبرص. وقرية القورين (غرب الاسماعيلية) .

* أعمال الرسل (٣ : ١٠) «ومصر، ونواحي ليبية، التي نحو القيروان».
* أعمال الرسل ٦ :٩ «فنهض قوم من المجمع، الذى يقال له مجمع الليبراتيين (الاحرار) والقيروانين».
* أعمال الرسل ١١ : ٢ «.. ولكن كان منهم قوم، وهم رجال قبرصيون، وقيراونيون».
* أعمال الرسل ١٣ : ١ «فى أنطاكية فى الكنيسة هناك.. لوكيوس القيروانى» !!

ومن الواجب التنبية الى أن مدينة «القيروان»، التى ينسب اليها هؤلاء، هى الحقيقة مدينة قورينى (سيرين)، احدى المدن الخمس الغربية الليبية. أما مدينة «القيروان» فتقع فى تونس (الحالية)، وقد بناها القائد العربى عقبة بن نافع بعد ميلاد المسيح بستمائة وسبعين عاما، لتكون عاصمة للمغرب العربى.

لذا ينبغى على ناشرى الكتاب المقدس «بالعربية» أن يستبدلوا كلمة «القيروانى» بكلمة القريانى أو القورينى ، كما فعل ابن كبر، الانبا ساويرس أسقف الاشمونين. وكما جاء فى النسخة الكاثوليكية للكتاب القدس (طبعة رومية الحالية).

هذا ويطلق الليبيون الآن اسم «شحات» أو عين شاحات على سيرين، نسبة الى القرية الليبية الحديثة، التى تقع حالياً، فى وسط المنطقة الاثرية .

وتقع قورينى على بعد ١٨ كيلومترا الى الجنوب من مينائها أبولونيا (مرسى سوسة)، كما تقع على مسافة ٢٢٤ كيلومترا، الى الشرق من بنغازى،على الطريق الرئيسية الممهدة، بين مصر والمغرب. وقد كانت مركزا هاماً للمواصلات، فى منطقة سيرينيكا ، وتمتد منها عدة طرق الى بقية المدن الخمس، وأهمها الطريق القديمة التى أقامها الاغريق، مع مينائها أبولونيا، أصلحها الامبراطور تراجان (نحو عام ١٠٠م)، وأن كانت قد تعرضت لبعض التخريب بعد ١٥ عاما، اثناء الثورة اليهودية هناك. وقد ازدهرت قورينى، فى العصر اليونانى. ووصفها الشاعر الاغريقى «بندار» (Pindar) «بأنها مدينة أقيمت على عرش من ذهب»، ولعله يعنى غناها فى النواحى الزراعية والمناخية. وقد قيل أن رُبع سكانها ، فى عهد الاسكنر الاكبر (٣٣٢ ق.م) كانوا من اليهود، الذين دخلوا الرعوية اليونانية، وكان لهم « مجمع» مشهور هناك.

وقد وصل عدد سكانها فى تقديرات البعض ـ الى نحو ٣٠٠,٠٠٠ نسمة، فى أوج عظمتها، ويبدو أنه رقم مبالغ فيه، والراجح أن سكانها لم يزيدوا عن نصف هذا العدد، على أكثر تقدير.

وتمتاز مدينة قورينا بآثارها الكثيرة، من العصرن الهليني والروماني. وهى توجد فى ثلاث مجموعات كبيرة، على قمة الجبلين الغربى والشرقى، وعند مخرج وادى بلغادير، وتضم مجموعة ضخمة من المعابد، والحمامات الرومانية، والمسارح الدائرية، والاسواق، والاماكن العامة، والكنائس القديمة، ويحيط ـ بكل هذه الآثار ـ حائط حصين طوله نحو ثلاثة كيلومترات، وتوجد خارجه جبانة كبيرة، تضم ألف مقبرة، منقورة فى الصخر، وقد نهبت محتوياتها، بعد الغزو العربى، واستعملها العرب والبدو الرحل منازلا للسكنى، أو مراحا لقطعاتهم فى الليل. وقد تخربت معظم آثار المدينة، نتيجة للثورة اليهودية (١١٥ ـ ١١٧م)، وبسبب زلازل مروعة سنة ٣٦٥م، ويذكر الجغرافى الاوربى بودران (Baudrend) «أن سيرين قد هجرت فى العصور الوسطى».

ثانيا: مدينة برقة (المرج الحالية):

وهى المدينة الثانية فى اتحاد المدن الخمس بنتابوليس). وتأسست نحو سنة ٥٥١ ق.م، على يد بعض المهاجرين الاغريق من اخوة الملك باطوس الرابع، وبمساعدة السكان الليبيين. وتقع مدينة المرج الحالية (برقة القديمة)، فى منتصف منطقة مستوية السطح، ترتفع نحو ٢٥٠ مترا عن سطح البحر. وتبعد نحو ١٠ كيلو مترات عن البحر المتوسط و١١٠ كيلو مترات عن سيرين (الشحات)، ٢٤ كيلو مترا عن طولميته.

ويعتقد راولنسون (فى تعليقه على تاريخ هيرودت) أن كلمة «برقة» أفريقة الاصل. ويرى أن المنطقة قد تسمت بهذا الاسم، قبل وصول الاغريق الى ليبيا. ويرى أن المدينة قديمة بدليل العثور على عملة نقدية(ترجع للفترة بين ٤٥٠ ـ ٣٢٠ق.م) وقد نقش عليها اسمها باليونانية.

وقد تعددت الآراء بشأن هذا الاسم، فقيل ـ مثلا ـ أن الكلمة تعنى صحراء، وهذا لا يتفق وموقعها غير الصحراوى. وقيل أنها أشتقت من الكلمة العبرية «بركة Berkah ، التى تقرب

من معناها في اللغة العربية، وتعنى مكان تجمع مياه الامطار، أو خزان طبيعى reservoir حيث نمت المدينة حول منطقة تتجمع فيها الأمطار، على حسب رواية هيرودت.

ونقل الاخوان «بيتشى» ـ عن المؤرخ الرومانى سيليوس ـ أن برقة اسم «فينيقى أو ليبى الاصل»، بينما يرجح الاستاذ بازامة (الليبى أنه «اسم مصرى الاصل»، عرفته المنطقة من خلال صلات المصريين بالليبيين في العصر الفرعونى(*)، ولعله اقرب الى الحقيقة في نظرنا.

وقد احتلها الفرس سنة ٥١٥ ق. م، وخربوا عدة مبان بها، ولكنهم لم يدمروها تماما. الا أن انشاء مينائها «طلميته»، على يد البطالمة، قد غطى على أهمية المدينة الام. فحلت مدينة بتوليمايس محل برقة في الأهمية، طبقا لما ورد في كتابات مؤرخى العصر الرومانى الاوائل أمثال بلينى، وأسترابون، وبطليموس الجغرافى، ثم فى كتابات اسطفانوس البيرنطى وغيرهم.

أما فى العصر العربى، فقد استعادت المنطقة أهميتها مرة أخرى، بعدما شيد العرب مدينة فى مكانها، وسموها برقة أيضا، وأصبحت عاصمة ليبيا الشرقية، ثم أطلق اسمها على المنطقة كلها. ثم تغير اسم المدينة، منذ القرن ١٢م، فأصبحت تدعى «المرج». حسب رواية الرحالة العربى ابن سعيد. وهو اسمها الحالى، بينما ظل اسم «برقة» يطلق على المحافظة الليبية الشرقية، حتى العهد الملكى فى الخمسينات من هذا القرن، حينما انقسمت الى عدة محافظات بعد الثورة الاخيرة.

وقد تهدمت مدينة المرج، بعد ورود القبائل العربية الهلالية منتصف القرن ١١م)، وظلت كومة من الخرائب، ولم ترجع الى عظمتها الاولى، ولكن دبت فيها الحياة ـ من جديد ـ أثناء الحكم العثمانى (القرن ١٦م)، بعد انشاء قلعة عثمانية هناك. لكن طغت عليها مدينة بنغازى. التى أصبحت عاصمة مديرية برقة العثمانية. وقد شيدت زاوية اسلامية فى ا لمرج سنة ١٨٤٢م، محل حصن رومانى، استخدمت فيها اعمدته. ولا يوجد الآن من آثارها الرومانية شئ يذكر.

(*) محمد مصطفى بأزامة، محاضر عن «اسم ليبيا» بمؤتمر ليبيا عبر العصور (منشورات الجامعة، بنغازى ١٩٦٨ ص ٨٩ ويرى ان أسم «برقة» يتكون من المقطعين BAR - KA) بر = بيت، معبد، أو مدينة أو منطقة، كا = القرين.

ثالثا: مدينة برنسيس (بنغازى): BE RENICE

هى المدينة الثالثة فى اتحاد البنتابوليس القديم. وتقع فى أقصى شرق خليج سيرت الكبير. وقد شيدها المهاجرون الاغريق، الذين وفدوا اليها من سيرين، أو من برقة (٤٦٠ ق.م)، ودعوها أولا سبيريدس، طبقا لما جاء فى كتابات هيرودت، والمؤرخان الاغريقيان توسيديدس، وثيوفراستوس Tucidides & Theophrastus ومع الزمن اختصر اسمها الى هسبيريدس، طبقا لرواية المؤرخ هيراقليدس، ثم أصبحت «هسيريس» حسب تسمية سيكلاكس القرن ٤ ق.م).

وقد تسمت المدينة فى العصر البطلمى باسم الاميرة القورينية برنيس Berenice أو برنيقة، بمناسبة زواجها من الملك بطليموس الثالث حاكم مصر، ٢٤٦ ق. م، كما ورد فى كتابات أسترابون. وقد وصفها بأنها تقع على شبه جزيرة، تمتد على بحيرة تريتونيس Tritonis وظلت المدينة تحمل نفس الاسم، فى العصر الرومانى، كما أخبرنا المؤرخان بلينى ولوكانو. (Lucano)، وفى الكتب العربية القديمة دعيت «برنيق»، كالاسم البطلمى.

وقد وصفها اليعقوبى (سنة ٨٩٧م) بقوله: «ان ميناء برنيق عجيب فى الاتقان والجودة». فى حين ينقل ابن خلدون (١٤٠٦م) عن المسعودى (٩٥٦م) عبارته «صحارى برنيق»، مما يدل على عدم وجود انتاج زراعى وفير حولها، فى تلك الفترة، أو بما يوحى بقلة عدد سكانها، وتحولها الى منطقة شبه مهجورة.

ويعتقد الاثرى جودتشايلد أن المدينة الاغريقية الاولى «هسبيريدس» قد أقيمت على أرض مرتفعة، فى أقصى شمال سبخة بركة السليمانى، فى موقع مقابر سيدى عبيد الاسلامية الحالية، على طريق بنغازى ــ طوكرة .

وقد اختفت آثار المدينة القديمة بسبب حفر الاهالى أساساتها. للحصول على حجارة للبناء. وقد شاهد الرحالة الاخوان «بيتشى» الاهالى (١٨٢٨م) وقد بنوا دورهم، فى تلك الفترة، باستخدام أحجار الآثار، كما يبدو من شكلها وعلى ذلك لا توجد أية آثار. من تلك التى جددها الامبراطور البيزنطى جستنيان فى المدينة، فى القرن السادس الميلادى.

وعلى بعد عشرة كيلو مترات من شرقي بنغازى الحالية، اكتشف الاخوان بيتشى «جنة الدنيا» ، حسب وصف المؤرخ الاغريقى سكيلاكس، والرومانى بلينى . وقد حددت الاساطير اليونانية القديمة مغارة ليثى «أو موضع الجحيم والنعيم» ، وتقع على مقربة من جنة هسبيريدس هذه. وسماها العرب «الشق الكبير». وهذا الشق الارضى عبارة عن مغارة طويلة وعميقة ، بين احراش كثيفة، كلما تعمق الهابط اليها، كلما ضاق الموضع و انخفض الصخر بشدة . والراجح أنه فالق فى القشرة الارضية، من فعل زلزال قوى قديم، وربما كان يخرج منه ماء ساخن . لان استرابون ٦٦ق.م ـ ٢٤م اعتبره نهرا من الجحيم. وأشار إليه بطليموس الجغرافى (القرن ٢م) وقال : «أن ارواح الموتى تشرب منه. فتنسى أفراحها السابقة على الارض» وتروى كتب المثولوجيا الاساطير الاغريقية أيضا أن الالهين زيوس وهرقل كانت لهما مغامرات مشهورة فى تلك الجنة الاسطورية.

ومن دراسة العملات النقدية التى اكتشفها بوند وسويلز Bond & Swales نجد أن موقع المدينة الاغريقية «يوسبيريدس» لم يعد صالحا للاقامة (بعد عام ٢٥٨ق.م). وهذا يعنى أنه تم التفكير فى تأسيس مدينة برنيق، منذ ذلك الوقت (٢٤٧ ق.م ـ ٦٤٣م)، قرب البحر،و فى موقع بنغازى الحالية.

وقد تأثرت المدينة بثورة اليهود، فى سيرينيكا (١١٥م) ، حيث هددتها المدينة الجديدة، التى بناها الامبراطور هدريان، (Hadrianopolis) على بعد ٤٠ كيلو مترا، شمالى برنيق، ولكن تلك المدينة لم تنل نجاحا كبيرا، لعدم وجود ميناء لها، فعادت لبرنيق أهميتها مرة أخرى، وقد أعاد الامبراطور جستنيان تحصينها فى القرن السادس، طبقا لرواية المؤرخ البيزنطى بروكوبيوس(Procopius) .

ويبدو أنها انحدرت بعد الفتح العربى، فقد أسهب المؤرخ أبو عبيد البكرى فى وصف المرج (برقة) كما تحدث عن مدينة اجدابية (جنوب بنغازى) ، مما يقوى من الاحتمال باختفاء برنيسى فى زمانه (١٠٩٤م). وما يؤكد ذلك ما ورد فى كتابات الادريسى (سنة ١١٥٦م) من أنعدم الحياة فيها، بقوله: «وتبعد سلوق عن قافيز مسيرة يوم، وقافيز قصر شيد على خوائب برنيق». كما يتحدث عن غابة، وعن بحيرة عذبة تفصلها عن البر كثبان رملية . والراجح ان هجرة

قبيلة بنى هلال العربية الى المنطقة (١٠٥١م) قد أتت على ما بها من عمران، بعدما هجرتها البقية الباقية من الروم، الذين ظلوا بها حتى تلك الفترة على ما يبدو.

وقد ظل موقع برنيس مهجروا منذ القرن ١١م، الى أن أعادها للحياة مهاجرون من طرابلس الغرب، جاؤها للتجارة (١٤٦م).

أما المدينة الحديثة، التى أقيمت فوق انقاض برنيس، فقد تسمت باسم أحد المرابطين، ويدعى «سيدى غازى» (نحو ١٤٧٩م)، فدعيت «مرسى ابن غازى» ثم اختصرت فيها بعد الى «بنغازى». وقد ورد هذا الاسم فى حوليات المؤرخ ابن الفرات.

رابعا: مدينة توشيرا (طوكرة): TOCRA

كانت عضوا فى اتحاد البنتابوليس، فى القرن ٣ ق. م، ونستدل من أقوال الشاعر بندار (الاغريقى) أن مهاجرين من سيرين هم الذين قاموا بتأسيسها، وقيل أنهم جاءوا اليها من برقة.

وتقع على خليج سدرة (سيرت الكبير) بين مدينتى طولميته وبنغازى، فى أقصى غرب سيرينيكا، حيث تقترب حافة الجبل الاخضر من ساحل البحر المتوسط، وقد تكون سهلها الساحلى من منطقة نحتتها أمواج البحر، فظهرت الصخور الجرداء على سطح الارض، خالية من التربة. ويرتفع الساحل نحو مترين عن سطح البحر، ويمتد الى سفح الجبل نحو ستة كيلو مترات، وبه كثبان رملية، وبرك ملحية تسمى محليا (السبخات)، وتسقط عليها كمية كافية من الامطار سنويا.

وقد قرأنا اسم المدينة بعدة أشكال، منها توكرا Tocra (حاليا طوكرة)، أو «توخيرا» أو توشيرا، والاخير هو الذى يفضله القدماء (٥٠) ويذكر المؤرخ البيزنطى اسطفانوس أن هذا الاسم قد أشتق من اسم أو تاندروس.

هذا وقد تسمت المدينة أيضا باسم «أرسينوى» (Arsinoe) نسبة الى زوجة بطليموس الثانى فيلادلفوس، كما عرفت ـ لفترة قصيرة من العصر البطلمى ـ باسم «كليوباتريس» (Cleopatris)، نسبة لابنة كيلوبترا من مارك انطونيو.

وقد شوهد عدة قبور مسيحية، وأخرى عبرية. منقورة فى الصخر. وفى طوكرة. ويرى

الاثريون أنه نظرا لندرة آثار الرخام بها، ما يوحي بأن مجتمع طوكرة كان مجتمعا فقيراً، يعيش عيشة بسيطة، أذا ما قورن بمجتمع مدن البنتابوليس الاخرى.

ومن الواضح أن طوكرة كانت مدينة حربية، ذات أهمية استراتيجية بالغة، كمركز حماية، من البحر، للممر الذى يتجه منها الى الشرق . ولهذا اقيم حولها سور منيع، شبه مربع، يمتد ٦٠٠ متر، من كل جانب، وعرضه متران، وكان يقويه ثلاثون برجا ، وله ثلاثة أبواب رئيسية. وكان أول تشييد له فى العصرن الاغريقى، وأعيد اصلاحه عدة مرات، كان آخرها فى عصر جستنيان، فى القرن السادس،ولا تزال بقاياه للآن.

ومما يؤكد طابعها الحربى المحض أنه لم يعثرم بها على أى أثر يدل على أنه كان لها ميناء تجارى، وقد أقام بها البطالمة قلعة حصينة، كما بنى الاتراك هناك قلعة أخرى، للاستفادة من موقعها الحربى الممتاز، على خليج سيرت.

ولطوكرة تاريخ حربى قديم وطويل، فقد تصدت لهجمات القائد الفارسى آرياند، ٥١٠ ق.م،كما دافعت عن سيرينيكا (٣٢٢ ق.م) عندما هاجمها القائد تيبروس. وقد تعرضت المدينة إلى التخريب على يد اليهود، ومن سكانها سنة ١١٥م، ولما لم يمكن اعادتها الى حالتها الاولى، فقد قرر الامبراطور هدريان انشاء مدينة بديلة ـ بجوارها ـ تحمل اسمه. طبقا لرواية المؤرخ الرومانى أورسيوس.

ولكن الحياة دبت فيها من جديد، بعدما أجرى فيها جستنيان اصلاحاته.وقد أصبحت طوكرة مقرا للقائد العام للجيش البيزنطى، فى بنتابوليس. ولذلك كانت آخر المعاقل التى قاومت الجيش العربى (٦٤٣م) وفر منها القواد والجنود البيزانطيون الى أوربا، وعاشت على هامش المنطقة، بعدما اتجه الحكام العرب الى الداخل.

ويذكر الادريسى أن البربر سكنوا اطلالها فى أيامه (١١٥٦م)، وظلت المدينة مهجورة تماما حتى القرن الماضى، حينما زارها الاخوان بيتشى (١٨٢٨م) وشاهدا بعض العرب الرحل يسكنون مقابرها أثناء موسم رعى الاغنام، خلال فصل الصيف . وظلت المدينة على ركودها حتى الوقت الحاضر، حيث لا نشاهد بها أى سكان مستقرين، وان كانت هناك محاولات لتعمير المنطقة، خارج الاسوار، باستصلاح الارض، وتوطين البدو فى مساكن حديثة.

خامسا: مدينة أبولونيا (مرسى سوسة):

تقع على ساحل البحر المتوسط في مساحة ضيقة. في نهاية سهل خصيب، أسفل حافة السلسلة الجبلية. التي تبعد كيلو مترين ونصف فقط عن الساحل، الى الشمال من مدينة سيرين تماما. ويبلغ طول المدينة القديمة ٣٠٠٠ قدم، وأقصى عرض لها ٥٠٠ قدم فقط، وكان ولا يزال يحيط بها سور متين.

ونميل الى رأى الاستاذ البرغوتي، الذى ينادى بأن المدينة قد نشأت بعد تأسيس سيرين بقليل، لتكون ميناء لها، ومنفذا بحريا لتجارتها. ولكن الاستاذ جونز يرجع تاريخ نشأتها الى عهد بطليموس الثالث ٢٥٠ ق.م)، على أساس أنها مرتبطة بانشاء اتحاد البنتابوليس(*).

اما الاستاذ مصطفى بعيو فقد قال: «ان ذكر أبولونيا قد ورد ـ لاول مرة ـ فى كتابات ديودور الصقلى، ولم تكن حتى ذلك الوقت قد أصبحت مستقلة بذاتها (عن سيرين)، وانها كانت جزءا لا يتجزأ منها سياسيا». ويضيف: «انه ذكرها ـ كمدينة قائمة بذاتها، أى مستقلة فى ادارة شئونها.

ومعنى ذلك أنه يرى أنها لم تكن ضمن اتحاد المدن الخمس (بنتابوليس)، الذى وضع أساسه المشرعان اكديموس وديموفانس (نحو ٢٥٠ ق. م)، وهو رأى لا يمكن قبوله، لانه يتناقض مع آراء القدماء والمحدثين.

وعلى أية حال، فقد ظلت أبولونيا مخرج سيرين الهام لنحو الف عام، كانت تتصل بها عن طريق جبلى، منحوت فى الصخر الصلد ٢٠ كيلومتر، وهو حاليا يأخذ نفس اتجاه الطريق القديم، وأعيد صلاحه عدة مرات.

وقد تسمت المدينة باسم «أبوللو» ، كبير الآلهة الحامى للاغريق. الذى تقول الاسطورة أنه جاء بالمهاجرين الاغريق الى ليبيا الشرقية. ثم أطلق على المدينة اسم «سوزوسا» Sozusa، فى

(*) وقد كان بالعالم الهلينى ٣٠ مدينة باسم أبولونيا، منها واحدة ذكرت فى أعمال الرسل (١٧:١)، والراجح أن المدينة الليبية قد نشأت بعد زيارة هيرودت، حيث لم يشر اليها. أما جونز فقد اعتبر تاريخ انشائها هو تاريخ ضمها للاتحاد، وربما كانت موجودة قبل ذلك بقرنين على الاقل، وقد عثر عن نقش فى أثينا يرجع لنهاية العصر البطلمى)، يفيد بأنها كانت تنسب الى سيرين.

العصر المسيحي، ربما في عهد المطران الليبي سينيسيوس (٤١٠م)، حيث انها قد اشتهرت به في عهده. ويعني هذا الاسم «مدينة المنقذ» أو المخلص، حسب تفسير الاستاذ البرغوتي، ولعله ينسب الى السيد المسيح، وليس الى ربة وثنية، كما يزعم البعض ولا يزال هو اسمها الحالي «مرسى سوسة».

ومن الجدير بالذكر أنه مع بداية القرن الرابع الميلادى بدأت أهمية سيرين تتضاءل، بينما استمرت «سوسة» في النمو، على حسابها، حتى بلغت ذروة مجدها خلال القرن السادس. ثم أصبحت عاصمة سيرنيكيا، في القرنين السادس والسابع، بسبب تعرض سيرين لهجمات البربر كما سنرى فيما بعد.

ومن الجدير بالذكر أن هناك مدينة أخرى في تونس تسمى «سوسة» أيضا، يجب عدم الخلط بينهما، كما يحدث لدى البعض.

وكان البحر قد ابتلع نحو ثلث مساحة المدينة القديمة، بعد زلزال عنيف هز سواحل البحر المتوسط في العصور الوسطى. ومن الصعب الآن تحديد الميناء الاغريقي وأرصفته. وان كان من المرجح أنه يقع في منطقة الى الشرق من النتوء الصخرى، الذى يشاهد حالياً متعمقا في البحر. وفي المنطقة التي لم تغمرها المياه، نشاهد آثار قلعة بيزنطية الى الجنوب، كانت مقرا للحاكم البيزنطي في القرن السادس، وبالمدينة أيضا عدة كنائس.

وقد تخربت المدينة أثناء الفتح العربي، طبقا لحفريات الاثرى الاستاذ بيركنز Ward - Perkins، وظلت خالية من السكان تقريبا، الى أن شيد الاتراك مدينة «سوسة» الحديثة (١٨٩٧م) كمستعمرة للمسلمين، المهاجرين الى ليبيا من جزيرة كريت. ولهذا نجد أن هناك مسحة غير افريقية بين سكانها الآن.

وقد أعيد بناء المدينة الحديثة على نطاق واسع، أثناء الاحتلال الايطالي، ١٩١١م، فغدت ميناء للسفن الساحلية، ومركزا اداريا. الا أن أحوالها الآن تختلف عما قدر لها، فهي لا تؤدى أيا من هذين الغرضين وأصبحت تخلد الى السكون. وربما يرجع ذلك لبعدها عن العاصمة الاقليمية بنغازى (بنحو ٣٠٠ كيلو متر)، على طريق غير مسلوكة، ويقيم السكان الحاليون كلهم خارج أسوار المدينة القديمة.

سادساً: مدينة بتوليمايس (طولميتة): Ptolemais

سبق أن أوضحنا أنها قد حلت محل مدينة برقة(*) في اتحاد البنتابوليس نحو (١٦٣ ق. م) وقد أجمعت الدراسات الاثرية على قدم مينائها. ويقول الاثرى جودتشايلد: «لقد نمت بتوليمايس في العصر اليوناني الى مركز تجارى مستقل ذاتيا»، وربما يرجع ذلك الى صلاحية مينائها لرسو االسفن قديما.

وقد اختير موقعها بعناية، في منطقة تنحصر بين البحر المتوسط واحد الاودية الضيقة، وتشـــاهد على جانبيه آثار تحصينات لحمايتها، كما أحيطت المدينة بأسوار توازى الجبل من الخلف، وعلى امتداد الوادى حتى البحر.

ويرى الاثرى الامريكى كريلينج (Kraeling) ان طبيعتها الجغرافية هى التى جذبت الاغريق اليها(من منطقة برقة)، حيث ساعد موقعها على تحسين مناخها. فقد كفل الجبل حماية كافية لها من الحرارة والرياح التى تهب من جوف الصحراء، مع تسهيل سقوط امطار كافية، ساعدت على نمو الاعشاب للرعى، وخلقت تربة رسوبية صالحة للزراعة . وقد أشار الشاعر اليونانى «بندار» الى غناها الاقتصادى قديما . وعلى أساس هذه المعلومات، أوحى كهنة معبد «دلفى» الاغريقى (Delphic Oracle) الى أبناء وطنهم بضرورة الهجرة الى تلك المنطقة واستيطانها، ولا نستبعد انه قد وفدت اليها أعداد من مستوطنى برقة، للسكنى بها.

وتقع المدينة الحديثة على بعد ٢٩ كيلو مترا من طوكر، ونحو ٢,٥ كيلو متر من الشاطئ، ويبدو أنها قد شيدت فوق الميناء القديم لمدينة برقة، طبقاً لرواية بطليموس الجغرافى. والراجح ان اهتمام البطالمة بها وانشاء ميناء بطلمى كبير بها كان مرجعه امتداد الارض على شكل لسان طبيعى، داخل مياه البحر المتوسط، مما أعطاها حماية طبيعية من الامواج، وبالاضافة الى موقعها البحرى، شمال برقة مباشرة، وهى المنطقة التى أشرنا من قبل الى أنها قد اشتهرت بوفرة انتاجها الزراعى، فاعتبرت بموقعها هذا المخرج الوحيد لتجارتها. وقد نما اسطولها البحرى حتى نافس اسطول قرطاجنة فى البحر المتوسط.

(*) تسمى حاليا «طولميته». وقد كان فى فلسطين مدينة أخرى باسمها، فى موقع عكا (أع ٢١ : ٧.

Crt. Rawlinson, in Herodot. Hist. III, p. 138. not2.

و قد أشار الاخوان «بيتشي» أن موقعها الجغرافي الممتاز لا يفضله أى موقع آخر على طول الساحل الليبي الطويل، سوى مدينة «لبدة» (قرب طرابلس) . وقد أفادنا أن طلميتة تمتد من الشمال الى الجنوب. مسافة كيلو متر ونصف طولا . وعرضها ـ من الشرق الى الغرب ـ نحو كيلو متر واحد فقط وهى على شكل مثلث ترتكز قاعدته تحت سفح التل، وبين واديا «زوانا وكمبيش». وقد عنى البطالمة بتخطيط شوارعها، على شكل شبكة متعامدة الطرق لا تزال تشاهد بقاياها الى الان.

هذا وقت نجت المدينة من ثورة اليهود المدمرة عام ١١٥م. ثم نمت بعد ذلك حتى أصبحت عاصمة سيرينيكاً الرومانية والبيزنطية أيضا. اعتبارا من القرن الرابع الميلادى وأصبحت كذلك مقر لمطران بنتابوليس، بعدما تفوقت على سيرين العجوز. التى تعرضت لزلزال مدمر سنة ٢٦٥م، دمر أجزاء كبيرة منها، وحطم معابدها. ثم أكمل البربر على ما تبقى منها من عمران، فى فترات متلاحقة.

ويصف المؤرخ البيزنطى «بروكوبيوس» مدينة بتوليمايس، «التى زارها فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى ، فيقول: «أنها مدينة جميلة فعلا». ثم يضيف بقوله : «أنها كانت مزدحمة بالسكان» !! وهو وأن كان وصفا مبالغا فيه، الا أننا نرجح أنه كان يعنى أنها أكثر سكانا من بقية المدن الخمس الاخرى ، خاصة وأن معاصره الامبراطور جستينان قد اهتم بتعميرها، وأنشأ بها مستودعات كبيرة للمياه العذبة ، وبنى لها قنوات عليا لنقلها ، الا أنه يبدو أن هذه المستودعات قد تهدمت بفعل غارات البربر، التى أدت أيضا إلى تدمير أجزاء كبيرة من المدينة، وهو ما يصفه المطران سينسيوس بمرارة، فيما تركه من رسائل، وكتابات أخرى فهجرها سكانها بسبب الخطر، ولعدم توفر مياه الشرب.

كما تأثرت المدينة بشدة، عند الفتح العربى لبنتابوليس، حيث سكن السادة الجدد العاصمة الجديدة برقة المرج وهى تقع الى الداخل، خوفا من هجمات الروم من البحر وكانت هذه السياسة أيضا سببا فى اقفرار المدن الساحلية الليبية بصفة عامة. وكانت الطامة الكبرى، بعد غزوة قبائل بنى هلال، فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى التى قضت على كل نواحى العمران فى المنطقة.

وبذلك أهملت طولميته، وتركت خرابا ، في العصورن التالية، ولم تعد سوى محجر، للقرية الحديثة التي اقيمت الى جوارها في أوائل القرن الحالي.

وبعد ..فانه باستعراض جغرافية مدن البنتابوليس، ونموها من الناحية الاجتماعية، والاقتصادية والسياسية . نجد تفوق بعضها على البعض الآخر بمرور الزمن. كما نلاحظ أن العاصمة قد انتقلت من سيرين الهلينية. الى بتوليمايس الرومانية (سنة ٢٩٧م ، على يد الامبراطور دقلديانوس . وفي القرن السادس نقلت العاصمة الى أبولونيا البيزنطية (سوسة)وبعد الفتح العربي أصبحت مدينة «المرج» (برقة القديمة) هي قصبة انطابلس العربية (ولاية برقة). أما في أثناء الحكم الفاطمي لشمال افريقية ومصر، فقد تزحزت العاصمة الى الجنوب ، حيث أصبحت مدينة «أجدابية» عاصمة لبرقة الفاطمية، لانها أصبحت تقع مباشرة على طريق القوافل الصحراوية الرئيسية، التي كانت تمتد بين مصر والمغرب العربي. ولا شك أنه كان لهذا كله أثره الواضح على أحداث بنتابوليس. وقد تركت بصماتها على ا لمسيحية، التي نشأت ونمت وضعفت ثم اختفت من هناك.

بنتابوليس في العصر الروماني

مقدمة :

ظلت المدن الخمس تحت حكم بطليموس الحادى عشر- في مصر- الى أن تولى ادارتها بعدة ابنه بطليموس «أبيون» (Apion) ولكنه لم يترك ولدا يرثة بل ترك «وصية» يتنازل فيها عن بنتابوليس لروما بعد وفاته. وهو ماتم سنة ٩٦ ق. م، وأصبحت المنطقة ضمن املاك الامبراطورية الرومانية منذ ذلك الوقت.

الا أن مجلس الشيوخ الروماني Senato لم يشا أن يحد من حرية هذه المدن، فاعتبرها حليفة لروما، وأطلق لها حرية تصريف شئونها بنفسها فعانت من الفوضى والاضطراب السياسي والاقتصادى، وأصبحت نهبا لاعمال الطغاة، ومجالا خصبا للانشقاقات بين الاحزاب الارستقراطية والشعبية. وأدت الهجمات البدوية المتكررة الى المزيد من الفوضى.

فتدخل الرومان، على يد قائدهم لوكللوس (Lucuilus) وبسطوا نفوذهم الكامل على

بنتابوليس، وأقيمت «ولاية سيرينيكا» الرومانية نحو عام ٧٥ق.م، نسبة الى عاصمتها سيرين. وظل هذا الاسم هوالوحيد الشائع في المصادر الاوروبية الى الآن (Cyrenaica)

ثم ضمت سيرينيكا الى جزيرة كريت، في وحدة ادارية واحدة Creta - Cyrenea (٦٧ق.م) ، وخضعتا معا لاشراف السناتو الروماني، واختير لهما حاكم عام (Proconsul) بسبب قربهما من بعضهما.

واستقلت سيرينيكا لمدة قصيرة ، حينما منحها انطونيو لابنته من كليو بترا ٣٦ ق. م) ، ثم اندمجت مع جزيرة كريت ـ ولاية واحدة ـ مرةن اخرى ، وظلت هكذا حتى موت أغسطس قيصر (١٤م). ثم انفصلت عنها وظلت ولاية رومانية مستقلة،حتى عهد دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥م).

ومن الناحية الاقتصادية:

فقد قام الرومان بانشاء خزانات لحفظ مياه الشرب، وتوسيع الرقعة الزراعية. وكان تغاضي الرومان عن ادارة سيرينيكا مباشرة، بعد تسلمها من البطالمة، قد أغرى بعض أغنيائها بالاستيلاء على مساحات من الاراضي الزراعية التي كانت ملكا للبطالمة.

ولهذا أرسل كل من الامبراطور «كلوديوس، وفسبسيان» مندوبا حكوميا من قبلهما، لتخطيط ومسح الاراضي الزراعية والتأكد من وثائق ملكيتها.وبذلك أمكن استعادة المساحات المغتصبة من أراضي الحكومة البطلمية، في منطقتي سيرين وطلميتة.

وقد قل نبات السيلفيوم ـ كغلة اقتصادية ـ فأصبح الخشب يصدر بدلا منه، كما راجت تجارة الحيوانات البرية، التي تحتاجها مسارح روما. كما زادت صادرات الحبوب الى ايطاليا ، مما يدل على زيادة الرقعة الزراعية في تلك المرحلة . هذا في الوقت الذى عمل فيه الرومان بنشاط، للقضاء على عمليات «القرصنة» في جنوب البحر المتوسط، مما ادى الى حماية اسطول سيرينيكا التجارى، ورواج تجارتها مع العالم الخارجي.

وقصارى القول فان سيرينيكا قد تمتعت برخاء نسبي ، في القرن الاول الميلادى، متبوعا بالامن والسلام (Pax - Romana) بعد تأديب القبائل البربرية . وقد نتج عن ذلك نهضة

عمرانية كبيرة، فشيدت المباني والمعابد والحمامات والاسواق العامة، كما نعمت المسيحية بفرصه نادرة، ازدهرت فيها هناك، في تلك الفترة، الا أن الثورة اليهودية، التي اجتاحت المنطقة (١١٥ ـ ١١٧م) قد قضت لحد كبير على تلك النهضة العمرانية، فلم تستطع معظم مدن بنتابوليس أن تنهض من كبوتها. رغم محاولات هدريان تعمير ما تهدم من منها.

أما بالنسبة للنواحي الاجتماعية والثقافية:

فقد افادنا المؤرخون أن سكان المدن الخمس في العصر الروماني الاول، كانوا في مجوعهم من أسر تنحدر من سلالة المستوطنين الاغريقي الاوائل، كما وفدت الى المنطقة أعداد من الرومان، أرسلهم هدريان ـ من الجنود المسرحيين ـ لتعميرها، بعد الثورة اليهودية.

وبذلك رجحت كفة الرمان، ولم يعد الاغريق يشعرون حينذاك بأنهم على قدم المساواة مع السادة الرومان. ولهذا كثرت المشاحنات بين الفريقين.

أما من الناحية الثقافية، فقد ظلت اللغة اليونانية لها السيادة، وظلت كذلك حتى دخول العرب الى برقة (٦٤٣م) ،بينما أقتصرت اللاتينية على الوثائق الرسمية.

ومن ناحية أخرى، فانه نظراً لاحتفاظ سكان المدن الخمس ـ الاغريق ـ بلغتهم وثقافتهم، فقد ظلت هوة الخلاف بينهم وبين المواطنين الليبيين كبيرة وأصبحت هناك طبقة مميزة من الاغريق والرومان. وقد غذاها النظام الطبقي الروماني، الا أنه قد حدث اختلاط محدود، بين المستوطنين والسكان الاصليين.

سيرينيكا في العهد البيزنطي (٦٤٣.٣٢٣م):

رغم قلة المعلومات المتوفرة عن سيرينيكا في العهد الروماني المتأخر. الا أنه عرف عن الامبراطور دقلديانوس أنه وضع لها تنظيمات ادارية جديدة، على أساس أن تنقسم منطقة ليبيا الشرقية الى دوقية، مكونة من أيبارشيتين (منطقتين اداريتين تشمل الاولى منطقة بنتابوليس، وعاصمتها بتوليمايس، وقد سماها «ليبيا العليا» Pentapolis Libyae (Superiore) والاخرى سماها «ليبيا السفلى» (Libyae Interiore) وتشمل المنطقة الصحراوية (مارماريكا القديمة) الممتدة بين مدينتي درنة والاسكندرية. وجعل عاصمتها «باريتونيوم» مرسى مطروح الحالية. ثم

اصبحت درنة عاصمة مارمايكا. وقد تبعت المنطقتان الحاكم البيزنطي العام في مصر (التي تسمت باسم الولاية الشرقية). وكانت سيرينيكا هي آخر حدودها، في تلك المرحلة. وأصبحت هناك مطرانيتان، احداهما في بتوليمايس، والاخرى في درنة.

ولا شك ان نقل العاصمة الى بتوليمايس، كان بهدف توفير مكان أكثر حماية من غارات البربر، وبسبب الخراب الشديد الذى تعرضت له على يد اليهود سنة ١١٥م، يضاف الى ذلك آثار الزلزال الكبير، الذى حدث سنة ٣٦٥م. مما دفع المؤرخ البيزنطي «أميانوس» أن يصفها، نحو سنة ٣٧٥م بقوله «أنها مدينة قديمة ومهجورة»، ويفهم من ذلك أن عدد سكان سيرين قد تضاءل بدرجة كبيرة، وان كنا نرجح أنها لم تفقد اهميتها تماما. حيث يضع هذا المؤرخ «بتوليمايس» بعدها في الترتيب.

إلا أن الجغرافي «ريز» Riese يضع بتوليمايس في مقدمة مدن سيرينيكا في تلك الفترة، لنمو سكانها، بعد انتقال الادارة المدينة اليها بمؤسساتها الادارية، وقوات الامن والحكومة المركزية.

ومن ناحية أخرى فقد عمل الامبراطور قسطنطين الكبير (٣٢٣ ـ ٣٣٧م) على الحاق سيرينيكا بالعاصمة البيزنطية مباشرة (القسطنطينية). الا أنها عادت من جديد، تحت الاشراف المباشر للحاكم البيزنطي العام في مصر، في عهد الامبراطور جستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥م). وكان هذا الامبراطور قد استرد كل الشمال الافريقي من الوندال، وعمل على اصلاح سيرينيكا، مع اهتمام خاص بالنواحي العمرانية والدينية والامن، تطبيقا لمبدأ احياء الامبراطورية، التي أصابها الضعف. نتيجة لهذه السياسة تمتعت سيرينيكا بهدوء نسبي في أيامه، وأتسعت رقعة المسيحية في زمانه.

وقد انتقلت ادارة سيرينيكا ـ مرة أخرى ـ من بتوليمايس الى «سوسة»، وقد أثبتت الآثار المتبقية بها وجود «قصر» للحاكم البيزنطي العام في سيرينيكا، كما يستنتج ذلك أيضا من ترتيب المدن الخمس في الموجز التاريخي للمؤرخ هرقل البيزنطي. ولعل ذلك مرجعه البحث عن مكان أكثر حماية من غارات البربر، يضاف الى ذلك عدم وجود الماء العذب الكافي في طولميته، وقد تم اخلاؤها تقريبا من سكانها، نتيجة لانهيار خزانات المياه بها. ويحتمل أن

يكون سكانها قد توجهوا الى منطقة برقة الزراعية، حيث يذكر جود تشايلد أنهم ذهبوا الى الريف، وأنهم لم يكونوا ـ في مجموعهم ـ أكثر مما كانوا في عهد البطالمة.

أما بالنسبة لمدينة «برنيس»، فقد وجد جستنيان أنه من الضروري اعادة بناء أسوارها، ولكننا لا نسمع عنها شيئا، لمدة ثمانية قرون متواصلة الا «كاسم مكان يدعى برنيق» في كتب المؤرخين العرب.

ويشير جودتشايلد:«الى أنها بقيت نحو قرن آخر (بعد الفتح العربي) عن طريق مجموعة من الاقباط، الذين عاشوا تحت سلطان العرب» وربما كانوا من الحرفيين والتجار.

ولعل من المهم ان نذكر بالتفصيل «الامن في المنطقة في العصر البيزنطي المتأخر». فقد عانت سيرينيكا من هجمات القبائل البربرية باستمرار، وبدأت في العصر الروماني الاول تزداد حدة،حتى بلغت ذروتها في العصر البيزنطي.

ويقول الدكتور محمد أيوب «أنه لولا ظهور الرومان على مسرح الاحداث لجرفت القبائل الليبية أمامها المدن الخمس الاغريقية». اذا داوم الرومان على ارسال الحملات الحربية لتأديبهم منذ عام ١٢ ق. م. طبقا لوثائق تلك الفترة . كما تم الاتفاق مع الحاكم الروماني العام للشمال الافريقي، للمساعدة في القضاء على أى تمرد من جانب البربر.

أما في القرن الثالث الميلادى وما بعده، فليس هناك اشارات صريحة لحروب ضد البدو، ولكن أنشاء القلاع الحربية للحماية، في المناطق الصحراوية في جنوب سيرينيكا، يعد دليلا قويا على وجود المتاعب من البربر باستمرار، خصوصا في أيام البيزنطيين، وحتى الفتح العربى (٢٦٤ ـ ٦٤٣م)، حيث زادت هجمات البربر بشدة ، وكانت تصل الى أديرة وادى النطرون. وقد أكسبها العنف والقسوة استخدام الجمل، الذى زاد سرعة زحفهم، وسرعة انسحابهم الى قلب الصحراء

ومن كتابات المطران الليبى سينسيوس أوأخر القرن الرابع وبداية القرن الخامس) نعرف مقدار ما عاناته بنتابوليس من خراب وقتل للأنفس في زمانه، بسبب وقوعها تحت رحمة البربر، الذين لم يجدوا من يقاومهم من الجنود البيزنطيين، فاضطر أن يقود القتال بنفسه مع المتطوعين من مسيحى المدن الخمس، الذين حولوا منازلهم الى شبه قلاع صغيرة.

وقد قال المطران ـ ذات مرة ـ أن البربر حملوا الاسلاب والاسرى المسيحيين على ٥٠٠٠ جمل. وأن كان هذا الرقم مبالغا فيه على ما يبدو، ولكنه يدل ـ على أية حال ـ على مدى شدة الهجوم، الذى تعرضت له طولميته، ويوضح مدى صعوبة الحياة فى بنتابوليس فى تلك الفترة، خاصة اذا عرفنا أن القبائل الليبية المهاجمة قد تمركزت فوق هضبة سيرينيكا نفسها، وحول خليج سيرت، مما شكل تهديداً مستمراً للمنطقة. ويذكر جودتشابلد أن الغزاة قد استفادوا من طبيعة وادى «الكوف» Kuf فى الجبل الاخضر، ليشنوا منه هجماتهم المباشرة على سيرينيكا.

ومن الملاحظ أن الحكام البيزنطيين كانوا ـ فى بداية عهدهم ـ يشترون سكوت البربر بمنح الذهب الى رؤساء قبائلهم. الا أنهم انصرفوا عنهم فيما بعد، لعجزهم عن دفع تلك الاتاوات الكبيرة لهم، لقلة الموارد المالية، بسبب تدهور الاحوال الاقتصادية، فى سيرينيكا، لاسباب طبيعية وادارية ومالية مضطربة.

فقد حدث تغير ملحوظ فى حالة المناخ، فى شمال افريقية، كان من نتيجتة أزدياد الجفاف، وقلت بذلك الموارد المائية الجوفية، وتحركت الكثبان الرملية، التى غطت الدروب والطرق القديمة، فقل الانتاج الزراعى. وفى نفس الوقت أصبح من العسير على العربات التى تجرها الخيل أن تستمر فى سيرها فى قلب الصحراء لردع البربر هناك، كما كانت الحال فى العصر الرومانى الاول، مما أعطى للبربر حماية طبيعية من هجمات البيزنطيين.

نضيف الى ذلك الضرائب الباهظة التى فرضها الاباطرة البيزنطيون على الافراد والاراضى، والتى كانت تتناقص باستمرا، بسبب قلة السكان، وانخفاض الانتاج، وفساد الجباة، الذين كانوا يدفعون مبالغا كبيرة ـ مقدماً ـ لخزانة الدولة، ثم يقومون بطرقهم الخاصة بسلب الاهالى أثناء تحصيلها. ويقول المؤرخ البيزنطى بوركوبيوس: «ان جستيان قد جمع المال من هؤلاء المساومين، واعطاهم سلطة على رعاياه..».

ورغم استحداث وظيفة «حامى المدينة» (أو المحامى المدنى) منذ ٣٦٤م ، بقصد حماية دافعى الضرائب، وأنصاف أصحاب الشكوى منهم، الا أنه عجز تماما عن حماية السكان من استبداد الجباة والموظفين.

ونسجل هنا ما كان يحدث من صراع بين كبار الموظفين البيزنطيين المدنيين والعسكريين، وبين رجال الدين المسيحي، الذى كانوا يدافعون بكل قوة عن المظلومين فى سيرينيكا. والمثال الصارخ لذلك الحاكم «أندرونيكوس» Andronicus الذى كان عدوا للمطران سينسيوس. وقد دخل معه فى صراع بسبب ظلمه الشديد لشعب طوليته . وكان هذا الوالى قد علق منشورات على أبواب الكنائس ينكر فيها أن تعتبر دور العبادة ملاذا للمظلومين (Asylum) ، كما كانت العادة السائدة فى اجزاء من الدولة البيزنطية. مما دعا المطران الى الوقوف فى وجهه، ثم وقع عليه الحرم الدينى، بعدما تمادى فى طغيانه، ولم يستجب لنصائحه.

أضف الى ذلك فوضى الجند وعدم نزاهتهم، على اختلاف درجاتهم، واستخدامهم العنف، وسلب المال من الشعب، وقد أشار سينسيوس الى فساد الادارة الحكومية، وقال ان العاملين تنقصهم الكفاءة الادارية وقد مالوا الى الرشوة.

وقد ألمح المطران فى رسائله أيضا الى كثرة الفقراء فى زمانه، فى الوقت الذى ظهرت فيه طبقة غنية من التجار، بسبب استغلال السوق السوداء، وهو أمر متوقع، فى مثل تلك الظروف التى قل فيها الانتاج عن حاجة الاستهلاك، بعدما قضى البدو على الزراعة بحملاتهم وأسلابهم الكثيرة.

وقد أكد المطران أيضا على فساد القضاء البيزنطى، فى سيرينيكا، حتى أصبح جزء كبير من الشعب يتعرضون لاذى عديمى النزاهة، دون أن ينصفهم القضاء، «كما عاش الاشرار يقتاتون على طعام النصف الباقى من السكان»، ولم يفعل هؤلاء لهم شيئاً، اذ كانت المحاكم تغلق أبوابها هى الاخرى، أثناء الغارات البربرية، كما نقرأ أيضا ـ فى كتابات سينسيوس ـ عن الاحكام الجائرة ، التى كان القضاء يصدرها، ومنها النفى، أو الاعدام أحيانا.

ومما زاد من اضطراب الامن فى المدن الخمس، هجوم الفرس على المنطقة، فى عام ٦١٦م، حيث قضوا ـ هم أيضا ـ على كل ما تبقى بها من عمران. ولما تمكن هرقل من الزحف من شمال أفريقية الى مصر، وطرد الفرس، وجلس على كرسى بيزنطة، كثرت الشكوى أيضا من حكمه، طبقاً لروايات المؤرخ البيزنطى ثيؤفانيس، والاسقف القبطى يوحنا النقيوسى، وذلك لان سكان بنتابوليس قد كرهوا، الحكم البيزنطى بعد خروج الفرس، وكان هؤلاء قد تركوا أمر

الحكم ـ عشرة اعوام ـ على نحو من اللامركزية، وأعفوهم من بعض الاعباء التى كانت ترهقهم.

كما أن هرقل لم ينفذ وعده لهم ـ قبل طرد الفرس ـ بتخفيض الضرائب، بل ازاداد الولاة البيزنطيون في ظلمهم للاهالى. فقد لجاوا لجمع الغلات والمصنوعات، لارسالها الى القسطنطينية، فى مقابل الضرائب الباهظة المقررة . وعلى ذلك كانت بنتابوليس ومصر، ومن أشقى الولايات البيزنطية، كما عبر بتلر بصدق.

والخلاصة، فقد أستهل القرن السابع وبنتابوليس، فى حالة يرثى لها، بعدما وصلت الامبراطورية البيزنطية نفسها الى أحلك أيامها، وأشد أزماتها حدة . فقد أعلنت أفلاسها ماديا وحربيا، وجثم على صدرها شبح الفرس والعرب. أضف الى ذلك الخلافات الدينية بين الدوله والكنيسة القبطية الارثوذكسية، كما كان الانحلال الاجتماعى دليلاً على ما كانت تعانيه الدولة من متاعب ، وخاصة القصر الامبراطورى، الذى كان مليئا بالدسائس والمؤمرات. هذا فى الوقت الذى كانت فيه افريقية البيزنطية يتصاعد منها الدخان بين السنة النيران»، على حد تعبير بروكوبيوس. وبعد سنوات قلائل دخلت مصر ـ وتابعتها سيرينيكا ـ فى حوزة العرب بسهولة متوقعة.

مراسيم اضطهاد الاباطرة الرومان للمصريين

مراسم الامبراطور ثيود وسيوس بعد اتباعه للمسيحية بإظهار قسوة أكبر تجاه المخالفين لديانته وخاصة المصريين.

«رتاج مرسومنا»:

إلى سيونيوس البينوس والى مدينة روما؛ صورة عن مرسوم يوم الرابع والعشرين من فبراير لعام ٣٩١.

«نرغب إليكم في أن لا يتدنس أحد بتقديم الأضحيات! وأن لا يقتل أحد حيواناً بريئاً، وأن لا يدخل أحد إلى حُرُمِ الوثنيين للإطلاع على المعابد والنظر إلى الرسوم المشكلة بيد الإنسان! وليعلم من يقدم على ارتكاب هذه الجرائم، أنه يعرض نفسه للعقاب الإلهى والبشرى. وليكن هذا القانون ملزماً للمسؤولين أيضاً: فإذا كان أى منهم من أتباع العبادات الوثنية، ودخل المعبد ـ أثناء السفر أو فى المدينة ذاتها ـ ليعبر عن ولائه، يتوجب عليه فوراً دفع خمسة عشر رطلاً من الذهب. وكذلك الأمر بالنسبة للدائرة، التى يترأسها، فإن هى لم تعبر عن معارضتها، وتصرح بذلك دون تأخير، وذلك بشكل علنى، وجب عليها أن تسدد إلى خزينة الدولة مبلغاً بالقيمة نفسها»(١).

يفرض المرسوم غرامات أقل نسبياً، ولكنها لا تزال باهظة، على كافة حكام المقاطعات، الأدنى مرتبة أيضاً، إذا اقترفوا عملاً يستوجب مثل هذا العقاب. كما تترتب تبعات مالية مشابهة على الموظفين، الذى لا يعيقون الحكام فى تكريم «العفاريت»، أو يتوانون فى الإعلام الفورى عن ارتكاب مثل هذه الجرائم الشنيعة. يمكننا أن نتصور الأجواء الكئيبة، التى خيمت على أجواء أهم المكاتب فى روما ذاتها وفى أوساط المقاطعات، منذ لحظة صدور المرسوم! كيف راقب الناس بعضهم فى كل خطوة، وكم حيك من المؤامرات، والإفتراءات، والشكاوى الزائفة!.

أضحت الأوضاع أشد إزعاجاً، نظراً لوجود أُناس مقتنعين بعقائدهم، وممارستهم لها بجسارة. وقد صُنِّفَ فى عدادهم أيضاً الرجل، الذى وُجهت إليه الرسالة، الوالى ألبينوس، كما

(١) الوثنية والمسيحية. الكسندر كرافتشول. ترجمة: كبرو لحدو دار الحصاد. بيروت ١٩٩٦.

أن كـلا القنصلين فى عـام ٣٩١ كـانا من المخالفين المتقـدى الحمـاس، وهمـا: تاتيـانوس وسيماخوس. الأول منهما، والى الشرق وهو والد بروكولوس، والى القسطنطينية، وأضحى على قاب قوسين أو أدنى من كارثة حياتية شاملة. أما سيماخوس، أحد ألطف وألمع ممثلى عصره، فإن شخصيته تتطلب تعريفاً أقرب بها.

اسمه الكامل هو: كوينتوس أوريليوس سيماخوس يوسيبوس، أرستقراطى، صاحب ممتلكات فى إيطاليا الوسطى والجنوبية، وفى صقلية، وافريقيا. أكثر ما أحبه هو الإقامة فى روما ذاتها، حيث امتلك ثلاثة قصور؛ وبالرغم من ذلك، لم يكن سوى سيناتور متوسط الثراء. تولى مناصب مشرفة ورفيعة كقسطور Quaestor، قاض، ومن ثم مارس عمله كحاكم فى لوكانيا وبروسيوم فى إيطاليا، وبعدها فى مقاطعات إفريقيا الشمالية، مُنِحَ لقب وزير من الدرجة الثالثة. ومنذ صيف عام ٣٨٤ حتى مطلع عام ٣٨٥، أى لمدة ستة أشهر فقط والياً على روما. كما كان يحمل لقب «كاهن أعلى» Pontifex Maiore لأن لقب «الكاهن الأعلى» Pontifex Maximus، كان من حق الأباطرة وحدهم؛ وقد حمل هذا اللقب جميع الأباطرة حتى عهد جراتسيان، الذى تنازل عن اللقب والمهام المرتبطة به عام ٣٧٥. ومنذ ذلك الحين، أضحى حامل لقب «كاهن أعلى» Pontifex Maiore، على الصعيدين الشكلى والعملى رئيساً لمجالس الكهنة القديمة، وكان لسيماخوس من القناعة والشجاعة، ما يسمح له بالتعبير عن قناعاته والمطالبة بحقوق الآلهة أمام الحكام. كان سيماخوس رجلاً ذا معرفة واسعة، وثقافة رفيعة، حاول بصورة واعية تنمية هذه الثقافة، وهو من وجهات نظر عدة، شبيه بصديقه وابن سنه سيونيوس ألبينوس.

الشيء الجدير بالتأمل الجاد، هو موضوع اختيار قنصلين غير مسيحيين غيورين ومعروفين على نطاق واسع من خلال معتقداتهما، فى عام ٣٩١. لاريب فى أن ثيودوسيوس عينهما فى هذين المنصبين، فى الفترة، التى كانت علاقاته مع الأسقف أمبروزى فى أقصى درجات توترها، أى على الأرجح فى صيف ٣٩٠. ومن خلال هذه الخطوة، حذّر الإمبراطور من المغالاة فى استغلال حلمه، لأنه فى نهاية المطاف قادر على العثور على حلفاء ذوى نفوذ واسع فى المعسكر المخالف للكنيسة. أدت المفاوضات فيما بعد إلى الوفاق بطبيعة الحال، ومارس الإمبراطور التوبة، ولكن التعيينات الموعود بها، تعذر سحبها والتراجع عنها. ولذلك تم الحرص

من ناحية ثانية على خلق صعوبات ومضايقات لقنصلي عام ٣٩١. وربما هذا هو أحد أهداف مرسوم يوم الرابع والعشرين من شباط. فالوثيقة، التي تَعَرَّضَ مضمونها بعنف لما أحبه وعبده علناً كل من تاتيانوس وسيماخوس، حملت اسميهما في التأريخ. فكانا مرغمين إما على تقبل الأوامر الصارمة والارتداد عن عقيدتهما، أو تحمل مضايقات كريهة من جانب أي موظف صغير، أو سائق مركبة في مكاتبهما. فإذا اعترفا بأن المرسوم كان نوعاً من الاستفزاز، لن نجد صعوبة في معرفة احداث اضطهاد مخالفي ديانة الامبراطور.

يُعَدُّ مرسوم السادس عشر من يونيو في جوهره تكراراً لمرسوم فبراير، وهو موجه خصيصاً لكبار المسؤولين في مصر، وتحديداً للوالي يواغريوس والوزير رومانوس. ترأس الأول منهما الإدارة المدنية، والثاني الجيوش المعسكرة هناك. ينص المرسوم على:

«لا يسمح لأي كان بتقديم الأضاحي للآلهة، ودخول المعابد، ومشاهدة حرمها. ليعلم الجميع أن رتاج مرسومنا يغلق المدخل إلى أية قضية وثنية. وكل من سيحاول بالرغم من هذا الحظر، القيام بأي شيء يتعلق بالآلهة والعبادة، لن يجد أي تهاون. وإذا ما أقدم مسؤول واثق من امتيازات سلطته على الدخول كمجدف مستخف إلى تلك الأمكنة النجسة، سيتوجب عليه تسديد خمسة عشر رطلاً من الذهب إلى خزينتنا؛ ويدفع مرؤوسوه القيمة ذاتها، إذا لم يعيقوا ذلك بقواهم المتعاضدة».

أهو القمع الإداري، الذي تم اللجوء إليه بناء على أحكام هذا المرسوم، مما أدى إلى قلاقل خطيرة في الإسكندرية؟ أيمكن أن يكون الإمبراطور نتيجة حرب الشوارع، التي دارت رحاها في ربيع عام ٣٩١ في شوارع مصر، قد تذكر مرسوم ما قبل بضعة أشهر، ليصفي الحسابات بشكل نهائي مع المخالفين؟ فلننظر الآن إلى اضطرابات الاسكندرية.

الاضطرابات في الاسكندرية

الرواية الأولى:

لنتناول أولاً شهادة مبكرة ومفصلة نسبياً، وإن جاءت من رجل ربما لم يشاهد الإسكندرية بعينيه أبداً. وبكل تأكيد، لم يكن شاهد عيان على ما حدث هناك عام ٣٩١؛ لكنه كان على معرفة شخصية باثنين على الأقل من المشاركين في الأحداث، وهما من غير المسيحيين.

والحديث هنا عن مؤرخ الكنيسة سقراط الذى يمنح تقليدياً اللقب المشرّف «سكولاستى»، أى البارع أو الخبير فى القانون. الذى دوَّنَ عمله العظيم الأهمية، والمنحاز منهجياً، فى النصف الأول من القرن الخامس. وها هو ـ مع بعض الاختصارات الطفيفة ـ ما يمكنه الإدلاء به حول القضية، التى نحن الآن بصددها:

ألحَّ أسقف المدينة تيوفيل بشدة فى طلبه لوضع حدٍ لعبادة الآلهة القديمة. فأسفر هذا فى نهاية المطاف عن صدور أمر إمبراطورى يقضى بهدم المعابد الوثنية ـ وأوعز لتيوفيل بالذات، بالإشراف على تنفيذ هذه المهمة. رغب الأسقف المزود بمثل هذا التفويض أن يخزى العبادات السابقة هناك ويكللها بالعار بكافة الوسائل. وهكذا قام بتطهير بعض المعابد وتحويلها إلى كنائس، وهدم أخرى كلياً. حوَّل الرموز التابعة لآلهة أخرى إلى مواضيع للسخرية والتهكم؛ وبتوصية منه، تمَّ جر رأس سيرابس والطواف به فى الساحة العامة. عجز سكان الإسكندرية عن كظم ألمهم وسخطهم وانقضوا بزخم على المسيحيين، وهم يقتلون كل من اعترض سبيلهم؛ استمرت المعركة طويلاً، حتى وضعت تخمتهم بالدم المراق حداً للمصائب اللاحقة. لم يُقْتَلْ فى المعركة الكثير من الوثنين، لكنَّ عدد المسيحيين كان هائلاً؛ أما عدد الجرحى من الجانبين، فيصعب إحصاؤه. ذُعِرَ المسبون؛ وأصابهم الهلع من غضب الإمبراطور، فهربوا، وبحث الكثيرون منهم عن ملجأ فى مختلف المدن. وكان بينهم أستاذا النحو هيلاريوس وأمونيوس اللذين استمعت فى حينه لمحاضراتهما فى القسطنطينية، وأنا لا أزال فتى فى حداثة عهدى. وقيل أن الأول منهما، كان كاهن زيوس، والثانى ـ كاهن الاله توت.

بعد إخماد الفتنة نهائيا، أعان الحاكم وقائد الجيوش تيوفيل فى تدمير المعابد. حوّلوا المبانى إلى أنقاض، وحطموا التماثيل أو صهروها لاستخدامها كأدوات لكنيسة الإسكندرية، لأن الإمبراطور أهداها كمساعدة للفقراء. لكنَّ الأسقف أمر بالحفاظ على أحد التماثيل دون أن يُمَسَّ، قائلاً:

ـ بفضل هذا، لن يتمكن الوثنيون مستقبلاً من إنكار عبادتهم لمثل هذه الآلهة!.

وأعرف بكل تأكيد، أن أمونيوس، الذى أشرنا إليه لتوّه، تذمر كثيراً وعبَّر عن ألمه بسبب ذلك:

ـ تُدنّسُ العبادات المصرية، لأن هذا هو التمثال الوحيد، الذى لم يُحَطَمْ، وقد حوفظ عليه عمداً للتهكم من معتقداتنا!.

وأثناء هدم معبد الإله سَرَابِيسْ هناك، لوحظ بشيء من الذهول، أنه على البلاطات الحجرية في داخله، يبرز هيروغليف على هيئة صليب. لكنَّ تأويل هذا الرمز كان مختلفاً لدى كل من المسيحيين المصريين. فقد اعتقد الفريق الأول أن القصد هو العلامة المقدسة لآلام المسيح، بينما قال الفريق الثاني:

ـ أجل، إن الرمز من حيث المظهر مشترك لكلا المعتقدين، لكن مضمونهما مختلف تماماً!.

وفى نهاية المطاف وُجِدَ مسيحيون حديثو الهداية، ممن كانوا لا يزالون على دراية بقواعد وأصول الخط المصرى القديم. فأوضحوا أن هذا الهيروغليف (عنخ) هو رمز الحياة المقبلة. أُعْجِبَ أتباع المسيح بهذا التفسير، كما أنهم استندوا إلى نبوة مزعومة؛ جاء فيها على ما يُعْتَقَدْ، بأن معبد سرابيس سيتعرض للدمار عندما سيظهر الصليب الظافر على جدرانه.

ويضيف المؤرخ: «هذا ما علمته، وأنا أصغى إلى الرواية عن العثور على النص» ـ ويبدأ على الفور بصياغة شكوكه.

بأى أسلوب، وبأية معجزة، كان لكهنة مصر القديمة أن يتكهنوا برمز آلام المسيح، وذلك قبل مجيئه بقرون عديدة؟ عجباً! تمكنوا من نقشه في معبدهم! كان ظهور المخلص يوماً، من أعمق أسرار الحكمة الإلهية، السر، الذى كان يجهله الشيطان ذاته! ولذلك، لم يكن، وما كان يمكن أن يكون، لخدمه الصغار، كهنة الآلهة والعفاريت المصرية، أن يتصوروا، أو أن تكون لديهم أية فكرة عن ذلك. أهو الرب إذن مَنْ أمرهم بنقش هذا الهيروغليف الاستثنائى هناك، كبشرى لشيء، كان له أن يحدث في المستقبل؟.

الهيروغليف عنخ ANKH:

لا ريب في أن مجمل رواية سقراط وكذلك مختلف نقاطها، ستدفع القارىء المتمعن لطرح العديد من التساؤلات، كما ستراوده شكوك كثيرة. وسيرغب في تكوين صور أدق وأوضح عن أسباب وتطور مجرى الأحداث. أجل، ستوجد شهادات أخرى، تسمح بشكل

أفضل بإعادة بناء المجرى العام لاضطرابات الإسكندرية. ولكن قبل أن نتناولها، يجدر بنا أن نوضح بعض الأمور الموما إليها في رواية سقراط ذاتها؛ قد تكون أموراً جانبية، لكنها مثيرة وجديرة بالاهتمام من وجهات نظر عدة.

شاهد قبر قبطى من الحجر الجيرى يحمل التأثير المصرى القديم ممثلاً فى علامة عنخ من القرن الرابع

لنبدأ من النقطة، التى ينهى بها الكاتب تقريره، الشىء الذى بدا لسقراط نفسه غريباً ومفعماً بالأسرار، وغير قابل للتصديق. نقصد رمز الصليب ذاك، الذى اكْتُشِفَ فى قلب المعبد المصرى، على نحو غير متوقع ومذهل للجميع. وفى هذه الحالة بالذات، يمكننا استعراض تفسير هذه الحقيقة لأنها حقيقة واقعة فعلاً! ـ وهو تفسير بسيط نسبياً، ومقنع على الأرجح، لا ضرورة أبداً لأن نتصور بأن المسيحيين دخلوا حرم سرابيس خلسة، ونقشوا هناك رمز ديانتهم، لكى يعرضوه فيما بعد، وكأنه كان موجوداً هناك من قبل! لقد كان هيروغليفاً حقيقياً، أى أنه من إنجاز المصريين أنفسهم، وهو رمز منقوش أو مُدوَّن قبل قرون، فعلاً، وفى حقيقة الأمر، كاد أن يكون مماثلاً لصليب فى شكله مع استثناء بسيط، إذ أنه عوضاً عن الذراع العلوى، كان له نمط من الأنشوطة البيضوية الشكل. ومن هنا استُخْدِمَتْ التسمية، التى أطلقها اللاتين عليه فيما بعد فى الغرب، وهى (Crux Ansata)، أى الصليب ذو المقبض. أما فى لغة المصريين القدماء، فقد أُطْلِقَ على هذا الهيروغليف اسم «عنخ» (ANKH). يتكرر ظهوره فى شتى النصوص المنقوشة أو المرسومة منذ حقبة الفراعنة، وما من غرابة فى الأمر: فلفظة عنخ بحد ذاتها، وكذلك رمزها الهيروغليفى، كانت تعنى الحياة والمفاهيم المرتبطة بها؛ وببساطة، كانت فى جوهرها سعداً، مبشراً بالخير. فمن المؤكد، أنه لهذا السبب، وجب أن يبرز الهيروغليف منذ

البداية على جدران معبد الإله سرابيس أيضاً؛ وقد بوشر ببناء المعبد في الإسكندرية قبل ظهور المسيحية بفترة طويلة، لأنه في القرن الثالث قبل الميلاد، كان الكثيرون ممن اعتنقوا الديانة الجديدة على إطلاع إلى حد ما على عناصر الخط الهيروغليفي؛ وقد شرح هؤلاء لأبناء ديانتهم فحوى الرمز الموغل في القدم، بشكل صحيح. وعلى الرغم من أن «عنخ» ارتبط بالحياة الدنيوية، فإن الفهم الأكثر شمولاً، أي الذي يشمل وجود ما بعد الموت أيضاً، مبرر تماماً في بعض الحالات؛ وعلى أي حال، هكذا فهمه المصريون في أواخر الحقبة القديمة.

قد يسأل سائل، وسيكون محقاً في ذلك، لما لم يُفَسَّرْ أمر الصليب المزعوم بهذا الأسلوب مباشرة؟ لأن آلافاً من سكان الإسكندرية شاهدوا «عنخ» في غير مرة، وفي مختلف المعابد وعلى العديد من الأوابد الأثرية للديانة القديمة! ولذلك، وجب على ما اكتشف في معبد الإله سرابيس أن لا يدهش أحداً من المعاصرين. ولكن دعنا نتذكر أننا أمام رواية ثانوية، صاغها رجل عاش في القسطنطينية بعد الحدث ببضع عشرات من الأعوام، وكتب معتمداً على روايات تلونت وتشوهت على نحو متعمد بلا ريب. فخارج حدود مصر، لم يكن شكل ورمزية «عنخ» معروفين على نطاق واسع. أما الدعاية المسيحية، فقد استغلت شتى الفرص، للبحث عن تكهنات سرية، ونبوات وإيحاءات، تؤكد صدق وصحة الديانة الجديدة ورسالتها التاريخية. وقد بحثت عن تلك النبوات المزعومة، في بعض أشكال عبادات الآلهة القديمة تحديداً، لأن الأصوات المنطقة من معسكر الخصم، يكون لها عادة صدى خاصاً. والأهم من ذلك: لابدَّ وأنَّ الهيروغليف «عنخ» في المعبد المصري، قد فُسِّرَ كشعار مسيحي، لأن المسيحيين المصريين، احتضنوه واستخدموه من قَبْلُ في رموز عبادتهم، ببساطة كأحد نماذج الصليب، والدلائل على ذلك قاطعة بين أيدينا، فقد صمدت في وجه عوامل الزمن، في بعض المواقع المصرية حُرُمٌ مسيحية قديمة، يظهر «عنخ» على جدرانها؛ وقد حافظت الكنيسة القبطية على هذا التقليد عبر قرون طويلة.

هيلاريوس والجامعة:

لننتقل الآن إلى الأمور الأخرى المرتبطة برواية سقراط. إنها أمور ضئيلة الشأن ظاهراً، لكنها كما سيبدو، ذات مغزى كبير حتى من المنظور التاريخي. لنُمعن النظر إلى أُسْتَاذَيْ النحو (الأدب، فيما لو استخدمنا مصطلحات اليوم)، اللذين، كما يعترف مؤرخنا بنفسه، تلقى تعليمه فيما بعد على يديهما. بجامعة الاسكندرية.

افتُتِحَتْ هذه المؤسسة العلمية الجامعة رسمياً بموجب مرسوم خاص صدر فى فبراير عام ٤٢٥ . لكنها فى الواقع، كانت موجودة ومارست نشاطها قبل ذلك الحين بزمن طويل. لم يقتصر الأمر على انضمام هيلاريوس إلى عداد المحاضرين فحسب، وإنما حصل بعد مرور شهر مع مجموعة من زملائه على لقب (بدون مرتب خاص) عرف بالاتينية باسم (Comitiva Primi Ordinis)، الذى يمكن تعريبه «موظف رفيع المستوى»؛ ونجد فى مرسوم التعيين تبريراً رائعاً، جديراً بأن يدرج هنا، ولو باختصار:

ليعلم الأساتذة الآخرون، بأنهم سيحظون بدورهم بمثل هذا التكريم، إذا استمروا عشرين عاماً دون انقطاع، بتأدية واجباتهم، وأنجزوا بجد عملهم التربوى، وهم يمارسون حياة أخلاقية جديرةً بالثناء؛ وإذا أثبتوا مهارة تعليمية وخطابية، وكذلك فطنة فى التأويل وبراعة فى المحاضرة؛ وأخيراً، إذا قَيَّمَتْ هيئة الجامعة الموقرة كل هذا على نحو إيجابى، وأقرّت بأنهم يستحقون هذا الشرف.

إنه لشىء مثير للاهتمام، وربما ليس عرضياً، أن تتكرر فى التشريع اللاحق ـ حتى المعاصر، حدود العشرين عاماً تلك، التى يستحق المعلم بعدها بعض المكافآت. ولكن هذه القضية ليست ذات شأن كبير، والأمر الجدير بالاهتمام فعلاً هو: أنَّ مرسوم ثيودوسيوس الثانى لا يشترط أية شهادات أو آراء من خارج المؤسسة التعليمية! أى أنه لا يشترط إطلاقاً انتماء الأساتذة إلى الكنيسة والالتزام بالإيمان القويم، على الرغم من أن المرحلة كانت أيام النصر الحاسم للمسيحية.

ما أروع مراعاة هذا الجانب، ويا لها من ليبرالية، عملية الفصل ما بين العلم والعقيدة، مقارنة بالطرق المستخدمة فى أكثر من دولة فى المراحل اللاحقة! ولم يكن هذا مجرد طرح نظرى. وظلّت القاعدة ملزمة فى الواقع العملى أيضاً، بالرغم من أنه مع تعاقب الأجيال والقرون تناقص عدد غير المسيحيين تدريجياً فى أوساط المدرسين، إذ أضحت مسيحية الأساتذة شيئاً مفروغاً منه فى نهاية المطاف. ومع ذلك، فإن الجامعة، وكذلك التعليم فى المستويات الأدنى، مارست نشاطها كمؤسسات تنظيمية وعلمانية فى مضمونها. فلنترك الحديث الآن للمؤرخ التربوى اللامع مارّو H.I. Marrou:

«قد يبدو هذا الشىء فى غاية الغرابة، لكنها حقيقة واقعة، وجود بلد لم يعرف أبداً نهاية

المدرسة القديمة: ففي الشرق الإغريقي، تُعَدُّ التربية البيزنطية امتداداً لا انقطاع فيه للتربية الكلاسيكية».

ويتابع قائلاً:

«ظلَّت الجامعة في القسطنطينية (على امتداد الفترة من عام ٤٢٥ ـ إلى عام ١٤٥٣) مركزاً لبحوث مثمرة ودعامة للتقاليد الكلاسيكية. تعرضت هذه الجامعة ـ وهذا أمر مفروغ منه ـ عبر القرون للعديد من الجوائح والتغيرات، ومرَّت بأكثر من واحدة من مراحل الانحطاط، كما عرفت انقطاعات عابرة في وجودها، لكنها افتدت ذلك دوماً بنهوضها الرائع من جديد... الحقيقة أنها تحولت، لكنها ظلَّت وفية للفكرة، التي هدفت من تأسيسها أيام الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني. لم تخرج تعاليمها عن الأطر الكلاسيكية: في الأساس ـ الفنون العقلية؛ وفي الذروة ـ البلاغة، والفلسفة والقانون. لم يتغير دورها الاجتماعي، فالهدف من الجامعة هو إعداد الفريق، الذى تختار منه الإمبراطورية كوادرها لملء الوظائف الشاغرة. ولم تدخل في برامجها أبداً العلوم الكنسية».

ولهذا السبب، اضطرت الكنيسة إلى أن تبتكر في الشرق نظامها التعليمي الخاص، المشبع كلياً بروح المسيحية؛ والمقصود هنا، هو ما يعرف بمدرسة الدير. ففي القسطنطينية ذاتها، وانطلاقاً من الرغبة في مواجهة الجامعة العلمانية، ثم تأسيس نمط من الأكاديمية الاهوتية، وقام البطريرك بتعيين أساتذتها:

«تنوى المدرسة البطريركية خلق نموذجها من العلوم الإنسانية في مواجهة الحركة الإنسانية الكلاسيكية. وكان هذا النموذج في كثير من الأحيان مستقلاً وشديد الإيجاز؛ لكنه بالرغم من كل شيء، يحذو بوضوح حذو النموذج القديم».

كان السبب ـ إلى حد ما ـ في افتتاح جامعة جديدة على هذا القدر من الإنفتاح والعلمانية، عائداً إلى استقرار مجموعة من علماء الإسكندرية من غير المسيحين في القسطنطينية أواخر القرن الرابع، وتدعيم الوسط الفكرى هناك. فلا ريب في أن البحث عن ملجأ في العاصمة على شواطىء البوسفور، لم يقتصر على هيلاريوس وأمونيوس وحدهما، المعروفين لنا اسمياً بمحض الصدفة، لأن الاضطرابات في عام ٣٩١، والخوف من التصعيد العنيف لموجة الكراهية الدينية في مصر، وما رافق ذلك من اضطهادات وتدمير، دفع بالكثيرين من الأساتذة، والفلاسفة، والمعلمين إلى مغادرة المدينة، التي اعتُبِرَتْ بحق محراب العلوم عبر

قرون طويلة، ومنذ أيام البطالمة. يُلَمِّحُ سقراط إلى نزوح غير المسيحيين، بعبارات عامة في روايته، التي استشهدنا بها من قبل؛ وسوف نتعرف بالاسم أيضاً على الفلاسفة، الذين ودعوا الإسكندرية في ذلك الحين، لكنهم لم يتوجهوا إلى شواطيء البوسفور. غير أن الكثيرين من النازحين اعتقدوا ـ ولم يكونوا مخطئين في ذلك! ـ أنهم في القسطنطينية بالذات يستطيعون أن يجدوا تفهماً أفضل لمعتقداتهم، ومجالاً أوسع للعمل والنشاط؛ لأن وجود الحاكم بحد ذاته، وإن كان مسيحياً، بالإضافة إلى كبار الموظفين، كان بمثابة ضمانة للتقيد بشكل أفضل بقواعد سيادة القانون. أما في الإسكندرية، فكان الأسقف حاكمها الفعلي منذ عشرات السنين، وهو محقون بالكراهية لكل ما هو غير مسيحي. إضافة إلى ذلك كان يستند إلى حشود من الرهبان المتزمتين والمتخلفين، الذين غالباً ما هرعوا لنصرة متنفذي الكنيسة، وقد هجروا صوامعهم الصحراوية وأدْيِرَتهم، مستنكفين لفترة من الزمن عن أكثر ممارسات التقشف والزهد غرابة. فالحظر الذي كان مفروضاً على إقامة الرهبان في المدن، والذي اطلعنا عليه من قبل، كان قد بدأ سريان مفعوله منذ سنة، وكان له أن يُلغى على عجل؛ ولكن هل تم تنفيذه والإلتزام به فعلاً؟.

يا لهذه السلسلة العجيبة من الأحداث! يكاد أن يكون ممكناً، الحديث عن نقمة الآلهة، أو مخطط العناية الإلهية، أو إذا فَضَّلَ البعض التعابير اللا شخصية، سخرية القدر. ففي أعوام الدورة الأولمبية الأخيرة من الحقبة القديمة، تُدَكُّ مواقع الديانات السابقة للمسيحية في المدينة الكبرى، تُهدم المعابد، يُطرد ألمع الأفراد المنتقدين للمسيحية ويُرغمون على الفرار. وجاء هذا كله مواتياً بصورة غير مباشرة لظهور مركز جديد للثقافة العلمانية في مدينة أخرى؛ مدينة انتمت إلى ذلك النمط من المدن، الذي أمكن فيه للفكر القديم، العلماني في جوهره، أن يوجد ويستمر دون انقطاع إلى ما يزيد عن العشرة قرون. أي لمدة أطول بما لا يقارن مع ما أمكن أن يحدث في مصر ذاتها، حيث كان ولابد للغزو العربي في القرن السابع، أن يضع بهذا الشكل أو ذاك، حداً لكافة مؤسسات الفكر العلماني المستقلة ـ فيما لو بقيت موجودة حتى ذلك الحين.

ثيون وهيباتيا:

كان أميان مرسلينوس قد كتب المجلد الثاني والعشرين من «تاريخه» عام ٣٩٠، أي قبل بضعة عشر شهراً من هدم وتدمير معبد الإله سرابيس في الإسكندرية. وفي هذا المجلد بالذات، المكرس للأحداث الأقدم من ذلك بكثير، لأحداث عام ٣٦٣ تحديداً، تطرق بالتفصيل لمصر

وأكبر مدينة فيها. وبطبيعة الحال، كان لا بدَّ للمؤرخ من تخليد ذكرى وشهرة العلماء، الذين عاشوا ونشطوا في الإسكندرية في العصور القديمة؛ ولذلك فهو يسرد أسماء بضعة عشر منهم. انضمّوا جميعاً، وهم من ممثلي شتى فروع المعرفة، تحت لواء «الموزيون»، أي الهيئة أو الاتحاد المكرس لتمجيد الموزيات (Muse)، أي الإلهات التسع، اللاتي يحمين الفنون. كان الموزيون منظمة علمية مستقلة، يعود الفضل في تأسيسها إلى البطالمة؛ ضمنت حياة الأفراد الموهوبين والنشيطين، ووفرت لهم السبل الكفيلة بمتابعة أبحاثهم؛ لم تشترط الهيئة حيازة شهادات أو ألقاب شكلية. يُعَدُّ الموزيون، الوحدة الحية، النموذج والأصل، لكافة المؤسسات والجمعيات العلمية في دائرتنا الحضارية. أما ورشة الدراسات الرئيسية فقد تمثلت في المكتبة، الواقعة، شأنها شأن مبنى وحديقة الموزيون، في حي القصور الملكية. ثم تأسست مكتبة ثانية، أصغر منها، ملحقة بمعبد الإله سرابيس، أي في الحي الغربي. يقدر عدد المجلدات في كلتا المكتبتين، في أوج الازدهار، أي أواخر عهد البطالمة، بما يزيد عن السبعمئة ألف مجلد. ثم تقلص هذا العدد نتيجة مختلف الجوائح التاريخية. الحقيقة أنه (وبعكس ما تناقلته الأساطير اللاحقة) خلال معارك قيصر في المدينة، عندما حوصر مع كليوباترة في القصر الملكي، لم تتعرض الكنوز الثقافية في المكتبتين لأضرار تذكر؛ لكنَّ المدينة بأسرها تلقت ضربات موجعة على أيدي الأباطرة، وخاصة الأحياء الأكثر ثراء فيها، وذلك في القرن الثالث. ففي عام ٢٧٢ أمر أوريليان بتدمير جزء من المباني في منطقة القصور الملكية؛ ويرجح أن يكون الموزيون قد تحول آنذاك إلى انقاض، وفُقِدَ قسم من الكتب. أما المكتبة الصغيرة الملحقة بمعبد الإله سرابيس، فلم تُمَسَّ بأذى، وقد احتوت زهاء أربعين ألف مجلد. وبالرغم من ذلك، لا يستبعد أن يكون الموزيون، وإن فَقَدَ مقرَّه، قد استمر في وجوده الشكلي، ناقلاً من أحد أجيال العلماء إلى الجيل التالي، إرث الرابطة، والاسم، والقب الفخري، وعلى أي حال، فإن أميان مرسيلينوس يُثَمِّن عالياً في المجلد الثاني والعشرين، الآنف الذكر، موقع الإسكندرية كمركز حيوي هام للمعرفة حتى عام ٣٩٠. وهو يكتب قائلاً:

«حتى الآن لم يصمت في هذه المدينة صوت مختلف العلوم. فلا يزال أساتذةٌ شتى في العلوم يجدون متنفساً بشكل ما، وفرجار الأخصائي بعلم الهندسة ما زال بعدُ يكشف عمّا هو خفي؛ كما لم تنضب بعد معرفة الموسيقا، ولم يصمت الإيقاع. إضافة إلى ذلك يستطيع البعض ـ الحقيقة أنهم قلّة ـ تأويل حركة العالم والنجوم وغيرهم ضليعون في أمور الأرقام. بالإضافة إلى ذلك، يوجد نفر من ذوي الخبرة في ذلك الفرع من المعرفة، الذي يكشف سبل

المصير. أما فيما يتعلق بالطب ـ ما أكثر حاجتنا إليه فى حياتنا البعيدة عن التواضع والوعى!ـ فإن معهده يتطور يوماً بعد يوم إلى الأفضل وإذا ما أراد طبيب أن يثبت جدية معرفته (بالرغم من أن التجربة ذاتها توحي بها)، يكفى أن يصرح بأنه تعلم فى الإسكندرية».

يمكننا أن نشير بالاسم إلى الرجل، الذى ربما كان أميان يعنيه وهو يكتب عن تلك الفئة المحددة القادرة على تأويل حركة العالم والنجوم، والمتمرسة فى أمور الأرقام، والخبيرة أيضاً فى المعرفة، التى تكشف سبل المصير. إنه ثيون، وقد تداخلت فى بحوثه جميع العلوم والمعارف. الحقيقة أنه لم يتميز كمفكر مبدع وأصيل، لكنّه بذل جهوداً مضنية فى تفسير أعمال بطليموس الفلكية، ونشر مقالات إقليدس من جديد؛ وبينها تلك المتعلقة بالهندسة، البالغة الأهمية فى تعليم الرياضيات ـ حتى يومنا الحاضر. كما عكف، شأنه شأن الكثيرين من معاصريه على العرافة والتنجيم؛ وقد كتب فى التكهن عن طيران الطيور، ونعيق الغربان. والشيء الجدير بالاهتمام هنا هو: أن أحد مؤلفى القواميس البيزنطيين يشير بوضوح إلى أنه كان عضواً فى الموزيون! أهو مجرد خطأ ومفارقة تاريخية (أى تصنيف كل عامل لامع فى الإسكندرية فى عداد أعضاء الموزيون، حتى عندما كان الموزيون قد اندثر)، أم أن تلك الهيئة العلمية، استمرت فى وجودها حتى أيام ثيون، أى حتى أواخر القرن الرابع، أى إلى أعوام الدورة الأولمبية الأخيرة ـ أو ظلت قائمة جزئياً أو اسمياً على أقلّ تقدير؟ على أى حال كان ثيون هو الرجل الأخير، العالم الأخير فى العالم القديم، الذى يمكن أن يقال عنه، ولو بظلال ضئيلة من الاحتمال: كان عضو الموزيون الذائع الصيت. يبدو أنه لم يغادر الإسكندرية بعد أحداث عام ٣٩١. وعلى أى حال، سيكون القول بأن جميع العلماء ودعوا هذه المدينة العظيمة، مبالغةً وخطأً فادحاً. فالشيء ذاته، الذى قاله أميان مرسيلينوس عن الوسط العلمى هناك، وهو يصف مرحلة ما قبل عام ٣٩١، يمكن أن يقال عن الأعوام التالية، أو ربما عن القرن الخامس برمته. ولكن علينا أن ندرك، أن مستوى العلم والتعليم قد تراجع فى الواقع العملى وهبط. لكن صوت مختلف المعارف لم يكن قد صمت بعد كلياً، ولم ينطفيء بعد نور المعرفة النظرية! أما مصير هؤلاء العلماء ـ العقلانيين، فقد اتخذ منحنىً مروّعاً فى بعض الظروف. وخير مثال على ذلك مأساة ابنة ثيون.

كانت ابنة ثيون تدعى هيباتيا. لم يكن عمرها قد تجاوز عشرة وبضع من السنين أثناء اضطرابات عام ٣٩١. ورثت عن أبيها موهبة فى العلوم الرياضية واهتماماً بها، ذاع صيتها

بشكل خاص كامرأة واسعة الإطلاع على آراء مختلف المدارس الفلسفية؛ مالت إلى تعاليم الأفلاطونية المحدثة، وحظيت بالاحترام نتيجة معرفتها الواسعة، كما أثارت الإعجاب بالجرأة والحرية، التي دافعت بهما عن قناعاتها. يعترف بذلك حتى المؤلفون المسيحيون. من أشهر تلامذتها سينيزيوسي، المتحدر من سيرينايكا، أى من ليبيا الحالية. اعتنق المسيحية في مرحلة متأخرة، كرجل متزوج. لم يتنازل أبداً عن بعض آرائه ـ حتى عندما أُرغم على قبول تعيينه أسقفاً في مدينة بتوليمياس ptolemias في وطنه؛ كما أنه ظل ملتزماً بأسرته. اعترف علناً، وبكثير من العناد، بالقانون القائل، بأن العالم أزلى، وأن الروح موجودة قبل أن تلج الجسد. أما عن مدى أهمية هيباتيا بالنسبة له، فإن خير ما يطلعنا على ذلك، هى رسالة وجهها إليها بعد أن أقعده المرض:

«أُملِى إليك هذه الرسالة وأنا طريح الفراش ليتها تصلك وأنت في ثوب العافية ـ يا والدتي، وشقيقتي، ومعلمتي وولية نعمتي!».

ومن حسن حظ هذا الأسقف ـ أنه توفى قبل عام ٤١٥ بفترية وجيزة، دون أن يرى، أى موت رهيب أعدّه أبناء عقيدته في الإسكندرية للمرأة، التي أبدى نحوها مشاعر على هذا القدر من السمو.

أثارت هيباتيا بقناعاتها مشاعر الكراهية لدى بعض الأوساط المتزمتة في سلك الإكليروس، وعززت بمواقفها مقاومة بقايا المثقفين العقلانيين.

ولتصفية الحساب مع خصم مقلق إلى هذا الحد، تم استغلال العلاقات المتوترة بين الوالى أوريستيس (المسيحى أيضاً!) والأسقف كيرليس:

هُوجمت هيباتيا من الجمهور المثار بقيادة قس يدعى بطرس، وهى في عربتها في طريق العودة إلى المنزل. جُرّتْ المرأة أمام إحدى الكنائس، وجُرِدَتْ من ثوبها، ثم طُعنت وأصيبت بجروح بالغة مميتة. أخيراً وفي ثورة جنون حقيقية، مُزِّقَتْ الجثة إلى أشلاء وأحرقت في النار ـ لإزالة كل أثر لها.

حدث هذا بعد ما يقارب ربع قرن من الأزمنة، التي نحن بصددها. فإذا افترضنا صدق المؤرخ البيزنطى في تصنيفه ثيون في عداد أعضاء الموزيون، سنجد أنفسنا أمام الرجل الأخير

المعروف لنا بعضويته في الموزيون، في مدينته ومسقط رأسه، وذلك بالرغم من هزيمة المصريين المخالفين عام ٣٩١، وبالرغم من تدمير أكبر المعابد؛ لكنه، وبصورة غير مباشرة، يُصْدِرُ ببقائه ذاك، الحكم بالموت على ابنته، التي ستقتل على أيدى الغوغاء عندما يحين الوقت.

هيلاريوس وسرابيس:

واجه قتلة هيباتيا ـ وكذلك أسقف الإسكندرية وبطريركها آنذاك، ثيوفيل، كمسؤول غير مباشر عن الجريمة ـ تهماً مختلفة وانتقاداً حاداً، حتى من جانب إخوتهم في الدين، ولكنّهم لم يُمَسُّوا بسوء، لا بل تعزز موقع ثيوفيل ذاته في المدينة. فعلى حدّ علمنا، لم يتعرض القتلة لأية عقوبات ـ حكومية أو كنسية ـ وفي حقيقة الأمر، تمَّ الاقتصار على التذمرات الكئيبة والتنهدات الورعة. وهكذا على سبيل المثال، نقرأ لدى سقراط (عاصر مؤرخ الكنيسة هذا، هذه الاحداث «ألقى هذا بكثير من اللوم على ثيوفيل وعلى كنيسة الإسكندرية، لأن القتل، والعراك، وما شابه ذلك من أعمال، غريبة تماماً عن الناس، الذين يعيشون وفق تعاليم المسيح!».

هذا كل شيء.

هكذا كانت إذن بذار الشر، والتعصب والكراهية. فقد تلطخت بالدم أيادى معتنقى دين المحبة.

نبوءة أنطونين:

كان لكانوبوس إذن شهرتها الخاصة في الحقبة القديمة. عُرفت مباهج هذا الموقع على نطاق واسع، كما أضحت التسمية ذاتها مرادفة للإنحلال والإنغماس في الملذات. وهذا ما نجد صداه في إحدى مقولات سينيكا:

ـ لن يختار الحكيم، الباحث عن عزلة هادئة، كانوبوس أبداً؛ ومن ناحية ثانية، لن تمنع كانوبوس ذاتها أحداً من العيش بعقلانية!.

لقد أضحى خير دليل وبرهان على إصابة هذه الحكمة، التي تفوّه بها كاتب في عهد نيرون، ـ إذا صدق يونابيوس ـ هو أنطونين في أعوام الدورة الأولمبية الأخيرة. وإذا أُخذت رواية يونابيوس حرفياً، فقد قدمت إليها مواكب من نوع آخر مختلف عن تلك، التي وصف

ســترابون طابعهـا وصفاً صريحاً. إذ يقـول مؤلف «حياة السفسـطائيين» بكثـير من المبالغة في صياغاته، التي يسهل كشفها:

جاء أنطونين إلى الإسكندرية من بلاد ما وراء البحر. ولما رأى مصب النيل في كانوبوس، تملكه شعور غامر بالإعجاب، بحيث كرّس نفسه كلياً لآلهة ذلك المكان وطقوسها السرية. خطا خطوات سريعة في تقدمه واقترابه من الألوهية. لم يُعرْ جسده أى اهتمام، وتحرَّر كلياً من كافة المتع المرتبطة به. اقتصر على ممارسة حكمة تجهلها الغوغاء. يجدر بنا أن نقول شيئاً أكثر عن هذا.

لم يُبدِ أنطونين ميولاً لصنع معجزات تنحرف عمّا هو مألوف في مجال الحواس؛ ربما تصرف بهذا القدر من الحذر، لأنه أدرك جيداً ما تعنيه الأوامر الإمبراطورية؟ لكن صلابته، وصرامته، ورسوخ آرائه، كانت موضع إعجاب الجميع. لذلك زاره هؤلاء، الذين أقاموا آنذاك في الإسكندرية بهدف الدراسة. وكانت هذه المدينة بفضل معبد الإله سرابيس، معبد العالم بأسره؛ فقد اجتذبت أعداداً لا تحصى من الحجاج من كل مكان، حيث كان تعدادهم يبلغ عدد سكان المدينة ذاتها. وحالما كان ينتهي هؤلاء من تمجيد الآلهة، كانوا يتوجهون إلى أنطونين؛ والذين كانوا على عجلة من أمرهم، كانوا يختارون الطريق البرية، بينما كان الآخرون يركبون القوارب النهرية ـ متجهين براحة تامة إلى موضع الدراسة الجادة. وحين يتشرفون باللقاء، كان البعض يطرح مشكلة منطقية ـ وفي الحال كانوا يشبعون بثراء الحكمة الأفلاطونية. وطرح آخرون تساؤولات تمس مباشرة المواضيع الإلهية ـ فوقف هؤلاء أيضاً، وكأنهم أمام تمثال، لأنه لم يكن يجيب بكلمة واحدة. واقتصر على التحديق وتثبيت نظراته على السماء. وهكذا ظلّ صامتاً؛ لم يشاهَد أبداً وهو يحاور أياً كان بمثل هذه الأمور.

لم يتوقف سيل الشبان ذوى الأرواح السليمة والمتعطشة للفلسفة، من التدفق على أنطونين، ولذلك اكتظ المعبد بالكهنة الشبان. أما هو، الذى كان لا يزال يبدو إنساناً مستمراً في تعايشه مع الناس، فغالباً ما تنبأ لرفاقه:

ـ بعد موتي سيزول هذا المعبد. وكذلك حرم سرابيس المقدس في الإسكندرية سيختفي في هيولى الظلمة. سيتعرض للتحول. سيخيم ظلام لا محدود، وكأنه من تلك الأساطير القديمة على ما هو الأجمل في أرضنا!.

وثبت بعد فترة قصيرة أنه تضمن فعلاً شيئاً من الألوهية. فلم يكد أن يرحل عن عالم البشر، حتى وُضِعَ حدٌّ للخدمة الإلهية في معابد الإسكندرية وفي سرابيوم. ولم يقتصر الأمر على الخدمة الإلهية، بل شمل المباني أيضاً. وحدث كل شيء كما في تلك الأساطير الشعرية عن انتصار العمالقة، أعداء الآلهة وواجه معبد كانوبوس المصير ذاته.

حزن وغضب يونابيوس:

يجب بالضرورة سرد تتمة رواية يونابيوس هنا. تستحق هذه الكلمات أن تُقرأ باهتمام، وإن لم يكن صداها محبباً أو مستساغاً، تستحق ذلك، لأنها تعالج أحداثاً بتنا نعرفها من خلال روايات ثلاثة من المؤلفين المسيحيين، سقراط، وسوزومينوس، وثيودوريت. الحقيقة أن أقوال يونابيوس لا تقدم أية معطيات جديدة ذات قيمة جوهرية، لأنها تتميز بالعمومية، لا بل هي خطابية. ولكن لنأخذ بعين الاعتبار أننا في هذه الحالة نسمع صوت الجانب المناهض، الجهة المهزومة، صوت من، أهين في أقدس مشاعره. فهي إذن في نبرتها، وفي اختيار ألفاظها، وبأسلوب رؤيتها، وثيقة استثنائية، ربما حُفظت بمعجزة. وهنا يطرح سؤال نفسه: ما الدافع لأن يُنسخ في العصر الوسيط، في مكان ما في بيزنطة، مخطوط مفعم بهذا القدر من الكراهية الصريحة لكل ما هو مسيحي؟ ربما نسخه العلمانيون السريون، الذين عاشوا حياة بائسة على مرتبات المعلمين الهزيلة، في عزلة المكتبات والأرشيفات؟ لا يستبعد شيء هنا، إذ ليس في وسع أحد أن يُحدد على نحو جدير بأن يُعْتَمَد ويُقْبَل، متى رحل آخر مُبجّلي الآلهة ومتى خمدت عباداتهم نهائياً؛ فالجمر ظلَّ مشتعلاً تحت الرماد لقرون أو ربما لآلاف السنين.

الجملة الأولى في هذا الفصل من المُؤلَّفِ مشبعة بالغيظ، وتشير بوضوح كافٍ إلى موقف المؤلف:

«حكم آنذاك الإمبراطور ثيودوسيوس، بينما ترأس ثيوفيل الملاعين؛ كان هذا الرجل يبدو وكأنه يوريميدونت ذاك، الذي وفق ما جاء في الأوديسا، حكم العمالقة المتغطرسين في حينه. مارس السلطة المدنية يواغريوس، وكُلِّفَ رومانوس بقيادة الجيوش المعسكرة في مصر. وقد قام كل منهما بتصعيد كراهية الآخر للمعبد، أو حتى للحجارة والصخور المنحوتة ذاتها؛ لا بل تنافسا فيما بينهما في هذا المجال. ولذلك دمرا سرابيوم (معبد الإله سرابيس) وأعلنا الحرب على تقدمات المعابد؛ وكل هذا دون أن يسمعان ولو مجرد شائعة عن أية نوايا عدوانية في

الجانب الآخر! هكذا حققوا النصر دون أن يواجهوا الخصم، وفازوا فى المعركة دون الاضطرار لخوض القتال. أما فيما يتعلق بالتماثيل وتقدمات المعبد، فقد حسموا الأمر معها بشجاعة لا توصف، ولم تقتصر القضية على أنهم هزموها، بل أنهم قاموا بسرقتها أيضاً؛ اعتمدت استراتيجية المعركة معها على تغطية كل مَنْ حاول الاستيلاء على شيء لنفسه. لم يتركوا فى سرابيوم سوى بلاطات الرّصف، وكان ذلك بسبب ثقل الحجارة، الذى لم يسمح بزعزعتها.

ولما انتهى هؤلاء السادة الشجعان والنبلاء إلى هذا الحد من أعمال التدمير وذَرّ كل شيء فى مهب الريح، رفعوا أيديهم إلى الأعلى؛ أجل، لم تكن الأيادى ملطخة بالدم، لكنها لم تكن نظيفة أبداً، بل كانت مدنسة بالجشع. صاحوا قائلين بأنهم انتصروا على الآلهة، واعتبروا نهب المعابد والتجديف عنوان فخر واعتزاز.

ثم جاؤوا إلى تلك الأمكنة المقدسة بحشود ممن عُرفوا بالرهبان، إنهم بشر من حيث الشكل، لكنهم يعيشون كالخنازير، يسمحون علناً بالقيام ـ ويقومون بأنفسهم ـ بالكثير من الممارسات المنحطة، التى يندى الجبين خجلاً من مجرد نقلها. ولكن هذا بالذات اعْتُبِرَ بمثابة ورع وتقوى: احتقار كل ما هو إلهى. تمتع كل من ارتدى أثواباً سوداء آنذاك، وتصرف بأسلوب تافه وغير جدير بالاحترام، بسلطة استبدادية. فإلى مثل هذه الذرى من الفضيلة صعد النوع البشرى!.

استقر هؤلاء الرهبان فى كانوبوس أيضاً. فرضوا بدلاً من تكريم الآلهة الحقيقين، عبادة العبيد، ويا ليتهم كانوا من العبيد الأمناء! جمعوا من كل حدب وصوب عظام وجماجم أولئك، الذى ألقى القبض عليهم كمجرمين وحُكِمَ عليهم بالموت بقرار من المحكمة، ونادوا بأن هؤلاء المحكومين هم آلهة. تلووا أمام تماثيلهم، وتمرّغوا فى الوحل أمام قبورهم. نعتوهم بالشهداء، والخدم، والرسل، الذين ينقلون طلبات الناس. وفى واقع الأمر، لم يكونوا سوى عبيد، خدموا بالعار، وانتهوا تحت ضربات السياط، ولا يزالون يحملون جراح خستهم على صورهم. هاكم إذن الآلهة، الذين تلدهم هذه الأرض».

هكذا إذن أعلن أنطونين حقيقة للجميع: أن المعابد ستتحول إلى قبور. وهذا ما منح معرفته وقدرته على التنبؤ شهرة واسعة. توفى بهدوء بعد أن عاش شيخوخته بدون مرض، أما ذوو القدرة على التفكير، فقد شعروا بألم أكبر بالنهاية، التى توقعها للمعابد.

موضوع الشياطين والعفاريت:

أنباء صحّة ودقّة تنبّؤ أنطونين بتدمير معابد الإله سرابيس، التى أضفى عليها جموح الخيال بهاءً وألقاً أكبر بكل تأكيد، انتشرت على نطاق واسع فى عالم ذلك العصر؛ ذاع صيتها واكتسبت أهمية بالغة ليس فى أوساط غير المسيحيين فحسب، وإنما بين المسيحيين أيضاً. شعر الفريق الأخير بحرج كبير بمجرد أن تكهُّن يونابيوس، الذى يكمن مصدره ـ أيمكن الشك بذلك؟ ـ فى إلهام شتى أنواع الأرواح النجسة، الكامنة فى آلهته، تحقق بذلك القدر من السرعة والدقة. وهكذا ظهرت فى اعتقاد أعداد غفيرة من المسيحيين مشكلة جوهرية ذات طابع فلسفى ولاهوتى. يمكن إعادة صياغة المجرى الأساسى لتحليلهم على وجه التقريب كما يلى:

مَنْ هم الآلهة القدماء؟ ليسوا فى واقع الأمر سوى عفاريت شريرين، وماكرين، وكاذبين، وخدماً للشيطان. يقودون، الذين اعتمدوا عليهم إلى هلاك مريع. يكرهون كل حقيقة أو حتى ظلِّ الحقيقة، مثلما يخشى الظلام كل شعاع نور قادم من الشمس. فبأى أسلوب، وبأية طريقة، وبواسطة اية خدعة تستطيع الأرواح الشريرة فى أى وقت كان، أن تتعرف، وتتوقع، وتكشف لأتباعها ولو عن جزء يسير مما سيحدث فى الواقع؟ لأنها بكشفها عن المستقبل، تعزز إيمانهم بقدراتها الخارقة! فَلِمَ يسمح الرب بحدوث شىء على هذا القدر من الخطورة على خلاص الأرواح البشرية، فى أزمنتنا وعلى مرأى من أعيننا؟

عولجت هذه المواضع على نحو جادّ وجذرى. جرت نقاشات عديدة، ولم تبدُ الآراء المطروحة أثناءها أرثوذكسية دوماً. وفى نهاية المطاف، اتخذت القضية أبعاداً هائلة، تطلبت معها الضرورة أن يتصدى لها أحد أقدر العقول اللاهوتية لتلك الحقبة، أو ربما ليس لتلك الحقبة وحدها؛ ألا وهو أسقف هيبونا ـ عنابة ـ شخصياً، أوغسطين. فقد كرّس لهذه القضية مقالة مستقلة. ليست المقالة مسهبة فى الحقيقة. ولكنها مثيرة للاهتمام ومتميزة بالنظر لموضعها، الذى تعالجه. وهى بعنوان «عن تنبؤ العفاريت بالمستقبل» De Divinatione Daemonum. وقد استخدم المؤلف موضوع تدمير سرابيوم منطلقاً لتأملاته. ويكتب فى كلمات المقدمة:

«فى صباح أحد الأيام اجتمع لدى عدد من إخوتنا المسيحيين. جلسنا فى المكان المعتاد، ثم

بدأ الحديث عن موقف الديانة المسيحية من غرور الوثنيين ومعرفتهم المفعمة بالشكوك، حيث يزعم أنها مذهلة ولا محدودة. تذكرت هذا النقاش وأتممته فيما بعد؛ وارتأيت بأنه جدير بأن يُوَثَّق كتابة. لن أذكر أسماء، الذين اتخذوا فيه موقفاً معارضاً من رابي؛ كانوا مسيحيين على أى حال، وعبَّروا عن آراء كهذه، ربما بهدف التوصل إلى ما يجب الرد به على الوثنيين.

تعرضوا لموضوع التكهنات المنبثقة من العفاريت. ولمَّا تَم التذكير بأن أحدهم تنبأ بهدم معبد سرابيس، الشيء الذى حدث فعلاً فى الإسكندرية، قلت:

ـ لِمَ العجب من أن العفاريت أمكنها أن تعرف سلفاً وتعلن حقيقة التدمير، الذى هدد المعبد وتماثيله هناك؟ لأنها قادرة بالأسلوب ذاته على توقع وإعلان العديد من الأحداث الأخرى. ولكن بطبيعة الحال، فقط بذلك القدر، وضمن تلك الحدود، التى سُمح لها فى البدء برؤية الحقائق المقبلة وإعلانها للناس! فَرَدَّ على:

ـ اذن ليست تكهنات العفاريت شراً، وليست كريهة فى نظر الرب! فلو كان الأمر على هذا النحو، لما سمح هو نفسه، العادل والكلى القدرة بحدوث أشياء شريرة وظالمة!».

هكذا كانت بداية الجدال. وكما يمكن التخمين بيسر، فإن أوغسطين لم يفتقر للحجج ويجدر بنا أن نلاحظ هنا بأنه، شأنه شأن جميع معاصريه، آمن بعمق بوجود العفاريت ككيانات حقيقية، ومحددة تماماً، متميزة بكيانٍ فيزيائى مستقل. اعتمد فى آرائه على مختلف العقائد الافلاطونية والافلاطونية المحدثة، وكذلك على المعتقدات الشعبية والمقولات الإنجيلية. تم النظر إلى العفاريت على أنها كائنات تحتل موقعاً وسطاً ما بين البشر والآلهة، وهذه الكائنات عادة (وإن لم يكن دوما) خيِّرة، وصديقة، ونافعة، يكفينا هنا أن نستشهد بذلك العفريت، الروح الشفيعة، التى تحدث عنها سقراط كثيراً. لكنْ هذه الأمور فى نظر أوغسطين، اتخذت صيغة مختلفة تماماً.

أجل، اعترف بأن العفاريت كائنات متفوقة على البشر فى جوانب عدة. فهى خالدة لا تموت، وأجسامها ذات طابع شفاف وحركى كالهواء، ولذلك فهى تخترق كل شيء، بما فى ذلك ذواتنا. لكنها ليست سوى ملائكة ساقطة، وأرواح شريرة، عدوة لدودة ومستبدة وغادرة لسعادة الجنس البشرى بأجمعه ولأى إنسان على نحو مستقل! تحوم وكأنها طيور جارحة، سريعة على نحو عجيب، ودقيقة الملاحظة بشكل لا يقارن، فى الطبقات الدنيا من الهواء،

تحت مجال القمر. وتنقض كالنسور على كل شيء فى عالمنا يبدو لها فريسة سهلة. إنها هى سبب الكثير من الأحلام، والرؤى، والكوابيس. وهى قادرة على خداع الحواس، والكشف جزئياً عن الحقائق المقبلة؛ ويعود السبب فى ذلك إلى صعودها نحو الأعلى وامتلاكها لحواس أكثر كمالاً، الشىء، الذى يمكنها من الرؤية أكثر وأبعد وأدق مما نستطيعه نحن هنا على الأرض. وأخيراً، هى، التى تمكنت من أن تدس فى عقول الفانين القناعة المهلكة بوجود الآلهة. ولكن مَنْ هم الآلهة؟ إنهم فى جوهرهم كائنات لا أخلاقية، ماصةٌ دماء، ميَّالة للنزاع، لا مسؤولة، ولا تختلف بشىء عن العفاريت! ولا غرابة فى ذلك ما دامت جزءاً من عالمها، وإلى حدٍ ما من مخلوقاتها. أيمكن لها إذن، وهى الآلة الزائفة، أن تحجب عنا شمس القوة الحقيقية والعلية؟.

طرح أوغسطين مثل هذه الآراء وما يشابهها فيما يتعلق بموضوع العفاريت، وخاصة فى عمله العظيم «عن مملكة الله». كما يعود للمواضيع ذاتها فى العديد من رسائله. أما فى المقالة، التى استعرضناها هنا، فهو يفترض أن العفاريت كائنات من هذا النوع، وأن هذا الشىء معروف لدى الجميع، ولا ضرورة للإسهاب فى الحديث عنه.

بين النصوص الإنجيلية العديدة، التى تتحدث عن الأرواح الشريرة، أثار دوماً اهتمام القراء والمعلقين ذلك النص، الذى يتحدث عن الممسوس، الذى طرد منه يسوع حشداً من الشياطين، وكيف أنها دخلت فى قطيع من الخنازير كانت ترعى فى الجوار، فانطلقت تعدو على السفح المنحدر، وألقت بنفسها فى مياه البحيرة لتغرق منتحرة.

يبدو الموضوع بعيداً وغريباً ظاهرياً، ولكن يمكن النظر إليه بنظرة جديدة؛ وسوف نُفاجأ ببعض الخواطر والتداعيات المذهلة! وهذا ما فعله ذلك الشاعر، الذى بدا له ذلك العالم قريباً وكأنه ليس بأبعد من يوم البارحة. وعلى نحو مشابه، يتابع القول: حشود الناس فى حالة من التذبذب والتعطش للمعجزات، واختلاف السلوك، ظاهرى ليس إلاَّ. والشياطين لا تزال تنشط مثلما كانت تفعل فى حينه. ولكن فى الأزمنة القديمة، وبعكس ما نجده الآن، لم يكن لدى الممسوسين أى الذين دخلتهم الشياطين، لم يكن لديهم «مطبوعات وشاشات، أو احتكاك يُذكر بالفن والأدب»؛ كما أن «سريان الرعشات فى الجسم وظهور الزبد على الشفاه واصطكاك الاسنان لم يُنْظَر إليها آنذاك كدلائل على المواهب». والمثل الإنجيلى، كما يؤكد

الشاعر، يبقى محافظاً على قيمته: لأن الروح المستحوذة على الممسوسين يمكن أن تدخل في الخنازير. وهذه الأخيرة «تتهور بسبب اليأس الناجم عن الصدام الباغت بين الطبيعيتين، الذاتية والشيطانية، وهو ما يجعلها تقفز في المياه وتغرق».

وهكذا فإن لكل عصر مسحوريه و«فتيته الغاضبين» ومعرفته الخاصة بالأرواح والعفاريت، أى آراءه عن أسباب وجوهر المسّ. كما أنه يقر الطرق الملائمة، الوحيدة الفعالة على حد زعمه، لمقاومة الاستحواذ والمسّ. يمكن أن نستعرض هذه الطرق عبر الحقب والقرون. كانت يوماً الرقى وطاردى الأرواح بالرقى؛ يتحدث عنهم الكتّاب والمخرجون، أى ممثلو تلك الفروع من الفن، التى غالباً ـ إذا صدقنا الشاعر ـ ما يجوس فيها الممسوسون.

الحال، لم تكن المستوطنة الصغيرة فى بلاد البليوبونيز الفقيرة مدينة عالمية عظيمة، مثلما كانت الإسكندرية آنذاك. من ناحية أخرى، لم تكن كل تحف فن العمارة والنحت فى معبد سرابيس لتعادل المعنى الرمزى للمهرجانات الأولمبية.

حين كان أوغسطين منهمكاً بإعداد مقالته «عن تنبؤ العفاريت بالمستقبل»، كان الغزو القوطى بقيادة ألا ريك يتهدّدُ روما؛ أو ربما كان الغزو قد تمّ. كنا قد تعرضنا للحديث عن هذا العام المتميز والحدث الهام، الذى تمّ فيه، فى مكان آخر؛ وتحديداً، فى معرض الحديث عن إقامة ميلانيا وفولوزيانوس فى المقاطعات الإفريقية. إننا نميل للاعتقاد، بأن العالم المعاصر اختنق آنذاك رعباً أمام ما حدث فى إيطاليا، واستحوذ موضوع واحد ووحيد على أفكار الجميع. لكن الحقيقة مغايرة لهذا التصوّر. ففى المقاطعات البعيدة والتى كانت ما تزال آمنة بَعْدُ، لم يكتف الناس بمجرد العيش الاعتيادى، بل وجدوا الوقت الكافى، والهدوء، والرغبة فى معالجة المواضيع المجردة؛ ومن بين هذه المواضيع، على سبيل المثال، هل تقول العفاريت الحقيقة. أو مواضيع أخرى مشابهة، منفصلة عن الواقع تماماً. وها هو مثال آخر، مأخوذ من المقاطعة ذاتها ومن الفترة الزمنية ذاتها، ولكن من الأوساط غير المسيحية:

حين كان فولوزيانوس، الآنف الذكر، يكتب عام ٤١٢ إلى أوغسطين، أخبره فى رسالته عن موضوع حديث جرى قبل فترة قصيرة بين أصدقائه. لقد ناقشوا أولاً مواضيع مختارة من فن البلاغة. ثم انتقلوا إلى خفايا الشعر، وخاصة نظم القصائد وجمال الاستعارة والمجاز، وسمُو المقارنة. ثم صعدوا فى مستوى النقاش أعلى فأعلى، وتناولوا عقائد مختلف المدارس الفلسفية،

بدءاً من الحقبة القديمة البعيدة، من الأكاديمية الأفلاطونية ومعهد أرسطو؛ وأخيراً، راح أحدهم، (المعنى هو فولوزيانوس نفسه بكل تأكيد) يتأمل بعض القضايا المزعجة، بأى وسيلة أمكن لرب العالم أن يبقى طيلة ذلك الوقت فى أحشاء العذراء الطاهرة، ويتحمل فيما بعد الآلام والبلوى المرتبطة بكل حياة دنيوية، بما فى ذلك الكائنات الخالدة؟

ألهذه الحقيقة، حقيقة خوض مثل هذه النقاشات فى تلك اللحظات التاريخية الحاسمة، وذلك فى أوساط المسيحيين وغيرهم على حد سواء، ما تُعَبِّر عنه؟ يمكن بطبيعة الحال الاكتفاء بتفسير سطحى، والقول بأنها مجرد صدفة. ولكن من ناحية ثانية، يمكن أن نرى فى ذلك مظهراً من مظاهر عمليات نفسية أعمق، تكاد أن تكون فى مستوى اللاوعى فى أحضان المجتمعات الكبرى. فمن يدرى إن لم يكن الأمر يعنى الهرب من الواقع الرهيب والوحشى، الهرب إلى مجالات التأملات السامية والمجردة كلياً؟ إذ غالباً ما تتكرر ظواهر مشابهة فى كافة الحقب، وخاصة عندما تتهدد الجوائح النظام القائم. وربما كان هذا نوعاً من العمى وعدم إدراك خطورة الموقف بشكل تام. أو ربما العكس، برهاناً قاطعاً على عظمة متميزة، للروح، وفوق كل شىء، على الرؤية الحدسية لحقيقة على قدر عالٍ من البساطة والوضوح، تصبح معه أحياناً غير ملحوظة أو مهملة بازدراء من قبل رجالٍ ذوى معارف وآفاق واسعة إلى أقصى حد؟ تنص هذه الحقيقة على أنه: فى حياة كل مجتمع، عندما يتعلق الأمر بقضية الوجود والاستمرار كمجموعة مستقلة، لا تعود الحقائق السياسية أو الاقتصادية هى ما يقرر الأمر، وانما تلك، التى ترسخ وتوطد الشعور بالاستمرارية الثقافية؛ ومما يوطد هذه الاستمرارية، مناقشة مواضيع تبدو ظاهرياً غريبة كلياً عن الواقع الجارى ـ على هذا القدر من الغرابة، كموضوع المجازات الشعرية وقضية قدرة العفاريت على التنبو بالحقيقة. الواقع أنه فى الحالة الأخيرة، يمكن أن يُعَدَّ مُجرَّد اعتبار الآلهة القديمة بمثابة عفاريت، عفاريت شريرة ومفعمة بالكراهية، دليلاً واضحاً على انقطاع استمرارية ما فى مجال الحياة الدينية؛ لكن هذا الانقطاع تلخص إلى أقصى حد فى إزاحة واستبدال الأسماء وأسس التقييم.

نبؤة اسكليبوس:

«سيأتى ذلك اليوم، الذى يتضح فيه كم كان عديم الجدوى ورع إيمان المصريين وخدمة ذلك الشعب، المفعمة بالتضحية له، ستنحط هنا الذكرى المقدسة للآلهة وتتحول إلى عدم،

وسيرحل الآلهة أنفسهم من هنا نحو السموات، سيهجرون الأرض المصرية إلى الأبد. وهكذا فإن هذا البلد، الذى كان عبر قرون طويلة مهداً، ودعامة، وعماداً، ومحراباً للديانة الحقة سيُجرَّد من الحضور الإلهى، ويتيتَّم، ويصبح فارغاً. سيحتل الغرباء أرضه الزراعية، ولن يقتصروا على الاستخفاف بالإيمان المقدس، وإنما ـ كم هو مؤلم هذا الشيء ـ سيصدر ما يشبه المرسوم، الذى سيحظر تحت طائلة أقسى العقوبات، التقيد والالتزام بقواعد الدين، والتقوى، والعبادة.

«هذه الأرض الجليلة، مقر المذابح الإلهية، ستملأ منذ الآن بالقبور والجثث فقط. يا مصر، يا مصر الحبيبة! لن يبقى ما يشهد في القرون المقبلة على عباداتك سوى الأساطير والحكايات، ولكنها بالرغم من ذلك، ستبدو للأجيال مجرد انحرافات عادية. ستصمد الآثار المنقوشة فى الحجارة وحدها كآثار وبراهين على أفعالك التقية. سيستوطن السكوذى، أو الهندوسى، أو واحد آخر شبيه بهما، همجى من البلاد المجاورة، هذه الأرض بأسرها. وعندئذ ستُحَبُّ الظلمة أكثر من النور، وسيفضل الموت على الحياة. صدقينى، ستبلغ الأمور فى نهاية المطاف حداً تُفْرَضُ معه عقوبة الموت على كل مَنْ يجرؤ على الاعتراف بالعقل الإلهى. وبهذا الأسلوب، سيتم الفصل المؤلم للآلهة عن البشر. ولن يبقى هنا سوى ملائكة الشر. ستبقى لتدفع التعساء إلى أسوأ جرائم الغرور: إلى الحروب، والاغتصابات، والنهب، والخداع. أى نحو كل شيء مناهض للطبيعة الحقة، لروحنا». لا، لم يتفوه بهذه النبوة أى فيلسوف ـ وثنى، ممن شهدوا أحداث الإسكندرية عام ٣٩١. كما أنه ليس أمونيوس كاهن هرمس توت، ولا أوليمبوس، الحارس الأمين لحرم سرابيس حتى النهاية، حتى تلك الليلة الأخيرة، حيث زُعِمَ سماع ترتيل «هاليلويا». كذلك ليس هو أنطونين حلية المعبد فى كانوبوس، العرَّاف، والحكيم، والمعلم. وليس أياً من أقاربهم أو المعاصرين لهم. العبارات المقتبسة هنا، صياغة جديدة للآراء، التى تضمنتها مقالة لاتينية بعنوان: أسكليبيوس بقيت محفوظة فى مكتبة الكاتب النثرى العظيم أبوليوس، الذى عاش فى القرن الثانى بعد الميلاد وكتب باللاتينية؛ لكنَّ هذه المقالة لم تخرج من تحت ريشته بالتأكيد. فهى تعود إلى مرحلة متأخرة عنه بعض الشيء، اى إلى أواخر القرن الثانى. ولكن لابدَّ وأنها ظهرت ـ يصعب فى الواقع تصديق ذلك! ـ بما لا يقل عن مئة عام قبل أيام ثيودوسيوس، أى بما لا يقل عن قرن قبل أعوام الدورة الأولمبية الأخيرة، حيث دُمِّرَتْ أو أُغلقت فى مصر معابد الآلهة، وحُظِّرَ تقديم الأضاحى.

نقرأ إذن كلمات نبوءة تحققت حرفياً. ولم يقتصر تحقيقها على مصر فحسب فإذا نطقنا بما جاء في النبوّة وفكرنا وفق مقولات آخر العرافين يمكننا القول، بأن الظلام خيّم على كامل العالم المأهول؛ وكذلك على هيلادا، حيث الأولمب، مسكن الآلهة، وحيث أثينا، معبدهم العظيم، وحيث أولمبيا موقع المهرجات المكرسة لتمجيدهم. فقط في روما، في روما بالذات، اختلف الأمر بعض الشيء، فهناك فقط برزت مقاومة أكثر تصميماً ، مقاومة بعض الجماعات والدوائر ـ بأسلوب مختلف.

الثامن من نوفمبر:

«الأباطرة ثيودوسيوس، وأركاديوس، وهونوريوس

إلى روفين الوالي

لا يسمح لأي إنسان، بغض النظر عن المكانة والانتماء؛ كما لا يُسمح لأي موظف سواءً أكان ما يزال يقوم بأداء مهامه أو تركها، ولا لأي متنفذ بسبب ولادته، ولا لأي وضيع بسبب انتمائه، ومنزلته، أو ثروته ـ لأي كان في أي مكان وفي أية مدينة ـ لا يسمح لأحد من كل هؤلاء بقتل حيوان برىء كأضحية لأصنام ميتة؛ كما لا يسمح بتمجيد اللارات(*) بأضحية استعطاف سرية، بالنار، والأرواح الحارسة بالخمر، وآلهة المنزل بالعطور؛ لا يسمح بإشعال النار لهم أو وضع البخور أو تعليق الأكاليل.

وإذا ما تجاسر أحدهم على تقديم حيوان كأضحية، وتفحُّصِ أحشائه والبخار المتصاعد منها، تُوَجَّهُ إليه التهمة ذاتها الموجهة لمن أهان العرش. ويمكن لأي كان توجيه التهمة، وسينال المذنب العقاب الملائم؛ حتى وإن لم يبحث عن أي شيء ضار بصحة الأباطرة أو بما له علاقة بصحتهم. إذ يُعَدُّ جريمة كبرى مجرد الرغبة في معرفة قوانين الطبيعة؛ والبحث عمّا هو محظور؛ والكشف عمّا هو خفي، ومحاولة معرفة نهاية حياة ما، أو الوعد بأمل إنهاء حياة ما».

هذه هي العبارات الأولى من المرسوم الصادر في اليوم الثامن من نوفمبر. عندما تولى منصب القنصلين أركاديوس للمرة الثانية وروفين، أي في عام ٣٩٢. قد يكون هذا المرسوم هو الأهم والأكثر شمولاً بين كافة المراسيم المناهضة للآلهة في كامل التشريعات الرومانية

(*) اللارات: مفردها اللآر Lar وهو الاله أو الروح الحارسة لدى الرومان. (المترجم).

المحفوظة. فهو يجمع، ويوحد، ويوسع، ويزيد حدة على كافة المراسيم التى سبقته فى هذا المجال. وقد أصدر الأباطرة المتعاقبون خلال القرن الرابع على العرش عدداً كبيراً من هذه المراسيم! فهو يحظّر القيام بأى من الطقوس الوثنية فى أية من صيغها وأشكالها دون استثناء. يحظّر ممارستها على أى كان، وفى أى مكان، وبأى أسلوب؛ ليس فى المعابد فحسب، وانما فى المنازل الخاصة أيضاً. يمنع تقديم الأضاحى، ولا يقتصر الأمر على الحيوانات وحدها، بل يشمل أكثر التقدمات الرمزية تواضعاً؛ أى الزهرة، والبخور، والمصباح الزيتى، والشمعة. أما مَنْ يُقْدِمُ بعد نحر الحيوان على مذبح الآلهة، على تفحص أحشائه لأغراض العرافة، كما كانت تفرض التقاليد القديمة، فيعرض نفسه للعقوبات المفروضة على مَنْ أهانوا هيبة إمبراطور الشعب الرومانى. وهذا يعنى، مصادرة الممتلكات، والنفى، والسجن، أو حتى عقوبة الموت.

كان مرسوم الثامن من نوفمبر موجهاً ضد أبسط العبادات، أى أكثرها انتشاراً ورسوخاً، وخاصة المرتبطة منها بحياة الريف. مَنْ يضفر شجرة بأشرطة، ومن ينصب مذبحاً حقلياً متواضعاً ويكسوه الخث(*)، يهين بذلك ـ هذا ما يؤكده المرسوم ـ الدين. ولذلك فإن مالك المنزل أو الحقل حيث أقيمت هذه المراسم، يعاقب بمصادرة تلك الممتلكات لصالح خزانة الدولة، إذا كان على علم بالجريمة وشارك بها؛ ولكن إذا أقيم الطقس بدون علم المالك، توجب عليه دفع غرامة بمقدار خمسة وعشرين رطلاً من الذهب، شأنه شأن كل واحد من المشاركين. وعلى رعاة المدن وأعضاء مجالسها إعلام الحاكم فوراً عن حالات التجاوز على المرسوم وعدم التقيد به، وعلى الحاكم اتخاذ الإجراءات الفورية. وإذا حاولت السلطات إخفاء الحقائق، تتحمل المسؤولية بنفسها؛ أما القضاة، إذا قاموا بتأجيل الإجراءات وإصدار الحكم، سيرغمون على دفع غرامة بمقدار ثلاثين رطلاً من الذهب، شأنهم شأن الموظفين التابعين لهم.

وهكذا أصبح يوم الثامن من نوفمبر من عام ٣٩٢م، مع إعلان المرسوم، بمثابة يوم الموت الرسمى للديانات السابقة داخل حدود الإمبراطورية. هذه كانت نوايا وإرادة الإمبراطور ومستشاريه. ولكن بالرغم من جهود وتوقعات المشرعين، فإن ضربة بهذا القدر من القوة أيضاً، كانت عاجزة عن إسقاط المعتقدات القديمة كلياً. وعلى الرغم من أنها أزيحت ـ إن صحّ

(*) الخث: TURF بالانجليزية وهى الطبقة العليا من التربة المشتملة على العشب وجذوره. أو جذور النباتات الباقية تحت سطح الأرض لفترات طويلة دون أن تبلغ مرحلة التفحم.

القول ـ إلى الممارسة السرية، فقد بقيت حيّة لقرون أخرى. ويمكن القول دون مبالغة، بأنها في الحقيقة لم تمت أبداً؛ أجل، لقد خضعت لتحولات بنيوية، واكتسبت وجهاً أو قناعاً مختلفاً، وتغيرت الأسماء ـ وكل هذا بهدف الدخول خلسة إلى معسكر الخصم. ولكنّ هذه قضية مختلفة لسنا بصدد بحثها. وعلى أى حال، فمنذ يوم الثامن من نوفمبر، وجب البحث عن أساليب مبتكرة وملتوية للتمكن من ممارسة عبادة الآلهة القديمة. لو حاول أى كان، البحث عن نص قانوني يمكن اعتماده كأساس للقول بأن المهرجانات الأولمبية أُلغيت بمرسوم رسمي، فإن المرسوم، الذى نحن بصدده يمكن أن يكون بمثابة وثيقة كهذه؛ لأن المهرجانات ارتبطت دوماً ببعض المراسم وتقديم الأضحيات أمام مذابح الآلهة، وخاصة فى معبد سيّد المكان وراعى المباريات، زيوس. كما يمكن الإصرار على أنه مع هذا المرسوم أو بعده صدر مرسوم آخر، لم يُحْفَظْ نصه حتى أيامنا، وضع بوضوح حداً ونهاية للاحتفالات فى أولمبيا. يمكن اعتبار الفرضية الثانية مرجحة أكثر من وجهات نظر معينة. فبأى أسلوب يمكن تفسير الحقيقة، التى أسلفنا الحديث عنها: استمرار الاحتفال فى أنطاكية بدون عوائق بالمهرجانات، التى أُطلق عليها أيضاً اسم الأولمبية، بالرغم من صدور مرسوم الثامن من نوفمبر؟ ولكن ـ أشرنا إلى ذلك أيضاً من قبل ـ يوجد تفسير آخر لهذا التناقض: كان من السهل إلغاء المهرجانات فى أولمبيا، لأن غياب السكان المحليين هناك كاد أن يكون تاماً، كما لعب الافتقار إلى التمويل دوره. أما فى أنطاكية، فقد اتخذت الأمور طابعاً مختلفاً كلياً: كان سكان المدينة العظيمة مولعين بالمهرجانات، وقام الأثرياء بتغطية النفقات فى إطار ما فرضته عليهم السلطات المحلية.

يحتمل إذن أن لا تكون المهرجانات الأولمبية عام ٣٩٣ قد تمت، بالرغم من أن الإعداد لها كان قائماً. وفى هذه الحالة، فإن الدورة الأولمبية الأخيرة فى الحقبة القديمة، والتى بدأت عام ٣٨٩، لم تعرف نهايتها الطبيعية أبداً، واستمرت طويلاً، حتى الدورة الأولى فى عصرنا، أى حتى عام ١٨٩٦. وعلى أى حال، فإن عام ٣٩٣ هو التاريخ السنوى الأخير المحتمل؛ لأننا نتذكر شهادة المؤرخ الصريحة، القائلة بأن المهرجانات الأولمبية انقضت، وثيودوسيوس على قيد الحياة. على هذا النحو أو ذاك، تمّ الحديث خلال الوثبة الأخيرة الديانات القديمة وتصفية

الحسابات الأخيرة معها؛ لأنه في العام ٣٩٣ بالذات، وقف يوجينيوس وأربوغاست علناً وبإصرار إلى جانب الآلهة القديمة.

عام ٣٩٣:

لم تكن الدلائل في بادىء الأمر تشير إلى أن يوجينيوس وأربوغاست سيقومان بدعم الديانات السابقة للمسيحية. لأنه عندما تقدم مجلس الشيوخ في روما، المطّلع جيداً على ميول أربوغاست الدينية وعلى تذبذب قناعات البروفسور السابق، طالباً إليهما تمويل عبادة الآلهة في العاصمة من ميزانية الدولة أو إعادة ممتلكات المعابد المصادرة، رُفِضَ الطلب مرتين. لأن يوجينيوس ظلَّ يتوهَّم بأن ثيودوسيوس سَيُقْدِمُ في نهاية المطاف على بعض التنازلات، ولهذا السبب، لم يرغب في اتخاذ أية قرارات في الأمور المزعجة والمتنازع عليها، كما أنه خشي من ناحية ثانية ردود أفعال المسيحيين. لم يحاول بشكل خاص التدخل في القضايا المتعلقة بإيطاليا، الأرض التي لم تكن مُلكاً لأحد بعد، إذ لم يملك أي من الجانبين جيوشاً هناك. وعلى ما يبدو، فقد كان على استعداد، لا بل كان متلهفاً، للإستنكاف عن أية مطالب في الجزء الأوسط من الإمبراطورية لقاء الاعتراف الرسمي بسيادته على الشطر الغربي منها. ولذلك، ومن خلال مساعيه لإضفاء طابع الشرعية على الوضع الراهن، اقترح أن يتولى منصبا قنصلي عام ٣٩٣ كل من ثيودوسيوس ويوجينيوس نفسه. رفض البلاط الشرقي هذا الاقتراح أو أهمله بصمت ينم عن الاحتقار. بينما أُعلن في القسطنطينية أنه في اليوم الأول من يناير عام ٣٩٣، سيتولى منصبا القنصلين ثيودوسيوس للمرة الثالثة وأبوندانسيوس قائد الجيوش. وبهذه الصيغة تمَّ التأريخ طيلة ذلك العام في كافة المقاطعات الخاضعة للسلطة الشرعية. أما في الغرب، فقد حملت الوثائق الرسمية التأريخ التالي: «لمّا تولى يوجينيوس منصب القنصل» (أي أنه كان القنصل الوحيد!). أو «في السنة التالية، بعد تولي أركاديوس وروفين منصبا القنصلين». يستنتج من ذلك، أن العام، الذي أقيمت فيه أو كان لها أن تقام فيه المهرجانات الأولمبية الأخيرة، أُطلقت عليه آنذاك تسميتان مختلفتان ـ بنتيجة النزاعات السياسية، والتمزق الداخلي للإمبراطورية. وكان لهذا مغزاه الرمزي بطبيعة الحال.

تَمَثَّلَ البرهان الثاني على أن ثيودوسيوس لن يعترف أبداً بسيِّد الغرب الحالي شريكاً له في

الحكم فى احتفال رسمى أُقيم فى القسطنطينية خلال يناير من عام ٣٩٣. أُعلن فيه هونوريوس، الابن الأصغر لثيودوسيوس، والذى لم يكد أن يبلغ الثامنة من العمر، أغسطساً؛ فحصل بذلك على اللقب والمرتبة الأعلى فى سلّم المسؤوليات، الشيء، الذى حصل عليه والده قبل أربعة عشر عاماً، وشقيقه الأكبر أركاديوس قبل عشرة أعوام تماماً.

استطاع الغرب من جانبه مواجهة هذه التظاهرات الرسمية، التى أقبل عليها البلاط الشرقى، بنجاحات عسكرية حقيقية وهامة. فأولاً، وفى شتاء عام ٣٩٢/ ٣٩٣، اجتاز أربوغاست نهر الراين فى منطقة كولونيا وأخضع أرض بنى جلدته لأعمال التدمير. بينما بقى يوجينيوس نفسه فى مؤخرة الجيوش الرومانية. هذا ما فرضته هيبة اللقب الإمبراطورى، أو على الأرجح ما نصح به الحذر أو الاحتراس «البروفسورى». استقبل الرسل، الذين بعث بهم الفرنكونيون والألمان، وعقد معهم اتفاقية سلام بشروط تخدم مصالح الإمبراطورية.

وجبت الإشارة هنا إلى هذه الأنشطة الحربية، وليس الهدف من ذلك التحدث عن حملة عادية بين حملات لا تحصى ضد الهمج، لأن هذه الحملة تبرز بوضوح أنه تماماً فى عام الدورة الأولمبية الأخيرة، كانت الإمبراطورية الغربية لا تزال تشكل قوة عسكرية ضاربة؛ قادرة على القيام بمناوشات هجومية خارج حدودها، وذلك على أرض القبائل الجرمانية الأكثر شراسة فى القتال. والغريب فى الأمر، أنه هنا بالذات، فى الغرب، كانت الكارثة العسكرية والسياسية أمام العتبة! ولكن هل كانت حتمية فعلاً؟ مَنْ يعرف، فربما كان للأمور لولا تدخل المصادفات التعسة، أن تتخذ منحى آخر، أكثر نفعاً لوجود الإمبراطورية بحد ذاته، وكذلك لوحدة وثقافة أوروبا. يُصنّفُ فى عداد هذه الأحداث الضارية اغتصاب يوجينيوس للسلطة وما رافقها من نتائج مباشرة. وكذلك المؤامرات الصغيرة، التى شلّت فى غير مرة سياسات بلاطىْ الإمبراطورية، المقسمة على نحو دائم بعد موت ثيودسيوس.

هكذا كان النجاح العسكرى الهام الأول ليوجينيوس وقائد جيوشه. والثانى ـ هو السيطرة على إيطاليا وروما فى ربيع عام ٣٩٣؛ الشيء الذى تمّ بدون معارك. فحتى الأسقف أمبروزى لم يكن الآن يبخل على المغتصب بلقب القيصر ـ الحقيقة أنه غادر ميلانو بمجرد أن علم باحتمال قدوم الحاكم، الذى لم يعترف به ثيودوسيوس، إلى المدينة. لكن السيّد الجديد استُقْبِلَ بحفاوة بالغة من قبل الأرستقراطيين فى روما، معارفه وداعميه السابقين. وبهدف مكافأة (أو

شـراء) هذا الاسـتـعـداد للتعـاون مـعـه، وافق على المطالب، التى تقـدمـوا بهـا من قـبل: أعـاد المـتلكات المصـادرة إلى المعـابد. لكنه أراد في الآن ذاته تلافى صـراع مـفـتـوح مع الكنيـسـة، ولذلك لجأ إلى الوسائل غير المباشرة أو الملتوية بالأحرى، فى تنفيذ الالتزام. فقد حصل أعضاء مجلس الشيوخ على تلك الممتلكات ـ لا ريب فى أن هؤلاء هم الذين حـملوا ألقاب كـهنة الديانات القديمة ـ ولكن شريطة أن تخـصـص ايراداتها لتغطيـة نفقات العبادة، والتـضحيات، وترميم المباني.

أضحى فيريوس نيكوماخوس فلافيان السـند الحقيقى لسياسة يوجينيوس في إيطاليا، وحليفه الأكثر حماساً؛ وفى الآن ذاته، المدافع المليء بالتضحية فى سبيل قضية الآلهة. ويعود الفضل فى توليه منصب والى شبه الجزيرة الايطالية من جديد، للمغتصب يوجينيوس.

فرصة قضية الآلهة:

«بدا الأمر وكأن أيام يوليـان الجاحـد تعود ثانيـة. احـتـفلت عندئذ شتى العبـادات والطقوس الشرقيـة والرومانيـة فى العاصـمة يبعثها الجديد وإحيـائها؛ تلك، التى كـانت قد اختـفت بعد نصف قرن أو أكثر. فَهُدِّمَتْ المبانى المشيـدة من الحجارة المأخوذة من المعابد القديمة. وأُعيدت المتلكات المصادرة للمعابد. ونجح الوالى فى إقناع المسـيحيين الطموحين بالعودة إلى دياناتهم السـابقة. الحقيـقة أنه لم يلجأ لوسائل الإكراه فى هذا المجال، لكنَّ السلطة أعلنت أنها ستحرم المسيحيين بلا رحـمة من حـماية القانون، وسوف تضم سلك الإكليروس إلى صفوف الجيش بعـد هزيمة ثيـودوسـيـوس مـبـاشـرة. ولم تراود مـحـاربى يوجـينيـوس الشكوك إطلاقـاً فى أن ثيودوسيوس سيتعرض للهزيمة؛ بمثل هذه الثقة تمَّ النظر إلى التكهنات، التى أشاعها فلافيان، ألمع ممثلى فن العرافة القديم.

لا شك أن المراقب الملتزم بالحقائق بدقة سيعتبر السؤال التالى غير ضرورى، وفى غير محلّه: ما هو المنحى الذى كان سيتخذه التاريخ الدينى والفكرى لحضارتنا، فيما لو تحققت نبوءة فلافيان؟ لكن لمخيلتنا الحق فى معالجة هذا الموضوع. إذ يوجد عدد كبير من الحجج، التى يمكن أن نواجه بها الرأى السائد، والقائل بأن فرص نجاح عودة الديانات السابقة آنذاك كانت ضئيلة. ولا يجب أن ننسى بأن المسيحية بعد مرور قرنين ونصف، استسلمت لسيطرة الإسلام

بصورة تكاد أن تكون بدون مقاومة إطلاقاً، وذلك فى البلدان، التى كانت جذورها فيها (أى المسيحية) هى الأعمق والأقوى؛ خضعت بعد مرحلة من النزاعات العقائدية الحادة مباشرة أو أثناءها بالأحرى. بالرغم من أن هذه البلدان لم تفتقر فى القرن السابع إلى رجال من أمثال القديس أمبروزى من حيث الموقف الأخلاقى والحماس؛ مثلما لا يفتقر إليهم أى مكان وأى زمان. يضاف إلى ذلك القوة الدعائية الكامنة فى تكريس الذات اللا نفعى ـ الصادق أو الظاهرى ـ لمثلٍ أعلى، التى أثرت كل ذلك التأثير على انتشار المسيحية، والتى كان لابدَّ لها من أن تزاح تدريجياً لصالح ديانات أخرى، مع انتقال العناصر ذوى القيمة الأخلاقية الأدنى، ولأسباب مصلحية إلى معسكر المنتصرين. فذكرى يوليان الإلهى ـ التى مجدُها الشاعر الإسبانى الورع برودينسيوس نفسه حوالى عام ٤٠٠ م ـ أثرت أيضاً دعائياً لصالح قناعات الإمبراطور العظيم الدينية. كما أن أكثر أعضاء مجلس الشيوخ هيبة واحتراماً، حرسوا بمودة إرث الماضى الأفضل؛ والفضل فى إنقاذ أعمال الكلاسيكيين اللاتين، يعود إلى حماسهم وحماس أحفادهم الأدبى».

راودت هذه الخواطر ذهن واحد من أكثر المؤلفين معرفة بالحقبة الإمبراطورية المتأخرة، ومؤلف عمل تاريخى لا يزال أساسياً فى دراسة تلك المرحلة، وهو أرنست شتاين (ولد فى منطقة كراكوف فى بولونيا، درس فى فيينا، ومارس نشاطه العلمى فى برلين وبروكسل، وتوفى فى فريبورغ السويسرية)؛ راودته هذه الخواطر، عندما تطرق لموضوع يوجينيوس وبعث الديانات السابقة فى روما. قد تسمح لنا هذه الكلمات، التى تفوه بها رجل يُعَدُّ مرجعاً فى مجال اختصاصه، بفهم أفضل لعظمة القيمة التاريخية، التى تميزت بها المعركة الأخيرة، التى خاضها بذلك القدر من اليأس، المدافعون عن الآلهة القديمة فى أعوام الدورة الأولمبية الأخيرة تحديداً؛ معركة خطيرة وزاخرة بالأحداث، بالرغم من أنها تكاد أن تنسى كلياً، وهى مهملة ولا تعار الأهمية، التى تستحقها ـ حتى من قبل العديد من المؤرخين.

تشد شخصية يوليان الجاحد منذ قرون الباحثين والكتّاب، والمسرحيين والروائيين والفلاسفة؛ وكما كان الأمر قبل قرون، خلال حياته، لا يزال يثير الخلافات والجدال، ويصبح بمثابة المحرك الرمزى لبعض التيارات والآراء. فكم من الأعمال المختلفة الأنماط كُرِّسَ بكافة

اللغات الأوروبية لهذا الحاكم وسياسته. وكم من الأحقاد تثير حتى اليوم كل إيماءة، وكل محاوله هادفة للإشارة إلى القيم، التى خدمها؛ والأهداف، التى حققها؛ والسبل، التى سلكها لبناء صرحه! وكما نعلم، حكم يوليان فترة قصيرة جداً، أما تجسيد مُثُله فى الواقع علناً، فقد استمر لفترة أقصر، إذ لم تتجاوز السنة ونصف السنة، منذ أواخر خريف عام ٣٦١ وحتى يونيو عام ٣٦٣. كادت الفترة الزمنية، التى منحتها الآلهة لآخر أتباعها اللامعين والمؤثرين سياسياً أن تكون مماثلة تماماً: يوجينيوس، وأربوغاست، ونيكوماخوس، بدءاً من سيطرتهم على إيطاليا فى مطلع ربيع عام ٣٩٣. ولكن ليست فترة حكمهم القصيرة هى السبب فى أن النسيان طواهم ومعهم العمل، الذى حاولوا إنجازه؛ فسلطة يوليان لم تكن سوى نيزك! يكمن السبب فى شىء آخر: التوثيق فى كلتا الحالتين ومن كافة الجوانب مختلف تماماً. فقد بقيت محفوظة عدة مجلدات من كتابات يوليان نفسه، كما حُفظت مجلدات المؤرخ أميان مرسيلنوس، وخطابات ليبانيوس المشبعة بالمديح والإطراء، وكراريس غريغورى النزينزى ـ لتقتصر على تعداد أهم مجموعات المراجع، التى تتحدث بشكل موسع ومتألق عن تلك المحاولة الأولى لبعث الديانات السابقة. أما عن أستاذ الأدب، الذى ارتدى الأرجوان الإمبراطورى؛ وعن الأرستقراطى، الذى دافع عن آلهة آبائه؛ وعن القائد ـ الوزير الفرنكونى، الوفى لروما وآلهتها، الذى هوى كالصاعقة على بنى جلدته بشجاعة تفوق شجاعة الرومان المعاصرين ـ فلا نعرف عنهم وعن أعمالهم سوى مِزَقٍ من روايات عرضية وجزئية.

يمكن لمخيلة الروائى أو لسرعة بديهة ودقة ملاحظة كاتب المقالات، أن تتمم بشكل رائع ضآلة وجزئية المعطيات فى المصادر؛ وعلى أى حال، كانت ستدفع للتأمل. أما المؤرخ، فيجب أن يقتصر على ما هو معلوم ومحدد. لكنه سيعترف أيضاً: أن فقر وضآلة المعلومات لا تنتقص بأى شكل، ولا يمكنها أن تنتقص من أهمية الحقيقة، التى لا يرقى لها الشك، ألا وهى، أن المحاربين من أجل قضية تعددية الآلهة فى أعوام الدورة الأولمبية الأخيرة، كانوا فعلاً على وشك الانتصار، وعلى أقل تقدير، الانتصار العسكرى فى ساحة المعركة. لا أظننا فيما لو تحقق هذا الانتصار، نجد صعوبة فى تصور نتائجه اللاحقة فى مجال السياسة الدينية والثقافية.

نهر فريجيدوس:

تأجل خوض المعركة إلى أواخر الصيف، إلى مطلع سبتمبر من العام التالى ٣٩٤. كانت

تسمية هذه السنة أيضاً مختلفة ما بين شطرى الإمبراطورية. لأن أشخاصاً مختلفين تولوا مناصب القناصل فى كل من الشطرين. فحيث حكم يوجينيوس اتخذ التأريخ الصيغة التالية: «عام تولى نيكوماخوس فلافيان منصب القنصل»؛ كان قنصلاً وحيداً ـ ولنضف أن ابنه تولى فى الوقت ذاته منصب والى مدينة روما. أما فى البلدان الخاضعة لسيطرة ثيودوسيوس، فنجد تأريخاً مختلفاً: «عام تولى أركاديوس للمرة الثالثة وهونوريوس للمرة الثانية منصبا القنصلين».

لم يُقْدِمْ يوجينيوس وأربوغاست على الهجوم، فقد بسطا نفوذيهما على غالة، واسبانيا، وبريطانيا، وإيطاليا، واكتفيا بذلك، ولم يرغبا بشيء أكثر. كانا على استعداد للدفاع عنها بشتى الوسائل، لكنهما لم يرغبا فى التقدم أكثر نحو الشرق، وخاصة فى اقتحام البلقان. فقد أدركا جيداً، بأن الموقع جبلي وعر، تشقه الأنهر والوديان العميقة، حيث يمكن للعدو أن يجرهما إلي المصيدة أو أن يفرض عليهما المعركة فى المكان الملائم له. وكانت الكوارث، التى تعرض لها اثنان غيرهما من المغامرين فى البلقان بمثابة أمثلة مخيفة: مغنيتسيوس قبل ما يقارب الأربعينى عاماً؛ وقبل ستة أعوام فقط ـ مكسيموس.. وكان كل منهما، شأنه شأن يوجينيوس الآن مغتصباً للعرش، ونودى بكل منهما قيصراً فى غالة، وتجندت جيوشهما بشكل أساسى من سكان تلك البلاد. ولذلك فإن سيِّد الغرب الحالى وقائد جيوشه لم يفكرا إطلاقاً بتكرار الخطأ المهلك، الذى راح ضحيته مَنْ سبقهما. وتركا مبادرة التحركات العسكرية لثيودوسيوس.

لم يجد الحاكم الشرعي أمامه خياراً آخر سوى الانتقال للهجوم وحسم المعركة لصالح المسيحية في نفس الشهر (سبتمبر) في وادى نهر فريجيدوس، فكان ذلك نهاية حقبة تاريخية عظيمة من التعددية الدينية لصالح الدين الواحد والأوحد.

الرهبنة والديرية فى مصر

* نشأة الزهد والطوائف المتعددة التى مارسته قبل المسيحية
* العقائد المصرية القديمة والمبادىء والأمثال التى انبثقت من حكمائهم
* جماعة الفلسفة الأفلاطونية الحديثة

معناها:

الرهبنه فى المسيحية معناها الزهد والتنسك أو الانعزال والانفراد بقصد التبتل والعبادة مع اختيار التقشف طوعا ولكن الرهبنة فى الديانة الاوزيرية السابقة للديانات المساوية كانت تعنى الخروج إلى المستنقعات خاصة فى شمال الدلتا والصحارى لإعمارها وبناء الاديرة الاوزيرية والقرى من أجل زراعة هذه المناطق واستصلاحها للقضاء على مراتع الاله ست واعوانه من الشياطين والبدو. ويرجع إلى هذه الفكرة (فى المعتقد الاوزيرى) الفضل فى تعمير صحارى مصر وواحاتها وتجفيف المستنقعات المحيطة بالنيل وزراعتها.

أما الديرية فهى نسبة إلى الدير وهو البيت أو الموضع الذى يخصص لسكنى الرهبان أو الراهبات والالتجاء اليه للتعبد.

نشأة الزهد:

النسك نزعة فلسفية قامت بين عدة طوائف وجماعات مختلفة بين شعوب وممالك الشرق منذ قرون قبل ظهور المسيحية ومنها ما ظل قائما حتى القرون الأولى المسيحية. وكانت أنشطتها التقليدية فى النسك على حسب المبادىء التى كانت تعتنقها. أما عن أهم تلك الطوائف والجماعات المختلفة والمبادىء والنظم التى سارت على نهجها فهى:-

أولا: طائفة البراهمة:

المشهورة فى بلاد الهند وهم يدينون بمذهب كنفوشيوس وبوذا. وتاريخهم فى الزهد والحياة الانفرادية ووالتقشف الصارم واذلال الجسد وكبح نزواته وميوله بطرق غاية فى الخشونة والقسوة مضرب الامثال وكانوا يؤلفون من أفرادهم جماعات عديدة بعضها يعيشون فى الكهوف أو بين الادغال والغابات كما التجأ البعض الى الهياكل ومناسك المعابد أو قرب شواطىء الانهار المقدسة حيث كانوا يمارسون نوعا من ضروب الرياضة البدنية القاسية لتعذيبه بشتى الوسائل الوحشية مع الصوم والحرمان.

ونظرا لأن الطائفة المذكورة كانت تعتقد بأن السعادة والخلاص فى الآخرة يقوم على الطهارة والأمانة الذاتية وأن جسد الانسان هو سبب كل الشرور والمعرقل للوصول الى الغاية المنشودة والفضيلة فدفعهم هذا الى تكبيل ذلك الخصم اللدود بقيود وأغلال غاية فى القسوة والصرامة فمنهم من كانوا يعذبون أجسادهم بالكى والمناخس الحديدية. ويقتحمون النيران المتقده فى صمت وجلد بالغ ويمشون وينامون فوق لوحات رشقت سطوحها بمسامير مدببة ومنهم من يكف عن الكلام أياما عديدة أو من يصعد إلى قمم الجبال العالية ويقطع القفار والصحارى النائية ولا يتذر الا بخرق بالية لاتكاد تستره أو تحمى من القر والحر. وقد تمكن جماعاتهم من نشر دينهم حسب مبادئهم وأنظمتهم فى أنحاء الهند والصين واليابان وفى الجزر الواقعة فى البحار التى حولها. وكما أنهم اعتقدوا أن العالم لا يستقر أو لا يهداء له حال الا باعتناق مبادئهم. فكونوا منهم جماعات على هيئات تبشيرية وسافرت للدعاية لهم فى بلاد أوروبا والامريكتين.

ومما يذكر أنه حوالى عام ٢٥٩ ق.م. عزم «اوسوكا» امبراطور الهند على نشر تعاليم بوذا فى أقطار البحر المتوسط كما أرسل بعثات لهذا الغرض الى مصر فى عصر «بطليموس فيلادلفوس» ولكن يظهر أن تلك النظم البوذية لم تصادف نجاحا فى مصر.

وقد كان هناك فئة من المتوحدين المصريين تسمى "Egyptian Gymonosphists". وكان منهم «أبولونيوس تيانا "Apollonius of Tyana". وكانوا يزاولون حياة نسكية خاصة. وذكرت بعض الروايات على أن هذا النوع من الحياة يرجع الى أصل هندى. كما أنه كانت هناك فئة من أولئك النساك وتعيش منعزلة حتى أوائل القرن الأول للميلاد وأنها من أحفاد فئة بوذيه. على أن حلقة الاتصال بين مصر والهند كانت قائمة على المبادلة التجارية بين الهند والاسكندرية وظلت تلك العلاقة حتى بدء القرن الثالث ثم أخذت فى الافول. ومن الجائز أن تكون هناك فئة من الهنود أو من سلالتهم ظلت باقية فى المدينة العالمية الاسكندرية. وعلى أغلب الاحتمال كانت تمارس تقليدها وأنظمتها فى النسك بطرقها الخاصة مما دعا البعض الى الظن أن رهبان مصر قد تأثروا بها الا ان هذا الزعم لا صحه له لا من قريب أو من بعيد للاختلاف بين الجنسين وصعوبة اللغة والجهل التام فى الديانات والعادات والتقاليد الهندية. ولذلك لا يمكن أن تكون هناك صلة بين أصول الزهد الهندية والرهبنة المصرية.

ثانيا: الجماعات الدينية:

منها طائفة الاسينيين(١) Essenes وقد نشأت منذ القرن الثانى قبل الميلاد وعاشت بعيدا عن مدينة أورشليم حيث أنفردت بمساكنها حول شواطىء البحر الميت. وكان أفرادها يحرمون الزواج على أنفسهم ويعيشون حياة مشاعية بسيطة ويكدون للحصول على القوت ويتصدقون بما لديهم على أبناء الفقراء ويقدمون الاحسان بسخاء للمعوزين من الناس. وكان من عاداتهم أن يشترطوا على طالب من يريد الانضمام الى صفوفهم أن يقضى مدة لا تقل عن ثلاثة أعوام تحت الاختبار فأذا تبين منه فى خلالها ما يبرهن على استعداده للانخراط فى الحياة الجديدة، وافق رئيس تلك الجماعة على قبوله فى حظيرتها بعد أن يتعهد بخدمة الله بكل أمانة ونشاط ولا يظهر أسرار الطائفة ولو عرض نفسه للموت.

وكذلك جماعة النساك الاخرى الذى قال عنهم الفيلسوف اليهودى «فيلو Felo» المعروفين باسم «السرابيوتاى Therapeutai» الذين كانوا يعيشون حول بحيرة مريوط وقرب برقه ووادى النطرون. وهذه الفئة كانت تعتمد فكرتهم على أساس أنظمة تقشفية قوامها تنقية الروح من الشوائب والنزوات وعولت على العيش خارج المدن بعيدا عن مباهج الحياة وفى منازل أو أكواخ غاية فى البساطة ومظاهر الابهة أو التنعم ومنعزلة.

وقد قال عنهم «فيلو» أنهم يبدأون بالصلاة عند الفجر ثم يمضون يومهم بالتأمل فى التوراه ثم يختمونه بالصلاة عند المساء. وقد عرف عنهم مداومة الصيام ويجتمعون أيام السبوت للعبادة معا داخل معبد عام يقع وسط منازلهم أو أكواخهم، كما أعتادوا الاحتفال بيوم الفصح فيجلسون على الارض الجرداء أذلالا للجسد مع تناول طعامهم من الخبز والملح. ثم يقوم بعض من أفرادهم بترنيمات وتختتم ببعض الرقصات الدينية. ومما لوحظ بين تلك الفئة من النساك أشتراك بعض من العذارى العجائز معهم أثناء تأدية طقوسهم الدينية. وكان

(١) كان الاسينيون ينقسمون الى اربع درجات وكان التميز بينها عسير لدرجة ان أصحاب الطبقة العليا منهم تساوت فى صفوفها مع أصحاب الطبقة السفلى منهم وبالرغم ان اغلبهم كانوا عزابا الا أن البعض منهم رأى ضرورة الزواج لحفظ النوع وكان منهم متزوجين وكانوا شغوفين بالانغماس فى اللذات وشديدى الاحترام للقانون الموسوى ومارسوا الفنون السحرية وعبادة الشمس وأنكروا قيامة الجسد مما يدل على مسافة الخلف بينهم وبين عقائد الرهبان المسيحيين. ويغلب أن تلك الفئة قد تلاشت بعد خراب أورشليم عام ٧٠ للميلاد.

يطلق عليهن اسم «رابيوترادس» وقد تأثرت تلك الجماعة بالفلسفة اليونانية والمصرية وقالوا بفساد المادة التى تغلبوا عليها بالزهد واذلال الجسد وحياة الطهر والكمال.

ثالثا: طائفة المنقطعين:

وهذه الجماعة تعرف باسم «كتويكاى Katoikoi» وهى تشكل لونا خاصا وتضاف الى الصور المصرية القديمة لمظاهر النسك وكانت أفرادها تشمل طائفة من الفقراء عرفت أيضا باسم المتصوفين أو المعتذلين وكرست حياتها لخدمة الاله «سرابيس» منذ العصر البطلمى. وكانوا يعيشون داخل المعابد وعملوا كوسطاء بين الاله سرابيس وعامة الشعب الذين كانوا يفدون طلبا للشفاء من بعض الامراض أو بقصد تفسير الأحلام ويشتركون فى تشييع جنازة العجل أبيس. وكان أهل القرى يقدمون لهم من الزاد ما يسدون به أودهم. كذلك جماعة كهنة هليبوليس كانت تعيش على الكفاف وكان أفرادها حاولوا أن يسموا بعواطفهم الى أرقى مراتب النسك والتدين.

رابعا: ديانة مصر القديمة:

كانت العقائد الدينية بمصر القديمة ذات سيطرة على عقول المصريين وتغلغلت فى أعماق نفوسهم وكان لها تأثير كبير فى جميع أدوار حياتهم والعامل الاول فى أنهم تبواؤا مركز الصدارة فى الحضارة بين أمم العالم القديم وفى النبوغ الادبى والفنى. فعقيدة الحياة بعد الموت أهم تلك العقائد وأقدمها على الاطلاق. اذ فطن المصريون منذ فجر التاريخ الى أن حياة الانسان ليست من العبث بحيث تزول فى هذه الدنيا الفانية. وقد اهتدوا بطبيعة الحال الى التفكير فى الاخرة والى اعتبارها دار الخلود. ولذلك بنوا لدنياهم بيوتا من اللبن والخشب بينما اتخذوا للاخرة قبورا أشد صلابة لتتحمل تقلبات الزمن وقسوة الطبيعة. فنحتوها فى الصخر وشيدوا الاهرامات المقامة بالاحجار الضخمة. وكذلك حفظوا الاجساد بعد الموت للاحتفاظ بها من التحلل والفناء. وصنعوا لها التماثيل العديدة لارشاد الارواح الى أصحابها عند زيارتها للقبور كما كانوا يعتقدون. ولعل من دواعى الانصاف للتاريخ ولهم أن ننوه هنا أن تفكيرهم فى الاخرة لم يكن ماديا خالصا على النحو الذى يبدو لاول وهلة. ونحن على غالب الاحتمال نرى أن تفكيرهم هذا كان روحيا.

ومهما يكن من شيء فيبدوا ان نظرة المصريين الى الحياة الاخرى أصبحت روحية خالصة بلاشك وذلك قبل مضى وقت طويل من بدء ظهورها اذ لدينا فى متون الاهرام وهى أقدم وأغنى الوثائق الهامة لتاريخ العقائد المصرية منذ حوالى ٢٥٠٠ عام ق.م. وكذلك فى كتاب الموتى فيما بعد نصوص صريحة تبين بوضوح تام على أنهم أصبحوا يؤمنون بأن مصير الانسان فى الاخرة يترتب على سلوكه فى هذه الدنيا. وأن كل شخص مسئول عن تصرفاته أن خيرا وأن شرا. وأن هناك حسابا يتلوه ثواب أو عقاب، وأليك نص من كتاب الموتى يقول فيه صاحبه«.... لقد كنت قائما بواجباتى نحو أبى وأمى محبا لاخوتى وأخواتى ولم أصنع شرا بأحد خوفا من دينونة أوزريس».

واليك أيضا فقرة من وصية تركها أحد ملوك الاسرة التاسعة لابنه يقول فيها: «أن من عاش عيشة التقوى والفضيلة كان نصيبه الخلود فى الحياة الأخرى. وأن من جاوزت حسناته سيئاته أمام أوزريس طابت له الحياة الاخرى. أما من لم يضبط نفسه فى الحياة الدنيا فأن مصيره الى الهلاك.

وفى طقوس أوزريس وأيزيس الدينية كان الكهنة يخصصون لالهتهم فترات مختلفة للصوم والعبادة مع الامتناع عن أكل اللحوم والسمك وشرب الخمر. وكذلك فى أمثال حكماء المصريين مثل «كاجمنى» الذى كان وزيرا للملك «حونى» من ملوك الاسرة الثالثة. ثم الحكيم «بتاح حتب» الذى كان وزيرا للملك «أسيسى» من ملوك الأسرة الخامسة ما شابه أمثال «سليمان الحكيم». وقد دون بتاح حتب هذا مواعظة وحكمة بعد أن بلغ من العمر مائة وعشر سنوات أى بعد ماعركته الايام واقتبس أكثرها من السلف وقدمها نصائح للخلف ومن هذه الحكم.

(١) من كاجمنى

- أسلك طرق الاستقامة لئلا ينزل عليك غضب الله.
- احذر أن تكون عنيدا فى خصامك فتستوجب عقاب الله.
- اذا كان المرء خبيرا بأحوال دنياه سهل عليه أن يكون قدوة طيبة لذريته.

(ب) من بتاح حتب

ـ يعز الله من يشاء ويذل من يشاء وبيده مقاليد الامور ومن العبث ان يتعرض الانسان لارادته.

ـ ما أعظم الانسان الذى يهتدى الى الحق والى الصراط المستقيم.

ـ أن تدبير شئون الخلق بيد الله الذى يحب خلقه.

ـ أن حدود العدالة لثابته وغير قابله للتغيير.

ـ اذا شئت أن تعيش من مال الظلم أو تغتنى منه نزع الله نعمته منك وأفقرك.

ـ لاتكن يابسا فتكسر ولالينا فتعصر.

ـ اذا شئت أن تطاع فسل ما يستطاع.

ـ لا تغتر بعملك ولا تشمخ بأنك عالم فأن العلم بحر لا يصل الى آخره أى متبحر. وخذ المشورة أو النصيحة من الجاهل كما تتلقاها من العالم أو العاقل.

ليكن أمرك ونهيك لحسن الادارة لا لأظهار الأمارة وحب الرياسة.

وحكيم آخر كان يتقلد مركز الوزارة أيضا في زمن الدولة الحديثة فى عصر الملك توت عنخ آمون وهو الفيلسوف «آنى» وقد جاء من ضمن تعاليمه وحكمه:

ـ ليست السعادة فى الثرورة واقتناء الاموال وأنما هى فى استنارة العقول بالفضيلة والتعلق بالقناعة والرضى والكفاف.

ـ لا تكن ثرثارا وكن قليلا فى كلامك حذرا فى أحاديثك وفى زياراتك.

ومن أرق نصائح ذلك الحكيم السامية العبارات الجلية التى تركها للام حين قال «ضاعف الخبز لامك واحملها كما حملتك على كتفها بعد أن ولدتك لأشهر وبقى ثديها فى فمك ثلاث سنوات. أنها لم تتأذ قط من فضلاتك ولم تتساءل قط لماذا تشغل نفسها بهذه الفضلات. وقد ساقتك الى المدرسة ثم لما تعلّمت الكتابة وقفت بجانبك كل يوم تقدم لك من عندها خبزا وجعة. فأذا كبرت وتزوجت وصار لك بيت تقوم عليه فتذكر دائما أن أمك هى

التى ولدتك. وليكن من حظك الا تجد أمك هذه ما يحملها على لومك ولا على أن ترفع يديها الى الله شاكية.

وما من شك أن هذه الحكم والنصائح آيات بينات ودليل رائع على ما تحمل من سمو الفضائل وأنبل العواطف والمشاعر الفياضة. وليكن معلوما أنه كان هناك حكماء عديدون آخرون بين قدماء المصريين ظهروا فى عصور مختلفة ولهم من التعاليم والحكم والامثال الشىء الكثير أيضا.

ومن دواعى الفخر والاعجاب أن قدماء المصريين هم أول شعب فى الوجود نادى بفكرية الخلود كما صدق قول زعيم المؤرخين القدماء اليونان «هيرودت» عنهم فى بعض عباراته «أنهم كانوا يعرفون الله ويقدسونه وأشد الشعوب مخافة منه».

ومما هو جدير بالذكر أن نشير الى بعض الحقائق الاصلية فى الديانة المسيحية وما كان يوازيها فيما وصل اليه العقل المصرى القديم فى نضاله الطويل للوصول الى قواعد الديانة المصرية فى أدوارها المتأخرة. ففكرة البعث وخلود الروح والثواب والعقاب فى العالم الاخر كانت من أسس الديانتين. كما أن كثيرا من الاراء التى أنطوت عليها الديانة الجديدة لم تكن غريبة على عقول المصريين. فالثالوث المقدس فى المسيحية يقابل الثالوث المصرى القديم من أوزريس وأيزيس وحوريس.

كما كان هناك ثواليث أخرى محلية كثيرة. وفكرة ولادة الاله من عذراء بكر يقابلها كذلك فكرة ولادة الاله آبيس من عجلة بكر تحل فيها روح الاله «بتاح» والعماد بالماء المقدس معروف فى الديانتين. والصليب الذى هو رمز الحياة الروحية فى المسيحية كان رمز الخلود عند المصريين القدماء. اذ نلاحظ آلهتهم على الدوام وفى يدهم ذلك الصليب ذو الرأس وهو علامة عنخ عندهم ورمز للحياة أيضا. فليس بعجيب أذا أن يقبل المصريون على المسيحية وكذلك الرهبانية دون جهد كبير.

ومما يتبين لنا من تلك المبادىء المصرية القديمة وما برزت فيها من صور الفلسفات الدينية المختلفة والفضائل والامثال والحكم العديدة التى أتسمت بها والميول النسكية التى أنطوت عليها فأنها دفعت بعض الكتاب والمؤرخين الى التفكير أن الرهبنة المسيحية قد تأثرت بمثل

هذه الاتجاهات النسكية فيها صورة للتقليد. وفسرها معتنقو الرهبنة على أشكالها المختلفة التى ظهرت بها على مختلف العصور ولكن مما لا جدال فيه فان الرهبنة المسيحية قامت على التعاليم والمبادىء والنظم التى نادى بها المسيح والرسل.

خامسا: جماعة الفلسفة الافلاطونية الحديثة:

نشأت هذه الفلسفة في الاسكندرية التي تشتهر بالافلاطونية الحديثة على يد أشهر أتباعها «امونيوس سقاس». وقد أعتنق والده الديانة المسيحية وعاش مع أسرته الفقيرة بالاسكندرية. وقد أنتشرت فلسلفة «سقاس» أنتشارا عظيما حتى وصلت الى جميع العقول كما ذاعت بسرعة وسط العامة الذين أمكنهم فهمها وكذلك بين كبار المثقفين. فاهتم بدراستها كما أعجب بها فلاسفة عظماء مثل القديس «أوغسطينوس» وكان لها تأثيرها العميق على كثير من قاده المسيحية. وليس فى الامكانى أن نحدد مقدار التأثيرات المسيحية التى أشتملت عليها فلسفة «أمونيوس» هذا. ولكن يمكن القول أن الفلسفة أخذت على يديه اتجاها يختلف عن سابقيه. لان الافلاطونية الحديثة لم تكن مجرد فلسفة وأنما كانت أيضا نظاما دينيا. أو كما يقول البعض أنها «حولت الهالينية الى لاهوت».

وقد توفى أمونيوس سقاس حوالى عام ٢٤٣م دون أن يترك لنا كتبا وأنما أمكن الوقوف على مبادئه وفلسفته من كتابات تلميذه «أفلوطين» «الذى ولد فى مدينة أسيوط عام ٢٠٤ للميلاد. ودرس الفلسفة في مدينة الاسكندرية لمدة أحدى عشرى سنة على يد «أمونيوس سقاس» وأهم مبادىء هذه الفلسفة الافلاطونية الحديثة: ــ

أ ــ الدعوة الى التحرير من عبودية الجسد بالحياة النسكية التقشفية.

ب ــ مراعاة الجانب التأملى فى الحياة ونادى بعض أتباعه بأنه أذا تطهرت الروح من النزعات المادية وسمت عن الدنياويات أمكنها أن تصل الى درجة من الروحانية النورانية والتأمل فى الله.

جـ ــ ولن تتحرر الروح عن الملذات المادية والنزوات الدنيوية الا عن طريق التقشف وأذلال الجسد والاعتزال عن العالم ومباهجه والزهد فيه.

الاديرة المصرية والرهبنة

أولاً: أديرة الوجه البحرى

الرهبنة المصرية

* أوائل النساك.
* الرهبنة الأنطونية وأثرها.
* مناطق جماعات الرهبان.

أولا «أهم أديرة الوجه البحرى»

يرجع تاريخ ظهور الرهبنة على ضفاف وادى النيل منذ ظهور الديانة الجديدة بين المصريين وانتشار المسيحية فى مصر وانتظام كنيستها على أسس ثابتة الدعائم. بدافع من الروحانية والزهد بما توحي بهما الديانة المسيحية. ومع ظهورها بدأت مظاهر النسك تنتشر تدريجيا فكان أول ما وصل الى علمنا عن أوائل النساك كان «فرونتونيوس» ١٣٨ ـ ١٦١م. ذكر الآب شينو "Chenau" فى كتابه عن «قديسى مصر» صفحة ٤٧٤ أن القديس المذكور وهو أحد رهبان صحراء (نيتيريا كان ممن اعتنق الرهبنة فى مصر السفلى قبل انتشارها. وأول من فكر فى معيشة العزلة بهذه الصحراء ليجرب هذا النوع الغريب من المعيشة. كما ذكر «كورزن Curzon فى كتابه «زيارات أديرة الشرق» صفحة ٧٦ أن هذه الفكرة تحققت فى أواسط القرن الثانى للميلاد. وأن القديس المذكور اعتزل الحياة فى هذا الوقت بوادى النطرون ومعه سبعون أخا بقصد النسك.

وينوه العالم الانجليزى «ولس بدج Wallis Budge» على أن تلك الحملة الرهبانية المنظمة ما هى الا واحدة من حملات متعددة كانت تحدث تباعا دون أن تسجلها المخطوطات المعاصرة. ويرجيع ذلك الى غالب الاحتمال لحدوثها فى الخفاء بغير اعلان أو ضوضاء. لأن الديانة الجديدة وأساسها يقوم على أنكار الذات وعدم التباهى بأمثال هذه الأشكال من العبادة والتنسك. وكانت تخص الزاهدين والرهبان أو المعتدلين على الاحتفاظ بأعمالهم سرا خفيا لا يعلمه الا الخالق. وأصدق دليل على هذا الزعم ذلك المثل الثانى الذى يظهر فى قصة حياة «الأنبا بولا» الذى هرب من الوادى فى الصعيد الأوسط وتوغل فى الصحراء الشرقية حتى

اهتدى الى احدى كهوف الجبال المطلة على البحر الأحمر وهو فى سن مبكرة. ومكث بها حتى بلغ من الكبر عتيا. حتى يقال أنه توفى فى العام الثانى عشر بعد المائة من حياته.

ولولا أن اهتدى الى مكانه فى أعماق الصحراء «القديس أنطونيوس» مصادفة وقيل بألهام من الله بتسخير «قنطورا» أشار اليه عن مكانه لظل أمره مجهولا. وعلى ذلك يمكن الجزم بأن الأمثلة المجهولة من هؤلاء النساك والمعتذلين المعاصرين أكثر كثيرا مما هو معروف.

أما عن القديس بولا فيعتبر من زعماء النساك ومن أعظم أقطاب الرهبنة المسيحية. فلابد من الالمام بفكرة وجيزة عن تاريخ حياته بقصد اماطة اللثام على هؤلاء المعتذلين من كبار المتوحدين وطرقهم فى الزهد. ولد «بولا» حوالى عام ١٥٠ للميلاد من أبوين موسرين وأصبح يتيما فى السادسة عشر من عمره. فتولى الوصاية عليه زوج أخته. وقيل عنه أنه كان يتحين الفرص للايقاع به. وقد تثقف بثقافة عصره المزدوجة وهى الثقافة الأغريقية والمصرية على السواء. ودرس أصول الدين المسيحى الذى تعلق به. ولما شعر أن زوج أخته المذكور قد عزم على تسليمه الى أيدى الولاة فى أحدى موجات الاضطهاد التى كثيرا ما كانت تجتاح المسيحيين فى العصر الرومانى، قرر بولا أن يهجر العالم بما فيه ويرحل الى الصحراء لعبادة الله ومباشرة حياة التقشف والرهبنة. وقد وصل فى تجواله الى المكان الذى أقام فيه الدير وحمل اسمه فيما بعد حتى اليوم.

وقد جاء فى كتاب «البستان» للرحالة الكبير «بلاديوس» وصف طريف للكهف الذى كان يقيم فيه بولا. ونظامه المعاشى وأسلوبه فى العبادة وشخصيته وكيف قضى نحبه فى سلام. فالكهف الذى اهتدى اليه كان واسعا من الداخل ذا فوهة صغيرة يغلقها بحجر كبير. ويمتاز بنظافته الفائقة وأنبساط أرضه ونعومة التراب المنثور عليه. وبجوار الكهف بعض النخيل الذى كان يقتات بثمره. ويرتدى برداء من الليف الذى يجمعها منه. وقد وجد بولا فى هذا المكان السلام الشامل والحياة الكامله التى كان ينشدها. وعاش قرابة تسعين عاما فى هذه البقعة الموحشة ولكن هذه الوحشة لم تؤثر على حلاوة شخصيته كما يتبين من رواية لقائه مع «القديس أنطونيوس». وكان يقضى أيامه ولياليه فى التعبد والصلاة والتأمل الهادىء. فلما وافته المنية ورقد الى الأبد فى أثناء الصلاة وأنطونيوس على مقربة منه احتار فى أمر دفن جثته لأن أرض الجبل الذى كان يعيش عليه صخرية. وهنا يروى «بلاديوس» قصة الأسدين اللذين

ظهرا وحفرا الحفرة التى أنزل فيها جسد الأنبا بولا بعد أن استولى انطونيوس على ردائه الليفى وحمله معه.

والشاهد أن أصول الرهبنة فى مصر عميقة الجذور بعيدة الغور وتاريخها أقدم من تاريخ القديس أنطونيوس. ولكن البداية لها لم تكن من نوع الحركات الاجتماعية المنظمة. وأنما أخذت وضعها الثابت المعروف والشهرة العالمية الذائعة الصبت على يد الأنبا أنطونيوس حيث تطورت تطورها التاريخى حتى أطلق عليها المؤرخون ذلك الأسمى الذى أسبغوه عليها وهو «الرهبنة الأنطونية» نسبة اليه. وكان هذا الدور بلا شك هى الخطوة البارزة حقا من مراحل تاريخ الرهبنة المصرية بشكلها المألوف لأن ما سبق ذلك لا يمكن اعتباره الا بمثابة مقدمات ارتجالية مهدت لهذا النظام الجديد.

وان كانت هذه الأدوار الأولى متداخل بعضها فى بعض ويصعب رسم حدودها المضبوطة فى نقط ثابتة معينة كالأنظمة والحركات التى تنمو نموا طبيعيا تبعا للظروف والأحوال. وقوام الرهبنة الأنطونية فى عصرها الأول كان ينطوى على العزلة الفردية التامة واغراق الراهب فى ضروب الزهد والمبالغة فى التقشف والصوم وتعذيب الجسد واذلاله لخلاص الروح. كما كانت حياة القديس أنطونيوس ذاتها مثلا أعلى لهذا النوع من النسك. وقد كتب عنها بالتفصيل القديس «أثنا سيوس الرسولى» بطريرك الأسكندرية وأسقفها الذى تزاور معه وعرف عن حياته كثيرا.

نشأة أنطونيوس

ولد أنطونيوس حوالى القرن الثالث للميلاد فى بلدة «قمن العروس» بمركز الوسطى بأقليم بنى سويف من والدين مسيحيين أثرياء. وكان والده مزارعا ويملك مزرعة خصبة تبلغ مساحتها ٣٠٠ فدان. وعاش الأبن فى بيت والديه حياة الترف وتعلم منهما قواعد الدين المسيحى. وأن كان من المحقق انه لم يأخذ قسطه من التعليم الدنيوى أذ عرف عنه أنه ظل أميا لا يعرف الكتابة أو القراءة حتى أواخر أيامه. ولم يتصل بالثقافة اليونانية بتاتا فظل مصريا صميما فى طبعه وتفكيره. وحوالى عام ٢٧٠ ميلادية بينما كان فى العشرين من عمره توفى والده وترك له ثروة كبيرة وأختا صغيرة يقوم على تربيتها والعناية بشئونها الا أن أنطونيوس

الذى استهوته قواعد العقيدة المسيحية كان كثير التردد على كنائسها وبدأت تظهر عليه أعراض الاستخفاف بالحياة الدنيا حتى أنه فى ذات يوم عندما كان فى الكنيسة سمع الكاهن يعظ الشعب مرددا قول الكتاب المقدس بأن المرء اذا أراد الكمال وجب عليه أن يبيع ما يملك وأن يوزعه على المعوزين ليكسب بذلك ملكوت السموات. فاعتبر أنطونيوس هذا الكلام موجها اليه من الله. وسارع الى اجابة الدعوة ببيع أملاكه الا ما يكفى لسد حاجة أخته ووزع قيمتها على المساكين. ثم قرر بيع البقية الباقية أيضا عندما سمع الكاهن مرة أخرى يردد الآية القائلة لاتهتم بالغد بل اجعل الغد يهتم بنفسه يكفى اليوم شره. ثم عهد بشقيقته الى جماعة من العذارى اللواتى دأبن الاجتماع بحجر الكنيسة للتعبد وتدريب النفس على القداسة ورحل هو الى سفوح الجبال الشرقية المجاورة لحافة الوادى بعد أن عبر النهر حيث بنى لنفسه صومعة انفرد فيها. وكان أحيانا يخرج منها ليبحث عمن سبقوه الى العزلة والتقشف لكى ينقل منهم دروسه الأولى فى الرهبنة وهكذا أخذت هذه الحياة الجديدة كل تفكيره. فشرع يتوغل فى الصحراء تدريجيا للابتعاد ما أمكن عن سكان الوادى وظل يواصل رحلاته حتى استقر به الحال نهائيا فى الجبال الواقعة قرب ساحل البحر الأحمر. وعاش بقية أيام حياته فى كهف على قمة جبل بقرب من الدير الذى يحمل اسمه الى اليوم. ومات حوالى عام ٣٥٥م وكان يبلغ من العمر ١٠٥ من السنين بعد أن طلب من تلاميذه أن لا يحنطوا جسده على طريقة أسلافه من قدماء المصريين وأن يدفنوه فى مغارته.

وعرف عن القديس أنطونيوس أنه لم ينزل فى مدة الخمسة والثمانين عاما التى قضاها فى تلك البقعة الى الوادى على غالب الاحتمال سوى مرتين ولأسباب ضرورية عندما شعر بأن أخواته فى الدين هنالك فى حاجة الى هدايته ومساهمته فى تشجيعه عندما حاقت بهم المحن الكبرى التى حلت بالمسيحية فى أوائل عهدها بمصر. أما المحنة الأولى فهى الاضطهاد المرير الذى أنزله الامبراطور الرومانى مكسيمينوس بمسيحى مصر عام ٣١١م فلم ير القديس بدا من الخروج عن عزلته ليشد أزر المؤمنين ويقويهم فى أمانتهم لما بلغ الاضطهاد أشده. فكان يزور السجون ويتنقل فى المدائن معرضا حياته لأشد الأخطار فى شجاعة ورباطة جأش منقطعى النظير. والمحنة الثانية وقعت عند استفحال هرطقة «آريوس» الأسكندرى فى أثناء حكم الأمبراطور قسطنطين الكبير. فهبط أنطونيوس من الصحراء الشرقية الى المدن المصرية عام ٣٣٨م لكى يساعد القديس أثناسيوس فى كفاحة الدامى ضد الهراطقة من أتباع آريوس

المذكور ولا شك فان شخصيته كانت من أكبر الدعائم في رد المصريين الى حظيرة الايمان المسيحى الحق وكبت هذه الضلالة أو البدعة الجديدة.

أما نظام حياة القديس أنطونيوس[١] في عزلته فكان بسيطا بالرغم من شده تقشفه بتناول القليل من الخبز الجاف الذى أدركه التعطين وبعض الملح ولا يشرب غير الماء. وكان أفطاره مرة واحدة عند الغروب. وأحيانا كان يمضى ثلاثة أيام أو أربعة في صيام كامل عن الطعام والشراب. وروى أنه كان في بعض الأوقات يمد فترة الصيام التام حتى تصل الى أسابيع عدة. وكان يقضي لياليه ساهرا يصلي فاذا نام كان نومه لفترة وجيزة وعلى حصيرة من سعف النخيل. ولم يغتسل طوال حياته الرهبانية أبدا كما أنه لم يدهن جسده بالزيت وكان رداؤه عبارة عن فروة غير مدبوغة يلبسها مقلوبة لكي يقع شعرها على جسده أمعانا في تعذيب نفسه بخشونتها. ولم يكن يتدثر بغطاء أثناء نومه الا بعد أن تقدم في السن وأخذ منه الضعف كل مأخذ فكان يضع فوقه احدى الفراء.

أما شخصيته فقد أطال وشاد في وصفها القديس أثناسيوس. فكان حليما لا يغضب وبلغ من الحكمة وعمق التفكير مع بساطته مبلغا رائعا. وأسلوبه في الكلام كان قويا واضحا ومقنعا بالرغم من أنه كان أميا ولم يتكلم سوى اللغة المصرية ولم يدرس علوم الأغريق وفلسفتهم وكان ذهنه حاضرا وقريحته وقادة كما يظهر من جدله مع من زاره في عزلته. وظل ايمانه بعقيدته ثابتا كالصخر كما بقيت نفسه هادئة تشع السلام على من حواليها. وكان شفيقا بالناس رحيما بهم قادرا على معالجة ما يصادفهم من الأزمات الروحية بدون أن يقسو عليهم أو يبعث اليأس في نفوسهم واسع الادراك محبوبا من الجميع على السواء.

فلا غرو اذا أن تجتذب مثل تلك الشخصية الفذة أعدادا هائلة من الرهبان الذين تتلمذوا عليه. وأصبح هو في نظرهم المثل الأعلى للحياة الكاملة. يقتدون به وينسجون على منواله. حتى أن الصحراء أصبحت تعج بجماعاتهم في جبالها الشرقية. ولكن النظام ظل في أساسه نظاما فردى أى قوامه العزلة والتقشف والصوم لأن تعذيب الجسد والحرمان كان هو الوسيلة

(١) عندما ذاع صيت الأنبا أنطونيوس في النسك وشدة ورعه وتقواه واتصلت أخباره بالأمبراطور قسطنطين فأرسل اليه يدعوه الى زيارة القسطنطينية كي يراه، فاستعظم الرهبان تلك الدعوة وافتخروا بها وألحوا عليه بأن يلبي طلبها ولكنه اكتفى بأن رد عليها برسالة.

الموصلة لنجاة النفس وخلاص الروح. وكان الأخوة من أتباع أنطونيوس يتنافسون فى هذا الميدان الى حدود تفوق الوصف.

غير أن نظام العزلة التامة زاوله هؤلاء الجبابرة من المتوحدين كان مصيره الطبيعى أن يتطور تطورا بطيئا الى نوع من الرهبنة الاجتماعية المخففة لمجابهة الصعاب المادية والروحية التى كانوا يتعرضون لها فى تلك الصحارى والقفار الموحشة. وأخذت بوادر هذا التطور فى الظهور شيئا فشيئا حتى فى أثناء حياة القديس أنطونيوس نفسه. وتعتبر هذه المرحلة هى الخطوة الثانية فى تطور الأنظمة الرهبانية المسيحية وهى المتوسطة بين التعاليم والنظم الأنطوانية الأولى وقوانين الديرية الباخومية.

ولا شك أن هذا التطور كان أمرا أنسانيا طبيعيا فى الظروف القاسية التى كانت تحيط بالمتوحدين الذين عمدوا الى انتزاع أنفسهم انتزاعا كاملا من كل الصلات البشرية. ولم يحسبوا للمخاوف والأخطار التى كانت تتهددهم أى حساب. فمن الناحية المادية وجدوا أنفسهم يعيشون فى صحارى وقفار جرداء تندر فيها ينابيع الماء. وتكاد تكون خلوا من موارد الغذاء. ولابد لهم من الارتحال أميالا عدة ليحصلوا على ما يمكنهم من سد رمقهم من المأكل والمشرب مهما كان ضئيلا. فاذا نزلت بأحدهم نازلة المرض وعجز عن التنقل كان مصيره الموت المحقق. ثم أن الصحراء الى جانب ذلك كانت تجوس جنباتها الحيوانات الضارية ويجوب أكنافها قطاع الطرق من أهل البادية وأنصاف المتوحشين وكلاهما لا تعرف الرحمة الى قلبه سبيلا. أما من الناحية الروحية فقد كان النساك ولا سيما البادئون منهم فى مستهل الرهبنة يتعرضون لأزمات نفسية عنيفة تؤدى بكيانهم المعنوى. ولدينا أمثلة وأن كانت قليلة من الرهبان الذين أصابهم الجنون فكفروا بكل شىء وعادوا يعيشون فى المدينة عيشة غير طبيعية بعد أن قضوا أعواما فى جوف الصحراء على الكفاف وقتل الغرائز الأنسانية والتقشف والتأمل والصراع من أنفسهم. ونذكر من بين هؤلاء «فالنس Valens الفلسطينى وكذلك «بطليموس» المصرى.

ولذلك كان من الطبيعى لهولاء المتوحدين أن يفكروا فى التخفيف من عزلتهم بعض الشىء بدافع الغريزة البشرية لحب البقاء. فأخذوا فى تركيز صفوفهم فى مناطق معينة حول

الشخصيات الكبرى من الآباء الروحيين الأمجاد ليتتلمذوا على أب لهم فى الروح اشتهر بالقداسة والعلم بأصول الديانة والتفقه فى الكتب المقدسة. وليسترشدوا بتعليمه ويتشبهوا به فى قدسيته وأن كان كل منهم لا زال يحافظ على حياة التوحد التى وهب نفسه لها فى كهفه أو قلايته دون أن يتعرض له جاره أو يقطع عليه أحد زملائه حبل التفكير والتأمل والعبادة. ولكن مغاورهم وقلاليهم كانت قريبة بعض القرب من بعضها تقوم حول قلاية أبيهم الروحى. وبهذه القربى أيضا يتغلبون على الصعاب المادية التى كانت تواجههم فاذا ما نزلت بأحدهم نازلة المرض أو كارثة غير منظورة كان له من جيرانه من الأخوة عون فى الشدائد والنوازل وهم فى نفس الوقت يجتمعون الى أبيهم الروحى بين آونة وأخرى ليشد أزرهم ويحسن توجيههم ويساعدهم فى التغلب على أزماتهم النفسية.

ومن العوامل الأخرى التى دفعتهم الى هذه الحياة الاجتماعية المخففة هى الأضطهادات الدينية المريرة التى كانت حكومة الأمبراطورية تشنها بعنف ضد المسيحيين للقضاء عليهم. فنجد أن المتوحدين بعد اضطهادات «ديسيوس ودقلديانوس» بصفة خاصة يجمعون صفوفهم عند الضرورة للدفاع عن أنفسهم ومهما يكن من أمر هؤلاء الرهبان المسالمين فان كثرة أعدادهم وقد بلغت الألوف المؤلفة وهم مسلحون بعصيهم الغليظة أنما كانوا يكونون جيشا لا يستهان به. ولا تستطيع أى حكومة أن لا تقيم لخطرهم على عمالها أى وزن. وقد زادت أعداد الرهبان زيادة هائلة حتى امتلأت صحراوات مصر الشرقية والغربية بجماعاتهم وتركزت فيها.

المناطق التى التجأت اليها جماعات الرهبان

امتلأت البلاد منذ القرون الأولى لظهور الديانة المسيحية بجماعات وفيرة من الرهبان. وانتشرت فى طول البلاد وعرضها وفى شمالها وجنوبها لا فى صحاريها وقفارها فحسب بل وشملت العديد من جنبات وادى النيل حتى أصبحت الأديرة التى كانت تتركز فيها أفرادهم الكثيرة فى عصر من عصورها تزيد على المئات فى عددها. وما زلنا حتى عهدنا هذا نسمع العديد من أسماء البلدان والمدن والقرى يطلق عليها اسم دير وعلى الأخص فى كثير من بلدان الوجه القبلى مثل بلدة دير تأسا ودير الجنادلة ودير ريفا ودير درونكة ودير الزاوية وغير ذلك. أما أهم المناطق التى تركزت فيها جماعات النساك وكان دورها تاريخيا خطيرا فهى:-

أولا: منطقة بسبير:

تقع هذه المنطقة في مصر الوسطى ويصعب تحديد مكانها تماما ولكن يقال أنها كانت واقعة في الجبال التي تبعد بضعة أميال عن الحافة الشرقية من الوادى قريبة من مدينة بنى سويف. وهى المنطقة التي بدأ فيها القديس أنطونيوس حياته الرهبانية الأولى ثم انتقل منها الى الجبال النائية التي تطل على البحر الأحمر. ثم تبعه الى «بسبير» وما حولها عدد هائل من الرهبان الذين شغفوا بشخصيته التي اجتذبتهم ورغبوا في الالتفاف حوله والتتلمذ عليه وعاشوا في رعايته الروحية. وقد ازداد عددهم في حياته وفي شيخوخته حتى بلغوا الألوف حسب ما جاء في وصف الرحالة والكتاب الذين صوروا بأقلامهم لنا الحياة العامية للرهبان والنساك في ذلك العصر في المنطقة المذكورة بطريقة رائعة تنتزع الأعجاب.

وكان يقيم في المنطقة المذكورة على مقربة من كهف أب الرهبان القديس أنطونيوس زعيم النساك «الأنبا بولا» الذى سبق أن ذكرنا نبذة وجيزة عن تاريخ حياته وكذلك عن القديس أنطونيوس. وقد اهتدى الأنبا بولا الى الكهف الذى قضى فيه مدة حياته في نفس المنطقة. وكان بالمغارة نبع الماء الذى كان يرتوى منه. كما بنى في المكان أيضا نفس الدير الذى يحمل اسمه حتى اليوم. وفيه عدد من الرهبان الى الآن وهو في جبل القلزم القريب من البحر الأحمر. ومن رضاء الله على الأنبا بولا هذا وتقديرا لنسكه وصلاحه انه سخر له غرابا كان يحمل اليه كل يرم نصف رغيف يقتات به ولغذائه اليومى. وعاش بقية عمره على هذا الحال. كما روى أن الذى كتب ترجمة حياته نقلا عن رواية القديس أنطونيوس هو مكاريوس تلميذه.

أما سبب الاهتداء الى الأنبا بولا ومكانه فيرجع كما قيل أن الأنبا أنطونيوس لما بلغ من العمر سن التسعين حاربه الشيطان بفكر الأعجاب على أنه هو أول من اتخذ القفر مسكنا وأول من أتقن فضائل عديدة أذ خدم ذاته وخدم تلاميذه والكنيسة وجاهد في سبيل العقيدة والايمان مرارا ضد الوثنين والفلاسفة والهراطقة. وقد سبق أن حارب هذه الأفكار قديس نيتيريا الكبير (الأنبا مكاريوس) من قبل. فأوعز الله الى «القديس أنطونيوس» بهاتف في دجى الليل يقول له أنه تقدمك في هذه البرية انسان يسكن في مجاهلها أذهب وفتش عليه. وفى صبيحة الغد ترك الكهف الذى يقيم فيه وتوغل في البرية يومين وليلة وهو لا يكف خلالها

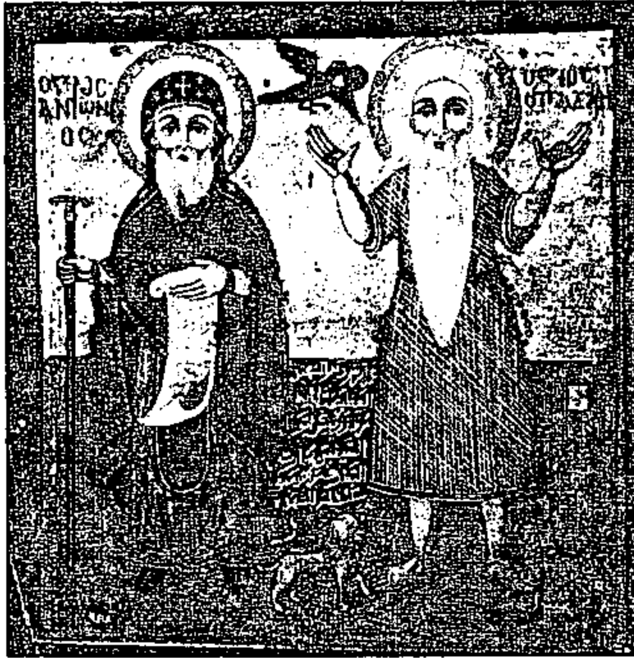

أيقونة تمثل الأنبا بولا والأنبا أنطونيوس مؤرخة سنة ١٤٩٣ قبطى أى ١٧٧٣م. ويلاحظ الغراب يحمل اليهما رغيفاً من الخبز

عن الصلاة والتضرع طالبا من ربه أن يهديه الى مكان النساك. ثم شاهد وحشا صاعدا الى الجبل وهذا الوحش هو ذلك المخلوق الخرافى المسمى «بالسنتور» والغريب فى شكله أن جسمه جسم جواد ووجهه أشبه بالأنسان. وكثيرا ما نشاهد صور هذا المخلوق مرسومة مع صور الأنبا أنطونيوس ذلك لأنه يقال عنه أنه ساعده وأشار اليه عن المكان الذى كان فيه للأنبا بولا. فتعقب الأنبا أنطونيوس الحيوان المذكور حتى أرخى الليل سدوله وشرع يفتش عن مكان يأوى اليه فترة الليل. فصادف مغارة فمال اليها ولما دنا منهيا لمح داخلها فى الظلام الحالك نور سرج يضىء فيها فعلم أنه وجد من يبحث عنها.

وأما الأنبا بولا لما أحس به أسرع الى الباب وأغلقه وتنحى عنه وشرع يصلى وظل القديس أنطونيوس يقرع الباب باكيا وبعد أخذ ورد طويل فتح الأنبا بولا البابا الضيق فتقابلا وتعانقا ثم جلسا يتفاوضان ويتفاهمان عن حال الدنيا. واذا يظهر الغراب فجأة بينهما وهو يحمل لهما رغيفا كاملا فتأكد الأنبا بولا ما وعده الله به. ثم قال بولا لضيفه عن معرفته منذ زمان بالتجانه فى تلك البرية وأن الله قد وعده بزيارة القديس أنطونيوس اليه لكى يواريه التراب عند انتهاء زمن غربته فى ذلك العالم ومفارقة الجسد.

أما أهمية المنطقة المذكورة أيضا فعلاوة أنها ارتبطت بذكرى اثنين من أقطاب النسك والرهبنة فى تاريخ المسيحية على الأطلاق فما زالت حتى اليوم تحوى الآثار التى تحمل اسميهما. وهى عبارة عن ديرين عجيبين فى الواقع يتشابهان فى منظرهما بصفة عامة

ويشتركان فى الظروف والأدوار التى مرت عليهما وأن اختلفا فى تفاصيل الأبنية من حيث كثرتها واتساعها.

أما دير الانبا بولا: فيقع غرب أحد جبال الجلالة القبلية العالية وتحيطه هضاب مرتفعه. وهو مبني على هضبة مرتفعه. وهو أبعد الاديرة عن المدن كما أن الطريق الموصل اليه من أصعب الطرق وأخطرها ومحصور من جميع الجهات بجبال عالية تكاد تحجب عنه تيار الهواء وضوء الشمس وكان الوصول الى هذا الدير بصفة خاصة فى الازمنة السالفة لا يستغرق وقتا طويلا ومجهودا شاقا فحسب بل الطريق اليه كثيرة الوعورة بين سلاسل الجبال منهك وشديد الخطورة. ويتعرض فيه الرحالة أحيانا الى قطاع الطرق واللصوص من قبائل البدو أو الوحوش الضارية. وكانت الابل هى الوسيلة الوحيدة التى اتخذها الرحالة فى الذهاب اليه وقتئذ. وكان يحتاج الرحالة الى مسيرة يومين من دير الانبا انطونيوس اليه والى ستة أيام من شاطىء النيل والى ثلاث ساعات من شاطىء البحر الاحمر. وبالرغم مـن تغيير طـرق المواصلات اليـوم عما كانت عليه سابقا بحيث أنشئت الطرق المعبدة الى تلك المنطقة وأمكن الوصول اليها بسهولة وفى وقت قصير ولا يمكن مقارنته عما كانت قبلا الا أن الرحلة تحتاج لجهود لا يستهان به.

أما مساحة الدير فتبلغ حوالى خمسة أفدنه وهو مستطيل طوله ٢٠٠ متر وعرضه ١٠٠ متر وقد أقيم فى نهاية القرن الرابع وبقرب المكان الذى كان يتعبد فيه الانبا بولا. وقد زاد فى مساحته واحاطته الامبراطور «جوستنيان» ويوجد بداخله أربع كنائس وأهمها هى الكنيسة التى شيدت على اسم مؤسس الدير ويرجع عهدها الى بناء الدير أو قبله بقليل. وذلك لان الرهبان عندما أستقر بهم المقام هناك لابد وأنهم قد بنوا كنيسة يجتمعون فيها للاشتراك فى الصلوات العامة ولم يكن أمامهم أنسب لذلك الغرض من مكان المغارة التى قضى فيها القديس معظم حياته. وتمتاز الكنيسة المذكورة بغرابة موقعها فهى مبنية على بعد ثلاثة أمتار تحت سطح الأرض فى نفس المغارة التى عاش فيها الانبا بولا وليست مبنية كلها وأن سقف الهيكل القبلى والأوسط من الجبل نفسه. وقد هجم البدو القاطنين فى المنطقة على الدير وسلبوا ما وصلت اليه أيديهم وقتلوا الكثير من رهبانه والحقوا به الحريق والخراب وكان يتكرر ذلك الهجوم على الأديرة مرارا وفى فترات مختلفة ومنها ما وقع فى عام ١٤٨٤ للميلاد وقد تولى الاصلاح فيه الأنبا غبريال السابع البطريرك الخامس والتسعون فى عداد البطاركة «١٥٢٥ ـ ١٥٦٨ ميلادية». وفوق الكنيسة الأولى توجد كنيسة أخرى تسمى باسم «أبى سيفين». وقد شيدها

المعلم ابراهيم الجوهرى فى أواخر القرن الثامن عشر. ويسجل ذلك الكتابة المدونة على أحد أبواب الكنيسة. ثم كنيسة ثالثة وتسمى بكنيسة الملاك وهى شديدة الشبه بكنيسة الرسل فى دير الأنبا أنطونيوس مما يدل على أنهما بنيا فى زمن واحد وغالبا من نفس الشخص. ونظرا لأن الأنبا «خرستودولس» كان من رهبان هذا الدير. فلما تعين مطرانا على القدس قام بعمل عمارة كبيرة فيه وأضاف مساحة اليه كما أدخل فيه ضمن حدوده عين الماء الرئيسية. أما الكنيسة الرابعة فهى مكرسة على اسم العذراء وهى تقع بداخل الحصن القديم ويستخدم الرهبان كنيسة الملاك السابق ذكرها لاقامة الصلاة فيها معظم أيام السنة لاتساعها ودفئها كما لا تستعمل الكنائس الأخرى فى الدير الا فى أعياد القديسين المكرسة على أسمائهم الكنائس أو الهياكل.

أما ما يشتمل عليه الدير المذكور بخلاف ما ذكرناه من الكنائس هى الأجزاء والأقسام الآتية.

الأسوار: وهى نوعان منها القديم والحديث. ولكانهما يتفقان فى الارتفاع والضخامة ويبلغ ارتفاعها حوالى عشرة أمتار وعرضها متران وسطحها مستو على خلاف سطوح أسوار دير أنطونيوس.

اقسامه: قسمان أحدهما قديم على ما كان عليه ويحوى فى الجهة القبلية منه جميع المبانى من الكنائس والقلالى والمخازن وغيرها. وفى الجهة البحرية حديقة الدير. أما القسم الاخر فيحوى المبانى التى أضافها الأنبا خرستودولس للدير وبه عين الماء الرئيسية ثم عين أخرى صغيرة بها نخيل والمقبرة.

الحصن: وهو أهم ما فى الاديرة جميعا بعد الكنائس وهى الحصون القديمة التى أنشئت ليلجأ الرهبان اليها عندما يقتحم البدو والأعداء عليهم الدير. وهى عبارة عن مبنى ضخم مرتفع يخيل للناظر أنه عديم النوافذ والأبواب. ولكن لها باب فى الدور الاعلى وأمامه كوبرى يتحرك طرفه عند الحصن أو يمكن تثبيت طرفه الاخر على بناء عال فى مواجهته. وعلى ذلك الكوبرى يمكن للرهبان أو الرحالة أن يدخلوا الحصن. ولكنه أذا ما رفع سد الباب سدا محكما ويتعذر على أى شخص دخول الحصن. وبذلك يمكن من بداخله أن يبقوا فى أمان لفترة طويلة دون الحاجة الى الخروج. وكانوا يخزنون عادة بداخلة ما يحتاجون من المأكل وفيه بئر الماء كما فى أعلاه كنيسة يجتمعون فيها للصلاة ويظلون على هذه الحال حتى تنقشع

جموع المهاجمين من العربان واللصوص وتعود فترة من الامان فى المنطقة ويعود الهدؤ وتسرى الحياة العادية فى الاديرة.

المكتبة، وعلى غالب الاحتمال كانت توضع فى الحصن وكان الرهبان فى جميع الاديرة يعتزون بالمخطوطات ويحافظون على أقتنائها ويتخذون لها مكانا أمينا فى الدير وقلما كان يخلو دير من أنفس المخطوطات وكان من بين الرهبان أنفسهم فئة شغوفة بكتابة المخطوطات المختلفة والعناية بنسخها وتزيينها وتجليدها. ولكن للاسف فأن أغلبها وقع فريسة للحريق أثناء فترات الهجوم من البدو. ومنها ما احتال على الحصول عليه فريق من رحالة الغرب وما تبقى منها من المخطوطات القديمة فقد تحول الى مكتبة الدار لبطريركية. ولا يوجد من هذه المخطوطات بمكتبة الدير الآن الا بعضها القليل القيمة وكثير من الكتب المطبوعة.

مقر الضيوف، مكان بسيط ويشبه القلايات وهو يختلف كثيرا عن المكان المعد الان للضيوف فى دير الانبا أنطونيوس ففيه يجد الزائر ما يحتاج من أماكن الراحة ولوازمها الى حد كبير.

المخازن والاماكن الاخرى، يوجد داخله مخزن الغلال. ومكان لطحن الحبوب. ومخزن للوقود اللازمة للدير طول أيام السنة. وكذلك مكان عجن وخبز العيش والمائدة والمقبرة. والحديقة. ومطحنة للجبس وعيون الماء وعددها ثلاث، ومنها ما أغتسلت فيها مريم أخت هارون، وثالثة خارج الدير وعلى مقربة منها بعض نخيل وخضروات ويقال عندها تلاقى الانبا أنطونيوس مع الانبا بولا.

والشاهد ان هذه الاماكن تشبه كلها ما بدير الانبا أنطونيوس ويلاحظ أن الفترات التى صادفها ذلك الدير فى العصور المختلفة تشابه تلك الادوار التى مرت على دير الانبا أنطونيوس. كما يظهر من زيارة أحد الرحالة الذين زاروا الدير فى القرن السابع عشر وهو «سيكار» شاهد ما يؤيد وجود رئيس عام للديرين معا. كما ذكر بعض الرحالة أيضا وصفا دقيقا يوضح وعورة الطريق البالغة والخطورة المريعة التى يتعرض لها من البدو المتوحشين واللصوص ومن الوحوش المفترسة كذلك وكانت هذه من البواعث التى نفرت الكثير من السياح والحجاج من الزيارة.

أما دير الانبا أنطونيوس: فيقع عند سفح جبل القلزم وهو أحد سلاسل جبال الجلالة عند

أسفل تل مرتفع يطل على البحر الاحمر وجبال سيناء. وقد أنشىء عند العين التى كان يشرب منها أنطونيوس وقريب من المغارة التى عاش فيها فى حوالى أواخر القرن الرابع للميلاد.

وهو يعتبر أكبر الاديرة جميعها بسبب أتساع مساحته التى تبلغ ١٨ فدانا وكانت تبلغ حوالى أربعة أفدنة قبل أيام الامبراطور «جوستينيان» بالقرن السادس الميلادى. وكانت ستة أفدنة عام ١٦٧٠م أيام زيارة الرحالة الآب «فانسليب» ثم زادت مساحته بعد الاصلاح الاخير حيث بنى فيه السور الجديد أيام البطريرك كيرلس الرابع المعروف بأبو الاصلاح.

طريقة دخول الدير

لم يكن للدير فى الأزمنة الغابرة أبواب للدخول اليه منها وكل ما كان له هو باب صغير الحجم من الناحية الخلفية من السور القديم. وقد أهمل استعمالة بعد عمل السور الثانى أيام الامبراطور «جوستنيان». ولم تكن الطريقة بقرع الابواب بل بواسطة قرع الاجراس. وكان الوصول الى داخل الدير بواسطة آلة أشبة بدولاب خشبى وتسمى «بالساقية». وهى طريقة بدائية شاقة ومخيفة ووجد فيها رحالة الغرب غرابة وصعوبة فى صعودهم لداخل الدير.

وقد ظل الدير بدون باب حتى عام ١٨٥٩ م حيث أنشىء السور الضخم الجديد كما صنع للدير باب ضخم كما ظلت الآلة الرافعة بجانبة. ولم يكن يفتح هذا الباب للزائرين الا فى مناسبات خاصة فقط وذلك عند قدوم البطريرك نفسه ومرة واحدة كل عام عند أدخال الغلال أو الوقود اللازم للدير.

لمحة عن تاريخة: لم يصل الى علمنا وصف تفصيلى عن أصل ذلك الدير. وكان ما أمكن الحصول عليه هى بعض نبذات وشذرات وجيزة سطرها بعض الرحالة والمؤرخين فى العصور المختلفة وبعض الروايات والقصص المتفرقة التى توارثها النساك عن بعضهم البعض وروى أن كثيرين من الزهاد سكنوا مغارات طبيعية بجوار القديس أنطونيوس بالقرب من عين الماء لامكان الحصول عليه بدون عناء. والقيام بغرس الأشجار بقربها للاستظلال ثم كونوا جماعات متقاربه يقوم كل منها بتبادل المنافع. ثم بنوا سورا يجمع شتات قلاليهم ويحميهم من غارات الاعداء من البدو واللصوص والظواهر الطبيعية وبذلك تم أنشاء الدير ولا نعرف بالضبط شيئا عن التاريخ الذى أقيم فيه الدير أنما يظهر من أقوال الرحالة الذين قدموا لزيارته. وكذلك دير الانبا بولا أنهما كانا موجودين فى القرن الرابع. أذ روى أحدهم عند زيارته حوالى

عام ٤٠٠م وذهب الى المكان الذى كان يعيش فيه الأنبا بولا. ويذكر أيضا أنه رأى من ذلك المكان البحر الاحمر ومرتفعات جبال سيناء. وما يؤيد تلك الرواية ما وصفه فيها من حقائق لم تكن معروفة من قبل الا لمن زار تلك الجهات حقا.

ويغلب على الظن أن الدير المذكور كان فى أول أمره بسيطا مثل ما نشاهد فى أديرة وادى النطرون. وكانت مساحتة لا تزيد عن الثلاثة أفدنة وتحتوى على قلالى الرهبان وكنيسة واحدة باسم القديس أنطونيوس وقليل من الابنية الاخرى وبه سور بسيط يحوية. أما فى أيام الامبراطور جوستنيان عام ٥٣٧ م فقد أراد حماية حدود مصر فبنى الحصن المشهور فى سيناء لحماية رهبان الروم بدير «سانت كاترين» ثم عمر ديرى أنطونيوس وبولا وزاد فى مساحتهما وأضاف كثيرا الى مبانيهما ثم أقام السور الثانى للدير الذى استمر قائما حتى أيام البطريرك كيرلس الرابع وهو من البقايا التى لازالت موجودة حتى الان.

وفى القرن الخامس عشر ساد عصر طويل مظلم للأديرة اذ هجم عليها البدو عام ١٤٨٤م وقتلوا من فيها بعد نهبها ثم أضرموا النار فيها واحرقوا مخطوطاتها النفيسة.

أما عن موعد بناء تلك الكنيسة فقد تحدث عنها «فانسليب» ومعنى ذلك أنها بنيت قبل عام ١٦٧٠م. ويغلب أنها شيدت عام ١٤٨٠م بواسطة شخص يسمى «لطف الله شاكر» بدليل ما هو مكتوب على الكنيسة نفسها وبدليل تشابة الكنيسة مع كنيسة الملاك بدير الانبا بولا وتلك الكنيسة كان قد بناها الشخص المذكور نفسه.

أهم محتويات الكنيسة الاثرية:

أ ـ صورة قديمة لانطونيوس وبجواره صورة مشوة الخلقة.

ب ـ صورة قديمة مزينة بالليقة الذهبية تمثل السيد المسيح وحوله الملائكة.

ج ـ مصابيح وقناديل منها مصابح عربى من الزجاج الملون لعله من زمن المؤيد.

والكنيسة المذكورة تنقسم الى أربعة أقسام متساوية يعلو كل منها ثلاث قباب وتنفصل عن بعضها البعض بواسطة حاجزين من الخشب وارتفاعها متران ونصف. أما حجاب الهيكل وارتفاعه أربعة أمتار وهو من الخشب المطعم بالعاج فيقال أنه صنع فى مدينة أخميم.

ثالثا. كنيسة العذراء:

وهى مبنية فى الطابق الثانى من الدير وتمتاز بصغرها ولا يستعملها الرهبان فى الصلاة الا

م 12 -تاريخ مصر ج2 (الهيئة العامة لقصور الثقافة)

نادرا وبها ثلاثة أقسام لها حاجز يفصل القسم الاول عن الثانى وهو من الخشب تعلوه صور أثرية منها صورة تمثل اجتماع القديسين أنطونيوس وبولا.

رابعا. الكنيسة الجديدة:

وهى أحدث كنائس الدير من عمل البطريرك كيرلس الرابع. وهى على الطراز الحديث وبها أثنتى عشرة قبة.

خامسا. كنيسة الانبا مرقس:

وقد شيدت هذه الكنيسة على اسم القديس مرقس ويغلب أنه كان من رهبان الدير الاتقياء. وبنيت غالبا فى القرن السابع عشر الميلادى. وتقع فى وسط الحديقة بعيدة عن المبانى. ويوجد قبره فى هذه الكنيسة. وقد تناول «فانسليب» ذكر هذه الكنيسة عند زيارته مما يدل على أنها أنشئت قبل حضوره الى الدير المذكور.

أما الاجزاء الاخرى لهذا الدير فهى نفس الاجزاء التى ذكرت بدير الانبا بولا ولو أنها فى دير الانبا أنطونيوس أكثر أتساعا وأتم استعدادا خصوصا فى المضيفة التى جهزت أخيرا على أتم راحة واستعداد. كما أن حديقة هذا الدير علاوة على اتساعها وحسن تنسيقها وجمال منظرها فهى تحوى أشجارا متنوعة عديدة كالكروم والزيتون والكمثرى وتنمو فيها أنواع الخضروات المختلفة. ومن العنب يصنع الرهبان النبيذ اللازم للاباركة ومن الزيتون يستخرجون الزيت الذى يستعمل فى أيقاد المشاعل وأنارة القناديل فى الهياكل. ورى الحديقة سهل حيث تصل اليها الماء من العين التى تقع فى أعلى نقطة من الحديقة اذ ينساب منها الماء الى أجزائها المختلفة وعين الماء الرئيسية فى دير الانبا أنطونيوس تنبع من الجبل من مغارة طويلة. وكانت قبلا تقع خارج الدير ثم أدخلها فية البطريرك كيرلس الرابع.

ولم ينج من الحريق السابق ذكره سنة ١٤٨٤م الا اليسير من محتوياتها التى كانت موضوعة فى أماكن خفية حصينة بالدير المذكور. وفى أواخر القرن الثامن عشر عمل المعلم ابراهيم الجوهرى على ترميم أسوار الدير. ثم بنى السور الامامى للدير القديم وهو يعرف الان بسور الجوهرى. ثم قامي البطريرك كيرلس الرابع فى منتصف القرن التاسع عشر بأصلاحات واسعة النطاق فى دير أنطونيوس الذى فيه قضى البطريرك المذكور أيام رهبنته. ومن بعده لم تتم أصلاحات تذكر بالدير ومن أعماله الجليلة بدير أنطونيوس هى:

ا ـ اقامة سور ضخم واسع أحاط بالاسوار القديمة.

ب ـ ضم اليه مساحة واسعة ومنها الجزء الامامى الذى أضافه اليه.

جـ ـ شيد الكنيسة الجديدة وشونة الوقود وصفان من القلالى والمطعمة.

كنائس الدير

أولا. كنيسة القديس أنطونيوس:

ولعها أقدم المبانى فى الدير وربما أنشئت فى حياة القديس أو بعد وفاته بقليل. وقد ظلت حافظة لشكلها حتى اليوم رغم الاجيال وتقلبات الزمن التى مرت عليها وهجمات البدو. ويشاهد أن حوائطها مزينة بصور الفرسكات القديمة وأغلبها مطموس المعالم بسبب آثار الدخان على جدرانها ومع ذلك ظلت على حالتها حتى وقتنا هذا محافظة للشكل الاصلى. أما طول الكنيسة فعشرون مترا وعرضها عشرة أمتار. وتنقسم من الداخل الى أربعة أقسام. قسمان منها للمصلين ثم قسم للشيوخ والكهنة والرابع به الهياكل الثلاثة. ويعلو كل قسم منها قبة واحدة.

أما القسم الرابع حيث توجد الهياكل فتعلوه ثلاث قباب. ويلاحظ أن القسم الأول من الكنيسة هو أوسعها وأكثرها انخفاضا ويكثر على جدرانه الرسوم الجصية الدينية ومنها:

أ ـ صورة لمار جرجس فوق جواده وهو يطعن التنين.

ب ـ صورة كبيرة لكنيسة متعددة القباب تحت الاولى.

جـ ـ مذبح مكرس على اسم الحيوانات الاربعة ثم به صورة قديمة جميلة تمثل السيد المسيح.

أما القسم الثالث من الكنيسة ويعلو درجتين عن القسمين السابقين ويفصله عن القسم الثانى حاجز خشبى وفوقة عارضة مثبتة بجدار الكنيسة وبها صور عديدة. ثم يتدلى أمام الهيكل مصابيح قديمة من الزجاج الملون وبيض النعام مثلما نشاهده دائما فى أغلب الكنائس القبطية القديمة. أما القسم الرابع وبه الهياكل الثلاثة وبينة وبين القسم الثالث حاجز مرتفع مصنوع من حشوات خشبية صغيرة بصلبان من العاج مثل أحجبة الكنائس القديمة. وعلى

الحاجز كتابة باللاتينية باسم شخص «يسمى برناردس من صقلية يذكر أنه زار الاديرة أواخر عام ١٦٢٥م. ويقال انه أول زائر كاثوليكى للدير.

أما هياكلها فمربعه تقريبا وتنتهى كلها كالمعتاد بفجوة فى الحائط الغربى ويتوسطها مذبح حجرى وتعلوه قبة خشبية.

(القديس أنطونيوس)

مميزات كنائس الاديرة:

أ ـ ليست لها شرفات عليا وخالية من المعمودية.

ب ـ وجود هياكل أخرى فى أقسام الكنيسة.

جـ ـ وجود تقاسيم وحواجز بين كل قسم.

د ـ أنعدام المقاعد فى كنائس الاديرة.

هـ ـ استعمال الهياكل الوسطى والاستغناء عن الجانبية منها.

ثانيا. كنيسة بطرس وبولس:

وتتصل بكنيسة القديس أنطونيوس بدهليز طويل يستخدمه الرهبان للصلاة فى شهر كيهك لقلة الرطوبة فية ولوقايتة من كل جانب.

ومن الاماكن الهامة فى دير أنطونيوس جزء سبق الكلام عليه فى دير الانبا بولا باختصار وهو الحصن: وتبلغ مساحتة ٢٠٠ مترا مربعا وارتفاعه ١٥ مترا ومكون من ثلاث طبقات. وتوجد فى أعلاة الكنيسة وهى على هيئة هيكل يكرس دائما على أسم الملاك ميخائيل ومثلة أيضا موجود بدير الانبا بولا أى بالحصن والسبب أن الملاك المذكور هو حامى المعذبين من أجل التمسك بأهداب الدين.

ومكانه عادة فى قلب كل دير من الاديرة القديمة ليلجأ اليه الرهبان اذا هددهم البدو بالهجوم وهم فى مجاهل الصحراء وقرب سفوح الجبال. فكانوا يقيمون بداخله حتى تزول موجة الاخطار. وهو عبارة عن بناء عجيب مرتفع أشبه بالطابية ولا يمكن الوصول اليه اذا أحكم النساك اغلاقه. والباب الذى يمكن الوصول اليه لايفتح الا فى الطابق الثانى اذ توضع أمامه عارضة من الخشب تتحرك على مفصلات ضخمة مثبتة فى وضع رأسى وترتكز على عتبة الباب. فعند أنزال العارضة كونت قنطرة متحركة واتصلت ببناء عال يقام تجاه الحصن.

وللوصول الى الحصن يصعد الشخص الى البناء المواجة له بواسطة سلم مقام لهذا الغرض. ثم يمشى الى القنطرة المتحركة ويمر بالباب فيصل الى الدور الثانى داخل الحصن.

وهذه الحصون مازالت موجودة فى الاديرة القديمة الى الان رغم عدم استعمالها. وهى توضح مدى ما كان يتعرض له الرهبان من صنوف العذاب والقتل من البدو وغيرهم من اللصوص فى تلك الازمان. فكان عندما يشعرون بخطورة الحال وتظهر بوادر الشر من أولئك البرابرة المتوحشين. يدخل الرهبان الحصن بعد ما يجمعون معهم كل ما يهمهم من الاشياء التى تلزمهم من أطعمه وشموع ووقود وزيوت ثم يسرعون برفع القنطرة بواسطة جنزير مثبت فى نهايتها ويدور حول بكرة مثبتة بالدور الثالث من الحصن. ثم يغلق الباب غلقا محكما فيصبح الحصن أشبه بقلعة منيعة يصعب مهاجمتها. وكانوا يحتاطون لتوفير الماء اللازم لديهم بمد أنابيب فخارية تحت الارض تصل عين الماء بصهريج فى الحصن حتى يحصلوا على الماء وهم بعيدون عن الاخطار. وكان أحيانا يحفرون فى داخل منطقة الحصن للوصول الى بئر تكفى حاجتهم من الماء وهم بأمان بداخله أيضا. وكثيرا ما كانوا يقيمون فترات طويلة داخل الحصن يبتهلون الى ربهم أن يزيل عنهم شراذم المهاجمين من الاعداء المحاصرين.

وكذلك من الاماكن مخزن الغلال ويطلق عليها «الدكسار» تحفظ فيه الحبوب التى تلزم لسكان الدير طول العام ويقع مكانه داخل الدير تحت الساقية مباشرة.

ثم مخزن الوقود: ويقع عند مدخل الدير مباشرة ناحية اليسار ومساحته تقرب من الفدان وهو فى أوطأ مكان بالدير وفيه تخزن الرهبان الوقود فى وقت محدود من العام. فيخرج الرهبان بجمالهم الى أمكان بعيدة لجمع النباتات الجافة كالبوص والاشجار الجافة اللازم لهم طوال العام. ونظرا لاعمالهم الكثيرة واحمالهم كانوا يضطرون الى فتح باب الدير الموصد فى هذا الوقت من السنة لسهولة ادخال أحمالهم اليه.

ومن أهم الاماكن الرئيسية فى دير الانبا أنطونيوس كانت مكتبة هذا الدير بصفة خاصة وكانت عامرة بأنفس الكتب والمخطوطات القيمة النادرة وتاريخها حافل بأروع القصص والروايات الفاخرة. وما أنفردت به من كنوز العلوم والفنون. كما كانت حافلة بجموع عديدة من نوابغ الرهبان وفضلائهم ومنهم من كان على جانب كبير من العلم والدراية بأمور الدين

والتفقه في أحكامه. ثم ثبت شدة شغفهم بالنساخة والتأليف والمطالعة. وكانت قلالى الرهبان كذلك مليئة بشتى الكتب والمخطوطات القيمة للمداومة على كثرة القراءة وسعة الاطلاع.

ومن بين العبارات التى عثر عليها مدونة على صفحة من صفحات أحدى المخطوطات الخاصة بالبسخة مايؤيد دراية الرهبان التامة وشدة أهتمامهم بفن النساخة وتكوين أنواع المداد المختلفة. وهي توضح أن أحد رهبان دير الانبا أنطونيوس فى الجبل الشرقي ويسمى «بطرس الدرنكى» كان أشهر نساخ عصره وكان ماهرا فى كيفية تركيب الحبر والالوان اللازمة لتزيين المخطوطات والكتب ورسم الصور والزخارف المتنوعة فكان من المداد الاسود والاصفر والازرق والاخضر والذهبي والفضى يستخرج الدهان اللازم للتصوير. وكان اللون الاحمر يستعمل فى كتابة العناوين وبدء الفصول والاسود فى كتابة النصوص. أما الالوان الاخرى فكانت لعمل الصور بالكتب ومنها رسم الصلبان أو الشهداء والقديسين أو الرسل والملائكة أو بعض المناظر الدينية المقتبسة من الكتاب المقدس أو التوراة. وأحيانا تزخرف برسوم الطيور أو الحيوانات الوديعة أو بغيرها من الاشكال النباتية أو الهندسية.

ويروى الراهب «بطرس الدرنكى»[١] هذا أنه كان فى دير الانبا أنطونيوس مائة ناسخ وقد اختصوا بمهنة النساخة فى الدير المذكور. فكانوا ينسخون الكتب المقدسة القديمة. واختص كل عشرة منهم بنسخ صنف خاص من الكتب. وكان لهم رئيس يشرف على أعمالهم. كما ذكر أنه هو نفسه نسخ كتبا كثيرة لعدة كنائس بالقاهرة. وهذه الرواية أن دلت على شيء فأنما تبرهن على مقدار ما كانت تؤدية الاديرة ورهبانها بصفة عامة من خدمات علمية وفنية جليلة للعالم أجمع. فكانت مناطقها منارات لامعة للهداية والصلاح وكان روادها من النساك من الزعماء أصحاب الفضل الأول فى نشر الثقافة والحضارة فى عصور كان الجهل والظلام يخيمان على جميع أرجاء المسكونة. وقد فطن العالم الى عظمة التراث العلمى الخالد والكنوز الفنية الرائعة فى مخطوطاتها وكتبها النادرة والمستودعة فى مكتباتها وتهافتت أمم الغرب على

(١) ينسب الراهب المذكور الى قريته «درونكة» من أعمال أسيوط وقد شاهد أحد الرحالة «فانسليب» عام ١٦٧٠م أن سكانها كانوا يتكلمون القبطية وأن بعضهم كان يعرف اليونانية أيضا. وكانت تشتهر بديرها القديم فى أعلى جبلها.

الحصول على أحد كنوزها من الاديرة المصرية. وكثيرا ما كانوا يرسلون الرحالة المهرة والكتاب المتخصصين منهم للاحتيال على اقتناء تلك الكنوز العلمية بكافة الوسائل المشروعة وغير المشروعة حتى أصبحت أمهات المكتبات العالمية الان سواء فى فرنسا وأنجلترا وهولندا والفاتيكان وأمريكا ذا خرة بمخطوطات أديرة وكنائس مصر القديمة الثمينة.

وكذلك هناك مبنى خاص يسمى «الجو» وهو بناء ضخم وعال وبه ثلاث طبقات ويستخدم لخزن ما يحتاج اليه الدير سنويا من الزيوت والشموع والمواد الغذائية المختلفة والحبوب كالغلال والفول والعدس والبقول الجافة وغيرها وهو فى عهدة أمين الدير الذين يطلق عليه اسم «الربيتة».

ثم توجد «المائدة»: وهى داخل حجرة مستطيلة وفى وسطها وعليها يجتمع الرهبان فى أيام الصوم الكبير. وأما فى الايام الاخرى فيتناول الرهبان مأكلهم وهم منفردون داخل قلاليهم الخاصة.

ثم مكان آخر يطلقون عليه كلمة «التافوس» وهى كلمة يونانية الاصل معناها «مقبرة» وهى تقع فى الجزء الغربى من دير القديس أنطونيوس. ويضم بين جوانبه رفاة كثيرين من رهبان الدير. وهذه هى أهم الاماكن التى يضمها الدير المذكور.

مغارة القديس أنطونيوس

كان لابد الا ننسى الاشارة الى تلك البقعة التى أصطفاها القديس المذكور. واتخذها مقرا يزاول فيه حياته النسكية وتقع فوق الجبل بالمنطقة وفى واحدة من المغاور الطبيعية حيث كان يعيش بعيدا عن مباهج العالم وضجيجه. والوصول الى هذه المغارة شاق كثير الصعوبة ويحتاج الى وقت وجهد كبير وفى أثناء الطريق عند الصعود اليها يلتقى الصاعد بمنظر يستلفت النظر الى مكان يتخلله مجموعة احجار متراصة ومستندة الى صخرة عالية كأنها من عمل أنسان وتدل ما تبقى من آثارها بأنها كانت مسكنا يتألف من حجرتين بطول يقرب من سبعة أمتار. ويروى أنها كانت معدة لاقامة الراهب المسمى «بولس البسيط» الذى كان تلميذا للقديس أنطونيوس. وقد عرف بشدة تقشفه وزهده حتى كان يقضى أغلب أيامه فى الصيام والتعبد وقد وهبه الله القدرة على شفاء المرضى والذين بهم مس من الشيطان. وقد كتب عنه

الراهب الرحالة «بلاديوس» الذى زار مصر حوالي عام ٤٠٠ للميلاد ووصفه بالبساطة المتناهية.

منطقة وادى النطرون

* مراكز النساك بالوادى:
* تلال نيتريا
* مستعمرة كليا «القلالى»
* برية الأسقيط
* نظام الحياة المعيشية بين رهبانها
* القديس مكاريوس الاسكندرى
* القديس أنبا مقار
* القديس يوحنا القصير

ثانيا. منطقة وادى النطرون

تطوق منطقة ذلك الوادى من الشمال سلسلة تلال وتعرف بصحراء أوجبل «نيتريا» أو جبل «برنوج» وتقع الان الى الغرب من منتصف الطريق الصحراوى بين مصر والاسكندرية تقريبا. وتعتبر أقدم المناطق التى هرع اليها نساك ما قبل المسيحية وكذلك المتوحدون منذ فجر العصور المسيحية في القرنين الثانى والثالث للميلاد. كما أطلق على الاماكن التى التجأت بأطرافة الرهبان وطوائف النساك أسماء أخرى مثل «برية شيهات» بمعنى ميزان القلوب أو «برية الاسقيط» أو «وادى هبيب» ومنطقة سليا أو خليا أو صحراء القلالى.

والواقع أن المنطقة المذكورة علاوة على ما كانت تشتهر به من هدؤ عجيب وأنها أماكن سلام حقيقى يخيم حولها جماعات نساكها العديدين الا أنها أنفردت بمميزات خاصة فاقت بها عن سائر المناطق والاديرة الاخرى. فمن الناحية المادية تكثر فيها الاملاح والمعادن النافعة وفيها بعض العيون التى تشفى مياهها أمراض المعدة. ونشأت فيها معامل لصناعة الزجاج. كما يكثر فيه نمو نبات البردى اللازم لعمل الحصر وضفر أنواع من السلال وكذلك فى صناعة

الورق الذى لاغنى عنه للمخطوطات. كما أن المياه الجوفية فيها توجد على مقربة من سطح الارض فى كثير من أجزائها الامر الذى سهل عملية حفر الابار. وهذا مكن بلا شك فريق الرهبان من زراعة الارض فى المنطقة فى مساحة واسعة مما جذبت اليها أعدادا غفيرة من الرهبان علاوة على جفاف جوها المحتمل وانعدام المطر فيه مما ساعد على بناء قلاليهم بسهولة بأبسط المواد المتوفرة فيه. كما لا ننسى وقوع الوادى واديرته فى منطقة سهلة فى مواصلاتها الى حد كبير بالنسبة الى وعورة مواصلات الاديرة الاخرى وبعدها. ولذلك فقد شجعت تلك المزايا على مجىء كثير من الرحالة القادمين من جهات نائية من أنحاء عديدة من العالم واجتذبت جماعات وفيرة من رهبان مصر فزخرت المنطقة فى أجزائها المختلفة بالقلالى والاديرة العديدة التى انتشرت فى جميع جنبات الوادى الكبير المذكور.

مراكز النسك بوادى النطرون:

وكانت تلك المنطقة المتسعة الارجاء منقسمة الى ثلاثة مراكز هامة للرهبنة. أحداها باسم «تلال نيتريا» بمستعمرة Nitria والثانية تعرف باسم القلالى Cellia أوسليا والثالثة وهى «برية الاسقيط Scetis». وتبدأ كذلك من ناحية الشمال الى الجنوب مع أنحراف بسيط ناحية الشرق.

ومن الرحالة القدامى من الغرب الذين زاروا تلك المنطقة وتغنوا بما شاهدوه فيها ونوهوا عن سمو الحياة النسكية بين الرهبان وأنظمتهم المثالية وفضائلهم نذكر منهم على سبيل المثال «الاب يوحنا كاسيان Jean Cassien» جاء الى وادى النطرون عام ٣٩٠/٤٠٠م، وأقام بين رهبانه وكتب الكثير من الكتب الخاصة عن أخبار رهبان ذلك الوادى. وعبارات من أقوالهم وأظهر أعجابه الشديد عن زهدهم وتقشفهم. وكذلك الرحالة المشهور «الاب بلاديوس Palladius» جاء أواخر القرن الرابع وزار مصر للمرة الاولى من عام ٣٨٨/عام ٣٩٩م. ومكث فى «برية شيهات» لدراسة حياة الرهبنة. ثم عاد الى بيت لحم ومنها الى أورشليم ورسم أسقفا لهلينوبوليس عام ٤٠٠م ثم عاد لزيارة مصر مرة ثانية ثم كتب فى أوائل القرن الخامس مؤلفا تاريخيا هاما شرح فيه ما شاهده ووصف ما كان عليه رهبان الاسقيط من الفضائل والاخلاق الروحية السامية وحياتهم فى الزهد والتقشف ويعرف كتابة باسم «بستان الرهبان» وكان له أثر لا يستهان به فى أنتشار الرهبنة فى كثير من جهات العالم ومن ضمن ما ذكره من

ملاحظات أنه كان يوجد فيه خمسة آلاف راهب يعيشون مع بعضهم مثنى وثلاث فى جماعات صغيرة بخلاف ٦٠٠ راهب يعيشون فرادا متناثرين داخل الصحراء. وقد وصف أيضا أنه كان بينهم عدد من الخبازين لاعداد الخبز اللازم للرهبان وعدد من النساجين لنسج الكتان وعمل أرديتهم. والزراعين وصناع النبيذ من الكروم التى كان يزرعونها. كما كان بعض التجار يرتادون هذه المنطقة لشراء ما يزيد عن حاجة الرهبان. وكان بينهم مجموعة من الاطباء من الرهبان للعناية بمداواة المرضى.

أما حياتهم الدينية فقد كانت موضع أعجاب بلاديوس الشديد أذ انه نوه أنه كان يسمع تراتيلهم الشجية للمزامير اذا ما ارخى الليل سدوله. وقد سما به الخيال حتى تصور بأنه أنتقل الى جنة الفردوس. وكان مما يلاحظ أقتران احتقار الناسك لهذا العالم ومباهجة باظهار المحبة المطلقة لبنى الانسان والحيوان على السواء. وقد شوهد أيضا على كثير من المتوحدين شدة شغفهم للحيوان حتى الضوارى منها حتى آنست الوحوش لهم ولم تفزع عند رؤيتهم. كما ذكر أن المتوحدين كانوا يمارسون العبادة كل على طريقته الخاصة التى تروق فى نظره وهم يتسابقون فى ميدان البطولة الروحية واذلال الجسد والحرمان وكبت الغرائز والتقشف والامعان فى الوحدة.

كذلك من الرحالة الذين زاروا مصر وجاء الى منطقة وادى النطرون هو القديس «جيروم الايطالى» عام ٣٨١م وكانت تصاحبه تلميذتة الناسكة «باولا». ووضع كتبا عن الرهبان المصريين شملت أخبارهم وأقوالهم على ضوء ما رأى وسمع كما أسس ديرين فى بيت لحم بفلسطين واحد منهما للرهبان والاخر للراهبات. وفى عام ٤٠٤ قام القديس المذكور بترجمة قوانين «الانبا باخوميوس» الى اللاتينية فتناولها الرهبان الايطاليون بالدراسة واتخذوها دستورا لهم.

(١) «ديديم Didymus» ولد عام ٣٠٩ أو ٣١٤م أى لم تعرف سنة الميلاد تماما. وقد فقد بصره وهو فى الرابعة من عمره ولذلك لم يتلق العلم أو المبادىء الاولية منه كما ذكر ذلك هو بنفسه. ولكن تعطشه الشديد الى العلوم وقوة أرادته تغلبت على كل المصاعب التى صادفته. وتوسل فى صلاوته أن يمنحه الله البصيرة الداخلية. وتعلم الابجدية بطريقة اللمس على لوحات محفورة أما المقاطع والكلمات عن طريقة الانتباه والاصغاء. وصار أستاذا لعدة علوم ووصل لمعرفة فائقة بالكتب المقدسة. ولذلك أتخذ القديس أثناسيوس ذلك الاستاذ الضرير عميدا لمدرسة اللاهوت بالاسكندرية كخليفة صالحة لجهابذه العلماء=

وقد ذكر الرحالة الاب «روفينوس Ruffinus» الذى كان تلميذا للعالم الشهير «ديديم (ديدموس) الضرير»[1] أنه زار وادى النيل عام ٣٧١م وقال ديدومس أنه كان فى وادى النطرون وقتئذ نحوا من ٥٠ ديرا.

كما ورد فى كتاب «تقى الدين المقريزى» من مؤرخى العصور الوسطى أنه كان بالمنطقة المذكورة نحوا من مائة دير وحوالى ٧٠ ألف راهب ويقول أيضا أنهم أستقبلوا عمرو بن العاص عند فتحه لمصر وهذه رواية مبالغ فيها اذا قورنت بما رواه المؤرخون المعاصرين.

على أنه لم يبدع كاتب أو مؤرخ عن تاريخ ذلك الوادى واديرته بصفة عامة وظهرت أبحاثه عنها فى مؤلفات علمية ضخمة أكثر مما قام به العالم الاثرى الكبير «أيفلين هوايت E. White» فى العصر الاخير عن أديرة وادى النطرون اذ تمكن من كتابة ثلاثة مجلدات كبيرة عن تاريخها وماتحوية من كنوز أدبية وفنية وبلغت عدد صفحاتها نحوا من ٧٧٠ صفحة كبيرة بخلاف ٥٠٠ صفحة أخرى مملوءة بالصور الفوتوغرافية.

وقد بدأت الرهبنة فى وادى النطرون فى قلالى صغيرة منقورة فى التلال أو الصحراء فى أول أمرها كما نشأت غالبا فى جميع أديرة القطر المصرى عامة. وكانت تلك القلالى متقاربة وتمارس معيشة فردية ثم أملت الظروف الطبيعية على ملتجىء تلك القلالى من النساك ضرورة العمل على التجمعات المقاربة تدريجيا الى أن نمت فكرة التجمع بعد ذلك داخل الاديرة

= السابقين الذين تقلدوا عمادة ذلك الكرسى الخطير أمثال «بنتينوسPantaenus» وكلمنت «Clement» وأكلمندس وأوريجانوس وغيرهم. وكان ترتيبه الثانى عشر من أولئك العمداء الفطاحل الذين تقلدوا العمادة. وقد ذاع صيت ديديموس وكان القديس أنطونيوس يمتدحه ويذكره بالفخر. ولما كان فى دور الرجوله كان قد زار الانبا أنطونيوس الاسكندرية بقصد الحد من بدعة «آريوس» فدخل قلاية ديديم هذا وسأله عما اذا كان يشعر بالحزن لفقد بصره فظهر من جوابه على هذا السؤال مقدار تأثره الشديد من تلك الكارثة عليه. فكانت عبارة أنطونيوس له بلسما شافيا اذ قال «لا يحزنك فقد بصرك اذ نزعت عنك أعين جسدية كالتى يمتلكها الفيران والذباب. وأحرى بك أن تبتهج لان لك أعينا كالملائكة ترى بها اللاهوت وتدرك نوره» كما أمتدحه كثير من قديسى الغرب وكتابه. وكان القديس جيروم تلميذا لديديموس وأنه أتخذه قدوة له فى دراسة الكتاب المقدس. كما ترجم له أحد كتبه وتتلمذ له أيضا لمدة ثمانى سنوات «روفينوس» وقد وصفوه بأنه أشبه بالرسل فى خلقه ويمتاز بفكر نير مع بساطة فى الكلمات. وقد أعاد لمدرسة الاسكندرية مجدها القديم وظل مدرسا حتى نهاية حياته عام ٣٩٨م وترك مؤلفات عديدة فى اللاهوت والتفسير. وكان سندا للقديس أثناسيوس وتمكن بفضل آرائه النيره القوية وحججه الدامغة أن يحافظ على مكانة الكنيسة وثباتها ويحطم الهراطقة الاريوسيين ويفند كل مغالطاتها الفلسفية.

وظهرت بصفة خاصة حركة أنشاء الأديرة الكبرى بقصد حماية الرهبان والدفاع عنهم عندما بدأت الغارات العدائية من هجمات البدو عليهم.

ويظهر أن جبل «نيتريا» كان المكان الأول الذى قصده النساك فى منطقة وادى النطرون وقد سبق التنوية حسب ما ذكرة الاب «شينو Chenau» فى كتابة «قديسو مصر» أن القديس «فرونتون» أول من فكر فى حياة العزلة قبل انتشارها فى صحراء نيتريا. ثم أيد ذلك «كرزون Cellia فى مؤلفه «زيارات أديرة الشرق صفحة ٧٦» بأن القديس المذكور أعتزل الحياة بقصد الزهد فى أواسط القرن الثانى الميلادى بوادى النطرون وتبعه سبعون من الاخوة للغرض نفسه. ولم يذكر التاريخ شيئا عن مصيرهم بعد ذلك.

ولكن حسب ما ورد فى كتابى «قاموس الاثار المسيحية للاب» دون فراننـد كابرول ج٢ وص ٣١٢٧ وكتاب «قديسو مصر ج ٢ ص ٣٨١» أن بعض الفضل فى هذا العمل يعود الى تلميذه ورفيقه «القديس تيودورTheodore».

أما تاريخ هذين القديسين فيمكن استخلاصه من سيرتهما من كتاب «قديسو مصر» السابق الاشارة اليه فجاء فى سيرة القديس تيودور أنه عاش فى عهد الامبراطور قسطنطين الاكبر الذى حكم من عام ٣٠٦/٣٣٧م وأنه عاش أيضا فى زمن القديس أنطونيوس الذى كانت وفاته عام ٣٥٦م.

أما الراهب آمون مؤسس اديرة نيتريا فكان مولده فى الربع الاخير من القرن الثالث للميلاد من أسرة مصرية ثرية. ولما ناهز الثانية والعشرين حثه أهله على الاقتران فنزل عن رغبتهم. غير أنه أقنع زوجته الشابه بأفضلية حياة التبتل وفعلا أتفقا على أن يعيشا كأخوين تحت سقف واحد. وأجمع المؤرخون على صحة هذه الرواية وأن العروسين كانا يعيشان بمنزلهما حياة

(١) وصف «روفينوس» عند قدومه مع بعض مرافقيه لزيارة رهبان نيتريا كيف قابلوهم بترحاب كبير وهرعوا الى أستقبالهم وقدموا لهم ما تيسر من الخبز وأوراق الكرنب وحساء الفول بعد ما غسلوا أرجلهم ثم قادوهم الى الكنيسة وعملوا كل ما فى طاقتهم لراحتهم من عناء الطريق ومشقة السفر الطويل. ثم يذكر ما ينطوون عليه من المحبة والتواضع والتقوى ورفعة الخلق النبيل. ثم قال أن الرهبان فى نيتريا يقدمون القليل من النبيذ تحية الى الزائرين. غير أن رهبان، سليا كانوا ينفرون من رؤية الزائرين ولذلك لا يرغبون فى مقابلتهم أعتقادا منهم أن من يزوره البشر لاتزوره الملائكة ومن هؤلاء كان «مكاريوس الاسكندرى».

التقوى والصلاح والزهد. كما روى بلاديوس أن آمون قصد برية نيتريا بجنوب بحيرة مريوط بعد انقضاء ثمانية عشر عاما من زواجة أى ما بين عام ٣٢٠ وعام ٣٣٠م للتفرغ الى ممارسة النسك وقد وافقته زوجته على ذلك. وقد زعم بعض الرحالة ومنهم «روفينوس»[١] الشهير أنه لم يكن في نيتريا ذلك الحين دير من الاديرة. ولو أن «بلاديوس» ذكر أنه كان يوجد القليل من الاديرة. وقد ذاع صيت القديس آمون واشتهر بنسكه فانضم اليه كثير من الاتباع والنساك وكثرت القلالى حول صومعته ولم يعرف تماما عدد الرهبان الذين عمروا منطقة نيتريا ولو أنه ذكر في تاريخ الاديرة لبعض المؤرخين أنه كان يوجد فى أواخر القرن الرابع للميلاد نحوا من ٥٠ ديرا يجتمع فيها نحو ٥٠٠٠ من الرهبان ويصعب تحديد موقع جبل نيتريا بالضبط حيث التجأت حوله هؤلاء الجموع من الرهبان. ومع ذلك لابد أن موقعه كان يحتل أحد جانبى وادى النطرون المعروف اليوم فى المكان الذى كانت تتجفف فى أسفله المستنقعات الملحية. ولو أن هذا المكان المعروف باسم جبل نيتريا أول ما قصده النساك فى تلك الناحية الا أنهم ما برحوا أن التجاؤا أيضا الى الصحراء. وقد أطلق عليها اسم صحراء «سليا» أو صحراء القلالى ثم هرعت جماعات أخرى عديدة من الرهبان وعمروا «برية الاسقيط» الموحشة وتعرف أيضا باسم «برية شيهات» التى بعد صحارى سليا أو خليا المذكورة.

وكانت هذه الجماعات من الرهبان تتبع فى نسكها طريقة وسطا بين الانعزالية التامة والحياة الجماعية وهى نفس النظام الذى سار عليه أتباع القديس أنطونيوس. وذكر أن المتوحدين فى نيتريا كانوا يمارسون العبادة كل على طريقته الخاصة وكانوا يتسابقون فى ميدان البطولة الروحية واذلال الجسد والحرمان وكبت الغرائز والتقشف والامعان فى الوحدة. وقد بلغ ببعضهم التفنن فى مقاومة شهوات الغرائز الطبيعية وتعذيب الجسد الى حد يصعب على الانسان تصوره. وكانوا لا يتركون قلاليهم فى الصحراء للاجتماع ببعضهم الا يومى السبت والاحد من كل أسبوع لحضور صلوات القداس. وكان ذلك فى الكنيسة التى يقصدها الجميع من رهبان نيتريا للعبادة وموقعها فى أسفل الوادى وتابعة لاسقف مدينة «هرمبوليس الصغيرة» وهى دمنهور الحالية. وكان يقيم صلوات القداس فيها كهنة الابروشية المذكورة.

وكان نظام الحياة المعيشية بين أولئك الرهبان بصفة عامة غاية فى البساطة بالرغم من تقشفة الشديد فكان الفرد يتناول طعامه البسيط ويشمل القليل من الخبز الجاف وبعض الملح

ولا يشرب غير الماء وكان الافطار عند معظمهم مرة واحدة عند غروب الشمس ومنهم من أمتاز في الزهد والتعبد ويمضى ثلاثة أو أربعة أيام فى صيام كامل عن الطعام والشراب وبعضهم كان يمضى أغلب لياليه ساهرا فى صلوات طويلة وأذا أعياه التعب لجاء الى سنة من النوم لفترة وجيزة مستلقيا على حصيرة من سعف النخيل أو أحيانا منبطحا على الارض متخذا وسادة من الحجر امعانا فى التقشف وتعذيب الجسد. وقد أشتهر أيضا كثير من النساك بحياة نسكية صارمة تدعو للدهشة والاعجاب الشديد خصوصا ما يتعلق بالاقلال من الطعام أو الشراب وكثرة الصيام لفترة طويلة. وقد تركت مسألة قدرة الناسك على الصيام الى مقدرة كل راهب حسب تحمله وبالرغم من هذه الاصوام فلم يكن يركن الراهب الى الكسل فترة صيامه بل كان يقوم بعمله اليومى المقرر عليه أنجازه كالمعتاد.

ومن الاركان الاساسية فى حياة الرهبنة بخلاف المداومة على الصلاة التزام الصمت وتحاشى التحدث مع الاخرين من الرهبان ولا يجوز الاتصال الا مع بعض الشيوخ منهم والمشهود لهم بالقداسة والورع والتقوى. وعندما يقوم الرهبان بعملهم اليومى المكلف كل فرد منهم بعمله لا يكف عن تلاوة تراتيل المزامير والمدايح الدينية بنغمات شجية بحيث اذا ما أنتهوا من عملهم وتلاوة المزامير لزم الرهبان الصمت وهو من أوجب الامور لحمايتهم الروحية وحرصا على السلام الدائم بين تلك الجماعات أو بين النساك والمنفردين كما أن دوام الرهبان على الصلاة من أهم الوسائل لمحاربة الشيطان واغراءاته ودفع حالات الملل والسآمة التى قد تنشأ من تلك الحياة الرهبانية. ومن أجل ذلك خصص الرهبان أغلب ساعات النهار والليل للصلاة. وما هو جدير بالملاحظة أن على الراهب القيام للصلاة عند منتصف الليل بمجرد سماعه لصياح الديك، وهذه الصلاة ذات أهمية خاصة لاستنادها على قول «داود النبى» كما ورد ذلك فى احدى مزاميره. وعدد الصلوات الرهبانية هى سبع ثلاث منها أثناء النهار والاربع الاخرى خلال فترات الليل. ولذلك تحتم على الرهبان أن يركنوا الى فترة وجيزة من النعاس أمعانا فى التيقظ والسهر لمحاربة الافكار الشريرة الشيطانية والمحافظة على طهارة النفس ودوام الصفا الروحى.

ومن عادة الناسك الا يتأنق فى ملبسه فكان رداؤه غاية فى البساطة والخشونة ورخص الثمن ويحاك بغير عناية، وأحيانا يظهر ممزقا كثير الرقع امعانا فى التواضع والزهد ومحاربة شهوات

الجسد، وكان البعض يحيكون حللهم ويصنعوها من سعف وألياف النخيل تشبها وتقليدا لما فعله زعماء النساك والسواح القدماء الذين كانوا يهيمون فى الصحارى والقفار كأنصاف عراة ومعظمهم كان يكتفى بارتداء قميص بدون أكمام كما صار أغلبهم حفاة الاقدام الا أذا أشتدت حرارة الصيف فكان يضطر الراهب الى احتذاء الصندل وخصوصا اذا عزم على ترك قلايته الى السفر من مكان الى آخر فى الصحراء، وكان العكاز من الادوات اللازمة، ولا غنى عنه للرهبان وعلى الاخص المسنين منهم للارتكاز عليه وقت وقوفه الطويل أثناء الصلاة، واعتقد الراهب فى عصاه كرمز للسلاح الروحى يتغلب به على قوة الشيطان، وقد ذاعت شهرة أولئك النساك وأخبار أنتشار قلاليهم وأديرتهم التى أمتلات بها البرارى والقفار وأندهش الناس مماسمعوه عن بالغ زهدهم وطرقهم المثالية فى المعيشة القشفة وأنظمتهم الغرية فجذبت اليهم جماعات عديدة من سكان البلاد وصادفت حياتهم النسكية هوى فى نفوسهم فتبعوها كما تهافت كثير من رحالة الغرب والعلماء من أهالى أوروبا للقدوم الى زيارة أولئك الرهبان فى أماكنهم متكبدين كل مشقات السفر الطويل الجسيم وأخطاره للوقوف على أنظمتهم المعيشية وتاريخهم وعلومهم وفنونهم وكل ما يتعلق بعاداتهم وطرقهم فى الحياة، ثم عادوا ونشروا جميع ماجمعوه من أخبارهم وعن نسكهم وفضائلهم النادرة فى أنحاء العالم المتمدين وكان هذا من أهم البواعث التى شجعت على قيم هذه الأنظمة الرهبانية فى كثير من ممالك الغرب.

وقد ورد فى كتاب «سير آباء الكنيسة» وصف لزيارة الانبا أنطونيوس الى القديس آمون فى صومعته التى كانت تبعد عنه بمسافة ثلاث عشر يوما كما روى القديس «اثناسيوس Athansius» بأن الانبا أنطونيوس كان يحترم القديس آمون أحتراما عظيما. ويظهر أن أتصاله به هو الذى جعله يتوسع فى أنشاء الجماعات من الرهبان على نظامه الانطونى. وقد ذكر القديس أثناسيوس أن الأنبا أنطونيوس قد تنبأ بوفاة القديس آمون فى صومعته فى صحراء نيتريا. وكانت وفاته قبل سنة ٣٥٦ للميلاد وهى السنة التى توفى فيها القديس أنطونيوس. وقد قدر البعض وفاة القديس أمون بوجه التقريب بين عام ٣٤٠م وعام ٣٥٠م. واسم هذا القديس لا تخلو من ذكره قائمة من بين شهداء الكنيسة الارثوذكسية وتحتفل الكنيسة بذكراه فى عيده الموافق اليوم الرابع من شهر أكتوبر.

وكان آمون يرى زوجته مرتين كل عام في منزل حياتهم الزوجية التي كانت قد حولتة ديرا للراهبات والتفت حولها كثيرات من العذراى اللائي رغبن في ممارسة الحياة النسكية، فكانت زيارته لها بقصد الاطمئنان عليها والوقوف على مدى الحركة والادارة بالدير الذى تشرف عليه زوجته.

وفى أواخر أيام القديس آمون أخذ عدد الاخوة في الزيادة في جبل نيتريا فرغب البعض في بناء القلالى في أماكن بعيدة عنه في الصحراء لينعموا بالسلام المنشود فتوغلوا داخل البرية حتى «سليا Cellia» وهى تبعد عن جبل نيتريا هذا بما يقرب من أثنى عشر ميلا، وقد ورد في كتاب "Marcotis De Cosson p. 47" أن الطعام الذى كان يلزم الى رهبان سليا كان يأتى اليهم من نيتريا، وهذا دليل على ما كانت عليه من رواج بعكس ما كانت علية سليا من جفاف.

ومما هو جدير بالذكر أن القديس آمون ترك بعده مجموعة من أفاضل التلاميذ الافذاذ ومنهم على سبيل المثال القديس تيودور وأغاثو وثنثائيل وهور وبامو، وقد خلفه القديس بامو في الزعامة في جهة سليا.

وعندما أخذت نيتريا تفقد مكانتها وأهميتها بدأت سليا في الازدياد والازدهار وحلت محل نيتريا وزادت عنها أتساعا وشهرة، وسبب هذه الشهرة ترجع في الواقع الى المؤسس الحقيقى لمنطقة سليا وهو «القديس أبو مقار الاسكندرى» ونظرا لان كثيرين من القديسين كانوا يحملون اسمه فقد التبس على كثير من القراء المقصود الحقيقى من أولئك القديسين ولذلك نوهت بعض المؤلفات الى أشهر ثلاثة منهم أطلق عليهم الاسم المذكور وهم القديس مقار الكبير وهو مؤسس الدير المعروف باسمه وزعيم منطقة شيهات أوبرية الاسقيط ثم القديس أبو مقار الاسكندرى وهو زعيم منطقة سليا ثم القديس أبو مقار أسقف أدكو.

مقار الاسكندرى:

أما أبو مقار الاسكندرى فكان مولده بمدينة الاسكندرية في مستهل القرن الرابع للميلاد من أبوين فقيرين ولذلك اشتغل خباز لبضع سنوات ثم كان يصنع الفطائر ويبيعها لكسب معاشه، كما قيل أنه أشتغل بمهنة الرعى أيضا. ثم ترك الاسكندرية بمظاهرها وتوغل في

الصحراء حتى اعتكف في برية موحشة وشرع يتدرب على النسك والتقشف وظل على هذه الحال سبع سنوات، ثم أصبح بعد ذلك يقتصر فى غذائه اليومى على مقدار ضئيل لا يتصوره العقل أذ أنه كان يكتفي بأوقيتين من الخبز تقريبا طول اليوم. وكان يمضى ليله فى الترانيم والتسابيح والتأمل ـ ثم أنتشرت أخباره أنتشارا عظيما وذاعت شهرته الفائقة فى الزهد وشدة التقشف فهرعت اليه جماعات من النساك والتفوا حوله لممارسة حياة الزهد، ثم أزداد عدد الرهبان وكانوا يعيشون حياة أنفرادية وكل ناسك له قلايته فكثرت القلالى فى تلك المنطقة حتى سميت صحراء القلالى، وقد أيد هذه الزيارة الرحالة «بلاديوس» الذى زار المنطقة وقتئذ عام ٣٩١ وعمر هذا الجزء الموحش من هذه الصحراء نحوا من ستمائة راهب، وقد علمهم «مقار السكندرى» كيفية بناء تلك القلالى أو حفرها.

وقد عرف عن مقار السكندرى هذا أنه لم يباشر حياة الرهبنة قبل سن الاربعين وذلك بعد أن تعمد وانتظم فى سلك الموعظين وزار القديس أنطونيوس فى الصحراء الشرقية ومارس على يديه حياة النسك سنة ٣٣٥م ثم ذهب أيضا الى نيتريا حيث تتلمذ على يد القديس بامو رئيس الجماعات الرهبانية فى الموضع المذكور بعد وفاة القديس آمون، ثم ظل هناك فترة رسم بعدها قسا وأصبح من هيئة الكهنوت حوالى سنة ٣٥٥ ميلادية. ثم أشتهر منذ ذلك الوقت باسم مقار السكندرى ثم تاقت نفسه الى الحياة الانعزالية فترك نيتريا واتجه جنوبا الى سليا حوالى سنة ٣٧٣م. ويشاهد أن مقدمه كان سبب شهرة عظيمة للمنطقة فزادت فيها أعداد الرهبان المنفردين وكثرت قلاليهم بطبيعة الحال حتى أصبحت سليا معروفة باسم صحراء القلالى. وكان مقار السكندرى شديد الشغف بالتنقل والرحلات والحياة بين سائر الجماعات الرهبانية في وادى النطرون ورغبة منه فى الاطمئنان على مدى ما وصلت اليه حياته النسكية، ولذلك أصبحت له أربع قلالى واحدة فى جبل نيتريا والثانية فى سليا والثالثة كانت خارج وادى النطرون فى الصحراء الليبية والرابعة فى برية الاسقيط حيث كان كثير التردد على سمية القديس مقار السكندرى الكبير. وقد شاركه فى منفاه فى جزيرة فيلة جنوب مدينة أسوان وذلك عندما نفاهما الامبراطور فالنس الاريوسي بسبب وقوفهما فى وجه البدعة التى اثارها أريوس.

ومن أبرز ما أتصف به الانبا مقار السكندرى شدة تمسكه وأمعانه فى حياة الزهد وكثيرا ما تردد على المتوحدين الذين برعوا فى الزهد وينافسهم فى نسكهم فى هدوء وصمت. وتبارى

فى ذلك مع بعض الرهبان الذين أشتهروا بزهدهم العجيب فى دير تابينسى بالصعيد، ذلك أنه ترامى الى سمعة بأن رهبان دير الانبا باخوميوس هناك لا يذوقون طعاما مطهيا على النار مدة صوم الاربعين المقدسة، وشرع القديس المذكور بالامتناع عن تناول طعام مطهى لمدة سبع سنوات وأن يجعل غذاءه على الخضروات والحشائش البرية. ولم يكتف الانبا مقار السكندرى بهذا الزهد، بل سافر الى دير تابينسى فى رحلة أستغرقت منه خمسة عشر يوما لقطعها وهناك طوى فترة صوم الاربعين المقدسة واقفاً فى أحدى القلايات، دون أن يذوق طعاما ماعدا أوراق الكرنب كل يوم أحد فيخفى أمام رهبان الدير صيامه العنيف، وبالرغم من هذه الحياة العنيفة القاسية وامعانه الشديد فى اذلال الجسد فانه لم يخالف قوانين الدير من حيث العمل اليومى المعتاد الذى يقوم بعملة كل راهب فى الدير فأنه قضى مكاريوس أيامه فى دير تابينسى فى ضفر الخوص وعمل السلال فى صمت وسكوت. غير أن رهبان الدير المذكور لم يتعودوا مثل تلك الحياة القاسية، فطلب الى رئيسهم القديس باخوميوس أن يأمره بترك الدير حتى لا يكون حجر عثرة لهم ولما سأله الأنبا باخوميوس عن أسمه وأصله وعرف منه أنه مقار السكندرى احتفل به رهبان الدير وأكبروه وزادوا فى احترامه. ثم غادر الدير وعاد الى سليا وفيه مازال يمعن فى زهده وتقشفه الشديد حتى قيل أن لحيته تساقط شعرها ولم يبق له سوى شعر قليل على شفته العليا وعلى ذقنه. ولذلك كانت أرشاداته الى اتباعه من الرهبان موضع التقدير والاحترام الشديد والقبول كما كانت نسكيته الرفيعة مضرب الامثال من سائر الاديرة فى وادى النطرون وقد وافته المنية فى أواخر القرن الرابع الميلادى بعد جهاد خالد مجيد[١] فى سبيل نشر المسيحية الارثوذكسية الصحيحة كما قيل أنه عمر طويلا حتى بلغ

(١) أتخذت سليا التى أشرف على رئاسة أدارتها الانبا مقار السكندرى مركزا مستقلا وأصبح الكاهن الوحيد لكنيستها التى شيدت بها فى عهده أذ لم يكن بها سوى كاهن هو الرئيس وعلى ذلك صعبت مهمته كثيرا لاضطراره لتفقد المتوحدين فى قلاليهم التى كانت مبعثره فى جوانب تلك البقعة الموحشة من الصحراء ولا يخفى ما كان يحتاج اليه أولئك النساك من رعاية وعناية تامة أكثر من أخواتهم المقيمين فى القلالى القريبة المتجاورة. ونظرا لما كان يتمتع به من السلطان الروحى وقوة التأثير الشخصى بسبب أعماله وفضائله الجيدة وسلوكه وطهارة النفس دفعت هذه الصفات السامية الى اتخاذها المثل العليا لهم وحرص كثير من أتباعه من الرهبان على تقليد القديس المذكور فى طريقة حياته وزهده وقد وصل الكثير من أولئك الاتباع من الرهبان الى درجة عالية من الرهبنة.

من العمر تسعة وثمانين عاما. أما المركز الثالث الذى انسحب اليه فريق من الرهبان ورغبوا فى ممارسة حياة النسك فيه فى الصحراء المطلقة فقد كان شديد الغور وقد أطلق عليه كلمة الاسقيط أو «برية شيهات» وقد ذاعت شهرة ذلك المكان حتى تبوأ مكان الزعامة فى جميع منطقة وادى النطرون على الاطلاق، وترجع تلك الشهرة فى الواقع الى المؤسس الاول لها وهو الانبا مقار الكبير.

ولد أبو مقار فى فجر القرن الرابع الميلادى وبعض المراجع ذكرت عام ٣٠٠ تقريبا من والدين أشتهرا بالتدين. وذكر الانبا سيرابيون أن والده كان قسيسا لبلدة شبشير أحدى بلاد المنوفية الحالية فى الدلتا، ولذلك دأب مقار هذا منذ نشأته على الذهاب الى الكنيسة حيث رسمه أسقف الاقليم المجاور قارئا كنسيا، ثم أجبره أبوه على الزواج غير أنه كان ميالا الى حياة النسك والتبتل وأمتنع عن معاشرة زوجته وكان يحتج دائما بدافع المرض، ولكى يبعد مقار عن نفسه ذلك الصراع العميق أستأذن من والده فى الذهاب الى البرية بقصد الترويح وتبديل الهواء فسافر مع أحدى القوافل الذاهبة الى وادى النطرون حيث شاهد حياة النساك القاطنين فى نيتريا. ثم عاد مقار الى بلده وعلم أن زوجته قد توفيت وهى عذراء وأن والده قد فقد بصره وبقى الى جواره وقام على خدمته حتى وفاته، وما لبث أن توفيت والدته بعد ذلك بقليل. ثم خرج مقار من بلدته الى احد الاكواخ القريبة بعد أن وزع ماورثة من والديه على الفقراء وعاش ناسكا متقشفا وكان ذلك فى عام ٣١٥ ميلادية.

غير أن أقامته خارج القرية لم تدم طويلا أذ صمم فى عام ٣٣٠ ميلادية على تركها والذهاب الى نتريا مرة ثانية ليعيش بين رهبانها غير أنه ذكرت قصتان تختلفان فى سبب ذهاب مقار الى وادى النطرون. الاولى أنه أتهم ظلما بفعل الشر مع امرأة أثناء أقامته خارج القرية فثار عليه أهلها وأوسعوه ضربا حتى أجبر أن يتعهد بالعمل ليكفل نفقة تلك المرأة مدة حملها غير أنه لما تبين عدم صحة ما أتهموه به وذلك باعتراف المرأة التى نطقت ببرائته عندما تعثرت ولادتها، هرع أهل القرية اليه يطلبون منه الصفح والمغفرة على أسائتهم فلذلك ترك المكان الى الاسقيط فرارا لذاته، أما القصة الثانية فقيل أن أهل قريتة رغبوا فى رسامته قسا ليظل بينهم غير أنه كان يرغب فى ممارسة النسك وفضل الهروب الى نيتريا.

ومهما يكن من أمر هاتين القصتين بخصوص مجىء مقار الكبير الى صحراء نيتريا فأن حلوله فيها كان حوالى ٣٣٠ ميلادية وكذلك لم يدم بقاؤه بها طويلا، أذ تركها ثم أنتقل الى

صحارى القلالى «سليا» حيث تقابل هناك مع بعض القديسيين ثم أعتزلها بعيدا نحو الجنوب في المكان الذى أطلق عليه صحراء «بترا» الواقعة شمال برية شيهات عند نقطة اتصالها بصحراء القلالى. ثم حفر مقار لنفسه «فى بترا مغارة» على مقربة من أحدى القلاع الرومانية القديمة ثم حفر بئرا يستقى منها من المكان المذكور وقد ذاع صيت القديس أنطونيوس وقتئذ فى الصحراء الشرقية، حيث أنطلق اليه مقار ولبس أسكيم الرهبانية عنده توطئة بدخوله النظام الانطونى فى الرهبنة ويروى أنه ذهب مرة أخرى الى القديس أنطونيوس قبل رسامته كاهنا.

ومع أن القديس مقار الكبير هو أول من كون الجماعات الرهبانية فى «شيهات» أو «برية الاسقيط» غير أنه لم يكن أول من ترهب بها، ذلك أنه ورد فى سيرة مقار فى أحدى جولاته فى الصحراء الواقعة جنوب صخرة بترا وهى صحراء شيهات، ووصل الى مرج أخضر وفى سطه ماء وحوله شجر صفصاف وأذ لفت نظره فجأة منظر آدميين ليس على بدنهما ما يسترهما الا بعض الجلود شعرها بالغ الطول وكذلك أظافر اليدين والرجلين طويلة أشبه بأظافر الحيوان، ففزع مكاريوس منهما ثم تحدث معهما وسألهما عن كثير من الأشياء وعرف منهما أنهما من السواح[١] الجائلين فى البرية وأنهما لم يريا أحدا منذ أن سكن الرية منذ زمان طويل

(١) السواح فى تاريخ الكنيسة القبطية هم قوم نساك شديدى التقشف والتعبد مع ممارسة حياة غاية فى القسوة والعزلة الانفرادية التامة، ويقضون معظم أيامهم هائمين فى بعض الصحارى أو البرارى يتنقلون من مكان الى آخر ويقيمون فى كهوف يحفرونها لانفسهم فى الصخور ولم يخضعوا لنظام من الرهبنة الخاصة بل كان يعيش الفرد منهم حياة نسكية مريرة حسب ظروف البيئة التى وجدوا فيها. وكان الشخص من أولئك السواح لا يرتبط بالصلاة فى كنيسة معينة. ومن أمثلتهم الأنبا «بولا» الذى يعتبر أول السواح فى الصحراء الشرقية.

على أن أول السواح فى الصحراء الغربية وفى منطقة وادى النطرون هو «بطليموس المصرى» الذى روى عنه أنه جاء الى مكان يخلو من الماء فكان يطفىء ظمأه بقطرات الماء التى كان يجمعها بأسفنجة يحفظها معه لهذا الغرض كما أن اثنين لم تذكر المراجع اسميهما وقد شاهدهما القديس مكاريوس الكبير فى أحدى جولاته فى صحراء شيهات وكانا شبه عاريين أو أنهما اكتفيا بمنزرين لستر العورة. وأشهر أولئك السواح الذين سيظل اسمهما خالدا أبد الدهر هو «القديس أبو نفر السايح» وكان من أعظم النساك فى التقوى والتواضع. وكان فى الأصل راهبا من الصعيد ولد فى قرية بقرب مدينة طيبة وذكر السنكسار القبطى أن وفاته كانت فى ١٠ بؤونة بصحراء طيبة وبالرغم من أن أعماله كانت خفية وحتى مشاهير رهبان الأقباط يجهلون تاريخ حياته تماما ولم يذكر اسمه الا نادرا ولكن يظهر أن حياته كانت مثلا أعلى للنساك حتى قدر الله لها الخلود. =

ولم ينظرهما أحد من البشر سواه وأثناء تجوالهما فى البرية يشاهدون حيوانات مختلفة الأجناس.

....

= ويروى القديس «بافنوتيوس» الذى الهب الله قلبه شغفا بتفقد خدام الله من أولئك النساك والذى رأى منهم عددا كبيرا وكتب عن أخبارهم كثيرا وكان منهم القديس أبو نفر هذا، وقد شاهده عاريا تماما ولا يغطى جسده سوى شعر رأسه وكذلك لحيته المسترسلة فى الطول المبالغ فيه وأنه ارتعد من هيئته وظن أنه روح ولكن زالت شكوكه عندما رسم علامة الصليب أمامه، وبدا بتلاوة الصلاة الربانية وخصوصا عندما ناداه باسمه فقد زالت مخاوفه للتو ثم شرع فى الصلاة سويا ثم جلسا يتحادثان عن عجائب الله. وبعد ذلك سأله القديس بافنوتيوس عن سبب مجيئة فى الصحراء وكيف يعيش فيها فأجابه «أبو نفر» أنه كان يعيش في دير مليء بالرهبان الأتقياء الأطهار وسمعتهم يتحدثون يوما عن سكان الصحراء من النساك وما هم عليه من سمو الخلق وحسن الفضائل فسأل «أبو نفر» واحدا منهم عما اذا كانت فضائلهم تفوقهم سموا وتقوى فأجابوه بالايجاب لانهم يعيشون بعيدين عن سكان الأرض ويمارسون عيشة غاية في التقشف والقسوة فاذا مرض أحدهم لا يجد من يزوره واذا اشتدت عليه الهموم والكروب لا يجد من يسرى عنه من سكان الارض واذا بلى ملابسه لا يجد من يكسيه أو غير ذلك من المطالب أو الحاجيات فلا يجدون من يمدونهم بها كمثل أولئك الذين يعيشون في الاديرة. فحالما سمعتهم يتحدثون هكذا التهب قلبى وعندما أرخى الليل سدوله أخذت قطعة من الخبز الجاف وخرجت من الدير. ثم صليت وطلبت من سيد المجد أن يهدينى الى المكان الذى أذهب اليه فرحلت وسهل الله طرقى حيث التقيت بأحد القديسين من النساك وبقيت بجوار، فترة علمنى فيها طرق النسك ثم جئت الى هذا المكان حيث وجدت تلك النخلة وهى تثمر أثنتى عشر سباطة سنويا تكفى كل واحدة منها غذاء شهر كامل ثم أشرب من ماء تلك البئر، وبقيت هنا ستين عاما لم أر فيها أنسيا سواك. وفيما هما منهمكان فى ذلك الحديث ظهر ملاك الرب بينهما وناولهما من جسد ودم المسيح ثم تناولا قليلا من الزاد وتغيرت هيئة القديس أبو نفر وصار كما لو كان لهيبا من نار ثم ركع وسجد أمام السيد المسيح ثم ودع القديس بافنوتيوس وأسلم روحه فقام بتكفينه بعد أن لفه بقطعة من الكتان ودفنه بالكهف ثم أراد القديس بافنوتيوس أن يحل محله ولكن حدث بعد أتمام عملية الدفن فى الكهف أن سقطت النخلة وجفت البئر. وقد حدث ذلك بسماح من الله لكى يعود القديس بافنوتيوس الى العالم ويعلن عن حياة القديس أبو نفر. ويظهر أن كثيرين من أمثال أولئك النساك السواح أنزوت حياتهم بين ربوع الصحارى والبرارى ولم يهتد أحد الى أماكنهم وأن من عرف منهم صدفة قليل بالنسة للأعداد الكثيرة التى هامت فى الصحارى والقفار المصرية أمعانا منهم فى التقشف والتعبد للتقرب من الخالق وقد شيدت كنائس على اسم القديس أبو نفر منها فى ظاهر مصر فى نهاية القرن الثانى عشر للميلاد نقلا عما ذكره الشيخ المؤتمن أبو المكارم سعد الله كما ذكر «أميلنو Amélineau» أنه بنيت كنيسة له فى البتانون بمديرية شبين الكوم «بمحافظة المنوفية» فى القرن التاسع. ثم شيدت كنيسة ودير على أسمه فى بلدة دلجا «بمحافظة» أسيوط فى نهاية القرن الثانى عشر للميلاد، كما شيدت كنيسة له أيضا بقرية ناحية أسوان حسب رواية أبو صالح الارمنى، هذا وتعيد الكنيسة القبطية بهذا القديس مرتين سنويا الأولى ١٠ يونيو ويوافق يوم نياحته والثانية يوم تدشين كنيسته بظاهر مصر فى ١٢ هاتور. =

وقد اشتغل مقار الكبير فى «بترا» بعمل السلال التى كان يعطيها للجمالين الذين وفدوا لحمل النطرون ليبتاعوا له بثمنها خبزا يابسا ليقتات به، وذاع زهده فالتجأ اليه أعدادا كثيرة من الرهبان المجاورين الذين رغبوا فى الحياة الرهبانية على يديه وحسب ارشاداته فكان يلبسهم زى الرهبنة ويعلمهم طريقة ضفر الخوص وعمل السلال، وكيفية حفر المغارات فى التلال وتظليلها بالضعف.

ولم يكن أولئك الراغبين فى الحياة الرهبانية عنده من المصريين فقط بل جاء اليه جماعات كثيرة من روما واسبانيا وكبادوكية باسيا الصغرى وبلاد الشام وفلسطين وبلاد النوبة وأرمينيا وأقاموا فى قلالى متجاورة على صخرة بترا.. وكانت شخصية مقار الكبير سببا فى أجتذاب هذه الاعداد الوفيرة من أوروبا التى ذاع صيتها فى هذه المناطق. وكان ممن تتلمذ فى ذلك المكان على يد القديس مكاريوس الكبير من غير المصريين هما شابان يافعان من الأمراء وهما أبناء الامبراطور فالنتينس الاول المسيحى «٣٦٤/٣٧٥ ميلادية» وهو الأمبراطور الذى عرف بشدة حبه للمسيحيين من رعيته حتى لقبه المصريين باسم قسطنطين الجديد، وقد اهتم بتربية أبنائه تربية دينية حتى امتلأ القصر الأمبراطورى بصلوات مستمرة نهارا وليلا.

وقد كان رغبة الأميرين فى تكريس حياتهما لله وممارسة الرهبنة ولكن والديهما عارض هذه الرغبة، ثم طلبا منه السماح لهما بزيارة مدينة «نيقيا» فصرح لهما حيث تقابلا هناك مع أحد الرهبان ويدعى «يوحنا» أشتهر بورعه وتقواه حتى أسترعت صفاته وفضائله بعض رجال الدولة فكانوا يقصدونه دواما للتبرك بأقواله والاستماع الى مواعظه ونصائحه فاستقبل الراهب هذين

= ومن بين أولئك السواح الذين ذاع صيتهم فى مصر وخصوصا فى العصور الوسطى الأنبا «فريج» والذى يطلق عليه «الأنبا رويس» وكان يعيش فى زمن البطريرك الأنبا متاوس السابع والثمانين وذلك عام ١٢٦٠ للميلاد ويقطن على مقربة من قلايته كما أصبح من السواح المشهورين وعرف بشدة ورعه وأمانته وتعلقه بخالقه حتى وهبه القدرة على شفاء المرضى وشفى كثيرين من أسقامهم وأمراضهم الروحية والجسدية حتى كانوا يلقبونه برجل المعجزات وكانت كنيسة العذراء بحارة زويلة مكانه المفضل كما روى أن البابا كثيرا ما كان يسأل عنه ويفتقده دائما خصوصا فى أثناء الصلاة فى القداس كما قيل أنه شيع جنازته عند وفاته ودفنه فى الكنيسة المسماة على اسمه والمجاورة للكنيسة المرقسية الكبرى الآن. وكذلك الأنبا برسوم العريان كان من أمثال أولئك النساك الصالحين الذين أذلوا الجسد الى أقصى حدود الأذلال حتى تصفو وتسمو الروح وقيل أنه كان يعيش منذ أكثر من خمسة قرون وهجر الدنيا ونزواتها ليعيش أيامه متعبدا كروح بلا جسد.

الأخوين بكل ما يليق بمكانتهما من احترام وتبجيل حيث أقاما عنده مدة من الزمن ثم أطلعاه عن رغبتهما في الرهبنة. ولكن الراهب المذكور خشي من عقاب الأمبراطور فأرسلهما الى بلاد الشام عند أحد مشاهير رهبانها وهو الآب أغابيوس ليتتلمذا على يديه فأقاما عنده ست سنوات حيث عاشا حياة الزهد الكاملة بالورع والتقوى ولبسا ملابس الرهبان السوريين السوداء وقد ذاع خبر تقواهما وعرف عنهما من الصلاح وسمو الفضائل مما دعا البحارة الى كتابة اسميهما على قلاع سفنهما تبركا. وقيل أن أباهما الذى ظل يبحث عنهما دون جدوى عرف مكانهما من هذه القلاع، ولما أراد الوالد أن يرشح أحدهما ليتقلد كرسى كنيسة القسطنطينية رفض كل منهما تولى تلك الوظيفة الدينية الكبرى وصمما على الالتجاء الى منطقة النسك بوادى النطرون فركبا البحر ووصلا الى مصر ثم اخترقا الصحراء وسارا فيها حتى وصلا الى مكان القديس مقار الكبير في برية الأسقيط، ورغبا في الحياة معه. ولما وقف على قوة ارادتهما وشدة عزمهما على النسك رحب بهما وأعطاهما فأسا ليحفرا قلايتيهما ثم علمهما طريقة ضفر الخوص وعمل السلال. ثم خلع هذان الراهبان الأمبراطوريان الملابس الرهبانية السريانية وألبسهما القديس مقار ملابس الرهبان المصريين وقد فعلا هذا رغبة فى اخفاء مظهرهما عن مندوبى الأمبراطور أبيهما وكان لا يكف بطبيعة الحال عن ارسالهم في البحث عنهما.

ولما كان هذان الراهبان القديسان أجنبيين عن المصريين فلم يكن من السهل عليهما التفاهم مع النساك المصريين فظلا طول حياتهما دون زيارة أى انسان، ولم يفتحا قلايتهما الا لعامل كبير السن من عمال مناجم النطرون وكانت مهمته بيع انتاج عملهما من السلال، وعند ذهابهما الى الصلاة في الكنيسة كانا يقضيان طول فترة الصلاة دون أن يرفعا وجهيهما عن الأرض، وكان طعامهما يتكون من الخبز الجاف والملح.

ويظهر أن الحياة النسكية القاسية التى مارسها الشابان القديسان وسط تلك البرية المحرقة مع شظف العيش فى المأكل والمشرب والملبس بخلاف ما اعتادا عليه من الحياة فى قصر أبيهما الأمبراطورى كانت من العوامل التى عجلت بوفاتهما وهما فى شرخ الشباب ولم يعمرا طويلا ورحلا من الدنيا فى سنة واحدة في حوالي عام ٣٨٤ للميلاد، وقد قام القديس مقار بدفنهما بعد أتمام الصلاة على رفاتهما بنفسه فى المكان القريب من المغارة التى حفراها. وكانت أخبار

الرهبان عنهما تشيد بسيرتهما العطرة وفضائلهما وسمو أخلاقهما حتى شرع الكثير من الرهبان الى التسابق فى بناء القلالى بجوار مغارتهما، كما شيد القديس مقار كنيسة تذكارية حسنة على مقربة من تلك القلالى الجديدة التى أطلق عليها اسم قلالى «جماعة الروم». وبذلك تأسست جماعة رهبانية حول المكان الذى دفن فيه الراهبان «مكسيموس ودوماديوس» وهو غير المكان المعروف حاليا بدير البراموس كما ورد ذلك فى رواية بعض المراجع.

أما القديس مقار الكبير فأنه بعد ازدحام صخرة بترأ بالعديد من الرهبان شرع فى الانتقال الى منطقة أخرى تصبح حياته فيها أشد خشونة وقسوة أمعانا فى الزهد فانتقل داخل شيهات الى موقع جنوب الوادى وهو المكان الذى أطلق عليه اسم «أسقيط القديس مقار» تمييزا له عن سائر برية شيهات وأقام هناك داخل قلاية حفرها بنفسه ليمضى بها بقية أيام غربته فى شظف من العيش وحيث لا تتوفر المياه كثيرا بسبب أنخفاض منسوبها وقلة صلاحيتها. ولكن سرعان ما أنتشر الرهبان فى المكان وعمر بالكثير من الوفود من النساك فألبسهم مقار أسكيم الرهبانية وأمر جميعهم أن تكون جماعاتهم فى وحدات متقاربة مما يبرهن على أن القديس مقار الكبير قد فطن الى أهمية الناحية الاجتماعية فى حياة الرهبنة ولو أنه لا يوجد ما يدل على قيام نظام دير عمل القديس مقار على خلقه وايجاده فى حياته.

ولم تنقطع زيارة مقار لجماعته الرهبانية الاولى، بل دأب على تفقدها مع بعض الرهبان لوجود النخيل والبردى بكثرة على مقربة منها، فاذا قام بالخدمة الدينية من تعاليم طقسية وصلاة فى الكنيسة التذكارية فى زيارة من هذه الزيارات عاد مع جماعته من الرهبان مزودين بما كانوا يحملونه من سعف النخيل والبردى اللازمين فى العمل اليدوى للضفر وصنع الحصر والسلال، ولم يكف القديس عن الاكثار من أقامة القلالى وحفر المغاور والآبار وبناء الكنائس ليهىء الى تلاميذه العديدين كل ما يمكن لراحتهم وظل يجاهد طول حياته للنهوض بالحياة الرهبانية حتى وصلت الى عهدها الذهبى فى عصره وتبوات منطقة وادى النطرون بصفة عامة شهرة عالمية ومركزا ساميا فى عالم النسك والرهبنة. وكانت وفاة القديس مقار عام ٣٩٠ للميلاد وذكر الأسقف سرابيون فى أخبار وفاته «أن جماعة من الرهبان حملوا جسد الاب القديس العظيم الى المغارة التى بجانب البيعة التى بناها القديس، وانصرفوا الى قلاليهم بحزن

عظيم». وعلى ذلك يمكن أن نحدد تأسيس جماعة مقار الكبير «في الأسقيط» في المدة التى تقع بين وفاة القديسين «مكسموس ودوماديوس» وبين وفاة القديس أبو مقار أى بين سنتى ٣٨٤/٣٩٠م.

ويجاور دير مقار الحالى، موقع القلالى التى تكونت فيها جماعة القديس مقار، ويقال أن القديس المذكور شهد قبل وفاته جماعتين رهبانيتين أخريتين في برية شيهات، الأولى وهى جماعة القديس «يوحنا كلوبس» المعروف باسم يوحنا القصير وأصله من عائله فقيرة من مدنية البهنسا الحالية أى أقاليم «اكسيرنكس Oxrynchus» وولد عام ٣٣٩م ولما بلغ الثامنة عشر من عمره رغب فى حياة الرهبنة وقبل أن ينخرط فى سلكها رحل الى بعض الأماكن الموحشة ليدرب نفسه وليتعرف على مدى صلاحيته وقدرته على احتمال العيشة الدينية القاسية. ولما آنس فى نفسه المقدرة انصرف الى منطقة وادى النطرون ليتلمذ على القديس «بامو» الذى خلف القديس آمون بعد وفاته وأصبحت له رئاسة نيتيريا وأعداد الرهبان المنفردين فى سيليا. ورؤى أن السبب فى اختياره للقديس «بامو» لأنه كان من بلدته. فأقام فى قلالة الى جواره. ومن أغرب الاختبارات التى أجريت على يوحنا القصير هذا لقبوله فى الدخول بسلك الرهبنة. وكان لها تأثير فى حياته ما ورد ذكره عن القديس بامو أنه أعطى يوحنا غصنا جافا كان يتوكأ عليه أثناء تنقلاته. وأمره أن يغرسه على مسافة بعيدة ويتعهده دواما بالسقى بالرغم من جفاف الغصن والصعوبة البالغة فى نقل المياه اليه. ومع ذلك لم يكف يوحنا عن تنفيذ أمر معلمه حتى نبتت الشجرة أو العصا بعد ثلاث سنوات وحملت أثمارا حسب ما ورد فى القصة. وقد قدم القديس بامو تلك الثمار الى تلاميذه قائلا «خذوا كلوا من ثمار شجرة الطاعة». وقد توالت زياراته الى قلاية يوحنا يعلمه الأنجيل ويدربه على حياة النسك حتى وصل الى مرتبة عالية فاق فيها جميع زملائه بل فاق جميع رهبان منطقة شيهيت بسبب شدة تواضعه ونقاوة قلبه.

وقد أمضى يوحنا القصير فى عشرة القديس بامو اثنتى عشرة سنة وعندما قاربت أيامه على الانتهاء من هذا العالم. أوصى القديس تلميذه قائلا «يا يوحنا يا ولدى عندما أرحل من هذا العالم اذهب وعش فى المكان حيث زرعت الشجرة اذ أن هذه الشجرة التى لك الفضل فى

أنباتها هى رمز لهذه النفوس التى ستنقذها فى هذا المكان والتى ستجعل لك ذكرى أمام الله».
وعندما توفى الأنبا باميو ذهب يوحنا عند مكان الشجرة وابتنى له مغارة وسط برية شيهات. وفى مكان يقع على مقربة من دير تأسس فيما بعد وهو المعروف اليوم بدير السريان أو يوحنا كاما، ثم ذاعت سيرة الأنبا يوحنا النسكية فاجتمع حوله كثيرا من الأخوة الذين رغبوا فى الحياة حوله. وحفروا لهم بئرا لتوفر عليهم مشاق السفر الى مسافات بعيدة لاحضار الماء من الآبار القديمة. ولما زاد عدد القلالى وكثرت جموعهم بنى لهم يوحنا كنيسة حوالى عام ٣٠٠ للميلاد. الا أن رهبان هذه المجموعة فروا أوائل القرن الخامس للميلاد بسبب هجوم البرابرة وهدمهم القلالى والكنائس فى شيهات وقتل الكثير من رهبانها. ثم انتقل يوحنا القصير بمن معه من هذه الجماعة الى الصحراء الشرقية حيث كان يعيش تلاميذ القديس انطونيوس. وقد مات يوحنا القصير فى تلك الصحراء الشرقية ودفن فيها.

أما المجموعة الثانية التى شهدها القديس مقار الكبير فى برية شيهات فهى مجموعة «الانبا بشوى» وقد ولد فى بلدة «أبشنشا» بمركز أجا بمديرية الدقهلية الحالية، وتوفى والده فتولت تربيته أمه مع أخوته السبعة وكان بشوى أصغرهم. ولما بلغ مرحلة الشباب رغب فى ممارسة الحياة الرهبانية فرحل الى منطقة وادى النطرون وأصبح زميلا الى يوحنا القصير فى البرية وفعلا تتلمذ معه على يد الأنبا بامو وثابر بشوى على حياة النسك فظل ثلاث سنوات لم ير خلالها غير وجه مرشده كما عكف على دراسة الانجيل والتوراة. وقيل أنه حفظ سفر أرميا حتى لقبه البعض «بشوى الأرمى». وقد عاش بشوى مع زميله يوحنا القصير فى المكان الذى زرعت فيه شجرة الطاعة. ثم انفصل عنه بعد فترة وجيزة وسكن فى مغارة قريبة منه. ولم يعرف بالضبط التاريخ الذى بدأت فيه جماعة الأنبا بشوى الرهبانية ولكن يمكن الاستدلال عليه على أن قيامها على غالب الاحتمال مرتبط بزمن وفاة الأنبا بامو الذى حدث حوالى عام ٣٧٤ للميلاد وانتقال الأنبا بشوى الى المغارة التى عاش فيها بعد انفصاله عن الأنبا يوحنا القصير. وهذه المغارة هى النواة التى تجمعت حولها قلالى الرهبان الذين سكنوا الى جوار الأنبا بشوى وألبسهم الاسكيم كما شيد لهم كنيسة والتى كانت الرابعة فى عداد كنائس برية شيهات فى القرن الرابع للميلاد.

ولما أغار البرابرة على جماعة الرهبان فى القرن الخامس بوادى النطرون وهجموا على

جماعة الانبا بشوى هرب هو ورهبانه من وجه الغزاة. وقيل أن الانبا بشوى التجأ الى القديس بولا الطموهى وأقام عنده حتى وأفته المنية ثم نقلت رفاته فيما بعد الى المكان الذى بنى عليه ديره الحالى.

وخلاصة القول أن أول المجموعات الرهبانية الاربعة فى برية شيهات[1] بعد جماعة القديس آمون هى الجماعة التى تكونت حول القديس مقار الكبير فى «بترا» فى شمال شيهات ثم الجماعة التى تكونت حول قلاية القديسين «مكسيموس ودوماديوس» حوالى سنة ٣٣٤م. وفى المدة التى تقع بين عام ٣٨٥/٣٧٥م تكونت جماعة كل من يوحنا القصير والانبا بشوى فى وسط شيهات. ومما يؤيد هذه التواريخ بالاضافة الى ماورد فى أخبار هؤلاء الرهبان أن الرحالة الاب «يوحنا كاسيان» الذى زار برية شيهات حوالى عام ٣٨٥م رأى بها اربع كنائس وكان لكل كنيسة منها كاهن أعظم أو أيغومانس «ومن المعروف أن كل جماعة من تلك الجماعات شيدت فى وسطها كنيسة لاقامة صلوات القداس فيها.

رهبنة وادى النطرون

* النكبات التى حلت بوادى النطرون ورهبانه.
* أثر رهبنة وادى النطرون فى تاريخ الكنيسة.
* نشاط رهبان وادى النطرون عمليا وعلميا.
* أثر رهبنة وادى النطرون فى العالم الخارجى.

النكبات التى حلت بوادى النطرون ورهبانه:

كان القرن الرابع ومستهل الخامس للميلاد العصر الذهبى للوادى ورهبانه وأزدهرت فيه القلالى وأيد هذا القول رحالة الغرب الذين زاروا المنطقة فى ذلك الزمن أمثال روفينوس وبلاديوس وجيروم وغيرهم ونوهوا عن أنتشار الاديرة فيه ووصل عددها الى خمسين ديرا وبلغ عدد رهبانه خمسة الاف راهب. وكانت المنطقة تنعم بالسكون والهدؤ العجيب وخصوصا فى

(١) على مقربة من منطقة شيهات أو الاسقيط كانت توجد بلدة «بيامون» التى ورد أسمها فى قصة أل ٤٩ شيخا الذين قتلهم البرابرة فى أحدى غزواتهم على الرهبان ودفت أجسادهم بتلك القرية. وفى أوائل القرن الخامس أقامت الحكومة الرومانية قلعة لحماية المنطقة من غارات البرابرة.

زمن القديس مقار الكبير أشهر مؤسسي الرهبنة في الوادى المذكور[١] ولكن لم تدم تلك النهضة المباركة أذ بعد وفاته بقليل أغار على المنطقة وجميع أديرتها البرابرة والحقوا بها الخراب والدمار. وقيل أن مقار الكبير كان قد تنبأ بما حل بها من نكبات البربر ولم يكفوا عن هجماتهم وأعمال السلب والنهب والقتل بذلك الوادى وتكررت غاراتهم عليه فترات عديدة وفي عصور مختلفة نذكر منها على سبيل المثال:ـ

(١) **الغـارة الاولى:** حدثت حوالى عام ٤١٠ للميلاد. وقد كانت فى عهد البطريرك الانبا ثيوفيلس وهو البابا الثالث والعشرين من ٣٨٥/٤١٢م وقد أيد حادثة ذلك الهجوم القديس ارسانيوس[٢] فى مذكراته.

---

(١) أكتسب الوادى صفة التقديس بسبب ما ذاع بين المسيحيين من رواية التجاء السيدة العذراء مع طفلها المقدس أبان هروبها الى أرض الوادى المذكور. كما أعتاد بطاركة الاسكندرية المجيء الى برية شيهات لدير مكاريوس الكبير للقيام بمهمة طبخ الميرون. كما كانت التقاليد تحتم على البطاركة أن يقيموا أول قداس لهم بعد الرسامة فى مدينة الاسكندرية فى دير أبى مقار فى هذا الوادى. وكان المكان الهادىء الامين الذى لجاء اليه البطاركة أبان فترات الفوضى والمنازعات والاضطهادات التى تعرضت لها البلاد فى العصور المختلفة.

(٢) كان أرسانيوس رومانى الاصل من أسرة عريقة من الشيوخ ومن رجال البلاط وفيلسوفا ذائع الصيت ولهذا تقلد مناصب رفيعة فى العصر الامبراطورى وقد روى عنه أنه مربى أبناء الملوك ربما كان له فضل فى تهذيب وتعليم أولاد الامبراطور «ثيودسيوس» وقد رغب فى ترك حياة المظاهر العالمية وممارسة معيشة التنسك. فرحل الى وادى النطرون ببرية شيهات وهناك وصل الى قلاية القديس «يوحنا القصير» الذى عرف أنه أحد رجال البلاط بقصر الامبراطور أركاديوس ابن تاودسيوس الكبير. وبالرغم من أن أرسانيوس توسل فى تواضع وتذلل وخشوع للقديس يوحنا برغبته للدخول فى الرهبنة الا أن القديس أظهر له احتقاره فى أول الامر ولم يعبأ بعلو مركزه بل تركه واقفا على بعد وجلس لتناول طعامه مع رهبانه وبعد برهة القى اليه الانبا يوحنا قطعة من الخبز الجاف وهو فى مكانة فانحنى أرسانيوس من بعيد ليتناولها ولما رأى ذلك منه تأكد من صلاحيته للرهبنة ورحب القديس يوحنا القصير به بين الرهبان. ويظهر أن الجفاف والخشونة مع القسوة مع الراغبين الاحداث لدخول الرهبنة أمر لابد منه لاختبار مدى طاعة الشخص وتواضعه. والقديس أنطونيوس أعطى الى مكاريوس الكبير درسا فى أحتقار ذاته عندما ذهب ليتتلمذ عليه وقد أصبح هذا النظام قانونا يتبع لا مع حديثى الرهبنة من المصريين وأيضا مع الاوربين. فقد روعى بين قوانين الرهبان والديريين هناك. ويروى عن أرسانيوس ترك برية شيهات حوالى عام ٤١١م وذهب الى كانوب على مقربة من الاسكندرية حيث زاره البطريرك ثيوفيلوس عدة مرات. وقيل أنه رفض أثناء أقامته بكانوب مقابلة سيدة رومانية قد عبرت البحر لتظفر بكلمة منه. ثم أقام مدة فى بلدة «تروجا» وهى طرا الان بين القاهرة وحلوان وسافر أكثر من مرة من تروجا الى كانوب والاسكندرية فى أخريات حياته. =

(٢) **الغارة الثانية**: وقعت بالمنطقة المذكورة بعد عشرين عاما من الغارة الاولى أى حوالى عام ٤٣٠م وذلك فى زمن كيرلس الكبير البطريرك الرابع والعشرين ٤١٢/٤٤٤م. وهرب أغلب الرهبان منها ولم يبق بها الا القديس أرسانيوس غالبا. وقد أقام فى الجبل وحده وظل هناك متوكلا على الله مرددا هذه العبارة «أن عناية الرب تشمل الجميع وما من أمر يحدث الا بمشيئته. فلو كان الله قد أراد التخلى عنى فلماذا أتمسك بالحياة». وروى أن أرسانيوس كان يمر بعد ذلك بين صفوف اللصوص المسلحين دون أن يشعروا به لان الله يخفيه عن أبصارهم. وقيل أن عهده فى برية شيهات كان زاهرا فى الرهبنة كما أخذت أعدادا وفيرة من الرهبان الوفود للصحراء وعمروا كثيرا من القلالى.

(٣) **وكذلك حصلت غارة ثالثة**: على الوادى من البرابرة أيضا وكانت فى زمن البابا ديوسقورس البطريرك الخامس والعشرين من ٤٤٤/٤٥٨م. وقد ذكر أن بين من أستشهد فى تلك الغارة القديس موسى كما قتل كثير من الرهبان. والظاهر من واقع الامر أنه بعد كل غارة من انقضاض البرابرة على الوادى ونهب ما فيه وقتل الكثير من نساكة واحلال الدمار فيه وهروب البقية من الرهبان كان يعمد الكثير من أهل الاحسان والبر من المسيحيين وبعض البطاركة الى تعمير ما تخرب من أديرته وقلالية وكنائسة بقصد أعادة المنطقة الى سابق عهدها المجيد والتشجيع الى رجوع النساك اليه وتعميرة وكانت تدب الحياة فى المنطقة وتزداد وفود النساك وتزدهر برهبانها كما كانت. ولا ننسى أهل الفضل وما كانوا يغدقونه على أولئك الرهبان من نذور وكل ما كانوا فى حاجة اليه. وقد حدث فى عهد البطريرك يوحنا الراهب التاسع والعشرين ٤٩٤/٥٠٣م أن أغدق الامبراطور «زينون» الذى أشتهر بالتقوى وطيبه القلب على دير القديس مكاريوس الكثير من لوازم الدير ورهبانه.

(٤) وكان تكرار هجوم البرابرة على منطقة وادى النطرون لا ينقطع خصوصا أذا ما ترامى الى علمهم بانتعاش الاديرة وازدهارها فكانوا يعيدون الكرة والانقضاض على الاديرة ورهبانها وسلب وقتل وتشتيت سكانها من الرهبان. وكان فى تلك الفترة فى عهد البطريرك دميانوس

=وقد توفى أرسانيوس بعدما عمر طويلا ودفن فى المكان الذى قضى فية بقية أيامه بالدير المقام فوق جبل طرا بالقرب من القاهرة. وقد بناه الامبراطور أركاديوس وحسب ما روى أنه توفى قبل أرسانيوس بعشرين عاما وقد تناول أبو صالح الارمنى من القرن ١٢ وكذلك المقريزى من القرن ١٥ وصف الدير المذكور وكان يسمى دير القصير أو دير البغل.

الخامس والثلاثين من ٥٦٩/ ٦٠٥م. بعدما حل السكون والسلام بوادى النطرون وعمرت الاديرة الاربعة وأخذت في النمو. وقد أحرقوا وقتلوا الكثير من سكان الوادى مما أحزن البابا المذكور كثيرا. وقد زار البابا بنيامين الثامن والثلاثين من ٦٢٢/٦٦١م أديرة وادى النطرون حوالى عام ٦٣٠م وعلم بما يلاقى الرهبان من مصاعب ودمار من هجوم الاعداء وما يحدثونه من خراب. وقد أعاد ما تخرب منها كما دشن كنيسة جديدة على الجبل المقدس وهو مقر القديس مقار الكبير عند سفح القلالى.

(٥) وقبيل نهاية أيام البطريرك مرقس الثانى التاسع والاربعين من ٨٠٩/٨٧٦م نعم الوادى بالسكون الشامل والازدهار. ولكن فجاه تعرض لهجمات البرابرة فأعملوا السب والنهب والقتل بين نساكة وحل به الخراب كالمعتاد فهرب أغلب الرهبان وتشتتوا فى جميع أنحاء القطر كما أسروا عددا كبيرا من نساكة وقد أثر هذا الحادث تأثيرا شديدا على البطريرك مما أفجعه كثيرا فمات كمدا بسببه.

(٦) وكان البطريرك شنودة الخامس والخمسين من ٨٥٩/٨٨١م قد أشتهر بشدة ورعة وتقواه واصلاحاته العديدة التى قام بها وخاصة بوادى النطرون وغرس الكروم والبساتين ومعاصر للزيوت وأساس لانشاء الكنائس منها كنيسة كبيرة أطلق عليها أسم كنيسة القديسين وتلاميذه. وكانت أعماله هذه مما شجعت الكثير من المؤمنين على مساعدته. وقد شاهد أن اعداد الرهبان بدأ ينمو ويزداد فى وادى النطرون ويعود اليه ازدهاره ولذلك فقد عزم البطريرك المذكور هو وحاشيته على زيارة وادى النطرون اثناء عيد الفصح. والظاهر أن هذه الاخبار وصلت الى مسامع البرابرة فقدموا سرا من الوجه القبلى واستولوا على كنيسة القديس مقار وتوابعها ونهبوا ما فيها من متاع وزاد. ومنها طافوا بالاديرة الاخرى طردوا من فيها من رجال الدين وغيرهم بالقوة بعد أن جردوهم مما عليهم. وهذا ما ذكره المؤرخ «كاترمير» فى رسالته عن مصر «ج٢ صفحة ٤٧٦ و ٤٧٧» ومن كتاب الامير «طوسون صفحة ٤٤».

وقد ذكر كاترمير أيضا أن هذه الاديرة عانت كثيرا من المصائب بعد ذلك بزمن يسير. فقد ألقى الاعراب رحالهم فى الصحراء وأخذوا يرتقبون خروج الرهبانى للتذود بالماء فينقضون عليهم ويأخذون أوانى الماء منهم ويجردونهم مما عليهم. ولما عادت السكينة وأستتب الامن أهتم هذا البطريرك بترميم دير القديس مقار الكبير واحاطه بسوير منيع بقصد حماية الرهبان والمسيحيين من أذى وسطو الاعراب فى المستقبل.

نتائج غارات البرابرة المتكررة

كان لتكرار الهجمات الوحشية على الوادى وأديرته علاوة على ما أفنته من رهبانة وتشتيت شمل ما كان يتبقى منهم فأنها أبادت تراثا لامعا لا يقدر بثمن من كنوز علمية جادت بها أسمى قرايح الانسانية من نتائج أفاضل أولئك الاباء القديسين الذين كانوا نبراسا منيرا ومباركا بتعاليمهم النورانية السامية لا للوادى وسكانه وما حوله من بلدان القطر فحسب بل وغيره لجميع شعوب المسكونة بأجمعها بدليل تأثير تعاليمهم البالغة على أقطار بلاد الغرب وتهافت شعوبهم على أقتناء بعض ما تركوه من مؤلفات ومخطوطات قيمة واقتدوا بهم فى تنفيذ ما حصلوا عليه من تعاليمهم. كما أملت تلك الغارات اللعينة وأحداثها على بعض البطاركة وكثير من المؤمنين والرهبان الى التفكير فى حماية تلك الاماكن المقدسة وما لها من أنبل الذكريات وكذلك حفظ حياة نساكها من غدر وهجوم أولئك البرابرة لها. فبدات فكرة تشييد الحصون الداخلية المسماة «بالجواسق» فى كل مناطق الاديرة المختلفة التى مازالت باقية وقائمة حتى الان بالرغم من زوال غارات اولئك البرابرة وهى تدل على مقدار ما كان يعانيه الرهبان من ظلم ووحشية تنفر منها الانسانية من أولئك الوحوش الادمية. وزيادة فى الحماية أحاطوا الاديرة من الخارج بالاسوار الضخمة العالية واحكموا أغلاقها أمعانا فى الامان من شرهم.

ولقد نوهت أغلب المصادر التاريخية على اختلافها على أن بيوت العبادة وقلالى النسك والاماكن التى انشئت لكى يذكر فيها أسم الخالق وتمجيده ولنشر السلام والبر والعدالة على الارض تعرضت من وقت لاخر الى هجوم العربان واللصوص والفرس والقبائل البربرية المتوحشة وغيرهم من جيش الخرسانيين وقضت عليها أو على معظمها قضاء تاما. وكان من تلك النتائج التى أساءت الى الرهبنة المصرية على مرور العصور أنه لم يبق من تراث الاباء النساك فى الوجه البحرى من مئات[1] الاديرة على اختلاف أنواعها الا أربعة أديرة للرهبان فى منطقة وادى النطرون الان وكذلك أربعة أو خمسة أديرة خاصة بالعذارى من الراهبات.

أما الاديرة الخاصة بالنساء الان وباقية جميعها بالقاهرة وبعضها فى مصر القديمة وبجوار الكنائس. فقد تناول الكلام عنها مؤرخ العصور الوسطى «تقى الدين المقريزى» وذكر أنها

(١) أمتلات الصحارى وبقاع عديدة بالوجهين بالاديرة والقلالى والنساك حتى قيل أن المسافر من الاسكندرية لاسوان بالقرنين الخامس والسادس لم يكن فى حاجة لان يحمل زادا للطريق فكان يمكنه التزود بما يحتاجه للرحلة من الاديرة والقلالى المنتشرة بكثرة على أطراف وادى النيل وصحارية الشرقية والغربية.

كانت معروفة في زمانة وكانت عامرة بالبنات المترهبات أو العذارى الابكار كما كان يطلق عليهن في أيامه. ولكل دير منها رئيسة لتقوم بالاشراف عليه ومراعاة طقوس العبادة والصلوات حيث يذهبن الى الكنائس المجاورة لها.

وهذه الديارات الان هي:ـ

١ـ دير الامير تادرس بحارة الروم شرقي كنيسة العذراء وتقيم فيه من الراهبات عدد ١٣.

٢ـ دير مارجرجس للراهبات بحارة زويلة. وعدد راهباتة ٤٠.

وبه مقصورة عالية يرجيع تاريخها الى القرن العاشر للميلاد.

٣ـ دير العذراء للراهبات بحارة زويلة وهو بجوار الكنيسة وقد ذكر المقريزى فى كتابة. وقد جدد بناءه الانبا مرقس البطريرك الاول بعد المائة من ١٦٤٢ الى ١٦٥٢م. ثم البطريرك الانبا كيرلس الخامس وبه عدد ٢٥ راهبة.

٤ـ دير القديس مرقوريوس أبي السيفين بجوار كنيسة أبي سيفين بمصر القديمة وبه مقصورة بها صورة قديمة أثرية للقديس أبي سيفين. وقد جدد بناءه أيضا الانبا كيرلس الخامس.

وعلى نفس نظام أديرة البنات أخذت البلاد الاخرى من الشرق أو الغرب نظامها فى رهبنة النساء وأقامت على أساسها الاديرة التي تقوم راهباتها بالخدمات الانسانية القويمة.

مواقف رهبان وادى النطرون وأثرها فى تاريخ الكنيسة القبطية

كانت جماعات وادى النطرون من الرهبان يكونون قوة لا يستهان بها ورأى فيها بطريرك الاسكندرية أشبه بجيش هائل على أهبة الاستعداد للدفاع عنه وعن مبادئه. وكانوا سببا فى زيادة سلطان البابا وازدياد جبروته[1] وعلى الاخص بعد تولي عرش الامبراطورية من هم من الموالين للمذهب الاثناسيوسي. وقد حدث أن طلب الانبا ثيوفيلس البابا من الامبراطور «تاودوسيوس الاول» وقتئذ السماح له بالاستيلاء على معبد «باكوس Bacchus» لانشاء كنيسة فى مكانه فتم له ما أراد. وكان هذا القرار مما شجع الانبا ثيوفيلس على القضاء على

(١) وصلت سلطة البابا فى وقت من الاوقات الى تحدى سلطة الحكام كما حدث فى عهد كيرلس الكبير «٤١٢/٤٤٤م» الذى نازع والى الاسكندرية فى سلطته أذ أستخدم البابا المذكور جيش الرهبان لطرد اليهود من الاسكندرية بالرغم من شكوى الولاة من هذه السطوة. الا أن البلاط الامبراطورى أهمل=

جذور الديانات السابقة في الاسكندرية. واستخدم في هذا الشأن جيش الرهبان الذى كانت تتكون الغالبية منه من منطقه وادى النطرون. ودمروا معبد سرابيس أعظم معاقل الآلهة السابقة. وقصة دخولة لهيكل سرابيس هذا وهدمه وتدمير تمثاله الهائل. وفرار مجموعة اتباعه وذلك بزعامة الانبا ثيوفيلس البطريرك. الذى شجع بعمله هذا أن يقضى المسيحيون على كل أماكن الديانات السابقة بالاسكندرية والاقاليم وتحطيم ما فيها من التماثيل والصور القديمة.

كذلك ساهم الرهبان بنشاطهم المتواصل فى القضاء على أصحاب التعاليم الدخلية التى تتسم بالهرطقة من أتباع آريوس(١) كما أعتمد باباوات الاسكندرية على رهبان وادى النطرون فى جهادهم المستمر للتخلص من سلطان الاباطرة تحت ستار المناقشات البيزنطية فى الأمور الدينية.

= شكواهم ولم يعبأ بها فأدى هذا بطبيعة الحال الى التمادى فى النفوذ والصولة حتى أتهمت الرهبان بمقتل الفيلسوفة «هيباشياه «أبنة الفيلسوف» «ثيون» التى كانت تشرف على أدارة المدرسة الافلاطونية الحديثة بالاسكندرية. وهنا فقط تدخل الامبراطور أركاديوس وأصدر أمره بعدم تدخل رجال الكليريوس فى المسائل السياسية وتحديد عدد خدام الكنيسة. ولكن لم ينته النزاع بين البابوات والاباطرة عند هذا الحد بل ظل حتى الغزو العربى للبلاد.

(١) كانت أخطر البدع التى ظهرت فى الكنيسة هى هرطقة «أريوس» وقد استعان البابا بالرهبان لمحاربتها ومضمونها يقول.

«أن المسيح مخلوق وأنه ليس أزلى أزلية الله وعلى ذلك لا يساوى الابن للاب فى الجوهر وأن نال السلطان من أبيه الذى هو أعظم منه».

وقد أنبرى القديس أنطونيوس للاشتراك فى الدفاع ومحاربة هذه البدعة وكان من أبطالها العظام القديس أثناسيوس العظيم. فسافر الانبا أنطونيوس خصيصا الى الاسكندرية وكان وقتئذ شيخا جليلا للدفاع ودحض تلك البدعة. كما والى الكتابة مؤكدا وحدانية الجوهر أو الكلمة. وقد أنضم اليه رهبان نيتيريا بوادى النطرون الذين أصبحوا يجلون أثناسيوس كثيرا وبعد اختفائه هناك عندهم عدد من السنين فى فترة أقصائه الثالث عن كرسى الباباوية من سنة ٣٥٦ و ٣٦٢م.

وقد أنضم رهبان الانبا باخوميوس كما ورد فى رسالة الانبا تادرس رئيس الدير وقتئذ لمحاربة هرطقة آريوس وفيها قاد رهبان وادى النطرون عامة الشعب لمعارضة تعاليم آريوس ومحاربتها.

وهذا دفع الاريوسيون الى الهجوم على هؤلاء الرهبان عندما سنحت لهم الفرصة. وكانت فى زمن البابا بطرس الثانى البطريرك الحادى والعشرين الذى خلف القديس أثناسيوس على الكرسى المرقسى بخلاف رغبة الامبراطور فالنس الاريوسى المذهب والذى لم يرجع اليه الرهبان فى أنتخابه، فأراد الامبراطور فالنس هذا أن يمكن أتباع آريوس من القضاء على أتباع المذهب الاصيل الذى وجد فيهم قوة لمقاومة الاستعمار البيزنطى على مصر. وقد أخذ شأن أتباع آريوس فى الافول بعد وفاة الامبراطور فالنيس وبدأت جماعات=

ومن أهم أعمالهم الجلية قيام الرهبان بنسخ الانجيل باللغة القبطية بدقة والعمل على التوسع بنشره بين الناس وزيادة نسخه رغبة في التخلص من الاراء الدخيلة على الكنيسة لتدعيم القومية القبطية حتى أن الحضارة البيزنطية رغم ما كان لها من الصولة والجبروت

....

= رهبان وادى النطرون في الانتعاش والهدوء. ولكن عكرصفو هذا الهدوء قيام بدعة أخرى قام بها أحد رهبان الوادى عام ٣٨٥م ويدعى «هيراكس Hierax» فقد خرج بتعاليم مخالفة للمسيحية ومنها أراء خطيرة بان الزواج خطيئة لا تغتفر وأنه ليس هناك قيامة للاجساد بعد الموت ولكن الأرواح هي التي تبعث فقط. واعتمد في هذا الرأى على ما ورد في رسالة بولس الرسول الى العبرانيين عن ملكي صادق الكاهن في وقت سيدنا ابراهيم، وأنه بلا أب وبلا أم بلا نسب بلا بداية أيام أو نهاية حياة، واعتبر روحا رمزيا ونفي وجوده المادى.

وكانت تلك التعاليم ذات تأثير كبير على حياة بعض النساك البسطاء فانقادوا لها فلما سمع بأخبارها الانبا ثيوفيلس البطريرك الثالث والعشرين خشى من استفحال أمرها فسارع بأصدار أوامره الى القديس مكاريوس الكبير ليعقد مجمعا مكانيا لبحث تلك المشكلة وشكل مكاريوس المجمع من بعض شيوخ البرية الذين أستعرضوا ما جاء في الاصحاح السابع من رسالة بولس الرسول الى العبرانيين وهو قوله «لان ملكي صادق هذا ملك ساليم كاهن الله العلي» الذى أستقبل ابراهيم راجعا من كسرة الملوك وباركة، الذى قسم له ابراهيم عشرا من كل شيء أولا ملك البر ثم أيضا ملك ساليم أى ملك السلام، بلا أب بلا أم بلا نسب لا بداءة أيام له ولا نهاية حياة بل هو مشبه بأبن الله هذا يبقى كاهنا الى الابد ثم أنظروا ما أعظم هذا الذى أعطاه ابراهيم رئيس الاباء عشرا أيضا من رأس الغنائم وأما الذين هم من بنى لاوى الذين يأخذون الكهنوت فلهم وصية أن يشروا الشعب بمقتضى الناموس أى أخوتهم مع أنهم قد خرجوا من صلب ابراهيم ولكن الذى ليس له نسب منهم قد عشر ابراهيم وبارك الذى له المواعيد وبدون كل مشاجرة الاصغر يبارك من الاكبر...»، وانتهى المجمع الى تفسير مشكلة ملكي صادق بان تاريخه معروف وأنه من أصل بشرى وأن والديه معروفان فابوه هيراقلاس وأمه أستريا وكانا وثنيين ولكن ملكي صادق تحول الى عبادة الله الحقيقي ولما رأى والديه لم يمتنعا عن تقديم الذبائح الى الكواكب دعا الله ان يبيدهم ففتحت الارض فاها وابتلعت عائلته، وتركته بلا أب وبلا أم،. وعاش ملكي صادق سبع سنوات بعد هذه الحادثة في القفار حتى استدعاه سيدنا إبراهيم ليصبح كاهنا لله العلي. وهكذا استطاع البطريرك تيوفيلس أن يقضي على هذه الهرطقة، وهو في عاصمة البلاد ولم تكلفة هذه المشكلة سوى اصدار أمره الى زعيم من زعماء الرهبان بوادى النطرون لدحضها والقضاء عليها في مهدها.

وأشتهر الرهبان باهتمامهم بالنواحي العلمية والدراسات العميقة المتصلة بالدين المسيحي من العهدين ومؤلفات زعماء المسيحية الاوائل، واهتموا بتعليم الرهبان الاميين ومعرفة الكتب المقدسة. واشتهر البعض بحفظ اجزاء كبيرة من الكتب المقدسة عن ظهر قلب حتى كان ذلك مضرب الامثال بين رحالة الغرب وذاع صيت «سرابيوس». في كل ما يتعلق بعلم اللاهوت والاكثار من نسخ الكتب ونشرها وتوزيعها على بعض الكنائس الفقيرة فساهموا في نشر الحركات العلمية. وقد تسب لمكاريوس الاسكندرى تدوين كتابه «قانون رهباني» من ثلاثين مادة شملت القداسة والتواضع وانسكاب الروح والعمل والصمت والسهر الخ..

وتيارها القوى لم تقو على الحاق أى ضرر أو مساس بالاداب أو القومية القبطية ـ فكان للرهبانية المصرية الاثر الاكبر فى هذا الاتجاه القومى الجيد. ولم تقف جهود الرهبان عند هذا الحد بل أنهم قاموا بنشاط عظيم فى تحويل بعض الوثنيين الى أعتناق المسيحية لاعن طريقة استعمال الشدة أو العظات الكلامية وأنما بسلوكهم الذى كان عظة صامتة لاولئك الوثنيين.

النشاط العلمى والعملى لرهبان وادى النطرون

العمل اليدوى عند الرهبان ضرورى وكما نوه بولس الرسول فى أقواله عن أهمية العمل للعابد المسيحى وهو نفسه كان يعمل ليعيش من ممارسة عمل الخير. كذلك من قوله المشهور «أن من لا يعمل لا يأكل» كما أكد بولس الرسول مرة أخرى أهمية العمل فيما تحدث به الى كهنة كنيسة أفسس فى قوله «أنتم تعلمون أن حاجاتى وحاجات الذين معى خدمتها هاتان اليدان». وقد عاش القديس أنطونيوس فى بداية حياتة الرهبانية دون أن يفطن الى كسب عيشة عن طريق العمل اليدوى. فقبل بعض الخبز الذى أحضره اليه بعض الرفاق. ولكن لما شعر بأن الملل بدأ يتسرب اليه وقراء التعاليم المسيحية التى نادت بأن الكسول لا يأكل بدأ يشغل بعض وقته فى العمل اليدوى فى صناعة السلال. وكان يبيعها له أحد تلاميذه وينفق جزءا منها على قوته والباقى يتصدق به. فأصبح العمل حتميا لا لسد مطالب الحياة بل ولمنع محاربة الشياطين للنساك. وقيل عن القديس «هور» أنه منذ دخوله صحراء نيتريا عاش فى قلايتة التى بناها بنفسه ولم يأكل خبز الكسل طول حياته. ورهبان آمون كسبوا عيشهم من استخراج النطرون وبيعه للقوافل وكان الشيوخ منهم يعلمون الشباب وغيرهم من القادمين عليهم الراغبين فى الرهبنة حولهم طريقة العمل اليدوى كما علم القديس مقار الكبير تلاميذه طريقة ضفر السعف والليف لعمل الحبال. كما عمل منهم فى الافران كما أشتغل البعض منهم أيضا فى غزل ونسيج الكتان اللازم لصنع ملابسهم ومنهم من عمل أسكافيا أو الخدمة فى المطعم لتقديم ما يلزم للرهبان عند تناول الاكلة العامة التى يشتركون فيها أو فى تنظيف الكنيسة أو لخدمة الرئيس أو بعض الاخوة أثناء المرض أو الاشتغال بالزراعة للخضر والفاكهة فى الحديقة أو المساعدة فى بناء القلالى والصوامع الكبير التى أستقبلت جماعات عديدة من الرهبان كما أن هناك من الرهبان من تولى جمع السعف والجريد والاخشاب والاحجار والمواد الاخرى اللازم للبناء.

وتتضح أهمية العمل اليدوى فى قول أحد اباء وأدى النطرون ينصح فيها أحد الرهبان «أهتم بعمل يديك مارسة أن أمكنك ليلا ونهارا لكى لا تثقل على أحد، حتى يكون لك ما تعطى المسكين حسب ما أمر به الرسول، لكى تصرع شيطان الضجر وتزيل عن نفسك بقية الشهوات لان الشيطان منكب على البطالة وهو فى الشهوات كامن. وذات مرة سأل مرة الاب «بيمين» قائلا: قل لى كلمة «فأجابه قائلا: وأظب على عمل يديك ما استطعت ذلك لتعمل منه صدقة لانه مكتوب ان الرحمة تطهر الخطايا. وفى الاسقيط أصبح العمل اليدوى أجباريا ولعدد أكثر من الساعات وذلك بالنسبة لشباب الرهبان على أنهم لم يعفوا من العمل فى بعض أيام القديسين التى كان يمكن أعفاء بعض الرهبان من العمل فيها، والغرض من ذلك ضرورة شغل أوقاتهم حتى لا يفكر الواحد منهم فى أشباع غرائزه الشبابية. وأصبح لزاما على جميع الرهبان سواء عاشوا جماعات أو أفرادا أن يحملوا عملهم اليومى لتقديمه لرئاستهم، التى تولت بيعه والانفاق على سائر الرهبان الذين حملوا معهم مؤنة الاسبوع والخامات اللازمة لعملهم اليدوى عند عودتهم الى قلاليهم بعد نهاية الكنيسة واجتماع الاحد.

الموارد المادية للرهبان وكيفية التصرف فيها

علمنا ما كان يكسبه كل راهب لمعاشة عن طريق العمل اليدوى وهو من الموارد الاساسية لجميع الرهبان ويضاف اليه مورد آخر فى غاية الاهمية وهو ما يكتسبه الرهبان فى فترة الحصاد، اذ عرف عن خروج الراهب «هور» وتلاميذه والقديس مقار الكبير ومعه ثلاثمائة من الرهبان للحصاد فى الضياع القريبة من هذه الجماعات فى أقليمى برقا وغرب الدلتا ويلاحظ أن رهبان سيليا لم يفكروا فى الاشتراك فى هذا العمل لبعدهم عن الاراضى الزراعية نسبيا. ورجع الرهبان بعد الحصاد حاملين أجورهم وقيل أن أغلب الرهبان عملوا بنشاط فى فترة الحصاد حتى بلغ ما حصله الواحد منهم حوالى ثمانين مكيالا من الحنطة وأودعت كميات القمح التى جمعت فى مخازن الجماعة الرهبانية، وفى هذا ما يدل على أن الرهبان تقاضوا أجورهم من عين المحصول.

كذلك ما كان يحمله نصارى مصر من فاخر النذور والقرابين ومحاسن التحف، وما كان يقدمه أغنياء الدولة الرومانية الذين نظروا للرهبان نظرة أجلال وتقدير، وغيرهم من المسيحيين الذين كانوا يحضرون للزيارة تبركا وطلبا للشفاء من بعض الاسقام والتى أشتهر بعض شيوخ

من أولئك الرهبان من أبرائها وكان ذلك من الموارد ذات الاهمية. أذ يروى عن عذراء مريضة جاءت من بلدها تسالونيكى وتركت للقديس مكاريوس الاسكندرى كيسا كبيرا ملئتة بالقطع الذهبية. ثم أن أحد أغنياء القسطنطينية وضع مبلغا عظيما من المال عند قدمى مكاريوس الكبير، ومن الموارد الهامة أيضا والتى أثرت فى أنعاش الرهبان أقتصاديا ما قدمه اليهم بعض أباطرة الدولة البيزنطية مثل الامبراطور أركاديوس الاثناسيوسى المذهب فقد أرسل مكتوبا الى واليه بمدينة الاسكندرية يأمره فيه أن يدفع للقديس أرسانيوس الذى كان معلما للامبراطور قبل ترهبة فى وادى النطرون ضريبة سنة ليصرفها كيف شاء فشكره القديس أرسانيوس وأردف بقوله، «ماكتبتهم به الى من المال فليأمر جلالتكم أن يقسم على ذوى الحاجة وأبناء الديارات، ورب المجد يجازيك عن ذلك» ثم توالت بعد ذلك أعطيات الاباطرة المسيحين للرهبان حتى أننا نجد فى القرن الخامس الميلادى أمرا من الامبراطور زينون سنة ٤٩١/٤٧١ ميلادية بان ينقل الى دير أبى مقار جميع ما يحتاجه الرهبان من قمح وزيت ونبيذ وغيره مما يلزم أصلاح القلالى.

وهناك منبع اقتصادى آخر وهو ما أحضره الراغبون فى الرهبنة من مال جمعوه من بيع أملاكهم وقدموه لشيوخ الرهبان ليبقى تحت تصرفهم تشبها بما فعل المسيحيون الاوائل فى العهد الرسولى الذين باعوا أملاكهم وقدموا أثمانها للرسل ليكون كل شيء فى حياتهم مشتركا بينهم، وأن الراهب «أبو لونيوس» الذى أشتغل بالتجارة فى شبابه بالمدينة وربح منها أموالا طائلة، عندما فضل حياة الرهبنة باع كل تجارته واشترى بمالة بعض حاجيات أخذها معه الى خمسة الاف راهب فى نيتريا وعاش هناك راهبا مدة عشرين عاما.

ونوه الرحالة الذين زاروا وادى النطرون ان رهبان نيتريا صنعوا الكعك وباعوه للزائرين، ويقصد به قطع صغيرة من الخبز الذى يخبز بعد تعريضه للشمس وهو المعروف الان بالعيش الشمسى. ومن مجموع تلك الموارد كان ينفق الرهبان على أنفسهم كما كانوا يقدمون الطعام لزائريهم عملا بتعاليم الانجيل الداعية الى أضافة[1] الغرباء وكذلك أعطاء الصدقات الى

(١) الضيافة والزيارة عند الرهبان من التقاليد الهامة التى يعهد بها رئيس الجماعة الرهبانية والمشرف الاقتصادى فهو يستقبل الغرباء والراغبين فى الشفاء وأيوائهم فى بيت الضيافة الواقع بجوار الكنيسة وهو المرشد لهم بالتعليمات الواجب أتباعها فى سلوكهم مع الرهبان ـ ويمتاز مكان الضيافة بأعداده بكل وسائل الراحة للمرضى والزائرين وفية فئة من الرهبان خصصة شيخ الرهبان للقيام بخدمة المرضى=

الفقراء فقدموا كميات كبيرة من غذائهم ومن الاقمشة التى نسجوها الى فقراء المنطقة المحيطة بهم كما أرسلوا سنويا سفنا الى الاسكندرية مشحونة بالقمح لتوزع على المسيحيين المسجونين فى سجونها والغرباء والمحتاجين فى عاصمة البلاد.

ومما أطلعنا عليه من معلومات هامة فى هذا الصدد الرحالة «روفينوس» الذى زار نيتريا حوالى عام ٣٧٤ ميلادية فيذكر أن حالة الجماعات الرهبانية الاقتصادية فى وادى النطرون قد أنتعشت فى النصف الثانى من القرن الرابع انتعاشا كبيرا وذلك عن طريق أضافة المنح والهبات السابق ذكرها الى الموارد الناتجة من عمل الرهبان أنفسهم حتى أصبحت الجماعات الرهبانية تعطى للكنيسة بسخاء.

وسائل أدارة شئون جماعات الرهبان بالوادى

كان لكل منطقة من جماعات الرهبان رئيسها الخاص وله سلطة الاشراف على الادارة العامة فيها وأذا زادت الاعداد التى كانت تلتف حوله من النساك ترتب على ذلك زيادة المطالب وكثرة الاعباء التى تتطلبها تلك الزيادة المطردة فيتحتم ضرورة تعين مشرف أقتصادى

= والزائرين، وفى نيتريا اشتهر الراهب «أبو لونيوس» بأنه اتخذ مهنة الطب وسيلة بقصد خدمة الآخرين وللزائر أن يقيم فى بيت الضيافة مدة لا تتعدى ثلاث سنوات، ومن العرف والتقاليد بين الرهبان يقضى بترك الزائر المقيم فى بيت الضيافة فى الاسبوع الاول بدون عمل، وبعدها يعهد اليه بالعمل فى الحديقة أو فى الفرن أو فى المطبخ أما اذا كان من كبار القوم فانهم يعطونه كتابا يقرأه ـ ويظهر أن فرصة الاسبوع الاول أعطيت ليستريح الزائر من مشاق السفر غير أن من الشروط الهامة التى فرضت على الزائر حتى فى هذا الاسبوع، هو الا يتحدث مع واحد من الرهبان من الصباح حتى وقت الظهيرة ـ وذلك حتى لا يشغل الرهبان عن التفرغ لصلاتهم وعبادتهم. والظاهر أن مضيفة سليا لم تضع لزائريها كل تلك الشروط لان أكثر الغرباء لم يفضلوا الاقامة بها مدة طويلة.

أما فى قلالى الرهبان أنفسهم فأن أكثرهم اهتموا بزائريهم وخصوصا أولئك الذين وفدوا اليهم رغبة فى الاستماع الى تعاليمهم. وقد أتسعت القلالى فى نيتريا وشيهات حتى كانت كافية لاستقبال عدد من الزائرين. وأصبح من التقاليد اذا دخل الزائر قلاية الراهب قام للتو بغسل قدمية وقدم له الطعام فى الساعة التاسعة من النهار. أما اذا جاء الزائر من جهات بعيدة فأن الراهب يضع له المائدة فى الحال.

ويحرص الراهب على الاحتفاظ بجزء من طعامه فى قلايتة لاى زائر يطرق بابه، وحسب وصاية «القديس موسى الاسوده لرهبانه لوجوب احتفاظ الراهب بنصف تعيين الخبز الذى يصرف اليه ما بعد العصر خشية حضور أحد الزائرين كما أوصى بأن يجهز الراهب للزائر حساء من الفول بعد تقديم بعض الخضر وهى عادة من أوراق الكرنب. ويراعى أن ما كان يقدم للضيوف هو طعام بسيط من عيش جاف والملح وحساء وبعض الخضر ولا تقدم الفاكهة الا نادرا ولا يتذوقها الرهبان الا مرات قليلة طول العام.

ليعمل على تنمية الايرادات وتدبير ما يلزم للصرف عليها من أمثال أولئك المشرفين الاقتصاديين الراهب «أوريجين» الذى تولى فى عهد رئاسة القديس بامو فى نيتريا. وفى جماعة القديس مقار الكبير الذى خلفه لرئاستها تلميذه بافنوتيوس فى منطقة شيهات كان الراهب يوحنا، وكان المشرف الاقتصادى يتعهد بالاشراف على مخازن الجماعة التى يودع فيها القمح الذى كان يحضره جماعة الرهبان بعد عودتهم من الحصاد ومخازن المواد الاخرى من الحبوب والزيوت اللازمة لحاجات الرهبان والشموع ومواد البخور وكل ما يلزم لشئون الدير، كما كان يشرف على أدارة الافران والمخابز والمطابخ بتلك الجماعات الرهبانية.

وكانت هناك سبعة أفران فى منطقة نيتريا لتجهيز الخبز اللازم لجماعة الرهبان العديدة كما كانت تتعهد بتقديم الخبز أيضا للنساك الاوائل فى سيليا وظل هذا التعهد لمدة طويلة ويظهر أنه لم يتوقف الابعد رئاسة الانبامكاريوس الاسكندرى لجماعة سليا لفترة وجيزة ونظرا لكثرة الاعمال وزيادتها كان يساعد المشرف الاقتصادى فى أعماله عدد كبير من الرهبان. ومن طريف ما أتبع من نظام عام سليم يدعو للاعجاب والتقدير لتلك الجماعات الرهبانية هو مراعاة طريقة الاكتفاء الذاتى بحيث لا تزيد مصروفات الجماعة على ايراداتها مع الحرص بدقة فى الوقت نفسه على تخصيص جزء من هذه الايرادات للتصدق منه على الفقراء والمحتاجين.

رهبنة وادى النطرون وتأثيرها فى العالم الخارجى

كان لهذه الرهبنة أثرها العظيم فى العالم الخارجى وسرى تيارها خارج مصر وأنتشر فى كثير من بلدان الغرب والشرق، واتخذ كل مؤسس لها فى تلك البلاد نظاما وأشكالا خاصا تتناسب وظروف البيئة التى نشأت بها فأخذ الرهبان على عاتقهم نشر المسيحية فى تلك البلاد والدأب على حمايتها ونشر ثقافتها فى تلك الآفاق والمحافظة عليها من أن تمتد اليها أيدى البرابرة تطمس معالمها. وأول بادرة من آثارها فى أقاليم الغرب يرجع غالبا الى «الانبا اثناسيوس البطريرك العشرين» حيث ذهب الى أوربا مرتين الاولى عند أبعاده عن كرسيه بين ٣٣٨/٣٣٥م حيث قضى هذه المدة فى مدينة «تريف Treve» على شاطىء نهر الموزل بفرنسا حيث كتب بعض أخبار رهبان مصر وخاصة القديس أنطونيوس وهذه الحادثة ترتبط بقيام «الرهبنة الغالية» «فى فرنسا لان القديس» «مارتن Martin» أسقف مدينة «تور Tours» درج

على حياة أثناسيوس الرهبانية ثم أسس جماعة رهبانية حوالى ٣٦٢ ميلادية قريبة من «بواتية» وتبعها بأخرى فى مدينة «تور» بعدما صار أسقفا لها عام ٣٧٢ ميلادية وقد وصل رهبان تلك الجماعة الاخيرة ثمانين راهبا قضوا حياتهم فى صلوات طويلة وصوم قاسى وسكنوا الكهوف والاكواخ وجمعوا فى حياتهم النسكية بين الانفراد والشركة ولم يجتمعوا الا لتناول الطعام والصلاة فى الكنيسة وهى طريقة أشبه ما كان يحذو به رهبان وادى النطرون وفى غيره من أماكن الرهبنة المصرية.

اقصاء الانبا اثناسيوس للمرة الثانية: الي أوربا ٣٤٠/٣٤٩م. وفي تلك المرة عمل على نشر النظام الرهبانى وقد توجه الى روما ومعه أثنان من فطاحل رهبان وادى النطرون وهما أمونيوس وايزيسيدور الراهب المشرف على بيت الضيافة وفى روما نشروا أخبار أنطونيوس وطريقة الرهبنة فى مصر. وقد أقاموا الثلاثة بمنزل أرملة مسيحية تدعى «مارسيلا» وقد أفاض أثناسيوس فى الكلام عن الارامل والعذارى فى مصر عن حياة الرهبنة المثالية ولذلك لا نعجب من كثرة وجود بيوت للراهبات والعذارى فى روما. وكانت بداية النواة الاولى لانتشار أديرة النساء حيث وضعت «مارسيلا» بدء تلك الحياة وأجتذبت كثيرات منهن ولبعضهن من نساء الطبقة الراقية اللائى بعن جميع حليهن ومتاعهن وقدم لمؤسسى الرهبنة ثم انخرطن فى الحياة النسكية.

ثم أسكن الراهب «أمبروز» حياة رهبنة فى ايطاليا وأصبح أسقفا لميلانو وكانت شخصيته تفوق نفوذ الاباطرة، كما أصبح «يوزيب» أسقفا لمدينة فرساى بفرنسا، ولم يكد ينتهى القرن الرابع الميلادى حتى امتلات جهات كثيرة من أيطاليا وجزر البحر التيرانى بالجماعات الرهابنية. ومن مشاهير الرحالة الذين كان لهم أكبر الاثر فى نشر الرهبنة المصرية وتعاليمها ودون أحاديث وعادات الرهبان هو المؤرخ الرحالة «بلاديوس Palladius».

وقد ولد فى غلاطية عام ٣٦٤ ميلادية وترهب فى فلسطين وظل بها ثلاث سنوات ثم زار الاسكندرية عام ٣٨٧ ميلادية وهناك قابل أشهر رهبانها وعاش فى كهف بقرب الاسكندرية. وقد راعه ما جمعة عن رهبان الاسقيط ونتريا وسيليا حيث ظل بها حوالى ثمانى سنوات نعم فيها بعشرة القديس مقار الاسكندرى وتحدث مع رهبانهم ثم رجع للاسكندرية عام ٤٠٠م بعدما زار بعضا من الجماعات الرهبانية والاديرة فى الوجة القبلى، ووقف على كثير من حياتهم وفضائلهم وعاداتهم وتقشفهم، ثم رحل الى فلسطين حيث تعرف بالقديس «جيروم» وأقام معه

مـدة فى أحـد الاديرة وبعـدها رحل الى الاستانة لزيارة يوحنا فـم الذهب بطريرك القـسطنطينية وقد نفى فى فترة اضطهاد يوحنا فم الذهب حيث أستفاد من فترة النفى هذه حيث قام بفائدة كبرى للتاريخ حيث عكف على أخراج مؤلفة المشهور «الفردوس» أو «بستان الرهبان» الذى يعتبر من المع المؤلفات الهامة عن الرهبنة والديرية فى مصر، وأهم شخصياتها ونظمها وقوانينها وأقوال رهبانها وأحاديثهم. وهو الكتاب الذى أثر وأعطى للعالم المتمدين أكبر الفضل فى تعرف نظم الاديرة والرهبنة وما تقوم علية من حياة نبيلة سامية وتعاليم فاضلة. وقد عكف الرهبان على دراسته وفهم ما فيه وعقدت المناقشات الخاصة للوقوف على ما سطر فيه من تعاليم وارآء.

الرحالة الغربيون الذين ساهموا فى نشر الرهبنة

كان للرحالة من آباء الغرب فضل كبير فى نشر الرهبنة مثل:

الراهب الفرنسى «يوحنا كاسيان» وقد تولى كتابة تراجم الاباء المصريين وتعاليمهم والقوانين التى وضعوها وحاول أن يطبق هذه القوانين الرهبانية المصرية على الديرين اللذين شيدهما فى جنوب فرنسا على مقربة من مرسيليا.

ثم «روفينوس» وكان قسا فى مدينة «أكوليا» وزار مصر حوالى عام ٣٧٢م ومكث مدة فى وادى النطرون حوالى عامين حيث وقف هناك على تعاليم آباء البرية العظام وأنظمتهم وفضائلهم وكتب تاريخه عن الرهبان المصريين فنشر أخبارهم بين أهل الغرب. وقد ترك روفينوس وادى النطرون نتيجة قيام موجات الاضطهاد «الاريوسى». وكذلك القديس «جيروم» وهو من رحالة آباء الغرب الافاضل ويعتبر حلقة أتصال بين الشرق والغرب وهو الذى نقل ما عرفة من نظم «الانبا باخوميوس» عام ٤٠٤م الى اللغة اللاتينية وأعتبرها آخر مرحلة منظمة لحياة الرهبنة فبادر الرهبان الايطاليون الى اتخاذها دستورا لهم. ثم كتب قانونا للراهبات بعث به الى الراهبة «مارسيلا» بقصرها الذى امتلأ بالعذارى فى روما. وكانت زيارة «جروم» هذا الى مصر فى أواخر القرن الرابع وكانت تصحبه الراهبة الرومانية «بولا» ومكث الاثنان عامين بوادى النطرون ثم أنتقلا الى فلسطين حيث أسست هناك ديرا من مالها الخاص.

وقد ظلت الرهبنة والديرية فى أوروبا بأشكال مختلفة ولم تتخذ حالة الاستقرار الى أن أتخذت طابعها الديرى الخاص على يد القديس «بندكت» ومعناه المبارك فى القرن السادس

للميلاد وقد عرف من تاريخه أنه كان يعيش حياة الرهبنة فى كهف «سبياكو Subiaco» على بعد أربعين ميلا من مدينة روما واجتمع حوله بعض الرهبان ثم أعتزلهم الى «مونتكاسينو» عام ٥٢٠م. ثم وضع نظامه الجديد الذى أصبح قانون الديرية فى أوروبا كلها وفرق فيه بين الديريين والرهبان المتوحدين. وأهمية قانونه أنه قانون عام مشترك قام على تنفيذه رئيس وليس فيه منافسة بين الرهبان فى الحياة النسكية مثل رهبان مصر بل كان بعيدا عن القسوة ومعقولا خصوصا للبادئين فى الحياة الرهبانية. وليس معنى ذلك أنه لم يكن مشتملا على شيء من جفاف فى بعض شروطه ومنها:-

١- عدم مغادرة راهب الدير لديره طوال أيام حياته الا بأذن من رئيسه.

٢- لا يخرج الراهب على القواعد الرئيسية للحياة الرهبانية والديرية ومنها الفقر الاختيارى والتواضع والطاعة وقد جمع الراهبات والعذارى فى أدارة خاصة بهن ونظمت حياتهن وفق قانون وتولت أخته «أسكولستيكا Scholastica» أدارة أول واحد من هذه الاديرة.

وقد أثر قانون «بندكت "Benedict"»[1] فى مدينة العصور الوسطى. وكان من أقوى البواعث على نشر الديانة المسيحية بين البرابرة وقتئذ. فأينما انتشر قانونه تغير وجه المجتمع والاقليم تغيرا تاما وكانت تقطع الغابات وتجفف المستنقعات وتبنى المدارس وتقام الملاجىء والمستشفيات. وأصبحت الاديرة أماكن للتبشير بالمسيحية فى البلاد الوثنية ومجمعا لانتشار العلوم والفنون والحرف والصناعات.

ومن العوامل الهامة التى ساعدت على نجاح نظام القديس «بندكت» وانتشار حركته انتشارا عظيما، هو أنه بدأ بقوانينه فى زمن أخذت فيه الرهبانية والديرية فى الاحتضار فى روما وفرنسا بسبب المنافسة بين الرهبان فى النسك رغبة فى الوصول الى المثل العليا. وكان بندكت نفسه من هؤلاء الرهبان الذين نافسوا النساك فى ذلك المضمار فى كهوفهم الا أنه فطن الى أنقاذ هذه الحياة من الفناء أو مما كان يهددها من الافول فعمل على تقوية ذلك البناء الموشك على التداعى والانهيار بأقامة النظم والقوانين التى وضعها على أنقاضه بما يلائم الظروف

(١) القديس «بندكت» هو مؤسس الرهبنة فى الغرب كان شديد الاعجاب بالرهبنة القبطية، وما اتسمت به من روائع المثل العليا حيث قال عبارته المشهورة تقديرا لها ولآدابها «أن من يبغى الوصول لذروة الكمال المسيحى يجد خير نموذج يحتذيه فى حياة وسير الآباء المصريين».

الغربية ويتمشى مع الطبيعة الانسانية وكان هذا السبب فى نجاح نظريته وظلت قوانينة الاساس الذى شيدت عليه النظم الديرية فى أوروبا.

كذلك أنتقلت الرهبنة على يد الانبا أثناسيوس الى شمال أفريقيا عن طريق «القديس أغسطينوس» الذى يعد من أعظم فلاسفة الكنيسة الغربية فبعد ما ترك روما عام ٣٨٨م وعرف الرهبنة ونظامها وعين قسا فى شمال أفريقيا. ولما أصبح أسقفا عام ٣٩٦م أنشأ نوعا من الرهبانية فى أبروشيته لا بين الرهبان فحسب بل وبين النساء وأصبح لهن الاديرة الخاصة بهن حسب ما وضعه لها من الانظمة والقوانين وانتعشت حركات الرهبنة أنتعاشا كبيرا بين الجنسين فى القرن الخامس للميلاد.

وكان القديس باسيليوس الكبير هو المؤسس للأديرة فى جبل أتوس ببلاده فى اليونان. وكان قد جاء الى مصر فى القرن الرابع الميلادى وعاش سنوات عديدة فى أديرة الأنبا باخوميوس فى الصعيد ونقل نظامها وأتخذ من قوانينها وتعاليمها مثلا أتبعها فى الأديرة التى شيدها فى بلاده.

ومن صفحات التاريخ المجيدة عن الرهبان القبط ومبشريهم أنهم وصلوا فى كرازاتهم بالمسيحية الى جهات بعيدة واجهوا فيها أخطار الموت بسالة وبطولة لا تعرف الخوف فمنهم من وصل الى سواحل فرنسا الجنوبية والى بلجيكا حيث وصف المؤرخ الألمانى «هرناك» كيف تمكن الأنبا أثناسيوس وهو فى منفاه فى بلجيكا على نشر رسالة المسيحية وتأسيس كنيسة انتعشت هناك. وفى سويسرا فى مدينة «زيورخ» أشتهر شهداء أقباط من بين الذين بشروا بالمدينة. كما اشتهر فى سويسرا أيضا «القديس موريس» وأخته «وارينا» وهى التى وجهت اهتمام السويسريات الى العناية بنظافتهن حتى يقال أنه مازالت تصور هناك هذه الأخت وهى حاملة مشطا بدانيا أى «فلاية» وأبريق ماء وفى ألمانيا استشهد عام ٢٦٨م حوالى ثلاثة آلاف من أبناء الصعيد من فرقة طيبة ممن رحلوا بقصد التبشير هناك. ولا تزال قبورهم معروفة فى مدينة «ترير».

وفى جزيرة قبرص أسس الرهبان القبط على التلال بالقرب من قرية «بلاتان» ديرا أطلقوا عليه اسم القديس مقار. كما ذكر العالم الأنجليزى «برمستر» فى بحث نشره فى مجلة جمعية الآثار القبطية أنه كان للأقباط هناك بقبرص أسقف ويمتد اختصاصه على قبرص ورودس. كما

ذكر الدكتور «الفريد بتلر» في كتابه عن الكنائس القبطية القديمة أن المبشرين القبط وصلوا في رحلاتهم الى الجزر البريطانية ووصل الرهبان المصريين الى أرلندا في القرن الرابع الميلادى حيث تركوا آثارهم هناك أذ يوجد الى يومنا هذا في بلدة «أوليدة ديزرت» بأيرلندا قبور سبعة من الرهبان المصريين ولا تزال تذكر أسماؤهم في الصلاة بكنيسة تلك الجهة كما يذكر اسم القديس «باتريك» بأنه شفيع أيرلندا أما في أسبانيا فان القانون الذى أصدره مجمع «سرقسطة» عام ٣٨٠م فيه ما يدل على انتشار الرهبنة المصرية هناك. وفي هذا القانون ما يحرم على رجال الأكليروس أن يصبحوا رهبانا.

الرهبنة في فلسطين: انتقلت الرهبنة هناك على نظام القديس أنطونيوس. وأول من أسسها هناك هو الراهب «هيلاريون» وكان من أهل غزة وولد بها عام ٢٩١م. وتلقى تعليمه ليعيش حياة النسك ولنشر الرهبنة بعد أن مهدت لها جماعات أشتهرت بتنسكها أطلق عليها «أبداء وبنات القيامة» فنشرت الرهبنة في كثير من جهات فلسطين. «ومن أخبار ميلانيا» الرومانية أنها بنت كثيرا من القلالى في مدينة أورشليم. وفتحت أبوابها لاستقبال الرهبان المصريين الفارين من الاضطهاد الرومانى كما أنها أنفقت عليهم الكثير من مالها.

الرهبنة في العــــراق: ثم قامت الرهبنة والديرية أيضا بالعراق على يد الراهب «أوجين المصرى» حوالى النصف الثانى من القرن الرابع الميلادى. وكان قد تتلمذ على يد القديسين أنطونيوس وباخوميوس. فبنى ديرا على مقربة من مدينة الموصل كما كون جماعات رهبانية شمال بلاد العرب وفي أرمينيا وفارس.

ثم نشأت جماعة رهبانية على جبل عزلا بجوار «نصيبين» عام ٥٠٤م على يد راهب يدعى «ابراهيم». وقد صار رهبانه على نفس النظم والزى والعادات التى سادت بين رهبان وادى النطرون كذلك انتشرت الرهبنة في أسيا الصغرى وكان الفضل في نشرها هناك الى القديس باسيليوس الكبير. وكانت الرهبنة فيها على نظام وادى النطرون. وكان يغلب على نظام القديس باسيليوس طابع الجماعة أو النظام الديرى. وكان يتبع الجماعة الرهبانية ملاجىء ومدارس للأطفال.

الرهبنة في سوريا: نشأت أيضا في القرن الرابع للميلاد واتخذت طابعا خاصا مع أنها تأثرت بالنظام الأنطونى. وأهم مظهر في حياة الرهبان المعروفين «بالعمودين» نسبة الى سمعان

العمودى وهو مؤسسها وقد تأثر بالرهبنة المصريةى الا أنه اتخذ الحياة فوق عمود أساسا لنسكه الزائد وقلده فى طريقته بعض الرهبان فسموا بالعموديين.

وقد ذاعت شهرتهم بسبب زهدهم الشديد وتنافسهم فى حياة النسك وبعضهم اتخذ وسائل تصل الى درجة الشذوذ مبالغة فى اذلال الجسد واضعافه لتسمو الروح مثل حمل الأحجار أو الحديد وغيرها. فكان نسكهم وما اشتهروا به من فضائل سبباً فى تحويل كثيرين من الوثنيين الى المسيحية. وكانوا سندا للدفاع عن الكنيسة عندما تعرضت للبدع التى شنها الهراطقة ضدها فوقفوا صفا واحدا مع رهبان وادى النطرون لمناصرة الكنيسة ومبادئها الأرثوذكسية.

والشاهد أن رهبنة وادى النطرون كانت من المفاخر التى جادت بها عباقرة الآباء من الرهبان المصريين الذين أناروا بفضائلهم وتعاليمهم أغلب ممالك المسكونة. وقد بلغت ذروة هذه الرهبنة فى القرن الرابع وأوائل الخامس للميلاد. وما سبق تلك الفترة من الزمان كان عصر الاستشهاد الذى جاء بعده العصر الذى امتاز بأمانة الشهداء وايجاد بيئة روحية تمتاز بالسمو والكمال الأنسانى وأنكر فيه الفرد ذاته.

وقد اجتذبت تلك المناطق الصحراوية حيث عمرت بآباء الرهبان المصريين كثيرا من جماعات الشعوب المختلفة من السريان والأحباش والفلسطينيين واليونان والأرمن واللاتين وسكان شمال أفريقيا وغيرهم لينهلوا من ينابيع تعاليمهم الصافية وليحذوا حذو طرقهم المستقيمة. وكان لكل أسرة من جماعات تلك الشعوب معلم من جنسه يقدر على التفاهم مع أبناء جنسه وارشادهم. وهذا النظام هو الذى ورثته الجامعات فى العصور الوسطى حيث انتشر فى رحابها نظام الأمم وأيضا نظام الأروقة فى الجامعة الأزهرية.

ظلت مناطق وادى النطرون منارات لامعة تشع بنورها وتعاليمها على أغلب ممالك المسكونة الى أن ظهر قبيل أواخر القرن الخامس الميلادى وباء آدمى لعين تعرض له الوادى بهجمات وحشية من قبائل العربان والبربر المتوحشة وتعرض رهبانه للسلب والنهب والقتل وهدمت القلالى واحرقت البيع وما حولها. وقد اهتم البطاركة منذ القرن السادس بضرورة اعادة ما تخرب من تلك الأديرة ومبانيها واعادة تشييد القلالى للرهبان والعمل على أعادة تعميرها بالرهبان بعد هروب أغلبها منها. وقد أخذ الانتعاش يعود الى تلك المناطق الى حد ما. وبالرغم مما بذل من وسائل عديدة لانعاشها الا أن المنطقة لم تصبح لها تلك الهيبة والعظمة التى

كانت لها بالقرن الرابع. وقد بدأ التفكير بعد ذلك في العمل على تحصين هذه الأديرة ذات التاريخ الخالد الأثيل ضد غارات اللصوص والبرابرة المتوحشين الذين لم يكفوا عن تكرار هجماتهم لتلك المنطقة ولكن هيهات لها أن تعود الى مكانتها الأولى.

أثر الرهبان المصريين فى الكرازة ونشر المسيحية

لا شك في أنتشار المسيحية في كثير من بلدان الشرق كان على أيدى المبشرين من الرهبان المصريين، وكانت الكنيسة القبطية توالى تدعيم بعثاتها بأساتذة من المعلمين من مدرسة الأسكندرية اللاهوتية. فساعد ذلك على نجاح كرازتهم. وخصوصا مع الحماس الدينى والتفانى والنشاط الذى أظهره رهبان القبط وما أمتازوا به من المثل العليا التى شجعت شعوب تلك البقاع على أعتناق مبادئهم واتباع تعاليمهم. وكانوا هم الذين اهتموا بتنظيم الكنائس والأديرة كما توسعوا فى نشر المسيحية التى ظهرت آثارها في منطقة ليبيا حيث أنتشرت الأبروشيات فى الخمس مدن الغربية مما يدل على انتعاش الكنيسة فيها منذ منتصف القرن الثالث للميلاد.

وقد ذكر أوسابيوس القيصرى عن قيام «بنتينوس» بالتبشير فى بلاد الهند. والظاهر أن العلاقة بين الكنيسة المصرية والهند ترجع الى عهد طويل. فقد ورد فى كتاب تاريخ البطاركة «لساويرس ابن المقفع» حضور كاهن هندى الى مصر فى زمن البطريرك سمعان الأول فى أواخر القرن السابع للميلاد يطلب منه رسامة أسقف للهند.

أما عن بلاد العرب فقد ورد عن المؤرخ الألمانى «هرناك» أستنادا على قول أوسابيوس ما يؤكد زيارة العالم الكبير «أوريجانوس» للبلاد العربية وقيادته لمجمع فى «بصرا».

أما عن بلاد الحبشة فقد دخلت المسيحية فيها منذ منتصف القرن الرابع الميلادى على يد «فرومنتيوس» أى رجل الله. وظاهر من معنى اسمه أنه كان مصريا وقد احترف مهنة التجارة فى مدينة صور ويجوب البحار شمالا وجنوبا. وأول من أعتنق المسيحية فى بلاد الحبشة كان ملكها ثم تبعه بعد ذلك رجال البلاط ثم بدأت تنتشر بين أفراد الشعب. فكان دخول المسيحية فى بلاد الحبشة على هذه الصورة على خلاف ما كان يحدث فى البلاد الأخرى حيث كانت تبدأ طريقها الى الشعب فى أول الأمر ثم يعتنقها رجال القصر ثم الملك.

ولما عاد فرومنتيوس الى مصر طلب من الأنبا أثناسيوس بطريرك الأسكندرية وقتئذ أن يرسل أسقفا لرعاية المسيحيين فى بلاد الحبشة. فجمع الأنبا اثناسيوس مجمعا من الأساقفة الأقباط

وتشاوروا فيما بينهم عمن يرسلونه اليها فأجمعوا على سيامه فرومنتيوس نفسه وأرسلوه أسقفا على عاصمة الحبشة «اكسوم» في ذلك الوقت. وقد هاجر الى الحبشة وبلاد النوبة كثير من الرهبان بدافع الغيرة على نشر الدين المسيحى بحسب عقيدتهم ومذهبهم بين شعوب لم يتطرق الجدل الديني بينهم. فكان لأولئك الرهبان المهاجرين الى الحبشة الفضل فى نشر المسيحية فيها وتأسيس الأديرة وتثبيت العقيدة الأرثوذكسية. وقد أخذت الأديرة فى الازدهار هناك في القرنين السادس والسابع للميلاد. وشرع الرهبان فى التفرغ الى دراسة الرهبنة وتفهمها معتمدين في ذلك على ما يترجمونه من الكتب القبطية أو اليونانية الشائعة عند الرهبان الأقباط فى مصر. ومنذ القرن الرابع الميلادى والكنيسة المصرية ترسل مطرانا الى الحبشة كرئيس للكنيسة الأثيوبية وكان له فيها مكانة ممتازة.

الكرازة فى السودان: ذكر المؤرخ يوحنا الافسسى أنه فى القرن السادس للميلاد كان البطريرك القبطى «ثيوديسيوس» منفيا في القسطنطينية. وفي ذلك الوقت أرسل «يوليانس» الى بلاد النوبة لتبشيرها بالمسيحية وذلك بمساعدة الأمبراطورة «تيودور» التى كانت تؤمن بمذهب الكنيسة المصرية على عكس زوجها الامبراطور «جوستينيان» الذى كان شديد التعصب والأضطهاد لذلك المذهب وأتباعه. فوصل يوليانس الى النوبة حوالى عام ٥٤٣م. وبشرها بالمسيحية فرحب به الملك وأتباعه فعمدهم وعلمهم الكثير عن المسيحية وفضائلها. وحذرهم من أخطاء مذهب حزب الأمبراطور. فلما وصلت بعثة الأمبراطور بعد ذلك لم يقبل ملك النوبة رسالتها ورفض بقائها فى النوبة وعادت تجر أذيال الخيبة والفشل.

ثم تواليت بعد ذلك البعثات التبشيرية من طرف الكنيسة المصرية. وكان من أشهر المبشرين الذين ذكر أسمهم بالفخر بين القبط هو «لونجينوس» الذى عرض نفسه لأخطار الموت وسار في رحلة طويلة شاقة على الجبال المحاذية للبحر الاحمر حتى وصل الى مملكة «علوه» عند ملتقى أنهار عطبرة والنيل الأزرق والنيل الأبيض وكانت عاصمتها مدينة «سويا». وتقع بالقرب من مدينة الخرطوم الحالية. فقام «لونجيلوس» هذا بعد وصوله اليها بتبشيرها بالمسيحية فآمنت بمذهب الكنيسة المصرية. وقد حاول الأمبراطور «جستنيان» أن يستميلهم الى مذهبه فلم يقبلوا اليه حتى بعد استعمال القوة معهم لتنفيذه.

وقد ظلت الكنيسة القبطية توالى ارسال الأساقفة وكهنة الى بلاد النوبة وعلوة وكذلك الى مملكة أخرى تتوسطها أسمها «مقرة» أتحدت منذ القرن السابع للميلاد مع النوبة وصارت مملكة واحدة عاصمتها دنقلة القديمة. وقد استمرت المسيحية فى النوبة تابعة للكنيسة القبطية حتى نهاية حكم المماليك.

أديرة وادى النطرون الباقية اليوم

* دير الأنبا بيشوى
* دير السريان
* دير البراموسى
* دير الأنبا مقار

كان وادى النطرون يزخر بأعداد كبيرة من الأديرة والقلالى فى الأزمنة القديمة حيث ذكر الرحالة «روفينوس» الذى زار الوادى حوالى عام ٣٥١م أنه كان فى الوادى المذكور نحوا من خمسين ديرا كما نوهنا سابقا. ولكن أحداث الزمان والغزوات المتلاحقة التى سبق الكلام عنها أبادت الكثير من أديرة ذلك الوادى وتراثه ولم يبق به الآن من الأعداد الكثيرة التى ترعرعت بين أرجائه سوى أربعة منها وهى:ـ

(١) ديرى الأنبا بشوى. (٢) دير السيريان.

(٣) دير البراموس. (٤) دير الأنبا مقار.

ويجدر بنا أن نتناول كل دير من هذه الأديرة بلمحة وجيزة عن تاريخه وآثاره الهامة.

أولا . دير الأنبا بشوى

ويعتبر من أشهر أديرة وادى النطرون الأربعة، ويرجع انشاؤه على أغلب الاحتمالات الى أواخر القرن الرابع الميلادى. كما أعيد ترميمه عام ٦٤٥م على يد الأنبا «بنيامين الأول». كما أعيد أيضا بناؤه حوالى عام ٨٤٠م ويعتبر المبنى الرئيسى للكنيسة يرجع الى هذا التاريخ. ومنشىء الدير المذكور هو «الأنبا بشوى» وكان تلميذا للقديس مقار أحد زعماء النسك فى

الوادى. وقد اشتهر بشدة ورعه وتقواه وقد وهب شبابه للتعبد وأصبح ناسكا ذائع الصيت. وسرعان ما التف حول صومعته كثير من التلاميذ الذين شغفوا بحياة الرهبنة. ومنهم أحد السريان المقلب «بأفرام» وهو ناسك وفد من سوريا وسعى يبحث عن الأنبا بشوى هذا بسبب ما سمع عنه وعن روعه وقداسته. ويروى أنه بينما كان يتحدث مع الأنبا بشوى داخل قلايته ولم يكن يعرف أحدهما لغة الآخر لاختلافهما فى الجنس الا أنهما فهما كل منهما الآخر بالهام سماوى. كما يروى أيضا أن الأنبا أفرام هذا كان قد ترك عكازه خارجا بجوار قلاية القديس. ولما أنصرف من عنده خارجا بعد فترة من الزمن وجد أن عصاه قد غرست فى الأرض وتأصلت فى التربة ونمت واورقت الأغصان والأوراق والزهر وأصبحت شجرة من خشب التمر هندى. ومازالت الى اليوم فارعة مزهرة وتوجد خارج الهيكل القبلى للكنيسة وتنسب الى أفرام هذا السرياني الجنس. فهذه الشجرة التى نشاهدها اليوم فى دير السريان كانت مكان القلاية الأولى للأنبا بشوى المذكور.

أما عن بوابة هذا الدير فتعد من أحسن مثل لها فى جميع أديرة الوادى الأخرى ومنها يصل الزائر الى القصر أو «الحصن» مباشرة وهو من أمتن القصور فى كل الوادى. وهو مكون من ثلاثة طوابق. وفى الطابق العلوى منه توجد كنيسة الملاك ميخائيل كما هى العادة فى جميع حصون الأديرة عامة. وفى أعلى حجاب هيكلها الخشبى مدون تاريخ انشائه وهو عام ١٤٩٨ ش تساوى ١٧٨٢ للميلاد. وقد شيدها المعلم ابراهيم الجوهرى.

أما فى الطابق الثانى ففيه كنيسة السيدة العذراء. وفى الطابق الأول توجد الطاحونة وبئر الماء وقاعة صغيرة تسمى «أوضة الجارية» وصندوق يحتوى على قليل من المخطوطات منها كتاب عن تاريخ بطاركة الاسكندرية لساويرس بن المقفع ولعله أقدم مخطوط من نوعه للكاتب المذكور. وكذلك مخطوط قديم عن أخبار القديسين. أما عن منظر سور الدير من فوق سطح الحصن فهو جذاب ويستلفت الانظار.

أما عن كنيسة الدير فهى أوسع كنائس الوادى، وأمتاز كذلك مكان المرنمين Choir فيها برحابته أيضا. وهى فى الواقع مثل فريد لأقدم النماذج المبكرة فى تصميم الكنائس. وترجع اعادة بنائها الى حوالى عام ٨٣٠/٨٤٩م. وتتكون من ثلاثة هياكل ومكان متسع للمرنمين

كما ذكرنا وأجنحة جانبية تتجه لناحية الغرب. هذا وقد أدخلت عليها تعديلات في المباني ترجع الى نهاية القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثانى عشر. ومنها عدة تغييرات فى المبنى الرئيسى. كما أضيف اليها رواقان وعدة هياكل صغيرة وطريق للمطعم وكان من جراء ما احدثه النمل الأبيض من تخريب بمبانى الكنيسة واتلاف أخشابها أن قام البطريرك الأنبا ميخائيل الثانى ببعض الانشاءات والتعديلات فيها عام ١٣٣٠ للميلاد.

أما عن الأحجبة الخشبية المصنوعة من حشوات فمنقوشة بالرسوم البارزة من خشب الصنوبر وموضوعة أمام الهياكل الثلاثة. وكذلك الأبواب الخشبية الأخرى المشغولة تعتبر نموذجا فاخرا للصناعة الخشبية الدقيقة. وهى الحرفة التى أشتهر بها النجارون القبط. وقد اعتبره العالم الانجليزى «افلين هوايت Eveyln White» من أجمل ما صمم لها فى هذا الوادى منذ القرن الحادى عشر للميلاد.

وعلاوة على اتساع هذا الدير عن سائر أديرة الوادى كذلك حدائقه أكبر وأوسع جيدة التربة عامرة بأشجار الفاكهة بأنواعها كالكروم والنخيل والرمان والزيتون والنبق والخضروات وغيرها. وبئرها تمتاز بعذوبة مياهها وغزارتها. ويوجد بحرى الدير وشرقيه آثار لمعامل الزجاج والفخار التى كانت رائجة فى تلك المنطقة. واشتهر فى تلك الصناعة طائفة مهرة من الرهبان. ومن بقايا تلك القطع من الزجاج وقواعد الكؤوس المزين بعضها بالمينا وما فيها من آثار الألوان وكذلك من الأوانى الفخارية المهشمة بها يتبين لنا مدى الدقة والاتقان التى كانت تقوم عليها تلك الصناعة فى تلك العصور العريقة فى القدم ومهارة العمال الفائقة فى انجازها.

ثانيا. دير السريان

يقع هذا الدير على مقربة مئات الياردات من دير الأنبا بشوى وأنه أسهل الأديرة وصولا اليها. وهو أحسن الأديرة فى الوادى المعروفة لسهولة الوصول اليه، ولجمال ما فيه من زخارف جصية فريدة بكنيسة العذراء فيها، كما أنه أهم الأديرة التى تحوى اثمن المخطوطات القيمة التى تفيد الطلاب والباحثين فى أبحاثهم.

أما هذا الدير فكان يعرف باسم دير القديس «يوحنا كاما» حيث توجد كنيسته فى الزاوية الشمالية الشرقية وتدل أبنيتها على قدمها وأنها أقيمت مع سور الدير نفسه. ولم يكن السريان

هم الذين بنوا ديرهم هذا، ولكن حدث أنه وفد جماعة من رهبان السريان عام ٩٨٤م وتوطنوا فى أحد الأديرة ثم استولوا عليه بعد ذلك فى زمن غير معروف تماما. وقد ذكر المؤرخ «أبو المكارم سعدالله ابن مسعود» على أن الدير المذكور قد بنى على اسم القديس «أبو كاما الأسود».

ويعتبر دير السريان من المزارات الهامة التى تجتذب السياح والحجاج كثيرا. وسبب شهرته ترجع فى الغالب الى وجود القلاية الأصلية التى كان يعتكف فيها الأنبا بشوى وما ترامى من أخبار عنها من أن الله كلمه فيها. كما أن بجوارها شجرة «الأنبا أفرام السريانى» وكانت عصاه ثم تأصلت فى التربة ونبتت ثم أورقت. وبجوار المكان أيضا توجد البئر المعروفة باسم التسعة والأربعين شهيدا من شيوخ برية شيهات الذين قتلهم البربر فى احدى غزواتهم فى ذلك المكان.

أما النواة الأولى من مبانى هذا الدير فترجع الى القرن التاسع للميلاد ويؤيد العالم «ايفلين هوايت» ذلك التاريخ لكنيسة العذراء بالدير. ويحتمل أن يكون حصن الدير قد أقيم ما بين عام ٨٤٠/ ٨٥٠م نظرا لما لاحظه على تصميمه البدائى. أما عن كنيسة العذراء فقد أعيد بناؤها على يد البطريرك «بنيامين الأول» فى القرن السابع للميلاد. وأن السريان استحوذوا عليها فى القرن الثامن. ثم بعد هجمات البربر عليها أعاد أقامتها وأصلاحها بعض الأخوة قبل عام ٨٥٠ للميلاد. واتبع فى تصميمها نظام القرن السادس الميلادى. أما عن الكنيسة المذكورة فلا شك أنها أهم وأحسن أثر معروف فى الوادى وهى مثل ممتاز لكنيسة فاخرة عريقة فى القدم.

أما الاحجبة الخشبية ذات الحشوات المطعمة والابواب الفاخرة بحشواتها المنقوشة برسوم بارزة دقيقة تعتبر من أقدم وأجمل الآثار النادرة الباقية فى الدير. ويرجع تاريخها الى القرن العاشر أو أوائل القرن الحادى عشر غالبا.

أما عن المكان المخصص للمرنمين Choir، الذى أقيمت عند مدخله الأبواب الدقيقة الصنع من خشب الصنوبر فيرجع عهده الى القرن التاسع للميلاد. وتحوطه القباب فى كلا الجانبين ومنها اثنان من أنصاف القباب وهى فى الغالب من أقدم الترتيب المعمارى الذى اتبع فى

الكنائس وهي الحالة الوحيدة الباقية في وادى النطرون. ويشاهد أن أنصاف تلك القباب هذه تحوى رسوما جصية طريفة بالألوان تختص بتاريخ حياة السيدة العذراء. ففى القبلية منها نرى منظرا للبشارة والميلاد وفي الشمالية منظر للوفاة وآخر يمثل الصعود وما حول الرسوم من الكتابة فهى من الكتاب المقدس وباللغة السريانية. وفي هياكل الكنيسة الثلاثة تزخر النقوش الجصية الشهيرة ويرجع تاريخها غالبا للقرن العاشر الميلادى. والنوافذ الكائنة فى هذه الهياكل تعتبر أقدم ما عرف فى مصر من النوافذ الجصية كما أن ما تعشق فيها من مجموعة أو طاقم الزجاج جميل الرسم بديع التخطيط. وناهيك عما يشاهد هنا من نقوش رائعة على الجص المحفور على جدران الهياكل ويعلوها أفريز طويل بحشوات ذات نقوش جميلة كما أن الأعمدة وتيجانها أشبه بأشجار النخيل. كما يشاهد مناظر الزهريات الغريبة وهى أشبه بالقلب مما يؤيد أثر الطابع المصرى القديم. وعلى جانبى الشرقية أو «القبلة» تحت نهاية الأفريز توجد عصابة رأسية الوضع طريفة نقشت بمقرنص نباتى الشكل. وهذه النقوش الجصية القديمة تشبه الى حد كبير ما وجد من نقوش جصية فى جامع أحمد بن طولون التى ترجع الى عام ٨٧٩م. وهذا الشكل يقع شرق الرواق «الايوان Porch» حيث يقع فى غربه مبنى صغير آخر وفيه تقع البئر التى اشتهرت بأن البرابرة جاؤا اليها ليغسلوا سيوفهم وحرابهم من الدماء بعد أن قتلوا التسعة والأربعين شيخا من الرهبان فى احدى هجماتهم على أديرة برية شيهات.

ويوجد فى ناحية من صحن الكنيسة فى داخل قبة نصفية الشكل منظر طريف لصور جصية بالألوان من القرن العاشر الميلادى وهى تمثل صعود السيد المسيح. وفى النهاية الغربية من الجناح الجنوبى توجد قلاية الأنبا بشوى وهى بلاشك من الأماكن ذات التاريخ الأثيل والعريقة فى قدمها وهى من الأيام الأولى للدير، وفيها كان القديس المذكور يناجى خالقه.

أما المطعم فيمتد من الشرق الى الغرب ويظهر من شكله أنه ليس المبنى الأصلى القديم. ويغلب أنه أقيم على أنقاض مبنى آخر أقدم منه عهدا ويسبق أسوار السور المؤرخة بعام ٨٧٠ للميلاد. أما القصر أو الحصن القديم فى الدير فهو أعلى القصور فى الوادى. وهو يتكون من أربعة طبقات بينما القصور فى الأديرة الأخرى تتكون من ثلاثة طوابق فقط. وتوجد كنيسة الملاك ميخائيل كالعادة فى الطابق الرابع منه بالحصن المذكور.

ثالثا. دير البراموس

يقع هذا الدير في الطرف الشمالي الغربي لوادي النطرون غربي الملاحات وتبلغ مساحته حوالي فدانين وأربعة قراريط. وكلمة «براموس» في الأصل يونانية وتفسيرها من اللغة القبطية Pa- Romeos بمعنى «الذى للروم أو التابع للروم» والدير معروف أيضا بدير الروم نسبة الى الأميرين الأخوين مكسيموس ودومادیوس ابنى ملك الروم لانديوس الذين حضرا من سوريا الى الأنبا مقار الكبير في برّية الأسقيط بقصد الترهب عنده. فلما وافتهما المنية وكان ذلك في حياة مقار الكبير دفن رفاتهما في نفس المكان حيث بنى دير براموس وسماه القديس مقار على اسميهما. وقد أطلق عليه بعض المؤرخين ومنهم «تقى الدين المقريزى» دير أبي موسى الأسود، وذلك لأن الأنبا موسى هذا كان رئيسا لذلك الدير وكان جسده مدفونا به.

مباني الدير: يحيط بالدير السور الذى يضم مبانيه وأظهر ما يشاهد في تلك المبانى الاختلاف الواضح فى المبانى القديمة فيه والمنشآت الحديثة ويمكن تقسيمها الى قسمين يختلف أحدهما عن الآخر. أما القسم الأول ويشمل المبانى القديمة منه ومنها القصر القديم وهو المعروف فى الأديرة باسم «الحصن أو الجوسق»، وقد سبق الكلام عنه فى الأديرة السابقة وعن الطبقات التى يتكون منها والغرض من أنشائه وأهميته. وأهم مبانى هذا القسم هى الكنائس وهى أربع:

١. **كنيسة العذراء:** وهى قديمة أثرية وظاهر أن معظم الأديرة تحوى كنيسة باسم العذراء دليل على شدة الاعتقاد بأن السيدة العذراء والدة الاله قد باركت تلك الأماكن عند قدومها الى مصر. وهذه الكنيسة متسعة وتبلغ مساحتها ١٢٠٠ مترا مربعا ويغطى صحنها قبو من الطوب. وهياكلها تقع فى الناحية الشرقية وتلوها القباب ويفصل صحن الكنيسة عن جناحيها القبلى والبحرى صفان من الأعمدة الرخامية. وفى صحن الكنيسة يوجد «اللقان» وهو الحوض الذى يملأ بالماء يوم خميس العهد من كل عام ويغسل منه الكاهن أرجل بعض أفراد الشعب أقتداء بما فعل السيد المسيح حينما غسل أرجل تلاميذه. والحوض المذكور مربع الشكل وهو من الحجر. ويوجد فى هذه الكنيسة عمود أثرى يعرف باسم عمود «أرسانيوس» لوجود نقوش عليه من عمل القديس المذكور. وقد جاء فى سيرته: «أنا ذهبت الى دير براموس وعملت

نقوشا على عمود هناك تذكارا لى». وقد كان أرسانيوس معاصرا للقديس مقار الكبير وكانت له قلاية بمغارة بجوار ذلك العمود.

وتقام الصلاة طوال مدة الصيام الكبير في هذه الكنيسة.

٢. **كنيسة الشهيد مارجرجس**: وتقع داخل كنيسة العذراء من الشمال الغربى وتبلغ مساحتها خمسة وعشرين مترا مربعا.

٣. **كنيسة الأمير تادرس**: وتقع داخل كنيسة العذراء كذلك ومن ناحية الشمال وتبلغ مساحتها ٢٥ مترا مربعا أيضا وتوجد بها رفاة الأنبا موسى(١) الأسود والقس ايسيدروس(٢).

٤. **كنيسة الملاك ميخائيل**: وهي توجد عادة في الطابق الأعلى من حصون الدير وقد سبق الكلام عنها أيضا في حصون الأديرة الأخرى، ويحتفل في هذه الكنيسة بعيد الملاك ميخائيل حيث تقام الصلاة فيها ليلة العيد حتى صباح اليوم التالى بدون انقطاع.

٥. **المنجلية والمائدة**: وتوجدان في داخل كنيسة مارجرجس، أما المنجلية وهي كلمة قبطية ومعناها «مكان القراءة أو المقرأة» وهي منحوتة من حجر أبيض طولها ١٢٧ سم وعرشها ٤٧ سم، وكل استعمالها للقراءة أثناء تناول الطعام، وكان من يقوم بالقراءة فيها هو «الربيتة»(٣).

أما المائدة فهى مستطيلة الشكل وتبلغ ١٤ مترا في الطول ومترا واحدا في العرض وهى

(١) أصله بربرى وثنى وكان لصا فاتكا قتل مائة من الانفس ثم تنصر وترهب وصنف عدة مؤلفات قيمة وأشتهر بزهده، وكان ممن يطوى الأربعين في صومه وأصبح في عداد القديسين، وغالبا أنه استشهد في أحدى غارات البربر على الوادى.

(٢) لا يعرف مكان ميلاده، من رهبان الجيل الرابع مصرى، وترهب في برية الأسقيط، وأشتهر بورعه وتقواه وفضائله النسكية حتى انتخبه الرهبان قسا للأسقيط، ولما تجمع حوله كثير من الرهبان بنى لهم ديرا بمساعدة القديس موسى الاسود.

(٣) الربيتة، كلمة سوريانية الاصل معناها «رب بيت» وهي وظيفة تطلق على أمين الدير ويعينه رئيس الدير بموافقة جميع رهبانية، كما يجب اخطار البطريرك أو القائمقام بهذا التعيين. ومن واجباته أنه يقوم بأعمال رئيس الدير في أثناء غيابه ويتعهد أثاثات الدير والمكتبة.

مقسمة الى ثلاثة أقسام يفصل بين كل قسم وآخر مجرى محفور. وكان القسم الأول من جهة الشرف معدا لجلوس الرؤساء والشيوخ، والثانى للكهنة والقسوس ومن فى مرتبتهم، والثالث للرهبان، ولم يعد استعمالها لهذا الغرض الآن لأن كل راهب يتناول طعامه في قلايته بمفرده، وقد اكتفى بوضع الخبز عليها ليتناول كل راهب ما يكفيه منه عند الحاجة.

٦. **حجرة الملح والأباركة:** وهى فى نهاية المائدة وعن يمينها تقع حجرة الأباركة، وتوجد فيها معصرتان وتستعمل احداها الآن ومجهزة بكل أجزائها اللازمة لعصر الزبيب واستخراج الأباركة لاستخدام عصيرها فى القداس، ويقوم بعملها رهبان الدير بأنفسهم بطريقتهم البدائية القديمة كما يحفظونها بداخل قدورها المعتادة القديمة. ومن مبانى الدير القديمة أيضا حجرة القربان ولكنها توجد خارج كنيسة مارجرجس.

أما القسم الثانى فيشمل المبانى الحديثة من الدير المذكور ومنها:

١. **كنيسة يوحنا المعمدان:** وتقع بين الحديقتين البحرية والقبلية، وقد بنيت على أنقاض كنيسة أنبا أبولو وأنبا أبيب عام ١٦٠٠ للشهداء وتوافق ١٨٨٤ للميلاد. وهذا التاريخ مدون على بابها البحرى وقد حدث بها اصلاح وتجديد بدليل ما كتب على حجابها الجديد «شيدت فى عهد البابا كيرلس مطران البحيرة والمنوفية ووكيل الكرازة المرقسية فى عهد رئاسة القمص يوحنا وهو الأنبا يؤانس التاسع عشر. وقد بناها على نفقته الخاصة عام ١٦٢٦ الشهداء وتوافق ١٩١٠ ميلادية وتقام الصلاة طول العام فى هذه الكنيسة ما عدا أيام الصوم الكبير.

٢ـ القصر الجديد: وقد شيد عام ١٦٢٧ للشهداء ويوافق ١٩١١ ميلادية، لاستقبال الضيوف والزائرين الذين يفدون لزيارة الاماكن المقدسة للعمل على راحتهم.

٣ـ الحدائق وماكينة المياه: بالدير حديقتان واحدة بحرية والأخرى قبلية ويتعهد رهبان الدير بالعناية بها، والاكثار من زراعة أشجار الفاكهة بأنواعها والخضروات. وقد استحضر القمص برنابا رئيس الدير السابق ماكينة للحديقة البحرية لرفع المياه، كما استعملت أيضا لطحن

الغلال ولتوليد الكهرباء التى أدخلت فى الكنيستين الشرقية والغربية والقصر الجديد للضيافة كذلك، وتم ذلك على نفقة الأنبا يؤانس عام ١٩٣١ ميلادية.

٤.**المكتبة:** وتحتوى على ما أمكن الاحتفاظ به من المخطوطات والكتب القيمة الباقية ورئيس الدير ورهبانه حريصون على العناية والاهتمام بها لكيلا تمتد اليها الأيدى العابثة كما تعرضت لها من قبل وأفقدتها اثمن كنوزها العلمية والاثرية، وقد سبق أن تولى أحصانها المرحوم يسى عبدالمسيح أمين مكتبة المتحف القبطى الأسبق، ووضع لها فهارس على النظام الحديث ثم نظمها الى مجموعات رئيسية ثلاثة: تاريخية ولا هوتية وطقسية. وقد منع الدير الاطلاع على المكتبة أو مخطوطاتها أمعانا فى الوقاية من تعرضها لسرقة. ولكن أمكن أخيرا بالسماح للباحثين والمهتمين بالشئون الكنسية وتاريخ الرهبنة الاطلاع على تلك الكتب والمخطوطات بشرط الحصول على التصريح الرسمى من غبطة البطريرك.

وتعتبر مكتبة هذا الدير ومخطوطاتها من أنفس الكتب الموجودة بالاديرة، وهى تبلغ حوالى ٤٧٢ مخطوطا، ٢٨٩ مطبوعا، وأغلبها يحث فى الشئون الدينية ومعظمها نسخت فى عهد الأنبا كيرلس الخامس الذى يرجع اليه الفضل فى جمع أشتات الكتب القبطية وترميمها وتجليدها، وكان من رهبان هذا الدير فى القرن التاسع عشر، هذا فضلا عن المكتبة التى خلفها القمص عبدالمسيح المسعودى، وهى محفوظة بداخل خزائن خاصة ومدون عليها، خزانة المسعودى وهى تشمل عدة كتب ومراجع قيمة فى عدة لغات.

٥.**المنارتان:** وتقعان فى مدخل الحديقة البحرية، وقد شيدتا على نفقة نيافة الاب الجليل الانبا توماس مطران المنيا والاشمونين عام ١٦٣٧ للشهداء يوافق ١٩٢٠ للميلاد فى عهد رئاسة القمص مينا.

٦.**قلالى الرهبان:** وهى تتكون من غرفة تستعمل للجلوس وتناول الطعام ومن داخلها حجرة أخرى للنوم، وهذه القلالى من دورين وهى جانب الحديقة البحرية.

٧.**أما المخبز «الطابونة»:** التى أعدت لتجهيز الخبز للرهبان فشيدت على الطريقة الحديثة. وبجوارها يقع «الطافوس» وهى كلمة يونانية ومعناها المدفن.

رابعا. دير الأنبا مقار

ويقع في الجنوب الشرقي لدير الأنبا بشوى ودير السريان. وتبلغ مساحته في الأصل حوالى فدان و٢٢ قيراطا، وقد أضيفت اليه تعديلات وتنظيمات عديدة ومبان بفضل جماعة الرهبان المثقفة ورئيسهم الفاضل الروحى الجليل، وينسب هذا الدير الى القديس أبو مقار الكبير الذى ذكرت سيرته في الكلام عن وادى النطرون ورهبانه.

وهذا الدير أغنى أديرة وادى النطرون بما يحويه من أروع الآثار وأهمها ذلك التابوت الموجود في كنيسة أبى مقار ويحوى رفاة ستة عشر من الآباء البطاركة. كما يوجد أجساد التسعة والأربعين شيخاً الشهداء الذين قتلهم البربر وهم مدفونون بكنيسة الشيوخ.. كذلك التابوت الرخامى الذى يحمل رفاة القديسة هيلاريا ابنة الملك زينون التى تنكرت في زى الرجال وترهبنت بهذا الدير ودفنت في أرضية قصره القديم الذى بناه والداها فوق المكان الذى تحوى أرضيته تابوتها.

ومن الذكريات الهامة التى ترتبط بهذا الدير ذات التاريخ الخالد المجيد أنه كان المكان المفضل للزيارة من جميع بطاركة الأسكندرية وبصفة خاصة في الأزمنة التى كانت تنتاب فيها البلاد موجات الفتن والفوضى والاضطرابات ويعم البغى، والاضطهادات من ناحية الاباطرة الرومان القساة والحكام الغاشمين، فكان بعض البطاركة والأساقفة يلجأون الى دير الأنبا مقار الكبير حيث ينعمون فيه بالسلام والهدوء، وكذلك يجتمعون فيه عندما كانوا يقومون بعملية طبخ الميرون المقدس، وأحيانا يدشنون الكنائس والهياكل التى تكون قد شيدت في المكان المذكور.

وكان من العادات المتبعة عند انتخاب البطريرك للكرسى المرقسى كان لابد بعد تكريسه في الاسكندرية أن يتوجه بعدها مباشرة الى دير الانبا مقار حيث لابد من اتمام عملية الرسامة والتقديس بالدير المذكور. ومن الدير المذكور تخرج أكبر عدد من بطاركة الأسكندرية، كما دفن فيه أكبر عدد من أجسادهم أيضا. وهذا دليل على مقدار الاهمية التاريخية العظمى والمكانة الرفيعة المرموقة التى تبوأها ذلك الدير الشهير خلال الازمنة المختلفة في كافة أنحاء البلاد المصرية بل وفى جميع أقطار المسكونة أيضا وهذا أسبغ بلا شك صفة التقديس للمكان المذكور.

وأهم الكنائس والهياكل الأثرية الباقية بالدير المذكور باختصار:

أولا: كنيسة الأنبا مكاريوس: وتبلغ في طولها من بحرى الى قبلى ٢١ مترا وعرضها من شرق الى غرب حوالى ١٥ مترا وملتصقة من الجهة البحرية بالسور البحرى، وكان بها خمسة هياكل وهى:

(١) هيكل الرسل.

(٢) هيكل مرقس الأنجيلى.

(٣) هيكل مقار بناه مقار أسقف منوف.

(٤) هيكل شنودة.

(٥) هيكل بنيامين. ولم يبق منهم غير الأول والأخير ولأهميته فسنتناوله لذلك بشيء من التفصيل.

هيكل بنيامين: تبلغ مساحته ثمانية أمتار في ثمانية الا ثلثا. وبناء قبته من أبدع وأتقن ما بنى من نوعها في وادى النطرون، بناه الرهبان في عهد البطريرك بنيامين الثامن والثلاثين في عداد البطاركة الذين تولوا رياسة الكرسى المرقسى. وقد حضر الأنبا بنيامين بنفسه وقام بتكريس هذا الهيكل، وفيما هو يباشر عملية التكريس روى أنه شاهد شخصا نورانيا واقفا بزاوية الهيكل فتمنى لو تتاح له الفرصة لأن يعينه أسقفا على احدى الأبروشيات، ولكنه سمع صوتا يقول «هذا مكاريوس قد حضر اليوم بفرح مع أولاده».

وهذا الهيكل له منزلة سامية وروعة رهيبة واحترام عظيم ويتحتم على كل بطريرك أن يصلى فيه بعد رسامته، وكذلك حفلة تقديس الميرون تكون بهذا الهيكل ومن القوانين التى وضعها له الأنبا بنيامين أنه غير مصرح لأى كاهن أن يصلى فيه الا من رسم عليه...

ثانيا ـ كنيسة أبى أبسخيرون: وتتسع من بحرى الى قبلى بحوالى ١٧ مترا ومن الشرق الى الغرة ١٨ مترا. وتقع قبلى غربى كنيسة الأنبا مقار، وكانت قديما متصلة بها.

ثالثا ـ كنيسة الشيوخ: وهم التسعة والأربعون راهبا من شيوخ برية شيهات الذين استشهدوا وقتلهم البربر فى احدى غزواتهم على وادى النطرون.

ومن حول دير القديس مقار[1] الكبير توجد آثار عديدة لا حصر لها من القلالى بعضها كان كبير الاتساع وذات أسوار وداخلها حجرات كثيرة وتحوطها أسوار كأنها أديرة صغيرة، وهذه كلها كانت عامرة بالنساك. وقد أمكن حصر أسماء عديدة لأصحاب رهبانها الذين كانوا يتعبدون فيها والبلدان التى وفدوا منها.

رابعا ـ المكتبة: ولو أن ما تبقى بها من الكتب والمخطوطات قليل لا يتناسب مع ما كان عليه دير الأنبا مقار من شهرة عظيمة فى العلوم والفنون الا أن فى مكتبته طائفة من الكتب القديمة والخطية منها كتاب تكريس هيكل بنيامين وتاريخ نساخته ترجع الى عام ١٠٤٦ للشهداء ويوافق ١٣٣٠ للميلاد وهو باللغتين القبطية والعربية وبعض كتب صلوات الأكاليل والمعمودية قديمة أيضا ومدونة بالقبطية والعربية. وكذلك ميامر عن أخبار القديسين الرهبان والشهداء. وهى موجودة بكثرة ونظرا لقدمها فقد تكون أصح من غيرها مما نشر عن أخبار القديسين فى جهات أخرى.

وقد اشتهر هذا الدير منذ القدم بما كان يحويه من طائفة من النساخ المهرة فى نساخة الخط القبطى والعربى. وكانوا يرسمون الحروف القبطية على أشكال طيور جميلة جذابة المنظر، كما كانوا يتفننون فى صنع الوان الحبر الذى يصورون به الحروف والرسوم حتى أنه فى عهد البطريرك الأنبا «غبريال بن تريك» البطريرك السبعين، طرد راهب من البرية لسوء سلوكه، فذهب ووشى الى الحافظ أن الرهبان يعملون الكمياء فأوفد معه أستاذين وحضروا الى دير أبو مقار. فوجدوا رهبانا نساخا وعندهم كتب الأبقطى وصنعة الأصباغ، فقال له أن هذه كتب الكيمياء فقبضوا عليهم ومن جملتهم مرقس الناسخ وقمص أبو يحنس وقمص أبو مقار ونهبوا أوانى دير أنبا بشوى وأحضروهم الى الوزير. ولما تحقق أن هذه صبغة صنع الالوان التى يستعملونها فى النساخة أخلى سبيلهم وأعطى لهم كتاب الأمان وأرسلهم الى أديرتهم مكرمين.

(١) عانى، القديس من اضطهاد الأمبراطور «فالنس» الأريوسى المبدأ شدائد عنيفة دفاعا عن الايمان والثبات على المبدأ حتى أنه نفى الى أسوان فى جزيرة أنس الوجود فى فيلة حيث شفى ابنة حاكمها الوثنى المذهب من مرضها التى كانت تعانى منه فاعتنق أبوها مذهبه، وهكذا تحول سكان الجزيرة الى الديانة المسيحية على يده حتى اضطر الأمبراطور الى اطلاق سراحه، فلما عاد من منفاه قضى بقية عمره مرشدا ومعلما للرهبان. وقيل أنه ترك ٥٠ موعظة بعد أن رحل الى سيده الأعظم عن تسعين عاما.

بعض أديرة أشتهرت بالوجه البحرى

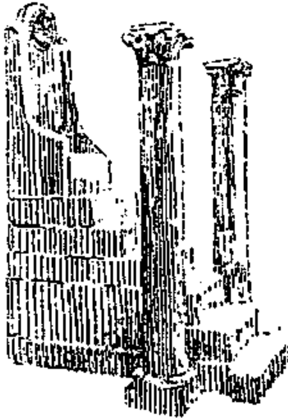
بقايا دير سقارة بالمتحف القبطى

* دير مار مينا بمريوط
* دير تل الهر شمال قناة السويس.
* دير تل اتريب بالقرب من بنها.
* دير ابى هور بشبين الكوم.
* دير الشهيدة دميانة ببلدة بلقاس.
* دير سقارة ـ دير القصير / اديرة حلوان.
* صفحة ناصعة عن آداب وتقاليد الرهبان.
* الرهبنة عند النساء.
* منطقة سيناء وأهميتها فى النسك.

سبق أن تكلمنا عن الأعداد الهائلة من الأديرة والقلالى التى امتلأت. بها البلاد المصرية فى جميع أطراف وادى النيل وصحاريه الشرقية والغربية وتناثرت فى كافة البقاع القريب منها والبعيد وكانت خلايا عامرة تنبض بالحياة النورانية السامية المليئة بالرحمة والايمان وأشبه بمنارات لامعة تهدى الضالين من الرحالة أو المسافرين من متاعب الأسفار وأخطار الطريق فى الأزمنة البدائية، فكانت خير ملجأ وملاذ هادئ أمين لكل ضال أو مريض أوملهوف أو فقير فيجد كل عابر اليها ضالته المنشودة فى سماحة رهبانها الأفاضل، وما اشتهروا به من الكرم وحب الضيافة والمحبة وانكار الذات العجيب.

هذه الشرايين النابضة التى أفادت الانسانية كثيراً، وارتوت منها النفوس العطشى فى البرارى والقفار، بل وفى البقاع الأخرى من الحضر انهالت عليها جحافل الشر وأبادت معظمها، والبعض منها ما زالت آثاره باقية، والغالبية أبيدت عن أخرها ولم يبق منها شيئاً الا الأسماء التى كانت ترددها بعض المراجع القديمة الباقية والتى حفظت تلك الأسماء وما كان لها من أهمية.

ومنها نذكر على سبيل المثال لا الحصر، ما حاق ببعض الأديرة من خراب ذلك ما ورد فى

كتاب تاريخ البطاركة لساويرس بن المقفع من القرن العاشر الميلادى، «أنه فى أيام الأنبا أندرونيكوس» البطريرك السابع والثلاثون «٦١٦/٦٢٢م» جاءكسرى ملك الفرس بقوة عظيمة واخذ مصر وتسلط عليها: «جعل اهتمامه أن يفتح المدينة العظمى اسكندريه، وكان هناك ستمايه دير عامره بهاناتون مثل أبراج الحمام (...) وكان جيش الفرس قد أحاط بها من غرب الديارات ولم يبق للرهبان ملجأ، فقتلوا جميعاً بالسيف الا قليلا منهم اختفوا فخلصوا. وجميع ما كان هناك من المال والأوانى نهبه الفرس وأخربوا الديارات».

دير القديس مينا بمريوط[1]:

يعتبر هذا القديس وديره وبيعته من أروع ما كتب فى تاريخ الكنيسة القبطية وأثرها الخالد، أما ما عرفناه عن مولد هذا القديس وتاريخ حياته أو استشهاده، فقد كان عن طريق الرواة والقصص والأساطير. وقد حدث اختلاف بين الكتاب والرواة وصدرت أقاويل عديدة عن ذلك القديس وتاريخه حتى ذكر البعض أنه كان يوجد أثنان بهذا الاسم أحدهما مصرى الجنس والاخر أجنبى من فريجيا بآسيا الصغرى، الا أن الدكتور «الفريد بتلر» المؤرخ الانجليزى ينوه بما يؤكد مصريته فى الاسم نفسه لأنه اسم أول ملوك الفراعنة، وهو الملك مينا موحد الوجهين ومؤسس مدينة منف عاصمة مصر القديمة.

وورد عن مينا هذا أنه ولد من أبوين ورعين كريمين فى مدينة «نيقيوس» فى مصر واسمها بلغة المصريين «ابشادى»، وكان والده «أودوكسيوس» أخا «أبسطاس» الوالى فى ذلك الزمن ـ وكان والدهما معروفا بشجاعته ومهابته وحسن سيرته،واستقامته ومحبة الناس وتقديرهم له ـ وحدث أن ولى حاكما على كورة أفريقيا ـ فلما ترك نيقيو س حزن أهلها على رحيله لأنهم خسروا رجلا فاضلا تقيا عفيفا ـ فاستقبله أهل أفريقيا بالبشر والترحاب لما سمعوا عن حسن سيرته وطهارته. وكانت زوجته عاقرا وكثيراً ما كانت تقضى أياما فى الصوم والصلاة واعطاء الصدقات متوسلة الى الله لكى يرزقها نسلا. وفعلا استجاب الله دعاءها ورزقت بطفل أسمته

---

(١) ذكر المؤرخ أبو العباس أحمد المعروف باسم اليعقوبى الذى عاش فى القرن التاسع وأوائل العاشر الميلادى فى مؤلفه «كتاب البلدان» ديرين فى مصر وهما دير أبو مينا «غرب الأسكندرية» ودير أبو شنودة «عند أخميم» ربما لعظم شهرتهما بعهده.

مينا، ففرح والداه وسلماه الى أحد الكهنة لتعليمه. فأظهر منذ نعومة اظفاره ورعاً وتقوى وميلا طبيعيا الى مداومة الصوم والصلاة.

وعندما أكمل الحادية عشرة من عمره توفى والده ثم لحقت به والدته «أوفوميه» بعد ثلاث سنوات، وتركا له ثروة طائلة، ولما شب الصبى ظهر شغفه للعبادة والميل للصوم والتصدق. وفى سن الخامس عشة أختير فى سلك الجندية، وكانت تظهر عليه دلائل القوة والشجاعة والأقدام ودلائل النعمة بادية على محياه، وكان محبوبا من الجنود لتواضعه وزهده وتقواه، حريصا على طهارة جسده وبتوليته.

وفى عصر الامبراطور دقلديانوس بدأت ترسل منشوراته الى كل الممالك والكور يأمرهم بألايخرجوا على عبادة الامبراطورية الوثنية والسجود للالهه وتقديم الذبائح ورفع البخور لها وتوعد بالعذاب والتنكيل الشديد لكل من يخالف الاوامر فترك الجندية وخرج الى البرية فى مكان مقفر وظل متوحدا يتعبد لله بعيدا عن مشاهدة معبوداتهم النجسة وقضى زمانا طويلا وهو فى هذا الهدؤ حتى أراد الله أن يصطفيه للشهادة والجهاد الصالح ونيل أكليل الخلود ـ وحدث أن كان عيد الملوك فى المدينة التى فيها القديس مينا فخرج بين جموع غفيره من الناس وامتلأ بالروح القدس وبشر بالانجيل فى وسطهم وأرتاع الشعب من ذلك وطرأ عليهم ثبات عجيب وحتى والى المدينة ذهل عندما رآه فى ملابس الرهبان القديسين وهو يندد بعبادة الاوثان ويبشر باسم سيده المسيح ورفع أسمه أمام الجمع الحاشد احتفاء بعيد الملوك المذكور. فأمر الحاكم بالقبض عليه وأودعه السجن ثم أمره بالسجود الى الآلهة فرد عليه القديس بكلام لاذع وسخر بأصنامه فحنق عليه الوالى وأذاقة من صنوف القسوة والعذاب ما تقشعر منه الابدان ليثنيه عن عزمه حتى تقدم اليه واحد من الواقفين متوسلا الى القديس ليرحم شبابه ويسجد للالهه كى لا يهلك. ولم يزده ذلك الا أستمساكا بسيده واظهارا لتفاهة اصنامهم الفاسدة النجسة المائتة التى يسجدون اليها. فزاد عليه العذاب حتى جرى دمه وتقطع لحمه ثم وضعوا المشاعل تحته والجموه وطوقوا عنقه بالحديد وكرروا عليه العذاب ثم القوه فى السجن، ويروى ان الوالى لما أشتد حنقه عليه أمر بعض الجنود بنشره فكان المنشار يذوب كالشمع اذا اقترب من جسمه فافضح الملوك وآلهتهم. ولما تحير الوالى فى أمره وعناده ألف مجلسا وكتب قضيته ثم أمر بقطع رأسة بالسيف وكانت شهادتة فى يوم ١٥ من شهر هاتور. وقد أراد عباد

الاوثان أحراقة ولكن تمكنت أختة من أخذ جسده كما أوصاها بعد أن دفعت ما كان معها من المال الى الجند ثم لفته ونزلت به الى الاسكندرية ولما وصلت به هناك تلقوه بأكبار واحترام عظيم وكفنوه فى أكفان نقية طاهرة.

ولما أنقضى زمان الاضطهاد نقلت رفاة القديس من الاسكندرية الى المكان الذى يحمل اسمه الان وذلك على أثر رؤيا ظهرت للبطريرك فى ذلك الوقت. فيروى أنه بعد وضع رفاته فى تابوت حملوه على ظهر جمل وتركوه خارج الاسكندرية وهم يتتبعونه حتى وصل الى مكان «بحيرة بياض» ويقال أن هذه هى الجهة التى نشأت فيها أمه. وفى المكان المذكور توقف الجمل الذى يحمل التابوت فجأة فى الصحراء الغربية وعبثا حاولوا أجباره على السير فاضطر مرافقو الجمل الى استبدال الجمل بأخر ولكنه توقف الثانى عن المسير وظل فى مكانه لا يتحرك كما فعل الحيوان الاول وعلى ذلك قرر الاتباع دفن رفاة القديس فى ذلك المكان بمنطقة مريوط، حيث شيدوا فيها ديره وبيعته التى ظهرت فيها آيات وعجائب وشفاءات عظيمة للمرض وذاعت شهرة تلك المنطقة فى جميع انحاء العالم القديم فأصبحت كعبة يفد اليها الحجاج من كل صوب فى كل عام لزيارة قبر القديس لنوال بركته وطلباً للاستشفاء من أسقامهم. وكان يوجد بالقرب من قبره بئر يأخذ الحجاج من مائها فى أوانى خاصة وكانت تصنع من الفخار فى مصانع بالمنطقة وعليها صورة القديس بارزة على سطحها وكانوا يعتقدون أن تلك المياه تشفى أمراض العيون.

وقد أقيمت حول ضريحه فى منطقة مريوط مدينة عظيمة يرجع تاريخها الى القرن الثالث الميلادى، كما أن الامبراطور أركاديوس بنى بجوارها كنيسة فاخرة من الرخام، وكانت تعتبر من أروع ما أنتجته يد الانسان فى الفخامة والجمال وعدت من أعظم كنائس القطر. وقد بناها الامبراطور المذكور وفاء لنذر كان قد تعهد به بمناسبة شفاء أحد أبنائه من مرض خطير. ومن طريف ما يذكر وصفا عن ذلك المكان ما رواه الرحالة العربى البكرى سنة ١٠٨٦ للميلاد فى مخطوط فى المكتبة الاهلية فى باريس حيث يقول «وفيه بنى كنيسة عظيمة تحوى عجائب الصور والنقوش وتوقد قناديلها ليلاً ونهاراً وفيها قبو عظيم وفى أحدى مبانيها صور جميلة من الرخام عليه صورة أنسان قائم على رجليه فوق جملين وأحدى يديه مبسوطة والاخرى مقبوضة، ويقال أنها صورة أبى مينا، وكل ذلك مبنى من الرخام. وفى هذه الكنيسة صور

الانبياء كلهم عليهم السلام، وصورة زكريا ويحيا وعيسى فى عامود رخام عظيم، وعلى يمين الداخل باب يغلق عليها، وصورة مريم قد اسدلت عليها ستائر وصور جميع الحيوانات وأهل الصناعات، ومن جملتها صورة تاجر رقيق ومعه خريطة أى «كيس نقود» بيده مفتوحة لا سفل «أعنى أن تاجر الرقيق لا ربح له» وفى وسط الكنيسة قبة فيها ثمانى صور يزعمون أنها صورا لملائكة، وفى جهة من الكنيسة مسجد محرابة الى القبلة ويصلى فيه المسلمون وحول الكنيسة ثمار كثيرة، ويقولون أن سبب بناء هذه الكنيسة أن قبرا كان موضعها وكان بالقرب منه قرية وأن رجلا من أهلها كان مقعدا فر منه حماره فزحف وأمسكه وركبه وأنصرف الى بلدتة صحيحا فتسامع الناس ذلك فلم يبق عليل الا وقصد ذلك القبر فيجلس عليه فيبرا فبنيت عليه هذه الكنيسة وقصدها أولو الاسقام ليستشفوا. وظل ذلك بعد أعادة بنائها. ويدفع لها من القسطنطينية كل عام ١٠٠٠ دينار

وقد تهدمت تلك الكنيسة وكذلك اندثرت بلدة الحجاج التى كانت قائمة وظلت أطلالها شاخصة بين الرمال. وأول من بدأ بالحفائر فى تلك المنطقة العالم الالمانى «كاوفمان» فى عام ١٩٠٧م.

ثم شرع المتحف القبطى بالاشتراك مع المعهد الالمانى فى مواصلة الحفائر العلمية بالمنطقة، كما شرعت البطريركية القبطية بهمة وارشاد غبطة البابا الراحل الانباكيراس السادس فى العمل على أعادة تلك البقعة الى سابق عهدها الزاهر وشيد فيها دير كبير وكنيسة فاخرة على أسم القديس مينا أيضا، ووالى قداسته الاهتمام المتواصل بهذه المنطقة وزيادة أعمال التعمير والبناء فيها وغرس الحدائق كما كانت عليه من قبل أذ أنها أشتهرت بالزراعة وعلى الاخص الفاكهة كالكروم والتين والزيتون وكذلك الشعير. ومن طريف ما عثرت عليه الحفائر مجموعة من الحمامات التى كان يؤمها الحجاج، وكانت تصل المياه اليها عن طريق الابار التى أنتشرت كثيراً بتلك البقعة. وقد كشف منها أكثر من ثمانين بئرا، وتنقل المياه الى الحمامات بطريق السواقى والقنوات التى كانت تربط بين الابار والحمامات.

وقد كانت تلك المنطقة أيضا تتمتع فى غابر الزمان بشعبية هائلة وأتخذها عظماء البطالسة والرومان مكانا للمتعة والاستجمام، وذاعت شهرته وأمتدت الى ممالك أوروبا عامة وأصبح كعبة يؤمها الحجاج من كل جهات المسكونة ويكنون لها الولاء والتقديس منذ أقدم العصور. ولا تزال فى روما حتى الان كنيسة قديمة تحمل أسم القديس المذكور وقد بدأت تجتذب اليها العديد من الزائرين اليوم. وقد نقلت اليها رفاة البطريرك الراحل الانبا كيرلس السادس بناء على وصية منه قبل وفاته.

أيقونه قبطية فريدة للسيد المسيح واضعاً يده على كتف القديس مينا. من القرن ٧م نقلت من باويط إلى اللوفر باريس

ومازال يعثر الى اليوم على بقايا من الاوانى الفخارية التى تعرف بقناني القديس مينا الفخارية من أحجام مختلفة بين أنقاض ديرة فى الصحراء الغربية غرب مدينة الاسكندرية. ويوجد فى المتحف البريطاني وغيره من المتاحف الاوروبية مجموعات عديدة من هذه الاواني التى كان يحملها الحجاج مملؤة بالماء عند زيارة ضريحة ويشاهد على سطحها صورة مطبوعة بارزة للقديس مينا وهو قائم يرفع بكلتا يدية للصلاة بين جملين جاثمين وأحيانا نراهما منحيين أجلالا له عند قدمية وكأنهما يقبلانهما، وأحيانا عليها صلبان صغيرة وبعض الاحرف اليونانية أو القبطية ويقصدون بها أختصار لاسم القديس مينا. وهذه الاوانى لا يمكن أن تقوم واقفة بل يجب حملها بواسطة خيوط تربط بين العنق والاذنين للاناء. ومن الاثار النادرة التى يجدها الاثريون أحيانا مطمورة بين الرمال فى المنطقة أو فى اركان مبانيها القديمة قطع الموزاييك الرخامية الرائعة بألوانها الجميلة البراقة ومنها الاخضر والارجوانى والاصفر والابيض والاسود والتى كانت تغطى بعض أرضيات ذلك الدير وصحن الكنيسة، وهى تشهد على مدى ما كانت عليه مبانى تلك المنطقة من الفخامة والعظمة والجمال.

ويظهر أن الشهرة العظيمة التى ذاعت فى أغلب الاقطار عن عظمة مبانى ذلك الدير وبيعتة حتى كانوا يطلقون عليها أسم مدينة الرخام مما شجع الملوك وبعض الخلفاء على أقتناء بعض أعمدتها وقطعها الرخامية النادرة وقد روى عن الخليفة المأمون أنه أرسل بعض عماله الذين أظهروا أعجابهم الشديد بمبانى منطقة أبى مينا فعملوا على أنتزاع الكثير من أعمدتها وقطعها الرخامية الفاخرة ومنها ما كان بألوان جذابة جميلة وقيل أنها أستخدمت فى تزيين بعض قصر

المامون فى مدينة بغداد. ويغلب على الظن أن هذه المنطقة هجرت وتحولت الى أنقاض فى القرن الثالث عشر الميلادى ثم أخذ البدو فى السطو عليها والشروع فى النبش بين أنقاضها واقتطاع بعض رخامها وقطع الموزاييك فيها وبيعها الى تجارم الاثار بالاسكندرية.

دير تل الهر،

ويقع هذا الدير فى سهل الطينة عند الطرف الشمالى لقناة السويس من الجهة الشرقية وفى نصف ساعة بين تل الفرما «التي سميت في العصور الوسطى بمدينة الفرما، ثم وردت «الفرماء» أو تل الفرما وكان أسمها بالقبطية Peremoun وباليونانية Pelousion» والقنطرة الشرقية . وكانت قديما طريق القوافل بين مصر والشام التى تمر على مسافة قليلة جنوبا منه . وكان الدير تابعا لا سقفية الفرما وهى أقدم أسقفيات مصر وقد ترهب فى الدير المذكور الناسك القديس العالم أيسيذروس الفرمي وهو من مواليد الاسكندرية، وأصبح رئيسا للدير وتنيح فيه عام ٤٤٩ ميلادية. ومن نفس الدير أرسل منه الاف من رسائلة المشهورة الى ملوك وبطاركة وأساقفة وولاه وعظماء وأغنياء عصره تارة يذكرهم فيها بمبادئ الاداب القومية وتارة مؤنبا أياهم ومقوما أعوجاجهم وحينا مرشدا ومعزيا ولذلك كانوا يطلقون عليه «معلم المسكونة».

ومع أنه كان راهبا بسيطا في دير بسيط بعيدا عن مراكز السلطة الدينية والزمنية لكن كان صوته مسموعا جداً لاعند أكابر مصر فحسب بل فى أنحاء العالم الاخرى من المسكونة وهو قاطن فى قلايته فى ذلك الدير لا يخشى من أن يقرع في رسائلة عند الضرورة بطريركى عصره وهما الانبا توفيلس والانبا كيرلس لعيوبهما وسوء تصرفهما رغما من صلة القرابة التى كان تربطه بهما ويذكر أنه عندما انتشر خبر وفاة الانبا انطونيوس الكبير فى عام ٣٥٦ ميلادية وبلغ النبأ الى تلميذه القديس هلاريون مؤسس الرهبنة فى الشام قام من ديره بجوار مدينة غزة بصحبة أربعين راهب وساروا الى جبل القلزم ليقوموا بواجب العزاء نحو ذلك الراحل العظيم معلمهم وكوكب البرية. فمروا فى طريقهم على مدينة الفرما واستراحوا فى ذلك الدير ثم استانفوا السير الى جبل القلزم. وليس هناك من المصادر ما يدلنا على مصير الدير المذكور بعد نياح مؤسسة القديس أيسيذروس وكم من الزمان ظل قائما، الا أنه مما لا يدعو مجالا الى الشك فى زوال هذا الدير بعد عام ١١١٨ للميلاد حيث أستولى «بودين الاول» ملك الفرنجة

على الفرما وأحرقها جنودة كما جاء فيما ورد بكتاب أبى المكارم «ورقة ٥٨» ولم تقم للمدينة قائمة بعد ذلك. وقد كان بالفرما أدير ة أخرى عديدة وبيع وكان مصيرها الخراب على يد الفرس والعرب.

دير اتريب،

كان قديما ديرا بمدينة أتريب عاصمة القليوبية وكانت هذه المدينة تقع على الضفة الشرقية للنيل «الفرع الدمياطى» بالقرب من بنها العسل حاليا وشمال شرقى منها وقد أشتهر هذه الدير فى التاريخ المسيحى لمصر بسبب أعجوبة كانت تحدث فى كنيسة الدير من كل عام خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين. وعرفت هذه الاعجوبة بأعجوبة السيدة العذراء بكنيسة مدينة أتريب فى أيام خلافة المأمون «٨١٣ /٨٣٣ ميلادية» ومن هذه الاعجوبة ان حمامة بيضاء كانت تنزل من مكان مجهول وتأتى فى ذلك الدير بكنيستة فى يوم ٢١ بؤونة وهذا اليوم يوافق عيد العذراء ثم تدخل المذبح ثم تغيب عن النظر الى مثل هذا اليوم من السنة التالية . وتدرجت هذه الاعجوبة من العجائب المعروفة باسم «مجموعة الاثنين والسبعين أعجوبة للعذراء مريم» وهى محفوظة باللغة العربية والحبشية وكثير من اللغات الاخرى فى مخطوطات عديدة ونشرت فى مؤلفين «ميامر وعجائب السيدة العذراء مريم لمجموعة من أقوال آباء الكنيسة القبطية الارثوكسية طبع على نفقة جرجس حنين «مصر ١٦١٩ للشهداء يوافق ١٩٠٢ ميلادية».

وقد نوة المؤرخون الشابوشتى فى «كتاب الديارات» وياقوت الحموى فى كتابة «معجم البلدان» والقزوينى فى مؤلفه «آثار البلدان» وكذلك أبو المكارم فى كتاب «كنائس وديارات مصر» الى الدير المذكور كما ذكره المقريزى فى كتابة «المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والاثار» ٦٢ فيقول «أن الدير قد تلاشى فى أيامه حتى لم يبق به الاثلاثة من الرهبان لكن الشعب والزائرين يجتمعون فى عيده ولا يمكننا تحديد تاريخ تأسيس هذا الدير أنما يرجح أن يكون قديم العهد أذ أن أتريب كانت أسقفية قبل سنة ٣٢٥ وقد قامت البطريركية القبطية مع بعض المهتمين بالاثار القبطية بأجراء مجسات وحفائر فى تلك المنطقة وكشفت عن بقايا من قطع الفخار وبعض التيجان الرخامية وربما اذا توسعت اللجنة الاثرية فى حفائرها قد تصل الى أشياء هامة تميط اللثام عن غوامض الدير المذكور وتاريخة وخصوصاً أن ما ذكر حسب

الوصف الوارد في ميمر أعجوبة كنيسة أتريب أنها كانت عظيمة الاتساع ومزدانة بكثير من أعمدة الرخام الابيض وبأبدع الزخارف.

دير سيرياقوس أو دير أبي هور:

سمي بدير سرياقوس لوقوعة بجوار بلدة سرياقوس الواقعة على بعد ١٧ كيلو متر شمال شرق القاهرة بمركز شبين القناطر بمحافظة القليوبية وسمى بدير أبى هور لانه شيد على أسم القديس أبا هور من سرياقوس وأستشهد في أيام دقلديانوس بمدينة «أنصنا» في اليوم الثانى عشر من شهر أبيب . وقد تناول خمسة من المؤرخين الكلام عن الدير المذكور ووصفوه وبمقارنة وصف الشابوشتي لهذا الدير مع وصف المقريزى يتبين أنه كان في أوج عمرانه في القرن العاشر الميلادى وأضمحل في القرن الخامس عشر. وكانت لهذا الدير شهره عجيبة في نوعها ـ وجدير بنا أن نذكر هنا وصف الشابوشتى له. «وهذه البيعة بسرياقوس من أعمال مصر، عامرة كثيرة الرهبان لها أعياد يقصدها الناس. وفيها على ما يذكر من أهلها أعجوبة وهي أن من كانت بها خنازير [1] يقصد هذا الموضع ليعالج به، فيأخذه رئيس الموضع ويأتيه بخنزير فيرسله على موضع الوجع فيأكل الخنزير الذى فية لايتعدى ذلك الموضع، فاذا تنظف الموضع زر علية من رماد خنزير فعل مثل هذا الفعل من قبل ومن زيت قنديل البيعة فيبرأ ثم يأخذ الخنزير فيذبح ويحرق ويعد رمادا لمثل هذا الحال.

ولا يختلف ياقوت والمقريزى في وصفهما هذا الدير من حيث المعانى وختم المقريزى وصفه بهذه الملاحظة : وهو «أعنى الدير الى الان كذلك كما ذكروه» ثم قال : «ولهذه البيعة دخل عظيم لمن يبرأ من هذه العلة، وفيها خلق من النصارى» أما أبن فضل الله العمرى في كتابة «مسالك الابصار في ممالك الامصار» فتكلم عن مظاهر هذا الدير كقوله «بيعة أبي هور ـ وهى سرياقوس عامرة برهبانها مثرية بفضة قناديلها وذهب صلبانها كثيرة القلالى، مذهبة بالوقود جنح الليالى ولها أعياد مقصودة الاوقات منتظر الميقات». ولا نعرف متى أندثر هذا الدير وموقعه تماماً بالنسبة الى موقع القرية سرياقوس حاليا . وليست له بقايا.

(١) مرض من الامراض الخطيرة وهو عبارة عن عقد تظهر في الرقبة أو في الابط الحفر الاوروبية «خلف الورك» وهو مرض درنى تلتهب فيه العقد وتتضخم وتتجبس وتتقيح وهو معد عندما يتقيح وهو سل. وهذا من تشخيص المرحوم العالم الدكتور جورجي بك صبحى.

دير جميانه المشهور بدير أو كنيسة الست جميانة «أو دميانة»

يقع في وادى الزعفران في منطقة البرارى على مسيرة ساعتين بحرى بلدة بلقاس وقد ذكرة المقريزى ص ٦٥ بقوله وهو على اسم بوجرج قريب من دير العسكر على ثلاثة ساعات منه، وكل ما وصل اليه علمنا يشهد بأن الدير أو الكنيسة المقامة بوادى السبسبان بالزعفرانة كانت على أسم تلك الشهيدة وقائمة بقرب المكان الذى عاشت فيه واستشهدت فية وتوجد بين المخطوطات العربية المسيحية سيرة «ميمر» باسم القديسة جميانة باللغة العربية تحتوى على خبر حياتها واستشهادها برفقة أربعين عذراء بوادى السيسبان بالزعفرانة فى البرارى فى عهد دقلاديانوس الكافر فى أواخر القرن الثالث الميلادى ووضع هذه السيرة الانبا يؤانس أسقف البرلس عما وجده بقلم «خرستودولس» تلميذ القديس يوليوس الاقفهصى كاتب الشهداء فى القرن السادس للميلاد.

أما القديسة دميانة فكانت الابنة الوحيدة لمرقس والى منطقة البرلس بأقليم الغربية. كانت شابة فاتنة الجمال ولما بلغت الخامسة عشر من عمرها رغبت فى حياة التبتل فشيد لها والدها قصرا خاصا اعتزلت فيه وأعزل معها أربعون من العذارى القبطيات من بنات أعيان الولاية ليمارسن حياة النسك معها. وحدث أن والدها عملا بأوامر دقلديانوس أنه أرغم أن يخر للاوثان. فلما سمعت أبنته بذلك هالها الامر وأظهرت له خطأة وشجعته على التوبة فتاب وأعترف بأيمانة بالمسيح أمام الامبراطور فكان جزاؤه القتل. أما هى فأرسل اليها القيصر قائدا ومعه فرقة من الجنود ليحملها على أنكار أيمانها والا أعدمها. فانتهرت القائد وسخرت بأمر القيصر وأحتملت كل صنوف القسوة والعذاب بصبر. وأنتهى الامر بقطع رأسها ورؤوس العذارى الاربعين اللائى آمن بسببها وذلك فى أوائل القرن الرابع الميلادى.

ثم جمع القديس يوليوس الاقفهى (من أقفهى مركز الفشن) الاجساد ودفنها بالاكرام ودون سيرتهن. وأمر قسطنطين الكبير بتشييد كنيسة فوق القبر ودشنها البابا الكسندروس الاسكندرى فى ١٢ بشنس ورسم لها أسقفا وكهنة ولا يزال لها دير باسمها على مسافة ١٢ كيلو متر شمالى بلقاس ويؤمة القبط فى عيدها سنويا فى ١٢ بشنس.

دير سقارة[١] :-

لم تشتهر تلك المنطقة بما خلفتة من أروع الاثار التاريخية منذ فجر العصر المصرى القديم فحسب بل ظلت لها شهرتها أيضا منذ العصر المسيحى المبكر. فقد أنشأ فيها الرهبان المصريون ديرا كان يطلق عليه دير الانبا أرميا وهو في الغالب أسم المؤسس له ويرجع تاريخة الى القرن السادس الميلادى. وقد تناوله الدمار والخراب كما حدث لغيره من الاديرة حوالى منتصف القرن الثامن. وقام بالحفائر فيه العالم الاثرى «كوبيل[٢] Quibeli» عام ١٩٠٧ حيث كشف عن أنقاض كنيسة رائعة برهن ما وجد من آثارها من أعمدة وتيجان وافاريز باهرة النقوش من الحجر الجيرى وبعض القبلات ذات الزخارف البالغة الدقة والكوات المزينة بصور الفرسكات بالألوان البديعة وتبرهن بجدارة على مقدار مابلغة فن المعمار والنحت الدقيق من المهارة والبراعة ماينتزع الاعجاب. وقد نقلت هذه الاثار للاحتفاظ بها فى المتحف القبطى ومنعا من أن تمتد اليها الايدى العابثة وتزدان بها أهم قاعات فن النحت بالمتحف المذكور الان.

دير القصير بطرة :

ويعرف بدير البغل. وقد تكلم عنه المؤرخ تقى الدين المقريزى صفحة ٥٠٢ فذكر أن الحاكم بأمر الله أمر بهدمه ونهب ما فيه . وفيه أقام القديس أرسانيوس الذى طلب منه الامبراطور أركاديوس تعليم أبنائه مدة . وهو مقام على أعلى الجبل وبه بئر منقورة فى الجبل وهو دير حسن محكم البناء. وفى هيكله صورة مريم فى لوح والناس يقصدون الموضع للنظر الى هذه الصورة.

---

(١) ذكر دير سقارة المؤرخ القبطى يوحنا أسقف نقيوس فى مؤلفة التاريخى:
H. Zotenberg. Chronique de Jean. eveque de Nikiou, P. 488;
J. Maspero et Gaston Wiet, Materiaux. P. 260
عندما تكلم عن «أنستاسيوس» الذى علم له فى هذا الدير أنه سيكون أمبراطور على بيزانس عام ٤٩١ /٥١٨م. وليس هناك معلومات أكثر من ذلك عن ذلك الدير ولا بقايا له.

(٢) أخرج كوبيل من أنقاض حفائر دير سقارة هذا كثيرا من الاثار القيمة التى تكفى لتجهيز متحف كامل والمنطقة كانت عامرة بالإديرة والكنائس الفاخرة التى شيدها المسيحيون فيها منذ القرن السادس للميلاد.

وفى أعلاه غرفة بناها «أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون» ولها أربع طاقات الى أربع جهات وكان كثير التردد بهذا الدير معجبا بالصورة التى فيه يستحسنها ويشرب على النظر اليها. وهو مطل على القرية المعروفة باسم شهران وعلى الصحراء وعلى البحر [النيل]. وهى قرية كبيرة عامرة وهو أيضا يعرف بدير شهران[١]. ودير القصير هذا هو أحد الديارات الهامة.

ويظهر أن التسمية بدير البغل لانه كان الدابة التى أستخدمها لنقل الماء من العين الى أعلى الدير المذكور.

أديرة حلوان:

حلوان من البلدان التى تحيط بها الصحراء والتلال فى أغلب جهاتها فكانت من المناطق التى تلجأ اليها النسك والرهبان لبعدها عن مباهج المدن وضجيج الحياة حيث يجدون الاماكن اللائقة لممارسة معيشة التقشف والزهد ولابد أن تكون قد عمرت كغيرها من البلاد المصرية الاخرى بقلالى الرهبان وبعض الاديرة المصرية منذ العصور المسيحية الاولى.

وقد أثبتت الحفائر التى قام بها الاستاذ زكى يوسف سعد فى حلوان عن وجود دير كبير والدليل على عظم أتساعة أنه كان يتكون من ست وستين حجرة موزعة على جوانبه. الاربعة. وفى الجهة القبلية منه كنيسة متوسطة الحجم. وقد قسم فناء الدير الى أقسام عدة. ففى الجهة البحرية منه أثار أشجار وهى غالبا كانت بمثابة الحديقة الخاصة بالدير. ومازالت بعض القنوات التى كانت تستعمل لريها باقية وهى مبنية بالطوب الاحمر. وفى الجهة القبلية مقبرة الدير لدفن الموتى من الرهبان. وقد عثر مع أحدى الجثث على خاتم من الفضة كتب على قاعدتة المستديرة اسم صاحبة ويدعى «قزمان». ويظهر أنه كان كبير رهبان الدير لانفراد مقبرته بالفخامة والاتساع. ويظهر ان تاريخ الدير يرجع إلى القرن السادس بسبب ما عثر عليه فيه من أوانى الفخار والقطع الزجاجية من العصر المذكور.

(١) يقال أن «الانبا برسوم العريان» أنفرد بدير شهران بالمعصرة فى أواخر حياتة حيث مارس فيه أعمال التقوى والبر حتى وفاتة ولذا دعى دير شهران بدير برسوم العريان اليوم ويقال أن جسدة أودع بكنيسة الدير المذكور.

وقد ذكر المؤرخان «الشابوشتى وأبو صالح» أن الوالى «عبد العزيز أبن مروان» أقام عند حضورة الى حلوان فى ذلك الدير ثم أمر بعد ذلك ببناء القصر للاقامة فى حلوان نهائيا. وقد ظل الدير زاهرا وعامرا الى ما بعد عام ١٥٢ هجرية بسبب العثور على قطع من العملة الذهبية والبرنزية يبدأ تاريخها من عام ٧٩ الى عام ١٥٧ هجرية.

وقد ورد فى تاريخ المؤرخ عبدالحكم أنه عندما تفشى الطاعون فى الفسطاط ترك الوالى عبدالعزيز بن مروان المدينة وأقام فى حلوان فى الصحراء عند مكان يدعى «أبو قرقورة[١]» حيث حفر عينا للماء ليروى منها أشجار النخيل التى غرسها فى حلوان.

كما يقول المؤرخ «الكندى» أنتشر وباء الطاعون فى مصر عام ٧٠هـ أى ٦٩٠ ميلادية. فترك الوالى عبدالعزيز بن مروان المدينة وسار الى الشرق وعندما وافقة المكان بقى فيه جندة هناك وكذلك الحرس والشرط. وبنى هناك مساجد وقصورا وعمر الاقليم بالناس وغرس النخيل والكروم الذى تغنى بها الشعراء. (ص ١٨/١٦ من كتاب الحفائر الملكية بحلوان تأليف سعد زكى يوسف).

هذا وقد وجد مدير الحفائر الملكية أيضا بجوار منطقة الحفائر التى ترجع مقابرها الى الاسرتين الاولى والثانية الفرعونية على أطلال دير قديم آخر وهو أصغر حجما من الدير السابق. وهذا دليل على أن المنطقة أجتذبت النساك للاقامة فيها.

صفحة ناصعة عن آداب وتقاليد الرهبان

للرهبان عادات وتقاليد تعد من الاداب النبيلة الفاضلة والتى تعبر عن صفاء النفس والقناعة فمنها على سبيل المثال أنه أذا رغب أحد الرهبان الدخول الى قلاية زميل له من الرهبان طرق بابه وهو يقول بالقبطية عبارة «أريد أغابى» بمعنى أصنع محبة أى تفضل وأفتح الباب. وهى تحية مصحوبة بالاستئذان. فأذا رد عليه «أغابى» دخل اليه. وأن لم يرد فينصرف الى حال سبيله. وكانت من عادة الراهب أن يتحتم عليه أن يمضى أيام حياتة داخل الدير

(١) «أبو» تحريف لكلمة الاب أو الانبا وهو الرئيس الروحى للرهبان وقرقورة تحريف لاسم صاحب الدير المذكور وهو جريجوريوس. وقد وجدت تلك الاسماء مذكورة مرارا بين كثير من الرهبان والقديسين.

حتى جاء عن لسان القديس أنطونيوس ومن عباراته المأثورة قوله «كما يموت السمك أذا خرج من الماء كذلك يموت الراهب اذا أبطاء خارج قلايتة» . وقد حدثنا تاريخ الرهبنة عن كثير من الاباء الرهبان الذين التحقو ا بالدير ظلوا بداخلة ولم يخرجوا منه حتى رحيلهم من هذه الدنيا. كما عرف عن بعضهم أنهم حتى مقابلة الاهل رفضوها بتاتا مثل تادريس تلميذ الانبا باخوميوس رفض أن يقابل أمة وكذلك أرشيليدس لم تقابلة أمه رغم الحاحها الشديد.

ومن قوانين الرهبنة أن يقيم الراهب في ديرة ولا يبرحة الا اذا أنتدبة رئيسه ويحدث ذلك بعد ثلاث سنوات من رهبنتة . ويجب عدم تعيين الكهنة الرهبان خداما في كنائس العالم.ويشترط في الراهب أن يصرف جميع عمره في الصوم والصلاة وكذلك في الاشغال وتكرار لذكر الله وتلاوة لكتبة وتفهما لمعانيها وقراءة في سير القديسين للتشبة بمحبية وتفكراً في كمال صفاتة وعظائم مبدعاتة وحسن نظام مخلوقاتة . ومن الاعمال التي يشتغل بها الرهبان في الدير هي الخدمات الكنيسة ـ العبادات النهارية والليلية. والقيام بتأدية ما يطلب منهم من خدمات للدير ويكلفون بها من رئيس الدير. والعناية بالمرضى من الرهبان.

ويجب أن يكون جماعة الاخوة مدمنين الصلوة والصوم وقراءة الكتب المقدسة كما يأمرهم رئيس الدير ويتناوبوا في الخدمة جمعة بجمعة داخل الكنيسة وخارجها في سائر الخدمات الكهنوتية والجسمانية. وأن يكونوا ذوى أخلاق جميلة بعضهم من بعض ومع كل واحد ولا يسعوا في الاسواق والطرق سعياً بغير وقار ولا يناطق بعضهم البعض بالهزل والمرح ومتضاحكين متلاعبين بل يلزمون الصمت والوقار عند المخالفين لدينهم . أما تقدير الطعام والشراب فأن كان أكثر الدير فلاحين فليطعموا في الاسبوع الاول آخر السادسة والاخرى آخر النهار وأن لم يكونوا فلاحين فليقنعوا بمرة واحدة أما في التاسعة وأما في آخر النهار.

وكما قال القديس باسيليوس في نسكياتة على أخوة المجمع أن يكونوا كنفس واحدة ورأى واحد وأجسادهم وأن كانت كثيرة فقد صارت جملتها آلة واحدة مجتمعة لتلك النفس الواحدة المجتمعة برباط المحبة وكل واحد منهم لا يعيش لذاته وحده بلى بمرضاه الله. وأن يتجملوا بكل ما يزينة وأن لا يجاوروا النساء ولا يأكلوا اللحم في أديرتهم ولا في غيرها ولا يتزينوا ولا يتطيبوا ويشدون أوساطهم بمناطق من جلد غلاظ وأن تكون كسوتهم الصوف

الخشن لباس الزهد وكذلك شكلهم في جميع أمورهم ويتجنبون زى العلمانيين وعاداتهم كالاباء الذين أخذ عنهم أهل الفضل والخير وكانوا رهبانا بالحقيقة يقدرون فى أنفسهم أنهم موات. وكانت توقع عقوبات على كل من خالف من الرهبان قانون الرهبنة أو أرتكب ذنبا.

ومن النشرات القيمة التى نشرها الاستاذ «لفور Lefort» باللغات الاجنبية وترجمها البعض من الفرنسية على سبيل المثال ما يبن ما كانت علية الرهبنة وآدابها من حسن النظام ودقة التنفيذ فيما يلى:

«أى راهب ذم أخاه فليضرب مائة مطانوة فى كل يوم»

«أى راهب خلع منطقتة ونام بدونها يفرز من الكنيسة مدة ٤٠ يوما».

«أى راهب أكل سرا وشرب نبيذا فليفرز من الكنيسة ٥٠يوما».

أى راهب ضرب راهبا آخر فليعمل ٤١ مطانوة ويأكل خبزا جافا بدون آدام»

«أى راهب حلف ولا يكون كلامه نعم نعم لا لا فليخرج من الشركة وقتا ويضرب مائة مطانوة ويأكل الخبز الجاف خمسة أيام».

«أى راهب أخذ كتابا ولم يحافظ عليه واهمله فليضرب ٥٠ مطانوة»

ويحتم قانون الرهبنة أن لاينام الراهب وهو حاقد على أخيه بل قبل أن ينام يتوجه الى أخيه في قلايتة ويضرب له مطانوة ويقول له «أخطأت فسامحنى» عملا يقول الرسول بولس أغضبوا ولا تخطئوا . لا تغرب الشمس على غضبكم ولا تجعلوا لا بليس موضعا. «أف ٤ : ٢٦/٢٧».

ولا تزال هذه العادة باقية للان. كذلك ذكر في كتاب «المجموع الصفوى» المشار اليه بالباب العاشر أيضا ما يلزم على الراهب اتباعة ما ملخصة:

«ترك الزواج وترك الاقرباء بالجسد والقنايا والشهوات العالمية والمقام في البرية ولباس

الصوف وشد الوسط بسير وترك المآكل اللحمية دائما وما لا تدعو الضرورة اليه من الخمر والاقتصاد فى الاغذية على ما لا تقوم الحياة الجسدانية بغيره».

«رئيس الدير يتحتم أن يكون قد نشأ فيه وعرف سننة وعلم منه جهاد فى الرهبنة وليس جاهل ولا خفيف الرأى ولم تعرف له هفوة فى ديره ولا خارجا عنه ويكون حسن الثناء ماهرا عالما بالقوانين الشرعية يفهم مايتنازع فيه ويقوم بالرئاسة باجتهاد وكان مرضيا من رئيسة فأذا شهدت له جماعة الرهبان بذلك من غير مراء يكون بينهم فى أمره فليجعل رئيسا» . وينبغى أن يدبر كل واحد بما يليق به مصنف الحاجة ومقدارها بالنسبة الى أختلاف إحوالهم بحسب التقدم والتأخر فى أعمارهم ، والزيادة والنقص فى شغالهم والتعب والراحة فى صنائعهم والعظمة والصغر فى هيئات ابدانهم والقرب والبعد من حالات عاداتهم والصحة والمرض فى أمزجتهم . وينبغى أن تكون سيرته كاملة فى جميع وصايا الله لكيلا يظن أحد أنه غير ممكن أن تقام وصايا الله وينبغى أن يكون شكله وعمله اذا كان ساكنا يقنعهم فى التعليم أكثر من كلامه» هذه لمحة لبعض الاداب والتقاليد والقوانين التى يتحتم على الرهبان الاقتداء بها والمحافظة عليها طوال حياتهم وأنها نماذج من المثل الانسانية النبيلة والخلق الفاضل القويم حقا.

الرهبنة عند النساء:

ليس من الانصاف أن نتكلم عن قيام الرهبنة عند الرجال دون أن نتناولها بالحديث عند النساء خصوصا وقد ورد فى أقوال كثير من كبار الرحالة من العلماء والمؤرخين ما يؤيد أن منهن من أظهر من ضرب المثل العليا الانسانية والبطولة فى الزهد والتبتل وأنكار الذات ما لم يقم به الا أشجع الافاضل من زعماء الرهبان.

وفى الواقع أن النساكة كانت معروفة لدى النساء فى العصور التى سبقت ظهور المسيحية فى مصر ويستدل على ذلك من وجود اللاجئات فى المعابد المصرية على غرار ما سمعناه عن وجدو لاجئات معبد سرابيس وغيرهن من لاجئات معابد آمون فى مدينة طيبة. غير أن البحث عن بدء الحياة النسكية بين النساء فى القرون الاولى للمسيحية مشوب بالابهام والغموض، وليس هناك من الادلة ما يشير اليه كتاب العهد الجديد عن قيام الكنيسة بالانفاق على الارامل

اللائى اشتهرن بحسن السيرة واللواتى طلب منهن أن يصبحن تحت أشراف الكنيسة فى بيوت خاصة بالعذارى . وكانت تلك البيوت تضم بلا شك عددا من العذارى اللواتى فضلن عيشة البتولية والقيام بخدمة الكرازة.

ويلاحظ أن أولئك العذارى لم يعشن فى بادئ الامر حياة رهبانية أنعزالية بل عشن فى بيوتهن ومن خالت فى نفسها القدرة على التبتل وممارسة حياة التنسك أعتزلت عن سائر زميلاتها في نفس المنزل ثم أنتقلت بعد ذلك الى بيوت العذارى لممارسة حياة النسك. وفى أحدى تلك المنازل التى حوت العذارى اودع الانبا أنطونيوس مؤسس الرهبنة الكبير أخته قبل شروعة فى الانعزال فى الصحراء ومباشرتة للرهبنة. وفعل كذلك الانبا ديمتريوس الكرام وهو البابا الثانى عشر فى عداد البطاركة «١٨٨/ ٢٣٠م» أذ أودع زوجته فى تلك المنازل وكان قد تعهد معها عند زواجه على معيشة البتولية وحذأ حذوه أيضا الانبا آمون مؤسس الرهبنة فى نيتريا بوادى النطرون أذ الحق زوجته كذلك فى أحدى تلك المنازل ومن ذلك يمكننا أن نتبين أن بدء «الديرية النسائية» كانت على أغلب الاحتمالات أسبق الى «ديرية الرجال».

وقد أنتشرت بيوت العذارى فى البلاد المصرية خلال القرن الثالث الميلادى وكثر ظهور المبشرات والواعظات اللواتى تتلمذن على أيدى معلمى ذلك العصر، ومنهن من قاسى وتحمل الكثير من صنوف القسوة والعذاب والاضطهاد حتى وصل فى نهاية الامر الى الاعدام وعلى الاخص فى عهد الطغيان الرومانى وعلى سبيل المثال ما حدث للقديسة دميانة وتابعتها الشهيدة اربسيما وغير هن من العذارى كثيرات حتى رفعتهن الكنيسة الى مرتبة الشهداء ويذكر تاريخهن سنويا فى أعياء استشهادهن .

أما عن تاريخ القديسة بربارة مثلا وكانت من مشاهير الشهيدات فيروى أنها كانت فتاة عذراء رائعة الحسن والجمال وولدت فى أوائل القرن الثالث للميلاد فى أحدى مدن آسيا الصغرى من أب ثرى وغنى وقد تلقت علومها على يد العالم اللاهوتى العظيم «أوريجانوس» المصرى وأعتنقت الديانة المسيحية ورفضت الزواج ممن تقدم لها من أبناء الاسر العريقة وآثرت أن تكرس حياتها طاهرة لخدمة الله. وقد حاول والدها أن يقصيها عن عزمها وأستعمل معها من الوان القسوة والتعذيب ما لا يطاق لتقلع عن غيها فلم يزدها ذلك الا أستمساكا بما

قر عليه رأيها . واخيرا شكا والدها أمرها الى الوالى الرومانى وقتئذ وهو «مرقيان» واتفق معه على زيادة تعذيبها الا أنها احتملت كل أنواع العذاب بصبر عجيب واضطر الوالى فى النهاية الى التخلص منها بقتلها هى وتابعتها القديسة «يوليانا» وقد شيدت لها كنيسة كرست على أسمها بمصر القديمة منذ القرن السادس الميلادى غالباً وقد وصفها المؤرخ تقى الدين المقريزى فى عصره وقال أنها كانت أجمل كنائس القاهرة وقيل أيضا أنه كان بقربها دير للراهبات كانت تلجأ اليه العذارى اللاتى رغبن فى تكريس حياتهن لله وخصصن أنفسهن لحياة الرهبنة.

أما عن تطور حياة النسك عند العذارى الى حياة الشركة الديرية فقد أستقرت وثبتت عندما أسس الانبا باخوميوس لاخته ديرا فى الصعيد على مقربة من مدينة اخميم وكان يضم أربعمائة من العذارى . ثم أتبعه بدير آخر عندما زادت الاعداد منهن . وقد سن لهذين الديرين قانونا سار علية العذارى اللاتى التحقن بها ثم أنتشرت بعد ذلك أديرة النساء فى جميع أنحاء القطر ثم أنتقل هذا النظام أيضا الى الخارج وأنتشر فى كثير من ممالك أوروبا وكذلك أقام الانبا شنودة ديرا للنساء تحت رئاسته وكان به من الراهبات عددا هائلا بلغ نحو من ١٨٠٠ راهبة.

الرحالة بالاديوس ومشاهداته لا ديرة النساء:

وقد ذكر الاب «بلاديوس» فى اواخر القرن الرابع الميلادى وصفا طريفا لاحد اديرة النساء التى زارها فى منطقة «أتريب قرب سوهاج . وقد شيده أحد الاغنياء وكان يشرف عليه أحد شيوخ الرهبان الذى أقام فيه حجرة عالية لا تتصل بالراهبات فى داخل الدير وكان ينفتح بابها لخارج الدير. ويظهر أن مهمة ذلك الشيخ هى مراقبتهن أحيانا ثم تزويدهن بالتعاليم والمواعظ التى كان يلقيها عليهن من مكانه الرفيع ثم ذكر أيضا أنه كان هناك فى مدينة «أنتينوى» بلدة بويط قرب مدينة ديروط وتسمى اليوم بلدة الشيخ عبادة قرب الروضة شمال ملوى حوالى أثنى عشر ديرا للراهبات . وكانت تشرف على أحدى هذه الاديرة الام «ناليس» التى قيل عنها أنها لم تجد ما يدعو للاحتفاظ بمفتاح الدير لديها لمنع الراهبات من الخروج. وهذا دليل على أن النظام الرهبانى لديها لم يستدع وجود أى نوع من التزمت فى معاملة الراهبات.

أما الرئيسة المذكورة وقد قضت في النسك ثمانين عاما وكانت محبوبة جدا بين الراهبات وقد قامت معها راهبة تدعى «تاؤور» مدة ثلاثين عاماً. ثم ذكر أحد الاثرياء ويدعى الياس أنه أقام ديرا للراهبات بجهة «أتريب» وتولى الانفاق عليه من مالة الخاص. وكذلك ذكر بعض المؤرخين وجود اديرة عديدة للراهبات في اقليم «أكسيرنكوس» أى « البهنسة» مما يؤيد أنتشار تلك الاديرة لكثرة أقبال النساء والعذارى على حياة الزهد والعبادة وقد تكلم بلاديوس عن الفضائل والزهد والتقشف الذى ظهر من كثير منهن. كذلك روى عن الاخت «أو لمبياس» وما قامت به من أعمال البر وتوزيع ثروتها على الفقراء ووهبت حللها الحريرية للمذبح ولبست الخرق البالية، وكانت تقضى معظم وقتها في الصلاة والتعبد وتقوم بعمل الخبز والقربان ولا تأكل اللحم بتاتا وتكتفي بالخبز الجاف المغموس في الخل والخضر المطبوخة بالزيت أيام العيد.

أنتشار أديرة الراهبات غرب مدينة الاسكندرية

جاء في تاريخ البطاركة ما بين أنتشار الاديرة منذ النصف الثاني من القرن السادس الميلادى غرب الاسكندرية حتى وصلت الى ٦٠٠ دير عامرة بالرهبان والراهبات مثل خلايا النحل كما نوه كتاب السنكسار أيضا مراراً عن وجود أديرة النساء بظاهر الاسكندرية ولا سيما الجهة الغربية منها فيما بين القرن الخامس والثامن الميلادى، وروى أن الناسكة القديسة «مريم» دخلت الى أحدى أديرة العذارى بظاهر الاسكندرية ولبست الثوب المقدس ويقال أيضا أن الانبا بقطر رئيس دير الزجاج في المنطقة أيضا سلم أم القديس تاوفيلس الراهب الى دير الراهبات هناك كما جاء في « كتاب السنكسار تحت ١٣ طوبة».

شدة التقشف والميل للعزلة بين الراهبات

ويظهر أن النظام في أديرة الراهبات لم يمنع من أعتزال الكثير منهن الى حياة الرهبنة الانفرادية . فقد تدرج بعض الراهبات في حياة التقشف الشديد حتى أمكن بعضهن أن يمارسن عيشة الرهبان الخشنة القاسية ويلجأن الى سكنى البرارى والكهوف والقبور والصحارى وكن يتنكرن في زى الرهبان ولم يعرف أنهن من الراهبات الابعد وفاتهن وعند تجهيز عملية

الدفن. وعلى سبيل ذلك الراهبة «أسكندرة» التى حبست نفسها خارج مدينة الاسكندرية عشر سنوات لا تكلم فيها أنسيا وتأخذ طعامها من فتحة صغيرة كما عثر الرهبان على راهبات منفردات على مقربة مـن صحـراء نيتيريا في وادى النطرون وكان من بينهن أوربيات رغبن في حياة العزلة والتبتل مثل الراهبة «ميلانيا» التى جاءت الى وادى النطرون فى أواخر القرن الرابع الميلادى وقامت بمحادثات مع رهبانة ثم انتقلت الى فلسطين لتمارس حياة نسكية جديدة.

وقد حوى وادى النطرون أيضا راهبات مقنعات كن يلبسن زىَ الرجال مثل الراهبة «ليديا» التى يقال عنها أنها كانت من مشاهير الاديبات وجاءت من منطقة تسالونيكى ببلاد اليونان وتزيت بزى الرهبان وزارت مقار السكندرى واقامت مدة عام فى أحدى القلالى فى «سيليا» وكانت تقابل القديس المذكور كأحد الرهبان كل أسبوع. ومن الراهبات المنفردات الراهبة «أبولينارية» أبنة الامبراطور «أنتيموس» الكبير وقد فضلت حياة التبتل ورفضت الزواج وسافرت فى قافلة للحج فى بيت المقدس ومنها الى ا لاسكندرية ولبست رداء الرهبان ثم ذهبت الى برية الاسقيط بوادى النطرون وتسمت باسم الراهبة «دورثيوس» فى زمن القديس مقار الكبير . وظلت تمارس النسك كأى راهب آخر ولم يعرف أمرها الا بعد وفاتها وتجهيزها للدفن. كما وجدت راهبات أخريات مقنعات أنتشرن بين رهبان وادى النطرون. بعضهن من تطورت معيشتهن الى نوع من الديرية ودخلن ديرا للنساء على مقربة من نيتريا أمثال الراهبتين بوتيوس وبوزبيت.

ومما يدل على تصميم الراهبات على التمسك بعيشة التبتل وعدم العودة الى الحياة العالمية ما ورد عن الراهبة «أفروسينا» التى سمت نفسها باسم «زبرجد» أنها رفضت الدخول لدير الراهبات الواقع بغرب الاسكندرية أذ قالت فى نفسها ماردته : « فان أنا ذهبت الى دير النساء جاء والدى وأخذنى فيؤدبنى الى شهوات نفسه ولكن أن أنا أمضى الى ديارات الرهبان الرجال وأتزىَ بزى الرجال وأجعل نفسى خصى». وكذلك ذكر أحد الاباء القديسين من الرهبان كان يسير مع بعض الاخوة فى البرية ذات يوم فسمعوا صوت أنين أنسان عند حافة الجبل فلما تتبعوه وعرفوا مصدره وجدوا مغارة بداخلها سيدة وقالت لهم عند سؤالهم أياها

أنها قاطنة فى ذلك المكان منذ مدة طويلة حوالى ثمانية وثلاثين عاماً - فكانت تعيش طوال تلك المدة على أكل العشب ولم تر أحداً حوالى الثمانية والثلاثين عاماً وأن الله أرسلهم ليدفنوها. وبعد ما فرغت من حديثها هذا أسلمت الروح، وهذا ما عرف صدفة عن بعض تلك الراهبات المقنعات. أما ما لم يعرف عن أمرهن من غيرهن من الراهبات فلابد وأن يكون عدداً كبيراً نظراً للغموض والتخفى الذى لازم حياتهن فى داخل تلك الصحارى الموحشة وقلاليها.

ومن ذلك يتضح أن النساء نافسن الرجال فى احتمال أقسى أنواع المعيشة النسكية كما ضربن من أمثلة البطولة والتضحية ما يقدم عليه أشجع الأبطال وجابهن كل ألوان التعذيب المرير وأهواله الوحشية بالفخر والترحاب وهانت عليهن أنفسهن وقدمنها فى النهاية كقرابين طاهرة فى سبيل التمسك بدياناتهن رافضات كل الأمجاد الباطلة الزائفة فنلن أكاليل الطهر والخلود من رب المجد هناك فى أورشليم السمائية.

هذا وكان ازدهار أديرة العذارى منذ القرن الرابع وظلت زاهرة حتى القرن السابع أى بدأت فى نفس العصر الذى نشأت فيه وترعرعت فيه أديرة الرهبان وفى أماكن مجاورة لأديرتهم كلهم فرعان ثابتان من أصل شجرة واحدة سطعت أنوارها كاللآلئ وعمت البلاد جميعها، حتى أفاءت على المسكونة بأجمعها خلال الأجيال الغابرة بما فاض من غزير علومها وفنونها وتعاليمها وروحانياتها السامية فأخرجتها من الظلمات إلى النور. ثم انطفأت أديرة الراهبات مع نفس الزمن الذى انطوت وامحت فيه أديرة الرهبان أيضاً وعفا عليها الزمن منذ العصور الوسطى.

منطقة سيناء [1] وأهميتها فى النسك

فى قلب شبه جزيرة سيناء يقوم الدير المشهور المعروف باسم دير سانت كاترين شامخاً كالطود العظيم تحوطه هالة من المهابة والجلالة، قد أسبغت على المنطقة وديرها تلك الشهرة الفائقة، بل وامتاز بمكانة مرموقة فى البلاد المصرية وغيرها، وجعلت منه كعبة ذائعة الصيت

(١) «مفكات» هو الاسم المصرى القديم لمنطقة سيناء ومعناها الفيروز.

يؤمها الحجاج عامة من مشارق الارض ومغاربها ، ومن جميع الممالك على أختلاف اجناسها ومللها بقصد الزيارة ورؤية آثار المنطقة المقدسة وما تحملة من ذكريات دينية خالدة.

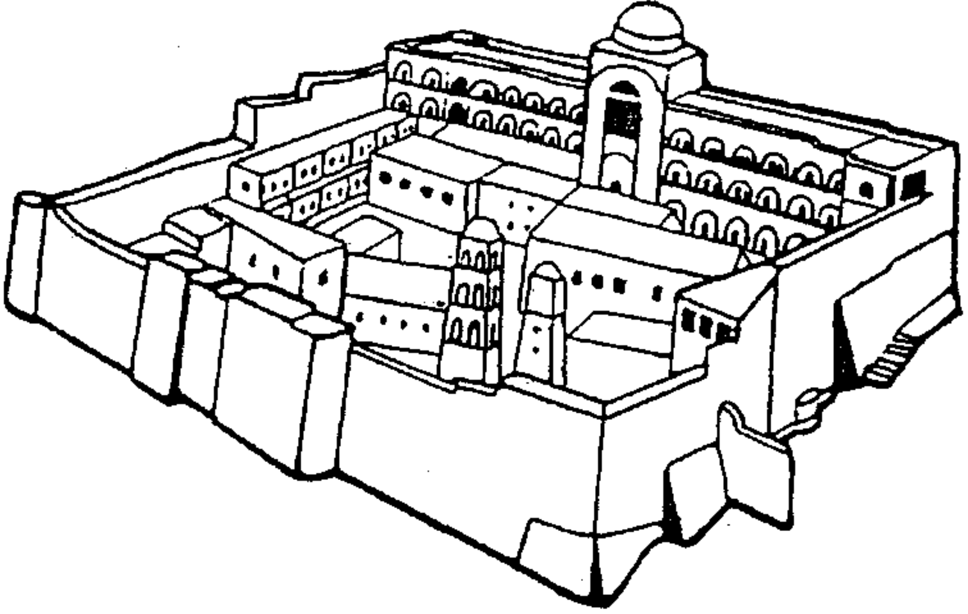

دير سانت كاترين

نساك مصر والتجاؤهم لمنطقة سيناء،

أجمع المؤرخون على أن مصر تبوأت المكانة الاولى فى أعتناق الديانة المسيحية منذ ظهورها حوالى منتصف القرن الاول الميلادى تقريبا على يد الرسول مرقس، وقلما عانى شعب من شعوب الارض قاطبة من صنوف العذاب المرير والاضطهاد الوحشى مثلما قاسى قبط مصر فى أول الأمر على يد أباطرة الرومان لاعتناقهم تلك الديانة. وهذا دفعهم بطبيعة الحال الى التحول الى عيشه النسك والرهبنة منذ القرن الثانى والثالث للميلاد، وهرب الكثير منهم الى البرارى والقفار ومنهم الكثير من رحل الى منطقة شبة جزيرة سينا وسكنوا فى مغاورها قبل بناء الدير المذكور بأعوام عديدة ، وزخرت سيناء بالنساك من مصر وغيرها من ولايات

الامبراطورية الرومانية، وفضل كثير منهم البقاء حيث روى أن القديسة هيلانة والدة الامبراطور قسطنطين العظيم زارت ذلك المكان منذ عام ٣٣٦ للميلاد، وأمرت ببناء برجين في المكان الذى بنى فيه الدير فيما بعد، بقصد حماية النساك من غارات البدو عليهم. ولم يمنع ذلك من تعرضهم لهجماتهم الوحشية المتكررة . ولم تكن زيارة القديسة هيلانة لهذا المكان المقدس هى الاولى من نوعها قبل أنشاد الدير المذكور، بل روى أن القديسة «سيلفيا» أيضا ذهبت الى سيناء عام ٤٦٠ للميلاد ، وتركت وصفا طريفا لتلك الرحلة عند نزولها من الجبل حيث رأت كنيسة صغيرة وحولها قلالى النساك فى المنطقة المذكورة.

الامبراطور جوستينيان وتحصين أماكن النساك:

على أن حياة الرهبان لم تكن تخلو من الويلات والمصاعب اذا كثيرا ما كانوا يتعرضون لهجوم قبائل البدو ونهب أمتعتهم والتنكيل بهم وهدم مساكنهم وقلاليهم حتى بعد أن أصبحت المسيحية الدين الرسمى للامبراطورية الرومانية. وعلى ذلك قررالرهبان فيما بينهم على أنتداب وفد منهم للرحيل الى القسطنطينية لمقابلة الامبراطور جوستينيان حيث شكوا اليه حالهم وطلبوا منه أن ينى لهم حصنا يضم شملهم ويحميهم من هجمات البدو فرق لحالهم وأستجاب الى ملتمسهم وبنى الدير الحالى عام ٥٤٥ للميلاد ثم بنى أيضا الكنيسة الكبرى على ذكرى وفاة الامبراطورة «تيودورا» زوجته. كما أرسل اليهم حامية من مائتى رجل بعائلاتهم. مائة من بلاد الروم ومثلها من مصر ثم أمر بمرتب من الحبوب يرسل اليهم سنويا من مصر لقوتهم وسكنوا بجوار الدير هذا. وقد تشتت أغلبهم على أثر الفتح العربى وزوال دولة الروم وسكنوا ا لبادية ودخلوا فى الاسلام من زمن بعيد. وقيل أن منهم مازالوا يقيمون بجوار الدير ويخدمون الرهبان بأجرهم والرهبان يحسنون اليهم ويأخذون بناصرهم حتى اليوم.

دير سانت كترين واصلة:

لم يكن يحمل الدير عند أنشائه أسم القديسة كترين بل كانت كنيسة وقتئذ تسمى «بكاتدرائية التجلى» ولم يطلق أسمها على الدير الذى أشتهر به الا فى القرن التاسع الميلادى حينما نقلت بقايا جسدها وحفظت فى داخل الكنيسة التى كرست على أسمها. ومنذ ذلك التاريخ عرف الدير باسم دير سانت كترين.

أهمية الدير وآثاره الخالدة:

أى جانب ما يمتاز به دير سانت كترين من ذكريات روحية فهو يحتفظ بآثار باقية قيمة وكنوز ثمينة لا تقدر جمعت منذ أقدم العصور حتى الوقت الحاضر فالكاتدرائية الكبرى نفسها بالدير تعتبر متحفا حقيقيا من آثار الفنون المسيحية الجميلة وتبهر الناظر مما فيها من أغنى وأروع مجموعة من الصورة القديمة التى عرفها التاريخ. وناهيك عما يحوية هيكل تلك الكنيسة من نقوش رائعة تخلب ألباب الناظرين وتمثل مناظر للسيد المسيح بين الرسل والانبياء، ومؤسسى الكاتدرائية وكلها مصورة بقطع الفسيفساد ببراعة تامة وأتقان منقطع النظير كما يحوى هيكلها أيضا تابوتين من الفضة ورسم على غطاءت كل منهما صورة القديسة كاترين مصنوعة من الذهب الخالص المرصع بالاحجار الكريمة وهما من هبات قياصرة الروسيا بطرس الاكبر عام ١٦٨٨ وأسكندر الثانى عام ١٨٦٠م وقد أستخدما فى حفظ بعض الهدايا الثمينة التى كان يعثها الملوك والملكات الى الدير خلال العصور المختلفة.

على أن أثمن هذه الكنوز ذلك التابوت المحفوظ تحت قبة المظلة على يمين المذبح وهو يحوى صندوقين من الفضة المزخرفة أحدهما يضم جمجمة القديسة كاترين يحوطها تاج ذهبى مرصع بالجواهر والاخرى يضم يدها اليسرى وتزينها الخواتم الذهبية المرصعة بالاحجار الكريمة أيضا. وهذه البقايا من رفاتها يعرض للرؤيا أمام رهبان الدير وحجاجة فى يوم ٥ نوفمبر من كل عام وهو يوافق عيد ذكراها السنوى. ومن الاثار التى تلفت الانظار تلك الابواب الخشبية وما تحوية من حشوات منقوشة ومنها باب مدخل الكنيسة الخشبى. وقد زين بنقوش دقيقة ترجع الى العصر الفاطمى. أما باب الصحن فترجع زخارفة الفنية الى القرن الخامس الميلادى وتمتاز رسوم حشواته بمناظر خلابة تمثل الحيوان والطير والنقوش النباتية والازهار أما هيكل كنيسة العليقة فيضم مجموعات هائلة قديمة وحديثه من الملابس الكهنوتية المطرزة بخيوط الذهب والفضة والرسوم الجميلة وتيجان الاساقفة الذهبية الرائعة والكؤوس والصوانى الدقيقة الصنع وكذلك كثير من الصلبان الذهبية والفضية على اختلاف أحجامها وأشكالها والاناجيل ذوات الاغطية من الذهب الخالص والفضة الا أن أهم من تلك الكنوز وأبعدها أثرا فى النفس هى تلك البقايا من أجساد القديسين الذى يحتفظ بها الدير المذكور مثل جمجمة القديس يوحنا فم الذهب. وذراع القديس باسيليوس والفك الاسفل للقديس جريجورى من نيسا الى جانب ذخيرة كاترين نفسها.

ويوجد بالدير مسجد اسلامى قائم بجوار الكاتدرائية داخل الدير وهو يعتبر من أعظم الاثار ذات المظاهر الهامة فى دير سانت كاترين. و بناؤه بسيط مستطيل الشكل ومساحتة صغيرة حوالى عشرة أمتار فى الطول وسبعة أمتار فى العرض وبه عمودان قويان ترتكز عليهما العقود التى تحمل السقف. وقد تم أنشاؤه فى عهد الدولة الفاطمية بناء على رغبة الوزير «أبو جعفر أنوشتكين» عام ١١٠٦م أثناء حكم الخليفة «الامر بأحكام الله» كما و رد ذلك فى سجل النص المكتوب بالكوفيه على منبر الجامع. إما المئذنة فتوجد فى الشرق مواجهة للبناء الخاص بجرس الكنيسة. وهى عبارة عن برج منفصل يبلغ أرتفاعه حوالى عشرة أمتار تقريبا. وأهم الاثار الباقية فى داخل الجامع هما المقرأة الخشبية والمنبر الخشبى ويرجع تاريخهما الى عام ١١٠٦ للميلاد . أما المنبر ففريد فى نوعة ولا يوجد ما يماثل هذا الاثر فى العالم الاسلامى عامة سوى منبرين آخرين باقين أحدهما يوجد فى مدينة قوص بالوجه القبلى وثانيهما محفوظ فى بلدة حبرون فى فلسطين وكلاهما من العصر الفاطمى أيضا والنقوش فى حشواتها من طراز العصر المذكور وتحتوى على الزخارف التلقيدية من أشكال النبات والمناظر الهندسية.

أما المسجد المذكور فقد ورد مرارا فى أوصاف حجاج الغرب الذين كانوا يحجون الى الدير فى العصور الوسطى وكانت كتاباتهم بطريقة تدعو الي الاستغراب والعجب. فمنهم مثلا ما يدعى «يعقوب من مدينة فيرونا» «الذى زار الدير فى عام ١٣٣٥م» وكذلك «ليوناردو فرسكوبالدى» الذى جاء عام ١٣٨٤م قد سجلا وجود هذا المسجد بنفحة تملاها الدهشة والروعة التى يتمثل فيها عظم التسامح الدينى. وهذا الامر أن دل على شئ فإنه يوضح حقيقة أن الغرب لم يكن قد أعتاد أن ينظر بتلك النظرة السمحة الى موضوعات تتعلق بالعقيدة أو الدين فى بلادهم مثلما كان مألوفا لدينا فى مصر وهذا مما لا يدعو مجالا الى الشك على أن مصر كانت أكثر تسامحا من أقطار أوروبا فى تلك العصور. والمشرف على خدمة الجامع طائفة من أحدى القبائل تعرف بالجماليين. وهم يحتفظون بمفاتيح المسجد ويعنون بكل ما يتعلق به من شئون النظافة والخدمة يتوارثون هذا العمل فيما بينهم ولاينازعهم فيه أحد ويتقاضون ما يلزمهم من الجراية يوميا أو أسبوعياً من رهبان الدير.

عهد الامان لرهبان دير سانت كترين

ومن أثار الفتح الاسلامى التى يعتز بها نساك دير طور سينا ذلك العهد الذى قيل عنه ان

النبى عليه السلام منح رهبان الدير المذكور عهداً مكتوباً لحماية أرواحهم ومتاعهم تحت الحكم الاسلامى. كما قيل أن ذلك العهد الاصلى قد أستولى عليه السلطان سليم الاول عند فتح مصر عام ١٥١٧م. وأعطى الرهبان صورة منه مترجمة بنصوصة وممهرة بأمضائه ومهما يكن من شئ فسواء أكان العهد النبوى حقيقيا أو مزيفا فالواقع أنه جدد بطريقة من الطرق ، وأن أمتيازات الحماية والرعاية لنساك الدير ظلت قائمة.ومن طريف تقاليد بدو سينا ورهبانها أيضا أنهم يزعمون أن النبى عليه السلام زار طور سيناء على جمل وأن الجمل المذكور ترك أثر قدمه على قمة الجبل.

مكتبة الدير:

ويحتوى الدير على مكتبة من افخر وأروع مكتبات الدنيا وفيها من الكنوز العلمية والفنية والاثرية ما يفوق كل وصف وتزخر بمخطوطات لاحصر لها من جميع اللغات والاشكال والعصور ، وليست كلها خاصة بالدير أو اللاهوت، بل هى من جميع فروع العلم والمعرفة ، كما أنها تمتاز بمجموعة نادرة من الوثائق واللفائف المختلفة الاحجام والاطوال. وقد يصل بعضها الى عدة امتار فى أطوالها ، وهى عبارة عن مراسيم وفرمانات وعهود أصدرها خلفاء وسلاطين الاسلام توصية لصالح رهبان الدير والعمل على تأمينهم وراحتهم، وهى تزيد على الالفين من القطع، وأقدم تلك الوثائق عهدا والمحفوظة الآن فى مكتبة الدير يرجع تاريخها إلى اوائل القرن الثانى عشر الميلادى أى منذ العصر الذى أنشى فيه الجامع فى العصر الفاطمى.

وأعظم النفائس الخطية الذائعة الصيت التى كانت تضمها مكتبة الدير هو المخطوط النادر المعروف باسم «توراة سيناء Codex Sinaiticus»وقيل أنه يرجع الى القرن الرابع الميلادى، وقد اكتشفه في مكتبة الدير العلامة الروسى «تيشندورف» عام ١٨٩٦م ، وحمله الى بطرسبورح وعرضه على قيصر الروسيا وقتئذ، فاشتراه بمبلغ من المال الى أن جاءت الثورة السوفيتية ، وتمكن المتحف البريطانى فى لندن من الحصول عليه بعد أن دفع مبلغا باهظا قدره مائة ألف من الجنيهات الذهبية. أما «التوراة السريانى Codex Syriacus» ، وهو من أندر الكنوز الدينية من القرن الخامس للميلاد، فلا يزال باقيا في المكتبة، وهو الترجمة السريانية للتوراة ، ومأخوذ من نص يونانى يرجع تاريخه الى حوالى القرن الثانى، ولهذا يظن أنه أقدم ترجمة عرفت للكتاب المقدس.

موارد الدير من روائع الهبات والنذور

أذا رجعنا الى سجلات الدير لا دركنا العجب من كثرة الاعداد الوفيرة من المحسنين على الدير ورهبانه فشملت الاباطرة والملوك والباباوات والامراء والعظماء منذ أقدم العصور الوسطى، وكان البطاركة والاساقفة من جميع أنحاء العالم المسيحى ينظرون بالود والاحترام الكلى الى تلك المنطقة وكان «جريجورى» بابا روما العظيم فى القرن السادس من أعظم معضدى هذا الدير، كما كان الاخلاص والمحبة بين رهبانة وبين رجال الدين فى أوروبا باستمرار حتى أيام الخلافات والانفصال. وكانت الهدايا والنذور والعطاءات والتبرعات ترسل باستمرار الى الدير وكثير من الملوك والامراء والعظماء على اتصال دائم برهبانه،كما كانوا يمدونه بالهدايا والهبات السخية أمثال شارل السادس ولويس الحادى عشر ولويس الرابع عشر من ملوك فرنسا وايزابيل ملكة اسبانيا والامبراطور مكسيمليان الالمانى وغير ذلك من أمراء عديدين. على أن معظم المعضدين المخلصين لرهبان هذا الدير كانوا قياصرة الروسيا، وكانوا يمدون الدير بالهدايا والهبات الثمينة العديدة أيضا، وما زال الرهبان يحتفظون بآثارهم داخل الكنيسة ويعتزون بها.

زوار الدير وحجاجه:

أما عن الحجاج والسياح المختلفين الملل والاجناس الذين كانوا يؤمون الدير ومنطقته فلا يمكن حصر أعدادهم الوفير ، وكثير منهم كانوا من شخصيات ورتب عالية . وقد كتب أحد الرحالة السويسريين المشهورين وهو« بورخارت» فى أوائل القرن التاسع عشر وصفا فى زمنه عن عدد السياح والزوار الذين وفداو لزيارة المنطقة من الاجناس المختلفة وكان وفيرا وعلى الاخص الارمن والمصريين والقبط المسلمين. وقيل أيضا أن أكثر الشعوب زيارة لهذا الدير كانوا من الروس، فيؤمه الرجال منهم والنساء فى أفواج عديدة ويمكثون فيه عدة أيام يزورون فيها أغلب مناطقه وضواحيه، وكثيراً ما كانوا يقدمون النذور والهدايا وما زالت تنهال على الدير ورهبانه حتى اليوم أذ حدث بعد نهاية الحفل التقليدى الذى تم فى المكان فى ذكرى مرور أربعة عشر قرنا من الزمان على أنشاء دير سانت كاترين فى شبه جزيرة سيناء، حيث أقيمت فيه الاحتفالات الدينية التقليدية، وكان ذلك يوافق يوم الاحد ١٨ سبتمبر من عام ١٩٦٦ بحضور جلالة ملك اليونان قسطنطين والرئيس القبرصى الأسقف مكاريوس وعدد كبير من المطارنة والاساقفة من ممثلى كنائس المسكونة، وفى هذه المناسبة فى ختام الاحتفال أهدى الملك

قسطنطين الى مطران الدير قلادة اليونان الكبرى وهى مرصعة بالماس، وكذلك قدم الرئيس القبرصى هدية تذكارية فاخرة عبارة عن صينية من الفضة الخالصة، ثم أهدى جميع المطارنة والاساقفة الحاضرين من الدول المختلفة أيضا هباتهم الثمينة من الذهب الخالص وبعضها محلى بالماس والاحجار الكريمة، الى جانب الهدايا الخاصة التى قدمت الى مطران الدير.

ومما يدعو الى الغرابة والدهشة والتساؤل أن يظل هذا الدير وما يحويه من أروع وأندر كنوز العالم الثمينة صامدا على البقاء طوال هذه الاعوام وسط تلك البادية الموحشة النائية عن العالم المتمدين بالرغم من اختلاف قبائلها فى الجنس والعادات والطباع الخشنة عن رهبان الدير. فلابد وأن تكون هناك من الأسباب والبواعث التى روضت أولئك القوم وجعلتهم يغيرون من أخلاقهم ويألفون الحياة الهادئة الشريفة الى جانب أولئك النساك الوادعين ودفعتهم الى السهر على حمايتهم وتأمين ديارهم فضخامة الدير ومتانة أسواره القوية جعلت منه قلعة حصينة بالنسبة الى البدو الساكنين حوله، كما أنه يقوم فوق جبل يقدسه اليهود والنصارى والمسلمون على السواء. كما لا ننسى أن النبى عليه السلام أعطى رهبان الدير كما ذكرنا آنفا عهدا يعتزون به لحمايتهم وصدق عليه سلاطين المسلمين من أقدم العصور حتى اليوم، وأن رهبانه بنوا جامعا يتعبد فيه المسلمون داخل اسواره قرب الكاتدرائية، فضربوا المثل الاعلى فى التسامح الدينى مما لم يعد هناك مجال للتعصب أو الاضطهاد، كما أنهم يعولون فقراء البدو ويحسنون معاملة الزائرين من كل جنس ودين، وأن وجود الدير نفسه مصدر رزق كبير للبدو لانتفاعهم من تأجير أبلهم للسائحين ومرافقة الحجاج الذين يزورونه هو والمناطق المقدسة التى تحيط به.

ثانيا: أهم أديرة الوجه القبلى

دير نهيا: يقع فى منطقة بالجيزة وقد وصفه المؤرخ العربى «عبدالرحمن الجبرتى» فى كتابه عجائب الآثار فى التراجم والاخبار ص ٥٠٦ جزء ٢، فقال أنه من أحسن ديارات مصر وأنزهها وأطيبها موضعا وأجلها موقعا، عامر برهبانه وسكانه، وله فى أيام النيل منظر عجيب حيث الماء يحيط به من جميع جهاته، واذا انصرف الماء وزرعت الارض أظهرت أراضيه غرائب النواوير، وأصناف الزهر، وهو من المتنزهات الموصوفة والبقاع المستحسنة، وله خليج يجتمع

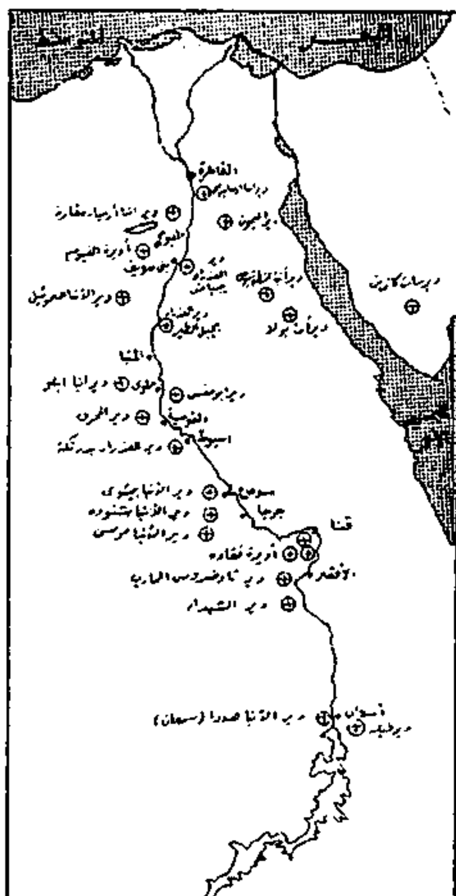

فيه سائر الطير فهو أيضا متصيد ممتع، وقد وصفه الشعراء وذكرت حسنه وطيبه. وقد خرب هذا الدير.

وظاهر من أوصافه أنه كان من الاديرة المشهورة المرموقة، وقد سطت عليه الايدى العابثة في عصور الفوضى والاضطرابات، كما حصل للعديد من الاديرة الاخرى.

دير طموية، وطموية قرية بالجيزة، وقال «الشابوشتى» أن طموية فى الغرب أزاء حلوان، والدير راكب البحر، وحوله الكروم والبساتين والنخل والشجر، وهو نزه، عامر، آهل وله في النيل منظر حسن... وهو أحد متنزهات أهل مصر، ومواضع لهوها المشهورة، وقد تغنى بحسن مناظره بعض الشعراء.

ويظهر من أوصاف أولئك المؤرخين العرب أن تلك الاديرة كانت تقصدها الناس في العصور الوسطى كأماكن للترويح عن النفوس ولتفريج الكروب والهموم وخاصة بين بساتينها.

أديرة الفيوم

كانت الفيوم عامرة بكثير من الاديرة منذ أول ظهور الرهبنة في مصر. وقد وصف كتاب تاريخ الفيوم القديم «لابن عثمان النابولسى الصفدى الشافعى» من أمراء الشام، وكان من أتباع نجم الدين السلطان الايوبى، وحينما ولاه على الفيوم، أمره السلطان أن يرفع اليه تقريرا مفصلا عن حالتها، فجاء ضمن كتابه ذكر ثلاثة عشر ديرا وخمسة وعشرين كنيسة موجودة في ذاك الاقليم حوالى منتصف القرن الثالث عشر للميلاد.

ويقال أن أشهر أديرة الفيوم هو دير «النقلون» ويقال أيضا «دير القلمون» وربما كان أنشاؤه بعد أضمحلال دير النقلون وغالبا تم في القرن السابع للميلاد.

أما أديرة الفيوم حسب ما ذكرها «أبو عثمان النابلسي الشافعي السابق» فهي:

١ـ دير أبي اسحق بجوار اللاهون وهو بحريها.

٢ـ دير سيلة قبليها.

٣ـ دير العامل قبلي العدوة.

٤ـ دير سدمنت على بحر الفيوم.

٥ـ دير النقلون في الجبل قريب من قمبشا.

٦ـ دير دموشيه وهو قبليها.

٧ـ دير أبي شنودة قبلي منشأة أولاد عرفة.

٨ـ دير بموية وهو شرقيها.

٩ـ دير قانو وهو غربيها.

١٠ـ دير سنورس وهو غربيها.

١١ـ دير دسيا وهو بحريها.

١٢ـ دير ذات الصفا وهو قبليها.

١٣ـ دير القلمون وهو آخر الاعمال قريب من البهنسا.

دير الانبا صموئيل، ويسمى هذا الدير بدير القلمون[١] أيضا، وهو يقع في منطقة وادى

(١) وتسمى بالقبطية Pounemou والقلمون بالعربية وقربها من جبل القلمون الواقع في الجزء الجنوبي من الفيوم ومعنى الكلمة الغاب ومنها أشتقت الكلمة العربية قلم وسمي بذلك لوجود الدير بمنطقة يكثر فيها الغاب وقد ذكر أبو صالح الارمني أنه كان لهذا الدير أطيان كثيرة بالصعيد وشنرا، وملاحات يستخرج منها سنويا بالعدد ١٠٠٠ أردب ملح ونخيل يدر حوالي ١٢ ألف أردب من البلح. وكان فيه حوالي عام ٨٩٤م للشهداء أكثر من مائة راهب ويؤمه كثير من الزائرين، والان به حوالي أربعة رهبان يعيشون من حسنات أهل البر أذ ليس له أملاك. وقد عمره القمص أسحق البرموسي عام ١٨٩٥م. والوصول اليه بالركائب من محطة مغاغة من قرية النزودة أو من الفيوم بعد مسيرة أربع ساعات. وقد تخرج من هذا=

الريان. وقد شيده القديس صموئيل القلمونى حوالى القرن السابع للميلاد. وقد أغار عليه البدو والبربر مرتين، وأسروا القديس المذكور وأخذوه معهم وأساءوا معاملته، ولكن الله خلصه من ظلمهم ثم عاد بعد ذلك الى ديره حيث اجتمع حوله بعض الرهبان، ثم أدركه الدمار، وهجره رهبانه حتى نهاية القرن التاسع عشر، حيث بدأ يعمره بعض الرهبان من دير براموس. وفي الدير كنيسة على اسم السيدة العذراء. وقد ذكر أبو المكارم في مؤلفه بأنه كان في دير الانبا صموئيل القلمونى أربعة[1] جواسق ويقصد بها الحصون مما يدل على عظم ما بذله الرهبان من عناية وتحصين لحمايته من سطو البرابرة واللصوص، وما كانوا يتعرضون له من هجماتهم الوحشية المريرة. وكان مدخل الجوسق من داخل الكنيسة بسقالة، وكانوا يدفنون موتاهم تحت الجوسق.

دير الطير: بمدينة سمالوط، وهو دير قديم يطل على النيل، وله سلالم منحوته فى الجبل أمام بلدة سمالوط وهو يقرب من الجبل المعروف بجبل الكهف. وفى يوم عيده يقصده جمع غفير للزيارة والتبرك. ويروى أن السيدة العذراء التجأت اليه أثناء رحليها فى أرض مصر.

دير أبو فانه: وكان من الاديرة المشهورة فى العصور المسيحية الاولى منذ القرن السادس للميلاد وكان عامرا بالرهبان وهو يقع جنوب غرب ألمنيا وغرب بلدة الشيخ عبادة. ومازالت به

=الدير بطريرك واحد وهو الانبا غبريال الثامن والثمانون حوالى عام ١٤٠١ ميلاديا.
ويقال أن هذا المكان كان يسكنة النساك منذ أواخر القرن الثالث والرابع للميلاد وتروى قصة الشابين «بانين وبناو Panine & Panau» اللذين رغبا فى ممارسة الزهد وقررا التوغل فى الصحراء وقابلهما الملاك ميخائيل فى زى رهبانى وأرشدهما الى القديسين «تيموثاوس وفيلوثاوس وكريستودورس» بجبل القلمون من أعمال مدينة الفيوم. ويذكر القديس أثناسيوس أن الانبا أنطونيوس زار منطقة أرسنوية وهى الفيوم اليوم، وكانت تسمى فى أيام المؤرخ اليونانى «هيرودوت» مدية التماسيح «Crocodileopolis» وعندما أضطر أنطونيوس الى عبور قناة «أرسنوية» لزيارة الاخوة وتفقد أحوالهم وتشجيعهم يقال أنه وجد القناة ملاى بالتماسيح. ويذكر السنكسار أن الانبا أنطونيوس شعر بحاجة ملحة لزيارة الاخوة هناك لتعزيتهم وتقوية عزيمتهم وأيمانهم وكان ذلك بعد عشرين عام من ممارسته أعمال الزهد والرهبنة.
ومن أهم الاثار العريقة فى تلك المنطقة حسب ما ورد من أقوال الاب متى وهو من أشهر الاباء الذين عمروا تلك المنطقة أخيرا، هو الكهف الذى كان يلجا اليه الانبا صموئيل للتعبد بجبل القلمون، وهو يقع على بعد أربعة أو خمسة كيلو مترات شرق الدير بجبل القلمون. والوصول اليه غاية فى الصعوبة، ولو أن كثيرا من الرهبان زاروه من قبل.
(١) ورد هذا الزعم أى دير القلمون فى الكتاب الخاص بتاريخ أبو المكارم «فى ورقة» «٧١ظ».

بقايا من آثاره كقطع من الفرسك التى كانت تزين بعض مبانيه أو هياكله مما يدل على أهميته. وقد شرع المتحف القبطى فى بناء استراحة فى الصحراء القريبة منه للبدء فى عمل الحفائر اللازمة فى أنقاضة لاستجلاء ما غمض من تاريخه.

أديرة باويط[١]: تقع باويط على الضفة اليسرى للنيل بقرب بلدة ديروط. وقد اشتهرت بما وجد فيها من آثار قبطية عظيمة من العصر المسيحى المبكر، وما كان فيها من أديرة وقد تولى الحفائر فى هذه المنطقة العالم الفرنسى «كليدا Clédat» منذ عام ١٩٠١م، وعثر على آثار كنيستين واحدة على اسم القديس «أبولو» والثانية على اسم القديس «رفائيل» ثم تبعه بعد ذلك فى مواصلة الحفائر فيها أيضا العالم الاثرى «شاسينا Chassinat» عام ١٩١١م حيث وجد حوالى ثلاثين من الهياكل فى جهات مختلفة كانت تكون جزءا من مبانى دير كبير.

هذا وقد جمعت آثار قبطية فى غاية الاهمية والعظمة من تلك المنطقة ترجع الى القرن السادس للميلاد. وقد نسقت قاعة فسيحة بالمتحف القبطى من آثار تلك المنطقة وتحمل أسمها أيضا وجميع آثارها من الافاريز والاعمدة والتيجان والواجهات والبوابات من الحجر المنقوش بأتقان ومهارة فائقة وتعتبر كلها آية فى فن النحت فى الابداع والدقة والبراعة.

وكذلك توجد قاعة أخرى من آثار تلك المنطقة وتحمل اسم بلدة باويط أيضا. وتزين احدى قاعات متحف اللوفر بباريس بقسم الاثار المسيحية فيه وهذه كلها تعطينا فكرة جلية عن مدى ما بلغه فن المعمار والنحت الرفيع فى ذلك الزمن ومقدار ما وصلت اليه الاديرة من روعة فنية فى تلك البلدان.

الدير المحرق

يشتهر هذا الدير باسم دير السيدة العذراء المعروف بالمحرق. وقد أجمع كثير من الكتاب والمؤرخين على أنه ليس بين كافة الاديرة القبطية العديدة على ما فيها من عظمة روحية، وما حازت بعضها من شهرة عالمية ذائعة، ما لهذا الدير الذى تبوأ مركز الصدارة وشرف الامتياز الكلى بينها، بسبب تاريخه الفريد المجيد، لانه كان الموضع المقدس الذى طال مقام العائلة المقدسة فيه أكثر من غيره من الاماكن الاخرى أثناء رحلتها المباركة فى أرض مصر. كما

(١) باويط قرية تقع على الضفة اليسرى للنيل قرب بلدة دشلوط تبع مركز ديروط بالوجه القبلى.

Bani Mazār
D. al-Sanqūriyyah
Kom Nimrūd
Kom al-Rāhib
al-Shaykh Hasan
Samalūṭ
D. al-ʿAdhrāʾ (Jabal al-Ṭayr)
Ṭihnā al-Jabal
AL-MINYĀ
D. Apa Hūr
Zāwiyat al-Mayyitīn
Bani Hasan
Speos Artemidos
Qaṣr Hūr
D. Abū Fānā (D. al-Sulṭān)
D. al-Dīk
D. al-Naṣārā
Antinoopolis
Nawāy
D. Sunbāṭ
al-Ashmūnayn
D. Abū Ḥinnis
Mallawī
D. al-Barshā
Daljā
D. Mawās
al-Shaykh Saʿīd
Tell al-ʿAmarnah
D. Abū Sarabāmūn
Bāwīṭ
Dayrūṭ
D. al-Quṣayr
Ṣanabū
D. Tādrus
D. Mār Mīnā
Būq
D. al-Muḥarraq
D. al-Jabrāwī
D. Buqtur Shū
Manfalūṭ
D. al-ʿAdhrāʾ
D. Abū Isḥāq
al-Jāwlī
Abnūb
ASYŪṬ
Manqabād
D. Bisrah
D. al-ʿAwanah
D. Durunkah
D. Abū Maqār
D. Rīfah
D. Tāsā
D. al-Zāwiyah
D. al-Balayzah
Abū Tīj
al-Badārī
Wādī Sarjah
D. Abū Mas'ūd
D. Apa Hermina
D. al-Janādlah
Ṭimā
Qāw al-Kabīr
Qāw Gharb
al-Marāghah
D. Anbā Bakhūm
D. al-Shuhadāʾ
D. al-Malāk Mīkhāʾīl
D. al-ʿAdhrāʾ
al-dayr al-Aḥmar (D. Anbā Bishāy)
Akhmīm
al-dayr al-Abyaḍ (D. Anbā Shinūdah)
SŪHĀJ
D. Mār Jirjis al-Ḥadīdī
Monastery or monastery location
Sites
Ancient sites reoccupied by monks
0 25 50km
0 15 30 miles
D. Apa Tōmā
D. Anbā Bakhūm
D. al-Qurqās
D. al-Malāk Mīkhāʾīl
D. al-Shuhadāʾ
D. al-Madāʾid
D. al-ʿAdhrāʾ
Akhmīm
SŪHĀJ
D. Mār Jirjis al-Ḥadīdī
D. Anbā Bisādah

أصبحت القاعة التى أقامت فيها مدتها هى نفس الهيكل الذى يقام فيه القداسات والصلوات بكنيسة العذراء فى الدير المحرق حيث أجرى فيها السيد له المجد، وهو طفل عجائب وآيات شفائية عديدة. وفى نفس المكان أيضا رأى يوسف البار خطيب العذراء حلمه عن موت هيرودس ملك اليهود واوعز اليه بالعودة الى أرض فلسطين.

موقع الدير المحرق ووصفه: يقع دير العذراء الشهير بالمحرق عند سفح الجبل الغربى المعروف بجبل قسقام. ويقع فى محافظة أسيوط بنحو ٤٨ كيلو مترا شمال المدينة المذكورة، ويبعد بحوالى ١٢ كم غرب بلدة القوصية وقد زار الرحالة الفرنسى الاب «فانسليب» مدينة قسقام وكانت خربة وقتئذ وأمضى بالدير المحرق شهرا عام ١٦٦٤م.

وتمتد الصحراء والتلال والكسبان الرملية غرب الدير بمسافات شاسعة حيث البرية الداخلية. والدير فى البرية الخارجية، أما شمال الدير وشرقه فتوجد المروج الخضراء بسبب الفيضان الذى يصل الى مقربة من الدير، وعلى مر الزمن أخصبت الأرض وأصبحت صالحة للزراعة. ويعتبر الدير المذكور أوسع وأكبر جميع الاديرة فى الصحراء المصرية بل وفى الشرق كله، آذ تبلغ مساحته حوالى عشرين فدانا، وله سمعة تاريخية عالية وأشتهر رهبانه بالعلم والتقوى وممارسة الكرازة فى خارج البلاد المصرية حيث وصل بعض الرهبان الى جنوب أوروبا ووسطها وشمالها حتى أيرلندا.

أسماء الدير: أطلق عليه عدة أسماء منها:

١- يسمى بدير العذراء نسبة الى السيدة العذراء حيث أقامت العائلة المقدسة فى القاعة التى صارت هيكل الكنيسة الاثرية التى يحيط بها الدير. ولذلك تعتبر شفيعة الدير ورهبانه والمنطقة المحيطة به ولذا تقدم النذور باسمها وتجرى العجائب فيه لجميع الزوار من جميع الملل والاجناس. ولهذا يعد الدير مقصدا لجيمع الحجاج وأصبح كمكان مقدس مثل القدس أو جبل الزيتون.

٢- دير قسقام: أو دير جبل قسقام لان الدير قائم بجوار مدينة تسمى بهذا الاسم، وقد عفا عليها الزمن ولم يبق منها سوى الدير الذى يحمل اسم المدينة التى زالت. والكلمة أصلها قبطية ومعناها «مدفن الحلفا» وذلك لان فقراء تلك المنطقة كانوا يكفنون موتاهم بالحلفا.

٣- دير المحرق - وعللوا هذه التسمية للاسباب الاتية؟

أ ـ كان الدير يظل فترة طويلة معظم أيام السنة بعيدا عن الماء كما كانت تنضب فية المياه قبل غيره من الحياض، وسميت الأرض التى من حوله بالمحرق فسمى الدير تبعا لذلك.

ب ـ كان الحوض الموجود في وسط الدير موبؤا بكثرة نمو أعشاب الحشائش الجبلية فيه بغزارة فكانت حيلتهم الوحيدة للتخلص منها هى بأحراقها بالنار وعلى ذلك تسمى بالدير المحرق.

جـ ـ تعرض الدير لهجمات الاعراب واللصوص فهدموه وأحرقوه بالنار التى ظلت آثارها عليه فسمى بالمحرق، ثم أعيد بناؤه بعد ذلك.

د ـ كذلك روى أن حربا نشبت بين حاكم مقاطعة الاشمونين وحاكم قسقام أنتصر الأول وأحرق قسقام فصارت المنطقة كلها تعرف بالمحرقة، وأصبح هذا الدير يعرف بالمحرق على هذا الاساس.

وقد ذكر الاب الرحالة «جوليان Jullien» الذى زار الدير المحرق عام ١٨٨٣م أن رئيس الدير وقتئذ أبلغه أن دير العذراء هذا، هو من أديرة الانبا باخوميوس التى شيدها فى الصعيد، وأنه يمثل الخط الذى يحدها من الشمال ولذلك سمى «بالمقرر» ثم حرفت تلك الكلمة الى «المحرق».

كما يروى المؤرخ أبو المكارم رأيا آخر أذ يرجع سبب تلك التسمية الى آنه كان يسكن فى الجهة المجاورة رجل شرير أشتهر بالكفر والالحاد يسمى خرتبابن ماليك «فانزل الله عليه عاصفة أحرقتة ولم يبق له أثر فسميت تلك الجهة بالمحرقة.

كنائس الدير

١ـ كنيسة العذراء: وتوجد فى الجهة الغربية من الدير وهيكلها هو نفس الغرفة التى سكنتها العائلة المقدسة. وتعتبر فريدة فى نوعها، وهى الوحيدة فى مصر بل وفى العالم كله لان المسيح دشنها وباركها ولها من الذكريات السامية المجيدة ما يعجز عن وصفة اللسان، وهذه الكنيسة أقدم كثيرا من الدير فهى ترجع الى القرن الاول للميلاد بينما باخوميوس بنى الدير منذ القرن الرابع. والذى دفعه الى أنشاء هذا الدير واختياره هذه البقعة لتكون ديرا يحيط بتلك الكنيسة الاثرية ذات التاريخ المقدس المجيد وليضم من يلوذ حول تلك المنطقة من النساك والمتوحدين.

- -

٢ـ كنيسة القديس تكلا هيمانوت الحبشي: وكانت فوق سطح كنيسة العذراء الاثرية فوق الجزء المسقوف منها وكان يصل اليها الرهبان الاحباش لاقامة الصلاة فيها. ولكنها ازيلت عام ١٩٣٦ خشية تأثيرها على تقويض الكنيسة الاثرية وتهديدها بالسقوط.

٣ـ كنيسة يوحنا المعمدان: وتقع في الجهة البحرية من كنيسة العذراء وقد عرفت آثارها صدفة بين أنقاض الردم.

٤ـ كنيسة رئيس الملائكة ميخائيل: وتوجد عادة في الطابق الاعلى من الحصن.

٥ـ كنيسة القديس مارجرجس: وتقع جنوب كنيسة العذراء الاثرية، وقد شيدت عام ١٨٠٠م في عهد القمص ميخائيل الابوتيجي من «١٨٧٠/ ١٨٨٤م».

٦ـ كنيسة العذراء الجديدة: وقد أنشئت خارج أسوار الدير لاستقبال الاهالي لاقامة الصلوات فيها والعماد. وقد تم أنشاؤها عام ١٩٦٤م في عهد الرئيس الحالي الايغومانس قزمان بشاى أما بقايا الاسوار القديمة فقد تعهد بناؤها الامبراطور «زينون» منذ القرن الخامس لحماية الرهبان من غارات البرابرة، أما الاسوار الحديثة فقد بنيت بالحجر الجيرى والاسمنت على النظام الحديث منذ عهد الانبا باخوميوس الأول أسقف الدير منذ عام ١٩٢٠ للميلاد. وظل العمل فيها مدة طويلة حتى أتم مبانية وغيرها من المباني الاخرى بعهد القمص قزمان الحالي. ويحوط الدير بداخله حدائق واسعة بديعة تحوى كثيرا من أنواع المزروعات والأشجار والازهار والفاكهة.

أديرة أسيوط وقراها

أشتهرت المدينة بكثرة ما شيد فيها وما حولها من القرى من الاديرة والتى ذاع صيت رهبانها في النسك والتقوى خلال العصور المسيحية. وأهمها في منطقة أسيوط «دير العظام» أو دير السبعة جبال أو دير القديس يوحنا» الواقع في صحراء أسيوط على مقربة من منطقتها الاثرية في تلالها في الغرب المسماة «أسطبل عنتر». ويظهر أنه كان عامرا بالرهبان. وبين الحفائر التى أجريت بين أنقاض الدير المذكور عثر على جرة على سطحها نص قبطي مدون بالمداد الاسود كتبة أحد الرهبان عام ٨٧٢ للشهداء ومضمون ما جاء فيه شرح عن حالة البؤس والقحط والاوبئة التى تفشت في مصر في ذلك الزمان والاضطهاد الذى حل بالبلاد وعلى الاخص في مدينة أسيوط. والجرة المذكورة محفوظة في قسم الفخار بالمتحف القبطي.

دير المطل: وهو على أسم السيدة مريم وهوعلى طرف الجبل تحت الدير السابق المعروف باسم دير السبعة جبال قبالة أسيوط.

دير الجبراوي: من المناطق الاثرية الهامة في محافظة أسيوط وهو عند قرية المعابدة على شاطيء النيل الشرقي. وفي المنطقة قبور محفورة في الصخر لطائفة من حكام الاقاليم بالمقاطعة الثانية عشرة من عصر الدولة المصرية القديمة وقد أنشيء هذا الدير في هذه البقعة منذ العصور المسيحية الاولى، وسكنه كثير من الرهبان الذين أشتهروا بالتقوى والعلم بدليل ما تركوه من مخطوطات قبطية قيمة وأنبرى للعناية بها وحلها بعض العلماء الاجانب. ويبعد دير الجبراوى عن مدينة أسيوط بحوالي عشرين كيلو مترا بالجبل الشرقي عند منطقة عرب مطير مركز أبنوب.

دير درنكة أو أدرونكة: يقع على مقربة من أسيوط وقد أنشيء فوق جبل تلك القرية على أسم السيدة مريم وقد ورد أن السيدة العذراء كانت بها كآخر البقاع التى قد ألتجأت اليها أثناء رحلتها في أرض مصر. ويسمى كذلك بدير الانبا «ساويرس»[1] ذلك أن أحد مشاهير رهبانه ويسمى ساويرس وقد وصل الى كرسى البطريركية، وقيل عنه أنه عند وفاته حدثت آية وكان قد أنذرهم بها قبل وفاته، فأخبرهم بأن عند موته سوف ينشق الجبل وتسقط منه كلتة عظيمة على الكنيسة ولا تضرها، فلما حدث ذلك في بعض الايام وسقطت الكتلة الجبلية الضخمة علم الرهبان بذلك الدير بان الانبا ساويرس قد مات وحينئذ اطلقوا أسمه على هذا الدير.

دير تادرس: وهو تحت دير ساويرس. وتادرس هذا استشهد في عهد الامبراطور دقلديانوس.

دير ريفا: ريفا من القرى القريبة من أسيوط وتبعد عنها بحوالى سبعة كيلو مترات. وفى المنطقة آثار لهياكل وقبور محفورة في الصخور وعليها النقوش والنصوص المصرية القديمة

(١) ورد ذكر هذا الدير في كتاب

Amélineau, E.L. histoire de l'Egypte Chrétienne. paris, 1895. P. 127:

حيث عين موقعة عند سفح جبل «أرياه جنوب مدينة أسيوط وقد حول مطران كرسى محافظة أسيوط الانبا ميخائيل منطقة هذا الدير بما أنشأه فيها من مبان رائعة تثير الاعجاب الى مزار مقدس يجتذب الزائرين والحجاج الذين يؤمونة باعداد هائلة من كل صوب وخاصة في عيد السيدة العذراء في شهر أغسطس من كل عام.

وهي غالبا جبانة لحكام أقليم الحادى عشر فى عصر الدولة المصرية القديمة. وظاهر أن النساك المصريين بنوا ديرهم في تلك البقعة بدليل وجود آثار القلالى التى كان يتعبد فيها رهبانهم حول تلك الهياكل والبرابى المصرية القديمة وكان يوجد فى بلدة ريفا هذه دير خاص للراهبات العذارى وكان يسمى بدير «هناوة» وكذلك دير آخر يسمى بدير «قرقونة» ويقع فى بقعة ريفا وادرنكة.

دير موشا: وهى أحدى القرى القرية كذلك من محافظة أسيوط. وقد بنى هذا الدير على اسم الرسول «توما رسول الهند». وهو يقع بين الغيطان ولا يمكن الوصول اليه في وقت فيضان النيل الا فى قارب وله أعياد تقام لذكراه.

ويقول المؤرخ تقى الدين المقريزى بأن أغلب نصارى هذه الاديرة كانوا يجيدون معرفة اللغة القبطية كما ذكر أيضا أن نساء نصارى تلك الاقاليم وأولادهم لا يكادون يتكلمون الا اللغة القبطية الصعيدية ولهم معرفة تامة باللغة الرومية «أى اللغة اليونانية».

أديرة أخرى كانت منتشرة حول ضواحى أسيوط ومنها:

١- دير زبو السرى ببلدة شطب[1] بمركز أسيوط ويروى أن جسد الأمير تادرس مدفون فيه.

٢- دير التنادة باسم «بوفام» فى أبشاى أسيوط.

٣- دير الجنادلة بمركز أبى تيج بأسيوط وفية كنيسة مقروفيوس.

٤- دير أبو سادر «تيادر» ويجاوره جبل الطليمون.

٥- دير داخل البلد للارمن.

٦- دير سمالوط بالاشمونين وبه بيعة بوفام.

٧- دير بقطر بناحية أبنوب ومنفلوط وكان به عدة بيع.

٨- دير العسل المجاور لمنية بنى خصيب وبه أربع عشرة بيعة.

(١) شطب معناها المحبوبة. وهى تبعد حوالى سبعة كيلو متر جنوبى أسيوط، وعلى الخط الحديدى الان أسمها مشتق من التسمية المصرية القديمة «شمس حتب». وقد ذكرت هذه البلدة فى نص أمير أسيوط القديم «خيتى» حيث يقول أن مقدمة أسطوله كانت عند بلدة شطب وتقع جبانة أمراء شطب على بعد ١٣ كيلو مترا من سطح الجبل الغربى عند قرية «دير ريفا» الحالية.

الأنبا باخوميوس[1] وأديرته

المؤسس لانظمة الشركة المقدسة من عام ٢٩٠/٣٤٨م

كلمة «باخوم» في الاصل قبطية ومعناها «الباشق» وهو نوع من النسور وهو يعتبر المشرع الاول للحياة الرهبانية المشتركة، ويدين بفضله العظيم الشرق والغرب المسيحيان كما يدين له العالم غير المسيحي كذلك، وهو يسمى أبا الشركة للرهبنة وزعيمها البطولي الذى لا يبارى.

مولده ومسقط رأسه:

أختلف المؤرخون والكتاب في السنة التي ولد فيها، وكذلك في البلدة التي نشأ فيها، فقيل أنه ولد عام ٢٧٥ وذكر البعض عام ٢٩٠م في مقاطعة طيبة جنوب بلدة اسنا وفي رواية أخرى قيل في بلدة «كنوبوسكيون» التي يقال أن موقعها الآن «بلدة قصر الصياد» بمديرية قنا. وتحليلا لكلمة «كنوبوسكيون» عن اللاتينية والاغريقية يقصد بمعناها «الرهبنة أو بمجموعة الاديرة» ولذلك فأن تسمية تلك المنطقة به لم يطلق عليها الا بعد أن شيد بها الانبا باخوميوس أديرته.

وكان والداه وثنيين فقضى سني حياته الاولى حسب الطقوس الوثنية في العبادة، لم نعرف الكثير عن سيرة حياتة الاولى وتربيته، الا أنه عندما بلغ العشرين من العمر أنخرط في سلك الجندية وأشترك في المعارك التي نشبت بين قسطنطين والامبراطور مكسميانوس «عام ٣١٠م». وكانت خاتمتها أنتصار الاول وقتل الثاني، وحدث أن سار باخوميوس مع بعض رفاقه من الجنود حتى مدينة أسنا ولابد أنهم قاسوا من متاعب الطريق وأهوال الحرب كثيرا، وهناك مروا

---

(١) تاريخ حياة باخوميوس دونت بلغات مختلفة: الاولى هي باليونانية وكتبت بعد وفاة تلميذه «تادرس» بزمن وجيز عام ٣٦٨م. وقد ألفها أحد الرهبان الذى لم يعرف القديس وجمع أخباره من أفواه تلاميذه ومعاصريه، ويظهر من أمعان النظر فيها أنها صحيحة ويمكن الوثوق بما جاء فيها. والثانية هي باللغة القبطية الصعيدية نقلا عن الترجمة اليونانية لافادة الرهبان الذين جهلوا اليونانية، ويظهر فيها أن الكاتب وكان أحد رهبان باخوميوس قد أضاف الى الاصل تفاصيل غريبة وفقا لما كان يعهده في القوم من الشغف في عجائب الامور. ثم نقلت هذه السيرة الى اللغة القبطية البحيرية لمنفعة الرهبان في أديرة أخرى. والثالثة هي السيرة بالعربية التي نقلت اليها بعد زمن طويل في القرن الرابع عشر لميلاد.
وقد تولى العالم أميلينو طبع الترجمتين القبطية والعربية للقديس في باريس عام ١٨٨٩ ولم ينصفه ثم جاء بعده المستشرق العالم الاب «لادوز Ladeuse» حيث أشاد باعمال باخوميوس وفضله العظيم والذى طبعة في باريس أيضا عام ١٨٩٨ بعنوان:

Etudes sur le Cenobitisme pakhomien. Fontemoin. Paris 1898.

على القرى القبطية حيث وجد طائفة من المسيحيين أشفقوا عليهم وأحسنوا أستقباله هو وزملاؤه وأكرموهم وقضوا حاجياتهم، فتعجب باخوميوس من حميد خصالهم وأكرامهم دون معرفة سابقة بهم فسأل عنهم، فقيل لهم «أنهم النصارى» يطلبون فى ذلك وجه الله الكريم ممتثلين أوامر أنجيلهم. فرغب أن يقراء أنجيلهم ليقتدى بسيرنهم، فلما أطلق سراح الجند ورجعوا الى وطنهم عكف على دراسة الديانة المسيحية وتعمد وتفقه في مبادىء تلك الديانة عام ٣١٤م.

ويجب الا ننسى ما كان للتربية العسكرية التى مارسها فى مستهل حياته وهو فى عنفوان شبابه من فضل وأثر عظيم فى تكوين شخصيته الفذة فى التاريخ القبطى بما درج عليه من حب النظام والطاعة والمقدرة على القيادة المنظمة.

بدء باخوميوس فى النسك:

قيل أن البلدة التى نزل بها باخوميوس كانت تعرف اليوم «قصر الصياد» على الضفة الشمالية للنيل بأزاء بلدة نجع حمادى. وقضى ثلاث سنوات متنقلا فيها بالقرى يواسى المساكين ويعزى الحزانى ويفتقد الفقراء والمعوزين فسمت نفسه وتملك الزهد مشاعرة، وقرر أن يترك العالم ويرحل الى البرية لممارسة الرهبنة.

ففى الرابعة والعشرين من عمره أنتقل اى مسافة قريبة من القرية حيث وجد شيخا جليلا وناسكا فاضلا يدعى «بليمون» فقصده باخوميوس ليتلمذ عليه، فحاول القديس بليمون هذا أن يثنية عن عزمة كما هى الحال التى كان يتبعها شيوخ النساك والزعماء منهم مع الشبان البادئين والراغبين في الرهبنة. فشرح له شدة ما يعانية الراهب في البرية من قسوة وأذلال من أماتة الجسد وكبح جماحة والزهد التام في حياة الدنيا ومباهجها وملاذها وبين له الحياة القشفة والصوم بدون أنقطاع والسهر وغير ذلك من الاعمال الشاقة التى يتحتم على الراهب القيام بها ولكن هذا العرض لم يزد باخوميوس إلا استمساكا بما عاهد به خالقه كما طلب من القديس بليمون هذا أن يصلى من أجله حتى يعينه الله ويثبت عزيمتة ويهبة الصبر والجلد، حتى يكون جديرا بخدمة المسيح ومحبته، عندئذ قبلة الراهب الشيخ بليمون معه وأخذ يدربه فى شئون الرهبنة بأعلاء الحواس وأنكار الذات والطاعة العمياء وممارسة الصوم والصلاة. ثم ألبسه ثوب الاسكيم الرهبانى وقد مكث معه سبع سنوات.

ولابد أن باخوميوس قاسى فى مستهل عهده بالنسك مثلما عانى ممن سبقوه الى التوحد، ويظهر أنه فطن بثاقب بصيرتة أن التقرب من الذات الالهية والبعد عن مظاهر الدنيا لا يتطلب ما يراود النساك أنفسهم عليه وقتنذ من تعذيب الجسد الى حد يفوق التصور والاقدام على أعمال أخرى خارقة فى داخل أجحار أو قبور بقصد الاذلال وأنكار الذات فى أعماق البرارى والقفار الموحشة، فكان هذا مما هداه الى التفكير فى وضع قوانينه التى ذاع صيتها فى جميع المسكونة والتى أصبحت هى الاساس التى يسير على مبادئة العالم المسيحى حتى عصرنا الحالى.

باخوميوس وتشييد ديره «تبانيسى»:

بعد أن مكث سبع سنوات مع الانبا بليمون كما أسلفنا، أنصرف الى البرية حتى وصل لبقعة مقفرة قرب قنا فى مواجهة دندره وتسمى «تبانيسى» وبعد قضاء مدة فى حياة التقشف وأنكار الذات. روى أنه أوحى اليه من ربه بأن يشيد ديرا حيث تجمع فية من بقى من أتباع القديس بليمون وغيرهم من راغبى النسك الذين يهيمون على وجوهم فى الصحراء والقفار، ولما تكاثرت جموعهم فكر بحسب خبرته العسكرية أن يبدأ بوضع نظام داخلى للدير، فرتب أعمال الرهبان المختلفة وضبط مواعيدها ونظم مناهج الصلاة وأوقات الصيام، وعهد الى أحد زعماء الرهبان فى الاشراف على الدير وعين مساعدا له وأمناء، وبث فيهم روح التضحية وخدمة الفرد للمجموع.

نظامة الديرى:

أتبع باخوميوس نظاما فى الدير هو أقرب الشبة الى النسق العسكرى وهو ما أقتبسة من الهيئة الوحيدة المنظمة أثناء التحاقه فى سلك الجندية فى الجيش الرومانى. وقد نظم الخدمة داخل الدير لكل راهب حسب مقدرته وطاقته الجسمية ولم يرهق صائما أو ضعيفا بعمل شاق، ويروى فى كتاب «بستان الرهبان» كثير من القصص والروايات التى تؤيد شدة تمسك الانبا باخوميوس بالطاعة والنظام وتنفيذ القوانين بدقة تامة فى مؤسساته. ومن أهم بنوده الاساسية أن يخضع جميع الرهبان لقانون واحد.

وقد ورد فى الأساطير الدينية أن باخوميوس قد جاءه الوحى من الروح القدس على يد

ملاك أنباءه بالوصايا التي يجب على الاخوة أن يسيروا بموجبها، ثم دفع اليه الملاك بلوح نقشت عليه الوصايا وقيل أنها ست ووضعت في صيغة الامر وهي:

١ـ ليتناول الراهب من المأكل والمشرب ما يشاء وعلى قدر قوة هؤلاء الرهبان ما يأكلون ويشربون تلزمهم بالعمل. ولا تنهاهم لا عن الاكل ولا عن الصوم أما الضعفاء والصائمون فتطالبهم بالاعمال الخفيفة.

٢ـ وعليك أن تقيم لهم القلالي يسكنونها معا ثلاثة ثلاثة.

٣ـ وعليهم جميعا أن يتناولوا الطعام معا في قاعة واحدة.

٤ـ وعليهم أن لا يناموا منبطحين على الارض ولكن عليك أن تصنع لهم المقاعد حتى اذا ما استلقوا فوقها أمكنهم أن يسندوا رؤوسهم عليها.

٥ـ وعليهم أثناء الليل أن يلبسوا جلبابا بغير أكمام، وأن يشدوا أوساطهم بحزام، ويجب أن يعطى لكل منهم طاقية لغطاء الرأس. وعليهم أن يتناولوا العشاء الرباني في يوم السبت وفي أول يوم من الاسبوع «يوم الاحد» وطواقيهم فوق رؤوسهم دون أن يكون عليها أغطية أخرى، وعلى صدر كل طاقية منها صليب مشغول من القرمز.

٦ـ وعليك أن تقسم الرهبان الى أربع وعشرين مرتبة أو درجة، وأن تميز كل مرتبة بحرف من الحروف الهجائية وهي الابجدية اليونانية من ألفا الى الاوميجا، لكل مرتبة منها حرف.

وهذه الوصايا هي التي ذكرها الرحالة الاب بلاديوس في كتابه «بستان الرهبان». وقد نوه الرحالة المذكور على الوصية الاخيرة بما يفهم من منطوقة أن كل حرف يرمز به الى صفة من الصفات تشترك فيها طبائع جماعة الرهبان الذين يندرجون الى هذا الحرف أو القسم، فالبسطاء في الروح يرمز لهم بحرف «أيتا» وصعاب الميراث والمعاندون يرمز لهم بحرف «أكسي» وهكذا بحيث يستطيع رئيس الدير أن يعرف من هذا الوضع صفة كل راهب وطبيعته دون عناء.

ثم يذكر بلاديوس أن ملاك الله أضاف شفويا الى ما جاء في اللوح المكتوب أنه اذا جاء الى الدير راهب غريب يرتدى زى مخالف لزيهم لن يدخل معهم الى المائدة، وعلى من يبتغى دخوله راهبا في الدير أن يكلف بالعمل اليدوى ثلاث سنين قبل أن يمنح زى الرهبان وحلقة

الرأس «التي تميز هؤلاء الرهبان، أى حلق ذوابة شعر الرأس فى المكان الذى يضعون عليه طواقيهم. وعلى الرهبان أثناء تناولهم الطعام أن يضعوا على رؤوسهم القلانس التي تحجب رؤوسهم ووجوهم حتى لا يرمقوا بعضهم بعضا وهم يأكلون، وعليهم الايتجاذبوا أطراف الحديث وهم على المائدة، والايتطلعوا من جانب لاخر. كذلك أمر الملاك باخوميوس أن يطلب الى رهبانة ترديد أثنتى عشر مزمورا كل يوم وأثنتى عشر كل مساء وأثنتى عشر ثالثة أبان الليل وعندما يتقدمون للطعام يرتمون المزمور الكبير».

وقد استخف باخوميوس من الاعباء المفروضة على الرهبان، فقال الملاك «أن الاجزاء التي عينتها للرهبان للقراءة قليلة جدا حقا، لكي يكون فى وسع الضعفاء من الرهبان تفنيذ القوانين دون أن يتقاعسوا عنها. أما الرهبان الذين بلغوا الكمال فأن أجتهادهم لا يحدده قانون» .

على أن رواية الاسطورة الدينية كان لها أثر تاريخي بالغ الاهمية، ذلك أن قصة اللوح المكتوب والوصايا الستة المنقوشة عليه وظهور الملاك للانبا باخوميوس تعيد البنا ذكرى أنبياء العهد القديم وقصصه المجيدة، كما جاء في قصص موسى ولوحي الوصايا العشرة، ولكن منطوق القواعد الرهبانية الوارده فيها هو ما نسعى الى تسجيله، لان هذه النواة المبدئية هي الاساس الذى بنى عليه القديس باخوميوس قوانينه الهائلة التي أحدثت أنقلابا هائلا فى الاوضاع الرهبانية المألوفة فى ذلك الزمن، وأثرت أعظم تأثير فى توجيه الاجيال القادمة في كل أقطار المسكونة، لانها أصبحت الاساس العظيم الذى أبتنى عليه الخلف الصالح تلك الانظمة الديرية .

باخوميوس والتعليم:

من مآثر باخوميوس الجليلة اهتمامه وعنايته بالتعليم بين الرهبان فقد كان القدامى من النساك يحتقرون القراءة والكتابة ويعرضون عن اقتناء الكتب ويتجنبون الدرس والتعليم، فصمم باخوميوس على القضاء على تلك الفكرة القديمة. وقضى على الامية قضاء مبرما وجعل معرفة القراءة شرطا من شروط الدخول في الدير. ولابد على الراهب من تحصيلها فى سنى التجربة والاختبار الاولى. كما أنه نظم ثلاثة دروس يوميا، عند الساعات الاولى والثالثة والسادسة من النهار للمبتدئين، ثم دروسا أخرى عامة يعقدها رؤساء الاديرة بأنفسهم يومى

الصيام الاسبوعي أى الاربعاء والجمعة في تفسير الكتب المقدسة والتعاليم المسيحية. وكان حضورها أجباريا على كل الاخوة. وكان المقصود من التعليم هو توفير ما يلزم للراهب لقراءة الكتب المقدسة وكتب الصلوات وتاريخ الرسل والتعاليم الدينية البحتة، فكان الغرض من التعليم دينيا قبل كل شيء وليس دنيويا. وكان للتعليم أكبر الاثر في السمو بالاديرة الباخومية، وأصبحت المراكز الممتازة اللامعة في عالم العلم والتعليم، والمعامل الحصينة التى حفظت فيها مؤلفات آباء الكنيسة والآداب القديمة ومحتويات مكتبات الاديرة العديدة من كتب المواعظ، وكتب الصلوات، والميامر وأقوال القديسين وحياتهم، والشروح ورسائل التأمل والتصوف وغيرها من الموضوعات العديدة التاريخية والادبية، وكانت كل هذه المكتبات وما تحويها من المؤلفات مفتوحة على مصراعيها لكل قارىء يريد الاستفادة بما فيها.

منشآت [1] الانبا باخوميوس من الاديرة الاخرى:

ولم يمض على القديس باخوميوس سوى بضع سنوات بعد تشييده لدير «تابينسي» حتى كثر حوله أعداد الاخوة من النساك واضطر الى انشاء دير آخر قال البعض أنه أقيم فى قرية، وقال غيرهم فى قفر ويقع شمال الدير الاول فى مكان يسمى «أفوا». وفى بعض المراجع دعوه «برو» وفى النصوص القبطية أطلقوا عليه «فبو» وفى العربية اسم «فاو».

دير فاو:

زاد هذا الدير ونما وعظمت أهميته حتى جعل القديس باخوميوس مقامه فيه وصار مركز بقية اديرته جميعها، ثم شيد فيه كنيسة بديعة فسيحة الارجاء بلغت ١٥٠ دراعا فى الطول و٧٥ دراعا في العرض. وقد ذكرها أبو صالح الارمنى من مؤرخى القرن الثالث عشر. وقد تناول وصفها في كتابه ومن قوله: «وجميع الصور فيها كانت فص زجاج مذهب وملون وعمدها رخام. هدمها الحاكم بأمر الله».

أما ما جاء في وصف الدير: «كان للدير سور كبير مرتفع الجدران، ولا يدخل اليه الا من

(١) وصلت الاديرة الباخومية الى أقصى الشمال عند مدينة كانوب على مصب فرع الدلتا الكانوبى على ساحل الاسكندرية الشرقى حيث أقيم دير زاهر وهو معبد أبو صير القديم على مسيرة ١٠كم على ساحل البحر غرب الاسكندرية فى منطقة مريوط. وقد حوله النساك الى دير فى العصر الرومانى ما زالت آثار قلاليه وصوامعه قائمة بجوار أسواره من الداخل. وأساس كنيسته فى رحبة المعبد الوسطى ما زالت تشاهد.

باب واحد. وكان الزائر اذا دخل الدير يجد أولا منزل الضيوف، ثم قريبا منه المعامل العمومية كالمطبخ والمطعم والخبز وغير ذلك من المصانع، ثم منتدى الرهبان، ومجلسهم العمومى ثم الكنيسة تفوق الابنية كلها علوا وأحكاما، ثم أخيرا مقام الرهبان، وهو عبارة عن بيوت شتى فيها قلالى متعددة يسكن كل راهب واحدة منها مع ردهة عظيمة يجتمعون فيها لاشغالهم العمومية، فتجد هذه الابنية العديدة أشبه بقرية تخططها الازقة والشوارع وتزينها البنايات المنظمة، بينها جنائن صغيرة يقوم الرهبان بفلاحتها».

ذكرنا أن القديس باخوميوس جعل مركز الرئاسة العمومية فى دير «فاو» المذكور. ثم وضع منذ ذلك الحين فى ترتيبه الذى سار عليه نظامه فى تدبير الاديرة فجعل رئيسا عاما على جميع الرهبانية ثم رؤساء خصوصيين يطيعون الرئيس العام، وكان بقرب الرئيس وكيل يتولى تدبير الرهبانية فى أحوالها الزمنية يسمى «ايكونومس» أى مدير المنزل. وهذه الهيئة النظامية سار عليها الغرب. ثم شاعت حتى صارت تعم كل الرهبانيات بعد ذلك.

وقد كان الانبا «تاودروس رئيس دير تبانيسى» عندما ينتهى من عمل الدير ومهامه يسير كل يوم الى دير «فاو» ليواجه القديس باخوميوس ويسمع ارشاداته، ثم يعود ويكررها على رهبانه.

دير بليمون:

بعد أن أتم القديس باخوميوس ديرى «تبانيسى، فاو» قدم عليه من بلدة «شينسيت» عابد قديس يدعى «ابونه»، كان رئيسا على جماعة من الرهبان المتوحدين، وقد توسل ذلك القديس الى الانبا باخوميوس أن يقبله ورهبانه فى طاعته ويجعل مقامهم ديرا على طريقته المستحدثة، فأجابه الى طلبه، وذهب معهم الى «شينسيت»، وأقام هناك ديرا قانونيا، وأصبح بعد زمن قليل من أشهر أديرة القديس باخوميوس وأعظمها شأنا وأكثرها رهبانا، ويعرف الآن باسم دير بليمون على بعد ثلاث ساعات من بلدة «قصر الصياد».

ويوجد فى داخل الدير المذكور ثلاث كنائس: الاولى كرست على اسم الشهيد مرقوريوس المعروف بأبى السيفين، وهى أجمل الكنائس الثلاثة وأقدمها، وتعلوها القباب العديدة، ذات أسوار عالية وعقودها بيضاوية الشكل، وفيها خمسة هياكل، وهى مزينة بنقوش بديعة. والكنيسة الثانية شيدت تذكارا للقديس بليمون وهى على مثال الكنيسة الاولى ولو أن أسوارها أقل علوا وعقودها مقوسة. أما عن الكنيسة الثالث فهى عبارة عن هيكل أقيم فوق سطح الدير

على ذكر السيدة العذراء ويروى أن هذه الكنائس بنيت بعد تشييد الدير بزمن بعيد، ولم يصبح للرهبان مقام فى ذلك الدير اليوم أنما مازال مزارا يؤمة الناس فى كثير من المناسبات للتبرك.

دير العذارى:

يقع هذا الدير فى ناحية السليمات التابعة لمدينة دشنا. وقد ورد فى سيرة الانبا باخوميوس بشأن اقامة ذلك الدير، أن أخته «مريم» جاءت تزوره فى احدى السنين وهو يمارس النسك فى ديره «بتبابنا»، ولم يكن يرضى مقابلة النساء فأرسل اليها البواب يبلغها: «أن لا يسؤك يا أختى الا تشاهدى وجهى وكفاك أن تعرفى أنى حى سالم، فهيا أنظرى يا أخيه لعل الله يدعوك الى الزهد بالعالم والعيشة النسكية، فان رضيت بذلك أرسلت بعضا من رهبانى يبنون لك ديرا بعيدا من هنا».

فأذرفت مريم أخته الدموع عند سماعها ذلك الكلام ثم لبت دعوة أخيها. فبنى لها ديرا عبر النهر وسمى بدير العذارى. ثم تواردت اليه الفتيات بقصد التبتل، واتبعن قانون الانبا باخوميوس الذى عين لهن مرشدا من أحد شيوخ رهبانه يدعى «بطرس». وكان يقوم بفلاحة الدير بعض من الاخوة الذين يعودون الى ديرهم فى «تبابنا» فى المساء ولا يسمح لهم بتعاطى الطعام عند الراهبات.

أما العذارى الراهبات فكن ينسجن أثواب الرهبان ويخطنها من الصوف والكتان الذين يرسلهما اليهن الوكيل الاكبر «الايكونومس».

دير طبيبو:

كان يزداد الاقبال على الحياة الرهبانية بدرجة كبيرة، وانتشرت الرغبة فى العيشة النسكية على يد القديس باخوميوس كثيرا، وقد وصلت أخباره الى مسامع رجل أشتهر بالورع والتقوى ومن أصل شريف عريق يسمى «بترنيوس» وكان هو نفسه قد شيد ديرا يسمى «طبيبو» فى أحد أملاك أسرته الواسعة، فأرسل الى القديس برسالة رقيقة وهى: «فلتشملنا محبتك بنظرها ولتتفضل الى حقارتنا لكى نستظل نحن أيضا فى حمى هذه العيشة النسكية التى أوحى بها اليك السيد المسيح» فأجاب القديس باخوميوس سؤال بترنيوس ونظم ديره فى سلك أديرته.

وكان بترنيوس قد أوقف كل أرزاقه على هذا الدير. فتولى أمره مدة الى أن أقامه الانبا باخوميوس رئيسا على دير «تزمنت» بقرب مدينة أخميم وأقام «أبولونيوس» مقامه فى «طيبيو» التى تسمى اليوم بلدة «الطواوى».

دير توموشينس:

كان ذلك الدير يضم جماعة من النساك المنفردين، فاتفقوا مع رئيسهم ويدعى «يونان» على الانضواء تحت قانون القديس باخوميوس فكتبوا اليه بما قر عليه رأيهم، فأجاب ملتمسهم. وبذلك كانت تلك هى الجماعة الثالثة من النساك التى رغبت فى الانضمام الى رهبانية القديس باخوميوس.

ومما يروى من سيرة القديس باخوميوس المدونة بالقبطية ولها صلة بالدير المذكور، أنه فى أحد الايام وهو فى دير فاو جاءه عند المساء أحد السعاة يخبره بأن أحد الرهبان فى دير «توموشينس» هذا على وشك النزاع، وهو لم يعمد بعد بماء المعمودية. فسار الانبا باخوميوس من ساعته مع تلميذه الانبا تاؤدرسى، فمشى نصف ليلته حتى وصل الى دير توموشينس، وهى تبعد عن فاو حوالى ثلاثين كيلو مترا تقريبا، وبينهما النيل. فلما دخل الدير أبصر ملاكين نزلا من السماء ليعمدا الراهب المنازع وانتهى الأمر.

وأهم ما يشاهد فى الطريق من دير توموشينس حتى جهة أخميم آثار عديدة لكثير من الاديرة التى كانت تزخر بها تلك البقاع، ومنها ما كان يسمى بدير «طاسا» الذى يدعى بالقبطية "TSI" .

دير أخميم:

أراد أسقف مدينة أخميم وقتئذ ويدعى «آريوس» أن يقرب الرهبان من مدينته فأعطاهم أرضا قريبة من أسوار المدينة، فشيد فيها باخوميوس ديرا كبيرا يعرف باسم دير «أشمين أو أشميم» ثم عرب باسم دير أخميم، وهى المدينة التى سماها اليونان «بانوبوليس» اى مدينة الاله «بان». وقد واجه القديس مقاومة شديدة من بعض سكان تلك المدينة التى كانت معقلا من معاقل جماعة الفلسفات اليونانية الرومانية. وكان يسكن تلك المدينة كثير من الاقوام والشبان المتفلسفين، وكثيرا ما كانوا يتقدمون يتحدون الرهبان، ويجادلونهم ويعرضون عليهم

من أنواع المشاكل والحجج المتعددة بقصد وضع العراقيل أمامهم والازدراء بهم والعمل على تثبيط هممهم بكل الوسائل. الا أن القديس باخوميوس فطن الى خطورة المكان الذى يقع فيه دير أخميم، وأقام فيه من فطاحل الرهبان المتضلعين فى العلوم الدينية واللاهوت ليكسروا من شوكتهم وزهوهم.

واليك بعض المشاكل على سبيل المثال، والتى وردت فى سيرة الانبا باخوميوس المدونة باليونانية وهى: سأل بعض أهل أخميم المتفلسفين الانبا تاودروس: من هو الانسان الذى مات ولم يلد: قال آدم. ثم سأل أيضا: وأى انسان ولد ولم يمت: قال أخنوخ. قال وأى حى مات ولم تفسد جيفته بالنتن؟ قال: امرأة لوط التى صارت نصب ملح.

دير مينه:

ثم ازدهر دير أخميم ونما عدد الرهبان بقرب تلك المدينة نموا هائلا حتى أضطر القديس باخوميوس الى تشييد دير ثالث سماه دير «مينه» وأقام عليه بترونيوس رئيسا. وهذا الدير كان موقعه بجوار دير «طاسى». ولما لاحظ زيادة عدد العذارى[١] الراغبات فى الزهد، أقام على مقربة من دير مينة هذا ديرا رابعا خصصه للعذارى المتزهدات، وسرعان ما أزهر وامتلأ بهن حتى بلغ من آوى آليه من الرهبات نحوا من أربعمائة راهبة.

دير أسنا:

بعد أن أتم القديس باخوميوس تلك الاديرة العديدة، وانتشرت بسببها الحياة النسكية فى مناطق الشمال، الهمه الله فى الرؤيا أن ينشيء له أديرة فى الجنوب، فسار الى منطقة «طيبة» ومنها الى «اسنا» حيث كان تنصيره فيها. وهناك شرع فى تشييد دير عند سفح جبلها فى منطقة تعرف عند اليونان باسم «بخنوم» وبالقبطية «تنوم».

وبعد فترة من الزمان اجتمع أساقفة تلك الناحية، وكهنتها للنظر فى أمور الدين وأستقدموا الانبا باخوميوس الى كنيسة اسنا وأمطروه بأسئلة عديدة ليتحققوا من صحة ما يذاع عنه من

(١) لما زاد عدد النساء اللائى تهافتن على معيشة النسك وضع باخوميوس الانظمة والقوانين لهن كما فعل للرهبان وجعل رئيسة الدير تشترك مع الرئيس فى شئون الراهبات. وكانت العادة عند وفاة أحدى الراهبات أن يوضع جسدها بجوار النهر، فيأتى الرهبان ويأخذونه فى قارب حيث يتولون مهمة دفنه.

المعجزات كمعجزة أسرار القلوب والانباء بأمور مستقبلة الى غير ذلك مما كان يتناقله القوم بصدده، فأجاب القديس بكل ما اتصف به من حكمة ووداعة على هذه الاسئلة.

وكان فضل القديس باخوميوس عظيما فيما بذله من جهود الجبابرة لا يواء جميع الرهبان الغفيرة التى تكاثر وفودها عليه فى تلك البقاع، فلم يكف عن تشييد الاديرة اللازمة لهم، حتى قيل أنها بلغت ما يقرب من العشرة أديرة، وتفرع منها غيرها بمرور الازمان، حتى بلغت شمالا فى أطراف مدينة كانوب عند مصب فرع الدلتا الكانوبى على ساحل الاسكندرية حيث بلغ تعداد رهبانها حينئذ سبعة آلاف من الرهبان.

ادارة القديس باخوميوس الرشيدة بأديرته

كان النظام الدقيق الذى ابتدعته عبقرية الانبا باخوميوس النادرة وجبروته الفائق فى تأسيس حكومة وطيدة الاركان ذات دستور محبوك الحلقات، لادارة شئون أديرته العديدة مضرب الأمثال. فقد قسم الادارة الى قسميها الطبيعيين وهما الادارة المحلية لكل دير والحكومة المركزية لكافة الأديرة. وفى كلا الادارتين كانت الطاعة المطلقة أساس الدستور، وقد روى المعاصرون أمثلة عجيبة تدل على روح الطاعة العمياء بين الرهبان، منها أن الرئيس اذا طلب واحدا من الاخوة وهو يكتب ترك القلم عند آخر حرف كان يكتبه، وسارع الى تلبية أمره، ثم يعود الى أكمال الكلمة التى لم يتم كتابتها. وهذا راجع الى التعاليم التى اكتسبها القديس وهو فى سلك الجندية الرومانية.

أما الادارة المحلية للدير فكانت توكل الى رئيسه، ولكل رئيس نائب يساعده فى الاشراف على الاعمال اليومية العادية التى يتطلبها الدير. ثم كان لكل دير أمين حتى اليوم يدعى «ربيتة». كما كان فى الاديرة القبطية، وللمكتبة أيضا خازن وكان عادة من النساخ، وهنالك المعلمون والخبازون والنجارون والبناؤون والحدادون والزراع والنساجون والجمالون وغيرهم من الفئات العديدة التى تتطلبها ظروف الحال فى كل دير حسب المنطقة التى يكون فيها، ولكل من هذه الفئات رئيس يشرف على عملها تحت رعاية رئيس الدير أو نائبه، ولما كثر الرهبان وتنوعوا فى الاديرة الباخومية قسموا الى أسر وكل أسرة منها تضم رهبان أمة معينة، ومن المعروف أن حياة الشركة فى تلك الاديرة اجتذبت الرهبان من أمم متباينة مثل السريان واليونان

والللاتيين والارمن والاحباش وغيرهم. وكان لكل أسرة معلم من جنسهم يمكنه التفاهم مع أبناء قطره ويرشدهم. ومن الجائز أن هذا النظام هو الذى ورثته الجامعات فى العصور الوسطى حيث انتشر فى رحباتها نظام الامم، وكان منها جامعة باريس تحوى خمس أمم تشمل الفرنسيين والانجليز والنرماندين والبيكاردين والنرمان والبريطان، وربما أخذ عن هذا النظام أيضا نظام الاروقة الذى ساد الجامعة الازهرية الى عهد قريب مثل أروقة الصعايدة والبحاروة والمغاربة والشراقوة والاحباش وغيرهم.

وكان مما قرره الانبا باخوميوس هو أن الدير الذى يعتبر وحدة قائمة بذاتها لا ينبغى أن يكون فى معزل عن الاديرة الاخرى وهنا يبدأ نظام المركزية الدقيق ويتدرج الى أن يصل الى الادارة البيروقراطية العليا فى الدير الرئيسى الذى يقيم فى رياسته أب الشركة أو الرئيس الاعلى وهو خليفة باخوميوس. وكان كل ثلاثة أو أربعة أديرة متقاربة يكونون ما يسمى بالقبيلة، ويشترك رؤساؤها فى انتخاب واحد من بينهم فيكون زعيما فى تلك القبيلة، وهم يجتمعون من وقت لآخر للتشاور فيما يلاقونه من صعاب وفيما يهمهم من الأمور، وجميع الرؤساء وزعماء القبائل يخضعون خضوعا تاما مطلقا لا رجعة فيه ولا نقاش ولا استئناف للرئيس العام.

واشراف هذا الرئيس العام يأتى عن طريقين:

١ـ الطريق الاول هو الزيارة، وكان باخوميوس دائم الحركة والتنقل بين أديرته للتفتيش عليها والعلم بدقائق أعمالها، وكان بترونيوس الذى خلفه فى الرياسة بعد مماته ثم من تلاهما من الرؤساء كانوا ينسجون على منوالها وخصوصا الآب الروحى الكبير.

٢ـ والطريق الثانى مركزى يتلخص فى عقد اجتماعين كل عام، وكان جميع رهبان المؤسسات الباخومية يحضرون هذين الاجتماعين فى الدير الرئيسى فى «فاو أوبيو pbau» أو دير الرياسة العليا اذا انتقلت منه لغيره، وتحدد للاجتماع الاول موسم القيامة احتفالا بعيد الصعود وهو من أهم أعياد القبط. والاجتماع الثانى فى ٢٢ مسرى الموافق ١٣ أغسطس. والغرض من هذا الاجتماع الاخير هو بحث حالة الاديرة الداخلية والخارجية وتقديم التقارير الخاصة بكل دير منها، وبعد طرح مسائل الاديرة على بساط البحث ومحاسبة كل رئيس عما قدمت يداه فى أثناء العام المنصرم، يقرر المجلس السياسة العليا العامة التى يجب على الرؤساء

اتباعها لحسن سير العمل والنظام والعبادة في جميع الاديرة، ثم يعلن الرئيس العام أسماء الرؤساء الفرعيين الجدد كما يعلن التنقلات بين رؤساء مختلف الاديرة. وأخيرا في جلسة ختامية يحضرها الرهبان قاطبة، تعقد فيها صلاة جامعة وفي مشهد رهيب مؤثر يعلنون مغفرة الخطايا والصفح العام عن ذنوب المذنبين، ثم يبارك الرئيس الاعلى جميع الحاضرين.

ومن العجيب أن نظم وقوانين باخوميوس العظيم ظهرت أنظمته في الديرية البندكتية التي أسسها القديس بندكت الذى أقتبس الكثير من أفكار القديس في حياة الشركة اقتباسا يكاد يكون في بعض الاحيان نقلا حرفيا. وأصبحت الصبغة الانسانية الروحية في رهبنة الغرب مصرية المنبت. وقد ظلت قوانين باخوميوس وتعاليمه منتشرة تتداولها أيدى الرهبان الغربيين خلال العصور الوسطى.

رحيل القديس باخوميوس:

كان المجهود الجبار الذى يقوم بأعبائه القديس باخوميوس من الاعمال العديدة وتنظيم الاديرة الكثيرية التى قاسى وعانى الكثير في تشييدها حملا ثقيلا على كاهل الزعيم الاكبر كما لا يخفى ما كان يبذله دائما في التنقل بين أديرته ومن مكان الى آخر واعظا ومرشدا ومنظما، وبهمة لا تعرف الكلل أو الملل، وحتى عندما وقع الطاعون في أرض مصر عام ٣٤٨م، وأنتشر ذلك الوباء حتى امتد الى الاديرة الباخومية، وكان يحصد الكثير من الاخوة، فكان باخوميوس وهو مثل أعلى للزعماء يتنقل بين تلاميذه من المصابين عندما وقعت الكارثة بهم في كل مكان، وكان يقوم بتمريضهم ويساهم في دفن موتاهم، ويعمل على تقوية جمعهم بالايمان والصلاة غير مكترث بما يحفه من المخاطر حتى اذا ما فات عيد الصعود من تلك السنة الا وبدأ هو أيضا يشعر بأعراض المرض تهده هدأ حتى خارت قواه وعرف بقرب رحيله الى الرفيق الاعلى.

عندئذ جمع أبناءه حوله وأوصاهم أن يتمسكوا بأهداف النظام الذى وضعه، فلا يفتروا في الصلاة أو العمل، وأنه متى جاءت الساعة فلهم أن ينتخبوا من يشاءون لرئاستهم، ولكنه يقترح عليهم مجرد اقتراح أن يكون خلفه «بترونيوس» ويظهر من ذلك أن القديس لم يكن مستبدا في حكومته، بل ديمقراطيا أذ ترك لجماعته حرية الانتخاب من يرونة صالحا لزعامتهم.

وفى النهاية توفى باخوميوس يوم ١٥ مايو حسب التقويم اليونانى أو ٢٢ مايو حسب التقويم القبطى. وما زالت السنة التى حدثت فيها الوفاة غير مضبوطة تماما وقيل عام ٣٤٨م عن سبعة وخمسين من العمر.

وقد قام بجنازته تلميذه الانبا «تاودروس» ـ أو تادرس ودفنه فى الجبل المجاور بالدير. ثم نقله خفية الى مكان آخر وفى بقعة غير معلومة تنفيذا لوصيته حتى لا يكون جسده محلا للتبجيل أو العبادة، وكان تادرس يأتى ليلا عند قبره ويصلى دون أن يعلم به أحد من الاخوة. فكان رحيله يوما رهيبا عم فيه الحداد والحزن الشديد بين جموع وجحافل الناس والرهبان. وترك من الآثار الجليلة المباركة بين أرجاء المسكونة ما لا يقوى للدهر على محوها.

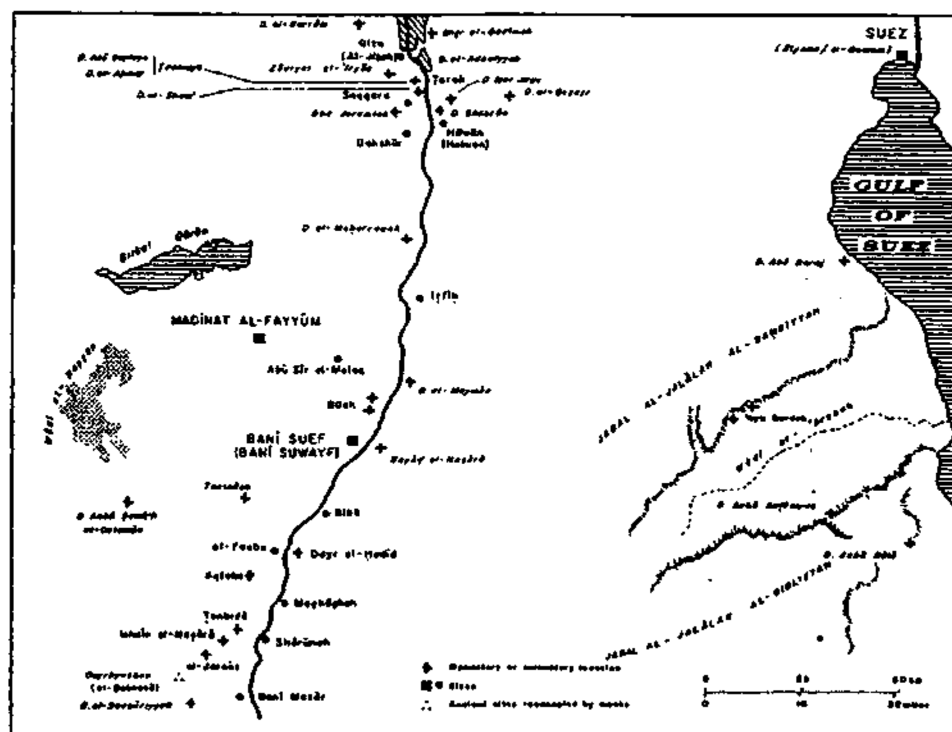

الأنبا شنودة[1] الاخميمى وأديرته ٣٤٣/٤٥١م

أصله ونشأته:

يرجح المؤرخون أنه ولد عام ٣٤٣م في قرية تدعى شنلالا قرب مدينة أخميم[2] بالوجه القبلى من أبوين اشتهرا بالتقوى والفضيلة، ونشأ ابنهما محبا للصدق وعمل الخير ميالا للصوم والصلاة والتقشف منذ نعومة أظفاره، فأرسله والده وهو فى سن التاسعة الى خاله الانبا «بجول» الذى كان ناسكا ذائع الصيت فى ورعه بالقرب من مدينة سوهاج، فسر منه وتنبأ له بمستقبل ذى شأن فى تاريخ المسيحية. وقد تحققت نبوءته فيما بعد وحاز فعلا على شهرة فائقة فى شجاعته وبره وايمانه وقد ورد فى سيرته أن خاله الانبا «بجول» ألبسه رداء «أسكيم الرهبنة» وهو فى ذلك السن الصغير كما أوعز الله له فى رؤيا ثم انتظم فى سلك الرهبنة وبلغ من شدة تقشفه أنه كان لا يتناول طعام أفطاره الذى يحتوى على قليل من الخبز والملح والماء الا وقت الغروب يوميا. وفى الاربعين المقدسة كان يقتات بالنباتات فقط. كما ذكر عنه المؤرخ تقى الدين المقريزى، أنه كان مرارا يطوى فى الاربعين المقدسة. وحدث بعد ذلك أن أثرت عليه تلك المعيشة الصارمة التى كان يحياها اذ ضعف جسمه ونحل حتى لصق جلده بعظمه.

وكان كثير الصلاة والتضرع الى الله من أجل الخطاة ويقضى معظم الليل فى التعبد ولاينام الا فترة وجيزة. كما عرف عنه شدة الرغبة فى الانفراد خارج الدير ليتفرغ للعبادة ويوصى الرهبان بألا يقطعوا عليه صلاته بخالقه. ويروى أن أبليس كان لا ينفك عن محاربته وكثيرا ما كان يظهر له على هيئة ملاك محاولا أن يثنيه عن ورعه وتقواه وهجر حياة التقشف والنسك، ولكنه تغلب عليه بقوة صلاته وصومه المتواصل ودوام يقظته. ويقال أنه عمر طويلا ووصل الى الثامنة عشر بعد المائة، ونظرا لما امتاز به من حدة الذكاء والزهد والتقوى أجمع

---

(١) أصل اسمه مصرى قديم وذكرت بعض المراجع هو «سانتر» بمعنى «ابن الله» وكتب بالقبطية «شنوتى» ثم فى العربية «شنودة» ولكن جاء عن لسان أحد علماء القبط أن أسمه الحقيقى هو «خنودة» أو «عنخ نودة» وتترجم بالعربية باسم «حى هو الله».

(٢) كانت العاصمة الدينية للمقاطعة التاسعة فى العصر الفرعونى القديم «مين» واسمها بالمصرية القديمة هو «برمين» بمعنى بيت الاله مين. وبالقبطية «أومين» وسماها الاغارقة «بانوبلس Panopolis» أى مدينة الاله «بان» الذى يقابل الاله «مين Min» عند الفراعنة وهو المعبود الذى كان رمزا للخصوبة والنسل. وكان بالمدينة مدرسة لتعليم الغنوصية وكان يسكنها كثير من المتفلسفين.

الرهبان على اختياره خلفا لخاله الانبا «بجول» رئيسا للمتوحدين في الدير الابيض الذى تولى ادارته منذ عام ٣٨٨م، ثم قام بعدة اصلاحات جديدة حوله، وعلى الاخص الكنيسة العظيمة التي شيدها.

وقد وجد حول ديره عدة أديرة أخرى بعضها للرهبان والبعض الآخر للراهبات وضع لها الانبا شنودة نظما جديدة وقواعد غاية في الشدة والصرامة خصوصا فيما يتعلق بالاشرار والكهنة السيىء السيرة، وقد أصبح تأثيره على الاقاليم المجاورة عظيما وذاع صيته حتى هرعت اليه الالوف من الزائرين والحجاج من مشارق الارض، ومغاربها من سوريا والقسطنطينية واليونان وروما وبلاد الغال وأسبانيا وغيرها من الاقطار البعيدة اكبارا لشأنه واحتراما لمقامه، وممن كان معه من القديسين من الرهبان في ذلك الوقت ومن معاصريه هم باخوميوس ومكاريوس الكبير ويوحنا وغيرهم. وكان الحجاج يحملون اليه الهدايا والنذور ويتلقون منه النصح والارشاد ويتهافتون على الالمام بما تركه من مواعظ وحكم سامية خالدة.

ولما زاد عدد الرهبان كثيرا في عهده اضطر الى انشاء عدة أديرة ومنها ما خصص للعذارى[١] اللائى نذرن بتولتهن للرهبنة. وعلاوة على الاديرة العديدة التى أنتشرت فى زمنه وزيادة عدد الرهبان، الا أنه انتشر كثير من النساك المتوحدين بالمغائر والجبال المجاورة لديره. وقد فرض عليهم ضرورة الحضور الى الدير الكبير أربع مرات سنويا للتناول من الاسرار المقدسة. كما فرض على الرهبان فى الدير قوانين يسيرون تماما بمقتضاها. وكان يحتم على الحديثى العهد أن يمضوا أولا زمنا خارج الدير لاختبارهم. ثم يصرح لهم بعد ذلك بالدخول الى الشركة متى ثبت له مقدرتهم على معيشة النسك الطاهرة ويسمح للراهب منهم بالاقامة فى غرفة خاصة. وكان يتعهدهم بنفسه جميعا ويحتم عليهم التخلى عن كل ما يملكون. وكانت الطاعة والعفة من الشروط الاساسية الهامة التى اذا لم تتوفر للراهب يطرد من الشركة. كما أن جميعهم فى الزى والأكل سواء، فانعدمت فيما بينهم الفوارق الاجتماعية.

هذا ومن فضائله التى أدخلها على نظم الرهبنة أنه لم يجعل عمل الراهب قاصرا على الصوم والصلاة ومباشرة الطقوس الدينية فحسب بل حتم عليه استغلال أوقات الفراغ للعمل

(١) عندما كثرت أعداد العذارى الراغبات فى ممارسة الحياة النسكية أقام الانبا شنودة ديرا للنساء. وقد جعله تحت رئاسته، وقد وصل عدد الراهبات فيه الى الف وثمنمائة راهبة.

في أى مهنة تناسب استعداده بعد الانتهاء من واجباته الروحية. وعلى ذلك لم يعد الاعتماد على الرهبان على ما يحتاجون اليه من المأكل والملبس من الهبات والصدقات والنذور التى تأتى اليهم من سكان البلاد المجاورة وغيرها كما كان من قبل. وكان من نتيجة ذلك أنتشار كثير من المهن والصناعات المختلفة بين الرهبان كما أنشئت المصانع اللازمة لها، ومن أبرز الصفات التى أشتهر بها الانبا شنودة وأتباعه شدة تعصبهم الى عقيدتهم فكانوا مدافعين ممتلئين بالحماس الكلى للارثوذكسية فصارعوا صراعا عنيفا مع الاديان الاخرى والسلطات السياسية وضد البدعة الاريوسية، كما اشتهروا بمحاربتهم لمعابد المصريين وآثارهم وهدم هياكلهم وأصنامهم. وقد تم ذلك في عصر الامبراطور «ثيودوسيوس Theodosius». وكان الانبا شنوده يعيش فى ديره كما كان يحيا النبى ايليا فى جبل الكرمل كرجل روحى قوى الشكيمة صارم العزيمة مقداما يستمد الوحى من ربه. فكانت تهابه وتخشاه حكام مدينة طيبة وحتى القبائل البربرية نفسها. وقد عرفه الامبراطور وقدره كذلك. كما رافق «الانبا كيرلس» البطريرك الرابع والعشرين كأسقف يمثل الكنيسة فى مجمع أفسس عام ٤٣١ للميلاد لمحاكمة «نسطورس» الملحد حيث أبدى شنودة من مواقفه الحماسية ما يشرف، وهو قبطى الاصل، وبالرغم من معرفته باللغة اليونانية الا أنه كان يكتب مواعظه وخطاباته بالقبطية اعتزازا بقوميته.

هذا وقد ترك الانبا شنودة عدة مؤلفات قيمة من مخطوطاته، وعثر فى القرن الماضى على مجموعة كبيرة منها فى الدير الابيض اقتسمها المتحف البريطانى والمكتبة الاهلية بباريس. وقام بنشر أغلب تلك المخطوطات بالفرنسية العالمين «اميلينو Amélneau» و «ريفيلو Revillou». ولايزال الاقباط يحتفلون سنويا الى يومنا هذا بعيد له فى ديره الشهير فى أخميم. ويؤمه عدد كبير من الزائرين والحجاج من جميع الملل والهيئات تبركا لذكراه واعتقادا منهم أنه يشفى أمراضهم. وقد بنيت على أسمه كنائس عديدة فى أنحاء كثيرة من القطر تخليدا لذكراه.

أوجه الخلاف بين شنوده وباخوميوس

يظهر من تتبع حياة الانبا شنوده وسيرته أنه وجد فى نظام الانبا باخوميوس ما اعتبره تساهلا زائدا ومع أنه أحتفظ بتعاليم الشركة، الا أنه أدخل عليها من القوانين والتعديلات ما

جعل حياة الاخوة فى رعايته أشد واقسى مما كانت عليه الاوضاع المقبولة عند باخوميوس. وكان الانبا شنوده يعادى كل شيء بيزنطى دخيل. وهذا يفسر لنا موقفه العنيف من نسطوروس وحركته فى القسطنطينية، كما يفسر لنا الفرق الهائل بين مؤسساته ومؤسسات باخوميوس من ناحية أخرى، أذ بينما كانت هذه الاخيرة دولية فى طابعها يقصدها جميع الاجناس كالمصرى والبيزنطى واللاتينى والفلسطينى والليبى والافريقى على السواء بينما الانبا شنوده أقتصر هو فى أديرتة على الاقباط فقط فأصبحت أديرته معاقل مصرية صميمة وبينما كنائس باخوميوس خاصة بالرهبان فقط الا ان شنوده فتح كنائس الدير للشعب كذلك يأتون اليه فى أيام الاحاد والاعياد فيعظهم ويرشدهم لحبه الشديد لشعبه ومقاسمته لاتعابهم كفلاحين يرزحون تحت نير الرومان فهاجم ظلم كبار الحكام والملاك ودعا للرفق بالفقراء. كما أمتاز شنوده بقوته فى الكتابة وبلاغته كما كانت فصاحته الخطابية من أظهر مواهبة.

ويغلب على الظن أن قصر أديرة الانبا شنوده على الاقباط فقط ذلك الوضع المحدد الضيق أدت الى قلة المعلومات التى كانت مثار النقد فى كتب الرحالة والحجاج الذين شغفوا بزيارة مؤسسات الاباء المصريين فى أقصى القفار والصحارى المصرية لاسيما الاب الرحالة «بلاديوس» الذى لم يورد فى كتاب «بستان الرهبان» أى أشارة للانبا شنوده أو جماعته الرهبانية، وغير معقول أن بلاديوس كان يجهل وجودها، ولكن من الجائز أنه لم ترق فى نظره المبادىء التى ساروا عليها وفضل الايتناول الكلام عنها وعن مؤسسها.

آثار الانبا شنوده

الدير الابيض: يعد هذا الدير عن مدينة سوهاج بحوالى ثمانية كيلو مترات. والسبب فى تسميته بهذا الاسم ربما يرجع الى أنه مشيد أغلبه من الحجر الجيرى، وينسبون بناءه الى الانبا شنوده حوالى القرن الرابع الميلادى ويخيل الى من يشاهد ذلك الدير وهو مقبل اليه كأنه ينظر الى معبد عظيم من معابد الفراعنة التى أنشئت قبل الميلاد بمئات من السنين على طراز معابد مصر القديمة. وهذا النمط الذى اتخذه الرهبان فى تشييد هذا الدير جعله ينفرد على سائر الاديرة العديدة التى أقيمت فى وادى النيل فى نظام المبنى وخواصه.

على أن معظم الاحجار التى أستخدمت فى بنائه أن لم تكن جميعها قد أخذت من معابد

مصرية كانت قائمة على مقربة من الدير، بدليل ما يشاهد على سطوح تلك الاحجار من الرسوم والكتابات الهيروغليفية العديدة ـ وقد لجاء الاقباط الى أخفائها عن الاعين بتغطيتها بالملاط أو بطبقة من الجبس ولما سقطت القشرة التى كانت عالقة بتلك الاحجار ظهرت الرموز والرسوم المصرية القديمة واضحة تماما. ويلاحظ أنه يتخلل البناء أحيانا كتلا ضخمة من الجرانيت الاسود أو الوردى ومعظمها يحمل النقوش والكتابة الفرعونية. وهذه الكتل الصخرية ظاهرة بوضوح فى أكتاف وأعتاب الابواب الخارجية لهذا الدير. ولم يكتف مشيدو الدير بأخذ مواد البناء من المعابد المصرية فحسب بل طبقوا الطراز المصرى القديم تماما وأتخذ المعماريون أول ما وقع بصرهم عليه عندما شرعوا فى تشييده، فمنه أقتبسوا وعليه أعتمدوا، كما يجب الاننسى أنهم أحفاد المصريين القدماء. فورثوا عن معمارى أجدادهم القدماء كثيرا. ومهما طرأ على نظام المبنى من التغيير فى شكله فلابد من أن يصطبغ بالطراز المصرى القديم فى روحة وطابعة.

أما الأبواب الخارجية لهذا الدير فظاهر منها خمسة. أربعة منها مسدودة بكتل حجرية أما الباب الخامس منها فهو الباب الموصل الى داخل الدير ويعرف باسم باب البغل. وفى وسط العتبة العليا رسم بارز للصليب داخل اكليل دائرى. أما توزيع الابواب فهو كالاتى: بابان فى الجهة الغربية ومثلهما فى الجهة القبلية وآخر كبير يقع فى منتصف الجدار البحرى للدير.

ويتخلل الجدران الخارجية للدير فى الاجزاء العليا منها نوافذ ضيقة، ويظهر أنها كانت تستعمل كمغازل يراقب منها الرهبان حركات العدو من الاعراب الذين كثيرا ما كانوا يسطون على الدير لنهب مافيه. ويشاهد بعد الدخول من بابه العمومى صالة مستطيلة يتخللها على اليمين جدار ذو أقواس تعلوها كرانيش ذات نقوش وزخارف نباتية جميلة منحوتة على الحجر الجيرى. ثم يوجد على جدران تلك الساحة «قبلات أى شرقيات» عديدة بوسطها نقوش وزخارف متنوعة ـ فمنها مايتوسطها شكل القوقعة "Shell" ومنها ما بوسطه أغصان الكروم المورقة ويتدلى منها عناقيد العنب كما أن الاغصان تخرج من أوانى جميلة دقيقة الصنع. والبعض يتخلله نقوش وزخارف نباتية متداخلة بعضها فى بعض ويتوسطها صليب صغير داخل أكليل دائرى. والقبلتان اللتان لهما شكل القوقعة فى تلك الصالة تقومان كلا منهما على عمودين مستديرين من حجر الجرانيت الاسود.

وفى أحدى جوانب تلك القاعة «ناووس» يكاد يكون كاملا من حجر الجرانيت الاسود

وعليه النقوش والخراطيش والكتابة المصرية القديمة مما يدل على أن رهبان الدير كانوا قد حملوه الى الدير من أحد المعابد المصرية التى كانت مجاورة لهم للاحتفاظ به لديهم. وقد يفسر وجود هذا التابوت أن الدير أقيم محل المعبد المصرى القديم حيث أن فكرة نقل التابوت شبه مستحيلة ولا هدف منها.

ثم ننفذ بعد ذلك الى صالة أخرى مستطيلة الشكل. ويشاهد على جدرانها من حين لاخر القبلات. ومنها قبلة غريبة الشكل وفى تجويفها الاعلى نسر باسط جناحيه ثم أشبة بتاج فوق رأسه وهو داخل اكليل، وخارج هذا الشكل طاؤوسان متعاكسان فى وضعهما وفوقهما أفرع نباتيه. وعلى الكورنيش الاعلى الخارجى للقبلة غز الان فى حالة عدو أو حركة بين فرع نباتى.

وفى وسط تلك الصالة لاتزال فيها بعض الاعمدة القائمة من الجرانيت الاحمر، ثم أعمده مبنية بالطوب الاحمر من الخارج. أما باطن تلك الاعمدة فيظهر أنها من الرخام أو الجرانيت، ثم نرى فوق بعض تلك الاعمدة تيجانا من الجرانيت على جانب كبير من دقة الصنع وجمال النقش، وأن عددا كبيرا من تلك التيجان الجرانيتية الضخمة ملقى على أرضية تلك الصالة الوسطى وعلى بعض التيجان شكل بارز لوجه آدمى وحول رأسه أشبة بأكيل ويتدلى من رقبته أشبة بعمود كالقصبة الهوائية. أما النقوش البارزة الاخرى التى تزين تلك التيجان فهى رسوم نباتية. وتحوى قبابها من الرسوم الملونة على طبقة من الجبس أشكالا زخرفية جميلة ولو أن معظمها قد زال من تأثير الدخان الذى طمس معالم الكثير من تلك الرسوم. على أن الصليب يشاهد فى وسط شكل أشبه بالسرة.

أما عن الكنيسة التى فى هذا الدير فهى غريبة فى نظامها وطرازها، كما تختلف عن النظام الملاحظ فى كنائس مصر القديمة التى تعاصر تقريبا لكنيسة هذا الدير، فمما يلاحظ عند الدخول اليها قبتان كاملتان فى الوسط الواحدة تلى الاخرى، ثم تليهما الهيكل وفوقه قبة نصفية الشكل مرسوم على أحد جدرانها صورة رائعة بالالوان من نوع الفرسكات وتمثل السيد المسيح جالس على العرش ويمسك بيده صليبا جميل الصنع بالألوان قوامها اللون الذهبى. وحول العرش صورة الاربعة حيوانات فى أشكال غريبة تخالف ما تعودنا رؤياه على صور الايقونات المرسومة على اللوحات الخشبية ثم حوله صور أخرى لعلها للرسل أو لبعض القديسين. وعلى الجانب الايمن من الهيكل جناح على شكل نصف دائرة وتعلوه أيضا قبة

نصفية تعلو هيكل الكنيسة الوحيد وفى داخل هذا الجناح ستة أعمدة متوسطة الحجم من الجرانيت ذات تيجان منقوشة وقواعد. وبين تلك الاعمدة وبعضها قبلات، وفى الجزء العلوى منها أشكال القواقع ورسوم أخرى. ثم تعلو الاعمدة كرانيش من الحجر مزينة بالنقوش والرسوم الزخرفية، ثم يعلوه أيضا أعمدة أخرى أصغر حجما من الاولى ذات تيجان ويتخللها أيضا أشكال القبلات الصغيرة ذات الزخارف والنقوش البديعة أما القبة النصفية لهذا الجناح فتزدان برسوم ملونة قوامها صليب كبير الحجم ويرتكز عليه أشبه برداء وحول الصليب أشبة بسيدات ربما المريمتان وأشخاص الرسل والقديسين. وهذا الجناح الايمن للهيكل مخصص لجلوس النساء أثناء الخدمة والصلاة.

أما الجانب الايسر للهيكل فيحوى جناحا أشبة بالجناح الايمن أذ تعلوه نصفية ثم توجد به خمسة أعمدة متوسطة الحجم من الجرانيت ذات تيجان ثم تعلوها كرانيش من الحجر الجيرى ويتخللها أشكال صلبان وقبلات وفى أعلاها نقوش لقواقع أو أفرع الكرم التى تخرج من فوهات أوانى بديعة الصنع ويتدلى من بين الافرع عناقيد العنب. وفى وسط أحدى القبلات توجد كتابة قبطية باللون الارجوانى ومعظم حروفها مفقوده. ثم يعلو الكورنيش أعمدة أصغر من الاخرى ذات تيجان صغيرة وفيما بينها نشاهد القبلات أيضا. أما القبة النصفية فى هذا الجناح فلا تحوى رسوما مثل ما لوحظ فى القباب النصفية الاخرى. وعلى غالب الاحتمالات أنها زالت أو طمست معالمها بعد طلاء القبة بالجبس أو الملاط.

ونشاهد فى داخل الهيكل ستة أعمدة من الجرانيت ذات تيجان مختلفة الاشكال والنقوش، وفوق تلك الاعمدة كورنيش من حجر الجرانيت الاسود يزدان بنقوش زخرفية نباتية ثم تعلو الكورنيش عادة أعمدة أخرى ذات تيجان أصغر من الاولى كما شوهد ذلك فى الجناحين المجاورين للهيكل. وفى وسط بعض الاعمدة يوجد رسم بارز للصليب. وللهيكل حجاب من الخشب المطعم بالعاج البسيط وتعلوه أيقونة تمثل الانبا شنوده وتلميذه ويصا يرجع تاريخها الى عام ١٥٧٨ الشهداء.

ومن طريف ما يلاحظ أيضا فى أقسى الناحية الغربية القبلية من الدير الابيض وبالقرب من الساقية قبة كبيرة مبنية من الطوب الاحمر بترتيب دقيق، ولا تزال آثار الرسوم الملونة التى كانت تزينها باقية عليها الى الان. وهذه القبة فى حاجة ماسة الى الترميم السريع خوفا من سقوطها.

أما عن هذه الكنيسة فهى آخر المبانى الباقية من الدير الابيض وقد قام بتأسيسها الانبا شنودة نفسه حوال عام ٤٤١ للميلاد حينما كانت المؤسسة الديرية فى عز مجدها ولذلك لا غرابة فى أنها كانت أعظم مبانى الدير وأبقاها على الزمن واذ اندثرت جميع تلك المبانى بسبب ما طرأ عليها من أحداث الزمان. فقد ورثت هذه الكنيسة اسم المؤسسة كلها وأصبحت تعرف بالدير الابيض. وهى تعد من أعظم وأهم الكنائس القبطية الاثرية معماريا.

وتمتاز باتساعها الكبير ورحابة مبانيها اذ يبلغ طولها ٧٥ مترا وعرضها ٣٧ مترا وأرتفا ع جدرانها ٢٠ مترا مما جعلها تبدو من الخارج كأنها أحد القلا ع العظيمة أو أحد المعابد المصرية القديمة. هذا وقد عفت يد الزمن على كثير من مبانيها فلم يبق منها الان سوى هياكلها، وهى المستعملة الان كنيسة حيث لا تزال تقام الشعائر الدينية حتى الان.

ولم يحفظ لنا التاريخ عنها الا قليلا، أذ بعد عصرها الذهبى ايام شنوده لم يرد لها ذكر حتى القرن الثامن. وذكر أن فى القرن الثالث عشر حدث زلزال أدى الى تصدع مبانيها وسقوط سقف الهيكل وتطلب الامر أجراء بعض الترميمات التى غيرت شكل الكنيسة. وهناك نص من نفس هذا العصر فيه أشارة الى «النبى شنوده» ويحدثنا المؤرخ تقى الدين المقريزى فى القرن الخامس عشر عن خراب الدير فى عصره، وكيف كان يشغل مساحة قدرها أربعة أفدنة وثلاثة أربا ع الفدان، فأذا به يشغل فدانا واحدا. وأخيرا جاء التخريب الواسع النطاق فى أواخر القرن الثامن عشر أثناء المعاركة الحربية التى دارت بين الفرنسيين والمماليك.

الدير الاحمر: يعد هذا الدر عن الدير الابيض بحوالى أربعة كيلو مترات الى الشمال. وقدسمى بهذا الاسم لان أغلبه مبنى بالطوب الاحمر، كما أن جدرانه مغطاه فى أكثر أجزائها باللون الاحمر وينسب هذا الدير الى قديس مشهور وهو الانبا بشوى الذى يعزى إليه أيضا بناء الدير الشهير المعروف بهذا الاسم فى منطقة وادى النطرون. ومساحة هذا الدير تبلغ حوالى ثمانية قراريط أى حوالى نصف مساحة الدير الابيض.

أما حوش الكنيسة فالظاهر أنه كانت مقامة فيه عدة أعمدة من الجرانيت الاسود ومحفور فى الوسط الصليب داخل دائرة. وهناك آثار وبقايا عديدة لاعمدة من الجرانيت الاحمر. أما الطراز الذى أتبع فى تشييد هذا الدير وهو نفس التصميم الذى نراه فى نظام الدير الابيض أى طراز المعابد المصرية القديمة، والاختلاف عنها فى أن المواد التى أستعملت فى المبانى هو

الطوب الاحمر بدلا من الحجر. ولهذا الدير حوش واحد بخلاف الدير الابيض، ومن وسط الحوش المذكور ننفذ الى كنيسة الدير وهي وأن كانت صغيرة في مساحتها الا أنها غنية في رسومها ونقوشها واعمدتها وقبلاتها.

على أن مدخل الباب الموصل الى الكنيسة من الحجر الجيرى، وعلى عتبته السفلى نقوش وحروف مصرية قديمة مما يدل على أنها أخذت من المعابد المصرية القديمة التى كانت تجاور هذا الدير. وفوق العتبة العليا للباب ناووس فوقه صليب داخل دائرة. أما هيكل الكنيسة فهو شبية بهيكل الدير الابيض، ففى صحن الكنيسة قبة كاملة مرتفعة خالية الرسوم أو النقوش، ويغلب على الظن أنها كانت تحوى رسوما ملونة زالت معالمها إما بسبب ترميهما وتغطيتها بالملاط أو الجبس على أيدى عمال عديمى الخبرة واما أنها تساقطت لتعرضها للتأثيرات الجوية أو لتقادم العهد عليها. ثم يلى الصحن الهيكل وتعلوه قبة نصفية وفى وسطها رسوم بالالوان بعضها ظاهر مثل رسم السيد المسيح وحوله الرسل والبعض الاخر غير واضح.

وعلى كل جانب من الهيكل جناح تعلوه قبة نصفية فى وسطها آثار للرسوم الملونة التى كانت تزدان بها تلك القباب ونشاهد أيضا الاعمدة الجرانيتية ذات التيجان الدقيقة النقوش والرسوم البارزة، والكرانيش التى تلى تلك الاعمدة والتى تحوى نقوشا بديعة على الحجر، ثم تعلوها أيضا أعمدة أخرى من الحجر ويتخللها القبلات التى تزدان بالرسوم الملونة غير أن أغلبها غير ظاهر أو أدركه البلى والزوال. ويراعى أن تيجان الاعمدة التى تزين هيكل كنيسة الدير الاحمر أدق وأبدع فى نقوشها وأشكال أوراقها التى تمثل نبات الاكنتا البارزة من تيجان أعمدة الدير الابيض. وفي داخل الهيكل اربعة أعمدة متوسطة الحجم اثنان منها من الجرانيت الاحمر وأثنان من الرخام. ويتبين أن هذا الهيكل بالدير الاحمر تمتاز جدرانه وقبابة بكثرة الرسوم الملونة أكثر من الرسوم الموجودة فى كنيسة الدير الابيض.

ويشاهد كذلك على الجدران الوسطى للهيكل التى تلى الكرنيش الواقع فى أعلى الاعمدة رسوم عديدة ملونة تمثل حيوانات غريبة الشكل يظهر جزء منها وهو غاية فى الدقة والجمال والاتقان. وعلى جدران الهيكل آثار الحريق ظاهرة. ويعزوها البعض الى تكرار هجمات الاعراب على الدير وأضرام النار فية. ويوجد فيه بعض الابواب التى توصل الى المعمودية والى غرف جانبية لعلها استخدمت كمخازن للدير.

وللهيكل كالعادة حجاب من الخشب المطعم بالعاج البسيط، وعليه ايقونه قديمة للانبا بشوى ومما يلاحظ أيضا على الباب الخارجى للدير الذى يوصل الى حوش الكنيسة أنه من الحجر الجيرى الغنى بنقوشه الزخرفية الدقيقة وعتبته العليا من حجر الجرانيت وهى منقوشة بالزخارف المصرية القديمة. وظاهر على الباب المذكور آثار البلى وهو ف حاجة الى الاصلاح والترميم.

أديرة منطقة طيبه «الأقصر»

* الدير البحرى
* دير القديس تيودور بمعبد مدينة هابو
* دير القديس فيبامون بناحية مدينة أرمنت
* أديرة نقاده
* دير الأنبا سمعان باسوان

بنى الرهبان المصريون عدة أديرة فى منطقة طيبة وهى الاقصر الحالية الان ومنها:

الدير البحرى: وهو من الاديرة التى شيدها المسيحيون فى طيبة منذ القرن السابع للميلاد وذلك داخل المعبد الجنائزى للملكة المصرية حتشبسوت وأصبح اليوم علما عليه.

دير بمعبد مدينة هابو: فى معبد مدينة هابو فى طيبة أنشىء به دير على اسم القديس تيودر وبه كنيسة على أسمه أيضا وترجع الى القرن الثانى عشر.

دير القديس فيبامون بأرمنت: ومن الطريف أن يكتشف الدكتور حشمت مسيحة المدير العام

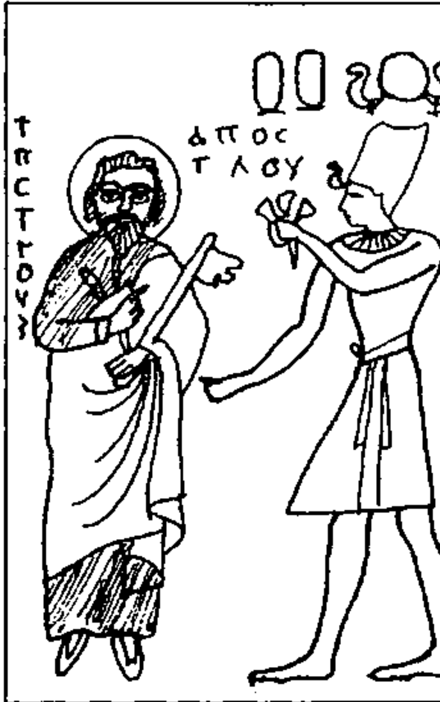

احتلت الاديرة والكنائس العديد من المعابد الفرعونية كما استولت على اوقافها وممتلكاتها. وفى وادى السبوعة بالنوبة احتلت كنيسة معبد رمسيس الثانى ورسمت على احد جدرانه أمام نقش لرمسيس القديس بطرس

لمصلحة الاثار في أبحاثه القيمة أخيرا عن طبوغرافية مدينة «ممنونيا أوجيمي» غرب الاقصر عن أماكن بأسماء عدة أديرة كانت منتشرة في كافة نواحيها. ومنها على سبيل المثال دير قرنة مرعي «ودير أيبفانيوس» ويقع بين أطلال مباني الاسرة الحادية عشرة بعلوة الشيخ عبد القرنة، «ودير فيبامون» في معبد الدير البحرى ودير المحارب غرب ممنونيا ودير الانبا مينا ودير بيسنتيوس ودير الرسل ودير الرومى عند وادى الملكات وغيرها. كما ذكر سيادته بمؤلفة عما كانت تزخر بها المنطقة المذكورة بالعديد من الكنائس القبطية القديمة.

أديرة منطقة نقادة: أشتهرت تلك المنطقة منذ فجر التاريخ بعظمة آثارها وتاريخها القديم المجيد، وقد ظل صيتها التاريخي كذلك حتى في العصور المسيحية المبكرة، وازدهرت فيها الاديرة ازدهارا عظميا كما كان عددها كبيرا بدليل ما بها للان من آثار لعدة أديرة ومازالت بها آثار للكنائس وقد رممت حديثا وتحمل أسماء الاديرة التى كانت منتشرة منذ عهود الرهبنة الاولى ومنها:

١ـ دير القديس فكتور أو بقطر.

٢ـ دير الصليب المقدس.

٣ـ دير الليف.

٤ـ دير المجمع بنقادة وفيه أربع كنائس وهى كنيسة العذراء، وأبو يحنس، وميخائيل، ومارجرجس.

٥ـ دير بسندة أو بسنتيوس.

٦ـ دير الملاك بنقادة بجهة بلدة قامولا.

٧ـ دير القزاز أو «الزجاج». ويقع على بعد حوالى عشرة كيلو مترات غرب بلدة نقادة فى الصحراء.

وقد أجريت في أنقاضه حفائر من بعثة فرنسية بالاشتراك مع المتحف القبطى منذ عام ١٩٤٨. ومازالت تجرى للان فى بعضها الشعائر الدينية فى المواسم والاعياد.

دير سمعان فى مدينة أسوان

أنتشرت الاديرة كذلك فى أقصى حدود القطر، وأهم ما بقى منها فى أسوان هو دير الانبا سمعان ويسمى أيضا بدير الانبا هيدرا. وقد بنى في القرن السابع أو قبلها. وموقعة بالصحراء غرب أسوان. وقد ظل عامرا بالرهبان حتى القرن الثانى عشر للميلاد. وقد طرا عليه عدة تغييرات في بنائه. ويتكون من طابقين ومازال محتفظا بأغلب مبانيه، ومنها الكنيسة الرئيسية فيه، وكذلك يحتوى على الكثير من البقايا الاثرية وشواهد القبور المحفورة عليها الكثير من النصوص القبطية، والقلالى وبقايا لعدد من الرسوم الجصية بالالوان ومصورة على بعض الجدران وهى تمثل غالبا أشكال الرسل والقديسين أو بعض الرهبان الذين سكنوا فترة في أحدى قلالى الدير المذكور. ويلاحظ تشوية أغلب وجوه تلك الصور نتيجة العبث والتخريب خصوصا في أيام الفوضى والاضطهادات والحروب.

وكان هناك أديرة أخرى لها أهميتها التاريخية والفنية ولكن تناولتها يد الدمار والتخريب وزالت معظم معالمها. ومنها دير فى فيلة يقع شرق مدنية أسوان مقابل لدير سمعان بالغرب(*).

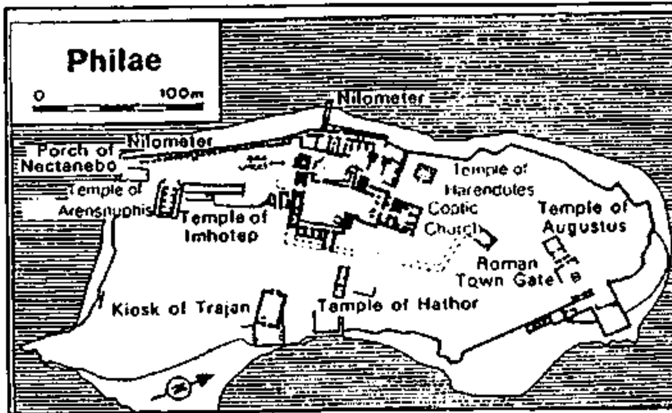

(*) انظر: تاريخ الرهبنة والديرية فى مصر. د. رءوف حبيب مدير المتحف القبطى سابقا، مكتبة المحبة.

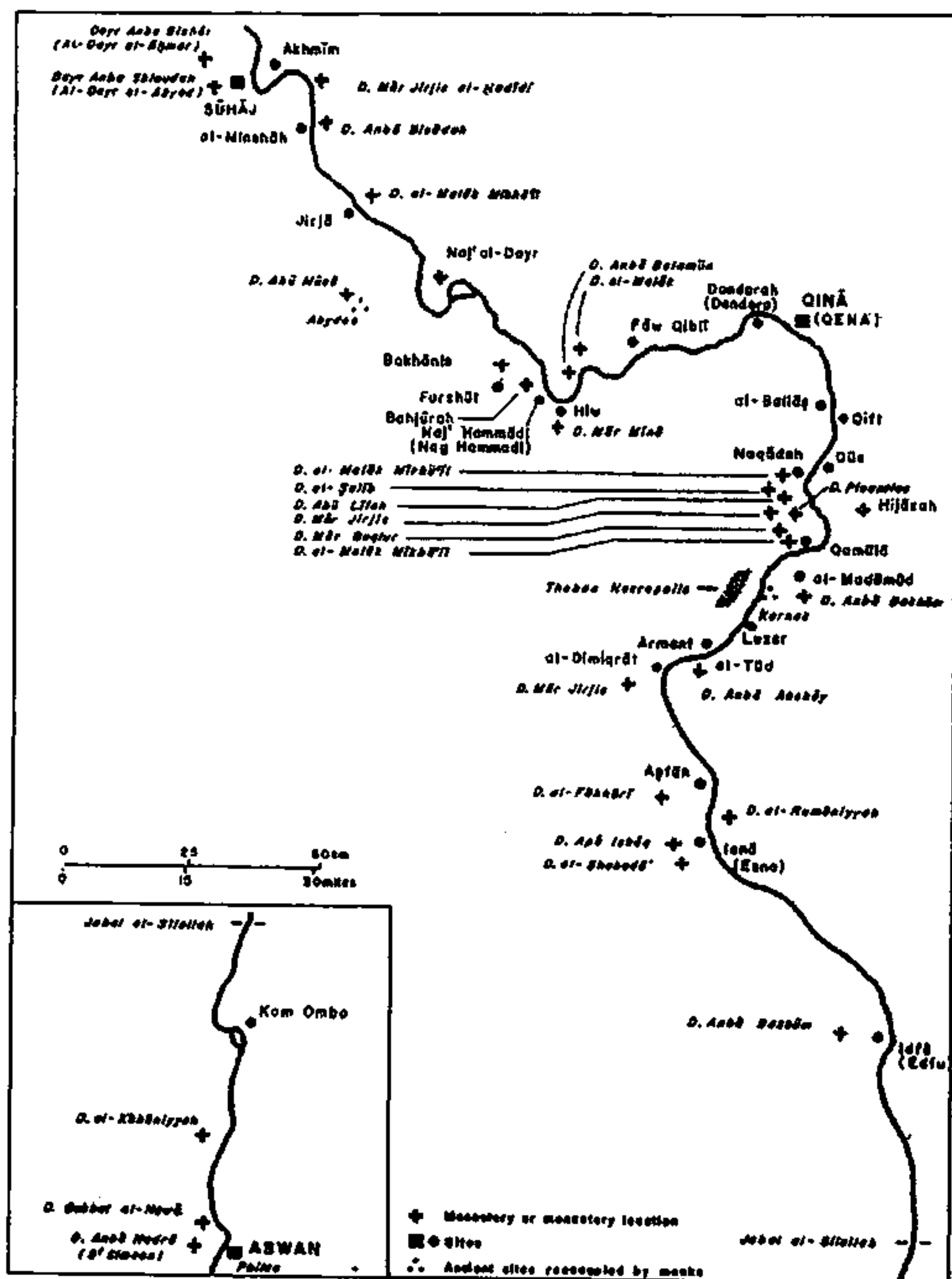

Akhmīm
SŪHĀJ
al-Minshāh
D. Mār Jirjis al-Ḥadīdī
D. Anbā Bisādah
D. al-Malāk Mīkhā'īl
Jirjā
Naj' al-Dayr
D. Abū Mūsā
Abydos
D. Anbā Palamūn
D. al-Malāk
Dandarah
(Dandara)
QINĀ
(QENA)
Fāw Qiblī
Bakhānis
Furshūt
Bahjūrah
Naj' Hammādī
(Nag Hammadi)
Hiw
D. Mār Minā
al-Ballāṣ
Qifṭ
Naqādah
Qūṣ
D. al-Malāk Mīkhā'īl
D. al-Ṣalīb
D. Abū Līfah
D. Mār Jirjis
D. Mār Buqṭur
D. al-Malāk Mīkhā'īl
D. Pisentius
Hijāzah
Qamūlā
al-Madāmūd
Thebes Necropolis
D. Anbā Bakhūm
Karnak
Luxor
Armant
al-Dimiqrāt
al-Ṭūd
D. Mār Jirjis
D. Anbā Abshāy
Asfūn
D. al-Fākhūrī
D. al-Rumāniyyah
D. Apā Isḥāq
D. al-Shuhadā'
Isnā
(Esna)
D. Anbā Bakhūm
Idfū
(Edfu)
Jabal al-Silsilah
0 25 50km
0 15 30miles
Jabal al-Silsilah
Kom Ombo
D. Qubbat al-Hawā
D. Anbā Hadrā
(St Simeon)
ASWAN
Philae
Monastery or monastery location
Sites
Ancient sites reoccupied by monks

فهرس الجزء الثانى

شركة الأمل للطباعة والنشر

(مورافيتلى سابقاً)

ت: 23904096 - 23952496

الهيئة العامة لقصور الثقافة

تاريخ مصر

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس بن المقفع

3

إعداد و تحقيق :
عبد العزيز جمال الدين

لم يكن ابن المقفع آخر المؤرخين المصريين، لكنه ومخطوطته كانا الأشهر فى هذا السياق، وقد تعاقب من بعده من الآباء والرهبان المصريين من عكفوا على استكمال هذا التأريخ حتى بداية القرن العشرين. وبجهد الباحث المجد عكف المحقق المصرى عبد العزيز جمال الدين على جمع هذه المخطوطات وتحقيقها والتعليق عليها، موضحاً ما كتب فيها وما كتب فى التاريخ الرسمى الشهير، ليضع أمامنا عملاً قل أن نجده فى الثقافات الحديثة، لنقف أمام وجهتى نظر للتاريخ متأملين كيفية عمل الفعل البشرى فى تسجيل الأحداث حسب الانتماء الثقافى، وليفتح الباب على مصراعيه أمام العاملين فى مجال البحث التاريخى ليعيدوا التأمل فى آلية ومسار واحدة من أهم عمليات التدوين الذى حكم مخيلة البشر فى رؤيتهم لماضيهم التليد.

وزارة الثقافة

السعر: سبعة جنيهات

تصميم الغلاف: أحمد اللباد

تاريخ مصر

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس بن المقفع

الجزء الثالث

وزارة الثقافة

مطبوعات

الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة

سعد عبد الرحمن

أمين عام النشر

محمد أبو المجد

الإشراف العام

صبحي موسى

الإشراف الفني

د. خالد سرور

المتابعة والتنفيذ

عادل سميح

• تاريخ مصر
من خلال مخطوطة
تاريخ البطاركة (الجزء الثالث)

• إعداد وتحقيق:
عبدالعزيز جمال الدين

• طبعة:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة -2012م
17x 24 سم

• تصميم الغلاف: أحمد اللباد

• رقم الإيداع: ٢٦٤٢/ ٢٠١٢

• الترقيم الدولي: 978-977-704-939-9

• المراسـلات:
باسم / المشرف العام
على العنوان التالي: 16أ شارع
أمين سامي - القصر العيني
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947897

التجهيزات والطباعة:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.

• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابي من الهيئة العامة لقصور الثقافة، أو بالإشارة إلى المصدر.

تاريخ مصر

من بدايات القرن الأول الميلادى
حتى نهاية القرن العشرين

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس بن المقفع

إعداد وتحقيق

عبد العزيز جمال الدين

الجزء الثالث

من أغاثون حتى أنبا يوحنا البطرك ٤٨ (٧٧٥ - ٧٩٩م)

بسم الاب والابن والروح القدس الاله الواحد

الجزء الثانى من سير البيعه المقدسه

وهو ست سير وأربعة عشر بطركا

السيرة الخامسة عشر

أغاتون ولد بنيامين البطرك بالروح لا بالجسد وهو من

العدد التاسع والتلتون [٦٦١ / ٦٧٧م]

ولما عاد المجاهد العظيم ضابط الامانه بالسيد يسوع المسيح ومعلم الامانه الارتدكسيه انبا بنيامين

حوليات تاريخ مصر من عام

٦٣٩ (١٨هـ) إلى عام ٨٦١ (٢٤٧هـ).

سنة ١٨ هجرية

استهل المحرم بيوم الثلاثاء الموافق ١٢ يناير ٦٣٩م.

* سميت هذه السنة عام الرَمَاد لأن الريح كانت تسفى ترابا كالرمادة كما سميت عام القحط لأن الناس أصابهم قحط وجدب ومجاعة شديدة.

* إنتشر الطاعون فى هذه السنة وعرف بطاعون عَمَواس نسبة إلى قرية بفلسطين كانت أول ما ظهر بها وراح ضحيته اعداد كبيرة خاصة من اهل الشام ومن القواد العرب.

* قدم الخليفة (عمر) الجابية للمرة الثانية وقسم مواريث الموتى من العرب وغيرهم. وفيها أتاه عمرو بن العاص يستأذنه فى السير إلى مصر لفتحها حتى تكون قوة للمسلمين وعوناً لهم فأذن له فسار حتى بلغ العريش فى يوم عيد النحر (١٠ ذى الحجة).

* تم على يد عِيَاض بن غَنْم فتح حران والرُّها والرَّقّة.

من النفى وجلس على الكرسى الانجيلى ببيعة الله وجدد ما كان قد هدمه هرقل والمجمع الطمث الخلقدونى [وهو ابروطاريوس] اعاد هذا الاب انبا بنيامين بناه ورتبه بمعونة السيد المسيح الراعى الصالح الذى بذل نفسه عن خرافه كما قال فى انجيله الطاهر: ان الراعى الصالح يبذل نفسه عن خرافه. فمشى بنيامين في اثار سيده وحمل صليبه وتبعه وصبر على البلايا والشرور والتجارب العظيمه الى الموت من اجل الامانة المستقيمه ولم

سنة ١٩ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأحد الثانى من يناير ٦٤٠م.

* إستولى معاوية بن أبى سفيان على مدينة قَيْسَّارية الحصينة بعد محاولات دامت سبع سنين، ذلك أن الروم كانوا يمدونها بحراً بالسلاح والأقوات.

* بدأت مع بداية السنة مسيرة عمرو بن العاص لغزو مصر على رأس ٤٠٠٠ وقيل ٣٥٠٠. وفى ١٢ من المحرم أفتتح عنوة حصن الفرما بعد أن قاتل الروم شهراً ومن الفرما سار إلى بلبيس فكان الاشتباك الثانى مع الروم وبعد شهر من القتال عاود سيره إلى عين شمس ثم إلى أم دُنَيْن (تندوتياس) فى جمادى الأول، وفى ٩ من جمادى الثانية وصل إليه المدد من المدينة يضم ٤٠٠٠ رجل فى مقدمتهم الزبير بن العوام وعُبادة بن الصامت.

* حج بالناس فى هذه السنة الخليفة عمر بن الخطاب.

* تولى على الكوفة عبدالله بن غطفان خلفاً لسعد بن أبى وقاص، وفى البصرة مرت ثلاث سنين على ولاية أبى موسى الأشعرى.

* توفى فى هذه السنة بالمدينة أبى بن كعب وكان من أحبار اليهود ومن كتاب الوحى وممن إشترك فى جمع القرآن وقيل توفى سنة ٢١.

٣٩: أغاثون ولد بنيامين ٦٦١ / ٦٧٧م

يتخل ولا رجع الى وراه فى جهاده الى أن تممه حتى اخذ النعمة مع القديسين ابايه الذين تقدموه كما قال داود النبى فى الزبور: كريم امام الرب وفاة اصفياه. فمات الاب بنيامين، وان الشعب المومن الخايف من الله بأمر الرب أخذو ذلك القس الخايف من الله أغاتون واجلسوه بطركا كاتفاق اسمه مع فعله معا، اذ هو صالح وعمله صالح مزين بكل فعل جميل مملو نعمة روح القدس والامانة الارتدكسية.

---

* تابع يزدجرد ملك الفرس فراره إلى أصبهان بعد أن استولى العرب صلحاً على حلوان بقيادة حريز بن عبدالله البجلى.

سنة ٢٠ هجرية

استهل المحرم بيوم الخميس الموافق ٢١ ديسمبر ٦٤٠م.

* تولى عمرو بن العاص إمارة مصر للمرة الاولى، إذ فى الثانى من المحرم الموافق ٢٢ ديسمبر تم فتح مصر (بابليون) على يديه ثم سار لفتح الاسكندرية فى ربيع الأول من السنة وفى يوم الجمعة أول جمادى الآخرة تم إستيلاؤه عنوة على الاسكندرية عاصمة مصر البيزنطية وكان قد أخلف على مصر (بابليون) خارجة ابن حُذافة ولكن عمرو قد جعل أهلها ذمة على أن يخرج منها من يخرج ويقيم من يقيم باختيارهم.

* فى الشمال جرت أول محاولة لغزو الروم على أرضها بقيادة عبدالله ابن قيس، وفى أقصى الشرق إستولى المسلمون على تستر بقيادة البراء بن مالك الذى قتل على أبوابها.

* إستولى العرب بقيادة أبى موسى الأشعرى على مدينة تستر بعد حصار دام أكثر من عام.

* أمر الخليفة عمر بإجلاء اليهود عن خيبر إلى مصر كما أجلى يهود نجران إلى الكوفة.

وكانو المسلمون يقاتلون الروم بغضب وكان لهم ملك اسمه طيباريوس قد ملكوه وله عدة جزاير فأسروهم من بلادهم الى بلاد غريبه وكذلك صقليه(*) وجميع اعمالها ملكوها واخربوها وجابو سبيها الى مصر، وكان هذا القديس البطرك أغاتون حزين القلب اذ يرى اعضاه [اى السبايا] في ايدى الامم. وكانو الغزاه قد اباعو منهم انفسا عده فيشتريهم [البطرك]

(*) غزو العرب لصقلية واستيلائهم علي رودس سنة ٦٧٢م = ٥٣هـ.

---

* في هذه السنة كانت وفاة إمبراطور الدولة البيزنطية هرقل الذى عاصر قيام الدعوة الإسلامية وخلفة إبنه قسطنطين (١١ فبراير ٦٤١م).

سنة ٢١ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الاثنين ١٠ ديسمبر ٦٤١م.

* فى الأول من هذه السنة أعاد عمرو بن العاص فتح مدينة الاسكندرية بعد انتقاضها عليه.

* تم إخلاء الروم لمدينة الاسكندرية (١٦ شوال) وأبحروا إلى القسطنطينية فبذلك طويت صفحة الاستعمار الرومانى لمصر.

* استولى المقداد بن الاسود على دمياط.

* بعث عمرو بن العاص قائدة عقبة بن نافع غربا ففتح زويلة من أرض برقة.

* بعد عودة عمرو من فتح الاسكندرية ورفض الخليفة أن تكون عاصمة لمصر الإسلامية بدأ تخطيط مدينة الفسطاط وبناء مسجدها العتيق أقدم المساجد فى أفريقيا وخامس خمسة فى الإسلام.

ويعتقهم. وكانو من اصحاب الهارسيس الطمث المعروفين بالغايانيين الذين لا يتقربون والبرسنوفية. ولم يكن يدع قسمة الاساقفة في كل موضع ليردو الضان [الخراف] الذى قد اضلها الشيطان الى بيعة السيد المسيح. واوقع به الشيطان تعبا عظيما من اجل طهارة قلبه وفضيلته، فتولى فى تلك الايام امر اسكندرية انسان اسمه تاوضوروس(*) [تاوضوسيا]، وكان ريسا فى جماعه من الخلقدونيين، وكان مقاوم [معادى]

(*) اضطهاد تاوضوروس الملكانى للبطرك أغاتون.

---

* ولى الخليفة النعمان بن مقرن الجيوش التى سارت لفتح مدينة نهاوند الفارسية التى عرفت بفتح الفتوح وعلى أسوارها قتل فاتحها النعمان، قيل فقد الفرس فى المعركة مائة ألف قتيل.

* توالت الفتوح بعد سقوط نهاوند فتم فتح همدان وأصبهان على يد عبدالله ابن عتبان، وفى الشمال إستولى أبو هاشم بن عتبة على أنطاكية وملطية من الروم.

* توفى فى هذه السنة بمدينة حمص بالشام خالد بن الوليد، إشترك مع قريش فى يوم أحد ضد المسلمين وأسلم عام ٧هـ مع عمرو بن العاص فى يوم واحد وحمل الراية فى غزوة مؤتة واشترك فى حروب الردة وفى فتوح العراق والشام.

* صرف عمر قائده سعد بن أبى وقاص عن الكوفة وولاها عمار بن ياسر على الصلاة وعبدالله بن مسعود على بيت المال وعثمان بن حنيف على مساحة الأرض.

سنة ٢٢ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم السبت ٣٠ نوفمبر ٦٤٢م.

* تولى المغيرة بن شعبة على الكوفة خلفاً لعمار بن ياسر، وعلى البصرة أبو موسى الأشعرى وتولى على الموصل محمد بن مروان خلفاً لسعيد بن عامر.

الارتدكسيين التاوضوسيين. فمضى الى دمشق الى مقدم المسلمين واسمه يزيد بن معاوية(*) اخذ منه سجلا يتسلط به على شعب اسكندرية ومريوط وكلما يليها، ولا يكون لمتولى مصر عليه حكم لانه دفع له مالا جزيلا. وعاد وتسلط على الاب انبا اغاتون واقلقه وطلب منه المال الذى غرمه واخد منه سته وتلتين دينارا جزيه كل سنه عن تلاميذه. وليس هذا فقط بل وكلما كان ينفقه على النواتية

(*) يزيد بن معاوية : بعد وفاة معاوية في ابريل ٦٧٩م = رجب ٦٠ هـ. تولى يزيد الخلافة الاموية، ثم بايعه الناس ماعدا الحسين وعبدالله ابن الزبير وعبدالله بن العباس وعبدالله ابن عمر.

---

* سار عمرو بن العاص من الاسكندرية غرباً إلى برقة فصالحه أهلها على الجزية وتابع سيره إلى طرابلس فحاصرها شهراً حتى فتحها.

* غزا حذيفة بن اليمان مدينة الدينور واستولى عليها وكانت قد فتحت لسعد ثم انتقضت، كما أعاد نعيم بن المقرن فتح همدان ثم كر على الرى ففتحها، وعلى يد المغيرة بن شعبة جرى فتح قزوين وزنجان، كذلك إنتهى بكير بن عبدالله إلى أذربيجان وفتحها، بينما إنتهى سراقة بن عمرو إلى بلاد القوقاز وفتح الباب، وامتدت الفتوح شرقاً حتى غزا الأحنف بن قيس بلاد خراسان واستولى على هراة عنوة، وفي الشمال غزا معاوية أمير الشام بلاد الروم على رأس عشرة آلاف، وفيها كاتب سويد من مقرن ملك جرجان وسار إلى بلاده وضمها صلحاً وحذا حذوه ملك طبرستان.

* تابع ملك الفرس يزدجرد فراره شرقاً حتى بلغ الرى وفيها حاول واليها الفارسى آبان جازويه القبض عليه غدراً، ومن الرى سار إلى أصبهان، ومنها إلى كرمان، ومنها إلى مرو الروذ بخراسان وكاتب ملوك الترك والصين طالباً نجدتهم، وانتهى إلى بلخ مما ألجأ الأحنف بن قيس إلى مطاردته.

في الاسطول(*) يخسره اياها، وكلما يلحقه يلزمه اياه. ولم تكن جماعة الخلقدونيين يختلطون بهذا الرجل، وكان يحتاج الى سبعة الاف دينار لتاوضوروس الخلقدونى خارجة عن خراج وساياه، وما كان يمكنه يخرج من باب قلايته من قوة بغضته له لاجل الامانه الارتدكسيه، حتى انه امر وقال: من راى بابا التاوضوسيين يخرج ليلا او نهارا فيرجمه بالحجاره ويقتله وانا المجاوب عنه. وكان الاب اغاتون مختفيا ايام ذلك الملك المنافق وهو

(*) كان المصريون ملزمون بمصاريف وتجهيز الاسطول العربى فى مصر.

سنة ٢٣ هجرية

وافق مستهل العام يوم الأربعاء ١٩ نوفمبر ٦٤٣م.

* شهدت السنة مع نهايتها نهاية خلافة عمر بن الخطاب.

* تولى إمارة مكة نافع بن الحارث، وعلى الطائف سفيان بن عبدالله، وعلى حمص عمير بن سعيد وعلى البحرين عثمان بن أبى العاص.

* توالت الفتوح شمالاً وشرقاً، ففى فلسطين فتح معاوية عسقلان صلحا، وغزا بلاد الروم حتى بلغ عمورية، وفى المشرق فتح الأحنف بن قيس نيسابور وتولى عليها، وتم فتح كرمان على يد سهل بن عدى، وسجستان على يد عاصم ابن عمر ومكران من بلاد الجبل على يد الحكم التغلبى، وفى فسا ودارابجرد لقى ساية بن زنيم مقاومة شديدة إذ أتاه الفرس من كل جانب.

* فيها احتفر عمرو بن العاص الخليج الموصل بين النيل والبحر الأحمر ودعاه خليج أمير المؤمنين.

* فى ٢٦ من الحجة الموافق (٢ نوفمبر ٦٤٤هـ) اغتيل خليفة المسلمين عمر ابن الخطاب على يد أبو لؤلؤة غلام المغيرة لأنه أبى أن يرفعه من خراجه وكان صانعاً ميسوراً ودفن عمر فى حجرة عائشة بجوار أبى بكر وله من العمر ٦٣ سنة، وكان قد أسلم عام ٦ هـ ودامت

داع له كوصية الانجيل: حبو اعداكم باركو على لاعنيكم.

وفي ايامه عمرت البيعه التي على اسم ابى مقار وكثرت الاخوه حتى انهم بنوا القلالى قريب البهلس وكانوا ينمو بنعمة السيد المسيح، وكانوا الاخوه المومنون يعينونهم.

وفي هذه الايام ظهر انسان من الدير طاهر البدن نقى القلب عارف بالحكمتين البيعيه والعالميه اسمه يوحنا من اهل سمانود كان معتكفا في

خلافته نحو ١١ سنة. بويع عثمان ابن عفان بالخلافة بعد أن ترك عمر الشورى بين ستة من الصحابة بينهم إبنه عبدالله مشيراً ولا شيء له من الأمر وهم: على بن أبى طالب وعثمان بن عفان وسعد بن أبى وقاص وعبدالرحمن بن عوف والزبير بن العوام وطلحة بن عبيدالله.

سنة ٢٤ هجرية

وافق مستهل المحرم يوم الاحد ٧ نوفمبر ٦٤٤م.

* في يوم الجمعة الثالث من المحرم بويع عثمان بن عفان بالخلافة وله من العمر نحواً من احدى وسبعين سنة فصلى بالناس وزاد من اعطياتهم.

* سميت هذه السنة عام الرعاف (وهو مرض خروج الدم من الأنف) لكثرة من أصيب به كما إعتبرت هذه السنة بداية انقسام المسلمين إلى أمويين (يمثلهم عثمان) وهاشميين يمثلهم على بن أبى طالب.

* أقر الخليفة الجديد عمال الولايات جميعها لأن عمر أوصاه بذلك باستثناء الكوفة اذ أعاد اليها سعد بن أبى وقاص وولى الكوفة الوليد بن عقبه بن ابى معيط، وكان أخا عثمان من أمه.

البرية اعتل علة عظيمة ولم يعتقد احد من الشيوخ انه يبرا، فراى ليله من الليالى مناما كان [كأن] انسان مضى [ء] نوراني عظيم المجد جالس على كرسى السارافيم ومعه جماعة نزل قريبا من باب قلايته، ونظر جماعة من الشيوخ الابا القديسين الذى فى البرية تقدمو لياخذو البركه من الجالس على الكرسى، فقال فى فكره: لو ان لى انسانا يمسكنى انا ايضا لاتقدم الى هذا الملك السماوى العظيم واخذ بركته فلعلى كنت استريح

---

* كاتب الامبراطور البيزنطى سرا أهل الاسكندرية من الروم لنقض الصلح مع العرب واستعد عمرو بن العاص لوأد الفتنة وهى السنة الخامسة لولايته على مصر.

* جرى غزو أذربيجان وأرمينية للمرة الثانية على يد الوليد بن عقبة بعد أن منع أهلها ما كانوا قد صالحوا المسلمين عليه.

* استنجد أمير الشام معاوية بن أبى سفيان بالخليفة لصد جموع الروم التى تحركت لغزو الشام واستعادتها من المسلمين فخف لنجدته جيش أهل الكوفة قوامه ٨٠٠٠ رجل وعليه سلمان بن ربيعة الباهلى كما قاد جيش الشام حبيب بن مسلمة فشنوا الغارات على الروم وأوقعوا بهم.

* عاصر خلافة عثمان: الامبراطور البيزنطى كونستانز الثانى، وفى روما البابا يوحنا الرابع.

سنة ٢٥ هجرية

استهل المحرم بيوم الجمعة الموافق ٢٨ أكتوبر ٦٤٥م.

* نقض أهل الاسكندرية من الروم الصلح بعد أن جاءتها قوات من القسطنطينية بقيادة منويل الخصى ولكن الحملة فشلت وقتل منويل وبقى المقوقس والمصريون على عهدهم ولم ينزعوا الى الفتنة، ومن الأسكندرية سير عمر قائده عبدالله بن أبى سرح الى أفريقية غازياً.

من هذه العلة والوجع، فعند ذلك تقدم اليه واحد ممن كان حول الكرسى والجالس عليه وهو لابس لباس البطاركة الرسل وعلى صدره كتاب يشبه انجيل فقال: تختار ان اقدمك لسيدنا لينعم عليك بالعافيه. فسجد له بدموع وطلب اليه قايلا: ارحمنى يا سيدى وامض بى اليه لاننى فى تعب عظيم. فاجاب ذلك القديس وقال له: يا يوحنا (لأنه كان كاهنا): قل لى انك اذا عوفيت من الرب تكون لى ولدا وانا امضى بك اليه. فعاهده

---

* عزل الخليفة عدداً من أمراء الولايات وأقام غيرهم، منهم عمرو بن العاص الذى عزله عن خراج مصر بعبدالله بن أبى سرح وهو أخو عثمان لأمه، وجاءه الكتاب وهو بالفيوم، وولى إمارة مكة خالد بن العاص ثم أخلفه فى العام نفسه بالحارث بن نوفل، وعزل سعد بن أبى وقاص وولى الكوفة الوليد بن عقبة مكانه، وهو كذلك أخ لعثمان من أمه وكان عقبة عاملاً على عرب الجزيرة.

* توالت الفتوح فعاود معاوية الذى ضم اليه حكم الموصل مع الشام غزو أرض الروم، كما غزاها سليمان بن ربيعة حتى بلغ برذعه، وفى الشرق بلغ عثمان ابن عبدالله أرض كابل (أفغانستان الحالية).

سنة ٢٦ هجرية

افتتحت السنة بيوم الثلاثاء الموافق ١٧ أكتوبر ٦٤٦م.

* السنة الأولى لإمارة عبدالله بن أبى سرح على مصر.

* استقدم عثمان عمرو بن العاص وكان قد عزله أولاً عن خراج مصر ثم عن إمارة الحرب بعد أن اختلف مع عبدالله بن أبى سرح الذى تولى على الأثر غزو أفريقية حتى بلغ مدينة سبيطلة (جنوبى تونس) وهو أخو عثمان من الرضاعة.

في الرويا بان يكون له ولدا الى يوم وفاته. فامسك بيد وقدمه الى مخلص العالم فخر يوحنا ساجدا على رجليه. فقال له المخلص: يا يوحنا لماذا تحبون الباطل يا بني البشر وترفضون الحق وتطلبون الكذب اذ ظننت انك جيت الى هاهنا تبني لك قلايه طين وهي تضمحل عن قليل، أو تكتنز لك كنوزا في السما وتبني لك في اورشليم السماويه المدينه الجديدة بيتا لا يضمحل. فوقع على رجليه وطلب منه العفو فاقامه الرب وقال له: الان قد

---

* أمد الخليفة جيش الفتح في أفريقية بقوات جديدة في مقدمتها عبدالله بن الزبير وعبدالله بن عمر وعبدالله بن عمرو بن العاص لهذا سميت هذه الوقعة بغزوة العباد له، وفيها قتل القائد البيزنطي جرجير على يد ابن الزبير واستولى المسلمون على أرض تونس.

* تولى إمارة مكة عبدالله بن خالد وهو أموى خلفاً للحارث بن نوفل.

* استعاد المسلمون إصطخر على يد عثمان بن أبي العاص.

سنة ٢٧ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأحد ٧ أكتوبر ٦٤٧م.

* عاد أمير مصر عبدالله بن أبي سرح من أفريقية بعد خمسة عشر شهراً مد خلالها الفتوح الى تونس وهزم ملكها جرجير (هو جريجورى بطريق افريقية) وكان قد استقل بها عن بيزنطه.

* فيها وضع أساس مدينة القيروان بضرب فسطاط في مكانها.

* استعد معاوية لغزو جزيرة قبرص وكان عمر قد أبى عليه غزو البحر حتى ألح على عثمان الذى اشترط أن لا يشترك في الغزو سوى المتطوعة، وكان منهم أبو الدرداء وأبو أيوب الأنصارى، وأبو ذر الغفارى، والمقداد وفضالة ووائلة الكنانى، وكعب الأحبار وعمره نحو المائة.

انعمت عليك بالعافية لاجل مرقس الانجيلى فامض فكلما يامرك به فافعله. وصعد الرب الى السما بمجد وكرامه. فاستيقظ من الرويا وهو معافى وفكر قايلا: ما هذا الفعل الان. فنزل عليه التسلى من ذلك اليوم وصار الى دير من اعمال الفيوم ومعه تلميذاه واختفى هناك. فظهر(*) للاب انبا اغاتون من قال له: انفذ الى يوحنا القس الذى من سمانود ليعينك ويساعدك وهو الذى يجلس بعدك على الكرسي. فانفذ كهنه الى اسقف الفيوم انبا

(*) رؤية الأب أغاتون بخصوص تولية يوحنا السمنودى البطركية من بعده.

---

* تبادل الامبراطور البيزنطى كونستانز الثانى الرسائل والهدايا مع الخليفة عثمان ومن ذلك أن أم كلثوم ابنة الامام على بعثت الى زوجة الامبراطور هدية من طيب فردت عليها بهدية فيها عقد ثمين.

* ذكر الطبرى فيما رواه انه جرت محاولة للنزول على أرض الاندلس وهى أول إشارة فى التاريخ الإسلامى الى هذه البلاد.

سنة ٢٨ هجرية

أهل المحرم يوم الخميس الموافق ٢٥ سبتمبر ٦٤٨م.

* هذه السنة هى الرابعة من ولاية ابن أبى سرح على مصر، وفيها كان على فارس عبدالله بن معمر، وعلى نيسابور من أرض خراسان الأحنف بن قيس، وعلى اليمن يعلى بن منبه.

* تم فى هذه السنة فتح جزيرة قبرص مصالحة وكان على رأس الحملة التى أنفذها معاوية عبدالله بن قيس لخبرته بشئون البحر وكان قد خرج بسفنه، التى صنعت فى الاسكندرية وزودت برجالها من المصريين مع عتادهم وذخيرتهم، من ميناء عكا الى الجزيرة.

* انتقض أهل أذربيجان بعد أن استسلمت لحذيفة بن اليمان فأعاد غزوها الوليد بن عقبة فتم ذلك صلحاً.

مينا وكتب اليه بان ينفذ له القس يوحنا، وكان ذلك الأسقف يحبه ويربح من كلامه، فما يقدر ان يخالف الاب البطرك فبعث الرسل اليه فحملوه في مركب وانفذه الى اسكندريه، فلما راه البطرك فرح به لان كان حكيما جدا فسلم له بيعته وجعل له السلطان عليها وعلى المدينه. وكان بعض الناس يسالوه ان يقسمه اسقفا على الصعيد واخرون لبعض الكراسى والله يحفظه لدعته مثل داود حتى يتم له ما هو موعود به في الرويا بوادى هبيب.

---

* دخل حبيب بن مسلمة أرض الروم من بلاد الشام.

* إستولى معاوية على جزيرة أرواد القريبة من ساحل الشام.

* استعاد عبدالله بن عامر بن كريز مدينة إصطخر عنوة وكان قد قتل بها القائد عبيدالله بن معمر فأسرف ابن عامر فى تأديب أهلها انتقاماً.

* انتقضت أذربيجان للمرة الثانية فأعاد فتحها سعيد بن العاص الذى ولاه عثمان على الكوفة خلفاً للوليد بن عقبة.

* عزل عثمان أبا موسى الأشعرى عن البصرة بعد أن تولاها ثمانى سنوات وولى عليها عبدالله بن عامر بن كريز فاتح إصطخر وهو ابن خال عثمان وله من العمر خمس وعشرون سنة. ودام حكمه لها ست سنين وعزل الوليد بن عقبه عن الكوفه بسبب انه شرب الخمر وصلى بالناس الفجر اربع ركعات.

* افتتح المسلمون أصبهان من أرض فارس وضم حكمها الى ابن عامر.

سنة ٣٠ هجرية

استهلت السنة بيوم السبت الموافق ٤ سبتمبر ٦٥٠م.

* السنة الثامنة لخلافة عثمان بن عفان وفيها بلغ عثمان ما وقع فى أمر القرآن، وأن

وكان الاب الحقانى اغاتون مهتما فى جميع ايامه بقسمة الكهنه المستحقين للشرطونيه الخايفين من الله والناس يشكرون الله على افعاله.

وكان في ايامه الاسقف المغبوط اغريغوريوس اسقف القيس، وسريانى اسمه يوسف. وفى ايامه ظهرت بدعة الهارسيس فيماناخوس النجسه(*).

(*) ظهور بدعة فيما ناخوس.

وكان امير من المسلمين اسمه مسلمه(*) جمع سبعة اساقفه وانفذهم الى سخا بسبب قوم علم

(*) هو مسلمه بن مخلد.
انظر الهامش السفلي ص ٣٠٢
ولى مصر على عهد معاوية =

العرب فى العراق يقولون قراءتنا أصح لأنا قرأنا على أبى موسى، وأهل الشام يقولون قراءتنا أصح لأنا قرأنا على المقداد، وكذلك غيرهم. فأمر عثمان زيد بن ثابت وعبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحرث بن هشام المخزومى بجمع مصحف موحد وقال لهم: إذا اختلفتهم على شئ فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل القرآن بلسانهم.

* برز دور عبد الله بن عامر بن كريز والى البصرة الجديد فى فتوح المشرق، فتم له صلحاً أو عنوة فتح جور ونيسابور وسرخس وطوس، فبعث اليه أهل مرو يطلبون مصالحته على ألفى ألف ومائتى ألف فى السنة.

* أشخص معاوية الصحابى أبا ذر الغفارى من الشام الى المدينة بموافقة الخليفة لأنه كان يؤلب الفقراء على الأغنياء فى الشام فأتى الربذة وخط بها مسجداً.

* سار الأحنف بن قيس الى بلاد الترك من طخارستان والجوزجان والغاربات وعليهم طوغان شاه فكسرهم، وسار منها الى بلخ فدخلها صلحاً.

* فيها سار سعيد بن العاص لغزو طبرستان ومعه الحسن والحسين وعبدالله ابن العباس وعبدالله بن الزبير وغيرهم حتى أتى جرجان (على ساحل بحر قزوين الجنوبى) فدخلها صلحاً ولكنها انتكست بعد عودته.

انهم كانو يحرقون بالنار من القوم المستخدمين ليكشفو عن جروتهم، فوصلو واجتمعو بانسان ارخن بسخا اسمه اسحق وسددو حالهم [ما عليهم] واعفو من الحريق. واجتمع اسحق المذكور مع والي سخا وظفرا على تاوضوروس الخلقدونى الذى فى اسكندرية. وكان هذا اسحق قد تولى جميع الكوره لاجله لاجل ما فعله مع البطرك من السو.

= فجمع له الصلاة والخراج وبلاد المغرب.

ثم انه اكمل ايامه بشيخوخه حسنه واعتل واقام سبع عشره سنه على كرسيه وتنيح فى سادس

---

* فيها خرج يزدجرد الثالث ملك الفرس الهارب من جور بعد فتحها الى كرمان ومنها الى خراسان وعلى أثره مجاشع بن مسعود.

سنة ٣١ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأربعاء ٢٤ أغسطس ٦٥١م.

* توالت فى هذه السنة فتوح المشرق على يد عبدالله بن عامر بن كريز وقواده، فتم فتح ابرشهر ونيسابور على يد أمين بن أحمر، وتم فتح بيهق على يد الأسود بن كلثوم، وبلغ الأحنف بن قيس أرض خُوارزم ورجع عنها الى بلخ، واستولى الربيع بن زيادة على زرنج، وفتح عبدالله بن سمره كابل.

* قام أمير مصر عبدالله بن أبى السرح بغزو بلاد النوبة حتى بلغ دنقلة وهادن أهلها وعقد معهم صلحاً يعطوه على أساسه عدد من العبيد سنويا ليتاجروا فيهم.

* شهدت السنة وفاة يزدجرد الثالث آخر ملوك فارس الساسايين وحفيد كسرى وكان قد تولى سنة ١١هـ (١٦ يونيه ٦٣٢) وفقد عرشه بعد هزيمة نهاوند، وفر إلى فارس ثم الى خراسان وانتهى الى نواحي مرو وفيها إغتاله أحد الناس وكان قد أوى اليه فسلبه مامعه من جواهر.

عشر بابه وجعل جسده كما فى سيرة ابى مقار مع الاب بنيامين وهوحايط الامانه الارتدكسيه لابس اكليل البر مع جميع القديسين فى كورة الاحيا الى ابد الابدين امين.

يوحنا من أهل سمانود

وهو الاربعون من عدد الابا البطاركة

[٦٧٧/ ٦٨٦م]

ولما تنيح الاب القديس انبا اغاتون وضع

سنة ٣٢ هجرية

الأول من السنة وافق يوم الأحد ١٢ أغسطس ٦٥٢م.

* إمتدت الفتوح إلى القوقاز فغزا عبدالرحمن بن ربيعة مدينة بلنجر وحاصرها وأتاه المدد بقيادة حبيب بن مسلمة متأخرا فقتل عبدالرحمن على أبوابها.

* تولى عبدالله بن حازم إمارة خراسان من قبل عبدالله بن عامر بعد أن أوقع الهزيمة بقارن ملكها عند هراة، وتولى على الجزيرة العلاء بن وهب وهو صحابى ممن شهد القادسية.

* فى هذه السنة غزا معاوية مضيق القسطنطينية إلا إنه لم يبلغ أسوارها، وذكر أن قبرص غزاها المسلمون للمرة التانية فى هذا التاريخ.

سنة ٣٣ هجرية

إستهل المحرم بيوم الجمعة الموافق ٢ أغسطس ٦٥٣م.

* مرت عشر سنين على تولية عثمان بن عفان الخلافة.

* غزا معاوية بلاد الروم وبلغ مدينة ملطية وافتتح حصن المرأة.

تاوضوروس الخلقدوني يده على الكل حتى انهم
لم يجدو خبزا ياكلوه في يوم وفاته لانه ختم على
كلما له وعلى جميع ما عندهم الى ان انتقم منه
الرب بضربة صعبه في احشايه وهى علة الاستسقا
وصار ياكل كل يوم اثنى عشر رطلا خبزا واربعه
وعشرين رطلا لحما وقرطلين تينا ويشرب زقا واحدا
نبذا من مريوط ولا يشبع ولا يروى ولا يمتلي بطنه.
ومات بموتة سو، وولو ولده عوضه وصار لابينا انبا

---

* عاد عبدالله بن أبى سرح أمير مصر إلى غزو أفريقية للمرة الثانية حين نقض أهلها العهد حتى أقرها على الإسلام والجزية وممن استشهد فى هذه الحملة معبد بن العباس بن عبدالمطلب.

* نفى عثمان جماعة من أهل الكوفة إلى الشام كانوا يعيبون عليه ويطعنون فيه.

سنة ٣٤ هجرية

وافق مستهل المحرم يوم الثلاثاء ٢٢ يوليو ٦٥٤م.

* السنة العاشرة من ولاية عبدالله بن أبى سرح على مصر.

* عزل الخليفة سعيد بن العاص عن الكوفة لشدة فيه وخلفة أبو موسى الأشعرى للمرة الثانية.

* جرت أول معركة بحرية فى الإسلام وهى التى عرفت بذات الصوارى لكثرة تشابك صوارى السفن البيزنطية والمصرية التى إشتركت فيها. جرت إلى الغرب من الأسكندرية وكانت عدة الأسطول البيزنطى فى رواية ألف سفينة عليها الامبراطور قنسطانز الثانى، وقاد الاسطول المصرى عبدالله بن أبى سرح أمير مصر وعدته منتا سفينة واقتتل الفريقان بالسيوف والخناجر وانهزم قنسطانز الثانى وهرب إلى صقلية.

يوحنا كالولد وكان له امانة فيه ومحبه، وكان الاب البطريرك يهديه كالوالد.

وكان في بداية جلوسه على الكرسى قتل طيباريوس الملك على بزنطيه واخذ ولده الملك واسمه أوغسطس. ولما ملك هذا جعل اجتهاده السواحل التى أخذوها المسلمون فاستعادها(*) فاخذ جزاير كثيره مما كانو المسلمون ملكوها، وكذلك صقليه عمرها. وفي ذلك الزمان قام غير

(*) استعادة الامبراطور البيزنطى اوغسطس لمعظم الجزر التى استولى عليها العرب فى البحر المتوسط.

---

* بدأت الاجناد العرب الثورة فى مصر على حكم عثمان.

* قام معاوية بن حديج من قواد ابن أبى سرح فى مصر على رأس حملة إلى أفريقية بسبب نقضها العهد ثم غزاها معاوية بعد ذلك مرتين حين تولى إمارة مصر.

سنة ٣٥ هجرية

وافق مستهل المحرم يوم السبت ١١ يوليو ٦٥٥م.

* انتقلت ثورة الاجناد على عثمان من مصر والكوفة والبصرة إلى المدينة.

* خرج أمير مصر عبدالله بن أبى سرح فى رجب من العام متوجها إلى عثمان واستخلف عقبة بن عامر دون ولاية، ولم يكد عبدالله بن ابى السرح يغادر مصر. حتى استغل الفرصة محمد ابن ابى حذيفة، وهو احد زعماء الجند الاسلامى فى مصر من القرشيين فجمع حشدا من الجنود والساخطين، وهاجم عقبة بن عامر وهزمه واخرجه من مدينة الفسطاط ودعا الناس الى خلع عثمان بن عفان من الخلافة.

ووصل الخبر الى عبدالله بن ابى السرح وهو فى الطريق نحو المدينة، فكر راجعا الى مصر، ولكن رجال محمد بن أبى حذيفة تصدوا له وحالوا بينه وبين الدخول الى مصر وقاتلوه. فانسحب الى فلسطين. حيث لا يعرف ما الذى انتهى اليه امره وان كان الراى على انه لم

راهب في مدينة القسطنطينيه اسمه مكسيموس وحرك اضطرابا وقلقا في كورته وقال: ان كنتم على امانة خلقدونيه حقا فاعترفو بقول المجمع بطبيعتين وشخصين واقنومين وارادتين ومشيتين [مشيئتين]. فتبعه جمع كثير فوقع بينهم خصومه عظيمه وغضب عليهم اوغسطس الملك وانفذ هذا الغير راهب الى النفي. ومضى هذا الملك الى صقليه(*) بعد زمان فقتل هناك ذبحا بيد استاذ له من استاذيه وولى الملك بعده ولده يوستنيانوس [جوستنيان] عوضه. وكان

(*) نفي اغسطس الامبراطور إلى صقلية ثم ذبحه على يد أحد قواده، وتولية ابنه يوستنيانوس (جوستنيان).

يلبث أن قتل في مدينة الرملة. وانحازت شيعة عثمان وعلى رأسهم معاوية بن خديج وخارجه بن حذافة ويسر بن ارطاه ومسلم بن مخلد الى مدينة خربتا.

* قتل في هذه السنة الخليفة الثالث عثمان بن عفان على يد العرب بعد أن تحولت الثورة عليه إلى فتنه مسلحة احاطت بداره وهو يقرأ في المصحف حتى سال الدم عليه وذلك في يوم الجمعة ١٨ من الحجة (الموافق ١٧ يونية ٦٥٦م). بعد حصار دام حول بيته أربعين يوما، وقام به جيش من ستمائة مقاتل وفد من مصر بعد امور وحوادث وقعت بينهم وبين الخليفة وجماعات اخرى وفدت من البصره والكوفة اجمعت كلها على خلع عثمان ولكنه رفض التنازل عن الخلافة وتلبية إجماع الوفود تحت دعوى أنها (أى الخلافة) ثوب البسه الله إياه فلا يخلعه عنه البشر، وكان يتزعم الثائرين محمد بن أبي بكر الصديق ووقف كبار رجال الصحابة بالمدينة وعلى رأسهم على بن أبي طالب من هذا الحصار موقفا سلبيا، وان كانوا قد ارسلوا اولادهم ليدافعوا عن عثمان ويحولوا دون قتل الثائرين اليه.

وقد خشي الثائرون من طول الحصار، أن يصل اليهم جيش من الشام قيل ان معاوية سيبعث به، فرأوا ان يحسموا الموقف بقتل عثمان الذى رفض ان يتنازل عن الخلافة، واذ كان اقتحام مدخل البيت متعذرا، فقد تسوروا سطح بيت من البيوت المجاورة، ونفذوا الى داخل حجرات عثمان وانقض عليه بعض الوافدين من مصر كما يقول المؤرخون، فضربوه، وطعنوه، ولم يلبثوا ان قتلوه بالسيف...

ملكا جرما فوقع خوفه في قلوب المسلمين مثل اسد يثب على الدياب.

وفى هذه الايام بعد موت(*) يزيد بن معاوية قام من كورة المسلمين ملك اسمه مروان ثار مثل الاسد اذا خرج من الغابه جايعا ياكل ويدوس الباقي برجليه، هذا ملك الشرق وفسطاط مصر وولى اولاده كل الكور، الكبير منهم اسمه عبدالملك دفع له دمشق والثانى عبدالعزيز دفع له مصر. وكان خوف عظيم بين مروان وبين المصريين

(*) بعد وفاة يزيد بن معاوية تولى الخلافة الأموية ابنه معاوية بن يزيد في ١٢ نوفمبر ٦٨٣ = ١٤ ربيع اول ٦٤، وبعد حوالى أربعة أشهرخلع معاوية نفسه من الخلافة واعتكف فى منزله حتى مات. فسادت الفوضى فى اركان الخلافة الأموية حتى اجتمع أمر الأمويين على تعيين مروان بن الحكم الخلافة فى أواخر عام ٦٤هـ. ثم ارسل جيشا تحت =

في آخرها تمت تولية علي بن أبى طالب الخلافة باتفاق أكثرية الصحابة بالمدينة وتخلف بنو أمية عن بيعته.

* لقى عبدالله بن أبى سرح مصرعه عند الرملة بفلسطين أثناء محاولة العودة إلى الفسطاط.

* وكان أول ما فعله على بمجرد تسلمه الخلافة ان عزل جميع ولاة عثمان على الأمصار، وذلك على عكس المشورة التى وجهت اليه وهو ان يقيهم على اعمالهم حتى تتم البيعة له، ثم يعزلهم بعد ذلك.

وقد رفض معاوية بن أبى سفيان: قرار عزله وأعلن توليه المطالبة بدم عثمان. واذ كان معاوية قد استقر على امارة الشام أيام عمر بن الخطاب، وطوال أيام عثمان... فقد كان سلطانه قد تدعم فيها، ولم يعد أهل الشام يعرفون لهم قائدا غيره.. وكان ذلك أول الفرقة والتصدع بين المسلمين.

* قيل أن معركة ذات الصوارى التى ذكرت فى السنة السابقة والتى تعرف فى المراجع الأجنبية باسم موقعة فينيكوس قد جرت فى هذه السنة.

لانهم كانوا يترجون وصول انسان اخر اسمه ابن الزبير فوصل وغلب مروان، وجعل له كاتبان مامونان ارتدكسيان جعلهما على جميع كورة مصر ومريوط ومراقيه ودبلوا وهى لوبيه، اسم احدهما اتناسيوس وكان له تلتة أولاد وهو من اهل الرها من اعمال سوريه، والاخر اسمه ابا اسحق هو وولده من أهل شبرا وهم قوم اخيار ارتدكسيون.

ولما تولى عبدالعزيز مصر كتب الاب البطرك

= قيادة ابنه عبد العزيز لغزو مصر في العام التالي فتم له ذلك، ولكنه لم يلبث أن خنق في نفس العام بيد زوجته ام خالد بن يزيد ابن معاوية، وتولى الخلافة بعده في نفس العام ٦٨٥م = ٦٥هـ ولده عبد الملك فأقر أخاه عبد العزيز على ولاية مصر التى دامت عشرين سنة.

سنة ٣٦ هجرية

الأول من المحرم وافق يوم الخميس ٣٠ يوليو ٦٥٦م.

السنة الأولى لخلافة أمير المؤمنين على بن أبى طالب رابع الخلفاء الراشدين.

* ولم يلبث الخلاف أن أخذ صورة القتال الدموى، ذلك ان الزبير بن العوام وطلحة وقد كانا أول من بايع عليا، أعلنا انهما قد بايعا مكرهين، وخرجا من المدينة قاصدين مكة: حيث التقيا فيها بعائشة التى روعها مقتل عثمان على الرغم من أنها كانت تؤلب عليه الناس لخلافات بينهما. وقرر الثلاثة ومن انضم اليهم ان يطالبوا بالقصاص من قتلة عثمان، وساروا نحو العراق لهذا الغرض، واخرجوا والى البصرة واعتدوا عليه فقصد اليهم على بن أبى طالب، وعبثا حاول اقناع القوم بالكف عن الخلاف والشقاق ودارت بين الجانبين موقعة رهيبة عند الخريبة بالقرب من البصرة فى شهر جماد الثانى (٩ ديسمبر) قتل فيها من الجانبين حوالى العشرة آلاف اشتهرت فى التاريخ باسم موقعة الجمل نسبة الى الجمل الذى كانت تركبه السيدة عائشة والذى كان كالعلم للجيش فاستمر القتال حوله الى أن عقر الجمل وخر الى الأرض. وكانت الغلبة فى النهاية لعلى بن أبى طالب واعاد السيدة عائشة الى المدينة.

ولكنه كان انتصارا مؤلما على المسلمين، فقد مات فى الموقعة الزبير بن العوام وطلحة بن

من اسكندريه الى مصر الى الكاتبين اللذين توليا ديوانه يعرفهما حال الختم الذى كان على الاماكن وما هو فيه من الضر مع الخلقدونيين الكفره، عند ذلك انفذ الكاتبان المذكوران رسلا الى اسكندرية بأن يفك الخاتم عن الاماكن وتسليم جميع ما البيعه الى الاب البطرك. وكان هذا الاب قديسا عليه نعمه الله ظاهره فى وجهه مثل موسى النبى، حتى ان كل أحد لا يتمكن من النظر الى وجهه ولا يقدر يميز ولا محاجر عينيه من كثرة النور

موسى النبى : نقش قبطى على الحجر الجيرى

عبيد الله وهما من المبشرين بالجنة وقتل من المسلمين والصحابة مالم يقتلوا من قبل فى معركة من المعارك... ولكن هذه المرة بأيدى أخوانهم وأصحابهم فى الدين.

* فى الأول من رمضان جرى قتال فى مصر بين أنصار على يمثلهم محمد ابن أبى حُذَيْفة وأنصار معاوية بن أبى سفيان وعليهم معاوية بن خديج والتقى الجمعان عند خربتا من نواحى محافظة البحيرة وفيها أنتصر أصحاب على، وجاء إلى مصر معاوية بن أبى سفيان أمير الشام وزعيم المطلبين بدم عثمان واتفق مع جماعة علىٍّ على ترك الحرب وان يأخذ الطرفان رهن لذلك فخرج ابن أبى حذيفة فى الرهن ثم قتل بأمر معاوية فى العام التالى فى سجنه.

* تولى امارة مكة من قبل على أبو قتادة الحارث بن ربيعة الأنصارى، وتولى إمارة مصر من قبله كذلك قيس بن سعد، وامارة الموصل الأشتر، بينما تولاها من قبل معاوية الضحاك بن قيس، وتولى على نيسابور خُليد بن كاس من قبل على.

سنة ٣٧ هجرية

٦٥٧م

* لم يقر على بن أبى طالب محمد بن أبى حذيفة الذى كان قد غصب امارة مصر

٤٠ : يوحنا ٦٧٧ / ٦٨٦م

الذى عليه. وكان الرب يشفى كثيرا من المرضى بدعاه وكان بتول النفس والجسد وكان مسالما لكل احد من الناس، وظهرت أفعاله وعجايبه حتى بلغت الى الملك [يوستنيانوس] والى جميع من فى قصره حتى انهم انفذو اليه هدايا من القسطنطينيه.

وفى اول سنه تولى عبدالعزيز مضى الى اسكندرية (كعادة من يتولى) لياخذ خراجها، وكان ذلك فى كل يوم الف دينار عينا، فحمل الى

فأرسل قيس بن سعد بن عبادة أميرا على مصر وذلك فى مستهل ربيع الاول من هذه السنة.

ولم يكد قيس يصل الى الفسطاط حتى صعد على المنبر فى الجامع الكبير وتلا على المصلين كتاب أمير المؤمنين الى مسلمى مصر، وهو خطاب بصدد أحداث ذلك الزمان.

وبعد ان تلا قيس الخطاب قال: أيها الناس قد جاء الحق وزهق الباطل، ما بايعنا الا من هو خير من نعلم بعد نبينا ﷺ فقوموا فبايعوا على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فان نحن لم نعمل بها فلا بيعة لنا عليكم.

فقام الناس وبايعوا ـ واستقامت أحوال مصر.

معاوية يوقع بين على وقيس:

واذ كان معاوية يعلم خطر مصر فى تدعيمها لجانب على، واذ كان يعلم من ناحية اخرى قوة مراس قيس بن سعد وأنه كفيل بتحويل مصر الى قاعدة قوية لمؤازرة على فقد استعمل دهاءه للايقاع بين على وقيس فاصطنع خطابات بينه وبين قيس توهم أنه يتفاوض معه، فنجحت خططه وأساليبه وعزل على قيسا ابن سعد من مصر، فلم تدم امارته الا أربعة أشهر وخمسة أيام.

ملك الروم [جوستنيان] مال كثير. وكانت مهادنه(*) عشر سنين بغير حرب، فلما وصل الى المدينه ولم يكن وصوله ظاهرا بل مستورا فلم يخرج البطرك ليتلقاه لانه لم يعلم بوصوله، فحينذ سعو به أقوام كثير كفره ومخالفون وكان مقدمهم رجلا يسمى(*) تاوفانيس (وهو زوج أخت تاوضوروس الخلقدونى) وقالوا انه ما خرج ولا تلقاك لكثرة تجبره وكبرياه وكثرة ماله، فانفذ بغضب احضر الطوباني انبا يوحنا الى الايوان

(*) هدنه بين الامبراطور جوستنيان البيزنطي والخليفة الاموى عبد الملك بن مروان مقابل ألف دينار تدفع يوميا للأمبراطور مدتها عشر سنين.

(*) الملكانيون يستغلون علاقتهم القويه بالامويين ويحرضون الوالى عبد العزيزعلى إضطهاد القبط.

امارة محمد بن أبي بكر الصديق:

جرى الخلاف فيمن ولي مصر بعد انصراف قيس بن سعد عنها، فقيل هو محمد ابن أبي بكر الصديق: وقيل بل هو الاشتر النخعي وجاءت ولاية محمد بن أبي بكر بعده ويرجح ابن تغرى بردى في النجوم الزاهرة، ان يكون محمد بن أبي بكر قد ولي الامور في مصر على وجه من الوجوه عقب انصراف قيس بن سعد عنها، فلما لم يحسن التصرف نظرا لحداثة سنه استبدله علي بن ابى طالب بالاشتر النخعي عقب فراغه من موقعة صفين.

واقعة صفين:

في شهر ذى الحجة من هذه السنة، كانت موقعة صفين وهى التي تقابلت فيها جيوش الشام وعلى رأسها معاوية مطالبة بدم عثمان: بجيوش العراق وعلى رأسها على بن أبي طالب وذلك عند بلدة صفين على شاطىء نهر الفرات الغربي يقدرها البعض بالاسابيع ويقدرها البعض بالأشهر وقد تحاجز الفريقان عن بعضهما فترة طويلة دارت خلالها المفاوضات، فلما انتهت المفاوضات الى غير نتيجة بدأ الصراع العنيف لبضعة أيام متتالية: بل لقد تواصل القتال بالليل فيما سمى ليلة الهرير. واوشكت الدائرة في ختامها ان تدور على جيش الشام فأشار عمرو بن العاص على معاوية وقد كان نصيره في هذه المعركة، أن يلجأ الى خديعة جيش على وذلك برفع المصاحف بدعوى الاحتكام الى كتاب الله وحقن دماء المسلمين. وقد أدرك

فاوقفه بين يديه وقال له ما سبب غلظ رقبتك وتاخيرك عن الخروج للقاى دون هذه المدينه؟ فأجاب الطوبانى وقال له: قد علم الله انى لم أفعل هذا لغلظ رقبه لكن لضعفى ولانى لا امكن فى كل وقت من الخروج من المدينه الى موضع اخر. فحينذ غضب الامير وسلمه لمترسمين الى ان يقوم بماية الف دينار. فتسلمه صاحب برج اسمه سعد رجل ليس فيه رحمة قاسى القلب مملو سوا، فتسلمه اول يوم من جمعه الفصح الكبيره فاخذه

على بن أبى طالب ما فى هذا العمل من خدعة ومحاولة لشق صفوف جنده، فأبى الا المضى فى المعركة حتى نهايتها المظفرة، ولكن الخدعة أحدثت أثرها وسط أصحاب على وقد كان أكثرهم من رجال الدين والتقوى فقالوا كيف يدعوننا لكتاب الله ونأبى عليهم. فقال على لهم كلمته المشهورة.

«انما هى كلمة حق أريد بها باطل» ولكن الاغلبية من رجاله اصروا على ايقاف القتال وبقبول التحكيم بالنزول على ما يقضى به القرآن.

وتم الاتفاق على ان يختار كل من الطرفين حكما يمثله... ومرة أخرى فرض أصحاب على عليه أن يختار ممثلا له فى التحكيم أبا موسى الأشعرى وكان قد أبدى خلافا مع على، وذلك فى الوقت الذى اختار فيه معاوية عمرو بن العاص.

وتم الاتفاق فى شهر صفر على ان يجتمع الحكمان فى دومة الجندل فى شهر رمضان من هذا العام ٣٧ هجرية.

وكان مجرد هذا الاتفاق على التحكيم أن قامت هدنة بين على ومعاوية وجيوش كل منهما، وتم الاعتراف من الناحية الواقعية البحتة بقيام سلطتين، أولاها يمثلها على فى العراق، والثانية يمثلها معاوية فى الشام.

ومضى به الى منزله ليعذبه حتى يقوم بالمال. فلما اوقفه قدامه وكان معه رجلان من اولاده الاخيار، وهما اراس القس الامين على مال البيعه رجل ذو سلامه مزين بكل فضيله معروف بالدعه عند اهل المدينه. والشماس [اسحاق] كاتبه رجل حكيم محب للناس عارف بالكتب فاضل. فلما أوقف ذلك الرجل السو ابانا البطرك قدامه قال: اريد منك ماية الف دينار التى امر الامير ان تقوم بها. فاجاب وقال له بسكينه وهدو: تطلب منى ماية

وقد اعتبر البعض مجرد قيام هذه الحالة ورضاء على بها اخلالا بالدين وحكم القرآن فاعلنوا تمردهم عليه وأطلق عليهم أسم الخوارج.

قرار التحكيم وعزل على:

واجتمع الحكمان كما تم الاتفاق فى دومة الجندل وجازت على أبى موسى الأشعرى هذه الخدعة المشهورة التى خدعه بها عمرو بن العاص، عندما اتفق معه على ان يخلع كل منهما صاحبه ويدع للمسلمين اختيار من يريدون، ثم قدم عمرو بن العاص أبا موسى ليعلن للناس ما اتفقا عليه، فأعلن أبو موسى خلع على ومعاوية، وتلاه عمرو بن العاص فوافق على خلع على وأقر معاويه، فثار عليه أبو موسى معلنا أنه قد خدعه، ولم ينفع عليا بعد ذلك رفض نتيجة التحكيم فقد استشرت فتنة الخوارج من أصحابه بحيث كان مضطرا لمحاربتهم قبل ان يمضى لحرب معاوية.

أمارة الاشتر النخعى على مصر:

أرسل على بن أبى طالب الاشترالنخعى أحد رجاله الاقوياء ليلى أمارة مصر بعد انصرافه من موقعة صفين، وقد أدرك معاوية من جديد مغبة وصول الاشتر النخعى الى مصر فيقولون أنه طلب من البعض أن يخلصوه من الاشتر فى مقابل مكافأة معلومة، فدس له هذا البعض سما فى شراب من عسل قدمه له، فمات وهو على أبواب مصر ولم يدخلها.

الف دينار وما معى منهاماية الف درهم ولكن الاهى لم يجعل فى شريعته ان اترك معى شيا ولا اقتنى مالا قط لانه اصل كل شر، فما شيت أن تفعل فافعل جسدى بيدك ونفسى وجسدى معا بيد سيدى يسوع المسيح. فلما سمع الكافر ذلك غضب جدا وصر اسنانه على القديس وامر ان يحضر له قصريه نحاس مملوه جمر نار وتجعل رجلاه فيها حتى يقول انه يقوم بالمال.

ويذكر عن عمرو بن العاص وكان يجالس معاوية عند وصول نبأ موت الاشتر بهذا الأسلوب قوله: أن لله جنودا من عسل.

قتل محمد بن أبى بكر أمير مصر من قبل على وذلك على يد معاوية ابن حديج وقيل أن معاوية ابن حديج لما قتل محمد بن ابى بكر وضع جثته فى جيفة حمار واحرقها.

* فيها توفى بعسقلان عبدالله بن سعد بن أبى سرح، وعبيد الله بن عمر، وكريب الحميرى من أصحاب معاوية، ومات فى الطريق إلى مصر الاشتر النخعى من أصحاب على وكان ممن اشترك فى معركة اليرموك بفلسطين وفى النهروان ضد الخوارج وانتصر لعلى ودعا لبيعته وولاه امارة مصر فلم يصلها.

سنة ٣٨ هجرية

استهل المحرم بيوم السبت الموافق ٩ يونية ٦٥٨م.

* تولى على مصر عمرو بن العاص من قبل معاوية وجمع له الصلاة والخراج والحرب والشرطة وذلك للمرة التانية وكان دخوله فى ربيع الأول على رأس جيش من ستة آلاف مقاتل لانتزاع مصر من سلطان محمد بن أبى بكر الصديق حيث كان يحكمها باسم على. ولم يستطع محمد بن أبى بكر أن يتصدى لهذه الجيوش القوية وفر هاربا.

والله مدبر عبيده انزل فى تلك الليله على زوجة الامير عبدالعزيز امرا صعبا حتى انها قلقت وانفدت استاذها الى سعد وقالت له: احذر ان تفعل سوا برجل الله البطرك الذى سلموه لك لان قد اصابنى بسببه بلايا عظيمه فى هده الليله. فخلاه بغير اختياره هو وولديه الاخيار الصالحين الى غد ليفكر فيما يفعل به. فلما كان فى وقت صياح الديك مضى سعد الى الامير واجتمع به وعرفه الخبر وانه لم يعاقبه. فقال له الامير: اياك ان

حفر قبطى على الحجر الجيرى لرجل يصلى

وعاد عمرو بن العاص الى الفسطاط... ونزل فى دار الامارة التى بناها. وقد كانت امارة مصر وأموالها هى الثمن الذى اشترطه عمرو بن العاص على معاوية ليقف الى جواره فى صراعه ضد على. فلما ان انتهى التحكيم الى ما انتهى اليه على ما قدمنا، وفىّ معاوية لعمرو بن العاص فسيره على رأس جيش الى مصر فدخل مصر على الصورة السابقة..

ولم يلبث معاوية بن خديج أحد كبار الأمويين أن عثر على محمد بن أبى بكر الهارب فقتله شر قتلة ثم وضعه فى جيفة حمار وحرقه، وذلك كله بدعوى أنه كان ممن شارك فى قتل عثمان.

اختصاصات أمير مصر:

واذ عاد عمرو بن العاص الى امارة مصر على ان يكون حاكمها المطلق المتصرف فى كل شئونها، فمن الخير ان نحدد اختصاصات الامارة وكيف أنها ستجتمع لبعض الولاة كما هو الشأن بالنسبة لعمرو بن العاص هذه المرة، وكيف توزع أحيانا على أكثر من شخص.

اما هذه الاختصاصات فتتلخص على ما حددها الماوردى فى سبع مواد:

١ـ النظر فى تدبير الجيوش، وترتيب النواحى وتقدير الارزاق.

٢ـ النظر فى الأحكام وتقليد القضاة والحكام.

٤٠ : يوحنا ٦٧٧ / ٦٨٦م

تمس جسده لاجل ما نالنا في هذه الليله بسببه، لكن مهما قدرت عليه خذه منه بلطف والا فلا تقربه بسو لان الله قد اظهر لى انه عبده. فعاد سعد الى بيته وكان هذا يوم التلت من الجمعه الكبيره فاحضر يوحنا البطرك القديس قدامه وكلمه بكلام كتير وهدده تهديدا عظيما وجاب له تياب يهودى وحلف انه ان لم يحمل ما يقرر عليه اولا باول والا البسه أياها [ملابس اليهود] ولطخ وجهه برماد وطاف به حول المدينة كلها، فلم يخاف بالجمله

٣ـ جباية الخراج وقبض الصدقات وتعيين العمال فيها، وتوزيع المستحق منها على مستحقيه.

٤ـ حماية الدين والذود عن الحريم.

٥ـ اقامة الحدود فى الله وحقوق الآدميين.

٦ـ الامامة فى الجمع والجماعات، ويقوم بها بنفسه أو يستخلف عليها.

٧ـ تسيير الحجاج.

فاذا كان هذا الاقليم قفرا متاخما للعدو اقترن بهذه المعالم مهمة ثامنة وهى جهاد من عليه من الاعداء.

وقد كانت هذه الاختصاصات كلها في ولاية عمرو بن العاص الأولى فى السنوات الأولى من فتح مصر باعتباره صاحب الفضل فيه ومنفذه، على أن عمر بن الخطاب لم يلبث أن فصل الخراج عن اختصاصات عمرو بن العاص وعهد بها الى عبدالله بن أبى السرح، ثم لم يلبث ان عين قاضيا للحكم بين الناس، وهو اجراء سيلجأ اليه فيما بعد الخلفاء فيعينون القضاة بأمر منهم.

وقد كانت كل هذه الاختصاصات فيما عدا ما يختص منها بجمع الخراج يقع فى سلطان الأمير الذى يلى مصر على الصلاة: على أساس ان الحكم الاسلامى حكم دينى، ومن يلى

بل كان يقول له بقوة قلب: ان لم يخلصنى الرب الاهى من يديك والا فما لك قدره ان تفعل فيّ شيا الا بامره. فقال له سعد الكافر: انا اترك لك خمسين الف دينار وتقوم بخمسين الف دينار وانا اطلقك [تدور و] تتسبب [تتسول] فى حالك وتحصلها. اجاب القديس البطرك وقال له: الذى أقدر عليه ثيابى التى على جسدى. ولم يزل ينازله الى أن بلغ عشرة الاف دينار فقال له البطرك: ما اقول ما لا اقدر عليه. فلما اتصل الخبر بالكتاب

الصلاة فهو أمير المسلمين ولذلك فسوف يصادفنا من الآن ان هذا الوالى أو ذلك ولى على الصلاة والخراج معا، أو على أحدهما دون الآخر.

سنة ٣٩ هجرية

وافق أول السنة يوم الأربعاء ٢٩ مايو ٦٥٩م.

* تجدد القتال بين على وبين الخوارج من شيعته السابقين فجرت معركة حروراء والنخيلة وقتل فيها من رؤسائهم زيد بن حفص الطائى، وشريح بن أوفى العبسى.

* تمثل النزاع بين أصحاب على وأصحاب معاوية فى إمارة الحج هذه السنة فكان الأمير قثم بن العباس من قبل على ويزيد الرهاوى من قبل معاوية فاصطلحا على أن يقيم الموسم الصحابى شيبة بن عثمان حاجب الكعبة.

* وعلى الصعيد العسكرى بعث معاوية قائده معاوية بن عوف لاستخلاص الأنبار والمدائن من أصحاب على، والضحاك بن قيس لادخال أعراب البادية فى طاعته.

* تولى زياد بن أبيه إمارة فارس بعد مقتل ابن الحضرمى.

* توفى فى هذه السنة البطرك بنيامين الذى أعاده عمرو بن العاص الى كرسيه وكتب له امانا سنة ٢٠هـ.

---

٤٠ : يوحنا ٦٧٧ / ٦٨٦م

المتصرفين باسكندريه ان الحال انتهت الى عشرة الاف دينار انفدو اليه وقالو له: أقبل بالعشرة الاف دينار ونحن نقسطها على الاساقفه والكتاب والدواوين التى نحن مستخدمون فيها ليلا يجرى على البيعه شى.

ثم مضو الى عبدالعزيز وسالوه احضار البطرك ليسمع منه قوله، وكان يوم الخميس الكبير، فلما احضره ورفع نظره اليه رأه كأنه شبه ملاك الله فامر

سنة ٤٠ هجرية

وافق الأول من السنة يوم الأحد ١٧ مايو ٦٦٠م.

* السنة الأخيرة لخلافة على بن أبى طالب وبه انتهى عصر الخلفاء الراشدين.

* تولى على المدينة الصحابى أبو أيوب الأنصارى، وخلفه فى نهاية العام الصحابى المحدث أبو هريرة من قبل معاوية، وعلى البصرة عبدالله بن عباس.

* أرسل معاوية جيشاً للاستيلاء على المدينة بقيادة بشر بن ارطاة من عاملها أبى أيوب الأنصارى الذى فرّ منها ثم سار إلى اليمن فهرب عاملها عبيد الله بن العباس فذبح ولديه الصبيين.

* أشرنا الى هذا النفر الذين خرجوا على على بن أبى طالب لقبوله التحكيم، واعتبروا ذلك كفرا والحادا فى دين الله وطلبوا من على أن يتوب ويستغفر والا حاربوه وقاتلوه.

فجرت لهم معارك مع على هزمهم فيها هزيمة منكرة عند النهروان ودحرهم وأوقع بهم مقتلة عظيمة.

فاتفق ثلاثة نفر منهم على أن يقتلوا عليا ومعاوية وعمرو بن العاص فى ليلة واحدة ليخلصوا المسلمين منهم.

للوقت ان يحضر له بمخده كبيره فرميت له [وامره بالجلوس] فجلس عليها وقال له: ما تعلم ان السلطان لا يقاوم. فاجاب القديس وقال له: السلطان يسمع منه امره فيم يجب، ويخالف امره فيما يغضب الله، فقد قال ربنا في الانجيل «لا تخافو ممن يقتل الجسد وليس له سلطان على النفس ولكن خافو ممن يقدر ان يهلك النفس والجسد جميعا» يعنى الله القادر على ذلك وحده. فقال له الامير: الهك يحب الصدق والحق؟ فقال

وفشل من تصديا لقتل معاوية وعمرو بن العاص في تحقيق هدفهم... ولكن عبدالرحمن بن ملجم الذى أخذ على عاتقه قتل على بن أبى طالب، نجح في مهمته اذ تربص له في المسجد عند صلاة الفجر وطعنه في المحراب بخنجر مسموم أعده لذلك وقيل بسيف وقتل قاتله ومُثّل به.

ولم يلبث على أن مات متأثرا بجراحه ودفن بالكوفة في المكان الذى يعرف بالنجف الاشرف.

وكانت وفاته ليلة الأحد في التاسع عشر من رمضان (يناير ٦٦١م) واختلف في عمره ساعة وفاته فمن قائل أن عمره كان ثلاثة وستين عاما بينما يقول البعض بل كان ثمانية وخمسين عاما فقط.

وعلى بن أبى طالب أشهر من أن يتحدث عنه، وهو الذى انفرد بتعظيمه جانب كبير من المسلمين الشيعة، حتى ليغلو بعضهم فيجعله فوق البشر، والمعتدل منهم لا يعترف بامامة غير امامته: ولا يفهم قيام مجتمع اسلامي لا يكون على راسه أحد من ذرية على أماما.

* بويع الامام الحسن بن على على أثر إستشهاد أبيه، وأول من بايعه قيس ابن سعد الأنصارى، وكان عمره ٣٧سنة.

* مقتل ابن ملجم ومقتل وردان بن مجالد وكلاهما ممن اشتركوا في إغتيال الامام على، أما الثالث وهو شبيب بن بجرة ففر هارباً في زحمة الناس.

له البطرك: الهى حق كله وليس فيه كذب بل يهلك كلمن ينطق بالكذب. فاجاب الامير وقال له: انت عندى صادق فمهما كانو النصارى قد دفعوه لك بسبب مطالبتى لك ادفعه لى وما اريد منك غيره. فقالو الكتاب للبطرك: افعل هذا. فقبل البطرك ذلك واطلقه الامير بمجد وفرح وسرور وبهجه نالت الارتدكسيين، وغم وخزى نال اعدا البيعه. وخرج البطرك المغبوط من دار الامارة راكبا والشعب حافون به وبين يديه وهو راكب دابته

سنة ٤١ هجرية

افتتحت السنة بيوم الجمعة الموافق ٧ مايو ٦٦١م.

* سميت هذه السنة عام الجماعة لاجتماع الأمة على خليفة واحد هو معاويه بن أبى سفيان.

* فى ربيع الآخر من هذه السنة (أكتوبر ٦٦١م) تم لقاء الحسن ومعاوية عند الأنبار، وكانا قد خرجا لقتال فسار الأول من الكوفة والثانى من الشام ثم اصطلحا وتنازل الحسن لمعاوية بالخلافة حقناً لدماء المسلمين، ولكن الخوارج ساروا لقتال معاوية منهم حوثرة بن وداع وفروة بن نوفل وشبيب بن بجرة.

* أصبح معاوية بن أبى سفيان خليفة بعد عشرين عاماً تولى فيها إمارة الشام، فنقل عاصمة الحكم من المدينة الى دمشق مؤسساً بذلك الدولة الأموية الوراثية.

* توالى تعيين أمراء الولايات من الأمويين: ففى مكة تولى عتبة بن أبى سفيان أول أمرائها من الأمويين، وعلى المدينة مروان بن الحكم جد الخلفاء المروانيين، وعلى البصرة بسر بن أبى أرطأة وخلفه فى العام نفسه عبدالله بن عامر للمرة الثانية، وعلى نيسابور قيس بن الهيثم، وعلى الكوفة المغيرة بن شعبة، وفيها استعمل عمرو بن العاص أمير مصر عقبة بن نافع على أفريقية.

* عاصر قيام الدولة الأموية بدمشق الامبراطور البيزنطى كونستانز الثانى، وفى روما البابا فيتاليان.

بالقراءة والترتيل حتى دخل الى البيعة وصلى على القصرية(*)، وغسل ارجل الشعب. ثم قدس وحمل السراير المقدسه وقرب الشعب وعاد الى قلايته برحمة الله ومعونته.

ونال المخالفين من ذلك خزى وغم كثير، واكثر من الكل الذين سعو به ولا سيما تاوفانس الريس على مريوط. وفى تلك الايام قبض الامير عليه اى على تاوفانس بسرعه وسلمه الى الكاتب فانفذه

(*) القصرية : هى غالباً ما يسمى الآن اللقان. وهو حوض صغير يوضع به ماء لغسل الاقدام كان قديماً يثبت فى أرضية مدخل الكنيسة. ويوجد اللقان بهذه الصورة فى بعض الكنائس الأثرية، أما الآن فإن غالبية الكنائس تستخدم لقاناً متنقلاً. ويستخدم اللقان ثلاث مرات فى السنة هى أعياد (الغطاس ، خميس العهد، الرسل).

سنة ٤٢ هجرية

٦٦٢م

* تحركت الخوارج بالنهروان وجمعوا صفوفهم وبايعوا المستور بن علفة التيمى وخاطبوه بأمير المؤمنين.

* بعث معاوية المغيرة بن شعبة إلى زياد بن أبيه وكان على فارس من قبل على فخدعه المغيرة وأنزله من قلعته وكان معتصماً بها ممتنعاً عن معاوية ثم قدم زياد بعد ذلك على معاوية فى الشام.

* تولى إمارة مكة خالد بن العاص للمرة الثانية.

* إفتتح عقبة بن نافع غدامس وهى مركز هام فى الصحراء الكبرى الافريقية.

* استؤنفت الغزوات شرقاً فتولى عبدالرحمن بن سمرة فتح سجستان للمرة الثانية، بينما سار راشد بن عمر مشرقاً وشن الغارات على السند.

* فى الثالث من شهر يناير من هذا العام طويت حياة الانبا بنيامين بطريرك الأقباط المصريين لتسع وثلاثين سنة، شهد فيها انسحاب الروم ودخول الفرس الى مصر ثم انسحابهم منها وعودة الروم، ومقدم المسلمين وانسحاب الروم.

الى السجن ثم قتله بعد عذاب شديد ومضى الى الجحيم، والله صانع العجايب وحده رزق الاب البطرك قبولا ونعمه عند الامير فامر فى جميع المدينه ان لا يخاطب احد البطرك الا بالخطاب الحسن ولا يذكر فيه كلمة سو ولا يعترض له احد فيما يريده ولا فى خروج ولا فى دخول فى المدينه. حينذ وجدو الزمان وساعدوه الاراخنه والكتاب المومنون وجميع الشعب الارتدكسى حتى اوفى

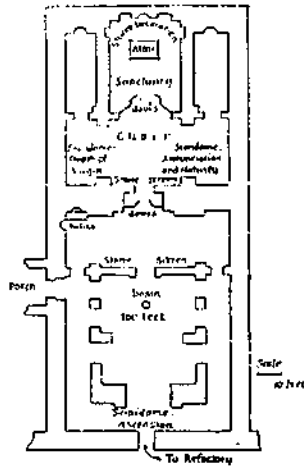

أديرة وادى النطرون: مخطط : يظهر فيه التخطيط الداخلي لدير السوريان وكنيسة العذراء.

سنة ٤٣ هجرية

* تولى على السند عبدالله بن سوار العبدى الذى قتل فى إحدى غزواته، وتولى على خراسان عبدالله بن خازم من قبل عبدالله بن عامر.

* تجددت أعمال الفتوح فشملت شتى الجهات: ففى المشرق إستعاد عبدالرحمن بن سمرة سجستان مستولياً على زرنج وكابل وبست وغزنة، وفى الشمال غزا بسر بن أرطاة بلاد الروم، وفى الغرب أوغل عقبة بن نافع فى بلاد السودان، كما أوغل رويفع بن ثابت فى بلاد أفريقية (تونس).

* واصل عقبة بن نافع فتوحاته الأفريقية ففتح كوراً من السودان (الغربى).

* جرت موقعة حاسمة بين جيش معاوية والخوارج وفيها قتل زعيمهم المستور بن علفة فى مبارزة مع معقل بن قيس الذى لقى نفس المصير.

* توفى فى هذه السنة أمير مصر عمرو بن العاص وذلك فى السنة الخامسة من ولايته الثانية على مصر وذلك ليلة عيد الفطر من السنة (٦ يناير ٦٦٤م) ودفن فى سفح جبل المقطم، غير أن قبره غير معروف حتى اليوم.

امارة عتبة بن أبى سفيان:

ولى معاوية أخاه لأبيه عتبة بن أبى سفيان امارة مصر على الصلاة، بينما يقول الطبرى فى

الامير ما قرر له. ومن بعد ذلك ساعدوه ايضا في بنيان بيعه الشهيد الجليل الانجيلي مارى مرقس وكملها في تلت سنين بكل زينه، واشترى لها رباعا بمصر وفي مريوط واسكندريه وبنى طاحون كعك ومعصرة زيت حار ودورا كثيرة جعلها لبيعة القديس مارى مرقس وباركه الرب من كل وجه في أعماله وكلامه.

وفي ايامه اشتركو الارتدكسيون مع اهل اغراوه

أحداث عام ٤٣ أن معاوية ولى عبدالله بن عمرو بن العاص بعد موت أبيه فوليها فيما زعم له الواقدى نحوا من سنتين.

وقد حسم المقريزى هذه القضية بقوله ان عمرو بن العاص استخلف ابنه عبدالله قبل وفاته فولى صلاة مصر، قبل أن يولى عليها معاوية أخاه عتبة، وقد قصد عتبة بعد ذلك الى الاسكندرية ليقيم بها مرابطا واستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهنى.

سنة ٤٤ هجرية

وافق مستهل المحرم يوم الخميس ١٤ ابريل ٦٦٤م.

* السنة الثانية لولاية عتبة بن أبي سفيان على مصر.

* وهى نفس السنة التى توفى في الشهر الأخير منها بالاسكندرية إذ لم يدم حكمه سوى ١٢ شهراً.

* تولى فى آخر هذه السنة عقبة بن عامر الجهنى إمارة مصر، وفيها تولى عبدالله بن خالد إمارة مكة للمرة الثانية، وتولى على البصرة الحارث الأزدى خلفاً لعبدالله بن عامر الذى عزل، وعلى نيسابور تولى الحكم الغفارى.

واهل سخيطس(*) لانهم كانوا خلقدونيين وكانت نعمة المسيح تعينه وتقويه.

(*)اهل سخيطس : هم رهبان وادى سقيط: وادى النطرون،وكانوا من الخلقدونيين.

وسال الرب ان يظهر له من يصلح لان يجلس بعده على الكرسى، فلما علم عن اخ عالم فضيل مشتمل بكل فضيله متعبد فى دير القديس ابى مقار بوادى هبيب اسمه اسحق، كان هذا قد صار ولدا روحانيا لاسقف اسمه زخريا مملو من نعمة روح القدس فى هيبته ووقاره واتضاعه [تواضعه]

---

* غزا المهلب بن أبى صفرة أرض السند وهى أولى غزواته، بينما فتح عبدالرحمن بن سمرة كابل، وأوغل عبدالرحمن بن خالد (ابن الوليد) فى بلاد الروم وشتى بها، بينما غزا بسر بن أرطأة فى البحر.

سنة ٤٥ هجرية

استهل المحرم بيوم الاثنين الموافق ٢٤ مارس ٦٦٥م.

* تولى زياد بن أبيه إمارة البصرة بعد أن تولاها الحارث الأزدى أربعة أشهر ثم تولى على العراق كله، وكان معاوية قد استلحقه أى نسبة إلى أبيه أبى سفيان فى السنة التى مضت.

* السنة الأولى لإمارة عقبة بن عامر على مصر، وفيها عاد خالد بن العاص إلى إمارة مكة للمرة الثالثة ودامت إمارته ٣ سنوات.

* شملت الفتوح شمال إفريقية على يد معاوية بن حديج، والقيقان من بلاد السند على يد عبدالله بن سوار العبدى.

وحسن اعماله فكتب القديس يوحنا البطرك فاحضره اليه وكان يحفظه مثل حدقة العين، وكان الاخ اسحق مجتهدا فى أعمال الله وفى الكتابة والنسخ. وكان قد امره البطرك مع ذلك بمشاركته له فى الاعمال البيعيه، فحدث غلا فى ايام القديس يوحنا البطرك المذكور اقام تلت سنين واعان الله هذا الاب على القيام بحال ضعفا المدينه تلت سنين وألا كانو هالكين من الغلا، وكان يدفع لهم قوتهم دفعتين فى كل جمعه ويدفع ايضا لهم

سنة ٤٦ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الجمعة ١٢ مارس ٦٦٦م

* ولى معاوية الربيع بن زياد الحارثى حكم سجستان خلفاً لعبدالرحمن ابن سمرة فزحف الترك على كابل حتى نزح عنها المسلمون ثم إلتقى بهم الربيع عند بست وهزمهم وأنطلق وراءهم حتى رخج من نواحى سجستان، وفى الشمال شتى المسلمون بأرض الروم.

* فيها توفى عبدالرحمن ابن خالد بن الوليد وكان قد قضى الشتاء بأرض الروم غازياً فلما بلغ حمص (وفيها توفى أبوه) قيل سقاه إبن أثال شربة مسمومة بايعاذ من معاوية خشية بأسه وعظم شأنه عند عرب الشام،

كان اهتمام معاوية بن أبى سفيان الأول موجها نحو سيادة المسلمين على البحر اتقاء لهجمات القسطنطينية وتمهيدا لغزو القسطنطينية نفسها فعهد الى عقبة بن عامر الجهنى ان يحتل جزيرة رودس بأسطول مصرى فأقدم عقبة على تحقيق المهمة التى نيطت به وخرج بأسطوله قاصدا صوب رودس.

---

٤٠ : يوحنا ٦٧٧ / ٦٨٦م

دراهم. وكانت طاحونة الكعك لا تبطل لا ليلا ولا نهارا بل تعمل للمنقطعين، وكانت عينه ملاى، وكان كتير الصدقه وكان يدفع صدقات كتيره مثل البحر وما كان يعجز عن شى فى اعماله المرضيه لله كما فعل يوحنا الانجيلى. فلحقه وجع فى رجليه من النقرس وتعذب فى ذلك كثيرا جدا حتى ان الاطبا كانو يعالجونه بمشورة اهله وأخوته المحيطين به، ثم سار عبدالعزيز الى مصر فخرج صحبته الى ان وصل الى مصر فلحقه نخس فى

---

* بعث معاوية بن ابى سفيان مسلمة بن مخلد ليكون أميرا على مصر، ولكنه طلب منه أن يخفى نبأ توليه حتى يبارح عقبة بن عامر مصر بأسطوله.

وقد جمع معاوية لمسلمة بن مخلد صلاة مصر وخراجها.

سنة ٤٧ هجرية

وافق مستهل المحرم يوم الأربعاء ٣ مارس ٦٦٧م.

* عزل معاوية عقبة بن عامر عن إمارة مصر بعد أقل من ثلاث سنوات وولاها مسلمة بن مخلد وجمع له الصلاة والخراج ومد ولايته إلى شمال المغرب، وفيها سار رويفع بن ثابت الأنصارى أمير طرابلس إلى أفريقية (تونس) واستعاد جزيرة جربة، وفى أقصى المشرق لم تنقطع المعارك بين المسلمين والترك وفيها قتل عبدالله بن سوار العبدى على حدود الهند وسائر جيشه، وفى الشمال شتى مالك بن هبيرة بأرض الروم.

* وفيها أنفذ زياد أمير العراقين الحكم بن عمرو الغفارى الى خراسان فغزا جبال الغور وكانت قد ارتدت.

جنبه فاخبرو الامير بذلك فحزن عليه وانفذ الكتاب ليفتقدوه واعدو له مركبا لينحدر الى اسكندرية، وكان كاتب هذه السيرة معه لانه ولده، فلما وصل الى مدينة اسكندرية وصل الخبر الى جماعة الاساقفه انه متوعك فدخلو اليه، وكان صحبتهم اغريغوريس اسقف القيس. وابا يوحنا اسقف نيقيوس، وابا يعقوب اسقف ارواط وأبا يوحنا أسقف سخا وأبا تيدر اسقف مليدس وجماعه من الشعب، وكانو كلهم حزانا لما راو

احد وجهاء القبط وشكل عمامته

سنة ٤٨ هجرية

الأول من المحرم وافق يوم الأحد ٢٠ فبراير ٦٦٨م.

* السنة الأولى لولاية مسلمة بن مخلد على مصر وهى التى إمتدت أكثر من ١٥ عاما وهو أول أمير جمع بين حكم مصر وأفريقية وكان ممن إشترك فى فتح مصر مع عمرو بن العاص.

* تولى إمارة السند سنان بن سلمة خلفاً لعبد الله بن سوار الذى قتل فى حرب الترك من قبل زياد أمير المشرق كما ولى غالب بن فضالة على خراسان، وفيها تولى إمرة المدينة سعيد بن العاص خلفاً لمروان بن الحكم الذى عزله معاوية (وقيل فى السنة التالية).

* فى هذه السنة لقى الامبراطور البيزنطى كونستانز الثانى مصرعة فى سيراكوز بجزيرة صقلية وخلفه ابنه باسم قسطنطين الرابع الذى عاصر الغزو العربى للقسطنطينية نفسها.

سنة ٤٩ هجرية

استهل المحرم بيوم الجمعة الموافق ٩ فبراير ٦٦٩م.

* تميزت أحداث هذه السنة بالحملة البحرية التى نظمها معاوية لحرب الروم حتى بلغت

راعيهم يدعى من الارض الى السما، وانه لم يقم في جيلهم من يشبه افعاله. ولما وصل الى بيعة القديس مارى مرقس الانجيلى التى بناها باحكام الله الغير مدروكه حملوه ودخلو به الى المذبح الكبير فوقف بقوة الروح وقال صلاة الشكر على كمالها، فغاب حسه فحملوه ودخلو به مخدعه فاسلم الروح فى يد السيد المسيح بمجد وكرامه.

وكانت مدة مقامه على الكرسى تسع سنين وتنيح فى اول يوم من كيهك(*) وجعل جسده فى

(*) سنة ٣٩٢ = ٤٠٢ق =٦٨٦م.

- -

أسوار القسطنطينية لأول مرة وكانت تحت إمرة سفيان بن عوف واشترك فيها يزيد بن معاوية.

حرض مسلمة بن مخلد معاوية على غزو القسطنطينية ولابد أنه هيأ لمعاويه الأسطول اللازم لهذه الغزوة، فقد كانت مصر فى هذه الفترة القاعدة الرئيسية للاسطول الاسلامى وقرر معاوية أن يكون غزو القسطنطينية من البر والبحر معا ووضع الحملة تحت قيادة ابنه يزيد، الذى لم يخف سريعا لتولى القيادة.

واستطاعت الجيوش البرية أن تتوغل فى آسيا الصغرى حتى وصلت الى مشارف القسطنطنية في الوقت الذى حاصرت الأساطيل المدينة نفسها، وقد دام الحصار الذى فرض على المدينة ست سنوات، وهو أخطر حصار تعرضت له، ولم ينجها منه الا توفيق البيزنطيين الى اكتشاف سلاح رهيب فى هذه الفترة وهو ما أشتهر باسم النار الاغريقية حيث كان يتعذر اطفاؤها فكان هذا السلاح المفاجيء حاسما فى تدمير السفن الاسلامية، وفشل الغزوة بعد كل الجهود المضنية التى بذلت: واضطر معاوية فيما بعد الى ابرام معاهدة صلح مع بيزنطة مدتها ثلاثون سنة.

* لقى الخطيم الباهلى زعيم الخوارج مصرعه بالبصرة على يد زياد أمير العراقين الذى أمر

المكان الذى بناه لنفسه قبل نياحته فى كنيسة مارى مرقس الرسول بقرا [ء]ة وتسابيح صاعده الى الله الذى له المجد والوقار والتسبيح والعظمه والقدره الى ابد الابدين امين.

السيره السادسة عشره من سير البيعه المقدسه

اسحق البطرك وهو فى العدد الحادى والاربعون

[٦٨٦ / ٦٨٩م]

هذا الاب ابا اسحق الذى ظهر للاب ابا يوحنا

به فقتل، كما لقى مصرعه خارجي آخر هو شبيب الأشجعي (غير الثائر شبيب الشيباني) وذلك على يد كثير بن شهاب بأرض أذربيجان.

سنة ٥٠ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الثلاثاء ٢٩ يناير ٦٧٠م.

* في هذه السنة كسفت الشمس حتى رؤيت النجوم في المدينة نهاراً، وتذكر اسطورة أن معاوية أراد أن ينقل منبر الرسول إلى دمشق فكسفت الشمس.

* وضع عقبة بن نافع نواة مدينة القيروان لتكون عاصمة للمسلمين في إفريقية واتخذها بعيداً عن ساحل البحرر بمأمن من غارات الروم وهى المدينة الإسلامية الثانية بافريقية بعد الفسطاط.

* استشرى الطاعون بالكوفة وهو رابع طاعون في الإسلام وتوفى به عدد من أعيان الدولة.

* جمع معاوية إمارة البصرة والكوفة (أى العراق كله) لزياد بن أبيه وهو أول من جمعت له وكان يقيم فى كل منهما ستة أشهر، وفيها وجه الربيع الحارثى إلى خراسان فاستعاد بلخ وفتح قوهستان عنوة.

انه يجلس بعده بسواله ورغبته على ما تقدم ذكره، لان الكتاب يقول: «ان الرب يفتقد اصفياه». وقال ايضا: «لا ياخذ احد كرامه من نفسه الا ان يعطاها من عند الرب من السما». وقال فى المزمور: «طوبى لمن اصطفيته وقبلته اليك».

ولما ان مضى ابا يوحنا الى الرب بالتذكار الجيد اجتمعو(*) الاساقفه، وكان مقدمهم اسقف القيس اغريغوريس، ويعقوب اسقف ارواط، ويوحنا اسقف

(*) أزمة بين رجال الكنيسة حول تعيين البطرك اسحاق ومحاولة بعضهم تعيين بطرك آخر.

---

* وفي هذه السنة (٥٠هـ) فى شهر ربيع الاول توفى الحسن بن على بن أبى طالب وينسب البعض الى يزيد بن معاوية أنه تسبب في موته بأن تآمر مع زوجة الحسن جعده بنت الاشعث بن قيس الكندى على وضع السم له مما أدى لموته.

سنة ٥١ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم السبت ١٨ يناير ٦٧١م.

* مرت عشر سنين على خلافة معاوية بن أبى سفيان أول الأمويين، وفيها حج معاوية بالناس وأخذهم ببيعة ابنه يزيد.

* غزا بسر بن أرطأة الصائفة وشتى فضالة بن عبيد بأرض الروم.

* تولى الربيع بن الحارث إمارة خراسان من قبل زياد وسير معه خمسين ألفا من المسلمين من أهل الكوفة والبصرة مع أسرهم ليستوطنوا خراسان، وفيها عاد وفتح بلخ للمرة الثانية صلحا.

* تولى إمارة السند أبو الأشعث العبدى خلفاً لراشد الازدى ودامت إمارته عشر سنين.

* فيها كان مقتل الصحابى حجر بن عدى وكان يلقب حجر الخير مع ستة من أصحابه

نقيوس، وجماعه من الاساقفه والشعب المسيحى، تشاورو مع كهنة اسكندرية فاشركو معهم الكاتب المتولى واتفقو فى ان يقدمو الشماس جرجة الذى من سخا بطركا من غير مشاوره الامير عبدالعزيز. وقالو: ان هو وجد علينا أو تقمقم قلنا له ان ابا يوحنا البطرك تقدم الينا ان يكون هذا يجلس مكانه من بعد وفاته واخذ علينا عهودا وايمانا بذلك فلم يمكنا مخالفته. ثم اخذو الشماس جرجه واقسموه قسا والبسوه اسكيم الرهبنه، ثم

متهمين بالتشيع لآل البيت أرسلهم زياد من الكوفة إلى معاوية بدمشق فأمر بهم فقتلوا بمرج غدراء (بالقرب من دمشق).

سنة ٥٢ هجرية

وافق مستهل المحرم يوم الخميس ٨ يناير ٦٧٢م.

* حج بالناس فى هذه السنة أمير المدينة سعيد بن العاص.

* جرى الصلح بين عبيد الله بن أبى بكرة وبين رتبيل أمير كابل على مليون درهم وكان على السند أبو الأشعث، وفيها شتى سفيان بن عوف (قائد حملة القسطنطينية) بأرض الروم، بينما غزا الصائفة (ضد الروم) محمد بن عبدالله الثقفى.

* فيها استشرت ثورة زياد العجلى على الأمويين بالعراق فقاتله زياد بن ابيه وقضى عليها وفيها قتل العجلى.

* فيها توفى بمصر معاوية بن حديج قائد الكتائب ممن شهد صفين مع معاوية والذى أخذ بيعة أهل مصر له بعد مقتل محمد بن أبى بكر أميرها من قبل على ثم غزا المغرب وصقلية.

نادو فى البيعه ان فى غد يقسم البطرك وسهو عن قول الكتاب [المقدس]: الرب يغدر ارا [ء] الامم ويبطل افكار الشعوب ويوقف امور الملوك». ولما كان بالغداه البسوة ثوب البطركيه واعدو حوايجهم واخرجوه بتعظيم وكانو مجتهدين فى اصلاحه، واجتمعو بارشيدياقن المدينه وكان اسمه مرقس وكان رجلا فهما فاضلا مميزا فى المدينه، فمنعهم وقال: ان لم تيجو يوم الاحد على ما جرت به العادة فى القوانين ويجتمع جميع اهل

- -

سنة ٥٣ هجرية

الأول من المحرم وافق الاثنين ٢٧ ديسمبر ٦٧٢م.

* استولى الصحابى جنادة الأزدى على جزيرة رودس، وكان قد اشترك فى غزو مصر، وفى هذه السنة قاد حملة بحرية أنفذها معاوية لغزو الجزيرة فاستولى عليها كما استولى الفاتحون على تمثالها المشهور الذى كان يعتبر إحدى عجائب الدنيا السبع القديمة.

* فى مقابل غزو المسلمين لجزيرة رودس من الروم قام البيزنطيون بغزو ساحل مصر عند بحيرة البرلس والأمير عليها مسلمة بن مخلد للسنة السادسة فردهم وفيها قتل عابد بن ثعلبه البلوى ووردان مولى عمرو بن العاص، وعائذ بن ثعلبة.

* استعمل معاوية على الكوفة الضحاك الفهرى خلفاً لزياد بن أبية، وعلى مكة عمرو بن سعيد بن العاص الذى استمر عليها حتى ثورة عبدالله بن الزبير، وفيها استعمل على البصرة سمرة بن جندب من طرف زياد أمير المشرق كله، بينما ولى ابنه عباد بن زياد على سجستان فاستولى على قندهار كما أمر ابنه عبيد الله ابن زياد على نيسابور (خراسان).

المدينه والا فما اوسمه. وهذا امر من الله ليقدم من اصطفاه اولا وهو ابا اسحق الراهب من اهل شبرا. فلما كان بالغداة وصل قوم من اصحاب الامير وقالو اين الذين اوسموه بطركا واين الاساقفه والكهنه الذين اوسموه بطركا نمضى بهم الى مصر موكلين بهم، فاخذوهم وسارو. فلما كشفو الامر وجدو الكتب تشهد انه ليس الذى قال عنه ابا يوحنا فى حياته، فغضب الامير عبدالعزيز وبطل

سنة ٥٤ هجرية

استهلت السنة بيوم الجمعة الموافق ١٦ ديسمبر ٦٧٤م.

* عبر المسلمون نهر جيحون (أموداريا) بأسيا الوسطى لأول مرة بقيادة عبيد الله بن زياد وسار نحو بخارى وافتتح بعض نواحيها، وفيها غزا ابن هبيرة الشيبانى طبرستان (جنوبى بحر قزوين) فصالحه أهلها على نصف مليون درهم.

* ولى معاوية على المدينة مروان بن الحكم للمرة الثانية خلفاً لسعيد ابن العاص، وعلى البصرة ابن غيلان الثقفى خلفاً لسمرة بن جندب، وكان على خراسان خليد بن يربوع وعلى الكوفة عبيد الله بن خالد.

سنة ٥٥ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأربعاء ٦ ديسمبر ٦٧٤م.

* ولى معاوية فى هذه السنة أبا المهاجر دينار على أفريقية خلفاً لعقبة بن نافع الذى عزله، كما عزل ابن غيلان الثقفى وولى البصرة عبيدالله بن زياد، كذلك ولى الضحاك بن قيس على الكوفة.

امر جرجه وامر بتقديم اسحق، وكان الامر من الله [ليقدم من أصطفاه]، فمضو به الاساقفه واوسموه. وجلس على الكرسى تلت سنين وكان الرب معه يعينه حتى اقام البيعه الكبيره التى للقديس مرقس لما مالت حيطانها والابسقوبين. وعلى يديه تجددت قداديس بيع الارتدكسيين التى لم يتمكنو من أن يفعلوها اولا. وبنى بيعه الحلوان لان فى ذلك الموضع كان يمضى الامير عبدالعزيز وكان قد امر

سنة ٥٦ هجرية

افتتحت السنة بيوم الأحد الموافق ٢٨ نوفمبر ٦٧٥م.

* اعتمر معاوية فى رجب من هذه السنة مستطلعاً الرأى فيما اعتزمه من تولية ابنه يزيد الخلافة من بعده والبيعة له.

* غزا سعيد بن عثمان بن عفان سمرقند وقاتل الصغد وهزمهم وكان من قواده المهلب بن أبى صفرة وطلحة الطلحات، وكان سعيد قد تولى على خراسان بعد عزل عبيد الله بن زياد، وصالحه الصعد وأعطوه رهناً ٥٠ غلاماً من أبناء عظمائهم وفيها غزا يزيد بن شجرة فى البحر.

سنة ٥٧ هجرية

* غزا البحر جنادة بن أمية فاتح رودس، وغزا الروم عبدالله بن قيس ومالك ابن عبدالله الجثعمى.

اراخنة الصعيد وساير الكور ان يبنى كل واحد منهم لنفسه مسكنا بحلوان المدينة.

وفى تلك الايام كتب(*) البطرك الى ملك الحبش وملك النوبه ان يصطلحا ولا يكون بينهما سجس وذلك لخلف كان بينهما، فسعى قوم من اهل المكر الى عبدالعزيز [وأخبروه بذلك] فغضب جدا وانفذ من يحضره ليقتله، فكتبو الكتاب كتبا غير الكتب ودفعوها الى الرسل الذين انفذهم الى

(*) كانت الديانة السائدة فى الحبشه والنوبة هى المسيحية على مذهب الكنيسة المصرية التى كانت تملك سلطانا روحيا على المملكتين وتقيم لهم الاساقفة. ولكن بسبب قيام مملكة النوبة بالإغارة المستمرة على الحبشة من أجل جلب الرقيق لبيعهم فى اسواق الخلافة بحسب الاتفاق القديم بينهم وبين عثمان بن عفان، قامت عدة حروب محدودة بينهما. انظر كذلك ص٩١٥ وما بعدها الهامش السفلي.

سنة ٥٨ هجرية

الأول من المحرم الموافق يوم الثلاثاء ٣ نوفمبر ٦٧٧م.

* نشبت ثورتان للخوارج الأولى فى الكوفة وتزعمها حيان بن ظبيان السلمى، والثانية فى البصرة تزعمها طواف الهثهاث ولكن قضى عليها وقتل حيان وطواف، كما قتل من زعمائهم عروة بن أدية على يد زياد.

* ولى معاوية ابن اخته عبدالرحمن بن أم الحكم على الكوفة فثارت عليه المدينة وأخرجته لسوء سيرته ثم ولاه أمر مصر فطرده منها معاوية بن حديج وكان ذا شأن فى خلافة معاوية، حتى كانت تزين له الطرق عند قدومه دمشق.

* أعاد عقبة بن نافع غزو بلاد تونس واختط مدينة القيروان وبنى مسجدها.

* كان مسلمة بن مخلد قد بعث عقبة بن نافع لاعادة فتحى افريقية التى كانت قد انتقضت على الحكم الاسلامى، فأعاد فتحها وأسس مدينة القيروان.

* فيها توفى عقبة بن عامر أمير مصر وضريحه مازال قائما بقرافه الإمام الشافعى.

الحبشه، واخذو تلك الكتب منهم خوفا على البطرك، وانما فعلو هذا الامر ليلا يلحق البيعة ضرر. ومن قبل ان يصل البطرك الى الامير عرفوه ان الرسل هاهنا ومعهم الكتب فانفذ سرعة طلبهم واخذ الكتب، فلما وقف عليها لم يجد شيا مما ذكر له فسكن غضبه وانفذ للوقت واعاد البطرك الى اسكندريه. ولم يدعه بعد هذا يصعد الى القبلة [مقابلته]، حينذ أمر بكسر جميع الصلبان التى فى كورة مصر حتى صلبان الذهب والفضه. فاضطربو

رسم للسيدة مريم فى حالة تعبد. من الحبشة.

سنة ٥٩ هجرية

وافق أول السنة يوم السبت ٢٣ اكتوبر ٦٧٨

* غزا أبو المهاجر دينار أمير أفريقية الاندلس حتى نزل على مدينة قرطاجنة ثم افتتح بلدة مليلة وهى إلى الشرق من بجاية وقضى فى حملته نحو عامين.

سنة ٦٠ هجرية

افتتحت السنة يوم الخميس الموافق ١٣ اكتوبر ٦٧٩

* فى رجب من هذه السنة على الأرجح توفى معاوية ابن أبى سفيان مؤسس الدولة الأموية وكانت سنه عند وفاته سبعا وسبعين سنة وقد دامت خلافته عشرين عاما وكان قبلها أميرا على الشام لعمر وعثمان، وأسلم معاوية قبل أبيه.

وأبوه سفيان بن حرب الذى تولى حرب المسلمين وظل على شركه حتى كان فتح مكة فدخل الاسلام مكرها. وقيل أن معاوية قد أسلم قبل فتح مكة وان كان قد أبقى اسلامه فى الخفاء خوفا من أبيه.

نصارى ارض مصر. ثم كتب عدة رقاع وجعلها على ابواب البيع بمصر والريف ويقول فيها: «محمد الرسول الكبير الذى لله، وعيسى ايضا رسول الله، وان الله لم يلد ولم يولد.

ثم ان الطوباني [اسحق] تنيح ومضى الى الرب بسلام وهو حافظ الامانة الارتدكسيه لابس اكليل البر مع جميع القديسين. وبعد نياحته جعل جسده في المكان الذى أنشاه في بيعة مارى مرقس بقراء[ء]اة وتسبيح.

وهو ينطوى على اخلاق مؤسسى الأسرات الحاكمة فى كل زمان ومكان عندما لا يتحرجون من شيء لبلوغ غرضهم، وهم فى نفس الوقت منطوون على مهارات وقدرات فائقة وسعة صدر وحكمة ودهاء واستعداد للبطش من ناحية أخرى.

على أن سقطة معاوية الكبرى التى لا تحتمل دفاعا من أى نوع كان. هى فرض ولاية العهد من بعده لابنه يزيد الذى كان يعرف عدم صلاحيته لهذا المنصب من كافة النواحي فقد كان كل همه الصيد والشراب والمجون... فدل ذلك على أنه قد حكم هواه، وكان معنى ذلك، أنه حول منصب الخليفة الى منصب وراثى قد يتولاه البله أو المجانين أو المفسدين فى أكثر الأحوال كما حدث بعد ذلك.

سنة ٦١ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الاثنين الأول من اكتوبر ٦٨٠م.

* السنة الأولى من خلافة يزيد بن معاوية، والرابعة عشرة من ولاية مسلمة ابن مخلد على مصر.

وكان الشعب والكهنة مهتمين فى من يقدمونه بعده على كرسى البطركيه. ووقع بين كهنة مارى مرقس الانجيلى وكهنة بيعة الانجيليون فى المدينة خصام(*)، قوم يقولون لاجل يوحنا الاغومنس بدير الزجاج ويسمى بالروميه «طورهانتون»، انه مستحق لهذا لانه رجل عالم كاتب وكان اشين الكاتب المتولى، واخرون يقولون عن انسان اسمه بقطر اغنومنس دير (تفسر) [تابوصيرص] وكان ايضا رجلا فاضلا. ثم عرفو اهل بيعة الانجيليون لاجل

(*) النزاع بين رؤساء الكنيسة القبطية حول تعين البطرك الجديد عقب وفاة البطرك اسحاق.

---

* شهد العام النزاع المسلح بين يزيد والعلويين وعلى رأسهم الامام الحسين وقد بدأت مقدماته منذ وفاة معاوية فى العام الماضى وامتناع الحسين وعبدالله ابن الزبير (ابن عمة الرسول) خاصة وخرج كلاهما من المدينة إلى مكة.

* جرى اللقاء الحاسم بين الامام الحسين وشيعته وجيش الأمويين بقيادة عبيد الله بن زياد عند كربلاء في يوم عاشوراء الموافق العاشر من المحرم وهو ما عرف بيوم كربلاء الدامى وفيه قتل الحسين كما قتل من اخوته جعفر وعتيق ومحمد والعباس كما قتل ابنه الأكبر على وعبدالله وابن أخيه القاسم ابن الحسن وابنا مسلم بن عقيل وعبدالله وعبدالرحمن وغيرهم.

* ولى يزيد على المدينة الوليد بن عتبة للمرة الثانية بعد أن عزل عمرو بن سعيد وحج بالناس.

سنة ٦٢ هجرية

استهل المحرم بيوم الجمعة الموافق ٢٠ سبتمبر ٦٨١م.

* ولى يزيد إمارة المدينة ابن عمه عثمان بن محمد بن أبى سفيان وهو الذى حج بالناس

يوحنا ففرحو وساعدهم الكاتب لانها البيعه الكبيره وفيها مايه واربعون كاهنا. فكتب لهم تاودرس ارخن مدينة اسكندرية الى الامير عبدالعزيز يذكر له يوحنا اغومنس دير الزجاج هو الذى وقع اختيار الجمع عليه ان يصير بطركا(*).

ومدة مقام ابينا البطرك انبا اسحق على الكرسى الرسولى سنتان وتسعة شهور وتنيح فى اليوم التانى من هتور ومضى الى السيد المسيح حافظا امانته

(*) لعله بسبب الخلاف السابق بين اساقفة الاسكندرية، قرر الوالى عبد العزيز أن يكون انتخاب البطرك فى بابليون الفسطاط. ومنذ هذا التاريخ حتى القرن الحادى عشر الميلادى والبطاركة ينتخبون فى بابليون ولكن رسامتهم كانت تتم فى كنيسة الملاك بالاسكندرية.

فى هذه السنة، وفيها أعاد يزيد إمارة افريقية لعقبة بن نافع الذى قاد الحملة الثانية والكبرى لفتح شمال افريقية، بدأها من برقة وانتهى الى ساحل المحيط الأطلسى عند موقع ميناء أغادير الحالية، ولكن عند عودته لقى مصرعه؛ وفى أقصى المشرق غزا أسلم خوارزم وصالحوه على مال . وتولى امارة مصر سعيد ابن يزيد لمسلمة بن مخلد بعد وفاته.

* أعلن عبدالله بن الزبير إصراره على رفض مبايعة يزيد وصد عن مكة جيشا ارسله يزيد بقيادة اخيه عمرو بن الزبير وحبس اخاه الذى توفى تحت السياط.

* توفى فى هذه السنة أمير مصر مسلمة بن مخلد الأنصارى الذى تولى منصبه ١٥ سنة و٤ أشهر متوالية وهو أول من جمع له حكم مصر وافريقية. وأول من احدث المنابر والمساجد وهو الذى هدم ما بناه عمرو واعاد بناء مسجد الفسطاط وتوسيعه، وكان قد اشترك فى فتح مصر مع عمرو، توفى بالاسكندرية يوم ٢٥ رجب (٩ ابريل ٦٨٢).

سنة ٦٣ هجرية

وافق الأول من السنة يوم الأربعاء ١٠ سبتمبر ٦٨٢م.

* اعلن عبدالله بن الزبير فى مكة خلع يزيد من معاوية من الخلافة وأعلن نفسه خليفة

ضابطا رعيته. وقد ذكر لى فى نسخة اخرى انه اقام فى البطركية تلت سنين. الرب يرحمنا بصلاته وصلاة من ارضاه باعماله امين.

سيمون(*) [سيماون] البطرك

وهو من العدد التانى والاربعون

[٦٨٩ / ٧٠١م]

وكان معه فى الدير رجل قديس خايف من الله فاضل عالم اكثر من جماعه فى جيله اسمه

(*) البطرك سيمون من أصل سرياني ولكنه كان على مذهب الكنيسة المصرية. وكان تعيينه أحد أسباب الوفاق بين الكنيستين المصرية والسريانيه في هذا الوقت. ولكن بسبب توبيخه الشديد للأساقفه وأنعزاله عنهم دبروا له مؤامرة أدت إلى موته مسموما.

للمسلمين، وامتدت الثورة على يزيد إلى المدينة بالرغم من الوفد الذى ارسله واليها عثمان بن محمد إلى دمشق ومبعوث يزيد إلى المدينة النعمان بن بشير وتزعم ثورة المدينة عبدالله ابن حنظلة (وهو ابن الصحابى الشريد الذى حكى ان الملائكة غسلته).

* انتدب يزيد لقمع ثورة الحجاز مسلم بن عقبة على رأس ١٢ ألف سار بهم إلى المدينة، وقبل نهاية السنة جرت وقعة الحرة (موقع فى شمال شرقى المدينة) وتعرف بحرة واقم وفيها هزم أهل المدينة وأحرقها بعد القتل و الفسق وفعل ما لا يفعل وبلغ عدد من قتل من الأنصار والمهاجرين بها ٣٠٦ ولذا لقب قائد يزيد مسرفة بن عقبة، لأسرافه فى القتل فى ٣١ أغسطس ٦٨٢، وسار من المدينة إلى مكة يريد ابن الزبير ولكنه مات فى الطريق.

* فى افريقية تولى زهير البلوى القيادة بعد مقتل عقبة بن نافع على يد كسيلة قائد البربر ولكنه هزم بدوره فاخلى القيروان ولجأ إلى برقة.

سنة ٦٤ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأحد ٣٠ أغسطس ٦٨٣م.

* تعددت الفتن والثورات فشملت الحجاز والشام ومصر وشمال أفريقية، وتعدد الخلفاء الذين تولوا عرش الأمويين.

سيمون من اهل المشرق جاباه ابواه الى اسكندريه منذ صباه ودفعاه قربانا للبيعه، مثل صمويل، اجل [لأجل] جسد القديس مارى سويرس، لانه فى تابوت فى ذلك الدير. وكانوا السريان يجيبون له قرابين ونذور. ثم ان تادرس المذكور اخذ سيمون اولا من ايام انبا اغاتون ومضى به الى ابا يوحنا لما كان شمسا ليعلمه قوة الكتابه وفصول الكتب [والعلوم البيعيه]. وبنعمة السيد المسيح الذى معه تعلم [الكتب] العتيقة واشيا كتير من الكتب

---

* أعلن ابن الزبير حقه فى الخلافة فأقام على المدينة أخاه عبيد الله، وعلى الكوفة عامر بن مسعود، وعلى البصرة عمر بن عبدالله التيمى، وعلى خراسان عبدالله بن حازم، وفيها حج بالناس عبدالله بن الزبير.

* تولى الحصين بن نمير السكونى قيادة جيش الأمويين بعد وفاة مسلم بن عقبة فلما بلغ مكة حاصرها ورمى الكعبة بالمنجنيق.

* شهد العام وفاة الخليفة يزيد بن معاوية فى ١٤ ربيع الأول (١١ نوفمبر) وله من العمر ٣٨ سنة.

* تولى الخلافة معاوية (الثانى) بن يزيد ثالث الخلفاء الأمويين ولكنه لم يلبث أن خلع نفسه بعد حوالى أربعين يوما. وبعد أن خلع نفسه دخل داره فتغيب حتى مات، فاضطربت أحوال بنى أمية فى الشام بالاضافة إلى إستقلال ابن الزبير بالحجاز وتعيينه ولاة من قبله على أكثر الأمصار بما فيها مصر الذى جعل عليها عبدالرحمن بن جحدم، ومات فى العام نفسه بدمشق.

* نجح الأمويون حول نهاية العام فى لم شملهم وولوا الخلافة مروان بن الحكم (٣ القعدة) ولكنه واجه خصومة الضحاك الفهرى الذى كان قد بايعه أهل دمشق حتى تنتهى الفتنة وتحول النزاع إلى حرب قتل فيها الضحاك.

الحديثه فى زمان يسير لان أبا يوحنا كان فاضلا، فلما راه انبا اغاتون جيدا فى افعاله اوسمه قسا وهو كان التانى بعد ابيه يوحنا فى طقس الدير. فكتب للامير وانفذ يحضر يوحنا، فسار ولده معه وقوم من كهنة اسكندرية والارخن تادرس صحبتهم، فلما وصلو دفعو الكتاب للامير وفيه اسم يوحنا فاراد ان ينظره فلما راه طاب قلبه عليه لان [لأنه] كان شخصا حسنا بهى المنظر. ثم سال الكهنه والأساقفه عنه فقالو نعم هو يصلح.

سنة ٦٥ هجرية

استهل المحرم بيوم الخميس الموافق ١٨ أغسطس ٦٨٤م.

* جلس فى هذه السنة على دست الخلافة الأموية مروان بن الحكم ثم إبنه عبدالملك بن مروان.

* استعاد الخليفة مروان حكم مصر بعد زحفه عليها فى غرة جمادى الأولى من السنة وكان عليها عبدالرحمن بن جحدم من قبل بن الزبير فازاحه، وقتل من أنصار ابن الزبير ٨٠ رجلاً واستعمل عليها إبنه عبدالعزيز بن مروان التى دامت ولايته عشرين سنة متوالية.

* هزم ابن الزبير جيش مروان وعليه حبيش بن دلجة الذى قتل، وممن هرب بعد الهزيمة الحجاج وأبوه يوسف بن الحكم وكانا فى جيش حبيش، وولى إبن الزبير على خراسان المهلب بن أبى صفرة الذى تصدى لحرب الأزارقة من الخوارج.

* إنتشر الطاعون فى البصرة وعرف بالطاعون الجارف وقيل بل وقع سنة ٦٩هـ.

* توفى الخليفة مروان بن الحكم فى ٢٧ رمضان (٥ مايو ٦٨٥م) مخنوقا، خنقته زوجته أم خالد بن يزيد ابن معاوية وخلفة بعهد منه إبنه عبدالملك.

* ظهر جيش التوابين فى الكوفة المطالبين بدم الحسين وعلى رأسهم الصحابى سليمان بن صرد والمسيب بن نجبة ولكنه هزم على يد عبدالله بن زياد أمير العراق لعبدالملك.

وجرى في ذلك اليوم أمر عجيب مثل امر فارص وزارح او مثل ادونيا وسليمان ولدى داود، وهو ان بعد ان استقر تقدمة يوحنا اقام الله واحدا من الاساقفه مثل دانيال في ذلك الزمان، بغير موافقة ولا مشاورة مع أحد، وقال: هذا لا يكون لنا نحن بطركا. فعند ذلك نزل على جميع الناس سكوت وبهيته [بهته] حتى انه لم يجاوبه احد بحرف واحد. فقال الامير: فمن يصلح تقول انت لهذا الامر؟. فقال الأسقف بمحضر الجمع: ان

---

* فيها توفى زعيم الازراقة الحرورية نافع بن الأزرق قتل فى حرب المهلب ابن أبى صفرة، كان من أنصار الثورة على عثمان حتى قضية التحكيم واجتمع فى حروراء مع غيره ونادوا بالخروج على الامام على فمن ثم عرفت جماعته بالخوارج الحروريين.

سنة ٦٦ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الثلاثاء ٨ أغسطس ٦٨٥م.

* السنة الأولى من خلافة عبدالملك بن مروان.

* حج بالناس عبدالله بن الزبير، وحج في الوقت نفسه إبن الحنفية، كما حج نجدة الحرورى بعد إستيلائه على اليمامة والبحرين وكان كل منهم فى جماعة يوم عرفات لا يمنعهم من المواجهه سوى حرمة الحج.

* ظهر فى هذه السنة المختار الثقفى بالعراق فالتفت حوله الشيعة وجعل يتتبع قتله الحسين فقتل منهم شمر بن ذى الجوشن وعمرو بن أبى وقاص صاحب الجيش الذى قتل الحسين وهو الذى أمر أن يداس صدر الحسين وظهره بالخيل. وضعف أمر عبدالله بن مطيع أمير العراق من قبل ابن الزبير، بينما هزم ابن زياد جيشا للمختار فى الأيام الأخيرة من هذه السنة.

سيمون مستحق لهذه الرتبه. فامر الامير باحضاره قدامه فلما نظره سالهم وقال: هذا من اى موضع هو؟ فقيل له هو سرياني من اهل الشرق. فلما علم قال للاساقفه: فما تقدرون انتم أن تقيمو واحدا من بلادكم. فاجابوه وقالو له: ان الذى قد اخترناه قد احضرناه الى بين يديك والامر لله ثم لك. ثم التفت الى المغبوط سيمون وقال له: تستصوب ان يكون هذا الشيخ يوحنا بطركا. فاجابه وقال له: ما يوجد فى كورة مصر ولا فى

---

* وفيها اتخذ المختار الثقفى كرسيا وادعى أن فيه سراً، وأنه لهم مثل التابوت لبنى إسرائيل. ولما خرج المختار لقتال عبيدالله ابن زياد، امير العراق، خرج بالكرسى على بغل يحمله فى القتال.

سنة ٦٧ هجرية

استهل العام يوم السبت الموافق ٢٨ يولية ٦٨٦م.

* تعاظم أمر المختار بعد أن هزم قائده ابن الأشتر عبيدالله بن زياد أمير العراق الأموى فى معركة خازر وشتت جيشا قوامه ٤٠ ألفاً ولقى عبيدالله حتفه فى المعركة كما قتل الحصين بن نمير الذى سبق أن رمى الكعبة بالمنجنيق.

* دعا المختار لمحمد بن الحنفية وأمر أتباعه بإخراجه من سجنه مما أغضب ابن الزبير فصار المختار بين عدوين: عبدالملك فى الشام وابن الزبير فى الحجاز.

* عقد الخليفة عبدالملك بن مروان معاهدة مع الامبراطور البيزنطى جستنيان الثانى مدتها ١٠ سنوات على أن يدفع عبدالملك اتاوة سنوية قدرها ألف دينار ذهباً.

* جرت المواجهه بين ابن الزبير والمختار الثقفى بعد أن عاد مصعب بن الزبير أميراً على العراق من قبل أخيه لحرب المختار ونجح فى حصر المختار بالكوفة وقتله.

المشـرق من يسـتحق مثل هذا وهو ابى الروحانى وربانى من صغرى وسيرته كسيرة الملايكه. فلما سمع الامير هذا تعجب جدا وكان جمع كتير مجتمعا، فخرج صوت من الاراخنة والاساقفه والكتاب قايلين: الله يحيى الامير لنا سنين كثيرا، سلم الكرسى لسيمون فهو مستحق البطركية مثل انبا بنيامين كذلك سيمون. وان البيعة مساعدة لهما. فلما نظر الامير اليهم وسمع كلامهم لاجل انسان غريب لا يعرفونه بالجمله الا منذ يومين

سنة ٦٨ هجرية

وافق أول المحرم يوم الخميس ١٨ يوليو ٦٨٧م.

* نازع عبدالملك بن مروان بن الحكم: الزبيريين والخوارج والعلويون وبرز هذا الخلاف على بطحاء عرفات إذ إجتمعت يوم الحج أربعة ألوية: لواء بنى أمية، لواء عبدالله بن الزبير، لواء نجدة الخارجى ولواء محمد بن الحنفية وليست بينهم حرب فى الحرم.

* عزل ابن الزبير إبنه حمزة عن إمارة العراق وأعاد أخاه مصعب بن الزبير، كما أعاد جابر بن الأسود إلى إمارة المدينة.

* تولى حرب الخوارج وعلى رأسهم قطرى بن الفجاءة وابن الماحوز عمر ابن عبيدالله بن معمر من قبل ابن الزبير وخلفا للمهلب بن أبى صفرة وفيها قتل ابن الماحور، فلما قوى أمر قطرى بن الفجاءة حتى جبى الأموال أعاد ابن الزبير المهلب لحربهم.

* استعاد عتاب الرياحى فتح أصبهان عنوة لمساعدة أهلها للخوارج.

* عم القحط بلاد الشام وكان ذلك نتيجة لفشل الخليفة فى قتال الخارجين عليه.

* توفى الامبراطور البيزنطى قسطنطين الرابع (بوجوباتوس) وقد عاصر حصار العرب للقسطنطينية ولم ينقذها سوى إستخدام النار اليونانية، وخلفه جستنيان الثانى وقيل فى العام السابق.

فامرهم بمعونة الله ان يمضو به ويوسموه بطركا.
وتقدم الى اكثر الاساقفه بالمسير صحبته فمضو به الى اسكندرية وقدموه على الكرسى الرسولى فى البيعة العظما المعروفة بالانجيليون [لان كان فيها مايه واربعون كاهن] وكان فرح عظيم للشعب الارتدكسى وسلامه واتحاد فى البيعه، والامور تنمو كل يوم. ثم أنه اقام اباه يوحنا على امور البيعه وكان هو يقرا فى الكتب المقدسه.

سنة ٦٩ هجرية

استهل المحرم بيوم الاثنين الموافق ٦ يوليو ٦٧٧م.

* بدأ الخليفة عبدالملك بناء قبة الصخرة بالقدس واستمر البناء ثلاث سنوات كما جرى تعمير المسجد الأقصى المجاور للصخرة قاصداً تحويل الحج إليها كما جاء فى بعض الروايات.

* إنتشر الطاعون الذى يعرف بالجارف فى البصرة وبعد ثلاثة أيام من إنتشاره لم يبق بالبصرة سوى اليسير من الناس (وفى قول انتشر عام ٦٥) وبلغت ضحاياه ٧٠ ألفاً وهو الطاعون السابع فى الاسلام.

* ولى عبدالعزيز بن مروان حسان بن النعمان فاتح قرطاجنة إمارة أفريقية، كما تولى زهير البلوى إمارة برقة وبنى مقياساً على النيل فى حلوان.

سنة ٧٠ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الجمعة ٢٥ يونية ٦٨٩م.

خرج الخليفة عبدالملك بن مروان صوب العراق لتحريرها من حكم الزبيريين فانتهز الامبراطور البيزنطى الفرصة وغزا بلاد الشام وأستولى على قيسارية فاضطر عبدالملك الى مصالحته على أن يؤدى اليه كل إسبوع ألف مثقال ذهب، ومن ناحية أخرى إنتهز عمرو بن

وفى طول حياة يوحنا لم يلتفت الاب البطرك سيمون لشى من امور البيعه بل سلم جميع ذلك الى يوحنا ابيه كما كان معه فى الدير، وكان مطيعا له ويدعوه ابى.

ثم انه كتب سنوديقا الى يوليانوس بطرك انطاكيه تعجب منها وانفذها مع اساقفه يذكر له فيها الاتحاد وان هذه الامانه الواحده والاتحاد بين الكرسيين اسكندرية وانطاكية. فلما وقف عليها

سعيد بن العاص خروج الخليفة من دمشق العاصمة فوثب عليها واحتلها ثم احتال عليه عبدالملك ثم أمر به فقتل.

* زحف الطاعون الى مصر، فلجأ أميرها عبدالعزيز بن مروان الى مدينة قديمة جنوبى الفسطاط على النيل حيث بنى مدينة حلوان.

سنة ٧١ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الأربعاء ١٥ يونية ٦٩٠م.

* تجددت المناوشات بين عبدالملك ومصعب بن الزبير وبدأت تدخل نهايتها وكانت الدولة الاسلامية منقسمة الى خلافتين الأولى عليها عبدالله بن الزبير وتشمل الحجاز والعراق والمشرق، والثانية عليها عبدالملك وتشمل الشام ومصر.

* حج بالناس فى هذه السنة عبدالله بن الزبير.

* عاود عبدالملك حرب الروم واستعاد قيسارية.

* رفض مصعب بن الزبير الامان الذى أعطاه إياه عبدالملك وحارب حتى قتل فدعا عبدالملك جند العراق الى بيعته.

وجـدها مملوه من حكمـة الله والكتب الروحـانيـه فـفـرح جـدا وخطب فى بيـعـتـه باسم الاب انبـا سيـمـون وكـتب له جـوابهـا واعـاد رسله بكرامـات جزيلات الى مصر، فلما أقام تلت سنين تنيح أبوه يوحنا بسلام واستحق ان يجعل المغبوط سيـمون البطرك يده على عينيه حتى انه كفنه بيده واخذ بركة ابيه وحمله الى الدير ودفنه وقام عنده اربعين يوما حتى بنى له قبرا وجعل جسده فيه ووسعه لنفسه اذا مات ليدفن معه فيه. ثم نزل به تجربة من

---

* ولى عبدالله بن الزبير (الخليفة على الحجاز) طلحة بن عبيدالله على المدينة خلفاً لواليه جابر بن الأسود وهو آخر من تولاها من قبل الزبيريين.

* ولى عبدالملك على البصرة (بعد مقتل ابن الزبير) خالد بن عبدالله ابن خالد والياً (أموياً) خلفاً لحمران بن أبان.

سنة ٧٢ هجرية

وافق أول المحرم يوم الأحد ٤ يونية ٦٩١م.

* جرت فى جمادى من هذه السنة (فى رواية ثانية) معركة دير الجاثليق وبعدها خرج حكم العراق من الزبيريين.

* دخل عبدالملك (بعد مقتل مصعب بن الزبير) مدينة الكوفة وأخذ البيعة من القبائل فيها وفرق أعمال العراق على شيعته.

* فى جمادى من هذه السنة وجه عبدالملك الحجاج بن يوسف الثقفى الى الحجاز لقتال عبدالله بن الزبير واخراجه من مكة التى كان يتحصن بها، فخرج الحجاج وقصد الطائف وقضى بها بضعة شهور كان يبعث خلالها البعوث لمناوشة ابن الزبير عند عرفات.

* استولى طارق بن عمرو مولى عثمان على المدينة من واليها الزبير طلحة بن عوف.

الله الذى يسبك اصفياه وينقيهم، مثل الذى ينقى الفضة الخالصة من الغش فيصيرون مثل الذهب النقى، وبنعمة السيد المسيح صبر حتى نال الاكليل، لانه كان انسانا مملحا مثل الملح الانجيلى ليس عنده مراياة ولا بخل لجل [لأجل] راحة او اكل او شرب، بل كان زمانه كله غداه خبزا وملحا مدقوقا بكمون وبقل وما يشبه ذلك ليضعف قوة شهوات الجسد ويجعله عبدا للروح. ولم يكن يحضر مع الاساقفة ولا الكهنة لانه كان

---

* في غرة ذى القعدة من هذه السنة رمى الحجاج مكة بالمنجنيق (بعد أن إستأذن عبدالملك) فانطلقت صاعقة أحرقت المنجنيق ولقي فيها بعض رجال الحجاج حتفهم ولكن القصف استمر فاخذ أصحاب ابن الزبير يتفرقون عنه.

* مرت السنة السابعة على ولاية عبدالعزيز بن مروان على مصر.

* أتم عبدالملك في هذه السنة بناء قبة الصخرة، وقد بدأ في بنائها قبل عام أو عامين، وهي بناء حجرى مثمن مصفح بالرخام والفسيفساء بلغ طول كل جدار ٢٠,٥ متراً وارتفاعه ٩,٥ متراً وعدد نوافذه من مفتوحة ومغلقة ٥٦ نافذة، كما تم تجديد المسجد الأقصى.

وأراد عبدالملك أن يجعل في فلسطين حرما مقدسا يحج اليه الناس فبنى قبة الصخرة فى القدس والجامع الأقصى، وكان المسلمون يطوفون حول الصخرة كما يطوفون من حول الكعبة وينحرون يوم العيد ضحاياهم وصار اخوه عبدالعزيز بن مروان والى مصر لايذهب للحج إلى مكه ويقف وقفة عرفات بمصر.

سنة ٧٣ هجرية

استهل المحرم بيوم الخميس الموافق ٢٣ مايو ٦٩٢م.

* شهدت هذه السنة نهاية حصار مكة على يد الحجاج قائد الخليفة عبدالملك

يطلب الانفراد لملازمة اوقات الصلوات، ولجل [لأجل] هذا صار مبغوضا من اهل اسكندرية(*)، فمضى قوم من الكهنه الى قوم سحره ودفعو لهم ذهبا حتى عملو لهم سموما بسحرهم للموت وجعلوها في الانا [ء] الذى كان يشرب فيه وجاو[جاءوا] بها الى الاب سيمون البطرك ليستعمل منه، وكان قد تناول من السراير المقدسه قبل ان يشرب منه فلما شربه لم يضره، ثم فعلو ذلك دفعه تانيه هولا القتله للابا [ء] فلم يضره ولا

(*) مؤامرة على البطرك سيمون تنتهى بقتله بالسم بعد مرض طويل.

لاستخلاصها من يد عبدالله بن الزبير الذى خلع بيعة يزيد بن معاوية منذ سنة ٦٣هـ ثم أعلن نفسه خليفة، إلا أن سقوط العراق فى العام السابق ومقتل أخيه مصعب أضعف جانبه واستمر الحصار ١٦ شهر و١٧ يوماً ورميت الكعبة بالمنجنيق حتى استسلمت مكة فى ١٧ جمادى الأول ولقى ابن الزبير مصرعه على يد الحجاج الذى مثل بجثته وعلقها عبرة وعظة.

* صفا الحكم للخليفة الأموى عبدالملك بن مروان الذى ولى إمارة مكة الحجاج بن يوسف الثقفى، وامارة الجزيرة وارمينية أخاه محمد بن مروان، والبصرة أخاه بشر بن مروان.

* استمرت الحرب بين الأمويين والخوارج من الأزارقة وعلى رأسهم أبو فديك الذى استولى على البحرين ولكنه قتل قبل نهاية السنة، ثم قطرى بن الفجاءة الذى دانت له الأهواز.

* قتل فى هذه السنة (١٧ جمادى الأول) الخليفة عبدالله بن الزبير منافس عبدالملك الخليفة الأموى بدمشق وهو يقاتل قائده الحجاج بمكة وقد تفرق عنه أكثر أتباعه وله من العمر ٧١ سنة، اذ كان أول مولود فى الاسلام بعد الهجرة، ودعا لنفسه بالخلافة بعد وفاة معاوية وجعل من مكة حاضرة له خلال ١٠ سنين وقد دخل فى طاعته أهل الحجاز وأكثر أهل العراق وعليه أخوه مصعب الذى استشهد قبله.

ناله سو. فلما نظرو ذلك السحرة بهتو من امر هذا القديس. ثم انهم اخذو تينا حسنا في غير اوانه وجعلو فيه سما قاتلا اوصو الكهنه وقالو لهم اطعموه هذا وهو على الريق صايم بغير قربان فانه ينشق من وسطه، فاتو اليه بذلك بمكر ومراياه وسالوه وتضرعو له ان ياكل منه، وكانو قوم يدلون عليه، ولقموه من التين المسموم فتحركت عليه احشاه في تلك الليله واقام اربعين يوما في كرب عظيم، حتى ان كل احد تمنى له الموت، فاقامه

سنة ٧٤ هجرية

وافق الأول من السنة يوم الثلاثاء ٣ مايو ٦٩٣م.

* ضم الخليفة عبدالملك إمارة المدينة الى الحجاج بالاضافة الى مكة بعد أن عزل عنها طارق بن عمرو مولى عثمان، فسار اليها الحجاج وقضى بها ثلاثة أشهر يتعنت أهلها.

* تولى قتال الأزارقة من الخوارج المهلب بن أبى صفرة.

* تولى امية بن عبدالله بن خالد على خراسان خلفاً لبكير بن وشاح بسبب الفتنة بين بطون تميم بخراسان، وولى أميه ابنه عبدالله على سجستان.

* أمر عبدالملك بضرب دنانير إسلامية من الذهب عليها البسملة بخط كوفي وكانت دار الضرب بدمشق أولاً.

* فيها وللسنة الثانية غزا محمد بن مروان بلاد الروم (الأنضول).

سنة ٧٥ هجرية

الأول من المحرم وافق يوم السبت ٢ مايو ٦٩٤.

* تولى الحجاج إمارة العراق فسار الى الكوفة فى إثنى عشر ركباً حتى دخل مسجد الكوفة فألقى خطبة توعد فيها أهل العراق ووسمهم بالبغى والخلاف والشقاق والنفاق

الرب المحيى واظهر فيه اعجوبة فظهر له فى الرويا قايل يقول له: لاى سبب صبرت على هذه البلايا.

فلما وصل الامير الى المدينة نظر اليه وقد تغير منظره مما جرى عليه، فسال عن سبب ذلك فقيل له : ان اربعه من الكهنه سقوه سما. فامر الامير ان يحرقو احيا والساحرة معهم خارج المدينه من بحريها في موضع يسمى الفاروس، فعندما ارادو ان يحرقوهم ركع الاب على وجهه بدموع غزيره

ووصفهم بأنهم عبيد العصا، وأعاد هذا الوعيد فى البصرة فثارت عليه بزعامة عبدالله بن الجارود.

* حج بالناس لأول مرة الخليفة عبدالملك بن مروان وخطب على منبر الرسول وكان قد ولى أبان بن عثمان على المدينة خلفاً للحجاج.

* قام الحجاج بضرب دينار ذهبى بالكوفة على طراز الدينار الذى أمر بضربه الخليفة فى دمشق.

* تجددت الحرب مع الروم وكان على رأس الجيش الامبراطور جستنيان الثانى وتولى قيادة الأمويين محمد بن مروان أخو الخليفة الذى أوقع الهزيمة بالروم عند مرعش.

* تجدد القتال بين المهلب والخوارج وفيها قتل عبدالرحمن بن مخنف ساعد المهلب.

* خرج أمير مصر عبدالعزيز بن مروان وافداً على أخيه الخليفة بدمشق لأول مرة بعد أن استتب الأمر لعبدالملك واستخلف على مصر زياد بن حنظلة الذى لم يلبث أن توفى فتولى على مصر الأصبغ نيابة عن ابيه عبدالعزيز بن مروان.

* انتشر الطاعون فى الكوفة للمرة الثانية.

* ولد ببرقة القاضى عبدالرحمن بن أنعم قيل هو أول مولود فى الاسلام بأفريقية (أى الشمال الافريقى).

* توفى سليم التجيبى أول من تولى القضاء بمصر وشهد فتحها.

قدام الامير وساله فيهم وقال له: ان نالهم شى من اجلى وجب على القطع ولا يصح لى ان اكـــون بعد ذلك بطركا. فتعجب الامير من حسن افعاله وامر باطلاقهم، وان يحرقو السحره احيا [ء] لاجل عـمل تقـدم لهم فـاحـرقـو بالنار. ثـم انه سلـم لابا يوحنا اسقف نقيوس(*) تدبير حال الديارات لانه كـان خـبـيـرا بتـقلب الرهبـان وقـوانينهم واعطاه سلطانا عليهم، وكـانو يعمرون القـلالى بغير فتور والاراخنه يقومون باحوالهم.

(*) كان أسقفا لابروشية نقيوس فى النصف الثانى من القرن السابع. ولما كان خبيرا بأحوال الرهبان قلده البابا سيمون البطريرك ال ٤٢ رئاسة الاديرة. وحدث أن أحد الرهبان المحبين للشهوات =

سنة ٧٦ هجرية

وافق أول السنة يوم الأربعاء ٢١ ابريل ٦٩٥م.

* تزعم الخوارج شبيب بن يزيد الشيبانى فوجه إليه الحجاج زائدة بن قدامة فهزمه شبيب وقتله ثم أوقع الهزيمة بجيوش الحجاج جيشا بعد جيش واستفحل أمره بعد دخوله الكوفة عنوة.

* بدأ فى دمشق ضرب الدراهم من الفضة بعد أن تم ضرب الدينار الذهبى الإسلامى.

* فى هذه السنة تم تداول الدنانير والدراهم الإسلامية بعد أن كان التعامل بالعملة البيزنطية ونقشت عليها الشهادة والصورة تمثل الخليفة محاكاة للسكة البيزنطية التى حرم الخليفة تداولها وكان ذلك من أسباب زيادة النفرة مع الروم ثم محيت الصور من العملة الإسلامية.

* غزا محمد بن مروان أخو الخليفة بلاد الروم بعد أن تجدد النزاع بسبب حرب العملة حتى بلغ ملطية.

* ولد فى هذه السنة مروان بن محمد اخر الخلفاء الأمويين.

* شهدت هذه السنة الثورة على الامبراطور جستنيان منها ثورة ليونتيوس الذى جدع أنف الامبراطور فعرف بمجدوع الأنف ونفاه إلى القرم وتولى العرش مكانه.

ثم ان قوما من المحبين الشهوات اخرجو عدرا من ديرها ودخلو بها وادى هبيب واوقعو بها الفعل سرا، فلما ظهر ذلك بين الرهبان كان بينهم قلق عظيم ما لم يسمع بمثله في ذلك الموضع. فاخذ الاسقف [يوحنا] الراهب الذى عمل الخطيه وضربه ضربا موجعا، وبعد عشرة ايام من تاديبه مات الراهب. فلما شاع الخبر اجتمعو جميع الاساقفه بكورة مصر سرا وسالو[سألوا] الاسقف عن قضية الراهب فاخبرهم بها واعترف انه الذى

= أخرج عذراء من ديرها ودخل بها وادى هبيب وارتكب معها الاثم. فلما ظهر ذلك بين الرهبان جزعوا وارتعبوا وانتهى الخبر الى مسامع الانبا يوحنا فقام بتأديب الراهب وضربه ضربا موجعا حتى مات بعد عشرة أيام من شدة الضرب.
فلما بلغ الاساقفة فى مصر خبر موت الراهب اجتمعوا سرا وسألوا الانبا يوحنا عن القضية فاعترف أمامهم انه هو الذى ضربه فأوجبوا عليه القطع لكونه تعدى على الواجب وحرموا عليه أن يتقدم

سنة ٧٧ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأثنين ١٠ ابريل ٦٩٦م.

* تم فى هذه السنة توالى إنتصارات شبيب الخارجى ففيها هزم الجيش الثانى الذى ارسله الحجاج وقتل قائده عتاب، وهزم الثالث وقتل قائده الحارث ابن معاوية، والرابع وقتل قائده أبو الورد والخامس وقتل قائده طهمان، ثم جاءت هزيمة شبيب على يد الحجاج الذى توفى غريقاً فى نهر دجيل، كما ثار مطرف ابن شعبة وخلع عبدالملك من الخلافة فقاتله الحجاج حتى قتل.

* تم فى هذه السنة تعريب النقود الاسلامية منذ أن فسخ عبدالملك المعاهدة البيزنطية قبل أربع سنوات بعد ذلك استقلت العملة الاسلامية العربية عن التبعية البيزنطية مما أدى الى تجدد حروب الصوائف بين الدولتين وخلت العملة من دينار ودرهم من الصور ونقش على وجه منها (لا إله الله وحده لا شريك له) وعلى الوجه الآخر (محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) كما نقش على الوجه الأول (ضرب هذا الدينار سنة سبع وسبعين) واقتصر الضرب على دمشق والفسطاط.

* وفيها حاول أمية بن عبدالله عبور نهر بلخ لغزو الترك فحوصر وجهد هو وأصحابه ورجعوا الى مرو.

ضـربه، فـاوجـبـو عليـه القطع لكونه تعـدى حـد الواجب من ادبه فقطعوه، فوقف فى وقت قطعهم اياه وكانو قالوا له ما انت فى حل ان تدنو الى شى من [اعـمـال الكهنوت ولا تمس شـيـا] من الات الهيكل من الان بل تاخذ السراير كـراهب، فنادى وقـال للشـعب: كـمـا قطعـتـمـونى ظلما الرب الاله الذى اعرف اسمه يجعل جميعكم يا اساقفه غربا عن كـراسيكم الى تمام الزمان الذى حكمتم على فيـه. ثم أقـامـو اخـر اسـمـه مـينا من دير ابى مـقـار

لرفع الاسـرار الربيـة بل يتناولهـا كـراهب. فلما سمع الحكم وقف في وسطهم وقال «لقد قطعتموني ظلمـا هكذا يجـعلكم الله غـرباء عن كـراسـيكـم الى تمام الزمـان الذى حكمتم به علىّ».

سنة ٧٨ هجرية

استهل المحرم يوم الجمعة الموافق ٣٠ مارس ٦٩٧م.

* جمع عبدالملك المشرق كله للحجاج الذى ولى على خراسان نائبا عنه قائده المهلب بن أبي صفرة بعد أن قضى بنجاح على ثورة الأزارقة من الخوارج كما تولى على سجستان من قبله أبو عبيد بن أبي بكر.

* تولى موسى بن نصير امارة المغرب كله وسار حتى بلغ ميناء طنجة على المحيط فقدم على مقدمته قائده طارق بن زياد الصدفى فاتح الأندلس فيما بعد.

* بدأ الحجـاج فـى تأسيس مدينة واسط أقامها فى نحـو الوسط بين الكوفة والبصرة وكان يتناول الاقامة فى كل منهما خلال العام الواحد والمسافة بين الكوفة والبصرة نحو مائة فرسخ.

* لم تنقطع الحرب بين الروم والعرب، ففيها استولى محرز بن أبي محرز على مدينة أرقدة كما استعاد عبدالملك فتح هرقلة.

* وافقت هذه السنة الثورة على الامبراطور البيزنطى ليونتيوس الذى اغتصب عرش سلفه جستيان الثاني قبل ذلك بعامين فاسقطه القائد تيبريوس وتولى مكانه باسم الامبراطور تيبريوس الثالث.

عـوضـه وكـان رجـلا وجـيـهـا قـوى الكلام مـحب الاخوه.

وبعد ايام قلايل تم كلام الاسقف القديس على الاسـاقـفـة المسـاعـدين على قطعـه وعلى كل الاساقفه، فنزل عليهم امر.

كان في ذلك الزمان قوم يتشبهون بالام وتخلو عن نسـاهم الحـلال واخـدو نسـا غـيـر الحـلال(*) يظهـرون مـحـبـتـهم للشـهـوه وكـانو يقـولون انهم

(*) بدعة الطلاق : وجرى فى ايام البابا سيمون الـ ٤٢ ان قوما من الاقباط تركوا نساءهم واخذوا =

سنة ٧٩ هجرية

وافق مستهل المحرم يوم الأربعاء ٢٠ مارس ٦٩٨م.

* استولى العرب على مدينة قرطاجنة (بتونس) فقضوا بذلك على اخر معاقل الامبراطورية البيزنطية بافريقية.

* فيها غزا الوليد بن عبدالملك بن مروان ملطية فغنم وسبى ثم عاد إلى أبيه.

* وفيها قتل الخليفة عبدالملك الحرث بن عبدالرحمان بن سعد الدمشقى الذى أدعى النبوة،وكان أنضم إليه جماعة كبيرة.

* استولى الحجاج على البحرين واستعمل عليها محمد بن صعصعة وضم اليه عمان بعد القضاء على ثورة الخوارج ومقتل رأسهم قطرى بن الفجاءة الذى عثر به فرسه فاندق عنقه.

* استشرى الطاعون فى الشام حتى أفنى اكثر أهله لهذا لم يخرج للغزو تلك السنة احد فيما قيل.

* انفذ الحجاج امير المشرق عبيدالله بن أبى بكرة إلى زنبيل امير كابول التركى لأنه منع الخراج فاستدرجه زنبيل واخذ عليه الطريق واوقع به خسائر جسيمة ولم ينج الا بمشقة الأمر الذى عجل بوفاة ابن ابى بكرة كمدا.

نصارى فيردعونهم الاساقفه ويمنعونهم السراير المقدسه، فمضى منهم قوم الى الامير وقالو له: قد منعونا ان نتزوج واخرجونا الى ان نزنى. فغضب وارسل جمع الاساقفه من كراسهم الى مدينة اسكندريه، فاجتمع اربعه وستون اسقفا ولم يعلمو لما ذا حضرو ولا السبب فيه، وكانو فى كل جمعة يسلمون على الامير. وكانو اصحاب المقالات الغير اساقفه مجتمعين وهم تاوفيلسطس [الملكانى] من الخلقدونيه، وتادرس كان من اصحاب اوطاخى

= غيرهن فجعل الاساقفة يردعونهم عن هذا العمل فاغتاظوا منهم ومضوا الى الوالى وقالوا له ان الاساقفة منعونا عن الزواج واضطرونا الى ارتكاب فعل الزنا فغضب وجمع الاساقفة من كراسيهم الى مدينة الاسكندرية فاجتمع منهم ٦٤ اسقفا ولم يعلموا سبب حضورهم ولما علموا السبب اطلعوا الوالى على الحقيقة وبعد مناقشة فيما بينهم حكموا بقطع اولئك القوم ان لم يتركوا النساء الغريبات.

سنة ٨٠ هجرية

وافق الاول من المحرم يوم الاحد ٩ مارس ٦٩٩م.

* شهدت هذه السنة انهمار السيول التى اجتاحت بيوت مكة وبلغ المياه الركب وقيل كان السيل يجرف الابل وعليها الاحمال فسمى السيل الجارف او الجحاف.

* صلب عبدالملك سعيد الجهمى لإفكاره القدرية.

* تولى على اليمن محمد بن يوسف الثقفى اخو الحجاج.

* غزا عبدالواحد بن ابى الكنود جزيرة قبرص سار اليها بأسطول عدته من المصريين من الاسكندرية. وفي اقصى المشرق عبر المهلب بن ابى صفرة نهر بلخ إلى كش ومنها سار إلى بلاد الختل، وفيها تولى على سجستان عبدالرحمن بن الاشعث خلفا لابن أبي بكرة بعد وفاته.

سنة ٨١ هجرية

الأول من السنة وافق يوم الخميس ٢٦ فبراير ٧٠٠م.

* بدأ النزاع بين الحجاج وواليه على سجستان عبدالرحمن بن الاشعث بسبب سياسة المسالمة مع أمير كابل (الزنبيل) مما أحنق عليه الحجاج وتهدده في الرسائل اليه.

* خلع ابن الاشعث الحجاج وانضم اليه جندا الكوفة والبصرة وبايعوه على جهاد الحجاج

٤٢: سيمون البطرك ٦٨٩ / ٧٠١م

الغايانيين، ومن اصحاب برسنوفه جرجه [جرجس البرسنوفى]، وجماعه اخر يسمون اساقفه، وكانو ايضا قد اجتمعو. فلما كان يوم احد وصلت اخبار الى الامير ان عسكر الروم قام على يوستنيانوس [جوستنيان] الملك وخلعوه وولو عوضه لاونتيوس(*)، فامر الملك للوقت ان يجتمع اراخنة كل كوره واهل اسكندريه والاساقفه والمسلمون ليعلمهم بهلاك [ملك] الروم. فاجتمع حينذ جمع

(*) قام ليونتيوس بجدع أنف جوستنيان ونفاه إلى شبه جزيرة القرم، ولكنه بعد عامين تقريباً قامت عليه ثورة بزعامة القائد تيبريوس الذى حكم الامبراطوريه باسم تيبريوس الثالث.

واخراجه من العراق وبالتالى خلعوا بيعة عبدالملك وتحرك جيش ابن الأشعث إلى البصرة ووقع اول صدام في ذى الحجة (يناير ٧٠١) على نهر دجيل وفيها انتصر ابن الأشعث.

* وقعت بين ابن الاشعث والحجاج أربعة وثمانون وقعة، في مائة يوم، كانت ثلاث وثمانون على الحجاج وواحدة له. كان مع ابن الاشعث ٣٣ ألف فارس ومائة وعشرون الف راجل.

* غزا عبدالله بن عبيد الله فاليقلا من أرض الروم، وفيها هجم الديلم على مدينة قزوين وتم خلاصها على يد محمد بن ابى سيرة ولم ينج من الديلم بعد حصارهم احد.

* فى هذه السنة توفى ابن الحنفية وهو ابن الامام على من زوجته خيولة بنت جعفر نسب اليها ابنها الذى ولد حول عام ٢١ من الهجرة وتنسب اليه الطائفة الكيسانية التى تعتقد أنه لم يمت لأنه المهدى المنتظر بل اختفى فى أحد شعاب جبل رضوى ليعود ويملأ الدنيا عدلا، وفيها قتل بحير بن ورقاء وكان قد اشترك فى فتح بلاد ما وراء النهر مع المهلب، وكان مقتله اخذا بثأر بكير بن وساج.

سنة ٨٢ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الثلاثاء ١٥ فبراير ٧٠١م.

* شهدت السنة ذروة الحرب الأهلية بين ابن الأشعث ومعه جمهور اهل العراق والحجاج

عظيم قالو قد جرت عادة الروم في كل وقت ان يخلع ملك ويجلس اخر.

ثم انه امر في ذلك اليوم بان تمنع قداسات النصارى، وقالو: انهم ضالون يجعلون لله زوجه وولدا. ويقولون مقالات كثيرات في دينهم وشتم قلة اتفاقهم على كلام الدين.

ثم التفت الى تادرس الاسقف ريس الغايانيين وقال له: من هو من هولا[هؤلاء] التلته اساقفه

نائب عبدالملك ومن قواده سفيان بن ابرد الذى هزم ابن الاشعث عند الخريبة (المحرم ـ مارس ٧٠١) ثم جرت المعركة الحاسمة عند دير الجماجم (ربيع الاول) واضطر ابن الاشعث للتقهقر إلى سجستان والاحتماء بالزنبيل امير كابل الذى خلصه من الاسر.

* تولى على المدينة هشام بن اسماعيل المخزومى خلفا لأبان بن عثمان.

* غزا محمد بن مروان اخو الخليفة ارمينية وهزم اهلها وصالحهم على مال ولكن لم يلبثوا ان غدروا.

* وافق هذا التاريخ تولية البابا يوحنا الثاني.

سنة ٨٣ هجرية

الأول من المحرم وافق يوم السبت ٤ فبراير ٧٠٢م.

* انتقل ميدان القتال بين ابن الأشعث والامويين إلى سجستان وخراسان وتوالى افتراق اصحاب ابن الاشعث عنه.

* في هذه السنة ولد بالمدينة الامام الحسن (الثاني) بن زيد بن الحسن ابن الامام على وهو ابو السيدة نفيسة المتوفاة بمصر، كما ولد بها في نفس السنة عيسى بن على عم الخليفتين السفاح والمنصور.

اقرب اليك وتقبله نفسك؟ فقال: ابا سيمون. ثم التفت الى تاوفيلستس الاسقف صاحب الملكيه وقال له: من اقرب اليك وتوثر دينه؟ فقال: دين ابا سيمون. ثم قال لجرجس البرسنوفى: من اقرب اليك من هذه الاساقفه ومن تقبله نفسك؟ فقال: دينى ودين ابا سيمون واحد وهو الذى تحبه نفسى. التفت اخيرا الى الاب ابا سيمون منادى الحق وقال: من هو من هولا اقرب اليك وتحبه نفسك فاجاب وقال فى المجمع بصوت عال وقال: ما من

---

* توفى بمصر قاضيها عبدالرحمن ابن حجيرة الخولانى، وعمرو بن كريب وكان على جند مصر لعبدالعزيز ابن مروان. وتوفى فيها روح بن زنباع وهو الذى قدم الحجاج الثقفى الى الخليفة عبدالملك ـ وكان مشيره ـ فصار من امر الحجاج ما صار.

سنة ٨٤ هجرية

وافق الأول من السنة يوم الأربعاء ٢٤ يناير ٧٠٣م.

* تجددت الحملات والغزوات شمالاً وشرقاً بعد أن تم القضاء على ثورة ابن الأشعث: فى الشمال غزا محمد بن مروان أخو الخليفة ارمينية وأحرق كنائسها وقتل وخرب وغنم وسبى لنكث أهلها العهد وقتلهم واليها العربى، وفيها إفتتح عبدالله بن عبدالملك ابن الخليفة المصيصة من بلاد الروم وبنى حصنها وأسس مسجدها ولم يكن المسلمون سكنوها قبل ذلك، لذا سميت سنة الحريق.

* فى أقصى المشرق فتح يزيد بن المهلب، الذى خلف أباه على خراسان، قلعة نيزك من بلاد باذغيش، وفى أفريقية هزم حسان بن النعمان الكاهنة البربرية وبعد مقتلها أخلد البربر إلى الطاعة، ودون حسان الدواوين باللغة العربية، وجدد جامع القيروان.

* بعث الخليفة إلى أخيه عبدالعزيز أمير مصر الفقيه المحدث عامر الشعبى بشأن تحويل الخلافة إلى إبنه الوليد بن عبدالملك، كما بعث الشعبى سفيراً إلى إمبراطور الروم جستنيان.

احد يقرب الى ولا احب احدا منهم وانا أحرمهم بالكتاب والكلام ومقالتهم المرذوله وشركتهم ومن يساعدهم ومن يتقرب منهم، انا ارذلهم مثل اليهود. حينذ صاح الناس بصوت عظيم وقالو: ابا سيمون معترف بالحق بغير زلل. وغشى هولايك فضيحه.

(*) أزمة البطرك سيمون مع الوالى عبد العزيز بسبب طلب احد الهنود تعيين أسقف لهم فى الهند.

وبعد ذلك وصل قس من اهل الهند(*) الى ابا سيمون يطلب منه ان يقسم له اسقفا للهند، ولم يكونو اهل الهند مطيعين للمسلمين، فقال له: ما

---

* ولى عبدالعزيز بن مروان أمير مصر عياض بن غنم التجيبى فاتح أرمينية على الأسكندرية.

* توفى ابن الأشعب زعيم الثورة على الحجاج لاجئا عند الزنبيل ملك كابل.

سنة ٨٥ هجرية

وافق مستهل المحرم يوم الاثنين ١٤ يناير ٧٠٤م.

* تولى أمرة مصر عبدالله بن عبدالملك (الخليفة) بعد وفاة عمه عبدالعزيز ابن مروان وذلك بعد نحو خمسة أشهر من بداية هذه السنة.

* بنى محمد بن مروان مدينة أردبيل ومدينة برذعة بعد أن أعاد فتح أرمينية وولى عليها عبدالعزيز بن حاتم الطائى، وفى الأنضول تجددت الحرب مع الروم فى طوانة بالقرب من المصيصة.

* جهز عبدالله بن عبدالملك بن مروان يزيد بن حنين فى جيش عظيم لغزو الروم فقتل حوالى الف نفس من أهل أنطاكية.

* عزل يزيد بن المهلب عن إمرة خراسان وخلفه عليها أخوه الفضل الذى عزل بدوره وخلفه قتيبة بن مسلم، وفى حرب الترك قتل موسى بن عبدالله بن حازم وكان قد إستولى على ترمذ وما وراء النهر مدة ٥ سنين.

اقدر ان اقسم لكم اسقفا بغير امر الامير المتولى على كورة مصر، امض اليه واعلمه بحاجتك فان امرنى فعلت لك ما طلبته ومضيت مصحوبا بالسلامه الى بلادك. فخرج من عنده ليمضى الى الامير فاجتمع به قوم من الغايانيين ومضو به الى تادرس ريس اصحاب فنتاسياس [فانتسياستس] وعرفوه السبب الذى اوصله من كورته. فقال له: انا اقضى لك حاجتك. ثم اخد انسانا من مريوط اوسمه له اسقفا واوسم له كاهنين وانفدهم سرا

---

* توفى فى هذه السنة (١٣ جمادى الأولى) أمير مصر وأخو الخليفة عبدالعزيز بن مروان الذى دام حكمه عشرين سنة بانى مدينة حلوان، وهو أبو الخليفة عمر بن عبدالعزيز (وقيل كانت وفاته فى التاريخ نفسه من السنة التالية) وفيها تولى قاضى مصر مالك بن شراحيل وكان قد شهد فتحها، وولى خراسان موسى بن خازم.

* توفى خالد بن يزيد حفيد معاوية وهو الذى تنازل عن حقه فى الخلافة على أثر وفاة أخيه معاوية الثانى فمن ثم إنتقلت الخلافة إلى البيت المروانى.

سنة ٨٦ هجرية

الأول من السنة وافق يوم الجمعة ٢ يناير ٧٠٥م.

* السنة الأولى من خلافة الوليد بن عبدالملك بدأت مع النصف من شوال وذلك خلفاً لأخيه عبدالملك بن مروان وبعهد منه.

* أمر عبدالله بن عبدالملك أمير مصر أن تنسخ دواوين مصر بالعربية وكانت تكتب بالقبطية.

* تولى إمارة مكة عمر بن عبدالعزيز (الخليفة بعد ذلك).

* أعاد قتيبة بن مسلم فتح بلاد خراسان فأتاه أهل الصاغان (اوزبكستان الحالية) بمفتاح

الى الهند. وبعد أن مشو عشرين يوما قبضوهم حفظه الطريق الذين من قبل المسلمين وانفذوهم الى الامير الكبير [الخليفه]، وكان اسمه عبدالملك فهرب القس الهندى وعاد الى مصر ومضو بالتلته الى عند عبدالملك مربوطين، فلما علم انهم من كورة مصر ومريوط وهم سايرون إلى كوره غربيه قطع ايديهم وارجلهم، وانفذهن الى مصر الى عبدالعزيز وكتب اليه يستعجزه ويقول له: كانك ما تعرف ما يجرى فى بلادك، ان بطرك النصارى

من ذهب وسلموا له بلادهم بالأمان، وانقلب الحجاج على آل المهلب فعزل حبيب بن المهلب عن كرمان وحبس أخاه يزيد.

* غزا مسلمة بن عبدالملك ابن الخليفة بلاد الروم وافتتح حصنى بولق والأخرم.

* توفى فى ١٤ شوال من السنة الخليفة عبدالملك بن مروان وله من العمر ستون سنة وكان قد تولى بعهد من أبيه مروان ودامت خلافته أكثر من عشرين سنة قضى السنوات السبع الأولى منها فى حربة مع ابن الزبير الذى دعا لنفسه بالخلافة.

* إنتشر الطاعون فى مصر وسمى طاعون القينات (جمع قينه) لانه بدأ فى النساء المجلوبات بعد أن إكتسح البصرة وواسط والشام ومات فيه خلق كثير.

* وافق هذه السنة مقتل الامبراطور ليونتيوس على يد جستنيان الذى إستعاد القسطنطينية بمساعدة البلغار وكان المقتول قد سلبه عرشه ونفاه من بيزنطة، ويشار إليه فى المراجع العربية بإسم الاحرم بورى.

سنة ٨٧ هجرية

استهلت السنة بيوم الأربعاء الموافق ٢٣ ديسمبر ٧٠٥م.

* مرت ثلاثة شهور منذ أن تولى الخلافة الأموية الوليد بن عبدالملك.

المقيم باسكندريه قد انفذ اخبار مصر الى الهند ويجب عند وقوفك على هذه الكتب ان تضربه مايتى سوط وتاخد منه ماية الف دينار وتحملها الينا سرعه مع الرسل الواصلين اليك من غير تاخير. وكان البطرك ابا سيمون يومذ [يومئذ] بحلوان ومعه اسقف، فوصلت الكتب الى الامير من عند اخيه في ثاني ساعه من الليل. فانفد صقالبه واحضر القديس ابا سيمون وولديه الروحانيين كاتبيه، فقال له الامير: خف من الله واحفظ

---

* أضيفت إمارة المدينة إلى عمر بن عبدالعزيز (مع مكة) بعد عزل أميرها هشام بن إسماعيل فكان أول ما فعله أن أقام مجلساً للشورى يتألف من عشرة من فقهاء المدينة منهم عروة بن الزبير وخارجة بن زيد وسليمان بن يسار.

* غزا مسلمة أخو الخليفة بلاد الروم وافتتح قمقم ونواحي سيواسي.

* في أقصى المشرق دخل قتيبة بن مسلم بيكند من نواحي بخارى بعد حرب شديدة مع الترك من أهل التركستان وصالحوه ثم نقضوا الصلح فأعاد فتحها عنوة، وفي أقصى المغرب جرت محاولة بحرية لغزو جزيرة سردينية.

* شح النيل وعلت الأسعار واستشأم أهل مصر من ولاية عبدالله ابن عبدالملك.

سنة ٨٨ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأحد ١٢ ديسمبر ٧٠٦م.

* غزا مسلمة أخو الخليفة والعباس إبنه بلاد الروم وافتتحا سوسنة وطوانة وفي آسيا الوسطى غزا قتيبة ما وراء النهر وهزم الصغد وأهل فرغانة وكانوا مئتى ألف، واستخلف قتيبة أخاه بشارا على مرو.

* فيها شرع الخليفة الوليد بن عبدالملك بن مروان في بناء جامع دمشق الاموى، وكان نصف مساحته كنيسة.

نفسك ولا يخرج من فمك كذب فيما اسلك عنه. فاجاب البطرك: الاهى انا أخاف منه ونفسى انا مدبرها في العمل لخلاصها بان تكون عاملة الصلاح فى كل حين، واما الكذب فليس اليوم فقط لكن جميع زمانى ارذله لانه من الشيطان عدو البشر، وانا مستعد للموت او للحياه فيما اعرفه من الصدق فانى اقوله امام الله وسلطانك. فخمد ناره وغضبه وقال له: حقا وليت احدا اسقفية الهند؟ فاجاب وقال له: وصل الى قس من

---

* وفد امير مصر عبدالله على أخيه الخليفة الوليد بعد أن استخلف عبدالرحمن بن عمر بن قحزم الخولانى، وأهل مصر في شدة عظيمة وضيق عيش مخيف والخراج والجزية تثقل ظهورهم.

سنة ٨٩ هجرية

استهلت السنة بيوم الخميس الموافق الأول من ديسمبر ٧٠٧م.

* ولى موسى بن نصير مولاه طارق بن زياد على طنجة.

* جرت فى هذه السنة حملة بحرية قادها عبدالله ابن أمير أفريقية موسى بن نصير وسيرها إلى جزيرتى ميورقة ومنورقة (البليار)، وفتح أخوه هرون بن موسى بلاد السوس بالمغرب الأقصى.

* ولى الحجاج ابن أخيه محمد بن القاسم قيادة الحملة لاعادة فتح بلاد السند فسارت براً وبحراً واستولى على ميناء ديبل وهرب الملك البرهمى داهر شمالاً وواصل إبن القاسم مسيرته بعد أن بنى مسجداً بديبل إلى بيرون فدخلها صلحاً ثم جرت المعركة الفاصلة التى قتل فيها الملك البرهمى وتوالى الفتح ودخول أهل السند فى الاسلام حتى بلغ الملتان.

* غزا مسلمة أخو الخليفة بلاد الروم حتى بلغ عمورية.

هناك والتمس منى هذا الامر ورددته وقلت له ان
لم تجينى بامر الامير فما اقدر ان افعل هذا، ثم
كتبت له الى الكتاب ليطلعوك على امره وخرج
من عندى لما كنت باسكندرية ولم يعد الى الان.
فلما سمع الامير هذا القول ظن ان المغبوط خاف
من القتل فاخفى الحق فقال له: الويل لك هو ذا
ايدى وأرجل اصحابك قد انفذهن الملك الى وقد
امر ايضا ان اخذ منكماية الف دينار بعد أن
اضربك خمس ماية سوط، وقد

سنة ٩٠ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الثلاثاء ٢٠ نوفمبر ٧٠٨م.

* بعث موسى بن نصير أمير أفريقية إلى الخليفة الوليد يستأذنه فى فتح بلاد الأندلس بعد أن أخذ العهد مع يوليان أمير سبتة القوطى على أن يزوده بالسفن والادلاء فأمره الوليد أن يبدأ بأن يخوضها بالسرايا حتى لا يغرر بالمسلمين.

* فر فى هذه السنة يزيد بن المهلب من سجن الحجاج وذهب إلى الرملة بفلسطين لاجئا إلى أميرها سليمان بن عبدالملك أخو الخليفة.

* تولى إمارة مصر قرة بن شريك خلفا لعبدالله أخى الخليفة، فكان أول ما أمره به توسيع مسجد الفسطاط فقضى فى ذلك عدة سنين وفرض الجبايات الهائلة على المصريين.

* إستولى قتيبة بن مسلم على مدينة بخارى الهامة بعد هزيمة ملكها «وردان خذاه» بالرغم من تحالف ملك الصغد طرخون معه، الذى لم يلبث أن صالح قتيبة على فدية يؤديها فرجع طرخون إلى بلاده.

اخفيت الحق وانا اهلك واقتل الاساقفه بالسيف وأهدم جميع البيع، والان فهذا أماني ان صدقتني وزنت [دفعت] عنك المال من عندي ولم ينلك مني سو فاعلمني الحق. وكان ذلك ليلا، حينئذ اجاب القديس بغير خوف وقال له كرامه للملك ان يحب العدل وشفاه متقلبه دغلة تكون مرذوله، والان على ما ارى لو نزل صوت من السما يامرني بالاحادة عن الحق ما قلت سواه وانت فلا تصدقني لاجل ما بيني وبينك من وصول الكتب اليك

سنة ٩١ هجرية

استهل المحرم بيوم السبت الموافق ٩ نوفمبر ٧٠٩م.

* تولى مسلمه بن عبدالملك (أخو الخليفة) إمارة الجزيرة وأرمينية خلفاً لعمه محمد بن مروان، وفيها غزا بلاد القوقاز حتى بلغ الباب (دربند).

* تعددت فتوحات قتيبة بن مسلم في المشرق ففيها استولى على الفارياب فاستعمل عليها عامر بن مالك، كما فتحت شومان وكش ونسف، وتجدد القتال مع الصغد الذين عزلوا ملكهم طرخون وولوا غوزك لحرب عبدالرحمن بن قتيبة ولكنه فشل.

سنة ٩٢ هجرية

وافق يوم الأربعاء ٢٩ أكتوبر ٧١٠م.

* شهدت هذه السنة فتح الأندلس في أقصى الغرب على يد طارق بن زياد مولى موسى ابن نصير أمير افريقية وكان طارق عاملاً له على طنجة، وبدأ عبور طارق على رأس ١٢ ألف مقاتل (بعد إكتمال قواته) من ميناء سبتة في ٥ رجب (٢٧ أبريل ٧١١) وعلى الفور استولى على جزيرة الخضراء، ثم جرت المعركة الحاسمة عند شذونة في ٢٨ رمضان (١٧ يوليو) وفيها تشتت جيش الملك رذريق ومنها سار طارق شمالاً صوب طليطلة وفي طريقه استولى على ولاية

بقضية القوم المقطوعين الاعضا [ء] والناس الذين قطعت منهم، والان فهم والكتب التى معهم تشهد لى وتظهر الحق فان وجدت امامك نعمة فاكتب لينفذو الناس اليك لتعرف حقيقة الامر منهم ومن الكتب الصادره على ايديهم، ويقولو لك من انفذهم فان ظهر شي يخالف قولى افعل ما تريد. فاجاب الامير وقال له: كيف ياتون بقوم قد قطعت ايديهم وارجلهم الى هاهنا، اترى بطركا اخر للنصارى بمدينه اسكندريه غيرك؟ لماذا

مرسية (تدمير) وعلى عاصمتها أريولة صلحاً وانتهى الى طليطلة وأقام عليها حاكماً من أهلها، وفى الوقت نفسه انفذ عدة حملات جانبية فاستولى مغيث الرومى على قرطبة كما سقطت مايقة والبيرة.

* غزت حملة بحرية جزيرة سردانية (سردينيا).

* غزا أرض الروم بالأنضول أخو الخليفة مسلمة بن عبدالملك، بينما قصد قتيبة بن مسلم أرض سجستان وتمت المصالحة مع أميرها زنبيل كابول.

* وافق فتح العرب للأندلس حكم الامبراطور جستنيان الثانى بعد أن استعاد عرشه، وفى روما عاصر الفتح البابا قسطنطين الأول.

سنة ٩٣ هجرية

افتتحت السنة بيوم الاثنين الموافق ١٩ اكتوبر ٧١١م.

* عزل الخليفة الوليد بن عبدالملك ابن عمه عمر بن عبدالعزيز (الخليفة فيما بعد) عن مكة والمدينة وذلك بسبب إنكار عمر لما كان يرتكبه الحجاج من مظالم فى العراق، وولى على مكة خالد القسرى للمرة الثانية (الأولى عام ٨١) وعلى المدينة عثمان بن حيان.

* عبر موسى بن نصير البحر الى الأندلس واستخلف على إفريقية ابنه عبدالله وبدأ زحفه على شذونة ومنها الى أشبيلية.

تحاجـجني. فـاجاب القـديس سيـمون وقـال لـه: قـد ضـقت فـي كل جـهـه، الحق مـا تقـبله منى، وأنت تلزمنى ان اقـول مـا لـم افـعل لكن بمـوضـع الله من قلبك امـهلني سبـعـة ايام وكلمـا جرى فـانت تقف عليه على حقيقته. فقال له: لعلك تريد ان تهرب او تقـتل نفسك، لكن هذا الراهب ايش هو منك؟ فـقال له: هو ولدى فـقـال له الاميـر: انت تسـتوثق منه. فقـال لـه: نعم هو مثل روحى. فقال له الامير: كـمـا فـعل اخى بالمـاخـوذين السـايرين الى الهند

---

* شهدت هذه السـنة إستيلاء قتيبـة بن مسلم على مدينة سمرقند بعد أن استسلمت له بخارى وخوارزم، وجعل من سـمرقند عاصمة للدولة وقاعدة لفتوحاته التالية وأقام بها مسجداً خطب فيه بعد أن هدم بيوت النار ومعابد الأوثان وأجلى عنها كل وثنى.

* قتل جوستنيان الثانى بالقسطنطينية فى أواخر فبراير ٧١١م.

* غزا مسلمة بن عبدالملك (أخو الخليفة) بلاد الروم، كما غزاها العباس ابن الخليفة وفتح سميساط وطرسوس.

سنة ٩٤ هجرية

وافق مستهل السنة يوم الجمعة ٧ أكتوبر ٧١٢م.

* وقعت سلسلة من الهزات الأرضية بالشام استمرت أربعين يوماً.

* بينمـا كان طارق بن زياد يوالى زحفه شمالاً حتى خليج بسكاى كان موسى بن نصير يحاصر مدينة ماردة الحصينة التى لم تلبث أن استسلمت (رمضان ـ مايو ٧١٣) وتابع سيره شمالاً حيث التقى بمولاه طارق فى طليطلة عاصمة القوط ثم افترقا موسى الى جبال البرانس وطارق شرقاً.

* فى آسيا الوسطى أوغل قتيبـة بن مسلم شـرقا مستوليا على فرغانة بعد أن عبر نهر سيحون (سرداريا) حتى أتى خجندة فأخذها عنوة، وفى الهند أوقع محمد بن القاسم الهزيمة

كذلك افعل بك ان لم تصدقنى. فاجاب القديس وقال له: هو ذا نحن بين يديك مع الله فمهما اردت فافعل فالذى عندى قد قلته لك. فسكت الامير ساعه وقال: [دع ولدك هذا عندى و] انا امهلك تلته ايام فامض وانظر ما تفعل ولعل الله يعلمنى الحق. فخرج من عنده ودعا الله بخضوع ودموع وساله ان يظهر للامير براته مما ذكر عنه فى هذه القضيه. وعند مغيب الشمس فى اليوم التانى نظر ولده الراهب الروحانى الى شاطى البحر فراى

بالملك الهندوسي صصة بن داهر وكلاهما قتل في المعارك، وفي الشمال غزا العباس ابن الخليفة أرض الروم واستولى على أنطاكية.

سنة ٩٥ هجرية

الأول من المحرم وافق يوم الثلاثاء ٢٦ سبتمبر ٧١٣م.

* في شهر ذى الحجة من هذه السنة بدأ موسى بن نصير ومعه طارق بن زياد رحلة العودة الى المغرب ومنها الى دمشق إطاعة لأمير الخليفة الوليد بن عبدالملك، وخلف على إمارة الأندلس عبدالعزيز بن موسى بن نصير، وحمل موسى معه مالا يوصف من الأسلاب والغنائم وآلاف الأسرى.

* افتتح قتيبة بن مسلم الشاش (طشقند الحالية أو نواحيها عاصمة جمهورية أوزبكستان).

* غزا العباس بن الوليد أرض الروم وفتح مدينة هرقلة وقنسرين وأماسيا.

* تولى سليمان بن يزيد بن أبى مسلم على العراق (الكوفة والبصرة) خلفاً للحجاج.

* توفى فى هذه السنة (٢٥ رمضان) أمير المشرق الحجاج بن يوسف الثقفى عن نحو ٥٥ سنة منها ٢٠ سنة على العراق.

ذلك القس الراهب الاسود الهندى الذى كان قد جا اليه وساله ان يصلح له اسقفا ماشيا، ولم يكن يعلم بشي مما جرى لانه كان هاربا، فمضى اليه وقبضه ومضى به الى القديس البطرك وقال له: يا ابى قد قبل الله صلاتك ايها الاب وكشف ظلامتنا. واعلمه انه مسك القس الهندى فاحضره معه الى البطرك، فحدثه [الهندى] بالخبر وكيف اقسم له تادرس الغاياني اسقفا وكهنه. فلما كان غداة اليوم التالت مضى به الى الأمير وهو محتفظ به وكان

سنة ٩٦ هجرية

أهل المحرم يوم الأحد الموافق ١٦ سبتمبر ٧١٤م.

* تولى عرش الخلافة الأموية سليمان بن عبدالملك خلفاً لأخيه الوليد (١٥ جمادى الآخرة) وذلك بعهد من أبيهما عبدالملك بن مروان.

* تولى إمارة مصر عبدالملك بن رفاعة للمرة الأولى خلفاً لقرة بن شريك وكان على شرطته أخوه الوليد بن رفاعة، وتولى على مكة عبدالعزيز بن عبدالله بن خالد، وعلى المدينة أبو بكر بن محمد من قبل الخليفة سليمان، وتولى إمارة أفريقية محمد بن يزيد.

* فتح قتيبة بن مسلم مدينة كاشغر (التركستان الصينية) وبلغ حدود الصين الغربية، وبعث هبيرة بن مشمرج الكلابى على رأس وفد رسولاً منه الى ملك الصين، فرد عليه بالهدايا والجزية.

* توفى فى هذه السنة (جمادى الآخرة) الخليفة الوليد بن عبدالملك وله من العمر ٤٨ سنة حكم منها نحو عشر سنين.

* فى هذه السنة وبعد تولية سليمان بن عبدالملك قتل فاتح المشرق قتيبة بن مسلم اذ أعلن الخروج عن الطاعة كما أعلن خلع سليمان فوثب عليه وكيع بن أبى سود وقتله، وفيها توفى قرة بن شريك أمير مصر، وفيها قتل عبدالعزيز بن موسى بن نصير أمير الأندلس اتهمه مواطنوه بالتعالى والكبر وكان قد تزوج امرأة الملك رذريق القوطى بعد موته.

مهتما كيف خلصه ويخلص تا درس من الموت، فلما نظره الامير قال له: لعلك تقول الحق بغير كذب فاجابه القديس سيمون بعد ان سجد لله على وجهه قال: سلطان الناس من سلطان الله ويجب لمن تولى سلطانا في الدنيا ان يكون طويل الروح ممهلا مثل الله تعالى وفى الصفح، واريد ان تعطينى عهد الله لى ولمن حضر معى فى هذه القضيه ان لا تفعل بهم سوا [سوءاً] ولكن تعفو عنهم لوجه الله ويظهر لسلطانك الحق. فاعطاه

سنة ٩٧ هجرية

وافق الأول من السنة يوم الخميس ٥ سبتمبر ٧١٥م.

* حج بالناس سليمان بن عبدالملك بعد خمسة أشهر من توليته الخلافة.

* تولى إمارة مكة طلحة بن داود الحضرمى ثم عبدالعزيز بن عبدالله، وتولى إمارة الأندلس إيوب بن حبيب اللخمي خلفاً لعبد العزيز بن موسى، وتولى يزيد ابن المهلب خراسان.

* تعددت الحملات وشن الغارات على أرض الروم فبينما استعد الخليفة بتجهيز جيش لحصار القسطنطينية، استعمل ابنه داود على الصائفة ففتح حصن المرأة، كما قاد حملة أخرى مسلمة بن عبدالملك، وغزا عمر بن هبيرة أرض الروم فى البحر وشتى بها.

* توفى في هذه السنة على الأرجح أمير أفريقية موسى بن نصير، قيل بوادى القرى وهو فى صحبة الخليفة حاجاً وذلك بعد مقتل ابنه بالأندلس، هذا وقد نشأ موسى فى دمشق وغزا البحر لمعاوية ومنها قبرص ثم غزا افريقية وهو الذى انفذ مولاه طارق بن زياد الى الأندلس لفتحها، وتوفى عن نحو ٧٨ عاماً.

سنة ٩٨ هجرية

أهل المحرم يوم الثلاثاء الموافق ٢٥ أغسطس ٧١٦م.

* جرى في هذه السنة حصار القسطنطينية للمرة الثالثة بقيادة سلمة بن عبدالملك وكان

عـهـده انه لا يناله منه سـو، فـاحـضـر اليـه القس الهندى فاعلمه بكلما جرى وان سيمون برى من هذه القـضـيـه. فلمـا علم الامـيـر انفـذ الهندى الى السـجن وامـر ان يوخـد تادرس يصلب. وشكر القديس سيمون البطرك وفرح به وعرف صدقه وكتب الى عبدالملك اخيه يعلمه بما جرى وان ليس لبطرك النصـارى بمدينة اسكندريه في هذه القضيه شي وانه برى منها، ومدحه عنده وذكر له صلاحه وسداده وعفافه ووفى له بما عاهده عليه

أخوة الخليفة قد سار معه الى دابق (بجوار حلب) فلما عبر البحر وضرب الحصار على المدينة جاءه المدد برا وبحرا من مصر وبالرغم من وفاة الخليفة واصل مسلمة الحصار الا أنه فشل في النهاية بسبب خديعة وقع فيها على يد ليو (أليون) الذى أنقذ المدينة فولاه الروم إمبراطوراً.

* غزا يزيد بن المطلب أمير خراسان الجديد طبرستان فصالحه أهلها على الجزية وأعاد فتح جرجان بعد أن نكثوا العهد وقتلوا عامله عليها.

* في هذه السنة أخذ الخليفة العهد لابنه أيوب بن سليمان ولكنه لم يلبث أن توفى فى السنة نفسها.

* تولى إمارة الأندلس الحر بن عبدالرحمن الثقفي، وتولى على اليمن سليمان ابن عروة.

سنة ٩٩ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم السبت ١٤ أغسطس ٧١٧م.

* تولى الخلافة عمر بن عبدالعزيز (١٠ صفر) خلفاً لابن عمه سليمان ابن عبدالملك وبعهد منه وهو الثانى من بنى أمية وخامس الخلفاء الراشدين عند بعضهم.

* تولى على مصر أيوب بن شرحبيل من قبل الخليفة الجديد خلفاً لعبدالله بن عبدالملك بن

انه يهب له تادرس والقس الهندى وعلم ان ليس عنده غش. وبعد تلت سنين اطلق الاساقفه الى كراسيهم وامر لهم ان ينو بيعتين فى حلوان. وكانو الاساقفه ينفقون من عندهم على عمارتهما ووكل الوالى بعمارتهما اغريغوريس اسقف القيس. وكان الامير محبا للعمارة وبنى حلوان واعمر بها فساقى، وكذلك مصر(*) بنى فيها دورا وقياسر وحمامات، وفى كل مكان على البحر [النيل] من مصر الى اسكندريه. وامر بحفر بحر(*) اسكندرية

(*) مصر: يقصد بها هنا الفسطاط

(*) بحر اسكندرية: يقصد هنا الترعة الحلوة من النيل لإسكندرية.

رفاعة، وفيها تولى على الكوفة عبدالحميد بن عبدالرحمن حفيد زيد بن الخطاب، وعلى البصرة عدى بن ارطأة الفزارى، وعلى خراسان الجراح الحكمى.

* عاد مسلمة بن عبدالملك من حصار القسطنطينية بعد أن أمده الخليفة بالخيل والطعام.

* عبر الحر بن عبدالرحمن أمير الأندلس جبال البرانس الى أرض فرنسا وأعاد فتح مدن قرقشونة وأربونة وبزييه وتابع زحفه حتى ضفاف نهر الجارون.

* فى العاشر من صفر على الأرجح (وقيل بقرية دابق) توفى بمدينة الرملة بفلسطين الخليفة سليمان بن عبدالملك بعد حكم لم يدم سوى سنتين وخمسة أشهر وذلك عن ٤٥ سنة وخلفه ابن عمه عمر بن عبدالعزيز بعهد منه.

* ممن توفى فى هذه السنة: أبو الأسود الدؤلى بالبصرة بعد أن فلج عن ٩٩ عاماً.

* وافقت هذه السنة تولية الامبراطور البيزنطى ليو الثالث خلفاً لتيودوسوس الثالث وهو الذى خدع ابن عبدالملك فى حصار القسطنطينية.

سنة ١٠٠ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأربعاء ٣ أغسطس ٧١٨م.

اكتمل بهذه السنة القرن الأول الهجرى، وخليفة المسلمين عمر بن عبدالعزيز الثامن من

٤٢: سيمون البطرك ٦٨٩ / ٧٠١م

من بحريها عند ترعة نقيطا وان تبنى عليه اميال إلى مدينه اسكندرية، وكذلك المدينه أقام شوارعها بعد أن سقطو. وكان يستعمل الناس مثل فرعون في زمانه. واشيا كثيره فعلها تضيق السيره عن شرحها خوفا من التطويل. وكان هذا القديس سيمون مجتهدا طول عمره ان لا يكون له عثره بين النصارى والمسلمين ولا يخسر احد من اجله: وكان الرب يظهر عجايبه على يديه. وكان له اقنوم قد ولاه الديكونيه وهو قس وتحت يده كلما

خلفاء بنى أمية، ومعاصره ليو الثالث البيزنطى، والصراع المسلح لم ينقطع بين الدولتين على الحدود المشتركة، وفى هذه السنة أمر الخليفة إخلاء مدينة طرندة والعودة الى ملطية لأنها أكثر أماناً وذلك خوفاً على المسلمين من الروم ثم أخرب طرندة بعد إخلائها.

* اعلن شوذب زعيم الخوارج الحرورية الثورة فى العراق فأرسل الخليفة الى واليه على العراق أن يدعو شوذب للمناظرة وألا يستخدم القوة إلا اذا نزع الى سفك الدماء.

القرن الثانى الهجرى

سنة ١٠١ هجرية

وافق غرة القرن الثانى الهجرى يوم الاثنين ٢ من يوليو عام ٧١٩ ميلادية وسنة ٤٣٥ قبطية.

* شهد مولد القرن الثانى الهجرى فى دمشق الخليفة الأموى عمر بن عبدالعزيز، ومن الولاة فى المدينة ومكة عبدالرحمن بن الضحاك الفهرى، وفى مصر بشر بن صفوان، وفى الكوفة عبدالحميد بن عبدالرحمن نائب يزيد المهلبى، وفى البصرة عدى بن أرطأة، وفى المشرق ابن هبيرة، وفى خراسان نائبه سعيد خدينة، وفى الهند عمرو بن مسلم، وفى الأندلس عنبسة الخولانى.

* توفى الخليفة عمر بن عبدالعزيز (٢٠ رجب) بدير سمعان من نواحى قنسرين وله من

للبيعة وكان يوصيه فى كل وقت ويقول له: يا قس مينا انظر لا تفرط بالبيعة فى كتاب ولا شيء لها تدعه فى منزلك فينزل عليك البلا [وان لا يخفى شى من آنيه البيعه]. فلم يطب قلبه بهذا، وكان الرب لم يعطه ولدا كما ضرب ابكار مصر فى ذلك الزمان [القديم]، وكان يضمر التوبه ولا يرتدع، ثم ان الله انزل عليه سرعه عله التصق لسانه بحنكه وزال عقله، وكان يمضغ لسانه وهو

العمر اربعون سنة بعد حكم دام سنتين وخمس أشهر، وهو الذى ظل قبره مصاناً استثناء لما جرى عليه العباسيون بعد ذلك من نبش قبور بنى أمية.

* تولى الخلافة الأموية يزيد الثانى بن عبدالملك خلفاً لعمر بن عبدالعزيز (٢٠ رجب) وهكذا رجعت الخلافة لأبناء عبد الملك حسب اشتراط سليمان قبل موته.

* ضمت إمارة مكة الى عبدالرحمن بن الضحاك الفهرى أمير المدينة.

* عبر أمير الأندلس عنبسة الخولانى جبال البرانس واستولى على مدينة أربونة (ناربون) وجعلها نقطة ارتكاز لغزوات العرب فى جنوب فرنسا.

* جرت معركة باب الأبواب بين الجراح الحكمى والترك وعليهم الخاقان الذى هزم.

* توفى أمير مصر أيوب بن شرحبيل تولاها ثلاث سنوات. وفي اوائل ابريل ٧٢٠ توفى ايوب فتولى مصر بشر ابن صفوان من قبل يزيد.

* قتل فى هذه السنة شوذب (بسطام اليشكرى) الثائر وأحد مشاهير الخوارج على بنى أمية على يد سعيد الحرشى قائد مسلمة بن عبدالملك.

* عاصر بداية القرن الهجرى الثانى حكم الامبراطور البيزنطى ليو الثالث فى القسطنطينية، وحكم شارل مارتل ملك الفرنجة فى فرنسا، والبابا جريجورى الثانى فى روما.

نايم على فراشه، و[كان] تلته رجال يمسكونه مما كان يفعله بنفسه [وقت صرعه] فحملوه الى بيته، وكان الاب سيمون البطرك مهموما لاجله ولاجل مال البيعه لانه تحت يده ولا يعرفه غيره. فسهر وسال السيد يسوع المسيح ان يقيمه من هذه العله لاجل البيعه. فلما كان النصف من الليل وصل الخبر الى الاب بطريرك بان القس مينا قد قارب الموت، فانفذ ولدا له وتقدم اليه بان يسال زوجته

سنة ١٠٢ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الجمعة ١٢ يوليو ٧٢٠م.

* بايع الخليفة يزيد الثانى لأخيه هشام بن عبدالملك وليا لعهده ومن بعده لولده يزيد.

* توالى غزو بلاد الروم فدخلها ابن هبيرة من أرمينية وفتح عباس بن الوليد مدينة دلسة.

* تقدم السمح الخولانى أمير الأندلس فى أرض فرنسا الى تولوز بعد أن استولى على أربونة ولكنه استشهد أمامها، وينسب للسمح بناء قنطرة قرطبة.

* جرت معركة بين يزيد بن المهلب وكان قد غلب على البصرة (١٤ صفر) ومسلمة بن عبدالملك قائد الخليفة وفيها قتل المهلبى.

* تولى إمارة الأندلس بعد استشهاد السمح الخولانى وللمرة الأولى عبدالرحمن الغافقى صاحب موقعة بلاط الشهداء بعد ذلك ودامت إمارته هذه ثلاثة أشهر.

* توفى طارق بن زياد فاتح الأندلس عن اثنين وخمسين عاماً بعد عودته الى المشرق مع موسى بن نصير، وكان والياً على طنجة حين عبر البحر عام ٩٢ هـ.

ان كان قال لها شيا عن مال الكنيسه. ومن قبل ان يصل رسول البطرك الى البيت خرج صوت صارخ بان القس قد مات. ولما توفى البسوه ثياب الكهنه واضجعوه على مرقده كعادة اهل اسكندرية وهو لابس تياب قداسه. فلما وصل ولد البطرك الى البيت الذى كان فيه مضطجعا وحوله جمع كتير من الكهنه [و] لاجل كهنوته وطقسه انحنى عليه الاخ ليقبله فوثب جالسا وعلق يديه

سنة ١٠٣ هجرية

فق هلال المحرم يوم الثلاثاء الأول من يوليو ٧٢١م.

* خرج حنظلة بن صفوان الى الاسكندرية واستخلف على مصر عقبة بن مسلم التجيبى. ولم يلبث أن ورده كتاب من الخليفة يزيد بن عبدالملك يأمره بكسر الأصنام والتماثيل فعمل جهده لتنفيذ هذا الأمر حيث كانت العبادات المصرية الفرعونية ما زالت قائمة.

* عزل عمر بن هبيرة أمير المشرق ابن خدينة عن خراسان وولاها سعيداً الحرشي.

* فى الأندلس تولى عنبسة بن سحيم الامارة خلفاً لأميرها المؤقت عبدالرحمن الغافقي.

* ارتحل أهل الصغد بالتركستان عن بلادهم بعد تولية سعيد الحرشى خوفا منه بسبب تحالفهم مع الترك ولجأوا الى إقليم فرغانة.

* غزا الصائفة عثمان بن حبان ودخل أرض الروم وانتهى الى قيصرة.

سنة ١٠٤ هجرية

استهلت السنة بيوم الأحد ٢١ يونية عام ٧٢٢م.

* ولد فى هذه السنة بالشراة أبو العباس السفاح (ربيع الآخر) أول الخلفاء العباسين، أبوه محمد بن على حفيد العباس وأمه الحارثية.

في رقبته وقال: الله الواحد إلاه الاب الطوباني أنبا سيمون. فلما نظروه الجموع الذين حوله هربو خوفا من ذلك الاخ الذى مسكه، فقال له: ثق وتقو وتصبر يا قس مينا فاجاب وقال له: بصلوات سيدى الاب البطرك ابا سيمون وهب الله لى الحياه دفعه اخرى. فاستدعى الاخ الكهنه وبقية من كان في البلد وعرفهم ان القس مينا تكلم، فقال لهم القس مينا وهم مبهوتون متعجبون: انى مت مثل كل الناس الذين يموتون ومضى بى رجلان منيران

---

* توالت المعارك فى آسيا الوسطى بين سعيد الحرشى والصغد وانتهت بهزيمتهم واصطفاء ذراريهم وأموالهم.

* فى إقليم القوقاز ظفر الخزر بالمسلمين وقد أعانهم القفجاق وغيرهم من الترك فكر عليهم المسلمون بقيادة الجراح الحكمى.

* عزل ابن الضحاك عن مكة والمدينة وتولى عليهما عبدالواحد النصرى.

* شهدت الأندلس مقتل بلج القشيرى الذى استولى على البلاد قسراً من واليها الشرعى عبدالملك بن قطن فلم تدم إمارته سوى احد عشر شهراً.

سنة ١٠٥ هجرية

افتتحت السنة بيوم الخميس ١٠ يونية عام ٧٢٣م.

* توفى الخليفة يزيد بن عبدالملك بواد الأردن (٢٥ شعبان) وله من العمر ثلاث وأربعون سنة وكانت خلافته أربع سنين وشهراً، أمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية وكان قد تولى خلفاً لابن عمه عمر بن عبدالعزيز.

* تولى الخلافة الأموية بدمشق هشام بن عبدالملك خلفاً لأخيه يزيد المتوفى (٢٦ شعبان) عن أربع وأربعين سنة.

فاقاما بى قدام منبر المسيح الملك العظيم الكبير
فنظرت الابا البطاركه من الأب اسحق الاول إلى
البشير مارى مرقس فى طقوسهم ووبخونى قايلين:
لماذا اخفيت مال البيعه وكلما لها عن خليفتنا أبا
سيمون. ثم أوقفت أمام المسيح الملك فقال أمضو
به إلى الظلمه البرانيه وفيما هم يجذبونى سجدو
القديسون البطاركه إلى السيد المسيح قايلن بسؤال
تراف [تراءف] على ولدنا هذا العبد ان تطلقه
هذه الدفعه لأنه لم يظهر مال البيعه وهذا أخونا

---

* هشام بن عبدالملك يعزل عمر بن هبيرة عن إمارة المشرق وولاها خالد القسرى فحبسه هذا في سجن واسط إلا أنه هرب من سرداب حفره غلمانه وسار الى دمشق.

* تولى امرة مصر محمد بن عبدالملك أخو الخليفة وكانت مصر تعانى أهوال الطاعون حتى أن محمد هرب إلى الصعيد ثم لم يلبث أن استعفى فأعفى.

* ولى هشام بعد انصراف أخيه عن مصر ـ الحر بن يوسف أميرا على الصلاة فقط وولى عبيد الله الحبحاب على الخراج. ولا تزال الأوزان الزجاجية لدراهم ودنانير الحبحاب وما كان عليها من كتابة باقية حتى الآن.

ثورة لاقباط مصر:

وفى عهد الحر بن يوسف، وبسبب سياسة عبدالله بن الحبحاب المالية قام أهل مصر من الأقباط على ما يروى الكندى بثورة على زيادة خراج الأرض، فقد كتب ابن الحبحاب للخليفة هشام يقترح زيادة خراج الأرض قيراطا على كل دينار فانتفضت بعض كور مصر (كورة تنو [تنيس]، وتمى، وقربيط، وطرابية) وعامة الحوف الشرقى، فبعث اليهم الحر بن يوسف بأهل الدواوين (أى الجند من العرب) فاخضعوا الفتنة بعد قتل عدد كبير من الثائرين.

* بدأت دعوة بن العباس السرية ببلاد السند وفارس على يد بكير بن ماهان.

سيمون يدعو بسببه. فأمر باعداتى دفعه اخرى، وقال لى: هكذا تموت وتستحق الموت ولكن لأجل مصطفاى وخليفتي سيمون أنا أطلقك هذه الدفعه وإذا أنت لم تتمسك بالتوبه ولم تشفق على نفسك والا فانت تعود إلى هاهنا ولا أقبل فيك سؤال. ثم قام ونهض وقد عوفى ثم اخرج جميع مال البيعه وسلمه للأب القديس أبا سيمون وسلمه الأب البطرك إلى ولده الروحانى، ومكث

سنة ١٠٦ هجرية

وافق هلال المحرم من هذا العام يوم الاثنين ٢٩ مايو ٧٢٤م.

* تابع مسلمة بن سعيد مسيرته لغزو اقليم فرغانة (بين التركستان والصين) بالرغم من تفرق كثير من جنده حتى جاوز جخندة ودخل أرض المغل ولم يلبث أن عزل اسد القسرى أخى أمير العراق خالد القسرى.

* ولد الأديب المنشىء عبدالله بن المقفع ومؤلف كليلة ودمنة والأدب الصغير والكبير، وكان ابن المقفع مجوسياً وأسلم على يد عيسى بن على عم السفاح وقد أتهم باختلاس اموال بيت المال فضرب على يديه حتى تفقعت ومن هنا أتى اسمه «المقفع».

وقد سعى عبدالله بن الحبحاب عامل الخراج لكى يمكن لنفسه فى مصر، فكتب الى هشام يطلب منه تهجير بعض قبائل قيس الى مصر، فأجابه هشام الى طلبه، فوفد الى مصر أربعمائة عائلة من بطون قيس المختلفة فنزلت بالحوف الشرقى حول مدينة بلبيس ثم توافدت جموع أخرى منهم بلغ عددها ألف وخمسمائة عائلة.

وسرعان ما سوف تتحول هذه الأسر الوافدة الى بذرة خلاف وفتنة فلا تكاد تمضى فترة من الزمان، حتى يكون للقيسيين من أهل الحوف الشرقى ملحمة من النهب والسلب أو خلق الفتن والاضطراب.

إلى حين نياحته بخوف الله. ومجد جميع الشعب الله صانع العجايب فى قديسيه على هذه الأعجوبه العظيمه. ثم أن الأب البطريرك أبا سيمون اختار قوما روحانيين مضيين [مضيئين] فى أفعالهم متبحرين في الكتب والحكمه والعلوم فاوسمهم أساقفه على كل مكان، وأول [ولى] أولاده أنبا زخارياس أسقف مدينة سخا، وأبا طلموس الأخ الروحانى أخوه فى الرهبنه جعله أسقفا على كرسى منوف العليا، وكثير لا أتذكرهم، هولا

سنة ١٠٧ هجرية

وافق هلال المحرم يوم السبت ١٩ مايو عام ٧٢٥م.

* لم تنقطع الغزوات فى أنحاء الدولة الاسلامية من قلب أسيا شرقاً إلى الأندلس غرباً، ففى هذه السنة غزا مسلمة بن عبدالملك قيسارية وأخذها بالسيف، وغزا اسد القسرى أمير خراسان الجديد بلاد الغور من جبال هراة فهرب أهلها فاستولى على رحالهم، وفيها استعمل القسرى الجنيد بن عبدالرحمن على بلاد السند وغزا بلاد الكرج، وفيها غزا معاوية ابن الخليفة هشام جزيرة قبرص.

* انتشر الطاعون ببلاد الشام فهرب أهلها إلى البوادى.

* ثار عباد الرعينى باليمن وهو من الخوارج المحكمة فقضى على ثورته والى اليمن يوسف بن عمز.

* فى الأندلس، غزا عنبسة الكلبى أمير الأندلس بلاد فرنسا وحاصر مدينة قرقشونة (كركاسون الحالية) بعد أن عبر نهر الرون وأطلق ما فى المدينة من أسرى المسلمين وألزم أهلها باحكام الجزية، وفى طريق العودة أصيب فى بعض المعارك فمات من سنته، وكانت ولايته سنة وأربعة أشهر.

* أسلم نمرون ملك الغرشستان (اسيا الوسطى) على يد اسد القسرى.

أوســـمــهم وفــرقــهم عــلى الكراسي يرعــون الخــراف الناطقه.

وأقام تسع سنين ونصفا بطركا ثم اعتل في يوم الخمسين(*) علم أنه وجع نياحه فقال لولده نمضى إلى الوادى المقـدس وادى هـبيب آخـذ بركـة الأبا القديسين والرهبان فاننى ما أرجع أشاهدهم بعد هذه الدفعه في الجســد، فانحـدر من حلوان لأنه كان قد توجه إليها من اسكندريه بسبب الأساقفه حتى فرقهم في الكراسي، وانحدر إلى وادى هبيب

(*) احتفال يقام يوم الاحد السابع بعد صعود المسيح.

سنة ١٠٨ هجرية

افتتحت السنة بيوم الأربعاء الموافق ٨ مايو ٧٢٦م.

* كان على امارة مصر فى أول هذه السنة الحر بن يوسف وعلى بقية العام حفص بن الوليد وهو حضرمى ولكن لم تطل ولايته سوى عدة أسابيع.

* وقع الخلاف بين الحر بن يوسف وبين عبيدالله بن الحبحاب، لتزايد سلطانه وغلبته على شئون البلاد، ولكن هشام بن عبدالملك انحاز الى جانب عبيدالله بن الحبحاب وعزل الحر بن يوسف، وولى على صلاة مصر بدلا عنه حفص بن الوليد. وكان حفص بن الوليد هو القائم على شرطة مصر: كما ولى مصر باستخلاف الحر بن يوسف. على أن الخلاف سرعان ما نشب بين حفص بن الوليد وبين عبدالله بن الحبحاب فعزل هشام بن عبدالملك حفص بن الوليد.

* عبر أسد القسرى نهر جيحون لغزو بلاد الختل (على حدود الصين) فانهزموا وحوى المسلمون عسكرهم وأسروا وسبوا وغنموا.

* وقع حريق بناحية مرج دابق فى شمال سورية فاحترق المرعى والدواب والرجال كما فشى الطاعون بالشام منذ العام الماضى.

* فشل دعاة بنى العباس الذين أرسلهم بكير بن ماهان الى خراسان بعد أن انكشف أمرهم.

وأخـذ بركـة الأبا القـديسين الرهبـان وتوجـه إلى
اسكندرية فـانتـقل باحكام الله الغيـر مـدروكـه إلى
كورة الأحيا في الرابع والعشرين من أبيب الموافق
للتامن عشـر من يوليوس في شهور الروم سنة أربع
مايه وست عشره لديقلاديانوس الملك الكافر قاتل
الشـهدا. وخلى الكرسي بعده تلته سنين وشـهورا،
صـلاته تكون معنا آمين] وتقـدم لاولاده أن يجعلو
جسده في دير الزجاج موضعا جعل فيه جسـد أبيه
يوحنا، واجتـمع رهـبـان الديارات بهـاناطون حـتى

---

* تولى على الموصل الحر بن يوسف أمير مصر السابق بعد أن استعفى هشاماً فاعفاه وعنى في الموصل بالبناء والتعمير وهو بانى القصر الذى عرف بالمنقوشة لأنه كان منقوشاً بخشب الساج والرخام والفصوص الملونة ودامت امارته نحو ست سنوات.

سنة ١٠٩ هجرية

استهل المحرم بيوم الاثنين الموافق ٢٨ أبريل ٧٢٧م.

* مضت أربع سنوات على خلافة هشام بن عبدالملك.

* تولى امرة مصر الاخوان: عبدالملك بن رفاعة للمرة الثانية دخلها في أول المحرم مريضاً فتوفى بها بعد خمسة عشر يوماً، وخلفه أخوه الوليد بن رفاعة فامتدت أيامه.

* ولى الوليد بن رفاعة الصلاة، وجعل على شرطته عبدالله بن أبى سمير الفهمى، وكان على خراج مصر عبيدالله بن الحبحاب صاحب النفوذ الكبير فسعى الوليد ابن رفاعة عند الخليفة هشام على ما يقول تغرى بردى فأخرجه هشام من مصر واستعمله على افريقيا. ومن هنا طالت امارة الوليد بن رفاعة على مصر، على خلاف كل من سبقه من الامراء.

* توالت الغزوات والفتوح شرقاً وغرباً، ففى هذه السنة غزا معاوية ابن الخليفة هشام أرض الروم وفتح حصناً يقال له طينه، وغزا مسلمة الترك من ناحية أذربيجان، وغزا عبدالله بن عقبة

كملو عليه الصلوات، ونزل جسده إلى قبره بتمجيد وتهليل السيد المسيح الذى ينبغي له المجد والكرامة مع الأب والروح القدس المحيى إلى الابد والدهر امين.

تمت(*) السيره السادسه عشره وأنتهت سير الآبا رزقنا الله بركة صلواتهم إلى سيرة أنبا سيمون وهو التانى والأربعون بطركا، سوى ما نقلناه من دير ابى مقار وهى سير عشرة بطاركه من خايال(*)

(*) أتم هذه السير ميخايل ابن بدير الدمنهورى وبقيره الشماس.

(*) خايال الثالث هو البطرك من ٨٨١ إلى ٩١٣م.

في البحر، وفيها غزا بشر بن صفوان عامل افريقية جزيرة صقلية فغنم شيئاً كثيراً ورجع الى القيروان، وفيها غزا اسد القسرى فى أقصى الشرق فهزم خاقان وافتتح غورين.

* عزل الخليفة هشام الأخوين خالد القسرى وكان على العراق واسد القسرى وكان على خراسان وولى على المشرق كله الحكم بن عوانة فولى أشرس بن عبدالله على خراسان فكان أول من استعمل الربط (جمع رباط) بها واستقضى محمد ابن يزيد.

* تولى إمارة البصرة وقضاءها بلال ابن أبي بردة وهو حفيد أبي موسى الأشعرى ولزم منصبه نحو ستة عشرة سنة حتى عزله يوسف الثقفي وحبسه فمات سجيناً.

سنة ١١٠ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الجمعة ١٦ أبريل ٧٢٨م.

* تولى امارة افريقية عبيدة السلمي خلفاً لبشر بن صفوان.

* بعث أشرس بن عبدالله أمير خراسان الجديد أبا الصيداء (صالح ابن طريف) الى أهل الصفد لدعوة أهلها الى الإسلام فيكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، فأسلم كثيرون وبنوا المساجد فلما تنكر اشرس لوعوده ولم يسقط الجزية عنهم انضم أبو الصيداء الى المسلمين الجدد دفاعاً عن حقهم فى المساواة.

الأخير إلى سانوتيوس الأول، سوى ما نقلناه هاهنا تسعة بطاركه، وذلك فى سنة سبع مايه وست وتسعين للشهدا من بقيره الشماس ومن ميخايل ابن بدير الدمنهورى(*) بفضل الله بوجودنا السير فى دير ابى مقار بالأخ تادرس الأمين ابن بولس فى يوم الأحد سادس بؤونة سنة سبع مايه سبع وتسعين للشهدا الأبرار، وقابلنا بعضها مع بعض فوجدناها موافقه لما نسخناه فتحققنا صحتها.

(*) بقيره الشماس وميخايل ابن بدير هما نساخ السير السابقة.

---

* غزا فى هذه السنة مسلمة بن عبدالملك بلاد الخزر وكانت معركة استمرت شهراً، وفيها غزا معاوية بن هشام أرض الروم ففتح سماله، وفيها كان على الغزو فى البحر عبدالرحمن بن حديج، وفى هذه الحروب قتل الحجاج النضرى بخراسان وصخر بن مسلم، و ثابت قطنة على أبواب آمل وأصيبت عينه فى معارك خراسان فوضع عليها قطنة فعرف بها.

* ولد فى هذه السنة بمصر القارىء عثماين بن سعيد الذى اشتهر بلقبه ورش ومن ثم عرفت به أشهر مدرسة فى القراءات.

* ممن توفوا فى هذه السنة، الحسن البصرى الذى لقب حبر الأمة وإمام أهل البصرة عن ٨٩ عاماً وكان قد نشأ بالمدينة فى كنف الامام على، وفيها توفيت السيدة فاطمة بنت الامام الحسين وكانت مع أبيها فى يوم كربلاء، وفيها توفيت أم الهذيل الفقيهة القارئة عن سبعين سنة.

* شهد العام وفاة اثنين من مشاهير شعراء العصر هما: جرير بن عطية الخطفى توفى باليمامة عن ٨٢ سنة، وقرينه الفرزدق وله احدى وستون سنة والذى قيل عنه لولا شعره لذهب ثلث لغة العرب، وتوفى من الشعراء سعد بن ناشب كان من الشعراء الفتاك، وتوفى مغنى المدينة فى أيامه أبو مسعود الهذلى وكان حجاراً ينقر البرم، وفيها توفى محمد بن سيرين المحدث.

السيره السابعه عشره من سير البيعه المقدسه

الواجب أن نذكر ما قد كان من بعدوفاة الأب الجليل الكريم الطوبانى الراعى الصالح أبا سيمون الذى سمع من السيد يسوع المسيح القول: أيها العبد الأمين أمينا كنت على القليل انا أقيمك على الكثير أدخل إلى فرح سيدك. فاعلمو الأمير عبدالعزيز والكتاب بمصر فلحقهم عليه وجع قلب وحزن لأن جميع النصارى فقدو راعيهم فى

سنة ١١١ هجرية

استهل العام بيوم الثلاثاء الموافق ١٥ أبريل ٧٢٩م.

* عزل الخليفة هشام أخاه مسلمة عن أرمينية واعاد اليها الجراح الحكمى الذى افتتح المدينة البيضاء أو نساتك القديمة وكانت للخزر، وفيها غزا سعيد ابن الخليفة هشام الصائفة حتى بلغ قيسارية من أرض الروم وغزا أخوه معاوية ووغل فى أرض الروم.

* تولى الجنيد بن عبدالرحمن المرى إمارة خراسان خلفاً لأشرس الذى عزل بسبب موقفه من مسلمى الصغد مما أثار الفتنة فى الاقليم وفتح باباً ذهبت فيه الأموال والأرواح من سوء تدبيره.

* تولى إمرة الأندلس الهيثم الكنانى خلفاً لعثمان بن ابى نسعة من قبل والى افريقية عبيدة ابن عبدالرحمن وكان توالى الولاة من أسباب الفتن فى الأندلس.

سنة ١١٢ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأحد ٢٦ مارس ٧٣٠م.

* تولى إمارة الأندلس للمرة الثانية عبدالرحمن الغافقى من قبل الخليفة هشام وذلك بعد استشهاد أميرها الهيثم الكنانى صاحب الفتوحات فى جنوب فرنسا والتى شملت الاستيلاء

وقت صـعب وبلايا من الولاه. ولم يزل السيد المسيح يدبر البيعه. وكان اتناسيوس المومن متولى الديوان وكـان مـراعـيـا لأمـر البـيع. ثم أنه هو والكتاب تقدمو إلى الأمير براى موفق وقالو له: أن أمر البيعه باسكندريه يلزمها خراجا عظيما ونحن نسألك أن تنفد اغريغوريس الأسقف إلى اسكندريه ليحتاط على مال البيعه وكلما يتعلق بها، فالله يمد فى عمرك أيها الأمير. فأجابه عبدالعزيز إلى ما سأله وانفـذ اغـريغـوريس أسقف القيس إلى اسكندرية

على مدن ليون وشالون ومانسون واوتون بعد عبور نهر الساؤون، وكان أهل الأندلس قد استعملوا عليهم حمد بن عبدالملك الأشجعى لحين تولية الأمير الجديد.

* تجددت الحرب بين الجراح الحكمى والخزر فى القوقاز فزحف من برذعة إلى أردبيل ليرد ملكها عنها وفيها انكسر المسلمون واستشهد الجراح وغلبت الخزر على اذربيجان وتولى سعيد الحرشى حرب الخزر بعده وفتح بلنجر وانتقم لمقتل الجراح واطلق السبايا والأسرى.

سنة ١١٣ هجرية

وافق أول السنة يوم الخميس ١٥ مارس ٧٣١م.

* عاد الجنيد بن عبدالرحمن أمير خراسان الى قتال الترك بعد مقتل سورة ابن الحر أمير سمرقند وأوقع الهزيمة بهم ودخل سمرقند.

* أخذ أمير الأندلس الجديد عبدالرحمن الغافقى فى إعداد العدة لغزو فرنسا بجيش كبير إنتقاماً لمصرع سلفه الهيثم الكنانى.

* غزا المستنير بن الحارث جزيرة صقلية غير أن سفنه غرقت فى العودة ونجا بنفسه فعاقبه والى افريقية بالحبس والجلد.

* ولد بدمشق عبدالرحمن بن معاوية ابن الخليفة هشام بن عبدالملك، وهو الذى عرف بعد

وجعل له الأمر فى مال البيع وابسقوبية البطرك وتدبيره برأيه، فكتب له بذلك سجلا واخذه وسار. وكانو مهتمين بمن يقدمونه بطركا موافقا لغرضهم ممن يعرف بالحكمة والعلم، فاقامو تلت سنين هكذا إلى ان اراد الرب وطاب قلب الولاه على ذلك بعد سؤال عظيم. وبارادة الله السيد يسوع المسيح العارف بمن يختاره من الطاهرين المتقين النقيين القلوب، قدمو القس الأكسندروس من دير الزجاج[باسكندرية]، وكان راهبا بتولا وديعا لم

ذلك بلقبه صقر قريش، مات أبوه فى طفولته فتربى فى بيت الخلافة وأفلت من مطارديه العباسيين بالهرب الى المغرب والعبور الى الأندلس واقامة دولة الخلافة الأموية بها.

* ولد بالكوفة قاضى القضاة أبو يوسف (يعقوب بن ابراهيم) صاحب الامام أبى حنيفة ومؤلف كتاب الخراج.

* فشلت محاولة لبنى العباس لنشر دعوتهم فى خراسان اذ أخذ أميرها الجنيد ابن عبدالرحمن دعاتهم ومثل بهم.

سنة ١١٤ هجرية

استهل العام بيوم الاثنين الموافق ٢ مارس ٧٣٢م.

* ولى الخليفة هشام بن عبدالملك ابن عمه مروان بن محمد (آخر الأمويين) إمارة الجزيرة وجمع له أذربيجان وأرمينية خلفاً لأخيه مسلمة، وسيره على رأس جيش ضم ١٢٠ ألفاً لغزو بلاد الخزر (القوقاز) من جهات مختلفة فتم له ما أراد صلحاً، وفيها غزا الجنيد بلاد الصغانيان (أوزبكستان الحالية).

* تولى إمارة افريقية والمغرب والأندلس عبيدالله بن الحبحاب وكان صاحب خراج مصر طويلا، وذلك خلفاً لأبى عبيدة السلمى الذى دامت ولايته أكثر من أربع سنين واستعفى الخليفة فأعفاه.

يكن فيه عيب، عالما بالكتب [المقدسة] من صغره.
واحضروه إلى الأمير فنظر النعمة فى وجهه فاطلق لهم بارادة الله ان يقدمو الأكسندروس.

الأكسندروس [الكسندر الثانى] البطرك

وهو من العدد الثالث والأربعون

[٧٠٥(*) / ٧٣٠م]

(*) فى نفس هذا العام عاد جستنيان الثانى واستولى على الحكم بمساعدة البلغار.

فاتفق الشعب الارتدكسي بحضور جماعه من الأساقفه والكهنه وكتاب الديوان فكرزو الأب

---

* جرت فى هذه السنة المعركة الفاصلة بين العرب وأوروبا المسيحية على نهر اللوار بفرنسا وهى التى تعرف باسم بلاط الشهداء أو بواتييه أو تور، بدأت مع بداية العام بمسيرة عبدالرحمن الغافقى أمير الأندلس مخترقا جبال البرانس الى فرنسا ومستوليا على آرل على نهر الرون ثم عبر الجارون مستوليا على بوردو ثم ليون وبيزانسون ثم ارتد الى اللوار حيث جرت المعركة مع القوات المسيحية المتحالفة بقيادة شارل مارتل (٢٦ شعبان) وفيها هزم الجيش العربى قتل قائده عبدالرحمن الغافقى.

* تولى إمارة الأندلس عبدالملك بن قطن لاستعادة هيبة الخلافة بعد هزيمة عبدالرحمن الغافقى.

سنة ١١٥ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم السبت ٢١ فبراير ٧٣٣م.

* انطلق أمير الأندلس الجديد عبدالملك بن قطن على رأس جيش شاخصا إلى الاقاليم الشمالية التى انتشرت فيها قلاقل الأسبان فقضى على محاولات الثوار فى إقليم ارغون وعبر جبال البرانس إلى بسقونية ومنها الى مقاطعة لانجدوك واكوتين الفرنسية وعاث فيها منتقماً من هزيمة بلاط الشهداء.

الأكسندروس بطركا في يوم عيد القديس مارى مرقس الذى هو اخر برمودة سنة اربع مايه وعشرين لديقلاديانوس. ونال كورة مصر مسره عظيمه وخاصة الأرتدكسيين لكون البيعه كانت معطلة تلت سنين وكانو فيها كاليتامى. وكان الرب مع الأب الأكسندروس يسهل جميع أموره لتواضعه وعفته واتكاله على الرب وحده مدبره، فلما مضت أيام يسيره وهو مستريح أثار الشيطان شعثا على الأساقفة مما نذكره.

---

* استشرى الطاعون ببلاد الشام وامتد الى العراق، وعاصر الوباء وقوع قحط شديد بخراسان وأصاب أهلها المجاعة وامتد القحط والمجاعة الى بلاد الهند.

* خرج بخراسان الحارث بن سريح على هشام بسبب الضرائب التى فرضها على الموالى من الفرس.

* توفي الأمير أبو حفص عمرو ابن الخليفة مروان بن الحكم وزينب المخزومية، تولى امرة مصر مرتين.

سنة ١١٦ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأربعاء ١٠ فبراير ٧٣٤م.

* لم تطل إمارة عبدالملك بن قطن على الأندلس بعد انتصاراته في فرنسا بسبب سخط زعماء الأندلس عليه لصرامته وشدة بطشه فعزله ابن الحبحاب أمير افريقية بعقبة بن الحجاج.

* تزوج الجنيد أمير خراسان فاضلة بنت المهلب بن ابى صفرة مما أغضب الخليفة على الجنيد فعزله وولى على خراسان عاصم الهلالى ولم يلبث أن توفى الجنيد فى عامه.

* بعث عبدالله بن الحبحاب اميرافريقية وصاحب خراج مصرسابقاً جيشاً إلى بلاد السودان، فغنموا وسبوا.

كان لعبد العزيز ملك مصر ولد (اكبر اولاده) يسمى الأصبغ وكان يظن انه يجلس عوض أبيه إذا توفى فولاه على جميع الكوره واليا ومستخرجا وكان جميع القسوس سامعين له بخوف لأجل انه ولد الأمير، ولما دفع له من السلطان، وكان مبغضا للنصارى سفاك الدما رجل سو كالسبع الضارى. ثم انطوى إليه شماس أسمه بنيامين فكان يعمر له وكان يحبه اكثر من جماعة أصحابه ويظهر له

---

* في اول جماد الثاني = ٢٨ يونيو ٧٣٥م توفى الوليد بن رفاعة في الفسطاط بعد أن حكم مصر تسع سنين فتولى مكانه عبدالرحمن بن خالد الفهمي.

* امتدت ثورة ابن سريح بعد أن انضم اليه بعض العرب بخراسان فاستولى على بلخ والجوزجان والطالقان حتى بلغ مرو وهناك هزمه أسد القسرى وانسحب ابن سريح الى ما وراء النهر واختفى اسمه فترة بينما أخذ أسد عدة من أصحابه ومثل بهم.

* بعث عبدالله بن الحبحاب أمير افريقية جيشاً إلى بلاد السودان للغزو والفتح.

سنة ١١٧ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الاثنين ٣١ يناير ٧٣٥م.

* تولى إمارة مصر (جمادى الآخرة) عبدالرحمن بن خالد بن مسافر خلفاً للوليد بن رفاعة المتوفى وكان عبدالرحمن من قبل على شرطتها وصلاتها.

* اكتشف أمر بعض دعاة العباسيين بخراسان فقتل البعض وحبس البعض.

* غزا معاوية ابن الخليفة ومروان بن محمد بلاد الروم دخلها الأول من الجزيرة وسار الثاني صوب الانضول، وافتتح مروان ثلاثة حصون وأسر كورمانشاه وبعث به الى الخليفة فمن عليه وأعاده الى مملكته.

اسرار النصارى بسعايته، حتى انه فسر له الأنجيل بالعربى وكتب الكيميا وكان يبحث عن الكتب لتقرى عليه وكذلك الأرطستيكات كان يقراها لينظر هل يشتمون فيها المسلمون ام لا. ولم يكن يتخلى عن سو يعمله مع النصارى. وكان أصحاب النار المخالفون يسعون عنده بالرهبان النصارى ويقولون انهم ياكلون ويشربون [ولا يعملون]. فانفذ صاحبا له اسمه يزيد ممن يامن إليه ومعه اخر

---

* وصل القائد الأندلسى عبدالرحمن بن علقمة اللخمى فى غزوة فرنسا الى مجرى الرون فى أقصى الشرق مستولياً على ارل ثم على مدينة أفنيون بعد محالفته أمير بروفانس الفرنسى.

سنة ١١٨ هجرية

استهل العام بيوم الجمعة ٢٠ يناير ٧٣٦م.

* انفذ الامبراطور ليو الثالث حملة على سواحل مصر فنزلت بها وخربت وسلبت فغضب هشام وعزل أمير مصر عبدالرحمن بن مسافر بعد سبعة أشهر من ولايته وذلك فى الاول من محرم = ٢٠ يناير سنة ٧٣٦م، وأعاد حنظلة بن صفوان.

* دخل مروان بن محمد أمير أرمينية ورتنيس من بلاد الروم فهرب ملكها إلى القوقاز.

* قتل فى هذه السنة الجعد بن درهم متهماً بالزندقة، كان مؤدب مروان بن محمد آخر الأمويين لهذا عرف بمروان الجعدى، لقى حتفه على يد خالد القسرى والى العراق.

* توفى فى معتقله بالحميمة عن ٧٨ عاماً جد العباسين ابو محمد على بن عبدالله الملقب بالسجاد اتهمه هشام بن عبدالملك بالدعوة لبنى هاشم.

* نشطت الدعوة العباسية فى المشرق بالرغم من فشل محاولاتها وتولاها فى مرو عمار بن يزيد نائباً عن بكير بن ماهان وتسمى خداشاً للتعمية كما تظاهر بالدعوة للخرمية وكان فى الأصل نصرانياً بالكوفة وأسلم ولحق بخراسان فبلغ خبره أسدا فظفر به وقطع لسانه.

فاحصى(*) جميع الرهبان في كل الكور ووادى هبيب جبل جراد وساير الأماكن، وجعل عليهم جزيه دينارا واحدا على كل نسمه وامرهم ان لا يرهبو احدا بعد من احصاه. وهذه اول جزيه وزنوها الرهبان من الكافر الأصبغ. ثم ان اساقفة الكور الزمهم ان يقومو بالفى دينار خارج وساياهم وكانو يقومون بذلك في كل سنه، وكان يفعل افعالا عظيمه ويلزم الناس ان يصلو صلاته. وكان

(*) ترد بدل كلمة أحصى في أحد المخطوطات كلمة أخصى وهو في الغالب خطأ من النساخ.

سنة ١١٩ هجرية

أهلت السنة بيوم الثلاثاء ٨ يناير ٧٣٧م.

* دخل حنظلة بن صفوان مصر (٥ المحرم) وزاد من ارهاق أهلها فانتقض عليه القبط فحاربهم حتى هزمهم وقتل منهم أعداد كبيرة بعد أن سلب ونهب.

* توالى تقدم قوات عرب الأندلس في فرنسا بقيادة عبدالرحمن اللخمى ولكن قوات شارل مارتل نجحت في استعادة أفنيون وانزال الهزيمة بالحملة البحرية التى أرسلت نجدة لعبد الرحمن ومع ذلك قاومت حامية أربونة حتى اضطر الأفرنج لرفع الحصار عنها.

* وفيها خرج المغيرة بن سعيد بالكوفة، فلما بلغ خبره خالد بن عبدالله القسرى جئ به، وأمر خالد بالنار والنفط والقاه فيها مقيداً فأحرقه هو ومن كان معه.

* استمرت الحروب والغزوات في الشرق والشام ففي هذه السنة هزم أسد القسرى ملك فرغانة الخاقان وقتله، وفي الشمال دخل مروان بن محمد بلاد الخزر (القوقاز) حتى بلغ مشارف الفولجا.

* ممن خرج في هذه السنة بهلول الشيبانى من الموصل وهزم جيش الشام وبلغ الكوفة فسار يريد الشام ولكنه صرع في الطريق، وفيها خرج الصحارى ابن شبيب بناحية الجبل فقتل على يد خالد القسرى، كما ظفر خالد أمير العراق بالدعى الدجال المغيرة بن سعيد التى عرفت باسمه طائفة المغيرية من المجسمة فقتله وصلبه وشتت أتباعه.

بنيامين الشماس الراهب أشر على النصارى من كل احد ويهيجه على كل بلا[ء]، واضطر جماعة إلى ان اسلمو ومن جملتهم بطرس والى الصعيد واخوه تاودرا وولد تاوفانس مقدم مريوط، وجماعه كهنه وعلمانيين لا يحصون من كثرتهم، فلم يمهله الرب يسوع المسيح وفى زمن يسير ازعجه من مسكنه لبغضه للشعب المسيحى. وذلك انه لما كان يوم سبت النور دخل [الاصبغ] إلى دير حلوان نظر إلى الصور مزينة كما يجب، وكانت

سنة ١٢٠ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأحد ٢٩ ديسمبر ٧٣٧م.

* ولى الخليفة هشام إمارة المشرق كله يوسف بن عمر الثقفى بعد أن عزل خالد القسرى وموت أخيه أسد فى خراسان واتهم خالد الذى دامت امارته ١٥ سنة بأنه كان يمالىء أهل الذمة، وفى خراسان تولى نصر بن سيار خلفاً لأسد.

* استأنف عقبة بن الحجاج أمير الأندلس غزو فرنسا واسترداد ما انتزعه منه شارل مارتل وعقد حلفاً مع الدون مورنتوس فبعد أن عبر جبال البرانس اخترق اقليم سبتمانيا وعبر نهر الرون استرد مدينة أرل للمرة الثالثة ثم استعاد مدينة أفنيون فرد الأفرنج بتسيير ثلاثة جيوش متحالفة اضطرت عقبة الى اخلاء اقليم بروفانس واغلب اقليم سبتمانيا ولم يبق فى يد المسلمين سوى أربونة والشريط الساحلى.

* أوفد محمد بن على شيخ العباسين بكير بن ماهان الى خراسان لتزعم الدعوة العباسية بنفسه وبث النقباء فى الانحاء.

سنة ١٢١ هجرية

وافق هلال العام يوم الخميس ١٨ ديسمبر ٧٣٨م.

* بدأ نصر بن سيار أمير خراسان الجديد عهده بأن رفع الجزية عن

صورة السيده الطاهره مرتمريم والسيد المسيح فى حضنها، فلما نظر إليها وتأملها قال للأساقفه وجماعه معه: من هذه الصوره؟. فقالو: هذه مريم ام المسيح. فافترى عليها وملا فمه بصاقا وبصق فى وجهها وقال: ان وجدت زمانا فانا امحق النصارى من هذه الكوره، ومن هو المسيح حتى تعبدوه إلها. ولما كان [الاصبغ] فى تلك الليلة أنزل الله عليه انتقاما، فاصبح جا [ء] إلى أبيه فوجده جالسا وعنده جماعة من المسلمين ومن

الصغد وغيرهم من الترك الذين دخلوا فى الاسلام لاقرار المساواة فى الحقوق والواجبات مع العرب.

* دعا الامام زيد بن على الذى ينسب اليه المذهب الزيدى وسادس الأئمة الاثنى عشرية عند الشيعة الى العودة الى الكتاب والسنة وجهاد الظالمين قاصداً بنى أمية ثم انه أمر أصحابه فى اليمن بالخروج فشخص الى الكوفة ولكن تفرق عنه كثير من أنصاره.

* انسحب الأمير عقبة بن الحجاج أمير الأندلس الى قرطبة بعد غزوته الأخيرة فى أرض فرنسا بعد أن شق طريقه بعناد عبر جبال البرانس التى حاول البسكونيون والقوط سد ممراتها فى وجهه.

* اسر عاصم بن عمير قائد جند سمرقند ملك الترك كورصول وأتى به إلى أميره نصر بن سيار فأمر به فقتل فشق بعد ذلك على رعيته حتى انهم قطعوا اذانهم وأذناب خيولهم ومنها سار إلى فرغانة.

سنة ١٢٢ هجرية

أهل المحرم يوم الاثنين ٧ ديسمبر ٧٣٩م.

* ثارت الصفرية بافريقية والمغرب فخرج لقتالهم أميرها عبيدالله ابن الحبحاب واستظهر

النصارى وكان يوم احد الفصح المقدس، فجلس وقال لوالده: يا مولاى أن الشياطين عذبتنى فى هذه الليله. فقال أبوه: كيف يا ولدى؟ فقال: نظرت وكان واحدا جالسا على كرسى عظيم مخوفا مهابا جدا ووجهه يشرق نورا اكثر من شعاع الشمس، وحوله الوف وربوات حاملين السلاح ولباسهم أبيض كالثلج، وانا وانت خلفه قياما مربوطين بسلاسل حديد، فسألت واحدا بصوت خفى، من هذا الذى اخذ ملك ارض مصر

عليهم ثم أنفذ اليهم جيشاً ثانياً عليه أبو الأصم خالد فقتل فى حربهم واستفحل أمرهم حتى بعد مقتل زعيمهم عبدالواحد.

* غزا حبيب الفهرى جزيرة صقلية واستولى على سرقسطة أكبر مدنها فهابه أهلها وارتضوا دفع الجزية.

* انتزع عبدالله بن قطن امارة الأندلس من عقبة بن الحجاج وهى ولايته الثانية، وفيها لقى عقبة حتفه بقرمونة وكانت ولايته نحو ست سنوات، وفى عهده فتحت اربونة وبنبلونة من أرض فرنسا.

* استشهد فى هذه السنة الامام زيد بن على زين العابدين فى الرابعة والأربعين من العمر بنواحى الكوفة وكان قد خرج إليها مع انصاره من المدينة معلناً أنه أحق بالخلافة من هشام فخذلته جماعته وقتل أثناء المحاربة فدفنه اصحابه وخفوا مكان قبره ولكن الخليفة أمر بالكشف عنه حتى عثر على جثته واحتز راسه ثم صلب جثمانه وبعد ذلك احرق وذر رماده فى نهر دجلة. وزيد مؤلف كتاب المجموع فى الفقه وسادس الأئمة الاثنى عشرية.

سنة ١٢٢ هجرية

الأول من المحرم وافق يوم السبت ٢٦ نوفمبر ٧٤٠م.

* تفاقم أمر الصفرية فى شمال أفريقية وعلى رأسهم أبو يوسف الأزدى الذى أوقع الهزيمة

من أبى؟ فقال لى: ما عرفت هذا إلى الآن؟ فقلت له فى المنام، من هو هذا؟ فأجاب وقال: هذا يسوع المسيح ملك النصارى الذى هو أجل وأعلى من جميع ملوك الأرض، هذا الذى هزأت به وبصقت فى وجهه أوراك ضعفك فى المنام أنت البايس وأباك، واوراك مجده وجلاله. وفيما هو يقول لى هذا واذ قد جا واحد من حاملى السلاح وأنا عريان فطعننى بحربه فى جنبى ولم يقلعها حتى اسلمت روحى إليهم وهم الشياطين الذين

بجيش الخليفة وعلى رأسه والى أفريقية الجديد كلثوم بن عياض الذى قتل فى المعركة وفر ابن أخيه بلج القشيرى إلى الأندلس.

* عقد نصر بن سيار أمير خراسان الصلح مع الصغد ومنحهم شروطاً أنكرها عليه أمراء خراسان ثم غزا نصر بلاد فرغانة للمرة الثانية.

* غزا جيش من الروم مدينة ملطية فأنفذ اليها هشام جيشاً أزاحهم عنها.

سنة ١٢٤ هجرية

استهلت السنة بيوم الأربعاء ١٥ نوفمبر ٧٤١م.

* نشط منذ هذه السنة أبو مسلم الخراسانى فى الدعوة للعباسين بخراسان بعد أن وجهه اليها ابراهيم الامام.

* ولى الخليفة هشام إمارة مصر لحفص ابن الوليد للمرة الثانية بعد أن ولى حنظلة امرة افريقية بعد مقتل كلثوم وتعاظم أمر الخوارج من الصفرية.

* انتقلت الفتنة بين البربر والعرب من شمال افريقية الى الأندلس التى لجأ اليها بلج القشيرى بعد هزيمته ومقتل عمه كلثوم، فلم يلبث أن وثب على أمير الأندلس الشيخ عبدالملك بن قطن وقتله وتولى امارة الأندلس.

سحروني. فلما سمع والده حزن جدا، وحم الصبى للوقت بحمى عظيمه وحمل لوقته واضجعوه على فراشه ولم يفتح فاه بعد ذلك.

ولا اكل ولا شرب، فلما كان الساعه التانيه من الليل مات ودفن ولم يقدر أحد ان يسلى والده عنه، وبعد أربعين يوما مات أبوه كما رأى ولده الكافر المنام.

فلما جرى ذلك مضى اتناسيوس المؤمن المحب

---

* قتل بلج القشيرى في معركة بغرب قرطبة بعد ان ثار عليه ابنا ابن قطن وأنصارهما، وتولى الامارة ثعلبة العاملى (شوال).

سنة ١٢٥ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأحد ٤ نوفمبر ٧٤٢م.

* توفى هذه السنة (٦ ربيع الثانى) الخليفة الأموى هشام بن عبدالملك ببلدة الرصافة أو رصافة هشام التى كان قد بناها على مشارف بادية الشام وله من العمر أربع وخمسون سنة، ومدة خلافته تسع عشرة سنة ونحواً من عشرة أشهر، وكان مرضه الذبحة.

* بويع بالخلافة الوليد بن يزيد بن عبدالملك فى يوم وفاة عمه هشام ابن عبدالملك وله من العمر سبع وثلاثون سنة.

* تولى إمارة الأندلس أبو الخطار (حسام الكلبي) من قبل والى افريقية حنظلة بن صفوان خلفاً لثعلبة بن سلامة الذى لم يدم حكمه سوى عشرة أشهر فعمل على تفريق أهل الشام على مختلف مدن الأندلس تمزيقاً لعصبتهم.

* وجه الخليفة الجديد خاله يوسف بن محمد الثقفى والياً على المدينة ومكة والطائف، وولى على قضاءها يحيى بن سعيد الأنصارى.

للمسيح هو واولاده إلى الأمير الكبير عبدالملك إلى دمشق، فقبض على اتناسيوس هناك وحاسبه فأخذ منه كلما كسبه بمصر باخلاف عملها له، ثم انفذ ولدا له اسمه عبدالله(*) يحتاط على كورة مصر، فلما وصل إلى كورة مصر فعل أيضا أفعال سو. وكان جميع الاراخنه خايفين منه لفعله الذى حسنه له الشيطان، وصنع آلات يعذب بهن الناس. وكان كالوحش الضارى حتى أنه فى أكثر أوقاته إذا جلس على المايده [المائدة] يقتلون الناس قدامه

(*) عبدالله ابن عبدالملك: تولى مصر على صلاتها وخراجها فى عهد أبيه الخليفة عبدالملك ابن مروان. وذلك بعد وفاة عبد العزيز بن مروان فى الفسطاط فى ١٣ ابريل ٧٠٥م = ١٣ جماد أول ٨٦هـ.
انظر الهامش السفلى ص ٣٢٨.

سنة ١٢٦ هجرية

استهل المحرم بيوم الجمعة ٢٥ أكتوبر ٧٤٣م.

* خرج يزيد بن الوليد بن عبدالملك المعروف بالناقص على ابن عمه الخليفة الوليد بن يزيد لما انتهك من الحرمات وبويع بالمزة وكان الوليد بتدمر.

* قتل الخليفة الوليد بن يزيد ببعض نواحي دمشق في قتال جيش ابن عمه الوليد (جمادى الاخرة)، وكانت خلافته سنة وثلاثة أشهر.

* تولى الخلافة الأموية يزيد بن الوليد بعد مقتل الوليد بن يزيد (٢٧ جمادى الاخرة) ولكن لم يلبث أن توفى فى ٧ ذى الحجة من هذه السنة نفسها لهذا لقب بالناقص وله من العمر ست وثلاثون سنة، وبويع أخوه ابراهيم بن الوليد بيعة مترددة.

* تولى إمارة مكة والمدينة عبدالعزيز ابن الخليفة عمر بن عبدالعزيز خلفاً ليوسف بن محمد الثقفى (خال الخليفة الوليد وابن أخى الحجاج) ولم تدم إمارته سوى عام واحد.

* ولى الخليفة الجديد منصور بن جمهور المشرق كله (العراق وخراسان) إلا أن نصر بن سيار أمير خراسان إمتنع عليه فعزل الخليفة منصوراً واستعمل على العراق عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز.

* استولى المهير بن سلمى على اليمامة بعد إزاحة الوالى الأموى ولكن لم يلبث أن توفى.

وربما طار دمهم في الصحن الذى يأكل منه فيفرح بذلك.

وفي تلك الأيام خرج الطوبانى الأكسندروس وسار إلى مصر ليسلم عليه كالعادة من البطاركة والولاة، فلما نظر إليه قال: ايش هو هذا؟ قالو له هذا اب وبطرك جميع النصارى. فأخذه وسلمه لواحد من حجابه وقال له: أفعل ما تريه من الهوان إلى أن يقوم بتلته آلاف دينار. فأخذه وأقام

سنة ١٢٧ هجرية

وافق مستهل السنة يوم الثلاثاء ١٣ أكتوبر ٧٤٤م.

* سار مروان بن محمد من أرمينية الى الشام وخلع ابراهيم بن يزيد فهرب ابراهيم من دمشق فدعا مروان لنفسه (١٤ صفر) واختفى ابراهيم فترة ثم ظفر به مروان وقتله.

* بايع الخليفة الجديد مروان ابن محمد لولديه عبيدالله وعبدالله بالعهد من بعده وزوجهما بابنتي هشام بن عبدالملك.

* انتشر الطاعون في الشام وكان يسمى بطاعون غراب.

* ثارت الفتنة بين المضرية واليمانية بالشام بسبب الخلاف بين مروان وابراهيم ابن يزيد وانصرفت اليمانية عن مروان ومالوا إلى دعاة الدولة العباسية.

* اشتعلت الثورات على مروان في نواحي مختلفة، ففي الكوفة ظهر عبدالله بن معاوية (جد أمراء الأندلس الأمويين) ودعا لنفسه، وفيها خلع سليمان ابن الخليفة هشام بيعة مروان وحاربه، وفيها خرج الضحاك الشيباني الحروري مما زاد من عدد الثائرين على مروان، وفى أقصى المشرق تحركت شيعة بنى العباس تحت زعامة أبي سلمة حفص بن سليمان (الوزير فيما بعد) بعد موت كبيرهم بكير ابن ماهان.

* تولى إمارة مصر للمرة الثالث حفص بن الوليد.

عنده تلته أيام والنصارى مواصلون المسأله له أن يحط شيا مما قاله فلم يفعل، كان جميع من فى الكور تحت قلق عظيم لذلك، ووقع خوف عظيم على الأساقفه والرهبان لأجل ما جعله على البطرك من المال. فلما نظر ذلك جرجه الشماس التمراوى أنه ما يفرج عن البطرك إلا بعد أن ياخذ المال تقدم إليه وقال له: يا سيدنا تطلب نفس البطرك او مالا؟ فقال له: أريد المال. فقال له الشماس جرجه: ضمنى أياه مدة شهرين انحدر به إلى بحرى أطلب

---

* ثار يزيد ابن أمير العراقين خالد القسرى المقتول بدمشق ونودى به أميراً على الشام ولكنه قتل وصلب على باب الفراديس بدمشق.

سنة ١٢٨ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأحد ٣ أكتوبر ٧٤٥م.

* دخل ابو مسلم وهو ابن تسع عشرة أرض خراسان مع كتاب من إبراهيم الامام بتوليه الدعوة العباسية ويطلب من شيعته السمع والطاعة له.

* تجددت الثورات على الخليفة مروان، فممن خرج عليه ابراهيم بن هشام، وفى اليمن ثار عليه أبو حمزة حليف طالب الحق.

* استقر أمر عبدالرحمن بن حبيب على افريقية بحكم الواقع ثم أقره مروان فى هذه السنة بعد أن كاتبه وهاداه وأظهر له الطاعة.

* تولى حوثرة بن سهيل إمارة مصر من قبل مروان الملقب بالحمار ومهد حكمه بقتل سلفه حفص بن الوليد وعدداً كبيراً من مؤيديه ومواليه واستصفى اموالهم ومتاعهم.

* توفى فى هذه السنة جهم بن صفوان رأس الفرقة الجهمية التى تنسب إليه مات قتيلاً.

له من الاراخنه والنصارى وأقوم لك عنه تلته آلاف دينار. فسلمه إليه فطاف به المدن والقرى على المومنين بالمسيح حتى حصل المال وحمله. وكان يجمع له الأساقفه والمقدسين والرهبان فيهزأ بهم بتجبر بكلام صعب ويقول لهم: انتم عندى مثل الروم ومن قتل منكم واحدا غفر الله له لأنكم أعدا [ء] الله. ولما استوفى الخراج من الناس الذى جرت به عادتهم زاد عليهم وجعل على كلمن عليه دينار خراج دينار وتلتين حتى أن بيعا كتيره خربت بهذا

سنة ١٢٩ هجرية

الأول من المحرم يوافق يوم الخميس ٢٢ سبتمبر ٧٤٦م.

* خرج بحضرموت طالب الحق عبدالله بن يحيى الكندى وتغلب عليها واجتمع عليه الإباضية، فسار منها إلى صنعاء واستولى عليها بعد هزيمة أميرها القاسم الثقفى، ثم جهز إلى مكة جيشاً وعليها عبدالواحد حفيد عبدالملك ابن مروان فخرج منها بعد هزيمته.

* أظهر أبو مسلم الدعوة العباسية فى خراسان فتعاقدت عامة قبائل العرب على قتاله، وفيها قبض أبو مسلم على عبدالله بن معاوية الطالبى وسجنه وهو المطالب بالخلافة.

* فى أقصى الغرب تولى يوسف الفهرى القرشى إمارة الأندلس خلفاً لثوابة الذى توفى بعد حكم لم يدم سوى سنتين وبضعة أشهر وذلك على أثر الخلاف بين المضرية واليمانية كل يريد أن يكون الأمر منهم.

* فيها جهز طالب الحق عشرة آلاف مقاتل وسار إلى مكة، وبها عبد الواحد بن سليمان ابن عبدالملك بن مروان، فتغلب طالب الحق على مكة وهرب منها عبدالواحد.

* لم تنقطع ثورات الخوارج فى هذه السنة، ففيها ظهر شيبان الحرورى خليفة الخبيرى خليفة الضحاك الشيبانى ودخل فى حرب مروان وعلى جيشه ابن هبيرة وقاتل أهل الموصل فى جانب الخوارج.

السبب. وكان محبا للمال جدا. ثم أصر بأن يجمع جميع بلاده من ابن عشرين سنه إلى ما دون ذلك، فسارو وجمعو. وكان الذين أقامهم لذلك من أصحابه رجلين وهما عاصم ويزيد ومعهما جماعة من الأعوان، وانزلو على الناس بلايا عظيمه وقتل لأجل ذلك جماعه وأوسمو الغربا الذين وجدوهم على ايديهم وجباههم وانفذوهم إلى مواضع لم يعرفوها(*) [أى نفاهم]. وكان على الارض قلق واضطراب. وامر أن لا

(*) لعل هذه هى أحد طرق جميع الناس للعمل فى الأسطول أو البلاد التى استولى عليها العرب.

- -

سنة ١٣٠ هجرية

استهلت السنة بيوم الاثنين ١١ سبتمبر ٧٤٧م.

* وقع زلزال شديد بالشام واخربت بيت المقدس حتى خرج اهلها إلى الصحراء وفيها إنتشر الطاعون.

* تحول الخلاف بين المضرية واليمنية فى الأندلس الى حرب سافرة والتقى الفريقان عند شقندة بالقرب من قرطبة وتزعم المضرية الصميل ويوسف ابن عبدالرحمن وعلى الجانب الآخر ابو الخطار الذى هزم وقتل فى هذه السنة.

* نجح ابو مسلم فى اظهار الدعوة العباسية بخراسان ودخل مدينة مرو (ربيع الاخر) التى هرب منها الوالى الأموى نصر بن سيار.

* انتهت فى هذه السنة ثورة شيبان الحرورى بمقتله، وفيها قتل طالب الحق الذى ثار باليمن وبويع بالخلافة، كما قتل قائده ابو حمزة السليمى وكان اباضياً من الفتاك، كما قتل قاتله عبدالملك بن عطية الذى قضى على ثورة طالب الحق باليمن وابى حمزة بالحجاز.

* فيها كان الشروع فى اتخاذ ميلاد المسيح أساساً للتأريخ.

يدفن ميت حتى يقومون عنه بالجزيه، وولى إنسانا اسمه محمد على ذلك حتى أن المستورين الذين لا يقدرون على الجزيه إذا ماتو لا يدفنهم أحد إلا بأمره.

فما أعظم الحزن والشقا والتنهد الذى كان بأرض مصر والصعيد لأفعالهم، حتى انتقم الرب منه بسرعه بعد أن أقام سنتين يفعل هذه الأفعال فقبض الرب نفس عبدالملك أبيه وتولى موضعه

سنة ١٣١ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم السبت ٣١ أغسطس ٧٤٨م.

* انتشر فى هذه السنة الطاعون الذى سمى الطاعون العظيم أو طاعون أسلم ابن قتيبة بدأ بالبصرة فى شهر رجب واشتد فى رمضان وهلك فيه خلق عظيم وهو خامس عشر طاعوناً وقع منذ قيام الدولة الاسلامية.

* بسط أبو مسلم سلطانه على خراسان بأسرها وهزم الجيوش التى أرسلها الخليفة الأموى، وساعد على انتصاراته موت نصر بن سيار (١٢ ربيع الأول) آخر الولاة الأمويين فى خراسان.

* جرت معارك بين ابن هبيرة قائد مروان وعامر بن ضبارة بنواحى أصبهان قتل فيها هذا الأخير، وأرسل مروان مدداً لابن هبيرة على رأسه حوثرة أمير مصر ثم قاتل ابن هبيرة ومدده قحطبة قائد ابى مسلم الذى أراد دخول العراق.

* تولى امرة مصر (رجب) المغيرة بن عبدالله خلفاً لحوثرة.

* ولد بالمدينة الامام المكتوم محمد بن اسماعيل حفيد جعفر الصادق وأول الأئمة المكتومين عند الشيعة وتنسب الى ابيه الشيعة الاسماعيلية.

* توفى فى هذه السنة ابراهيم الامام زعيم الدعوة العباسية قبل ظهورها وهو الذى وجه ابا مسلم الى خراسان، مات فى سجنه بحران مقتولاً على الأرجح.

ولده الأكبر، وكان اسمه الوليد(*)، ولما جلس على كرسى الملك بدا يعزل الولاه ويولى غيرهم من أصحابه فولى واحدا مصر اسمه قره [ابن(*) شريك]، ولم يعرف ذلك الكافر عبدالله، وبينما هو جالس فى قصره وصل الوالى عوضه بغته وجلس موضعه فلحقه لذلك فضيحه عظيمه وخزى.

وانزل قره بلايا عظيمه على أصحاب عبدالله والنصارى والمسلمون طرحهم فى السجون أقامو فيها سنه.

(*) كان والدة قد أخذ له البيعة بالخلافة قبل وفاته فى عام ٧٠٣م = ٨٤هـ.

(*) قرة بن شريك: تولى مصر على صلاتها وخراجها فى ٢٢ يناير ٧٠٨م = ٤ ربيع أول ٩٠هـ.
أنظر الهامش السفلى ص ٣٥٦.

---

* ممن توفوا فى هذه السنة شيخ المعتزلة واصل بن عطاء عن ٥١ عاماً ومؤلف السبيل الى معرفة الحق.

سنة ١٣٢ هجرية

وافق مستهل المحرم يوم الأربعاء ٢٠ أغسطس ٧٤٩م.

* شهدت هذه السنة نهاية دولة وقيام دولة، ففيها سقطت دولة بنى أمية بعد أن حكمت نحو قرن من الزمان وقامت دولة العباسيين بعد سلسلة من الانتصارات العسكرية امتدت خلال شهور العام كله وانتهت بدخول دمشق فى رمضان ومقتل مروان آخر الأمويين بأبى صير فى مصر التى لجأ إليها هارباً (٩ الحجة).

* فى المشرق وثب أبو مسلم على نيسابور وأزاح الوالى الأموى وبايع للسفاح العباسى بالخلافة (ربيع الأول)، وفى الشمال جمع أنصار العباسين جموعهم بعد مقتل قحطبة وولوا ابنه الحسن الذى استولى على الكوفة (١٠ المحرم) وهرب واليها الأموى زياد بن صالح وبويع السفاح وتولى أمرها ابو سلمة الخلال الذى استولى على واسط، وعلى مشارف الشام التقى جيش الخليفة مروان بقوات العباسين وعليها عبدالله وصالح بن على عما السفاح عند الزاب فانهزم مروان الى دمشق التى حوصرت واستسلمت لصالح بن على (رمضان) وفيها سار مروان هارباً الى غزة ومنها الى بوصير بمصر حيث قتل (٢٧ الحجة).

وكان في أيامه انسان ارتدكسي اسمه يونس من دميره وكان ذا أمر ونهي. وفعل قرة بلايا بالبيع والرهبان حسب ما يأتي شرحه.

وكانت مملكة الروم مثل لعب الصبيان(*) فلما خلعو الروم يوستنيانوس الملك ملكو لاون [ليونتيوس] موضعه، وقتل لاون قبل أن يكمل له تلت سنين في الملك. وملك بعده ايسماروس وقتل جماعه من البطاركة في القسطنطينيه وقتل البطرك

(*) دخلت الامبراطورية البيزنطية منذ منتصف القرن الخامس الميلادى في دور طويل من الانحدار بسبب الحكم الاستبدادى المغلق الذى أدى إلى تدهور كبير في الاقتصاد إلى جانب الحروب الكثيرة في الشرق مع الفرس والعرب وفي الغرب مع البلغار=

---

* نودى بالسفاح خليفة في جامع الكوفة (١٣ ربيع أول) وله من العمر ٢٨ سنة، وهو أبو العباس عبدالله بن محمد بن على تقدم في الخلافة على أخيه الأكبر ابى جعفر الذى عرف بالمنصور بعد ذلك.

* ولى السفاح ابا سلمة الخلال وزارته فكان أول وزير منذ قيام الدولة الاسلامية، ولكن لم يلبث ان فتك به قبل نهاية العام، كما ولى السفاح اعمامه الولايات فتولى عبدالله على الشام وداود على الحجاز وعيسى على المشرق، وعقد لأخيه ابى جعفر بولاية العهد، وعلى خراسان ابو مسلم.

* في جماد الثاني = أواخر يناير ٧٥٠م تولى مصر عبدالملك بن مروان من قبل الخليفة مروان بن محمد. وفي ١١ جماد ثان كانت هزيمة الخليفة مروان بالزاب. وعبدالملك هذا هو الذى اتخذ المنابر في المساجد ولم يكن قبل ذلك منبر في المساجد، وكانت ولاة مصر تخطب على العصى إلى جانب القبلة. وهو آخر ولاة بنى أمية في مصر وقد حاربه أهل مصر من القبط حروباً طويلة حتى قدم العباسيين إلى مصر.

* توفى في هذه السنة قتلاً في المعارك أو إغتيالاً أو في السجون كثير من رؤوس الدولة الأموية المنهارة لاسيما في يوم الزاب أو عند نهر ابى فطرس بفلسطين، منهم: القائد ابن هبيرة وحوثرة بن سهيل أمير مصر، وسليمان بن هشام حفيد عبدالملك، وابراهيم الوليد الذى بويع بالخلافة أياماً قبل مروان، والوليد ابن معاوية أمير الشام، ومحمد بن مروان أمير مصر فترة،

وملك وأطلق سبايا كثيرا من بلاده وعادو إلى بلادهم وزود كل واحد بتلته دنانير نفقة الطريق. وملك بعده فيلابكوس. وبعد سنتين ملك انسطاسيوس إلى الان [يعنى بقوله إلى الآن إلى زمان وضع السيرة].

وكان متولى ديوان اسكندريه تلك الأيام تاودرس وكان بينه وبين الأب البطرك الاكسندروس معاداة عظيمه، فلما وصل قره إلى مصر مضى

= والامبراطورية الرومانية الغربية. وما يهمناهنا هو أنه مع ضعف الامبراطورية البيزنطية واصلت الخلافة الاموية منذ معاوية ومن أتى بعده الإغارة على آسيا الصغرى وجزر البحر المتوسط وظلوا منذ عام ٦٦٣م حتى عام ٦٧٨م يغيرون سنوياً على الولايات البيزنطية فى أسيا حتى وصلوا إلى خلقدونية مما عاد على هذه الولايات بالخراب الاقتصادى.
وفى عام ٦٦٩ تمرد الجيش على قسطنطين الرابع وطلب منه أن يتوج معه أخويه هرقل

والغمر ابن الخليفة يزيد ومعه ثمانون رجلاً، وثعلبة بن سلامة العاملى قتل مع مروان بمصر، وسعيد ابن عبدالملك.

سنة ١٣٢ هجرية

استهلت السنة بيوم الأحد ٩ أغسطس ٧٥٠م.

* فى أول المحرم من هذه السنة ولى الخليفة عبدالله السفاح عمه صالح بن على إمارة مصر وله من العمر سبع وثلاثون سنة خلفاً لواليها الأموى عبدالملك بن مروان حفيد موسى بن نصير الذى استمرت ولايته سبعة أشهر فى ظل الخلافة العباسية وأرسل رأس مروان إلى الشام وقتل اعداداً هائلة من اشياع بنى أمية وجنودهم واكابرهم واستصفى اموالهم ومتاعهم ولكنه لم يقتل عبدالملك ابنى مروان بنى موسى الوالى الاموى واخذه معه إلى فلسطين بعد ذلك.

* وزع السفاح حكم الولايات الباقية على أقاربه وأنصاره، فولى عمه سليمان ابن على على البصرة وخاله زياد بن عبيدالله على مكة، وابن خاله محمد بن زياد على اليمن، ومحمد بن الأشعث على افريقية.

* استخلف صالح بن على أمير مصر أبا عون عبدالملك فعمر مدينة العسكر ووضع

وطياريوس. وقد استغل معاوية في ذلك الوقت ثورة الجيش واحتل جزيرة خيوس بعد أن كان قد احتل من قبل رودس وقبرص. وبلغ الأمر أن قام الاسطول المصرى من الاسكندرية بأشتباك بحرى أمام أسوار القسطنطينية وتكرر ذلك حتى عام ٦٧٩م عندما عقد الامبراطور قسطنطين معاهدة مدتها ثلاثين عاما مع معاوية.

وفي عام ٦٨٠م واجه قسطنطين غزو قبائل البلغار لشبه جزيرة البلقان وفشل في ذلك خاصة

نظام الشرطة العليا تمييزا لها عن شرطة الفسطاط وقضى في ولايته هذه (الأولى) على ثورة للقبط.

* انتهز الامبراطور قسطنطين الخامس الاضطرابات التى صحبت سقوط الدولة الأموية وقيام دولة بنى العباس وشن حملة على أراضى الدولة الشامية استولى فيها على ملطية فتفرق أهلها في بلاد الجزيرة وهو الذى أحرز انتصارا على البلغار والسلاف في البلقان.

* في أقصى الشرق التقى زياد بن صالح قائد ابى مسلم بأهل فرغانة وحلفائهم من أهل الصين على نهر طراز (ذى الحجة) وظفر بهم وأسر في قول عشرين ألفا وهرب الباقون الى الصين.

* قتل شريك المهرى من دعاة العباسيين وكان قد ثار على ابى مسلم بنواحى بخارى بسبب اسرافه في سفك الدماء.

سنة ١٢٤ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الجمعة ٣٠ يوليو ٧٥١م.

* نقل الخليفة السفاح عاصمة حكمه من الحيرة الى مدينة الأنبار المجاورة.

* تولى ديوان الخراج للخليفة السفاح وزيره الثانى خالد بن برمك جد البرامكة.

الأب البطرك كالعادة ليهنيه بالولاية ويسلم عليه، فلما وصل إليه قبض عليه وقال له: الذى قبضه منك عبدالله بن عبدالملك تحتاج أن تقوم لى بمثله. فقال له الأب البطرك: شرعنا يأمرنا أن لا تكون لنا قنيه ولا نكثر ذهبا ولا فضه بل نصرف حاجة يوما فيوما لما نحتاجه من الكلف والفقرا والمحتاجين، وانما فعل بى عبدالله ما فعل بسعاية ناس السو حتى ظلمنى والزمنى تلته آلاف دينار ولم يجد معى منها شيا حتى أخرجنى إلى البلاد كالمكدى

عندما اتحد البلغار مع السلاف مكونين مملكة متحدة بين الدانوب وجبال البلقان اجبرت قسطنطين على دفع جزية سنوية.
وفى عام ٦٨٥م توفى قسطنطين بعد صراع داخلى مع أخويه هرقل وطيباروس فتولى ابنه جستنيان الثانى العرش فى الوقت الذى كانت فيه الخلافة الاموية تعانى من الاضطرابات الداخلية بسبب الثورات التى قامت في الحجاز والعراق، ولم يستطع عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى أن

---

* انتشر الطاعون فى إقليم الرى (فارس) ومات فيه خلق كثير.

* جرت غزوة كش على مشارف الصين قادها خالد بن ابراهيم فقتل ملكها الأخريد وعاد الغزاة محملين بالطرف من نعوم الصين من الحرير والأوانى المنقوشة المذهبة والسروج المزركشة ما لم ير مثلها.

* تولى خازم بن خزيمة وهو خراسانى قتال الخوارج منهم بسام بن ابراهيم وكان على عسكر السفاح بخراسان، كما ركب البحر الى عمان وجزرها وعليها الجلندى فقتل فيمن قتل شيبان بن عبدالعزيز الخارجى.

سنة ١٣٥ هجرية

استهلت السنة بيوم الثلاثاء ١٨ يوليو ٧٥٢م.

* غزا عبدالله بن حبيب جزيرة صقلية بعد أن أعاد الروم تحصينها وبنوا أسطولاً بقصد مهاجمة مراكب المسلمين فى البحر فنجح ابن حبيب فى دك حصونها وتحطيم بعض سفن الأسطول فتركها بعد أن صالحه الروم فعاد مثقلاً بالغنائم والأسلاب.

* كان على مكة فى هذه السنة العباس بن عبدالله وعلى المدينة زياد الحارثى، وعلى الكوفة عيسى بن موسى، وعلى حمص وبعلبك والأردن عبدالله بن على، وعلى فلسطين صالح بن

اتصدق حتى وفق الله ما طيب به نفسى، وعلى إلى الان خمس ماية دينار، فمن اين يكون معى شى؟. فقال الأمير: فتحلف لى أن ليس معك ذهب. فقال له: قد أمرنا الله أن لا نحلف البتة فصدقنى الان أن خراج اواسيى الذى لابد من القيام به لا أقدر عليه والله اعلم أن ليس عندى ذهب. فقال الامير: هذا كلام ما ينفع ولو أنك تبيع لحمك لابد من تلته الاف دينار والا فما تخلص من يدى. فلما راى أنه لا يخلص منه سأله أن يسيره إلى الصعيد

يفتح جبهة للقتال ضد الروم، فسارع إلى عقد معاهدة مع جستنيان الثانى، قبل فيها أن يدفع له أتاوه لبلاده، وأن تتقاسم الدولتان الجزية التى تجمع من قبرص وأرمينيا. ثم اندلعت الحرب بين جستنيان الثانى والخليفة مروان سنة ٦٩١ / ٦٩٢م. ونظراً لأن الجنود الصقالية غدروا بجستنيان وانحازوا للأمويين، فقد لقى جيش الروم هزيمه أعادت أرمينيا إلى أحضان الامويين. وبسبب بعض التعديلات التى

على، وعلى الموصل صالح بن على، وعلى أذربيجان محمد بن صول، وعلى ديوان الخراج خالد بن برمك.

* ثار ببلاد ما وراء النهر (التركستان) زياد بن صالح فسار إليه أبو مسلم الخراسانى ففر زياد ولم يلبث أن قتل على يد أحد الدهاقين وكان قد لجأ إليه.

* ولد فى هذه السنة بالبصرة أبو الهذيل العلاف أحد زعماء مذهب المعتزلة.

* من وفيات هذه السنة، سباع بن النعمان أحد القائمين بالدعوة العباسية فى المشرق تولى سمرقند بعد نجاحها ولكن لم يلبث ان انقلب على أبى مسلم فقتله خوفاً منه، وفيها قتل سليمان ابن الخليفة هشام الأموى وكان على خلاف مع مروان بن محمد فالتجأ إلى بنى العباس فأمنه السفاح حتى اثاره عليه أبو مسلم ودس عليه شعراً كان سبباً فى قتله، وفيها قتل أثناء هربه زياد الحارثى والى الكوفة إبان الحكم الأموى.

سنة ١٣٦ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم السبت ٧ يوليو ٧٥٣م.

* تولى إمارة مصر للمرة الثانية صالح بن على عم المنصور وعاد إليها على رأس جيش كبير لغزو بلاد المغرب وأناب على مصر أبا عون واليها المعزول.

ومهما فتح الله من صدقات الناس أرسله إليه. فتركه قره وطلع إلى الصعيد يطوف المدن والقرى ويسأل فكان الرب يسوع المسيح يشفي أعلا كثيرا بصلواته وكان كل أحد يفرح به ويقول أن من زمان الأب بنيامين ما رأينا بطركا في الصعيد إلا هذا الأب، ولقى تعبا ومشقه وغربه. حتى أن الشيطان مبغض الخير فعل هذا الأمر، وهو أن سايحا كان اسمه فيتباستس وهو مقيم على صخره ومعه راهبان ولداه فامرهما أبوهما السايح

أدخلها قسطنطين على القوانين الكنيسة وأعلن بابا الفاتيكان سرجيوس بطلانها أرسل قسطنطين قوة للقبض على البابا كما فعل جده قنسطانس سنة ٦٥٣م مع البابا مارتينوس، ولكنى الحال كان قد تبدل وفشلت خطته.

ونتيجة للأموال الباهظة التى صرفها قسطنطين فى حروبه وزيادة الضرائب قامت ثورة فى القسطنطينية نهاية عام ٦٩٥م قبضت عليه وجدعت انفه ونفوه إلى نفس المدينة التى نفى إليها

---

* بدأ الخلاف بين أبى مسلم الخراساني والخليفة الجديد الذى بعث إليه جريراً البجلى من باب المداهنة ليدخل الطمأنينة على نفسه.

* تولى الحسن بن قحطبة إمارة أرمينية استخلفه عليها المنصور العباسي.

* حج فى هذه السنة لأول مرة الخليفة المنصور وفى طريق العودة دخل الكوفة وصلى بأهلها الجمعة وخطبهم وفيها سار إلى الأنبار وعليها عيسى بن موسى نائبه.

* تولى الخلافة العباسية أبو جعفر المنصور (١٣ الحجة) خلفاً لأخيه أبى العباس السفاح أول العباسيين الذى توفى فى هذا التاريخ عن أثنين وثلاثين عاماً وكانت خلافته أربع سنوات بينما دام حكم الخليفة الجديد أثنين وعشرين سنة وكان المنصور أسن من أخيه السفاح.

* بايع أهل دمشق على أثر وفاة السفاح هاشم بن يزيد الاموى، بينما دعا إلى نفسه عبدالله بن العباس عم الخليفتين السفاح والمنصور غير أن الحركتين احبطتا.

* وصل عبدالرحمن بن معاوية المعروف بصقر قريش إلى المغرب بعد نجاته من مذابح الشام وفلسطين، وفى أواخر هذه السنة بعث مولاه بدراً إلى الأندلس ليتعرف أحوالها وينشر دعوته بين أنصار بنى أمية.

ان ينضفا له موضعا خارجا عن الصخرة، وفيما هما ينضفان ويحفران وجدا خمسة كيزان نحاس مملوه مالا من سكة الروم فاخفو أحدهم واظهرو الأربعه للسايح، فقال لهما الشيخ السايح بقلب طاهر: هذا جميع ما وجدتماه؟ قالا: نعم. فسر بذلك ثم قال لهما: الرب قد وفق هذا المال للأب البطرك لأنه مطلوب بما ليس معه. ثم انفذ إلى وكيل البطرك وكان اسمه جرجه الراهب والى كاتبه فاحضرهما وسلم لهما الأربعة كيزان وقال

جده قسطانس البابا مارتينوس وهي مدينة خرسون Cherson في شبه جزيرة القرم. وعقب ذلك سادت الفوضى في الامبراطورية وسقط شمال أفريقيا في يد العرب عام ٦٩٧م، أما عن العرش فقد جلس عليه في أول الامر قائد عسكرى يدعى ليونتيوس Leontius الذى حكم من ٦٩٥ إلى ٦٩٨م. ثم تولى أبسيمار امبراطورا باسم طيباريوس الثالث وحكم من ٦٩٨ إلى ٧٠٥م. وفي نفس العام هرب جستنيان الثاني من سجنه في

سنة ١٣٧ هجرية

استهلت السنة بيوم الخميس ٢٧ يونية ٧٥٤م.

* شهدت هذه السنة مقتل أبي مسلم الخراساني بالمدائن عن ٣٧ عاماً، وكان داعية العباسيين في المشرق وهو المؤسس الحقيقي لدولتهم، لقى حتفه بسبب تشكك المنصور في نياته، قيل في وصفه كان أقل الناس طمعاً، مات وليس له دار ولا عقار.

* أضاف المنصور إمارة المدينة إلى زياد بن عبدالله الحارثي وكان على مكة، وعلى الكوفة عيسى بن موسى وعلى البصرة عم الخليفة سليمان بن على عم المنصور، وعلى خراسان أبو داود خالد إبراهيم وعلى الجزيرة حميد بن قحطبة، وعلى مصر صالح بن على عم الخليفة.

* كان رد الفعل الأول لمقتل أبي مسلم خروج سنباذ المجوسي مطالباً بدمه وغلب على نيسابور والرى فانفذ إليه المنصور قائده جهور بن مرار العجلي فقضى على الفتنة بعد سبعين يوماً، وفي الجزيرة خرج ملبد بن حرملة الشيباني وهزم خمسة جيوش انفذها إليه المنصور لهذا لم تجر في هذه السنة صائفة مع الروم بسبب الخلافات الداخلية.

* في ٢٦ رمضان = أوائل مارس ٧٥٥م دخل ابو عوف مصر والياً عليها من قبل صالح بن على العباسي عندما توجه إلى فلسطين.

* توفي بالقيروان أمير تونس عبدالرحمن بن حبيب الفهرى إغتاله أخوه إلياس في قصره طمعاً في الحكم والسلطة.

لهما خذا هولا ادفعاها عن الأب الاكسندروس البطرك، فاخذاها ومضيا ودفناها بفعل سو، وكان الأب البطرك غايبا يجمع في الصعيد، فأخذ الراهبان ولدا السايح الكوز المال اقتسماه وبديا يفعلا أفعالا غير مرضيه، وتركا الرهبه وابتاعا لباسا فاخرا وجوارى سرارى. فقبض الوالى والكاتب على أحدهما وقالا له: من اين لك هذا المال؟ وعاقبوه، فلما أحرقه الضرب قال لهم: عاهدونى أن لا تفعلون معى سو[ء] وأعرفكم كل

خرسون والتجأ إلى إمارة الخزر، ورحب به خان هذه الإمارة، بل زوجه من أخته التى اعتنقت المسيحية، وجعلها جستيان تسمى باسم تيودورا تيمناً باسم تيودورا الكبرى زوجة جستيان الاول، ثم لجأ إلى ملك البلغار الذى وعده بإعادته العرشه مقابل اتاوة باهظة، وبالفعل عاد جستنيان لعرشه بعد تشرد دام عشر سنوات، ولكنه لم يستقر حوالى الثلاث سنوات حتى ثار عليه قائد يدعى باردانيس وتولى العرش تحت اسم فيليبكوس

سنة ١٣٨ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الاثنين ١٦ يونية ٧٥٥م.

* نزل صقر قريش عبدالرحمن بن معاوية (فيما بعد عبدالرحمن الداخل) ساحل البيرة بشرق الأندلس (فى ربيع الآخر) فاستقبله زعيم أنصاره أبو عبيدالله بن عبدالله وانزله فى قرية طرش بالقرب من الجزيرة الخضراء، وقبل نهاية العام كانت قد ذاعت دعوته فى جنوب الأندلس كله وأقبل عليه أنصار بنى أمية من المضرية واليمانية وأهل الشام وفى ١٠ الحجة جرت المعركة بينه وبين أمير الأندلس العباسى يوسف الفهرى ومعه الصميل فهزما وهربا ودخل عبدالرحمن قرطبة وبويع بالامارة.

* خلع جهور العجلى بيعة المنصور بعد إنتصاره على الثائر سنباذ ولكن لم يلبث أن لقى نهايته بين الرى وإصباهان على يد محمد ابن الأشعث، كما هزم فى هذه السنة ثائر آخر هو ملبد بن حرملة الذى خرج بالجزيرة على المنصور العباسى واستفحل أمره وهزم الجيوش التى جدت فى طلبه حتى قتله قائد الأمير خازم ابن خزيمة وهو نضلة بن نعيم النهشلى.

* غزا العباس بن محمد الصائفة ومعه من أعمام الخليفة صالح بن على وعيسى ابن على.

* فيها كانت الحرب بين فرنسا وايطاليا وانهزام استوف ملك اللومبارديين ومحاصرة روما. وكانت هذه الحرب ضمن حروب كثيرة. حدثت فى أوربا بين ممالكها، وقد حاول بابا روما التوفيق بينها بأن وجه هذه الحروب إلى الشرق تحت دعوى محاربة أعداء المسيح واستخلاص الاراضى المقدسة فيما عرف باسم الحروب الصليبية.

شي. فعاهدوه فاعلمهم خبر الخمس كيزان وأنه هو ورفيقه أخذا منهم واحدا وان الأربعة كيزان الأخر عند وكيل البطرك وكتابه. فاعلمو قره بذلك سرعه، فأمر بغلق الابسقوبيون وأخذ كلما فيه من الأوانى والذهب والفضه والكتب والبهايم وأنزل بلايا عظيمة على أصحاب البطرك، وأخذ الأربعة كيزان المال سوى أوانى البيعه ومال الابسقوبيون، وانفذ إلى الصعيد واحضر البطرك وهم بقتله بسبب يمينه أن ليس معه ذهب. ولما أخذ منهم

واعدم جستنيان الثانى وكل اسرته. ولكنه لم يستمر سوى عامين، إذ راح ضحية مؤامرة فى القصر قتل فيها وتولى مكانه انسطاسيوس الثاني، والذى غرقت فى عهده الامبراطورية فى فوضى تامه حتى عزل واحتل مكانه ثيود وسيوسي الثالث عام ٧١٦م الذى لم يستطع صد الغارات العربية على حدوده الشرقية فعزل وتولى مكانه ليون Leon الثالث الملقب بالأيسورى وبذلك قضى تماماً على اسرة هرقل الحاكمة مما يعتبر تمهيداً لحكم اباطرة الاسرة

---

* توفى فى هذه السنة: أمير مصر حفص بن الوليد وكان قد تولاها مرتين وقتل على يد خلفه حوثرة، وفيها قتل إلياس بن حبيب الفهرى على يد إبن أخيه حبيب ابن عبدالرحمن إنتقاماً من غدره بأبيه وكان عبدالرحمن أميراً على أفريقية.

سنة ١٣٩ هجرية

استهلت السنة بيوم السبت ٥ يونية ٧٥٦م.

* استسلم يوسف بن عبدالرحمن الفهرى والصميل الكلابى زعيما حركة المقاومة بالأندلس بعد أن أمنهما عبدالرحمن الداخل (صقر قريش) واعادهما إلى قرطبة تحت المراقبة.

* جرى فى هذه السنة الفداء بين الخليفة المنصور وقسطنطين الخامس إمبراطور بيزنطة فاستنقذ المنصور أسرى بلدة «قالى قلا» وعمرها ورد إليها أهلها.

* عزل المنصور عمه سليمان بن على عن ولاية البصرة والبحرين وعمان وولاها سفيان بن سعيد وكان سليمان قد أخفى عنده أخاه عبدالله الذى خرج على المنصور ودعا إلى نفسه فظفر به المنصور وسجنه.

الأربع كيزان هرب جميع أصحاب البطرك مثل الحواريين ذلك الزمان. فلما أحضرو البطرك إليه صر باسنانه عليه واراد قتله فمنعه الرب عنه، فكبله بالحديد وطرحه في السجن، فأقام سبعة أيام، ثم بعد ذلك الزمه أن يقوم بالتلته ألاف دينار. ولحقه تعب عظيم وضيق إلى أن تخلصت له ألف دينار بعد سنتين. ثم حلت بالأب القديس تجارب كثيره وهو صابر عليها.

الايسورية منذ عام ٧١٧ حتى عام ٨٦٧م الذى تولى فيه الحكم الاسرة المقدونية من ٨٦٧ إلى ١٠٥٧م.

سنة ١٤٠ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأربعاء ٢٥ مايو ٧٥٧م.

* أعاد الخليفة المنصور على يد ابنه إبراهيم عمارة مدينة المصيصة وكان سورها قد تهدم بفعل الزلازل وسماها المعمورة، كما أعاد واليه الحسن بن قحطبة تعمير مدينة ملطية بعد أن خربها الروم فاسكنها المنصور أربعة الاف من الجند الترك وأكثر فيها السلاح وحاول الامبراطور قسطنطين إعادة الكرة عليها ولكنه رجع لما بلغه من كثرة المسلمين.

* اتخذ بنو مدرار بالمغرب مدينة سجلماسة عاصمة لهم بعد أن اضطلعوا بتعميرها.

* توفى ألفونسو ملك جليقية (غاليسيا) إحدى الولايات الآسبانية المسيحية في شمال غربى الأندلس.

سنة ١٤١ هجرية

هلال المحرم وافق يوم الأحد ١٤ مايو ٧٥٨م.

* فر يوسف الفهرى آخرى أمراء الأندلس من مدينة قرطبة بعد أن أمنه عبدالرحمن الداخل وأتجه يوسف إلى ماردة حيث أهله وأنصاره من العرب والبربر وهاجم غرناطة وأشبيلية.

ثم أن قوما أشرارا مضو وسعو به أن عنده قوما يضربون الدنانير وان عنده سكه، وفيما هو جالس فى تاسع ساعـه من النهار فى بعض الأيام يفطر وليس عنده علم إلا وقد احاطو بالابسقوبيه وأن أهل مدينة اسكندرية والكاتب بأمر قره قد قبضو عليه وعلى أصحابه وطرحوه على الأرض، وضربو أصحابه وعوقبو حتى سالت دما هم إلى الأرض، وكادو يموتون من العقوبه، ووجدو ما سعو به عليه باطلا. ولم يزالو فى هذه البلايا إلى اليوم

---

* تولى إمارة مصر ثم عزل منها فى نفس هذه السنة أبو عيينة موسى بن كعب التميمى وقد اشتهر أبو عيينة بأنه جعل للامارة رهبة حتى كان لا يجتاز باب الأمير إلا من أذن له فى ذلك، وحين عزله الخليفة المنصور قال له إنما عزله عن غير سخط ولكن خوفاً من أن يقتل كما جاء فى نبوءة عن مقتل وال يدعى موسى وكان موسى أول من بايع السفاح أول العباسيين، خلفه محمد ابن الأشعث الذى قدم مصر فى الخامس من ذى الحجة من السنة.

* عزل زياد الحارثى عن المدينة ومكة والطائف وتولى على المدينة محمد بن خالد القسرى وعلى مكة والطائف الهيثم العتكى.

* استولى الثائر أبو الخطاب المغافرى زعيم الاباضية على تونس فوجه اليه المنصور أمير مصر الجديد محمد بن الأشعث، وفيها خرجت على المنصور طائفة الراوندية وهى فرقة من غلاة الخراسانيين كانوا يقولون بتناسخ الأرواح ويؤلهون الخليفة.

* تولى المهدى ابن الخليفة المنصور إمارة خراسان خلفاً لعبد الجبار الأزدى الذى خلع بيعة المنصور فنفى إلى جزيرة دهلك بالبحر الأحمر، وفيها استعاد المهدى مع قائديه خازم بن خزيمة وعمرو بن العلاء بلاد طبرستان.

* فى هذه السنة ظهر معن بن زائدة أحد مشاهير الأجواد وكان قد ثار على المنصور ولكنه أبلى فى قتال الراوندية فأعطاه المنصور الأمان.

* ممن توفوا فى هذه السنة: أمير مصر موسى بن كعب.

التانى فى أمشر سنة أربع مايه وتلتين لدقلاديانوس، ثم بعد هذه البلايا التى نالت الاب قامو عليه أهل اسكندريه والكهنه والزموه أن يقوم لهم برسوم وديارات فى تالت عيد الفصح. ولم يكن له شى يدفعه لهم، وكان يقول لهم: يا أخوة قد نظرتم نهب جميع مال البيعه حتى الكاسات اللاتى يرفع فيهن الدم الزكى جعلنا عوضا من الذهب والفضه كاسات زجاج، والدسقسات خشبا، من أجل نهب قره لهم. وكانو يبكتونه بكلام كثير صعب وهو

الأوانى المقدسة.

سنة ١٤٢ هجرية

أهل المحرم يوم الجمعة ٤ مايو ٧٥٩م.

*تخلص عبد الرحمن الداخل من زعيمى الثورة ضده، ففيها سار يوسف الفهرى بعد هربه إلى مدينة طليطلة محاولاً تنظيم قواته لحرب عبد الرحمن إلا أن بعض الخونة من أنصاره إغتالوه وحملوا رأسه إلى قرطبة فبذلك توفى آخر أمراء الأندلس قبل قيام الخلافة الأموية بها عن سبعين سنة حكم خلالها الأندلس نحو عشر سنين، ثم إستولى تمام بن علقمة على المدينة وأسر محمد بن عبدالرحمن، وفى الوقت نفسه دس على الصميل الزعيم الثانى من قتله فى داخل سجنه.

* ثار على الخليفة المنصور أمير خراسان عبد الجبار الأزدى ولكنه أسر وضربت عنقه بالكوفة، كما ثار بالسند أميرها عيينة بن موسى فأنفذ اليه جيشا بقيادة عمرو بن حفص العتكى فغلب عليه وخلفه فى الولاية.

* توفى فى هذه السنة الكاتب المنشئ الفارسى الأصل عبد الله بن المقفع عن ٣٦ عاماً وهو مترجم كتاب كليلة ودمنة ومؤلف كتاب الأدب الصغير والأدب الكبير.

صابر على تبكيتهم. وداع إلى السيد المسيح راعى الرعاه أن يتسلم منه شعبه بسلام.

والرب يسوع المسيح فعل فى أيامه امورا عجيبه، لأنه مهتم بخلاص كل أحد من الناس كان انسان أسمه يونس أرخن رزقه الله قبولا عند الولاه فمضى إلى قره وقال له: يجب أن تعلم ان الرهبان والأساقفه الذين فى ساير الأماكن قد ثقل عليهم الخراج وهاهنا أمر سهل، منهم من هو

(*) الأوانى المقدسه وهى:
١. الكرسي أو التابوت:
هو عبارة عن صندوق خشبى وغالبا ما يوضع فوق المذبح فى الوسط لحفظ الكاس أثناء التقديس ويعلوه غطاء من جزئين يفتح من الوسط حتى يسهل وضع الكأس واخراجها حسب متطلبات طقس الخدمة ويرسم على جوانبه صورة العشاء الربانى وصورة يسوع وبعض القديسين.
* يسمى عرش أو كرسى إشارة إلى الكرسى الجالس عليه المسيح (أش ٦:١)، (رؤ ٤: ٢)، حيث أن

سنة ١٤٣ هجرية

واقق مستهل السنة يوم الثلاثاء ٢٢ أبريل ٧٦٠م.

*تولى إمارة مصر حميد بن قحطبة (٥ رمضان) وعزل عنها يزيد بن حاتم فى ذى الحجة من السنة نفسها وفى خلال ذلك أنفذ قائده أبا الأحوص العبدى لقتال الثائر أبى الخطاب بإفريقية ولكنه هزم فقاد حميد الجيش وكر على أبى ا لخطاب فهزمه، وحميد هذا هو الذى تولى خراسان بعد ذلك.

* واجه عبد الرحمن الداخل بالأندلس ثورة جديدة قادها رزق بن النعمان صاحب الجزيرة الخضراء الذى نجح فى الاستيلاء على شذونة ثم على اشبيلية وفى هذه الأخيره حصره عبد الرحمن فتقرب اليه نفر من أهلها بتسليم رزق إليه فقتله وأمنهم.

* ثار الديلم على المسلمين وفتكوا بهم فأنفذ إليهم المنصور جيشاً لقتالهم، وفى إفريقية استمرت الحرب مع الأباضية بعد مقتل أبى الخطاب.

* حج بالناس فى هذه السنة أمير الكوفة عيسى بن موسى، وفيها عزل الخليفة المنصور الهيثم عن إمرة مكة بالسرى بن عبد الله العباسى.

* توفى فى هذا التاريخ: اسماعيل ابن الامام جعفر الصادق فى حياة أبيه واليه تنسب الفرقة الاسماعيلية من الشيعة ويعتبر اسماعيل جد الخلفاء الفاطميين وزعموا أنه ما زال مستوراً وأنه لا يموت حتى يملك الأرض وينشر العدل.

مكثر ومنهم من لا يقدر على قوته، ونحن نعرف حال ساير النصارى فإن رأيت أن توليني أمرهم استخرجت الخراجات. فولاه على الأساقفه والرهبان فلما أعطاه السلطان قال لقره: أن فيهم من لا يومن بأمانة النصارى القبط ولا يصلون مع المسلمين فما ترى ان أفعل بهم؟ فقال: أفعل بهم بناموس النصارى وضاعف الجزيه عليهم. فخرج من عنده بتدبير الله ومضى أولا إلى كرسى «صا»

الكأس التى فيه يوضع بها دم يسوع الجالس على كرسى مجده وتسجد له جميع القوات السمائية.
* يسمى أيضا تابوت إذ يحوى الكأس الذى به دم المسيح المن السماوى الذى يحيى كل من يشرب منه (يو ٦ : ٥٤) كما كان تابوت العهد القديم يحوى داخله قسط المن (خر ١٦ : ٣٣).
٢.الصينية.
تصنع الصينية من الذهب أو الفضة أو أى معدن آخر مناسب، وهى مستديرة مسطحة ولها حافة وليس لها قاعدة ولا حوامل ولا يوجد بها أى ◄

سنة ١٤٤ هجرية

أهل المحرم يوم السبت ١١ أبريل ٧٦١م.

*ظهر بالمدينة محمد النفس الزكية وهو محمد بن عبد الله حفيد الامام الحسن ودعا ومعه إخوه ابراهيم لنفسه وبايعه عامة أهل المدينة طوعا أو كرها فاستولى على مكة ودخلت اليمن فى طاعته ولكنه فشل فى ضم الشام اليه، ثم ندب المنصور لقتاله ولى عهده عيسى بن موسى بعد أن دارت بين المنصور والنفس الزكية مكاتبات إدعى فيها الأخير بأنه أحق بالخلافة من المنصور وكان قد امتنع من قبل عن مبايعة السفاح.

* عزل المنصور ولاة المدينة واليا بعد وال لتفريطهم فى طلب محمد النفس الزكية وانتهى بتولية رباح المزنى.

* سار محمد بن الخليفة السفاح بجيش جمع من الكوفة والبصرة وواسط لقتال الديلم والقضاء على ثورتهم

* بنى الإباضى عبد الرحمن بن رستم رأس الدولة الرستمية بشمال إفريقية مدينة تاهرت وجعلها عاصمة له.

* واجه عبد الرحمن الداخل ثورة جديدة تزعمها الغافر اليمانى بأشبيلية.

* ممن توفوا فى هذه السنة، الزعيم الإباضى أبو الخطاب المعافرى قتل على يد أمير مصر.

وهو كرسيه، وكان هناك قوم مخالفون وهم: غايانيون، وشمطيكيون الذين ليس لهم بركة فازال مقالتهم النجسه وعمدهم باسم الأب والابن والروح القدس فاضا [ء] عليهم نور المعموديه وابتهجت نفوسهم. ثم مضى إلى المنى وكان أسقف كرسيه أبا هور، وعمد الرهبان هناك عند [بعد] دحضهم الخلاف، وكذلك الغايانيون والبرسنوفيون الذين هناك أشركهم مع

نقش بل تكون ملساء مستوية. في الغالب لم يستخدم الرب الصينية عندما تمم العشاء السرى ليلة آلامه إلا أن الكنيسة إعتمدت إستخدام الصينية طول وقت القداس حتى لا يتبعثر منها أية جواهر أثناء القسمة والتوزيع.

* يوضع في الصينية القربانة المختارة لتتحول إلى جسد المسيح للتذكير بالعذراء القديسة مريم التى حملت المسيح والمزود الذى ولد فيه وأيضا القبر الذى رقد فيه.

سن ١٤٥ هجرية

وافق الأول من السنة يوم الخميس أول أبريل ٧٦٢ م

* بدأ الخليفة المنصور تخطيط وبناء مدينة بغداد بدلاً من الهاشمية التى بناها أخوه السفاح بجوار الكوفة وقد زهد فيها المنصور بعد ثورة الراوندية ، فخرج بنفسه يرتاد موقعاً مناسبا حتي استقر على موضع بين دجلة والفرات فاشترى الأرض من أصحابها ورسمت خطوط المدينة الجديدة بالرماد على الأرض ثم بحب القطن المشتعل فلما أقر تخطيطها أمر بضرب اللبن وحرق الأجر وحفر أساس السور وجعل عرضه خمسين ذراعاً وأوكل بالعمل أربعة من قواده ووضع بيده أول لبنة في أساس السور.

* إمتدت بيعة محمد النفس الزكية إلى عرب مصر وبايع كثيرون في الباطن وماجت الناس مما دعا الوالي يزيد بن حاتم إلى منع عرب مصر من الحج.

* فشلت دعوة محمد النفس الزكية فقتل بالمدينة عن ٥٢ عاما على يد عيسى ابن موسى، ثم قتل أخوه ابراهيم بالبصرة بعد نجاح قصير على يد حميد بن قحطبة قائد المنصور، وشهد العام موت أبيهما عبد الله بن الحسن وأهل بيته في حبس المنصور بالكوفة قيل أن المنصور حبس من بنى الحسن بن على بن أبي طالب أحد عشر رجلاً مقيدين في سرداب تحت الارض لايعرفون ليلاً ولا نهاراً. وهذا السرداب عند قنطرة الكوفة، وهو موضع يزار، ويقال إن المنصور ردم عليهم السرداب فماتوا اختنقاً.

الارثذكسيين. وخرج من هناك مضى إلى وادى هبيب. وكان هناك أيضا مقاله الغايانيين من مدة مايه وسبعين سنه من وقت الفرق [الخلاف] على يد يوليانوس أعادهم أيضا إلى الامانة الارتدكسية، وجمع كل البيع مجمعا واحدا بنعمة السيد المسيح معينه. وليس هو فقط بل وفى كل موضع يجد فيه أصول مره، التى هى المقالات النجسات من الرهبان او من غيرهم. وفى مدينة بنا وبوصير

٢.الكأس.
يوجد بالكأس تجويف يأخذ شكل المخروط الناقص (قريب من شكل الجرس)، وله عنق طويل يستقر على قاعدة دائرية الشكل، وكثيراً ما كانوا يرسمون على الكأس فى العصور الأولى صورة الحمل كإشارة إلى أن الكأس تحوى دم حمل الله الذى يرفع خطايا العالم. استخدم المسيح الكأس ليلة تأسيس هذا السر المبارك (مت ٢٦ : ٢٦، ٢٧) والرسل أيضا تمثلوا به إذ سماها الرسول بولس كأس البركة وكأس عشية الرب. (١ كو ١٠ : ١٦، ٢١). ◄

سنة ١٤٦ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الاثنين ٢١ مارس ٧٦٣م.

* إنتقل الخليفة المنصور إلى مدينته الجديدة بغداد قبل أن يكتمل بناؤها وجعلها مدورة فى وسطها المسجد والقصر واستخدم فى البناء بعض أنقاض قصر كسرى بالمدائن كما نقل إليها أبواباً من الكوفة وواسط والشام ، وبلغ مقدار ما أنفق حتى هذه السنة أربعة آلاف ألف درهم وكان أستاذ البنائين يعمل يومه بقيراط فضة.

* أعلن العلاء بن مغيث الثورة في الأندلس على حكم عبدالرحمن الداخل رافعاً الراية السوداء رمز العباسيين بمدينة باجة ولكنه هزم قبل نهاية العام وتشتت أتباعه.

* عزل المنصور سَلْمَ بن قتيبة عن البصرة لميله إلى العلويين واستعمل عليها محمد بن سليمان.

* ولد فى هذه السنة شاعر العراق فى عصره أبو نواس (الحسن بن هانى) وذلك بالأهواز ومنها انتقل إلى البصرة قبل أن يستقر فى بغداد.

* ممن توفوا فى هذه السنة، النسابة محمد بن السائب الكلبى وهو أبو هشام بن السائب مؤلف كتاب الأصنام، وفيها قتل الشاعر سديف بن ميمون على يد عبد الصمد عم المنصور وكان متشيعاً للعباسيين ابان الحكم الأموى ثم متشيعاً للعلويين ابان حكم العباسيين.

٤.القبة.

تتركب القبة من قوسين من الفضة غالباً، ومتعامدين مع بعضهما البعض على شكل صليب وفي العادة يعلوها صليب صغير. قيل أن القديس يوحنا ذهبي الفم هو أول من أدخل إستخدام القبة، وتوضع القبة فوق الصينية لحفظ الخبز المقدس الموضوع عليها، كما تساعد في وضع الأغطية عليه، وهي تحمل لنا بهذا الشكل منظر القبر كما أن الصليب الذي يعلوها يذكرنا بالنجم الذي ظهر للمجوس.

٥.الملعقة (بالقبطية ميستير).

تستخدم الملعقة في تناول الدم المقدس، وقيل إن الكاهن في القرون الأولى كان يضع الجسد في أيدي المتناولين أو أفواههم، أما الدم فكانوا يتناولونه من الكأس مباشرة وفي القرن السادس فقط أستخدمت المعلقة.

٦.الإنجيل (البشارة)

نسخة من العهد الجديد تغطى بغلاف معدني وتزين بالأيقونات، وفي الوسط على أحد الجانبين توجد أيقونة الصليب أو القيامة وفي الجانب الآخر توجد أيقونة العذراء مريم أو قديس البيعة، وفي زواياه الأربع يحلى برسم الإنجليين الأربعة.

٧.إناء الذخيرة.

عبارة عن وعاء من الفضة أو المعدن يوضع فيه الجواهر (الجسد والدم معسما)، لمناولة المرضى والمساجين وغير القادرين على الحضور. لا يستخدم هذا الإناء لحفظ الأسرار المقدسة لوقت آخر (أي تركه للطوارئ) إذ تمنع الكنيسة القبطية هذه العادة.

٨.درج البخور.

عبارة عن علبة صغيرة من المعدن أو الخشب يوضع فيها البخور، يشير البخور إلى صلوات القديسين (رؤ ٨: ٣ ـ ٤). كان يدخل البخور في عبادة العهد القديم (خر ٣٠: ٣٨) وأيضاً دخل البخور في عبادة العهد الجديد كما تنبأ عنه الأنبياء كقول ملاخي النبي «لأنه من مشرق الشمس إلى مغربها إسمي عظيم بين الأمم وفي كل مكان يقرب لإسمي بخور وتقدمة طاهرة لأن إسمي عظيم بين الأمم..» (ملا ١: ١١)، وتحرم قوانين الرسل إستخدام أي بخور من أصل حيواني (مثل العنبر)، والأنواع الجائزة من البخور هي (صندورس، لبان جاوي، عود، حصى لبان علي جاوي).

٩.الشورية (المجمرة)

تشير المجمرة إلى العذراء القديسة مريم من حيث أنه، كما تحمل المجمرة الجمر هكذا حملت العذراء في أحشائها المسيح. يشير البخور وهو يتصاعد من المجمرة إلى صلوات القديسين التي تقبل في آلام المسيح، لأنه كما يحترق البخور بوضعه على الجمر في المجمرة هكذا أيضاً إذ يدخل القديسون في شركة آلام الرب تتصاعد صلواتهم إلى أعلى كرائحة بخور زكية، تشير القبة العليا في الشورية إلى السماء، ويشير الجمر المتقد إلى التجسد الإلهي، والجلاجل المعلقة في السلاسل وسيلة للتنبيه والتذكير.

١٠.المراوح

تسمى في اليونانية (هكسا - بيترجيون) أي (ذو الستة أجنحة) إذ يظهر عليها شكل الساروف ذو الستة أجنحة. ولقد جاء في الدساتير الرسولية في القرن الخامس أن شماسين كانا يستخدمان مراوح من الكتان أو الجلد الناعم أو ريش الطاؤوس، أثناء وقوفهما بجوار المذبح لطرد الحشرات حتى لا تمس الأواني المقدسة. أما الآن فإن هذه المراوح تستخدم بحسب الطقس القبطي أثناء تلاوة التسبحة السيرافيمية لتشير إلى حضرة السيرافيم وتستخدم أيضاً في المواكب الكنسية والدورات الاحتفالية وهي تصنع غالباً من المعدن في شكل دائرة تمثل الهالة التي حول رأس القديس ولها يد وطويلة ويرسم في منتصف الهالة شكل ساروف.

١١.أوان أخرى

* طبق القربان، يصنع غالباً من سعف النخل ويوضع فيه الخبز المقدس الذي يتم اختيار الحمل منه، ويزين الطبق بالصلبان وأحياناً بخيوط من الفضة أو الذهب.

* الأدوات الموسيقية التي تستخدم في الصلوات الكنيسة

بدائيـة وبسـيطة وهى المثلث والدف.

* الإبـريـق والـطـشـت، ويستخدمان فى غسل يدى الكاهن أثناء خدمة القداس حسب متطلبات طقس الخدمة.

* قنينة الميرون، تحفظ غالباً فى علبة من الذهب أو الفضة أو أى معدن آخر ولا يمسكها إلا الكهنة ورؤساء الكهنة وتحفظ فى الهيكل أو فوق المذبح.

حامل الأيقونات (الإيقونستاس)

وهب للكنيسة كما سبق أن ذكرنا، أن تقتنى فكر المسيح رأسها وراعيها، وبهذا الفكر يضاف إلى المبنى الكنسى أو تجرى تعديلاً عليه بما يساعدها على إقامة ليتورجياتها ويتمم رسالتها فى كل العصور ـ حيث أن كل عصر له متطلباته الخاصة فى الخدمة ـ مع مراعاة أن هذا العمل من جانب الكنيسة لا يعنى أنها تمس جوهر خدماتها أو تغير من هدف رسالتها، بل يعنى أن الكنيسة تمتلك القدرة لإقامة خدماتها والإعلان عن هدف رسالتها بالشكل الذى يناسب العصر الذى تعيشه.

* يسمى البعض حامل الأيقونات بالحجاب، نسبة إلى حجاب الهيكل فى العهد القديم، مع أن هذه التسمية لاتقبلها الكنيسة، لأن حجاب الهيكل إنشق إلى نصفين بالصليب، وأصبح الطريق إلى قدس الأقداس مفتوحاً أمام المؤمنين بالمسيح.

* ظهر حامل الأيقونات فى الكنيسة فى القرن الرابع للوقوف ضد هرطقة «مقاومة الأيقونات»، وبالدراسة التأملية فى حامل الأيقونات نجد أنه يجسم للمؤمنين رسالة الكنيسة ويعلن بوضوح هدف الخدمات الليتورجية... إنه يقوم بدور كرازى عظيم فى الكنيسة كما سنرى فيما بعد.

شكل حامل الأيقونات ومكوناته

*يتصدر حامل الأيقونات الهيكل ويفصل بينه وبين صحن الكنيسة، وهو يصنع فى الغالب من خشب ثمين مطعم بالأبنوس والعاج. كما أنه يحلى برسوم غاية ما تكون فى الدقة والجمال. تتألف هذه الرسوم فى الغالب من وحدتين أساسيتين هما الصليب والسمكة، فإن الصليب علامة الخلاص والسمكة علامة الحياة.

* يوجد فى وسط حامل الأيقونات الباب الرئيسى للهيكل ويسمى الباب الملوكى، وسمى هكذا لأنه يتم إختيار الحمل عليه كما أن الكاهن يدخل ويخرج منه أثناء الخدمة حسب متطلبات الطقس.

* إذا وجد فى المبنى الكنسى هيكلان جانبيان، فإن حامل الأيقونات الرئيسى قد يبرز قليلاً عن حاملى الأيقونات الجانبيين ـ كما هو بعض الكنائس الأثرية مثل كنيسة أبى سرجة وكنيسة العذراء بحارة زويلة ـ ليسمح بوجود بابين جانبيين بالإضافة إلى الباب الملوكى، ويستخدم هذان البابان فى طقس الدورات الإحتفالية بالأعياد ودخول الشمامسة للهيكل.

أنظر الرسم التوضحى بأسفله.

١ ـ الباب الملكى.
٢ـ أيقونة المسيح.
٣ ـ شباك.
٤ ـ أيقونة القديس يوحنا المعمدان.
٥ ـ أيقونة قديس الكنيسة.
٦ ـ أيقونة شهيد أو قديس أو أى حدث فى العهد الجديد أو القديم.

مكونات حامل الأيقونات

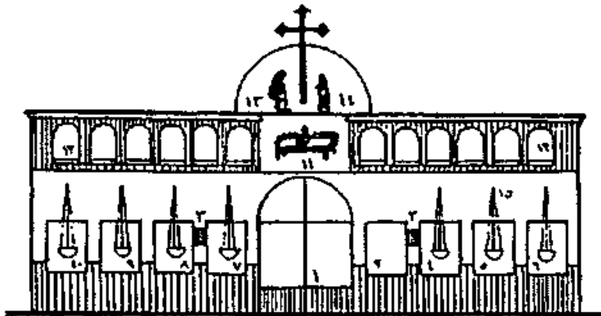

٧ ـ القديسة مريم الثيؤتوكوس.
٨ ـ البشارة.
٩ ـ رئيس الملائكة ميخائيل.
١٠ ـ القديس مار مرقس.
١١ ـ العشاء الأخير.
١٢ ـ التلاميذ.
١٣ـ القديسة مريم عند الصليب.
١٤ ـ القديس يوحنا الحبيب عن الصليب.
١٥ ـ يتدلى أمام الأيقونات السرج، فيما عدا أيقونة المسيح، في الكنائس الأثرية يتدلى بيض النعام بين الأيقونات.

صحن الكنيسة

+كلمة صحن في الإنجليزى Nave وهى مشتقة من اللاتينية (نافيس) وتعنى سفينة، وكان صحن الكنيسة ينقسم تقسيما عرضيا إلى ثلاثة أقسام، بحيث يفصل بين كل قسم وآخر حاجز من الخشب أو بناء متوسط الإرتفاع يسمى خورس، وبيان هذه الأقسام، كما يلى:

* القسم الأول: ـ قسم الشمامسة والمرتلين ومكانه بعد الهيكل مباشرة تجاه الغرب.

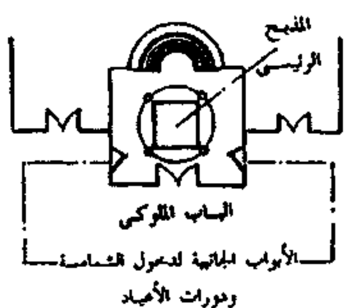

* القسم الثاني: ـ قسم المؤمنين وهو القسم المتوسط من صحن الكنيسة.

* القسم الثالث :ـ قسم الموعوظين وهو القسم الخلفى ويقع فى الجزء الغربى من صحن الكنيسة. الموعوظون هم المرشحون للدخول إلى الإيمان المسيحى وقبول المعمودية، وكان يصرح لهم بحضور قداس الموعوظين فقط، وهو الذى ينتهى بانتهاء إنجيل القداس والعظة المرتبة عليه. لم تعد هذه الخوارس تستعمل الآن لتغير ظروف الكنيسة، فلا يوجد الآن موعوظون بالمفهوم السابق ذكره إلا أنه يجب على المؤمنين أن يقفوا بنظام وترتيب بحيث يتحقق الهدوء اللازم للعبادة إلى أقصى درجة ممكنه.

* ينقسم صحن الكنيسة حاليا تقسيما طوليا إلى خورسين، بحيث يفصل بينهما الأعمدة مع الإحتفاظ بالجزء المجاور للهيكل للشمامسة والمرتلين، ويخصص الخورس الشمالى للسيدات بصفة عامة والخورس الجنوبى للرجال.

محتويات صحن الكنيسة:

١.الإمبل (المنبر)

* كلمة إمبل فى اليونانية أمبون ومعناها المصعد، وفى الغالب كان يقام الإمبل على اثنى عشر عموداً إشارة إلى الإثنى عشر تلميذاً، وهو يصنع من الرخام أو الحجارة أو الخشب ويزين بأيقونات القديسين، ويصعد عليه الأسقف أو الكاهن ليعظ الشعب.

٢.القباب:

تحوى بعض الكنائس القبطية قبة واحدة تشير إلى الرب يسوع والبعض الآخر يحوى ثلاث قباب إشارة إلى أن المسيحى يعيش الحياة الجديدة بقوة القيامة. أو خمس قباب تشير إلى الرب يسوع والإنجيليين الأربعة.

* على العموم يشير السقف بما فيه من قباب إلى السماء، ولهذا يدهن غالباً بلون سماوى أزرق ويزين بصور الملائكة والنجوم.

* المبنى الكنسى هو المكان الذى تلتحم فيه السماء بالأرض فى المسيح يسوع. وهكذا عندما تدخل الكنيسة وتنظر إلى أعلى تشعر وكأن قلبك قد أختطف إلى السماء.

٣. الاعمدة

كانت الأعمدة فى الهيكل القديم تأخذ أسماءً خاصة: كما ذكر فى سفر أخبار الأيام الثانى «وأوقف العمودين أمام الهيكل واحداً عن اليسار ودعا إسم الأيمن ياكين واسم الأيسر بوعزه (٢ أى ٣: ١٧). أما فى العهد الجديد فلقد أصبح المبنى الكنسى يحوى غالباً إثنى عشر عموداً، إشارة إلى التلاميذ الإثنى عشر.

ومما هو جدير بالذكر أن الأعمدة بالكنائس الأثرية، يتزين كل منها بتاج يختلف عن تيجان الأعمدة الأخرى، ويندر أن تجد

تاجاً يشبه الآخر، وهذا يشير إلى أن كلاً منا له إكليله الخاص فى إستحقاقات دم المسيح.

٤.المنجلية:

المنجلية كلمة معناها مكان الإنجيل، وهى ترتفع عن الأرض بحيث تكون فى مستوى رؤية الشخص الواقف للقراءة،و يكون القارئ أيضاً على مرأى من الجميع. ظهرت المنجلية كبديل للإمبل وتستخدم الكنيسة حالياً إما منجلية متحركة أو منجليتين إحداهما للقراءات العربية والثانية للقراءات القبطية.

٥.اللقان:

عبارة عن إناء مستدير يثبت فى أرضية الكنيسة وفى الجزء الغربى من صحنها بحيث يسمح للكاهن بإقامة الصلاة متجها إلى الشرق، يوجد اللقان بهذه الصورة فى بعض الكنائس الأثرية، أما الآن فإن غالبية الكنائس تستخدم لقاناً متنقلاً، ويستخدم اللقان ثلاث مرات فى السنة هى أعياد (الغطاس، وخميس العهد، الرسل).

٦.أبواب الكنيسة:

تنص الدسقولية على أنه يجب أن يكون للكنيسة ثلاث أبواب مثلاً للثالوث، أحدهما يكون فى الجهة القبلية والثانى فى الجهة البحرية، أمام الباب الرئيسى فقد نصت الدسقولية على أن يكون فى الجهة الغربية لكى يتجه الداخل

* تشير الأبواب الثلاثة إلى المسيح فهو «باب الخراف» (يو ١٠: ٧)، الذى به وفيه يدخل إلى الكنيسة حسب تدبير الثالوث القدوس.

٧.بيت الخدمة (الدياكونية)

هو عبارة عن حجرة تجمع فيها القرابين والتقدمات والصدقات واحتياجات الخدمة سواء كانت للخدمات الطقسية كالبخور والشموع والستور والكتب وأوانى المذبح والزيت والدقيق، أو كانت لخدمة الفقراء كالملابس والمأكولات وغير ذلك، وقد أوصت الدسقولية أن تكون هذه الحجرة فى الجهة القبلية على يمين الداخل من الباب القبلى.

يحقق بين الخدمة بهذه الصورة عامل الخفاء لتقدمات المؤمنين، لكى ينالوا أجرهم عليها من الأب السماوى الذى يرى فى الخفاء ويجازيهم علانية (مت ٦: ٤).

٨.المعمودية:

تقام المعمودية فى أقصى الغرب من صحن الكنيسة أو فى قسم الموعوظين، وفى الجهة الشمالية منه، وربما تقام خارج المبنى الكنسى وأيضاً فى الجهة الشمالية بحيث يكون لها باب يدخل منه الذين أعدتهم الكنيسة لنوال سر المعمودية ، وباب آخر يفتح على صحن الكنيسة ليدخل منه المعمدون بعد نوالهم سر المعمودية، ليأخذوا أماكنهم بين صفوف المؤمنين تمهيداً لاشتراكهم فى سر الأفخارستيا، هذا الموقع أوصت به قوانين الرسل والحقيقة أنه يجسم فعل المعمودية (التجديد) كما يتضح فيما يلى :ـ

موقع المعمودية وارتباطه بالتجديد

تقام المعمودية فى الجهة الغربية الشمالية من مبنى الكنيسة، حتى أن المؤمن بعد نواله سر التجديد فى المعمودية يدخل إلى صحن الكنيسة حيث يتقدم مع المؤمنين للتناول من سر الأفخارستيا ليتحد المسيح ويعيش شركة الثالوث القدوس، بهذه الكيفية يكون المؤمن قد إنتقل من الشمال إلى اليمين ومن الغرب إلى الشرق، أى أنه رفض كل الأعمال الشريرةالتى يعبر عنها بالشمال ودخل ليقبل فعل النعمة الإلهية ويصبح من أهل اليمين، وترك الغرب الذى يشير إلى الحياة بحسب الجسد ولبس المسيح الشرق الحقيقى كما أشار إلى هذا الرسول بولس فى قوله «لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح» (غل ٣: ٢٧).

المعمودية من حيث الشكل والمغزى منه

كانت المعمودية فى بداية الكرازة بالمسيح وتأسيس الكنيسة تجرى بالتغطيس بإسم الثالوث القدوس فى الأنهار أو البحار أو الينابيع، نذكر على سبيل المثال كيف عمد فيلبس الخصى الحبشى (أع ٨: ٣٨)، وعندما تمكنت الكنيسة من تخصيص

بعض البيوت للعبادة أو إقامة مباني خاصة للعبادة، حرصت على إقامة مبنى خاص بالمعمودية يلحق بمبنى الكنيسة، ويؤكد هذا، الإكتشافات الأثرية الكثيرة التي ترجع إلى عصر مبكر جداً منذ نشأة الكنيسة.

كانت المعمودية تقام في حجرة ملحقة بالمبنى الكنسي وأحياناً كان يلحق بها حجرة أخرى أو إثنتان أحدهما تستخدم لممارسة سر المسحة المقدسة والثانية لتغيير الملابس، وكان الشكل العام لحجرة المعمودية حتى القرن الرابع «مربع الجوانب» بحيث يعلو جرن المعمودية قبو، وفي بداية القرن الخامس ظهر في أوروبا معموديات بحيث على شكل سداسي أو ثماني أو دائري أو شكل صليب ، وفي أغلب كنائسنا الأثرية مثل كنيسة الشهيد مارمينا بمريوط توجد مجموعتان من الدرجات من جهة الشرق والغرب في صلب مبنى الجرن، كما أنه في أغلب الكنائس القبطية توجد أيقونه عماد السيد المسيح في نهر الأردن وذلك على قبو المعمودية، وقد أهتمت الكنيسة الأولى بالأيقونات في حجرة المعمودية، فوجد في المعموديات التي بسرادق روما أنها مزينة ببعض صور رمزية كالحمل والسمك. وقد أعطت الكنائس الغربية إهتماماً خاصاً بحجرة المعمودية وجرنها بوضع صلبان عليهما ورسم أيقونات تمثل أحداث العهد القديم التي ترمز للمعمودية وأحداث العهد الجديد الخاصة بحياة السيد المسيح، وفيما يلي نقدم الاشكال المختلفة في شكل المعمودية...

الأشكال المختلفة للمعمودية

* الشكل الرباعي، وهو يماثل شكل القبر ، لأن المعمودية كالقبرا إذ يدفن فيها مع المسيح كل التابعين لكي يقوموا أيضاً معه.

* الشكل السداسي، يشير إلى اليوم السادس الذي فيه علق المسيح على الصليب .

* الشكل الثماني، يشير إلى اليوم الثامن أو اليوم الأول من الاسبوع الجديد الذي فيه قام المسيح من الأموات..

* الشكل الدائرى، يشير إلى الأبدية حيث أن الدائرة بصفة عامة ليس لها نهاية محددة.

* شكل الصليب. يشير إلى أن المعمودية إشتراك سرى في صلب المسيح.

القبة:

القبو إما أن يعلو جرن المعمودية كعرش فرقها أو أن يرتفع كسقف فوق حجرة المعمودية وهو يمثل قبة السماء، وهذا بالإضافة إلى أنه، يجسم للمعمد الفكر اللاهوتي عن المعمودية وهى أنها الوسيلة التي بها تنفتح بصيرة قلبه ليرى السماء.

أيقونة المعمودية:

في أغلب الكنائس القبطية، ترسم أيقونة عماد السيد المسيح في الأردن بواسطة يوحنا المعمدان على الحائط الذى يعلو جرن المعمودية أو على القبو، ولقد أكتشفت أيقونات كثيرة في حجرات المعموديات تكشف عن فكرة الخلاص وغفران الخطايا في ذبيحة المسيح أو التجديد وقد هدفت الكنيسة من هذه الأيقونات أن يأخذ المعمد منها الإنطباعات الأولى عن حياة التجديد.

ملحقات أساسية للمبنى الكنسى

١. بيت القربان:

يطلق على بيت القربان لقب «بيت لحم» إذ أنه يعد فيه الحمل لأن الرب يسوع حمل الله الذى يرفع خطية العالم ولد في بيت لحم فهي كلمة عبرية معناها بيت الخبز.

بيت القربان عبارة عن غرفة بها فرن تصلح لإعداد الحمل وفي الغالب تبنى منفصلة عن جسم المبنى الكنسى.

٢. المنارة أو برج الكنيسة:

*الكنيسة هي سفينة النجاة من بحر هذا العالم الذى وضع في الشرير تمثل منارة الكنيسة صارى السفينة الذى من عليه ينظر البحارون إلى الميناء وتمثل أيضاً برج المينا الذى به تهتدى السفن للرسو على الميناء، المنارة إذن تجسم العمل المزدوج للكنيسة ،إذ أنها تحفظ أولادها من شرور العالم وتقودهم إلى الخلاص كما أنها تعلن عن الأبدية وتربط بها أولادها.

* تحمل المنارة فوق قمتها الصليب لأنه فخر الكنيسة كلها والعلامة التي تميز مبنى الكنيسة عن سائر المباني المجاورة. الصليب تاج الكنيسة الذى تستمد منه سلطانها وتعمل به في العالم للكرازة ببعديها الأفقى والرأسي فهو قوة الرسالة وأساس الخلاص.

* دخلت المنارة إلى مبنى الكنيسة بعد عصور الإضطهاد واستخدمت للتنبيه على المؤمنين لحضور الصلاة، إذ وضعت فيها الأجراس كبديل للأبواق في العهد القديم.

الرموز القبطية في مبنى الكنيسة

إستخدمت الكنيسة القبطية الصور الرمزية في مبانيها على نطاق واسع كما هو واضح في حامل الأيقونات والأعمدة والحوائط والأسقف في مبنى الكنيسة وكذلك تستخدم في بعض الأيقونات كجزء منها وفيما يلي نذكر أمثلة للرموز القبطية..

١.السمكة:

* ترمز السمكة إلى المؤمنين، وقد رمز الرب يسوع بالسمك إلى المؤمنين كما جاء في الأمثلة التي ذكرها عن الملكوت (مت ١٣: ٤٧ـ ٥٠)، (لو ٥: ٤ ـ ١٠).

* ترمز السمكة إلى المسيح كما في الشرح الآتي:

يلد الرب يسوع (السمكة الكبيرة) المؤمنين (السمك الصغير) في مياه المعمودية.

* الحروف اليونانية لكلمة سمكة تحوى الحروف الأولى من كلمات العبارة «يسوع المسيح إبن الله المخلص».

* السمكة إحدى العنصرين اللذين أشبع الرب بهما الجماهير، كرمز عن نفسه فهو خبز الحياة.

٢.الدلفين:

نوع من السمك ساد الإعتقاد بأنه أكثر صداقة للإنسان من غيره، ويوجد في المتحف البريطاني نحت قبطي لدلفين يحمل على أنفه صليباً مكللاً بعناقيد من العنب ، ويرجع تاريخه إلى القرن السادس، ويرمز هذا المنظر إلى نفس المؤمن وهى تتنسم رائحة المسيح الذكية من خلال صليبه، و قد انفتحت هذه النفس لتشبع من ذبيحة الأفخارستيا (عناقيد العنب).

٣.الطيور:

ترمز الطيور إلى طبيعة النفس البشرية وتعتبر الطيور إحدى الملامح الرئيسية للفن القبطي لأنها أخذت عن إعتقاد مصرى قديم جداً خاص بطبيعة النفس البشرية.

٤.الحمامة:

الحمامة من الرموز الشائعة في الفن المسيحى الأول ولها معان متعددة ...

* تشير إلى الروح القدس كما وجدت في أيقونة البشارة وأيقونة عماد المسيح في الأردن. «فلما إعتمد يسوع صعد للوقت من الماء . وإذا السموات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلاً مثل حمامة وآتياً عليه» (مت ٣: ١٦).

* ترمز الحمامة إلى فضائل المؤمنين وبالأخص السلام، البساطة، الوداعة، النقاوة.

٥.النسر:

إحدى المخلوقات الحية الأربعة المتمثلة حول العرش الإلهى تحمل شكل النسر، وهو يرمز للبشارة الرابعة لأنها تتحدث عن لاهوت المسيح، كما أن النسر يرمز أيضاً للقديس يوحنا بصفته كاتباً للبشارة الرابعة ، ولقد وجد بدير بويط بصعيد مصر رسم أثرى فريد يرجع إلى القرن السادس تقريباً وهو عبارة عن نسر يوجد على رأسه وجناحيه المرفوعين ثلاثة أكاليل من زهور متماثلة تطوى كل منها في داخلها الحرفين الألف والياء واللذين يشيران إلى يسوع بكونه الأول والآخر.

٦.رموز أخرى:

* عنقود العنب، يرمز للمسيح (يو ١٥: ١ ـ ٥) كما أن عصير العنب يستخدم في تقدمه الأفخارستيا.

* الحمل ، يرمز أيضاً للسيد المسيح حمل الله الذى يرفع خطية العالم (يو ١: ٢٩)، كما أنه يرمز أيضاً للمؤمنين.

* المرساة، ترمز إلى الرجاء.

* السفينة، ترمز إلى الكنيسة.

وسمنود واعمالهن ورشيد ودمياط وقلعهم الرب من اصولهم ورمى بهم وجميع كورة مصر جعلها اتحادا واحدا وأمانه واحده، وأبطل ساير المقالات النجسات. ومقالة التاوضوسيين ابطلها ايضا.

وكان الأمير قره محبا لجمع(*) المال وكان كل أرخن يموت يأخذ جميع ماله، وكان قد مات صاحب ديوان اسكندريه، وبقيره الذى كان كاتبا

(*) زيادة غرامات وجبايات قرة ابن شريك من المصريين تؤدى إلى هروبهم من ديارهم وبلادهم.

سنة ١٤٧ هجرية

وافق الأول من السنة يوم السبت ١٠ مارس ٧٦٤م.

* في هذه السنة خلع الخليفة المنصور ولاية العهد من ابن أخيه عيسى ابن موسى وولاها ابنه محمد المهدى وجعل عيسى ولياً لعهد المهدى وكان السفاح قد جعل ولاية العهد لعيسى بعد أخيه المنصور.

* حج بالناس الخليفة المنصور وعزم على القبض على جعفر الصادق ولكن لم يتم له ذلك، وبينما هو في مكة بعث إليه عبد الرحمن الداخل أمير الأندلس الأموى برأس العلاء بن مغيث اليحصبى الذى كان داعية العباسيين في الأندلس ولكنه هزم وقتل، كما أرسل اليه كتابا كان قد بعثه الخليفة إلى العلاء يستعديه فيه على عبدالرحمن مع لواء اسود رمز العباسيين.

* تساقطت في هذه السنة الشهب في أول الليل إلى الصباح فشاع الفزع بين الناس.

* أغارت الترك على مدينة تفليس وعليها حرب بن عبدالله وهو الذى تنسب اليه خطة الحربية ببغداد فقتلوه وقتلوا خلقاً كثيراً من المسلمين.

* توفي في هذه السنة عبدالله بن على عم الخليفتين السفاح والمنصور عن أربع وأربعين سنة، أمه بربرية تدعى هنادة، وعبدالله هذا هو الذى هزم مروان ابن محمد آخر الخلفاء الأمويين عند الزاب وتبعه إلى دمشق وهدم سورها وقتل من بنى أمية ثمانين رجلاً بنهر أبى فطرس بفلسطين.

من تنيس، وجماعه لا يحصون من مصر، وأخذ مالهم. حتى الأساقفه أخذ ميراث الجميع، وزاد على البلاد مابة ألف دينار سوى خراجها المعروف. وكانو الناس يهربون ونساهم وأولادهم من مكان إلي مكان وما ياويهم موضع من أجل البلايا ومطالبات الخراج وعظم ظلمه أكثر ممن تقدمه.

ثم أنه ولى إنسانا اسمه عبدالعزيز من مدينة

---

* ممن توفي في هذه السنة: مفتي الديار المصرية عمرو بن الليث، والمؤرخ الأموى أبو الحكم الكلبي مؤلف سيرة معاوية، وفيها توفي بالأندلس والى طليطلةحياة بن الوليد الذى كان قد ثار على عبدالرحمن الداخل فأسره وقتله، كما لقى مصرعه العلاء بن مغيث اليحصبى الذى سلفت الاشارة اليه.

سنة ١٤٨ هجرية

الأول من المحرم وافق يوم ٢٧ فبراير ٧٦٥م.

*تولى إمارة ا فريقية الأغلب بن سالم خلفاً لابن الأشعث الذى كان قد خرج عن الطاعة وهو جد دولة الأغالبة التي حكمت تونس وكان ابنه ابراهيم أول من إستقل بها.

* لم تنقطع ثورات أمراء الطوائف فى الأندلس على عبدالرحمن الداخل فثار في هذه السنة سعيد المطرى صاحب لبلة واستولى على أشبيلية، وغياث ابن علقمة صاحب شذونة، وابن خراشة الأسدى صاحب جيان فهزمهم عبد الرحمن الواحد اثر الآخر.

* ولى المنصور على الموصل خالد البرمكي فقضى على فتن الأكراد بالقهر حينا والملاينة حينا، وفيها غزا حميد بن قحطبة بلاد أرمينية فلم يلق مقاومة.

(*) مطاردة الهاربين من أراضيهم وبلادهم والقبض عليهم وربطهم في طوابير لكي يعادوا للعمل في بلادهم تحت الظروف القاسية للحكام العرب.

سخا وكان يجمع الذين يهربون(*) من كل موضع ويردهم ويربطهم ويعاقبهم ويعيد كل منهم الى موضعه، وكان على الناس بلايا عظيمه.

ثم أنزل الله على أرض مصر وبا [ء] عظيم وصار من يموت (*) كل يوم لا يعرف عددهم. وكان أكثر من يموت من المسلمين. ثم دخل الوبا منزل قره فماتو نساه وغلمانه، وكان يهرب من

(*) انتشار الاوبئة القاتلة للناس فى كل مكان، حتى أن قرة بن شريك واهله ماتوا فى هذا الوباء.

سنة ١٤٩ هجرية

استهلت السنة بيوم الأحد ١٦ فبراير ٧٦٦ م

* أتم المنصور بناء سور بغداد وجعله مزدوجاً خارجياً وداخلياً وجعل الداخلى أعلى من الخارجى.

* غزا الصائفة ودخل أرض الروم الأمير العباس بن محمد أخو الخليفة ومعه من القواد الحسن بن قحطبة وعبد الرحمن بن الأشعث الخزاعي.

* تولى إمارة مكة عبد الصمد بن على ثم صرف عنها بمحمد بن ابراهيم ابن محمد الامام الذى حج بالناس لسنته.

* شهدت الأندلس ثورة جديدة على حكم عبد الرحمن الداخل تزعمها حليفه السابق أبو الصباح اليحصبى الذى خرج بأشبيلية بعد هزيمة سعيد المطرى.

* ولد فى هذه السنة (مستهل المحرم) الخليفة هرون الرشيد بمدينة الرى وهو ابن محمد المهدى من زوجته الخيزران وقيل فى تاريخ ولادته غير ذلك ، وأرضعته أم وزيره الفضل البرمكى الذى يكبره بسبعة أيام ليس إلا

* توفي في طريقه إلى حرب الروم في جيش العباس بن محمد قائده عبد الرحمن ابن الأشعث الخزاعى، وكان أميرا على مصر عام ١٤١هـ ، وهو الذى استعاد القيروان بعد أن قضى على ثورة ابن الخطاب.

موضع إلى موضع خوفا من الموت حتى فرغ من أجله فمات بغته بموته سو.

وقد كان يوليانوس بطريرك انطاكيه الذى مسك البيعه من أيام يوحنا بطرك اسكندرية إلى أيام الأب الاكسندروس وتنيح ومضى إلى النعيم الأبدى، فاجتمعو أساقفة المشرق ليقيمو لهم عوضا منه وكان الوالى عليهم اسمه الوليد لم يمكنهم من ذلك، وقال: ما أدع بطركا يتقدم فى أيامى.

سنة ١٥٠ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الجمعة ٦ فبراير ٧٦٧ م.

* شبت فى خراسان ثورة قادها متنبئ يقال له أسباديس واستولى على عامة البلاد حتى تولى حربه خازم بن خزيمة فهزمه بعد أمور وبلغ عدد قتلاه سبعين ألفا وأسراه أربعة عشر ألفا، أما صاحب الدعوة فأوثق فى الحديد مع أهل بيته وأرسلوا إلى المنصور ببغداد.

* ثار المصريون فى شمال الدلتا وسخا فبعث اليهم يزيد بن حاتم جيشا لم يحقق عليهم أى انتصار ملموس.

*إنتهت ثورة أبى الصباح فى أشبيلية أخذه عبد الرحمن الداخل بالحيلة حتى قدم قرطبة فأوقع به وشتت أنصاره.

* توفى فى هذا التاريخ إثنان من زعماء الخوارج هما أبو الجارود رأس الفرقة الجارودية و زرارة بن أيمن رأس الفرقة الزرارية.

سنة ١٥١ هجرية

استهل المحرم بيوم الثلاثاء ٢٦ يناير ٧٦٨ م.

* جدد الخليفة المنصور البيعة لابنه المهدى ثم لابن أخيه من بعده عيسى ابن موسى فكان من يبايعه يقبل يده ويد المهدى ثم يمسح على يد عيسى.

وكانو حزانا لأجل ذلك، فعمدو إلى اسقف خايف من الله ممتلى من نعمة روح القدس اسمه ايليا اجلسوه على الكرسى ببيعة انطاكيه وكتب سنوديقا بناموس العتيقه وانفذها مع أسقف اسمه استفانوس إلى الأب البطرك الاكسندروس لما بينهما من الاتفاق، وكان القديس الاكسندروس يفتقد المواضع فاجتمع به فى وادى هبيب، فسلم له السنوديقا من الأسقف أنبا ايليا الذى أجلسوه

---

* بدأت عمارة الرصافة بالجانب الشرقى من بغداد وعمل لها سور وخندق وأجرى اليها الماء كما جرى العمل به فى بناء بغداد قبل ذلك.

* عزل عن ولاية مصر يزيد بن حاتم بعد سبع سنوات، وبها عزل عن السند عمر بن حفص المهلبى الذى تولى أفريقية فلما هزم على أيدى الثوار سير إليهم يزيد بن حاتم.

* نشبت ثورة جديدة بغرب الأندلس تزعمها دعى بربرى يدعى شقيا بن عبد الواحد وسار إلى شنت مرية واستولى عليها ثم دانت له ماردة وقورية ، وهزم والى طليطلة سليمان بن عثمان الذى أنفذه لحربه عبد الرحمن الداخل فأسره وقتله.

* ممن توفوا هذه السنة: الأشتر العلوى بن محمد النفس الزكية عن ثلاث وثلاثين ببلاد السند وكان قد خرج إليها ثائرا على حكم المنصور، وفيها توفى أمير خراسان أسيد بن عبد الله الخزاعى أحد زعماء الدعوة العباسية بالمشرق، وسليمان بن حكيم من زعماء البحرين كان قد امتنع عن المنصور فأرسل إليه من قتله.

سنة ١٥٢ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم السبت ١٤ يناير ٧٦٩ م.

* تولى إمارة مصر عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج وكان قد ولى شرطتها

علـى كرسى انطاكيـه، فوجـدها مـوافقـه للأمانه المستقيمـه فقبلها بفـرح واحـضـر مـقدمى الكور واعلمـهم مـا جـرى فى المشـرق من منع الوالى للمومنين من تقدمة بطرك وأن الأساقفه استخلفو اسقفـا عـوضـه ليتـم الشـرطونيـات إلى حين زوال الغضب.

وقـد كـان مـثل هذا فى زمـان اغـريغـوريوس التـاولوغس وابينا تاوفـيلس كـان بالاريانيين

من قبـل لهـذا جـمع بين الامارة والشرطة ودامت ولايتـه نـحـوا من ثلاث سنين، وهو أول من خطب الناس فى ثياب سود رمز بنى العباس.

* تفاقمت ثورة الداعية البربرى شقيا بن عبد الواحد فى غرب الأندلس بعد مقتل عبد الرحمن الأموى لهذا خرج عبد الرحمن وقاد الجيش بنفسه فلاذ الدعى بالهرب إلى الجبال.

* غزا حميد بن قحطبة قائد المنصورإقليم كابل (أفغانستان) بعد أن تولى إمارة خراسان وفى التاريخ نفسه وثب الخوارج بسجستان على الوالى معن ابن زائدة فجرت بينهم وقائع قتل فيها معن.

* وتوفى حول هذا التاريخ بمدينة جنديسابور الطبيب السريانى جورجيش ابن جبرائيل وحفيد بختيشوع وكان قد استقدمه المنصور لعلاجه ببغداد فكان الشفاء فى علاجه، وهو أبو بختيشوع طبيب الرشيد بعد ذلك.

سنة ١٥٣ هجرية

استهل المحرم بيوم الخميس ٤ يناير ٧٧٠ م

* قبض المنصور على وزيره ابى أيوب المورياني الذى تولى وزارته خلفاً لخالد ابن برمك ثم نكبه لأمور أخذها عليه واستصفى أمواله، وكان أبو أيوب كاتباً لسليمان بن المهلب فى دوله بنى أمية.

والاكاكيين، وقادت الضرورة إلى أن استدعو إلى القسطنينيه اغريغوريس المذكور وسلمت له البيعه، ولهذا طابت نفوس الأساقفه بمصر والبطرك وكتب جواب السنوديقا لاستفانوس ومن معه ومضى بسلام إلى كورته.

ولما تولى تادرس أمور اسكندريه فى أيام الأب الاكسندرس كان هناك طبيب من أهل اسكندريه فى أيام الوليد اسمه أنوبيس الذى هو «وجه

---

* ألزم المنصور الرجال لبس القلانس السود وكانت تشبه الدنان فى طول شبرين وتعمل من ورق على قصب وتغشى بالسواد.

* غزا الصائفة معيوف الحجورى واستولى على أحد حصون الروم فسبى وأسر وعاد بالاسلاب ثم قصد اللاذقية.

* فى أفريقية حلت الهزيمة بجيش نائب المنصور عمر بن حفص الأزدى على أيدى الخوارج الإباضية وبايعوا أبا قرة وكان على أربعين ألف من الصفرية، وفيها أغارت الحبشة على جدة فجهز إليهم الخليفة المراكب.

* ممن توفوا هذه السنة : المحدث ثور الكلاعى من أهل الشام اتهم بالقدرية فاخرج من حمص واستقر بالمدينة لحين وفاته.

سنة ١٥٤ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الأثنين ٢٤ ديسمبر ٧٧٠م.

* جهز المنصور لحرب الخوارج الصفرية جيشاً عليه يزيد بن حاتم أمير مصر السابق وجمع له خمسين ألف فارس وأنفق على تجهيزه ثلاثة وستين ألف ألف درهم وهى نفقة لم يسمع بمثلها قبلا.

الحمار» فلما وجد الوسيلة سأل الأمير أن يأمر أن يقدمه بطركا من اسكندريه وكان روميا خلقدونيا مجدفا، فقبل سواله، وكان كاتب اسمه انسطاسيوس من اسكندريه، ودفع هذا الكاتب ألف دينار للأمير حتى جعل الغير بطرك الخلقدونى بمدينة اسكندرية، وكان يقاوم الأمانه المستقيمه ويتهزا بالاكسندروس وباخاصه إذا لحقه تجربه فى ذلك الوقت. ثم أن الشعب أراد قطع الخلقدونى

---

* عاد أمير الأندلس عبد الرحمن الداخل إلى قتال الدعى البربرى شقيا ابن عبد الواحد وقاد الجيش بنفسه وشدد فى مطاردته بين جبال غرب الأندلس دون توفيق.

سنة ١٥٥ هجرية

استهل المحرم بيوم الجمعة ١٣ ديسمبر ٧٧١ م.

* بنيت فى هذه السنة مدينة الرافقة على الفرات بجوار الرقة بعد أن تخربت الرقة وتولى عمارتها المهدى ولى العهد على طراز مدينة بغداد، كما أقام حول كل من الكوفة والبصرة سوراً وخندقاً وأنفق على ذلك من أموال أهلها ، كما أدار سوراً حول مدينة نيسابور.

* عزل المنصور أخاه العباس بن محمد عن الجزيرة وصادر مالا له لشكوى أهل الجزيرة منه كما عزل إبن عمه محمد بن سليمان لأمورن بلغته عنه.

* أحرز يزيد بن حاتم أمير أفريقية إنتصاراً حاسماً على الخوارج ودخل القيروان بعذ مقتل زعيمهم أبى حاتم الاباضى الثائر فاستقامت المغرب للمنصور.

* طلب الامبراطور البيزنطى ليو الرابع الصلح إلى المنصور على أن يؤدى إليه الجزية وكان قد غزا الصائفة ودخل أرضه يزيد بن أسيد السلمى.

وقاموعليه فانهزم ومضى إلى الاكسندروس الاب وسأله بخضوع واعتذر عما كان بلغه عنه ورغب إليه أن يقبله فى الامانه الارتدكسيه، فقبله بمحبه مسيحيه وعاد إلى وصايا الله الذى قال إذا رأيت حمار عدوك ملقيا مثقلا فلا تولى عنه إلى أن تنهضه. ولم يزل على الأمانه الارتدكسيه.

ثم قام على البيعه تجارب وخرج أمر سو [ء] بأن تقلع من البيع العمد الملونه والرخام(*) الذى

(*)خلع الولاة للعمدان والرخام من الكنايس لاستخداماتهم الخاصة.

---

* حلت الهزيمة بالجيش الذى ارسله عبد الرحمن الداخل لمطاردة الدعى البربرى شقيان بن عبد الواحد وفر قائده عبيد الله بن عثمان.

* ولد بغداد أسحاق الموصلى من مشاهير رجال الغناء والموسيقى فى العصر العباسى ومن ندماء البلاط ببغداد.

* توفى ببغداد عن ستين سنة حماد الراوية (حماد بن سابور) وكان أعلم عصره بأيام العرب وأخبارها وهو جامع المعلقات السبع.

* فيها أغارت الحبشة على جدة عبر البحر الاحمر.

* ممن توفى فى هذه السنة: بمصر أميرها محمد بن عبد الرحمن بن حديج التجيبى وهو فى إمارته وخلفه بعهد منه موسى ابن على.

سنة ١٥٦ هجرية

وافق من السنة يوم الأربعاء ٢ ديسمبر ٧٧٢م.

* تولى إمارة البصرة سوار بن عبد الله وجمع له المنصور القضاء، وذلك خلفا للهيثم بن معاوية الذى لم يلبث أن توفى فى سنته، وفيها أقر الخليفة موسى ابن علی على إمارة مصر خلفا لابن حديج.

فى البيع ويحمل جميعه، وكان الأب البطرك حزينا لأجل بيعته لأنها صارت خرابا لأجل ما فعلوه معه، وهو مع هذا يشكر الله ويصبر بشجاعه. ثم أن أمرين صعبين حدثا فى سنة أربع مايه واحدى وتلتين لديقلاديانوس فى تالت عشر سنه من الدكيتون [الدكتوس] لأجل خطايانا وعظم أفعالنا، وذلك ان من بعد موت(*) قره انفذ الوليد عوضه إلى مصر واليا اسمه أسامه فلما وصل الفسطاط التمس علام [مساحات] جميع

(*) تولى اسامه ابن يزيد بدلاً من قره بن شريك.

---

* نقم عبد الرحمن الداخل على مولاه بدر لفرط إدلاله عليه ولم يرع حق خدمته وطول صحبته فاستصفى أمواله ونفاه فى أقصى الشمال من الأندلس إلى أن توفى.

* ثار بناحية طرابلس الغرب أبو يحيى بن فانوس على أمير أفريقية يزيد بن حاتم واجتمع عليه كثير من البربر إلا انه فرق شملهم، كما أوقع الهزيمة بعبد الرحمن ابن حبيب وأنصاره من كتامة.

* تعاظمت ثورة شقيان البربرى بالأندلس بالرغم من تضييق عبد الرحمن عليه، وزاد من خطره نشوب ثورة جديدة فى أشبيلية تزعمها حيوة بن ملابس ومعه عمر ابن طالوت صاحب لبلة فانفذ إليها ابن عمه عبد الملك بن عمر فشتت شملهما.

سنة ١٥٧ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الثلاثاء ٣١ أكتوبر ٧٧٥ م.

* فى هذه السنة بنى المنصور قصره الذى دعاه الخلد وراء باب خراسان وأشرف على البناء وزيره الربيع بن يونس وأبان بن صدقة وجر الماء إلى المدينة فى قنوات تنفذ إلى الشوارع والدروب، ونقل الأسواق إلى الكرخ وبنى لأهل الأسواق مسجداً فلا يدخلون المدينة.

*استعرض المنصور قواته من الجند والسلاح والخيل واتخذ مجلسه على شط دجلة

الكور وكتبها بالعربى وكان كثير ألفهم، فلما بدا بذلك حدث غلا عظيم لم يسمع بمثله من الجيل الأول، ومات فى ذلك الغلا أكثر ممن مات فى الوبا، وأشرفت جميع الأغنيا والفقرا على الموت. ثم أن رخا [ء] عظيما أقبل حتى انتهى القمح إلى خمسه وعشرين أردبا بدينار، وبعد قليل وافى أيضا وبا [ء] فافنى العالم، ولو لم يرحم الرب من بقى منهم على الأرض لم يبق منهم أحد.

بالقرب من قطربل يشاهد العرض ورجال دولته من حوله وهو فى لباس الحرب من درع وقلنسوة وخوذة.

* ثار بالأندلس سليمان الكلبى والى برشلونة وتحالف مع الحسين الأنصارى والى سرقسطة على قتال عبد الرحمن الداخل الذى كان مشغولا بحرب الدعى البربرى بعد أن قضى على فتنة أشبيلية وقبض على ثلاثين ممن ناصروا الفتنة واعدمهم دون رحمة.

*قضى شارلمان على حكم اللمبارديين فى شمال ايطاليا.

* عزل المنصور واليه على السند هشام بن عمرو التغلبى بعد ست سنوات من الامارة وهو الذى افتتح كشمير والملتان وقندهار وبنى مساجدها لهذا عرف باسم صاحب السند.

سنة ١٥٨ هجرية

استهل المحرم بيوم الجمعة ١١ نوفمبر ٧٧٤ م.

* فى ليلة السبت السادس من الحجة توفى الخليفة المنصور وهو فى طريقه إلى الحج بالقرب من بئر ميمون وله من العمر سبع وخمسون سنة وقد دامت خلافته إثنين وعشرين سنة إلا أياما ولم يحضره عند وفاته سوى وزيره الربيع بن يونس الذى كتم خبر موته حتى أخذ البيعة لولى عهده وابنه محمد المهدى ومن بعده لعيسى ابن موسى، ودفن المنصور بثنية المعلاة بمكة.

وكان الأمير مقيما على فعله السو(*) وكل المسلمين والنصارى خايفون منه. ثم تقدم أن لا ياوى أحد غريبا فى البيع ولا الفنادق ولا فى السواحل، وكانو خايفين منه، وطردو من كان عندهم من الغربا. وتقدم إلى الرهبان ان لا يرهبو من ياتى إليهم. ثم أحصى الرهبان ووشمهم [دمغهم] كل واحد منهم بحلقه حديد فى يده اليسرى ليعرف، ووسم كل واحد باسم بيعته وديره بغير صليب بتاريخ مملكة الاسلام. وكان فى سنة

(*) اشتداد اسامه ابن يزيد فى جمع الاموال من المصريين بالرغم من الأوبئة والمجاعات ويضع فى يد الرهبان حلقات من الحديد وختم به اسم بيعته وديره كما كان يأمر جنده بنهب كل ما يقع تحت ايديهم، ويقول لهم: سلمت لكم أنفس الناس فتحملوا منهم كل ما تقدرون عليه.

---

* تولى محمد المهدى إبن المنصور الخلافة على أثر وفاة أبيه وله من العمر إثنين وثلاثين سنة، أمه أروى بنت منصور الحميرية، كان الربيع بن يونس قد انفذ رسلا إلى بغداد بخبر وفاة المنصور ودعاهم لبيعة المهدى فبايعوه وهو ثالث خليفة من بنى العباس.

* استمر عبد الرحمن الداخل بالأندلس فى مطاردة الدعى البربرى الذى ألتجأ إلى الجبال ومع ذلك فدعوته ما فتئت مسيطرة على أهل سنت مرية وماردة لفترة بعد هذا التاريخ، وفيها أنفذ عبد الرحمن جيشا بقيادة ثعلبة بن عبيد لقتال الثائر سليمان الكلبى ولكنه هزم وأسر.

* توفى من رجال العلم فى هذه السنة: الامام الحافظ أبو زرعة (حيوة ابن شريح) شيخ الديار المصرية، وقاضى الجماعة بالأندلس معاوية بن صالح وكان ممن قدم من الشام مع عبد الرحمن الداخل وفيها توفى قاضى البصرة زفر ابن الهذيل صاحب الامام أبى حنيفة وذلك عن ثمان وأربعين.

* وافقت هذه السنة وفاة الامبراطور البيزنطى قسطنطين الخامس بعد حكم طويل دام ٣٤ عاماً إمتد منذ خلافة هشام الأموى إلى آخر حكم المنصور العباسى ولم تنقطع فيه الغزوات والغارات بين الجانبين.

ست وتسعين للهجره قلق على الرهبان وضيق على المومنين. وإذا ظهر راهب غير موسوم قدموه إلى الأمير فيأمر بقطع أحد أعضاه ويبقى أعرج. ولم يكن يحصى عدد من شوه به على هذه القضيه. وحلق لحى [رهبان] كتير وقتل جماعه وقلع أعين جماعه بغر رحمه. وكان يقتل جماعه تحت العقوبة بالسياط، وكان من محبته للدنانير يأمر الولاه أن يقتلو الناس ويحضرو إليه مالهم،

سنة ١٥٩ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الثلاثاء ٣١ أكتوبر ٧٧٥ م

* السنة الأولى من خلافة المهدى العباسي، وفيها اعتق المهدى جاريته الخيزران وتزوجها وهى أم ولديه الخليفتين الهادى والرشيد..

* كتب المهدى توقيعاً بانه اتخذ يعقوب بن داود أخا له فى الله ووصله بمال جزيل فأصبح بذلك أقرب نصحاء الخليفة وهو الذى تولى وزارته بعد ذلك خلفا لعبيد الله معاوية بن يسار.

* قاد أول صائفة فى خلافة المهدى الحسن بن الوصيف من الموالى وبلغت جيوشه أنقرة وفتحت بلدة للروم بنواحى طرسوس.

* ظهر فى هذه السنة المقنع الخراسانى مدعى الألوهية فسير المهدى لحربه أبا عون ولم يظفر منه بشئ فاستعمل على حربه معاذ بن مسلم.

* وقع حريق ببغداد عند قصر عيسى احترقت فيه السفن بما فيها كما أصاب خلقا كبيراً.

* مازال شقيان الثائر البربرى معتصماً بجبال الأندلس تطاردة قوات عبد الرحمن الداخل.

* توفى فى هذه السنة حميد بن قحطبة، كان قد ولاه المنصور إمرة مصر عام ١٤٣هـ، ثم وجهه لغزو أرمينية ثم كابل ثم تولى إمارة خراسان لحين وفاته.

ويكاتبـــهم ويقـــول: سلمت لكم أنفس الناس فـتـحملو [منهم] ما تقـدرون عليـه من أسـاقـفـه ورهبان أو بيع أو كل الناس فأحملو القماش والمال والبهايم وكلما تجدونه لهم ولا تراعو أحدا، وأى موضع نزلتموه فانهبوه. وكانو يخربون المواضع ويقلعون العمد والأخشاب ويبيعون ما يساوى عشرة دنانير بدينار حتى صارت الفضة خمسة وتلتين درهما بدينار، والقمح أربعين أردبا بدينار،

سنة ١٦٠ هجرية

الأول من المحرم وافق يوم السبت ١٩ أكتوبر ٧٧٦م.

* فى هذه السنة خلع الخليفة المهدى بيعة ولى عهده عيسى بن موسى تحت الضغط والتهديد وأعلن البيعة لابنه موسى الهادى ، ثم حج المهدى لأول مرة فنزع كسوة الكعبة وكساها كسوة جديدة.

* تم فى هذه السنة لقاء الثائر سليمان الكلبى (ويعرف بسليمان الأعرابى) بالامبراطور شرلمان فى مدينة بادربورن من أعمال ألمانيا وعرض عليه محالفة على قتال عبد الرحمن الداخل وشجعه على غزو شمال الاندلس فى مقابل تسليمه بعض مدنها وحصونها ومنها برشلونة وسرقسطه، واستجاب شرلمان له وبدأ فى تجهيز جيش كبير لغزو الأندلس.

* استولى الجيش الذى سيره المهدى براً وبحراً على مدينة باريد بالهند.

* عزل أبو عون عن إمرة خراسان وتولاها معاذ بن مسلم.

* ممن توفى: الشاعر العباسى صالح بن عبد القدوس اتهم بالزندقة فأمر به المهدى فقتل، وفيها توفى الأمير الأموى عبد الملك بن مروان كان قد لجأ إلى الأندلس فولاه عبد الرحمن الداخل إمارة أشبيلية وزوج ولى عهده هشاما من إبنته كثيرة ، وفيها توفى الفقيه الشيعى الملقب شيطان الطاق تنسب اليه الفرقة الشيطانية من الشيعة.

والنبيذ أربعين مطرا بدينار، والزيت ماية قسط بدينار. وكلمن معه شي يخاف عليه أن يظهره ليلا [لئلا] يعاقب.

ومن الضيق والضنك همو الناس ببيع اولادهم، وإذا أعلمو الأمير بهذا لم يرق قلبه ولا يرحم بل يزيد فيما هو فيه. وكان يكتب ويقول: كل موضع يوجد فيه إنسان ماشيا أو يعدى من موضع إلى موضع أو طالعا من مركب أو نازلا وليس معه

سنة ١٦١ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الخميس ١٩ أكتوبر ٧٧٧.

* أمر المهدى بتعبيد الطريق من بغداد الى مكة وزوده بأحواض لمياه الشرب وأقام عليه المنازل والقصور أوسع مما بناه عمه السفاح، كما وسع وعمر المسجد الحرام واشترى الذراع من الأرض مما دخل فى حدود المسجد بخمسة وعشرين ديناراً وحمل اليه الرخام من مصر كما أضاف إلى الحرم المدنى ثلث مساحته وأحاطه بأروقة وقباب.

* بويع عبد الرحمن بن رستم مؤسس مدينة تاهرت بالامامة مؤسسا ما يعرف بالدولة الرستمية فى شمال أفريقية.

* و اجه عبد الرحمن الداخل بالأندلس خطراً جديداً فى شخص عبد الرحمن ابن حبيب الفهرى الملقب بالصقلبي والذى عبر البحر من افريقية إلى مرسية داعياً للخليفة المهدى العباسى.

* تولى إمارة مصر عيسى بن لقمان بدلاً عن موسى بن على غير أن إمارته لم تدم سوى خمسة أشهر.

* فشلت حملة شرلمان فى الأندلس التى شنها بايعاز من حليفه سليمان الأعرابى بعد أن قاومت سرقسطة الغزو ثم منيت الحملة بكارثة فى طريق عودتها إلى فرنسا عند باب شيزر (ممر

سجله(*) يؤخذ وتنهب المركب وما فيها وتضرب بالنار. وإذا وجدو من الروم فى البحر فيحضرونهم إليه، فمنهم من يقتله ومنهم من يصلبه ومنهم من يقطع يديه ورجليه، حتى انقطع الطريق، ولم يبق من يسافر ولا يبيع ولا يشترى، وثمرات الكروم تلفت ولم يبق من يشريها بدرهم واحد لأجل قيام أربابها عند داره شهرين ينتظرون السجل(*) بالافراج عنهم. وإذا أكل فار سجل الإنسان أو

(*) اسامه بن يزيد يتشدد فى عمل سجلات مع كل شخص تكشف عن هويته، يدفع عنها مالاً لاستخراجها أوعمل بدل فاقد.

(*) لعدم قدرة الجهاز الإدارى العربى فى عمل السجلات لكل المصريين، وقفت طوابيرهم أمام الدواوين للحصول على هذه السجلات وتركوا اعمالهم.

رونسفال) بجبال البرانس على يد البشكنس المسيحيين ، وقبل أن يصل الامبراطور إلى عاصمته لقى حليفه سليمان الأعرابى حتفه.

سنة ١٦٢ هجرية

استهل المحرم بيوم الاثنين ٢٨ سبتمبر ٧٧٨م.

* تولى إمارة مصر فى هذه السنة ثلاثة من الولاة من قبل المهدى، وأولهم واضح المنصورى الخصى الذى اشتد على أهلها فشكوا منه فعزله المهدى بمنصور بن يزيد ابن خالة الخليفة ولم يلبث منصور أن عزل بعد شهرين فخلفه أبو صالح يحيى ابن داود فى ذى الحجة.

* اتهم أمير مصر واضح المنصورى بميوله العلوية وانه أخفى إدريس بن عبد الله الذى لجأ الي مصر من المدينة فحمله واضح مع البريد إلى المغرب حتى نزل ولية وفيها أقام دولة الأدارسة.

* تسللت قوات بيزنطية حتى شمال أنطاكية وهدمت سور ميناء الحدث فرد المهدى بالاغارة على بلاد الروم بقوات بلغت ٨٠ ألفا غير المتطوعة وعلى رأسها الحسن بن قحطبة.

* وضع المهدى دواوين الازمة لأول مرة وولى عليها عمرو بن مربع بحيث يكون لكل ديوان زمام أى رجل يضبطه فمن ثم كان الاسم.

أصـابه مـا [ء] أو نار أو شي من العـوارض، وبقى معه منه قطعه أو جميعه وقد تغير رسمه لا يغير له حتى يدفع خمسة دنانير غرامه وبعد ذلك يغير له.

وكانت أمرأة أرمله أخذت سجلا لولدها اليتيم الوحيد ترجو من عمل يديه ما تقتات به، فخرجت من اسكندريه إلى اغراوه وخرج الصبى إلى النيل يشرب ما [ء] فخطفه التمساح والسجل مربوط معـه وامه تبكى وتحترق عليه، فرجعت إلى اسكندريه فاعلمت الأمير الغير مومن ما جرى

---

* قضى عبد الرحمن الداخل بالأندلس على الدعوة العباسية التى كان يتزعمها عبد الرحمن بن حبيب الصقلبى فأحرق سفنه الراسية فى مرسية ودس عليه من إغتاله.

* نشبت ثورة فى طبرستان تزعمها عبد القهار من طائفة المحمرة ولكن قضى عليها قائد المهدى عمرو بن العلاء.

* ولد بالبصرة إمام الأدب عمرو بن بحر الجاحظ مؤلف كتاب البيان والتبيين وكتاب البخلاد وكتاب الحيوان وغيرها.

سنة ١٦٣ هجرية

الأول من المحرم وافق يوم الجمعة ١٧ سبتمبر ٧٧٩ م.

* بلغ المهدى مدينة حلب لاعداد العدة لغزوة كبرى على بلاد الروم واستخلف على بغداد ابنه وولى عهده موسى الهادى ففتح ابنه هرون حصن سمالو وغيرها من المواقع وبعدها زار الخليفة المهدى بيت المقدس، وحج بالناس ابنه على.

* تولى هرون ابن الخليفة إمرة المغرب وافريقية وأذربيجان، وكان على بلاد السند نصر بن محمد بن الأشعث.

* توفى عن ثلاث وسبعين خالد بن برمك رأس بيت البرامكة وكان على ديوان الخراج ثم تولى إمارة فارس وهو أبو يحيى البرمكى وجد الوزيرين الفضل وخالد.

عليها فلم يتراف عليها بل اعتقلها حتى وزنت عشرة دنانير بسبب السجل، وأنها دخلت المدينة بغير سجل، وباعت ثيابها وكل مالها وطافت تتصدق حتى أوفت العشرة الدنانير. وكان الشيطان الذى كان موافقا له وقلبه مثل قلبه يلقى فى قلبه كل اليوم السو.

ثم انفذ كشف الديارات [الأديره] فوجد فيها جماعة من الرهبان بغير [وشم] حلق فى أيديهم

---

* توفى منتحراً بقلعة سنام بالتركستان المقنع الخراسانى الذى ادعى الربوبية فلما حصره سعيد الحرشى قائد المهدى جمع أهله وسقاهم السم فمات وماتوا معه.

* توفى بالأسكندرية أمير مصر موسى بن على (بضم العين تصغير على) عن ٧٣ عاماً.

سنة ١٦٤ هجرية

استهلت السنة بيوم الأربعاء ٦ سبتمبر ٧٨٠م.

* فى أول يوم السنة عزل عن إمرة مصر أبو صالح يحيى بن داود بعد عام واحد، خلفه سالم بن سوادة.

* غزا هرون ابن الخليفة الصائفة وتوغل فى بلاد الروم (الأنضول) حتى بلغ ساحل البحر أمام القسطنطينية مما إضطر الامبراطور قسطنطين السادس أن يصالح المهدى على سبعين ألف دينار مدة ثلاث سنين، ولكن الروم لم يلبثوا أن نقضوا الصلح.

* لم تنقطع الثورات ضد عبد الرحمن الداخل فى الأندلس فقضى فى هذه السنة على ثورة السلمى فى طليطلة والكنانى فى الجزيرة الخضراء، وفى الشمال انفرد الثائر الحسين الأنصارى وبالزعامة بعد اغتياله حليفه السابق سليمان الأعرابى.

* انتصر شارلمان على الساكسونيين.

فـمنهم من ضـربت رقبـتـه ومنهم من مـات تحت السياط.

ثم انه سـمـر باب البـيـعة بالحديد وطلب منهم ألف دينار، وجـمـع مـقـدمى الرهبـان وعـذبهم والتمس منهم عن كل واحد منهم دينارا وقال متى لم تقوموا بذلك هدمت البيع واخربتها وجعلتكم فى مـراكب الأسطول(*)، فقلقوا شيوخ الرهبان وتمنو الموت ولم يعلمـو مـا يصنعـو ولـم يكن لهم

(*) كـانت مـراكب الاسطول تزود بالمصـريين الذين يجـبـروا على العمل فيها حتى موتهم بعيداً عن أهلهم وديارهم.

سنة ١٦٥ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الأحد ٢٦ أغسطس ٧٨١م.

* خرج بصعيد مصر دحية حفيد عبد العزيز بن مروان الأموى ودعا لنفسه فتولى أمر مصر ابراهيم بن صالح ابن عم الخليفة.

* سير عبد الرحمن الداخل جيشاً ضخماً قاده بنفسه للقضاء على ثورة الشمال التى انفرد بقيادتها الحسين بن يحيى الأنصارى فى سرقسطة وحصره فيها حتى طلب الصلح وقدم ابنه رهينة، وتابع عبد الرحمن سيره إلى مملكة النافار الأسبانية ودخل بنبلونة وقلهرة وخرب قلاعها وأرغم أميرها على تقديم الطاعة والجزية فأمن بذلك جانب الأسبان النصارى وجانب الثوار المسلمين.

سنة ١٦٦ هجرية

الأول من السنة وافق يوم الخميس ١٥ أغسطس ٧٨٢م.

* أخذ الخليفة المهدى البيعة لولده هرون بعد أخيه موسى الهادى ولقبه الرشيد.

* حمل المهدى حملة شديدة على اصحاب المذاهب المهرطقة فأباد منهم فى هذه السنة خلقاً كثراً وكان يتولى هذه المهمة وزيره الكلوذانى.

إلا اجتماعهم في البيع والصلوات والتضرع إلى السيد المسيح أن يترأف عليهم بحزن وكابه حتى سمع الله الكريم الرحيم دعاهم ونجاهم بسرعة بان توفي سليمان ابن عبدالملك(*)، وهو كان في ذلك الوقت الملك الكبير، وملك مكانه عمر بن عبدالعزيز الذى كان أمير مصر، وانفذ الوقت بارادة الله الروف واليا إلى مصر فرمي طوبه حديد في رجلي أسامه البايس [البائس] وخشبه في يديه وجعله في الحبس، وكان مظلما، إلى أن يرى رأيه

(*) وفاة سليمان بن عبدالملك وتولى عمر بن عبد العزيز الخلافة.

---

* عاد هرون ابن الخليفة من حملته على القسطنطينية بعد أن عقد الهدنة مع الروم على جزية مقدارها ٦٤ ألف دينار رومية و ٢٥٠٠ ديناراً عربية و ٣٠ ألف رطل من الصوف النقى

* تولى خراسان الفضل بن سليمان الطوسى خلفاً للمسيب بن زهير بعد ان اضطربت أحوالها.

*انقلب المهدى على مستشاره وأخيه في الله يعقوب بن داود بعد أن صار الحل والعقد بيده حتى تندر بذلك الشعراء ثم تتابعت الوشايات ضده متهما بممالأة العلويين فأمر المهدى بحبسه في سجن المطبق ومصادرة أمواله، وفيها إطلق المهدى عمه عبد الصمد بن على من حبسه الذى قضى فيه ثلاث سنين.

* ثار بالأندلس المغيرة بن الوليد على ابن عمه عبد الرحمن الداخل ونادى بخلعه فقتل.

* أمر الخليفة بتنظيم منازل للبريد بين اليمن ومكة وبين مكة وبغداد باستخدام الابل والبغال ولم يكن البريد قبل ذلك بقطر من الأقطار.

سنة ١٦٧ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الثلاثاء ١٥ أغسطس ٧٨٣م.

* سار موسى الهادى ولى عهد الخلافة إلى طبرستان لإخماد الثورة بعد مقتل قائده عمرو بن العلاء.

فيـه. ثم أخـذه فـأخـرجـه من اسكندريه إلى مـصـر فقبض الله روحه فى الطريق عقوبة له وضيقا بقدر استحقاقه.

وكـان هـذا عـمـر بن عـبـدالعزيز يصنع خـيـرا عظيما امام الناس ويفعل السو امام الله(*)، وأمر أن لا يكون على أواسى البيعه والأساقفة خراج، وبدا أن يجـعل البـيع بغـيـر خـراج والأسـاقـفـه، وأبطل الجبـايات وعـمـر المدن التى خربت وكانو النصارى

(*) كان عمر بن عبد العزيز يصنع خيراً أمام الناس ويفعل السو أمام الله.

---

* سـخط المهدى على ابن عـمـه ابراهيم بن صالح أمير مصر لتراخيه في حرب دحية المرواني الثائر بالصعيد والداعي لنفسه فعزله وخلفه موسى بن مصعب.

* تولى عمارة المسجد الحرام يقطين بن موسى وكان من دعاة العباسين قبل قيام دولتهم فأدخل فيه كثيراً من الدور حوله.

* نكث الثائر الحسين الأنصارى الصالح وجاهر بالعدوان فبعث اليه عبد الرحمن الداخل جيشاً بقيادة غالب بن علقمة ثم سار عبد الرحمن بنفسه إلى سرقسطة واقتحمها وقبض على الثائر وجماعته وأمر بهم فقتلوا جميعاً.

* توفي في هذه السنة بشار بن برد أشعر المولدين وصاحب الديوان المتداول حتى اليوم، ولد أعمى جاحظ العينين ورمى بالزندقة، مات عن ٧٢ عاماً.

* توفي شيخ الدولة العباسية عيسى بن موسى ابن عم الخليفة السفاح، وكان قد ولى عهد الخليفة المنصورة ثم استنزله وجعله ولى عهد ابنه المهدى ثم استنزله المهدى فجعله ولى عهد هرون الرشيد.

فى أمن وهدو والبيع. ثم من بعد ذلك بدا أن يفعل السو وكتب كتابا إلى مصر مملو غما وهو فيه مكتوب: عمر يأمر ويقول من أراد أن يقيم فى حاله [عمله] وبلاده فليكن على دين محمد(*) مثلى ومن لا يريد فليخرج من أعمالى. فسلمو له النصارى ما بيديهم من التصرفات وتوكلو على الله وسلمو خدمتهم للمسلمين وصارو عبره لكثير، ودخلت [تسلطت] اليد على النصارى من الولاة والمتصرفين والمسلمين فى كل مكان كبيرهم

(*) عمر بن العزيز يصدر أمرا بطرد كل الكتاب والعاملين غير المسلمين من الدواوين.

سنة ١٦٨ هجرية

استهلت السنة بيوم السبت ٢٤ يوليو ٧٨٤م.

* نقض قسطنطين السادس الصلح الذى عقده مع الخليفة المهدى بعد ثلاثة أشهر فوجه اليه المهدى أمير الجزيرة على بن سليمان على رأس جيش كبير فأوقع به الهزيمة وغنم وسبى.

* ظهر بالأندلس أبو الأسود محمد بن يوسف الفهرى الذى كان قد اختفى منذ ربع قرن وادعى العمى، وأعلن الثورة ثانية على عبد الرحمن الداخل الذى هزمه وطارده حتى قلعة رباح.

* أظلمت الدنيا فى الثالث من ذى الحجة حتى تعالى النهار وأمطرت السماء مطراً أحمر ووقع إثر ذلك وباء شديد هلك فيه معظم أهل بغداد والبصرة.

* ولد فى هذه السنة الشاعر المصرى أبو عبد الله حسين بن الجمل ممن اتصلت سيرته بالخليفة المأمون بعد ذلك.

* فى التاسع من شوال = ٢٥ ابريل ٧٨٤م قتل والى مصر موسى ابن مصعب فولى المهدى مكانه اسامه بن عمر.

* توفى بمدينة تاهرت الامام الإباضى عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرستمية

وصغيرهم غنيهم وفقيرهم. وأمر وقال أن توخذ الجزيه(*) من ساير الناس الذين لا يسلمون، ولم تجر عادتهم بالقيام بها. فلم يمهله الله لكن أهلكه سرعه، ولم يمكنه بالملك لأنه كان يشبه الدجال.

(*) عمر ابن عبد العزيز يفرض الجزية على كل من كان معفيا منها.

ثم تولى بعده يزيد، وما نحسن أن نشرح ما جرى في أيامه ولا نذكره من السو والبلايا، لنه [لأنه] سلك في طريق الشيطان وحاد عن طرق الله. وأول ما أخذ المملكة اعاد الخراج الذى كان

بشمال افريقية وفيها توفي بسجلماسة مقدم الخوارج الصفرية، وعيسى بن زيد الطالبى وكان قد اختفى بعد ثورة محمد النفس الزكية. وفيها توفى الحسن الهمدانى من زعماء الفرقة البترية من الزيدية.

سنة ١٦٩ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الخميس ١٤ يوليو ٧٨٥ م.

* شهدت هذه السنة وفاة الخليفة المهدى، وقع عن دابته في الصيد في ماسبذان فلقى مصرعه، توفي عن ثلاث وأربعين وأقام في الخلافة نيفاً وعشر سنين، وكان قد تولاها بعهد من أبيه المنصور.

* بويع موسى الهادى في اليوم الذى مات فيه أبوه المهدى (٢٢ المحرم) وكان حين وفاة أبيه بجرجان في حرب أهل طبرستان.

* استشهد الحسين الطالبى المعروف بصاحب فخ وحفيد الحسن المثلث وكان قد ثار على خليفة بغداد ودعا لنفسه واستولى على المدينة فلقيه جيش الهادى عند فخ وقتل، كما استشهد فيها سليمان بن عبد الله جد السلمانيين أصحاب تلمسان.

* توفي في هذه السنة الوزير العباسي الربيع بن يونس عن ٥٨ عاماً، استوزره المنصور واليه

عمر بن عبدالعزيز قد رفعه عن البيع والأساقفه سنه واحده، وحمل على الناس ثقلا عظيما حتى ضاق كلمن في بلاده. ولم يكتف بهذا فقط حتى أمر بكسر الصلبان في كل مكان وكشط الصور التي في البيع لأنه كان قد أمر بذلك، لكن السيد المسيح أهلكه لأجل ذلك، وأخذ نفسه بعد أن ناله قبل موته بلايا كثيره. وكان مدة مقامه في الملك سنتين وأربعة شهور. وولى بعده هشام(*) أخوه، كان رجلا خايفا من الله على طريق الاسلام، وكان

(*) وفاة عمر بن عبدالعزيز وتولى أخوه هشام بدلاً عنه.

تنسب قطيعة الربيع ببغداد، وفيها قتل دحية بن مصعب الأموى حفيد عبد العزيز بن مروان بصعيد مصر بعد أن فشلت ثورته.

سنة ١٧٠ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الأثنين ٣ يوليو ٧٨٦م.

* في نحو النصف من شهر ربيع الأول توفى الخليفة موسى الهادى عن ست وعشرين سنة ولم تدم خلافته سوى عام واحد، وقيل توفى خنقاً لأنه حول ولاية عهده عن أخيه الرشيد وله من الأبناء تسعة سبعة ذكور وابنتان كلهم من أمهات الأبناء.

* بويع هرون االرشيد بالخلافة في الليلة نفسها التي توفى فيها أخوه الهادى وله من العمر خمس وعشرون سنه.

* قلد الرشيد على أثر توليته الخلافة وزارته يحيى بن خالد البرمكى وترك له أمر الرعية يحكم فيها بما يرى وكان يحيى بدوره يصدر عن رأى الخيزران أم الرشيد.

* تولى محمد بن سليمان أمرة مصر.

* ولد في هذه السنة ابنا الخليفة الرشيد، ولد أولاً عبد الله المأمون في النصف من ربيع

محبا لساير الناس ويخلص الارتدكسيين. فلما علم أن ليس لنا بطرك نحن النصارى بالمشرق من بعد يوليانوس الماضى بطرك انطاكية الذى جلس ايليا الأسقف عوضه، وتوفى ايليا أيضا، فأخذ انسانا اسمه اتناسيوس مملو بكل نعمه روحانيه وكان أيضا اسقفا فاعطاه بطركيه انطاكيه، ووضعو الأساقفه أيديهم عليه نيابة وصيروه بطركا. وكتب هذا اتناسيوس سنوديقا بعلوم وتواضع عظيم إلى الأب البطرك المغبوط الاكسندروس [يعلمه بجلوسه]،

الأول أمه أم ولد هى مراجل البادغسية، ثم ولد إبنه محمد الأمين فى شوال من العام أمه زبيدة بنت الخليفة أبى جعفر المنصور.

* توفى فى هذه السنة بالبصرة الخليل بن أحمد العلامة اللغوى المتفن عن سبعين سنة وهو واضع علم العروض ومبتكر النقط والشكل فى الكتابة، ومؤلف كتاب العين أقدم معاجم اللغة العربية.

* وممن توفوا من رجال العلم والأدب: الزيدى الحسن بن حى من زعماء الفرقة البترية.

سنة ١٧١ هجرية

استهلت السنة بيوم الجمعة ٢٢ يونية ٧٨٧م.

* أظهر على بن سليمان العباسى أمير مصر طمعه فى الخلافة بعد أن أعلن مسلموا مصر تأييدهم له فاسخط عليه الرشيد فعاجل بعزله واخلفه بموسى بن عيسى المرة الأولى.

* أمر الرشيد بإخراج الطالبين من بغداد وإرسالهم إلى المدينة فيما خلا العباس بن عبد الله حفيد الامام على.

* اجتمعت ليحيى البرمكى الوزارتان بعد أن دفع إليه الرشيد خاتم الخلافة.

* ثار بالجزيرة الصحصح الخارجى وغلب عليها، فعزل الرشيد واليها أبا هريرة ابن فروخ وقضى على الفتنة قائده حرب بن قيس.

يقول: أننى غير مستحق لهذه الرتبة منجل [من أجل] ذنوبى وليس هذا باختيارى فعلت ذلك لكن الملك لأنه كان عارف به [يعرفه] قبل هذا الزمان. فقبلها الاكسندروس بفرح، ثم كتب إليه جوابها باتحاد الامانة والصلح والسلامه، ثم كتب: نبارك على الملك هشام ونسأل أن تتثبت مملكته سنينا كثيره ويظفر باعدايه [باعدائه] ليفعل الاستقامة امام الرب. وشيع الرسل بسلام.

---

* أذن موسى بن عيسى أمير مصر الذى تولى فى ربيع الثانى من السنة خلفاً لمحمدبن سليمان (وذلك بمشورة الامام الليث) للنصارى فى بناء الكنائس التى هدمت لأنها بنيت فى الاسلام فى زمان الصحابة والتابعين.

* قام الدنمركيون بغزو انجلترا.

سنة ١٧٢ هجرية

وافق هلال السنةيوم الأربعاء١١ يونية ٧٨٨م.

* توفى بقرطبة عن ثمان وخمسين سنة (٢٤ جمادى الآخرعلى الأرجح) عبد الرحمن الداخل المعروف بصقر قريش ومؤسس الدولة الأموية بالأندلس وكان قد دخلها قبل أربع وثلاثين سنة لم ينقطع خلالها عن قتال الثائرين عليه حتى أمن عرشه.

* ولى الرشيد أخاه عبيد الله إمرة أرمينية بعد عزل يزيد بن مزيد الشيبانى، وفيها تولى إمارة مصر مسلمة بن يحيى بن قره خلفاً لموسى بن عيسى (رمضان).

* تحالف أخوا هشام الأول أمير الأندلس الجديد وهما سليمان بن عبد الرحمن وعبد الله البلنسى (وكلاهما أكبر سناً من هشام) على الثورة والعصيان . كما ثار بسرقسطة فى شمال البلاد مطروح الكلبى.

ثم ان هشاما كتب إلى مصر يامر بان تدفع لكلمن يزن الخراج برا[ء]ه باسمه حتى لا يظلم احد ولا يكون فى مملكته ظلم. فاعطاه الله مملكه جيده فأقام اتنين وعشرين سنه ملكا ولم تقم عليه حرب، لكن كل ثائر يثور عليه قد اسلمه الله فى يديه بصلوات البطركين الجليلين الاكسندروس باسكندريه واتناسيوس بانطاكيه.

وكانت البيعه الارتدكسيه بدمشق ملاصقه

---

* توفى الفضل بن صالح إبن عم الخليفة من أمراء مصر فى عهد الهادى وهو الذى عمر أبواب جامع دمشق وقبة الصحن،.

سنة ١٧٣ هجرية

استهلت السنة بيوم الأحد ٣١ مايو ٧٨٩م.

* عزل الرشيد عن إمارة خراسان جعفر بن الأشعب وولى مكانه إبنه العباس ابن جعفر، كما عزل عن إمارة مصر مسلمة بن يحيى بعد أحد عشر شهراً بسبب توالى الفتن وخلفه محمد بن زهير الأزدى الذى عزل بدوره فى شهر ذى الحجة لأنه توانى عن نصرة عامل الخراج وتولى محله داود بن يزيد ابن حاتم.

* فشلت ثورة الأخوين سليمان وعبد الله على أخيهما هشام الأول والتمس عبد الله الصفح من هشام فعفا عنه واستقر بقرطبة ، أما سليمان فاضطر للفرار إلى الجبال.

* ممن ولد وفى هذا التاريخ الوزير الأديب أبو جعفر محمد بن عبد الملك الزيات وكان أبوه زياتا ببغداد، استوزره بعد ذلك ثلاثة من الخلفاء أولهم المعتصم، وفيها ولد الأغلب الثانى بن إبراهيم خامس أمراء الأغالبة فى تونس، وشيخ خراسان أبو عبد الله الذهلى بنيسابور.

* توفيت فى هذه السنة (٢٧ جمادى الآخرة) الخيزران زوجة المهدى وأم ولديه الهادى والرشيد وكان دخلها ٦٦ مليون درهم تنفقه فى الصدقات وأبواب البر، ومشى الرشيد فى جنازتها حافياً يخوض فى طين المطر اخذا بقائمة تابوتها.

للقصر الذى هو ساكنه، ثم أنه أمر أن يبنى البطرك بيته ملاصقا لمجلس الملك من كثرة حبه له حتى يسمع صلاته وقراءته، لأنه كان يقول له دفعات كثيرا: إذا بديت بالصلاة بالليل تنالنى راحة عظيمه ويزول عنى الهم بأمـــر المملكه ثم يأتينى النوم براحه. وكان يحبه كثيرا لأجل ذلك ويعطى كرامات كثيرا للبيع والنصارى. وكان عنده رجل مسلم يحب البيع الارتدكسيه جدا اسمه عبيد(*) الله فلما نظره الملك هشام يفعل ذلك فرح جدا

(*) هو عبيد الله بن الحبحاب ولاه الخليفة هشام بن عبدالملك خراج مصر (٧٢٣ ـ ٧٣٤م).

---

* ممن توفوا فى هذا التاريخ الشاعر السيد الحميرى (إسماعيل بن محمد) عن ٦٨ عاماً وهو الذى اشتهر بافراطه فى التشيع لبنى هاشم وهجاء غيرهم، وفيها توفيت غادر جارية الهادى وزوجته تزوجها الرشيد بعد موته ولكنها لم تلبث شهوراً حتى توفيت، وفيها توفى بالبصرة الأمير محمد بن سليمان بعد عام من زواجه من العباسة أخت الرشيد وخلف تركة عظيمة من المال والمتاع والدواب آلت إلى الخليفة.

سنة ١٧٤ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الخميس ٢٠ مايو ٧٩٠م.

* عقد الرشيد لابنه محمد من زوجته زبيدة لولاية العهد ولقبه بالأمين وعمره فى هذا التاريخ خمس سنين وهو أصغر سناً بشهور عن أخيه المأمون،وكتب الخليفة بذلك لولاة الأقاليم فأخذوا البيعة للأمين.

* انتهت ثورة الأخوين سليمان وعبد الله على أخيهما هشام الأول أمير الأندلس بأعلان استسلامهما فارضاهما بمال واشترط عليهما أن يسكنا المغرب فسارا إليه.

* تولى إمارة مصر (١٤ المحرم) داود بن يزيد فكان أول ما فعله أخراج الجند المشاغبين إلى بلاد المغرب، وفيها تولى إمارة السند اسحق بن سليمان، وفيها استقضى الرشيد يوسف بن القاضى أبى يوسف وذلك فى حياة أبيه.

وولاه [خراج] مصر وأوصاه ان يفعل الخير مع بنى المعموديه، فلما وصل إلى مصر أمر بان تحصى الناس والبهايم، وان تقاس الأراضى والكروم بحبال القياس. ففعل ذلك، وأن يجعل طابع [طوق] رصاص فى حلق كل الناس من ابن عشرين سنه إلى من عمره ماية سنه، واحصاهم وكتبهم جميعهم ودوابهم من الصغير إلى الكبير، والأراضى (الوكس) الخرس [البور] التى هى صعبه التى تنبت حلفا وشوكا. وبنى أميالا [علامات حجريه] فى

---

* ممن توفوا فى هذه السنة، قاضى الديار المصرية عبد الله بن لهيعة عن ٧٩ عاماً.

سنة ١٧٥ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الثلاثاء ١٠ مايو ٧٩١ م.

* هاجت العصبية بالشام بين المضرية واليمانية وراح ضحيتها كثيرون وكان على الشام ولى عهد المأمون عيسى بن موسى فعزله الرشيد واستعمل على الشام موسى ابن يحيى البرمكى ، وتولى عيسى المعزول إمارة مصر للمرة الثانية.

* أخرج الرشيد وزير أبيه يعقوب بن داود من سجنه بعد أن حبسه المهدى قبل خمس سنين فسار إلى مكة مجاوراً.

* فى الأندلس توالت الثورات على هشام الأول فتصدى لها فاستعاد هشام طرطوشة من سعيد الانصارى واستعاد قائده برشلونة ثم سرقسطة من مطروح ابن سليمان الذى اغتاله أهلها، وبعدها انطلق قائده عبد الله بن عثمان إلى قشتالة وجليقية من الامارات النصرانية فهزم الجلالقة وحلفاءهم البشكنس، وتلتها حملة أخرى أوقعت الهزيمة بملك الجلالقة المسمى برمودو.

* توفى فى هذه السنة إمام أهل مصر الليث بن سعد عن ٨١ عاماً، وهو مصرى المولد

وسط الغيطان على الحدود والطرقات فى جميع أرض مصر. وأضعف [ضاعف] الخراج. فلما تمم جميع ما ذكرناه [أقام] ظلما كثيرا لم نذكره. ولما وصل الفسطاط مضى إلى مدينة منف(*) وأقام بها أربعة شهور، وأمر أن يجتمع إليه مقدمو المواضع إلى منف، وجعل علامة الأسد على أيدى النصارى، كقول الكتاب الذى قاله يوحنا ابن الرعد إذ يقول: لا يبيع أحد ولا يشترى إلا من كان على يده علامة الأسد. فلما تمم ذلك كتب إلى

(*) كان محل القاهرة الحالية تقريبا مدينة منف (الشرقية) لأن منف الغربية كانت مدينة الموتى. وكان هذا المكان يعرف كذلك باسم كاهى رع = قاهرا = القاهرة فيما بعد فى الفترة الفاطمية.

والنشأة وكان أمراء مصر لا يقطعون أمراً إلا بمشورته، ضريحه مزار معروف بالقرب من الشافعى بالقرافة.

سنة ١٧٦ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم السبت ٢٨ أبريل٧٩٢ م.

* عقد الخليفة الرشيد لابنه عبد الله بولاية العهد بعد أخيه محمد الأمين ولقبه بالمأمون وكتب بذلك عهداً علق فى جوف الكعبة.

* تأهب هشام الأول أمير الأندلس لإستئناف الجهاد ضد الأفرنج فعبر قائده عبد الملك بن عبد الواحد جبال البرانس إلى فرنسا بعد الاستيلاء على جيرونة فاستولى على أربونة وجرت عند نهر أوربينا معركة بينه وبين جيش شرلمان إرتد بعدها مثقلاً بالغنائم والأسرى.

* إستمرت الفتنة فى الشام بين المضرية واليمانية وكان على المضرية أبو الهيذام حتى فصل بينهما الفضل البرمكى.

* خرج ببلاد الديلم يحيى العلوى والتفت حوله الشيعة من الأقطار المجاورة فندب الرشيد لحربه الفضل البرمكى على رأس خمسين ألفا حتى طلب الصلح فأمنه الرشيد ثم حبسه إلى أن مات.

بلاد مصر يقول: هكذا كلمن يوجد فى ساير المواضع فليس على يده الرسم تقطع يده: ويخسر خساره عظيمه لأنهم لم يسمعو اوامر الملك وخالفوه. وكان له ولدان انفذ احدهما إلى القبله [الوجه القبلي الصعيد] والآخر إلى بحرى. وكان قلق عظيم واضطراب فى كل كورة مصر.

ثم وصل إلى الجيزة وبنى له بها دارا عظيمه وكتب إلى كور مصر بان تحشد له جماعه من

---

* تولى حكم مصر فى هذه السنة أميران هما: ابراهيم بن صالح العباسى للمرة الثانية الذى توفى فخلفه فى شهر رمضان من السنة عبد الله بن المسيب وكان نائبه روح بن زنباع.

* ولد بمدينة طليطلة بالأندلس عبد الرحمن بن الحكم رابع أمراء الدولة الأموية بالأندلس وكان أبوه ولياً للعهد وواليا عليها من قبل أبيه هشام الأول.

* ممن توفى فى هذه السنة أمير مصر عسامه المعافرى، تولاها عدة مرات.

سنة ١٧٧ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الخميس ١٨ أبريل٧٩٣ م.

* خلد هشام الأول أمير الأندلس إنتصاراته فى فرنسا ببناء جناح جديد فى مسجد قرطبة الجامع استخدم فيها أحجاراً جلبها معه من أنقاض سور مدينة أربونة الفرنسية وأرغم الاسرى على حملها أو جرها من أرض فرنسا.

* ولى الرشيد على إمارة افريقية الفضل وهو ابن واليها السابق روح بن حاتم الذى خلفه منذ وفاته حبيب بن نصر المهلبى وتلاه الفضل، الذى لم يلبث أن ثار عليه أهل تونس وعليهم ابن الجارود فقتل الفضل ودخل ابن الجارود القيروان فخلفه هرثمة بن اعين.

الناس يشغلهم فيما يريد [سخره] وبنى الفسطاط حتى ان الناس هلكو من التعب من كثرة ما اشغلهم.

فلما عظم التعب والقيام بالخراج الذى اضعفه عليهم ثارت حرب على النصارى والمسلمين حتى سفكت دما كثيره بأرض مصر بين القبيلتين: أولها فى مدينة بنا ومدينة صا ومدينة سمنود وما يجاورهن ومواضع كثيره فى أسفل الأرض [الوجه

---

* تولى إمارة خراسان الفضل البرمكى بعد عزل واليها حمزة الخزاعى، وتولى إمارة مصر اسحاق بن سليمان العباسى (أول رجب) خلفاً لابن المسيب الذى لم يدم أمره سوى عشرة أشهر.

سنة ١٧٨ هجرية

وافق الأول من السنة يوم الاثنين ٧ أبريل ٧٩٤ م.

* أثار البربر الفتنة فى إقليم رندة بشرق الأندلس وخلعوا طاعة هشام الأول فسير اليهم حملة بقيادة عبد القادر بن أبان فاخمدها وشتت شلمهم.

* وفى مصر ثار المصريين من أهل الحوف على الوالى اسحاق بن سليمان بسبب ما زاده من ضرائب على المزارعين حتى كرهته الناس فعقد الرشيد لهرثمة فجاءها من الشام على رأس جيش فأذعنت البلاد له ولم يلبث الرشيد بعد شهرين أن وجهه إلى افريقية للقضاء على الثورة فيها اذ كان الرشيد يندب هرثمة للملمات وخلفه على مصر عبد الملك بن صالح العباسى ولكنه لم يصلها.

* خرج الوليد بن طريف الشارى بالجزيرة وفتك بواليها ابن خزيمة وقويت شوكته فدخلت أرمينية وأذربيجان فى طاعته وكان أهل كل بلد يفتدون أنفسهم بالمال فسير اليه الرشيد بن مزيد الشيبانى ابن أخى معن بن زائدة فجعل يخاتله ويحاوره.

البحرى]، وكذلك كان فى الطرق والجبال والبحار. ومتى شرحنا ذلك طال شرحه.

ولما دخل الوالى إلى اسكندرية ليسم الناس قبض على البطرك ليسمه(*) فامتنع فلم يدعه الوالى، والتمس البطرك المضى إلى الملك فلم يجبه إلى ذلك، ثم بعد مده انفذ البطرك إلى مصر مع جند يوصلونه إلى عبيدالله، فلما حضر بين يديه عرّفه سبب حضوره فلم يتركه بغير وسم. فلما

(*) عبيد الله بن الحبحاب يأمر بوشم البطرك الاكسندروس.

---

* جدد هشام غزواته على بلاد الأفرنج فى شمال الأندلس فغزا ألبة قائده عبد الكريم بن مغيث وغزا بلاد الجلالقة أخوه عبد الملك بن مغيث.

* توفى فى هذه السنة مقتولاً أمير افريقية عبد الله بن يزيد المهلبى بعد عام من توليته على يد الثوار فخف هرثمة بن أعين للقضاء على الفتنة، وفيها توفى أمير مصر على بن سليمان الذى كان قد طمع فى الخلافة فى الصعيد .

سنة ١٧٩ هجرية

الأول من المحرم وافق يوم الجمعة ٢٧ مارس ٧٩٥م.

* تولى هرثمة بن أعين ولاية افريقية قدمها من مصر للقضاء على ثورة ابن الجارود (ربيع الأول) فتم له ما أراد لهيبة الناس له فبنى قصر القيروان الكبير وسور طرابلس الغرب.

* ولى الرشيد أخاه عبيد الله بن المهدى إمارة مصر للمرة الأولى، وفى هذه الأثناء هاجم شعب الأسكندرية أسطول من الأفرنج إنتقاماً من غزوات الحكم ابن هشام أمير الأندلس فخرج إليها عبيد الله فانسحب الأفرنج منها.

*فى ٣ رمضان = ٢١ نوفمبر ٧٩٥م صرف الرشيد أخاه عبيد الله عن ولاية مصر، وولى عوضه موسى بن عيسى العباسى وهى ثالث ولاية له على مصر.

نظر الأب البطرك الاكسندروس انه لا يخلى قال لعبيد الله [ابن الحبحاب] الأمير: اسيلك [اسألك] أن تمهلني تلتة أيام. فأجابه وامهله، فدخل البطرك إلى مخدعه وسأل الرب ان لا يمكنه من وسمه بل ينقله من هذا العالم سرعه، فلما نظر الله سريرة عبده انها حسنة افتقده، فمرض في اليوم التالت وكان المرض يتزايد كل يوم عليه فلما علم أن السيد المسيح قد سمعه وقبل صلاته انفذ قوما ثقات ورويسا من الارتدكسيين أولاده إلى عبيد الله

---

* تعاظمت ثورة الوليد بن طريف الشارى الذى إرتد إلى الجزيرة وفيها هزمه يزيد الشيبانى قائد الرشيد.

* إستبد بحكم عمان الامام الاباضى الوارث الخروصى وهو أول من تولاها من بنى خروص ورد خلال ذلك محاولات الرشيد لا سترداد عمان إلى حكم العباسين.

* توفى فى هذه السنة بالمدينة الامام مالك بن أنس امام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة من أهل السنة وذلك عن ست وثمانين، ولد وعاش وحدث بالمدينة، له الموطأ، ومذهبه السائد فى الشمال الافريقى إلى اليوم، وفيها توفى بالبصرة عن إحدى وثمانين سنة المحدث حماد بن زيد شيخ العراق فى عصره خرج أحاديثه الأئمة الستة، وفيها مقتل الوليد بن طريف الشارى الخارجي.

سنة ١٨٠ هجرية

استهلت السنة بيوم الأربعاء ١٦ مارس ٧٩٦م.

* تولى عرش الأندلس الحكم الأول خلفاً لأبيه هشام الأول وله من العمر ٢٦ سنة، أمه أم ولد اسمها زخرف، وهو الثالث من أمراء الأموين أصحاب الأندلس.

* توفى فى الثالث من صفر أمير الأندلس أبو الوليد هشام الأول ابن عبد الرحمن الداخل

يساله أن يطلقه ليمضى إلى كرسيه قبل وفاته، فلم يمكنه، فظن ان هذا منه محال [تحايل] وأنه غير عليل. فلما مضت أربعة أيام قال الأب للأخوه: هيو [هيؤا] المركب عند غروب الشمس لنمضى، لأن في غد يفتقدنى السيد يسوع المسيح. فمضو ولم يكن معه احد من الأساقفة غير أبا جمول أسقف وسيم. فلما انحدرو هاربين وصلو إلى ترنوط عند الصبح ففي تلك الساعة تنيح الطوبانى الاكسندرس في ذلك المكان، فلما علم عبيد الله

عن إحدى وأربعين سنة حكم منها ثماني سنوات، وهو الذى استكمل بناء جامع قرطبة وبلغت فتوحاته جنوب فرنسا.

* عزل الرشيد منصور بن يزيد عن إمارة خراسان واستعمل عليها على ابن عيسى بن ماهان الذى وليها عشر سنين وفى خلال ولايته كان ظهور حمزة الخارجى.

* عاد الأميران سليمان بن عبد الرحمن وأخوه عبد الله البلنسى عما الخليفة الحكم إلى الثورة وكانا قد رحلا الى المغرب بعد هزيمتهما على يد أخيهما هشام الأول، وفى صيف العام نفسه خرج القائد عبد الكريم بن مغيث غازياً إمارات الافرنج فعاث فى بلاد البشكنس والنافار.

* فى جمادى الآخر= اغسطس ٧٩٦م صرف الرشيد موسى بن عيسى عن ولاية مصر وولاها لأخيه من أبيه عبيد الله بن المهدى ثانيا.

* توفى فى هذه السنة عالم اللغة وإمام النحاة سيبويه عن إثنين وثلاثين عاماً فقط وهو مؤلف الكتاب فى النحو الذى يعرف باسمه، تتلمذ على الخليل فى البصرة وناظر الكسائى فى بغداد، وحول هذا التاريخ توفى الراوية الشاعر خلف الأحمر وهو معلم الأصمعى.

* ممن توفى فى هذه السنة قتيلا بمرو عمرو العمركى من زعماء البابكية متهما بالزندقة، كما قتل عمروية يزيد فى حرب حمزة الخارجى وكان على هراة.

أنه قد هرب بغير أمر انفذ اميرا ليعيده ومن معه فلما وصل إليهم وقبض عليهم ليردهم بغضب فوجد الأب قد تنيح فتركه وقبض على ابا جمول وسيره إلى عبيدالله فقال له: بالحقيقه أنك انت اشرت عليه بالهروب ولابد مما تقوم بالف دينار لبيت مال الملك. وكان أبا جمول فقيرا يعجز عن قوت يومه وهو عريان، وكان حلو المنظر حسن السيره وكان يعظ من يخطى فيسمع منه وكذلك يتبت كلمن هو عاجز في الأمانه الارتدكسيه،

---

* توفى في هذه السنة الفلكي الراصد ابن جندب الفزارى (محمد بن ابراهيم) صاحب الزيج المسمى باسمه وأول من عمل في الاسلام أسطرلابا.

سنة ١٨١ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأحد ٥ مارس ٧٩٧ م.

* غزا عبد الملك بن صالح أرض الروم حتى بلغ أنقرة، كذلك غزاها الرشيد بشخصه وافتتح حصن الصفصاف، وجرى بعد ذلك الفداء بين الروم والمسلمين بنواحي طرسوس وكان ممثل الرشيد إبنه القاسم وممثل الروم نقفور الوزير فكان أول فداء في أيام بنى العباسى.

* لجأ عبد الله البلنسى عم الحكم أمير الأندلس والثائر عليه وعلى أبيه من قبل إلى الامبراطور شرلمان بمدينة آخن والتمس عونه فاستجاب له وتمكن ابنه لويس على رأس جيش كبير من استعادة مدينة جيروندة والتوغل في شمال الأندلس ولكن خطته فشلت فعاد هؤلاء الخوارج إلى الطاعة.

* صرف عبد الله المهدى أخو الخليفة عن إمارة مصر بعد ١٤ شهرا وخلفه إسماعيل بن صالح.

* استعفى الرشيد عن إمارة أفريقية قائده هرثمة بن أعين فأعفاه وقلدها محمد بن مقاتل ولكن الجند اختلفوا عليه ومعهم البربر وتكاثر الخارجون عليه وانهزم أمامهم حتى أنقذه

فحلف له أنه لا يقدر على دينار واحد ولا هو فى ملكه، فلم يقبل منه وسلمه إلى شرطيين، فلما أخذاه ذانك المسلمان، اللذان لا نذكر اسماهما، سلماه إلى بربر متشبهين بالسباع فى أفعالهم، فجذبوه وجرجروه فى وسط مصر حتى جاو به إلى باب بيعة مارى جرجس وهم يسحبونه، وكان هناك جمع كثير مجتمعين ممن يبيع ويشترى، وكان خلق كثر يجرو خلفه فى مصر. وطالبوه بألف دينار مع قلة ذات يده وبدو يعذبونه ذلك

إبراهيم الأغلبى أمير الزاب، كما استعفى الرشيد وزيره خالد البرمكى فأعفاه وأذن له فى المجاورة بمكة.

* ثار بالأندلس على الحكم الأموى بهلول بن مروان صاحب سرقسطة كما ثار عليه صاحب وشقة.

* وافق هذا التاريخ وثوب الروم بالأمبراطور قسطنطين السادس وسملوا عينيه وسجنوه بإيعاذ من أمه ايرين التى خلفته على عرش بيزنطة.

سنة ١٨٢ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الخميس٢٢ فبراير٧٩٨م.

* أخذ الرشيد وهو بالرقة وللمرة الثانية البيعة لولده المأمون بعد الأمين وولاه المشرق كله وهو بعد فى الثانية عشرة من العمر وضمه إلى جعفر البرمكى مدبراً لأمره كما كان الفضل البرمكى مدبراً لأمر الأمين.

* تحالف سليمان بن عبد الرحمن وأخوه عبد الله عما الحكم الأموى بعد هزيمتهما واجتمع معهما حشد من البربر للاغارة على قرطبة ولكنهم هزموا، (شوال) عند فنجيط.

* ممن ولد فى هذه السنة: فقيه مصر فى عصره محمد بن عبد الحكم رفيق الامام الشافعى

اليوم بغير رحمه، ونزعوا عنه ثوبه والبسوه مسح شعر وعلقوه بذراعيه وهو عريان، وجميع الشعب ينظرونه وهم يضربونه باسياط من جلود البقر حتى جرى دمه على الأرض، والجمع يشاهدونه وما حل به من الشرطه. وأقامو أسبوعا يعذبونه هكذا حتى جمعو له تلتماية دينار. ولما نزلو قوم من أصحاب عبيد الله يسايلونه ورويسا النصارى قايلون لهم: قد قارب الموت وليس عليه ذنب في هذا الأمر على ما

وأخو المؤرخ ابن الحكم، وفيها ولد بالبصرة قاضي مصر بعد ذلك أبو بكرة ولاه عليها الخليفة المتوكل.

* شهدت هذه السنة (٥ ربيع) وفاة قاضي القضاة أبي يوسف (يعقوب بن ابراهيم) عن تسع وستين وهو أول من نشر مذهب أبي حنيفة ، تولى القضاء للمهدى والهادى والرشيد وهو مؤلف كتاب الخراج وكتاب أدب القاضي والامالى في الفقه.

* في ١٤ جماد الثانى = ٣ أغسطس ٧٩٨م صرف الرشيد اسماعيل بن صالح عن مصر وولاها اسماعيل بن عيسى العباسي. وفي الخامس من شوال = ٢٠ نوفمبر ٧٩٨م قدم إلى مصر الليث بن فضل البيوردى، واليها بدلاً من اسماعيل بن عيسى.

* ممن توفوا في هذه السنة: إمام النحو يونس بن حبيب شيخ سيبويه والكسائي كان أعجمى الأصل إستوطن ا لبصرة له كتاب النوادر وكتاب اللغات، توفى عن ثمان وثمانين.

سنة ١٨٣ هجرية

استهلت غرة المحرم بيوم الثلاثاء ١٢ فبراير ٧٩٩ م.

* تولى إمارة مصر في هذه السنة ثلاثة ولاة هم: اسماعيل بن صالح ثم اسماعيل بن عيسى فقدمها في جمادى الآخرة ثم الليث بن الفضل قدمها في رمضان وهو الذى قضى

عرفنا.عند ذلك أفرجو عنه بعد شده عظيمه لأنه قارب الموت.

ولما تنيح الأب القديس بالحقيقه الاكسندروس بشيخوخه حسنه صار حزن عظيم لحق النصارى بسبب وفاته، لأنه اقام أربعا وعشرين سنه ونصفا على الكرسي. وكان في أيام حياته قوم قديسون كتير في كورة مصر في البرارى والديارات يتعبون أنفسهم متعبدين لله وتظهر منهم عجايب وايات.

وكان إنسان قس صياد في كورة أسنا يعمل

على ثورة المصريين من أهل الحوف ودامت إمارته نحوا من خمس سنين وخرج إلى الخليفة يحمل الغنائم والاسلاب في الخامس من شوال = ١٠ نوفمبر ٧٩٩م وأستخلف على مصر هاشم ابن عبدالله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج.

* غزا ملك الخزر إمارة أرمينية وعليها سعيد بن سلم فأوقعوا بالمسلمين وأهل الذمة فوجه اليهم الرشيد خزيمة بن خازم ويزيد الشيبانى فأخرجا الخزر بعد سبعين يوماً.

* جرت محاولة ثالثة لسليمان وعبد الله عما الحكم الأموى للثورة عليه ولكنهما هزما عند إستجة ففر سليمان الى ماردة ولكن قبض عليه وأعدم ومعه زعماء الفتنة وهرب عبد الله واختفى

* تمرد أمير افريقية محمد بن مقاتل العكى فخرج عليه تمام التميمى فانهزم وتحصن بالقيروان فخف لنجدته ابراهيم بن الأغلب الذى هزم تماما ودخل القيروان وصلى بالناس وحض على الطاعة.

* خرج بمدينة نسا أبو الخطيب النسائى فأنفذ اليه الرشيد أمير خراسان على ابن عيسى.

* عاود سليمان بن عبد الرحمن الأموى الثورة على ابن أخيه الحكم أمير الأندلس ولكنه هزم للمرة الثانية عند إستجة وفر مع أصحابه إلى ماردة.

* توفى فى هذه السنة الامام موسى الكاظم عن خمس وخمسين وهو ابن الامام جعفر الصادق وسابع الأئمة عند الشيعة ، كان قد احتمله الرشيد من المدينة وأسكنه البصرة ثم

بالشباك يتمم قانون الرهبنه وبعد زمان كثير مضى وبنى ديرا فى الجبل وترهب عنده جماعه وكانو فى حيزه وضيقه. فخرج خبر ذلك الشيخ فى الكوره البرانيه وكان اسمه متيوس من أهل أسفنت، فاظهر الله على يديه عجايب كثيرا فى الاعلا [المرضى] والبرص والذين بهم الأرواح النجسة اشفاهم، والموتى أقامهم باسم سيدنا المسيح.

وبعد أيام ظهر أمر عجيب أمامه. كان إنسان

بغداد التى مات بها سجينا ، واليه تنسب خطة الكاظمية ببغداد والفرقة الواقفية من فرق الشيعة.

سنة ١٨٤ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم السبت الأول من فبرايرعام ٨٠٠ م.

* تولى فى صفر من السنة ابراهيم بن الأغلب إمارة افريقية مؤسسا بذلك دولة الأغالبة بتونس خلفاً لمحمد بن مقاتل لكراهية أهل إفريقية له، وكان ابن الأغلب على ولاية الزاب وقضى على الفتنة فبعث أهل تونس يطلبون ولايته فأقره الرشيد فكان أول ما فعل نزوله عن المعونة التى كانت ترسلها مصر إلى افريقية ومقدارها مائة ألف دينار فى السنة.

* حملت رؤوس الخوارج على الحكم الأموى إلى قرطبة وفى مقدمتهم عمه سليمان بن عبد الرحمن بعد فراره الى ماردة وطيف بها للعظة واقرار الأمن ، أما أخوه عبد الله البلنسى عم الحكم ففر إلى بلنسية ثم إ ختفى مدة حتى طلب الأمان فأمنه الحكم.

* ولى الرشيد حماد البربرى إمارة اليمن ومكة، وداود المهلبى إمارةالسند، ويحيى الحرشى بلاد الجبال (العراق العجمى) ، ومهرويه الرازى إمارة طبرستان.

* غزا أحمد بن هارون الصائفة ودخل أرض الروم فغنم وسلب.

* فيها كان شروع شارلمان فى إنشاء مملكة جرمانيا وتتوج امبراطورا فى رومه.

قبطى فى اسفنت وله ولدان وابنه واحده يحفظهم
فى بيته وكانوا أبكارا أطهارا خادمين لله فاضلهم
الشيطان التلته بصنعة مرذوله وذلك أنه دخل فى
أكبرهم فقال له: إذا كان أبوك لا يزوجك فامض
إلى اختك ثم معها فإنها تكفيك إلى زمان. وحسن
له ذلك ففعله، وكذلك حسن الاخر الصغير معها
أيضا ففعلا الاخوان باختهما ذلك الفعل القبيح
ولم يعلم الواحد بالأخر. وكانت [الأخت] لهذا
السر تلك المخالفه فحبلت سرعه، وكانا أبواها

سنة ١٨٥ هجرية

الأول من المحرم وافق يوم الأربعاء ٢٠ يناير ٨٠١م.

* بدأ ابراهيم الأغلب أمير افريقية فى بناء مدينة العباسة بجوار القيروان.

* ثار أهل طبرستان ووثبوا على أميرهم الجديد مهريه وقتلوه وكان قد ولاه الرشيد قبل شهور فخلفه ابن سعيد الحرشي، كما لم تنقطع القلاقل فى المشرق فعاث حمزة الخارجى بباذغيش من نواحى خراسان فأوقع بأصحابه عيسى بن على حتى بلغ كابل وقندهار، وعاد ابو الخصيب إلى الثورة.

* تولى قضاء مصر عبد الرحمن بن عبد الله العمرى واستمر فى منصبه عشر سنين وهو أول من عمل صندوقا فى بيت المال جعل فيه أموال اليتامى ومال من لا وارث له.

* إستولى الأسبان على مدينة برشلونة منتهزين فرصة حروب الحكم الأموى مع الثائرين عليه وبخاصة عمه عبد الله البلنسى بعد مقتل عمه سليمان فى السنة السابقة.

سنة ١٨٦ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الاثنين ١٠ يناير ٨٠٢م.

* ولى الرشيد ابنه الأمين إمارة العراق والشام إلى آخر المغرب، وبايع لابنه القاسم بولاية العهد بعد أخويه الأمين والمأمون ولقبه المؤتمن وضم اليه الجزيرة.

يحفظاها لأجل الفضيحه ولم يعلما ما كان، فأقامت عدة شهور ولم تلد فحملاها على دابه ومضيا بها إلى القديس متيوس، فلما قربو من الجبل خرج الشيخ هاربا ينتف شعر لحيته حتى لقيهم تحت الجبل فعرفه أبواها خبرها وارادا أن يدفعا له هدايا لكى يصلى عليها لتلد، فتقدم لهم أن ينزلوها برفق من على الدابه فنزلت وهى باوجاع عظيمه، فقال لها عرفينى ما فعلت يا مرذوله، فعرفته بما قد ذكرنا وأكثر منه. فرفع يديه

---

* أجهز القائد على بن عيسى بن ماهان على ثورة أبى الخطيب.

* ظهر عبد الله البلنسى عم الحكم الأموى بالأندلس بعد هزيمته ومقتل أخيه سليمان وطلب العفو والأمان من ابن أخيه فأصدر الحكم له أماناً على أن يبقى فى بلنسية وتجرى عليه أرزاقه وزوج ابنه عبيد الله من إحدى أخوات الحكم فطويت بذلك ثورة إمتدت أعواماً.

* فيها تجمهرت تظاهرات عدة من أهل مصر عند القضاة وعند مقر الوالى الليث بن الفضل لعدم سماعة تظلماتهم من المساحين الذين استخدموا فى القياس قصبة اقل من القصبة الحقيقية ليزيدوا من مساحة الحيازات و بالتالى زيادة جباياتها. وساروا إلى الفسطاط فهجم عليهم الليث فى شعبان ومعه ٤٠٠٠ جندى واعمل فيهم القتل فتجمع اعداد كبيرة من المصريين فى ١٢ رمضان = ١٥ سبتمبر ٨٠٢م وهاجموا جنود الليث بالعصى وما طالته ايديهم ففروا منهزمين، فأعد لهم الليث اعداد اكبر من الجند وطاردهم فعادوا إلى بلادهم وأرضيهم، ولكن الليث لم يستطع جمع الخراج.

* ولد فى هذه السنة إمام اللغة والأدب ابن السكيت (يعقوب بن اسحق) ومؤلف كتاب إصلاح المنطق ومؤدب أبناء الخليفة المتوكل.

* ممن توفوا فى هذه السنة، شاعر الغزل والمجون سلم الخاسر مات ببغداد لقبه الخاسر لأنه باع مصحفا واشترى بثمنه طنبوراً، وفيها توفى فى قول المؤرخ عمر ابن مطرف وكان على ديوان المشرق له منازل العرب وحدودها، وفيها مقتل الثائر أبى الخصيب (وهيب النسائى) كان قد خرج واستولى على وطوس ونيسابور حتى غلب عليه على بن عيسى قائد الرشيد.

إلى السما وصلى ففتحت الأرض فيها [فمها] وبلعتها. وحضر ذلك جماعه وشاهدوه وشهد لنا من كان حاضرا وهو صادق امين من أولاد البيعه ان ذلك المكان صار مثل بير مظلمه تنتهى إلى العمق، وأقام ستة شهور والنار تطلع منه إلى الجو وريحه نتن عظيم تصعد منه حتى لا يقدر أحد يقربه وهو بعيد من الدير خمسا وعشرين غلوه. وكذلك دير القديس أبا شنوده فى جبل «أدريبا»، [انتم تعلمون أن كثيرا من القديسين تثبتوا فيه

سنة ١٨٧ هجرية

استهلت السنة بيوم الجمعة ٣٠ ديسمبر ٨٠٢ م.

* عاصر هذا التاريخ نكبة البرامكة التى أوقع فيها الرشيد برؤوس هذا البيت بعد أن كانوا عماد دولته ودولة أبيه وأخيه وكانوا أقرب مستشاريه اليه، وتعددت الأقوال فى سببها وجلها دوافع سياسية إبان حكم ملكية مطلقة، فأمر الرشيد بحبس يحيى بن خالد بالرقة وقتل ابنه ووزيره جعفر بن يحيى وله من العمر سبع وثلاثون وهو الذى كان يدعوه الرشيد اخى، بينما ألقى بأبناء يحيى الآخرين الفضل وموسى ومحمد فى السجن واستصفى أموالهم.

* غزا الصائفة القاسم بن الرشيد ودخل أرض الروم وعليها الامبراطورة إيرينى وهاجم حصوناً لها فبعثت اليه ثلاثمائة وعشرين أسيراً من المسلمين على أن يرحل عنهم فأجابها ورحل عنها صلحاً.

* فى المحرم سار الليث إلى الخليفة هارون الرشيد وطلب منه الجيوش لردع ثورات المصريين، ولكن الرشيد عزله عن ولاية مصر، وولاها لأحمد بن اسماعيل بن صالح.

* تجددت الفتنة بين المضرية واليمانية بالشام.

* فيها نقم الرشيد على عبد الملك بن صالح وهو فى منزلة أخى جده متهماً إياه بالطمع فى الخلافة وشى به ابنه عبد الرحمن وخادمه قمامة مما أثار خوف الرشيد فأودعه السجن.

* استولى الأسبان على مدينة تطيلة ثم إستعادها عمروس بن يوسف.

وخاصة الطوبانى الارشيمدريدس أبا سيث لأنه
كان إنسانا على طريق حسنه فى حياته، وبعد
ذهابه إلى الرب نظرنا قبره بعينينا قد بنى عليه
بنعمه من كثرة العجايب والشفا والبرو[ء] التى
تظهر من جسده المقدس إلى الآن ما لا يحصى من
كثرته لأنه تكون منه عجايب فى كل يوم].

وفى برية «وادى هبيب» أيضا كانو قوم قديسون
ينظرون رويا [رؤيا] وجليات [تجليات] وأطلعهم الله

---

* بويع بجامع مدينة وليلى بالمغرب إدريس بن إدريس ثانى ملوك الأدارسة وله من العمر احدى عشرة سنة.

* توفى فى هذه السنة وزير المهدى يعقوب بن داود انتكس أمره بسبب ميوله العلوية فعزله الهادى وحبسه فى المطبق حتى أخرجه الرشيد فسار إلى مكة ومات

سنة ١٨٨ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم ٢٠ ديسمبر ٨٠٣م.

* حج الرشيد فى هذه السنة وهى آخر حجة حجها.

* غزا الصائفة ابراهيم بن جبرائيل وأوغل فى أرض الروم بالأنضول فخرج اليه إمبراطور الروم الجديد نقفور (نكيفوروس الأول) الذى كان وزير الامبراطورة إيرينى ثم خرج عليها وتولى العرش.

* ولد فى هذه السنة الشاعر أبو تمام (حبيب بن أوس) باحدى قرى حوران السورية ومنها استقدمه الخليفة المعتصم إلى بغداد وهو صاحب ديوان الحماسة المشهور المتداول.

* فيها ولد الصوفى الزاهد أبو يزيد البسطامى نسبة إلى موطنه بسطام من أرض فارس.

على ما فى العالم يشاهدونه كأنهم حاضرون فى جميعه، فمنهم من كان يظهر له السيد المسيح والحواريون المقدسون فيقيمونهم فى ضيقهم وعبادتهم، ومنهم من كانت الملايكه يظهرون لهم.

وكان منهم شيخ فى دير «ابى مقار» اسمه «يوأنس» [يونس] من أهل «شبرا ميسنا» التى هى «ارواط» قبضوه البربر تلت دفعات وأسروه وجعلوه عبدا وضيقو عليه وانزلو به بلايا، فنظر الرب إلى

دير السريان بوادى هبيب

سنة ١٨٩ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الأحد ٨ ديسمبر ٨٠٤ م.

* دبرت فى قرطبة مؤامرة عرفت بثورة الفقهاء على حكم الحكم الأموى إذ اتهموه فوق المنابر بخروجه على أحكام الشريعة وانضم اليهم المعارضون له من أعيان قرطبة واكتشفت المؤامرة قبل تنفيذها فاحتواها الحكم وراح ضحيتها ٧٢ من الفقهاء وأعيان قرطبة منهم عماه مسلمة وأمية، وتجددت الثورة بعد شهور من العام نفسه فى ضاحية (أوربض) قرطبة فقضى عليها فمن ثم عرف الحكم بالحكم الربضى.

* سار الرشيد إلى الرى وبصحبته إبناه المأمون والقاسم واستخلف على بغداد ولى عهده الأمين بسبب شكوى أهل خراسان من أميرهم على بن عيسى بن ماهان واستخفافه بهم ثم لم يلبث أن عاد الرشيد إلى بغداد بعد أن رأى بنفسه خلاف ذلك، وفيها أعلن ملك الديلم الطاعة وأداء الخراج.

* فى شوال من السنة لما فشل احمد بن اسماعيل والى مصر فى جمع الاموال، قدم إلى مصر الوالى الجديد أبو محمد عبد الله بن محمد العباسى المعروف بابن زينب.

* جرى فى هذه السنة الفداء بين المسلمين والروم فلم يبق بأرض بيزنطة مسلم إلا فودى.

صبره كل دفعه فاعاده إلى ديره المقدس. بعد ذلك صار اغومنسا لأنه كان كاهنا وهذا كان قانونا ببرية «وادى هبيب» أى قس انتهى إليه الطقس قدموه أغومنسا، فلم يتناول السراير المقدسة حتى نظر السيد المخلص فى المنام والسيده العدرا وأسرار عظيمه ظهرت له، وكان معه قديسون من هذه البريه لا يجب إظهار أمرهم، وكان له تلميذ اسمه «ايمخس» من «ارواط» واستحق طقس القمصيه بعده، وكان بقلبه مثله فى كل أفعاله وعليه نعمه

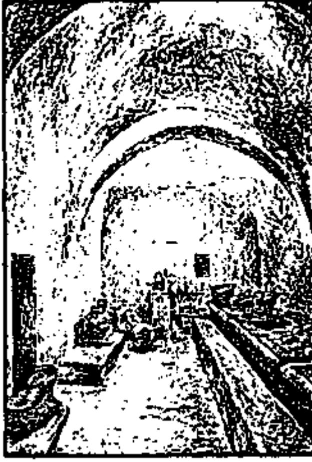
دير الانبا بشوى من الداخل
بوادى هيب

---

* شغب أهل طرابلس الغرب على أميرهم ابراهيم الأغلبى ثم استتب امره صلحاً قبل نهاية السنة.

* شهدت مدينة الرى فى السنة وفاة اثنين من الأعلام هما: إمام اللغة والنحو أبو الحسن الكسائى (على بن حمزة) عن سبعين سنة وكان مؤدب الرشيد ثم الأمين ومؤلف كتاب معانى القرآن، وفيها توفى الامام الشيبانى (محمد بن الحسن) عن ثمان وخمسين ناشر مذهب ابى حنيفة ومؤلف كتاب المبسوط فى الفقه.

* اغتيل بتونس راشد مولى إدريس الأول مؤسس دولة الأدارسة بافريقية وهو الذى كان داعيته بين البربر ثم أصبح وصياً على ابنه ادريس بن إدريس.

سنة ١٩٠ هجرية

استهلت السنة بيوم الخميس ٢٧ نوفمبر ٨٠٥ م.

* فتح الرشيد مدينة هرقلة (شوال من العام) رداً على تهديد نقفور إمبراطور بيزنطة وكان فى مائة ألف فارس عدا المتطوعة فأخرب المدينة وسبى أهلها بعد حصار ثلاثين يوماً، فالتزم الامبراطور بدفع الخراج والجزية، وفيها افتتح شراحبيل بن معن الشيبانى حصن الصقالبة بالمغرب.

عظيمة مثل «موسى» النبى فى زمانه، وكان يشفى المرضى ويبرى كل عله، وصار عمره أكثر من ماية سنه وحلت عليه نعمة الروح القدس، وأطلع على أمور جليله حتى صار يعلم الغيب من قبل أن يسايله أحد، وكان له إخوان روحانيان أحدهما «أبا جرجه» والأخر «أبا إبرهام» وكانا قديسين بقلب حسن وأفعال عظيمه، وشهدو من أجلهما ثقات أنهما سارا بسيرة الكبير «انطونيوس» وتمماها وكان الشعب فى ذلك الزمان متعبدين لله باجتهاد.

---

* فى هذه السنة أسلم الفضل بن سهل على يد ولى العهد المأمون وكان الفضل مجوسياً، وهو الذى تولى وزارة المأمون بعد توليه الخلافة وتلقب بذى الرياستين.

* أعلن رافع بن الليث العصيان فى سمر قند وخلع طاعة الرشيد ورافع هو حفيد نصر بن سيار آخر الولاة الأموين بالمشرق، كما نقض أهل قبرص العهد فغزاهم ابن يحيى فقتل وسبى.

* لما فشل أبو محمد عبدالله بن محمد العباسى فى زيادة جمع الاموال من المصريين عزله هارون الرشيد وتولى الحسين بن جميل إمارة مصر فأقام بها عشرين شهراً ثم صرفه الرشيد.

* غزا معيوف بن يحيى جزيرة قبرص بعد أن نقضت العهد فعادت إلى الطاعة.

* ولد الأمير العباسى موسى ابن الأمين ولى العهد والملقب الناطق بالحق وهو الذى حول الأمين ولاية العهد إليه بعد توليه الخلافة بدلاً من أخيه المأمون مما كان سبباً فى الفتنة بين الاخوين.

* توفى فى سجنه بالرقة عن سبعين سنة يحيى بن خالد البرمكى وكان قد نكبه الرشيد عام ١٨٧ وأعدم إبنه جعفر وسجن أبناءه الآخرين.

سنة ١٩١ هجرية

الأول من المحرم وافق يوم الثلاثاء ١٧ نوفمبر ٨٠٦ م.

* جمع الرشيد الصلاة والخراج للحسين بن جميل أمير مصر فتشدد فى جباية الخراج مما

وكانا يشاهدان فى البيعة بنى المعمودية كأنهم خراف بيض صغيرهم وكبيرهم، وإذا بواحد من الشعب قد كسل ورجع عن حسن العباده، فشاهداه هذان الشيخان وقد عاد لونه أسود فى وسط الأخوه وإذا ما سرحو الكهنه الأخوه مضيا إلى قلايه ذلك الأخ فقالا له: تب عن كسلك ووعظاه وعزياه، فإذا كان بالغداه وحضر إلى البيعه فينظرانه قد أبيض أكثر من جميع الاخوه، فمجدو الله على رأفته على جنس البشر.

أثار المصريين من أهل الحوف وامتنعوا كما خرج بأيلة أبو الفداء وراح يقطع الطريق ولم يلبث الحسين أن ظفر به، وارسل له الخليفة هارون الرشيد جيش كبير من الترك والمرتزقة بقيادة يحى بن معاذ أمير عسكر الخليفة لمحاربة المصريين وجمع الخراج فتم له ذلك بعد مذابح هائلة، وأذعن أهل الحوف بالطاعة وأدوا الخراج زائداً.

* شهدت هذه السنة آخر الصوائف فى القرن الثانى ففيها تولى حرب الصائفة قائد الرشيد هرثمة بن أعين بعد أن هزم وقتل يزيد بن المخلد، وتولى مسرور الخادم شئون نفقات الجيش فأوقع هزيمة بالروم وكانت هذه آخر الصوائف لسنوات عديدة.

* قضى الحكم الأموى أمير الأندلس على ثورة أهل طليطلة مستخدما الحيلة على يد عمروس بن يوسف وابنه عبد الرحمن كما قضى فى العام نفسه على ثورة ماردة التى تزعمها اصبغ بن عبد الله فطلب الأمان فأمنه الحكم.

* عزل على بن عيسى بن ماهان عن إمارة خراسان وضمت إلى القائد المظفر هرثمة.

* نزل الرشيد بالرقة وأمر بهدم الكنائس التى بالثغور.

* قتل غازياً ببلاد الروم يزيد بن مخلد المهلبى فانتقم له هرثمة، وفيها توفى غريقا إمام عمان الوارث الخروصى الذى رد قوات الرشيد إثنى عشر عاماً.

هكذا أن أردت أن أذكر أفعال القديسين فما يسعنى الزمان ولا تحصيها الأقلام ولا تسعها القراطيس، والمجد لله دايما أبدا أمين.

قسما [قزمان] البطرك

وهو من عدد الابا[ء] الرابع والأربعون

[٧٣٠ / ٧٣١م]

ثم لما تنيح الأب الاكسندروس قدمو عوضه رجلا اسمه «قسما»، وكان راهبا قديسا من برية

---

* ممن توفوا من رجال العلم: فقيه مصر عبد الرحمن بن القاسم العتقى صاحب الامام مالك عن تسع وخمسين.

سنة ١٩٢ هجرية

وافق هلال المحرم يوم السبت ٦ نوفمبر ٨٠٧ م.

*تفاقم أمر رافع بن الليث فى خراسان بعد أن وثب على عامل سمرقند وقتل عيسى ابن أميرها على بن على بن ماهان فأنفذ إليه الرشيد هرثمة ثم سار الرشيد بنفسه فى الخامس من شعبان لقتال رافع.

* تحركت طائفة الخرمية بأذربيجان فوجه اليهم الرشيد عبد الله بن مالك فقضى على الفتنة.

* انتهز الامبراطور شرلمان أحداث الأندلس الداخلية فأغزى ابنه لويس إقليم الشمال وحاصر مدينة طرطوشة فأنفذ اليه الحكم أمير الأندلس ابنه عبد الرحمن على رأس جيش رد الغزاة إلى بلادهم.

* فيها جرى الفداء الأخير بين الروم والمسلمين وكان عدد الأسرى من المسلمين ألفين وخمسمائة أسير.

أبى مقار وكان من أهل «بنا» فاجلسوه بغير اختياره فلم يدع السؤال للسيد المسيح ليلا ونهارا أن يقبله إليه، فلما كان تمام خمسة عشر شهرا تنيح بمجد وكرامه في أخر يوم من بؤونه.

وكان بظاهر «مريوط» دير يعرف «بطمنورة» وكان فيه راهب شيخ قديس روحانى وشاب أخر راهب وكانا يعذبان أجسادهما بالحديد والسلاسل وكان ريسهم اسمه «يحنس» أعطى نعمه ونبوه

---

* أعاد هرثمة بن أعين بناء مدينة طرسوس بعد أن خربها الروم وبنى مسجدها وعمرها بآلاف الاتراك جاء بهم من أهل خراسان والمصيصة وأنطاكية.

* فى أقصى المغرب بنى إدريس الثانى مدينة فاس وجعلها عاصمة لدولته.

* عزل هارون الرشيد الحسين بن جميل عن مصر وولى مكانه مالك بن دلهم.

* توفى في هذه السنة الفضل بن يحيى البرمكى فى حبس الرشيد عن خمس وأربعين سنة بعد عامين من وفاة أبيه فى سجنه وهو الذى أرضعته الخيزران أم الرشيد كما أرضعت أم الفضل الرشيد أياما.

* قتل باليمن الثائر الهيصم الهمدانى.

سنة ١٩٣ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأربعاء ٢٥ أكتوبر ٨٠٨م.

* شهدت هذه السنة وفاة الخليفة الرشيد وتولية الخليفة الأمين.

* دخل الرشيد جرجان فى طريقه إلى خراسان لقتال رافع بن الليث بالرغم من مرضه وبرفقته ابنه صالح ووزيره الفضل والطبيب جبرئيل بن بختيشوع فاشتدت عليه العلة بالقرب

ورأى عجايب دفعات كثيره، وكان له تلميذ يخدمه أسمه تاودورروس [تادرس] وكان حاسدا لأفعاله، وهو سالك في طريقه وأعماله كلها بمحبه روحانيه، وكان قد زاد على كلمن في الدير بأفعاله وعلى الدياقنيه ومايدة [مائدة] الأخوه وعلى كل أسباب الدير وخدمته طالبا الاتضاع في كل حسن، وكان متبعا قول المسيح لتلاميذه: من أراد أن يكون منكم كبيرا فيلكن لكم خادما. وكان فعله هكذا إلى شيخوخته كما قال لنا من فيه

من طوس ولم يلبث أن توفي في الثالث من جمادى الآخرة فصلى عليه ابنه صالح ودفن بمدينة طوس التي يقوم بها حتى اليوم ضريح باسم الهارونية، وتوفي الرشيد عن سبع وأربعين سنة حكم منها أربعاً وعشرين.

* بويع محمد الأمين بالخلافة وكان قائم مقام أبيه ببغداد فلما وصل الخبر بغداد بايعه الخاصة والعامة وله من العمر ثلاث وعشرون، أما أخوه المأمون فكان بمدينة مرو عاصمة خراسان.

* تولى إمارة مصر الحسن بن البحباح الذى شهد أول خلافة الأمين بعد أن عزل مالك ابن دلهم، ثم تولاها حاتم ابن القائد هرثمة بن أعين فقابله أهل الحوف الشرقى بالصياح ومنعوه من دخول مصر فترة طويلة حتى تحايل متخفيا ودخلها.

* عاد جيش شرلمان بقيادة ابنه لويس لغزو شمال الأندلس وحصار طرطوشة للمره الثانية بعد عام واحد وانتهت الوقائع بانسحاب الأفرنج ثانية.

* صارت البندقية إمارة مستقلة.

* استمرت الحرب خلال هذه السنة بين هرثمة بن أعين والثائر رافع ابن الليث وحلفائه الترك حول سمرقند.

المقدس عند استحقاقه البطركيه. وكان يعلمنا ويحثنا على التواضع فى كل حين، ولما كان فى حياة الاكسندروس أبوه الروحانى قال له بنبوه: يا ولدى تاودوروس آمن اننى لا أكذب. فقال له: نعم يا أبى اننى ما سمعت باسم الكذب من فيك قط. قال له الأب، وفى نسخة أخرى قال له الشيخ: يا مؤمن بالله أن فى السنة التى يتنيح فيها الاكسندروس أنا بمسكنتى اتنيح معه وانت تجلس

---

* عند وفاة الرشيد فى هذه السنة كان أمراء الولايات: وهب بن منبه على المدينة، وأحمد بن اسماعيل على مكة، وجعفر بن المنصور على الكوفة، واسحق بن عيسى على البصرة، وهرثمة على خراسان، ويحيى بن معاذ على دمشق، ثابت بن نصر على حلب، ومحمد بن الفضل على الموصل، وداود ابن يزيد المهلبى على السند.

سنة ١٩٤ هجرية

استهلت السنة بيوم الأثنين ١٥ أكتوبر ٨٠٩م.

* بدأت بوادر النزاع بين الخليفة الأمين وأخيه وولى عهده المأمون عندما طلب الأمين من أخيه أن يقدم ولده موسى على نفسه مخالفاً بذلك وصيه أبيهما الرشيد وذلك بايعاذ من وزيره الفضل بن الربيع، وفى ربيع الأول من السنة بايع الأمين لابنه ولقبه الناطق بالحق وأمر بالدعاء له على المنابر واستدعى أخاه القاسم إلى بغداد وأمره بالمقام عنده واستعاد كتابى أبيه من الكعبة ومزقهما، ورد المأمون على ذلك وهو بالرى بقطع البريد وإسقاط إسم أخيه من الخطبه.

* تولى وزارة الأمين الفضل بن الربيع وزير أبيه وولى الأمين على بن عيسى ابن ماهان إمارة الجبال وفارس وقتال أخيه المأمون الذى اختار لقيادة جنده طاهر ابن الحسين.

على كرسي الأب الجليل «مارى مرقس» وليس بعد الأب «الاكسندروس» لكن بعد الذى يأتى بعده. فتم كلام الشيخ الارتدكسى الارشيمنطريدس. وكان شعب اسكندرية الكهنه والاراخنه مهتمين فى من يقدمونه عوضا من «أبا قسما» حتى اظهر الرب فى قلوبهم ذكر الأب الراهب القديس تاودوروس فمضو إلى الدير وأخذوه واحضرو إلى اسكندريه.

---

* نشبت الثورة بتونس وتزعمها على إبراهيم الأغلبى عمران بن مجاهد وقريش ابن التونسى ودخل عمران القيروان وبعد سلسلة من الهزائم أوقع بهما ابن الأغلب، وفى حمص صار أهلها على أميرها اسحق بن سليمان فولى عليهم الأمين عبد الله ابن سعيد الحرشى.

* سار الحكم الأموى بالأندلس بنفسه لغزو إمارة جليقية الأسبانية وتوغل فيها فيما يلى وادى الحجارة وأوقع الهزيمة بأصحابها فبذلك زجرهم عن الاغارة على الأندلس.

سنة ١٩٥ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الجمعة ٤ أكتوبر ٨١٠ م.

* نادى الخليفة الأمين بخلع المأمون من ولاية عهده فرد المأمون بأن تسمى بإمام المؤمنين وهو بخراسان، وفى جمادى الاخرة خرج قائد الأمين على بن عيسى لقتال المأمون ومعه قيد من فضة ليقيد به المأمون.

* انتهز الأمويون بالشام الخلاف بين الأمين والمأمون فخرج على السفيانى حفيد يزيد بن معاوية واستولى على دمشق وهو بعد شيخ فى التسعين من العمر.

* تولى إمارة مصر من قبل الأمين جابر بن الأشعث ولم تدم ولايته سوى عام، وأخرجه المصريون وذلك بعد عزل حاتم بن هرثمة.

تاودوروس البطرك
وهو من العدد الخامس والأربعون
[٧٣١/٧٤٣م]

واجتمع جماعه من الأساقفه القديسين واوسمو الأب القديس تاودوروس بطركا بأمر السيد المسيح. وكانت أمور الأبسقوبيه والبيعه الارتدكسيهناميه مستقيمه كل يوم من أيامه حتى عادت إلى ما كانت عليه أولا وأكثر، إلى أن صارت كأنها لم

---

* وقع أول لقاء بين جيش الأمين وعليه إبن ماهان وطاهر بن الحسين قائد المأمون بالقرب من الرى وفيه هزم إبن ماهان وقتل وطيف برأسه في خراسان فعظمت بذلك دعوة المأمون ولقب المأمون طاهراً بذى اليمينين.

* أنتهت ثورة رافع بن الليث الذى كان قد خرج فى طلبه الرشيد بعد أن استولى على سمرقند وقتل فى حصارها على يد هرثمة بن أعين.

* انفد الأمين جيشاً ثانياً بقيادة عبد الرحمن بن جبلة الانبارى ولكنه فشل في قتال طاهر ولقى حتفه عند أسد أباد، فانفذ الأمين جيشاً ثالثا بقيادة أحمد ابن مزيد الذى لم يلبث أن ارتد عن حلوان، وفيها انتقلت قيادة جيش المأمون إلى هرثمة وانتقل طاهر إلى الاهواز بجنوب العراق.

* غزا الأمير عبد الله البلنسى عم الحكم الأموى بالأندلس أرض قطلونية الأسبانية وهاجم برشلونة وانتهت هذه الوقائع بعقد الصلح بين الحكم وشرلمان.

* حصلت معاهدة صلح بين فرنسا والدانيمرك بعد أن استمرت الحروب بينهما فترة طويلة.

تنهب اولا، وكان رجلا صالحا وديعا محبا لكل أحد حسن الصورة مثل ملاك الله، لم يكن فى زمانه شي من الشرور.

وكان عبيدالله الملك بمصر ينزل عذابا وبلايا وخسارات على أهل مصر، وأضاف على كل دينار من الخراج تمن دينار. وكان يحدث أمورا على الناس حتى أن الدينار قل وعز.

ولما تمادى على ذلك لم يصبر الله عليه لكن أثار عليه قوما من مقدمى المسلمين مضو إلى هشام

سنة ١٩٦ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الثلاثاء ٢٢ سبتمبر ٨١١م

* تعاقبت الجيوش لحرب هرثمة قائد المأمون ولكنها فشلت، بينما تقدم قائده طاهر بن الحسين إلى جنوب العراق واستولى على واسط والمدائن.

* عقد المأمون لوزيره الفضل بن سهل على المشرق كله وخطب فيها للمأمون بأمير المؤمنين.

* تقلبت حال الأمين فى بغداد فأنقلب قائده الحسين بن على بن عيسى ابن ماهان عليه ونادى بخلع الأمين وبايع أهل بغداد للمأمون ثم اعيدت البيعة للأمين، بينما تمت البيعة للمأمون بمكة على يد داود بن موسى.

* تولى إمارة مصر من قبل المأمون عباد بن محمد من نواب هرثمة خلفا لجابر ابن الأشعث الذى توفى فى سنته فعمل عباد على جمع الكلمة للمأمون.

* توفى فى هذه السنة إبراهيم بن الأغلب ثانى الأغالبة أصحاب تونس عن ست وخمسين وكان فى أول أمره عاملا على الزاب وهو بانى مدينة العباسة بجوار القيروان.

* ممن توفى فى هذه السنة: الأمير العباسى عبد الملك بن صالح إبن عم الخليفة المنصور وأمير مصر والمدينة والشام فترة وقائد الصوائف كان قد حبسه الرشيد متهماً إياه بطلب

الملك وعرفوه الشرور التى يفعلها وما أحدثه من البلا فى مصر، فامتلا عليه غيظا وكتب للوقت يعزله وانفذ أميرا وجماعة معه بغضب عظيم وأمر أن ينفى وولده الأصغر إسماعيل معه إلى بلاد البربر من أعمال أفريقيه، وينفى منها إلى مغرب الشمس ويعذب لأنه ما يفعل ما أمره به، ففعل به ذلك سرعه. وجعل ولده الأكبر القاسم بمصر واليا وولاه امورها عوضا من أبيه، ونفى المذكور إلى [بلاد] البربر. ولما أقام هناك يسيرا ملك على البربر

الخلافة وتوفى بمصر عن سبع وثمانين القارئ عثمان بن سعيد الذى اشتهر بلقبه ورش وعرفت به مدرسة فى علم القراءات.

* وافقت هذه السنة مقتل الامبراطور البيزنطى نقفور (نيكيفوروس الأول) وتولية ابنه استبراق (استوراكوس) الذى حكم شهرين وخلفه ميشيل الأول (ميخايل)

سنة ١٩٧ هجرية

استهل المحرم بيوم الأحد ١٢ سبتمبر ٨١٢م.

* فى صفر من السنة حمل عباد البلخى أمير مصر من قبل المأمون إلى بغداد بعد هزيمته على يد أهل الحوف فأمر الأمين به فقتل.

* إمتد القتال بين المأمون والأمين إلى بغداد والأمين مازال بها، حاصرتها قوات هرثمة بن اعين قادمة من الشرق بعد مقتل عبد الرحمن بن جبلة وانسحاب الحسين بن على بن عيسى، وقوات طاهر بن الحسين قادمة من الجنوب بعد الاستيلاء على واسط ثم وافت قوات زهير بن المسيب ونصبوا المجانيق وحفروا الخنادق واشعلوا النار فى الأطراف وضعف أمر الأمين حتى استخدم أهل السجون والغوغاء، وانتقل القتال إلى قلب المدينة وأخذ أمر الأمين فى الأدبار بالرغم من الأموال التى كان يفرقها على العسكر.

بأفريقيه، وكان ولده إسماعيل هناك إلى أن ينفى إلى حيث أمر الملك، وكتب إلى هشام يستعطفه ويتوب إليه مما كان منه ويسيله [يسأله] أن يوليه تلك البلاد، فولى [فولاه] على البربر بأفريقيه وكانت أفعاله أيضا رديه، فأخذ بنات الناس الملاح وبنات المقدمين والأمرا فانفذهن إلى هشام الملك سرارى ويكتب إليه انهن جوار اشتراهن له سرارى، وكذلك النعاج إذا قربت ولادتها يشق بطونها ويخرج منها الخراف بعد أن يصوفون فيأخذ

---

* طلب الأمين الأمان لنفسه من هرثمة إلا أن طاهر بن الحسين أصر على أن يكون خروج الأمين إليه.

* لحق قاسم المؤتمن بأخيه المأمون بخراسان فولاه جرجان كما سار إليه منصور ابن الخليفة المهدى.

* تولى إمارة مصر المطلب بن عبد الله.

* وقيل توفى فى هذه السنة (لا فى السابقة) المقرئ عثمان بن سعيد الملقب ورشا.

سنة ١٩٨ هجرية

الأول من المحرم وافق يوم الخميس الأول من ديسمبر ٨١٣م.

* شهدت هذه السنة مصرع الخليفة الأمين العباسى فى ٢٥ من المحرم، حين خرج إلى هرثمة فى جرافة على دجلة فأغرقها طاهر بن الحسين وأخذ الخليفة وقتل بأمر طاهر فكانت مدة خلافته أربع سنوات إلا شهوراً وله من العمر ثمان وعشرون سنة ليس إلا بينما أخوه المأمون أسن منه بشهر واحد.

* دخل طاهر بن الحسين قائد المأمون مدينة بغداد بعد مقتل الأمين وأمن أهلها وصلى الجمعة بالناس وخطبهم وحثهم على طاعة المأمون، ولكن فى اليوم الخامس وثب الجند به

جلودهم يعمل منها فرا[ء] وينفذها إلى هشام ويقول له انه ابتاعها له، حتى افنى نعاجا كثيرا من تلك البلاد. فتشاورو عليه البربر أن يقتلو ولده إسماعيل وأهل بيته، فأخذوه ونساه وأولاده وسراريه وكلما ينطوى إليه وقتلوهم جميعهم قدامه وهو ينظرهم، ويشقون بطون النسا ونزعوا الأولاد منها وطرحوهم قدامه. ثم جابوه إلى أفريقيه وهو مربوط إلى أبيه وقتلوه قدامه وهو ينظره بعد أن شقوا بطنه أولا وضربو به رأس أبيه ووجهه، ثم

مطالبين بارزاقهم ولم يكن معه شئ فاضطر للهرب إلى عقرقوف ناحية من نواحى نهر عيسى بينها وبين بغداد أربعة فراسخ، ثم لم يلبث طاهر أن عاد إلى بغداد.

* ثار نصر بن سيار على المأمون بحلب فأنفذ إليه قائده طاهر بن الحسين بعد أن ولاه الموصل والجزيرة والشام والمغرب ولكنه لم يحرز نصراً.

* تولى إمارة مصر العباس بنى موسى العباسى من قبل المأمون فبعث بابنه عبد الله نائباً له وذلك بعد أن عزل المطلب بن عبدالله وسجنه.

* دخل في هذه السنة ٢٨ شوال الامام الشافعى إلى مصر قادماً من العراق وهى رحلته الثانية إلى مصر التى عاش بها هذه المرة لحين وفاته بعد أن تحول عن مذهبه القديم.

* ممن توفى فى هذه السنة أبو الحسن السفيانى من أحفاد بنى أمية عن ثلاث وتسعين وكان قد دعا لنفسه واستولى قبيل وفاته على دمشق وبويع بالخلافة وتسمى المهتدى بالله حتى استعاد المأمون دمشق.

* ثارت اهل قرطبه بالاندلس على الحكم بن هشام الاموى وحاربوه لجوره واستبداده وفسقه.

*وافق هذا التاريخ تولية الامبراطور البيزنطى ليو الخامس الأرمنى وكان من قواد الامبراطور نقفور (نيكيفوراس) ثم ميشيل الأول (ميخايل) وبعد عزل هذا الأخير خلفه على عرش

أخرجو أباه من ديارهم وهم وراه يشتمونه وهو حزين باك.

وكان أبونا تاودوروس قد عاش ورأى جميع ذلك. ثم افتقده الرب ومضى إليه بشيخوخة حسنة. وبنعمة السيد المسيح كانت البيعة تنمو بغير مقاوم لها ولا شقاق فيها في جميع أيامه. وأقام على الكرسي الرسولي أحدى عشرة سنه ونصف وتنيح في سابع يوم من أمشير. وخلى الكرسي بعده سنه واحده وشهورا، صلاته تكون معنا آمين.

بيزنطة، وقد ذكرت المصادر العربية خطأ أن توليته جرت في عام ١٩٤ هـ بقولهم «وفيها وثب الروم على ملكهم ميخائيل فهرب وترهب وكان ملك سنين فملكوا عليهم ليون القائد».

سنة ١٩٩ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الثلاثاء ٢٢ أغسطس ٨١٤م.

* قدم وزير المأمون الحسن بن سهل مدينة بغداد بعد أن خرج منها طاهر ابن الحسين إلى الرقة وفرق الحسن عماله في البلاد.

* خرج على المأمون ابن طباطبا العلوى (محمد بن ابراهيم) الذى دخل الكوفة قادماً من المدينة بتأييد من أبي السرايا الشيباني الذى إستولى على الكوفة وهزم جيشين للوزير الحسن بن سهل، وبعد وفاة ابن طباطا الفجائية أقام أبو السريا خلفاً له وهو محمد بن محمد حفيد الامام زيد.

* إستعان الوزير الحسن بن سهل بهرثمة بن اعين الذى عاد إلى بغداد لقتال أبي السرايا.

* تولى إمرة مصر المطلب بن عبد الله للمرة الثانية بعد أن ثار أهلها على العباس بن موسى وانتهت الحروب بمقتل العباس قيل مات مسموماً.

أنبا خايل [الأول] البطرك

وهو من العدد السادس والأربعون

[٧٤٤/٧٦٨م]

كما قال الكتاب فى المزمور ٧٨ الذى سمعنا ورأينا وأخبرونا أباونا وكما أخبر موسى النبى فانه كتب ما كان فى الأرض من آدم الأول إلى زمانه ثم بعده الأنبيا الذين تنبوا بما يكون، ثم بعدهم

---

* توفى فى هذه السنة (أول رجب) الثائر العلوى ابن طباطبا بالكوفة وهو ابن ست وعشرين قيل ان أبا السرايا قد دس له السم.

سنة ٢٠٠ هجرية

استهلت السنة الأخيرة من القرن الثانى بيوم السبت ١١ أغسطس ٨١٥م.

* سير الحكم الأموى صاحب الأندلس آخر غزوة له وعلى رأسها قائده عبد الكريم بن مغيث الذى كبس الجلالقة وحلفاءهم البشكنس ووقع فى أسره جماعة من أمرائهم.

* هرب أبو السرايا والعلويون من الكوفة بعد أن استولى عليها هرثمة بن أعين (فى المحرم) وتوجه إلى القادسية ثم عاد إلى حرب أبى السرايا الذى هزمه وقتله فأخمدت الثورة التى عرفت باسمه.

* ثار ببغداد الشغب بين الجند والوزير الحسن بن سهل، كما وقعت الفتنة فى مكة وفى اليمن وعليها ابراهيم بن موسى حفيد جعفر الصادق.

* فى مستهل رمضان عزل المأمون المطلب عن أمرة مصر وولاها للسرى بن الحكم. ولما قدم السرى حصل بينه وبين المطلب محاربات انهزم فيها المطلب.

الحواريون القديسون كرزو بما شاهدوه، وكذلك كلمن كان بعدهم على هذه الصفه وتعاليم الابا[ء] المويدين الذين للبيعه، والكلام المقوى للامانه والاخوه بنى المعموديه اللابسين النور والأبا المويدين الذين اثبتو الأساس القوى والدعامه الوثيقه، والرب يسوع المسيح المخلص الذى جانا وخلصنا من أثامنا بتجسده من العدرا الطاهره. والمنعم علينا بفتح قلوبنا واذهاننا بسماع كتبه المقدسه: «فيلن» فليمن و«يستس» و«يوسابوس»،

---

* ولد في هذه السنة الخليفة الواثق بالله وهو هارون ابن الخليفة المعتصم وخليفته.

* توفي في هذه السنة هرثمة بن أعين أحد مشاهير القواد في العصرالعباسي الأول وقائد الرشيد والمأمون في المهام الجسام تنقل في إمارة الولايات بين خراسان وأرمينية ومصر وافريقية.

* توفي في هذه السنة أبو السرايا رأس الثورة المعروفة باسمه قتل بأمرالمأمون (١٠ ربيع ثان) بعد هزيمته على يد هرثمة بن أعين.

* فيها قتل الروم امبراطورهم ليون وتولى مكانه ميخاييل.

* ممن توفوا في هذه السنة بطوس الفيلسوف الكيميائي جابر بن حيان مؤلف كتاب أسرار الكيمياء وعلم السموم وأصول الكيمياء وكتاب الرحمة وغيرها وقد ترجمت مؤلفاته إلى اللاتينية.

القرن الثالث الهجرى

سنة ٢٠١ هجرية

افتتحت السنة من العام الأول من القرن الثالث بيوم الأربعاء ٣٠ يوليو ٨١٦م.

* شهد مولد القرن الثالث الهجرى: في بغداد الخليفة المأمون العباسي، وفي قرطبة

الذين من اليهود الذين أخبرو اولا بخراب «أورشليم»، والذين وضعو لنا سيرة البيعه المقدسه(*): «افريقنوس» افريقوس، و«أوسابيوس»، «وسوزامنوس»، أظهرو لنا الجيد والردى والبلايا التى حلت بالقديسين، والرعاة لقطعان السيد المسيح وما نالهم من التعب على البيعه والشعب الارتدكسى من المتولين فى كل زمان، ليس كورة مصر فقط بل «وانطاكيه» و«روميه» و«افسس»، التى كان فيها «هارسيس نسطور» الذى يستحق

(*) من مؤرخى هذه الفترة وما قبلها «افريقنوس» و«اوسابيوس» و«سوزامنوس».

بالأندلس الحكم الأول الأموى، وفى المغرب إدريس ثانى سلاطين الأدارسة، وفى تونس عبد الله بن ابراهيم الأغلبى، ومن الوزراء الفضل ابن سهل فى بغداد، ومن الولاة: حمدون بن على بمكة، وهارون بن المسيب بالمدينة، والسرى بن الحكم بمصر، وطاهر بن الحسين بالشام، واسماعيل ابن جعفر بالبصرة، وحاتم بن هرثمة بأذربيجان، وزهير بن المسيب بأرمينية، وهرثمة بن أعين بخراسان، وداود بن يزيد المهلبى بالهند. كما شهد مولد القرن فى أوروبا، لويس الأول بن شرلمان امبراطور الدولة الرومانية المقدسة، وليو الأرمنى امبراطور بيزنطة.

* أعلن الخليفة المأمون وهو بخراسان عليا الرضى بن موسى الكاظم وليا لعهده بعد أن خلع أخاه القاسم وترك السواد شعار العباسيين وليس الخضرة شعار العلويين فشق ذلك على بنى العباس.

* ندب المأمون قائده جميل بن يحيى البجلى الذى أعفاه من إمارة مصر لقتال الثائر بابك الخزمى.

* امتنع اسماعيل بن جعفر أمير البصرة على المأمون بسبب ولاية العهد فحمل إلى خراسان ومات بها، وفى بغداد أعلن منصور بن المهدى نفسه نائباً للمأمون ببغداد وتسمى المرتضى، بينما التف أهل بغداد حول ابراهيم بن المهدى.

لسانه القطع من أصله، وبقية المخالفين فى ذلك الزمان، وبدد الله جميعهم مثل الغبار أمام الريح شبل الأسد الحكيم «كيرلس» الذى قطعه وغيره من المخالفين، وجعل كتبه فى ساير بيع المسكونه الارتدكسيه. كما أظهر لنا ذلك الكتاب الذى ابتدأ باسمايهم إلى أن انتهو إلى المعترف المجاهد بالحقيقة «ديسقرس» الذى أحرم «لاون» الذى هو السبع المفترس للانفس كاسمه. وأحرم الستمايه وتلتين المجتمعين بخلقدونيه واحرم «مرقيان» الملك والملكة

---

* ثار بعض جند مصر على أميرهم السرى بن الحكم وخلعوه فورد الخبر من المأمون بعزله عن إمارة مصر واستبدله بسليمان بن غالب، ولكن لم يلبث أن أعاده المأمون فى السنة نفسها.

* تولى زيادة الله الأول (فى ذى الحجة) إمارة تونس خلفاً لأخيه عبد الله.

سنة٢٠٢ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأثنين ٢٠ يوليو٨١٧ م.

* فى الأول من المحرم بايع أهل بغداد ابراهيم إبن الخليفة المهدى بالخلافة ولقبوه المبارك المنير بعد أن خلعوا بيعة المأمون وهو مازال بخراسان كما بايعه سائر بنى هاشم بسبب نقل ولاية عهده من العباسيين إلى العلويين.

* استولى ابراهيم بن المهدى على قصر ابن هبيرة وولى على بغداد ابنى أخيه الهادى: العباس واسحق.

* خرج المأمون من خراسان فى طريقه إلى بغداد.

* ثار أهل الربض (ضاحية قرطبة) على أميرهم الحكم بن عبد الرحمن يتزعمهم بعض الفقهاء وتعرضوا له وتجرأوا عليه ولكنه قضى على الفتنة بقسوة وصلب منهم ثلاثمئة إرهاباً.

«بلخاريه» المرذوله، وجعل جميع من اتبع «لاون» تحت الحرم. وأخرج بأمر الملك والملكه ومضو به إلى النفى، وتم جهاده هناك، وأعاد نفوسا كثيرا إلى السيد المسيح على يديه. وكلما جرى كتب به الينا إلى هاهنا فى تانى عشر سيره من سير البيعه، والبدو بكتب ما بعد ذلك من الأب «كيرلس» وهو فى دير «ابلاح» إلى الأب المعترف «الاكسندروس»، نسأل عنه المعلم والكاتب فى زمانه الذى هو الشماس الارشيدياقن صاحب الأب

---

* تولى الحسن بن سهل وهو ببغداد وزارة المأمون بعد مقتل أخيه الفضل.

* أغتيل وزير المأمون ذو الرياستين الفضل بن سهل عند سرخس وثب عليه قوم فقتلوه فى الحمام وهو فى ركب الخليفة، وبعد ستة أشهر توفى أبوه سهل وكان من أولاد ملوك المجوس أسلم فى أيام الرشيد وهو الذى دبر خلع الأمين وقتاله.

* ممن توفوا فى هذه السنة: على بن الحسين الهمذانى الثائر وكان على الموصل مات مقتولا، وفيها توفى المحدث أبو على النيسابورى.

سنة ٢٠٣ هجرية

استهلت السنة بيوم الجمعة ٩ يوليو ٨١٨ م.

* وصل المأمون إلى مدينة طوس فى طريقه إلى بغداد وأقام أياماً بجوار ضريح أبيه الرشيد ثم تابع سيره إلى همذان فوصلها فى أخر يوم من السنة.

* أختفى ابراهيم بن المهدى (منتصف ذى القعدة) عندما اقترب حميد الطوسى قائد المأمون من بغداد وأعلن الجند خلع بيعته بعد ٣٢ شهرا.

* أصيب الوزير الحسن بن سهل بلوثة عقلية بعد مقتل أخيه الفضل وموت أبيه حتى شد فى الحديد وحبس فى بيت بمدينة واسط.

البطرك أبا سيمون بطرك اسكندريه، وكاتبه الراهب «جرجه»(*)، فكتب ذلك في جبل القديس «أبي مقار» «بوادى هبيب»، وأعلمنا ما جرى في زمان «مرقيان» الملك الكافر وما لحق أبانا من التعب وما جا بعدهم إلى زمان «سليمان بن عبدالملك» ملك المسلمين الذى ولى بعده الملك «عمر بن عبدالعزيز» الذى هزم «أسامة» الملك الكافر الذى كان قبله بمصر.

(*) الراهب جرجه هو كاتب هذه السير.

---

* نشبت ثورة جديدة بباجة من نواحي الأندلس قضى عليها الحكم.

* انكسفت الشمس في ٢٨ الحجة من السنة حتى ذهب ضوءها وغاب أكثر من ثلثها بينما تواليت الزلازل بخراسان والتركستان ودامت ستين يوماً هلك فيها خلق كثير.

* شهدت هذه السنة وفاة اثنين من رؤوس العلويين هما: على الرضا ثامن الائمة الاثنى عشرية وهو الذى عهد إليه المأمون بالخلافة وزوجه من ابنته وضرب الدنانير والدراهم باسمه مما أثار عليه بنو العباس، توفى بطوس عن نحو خمسين سنة وأقيم ضريحه الذى تحول إلى مدينة تعرف اليوم باسم مشهد، وفيها توفى محمد ابن الإمام جعفر الصادق وهو الذى كان قد بايعه أهل الحجاز عام ٢٠٠ ثم خلع نفسه وأمنه المأمون.

سنة ٢٠٤ هجرية

وافق الأول من السنة يومم الثلاثاء ٢٨ يونية ٨١٩ م.

* دخل المأمون بغداد لأول مرة منذ توليه الخلافة (منتصف صفر) وبعد ثمانية أيام ترك الخضرة شعار العلويين وعاد إلى لبس السواد مذعنا لكلام بنى العباس.

* ولى المأمون أخويه أبا على الكوفة وصالحا البصرة.

ومن أجل ذلك أسألكم أنا البائس الحقير أن تسألو السيد المسيح عنى أن يحل رباط لسانى الناقص بصلواتكم ويفتح قلبى المظلم ويعطينى معرفة الكلام فلعلى أقدر أن أظهر لكم ولابوتكم ما تطلبونه منى مما لا تصل إليه قدرتى ليس كمعلم وهادى أكثر منكم ولكن كمتعلم.

ولما نظرت ما كتبته بعينى وكبرته على ولمسته يدى وما سمعته من الأحبا قبلى ممن نصدق ونأمن

---

* جرى أول لقاء بين قائد المأمون يحيى بن معاذ بعد أن ولاه الجزيرة والثائر الخارجى بابك الخرمى ولكن الحرب كانت سجالا.

* اسس محمد بن ابراهيم بن زياد مدينة زبيد باليمن وجعلها حاضرة للدولة التى أقامها.

* اتخذ القفيز مكيالا للحبوب ونحوها وهو يساوى ١٠ مكاكيك أى ١٥ صاعا ويساوى وزنا فى أيامنا نحو عشرين كيلو جراماً.

* توفى بمصر ثلاثة من اعلام الفقهاء هم: الامام الشافعى (محمد ابن ادريس) توفى بالفسطاط يوم الخميس ٢٩ رجب عن أربع وخمسين واليه ينسب مذهب الشافعية ودفن بالحى الذى يعرف باسمه حتى اليوم، وفيها توفى أشهب بن عبد العزيز القيسى (٢٢ شعبان) عن ست وستين، وفيها توفى قاضى مصر لهيعة بن عيسى تولى قضاءها سنوات.

* توفى بالكوفة المؤرخ النسابة ابن السائب الكلبى (هشام بن محمد) وكان أبوه من قبله نسابة إخباريا، وهو مؤلف كتاب «الأصنام» مطبوع متداول.

سنة ٢٠٥ هجرية

أهل المحرم يوم الأحد الموافق ١٧ يونية ٨٢٠ م.

* استعمل المأمون قائده طاهر بن الحسن على المشرق كله من بغداد إلى السند وكان صاحب شرطة بغداد قبل ذلك وخلفه على الشرطة ابنه عبد الله ابن طاهر.

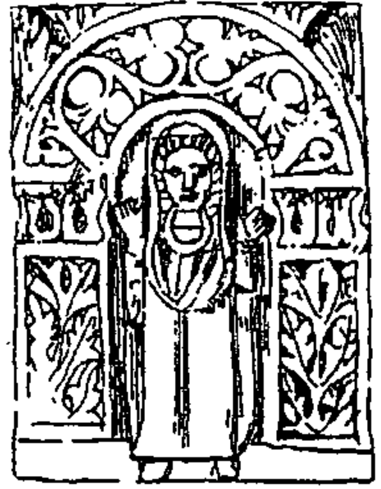

إليه ليلا [لئلا] أكون على قول الإنجيل الصادق في العبد الذى دفن فضة سيده فى الأرض، وأقول لقدسكم أنا البايس الحقير فى الناس أننى تمثلت بقول داود إذ يقول عن البارى سبحانه فى المزمور ١١٣ : الذى يقيم الفقير من على الأرض والمسكين من المزبله ويجلسه مع اغنيا الشعب هو الذى أجلسنى مع الابا [ء] القديسين. وشاهدت ما نالهم بقلبى لاكتب ذلك بغير استحقاق لأنهم صارو

---

* أنفذ المأمون قائده عيسى الجلودى لحرب الزط الذين فرضوا سلطانهم على اقليم البطائح جنوب العراق وقطعوا الطريق ولكن عيسى لم يظهر عليهم، ومن ناحية أخرى ندب المأمون قائده عيسى بن محمد بن أبى خالد لحرب الخارجى بابك الخرمى بعد فشل يحيى بن معاذ.

* توفى بمصر أميرها السرى بن الحكم فى مستهل جمادى الأولى وخلفه عليها ابنه محمد بن السرى ، كما توفى بها أمير شرطتها عبد العزيز الجروى وكان قد ثار على السرى واستولى فترة على الاسكندرية حتى انتقضت عليه فمات فى حصارها.

* وافق هذا التاريخ مقتل الامبراطور البيزنطى ليو الخامس ويعرف باسم ليو الأرمنى على يد بعض أنصار ميخاييل العمورى الذى خلفه فى حكم بيزنطة.

سنة ٢٠٦ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الخميس ٦ يونية ٨٢١ م.

* تولى إمارة الأندلس تحت حكم الأمويين (٢٧ الحجة) عبد الرحمن ابن الحكم فى اليوم التالى لوفاة أبيه الحكم الربضى، أمه أم ولد اسمها حلاوة وله من العمر واحد وثلاثون.

* غزا الأغالبة جزيرة صقلية.

---

٤٦ : أبا خايل الاول البطرك ٧٤٤ ـ ٧٦٨م

رعاه على الأرض وبذلو نفوسهم على اسم المسيح دفعات شتى، لأذكر يسيرا من أفعالهم وبقيتها السيد المسيح وحده العالم بها، وما كان متقدما فإن السيد المسيح يعلم اننا ما زدنا عليها شيا بل شرحت ما كان إلى حين نياحة الأب الطوبانى «تاودوروس» بطرك اسكندريه، والمملكه التى كانت فى أيامه إلى تمام السابع عشر سيره المذكوره.

---

* وجه المأمون عبد الله بن طاهر أمير الرقة والشام لحرب الثائر نصر ابن شبت وكان عبد الله على شرط بغداد بعد أبيه ذى اليمينين طاهر بن الحسين الذى كتب إليه كتابا ينصحه فيه يعتبر من نوادر رسائل الأدب فى اللغة العربية حتي ان المأمون استنسخه وبعث به إلى جميع ولاة الأقاليم.

* انفذ المأمون جيشاً ثانيا لحرب الزط على رأسه داود بن ماسجور.

سنة ٢٠٧ هجرية

استهلت السنة بيوم الثلاثاء الموافق ٢٧ مايو ٨٢٢ م.

* بايع أهل اليمن عبد الرحمن بن أحدم من حفدة الإمام على فانفذ المأمون لحربه دينار بن عبد الله وكتب معه بأمانه فقبله عبد الرحمن وسار إلى بغداد، وبايع فى السنة نفسها أهل عمان عبد الملك بن حميد إماما على المذهب الإباضى خلفاً لغسان بن عبد الله ودامت ايامه نحوا من عشرين سنة.

* تجدد فى الأندلس النزاع بين المضرية واليمانية فى لورقة، وفيها عاد للثورة الأمير عبد الله البلنسى عم الحكم واحتل كورة تدمير وطالب باقطاعها والتف حوله جمع كبير وهم بالزحف على قرطبة بالرغم من شيخوخته.

السيرة التامنه عشر من سير البيعه

والآن فبارادة الله وصلواتكم المقدسه نذكر السيرة التامنه عشر من سير البيعه. لما خرج «عبيدالله» من مصر وتولى بعده «القاسم» ولده الذى صار فيه الشر أكتر من أبيه دفعات، كقول الإنجيل المقدس: «أن كل شجره رديه تثمر ثمره رديه». هذا فعل الشر قدام الله والناس فى مملكته وسلك الردى كما أننا نذكر إذا تقدمنا. قال

---

* شهدت الأندلس موجة من القحط حتى انتشرت المجاعة فبلغ سعر مد القمح ثلاثين دينارا.

* بايعت الجند على تولى إمارة مصر عبيد الله بن السرى (٩ شعبان) خلفاً لأخيه محمد المتوفى من عامه.

* ظهر الصناديقى باليمن و استولى عليها وادعى النبوة فتبعة خلق كثير.

سنة ٢٠٨ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم السبت ١٦ مايو ٨٢٣م.

* أنفذ أمير الأندلس عبد الرحمن بن الحكم قائده عبد الكريم بن مغيث (جمادى الأخرى) إلى ألبة والقلاع وكان ألفونسو ملك ليون قد أغار على أرض المسلمين فعاث عبد الكريم فى ألبة وخرب مخافرها.

* استعفى قاضى بغداد ابن سماعة المأمون فأعفاه وهو مؤلف كتاب أدب القاضى.

* ثار الحسن بن الحسين وهو أخو أمير المشرق طاهر بن الحسين فسار اليه أحمد بن أبى خالد وقدم به إلى المأمون فعفا عنه.

سليمان بن داود الحكيم: «الويل لأهل المملكه التى ملكها صبى». وكان هذا القاسم صبيا فى عمره وفعله، وإذا ملك ملك جاهل فكل من يصحبه يكون مثله. فاول بداية فعله هذا كان محبا للشر ومحبا للنسا مثل الخيل التى تصهل [فـ] جعل له سرارى من كل جنس ليس لهن عدد وكان قلبه ملتهيا بهن جدا كما شاهدنا باعيننا دفعات شتى. وكان ينفذ ويحضر الطوبانى «تاودوروس» البطرك، كالديب اللابس لباس الخروف، وكان يصحب

- -

سنة ٢٠٩ هجرية

وافقت غرة المحرم يوم الأربعاء ٤ مايو ٨٢٤ م.

* قرب المأمون أهل علم الكلام وأمرهم بالمناظرة فى حضرته منهم بشر المريسى وثمامة أبن الأشرس.

* أنفذ المأمون قائداً ثالثاً لحرب بابك الخرمى وهو على بن صدقة والى أرمينية فأسره بابك فولى قائداً رابعاً هو إبراهيم بن الليث.

* حصر عبد الله بن طاهر الثائر نصر بن شبث عند كيسوم وضيق عليه حتى طلب الأمان بعد خمس سنوات من الحروب فسيره إلى المأمون ببغداد.

سنة ٢١٠ هجرية

استهلت السنة بيوم الاثنين ٢٤ أبريل ٨٢٥م.

* زفت فى رمضان من هذه السنة بوران ابنة الوزير الحسن بن سهل ولها من العمر ثمانى عشرة سنة إلى الخليفة المأمون الذى سار إلى قصر أبيها بفم الصلح وأقام سبعة عشر يوماً فى ضيافة وزيره، وفيها أوقد شمعة عنبر فيها أربعون منا وألبست زبيدة أم الأمين العروس البدلة اللؤلؤية الأموية ونثرت جدتها ألف لؤلؤة من أنفس ما يكون.

الأب البطرك أبى الروحانى «أبا مويس» الأسقف حين يجتمع به، وكان الملك يحب أبى أكثر من كل الأساقفه وكان يحضر له الصغار من السرارى حتى يبارك عليهن وأنا أبصرهن، وكان يقول للأب البطرك: هولا من أولادك ضع يدك عليــــهن وباركهن وأعطهن البركه لأننى اشتريتهن جددا [ابكارا]. وكان يفعل ذلك دفعات شتى بالأب البطرك، فلما حضرنا عنده دفعه كالعادة كان هناك الأب الأسقف «أنبا إبراهام» أسقف الفيوم

---

* ظهر فى ربيع الأول من السنة إبراهيم بن المهدى عم الخليفة الذى كان قد بويع بالخلافة وتلقب بالمبارك قبل دخول المأمون بغداد وظل مختفياً سبع سنين فعاتبه المأمون وعفا عنه وكانت قد شفعت له بوران ليلة زفافها، وفيها ظفر المأمون بابن عائشة وهو من حفدة إبراهيم الامام وممن سعى فى البيعة لابراهيم بن المهدى وحاول نقب سجنه فقتل وصلب وكان أول عباسى صلب فى الاسلام.

* فى الأندلس استمرت الفتنة بين المضرية واليمانية فى كورة تدمير فأمر عبد الرحمن أمير الأندلس بنقل عاصمة الولاية إلى مرسية، وفيه سير عبد الرحمن جيشاً إلى قطلونية بقيادة عبيد الله البلنسى فاجتاحها وهزم الأفرنج وانتهى إلى جيرونة فى أقصى الشمال.

* استسلم نصر بن شبث زعيم الثورة على المأمون فى المشرق بعد اثنتى عشرة سنة من الحروب.

* توفى من رجال العلم : بشر بن المعتمر أحد رؤوس المعتزلة وتنسب اليه طائفة البشرية توفى ببغداد وكان من أهل الكوفة.

* توفى ملك الديلم شهريار الأول بن شروين بعد حكم دام ٢٩ سنة وخلفه ابنه سابور.

والأرسينويتس لأجل أمر مهم، فلما حضرنا أيضا دعا واحده من السرارى وكانت مغربيه، فقال لابينا «ابراهام» هذه ابنتك وجعل يده فى يدها وكان قلبه كالأطفال وقال له: أنت تعلم أنى أحبك جدا من زمان وكلما كنت تطلبه من أبى أفعله لك. فقال له القديس إبراهام: نعم. فقال له: أريد منك تلتمايه دينار. فتقدم أبى إلى الارشيدياقن الذى كان أقنومه اسمه «سمعان» كان قد جا معه، وهو الذى

سنة ٢١١ هجرية

وافقت غرة المحرم يوم الجمعة ١٢ أبريل ٨٢٦م.

* تولى إمارة مصر عبد الله بن طاهر بعد عزل عبيد الله بن السرى وهو بعد ابن تسع وعشرين وذلك بعد أن بايعه الجند وتحصن بمدينة بلبيس وقامت بينه وبين عبدالله بن السرى حروب ادت إلى اضطراب الأمن وكثرة أعمال السلب والنهب للمصريين.

* وهرب عبدالله بن السرى إلى المأمون ببغداد.

* وقعت الفتنة فى إفريقية بين عامر بن نافع ومنصور بن نصر.

* قتل أمير الموصل السيد الأزدى فى حرب الثائر زريق بن صدقة وخلفه عليها محمد ابن حميد الطوسى، وفيها توفى أمير طبرستان موسى بن حفص فخلفه عليها ابنه.

* خلع الدنمركيون ملكهم هيرولد لأنه اعتنق المسيحية.

* تأسست مملكتا تافار وأرجون.

سنة ٢١٢ هجرية

استهلت السنة بيوم الثلاثاء ٢ أبريل ٨٢٧ م.

* استولى مهاجرو الأندلس على جزيرة كريت (إقريطش) بزعامة أبى حفص البلوطى

م٩ -تاريخ مصر ج٣ (الهيئة العامة لقصور الثقافة)

استحق الأسقفيه من بعده، فقال له: أحضر التلتمايه دينار. فاحضرها وسلمها للقاسم.

وكان له مال كثير للبيع(*) لأن كان عنده في كرسيه خمسة وتلاتون ديرا بالفيوم وهو المتولى عليهم، وكان عليه خراج خمس مايه دينار الذى لبيت مال السلطان، لأجل ذلك كان مقدما عند كل أحد، وكانو تجار مصر يابيعونه ويشترون منه. ثم أنه بعد ان دفع التلتمايه دينار قال له القاسم: انا

(*) اتساع اوقاف الاديرة ونشاطها الزراعى يحقق لها إيرادات كثيرة.

وأسسوا بها إمارة عاشت ١٣٨ سنة حتى استردها أهل البندقية، وكان هؤلاء المهاجرون قد خربوا ونهبوا الأسكندرية فازاحهم منها عبيد الله بن طاهر.

* أظهر المأمون القول بخلق القرآن وهو بداية الفتنة التى استمرت حتى بعد وفاته وتعرض بسببها للأذى كثير من فقهاء العصر، كما أعلن تفضيل على بن أبى طالب على الناس بعد الرسول فاعتبر ذلك من البدع.

* وقعت موجة من الزلازل فى اليمن وكان أشدها بعدن فتهدمت دور وخربت قرى وهلك خلق كثير، وفى أقصى الغرب اجتاحت السيول والأمطار مدن الأندلس وهدمت قنطرة سرقسطة.

* اتحدت الإمارات السبع فى الجزر البريطانية تحت سلطة الملك اجيرت اول ملك للبريطانيين.

سنة ٢١٣ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأحد ٢٢ مارس ٨٢٨ م.

* ولى المأمون إبنه العباس إمرة الجزيرة والثغور، وولى أخاه المعتصم الشام ومصر فأخلف عليها عيسى الجلودى الذى لم يلبث أن عزل بسبب ثورة المصريين من أهل الحوف.

أكـرمك بهـذه الكرامه العظيـمـه حتى أنى جعلت زوجـتى لك ابنه ولا تدفع لهـا شـيـا تكرمـهـا به؟ فـاعطاها مـاية دينار فى يدهـا، واحتـسـب له بهـا فى الخراج الذى عليـه. وكـان القـاسم سالكا فى طريق الجـهل، كل حين تضـاعف الظلم فى أيامـه على الناس، وولى ولاه فى كـورة مـصـر أشـر منه، قـوما يجـمعـون أموال الغـرما من أسوان إلى إسكندرية، وألقى على الناس بلا عظيما فى كل البـلاد والكور الكبار والصغار، وكان الكبير ياكل الصغير والقوى

---

* تم بالأندلس القـضـاء على الفتنة بين المضـرية واليمانيـة التى اسـتمـرت عدة سنوات حتى أذعن زعيـمها أبو الشـماخ ودخل فى خدمة عبد الرحمن بن الحكم.

* تول إمارة السند غسان بن عباد وهو ابن عم الوزير الحسن بن سهل.

* توفى فى هذا التاريخ جبرئيل بن بختيشوع طبيب الرشيـد وبعد وفاة الرشيد دخل فى خدمة ولديه الأمين والمأمون، دفن بدير فى المدائن.

* ممن توفوا من رجـال الفكر: ثمامة بن اشرس رأس الطائفة الثـماميـة من المعتـزلة، وفـيها توفى ابن قتـيـة الدينورى عن اثنين وستين اشتهر بكتابه عيـون الأخبار وفـيها توفى من الشعراء العكوك صاحب القصيدة المسماة اليتيمة، نقم عليه المأمون فأمر به فقتل.

سنة ٢١٤ هجرية

استهلت السنة بيوم الخميس الموافق ١١ مارس ٨٢٩ م.

* عاود المصريين من أهل الحوف من القيـسـية واليـمانيـة الثورة وقتلوا أميـر مصـر من قـبل المعتصم عمير بن الوليد بعد شهرين من ولايته فخلفه عيسى الجلودى للمرة الثانية فلم يلبث أن كـسـروه فعظم ذلك على المأمون فـحث أخاه المعتصـم على قتالهم بنفسـه فـجد السير إلى مصـر بجيوش عظيمة وأوقع بهم الهزيمة عند المطرية وأفنى زعماءهم وقضى مؤقتا على الفتنة وعزل عيسى الجلودى وولى عبدويه بن جبلة أميراً على مصر من قبله.

ياكل الضعيف مثل سمك البحر. وكانو هولا الذين يجمعون مال الغرما يأكلون المستورين ويأخذون مالهم حتى ضاق كل أحد.

وبعد ذلك عمل [القاسم] مراكب مثل قصور الملوك وزينها، وكان يركب فيها نساه وعبيده ويخرج في بلاد مصر ويمضى بهم إلى اسكندريه معه وتنيس ودمياط، فيأخذ أموال التجار والناس والمقدمين في تلك المواضع، ويصعد إلى صعيد مصر وينتهى إلى أسوان يفعل ذلك.

---

* في الأندلس اضطرمت طليطلة بالثورة يتزعمها هاشم الضراب وجمع حوله العامة واستمرت الوقائع بينه وبين جيوش عبد الرحمن الأموى سنتين، وفي ماردة تجددت الفتنة فسار إليها عبد الرحمن بنفسه وهدم سور المدينة.

* ولد في هذه السنة أبو الحسن العسكرى عاشر الأئمة من الشيعة الاثنى عشرية وهو إبن محمد الجواد نسب إلى مدينة العسكر التى نفاه إليها الخليفة المتوكل فيما بعد، وفيها ولد المؤرخ أبو الحسين يحيى العقيقى من كتبه أخبار المدينة.

* لقى محمد بن حميد الطوسى أمير الموصل مصرعه في حربه مع الثائر الخارجي بابك الخرمى فولى المأمون الأمير محمد بن هشام قتاله.

*ممن توفوا في هذه السنة فقيه مصر ومؤرخها عبد الله بن عبد الحكم عن أربع وستين سنة.

* وافقت هذه السنة وفاة الامبراطور البيزنطي ميخاييل الثانى وخلفه توفيل الأول.

سنة ٢١٥ هجرية

استهلت السنة بيوم الأثنين الموافق ٢٨ فبراير ٨٣٠م.

* مع غرة المحرم خرج المعتصم من مصر قاصداً الشام بعد أن أعاد الأمن إليها وواصل سيره إلى الموصل حيث التقى بأخيه المأمون فعرفه ما فعل بأهل مصر فشكره على ذلك.

وكان يسير صحبته جماعة من الجند والعسكر ويدخلون إلى ملعب [مسرح] بأنصنا. فلما كان [القاسم] فى بعض الأيام وقد وصل إلى دير(*) القديس «أبى شنوده» صعد بتكبر عظيم وأخذ معه سريه واحده كان يحبها أكثر من جميع سراريه ومماليكه فركبها فرسا وركب هو فرسا أخرى وكان معه شيخ مقدم فى المسلمين اسمه «ريان» ابن عبدالعزيز الذى كان ملك مصر، فلما وصلو الباب

(*) هو الدير الابيض... وهو من آثار الانبا شنوده المعروف بتأسيسه لأحد نظم الديرية المصرية التالية للطريقة الباخوميه.

---

* سار المأمون من الموصل لغزو بلاد الروم واستخلف على بغداد اسحق ابن ابراهيم حتى صار إلى منبج ثم إلى دابق ثم إلى أنطاكية ثم إلى المصيصة وطرسوس فوطئ أرض الروم بينما دخلها ابنه العباس من ملطية فافتتحا عدة حصون عاد بعدها المأمون إلى دمشق بالأسلاب.

سنة ٢١٦ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم السبت ١٨ فبراير ٨٣١م.

* أعاد المأمون الكرة بغزو بلاد الروم فانتهى إلى هرقلة فصالحه أهلها ثم افتتح عد حصون قبل أن يعود إلى دمشق حاملاً اسلابه وغنائمه واشترك فى هذه الغزوة أخوه المعتصم ووزيره يحيى بن أكثم.

* شهدت هذه السنة فى مصر ثورة المصريين من أهل الوجه البحرى فأخرجوا الوالى عيسى بن منصور وخلعوا الطاعة فقدمها الأفشين قائد المأمون فى أربعة آلاف من جنوده الترك ولكنه فشل فى القضاء على الثورة بعد حروب استمرت أكثر شهور السنة.

سنة ٢١٧ هجرية

استهلت السنة بيوم الأربعاء الموافق ٧ فبراير ٨٣٢ م.

* فى الخامس من المحرم دخل الخليفة المأمون بجيوش جرارة إلى مصر للقضاء على ثورة

خرج في لقاهم الشيخ ريس الدير وجميع أولاده ليكرموه بسبب المملكه، ولما دخل الباب التاني من الحصن الحايط [المحيط] بالبيعه وهو راكب ثم وصل باب البيعه، فاراد أن يدخل البيعه راكبا فصرخ الشيخ ريس الدير وقال: انزل ايها الملك لا تدخل إلى بيت الله بهذه الكبريا وخاصه هذه الامرأه التي معك لأنه ما دخل قط باب هذه البيعة امرأة وخرجت بالحياه بل تموت للوقت، فلم يلتفت إلى كلامه لكن دخل ومعه جيشه. وكانت

المصريين من أهل الغربية والحوف من الدلتا فقمعها وأباد أهلها متنقلا بين الفسطاط وسخا وحلوان ورحل عنها بعد أن عزل الوالى عيسى بن منصور ونسب له كل ما وقع بمصر ولعماله وكانت مدة إقامة المأمون بمصر تسعا وأربعين يوماً عاد بعدها إلى بغداد وقد ساق امامة الآلاف من الاسرى المصريين.

* تولى إمارة مصر كيدر الصغدى (من أهل التركستان)، كما تولى شرطتها أحمد بن بسطام من أهل بخارى كذلك فاستبدا بأهل مصر، وتولى إمارة السند عمران بن موسى البرمكي.

* غزا المأمون أرض الروم (الأنضول) للمرة الثالثة والأخيرة بعد أن تبادل الرسائل مع الامبراطور توفيل الذى دعاه إلى المسالمة والمهادنة خاتماً كتابه بالتهديد فرد عليه المأمون داعياً إياه وقومه للدخول فى الاسلام وإلا فالحرب والجزية.

* قتل الثائر عبدوس الفهرى وكان قد اشترك فى أحد ثورات مصر.

سنة ٢١٨ هجرية

وافق أول السنة يوم الاثنين ٢٧ يناير ٨٣٣م.

* تولى الخلافة العباسية ببغداد أبو اسحق المعتصم بن هرون الرشيد خلفا لأخيه المأمون

البيعه عظيمه جدا تسع الافا، فلما توسط البيعه وهو راكب فرسه نفرت الفرس التى تحت السريه بقوة الله فوقعت إلى الأرض فماتت السريه للوقت هى والفرس التى كانت تحتها، وأما القاسم فنزل عليه روح شيطانى نجس رماه وخنقه وخبطه حتى ازبد وصر باسنانه مثل الخنزير البرى، فلما تهدا قليلا نظر إلى الشيخ ريس الدير وقد حزن عليه فدفع للبيعه أربع مايه دينار نذرا، والفرس الذى كان راكبه. وكان هناك تابوت خشب ساج

وكان قد عهد إليه بولاية العهد قبل وفاته فى ١٨ رجب من العام وأقر العباس بن المأمون بحق عمه فى الخلافة.

* بدأت فى هذه السنة محنة القول بخلق القرآن والمأمون فى غزوته الأخيرة بأرض الروم فكتب إلى نائبه ببغداد (فى ربيع الأول) وهو اسحق بن ابراهيم بامتحان الفقهاء والقضاة والشهود بالقرآن فيمن أقر بانه مخلوق محدث أخلى سبيله ومن امتنع سقطت شهادته وقيد وعذب وكان من هؤلاء الامام أحمد ابن حنبل الذى سجن، وفى مصر قام أميرها كيدر بامتحان القضاة ورجال العلم فيها بعد أن كتب المأمون بذلك إلى جميع عماله فأقر أكثرهم مكرهين.

* أمر المأمون ببناء مدينة طوانة بأرض الروم وجعل سورها ميلا فى ميل، ثم هدمها المعتصم وأخلاها.

* شهدت هذه السنة وفاة الخليفة المأمون (١٨ رجب) وهو بأرض الروم (كما مات أبوه من قبل بها) فحمله ابنه العباس وأخوه المعتصم إلى طرسوس ودفن بدار خاقان وله من العمر ثمان وأربعون وكانت خلافته عشرين سنة وستة أشهر، أمه أم ولد تسمى مراجل ماتت فى نفاسها به.

مصفح بالعاج مثل الطابق عليه [صورة] جسد القديس «أبى شنوده» قد عملوه برسم النذر ولمن يلقي فيه نذره، وصارو يجعلون فيه الكتب، وكان حسن الصنعه عجيبا مليحا فاستحسنه «ريان» الذى كان معه واراد أن يأخذه، وكان القديس «أبو شنوده» قد انفق عليه مالا كثيرا، فقالو له: ما تقدر تاخده لأن الذى جعله هاهنا منع من خروجه. فقال: لابد لى منه بثمن أو هديه. ثم أمر عشرة رجال أن يحملوه فلم يقدرو، ثم دعا بتلتين رجلا

سنة ٢١٩ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الجمعة ١٦ يناير ٨٣٤.

* مرت خمسة أشهر على خلافة المعتصم العباسى ببغداد، كان يعاصره بالأندلس عبد الرحمن الأوسط، و في المغرب محمد بن ادريس، وفى تونس زيادة الله الأغلبى، وفى بيزنطة الامبراطور توفيل وفى فرنسا لويس الأول.

* ظهر بالطالقان من المشرق محمد بن القاسم العلوى يدعو إلى الرضى من آل محمد فاجتمع عليه خلق كثير فواقعه عبد الله بن طاهر وهزمه وظفر به عامل نسا فقيده وبعث به إلى ابن طاهر وهذا إلى المعتصم فحبسه لكنه هرب من سجنه ليلة عيد الفطر واختفى.

* وجه المعتصم قائده عجيف بن عنبسة لحرب الزط الذين غلبوا على طرق البصرة فأخذ عليهم المسالك براً ونهرا فظفر بهم.

* استوزر المعتصم كاتبه الفضل بن مروان فاستقل بالأمور ولم يزل على ذلك سنتين.

* تولى إمارة مصر المظفر خلفاً لأبيه كيدر الصغدى نائباً عن الحاجب اشناس التركى ولم يلبث شهوراً حتى عزل وتولاها موسى بن أبى العباس الذى دامت إمارته خمس سنين.

* واصل عبد الرحمن الأوسط أمير الأندلس حرب الثائرين عليه فحاصر أخوه أمية بن الحكم مدينة طليطلة حتى عاد أهلها إلى الطاعة.

فلم يقدرو أن يحركوه. فلما نظر الأعجوبه دفع لهم تلتمايه دينار ثم خرجو بخوف وزمع وتعجب. ولم يفارق القاسم الروح النجس إلى يوم وفاته وهو يعذبه. ثم أنزل الله على كورة مصر من أجل خطايا القاسم غلا عظيما، فأول سنه كانت البلاد شراقي فقلت الخيرات وغاب القمح وعدم حتى لم يجدوه، ومات خلق كتير وبهايم كتير. ثم جا[ء] وبا [ء] على كورة مصر تاني سنه لم يكن مثله، ومع جميع ذلك لم ينقص شر القاسم بل يزداد،

---

* تقدم اسحق بن ابراهيم قائد المعتصم إلى بغداد بعد أن أوقع بالخرمية فى اقليم الجبل ومعه خلق كثير منهم.

سنة ٢٢٠ هجرية

افتتحت السنة بيوم الثلاثاء الموافق ٥ يناير ٨٣٥ م.

* خرج المعتصم من بغداد بعد أن كثر جنده الأتراك بها وأصبحوا خطراً وحرباً على أهلها وانتهى إلى ناحية القاطول لبناء مدينة ينقل إليها مماليكه.

* عقد المعتصم لقائده التركستانى الأصل الأفشين (خيدر بن كاوس) على حرب بابك الخرمى كما وجه عامله بن يوسف لعمارة الحصون التى خربها بابك.

* سار عبد الرحمن الأموى أمير الأندلس على رأس جيشه إلى طليطلة وكان قد حاصرها أخوه أمية وأوقع بأهلها، ثم سار مغربا الى ماردة لمطاردة الثائر البربرى سليمان بن مرتين وفيها توفى سليمان وقضى على ثورته.

* اطلق المعتصم الامام أحمد بن حنبل بعد أن حبسه ٢٨ شهراً لامتناعه عن القول بخلق القرآن.

* تولى أبو الأغلب ابراهيم إمارة جزيرة صقلية وافتتح عهده بالاستيلاء على عاصمتها بلرم صلحاً بعد أن عجز اسلافه.

وضاعف الخراج على الناس. وكان الإنسان إذا نام ليلا يخاف من ضو[ء] الصبح ويشتهى الليل حتى يفرغ من كثرة البلايا.

وبعد السنه الثانيه المواتة جات السنه التالته شراقيا، لم يصعد النيل البته، ولم ير الناس فى أيامه خلاصا بل كانت السنين تتقلب هكذا بأمر الله سنه وبا[ء] وسنه شراقى إلى أخر السنه التى أخذت منه فيها المملكه وهى السنه السابعه. وكان الوبا من أول هتور كل سنه إلى التانى والعشرين

---

* دخل عجيف بغداد ومعه من أسرى الزط سبعة وعشرون ألفا.

* غضب المعتصم على وزيره الفضل بن مروان وصادره ونفاه وأهل بيته إلى قرية بطريق الموصل وولى وزارته محمد بن عبد الله بن الزيات.

سنة ٢٢١ هجرية

أهل المحرم يوم الأحد الموافق ٢٦ ديسمبر ٨٣٥ م.

* جمع المعتصم مهرة الصناع وأرباب الحرف لبناء مدينته الجديدة التى سماها سر من رأى (سامراء الحالية) وجعلها حاضرة له وبدأ بتشييد قصر له واقامة المسجد الجامع وغرس البساتين وقسمها إلى قطائع لكل طائفة قطيعة.

* جرت أولى المعارك بين الأفشين وبابك الخرمى بعد أن هزم هذا القائد بغا الكبير فهزمه الأفشين وقتل قائده طرخان.

* تولى إمارة مكة محمد بن داود بن عيسى العباسى واتسمت إمارته بسلسلة من الفتن.

* شاع مذهب النظام (ابراهيم بن يسار من أئمة المعتزلة) فى الفلسفة وتبعه جماعة سموا بالنظامية.

من بؤونه، ومعظمه بمصر لكثرة الخطايا التى كانت بها. وكان من تامن يوم من بشنس إلى أول يوم من بؤونه حل بالناس فنا[ء] لم يحصى بعض من مات فيه، يوما يموت فيه ألفان ويوم ألف ومايتان ويوما ألفان وأربع مايه بمصر والجيزه من ساير الناس القاطنين بهما، وتجار من الغربا حتى انقطع دفن الناس الأموات بالقبور، ولا يدفن رجل حتى يعلم به السلطان [القاسم] ويكتب اسمه واسم والده، حتى الطفل الذى يرضع. ثم أن

---

* وقع الطاعون بمدينة البصرة وهلك فيه خلق كثير.

* ولد فى هذه السنة ببغداد الشاعر ابن الرومى(أبو الحسن على ابن العباس) كان جده رومياً فنسب إليه، وفيها ولد بمدينة حران الطبيب الفيلسوف ثابت بن قرة قصد بغداد فى صباه واشتغل بالفلسفة والطب والطبيعيات.

* توفى فى هذه السنة محمد المنتصر ثالث سلاطين الادارسة بالمغرب وهو الذى قسم ولايات المغرب على أخوته وخلفه ابنه الصبى حيدرة.

* خلف على حيدرة أباه محمد بن ادريس على عرش المغرب وله من السن تسع سنوات

سنة ٢٢٢ هجرية

استهلت السنة بيوم الخميس الموافق ١٤ ديسمبر ٨٣٦ م.

* فتح الإفشين البد مدينة بابك الخرمى ودخلها المسلمون وخربوها فى العشرين من رمضان، وكان المعتصم قد أرسل إلى الافشين مدداً عليه جعفر الخياط، ووجه إليه غلامه إيتاخ ومعه ثلاثون ألف ألف درهم للجند والنفقات.

* قبل أن ينقضى الشهر (العاشر من شوال) وقع بابك فى أسر الافشين ومعه قائده سنباط بعد عشرين عاماً من الحروب، وحرر الافشين كثيراً من نساء وصبيان العرب كان بابك قد

أبا[ء]نا القديسين سألو الرب وأيضا الفقرا والأغنيا وتضرعو إليه بالصوم والصلاة والبكا والابتهال إلى أن ترأف الرب عليهم ورفع الوبا ورحمهم.

وبعد هذا أباعو التجار القمح للناس وظهر وكتر، فمضو قوم من تجار القمح إلى شماس ساحر كان يسكن فى منف (وهى مصر القديمه) ودفعو له مالا كتيرا وسألوه أن يعمل سحرا ليغلو به القمح، فبدا ان يعمل أعمالا تغضب الله بصنعته

أخذهم أسرى، وكان المعتصم قد جعل لمن يجيئ به حيا ألفى ألف درهم فقتله المعتصم بعد أن قطع أربعته (يديه ورجليه) وبعد أن مسح بالدم على وجهه.

* فى أقصى الغرب تم لعبد الرحمن الأموى اقتحام أسوار طليطلة (الثامن من رجب) بعد حصار دام سنوات وقضى بذلك على بؤرة الثورات في شمال الأندلس .

* شهدت هذه السنة ظهور مذنب رؤى إلى يسار القبلة فى المسجد الحرام وله شبه ذيل طويل وبقى يرى نحوا من أربعين ليلة فهال الناس ذلك وعظم عليهم.

سنة ٢٢٣ هجرية

وافقت غرة السنة يوم الاثنين ٣ ديسمبر ٨٣٧.

* ولى المعتصم عهده ابنه هارون الذى عرف باسم الواثق بالله.

* قدم الافشين إلى سامراء ومعه اسيره بابك الخرمى (الثالث من صفر) وفى الغد قعد المعتصم واصطف الناس من باب العامة إلى قصر الافشين بالمطيرة وشهر بابك على فيل ثم جيئ بسياف أمر بقطع أطرافه ثم قتله وصلب بابك بسامراء وقتل وصلب أخوه ببغداد فبذلك طويت سيرته.

وسحره المرذول وكان عنده صبى يتيم ابن امراه أرمله ليس لها ولد سواه، فقال لها: أنت مالك شى تأكلينه ولا تطعمين ابنك أدفعيه لى أجعله لى ولدا وأعلمه صنعتى فسلمته له وهى مسروره. وكان ذلك الكافر قد مضى إلى سحره كتير فى مواضع حتى علموه سحرا عظيما، ففعل ما غلا به القمح. ثم أن الكافر أخذ ولد الأرمله ودخل به بيتا وأغلق عليه الباب وعلقه بيديه ورجليه عن الأرض وفعل به ما يغضب الله، ولم يزل يسلخ جلد الصبى من

---

* شهدت السنة إحدى المعارك الفاصلة بين الدولة الاسلامية والامبراطورية البيزنطية حين انتهز الامبراطور توفيل فتنة بابك وخرج على رأس مائة ألف وأتى زبطرة على حدود العراق وهى مسقط رأس المعتصم وأحرقها وقتل رجالها وسبى نساءها، ورد المعتصم على ذلك بغزوة كبرى تجهز لها تجهيزا ضخماً واشترك معه مشاهير قواده الترك منهم الإفشين وأشناس وايتاخ وعجيف وجعفر بن دينار وبعد أن استولى الافشين على أنقرة اتجه المعتصم على عمورية مسقط رأس الامبراطور وحاصرها واستولى عليها وخربها واستصفى أهلها (٦ رمضان) وأقام عليها ٥٥ يوماً وفرق الأسرى على القواد.

* عاصرت فتح عمورية مؤامرة دبرها ابن أخى الخليفة وهو العباس بن المأمون باتفاق بعض القواد وعلى رأسهم عجيف على اغتيال المعتصم وتنصيب العباس ولكنها أجهضت ولقى المتآمرون حتفهم.

* وقعت زلازل بأقليم فرغانة (التركستان الشرقية) فمات تحت الهدم ١٥ ألفا.

* توفى فى هذه السنة زيادة الله الأغلبى رابع أمراء الأغالبة أصحاب تونس وفى أيامه فتحت جزيرة صقلية، وفيها توفى بمنبج الأمير العباس بن المأمون الذى أثار الفتنة ابان حرب الروم، وفيها توفى أمير السند عمران بن موسى البرمكى.

وجهه إلى راسه كل يوم إلى أن انتهى إلى اكتافه فغاب القمح وعدم بعد أن كان قد أبيع عشرة أرادب بدينار، أبيع مدان(*) بدينار ولا يوجد، فمضى عريف صبيان المكتب إلى الامراه الأرمله وقال لها: لولدك عدة أيام ما جا عندنا فاى موضع هو: فمضت إلى ذلك الكافر وسألته عن ولدها فلم تجده فقال لها: لى عدة أيام ما رأيته وخرج من عندى ومضى إلى عندك ولم اعلم له خبرا. فلما سمعت هذا منه مضت بحزن عظيم، وكان

(*) مدان: مثنى «مد» وهو مكيال قديم للحبوب.

سنة ٢٢٤ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم السبت ٢٣ نوفمبر ٨٣٨ م.

* أعلن مازيار بن قارن دهقان طبرستان العصيان بسبب عدائه لعبد الله ابن طاهر أمير خراسان فأنفذ اليه المعتصم ثلاثة جيوش حتى استسلم ثم قتل وصلب متهما بالتامر مع الافشين على إعادة دولة الفرس القديمة وإحياء عقيدتها.

* قدم أمير مصر الجديد مالك بن كيدر (٢٣ ربيع أخر) ودام امره عام واحد.

* قضى المعتصم في هذه السنة على ثورتين الأولى فى أردبيل قادها منكجور من قرابة الافشين إلى أن استسلم لقائد المعتصم بغا الكبير، والثانية تزعمها ابن فهرجس من زعماء الأكراد في الموصل الذى أوقع به القائد إيتاخ فانتحر بالسم.

* ولد بمدينة آمل بطبرستان (مازندران الحالية) شيخ المؤرخين المفسرين إبن جرير الطبرى مؤلف التاريخ المعروف باسمه والتفسير المعروف باسمه كذلك وكلاهما مطبوع متداول.

* توفى في هذه السنة عن اثنين وستين ابراهيم بن المهدى ويعرف باسم ابن شكلة الأسود وهو أخو الخليفة الرشيد وكان قد ثار على المأمون ودعا لنفسه ودامت خلافته التى يتجاهلها المؤرخون ٢٣ شهراً، أمه أم ولد سوداء.

الصبى إلى ذلك اليوم لم يمت بل معلقا قد سلخ كثير منه، وكان الصبى العريف ينظر معلمه الساحر يدخل ساعه بعد ساعه إلى الخزانه التى فيها الصبى معلقا فقال فى قلبه ماذا يصنع معلمى فى هذه الأيام يدخل هذه الخزانه ويخرج، وكان ذكيا فدخل المعلم فتبعه الصبى بمكر فسمع الصبى ابن الأرمله يبكى ويتضرع إليه وهو لا يرحمه وكان يقول كلاما يحزن القلب: الويل لك يا أمى الحزينه الأرمله: لأنك ما تعرفى ما حل بى،

سنة ٢٢٥ هجرية

استهلت السنة بيوم الأربعاء الموافق ١٢ نوفمبر ٨٣٩ م.

* غضب المعتصم على قائده الأفشين فعزله وحبسه بعد أن وجه له تهمة خداعه وتآمره وعمله على إحياء النعرات القديمة بين الترك والفرس والخزر لا سيما بين أهل أشرونه (التركستان الشرقية) مسقط رأسه.

* تولى عبد الرحمن الأموى بنفسه قيادة الصائفة وغزا أرض جليقية (مملكة ليون) وعليها ألفونسو الثانى، ومن ناحية أخرى لجأ إليه الثائر ابن عبد الجبار فغدر به ألفونسو وأسر أهل بيته بعد أن قتل فى المعركة.

*استعمل المعتصم حاجبه أشناس على اليمن بعد عزل جعفر بن دينار وبالغ فى رفعه بأن أجلسه على كرسى ثم توجه ووشحه.

* وقعت سلسلة من الزلازل فى الأهواز استمرت اياماً وسقط الجامع وأكثر البلد وهرب الناس الى ظاهر المدن.

* استولى أبو الأغلب أمير صقلية الأغلبى على قلعة البلوط وهى من معاقل الجزيرة.

* ولد فى هذه السنة الناصر العلوى (الحسن بن على) الملقب بالأطروش وهو ثالث أمراء الدولة العلوية بطبرستان، وفيها ولد المؤرخ الامامى أبو عبد الله جعفر بن محمد الطالبى.

الويل لبطنك التى حملتنى وثدييك اللذين ارضعانى، اين أنتى تنظرين عذاب ولدك اليتيم، ليت لو مت وأنتى حامله لى ولم تلدينى على الأرض حتى وقعت فى هذا العذاب الشديد، اين عيناك تنظرانى اللتان تشتهيان أن تنظرانى وتشاهدانى فى هذا العذاب. ويقول مثل هذا كتيرا والصبى العريف يسمعه فخرج مسرعا بخوف عظيم يقع ويقوم من شدة الخوف إلى أن وصل بيت الأرمله أم الصبى، فقال لها: قد وجدت ابنك

سنة ٢٢٦ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأحد ٢١ اكتوبر ٨٤٠ م.

* تولى أبو العباس محمد الأول إمارة تونس خلفاً لأبيه الأغلب بن ابراهيم وهو الخامس من الأغالبة ودامت إمارته نحو ثمانى سنين بنى خلالها كثيراً من الحصون الساحلية لرد أى غزو أجنبى.

* حج فى هذه السن٢٣ة الحاجب أشناس وأمر المعتصم بأن تكون له ولاية كل بلد يدخله وخطب له على منابر مكة والمدينة وغيرهما من البلاد التى إجتاز بها إلى أن عاد إلى سامراء.

* تولى إمارة مصر أبو حسن الأرمنى (على بن يحيى) من كبار قواد المعتصم والواثق من بعده وذلك للمرة الأولى واستمر فى الحكم نحواً من ثلاث سنين استبد فيها بأهلها وعاد الى بغداد مكرماً.

* تولى إمارة عمارن المهنا بن جيفر اليحمدى بالبيعة، اشتهر بانتصاراته البحرية.

* فى جمادى من العام (يناير) أمطرت السماء فى بادية الشام برداً كالبيض قتل منه ثلاثمائة وسبعون نفساً.

* شهدت هذه السنة نهاية الافشين (حيدر بن كاوس) أبرز الشخصيات فى عصر المعتصم توفى فى سجنه بعد أن منع عنه الطعام والشراب ثم أخرج وصلب فى شعبان = مايو ٨٤٠،

فجأت مسرعه بعد أنت عاد عليها ما سمعه من فم ابنها، فمضت إلى الوالى وعادت عليه القضيه وما سمعته فانفذ معها قوما ثقات من المسلمين ومعهم أعوان إلى بيت ذلك الكافر فوجدوه داخل الخزانه التى فيها الصبى معلقا مسلوخا من رقبته إلى كتفيه، فحملوه والساحر مكتفا معه إلى الوالى وبغته ربطو يديه ورجليه وقطعت أذناه بين يدى الوالى فاعترف له بكلما كان منه واحضرو الصبى وعاينوه على تلك الحال وكتبو فى الوقت إلى

واتهم بالتآمر على الخليفة والعمل على إستعادة حكم اباءة ملوك أشرونسة كما اتهم بالارتداد إلى الوثنية المجوسية، كما توفى مازيار بن قارن صاحب طبرستان الذى ثار وظفر به مات ضرباً بالسياط.

سنة ٢٢٧ هجرية

أهل المحرم يوم الجمعة الموافق ٢١ أكتوبر ٨٤١ م.

* فى الأول من المحرم احتجم الخليفة المعتصم فأصيب بالعلة التى قضت عليه.

* تولى الخلافة العباسية ببغداد أبو جعفر هارون الواثق بالله بن المعتصم (التاسع من ربيع أول) خلفاً لأبيه المعتصم، أمه أم ولد رومية اسمها قراطيس، وله من العمر احدى وأربعون سنة وهو التاسع من بنى العباس.

* عاصر تولية الخليفة الواثق، إمبراطور بيزنطة ميخايل الثانى (توفى فى نفس العام) وشارل الجسور فى فرنسا، ولوثار فى ألمانيا، والملك السكسونى إيثلوولف فى أنجلترا، والبابا جريجورى الرابع.

* خرج عبد الرحمن الأموى على رأس جيشه إلى شمال الأندلس ودخل أرض النافار حتى بنبلونة اذا تحالف ملكها جارسيا مع الثائر ابن قسى عامل تطيلة.

«القاسم» ملك مصر فلما وقف على الكتاب أمر برجمه وحرقه بالنار.

ومع هذه الأمور لم يتخل القاسم عن طريقته السو ومحبته جمع الدهب وكان يغير الولاة كل وقت ليرث عنهم.

وكانت قبيله في الجبل الشرقي من مصر من بلبيس إلى القلزم والبحر من المسلمين يسمون العرب وكان فيهم أكثر من تلتين ألف فارس منتشرين في تلك البرارى والبلاد ومنهم امرا

---

* خرج بفلسطين ثائر يدعى المبرقع ادعى النبوة فسار إلى حربه رجاء الحضارى أحد قواد المعتصم فأسره عندما تفرق عنه أتباعه وقتل خنقا قبل نهاية العام.

* وفي دمشق ثارت القيسية فحاصرها الأمير أبو المغيث.

* شهدت السنة (٨ ربيع أول) وفاة الخليفة المعتصم العباسى بسامراء عن نحو ثمان وأربعين، وأمه ماردة من مولدات الكوفة عن أصل صغدى، وأخلف ثمانية بنين وثماني بنات، كانت مدة خلافته ثماني سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام.

سنة ٢٢٨ هجرية

استهلت السنة بيوم الثلاثاء الموافق ١٠ أكتوبر ٨٤٢ م.

* أقر الخليفة الواثق وزير أبيه محمد بن عبد الملك الزيات ولم يستوزر سواه.

* خرج في هذه السنة الفضل بن جعفر الهمدانى أمير صقلية في البحر واستعاد ميناء مسينا وانتقل إلى ساحل ايطاليا وسار شمالاً حتى ميناء نابولى وضرب الحصار حولها ثم استدارت كتيبة من جنده حول الجبل المطل عليها ونزلت المدينة فانهزم أهلها واستسلموا كما استولى على مدينة مسكان.

*خرج عبد الرحمن الأموى صاحب الأندلس ولعامه الثاني إلى غزوه مملكة النافار (بلاد

مقدمون عليهم فولى عليهم زماما [جابى أموال] يسمى «أبا جراح» وكانت خيامه عند دير على اسم السيده مريم قريب «تنيس» وفيه جماعه من الرهبان وكهنه مزينين بأفعال حسنه، واغومنس [قمص] قديس كان من «وادى هبيب» من دير القديس «أبى مقار» واسم الاغومنس «ابيماخس» واستحق الأسقفيه بعد ذلك، ورهبان قديسين البعض منهم استحق درجة الاسقفيه، وكان معه من جملة الرهبان فى هذا الدير: «أبا مينا» الذى

البشكنس) فهزم ملكها جارسيا (غرسية) وحليفة الثائر ابن قسى اللذين فرا جريحين، وعاد عبد الرحمن إلى قرطبة بعد أن وطد الأمن على حدود دولته الشمالية.

* توج الخليفة الواثق (رمضان من العام) قائده أشناس، الذى كان على مصر واليا، للمرة الثانية وألبسه وشاحين مطعمين بالأحجار الكريمة واستخلفه على سائر الولايات.

* توفى فى سجنه بمصر فى فتنة خلق القرآن الراوية أبو عبد الله نعيم بن حماد، له كتاب الفتن والملاحم ، والقاضى عبد الله بن سوار العنبرى.

سنة ٢٢٩ هجرية

الأول من المحرم وافق يوم الأحد ٣٠ سبتمبر ٨٤٣ م.

* نكب الخليفة الواثق كبار كتاب الدواوين وأوقع بهم وطالبهم بأموال اتهمهم باختلاسها فاستخلص من أحمد بن الخصيب وكتابه مليونين من الدنانير ومن سليمان بن وهب كاتب إيتاخ أربعمائة ألف ومن ابراهيم بن رياح مائة ألف وغيرهم سوى ما أخذ من العمال الذين أسرعت إليهم الثروات بسبب عمالاتهم، وتولى أعمال المصادرة صاحب الخرس اسحق بن يحيى.

* فيها توفى ابو جعفر اشناس فى الفسطاط.

* تولى محمد بن صالح إمارة المدينة، وعيسى بن منصور إمارة مصر للمرة الثانية.

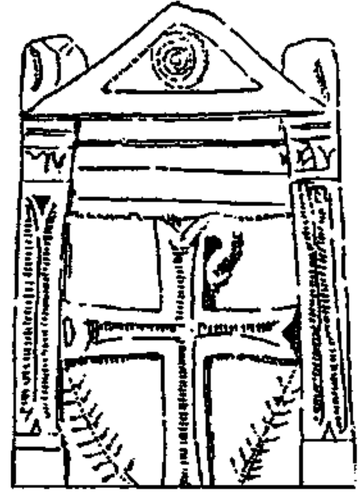

صار أسقف مدينة «منف» و«أبا يعقوب» القس، وجماعه رهبان. وكان للزمام إخوان فاخذهما وصعد إلى الدير ودخل البيعه وطرد الرهبان من البيعه ونهبوها وأخذو كلما فى الدير من قماش وغلة وأثاث، وكان أخوه الصغير أشر منه، وكان فى موضع الاغومنس صليب منصوب فى الشرق يستعين به على الشياطين المقابلين له فى كل وقت، فدخل الصبى إلى الموضع فقال للاغومنس لأى شى هذا

---

* فى أواخر هذه السنة وأوائل العام التالى فوجئ عامل أشبونة (لشبونة) العربى باسطول يضم ثمانين مركباً للنورمانديين (الفايكنج) أهل الشمال (الدنمارك أو النرويج) ألقى مراسيه والتحم الغزاة بأهل إشبونة (على ساحل البرتغال) من المسلمين.

* وافق هذا التاريخ وفاة ألفونسو الثانى ملك ليون (جليقية) فى شمال الأندلس وقد دام حكمه إحدى وخمسين سنة.

* انقسام مملكة شارلمان إلى ثلاث ممالك.

سنة ٢٣٠ هجرية

استهلت السنة بيوم الخميس الموافق ١٨ سبتمبر ٨٤٤م.

* فى أوائل المحرم ظهر اسطول الغزاة النرمانديين أمام مدينة اشبيلية بعد أن دار حول الساحل ودخل الوادى الكبير وراحوا بنهبون ويخربون ويأسرون حتى خف لنجدة أشبيلة جيش عبد الرحمن الأموى بقيادة عبد الله بن كليث وجيش من المتطوعة بقيادة نصر الخصى وعند طبلاطة جنوب اشبيلية نشبت المعركة (٢٥ صفر) فهزم الغزاة وأحرقت ثلاثون سفينة لهم ولاذوا بالفرار.

* بدأ عبد الرحمن الأموى أمير الأندلس فى بناء أسطول أندلسى كبير ليقضى على مغامرات الدول البحرية كما بدأ فى إقامة سور أشبيلية للسبب نفسه.

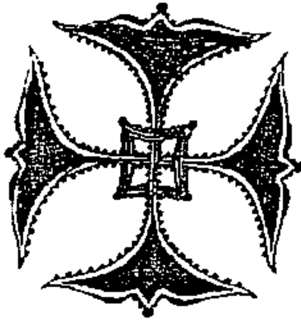

الصليب؟ فقال: هو صليب إلهى المسيح. فقال له: أنت تعبده؟ فقال له نعم. فبصق على الصليب واستهزأ به وشتم الشيخ الأغومنس، فخرج الشيخ من الدير بقلق عظيم قايلا أن لم ياخذ الرب الحق من هذا الصبى لا عدت إلى هذه البيعه جميع أيام حياتى. ثم مضى إلى موضع اخر وأقام فيه وقال فى نفسه أنى أصبر عشرة أيام وانظر ما يكون وألا مضيت فلما كان فى اليوم التامن مضى الصبى أخ الزمام وجلس على بيت الما [ء] فنزلت أحشا

عوض يارب من له لتر بملكوت السموات

---

* أوقع بنو سليم وعلى رأسهم عُزيزه السلمى ببعض بطون بنى كنانة وباهلة حول المدينة وهزموا قوة أميرها محمد بن صالح واستباحوا ما بين مكة والمدينة فانفذ إليهم الخليفة الواثق قائده بغا الكبير على رأس جند من الأتراك والمغاربة فقضى على الفتنة وحمل مئات الأسرى إلى سامراء.

* توفى من رجال الحكم فى هذه السنة: عبد الله بن طاهر (ابن الحسين) صاحب الشرطة وأمير خراسان ومصر والدينور وطبرستان والرى، أحد مشاهير الولاة والقواد فى العصر العباسى الأول توفى بنيسابور عن ثمان وأربعين، وفيها توفى خالد الشيبانى أمير مصر والموصل وديار ربيعة فى خلافة المأمون.

سنة ٢٣١ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الاثنين ٧ سبتمبر ٨٤٥ م.

* جرى فى يوم عاشوراء (١٠ المحرم) من هذه السنة الفداء بين المسلمين والروم وهو الفداء الثالث طالب به الامبراطور ميخاييل الثالث واجابه الواثق وتم على يد خاقان الخادم وجرى اللقاء على نهر اللامس بالأنضول وفيه فودى ٤٦٠٠ من المسلمين كل نفس صغيرا أو كبيرا، وكان أول فداء قد جرى فى أيام الرشيد.

* استأنف عبد الرحمن الثانى الأموى حرب الصائفة بعد أن رد الغزاة النورماندين، وكان

[ء]ه وأمعا [ء]ه وخرج كلما في بطنه مثل أريوس الكافر. فلما شاهد أخوه الزمام ذلك خاف وخرج من الدير، ولحق الخوف كلمن سمع ونظر، ثم أنه طاف في تلك الاماكن إلى أن وجد القديس ايماخس فاعاده إلى البيعه بعد سؤال ممجدا مكرما، وأعاد إليه جميع ما أخذوه ووقع خوف عظيم على المسلمين إلى مدة طويله.

وفى جميع ذلك كانت بيعة اسكندريه أرمله

جيشه بقيادة ابنه محمد بن عبد الرحمن فدخل مملكة ليون وعاث فيها سلباً ونهباً، وحاصرها حتى ألجأ أهلها إلى الاعتصام بالجبال.

* بعث الواثق كتبا إلى عمال الولايات لامتحان العلماء بخلق القرآن وكان قد منع أبوه المعتصم ذلك ودام هذا إلى أن مات الواثق.

* تولى إمارة اليمن جعفر بن دينار، اليمامة والبحرين اسحق بن ابراهيم.

* فيها نهب النورمانديون مدينة باريس.

سنة ٢٣٢ هجرية

أهل المحرم يوم السبت الموافق ٢٨ أغسطس ٨٤٦ م.

* فى الثالث والعشرين من ذى الحجة تولى الخلافة العباسية جعفر المتوكل على الله بن المعتصم وأخو الواثق الذى خلفه فى يوم وفاته باختيار أعيان رجال الدولة له، أمه أم ولد خوارزمية تدعى شجاع، وقد دامت خلافته نحوا من خمس عشرة سنة.

* وقعت سلسلة من الزلازل بأرض الشام فانهارت بسببها بعض الدور بدمشق ولقى جماعة حتفهم تحت الردم، وصحب ذلك قحط بالحجاز فمات كثيرون من العطش.

* أنفذ الخليفة الواثق قائده بغا الكبير بعد أن قضى على فتنة بنى سليم بالحجاز إلى بنى

بغير بطرك، فاجتمعو الارتدكسيون التاوضوسيون وجمعو الأبا [ء] الأساقفه وحضر جماعه من الخلقدونيين المخالفين وجعلو مجمعا بمصر واحضرو تلتة اناس ليختارو منهم واحدا فيجلسوه بطركا فلم يشأ الرب أن واحد منهم يأخذ الدرجة لكن حفظها لمن قد اصطفاه وعرفه من البطن كما يظهر مستأنفا من القول.

ونزع الله المملكة من «القاسم»(*) وانفذ إليه

(*) عزل القاسم عن ولاية مصر.

تميم باليمامة وبعد معارك ارتد فيها جيش الخليفة مرتين غلبوا عليهم وهزموهم فسيق كثير من أسراهم إلى سامراء.

* سار الفضل بن جعفر بعد أن استولى على ميناء مسينا الايطالية إلى مدينة لسى وفتحها بعد حصار.

* ولد بسامراء الخليفة المعتز بالله العباسى ابن الخليفة المتوكل وقد عقد له أبوه البيعة وهو ابن ثلاث سنين، وفيها ولد بالمدينة الامام الحسن العسكرى ابن الامام الهادى وهو الحادى عشر عند الشيعة الامامية.

* في الثالث والعشرين من ذى الحجة توفي الخليفة الواثق وكان قد أصيب بعلة الاستسقاء وله من العمر ست وثلاثون، وبموته يكون قد مضى على قيام الدولة العباسية قرن من الزمان.

* ممن توفوا في هذه السنة: العالم الرياضى الفلكى أبو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمى الذى ينسب إليه وضع علم الجبر له كتاب الجبر والمقابلة ويعتبر أول كتاب ألف في موضوعه، وله كتاب صور الأرض أو الربع المعمور.

سنة ٢٣٣ هجرية

استهلت السنة بيوم الأربعاء الموافق ١٧ أغسطس ٨٤٧ م.

* تولى إمارة مصر هرثمة بن نصر وفى أيامه ورد كتاب الخليفة المتوكل إلى مصر بترك

الخليفه من قبض عليه وحمله إليه تحت الحوطه والضيق. ولما سار إلى بلبيس مع الموكلين به السايرين به إلى الخليفه لحقوه الأساقفه وجماعه من النصارى إلى بلبيس وسألوه أن يفسح لهم فى ان يقيمو بطركا، فالتمس منهم أن يدفعو له مالا، فلم يدفعوه فامتنع ولم يطلق لهم إقامة بطرك. فقال «أبا تادرس» أسقف مصر، [وكان أكبر الأساقفه فى ذلك الزمان، وهو اول التلته أساقفه الذين جلسو واحدا بعد واحد وكل منهم اسمه

الجدال فى القرآن واتباع السنة وعدم القول بخلق القرآن الذى بدأ منذ خلافة المأمون ونكب بسببه كثير من العلماء.

* وقعت زلزلة عظيمة بدمشق استمرت ثلاث ساعات سقطت من جرانها شرفات الجامع الأموى الكبير وانصدع حائط المحراب وسقطت المنارة، وامتدت موجة الزلازل فشملت شمال العراق والموصل حتى أنطاكية على البحر ونشرت الخراب ولقى ألوف الناس حتفهم تحت الردم.

* ولى المتوكل ابنه محمد المنتصر الحرمين، وولى ابن خاقان ديوان الخراج وعزل الفضل بن مروان.

* شهدت السنة وفاة اثنين من تولوا إمارة مصر هما عيسى بن منصور وكان قد تولى على مصر مرتين وهو الذى فشل فى القضاء على ثورة المصريين القبط، وفيها توفى مالك ابن كيدر وكانت ولايته ثلاث سنين حتى عام ٢٢٤هـ.

سنة ٢٣٤ هجرية

الأول من المحرم وافق يوم الأحد ٥ أغسطس ٨٤٨ م.

* أنفذ عبد الرحمن الأموى أمير الأندلس حملة بحرية عسكرية إلى جزيرة ميورقة كبرى

«تادرس» على كرسي مصر] ، لأبي الروحاني «أبا مويسيس»(*) أسقف «وسيم» : انظر أيها الأب فعل هذا «القاسم» الذي لم تشاهده أنت إلا اليوم وما فعله من الشرور بالناس الذي أنا مشاهد له أكثر اوقاتي. فقال له الأسقف «أنبا مويسيس» : أغفر لي يا سيدى الأب أن عاد هذا إلى مصر دفعة أخرى فما تكلم الله في أنا الخاطي قط وستسمع ما يفعل الله بهذا البايس الشقي.

(*) أنبا مويسيس (موسى) : يذكر عنه القس منسي يوحنا في كتابه «تاريخ الكنيسة القبطية ص ٣٢٨، ٣٢٩ مايلي:
من اعلام آباء الكنيسة في هذا الجيل قصد برية شيهات وترهب عند رجل قديس فمكث في خدمته مدة ثمان عشرة سنة سالكا طريق الفضيلة والنسك الزائد. ولما اشتهر أمره أختير أسقفا لاوسيم فرعى رعيته أحسن رعاية ولم يقتن شيئا في كل زمانه وعرف بالتقوى والشجاعة وكان يقضي جل أوقاته في الاصوام

جزر البليار لتأديب أهلها لتعرضهم لسفن المسلمين في البحر فاذعنوا بالولاء والطاعة ودفع الجزية.

* تولى عرش الأدارسة بفاس من المغرب يحيى بن محمد خلفا لأخيه علي حيدرة وبعهد منه و دام حكمه ست عشرة سنة شغل خلالها بتعمير مدينة فاس وبناء مسجدها الجامع.

* تولى ثلاثة إمارة مصر خلال هذه السنة أولهم هرثمة بن نصر لحين وفاته في شهر رجب فخلفه ابنه حاتم بن هرثمة، وثالثهم علي بن يحيى الأرمني تولى في رمضان وذلك للمرة الثانية، وكان ثلاثتهم نوابا للأمير إيتاخ.

* ضاعف المتوكل في اقطاعات الأمير إيتاخ التركي ففوض إليه بالاضافة إلى إمرة مصر : الكوفة والحجاز وتهامة ومكة والمدينة ودعي له على المنابر.

*تولى قضاء القيروان الفقيه سحنون مؤلف المدونة في فقه المالكية وهي من أشهر المؤلفات في موضوعها.

* شهد العراق من البصرة في الجنوب إلى الموصل وسنجار في الشمال هبوب رياح شديدة السموم لم يعهد بمثلها أحرقت الزرع والماشية وقتلت المسافرين ودامت خمسين يوما.

* أعلن الثورة أمير أرمينية وأذربيجان محمد بن البعيث فنازله القائد بغا الشرابي حتى طلب الأمان.

والصلوات حتى لم يكن يتيسر للناس مقابلته الا فى يومى السبت والاحد وكان غيورا على الايمان المستقيم ففى أول رسامته كان فى مدينة اوسيم اديرة كثيرة لاصحاب ميليتس المنشق فوعظهم بكلام كثير وكان جلهم قد لبسوا الاسكيم من يده فلما لم يطيعوه نفاهم جميعا.

ولما جرى الاضطهاد على البيعة هرب كل الاساقفة إلى كراسيهم الا ان أبروشية الانبا موسى تعلقت به لكى لا يتركها فريسة للذئاب فكان يطوف الجيزة وأعمال مصر مفتقدا المؤمنين ومثبتا اياها. واتاه يوما بعض اراخنة مصر وطلبوا اليه ان يصلى الى الله ليرفع الكرب عنهم وعن شعبه لانهم كانوا قد أحصوا الذين اعتنقوا الاسلام فوجدوهم أربعة وعشرين الفا فقال لهم آمنوا يا أولادى «ان الوالى الذى يضطهدكم يهلك فى بحر هذا الشهر» فكان كما قال ولما بلغ أمره حوثرة الوالى الذى خلف ذاك قرب اليه القديس وكان يستشيره فى الامور المهمة.

وحدث بعد ذلك خلاف بين الارثوذكسين والخلكيدونين على البيع فخاف الشمامسة ان يدفع الخلكيدونيون رشوه للوالى فيسلم لهم فى بيع الارثوذكسين ولذلك طلبوا من الانبا موسى ان يرشى الوالى مثلهم فأجابهم «يا أولادى لايليق بالبطاركة والاساقفة ان يدفعوا رشوة لاحد كما لا يليق بهم ان يأخذوا من احد فان الله لا يتخلى عنا حسب وعده».

وفى أثناء ثورة البشامرة ضد الحكومة سأل تلميذ له عن النتيجة فأجابه لا يترك الله بيعته الى التمام بل يخلصها وهذه

سنة ٢٣٥ هجرية

وافق مستهل المحرم يوم الجمعة ٢٦ يوليو ٨٤٩ م.

* تغير خاطر الخليفة المتوكل على حاجبه إيتاخ التركى بعد عودته من الحج وأوعز إلى صاحب شرطته اسحاق بن ابراهيم بالقبض عليه فى الباطن وحبسه وقتله ففعل، كان إيتاخ قد تولى من قبل قتل القائد عجيف والأمير العباس بن المأمون.

* غمرت السيول أنحاء كثيرة من الأندلس وفاضت الأنهار حتى غرقت المزارع والقرى.

* عقد المتوكل العهد لأبناءه الثلاثة: المنتصر والمعتز والمؤيد كما قسم بينهم الولايات: فكانت مصر وافريقية والمغرب والثغور والحجاز والسند من نصيب المنتصر، وخراسان وما وراء النهر من نصيب المعتز، وأرمينية وأذربيجان والشام من نصيب المؤيد:

* فيها ثارت البجه على الساحل الجنوبى للبحر الاحمر بمصر فانفذ الخليفة المتوكل لحربهم محمد بن عبدالله من مصر بجيش كبير فشل فى اخضاعهم.

* فى الحجة من السنة تولى إمارة مصر اسحق بن يحيى الختلى بعد عزل على بن يحيى الأرمنى.

* ممن توفى فى هذه السنة: أبو الحسن المصعبى (اسحق بن ابراهيم) صاحب شرطة بغداد وهو الذى أوقع بالثائر بابك عام ٢١٨ هـ وتولى قتل إيتاخ الحاجب فى أول هذه السنة.

المملكة تبيد وتحل أخرى محلها وبعد مدة وجيزة ضيق ابن مروان الوالي على البابا خانيل فاتى هذا صباح يوم احد الى اوسيم والجنود تقوده فعندما ابصرهم الانبا موسى قال هذا هو اليوم الذى أتوقعه ومن اراد ان يبذل نفسه فليتبعني لانى اشتهى من زمان ان اسفك دمي الدنس عوضا عن الدم الزكى المسفوك عنا. ولكن عظيم هو حزنى لان جيل القديسين قد اضمحل وافتقرنا جدا لانجد انسانا يشاركنا فى هذه التضحية.

ولبس القديس ثوبا وترك جميع مافى بيعته وتبع البطريرك ولما مثلوا امام الوالى طرح الانبا موسى على ركبتيه ورفعت رجلاه الى فوق وضرب بدبابيس نحاس على جنبيه ورقبته وكان الجنود المكلفون بضربه يقولون له اعطنا مالا ونحن نتركك فلم يكن يجاوب بكلمة واحدة.

وأمر الوالى بقطع رقبة البطريرك وساقه السياف إلى موضع القتلى فجرى الانبا موسى خلفه ولم يشأ أن يتركه فمنعه السياف وهولا يمتنع حتى غضب منه ورفع عليه دبوس نحاس ليضربه به فمد القديس رأسه الا ان بعض الموظفين منعوا الجلاد من ان ضربه. وكان الجنود يشهدون عنه قائلين بلغتهم العربية «نعم هذا الخادم لربه» ثم وضع فى السجن مع البطريرك وقيدت رجلاه مع كثيرين من الاساقفة فتنبأ لهم الانبا موسى بانهم يخرجون بالسلام وتم قوله لان مروان مضطهدهم انهزم فخرجوا من السجن سالمين الى كراسيهم.

---

* توفى فى هذه السنة على الأرجح شيخ المعتزلة الفيلسوف أبو الهذيل العلاف وقد جاوز المائة من العمر.

سنة ٢٣٦ هجرية

أهل المحرم يوم الثلاثاء الموافق ١٥ يوليو ٨٥٠ م.

* تولى إمارة جزيرة صقلية العباس بن الفضل بعد وفاة إبراهيم الأغلبى وحصر قصريانة أحد المواقع الهامة فى الجزيره كما هزم الاسطول البيزنطى بالقرب من سرقسطة التى توفى بها عام ٢٤٧ هـ فلما دخلها الروم بعد ذلك نبشوا قبره إنتقاماً منه.

* أشخص الخليفة القضاة إلى الولايات لبيعة ولاة عهده، وهم: المنتصر ومن بعده المعتز ومن بعده المؤيد وبعث خواصه الى الأمصار ليأخذوا البيعة بذلك وكان قد عقد لكل منهم لواءين: أسود وهو لواء العهد وأبيض وهو لواء العمل.

* وثب أهل دمشق على نائب الخليفة وقتلوه ثاراً لاذلاله بعض وجهاء المدينة.

* جاهر المتوكل بعداءه للعلويين بعد أن ثار وغضب للتكريم الذى يحظى به الامام على وبنوه حتى انتهى الأمر به الى هدم مشهد الامام على (بالنجف) وقبور العلويين.

* ضرب المتوكل وزيره محمد بن الفضل الجرجرائى لأنه ضجر من صحبة الشيوخ واستوز حدثاً هو عبيد الله بن يحيى بن خاقان.

ثم سيروه الموكلون به ولم يعد إلى مصر، بل أخذ جميع ماله وهو فى العذاب والاعتقال، وانفذ الخليفه إلى مصر أخذ عبيده وسراريه ومضو بهم إلى الخليفه. ثم عادو الأبا [ء] الأساقفه ومن معهم إلى مصر فوجدو الخلقدونيين قد سبقوهم واخذو انسانا من مقالتهم كان يعمل الابر فى السوق اسمه «قسما»، وكانو قد جمعو فيما بينهم ذهبا وفضة وآنيه ودفعوه لذلك المخالف «القاسم» قبل مضيه وتقدم لهم بأن يقيموه بطركا، فأخذوه

---

* تولى إمارة مصر فى ذى القعدة من السنة عبد الواحد بن يحيى بعد أن صرف عنها اسحق بن يحيى الختلى لأنه أخرج العلويين من مصر كأمر الخليفة ولكن من غير إفحاش فى أمرهم.

سنة ٢٣٧ هجرية

افتتحت السنة بيوم الأحد الموافق ٥ يوليو ٨٥١ م.

* شهدت السنة ظهور يعقوب بن الليث الصفار حين اشترك فى الثورة بسجستان وهو جد الصفاريين.

* غضب المتوكل على أحمد بن أبى داود وكان مفلوجا وعلى ابنه أبى الوليد محمد ابن أحمد وكان قد ولاه المظالم والقضاء فعزله باستصفاء أموالهما من نقود وعقار وأقطاع .

* أطلق المتوكل جميع من كان فى السجون ممن امتنع عن القول بخلق القرآن فى أيام أبيه.

* شهد صيف هذه السنة طابور استشهاد النصارى المعاهدين بقرطبة أذكاها بعض القسس بتشجيع سب النبى محمد مما كان يستتبع قتلهم جهرة لاستفزاز عبد الرحمن الأموى ثم صدر قرار مجلس الأساقفة الذى اوقف هذه الحركة ولكن الفتنة لم تلبث أن أخمدت بعد أن لقى عدداً كبيراً جزاءه فاعتبرتهم الكنيسة من الشهداء.

الخلقدونيون واوسموه بطركا لهم وافتخرو على الارتدكسيين بانهم أقامو بطركا ولم يقيمو هم بطركا لهم.

وكان والى مصر بعد القاسم إنسانا اسمه «حفص بن الوليد الحضرمى» كبيرا فى جنس المسلمين بمصر، وكان سنيا على مذهبهم. فلما كان فى تلك الأيام اجتمع أساقفة مصر فى سنة أربع مايه وتسع وخمسين لديقلاديانوس فى اليوم

---

* بويع الصلات بن مالك الخروصى الاباضى إماماً على عمان خلفاً للامام المهنا بن جيفر.

* وثبت بطارقة أرمينية على عاملهم يوسف بن محمد فقتلوه وبلغ المتوكل ذلك فجهز لحربهم بغا الكبير فقتل منهم مقتلة عظيمة حتى بلغ عدد القتلى ثلاثين ألفاً.

* ظهرت نار بعسقلان أحرقت البيوت وبيادر الحبوب فدفعت الناس للهرب إلى النواحى.

* ولد فى هذه السنة ابراهيم بن الأغلب من أمراء الأغالبة بتونس تولى عليها بعد أخيه أبى الغرانيق.

* ممن توفى فى هذه السنة: أمير مصر اسحق بن يحيى بعد أيام من عزله وتولى مكانه عنبسة ابن اسحاق بن شمر.

سنة ٢٣٨ هجرية

وافق أول المحرم يوم الخمسى ٢٣ يونيتن ٨٥٢ م.

* حاصر بغا الكبير قائد المتوكل مدينة تفليس بعد أن قضى على ثورة بطارقة أرمينية وكان على تفليس أحد موالى بنى أمية فأسر وضربت عنقه وأحرقت المدينة كما حمل بغا معه كثيرا من بطارقة اذربيجان وأران كأسرى وعبيد.

* فى يوم عرفة من هذه السنة جاء اسطول بيزنطى إلى سواحل مصر وانتهز خلو دمياط

التامن والعشرين من مسرى وكان معهم كهنة اسكندريه الاراخنه واحضرو قوما صحبتهم ليقع التخير(*) منهم على أحد. كان بعض الأساقفه قد ذكر اسما واحدا سرا، والله العالم بكل شى قد حفظ هذه الرتبة لمستحقها. وهذه اسما [ء] الأساقفه الذين كانو مجتمعين لتقدمة البطرك: إبراهام أسقف الفيوم، مويسيس أسقف وسيم، مينا أسقف تمى، يعقوب أسقف بوصير، تادرس الأسقف المترانوس أسقف مصر، بقطر اسقف

(*) اختيار البطرك الجديد والاحداث التي صاحبته.

من الجند الذى استقدمهم أمير مصر الجديد عنبسة بن اسحق إلى الفسطاط إحتفالاً كما يقال بطهور ولديه وبالأعياد فاعملوا القتل والسبى والنهب حتى خرج عليهم أبو جعفر بن الأكشف فقدم دمياط وكان مسجونا فاجتمع عليه أهل المدينة فحارب بهم الروم حتى هزموهم وأخرجوهم من دمياط فمضوا إلى تنيس فلم يقدروا عليها وعادوا إلى بلادهم قبل أن يصل جند عنبسة.

* تولى إمارة الأندلس أبو عبد الله محمد الأول ابن عبد الرحمن الثانى الأموى وبعهد منه، أمه أم ولد تسمى بهتر.

* عادت حروب الصائفة وغزو أرض الروم فدخلها فى هذه السنة على بن يحيى الأرمنى فأثخن فيها وأسر وسلب.

* فيها حاصر بغا مدينة تفليس، وبها إسحاق بن إسماعيل، ولما استسلمت المدينة ضرب بغا عنق اسحاق وأحرق المدينة بناسها.

* توفى بقرطبة (٣٠ ربيع الثانى) أبو مطرف عبد الرحمن بن الحكم المعروف باسم عبد الرحمن الأوسط رابع ملوك الدولة الأموية بالأندلس عن اثنين وستين، وكانت ولايته إحدى وثلاثين سنة وشهور وهو أول من أستن قواعد الملك من الأمويين بالأندلس كما شيد المساجد وبنى القصور ومد الطرق وزاد رواقين فى جامع قرطبة وضرب السكة باسمه.

مليج، يعقوب أسقف صهرجت، اسحق أسقف سمنود، إبراهام اسقف بلبيس، بطرس أسقف ترنوط، خايال أسقف اتريب، وكهنه اسكندريه، فمضو إلى الوالى «حفص» وسألوه أن يأذن لهم فى إقامة بطرك فقال لهم: إذا استقر رأيكم على إنسان احفظوه حتى أبصره. فخرجو من بين يديه ومضو إلى بيعة أبى شنودة بمصر وصلو وجلسو فى طقوسهم كالقانون البيعى، وكان كل واحد جالسا عند أبيه الأسقف، وكهنة اسكندريه

---

* توفى هذه السنة بقرطبة نابغة الموسيقى زرياب وكان قد استقدمه الحكم الأموى من بغداد بعد أن علت شهرته المشرق والمغرب وينسب إليه تطوير آلة العود.

سنة ٢٣٩ هجرية

بدأت السنة يوم الاثنين الموافق ١٢ يونية ٨٥٣ م.

* غزا على بن يحيى الأرمنى أرض الروم (بلاد الأنضول) للعام الثانى وأوغل فيها حتى شارف القسطنطينية وفى خلال مسيرته أحرق ألف قرية وقتل عشرة آلاف نفس وسبى عشرين ألفا وترك خلفه دماراً شاملاً يذكرنا بما حدث للبشمور فى مصر على يد الخليفة المأمون.

* عبر العباس بن الفضل أمير صقلية البحر بإسطول ضخم إلى ساحل كلبريا الإيطالى عند مصب نهر التيبر واحتل مدينة أوستى واستعد للاستيلاء على مدينة روما نفسها ولكن الحملة تراجعت بعد أن أسرعت الأساطيل المسيحية المتحالفة لانقاذ المدينة، وبعدها إتجهت الحملة إلى جزيرة كريت عادت بعدها إلى صقلية.

* تجددت الزلازل فشملت فلسطين ووقع من الجبل المشرف على طبرية صخرة ضخمة مات تحتها خلق كثير.

*أمر المتوكل بهدم البيع المحدثة فى الاسلام واضطهاد اهلها، وفيها أمر بنفى الشاعر على ابن الجهم إلى خراسان.

جالسون قدام الأساقفه، وجميعهم بسكينه لا يتكلم أحد كلمه أو يامر والأبا الأساقفه جميعهم وجوهم مطرقه إلى الأرض صغيرهم وكبيرهم. فلما عبرت الساعه السادسه رفع الشيخ الأسقف أنبا مينا أسقف تمي وجهه وقال بصوت خفى لأبا إبراهام أسقف الفيوم: يا أبي أغفر لي ما ترى ما نحن فيه ومجتمعون بسببه. قال له: يا أبني السيد المسيح يدبر الأمور كلها والقديس مارى مرقس وجميعنا وريس رعاة أنفسنا وأجسادنا معنا. فصرخ

---

* سير أمير الأندلس الجديد محمد الأول بن عبد الرحمن جيشاً بقيادة أخيه الحكم إلى قلعة رباح فأصلح سورها وأعاد من فارقها من أهلها وتقدم إلى طليطلة ولكنه إرتد عنها.

سنة ٢٤٠ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم السبت ٢ يونية ٨٥٤ م.

* خرج محمد الأول أمير الأندلس الأموى في المحرم من السنة إلى طليطلة التى كان أهلها في خلاف منذ ولاية أبيه فاستجدوا بملك جليقية (ليون) غير أن الكمائن عصفت بالقوات المتحالفة فقتل منهم مالا يحصى كما فرق ثمانية الاف من الأسرى على الوجهاء.

* وثب أهل حمص بعاملهم أبي المغيث الرافعي فأنفذ المتوكل اليهم محمد ابن عبدويه.

*عزل المتوكل قاضي القضاة يحيى بن أكثم واستصفى ما جملته ٧٥ ألف دينار و٤٠ ألف جريب من أرض البصرة وخلفه قاضي القضاة جعفر بن عبد الواحد.

* خسفت بلاد افريقية ثلاث عشرة قرية ولم ينج من أهلها إلا نيف وأربعون رجلاً منعهم أهل القيروان من دخول مدينتهم باعتبار أنهم مسخوط عليهم.

* وتوفى في المحرم من السنة قاضي القضاة وصاحب المظالم أحمد بن ابى دواد وذلك بعد أيام من وفاة ابنه أبي الوليد محمد الذى خلفه في مناصبه حتى غضب عليهما المتوكل فاستصفى أموالهما، وكان ابن أبي دواد متهما بأنه هو الذى أثار فتنة خلق القرآن.

جميع الشعب والجمع بصوت واحد قايلين: السيد المسيح يتم هذا الأمر بارادته. ووقفو وصلو، فلما تمو بالصلاة استقر بينهم الاجتماع بالغداه، فمضى كل واحد منهم إلى موضعه وكان بعض الأساقفه بحرى [الوجه البحرى] قد ذكرو اسم واحد اختاروه فعلم أبا إبراهام (أسقف الفيوم) فقال لهم أنبا بطرس أسقف ترنوط، كان هذا قد قام جميع أيامه في برية أبى مقار وهو حسن السيره جيد الأفعال: أحذر أن تجعل يدك على الذى

---

* ممن توفى فى هذه السنة من رجال العلم: سحنون الفقيه الذى إنتهت إليه رياسة العلم فى المغرب ومؤلف «المدونة» فى فقه المالكية وصلى عليه أمير افريقية محمد بن الأغلب، توفى بالقيروان عن ثمانين.

* فيها توفى طولون أبو الأمير أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية بمصر.

سنة ٢٤١ هجرية

استهلت السنة بيوم الأربعاء الموافق ٢٢ مايو ٨٥٥ م.

* جرى فى هذه السنة الفداء الرابع بين الروم وملكتهم تيودورا الوصية على ابنها ميخاييل الثالث وبين المسلمين وكان اللقاء على نهر اللامس بالأنضول ومثل المسلمين شنيف الخادم وحضره قاضى القضاة جعفر بن عبد الواحد وكان أسرى المسلمين سبعمائة وخمسة وثمانين من الرجال ومن النساء مائة وخمساً وعشرين إمرأة.

* إمتنع البجاة من أداء الأخماس وتجاهروا بالعصيان وأغاروا على أعالى الصعيد فانفذ اليهم المتوكل قائده محمد بن عبد الله القمى ابان إمارة عنبسة على مصر فسار اليهم براً وبحراً حتى مدينة دنقلة فأوقع بهم وأرسل ملكهم على بابا إلى سامراء فعفا عنه الخليفة.

يقدمونه لك حتى يجتمع رأى الجميع عليه لأنه ما يصلح لهذه الرتبه. وكان أنبا بطرس قد ضعف لكبر سنه وهو منفرد عنهم. فلما كان في اليوم التانى اجتمعو وصلو وجلسو وحضرو كهنة اسكندرية فقال الأبروطس: دبرو هذا الأمر يا ساداتى الابا [ء]. فقال له تادرس: من الذى اخترتموه حتى نعرفه نحن أيضا؟. فقال الأبروطس: فلان وهذا اسمه مكتوب. فقال لهم تادرس: إذا رضى به الجمع فهو جيد. فقال له

---

* أمر المتوكل بجلد عيسى بن جعفر بالسياط حتى الموت والقاءه في دجلة لأنه شتم أبا بكر وعمر وعائشة وحفصة.

سنة ٢٤٢ هجرية

الأول من المحرم وافق يوم الأحد ١٠ مايو ٨٥٦ م.

* شهدت السنة سلسلة من الزلازل شلمت بلاد فارس وخراسان فتشققت الأرض وتقطعت ا لجبال وانخسفت الأرض في اليمن ردمت القرى ومات الاف الناس تحت الهدم.

* حج من البصرة ابراهيم بن مظهر الكاتب على عجلة تجرها الأبل فكان ذلك من العجائب لأن استخدام العجل كان من عجايب الزمن بالنسبة للمسلمين.

* تولى إمارة مصر أبو خالد يزيد بن عبد الله خلفاً لعنبسة بن اسحق وكان يزيد تركياً ومن أطول ولاة مصر عهداً واستبداداً بأهل مصر.

* أغار الروم على أرض الجزيرة وقتلوا وسبوا ثم رجعوا قبل أن يلحق بهم المتطوعة ثم أمر المتوكل قائده على بن يحيى بأن يغزو أرض الروم شاتياً.

* تولى إمارة تونس أبو ابراهيم الأغلبى خلفاً لعمه أبى العباس وله من العمر ٢٢ سنة.

الأبروطس: هذا الأمر هو إلينا ما هو للأساقفه ليس لهم إلا وضع اليد فقط ونحن الذين نتخير بطركا.
فقال لهم أنبا «إبراهام» أسقف «الفيوم»: وأساقفتكم أيضا يقدمون لكم الذى يختارونه، لكن إذا قدمتموه وهومستحق اوسمناه، وأن كان غير مستحق طردناه.

فوقع الخطاب بينهم فى اليوم التانى، فصلو وانصرفو.

---

* ممن توفى فى هذه السنة من رجال الحكم: أبو بكر بن أفلح رابع الأئمة الرستميين من الإباضية أصحاب تاهرت بالمغرب الأوسط (الجزائر)، وفيها توفى محمد بن الأغلب سادس أمراء افريقية من الأغالبة أصحاب تونس.

سنة ٢٤٣ هجرية

استهلت السنة بيوم الجمعة ٢٠ أبريل ٨٥٧ م.

* قدم المتوكل إلى الشام فأعجبته دمشق وأراد أن يسكنها وبنى له قصر بضاحيتها إلا أنه تراجع عن عزمه بعد أن تكلم خاصته فى ذلك.

* عاود أهل طليطلة الثورة وأغاروا على مدينة طلبيرة فخرج اليهم عاملها فانهزم أهل طليطلة وحمل إلى قرطبة بضع مئات أسرى.

سنة ٢٤٤ هجرية

وافق الأول من السنة يوم الثلاثاء ١٩ ابريل ٨٥٨ م.

* اتفق التقت فى هذه السنة أعياد اليهود والنصارى والمسلمين فى يوم واحد وهى عيد الفطير لليهود والشعانين للنصارى والأضحى للمسلمين.

ولم يزالو هكذا إلى تمام عشره أيام، وكان الصلح فى هذه المده بينهم ويجرى كلام كتير نهارا وليلا وينزلو عن رأيهم ولا اشتركو أساقفة الصعيد معهم فى ذلك. وكانوا أساقفة الصعيد منفردين عنهم وقالو: إن كان ليس غير هذا فما تقدمه. وكان بعض الأساقفة البحريين مع كهنة الإسكندرانيين متفقين على تقدمته. فلما كان اليوم الرابع من الشهر الجديد وهو توت بدى الشيطان يلقى بينهم السجس فلحقهم حزن وبكا لذلك،

---

* انفذ المتوكل وهو بدمشق قائده بغا الكبير لحرب الصائفة فدخل أرض الروم واستولى على حصن صملة (شوملة)، وبعد سبعين يوما بدمشق قفل المتوكل عائدا إلى سامراء وفى خلال مقامه ثار الجند الأتراك بايعاز من ابنه المنتصر مما حمله على الاسراع بالعودة.

* فيها ثارت عصبة من الاتراك المجندين المرتزقة فى دمشق على الخليفة بدعوى تأخر دفع رواتبهم، فتفادى الخليفة الأمر بأن زاد فى اعطياتهم وترك دمشق، بعد أن كان ينوى الإقامة فيها، عائداً إلى سامره ومنها تحول إلى الماخوره (الجعفرية).

* شهدت هذه السنة استيلاء المسلمين على مدينة قصريانة بصقلية على يد العباس بن الفضل وكان قد جعلها ملك صقلية عاصمة له بعد سرقوسة فسار إليها العباس براً وبحراً ودلهم خائن على فتحة نفذوا منها إلى قلب المدينة فاستسلم أهلها بعد أن فتحت الأبواب واقتحمها العباس وأمر ببناء مسجدها وأدى به أول صلاة جمعة.

* جعل المتوكل من مراسم الخلافة أن تحمل أمامه العنزة وهى حربة كان قد أهداها النجاشى للزبير فأهداها الزبير للرسول وكانت تركز بين يديه عليه السلام فى العيدين.

* غضب المتوكل على طبيبه بختيشوع بن جبرائيل وكانت قد ارتفعت مكانته عنده حتى نافس الوزراء جاها وقبض أمو اله ونفاه إلى البحرين.

وصرخو الأساقفه المتفقون مع الإسكندارنين وقالو: أن لم نجعل هذا الذى كتبنا اسمه وإلا فما نجعل أحدا. والسيد المسيح المهتم بجميع الأمور لم يرض بكلامهم والذى ارتضاه لهذه الخدمة محفوظ. فوقع بينهم خصومه في ذلك اليوم كما كان جرى في نوبة البرسنوفيين.

وفيما هم كذلك طرح الله في قلوبهم في تلك الساعه بأن يحضرو الأسقفين أسقف وسيم أنبا

سنة ٢٤٥ هجرية

أهل المحرم يوم السبت الموافق ٨ ابريل ٨٥٩ م.

* بنى المتوكل مدينة سماها الجعفرية واقطع الأمراء والقواد والأصحاب فيها وجد فى بناءها وأنفق عليها اكثر من ألفى ألف دينار وبنى فيها قصراً شاهقاً فى علوه سماه اللؤلؤة وحفر لها نهراً يسقي ما حولها ولكن لم يلبث أن أخربت بعد وفاته .

* تجددت الزلازل على إمتداد ساحل الشام شملت اللاذقية وأنطاكية وطرسوس وجبلة وهدمت الحصون والمنازل والقناطر وغارت العيون ففرق المتوكل ثلاثة الاف ألف درهم لضحايا هذه الزلازل.

* خرج يزيد بن عبد الله أمير مصر إلى دمياط حين بلغه نزول الروم عليها ولكنهم كانوا جلوا عنها فاقام بها مدة لم يلق حرباً ثم رجع إليها للمرة الثانية في نفس العام وعاد دون حرب كذلك.

* أغارت الروم على مدينة سميساط فقتلوا وسبوا فلاحقهم القائد على ابن يحيى وغزا الصائفة وأسر بطريقهم فحمل إلى المتوكل وبذل ملك الروم فى فدائه عشرات المسلمين من الأسرى.

* أقام أبو أبراهيم الأغلبى أمير تونس سوراً حول مدينة سوسة حماية لها من غارات الفرنج البحرية.

مـويسـيس وبطرس أسـقف ترنوط، وقـالو: إذا لم تحضرو المذكورين ما يكون بيننا صلح. وكان أنبا مويسيس ضعيفا جدا له ستة شهور ملازما المرض في دير نهيا، وكذلك أنبا بطرس فى بيعة السيده بجبل وسيم المقدس فى دير نهيا الذى فى بر الجيزه غربى مصر. فمضى إليهما الاثنان أسقف مصر وأسقف الفيوم واعلماهما بما جرى. ولم يكن أنبا مـويسـيس يقـدر يركب دابه ولا يجلس من عظم الوجع فـدبرو الأبا وحـملوه على النعش الذى

---

* توفى فى هذه السنة الصوفى ذو النون المصرى (ثوبان بن ابراهيم الأخميمى) كان نوبى الأصل اتهمه قوم بالزندقة فاستقدمه الخليفة المتوكل إلى سامراء ثم أطلقه، توفى عن تسعين بجيزة مصر.

* توفى ابن زياد (محمد بن ابراهيم) الحفيد الثانى لزياد بن أبيه مؤسس الدولة الزيادية باليمن وكان قد بعثه المأمون إليها والياً لاخماد ثورة بها فتملكها.

سنة ٢٤٦ هجرية

وافق غرة المحرم يوم الخميس ٢٨ مارس ٨٦٠م.

* تحول الخليفة المتوكل من سامراء إلى مدينته الجديدة الجعفرية.

* جرى فى هذه السنة الفداء السادس بين المسلمين والروم (والحكم لميخاييل الثالث تحت وصاية أمه تيودوار وخاله باراس) على يد القائد على بن يحيى فتم فداء ألفين وثلثمائه وسبع وستين نفساً، وسبق ذلك أن غزا الصائفة ثلاثة من القواد منهم عمرو بن عبد الله والفضل بن قارن الذى افتتح حصن أنطاكية ثم القائد بلكاجور الذى غنم وسبى.

* انطلق محمد الأول أمير الأندلس الأموى إلى مملكة قشتالة وانتهى إلى بنبلونة وافتتح عدة حصون ووقع فى أسره فرتون ابن ملكها غرسية الذى عاش فى حبسه بقرطبة عشرين سنة.

يحـمـل فـيـه الموتى لأنهم لم يجـدو هناك سـواه، وحملوه قوم مومنون على اكتافهم إلى أن وصلو به إلى الفـسـطـاط. وركـبـو أنبـا بطرس دابه وكـان مـعـه جـمـع كـثـيـر، فـوصلو واجـتـمـعـو في اليـوم التـامن وكـهنة مـصـر والاراخنه مـعـهم لكى يفـصلو هذه النوبه بارادة الله ومعونته، وكـان مـعـهم ارشـيـدياقن بيعة أبى سرجه والشـيـوخ الاراخنـه «منا» و«بولس» وكـثـيـر من النصـارى بمصـر، فـصلو وجلسـو وبدو يتـجـادلو فى الكلام كـمـا كـان في الأول، وزاد

---

* تولى أبو بكر بكار بن قتيبة قضاء مصر ولزم منصبه إحدى وعشرين سنة حتى عاصر قيام الدولة الطولونية وبناء مسجد أحمد ابن طولون فكان أول إمام له.

* وفيها توفى من رجال الحكم: عنبسة بن اسحق أمير مصر السابق وهو آخر حاكم عربى تولى إمارة مصر وآخر أمير صلى بالناس ومن بعده كان غالب الولاه من الترك.

سنة ٢٤٧ هجرية

استهلت السنة بيوم الاثنين ١٧ مارس ٨٦١ م.

* شهدت هذه السنة تولية محمد المنتصر الخلافة العباسية وهو الحادى عشر من بنى العباس، وتولاها على أثر مقتل أبيه المتوكل فى الرابع من شوال على يدجنوده الاتراك ومبايعة القواد الأتراك له، وله من العمر أربع وعشرون، أمه أم ولد تركية أسمها حبشية.

* شهدت هذه السنة كذلك قيام الدولة اليعفرية فى اليمن نسبت إلى رأسها يعفر بن عبدالرحيم الحوالى وكان نائباً للأمير العباسي جعفر بن سليمان وكان يدفع له خراجا حتى إعلان استقلاله فى هذه السنة منتهزاً فرصة اضطراب أمر الخلافة بالعراق.

أمر الخليفة المتوكل عامله يزيد بن عبدالله أمير مصر ببناء مقياس جديد للنيل بجزيرة الروضة بدلا من مقياس أسامة بن زيد الذى أقيم سنة ٩٧ هـ وبطل بعمارته كل مقياس غيره، ووكل على القياس ابن أبى الرداد المؤذن لقياس فيضان النيل.

الشر، وكانو الأساقفه البحريون يقولون. ما نقيم هذا المكتوب اسمه. وابا إبراهام أسقف الفيوم يقول: ما له معنا نصيب. فقال لهم أنبا إبراهام: أنكم أن سمعتم منى طلبنا إلى الله جميعنا كما أمرت القوانين وسألناه أن يقيم لنا من يريد ولا تقسم البيعة قسمتين، فرضو قوم من الأساقفه البحريين على هذا الرأى وجلسوا عند أساقفة الصعيد. وكان الطوبانى «أبا مويسيس» أسقف

---

* شهدت هذه السنة اغتيال أول خليفة عباسي وهو المتوكل على يد بعض الجند الأتراك بتدبير القائد بغا الشرابى وباغر التركى قائد حرس الخليفة، وشارك في المؤامرة المنتصر ولى العهد وذلك بعد أوغر الوزير ابن خاقان قلب الخليفة على ابنه وخوف كبار الأتراك من غدر الخليفة بهم وتم ذلك ليلة الرابع من شوال.

* توفي أمير العباس بن الفضل وولى أهلها عليهم ابنه عبدالله بن العباس.

سنة ٢٤٨ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم السبت ٧ مارس ٨٦٢م.

* استهلت السنة والخليفة المنتصر بالله العباسى له ثلاثة أشهر فى الحكم، وتولى وزارته أحمد بن الخصيب وكان كاتبه قبلا وذلك بعد أن نفى وزير أبيه المقتدر عبيدالله بن خاقان.

* تولى الخلافة العباسية في السنة نفسها خليفة جديد بعد وفاة المنتصر هو المستعين محمد بن أحمد بن المعتصم وذلك فى الخامس من ربيع الآخر.

* أعلن المؤيد والمعتز ابنا الخليفة المتوكل وأخوا الخليفة المنتصر خلع نفسيهما من ولاية العهد لضعفهما وتم ذلك تحت ضغط القواد الأتراك وعلى غير رضا الخليفة نفسه.

* نفى المستعين أحمد بن الخصيب إلى جزيرة كريت (اقريطش) وكان وزيرا لسلفه المنتصر.

«وسـيم» ملقيـا وسط الجـمع من شـدة الوجع فسمعهم يذكرون الفرق. فقام بقوة روح القدس التى معه وأوما بيده إلى كهنة اسكندرية فقربو منه فقال لهم: ماذا تقولون انتم؟ فقالو: ما يقوله أبا مينا أسقف تمى هو قولنا ونحن الذين نقدم بطركا وليس لكم انتم فى هذا شى. وكان بجانبه جريده يتوكا عليها لضعفه، فذكر ما فعله السيد فى الهيكل لما طرد من كان فيه من الصيارف بالمخصرة الحبل، فقام وطرد كهنة اسكندرية وجرى خلفهم

---

* غزا الصائفة وصيف الخادم على رأس اثنى عشر ألف رجل وعلى مقدمته مزاحم بن خاقان أخو الفتح وكان على نفقات الجيش أبو الوليد الحريرى.

* سجن الخليفة المستعين عمه المعتز بالله وكان ولياً لعهد أخيه المنتصر واستمر فى سجنه ثلاث سنوات حتى أخرجه الجند الأتراك.

* تولى إمارة صقلية خفاجة بن سفيان وكانت بلرم عاصمته ودام حكمه عشرين سنة.

* أصيب الخليفة المنتصر بعلة قيل هى الذبحة وقيل ورم فى المعدة وقيل أثر سم دس له وقيل بسبب توبيخ ضميره للاشتراك فى مقتل أبيه وذلك فى يوم الخميس ٢٥ ربيع الأول ولم تمهلة العلة إذ توفى فى يوم الأحد الخامس من ربيع الآخر وله من العمر نحواً من ست وعشرين سنة وشهور، وكانت خلافته ستة أشهر.

سنة ٢٤٩ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأربعاء ٢٤ فبراير ٨٦٣م.

* استهلت السنة وعلى عرش الخلافة العباسية بسامراء المستعين بالله أحمد ابن محمد بن المعتصم وله تسعة أشهر منذ أن جاء به القواد الأتراك إلى الحكم وكان يعاصره بالأندلس محمد الأول بن عبدالرحمن الأوسط الأموى، وفى القسطنطينية ميخايل الثالث تحت وصاية أمه تيودورا وخاله باراس، وفى فرنسا لويس الثانى، وفى انجلترا ايثلبرت السكسونى.

وضربهم بالجريده حتى أخرجهم من الباب قايلا لهم: أخرجو من وسطنا لا تخربو بيعة الله لأجل شهوات قلوبكم. ثم التفت إلى الأسقف «أبا مينا» ومن معه من الأساقفه وقال: أى شي بيني وبين هذا الإنسان الذى لم يختاره السيد المسيح وانت تريده وتفرح به، أن كان عرفت له شيا من الفضايل أذكره وسط الجماعه فإن رضيت به كان أمر من الله فيتقدم. فلما سمع «أبا مينا» هذا قال له: الكتب انكرت هذا فدعه ومن رأيتم صلاحه

---

* خرج القائد أمير أرمينية أبو الحسن على بن يحيى الأرمنى لحرب الروم للمرة الأخيرة وكان قد شارف فى غزوته السابقة ساحل القسطنطينية وكان خروجه للمطالبة بدم الوالى عمر بن الأقطع الذى حصره الروم فقاتل بدوره حتى قتل وقتل معه أربعمائة من رجاله.

* تولى إمارة تونس زيادة الله الثانى الأغلبى.

* ثار الجند ببغداد ومعهم العامة بسبب سيطرة الأتراك على مقدرات الدولة وقتلهم المتوكل وهزيمة ومقتل أبى الحسن الأرمنى فرد عليهم الأتراك وعلى رأسهم بغا وأتامش بفتح السجون واحراق الأسواق وانتهاب الدواوين وفيها قتل أتامش.

* استوزر الخليفة المستعين أبا صالح عبيد الله بن يزداد خلفاً لأتامش.

* انتشر فى هذه السنة الطاعون وهلك فيه خلائق لا تحصى.

سنة ٢٥٠ هجرية

استهلت السنة بيوم الأحد الموافق ١٣ فبراير ٨٦٤م.

* عاصر هذه السنة قيام الدولة العلوية بطبرستان التى عاشت نحواً من قرن ونصف قرن من الزمان، أسسها الحسن بن زيد الحفيد الخامس للامام الحسن، وكان أهل طبرستان والديلم قد ثاروا على حكم بنى طاهر واتفقوا على الحسن ابن زيد فجاء إلى آمل عاصمة طبرستان وتولى عليها ثم مد سلطانه إلى الرى.

قـدمـوه. ثم وضع مطانوه وخـرج، وقـال: يكون الاتحاد بينكم والاتفاق وانا برى من هذا. ثم افترقو ذلك اليوم بعد صلاة السادسة بكآبة وحزن عظيم إذ لم يجدو من يقدمونه. وكلما يذكر اسما جماعه لم يتفقو على أحدهم. فلما كان النصف من الليل استيقظ شماس مع الأسقف «أبا مويسيس» وقاله: اغفر لى يا أبى قد عرفت واحدا يستحق هذا الأمر. فقال له: من هو يا ولدى؟ فقال له الشماس: هو القديس النفيس القس

---

* فشلت ثورة تزعمها علوى اخر هو أبو الحسن يحيى بن عمر الحفيد الخامس للامام الحسين ظهر بالكوفة واستولى عليها وانضمت إليه جموع العامة إلا انه هزم على يد قائد المستعين وقتل ثم صلب (١٣ رجب).

سنة ٢٥١ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الجمعة ٢ فبراير ٨٦٥م.

* عادت إلى الأذهان صورة الخلافة بين الأمين والمأمون الذى كان قد إشتد منذ نصف قرن وانتهى بغلبة المأمون، فشهدت هذه السنة خلافاً جديداً بين الخليفة المستعين الذى إنتقل إليها ولجأ إلى دار قائده محمد بن عبد الله بن طاهر الذى حصن بغداد بعد أن فقد مؤازرة الجند الأتراك.

* أنفذ المعتز جيشاً بقيادة أخيه أبى أحمد (المحرم) إلى بغداد لخلع المستعين ودارت الحرب براً وبحراً طوال شهور السنة وفى أوائل الحجة إنتقل المستعين إلى دار رزق الخادم.

* خرج بقزوين الحسين بن الأرقط العلوى وغلب عليها منتهزاً اضطراب أحوال بغداد، كما خرج علوى آخر بالحجاز هو إسماعيل بن يوسف الطالبى فعاث فى الحرمين وأفسد موسم الحج.

«ميخايل» ببيعة القديس «أبى مقار»، بتول طاهر تربى فى البريه. فصرخ الأب الأسقف «انبا بطرس» وقال: هذا الشماس الذى تكلم فيه المسيح بالحقيقه يا ولدى أن هذا القس ميخايل مستحق هذه المنزله، فلما كان بالغداة اجتمعو وجرى بينهم الخطاب كما جرت عادتهم فاجرو ذكر القس ميخايل المذكور فصرخ جميع الشعب الكبير والصغير كلهم من فم واحد قايلين: بالحقيقه هذا المستحق. وكان قبل ذلك قد نظر أنسانا قديسا

---

* سير محمد الأول الأموى أمير الأندلس جيشاً مع إبنه المنذر لحرب الصائفة فدخل مملكة ليون (ألبة والقلاع) وعاث فيها سلباً ونهباً، والتقى بجيش رذريق فأوقع به فى معركة «فج المركور» ثم عاود الأفرنج الكرة فمنوا بهزيمة أكبر وأسر نحواً من ٢٥٠٠ من رؤوس الافرنج.

* ولد فى هذه السنة بمدينة الرى الطبيب الفيلسوف أبو بكر الرازى أحد الأئمة فى الطب والطبيعيات ومؤلف الحاوى فى الطب والطب المنصورى وسر الصناعة فى الكيمياء.

سنة ٢٥٢ هجرية

استهلت السنة بيوم الثلاثاء الموافق ٢٢ يناير ٨٦٦م.

* طويت الفتنة بين الخليفة المستعين والمعتز فى يوم الجمعة الرابع من المحرم بتنازل الخليفة المستعين ومبايعة المعتز بالله (الزبير بن المتوكل) بالخلافة وتسلم منه شعارها وهو البردة والقضيب والخاتم فكانت مدة المستعين ثلاث سنوات وتسعة أشهر.

* غضب المعتز على القائدين التركيين وصيف وبغا الصغير وأمر بإسقاطهما ولم يلبث أن تراجع خوفاً من الجند الأتراك.

* تجددت اضطرابات الجند والعامة ببغداد إلى أن قبض على زعيمهم عبدان ابن الموفق وصلب.

كانت الأمور معلنة له من قبل الرب لأنه يشهد له بذلك. فقال أني سمعت صوتا من السما قايلا وأنا في بيعة القديس «أبى مقار» أن القس ميخايل مستحق البطركيه.

ثم قامو جميعا ومضو إلى القصر وعرفو «حفصا» الذى جرى وما كانو فيه، وسألوه كتب كتاب إلى شيوخ وكهنة «وادى هبيب» لسلمو لهم أنبا ميخايل المذكور. فكتب لهم الكتب وأخذوها وخرجو من عنده.

---

* أرسل الخليفة إلى واسط تحرسه كوكبة من الفرسان وكان قد اشترط تأمينه، خلع نفسه، ولم يلبث المعتز أن تنكر لكتاب الأمان فسير المستعين من واسط إلى القاطول حيث قتل في شهر شوال، وكان المستعين ابن ثلاث وثلاثين حين قتل.

* خلع المعتز أخاه المؤيد من ولاية العهد واتهمه بالتآمر عليه فحبسه وتوفى في سجنه قتيلاً (٢٢ رجب)، كما أرسل المعتز أخاه أبا أحمد إلى السجن.

* توفى القاضى عبدالله بن عمر الكرجى عن خمس وأربعين.

سنة ٢٥٣ هجرية

افتتحت السنة بيوم السبت الموافق ١١ يناير ٨٦٧.

* تولى إمارة مصر مزاحم بن خاقان التركى (أخو الفتح الوزير) خلفاً ليزيد ابن عبد الله الذى تولاها عشر سنين فأعلن مزاحم الحرب على الخارجين على الحكم فى الشرقية والبحيرة والفيوم.

* تولى وزارة المعتز أحمد بن أبى اسرائيل الأنبارى خلفاً لأبى فضل الاسكافى.

* ثار الجند على وصيف الخادم مطالبين بارزاقهم واغتالوه فجعل المعتز ما كان له لبغا الشرابى الذى ألبسه التاج والوشاحين.

كان الرب يسوع المسيح قد حرك مقدمى وادى هبيب لسبب جرى فخرجو من البريه وصحبتهم القس ميخايل المذكور. وكان السبب انهم اجتمعو وتشاورو قايلين ان «القاسم» الظالم أضعف علينا الخراج والجزيه فوق طاقتنا وقد وصل ملك جديد فنمضى إليه وندعو له ونهنيه بالقدوم ونتوكل على الله ونسأله أن يزيل عنا الظلم. فوصلو فى اليوم التالت عشر من توت إلى الجزيره، وفى اليوم المذكور خرجو الرسل بالكتب متوجهين إلى البريه،

---

* غزا الصائفة محمد بن معاذ ودخل أرض الروم من جهة ملطية فأسر وقتل.

* خسف القمر فى ذى القعدة من السنة.

* وافق هذا التاريخ مقتل الامبراطور البيزنطى توفيل (ثيوفيلوس الثانى) على يد باسيل المقدونى.

سنة ٢٥٤ هجرية

الأول من المحرم وافق يوم الخميس الأول من يناير ٨٦٨م.

* تولى إمرة مصر فى هذه السنة أربعة هم: مزاحم بن خاقان الذى توفى فى شهر المحرم فخلفه ابنه أحمد بن مزاحم الذى توفى فى شهر ربيع الثانى، فخلفه صاحب الشرطة أرغور (أو أرخوز) التركى حتى شهر رمضان، وفيه أقطع المعتز حكم مصر قائده التركى بايكباك زوج أم أحمد بن طولون الذى أرسل ابن زوجته إلى مصر نائبا عنه (٢٣ رمضان).

* عاود أهل ماردة بالأندلس العصيان على الأمير محمد بن عبدالرحمن الأموى الذى خرج اليهم حتى انقادوا إلى الطاعة فنقلهم وأموالهم إلى قرطبة وهدم سور ماردة.

* لقى القائد التركى بغا الشرابى مصرعه فبذلك تخلص الخليفة من مناوئ خطير له، حتى أن الخليفة أعطى قاتله عشرة الاف دينار.

فلما عدو البحر لقو شيوخ الرهبان وأبا ميخايل معهم الذى سارو لأجله. فلما رأوه تعجبو عجبا عظيما وبهتو وفرحو جدا وتعجب كل أحد منهم مما فعله السيد المسيح. فأخذوه ومضو به إلى قصر الملك وجميع كهنة مصر صارخون بين يديه بالقرا[ء]ة حتى وصلو إلى القصر وهم يقولون: قد أرسل الرب لنا الراعى المأمون الذى هو مرقس الجديد. فلما أعلمو «حفصا» بما كان تعجب جدا

---

* توفى في المحرم من السنة أمير مصر مزاحم بن خاقان وكانت ولايته سنة واحدة وخلفه ابنه الذى توفى بعد ثلاثة أشهر من نفس السنة.

سنة ٢٥٥ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الاثنين ٢٠ ديسمبر ٨٦٨م.

* شهدت السنة خلع خليفة وتولية خليفة، ففى السابع والعشرين من رجب إجتمع زعماء الأتراك وعلى رأسهم صالح بن وصيف وأجبروا الخليفة المعتز على خلع نفسه وانتهوا إلى تعذيبه حتى منعوا عنه الماء فكانت ولايته ثلاث سنين وستة أشهر.

* بويع بالخلافة العباسية ببغداد محمد المهتدى بالله ابن الخليفة الواثق، وله من العمر سبع وثلاثون، أمه أم ولد رومية يقال لها قرب.

* شهدت السنة مقدمات فتنة الزنج بالبصرة.

* تولى وزارة المهتدى ابن جعفر الإسكافى الذى فرضه الأتراك على سلفه ثم عزله بسليمان بن وهب وهو من كبار الكتاب فى عصره.

* قبض الأتراك على قبيحة أم المعتز وصادروا أموالها ونفوها إلى مكة.

* توفى في رجب من السنة الخليفة المعتز بعد أيام من خلع نفسه وله أربع وعشرون سنة.

ودق يدا على يد وقال: تبارك الله الاه النصارى قد فعل أفعالا نتعجب منها وقال لهم: هذا الرجل الذى اصطفاه الله لكم أن يكون لكم أبا خذوه وأمضو به بسلام. فتقدم إليه أنبا تادرس أسقف الكرسى ودعا للأمير وسار معه. وكان الشعب يقطعون من ثيابه للبركه. ولما كان فى الغد وهو الرابع عشر من توت ركبو الأساقفه المراكب وانحدرو إلى اسكندريه فى ليلة السادس عشر من

---

* توفى في هذه السنة بالبصرة إمام اللغة والأدب عمرو بن بحر الجاحظ عن اثنين وتسعين قيل قتلته كتب وقعت على رأسه، اليه تنسب الفرقة الجاحظية من المعتزلة من مؤلفاته كتاب «البيان والتبين» وكتاب «المحاسن والأضداد» وكتاب «البخلاء».

* توفى أمير صقلية خفاجة بن سفيان فاتح سرقسطة، قتله أحد الجند إغتيالاً، وقد دامت إمارته سبع سنوات وخلفه ابنه محمد بإجماع أهل صقلية.

سنة ٢٥٦ هجرية

أهل المحرم يوم الجمعة الموافق ٩ ديسمبر ٨٦٩م.

* جلس على عرش الخلافة العباسية فى هذه السنة خليفتان، أولهما الخليفة المهتدى حتى خلعه الجند الأتراك فى رجب من السنة، وثانيهما الخليفة المعتمد على الله بن المتوكل وهو الخامس عشر من خلفاء بنى العباس، أمه أم ولد إسمها فتيان، بويع يوم ١٨ رجب وله من العمر خمس وعشرون.

* إستولى أمير صقلية الجديد محمد بن خفاجة على جزيرة مالطة من البيزنطيين بعد هزيمة الأسطول الذى أرسل لحمايتها وقد أضيف حكمها إلى إمارة صقلية واستمرت تبعيتها ٢٢٠ سنة حتى استخلصها النورمان.

توت، فخرج إليه خلق كتير. ولما وصلو به شوارع المدينه ومعهم شمع وصلبان وأناجيل نزل عليهم مطر أقام تلته ايام وتلته ليالي يسكب، وان جميع القبايل باسكندريه قالو هذا الرجل من الله، قد مضت سنتان ولم ينزل مطر فى هذه المدينه ومبارك دخول هذا الرجل مدينتا. وأوسموه في اليوم السابع عشر من توت.

ونريد الآن نذكر يسيرا من أفعاله في الرهبانيه

---

* وقع الخلاف بين زعماء الجند الأتراك وفيه قتل صالح بن وصيف متهماً باغتيال الخليفة المعتز وسلب أموال أم الخليفة.

* لقى الخليفة المهتدى العباسي حتفه في قتال مع الثائرين عليه من الجند الأتراك وله من العمر ٣٢ سنة ولم تدم خلافته سوى أحد عشر شهراً.

* توفى بنواحى سمرقند الامام الحافظ أبو عبدالله البخارى عن اثنين وستين وهو أشهر رواة الحديث يعرف كتابه الجامع الصحيح باسم صحيح البخارى وله كتاب «الضعفاء» أى ضعفاء المحدثين.

* توفى ببغداد الطبيب السريانى المستعرب بختيشوع بن جبرئيل ابن بختيشوع الذى خدم أربعة من الخلفاء أولهم الواثق، له كتاب الحجامة.

سنة ٢٥٧ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأربعاء ٢٩ نوفمبر ٨٧٠م.

* تطورت ثورة الزنج التى بدأت أحداثها منذ سنين ابان خلافة المهتدى بإقليم البطائح وتزعمها مدعى علوى، فى هذه السنة وصلت طلائعها إلى البصرة كما استولوا على الأبلة وعبدان والأهواز، فأنفذ الخليفة لحربهم سعيداً الحاجب.

وعجايبه قبل أن يكون بطركا ولن نخاف من التطويل لأن كل شي له مقدار كما قالت الكتب، غير أنني قد ذكرتها في كتاب سيرته خارج عن هذه السيره.

ثم مضى إلى الرب الطوباني اتناسيوس بانطاكيه وأجلس الملك «هشام» [مكانه] رجلا مؤمنا اسمه يوحنا. ومات هشام وضبط الملك [بعده] إنسان اسمه الوليد(*) بن يزيد بن عبد الملك، وكان جنسه يبغضه، فبدى بني مدينه على اسمه في

(*) وفاة الخليفة هشام وتولى الوليد بن يزيد بن عبدالملك الخلافة.

---

* عقد الخليفة المعتمد لأخيه أحمد الموفق على العراق (الكوفة وبغداد وواسط والبصرة والأهواز) وعلى الحجاز واليمن وفارس وما وراء النهر.

* امتد سلطان يعقوب بن الليث الصفار إلى فارس وبلخ وكابل وبست والسند بعد أن كتب له الموفق بولايتها.

* هرع الاسطول البيزنطى الذى أرسله الامبراطور باسيل الأول لنجدة جزيرة مالطة وتحريرها من الحكم العربى وألقوا الحصار حول الجزيرة فأنفذ اليهم محمد ابن خفاجة أمير صقلية إسطولاً ضخماً ما أن دخل مياه الجزيرة حتى إنسحب الاسطول البيزنطى عائداً الى القسطنطينية.

* توفى فى هذه السنة مؤرخ مصر عبدالرحمن بن عبدالحكم عن سبعين عاماً إشتهر بكتابة «فتوح مصر والمغرب» أى مصر وشمال افريقية والأندلس وهو من أمهات المراجع فى موضوعه، مطبوع متداول.

* توفى أمير صقلية محمد بن خفاجة فاتح مالطة كان قد خلف أباه خفاجة ابن سفيان قبل عامين، توفى كلاهما إغتيالا.

البـريه ويجعـل اسـمـه عليـهـا، وكـان الما [ء] بعـيـدا منها خمسة عشر ميلا، وجمع الناس للسخره من كل موضع وبنى فيها بيد قويه، ومن كثرة الناس كـان كل يوم يموت فـيـهـا جمـاعـه من قلة الما[ء]. وكـان يحـمـل لهـا الما [ء] ألف ومـايتـان جـمـل ومـا يكفـيـهـم كل يوم. وكـانت الجـمـال فـريقين ستـمـايه تحمل يوما وستـمـايه تحـمل غدا. فـوثب عليـه رجـل اسـمــه «إبراهيم» فـقـتـله واخـذ الملك منه واطلق الاسارى، فمضى كل واحد منهم إلى موضعه.

سنة ٢٥٨ هجرية

استهلت السنة بيوم السبت الموافق ١٨ نوفمبر ٨٧١م.

* خرج أبو أحمد الموفق أخو الخليفة إلى حرب الزنج بعد هزيمة ومقتل منصور ابن جعفر عامل الأهواز وسار الجيش يرافقه اسطول نهرى وفى المعارك التمهيدية قتل مفلح أحد قواد الموفق كما قتل يحيى البحرانى قائد صاحب الزنج وانحاز الموفق إلى واسط.

* انتشر الوباء فى هذه السنة فى العراق لاسيما فى الجنوب وهلك فيه خلق كثير، كما تعرض الاقليم لموجة من الزلازل فمات خلق كثير تحت الردم.

* إستقل أحمد بن طولون بحكم مصر بعد وفاة يازكوج التركى.

ولاة مصر من عمرو بن العاص حتى بداية الطولونيين(*).

١ . ولاية عمرو بن العاصى

حدثنا عبد الملك بن يحيى بن عبد الله بن بكيرقال: حدثنى أبى،

عن الليث بن سعد قال: أقام عمرو بن العاص محاصر الحصن إلى أن فتحه سبعة أشهر.

(*) انظر كتاب: ولاة مصر لمحمد بن يوسف الكندى. تحقيق: د حسين نصار . سلسلة الذخائر ٦٦ الهيئة العامة لقصور الثقافة . القاهرة ٢٠٠١ .

ولى آخر فى أرض مصر اسمه «حسان بن عتاهية»(*). هذا إبراهيم هو ابن عمه. وفى نسخة اخرى عيسى بن أبى عطا كاتب «لأسامه»، وهو عارف بجميع أعمال «أسامه». وكانت مصر قبل ولايته لها كثيرة الذهب والدينار مع الناس كالدرهم فى ذلك الزمان، فلما وصل إليها نزل عليها وبا عظيم فى أيامه حتى أن العجل الصغير دفع فيه عشرون دينارا، فعرّفه وكلايه وأصحابه بذلك قال: أنا أعرف أعمال أهل مصر ان عشت

(*) حسان بن عتاهية تولى على مصر من قبل مروان ابن محمد فى ٢١ مارس ٧٤٤م = ١١ جماد الثانى ١٢٧هـ. فثار عليه الجند العرب وطردوه فارسل الخليفة محله حفص ابن الوليد لثالث مرة على مصر. ولكن الجند العرب ثاروا عليه كذلك فارسل الخليفة حوثرة بن سهيل واليا عليها فدخلها وقبض على المناهضين له وقتلهم وكذلك قتل حفص ابن الوليد. انظر الهامش السفلى ص٣٨٤.

وحدثنى يحيى بن أبى معاوية التجيبى قال: حدثنى خلف بن ربيعة الحضرمى، عن أبيه، عن ابن لهيعة.

عن يزيد بن أبى حبيب قال: فتحت مصر فى يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين.

وحدثنا على بن الحسن بن قديد وأبو سلمة قالا: حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح، عن أبيه، عن ابن لهيعة.

عن يزيد بن أبى حبيب قال: كان عدة الجيش الذى مع عمرو، الذين فتحوا مصر، خمسة عشر ألفا وخمس مئة.

وقال عبد ا لرحمن بن سعيد بن مقلاص:

كان الذين جرت سهامهم فى الحصن من المسلمين اثنى عشر ألفا وثلاث مئة، بعد من أصيب منهم فى الحصار بالقتل والموت.

وقال سعيد بن عفير عن أشياخه:

لما حاز المسلمون الحصن بما فيه، أجمع عمرو على المسير إلى الإسكندرية. فسار إليها فى ربيع الأول سنة عشرين.

وحاصر عمرو الإسكندرية ثلاثة أشهر، ثم فتحها عنوة، وهو الفتح الأول. ويقال: بل فتحها مستهل سنة إحدى وعشرين. ثم سار عمرو إلى أنطابلس - وهى برقة - فافتتحها

انا ادعهم يشترون التور بدينارين. وخسر أهل مصر خسارات عظيمات وانزل عليهم بلايا وتعب وأباعو الناس بهايمهم واولادهم.

وكان بمصر صبى مسلم اسمه «رجا»(*) فحشد جماعه وأخذ المملكه، وكان «حفص» الوالي مساعدا له، ومضوا إلى «حسان»(*) يريدون قتله، فهرب منهم إلى دمشق. وأمر «حفص» أن يصلى كلمن بمصر وأعمالها بصلاة السنه،

(*) تمرد ابن رجا ضد الخلافة.

(*) هروب الوالى حسان بن عتاهية أمام جنود ابن رجا.

بصلح فى آخر سنة إحدى وعشرين. ثم مضى منها إلى أطرابلس ، فافتتحها عنوة سنة اثنتين وعشرين. وقال الليث بن سعد فى تاريخه: فتحها سنة ثلاث وعشرين.

قال : وقدم عمرو بن العاص على عمر بن الخطاب قدمتين. قال ابن عفير: استخلف فى إحداهما زكرياء بن جهم العبدرى(*)، وفى القدمة الثانية ابنه عبد الله بن عمرو.

وتوفى أمرى المؤمنين عمر فى ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين، وبايع المسلمون أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى الله عنه. فوفد عليه عمرو بن العاص. فسأله عزل عبد الله بن سعد بن أبى سرح العامرى عن صعيد مصر، وكان عمر ولاه الصعيد قبل موته. فامتنع عثمان من ذلك، وعقد لعبد الله بن سعد ابن أبى سرح على مصر كلها. فكانت ولاية عمرو على مصر صلاتها وخراجها، ومنذ افتتحها إلى أن صرف عنها، أربع سنين وأشهراً . فكان علىٌ شرطة فى ولايته هذه كلها خارجة بن حذافة بن غانم بن عامر بن عبد اله بن عبيد بن عويج بن عدى بن كعب ، فى قول الأشياخ، إلا أن سعيد بن عفير قال: دخل عمرو مصر، وعلى شرطته زكرياء بن جهم بن قيس بن عبد شرحبيل ابن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار. قال : ثم عزله وجعل مكانه خارجة ابن حذافة.

(*) استخلفه علي الجند فقط، واستخلف مجاهد بن جبر مولي بن نوفل ابن عبد مناف على الخراج (فتوح مصر ١٧٨، ١٧٩).

وكلمن يتخلى عن دينه ويكون مسلما لا تؤخذ منه بعدا جزيه لانها كانت على الناس كلهم. ولأجل هذه الخصله أضل الشيطان خلايق من المصريين النصارى فتخلو عن دينهم ومنهم من اكتتب وصار من العسكريه. وكان الأب البطرك أنبا ميخايل ينظر هذا وهو حزين باك لنظره من يجحد السيد المسيح. ومن أجل ذلك خرجت الأساقفه من كراسيهم ومضو إلى البريه إلى الديارات وتضرعو أمام الرب بالصلوات.

---

٢. ولاية عبد الله بن سعد(*).

ابن أبى سرح الحسام بن الحارث بن حبيب بن جذيمة(١) بن نصر ابن مالك بن حسل بن عامر بن لؤى بن غالب. وأمه مهانة بنت جابر من الأشعريين

ثم وليها عبد الله بن سعد من قبل أمير المؤمنين عثمان.

حدثنا الحسن بن محمد المدينى قال: حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير

عن الليث بن سعد: أن عثمان لما ولى أمر هذه الأمة، وعمرو بن العاص على مصر كلها إلا الصعيد، فإن عمر بن الخطاب ولى الصعيد عبد الله بن سعد. فطمع عمرو لما رأى من لين عثمان أن (٢). [يعزل له عبد الله بن سعد عن الصعيد، فوفد إليه وكلمه فى ذلك. فقال له عثمان: ولاه عمر بن الخطاب الصعيد، وليس بينه وبينه حرم ولاخاصة، وقد علمت أنه أخى من الرضاعة، فكيف أعزله عما ولاه غيرى؟! فغضب عمرو وقال: لست راجعاً إلا على ذلك.

(*) الخطط ١ : ٢٢٩، والنجوم ١ : ٧٩، وحسن المحاضرة ٢ : ٣.

(١) كذا فى التهذيب والنجوم، وفى الأصل : خزيمة.

(٢) الكلام متصل فى الأصل، بدون التكملة التى بين القوسين، واضطرابه وفساده واضحان. ويبدو أن صفحة زاغت من بصر الناسخ، من لفظ «أن» إلى «أن» الثانية. وجئت بالتكملة من فتوح مصر لابن عبد الحكم ١٧٣ ـ ١٧٥، وكلها من قول الليث بن سعد، الذى يروى عنه المؤلف الخبر.

ثم أن الأب أنبا «مويسيس» أسقف «وسيم» مسكوه بكرسيه أولاده لم يمكنوه أن يمضى إلى موضع بل يصلى على رعيته ليلا يخطفهم الديب من بيعته.

وكان فى الجيزه وأعمال مصر يفتقد حال أولاده كل وقت، واذ قوم ارتدكسيون من أراخنة مصر حضرو عنده وهم حزان وقالو له: يا أبانا صل علينا واجتهد فقد أحصينا من انتقل إلى دين الإسلام من أخوتنا بنى المعموديه من مصر

فكتب عثمان بن عفان إلى عبد الله بن سعد يؤمرة على مصر كلها. فجاءه الكتاب بالفيوم. فجعل لأهل أطواب[1] جعلاً على أن يصبحوا به الفسطاط فى مركبه، وكان الذى جعل لهم كما يزعم آل عبد الله بن سعد خمسة دنانير. قال الليث: فقدموا به الفسطاط قبل الصبح، فأرسل إلى المؤ ذن، فأقام الصلاة حين طلع الفجر، وعبد الله بن عمرو ينتظر المؤذن يدعوه إلى الصلاة، لأنه خليفة أبيه. فاستنكر الإقامة فقيل له: صلى عبد الله بن سعد بالناس. وآل عبد الله يزعمون أن عبد الله بن سعد أقبل من غربى المسجد بين يديه شمعة، وأقبل عبد الله بن عمرو من نحو داره بين يديه شمعة، فالتقت الشمعتان عند القبلة. قال الليث فى حديثه: : فأقبل عبد الله بن عمرو حتى وقف على عبد الله ابن سعد، فقال: هذا بغيك ودسك! فقال عبد الله بن سعد: ما فعلت، وقد كنت أنت وأبوك تحسدانى على الصعيد، فتعال حتى أوليك الصعيد، وأولى أباك أسفل الأرض، ولا أحسدكما عليه.

وجاءت الروم، عليهم منويل الخصى، فى المراكب حتى أرسوا بالإسكندرية. فأجابهم من بها من الروم، ولم يكن المقوقس تحرك ولا نكث. فلما نزلت الروم الإسكندرية سأله أهل مصر عثمان أن] يرد عمرو بن العاص لمحاربة منويل، ومعرفته بحر بهم، وطول ممارسته له. فرده والياً على الإسكندرية فحارب الروم بها حتى افتتحها، وعبد الله بن سعد مقيم بالفسطاط على ولايته، حتى فتحت الإسكندرية الفتح الثانى عنوة سنة خمس وعشرين.

---

(١) أطواب : قرية من عمل البهنسا.

وأعمالها على يدى هذا الوالى أربعه وعشرين ألف إنسان(*). فقال لهم الأب: يا أولادى آمنو أن فى هذا الشهر تنظرون باعينكم هذا الوالى الكافر حفصا يحرق جسده بالنار فى وسط فسطاط مصر ويقتل رجا بالسيف، فتمت نبوة الأب سرعه. وكان هذا القديس يشفى المرضى باسم السيد يسوع المسيح وأعطى التوبه. ثم أن الملك انفذ أميرا إلى مصر ومعه خمسة آلاف مقاتل ليقاتلو «حفصا»

(*) تحول أربعة وعشرين الف انسان إلى الاسلام على عهد الوالى حفص المتولى من قبل ابن رجا.

ثم جمع لعبد الله بن سعد أمر مصر كلها: صلاتها وخراجها. فجعل على شرطته [السائب بن][1] هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث بن حبيب بن جذيمة بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤى. ومكث عبد الله بن سعد عليها أميراً، ولاية عثمان كلها، محموداً فى ولايته. وغزا ثلاث غزوات، كلها لها شأن وذكر. فغزا إفريقية سنة سبع وعشرين، وقتل ملكهم جرجير. فيقال إن الذى قتله معاوية بن حديج [2]، وصار سلبه (اسلابه) إليه.

(١) ساقط من الأصل، والذى تولى الشرطة السائب لا أبوه هشام، وهو الذى شهد فتح مصر وتولى القضاء بها أيضا. انظر ف ٢٣٣، ن٨٣، ٩٢طى١: ٣٠٥٧، وأسد الغابة ٢٥٧ وغيرها ومن كتب الطبقات. وسياق النسب فى الكتب المذكورة على النحو المذكور، وفى الأصل: هشام ابن كنافة بن عمرو بن الحصين بن ربيعة..

وبالنسبة للرموز الواردة فى هوامش هذا المتن فهى كالأتى:-

ص = مخطوط المتحف البريطانى لكتاب ولاة مصر لمحمد بن يوسف الكندى. ر= طبعة رفن كست للمخطوط السابق. ك= طبعة كونيج للمخطوط السابق. خ = خطط المقريزى. طبعة بولاق. ن = النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى. طبعة دار الكتب. ى= معجم البلدان لياقوت. طبعة وستفلد. ط = تاريخ الطبرى. طبعة اوربا. ث = الكامل لابن الأثير. طبعة اوربا. ت = تاج العروس للزبيدى. د = سيرة احمد بن طولون لابن الداية. طبع اوربا. ب = سيرة أحمد بن طولون للبلوى. طبعة كرد على. ف = فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم. طبع ليدن. س = حسن المحاضرة للسيوطى. مطبعة الوطن ١٢٩٩هـ. ع = العيون الدعج فى حلى دولة بنى طغج. طبعة اوربا.

(٢) ف: وكان الذى ولى قتله فيما يزعمون عبد الله بن الزبير.

وكان اسم الأمير «حوثره»(*) فملك مملكة مصر وأعمالها وأحرق «حفصا» بالنار وقتل «رجا» بالسيف. وأخذ جميع أموالهما كما تنبأ الطوباني، ونزع الولايه منهما لأنهما طردا «حسانا» منها وتسلطا عليها بغير أمره، وانفذ أمرهما إلى الملك.

(*) وصول حوثرة بن سهيل بقوة عسكريه كبيره إلى مصر واليا عليها من قبل مروان ابن محمد بعد أن اغتصب الخلافة من ابراهيم ابن الوليد: وذلك في يوم ٢١ مارس ٧٤٤م = ١١ جماد الثاني ١٢٧هـ.

وعادت المملكة لحسان. لأجل ذلك وكان قد حكم بالحق مثل سليمان، وهو محب للبيع والأساقفه والرهبان، وكان يحب البطرك أنبا خايل وكان يحضره ويتحدث معه دفعات شتى عند

وحدثنا [١]. ابن قديد، عن عبيد الله بن سعيد، عن أبيه قال: حدثني ابن لهيعة قال: حدثني أبو الأسود.

عن أبي أويس مولاهم قال: «غزونا مع عبد الله بن سعد إفريقية، في خلافة عثمان، سنة سبع وعشرين. فبلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار، والراجل ألف دينار».

وغزا عبد الله بن سعد غزوة الأساود، حتى بلغ دمقلة[٢]. ذلك في سنة إحدى وثلاثين. فقاتلهم قتالاً شديداً. وأصيب يومئذ عين معاوية بن حديج، وعين أبي شمر[٣] بن أبرهة بن الصباح، [وعين][٤]. حيويل بن ناشرة. فهادنهم عبد الله بن سعد، فقال شاعرهم:

لَم تَرَ عَيْنِي مِثْلَ يومِ دُمْقُلَةْ   وَالخَيْلُ تعدو بالدُروعِ مُثقَلَةْ

فحدثني ابن قديد، عن عبيد الله بن سعيد، عن أبيه، عن ابن لهيعة.

عن يزيد بن أبي حبيب أنه قال: «ليس بين أهل مصر والأساود عهد، وانما كانت هدنة أمان بعضنا من بعض، نعطيهم شيئاً من قمح وعدس، ويعطونا رقيقاً».

قال ابن لهيعة : «لا بأس بما يشترى من رقيقهم: منهم ومن غيرهم».

قال ابن لهيعة: وسمعت يزيد بن أبي حبيب يقول: «كان أبي من سبي دمقلة».

---

(١) ر: وحدثني.   (٢) هي دنقلة الآن.

(٣) كذا في ف، والإصابة ٧: ٩٩، وفي الأصل: أبو سهم. تحريف. وهو أبو شعر بن أبرهة ابن شر حبيل بن أبرهة بن الصباح الحميرى الصحابي.

(٤) زيادة يقتضيها السياق.

مضيه إليه من أول بطركيته. وأما «حوثره» من بعد ما جرى أقام بمصر وجيشه. وكان محبا للارتدكسيين، وكان ينزل بوسيم وجميع جيشه تلتة سنين. ويشاور الأب أنبا مويسيس لأجل خلاص نفسه. وكان اضطراب كثير في المملكه البرانية (*) وبينهم قتال ويقتلون واحدا بعد واحد حتى ان الملك منهم لا يقيم سنه كامله إلا ويقتل. حتى قام انسان يعرف بمروان ملك تلك الترك وجا[ء] بجيشه فاخذ المملكه بقوة وساد عليها

(*) المملكة البرانية: يقصد هنا بقية بلاد الخلافة الاموية خارج مصر.

وغزا عبد الله بن سعد أيضاً ذا الصواري، في سنة أربع وثلاثين. وفلقيهم قسطنطين بن هرقل في ألف مركب، ويقال: في سبع مئة. والمسلمون في مئة مركب أو نحوها. فهزم الله الروم. وانما سميت غزوة ذي الصواري، لكثرة صواري المراكب واجتماعها.

وأمر عبد الله بن سعد، في إمرانه، بتحويل مصلى عمرو بن العاصي، كان يقابل اليحموم[1]. فحوله إلى موضعه اليوم المعروف بالمصلى القديم.

حدثنا ابن قديد قال: حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم قال: حدثنا هاني بن المتوكل، عن ابن لهيعة، ورشدين بن سعد [2]،، عن الحسن بن ثوبان.

عن حسين بن شفي [3]،، عن أبيه «أنه لما قدم مصر، وأهل مصر قد اتخذوا مصلى بحذاء ساقية أبي عون التي عند العسكر[4].. فقال: مالهم وضعوا مصلاهم في الجبل المقروف الملعون، وتركوا الجبل المقدس [5].؟ قال الحسن ابن ثوبان: فقدموا مصلاهم إلى موضعه الذي هو به اليوم».

(١) اليحموم: جبل مطل على القاهرة من شرقيها الشمالي. وفي ك: النجوم تحريف.

(٢) كذا في ف (١٥٨)، وتويده الروايات التالية عنه، وفي ك، ر: راشد بن سعد.

(٣) الحسين بن شفي بن ماتع الأصبحي، مات سنة ١٢٩. وف ر: حسين بن سقي، خطأ.

(٤) كذا في ف، خـ (٢: ٤٥٤)، ن (١: ٣٢٦)، وفي الأصل: المعسكر.

(٥) المقروف: الملعون، ويذهب ك إلى أن الكلمة مضرب عليها. ويريد بالجبل الملعون اليحموم، أما الجبل المقدس فهو المقطم. وانظر خـ ١٠: ٥ب١٢)وف (١٥٦) ون (١: ٣٠، ٣٦، ٣٧) ومعجم البلدان لياقوت، وغيرها.

بذراع قويه مثل فرعون، ولم يقدر احد على مقاومته حتى ابادهم بالسيف. وكان كل سنه يسفك دما كتيرا لكلمن يقاتله.

وكان في بيته شماس خلقدونى اسعه تاوفيلكتس [تاوفيليكا] صايغ يصوغ الذهب لاهله ويسيالهم [يسألهم] ان يأخذوا له درجه من الملك بجعله بطركا على أصحابه اليونانيين لنه [لأنه] لم يكن لهم بطرك في ذلك الزمان، ففعل له ذلك سرعة وصيروه بطركا على الخلقدونيين.

ووفد عبد الله بن سعد إلى أمير المؤمنين عثمان، حين حين تكلم الناس بالطعن على عثمان واستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهنى، في قول الليث وغيرة. وقال يزيد بن أبى حبيب: استخلف عليها السائب بن هشام بن عمرو العامرى [١].. وجعل على خراجها سليم بن عتر التجيبى[٢].. وكانت وفادته في وجوه الجند، في رجب سنة خمس وثلاثين.

٣. محمد بن أبى حذيفة(*).

ابن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف

ثم انتزى [٣]. محمد بن أبى حذيفة، في شوال سنة خمس وثلاثين، على عقبة ابن عامرخليفة عبد الله بن سعد، فأخرجه من الفسطاط، ودعا إلى خلع عثمان، وحرض عليه بكل شئ يقدر عليه، وأسعر البلاد.

حدثنا الحسن بن محمد المدينى [٤].قال: حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير قال: حدثنى

(١) كذا في ن (١: ٨٣، ٩٢) ف (٢٣٣) ط (١: ٣٠٥٧) وفي الأصل: السائب بن هشام بن كنانة العامرى.
(٢) كذا في ن (١: ٩٢)، وفي الأصل: سليمان بن عمر، خطأ. وأبو سلمة سليم بن عتر التجيبى، قاضى مصر وقاصها وناسكها، وهو أول من قص بمصر، وأول من سجل سجلا في المواريث، وتولى القضاء عشرين سنة، ومات سنة ٧٥.
(*) الخطط (١: ٣٠٠)، والنجوم (١: ٩٤) وحسن المحاضرة (٢: ٣)، وغيرها من الكتب.
(٣) انتزى: وثب. (٤) ك: المدنى

وقامت السلامة والهدو بمصر خمس سنين، ثم انهم اخرجوه من مصر وولو انسانا اسمه عبدالملك بن موسى بن نصير من جنس «حسان»(*) اليهودى وكان قد جا [ء] من المغرب، وكان يبغض النصارى جدا ومعه تكبر عظيم، وانزل تعبا عظيما على اهل مصر، واظهر امورا عظيمه بمصر، واخذ «لمروان» الذهب والفضه والنحاس والحديد وكل شى يجده. وكان يفعل ذلك بمشورة رجل سو يتعلم هذه الأفعال من الشيطان، وكان

(*) عزل حوثرة وتولى عبد الملك ابن مروان سنة ٧٥٠م.

انظر الهامش السفلى ص٣٩٥.

الليث، عن عبد الكريم بن الحارث الحضرمي: «ان ابن أبى حذيفة كان يكتب الكتب على ألسنة أزواج النبى صلى الله عليه وسلم. ثم يأخذ الرواحل فيضمرها، ثم يأخذ الرجال الذين يريد أن يبعث لذلك معهم فيجعلهم على ظهور البيوت، فيستقبلون بوجوهم الشمس لتلوحهم تلويح المسافر. ثم يأمرهم أن يخرجوا إلى طريق المدينة بمصر. ثم [يرسلون(١)] رسلاً يخبرون بهم الناس ليلقوهم، وقد أمرهم إذا لقيهم الناس أن يقولوا: ليس عندنا خبر، الخبر فى الكتب. ثم يخرج محمد بن أبى حذيفة [والناس(٢)] كأنه يتلقى رسل أزواج النبى، عليه السلام، فإذا لقوهم قالوا: لا خبر عندنا، عليكم بالمسجد. فيقرأ عليهم كتب أزواج النبى. فيجتمع الناس فى المسجد اجتماعاً ليس فيه تقصير. ثم يقوم القارئ بالكتاب فيقول: إنا لنشكو إلى الله وإليكم ما عمل فى الإسلام، ما صنع فى الإسلام. فيقوم (٣) أولئك الشيوخ من نواحى المسجد بالبكاء. ثم يقول ثم ينزل عن المنبر. وينفر الناس بما قرئ عليهم».

فلما رأت ذلك شيعة عثمان، اعتزلوا محمد بن أبى حذيفة ونابذوه (٤)، وهو معاوية بن

(١) مابين الأقواس زيادة تناسب السياق عن الخطط ٢٠: ٣٣٥).
(٢) مابين الأقواس زيادة تناسب السياق عن الخطط ٢٠: ٣٣٥).
(٣) كذا فى خـ، ر، وفى الأصل: فيقول، تحريف.
(٤) كذا فى خـ، وفى الأصل: وبارزوه، ولامعنى لها هنا.

ريسا على جميع صنايع مصر وامور المملكه اسمه «عبدالرحيم» وأنتهى بغيه إلى ما لم يسمع بمثله، وهو انه اخذ الاطن [دهانات](*) وعقاقير اخلط جميعها ودهن بها مراكب الأسطول لكى إذا وقع على المراكب النار من الروم لا تحترق، وكان ذلك مما نظرت بعينى وقد ضربت المراكب بالنار فلم تحترق بل تطفى النار للوقت.

(*) دهان للسفن يمنع عنها النيران.

وكانو تجار البلاد اليونان يصلون ببضايعهم

حديج، وخارجة بن حذافة، وبسر بن أبى أرطاة، ومسلمة ابن مخلد الأنصارى، وعمرو بن قحزم الخولانى [1]، ومقسم بن ابجرة، وحمزه بن سرح بن كلال، وأبو الكنودا [2] سعد بن مالك الأزدى، وخالد ابن ثابت الفهمى [3]، فى جمع كثير ليس لهم من الذكر ما لهؤلاء وبعثوا سلمة ابن مخزمة[4] التجيبى ثم أحد بنى زميلة إلى عثمان، ليخبره بأمرهم، وبصنيع ابن أبى حذيفة.

حدثنا العباس بن محمد قال: حدثنا عمرو بن سواد قال أخبرنا ابن وهب قال: حدثنى ابن لهيعة، عن يزيد بن أبى حبيب، عن ربيعة بن لقيط قال:

سمعت سلمة بن مخزمة قال: «لما انتزى ابن أبى حذيفة بمصر بخلع عثمان، دعا الناس إلى أعطياتهم. قال: فأبيت أن آخذ منه، فقدر لى أنى ركبت إلى عثمان،فقلت: يا أمير المؤمنين، إن ابن أبى حذيفة إمام ضلالة كما قد علمت، وإنه انتزى عليك بمصر، فدعانا إلى أعطياتنا، فأبيت أن آخذ منه. قال: قد عجزت، إنما هو حقك».

(١) ك: عمرو بن حزم الخولانى، خطأ.
(٢) مابين القوسين زيادة من خـ، سقطت من الأصل.
(٣) كذا فى ر، خـ. وفى الأصل ، ك: القهرى. وانظر س١ : ١١٣ .
(٤) كذا فى ر، ك. وفى خـ: مخرمة، بالراء.

فجمعو مالا بينهم ودفعوه لمروان وسألوه ان يدعهم ينون بيع بمصر، فاجابهم وأصحاب «تاوفيلكتس» الخلقدوني ويدعى «قسما» قالوا له ان لنا كنايس كثيرا بمصر تغلبو عليها «التاوضوسيون» يعني «القبط» عند اخذ مُلك الروم وليس لنا بيعه، نسأل ان يكتب لنا الملك كتبا على ايدينا إلى مصر بان تسلم لنا بيعة «أبى مينا»(*) «بمريوط» لنتقرب فيها لأن كان لها اسم وعجايب كتير واوقاف فى كل موضوع. فاخذ «تاوفيلكتس» الكتب إلى

(*) خلاف حاد بين القبط والخلقدنيون على بيعة أبى مينا بمريوط.

وبعث أمير المؤمنين عثمان سعد بن أبى وقاص إليهم ليصلح أمرهم.

فحدثني محمد بن عبد الوارث بن جرير قال: حدثنا ياسين بن عبد الأحد بن الليث قال: حدثني أبى، عن يحيى بن أيوب.

عن يزيد بن أبى حبيب: «ان محمد بن أبى حذيفة لما انتزى على عثمان، بعث سعد بن أبى وقاص إلى أهل مصر يعطيهم ما سألوا. فبلغ ذلك ابن أبى حذيفة، فخطبهم ثم قال: ألا إن الكذاب كذا وكذا قد بعث إليكم سعد بن مالك ليقل جماعتكم، ويشتت كلمتكم، ويوقع التخاذل فيكم [1]، فانفروا إليه. فخرج إليه منهم بمئة أو نحوها. فلقوه بمرحلة بنى سعد، وقد ضرب فسطاطه، وهو قائل. فقلبوا [2] عليه فسطاطه، وشجوه، وسبوه. فركب راحلته وعاد راحلاً من حيث جاء، وقال لهم ضربكم الله بالذل والفرقة، وشتت أمركم، وجعل بأسكم بينكم، ولا أرضاكم بأمير [3] ولا أرضاه عنكم».

حدثني محمد بن موسى الحضرمي قال: حدثني أحمد بن يحيى بن عميرة الجذامي قال: حدثنا عبد الله بن يوسف، عن ابن لهيعة،

(١) خـ (٢: ٣٣٥) ليفل جماعتكم.. ويوقع التجادل بينكم.
(٢) كذا فى خـ، ر. وفى الأصل، ك: فليقلبوا
(٣) كذا فى خـ،ر. وفى الأصل، ك: بأمر.

«عبدالملك بن موسى بن نصير» بأن يكشف الحال بين اليعاقبه والخلقدونيين ويحققو من بنى هذه البيعه ويسلموها إليه. فلما وقف على الكتب من عند «مروان» انفذ اميرا إلى اسكندريه وتقدم باحضار البطركين اليعقوبى والخلقدونى. وكان الصوم(*) قد قرب، فامر بإحضارهما، ولما وصل انبا خايل إلى وسيم خرج إليه الأسقف أنبا «مويسيس» وسار معه إلى ان وصل إلى «عبدالملك»، وكان معنا الأسقف أنبا «تادرس»

(*) يراعى المصريون القبط صوما طويلاً شاقا. وهم يصومون ثلاثة أيام قبل «الصوم الكبير» بأسبوع. ويراعى بعض الاقباط هذا الصوم بالحرمان التام مدة ثلاثة ليال، ويراعيه آخرون كما يراعون أيام..

- -

عن يزيد بن أبى حبيب قال: «انتزى محمد بن أبى حذيفة على الإمارة فأمر على مصر، وتابعه أهل مصر طرا، وإلا أن يكون عصابة، منهم معاوية ابن خديج، وبسر بن أبى أرطاة».

وحدثنى ابن قديد، عن عبيد الله بن سعيد، عن أبيه، عن ابن لهيعة.

عن يزيد بن أبى حبيب قال: «وأقبل عبد الله بن سعد حتى إذا بلغ جسر القلزم وجد به خيلاً لابن أبى حذيفة، فمنعوه أن يدخل. فقال: ويلكم! دعونى أدخل على جندى، فأعلمهم(١) بما جئت به، فإنى قد جئتهم بخير. فأبوا أن يدعوه، فقال: والله لوددت أنى دخلت عليهم فأعلمتهم بما جئت به ثم مت. فانصرف إلى عسقلان، وكره أن يرجع إلى عثمان. فقتل عثمان، وهو بعسقلان، ثم مات بها.

وأجمع محمد بن أبى حذيفة على بعث جيش إلى عثمان.

فحدثنى محمد بن موسى قالك حدثنا أحمد بن يحيى بن عميرة قال:

حدثنا عبد الله بن يوسف قال: «من يشترط (٢) فى هذا البعث؟ فكثر عليه من يشترط. فقال: إنما يكفينا منكم ست مئة رجل. فاشترط من أهل مصر ست مئة رجل، على كل مئة منهم رئيس، وعلى جماعتهم عبد الرحمن بن عديس البلوى، وهو كنانة بن بشر بن

(١) كذا ر، خـ. وفى ك: فأعلم.
(٢) خـ (٢: ٣٣٥): يتشرط فى السياق كله.

أسقف مصر، الذى كان قبل اسقفيته أرشيد ياقن بيعة القديس «ابى مقار» «بوادى هبيب»، وكنا نحضر إلى القصر مع الخلقدونيين كل يوم، واقمنا كذلك أربعين يوم الصوم من باكر إلى اخر النهار، وكان اسقف الروم يمضى معنا «وقسما» بطركهم. وكان الأسقف المذكور يبغض اهل ملته وقال انا ما جيت إلى ان اجعل للثالوث رابعا، وكان اسمه «قسطنطين» ومعه شماس يسمى «انسطاسيوس» من بيعة الملكيه باسكندريه. وجمع «عبدالملك»

ـ الصوم الاخرى أهمها «الصوم الكبير» المشار عليه سابقاً، محددا في الأصل بأربعين يوما، غير أن البطاركه المختلفين جعلوه بالتدريج خمسة وخمسون يوما. ويمتنع الأقباط أثناء هذه الفترة، ماعدا يومين منها أذكرهما فيما بعد عن أى طعام حيواني مثل البيض واللحوم واللبن والزبد والجبن، ويأكلون الخبز والخضروات فقط (الفول خاصة) بالزيت غير الحار، أو زيت السمسم، والبصاره، و«الدقة».

سلمان[١] التجيبى، وعروة بن شييم[٢] الليثى، وأبو ا عمروا بن بديل بن ورقاء الخزاعى، وسودان بن أبى رومان[٣] الأصبحى، وذرع بن يشكر اليافعى[٤]».

قال يزيد بن أبى حبيب: «وسجن رجال من أهل مصر فى دورهم: منهم بسر بن أبى أرطاة، ومعاوية بن حديج. فبعث ابن أبى حذيفة إلى معاوية بن حديج، وهو أرمد[٥]، ليكرهه على البيعة. فلما رأى ذلك كنانة بن بشر، وكان رأس الشيعة الأولى، دفع عن معاوية بن حديج ما كره».

ثم قتل عثمان،رحمه الله، وكان قتله فى ذى الحجة سنة خمس وثلاثين. ثم إن الركب انصرفوا إلى مصر. فلما دخلوا الفسطاط ارتجز مرتجزهم.

خُذْها إلَيْكَ واحذَرَنْ أبا حَسَن[٦]

(١) خـ: سليمان واختلف المؤرخون في أسماء هؤلاء الرؤساء جميعاً، وانظر ط ١٠: ٣٥) ث (٣: ١٢٥) وغيرهما.
(٢) خـ: سليم. ر، ك: شيم.و الصواب ما أثبتناه عن ق، ء.
(٣) خـ: سودان بن ريان. ط، ث: سودان بن حمران.
(٤) ر: درع. خ: زرع.. النافعى. ط: زرع.
(٥) كذا في خـ، وفي ك، ر: أرمل ولا معنى لها هنا.
(٦) كذا ر، خـ (٢: ٣٣٥)، وابن دريد: الاشتقاق ٢٤٦. وفي ك، والأصل: واحذروا.

الملكيين وقرا عليهم الكتاب وكشف عن الحق وجرى من الخصومه قدامه امر عظيم، وكانو الأرتدكسيون ظافرين بالخلقدونيين وما يخاطبون به من الكتب المقدسة حتى ان «عبدالملك» تعجب، ثم احضر صاحب ديوانه وكان رجلا مسلما تحت يده ديوانان، ورجلا أخر اسمه «عيسى بن عامر» وسلمهم له ليطول روحه عليهم ويسمع كلامهم ويعرفه، وامر أن يكتب كل منا ما يقوله فى كتاب. فمضو الخلقدونيون سرا إلى دار عيسى وحملو إليه

وتفتح الكنائس لإقامة القداس مدة الصوم. ولايتناول الاقباط شيئا بعد العشاء إلى مابعد الصلوات الكنسية فى اليوم التالى ظهرا تقريبا، ولكنهم لا يفعلون ذلك فى أيام الصوم الاخرى.
وهم يراعون مع ذلك بدقة مماثلة تقريباً، ثلاث فترات صوم أخرى:
الأولى : «صوم الميلاد» ومدته ثمانية وعشرون يوما تسبق عيد الميلاد مباشرة، أى شهر كيهك كله ماعدا اليومين الأخيرين.
الثانية : «صوم الرسل». ويقع بين

إنّا نُمِـرّ الحـرْبَ إمْـرارَ الرّسَن[١]
بالسّـيفِ كَيْ تَخْـمدَ نيـرانُ الفـتَن[٢]

قال يزيد بن أبى حبيب: «فلما دخلوا المسجد صاحوا: إنا لسنا قتلة عثمان، ولكن الله قتله. فلما رأى ذلك شيعة عثمان قاموا وعقدوا لمعاوية بن حديج عليهم، وبايعوه. فكان أول من بايع على الطلب بدم عثمان، وفيهم يحيى بن يعمر الرعيسى ثم العبلى. فسار بهم معاوية بن حديج إلى الصعيد. فبعث إليهم ابن أبى حذيفة خيلاً. فالتقوا بدقناش[٣] من كورة البهنسا. فهزم أصحاب ابن أبى حذيفة. ومضى معاوية بن حديج حتى بلغ برقة، ثم رجع إلى الإسكندرية.

ثم إن ابن حذيفة أمر بجيش آخر، عليهم قيس بن حرمل اللخمى، وفيهم ابن الجثما البلوى. فاقتتلوا بخربتا[٤] أول يوم من شهر رمضان سنة ست وثلاثين. فقتل قيس بن حرمل وابن الجثما وأصحابهما.

(١) كذا ر، خـ. وفى ك، والأصل : إنما نمر. والرسن: الحبل . ومره: فتله.
(٢) كذا خـ، وفى ر: تخمد. وفى ك، والأصل : تحمد نيران الوسن.
(٣) فى الأصل: بدقياس. وترسم على ثلاث صور: دقناش، ودقناس، ودقانس؛ ومكانها الآن حوض دقناش بأراضى ناحية مزورة من مركز ببا بمديرية بنى سويف.
(٤) خربتا: من مركز النجيلة بمديرية البحيرة الآن.

هدايا ليساعدهم فيما يلتمسونه، فجمع الأب البطرك انبا خايل اساقفته وكتب كتابا مملو من كل حكمه ونعمة الله وكلام كتب الله المقدسه، وما كان من بنا [ء] البيعه للشهيد مارى مينا وما لقيه اباونا البطاركه من التعب والنفى من الخلقدونيين واخذ البيع منهم بيد ملوك الروم، وكتبو ذلك قبطيا وعربيا، فلما اجتمعو دفعو ذلك إلى عيسى المذكور فقرا وتعجب من الفاظه، ثم احضر الخلقدونيون كتاب طوله شبر فيه

عيد الصعود والخامس من أبيب. وهو ذكرى لصوم الرسل بعد أن فقدوا سيدهم.
الثالثة: «صوم العدراه ومدته خمسة عشر يوما سابقة على عيد رفع العدرا للسماء. ويصوم الاقباط أيضاً كل أربعاء وجمعة في أي فترة أخرى من السنة ماعدا الخمسين يوماً اللاحقة للصوم الكبير مباشرة. أي من انتهاء الصوم الكبير إلى آخر الخماسين. وفي أيام الاربعاء والجمعة هذه يتناولون السمك والخضر والزيت فقط.

وسار معاوية بن أبي سفيان إلى مصر، فنزل سلمنت من كورة عين شمس، في شوال سنة ست وثلاثين. فخرج إليه ابن أبي حذيفة وأهل مصر، ليمنعوا معاوية وأصحابة أن يدخلوها. فبعث إليه معاوية: إنا لا نريد قتال أحد، إنما[١] جئنا نسأل القود بدم عثمان؛ ادفعواإلينا قاتليه: عبد الرحمن بن عديس، وكنانة بن بشر، وهما رأسا القوم. فامتنع ابن أبي حذيفة وقال: لو طلبت منا جدياً رطب السرة بعثمان[٢] ما دفعناه إليك. فقال معاوية بن أبي سفيان لابن أبي حذيفة: اجعل بيننا وبينكم رهناً، فلا يكون بيننا وبينكم حرب. فقال ابن أبي حذيفة: فإني أرضى بذلك.

فاستخلف ابن أبي حذيفة على مصر الحكم بن الصلت بن مخرمة بن المطلب ابن عبد مناف. وخرج في الرهن هو وابن عديس. وكنانة بن بشر، وأبو شمر[٣] بن أبرهة الصباح، وغيرهم من قتلة عثمان. فلما بلغوا لد، سجنهم معاوية بها، وسار إلى دمشق . فهربوا من السجن إلا أبا شمر[٣]بن أبرهة، فقال: لا أدخله أسيراً وأخرج منه آبقا[٤]. وتبعهم صاحب فلسطين فقتلهم. فأتبع عبد الرحمن بن عديس رجل من الفرس، فقال له عبد الرحمن: اتق

(١) كذا ر، خـ. وفي الأصل ، ك: إنا.
(٢) كذا ر، خـ . وفي الأصل ، ك: رطبا لعثمان . تحريف.
(٣) كذا خـ، وهو الصحيح كما سبق. وفي ر، ك : أبو شمس. تحريف
(٤) كذا خـ، ر. وفي الأصل ، ك: أيضاً. تحريف.

كلمـتـان فلمـا قـراه ضـحك وهز رأسـه، ثـم قـرى الكتابان علانيه، وكل الحاضرين يسمعون ما فيها. فقال له أبونا البطرك أنبا خايل: أيها السيد الكاتب مـا يجب ان نجـعل اعـدانا الذين ليس لهـم الاه يسمعون كلامنا فيجعلوه لهم حجه فيما بعد. فـقـال: انا اقـر الكتـاب. وانما فـعل ذلك بمكـر ومراعاة لهم لجل البرطيل.

والذى كان فى كتاب الأب البطرك المغبوط هو

ويتبع كل صوم عيد. وللأقباط سبعة أعياد كبيرة: أولا، «عيد الميلاد» فى ٢٩ كيهك = ٧يناير. ثانيا: «عيد الغطاس». وفى «طوبه (١٨ أو ١٩ يناير)، ذكرى تعميد المسيح.
ثالثا: «عيد البشارة». فى ٢٩ برمهات (٦أبريل). رابعاً: «عيد الشعانين» أحد السعف قبل عيد الفصح. خامساً: «عيد القيامة» أو الفصح أو العيد الكبير. سادساً: «عيد الصعود». سابعاً: «عيدالعنصره».

الله فى دمى، فإنى بايعت النبى، صلى الله عليه وسلم، تحت الشجرة! فقال له: الشجر فى الصحرا كتير. وقتله».

وأخبرنى ابن قديد، عن يحيى بن عثمان بن صالح، عن ابن عفير، عن الليث قال: «قال محمد بن أبى حذيفة فى الليلة التى قتل فى صباحها: هذه الليلة التى قتل فى صباحها عثمان، فإن يكن القصاص لعثمان فسنقتل فى غد. فقتل فى الغد».

وكان قتل ابن أبى حذيفة، وابن عديس، وكنانة بن بشر، ومن كا ن معهم فى الرهن، فى ذى الحجة سنة ست وثلاثين.

٤. ولاية قيس بن سعد(*)

ابن عبادة بن دُليم بن حارثة بن أبى حزيمة[1] بن ثعلبة

ابن طريف بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج

ثم وليها قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى، من قبل أمير المؤمنين على ابن أبى طالب رضى

(*) الخطط (١: ٣٠٠)، والنجوم (١: ٩٥)، وحسن المحاضرة (٢: ٤)، وغيرها من كتب الصحابة.

(١) كذا فى ت، ر. وطبقات ابن سعد ٣(٢): ١٤٢، وأسد الغابة لابن الأثير (٢: ٢٨٣). وفى ك، والأصل، والاستيعاب لابن عبد البر أبى خزيمة، بالخاء خطأ. وفى تهذيب الأسماء للنووى ٢٧٤، وأسد الغابة والإصابة (٣: ٨٠): حارثة بن حزام بن حزيمة.

وتقام الصلوات في الكنائس في أول هذه الاعياد وثانيها وخامسها ليلاً، أي في الليلة السابقة على يوم العيد.

ذا نذكر بعضه: خايل بنعمة الله اسقف مدينة اسكندريه والشعب التاوضوسي، إلى السادة [الملوك] من اجل بيعة الجليل مارى مينا بمريوط، وكان في ذلك الزمان [السابق] الملوك المومنون المحبون لله ارغاديوس وانوريوس على عهد الأب القديس تاوفيلس البطرك، ابتدا بعمارة [بيعة الجليل] يوحنا المعمدان، فلما كملها بنى بيعة أبى مينا بمريوط وبيعة اخرى على اسم تاوضوسيوس بن أرغاديوس الملك الذى ساعده على بنا البيع،

الله عنه؛ لما بلغه مصاب ابن أبى حذيفة بعثه عليها، وجمع له الصلاة والخراج. فدخلها مستهل شهر ربيع الأول سنة سبع وثلاثين. فجعل على شرطته السائب بن هشام بن عمرو[١]. فاستمال قيس بن سعد الخارجية بخربتا، وبعث إليهم أعطياتهم. ووفد عليه [٢] وفدهم، فأكرمهم وأحسن إليهم.

فحدثني محمد بن موسى الحضرمى قال: حدثنا أحمد بن يحيى بن عميرة قال: حدثنا عبد الله بن يوسف، عن ابن لهيعة، عن يونس بن يزيد،

عن ابن شهاب قال: «كانت مصر من جيش على، فأمر عليها قيس بن سعد، وكان من ذوى الرأى والبأس[٣]، إلا ما غلب عليه من أمر الفتنة. فكان معاوية وعمرو جاهدين أن يخرجاه من مصر. فتغلب[٤] على أمرها، وكان قد امتنع منهما بالدهاء والمكايدة، فلم يقدرا على أن يلجا (يدخلا) مصر حتى كاد معاوية قيساً من قبل على. فكان معاوية يحدث رجالاً من ذوى الرأى من قريش، فيقول: ما ابتدعت من مكايدة قط أعجب إلى من مكايدة كدت

(١) في الأصل : بن كنانة ،كما سبق.
(٢)في الأصل : عليهم.
(٣) كذا ر، ك، ط (١: ٣٢٤١)، وفى الأصل : من الناس.
(٤) خـ (٢ : ٣٣٦) : ليغلبا على أمرها.

ولما تنيح تاوفيلس صار كلمن جا بعده ينى فيها قليلا قليلا إلى أيام طيماتاوس البطرك فهو الذى كملها. وبعد هذا اتى ملك شيطان اسمه مرقيان وهو الذى قسم البيعه بامانته الفاسدة، ونفا الأب الجليل ديسقرس البطرك المجاهد عن امانة آبايه المستقيمه واخذ امانة جديده مرذوله، وساعده على ذلك لاون بطرك روميه الذى احرمه ديمقرس البطرك واحرم أقواله الطمثه المملوه كفرا، وفعل الملك المذكور باولاد البيعه الأرتدكسيه افعال قبيحه

بها قيس بن سعد، حين[1] امتنع منى قيس، قلت لأهل الشام: لا تسبوا قيسا ولا تدعوا إلى غزوه، فإن قيسا لنا شيعة، تأتينا كتبه ونصيحته ا سرا[2]، ألا ترون ماذا يفعل بإخوانكم النازلين عنده بخربتا، يجرى عليهم أعطياتهم وأرزاقهم، ويؤمن سربهم، ويحسن إلى كل راكب يأتيه منهم.

قال معاوية: وطفقت أكتب بذلك إلى شيعتي من أهل العراق، فسمع بذلك جواسيس على بالعراق، فأنهاه إليه محمد بن أبي بكر الصديق وعبد الله بن جعفر، فاتهم قيسا، فبعث إليه يأمره بقتال أهل خربتا، وبخربتا يومئذ عشرة آلاف، فأبى قيس أن يقاتلهم، وكتب إلى على: «إنهم وجوه أهل مصر وأشرافهم وأهل الحفاظ، وقد رضوا منى بأن أؤمن سربهم، وأجرى عليهم أعطياتهم وأرزاقهم، وقد علمت أن هواهم مع معاوية، فلست مكايدهم بأمر أهون من الذى أفعل بهم، وهم أسود العرب، منهم بسر بن أبى أرطاة، ومسلمة بن مخلد، ومعاوية بن حديج»، فأبى عليه إلا قتالهم فأبى قيس أن يقاتلهم، وكتب إلى على: «إن كنت تتهمنى فاعزلنى ، وابعث غيرى». فبعث الأشتر.

(١) كذا خـ، ر. وفي الأصل ، ك: حتى. تحريف.
(٢) زيادة عن خـ، ن.

فظلم كثيرا وقتل منهم وطرد ونفا وقاسو منه شدايد عظيمه، ولم يزل معهم هكذا مظلومين إلى ان صارت المملكه للساده المسلمين وإلى الان نحن معهم متخاصمين.

هكذا يسير من كتير مما تضمنه كتاب الاب الجليل أنبا خايل البطرك. واما الخلقدونيين فكتبو وقالو: فى البدايه كان الملك لنا والكنايس وجميع مالها لنا وإنما المسلمون سلموها للقبط عند تغلبهم على ديار مصر.

حدثنا حسن المدينى [1] قال: حدثنا يحيى بن بكير، عن الليث.

عن عبد الكريم بن الحارث قال: لما ثقل مكان قيس على معاوية كتب إلى بعض بنى أمية بالمدينة: «أن جزى الله قيس بن سعد خيراً، فإنه قد كف عن إخواننا من أهل مصر، الذين قاتلوا فى دم عثمان. واكتموا ذلك، فإنى أخاف إن يعزله على إن بلغه ما بينه وبين شيعتنا» حتى بلغ علياً. فقال من معه من رؤساء أهل العراق وأهل المدينة: بدل قيس وتحول. فقال على: ويحكم! إنه لم يفعل، فدعونى. قالوا: لتعزلنه فإنه قد بدل. فلم يزالوا به حتى كتب إليه: «إنى قد احتجت إلى قربك، فاستخلف على عملك، واقدم». فلما قرأ الكتاب قال: هذا من مكر معاوية، ولولا الكذب لكدت بمعاوية مكراً يدخل عليه بيته.

حدثنا أبوالعلى قال: حدثنا هشام بن عمار قال: حدثنا الجراح بن مليح قال: حدثنا أبو رافع.

عن قيس بن سعد قال: لولا أن سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: «المكر والخديعة فى النار» لكنت من أمكر الناس.

فوليها قيس بن سعد، إلى أن عزل عنها، أربعة أشهر وخمسة أيام صرف لخمس خلون من رجب سنة سبع وثلاثين.

(١) الأصل، ك: المدنى.

وكان عيسى لأجل البرطيل الذى اخذه منهم يريد ان يصدقهم ويكذب القبط، فقال: لا انتم ولا هم اتيتم بحجه فامضو واكتبو غير هذين الكتابين واحضروهم الينا. ففعلنا كقوله، فقال أيضا: ليس هذا كلام فامضو واكتبو غير هذين الكتابين. ولم يزل يدافعنا شهرا كاملا. فقال بعض الحاضرين لانبا مويسيس اسقف وسيم: الراى يدفع أبينا البطرك لهذا شيا لينصفنا من هولا المقاومين المعادين المعاندين. فقال له: يا ولدى ما يليق

---

٥. الأشتر(*)

مالك بن الحارث بن عبد يغوث بن مسلمة بن ربيعة بن الحارث

ابن جذيمة[١] بن سعد بن مالك بن النخع بن عمرو بن علة

ابن جلد[٢] بن مذحج

ثم وليها الأشتر مالك بن الحارث النخعى، من قبل أمير المؤمنين على فسار إليها حتى نزل القلزم، مستهل رجب سنة سبع وثلاثين.

فحدثنى على بن الحسن بن قديد قال: حدثنا هارون بن سعيد بن الهيثم قال: حدثنى خالد بن نزار، عن سفيان بن عيينة، عن مجالد، عن الشعبى،

عن عبد الله بن جعفر قال: «كنت إذا أردت أن لا يمنعنى على شيئا قلت: بحق جعفر، فقلت له: أسألك بحق جعفر ألا بعثت الأشتر إلى مصر، فإن ظفرت[٣] فهو الذى تحب، والا استرحت منه».

(*) الخطط (١: ٣٠٠)، والنجوم (١: ١٠٢)، وحسن المحاضرة (٢: ٦).
(١) الأصل، ك: حزيمة. واختلف فى ولاية الأشتر أكانت قبل محمد بن أبى بكر أم بعده. انظر ن (١: ١٠٢).
(٢) كذا ت، ر. وفى الأصل، ك: خلد.
(٣) خـ (٢: ٣٣٦): ظهرت.

بالبطاركه والأساقفه ان يدفعو البرطيل لحد. كما انهم لا يليق بهم اخذه من حد، وما أقمنا بعد سنه ولا سنتين ولا تلتين سنة صابرين مثل اباينا ونحن الان مقيمون في مواضعنا وكنايسنا بيدنا، والله ما يغفل عنا ولا يتخلى عن معونتنا.

وفي ذلك الأسبوع كافا الله أوليك المخالفين بصلوات أبينا، وعزل(*) ذلك الوالى عن كتابه وديوانه، وصار اخر عوضه رجل من اولاد قضاة المسلمين يسمى أبا الحسين وكان شيخا وديعا لا

(*) عزل عيسى الوالى وتولى أبا الحسن.

قال سفيان: وكان قد ثقل عليه وأبغضه وقلاه. قال: فولاه. وبعثه، وبعث معه طيرين لى من العرب، فلما قدم قلزم مصر لقى بها بما يلقى به العمال هنالك، فشرب شربة عسل فمات. فلما قدم طيراى أخبراني. فدخلت على على، فأخبرته، فقال: لليدين وللفم[1]

قال سفيان، عن عمرو بن دينار: إن عمرو بن العاص قال، لما بلغه موته: إن لله جنوداً فى عسل[2].

حدثنا حسن بن محمد المدينى [3] قال: حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير قال: حدثنى الليث.

عن عبد الكريم بن الحارث قال: «وبعث على مالك الأشتر على مصر. فلما قدم القلزم شرب شربة من عسل، فمات. فبلغ ذلك معاوية وعمرا، فقال عمرو: إن لله جنوداً من العسل».

حدثنى محمد بن موسى الحضرمى، قال: حدثنا أحمد بن يحيى بن عميرة، عن عبد الله بن يوسف، عن ابن لهيعة.

---

(١) لليدين وللفم: دعاء عليه بمعنى كبه الله على وجهه.
(٢) كذا فى الأصل، ك. وفى خـ، ن، ر: إن الله جنوداً من عسل، وان لله جنوداً من العسل.
(٣) ك: الحسن. المدنى.

يحابى احدا ولا يأخذ برطيلا، وكان حكيما فى كلامه يقطع بالحق فى قوله، فسلمونا له ليحكم بيننا وكانت اول حكومته انه قال: من هو أبو اليعاقبة فيكم؟ فاشارو الحاضرون إلى انبا خايل وقالو: هو ذا هو. ثم قال: [اين] أبو الملكيه. أورروه الاخر. فقال لانبا خايل: انت على امانة يعقوب اسقف اورشليم احد تلاميذ السيد المسيح؟ قال: نعم انا هو. ثم التفت إلى الاخر وقال: عرفنى أيها الشيخ من أبوك وما ملتك؟ قال له بطرك الملكيه:

عن يزيد بن أبى حبيب قال «بعث على مالك الأشتر أميراً على مصر. فسار يريد مصر حتى نزل جسر القلزم، فصلى حين نزل من راحلته. ودعا الله إن كان فى دخوله مصر خير أن يدخله إياها، والا لم يقض له بدخولها.

فشرب شربة من عسل فمات. فبلغ عمرو بن العاص موته، فقال: إن لله جنوداً من العسل.

حدثنا على بن سعيد قال: حدثنا سلم بن جنادة[1] قال: حدثنا أحمد بن بشير، عن مالك عن مجالد [2].

عن الشعبى قال: «لما بلغ علياً، رضى الله عنه، موت الأشتر قال: لليدين و للفم».

حدثنا موسى بن حسن بن موسى قال: حدثنا هارون بن أبى بردة قال: حدثنا نصر بن مزاحم قال: وفى حديث عمر بن سعيد، عن فضيل بن خديج [3]، عن إبراهيم بن يزيد،

عن علقمة بن قيس قال: «دخلت على على فى نفر من النخع، حين هلك الأشتر. فلما

(١) أبو السائب سلم بن جنادة السوانى العامرى الكوفى، وفى ر: سالم.
(٢) مجالد بن سعيد الكوفى، اختلف فى توثيقه، مات سنة ١٤٤هـ. وفى ر: مالك بن مجالد، وذلك خطأ لأن الذى يروى عن الشعبى هو مجالد نفسه.
(٣) كذا فى ميزان الاعتدال للذهبى (٣٣٤)، وط. وفى ر: حديج.

انا على امانة مرقيان الملك. فقال له القاضى: انت تومن بالملك وليس بالله؟ ثم قال له: قل لى أبو مذهبك من هو؟ ومن أين هو؟ حتى اعلم واحكم بينكم. فقال له: أبى الذى بدأ ووضع الأساس هو نسطور جمع مجمع بافسس وكان المقدم فيه كيرلس أبو هذا وكان معهم راهب من جبل ادريبا من أعمال أخميم واخروجوه من البيعه وساعدتهم الملكه فى ذلك الزمان، وبعد ذلك اقام الله مرقيان بسرعه لاون البطرك واجتمعا بنسطور ومن معه،

رآني قال: لله مالك ! لو كان جبلاً لكان من جبل فندا (١) ، ولو كان من حجر لكان صلداً! مثل مالك فلتبك البواكي! فهل موجود كمالك ؟! فوالله ما زال متلهفاً عليه ومتأسفاً حتى رأينا أنه المصاب دوننا وقالت سلمي أم الأسود بن الأسود النخعي ترثى مالكاً:

نَبا بي مَضْجَعي ونَبا بي وسادى ... وعَيْنى ما تَهُمّ إلى رُقادى
كَأنّ اللّيْلَ أوثقَ جانباهُ ... وَأوْسَطُهُ بأمْراسٍ شداد
أبَعْدَ الأشْتَرِ النّخَعى نَرْجو ... مُكاثَرةً وَنَقْطَعُ بطْنَ واد ؟(٢)
أكُرّ إذا الفَوارِسُ مُحْجِماتٌ ... وَأضْرِبُ حينَ تَخْتلِفُ الهَوادى(٣)

فقال المثنى يرثيه:

ألا ما لضَوْءِ الصّبْحِ أسْوَدُ حالكُ ... وَما للرَواسى زَعْزَعَتْها الدَكادكُ(٤)
وَما لهُمومِ النّفْسِ شَتىّ شُؤونُها ... تَظَلّ تُناجيها النّجومُ الشّوابكُ

(١) الفند: العظيم من الجبال.
(٢) كذا فى ص، ك. وجعله ر: ويقطع، ولا داعى لذلك.
(٣) هوادى الخيل: أعناقها. وأراد باختلافها اختلاطها وهجومها بعضها على بعض فى الحرب واختلاف وجهة كل منها.
(٤) الرواسى: الجبال. والدكدك: ما تكبس واستوى من الرمل، أو ما التبد منه بالأرض، أو أرض فيها غلظ، والجمع دكادك.

وملكا البيع فى كل موضع وولو اساقفه عليها إلى اليوم، واسقفنا باسكندريه كان ابروتاريوس قتلوه اسكندرانيون، فامر الملك بعسكر أنفذه إلى الاسكندريه وامرهم ان يقتلو بالسيف فقتلو تلتين ألف فى ساعة واحده. فلما سمع القاضى ذلك دق يدا على يد وقال لمن كان حوله: ما اعظم هذا الظلم فاجاب ابونا الروحانى قال للقاضى: هو ذا لنا شهران ونحن فى هذا الأمر، سلمنا الملك لعيسى بن عامر كما علمت أيها القاضى الذى

على مالكٍ فلْيبكِ ذو اللَّيْثِ مُعولاً ... إذا ذُكِرَتْ في الفَيْلقَيْن المعارِكُ

إذا ابتَدَرَ الخطيَّ وانتَدَبَ الملا ... وكانَ غياثَ القَوْمِ نصْرٌ مُواشكُ[1]

إذا ابْتَدَرَتْ يوْماً قبائلُ مَذْحِجٍ ... ونُودِي بها أينَ المُظَفَّرُ مالكُ؟

فلهفي عليْه حينَ تختلفُ القنا ... ويرْعَشُ للمَوْتِ الرِّجالُ الصَّعالكُ

ولَهْفي عليْه يوْمَ دبَّ لهُ الرَّدى ... وذيفَ لهُ سمٌّ منَ المَوْتِ حانكُ[2]

فلَوْ بارزوهُ يوْمَ يبْغونَ هُلْكَهُ ... لكانوا بإذْنِ اللهِ ميِّتٌ وهالكُ

ولوْ مارَسوهُ مارَسوا لَيْثَ غابَةٍ ... لهُ كالتي لا ترْقُدُ اللَّيْلَ، فاتكُ

فقُلْ لابنِ هنْدَ: لوْ مُنيتَ بمالكٍ ... وفي كفِّهِ ماضي الضَّريبَةِ باتكُ[3]

لألفَيْتَ هنداً تشْتكي علَنَ الرَّدى ... تنوحُ وتحْبوها النِّساءُ العَواتكُ[4]

واستخلف الأشتر على مصر حمام بن عامر اللخمى أبا الأكدر ابن حمام، وكان الأكدر وأبوه من شيعة على، وحضرا الدار[5] جميعا.

(١) ابتدر الخطى: أسرع إليه. والخطى: الرماح المنسوبة إلى ميناء الخط بالبحرين. وانتدب الملا: برزوا للقتال. والمواشك: السريع.

(٢) ذيف: خلط. وحانك: أسود. (٣) ماضى الضريبة: سيف حاد قاطع. وباتك: قاطع.

(٤) العواتك: الشريفات، أو المحمرات من الطيب، أو الناشزات على ازواجهن.

(٥) الدار: المراد بها دار عثمان، أى يوم مقتله.

يحبه الله من أجل أحكامه بالحق، وقد كتبنا كتبا ودفعناها لعيسى ولم يفصل امرنا، وهو يطلب منا ما لا نعرفه. فامر بإحضار كتب اليعاقبه والملكيين فقراها وفهم مضمونها واستعظم ما كان بينهما وأخذها ودخل بها إلى الملك، فقراها وتعجب أيضا وامر بنفاذ الحكم، وامضاه فخرج القاضى وقال لقسما: انت رجل ليس لك دين ولا الاه وهو ذا كتبك تشهد عليك ان البيعه لانبا خايل، وقد عرفنا ما كتبتم فامضو واكتبو غير هذه الكتب

---

٦. محمد بن أبي بكر الصديق (*)

عبد الله[١] بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد

ابن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب

ثم وليها محمد بن أبى بكر الصديق، ومن قبل أمير المؤمنين على، وجمع له صلاتها وخراجها. فدخلها للنصف من شهر رمضان سنة سبع وثلاثين. فجعل على شرطته عبد الله بن أبى حرملة البلوى.

فذكر بعض أشياخ مصر: أن قيساً لقى محمد بن أبى بكر فقال له: إنه لا يمنعنى نصحى لك ولأمير المؤمنين عزلهُ إياى، ولقد عزلنى من غير وهن ولا عجز، فاحفظ عني ما أوصيك به، يدم صلاح حالك: دع معاوية بن حديج ومسلمة بن مخلد وبسر بن أبى أرطاة ومن ضوى[٢] إليهم على ما هم إليه، تكفهم[٣] عن رأيهم، فإن أتوك ولم يفعلوا، فاقبلهم، وإن تخلفوا عليك[٤] فلا تطلبهم، وانظر هذا الحى من مضر، فأن أولى بهم منى: فألن لهم

(*) الخطط (١: ٣٠٠)، والنجوم (١: ١٠٦)، وحسن المحاضرة (٢: ٥).

(١) الأصل: ابن عبد الله. وهو خطأ لأن عبد الله اسم أبى بكر نفسه. وانظر ن(١: ١٠٦).

(٢) ضوى إليهم: انضم. (٣) خـ: لا تكفهم. وفى الأصل: تكشفهم.

(٤) كذا خـ. وفى ر: تخلفوا. وفى الأصل، ك: يختلفوا عليك.

وايتونى بها. فخرجنا من عنده. فعلمو الخلقدونيون انهم مغلوبون فقررو بينهم كلاما بمكر وانفذو إلينا وفدا وكان معهم قسطنطين اسقف مصر، فقال لانبا خايل: أبوتك تعلم ما جرى علينا باسكندريه بسبب الأمانه، ونحن نريد ان يكون بيننا وبينك اتفاق في البيعه ونعاهدك ونصير جميعا قطيعا واحدا، وارسل إلى الأب بذلك. فقال الطوباني انبا خايل للأساقفه: ماذا تقولون في ذلك ننفذ رسولا إليه ليسمع منطقه. فقالو: هو يفعل هذا بمكر

جناحك، وقرب عليهم مكانك، وارفع عنهم حجابك، وانظر هذا الحى من مدلج فدعهم وما غلبوا عليه، يكفوا عنك شأنهم، وأنزل الناس من بعد على قدر منازلهم، وإن استطعت أن تعود المرضى وتشهد الجنائز، فافعل، فإن هذا لا ينقصك، ولن تفعل، إنك والله ما علمت لتظهر الخيلاء،وتحب الرياسة، وتسارع إلى ماهو ساقط عنك، والله موفقك.

فعمل محمد بخلاف ما أوصاه قيس. فكتب إلى ابن حديج والخارجة معه يدعوهم إلى بيعته، فلم يجيبوه. فبعث بأبى عمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعى إلى دور الخارجة، فهدمها، ونهب أموالهم، وسجن ذراريهم. فبلغهم ذلك فنصبوا له الحرب، وهموا بالنهوض إليه. فلما علم أنه لا قوة له بهم، أمسك عنهم.

حدثنا الحسن بن محمد المدينى [١] قال: حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير، عن الليث.

عن عبد الكريم بن الحارث قال: «فصالحهم محمد على أن يسيرهم إلى معاوية، وأن ينصب لهم جسرا بنقيوس[٢]: يجوزون عليه ولا يدخلون الفسطاط. ففعلوا، ولحقوا بمعاوية».

(١) ك: المدنى.

(٢) تختلف صور اسمها بين نقيوس، ونقو، وانطقيوس، ونيقوس، ونيكرس، وانكرس، ونيـــو، وذهب جغرافيو الغرب إلى أنها البلدة التي تعرف اليوم باسم ابشادى، إحدى قرى مركز تلا بمحافظة الغربية، وكانت قبلاً تابعة للمنوفية، وذهب السيد محمد رمزى (مادة نقيوس) إلى أنها قد زالت ومحلها اليوم الكوم الأثرى الكائن بالجهة البحرية من سكن زاوية رزين بمركز منوف، المعروف عند الأهالى باسم كوم مانوس أو دقيانوس المحرفين عن نقيوس.

وخديعه. فقال لهم انبا مويسيس: يا أبهاتي في قلوبكم سبعة افكار كما هو مكتوب، افكرو في أمور لم تستطيعو اقامتها لكن نجربهم. فتقدم إلى قس كان كاتبه [اسمه مينا] وإلى انا البايس واضع هذه السيره(*) وانفدنا إليه لنسمع كلامه. فلما وصلنا إليهم خرجو للقانا بفرح، فلما جلسنا وخاطبه القس مينا من كلام الكتب، لنه [لانه] كان عالما فسمع منه كلام البطرك، وبدى بطرك الملكيه يتلو بأمانة ابائنا التلتماية والتمانيه عشر

(*) واضع هذه السيرة هو أبا جرجة كما جاء في مقدمتها.

وحدثني محمد بن موسى الحضرمي قال: حدثنا أحمد بن يحيى بن عميرة قال: حدثنا عبد الله بن يوسف قال: حدثنا عبد الله بن لهيعة.

عن يزيد بن أبي حبيب قال: «فبعث إلى ابن حديج حجر بن عدى الكندى بأمانه، وبعث محمد بن أبي بكر قيس بن سلامة التجيبي من بني فهم بن أبذى[1] فصنع لهم جسراً بنقيوس. فجاز منه ابن حديج وأصحابه، فلحقوا بمعاوية».

وحدثنا حسن المديني [2] قال: حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير قال: حدثني الليث.

عن عبد الكريم بن الحارث قال: «ولما أجمع علي ومعاوية على الحكمين أغفل علي أن يشترط على معاوية أن لا يقاتل أهل مصر. فلما انصرف علي إلى العراق، بعث معاوية عمرو بن العاص في جيوش أهل الشام إلى مصر[3]. فاقتتلوا قتالاً شديداً. فقال عمرو: وشهدت ثمانية عشر زحفاً براكاء [4]، فلم أر يوماً مثل المسناة. ثم انهزم أهل مصر. فدخل عمرو بأهل الشام الفسطاط. وتغيب محمد بن أبي بكر في غافق، فاواه رجل منهم. فأقبل معاوية بن

(١) ر: أذاء. وقال: غير واضح الكتابة في هذا الموضع، أثبتناه على ما وجدناه متكرراً فيما يأتي، ولعل أذاء هذا أبو البطن المسمى ببني أندا بن عدى بن تجيب، ذكر مرتين في هذا الكتاب والصحيح ما أثبته.
(٢) ك: المدني.
(٣) كذا في خـ. وفي الأصل: في جيوش إلى أهل الشام وإلى مصر.
(٤) القتال البراكاء: الذي يجثون فيه للركب ويقتتلون.

واتناسيوس وكيرلس وقرر الحال بإيمان عظيمه مخوفه معه ومع قسطنطين اسقف مصر الملكى واعترفو، وقال قسطنطين اسقف مصر الملكى: هذه امانتى قبل اليوم وأومن بها إلى النفس الأخير اتحاد واحد، الاه واحد، رب واحد، طبيعه واحده، وهو السيد يسوع المسيح ومن لا يومن هكذا فهو يهودى، ومن يقول طبيعتين(*) للواحد المسيح من بعد الاتحاد فهو غريب من الأب الابن والروح

(*) حول هذه الخلافات انظر الجزء الأول من ص ١٩٩ إلى ص ٤٣٤.

حديج، في رهط من يعينه على من كان مشى في عثمان، فطلب ابن أبي بكر . فوجدت أخت الرجل الغافقي الذي كان آواه، كانت ضعيفة العقل. فقالت: أى تلتمسون؟ ابن أبي بكر؟ أدلكم عليه ولا تقتلون أخي؟ فدلتهم عليه، فقال: احفظوني في أبي بكر. فقال معاوية بن حديج : قتلت من قومي ثمانين رجلاً في عثمان وأتركك، وأنت صاحبه ؟ فقتله ثم جعله في جيفة حمار ميت، فأحرقه بالنار».

حدثني محمد بن موسى الحضرمي قال: حدثنا أحمد بن يحيى بن عميرة قال: حدثنا عبد الله بن يوسف، عن ابن لهيعة.

عن يزيد بن أبي حبيب قال: «بعث معاوية عمرو بن العاص، في سنة ثمان وثلاثين، إلى مصر ومعه أهل دمشق، عليهم يزيد بن أسد البجلي، وعلى أهل فلسطين رجل من خثعم، ومعاوية بن حديج على الخارجة، وأبو الأعور السلمي على أهل الأردن. فساروا حتى قدموا أهل مصر. فاقتتلوا بالمسناة، وعلى أهل مصر محمد بن أبي بكر. فهزم أهل مصر، بعد قتل شديد في الفريقين جميعاً. قال عمرو: وشهدت أربعة وعشرين زحفاً، فلم أر يوماً كيوم المسناة، ولم أر الأبطال إلا يومئذ. فلما هزم أهل مصر، تغيب محمد بن أبي بكر. فأخبر معاوية بن حديج بمكانه، فمشى إليه فقتله، وقال: يقتل كنانة بن بشر، ويترك محمد بن أبي بكر؟ وانما أمرهما

القـدس، ويكون نصـيبـه مع يودس الدافع، فهـذه امانتى. فلما سمع انسطاسيوس ذلك غـضب ولم يقـدر ان يتكلـم، وكـان منتظرا لما يجـرى بعـد هذا. فـمـضينا إلى الأبا قلنا لهم كلمـا جرى، فـعـادونا اليهم وقالو لنا: قولو لهم هذا الذى قلتموه تكتبونه فى كتاب بخطوطكم. فلما عدنا إليهم [لم يكتبو] وقال قـسـما بطركهم: عندى كلمـة أخرى أريد أن أذكرها لكم. فقال له القس: لا تخف عنا شيا من

واحد. ثم أمر به معاوية بن حديج فجُر فمُر به على دار عمرو بن العاص، لما يعلم من كراهيته لقتله، ثم أمر به بجادا[١] التجيبى فأحرقه فى جيفة حمار».

وحدثنا ابن قديد، عن عبيد الله بن سعيد.

عن أبيه قال:« كان صاحب أمر الناس يوم المسناة قيس بن عدى بن خيـمة اللخمى، من راشدة. فلما انهزم أهل مصر، عاذوا بالحصن، فدخلوا فيه، وجعلوا أمرهم إلى قيس، وأغلقوا الحصن. فقيل لعمرو[٢]: إن هؤلاء قد استقتلوا، ولن تصل إليهم حتى ينكوا من معك. فأعطاهم عمرو ما أحبوا، فخرجوا على صلح».

حدثنى أبو سلمة أسامة التجيبى قال: حدثنى زيد بن أبى زيد، عن أحمد بن يحيى بن وزير، من إسحاق بن الفرات، عن يحيى بن أيوب.

عن يزيد بن أبى حبيب قال: «بعث معاوية بن حديج بسليم مولاه إلى المدينة، بشيرا بقتل محمد بن أبى بكر، ومعه قميص ابن أبى بكر. فدخل به دار عثمان، واجتمع آل عثمان من رجال ونساء وأظهروا السرور بقتله. وأمرت أم حبيبة ابنة أبى سفيان بكبش فشوى،و بعثت به إلى عائشة فقالت: هكذا شوى أخوك. قال: فلم تأكل عائشة شواء حتى لحقت بالله».

(١) كذا فى ر. وفى ك: محاد. والكلمة فى الأصل غير منقوطة.
(٢) فى الأصل : فقيل لهم، وسياق العبارة يدل على أن القول موجه لعمرو.

افكارك لان الله ينظر إلى القلب ليس إلى الوجه.
فقال: إذا استقر الاتحاد أى شى تفعلونه معى؟ فقال له القس مينا: عرفنا ما تريد. [قال] انا أريد إذا استقر الاتحاد ان يكون بيعتى وبيعتكم واحده باسكندريه، وإذا حضر ابوكم البطرك فى ايام القداسات كنت معه، فإذا اكمل الصلاة خرج كل منا إلى موضعه ولا يمنعنى احد ان احضر كل البيع كذلك هو هكذا. فقال له القس: هذا كلام

حدثنى موسى بن حسن بن موسى قال: حدثنا هارون بن أبى بردة قال: حدثنى نصر بن مزاحم، عن أبى مخنف قال:

حدثنى عبد الملك بن نوفل، عن أبيه قال: «ما أكلت عائشة شواء بعد محمد حتى لحقت بالله».

حدثنى موسى بن حسن قال: حدثنا حرملة بن يحيى قال: حدثنى أبى، ، عن رشدين قال: حدثنى سعيد بن يزيد القتبانى.

عن الحارث بن يزيد الحضرمى قال: حدثتنى أمى هند بنت شمس الحضرمية: «أنها رأت نائلة امرأة عثمان تقبل رجل معاوية بن حديج وتقول: بك أدركت ثارى من ابن الخثعمية. تعنى محمد بن أبى بكر».

حدثنا على بن سعيد قال: حدثنا إبراهيم بن عبد الله الهروى قال: حدثنا هشيم، عن عبد الرحمن بن يحيى.

عن سعيد بن عبد الرحمن: «أن أسماء ابنة عميس لما جاءها خبر محمد ابن أبى بكر أنه قتل وأحرق بالنار فى جيفة حمار، قامت إلى مسجدها فجلست فيه، وكظمت الغيظ حتى نشحت ثديها دماً».

وكانت وقعة المسناة فى صفر سنة ثمان وثلاثين. فكانت ولاية محمد بن أبى بكر عليها خمسة أشهر. وكان مقتله بها لأربع عشرة خلت من صفر سنةن ثمان وثلاثين.

فيه خديعه. فقال له قسما: ما تظن انت؟ فقال: امضى إلى أبي وأعود لك بالجواب. فلما سمعو الأساقفه ذلك صرخ ابا مويسيس وقال: سيدنا المسيح يوصينا ان لا نسمى لنا ابا في الأرض والان ان كان [ما] قالوه ما يرضيكم فأنا أقول. فقال له البطرك: قل. فقال: ان كان يرضى ان نجعله اسقفا على كورة مصر كلها ويصير لنا أخا وليس ابا فإن المسيح يحفظ لنا أبوتك لتحفظ بيعته المقدسه

---

٧. عمرو بن العاص(*)

الثانية(١)

ثم وليها عمرو بن العاص ولايته الثانية عليها، من قبل معاوية، استقبل بولايته شهر ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين، وجعل إليه الصلاة والخراج جميعاً وكانت مصر جعلت له طعمة بعد عطاء جندها، والنفقة على(٢) مصلحتها فجعل عمرو على شرطته خارجة بن حذافة بن غانم العدوى . ثم خرج عمرو للحكومة، واستخلف على مصر ابنه عبد الله بن عمرو. ويقال: استخلف خارجة بن حذافة.ورجع عمرو إلى مصر، فأقام بها.

وتعاقد بنو ملجم: عبد الرحمن، وقيس، ويزيد، على قتل على ومعاوية وعمرو، وتواعدوا لليلة (٣)من شهر رمضان سنة أربعين . فمضى كل واحد منهم إلى صاحبه. وكان يزيد هو صاحب عمرو. وعرضت لعمرو تلك الليلة علة منعته من حضور المسجد، فصلى خارجة بالناس. فشد عليه يزيد فضربه حتى قتله . فدخل به على عمرو، فقال له: أنا والله (٤) ما

(*) الخطط (١ :٣٠٠)، والنجوم (١ :١١٣)، وحسن المحاضرة (٢ :٦).

(١) أى ولايته الثانية، وهذه عادة المؤلف في التعبير عن تكرر الولاية.

(٢) خـ ١٠ :٣٠٠): في.

(٣) خـ (١ :٣٠٠): ليلة، و(٢ :٣٣٧): على ليلة.

(٤) خـ (١ :٣٠٠): أما والله.

فعلنا. فمضو إلى قسما واعلموه بهذا ففرح وطابت نفسه، فقال انسطاسيوس: ان تجعلونى انا أيضا اسقفا على كرسى ما. فقال له القس مينا: اليس تعلم ان كل انسان يطلب درجة ثانيه لا يصلح ان يكون اسقفا، وأهل مصر ما يساعدونك على هذا الكلام. فقال له انسطاسيوس: أن كان ما لا تفعلون فلا تتعبو ولا تتكلموا شيا من هذا. فخرجنا من عندهم.

أردت غيرك يا عمرو. قال عمرو: ولكن الله أراد خارجة. فجعل عمرو على شرطته بعد مقتل خارجة زكريا بن جهم بن قيس العبدرى.

وعقد عمرو بن العاص لشريك بن سمى الغطيفى على غزو لواتة من البربر. فغزاهم شريك فى سنة أربعين، فصالحهم. ثم انتقضوا بعد ذلك على عمرو بن العاص، فبعث إليهم عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهرى فى سنة إحدى وأربعين، فغزاهم.

فحدثنى على بن قديد، عن عبد الله بن سعيد بن عفير، عن أبيه، عن ابن لهيعة.

عن هبيرة قال: «كانت لواتة قد صولحوا، فكانوا على صلحهم حتى نقضوا زمن معاوية. فغزاهم عقبة بن نافع. فتنحوا ناحية أطرابلس، فقاتلهم عقبة حتى هزمهم. فسألوه أن يصالحهم ويعاهدهم. فأبى عليهم وقال: إنه ليس لمشرك عهد عندنا، إن الله، عز وجل، يقول فى كتابه: «كيف يكون للمشركين عهد» ولكن أبايعكم على أنكم توفونى ذامتى[1]، إن شئنا أقررناكم، وإن شئنا بعناكم».

وعقد عمرو لعقبة بن نافع على غزو هوارة، ولشريك بن سمى على غزو لبدة[2]، فغزواهما[3] فى سنة ثلاث وأربعين. فقفلا وعمرو شديد الدنف فى مرض موته.

(١) ذامتى: كلمتى. وفى ر: ذابتى، ولا معنى لها.
(٢) لبدة: بلدة بين برقة وافريقية (تونس)، أو طرابلس وجبل نفوسة.
(٣) كذا فى ر عن خـ (١: ٣٠١). وفى ص: فغزياها.

ثم حضرنا جميعا بعد هذا إلى عند «عبدالملك» وكان قد كتب ذلك اليوم كتابا إلى مصر وأعمالها يأمر أن يجمع إليه الكتاب والاراخنه من كل بلد واحضرهم، وكان القصر مشحونا بالناس حفلا حتى لم يكن أحد يسمع شيا من كترة الأصوات، فدخلنا نحن أيضا وحولنا خلق كتير. فلما جلسنا أنفرد قسطنطين الأسقف عنهم وجلس مع اساقفتنا وسألهم أن يقبلوه ويشركوه معهم ويعطوه كرسيا.

حدثنا حسن المديني قال: حدثني يحيى بن عبد الله بن بكير قال: حدثني ابن لهيعة.

عن يزيد بن أبي حبيب: أن عبد الرحمن بن شماسة حدثه: «أنه لما حضرت عمرو بن العاص الوفاة بكى. فقال له ابنه عبد الله بن عمرو: لم تبكي؟ أجزعا عن الموت؟ قال: لا والله ولكن مما بعده. فقال له: قد كنت على خير. فجعل يذكره صحبة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وفتوحه بالشام. فقال عمرو: تركت أفضل من ذلك كله: شهادة أن لا إله إلا الله».

حدثنا على بن قديد قال: حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم قال: حدثنا أبو زرعة وهب الله بن راشد قال: أخبرنا يونس عن ابن شهاب، عن حميد بن عبد الرحمن.

عن عبد الله بن عمرو: «أن عمرو بن العاص قال حين حضرته الوفاة: أى بنى، إذا مت فكفني في ثلاثة أثواب أزرنى فى أحدها، ثم شقوا لى الأرض شقاً، وسنوا[1] على التراب سناً، فإني مخاصم. قال: اللهم إنك أمرت بأمور ونهيت عن أمور، فتركنا كثيراً مما أمرت به، ووقعنا فى كثير مما نهيت عنه، اللهم لا إله إلا أنت. فلم يزل يرددها حتى قضى».

حدثنا على بن سعيد قال: حدثنى قعنب بن المحرز قال: حدثنا وهب بن جرير قال: حدثنا الأسود بن شيبان، عن أبى نوفل.

(١) سنه: صبه تفريق.

وكانت الجموع وأهل البلاد حولنا متطلعينى لمعرفة ما يستقر وينظرون أساقفه الارتدكسيين والخلقدونيه، فوثبو قوم من الصعيديين على قسطنطين لما علمو أنه خلقدونى ليطردوه، [فانشق ثوبه على تلته قطع وكل الحاضرين يشاهدوه] حتى رمو الأساقفه الارتدكسيون شيا من لباسهم [عليه] واخلطوه معهم وألا كادو الصعيديون يقتلونه، [وفيما هم كذلك واذا واحد خلقدونى

عن أبى عقرب قال: «لما جد[1] بعمرو بن العاص ،ضع يده موضع الأغلال من رقبته وقال: اللهم أمرتنا فتركنا، ونهيتنا فركبنا، ولا يسعنا إلا مغفرتك. فكانت تلك هجيراه حتى مات».

حدثنا أحمد بن الحارص بن مسكين قال: حدثنا ابن سعيد الهمدانى قال: حدثنا ابن وهب قال: أخبرنى حرملة بن عمران:

أن أبا فراس حدثه: «أن عمرو بن العاص توفى ليلة الفطر، فغسله عبد الله بن عمرو. ثم أخرجه حين صلى الصبح فوضعه بالمصلى. ثم جلس حتى إذا رأى الناس قد انقطعوا من الطرق: الرجال والنساء، قام فصلى عليه، ولم يبق أحد شهد العيد إلا صلى عليه، ثم صلى العيد بالناس، وكان أبوه استخلفه».

حدثنا ابن قديد قال: حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح قال: حدثنى نعيم بن حماد، عن ابن المبارك، عن حرملة بن عمران.

عن أبى فراس قال: «مات عمرو بن العاص ولم يترك إلاسبعة دنانير.. وكانت وفاة عمرو لية الفطر سنة ثلاث وأربعين، واستخلف ابنه عبد الله على صلاتها وخراجها».

---

(١) جد به: نزل به الموت.

تكلم كلمة تجديف! ثم صرخو الصعيدون قايلين: أبعدو الدياب من وسط الخراف، أهربو من السبا ع الضاريه المفترسة للنفوس، اطردو التعالب الذين يهلكون كرم رب صباووت، أبعدو يودس من وسط التلاميذ تلاميذ المسيح، لا تجعلو ثيابكم تخلط بهولا الأنجاس يا عبيد المسيح.

فعند ذلك اختفى «قسما» إلى أن زال غضبهم ثم بعد سؤال عظيم من أباينا أقبلو هادين قليلا،

---

٨. عتبة بن أبي سفيان(*)

ابن حرب بن امية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى

ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب

ثم وليها عتبة بن أبي سفيان، من قبل أخيه معاوية، على صلاتها. فقدمها في ذى القعدة سنة ثلاث وأربعين. وجعل على شرطته زكريا بن جهم وأقام بها أشهرا ثم وفد على أخيه بوفد من أشراف أهل مصر. واستخلف على مصر عبد الله بن قيس بن الحارث بن عياش بن ضبيع التجيبي، أحد بنى زُميلة، وكانت أمه أخت أبي الأعور السلمي. وكانت فيه شدة على بعض أهل مصر. فكرهوا ولايته عليهم، وامتنعوا منها. فبلغ ذلك عتبة، فرجع إلى مصر.

فحدثنا يموت بن المزرع قال: حدثنا أبو حاتم سهل بن محمد قال:

أخبرنا العتبي، عن أبيه قال: «أستخلف عتبة بن أبي سفيان ابن أخت لأبي الأعور السلمي على أهل مصر. وكانت له شدة على بعض أهل مصر، فامتنعوا عليه. فكتب إلى عتبة. فقدمها فدخل المسجد، ورقى على المنبر. فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «يا أهل مصر! قد كنتم تعذرون ببعض المنع منكم لبعض الجور عليكم. وقد وليكم من إن قال فعل، فإن أبيتم

(*) الخطط (١ك١٠٣)، والنجوم (١ :١٢٢)، وحسن المحاضرة (٢ :٧)، وغيرها من كتب الصحابة.

فلما عرفوهم أنه سأل ان يجعلوه تاودسيوسيا فرحو وصرخو في وسط القصر: أن قسطنطين اعترف بالامانة المستقيمه أمانة أبابنا الارتدكسين.

ثم حضر للوقت الأرخن متولي اسكندريه «إبراهيم الماحكي» لأنه كان جالسا في ناحيه من القصر ومعه جماعه من الهراطقه والشماس سرجيوس ولد البطرك، ومعه اتنان من معلمي الهراطقه، فجرو وارادو الهرب. وأن رجلا من أهل دمياط

دراكم[1] بيده، فإن أبيتم دراكم بسيفه. ثم جاء في الآخر ما أدرك في الأول: إن البيعة شائعة لنا، عليكم السمع، ولكم علينا العدل، وأينا غدر فلا ذمة له عند صاحبه فناداه المصريون من جنبات المسجد: سمعا، سمعا[2]. فناداهم: عدلاً، عدلا. ثم نزل».

حدثني عمي الحسين بن يعقوب التجيبي قال: حدثني أحمد بن يحيى بن وزير قال: حدثني عبد العزيز بن أبي ميسرة الحضرمي.

عن أبيه قال: لما وفدل عتبة على معاوية في وجوه الجند، استخلف عبد الله ابن قيس التجيي من بني زميلة على الجند. وقدم عتبة على معاوية. فسأل عنه الوفد فقال: ما تقولون في أميركم؟ فقال أبو عبادة صل بن عوف المعافرى[3]، أحد بني خليف: يا أمير المؤمنين، حوت بحر، ووعل بر، ا فقال معاوية لعتبة: اسمع ما تقول فيك رعيتك! فقال: صدقوا يا أمير المؤمنين[4]،ا وليتني الصلاة، وزويت عنى الخراج، فأكره أن أظهر لهم فيسألوني عليها».

وعقد عتبة لعلقمة بن يزيد الغطيفي على الإسكندرية، في اثني عشر ألفا من أهل الديوان، يكونون بها رابطة. فكتب علقمة يشكي قلة من معه من الجند، وأنه يتخوف على نفسه

---

(١) درأ: دفع.
(٢) كذا خـ (١:٣٠١)، ن(١:١٢٤)، ر. وفي الأصل، ك: سمعنا سمعنا. وانظر العقد الفريد (٢:٢١٩٤).
(٣) ف (٨٦): عبادة بن صمل المعافرى.
(٤) ما بين القوسين عن ف، وهو ساقط من الأصل. وفي ر، ك: ووغل بر.

كان شريرا جدا فخاطبته أنا الخاطى بكلمه سمعتها فوثب في وسط الجماعه ووقف وشتمنى وجدف على التالوت المقدس، فحينذ شاهدته وكل الحاضرين قد انشق التوب الذى عليه من فوق إلى أسفل على تلت قطع، فصرخ كلمن فى القصر المسلمون والنصارى: لا أمانه إلا أمانة الأب انبا خايل. وكان صراخ عظيم في القصر، وسعو الناس لينظرو ما قد كان حتي أن الناس والعسكريه من

وعليهم. فخرج عتبة إلى الإسكندرية مرابطاً، في ذى الحجة سنة أربع وأربعين. فابتنى دار الإمارة التي في الحصن القديم. وتوفى بها، ودفن بمنية الزجاج [1]. واستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهنى. فكانت ولايته عليها سنة وشهراً.

٩. عقبة بن عامر [*]

ابن عبس بن عمرو [2] بن عدى بن عمرو بن رفاعة بن مودوعة

ابن عدى بن غنم بن الربعة بن رشدان بن قيس

ابن جهينة، يكنى أبا عبس وأبا حماد [3]

ثم وليها عقبة بن عامر، من قبل معاوية، وجمع له صلاتها وخراجها فجعل على

---

(١) منية الزجاج: كانت من ضواحي الإسكندرية، على ترعة المحمودية، في المنطقة الواقعة بين فم ترعة الفرخة وشارع الرصافة بقسم محرم بك، اشتهرت بدير الزجاج للآباء المصريين.

(*) الخطط (١: ٣٠١)، والنجوم (١: ١٢٦)، وحسن المحاضرة (٢: ٧)، وغيرها من كتب الصحابة.

(٢) الأصل: غنم. وما أثبتناه هو الموجود في الإصابة (٤: ٢٥٠) والتجريد الذهبى (٤١٥) وتهذيب الأسماء للنووى (٤٢٦) وأسد الغابة (٣: ٤١٧) وتهذيب التهذيب لابن حجر (٧: ٢٤٢).

(٣) يكنى أبا حماد، وقيل أبو لبيد، وأبو عمرو، وأبو عبس، وأبو أسيد، وأبو أسد، وأبو سعاد، وأبو عامر، وأبو الأسود، وأبو معاذ، وأبو عمار. وفي الأصل: وأبا حفاف، ولم يذكرها أحد، ولعلها محرفة عما أثبتناه.

كثرة زحامهم نالهم جراح وقتال، فأمر عبدالملك بإخراج كلمن فى القصر.

وبالغداه أمر القاضى أن يفصل النوبه وقال أنجز حالهم ودعهم أن يمضو، فجلس القاضى وأصحاب الدواوين الكتاب ووجوه المملكة، فلما جلسو قال القاضى للبطرك انبا خايل: تحلف أن هذه البيعه لك ولابايك ملك. فقال له البطرك: شرعى يأمرنى أن لا أحلف صادقا ولا كاذبا لكنى

شرطته.....[1] وكان عقبة قارئا، فقيهاً، مفرضاً[2]، شاعراً، له الهجرة والصحبة والسابقة.

حدثنا سعيد بن هاشم بن مرثد قال: حدثنا دحيم قال: أخبرنا الوليد بن مسلم قال: أخبرنا هشام بن الغاز، عن يزيد بن يزيد جابر، عن القاسم بن عبد الرحمن.

عن عقبة بن عامر، وكان صاحب بغلة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الشهباء التى يقودها فى الأسفار، وقال: «قدت برسول الله، صلى الله عليه وسلم، وهو على راحلته، رتوة[3] من الليل، وإن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: أنخ. فأنخت، فنزل عن راحلته ثم قال: اركب يا عقبة. فقلت: سبحان الله! أعلى مركبك يا رسول الله وعلى راحلتك؟! فأمرنى فقال: اركب. فقلت أيضاً مثل ذلك، ورددت ذلك مراراً حتى خفت أن أعصى رسول الله، صلى الله عليه وسلم فركبت راحلته ورحله. ثم زجر الناقة فقامت، ثم قادنى رسول الله، صلى الله عليه وسلم».

ثم وفد مسلمة بن مخلد الأنصارى على معاوية، فولاه مصر، وأمره أن يكتم ذلك على عقبة.

(١) ساقط من الأصل. (٢) مفرضاً: عالماً بالفرائض. انظر ن١٠: ١٢٧).
(٣) الرتوة: السويعة من الزمان.

أكتب مسطورا وأزهر [أظهر] الحق لك فيه. فقال القاضي للهراطقي قسما: تحلف أنت أن هذه البيعة لك واسلمها إليك. فقال: نعم أنا احلف. فحرك القاضي رأسه كالمستهزى به وقال له: اين لك شاهد بها بانها لك إذا حلفت؟ ثم قال لأبينا أنبا خايل: ألك شاهد بان هذه البيعه لآبايك: فقال: نعم لى من يشهد لى بذلك من يوم عُمرت إلى الآن. فقال له: كم لها يوما منذ بنيت؟ فقال:

فحدثني علي بن قديد، عن عبيد الله بن سعيد، عن أبيه قال: حدثني رشدين، عن الحجاج بن شداد، عن أبي صالح الغفارى: «أن معاوية بن أبي سفيان أمر مسلمة بن مخلد على مصر، ونزع عقبة بن عامر، وقال لمسلمة: لا تعلم بهذا أحداً. وأرسل إلى عقبة فجعله على البحر وأمره أن يسير إلى رودس. فقدم مسلمة، ولم يعلم بامرته، وخرج معه إلى الإسكندرية. فلما توجه سائرا، استوى مسلمة على سرير إمرته، فبلغ ذلك عقبة فقال: أخلعانا[1] وغربة».

وكان صرف عقبة عنها لعشر بقين من شهر ربيع الأول سنة سبع وأربعين. فكانت ولايته عليها سنتين وثلاثة أشهر.

١٠ . مسلمة بن مخلد(*)

ابن صامت بن نيار بن لوذان بن عبد ود بن زيد بن ثعلبة بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج بن حارثة

ثم وليها مسلمة بن مخلد الأنصارى، من قبل معاوية، وجمع له الصلاة والخراج والمغرب.

(١) كذا في الأصل، ر، وليست في معاجم اللغة. وفي ك، خـ (١: ٣٠١): أخلعاً.
(*) الخطط (١: ٣٠١)، والنجوم (١٣٢)، وحسن المحاضرة (٢: ٧)، وغيرها من كتب الصحابة.

تلتمايه وخمسون سنه. فقال له القاضى: والشهود يعيشون إلى اليوم من ذلك الزمان وأنت تخاطبنى بامثال، عرفنى الحق. فأجاب وقال: أن أبى «تاوفيلس» و«طيماتاوس» الذى بعده الذين بنوها وهم الذين يشهدون لى أن تاوفيلس الذى اسسها ورتب أعمدتها وهذا اسمه مكتوبا عليها، وتنيح وطيماتاوس اكملها واسمه مكتوب عليها هولا شهودى إلى اليوم. فأرسل القاضى ثقاته ومعهم الكتاب والتراجمه وقرو المكتوب عليها فوجدوه

فجعل على شرطته السائب بن هشام بن كنانة [١] العامرى، والى سنة تسع وأربعين. ثم صرفه وجعل مكانه عابس بن سعيد المرادى ثم الغطيفى. وانتظمت ولاؤه[٢] وغزواته فى البر والبحر. وفى امرته نزلت الروم البرلس، فى سنة ثلاث وخمسين. واستشهد يومئذ وردان مولى عمرو بن العاص، وعائذ بن ثعلبة البلوى، وأبو رقية عمرو بن قيس اللخمى، فى جمع من الناس كثير.

وأمر مسلمة بالزيادة فى المسجد الجامع، فهدم ما كان عمرو بناه فى سنة ثلاث وخمسين.

وفيها أمر مسلمة بابتناء منار المساجد كلها، ودفع ذلك عن خولان وتجيب وأمر المؤذنين أن يكون أذانهم فى الليل فى وقت واحد . فكان مؤذنو المسجد الجامع يؤذنون للفجر، فإذا فرغوا من أذانهم، أذن كل مؤذن فى الفسطاط فى وقت واحد. فكان الأمر على ذلك إلى دخول المسودة[٣].

ثم صرف مسلمة عابس بن سعيد عن الشرط، وولاه البحر. فغزا اسطادنة[٤] .ورد السائب

(١) انظر ما سبق.
(٢) الأصل: وانتصبت ولايه. وفى ر: وانتصبت ولاؤه. وفى ك: وانتصبت ولاية مسلمة (زادت مسلمة عن الهامش). وفى خـ (١:١ ٣٠١)، ن(١ :١٣٣): انتظمت غزواته (يحذف ولايه). والولاء: التولى والولاية.
(٣) المسودة. العباسيون ، وشعارهم اللون الأسود.
(٤) رجح رفن أن المراد القسطنطينية، التى وجهت غزوة إليها عام ٤٩ (ن١٠ :١٣٤). والكلمة محرفة عن الآستانة.

على ما ذكر أبا خايل. واستقصى القاضى صحة الخبر جيدا وكرر السؤال فيه فوجده صحيحا. فلما وقف على صحة قوله وتحقق ذلك سلم البيعة لنا وأطلقونا مبجلين مكرمين فتسلمنا بيعتنا.

وكان أبونا يوحنا البطرك بانطاكيه الذى كان اسقفا بينه وبين اساقفته مشاجره عدة أيام ولم يستطيع الصلح وكتب إلى الملك كتبا، وكتب سنوديقا [للاب خايل] ما وجد سبيلا لإنفاذها

بن هشام على شرطه، فكان على الشرط إلى سنة سبع وخمسين. فعزل السائب ورد عابساً. وخرج مسلمة إلى الإسكندرية سنة ستين، واستخلف عابس بن سعيد على الفسطاط.

وتوفي معاوية في رجب سنة ستين، واستخلف يزيد بن معاوية، فأقر مسلمة ابن مخلد على مصر: صلاتها وخراجها، ومسلمة يومئذ بالإسكندرية. فكتب إلى عابس بأخذ البيعة ليزيد، فبايعه الجند إلا عبد الله بن عمرو ابن العاص، فدعا عابس بالنار ليحرق عليه. فلما رأى ذلك عبد الله بن عمرو بايع ليزيد.

وقدم مسلمة من الإسكندرية، فجمع لعابس مع الشرط القضاء. وذلك في أول سنة إحدى وستين.

حدثنا على بن سعيد قال: حدثنا ابن أبي عُمر[1] قال: أخبرنا سفيان بن عيينة، عن ابراهيم بن ميسرة قال: سمعت مجاهداً يقول: «صليت خلف مسلمة بن مخلد، فقرأ بسورة البقرة فما ترك ألفاً ولا واواً».

(١) ر: ابن أبي عمر. خطأ. وهو محمد بن يحيى بن أبي عمر العدني أبو عبد الله الحافظ، نزيل مكة، كان غفلة، مات سنة ٢٤٣.

إلا فى ذلك الوقت. فلما وصلو وتسلم الأب أنبا خايل من الرسل السنوديقا والكتب فقراها وحزن جدا لأجل الخلف الذى بينه وبين اساقفته لأنهم قالو أنه اسقف وليس هو بطرك، وانهم لم يقدرو أن يخاطبوه فى أيام هشام بالبطرك. ثم أن أنبا خايل أحضر جميع اكابر اساقفته بكورة مصر وقرى عليهم الكتب، فقالو: نحن ما نكتب إلى هناك كتابا ولا تنفذه لأن هذا أمر فيه صعوبه، أن أرادو أن يخرجوه قال لهم السلطان لا لأنه اسقف،

حدثنى ابن قديد، عن عبيد الله بن سعيد، عن أبيه قال: حدثنى ابن لهيعة.

عن الحارث بن يزيد قال: «كان مسلمة بن مخلد يصلى بنا، فيقوم فى الظهر فربما قرأ الرجل البقرة».

وتوفى مسلمة بن مخلد وهو وال عليها[1]، لخمس بقين من رجب سنة اثنتين وستين. كانت ولايته عليها خمس عشرة سنة وأربعة أشهر. واستخلف عابس بن سعيد عليها.

١١ . سعيد بن يزيد(*)

ابن علقمة بن يزيد بن عوف الأزدى

ثم الفهرى من أهل فلسطين

ثم وليها سعيد بن يزيد الأزدى على صلاتها، فقدمها لمستهل شهر رمضان سنة اثنتين وستين، فأقر عابسا على الشرط.

فحدثنى ابن قديد، عن عبيد الله بن سعيد بن عفير، عن أبيه.

---

(١) فى حاشية بالأصل: «قال ابن يونس فى تاريخ مصر: توفى مسلمة بالإسكندرية سنة اثنتين وستين فى ذى القعدة».

(*) الخطط (١: ٣٠١)، والنجوم (١: ١٦٢)، وحسن المحاضرة (١: ٨).

وآن كتبنا إليهم أن لا يخرجوه انقسمت الأساقفه كما قد كتبو، بل أجعل يا أبانا الأمل باقيا على ما هو عليه، ففعل ذلك.

وأنا أريد الآن أن أذكر يسيرا من كثير مما فعله الرب على يد الأسقف أنبا مويسيس وما أعطاه الرب من النبوه والشفا من الأمراض فأمنو بقولى بقلب طاهر. كنا نحن سايرين إلى اسكندريه ليقبل الكرسى المرقسى الإنجيلى الأب أنبا خايل وينزل

عن الليث قال: «لما قدم سعيد بن يزيد واليا على جند مصر، تلقاه عمرو ابن قحزم(١) الخولانى، فقال: يغفر الله لأمير المؤمنين، أما كان فينا مئة شاب كلهم مثلك، يولى علينا أحدهم؟!».

ولم نزل أهل مصر على الشنآن له والإعراض عنه والتكبر عليه، حتى توفى يزيد بن معاوية سنة أربع وستين، ودعا ابن الزبير إلى نفسه، فقامت الخوار ج الذين بمصر فى أمره وأظهروا دعوته. وكانوا يحسبونه على مذهبهم. ووفدوا منهم وفداً إليه، وسألوه أن يبعث إليهم بأمير يقومون معه ويؤازرونه . فكان كريب بن أبرهة بن الصباح وغيره من أشراف أهل مصر يقولون: ماذا نرى من العجب، إن هذه طائفة مكتتمة تأمر فينا وتنهى، ونحن لا نستطيع أن نرد أمرهم؟ ولحق بابن الزبير ناس من أهل مصر، ومنهم أبو عبيدة وعياض ابنا عقبة بن نافع بن عبد قيس الفهرى، وأبو بكر بن القاسم بن قيس العذرى، وحيان بن الأعين الحضرمى، وحجوة بن الأسود الصدفى.

وبعث ابن الزبير إليها بعبد الرحمن بن جحدم الفهرى، فقدمها فى طائفة من الخوارج. فوثبوا على سعيد بن يزيد فاعتزلهم. فكانت ولاية سعيد عليها سنتين إلا شهراً.

(١) كذا فى خـ (١٠١: ٣٠)ر. وفى الأصل ، ك: ابن محرم.

الجمع المقدس. ولما مشينا فى مدينة وسيم المحبة للمسيح كان فى البيعه إنسان مفلوج اليدين والرجلين مولود كذلك. كان عمره خمس عشره سنه، فظهر له الشهيد مارى جرجس وقال له: ما يكون شفاك إلا على يد الأسقف أنبا مويسيس. فمسك ثياب أبى وكان الجمع حوله يسبقونه فصرخ وقال: صلب يا أبى القديس على أعضاى المفلوجه، فصلب على يديه ورجليه وسرنا فلما عدنا بمشية الله خرج فى لقانا يمشى ويقفز مع

---

١٢ . عبد الرحمن بن عتبة(*)

ابن إياس بن الحارث بن عبد أسد(١) بن جحدم(٢) بن عمرو

ابن عائش بن ضرب(٣) بن الحارث بن فهر

ثم وليها عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم، من قبل عبد الله بن الزبير، دخلها فى شعبان سنة أربع وستين. فأقر عابس بن سعيد على الشرط والقضاء وقدم ابن جحدم بجمع كثير من الخوارج الذين كانوا مع ابن الزبير بمكة، من أهل مصر وغيرهم ، فيهم حوشب بن يزيد، وأبو الورد حجر بن عمرو، وغيرهم، فأظهروا التحكيم ودعوا إليه. فاستعظم الجند ذلك. وبايعه الناس على غل فى قلوب ناس من شيعة بنى أمية، منهم كريب بن أبرهة الأصبحى، ومقسم بن بجرة التجيبى، وزياد بن حناطة التجيبى، وعابس بن سعيد، وغيرهم.

ثم بويع مروان بن الحكم بالشام فى ذى القعدة سنة أربع وستين. وكانت شيعته من أهل

(*) كذا فى الأصل. وفى ن، خـ: عقبة. وانظر الخطط (١ :٣٠١)، والنجوم (١ :١٦٥)، وحسن المحاضرة (٢ :٨).

(١) ن: عبد [بن] أسد.

(٢) فى حسن المحاضرة: قحزم.

(٣) كذا فى ر. وفى الأصل ، ك: طرب.

اهل المدينه ويحدت بما كان فيه ويمجد الله ويشكر عبده الصالح الأسقف. ونقى البرص وأخرج الشياطين وفعل أفعالا عظيمه مثل التلاميذ.

وكان فى تلك الأيام قلق عظيم بالمشرق من أجل الأساقفه وجات حشود كتير على مروان(*) والتقو وسفكت دما كتير بينهم، ثم أن عبدالملك جمع بمصر مقدمى جيشه واعتقلهم سبعة ايام، واعتقل أيضا كتاب الدوله ومقدمى البلاد

(*) تعرضت الخلافة الأموية فى عهد مروان بن عبدالملك لعدة هجمات من الأمبراطورية البيزنطية والمنشقين على الخلافه فى العراق والحجاز. وفيما يلى سوف نتعرض بايجاز للعلاقات بين بيزنطة والمسلمين بين عامى ٨٦٧/٧١٧م.

مصر دعوه إليها، وهم فى العلانية مع ابن جحدم. وسار مروان إلى مصر، ومعه خالد بن يزيد بن معاوية، وعمرو بن سعيد، وعبد الرحمن بن الحكم، وزفر بن الحارث،وحسان بن بحدل، ومالك بن هبيرة السكونى، فى أشراف كثير. وبعث ابنه عبد العزيز فى جيش إلى أبلة، ورجا أن يدخل مصر من تلك الناحية.

وأجمع ابن جحدم على حربه ومنعه. فأشار عليه الجند بحفر خندق يخندق به على الفسطاط. فأمر بحفره، فحفر فى شهر واحد. قال ابن أبى زمزمة الخشنى:

وَمـا الجدّ إلاّ مثلُ جدّ ابنِ جَحدَمٍ ... وَمـا العَـزْمُ إلاّ عَـزْمُـهُ يَوْمَ خندَقِ
ثَـلاثونَ ألفـاً هُمْ أثاروا تُرابَهُ ... وَخَدّوهُ فى شهرٍ، حَديثُ مُصَدَّقِ

وهو الخندق الذى فى مقبرة الفسطاط اليوم.

وبعث ابن جحدم بمراكب فى البحر، ليخالف إلى عيال أهل الشام، عليها الأكدر بن حمام اللخمى. وقطع بعثاً فى البر. استعمل عليهم السائب ابن هشام بن كنانة[١] العامرى. وبعث بجيش اخر عليهم زهير بن قيس البلوى إلى أبلة، ليمنع عبد العزيز من المسير إليها. فأما

(١) انظر ما سبق.١

والمواريث وطلب منهم رفع الحساب والقيام بما عليهم. ثم أحضر الأب أنبا خايل إلى مصر لأجل خراج بيعه، فلما وصلنا إليه طلب منا ما لا نقدر عليه، فأمر أن نعتقل وأن ترمى فى رجل البطرك خشبه عظيمه وطوق حديد ثقيل فى رقبته ولم يكن معه أحد إلا أنبا مويسيس أسقف وسيم وأنبا تادرس أسقف مصر، وأنبا ايلياس بولس ولد أنبا مويسيس بالروح، وجعلونا فى خزانه مظلمه لا ننظر منها الشمس وليس فيها طاق لأنها كانت

= العلاقات بين بيزنطه والمسلمين من عام ٧١٧ إلى ٨٦٧م (*)
اباطرة الأسرة الأيسورية
حكم ليون الثالث ٧١٧-٧٥١م:
تولى ليون ـ أو كما سماه العرب اليون ـ عرش الامبراطورية فى مارس عام ٧١٧ ميلادية، مؤسسا أسرة حاكمة جديدة عرفت باسم الأسرة الأيسورية ظل اباطرتها يتوارثون العرش حتى عام ٨٠٢م ولقد وجدت امبراطورية الروم فى شخص هذا الامبراطور الفذ، الرجل المنقذ لها من براثن الزحف الاسلامى، فمنذ وفاة

جيش السائب بن هشام، فإن روح بن زنباع أخبر مروان أن السائب له ابن مسترضع بفلسطين، فأخذه مروان. فلما التقوا أبرز إليه الصبى فقال: أتعرف هذا يا سائب؟ قال: هذا ابنى. قال: نعم، فوالله لئن لم ترجع عودك على بدئك لأرمينك برأسه. فرجع السائب بجيشه ذلك ولم يقاتل. فسمى جيشه جيش الكرارين.

وأما المراكب فنزل عليها عاصف فغرقها، ونجا[١] بعضها، ونجا أميرها الأكدر، وعاد إلى الفسطاط.

وأما زهير بن قيس، فلقى عبد العزيز بن مروان بصاق[٢]، وهى سطح عقبة أيلة. فقاتله فانهزم زهير ومن معه. قال نصيب[٣] لعبد العزيز:

مَنَعتَ بُصاقاً وَالبطاحَ فَلَمْ تُرَمْ ... بطاحُكَ لما ا أن ا[٤] حَميتَ ذمارَكا
قَسَرْتَ الألى وَلَوْا عَنِ الأمرِ بَعدما ... ارادوا عَلَيْهِ، فَاعْلَمَنَ، اقْتِسارَكا

---

(١) كذا فى خـ (٢: ٣٣٨). وفى ر، ك: فغرق. ولا معنى لها لتكررها.
(٢) جعلها ياقوت بالسين لا بالصاد.
(٣) كذا عند ياقوت. وفى الأصل: زهير. خطأ، لأنه لا يعقل أن يمدح المهزوم هازمه ويتغنى بانتصاره.
(٤) زيادة ضرورية عن ياقوت.

نقرت في حجر. وكان ابونا البطرك تحت ضيق عظيم من التكبيل بالحديد من الحادى عشر من توت إلى تانى عشر بابه. لم ينظر فى هذه المده شمسا. وكان فى الاعتقال معه تلتمايه رجل ونسا [ء] أيضا معتقلات في ضيق أكثر من الرجال، والحزن والبكا والضيق العظيم عند انقضا النهار ويغلق المتولى السجن علينا ويمضى ولا يعود إلى سابع ساعه من النهار. وكانو المرضى والاعلا يجيون إلى الأب البطرك إلى السجن حتى يبارك

هرقل عام ٦٤١ ميلادية، لم تنجب الامبراطورية شخصية عظيمة، بل توالى على العرش أباطرة ضعاف، وسط مسلسل من الاغتيالات والثورات والحروب الأهلية، والدسائس والمؤامرات بين المطالبين بالعرش وبين القصور الملكية. ومن ثم كان مجيء ليون نهاية لثمانية وسبعين عاما من الضعف والفوضى والانقسام، الذى كاد يعصف بالامبراطورية ويقتلعها من جذورها ولذلك يعتبر ليون الايسورى بحق هو المؤسس الثانى للأمبراطورية الرومية بعد جستيان

وسار مروان حتى نزل عين شمس. فخرج ابن جحدم فى أهل مصر. فتحاربوا يوما أو يومين، ثم رجعوا إلى خندقهم، فصفوا عليه. كانت تلك الأيام تسمى أيام الخندق والتراويح، لأن أهل مصر كانوا يقاتلون نوبا: يخرج هؤلاء ثم يرجعون، ثم يخرج غيرهم. واستمر القتل في المعافر، فقتل جمع منهم، وقتل كثير من أهل القبائل من أهل مصر وقتل من أهل الشام أيضا جمع كثير. قال عبد الرحمن بن الحكم:

ألا هَلْ أتاها عَلى نَأيِها ... نبَاءُ التَّراويحِ وَالخَنْدقِ
بلغنا بفَيلَقٍ يَغشى الظِّرابَ ... بَعيدِ السَّمُوِّ لمَنْ يرْتَقى[1]
وَجاشَتْ لنَا الأرْضُ من نحوِهِمْ ... بحَيِّ تُجيبَ وَمَنْ غافِقِ
وأحْياءِ مَذْحِجَ وَالأشْعَرينَ ... وَحِمْيَرَ كَاللهَبِ المُحْرِقِ
وَسَدَّتْ مَعافِرُ أفْقَ البِلادِ ... بمُرْعِدِ جَيْشٍ لهَا مُبْرِقِ
وَنادى الكُفاةَ ألا فَابْرُزوا ... فَحَتّامَ حَتّى وَلا نَلْتَقى
فَلَوْ كُنْتِ رَمْلَةُ شاهَدْتِه ... تَمَنَّيْتِ أنكِ لَمْ تُخْلَقى

(١) الظراب : جمع ظرب ، وهو ما نتأ من الحجارة، أو الجبل المنبسط ليس بالعالى أو الصغير.

عليهم فيسرو، من النصارى والمسلمين حتى البربر كانوا يجيون إليه ويعترفون له بذنوبهم التى فعلوها، وكان المسجونون منهم من يقول أن له فى السجن تلت سنين ومنهم قوم لهم أربع سنين. وكان يعزيهم ويصبرهم ويقول لهم أنكم أن نذرتم لله انكم لا تعودون إلى فعلكم الأول فإن الله يقبل توبتكم ويخلصكم قبل فروغ هذه السنه. فحلفو له أنهم لا يعودون إلى خطاياهم فتخلصو كلهم من السجن قبل أن تفرغ السنه بصلواته.

الكبير. ولولا وجود نظام الثغور الحربية، لما بقى لأمبراطورية الروم أى ممتلكات فى آسيا الصغرى. ولقد ساعد على انقاذ هذه الأمبراطورية اندلاع الحرب الأهلية فى الدولة الإسلامية بعد مقتل الخليفة عثمان، ثم على ابن أبى طالب عام ٦٦١ ميلادية، لكن هذه الحرب بين السنة والشيعة توقفت عام ٦٩٢ ميلادية عندما نجح الأمويون فى تأسيس دولة إسلامية سنية عام ٦٩٢ ميلادية، جعلوا عاصمتها دمشق، وتطلعت هذه الدولة الإسلامية الفتية لغزو أراضى

ثم إن كريب بن أبرهة، وعابس بن سعيد، وزيادة بن حناطة، وعبد الرحمن بن موهب المعافرى، قاموا فى الصلح بين أهل مصر وبين مروان، على أن لا يكشف ابن جحدم على أمر جرى على يديه، ويدفع إليه مالاً وكسوة[1]. فأجاب مروان إلى ذلك. وكتب لهم بيده كتاباً يؤمنهم على جميع ما أحدثوه.

ودخلها مروان لغرة جمادى الأولى سنة خمس وستين. فكانت مدة مقام ابن جحدم والياً عليها، من يوم دخلها إلى دخول مروان، تسعة أشهر[2]. ونزل مروان دار الفلفل التى فى قبلة مسجد الجامع اليوم، وقال: إنه لا ينبغى لخليفة أن يكون ببلد ليس له فيه دار. فأمر بالدار البيضاء فبنيت له، ووضع العطاء.. فبايعه الناس إلا نفر المعافر، قالوا: لا نخلع بيعة ابن الزبير.

حدثنى ابن قديد قال: حدثنا يحيى بن عثمان قال: حدثنا أبو صالح.

عن الليث بن سعد قال: «قتل مروان ثمانين رجلاً من المعافر، دعاهم إلى أن يبايعوا، فأبوا وقالوا: إنا قد بايعنا ابن الزبير طائعين، فلم نكن لننكث بيعته. فقدمهم رجلاً رجلاً، فضرب

(١) ذكر المقريزى (خـ٢: ٤٥٨) أنه دفع إليه عشرة آلاف دينار، وثلاث مئة ثوب بقطرية، ومئة ريطة، وعشرة أفراس، وعشرين بغلا، وخمسين بعيرا.
(٢) ن(١: ١٦٦): وكانت مدة ولايته عليها تسعة أشهر وأياماً.

فـامـا آباؤنا الأسـاقـفـه فلم يغـيـرو تيـابهم ولا قلانسـهم مدة سبعة عشر يوما وهم ملازمون الأب البطرك. وكـانو مـربوطى النفـوس معه عـوضـا من الحديد. وكـان على مـايدة الملك رجل مـومن خـير يهـتم بالأب البطرك ويفـتـقـدنا ويجـيـب لنا فى السجن مـا نحتـاج إليه، وأنا الخاطى ملازم لخدمة هولا التلته شهدا بغير سفك دم ليلا ونهارا.

وكـان قـد نزل فى تلك السنه وبا [ء] عظيم

الروم فى آسيا الصغرى. وهكذا جاء وصول ليون الثالث الى الحكم فى الوقت المناسب. فقد وضع مجينه حدا للصراع على العرش، وللفوضى والاضطرابات، التى سادت الامبراطورية منذ وفاة قسطنطين الرابع عام ٦٨٥ ميلادية.

ولقد كان ليون فى الأصل قائدا حربيا للثغر الاناضولى Anatolicon، أكبر ثغور آسيا الصغرى، ومن ثم فقد كان رجلا عسكريا خبيرا فى شئون الدفاع. ولقد لقبه المؤرخون باسم الايسورى Isaurios نسبة الى اقليم

أعناقهم. وضرب عنق الأكدر ابن حمام بن عامر بن صعب، وكان سيد لخم وشيخها، وحضر فتح مصر هو وأبوه، وكانا ممن سار إلى عثمان».

فحدثني يحيى بن أبي معاوية التجيبي قال: حدثني خلف بن ربيعة الحضرمي قال: حدثني أبي ربيعة بن الوليد، عن موسى بن علي بن رباح.

عن أبيه قال: «كنت واقفاً بباب مروان، حين أتي بالأكدر ليس معه أحد من قومه. فأدخل على مروان، فلم يكن شئ أسرع من قتله. وتنادى[1] الجند قتل الأكدر، فلم يبق أحد حتى لبس سلاحه. فحضر باب مروان منهم زيادة على ثلاثين ألفاً. وخشي مروان وأغلق بابه. ومضت طائفة منهم إلى كريب بن أبرهة، فلقوه وقد توفيت امرأته بسيسة بنت حمزة بن يشرح بن عبد كلال، فهو مشغول بجنازتها. فقالوا: يا أبا رشدين، أيقتل الأكدر؟ اركب معنا إلى مرون. قال: انتظروني حتى أغيب هذه الجنازة. فغيبها ثم أقبل معهم، فدخل على مروان فقال: إلي يا أبا رشدين. فقال: بل إلي يا أمير المؤمنين. فأتاه مروان، فألقى عليه كريب رداءه، وقال للجند: انصرفوا، أنا له جار. فوالله ما عطف أحد منهم، وانصرفوا إلى منازلهم. وكان

(١) كذا في خـ. وفي الأصل: وتراوم.

على الأطفال المرضعين بمصر حتى مات جميعهم، وفيما أنا نايم عند رجلى البطرك فى بعض الليالى وهو يعلمنى من الكتب ويجيبنى عن كلما أسأله عنه، فسألته عن موت الأطفال وقلت له: يا أبى اترى الله ياخدهم لأجل ذنوب والديهم أم لأمر آخر؟ فقال لى: لا تظن يا ولدى ذلك لكن نظر الله جنس البشر وقد عمل أكثرهم أرادة الشيطان باهتمام باطل والجحيم عامر، والنعيم الفردوس

ايساوريا Isauria فى جنوب شرق آسيا الصغرى، غير أن هناك رأيا حديثا يقول أنه سورى الأصل من أبناء بلدة جرمانيكيا Cermanicia (بالقرب من مرعش فى اقليم قبادوكيا بآسيا الصغرى)، غير أن ذلك لا يغير من الأمر شيئا، فكلا الرأيين يعترف بأنه امبراطور شرقى الأصل.

وقف توسع الدولة الاموية فى المشرق وانقاذ القسطنطينية:

منذ عام ٦٩٢ ميلادية كانت آسيا الصغرى وجزر الأرخبيل اليونانى تحت رحمة الدولة الأموية؛ التى كانت

قتل الأكدر للنصف من جمادى الاخرة سنة خمس وستين. ويومئذ توفى عبد الله بن عمرو بن العاص، فلم يستطع أن يخرج بجنازته إلى المقبرة، لتشغب الجند على مروان، دفن فى داره. قال زياد بن قائد اللخمى:

كَمَا لَقِيَتْ لخمْ ما سَاءَها ... بأكْدَرَ، لا يَبْعَدنْ أكْدَرْ
هُوَ السَّيْفُ أجْرِدَ منْ غمْدِه ... فَلاقى المَنايا وَمَا يَشْعُرُ
فَلَهْفِي عَلَيْكَ غَدَاةَ الرَّدَى ... وَقَدْ ضَاقَ وِرْدُكَ والمَصْدَرُ
وَأنْتَ ا لأسيرُ بِلا مَنْعَةٍ ... وَمَا كَانَ مِثْلُكَ يَسْتَأسِرُ

وجعل مروان صلاة مصر وخراجها إلى ابنه عبد العزيز بن مروان.

فحدثنى ابن قديد قال: حدثنى عبيد الله بن سعيد بن عفير، عن أبيه قال: أخبرنى المغيرة ابن الحسن بن راشد.

عن حرملة بن عمران التجيبى قال: «أقام مروان بمصر شهرين ثم جعل ولاية مصر إلى ابنه عبد العزيز، جعل إليه صلاتها وخراجها. فقال عبد العزيز: يا أمير المؤمنين، كيف المقام ببلد ليس به أحد من بنى أبى ؟ فقال له مروان: يا بنى، عمهم بإحسانك يكونوا كلهم بنى

خال، فأخذ الأطفال الذين ليس لهم خطيه إلى الفردوس موضع الرحمه.

ثم سألته وقلت: لماذا أخرج الله الشيطان من السما من قبل أن يخلق العالم ولا الناس؟

فأجابني وقال: يا ولدى ومن أنا البايس الحقير عند هذا القول حتى تسألني عنه. فأكثرت عليه اللجاج والطلبة في السؤال، فقال لي: قال القديس اغريغوريس التاولوغس، أن الشيطان كان

تطلع لاحتلال القسطنطينية ذاتها، ففي السنة التي اعتلى فيها ليون العرش، أي في عام ٧١٧ (٩٨هـ) أرسل الخليفة الأموى سليمان بن عبدالملك جيشا كبيرا، يؤازره أسطول قوى، لحصار القسطنطينية وفتحها، وجعل قيادة هذا الجيش لشقيقه مسلمة بن عبدالملك. وفي أغسطس عام ٧١٧ ميلادية وصل الجيش الأموى الى أسوار القسطنطينية، وبعدها بقليل وصل الأسطول، وضرب الأمويون الحصار حول القسطنطينية برا وبحرا: وقطعوا

أبيك، واجعل وجهك طلقاً تصف لك مودتهم. وأوقع إلى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره يكن عيناً لك على غيره، وينقاد قومه إليك، وقد جعلت معكم أخاك بشراً مؤنساً، وجعلت لك موسى بن نصير وزيراً ومشيراً، وما عليك يا بنى أن تكون أميراً[١] بأقصى الأرض، أليس ذلك أحسن من إغلاق بابك وخمولك في منزلك؟

وقال أيمن بن خريم بن فاتك الأسدى:

إذا ما استبدلوا أرضاً بأرض ... لذى العقب التداولُ والطَّواءُ
فبالأرضِ التي نزلوا مُناهم ... وبالأرضِ التي تركوا اللقاءُ

حدثنا موسى بن حسن بن موسى قال: أخبرنا حرملة بن عمران.

أن عبد العزيز بن مروان قال «أوصاني مروان حين ودعته مخرجه[٢] من مصر إلى الشام، فقال: أوصيك بتقوى الله في سر أمرك وعلانيتك، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأوصيك أن لا تجعل لداعى الله عليك سبيلاً، فإن المؤذنين يدعون[٣] إلى فريضة

(١) كذا في خـ (١٠٩:١)، ر. وفي الأصل: أميناً، تحريف.
(٢) أى في وقت خروجه، وزادت ر: عند مخرجه، ولاداعى لها.
(٣) خـ (٢٠٩:١): المؤذن يدعو.

منذ أول ما خلقه الله يسعى بأصحابه الملايكه إلى الله، وكان الله يمهله ويصبر عليه. فلما خلق الله سما جديده وأرضا جديده وخلق الإنسان بصورته ومثاله، وقد سبق فى علم الله أن الشيطان محب للكبريا، فامره أن ينظر إلى أدم وحسن منظره، فأخذ معه العسكر الذى قد جعله مقدما عليه ومضى إلى حيث أدم، فلما نظره تعجب منه وقال لأصحابه: أريد أن أنصب لى كرسيا على السحب وتكون الجبال العاليه تحتى وأكون مثل العلى

المواصلات عنها، غير أنهم فشلوا فى حصارها من ناحية البحر الأسود لشدة اندفاع الأمواج. وقد استغل ليون ذلك فى استمرار نقل المؤن والعتاد الى العاصمة المحاصرة، كما استطاع بكفاءته العسكرية أن يستخدم النار الأغريقية، لبث الذعر فى جنود الأسطول العربى، والذى لم يكن قادته يعرفون عنها شيئا حتى تلك اللحظة، بالاضافة الى وصول النجدة البلغارية، التى جاءت الى الامبراطور، وهو فى أشد ساعات الحرج. غير أن الجيش الأموى ظل صامدا حتى وصل

افترضها الله عليك «إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا»، وأوصيك ألا تعد الناس موعداً إلا أنفذته، وإن حملت[1] على الأسنة، وأوصيك ألا تعجل فى شئ من الحكم حتى تستشير، فإن الله، عز وجل، لو أغنى أحدا عن ذلك لأغنى نبيه محمدا، صلى الله عليه وسلم، عن ذلك بالوحى الذى يأتيه، قا ل الله، عز وجل: «وشاورهم فى الأمر».

وخرج مروان من مصر لهلال رجب سنة خمس وستين. فكان مقامه بمصر، من يوم دخلها إلى خروجه عنها، شهرين. وكان على شرطه فى مقامه بها عمرو ابن سعيد بن العاص.

١٣. عبد العزيز بن مروان(*)

ابن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، يكنى أبا الأصبغ

ثم وليها عبد العزيز بن مروان، لهلال رجب سنة خمس وستين على صلاتها وخراجها. فجعل على شرطته عابس بن سعيد المرادى.

وتوفى مروان لهلال رمضان سنة خمس وستين، وبويع عبد الملك بن مروان، فأقر أخاه عبد

(١) أنفذته لهم وإن حملته

(*) الخطط (١: ٢٠٩، ٢: ٣٠٢)، والنجوم (١: ١٧١)، وحسن المحاضرة (٢: ٨).

فيكون العالم كله فى قبضتى وأملك عليه. ثم أنه صعد إلى السما فقال الله له: أعجبك ما رأيت ورضيت بالعالم المخلوق، لعلمه بضميره، ثم قال له: قد جعلتك ريسا عليه. وقال له هذا ليلا [لئلا] يسقط من المجد الذى كان فيه. وكان هو يحفظ الشر وفكره فيه السو. ثم أنه الشيطان بعد ذلك تأمل فقال أنا أريد ان أعرف كيف اللاهوت لكى إذا نزلت أفعل ذلك ولا تبقى لى حاجه عند الله بعد هذا. وهذا ما كان يهتم به. واراد أن ينظر

للقائد العربى نبأ موت أخيه الخليفة سليمان؛ وتولى الخليفة عمر بن عبدالعزيز عام ٧١٨م (٩٩هـ)، وعلى الفور أصدر الخليفة الجديد أمرا بعودة الجيش الى الشام، ورفع الحصار عن القسطنطينية. وهكذا انقذت عاصمة الأمبراطورية من كارثة كانت محققة.

وبتغنى المؤرخون الأوروبيون بشجاعة ليون، ويقولون أنه لو نجح مسلمة بن عبدالملك فى فتح القسطنطينية عامى ٧١٧ و ٧١٨ ميلادية لا تنشر الاسلام فى شبه

العزيز عليها. فأمر عبد العزيز ببنيان الدار المذهبة فى سنة سبع وستين، وهى التى تدعى «المدينة»، بسوق الحمام: وا هى ا غربى المسجد الجامع. ووفد عبد العزيز على أخيه عبد الملك فى سنة سبع وستين، وحضر مقتل عمرو بن سعيد. ففرض عابس فروضاً، وزاد فى أعطيات الناس من الجند. فلقى عبد العزيز بعد قدومه، فقال له : ما حملك على ذلك ؟ قال: أردت أن أثبت وطأتك وطأة أخيك، فإن أردت أن تنقضه فانقضه. فقال عبد العزيز: ما كنا لنرد عليك شيئاً فعلته.

ثم توفى عابس بن سعيد فى سنة ثمان وسبعين، فجعل مكانه على الشرطة زياد بن حناط بن سيف بن خلاوة[1] التجيبى. وجعل على الحرس والأعوان والخيل جناب بن مرثد بن هانئ الرعينى.

فحدثنى ابن قديد، عن عبيد الله.

عن أبيه قال: «ولم يشرك بينهما عبد العزيز حتى ولى جناب بن مرثد ابن زيد بن هانئ الرعينى حرسه، وضم إليه ثلاث مئة من الأمداد. فكان الرجل إذا أغلظ لعبد العزيز وخرج، تناوله جناب[2] ومن معه فضربوه وحبسوه.

(١) فى الأصل: حلاوة تحريف، إذ ان خلاوة بطن من تجيب (الذهبى: المشتبه ١٨١).
(٢) كذا فى خـ (١: ٢١٠)، ر. وفى الأصل: كتاب تحريف

اللاهوت، فدخل فى وسط الملايكه بسرعه فأمر الله جنود من قوات الملايكه السماويه أن تحطه إلى الجحيم الأسفل فى الظلمه البرانيه هو وكلمن معه. هذا أظهره الله لاغريغوريس التاولوغس، وهو الذى وضع لنا ذلك، والمجد لله إلى أبد الابدين أمين. ثم أنى قلت له أيضا الله يصبر على هولا الملوك الكفرة الذين يفعلون بنا هذه الفعال فى كل وقت، ولا يطلقونا من هذا الرباط فقال لى: تصبر ياولدى وتقو إذا خرجنا من هاهنا وخلصنا

جزيرة البلقان: بين الصقالبة، والآفار، والبغار، حيث كانت الشعوب البلقانية، والسلافية، والروسية حتى تلك اللحظة لا تفقه عن المسيحية شيئا، ولا تدرى عن شعائرها وعقيدتها الا القليل، ويقولون اذا كانت روسيا الحالية دولة مسيحية أرثوذوكسية، لا دولة اسلامية شيعية، فمرجع ذلك لشجاعة الامبراطور ليون وصده لهجوم المسلمين على القسطنطينية، الأمر الذى لو تم لتغير وجه التاريخ، ولهذا يعتبرونه ليس منقذا لأمبراطورية الروم فحسب، بل للعالم المسيحى

ووقع الطاعون بمصر فى سنة سبعين. فخرج عبد العزيز منها إلى الشرقية متبدياً . فنزل حلوان فأعجبته، فاتخذها وسكنها، وجعل بها الحرس والأعوان والشرط. فكان عليهم جناب بن مرثد بحلوان. وبنى عبد العزيز بحلوان الدور والمساجد وغيرها أحسن عمارة وأحكمها، وغرس كرمها ونخلها. قال ابن قيس الرقيات[1]:

سَقْيا لُحْلوانَ ذى الكرُومِ ومَا ... صَنَّفَ منْ تينه ومنْ عنبهْ
نَخْلٌ مَواقِيرٌ بالقَناء منَ الـ ... برْنى يهْتزّ ثمّ فى سُرُبهْ[2]
أسْوَدُ سُكانُهُ الحَمامُ فَما ... ينْفَكّ غِرْبانُهُ على رُطَبهْ

حدثنى ابن قديد قال: حدثنى على بن عمرو بن خالد قال: حدثنى أسد بن ربيعة.

عن أبيه: «أن عبد العزيز لما غرس نخل حلوان، وأطعم دخله والجند معه، فجعل يطوف فيه، ووقف على غروسه ومساقيه. فقال له يزيد بن عروة الحملى[3]: ألا قلت أيها الأمير كما

---

(١) الديوان ٨٢ (طبع فينا ١٩٠٢) . والخطط (١ :٢٠٩).
(٢) مواقير: محملات. والقناء: العذق بما فيه من الرطب. والبرنى: تمر أصفر مدور، وهو أجود التمر. والسرب: جمع سربة، وهى جماعة النخل.
(٣) كذا فى الأصل. وفى خـ (١ :٢٠٩): الجملى. ولعله الأصح، لأن «جمل» حى من مذحج، وهى من القبائل التى نزل بعض أفرادها مصر.

فسنقع فيما هو أعظم من هذا فتصبر الآن فليس يأخذ أحد أجره بغير تعب، ومن يصبر إلى المنتهى يخلص، والذى يكون بعد هذا ستنظره، فليس فى هذين الملكين شى من الخير. فلما تمت سبعة عشر يوما من الشهر المذكور أنفا ونحن فى ذلك الضيق فأمر الملك باحضاره فحضرنا، وطالبه بالمال وقال له: يبعك كلها بغير خراج وأنا مطالبك عنها بما يجب عليها. وضيق عليه. فقال له: إذا كان هكذا أيذن لى أن أمضى إلى الصعيد [و] مهما دفعوه

الارثوذوكسى وحضارة أوروبا الشرقية، ولهذا فهى من وجهة نظرهم احدى المعارك الفاصلة فى تاريخ العالم.

وفى عام ٧٢٦ ميلادية عاود المسلمون الاغارة على حدود الأمبراطورية فى آسيا، فدمروا قيصرية، ووصلوا الى نيقية وشواطىء بحر مرمرة، غير أن ليون ألحق الهزيمة بالجيوش الأموية عند أكرويون Acroinon التى تسميها المصادر العربية ربض أقرن (قرة حصار بالقرب من عموريه)، مما أدى الى انسحاب

قال العبد الصالح: «ما شاء الله لا قوة إلا الله»؟ قال: ذكرتنى شكراً، يا غلام، قل لأتيناس(١) يزيد فى عطائه عشرة دنانير».

وعرف عبد العزيز بن مروان بمصر، وهو أول من عرف بها فى سنة إحدى وسبعين.

حدثنا حسن المدينى قال: حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير قال: حدثنى ابن لهيعة.

عن يزيد بن أبى حبيب: «أن أول من أحدث القعود يوم عرفة فى المسجد بعد العصر عبد العزيز بن مروان».

وفى سنة اثنتين وسبعين صرف بعث البحر إلى مكة لقتال ابن الزبير، وجعل عليهم مالك بن شراحيل(٢) الخولانى، وهم ثلاثة آلاف رجل، فيهم عبد الرحمن بن يحنس مولى بنى أبذى بن عدى بن تجيب(٣)، فهو الذى قتل ابن الزبير. ففرض له فى الشرف، وعرف على موالى تجيب. وكان قتل ابن الزبير فى جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين.

وخرج عبد العزيز إلى الإسكندرية، واستخلف عليها ابنه الأصبغ بن عبد العزيز، وذلك فى

(١) خـ: لأنيتاس. وفى الأصل: لأشناس. تحريف. وا نظر ف(٩٨)، وفيه: أنتناس.

(٢) كذا فى الأصل، ف(٣٦). وفى خـ(١: ٢١٠)ك شرحبيل.

(٣) ر: بحنس.. بنى أندى. وفى خـ: بحنس.. بنى أيزى. والتصحيح من تاج العروس (بذى).

لى النصارى [من الصدقات] وساعدونى به أحضرته لك. فاطلقه وخرجنا من عنده وسرنا إلى الصعيد فلحقنا برد عظيم التلج فى الليل والحر فى النهار من الشمس. وكانت كورة مصر قد هلكو أهلها من الظلم والخساير والخراج، وتعب الأب أنبا خايل فى طريقنا وشقى، ثم أنه اشفى مرضى واعلا كتيرا بصليبه فقط، وأخرج الأرواح النجسه من الناس، وأعاد خلقا كثيرا كانو حادو عن الأمانه الارتدكسيه، وإعانه الله وعدنا إلى مصر ليلة الحادى

المسلمين من غرب آسيا الصغرى، وكان هذا بمثابة التوقف النهائى لهم وانحسار موجة المد الاسلامى فى آسيا الصغرى.

اصلاحات ليون الثالث الادارية والتشريعية:

وبالرغم من انشغاله بالمعارك الشرسة بينه وبين الدولة الأموية الاسلامية، الا أن ليون الثالث وجد وقتا للقيام باصلاحات ادارية وتشريعية. فلقد وجد أن مرافق الدولة الادارية فى حاجة الى تحسين وتطوير لتسهيل الأمور للناس، ولا حداث

سنة أربع وسبعين. وقفل[١] منها، واستخلف عليها جناب ابن مرثد، ولم يعزله عن الحرس والأعوان لكنه استخلف عليها.

وخرج عبد العزيز إلى الشام وافدا على عبد الملك، فى سنة خمس وسبعين. واستخلف على مصر زياد بن حناطة بن سيف[٢] . التجيبى فتوفى زياد بن حناطة فى شوال سنة خمس وسبعين، فاستخلف على مصر الأصبغ ابنه. ثم قدم عبد العزيز إلى الفسطاط أول سنة ست وسبعين فجعل على الشرط عبد الرحمن بن حسان بن عتاهية بن حزن التجيبى، أحد بنى سعد.

وأمر عبد العزيز بالزيادة فى المسجد الجامع بمصر، فهدم كله، وزاد فيه من جوانبه كلها، وذلك فى سنة سبع وسبعين.

قال ابن عفير: «كان لعبد العزيز ألف جفنة كل يوم تنصب حول داره. وكانت له مئة جفنة يطاف بها على القبائل، تحمل على العجل إلى قبائل مصر».

قال الشاعر:

(١) فى الأصل: ونقل. تحريف.
(٢) كذا فى ر. وفى الأصل. ميف. وفى ن(١٩٣:١): زياد حنظلة التجيبى.

والعشرين من طوبه ليلة نياحة السيده العذار مرتمريم.

وفى تلك الليله حدث غضب عظيم من الله، وكانت زلزله عظيمه على الكوره وانهدمت دور كتير فى كل المدن ولم يخلص منها أحد ولا نفس واحده، وكذلك فى البحور غرقت مراكب كتيره تلك الليله فى جميع بلاد الشرق من مدينة غزه إلى أخر أعمال الفرس، واحصو المدن التى

التنمية والتقدم اللازمين. كما عدل من النظم المالية للدولة بهدف الحد من نفوذ وسيطرة الاقطاعيين على الحياة العامة والرسمية، غير أن أعظم أعماله السلمية هو اصداره عام ٧٢٦م باسمه وبأسم ابنه وولى عهده قسطنطين موسوعة قانونية، عرفت باسم الأكلوجا Eklogа أى اختارات، اشتملت على أهم مبادىء القانون المدنى والجنائى الذى يطبق فى المحاكم. ولقد أعطى فيها اهتماما خاصا لقانون الأسرة والوراثة، يلى ذلك قانون تنظيم وتسجيل الملكيات

كُلَّ يَوْمٍ كَأَنَّهُ يَوْمُ أَضْحى ... عِنْدَ عَبْدِ العَزيزِ أَوْ يَوْمُ فِطْرِ
وَلَهُ أَلْفُ جَفْنَةٍ مُتْرَعاتٌ ... كُلَّ يَوْمٍ تُمِدُّها أَلْفُ قِدْرِ

وقال عبيد الله بن قيس الرقيات[1]:

أَعْنى ابنَ لَيلى عَبْدَ العَزيزِ بِبا ... بِ اليُونَ تَغْدو جِفانُهُ رُذُما[2]

وقال أيمن بن خُريم بن فاتك:

لا يَرْهَبُ النّاسُ أَنْ يَعْدِلوا ... بِعَبْدِ العَزيزِ بنِ لَيْلى أَميرا
تَرى قِدْرَهُ مُشْعَلَناً بِالفِناءِ ... يُلَقِّمُ بَعْدَ الجَزورِ الجَزورا

وقال ابن قيس[3]:

تَكونُ جِفانُهُ رُذُماً ... فَمَصْبوحٌ وَمُغْتَبَقُ[4]
إِذا ما أَزْحَفَتْ رُفَقٌ ... جَنَتْ مِنْ دونِهِمْ رُفَقُ[5]

---

(١) ط (٢: ٧٩٠)، الأغانى (٤: ١٦٢)، الديوان ٢٥٥.
(٢) الرذم: الممتلئة تتصبب جوانبها.
(٣) الديوان ٢٦٦.
(٤) الرذم: الممتلئة تتصبب جوانبها. المصبوح: المشروب صباحاً. والمغتبق: المشروب مساء. ولعله يريد أن من هذه الجفاف ما يقدم ويؤكل صباحا، ومنها ما يقدم ويؤكل مساء.
(٥) الرفق: الجماعات. وفى الديوان: أتت من دونهم رفق.

انهدمت تلك الليله فكانت ستمايه مدينه وقريه، ومات من الناس والبهايم ما لا يحصى عدده، وكانت كورة مصر وأعمالها سالمة سوى دمياط فقط، ولم يكن بمصر إلا خوف عظيم بغير موت ولا هدم، وكانت الأخشاب التي في الأبواب والحيطان تبرز من مواضعها تخرج وتعود بعد ساعتين. وشهد لنا من نأمن إليه وإلى قوله أنه لم يهلك من بيع الارتدكسيين ولا مساكنهم في المشرق شي بالجمله. كان الأب أنبا خايل قد تقدم

الخاصة. ولقد كان الغرض من اصداره لهذا «الأكلوج» هو تزويد القضاة بمواد تشريعية غائبة عن النصوص القانونية، وبأخرى موجزة تغني عن مواد القانون المطولة والمتشابكة في القوانين العتيقة والتي تعود الى عهد جستيان الكبير، والتي ظلت أساس القانون الرومي. ولقد تأثرت الأكلوجا بتعاليم الكنيسة، وبالعرف والتقاليد الشرقية، فيما يختص بحقوق الزوجات والأبناء، وحماية عقود الزواج، واعتبارها من الأسرار المقدسة التي لا يجوز فسخها. كما استحدثت

وقدم حسان بن النعمان الغساني من الشام إلى مصر، بعهد إلى المغرب في سنة ثمان وسبعين. فسأله عبد العزيز أن لا يعرض لأطرابلس. فأبى حسان ذلك، فعزله عبد العزيز، وولى موسى بن نصير مولى لخم أمر المغرب كله فسار موسى ففتح الله عليه الفتوح بها.

وخرج عبد العزيز إلى الإسكندرية خرجته الثالثة سنة إحدى وثمانين. وخرج معه إليها وجوه الناس من الأشراف والشعراء. فقال ابن قيس الرقيات[1]:

غَدَوْا مِنْ مَدْرَجِ الكريْوْ ... ن حَيثُ سَفِينُهُمْ حِزَقُ[2]
فَلَمَّا أنْ عَلَوْنَ النّيـ ... لَ وَالرّاياتُ تَخْتَفِقُ
رَأيتُ الجَوْهَرَ الحَكَميَّ ... وَالدّيباجَ يأتَلِقُ
سَفائِنُ غَيْرُ مُقْرِفَةٍ ... إلى حُلْوانَ تَسْتَبِقُ[3]

(١) الديوان ٢٦٥، وهي من القصيدة التي منها البيتان السابقان. ومعجم البلدان لياقوت «كريون».
(٢) المدرج: الملك. وكذا هي في الديوان، وفي الأصل: دورج. وكريون: موضع قرب الإسكندرية. الحزق: الجماعات. والبيت عند ياقوت:
غدوا من ريح كريو ... ن حيث سفينهم حزق
(٣) مقرفة: خسيسة غير حسنة، ولعلها بفتح الراء بمعنى أنها مرمية بالشر.وفي الديوان: مقلعة وعند ياقوت: مفرقة.

إلى جميع سكان مصر ونوا حيها بمداومة الصوم والصلاة. فلما نظر ذلك الكافر «عبدالملك» ما جرى من غضب الله أخذ الذى تصدق به النصارى على البطرك منه وأطلقه.

وقد تركت كثير لم اكتبه ليلا تطول السيرة ويمل القارى ولكن قد اضطرنى الأمر أن أذكر شيا يسيرا لا تجب الغفلة عنه، وذلك أنه كان فى دونقلا (بلد من بلاد النوبه) ملك اسمه مرقوريس

الأكلوجا عقوبات لم تكن معروفة من قبل، لتحل محل عقوبة الاعدام، مثل جدع الأنف، وهى عقوبة أو جدها المصريون القدماء وطبقوها منذ عهود الدولة الوسطى، كما أوجدت الأكلوجا عقوبات أخرى مثل شق اللسان، وقطع الأيدى، وسمل العيون. وحلق شعر الرأس. وأعلن ليون فى مقدمة هذه الموسوعة القانونية أنه يشن حربا شعواء على الرشوة والفساد فى الجهاز الادارى، وأنه من أجل ذلك وفر الرواتب المناسبة لرجال القضاء من قبل الدولة.

مَحَلّ قَدْ نَحُلّ به ... لذيذ عيشه غَدِق[1]
يَحُلّ به ابن ليلى والنّـ ... دى والحلم والصدق

وخرج عبد العزيز إلى الإسكندرية أيضا خرجته الرابعة سنة ثلاث وثمانين. وفيها توفى جناب بن مرثد. فجعل مكانه على الحرس والأعوان والخيل عمرو ابن كريب بن صالح بن ثمامة الرعيسى. فتوفى عمرو بعد أربعين ليلة، فجعل مكانه سعيد بن يعقوب المعافرى ثم الشعيانى. وتوفى عبد الرحمن بن حسان بن عتاهية التجيبى، فى جمادى الأولى سنة أربع وثمانين. فجعل على[2] الشرط يونس بن عطية بن أوس بن عرفج بن [ضمار بن مرثد بن رحب] الحضرمى من الأشياء[3]. ثم صرف يونس لمستهل سنة ست وثمانين، فجعل على الشرط عبد الرحمن بن معاوية بن حديج التجيبى.

وكتب عبد الملك إلى أخيه عبد العزيز، يسأله أن يرفع[4] له عن ولاية العهد، ليعهد إلى الوليد وسليمان، فأبى عبد العزيز ذلك.

---

(١) كذا فى الأصل والديوان. وفى ر: من يحل. (٢) ص: عن.
(٣) الاسم محرف وناقص فى ر، ص، فليس فيهما إلا: يونس بن عطية بن أوسن بن أوفح بن.. الحضرمى من الأشيا. والتصحيح من تاج العروس «ضمر»، وف ١٢٣، ١٢٤.
(٤) كذا فى ر. وفى ص: يدفع. وفى خـ (١ : ٢١٠) :ينزل.

وكـان يدعى قسطنطين الجديد لأنه صار بأفعاله الجميلة كأحد التلاميذ. ووهب له الرب ولدا سماه زخريا، فلما مات مرقوريس الملك لم يختر زخريا أن يكون ملكا بل كان مشغولا بكلام الله وخلاص نفسه، فرفض المملكه وقدم على المملكه قريبا له اسمه سيمون، كان ارتدكسيا فسلك طريق مرقوريس الجيده، ومات سيمون فعمد زخريا إلى شاب شجاع من القصر اسمه إبراهيم جعله ملكا، وكان متكبرا شريرا. وكان أسقف مدينة الملك

تزايد عبادة الايقونات:

منذ قيام الأمبراطورية الرومية والديانة المسيحية تلعب دورا أساسيا في حياة وفكر المواطن، بصرف النظر عن درجته الاجتماعية أو المالية؛ وحتى القرن السابع الميلادى أى قبل دخول فلسطين في حوزة ديار الإسلام، كان الزوار الروم ياتون برفات القديسين والشهداء من الأرض المقدسة ويحتفظون بها ويجلونها، وذلك جريا على تقليد قديم قامت به الامبراطورة هيلانة عندما ادعت بأنها جاءت بقطعة من الصلبوت الأصلى من

فحدثني ابن قديد، عن عبيد الله بن سعيد بن عفير، عن أبيه،

عن القاسم بن الحسن بن راشد قال: «فكتب إليه عبد العزيز: إن يكن لك ولد فلنا أولاد، ويقضي الله بما يشاء. فغضب عبد الملك، فبعث إليه عبد العزيز بعلى بن رباح اللخمى يترضاه. فلما قدم على عبد الملك استعطفه على أخيه. فشكاه عبد الملك وقال: فرق الله بيني وبينه. فلم يزل به حتى رضي . فقدم على عبد العزيز، فجعل يخبره عن عبد الملك وحاله، ثم أخبره بدعوة عبد الملك. فقال: أفعل ؟ أنا والله مفارقه، والله ما دعا دعوة قط إلا أجيبت . قال سعيد: وكان في كتاب عبد العزيز إلى عبد الملك: إنك لو رأيت الأصبغ لسرك، ولم تقدم عليه أحدا».

وقال عبد العزيز بن مروان: «قدمت مصر في إمرة مسلمة بن مخلد، فتمنيت بها أماني فأدركتها:تمنيت ولاية مصر، وأن أجمع بين امرأتي مسلمة، ويحجبني قيس بن كليب حاجبه». فتوفي مسلمة، فقدم مصر فوليها، فحجبه قيس، وتزوج امرأتي مسلمة:و هما كلثوم الساعدية وأروى بنت راشد الخولاني.

وتوفي الأصبغ بن عبد العزيز يوم الخميس لتسع بقين من شهر ربيع الآخر سنة ست وثمانين. فمرض[1] عبد العزيز بعد وفاة الأصبغ ثم توفي ليلة الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت

(١) كذا في خـ ١٠ : ٢١٠)، وفي ر: مرض.

فلسطين، ابان رحلة لهـا الى الأرض المقـدسـة، ومنذ ذلك الوقت تدفق الحجاج الروم على الأرض المقدسة بحثـا عن الرفات والآثار المباركة، وعندما كـانوا يعـودون الى مدنهم وقـراهم يودعـون مـا جـاءوا به في أديرتهم وكنائسهم الاقليمية، وبمرور الزمن أصبح في القسطنطينية عدد كبير من هذه الرفات والآثار المباركة. ولذا أقام سكانها معرضا خاصا، عرضوا فيه رداء ونطاقا (حزاما) اعتقدوا أنهما كانا خاصين بالسيدة العذراء؛ وبأمر صادر من جستنيان

[كرياكس] يردعه ويعلمه فلا يلتفت إليه، ولأجل ذلك وقع بين الملك والأسقف خصومه فكتب كتابا الى الأب البطرك أنبا خايل يقول فيه ويقسم: أنك إذا لم تقطع كرياكوس وإلا جعلت كورتي كلها تعبد الأوثان. لأنه كتب عنه قولا محالا وشهادات زور. فلما وقف البطرك على ذلك كتب له كتب سلامه، فلم يرض لكنه رجع كتب كتبا أخرى أشر من الاول بشهود زور وانفذها إلى اسكندريه مع كرياكوس الأسقف القديس. فجمع

من جمادى الأولى سنة وثمانين[1] فحمل في السليل[2] من حلوان إلى الفسطاط، فدفن بها.

حدثنا على بن سعيد قال: حدثنا سعيد بن يحيى الأموى قال: حدثنا ابن حديج.

عن ابن أبي مليكة قال: رأيت عبد العزيز بن مروان حين حضره الموت يقول: «ألا ليتنى لم أك شيئاً مذكوراً، ألا ليتنى كناسة[3] من الأرض، أو كراعى إبله[4] في طرف الحجاز، من بنى نصر بن معاوية أو بنى سعد بن بكر».

فاستخلف عبد العزيز على مصر أخاه محمد بن مروان على الجند[5]، وجعل مالك بن شراحيل الخولانى يصلى بالناس.

(١) ن(١: ١٧٤): كانت وفاة عبد العزيز في ثالث عشر جمادى الأولى سنة ست وثمانين من الهجرة، وقيل: سنة خمس وثمانين. وجعلها الطبرى وابن سعد في ٨٥.
(٢) خـ (١: ٢١٠): في النيل.
(٣) خـ: كنابة.
(٤) خـ: إبل.
(٥) ف (٢٣٧): «فلما توفي عبد العزيز بن مروان، أمر عبد الملك بن مروان على أهل مصر عمر بن مروان، فأقام شهراً إلا ليلة، ثم صرف وولي عبد الله بن عبد الملك». وهو الأصح لأن عمر يذكر بين من كان له قصور في مصر (ف٩٨)، إما محمد فلا ذكر له في أخبار مصر، وانما يذكر في ذلك الوقت في أخبار أرمينية (فهرس النجوم).

الأب الأساقفه وعمل سنودس بمدينة اسكندريه. فلما اجتمعو أخرج الكتب وقريت، فعلمو أن كلما فيها محال، ثم انهم قالو كلمه لأجل ملك الكوره ليلا [لئلا] يكون فساد من الشيطان هناك، فسألو الأسقف «كرياكوس» أن يجلس في أحد ديارات اسكندريه إلى أن يزول غضب الملك، فلم يجب إلى ذلك، فلما رأوه لا يسمع منهم قالو: أمض إلى حيث تريد لتقيم هناك. ولم يطلقوا له القداس في كنايس مصر واقسمو الذى انفذه لهم

نفسه. حفظت هذه الأشياء في كنيسة القديسة مريم البلاخرنية، واعتقد الناس أن رداء العذراء ونطاقها كفيلان بحماية القسطنطينية من السقوط والخطر، ومن ثم كانوا يلجأون الى حملهما، والطواف بهما حول أسوار العاصمة كلما هددها العدو.

كذلك كان الروم يقدسون ويجلون بشدة المنديل المقدس، والذى يعرف في الكنيسة اللاتينية باسم منديل فيرونيكا Veronica والذى طبقا للرواية، أن امرأة شاهدت المسيح

قال ابن عفير: «ولى عبد العزيز مصر، فكان خراجها وجبايتها إليه. فلم يوجد له مال نض(١) إلا سبعة آلاف».

وحدثنا أسامة قال: حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح قال: حدثنا أبو صالح قال:

حدثني الليث: «أن عبد العزيز مات حين مات، وإنما ترك حلوان والقيسارية وثياباً كان بعضها مرقوعاً وخيلاً ورقيقا».

وكانت ولاية عبد العزيز عليها عشرين سنة وعشرة أشهر وثلاثة عشر يوماً. ولم يلها منذ الإسلام إلى يومنا هذا أطول ولاية منه.

وقال ذو الشامة محمد بن عمر(٢) بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط، يرثى عبد العزيز وابنه الأصبغ:

نَقــول غـداة قطعنا الجِـفـا ... ر وَالعَينُ بالدّمعِ مُـغْـرورَقـهْ
مَـقـالَ امْـرِئٍ كـاره لِلفْـرا ... قِ تاعَ البِـلادَ وَباعَ الرِّقَـه(٣)

(١) المال النض والناض: الدرهم والدينار. وفي خـ: ناض.
(٢) كذا في ق، والتاة. وفي ر: عمرو.
(٣) تاع البلاد: قطعها. والرقة: الدراهم المضروبة.

وهو يحمل الصليب يتصبب عرقا، فرق قلبها له، فاندفعت مخترقة حصار الجنود الرومان لتمسح بمنديلها وجهه، وعندما عادت وجدت أن صورة المسيح قد طبعت على هذا المنديل، وأصبحت هذه الصورة تعرف عند الأرثوذكس باسم «صورة المسيح التي لم ترسمها يد انسان». وهناك العديد من هذه البقايا المقدسة تتوالى حسب أهميتها، والتي حافظ الروم عليها بحماس شديد، وبلغ من كثرة الآثار ان بعض كنائس

الملك وكان اسمه «يوانس» وقالوا «لكرياكوس»: ان كان هذا الأمر ليس هو من الله فسوف تنظر ما يكون وتعود إلى كرسيك دفعة اخرى لأننا لم نبعدك عن كرسيك بحرم لكن لأجل شر الملك وما اعتمده. فلما نهضو كل منهم إلى موضعه ظهرت أعجوبه عظيمه، كان لوح [أيقونه في إطار] عظيم فوق كرسى البطرك أنبا خايل وفيه صورة يوحنا فم الذهب فبعد إزالتهم الأسقف عن كرسيه انقطعت الحبال من الصوره ونزلت في

وفـارَقَ إخْـوانَهُ كـارهاً وأهْلَ الصَّفاء وأهل الثِّقَهْ
أبعْد الخليفة عبْد العزيز وبَعْدَ الأمير كذا وابقَه[1]
فما مِصْرُ لي بعْدَ العزيـ ـزِ والأصبَغِ الخَيرِ بالمُونِقَهْ
إمامَيْ هُدًى وهديي تُقًى وأهْلِ الوَفاء وأهْلِ الثِّقَهْ
سَقَى اللهُ قَبْرَيْهِما والصَّدى وما جاوَرا ديمَةً مُغْدِقَه[2]
فَإنْ تَكُ مِصْراً أشارَتْ بها إلى الشَّرِّ يَوْماً يدٌ مُوبِقَهْ
فَقِدْماً تقرّ بمِصْر العُيُو نُ في لَذّة العَيْشِ مُغْدَوْدِقَه[3]

وقال سليمان بن أبان بن أبي حدير الأنصاري[4] يرثي عبد العزيز والأصبغ:

---

(١) وابقة: مهلكة. وكذا الكلمة في ر، وكانت بغير نقط في الأصل.
(٢) الصدى: الجسد من الآدمي بعد موته، وحشو الرأس. والديمة: المطر يدوم في سكون بلا رعد ولا برق. والمغدقة: الكثيرة الماء.
(٣) مغدودقة: متزايدة. وفي الأصل: معدودقه، فجعلها ر: محدودقه.
(٤) نسب السيوطي في حسن المحاضرة (٢: ٨) البيت الأول إلى عمر بن أبي الجدير. ونسب البلاذري في أنساب الأشراف ١٨٤ (تحقيق جويتين) الأبيات الثلاثة الأولى إلى أبي بكر بن أبي جهم بن حذيفة العدوي.

وسط الأساقفه ولم تزال تتحرك وتقفز حتى خرجت من وسطهم، فمضو وأخذوها واعادوها إلى مكانها الأول، ولم تزل هكذا تلت دفعات، وكلما علقوها نزلت هكذا حتى مضت إلى موضع من البيعه ووقفت هناك، وكان ذلك الأسقف يشبه صورة يوحنا فم الذهب، لأن خديه كانا خاليين من الشعر حتى كأنه بغير لحيه وهذه من صفات يوحنا فم الذهب أنه كان كذلك، وكان الأسقف شيخا ابن تمانين سنة في ذلك اليوم وكان منظره مثل

الروم أقامت ملحقا خاصا يعرف بدار الشهيد Martyrion (المارتوريون)، وكان هذا الملحق يخصص لآثار القديس الذى اقيمت من أجله الكنيسة، وفي الذكرى السنوية لأستشهاده، يقام قداس خاص على روحه داخل هذا الملحق. ويرجع تاريخ هذا التقليد الى عصر الامبراطور جستنيان، أول من أقام دارا للشهيد في القسطنطينية. ولكن تدفق هذه الآثار توقف بعد الفتح الاسلامى لفلسطين، وأصبح من الصعب على

أَبعدكَ يا عبدَ العزيز لحادثٍ ... وبعْدَ أبي زبّان يُستعتبُ[1] الدهرُ
افلا صَلَحتْ مصرٌ لحيٍّ سواكما ... ولا سُقيتْ بالنيلِ بعد كما مصرا[2]
وَلا زال مَجْراهُ من الأرضِ يابساً ... يموتُ به العُصفُورُ وانحرفَ القطرُ[3]
فَمنْ ذا الذى يَبْني المكارمِ والعُلى ... ومَن ذا الذى يهدى له بعدك السّفر[4]
فكُنتَ حَليفَ العُرفِ والخيرِ والنّدى ... فمتَن جميعاً حينَ غيّبكَ القَبْرُ
فَبَعْدكَ لا يُرْجى وليدٌ لنفعةٍ ... وبَعْدكَ لا يُرْجَى عَوانٌ ولا بكر[5]

وقال نصيب يرثي عبد العزيز والأصبغ ابنه:

بكيتُ ابنَ ليلى وابنه ورَأيتُني ... أحقَّ الألى أمْسَوْا نعَى بُكاهُما
هُما أخواىَ الصالحان تَواليا ... بحَمْد فَهَدًا للفْراقِ أخاهُما
فَإنْ نُزِعا مِصْراً فَبالجَدِّ فارَقا ... أَحل وَخَلا فسْطَها وقُراهُما

(١) يستعتب: يطلب منه الرضا أو يعطاه. وكذا هى فى س، والبلادرى، وفي ر: يشعب.
(٢) زيادة من س والبلاذرى ليست في الأصل، وهي ضرورية لفهم البيت الآتي.
(٣) القطر: المطر. وفي ر: وانجدب القطر، ومال إلى أن صوابها: انجذب. وعند البلاذرى: واستطئ.
(٤) يهدى: يسير على هدى. وربما كانت محرفة عن :يهوى.
(٥) العوان : المرأة في منتصف عمرها.

ملاك الله، ثم انصرفو الأساقفة إلى كورهم ومضى كرياكوس إلى دير من ديارات بلاد النوبه ويوانس الأسقف الجديد مضى إلى مدينة المملكه. وشهد لنا ثقات أن المطر لم ينزل على تلك الكوره مدة ما كان بقى من حياة كرياكوس الأسقف، وفى كل سنه يأتى عليهم وبا [ء]، والذين شهدو عليه بالزور عميت عيونهم سريعا. وكمل له من العمر مايه وأربع سنين ثم سأل الله أن ينقله من الجسد، فلما تنيح مضو أهل كورته إلى قبره وسألوه بدموع

الحجاج الروم أن يسافروا عبر أراضى الدولة الأموية الى فلسطين، ومن ثم استغل الفنانون الروم الفرصة ليقوموا برسم ايقـــونات ملونة للرسل والقديسين لتحل محل هذه الآثار الاصلية ويبعها للناس.

وفى وسط هذا المناخ الدينى نمت العقلية المتشربة بحب الخيال والخرافات، وعلت مكانه رجال الدين، أحياؤهم وأمواتهم، وقصد الناس خلواتهم ومعتكفاتهم، بل وأضرحتهم، يلتمسون البركات، ويحج اليها أصحاب الحاجات،

بحُسْنِ الثَنا وَالحَمد فِى النَاسِ فارقَا ... ألا بأبى حَـقـاً وَأمّى ثَنا هُمَـا
فَما طائعاً إنْ فارقَا العَيْشَ فارقَا ... نُصَيـباً ولا وَالله ما إنْ قَلاهُما
جزَى خَيْر [مولَى] مَوْلَيَ وَلا جزَى ... مِنَ النَاسِ خَيراً مَنْ أحبَ رَداهُمَا

١٤ . عبد الله بن عبد الملك(*)

ابن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، يكنى أبا عمر

ثم وليها عبد الله بن عبد الملك، من قبل أبيه، على صلاتها وخراجها. فدخلها يوم الأثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة ست وثمانين، ووهو يؤمئذ ابن سبع(١) وعشرين سنة. وقد تقدم إليه أبوه أن يعفى آثار عمه عبد العزيز، لمكانه من ولاية العهد. فاستبدل(٢) بالعمال عمالا، وبالأصحاب أصحاباً. وأراد عبد الله بن عبد الملك عزل عبد الرحمن بن معاوية بن حديج عن الشرط، فلم يجد عليه مقالاً ولا متعلقاً ، فولاه مرابطة

(*) الخطط (١: ٣٠٢)، والنجوم (١: ٢١٠)، وحسن المحاضرة (٢: ٨).
(١) كذا الأصل ، ن. وفى خـ (١: ٣٠٢): تسع.
(٢) كذا فى خـ. وفى ر: واستبدل.

غـزيره بان يسـأل الله أن ينزل عليـهم المطر، فكان ذلك حـتى اخـصـبت كـورتهم وارتفع الوبا عنهم. فلما نظر «زخريا» الملك إلى هذه الأمور نفا إبراهيم الملك إلى جزيره في وسط البـحر واقام ملكا اسمه مرقس عوضا منه لأن زخريا كان قد صار أبا الملوك إلى الآن، ثم أن اصـحاب مرقس مضو سرا بمكر ليقتلو إبراهيم في النفى، فلما علمو أصدقا إبراهيم الملك بذلك مكرو بمرقس الملك وهو يصلى قـدام الهـيكل في البـيعه فـقـتلوه في سادس شـهـر من

ليعودوا بأثر من آثارهم أو بصـورة لهم، ليـكون ذلك الأثر الملاك الحـــارس، والأب الروحي لهم ولأطفــــالهم وذويهم. وعلى هذا النحـو ارتفع شأن القـديس ديمتـريوس في سـالونيك، والقــديس اندراوس في بتـــراس، وأحيطت صورهما بهالة من التقديس والأجلال، وخلع عليـهـمـا صـفـات ليـست من صفات البشر كالعـصمة من الخطيـئـة، والتنزيه عن الرذيلة، ونحو ذلك. كما احتلت صور المسيح والعـــذراء الأمـــاكن الهـــامـــة في القـسطنطينيـة وغيرها من مدن الروم،

الإسكندرية. وجعل على الشرط عمران بن عبد الرحمن بن شرحبيل بن حسنة، حليف بني زهرة، وجمع له القضاء والشرط.

وتوفي أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، يوم الخميس لأربع عشرة ليلة خلت من شوال سنة ست وثمانين، وبويع الوليد بن عبد الملك فخرج عبد الرحمن بن معاوية بن حديج، وأخذ له بيعة أهل مصر. فأقر الوليد أخاه عبد الله على صلاة مصر وخراجها.

وأمر عبـد الله بن عبـد الملك بالدواوين، فنسـخت بالعربيـة، وكـانت قـبل ذلك تكتب بالقبطية. وصرف عبد الله أثناس[1] عن الديوان، وجعل عليه ابن يربوع الفزارى من أهل حمص. ومنع عبد الله من لباس البرانس، وذلك في سنة سبع وثلاثين. وابتنى عبد الله المسجد المعروف اليوم بمسجد عبد الله.

وفي ولايته غلت الأسعار بمصر وترعت[2]، فتشاءم به المصريون. وهي أول شدة رأوها. وزعموا أنه ارتشى، وكثروا عليه، وسموه مكيسا[3]. ثم قدم عبد الله إلى أخيه الوليد في صفر

(١) ر: أشناس. (٢) كذا في ر، وليست في خـ، ن.

(٣) المكس: النقص والظلم، ودراهم كانت تؤخذ من بائعي السلع في الأسـواق في الجاهلية، ودرهم كان يأخذه المصدق بعد فراغه من الصدقة. والمكيس: المكثر من فعل ذلك. وفي ف (١٢): مكيساً، بفتح الياء وتشديدها. وفي س(٢ :٩): تكيس.

وأمامها كانوا يسجدون في خشوع، ومنها كانوا يستلهمون النصر ودفع المكروه، ومن خلالها كانوا يلتمسون البركات والشفاء وقضاء الحاجات، فهي تخفر البيوت، وتروج سلعة التاجر، وتحمي الفتاة من الحسد وتجلب لها فتى أحلامها. فقد كانت هذه الأيقونات تزود مريديها بقوة روحية لاحد لها. بل أشاعوا أن انتصار هرقل على الفرس عام ٦١٤م انما كان بسبب بركة أيقونة للعذراء هبطت عليه من السماء. وامتلأت الكنائس والأديرة بهذه الصور المقدسة، وعلقت بالدور والحوانيت، وطرزت على الملابس، ونقشت على الكتب والأثاث وغيرها، وامتلأت ميادين القسطنطينية بتماثيل المسيح والعذراء والحواريين، كما نصبت على أسوار القصور الملكية. وسرت شائعات حول صور تكلمت، وأخرى تحركت. ولقد كان في مصلحة رجال الدين تدعيم وتغذية هذا الخيال والاعتقاد، حتى يجنوا من صناعتها وبيعها الربح الوفير، معللين ذلك بأن هذه الصور ما هي الا وسيلة ايضاح لتعليم العامة والبسطاء العقيدة، لانهم لا يقدرون على فهم الكتاب المقدس، ولا على ادراك واستيعاب قوانين الايمان المسيحي ذات الطابع الفلسفي. غير أن الأمر قد أفلت من الحد المرسوم، فاضحى زعماء الكنيسة أشخاصا مقدسين، واستوى في نظر العامة الأحياء منهم والأموات. وقال الداعون الى عبادتها، أنها تخاطب العاطفة وحاسة البصر، كما تخاطب آيات الكتاب المقدس العقل وحاسة السمع؛ ومن أقوالهم «ان لم تعبد الصور، فقد كفرت بأبن الله ولم تعبده، فهو نفسه الصورة المحسوسة للرب الذى لا يراه أحد». وقال القديس باسيليوس «أن تقديس الصور هو طريق الوصول الى المثل العليا». ومما شجع على ذلك أن قسطنطين الكبير كان قد زين جميع المرافق العامة والكنائس في القسطنطينية بصور مقدسة، استلهمت موضوعاتها من الكتاب المقدس».

شرع الرسامون الروم يرسمون صورا دينية شبيهة بتلك الصور التي تزين حوائط الكنائس، وأسقفها الداخلية منذ القرنين الخامس والسادس الميلاديين. وهذه الصور الصغيرة الحجم عرفت باسم الأيقونات، وبالرغم من أن المعنى الأصلي للكلمة الأغريقية يعني «صورة»، الا أن معناها اتسع ليطلق على جميع أنواع المصورات الدينية، خاصة تلك التي ترسم على قطع من الخشب. وفي المراحل المبكرة لهذا النوع من الفنون نجده قريب الشبه بالصور الخشبية التي وضعت كأقنعة في المومياوات المصرية وتعرف بصور الفيوم Fayum Portraits (لأن أغلبها وجد في مقابر اللاهون بالفيوم، وترجع الى ما قبل القرن الأول الميلادى)، غير أن أهل القسطنطينية ابتدعوا حكاية تقول أن أول من رسم أيقونة هو القديس لوقا Lucas أحد حوارى المسيح، الذين صاحبوه في حياته، وكتبوا عنه بعد ذهابه، اذ رسم لوقا بنفسه صورة اعتبرت أول ايقونة للسيدة العذراء؛ وهناك صورة أخرى للمسيح التي ذهب بعض المغالين الى القول بأنها من صنع الله.

وربما ساعد على نشر فن الايقونات اهتمام الاباطرة مثل جستيان بتزيين حوائط كاتدرائية أيا صوفيا المواجهة للمذبح بثلاثة مجموعات من المناظر المحفورة المعروفة باسم المسيح وحوارييه Deesis ومن بعد هذه المجموعات شاع استخدام الأيقونات في الكنائس الكبرى ذاتها، بالرغم من أن حوائطها كانت في العادة مغطاه بصور كبرى مرسومة أو مركبة من قطع الفسيفساء، أما بالنسبة للكنائس الصغرى المتواضعة فقد أقبلت على اقتناء الايقونات، وتعليقها على جدران حوائطها الصماء، غير المرسومة أو المزخرفة، لأنها الوسيلة الوحيدة لتصوير العائلة المقدسة، وأهم الأحداث التي شهدتها. غير أن العامل المؤثر في ازدهار فن رسم الأيقونات البيزنطية ومن ثم الاوربية هو دخول فلسطين في حوزة الدولة الاسلامية، وتوقف

سبيل الآثار والتحف الدينية من الشرق، مما أحدث نقصا استغله الرسامون الدينيون لرسم المزيد من الأيقونات لسد النقص؛ وبمرور الوقت أصبحت هذه الأيقونات هي التي تحظى باهتمام المتعبدين، واكتسبت معنى عاطفيا عميقا؛ بحيث يستطيع المتعبد الاقتراب منها بدرجة أكبر من اقترابه من رسومات الحوائط الكبرى والقباب العالية، ونتيجة لذلك نشأت رابطة عاطفية، روحانية بين المتعبدين والايقونات، بالرغم من أنهم كانوا يعرفون أن هذه الصور ليست صورا طبق الأصل للشخص الذى تصوره، بل اعتبروها أقرب شبها اليه، وبمرور الوقت أصبح لكل قديس يظهر على الأيقونات ملامح مميزة يسهل التعرف عليه من خلالها.

كان المتعبدون للأيقونات يشعرون بأنها تقوم مقام الوسيط، فهي تساعدهم في حث ورجاء القديسين للصلاة من أجلهم، ومن أجل أن تتوسط لهم لدى الخالق القادر على كل شيء ليحقق لهم رغباتهم وأمانيهم الدنيوية، وكان الروم يحرصون على التمييز بين عبادة الأيقونات المشروعة، وعبادة الأصنام الوثنية المحرمة. ففي الحالة الأولى يعلم المتعبد أنه يتوجه بصلواته للقديس المصور على الأيقونة، وليس للايقونة في حد ذاتها، وبالرغم من ذلك اعتقد بعض الروم أن للايقونات قدرة على الأتيان بالمعجزات والخوارق، وعندما شاع ذلك الاعتقاد ضاع الخط الذى كان يفصل بين عبادة الأيقونات، وعبادة الأصنام؛ ففي القرن الثامن الميلادى انتشرت عبادة الأيقونات Iconaltry بشكل لفت أنظار المثقفين، وجعلهم يشعرون بالقلق خوفا، من أن يؤدى ذلك الى عودة الوثنية الكامنة في نفوس الناس تحت قشور الإيمان.

غير أن فريقا من رجال الدين أثاروا تخوفا ومعارضة ازاء تفشي عبادة الصور والأيقونات، ودعوا الى مقاومة هذه الظاهرة بحركة مضادة لا ايقونية، وذلك حتى قبل عصر الأسرة الأيسورية التى اقترن تاريخها بمثل هذه الحركة. وترجع جذور الاعتراض الى انكار بعض القديسين القدماء من أمثال كلمنت السكندرى Clement لهذه البدعة، ثم تزايدت حدة المعارضة في القرن الخامس على يد بعض الاساقفة مثل الأسقف فيلومينوس في هيرابوليس (شمال غرب حلب بالقرب من ساحل الفرات)، وفي القرن السادس قامت حركة في أنطاكية ضد عبادة الايقونات، امتدت حتى اقليم الرها (Edessa) حيث قذف الجنود الثائرون صور السيد المسيح بالأحجار، ومن الأباطرة الذين قاوموا عبادة الأيقونات الأمبراطور موريق Mauricius (٥٨٢ ـ ٦٠٤م). وفي الغرب أمر الأسقف سيرينيوس أسقف مرسيليا بتحطيم جميع الأيقونات في الكنائس مما جعل البابا جريجوريوس يبعث اليه برسالة يلومه فيها على فعله بالرغم من تبرمه مما آل اليه أمر الأيقونات من التقديس والعبادة، لكنه كان يرى أن لبقائها فائدة وهو تعليم البسطاء، ولذلك كتب الى سيرينيوس يشكره على حماسته وغيرته على دينه، ودعوته بأنه لا ينبغي عبادة شيء يصنعه مخلوق من خلق الله، لكنه يوضح له أن عبادة الصورة شيء واتخاذها وسيلة للتعليم شيء آخر. كما أن هناك فرق أخرى أنكرت ما يقوم به الأيقونيون من السجود للصور المقدسة، واعتبرت ذلك ضربا من ضروب الوثنية، وقاومت عبادة الصليب والعذراء والمسيح مثل اتباع بولوس السميساطي في كوماجيني على نهر الفرات شمال غرب الشام، وجماعة ماليا في أرمينيا، وجماعة البوغول في بلغاريا، مما شجع فريق من رجال الدين ومن المثقفين على الدعوة علنا لحظر هذه البدعة.

وفى حقيقة الأمر، لم تكن الحركة اللاايقونية هدفا في حد ذاتها، وانما كانت بندا من برنامج اصلاحي كبير قصد به ليون الثالث اعادة بناء الأمبراطورية بعد أن تدهور حالها في القرن السابع ومطلع القرن الثامن، نتيجة للفتن الداخلية الناتجة عن النزاع بين جستنيان الثاني والارستقراطية لاقطاعية، وبسبب هجوم المسلمين بقيادة مسلمة بن عبدالملك؛ كانت هذه

هى الاعتبارات التى دارت فى ذهن ليون الايسورى، حتى أنه يعتبر بحق المؤسس الثانى للأمبراطورية بعد جستيان الكبير. ووصل الخلاف بين حزب اللايقونيين وحزب الايقونيين الى قمته على أثر انتهاء ليون الثالث من دفع المسلمين بعيدا عن القسطنطينية عام ٧١٧، ومن ثم استدار لحسم الخلاف بين الحزبين. وقد كان موقفه من عبادة الايقونات جزءا من برنامج أكبر للاصلاح السياسى والاقتصادى والاجتماعى للامبراطورية. التى كانت مطمعا من جانب المسلمين فى الشرق، والبلغار فى الغرب. فقد راع ليون كثرة عدد الاديرة للرهبان والمتنسكين ايثارا للدعة، وطلبا للمهابة والوقار، فقل عدد المقبلين على الجندية والوظائف العامة، فرارا من المسئوليات، وتحول الفلاحون من حياة الانتاج الايجابى الى حياة التنسك السلبى، مما أدى الى انحطاط الادارة والخدمات، وضعف الجيش، وتدهورت الزراعة، وضعف الانتاج، بينما ازداد ثراء الكنائس والاديرة، وسيطر رجال الدين على الفكر والثقافة والفنون، كما كان يدور فى ذهن الاباطرة الرغبة القديمة فى السيطرة على الكنيسة والأمساك بالسلطتين الدينية والدنيوية معا، فقد كتب ليون الثالث الى البابا جريجورى الثانى فى هذا الصدد يقول «انى امبراطور وكاهن»، بينما كتب يوحنا الدمشقى معارضا يقول أن سلطة الكنيسة يجب الا تدخل فى سلطة الامبراطور».

صدور قرار ليون الثالث بتحريم عبادة الايقونات ٧٢٦م:

تضاربت الآراء حول الدوافع التى حدت بالامبراطور ليون الثالث لأتخاذ مثل هذا القرار الجرئ، بتحريم عبادة الايقونات، وازالتها من الأماكن العامة، مضحيا بشعبيته بين قطاع كبير من البسطاء، ورجال الاديرة والكنائس، والعاملين فى مجال الفنون الدينية. فقد علل البعض ذلك بأن المقصود بهذا القرار هو تقليم أظافر سلطة الاديرة، التى كانت تشجع عبادة الايقونات، واغلاق بعضها بحجة خروجها عن حدود الدين، ويدعمون رأيهم بأن الامبراطور سبق له أن قلم أظافر ملاك الأراضى، وحد من سيطرتهم على الدولة، وأن قرار تحريم الايقونات هو القرار الموازى لذلك القرار الأول. ومن ناحية أخرى اتهمه المتطرفون من رجال الكنيسة بالوقوع تحت تأثير تعاليم اليهودية والإسلام. اذ يروى ثيوفانيس Theophanes، أن يهوديا من مدينة اللاذقية، لفت أنظار الخليفة الأموى يزيد بن عبدالملك (٧٢٠ ـ ٧٢٤م) بأمر تكاثر الايقونات فى كنائس النصارى، وتوجههم بالصلاة لها، وعلى أثر ذلك أصدر الخليفة قرارا عام ٧٢٣ ميلادية يقضى بازالة الايقونات من جميع كنائس النصارى فى الدولة الاسلامية، وخاصة كنائس مصر. ويقول المقريزى ضمن حوادث ١٠٤هـ (٧٢٣م) أنه بعد هذا القرار «محيث التماثيل» وكسرت الأصنام بأجمعها، ولهذا يرى البعض أن الدعوة لتحطيم الايقونات والمصورات ما هى الا نتاج التأثر بالحضارة والعقيدة الاسلامية، خاصة أن الاباطرة، الذين دعوا الى ذلك، كانوا من أصول عربية. ولقد اتهم الامبراطور ليون الثالث بالذات بأنه «ذو عقلية اسلامية saracen-minded»، بدليل أنه لم يكد يمضى على قرار يزيد بن عبدالملك ثلاث سنوات، حتى أصدر مرسومه الجرئ عام ٧٢٦م فى السنة العاشرة من حكمه والقاضى بازالة جميع المصورات والتماثيل والايقونات الدينية، وذلك دون اعتبار لمشاعر عبادها، ولا للنتائج التى ترتبت على ذلك القرار، بل أشيع أن أحد السحرة اليهود كان قد لقى ليون، وهو جندى بارز، وبشره بأنه سوف يصبح امبراطورا بشرط أن يعمل على ابطال عبادة الصور المقدسة. وعلى أثر ذلك القرار بدأ جنود الجيش المؤيد للامبراطور، والذى كان مثله أيضا من أصول شرقية، بتنفيذ القرار، برفع تمثال كبير للمسيح كان مقاما فوق بوابة الطباشير، أكبر وأهم بوبات القصر الامبراطورى، واستبداله برمز للصليب. ولقد أثار منظر الجنود وهم ينهالون على التمثال تحطيما مشاعر الغوغاء وخاصة النساء، فتجمهروا حول القائد المكلف بتنفيذ الأمر، وانهالوا عليه ضربا حتى قتلوه، واعتبر

الامبراطور ذلك اهانة له، فاطلق لجنوده العنان للانتقام من عباد الايقونات Iconodules، وكانت تلك الشرارة التي عصفت بالامبراطورية لأكثر من مائة عام، فيما يعرف بالصراع حول نبذ عبادة الايقونات .Iconoclasm

وبالرغم مما أثاره حادثة انزال صورة المسيح من على بوابة الطباشير من معارضة وتذمر، الا أن العصيان والتذمر لم يتضح الا منذ عام ٧٣٠ ميلادية، عندما أصدر ليون قرارا لاحقا يحرم استخدام الصورة البشرية، لتمثيل الرسل والأنبياء في الموضوعات الدينية. وعلى أثر صدور ذلك القرار، احتج بطريرك القسطنطينية جرمانوس بشدة، وانتقد القرار علنا لدرجة أن الامبراطور ليون الثالث فقد أعصابه، فاصدر قرارا باعفاء البطريرك جرمانوس من منصبه، وتعيين البطريرك أنسطاسيوس - المؤيد للقرار - مكانه. وتجاوبت مشاعر الغوغاء مع البطريرك المعزول، ووقف الى جواره رهبان الاديرة، وانضم الى جبهة المعارضة، كبار ملاك الأراضي، والنبلاء المعارضون أصلا للامبراطور، كما أن صناع الايقونات والعاملين في مجال الفنون الدينية (خاصة من أهل افسوس) أعلنوا معارضتهم لهذا القرار، لما يسببه من كساد لمهنتهم التي يتعيشون منها. غير أن الايقونيين الذين انبروا للدفاع عن عبادة الصور هدفوا أيضا من وراء حملتهم الى الحصول على امتيازات جديدة وحريات أوسع من أجل فصل سلطة الكنيسة عن سلطة الدولة، وابطال ما يدعيه الاباطرة الروم بأنهم وحدهم هم الحراس المدافعون عن العقيدة Fidem defensores، وأنهم قبل أن يكونوا أباطرة فهم أيضا رؤساء للكنيسة على نحو ما كان عليه كل من قسطنطين الكبير، وجستيان العظيم الذى جمع بين السلطتين السياسية والدينية، فقد كان من القاب جستيان «الامبراطور المقدس» Imperator Sanctus كما أراد الايقونيون فوق ذلك ابطال حق الاباطرة في تعيين البطريرك والاساقفة وترأس المجامع الدينية. ومن المبكرين الذين نادوا بهذه الدعوة ثيودوروس رئيس ديرستوديون بالقرب من القسطنطينية حتى قبيل اندلاع الحركة اللاايقونية وفي اثنائها. وعلى العموم كان في مطلع القرن الثامن معسكران أحدهما أيقوني والآخر لا أيقوني، أما الأول فيتزعمه بطريرك الكنيسة الارثوذكسية بالعاصمة، وكان في ذلك الوقت اسمه جرمانوس وكذلك البابا، ويزيدهما كثير من الرهبان، وغالبية النساء والعوام من الناس، فقد كان اغلب النساء متعصبات للايقونات وعبادتها، وذلك بسبب حرصهن على وجود الروح الحارسة لحماية أطفالهن، أما المعسكر اللاأيقوني فقد كان يتزعمه الامبراطور ليون الثالث، وبعض رجال الدين الحاقدين على تزايد نفوذ وثراء الرهبان، وعلى رأسهم قسطنطين أسقف ناقوليا Nacolea، وتوماس اسقف كلاوديوبوليس وثيودوسيوس اسقف برجي Perge في كيليكيا، ومن الملاحظ أن هؤلاء الاساقفة الثلاثة انضموا الى المعسكر اللاأيقوني خلال مرحلة الصراع. كما وقف إلى جانب الامبراطور أكبر المثقفين في عهده، وبعض كبار رجال الادارة والوزراء، ووجوه الدولة، وبعض العامة الذين نقموا على تدخل الكنيسة ومشاركتها لهم في ارزاقهم.

وانتقل الجدل حول عبادة الايقونات من الكنيسة الشرقية الى الكنيسة الغربية، ففي روما عارض البابا جريجوريوس الثاني قرار ليون، ومن بعده عارضه خليفته جريجوريوس الثالث، معربين عن احتجاجهم بنفس اللهجة الصارمة، التي اعترض بها جرمانوس بطريرك القسطنطينية على هذا الحظر، بل ذهب

جـريجـوريوس الثـالث أبعـد من سلفـه، عندمـا أصـدر عـام ٧٣١ مـيلادية قـرار الحرمـان من رحـمـة الكنيــسة ضـد جـمـيع الرافـضين لعبـادة الايقـونات، وعلى رأسـهم الامبراطور ليون نفسـه!. ومرة ثانية تصـرف ليـون بعـصـبيـة اذ أمـر بالقبض على المندوب البابوى في القسطنطينية ووضعه في السجن، وأتبع ذلك بقرار جرد فيه البابوية من ممتلكاتها في صقلية وجنوب ايطاليا، وفصل كراسي الاسقفية في هذه المناطق عن سلطان البابا، مما أدى الى اتسـاع الهـوة بين كنيسة القسطنطينية والكنيسة في روما، واستغل البابا تلك الخلافات وراح يعمل على الخروج من دائرة النفـوذ والسلطان الامـبراطورى الرومى، ومن هيـمنة الكنيـسـة الشرقية اليونانية، ليدعم الكنيسة الغربية اللاتينية، وفي نفس الوقت بدأت الكنيسة اليونانية الشرقيـة تبـتـعـد تمامـا عن نفـوذ وتأثـيـر الكنيسة اللاتينية الغربية، وبذلك بدأ الشـرخ الكبيـر يحدث منذرا بانفصال الكنيسة الواحدة الجامعة التي نادى بها قسطنطين الكبيـر الى كنيـستين متعاديتين، واحدة أرثوذكـسيـة في القـسطنطينيـة، وأخرى كاثوليكية في روما.

ولقد ادت المعارضة الى تحول ليـون من سيـاسـة اللين والموادعة الى سـيـاسـة العنف والبطش بالايقـونيين، فكثـرت أعـمـال التخريب واحراق الصـور وتحطيم التـمـاثيل، ومن بين المآخـذ التي أخذت عليه احراق مكتبة كبرى كانت مجاورة لكنيسة أياصوفيا وكـانت تحـتـوى على ٣٣٠٠٠ كتاب تقريبا، ولما احتج اساتذة جامعة القسطنطينية عاقبهم، وقيل أنه القى بهم في النار. كما ثارت عليه جزر الارخبيل اليوناني Cyclades، ونادوا بامـبـراطور جديد اسمه كوسماس Cosmas بعثـوا به على رأس قـوة بحـرية لخلع ليون، غير أنه هزم، وتحطم اسطولة، وانقذت الامبراطورية من حرب أهلية مدمرة.

وبالرغم من ذلك فـقـد كـان لقرار ليـون الثالث نتائج ايجابية في مجال الفن البيزنطى، فخلال فترة الحظر التي امتدت من عام ٧٢٦م الى ٨٤٣ مـيـلادية اتجـه الفنانون الى الرسومات الدنيوية المحاكية لجمال الطبيعة، وازدهر الفن الدنيـوى المقلد للطبـيـعـة، والذى كان مهجورا، وبطغى عليه الفن الديني، مما أحـيـا الفنون الهللينستية والسكندرية القديمة، بل وبعث الحـيـاة في روح الفن الكلاسيكي الأغريقي، وفي نفس الوقت فـرت أعـداد كـبيـرة من الرسـامين الدينيين، الذين لم يقدروا على التحـول من الدين الى الدنيـا - الى مـدن الغـرب اللاتيني، حيث وظفوا في أعمال تزيين الكنائس الغـربيــة بالموضوعات التورانية، سواء في رومـا أو فـيـرونا أو غـيـرهمـا من المدن، مما أحـدث طفـرة في فن التـصـوير وزخـرفـة الكنائس في ايطاليـا، والولايات الغـربيـة الأخـــرى، وبدأت روح الفن البـيـزنطي العـريق، تغـزو الفن اللاتيني وتبعث فيه الحياة.

حكم قنسطنطين الخامس

الملقب بالنجس ٧٤١-٧٧٥م

وفي عام ٧٤١ ميلادية مات ليـون الثالث، واعتلى العرش ابنه قسطنطين الخامس الملقب باسم كوبرونيموس Kopronymos.

وتعني النجس.

ولقد حاول كوبرونيموس أن يسير على سياسة أبيه، ويتتبع خطواته، فلم يكد يمر عام واحد على توليه الحكم حتى قاد جيشه وعـبـر به ثغر الأبـيـق لقـتـال المسلمين، غـيـر أن زوج أخـتـه ارتاباسدوس Artabasdos والذى يـبدو من أسـمـه أنه كـان فـارسي الأصل، انتـهـز الفـرصـة، وهاجم مـؤخـرة جـيش كـوبرونيـمـوس وشتته، وهرب الامبراطور لاجئا يتنقل بين ثغور آسيا الصغرى، أما ارتابا سـدوس فـقـد دخل القسطنطينية منتصرا، معلنا أنه قد هزم عدو الأيقونات، وذلك لكي يحظى بالشرعية القانونية، ولكي

يجد سندا شعبيا لحكمه بين الجماهير. ولقد أيد الرهبان هذا المغتصب، مما يؤكد أن الايقونيين كانوا وراء هذا الانقلاب.

أما قسطنطين كوبرونيموس، فقد أصر في نفسه حقدا مريرا ضد رهبان الاديرة والايقونيين. وراح يتنقل من ثغر لآخر، يجمع أنصار أبيه من الجنود، حتى كون منهم فرقة صغيرة هاجم بها القسطنطينية، ودخلها عنوة ليسترد عرشه المغتصب عام ٧٤٣ ميلادية؛ وبعد أن طهر الادارة من الذين خانوه، من أنصار ارتاباسدوس، بدأ حملة انتقام ضد الرهبان واتباعهم الايقونيين، وجعل عدوه الأول ليس المسلمين ولكن الايقونيين، فاستدار ليقتلع الحركة الايقونية المعارضة من جذورها، حتى لا تعود مرة أخرى. وقاده ذكاؤه أن يعطي لانتقامه غلالة شرعية، اذ أمر في عام ٧٥٤ ميلادية بعقد مجمع مسكوني لرجال الدين للحصول على قرار بشرعية سحق الايقونيين باعتبارهم مهرطقين، وتم عقد المجمع في قصر القدسيات أو الاسرار القدسية (هيريا Hieria)، وحضره ٢٣٣ أسقفا من كبار رجال الدين المؤيدين له من كافة أقاليم وولايات الامبراطورية، ولم يحضره ممثلو البابا أو بطاركة أنطاكية والاسكندرية والقدس، انما اكتفى برجال الاكليروس الرومي، وعقد المؤتمر في قصر الاسرار القدسة الذى كان يقع على الشاطىء الأسيوى المواجه للبوسفور، مما يؤكد أن العناصر الشرقية كانت هى المؤيدة لحركة اللاايقونية. غير أن بعض رجال الدين المتشددين، رفضوا حضور هذا المجمع، ووصفوه بأنه مجمع المهرطقين، وكان أول الرافضين هو بابا الكنيسة اللاتينية في روما، الذى أنزل اللعنة على كل من شارك في هذا المؤتمر، وكان للبابا أهداف سياسية وراء هذه الادانة، كما أعلن بطاركة مدينة الاسكندرية المونوفيزيون ادانتهم لهذا المؤتمر، وانضم اليهم بطاركة أنطاكية والشام، وبطريرك بيت المقدس في فلسطين، وقد تصادف أن كرسي البطريركية في القسطنطينية كان شاغرا بعد موت أنسطاسيوس، ولهذا اتخذ الأيقونيون من ذلك حجة لاعلان أن هذا المجمع باطل، لأنه لا يمثل رجال الدين والاساقفة ولم يترأسه بطريرك الكنيسة.

وبالرغم من هذا الهجوم الشرس على المجمع، الا أنه استمر منعقدا لمدة ستة شهور، وراح قسطنطين يقدم البحوث تلو البحوث لكي يشرح الاسس التى تقوم عليها حركة تحريم الايقونات؛ وبعد أن تداول أساقفة المؤتمر برئاسة الاسقف ثيودوسيوس أسقف افيسوس طويلا، اصدروا في نهاية شهرهم السادس قرارات تؤكد شرعية الحركة اللاأيقونية. وأفتوا بأن تصوير المسيح والأنبياء والقديسين في صور بشرية هرطقة، «وأن التعبد للصور والايقونات ضرب من ضروب الوثنية ومن يعبدها سواء كان من المدنيين أو الرهبان سيعاقب قانونا باعتباره ثائرا ضد أوامر الله». كما اتخذ المؤتمر قرارا بطرد جميع الاساقفة، الذين يدعون الى شرعية عبادة صور وتماثيل المسيح وأمه وحوارييه، وعلى رأسهم البطريرك السابق للقسطنطينية جرمانوس. وبطريرك دمشق يوحنا. وعلى الفور شمر قسطنطين الخامس عن ساعديه لينفذ قرارات هذا المجمع، وأصدر أوامره بتدمير وتحطيم جميع الايقونات والصور والتماثيل الدينية، وأباح دم زعماء الايقونية، وتعقبهم وفتك بهم، وشرد عددا كبيرا منهم، وصادر أملاكهم، وزج بعدد آخر منهم في غياهب السجون. وكان من الطبيعى ألا يترك الامبراطور أعداءه رهبان الاديرة، التى تحولت الى مراكز للتآمر على حكم هذه الأسرة الحاكمة، فاصدر قرارات مهينة بحق هؤلاء الرهبان، فمثلا أصدر قرارا يفرض عليهم استبدال

أرديتهم السوداء بأردية بيضاء، وقرارا آخر يلزم الناس بالقسم بأنكار عبادة الصور ومن يرفض يقتل، وكان البطريرك قسطنطين أول من أقسم على ذلك، ولذلك اعتبرت الفترة من سبتمبر ٧٦٤ الى سبتمبر ٧٦٥ فترة الشهداء الايقونيين، فقد قتل عدد كبير من الرهبان من أمثال اسطفانوس رئيس أحد الاديرة نيقوميديا، والراهب اندرياس؛ كما ألغى مبدأ العزوبية الابدية للرهبان باجبارهم على الزواج، واتخذ من حفلات الزواج الجماعي للرهبان حفلات صاخبة للترويح عن الجماهير المحبة للهو والمرح. فاقام حفل زفاف صاخب في ملعب سباق الخيول الكبيرة، سار فيه الرهبان يتأبطون اذرع زوجاتهم، وسط سخرية الجماهير ونكاتهم. وعلق المؤرخ ثيوفانيس على ذلك بقوله «لقد عمل الامبراطور ضد من يغضبون الله بجنون» لأنه صادر املاك الاديرة والكنائس، وحطم ما بها من ايقونات وتماثيل، وحول بعضها الى مرافق عامة مثل كنيسة القديسة يوفينيا Euphenia التى تحولت الى دار للصناعة، وحول البعض الآخر الى مساكن عامة أو ثكنات للجنود.

ولما كان الناس على دين ملوكهم، فقد تبارى حكام الثغور في تقليد سلوك الامبراطور، بتهديد الرهبان بأنهاء عزوفهم عن الزواج، والا وقعوا تحت طائلة العقاب، فتزوج من الرهبان من تزوج، وهرب الذين أصروا على العزوبية، فهجرت كثير من الاديرة، واحتل الجيش الامبراطورى هذه الاديرة، وحولها الى ثكنات للجنود ومخازن للذخيرة. ومن الطريف في الأمر أن عددا كبيرا من الرهبان الأيقونيين فروا الى بغداد عاصمة الدولة الاسلامية الجديدة، اذ كانت الدولة الأموية قد سقطت، وقام مكانها الدولة العباسية عام ٧٤٩ ميلادية، حيث أسس الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور مدينة بغداد، لتكون عاصمة للدولة الاسلامية الجديدة بدلا من دمشق. واستقبلت الدولة العباسية هؤلاء الرهبان اللاجئين، لا حبا في مذهبهم، الذى يرفضه الاسلام، ولكن نكاية في امبراطور الروم. كما هربت أعداد كبيرة من الرهبان الايقونيين للاحتماء بالبابا، وكنائس ايطاليا وأديرتها، مما كان له أكبر الأثر في ازهار الثقافة الدينية الكنسية في الغرب اللاتيني، فقد أسس هؤلاء الرهبان المدارس الدينية مثل «مدارس الأحد»، ذات الثقافة اليونانية وسط بحر من الثقافة اللاتينية، وهكذا للمرة الثانية، ساهمت ثقافة اليونان في أثراء الثقافة اللاتينية، وكانت المرة الأولى في القرن الثاني قبل الميلاد عندما سقطت بلاد اليونان في حوزة الأمبراطورية الرومانية الوثنية. كما هاجر عشرات من الرسامين والنحاتين الذين درجوا على التخصص في زخرفة وتزين الكنائس بالصور الدينية الى الغرب اللاتيني، ووظفوا في مشروعات تشيد وزخرفة كنائس ايطاليا والغرب اللاتيني، فساهموا في تأسيس مدرسة جديدة للفن الديني، الذى أبدع في صنعته، وكان بداية لمدارس الفن الأوروبي، التى وصلت الى ذروتها في عصر النهضة الاوروبية.

أما بقايا أنصار الايقونات الذين بقوا داخل الامبراطورية ولم يغادروها، فقد بدأوا يكونون حركة مقاومة ضد حكم الأيسوريين، وتجمعت هذه المقاومة حول شخصية دينية كبيرة هى الاسقف اسطفان رئيس دير الاوكسمنتيوس Auximentios في آسيا الصغرى، وتزايد أنصار هذه الحركة بانضمام الجماهير اليها. ولما شعر قسطنطين الخامس بذلك، حاول في البداية أن يثنى الاسقف اسطفان عن عزمه باللين والحسنى، فلما فشل في ذلك دبر مؤامرة للتخلص منه، فقد دعاه للتشاور معه في العاصمة حتى

يخرجه من حصنه؛ وبينما كان اسطفان يسير في شوارع القسطنطينية مطمئنا، أوعز رجال الأمبراطور الى الغوغاء المعادية للأيقونية، فانقضت على اسطفان ومزقته اربا اربا، وكان لهذه الجريمة البشعة صدى سيء في نفوس شعب القسطنطينية فأعلن ادانته واستنكاره لهذه الجريمة البشعة وطالب بمعاقبة المحرضين عليها، وتحول الناس تدريجيا الى التعاطف مع الايقونيين؛ كما ارتعد المثقفون من طغيان الامبراطور وجنونه، وباتوا يدعون الى التخلص منه. وبدأ الامبراطور في أواخر أيامه يشك في ولاء حتى أقرب المقربين اليه، ففي عام ٧٦٦ ميلادية أصدر أمرا باعدام عدد كبير من القادة المدنيين والعسكريين. وكانت هذه بداية النهاية لحكم قسطنطين الخامس كوبرونيموس. فقد أصبح في نظر الناس طاغية ومهرطق يعشق سفك الدماء، ويهوى الحرق والدمار، وباتت النفوس معبأة ضده، تنتظر ساعة الخلاص منه، وتخليص الأمبراطورية من شرروه وجنونه، كما أن علاقته بالجيش لم تعد كما كانت في أول عهده، وذلك بعد حركة اعدام القادة عام ٧٦٦م وبذلك أصبحت رأس الامبراطور ناضجة تنتظر من يقطفها.

حروب قسطنطين الخامس ضد قبائل البلغار:

وبالرغم من هذه الصورة الكريهة التي علقت بأذهان الناس عن قسطنطين الخامس، غير أن الباحثين العلمانيين لا ينكرون فضله وشجاعته في حماية حدود الامبراطورية من خطر اعدائها المتربصين بها وخاصة البلغار. فقد استغل البلغار القلاقل التي سادت خلال تطبيق اللاايقونية لتدعيم وجودهم في حوض الدانوب الأدنى، ووحدوا مراكزهم المتفرقة بانتخاب زعيم واحد يدعى بالخان، وهو لقب أسيوى يعنى الملك. وكان أقوى «خانات» البلغار زعيم يدعى اسباروخ Asparuch استطاع أن يوحد الصفوف، ويقضي على الفتن بين جماعات البلغار، بسبب التنافس على منصب الخان، وبعد أن وحد شملهم، قادهم في حروب ضد دولة الصقالبة والسلاف، الذين درجوا على مداهمة شبه جزيرة البلقان. ولمدة ثلاثين عاما ساد السلام بين الروم ورعاياهم البلغار، فقد كانت الأسرة الأيسورية تشعر بالجميل، الذى أولوه لها عندما أرسلوا نجدة أنقذت ليون الثالث من حصار مسلمة بن عبدالملك للقسطنطينية، ومن ثم تركوهم وشأنهم، مما ساعد على تقوية شوكتهم وبناء مملكتهم حتى وصلت الى درجة هددت الامبراطورية الرومية ذاتها، ولهذا كان على قسطنطين الخامس أن يقلم أظافرهم، قبل أن ينشبوها في لحم الامبراطورية. ومن ثم بدأ يتحرش بمملكة البلغار في أواخر حكمه، اذ كان في حاجة الى حرب قومية ليمتص غضب الجماهير من الداخل، ويدعم عرشه الذى بدأ يهتز من تحته، وبدأ التحرش بهم عندما راح يبني القلاع والحصون على طول حدود مملكة البلغار، لتأمين شعب الأرمن وغيرهم من الشعوب التي كان قسطنطين قد نقلها من الاقاليم الشرقية، ووطنها في اقليم تراقيا في شمال غرب البلقان، لابعاد البلغار عن الوصول الى مياه بحر إيجه، وحاصرهم ليصبحوا مملكة داخلية مغلقة. وبالطبع لم يعجب ذلك البلغار، بالاضافة الى ذلك حدث وأن عامل قسطنطين الخامس زعيم البلغار وممثلهم في القسطنطينية معاملة مهينة، كانت بمثابة اشعال الفتيل للحرب، وعلى أثر ذلك مزق البلغار هدوء السلام، بالعودة الى سلوكهم القديم، وهو الاغارة على حدود الامبراطورية ولم يتعجل قسطنطين في الرد عليهم، حتى يشعر شعبه بالخطر، وبأنه القائد القادر على انقاذ

الامبراطورية من خطر البلغار، وبعد أن اطمأن الى تعبئة عواطف الشعب الوطنية وتناسي موقفهم منه، قاد قسطنطين كوبرونيموس جيشه في عدة حملات عسكرية لتأديب هذه القبائل بدأت عام ٧٥٩ ميلادية، واستمرت حتى عام ٧٧٥ ميلادية، أى لآخر يوم في حياته، ولقد حققت حملاته أهدافها اذ أرهقت دولة البلغار، وجعلتها تترنح وتكاد تسقط، لهذا لقبه شعبه باسم سفاح البلغار Bulgaro ctonos وفى نفس الوقت وبين الفينة والفينة، كان يغير على حدود الدولة العباسية لشغل المسلمين عن مهاجمة دولته.

غير أن هذه الانتصارات، التى حققها قسطنطين فى المشرق قابلتها خسائر لحقت بممتلكات الامبراطورية في الغرب اللاتيني، حيث ظلت أزمة فتكه بعباد الايقونات وبالرهبان تغلي تحت نيران العواطف الدينية الجياشة، وكان الرهبان اللاجئون يزكون نيرانها، كما استغل بابا الكنيسة اللاتينية في روما هذا الوضع، وراح يعمل على الانسلاخ تدريجيا من نفوذ الكنيسة اليونانية الشرقية ومن نفوذ القسطنطينية، مما أدى الى تدهور العلاقة بين الامبراطور في الشرق، والبابا في الغرب. ففى عام ٧٦٩ عقد البابا اسطفان الثاني مجمعا دينيا فى روما حضره ٤٤ أسقفا، نقض به قرارات مجلس قسطنطين الذى كان قد عقده عام ٧٥٤م. وقرر فيه تكفير اللايقونيين وحرمانهم من مغفرة الكنيسة. وبالاضافة الى ذلك، فان السنوات الطويلة التى قضاها في حروب شرسة مع البلغار والمسلمين، أضعفت قبضة الامبراطورية العسكرية على ممتلكاتها فى الغرب اللاتينى، وأصبح ممثل القسطنطينية فى روما، مجرد رمز لا حول له ولا قوة؛ ومن ثم وجد البابوات الفرصة مواتية لتثبيت نفوذهم تنفيذا للسياسة الاستقلالية، التى وضع قواعدها جريجوريوس الكبير أول بابوات روما. وازاء هذا الضعف وعلى حسابه قويت ممالك الفرنجة خاصة مملكة اللومبارديين، التى وصلت الى أوج قوتها فى عهد ملكها أستولف (٧٤٩ ـ ٧٥٦م)، فقد وصلت هذه المملكة الى أقصى اتساع لها، حيث ضمت اليها أرخونية رافنا Ravenna عام ٧٥٠م، بل وصل الأمر الى تطلع استولف الى اخضاع الممتلكات البابوية ذاتها، ولم يجد البابا من يحميه سوى أن يتجه الى دولة الفرنجة، التى كان نجمها بدأ يصعد في سماء القوة، لأن القسطنطينية لم تعد قادرة حتى على حماية ممتلكاتها من اللومبارديين؛ اذ لم يعد لها أى ممتلكات باقية شمال اقليم كالابريا. وفي ضوء ذلك أقدم البابا اسطفان الثاني على خطوة جريئة كانت نقطة التحول فى مولد أوروبا العصور الوسطى وانفصال الغرب اللاتيني عن الشرق الهلليني، اذ عبر هذا البابا جبال الألب رغم قسوة البرودة في السادس من يناير عام ٧٥٤ ميلادية من ايطاليا قاصدا بلاد الغال، حيث التقى في بونثيون Ponthion بملك الفرنجة ببين القصير Pepin Brevis وعقد معه مباحثات انتهت بالتحالف المشترك بينهما عام ٧٥٣، واعترف البابا اسطفان بأن دولة الفرنجة هى القوة الجديدة والأمينة على حماية الكنيسة البابوية وممتلكاتها، والوريث الشرعى للامبراطورية الرومانية القديمة. ولقد تلقى قسطنطين الخامس هذه الضربة الموجعة قبل عام واحد من وفاته التى حدثت فى عام ٧٧٥م.

حكم ليون الرابع الشهير بالخزرى ٧٧٥ـ٧٨٠م:

وربما كان من رضاء الله على قسطنطين الخامس أن توفاه وهو على سريره ملكا، تاركا عرش البلاد لأكبر أبنائه من زوجته أبنة ملك الخزر، وكان هذا الأبن

يسمى ليون ولذا لقبه المؤرخون باسم ليون الخزرى. ولم يكن ليون من عينه أبيه وجده، فقد كان ضعيفا يعانى من مرض السل، كما أن تأثير زوجته الجميلة ايرينى Irene ـ الأثينية المولد ـ كان عليه كبيرا. وظهر هذا التأثير فى تهاونه مع أنصار الايقونات والرهبان، فقد كانت ايرينى من أشد المتحمسين لعبادة الايقونات بحكم الوطن الذى جاءت منه، والذى كان من أهم مراكز الفنون الدينية فى هذا العصر، ولهذا لم يلجأ ليون الى استخدام العنف ضد أنصار عبادة الايقونات، وتوقف عن سياسة ملاحقة الرهبان المتمردين، واغلاق الاديرة، مما جعل كثير من الرهبان يستردون نفوذهم المسلوب، ولهذا يعتبر المؤرخون المحدثون فترة حكمه بمثابة فترة انتقال بين عصر اللاأيقونية وعصر عودة الايقونيين، والذى جاء على يدى أرملته ايرينا عندما حكمت من بعده، وقد أنجب ليون من ايرينا ولدا سماه قنسطنطين، ولم يكن هذا الأبن يبلغ العاشرة من عمره حين مات أبوه ليون من جراء مرض السل بعد خمس سنوات قضاها فى الحكم، تاركا العرش لزوجة جميلة طموحة وقاسية، ولولد لم يشب عن الطوق بعد، ومن ثم حكمت ايرينا بصفتها وصية على ولدها القاصر.

حكم ايرينا كوصية على الامبراطور القاصر قنسطنطين السادس

٧٨٠ـ٧٩٠م:

ما أن جلست ايرينا على عرش القسطنطينية كوصية على ولدها القاصر، حتى شغلت نفسها طوال السنوات الثلاث الأولى باخضاع الفتن والاضطرابات، التى أثارها أشقاء زوجها الراحل، وكان عددهم خمسة، ويتزعمهم شقيقهم الأكبر نقفور المطالب بحقه فى الحكم. كما سارعت بارسال حملات خاطفة لتأديب الصقالبة السلافيين، الذين كانوا يعيشون فى أرض البلقان فسادا. وكان تصرفها هذا بمثابة امتصاص للخطر، ولكن لم يكن كافيا للقضاء عليه؛ فقد كان هدفها الأساسى هو الحصول على فسحة من الوقت لتحقق أمنية دفينة فى نفسها وهو اعادة الايقونية وعبادة الصور بطريقة شرعية، غير عابئة بمشاعر الجنود الذين كانت على أكتافهم تستند أركان الامبراطورية.

ولقد تجلى ذكاء ايرينا فى الطريقة التى أعادت بها الشرعية الى عبادة الصور والايقونات؛ ففى عام ٧٨٤م قامت بعزل البطريرك اللاايقونى بارلوس وعينت مكانه رجلا مدنيا من أنصارها اسمه طاراسيوس Tarasius فى كرسى البطريركية الشاغر، وكان ذلك أول سابقة فى تاريخ دولة الروم يعين فيها رجل مدنى فى منصب البطريرك.

ثم أوعزت اليه بالدعوة الى عقد مجمع مسكونى للنظر فى قضية تحرير الايقونية، وحرصت على أن يوجه دعوة الى بابا روما هادريانوس الأول لأرسال وفد يمثل الكنيسة اللاتينية، واستجاب البابا على الفور وكان هدف البابا هو حث البطريرك الجديد على اعادة السيادة الروحية لكنيسة روما، وارجاع الاملاك الموقوفة عليها، والتى كان ليون الايسورى قد صادرها. وبالفعل تجمع حوالى ثلاثمائة من كبار رجال الدين فى كنيسة الرسل فى القسطنطينية فى اليوم الأخير من شهر يوليو عام ٧٨٦ ميلادية معلنين عقد مجمع مسكونى، لكن ما كاد المجمع يفتتح جلساته، حتى اقتحم جنود الحرس الامبراطورى قاعة المؤتمر شاهرين سيوفهم، وأجبروا المجتمعين على التفرق؛ ولم تستطع ايرينا أن تفعل أكثر من تسريح هؤلاء الحرس وتعيين آخرين موالين لها. وبقيت الوفود عاما كاملا حتى تم اعداد مجمع مسكونى آخر عام ٧٨٧ ميلادية.

وظهر ذكاء ايرينا مرة أخرى، عندما نقلت مقر المجمع المسكوني الى مدينة نيقية مهد أول مجمع مسكوني عقد برئاسة قسطنطين المؤسس، حتى تضفي على هذا المجمع الصفة الشرعية والقداسة، ولسخرية التاريخ فقد كان هذا المجمع المسكوني هو السابع والأخير في تاريخ المجامع المسكونية. ولقد جاءت قرارات هذا المجمع بما تشتهي الامبراطورة، فقد أعلن بطلان الحجج التي قامت عليها حركة تحريم عبادة الصور والايقونات، وأقر شرعية الأسس التي قدمها أنصار الايقونية للمؤتمر، بأنها مجرد رموز لتبجيل من يظهرون مصورين عليها، وليس عبادة لها من دون الله. ومن ثم أعلن هذا المجمع الغاء قرارات المجمع السابق، الذي عقد في عهد قسطنطين الخامس عام ٧٥٤ ميلادية واعلان تكفير اللاايقونيين، واعادة الايقونات الى سابق عهدها، وعلى الفور اتخذت الاجراءات لوضع هذا القرارات موضع التنفيذ فشغلت المناصب الحكومية بأنصارها الايقونيين، وابعدت الجيش الى الحدود بحجة رد خطر المسلمين والبلغار، وأفرجت عن الرهبان المسجونين والمنفيين، ولاسيما رهبان دير ستوديون، وبهذه القرارات كسبت ايرينا حب الجماهير لها، وعطف رجال الدين عليها، غير أنها خسرت تأييد الجيش لها، ووقوفه موقف العداء منها، فقد كان الجيش يتكون من العناصر الأسيوية الرافضة لعبادة الايقونات، والذين على سواعدهم نفذ ليون الثالث، ومن بعده أبنه قسطنطين الخامس مذهبهم اللاأيقوني. كما أن الجيش كان منذ البداية ساخطا على أن يتولى الحكم امرأة، اذ لم يتعود قادة جيش الامبراطورية أبدا أن يتلقوا أوامرهم من امرأة مثلها، في وقت هم فيه في حاجة ماسة الى زعيم قوى يقودهم لانقاذ الامبراطورية من الأخطار، التى تتمثل في الدولة العباسية ومملكة البلغار. اذ يذكر الطبرى أن الخليفة المهدى أرسل في عام ٧٨١ ميلادية حملة عسكرية بقيادة أبنه هارون الرشيد ضد أراضي الامبراطورية، «توغلت حتى وصلت الى خليج البحر الذى على القسطنطينية»، ويذكر ثيوفانيس أن هذه الحملة قد وصلت حتى مدينة خرسوبوليس Chersopolis (أى مدينة الذهب على مدخل البحر الأسود على الجانب الأوروبي للبوسفور) ووقفت الامبراطورية عاجزة عن رد هذه الحملة العباسية، فالجنود عازفون على القتال، وحركات التمرد تنتشر في كافة ثغور آسيا الصغرى مهد الحركة اللاأيقونية. ولم يكن أمام الامبراطورية غير أن تقبل شروط المسلمين المهينة، بأن تدفع لبغداد صاغرة جزية سنوية كبيرة تسدد على قسطين، شأنها في ذلك، شأن الجزية التى يدفعها رعايا الدولة العباسية من غير المسلمين.

ولم يكن خطر الدولة العباسية هو الخطر الأوحد الذى بات يهدد الامبراطورية: ففى الغرب، كان هناك خطر انفصال الكنيسة الكاثوليكية البابوية، وتعاظم قوة دولة الفرنجة في عهد ملكها العظيم شارلمان، وكان الروم قلقين بسبب قيام الصداقة بين شارلمان والدولة العباسية، وتحالفهما ضد الخلافة الأموية في الأندلس، وضد مصالح الامبراطورية في المشرق، ويقال أن بداية العلاقات بين البلاط العباسي، والبلاط الكارولنجى بدأت منذ حكم بيبين الثالث والد شارلمان عام ٧٦٢ ميلادية. وكان على ايرينى أن توقف هذا التحالف بأى وسيلة، ولقد كان شأنها شأن سائر النساء اللائي جلسن على عروش الامبراطوريات وهو استخدام الدهاء السياسى، بدلا من العنف الحربى. وكان البابا قد تلكأ في التصديق على قرارات مجمع نيقية بسبب تلكؤ الامبراطورة في

رد أملاك كنيسة بطرس، فأمرت بردها، عندئذ اعتمد البابا على الفور قرارات المجمع، فقد سعت إلى ارضاء البابا لادراكها مدى نفوذه على الامبراطور الكارولنجي، خاصة أنها قد أصلحت ما أفسده الأيقونيون باعادة عبادة الايقونات، كما سعت إلى اقامة علاقات ودية مع شارلمان ملك الدولة الكارلنجية الفرنجية، فعرضت عليه في عام ٧٨١ أن يتزوج ابنها قسطنطين القاصر الأميرة روترود Rotrud ابنة شارلمان الوحيدة، وقد قبل شارلمان على أمل أن تنجب ابنته ولدا يحكم الشرق والغرب معا، غير أن ايرينا كانت تدرك ما يدور في ذهن شرلمان، فعمدت الى تعطيل اكمال اجراءات الخطبة والزواج، حتى تكسب الوقت، وبالفعل فسخت ايرينا خطبة ابنها عندما شعرت أنها في وضع أفضل.

انفرد قسطنطين السادس بالحكم وعزل أمه ايرينا ٧٩٠ - ٧٩٧م:

وفي عام ٧٩٠ ميلادية بلغ قسطنطين الواحدة والعشرين من عمره، وهي سن انتهاء الوصاية، وتحت الحاح الجيش قام بعزل أمه، ولكنه ارتكب خطأ عندما لم يتخلص منها نهائيا كما فعل الامبراطور نيرون مع أمه من قبل، لأنه كان ضعيفا وجبانا، فسمح لها بالبقاء في القصر، وبأتت الأم تتربص للتخلص من ابنها من أجل العودة إلى العرش بمساعدة أنصارها من رجال البلاط.

ولقد أساء قسطنطين التصرف منذ البداية، فقد صدم مشاعر الناس بالطريقة البشعة التي تخلص فيها من أعمامه المطالبين بالعرش، فقد سمل عيني عمه نقفور، وقطع ألسنة أعمامه الآخرين، وصدم مشاعر الجيش عندما سمل عيني قائد ثغر أرمينيا مما أدى الى تمرد جنود ذلك الثغر عليه، وكان نعامة في الحروب، ففي عام ٧٩٢م ولى هاربا من معركة مع البلغار عند حصن ماركيللاى على الحدود، تاركا كبار قواده يقعون في الأسر، وحقق البلغار نصرا سهلا على الامبراطورية الرومية ومهينا لكبريائها. فقد أجبر البلغار على دفع اتاوة سنوية على نحو ما تدفع الامبراطورية للمسلمين. وكلما زادت رعونته وضعفه طالب البلغار بزيادة الاتاوة، وهكذا توالت النكبات والهزائهم في عهده على الامبراطورية. ولقد بلغ السيل الزبى عندما أغضب الكنيسة بطلاق زوجته دون سند شرعي، وقيامه بالزواج من احدى وصيفات القصر رغما عن أنف الكنيسة، وأعلنت الكنيسة أن هذا الزواج باطل، بالاضافة الى ذلك، فقد كانت الوصيفة العروس مطلقة وطبقا لقوانين الكنيسة «فان من يتزوج بمطلقة فانما يزني بها»، ومن ثم أضيفت إلى تهمة بطلان الزواج تهمة الزنا. وانتهزت الأم السخط على ابنها من جانب الجيش للعار الذى جلبه عليهم، والسخط الشعبي لجرائمه والبشعة ضد أعمامه، وسخط الكنيسة لطلاق زوجته والزواج من الوصيفة المطلقة، وأدركت أن ابنها يقف وحيدا بلا سند، فخرجت من جناحها بالقصر، وبمساعدة اثنين من كبار مستشاريها هما ستاوريكيوس Stauricios وايتيوس Aetios، أستولت ورجالها على حجرة العرش، وألقت القبض على ابنها الامبراطور، وأمرت باقتياده إلى المخدع الذى ولد فيه، وبلا رحمة أمرت بسمل عينيه، معلنة أنه غير مؤهل لحكم الأمبراطورية؛ وأعلنت عودتها إلى الحكم منفردة مرة آخرى، ولكن ذلك لم يوقف الكوارث، فقد أصبح سقوط حكم الأسرة الأيسورية وشيكا.

حكم الامبراطورة ايريني منفردة ٧٩٧ - ٨٠٢م:

ولم يكد يمضي سنوات ثلاث على جلوسها على العرش، حتى تلقت الامبراطورية في وقت خرج صفعة قوية من البابا ليو

الثالث، وحاميه الملك شرلمان ملك الفرنجة . ففي عام ٧٩٩م قامت ثورة في دوقية البابا في روما، ولم يجد البابا من يستجير به سوى شارلمان، الذى أسرع بقواته فقمع الثورة. وثبت أقدام البابا بقوة السلاح. واعترافا بهذا الجميل دعاه البابا لزيارة روما والصلاة في كنيسة القديس بطرس، لتتزامن مع قداس عيد الميلاد لعام ٨٠٠ ميلادية. وبعد القداس، ركع شارلمان على ركبتيه في حضرة البابا، وباتفاق بين الاثنين وضع البابا تاجا فوق رأس شارلمان مناديا، «انهض يا امبراطور الرومان الأوحد «exurge «imperatore soli Romanum، وكانت هذه الصيحة بمثابة اعتراف شرعى من قبل البابا وبحق شرلمان في فرض سيادته على شطرى الامبراطورية الرومانية الشرقي والغربي، ولم يكن شرلمان في حاجة إلى اعتراف البابا بسيادته على الشطر الغربي، لأنه كان من الناحية الفعلية، هو صاحب السلطة العليا في أوروبا الغربية، انما كان في حاجة لفتوى شرعية بأحقيته في ضم الشطر الشرقي وتوحيد الامبراطورية، كما كان للبابا قصد من هذا الاعتراف، وهو تخليص الكنيسة اللاتينية من نفوذ القسطنطينية الديني والدنيوى بل جعل الكنيسة البابوية في روما هي الكنيسة العليا على كافة كنائس الامبراطورية الموحدة بما في ذلك كنيسة القسطنطينية، كما أن رضا شارلمان بأن يتوجه البابا كان بمثابة تنازله عن السلطات الدينية والاكتفاء بالسلطة الزمنية، وهكذا أصبح من حق بابوات روما تتويج الأباطرة، مما سبب خلافات فيما بعد بين الأباطرة والبابوات، حول من له السلطة العليا على الآخر البابا أم الامبراطور؟، أو بمعنى من يعين الآخر الامبراطور أم البابا؟

ولقد قدم البابا ليو لهذا الحدث، بأن أعلن استنكار كنيسة روما للطريقة التى استولت بها الامبراطورة أيرينى على العرش، وسملها لعينى فلذة كبدها، كما رفض أن يعترف بجلوس امرأة اغريقية على عرش الامبراطورية الرومانية، كخليفة للقديس بطرس نائب المسيح، كما استنكر أن يذعن العالم المسيحى لسلطان امرأة قاتلة، وبناء على هذه الحيثيات اعتبر البابا ليو الثالث عرش الامبراطورية شاغرا، وأن شارلمان الابن البار للكنيسة الكاثوليكية، وحامي حمى البابوية، وخادمها المطيع، هو الرجل المناسب لملئ كرسى العرش، وبذلك يتوحد شمل الامبراطورية الرومانية بشطريها كما كانت على عهد قسطنطين الكبير.

ولقد سبب تتويج شرلمان امبراطورا قطيعة كبيرة بين الشرق الاغريقي والغرب اللاتيني، فقد شعرت كنيسة القسطنطينية الاغريقية أن تعديا قد وقع عليها، من جراء رفض البابا ليو الثالث، أن يعترف بحق الامبراطور الشرقي في فرض كلمته على الكنيسة اللاتينية الغربية، كما شعرت هذه الكنيسة أيضا، أن نفوذ البابا على كنائس غرب أوروبا يفوق نفوذ بطريرك القسطنطينية على هذه الكنائس.

ولقد استقبلت الامبراطورة أيرينى نبأ تتويج شارلمان امبراطورا على يد البابا بانزعاج شديد، وفي نفس الوقت كان شارلمان قلقا من رفض القسطنطينية الاعتراف بتتويجه، واحتمال وصول امبراطور قوى يحل محل ايرينى، يعمل على استرداد نفوذه بقوة السلاح، اذ لم يكن لشرلمان القوة العسكرية القادرة على صد قوات الجيش الامبراطورى الرومي المتمرسة في فنون القتال، والمكونة من العناصر الشرقية الشرسة، ومن ثم لجأ شرلمان إلى سلاح السياسة، اذ بعث في عام ٨٠٢م بوفد إلى القسطنطينية ليعرض على ايرينى الزواج، فرحبت به وبدأت تستعد للعرس. ولقد استاء الحرس الامبراطورى لهذا التصرف، الذى أودى بها

الى الوقوع في مصيدة شارلمان، فثار عليها، وأطاح بها من على العرش، وكان المدبر لهذا كله وزير خزانتها نقفور الأول (Nicephoros)، وتم نفي أيريني الى احدى الجزر البعيدة، وبقيت فيها حتى ماتت، وقد تم ذلك في نهاية عام ٨٠٢ ميلادية، وبذلك انتهى حكم الأسرة الأيسورية الفعلي عند هذا التاريخ، لأن العرش ذهب الى بعض المغتصبين له.

حكم نقفور الأول Nikephoros
(٨٠٢-٨١١م)

كان نقفور من أصل أسيوى مثل سائر الأباطرة الأيسوريين، واستمر حكمه تسع سنوات نهج خلالها نهج أباطرة هذه الأسرة، فقد كان كارها لعبادة الايقونات، ومتحرقا لتحطيم الصور والتماثيل الدينية، فاعاد الحظر القديم على عبادة الايقونات، واضطهد الايقونيين مما أكسبه حنق الرهبان، الذين كانوا يحتكرون كتابة تاريخ الدولة، فرسموا له صورة بشعة كريهة مليئة بالتجنيات والقذف، مثلما فعلوا مع ليون الثالث وولده قسطنطين الخامس.

فلقد برز في عهده معارض وخصم عنيف هو الراهب ثيودوروس Theodoros رئيس رهبان دير ستوديون القريب من القسطنطينية الذى انبرى للدفاع عن الايقونية مثلما فعل يوحنا الدمشقي في عهد اسلاف الامبراطور، مطالبا بعودة الرهبان المشردين، وعندما ارسل اليه الامبراطور نقفور يستشيره في أمر تعيين بطريرك جديد بعد وفاة البطريرك طاراسيوس Tarasios الذى توفى عام ٨٠٦م، رد ثيودوروس (هبة الله) بخطاب تملق فيه الامبراطور، مبديا مايفهم منه استعداده لشغل ذلك المنصب لأن الشروط التي نصح بها تتوافر فيه وحده، مثل الخبرة، الاستقامة، والتدرج في سلك الكنيسة من ادناه إلى أقصاه، غير أن الامبراطور تجاهله، وعين في منصب البطريك أحد المؤرخين من رجال الدين من المناصرين له اسمه أيضا نقفور، فحنق الراهب ثيودور على البطريرك نقفور واتهمه بأنه العوبة في ايدى الامبراطور نقفور، وانتهز فرصة موافقة البطريرك على زواج الامبراطور للمرة الثانية بمقتضى قرار من مجلس كنسي، فجمع ثيودور مجلسا معارضا، واعلن أن مجلس البطريرك «جماعة من الزناة والمهرطقين»، وأن البطريرك قد ضحى بالقواعد الدينية في سبيل ارضاء الامبراطور وانتهى الأمر بطرد ثيودور من رئاسة الدير، ومعه زميله أفلاطون، عندئذ أعلن رهبان دير ستوديون «سوف نتحمل كل شئ».

ولقد واجه نقفور الأول عدة زوابع سياسية، وأزمات وأخطار عسكرية، فقد كانت امبراطورية الروم واقعة بين المطرقة العربية، والسندان البلغارى، فضلا عن استمرار الضغط النفسي من جانب شرلمان في الغرب لينتزع اعترافا بلقب «امبراطور الروم»، فقد بدأ شارلمان يستخدم صداقته الحميمة مع الدولة العباسية في عهد هارون الرشيد، لاحداث المزيد من الضغط النفسي على سلطات القسطنطينية، ولقد حاول نقفور تهدئة شارلمان، باجراء محادثات معه حول الاعتراف بلقبه، ولكن لم يكن في نيته الاعتراف بهذا اللقب، وانما ارضاء لشارلمان وتهدئته، وابطال مفعول الصداقة والتحالف بينه وبين الدولة العباسية.

وفي نفس الوقت، التقت المصالح والأهداف العباسية بالمصالح والأهداف الكارولنجية، فلقد كان هدف شرلمان من هذه الصداقة الحصول على تأييد العباسيين لتضييق الخناق على الحكم الاسلامي الأموى في الأندلس، ونحن نعرف ما كان

بين العباسيين والأمويين من ثأر وعداء، كما كان هدفه أيضا من تلك الصداقة ضمان حسن معاملة الحجاج اللاتين الى بيت المقدس، والضغط النفسى على القسطنطينية لتستجيب الى طلبه، وهو الاعتراف به امبراطورا على الغرب اللاتينى. أما هدف العباسيين ، فقد كان أيضا الضغط النفسى على القسطنطينية لجعلها تقع بين نارين ، نارهم فى الشرق ، ونار شارلمان فى الغرب، أملا فى أن يعجل ذلك بسقوطها الذى كان أملا عزيزا فى نفوس العباسيين. وفى نفس الوقت التعبير عن سخطهم على الخلافة الأموية القائمة فى الأندلس، حتى ولو أدى ذلك إلى وقوع الأندلس فى أيدى الفرنجة، أى أنها صداقة تقوم على مساومة ومبادلة (quid pro quo) القسطنطينية للمسلمين، مقابل الأندلس للفرنجة. ومن الطريف أن كلا من الحكم الاموى فى الاندلس، والرومى فى القسطنطينية أدركا هذه المؤامرة، فعملا على تقوية أواصر الصداقة بينهما بتبادل الوفود نكاية فى العباسيين، وبهدف خلق محور رومى - أندلسى، فى مواجهة المحور العباسى - الكارولنجى.

وتتحدث المؤلفات اللاتينية فى الغرب عن الصداقة الحميمة بين هارون الرشيد وشارلمان، والزيارات التى لم تتوقف للوفود بين بغداد وآكس لا شابل، دون معرفة الأهداف الخفية لهذه الصداقة، وبلغ الكرم العربى أقصاه عام ٨٠٦م عندما أرسل هارون الرشيد وفدا يحمل هدايا تمثل بذخ الشرق وثرائه، فقد أرسل منسوجات حريرية مخملة، وأخرى قطنية، ولم يكن الغرب قد عرف المنسوجات القطنية بعد، كما أرسل مع الوفد فيلا أبيض اللون من فصيلة نادرة، وساعة من النحاس الأصفر تعمل بالماء، وقد حملت هذه الهدايا النفيسة ، التى خلبت لب البلاط الكارلنجى فى مركب كبير سار من بغداد حتى مدينة آكس لاشابل (آخن الحالية (Aachen))، وقدم الوفد الهدايا الى شارلمان ومعها خطاب يذوب رقة يقول فيه هارون الرشيد «أنه يضع مودة شرلمان فوق مودة كل الملوك الآخرين».

ولم يعلم هارون الرشيد أن هذه الصداقة مؤقتة، فقد كان شارلمان على استعداد أن يقلب ظهر المجن لهارون الرشيد، لو أن الامبراطور نقفور اعترف بحقه فى حمل لقب امبراطور الرومان ، والدليل على ذلك أنه لم تكد تمر بضعة قرون حتى جاء أحفاد شارلمان غازين لديار الاسلام فى حرب عدوانية، هى الحروب الصليبية، غير أن سياسة الروم كانت من الغباء لدرجة أنها رفضت بعناد الاعتراف بشارلمان امبراطورا. لما مات هارون الرشيد عام ٨٠٩ ميلادية، وتلى موته اندلاع الصراع بين ولديه الأمين والمأمون، فترت الصداقة العباسية الكارولنجية وتلاشت تماما، ولم يتم ذلك فى عهد نقفور بأى حال من الأحوال.

ولما حاول نقفور أن يجرب حظه فى ميدان الحرب، قاد حملة عسكرية مع ابنه وولى عهده ستاوراكيوس Stauracios ضد مملكة البلغار، انتهت بهزيمته ومصرعه، وهروب ابنه الى مدينة هادريا نوبوليس بعد أن تلقى جروحا بالغة تسبب عنها عجزه عن الحكم، ولم يبرز أحد من أسرة نقفور ليتولى العرش سوى زوج ابنته بروكوبيا Procopia ويدعى ميخائيل الرنجابى، ولذلك ساعدته مجموعة من النهازين من رجال البلاط، أملا فى الافادة المادية منه، حتى أوصلوه الى العرش بعد أن أجبروا ستاوراكيوس على دخول الدير، وذلك فى أواخر عام ٨١١م وقام البطريرك نقفور بتويجة امبراطورا.

حكم ميخائيل الأول الرنجابى

Rhangabe ٨١١-٨١٣م

كان ميخائيل الأول الشهير

بالرنجابى Rhangabe ، ينحدر من سلالة يونانية تماما مثل الامبراطورة السابقة ايرينى، أى أنه لم يكن مثل بقية أباطرة الأسرة الأيسورية الذين ينحدرون من سلالات شرقية، ومن ثم كان مثل ايرينى متعاطفا مع أنصار الايقونية، كما كان قد تلقى تعليمه فى طفولته على يد الراهب ثيودورس Theodoros كبير الرهبان فى دير البحث الدينى الشهير، والمعروف عند الروم باسم الأستوديون Studion ، والذى كان الامبراطور نقفور قد عزله ثم نفاه مع زمرة من أصحابه الرهبان خارج البلاد أثناء حركة التطهير، التى قام بها ضد الايقونيين، ولذا فما أن جلس ميخائيل على العرش، حتى استدعى استاذه الراهب من المنفى هو ورفاقه، بل جعله مستشارا له فى أمور الدولة، وبناء على نصائح ثيودورس عزل ميخائيل القيادات العسكرية والادارية لمجرد أنها كانت معادية للايقونيين،مما أدى إلى أسوأ النتائج، اذ خسرت الامبراطورية كفاءات نادرة فى وقت كان الأمة فى مسيس الحاجة اليها، وتمخض عن ذلك التصرف أن تعرضت الامبراطورية الرومية لسلسلة من الهزائهم المهينة على الصعيدين السياسى والعسكرى.

وعلى صعيد السياسة الداخلية، تميز عهد ميخائيل الرنجابى بموادعة الايقونيين، ولذلك يعتبر عهده حدا فاصلا بين فترتين تتسم كل منهما بالشدة والعنف، فسلفه وصهره نقفور كان لا ايقونيين منهم المتطرف ومنهم المعتدل، فقد كان الامبراطور أداة طيعة فى يد البطريرك نقفور خاصة فى سياسته ازاء الدين والكنيسة، كما أظهر الامبراطور ميخائيل تعاطفا مع عبادة الايقونات وأنصارها، فقد اعاد الرهبان المشردين والمنفيين، وأغدق بالهدايا والهبات النفيسة على الكنائس والاديرة والبيمارستانات، وغيرها من المؤسسات الخيرية. ولما حاول المصالحة والتوفيق بين البطريرك نقفور وخصمه ا للدود ثيودورس، انتهز هذا الأخير الفرصة، وطلب منه أن يعلن هرطقة اللا ايقونيين، واعدام زعمانهم حتى يعود اتباعهم الى الطريق الارثوذوكسي السليم، ولذلك لم نسمع عن أى حركة لا ايقونيون، فقد انتهزوا فرصة الاستياء العام من سياسة الامبراطور المتسامحة مع الايقونيين، وحاولوا تخليص أبناء قنسطنطين الخامس من المنفى حيث كانت عيونهم قد سملت وأطرافهم قد بترت، مستغلين ذلك لكى يستدروا عطف الجيش وتأليبه على الامبراطور، غير أن هذه المؤامرة كشفت، فشددت الرقابة على الامراء المشوهين، وقطعت السنة المتآمرين.

وعلى الصعيد السياسى، انتهت مفاوضاته مع شرلمان فى آكس لا شابل باهانة كبرى، عندما رضخ لمطلب شرلمان، واعترف به رسميا امبراطورا على الرومان عام ٨١٢م مقابل أن يتركه شرلمان يحتفظ بجزر البندقية، ذات الاهمية التجارية الكبرى، ومقابل تركه لسياسة الصداقة مع الدولة العباسية، وتحسين علاقاته مع القسطنطينية، وبالفعل توقفت العلاقات مع الدولة الاسلامية العباسية بعد ذلك التاريخ، الذى اعترف فيه الروم بشرلمان امبراطورا على الرومان فى الغرب. ولقد حاول ميخائيل أن يقلل من تأثير هذا الاعتراف بالمسارعة بتغيير لقبه من ملك Basileus إلى امبراطور Autokrator ، غير أن تغيير اللقب لم يجد من الأمر شيئا، فقد أصبح هناك امبراطوران فى وقت واحد لامبراطورية من المفروض أن تكون من الناحية النظرية واحدة. غير أنه على أثر هذا الاعتراف أصبح هناك من الناحية الفعلية امبراطوريتان واحدة شرقية، وأخرى غربية،

كما أصبح أيضا هناك كنيستان واحدة أرثوذوكسية يونانية شرقية، وأخرى لاتينية كاثوليكية غربية. وانتهت بذلك الى الأبد أحلام المؤسس قسطنطين الكبير، في تحقيق الامبراطورية الواحدة والكنيسة الجامعة.

وعلى الصعيد العسكرى تلقى الجيش الامبراطورى الرومى هزيمة شنعاء على يد ملك البلغار القوى كروم Krum ، الذى مرغ الشرف العسكرى للروم في الوحل في احدى المعارك. وعندما عاد الجنود الى القسطنطينية يقصون على الشعب التفاصيل الكاملة لهذه الهزيمة، فار الدم فى عروق الناس، واستغل اللاأيقونيون التحفز والقلق، فاعلنوا أن ما أصاب الأمة من كوارث هو غضب من الله، بسبب سياسة الامبراطور المؤيدة لعبادة الصور والتماثيل والايقونات، وتدفقوا فى عام ٨١٣م على قبر قسطنطين الخامس ، سفاح البلغار، وأكثر الاباطرة الايسوريين صرامة فى استئصال شأفة الايقونيين، وراحوا ينادون عليه، وهم يبكون، أن ينهض من لحده، لينقذهم من مذلة ملك البلغار الجبار، ولكى يستلهموا من القيصر الراقد إلى الابد روح النصر لانقاذ القسطنطينية من الخراب، حتى الجماعات الساخطة على قسطنطين الخامس لجرائمه وطغيانه، نسوا ما فعله بهم، وانضموا إلى زمرة المعاديين للايقونية. وحسم الموقف عندما انضم الجيش الى المظاهرة التى تحولت الى انقلاب عسكرى قاده قائد عسكرى أرمني الأصل اسمه ليون، أعلن فيه عزل الامبراطور ميخائيل . وهتف الجيش والشعب بحياة ليون، وحملوه على الاعناق الى القصر الامبراطورى، وأجلسوه على العرش. وهكذا آل العرش الى الامبراطور ليون الخامس.

حكم ليون الخامس الأرمني ٨١٢-٨٢٠:

كان ليون ضابطا في الجيش، ومن العناصر الشرقية، فقد كان أرمني الأصل، ومن ثم فقد كان متوقعا أن يتخذ خطا متشددا مع الايقونيين جريا على عادة الاباطرة العسكريين الشرقيين، واستجابة لمشاعر الجماهير التى حملته الى العرش، غير أنه فاجئ الجماهير والجيش باتباعه سياسة معتدلة ومحايدة، تهدف الى ارضاء أنصار الايقونية وأعدائها في وقت واحد، اذ أمر ببقاء الصور والتماثيل والايقونات بشرط أن تعلق عاليا، وبحيث لاتصل اليها أيدى المتعبدين، فلا يتسنى لهم التمسح بها والصلاة لها طلبا لبركاتها، غير أن هذه السياسة «الراقصة على الحبل»، وجاءت على عكس ما كان يتوقع لها الامبراطور المنافق، فعندما شرع الجنود الموالون له في زحزحة التماثيل، ورفع الايقونات والصور داخل الكنائس، هاج رجال الدين والرهبان، وعلى رأسهم البطريرك نقفور نفسه، وهتفوا بسقوط الامبراطور ليون الخامس.

وعلى الجانب الآخر شعر أعداء الايقونية من العامة، ومن الجنود الاسيويين أن الامبراطور قد خان الأمانة، التى جاءوا به من أجلها إلى العرش، وغدر بمشاعرهم، وخيب آمالهم، وأنه رجل انتهازى لا مذهب له الا الاحتفاظ بكرسي العرش، فانطلقوا في تحد سافر إلى الكنائس، يحطمون التماثيل المقدسة، ويحرقون الصور والايقونات، ومن ثم عمت الفوضى وأعمال الشغب كافة أنحاء الامبراطورية، لكن الامبراطور لم يغضب من تصرفات اللاأيقونيين، بقدر ما أثاره هتاف رجال الدين ضده، فتحول الى عدو لدود لهم، وهجر سياسة المصالحة، ليتبنى سياسة التطرف والاضطهاد ضد أنصار الايقونية، يعاونه في ذلك أكبر المثقفين فى عهده وهو يوحنا النحوى أحد رؤساء الاديرة المكروه من الكنيسة لهرطقته، وكذلك الأسقف المستنير

أنطونيوس، وثيودوتوس كاسيتيراس Theodotus Kassiteras وهو ابن شقيق الزوجة الثالثة لقسطنطين الخامس. وقد حرض هذا الفريق ليون الأرمني الخامس ضد الايقونات، فكلف يوحنا النحوى أن يكتب بحثا حول رأى الشرع والسلف الصالح في عبادة الايقونات، وأجاز له دخول أى مكتبة والاستعانة بأى مرجع، وانتهى يوحنا من البحث عام ٨١٤م؛ وطلب من البطريرك نقفور ابداء رأى الكنيسة فيه، فاعترض عليه؛ خاصة بعد رفع الايقونات والصور الى علو شاهق حتى لا يتمسح بها الناس، ومن ثم فعل ليون الخامس الشهير بالارمنى مثلما فعل قسطنطين الخامس من قبل، وهو أنه أمر بعقد مجمع دينى لرجال الدين الشرقيين، وتحت الحاحه اصدروا قرارا عام ٨١٥م يحرم عبادة الصور والايقونات والتماثيل، واعتبارها ضربا من ضروب الهرطقة والوثنية؛ وما أن صدر ذلك القرار حتى بدأ ليون الخامس في تصفية حساباته مع الرهبان ورجال الكنيسة، بادئا باصدار قرار يعاقب كل من يدعو الى عبادة هذه الأوثان، وطرده من رحمة كنيسة القسطنطينية، وانزال لعنتها عليه، وعلى رأسهم البطريرك نقفور وأعوانه من الرهبان المتزعمين لحركة الايقونية. وفى الحقيقة لم يلجأ الامبراطور إلى هذه القوة الا بعد فشله في اقناع الكنيسة بقبول حل وسط، فقبل عقد مجمع عام ٨١٥ حاول التوفيق بين الفريقين، فدعا زعماء كل منهما الى القصر لاجراء مناظرة، وخوفا من تحول النقاش الى حرب أهلية، قام باستقدام البطريرك ليلا إلى القصر ومعه ثيودوروس رئيس دير ستوديون، غير أن هذا الأخير قال «ليس للامبراطور حق التدخل فى شئون الكنيسة، فحكمه قاصر على الشئون الحربية والمدنية، وللكنيسة الحق فى أن تحكم نفسها بنفسها» عندئذ استشاط الامبراطور غضبا، وتحمس اللاأيقونيون، وهجم أنصارهم يساعدهم جنود الجيش، وانتزعوا صورة المسيح المعلقه على باب القصر، والتى كانت ايرينى قد اعادتها الى مكانها وقذفوها بالطين والحجارة، وهنا قال الامبراطور: «دعونا نزيل هذه الصور حفظا لها من الاهانات»، كأنه ليس مسئولا عما حدث، وكثرت احتجاجات ومقالات ثيودوروس وكثر تحريضه للرهبان واثارتهم، ومن ثم قام الأمبراطور بعزل البطريرك نقفور، وعين مكانه رجلا علمانيا مدنيا هو ثيودوتوس وذلك فى عام ٨١٥م، وذلك رغما عن انف الرهبان واحتجاج سلطات الكنيسة، لكنه تعلل بسابقة قانونية وهو أن الامبراطورة ايرينى سبق لها ـ وهى ايقونية متعصبة ـ أن عينت رجلا مدنيا فى منصب البطريرك. وبعد صدور قرارات مجمع عام ٨١٥ حاول تطبيقه فى أول الأمر باللين والحسنى، ولما حاول رئيس دير ستوديون ثيودوروس الاعتراض، سجنه ونفاه، فقد كان أشد ما أثار ليون الخامس هو محاولة هذا الراهب اللجوء الى البابا فى روما باعتباره السلطة الروحية العليا التى لا ينبغى أن يعترض عليها أحد، ولذا اعتبر ليون الخامس هذا التصرف من ثيودوروس جريمة لا تغتفر، فصدق على قرار نفيه وسجنه. ولقد امتص هذا القرار غضب الجماهير والجنود، التى كانت آمالها قد خابت فيه، وهدأت الأحوال، وعاد الأمن والنظام،لكن الجنود الاسيويين، وزعماء اللاأيقونية، لم يغفروا له أبدا خطيئته وخيانته لمشاعرهم، وعزموا على التخلص منه عندما تلوح الفرصة، فبعد خمس سنوات من صدور قرار المجمع الدينى، وأثناء الاحتفالات بأعياد الميلاد، تمكن أحد رفاق الامبراطور من ضباط الجيش السابقين من أن يغمد خنجره فى

ظهره، فخر صريعا، مضرجا في دمائه، ولم يحزن عليه أحد. وبموت ليون الخامس أسدل الستار على تاريخ الأسرة الأيسورية والمنتسبين لها،وبدأحكم جديد لأسرة جديدة هي الأسرة العمورية.

حكم الأسرة العمورية (الفريجية) ٨٢٠-٨٦٧م

ميخائيل الثاني المتلعثم: ٨٢٠-٨٢٩م

بعد مقتل الامبراطور ليون الخامس الأرمني، جلس على العرش أحد قادة الحرس الامبراطوري اسمه ميخائيل، ولقد أطلق عليه تهكما لفظ المتلعثم«Battos». ولقد كان ميخائيل الثاني ينتمي الى سلالة أسيوية تنتسب إلى عمورية Amorion في ولاية فريجيا في آسيا الصغرى Phrygia ، ولذا فقد عرف باسم العمورى أو الفريجي، كما وصفت الأسرة باسم العموريين أو الفريجيين، وهو مؤسس هذه الأسرة.

وعلى النحو الذى سار عليه أسلافه الأباطرة الاسيويون من قبله، كان ميخائيل الثاني معاديا لعبادة الايقونات، ومن ثم جعل الحظر عليهامستمرا، غير أنه لكى يحقق الوحدة الوطنية بين أطراف الامبراطورية المنهوكة القوى، تظاهر بمظهر المحايد فيما يختص بالصراع بين اللاأيقونيين والايقونيين. ومن ثم حظر على الناس الدخول في مناظرات ومجادلات دينية في العلن ، وفي الاماكن العامة حول هذا الموضوع ولارضاء الايقونيين وتهدئتهم، أعاد الرهبان من الاديرة النائية التي كان سلفه ليون الأرمني قد نفاهم اليها، وأعلن على الملأ حرية كل فرد في ممارسة عقيدته المسيحية بالطريقة التي تروق له. واختبارا لصدق نواياه، طالبه زعماء الايقونيين والرهبان، بأن يأمر باعادة التماثيل والايقونات الى أماكنها الأصلية التي كانت فيها قبل أن ينقلها جنود ليون الخامس، وشعر الامبراطور الجديد بأن الاستجابة الى هذا المطلب سوف يدفع اللاأيقونيين الى الثورة عليه، لأنهم احتملوا أكثر من اللازم، ولهذا رفض مطلب الايقونيين، مما أدى إلى عودة الصراع من جديد بين أنصار الايقونية وأعدائها. بالاضافة إلى ذلك فقد أثار ميخائيل غضب كنيسة القسطنطينية والمشايعين لها عندما اتخذ لنفسه زوجة ثانية، وهذا أمر مرفوض طبقا لتعاليم الكنيسة، وياليت كان الأمر ينتهي عند هذا الحد، اذ كانت هذه الزوجة الثانية راهبة اسمها يوفروسوني Euphrosyne ، وكانت ابنة الامبراطور قسطنطين السادس، وذلك لكي يعطى نفسه شرعية وراثة عرش الامبراطور.

وفي البداية، لم يشك ميخائيل في أن ثيودورروس رئيس رهبان دير ستوديون كان على اتصال سرى بالبابا في روما خلال فترة الابعاد عن البلاد، لكن تأكد له ذلك عندما بعث البابا باسكاليس الأول برسول يطلب من الامبراطور «العودة الى الدين الصحيح»؛ ورد الامبراطور على هذه الرسالة بقوله «ان الاوتوقراطية الامبراطورية هي السلطة العليا في المسائل الروحية والمدنية على السواء». ولكى يقطع الطريق على البابا، سارع ميخائيل بالكتابة الى الامبراطور الفرنجي لويس الطيب Louis le Debonnaire عام ٨٢٤م، موضحا له خرافة عبادة الايقونات والصور، ومبينا له أن بعض رجال الدين يأخذون دهان وزيوت الصور ويمزجونه بالخبز والنبيذ ويبيعونه للجمهور، كما طلب منه في نهاية الرسالة التدخل لدى البابا لكى يتخلى عن حماية عباد الصور والايقونات اللاجئين الى بلاد البابا في روما؛ لكن حدث مالم يكن في الحسبان؛ اذ وصلت اليه رسالة من البابا يطلب منه النجدة لحمايته من اللومبارديين؛ عندئذ رأت الكنيسة الكاثوليكية الافرنجية (الفرنسية) أن تتخذ موقفا وسطا من ذلك الصراع؛ واستقر الرأى على عقد مجلس ديني في باريس عام ٨٢٥م بأمر من الامبراطور الفرنجي لبحث قضية عبادة الايقونات بالتفصيل؛ ومن باب المجاملة والاحترام طلب لويس الطيب موافقة البابا الجديد يوجينيوس Eugenius الذى خلف باسكال، فوافق على قرار المجلس

الذى كان ينص على انكار عبادة الايقونات، وفي نفس الوقت يلومن محطميها، ويسمح ببقائها دون عبادتها. كما توسط لويس الطيب لعقد الصلح بين البابا الجديد والامبراطور ميخائيل من أجل وحدة الكنيسة.

الاخطار التي واجهت الامبراطورية في عهده:

١. ثورة توماس الصقلبي:

كان توماس زعيما صقلبيا، ساءة أن يرى قومه السلافيين يعاملون معاملة سيئة من قبل سلطات الأمبراطورية، وكما قاد سبارتاكوس التراقي العبيد ضد روما، قاد توماس السلاف ضد القسطنطينية. وسرعان ما لقيت دعوته استجابة من العناصر والقوميات المغبونة حقوقها في كافة أنحاء الامبراطورية، فانضم اليه الساخطون من الأقنان والعبيد، كما استجابت لدعوته عناصر من الفرس ، والأرمن، وقبائل القوقاز، التي كانت تدخل في نطاق الامبراطورية، ثم انضمت اليه معظم قوات الجيوش المعسكرة في آسيا الصغرى، والتي كانت تتكون من الصقالبة والأرمن والاسيويين، كما انضمت اليه القوات البحرية بقطع من الأسطول ذاته، واستغل عاملو الضرائب في آسيا الفرصة فقامروا بأموالهم على نجاح ثورة توماس فايدوه، وانقسمت الامبراطورية الى شرقيين وغربيين؛ بل أن توماس كسب الى جانبه شقا من الساخطين في الجزء الأوروبي من الامبراطورية، عندما أعلن تعاطفه مع الايقونيين. وأصبح للثوار قوات برية واسطول بحري، واتخذ توماس من مدينة أنطاكية مركزا له. ولما رأى الأحوال تتردى، والاضطرابات الدينية تتصاعد، لم يعد يطالب بتحرير السلاف وبقية الشعوب المقهورة، بل تحدى الامبراطور ميخائيل الثاني في عقر داره، واعلن أن هدفه هو القسطنطينية. وبذلك تحولت هذه الثورة الى حرب أهلية تنذر بالخطر.

ولم يكتف توماس بتجنيد الساخطين داخل الامبراطورية، بل سعى الى طلبي العون الخارجي من الدولة العباسية ، فبعث بوفد من قبله الى بغداد يطلب المساندة العسكرية من الخليفة المأمون، مقابل أن يتنازل عن بعض مناطق الحدود في آسيا الصغرى ؛ ووجد الخليفة المأمون أنها صفقة رابحة تقربه من أمله وأمل المسلمين في احتلال القسطنطينية، وقد ساعد المأمون على ذلك استتباب الأحوال والفتن داخل الدولة العباسية بعد مقتل الأمين عام ٨١٣م. والتي تسببت في وقف الزحف نحو القسطنطينية، واستجاب المأمون لطلب توماس، فامده ببعض الفرق العسكرية التي انضمت الى قوات هذا الثائر الصقلبي، وتوج توماس امبراطور في انطاكية على يد بطريركها الايقوني، وبمباركة الخليفة المأمون، وذلك في تحد سافر للامبراطور ميخائيل الثاني، وفي عام ٨٢١ تقدم توماس بقواته البرية والبحرية لحصار القسطنطينية حتى الاستسلام، غير أن العناصر الأوروبية في العاصمة والشطر الشرقي وقفت وراء الامبراطور، ونسيت خلافاتها الدينية خوفا على مصالحها، فقد كانوا هم الملاك للاقطاعيات الشاسعة، والمنتشرة في شطري الامبراطورية، لأن توماس كان يستولي على هذه الاقطاعيات، ويوزعها على الفقراء من أنصاره؛ وهرع خان البلغار الكبير أمورتاج Omurtag لنجدة ميخائيل وانقاذ الامبراطورية، وحدثت المعركة الفاصلة بين شرق الامبراطورية وغربها في مطلع خريف عام ٨٢٣ ميلادية، وسحقت قوات توماس وتشتت شملها، ووقع زعيم الثورة نفسه في الأسر حيث أعدم على الفور. وهكذا فشلت احلام توماس محرر السلاف، وفشلت معها احلام المأمون. وبالرغم من ذلك، أرسل الامبراطور ميخائيل الثاني وفدا إلى بغداد، ليبلغ الخليفة بأن ثورة توماس قد سحقت، وأنه يطلب عقد هدنة لكي يلتقط انفاسه، ويصلح الخراب والدمار الذى سببته هذه الفتنة، غير أن الخليفة رفض رفضا باتا أن يهادن

الروم وامبراطوريتهم، وأصر على مواصلة الكفاح ضدها.

نتائج ثورة توماس:

أدت ثورة توماس الى ارهاق الامبراطورية واستنزافها عسكريا واقتصاديا، فقد ضعف الأسطول الرومي وخارت قواه، وأصبح غير قادر على التصدى للقوة البحرية الاسلامية فى شرق وغرب البحر المتوسط، بل حتى على حماية ما تبقى للامبراطورية المهترئة من ممتلكات فى جنوب ايطاليا وجزر البحر المتوسط.

وعلى الصعيد الداخلى، أدت ثورة توماس الى ارهاق الاقتصاد والتجارة بدرجة أثرت على التعبئة العسكرية والدفاعية، فقد اختفت طبقة صغار الملاك من المزارعين فى أسيا الصغرى، بسبب عجزهم عن الوفاء بالاعباء المالية والضريبية التى فرضها عليهم سواء الثوار أو القسطنطينية، فهجروا حقولهم، أو باعوها، أو تنازلوا عنها طواعية للاغنياء القادرين على تسديد الضرائب للدولة، كما أنه خلال فترة الحرب الأهلية ارتبكت الاسواق، وكسدت التجارة، بسبب ضياع الأمن وتعطيل القانون. وقد نتج عن ذلك ظهور الاقطاع الشرقى بشكل مخيف فى آسيا الصغرى، والذى تحول الى اخطبوط، هدد البلاد فى القرن العاشر، وظهرت خطورته وآثاره على الامبراطورية فى القرن الحادى عشر. وكان بداية النهاية.

ضياع كريت وصقلية:

أصبح الأسطول الاسلامى هو القوة الحقيقية فى شرق البحر المتوسط، بل فى غربه لأول مرة منذ عهد الامويين. بعد أن فقد الروم قواعد بحرية هامة. ففى عام ٨٢٧ قام جماعة من سكان الربض، المنشقون على الحكم الاموى فى الاندلس، والمطرودون منها، بالبحث عن وطن لهم، فاتجهوا بتشجيع من الدولة العباسية الى كريت، يقودهم زعيمهم أبو حفص عمر بن عيسى البلوطى، والذى عرف فى المخطوطات الرومية باسم أبو كابسو Apocapso واستولى الربضيون على كريت، دون مقاومة تذكر، بل على العكس ساعد سكانها الغزاة الربضيين نكاية فى الحكم اللاأيقونى فى القسطنطينية، فقد كان أهل كريت من أشد المتحمسين لعبادة الايقونات، كما ساعد رهبان أديرة كريت الربضيين، ودلوهم على الطرق والمدقات الهامة فى الجزيرة، والتى سهلت لهم احتلالها، مقابل ضمان حرية ممارسة عقيدتهم على النحو الذى يرتضونه، بالاضافة الى ذلك فقد كان كثير من أنصار توماس قد فروا الى كريت، وهؤلاء أيضا ساهموا فى تسهيل قدوم الربضيين نكاية فى الحكم الايقونى فى القسطنطينية، وساهموا فى احتلال المسلمين للجزيرة. ولم يستطع اسطول الروم أن يفعل شيئا لضعفه. وبذلك فقدت الامبراطورية جزيرة كريت ذات الاهمية الاستراتيجية والبحرية.

وفى غرب البحر المتوسط، شكلت القوة المتعاظمة لدولة الاغالبة خطرا آخر على ممتلكات الامبراطورية سواء فى صقلية أو جنوب ايطاليا، ودولة الاغالبة هى احدى الدويلات الاسلامية التى استقلت عن الدولة العباسية فى المغرب العربى، ابان الصراع الذى تلى موت هارون الرشيد، والتى أسسها ابراهيم بن الأغلب، الذى جعل مدينة القيروان عاصمة لدولته، فقد انتهز زياد الله أمير الاغالبة تدهور أحوال وقوة الروم عقب ثورة توماس، فسير حملة بحرى بقيادة قاض وفقيه شهير، اسمه أسد بن الفرات، لفتح جزيرة صقلية فى عام ٨٢٧م، تمكنت من النزول الى الجزيرة نحو الشرق حتى وصلت الى ميناء تاوريمينيوم Tauremenium فى اقصى الساحل الشرقى لصقلية على البحر الأيونى، ومن هذا الميناء ابحروا الى اقليم كالابريا (قلورية عند المسلمين)، المطل على بحر الأدرياتيك، واستولوا على ميناء باريوم Barium (بارى حاليا)، وبينما كانت هذه الحملة تشق طريقها لاكمال قبضتها على الجزيرة، جاءت الانباء بموت ميخائيل الثانى وتولى ابنه ثيوفيلوس.

حكم ثيوفيلوس Theophilos (٨٢٩-٨٤٢م):

تمسك الامبراطور ثيوفيلوس بنظرية السيادة العليا الشاملة التي حرص عليها أبوه، كما تمسك بنظرية الحق الالهي للملوك، ومن الناحية الدينية اشتط في مقاومة الايقونات لدرجة لا تقل عن ليون الايسورى وابنه قسطنطين، بل أنه كان أكثر تطرفا من سابقية الاثنين، رغم أن أباه حاول أن يخفف من غلواء ابنه في التعصب للحرب اللاأيقوني. ولقد بدأت هذه السياسة باصدار قرار عام ٨٣٢ بمنع «عبادة الصور وحذف كلمة مقدس» Hieros التى كانت تسبق اسم كل قديس؛ ولما رأى أن هذا القرار لم ينفذ بالشكل الذى اراده، أمر صديقه البطريرك يوحنا - الذى كان قد عينه بطريركا فى نفس العام - ان يجمع مجلسا دينيا ليعلن من خلاله انكار عبادة الايقونات، وأشرف الامبراطور بنفسه على تنفيذ قراراته، فكثرت في عهده حوادث الاعتقال والسجن والتعذيب لعدد كبير من الرهبان ورجال الدين.

وبالرغم من ذلك فقد كان ثيوفيلوس محبا للثقافة والفنون، والعلم والعلماء، فلأول مرة منذ عصر جستنيان نجد امبراطورا يولى البحث العلمي اهتمامه، لأنه نفسه تلقى تعليما راقيا، انعكس على طريقة تفكيره، واختياره لمستشاريه؛ فقد اختار أستاذه وهو

سنة ثمان وثمانين. واستخلف عليها عبد الرحمن بن عمرو بن قحزم الخولانى. وأهل مصر إذ ذاك في شدة عظيمة. فقال زرعة بن سعد الله بن أبي زمزمة الخشني:

إذا سارَ عبدُ الله منْ مصْرَ خارجاً ... فَلا رَجَعَتْ تِلْكَ البِغالُ الخَوارِجُ
أتى مِصْرَ والمكْيالُ وافٍ مُغَرْبَلٌ ... فَما سارَ حَتى سارَ والمُدَ فالِجُ(١)

فأهدر عبد الله بن عبد الملك دمه. فهرب إلى المغرب، وكتب إلى الوليد بن عبد الملك:

ألاَ لا تَنْهَ عَبْدَ الله عَنّى ... كَمَا قَدْ قالَ يجْعَلْنى نَكالا
ولَمْ أشْتُمْ لِعَبْدِ الله عِرْضاً ... ولَمْ آكُلْ لِعَبْدِ الله مالا

وسخط عبد الله بن عبد الملك على عمران بن عبد الرحمن بن شرحبيل بن حسنة، فصرفه عن الشرط والقضاء وسجنه، وذلك في صفر سنة تسع وثمانين. وجعل مكانه على الشرط عبد الأعلى بن خالد بن ثابت بن ظاعن الفهمي(٢)، وعلى القضاء عبد الواحد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج. وأمر عبد الله بسقف المسجد الجامع أن يرفع سمكه، وكان سقفه مطأطئاً، وذلك في سنة تسع وثمانين.

---

(١) واف: تام كامل كثير.ومغربل: صاف نقي. وفالج : ناقص إلى نصفه.
(٢) كذا في ر، ف (٢٣٨). وفي الأصل : الفهرى . خطأ.

يوحنا النحوى ـ أشهر علماء القسطنطينية فى عهده ـ مستشارا له، وفيما بعد عينه بطريركا للكنيسة ليدخل التفكير العلمى الى قلعة اللاهوت. ولقد كان يوحنا النحوى عالما متفتح الذهن، عاشقا للمنطق والتفتيش عن سر الكون، ويشجع البحث العلمى، ولذا لم ترض عنه لا أجهزة الكنيسة، ولا رهبان الاديرة. واتهموه بتهمة كانت شائعة فى ذلك الوقت كانت توجهها الكنيسة الى أى مفكر أو باحث يحاول أن يستخدم عقله فى البحث العلمى الدنيوى، وهذه التهمة هى ممارسة السحر الأسود. وبهذه التهمة كان العلماء يحرقون أحياء فى الكنيسة اللاتينية أو يطردون من رحمتها. غير أن الامبراطور لم يعر الرهبان اهتماما، فقد اوعز ثيوفيلوس الى يوحنا النحوى أن يصدر قرارا كنسيا يعتبر كل من يعارض الامبراطور فى مشروعاته متمردا على الكنيسة وخارجا على أوامرها، وكان ذلك ردا على موقف الرهبان من سياسة التنوير العلمى. ولم يستخدم ثيوفيلوس عقوبة الموت ضد أعدائه ومعارضيه، انما لجأ الى توقيع عقوبات بديلة، مثل تقطيع أيديهم أو أرجلهم من خلاف أو نفيهم من البلاد، أوالزج بهم فى السجون، باعتبارهم مارقين يحاربون الله، والمسيح والامبراطور، الذى هو خليفته على الأرض. ونتيجة لهذه

حدثنا عاصم بن رازح بن رحب الخولانى قال: حدثنا محمد بن حميد بن هشام الرعينى قال:

حدثنى أبى قال: حدثنى الحسن بن معاوية النصيرى[1] قال: حدثنى ابن أبى ليلى التجيبى، عن عبد الحميد بن حميد الكاتب مولى خزاعة.

عن أبيه قال: «كان موسى بن نصير يكاتب عبدالعزيز بن مروان.فلما هلك عبد العزيز، ولى عبد الملك عبد الله بن عبد الملك. فلم يكاتبه موسى،وكاتب عبد الملك. فكتب إليه عبد الله بن عبد الملك:

أما بعد.

فإنك كنت من عبد العزيز وبشر بين مهادين، تعلو عن الحضيض مهودهما، ويدفئك دثارهما، حتى عفا[2] مخبرك، وسمت بك نفسك. فلا تحسبنى. كمن كنت تخلبه[3] وأعداء بيته، وتقول: اكفيانى أكفكما، ولا كأصبغ[4] كنت تمينه[5] بكهانتك. وأيم الله

(١) كذا فى ر، وفى الأصل بعد . وفى الأصل هناك البصرى. وهو خطأ، لأنه يروى عن ابن نصير.
(٢) عفا: زاد وكثر. (٣) تخلبه: تخدعه.
(٤) أصبغ بن عبد العزيز بن مروان. وفى رك كأضبع.
(٥) تمينه: تكذب عليه.

السياسة الجديدة المتحررة، فقد وضع ثيوفيلوس البذور الاولى لما عرف فيما بعد بعصر الازدهار الذهبي الثانى لحضارة الروم، اذ بدأت ملامح حضارة علمية وفنية تتخلق، وتميزت عن حضارة عصر الازهار الأول الذى بدأ فى عصر جستنيان، وعرفت بأسم العصر الذهبى الثانى.

الحرب على الجبهة الاسلامية فى آسيا الصغرى:

كان الخليفة المأمون قد رفض عقد هدنة عرضها عليه وقد جاء الى بغداد من قبل الأمبراطور ميخائيل الثانى، لأن خليفة المسلمين رأى أن أوضاع الامبراطور الرومية المتردية بعد ثورة توماس فرصة سانحة لتوسيع حدود الدولة العباسية فى آسيا الصغرى، وما كاد ثيوفيلوس ابن ميخائيل الثانى يجلس على العرش، حتى سير الخليفة المأمون جيوشه لتعبر جبال طوروس، متقدمة نحو أرمينيا عبر اقليم قابادوقيا، ولم يكن ثيوفيلوس مستعدا للحرب، فبعث فى عام ٨٣٣ ميلادية بوفد الى بغداد من أجل طلب الصلح مع الدولة العباسية بأى ثمن، ولم يصل الوفد الى نتيجة؛ فقد مات الخليفة المأمون فى تلك السنة وتولى الخليفة المعتصم.

ولما علم ثيوفيلوس أن الخليفة الجديد المعتصم لم يدعم نفسه فى الحكم بعد، فقد انتهز هذه الفرصة للقيام بهجوم على بعض مناطق الحدود الاسلامية، ليدمر بعض القلاع الحصينة من ناحية،ومن ناحية أخرى ليحتل

لأضعن منك ما رفعا، ولأقلن منك ما كثرا. فضح رويدا [١]، فكأن قد أصبحت سادما [٢]، تعض أناملك نادماً . والسلام.

فكتب إليه موسى بن نصير:

أما بعد،

فقد قرأت كتابك، وفهمت ما وصفت فيه من إركانى إلى أبويك وعمك. ولعمرى إن كنت لذلك أهلاً. ولو خبرت منى ما خبرا، لما صغرت منى ما عظما، ولا جهلت من أمرنا ما علما. فكيف أتاه الله لك؟ فأما انتقاصك لهما، فهما لك، وأنت منهما، ولهما منك ناصر لو قال وجد عليك مقالاً، وكفاك جزاء العاق. فأما ما نلت من عرضى، فذلك موهوب لحق أمير المؤمنين لا لك. وأما تهددك إياى بأنك واضع منى مارفعا، فليس ذلك بيدك ولا إليك، فارعد وأبرق لغيرى. وأما ما ذكرت مما كنت آتى به عمك عبد العزيز، فلعمرى إنى مما نسبتنى إليه من الكهانة لبعيد، وإنى من غيرها من العلم لقريب. فعلى رسلك! فكأنك قد أظلك البدر الطالع، والسيف القاطع، والشهاب الساطع . فقد تم لها، وتمت له[٣]. ثم بعث إليك

(١) ضح رويداً: مثل بمعنى اصبر قليلا ولا تغر ولا تعجل.
(٢) السادم النادم الحزين لا يطيق ذهاباً ولامجيئاً.
(٣) الضمير عائد على الخلافة.

بعض الاراضي، ليجبر الخليفة الجديد على قبول الهدنة، وحتى يقايض بها الأراضي الرومية التي احتلها المسلمون في عهد المأمون، ومن ثم قاد ثيوفيلوس جيوشه ضد الحدود الاسلامية، وحقق بعض الانتصارات الهزيلة، اذ استولى مثلا على حصن زابطرة Zapatra وهدمه وأسر من فيه، ثم تقدم نحو ملطية ـ في اقليم كاريا في جنوب غرب آسيا الصغرى فاغار عليها وعلى ما حولها من حصون وذلك في عام ٨٣٧ ميلادية.

وعلى الفور قام الخليفة المعتصم بتجهيز جيش قاده بنفسه، انطلق به في عام ٨٣٨ ميلادية نحو الشمال الغربي، جاعلا وجهته اقليم فريجيا، وتوغل فيه حتى استولى على عمورية Amorion مسقط رأس هذه الأسرة الحاكمة.

ولقد بلغت نشوة الاستيلاء على عمورية حدا جعل الخليفة المعتصم يعقد العزم للسير نحو القسطنطينية ـ أمل المسلمين منذ الأمويين ـ غير أن الأنباء حملت اليه نبأ قيام الفتن في الشام، فاستدار عائدا لاخمادها.

الاغالبة يواصلون فتوحاتهم لمدن صقلية وجنوب ايطاليا:

وفي الوقت الذى كان فيه الخليفة المأمون يقود حملاته نحو أرمينيا، كان الاغالبة يزيدون من فتوحاتهم في صقلية، فزحفوا نحو بالرمو Palermo عاصمة صقلية، وحاصروها حتى استسلمت، عام ٨٣١م، وبفتحها انفتح الطريق أمام الاغالبة للاستيلاء على معظم مدن

الأعرابي الجلف الجافي، فلم تشعر به حتى يحل بعقوتك[١] فيسلبك سلطانك، فلا يعود إليك ولا تعود إليه . فيومئذ تعلم أكاهن أم عالم، وتوقن أينا النادم السادم. والسلام.

فلما قرأ عبد الله الكتاب ، كتب إلى عبد الملك كتاباً، وأدرج كتاب موسى فيه. فلم يصل الكتاب إلى عبد الملك حتى قبض، ووقع الكتاب في يد الوليد بعد أن عزل عبد الله عن مصر، وولي قرة شريك. فلما قرأه الوليد استضحك ثم قال: لله دره، وإن كان عنده لأثرة[٢] من علم، ولقد كان عبد الله غنياً أن يتعرضه».

فحدثني علي بن قديد قال: حدثني عبيد الله بن سعيد بن عفير قال: حدثني أبي قال:

حدثني القاسم بن الحسن بن راشد: «أن يحيى بن حنظلة مولى بني سهم نزه عبد الله بن عبد الملك إلى منية له بالجيزة. فما رأى طعاماً كان أكثر من طعامه، إن الرجل من الجند ليأخذ الخروف ما ينازعه أحد. فلما متع النهار[٣]، أقبل قرة بن شريك على أربع من دواب البريد، واحداهن عليها الفرانق[٤]. فنزل بباب المسجد، ونزل صاحباه. فدخل فصلى عند القبلة وتحول، فجلس صاحباه عن يمينه ويساره. فأتاهم حرس المسجد، وكان له شرط يذبون عنه.

(١) العقوة: المحلة. (٢) اثرة: بقية

(٣) متع النهار: ارتفع قبل الزوال.

(٤) الفرانق: الذى يدل صاحب البريد على الطريق.

الجزيرة، وأصبح الاتصال البحرى بين دولة الاغالبة في القيروان، وبين صقلية ميسورا وميسورا، وبذلك سهل نقل المؤن والعتاد لجيوشهم عن طريقها لتكمل فتوحاتهم في جنوب ايطاليا. وقد جاءت الاغالبة الفرصة في عام ٨٣٧م عندما استعان بهم أهل نابلي Neapolis ضد عدوان دوق بنيفيتو Benevento، فعقدوا معاهدة صداقه وتعامل مع دوقية نابلي، وقد سهل ذلك التحالف للاغالبه الأغارة على ممتلكات القسطنطينية في كالابريا (قلوريه) وحول خليج تارنتوم Terentum، بل أغاروا على مدينة كابوا Capua في سهل كمبانيا، وخربوها عام ٨٣٩م. ثم كللوا انتصارهم بالاستيلاء على مدينة تارنتوم العريقة وذات التاريخ الحافل، وعندئذ شعر أهل البندقية باقتراب خطر الاغالبه، وخشوا ان يقطع اسطولهم الطريق على سفنهم التجارية، فتحالفوا مع القسطنطينية، وانضم اسطولهم الى بقايا القطع البحرية للامبراطورية، غير أن اسطول الأغالبة أنزل بالحليفين هزيمة ساحقة في خليج تارنتوم واستولى الاغالبة على حصن باريوم Barium (بارى) المنيع عند مدخل بحر الادرياتيك وبالاستيلاء على تارنتوم وسهل كمبانيا من ناحية، وبالاستيلاء على ميناء باريوم من ناحية أخرى، أصبح الأغالبة يهددون روما نفسها.

سياسة ثيوفيلوس في غرب البحر المتوسط:

وازاء تفاقم الخطر الاسلامي في ايطاليا، فقد أسرع ثيوفيلوس بارسال وفود الى الامارات اللاتينية، فبعث بوفد الى امارة

فقالوا: إن هذا مجلس الوالي، ولكم في المسجد سعة. قال: وأين الوالي؟ قالوا[١]: في متنزه. قال: فادع خليفته. فانطلق شرطي منهم إلى عبد الأعلى فأعلمه. فقال أصحابه: أرسل إليه يأتك صاغراً. قال: ما بعث إلي إلا وله علي سلطان، أسرجوا. فركب حتى أتاه فسلم. قال: أنت خليفة الوالي؟ قال: نعم. قال: انطلق فاطبع الدواوين وبيت المال. قال: إن كنت والي خراج فلسنا أصحابك. قال: ممن أنت؟ قال: من فهم. فقال قرة:

لَنْ تَجِدَ الفَهْمِيَّ إلاّ مُحافظاً ... على الخُلُقِ الأعلى وَبِالحَقِّ عالما[٢]
سأُثْنِي عَلَى فَهْمٍ ثَناءً يَسُرُّها ... أوافي به أهل القُرى والمواسما

فقال: السلام عليك أيها الأمير. وكتب إلى عبد الله بن عبد الملك يعلمه. فأتاه الخبر، وقد أهديت له جارية. فبكى ولبس خفة قبل سراويله دهشاً.

قال: وكتب رجل من قريش إلى الوليد[٣]:

عَجَباً! ما عَجِبْتُ حِينَ أتانا ... أنْ قَدَ امَّرْتَ قُرَّةَ بنَ شَريكْ
وَعَزَلْتَ الفَتى المُبارَكَ عَنّا ... ثُمَّ فَيَّلْتَ[٤] فيه رأيَ أبيكْ

(١) كذا في ر. وفي الأصل: قال.
(٢) جعله ف (٢٣٩) شعراً، ونثراً.
(٣) ف (١٣١)، س٢ك (٩). ن(١:٢١٩).
(٤) فيل رأيه: قبحه وخطأه.

البندقية Venezia ، وهو الذى أسفر عن التحالف الفاشل بين البنادقة والروم لوقف زحف الأغالبة فى خليج تارنتوم، كما بعث بوفد الى لويس التقى ابن شرلمان، وقد أحسن لويس استقبال وفد القسطنطينية، ولكنه لم يكن يؤيد مناصرة الروم على العباسيين حلفاء أبيه شارلمان. ومن ثم خطر لثيوفيلوس أن يحيى الصداقة القديمة مع الخلافة الاموية في الأندلس، أملا فى أن ينجح فى استعدائهم على العباسيين والربضيين، فارسل وفدا الى عبد الرحمن الاوسط ـ أمير الاندلس ـ عام ٨٤٠ ميلادية. ولحسن الحظ أن المؤرخ الاسلامى أحمد بن محمد المقرى (المتوفى عام ١٤٤٣م) ترك لنا فى كتابه «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب»، شرحا لأهداف هذه البعثة، والتى هدفت الى ترغيب الأمير الأندلسى فى أن يتحالف أو يتعاون مع الروم لضرب الدولة العباسية فى عقر دارها، ويغريه على ذلك بتأكيده أن هذه الدولة فى طريقها الى الأنهيار. ولقد طلب ثيوفيلوس عبر وفده عربونا للصداقة وهو مساعدته فى تخليص جزيرة كريت من الربضيين، حلفاء الدولة العباسية، والمنشقين على الحكم الأموى فى الأندلس. غير أن الأمير الأموى لم يستجب لهذا الاغراء، وأثر أن تستمر دبلوماسية تبادل الوفود والهدايا دون التحالف العسكرى ضد العباسيين.

وفى عام ٨٤٢ ميلادية مات ثيوفيلوس تاركا من ورائه زوجته

يعنى بالمبارك هاهنا المشؤوم.

وقال عبد الله بن الحجاج التعلبى:

فَإنَّ بمصْرَ عَبْدَ الله يا شُؤ ... مَ عَبْدٍ كُلِّ ذى عظمٍ هَشَمْ

فكانت ولاية عبد الله عليها [ثلاث سنين و][1] عشرة أشهر.

١٥ . قرة بن شريك[*]

ابن مرثد [بن] الحارث[2] بن حبش بن سفيان بن عبد الله بن

ناشب بن هدم بن عوذ بن غاب بن قطيعة بن عبس

ابن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن

قيس بن عيلان بن مضر

ثم وليها قرة بن شريك العبسى للوليد على صلاتها وخراجها، فقدمها يوم الأثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة تسعين. فأقر عبد الأعلى ابن خالد على الشرط، وأخذ ،عبد الله بن عبد الملك بالخروج من مصر. فخرج عبد الله بكل ما يملك، فلما بلغ

(١) زيادة عن خـ ١٠ (٣٠٢:١)، ن(١ :٢١١)، وهى ساقطة من ر.

(*) الخطط (١ :٣٠٢)، والنجوم (١ :٢١٧)، وحسن المحاضرة (٢ :٩).

(٢) ن(١ : ٧ى٢١)ك ابن مرثد بن حازم بن الحارث.

الشـابة ثيـودورا، وابنا قـاصـرا لا يتعدى عمره ثمان سنوات وكان اسـمه ميخـائيل، ومن ثم اعلنت الامبراطورة ثيودورا نفسـها وصية عليه.

حكم ثيودورا كوصية على ابنها ميخائيل الثالث: ٨٤٢-٨٥٦م:

ولقد ظلت ثيودورا تسير أمور الامبراطورية طول مدة أربعة عشر عاما، قبل أن تسلم الحكم لابنها ميخـائيل الثـالث في عـام ٨٥٦ ميلادية، تفرغت خلالها لنصرة الايقونية، بينما تركت زمام شئون الامبراطورية لعشيق لها من رجال السياسة كان اسمه ثيوكتستوس Theoktistos ولشقيقها بارداس Bardas، والذى عـــرف في المصادر العربية باسم بطرناس، وكذلك لعمها عما نونيل، الذى كان لا أيقونيا متعصبا، وتدعى المصادر الكنسية أن هذا العم وقع فريسة لمرض طويل كاد يقضي عليـه لولا صلوات الكنيـسة ودعـوات الرهبـان في دير ستوديون، حتى قام من مرضه سليما معافى، ومن ثم تحول الى الايقونية وأصبح متحمسا لها، كما أصبح نفوذه قويا في مجلس الوصاية الامبراطورى؛ وتحت تحريض العم عما نونيل استدعى مجلس الوصاية البطريرك يوحنا النحوى، وخيره بين أمرين: اما أن يعقد مجلسا دينيا ينتقى جميع اساقفته من الايقونيين، أو الاستقالة، فرفض الأمرين معا؛ غير أنه حدث أن أصيب البطريرك في اشتباك مع أحد حراس القصر، فاشيع أنه كان ينوى الانتحار، وهو جريمة يعاقب عليها

الأردن تلقاه رسل الوليد فأخذوا كل ما كان معه. ثم خرج قرة إلى رشيد، واستخلف عبد الأعلى بن خالد على الفسطاط وتوفى عبد الأعلى بن خالد بالفرما، وهو سائر إلى الوليد في ربيع الأول سنة إحدى وتسعين، فجعل على الشرط عبد الملك بن رفاعة بن خالد بن ثابت الفهمي[1] ابن أخي عبد الأعلى.

وخرج قرة إلى الإسكندرية، واستخلف على الشرط عبد الرحمن بن معاوية ابن حديج، في سنة إحدى وتسعين. فتعاقدت ا لشراة بسكندرية على الفتك بقرة. وكان رئيسهم المهاجر بن أبي المثنى التجيبي، أحد بنى فهم بن أبذى [2] بن عدى ابن تجيب، وفيهم ابن أبي أرطاة التجيبي. وكانت عدتهم نحواً من مئة. فعقدوا لابن أبي المثنى عليهم، عند منارة الإسكندرية، وبالقرب منهم رجل يكنى أبا سليمان، فبلغ قرة ما عزموا عليه. فأتى بهم قبل أن يتفرقوا، فأمر بحبسهم في أصل منارة سكندرية. وأحضر قرة وجوه الجند وأحضرهم. فسألهم فاقروا، فقتلهم قرة[3].

ومضى رجل ممن يرى رأى الخوارج إلى أبي سليمان فقتله.

---

(١) كذا في ر. وفى صك الفهرى. تصحيف.

(٢) ر: أذاة. وانظر ما سبق.

(٣) في الحاشية: «قال ابن يونس: كان قرة بن شريك خليعاً. قال: وكان من أظلم خلق الله، وهمت الأباضية بقتله والفتك به، وتبايعوا على ذلك، فبلغه ذلك فقتلهم». وانظر ن(١: ٢١٨).

الشرع المسيحي، فانسحب الى أحد الاديرة، وبينما هو يصلي في المحراب، شاهد صورة لأحد القديسين تطل عليه، فقام بطمسها بالطين، فعوقب بسمل عينية، وعزل من منصبه، وعين مكانه ميثوديوس الايقوني، وكان شيخا طاعنا في السن لاقى الكثير من الاهوال والاضطهاد على يد ميخائيل الثاني لمواقفه المعارضة منه؛ ومثلما فعلت الامبراطورة ايريني من قبل، أوعزت ثيودورا الى البطريرك الجديد أن يدعو لعقد مجمع كنسي في نيقية، وبالفعل عقد هذا المجمع عام ٨٤٣ ميلادية، وتحت تأثير وسعي ثيودورا، أسفرت قراراته عن عودة عبادة الايقونات، ورفع الحظر عنها، والسماح باعادة التماثيل الكبرى والأيقونات الى مواضعها القديمة، التي كانت قائمة فيها قبل اندلاع الحركة اللاأيقونية، كما أقر المجلس شرعية تصوير الرسل، والأنبياء. والملائكة، بالشكل الانساني داخل الكنائس على أن تكون صورا ليس لها ظل، أى أن لا تكون مجسمة أو مصنوعة من حجر أو أى مادة صلبة. وقبل أن ينفض المجلس، طلبت منه ثيودورا أن يصدر قرارا بالغفران لزوجها لما صدر منه في حق الايقونات، فرفض؛ عندئذ هددت بأنها سوف تتخلى عن سياستها المتعاطفة مع الايقونيين، وأخيرا توصلت الى حل لهذه الازمة، وهو أن تدلى الامبراطورة بشهادتها أمام المجلس بأن زوجها قبل أن يلفظ انفاسه، طلب منها أن يقبل أيقونه ووضعها على

فكان يزيد بن أبى حبيب إذا أراد أن يتكلم [بشئ][1] فيه تقية من السلطان، تلفت وقال: احذروا أبا سليمان. ثم قال يوماً من ذاك: الناس كلهم أبو سليمان[2].

وورد كتاب الوليد بالزيادة فى المسجد الجامع. فابتدأ فى هدم ما كان عبد العزيز بناه، لمستهل سنة الثنتين وتسعين. ووفد قرة إلى أمير المؤمنين الوليد بوفد أهل مصر، واستخلف عليها عبد الملك بن رفاعة الفهمى. وابتدأ فى بنيان المسجد فى شعبان سنة اثنتين وتسعين. وجعل على بنائه يحيى بن حنظلة من بنى عامر بن لؤى. وكانوا يجمعون الجمعة فى قيسارية العسل حتى فرغ من بنيانه[3]. وقدم قرة من وفادته فى سنة ثلاث وتسعين. فاستنبط الإصطبل لنفسه من الموات، وأحياه وغرسه قصباً فكان يسمى إصطبل قرة، ويسمى أيضاً إصطبل القامش[4] يعنون القصب كما يقولون قامش[4] مروان، ونصب المنبر الجديد فى الجامع فى سنة أربع

---

(١) زيادة من ر عن خـ (٢: ٣٣٨).

(٢) خـ (٢: ٣٣٨): ثم قال: الناس كلهم من ذلك اليوم أبو سليمان.

(٣) فى الهامش: «قال ابن يونس: قيل إن قرة بن شريك كان ـ إذا انصرف الصناع من بناء المسجد ـ دخل المسجد، ودعا بالخمر والطبل والمزمار، فيشرب ويقول: لنا الليل ولهم النهار». ومثله فى ن(١: ٢١٨).

(٤) كذا فى خـ (٢: ١٥٢). وفى خـ (١: ٣٠٢): القاش. وفى ر: القاس. وقامش كلمة تركية، معناها القصب.

صـدره، وبناء على هذه الشهادة اصدر المجلس قراره بالغفران للامبراطور الراحل ثيوفيلوس، وبذلك حلت الازمة؛ وعندما انفض المجمع من أعماله، أقيم قداس كبير في كنيسة أيا صوفيا يوم الأحد الموافق الحادى عشر من شهر مارس عام ٨٤٣ ميلادية، قاده البطريرك ميثوديوس بنفسه، وفي حضور الامبراطورة الام، والامبراطور القاصر، وكبار أعضاء البلاط، وجمع غفير من رجال الكنيسة والرهبان والمصلين.

ولايزال هذا الحدث تحتفل به الكنيسة الارثوذوكسة حتى يومنا هذا وتسميه «عيد انتصار الارثوذوكسية» في أول يوم أحد يأتي بعد عيد القيامة، وبالطبع تلا ذلك حملة انتقام ضد زعماء اللاايقونية، حتى قضى عليهم تماما.

ولقد استقبل الروم هذه القرارات بترحاب شديد، فقد كان العداء للايقونية قد انحسر نتيجة لتزايد الاعتقاد بين الناس، أن ما لا قوه من هزائم ما هو الاعقاب من الله لتحطيمهم الصور والايقونات المباركة. كما أدى هذا القرار الى اعادة الوحدة الدينية المقسمة، والوحدة الوطنية المفككة بعد أن حسم الموقف، وبالتالي أعاد ذلك الاستقرار الى الروح المعنوية لجيوش الامبراطورية المنهارة؛ وفي المجال الكنسي، كانت هذه الأيام هي أعظم أيام شهدتها كنيسة القسطنطينية، اذ بدأ المبشرون، والرهبان المتجولون يعملون على توسيع نطاق

وتسعين. فيقال: إنه لا يعلم اليوم في جند من الأجناد أقدم منه، بعد منبر رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

ودون قرة الديوان في سنة خمس وتسعين، وهو المدون الثالث. ثم توفي قرة بن شريك بها وهو والٍ عليها ليلة الخميس لست بقين من شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين، ودفن في مقبرتها، واستخلف على الجند والخراج عبد الملك ابن رفاعة بن خالد الفهمي. كانت ولاية قرة عليها ست سنين إلا أياما[1].

١٦ . عبد الملك بن رفاعة[*]

ابن خالد بن ثابت بن ظاعن بن العجلان بن عبد الله بن صبح

ابن والبة بن نصر بن صعصعة بن ثعلبة بن كنانة بن عمرو

ابن القين بن فهم بن عمرو بن سعيد بن قيس بن عيلان

ابن مضر بن نزار بن معد بن عدنان

ثم ولي عبد الملك بن رفاعة [الفهمي، من قبل الوليد بن عبد الملك، على صلاتها. فجعل

(١) كذا في ن (١ :٢٢٠) أيضاً . وفي خـ (١ :٣٠٢): ست سنين وأياماً . وهو الأصح، لأنه قدم مصر في ١٣ ربيع الأول ٩٠هـ. ومات في ٢٤ من ربيع الأول ٩٦ تقريبا.
(*) الخطط (١ :٣٠٢)، والنجوم (١ :٢٣١)، وحسن المحاضرة ٢٠ :٩).

التبشير، ونشر المسيحية على المذهب الارثوذوكسي في الاصقاع الأوروبية الشرقية والشمالية والتى كانت خارج الحزام الحضارى. وبالنسبة لحقل الثقافة والفنون يعتبر المتخصصون عام ٨٤٢م عام الانطلاق لتحقيق نهضة فكرية وفنية شاملة، استمرت نشطة ومبدعة حتى سقوط القسطنطينية على أيدى الغزو اللاتينى عام ١٢٠٤م، وبلغت ذروتها في عصر الأسرة المقدونية، وعصر أسرة آل كومنين. فقد أدى الاستقرار الى الرخاء والثراء، حيث عاش الناس عيشة ميسورة، وانتشر بناء القصور الفارهة، وزخرفت بالصور وبأعمال الفسيفساء، وانهالت على خزائن الكنائس الهدايا والنذور من القطع الفنية الرائعة والتحف النادرة، وأبدع الفنانون في زخرفة النسيج، وفي أعمال نحت العاج والطلاء المذهب، وصياغة المعادن بدقة. ولهذا يطلق مؤرخو الفن على هذه الفترة التى تبلغ ثلاثة قرون وستين عاما تقريبا، اسم العصر الذهبى الثانى لحضارة الروم.

نتائج الحركة اللاايقونية وآثارها:

لقد كان للثورة اللاأيقونية التى استمرت أكثر من قرن من الزمان (من ٧٢٦ ـ ٨٤٣م) نتائج متعددة الجوانب، تماما مثل المسببات التى انبعثت منها، فقد تركزت آثارها على الجانب الدينى والسياسى والاجتماعى والفكرى

أخاه الوليد بن رفاعة [(١)] على شرطه. ثم توفي أمير المؤمنين الوليد، يوم السبت لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين، واستخلف سليمان بن عبد الملك. فأقر عبد الملك بن رفاعة على صلاتها. وخرج ببيعة أهل مصر إلى سليمان بن عبد الملك، عبد الله بن عبد الرحمن بن حجيرة الخولاني. وتوفى عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان بمصر وأبو بكر بن عبد العزيز بن مروان بسكر من الشرقية[(٢)]. قال كثير:

أُصبتُ يوم الصعيد مِنْ سُكرٍ مُصيبةً ليس لي بها قِبَلُ

توفيا[(٣)] سنة ست وتسعين. ونزع الوليد بن رفاعة عن الشرط في سنة سبع وتسعين، وجعل مكانه الشيخ ابن جرو الحضرمي.

وتوفي أمير المؤمنين سليمان فى صفر سنة تسع وتسعين، وبويع عمر بن عبد العزيز بن مروان. فعزل عبد الملك بن رفاعة عنها.

حدثنا عاصم بن رازح بن رحب قال: حدثنا أبو قرة محمد بن حميد الرعينى قال: حدثنى أبي قال حدثنى الحسن بن معاوية النصيرى قال:

(١) زيادة ضرورية عن خـ (١:٣٠٢) ون (١:٢٣١). وقد زاغت عن بصر الناسخ، لتكرر رفاعة.
(٢) ياقوت : معجم البلدان: سكر: موضع بشرقية الصعيد بينه وبين مصر يومان.. وبه مات عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان وأبو بكر بن عبد الله بن مروان. ونسب البيت وأبياتاً بعده إلى نصيب. وكذلك فعل صاحب الأغاني (١٤٤:١).
(٣) ر: صم توفيا.

والفني، ولقــد بيـا كـيـف أن المستفيد الأول من الثـورة اللايقونية هو الفنون التي لقيت رواجا وازدهارا لم يسبق له مثيل، ففي خلال فترة الحظر وتحريم تصوير الأنبياء والرسل، تحول الفنانون الى المناظر الطبيعية الخلابة، وتقديس الطبيعة، وراحوا ينهلون من التراث الهللينستي الرائد في هذا المجال؛ كما لجأوا الى فن الزخرفة التجريدية سواء، النباتية أو الحيوانية أو مجرد الخطوط والاشكال الهندسية أو الصور الشخصية، كل ذلك اعطى دفعة ديناميكية للفن الرومي، وعمق من جذوره، ونوع من موضوعاته، وجدد في اساليبه، فوصل الى درجة مذهلة، خلبت حتى عقول الرحالة والمؤرخين المسلمين. ولما عادت الايقونات بعد رفع الحظر والتحريم، عادت رسومها بشكل مختلف، واسلوب جديد، واعتبرت القسطنطينية أعظم مراكز الفن في العالم. كما أنه في خلال فترة الاضطهاد الايقوني فر كثير من العاملين في مجال الرسم الديني الى مدن ايطاليا مثل روما، وفينيسيه وفلورنسا، وجنوا، وغيرها، حيث وظفوا هناك في زخرفة وتصوير الكنائس والكاتدرائيات، ومن ثم كان ذلك بداية لحدوث نهضة فنية كبرى كانت الارهاصة الأولى لمولد الفن الأوروبي في عصر النهضة.

حدثني ضمام [١]: أن عمر بن عبد العزيز قال: دلوني على رجل من أهل مصر له شرف وصلاح، أوليه صلاتها! فقيل له بها رجلان: معاوية بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج، وأيوب بن شرحبيل. قال: أى الرجلين أقصد؟ قالوا: أيوب. قال فهذا أريد. فكتب إلى أيوب بن شرحبيل بولايته، وأمر البريد يكتم[٢] ذلك، وأن تكون موافاته يوم جمعة. فلما قدم الرسول، ودفع إليه الكتاب، وراح كما كان يروح، فركع قريباً من المنبر، وابن رفاعة يومئذ أمير الجند. فلما أذن المؤذن صعد أيوب المنبر، فخطب الناس وصلى بهم الجمعة، وانصرفوا. أقبل ابن رفاعة رائحاً، كان يروح ماشياً، وأخوه بين يديه على شرطه، فلقى أخوه أوائل المنصرفين، فقال: مه. فقيل له: صلى بالناس أيوب بن شرحبيل. فوقف حتى أدركه أخوه فأعلمه فقال: انهم[٣] فيه امض كما أنت. فدخل المسجد فصلى ثم مال إلى مجلس قيس. فلما صلى العصر دخل إلى أيوب، فهناه ثم انصرف. وكانت ولاية عبد الملك عليها ثلاث سنين.

١٧. أيوب بن شرحبيل(*)

ابن أكسوم(٤) بن أبرهة بن الصباح بن لهيعة بن شرحبيل

(١) أبو اسماعيل ضمام بن اسماعيل المرادى المعافرى، متعبد صدوق وكان يخطئ، ولد ٩٧، ومات ١٨٥.
(٢) ر: [أن] يكتم. ولا داعي لزيادة أن. (٣) كذا في ر.
(*) الخطط (١: ٣٠٢)، والنجوم (١: ٢٣٧)، وحسن المحاضرة (٢: ٩).
(٤) ن (١: ٢٣٧): أكثوم.

مملكته، ثم أقامو ملكا اسمه كرياكوس صديقا خيرا وكان باقيا الى يوم وضع هذه السيره، وكان هذا الملك قد كوتب وقت كون الأب أنبا خايل فى الحبس ونحن معه، ووصلت الكتب إليه وسمع عبدالملك فأخذ [رسوله] واعتقله [مع البطرك]، ثم سار الملك من بلاد النوبة يريد ديار مصر (*) فى عسكر عظيم فيه ماية ألف فارس بماية ألف فرس وماية ألف جمل. ولقد شاهد من أخبرنا بعينه أن الخيل التى تحتهم كانت تقاتل بأيديها وأرجلها فى

(*) حملة عسكرية للملك دنقله على مصر تصل إلى بركة الحبش جنوب الفسطاط بسبب اعتقال البطرك خايل.

ابن مرثد بن الصباح بن معدى كرب بن يعفر بن ينوف

ابن شراحيل بن أبى شمر بن شرحبيل بن ياشر [١] بن أشعر [٢] بن

ملكيكرب بن شراحيل بن يعفر بن عمى [٣] بن أبى كرب

ابن يغفر بن أسعد بن ملكيكرب بن شمر [٤] بن أشعر بن ينوف

ابن أصبح، وأمه بنت مالك بن نويرة بن الصباح

ثم وليها أيوب بن شرحبيل ، من قبل أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز على صلاتها، فى ربيع الأول سنة تسع وتسعين. فجعل على شرطه الحسن بن يزيد الرعينى ثم أحد عجلان بن سريح[٥] وورد كتاب أمير المؤمنين بالزيادة فى أعطيات الناس عامة، وحرمت الخمر وكسرت، وعطلت حاناتها [٦] وصرف الحسن بن يزيد عن الشرط فى رجب سنة تسع وتسعين، وجعل مكانه الحارث بن ذاخر بن بهشم الأصبحى[٧] أحد [بنى][٨]السمول وألحق لأهل مصر

(١) كذا فى ر عن ن، وفى الأصل: ياسر.
(٢) ن : أشغر. وكذا فى جميع النسب.
(٣) نك عمير
(٤) ر: سمر. ن: شمير.
(٥) كذا فى ر.
(٦) كذا فى ر عن خـ (١: ٣٠٢)، ن(١: ٢٣٨). وفى ص: جناياتها. تحريف.
(٧) كذا فى تاج العروس (ذخر). وفى ر: الحارث بن داخر بن بهسم.
(٨) الزيادة لازمة.

الحرب كما يقاتل فرسانها فوقها، وكانو خيلا قصارا مثل الحمير. فلما قربو إلى مصر ليسبوها ونزلو في البركه المعروفه الى اليوم ببركة الحبش نهبو وقتلو وسبو المسلمين، وقد كانو فعلو ذلك بمسلمى الصعيد. وكان الملك قبل وصوله إلى مصر قد سير رسولا اسمه «الأبرخس» من كبرا المملكه إلى عبدالملك يأمره أن يطلق البطرك فأخذه عبدالملك واعتقله مع البطرك، فلما علم بمجى الملك ووصوله إلى مصر ولم تكن له قدرة

- -

خمسة آلاف في سنة مائة. حدثني ابن قديد عن عبيد الله بن سعيد عن أبيه عن ابن لهيعة قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى أيوب بن شرحبيل بفريضة للجند فقال:

ألصق ذلك بأهل البيوتات الصالحة فإنما الناس معادن، واقسم للغارمين بخمسة وعشرين ألف دينار. وقفل أهل القسطنطينية وكان على أهل مصر أبو عبيدة ابن عقبة بن نافع الفهرى. ونزعت موازيت القبط[1] عن الكور، واستعمل المسلمون عليهم، ومنع النساء الحمامات

وحدثني ابن قديد، عن عبيد الله بن سعيد، عن ابيه.

عن الميسرى يعنى عبد العزيز بن أبي ميسرة، قال: شكى ضعف أيوب إلى عمر بن عبد العزيز، فقال: إن أيوب زجرت به أعراف صالحة، فلان لين الأشراف وقصد قصد السيادة.

وتوفى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز يوم الجمعة، لخمس بقين من رجب سنة إحدى ومئة واستخلف يزيد بن عبد الملك. فأقر أيوب بن شرحبيل على صلاتها. قال عبد العزيز بن أبى ميسرة: إلى أن توفى لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة إحدى ومئة. وقال الليث بن سعد وأحمد بن يحيى بن وزير: نزع أيوب بن شرحبيل لسبع عشرة من شهر رمضان سنة إحدى ومئة. فكانت ولاية أيوب عليها سنتين ونصفاً.

....

(١) الموازيت: رؤساء القرى، وفي ر: مواريث، ولا معنى لهاهنا.

على محاربته وخاف منه جدا أطلق رسوله «الأبرخس» من السجن، فخرج في لقا الملك بعد أن قرر معه [عبدالملك] واستحلفه أنه يرده وعساكره إلى بلاده ولا يدعه ان يتقدم إلى حصونه ولا يحاصره، ويعرفه انه افرج على البطرك، وكتب له الاب البطرك كتاب يبارك عليه وعلى من معه ويعرفه انه يعود إلى بلاده بغير حرب، وكان ذلك في سنة مايه وتلتين منذ ظهور ملك المسلمين. وكانو المسلمون يسرقون أهالي النوبه ويبيعهم

---

١٨. بشر بن صفوان(*)

ابن تويل بن بشر بن حنظلة بن علقمة بن شرحبيل بن عدس[١] بن أبي جابر بن زهير بن جناب بن عبد الله ابن كنانة بن بكر بن عوف بن عذرة بن زيد اللات ابن رُفيدة بن ثور بن كلب

ثم وليها بشر بن صفوان الكلبي، من قبل يزيد بن عبد الملك؛ قدمها لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة إحدى ومئة. فجعل على شرطه شعيب بن حميد بن أبي الربداء[٢] البلوى من الموالي. وكانت لجده أبي الربداء صحبة. ثم نزع شعيب بعد أيام، وولاه التابوت[٣]. وجعل بشر أخاه حنظلة بن صفوان على شرطه.

(*) الخطط (١: ٣٠٢)، والنجوم (١: ٢٤٤)، وحسن المحاضرة (٢: ٩).
(١) كذا في ر، وفي ن (١: ٤٤): عرين.
(٢) كذا في تاج العروس (ربد) وفي ر: الربذاء، تحريف.
(٣) قيل في كتاب القضاة للمؤلف: «سئل محمد بن يوسف عن هذا التابوت الذى ذكر، فقال: كان تجمع فيه أموال اليتامى ومال من لا وارث له، وكان مودع القضاة بمصر». ولكنه قال أيضا: «إن العمرى أول من عمل تابوت القضاة الذى كان في بيت المال». وولى عبد الرحمن بن عبد الله العمرى المذكور القضاء في صفر سنة ١٨٥، فإما أن التابوت المذكور فوق غير التابوت المذكور في كتاب القضاة، أو أنه لم يكن في بيت المال ثم جعله العمرى فيه، أو أن نسبة أو ليته للعمرى خاطئة.

بمصر، فعاد بعسكره بعد أن نهب من المسلمين شيا كتيرا لأنه أعلمه الأبرخس أن البطرك قد أفرج عنه، وأحسن «عبدالملك» إليه وهو يأمره أن يعود ويبارك عليه.

وكانو جماعة من أولاد القيس(*) يعبدون وثنا يسمى سلقيطا(*) فظفر بهم ملك النوبه ونهبهم وغنمهم عسكره.

(*) القيس: من المدن القديمة بمركز بن مزار، المنيا.

(*) كانت العبادات الفرعونية مازالت قائمة حتى ذلك الوقت.

وكان تحت يد كرياكوس ملك النوبه تلته عشر ملكا ضابطين المملكة والبلاد. وكان ملك المقره(*)

(*) المقره: من ممالك النوبه.

وفي إمرته نزلت الروم تنيس عليهم ررين[1]. فقتل مزاحم بن مسلمة المرادى[2] أميرها في جمع من الموالى، ولهم يقول الشاعر:

أَلَمْ تَرْبَعْ فَتُخْبِرَكَ الرِّجَالُ   بِمَا لاقَى بِتِنِّيسَ الْمَوالى

وكتب يزيد بن عبدالملك بمنع الزيادة التى كان عمر بن عبد العزيز أمر لأهل الديوان بها، فمنعوها.

ولما رأى بشر بن صفوان افتراق قضاعة في القبائل، كتب إلى يزيد بن عبد الملك يسأله الإذن له في استخراج من كان في القبائل منهم، فيجعلهم دعوة منفردة. فأذن له يزيد بن عبدالملك في ذلك. فأخرج مهرة من كندة وأخرج تنوخا من الأزد، وأخرج آل كعب بن عدى التنوخى من قريش، وأخرج جهينة من أهل الراية، وأخرج خشينا[3] من لخم، فجعلهم مع سائر قضاعة دعوة مفردة. [و] تدوين بشر بن صفوان هذا هو التدوين الرابع لأن الأول تدوين عمرو بن العاص، والثانى تدوين عمر بن عبد العزيز بن مروان[4]، والثالث تدوين قرة بن

(١) كذا في ص.
(٢) كذا في خ (١: ١٧٧). وفي ص: ابن أحمر بن مسلمة المرادى.
(٣) رك خسينا. تحريف. وانظر ف ١٤٢.
(٤) كذا في ر. والغالب أنه عبد العزيز بن مروان لا ابنه، إذ لم يل هذا مصر.

الحبـشى ارتدكـسى وهو الملك العظيم الذى نزل عليـه التـاج من السـمـا وملك إلى أقـاصى الأرض القبليه لأنه هو الملك اليونانى رابع ملوك الأرض، لا تقـاومـه مملكة و[لا] ملك يروح عنده، وهو تحت سلطان مرقس الإنجيلى، وحكم بطرك اليـعاقبـه بمصر عليه وعلى ملوك الحبش والنوبه جميـعهم. وعنده فى بلاده أسقف ارتدكسى قسمه البطرك مطرانا، فصـار يقسم له الأساقفه والكهنه فى تلك

شريك، والرابع هو هذا، ولم يكن بعـد هذا فى الديوان شئ له ذكـر، إلا ما كان من إلحاق قيس فيه زمن هشام، وأشياء احدثها المسودة من أرباعهم التى أحدثوها منه.

ثم ورد كتاب يزيد بن عبد الملك على بشر بن صفوان بتأميره على إفريقية. فخرج إليها فى شوال سنة اثنتين ومئة، واستخلف أخاه حنظلة بن صفوان على مصر.

١٩ ـ حنظلة بن صفوان(*)

ابن تويل بن بشر الكلبى

ثم وليها حنظلة بن صفوان باستخلاف أخيه بشر له عليها، فأقره يزيد بن عبدالملك. فجعل على شرطه محمد بن مطير البلوى، ثم عزله فى سنة ثلاث ومائة، وجعل على شرطه القاسم ابن أبى القاسم بن زر السبئى، ومولى لهم. وخرج حنظلة إلى الإسكندرية فى سنة ثلاث ومئة واستخلف على الفسطاط عقبة بن مسلم التجيبى حليف بنى أيدعان[١] بن سعد بن تجيب وكتب يزيد ابن عبد الملك فى سنة أربع ومئة، يأمر بكسـر الأصنام، فكسرت كلها، ومحيت التماثيل،وكسـر فيها صنم حمام زبان بن عبد العزيز الذى يقال له حمام أبى مرة، وله يقول كريب بن مخلد الجيشانى.

(*) الخطط (١ :٣٠٢)، والنجوم (١ ٢٥٠)، وحسن المحاضرة (٢ :٩).

(١) فى ر بدون نقط.

الكوره وإذا مات المطران قسم لهم بطرك اسكندريه غيره ممن يختاره ويقسمه لهم.

وكان عند خروجنا من الاعتقال اجتمع إلينا من الناس خلق كثير وسألو الأب البطرك أن يقدس لهم ويقربهم من يده المقدسه بالجسد والدم العظيم، ومضو معه إلى بيعة الشهيدين سرجيوس وواخس وقدس لهم ذلك اليوم وناولهم من السراير المقدسه وأوصاهم وعلمهم.

مَنْ كَانَ فى نَفْسِه للبيضِ منزلَة فليأت أبيضَ فى حَمّام زَبّان
عَبْلٌ لطيفٌ هضيمُ الكشحِ معتدلٌ على ترائبه فى الصّدْرِ تَدْيانِ[(١)]

وقدم بشر بن صفوان من إفريقية وافداً إلى أمير المؤمنين يزيد، فى سنة خمس ومئة. فلما صار فى أرض مصر، بلغه أن يزيد قد توفى،فرجع إلى إفريقية وكانت وفاة يزيد بن عبد الملك فى شعبان سنة خمس ومئة.

وبويع هشام بن عبد الملك، فاستقبل بخلافته شهر رمضان، ثم صرف حنظلة بن صفوان عنها، فى شوال سنة خمس ومئة، فكانت ولايته ثلاث سنين.

٢٠ . محمد بن عبد الملك[(*)]

ابن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية

ابن عبد شمس بن عبد مناف

ثم وليها محمد بن عبد الملك من قبل أخيه هشام على صلاتها، دخلها يوم الإربعاء لإحدى

(١) البيتان فى ف (١١٤). والعبل: الغليظ الأبيض. والكشح الخصر. وهضيمه: دقيقه والترائب عظام الصدر، أو ما ولى الترقوتين منه، أو ما بين الثديين والترقوتين، أو موضع القلادة، وكل ذلك وصف للتمثال.

(*) الخطط(١: ٣٠٢)، والنجوم (١: ٢٥٧)، وحسن المحاضرة (٢: ٩).

وجا رجل يطلب أن يتناول القربان من أول ما تقربو الأخوه وهو يمنعه ويعود ولا يدفع له قربانا، ولما سرح الشعب وصرف الناس بسلام حضر ذلك الرجل إلى الأب وهو يبكى فقال: أريد أن تعلمنى لأى سبب يا أبى منعتنى من القربان؟ فأجابه الأب الروحانى وقال له: يا ولدى أنا أيضا خاطى، ما منعك القربان إلا السيد المسيح هو الذى منعك أن تأخذ، فأظهر الآن ما قد فعلته فى وسط هذه الجماعه أخوتك ليلا [لئلا] يفعل احد منهم مثلك.

عشرة ليلة خلت من شوال سنة خمس ومئة. فجعل على شرطه حفص بن الوليد بن سيف الحضرمى. ووقع بمصر وباء شديد، فترفع محمد بن عبد الملك إلى الصعيد هارباً من الوباء أياماً. ثم قدم من الصعيد. وخرج من مصر، لم يلها إلا نحواً من شهر.

حدثنا أبو بشر الدولابى قال: حدثنى معاوية بن صالح الأشعرى قال: أخبرنى منصور بن أبى مزاحم قال:

سمعت أبا عبيد الله يقول: ولى هشام أخاه محمداً مصر، فقال له: أنا أليها على أنك إن أمرتنى بخلاف الحق تركتها. فقال: ذلك لك. فوليها شهراً، فأتاه كتاب لم يعجبه فرفض العمل، وانصرف إلى الأردن. وكان منزله بها فى قرية يقال لها ريسون[1]. فكتب:

أتترك [لى] مصراً لريسون؟ حسرة! ستعلم يوماً أى بيعيك أربح[2]

قد أدرك هشام مثل هذا[3]. فأجابه محمد: إنى لست أشك فى أن أربح البيعتين ما صنعت.

---

(١) ريسون: قرية بالأردن.
(٢) نثرت والبيت، وجعله ياقوت (معجم البلدان، وريسون) شعراً. لى: زيادة عن ياقوت. وفى ر: بيعتك، تحريف.
(٣) موضع هذا العبارة فيه بعض القلق.

فعند ذلك صرخ وقال: أنا أسلك يا سيدى الأب أن كانت خطيه قد فعلتها فاغفرها لى فما أعود إليها. فقال له الأب: لابد أن تعترف بها فقال له: أنا كنت أفطر في بيتي واجي بعد إفطارى إلى الكنيسه أتقرب وكذلك فعلت اليوم، فلما سمعت بك تقرب الشعب الارتدكسى قلت في قلبى أمضى أخذ القربان من يده المقدسه وكان ذلك منى محبه مستحيه، والآن فقد اظهرت لك ذلك ومنعتنى، وفى صعيد مصر قوم كثير يفعلون هذا ولا يعلمون انها خطيه. فلما سمع الاب ذلك

---

٢١ . الحر بن يوسف (*)

ابن يحيى بن الحكم بن أبى العاص بن أمية

ابن عبد شمس بن عبد مناف

ثم وليها الحر بن يوسف من قبل هشام على صلاتها، دخلها لثلاث خلون من ذى الحجة سنة خمس ومئة فأقر حفص بن الوليد على شرطه.

وفي إمرة الحر كتب عبيد الله بن الحبحاب صاحب خراجها إلى هشام، بأن أرض مصر تحتمل الزيادة. فزاد على كل دينار قيراطاً فانتقضت كورة نتو، ونمى، وقربيط، وطرابية[١]، وعامة الحوف الشرقى. فبعث إليهم الحر بأهل الديوان، فحاربوهم فقتل منهم بشر كثير. وذلك أول انتقاض القبط بمصر. وكان انتقاضهم فى سنة سبع ومئة. ورابط الحر بن يوسف بدمياط ثلاثة أشهر من سنة سبع ومئة. واستخلف عليها حفص ابن الوليد.

ثم وفد الحر إلى هشام فى شوال سنة سبع ومئة،واستخلف على الفسطاط حفص بن الوليد، وقدم في ذى القعدة.

(*) الخطط (١:٣٠٢)، والنجوم (١:٢٥٨)، وحسن المحاضرة (٢:٩).

(١) نتون : منيه الفرمارى، فصل منها فى ١٢٢٨هـ كفر المقدام، فدخل في زمامه تل المقدام. ونمى: من أعمال الجيزية. وقريط: من الوجه البحرى. وطرابية: من نواحى الحوف. وكانت فاقوس قاعدتها. والأسماء محرفة ومهملة النقط في الأصل . وانظر خـ١ : ٧٩.

كتب الكتب إلى كل مكان بان لا يتقرب أحد من المومنين إلا وهو صايم، ولا يتقرب دفعتين في يوم واحد. ثم بارك على ذلك الرجل ومضى يمجد الله صانع العجايب بقديسيه.

ولم تجد ديار مصر طمانينه ولا راحه في أيام مملكة عبدالملك لأنه لم يكن من جنس ملوك الاسماعيليين [المسلمين] الذين ملكو عليهم مثله. وصنع مع الديارات ما لا يجوز لبغضته في النصارى، وكما كان يشا أن يعمل كذلك فعل،

وكتب الحر إلى هشام، يعلمه أن النيل قد انكشف عن أرض ليست لمسلم ولا لمعاهد، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن بالبناء فيها، فإن الناس مضطرون إليها. فأذن له في بنائها قيسارية. فابتدأ في بنائها في رجب سنة سبع ومئة، وفرغ منها في سنة ثمان ومئة، وهي قيسارية هشام التي عند الجسر.

وفي سنة ثمان ومئة تباعد ما بين الحر بن يوسف وعبيد الله بن الحبحاب صاحب الخراج. وكتب عبيد الله إلى هشام يشتكي الحر. وكتب [الحر][1] يستعفي من ولايتها، فصرفه هشام في ذى القعدة سنة ثمان ومئة. فكانت ولاية الحر عليها ثلاث سنين سواء.

٢٢ـ حفص بن الوليد (*)

ابن سيف[2] بن عبد الله بن الحارث بن جبل بن كليب

ابن عوف بن معاهر بن عمرو بن زيد بن مالك بن زيد

ابن الحارث بن عمرو بن حجر بن قيس بن كعب بن

سهل بن زيد بن حضرموت

(١) زيادة يقتضيها السياق، وتفهم من خـ (١: ٣٠٢)، ن(١: ٢٥٩)، وليست في ر.
(*) الخطط (١: ٣٠٣)، والنجوم (١: ٢٦٣)، وحسن المحاضرة (٢: ٩).
(٢) كذا في خـ، ن، وتهذيب التهذيب، الخلاصة في أسماء الرجال، وتقريب التهذيب. وفي ر: يوسف.

والسيد المسيح الذى قلوب الملوك بيده رد قلبه لمحبة أبا خايل البطرك، وكان يدعوه إلى قصره ونحن معه ويطلب منه أن يدعو له. وكانت ابنته قد سكن فيها روح نجس وكان عمرها أربع سنين فسأل الأب البطرك أن يصلى عليها فأخذ زيتا وصلى عليه ودهنها به، فخرج الشيطان منها للوقت فصار يحب النصارى لأجل محبته للأب البطرك، كان أيضا يحب الأساقفه ويكرمهم، وكان أبونا أبنا خايل حلو الكلام حسن المنظر تام

ثم وليها حفص بن الوليد من قبل هشام على صلاتها، فجعل على شرطه..[1]

حدثنى ابن قديد، عن عبيد الله بن سعيد بن عفير.

عن أبيه قال: كان حفص بن الوليد على شرط الحر بن يوسف، فشكاه عبيد الله بن الحبحاب إلى هشام، فعزل الحر وولى[2] حفص بن الوليد، فكتب عبيد الله إلى هشام: إنك لم تعزل الحر إذ وليت حفصا، فجعل الاختيار إلى عبيد الله. فاختار عبد الملك بن رفاعة.

قال عبد العزيز بن أبى ميسرة: فصرف حفص يوم الأضحى، لم يمكث إلا جمعتين.

قال الليث وأبو ربيعة العامرى وابن وزير: إن حفصا صرف سلخ ذى الحجة سنة ثمان ومئة.

٢٣. عبد الملك بن رفاعة(*)

ابن خالد بن ثابت بن ظاعن

الثانية

ثم وليها عبد الملك بن رفاعة من قبل هشام على صلاتها، وعبيد الله يومئذ بالشام. ثم

(١) ساقط من الأصل. (٢) ر: وولاه.

(*) الخطط (١: ٣٠٣)، والنجوم (١: ٢٦٤)، وحسن المحاضرة (٢: ٩).

القامه نظيف اللباس ذا هيبه ووقار، وكان كلامه مثل السيف على أهل المعاصى وتعليمه مثل الملح لأهل الصلاح والعفاف، وكانت يد الله معه فى هذه الشدايد التى فعلها عبدالملك وكانت بيعة اسكندريه تحت بلا عظيم فى زمان الاكسندروس البطرك، وكان لما نزع منها رخامها وخشبها الجليل الذى ليس له ثمن، فاهتم بها الأب خايل وجددها وأصلحها وبنى غيرها من شرقى البلد ومن غربيها، وتم ما بناه فى أيام حياته.

قدم[١] وهو عليل[٢]، ليلة الجمعة لثنتى عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة تسع ومئة[٣]، وكان أخوه يخلفه عليها من أول المحرم. هذا قول ابن أبى ميسرة. ا وقيل: بل ولى أول المحرم، ومات للنصف منه. وكانت ولايته خمس عشرة ليلة ا[٤].

٢٤ - الوليد بن رفاعة[*]

ابن خالد بن ثابت بن ظاعن الفهمى

ثم وليها الوليد بن رفاعة من قبل أمير المؤمنين هشام على صلاتها. فاستقبل الوليد بولايته سنة تسع، وجعل على شرطه عبد الله بن أبى سُمير الفهمى، ثم عزله وولى عبد الرحمن بن خالد[٥] بن مسافر بن خالد بن ثابت ابن ظاعن الفهمى.

(١) القادم من الشام هو عبد الملك بن رفاعة، لا عبيد الله بن الجحاب، كما قد يفهم من العبارة. ولعل عبيد الله محرفة عن عبد الملك. وانظر خـ (١: ٣٠٣)، ن(١: ٢٦٥).

(٢) كذا فى ر، خـ، ن. وفى ص: عامل.

(٣) ن: «فقدم عبد الملك.. فى أول المحرم، وقيل: اثنى عشرة ليلة خلت من المحرم سنة تسع ومئة . والأول أصح».

(٤) زيادة عن خـ. وقد زادت ركلمة «ومات» بعد «تسع ومئة»، ولكنى آثرت وضع الزيادة هنا تبعا للخطط.

(*) الخطط (١: ٣٠٣)، والنجوم (١: ٢٦٥)، وحسن المحاضرة (٢: ٩).

(٥) ن(١: ٢٦٥): خالد بن عبد الرحمن الفهمى. وانظر تهذيب التهذيب لابن حجر فى ترجمة عبد الرحمن ابن خالد.

ولما كـان في بعض الأيام أراد الوالي باسكندريه أن يرمي [ينزل] مـراكـب الأسطول [الجـديد] إلى الـبـحـر [لمحـاربة الروم]. وكـانو جـمـاعـة من الارتدكسين في بيعة السيده العدرى مرتمريم نحو من عشرة الاف إنسان، فنظر شاب من المسلمين مثال صورة السيد المسيح على الصليب مصورا على الحايط وصاحب الحربه يطعنه، فقال للنصارى يجـربهم: أى شي هو هذا الذى على الصليب ؟ فـقالو له: هى عـلامة الهنا المسـيح على الصليب

وفي ولاية الوليد نقلت قيس إلى مصر، في سنة تسع ومئة، ولم يكن بها[1] منهم أحـد قبل ذلك إلا من كان من فهم وعدوان. فوفد ابن الحبحاب على هشام، فسأله أن ينقل إليها منهم أبياتاً. فأذن له هشام في إلحاق ثلاثة آلاف منهم، وتحويل ديوانهم إلى مصر، على أن لا ينزلهم الفسطاط. ففرض لهم ابن الحبحاب، وقدم بهم، فأنزلهم الحوف الشرقي، وفرقهم فيه.

فحدثني يحيى ، عن ابن الوزير، عن أبي زيد، عن الهيثم بن عدى، قال:

حدثني غير واحد أن عبيد الله بن الحبحاب، لما ولاه هشام مصر، قال: ما أرى لقيس فيها حظاً إلا لناس من جديلة، وهم فهم وعدوان، فكتب إلى هشام: «إن أمير المؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ قد شرف هذا الحي من قيس، ونعشهم ورفع من ذكرهم، واني قدمت مصر فلم أر لهم فيها حظاً إلا أبياتاً من فهم. وفيها كور ليس فيها أحد، وليس يضر بأهلها نزولهم معهم، ولا يكسر ذلك خراجاً، وهي بلبيس. فإن رأى أمير المؤمنين أن ينزلها هذا الحي من قيس، فليفعل». فكتب إليه هشام: أنت وذلك. فبعث إلى البادية، فقدم عليه مئة أهل بيت من بني نصر[2] ومئة أهل بيت من بني عامر، ومئة أهل بيت من أفناء هوازن، ومئة أهل بيت من بني سليم فأنزلهم بلبيس، وأمرهم بالزرع. ونظر إلى الصدقة من العشور، فصرفها إليهم. فاشتروا

(١) كذا في خـ (١ :٨٠). وفي ر: لها. (٢) خلك نضر. ر: مضر.

خلاص العالم. فعند ذلك اخذ قصبه وصعد على الأسطوان الفوقانى وطعن الصوره فى الجانب الآخر الأيسر وهومستهزى بكلامه ويجدف، وللوقت صارت صورة الشاب مبسوطه كأنه مصلوب على مثال شبه الصوره التى طعنها، ولحقه وجع عظيم حتى كأنه قد طعن فى جنبه مثلها ، والتصقت يده على القصبه التى طعن بها، ولم يقدر احد يخلصها من يده، وصار معلقا فى وسط الشعب بين السما والأرض. فلم يزل كذلك نهاره أجمع

إبلاً، فكانوا يحملون الطعام إلى القلزم. وكان الرجل يصيب فى الشهر العشرة دنانير وأكثر وأقل. ثم أمرهم باشتراء الخيول. فجعل الرجل يشترى المهر، فلا يمكث إلا شهراً حتى يركب، وليس عليهم مؤونة فى إعلاف إبلهم ولا خيلهم لجودة مرعاهم . فلما بلغ ذلك عامة قومهم تحمل إليهم خمس مئة أهل بيت من البادية. فكانوا على مثل ذلك، فأقاموا سنة. فأتاهم نحو من خمس مئة أهل بيت. فمات هشام وبلبيس ألف وخمس مئة أهل بيت من قيس. حتى إذا كان فى زمن[1] مروان بن محمد، وولى الحوثرة بن سهيل[2] الباهلى مصر، مالت[3] إليه قيس، فمات مروان وبها ثلاثة آلاف أهل بيت، ثم توالدوا وقدم عليهم من البادية من قدم.

قال الهيثم: فحدثنى أبو عبد العزيز قال: أحصيناهم فى ولاية محمد بن سعيد على مصر، فوجدناهم صغيرهم وكبيرهم وكل من جمعت الدار منهم خمسة آلاف إلا مئة أو ومئتين.

وفى إمرته خرج وهيب اليحصبى شارداً[4] بالفسطاط فى سنة سبع عشرة ومئة. وذلك أن الوليد بن رفاعة أذن للنصارى فى ابتناء كنيسة بالحمراء، تعرف اليوم بأبى مينا[5]، فخرج

(١) خـ: كان زمن . وهى أفصح.
(٢) كذا ر، خ. وفى صلك سهل . خطأ
(٣) كذا ر، خـ وفى ص: فمالت.
(٤) كذا فى خـ (١:٣٠٣:١)، وفى رك شارباً.
(٥) بين القاهرة ومصر القديمة.

وهو يصـــرخ ويقــول: ياقــوم طعنت فى جنبى. فـصرخـو المسلمون على النصـارى بصـوت عظيم ممجدين لله صانع العجايب وسالوهم ان يدعو الله لخلاصـه فـدعـو النصـارى وقـالو «كـيرياليـصـو ن» ا أرحم يا رب] عدة دفوع فلم ينزل من مكانه إلى أن قـال واحـد من المسلمين له: انك أن لم تعـتـرف بأمـانة النـصـارى وتقـول أن هذه الصـوره صـورة المسـيح ابن الله وتتكلم بما يقـولونه ويعـتـقـدونه مثلهم وألا فما يخليك تنزل أبدا. فقبل قول ذلك

وهيب غضبـاً لذلك. فأتى إلى ابن[1] رفاعة ليفتك به. فأخذ وقتل، وهو الذى يقال له: «أين صلاتك يا وهيب؟» وكـان وهيب مدريا[2] من اليـمن، قدم إلى مصـر. ثم خرج القراء على الوليد ابن رفاعة غضبـاً لوهيب. فقاتلوا الوليد بن رفاعة بجزيرة الفسطاط التى بين الجسـرين، وعليهم شريح بن صفوان التجيبى أبو حيوة بن شريح الفقيه.

حدثنى عمى قال: حدثنا ابن قديد عن أبى زيد ، يخبر.

عن أبيه قال: [إنه] رأى معونة[3] امرأة وهيب الشـارد [4]تطوف بالليل على منازل القراء تحرضهم على الطلب بدم [وهيب وكانت][5] امرأة جزلة محلوقة الرأس.

وحدثنى ابن قديد، عن عبيد الله بن سعيد.

عن أبيه قال: أخذ أبو عيسى مروان بن عبد الرحمن اليحصبى بوهيب فى نفر فقال مروان إنما هو داف دف علينا[6] لا علم لنا به، وقد كان إبليس مع الملائكة فعصى فلم يؤاخذهم الله بمعصيته. فخلى ابن رفاعة سبيلهم.

---

(١) كذا فى خـ(٢: ٥١٢). وفى ر: فأتى إلى أثر [ابن] رفاعة.
(٢) كذا فى ر عن خـ (٢: ٥١٢). وفى ص: مودياً. ومدر: بلدة باليمن.
(٣) كذا فى خـ (٢: ٥١٢) وفى ر: معروفة.
(٤) انظر ما سبق.
(٥) زيادة فى ر عن خـ (٢: ٥١٢).
(٦) أى قادم قدم علينا.

الرجل المسلم واعترف أنها صورة المسيح وقال: انا نصراني وعلى دين المسيح أموت. فحينذ نزل وسط الجماعه ومضى إلى الديارات وتعمد هناك.

وكان الملك ذلك الزمان مروان وكانت يده تقيله جدا على جنده وأقامو زمانا يتحاربون ويسفكون دما بعضهم بعضا حتى كان يموت في يوم عشرون ألفا وتلتون ألفا إلى سبعين الفا ولا يهدون من الحرب مدة سبع سنين التى ملكها

وبعث أمير المؤمنين هشام بالمُدى [مكاييل] إلى مصر، وأمرهم أن يتعاملوا [بها] فأمر ابن رفاعه فطيف به على القبائل، وأخبرهم أن أمير المؤمنين أمر به. فكل الناس مسلم لذلك، حتى أتي به إلى المعافر، فعرض عليهم. وأتى به إلى عبد الرحمن بن حيويل بن ناشرة المعافرى، وأخذه فضرب به الحجر فكسره، ثم قال: إن لنا وية وارد با قد عرفناهما، ولسنا نحتاج إلى هذا فقيل له: كاسر المدى ، وصار هذا نسباً لبنيه إلى اليوم، يقال بنو كاسر المدى قال شاعرهم:

قَومي الذينَ تَبادَرُوا	مُدَى الخَليفَةِ بالحَجَرْ(١)
وَتَحَزَّبوا وَتَعَصَّبوا	وَجَثَوْا عَلَيهِ فَانْكَسَرْ
مِنْ بَعْدِ ما ذَلَّتْ لَهُ	أعنَاقُ يَعرُبَ بَل مُضَرْ

وتوفى الوليد بن رفاعة، وهو والٍ عليها ، يوم الثلاثاء مستهل جمادى الآخرة، سنة سبع عشرة ومئة. فاستخلف عليها عبد الرحمن بن خالد بن مسافر . فكانت إمرة الوليد عليها تسع سنين وخمسة أشهر(٢)

(١) في ص فوقه: بالمدر، ولعلها رواية أخرى.
(٢) كذا في خـ، ن، وهوالصحيح، لأنه تولى ١٠٩ . وفي ر: سبع سنين وخمسة أشهر.

مروان لأجل انه أخذ مملكتهم، وفى السنه السابعة نظر شاب أسمه عبد الله(*) مناما وصوت من شخص يقول له تلت دفعات: قاتل مروان قاتل بالله تغلبه. وكان الشاب عبد الله من الباديه يسكن البريه في الخيم وكان أبوه شيخا اسمه أبو مسلم [الخراساني]، فظهر له في المنام كما ظهر للشاب عبد الله وكتب الشيخ المنام وعلقه على باب الخيمه، فلما رأوه المسلمون اجتمعو له ليعرفو الخبر فأعلمهم ، فقالو له: نحن نساعدك وإذا

(*) تواتر اخبار الدعوة العباسية.

---

٢٥. عبد الرحمن بن خالد(*)
ابن مسافر بن خالد بن ثابت بن ظاعن
الفهمى، يكنى أبا الوليد(١)

ثم وليها عبد الرحمن بن خالد بن مسافر من قبل هشام على صلاتها، فجعل على شرطه عبد الله بن يسار(٢) الفهمى.

فحدثنى ابن قديد، عن عبيد الله بن سعيد بن عفير.

عن أبيه: أن نافع بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى، كان على بحر أهل مصر سنة ثمانى عشرة ومئة. [فجاء الروم] فنزلوا على تروجة(٣) فحاصروها، ثم انصرفوا. وأقبلت سفن الروم فأسروا نعيم بن العجلان وعبد العزيز بن مروان(٤). فلما قدموا ألفوا على مصر

(*) الخطط (١: ٣٠٣)، والنجوم (١: ٢٧٧)، وحسن المحاضرة (٢: ٩).
(١) وقيل: أبا خالد. (٢) ن: يشار.
(٣) تروجة: كانت قرية، موضعها اليوم كوم تروجة ، الواقع بحوض تروجة، بأراضى ناحية زاوية صقر، بمركز أبى المطامير من مديرية البحيرة. وكذا جاء الأسم فى خـ (١: ٣٠٣) وفى ر: قرمحة. وزدت ما بين قوسين، استيحاء من الخطط، إذ غير معقول أن يكون المصريون النازلين والحاصرين.
(٤) كذا فى ر، وهو إما غير الوالى السابق ذكره، وإما اسم محرف.

نصرك الله نحن نملكك علينا فاجتمع له عده كثيره من القبايل لما سمعو بذلك وصار معه عشرون ألف فارس، ولكن لم يكن معهم سلاح فقطعو جرايد من النخل وجعلو عليها الأسنه وخرجو للقتال وقوة الله معهم فخرج إليهم مروان ومعه مايه ألف مقاتل بالعدد والسلاح والزرود والخوذ والتقو، فقسم عبد الله جيشه على فرقتين، فلما رأهم مروان قال لهم كما قال جليات الجبار لداود خرجت للقتال مثل الكلب. فاخرج

عبد الرحمن بن خالد بن مسافر. فكتب إلى هشام يخبره بمصابهم. وكان سالم أبو العلاء يقرأ الكتب، فلا يُدخل على هشام إلا ما يسره. فقال عبد الرحمن بن مسافر لرسوله: أدخل هذا الكتاب في خفك[1] وأظهر هذا - يذكر فيه الفتح والسلامة - فإذا دخلت فأخبر بالكتاب الذى في خفك. ففعل [فغضب] هشام، وقال: اكتم مثل هذا. فقيل لهشام: يا أمير المؤمنين، إنه لين وهو حدث لا يستطيع بما هو فيه. فأرسل هشام إلى حنظلة بن صفوان فسأله عنه، فلم يعرفه، فقال: إن امرأ لا يعرفه، وهو والى مصر، لجدير أن لا يستأهل ولايتها. فعزله وولى حنظلة . فقدمها يوم الرهان، وقد فرش [لابن] مسافر فى منبر الخيل. فجلس حنظلة في مجلسه. وقدم ابن مسافر حتى بلغ جبل يشكر[2]، فأخبر أن أميرا قد قدم، وجلس فى منبر الخيل. فقال: لا إله إلا الله، هكذا تقوم الساعة. ومضى كما هو إلى منبر الخيل. فلما رآه حنظلة اعتذر إليه، وقال: لو علمت أنك هو ما وليت عليك. فكانت ولاية ابن مسافر عليها سبعة أشهر وخمسة أيام.

(١) فى ص بعد هذا : ففعل فغضب. وواضح أن موضعها الحقيقى بعد كلمة «خفك» الاتية ، وإنما زاغت عن بصر الناسخ.
(٢) جبل يشكر: بين القاهرة ومصر القديمة، وعليه جامع أحمد بن طولون.

مروان له أربعين ألف فارس بثياب ملونه مدرعين لابسين الحديد، وكان أكثر عسكر عبد الله رجاله [مشاة] فقتلوهم بنصر الله حتى لم يسلم واحد منهم ونصرهم الله عليهم كقول موسى النبى: أن واحدا ينصر الله له يهزم ألفا، واثنان يرعبان عسكرا. ونظر ابو مسلم ملاك الرب وبيده قضيب ذهب وباعلاه صليب(*) فهزم أعدا[ء]ه وكان ينظر الموضع الذى يدنو منه الصليب يسقطون بين يديه أمواتا فيأخذ اصحاب عبد الله وأبى مسلم

(*) راجع نفس القصة أثناء حروب قسطنطين فى الجزء الأول. وهى هنا قصة عجيبة لا ترد فى كتب المؤرخين المسلمين.

---

٢٦. حنظلة بن صفوان(*)

ابن تويل بن بشر

الثانية

ثم وليها حنظلة بن صفوان ولايته الثانية على صلاتها، فقدمها يوم الخميس لخمس ليال خلون من المحرم سنة تسع عشرة ومئة. فجعل على شرطه عياض ابن حريبة(١) بن سعيد بن الأصبغ الكلبى. ثم انتقض أهل الصعيد، وحارب القبط عمالهم فى سنة إحدى وعشرين ومئة. فبعث حنظلة بأهل الديوان، فقتلوا من القبط ناساً كثيراً، وظفر بهم.

وقدم إلى مصر فى سنة اثنتين وعشرين ومئة، أبو الحكم بن أبى الأبيض العبسى(٢) خطيبا برأس زيد بن على، رضى الله عنه، يوم الأحد لعشر خلون من جمادى الآخرة، واجتمع الناس إليه فى المسجد الجامع، وشكى عياض بن حريبة إلى حنظلة، ولم يحمد.

فحدثنى ابن قديد، عن عبيد الله بن سعيد.

(*) الخطط (١: ٣٠٣)، والنجوم (١: ٢٨٠)، وحسن المحاضرة (٢: ٩).

(١) ن(١: ٢٨١): خترمة.

(٢) خـ (٢: ٤٣٦): القيسى

خيلهم وسلاحهم. ثم أخرج لهم أيضا مروان أربعين ألف فارس أخرى فى رابع ساعه من النهار من خلف المحجر، فأسلمهم الله فى أيديهم وأخدو خيلهم وسلاحهم. فلما نظر مروان ذلك انهزم وفعل خديعه وهو انه أخرج ماله وما يملكه من الاموال والأوانى والمتاع وجعل الذهب فى مزاود وصار يبدده فى الطريق وهو منهزم، ومعه عشرون ألف فارس التى بقيت معه ولم يعرف عبد الله وأبو مسلم خديعته، فلما تبعوه اشتغلو بنهب المال

عن أبيه قال: قال حنظلة لحفص بن الوليد: إن عياضا قد شكي، فأشر على من أولى الشرط. [قال][1]: فول قيس بن الأشعث التجيبي. قال: هو على الإسكندرية. قال: قد نحيت عبد الله بن عبد الرحمن بن خديج عنها، فرده إليها، فهو يكفيكها، واضمم قيسا إليك. ففعل حنظلة وولاه الشرط، وصرف عياض بن حربية، وذلك فى سنة اثنتين وعشرين ومئة.

ثم توفى قيس بن الأشعث، مستهل ربيع الآخر سنة أربع وعشرين ومئة، فجعل على الشرطة عقبة بن نعيم بن صابر الرعينى، ثم أحد بنى زنباع بن مرثد.

قال سعيد بن عفير: كانت لحنظلة بن صفوان ريطة مثنية، يلبسها ويصلى فيها، فإذا كان يوم الجمعة احتزم بها على قباء أبيض ، وتقلد السيف، ثم يصعد المنبر فيخطب.

ثم ورد كتاب هشام على حنظلة بولايته إفريقية، وأمره بالمسير إليها وأن يستخلف على مصر. فاستخلف حفص بن الوليد الحضرمى عليها. وخرج حنظلة إلى إفريقية، يوم الأثنين لسبع خلون من ربيع الآخر سنة أربع وعشرين ومئة . فكانت ولاية حنظلة عليها خمس سنين وثلاثة أشهر[2].

(١) زيادة عن ر.
(٢) نك خمس سنين وثمانية أشهر. وهو خطأ، لأنه تولى فى المحرم.

والسلاح سبعة أيام، فمضى مروان وعدى الفرات وغرق جماعه من أصحابه وطرح النيران فى المراكب ولم يصل إلى البر إلا وهو فى تمنية ألاف رجل. فتقدم الشيخ أبو مسلم لعسكره بان يعملو صلبانا(*) من كل نوع ويجعلوهم قدامهم، وقال لهم: أن هذا هو الذى أعطانا الله الغلبه به وهو الذى أخذ لنا المملكه. وكانوا يزدادو كثرة ويجتمع الناس إليهم من كل موضع يصلون إليه من خراسان وبيت صيدا والفرات وبلاد الروم كلمن

(*) وهذه من القصص النادر فى كتب التاريخ.

---

٢٧ . حفص بن الوليد بن يوسف الحضرمى(*)

الثانية

ثم وليها حفص بن الوليد باستخلاف حنظلة على الصلاة، فأقره هشام عليها إلى ليلة الجمعة لثلاث عشرة خلت من شعبان سنة أربع وعشرين. فجمع له هشام الصلاة والخراج جميعاً. فجعل على شرطه عقبة بن نعيم الرعينى يوم السبت لثمانى عشرة بقين من شعبان سنة أربع وعشرين. وجعل على الديوان يحيى بن عمرو من أهل عسقلان ، وعلى الزمام(١) عيسى بن عمرو.

حدثنى ابن قديد، عن عبيد الله بن سعيد، عن أبيه.

عن ابن لهيعة: أن أرزاق المسلمين كانت اثنى عشر إردباً فى كل سنة فنقص إردبين، فصار كل رجل إلى عشرة. فلما ولى حفص بن الوليد صيرهم إلى اثنى عشر اثنى عشر.

حدثنى عمى قال: حدثنى أحمد بن يحيى بن وزير قال: حدثنى ابن وهب قال:

أخبرنى بكر بن مضر قال: رأيت حفص بن الوليد استسقى بالناس فى إمارة هشام بن عبد

(*) الخطط (١: ٣٠٣)، والنجوم (١: ٢٩١)، وحسن المحاضرة (٢: ٩).
(١) كذا وفى ن (١: ٢٩١). وفى ر: الشرط.

سمع من البلاد البعيده وكل مدينه يملكونها يركزون [يتحصن] أصحابهم فيها. فاما مروان فكان يطرح النار (*) فى كل موضع يصله وهو منهزم، فلما وصل أبو مسلم وعبد الله إلى الفرات ونظرو الحريق فى المراكب لبسو ثيابا سودا ولم يحلقو روسهم ولا يجتمعو بنساهم ولزمو الصوم والصلاه ستة شهور إلى أن أسلم الله عدوهم فى أيديهم. ثم انهم استخدمو مراكب وعبرو الفرات وتبعو مروان، وكانو إذا وصلو موضعا فيه نصارى

(*) مروان يحرق كل البلاد التى ينسحب منها حتى لا يستفيد منها أبو مسلم الخراسانى.

الملك، قال: فرأيته رقى المنبر، واستقبل الناس بوجهه يخطب ودعا، ثم حول إلى الناس ظهره، واستقبل القبلة يدعو، وحول رداءه ودعا الله، ثم حول وجهه إلى الناس، ثم نزل فصلى ركعتين.

ثم توفى هشام يوم الاربعاء لعشر خلون من ربيع الاخر سنة خمس وعشرين ومئة.

حدثنا على بن سعيد قال: حدثنا سويد بن سعيد قال:

حدثنا ضمام قال: لما بلغ أبا قبيل موت هشام، وضع يده على خده حزيناً وفرح الناس. فقيل له: قد تباشر الناس وأنت حزين. قال: أو شك أن يتمنوا حياته.

واستخلف الوليد بن يزيد بن عبد الملك، فأقر حفصاً على صلاتها وخراجها، وأمر بإخراج أهل الشام الذين بمصر إلى أجنادهم. فأمرهم حفص بالخروج. فامتنعوا وحاصروا حفصاً فى داره، فقاتلهم لعصر يوم الثلاثاء للنصف من رجب سنة خمس وعشرين ومئة. فظفر بصاحبهم ربيعة من موالى أهل حمص فقتله، وأخرج أصحابه إلى أجنادهم. وقدم عيسى بن [أبى][1] عطاء على أرض لمصر وخراجها، يوم الثلاثاء لتسع[2] بقين من شوال سنة خمس وعشرين ومئة، وصرف حفص عن الخراج وانفرد بالصلاة.

(١) زيادة عن خـ، ن.

(٢) خـ، ن: لسبع.

يصلحون [يضعون] عليه علامة الصليب وكانو يعملونه على خيامهم وثيابهم والمسلمون يلبسون ثيابا سودا، ومن لم يكن بهاذه العلامات قتلوه، لان أصحاب مروان كانو لا يرون بذلك، فكانو إذا وجدوهم قتلوهم وشقو بطونهم وبطون نساهم الحبالى ويقتلون الأطفال ويقولون ما ندع لهم من نسل على الأرض.

ثم دخل مروان إلى بيت مال المملكه، يعنى

ووفد حفص بن الوليد على الوليد بن يزيد، واستخلف على مصر عقبة ابن نعيم الرعينى. وقُتل الوليد بن يزيد لسلخ جمادى الاخرة سنة ست وعشرين ومئة، وحفص بالشام. ثم بويع يزيد بن الوليد، فأمر حفص بن الوليد باللحاق بجنده، وأمره [أن] يفرض الثلاثين[1] ألفاً. فدخلها ففرض الفروض، وخرج ببيعة أهل مصر إلى يزيد بن الوليد عقبة بن نعيم الرعينى، والربيع بن عون بن خارجة بن حذافة العدوى وحواش بن حميد الحمصى، وهانئ بن المنذر الكلاعى، وعمرو بن الحارث الفقيه مولى الأنصار. وجعل حفص بن الوليد على فروضه قواداً، وسماهم أصحاب الندبة. وفرض حفص لفروضه فى عشرين وخمسة وعشرين فهم الذين يقال لهم الحفصية والمقامصة والموالى. وجعل حفص على الصعيد رجاء بن الأشيم، وعلى أسفل الأرض فهد بن مهدى الحضرمى.

ثم توفى يزيد بن الوليد لهلال ذى الحجة سنة ست وعشرين ومئة، وبويع إبراهيم بن الوليد، فولى ذا الحجة والمحرم من سنة سبع وعشرين ومئة. وخلعه مروان بن محمد بن مروان بن الحكم فبويع، فاستقبل بخلافته صفراً من سنة سبع وعشرين ومئة. فكتب حفص بن الوليد إلى مروان، يستعفيه من ولايته على مصر، فأعفاه مروان. فكانت ولاية حفص هذه الثانية عليها ثلاث سنين إلا أشهراً[2].

(١) كذا فى ن. وفى ر: وأمره بفرض ثلاثين.

(٢) خ: إلا شهراً.

دمشق لأنها كانت كرسي مملكة بني امية، واخرج منه مالا كثيرا وجواهر وذخاير واحرق الباقي بالنار. وكان يفعل هذا حتى احرق سبع كور. فلما سمع عبد الملك صاحب مصر الخبر خاف ان يخرجه مروان إلى الحرب(*)، فكتب إليه كتابا بمكر يدعوه إلى مصر ويقول له فيه: ليس لأعدايك مدخل إليها فسار وكان يقتل مقدمي البلاد والكور التي يعبر عليها، وياخذ اموالهم، وكذلك كان يفعل في ديارات الرهبان اخربها وأخذ اموالهم.

(*) عبد الملك والي مصر الأموي يطلب من مروان الحضور إلى مصر والتحصن فيها خدعة منه حتى لا يطلبه مروان للدفاع عن دمشق.

- -

٢٨. حسان بن عتاهية(*)

ابن عبد الرحمن بن حسان بن عتاهية بن خذذ[١] بن سعيد[٢] بن معاوية بن جعفر بن أسلمة بن سعد ابن تجيب

ثم وليها حسان بن عتاهية من قبل مروان بن محمد، وحسان يومئذ بالشام. فكتب حسان إلى خير[٣] بن نعيم الحضرمي باستخلافه عليها إلى قدومه. فسلم حفص إلى خير[٣]. ثم قدم حسان يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة خلت من جمادى الاخرة سنة سبع وعشرين ومئة، فأسقط حسان فروض حفص كلها

فحدثني ابن قديد عن عبيد الله بن سعيد.

عن أبيه: أن مروان ولى عيسى بن أبي عطاء الخراج، وحسان[٤] على الصلاة. فلما استقر

(*) الخطط (١: ٣٠٣)، والنجوم (١: ٣٠٠)، وحسن المحاضرة (٢: ٩).
(١) كذا في ن، ق، ر. وفي ص: حزن.
(٢) ن: سعد.
(٣) كذا في خـ، ف (١١٤، ٢٤٠، ٢٨٢)، ر. وفي ص: جبير.
(٤) كذا في ر. وفي الأصل: عيسى. خطأ.

وكان بأعمال فلسطين دير طاهر نظيف يقرى [يعول] ويخدم الافا من عابرى الطريق، وكان فيه ألف راهب كان اسم ذلك الدير «دير موت» ويسمى بلغة القبط دير «ابا هرمانوس» وهو الذى اصلح فيه «مكسيموس» ودوماديوس «اخوه هناك اولا، وهو [اباهرمانوس] الذى اخذ «طومس لاون» ومضى إلى قبور آبايه ومعه جند الامير وصاح على قبورهم بصوت عظيم وقال: لا تظنو انكم نيام وليس لكم امر،حى هو الرب ان لم تجاوبونى

حسان على ولايته وثب به قواد الفروض[١]، وقالوا: لا نرضى إلا بحفص. ورجعوا إلى دار حسان. قال سعيد وأحمد بن سماك بن نعيم: إن ثابت بن نعيم الجذامى[٢]، ممن خالف على مروان، كتب إلى حفص بن الوليد، مع عبد العزيز بن سماك الجذامى[٢]. وقدم معه نفر من اليمانية، فخطبوا فى مسجد مصر، ودعوا الناس إلى خلع مروان. فلم يخالفهم أحد إلا يزيد بن أبى أمية المعافرى فقال: تفسدون جندنا وتشيعون[٣] أمرنا. وقدم عليهم أيضاً رسول زامل بن عمرو من حمص[٤]، وقد خلع مروان بها، فدعاهم إلى مثل ما دعاهم إليه ثابت بن نعيم.

وحدثنى يحيى بن أبى معاوية قال: حدثنى خلف بن ربيعة، عن أبيه.

عن جده قال: لما ورد كتاب ثابت بن نعيم، أجابه أهل مصر إلى ما سأل، وركب رجاء بن الأشيم[٥] فى أصحاب الندبة إلى دار حسان ابن عتاهية، فحاصروه فيها، وقالوا: اخرج عنا

---

(١) لأنه أسقط فروضهم كما سبق.
(٢) كذا فى ر عن ن ، ط. وفى صك الخزامى.
(٣) كذا فى ر، ص، ولعله يريد تفرقون، وذهبت ر إلى أن : لعل صوابه: تشتتون.
(٤) ذهب الطبرى (٢: ١٨٩٢، ١٨٩٤) وابن الأثير (٥ك ٢٥٠) إلى أن زامل بن عمرو الجبرانى كان أميراً على دمشق (لا حمص)، وأنه لم يخلع مروان، وإنما ثار أهل الغوطة عليه وحاصروه، فحاربهم وأتته النجدات من مروان، فهزم الثائرين.
(٥) ر: جابر بن الأشيم. وآثرت تصحيحه بحسب ما مضى وما يأتى.

لأخرجن عظامكم واحرقها بالنار، عرفوني ما ترون هل اقبل «طومس لاون» أو امانة نيقية، فقولو لي علانية سرعه. فاجابوه كلهم من فم واحد وصرخو وقالو: ملعون لاون الكافر الأسد المفترس الكافر، وبلخاريه المرذوله، وملعون مجمع خلقدونيه الستمايه وتلتون اسقفا المخالفين، وملعون كلمن يقبلهم، وملعون من يجعل للمسيح ابن الله طبيعتين بعد الاتحاد. فلما سمع الطوباني «ابا هرمانوس» سقط على الأرض، فلما نظره الأمير

حيث شئت، فإنك لا تقيم معنا ببلد. وأخرجوا عيسى بن أبى عطاء صاحب الخراج، وذلك ليومين بقيا من جمادى الآخرة سنة سبع وعشرين ومئة.

وحدثني ابن قديد، عن عبيد الله، عن أبيه.

عن عمرو بن يحيى[1] قال: لما رأى ذلك حسان، نقض ولايتهم، وهرب حفص بن الوليد إلى خراب حمير. فانطلقوا فاستخرجوه وأعادوه، فسكن الناس. فكانت ولاية حسان عليها ستة عشر يوماً.

٢٩ ـ حفص بن الوليد(*)

الثالثة

ثم وليها حفص بن الوليد كرها، أخذه [2] قواد الفروض بذاك. فأقام عليها رجب وشعبان، وعلى شرطه عقبة بن نعيم. ولحق حسان بن عتاهية بمروان.

وقدم حنظلة بن صفوان الكلبي من إفريقية، قد أخرجه أهلها، فنزل الجيزة. فكتب مروان إلى أهل مصر: «أما إذ أبيتم ولاية حسان، فقد أمرت عليكم حنظلة بن صفوان». فامتنع

(١) كذا في ن (١:٣٠١) . وفي ر: بحرى.
(*) الخطط (١:٣٠٣)، والنجوم (١:٣٠٢)، وحسن المحاضرة (٢:٩).
(٢) كذا في خـ. وفي ر: أخذوه.

الواصل «بالطومس» وسمع كلامهم له حلق رأسه وصار راهبا وجماعة معه، ثم استحق الشهاده بعد ذلك لن [لأن] «مرقيان» الملك لما بلغه عنه ما فعل انفذ فقتله. ومن ذلك الزمان جماعة من الأرتدكسيين باقون في هذا الدير الجليل، ولما وصل مروان إلى هذا الدير المذكور طالبهم بمال مبلغه تلت وزنات مال، وانزل على ريس الدير والذى معه عذابا شديدا وقتلهما ونهب الدير وخرج ومعه جيشه. فلما بعدو عن الدير قليلا كان هناك حبيس

المصريون وأظهروا الخلع. ومضى رجاء ابن الأشيم في الفروض إلى حنظلة، فأخرجة إلى الحوف الشرقي، ومنعوه من المقام في الفسطاط. وهرب ثابت بن نعيم من فلسطين، يريد مصر. فبعث إليه حفص بشرحبيل بن قليب الحجرى يمنعه من دخولها. وخرج إليه زبان بن عبد العزيز بن مروان، ببني أبيه ومواليه من أرض مصر. ومع زبان جمع من قيس.فقاتلوا فهزموه. قال الغطريف الحميرى:

وَمِنْ زاملٍ لا قَدَّسَ الله زاملاً ... وَمِنْ أعْبُد لَمّا بتلكَ المَراغلِ(١)
وَمِنْ شَيخِ سَوْءٍ خَرَقَ الله عَظمهُ ... حُفَيصٍ وأتباعٍ لَهُ غَيرِ طائلِ

وقال سعيد بن شريح مولى تجيب يهجو حفصا، وكان سعيد منقطعاً إلى زبان بن عبد العزيز بن مروان:

يا باعثَ الخيلِ تَرْدى في ضَلالَتِها ... منَ المُقَطّمِ في أكناف حُلوانِ(٢)
لا زالَ بُغضى يَنمى في صُدورِكُمُ ... إذْ كانَ ذَلِكَ مِنْ حُبّى لزَبّانِ

(١) أعبد: عبيد رقيق. ولما: جمعاً. المراغل: المواضع التى تنبت الرغل، وهو نبت قاتل. يريد أن زاملاً وعبيده جميعاً اجتمعوا على هذا النبات يأكلونه في شراهة. والشطر الثانى محرف كل التحريف في ر. ويفهم من الشطر الأول أن زاملاً ثار على مروان، وبخلاف ما عند الطبرى، كما سبقت الإشارة.
(٢) تردى: تعدو. والشطر الثانى في ر: من المعظم فى اكتاف جاوان. وينمى: يزيد.

على عمود شيخ كبير له فيه عدة سنين، وكان ارتدكسيا تاودوسيوسيا، فقال بعض اصحاب «مروان» ان هذا الشيخ الراهب كلما يقوله حق ويصح، وجا إليه فقال له: ما ذا يجرى على؟. فقال له الشيخ بصوت خفى كصوت ارميا النبى: إذا قلت لك الحق انت تقتلني، ولكن انا أقول ما اظهره الله لي والذى قال الله لى عنك، بالكيل الذى كلت به يكال لك، كما انك جعلت الأمهات بغير اولاد كذلك تصير امك بغير اولاد،

وسكت مروان عن أهل مصر، بقية سنة سبع وعشرين. ثم عزل حفصاً مستهل سنة ثمان وعشرين ومئة.

٣٠. الحوثرة بن سهيل(*)

ابن(١) العجلان بن سهيل بن كعب بن عامر بن عمير ابن رياح بن عبد الله بن عبد بن قراص(٢) بن باهلة

ثم وليها حوثرة بن سهيل الباهلى من قبل مروان. فسار إليها ومعه عمرو ابن الوضاح فى الوضاحية، وهم سبعة آلاف. وعلى أهل حمص نمير بن يزيد ابن حصين بن نمير الكندى، وعلى أهل الجزيرة موسى بن عبد الله التعلبى، وعلى أهل قنسرين أبو جمل بن عمرو بن قيس الكندى. وبعث حوثرة بأبى الجراح الجُرشى بشر بن أوس إلى مصر. فقدمها يوم الأحد لليلتين خلتا من المحرم سنة ثمان وعشرين ومئة. واجتمع الجند إلى حفص، وسأله أن يمانع الحوثرة.

(*) الخطط (١: ٣٠٣)، والنجوم (١: ٣٠٥)، وحسن المحاضرة (٢: ٩).

(١) كذا فى ص، خـ (١ك٣٠٣)، والتاج، واحدى نسخ ن، وفى ر عن ن وحاشية فى صلك أخو، وتقول الحاشية: «ابن يونس فى تاريخ الغرباء: حوثرة بن سهيل الباهلى، أخو العجلان ابن سهيل، من أهل قنسرين، أمير مصر لمروان بن محمد، كان رجل سوء سفاكاً للدماء، يحكى عنه حكايات فى هذا».

(٢) كذا فى ق. وفى ر: فراض.

ويكون ملكك مخوفا جدا لكلمن يشاهدك ويستاسرون اولادك وكلمن لك، وياخذ ملكك الذى يتبعك الان [اى ابو مسلم وعبد الله] ولا ياخذ احد من جنسك الملك إلى الأبد، ويهزمونك اعداك إلى ان تصل إلى «ارسنويتس»(*) إلى «الكلاوبطره»، ويحل بك هذا كله فى هذه السنه فى شهر مسرى. فلما سمع ذلك مروان امر بهدم العمود وانزل الشيخ منه فاحرقه بالنار وهو حى.

(*) قتل مروان الحمار ببوصير فى يوليو ٧٥٠م = مسرى ٤٦٦ قبطية = ذى الحجة ١٣٢هـ وارسلت رأسه إلى عبدالله السفاح الخليفة العباسى: انظر الهامش السفلى ص٣٩٨.

فامتنع وقال لأبى الجراح: قد سلمت إليك ما بيدى. فعزل حفص يومئذ. وأمر عبد الرحمن بن سالم بن أبى سالم الجيشانى بالصلاة بالناس إلى قدوم الحوثرة. وختم على الدواوين وبيت المال.

وخشى أهل مصر من حوثرة، فبعثوا إليه يزيد بن مسروق الحضرمى. فتلقاه بالعريش، فسأله أن يؤمنهم على ما أحدثوا. فأجابه الحوثرة إلى ما سأل، وكتب لهم كتابا بعهد وأمان. فأتاهم به يزيد فاطمأنوا إلى ذلك. ثم بعث إليهم حوثرة، يستأذنهم فى المسير إليهم والدخول إلى مصر، فأذنوا له. وسار إليها حتى نزل المسناة، وبعث إليهم: إن كنتم فى الطاعة فالقونى فى الأردية. فقال رجاء بن الأشيم الحضرمى لحفص بن الوليد: أطعنى أيها الأمير وامنعهم. قال: أكره الرياء. قال: فدعنى أقف فى جبل، فإن رأيت ما تحب تطرفنا، وان كان غيرذلك استنقذناك منهم. قال: قد أعطانى ما ترى من العهد، ولن أستظهر بغير الله. فقال رجاء: والله لا رغبت نفسى عن نفسك. فخرج إليه حفص ووجوه الجند حتى دخلوا عليه فسطاطه، فقال لحفص ورجاء: ما أنتما؟ قالا: حفص ورجاء. قال: قيدوهما، فقيدوا[1]. وانهزم أهل مصر.

وكان دخول الحوثرة على الصلاة، وعيسى بن أبى عطاء على الخراج، يوم الاربعاء لاثنى

(١) كذا فى ص بصيغة الجمع.

(*) وصول مروان إلى مصر هاربا من العباسيين.

(*) هذه هي المرة الأولى التي يرد فيها ذكر ثورات البشمور بشكل واضح، وقد تتابعت ثوراتهم بعد ذلك في ظل العباسيين وخاصة في عهد الخليفة المأمون.

ثم وصل الى مصر (*) في عشرين يوما من شهر بوونه في سنة أربع مايه وسبع وستين للشهدا، وكان قبل ان تجرى هذه الأمور قد عصى على «عبد الملك» قوم من «البشمور» (*) ومقدمهم «مينا بن بكيره» وقوم اخر من «شبرا» بسنبوط، ومسكو تلك الكورة ولم يعطوه خراجا ولا لصاحب ديوان مصر إلى ان افتقدهم الرب وكان يعطيهم الظفر، فخرج إليهم «عبد الملك» بعسكر

عشرة ليلة خلت من المحرم سنة ثمان وعشرين ومئة. فجعل حوثرة على شرطه حسان بن عتاهية.

حدثني ابن قديد قال: حدثني أبو نصر أحمد بن علي بن صالح قال: حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح.

عن أبيه قال: سمعت بكر بن مضر[1] يقول: قدم علينا كتاب أمير المؤمنين مروان في حوثرة بن سهيل، أن قد بعثت إليكم رجلاً أعرابياً بدوياً فصيح اللسان، وحاله ومن حاله [كذا][2] فاجمعوا له رجلاً فيه مثل فضاله يسدده في القضاء، ويصوبه في النظر، ويسدد في كذا و كذا. قال بكر بن مضر: فأجمع الناس كلهم يومئذ على الليث بن سعد، وفيهم معلماه يزيد بن أبي حبيب وعمرو بن الحارث. وجمع الجند إلى المسجد فخطبهم الحوثرة بشعر بليغ:

دَعَوْتُ أبا لَيلى إلى الصّلحِ كَيْ يَبو ... بِرأيِ أصيلٍ أوْ يَردّ إلى حِلْمِ
دَعاني لِشَبِّ الحَرْبِ بَيْني وبَيْنَهُ ... فَقُلْتُ لَهُ مَهلاً هَلُمّ إلى السّلْمِ

---

(١) أبو محمد أو أبو عبد الملك مولى ربيعة بن شرحبيل، وفي رك منصور. خطأ.

(٢) زيادة عن ر.

فهزموه(*) بقوة الله وقتلوهم بحد السيف. وانفذ عسكرا آخر واسطولا فى البحر، وبقوة الله هزموهم وقتلوهم. ولما وصل مروان إلى مصر(*) عرفوه جميع ذلك فكتب لهم كتبا وأمانا فلم يقبلوه، فانفذ لهم عسكرا كتيرا من مسلمى مصر وممن وصل صحبته من الشام، فلم يقدر العسكر ان يصل إليهم بالجمله لنهم [لأنهم] تحصنو فى مواضع الوحلات التى لا يقدر ان يصل إليها سوى

(*) هزيمة عبد الملك على يد مينا ابن بكيرة قائد ثورة البشمور، انظر ص ٤٠٤ الجزء السفلى ولاية أبو عون عبدالملك بن يزيد.

(*) هروب مروان إلى مصر أمام جيوش العباسيين.

وبعث حوثرة الخيل فى طلب رؤساء الفتنة ووجوههم، وهم محمد بن شريح بن ميمون المهرى، وعمرو بن يزيد الشيبانى، وعقبة بن نعيم الرعينى، ويزيد بن مسروق الحضرمى، ومحمود بن سليط الجذامى، وأيوب ابن برغوث اللخمى. فجمعوا له وعامتهم. ثم ضرب عنق رجاء بن الأشيم، وعمرو بن سليط، وابن برغوث، فى جمع منهم، يوم الثلاثاء لاثنى[١] عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة ثمان وعشرين ومئة. وقتل محمد بن شريح بن ميمون المهرى، ثم قتل عقبة بن نعيم، وفهد بن مهدى[٢]. وقال حسان بن عتاهية لحوثرة: لم يبق لحضرموت إلا هذا القرن فإن قطعته قطعتها. يعنى خير بن نعيم، كان على القضاء، فعزله حوثرة. وفرض الحوثرة لشيعة مروان، ومن كان يكاتبه، فروضاً فى الخاصة. ففرض لزبان بن عبد العزيز فى موالى بنى أمية ألفا، وفى قيس ألفا، وفرض لزيد بن أبى أمية المعافرى ثلاث مئة. وعقد الحوثرة لمحمد بن زبان بن عبد العزيز على الجند. وأنفذ معه أهل الديوان إلى العريش. فقتل عوف بن حراب الحروى[٣]. وطلبوا ثابت بن نعيم الجذامى، حتى أسروه وبعثوا به إلى مروان. ثم قتل الحوثرة حفص بن الوليد، ويزيد ابن موسى بن وردان، يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من شوال سنة ثمان وعشرين ومئة.

---

(١) ر: اثنى.	(٢) ص: مهرى.

(٣) كذا فى ر، ولعله عون بن خارجة العدوى (ف ٨٤).

راجل راجل فاذا ذلت رجله عن الطريق غطس في اللوق وهلك. وكانو العساكر يحرسونهم من بره، فيخرجون لهم في الليل «البشامره» من طرق يعرفونها يتلصصون عليهم ويقتلون من قدرو على قتله ويسرقون اموالهم وخيلهم فيطول عليهم الأمر فيرحلون عنهم(*).

(*) هزيمة قوات مروان على يد البشمور.

ثم وصل عبد الملك بعساكر عظيمه إلى اعمال دمشق فقسم عسكره مع اميرين شجاعين يسمى احدهما صالحا بن على والأخر ابا عون صديقه،

وكان زبان بن عبد العزيز شديد التحريض على حفص بن الوليد حتى قتل فكانت حضر موت[1].. ...وكان.... [2]عورات زبان أيام المسودة. وقال مسرور[3] الخولاني:

فـإيّاكَ لا تَجنى من الشـرّ غلطةً   فتودى كحفص أوْ رَجا بن الأشيم[4]
فَلا خَيرَ في الدّنْيا وَلا العيش بَعدهم   فكَيف وَقَدَ أضحَوا بسَيفِ المقطمِ

وقال ابن ميادة المرى:

لَقَـد سـرّنى إنْ كـانَ شئ يَسُـرّنى   مُـغـاذ ابن صَبّار على بَلخَ وَالسُّفْرُ
وَحـوثَرَةُ المُهْدى بمـصـرَ جـيـادهُ   وَأسـيافهُ حَتى أستَقامَتْ لهُ مصـرُ

وقال مرسل بن حمير يبكي حفصاً وأصحابه

يا عَـيْنُ لا تُبْـقى منَ العَـبَـرات   جُـودى عَلى الأحْـيـاء وَالأمـوات
بَكّى الذينَ مَضَـوْا فَهُمْ [قـد] صـاد   فوا صَدَقات [شدّا] أبطلَتْ ثارات[5]

(١) كذا في ر، وقال: ليست بينة في الأصل كأن الكلمة «خصرموك».
(٢) كذا في ر، وقال: بياض قدر الكلمة الواحدةت في الأصل.
(٣) ن (١: ٢٩٣): المسور
(٤) كذا في ن. وفي ر: غلطة فتوذى.
(٥) البيت محرف وناقص في ر، ولعل الصواب ما أثبته

وقال لهما: إذا وجدتما مروان واخذتماه قدمتكما ملوكا، وابو عون اعطيه مصر. ثم سير مع صالح ستين ألف فارس وستين اميرا، وسلم لأبى عون اربعين ألف فارس واربع مايه قايد. فوصلا إلى دمشق، وكان واليها صهر مروان زوج ابنته الكبيره فخرج اليهما طايعا فابقياه على ولايته وتوجها إلى مصر. وعند وصولهما إلى غزة قالو لهما اهلها: لم يلبسو اهل دمشق السواد ولا ادوا لكم طاعة. فعادو بغضب وقتلو جماعة كتيره من اكابر اهل دمشق،

يا حَفصُ يا كَهف العَشيرَة كُلها ... يا أخا النَوال وَساترَ العَوْرات
إمَا قُتلتَ فَأنتَ كُنت عَميدَهُم ... وَالكَهْفَ للأيْتام وَالجارات
أوْدَى رَجاءٌ لا كَمثْلِ رَجائنا ... رَجُلٌ وَعُقْبَةُ فَارجُ الكُرُبات
وَشَبابُنا عَمرو وفَهْدٌ ذو النَدى ... وابنُ السّليط وعامرُ الغارات
قُتلوا وَلَمْ أسْمَعْ بمثْل مُصابهمْ ... سَرَواتُ أقْوامٍ بنَو سَرَوات
طُلَتْ دِماؤهُمُ فَلَمْ يُغْرَجْ لَهُمْ ... بَيْن وَلَمْ يُطْلَبْ لَهُمْ بِجُناة

وقدم إلى مصر داعية عبد الله بن يحيى طالب الحق، فدعاهم . فبايع له ناس من تجيب وغيرهم. فبلغ ذلك حسان بن عتاهية ، فاستخرجهم فقتلهم حوثرة.

ثم صرف الحوثرة عنها في جمادى الأولى[١] سنة إحدى، وثلاثين ومئة. وبعث به مروان مددا إلى يزيد بن عمر[٢] بن هبيرة بالعراق. فحضر الحصار بواسط، ثم قتل مع يزيد بن هبيرة. واستخلف الحوثرة على مصر حسان ابن عتاهية.

وقال ابن أبى ميسرة: استخلف عليها أبا الجراح الحرشى[٣]. فكانت ولايته عليها ثلاث سنين وستة أشهر.

(١) وقيل: إنه خرج لعشر خلون من رجب. (ن، خـ).
(٢) ر: عمرو. خطأ. (٣) كذا في خـ، ن. وفي ر: الجرشي.

وقتلو واليها صهر مروان واسرو ابنة مروان. ولما بلغ الخبر مروان عرض عسكره فوجد من وصل معه تمينة الاف فامر الرعية قايلا: كلمن لا يدخل في ديني ويصلي صلاتي ويتبع رأيي من اهل مصر قتلته وصلبته، ومن دخل معي في ديني خلعت عليه واركبته واثبت اسمه في ديواني واغنيته. فتبعه الف انسان سرعه وصلو صلاته، فدفع لكل واحد عشرة دنانير. ثم اجتمع إليه الفان من مسلمي مصر سوى من اطلقه من الحبس ومن كان خدمه

---

٣١. المغيرة بن عبيد الله(*)

ابن المغيرة بن عبد الله بن مسعدة بن حكمة(١) بن مالك بن حذيفة بن بدر بن عمرو بن جؤية بن لوذان بن ثعلبة ابن عدى بن فزارة بن ذبيان بن بغيض ابن ريث بن غطفان

ثم وليها المغيرة بن عبيد الله الفزارى من قبل مروان على صلاتها ، قدمها يوم الاربعاء لست بقين من رجب سنة إحدى وثلاثين ومئة(٢)، فجعل على شرطه ابنه أبا مسعدة عبد الله بن المغيرة، وكان ليناً محببا إلى الناس.

وخرج المغيرة إلى الإسكندرية في رمضان، واستخلف عليها أبا الجراح الحرشي على الجند والشرط. ثم هلك أبو مسعدة فجزع عليه أبوه، ثم توفي بعده لثنتي عشرة ليلة، كانت وفاته يوم السبت لثنتي عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة اثنتين وثلاثين ومئة. فكانت ولايته

(*) الخطط (١: ٣٠٣)، والنجوم (١: ٣١٤)، وحسن المحاضرة (٢: ٩).
(١) كذا في ر، وتاج العروس «حكم» وفي ن: عبيد الله بن سعد بن حكم ، تحريف.
(٢) وقيل إنه قدم في السادس عشر من شهر رجب.

من اجناد عسكر المملكه، وانفذ ابن اخته إلى اسكندرية ومعه مقدم من مقدمى عسكره وأمر ان ياخذ الإسماعيليين بان يصلو صلاته. وكان باسكندرية ريس مقدم أسمه الأسود قد اجتمع له خلق كثير عند ما كانو المسلمون يقاتلون الروم، وكان قد تقدم مروان إلى الذين انفذهم إليها بان يقتلوه هو وعشر مقدمين له من أجل انه لم يصل إليه إلى مصر، وكان للأسود صديق بمصر عند مروان جليسا له. فسمع ذلك فكتب إلى الأسود يعرفه بما كان قبل وصولهم إلى اسكندريه فلما

عليها عشرة أشهر[1] واستخلف ابنه الوليد بن المغيرة وأجمع الجند على أن يولوا عبد الله بن عبد الرحمن بن حديج الشرط، إلى أن يأتى رأى مروان. ثم صرف الوليد في النصف من جمادى الآخرة.

٣٢. عبد الملك بن مروان(*)

ابن موسى بن نصير مولى لخم

ثم وليها عبد الملك بن مروان النصيرى من قبل مروان، وجمع له صلاتها وخراجها. وكان واليا على خراجها قبل أن يولى الصلاة. فجعل أخاه معاوية بن مروان على الشرط. وليها فى جمادى الآخرة سنة اثنتين وثلاثين ومئة.

ثم إن معاوية استعفى أخاه من الشرط بعد أشهر. فأعفاه وجعل مكانه عكرمة بن عبد الله بن عمرو بن قحزم الخولاني. وان عبد الملك أمر باتخاذ الناس المنابر فى الكور، ولم تكن قبله، إنما كان ولاة الكور يخطبون على العصى إلى جانب القبلة.

وخرج رجل من القبط يقال له يحنس بسمنود. فبعث إليه عبد الملك بعبد الرحمن بن

(١) ن: عشرة أشهر إلا أياماً ثلاثة، وفي إحدى مخطوطات ن: إلا أياماً قليلة، وهو الأصح.
(*) الخطط (١: ٣٠٤)، والنجوم (١: ٣١٦)، وحسن المحاضرة (٢: ٩).

علمو أهل اسكندرية ذلك حلفوا للأسود وصاروا هو وهم قلبا واحدا، فلما وصل رسول مروان ومن معه قبضوهم ورموهم في السجن، وحشد الأسود جمعا كثيرا من اسكندريه ومريوط والبحيره من المسلمين الذين في تلك النواحي وجعلوهم خارجا عن صور اسكندريه لحفظ الطرقات، فلما اعلمو مروان ذلك انفذ عسكرا عظيما صحبة امير مقدم اسمه كوزارا(*) وكان يشبه الوحش في خلقه وكان شجاعا ومعه خمس مايه مقاتل، وتقدم

(*) كوزارا : هو الحوثرة أو الكوثر بن سهيل الباهلي. انظر الجزء السفلي ص٣٩٧.

عتبة المعافري. فقتل يحنس في كثير من أصحابه. وخالف عمرو بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان على مروان أمير المؤمنين، وتابعه على ذلك الرماحس بن [عبد][١] العزى الكناني في جمع من قيس . فنزلوا الحوف الشرقي وأظهروا الفساد. فبدر عبد الملك بن مروان أهل الديوان إليهم، وجعل على جماعتهم موسى بن المهند بن داود بن نصير. فساروا في سبعة آلاف إلى بلبيس. فلما التقوا دعوا إلى الصلح، على أنهم يخرجون عمرو بن سهيل والرماحس إلى أى أرض شاءا. فأجابهم موسى بن المهند إلى الصلح وانصرفوا . ثم ظفر بعد ذلك بعمرو بن سهيل فحبس بالفسطاط.

قدوم مروان بن محمد إلى مصر

وأجمع جند مصر على منع مروان إن هو سار إليهم، وجعلوا على أمرهم ذلك عبيد الله بن عبدالرحمن بن عميرة الحضرمي. فقدم عبيد الله بن مروان على مقدمة أبيه، فدعاهم ابن عميرة إلى النهوض معه، فتثاقلوا عنه، فرفض أمرهم.

وقدم مروان بن محمد مصر يوم الثلاثاء لثمان بقين من شوال سنة اثنتين وثلاثين ومئة[٢].

(١) كذا في القاموس المحيط (رمحس) . وفي ر: الدماحس بن [عبد] العزيز. وفي طك الرماحس ابن عبد العزيز.
(٢)ن : وقيل لثلاث بقين من شوال.

إليهم بان يخربو اسكندريه فنزلو فى موضع يسمى «باقوم» بعيدا عن اسكندريه، فلما سمع الأسود ارسل إليهم اخاه ومعه خمس مايه رجل ليتحققو الخبر، فلما نظروهم اصحاب مروان ظنو انه عسكر من البلد وليس فيها من يقاتلهم سواهم فنهضو إليهم وقتلو اكثرهم وانهزم بقيتهم عايدين إلى البلد وهم يتبعونهم، فلما وصلو إلى الأسود ومن معه صرخو قايلين: قد اخذت مدينتنا فانهزمو جميعهم وكان عددهم تلتين ألفا وهرب الأسود

وسود أهل الحوف الشرقى، وأول من سود هناك شرحبيل ابن مذيلفة[١] الكلبى الزهيرى. ولحق الأسود بن نافع بن أبى عبيدة بن عقبة ابن نافع الفهرى بالإسكندرية فسود بها. وسود عبد الأعلى بن سعيد بن عبد الله ابن مسروق الجيشانى بصعيد مصر. وسود يحيى بن مسلم بن الأشج مولى بنى زهرة بأسوان. وعزم مروان على تعدية النيل فأمر بدار آل مروان المذهبة فأحرقت. فقال له زبان بن عبدالعزيز: إنها دار بنى عبد العزيز، وقد أعظمت فيها النفقة. فقال مروان: إن أبق أبنها لبنة من ذهب ولبنة من فضة، والا فما تصاب به من نفسك أعظم. ثم دخل مروان إلى الجيزة، وحرق الجسرين. فقال عيسى بن شافع يبكى الدار المذهبة:

يَا طَلَلاً أَقْوَى وَحَلَّ البِلَى ... مِنْهُ لَدى العُلْوِ وَفِى السُّفْلِ
قَدْ كُنْتَ مَغْنىً لِعُيُونِ المَهَا ... وَكُنْتَ مَأْوَى لِظُبى الرَّمْلِ
وَكَانَ أَرْبَابُكَ مَا إِنْ لَهُمْ ... فِى النَّاسِ مِن نَوْعٍ وَلَا شَكْلِ

وبعث مروان الكوثر بن الأسود الغنوى، وعثمان بن أبى نسعة الخثعمى، إلى الأسود بن نافع الفهرى. فالتقوا بالكريون فى ذى القعدة. فقتل عيسى بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع.

(١) كذا فى ر. وفى ص هنا: شرحبيل بن مديلعة، وبعد هذا: شرحبيل بن بدرانة، وشرحبيل بن مذيلفة. وفى معجم البلدان لياقوت شرحبيل بن مذيلفة.

واختفى ودخل عسكر مروان المدينه مع كوزارا وملكهـا (*) وقتل منها جماعه ونهب اراختها واستاسر اولادهم ونساهم واخذ كلما لهم، واخذ الأب انبا خايل وقال له: كيف مكنت اولادك النصارى ان يقاتلونا، يعنى عن «البشامره»، وخاطبه بكلام كثير، والتمس منه مالا فلم يكن معه شي فاودعه السجن وجعل رجله فيها طوبه حديد(*). وكان تلاميذه وبعض كهنته لما جرى باسكندريه هربو ولم يبق منهم سوى انبا مينا القس

(*) احتلال اسكندريه بواسطة جيوش مروان بقيادة حوثرة الباهلى وهروب الأسود.

(*) حوثرة يقبض على البطرك خايل ويضعه فى السجن. وقد

ودخل الكوثر الإسكندرية، فقتل عبد الأعلى بن الهجرس مزلي مراد: كان على الموالى. وخالفت القبط برشيد. فبعث إليهم عثمان بن أبى نسعة فى المصصة[١] فهزمهم. وبعث زبان بن عبد العزيز إلى الصعيد. فأتى عبد الأعلى بن سعيد فقاتله. فهزمه زبان ونجا عبد الأعلى. وجعل مروان معه عمرو بن سهيل بن عبد العزيز مقيداً. فلما قتل مروان هرب عمرو بن سهيل على وجهه.

وقدم صالح بن على بن عبد الله بن عباس، وأبو عون عبدالملك بن يزيد إلى مصر يوم الثلاثاء للنصف من ذى الحجة. وسار مروان إلى بوصير من كورة الأشمونين، فنزلها ومعه [عبد الملك صاحب مصر، فوافى][٢] صالح بن على فى جيوشه، وعلى مقدمته عامر بن إسماعيل. واستخلف صالح على الفسطاط محمد ابن معاوية بن بحير بن ريسان، أشار عليه به عياش بن عقبة الحضرمى.

وقتل مروان ببوصير يوم الجمعة لسبع بقين[٣] من ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومئة، وقتل معه زبان بن عبد العزيز بن مروان، وابراهيم بن زبان، وعبد العزيز بن جزى[٤] بن

(١) كذا فى ر، وقال: كأنه مصحف وفيه نظر إلى المقامصة المتقدم ذكرهم.
(٢) زيادة ضرورية عن ن. (٣) ن: لتسع.
(٤) كذا فى ر عن المشتبه . وفى ص: حرى.

الأقنوم الذى لبيعة مارى مرقس الأنجيلى التلميذ، وولاتينوس الشماس كاتب القلايه، وبارتولوماوس الراهب السمنودى، لنهم [لأنهم] كانو قد ربطوه معه . ثم أنه اخذ «قسما» بطرك الملكيه وجعل رجليه مع رجلى ابينا البطرك فى الحديد، فبعد خمسة ايام احضر «قسما» من شعبه وبيعته الف دينار ودفعها لكوزار فخلاه. وانفذ إلى ابينا وقال له أفعل هكذا واخليك. فاجابه: ان ما فى بيعتى شى وانا اجعل نفسى عوض المال فما اردت فافعل فى. وضيق عليه حينذ إلى تمام تسعة ايام، فاحضره إليه

ظل البطرك منذ هذه اللحظة وحتى الافراج عنه من قبل العباسيين ينقل مسجونا مربوطا بالسلاسل الحديد فى كل مكان ذهب إليه مروان.

عبد العزيز. وأفلت[1] جزى [2] واسماعيل ابنا زبان، فذهبا إلى الأندلس. وقتل بالصعيد بعد قتل مروان محمد بن زبان، والطفيل بن زبان، ومروان بن الأصبغ بن عبد العزيز وابنه. ويقال: إن محمد ابن زبان ذهب هارباً، فلم يعرف به أحد ولا عرف له خبر.

ودخل صالح بن على الفسطاط يوم الأحد لثمان خلون من المحرم سنة ثلاث وثلاثين ومئة.وبعث برأس مروان بن محمد إلى العراق.

الدولة العباسية

٣٣.صالح بن على (*)

ابن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم

ثم وليها صالح بن على، من قبل أمير المؤمنين أبى العباس عبد الله بن محمد بن على بن عبدالله بن عباس. فاستقبل صالح بولايته المحرم سنة ثلاث وثلاثين ومئة. وبعث بوفد أهل مصر إلى أبى العباس ببيعة أهل مصر، عليهم الوليد بن عبد العزيز بن المطلب، وفيهم عيسى بن

(١) كذا فى ر، وفى ص: قتل . خطأ للقرينة.
(٢) كذا فى رتبعاً لاسم عمه. وفى ص: حرى.
(*) الخطط (١: ٣٠٤)، والنجوم (١: ٣٢٣)، وحسن المحاضرة (٢: ٩).

وأمسك بيده وجذبه على وجهه وطرحه على ركبتيه، وكان في يده قضيب فضربه به مايتي دفعه على راسه بكل قوته وحيله، وكان السيد المسيح معينه وحافظه لم ينله من ذلك شي ثم امر بضرب عنقه، وكانو يجذبونه مثل الخروف الساكت، فلما بعدو عن ذلك الكافر قليلا انزل قلنسوته على وجهه حتى توخذ رأسه ، ثم انه مد رقبته سرعه بفرح ومد السياف يده وجرد السيف وصاح قايلا: اخذ راسه. كما جرت عادته ان يستأذن عليه

شافع بن السائب[١]، ومحمد ابن معاوية بن بحير بن ريسان، وعبد الأعلى بن سعيد، ومعاوية بن الزبير ابن عبد كلال، وعبد العزيز بن ودعة الحميرى، ومحمد بن مشهور الأزدى.

وأسر عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير، ومعاوية بن مروان، وموسى بن المهند بن داود بن نصير، فسجنوا. وأخذ حسان بن عتاهية الكندى الصغير، فأتي به إلى الفسطاط. فضربه صالح بن على بالسياط، ثم قال: أستبقيك؟[٢]. قال له : مافي البقاء خير بعد هذا . فضرب عنقه . وضرب عنق عثمان بن أبي نسعة الخثعمى. ثم خلى موسى بن المهند[٣] واستعمل على ديوان الجند.

وجعل على شرطه محصن بن هانئ الكندى، من أهل جرجان، أخا يزيد بن هانئ، أياماً ثم عزله وجعل مكانه عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية ابن خديج أياماً، ثم صرفه.

ونجا عاصم بن أبي بكر بن عبدالعزيز بن مروان إلى قفط، من صعيد مصر، ومعه أخوه عمر[٤] بن أبي بكر، وبنوه عبد الملك وأبان ومسلمة بنو عاصم. فكتب إليهم صالح يؤمنهم، فقدموا الفسطاط.

(١) كذا في ر في حاشية في الأصل. وفي ص: الوليد بن عبد الملك بن على بن السائب.
(٢) ر: [أ] أستبقيك. ولا داعي للزيادة.
(٣) كذا في ر. وفي ص: الهنيد.
(٤) ياقوت (قلنسوة): عمرو.

[الحاكم] تلت دفعات، ثم استأذن تانى دفعه وهو ياذن له، ثم طرح الله في قلبـه [هدوا] وقـال مـا فايدتنا في قتل هذا الشيخ انبا خايل، وقد كان منع «البشامره» عن قتالنا وكتب اليهم فما قبلو منه، لكن نحمله معنا إلى رشيد وندعه أيضا ان يكتب لهم ويقول ان كلما حل بى لأجلكم فامر بتخليته.

فلما بلغ الخبر «البشامره» خرجو لأوليك الذين كانو يحاصـرونهم فقتلوهم وطردوهم وهو مسيرة

فحدثني ابن قديد قال: حدثنا عبيد الله بن سعيد، عن أبيه قال: حدثني العباس بن الوليد.

عن موسى بن صالح قال: قدم عاصم بن أبي بكر بثلاثة أولاد ذكور من قفط، قد أعطوا أماناً من صالح. فكتب فيهم إلى أبي العباس. قال سعيد: وكان عاصم مواصل بني العباس. فكتب أبو العباس يأمره أن يشخصهم. فحملوا في محامل أعْراء – وخرجتُ مع النظارة ـ فمروا بصالح ، (لم يكنه) ما بالنا ننقل من بلد إلى بلد، والله ما نحن بأرقاء فنملك، ولا نساء فيستمتع بنا. فما أجابه صالح. قال سعيد: فمضى بهم إلى قلنسوة[1] من أرض فلسطين، فقتلوا بها. وقتل معهم عيسى بن الوليد بن عمر بن عبد العزيز. وأما عمرو بن سهيل بن عبد العزيز فتغيب ثم سود. وأتى شعبة بن عثمان التميمي، وكان على المضرية [2] وهو لا يعرفه، فقال: أنا عمرو بن سهيل جئت لآخذ لى أماناً من الأمير وأدخل في دولته. فقال: النجاء! إن ظفر بك قتلك. فانطلق فتغيب[3].

ثم خرج إلى جبل ألاق بالتيه من ناحية الهامة فكان فيه. وكان يكاتب سعيد ابن سعد بن اسطس[4] ويزيد بن مقسم مولى حضر موت. فضرب شعبة خصياً له، قد كان رأى كتاب

(١) قلنسوة: حصن قرب الرملة من أرض فلسطين.
(٢) كذا في ر. وفي ص، ن(١:١٠١ ٣٠): المصرية، وقيل في الذيل: والمضرية أقرب للظن
(٣) ص: فبع، ورجحت ر ما أثبتناه.
(٤) كذا في ر.

(*) هزيمة أخرى لجنود مروان على يد البشامره.

يـومـين(*)، والذى خلص من الموت مـضى إلى مروان وعرفه اللى جرى عليهم، ووصل الخبر إلى مروان بان اعداه قد قربو منه وقتلو صهره زوج ابنته والى دمشق. فكتب مع الذين انهزمو إليه من عند البشموريين كتابا يقول لهم تعالو إلى بسرعه فقد احتجت اليكم وكل بلد تصلون إليه انهبوه واقتلو اهله، فساررو اوليك الكفره إلى الصعيد وقتلو جماعه من الأراخنه ونهبو اموالهم وسبو

عمرو بن سهيل إليه. فدخل على صالح فأخبره، فأرسل إلى سرادقه فوجد الكتاب. فضرب صالح عنق شعبة، وأرسل صالح بيزيد بن هانئ إلى جبل الاق. فوجدوا عمراً يحقب جمالاً له. فأحيط به فأخذ هو وابراهيم ومحمد وعبد الرحمن بنو سهيل بن عبد العزيز فمضى بهم إلى قلنسوة، فقتلوا بها . قال ابن عفير: وقتل معه يزيد، وأبان ومروان وعبد العزيز والأصبغ بنوه، وقتل عثمان بن سهيل في مرسه دات نفل[١].

وقال ابن عفير في موضع آخر: كان عبد الملك بن أبى بكر بن عبد العزيز، والأصبغ بن زبان أخذا بالهامة فقتلا بنهر أبي فطرس[٢]. قال: فكتب أبو العباس أن تشخص نساؤهم وصبيانهم إلى المدينة. ثم أمنهم أبو جعفر، فقدم من إفريقية زيد بن الأصبغ بن عبد العزيز وهو أبو وفاء، ومحمد بن الحكم ابن أبي بكر بن العزيز، وابراهيم بن سهيل، وعبد العزيز بن مروان بن الأصبغ، وهو يومئذ حدث.

وقال ابن عفير في موضع آخر: قتل مروان بن الأصبغ بنهر أبي فطرس، وعبد العزيز ووفاء ابنا مروان بن الأصبغ، قتلا مع أبيهما. و ترك منصور ابن الأصبغ. وهرب إسماعيل بن سهيل،

(١) كذا في ر.
(٢) نهر أبي فطرس: على اثني عشر ميلا من الرملة في سمت الشمال، ومخرجه من أعين في الجبل المتصل بنابلس، ويصب في البحر المتوسط بين مديني أر سوف ويافا.

حـريمهم واهاليـهم واولادهم واحـرقـو ديارات الرهبان وأخذو الرهبانات حتى وصلو إلى الشرق.

وكان هناك دير رهبانات عدارى كن فيه عرايس للمسيح وعدتهن تلتون عدرا، فملكوهن عسكر مروان، وكان فيـهم صبيـه عدرا دخلت إلى الدير وهي ابنة تلت سنين فلما نظروها بهتو من حسنها وقالو ما شاهدنا قط في بني ادم صوره مثل هذه، فاخذوها واخرجوها من وسط اخواتها وتشاورو

وعمرو بن محمد بن عمارة المعيطى، وحميد كاتب زبان، على أرجلهم إلى الأندلس. وضربت عنق يزيد بن مقسم، مولى حضر موت، وعنق ابن أسطس. وهذا كله في سنة ثلاث وثلاثين ومئة.

وفيها أمر للناس بأعطياتهم [1] للمقاتلة والعيال، وقسمت الصدقات على اليتامى والمساكين. وزاد صالح بن على في مؤخر المسجد الجامع بالفسطاط أربعة أساطين.

وورد كتاب أبى العباس أمير المؤمنين على صالح بن على، بإمارته على فلسطين، ويأمره بالاستخلاف على مصر. فاستخلف[2] عليها أبا عون عبد الملك ابن يزيد، مستهل شعبان سنة ثلاث وثلاثين ومئة.

وسار صالح بن على، ومعه عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير، وأخوه معاوية بن مروان، في أحسن حال، وأرفع منزلة، وخرج صالح معه برجال من أهل مصر، صحابة لأمير المومنين أبى العباس. ومنهم الأسود بن نافع بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى، وعبد الرحمن بن عُتبة المعافرى، وعياض بن حرية الكلبى، ومحمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج، في عشرة منهم. وأقطع صالح بن على الذين سودوا، وأقطع منهم شرحبيل ابن

(١) كذا في خـ، ن، ر. وفي ص: بعطياتهم.
(٢) كذا في خـ، ن. وفي ر: واستخلف.

(*) معجزة عذراء الدير.

فيما يفعلونه فيها، فمنهم من قال نتقارع عليها، ومنهم من قال نمضى بها إلى الملك. وفيما هم يقولون هذا قالت لهم الصبية(*): اين هو مقدمكم اعلمه بشي يساوى اموالا وتخلونى فانا عابده لله وما يحل لكم ان تفسدو عبادتى، بل إذا علمتكم بذلك الشي الذى يحصل لكم فيه اموال تردونى إلى ديرى. فقال لها مقدمهم: انا هو. فقالت له: آبائى كانو قوما مقاتلين شجعانا اقويا دفعو لى دوا كانوا يدهنون به [اجسادهم] إذا خرجو للقتال فلا

مذيلفة الكلبى، أقطعه منوبة[1]، والأسود بن نافع الفهرى أقطعه منية بولاق ومنازل زبان بالإسكندرية. وأقطع عبد الأعلى بن سعيد قطائع بالميمون[2] وقرى أهناس[3].

٣٤. أبو عون عبد الملك بن يزيد(*)

مولى هناءة من الأزد، وهو من أهل جرجان

ثم وليها أبو عون عبد الملك بن يزيد على صلاتها وخراجها، باستخلاف صالح مستهل شعبان سنة ثلاث وثلاثين ومئة. فجعل على شرطه عكرمة بن عبد الله بن عمرو بن قحزم الخولانى. ووقع الوباء بمصر فهرب أبو عون إلى يشكر[4]، واستخلف عكرمة على الفسطاط. وخرج أبو عون إلى دمياط فى شوال سنة خمس وثلاثين ومئة، واستخلف عليها عكرمة بن قحزم، وعلى الخراج عطاء بن شرحبيل مولى مراد. وخرج أبو مينا القبطى بسمنود. فبعث إليه بعبد الرحمن بن عقبة، فقتل أبو مينا. وورد الكتاب بولاية صالح بن عليّ على مصر

(١) منوبة: قرية من قرى مصر هي غالباً امابه، أقطعها صالح بن على شرحبيل بن مذيلفة الكلبى، لما سود ودعا إلى بنى العباس. كذا قال ياقوت فى معجم البلدان، وفى ر: سويد.
(٢) الميمون: فى الواحات الخارجة.
(٣) أهناس: بالصعيد الأدنى من أعمال البهنسا.
(*) الخطط (١: ٣٠٦) والنجوم (١: ٣٢٥)، وحسن المحاضرة (٢: ١٠).
(٤) كذا فى خـ (١: ٣٠٦)، يريد جبل يشكر. وموضعها فى ر، وص بياض.

يعمل الحديد فيهم شيا، وتصير السيوف والرماح مثل الشمع قدامهم، فان خليت سبيلى دفعته لك وأن كنت لا تصدق كلامى فانا ادهن رقبتى قدامكم وجب اجود سيف يكون مع رجالك ودع اقوى من فيهم ان يضربنى فلا يقطع فيّ شى فتعلم صحة قولى. وانما قالت ذلك لنها [لأنها] رات ان تموت بالسيف ولا تلصق بها نجاسات الكفار ولايتنجس جسدها الطاهر بهم. ثم دخلت بيتها فاخرجت برنيه(*) فيها زيت قد صلى عليه

(*) البرنيه: إناء غويط من الفخار.

وفلسطين وإفريقية، جمعوا له. ووردت الجيوش من قبل أمير المؤمنين أبى العباس لغزو [المغرب][١]، عليهم عامر بن إسماعيل.

٣٥. صالح بن على بن عبد الله بن عباس(*)

الثانية

ثم وليها صالح بن على بن عبد الله ولايته الثانية على صلاتها وخراجها. فدخلها لخمس خلون من ربيع الآخر سنة ست وثلاثين ومئة. فجعل على شرطه بالفسطاط عكرمة بن عبد الله بن قحزم، وعلى شرطه بالعسكر يزيد بن هانئ الكندى، من أهل جرجان.

وولى أبا عون عبد الملك بن يزيد جيوش المغرب، وقدم أمامه رجالاً من أشراف أهل مصر، دعاة لأهل إفريقية، منهم قنبرة بن بحرته[٢] بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج، وعثمان ابن عبيد الله بن موسى بن نصير[٣]، والضحاك بن محمد اللخمى، ووحوح بن ثابت

(١) زيادة فى ر عن خـ فى الغالب.
(*) الخطط (١: ٣٠٦)، والنجوم (١: ٣٣١)، وحسن المحاضرة (٢: ١٠).
(٢) كذا فى ر، وقالك فى الأصل بعد نصير «بن» حذفناه.
(٣) زيادة من خـ، ن.

القديسون وكان محفوظاً عندها، فدهنت به رقبتها ووجهها وجميع جسدها وصلت وركعت على ركبها ومدت عنقها فظنو الجهال ان الأمر صحيح ولم يعلمو ما في قلبها. ثم قالت لهم: من كان فيكم قويا وسيفه ماض قاطع فيظهر قوته فيّ فانكم ترون مجد الله في هذا الدوا. عند ذلك وثب شاب شجاع بسيف يفتخر به فسترت وجهها ببلينها وطأمنت [طأطأت] راسها وقالت له: اضرب بقوتك كلها ولا تبال. فضرب القديسه الشهيده

البلوى. فخرجوا أمام أبي عون. وكان خروج أبي عون [في][١] جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين ومئة.

وخرج عامر بن إسماعيل في جيوشه، على مقدمة أبي عون. وبعث بالمثنى ابن زياد الخثعمي،في شوال سنة ست إلى الإسكندرية، ليجهز المراكب إلى طرابلس. وبعث بعياش بن عقبة الحضرمي في حمل الطعام لجيش أبي عون وعامر بن إسماعيل.

وتوفي أمير المؤمنين أبوالعباس في ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومئة، واستخلف أبا جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، فاستقبل بخلافته سنة سبع وثلاثين ومئة. فأقر صالح بن عليّ على صلاتها وخراجها. وكتب صالح إلى أبي عون يأمره بالرجوع، وبرد الدعاة من أهل مصر، وقد بلغوا سرت[٢]. وبلغ أبو عون برقة، فأقام بها أحد عشر شهرا[٢]. واتخذ بها مصلى وتركه [٣]. ثم رجع أبو عون في جيشه إلى مصر، وألحق صالح بن علي في أهل مصر ألفي مقاتل، وزاد أهل مصر عشرة عشرة في أعطياتهم.

---

(١) سرت : مدينة على ساحل البحر المتوسط بين برقة وطرابلس، في شمال أجدابية، وفي خـ: شبرت.
(٢) كذا في ن أيضاً . وفي خـك يوماً.
(٣) كذا في ص، ر، ورجح أنها محرفة عن نزلة.

فطارت راسها، فعلمو حينذ ما فعلت وأنها خدعتهم فندمو وحزنو حزنا عظيما ووقع عليهم خوف شديد ولم يلتفتو بعدها لأحد من الرهبانات العدارى بل تركوهن ومضو وهم يمجدون الله.

ثم كتب مروان إلى كوزارا [حوثره] الذى كان قد انفده إلى اسكندريه بان يسرع إليه ولا يتاخر عنه، فلما سار إلى رشيد اعلموه ان البشامره قد قتلو المسلمين الذين كانو فيها واخربوها واحرقوها

ثم خلع الحكم بن ضبعان الجذامي بفلسطين. فبعث صالح من مصر أبا عون، ومحمد بن الأشعث الخزاعي، وأبان سعيد بن معاوية بن يزيد بن المهلب، فلقوا الحكم بن ضبعان فهزموه. وبعث أبو عون إلى مصر بثلاثة آلاف رأس من أصحاب الحكم. وندب[1] صالح بن على الناس إلى فلسطين، وعقد عليهم لوحوح بن ثابت البلوى، والضحاك بن محمد اللخمي، ويزيد بن الزبرقان [2] القيسي. ثم رأى صالح أن يخرج فيهم، فخرج متوجها إلى فلسطين، واستخلف عليها ابنه الفضل بن صالح فبلغ صالح إلى بلبيس ثم تراخى عن المسير حتى بلغه الفتح. ورجع إلى مصر[3].

فحدثني ابن قديد قال: حدثني عبيد الله بن سعيد بن عفير:

عن أبيه قال: لما خرج الحكم بن ضبعان بفلسطين، طلب صالح بن على [من][4] في عسكره بمصر، من بني روح بن زنباع. فاختفى رجاء بن روح عند محمد بن معاوية بن بحير بن ريسان. واختفى روح بن روح عند خالد بن سعيد بن ربيعة الصدفي. وأخذ سلامة بن

(١) ص، ر: نذر، وظن أن صوابها بدر.
(٢) الكلمة غير منقوطة في ص، ر، وظن أن صوابه كما أثبته.
(٣) كذا في خـ، ن. وفي ر: فلسطين. خطأ، لأنه عاد إلى مصر أولا ثم خرج إلى فلسطين.
(٤) زيادة في ر.

بالنار، وان العدو قد قرب، فسلم الأب البطرك لاحد الامرا ليوصله إلى مروان.

ثم اني(*) سرت واعلمت أبي ابا مويسيس الخبر لما فيه من النبوه التى اعطاه الله اياها والعجايب، فصدقونى فيما اقول فقد ابصرته بعينى، وذلك ان قبل وصول مروان إلى مصر لم يكن هناك قتال، اعلم [الانبا خايل] بنبوه من الله ما يكون من الملوك وما يجرى على البيع والشعب المومن

(*) المتحدث هنا هو ابو جرجه كاتب هذه السيرة.

سعيد بن روح وزنباع بن ضبعان. فقتل سلامة بن سعيد. قال أبو ميسرة الحضرمى: فخرجت مع خالد بن حيان ابن الأعين، فدخل على صالح بن على فى سرادقه[عند][1] المصلى. فأقمت أنتظره، فأتى برجل أفطس فى الحديد فقال: أيها الناس، أنا زنباع بن ضبعان، قتل ابن عمى أمس، وأقتل اليوم. فدخل به على صالح فقتله. وبغى[2] محمد بن بحير عند صالح بن على، بأمر رجاء بن روح. فأتى محمد بن معاوية[3] مسلماً . فقال له: اقعد. فقعد حتى إذا خلا قال: يا ابن بحير، ألم أكرمك؟ ! ألم أشرفك ؟ ! فكان ثوابى أن آريت أعدائى. قال: وما ذاك؟ قال: رجاء بن روح عندك قال: أصلح الله الأمير! اختر واحدة من اثنتين، فيها لى براءة ولك شفاء مما اتهمتنى: إما أن ترسل الخيل على غرتى فتفتش منازلى، واما أن أبرئ صدقك بيمينى. قال: فسم امرأتك. قال: ابنة فهد بن كثير المعافرى. قال: فهى طالق، وكل مملوك لك حر، وعليك المشى إلى بيت الله إن كان عندك ولا تعلم مكانه، فحلف. فقال: انصرف [قال محمد بن معاوية][4]: فانصرفت فأعلمت امرأتى بنت فهد قالت: فلا تظهر ذلك فيعرف، فلا ننجو من القوم، ولكن ادخل على واعتزل مضجعى. فكان يفعل ذلك، حتى إذا سار صالح، أظهر طلاقها وأعتق رقيقه، ومشى إلى بيت الله.

---

(١) زيادة فى ر.
(٢) كذا فى ر. وفى ص: بقى.
(٣) هو محمد بن معاوية بن بحير، كما مضى ذكره.
(٤) زيادة فى ر.

المسيحى، وقالو له فى الرؤيا: استعد فانك تكون مع الابا فى القتال.

وفى تلك السنه كان يكتر صلواته وتعبده ونومه على الأرض نهارا وليلا ومداومة الصلاه والحزن والبكا والدموع الغزيره. فلما رأيته أنا البايس كنت اساله واتضرع إليه ان يعلمنى السبب الذى يفعل ذلك بنفسه لجله، وكان ذلك الأب القديس يبغض المجد الفارغ ويقول لى : يا ولدى ذنوبى

ثم صار صالح إلى فلسطين، وكتب إلى أبى عون بالمسير إليه. كان خروج صالح لأربع خلون من شهر رمضان سنة سبع وثلاثين ومئة. فلقيه أبو عون بالفرما، فأمره على مصر صلاتها وخراجها. ومضى صالح إلى فلسطين، ودخل أبو عون الفسطاط[1] لأربع بقين من شهر رمضان سنة سبع وثلاثين ومئة.

وحدثنى ابن قديد، عن عبيد الله، عن أبيه قال: حدثنى عمرو بن بحرى السبئى: أن صالحاً لما خرج عن مصر إلى الشام، خرج بنفر من وجوه أهل مصر، منهم معاوية بن عبد الرحمن بن قحزم الخولانى، وخالد[2] بن حيان الأعين الحضرمى وشرحبيل بن مذيلفة الكلبى، وغوث بن سليمان الحضرمى، وعمرو بن الحارث الفقيه.

٣٦ ـ أبو عون عبد الملك بن يزيد(*)

الثانية

ثم وليها أبو عون عبد الملك بن يزيد الثانية على صلاتها وخراجها، باستخلاف صالح

---

(١) ر: ودخل صالح فلسطين، ودخل أبو عون الفسطاط. وفى ص: ودخل أبو عون فلسطين، ودخل أبو عون الفسطاط. والعبارتان محرفتان.

(٢) كذا فى ر وقال: فى الأصل: خلف. وقد أعيدت هذه الرواية فى كتاب القضاة وسمى هناك خالداً.

(*) الخطط (١: ٣٠٦)، والنجوم (١: ٣٣٦)، وحسن المحاضرة (٢: ١٠).

كتيره وإذا ذكرتها بكيت وندمت وقدمت الصلاه لله اساله الغفران. وكان فيّ انا الخاطى يسير من الادلال [الدلال] عليه لملازمتى له ليلا ونهارا، ولاجل ذلك مسكت قدميه وقبلتهما ودموعى تجرى عليهما وقلت: ما أقوم ولا أرفع وجهى حتى تعرفنى حقيقة هذا الأمر. فقال لى: إذا كان لابد لك من ذلك فتكون مشاركا لى انت أيضا لنه [لأنه] لم يبق لأحد فى أيام هذه المملكه خلاص وخاصه ما يجرى على البيعه من الشعب، لكن

ابن على إياه عليها، وذلك فى شهر رمضان سنة سبع وثلاثين. فجعل على شرطه عكرمة بن عبد الله بن قحزم، وعلى الدواوين عطاء بن شرحبيل. ثم أفرده أبو جعفر بولايتها.

وقدم أمير المؤمنين أبو جعفر بيت المقدس، وكتب إلى أبى عون بأن يستخلف على مصر ويخرج إليه. فاستخلف عليها عكرمة بن عبد الله[1]، وعلى الخراج عطاء بن شرحبيل مولى مراد. وخرج أبو عون للنصف من شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ومئة.

حدثنى ابن قديد قال: حدثنى عبيد الله بن سعيد.

عن أبيه قال: لما أراد أبو جعفر عزل صالح بن على مصر، ضم إليه فلسطين، وأمره بالشخوص إليها، وأن لا يستخلف على مصر. فلما استقر بها عزله عن مصر، وضم إليه الأردن، وأمره أن يصير إليها. فلما استقر بها عزله عن فلسطين، وضم إليه دمشق. فلم يزل ينقله حتى صار إلى الجزيرة.

ولما صار أبو عون ببيت المقدس، بعث أبوجعفر موسى بن كعب عليها. فكانت ولاية أبى عون عليها هذه المدة الثانية ثلاث سنين وستة أشهر.

(١) على الصلاة، كما فى الخطط والنجوم.

اعلم ان السيد المسيح ما يتركها إلى التمام، وانها تخلص من التعب، وهذه المملكه تبيد(*) وجميع جيوشها وتكون بعدها مملكه جديده. فسمعت منه من هذا وغيره كثيرا وانا اعلم ان كل كلمه يقولها حق وتتم في وقتها، وبقيت متطلعا لذلك، ولما ياتي بعده، ومن بعد ذلك اليوم وقع الطرد على مروان ومملكته، ووصل إلى مصر كما تقدم القول، وكنت متفكرا وقايلا: ما الذى يجرى على بيعه الله فى زمان الصلح والهدو وغيره.

(*) نبؤة أبا مويسيس بزوال الخلافة الأموية.

---

٣٧ ـ موسى بن كعب(*)

ابن عيينة بن عائشة بن عمرو بن سرى بن عائذة بن الحارث

ابن امرئ القيس بن زيد مناة بن تميم بن مر بن أد

ابن طابخة بن الياس بن مضر

ثم وليها موسى بن كعب من قبل أمير المؤمنين أبي جعفر، وكان موسى من نقباء بني العباس. فدخلها لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأخر سنة إحدى وأربعين ومئة على صلاتها وخراجها. فجعل على شرطه عكرمة بن عبد الله بن قحزم.

فحدثني ابن قديد قال: حدثني عبيد الله بن سعيد.

عن أبيه: أن موسى بن كعب لما ولى مصر نزل العسكر، فجعل وجوه الجند يغدون عليه ويروحون. فقال: ألكم حاجة؟ أتشكون ظلامة؟ قالوا: لا. قال: فما هذا الاختلاف؟ قالوا: كنا نفعل ذلك بأمرائنا قبلك. فقال: قد وضعه الله عنكم، فأقيموا فى منازلكم. فانتهى الناس، ولزمه الفضل بن مسكين بن الحارث بالغدو والرواح. فسأل يوماً من ببابه، فأخبر به، فدعا به.

(*) ترجمته في الخطط (١: ٣٠٦)، والنجوم (١: ٣٤٢)، وحسن المحاضرة (٢: ١٠).

وفيما هو يحدثنى واذا الأب البطرك قد وصل وصحبته الجند إلى باب البيعه المقدسه بمدينة وسيم [بالجيزة] صباح يوم الأحد العاشر من ابيب، فلما ابصرهم ابى القديس مويسيس قال لى: يا ولدى هذا اليوم الذى انا منتظره الذى قلت لك قد حضر والعيان اجود من السماع، الان من أراد ان يبذل نفسه فيتبعنى وانا أفرح اليوم لن [لأن] لى زمان اشتهى هذا وأقول اننى ما استحق ان أسفك دمى الدنس عوضا من الدم الزكى المسفوك عنا.

فقال: ألك حاجة؟ أتشكو[١] ظلامة ؟ قال: لا . قال فما لزومك بابى، وقد أمرت بالكف عن ذلك ؟ قال: أنت تريد أن ترى فينا أمراً تبغينا به. فحبسه حتى عزل.

حدثنى ابن قديد، عن عبيد الله بن سعيد، عن أبيه.

عن الميسرى عبد العزيز بن أبى ميسرة قال: كان موسى بن كعب يقول فى خطبته: من كان يريد جارية فارهة، أو غلاماً فارهاً، فليرفع يديه إلى ا لله وقال فى خطبته: هذا أخوكم عبد الغفار الأزدى كان معكم منذ ثلاث ثم مات، فلا تغفلوا عما نزل به.

وحدثنى ابن قديد: أنه انتسخ من رقاع يحيى بن عثمان بن صالح بخطه:

حدثنى أشياخنا: أن أسد بن عبد الله البجلى كان والياً على خراسان، فاتهم موسى بن كعب بأمر المسودة، فالجم بلجام ثم كسرت أسنانه. فلما صار الأمر إلى بنى هاشم أمالوا على موسى الدنيا. فكان موسى يقول: كانت لنا أسنان وليس عندنا خبز[٢]، فلما جاء الخبز[٢] ذهبت الأسنان.

وذكر أشياخ مصر أن أبا جعفر كتب إلى موسى بن كعب حين عزله: إنى عزلتك عن غير سخط، ولكن بلغنى أن عاملاً يقتل بمصر يقال له موسى، وكرهت أن تكون هو فكان ذلك

(١) ر: أتشكون. تصحيف.
(٢) فى ص بالراء، وأصلحها ر عن خـ، ن.

لكن عظيم هو الحـــزن الذى فى قلبى لن [لأن] جيل القديسين قد اضمحل وافتقرنا جدا إذ لا نجد انسانا يشاركنا فى هذه الخدمه. هكذا كما شهدت فى زمان المجمع.

وكان أبى مويسيس مع ما كان عليه من الصوم والصلاه والصلاح الكثير يقول: ويلى انا الخاطى انا اعتقد ان المسيح ما يتخلى عنى لكن يعيننى. ثم تقربنا [تناول القربان] من يد الاب الجليل ابا خايل

- -

موسى بن مصعب زمن المهدى. فوليها موسى. ابن كعب سبعة أشهر[1]، وصـــرف فى ذى القعدة سنة إحدى وأربعين ومائة.

واستخلف على الجند خالد بن حبيب[2] وعلى الخراج نوفل بن الفرات. وخرج من مصر يوم الإربعاء لست بقين من ذى القعدة سنة إحدى وأربعين ومئة.

٣٨ . محمد بن الأشعث(*)

ابن عقبة بن أهبان بن عياذ[3] بن ربيعة بن كعب

ابن أمية بن يقظة بن خريمة بن مالك بن سلامات

ابن أسلم بن أفصى بن حارثة بن عمرو[4] بن عامر

فوليها محمد بن الأشعث الخزاعى، وهو من ولد عقبة مكلم الذئب، من قبل أمير المؤمنين أبى جعفر على صلاتها وخراجها، قدمها يوم الأثنين لخمس خلون من ذى الحجة سنة إحدى

....

(١) ن: وأياماً.

(٢) كذا فى ر، ن. وقيل فى ر: خرجت هذه الصفحة عن محلها باختلال فى التجليد. وفى خـ: ابن خالد بن حبيب.

(*) الخطط (١: ٣٠٦)، والنجوم (١: ٣٤٦)، وحسن المحاضرة (٢: ٢: ١٠).

(٣) كذا فى أسد الغابة وتاج العروس. وفى ر: عباد.

(٤) كذا فى ر عن الجدول، وفى ص: عمر.

البطرك القديس والشهيد المختار، ونظرنا النار صاعدة في الفسطاط، واخبرونا ان مروان احرق مخازن غله وقطن وتبن ومخازن الشعير. فلما علمو الجند بهذا اقلقونا كثيرا وصرخو علينا بضجر عظيم، وجعل أبي مويسيس يده على يدى ولبس ثوبا ووزرته وترك جميع ما في بيعته وخرج. ولم يكن احد مع البطرك من الأساقفه ولا من اولاد البيعه سواى وحدى وقارى واحد من بيعة

واربعين ومئة. [وولى على شرطته المهاجر بن عثمان الخزاعي، ثم عزله][1] وجعل مكانه على الشرط محمد بن معاوية بن بحير بن ريسان الكلاعي. فلما استقر محمد بن الأشعث بها، بعث أبو جعفر إلى نوفل بن الفرات: أن اعرض على محمد بن الأشعث ضمان خراج مصر، فإن ضمنه فأشهد عليه وأشخص إلي، وإن أبى فاعمل على الخراج. فعرض عليه ذلك[2] فاستشار محمد بن الأشعث كاتبه، فأشار عليه أن لا يفعل. فانتقل نوفل بالدواوين إلى دار الرمل. فافتقد[3] ابن الأشعث الناس، فقيل له: هم عند صاحب الخراج. فندم على تسليمه.

وعقد محمد بن الأشعث لأبي الأحوص عمرو بن الأحوص على جيش، وبعث به إلى المغرب، لقتال أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح الإباضي[4] مولى المعافر. فلقيه أبو الخطاب بمغمداش[5] فهزم أبا الأحوص وقتل عسكره. فبلغ ابن الأشعث ذلك، فعسكر بالجيزة، وصلى بها يوم الأضحى سنة اثنتين وأربعين ومئة. وتوجه إلى الاسكندرية، واستخلف على مصر محمد بن معاوية ابن بحير بن ريسان.

(١) زيادة ضرورية عن ن. (٢) كذا في ر عن خـ. وفي صك قال:

(٣) ر: فانتقل نوفل الدواوين إلى دار الرمل فافتقد. وفي خـ: فانتقل نوفل الدواوين فافتقد. وفي ن: فانتقل نوفل إلى الدواوين ففقد. وأظن أن الصواب ما أثبته.

(٤) كذا في ث (٥: ٢٤٠) والبيان المغرب (١: ٦٠) ومعجم البلدان لياقوت (١: ٧١١، ٨١٥، ٢: ٧٩٧). وفي ر: بن الشيخ. وفي ص: بن السيح. وفي ن: أبو الخطاب الأنماطي.

(٥) مغمداش: بجوار سرت. (أحسن التقاسيم للمقدسي ٢٤٥).

القديس أبى مقار اسمه يعقوب كان من أهل بلبيس.

وأمر مروان أن يضرب البوق بمصر والندا تلتة أيام ويقول : انه بعد تلتة أيام ان وجدت بمصر [الفسطاط] انسانا او دابه متخلفه قتلته لنى [لأنى] أضرب جميع الفسطاط بالنار. فعدو الناس كلهم إلى الجيزه والجزيره(*) [الروضه] وغيرها، وهرب جميع الناس فى المراكب حتى البنات المخدرات اللاتى لم يخرجن قط [من بيوتهن] خرجن إليها

(*) مروان يحرق الفسطاط حتى لا تقع فى يد العباسيين اموالها وقصورها وبناياتها.

حدثنى ابن قديد قال: حدثنى عبيد الله بن سعيد.

عن أبيه قال: كان محمد بن معاوية بن بحير قد سعى [به](١) عند أبى عون، وقيل: إنه يشتمه. فضربه أبو عون، وحط عطاءه إلى عشرين ومئة، وكان فى المئتين. فلما قدم محمد بن الأشعث، ولاه الشرط. فكان يصعد المنبر فيشتم أبا عون، ويقول: النخاس الكذاب. فشتمه يوماً عند محمد بن سعيد صاحب الخراج. فقال له سالم بن سليمان الحربى القائد: أتشتمه وهو قائد أمير المؤمنين؟ قال: وأشتمك، فعليك وعليه لعنة الله! فكانت ولاية ابن الأشعث عليها سنة وشهراً.

٣٩ . حميد بن قحطبة(*)

ابن شبيب بن خالد بن معدان بن شمس بن قيس بن أكلب

ابن سعد بن عمرو بن غنم بن مالك بن سعد بن نبهان

ابن ثعل(٢) بن عمرو بن الغوث بن طيئ

ثم وليها حميد بن قحطبة من قبل أبى جعفر على صلاتها وخراجها، فدخلها فى عشرين

(١) زيادة ضرورية. وفى ر: بغى. وفى ص: نعى، بدون فقط.
(*) الخطط (١ : ٣٠٦)، والنجوم (١ :٣٤٩) وحسن المحاضرة (٢ :١٠).
(٢) ر: نبهان بن فعل، ورجح ثعل، والذى فى كتب الأنساب واللغة أن نبهان وثعل أخوان، فثعل إذن مقحمة. انظر نهاية الأرب للنويرى (٢ :٢٩٩).

مع اهاليهن. وتركو الناس جميع اموانهم، وضرب النار من قبلى مصر [الفسطاط] إلى بحريها حتى انتهيت إلى الجامع الكبير.[جامع عمرو] الذى للمسلمين، ووقع فى البحر من الناس والبهايم ما لا يحصى عدده بحسب انهم لم يجدو من يعدو بهم لما هربو من النار، وكان الأخ يهرب من اخيه، والصديق من صديقه، والاعمى لايجد من يقوده، والمقعد والمفلوج والضعيف والشيخ الفانى والعجوز التى لا نهضة لها، جميع هولا احترقو

ألفاً من الجند، يوم الجمعة لخمس خلون من شهر رمضان سنة ثلاث وأربعين ومئة. فجعل على شرطه محمد بن معاوية بن بحير. ثم قدم عامر بن إسماعيل فى عسكر، لست خلون من شوال. وقدم معه الأغلب ابن سالم، ومحمد بن بحير على الشرط.

فحدثنى ابن قديد قال: حدثنى عبيد الله بن سعيد، عن أبيه قال: أخبرنى الميسرى.

عن أبيه: أن عمر بن حبيب المؤذن أتى ابن بحير[1] بالصبح، وهو فى دار الفلفل. فرأى شيئاً كرهه. فبلغ ذلك حميداً فاستشار الجند فى رجل يوليه الشرط، فقيل له: عليك بعبد الله بن عبد الرحمن معاوية بن حديج. فولاه من يومه فكان مقام ابن بحير على شرط[2] حميد ستة أشهر.

وحدثنى [ابن قديد][3] عن عبيد الله بن سعيد.

عن أبيه قال: وقدم إلى مصر على بن محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن، فى إمرة حميد بن قحطبة، داعية لأبيه وعمه. فنزل على عسامة بن عمرو المعافرى. فذكر ذلك صاحب

(١) كذا فى ر. وفى ص: أبو بجير.
(٢) كذا فى ر. وفى ص: الشرط.
(٣) زيادة فى ر.

بالنار، وكانو الناس مطروحين في الشوارع والأزقه والغيطان في اعمال الجيزه كالموات مما حل بهم تحت شقا عظيم وجوع وعطش ولا يجدون ما يقتاتون به من كترة الخلق. وكانت الغلات التى بمصر قد احرقها مروان فمضو الجند الى كوزارا، واسمه في نسخه اخرى «حوثره» فاعلموه بوصول الابهات فامر واحدا اسمه ازرق ان ياخذنا عنده حتى يدبر رأيه، ثم علم مروان ان اعداه الخراسانيين [العباسيين] قد وصلو إلى الفرما، فانفذ قوما إلى

السكة لحميد بن قحطبة، وقال: ابعث إلي فخذه. فقال حميد: هذا كذب. ودس إليه[1] فتغيب.

ثم بعث إليه من الغد فلم يجده. فقال لصاحب السكة: ألم أعلمك أنه كذب؟ وكتب بذلك صاحب السكة إلى أبي جعفر، فعزله وسخط عليه. ثم صرف[2] حميد عنها في ذى القعدة سنة أربع وأربعين ومئة. وخرج منها يوم الاثنين لثمان بقين من ذى القعدة سنة أربع وأربعين ومئة[3].

٤٠ . يزيد بن حاتم[*]

ابن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة

ثم وليها يزيد بن حاتم المهلبى، من قبل أميرالمؤمنين أبى جعفر، على صلاتها وخراجها. فقدمها يزيد يوم الاثنين للنصف من ذى القعدة سنة أربع وأربعين ومئة. فجعل على شرطه عبد

(١) كذا في خـ. وفى ر: عليه. وفى خـ (٢: ٣٣٨): ودس إليه أن تغيب.
(٢) واضح أن العبارة ركيكة. وفى خـ: فكتب بذلك إلى أبى جعفر، فصرفه فى ذى القعدة. وفى ن: فكتب ذلك لأبى جعفر المنصور فغضب وصرفه عن إمرة مصر فى ذى القعدة.
(٣) ن: وكانت ولايته على مصر سنة واحدة وشهرين إلا أياماً.
(*) الخطط (١: ٣٠٧)، النجوم (٢: ١)، وحسن المحاضرة (٢: ١٠).

بحرى فى المراكب إلى كل كوره ليحرقو كل مركب يجدونه فى البحر ففعلو ذلك(*)، وأرسل قوما اخرين فى البر وتقدم إليهم يحرق المدن والكور والكروم والسواقى وكلما يجدونه، فسارو حتى وصلو اتريب فهمو بحرقها، وكان هناك خمسة بحور ما [ء] تجرى إلى الغرب سوى خلجان كانت تجرى من البحر المسمى «جيحون» وهو بحر النيل، وظن مروان انه يقيم فى الوجه الغربى والخراسانيون فى الوجه الشرقى، وأنهم إذا

(*) مروان يبعث بعض جنوده لحرق المراكب فى كل مناطق مصر حتى لا يستغلها العباسيين فى مطاردته وعبور النيل. ويرسل غيرهم لحرق المدن والحقول والحيوانات.

الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج، واستخلف على الخراج معاوية بن مروان بن موسى بن نصير[1].

وفى ولايته ظهرت دعوة بنى حسن بن على بمصر، وتكلم بها الناس. وبايع كثير منهم لعلى بن محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن[2]. وهو أول علوى قدم مصر. وقام بأمر دعوته خالد بن سعيد بن ربيعة بن حبيش الصدفى. وكان جده ربيعة بن حبيش من خاصة على بن أبى طالب، رضى الله عنه، وشيعته، وحضر الدار[3]. فاستشار خالد بن سعيد أصحابه الذين بايعوا له. وفيهم دحية ابن المعصب[4] بن الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان، ومنصور الأشل بن الأصبغ بن عبد العزيز، وزيد بن الأصبغ بن عبد العزيز. فقال لهم: ما ترون؟ فأشار عليه دحية أن يبيت يزيد بن حاتم فى العسكر، فيضرم عليه نارا. وقال أهل الديوان: نرى أن تحوز بيت المال، وأن يكون ظهورنا وخروجنا فى المسجد الجامع. فكره خالد بن سعيد أن يبيت يزيد بن حاتم وخشى عليه اليمانية. وخرج منهم رجل من الصدف، قد شهد أمرهم كله، حتى

---

(١) كذا فى خـ (١: ٣٠٧)، ن(٢: ١). وفى ر: سعيد.
(٢) أقحم ر عبارة «عبد الله» بين الحسنين، خطأ. وانظر مقاتل الطالبيين لأبى الفرج الأصبهانى ٢٠١.
(٣) كذا فى ر عن خـ ٢٠: ٣٣٨). وفى ص: الرأى . تحريف.
(٤) كذا فى ص، خـ ١٠: ٣٠٧)، ن (٢: ٤٩). وفى ر، ى (١: ٤١٠، ٧٦٦)، والمعارف لابن قتيبة (١٨٤)، وأنساب الأشراف (القدس ١٨٥): مصعب.

وجدوه خرابا رجعو لكونه خاليا من الناس والبهايم والغلات والمستغلات، ولا يجدون فيه ما يقوم باودهم ولا مراتب يعدون فيها إليه فلا يستقر بهم المقام فيرجعون على اعقابهم. فاعلموه بقرب وصول اعداه وان فى البحر مواضع مخاضات يتواصلون فيها إليه، فعرفوه فانفذ اعاد الذين سيرهم إلى اتريب ولم يحرقوها لنهم [لأنهم] عادو إليه سرعه.

أتى إلى عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج، وهو يومئذ على الفسطاط. فخبره[1] أنهم الليلة يخرجون. فمضى عبد الله بن عبد الرحمن إلى يزيد، وهو بالعسكر، ليخبره وكان ذلك لعشر خلون من شوال سنة خمس وأربعين ومئة.

وسار خالد بن سعيد في الذين معه، وعليه قباء خز أصفر وعمامة خز صفراء، وقد سوم فرسه بعمامة، وعمد إلى المسجد الجامع في نصف الليل. فانتهبوا بيت المال ثم تضاربوا عليه بسيوفهم. فلم يصل منهم إليه إلا اليسير. وبعث يزيد بن حاتم مع ابن حديج بنوبة بن غريب الخولاني، وبأبي الأشهل سعيد بن الحكم الأزدى من أهل الموصل، ودفيف بن راشد مولى يزيد بن حاتم. وقال لهم يزيد: إن رأيتم المصابيح في الدور فهو أمر عام، فانصرفوا إليّ، وإلا فأتوا المسجد فاعلموا الخبر. فلما انتهوا قالوا: نرجع. قال نوبة: أما أنا فلا أبرح حتى يأتى أمره، لأنه قال لكما: ارجعا ولم يقل لى. فقال له ابن حديج: فقف إذا عند دور بنى مسكين، فإنه مفرق طرق. قال: أما هذا فأفعل. وثاب إلى يزيد بن حاتم نفر من أهل مصر، وأتاه المنتظر بن إسماعيل الرعينى من الصحراء. فقال ابن حاتم: ما فعل ابن عمير الحضرمى؟ قالوا: لم يخرج معهم. قال: وأبو حزن[2] المعافرى؟ قالوا: بالباب. قال: فالأمر يسير. وأرسل ابن حاتم

(١) كذا في خـ (٢: ٣٣٨). وفي ر: فخبرهم.
(٢) كذا في ر. وقال: غير واضح الكتابة في الأصل.

وفى تامن عشر يوم من ابيب اربع وسبعين للشهدا احرق حصن مصر [بابليون] فى تلك الليله لأنه عدا فى المركب هو وجميع عسكره، فنزل على شط البحر حتى احرق الحصن ولم يحرق المراكب التى كانت معه فى بر الغرب، وكانو الجند يحضرون إليه فى كل يوم فيقول لهم احتفظو بالمراكب، وفى كل موضع يمضى إليه يسوقنا معه ونحن تحت تعب عظيم من كثرة الخلق والدواب والزحام والضغطات.

إلى أصحابه، فجعلوا يأتونه سكارى. فقال: إن نضوحكم الليلة لكثير. وكان ممن حضر ليلتئذ من وجوه قواده العلاء ابن رزين الأزدى من سليمة، ويحيى بن عبد الله بن العباس الكندى، وأبو الهزهاز النخعى، وأبو كندة بن عبيد بن مالك الكلبى. فساروا جميعاً، ثم وجه دفيفاً فى جمع منهم من قبل سوق وردان. ومضى ابن حديج، وكان بسوق الحمام. ووقف أبو الأشهل فى السراجين. وأقبل نصر بن حبيب فى الجموع من نحو دور بنى مسكين. فوقف ابن حديج على الباب الذى من ناحية بيت المال، فكلم خالد بن سعيد، وهو فوق ظهر المسج، كلمة قبطية[1] فقال: انسل. فخرج على وجهه ورمى مسود بسهم فى الظلمة نحو مخرج الكلام، فأصاب خد خالد بنشابته. وخرج من نحو سوق الحمام، وخرج ابناه إبراهيم وهدبة من نحو المرحاض الذى إلى دار بنى سهم. ومضى خالد بن سعيد إلى إسماعيل بن حيوة بن عقبة بن كليب الحضرمى فسأله أن يخفيه فقال: لقد هممت أن أوبقك وأذهب بك إلى الأمير. ثم أتى عياش بن عقبة بن كليب فقال: أخاف اليمين. فأتى يحيى بن جابر أبا كنانة الحضرمى، فآواه سبعين ليلة حتى سكن الطلب، وهدأ أمره. وقتل تلك الليلة كلثم بن المنذر الكلبى ثم أحد بين عامر، ممن كان مع خالد بن سعيد، ولم يكن هذا مذهبه، وانما كان غضب على يزيد بن حاتم، فخرج عليه مع خالد. وأمر يزيد بن حاتم عبد الله بن حديج بإطلاق الأسارى. فقال: حتى أودبهم. فضربهم وخلاهم.

(١) كذا فى ر، وقال: فى الأصل: نطية، ويحتمل نبطية إلا أن (قبطية) أقرب للتصور.

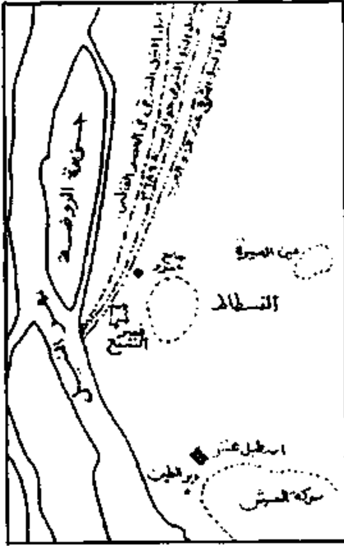

وعند غروب الشمس في اليوم التاسع عشر من ابيب وصلو الخراسانيون [العباسيون] الى مصر وشاهدهم مروان من البر الغربى فامر باجتماع اصحابه تلك الليلة ، ثم تواصلو الخرسانيون الى مصر بالغداه وهم يشتمون مروان واولاده شتما قبيحا وتكاثرو جدا وضربو خيامهم قبلي الفسطاط في موضع يعرف بالاصطبل [عنتر] وافترشو الى الجبل، وشط البحر [النيل] حيث كان اولهم واخرهم من الفرما إلى غزه، وكانو هولا الطوالع.

وكان القتلى تلك الليلة من أصحاب خالد ثلاثة عشر رجلاً، ولم يكن فيهم من له ذكر غير كلثم بن المنذر الكلبي.

ثم قدمت الخطباء إلى مصر برأس إبراهيم بن عبدالله بن حسن، في ذى الحجة سنة خمس وأربعين ومئة، فنصبوه في المسجد الجامع. وقامت الخطباء فذكروا أمره. وهم شبة بن عقال[١]، وكرب[٢] بن مصقلة بن رقبة الحيرى، ويحيى بن عبدالرحمن الأعلم، وخالد بن أسيد، وزافر الفياش ابن عمر، وصبيح بن الصباح، والحضرمى معاوية. وأما على بن [محمد بن] عبدالله بن حسن، فاختلف في أمره. فزعم بعض الناس أنه حمل إلى أبي جعفر.

وأخبرنى ابن قديد عن يحيى بن عثمان بن صالح عن ابن عفير: أن على بن محمد اختفى عند عسامة بن عمرو. وقد وجه عسامة إليه، وأنزله قرية له من طوة[٣]. فمرض على بها

(١) ظن رأنه عقال، بفتح العين وتشديد القاف. وليس به.

(٢) رجح وأنه كرز بن مصقلة، وليس به، وإنما هما أخوان، وكان كرب خطيباً كأبيه في زمن الحجاج. انظر تاج العروس «رقب».

(٣) وفي خـ (٢ : ٣٣٩): طرة. وقال ياقوت (طوخ): «وطوخ الخيل: قرية أخرى بالصعيد في غربى النيل، يقال لها طوخ بيت يمون، ويقال لها طوة أيضاً، وبها قبر على بن محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب، رضي الله عنه. كان خرج بمصر في أيام المنصور سنة ١٤٥ . فلما ظهر عليه يزيد بن حاتم، أخفاه عسامة بن عمر المعافرى في هذه القرية، وزوجه ابنته، إلى أن مات ودفن بها».

ونزل مروان ساعه فى ليلة العشرين من ابيب وكان سايرا على الطريق وأمر باحضارنا لانه كان ممتليا حنقا وغضبا علينا مما حكى له عنا حوثره، فما اعظم الحزن والهم اللذين نزلا بنا فى تلك الساعه، وأنا إذا تفكرت فيما كان اخاف وارتعد ممن لا يبكى إذا نظر ماجرى علينا ومن لا يحزن لما اصابنا [لأنه] تم علينا قول داود النبى فى المزمور ٣٨ اذ يقول : معارفى وقفو منى بعيدا. وهرب كلمن كان معنا وحولنا من التلاميذ وغيرهم ولم

فمات ودفن بها. وحمل عسامة إلى العراق فحبس زماناً. فلما صار الأمر إلى المهدى، قام أبو عبدالله الأشعرى كاتب المهدى فى أمر عسامة، لما بين المعافر والأشعريين. فأدخله إلى المهدى وشفع فيه. فأمنه المهدى، على أن يصدقه عن على بن محمد فقال: مات والله يا أمير المؤمنين فى بيتى لا شك فيه. فصدقه المهدى، وفرض له مئتين، ورده إلى مصر.

وأما خالد بن سعيد فاستخفى زماناً طويلاً، ثم مات فى زمن المهدى بعد الستين ومئة فى سكندرية.

وشكت المعافر إلى يزيد بن حاتم بعد الماء عنهم. فابتنى يزيد بن حاتم فسقية المعافر، وأجرى إليها الماء من ساقية أبى عون، وأنفق فيها مالاً عظيماً. فقال له أبو جعفر: لم أنفقت مالى على قومك؟

وورد كتاب أبى جعفر على يزيد بن حاتم، يأمره بالتحول من العسكر إلى الفسطاط، وأن يجعل الدواوين فى كنائس القصر[١]، وذلك فى سنة ست وأربعين ومئة. [ومنع يزيد أهل مصر من الحجّ سنة خمس وأربعين][٢] فلم يحجّ منهم أحد ولا من أهل الشام[٣]، لما كان

(١) يعنى قصر الشمع، وهو حصن بناه الفرس أيام تملكهم لمصر، وكان على الضفة الشرقية من النيل قرب الكنيسة المعلقة فى مصر القديمة.
(٢) زيادة عن خـ (١ : ٣٠٧).
(٣) كذا فى خـ (١ : ٣٠٧)، ن (٢ : ٣). وفى ر: إلا من أهل الشام.

يبق معنا سوى القس مينا ارشيبابا بيعة ابى سرجه والاغومنس ثيدر الذى استحق الاسقفيه بعد ذلك، والشماس كاتب البطرك لانه كان بمصر، و هولا تركو نساهم واولادهم ومالهم وتبعونا قايلين: نحن نموت معكم. فلما رأى الأب خايل حسن سريرتهم بارك عليهم وأمرهم أن يعودو ولا يتبعونا فلم يفعلو، ثم مشو معنا، وكنت أنا لابسا أسكيم الرهبان بغير استحقاق، كان أبى مويسيس الأسقف يمسك يد الأب الشمال وأنا أمسك يده اليمين،

بالحجاز من الاضطراب بأمر ابن حسن. ثم حج يزيد بن حاتم سنة سبع وأربعين، واستخلف على مصر عبدالله بن عبدالرحمن بن معاوية بن حديج.

وعقد يزيد بن حاتم لعبد الأعلى بن سعيد الجيشانى على خيل، ووجههم إلى بلاد الحبشة، وكانت خارجة خرجت بهم، عليهم أبو ميمون. فقتله عبدالأعلى، وخرج برأسه ورؤوس أصحابه إلى أمير المؤمنين المنصور المهلب بن داود بن يزيد بن حاتم.

وضمّ يزيد بن حاتم برقة إلى عمل مصر، وهو أول من ضمها إليه. وأمر عليها عبدالسلام بن عبدالله بن هبيرة الشيبانى وذلك فى سنة ثمان وأربعين ومئة[١].

وخرج القبط على يزيد بن حاتم بسخا، ونابذوا العمال وأخرجوهم[٢]. وكان أميرها عبدالجبّار بن عبدالرحمن الأزدىّ، وذلك فى سنة خمسين ومائة. وصاروا إلى شبرا سنباط[٣]، فقاتلوا [ابن] عبدالرحمن. وانضمّ إليهم أهل البشرود[٤]، والأوسية[٥]،

(١) ن: وكان ذلك فى سنة تسع وأربعين ومئة.
(٢) كذا فى خـ (١ : ٧٩). وفى ر: ونابذوا وخرج العمال.
(٣) سنباط: بلدة من أعمال المحلة الكبرى.
(٤) البشرود: كورة كانت فى أراضى ناحية سيدى غازى (الكفر الغربى سابقا) بمركز كفر الشيخ بمديرية الغربية، ويدل عليها حوض البشروط.
(٥) الأوسية: واسمها الفرعونى تاميرى ومنها صارت دميرة القرية من دمياط ومعنى اسمها «مصر».

فلما وصلنا إلى خيمته خرج إلينا السياف وهو مخوف جدا فعاد معنا بامر الملك، فلما نظر إلينا قال: من هو فيكم البطرك؟ فقيل له هذا، فأمر أن يقدموه إليه، وسلمو أبى إلى جند ياكلون لحوم الناس، وأفردونا ناحيه.ثم طرح الأب أنبا مويسيس على ركبه ورفعو رجليه إلى فوق وضربوه بدبابيس نحاس على أجنابه وعلى رقبته، وكانو يقولون له : أعطنا برطيلا ونخليك. فلم يقل لهم كلمة واحده لنه [لأنه] ما يعرف ما يقولون إلا ما كنت أنا افهمه

والبجوم[١]. فأتى الخبر يزيد بن حاتم، فعقد لنصر بن حبيْب المُهلى على أهل الديوان ووجوه أهل مصر. فخرجوا إليهم فقتلتهم[٢] القبط. فطُعن محمد بن عبدالرحمن بن معاوية بن حُدَيج حتى سقط. وطُعن نصر بن حبيب طعنتين. وقُتلَ عبدالجبّار بن عبدالرحمن. وألقَى توبة الخولانى النار فى عسكر القبط. وانصرف الجيش إلى الفسطاط منهزمين.

ثمّ صُرفَ يزيد بن حاتم عنها. ورد عليه كتاب أبى جعفر بذلك فى شهر ربيع الآخر[٣] سنة اثنتين وخمسين ومئة. فكانت ولايته عليها سبع سنين وأربعة أشهر.

٤١ . عبدالله بن عبدالرحمن(*)

ابن معاوية بن حديج بن جفنة بن قنبرة بن حارثة

ابن عبد شمس بن معاوية بن جعفر بن أسامة بن سعد ابن تجيب

ثم وليها عبدالله بن عبدالرحمن بن معاوية بن حُدَيج، من قبل أمير المؤمنين أبى جعفر، على صلاتها، يوم السبت لثنتى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وخمسين

---

(١) البجوم: من أعمال الدنجاوية من مصر السفلى، وأرض كانت بقرب أدكو. ويميل ه‍ره إلى أنها التخوم: وهى كلمة قبطية تعنى مصر، فيما يقول ياقوت.

(٢) كذا فى ص . وفى ر: فيتهم وفى خـ: فبتهم.

(٣) ن: ربيع الأول.

(*) الخطط ١ : ٣٠٧، والنجوم ٢ : ١٧، وحسن المحاضرة ٢ : ١٠.

من كلامهم وأقوله له كلمه بعد كلمه، وكان ساجدا على الأرض يصلي ويشكر ويدعو إلى الله أن يجعله مستحقا أن يتألم من أجل بيعة الله. ولم يخاطبوني أنا بلفظه واحده لأنهم كانو ينظرون لباسي زريا.

وكان الأب القديس أبنا «خايل» البطرك قايما ووجهه إلى مروان وكان ينظر نحو مصر [الفسطاط] وينظر اعداه والخراسانيون ينظرون إليه

ومئة. فلم يُولِّ على الشَرَط أحداً، ولكن جعل على التابوت عليّ بن زيدان التّجيبي، ثمّ عزَله فولّاه محمد بن يعفُر المعافريّ، ثمّ عزَله فولّاه عمران بن سعيد الحُجريّ[١]، ثمّ عزَله فولّاه رجلاً من الموالي يكنى أبا الجَيب[٢].

وحدثني ابن قديد قال: حدثني عبيدالله بن سعيد، عن أبيه قال:

قال المَيْسَريّ: كان عكْرِمة بن قَحْزَم على شرطة أبي عون، فخطبَ وعليه رداء نارنْجيّ[٣]. وكان ابن بَحير على شرطة ابن الأشعث يخطب في قميص وساج[٤]. فأوّل من خطب في السواد عبدالله بن عبدالرحمن بن معاوية ابن حُدَيج.

وخرَج عبدالله بن حُدَيج إلى أمير المؤمنين أبي جعفر، لعشر بقين من شهر رمضان سنة أربع وخمسين ومئة، واستخلف أخاه محمداً عليها. ورجع في آخر سنة أربع.

وتوفي عبدالله بن عبدالرحمن، وهو واليها، يوم الأحد مستهلّ صفر سنة خمس وخمسين ومئة، واستخلف أخاه محمداً. فكانت ولايته عليها سنتين وشهرين[٥].

....

(١) كذا في ر، وبلا نقط في ص، وانما فقط تخميناً.
(٢) بلا نقط في ص. (٣) نارنجي: بلون النارنج.
(٤) الساج: الطيلسان الأخضر. وفي ر: ساج (؟).
(٥) ن: ثلاث سنين تنقص أياماً.

والمصريون على شاطى البحر جميعهم يشتمون
مروان كما قلنا انفا، وإذا بواحد من الخراسانيين
رمى بنشابه إلى البر الغربى ونحن ننظره، وكانو
بقية النصارى بمصر قالو للخراسانيين: هذا أبونا
البطرك عند مروان الكافر وما ندرى ما يصنع به.
وكانو البشامره قد لقوهم من الفرما وقالو
للخراسانيين: أن بطركنا قد أخذه مروان ليقتله
بسبب اننا قاتلناه وقتلنا عسكره قبل مجيكم وكان

---

٤٢. محمد بن عبدالرحمن(*)

ابن معاوية بن حديج بن جفنة بن قنبرة

ثمَ وليها محمد بن عبدالرحمن، باستخلاف أخيه له. فأقرّه أمير المؤمنين أبو جعفر على صلاتها[1]. فجعل على شرطه العبّاس بن عبدالرحمن التجيبى، من بنى الفصال. وجعل أبا ميَسْرة عبدالرحمن بن ميسرة مولى حَضْر موت على التابوت. ثمّ توفى محمد بن عبدالرحمن، وهو واليها، ليلة السبت للنصف من شوال سنة خمس وخمسين ومئة. فكانت ولايته عليها ثمانية أشهر ونصفاً. واستخلف موسى بن عُلَيّ بن رباح.

٤٣. موسى بن عُلَيّ بن رباح اللخمى(*).

ثم وليها موسى بن عليّ بن رباح باستخلاف محمد بن حُدَيج له. فأقرّه أبو جعفر على صلاتها. فجعل على شرطه أبا الصهباء محمد بن حَسّان الكلبى.

(*) الخطط ١ : ٣٠٧، والنجوم ٢ : ٢٣، وحسن المحاضرة ٢ : ١٠.

(١) ن (٢ : ٢٣): والخراج.

(*) ذكر ابن حجر فى التهذيب أن على بن رباح كان يميل إلى تصغير اسمه، وذكر الذهبى (المشتبه ٣٧٠) فى المشتبه أن ابنه موسى كان يكره تصغير ابيه، وقيل فى هامشه: «قال الخطيب: يقال: إن أهل العراق كانوا يضمون على بن رباح، وأهل مصر يفتحونها...» وترجمته فى الخطط ١ : ٣٠٧، والنجوم ٢ : ٢٥، وحسن المحاضرة ٢ : ١٠.

حوثره الكافر عند مروان يقول له: هذا البطرك كان يقول [للنصارى] تقوو فان الله ينزع المملكه من مروان ويسلمها لاعدايه، ومثل هذا كثيرا.

فلما سمع مروان هذا قال [على لسان] ترجمانه للأب البطرك: انت بطرك اسكندريه؟ وذلك عن قول مروان فقال: أنا عبدك نعم. وأنا سمعت منه هذا لأني كنت قريبا منه. فقال له مروان: قل لي أنت ريس أعدا مذهبنا . فأجابه البطرك القديس وقال: ما أنا ريس أشرار بل اخيار

وفي ولايته خرّج القبط ببَلْهيب[1]. في سنة ستّ وخمسين. فعقد موسى لعبدالله بن المهاجر بن عليّ... حليف بني عامر بن عدى بن تجيب. فخرَجَ في الجند إلى بلهيب فهزم القبط.

وأخبرني ابن قديد، عن يحيى بن عثمان قال:

أخبرني أبو يحيى الصدفي قال: رأيت موسى بن عليّ يخطبُ على منبر صغير خارج من المقصورة. قال: وكان موسى بن عليّ يروحُ إلى المسجد ماشياً، وأبو الصهباء صاحب شرطه بين يديه يحمل حربته. قال: وكان أبو الصهباء إذا أقام الحدود على من تجب عليه. يطلع عليه موسى بن علي، فيقول له: يا أبا الصهباء، ارحم أهل البلاء. فيقول: أيها الأمير. إنّه لا يصلح الناس إلاّ بما يفعَل بهم.

حدثنا أسامة قال: حدثنا أحمد بن سعد[2] بن أبي مريم قال:

سمعتُ الفضل بن دُكين قال: أتينا موسى بن عليّ بمنَى. فلما دخلتُ عليه قلت: بلغني أنك وليت لأبي جعفر؟ قال: نعم، والله ما رأيت أبا جعفر قطّ، ولا فرِقت أحداً فرقى منه، وان لله عليّ ألاّ ألي ولاية أبداً.

(١) محلها اليوم فزارة التي بمركز المحمودية من البحيرة. وكذا هي في خـ (١ : ٧٩)، ر. وهو الصواب. وجاءت محرفة في الأصل وغيره من الكتب. وانظر فتح العرب لمصر بتلر ٢٨٩ .
(٢) كذا في ر، س، ورواة ابن إسحاق ١٩ . وفي ص: سعيد.

وشعبى ليس يعمل سو لكن التعب اهلكهم حتى أباعو اولادهم. ولم اسمع بعد هذا كلمه أخرى من فمه. ثم أمر مروان الأعوان الذين يمسكونه أن يمد إليه أيديهم بسرعه وينتفو شعر لحيته من عارضيه ورمو شعره فى البحر، وأنا أنظره بعينى يعوم على الما، وكانت لحيته كبيره حسنه نازله على صدره مثل لحية يعقوب إسرايل. وكانو الخراسانيون فى البر الشرقى ينظرون ما يعمل به، فلو وجدو سبيلا يعدون إلى مروان لكانو يقتلونه لما رأوه من

حدثنا أحمد بن محمد بن سلامة الأزدى قال: حدثنا نصر بن مرزوق قال:

حدّثنا عبدالله بن صالح قال: كان موسى بن علىّ يحدّثنا، وهو أمير مصر، وهو داخل المقصورة، ونحنُ من ورائها، إذ جاءه غلام أسود فقال: أصلح الله الأمير! إن مولاى ضربنى البارحة، فقلتُ: والله لآتين الأمير موسى ابن عُلىّ. فقال له موسى ابن عَلىّ: رحمك الله! فجعل الأسود يكرّر عليه: ابن عُلىّ، وهو يقول: ابن عَلىّ، لايزيده على ذلك.

وتوفى أمير المؤمنين أبو جعفر يوم السبت لستّ خلون من ذى الحجّة سنة ثمان وخمسين ومئة، وبويع محمد بن عبدالله المهدىّ. فأقرّ موسى بن علىّ عليها، إلى يوم الاثنين لثلاث عشرة بقيت من ذى الحجّة[1] سنة إحدى وستّين ومئة. فكانت ولاية موسى بن علىّ عليها ستّ سنين وشهرين.

٤٤. عيسى بن لقمان الجمحى[*]

ثمّ وليها عيسى بن لقمان الجمحى، من قِبَل أمير المؤمنين المهدى، على صلاتها وخراجها. فقدمها يوم الاثنين لثلاث عشرة بقيت من ذى الحجّة سنة إحدى وستّين ومئة. فجعل على شرطه ابن عمّ له يقال له الحارث بن الحارث من بنى جمح.

---

(١) ن (٢ : ٢٧): ذى القعدة.

(*) الخطط ١ : ٣٠٧، والنجوم ٢ : ٣٧، وحسن المحاضر ٢ : ١٠.

ظلمه وقساوة قلبه، ولكن لم يجدو مراكب يعدون فيها بالجمله.

ولم يكن البحر زاد شيا إلى أول مسرى وكان البحر الغربى قد نشف بغير ما[ء] والبحر الآخر الشرقى كان فيه مواضع قله مخاضات ولم يكونو الخراسانيون يعرفونهم، وكان مروان قد حرس عليها لمعرفته بها ولا يقرب مركب من ناحية الغرب إلى مصر. ثم جازت الساعه السادسه ذلك

حدثنا ابن قديد، عن عبيدالله بن سعيد،

عن أبيه قال: كان الحارث بن الحارث الجمحي عاملاً مع أبي ضَمْرَة صاحب الخراج فحبسه، فقدم عيسى بن لقمان فخلاّه واستعمله على شرطه. فكان خليفة أبي مَيْسَرَة مولى حضر موت. قال: وقال عيسى بن لقمان: قال لي المهدى حين ولاني مصر: قد وَلَيتُك عمل عبدالعزيز بن مروان وصالح ابن عليّ.

فوَليها عيسى إلى أن صُرِفَ عنها لثنتى عشرة بقيت من جمادى الأولى سنة اثنتين وستّين ومئة، وليها أربعة أشهر(١).

٤٥. واضح مولى أبي جعفر(*).

ثمّ وليها واضح مولى أبي جعفر. من قبل المهدى. على صلاتها وخراجها؛ دخلها يوم الثلاثاء لستّ بقين من جمادى الآخرة(٢) سنة اثنتين وستّين ومئة. فجعل على شرطه موسى بن زُرَيق(٣). مولى بني تميم. ثمّ صُرِفَ في شهر رمضان سنة اثنتين وستّين ومئة(٤).

(١) ن: فكانت ولاية عيسى هذا على مصر نحو خمسة أشهر. وهو الأصح.
(*) الخطط ١: ٣٠٧، والنجوم ٢: ٤٠، وحسن المحاضرة ٢: ١٠.
(٢) خـ، ن جمادى الأولى، وهو أصح. (٣) كذا في ر عن ن. وفي ص: رزيق.
(٤) ن: فكانت ولاية واضح هذا على مصر نحو أربعة أشهر، وقال صاحب البغية: ثلاثة شهور. والحق أنها نحو ثلاثة أشهر ونصف.

اليوم والأب البطرك قايم بين يديه أمرد بغير لحيه، وأبى مويسيس فى العقوبه التى ذكرناها أولا إلى الوقت المذكور. وفتح الرب محب البشر عينى قلبه ونظر [ابا مويسيس] الشهيدين سرجيوس وواخس ونعمة الله حايطه بهما فى شبه فارسين من جند الملك عدو البحر وهما راكبان خيولهما، ولم يشاهدهما أحد سواه وحده حتى وقفا مقابل وجه مروان فقالا له: ما قعادك هاهنا وقد عدو أعداك إلى الغرب؟. ولم يشاهدهما أحد إلا أبى الاسقف

---

٤٦. منصور بن يزيد بن منصور الرعينى (*)

ثمّ وليها منصور بن يزيد الرعينى، وهو ابن خال المهدىّ، من قبل المهدى، على صلاتها. فوليها يوم الثلاثاء لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة اثنتين وستّين ومئة. فجعل على شرطه هاشم بن عبدالله بن عبدالرحمن بن معاوية بن حُدَيج، ثم صرَفه وولّي عبدالأعلى بن سعيد الجَيْشانى، ثمّ عزَله وولّى عسّامة بن عمرو المعافرى. ثم خرَج منصور إلى الإسكندريّة، واستخلف عليها عسامة بن عمرو.

فحدثنى ابن قديد، عن عبيدالله بن سعيد،

عن أبيه قال: لمّا ولى عسامة شرط ابن يزيد بن منصور، ذُكِرَ ذلك لابن بَحِير فقال: خليفة صاحب الشرط؟ فقالوا: لا، ولكن على الشرط. فاستعظم ذلك.

ثمّ صرف منصور عنها للنصف من ذى القعدة(١). سنة اثنتين وستّين ومئة؛ كان مقامه عليها شهرين وثلاثة أيّام.

(*) الخطط ١ : ٣٠٧، والنجوم ٢ : ٤١، وحسن المحاضرة ٢ : ١٠.

(١) خـ: ذى الحجة. خطأ، لأنه تولى شهرين، من ١١ رمضان (وشوال) إلى نصف ذى القعدة.

أنبا مويسيس ومروان لا غير، وكان الأب البطرك مع الأعوان يعذبونه، ثم ذهبا الشهيدان القديسان.

ورحل مروان وأمر الحشود أن تلحقه وأمر أن نحفظ إلى الغداه، فاقمنا بقية ذلك اليوم على شاطي النيل ونحن في الشمس كما أمر الجند حتى ظننت ان أبى مايعيش إلى مغيب الشمس من شدة العذاب الذى عذبوه. فلما كان بالغداة باكرا كان معنا أساقفه ورهبان من وادى هبيب جا[ء]و

---

٤٧ . يحيى بن داود الخرسى(*)

الشهير بابن مَمْدود

ثمّ وليها أبو صالح الخرسي يحيى بن داود، من قبل المهدى، على صلاتها وخراجها. قدمها في ذى الحجّة سنة اثنتين وستّين ومئة. فجعل على شرطه عمامة بن عمرو. وكان أبو صالح وأخواه سعيد وأبو قدامة عبيداً لزياد بن عبدالرحمن القُشَيرى. وكان أبوهم داود تركيًا، وأمّهم خالة ملك طَبَرِسْتَان. وكان أبو صالح من أشدّ الناس سلطاناً، وأعظمهم هيبة، وأقدمهم على دم، وأنهكهم عقوبة. ولمّا ولى مصر منعَ من يغلق الأبواب بالليل، ومنعَ أهل الحوانيت من غلقها، حتى حطّوا عليها شرائج(١). القصب تمنع الكلاب منها. ومنعَ حرّاس الحمامات أن يجلسوا فيها. وقال: من ضاعَ له شيء فعليّ أداؤه. فكان الرجل يدخل الحمام فيضع ثيابه، ويقول: يا أبا صالح، احفظها. فكانت الأمور على هذا مدّة ولايته.

وحدثني ابن قديد قال: حدثني يحيى بن عثمان قال:

(*) كذا في ر، ن عن المشتبه للذهبي نسبة إلى خراسان. وفي ص: الجرشي. وفي ط، ث: الحرشي. وترجمته في الخطط ١ : ٣٠٧، والنجوم ٢ : ٤٤٠، وحسن المحاضرة ٢ : ١٠.

(١) الشرائج: جمع شريجة، وهي باب من القصب يعمل للدكاكين.

لينظرو ما فعلو بنا، فجا[ء]و الأخر [كذلك] معنا، ثم جا[ء]ا مروان لأنه كان راكبا وجلس وأمر باحضارنا باكر، فلما طلعت الشمس أحضر سيافا واحضر ابانا أنبا خايل وحده ليدخل به إليه، فمسك السياف يده ودخل به وقال لنا: قفو حتى يستدعيكم. فصرخ أبى أبا مويسيس وقال: حى هو الرب لافارقت أبى أبدا لكن اتبعه إلى كل مكان يمضون به إليه. فأسرعت أنا أيضا معهما لاعلم ما يعمل فيهما . فلما رأى السياف قال له: ما أمر

حدّثني حرملة بن يحيَى قال: كان الذى أخذ أهل مصر بلبس القَلانس الطوال، فى الدخول فيها على السلطان[١]، يوم الاثنين والخميس. قال: يحيى ابن داود الخرسى أخذ بذلك الفقهاء والأشراف وأهل البيوتات[٢]. قال يحيَى: وكان أبو جعفر المنصور إذا ذكر الحرسى قال: هو رجل يخافنى[٣]. ولا يخاف الله.

فوليها أبو صالح إلى المحرم سنة أربع وستّين ومئة[٤].

٤٨. سالم بن سوادة التميمى[*]

ثمَ وليها سالم بن سوادة التميمي، من قبل المهدى، على الصلاة. وقدم معه أبو قطيفة[٥]. إسماعيل بن إبراهيم مولى لبنى أسد على الخراج، وذلك يوم الأحد لاثنتى عشرة ليلة خلت من المحرم سنة أربع وستّين ومئة. وإنّما ذكرنا إسماعيل هاهنا لأن كثيراً من الناس يظنونه ولى صلاتها. فجعل سالم على شرطه الأخضر بن مروان البصرى.

(١) خـ: والدخول بها على السلطان... بلا أردية. وكذا فى ن.
(٢) خـ: وأهل النوبات.
(٣) كذا فى ن، رعن خـ. وفى ص: جافى.
(٤) ن: فكانت ولايته على مصر سنة وشهراً إلا أياماً، وقال صاحب البغية: سنتين وشهراً؛ والأول أثبت.
(*) الخطط ١ : ٣٠٧، والنجوم ٢ : ٤٦، وحسن المحاضرة ٢ : ١٠.
(٥) وكذا فى ن. فى خـ: أبو قطيعة.

الملك الا بدخول البطرك وحده. فقال له الأسقف: قد قلت لك انى ما أقدر أن أفارق أبى بالجمله وانما جيت هاهنا بسببه فمهما أردت أفعل فما أفارقه. فغضب السياف وقال له بحنق: ما يجوز مخالفة الملك، وأنت فما تسمع؟ و كان فى يده دبوس نحاس يكون وزنه عشرين رطلا فشال الدبوس ليضرب أبى على رأسه، فقدم رأسه إليه، فلما أراد أن يضربه صاحو عليه جماعه من أصحابه المستخدمين ولم يدعوه ان يضربه، وكان

ثمّ صُرِفَ سالم بن سوادة عنها سَلْخَ ذى الحجّة سنة أربع وستّين ومئة. وليها سنة[1].

حدثنى ابن قديد، عن عبيدالله،

عن أبيه قال: كان يقال لسالم بن سوادة: سالم بن الذّوابة، وكان أجدع جدعته[2]. اليمانية.

٤٩ . إبراهيم بن صالح(*).

ابن علىّ بن عبدالله بن عبّاس

ثمّ وليها إبراهيم بن صالح بن عبدالله بن عبّاس، من قبل المهدى، على صلاتها وخراجها. قدمها يوم الخميس لإحدى عشرة خلت من المحرم سنة خمس وستين ومئة. فجعل على شرطه عسامة بن عمرو. فاستخلف عسامة على الشرط يزيد بن خالد بن مسعود النخلانى[3]. من

(١) ن: فكان مقامه بمصر سنة إلا ثمانية عشر يوماً.
(٢) كذا فى ر، وقال: فى الأصل: أجذع جذعته. وليس بصواب.
(*) الخطط ١ : ٣٠٧، والنجوم ٢ : ٤٩، وحسن المحاضرة ٢ : ١٠.
(٣) ر: المخلانى: بدون نقط.

جميع العسكر يقولون بلسانهم ولغتهم: حقا أن هذا الأسقف نعم الخادم لربه. ثم جا[ء] رسول آخر قايلا: أدخلو بجميعهم فقد استدعاهم الملك، فدخلنا جميعا فكان مروان جالسا على شاطى البحر فتقدم أولا الأب الطوباني وحده كما أمر مروان واوقفه بين يديه نهاره أجمع نحو عشر ساعات ووجهه إليه، وكان قلبه عند المسيح ويداه مبسوطتان و جوارحه تدعو ويصلب على وجهه ولا يخاف من الملك لبغضه لعلامة الصليب فلم

الكُلاع. فمات يزيد، فاستخلف عليها عسامة على الشرط أيضاً محمد بن سعيد بن عامر الصدفي. فمات، فاستخلف عسامة أيضاً عمار بن مسلم بن عبدالله بن مُسرّة الطائي مني الغَوْث.

وابتنى إبراهيم بن صالح داره العظمى، المعروفة اليوم بدار عبدالعزيز التي في الموقف[١]. ثمّ وهبها عند خروجه لآل عبدالرحمن بن عبدالجبّار.

وخرَجَ دِحْيَة بن معصب[٢] بن الأصبغ بن عبدالعزيز بن مروان، بصعيد مصر، ونابذ، ومنعَ الأموال، ودعا إلى نفسه بالخلافة[٣]. فبلغَ ذلك إبراهيم ابن صالح فتراخى عنه ولم يحفل بأمره حتى ملك عامة الصعيد. فبلغَ ذلك المهدى فسخطَ على إبراهيم بن صالح، وعزله عزلاً قبيحاً. فولّيها إبراهيم إلى أن صُرِفَ عنها يوم السبت لسبع خلون من ذى الحجّة سنة سبع وستّين ومئة، وليها ثلاث سنين[٤].

(١) كذا في خـ، ن، ر. وهي بقعة مشهورة في خطط الفسطاط. وفي ص: الوقت.
(٢) كذا في خـ، ن، ومضى. وفي ر هنا: مصعب.
(٣) كذا في ر. وفي ص: الخلافة.
(٤) ن: إلا أياماً.

يخاطبه بكلمة واحده، وكان حوله عدة سيوف مسلوله والات الحرب. فأما نحن فأمر أن يجعلونا على يساره في ناحية مفرده، وأمر أيضا باحضارنا وتسليمنا إلى قوم أخرين غير الذين جابونا من اسكندرية، فسلمونا إلى قوم كأنهم الوحوش. وأمر رجلا من أصحابه مقدم رجال عنده اسمه يزيد كان شجاعا أكثر من كل من عنده ان يتسلمنا. وكان عددنا في ذلك اليوم عشره سوى الأب البطرك انبا خايل، فجعل مع كل واحد منا تلتة

---

٥٠. موسى بن مصعب الخثعمي(*)

ثمَ وليها موسى بن مصعب. من قبل المهدى، على صلاتها وخراجها. قدمها يوم السبت لسبع خلون من ذى الحجّة سنة سبع وستّين. فجعل على شرطه عسامة بن عمرو.

وأمرَ موسى بإبراهيم بن صالح أن يُرَدَّ إلى مصر. فرُدَّ إليه من الطريق. وكان المهدى قد أمرَه باصفاء(١). أموال إبراهيم، وأخذ عماله. فاستخرجَ منهم ثلاث مئة ألف دينار. ولم يزَل إبراهيم مقيماً بمصر حتى لم يبقَ له عامل إلاّ صار في يدى موسى بن مصعب. ثمّ كتب المهدى يأذن لإبراهيم في الانصراف إلى بغداد.

وتشدّد موسى بن مصعب في استخراج الخراج. وزاد على كلّ فدّان ضعف ما تُقُبِّل به(٢). ثمَ عاد موسى إلى الرشوة في الأحكام. وجعل خَرْجا(٣). على أهل الأسواق وعلى الدواب. وقال الشاعر:

(*) الخطط ١ : ٣٠٨، والنجوم ٢ : ٥٤، وحسن المحاضر ٢ : ١٠.

(١) إصفاء أمواله: مصادرتها.

(٢) كذا في ر. وفي ص بدون نقط التاء. وفي خـ: يقبل به. وفي ن: وزاد على كل فدان ضعف ما كان أولا. وفي العبارة نظر إلى كلام الخطط عن متقبل البلاد (خـ١ : ٨٢).

(٣) كذا في خـ. وفي ر: خراجاً. وفي ص: خراجها. وفي ن: ثم رتب دراهم على أهل الأسواق وعلى الدواب.

من الجند وضيقو علينا جدا، فلما حميت الشمس أعد لنا ذلك الامير آلات العذاب مختلفات لأنهم لم يتفقو على قتله يقتلونا بها، ثم سألنا انا وأبى مويسيس الأب البطرك أن يقول علينا صلاة التحليل كقانون البيعه ففعل ذلك، ثم قلنا على بعضنا بعضا وصغيرنا يقول للكبير: أن وجدت رحمة عند المسيح أذكرني . وحولنا وجوهنا إلى الشرق وصلينا والناس ينظرون إلينا من البر الشرقى والغربى وجماعه من المسلمين يبكون علينا. وكان

لَوْ يَعلَمُ المَهْدىّ مَاذا الذى يَفعَلُهُ مُوسَى وَأَيّوبُ
بأرضِ مصرَ حينَ حَلا بِهَا لَمْ يُتْهِمْ فى النّصْحِ يَعقُوبُ

كاتبه ابن داود[1].

وأظهر الجند لموسى الكراهة والشنآن. وبعثَ عمّالاً على الحَوْف. فأخرَجهم أهل الحوف. ونابذوه. وعقدت قيس واليمانية حلفاً فيما بينهم. وولوا عليهم معاوية بن مالك بن ضمضم الجذامى ثمّ الجروى[2]. وكلموا[3]. أهل الفسطاط من الجند، وخوّفوهم الله، وذكروا لهم ما أتى موسى إليهم. فأعطاهم الجند من أهل مصر العهود والمواثيق: أن ينهزموا[4]. عنه إذا خرجَ إليهم، فلا يقاتلون معه. وتحالفوا هم وأهل الفسطاط على ذلك.

وعقد موسى بن مصعب لعبدالرحمن بن موسى بن عُلَى بن رباح اللخمى، فى خمسة آلاف من أهل الديوان. وبعث بهم إلى الصعيد فى طلب دحية بن معصب. وأمرَه أن ينزل

(١) يريد كاتب المهدى يعقوب بن داود.
(٢) كذا فى ر نسبة إلى جرى بن عوف، المنسوب إليه عبدالعزيز بن الوزير الذى يكثر ذكره فيما يأتى. وفى ص: الحروى.
(٣) خـ، ن: وكاتبوا. ولعلها أصح.
(٤) ر: أنهم ينهزموا.

ولد مروان الكبير اسمه عبد الله باكيا علينا أيضا مع الناس فتطلع مروان إلى البر الشرقى فراى الخراسانيين فى كثره فقلق لذلك، وكان يقول: كيف أقاتلهم؟ ولم يدر ما يفعل وكان عبد الرحيم الكافر المذكور أنفا عرف [الاطن والدهانات] الذى لطخ به المراكب فامتنعت النار عنها(*)، فلطخ المراكب [وفعل هذا أيضا عدة مراكب] وحمل على كل مركب ثمانين رجلا وأمر أن يقاتلو الناس فرمو عليهم النيران ومهما وجدو من المراكب

(*) أختراع دهان للمراكب يمنع النيران الاغريقية من حرقها.

بالشرقية[١]، وكان دحية بها. فلمّا سارَ عبدالرحمن، عَدَى دحية النيل وصار فى غربيّه، وملك أكثره. وولّى دحية على الشرقية يوسف ابن نُصَير بن معاوية بن يزيد بن عبدالله بن قيس التّجيبى. فكان يوسف يُغير على عبدالرحمن بن موسى بن عُلَىّ. فاستخلف عبدالرحمن على جيشه بكّار بن عمرو، أخا عسامة بن عمرو. وسألَ أن يُعفَى. فأعفى[٢].

ومضى موسى بن مصعب فى جند مصر كلّهم، وفيه وجوه الناس. فساروا حتى نزلوا الغُرَيراء[٣]. وأقبل إليهم أهل الحوف يَمَنُها وقَيْسُها. فلمّا اصطفوا ونشبت بينهم الحرب، انهزمَ أهل مصر بأجمعهم، وأسلموا موسى ابن مصعب. فبقى فى طائفة يسيرة ممّن كان قدم بهم فلم يثبت معه أحد من أهل مصر إلاّ خالد بن يزيد بن إسماعيل التجيبى، وكان صاحب أمره والمستولى عليه. و[قُتل][٤] موسى بن مصعب، قتله مهدى بن زياد المهرى ثمّ أحد الصيعر[٥]. وعاد أهل مصر [إلى][٦] الفسطاط لم يُكْلَم منهم أحد[٧]. وبلغَ المهدى مقتله

(١) يريد الضفة الشرقية من النيل.
(٢) ر: فعفى.
(٣) كذا فى ى، وهى من الحوف. وفى ر: العريرا.
(٤) زيادة ضرورية عن ر.   (٥) ر: الصعر، ولعلها كما أثبته.
(٦) زيادة عن ر.
(٧) خـ: من غير أن يتكلم أحد من أهل مصر. ومثله فى ن. وهو تحريف.

[الاخرى] أحرقوها ووصل مركب إلى البر الشرقى كان فيه صالح وأبو عون ومن معهما فانقلب به المركب فغرق جميع من فيه خلا رجلا واحد، ويلقطون المصريون [البشامره] الموتى [الغرقى] واخذو ما عليهم وما كان لهم من عدة ومال، والأحيا الذين لم يغرقو استاسروهم وربطوهم بسلاسل الحديد فى حلوقهم وجذبوهم الى البر وسلموهم إلى الخراسانيين. وكانو الخراسانيوس قد جابو مراكب عده إلى مصر. فلما جازت عشر

فقال: نُفيت من العباس [أو] لأفعلنّ بمهدىّ[1]. ولأفعلنّ بأهل الحوف كذا وكذا. فمات المهدىّ قبل أن يبلغ فيهم شيئاً.

وكان قتل موسى بن مصعب بالغريراء يوم الأحد لتسع[2] خلون من شوال سنة ثمان وستين ومئة. فكانت ولايته عليها عشرة أشهر. قال سعيد بن عفير، يذكر أهل الحوف:

أَلَمْ تَرَهُمْ أَلْوَتْ بِمُوسَى سُيوفُهم ... وَكَانَتْ سُيُوفاً لا تَدِينُ لِمُتْرَفِ
فَمَا بَرِحَتْ فِيهِ تَعُودُ وَتَبْتَدِى ... إلى أَنْ تَرَوَّى مِنْ حِمامٍ مُدَنَّفِ[3]
فأَصْبَحَ من مصرٍ وما كانَ قد حَوَى ... بمصرٍ مِنَ الدُّنْيا سَليباً بِنَفْنَفِ[4]
وَلَكِنَّ أَهْلَ الحَوْفِ للهِ فِيهِمِ ... ذَخائِرُ إِنْ لا يَنْفَدِ الدَّهرُ تُعرَفِ

وقُتلَ معه خالد بن يزيد التجيبى، وكان ظالماً. قال له عبدالحميد بن كعب ابن علقمة: تحبّ أن لك مئة ألف دينار وأنت من أهل النار؟ قال: لا. قال: فأنتَ من أهل النار وليس لك مئة ألف دينار.

---

(١) كذا فى ر. (٢) ن: لسبع.
(٣) الحمام: قضاء الموت وقدره. ومدنف: مقرب للموت، ولعلها محرفة عن: مذفف، أى مجهز على المريض. ومال ر إلى أن العبارة محرفة عن: حمام مذرف.
(٤) النفنف: كل مهوى بين جبلين. وصقع الجبل الذى كأنه جدار مبنى مستوٍ.

ساعات من ذلك اليوم تقدم إلى يزيد الذى نحن عنده أن [ياخذ الابهات الى بحرى] إلى جزيرة النزهات(*)[فى الاعتقال] فصلينا على حافه البحر فى الغيط، فلما مضو بنا يجرونا بحنق عظيم فنظر الرب سريرتنا وأمانتنا فالقا [الله تعالى] فى قلب عبد الله ولد مروان الكبير [رحمه فسال] أباه مروان وهو يبكى بدموع غزيره وساله أن يخلينا وقال: هو ذا ترى اعدانا محتاطين بنا ونحن مستعدون إذا اشتد بنا الأمر لأن نمضى إلى بلاد

(*) جزيرة النزهات: هى جزيرة الروضة.

وحدثنى ابن قديد، عن أبى نصر أحمد بن صالح، عن على بن سعيد، عن سعيد بن أبى مريم قال: سمعتُ الليث بن سعد، وموسى بن مصعب يخطبُ الناس، وكان ظالماً غاشماً، فمرّ بهذه الآية: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾. فقال الليث، وموسى يخطب: اللهم لا تَقِه منها(١).

٥١. عسامة بن عمرو المعافرى(*)

ثمَ وليها عسامة بن عمرو باستخلاف موسى بن مصعب إيّاه. فكتب دحية ابن مُعصّب(٢) إلى يوسف بن نُصير بن معاوية التجيبى، يأمره بالمسير فى الشرقية إلى الفسطاط. فبعثَ إليه عسامة بأخيه بكّار بن عمرو. فالتقوا ببَرْكُوت من الشرقية، فتحاربوا يومهم أجمع. فنادى يوسف بن نصير بكاراً: يا ابن أمّ القاسم، اخرج إلىّ. فقال: ها أناذا، يا ابن وهبة. فقال: قد ترى ما الذى قُتِل بيننا من الناس، ابرز إلىّ وأبرز إليك، فأيّنا قتل صاحبه كان الفتح له. فبرزَ بكار، فوضع يوسف الرمح فى خاصرته، ووَضَع بكار الرمح فى خاصرة يوسف. فقتل يوسف

(١) كذا ف ن. وفى ر، خـ: اللهم لا تمقتنا.
(*) الخطط ١: ٣٠٨، والنجوم ٢: ٥٧، ولم يذكره حسن المحاضرة.
(٢) ر: مصعب.

السودان وهم على ما قيل لنا أولاد [أتباع] هذا الشيخ [البطرك] فان قتلته فما يقبلونا بل يقومون علينا هم أيضا ويقتلونا.فلما سمع منه أعادونا إلى الاعتقال . وكان فى ذلك الموضع أربع حبوس فلما دخلو بنا لحبس استوتقو منا بالخشب والحديد ونحن تحت ضيق عظيم، وأول من قيد بالحديد الأب القديس البطرك وبعده الأسقف أنبا مويسيس وأنا ولده يحنس(*) الفقير البايس الشماس الذى وضع يده المقدسه على بغير استحقاق، ثم أسقف

(*) الراوى هنا هو الشماس يحنس (يوحنا).

بكارا، وقتل بكار يوسف. ورجع الفَلّ من الجيشين جميعاً، وذلك لثلاث بقين من ذى الحجّة سنة ثمان وستّين ومئة.

وقد كانت ولاية الفضل بن صالح بن عليّ وردت مصر. فصُرف عسّامة عنها لثلاث عشرة خلت من ذى القعدة[١]. سنة ثمان وستّين ومئة. وورد كتاب الفضل باستخلاف عسّامة عليها، فخلفه إلى سلخ المحرم سنة تسع وستّين[٢]. ومئة[٣].

٥٢ ـ الفضل بن صالح بن على العباسى(*)

ثمّ وليها الفضل بن صالح، من قبل المهدى، على صلاتها وخراجها. دخلها يوم الخميس سلخ المحرم سنة تسع وستّين ومئة. فجعل على شرطه عسامة ابن عمرو. وكان مع الفضل عسكر من الجند عظيم، أتى بهم من الشام، على أهل قِنّسرين عنبسة بن سعيد الجرشى، وعلى أهل حِمْص جَهْم بن عبدالعزيز البَهْرانى، وعلى أهل دمشق عاصم بن محمد بن سعيد،

(١) خـ، ن: ذى الحجة. وذهب صاحب النجوم إلى أن العزل كان بعد المعركة بأيام يسيرة، لا قبلها، كما يفهم من عبارة المؤلف.
(٢) ص: وثمانين. سهو.
(٣) ن: فكانت ولاية عسامة على مصر ثلاثة أشهر إلا أياماً.
(*) الخطط ١ : ٣٠٨، والنجوم ٢ : ٦٠، وحسن المحاضرة ٢ : ١٠.

طنبدا أنبا مينا كاتبه وأنبا زخارياس أسقف أتريب، وولده الروحانى أسقف بوصير واسمه بطرس الذى أخذ الكرسى فى تلك الأيام، والشماس جرجه ولد الأب الروحانى الذى أخذ كرسى البسراط(*)، واتناسيوس اراشيبايا بيعة أبى مقار، وأبا يعقوب الذى استحق أيضا أسقفية سنجار(*)، وأخوه الروحانى ولد الأب بطرس من سمنود، ونحن الأحد عشر جعلو فى رجل كل واحد منا طوبه حديد تقيله جدا يكون وزنها نصف خنجور

(*) البسراط: من المدن القديمة قرب فارسكور من ناحية المنزلة تكتب أحيانا البصراط والبراطين.

(*) سنجار: اسم لمدينة بائدة اشتهرت باللحن السنجارى، وهو اسم لمدينة أخرى خربها العرب بعد ثورات البشمور ثم اعيد تأسيسها فى العهد المملوكى تحت اسم النجار أو كوم النجار.

وعلى أهل الأرْدُنَ قُطْبة بن سعيد القيسْنى(١)، وعلى أهل فلسطين زيادة بن فائد اللخمى. ا وا(٢) توفى المهدى فى المحرم سنة تسع وستّين ومئة، وبويع موسى بن المهدى، فأقرّ الفضل بن صالح بن علىّ عليها.

وقدم الفضل وهى تضطرم، لما كان من أهل الحوف، وخروج دحية بن معصب(٣). وذلك أن الناس تسرّعوا إلى دحية وكاتبوه، ودعوه إلى دخول الفسطاط. فعقد الفضيل بن صالح لسفيان القائد على الجند. وعقد لابن ذى هجران السيبانى(٤). على أهل مصر، فأقام بالجيزة. وعقد لابن زَبّان على القيسيّة. وبعث بالزّهرى فى البحر. فالتقى سفيان مع دحية بِبُوَيط(٥). وكان صاحب أمر دحية كلّه فتح بن الصلت بن المغيرة بن ناشر الأزدى، من بنى الحارث بن زهران؛ كان جدّه ناشر حضرَ فتح مصر. وأقبل فتح يكرّ ويفرّ، لا يعرض له شىء إلاّ هـدّه(٦). فوقفَ له إبراهيم بن الأومر بن علىّ التجيبى(٧)، من بنى سَوْم ابن عدى بن

(١) كذا فى ر، وهو بدون فقط فى ص.
(٢) زيادة عن ر. (٣) ر: مصعب.
(٤) قال ر: لعله: الشيبانى. والسيبانى بالمهملة نسبة إلى بطن من مراد.
(٥) قرية بالصعيد قرب بوصير من مديرية بنى سويف الآن.
(٦) هذه: قطعة. وربما كانت محرفة عن هذه أو هزه، وشك وأنها محرفة عن هزمه.
(٧) كذا فى ر، وقال: فى الأصل: اللخمى، ينافيه ما بعده. ولعله محرف عن: إبراهيم بن الأوس.

وجعلونا خلف تلتة أبواب خشب ليس ضو ولا هوا ولا راحه، وكنا واحد ينظر إلى الشرق وواحد ينظر إلى الغرب، وكان يغشانا الضيق أكتر من [القيود] الحديد حتى قاربنا الموت من الضغطه والرباط بغير رحمه. وأمر ذلك الملك الكافر مروان أن يضيق علينا. وكان الأب [البطرك] حزينا علينا أكتر من همه بنفسه، وكان يشجعنا بكلام الله والقوانين المقدسه التي لابابنا المقدمين. وكذلك ما كان أحد منا يخفي عن الآخر شيا وكنا كلنا نفسا واحده

تجيب، وبحر بن شراحيل التجيبي وهيّاج الأنباري. فحملوا على فتح فقتلوه. فقهقر أصحاب دحية لمقتل فتح. ومضى دحية على حامية في طائفة معه إلى طريق الواحات. فبعثَ إلى أهلها يدعوهم إلى القيام معه، وكانوا من المسالة[١] والبربر يتديّنون بالشراية[٢]، فقالوا: لا نقاتل إلاّ مع أهل دعوتنا. فبعثَ إليهم دحية: إنّا على مذهبكم. فخرجوا إليه وقاتلوا معه يوم الدير.

وأقبلَ عبدالله بن عليّ الحمى[٣]، في جمع كثير بعثه الفضل بن صالح. فخرَج إليه دحية في أهل الواحات، فهزموا عبدالله بن عليّ. وقُتل يومئذٍ عبدالعزيز بن مروان بن الأصبغ بن عبدالعزيز بن مروان. ووجد أهل الواحات على دحية في إثارته العرب على الموالى، وتقديمهم على البربر. فقالوا له: هذا ظلم، والإسلام واحد، ولسنا نقاتل معك حتى نمتحنك بالبراءة من عثمان. فامتنع دحية وقال لهم: والله ما أرجو الجنّة إلاّ بالرّحِم بيني وبين عثمان. فانصرفوا عنه وتركوه. فعاد إليه عبدالله بن عليّ الجنبي لمّا علم انصرافهم عنه. فحاربهم[٤]، فقُتل يومئذٍ

---

(١) كذا في ر.
(٢) الشراية: يريد مذهب الخوارج.
(٣) نال ر: مهمل في الأصل ويحتمل: الجنبي، نسبة إلى بطن من مراد.
(٤) كذا في ر. وفي ص: فجل بهم. تحريف.

كـمـا قـال بولس، ومنتظرين الأجل ونسل الله أن ياتى به سـرعـه لنجـعل نفـوسنا عن الشـعـب ليـلا [لئـلا] يهلك واحـد منهم. وكـان الأب إذا تكلم يتكلم بمنطق روحانى كأنها قيثاره يخرج من فيه نسـيم الحيـاه بتـسـابيح روحـانيـه، وكـان مـواصـلا الصيام والصلاه نهارا وليلا.

فاما أبى مويسيس فأول ساعة دخلو بنا السجن وقيدونا تنبى لنا وقال : ما يقتلونا فى هذه الدفعه

مروان بن عبدالملك بن أبى بكر بن عبدالعزيز بن مروان. وكانت نُعْم أمّ ولد دحية تقاتل قتالاً شديداً. فقال شاعر من أصحاب دحية[1]:

فلا تَرْجِعى يا نُعمُ عن جيشِ ظالمٍ ... يَقُـودُ جُـيُـوشَ الظالمينَ وَيجنُبُ
وكُـرّى بنَا طَرْداً على كُلّ سـانحٍ ... إلَيْنَا منَايَا الكَافـرينَ تَقَـرَّبُ
كَـيَـومٍ لَنَا لازِلْتُ أذكـرُ يوْمَنَا ... بفَـاوٍ، وَيوْم في بُوَيْط عَـصَبْـصَبُ
وَيَومٌ بأعلى الدّيْرِ كَـانَتْ نحـوسَـهُ ... عَلى فِـئـَةِ الفَضْلِ بن صَـالح تَنعَبُ

٥٣. على بن سليمان العباسى(*)

ثمّ وليها علىّ بن سليمان، من قبل موسى الهادى، على الصلاة والخراج. دخلها فى شوال سنة تسع وستّين ومئة. فجعل على شرطه عبدالرحمن بن موسى ابن علىّ بن رباح اللخمى،

....

(١) سقط من الأصل الشعر، فأثبته عن معجم البلدان لياقوت. وتكملة الأخبار عن الخطط: «فسير العساكر حتى هزم دحية، وأسر، وسيق إلى الفسطاط. فضربت عنقه، وصلب فى جمادى الآخرة سنة تسع وستين. فكان الفضل يقول: أنا أولى الناس بولاية مصر، لقيامى فى أمر دحية وقد عجز عنه غيرى. فعزل وندم على قتل دحية. والفضل هو الذى بنى الجامع بالعسكر، فى سنة تسع وستين، فكانوا يجمعون فيه». وقيل فى النجوم: «وكان عزل الفضل عن إمرة مصر فى أواخر سنة تسع وستين ومئة المذكورة، فكانت ولايته على مصر دون السنة».

(*) الخطط ١ : ٣٠٨، والنجوم ٢ : ٦١، وحسن المحاضرة ٢ : ١٠.

ولا نخرج من الاعتقال ومروان فى الحياه وكان كما قال.

وكنا إذا أردنا أن نفطر كان انسان يعرف بابن يسطس [الشماس من بلبيس] ينفذ لنا ما نفطر عليه، وليس عندنا سعه نأكل ولا نقدر أن نلتفت يمينا ولا شمالا من الضيق.

وكان غلا عظيم في بر الجيزه من كثرة الخلق، وكان القمح لا يوجد بالجملة والشعير كذلك بعد

[ثمَ عـزَله][1] فولّى الحسن بن يزد بن هانيء الكندى. وتوفى موسى الهادى فى النصف من ربيع الأوّل سنة سبعين ومئة، وبويع هارون بن محمد الرشيد. فأقرّ علىّ بن سليمان عليها. وأظهرَ علىّ بن سليمان فى ولايته عليها الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، ومنعَ الملاهى والخمور. وهدم الكنائس المُحدَثة بمصر، فهدم كنيسة مريم الملاصقة لأبى شنودة، وهدم كنائس مَحْرَس قسطنطين. وبُذِل له خمسون ألف دينار فى تركها فامتنع[2]. وكان كثير الصدقة فى الليل. وكان أهل مصر مع هذا يرمونه بالقَدَر، وذلك أنه استخلص[3] رجلين متهمين بالقدر، وهما عبدالحميد ابن كعب بن علقمة التنوخى، وهَرِم بن سُلَيم بن عياض العامرى من قريش.

وقال يحيَى بن عثمان بن صالح: قدم إدريس بن عبدالله بن حسن بن حسن إلى مصر، وعلىّ بن سليمان عليها. فعلم بمكانه ولقيه سرّاً، فسأله بالله والرحم إلاّ ستر عليه، فإنّه خارج إلى المغرب. فستر عليه، وأظهرَ علىّ بن سليمان أنّه تصلح له الخلافة، وطمعَ فيها. فسخطَ عليه هارون. فعزَله عنها يوم جمعة لأربع بقين من ربيع الأوّل سنة إحدى وسبعين ومئة[4].

---

(١) زيادة عن ن (٢: ٦٢).
(٢) أى امتنع عن أخذ الدنانير، وأصر على هدم الكنائس، كما يتضح من النجوم.
(٣) استخلص: أى اصطفاهما صديقين.
(٤) ن: فكانت ولاية على بن سليمان هذا على مصر نحو سنة وثلاثة أشهر، وقيل: أكثر مره.

أن كان بيع الوبيه بتمن عظيم وعند الضيقه صار الملح بسعره الأول.

ثم أن مروان بعد تلك البلايا التى فعلها فى كل مكان أمر من معه ان يقتلو وياسرو وينهبو [الناس]، ففعلو ذلك وانفذ إلى الصعيد وقتل جماعة النصارى. وكان المتولى لهذا الأمر من قبله رجلا يسمى مروان بن عبد العزيز الذى بنى حلوان وأخربو من منف إلى مدينة تاوضوسيا.

---

٥٤. موسى بن عيسى بن موسى العباسى(*)

ثمّ وليها موسى بن عيسى بن موسى بن محمد[١]، من قبل أمير المؤمنين هارون الرشيد، على صلاتها[٢]. فجعل على شرطه أخاه إسماعيل بن عيسى فسخط[٣] ذلك فعزَله، ووَلى عسامة بن عمرو. ثمّ أذن موسى بن عيسى للنصارى في بنيان الكنائس التى هدمها علىّ بن سليمان. فبُنيت كلّها بمشورة الليث بن سعد، وعبدالله بن لهيعة، وقالا: هو من عمارة البلاد. واحتجا أن عامة الكنائس التى بمصر لم تُبْنَ إلاّ في الإسلام في زمن الصحابة والتابعين.

ثمّ صُرِفَ موسى عنها يوم السبت لأربع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة اثنتين وسبعين ومئة. فكانت ولايته عليها سنة وخمسة أشهر ونصفاً.

(*) الخطط ١: ٣٠٨، والنجوم ٢: ٦٦، وحسن المحاضرة ٢: ١٠.

(١) وكذا فى خـ، ن. وفي حاشية بخط غير الناقل: «هو موسى بن عيسى بن محمد بن على بن عبدالله ابن عباس الهاشمي، كذا نسبه القضاعي في خططه».

(٢) ن: فقدم موسى إلى مصر في أحد الربيعين من سنة إحدى وسبعين ومئة.

(٣) قال ر: يظهر أنه سقط بعد هذه لفظة نحو «الجند» أو غيرها. وليس ذلك بضرورى، فحتى أن يكون المراد أن موسى سخط سيرة أخيه، أو أن إسماعيل سخط تولى الشرطة.

فلما أراد الرب ينتقم منهم لم يصبر عليهم بعد ما افسدو واستباحو من النسا وافسدو من العذارى كتير، فجا قوم يعرفون مخايض البحر [النيل] فعرفو الخراسانيين بها ودلوهم عليها وعدو بهم إلى بر الغرب، وجعلو عسكرهم أربعة أجزا [ء] جز[ء] مع رجل يسمى صالحا يحفظ مصر وجز[ء] مع رجل اسمه أبو الحكم وكان كبيرا عند الملك، وجز[ء] فى أسفل شطنوف(*) ونواحيها يمنع من يعدوه، وجز[ء] مع أبى عون نازلا على مخاضه قد

(*) شطنوف: كانت عند رأس الدلتا فى ذلك الوقت. وقد ذكرها =

---

٥٥. مسلمة بن يحيى البجلى(*)

ثمَ وليها مسلمة بن يحيى البجلى، أخو جبريل بن يحيى، من قبل هارون الرشيد، على صلاتها[١]. دخلها فى شهر رمضان سنة اثنتين وسبعين ومئة. فى عشرة آلاف من الجند. فجعل على شرطه ابنه عبدالرحمن بن مسلمة بن يحيى ثمَ صُرفَ مسلمة عنها فى شعبان سنة ثلاث وسبعين ومئة[٢]، وليها أحد عشر شهراً.

٥٦. محمد بن زهير الأزدى(**)

ثمَ وليها محمد بن زهير الأزدى، من قبل الرشيد، على صلاتها وخراجها، لخمس خلون من شعبان سنة ثلاث وسبعين ومئة. فجعل على شرطه جَنْك[٣] ابن العلاء، ثمَ عزَله فولَى عمار بن مسلم بن عبدالله الطائى أيَاما[٤]، ثمَ عزَله وولَى حبيب بن أبان بن الوليد البجلى. وثارَ الجند الذين[٥] يقال لهم «القَديديّة»[٦]. بصاحب الخراج عمر بن غيلان[٧].

(*) الخطط ١ : ٣٠٨، والنجوم ٢ : ٧١، وحسن المحاضر ٢ : ١٠.
(١) ن (٢ : ٧١): وخراجها.
(٢) لكثرة الفتن فى عهده (ن).
(**) ترجمته فى الخطط ١ : ٣٠٨، والنجوم ٢ : ٧٤، وحسن المحاضر ٢ : ١٠.
(٣) كذا فى ر عن أمراء مصر لو ستفلدت. وفى ص: خنك. وفى ن: حنك.
(٤) لم يذكره النجوم.
(٥) ر: الذى.
(٦) الذى فى التاج: القديديون: تباع العساكر من الصناع كالحداد والبيطار وأمثالهم.
(٧) كذا فى ر، خـ، ن، ق. وفى ص: عمرو بن عيلان.

نشفت، ثم أن مروان انفد حوثره ورجاله [اربعه مايه فقط] مقابلهم ليلا [لئلا] يعدو. فأما مراكب مروان فأخذوها الخراسانيون اللابسون التياب السود الذين هدمو بيعه بدير الشهيد.

ونحن مع هذا كله فى سجن الجيزه فى الاعتقال والضيق مع من هو معنا. ولم يدع أحدا الخوف أن يسأل عنا ليلا يعاقبونا، لكن إذا أراد انسان أن يجى إلينا ليأخذ بركة الابا يدفع للموكل

=أملينو فى جغرافيته فقال: إن اسمها القبطى Schentnoufi وأنها وردت أيضاً فى كتب القبط باسم Schentouf، ووردت فى كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبه، وفى كتاب المسالك لابن حوقل ذكرها على رأس الطريق البرى الموصل من شطنوف إلى رشيد، ووردت فى نزهة المشتاق شطنوف وفى نسخ أخرى شنطوف، وقال: إن مدينة شطنوف واقعة على رأس الخليج (أى فرع النيل) الذى ينزل إلى

فى أعطياتهم، فصلبوه ودخنّوا عليه حتى دفعَ إليهم أعطياتهم. ولم يدافع عنه محمد بن زهير، فصُرِف عنها فى سلخ ذى الحجة سنة ثلاث وسبعين ومئة؛ وليها خمسة أشهر[1].

٥٧. داود بن يزيد المهلبى(*)

ثمّ وليها داود بن يزيد المهلبى، فقدمها هو وإبراهيم بن صالح بن علىّ جميعاً؛ ولى داود صلاتها، من قبل الرشيد، وبعث إبراهيم بن صالح فى إخراج القُدَيديّة عن مصر؛ دخلاها لأربع عشرة ليلة خلت من المحرّم سنة أربع وسبعين ومئة. فجعل على شرطه عمار بن مسلم الطائى. وأخرج إبراهيم القُديديّة[2] من الفسطاط إلى المغرب والمشرق. وجعل منهم عالماً فى البحر إلى الشام[3]. فظفرَت بهم الروم فأسرَتهم.

وفى ولاية داود بن يزيد توفى عبدالله بن لهيعة يوم الأحد لخمس خلون من جمادى الآخرة، فصلى عليه داود. وتوفى بكر بن مُضَر يوم عرَفة. فصلى عليه داود أيضاً.

فولّيها داود إلى أن صُرِف عنها لستّ خلون من المحرم سنة خمس وسبعين ومئة، فكانت ولايته عليها سنة ونصف شهر.

---

(١) ن: تنقص أياما.

(*) الخطط ١ : ٣٠٨، والنجوم ٢ : ٧٥، وحسن المحاضرة ٢ : ١٠.

(٢) خـ: العديدة. (٣) ن: المغرب.

بنا برطيلا [رشوه] كبيرا فيضيقون علينا أكثر كما فعلو باغناطيوس القديس الشهيد لما سلموه إلى عشره من الأسد. كذلك كانو إذا فعلو أخوننا معهم خيرا قد عذبونا أكثر. ثم أقمنا معه عشرة أيام وعشرة ليال هكذا، فلما نظر الشماس [يسطس] القارى الذى من بلبيس ما نحن فيه من الضيق اسرع ومضى إلى دير أبى مقار القديس بوادى هبيب وجميع الابا الرهبان القديسين وانتصبو للصوم والصلاه فى البيعه ليلا ونهارا

دمياط، ثم قال: وعندها ينقسم النيل إلى قسمين ينزلان إلى أسفل ويتصلان بالبحر (المتوسط)، ومن هذا يتبين: أن شطنوف كانت على رأس الدلتا فى ذلك الوقت. وقال ياقوت فى معجم البلدان: هى بلد بمصر على بعد فرسخين من القاهرة، وعندها يفترق النيل إلى فرقتين، ثم قال: هو اسم مركب. وكان رأس الدلتا ينتهى عندها حتى منتصف القرن ١٦م حيث كان النيل يتفرع عندها إلى فرعين

---

٥٨. موسى بن عيسى العباسى(*)

الثانية

ثمّ وليها موسى بن عيسى الثانية، على صلاتها وخراجها. من قبل الرشيد؛ دخلها يوم الاثنين لسبع خلون من صفر سنة خمس وسبعين ومئة. فجعل على شرطه عبدالرحمن بن موسى بن عُلَيّ بن رباح.

وأمرَ موسى بالزيادة فى المسجد الجامع، زاد فيه الرحبة التى تقابل الصَّيارفة اليوم، وهو نصف الرحبة المنسوبة إلى أبى أيّوب، وذلك فى شعبان سنة خمس وسبعين وسمئة.

وتوفى الليث بن سعد يوم الجمعة للنصف من شعبان سنة خمس وسبعين، وصلى عليه موسى بن عيسى(١).

فولَيها موسى إلى أن صرفَ عنها لليلتين بقيتا من صفر سنة ستّ وسبعين ومئة، وليها سنة واحدة(٢).

(*) الخطط ١ : ٣٠٨، والنجوم ٢ : ٧٨، وحسن المحاضرة ٢ : ١٠.

(١) فى حاشية: «وفاة الليث بن سعد: وذكر ابن يونس فى تاريخه بسنده إلى يحيى بن بكير قال: سمعت الليث بن سعد يقول: ولدت فى شعبان سنة أربع وتسعين. قال: ومولده بقرقشنده».

(٢) ن (٢ : ٨٠): إلا أياماً قليلة. وسبب عزله أنه هم بالخروج على الرشيد.

صارخين للسيد المسيح أن ينظر إلينا ويكشف ضرنا وما الناس فيه من السبى والقتل والنهب وضجيج الصغار والكبار. فسمعهم الله الكريم وأثار عليهم الخراسانين فعدا أبو عون وجيشه الى بر الغرب فلما نظره حوثره وجيشه اصحاب مروان انهزمو فتبعوهم وقاتلوهم ولم يزالو يقتلون منهم الى أن وصلو وادى هبيب بصلوات القديسين، وعدا عسكر الخراسانيين فى اليوم الذى اجتمعو فيه الرهبان الى البيعه، كان يوم سبت أخر يوم من

شرقى إلى دمياط وغربى إلى رشيد، وبعد ذلك اتصلت جزيرة بأرض شطنوف فأصبح رأس الدلتا عند القناطر الخيرية، وفى سنة ١٩١٠ أتصلت جزيرة الشعير الواقعة في وسط النيل من جهتها البحرية بأراضى دروه فأصبح رأس الدلتا واقعاً جنوبى القناطر الخيرية وعلى بعد كيلو مترين منها.

٥٩. إبراهيم بن صالح العباسى[١]

الثانية

ثمّ وليها إبراهيم بن صالح الثانية، من قِبل الرشيد، على صلاتها وخراجها، فكتبَ إلى عسامة بن عمرو فاستخلفه. وقدم نصر بن كُلثوم خليفة على الخراج مستهلّ ربيع الأوّل سنة ستّ. وتوفي عسّامة بن عمرو لسبع بقين من شهر ربيع الآخر سنة ستّ وسبعين ومئة. ثمّ قدم رَوْح بن رَوْح بن زِنْباع[٢] خليفة لإبراهيم على الصلاة والخراج الخمس بقينَ من شهر ربيع الأوّل سنة ستّ وسبعين ومئة. فجعل على شرطه خالد بن يزيد بن المهلّب بن أبى صُفْرة.

(١) ذكر أبو المظفر بن قز أو غلى فى مرآة الزمان أن الرشيد ولي على مصر عمر بن مهران، بعد عزل موسى بن عيسى. وقال ابن الأثير فى الكامل (٦ : ٨٥) : «عزل الرشيد موسى بن عيسى عن مصر، ورد أمرها إلى جعفر بن يحيى بن خالد، فاستعمل عليها جعفر عمر بن مهران». وحاول ابن تغرى بردى التوفيق بين من أهمل عمر بن مهران ومن ذكره، فقال: «لعل الرشيد لم يرسل عمر هذا إلا لنكاية موسى [كما تقول الأخبار]، ثم أقر الرشيد ابراهيم بعد خروج المذكور من بغداد، فكانت ولاية عمر على مصر شبه الاستخلاف من ابراهيم بن صالح، ولهذا أبطأ ابراهيم بن صالح عن الحضور إلى الديار المصرية، بعد ولايته مصر عن موسى المذكور؛ أو كانت ولاية عمران بن مهران على خراج مصر وإبراهيم على الصلاة. وهذا أوجه من الأول». ويتضح من بعض أوراق البردى التي عثر عليها فى مصر أن عمر بن مهران تولى مصر فعلا. انظر النجوم ٢ : ٧٨ ـ ٨١. وترجمة إبراهيم فى الخطط ١ : ٣٠٨، والنجوم ٢ : ٨٣، وحسن المحاضرة ٢ : ١١.

(٢) وكذا فى حـ أيضاً. وفي ن: روح بن زنباع... [و] أبوه حفيد روح بن زنباع وزير عبدالملك بن مروان.

أبيب وقتلو خلقا كتيرا من عسكر مروان ولم يبق معه من تمانيه آلاف خرج بها من مصر سوى أربع مايه رجل فقط.

فلما علم مروان أن عسكرهم قد انقسم على أربعة أجزا انهزم قبل تعديتهم بيومين وحمل نساه وأمواله وهرب فى خفيه، وقتل من أصحاب يزيد تلتمايه، لأنه انهزم من شطنوف [وهرب] يريد جبل وسيم فقتلوه رجاله وقتلو فرسه الذى كان

[ثمّ قدم إبراهيم للنصف من جمادى الأولى،][(١)] وتوفى إبراهيم بن صالح بها، وهو واليها، يوم الخميس لثلاث خلون من شعبان سنة ستّ وسبعين ومئة؛ كان مقامه بها شهرين وثمانية عشر يوماً. فكان قبره أوّل قبر بُيّض فى مقبرة مصر. وقام بالأمر بعده ابنه[(٢)] صالح بن إبراهيم، مع صاحب شرطه خالد بن يزيد.

٦٠. عبدالله بن المسيب بن زهير الضبى[(*)]

ثمّ وَليها عبدالله بن المسيّب بن زهير الضبى، من قبل الرشيد، على صلاتها، لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة ستّ وسبعين ومئة. فجعل على شرطه الأمكيس[(٣)]. ثمّ صُرِفَ عنها فى رجب سنة سبع وسبعين ومئة[(٤)].

٦١. إسحاق بن سليمان[(*)]

ثمّ وليها إسحاق بن سليمان، من قبل الرشيد، على صلاتها وخراجها، مستهلّ رجب سنة

(١) زيادة عن خـ، وهى فى ن بالمعنى.
(٢) كذا فى خـ، وفى ر: وقام بالأمر بعد أبيهى صالح بن ابراهيم.
(*) الخطط ١ : ٣٠٩، والنجوم ٢ : ٨٥، وحسن المحاضرة ٢ : ١١.
(٣) كذا فى ر. وفى ن: أبا المكيس.
(٤) ن: فكانت ولايته على إمرة مصر نحو عشرة أشهر.
(*) الخطط ١ : ٣٠٩، والنجوم ٢ : ٨٧، وحسن المحاضرة ٢ : ١١.

تحته، ومضو إلى أوليك [العباسيين] وحالفوهم. وكان ولدا مروان في الجيزه لما هرب أبوهما ولم يعلما أي وجه توجه إليه لأنه كان أنفد الصغير بحرى جزيرة النزهات [الروضه] وكان كتير الشر مثل أبيه. وأما الكبير عبد الله فإن ابهاتنا كانو يدعون له أن لا يقع في تجربه ولا بلا [ء] لأجل ما فعله معهم، وهكذا كان. وأما الصغير فكان عمره خمس عشرة سنه فانهزم إلى النزهات ومعه أربع

سبع وسبعين ومئة. فجعل على شرطه مسلم بن بكّار بن مسلم العُقَيلى، واستخلف معاوية بن صُرَد البكائى. فكشف إسحاق أمر الخراج، وزاد على المزارعين زيادة أجحفت[1] بهم. فخرج عليه[2] أهل الحوف وعسكروا. فبعث الجيوش فحاربهم. فقُتل كرمين بن يحيى، وكان من كبار أصحابه، في جمع منهم. وكتب إسحاق إلى هارون الرشيد يخبره بذلك. فعقد هارون لهَرْثَمة بن أعْيَن في جيش عظيم، وبعث به إلى مصر، فنزل الحوف. فلقيه أهله بالطاعة، وأذعنوا بأداء الخراج. فقبل هرثمة منهم، واستخرج خراجه كلّه.

فولّيها إلى أن صُرِف عنها في رَجَب سنة ثمان وسبعين ومئة[3].

٦٢. هرثمة بن أعين(*)

ثمّ وليها هرثمة بن أعين، من قبل الرشيد، على صلاتها وخراجها، لليلتين خلتا[4] من شعبان سنة ثمان وسبعين. فجعل على شرطه ابنه حاتم بن هرثمة. ثمّ سار هرثمة إلى إفريقية،

(١) كذا في خـ، وفي ر: أجحف. ويريد أنه كشف أمر خراجها، فلم يرض بما كان يأخذه قبله الأمراء، فزاده (ن).
(٢) كذا في ر. وفي ص: عليهم. تحريف.
(٣) ن: فكانت ولايته على مصر سنة واحدة وأياماً.
(*) الخطط ١ : ٣٠٩، والنجوم ٢ : ٨٨، وحسن المحاضرة ٢ : ١١.
(٤) كذا في خـ، وفي ر: ليومين خلتا.

ماية فارس [ولم يطلق الابهات] فوجد زيتا يسمى زيت الكلاب في خوابي رخام فاقلبه على البحر وأطلق النار على النزهات، ولحق مروان أباه وأطلق كلمن في الحبوس التي كانت هناك، ولم يطلقونا بل اراد أن يحرقنا بالنار فدخل في وسط مراكب الاسطول ليحرقها واذا بصوت يصرخ بقوه: هو ذا اعداك قد جا[ء]و. فهرب سرعه هو ومن معه، والذين بقو في النزهات من أهلها أطفو النار واطلقونا عند غروب الشمس من الاعتقال والحديد

هو ومنصور بن زياد، لاثنّي عشرة خلت من شوال سنة ثمان وسبعين ومئة. أقام شهرين[1] ونصفاً.

٦٣. عبدالملك بن صالح بن على العباسى(*)

ثمّ وليها عبدالملك بن صالح، من قبل الرشيد، على الصلاة والخراج. ولم يدخلها، واستخلف عليها عبدالله بن المسيبّ الضبى. فجعل على شرطه عمار بن مسلم. فوليها إلى سلخ سنة ثمان وسبعين ومئة.

٦٤. عبيدالله بن المهدى العباسى(**)

ثمّ وليها عبيدالله بن المهدى، من قبل الرشيد، على صلاتها وخراجها، يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من المحرم سنة تسع وسبعين ومئة. فاستخلف عبدالله [بن المسيّب][2] عليها.

(١) كذا في خـ، ن، ر. وفي ص: شهراً. وكذا في ث. ويفهم من النجوم أن الرشيد ولى هر ثمة على مصر قبل بعثه إلى مصر، لما بلغه ما وقع لإسحاق بن سليمان العباسى مع أهل مصر.

(*) الخطط ١ : ٣٠٩، والنجوم ٢ : ٩٠، وحسن المحاضرة ٢ : ١١.

(**) الخطط ١ : ٣٠٩، والنجوم ٢ : ٩٣، وحسن المحاضرة ٢ : ١١.

(٢) زيادة في ر عن خـ.

في أرجلنا. وا لله يشهد أن قوما من المسلمين كانو ركاب خيلهم نزلو من عليها وفكو الحديد عنا واخدو تياب النسا لبسوها واخفو في المخازن والمخادع من خوف ذلك الصوت المهول الذى سمعوه، وأخذونا نحن مضو بنا إلى [كنيسة] مارى بطرس في الجيزه وكان يمشى معنا قوم مومنون وكانت ليلة الأحد الأول من مسرى.

ولم يكن في بحر الجيزه ما [ء] بالجمله لأنه

ثمّ قدم عبيدالله[1] يوم الاربعاء لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأوّل[2] سنة تسع وسبعين ومئة. فجعل على شرطه معاوية بن صُرَد البكائي[3]. فولّيها إلى أن صُرِفَ عنها في شهر رمضان سنة تسع وسبعين ومئة. وليها سبعة أشهر[4]، وخرجَ منها ثاني شوال.

٦٥. موسى بن عيسى(*)

الثالثة

ثمّ وليها موسى بن عيسى الثالثة، من قبل الرشيد، على صلاتها. وقدم يحيَى بن موسى بن عيسى خليفة لأبيه عليها، لثلاث خلون من شهر رمضان. ثمّ قدمها موسى بن عيسى في آخر ذى القعدة. فولّيها إلى أن صُرِف عنها في جمادى الآخرة سنة ثمانين ومئة[5].

---

(١) كذا في ر. وفي ص: عبدالله. خطأ.
(٢) ن: ثم قدمها عبيدالله المذكور بعده في يوم الثلاثاء لأربع خلون من شعبان.. قاله صاحب البغية، وقال غيره: قدمها عبيدالله في يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من المحرم. ويبدو أن المؤرخين خلطوا بين تواريخ تعيينه وقدومه.
(٣) ن: وجعل على شرطته معاوية بن صرد ثم عمار بن مسلم.
(٤) خـ، ن: تسعة أشهر إلا أياماً. والاختلاف آت من احتساب بعض المؤرخين مدة ولايته على مصر دون أن يقدم، وبعضهم المدة منذ قدومه فقط.
(*) الخطط ١ : ٣٠٩، والنجوم ٢ : ٩٨، وحسن المحاضرة ٢ : ١١.
(٥) ن: فكانت ولاية موسى على مصر في هذه المرة الثالثة نحواً من عشرة أشهر.

نشف بأمر الله ولم يزد الما[ء] ولم يتحرك بالجمله
إلى يوم عدونا فيه بارجلنا، فلما علمو الخراسانيون
أن أولايك أنهزمو ركبو خيلهم وتبعو مروان وكلمن
لقو بغيراللباس الأسود قتلوه. وفي تلك الليلة جا
الى القبله [الوجه القبلي] أول الجيش الذين عدو
مع ابى عون من شطنوف وسيوفهم مجرده في
أيديهم وهم مدرعين بالحديد كلهم يقاتلو مروان
لياخذوه فلم ننم نحن ولا غفونا في تلك الليله.
فآقامو تلاتة أيام وتلاتة ليال يتواصلون [حتى] أول

---

٦٦. عبيدالله بن المهدى(*)
الثانية

ثمّ وليها عبيدالله بن المهدى الثانية. من قبل الرشيد، على صلاتها. فقَدِم داود بن حَيّاش(١) خليفة عليها لسبع خلون من جمادى الآخرة. وقدمها عبيد الله يوم الثلاثاء لأربع خلون من شعبان سنة ثمانين ومئة. فجعل على شرطه معاوية ابن صرد، ثمّ عزَله فولّى عمار بن مسلم. فولّيها إلى أن صُرِف عنها لثلاث خلون من شهر رمضان سنة إحدى وثمانين ومئة(٢).

٦٧. إسماعيل بن صالح العباسى(**)

ثمّ وليها إسماعيل بن صالح، من قبل الرشيد. على صلاتها، يوم الخميس لسبع خلون من شهر رمضان. فاستخلف عوف بن وهب الخزاعي(٣). ثمّ قدمها إسماعيل يوم الخميس لخمس بقين من شهر رمضان سنة إحدى وثمانين ومئة، فجعل على شرطه سليمان بن الصِّمَّة المُهلّبى، ثم عزَله فولّى يزيد بن عبد العزيز الغسّانى(٤).

(*) الخطط ١ : ٣٠٩، والنجوم ٢ : ١٠١، وحسن المحاضرة ٢ : ١١.
(١) حـ: حباش. ن: حبيش. وقد سمى بكل هذه الأسماء كما في القاموس والمشتبه للذهبى.
(٢) ن: فكانت ولاية عبيدالله بن المهدى فى هذه المرة الثانية على إمرة مصر سنة واحدة وشهرين تقريباً.
(**) الخطط ١ : ٣٠٩، والنجوم ٢ : ١٠٥، وحسن المحاضرة ٢ : ١١.
(٣) كذا في ن أيضاً. وفي حـ: عون.
(٤) ن: زيد بن عبدالعزيز الغسانى.

مسرى ويسيرون ونحن ننظرهم عسكرا [طابورا]
واحدا من الجبل إلى البحر. فطلب حوثره أمانا فلم
يقبلوه، وقالو : إذا لم تعطنا عدو الله مروان وألا
فما لك منا أمان . فمضى ليقبض [على] مروان
ومكر به وقال له: هوذا أعدانا قد قربو منا قم نأخذ
نسانا وأولادنا وأموالنا ونركب المراكب سرا
وتنحدر في البحر ونمضي إلى الروم فإن وقعنا في
يد هذا فهو يهلكنا . فقال له مروان: يا حوثره أنت

قال ابن عفير: ما رأيتُ أحداً على هذه الأعواد أخطبَ من إسماعيل بن صالح بن عليّ. فولِيها إلى أن صُرِفَ عنها في جمادى الآخرة سنة اثنتين وثمانين ومئة[1].

٦٨. إسماعيل بن عيسى العباسى[2]

ثمّ وليها إسماعيل بن عيسى، من قبل الرشيد، على صلاتها؛ قدمها يوم الجمعة لأربع عشرة بقيت من جمادى الآخرة سنة اثنتين وثمانين ومئة[3]. فجعل على شرطه المصَكّ بن مسكين الجُرَشي، ثمّ عزله وولّى عبدالوهّاب ابن موسى بن عبدالعزيز بن عمر بن عبدالرحمن بن عوف. فولِيها إلى أن صُرِف عنها في شهر رمضان سنة اثنتين وثمانين ومئة[4].

٦٩. الليث بن الفضل[*]

ثمّ وليها الليث بن الفضل، من قبل الرشيد، على صلاتها وخراجها. قدمها لخمس خلون

(١) وكذا في خـ أيضاً. وفي ن: سنة ثلاث وثمانين ومئة. وكانت مدته على إمرة مصر ثمانية أشهر وعدة أيام تقارب شهراً.
(٢) ذكر صاحب البغية أن الذى تولى على مصر بعد اسماعيل بن صالح هو الليث بن الفضل، وأن إسماعيل بن عيسى تولى بعده. وأكثر المؤلفين على ترتيب الكندى. ترجمته في الخطط ١ : ٣٠٩، والنجوم ٢ : ١٠٩، وحسن المحاضرة ٢ : ١١.
(٣) ن: سنة ثلاث وثمانين ومئة.
(٤) ن: سنة ثلاث وثمانين ومئة، فكانت ولايته على مصر ثلاثة أشهر تنقص أياما.
(*) الخطط ١ : ٣٠٩، والنجوم ٢ : ١١٣، وحسن المحاضرة ٢ : ١١.

تمكر بمولاك. عند ذلك أخذ مروان سيفه وضرب رقبة حوثره بيده فقلته.

والخراسانيون ما كان أحد يقاومهم ولا يقف قدامهم بعد أن قتل حوثره. ثم أنهم [الخراسانيون] نادو من كان نصرانيا يعلق مثال الصلب من الذهب والفضه والنحاس على جبهته وعلى ثوبه وعلى باب بيته، ومن لم يعمل ذلك فلا ذنب علينا منه. وكانو للخراسانيين أيضا في حلوق خيلهم صلبان ذهب وفضه. ثم لحقو مروان وولده

من شوال سنة اثنين وثمانين ومئة. فجعل أخاه عليّ بن الفضل على شرطه. واستخلف عبدالغني[1] بن عدى الحُجْرى، من حُجْرِ حِمْيَر. ثمّ مات عبدالغنى، فاستخلف على الشرط عمرو بن عبدالعزيز بن يَرِيم[2] الحجرى، ثمّ عبدالوهّاب بن موسى بن عبدالعزيز الزّهرى. ثمّ ردّ عمرو بن عبدالعزيز بن يريم.

فولَيها الليث ثمّ خرج إلى الرشيد لسبع خلون[3] من شهر رمضان سنة ثلاث وثمانين ومئة بالمال والهدايا، وهو على ولايته، واستخلف أخاه عليّ بن الفضل عليها. ثمّ عاد الليث إليها في آخر سنة ثلاث وثمانين ومئة. وخرج ليث أيضاً بالمال لسبع[4] بقين من شهر رمضان سنة خمس وثمانين ومئة. ثمّ استخلف عليها هاشم[5] بن عبدالله بن عبدالرحمن بن معاوية بن حُديج. وقدم ليث يوم السبت لأربع عشرة خلت من المحرم سنة ستّ وثمانين ومئة.

وأخبرني ابن قديد قال: كان ليث بن الفضل كلما أغلق خراج سنة[6] وفرغ من حسابها،

(١) كذا في ر وقا: في الأصل: على، وينافيه الذى بعده.
(٢) كذا في ر وقال: في الأصل قادرة ذكر: بريم، وطوراً: يريم، وقد ذكر يريم في المشتبه.
(٣) خـ: لسبع بقين من رمضان.
(٤) خـ: لتسع. وفي ن: في اليوم الحادى والعشرين من رمضان.
(٥) ن: هشام.
(٦) كذا في ر. وفي خـ، ن: كلما غلق خراج سنة. بمعنى استحق.

والعسكر الذى مقدمه صالح وكانو قد طاردوه يوما كاملا، فالتقو ولم يزل القتال بينهم من الليل إلى الغداه حتى قتل خلايق كثير، وتبعوه إلى جبل «أبه» غربى كلاوبطرة المدينه التى بناها الإسكندر المقدونى [وهو] الموضع الذى تنبى عليه الشيخ الحبيس القديس الذى أحرقه مروان بالنار وهو حى وقال له قبل أن يحرقه: أنه يقتل هناك. وقتل(*) معه أيضا مروان بن عبد العزيز، وهرب ولدا مروان وملكو الخراسانيون حلوان وكلما كان

(*) هزيمة مروان أمام الخرسانيين وقتله هو واتباعه. انظر الهامش السفلى ص٦٨٩.

خرَجَ بالمال والحساب إلى أمير المؤمنين هارون. قال ابن قديد: وهو أوّل من استعمل إبراهيم بن تميم فى كُتّاب الخراج.

ثمّ إن أهل الحوف خرَجوا على ليث بن الفضل. فكان السبب فى ذلك أن ليثاً بعث بمُسّاح يمسحون عليهم أراضى زرعهم. فانتقصوا من القصبة[١] أصابع. فتظلّم الناس إلى الليث، فلم يسمع منهم. فعسكروا وساروا إلىّ الفسطاط. فخرج إليهم ليث بن الفضل فى أربعة آلاف من جند مصر؛ كان خروجه يوم الخميس ليومين بقيا من شعبان سنة ستّ وثمانين ومئة. واستخلف عليها عبدالرحمن بن موسى بن عُلَىّ بن رباح على الجند وعلى الخراج. فالتقى ليث مع أهل الحوف لثنى عشرة خلت من شهر رمضان سنة ستّ وثمانين. فانهزم الجند عن ليث، وبقى فى مئتين أو نحوها. فحمل عليهم بمن معه، فهزمهم حتى بلغ بهم غَيْفَة[٢]. وكان التقاؤهم فى أرض جُبِّ عُمَيرة[٣]. وبعثَ ليث إلى الفسطاط ثمانين رأساً من القيسية[٤]. ورجع ليث إلى الفسطاط. ورجع أهل الحوف إلى منازلهم ومنعوا الخراج.

(١) كذا فى ر عن خـ) (١: ٨٠). وفى ص: القصب.
(٢) غيفة: ضيعة تقارب بلبيس.
(٣) جب عميرة: موضع بينه وبين الفسطاط ستة أميال.
(٤) كذا فى خـ (١: ٨٠). وفى ر: العبسة.

فيها وشقو بطون النسا وأخذو كلما كان فى حلوان من أموال مصر، وقتل الفرسيون [الخرسانيون = العباسيون] أصحاب مروان بالسيف وأخذو كلما لهم وحملوه فى مراكب الملك وزاد النيل بعد أن كان البحر قد نشف حتى عدو الخراسانيون إلى بر الجيزه وأهلكو مروان، ثم رجع زاد من أول يوم من مسرى، وكان يزيد فى كل يوم نحو الذراع حتى انتهى إلى تمانى عشره ذراعا تلك السنه. ولأجل ذلك كانو الناس يقولون

وخرج ليث إلى أمير المؤمنين هارون لمستهلّ المحرم سنة سبع وثمانين ومئة. فسأل أمير المؤمنين[١] أن يبعث معه بالجيوش إليها، وذكر أنّه لا يقدر على استخراج الخراج من أهل الحوف إلاّ بجيش يبعث به معه. وكان محفوظ بن سليمان بباب الرشيد. فرفع محفوظ إلى أمير المؤمنين يضمن له جباية خراجها عن آخره بلا سوط ولا عصا. فولاه أمير المؤمنين الخراج، وصرف ليث بن الفضل عن صلاتها وخراجها[٢]. وبعث أحمد بن إسماعيل على صلاتها، مع محفوظ. فكانت ولاية ليث عليها أربع سنين وسبعة أشهر.

٧٠. أحمد بن إسماعيل العباسي(*)

ثمّ وليها أحمد بن إسماعيل بن عليّ بن عبدالله بن عبّاس، من قبل الرشيد، على صلاتها[٣]. فدخلها يوم الاثنين لخمس بقين من جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين ومئة. فجعل على شرطه معاوية بن صرد.

حدّثنا أبو سلمة التجيبى، قال: أخبرنى أحمد بن أحمد بن عمرو بن سرح قال: حضرتُ القسامة فى والٍ من بنى هاشم يقال له «أحمد بن إسماعيل»، فى سنة سبع وثمانين أو سنة

(١) كذا فى د وقال: فى الأصل: فرفع محفوظ فولاه أمير المؤمنين يضمن له جناية، والمقصود ظاهر.
(٢) ن: فى جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين ومئة.
(*) الخطط ١: ٣٠٩، والنجوم ٢: ١٢٤، وحسن المحاضرة ٢: ١١.
(٣) خـ: وخراجها. خطأ، كما يتبين من مراجعة الولاية السابقة.

أن يد الرب مع الخراسانيين. وكانو إذا وجدو قوما عليهم علامة الصليب يخففون عنهم الخراج ويرفقون بهم ويعملون معهم الخير في جميع البلاد.

وصلبو مروان(*) منكسا بعد أن قتلوه لأنهم أخذوه في موضع يسمى «دواتون» ونحن نشاهده، وقطعو راس وزيره.

(*) قتل مروان وصلبه منكسا.

ولما سايلوا عنا الملوك ومقدمو الخراسانيين

ثمان وثمانين. وقال: أحْضَرَ أولياء المقتول المسجد الجامع. فحلفوا بعد العصر عند القبلة قياماً. ورأيتُ مع رسول السلطان خطّ عبدالله بن وهب في كتاب قد كتبه لهم كيف يحلفون.

فوليها أحمد بن إسماعيل إلى أن صُرِف عنها يوم الاثنين لثماني عشرة خلت من شعبان سنة تسع وثمانين ومئة، وليها سنتين وشهراً ونصفاً.

٧١. عبدالله بن محمد العباسي(*)

ثمّ وليها عبدالله(١) بن محمد بن إبراهيم، الذى يقال له «ابن زينب»، من قبل الرشيد، على صلاتها. فاستخلف عليها لَهيعة بن عيسى(٢) بن لهيعة الحضرمي، إلى يوم السبت للنصف من شوال سنة تسع وثمانين، فقدمها عبدالله بن محمد. فجعل على شرطه أحمد بن حُوَىَ بن حُوَىَ العُذْرِىّ(٣)، ثمّ عزله فولى محمد بن عَسّامة بن عمرو. فوليها عبدالله بن محمد إلى أن صُرف عنها لإحدى عشرة بقيت من شعبان سنة تسعين ومئة. فخرج عنها واستخلف عليها هاشم بن عبدالله بن عبدالرحمن بن معاوية بن حُدَيج(٤).

(*) الخطط ١: ٣٠٩، والنجوم ٢: ١٣١، وحسن المحاضرة ٢: ١١.
(١) كذا في ن أيضاً. وفي خـ: عبيدالله.
(٢) كذا في خـ أيضاً. وفي ن: موسى.
(٣) كذا في ر، وصفحته ص في المواضع المختلفة.
(٤) ن: فكانت مدة ولاية عبدالله هذا على مصر ثمانية أشهر وتسعة عشر يوماً.

ومضينا إليهم فيخلون(*) الأب القديس الشهيد أنبا خايل وأكرموه كرامه عظيمه [ودفعو له امر بجميع البيع في كل الكور وسامحو(*) البشامره من الخراج] وكانت لحيته قد تجددت وطلعت أحسن مما كانت عليه بقدرة السيد المسيح، ومجدنا الله وجميع من نظر وشهد الخبر.

(*) اطلاق سراح البطرك خايل ومن معه.

(*) سامحوا: رفعوا عنهم الخراج. وهذه واقعة لا تذكر في المصادر التاريخية الاسلامية.

وقال الأب أنبا خايل: أنني رأيت شخصا وأنا في الاعتقال مسح يده على وجهي فطلعت لحيتي أحسن مما كانت.

---

٧٢. الحسين بن جميل(*)

ثمّ وليها الحسين بن جميل، من قبل الرشيد، على صلاتها؛ قدمها يوم الخميس لعشر خلون من شهر رمضان سنة تسعين ومئة. فجعل على شرطه كاملاً الهُنائي، ثمّ عزله فولّى معاوية بن صُرَد. فأقام على صلاتها إلى يوم الجمعة(١) لسبع خلون من رجب سنة إحدى وتسعين ومئة. فجُمعت له الصلاة والخراج جميعاً. قال سعيد بن عُفَير:

ما كُنتُ أحسَبُ أنّ الحينَ يَجمَعُ ما أمسَى بمصْرَ منَ الأنْذالِ في الإمَرِ
أمّا الأميرُ فحَنّاجٌ وصَاحبُهُ علَى الخَراجِ سَوادِيّ منَ الأُكَرِ
هَذا الهُنَائي منَ الفُسْطَاطِ يَخلُفُهُ والبَاهليّ علَى أعْمَالهِ الأُخَرِ(٢)
كُلّ لصَاحبِهِ شكْلٌ يُلائمُهُ فَهُمْ سَواسيَةٌ في اللؤمِ كالحُمُرِ
ومَا هُنَاءَةُ إلاّ ظِلْفُ ذي يَمنٍ والبَاهليّونَ مأوَى اللؤمِ من مُضَرِ
فَمَا يَسُوغُ لنَا عَيشٌ فَينْفَعَنَا مَعْ مَا نَرَى لَهُمُ منْ رقّةِ الخَطَرِ

(*) الخطط ١: ٣٠٩، والنجوم ٢: ١٣٤، وحسن المحاضرة ٢: ١١.

(١) ن: الاربعاء.

(٢) الإمر: جمع إمرة. و حناج: مخنث. وسوادى: من سواد العراق، وهو ريفه. والأكر: الحفر، ويريد بها ما يشقه الزارع في أرضه للزراعة. وفي ص: العاملي، في موضع: الباهلي، ومال ر إلى أنها محرفة عن الباهلي، نظراً للبيت الخامس.

ولما التمس الأب أنبا خايل من الملك رزق [أوقاف] البيع فى جميع الكور فعل له ما طلبه منه. وأما البشامره فإنه سامحهم بالخراج ودفع لهم خراجا آخر.

وكان مروان قد احرق جميع الكتب وحساب الدواوين. ولم يكونو يعرفون مبلغ الارتفاعات [العوايد] ولا الغيره [المقايضات] وكان بمصر فى أيامهم أمر عظيم ومضى صالح وجيشه إلى فلسطين.

وفى ولايته امتنعَ أهل الحوف من أداء الخراج. وخرج أبو النداء[١] مولى بَلِيّ فى نحو من ألف رجل، يقطعُ الطريق بأيْلَة وبدا وشَغْب ومَدْيَن[٢]. ثمّ أغارَ على بعض قرى الشام. ثمّ ضَوى إليه[٣]. رجل من جُذام، يقال له المنذر ابن عابس بن غطفان، ومعه سلام النوبى[٤]. فبلغوا مبلغاً عظيماً من النهب والقتل. فبعث أمير المؤمنين هارون يحيى بن معاذ فى أمرهم. فسار يحيَى[٥] إلى فلسطين، فبعث قائداً من قواده فى طلب أبى النداء وابن عابس. وبعث الحسين بن جميل من مصر بعبدالعزيز بن الوزير بن ضابىء[٦] الجروى فى عسكر. فالتقى العسكران بأيلة[٧]، فظفر عبدالعزيز بأبى النداء[٨] [وفرّ][٩] سلام النوبى[١٠] ثمّ أُدرك فأُخذ. وكان أبو النداء[١١] يقول:

....

(١) كذا فى خـ، ن، ط (٢ : ٧١١). وفى ر: الندى. وفى ص، ث: الوليد.
(٢) أيلة: هى المعروفة اليوم باسم العقبة فى شمال خليج العقبة من البحر الأحمر، على الحدود بين مصر وشرق الأردن. وبدا: من كور مصر المجاورة لبلاد الحجاز. وشغب: منهل بين مصر والشام.
(٣) ضوى إليه: انضم إليه.
(٤) ر: النوى. ورجح النوبى.
(٥) كذا فى ر. وفى ص: رجابن. تحريف.
(٦) ر: ضانى، ومال إلى: ضانىء.
(٧) كذا فى ر عن خـ، ن. وفى ص: بايه. تحريف.
(٨) كذا فى خـ، ن. والعبارة محرفة فى ص.
(٩) زيادة يقتضيها السياق.
(١٠) ر: النوى.
(١١) ر: أبو الندى. ص: أبو الوليد.

ولما أطلقنا مضى كل واحد منا إلى موضعه وأبو عون تولى مصر(*)، وبعد قليل وصل رجلان من أصحاب الدواوين إلى مصر من عند الملك، وكانا مسلمين، كان اسم احدهما عطا بن شر حبيل والأخر صفي وكانا بعيدين من معرفة الله [قليلين الرحمه] فاحضر لهما أبو عون جميع حساب مصر واعادها إلى ما كانت عليه مع مروان، وبعد أن كانا قد طردا من القصر أعادهما الملك فجعلا مكسين [اصحاب المكوس] على الوجه البحرى

(*) أبو عون عبد الملك بن يزيد يتولى مصر من قبل الخرسانيين على صلاتها وخراجها. وفى وقته حدثت اوبئة شديدة وغلت الأسعار، كما ثار أبو مينا بسمنود فأرسل إليه الجيوش التى قتلته ومن معه على يد عبدالرحمن بن عقبه. تولى سنة ١٣٣ هـ = ٧٥٠م. انظر الهامش السفلى ص٤٠٤ .

أَقُولُ إذا[١] الرِّفَاقُ بَدَتْ لِوَجْهِى ... ألا حُلُّوا رِحَالَكُمْ وَطِيرُوا
وَإِنْ لَمْ تَشْرُكُوهَا فَاسْتَعِدُّوا ... لِحَرْبٍ مِثْلِ جَابِيَةٍ تَفُورُ[٢]
أَقُولُ لِصُحْبَتِى: كُرُّوا عَلَيْهِمْ ... فَلَيْسَ يَهُزُّهُمْ إلاَّ الكُرُورُ

ثمَّ سارَ يحيَى بن معاذ فى جيشه ذلك فنزل بلبيس. فأذعن أهل الحوف بالخراج. وكان نزوله بلبيس لإحدى عشرة خلت من شوال سنة إحدى وتسعين ومئة. ثمّ صُرِف الحسين بن جميل لثنتى عشرة ليلة من شهر ربيع الآخر[٣] سنة [اثنتين][٤] وتسعين ومئة.

٧٣. مالك بن دلهم الكلبيّ(*)

ثمّ وليها مالك بن دلهم بن عُمير[٥] بن مالك، من قبل الرشيد، على صلاتها وخراجها؛ قدمها يوم الخميس لسبع بقين من شهر ربيع الآخر[٦] سنة اثنتين وتسعين ومئة. فجعل على

(١) كذا فى ر. وفى ص: أخا.
(٢) الجابية: الحوض العظيم. وكذا صحح ر العبارة. وفى ص: حاسه تعور.
(٣) كذا فى خـ أيضاً. وفى ن: ربيع الأول.
(٤) زيادة ضرورية فى ر عن خـ، ن. وكانت ولايته على مصر سنه واحدة وسبعة أشهر وأياماً.
(*) الخطط ١: ٣١٠، والنجوم ٢: ١٣٧، وحسن المحاضرة ٢: ١١.
(٥) كذا فى خـ أيضاً. وفى ن: عيسى.
(٦) ن: ربيع الأول.

ومكسا واحدا على الوجه القبلي وذلك في تاني
سنه [من] الأمن والصلاح في المملكه ، وعلما
الملك وعرفاه بلايا عظيمه من أجل بغضهما لنا
نحن النصارى ومحبتهما للفضه، فاعطيا [فأعطيا]
السلطان [السلطة] ليفعلا ما أرادا. وكان ارتفاع
[عوايد] مصر، بعد اقطاعات الأجناد، ونفقات دار
السلطان، وما يحتاج إليه لتدبير المملكه، وكل ما
يفضل بعد ذلك ويحمل إلى بيت المال مالا جملته

شرطه محمد بن يزيد[١] بن آدم الأودى، من أهل حمْص. وفرغ يحيَى بن معاذ من أمر الحوف. وقدم الفسطاط لعشر بقين من جمادى الآخرة سنة اثنتين وتسعين ومئة. فنزل دار أبى عوْن، ومعه أبو النداء[٢] وابن عابس وغيرهما من أصحابهما. قال أبو عثمان السكرى أمام يحيى ابن معاذ:

وقال أيضاً:

قَدْ جَبَنَّا قَيْساً ولَم تَكُ[٣] تُجْبَى ... وَقَتَلْنَا أبَا النَدا وَابنَ عَابِسْ
وَتَرَكْنَا لَخْمـاً وحَيَّيْ جُذَامٍ ... لا يُطِيقُونَ دَفْعَ[٤] كَفُّ تُلامِسْ
آمَنَ اللهُ بالمُبَارَكِ يَحْيَى ... حَوْفَ مصرَ إلى دمَشْقَ فَبَالسْ[٥]
وَأبَادَ الخُلاعَ مِنْ كُلِّ أرْضٍ ... بَعْدَ مَا جَادَ عَنْهُمُ كُلَّ فَارِسْ

وقال أيضاً:

(١) ن: محمد بن توبة.
(٢) ر: أبو الندى.
(٣) كذا في ر. وفى ص: تكن.
(٤) يطيقون: كذا في ر. وفى ص: يطيعون. وفى ر أيضاً: رفع.
(٥) بالس: بلدة بالشام بين حلب والرقة.

في كل سنه مـايتي ألف دينارسـوى النفـقـات والكلف وما قدمنا ذكره.

ولما كـان في تالت سنه من مملكة الخـراسـانيين أضعفو [ضاعفوا] الخراج واكملوه على النصارى ولم يوفـو لهم بما وعـدوهم ونسـيـا الكاتبـان المذكوران هما والخراسانيون أن الله الذى أعطاهم الملك، ورفـضـو الصليب المقـدس الذى أعطاهم الظفر.

يا قَـيْسَ عَـيْـلانَ إني نَاصِحٌ لكُمْ ... أدّوا الخَرَاجَ وَخافوا القتلَ وَالحَرَبا[(١)]
إني أحـذّركُمْ يَحْـيَى وَصَـوْلَتَـهُ ... فَـمـا رَأيتُ لَهُ تَقْـيـاً إذا غَـضِـبـا

[و][(٢)] ورد كـتـاب الرشـيـد على يحيَى بن مـعـاذ، يأمـره بالخـروج إليـه. فكتب إلى أهل الأحـواف: أن اقـدمـوا حـتي أوصي بكم(٣) مـالك بن دلهـم، وأدخل فـيـمـا بينكم وبينه في أمـر خراجكم. فدخل كلّ رئيس منهـم من اليـمانيّة والقيـسيّة، وقد أعدّ لهم القـيـود. فأمرَ بالأبواب فأُخذت، ثمّ دعـا بالحديد فقيـدهم. وتوجه بهم للنصف من رجب سنة اثنتين وتسعين ومئـة. فوليها مالك بن دلهم إلى يوم الأحد لأربع خلون من صفر سنة ثلاث وتسعين ومئة[(٤)].

٧٤. الحسن بن التختاخ(٥)

ثمّ وليها الحسن بن التختاخ، من قبل الرشيد، على صلاتها وخراجها. واستخلف أبا رَحْب العـلاء بن عـاصـم الخـولاني. ثمّ قـدمـهـا يوم الاثنين لثلاث خلون من ربيع الأوّل سنة ثلاث

(١) الحرب: سلب المال.
(٢) زيادة في ر.
(٣) كذا في خـ، ن. وفي ر: أوصيكم.
(٤) ن: فكانت ولايته على مصر سنة واحدة وخمسة أشهر، تنقص أياماً لدخوله مصر، وتزيد أياماً لولايته ببغداد من الرشيد.
(٥) ن: البحباح. وترجمته في الخطط ١ : ٣١٠، والنجوم ٢ : ١٤١، وحسن المحاضرة ٢ : ١١.

وكتب عبد الله الملك إلى جميع مملكته أن كلمن يصير على دينه ويصلى كصلاته يكون بغير جزى [جزية]، فمن عظم الخراج والكلف عليهم أنكر كتير من الاغنيا والفقرا دين المسيح وتبعوه فمضى الأب البطرك أنبا خايل إلى أبى عون الوالى وخاطبه بسبب البلايا التى فعلت بمصر من بعد فعل الخير الذى أضمره، فقال له: الملك أمر بذلك لأن قوم سو شهدو له قايلين أن وجدو أهل مصر راحه سنه واحده نافقو عليك وحاربوك كما

وتسعين ومئة. فجعل على شرطه محمد بن خالد، ثمّ عزله وولّى أبا شُعيب صالح بن عبدالكريم، ثمّ عزله فولى سليمان بن غالب بن جبريل.

وفى ولايته قدم عليه ابن جُبَيل يعنى الرشيد. واستُخلف محمد بن هارون. [فثار الجند بمصر][1] فأعطاهم ابن التختاخ العطاء كاملاً: ثُلُثاً عيّناً، وثلثاً بَزّاً، وثلثاً قمحاً[2]. ووقعت فى ذلك فتنة عظيمة حتى قُتل ناس من الجند وناس من أهل مصر، فى المسجد الجامع.

وكتب الفضل بن الربيع إلى ابن التختاخ فى حمل الأموال. فلمّا صارت بفلسطين، وثبَ أهل الرملة على المال، فقالوا: هذا عطاؤنا قد ساقه الله إلينا. فأخذوا من ذلك المال عطاءهم كاملاً، وأدخلوا الباقى بيت المال.

فوليها ابن التختاخ إلى أن عُزِل عنها[3]، فسار متوجّهاً فى طريق الحجاز لفساد طريق الشام؛ وذلك يوم السبت لثمان بقين من ربيع الأوّل سنة أربع وتسعين ومئة. واستخلف عليها عوف بن وهب[4] على الصلاة، ومحمد بن زياد ابن طبق القيسى على الخراج[5].

(١) زيادة محتملة عن خـ.
(٢) كذا فى ر. وفى ص: فحا، بدون نقط. والبز: الثياب.
(٣) كذا فى أكثر المواضع من الكتاب. وفى ر هنا: عزله عنها.
(٤) ن: وهيب.
(٥) ن: فكانت ولايته على مصر سنة واحدة وشهراً وثمانية وعشرين يوماً.

حاربو البشامره مروان فسأله أن يفعل خيرا مع بيع الاسكندريه في خراج ما يزرع برسمها فقط فأمر أبو عون الوالي ذينك الكاتبين وقال لهما: ما أراده البطرك أفعلاه له فلم يقبلا منه، وكانا يميلان قلبه إلى السو. فأقام الأب البطرك وأبى أنبا مويسيس معه وأنا الحقير أكثر من شهر ملازمين القصر نرا[ء]ى [نفاوض] هولا الكافرين. وكان هناك شيخ عربي ينظر إلينا في كل يوم على تلك القضيه وكان خايفا من الله فحدث أبانا أنبا خايل

---

٧٥. حاتم بن هرثمة بن أعين(*)

ثمّ وليها حاتم بن هرثمة، من قبل محمد بن هارون الأمين، على الصلاة والخراج. وفرض في ألف من الأبناء قدم بهم إليها. فسارَ حتى نزل بلبيس، فصالحه أهل الحوف على خراجهم.

وثارَ عليه أهل تّنو وتُمَىّ، وعسكروا، وعقدوا عليهم لعثمان بن مستنير الجُذامي. فبعث إليهم حاتم بالسَّرىّ بن الحَكَم، وعبدالعزيز بن عبدالجبّار الأزدى، وعبدالعزيز بن الوزير الجروى(١). فاقتتلوا للنصف من شهر رمضان. فانهزم ابن مستنير، وقُتل أخوه. ودخل حاتم الفسطاط، ومعه مئة من وجوه اليمانية رهائن، وذلك يوم الاربعاء لأربع خلون من شوال سنة أربع وتسعين ومئة. فجعل على شرطه ابنه، ثمّ عزله فولى عليّ بن المُثَنّى، ثمّ عزله وولى عبيدالله الطرْسُوسى. وابتنى حاتم بن هرثمة القُبّة التى تُعرف بقبّة الهواء، وهو أوّل من ابتناها.

فوليها حاتم إلى أن صُرف عنها في جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين ومئة(٢).

....

(*) الخطط ١ : ٣١٠، والنجوم ٢ : ١٤٤، وحسن المحاضرة ٢ : ١١.

(١) كذا في ر، خـ (١ : ١٧٨). وفي ص: الخروج.

(٢) ن: فكانت ولاية حاتم هذا على إمرة مصر سنة واحدة ونصف سنة تنقص أياماً.

حديثا قايلا: مثل ما افتقدنا نحن العباد المسلمون
أنا أعلم أنكم سوف تكونون متلنا، فقال له الأب:
صدقت وأنا اريدك أن تعلمني معنى قولك. فقال
له الشيخ: كنت وأنا صبي قد سلمني أبواى إلى
صديقين تاجرين إسماعيليين لامضى معهما بتجاره
إلى تونس أبيعها، فلما سرنا إلى الخمس مدن
[بنتابولس] وكانت الجمال موقره [محملة] بتحف
مصر والمشرق نزلنا على بركه ما[ء] عميقه جدا
وكان في وسط كل واحد منا كيس فيه أربع مايه

---

٧٦. جابر بن الأشعث الطائى[*]

ثمّ وليها جابر بن الأشعث الطائى. من قبل محمد الأمين، على صلاتها وخراجها؛ وليها يوم الاثنين لخمس بقين من جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين ومئة[١]. واستخلف على الشرط عبدالله بن إبراهيم الطائى، واستخلف على الصلاة أبا شريك يحيَى بن يزيد بن حمّاد[٢] المرادى. ثمّ قدمها جابر فأقرّ عبدالله بن إبراهيم على الشرط، ثمّ عزله فولى سليمان بن غالب بن جبريل.

وكان جابر بن الأشعث ليّناً محبّباً إلى الناس من العامة والخاصة، حتى تباعد ما بين محمد الأمين وبين أخيه المأمون، وخلع محمد أخاه من ولاية العهد، وترك الدعاء له على المنابر، وعهد محمد إلى ابنه موسى الذى يقال له «الشديد» ودعا له. فتكلّم الجند بينهم فى خلع محمد غضباً للمأمون. فأوّل من تكلّم فيه منهم بمصر محمد بن صُعَير والسّرِىّ بن الحَكَم بن يوسف. ودنا إلى أهل خراسان في خلع محمد، والعقد للمأمون. فبايعهما على ذلك نفر يسير. ثمّ تكلّم بذلك من أهل مصر زُرعة بن معاوية بن قَحْزَم الخولانى، وابنه الحارث، وهاشم بن

(*) الخطط ١ : ٣١٠، والنجوم ٢ : ١٤٨، وحسن المحاضرة ٢ : ١١.
(١) جعلت ن هذا التاريخ لقدومه لا لولايته.
(٢) كذا في ى (٤ : ٣٣٠). وفى ر: صاد، تحريف.

دينار، فمن تعب الطريق والحر تعرى أحدنا لينزل الما[ء] يستحم، فطرح هميانه [كيسه] إلى رفيقه ليمسكه إلى حين صعوده من الما[ء] فسقط الهميان من يده فى الما[ء] ولم يعلم بذلك أحد. فتعرى الرجل الذى وقع منه ونزل فى طلبه فلم يجده فطلع ذلك الرجل ودفع لرفيقه هيمانه عوضه ولم يعلمه أنه ضاع منه. ومضينا إلى أفريقيه وابعنا تجارتنا واشترينا غيرها مما يصلح لمصر. فقال الكبير للصغير: اعطنى الأربع مايه

عبدالله بن حُديج، وابنه هُبيرة. فبعثَ إليهم جابر بن الأشعث ينهاهم عن ذلك، ويخوفهم عواقب الفتن. وأقبل السرى بن الحكم يدعو الناس إلى خلع محمد.

فأخبرنى ابن قديد: أن السرى بن الحكم كان أوّل دخوله إلى مصر أنّه كان من جند الليث بن الفضل، دخلها فى أيّام الرشيد. قال: وكان قليل الأمر فارتفع ذكره بقيامه فى خلع محمد.

وكتب المأمون إلى أشراف أهل مصر يدعوهم إلى القيام بدعوته. فكلهم أجابوا سرّاً. وأتَى كتاب هرثمة بن أعين إلى عباد بن محمد بن حيان مولى كندة، وكان وكيلاً لهرثمة على ضياعه بمصر. فأظهر عباد كتاب هرثمة، وأحضر الجند إلى المسجد الجامع، وقرأه عليهم، ودعاهم إلى خلع محمد. فأجابه عظيم الناس إلى ذلك. فأعطاهم عباد رزقاً يسيراً، وبايعوا للمأمون. وكان خلع محمد بمصر لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ستّ وتسعين ومئة. وبويع عباد بن محمد للمأمون بيعة عامة لثمان خلون من رجب سنة ستّ وتسعين ومئة. ووثب الجند بجابر بن الأشعث فأخرجوه. فكانت ولايته عليها سنة.

٧٧. عباد بن محمد بن حيان(*)

ثمّ وليها عباد بن محمد، من قبل المأمون، على صلاتها وخراجها. لثمان خلون من رجب سنة ستّ وتسعين ومئة. فجعل على شرطه هُبَيرة بن هاشم ابن حُدَيج. وبلغ محمداً ما فعله

(*) الخطط ١ : ٣١٠، والنجوم ٢ : ١٥٣، وحسن المحاضرة ٢ : ١١.

دينار التى معك لابتاع بها تجاره. فقال له: ما ابتعناه يكفينا فى هذه الدفعه. ولح عليه فلم يقل له الخبر، فاشترى بالأربع مايه دينار التى كانت معه بضاعه، فلما عدنا إلى البركه فعل ما فعل أولا وتعرى الكبير الذى كانت له الدنانير وضاعت منه ونزل يستحم فوجد الهميان الذى كان ضاع منه. فلما نظر إليه عرف أنه هيمانه، فقال لصديقه: أعلمنى ما جرى عليك. فعرفه ما كان من حديثه وكيف ضاع منه، فلم يقل له الأخر أننى وجدته

المصريون من خلعه واخراج عامله جابر بن الأشعث، فكتب محمد إلى ربيعة بن قيس بن الزبير[1] الجُرَشى، وكان رئيس قيس بالحوف، بولايته على مصر. وكتب إلى عبدالصمد بن مسلم بن عمارة الجُرَشى، وإلى يزيد بن الخطاب الكلبى، وإلى عثمان بن مستنير الجذامى، يأمرهم بمعاونة ربيعة بن قيس، وانفاذ[2] أهل الحوف كلهم معه يمنها وقيسها. وأظهروا دعوة محمد، وخَلْعان المأمون، وساروا إلى الفسطاط لمحاربة أهلها. فخندق عباد على الفسطاط. وخرج أهل الفسطاط من مسيرهم. وعقد عباد لإبراهيم بن حُوَىّ بن مُعاذ العُذْرى، على بَنَا[3]. وسَنْهُور[4]. وسَنْدَفا[5]. فخشى يزيد بن الخطاب على ماله هناك، فسار إلى إبراهيم بن حُوَىّ. فالتقوا بدُمْرُو، فقُتل إبراهيم بن حُوَىّ. قال سعيد بن عفير ليزيد بن الخطاب بن طَلّاب الكلبى:

---

(١) كذا فى خـ (١: ٣١٠)، وفى ر: البرن.
(٢) كذا فى ر. وفى خـ (١: ١٧٨): وانقاد.
(٣) بنا: مدينة قديمة بينها وبين سمنود ميلان.
(٤) سنهور: مكانها اليوم تل سنهور، فى شمال أراضى ناحية المناجاة، التى بمركز فاقوس، من مديرية الشرقية، وبالقرب من بحيرة المنزلة. وكذا هى فى ر. وفى ص: سور.
(٥) سندفا: كانت فى القسم الجنوبى من المحلة الكبرى القديمة، وهى الآن جزء منها ولا يفصل بينهما غير الشارع الذى حل محل الخليج.

حتى وصلو إلى مصر وباعو التجاره فدفع الكبير للصغير ربح الأربع مايه دينار وأوصلها إليه وقال له: الله أعطاك هذا المال لك والربح يجب أن يكون لك. فلما فعل ذلك خاطبه رفيقه فيما بينهما واشتهر الأمر إلى الحاكم وجماعة الناس تعجبو من ذلك، وأخذ كل واحد منهما شيا من ماله وصدقه على الفقرا وانفردا للعباده وتبعتهما أنا ولم يبع واحد منا ولم نشتر. والآن ايها الرجل القديس فهو ذا ترى كل احد كيف هو محب للظلم وقد جعلو

قَتَلوا ابنَ سَيِّدهمْ وَفارِسَ حِزْبِهِمُ ... عَنْ غَيْرِ نَائِرَةٍ وَلا إجْرَامِ
أضْحَتْ قُضَاعَةُ قَد عَلَتها كَآبَةٌ ... وبَنو الجُرَيشِ سَوافِرَ الإظْلام
فَلَئِنْ قُضَاعَةُ لَمْ تُطالِبْ ثَأرَهُ ... بكَتيبَةٍ خَشْنَاءَ ذاتَ عُرامِ[١]
مَا في قُضَاعَةَ بَعدَها مَا يُرتَجى ... لِلنَّائِبَاتِ وَمَا هُمُ بِكِرَامِ

وسارَ ربيعة بن قيس إلى الفسطاط، فنزل على الخندق سلخ ربيع الآخر سنة سبع وتسعين ومئة. فتناوشوا شيئاً من حرب. وكانت بينهم قتلى ثمّ انصرفوا. وأقبلَ عثمان بن بلادة القيسيّ[٢]. من قِبَل ربيعة، إلى الخندق[٣] في جمادى الأولى سنة سبع وتسعين فتحاربوا. ثمَ انهزم ابن بلادة يومئذ من عباد. [ثمّ أقبل][٤] عثمان بن بلادة إلى الخندق في شوال سنة سبع وتسعين. فاقتتلوا أيّاماً، وعلى أهل الفسطاط أبو الكرم بن حوى بن حوى[٥]، فقُتل أبو الكرم. ثمَ رأى عباد أن يبعث إليهم بجيش، فيحاربهم في ديارهم. فعقد لعبد العزيز الجروى، فالتقى

(١) النائرة: الهائجة. والجريش: كذا يظنهار، وفي ص: الحرس: وعرام: حدة وشدة وكشرة. وفي ر: غرام. تحريف.
(٢) ر: العبسي.
(٣) كذا في ر. وفي ص: الجند.
(٤) زيادة في ر، لافتقار الأصل إليها.
(٥) كذا في ر، وقال: في الأصل: حرى بن حرى وليراجع ابراهيم بن حوى.

السو تاجا على روسهم وانت مشاهد هذا وتعلم انه صحيح [فلما سمعو الابهات هذا رجعو] تفرقنا إلى مواضعنا فلم يصبر الله على الخراسانيين، فاثار عليهم الحروب من كل موضع فالاول عبد الرحمن بن حبيب اخو الأسود المذكور اولا ملك افريقيه، وانفذ عبد الملك عساكر إلى افريقيه ليأخذوها وذلك في السنة الرابعه من مملكته.

وفي سنة أربع مايه وسبعين للشهدا سارو من

معهم بعمْريط[١]، في ذى القعدة سنة سبع وتسعين. فانهزم الجروى ومضى في قومه من لخم وجُذام إلى فاقوس. فعذله قومه وقالوا: لم لا تدعو لنفسك؟ فما أنت بدون هؤلاء الذين غلبوا على الأرض. فمضى فيهم[٢] إلى بلبيس[٣] فنزلها ثمّ بعثَ عمّاله يجبون الخراج من أسفل الأرض. فبعث إليه ربيعة بن قيس بعثمان بن بلادة يمنعه من الجباية.

وسار أهل الحوف أيضاً في المحرم سنة ثمان وتسعين ومئة إلى الخندق. فعقد عباد للسرى بن الحكم على حربهم. فاقتتلوا وقُتل جمع من الفريقين، وقُتل فيهم محمد بن حرى[٤]. فانكشف أهل الحوف، وبلغهم مقتل محمد الأمين وبيعة المأمون فتفرّقوا.

وكان مقتل محمد في المحرم سنة ثمان وتسعين ومئة. وصرف عباد[٥] عنها في صفر سنة ثمان، فكانت ولايته عليها سنة وسبعة أشهر.

---

(١) عمريط: قرية بشرقية مصر. وكذا هي في ر، خـ (١: ١٧٨). وفي ص: عبريط.

(٢) كذا في خـ. وفي ر: منهم.

(٣) خـ (١: ١٧٨): تنيس. وهو الأرجح.

(٤) لعل صوابه حوى.

(٥) ذكر صاحب النجوم خطأ أن عباداً أسر في حروبه وحمل إلى الأمين فقتله في صفر سنة ثمان وتسعين ومئة. وذلك محال لأن الأمين كان قد قتل قبل ذلك بشهور، منذ المحرم.

مــصــر من اول شــهــر ابيب. ولم يجــســرو على الوصــول إلى افـريقـيـه بل أقـامـوا في البـريه وهلك اكـثـرهم بالعطش، اهلك الله عبـد الله في تلك السـنه وجلس ولده مكانه ووقع بمصـر قتـال عظيم بين صـالح وبين اخـيـه الذى جلس ملكا. ثـم انفـد صالحا إلى مصـر يطلب عـسكره ويسـتنقـذه من يد أخـيـه، ثم انه اعـاد العـسكر الذى كـان سـيـره إلى افـريقـيـه ودخل إلى مـصـر في تاسع عشـر يوم من بابه. وسـار إلى فلسطين ليقـاتلو اخـا صـالح، وكـان

---

٧٨. المطلب بن عبدالله الخزاعى(*)

ثمّ وليها المطلب بن عبدالله الخزاعى، من قبل المأمون، على صلاتها وخراجها؛ دخلها من مكّة للنصف من ربيع الأوّل سنة ثمان وتسعين. فأقرّ هبيرة بن هاشم بن حُدَيج على شرطه، ثمّ عزله فولى محمد بن عسامة بن عمرو المَعَافرى، ثمّ عزله وولى عبدالعزيز بن الوزير الجروى، ثمّ عزله وولى إبراهيم بن عبدالسلام بن إبراهيم بن الهيثم الخزاعى، ثمّ عزله فولى هبيرة بن هاشم بن حُدَيج.

وقد كان السرى بن الحكم تلقّاه فأغراه بأهل مصر، وخبّره بتسريعهم إلى أهل خراسان، وخوّفه من إبراهيم بن نافع الطائى، وكان مباعداً للسرى. فطلبَ المطلب إبراهيم الطائى، فلم يظهر له، فجدّ في طلبه. واتهم زُرعة ابن قُحْزَم، وهُبيرة بن هاشم، وجنادة بن عيسى، وجُزَىّ(١) بن عمرو بن سهيل بن عبدالعزيز بن مروان، فسجنهم ليُظْهروه عليه. ثمّ ظهرَ له أنّه عند هبيرة بن هاشم، فعرضه على السيف أو يأتيه بالطائى. فامتنع هبيرة من إظهاره. فلمّا سكن المطلب(٢) عن الطائى، أخرجه هبيرة إلى الصعيد، فأفلت. قال سعيد بن عفير:

(*) الخطط ١ : ٣١٠، والنجوم ٢ : ١٥٧، وحسن المحاضر ٢ : ١١.

(١) كذا في المشتبه للذهبى ١٠٤، وفى ر: حرى.

(٢) قال ر: يكون الصواب: الطلب.

أبو عون هنا فقتل من عسكره خلق كثير وكانت الحروب بينهم قايمه لم تنقطع وجازاهم الله عوض السو الذى فعلوه بارض مصر، وافنى بعضهم بعضا بغير يد غريبه، ولم يزالا يقتتلا حتى مضى صالح إلى الملك الكبير فى العراق ورجع أبو عون إلى مصر وهرب اخو صالح فلم يظهر بعد ان افنو العساكر بينهم.

ثم تنيح انبا يوحنا بطرك انطاكيه بعد ان اقام

لَعَمْرِى لَقَد أوْفَى وَفَاقَ وَفَاؤهُ ... هُبَيرَةُ فى الطائى وفَاءَ السَمَوأَلِ
وَقَاهُ المَنَايَا إذْ أتَاهُ بنفْسه ... وَقَدْ بَرَقَتْ فى عَارِضٍ مُتَهلّلِ[1]
فَمَا انفَكَ مَحْبُوساً وَمُطّلبٌ لَهُ ... عَلَيْه قَصِيف بالوَعِيد المُهَوّلِ
فَمَا زَادَهُ الإيعَادُ إلاّ تَوَقّراً ... وَصَبراً، ولَم يَخْشَعْ ولَم يَتَفكَلِ
إلى أنْ تَجلّتْ عَنْهُ أبْيَضَ مَاجِداً ... كَرِيمَ النَشَا فى المَشْهَدِ المُتَدَخّلِ

وبلغ المطلب مسير ربيعة بن قيس إلى يزيد بن خطّاب، ليجتمعا على حربه بأسفل الأرض. فعقد لعبدالعزيز الجروى وبعثه إليهم. فالتقوا بشَطْنُوف[2]، وكانت بينهم قتلى. وبعث المطلب بالسرى بن الحكم، فكان مقيماً بالحوف. وتفرّقت قيس وسكن أمرهم. وكان بُهلول اللخمى قد تغلب على الإسكندريّة فى ولاية عباد، فلمّا قدم المطلب ولى على الإسكندريّة حُدَيج بن عبدالواحد ابن محمدبن عبدالرحمن بن معاوية بن حديج. فخرجت بنو مدلج بالإسكندريّة. فبعث إليهم المطلب بأخيه هارون. فانهزم هارون.

(١) العارض: السحاب المعترض فى الأفق. والمتهلل: المتلألىء. والقصيف: الصوت الشديد. ورواية الشطر الأول من البيت الرابع فى ر: «فما زاده الابعاد إلا توقرا» تحريف. ويتفكل: لعل معناها يرتعد ويرتعش من الأفكل وهى الرعدة، ومال ر إلى أنها محرفة عن يتوكل. والنشا: الذكر.

(٢) شطنوف: بلد من كورة الغربية، يفترق النيل عنده فرقتين، فرقة تمضى شرقياً إلى تنيس، وفرقة تمضى غربياً إلى رشيد، على فرسخين من القاهرة.

مصالحا الأساقفه تلت سنين. ومنع الله الما[ء] ان يطلع [فيضان النيل] وأبو عون بمصر، وجميعا ما وصل[الماء] إلى أربع عشره دراعا ووقف. وكان الما[ء] الذى يستحبه السلطان للخراج ست عشره دراعـــا، وإنما منع الله الما[ء] من أجل ذينك الرجلين الكاتبين اللذين يشبهان الدجال فى افعاله. وكان منع الما بإرادة الله ليظهر عجايبه التى ظهرها كل زمان وصحة دين النصرانيه.

ثمّ صُرِف المطّلب عنها فى شوال سنة ثمان وتسعين، وكانت ولايته عليها سبعة أشهر ونصفاً.

٧٩. العباس بن موسى بن عيسى العباسى(*)

ثمّ وليها العبّاس بن موسى، من قبل المأمون، على صلاتها وخراجها، فقدمها ابنه عبدالله بن العبّاس، ومعه أبو بِشْر الحسن[١] بن عُبيد بن لُوط ابن عُبيد بن عازِب[٢] الأنصارى، قدمها لليلتين بقيتا من شوال سنة ثمان، فعَزلا المطّلب وسجناه، وجعلا على الشرط محمد بن عسامة المعافرى. ثمّ عزلاه وجعلا مكانه عبدالعزيز بن الوزير الجروى.

وثاور الأنصارى[٣] الجند مرّة بعد مرّة، ومنعهم أعطياتهم. وتهددهم. وتحامل على الرعية وعَسَفها، وتهدّدهم بقدوم العبّاس بن موسى. فأوحش الجميع ذلك من فعله.

واستصحب عبدالله بن العبّاس، فى مسيره إلى مصر، محمد بن إدريس الشافعى الفقيه، رحمه الله؛ فذلك سبب قدوم الشافعى إلى مصر.

(*) الخطط ١ : ٣١٠، والنجوم ٢ : ١٦١، وحسن المحاضرة ٢ : ١١.
(١) كذا فى ن أيضاً. وفى خـ: الحسين.
(٢) ر: عارب، خطأ.
(٣) ثاوره: واثبه. وفى خـ: فثار الجند مراراً.

وكانو الأساقفة وصلو من كراسيهم إلى البطرك ليجتمعو عند البطرك فى عيد الصليب(*) كما جرى العاده ان يجتمعو عنده ويكون لهم مجمع دفعتين في السنه، ومضى اسقف مصر وغيره واظهر الله ذلك لأبى الأسقف أنبا مويسيس وامرو ان لا يمضى إلى المجمع باسكندريه احد كما جرت العاده تلك السنه. فجمع الأساقفه بها عند البطرك.

ولما كان السابع عشر من توت يوم عيد

(*) عيد الصليب: تحتفل الكنيسة المصرية بظهور الصليب احتفالين: الأول فى اليوم السابع عشر من شهر توت سنة ٣٢٦م على يد الملكة هيلانة والدة الامبراطور قسطنطين (الذى اعلن المسيحية ديانة رسمية للامبراطوريه الرومانية). وقد كشفت الملكة عن مكان الصليب بأن أحضرت عند وصولها لأورشليم شيخاً من اليهود وضيقت عليه بالجوع والعطش حتى اضطر إلى الارشاد

وخدع عبدالعزيز الجروى عثمان بن بلادة. وشكلباً، وعابساً، وهم من وجوه قيس، فأسرهم. فقتلهم ابن العبّاس يوم النحر سنة ثمان وتسعين[١].

وعاد الأنصارى إلى التحامل على الجند والرعيّة. فثاروه ودعوا إلى ولاية المطلب، وهو يومئذٍ فى حبس ابن العبّاس، وذلك فى المحرم سنة تسع وتسعين ومئة. فكانت مدّة مقام ابن العبّاس خليفة لأبيه عليها شهرين ونصفاً.

٨٠. المطلب بن عبدالله (*)

الثانية

ثمّ وليها المطلب بن عبدالله الثانية، بإجماع الجند عليه لأربع عشرة خلت من المحرم سنة تسع وتسعين ومئة. فبايعوه فجعل على شرطه أحمد بن حُوَىّ ابن حوى، ثمّ عزله وولى هبيرة بن هاشم بن حديج. وهرب الجروى إلى تنّيس. وانضمّ عبدالله بن العبّاس بن موسى إلى عباد بن محمد، فآواه ومنع منه. وانضمّ الأنصارى إلى المطلب. وأقبل العبّاس[٢] بن موسى بن

(١) ذهب النجوم إلى أن صاحب البغية قال: إن الجند قتلت عبدالله بن العباس فى ذلك اليوم، بخلاف ما يذكره الكندى.

(*) الخطط ١: ٣١٠، والنجوم ٢: ١٦٢، وحسن المحاضرة ٢: ١١.

(٢) كذا فى ر عن خـ، ن. وفى ص: أبو العباس.

عن المكان الذى يوجد الصليب فيه بكيمان الجلجثة. والاحتفال الثانى فى اليوم العاشر من شهر برمهات، وكان على يد الامبراطور هرقل سنة ٦٢٧م. وذلك أنه لما أرتد الفرس عن مصر إلى بلادهم أخذوا معهم بقايا الصليب المقدس من كنيسة الملكة هيلانه فقام هرقل بغزو بلاد الفرس وحمل بقايا الصليب معه إلى القسطنطينة حيث حفظها بكنيستها. ولأن اليوم العاشر من برمهات يكون فى

الصليب المجيد جمع كهنة الجيزه والنزهات واكثر اهل الفساط والكبير والصغير من شعبه، وحملو الأناجيل ومباخر البخور ودخلنا إلى البيعة الكبيره (القتاليكون) التى على اسم القديس بطرس وكان اساسها فى البحر ولم تكن البيعه تسع الناس من كثرتهم حتى انهم كانوا فى الغيطان والمواضع. ورفع البطرك الصليب وكان معه انبا مينا اسقف (منف) والأنجيل المقدس معه، وخرجنا جميعنا ونحن حاملون الصليب والأنجيل المقدس ووقفنا

عيسى من مكّة إلى الحوف. فنزل بلبيس ودعا قيساً إلى نصرته. ثمّ مضى إلى الجروى بتنّيس[١] فشاوره. فأشار عليه أن ينزل دار قيس. فرجع العبّاس إلى بلبيس يوم الأحد لثلاث عشرة بقيت من جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين ومئة[٢].

فيقال: إنّ المطلب دسّ إلى قيس فسمّوا العبّاس فى طعامه، فمات ببلبيس لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين ومئة. وعاد إبراهيم الطائى إلى المطلب فى ولايته الثانية فكان معه. وظهر المطلب على كتب من العبّاس إلى الطائى والأنصارى. فبعث المطلب بهبيرة بن هاشم فقتل الطائى. وسلّطَ الجند على الأنصارى فقتلوه. قال مُعَلّى الطائى يمدح المطلب:

كَفَاهُمْ من العَبّاسِ ما لَوْ عُنُوا به ... لأحيَا لهُمْ من جَوْرِ فِرْعَوْنَ ما عدَلْ[٣]

فَمَنْ مُبلغُ المأمُون عَنى نَصيحَةً ... وَما عالِمٌ شَيئاً سَوَاءً وَمَنْ جَهِلْ

بأنّ ابنَ عَبْدِ الله لَوْلا مَكَانُه ... لَعَرَفْتَ[٤] للعَبّاسِ داهِيَةً جَلَلْ

(١) كذا فى ر، خـ. وفى ص: بيلبيس. خطأ.
(٢) جعل خـ، ن هذا التاريخ لوفاة العباس لا لرجوعه.
(٣) عدل: عدله وكافأه. وكذا مال ر إلى إصلاح البيت، وهو محرف فى الأصل.
(٤) ر: فعرفت.

على شاطى البحر قبل طلوع الشمس. وصلى الأب البطريرك وانبا مينا الإسقف ولم يزال الشعب صارخين كيريا ليصون إلى تلت ساعات من النهار حتى بهت جميع الجموع من اليهود والمسلمين وغيرهم من صراخنا إلى الله سبحانه وتعالى، فسمع جل اسمه الكريم [دعانا] وطلع البحر [النيل] وزاد دراعا واحده ومجد كل احد الله وشكره.

ولما اتصل الخبر بابى عون. تعجب وخاف هو

الصوم فقد استقرت الكنيسة على يوم ١٧ توت للإحتفال بظهور الصليب. انظر السنكسار جـ ١ ص ٣٧وجـ٢ ص ,٢٩
أما عن وفاء النيل والاحتفاء به فكان يقام عند بلوغ ارتفاع ماء النيل في القياس كما سبق وذكر الستة عشر ذراعاً. وتسمى ليلة الاحتفال بجبر [كسر] السد الذى يقام عند المقياس بمصر عتيقة بليلة النقطة، إذ يعتقد أن نقطة عجيبة تسقط حينئذ في النيل وتسبب ارتفاعه. ويعلن ارتفاع النيل في شوارع العاصمة يوميا

وقال سعيد بن عفير في مقتل أبى بشر الأنصارى، ويذمّ مطلباً فيما فعل:

أرَى كُلّ جَارٍ قَد وَفَى[1] بجِوَارِهِ ... وَخَانَ أَبَا بِشْرٍ جِوَارُ ابن مَالك
أُمطّلبُ هَلاّ مَنَعْتَ ابنَ عَازِبٍ ... وأذيْتَهُ[2] قَبْلَ انْسِدَادِ المَسَالكِ
فَيَأخُذُ حَبْلاً منْ سِوَاكَ بعِزَّةٍ ... ويمْنَعُهُ منْ كُلّ تَبْلٍ وَهَالك[3]
كَحَبْلِ حُوَيٍّ[4] أوْ كحَبْلِ ابن قَحزَمٍ ... وَثِيقِ العُرَا للمِعْصَمِ المُتَمَاسِكِ

وقال أيضاً:

أخْبِرْ بَنى قَحْطَانَ في مِصْرَ أنّنى ... رَأيْتُهُمْ لا يَحْفَظُونَ لهُمْ إصرًا[5]

وكاتب مطلب أهل الأحواف بعد موت العبّاس، فانطاعوا له وبايعوه. وساروا إلى جُبّ عُميرة فلقوا مطلباً. وسألوه فولى المطلب يزيد بن خطاب الكلبى على أسفل الأرض. وبعث

(١) ر: رمى، خطأ.
(٢) ر: ابن غادر وأذيته.
(٣) التبل: الثأر. وهالك: مهلك. وفى ر: من كل طبل ومالك، ولا معنى له.
(٤) ر: نوى، ولعل صوابه ما أثبته.
(٥) الإصر: العهد.

وجميع عسكره وطرح الله في قلبه ان قال لجيشه ولأهل مصر. يريد ان نعرف أى الأديان هو الدين الصحيح. فامر ان يجتمعو المسلمون المقيمون بمصر ويخرجو إلى الجبل الشرقى بمصر، فاجتمعو الصغار والكبار والشيوخ والشباب والعبيد والأحرار، ولم يبق احد من اهل دينه وملته، واقامو الناس مجتمعين نصف الليل إلى اربع ساعات من النهار وصلو وتضرعو إلى الله ويقولون هكذا: يا الله الواحد الذى لا نظير له يا خالق السما والأرض

ابتداء من السابع والعشرين من بؤنه أو ما يقرب من ذلك. وعندما يصل الارتفاع إلى ستة عشر ذراعاً يعلن ذلك في كل انحاء البلاد وذلك غالباً بين الأول والحادى عشر من مسرى ثم يكسر السد المقام عند المقياس. وعن الاحتفالات التي تقام بهذه المناسبة انظر: الجبرتي، عجايب الآثار جـ٥ ص١٠٥ وما بعدها. تحقيق واعداد عبد العزيز جمال الدين ـ مكتبة مدبولي ـ القاهرة.

إلى الجروى بعَقْده على تنّيس، وأمرَه بالشخوص إلى الفسطاط. فامتنعَ الجروى من ذلك. فبعثَ المطّلب بوالٍ على تنيس. وأخرجه الجروى منها. ثمّ سار الجروى في مراكبه حتى نزل شَطَنُوف. فبعثَ إليه المطّلب بالسرى بن الحكم في جمع من الجند، يسألونه الصلح. فأجابهم إليه. ثم اجتهد في الغدر بهم فتيقّظوا له. فمضى راجعاً إلى بنَا. واتّبعوه فحاربوه. ثمّ عاد فدعاهم إلى الصلح، ولا طف السرى. فخرج إليه في زَلاّج، وخرج الجروى في مثله. فالتقيا وسط النيل مقابل سندفا، والسرى بشَرقيون[١]. وقد أعدّ الجروى في باطن زلاجه الحبال، وأمرَ أصحابه بسندفا، إذا لاصق بزلاج السرى، أن يجرّفوا الحبال إليهم. فلصق الجروى بزلاج السرى، فربطه إلى زلاجه. وجرّ الحبالَ الرجالُ فأسروا السرى. ومضى به الجروى إلى تنّيس فسجنه بها، وذلك في جمادى الأولى سنة تسع وتسعين.

ثمّ كرّ الجروى على يزيد بن خطّاب فقاتله فهزمه. فعقد المطّلب لابن عبدالغفّار الجمحى، وبعثه إلى الجروى، وأيّده بالرجال. فلقيهم الجروى فهزمهم. وأسر ابن عبدالغفّار ووجوه أصحابه. وكانت وقعتهم بسَفْط سَلَبط[٢]، أوّل يوم من رجب سنة تسع وتسعين ومئة.

---

(١) شرقيون: مدينة شمال المحلة الكبرى.

(٢) سفط سلبط: قرية بالمنوفية.

انت تعلم اننا لا نشرك بك ولا نعبد معك احدا ولا نقول مثل النصارى ان لك ولد ولا أنك مولود بل نوحدك ونعبدك بالتوحيد، نريد ا ن ننظر عجايبك اليوم التى انت عاملها لنعلم ونتحقق انه ليس دين مثل ديننا الذى ورثناه من آبايينا، ونسالك ان تفعل معنا اعجوبه كما فعلت بالنصارى امس الذين هم اعدانا واعدا مذهبنا، الذين يجعلون معك الاها اخر مولودا منك من البدى ويسمونه المسيح المولود من مريم، يقولون انه ابنك وروح

وعقد المطلب على الإسكندريّة لمحمد بن هبيرة بن هاشم بن حُدَيج[1]. فاستخلف محمد عمر بن عبدالملك بن محمد بن عبدالرحمن بن عبدالرحمن بن معاوية بن حُدَيج، الذى يقال له «عمر بن مَلاَّل[2]». فوليها عمر بن عبدالملك ثلاثة أشهر، ثمّ عزله المطلب بأخيه الفضل بن عبدالله بن مالك. وكانت بالإسكندريّة مراكب الأندُلُسيين، قد قفلوا من غزوهم، فنزلوا الإسكندريّة ليبتاعوا ما يصلحهم؛ وكذلك كانوا على الزمان. وكانت الأمراء لا تمكنهم [من][3] دخول الاسكندرية، إنّما كان الناس يخرجون إليهم فيبايعونهم. فلمّا عُزِلَ عمر بن مَلاَّل، كتب إليه عبدالعزيز الجروى، يأمره بالوثب على الإسكندريّة والدعاء له بها، و[أن][4] يخرج الفضل بن عبدالله منها. فبعثَ عمر بن مَلاَّلَ إلى الأندلسين، فدعاهم إلى القيام معه فى إخراج الفضل عنها، فساروا معه. فأخرج الفضل منها ودعا إلى الجروى. فوثب أهل الإسكندرية على الأندلسيين فأخرجوهم، وردّوا الفضل عليهم. وقُتل من الأندلسيين نفر وانهزموا إلى مراكبهم. ثمّ عزل المطلب أخاه، وولّى عليها إسحاق بن أبرهة بن الصبّاح بن الوليد بن أبى شمر[5] بن

(١) كذا فى ر، خـ (١ : ١٧٢). وفى ص: جديد. تحريف.
(٢) كذا فى ثلاثة مواضع من ص، خـ. وفى ر: هلال. ويؤخذ من الشعر الآتى أن ثانيه مشدد.
(٣) زيادة تقتضيها العبارة. وفى خـ (١ : ١٧٢): لا تبيحهم دخول.
(٤) زيادة عن ر.
(٥) ر: سمر. خطأ. كما اتضح آنفا.

القدس وانت تالتهم، وكلاما كتيرا، ونسألك أن تصنع لنا علامه وآيه فى هذا الما[ء]. وفيما هم فى ذلك وإذا رجل من قياسى الما[ء] يجرى فقال لهم: الذى زاد الما[ء] أمس نقصه اليوم. فلحقهم حزن عظيم ولم يعلمو ما يقول . ومضو الناس إلى مواضعهم بكابه عظيمه. ثم أمر ان يجرب اهل مصر فامر المنادى ان ينادى بخروج المسلمين إلى الجبل ليصلو وبالغداه خرج جميعهم. واليهود والسامرية خرجو ثانى يوم فلم

أبرهة بن الصبّاح الأصبحى. فسار إليه عمر بن ملال، ودلك فى شهر رمضان سنة تسع وتسعين ومئة. ثمّ عزله المطّلب وولاها أبا بكر بن جنادة بن عيسى المعافرى.

وأقبل عبدالله بن موسى إلى مصر، طالباً بدم أخيه العبّاس، فى المحرم سنة مئتين. فنزل على عبدالعزيز بن الوزير الجروى. فسار معه فى جيوش له كثيرة العدد فى البر والبحر حتى نزل الجيزة. فخرج إليه المطّلب فى أهل مصر، فحاربوه فى صفر سنة مئتين. فرجع الجروى إلى شرقيّون[1]. ومضى عبدالله ابن موسى إلى الحجاز. وظهر للمطلب أن أبا حَرْمَلَة[2] فرجا[3] الأسود الذى كاتب عبدالله بن موسى. وحرّضه على المسير، فطلبه المطلب. فهرب فرج إلى الجروى. فهدم المطّلب دوره كلّها. فدفع إليه الجروى من الأموال ما أعاد بناءها.

وجدّ المطّلب فى أمر عبدالعزيز الجروى. فبلغ الجروى ذلك، فأخرج السرى بن الحكم من السجن. فعاهده وعاقده أنّه يطلقه من سجنه، ويُلقى إلى أهل مصر أن كتاباً ورد بولايته على أن يثور بالمطّلب ويخلعه. فعاهده السرى على ذلك، واتّفقا جميعاً على عقد بينهما. فأطلقه

(١) شرقيون: القسم الشمالى من المحلة الكبرى.
(٢) كذا فى ر عن خـ (١ : ١٧٨) ومواضع أخرى من الأصل، وهنا فى ص: أبا حرمه.
(٣) كذا فى خـ. وفى ص: فرح. وقال ر: وفى الانتصار يظهر أنه صاحب السقيفة والدار المذكورتين فى هذا الكتاب وفى غيره، ولعله هو الذى سمى بعد فرج بن حرملة.

يزد الما ولا نقص بل ثبت على ما كان عليه، فبقى أبو عون الوالى تحت كآبه ولم يومن وقال: حتى انظر اخر الأمر. وبقى حايرا يقول: بصلاة النصارى زاد الما وبصلاتنا نقص . فتقدم فى اليوم التالت ان لا يخرج احد بالجمله ولا يطلع أحد الى الجبل ولا يصلى. ولم يزد الما فى التلتة أيام شيا. وبعد ذلك امر باحضار النصارى الذين بالفسطاط وقبايل لم نذكر اسماهم، وتقدم الى انبا مويسيس ان يصلى هو وشعبه [وامرهم ان يصلو، فتوجهو الى ساحل

الجروى، وألقى ذكر ولايته إلى الجند. فاستقبله الجند من أهل خراسان وعقدوا له عليهم. وامتنعَ المصريون من ولايته. فنزل داره بالحمراء(١). فبعثَ إليه المطلب بالجند يحاربونه فى كل ناحية من الفسطاط، فألجَؤوه فى منزله لا يخرج منه وأحاطوا به. ثمّ سار إليه هُبيرة بن هاشم بن حُدَيج، سلخ شعبان سنة مئتين. فتحاربوا بسوق وَرْدان وفى أصحاب القَرَظ. وثارت غُبرة لا يرى منها أحد شيئاً، وتحيّر بهبيرة فرسه عند حَيِّز الإوزّ. فسقط فى حفرة فانكسرت رجله. وأدركه جمع من أصحاب السرى فقتلوه، وهم لا يعرفونه، واحتزوا رأسه. فأتوا به السرى، فعَظُمَ عليه مقتله. وانصرفت الفئتان، وقد أظهروا الجزع والوجد بقتل هبيرة. وانكسر المصريون لذلك، وعلاهم السرىّ وأهل خراسان. قال سعيد بن عفير:

لَعَمْرى لَقَدْ لاقَى هُبَيرَةُ حَتْفَهُ ... بأفْضَلَ ما تُلقَى الحتوفُ السَوَارِعُ
بأنفِ حَمِىٍّ لَمْ تُخالِطْهُ ذلةٌ ... وَعِرْضٍ نَقِىٍّ لمْ تَشِنْهُ المَطامعُ
عَشِيّةَ يَسْتَكْفِيه مُطّلبُ الذى ... به ضَاقَ ذَرْعاً والمَنَايَا كَوارِعُ
فَمَا انفَكَ يَحْميه ويَجعَلُ نَفسَه ... لَهُ جُنّةً حَتى احْتَوتْهُ المَصَارِعُ
فَلاقَى المَنَايَا فَوقَ أجْرَدَ سَابِحٍ ... وَفى الكَفّ مأثورٌ من الهِندِ قاطِعُ

(١) كذا فى ر عن خـ، وقال: فى الأصل: داره الحمراء، وهو غلط، لأن الحمراء موضع معروف بمصر.

البحر [النيل] وصلو وطلبو من الله الرحمه والتحنن]، فصلو الصلاه وشكرو الله إلى سادس ساعه من النهار ونزلو طافو بمصر واتو إلى ساحل البحر وصلو بقية النهار. وفي تلك الليله زاد البحر تلت ادرع حتى صار على رأس سبع عشره دراعا ففرحو الناس كلهم فرحا عظيما وشكرو الله ومجدو اسمه.

واما ابو عون فلاجل ذلك زاد في فعل الخير مع النصارى وكنايسهم وخفف عنهم الخراج.

فَبينا يَخوضُ الهَوْلَ من غَمَراته   وأَعداؤهُ من حَوْله قد تَجاشَعُوا
تَقَطرَ في أُهْوِيَةٍ عَنْ جَوادِهِ   فصادَفَهُ حَيْنٌ مِنَ المَوْتِ وَاقعُ[1]
فَلَمْ أرَ مَقْتُولاً أجَلَّ مُصابَةً   عَلى مَنْ يُعادى وَالذين يُجامِعُ
من ابنِ حُدَيج يومَ أُعْلِنَ نَعْيُهُ   وَقامَ به في النّاسِ راءٍ وَسامِعُ
كلا الفيلَقين......   مَقاماً على ما كانَ فيه يُماصِعُ[2]
فَولَوْا فُلُولاً قَد عَلَتْهُمْ كَآبَةٌ   وَكُلُّهُمُ بادى التَلَهّفِ جازِعُ

وطلَبَ المطلب الأمان من السرى، على أن يسلم إليه الأمر ويخرج عن مصر. ففعل ذلك السرى، وسلم إليه المطلب. وخرج المطلب في بحر القلزم إلى مكّة. قال دِعْبل للمطلب:

فكَيفَ رَأيتَ سُيُوفَ الجَرِيشِ   ووَقْعَةَ مولى بَني ضَبّة
أحَجّتْكَ أسْيافُهُمْ كارِهاً   وَما لَكَ في الحَجّ مِنْ رَغْبَةِ[3]

---

(١) كوارع: جمع كارعة، وهي التي تصوب رأسها في الماء من الحيوانات لتشرب، يريد أن المنايا متهيئة. والجنة: الوقاية والدرع. والأجرد: القصير الشعر من الأفراض. والسابح: الذى يسبح في جريه. ومأثور من الهند: سيف هندى كريم. وتجاشعوا: تزاحموا. وتقطر: سقط. وأهوية: حفرة.

(٢) يماصع: يقاتل ويجالد. وكذا ورد البيت في ر.

(٣) مولى بني ضبة هو السرى بن الحكم. انظر النجوم ٢ : ١٦٥ . وفي ص فوق «رغبة»: رقبة، ويبدو أنها رواية أخرى.

ومن ذلك اليوم كان الأب البطرك والأساقفه بنو المعموديه والبيعه تحت امن وسلامه بفرح وابتهاج عظيم بارض مصر والخمس مدن وكل المواضع التي في كرسي الأب البشير مارى مرقس الأنجيلي لما شاهده السلطان من عجايب البيعه وقوة فعلها، وكان السلطان يقول ان النصارى قلب واحد ومتفقون. وكانت الأبا في ذلك الجيل افعالهم متل الملايكه الروحانيين، واحد يشفى المرضى ، واخر يظهر العجايب، واخر يفسر الكتب ويعلم ويعظ ،

فكانت ولاية المطلب هذه الثانية(١) عليها سنة وثمانية أشهر(٢).

٨١. السرى بن الحكم(*)

ثمّ وليها السرى بن الحكم بإجماع الجند عليه، على صلاتها وخراجها، لمستهلّ شهر رمضان سنة متين. فجعل على شرطه محمد بن عَسّامة بن عمرو. ووثب عمر بن ملال على أبي بكر بن جُنادة بن عيسى المَعافرى، خليفة مطلب بالإسكندرية. فأخرَجه منها، ودعا للجروى بها، والجروى والسرى متسالمان. وأقبل الأندلسيون إلى ابن ملان. فكان بلغه(٣) عنهم بعض الفساد. فأمر عمر بإخراجهم من الإسكندريّة والحاقهم بمراكبهم، فاضطغنوا ذلك عليه. وظهرت بالإسكندريّة طائفة يسمّون الصوفية(٤)، يأمرون بالمعروف ـ فيما زعموا ـ ويعارضون السلطان في أمره. فترأس عليهم رجل منهم يقال له «أبو عبدالرحمن الصوفي». فصاروا مع الأندلسّيين يداً واحدة. واعتضدوا بلَخْم ـ وكانت لخم أعز من في ناحية

---

(١) ر: الثالثة، خطأ.
(٢) ن: سنة واحدة وسبعة أشهر.
(*) الخطط ١ : ٣١٠، والنجوم ٢ : ١٦٥، وحسن المحاضرة ٢ : ١١.
(٣) كذا في ر. وفي ص: فكانوا فبلغه.
(٤) كذا في ص. وفي ر عن خـ: بالصوفية.

واخر يتعب جسمه بالعمل والكد. وكان جميع الشعب يتعجبون منهم ويطلبون بركتهم ، وكان الأب انبا خايل لاجل ذلك مسرورا باساقفته وجميع رعيته . وكان يطوف عليهم يتفقد جميع احوالهم باهتمام يعظهم بكلامه المحيى متل الحوارين الابا اولا، ومثل سكان البرارى و المغاير يتبتهم ويعلمهم مقاتله الارواح الشيطانيه، ورهبان الديارات يعلمهم التواضع والمحبه تكون بينهم والشعب المومن يهديهم إلى ما يرضى الله،

الإسكندريّة[1]. فخوصم[2] أبو عبدالرحمن الصوفى إلى عمر بن ملال فى امرأة، فقضى على أبى عبدالرحمن. فوجد فى نفسه من ذلك، وخرج إلى الأندلسيّين، وألف بينهم وبين لخم. ورجا أهل لخم أن يدركوا [ثأرا][3] من عمر بن ملال. فساروا إلى عمر، وهم زُهاء عشرة آلاف من لخم، ومن الأندلسيّين، ومن ضوى إليهم، فحصروه فى قصره. فعلم عمر أن القصر لا يمنعه منهم، وخافَ أن يُدخَل عليه عنَوة، فيفضح فى حُرَمه. فاغتسل وتحنّط وتكفّن، وأمَر أهله أن يُدلَوه إليهم. فدُلى فأخذته السيوف فقُتل. ثمّ دُلى إليهم أخوه محمد بن عبدالملك بن محمد بن عبدالرحمن بن معاوية بن حُدَيج، فقُتل. [ثمّ دلى عليهم عبدالله البطّال بن عبدالواحد ابن محمد بن عبدالرحمن بن معاوية بن حديج، فقتل][4]. ثمّ دُلى إليهم أخوه[5] أبو هبيرة الحارث بن عبدالواحد فقُتل. ثمّ دُلى إليهم حُدَيج بن عبدالواحد فقتل. وانصرف القوم. قال سعيد بن عفير:

---

(١) كذا فى خـ (١: ١٧٣). وفى ر: وكانت لخم أحد من ناحية الإسكندرية.
(٢) كذا فى ر عن خـ. وفى ص: فحرضهم.
(٣) زيادة ضرورية عن خـ.
(٤) زيادة ضرورية عن خـ، بدليل كلمة «أخوه» الآتية.
(٥) كذا فى ص، وجعلها ر: ابن عمه، حين لم يذكر عبدالله البطال.

والقليلى الايمان يعلمهم التعاليم الأنجيليه، والذين هم متخاصمون يصلح بينهم ويهدى شرهم ويسكن حقدهم بتعاليمه من الكتب المقدسه.

ولو لا غرضنا الاختصار لضاقت الكتب عن أفعال هذا الأب القديس انبا خايل.

وكانت فرقتا هارسيس اصحاب مليتس قديما ويوليانوس، فراسلهم الأب برسل وكاتبهم فلم يجيبوه فمضى بنفسه إليهم [فى البرارى] فلم يقدر

- -

لا يَبْعَدَنَ ابنُ مَلالٍ فَقَد ذهَبَتْ   مِنهُ المَنونُ بعلْمِ طَيّبِ النَسَمِ
لا يَرْأمُ الضَيْمَ من حبّ الحَياةِ ولا   يَقْبَلُ دونَ فعَالِ الخيرِ بالقِسَمِ
وَلا يَزالُ لَهُ مِنْ مَجدِه طَرَفٌ   يُسْنِدُ ما حازَ عَنْ آبائه القُدُمِ
ما انفكَ يحمي ذمارَ اسكندريّةَ في   هَدْءِ حَميدٍ وَعزٍّ غَير مُهتَضَمِ[١]
حَتى إذا جَاءهُ مَنْ كانَ يَأمَنُهُ   وَصرّحَ المَوْتُ جهْراً غَيرَ مُكتَتِمِ
خَاضَ الأسنّةَ والهِندىَّ مُحتَسِباً   حَتى تجرّعَ كَأسَ المَوْتِ من أمَمِ

وكان مقتل عمر بن ملال وأهله فى ذى القعدة سنة مئتين.

ثمّ فسد أمر لخم والأندلسيّين عند مقتل عمر بن ملال. وقام بأمر لخم رباح[٢]، فحاربهم. فانهزمت لخم، وظهر[٣] الأندلسيون بالإسكندريّة عنوة فى ذى الحجّة سنة مئتين. فولوها أبا عبدالرحمن الصوفى. فبلغَ من الفساد بالإسكندرية والقتل والنهب ما لم يُسْمَع بمثله. فعزله الأندلسيّون عنها وولوا رجلاً منهم يُعرف «بالكنانى». ثمّ حاربت بنو مُدْلج أهل الأندلس، فظفرَ

(١) النسم: الروح. وعلم: كذا بالكسر فى ر، ولعله يريد بها عالماً. وربما كان ضبطه بفتح العين، يريد علماً أى سيداً، ثم خفف اللام بإسكانها. ويرأم: يحب ويألف. والآباء القدم: ذوو السابقة من الخير والفضل. والهدء: السيرة. وأمم: قريب.
(٢) قال ر: يحتمل رياح، لأن ثانية مهمل فى الأصل.
(٣) كذا فى ر. وفى ص: أظهر، تحريف. وفى خـ: ظفر.

ان يعيدهم بقلب مستقيم لانهم انكرو خلفهم، وكانو معتزلين فى الديارات منهم وفى البرارى(*). فرفع يده إلى السما وقال: أن كان هولا الذين جحدو قدامك وفعلو رديه فاظهر فيهم اية قريبا غير بعيد لينظرهم كل احد ويمجد اسمكم. فبعد قليل اهلكهم الرب وافناهم كما اهلك سدوم. والدير الذى كان فيه تلتة الاف انسان لم يبق فيه سوى عشره انفس مومنين ولم يسلكو طريقهم، وخاطبتهم انا الحقير ونظرتهم وقد سكنت الوحوش

(*) موقف البطرك خايل من ثورة سكان البرارى (البشمور).

بهم الأندلسيّون، فنفوهم عن البلاد. ولم يقدر أحد من بنى مدلج [أن](١)، يرجع إلى أرض الإسكندريّة إلاّ بطلبة من السرى ابن الحكم إلى أهل الأندلس فيهم، حتى أذنوا لهم فرجعوا.

حدثنى عبيدالله بن عمر بن السارح(٢)، قال: حدثنى عبدالرحمن بن أبى الخطاب قال: حدثنى أبى وهانىء بن المتوكل، ومحمد بن خلاد، عن ضمام بن اسماعيل.

عن أبى قبيل قال: إنى على الإسكندريّة [من](٣) أربعين مركباً مسلمين وليسوا بمسلمين، تأتى على(٤)، آخر الصيف، أخوف منى عليها من الروم. قال ابن أبى الخطاب: وحدّثنى ابن حَيْوة قال: لما ذكر ضمام هذه(٥)، الأربعين مركباً، وطال اعتناؤه بها وذكره إيّاها، قلت له: يا أبا إسماعيل، ما هذه الأربعون مركباً فى هذا الخلق، لو كانت نيراناً تضطرم؟ فقال: اسكت، ويلك! منها وممّن يكون فيها يكون خراب سكندرية وما حولها.

وبلغ الجروى ما فعله الأندلسيّون وقتْلهم ابن ملال. فسار إليهم فى خمسين ألفاً حتى نزل على حصنها، فحاصرها، ثمَ أجهدهم وكاد أن يفتحها. فخشى السرى بن الحكم أن يفتحها

(١) زيادة فى ر.
(٢) كذا فى ر. ولعله عبيدالله بن عمرو بن السرح، المتوفى ٣٠٧هـ.
(٣) زيادة فى ر عن خـ.
(٤) خـ: فى.
(٥) كذا فى ر. وفى ص: هذا.

مساكنهم بصلوات الاب القديس أنبا وخايل فى أيام ولاية عبد الله.

فان قال قايل لا يعرف الخبر ماجرم هولا حتى هلكو فانا اقول لكم بمعونة الله، لما كان ديونوسيوس الحكيم بطركا على اسكندريه ظهر الكافر بوله السميساطى [الكافر الذى لا ينبغى ذكره بخير] وكان بطرك انطاكيه، فاغضب الله بافعاله النجسه، فلما سمع ديونوسيوس كتب إلى الملوك المحبين لله المومنين يعلمهم ما انتهى إليه عن

ويملكها، فبعث عمرو بن وهب الخزاعى إلى تنّيس ليخالف الجروى إلى منزله. فبلغ ذلك الجروى، فكرّ راجعاً إلى تنّيس، وفسد ما بينه وبين السرى. وقال ابن عفير للجروى:

أَلاَ مَنْ مُبْلِغُ الجَرَوِىَّ عَنِّى ... مُغَلْغَلَةً يُعَاتِبُ أَوْ يَلُومُ

أَقَمْتَ تُنَازِلُ الأَبْطَالَ حَتَّى ... تَمَيَّزَ ذُو الحَفِيظَةِ وَالسَّؤومُ

وَصُلْتَ بِهِمْ فَمَا وَهَنَتْ قُوَاهُمْ ... وَطَيْرُ المَوْتِ دائرَةٌ تَحُومُ

وَلَوْ هَجَمَتْ جُمُوعُكَ حِينَ حَلُّوا ... عَلَيْهِم، بَادَ جَمْعُهُم المُقِيمُ

وَكَيْفَ رَأَيْتَ دائرَةَ التَّوَانِى ... أَتَتْكَ بِصَحْوِ نَحْسٍ لا يُقِيمُ

أَتَاكَ وَقَدْ أَمِنْتَ وَنِمتَ كَيْدٌ ... لِصِلٍّ لا يَنَامُ وَلا يُنِيمُ

وكان مسير عبدالعزيز الجروى إلى الإسكندريّة وانصرافه عنها فى المحرم سنة إحدى ومئتين. ودعا الأندلسيون بها للسرى بن الحكم. ثمّ فسد ما بين السرى وآل عبدالجبّار بن عبدالرحمن الأزدى ـ وكانوا وجوه أهل خراسان بمصر ـ فدنوا من الفساد على السرى، وبايعهم الجند على ذلك. وأظهروا كتاباً من طاهر بن الحسين، بولايته سليمان بن غالب بن جبريل عليها. فوثبوا إلى السرى لمستهل ربيع الأوّل سنة إحدى ومئتين، فكانت ولايته عليها ستة أشهر.

بوله المخالف و طردوه ولم علم احد كيف كان هروبه، وكلمن اراد ان يعرف فعله الطمث فهو يجده في رسالة اتناسيوس الرسولى التى كتبها من اجله فانه يفهم ذلك ويعرفه.

ولما كان في اول قسمة ابا مويسيس كان هناك ديارات كثير في كرسيه بوسيم(*) لهولا اصحاب مليتس وكانو سكانا فيها فنفى جميعهم فمنهم من لبس الأسكيم من يده وسارو متحدين بنا، وكان

(*) انتشار اتباع مليتس فى ديارات اوسيم حول الجيزة ومنف (الفسطاط) انظر الجزء الأول ص٣٥٧ ، ٤٢٦ .

---

٨٢. سليمان بن غالب بن جبريل[١] البجلى

ثمّ وليها سليمان بن غالب بن جبريل البجلى، على صلاتها وخراجها؛ بايعه الجند يوم الثلاثاء لأربع خلون من شهر ربيع الأوّل سنة إحدى ومئتين. فجعل على شرطه أبا بكر[٢] بن جفنادة بن عيسى المعافرى. ثمّ عزله وولى عبّاس ابن لَهيعة بن عيسى الحضرمى.

وانتهب الجند منزل السرى. فهرب منهم فلجز إلى دار عسّامة بن عمرو. ثمّ سيّره سليمان بن غالب بن جبريل إلى إخميم من صعيد مصر. فكتب السرى إلى بنى مدلج، فلحقوا به هم وكثير من الناس. وأقبل السرى سائراً فيهم إلى الفسطاط. فبلغ ذلك سليمان بن غالب، فبعث إليه بجيش. فالتقوا بقمَن[٣] فحاربوه. فانهزم السرى، وأسر هو وابنه ميمون. فأمر سليمان بردّهما إلى إخميم وقيّدهما وسجنهما. وكانت هذه الوقعة فى جمادى الأولى سنة إحدى ومئتين. قال مُعَلّى الطائى:

إذا شَنّ فى أرْضٍ سُلَيمانُ غَارَةً ... أثَارَ بهَا نَقْعاً كَثيرَ المَصَائبِ
ألَمْ تَرَ مِصراً: كَيفَ داوَى سقيمَها ... عَلى حينِ دانَتْ للعَدُوّ المُنَاصِبِ

(١) ن: جميل. وترجمته فى الخطط ١ : ٣١٠ ، والنجوم ٢ : ١٦٨، وحسن المحاضرة ٢ : ١١ .
(٢) ن: أبا ذكر.
(٣) قمن: قرية من أعمال البهنسا.

من اجل ذلك بينى وبينهم مصادقه زمانا كنت فيه علمانيا، فلما نزعو عنهم ذلك الأسكيم الروحانى الذى من يد أبى لم ترجع تكون بينى وبين أحد منهم موده فسالته عن فعلهم اولا وكان يسميهم السحره بنى الشيطان فقال لى : اريد ان أقول لك شيا أخر يفعلونه الغير متاهلون للدخول فى شعب الله ولا ملكوته ، وهو انهم يسحرون اولاد الناس ويخرجونهم إلى البريه يربطونهم بحيث لا يراهم احد ويجلسون قريبا منهم يحرسونهم، فإذا شكو

حَمَاها ولَوْلا منا تَقَلَدَ أصْبَحَتْ حَبِيساً على حُكْمِ القَنَا وَالمَقانِبِ[1]

قال: واستفسد سليمان بن غالب أهل خراسان، وقدّم عليهم أتباعه وبطانته. ففسدوا عليه وتنكّروا له. وهمّ سليمان بالفتك فيهم[2]، ليقوى أمره. فألب عباد بن محمد عليه فخلعه[3]، وقام بالأمر عليّ بن حمزة بن جعفر بن سليمان بن عليّ بن عبدالله بن عبّاس، وذلك لمستهلّ شعبان سنة إحدى ومئتين. وسأل الجند عباداً أن يبايع، فامتنع ولحق بالجروى. وقال لهم عباد: هذا الرسول قادم عليكم بولاية السرى. فانطاعوا إلى ذلك. ولحق سليمان بن غالب بالجروى فكان معه. فكانت ولايته خمسة أشهر.

٨٣. السرى بن الحكم(*)

الثانية

ثمّ وليها السرى بن الحكم، الثانية، من قبل المأمون، على صلاتها وخراجها. قدم بولايته

(١) دانت: خضعت، وناصبه العداوة: جاهره بها. والمقانب: جمع مقنب، وهو الجماعة من الخيل ما بين الثلاثين إلى الأربعين أو زهاء الثلاث مئة.
(٢) كذا فى ر، ولعلها: بهم.
(٣) خـ (١ : ١٧٩): قام عباد بن محمد وخلعه. وفى ر: فخلعوه.
(*) الخطط ١ : ٣١٠، والنجوم ٢ : ١٧١، وحسن المحاضرة ٢ : ١١.

العطش لا يسقونهم فإذا اشتد بهم العطش سكبو الما[ء] على روسهم وبطونهم، فإذا قارب احد منهم الموت وبدرت عيناه ولصق لسانه بحنكه قطعو رأسه بسكين قبل ان يموت ، فيتكلم الشيطان فى تلك الرأس بغير كذب فيضلون الناس بافعالهم الشيطانيه المرذوله.

وكان قس قديس مشاركا مقيما فى قلاية وسيم فلما كان يوم الجمعه، من أيام الصوم وكنت معه

عمر أخو هَرْثَمَة، فبعث الجند إلى إخميم، فاستخرجوا السرى من الحبس. فدخل الفسطاط يوم الاربعاء لثنى عشرة خلت من شعبان سنة إحدى ومئتين. فسلم إليه جميع الجند الولاية. فجعل على شرطه محمد بن عسامة أيّاماً. ثمّ عزله وولى الحارث بن زُرْعة بن قَحْزم أيّاماً. ثمّ عزله فولى ابنه ميمون ابن السرى، ثمّ عزله وولى أبا بكر بن جُنادة بن عيسى المعافرى. ثمّ عزله فولى أبا صالح حمّاد بن المخارق التميمى[1]. ثمّ عزله فولى أخاه إسماعيل ابن الحكم. ثمّ عزله فولى أخاه صالح بن الحكم. ثمّ عزله فولى أخاه داود[2].

وتتبّع السرىّ كلّ من كان [حاربه][3] أو انتهبه، فجعل يقتلهم ويصلبهم. فعزّ وانتظم سلطانه وقوى أمره. ثمّ ورد عليه كتاب المأمون يأمره بالبيعة لولىّ عهده علىّ بن موسى بن جعفر بن علىّ بن أبى طالب. رضوان الله عليهم، العَلَوى.. وسمّاه الرّضا. ورد الكتاب بذلك فى المحرم سنة اثنتين، فبويع له بمصر. وقام فى فساد ذلك إبراهيم بن المهدى ببغداد.

فأخبرنى أحمد بن يوسف بن إبراهيم، عن أبيه: أن إبراهيم بن المهدى قال:

(١) ن (٢ : ١٧١): أبا ذكر بن المخارق. والحق أن فيه سقطاً، وصحة الكلام: أبا ذكر [بن جنادة بن عيسى المعافرى. ثم عزله فولى أبا صالح حماد] بن المخارق. وفيه: أبو ذكر، فى موضع: أبو بكر.
(٢) ذكرت النجوم أن سبب كل هذا العزل تغلب أهل مصر عليه، وإصغاؤه إلى أقوالهم، ليستفحل أمره.
(٣) زيادة فى ر عن خـ، ويحتمل أيضاً: عاداه، كما فى ن.

في القلايه وكان أبي مويسيس الأسقف لا يرى احدا من الناس على شغله بالصلاة وعذاب نفسه إلا يومي السبت والاحد، فنظر ذلك القس تنينا عظيما في قلايته فعمل صليبا فضه وجعله في موضع راه فيه، فلما كان الغد وجد التنين ميتا تحت الصليب، فهل قوه اعظم من قوة الذين يعبدون الله بنيه خالصه صادقه وأمانه قويه.

وكان في تلك الأيام غلا عظيم فدخل رجل

فَلا جُزيتْ بَنو العَبَّاسِ خَيرا — عَلى رغمي وَلا اغتَبطَتْ بريَ

أتَوني مُهْطعينَ[1] وَقَدْ أتَاهُمْ — بَوَارُ الدَهْرِ بالخَبَرِ الجَلَيّ

وَحَلَّ عَصَائبُ الأمْلاكِ منهَا — وَشُدَّتْ في رُؤوسِ بَني عَلَيّ

فَضَجَّتْ أنْ تُشَدَّ عَلى رُؤوسٍ — تُطَالِبُهَما بِميرَاثِ النَبيّ[2]

وكتب إبراهيم بن المهدى إلى وجوه الجند بمصر، يأمرهم بخلع المأمون وولى عهده، وبالوثوب بالسرى[3]. فقام في ذلك الحارث بن زُرْعة بن قَحْزَم[4] بالفسطاط. وعبدالعزيز بن الوزير الجروى بأسفل الأرض، وسلمة[5] بن عبد الملك الأزدى الطحاوى بالصعيد، وسليمان بن غالب بن جبريل وهو إذ ذاك مع الجروى. وعبدالعزيز بن عبدالرحمن بن عبدالجبّار الأزدى. فخالفوا السرى، ودعوا لإبراهيم بن المهدى، وعقدوا على ذلك الأمر لعبد العزيز بن عبدالرحمن الأزدى، وأجمعوا على ولايته. فحاربه السرى، فظفر السرى بعبدالعزيز الأزدى،

(١) ر: منقطعين.
(٢) ر: فصحت، ولا معنى لها. والأملاك: الملوك.
(٣) خـ (١ : ١٧٩): على السرى.
(٤) خـ (١ : ١٧٩): محرم.
(٥) خـ (١ : ١٧٩): مسلمة. ر: سلامة، وهو ابن سلمة. وانظر معجم البلدان لياقوت «طحا» وأنساب السمعاني «طحاوى».

إلى النزهات يطلب صدقه فسرق منها شيا فرآه رجل اخر كان رجلا مومنا فاراد ان يوبخه لكى يتوب من السرقه فمنعه من ذلك صلاحه وأفكاره في الخير ، ثم مضى أيضا ذلك الرجل السارق فسرق من زرع جيرانه ودفنه حتى ياخذه فياكله، فحضر صاحب الزرع عند ابى مويسيس، فقرا عليه من الكتب واوصاه ان لا يجازى شرا بشر لكن يجازى الشر بالخير، ففعل ذلك وسمع منه فوسع الله ماله حتى تعجب منه كلمن يعرفه.

وبجمع من أهل بيته. فقتل بعضهم، وبعث ببعضهم مع ابنه عبدالصمد فقتلهم هناك(١). وذلك في صفر سنة اثنتين ومئتين ولحق كلّ من كره بيعة عليّ بن موسى بالجروى لمنعته(٢) وشدّة سلطانه.

ثمّ أقبل عبيد بن السرى إلى الفسطاط، فعارضه سلمة الطحاوى بطَحا. واقتتلوا فانهزم سلمة. وأسره عبيد، فبعث به إلى الفسطاط، فأطلقه السرى، فهرب سلمة إلى الجروى.

وسار الجروى إلى الإسكندريّة مسيره الثاني. فحصر الأندلسيّين بها، ثمّ اصطلحوا على فتح حصنها. فدخلها سلمة(٣) الطحاوى، وعليّ بن عبدالعزيز الجروى، ودعوا للجروى بها. ومضى سلمة(٣) منها إلى الصعيد في جمع كثير من الجند. فأخرج عمال السرى، ودعا إلى الجروى.

وسار الجروى في جموعه لمحاربة السرى. واستعدّ كلّ واحد منهما لصاحبه بأعظم ما قَدرَ عليه. فبعث السرى ابنه ميموناً على تلك الجيوش. فنزل ميمون بشطنوف، وسار معه مراكبه في البحر، قد شحنها بالرجال والسلاح. وأتاه عبدالعزيز الجروى في البّر والبحر. فالتقوا

(١) لا يتضح من السياق إلام تشير كلمة «هناك»، ولعل في العبارة سقطاً.
(٢) كذا في خ (١ : ١٧٩). وفي ر: منعه.
(٣) ص: مسلمة. ر: سلامة.

وذكـرت لكم أيهـا الأخـوه حـال اهل فلسطين الملعونين لتبعدو عن معرفتهم . وأريد اذكر اعجوبه اخرى ظهرت من الأب ابيمـاخس الأسقف، كان في بعض الأيام يعلم شـعـبـه في مـدينة الفـرمـا ويوصيهم ان يبعدو عن المخالفين ولا يشاركون في شي، وإذا قس قـد حـضـر عنده من الخلقـدونـيين ليجربه بمكر فقال الأسقف كلاما كتيرا ثم قاله له: انا أومن بامـانتك واعـتـرف . واخـذ الأسـقف ابيمـاخس زيتا مقدسا من جسـد القديس ساويرس

بشطنوف، فقُتل ميـمـون بن السـرى، وانهزم عـسكره. وذلك في جـمادى الآخـرة سنة ثلاث ومئتين. قال أبو بِجاد الحارثي(١)، من بني الحارث بن كعب:

جَـمَعْ رَعَـاعَكَ يا سَـرِىَ فـإنّهَـا ... حَـرْبٌ تُحسّ سَـعـيـرَها قَـحطانُ
قَـتَلوا أبَا حَـسـنٍ وَجَـرّوا شِلْوَهُ ... كَـالكَلْب جَـرّ بشِلْوه الصّـبْـيَـانُ(٢)
وَلَتْ تُجـيـبُ وأسْلَمَـتْـهُ جـيـادُها ... عَـيْـلانُ يَوْمَ تَوَاكَلَتْ عَـيْـلانُ
فَـاسـتَـخـرَجـوهُ مُلَبّـبـاً فـأتَى به ... يجـرى ويَهْـرِجُ حَـوْلَهُ السّـودانُ(٣)
أبْشـرْ فـإنّ [طُلوعَ] نجـمكَ بعـده ... عَرْضَ السّـمَـاء وَنجمُكَ الدّبَرَانُ(٤)
لا تَبكِ فـالعُـقْـبَـى لإخـوَتِه غَـداً ... أوْ بَعْـــدَهُ، فكَمــا تَـدينُ تُـدانُ

وقال معلّى الطائي يرثي ميموناً:

---

(١) ر: أبو بحاد الحارثي.. وفي ص: الوحاد الحارلي.
(٢) الشلو: الجسد.
(٣) ملبب: أي جمعت ثيابه عند نحره في الخصومة وجر منها. وهرج يهرج: وقع في فتنة واختلاط وقتل.
(٤) طلوع: زيادة ضرورية لإقامة الوزن والمعنى. ويبدو أنه يريد أن يقول له أبشر بأن نجمك سيطلع بعد نجم ابنك، ولكنه سيطلع مقترناً بالدبران، الذى هو نذير الإدبار والهزيمة. والدبران: نجم بين الثريا والجوزاء، وهو تابع للثريا.

البطرك ودهن وجه القس الهراطقى وقال له أن كنت تهزا الرب يظهر فيك قوته، و للوقت بسرعه وثب عليه روح شيطان نجس فصرعه وخنقه وعذبه فازبد ولم يزل عليه يعذبه إلى يوم وفاته.

ثم تقدم الأسقف بان لا يكون لاحد من رعيته اشبين غريب الا من اهلهم وابايهم، وكان هناك قوم مخالفون لم يسمعو منه فجازاهم الله بسرعه حتى تعجب كل احد من تعاليم الرب.

لَوْ رَدَّ غَرْبَ مَنِيَّةٍ بِشَجَاعَةٍ ... أَحَدٌ لَدَافَعَ رُكْنَهَا مَيْمُونُ[1]
لَوْ كَانَ تَجْرِيدُ السُّيُوفِ يَرُدُّهَا ... لَحَمَاهُ مِنْهَا مُنْصُلٌ وَثَمِينُ[2]
مَا زِلْتُ أَطْمَعُ فِي رُجُوعِكَ سَالِماً ... وَيَرُوعُنِي شَفَقاً عَلَيْكَ ظُنُونُ[3]
فَلَيُفْجَعَنَّ غَداً بِقَتْلِكَ طَاهِرٌ ... وَلَيُفْجَعَنَّ بِقَتْلِكَ المَأْمُونُ

وأقبل الجروى في مراكبه بعد قتل ميمون إلى الفسطاط ليحرقها. فخرج إليه أهل المسجد، وسألوه الكفّ. فانصرف عنها. ثمّ ظهر للجند موت عليّ ابن موسى العلوى، وانخذال إبراهيم بن المهدى، فأظهروا بيعة المأمون، ودعوا إليه، وورد كتاب المأمون إلى السرى بذلك، وبغسل المنابر التى دُعى عليها لعليّ بن موسى، فغُسلت.

ثمّ إن الأندلسيّين أخرجوا عامل الجروى من الإسكندرية، وهو معاوية ابن عبدالواحد بن محمد بن عبدالرحمن بن معاوية بن حديج، وغلقوا الحصن دونه. وخلعوا الجروى ودعوا إلى السرى. فسار إليهم الجروى في شهر رمضان سنة ثلاث ومتين. فعارضته القبط بسخا. وأمدتهم

---

(١) غرب المنيه: حدتها.
(٢) المنصل: السيف. والثمين: الغالى الثمن والمحلى، ولعله يريد سيفاً أو رمحاً بهذه الصفة.
(٣) ر: ظنونى.

وكانت امرأه موسره اخذت رجلا كان يزنى بها جعلته لها اشبينا [وكان معها طفل ارادت تعمده، فتوجهت هي و اشبينها الى دير في البريه فعمدو الطفل ورجعو] فلما عادا إلى بلدهما وهما في الطريق وصلا إلى بريه تحرك فيهما الاثم كعادتها فاضجعو الصبى وعليه تياب المعموديه، وكان في الطريق فندق فدخلا إليه وفعلا فضيحتهما فوقع عليهما البيت فماتا ، وشهد لنا الاسقف انه شاهدهما مجتمعين لما قلعت الحجاره عنهما

بنو مدلج، وهو نحو من ثمانين ألفا[1]. فخرج إليهم الجروى فهزمهم، وهربت بنو مدلج. قال معلى الطائى:

فَقُلْ لأميرِ المؤمنينَ نَصيحَةً ... وَمَا حاضرٌ شَيْئاً كآخَرَ غَائب
لَقَدْ حَاطَنَا عَبدُ العَزيزِ بسَيفِهِ ... ولَوْلاهُ كُنَّا بينَ قَتْلٍ ونَاهِبِ[2]

وبعث الجروى بجيوشه إلى الإسكندريّة فحاصروها. وعقد السرى لأخيه داود في ذى القعدة سنة ثلاث ومئتين على جيش إلى الصعيد، بعثه إلى سلمة ابن عبدالملك الطحاوى. فالتقوا، فانهزم سلمة، وأُسر هو وابنه إبراهيم. فبعث بهما إلى الفسطاط، فقتلا يوم السبت لتسع عشرة خلت من المحرم سنة أربع ومئتين. قال المعلى الطائى:

أرَادَ الطَحَاوِىُّ التى لا شَوَى لَهَا ... فَأوْقَدَ نَاراً، كَانَ بالنَّارِ صَالِيَا[3]
وَدَبّ لأقْطَارِ البِلادِ بِفِتْنَةٍ ... فَجَاشَتْ بِسُقْمٍ لا يُجيبُ المُداوِيا[4]

(١) خـ (١ : ١٧٣): وهم فى نحو من متى ألف.
(٢) القتل، بكسر القاف: العدو والمقاتل والشجاع، وبضمها: جمع قتول، وهو الكثير القتل.
(٣) الشوى: الأطراف، وما لا يقتل صاحبه إذا أصيب فيه. والتى لا شوى لها: أى التى كلها مهم، يريد الإمارة.
(٤) لا يجيب المداوى: أى لا يطيعه ويشفى على يديه.

ورروسهما كما كانا وجه الرجل فوق وجه المراه، ونظروهما جماعه من الناس وخافو وشاع الخبر عند كل احد، واشاعو الناس ذلك فثبت علمه عند [ابهاتنا] فمنعو من ذلك اليوم ان يشابن احد غريبا بل من اهله، ولم يبق احد ياخذ اشبينا غريبا. وأنا في صغرى رأيت جماعة زنو مع اشابينهم وأنا في الحياه حتى انقطعت اعمارهم وخربت مساكنهم.

وَرَاسَلَهُ مَنْ كَانَ يَخْفَى بِفَاقَةٍ ... وَأَصْبَحَ ذا مَيْلٍ إِلَيْهِ مُمَالِيَا

جنتْ ما استحقّ القتل ـ يا صاحِ ـ كفُّه ... وَكُلّ امرىءٍ يُجْزَى بما كان جانيا

وأجمع السرى على الغدر بوجوه الجند الذين معه، وكان يخافهم. فجمعهم إليه، وأخبرهم أن رسولاً قد قدم من قبل طاهر بن الحسين، وأشار عليهم أن يتلقوه. فخرجوا فى النيل، وخرج معهم في مركب غير مركبهم. وهم عباد ابن محمد، وعوف بن وهب الخزاعي. وعليّ بن أبى عون، وعليّ بن إبراهيم، وأخو الرافقي. وحمل معهم أخاه إسماعيل بن الحكم. وجعل في باطن المركب غلاماً له، وأمره أن يخرق المركب. ففعل الغلام ذلك، فغرقوا ومعهم أخوه. وأخرجوا أمواتاً.

ثمّ إن عبدالعزيز الجروى سار إلى الإسكندرية مسيره الرابع. فأغلق الأندلسيون حصنها. فحاصرهم الجروى أشدّ الحصار، ونصب عليهم المنجنيقات. [و] أقام على ذلك سبعة أشهر، من مستهلّ شعبان سنة أربع ومئتين إلى سلخ صفر سنة خمس. فأصاب الجرويَّ فِلْقَةٌ من حجر مَنْجَنيقه، فمات سلخ صفر سنة خمس ومئتين.

ومات السرى بن الحكم بالفسطاط بعده بثلاثة أشهر. يوم السبت لسلخ جمادى الأولى(١) سنة خمس ومئتين. فكانت ولايته عليها ثلاث سنين وتسعة أشهر وثمانية عشر يوماً.

(١) ن: قال صاحب البغية: ربيع الأول.

وكان الأسقف انبا يوحنا اسقف سرسنا يخرج الأرواح النجسه بما أعطى من النعمه لبتوليته وجهاده لنه [لأنه] اقام راهبا واسقفا عمره جميعه وتنيح بشيخوخه حسنه ، وكذلك أبا قيره اسقف طانه فى وقت رهبانيته ظهر له عجب، وهو ان انسانا هراطقيا جادله بسبب الأمانه فمسك يده وأراد ان يدخل به إلى داخل بيت النار فما قدر وهرب من يده فيأخذ الأسقف ازاره وهو راهب ورماة فى النار ولم يحترق.

---

٨٤. ابو النصر بن السرى(*)

ثمّ وليها أبو نصر بن السرى(١)، بويع يوم الأحد مستهلّ جمادى الآخرة سنة خمس ومئتين، وهو على الصلاة والخراج. فجعل على شرطه محمد بن قُشاش(٢)، ثمّ عزله وولى أخاه عبيد الله بن السرى. فاستخلف محمد بن عُتْبة ابن يَعْفُر المعافرى. فالذى كان بيد أبى نصر من أرض مصر فسطاطها وصَعيدها وغربيتها. وأمّا أسفل الأرض كله فكان بيد على بن عبدالعزيز الجروى، مع الحوف الشرقى.

ثمّ سار أحدهما إلى صاحبه فى النيل. فالتقوا بشطنوف فاقتتلوا، وعلى جيش أبى نصر أخوه أحمد بن السرى. فانهزم أحمد بن السرى، وأحسن علىّ ابن الجروى فيه الظفر فلم يتبعه. فقال سعيد بن عفير لعلىّ بن الجروى(٣):

ألاَ مَنْ مُبْلِغٌ عَنّى عَلِيّاً ... رِسالَةَ مَنْ يَلومُ عَلى الرُّكوك(٤)
عَلامَ حَبَسْتَ جَمْعَكَ مستكفّاً ... بشَطّ يَنُوفَ(٥) فى ضَنَكٍ ضَنِيك

(*) الخطط ١ : ٣١٠، والنجوم ٢ : ١٧٨، وحسن المحاضرة ٢ : ١١.
(١) اسمه محمد. (٢) ن (٢ : ١٧٨): قابس.
(٣) الشعر فى معجم البلدان لياقوت «شطنوف».
(٤) الركوك: الضعف. (٥) معجم البلدان: بشط النون.

وأنا اعلم أني قد طولت الكلام ولم أقصد بذلك الا اعلامكم بما كان لتفهموه. واما القول في فعال انبا زخارياس اسقف اتريب فانه كان من صغره في البريه مواظب الصلوات ودموعه تجرى مثل مجارى المياه، وكان البكا عنده حلو وكان كثير الصدقه على المنقطعين، وكل احد يحبه واولاده الروحانيون سالكون طرقه. وكذلك الطوباني استفانوس اسقف شطب وآبايه الذين كانو قبله على هذا الكرسي الذين كانت طرايقهم

وَقَد سَنَحَتْ لكَ العَفَرَاتُ مِمَّن | رَمَاكَ بجَيشِه، الوَهنِ الرَّكيك[1]
أمِنْ بُقْيَا؟ فلا بُقْيَا لمن لا | يرَاهَا عندَ فُرْصَتِهِ عَليك

ثمّ بعث أبو نصر أيضاً بمراكبه، عليها أحمد بن السرى. فأتاه عليّ بن الجروى في مراكبه. فالتقوا بدَمَنْهُور، فيقال: إن القتلى بينهما كانوا يومئذٍ سبعة آلاف. وانصرف أحمد بن السرى إلى الفسطاط. وتبعه أبو ثور اللخمى في مراكب عليّ بن الجرويّ إلى الفسطاط، وعزم على حرق الفسطاط. فخرج إليه أهل مصر وسألوه الكفّ. ومضى فرج أبو حرملة إلى عليّ بن الجروى، فسأله الصلح، فاصطلحا على أن يكفّ أحدهما عن الآخرة.

ثمّ توفى أبو نصر ليلة الاثنين لثمان خلون من شعبان سنة ستّ ومئتين. وكانت ولايته عليها أربعة عشر شهراً[2].

٨٥. عبيدالله بن السري(*)

ثمّ وليها عبيدالله بن السرى، بايعه الجند يوم الثلاثاء لتسع خلون من شعبان سنة ستّ

(١) العفرات: جمع عفرة، وهى بالدوس في التراب، يريد به الإذلال. وفى ر: الغفران، تحريف.
(٢) ن (٢ : ١٧٨): فكانت ولايته على مصر استقلالا سنة واحدة وشهرين وثمانية أيام.
(*) الخطط ١ : ٣١١، والنجوم ٢ : ١٨١، وحسن المحاضرة ٢ : ١١.

الجيده. [و] اكتر من اساقفه مصر الذين منهم الأسقف أبا هزوكس التاومنتس العظيم المعترف المتكلم بالالهيات، واستافانوس الذى سلك طريقه ووهب الله له ان يشفي الاعلا[ء] ويعرف ما يكون قبل ان يكون، واظهر عجايب كتيره. وكان فى كرسيه قس حبلت زوجته قبل وفاته وكانت طاهره، وبعد موته طردوها أولادها الكبار وقالو انها حبلت من غيره فقال لهم الأسقف: دعوها إلى ان تلد. فلما ولدت اخذ الطفل عمده وحمله على

ومئتين، وهو على صلاتها وخراجها. فجعل على شرطه محمد بن عتبة ابن يعفر المعافرى[١].
وكفّ عبيدالله عن عليّ بن الجروى. فكفّ عليّ عنه حتى انسلخت سنة ستّ ومئتين. وعقد المأمون لخالد[٢] بن يزيد بن مَزْيَد الشيبانى على صلاتها. وبعثه في جيش من ربيعة وأفناء الناس[٣] حتى دخل أرضها، وراسل عبيداً. فامتنع عبيد من التسليم له، واحتجّ عبيد أن كتاب أمير المؤمنين المأمون ورد عليه بولايته. وبعث عبيد بأخيه أحمد بن السرى يمانع خالد بن يزيد من المسير. فالتقوا بفاقوس من حوف مصر الشرقى، فاقتتلوا ثمّ تحاجزوا. وانضمّ عليّ بن الجروى إلى خالد بن يزيد، وأقام له الأنْزال[٤]، ودله على الطريق. وحفر عبيدالله خندقاً وفرض فروضاً، وخالد مُجِدّ فى جباية ما مرّ عليه من القرى. ثمّ سار خالد حتى نزل دمنهور، على أميال من الفسطاط. ثمّ سار أيضاً إلى خندق عبيد. فاقتتلوا لخمس خلون من ربيع الأوّل سنة سبع ومئتين، اقتتلوا ثلاثة أيّام. وأسر خالد شماس بن داود بن الحكم فقتله صبراً. ثمّ صبّحهم عبيدالله اليوم الرابع، فكرّ عليهم بنفسه، فانهزموا عنه. قال معلى الطائى:

(١) ن (٢ : ١٨١): محمد بن عقبة. والمعافرى، كذا فى ر عن ن، وهو الصواب كما تقدم. وفى ص هنا: المرادى.
(٢) خـ (١ : ١٧٩) هنا فقط: مخلد، وفى المواضع الأخرى: خالد.
(٣) أفناء الناس: الجماعات المختلطة منهم.
(٤) الأنزال: جمع نزل، وهو المنزل وما هيىء للضيف لينزل عليه.

كتفه وكلمن في كرسيه حاضر، وأمر الطفل ان يتكلم قدام الشعب ويقول من هو أبوه، وللوقت تكلم بلسانه كأنه شبل الأسد وقال: انا ولد فلان القس حبلت بى أمي منه قبل وفاته بتسعة ايام ولم يعلم احد بهذا إلا الله الذى خلقنى وأرادو اخوتى ان يطردو امي ظلما. فصلب الأسقف على شفتيه وامره ان لا يتكلم بعدا إلى اوان الكلام فكان كذلك.

فيَا مَن رأى جَيشاً مَلا الأرْضَ فيضُه ... أطَلّ عَلَيْهِمْ بالهَزيمَة وَاحِدُ
تَبَوّا دمَنْهُورا فَدَمّر جَيْشَه ... وَعَرّدَ جَيشُ الليلِ وَالليلُ رَاكِدُ[١]

ونزل خالد بدمنهور، ووافقه عبيد بها. وسفر بينهما رجال من الجند، فكان يحتجّ بكتاب أمير المؤمنين المأمون وولايته إيّاه عليها. قال سعيد بن عُفَير:

يَا أيّهَا المُتَحَارِبَان وَإنّمَا ... دَعوَاهُمَا المأمُونُ في الصّدَقَات
هَل تَرْجِعَان إلى التقيّة وَالتّقَى ... وَتُتَارِكَان تَغَاوُرَ الغَارَاتِ
حَتى يَجِيءَ مِنَ الخَليفَةِ أمرُهُ ... فَيَميزَ بَيْنَ الحَقّ وَالشّبُهَاتِ

ثمّ التقوا صبيحة الاثنين لمستهلّ ربيع الآخر سنة سبع ومئتين فاقتتلوا. وأسرع القتل في الفريقين جميعاً. ثمّ عَدّوا عن[٢] الحرب، فقُهر[٣] أصحابُ خالد، وملوا الحرب، وكرهها أصحاب عبيد أيضاً.

وأقبل النيل، فترفع خالد إلى أرض الحوف. فلمّا رأى ذلك عليّ بن الجروى، مكر[٤] بخالد

(١) عود: هرب.
(٢) كذا في ر. وفى ص: على.
(٣) كذا في ص، وجعلها ر: فقهقر.
(٤) كذا في ر عن خـ. وفى ص: وفكر.

وكذلك الشيخ ابا بولة اسقف اخميم وهو كان الريس التانى فى دير أبى شنوده القديس كوكب البريه، كان انسان ساحرا أخذ صبية جعلها حماره بفعله سو[ء] قدام كلمن ينظرها ، واقامت هى معه تلت سنين كما ذكرت هى، فإذا خرج بها إلى البريه صيرها امرأه تخدمه ويزنى بها، وإذا دخل المدينه ركبها كأنها حماره، فلما كان السابع من أبيب عيد القديس أبى شنوده(*) النبى الفاضل اجتمع به الشيخ أبا بوله وهى معه فاخذها منه ولم

(*) أحد رؤساء الرهبنه المسيحية فى مصر سار على خطى أبو الرهبان باخوميوس. أسس عدة أديرة =

حتى أخرجه عن عمله، فقال خالد: إني لا أرى لك أن تقيم فى بلاد قيس، وهم جند الحوف، وهذا النيل قد مدّ، فتصير أسيرا فى أيديهم؛ وقد رأيت أن أقدم إليك[1] سفنا تجوز فيها إلى غربيّ[2] النيل، وأمدك بالطعام والعلف؛ فإذا انكشف النيل عُدتَ إلى موضعك. فأجابه خالد، فقدّم إليه عليّ بن الجروى مراكبه، فعدّى فيها النيل حتى صار إلى نَهْيَا[3]، فنزل فى رملها. وانصرف عليّ بن الجروى، وتركه بها فى ضُرٍّ وجهد. قال مُعَلّى الطائى:

سَلا خَالدا لما انجَلى عَنْهُ شَكُّهُ ... وأَسْلَمَهُ فى عُدْوَةِ البَحْرِ خاذِلُهْ
فَزَالَتْ أمَانِيهِ غَدَاةَ سَمَا لَنَا ... بِعَارِضِ جَيْشٍ يمطرُ المَوْتَ وَابِلُهْ

فلمّا انكشَف النيل، عسكر عبيد بالجيزة لعشر خلون من شهر رمضان سنة سبع، ثمّ سار إلى خالد بنَهْيَا[4]. فحاربه فأسر خالد بن يزيد، واستأمن عُظْم[5] جيشه. ودخل به إلى الفسطاط يوم الاثنين لخمس خلون من شوال سنة سبع. قال معلى الطائى:

(١) ص: إلى. ر: لك.
(٢) ر: عدى.
(٣) نهيا: بلدة من نواحى الجيزة.
(٤) عظم جيشه: معظمه. وفى ر: عظيم.
(٥) المعضد: ذو الأعوان والأنصار. العبل: الغليظ.

م١٨ تاريخ مصر ج٣ (الهيئة العامة لقصور الثقافة)

يعلم بها احد سوى الساحر الملعون الكافر ومسكه واسلمه إلى السلطان فاحرقه بالنار بعد قتله ، ثم حلها من رباط الشيطان وسلمها لريسة دير الرهبانات، وكان عندهن من العلمانيات نسا كتير يعشن معهن.

=منها دير الانبا بشوى غرب سوهاج ودير الانبا شنودة. انظر: الجزء الأول الملحق الخاص بالديرية والرهبة في مصر. ص٨٥٤ كذلك السنكسار القبطي جـ٢، ص٢٩٢.

فهولا الابا الذين رأيناهم وسمعنا كلامهم لا تحصى اعمالهم الحسنه.

ومنهم اباكيره الذى من جوجر(*) الذى رأس

(*) جوجر: مدينة قديمة على الضفة الغربية لفرع دمياط قرب طلخا.

- -

ألا لا أرَى خَيْلاً أضَرَ لَهُ الوَغَى ... وَأجْبَنَ فى الهَيجاء من خيل خالد
وَقُوَّادُهُ أشْرَارُ كلّ قَبِيلَةٍ ... تَمَالَوْا عَلى إسْلامه فى الشّدائد
فَمَا أسَرُو منهُ جَبَاناً مُعَضَّداً ... وَلكن أبا شبْلَين عَبْلَ السَوَاعدُ
فَإنْ يَقتلُوهُ يَقتلُو منْهُ سَيِّداً ... شُجَاعاً جَوَاداً مَاجداً وابن ماجد
وَإنْ كَفَفُو عَن قَتله فَهِيَ مِنّةٌ ... لآلِ سَرِيّ فى مَنَاط القَلائد

ودعا عبيد بن السرى بخالد بن يزيد فسأله عمّا ذهب له من مال. فخبره به، فدفع إليه عبيد أضعافه، ومضنّ عليه، وخيّره بين المُقام عنده أو يخرج حيث شاء. فاختار ركوب البحر من القلزم إلى مكّة، فخرج من مصر. وقَدمَ حمّاد ابن أبى سمين[1] رسولاً من أمير المؤمنين المأمون، بولاية عبيد على ما فى يديه وضَمّنه خراجه، وبولاية عليّ بن الجروى على ما فى يديه وضمّنه خراجه.

وأقبل عليّ بن الجروى على استخراج خراجه. فمانعه قوم من أهل الحوف، وكتبو إلى عبيد يستمدّونه[2] على عليّ. فأمدّهم وبعث بأخيه أحمد بن السرى إليهم. فسار عليّ بن الجروى

(١) كذا فى ر، وقال: «غير منقط فى الأصل ولعل صوابه سميره.
(٢) كذا فى ر، وفى ص: يستمدهم. خطأ.

قديس يحمل صليب حفر على الخشب بالمتحف القبطى. القاهرة

على أربعة كراسى، كان قد تزوج من صباه وعاش مع زوجته زمانا كثيرا وبلغ مايه وخمس سنين وهما بكران طاهران نايمان على فراش واحد زمانا طويلا، وطعامهما خبز شعير وملح بعباده عظيمه، وكلما لهم وكلما يجدانه يصدقانه على المستورين، فلما طعنا فى السن سلك [أرسل] أباكيره زوجته الطاهره لدير الرهبانات.

والأب ابا اسحق اسقف كرسى سمنود وما لقيه

إليه. فالتقو بالبُوب(١) من كورة بَنَا(٢)، وهو الموضع الذى يقال له «بُلْقِينَة». فاقتتلو يوم الاربعاء لثلاث عشرة خلت من صفر سنة سبع ومئتين. وخرج عبيد من الفسطاط فعسكر بالبَتّنون(٣) ثمّ عسكر بدِقْرَى. وعاود ابن الجروى أحمد بن السرى الحرب بمحلة أبى الهيثم، سلخ صفر، وعاوده أيضاً لثلاث خلون من ربيع الأوّل؛ وهم مُنتصفون. ثمّ انصرف ابن الجروى فتحمل فيمن معه، ومضى إلى دمياط. قال معلى الطائى:

ألا هَلْ أتَى أهْلَ العِراقَين وَقْعَةٌ ... لَنَا بِحِمَى بُلْقِينَ شَيَّبَت الوُلْدَا
وَمَا كانَ مِنّا قَتْلُهُمْ عَنْ جَهالَةٍ ... خَطَاءً وَلَكِنّا قَتَلْنَاهُمُ عَمْدَا
وَلَمّا تَبَيَّنْتَ المَنِيّةَ فى القَنَا ... نكصْتَ تُنَادى حينَ ضَلّ النّدا سَعدَا
فَوَلَّيْتَ عَنْ رَبْعِ المَحَلّةِ هَارِباً ... عَلَى أيْلَةٍ ما تَرْكَبُ الجَوْرَ وَالقَصْدا(٤)

(١) كذا فى ى (١: ٧٢٩، ٧٥٥). وفى ر: النوب. وقال: «غير منقط الأول فى الأصل، ضبطناه بالتخمين لأنه لم يسم فى رواية الخطط، وهذا الموضع غير النوب الموجودة اليوم بالدقهلية».
(٢) بنا: بلدة قديمة بينها وبين سمنود ميلان. (٣) البتنون: من الغربية.
(٤) ما تركب الجور والقصد: أى لا تأخذ الطريق القويم أو تحيد عنه، أى فى حيرة لا تدرى ما تفعل، أو تسير فيه تارة وتنحرف عنه أخرى. والشطر الثانى فى ر: على أبله.

من العذاب والجهاد مع البرسنوفيين حتى اعادهم إلى الأيمان بكرسي مارى مرقس الرسولى.

وكانت بيعه انطاكيه أرمله بغير بطرك. وملك انسان اسمه عبد الله ابو جعفر من جنس الملوك الاولى قبل ابو مسلم عمه، وكان أبو عون بمصر وصالح مع عبد الله، وكانت البيعه هاديه تحت سلامه في أيام الأب البطرك القديس انبا خايل على ما ناله من التعب والجهاد الذى ذكرنا بعضه،

فكَيْفَ رَأيْتَ اللهَ أنزَلَ نُصَـــرةً / عَلَـيْنَا وَوَلاكَ المَذلَةَ وَالطـرْدَا
سَنهْدى إلى المَأمُون منّا نَصَائحاً / نُضَمِّنُهَا طَيَّ الصّحَائف وَالبُرْدَا
بِفعْلِ[1] عَلِيٍّ وَالذِى كَانَ مُجمِعاً / عَلَيْـه بإظْهَـارِ الخِلافِ الذى أبدَى

ومضى أحمد بن السرى إلى محلة شرقيون، فدخلها وأمر بنهبها، فكان من أعظم ما أتاه. ومضى عليّ بن الجروى إلى طَنّاح[2]. ومضى أصحاب عبيد إلى تِنّيس ودمياط فدخلوها. ومضى عبيد فدخل تنّيس لإحدى عشرة بقيتْ من ربيع الأوّل سنة تسع. ولحق ابن الجروى بالفرما ثمّ إلى العريش، فنزل فيما بينهما وبينَ غَزّة. قال سعيد بن عفير:

ألا يا عَليّ بنَ عَبْـد العَـزيز / إلى أين [صرتَ][3] تريدُ الفرَارَا
فَلَسْتَ بِأوّلى مَنْ كَـادَهُ / عَدُوّ فكَرّ عَلَيْه اعْتِكارًا[4]
وَأجـرُ مَصِيـرِكَ أن يَسْحَبـوا / إلَيْكَ فُتُوحاً عِظَاماً كِبَارَا

(١) كذا في ر. وفي ص: بعقل.
(٢) طناح: قرب دمياط. وفي ر: طنطاح، تحريف.
(٣) زيادة في ر.
(٤) اعتكار: كر وحمل على العدو.

إلى ان تم خدمته وتنيح ومضى بسلام إلى السيد المسيح الر[ء]وف كما نذكر فى اخر هذه السيره.

ولم تزل بيعة انطاكيه بغير بطرك بعد انبا يوحنا المتنيح لأجل الحروب والعساكر إلى ان ملكو الخراسانيون.

وفى أول ملكهم مضى اسحق اسقف حران الى عبد الله فسأله فى بطركية انطاكيه لأن انبا يوحنا كان قد تنيح كما اعلمنا ولداه اللذان جايا

فَـتُـدْرِكَ ثأرَكَ مِنْ أهْلِهِ — وَتَلبَسَ بَعدَ الكُبُّوِ الفَسارَا[١]

وعاد عليّ بن الجروى فأغار على الفرما مستهلّ جمادى الآخرة سنة تسع. وهرب أصحاب عبيد من تنيس ودمياط فلحقو بالفسطاط. وأقبل ابن الجروى إلى شَطْنَوْف[٢]. فجمع له عبيد واستعد، وعقد لمحمد بن سليمان بن الحكم عليهم. فالتقو بشطنوف، فكانت لابن الجروى أوّل النهار، ثمّ أتاه كمين عبيد فانهزم، وذلك يوم الاثنين لثماني عشرة خلت من رجب سنة تسع. ومضى عبيد ابن السرى إلى تنيس ودمياط. ولحق عليّ بن الجروى بالعريش. قال معلى الطائى:

أَلَمْ تَرَ خَيْلَهُ صَبَحَتْ عَلِيّا — تَلُفّ عَلى مَناسِجِها النّسَاعَا[٣]

فَولّى عَنْ عَساكِرِهِ وَخَلّى — عَلى الأسَلِ المَدَائنَ وَالرّبَاعَا[٤]

---

(١) كذا فى ر، وقال: «فى الأصل: انفسار. والذى يظهر أنه معرب أفسر بمعنى التاج بالفارسى».

(٢) شطنوف: من الغربية، على فرسخين من القاهرة، ويفترق النيل عنده إلى فرعين، فرع شرقى إلى تنيس ودمياط، وفرع غربى إلى رشيد.

(٣) النساع: جمع نسعة، وهى السير المضفور يجعل زماماً للبعير وغيره. والمنسج: ما بين العرف وموضع اللبد أو ما شخص من فروع الكتفين إلى أصل العنق إلى مستوى الظهر، يريد أنها فى سرعتها تفعل ذلك. وفى ر: تدف. وفى ص: لوف.

(٤) الأسل: الرماح.

(*) انظر فى بقية هذه القصة ص ٥٣٦وما بعدها من متن ساويرس.

الينا، وذلك ان عبد الله الملك(*) كان من اهل حران وكانت زوجته عاقر فرأت فى منامها هاتفا يقول لها: اطلبى اسحق الأسقف ان يصلى عليك والرب يعطيك ولدا. وكانت هذه المرأه عابده لله خايفه منه، وكان لما خطبها عبد الله ليتزوج بها شرطت عليه ان لا يتزوج بغيرها عليها ولا يتسرى، وقالت له: قد عرفنا ان الله خلقنا فى البد[ء] ذكرا وأنثى فان لم تعاهدنى على ذلك فما اتزوج بك. فعاهدها وحفظ لها العهد إلى يوم فراقها. [فلما

وَلَكِنْ فَاتَ فَوْقَ أَقَبَّ نَهْدٍ كرَجع الطَّرْف لا يخشى اضْطلاعا(١)
فَحَسْبُكَ أنْ قَوْمَك من جُذامٍ وَسَعْدٍ لا تَرَى لَهُمُ اجتماعَا
دَعَتْهُمْ طاعَةٌ لَكَ فَاستَجابُوا وَمن عَجَبٍ لِمثلكَ أنْ يُطاعَا

وأقبل عليّ بن الجروى أيضاً فى المحرم سنة عشر ومئتين. فدخل تنّيس ودمياط بغير قتال. وأتى محلة شرقيون. فبعث عبيد بمحمد بن سليمان بن الحكم فى المراكب، فنزل طُوخ. فبعث إليه ابن الجروى بابن غُصَين السعدى. فقاتله فانهزم ابن غصين. فبلغ ذلك عليّاً، فمضى إلى الهُو [رين](٢) ثمّ دخل منها إلى جُرْجِير(٣).

٨٦. عبدالله بن طاهر(*)

وأقبل عبدالله بن طاهر بن الحسين إلى الشام. فظفر بنصر بن شَبَث فى سنة عشر ومئتين. وأقبل سائراً إلى مصر فتلقاه عليّ بن الجروى بالأموال والأنزال وانضمّ إليه. وبعث عبدالله بن

(١) الأقب: الضامر البطن الدقيق الخصر من الخيل. والنهد: الفرس الحسن الجميل الجسم.
(٢) كذا فى ر. وهورين: قرية من أعمال قويسنا، تعرف بنطابة.
(٣) جرجير: قرية اندثرت كانت فى الشمال الشرقى من ناحية منشية أبى عامر، على بعد ثلاثة كيلو مترات من سكنها بأراضى ناحية المناجاة، بمركز فاقوس من مديرية الشرقية.
(*) الخطط: ١: ٣١١، والنجوم ٢: ١٩١، وحسن المحاضرة ٢: ١١.

رأت ذلك المنام طلبت الاسقف المذكورا فاحضرو الأسقف انبا اسحق إليها فى صباح الغد فعرفته ما رات فى منامها فجعل بينه وبينها أسبوعا وسأل الله ان يتم ما طلبته، ثم مضى الى الدير الذى كان فيه راهبا فاعلم الأخوه بالخبر فاجتمعو إلى البيعه على جسد [صاحب] الدير واستشفعو به إلى الله بسببها. ولما كان بعد تلتة أيام وهم صيام نظرت المراه إلى رجلين قايمين على موضع فراشها يشبهان أنبا اسحق الأسقف وابا الدير قايلين لها:

طاهر إلى عبيد يدعوه إلى السمع والطاعة، فلم ينْحَشْ[(١)]. عبيد إلى ذلك. وسار ابن طاهر فنزل بلبيس، فراسل عبيدا أيضا وخوّفه ومنّاه وأرهبه. فلم يجنح إلى شيء من ذلك. وبعث عبيد أيضاً أبا صالح حمّاد بن المُخَارِق إلى أمير المؤمنين المأمون، وجعل يدافع ابن طاهر، ويُحكم أموره، ويحفر خندقه، ويشحن سفنه، وجعل عليها ابن الأكشف. وابن طاهر يتراخى عنه، غير أنّه قد بعث عُمّاله يجبون الخراج. وسار ابن طاهر من بلبيس حتى نزل زُفَيتا[(٢)] وعقد بها جسرا. وبعث عيسى بن يزيد الجُلودى إلى شَطَنوف. وأقبلت سفن ابن طاهر من الشام، فجعل عليها عليَ بن الجروى لمعرفته بالحرب فى البحر. وبعث عبيد أيضاً مراكبه، عليها أبو السَّرْد[(٣)] عسامة ابن الوزير الشيباني. فالتقو فانهزم أصحاب عبيد. وأقبل ابن طاهر إلى خندق عبيد الذى احتفره، فنزل عليه يوم الجمعة لخمس خلون من المحرم سنة إحدى عشرة. فتقاتلو فاستأمن أبو السّرد فى جمع كبير إلى ابن طاهر ثمّ تخامَروا[(٤)] قال أبو تمام حبيب بن أوس الطائي:

....

(١) ر: فلم يتحاش.
(٢) خـ (١: ١٧٩): زفتا. وهما بلدة واحدة، كما يظهر من معجم البلدان لياقوت.
(٣) ر: أبو السرور، وانظر الشعر.
(٤) تخامروا: اختلطو وتقاربوا.

ان الله قد سمع الدعا، وفي هذه الليله تحبلين بولد ذكر، ثم غابا عنها، فقالت لبعلها ذلك ففرحا جدا ثم حبلت وولدت غلاما، ولجل ذلك كانا يحبان الأسقف انبا اسحق إلى ان اعطاه الله المملكه فاعطا عبد الله الملك السلطان ان يكون بطرك انطاكيه والمشرق، وامر انه متى قاومه احد يقتل بالسيف . ثم انه قتل مطرانين كبيرين من تلك الكوره لجل انهما قالا له: أنت اسقف حران كيف تخالف القوانين وتقو بيد السلطان على ان تاخذ

لَعَمْري لَقَدْ كانَتْ بمصرَ وَقيعَةٌ　　أقامَتْ على قَصْدِ الهُدى كلَّ مائلِ
على الخَندَقِ الأقصَى وَما كانَ حوْلَه　　وَما قَد يَليه منْ فَضَاء وَسَاحِلِ
رأى ابنُ السَرىِّ النَصرَ أوّلَ يَوْمِه　　وأوْدى بلَيْثٍ مَن أبى السَرْدِ باسِلِ
لَوَيْنَ جُموعَ ابنِ السَرِىِّ وَخَيْلُهُ　　شَماطيطُ تَترَى كالنَعامِ الجَوافِلِ[1]
فَلَمّا رَأوْا أنْ لا مَحيصَ وَأنَّهُ　　كِفَاحُ الرَدى في كلِّ حق وَباطِلِ
تَوَخَّوْا أمَانَ الأرْيَحِىِّ ابنِ طاهِرٍ　　فَمنْ فَارِسٍ يأتيه طَوْعاً وَراجِلِ

وقدم أبو صالح التميمى بأمان عبيد من قبل أمير المؤمنين يوم الثلاثاء لأربع بقين من المحرم سنة إحدى عشرة. وبتوقيع المأمون إلى ابن طاهر فى طى كتابه، الذى كتب به ابن طاهر يسأل فيه أمان عبيد، بهذه الأبيات[2]:

أخى أنتَ مَوْلاىَ الـ　　ـذى أحْفَظُ نُعْمَاهُ
فَمَا تَهْوَى منىَ الأمْرِ　　فَإنى سَوْفَ أهْوَاهُ
وَمَا تَسْخَطُ منْ شَىْءٍ　　فَإنى لَسْتُ أرْضاهُ
لَكَ الله عَلى ذاكَ　　لَكَ الله لَكَ الله

(١) شماطيط: متفرقة، تترى: بعضها وراء بعض. الجوافل: الهاربة.
(٢) وردت هذه الأبيات فى النجوم الزاهرة (٢: ١٩٢) مع اختلاف يسير عما هنا.

كرسي البطركيه غضبا، وأنت فقد وجب قطعك لأن القوانين تأمر ان كلمن يعتز بالسلطان يقطع. فشكا ذلك للملك فامر بقتلهما. وكان هناك قلق عظيم في ذلك المكان. ثم اخذ انبا اسحق سجلا من الملك إلى أبى عون الوالى بمصر يقول فيه كلما يكاتبك به البطرك انبا اسحق فاسمع منه وافعل له. ثم كتب كتابا عن نفسه إلى الأب المغبوط أنبا خايل بطرك مدينه اسكندريه سنوديقا وارسلها بكرامات مع ولدين له قس وشماس كانا

- -

وقام بالصلح محمد بن أسْباط كاتب عبيد بن السرىّ على الخراج، واشترط لعبيد شروطاً. فكتب عبدالله بن طاهر لعبيد كتاب أمان، وأشهد فيه شهوداً من الجند والفقهاء وأشراف أهل مصر وجَمعاً ممّن يُنْسَب إلى العدالة؛ وذلك فى صفر سنة إحدى عشرة ومئتين. وتوجه عبيد فى أهل بيته على عبدالله بن طاهر يوم الاثنين لستّ بقين من صفر. فخلع عليه ابن طاهر وأجازه بعشرة آلاف دينار، وأمره بالخروج إلى المأمون.

حدثنى ابن قديد قال: حدثنى أبو نصر أحمد بن على بن صالح قال: أخبرنى ياسين بن عبدالأحد قال: سمعت أبى يقول: لما دخل عبدالله بن طاهر مصر، كنتُ فيمن دخل عليه، فقلت: حدّثنا ابن لهيعة، عن أبى قُبَيل، عن تُبَيع[1]، قال: يا أهل مصر[2]، كيف بكم إذا كان [فى][3] بلدكم فتنة، فوليكم فيها الأعرج، ثمّ الأصفر، ثمّ الأمرد؛ ثمّ يأتى رجل من ولد الحسين لا يُدْفَع ولا يُمنَع، تبلغ راياته البحر الأخضر، يملأها عدلاً. فقد[4]، كان ذلك: كانت الفتنة فوليها السرى وهو الأعرج، والأصفر ابنه أبو نصر، والأمرد عبيد بن السرىّ، وأنت عبدالله بن طاهر بن الحسين. قال أحمد الحمراوى:

....

(١) كذا فى ر عن المشتبه. وفى خـ (١: ١٨٠)، ص: سبيع.
(٢) كذا في ر عن خـ. وفى ص: قبيع يا مصرى.
(٣) زيادة فى ر عن خـ.
(٤) كذا فى ص. وفى ر عن خـ: فقلت.

كاتبيه، ومطرانين من الكبار احدهما مطران دمشق والاخر مطران حمص لياخذو له الجواب، وكتب السلامه مع بطرك مصر واساقفته بان يرفع اسمه عندهم كالعاده والاتحاد. وكتب كتابا عن نفسه إلى أبي عون الوالي بانه ان لم يفعل البطرك ذلك فليحضر إلى عند عبد الله الملك . فلما وصلو الكتب إلى أبي عون انفذ إلى اسكندريه واحضر انبا خايل البطرك إلى مصر وحده وقرا عليه الكتب والسجل فاجابه وقال له: لا تلزمني بهذا حتى

اتَرْجُو مَهَاةٌ دَفْعَ ضِرْغَام غَابَةٍ ... لَشَتَّانَ ما بَيْنَ المَهَا وَالهَزَابِرِ(١)
وَإنّ أحَقّ النّاسِ أنْ يَشْهَدَ الوَغى ... وَيَقْصِفَ أصْلابَ المُلوكِ الجَبابِرِ
لِمَنْ لَم يَكُنْ في الرَّوْعِ في زِيّ غادةٍ ... وَلَمْ يَحْتَجِبْ صُبْحاً لَمشْطِ الضَفائِرِ

ثمّ وليها عبدالله بن طاهر بن الحسين، من قبل المأمون، على صلاتها وخراجها. دخلها يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من ربيع الأوّل سنة إحدى عشرة، فجعل على شرطه مُعاذ بن عزيز أيّاماً، ثمّ جعل مكانه عَبْدَوَيْه بن جبلة من الأبناء. وأقام عبدالله بن طاهر في معسكره حتى خرج عبيد بن السرى إلى بغداد، يوم الخميس للنصف من جمادى الأولى سنة إحدى عشرة. قال حبيب ابن أوس الطائى:

فَأوْرَدَهُ بَغْدادَ يَهْوى بِرِجْلِه ... ذَمُولٌ تَرامَى في قِلاصٍ ذَوامِلِ(٢)
فَأصْبَحَ قَدْ زالَتْ ظِلالُ نَعيمِهِ ... وَأيّ نَعيمٍ لَيْسَ يَوْماً بِزائِلِ

حدّثني نصر بن عبدالله بن عبيد بن السرى: أن عبيداً عاش بعد خروجه من مصر زماناً، وأنّه مات بسُرّ مَنْ رأى سنة إحدى وخمسين ومئتين.

(١) المهاة: البقرة الوحشية. والضرغام: الأسد. والهزابر: الأسود.
(٢) الذمول: الناقة التي تسير سيراً ليناً كالعنق أو فوقه. والقلاص: النوق الشابة أو الباقية على السير أو الطويلة القوائم.

اجمع الاساقفه ويتشاورون على هذا الأمر حسب قوانينا وشريعتنا، ففسح له في ذلك وأمهله فيه. ثم جلس [البطرك] بمصر وكتب إلى اساقفة بحرى وقبلي والصعيد الاعلى والأدنى يحضرو إليه جميع الأساقفه وينظرو في ذلك ويكتبو إليه الجواب . فلما حضرو اجابو قايلين للبطرك هو مماثلك يا ابانا وشريكك في الخدمة فافعل ما تراه انت معه فاما نحن فما لنا في هذا شي. وصار بينهم سجس عظيم، كان معه انبا تاودرس أسقف

وأجمع[١] عبدالله بن طاهر على المسير إلى الاسكندريّة. فبعث على مقدمته العبّاس وهاشماً من قوّاد العجم من أهل خراسان، وذلك لمستهلّ صفر سنة اثنتي عشرة، واستخلف عليها عيسى بن يزيد الجلوديّ. ونزل عبدالله بن طاهر على حصن الإسكندريّة؛ قَصَدها[٢] في ربيع الأوّل سنة اثنتي عشرة، [و][٣] حصرها بضع عشرة ليلة. فخرج إليه أهلها بأمان. وصالح الأندلسيين على أن يسيرهم من الإسكندريّة حيث أحبّوا، على أن لا يُخرجو في مراكبهم أحداً من مصر، ولا عبداً، ولا آبقاً؛ فإن فعلو فقد حلّت له دماؤهم ونكْثُ عهدهم. وتوجّهو فبعث ابن طاهر من يفتش عليهم مراكبهم. فوجد فيها جمعاً من الذين اشترط عليهم أن لا يخرجوهم. فأمر ابن طاهر بإحراق مراكبهم. فسألوه أن يردّهم إلى شرطهم، ففعل. وولى على الإسكندريّة إلياس بن أسد ابن سامان[٤]، خذاً من ولد بَهْرام شُوبين[٥].

ورجع ابن طاهر إلى الفسطاط في جمادى الآخرة سنة ثنتي عشرة. فولى عيسى بن المُنْكَدر القُرشيّ القضاء. وأمر بالزيادة في المسجد الجامع، فزيد فيه مثلُه. ثمّ ركب النيل متوجّهاً إلى

(١) ر: جمع.
(٢) كذا في ر، وهو يناقض قول المؤلف السابق إنه خرج إليها في مستهل صفر، وهو ما يوافق أقوال ابن تغرى بردى والمقريزى. ولعل الكلمة محرفة عن «فحصرها».
(٣) زيادة عن ر.
(٤) كذا في ر عن خـ (١٧٣/١). وفي ص: سليمان. تحريف.
(٥) كذا في ر عن ط (١ : ٩٩٢) وهو بهرام جشنس المعروف بجوبين أو شوبين. وفي ص: سونين.

مـصـر التاني الذى كان اغومنس الفسطاط وقس بيعه أبى سرجه هو وأبى انبا مويسيس اسقف وسيم فقط، فانفذو إلى أنا الخاطى [يوحنا = يونس] لنهم [لأنهم] يعلمون أني عضـو من اعضاهم كما هو مكتوب ليس بمعـرفـتى لكن بمحـبـه روحـانيـه فمضيت إليهم كالولد من بعد شهر وهم ملازمون لهم لطلب الأجوبه والتقليد الذى هو السستاتيكا. وكانو قـومـا فـيـهم دين ومـحـبـه، فلمـا نظرونى المشركون الرسل وانا بلباس الرهبان وافعالى بعيده

العراق لخمس بقين من رجَب سنة ثنتى عشرة. فكان مُقامه بمصر، بعد أن صحّت له الولاية إلى أن خرج عنها، سبعة عشر شهراً وعشرة أيّام.

٨٧. عيسى بن يزيد الجلودى(*)

ثمّ وليها عيسى بن يزيد الجلودى، باستخلاف ابن طاهر له على صلاتها. فجعل على شرطه ابنه محمداً، وعلى المَظالم إسحاق بن متوكل. فكانت ولاية عيسى من قبل ابن طاهر إلى يوم الجمعة لسبع عشرة من ذى القعدة سنة ثلاث عشرة ومئتين. فقدم أبو الخير بشْر بن بُرد، رسول أبى إسحاق بن هارون الرشيد(١)، بولاية الأمير أبى إسحاق على مصر وعزل عبدالله بن طاهر عنها، وذلك لوفاء ثلاثة وثلاثين شهراً لولاية عبدالله بن طاهر وخلفائه. فأقرّ أبو إسحاق الجُلُودىّ على الصلاة فقط، وعلى خراجها صالح بن شِير زاد، فظلم الناس وزاد عليهم فى خراجهم. فانتقض أسفل الأرض وعسكروا. فبعث عيسى بن يزيد بابنه محمد فى جيش لقتال أهل الحوف. فنزل ببُلبيس، فلقيه بها جمع منهم فحاربوه وهزموه. فنجا محمد بن عيسى، ولم ينْجُ من أصحابه أحد، وذلك فى صفر سنة أربع عشرة ومئتين(٢).

(*) الخطط ١ : ٣١١، والنجوم ٢ : ٢٠٤، وحسن المحاضرة ٢ : ١١.

(١) المعتصم الخليفة بعد.

(٢) ن (٢ : ٢٠٥): «فكانت ولاية عيسى على مصر، فى هذه المرة، سنة وسبعة أشهر وأياماه.

من الرهبنه فاشارو إلى ابهاتى قايلين: انت الذى حضرت معنا وحدك تكون نايبا عن أخوتك؟ فلما نظرونى جالسا مع الأساقفه وارادهم فى الخطاب تعجبو وقالو: ما رأينا قط راهبا يرادد البطرك مثل هذا. فقالو المطارنه: ان لسانه مثل السيف [الحاد] ما يقاوم. فقال لهم ابهاتى هو بمنزلة اسقف، فتعجبو فقال واحد من المطارنه لى: كم لك من الولاد فى كرسيك وبلادك فقلت له: لى عشر منا [قرى] فيها [فى كل منها] عشرة

---

٨٨. عمير بن الوليد(*)

ثمَّ وليها عُمير بن الوليد، باستخلاف أبى إسحاق بن الرشيد على صلاتها. وورد عليه كتاب أبى إسحاق بولايته عليها يوم الأحد لتسع عشرة[١] خلت من صفر سنة أربع عشرة. فجعل على شُرَطه ابنه محمداً، فاستخلفُ محمد رجلاً يدعى السَّليل بن ربيعة. وفرض عمير الفُروض، واستعدّ لحرب أهل الحوف. وبعث بعبدالله بن حُلَيس[٢] الهلالى إلى الحوف، ليصلح أمر قيس ويردّهم إلى الطاعة. فمضى إليهم [ابن][٣] حليس، فأتاهم وحرّضهم، فعقدو له عليهم. وقام[٤] بأمر اليمانية عبدالسلام بن أبى الماضى الجُذامى ثمّ الجروى. فسار إليهم عمير فى جيوشه وفروضه، وتبعه عيسى بن يزيد الجلودىّ؛ كان خروجه من الفُسطاط يوم الثلاثاء لستّ عشرة من ربيع [الأوّل][٥] سنة أربع عشرة ومئتين. واستخلف على

(*) الخطط ١: ٣١١، والنجوم ٢: ٢٠٧، وحسن المحاضرة ٢: ١٢.
(١) كذا فى ر. وفى خـ (١: ٣١١)، ن (٢: ٢٠٧): لسبع عشرة.
(٢) ن: ابن الجليس.
(٣) زيادة ضرورية عن ر.
(٤) ر: وأقام.
(٥) زيادة فى ر، وهى فى خـ، ن.

اواسی [كل] خمسه تكون [تطعم] في كل سنه نحو خمسين نسمة . فقالو: بالحقيقه نحن نراك متعوبا ضعيف الجسم. فقال احدهما: انا عندى فى كرسى تسع مايه ضيعه سوى المدن والمنا [القرى] وكراسى لطاف، وكورونا قليل [سكانها] ومضى بيني وبينهم كلام كتير وهم قوم فيهم دين ومحبه.

فلما كان في الشهر التانى اجتمعو فى بيعة السيده استقر الأمر مع البطرك انبا خايل . قال:

الفسطاط ابنه محمداً. وقدم أبو خالد المهلبى من قبل المأمون إلى اليمانية، ومحمد بن ذُؤاله القيسى إلى القيسية[1]. فبذلا لهم ما شاؤوا، فلم ينههم ذلك عن الحرب. وزحفو إلى عمير، وعلى اليمانية عبدالسلام بن أبى الماضى، وعلى قيس عبدالله بن حُلَيس الهلالى. فالتقو بمنية مال الله[2]، فاقتتلوا، فقُتل من أهل الحَوف جمع كثير، وانهزموا. فتبعهم عمير في نفر من أصحابه. فعطف عليه كمين لأهل الحَوف، فقتلوه باليهودية يوم الثلاثاء لثلاث عشرة[3] من ربع الآخر. وكان الذى قتله مُبارك الأسود مولى حُمَيد ابن كوثر الحَرَشى. فكان مقام عُمَير على إمرتها إلى أن قُتل ستين يوماً. قال حبيب بن أوس الطائى[4]:

ألا رُزِئَتْ خُـراسَـانُ فَـتَـاهَا ... غَـداةَ ثَوَى عُـمَـيـرُ بنُ الوَلِـيـد
فَـيَـا يَوْمَ الثَّـلاثَا كَمْ كَـئـيبٍ ... رَمَـاهُ الحزْنُ فيكَ وَكَمْ عَـمِـيدَ[5]

---

(١) ر: محمد بن دوالة العبسى إلى العبسية. خطأ.

(٢) من مديرية الشرقية. وفي ت: منية يالله. وانظر سيرة أحمد بن طولون للبلوى ١٥١، ٢٧٣.

(٣) خـ، ن: لست عشرة خلت.

(٤) ديوان أبى تمام، تحقيق شاهين عطية، بيروت ١٨٨٩، ص ٣٢١.

(٥) العميد: المريض لا يستطيع الجلوس من مرضه، ولعله يريد من هذه الخبر فصار لا يستطيع القيام كالمريض.

السـيف او النار او الرمى إلى الأسـد او النفى او
السبى ما يقلقنى ، ولست ادخل تحت ما لا يجب
ولا ادخل تحت حرمى الذى كتبته بخطى وبدات
به بان لا يصـير اسقف بطركا ، والأبا الفضلا
احرمـو من ياخـذ رتبـه من رتب الكنهـوت بيـد
السلطان او عنايته ، لن [لان] الاساقفه كانو كتبو
إلى من انطاكيـه فى زمان انبـا يوحنا البطرك ان
كلمن ثبت بعده من الأساقفه على الكرسي يكون

فَكَمْ سَـخَنْتَ فِـينَا مِنْ عُـيُـونٍ وَكَمْ أَعْـثَرْتَ فِـينَا من جُـدُود(١)
فَـمَـا زُجِـرَتْ طُيـورُكَ عن سَنِيحٍ وَلا طَلَعَتْ نُجُـومُكَ بِالسُّعُـود(٢)

وقال أيضا(٣):

أَنْعَى عُـمَـيْـرَ بنَ الوَليـد لغَـارَةٍ بِكْرٍ منَ الغَـارَاتِ أَوْ لِعَـوَانِ
أَنْعَى فـتى الفـتيـانِ غيـرَ مُكَذَّبٍ قَـوْلِي وَأَنْعَى فَـارِسَ الفُـرْسَـانِ

وقال سعيد بن عفير:

سَاقَتْ عُمَيْـرَ إلى مِصْـرٍ مَنِيَّتُـهُ بِامْـرَةٍ لَمْ يَكُنْ فِـيـهَـا بِمَسْـعُـود
حَـتى أَتَتْـهُ المَنَايَا وَهْوَ مُلْتَـحِفٌ ثَوْبَيْنِ منْ حَـبَـرَاتِ البَـأْسِ وَالجُـود
فاذهَبْ حَميداً فلا تَبْعَدْ فكلّ فَتًى يَوْمَـاً وَإِنْ كَـرُمَتْ أفـعَـالُهُ يُودِي

وأقام محمد بن عمير خليفة لأبيه عليها شهراً، ثمّ أظهر الجلودى كتاباً بولايته، فسلم إليه محمد.

---

(١) الجدود: الحظوظ. وأعثرها: جعلها عاثرة تعسة. وكذا روى هذا الشطر فى الديوان. وفى ر: وكم أعبرت فينا من خدود.
(٢) السنيح: الظبى إذا مر من مياسرك إلى ميامنك، وهم يتفاءلون به.
(٣) الديوان ٣٤٨.

محروما، فكتبت هذا بخطى فكيف يجب أن احرم نفسى واحلل اليوم ما حرمته بالأمس ، وما انكرته امس ارضى به اليوم، وما انكروه الأبا القديسيون قبلي. وقطع الخطاب. فتقدمو إلى أبى عون الوالي وقالو له: تنفذ معنا البطرك إلى بلادنا كما امر الملك. ولم يكن ابو عون يريد ان يسير الأب لأجل محبته له والنصارى، وكان له عنايه عند الله بهم وقبوله دعاهم له. فقال : للبطرك :

---

٨٩. عيسى بن يزيد الجلودي(*)

الثانية

ثمّ وليها عيسى بن يزيد، خليفةً لأبي إسحاق، على صلاتها. فجعل على شرطه رَجُلاً من أهل خراسان يقال له مُطهّر. ثمّ سار عيسى إلى أهل الحوف، فلقيهم بمُنية مطر[١]. فكانت بينهم وقعة. ثمّ انصرف أهل الحوف على حامية. ومضى الجلوديّ حتى نزل النُوَيرة، فخندق على نفسه وجيشه خندقاً، وأقام أيّاماً. فأتاه أهل الحَوف فصبّحو به. فهاله أمرهم، فلمّا أمسى تحمّل منهزماً إلى الفسطاط، وأحرق. ما ثقل عليه من رحله، وخندق على الفسطاط؛ وذلك يوم الثلاثاء لأربع خلون من رجب سنة أربع عشرة. قال حبيب بن أوس الطائى يهجو الجلوديّ:

أللهِ أرْهَقَكَ الهَزِيمَةَ إذْ … جَبَذَتْكَ[٢] أحبالُ الرّدى جَذْبَا
وَأتَتْكَ خَيْلٌ لَوْ صَبَرْتَ لهَا … أنْهَبْنَ رُوحَكَ فى الوَغَى نَهْبَا

(*) الخطط ١ : ٣١١، والنجوم ٢ : ٢٠٨، وحسن المحاضرة ٢ : ١٢.
(١) هى المطرية. انظر ن (٢ : ٢٠٨).
(٢) ص: جبذتك. ر: جذبتك. وهما بمعنى واحد.

انت قد طعنت في السن والطريق بعيده جدا، وامض وشاور نفسك أياما قلايل فان سهل عليك الامر والا فالمسير بيدك. فخرجنا من عنده فاقلقونا المطارنه والرسل وخاطبو البطرك فى نجاز الأمر بالمسير معهم ولم يدعونا فاهتم الأب البطرك بالسفر وهو وجع القلب قايلا لأبى مويسيس : تصحبنى فى هذه الطريق الصعبه. فاستعد أبى مويسيس للمسير معه، وأبا تاودرس اسقف مصر،

مِنْ حَيَ عَدْنَان وَإخْوَتِهِمْ قَحْطانَ لا مِيلاً وَلا نُكْبَا[١]
أَعْصَمْتَ بالليْلِ البَهِيمِ وَقَدْ أَلْقَى عَلَيْكَ ظَلامَهُ حُجُبَا
وَتَرَكْتَ جُنْدَكَ لِلْقَنَا جُزُرا وَالبِيضُ تَخذِبُ هامَهُم خَذْبَا[٢]
فَاشْكُرْ أَيَادِيَ لَيْلَةٍ سَنَحَتْ لَكَ بِالبَقَا فَرَكِبْتَهَا رَكْبَا

وأقبل أبو إسحاق بن هارون سائرا إلى مصر، في أربعة آلاف من أتراكه. فامتنعو عليه، فقاتلهم يوم السبت لعشر بقين من شعبان سنة أربع عشرة، فهزمهم. ونزل أبو إسحاق ببلبيس يوم الأحد لتسع بقين من شعبان. وبعث فى طلب عبدالله بن حُلَيس، وعبدالسلام بن أبى الماضي. فأُتى بهما، مستهلّ شهر رمضان، فقيّدهما وسجنهما، ثمّ أقامهما للناس. ودخل أبو إسحاق الفسطاط يوم الخميس لثمان خلون من رمضان سنة أربع عشرة ومئتين. ثمّ خرج أبو إسحاق إلى الجيزة، فدعا بابن حُلَيس وعبدالسلام، فضرب أعناقهما، وصلبهما يوم الاثنين لثنتى عشرة ليلة بقيت من ذى القعدة سنة أربع عشرة ومئتين. قال مُعلّى الطائى:

(١) الميل: جمع أميل، وهو من يميل على السرج ولا يستوى عليه، ومن لا سلاح معه، والجبان. والنكب: جمع أنكب، وهو المائل عن الحق والحائد عن الخصم.
(٢) الجزر: جمع جزور، وهى الشاة المذبوحة، ويريد تركهم للقتل. والبيض: السيوف. وتخذبهم: تضربهم. وكذا الشطر الثانى فى ر. وفى ص: تجذب مامهم جذبا.

وانا البايس يونس [يحنس = يوحنا] فلما استعدينا للمسير وصل الخبر إلى مصر فى تلك الليله ان اسحق الأسقف الذى وثب على كرسى انطاكيه بيد السلطان قد توفى بانطاكيه وقد ناب على الكرسى أنسان اسمه اتناسيوس وجلس فى اليوم بعينه قبل مغيب الشمس، فمات الاخر فى تالت يوم ودفنوهما. فلما سمع ذلك المطارنه [والرسل] ومن معهم من الكهنة هربو ولم نعلم كيف مضو إلا انا لم نشاهدهم بعد ذلك اليوم.

إنّ الخَلَنْجِيَّ غَدَا سَابِقاً | فى حَلْبَة الجِسْرين قَدْ قَصَبَا(١)
عَلى طمِرٍّ مَا لَهُ أرْجُلٌ | مِنْ صَنْعَةِ النجَّارِ قَد شُذّبَا(٢)
ولَيْسَ يَدْرى عِنْدَ إلجامه | مَنْ أثْفَرَ الطِّرْفَ ومَن لَبَّبَا(٣)
مُسَمَّرُ الخَلْقِ أمُونُ الشَّوَى(٤) | يَأنفُ أنْ يَأكُلَ أوْ يَشْرَبَا
ولَوْ سَرَى لَيْلَتَهُ كُلَّهَا | مَا جَاوزَ الجِسْرَ ولا قَرَّبَا
لَوْ كَانَ من بَعضِ نَخيلِ القرَى | كَانَ أبُو القَاسِمِ قَدْ أرْطَبَا
كَمَا أبُو إسْحَاقَ أوْدَاجَهُ | أبْيَضَ لا يُعتِبُ مَنْ أغْضَبَا(٥)
وَقَدْ سَقَى عبدالسَّلامِ الرَّدَى | فَكَيْفَ بِاللّه إذا جَرَّبَا

وخرج أبو إسحاق، متوجّهاً إلى الشام، لغُرّة المحرم سنة خمس عشرة ومئتين فى أتراكه، وبجمع من الأسارى فى ضُرّ وجَهْد شديد، وولى على مصر عَبْدَوَيْه بن جبلة من الأبناء.

(١) قصب: أحرز قصب السبق.
(٢) الطمر: الفرس الجواد أو الطويل القوائم الخفيف، ويعنى به الخشبة التى صلب عليها.
(٣) أثفر الفرش: عمل له ثفراً أو شده به، والثفر: السير فى مؤخر السرج. والطرف: الكريم من الخيل. ولبب الدابة: جعل لها لبباً، وهو ما يشد من سيور السرج فى صدر الدابة ليمنع استئخار الرحل.
(٤) الشوى: الطرف.
(٥) الأوداج: العروق فى العنق. وأعتبه: أرضاه.

وانا اقـول لكم مـا قـد قـيل لنا من اجل هذا اتناسيوس كان من الأساقفه القدم ومطرانا وتولى من حد حران إلى داخل، وكان كرسيه بعيدا جدا حتى انه كان يسير على الجبال والصخور والحجاره الحاده برجيله وفيهما مداس حديد حتى يطوف على كل كـوره، وحـدثونا أنه كـان شـديد القـوه طويل القـامـه ممتلى الجسم، وكـان قـد أعطى فى المجمع ان يقسم الأساقفه لبعـد الكوره فلما وثب على الكرسى مات.

---

٩٠. عبدويه بن جبلة(*)

ثمّ وليها عبدويه بن جبلة، من قبل أبى إسحاق، على صلاتها؛ وليها مستهلّ المحرم سنة خمس عشرة ومئتين. فجعل على شرطه ابنه، وعلى المظالم إسحاق بن إسماعيل بن حمدان[١] بن زيد. وخرجْ ناس من لَخْم بالحَوْف، فحاربو فى شعبان سنة خمس عشرة. فبعث إليهم عيسى بن منصور الرّافقى[٢]، وهو والى الحَوْف، فقاتلهم فظفر بهم. ثمّ قدم الأفشين حَيْدَر[٣] بن كاوس[٤] الصَفْدى إلى مصر، ومعه علىّ بن عبدالعزيز الجروىّ؛ قدما لثلاث خلون من ذى القعدة[٥] سنة خمس عشرة، وقد أُمِرَ الأفشين أن يطالب[٦] عليّا بالأموال التى عنده، فإن هو دفعها إليه وإلاّ قتله. فطالبه الأفشين، فلم يدفع إليه شيئاً. فقدمه

(*) الخطط ١: ٣١١، والنجوم ٢: ٢١٢، وحسن المحاضرة ٢: ١٢.
(١) ن (٢/٢١٢): حماد.
(٢) كذا فى ر، وقال: «فى الأصل: والرافقى. حذفنا الواو لأنه ظهر أن الرافقى نسبة عيسى بن منصور، فإن عيسى ذكر بهذه النسبة فى بعض نسخ النجوم (انظر فهرس الأعلام) وقيل له فى بعضها الرافعى كما فى الخطط (١: ٣١١).
(٣) ص: كبادر. خطأ.
(٤) ر: كاووس.
(٥) خـ (١: ٣١١)، ن: ذى الحجة.
(٦) كذا فى ر. وفى ص: يطلب.

وجا الينا انسان من الخلقدونيين اسمه جرجه وكان خيرا ودخل معنا فى الأمانه الارتدكسيه فوقع اختيار الجمع عليه فصيروه بطركا على انطاكيه فلم يمر عليه إلا قليل حتى وثب عليه اسقف من اساقفته يسمى ابا داود وكانت امه دايه لابى جعفر المنصور ملك المسلمين، فسعى به بكلام لا يجب ذكره في سيره البيع وافعالنا وذنوبنا ماتحتاج إلى زياده، ثم اخذ الملك هذا جرجه وكبله بالحديد

بعد الأضحى بثلاث فقتله، وصرف الأفشين عبدويه بن جبلة عنها. وخرج الأفشين إلى بَرْقَة ومعه عبدويه، وولى عليها عيسى بن منصور لسلخ سنة خمس عشرة[1].

٩١ . عيسى بن منصور(*)

ثمّ وليها عيسى بن منصور، من قبل أبى إسحاق، وليها مستهلّ سنة ستّ عشرة ومئتين على صلاتها. فجعل على شرطه أبا مغيث موسى[2] بن إبراهيم ابن عَمّه. ثمّ انتقضت أسفل الأرض كلها، عربها وقبطها[3]، فى جمادى الأولى سنة ستّ عشرة، وأخرجو العمّال، وخالفو الطاعة. وكان ذلك لسوءسيرة العمّال فيهم. ثمّ قدم الأفشين من برقة، للنصف من جمادى الآخرة سنة ستّ عشرة، فأقام بالفسطاط لأنّ النيل فى مَدّه قد حال بينه وبينهم. ثمّ خرج الأفشين وعيسى بن منصور جميعاً، فعكسرو فى شوّال سنة ستّ عشرة. فحاربه أهل تنو وتُمَىّ، وقد اجتمعو بإشْليم[4]، وعقدو عليهم لان عُبَيْدُس[5] الفهرى من ولد عقبة بن نافع.

(١) ن: فكانت ولاية عبدويه بن جبلة على مصر، نيابة عن أبى إسحاق محمد المعتصم، سنة واحدة.
(*) الخطط ١ : ٣١١، والنجوم ٢ : ٢١٥، وحسن المحاضرة ٢ : ١٢.
(٢) ن (٢ : ٢١٦): يونس.
(٣) كذا فى ر، خـ (١ : ٣١١). وفى ص: وقبطيها.
(٤) إشليم: قرية بالحوف الغربى.
(٥) كذا فى ر. وفى ن، ط (٣ : ١١٠٥): عبدوس الفهرى.

والخشب واودعه السجن فى السنه التامنه من ملكه. ومن بعد ذلك الوقت والى الآن لم تصلنا سنوديقا [الى مصر] ولا مضى من عندنا كتاب.

واذكر لكم اعجوبه بطرك القسطنطينيه والملك وانسان خلقدونى فى سنه أربع مايه وتمانين للشهدا، كان انسان مقدم من القسطنطينيه اسمه فيلبس قد حسن له البطرك ان يقاتل الملك وقال له: انك إذا قاتلته ظفرت به واخذت المملكه. فلما

فواقعهم الأفشين بأشليم، فهزمهم وأسرَ منهم كثيراً فقتلهم. ورجع عيسى بن منصور إلى الفسطاط، ومضى الأفشين إلى الحَوْف ففَل جماعتهم.

وبعث الأفشين عبدالله بن يزيد[١] إلى [الغربية، فانهزم إلى][٢] الإسكندريّة، واستجاشت عليه بنو مُدْلِج فحصروه فى حصن الإسكندريّة، وذلك فى شوّال سنة ستّ عشرة. ومضى الأفشين إلى شَرْقيون، فلقى من هناك بمحلة أبى الهَيثم، فاقتتلوا. فظفر بهم الأفشين، وقتل صاحبهم أبا ثور اللخمى. ومضى الأفشين أيضاً إلى دَميرة[٣]، فحاربهم فى ذى القعدة سنة ستّ عشرة، فظفر بهم. وخرج عيسى بن منصور من الفسطاط إلى نميّ، فقاتل أهلها، فانهزم أهل نُمَيّ. وأقبل الأفشين فى جنوده إلى الإسكندرية، فلقيه طائفة من بنى مُدْلِج بخَربتا، فهزمهم. وأتوه أيضاً بمحلة الخلفاء[٤]، فهزمهم وأسر أكثرهم، فنزل بهم قَرْطَسا[٥]، فضرب أعناقهم بها. وأتى الإسكندرية فدخلها. وهرب منه رؤساؤهم، وهم بَحْر بن عليّ اللخميّ، وابن عُقَاب اللخمى. وكان رئيس جماعتهم معاوية بن عبدالواحد بن محمد بن عبدالرحمن بن

(١) هو عبدالله بن يزيد بن مزيد الشيبانى (خـ ١: ١٧٣). وفى ر: عبيدالله.
(٢) زيارة عن خـ (١: ١٧٣)، وهى ساقطة من ر.
(٣) دميرة: قرية كبيرة على شاطيء النيل قرب دمياط.
(٤) محلة الخلفاء: من مديرية البحيرة.
(٥) كذا عند ياقوت، وفى القاموس: قرطس، وفى التاج: قرطسة، وهى من قرى البحيرة.

بلغ الخبر الملك نفاه إلى بلد غربه، وطرحه في مواضع ضيقه وأقام بطركا غيره. وكان الملك يفعل فعالا لا تحسن ذكرها ويمحى الصور من البيع(*).

وما ذكرت لكم هذا ألا لتعلمو أن هذه الأمور كانت عامه ليس بانطاكيه فقط بل وفي جميع المملكه ، والبطركان القسطنطيني والانطاكي اعتقلو في زمان واحد.

(*) انظر الهامش العلوى ص٣٢٣ خاصة الجزء المتعلق بحرب الايقونات.

معاوية بن حُدَيج. وكان دخول الأفشين الإسكندرية لعشر بقين من ذى الحجّة سنة ستّ عشرة. ومضى الأفشين بعد فتح الإسكندرية إلى أهل البَشَرُود[1]، فكان مواقفا لهم وقد امتنعوا حتى قدم المأمون.

قدوم امير المؤمنين المأمون الفسطاط

قدم لعشر خلون من المحرم سنة سبع عشرة ومئتين، فسخط على عيسى ابن منصور، وأمر بحلّ لوائه بلباس البياض، قال: لم يكن هذا الحدث العظيم إلاّ عن فعلك وفعل عمّالك، حمّلتم الناس ما لا يُطيقون، وكتمتموني الخبر حتى تفاقَم الأمر واضطرب البلد. وضمّ أصحابه إلى ابن عمّه موسى بن إبراهيم. وولى المأمون على شرط الفسطاط أحمد بن بِسْطام الأزدى من أهل بُخَارَا. وركب أمير المؤمنين، فنظر إلى المقياس[2]، وأمر بإقامة جسر آخر فعمل له هذا الجسر القائم بالفسطاط اليوم، وترك القديم. وعقد لأبى مغيث موسى بن إبراهيم على جيش بعثه إلى الصعيد، في طلب ابن عُبَيْدُس الفهرى، ومعه رشيد التركى. فظفرو بالفهرى بطَحا. وارتحل المأمون إلى سَخَا، سلخ المحرم سنة سبع عشرة. ثمّ صار إلى البشرود، والأفشين قد أوقع القبط بها، فنزلو على حكم أمير المؤمنين. فحكم بقتل الرجال وبيع النساء والأطفال. فبيعو

(١) كذا في ر عن خـ (١ : ١٧٤). وفي ص: الشرور. تحريف.
(٢) وأمر بتعميره. (ن ٢ : ٢١٦).

وقد ذكرنا يسيرا مما قد لقيه الأب البطرك أنبا خايل من الجهاد ولم يكن معه احد مقيما فى شدايده ولا يساعده إلا الأب الأسقف أنبا تادرس أسقف مصر وأنبا مويسيس أسقف وسيم. ولما طعن فى السن سأل الله الرحوم أن ينقله من هذا العالم ليتنيح مع القديسين فأجابه وأسلم نفسه بعد ما جاهد وعمل من الأعمال الحسنه في اليوم السادس عشر من برمهات . وكان مدة مقامه

وسَبى أكثرهم. وأتى بالفهرى إلى سخا فقتله، وتتبع كلّ من يُومأ إليه بخلاف فقتله، فقتل ناساً كثيراً.

ورجع إلى الفسطاط يوم السبت لستّ عشرة من صفر سنة سبع عشرة. ومضى إلى حلوان فنظر إليها، وأقام بها ثلاثاً. ورجع إلى الفسطاط، فخرج على مقدَمته أشنَاس. وارتحل المأمون يوم الخميس لثماني عشرة من صفر. فكان مقامه بالفسطاط وسَخَا وحلوان تسعة وأربعين يوماً.

٩٢.كيدر نصر بن عبدالله(*)

ثمّ وليها كيدر واسمه نصر، من قبل المأمون، على صلاتها. فجعل على شرطه إسْبَنْديَار[١]. ثمّ بعث المأمون برجل من العجم، يقال له [ابن][٢]، بِسْطَام، فولاه الشرط. فعزله كيدر لرشوة أرتشاها، وأمرَ بضربه بالسوط في صحن المسجد الجامع، وولى رجلاً بخاريًا يقال له ذاوَه[٣]، ثمّ عزله وولى ابنه مظفر بن كيدر باستخلاف مظفر ذاوه على الشّرَط. وورد كتاب

(*) الخطط ١ : ٣١١، والنجوم ٢ : ٢١٨، وحسن المحاضرة ٢ : ١٢.
(١) ن (٢ : ٢١٨): ابن اسبنديار.
(٢) زيادة في عن ن، ويظهر أنه أحمد بن بسطام، المذكور حالا.
(٣) لم يذكره ن.

على الكرسي الإنجيلي على ماوجدنا في اولياكي بدير القديس أبي مقار تلتا وعشرين سنه ونصفا. ووضع جسده المقدس مع أجساد أباينا القديسين بمجد وكرامه، صلواته تكون معنا آمين.

[كملت السيره السادسه(*) عشر من سير البيعه المقدسه وانباخايال (خايل) البطرك الذى هو السادس والاربعين نفعنا الله تعالى بمقبول صلواته امين امين].

(*) صحتها الثامنة.

أبي إسحاق بن الرشيد[1] على كيدر بأخذ[2] الناس بالمحنة، ورد الكتاب في جمادى الآخرة. سنة ثماني عشرة ومئتين، والقاضي بمصر هارون بن عبدالله الزّهريّ. فأخذه كيدر بذلك فأجاب، وأخذ الشهود به فأجابوا. فمن وقف منهم سقطت شهادته. وأخذ بها الفقهاء والمحدّثين والمؤذنين. فكان الناس على ذلك من سنة ثماني عشرة إلى أن قام المتوكل سنة اثنتين وثلاثين ومئتين.

وتوفي المأمون بأرض الروم لسبع خلون من رجب سنة ثماني عشرة ومئتين، وبايع الناس أبا إسحاق المعتصم. فورد كتابه إلى كيدر ببيعته، وأمره بإسقاط من في الديوان من العرب، وقطع أعطياتهم. ففعل ذلك كيدر.

حدثني ابن قديد قال: حدثني علي بن أحمد بن سليمان قال: [حدثني] سعيد الهمذاني عن طلق بن السمح قال:

حدّثنا نافعَ بن يزيد قال: قطع مروان بن محمد العطاء سنة، ثمّ كتب إليهم كتاباً يعتذر إليهم، فيه «إني إنّما حبستُ عنكم العطاء في السنة الماضية، لعدوّ حضَرني، فاحتجت فيه إلى

(١) كذا في ر، والأصح أنه كتاب المأمون، كما في ن، خـ (١ : ٣١١).
(٢) كذا في خـ. وفي ص: [بأن] يأخذ.

السيره التاسعه عشره من سيره البيعه
أنبا مينا البطرك وهوالسابع
والاربعون من العدد
(٧٦٧ / ٧٧٥)

أنه لواجب علينا الاستقصا والبحث عن جميع سير البيعة كما كان ابهاتنا المتقدمون يفعلون. فأما فيلون ويستس ويوسابوس من اليهود فانهم كتبو سيرة ما جرى بيروشليم من أجل المسيح، والذى

المال، وقد وجّهت إليكم بعطاء السنة الماضية وعطاء هذه السنة. فكُلُو هنيئاً مريئاً، وأعوذ بالله أن أكون أنا الذى يجرى الله قطع العطاء على يديه».

ولمّا قُطعَ العطاء، خرج يحيَى بن الوزير الجروىَ فى جمع من لخم وجذام، قال: هذا الأمر لا نقوم فى أفضل منه، لأنّه منعنا حقّنا وفيئنا. واستمع إليه نحو من خمس مئة رجل. ومات كيدر فى ربيع الآخر سنة تسع عشرة ومئتين[١].

٩٣. مظفر بن كيدر(*)

ثمّ وليها مظفر بن كيدر، باستخلاف أبيه له. فجعل على شرطه ذاوه. وخرج مظفر بن كيدر إلى يحيَى بن الوزير، فقاتله فى بحيرة تنّيس. فأُسر يحيَى ابن الوزير، وتفرّق عنه أصحابه، وذلك فى جمادى الأولى[٢] سنة تسع عشرة. ثمّ صُرِفت مصر إلى أبى جعفر أشناس، فدُعى له بها.

وحدثنى ابن قديد، عن أبى نصر بن صالح، عن أشياخه، قالوا: أوّل من أمر بالتكبير بعد صلاة الجمعة مظفّر بن كيدر. فوليها مظفر إلى شعبان سنة تسع عشرة[٣].

(١) ن: فكانت ولايته على مصر سنتين وشهرين تنقص أياماً.
(*) الخطط ١ : ٣١١، والنجوم ٢ : ٢٢٩، وحسن المحاضرة ٢ : ١٢.
(٢) خـ (١ : ٣١١)، ن (٢ : ٢٢٩): جمادى الآخرة.
(٣) ن: وكانت ولاية المظفر على مصر نحواً من أربعة أشهر تخميناً.

كـتـب سـيـر البـيـعـه الارتدكـسـيـه أفـريقـانوس، وأوسـابيـوس، وسـوزمـانوس وبعـدهم أيضـا مـينا الكاتب. هولا كـتـبـو ماجـرى على البـيـعـه إلى ديسقـرس الأب العظيم المعـترف بالمسيح، وقـايل الحق الذى خلصنا من الطوفان التـانى ومن غـرق العـمق الذى ليس له نهـايه. ومن السـتمـايه وتلتين المجتمعين بخلقدونيه ولاون الكافر صاحب روميه، وهذا قد كـتـب لنا فى التـانى عشـر سيـره للبـيـعـه

---

٩٤. موسى بن ابى العباس(*)

ثمّ وليها موسى بن أبى العبّاس، من قبل أبى جعفر أشناس، على صلاتها[١]، مستهلّ رمضان سنة تسع عشرة. فجعل على شرطه أخاه الحسن بن أبى العبّاس.

أخبرنى ابن قديد، عن يحيى بن عثمان، قال: كان المؤذنون على الزمان يؤذنون بين يدى الإمام يوم الجمعة، من داخل المقصورة، فأوّل من أخرجهم منها موسى بن أبى العبّاس فى ولايته على مصر.

فوليها موسى إلى ربيع الأوّل[٢] سنة أربع وعشرين ومئتين. فكانت ولايته أربع سنين وسبعة[٣] أشهر.

٩٥. مالك بن كيدر(**)

ثمّ وليها مالك بن كيدر، من قبل أشناس، على صلاتها؛ قدمها يوم الاثنين لسبع بقين من

(*) الخطط ١ : ٣١١، والنجوم ٢ : ٢٣١، وحسن المحاضرة ٢ : ١٢.
(١) ن (٢ : ٢٣٢): وجمع له الخراج فى بعض الأحيان.
(٢) ن، خـ (١ : ٣١١): ربيع الآخر.
(٣) كذا فى خـ، ن، وهو الصحيح (من رمضان إلى ربيع الأول أو الثانى). وفى ر: وتسعة.
(**) الخطط ١ : ٣١١، والنجوم ٢ : ٢٣٩، وحسن المحاضرة ٢ : ١٢.

الذين ذكرنا اسماهم لأنهم كانو قد عنو بهذا الأمر، وكذلك في كل جيل لم يدعنا الله هكذا الأرشيدياقن والد أبينا الأب القديس أنبا قسما بطرك اسكندريه الذى هو قريبه، وأبا مقاره أيضا ومقاره الراهب، وبعدهما يوحنا [يونس] ابن أبا مويسيس أسقف وسيم.

وأنا الفقير الزمت من أبى الراهب بمنام رآه، لأنه كان شيخا قديسا، فتقدم إلى وأمرنى أن اكتب

شهر ربيع الأوّل[1] سنة أربع وعشرين ومئتين. فجعل على شرطه ذاوه. فوليها مالك إلى يوم الأحد لثلاث خلون من شهر ربيع الآخر سنة ستّ وعشرين، وقدم يومئذٍ خليفة عليّ بن يحيَى الأرمنى. وليها مالك سنتين وأحد عشر يوماً. وتوفى مالك بن كيدر بالإسكندرية، يوم الأحد لعشر خلون من شعبان سنة ثلاث ومئتين وثلاثين.

٩٦. على بن يحيى الأرمنى(*)

ثمّ وليها عليّ بن يحيَى الأرمنيّ، من قبل أشناس، على صلاتها؛ قدمها يومى الخميس لسبع[2] خلون من ربيع الآخر سنة ستّ وعشرين ومئتين. فجعل على شُرطه معاوية بن معاوية بن نُعيم بن عبدالرحمن بن معاوية بن حُديج. فوليها عليّ بن يحيَى إلى وفاة أبى إسحاق المعتصم، وكانت وفاته للنصف من ربيع الأوّل سنة سبع وعشرين ومئتين. وبويع أمير المؤمنين هارون الواثق بالله. فأقرّه عليها إلى يوم الخميس لسبع خلون من ذى الحجّة سنة ثمان وعشرين ومئتين. وكانت ولايته عليها سنتين وثمانية أشهر[3].

(١) خـ (١ : ٣١١)، ن (٢ : ٢٣٩) : ربيع الآخر.
(*) الخطط ١ : ٣١٢، والنجوم ٢ : ٢٤٥. وأسقط السيوطى الأرمنى فلم يذكره.
(٢) كذا فى خـ (١ : ٣١٢)، ن (٢ : ٢٤٥). وفى ر. لتسع.
(٣) خـ: وثلاثة أشهر. ن: فكانت ولاية على بن يحيى هذا على مصر سنتين وثمانية أشهر، وقيل: وثلاثة أشهر، والأول أصح.

سيره أبابى الطوبانيين، وما شاهدته ونقله لى قوم ثقات. وكنت خادما لأبى أبا يوسف وعند رجليه أنام، وهو الأب الروحانى الذى طعن فى السن. وكذلك الأب البطرك أبا شنوده، فسألت الرب الكريم وقلت كما قال داود: يارب افتح شفتى حتى أقص ما جرى على الأبا المغبوطين ربحا لمن قراه وشجاعة لمن سمعه.

لما وصب [مرض] أبونا المغبوط أنبا خايل من

---

٩٧. عيسى بن منصور(*)

الثانية

فوليها عيسى بن منصور الثانية، من قبل أشناس، على صلاتها؛ دخلها يوم الجمعة لسبع خلون من المحرم سنة تسع وعشرين ومئتين. فجعل على شرطه ابنه. وتوفى أشناس سنة ثلاثين ومئتين، وجُعل مكانه إيتاخ، فأقرّه عليها. وسجن عيسى بن منصور عليّ بن يحيى الأرمنى وضيّق عليه ثمّ أطلقه. فوليها عيسى إلى وفاة الواثق.

وقَدمت بيعةُ المتوكل إلى مصر يوم الجمعة لثنى عشرة خلت من المحرم سنة ثلاث وثلاثين ومئتين. فأقام عيسى عليها إلى يوم السبت للنصف من ربيع الأوّل سنة ثلاث وثلاثين ومئتين. فصُرف عنها، وقدم يومئذٍ عليّ بن مَهْرَوَيْه، خليفة هَرْثَمة بن النضر. ثمّ مات عيسى بن منصور فى قبّة الهواء بعد عزله، لإحدى عشرة خلت من ربيع الأوّل(١) سنة ثلاث وثلاثين ومئتين(٢).

(*) الخطط ١ : ٣١٢، والنجوم ٢ : ٢٥٥، وحسن المحاضرة ١٢.

(١) خـ (١ : ٣١٢)، ن (٢ : ٢٥٥): ربيع الآخر.

(٢) ن: فكانت ولايته على مصر أربع سنين وثلاثة أشهر وثمانية عشر يوماً.

شيخوخته وتنيح بمجد وكرامه أصعدو جسده عند
أجساد أبايه فى اسكندريه فى بيعة مارى مرقس
الإنجيلى بمجد وتعظيم، وبكى عليه جميع الشعب
وسالو من يقيم لهم بطركا بعده مدبرا مثلة،
فاجتمعو الجماعة والأبا الأساقفه لتقدمة من يختاره
الله الذى يعرف خفايا القلوب ويعطى النعمة
لمستحقيها، فذكر القس مينا الراهب ببيعة القديس
أبى مقار، رجل يعجب الناس بقلبه وطريقته وكان

---

٩٨. هرثمة بن النضر الجبلى[١]

ثمَ وليها هرثمة بن النضر الجبلى، من قبل إيتاخ، على صلاتها؛ قدمها يوم الاربعاء لستّ خلون من رجب سنة ثلاث وثلاثين ومئتين. فجعل على شرطه أبا قُتيبة. وورد كتاب المتوكل على هرثمة يأمر بترك الجدال فى القرآن، يوم الجمعة لخمس خلون من جمادى الآخرة سنة أربع وثلاثين ومئتين. [ومات هرثمة، وهو وال، لسبع بقين من رجب سنة أربع][٢]، واستخلف ابنه حاتم ابن هرثمة[٣].

٩٩. حاتم بن هرثمة بن النضر[*]

ثم وليها حاتم بن هرثمة، باستخلاف أبيه، على صلاتها. فجعل على شرطه محمد بن سُويد. فوليها حاتم بن هرثمة، إلى يوم الجمعة لستّ خلون من شهر رمضان سنة أربع وثلاثين ومئتين، وليها شهراً واحداً[٤].

(١) كذا فى ر، خـ، ن. وفى ص: الحبلى. ط (٣: ١٢٦٧): الختلى. وترجمته فى الخطط ١: ٣١٢، والنجوم ٢: ٢٦٥، والسيوطى ٢: ١٢.
(٢) زيادة عن خـ، وزادت ر عبارة «ومات هرثمة» فقط.
(٣) ن: وكانت ولاية هرثمة المذكور على مصر سنة واحدة وثلاثة أشهر وثمانية أيام.
(*) الخطط ١: ٣١٢، والنجوم ٢: ٢٧٤، وحسن المحاضرة ٢: ١٢.
(٤) ن (٢: ٢٣٤): فكانت ولاية حاتم هذا على مصر، من يوم مات أبوه، شهراً واحداً وثلاثة عشر يوماً.

راهبا من صباه، وكان ولد الأب أنبا ميخايل وقيم منشوبيته في دير أبى مقار، فقدم بتدبير الله بفرح وانعم الله على بيعته بهذا الراعى المأمون [أنبا مينا] الذى كان مع أنبا خايل يشاهد أعماله لكونه معه من صباه.

فلما جلس على الكرسى الرسولى علم التعليم الروحانى حتى أن كل أحد عجب من النعمه الحاله عليه وحسن تعليمه، والرب الذى اصطفاه

---

١٠٠. على بن يحيى الأرمنى(*)
الثانية

ثمّ وليها علىّ بن يحيَى الأرمنى الثانية، من قبل إيتاخ، على صلاتها لستَ خلون من شهر رمضان. فجعل على شرطه معاوية بن نعيم. ثمّ صُرف إيتاخ فى المحرم سنة خمس وثلاثين، واستُصْفيَت أمواله بمصر، وتُرِك الدعاء له، ودُعى للمُنتصر مكانه.

وليها [حاتم](١) إلى أن صُرف عنها فى ذى القعدة(٢) سنة خمس وثلاثين ومائتين(٣).

١٠١. إسحاق بن يحيى بن معاذ(**)

ثمّ وليها إسحاق بن يحيَى بن معاذ، من قبل المنتصر ولى عهد أبيه المتوكل على الله، على صلاتها وخراجها؛ قدمها لإحدى عشرة خلت من ذى القعدة سنة خمس وثلاثين(٤). فجعل

(*) الخطط ١: ٣١٢، والنجوم ٢: ٢٧٨، وحسن المحاضرة ٢: ١٢.
(١) زيادة ضرورية للسياق.
(٢) خـ (٣١٢/١)، ن (٢: ٢٧٩): ذى الحجة.
(٣) ن: فكانت ولايته على مصر فى هذه المرة الثانية سنة واحدة وثلاثة أشهر تنقص أياماً.
(**) الخطط ١: ٣١٢، والنجوم ٢: ٢٨٣، وحسن المحاضرة ٢: ١٢.
(٤) ن: وقدم إلى مصر لإحدى عشرة خلت من ذى الحجة من سنة خمس وثلاثين ومئتين المذكورة. وقال صاحب البغية والاغتباط: إنه وصل إلى مصر لإحدى عشرة خلت من ذى القعدة.

جعل للبيعه نمو وحفظا فى جميع أعمالها حتى نسو الناس جميع ما جرى عليهم فى أيام أنبا خايل المتنيح ودامت السلامه فى البيعه.

فأقام الشيطان مبغض الخير تجربه على الأب المغبوط فتكلم الشيطان على لسان إنسان جعله له مسكنا، وكان شماسا راهبا اسمه بطرس، أن يتكلم فى قلبه بالعظايم عن أنبا مينا والأساقفه الذين فى كرسيه، وكان هذا الشماس من قرية

على شرطه الهَيَاجَى، وجعل على المظالم عيسى ابن لَهيعة بن عيسى الحضرمَى. وورد كتاب المتوكل والمنتصر إلى إسحاق [بإخراج الطالبين من مصر إلى العراق، فأُخرجوا][1]، وفرق فيهم[2] الأموال ليتحملو بها، فأعطى كلّ واحد منهم ثلاثين دينارا، والمرأة خمسة عشر ديناراً. وفُرّقت فيهم الثياب. ثمّ خرجو من الفسطاط يوم الاثنين لعشر خلون من رجب سنة ستّ وثلاثين ومئتين. فقدمو إلى العراق، وأُمرو بالخروج إلى المدينة فى شوال سنة ستّ وثلاثين.

فوليها إسحاق بن يحيَى إلى ذى القعدة سنة ستّ وثلاثين ومئتين[3] [ومات إسحاق. بعد عزله، أوّل ربيع الآخر سنة سبع وثلاثين ومئتين][4]. قال الشاعر[5]:

سَقَى الله مَا بَينَ المُقَطَمِ وَالصَفَا　　　صَفا النّيلِ صَوْبَ المُزْنِ حينَ يصُوبُ[6]

(١) زيادة فى ر عن خـ (١ : ٣١٢)، ومثلها فى ن (٢ : ٢٨٣).
(٢) كذا فى خـ (٢ : ٣٣٩). وفى ر: وفرض.
(٣) ن: فكانت ولاية إسحاق على مصر سنة واحدة تنقص عشرين يوماً.
(٤) زيادة عن خـ، تمهد للأبيات.
(٥) ن: بعض شعراء البصرة.
(٦) الصوب: المطر. والمزن: السحاب ذو الماء. ويصوب: ينصبّ.

تسمى دسيمه، وكان هذا الراهب ولدا لأنبا خايل المتنيح تربى فى قلايته، وطرح مبغض الخير فى قلبه أن يطلب اسقفيه وليس هو مستحقها من أبينا أنبا مينا فقال له الأب كما قال بطرس السليح لسيمون الساحر: أن ليس له معنا نصيب . فلم يصبر فركب المراكب ومضى إلى الشام فلما وصل إلى هناك عمل كتبا مزوره عن أنبا مينا إلى بطرك السريان أنبا جرجه بطرك انطاكيه وأساقفته ومطارنته يقول فى الكتب: ان البيعه بمصر قد

وَمَـا بِي أنْ أُسْقَى البِلادَ وَإنَّمَا ... أُحَاوِلُ أنْ يُسْقَى هُنَاكَ حَبِيبُ[1]

فَإنْ تَكُ يا إسْحَاقُ غِبْتَ فلم تؤبْ ... إلَينا وَسَفْرُ المَوْتِ لَيس يَؤوبُ

فَلا يُبْعِدَنْكَ اللهُ سَاكِنَ حُفْرَةٍ ... بِمِصْرَ عَلَيْهَا جَنْدَلٌ وَجَبُوبُ[2]

حدثنى ابن قديد، عن يحيى بن[3] عثمان، عن هارون بن سعيد، قال: كان الناس قد تحدّثو أن إسحاق بن يحيى عزم أن يثور بمصر، فدخلتُ عليه، فقال: أبَلَغك أنّه من أراد مصر بسوء أكبّه الله لمنخريه؟ فقلت: قد رُوى. قال: فلم يلبث إلا يسيراً حتى عُزل، ومات بها بعد عزله.

١٠٢. خوط عبدالواحد بن يحيى[*]

ثمّ وليها خوط عبدالواحد بن يحيَى، من قبل المنتصر[4]، على صلاتها وخراجها؛ قدمها

(١) ن: وما بى أن يسقى البلاد وإنما مرادى.

(٢) السفر: المسافرون. والجبوب: التراب، أو الأرض الصلبة من الصخر، أو الأرض عامة سميت بذلك لأنها تجبّ أى تحفر أو تجب من يدفن فيها أى تقطعه، ومنه قيل جبان وجبانة للأرض التى يدفن فيها الموتى. وفى ر: جنوب، ولا معنى لها هنا.

(٣) كذا فى ر. وفى ص: عن، تحريف.

(*) الخطط ١: ٣١٢، والنجوم ٢: ٢٨٨، وحسن المحاضرة ٢: ١٢.

(٤) كذا فى ر. وفى ص: المنصور، خطأ.

جرى عليها تعب عظيم واضطهاد وشده من الولاه، وكان عارفا بمكاتبة البطاركه والمطارنه والأساقفه. فلما وقف بطرك انطاكيه على الكتب قبله بفرح عظيم لقوله أنه رسول أخيه بطرك اسكندريه وجمع له مالا ودفع له كتبا إلى ساير مطارنته وأساقفته ليجمعو له ويكرموه باجتهاد عظيم لفعله معه. فلما حصل له ما يستعين به على فعله الردى وما يتوصل به إلى الملوك، فمشى معه مبغض الخير، وبعد ايام وصل الى مدينة الملك وبدا

يوم الاربعاء لسبع بقين[١] من ذى القعدة سنة ستّ وثلاثين. فجعل على شرطه محمد بن سليمان بن غالب بن جبريل البجلى. ثمّ صُرِف خوط عن خراجها يوم الثلاثاء لسبع[٢] خلون من صفر سنة سبع وثلاثين، وأُقِرّ على الصلاة.

وورد كتاب المتوكل والمنتصر يوم الاربعاء لليلتين خلتا من ربيع الأوّل سنة سبع وثلاثين ومئتين، بأخذ[٣] بنى عبدالحكم، وزكرياء كاتب العُمَرى، وحمزة بن المغيرة، ويزيد بن سنان، فى أموال الجروىّ، فحُبِسو فيها مع اللصوص، وتُتُبِّعت أموالهم، ونُهِبت منازلهم. وقدم يزيد التركىّ ليلة الاربعاء لليلة بقيت من ربيع الأوّل سنة سبع وثلاثين فى طلب أموال الجروىّ، وأَخْذها ممّن هى عنده، وقدم معه عبدالله بن علىّ بن عبدالعزيز الجروىّ. فأطلق يزيد التركى محمّد بن أبى الليث القاضى من السجن، وأمره بالحكم على بنى عبدالحكم. فحكم عليهم بألف ألف وأربعة آلاف دينار، وعلى زكرياء بثمانية آلاف دينار، وذلك يوم السبت لثمان خلون من جمادى الأولى سنة سبع وثلاثين. ورفع القضيّة إلى يزيد التركى. فألزم بنى عبدالحكم وزكرياء بالمال. وحكم على محمد بن هلال، ويزيد بن سنان، وحمزة بن المغيرة. ونُودى فى الناس: من كتم شيئاً من أموال الجروى حلّ به وحلّ. فالتوى بنو عبدالحكم، فأخذ يزيد

(١) خـ (١ : ٣١٢): لتسع. ومثله فى ن (٢٨٨/٢).
(٢) وكذا فى ن. خـ: لتسع.
(٣) ر: فأخذ.

م ٣٤ - تاريخ مصر ج٣ (الهيئة العامة لقصور الثقافة)

يكتب قصص فى البطرك أنبا مينا وقلبه مملو حنقا ومكرا ويقول فيها: أن بيت مال الملك خال من المال مع حاجته للنفقه للأجناد وتدبير المملكه، وبمصر إنسان بطرك كبير فى النصارى يعرف بعمل كيميا الذهب وفضه اللاتى يقدمون فيهن القرابين، وأنت أيها الملك السيد مستحق أن تكون فى خزانتك هولا الآلات العظيمات اللاتى هى فى كنايس مصر من الذهب اللاتى يعلمون فيهن ما لا يرضى الله. فلما كتب هذا النجس هذه القصه

عبدالحكم بن عبدالله بن عبدالحكم فعذّبه، فمات فى عذابه يوم الأحد لأربع بقين من جمادى الأولى سنة سبع وثلاثين. وتُتبّع الناس وطولبوا. وورد كتاب المتوكل بإطلاقهم فى رجب سنة سبع فأطلقهم خوط.

فوليها إلى سلخ صفر سنة ثمان وثلاثين ومئتين. وقدم خليفة عنبسة على صلاتها، والشَرِكة فى الخراج، مستهلّ ربيع الأوّل سنة ثمان وثلاثين[1].

١٠٣. عنبسة بن إسحاق الضبى(*)

ثمّ وليها عنبسة بن إسحاق، من قبل المنتصر، على صلاتها. وجعل شريكاً لأحمدَ بن خالد صاحب الخراج؛ قدمها يوم السبت لخمس خلون من ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين ومئتين. فجعل على شرطه أبا أحمد القُمّى محمد بن عبدالله. وأخذ عنبسة العمّال بردّ المظالم، وأقامهم للناس. وأنصف منهم. وظهر[2] بالخوف من العدل ما لم يُسمع بمثله فى زمانه. وكان يروح إلى المسجد ماشياً من العسكر. وكان ينادى فى شهر رمضان بالسّحور. وكان مشهوراً بمذهب الخوارج. قال يحيَى بن الفضل[3]:

---

(١) ن: فكانت ولايته على مصر سنة واحدة وثلاثة أشهر وسبعة أيام.
(*) الخطط ١: ٣١٢، والنجوم ٢: ٢٩٣، وحسن المحاضرة ٢: ١٢.
(٢) قال ر: لعله: أظهر، كما فى الخطط (٢: ٣١٢).
(٣) خـ (١: ٢١٤): يحيى بن الفضيل.

وقف ينتظر يوما يجد فيه الوسيلة لدفعها، ودفع لكل حاشية الملك مصانعات برطيل حتى يقدموه، وفعل له الشيطان كما يعمل لخواصه واتباعه عجبا عظيما، مثل ما عملت المرأه العرافه فى إقامة صمويل النبى من القبر لشاول، وحاشا صمويل من هذا التشبيه، ولكن عرفناكم ما يفعل الشيطان فى كل زمان من التشبيه والخيالات.

وكان في ذلك الزمان أبو جعفر عبد الله ابن

مَنْ فَتىً يُبْلغُ الإمَامَ كِتَابَا ... عَرَبِيًّا وَيَقْتَضِيه الجَوَابَا
بِئْسَ وَاللهِ مَا صَنَعْتَ إِلَيْنَا ... حِينَ وَلَّيْتَنَا أمِيراً مُصَابَا
خَارِجِيًّا يَدِينُ بالسَّيْفِ فِينَا ... وَيَرَى قَتْلَنَا جَمِيعاً صَوَابَا
مَرَّ يَمْشِي إلَى الصَّلاةِ نَهَاراً ... وَيُنَادِي السَّحُورَ ضَلّ(١) وَخَابَا

وفي ولايته نزلت الروم دمياط يوم عرفة سنة ثمان وثلاثين ومئتين، فملكوها وما فيها، وقتلو بها جمعاً كثيراً من المسلمين، وسبى(٢) النساء والأطفال وأهل الذمّة. فنفر إليهم عنبسة بن إسحاق يوم النّحر(٣) في جيشه، ونفر كثير من الناس إليهم، فلم يدركوهم. ومضى الروم إلى تنّيس، فأقامو بأُشتُومها، فلم يتبعهم عنبسة. فقال(٤) يحيَى بن الفضل(٥) للمتوكل:

أَتَرْضَى بأنْ تُوطَا حَرِيمُكَ عَنوَةً ... وَأنْ يُسْتَبَاحَ المُسلِمونَ وَيُحرَبُوا(٦)

---

(١) ر: ظل. تصحيف.
(٢) خـ (١: ٢١٤)، ن (٢: ٢٩٤): وسبوا.
(٣) كذا في خـ، ن. وفي ر: فغشي، وهي غير متسقة مع السياق.
(٤) كذا في خـ. وفي ر: قال.
(٥) خـ: الفضيل.
(٦) حربه: سلبه ماله.

أخى أبى مسلم، وهو الذى قدمنا ذكره فى السيره التامنه عشره للبيعه(*)، وهو أول من ملك خراسان، وكان قد تزوج بامرأه ذى عفاف وهو فى حران قبل مملكته، فلما ملك سكن دمشق، وكانت هذه المرأة خايفه من الله جليلة القدر فى سبطها وجنسها، وكانت قد استحلفته عند تزويجها له أنه لا يتزوج غيرها عليها لكى تحفظ ناموس الله، فلما تزوجها لم يعطه الله ولدا عدة سنين، وبعد

(*) انظر ص ٥٠٦ وما بعدها.

حمارٌ أتى[1] دمياطَ وَالرّومْ وُثَّبٌ[2] بتنيسَ منهُ رَأىَ عَينٍ وَأقْرَبُ

مُقيمونَ بالأشْتُومِ يَبغونَ مثلَ مَا أصَابُوهُ من دمْياطَ وَالحرْبُ تُرْتَبُ[3]

فَلا تَنْسَنَا إنّا بِدَارِ مَضيعَةٍ بمِصرَ وَإنّ الدينَ قَد كادَ يَذْهَبُ

فأمر المتوكل بابتناء حصن دمياط، فابتُدىء فى بنائه يوم الاثنين لثلاث خلون من شهر رمضان سنة تسع وثلاثين ومئتين.

وأُفرد عنبسة بالخراج مع الصلاة. وأمر عنبسة بابتناء المُصَلَى الجديد، وذلك أن المصلى القديم ضاق بالناس، فابتدأ فى بنائه يومى الثلاثاء لعشر بقين من شهر رمضان سنة أربعين ومئتين. فصلّى فيه يوم النحر سنة أربعين ومئتين.

ثمّ صرف عنبسة عن الخراج لمستهلّ جمادى الآخرة سنة إحدى وأربعين ومئتين، وأُفرد بالصلاة.

وورد الكتاب بالدعاء للفتح بن خاقان فى ربيع الأوّل سنة اثنتين وأربعين، فدُعى له.

---

(١) مكان الكلمتين بياض فى ص، وأكملها ر عن خـ.

(٢) كذا فى ر عن خـ. وفى ص: زبنت.

(٣) ترتب: مقيمة ثابتة.

ذلك نظرت مناما وشخصا يقول لها: أحضرى أسحق أسقف حران حتى يصلى عليك فإن الله يقبل صلاته بسببك ويعطيك ولدا ففعلت ذلك بأمانه وجعلت لعبد الله زوجها أن ينفذ يحضر الأسقف. وقبل وصوله رأت مناما ثانيا شخصا يقول لها قد سمع الله طلبتك وتمم أرادتك بصلوات الأسقف أسحق، فلما وصل صلى عليها وباركها فحبلت وولدت ولدين. ومن أجل ذلك كان الأسقف عندها فى منزلة عظيمة. فلما ملك

وكان عنبسة آخر من وليها من العرب، وآخر أمير صلى بالناس في المسجد الجامع. فوليها إلى مستهلّ رجب سنة اثنتين وأربعين ومئتين. فقدِم العبّاس ابن عبدالله بن دينار خليفة يزيد بن عبدالله، بولاية يزيد عليها. وليها عنبسة أربع سنين وأربعة أشهر. وخرج منها إلى العراق فى شهر رمضان سنة أربع وأربعين.

١٠٤. يزيد بن عبدالله التركى(*)

فوليها يزيد بن عبدالله، من قبل المنتصر وليّ عهد أبيه، على صلاتها؛ قدمها يوم الاثنين لعشر بقين من رجب سنة اثنتين وأربعين ومئتين. فجعل على شُرَطه ابنه خالداً، وجعل خالد عليها عليّ بن إسحاق المؤنسيّ. ثم ولى على الشرطة يحيَى بن أحمد بن عبدالله بن دينار.

فأمر يزيد بن عبدالله حين قدمها [بإخراج][1] المؤنثين من مصر وضربهم ونفيهم، و[أن][2] يُطاف بهم. ومنع من النداء على الجنائز وضرّب فيه.

وأمر بالمختارين فجُعلو فى الكور، وهو أوّل من جعلهم [فيها][3]. وأمر يزيد بضرب رجل

(*) الخطط ١: ٣١٢، والنجوم ٢: ٣٠٨، وحسن المحاضرة ٢: ١٢.
(١) زيادة فى ر عن خـ (١: ٣١٢)، ن (٢: ٣٠٨).
(٢) زيادة فى ر.　　(٣) زيادة فى ر.

عبد الله سأله الأب الأسقف أسحق أن يعطيه على بطركية انطاكيه والمشرق ففعل له ذلك، وكان ذلك سبب سقوطه لخلافه القوانين. ولما لم يصبر الله عليه أن يدعه على الكرسى كما قال الإنجيل المقدس: هو ذا الفأس موضوع على أصول الشجر، فكل شجره لا تثمر ثمره صالحة تقطع وتلقى فى النار(*). كذلك حل بهذا أسحق لماجهل وخالف شريعة الله وجلس بطركا بيد السلطان وتعدى وصايا آبايه قطع الله حياته من على الأرض فمات

(*) لوقا : اصحاح ٣ / ٩
متى : اصحاح ٣ / ١٠

من الجند فى شيء وجب عليه، فضربه عشرة. فاستحلف يزيد بحقّ الحسن والحسين إلاّ عفا عنه، فزاده ثلاثين درّة، ورفع ذلك صاحب البريد إلى المتوكل. فورد كتاب المتوكل على يزيد بضرب ذلك الجندى مئة سوط، فضُربها وحُمل الجندى إلى العراق لثمان خلون من شوال سنة ثلاث وأربعين.

وخرج يزيد بن عبدالله إلى دمياط مُرابطاً فى المحرم سنة خمس وأربعين. ورجع إلى الفسطاط فى ربيع الأوّل. فلمّا كان بينها بلغه أن الروم نزلو الفرما[1]، فرجع فى جيشه إلى الفرما، فلم يلقهم.

وأمر يزيد فى شوال ببيع الخيل التى تُتّخذ للسلطان، وعطّل الرّهان، فلم تجرِ إلى سنة تسع وأربعين. وتتبع يزيد بن عبدالله الرّوافض، فحملهم إلى العراق. وورد كتاب المتوكل بابتناء[2] المقياس الهاشمى للنيل، وبعزْل النصارى عن قياسه. فجعل يزيد عليها[3] أبا الرّدّاد المُعَلّم، وأجرى عليه سليمان بن وَهَب صاحب الخراج سبعة دنانير، وذلك فى سنة سبع وأربعين ومئتين.

(١) وكذا فى خـ. وفى ن: دمياط.
(٢) بالهامش بخط غير الناسخ: «أى بإتمام بنائه، إذ من المقرر أن المأمون هو الذى أسسه، ولم يتمه».
(٣) لعله يريد بالضمير (ها) عملية البناء.

ناوس على قبر طفل من الحجر الجيرى.
فن قبطى

عاجلا قبل كمال السنه، وجلس على الكرسى إنسان أخر اسمه اتناسيوس غصبا فى يوم وفاة أسحق فمات أيضا ليلته كما ذكر فى [السيرة] التامن عشر [وجلس آخر اسمه انبا جرجه].

فلما كبر الولدان اللذان لعبد الله من المراه العفيفه الخيره المذكوره أنفا مات أحدهما فحزن الملك عليه حزنا عظيما وحزنت امه وجماعة أهل القصر وأصابهم عليه حزن شديد وأمر عظيم،

وظهر يزيد فى شعبان سنة ثمان وأربعين على رجل، يقال له محمد بن علىّ [ابن الحسن][(1)] بن علىَ بن الحسين [بن علىّ][(1)] بن أبى طالب يُعرف بأبى حفدُرّى، بويع له. فبعث يزيد إلى الموضع الذى كان فيه [فأحرقه][(1)]، فأخذه، وأقرّ [على][(1)] جمع من الناس بايعوه. فأُخذ بعضهم، فضُربو بالسياط. ثمّ أُخرج العلوىّ[(2)] هو وجمع من آل أبى طالب إلى العراق فى شهر رمضان سنة ثمان وأربعين.

وتوفى المتوكل ليلة الخميس لخمس خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومئتين، وبويع محمد المنتصر. وتوفى الفتح بن خاقان، وأقرّ المنتصر يزيد بن عبدالله عليها. ثمّ ورد كتاب المنتصر [بأن لا يُقبَل علوى][(3)] ضَيْعة، ولا يركب فرساً، ولا يسافر من الفسطاط إلى طرف من أطرافها، وأن يُمنَعو من اتخاذ العبيد إلاّ العبد الواحد، ومن[(4)] كانت بينه وبين أحد من الطالبيين خصومة من سائر الناس قُبِل قول خصمه فيه ولم يُطالَب ببيِّنَةَ. وكتب المنتصر إلى العمّال بذلك.

....

(1) زيادة عن خـ (٢ : ٣٣٩).
(2) كذا فى خـ (٢ : ٣٣٩). وفى ر: بالعلوى.
(3) كذا فى ر عن خـ (٢ : ٣٣٩). وفى ص ثلاث كلمات ممحوة لا تقرأ.
(4) كذا فى خـ (٢ : ٣٣٩). وفى ر: وان.

وكانو أهل القصر يعلمون محبة أمه له حتى أنها لم تسكت ساعه من البكا عليه ليلا ونهارا، والملك في حزن عظيم.

وكان وفاة الصبى ابن الملك قبل وصول الشماس بطرس الغير مستحق لهذا الاسم، فخرج الملك ذات يوم من القصر وعسكره حول المدينه ليتسلى عن ولده كعادة الناس والملوك فتطلع ونظر بطرس الغير مستحق قد جعله الشيطان في عينه

وتوفي المنتصر في ربيع الآخر[1] سنة ثمان وأربعين ومئتين. وبويع المستعين في ربيع الآخر. وورد الكتاب إلى مصر بذلك يوم السبت لستٍّ بقين من ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين. وورد كتاب المستعين إلى يزيد بن عبدالله، يأمره [أن][2] يستسقي الناس لقحط كان بالعراق. وكتب بذلك إلى الافاق. فخرج الناس معه يوم الاربعاء لسبع عشرة خلت من ذي القعدة سنة ثمان وأربعين فاستسقوا، واستسقى أهل الآفاق في يوم واحد.

وأخرج يزيد ستّة رجال من الطالبين إلى العراق في شهر رمضان سنة خمسين ومئتين، ثمّ أخرج ثمانية[3] منهم في رجب سنة إحدى[4] وخمسين.

وعزل المُؤنسي عن الشرط في رجب سنة إحدى وخمسين، وولي محمد ابن إسبنديار.

وخُلع المستعين في المحرم سنة اثنتين وخمسين ومائتين، وبويع المعتزّ لخمس خلون من المحرم. وكانت بيعته بمصر يوم الأحد لثلاث خلون من ربيع الأوّل سنة اثنتين وخمسين.

وخرج جابر بن الوليد المُدْلجي، من بني الهُجَيم بن عَشْوارة بن عمرو ابن مُدْلج، بأرض

(١) كذا في خـ (٢ : ٣٣٩)، ط (٣ : ١٤٩٥)، ث (٧ : ٧٤). وفي ر: ربيع الأول، خطأ.
(٢) زيادة عن ر.
(٣) كذا في خـ (٢ : ٣٣٩). وفي ر: بثمانية.
(٤) كذا في خـ (٢ : ٣٣٩). وفي ر: خمس. وهو خطأ، لأن يزيد عزل سنة ثلاث وخمسين ومئتين.

يشبه صورة ولده الميت حتى كأنه أياه لم يعجز [ينقص] من صورته شيا بالجمله حتى شعر رأسه، فلما رأه الملك استدعاه بفرح وعانقه وقبل فاه وعينيه كانه ولده حقيقا، ومن فرط فرحه عاد إلى القصر ودخل إلى زوجته سرعه وقال لها: إذا رأيت شبه ولدك حيا تتخلين عن هذا البكا والحزن. فقالت: ومن اين لى هذا ؟ حينذ أمر الملك ان يدخل لها بالشماس الذى قد سكن فيه الشيطان وجعله فى عينها كهيئة ولدها سوا، فلما رأته

الإسكندرية فى ربيع الآخر سنة اثنتين وخمسين. واجتمع إليه جمع كثير من بنى مُدْلج الصُّلْبيَة[1]، والموالى. فبلغ ذلك والى الإسكندرية محمد بن عبيدالله[2] بن يزيد بن مَزْيد الشيبانى، فبعث إليه برجل من أصحابه يقال له نَصْر الطَحَاوى. وعقد له على ثلاث مئة رجل، فنزلو الكِرْيَوْن وسأل[3] عن جابر وأصحابه، فأخبر بأنَهم بأرض «صا»[4]. فزحف إليهم. فقاتلهم جابر. فرجع نصر إلى جَنَبَوْيه[5] فنزلها. وأتاهم جابر إليها. فحاربهم، فهزمهم أيضاً وبعث نصر إلى الإسكندرية يسأل المدد. ففرض محمد بن عبيدالله فروضاً، وبعث عليهم بُرد بن عبدالله وأبا العوّاء، وهو مقيم بالكِرْيَوْن. فسارو جميعاً إلى دسُونس[6]. فأتاهم جابر فقاتلهم قتالاً شديداً. فانهزم نصر وبُرد، وظفر جابر بعسكرهم وجميع ما فيه. ورجع الفَلّ إلى الإسكندرية فتحصَنو بها.

وقوى أمر جابر بن الوليد، وأتاه الناس من كلّ ناحية، وضوى إليه كلّ من يومَى إليه بشدّة

(١) الصلبية: أى الخلصاء الذين من القبيلة نفسها لا من مواليها.
(٢) كذا فى ر عن خـ (٢ : ٣٣٩)، وفى ص هنا فقط: عبدالله.
(٣) كذا فى ر. وفى ص: فعال. تحريف.
(٤) خـ (٢ : ٣٣٩): لصا. وصا: من مدن الغربية.
(٥) جنبويه: من مركز إتياى البارود من مديرية البحيرة.
(٦) دسونس: قرية بالبحيرة.

قامت مسرعة واستقبلته مستبشره وظنت أنه ولدها، واعظم من هذا أن الشيطان أزال الحزن من قلبها على ولدها، فأقام عندهما فى القصر عدة شهور ينظران وجهه ويتسليان به، ورزقه الله عندهما نعمة، حتى أن الملك قال له: أن كان لك حاجه عرفنى بها لأقضيها لك. فعرفه ما قد بدينا بذكره، وبعد تلتة شهور سأل الملك أن ينفذه إلى مصر وأن يكتب له بإصلاحه بطركا على مصر، وأن يسلطه على أنبا مينا البطرك وأساقفته ليعمل

ونجدة. فكان ممَن أتاه عبدالله المَريسىّ، وكان رجلاً خبيثاً. ولحق به جُريج النصرانى الحارسى، وكان من شراير النصارى. ولحق به أبو حَرْمَلة النوبّى[١]، وكان رجلاً فاتكاً. فعقد له جابر على سَنْهُور وسَخَا وشَرْقيون وبَنَا. فمضى أبو حَرْمَلة فى جيش عظيم، فضمّ هذه الأعمال، وأخرج منها العمّال، وجبى خراجها. ولحق به عبدالله بن أحمد ابن محمد[٢] بن إسماعيل بن محمد بن عبدالله بن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب[٣]، الذى يقال له ابن الأرقط. فقَوّده[٤] أبو حرملة، وضمّ إليه كثيراً من الأعراب ووجوه أصحابه، وضمّ إليه [ابن][٥] عَسَامة المَعَافرى، وولاّه بَنَا وبُوصير وسَمَنّود. وأبو حرملة مُقيم بشرقيون.

فبعث يزيد بن عبدالله بأبى أحمد محمد بن عبدالله الدَبّرانى فى جمع كثير من الأتراك، فنزل بدَمْسيس[٦] فى جمادى الآخرة سنة اثنتين وخمسين ومائتين. وبعث رجلاً من الترك

(١) خـ (٢ : ٣٣٩): أبو حرملة فرج النوبى، ولعله الذى مضى ذكره.
(٢) كذا فى ر عن خـ (٢ : ٣٣٩)، وعمدة الطالب (٢٤٣). وفى ص: محمود.
(٣) كذا فى ر، وقال: «في الأصل: طباطبا. وهو غلط، والأرقط هو عبدالله بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب فى قول ابن خلدون (٤ : ١١٤)».
(٤) قوده: جعله قائداً.
(٥) زيادة ضرورية عن ر.
(٦) دمسيس: كانت واقعة على شاطىء النيل الغربى تجاه منية دمسيس بالدقهلية، ومحلها كفر شبرا اليمن بمركز زفتى. وكذا هى فى ر. وفى ص: بمسيس.

فيهم ما يحب. فكتب له سجلا إلى والى مصر فى ذلك الزمان وكان اسمه ابن عبدالرحمن يفعل له ما يأمر به. ثم أمر أن تعمل له قلنسوه من ثوب جليل ليس له قيمة [لايقدر بثمن] عليها بالقلم العربى اسمه وهو: هذا بطرس بطرك مصر. وكتب أيضا اسم الملك معه عليها، فقال من جهله بعد أن قدم اسمه وعبد الملك.

فلما وصل إلى مصر دفع الكتب للوالى فلما

يقال له غُلبَك، ومعه محمد بن العبّاس بن مُسلم بن السّراج[١]. فلقى عبدالله بن الأرقط فيما بين بوصير وبَنا. فقتل ابن الأرقط من أصحاب غُلبك نحواً من عشرين رجلاً. وثبت غُلْبَك ومحمد ريش، فقاتلاه فهزماه سلخ جمادى الآخرة. وقُتل من أصحاب ابن الأرقط مقتلة عظيمة، وأُسر منهم كثير. فبعث الدّبرانى بالأسرى والرؤوس إلى الفسطاط. ومضى ابن الأرقط إلى شرقيون، فلحق بأبى حرملة.

ونزل الدبرانى مدينة بَنا، وترك عسكره فيما بين بنا وسمنود. وأقبلى أبو حرملة ومعه ابن الأرقط قاصداً من شرقيون إلى بنا. وبعث أبو حرملة بكمين له، فهجمو على عسكر الدبرانى مع المغرب. فحمل عليهم أصحاب الدبرانى، فانهزم أبو حرملة ومن معه إلى شرقيون. ومضى الدبرانى فنزل سندفا، وضربها بالنار، ونهب أهلها. وانهزم أبو حرملة فيمن معه. وتشاغل أصحاب الدبرانى بالنهب، فكّر أبو حرملة فقتل أبا حامد الدبرانى. ورجع أصحاب الدبرانى إلى سندفا.

وبُعثَ من العراق[٢]، بمُزَاحم بن خاقان، مُعيناً ليزيد بن عبدالله. فقدمها فى جيش كثير يوم السبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة اثنتين وخمسين ومئتين. فبعث برسل من

(١) ر: السراح، وصوب الجيم.
(٢) كذا فى ر عن خـ (٢: ٣٣٩). وفى ص: العدوا.

وقف عليها انفذ احضر البطرك القديس أنبا مينا وجماعته، فلما وصلت الرسل إلى ثغر اسكندريه وأعلمو البطرق ما جرى حزن وصرخ إلى الرب من عمق قلبه وقال: يارب أخرجني من هذا الفخ الذى اخفى لى لأنك أنت الهى لا تسلمنى إلى المضطهدين لى لأنه قام على شهود الزور، وهوذا عيناك يارب على خايفين المتوكلين على رحمتك لتخلص نفوسهم من الموت . ولم يفتر من الصلاة والبكا ليله أجمع إلى الغداه، فحضرو الرسل

أصحابه إلى جابر بن الوليد، يأمره بالرجوع إلى طاعة السلطان. فاحتبس رسله أيّاماً ثمّ أجازهم بجوائز عظيمة وردّهم. وقدّم وأخّر[١] فى كتابه، ولم يُجْمِع على أمر واحد.

ومضى الدبرانى فى طلب أبى حرملة لمستهلّ شعبان. فالتقى مع أبى حرملة بسمنود. فانهزم أبو حرملة، وعاد إلى شرقيون ثمّ رجع إلى سندفا. وأتاه الدبرانى بسندفا فواقعه. فتفرّق عن أبى حرملة أكثر أصحابه، ولحقوا بجابر بن الوليد. وبعث ابن عسّامة ابنه يطلب الأمان. فآمنه يزيد، فقدم الفسطاط، ولبس السواد. وبعث الدبرانى برأس نصر بن حكيمة، وبرأس أبى هانىء. وعاد الدبرانى إلى محاربة أبى حرملة. فأُسر أبو حرملة ثمّ أُدخل به الفسطاط، وبجمع كثير من الأسرى، فى شهر رمضان سنة اثنتين وخمسين ومئتين. وأوقع[٢] سلتق التركى بمن فى صا وشبّاس[٣] من أصحاب جابر، فقتلهم ونفاهم عن تلكَ البلاد. ثمّ أستأمن عبدالله بن أحمد بن الأرقط العلوى، وأُومن[٤] فى شهر رمضان سنة اثنتين وخمسين، ودخل إلى مزاحم. فبعث به مزاحم إلى عَرَق صاحب البُرد، فكان عنده. ثمّ أمر مزاحم بإخراجه فى جمع معه إلى العراق. فأُخرج بهم لمستهلّ ربيع الأوّل سنة ثلاث وخمسين، مع أخى مُزاحم. فهرب عبدالله بن الأرقط. ورجع أخو مزاحم لسبع خلون من ربيع الأوّل. ثم ظفر به بعد ذلك

---

(١) ر: وأخذ. ولا معنى لها. (٢) ر: رواقع.
(٣) شباس: قرية قرب الإسكندرية، وقيل إنها من الحوف الغربى.
(٤) كذا فى ر. وفى ص: وأوس.

واقلقوه إلى المسير فقام وقال بقلب منشرح: يارب أجعلنى مستحقا أن اتعب منجل[من اجل] اسمك فإنك وحدك رجاى، يارب يا الاهى فلاجل ذلك لا أخاف ماذا يفعل بى الانسان. وكان يقول هذا من اسكندريه حتى وصل إلى فسطاط مصر، فأعلمو الوالى بوصوله فأمر أن يحضر بين يديه، فلما نظر إليه فرح لأنه كان يحب النصارى، ويراعى الأب القديس أنبا خايل البطرك المتنيح فقال للأب أنبا مينا: أن ينالك منى كل خير كما كنت أفعل مع

فحُبِس، ثمّ حمل[١] بكتاب ورد على أحمد بن طولون فى صفر سنة خمس وخمسين ومئتين.

وخــرج [ابن][٢] عزيز بالحوف، فخرج إليه مزاحم بن خاقان، لمستهلّ ربيع الأوّل سنة ثلاث وخمسين. ثم ورد كتاب المعتز[٣]، بصرف يزيد بن عبدالله عنها. فكانت ولايته عليها عشر سنين وسبعة أشهر وعشرة أيّام. وخرج يزيد عنها يومى الاثنين لثلاث عشرة خلت من شوال سنة خمس وخمسين ومائتين.

١٠٥. مزاحم بن خاقان(*)

ثمّ وليها مُزاحم بن خاقان لثلاث خلون من ربيع الأوّل سنة ثلاث وخمسين ومئتين، وليها من قبل المعتز، على صلاتها. فجعل على شرطه أزجور[٤]، واستخلف ابن إسبنديار.

وعقد مزاحم ليزيد بن عبدالله فى طلب جابر بن الوليد. فخرج يزيد فى طلبه إلى ناحية الإسكندرية، وجابر يومئذ مقيم بتروجة. وأقام يزيد بالشّرَاك[٥]، وسار مزاحم بالحوف الشرقى

(١) أى حمل إلى العراق (خـ٢: ٣٣٩).
(٢) زيادة فى ر.
(٣) ر: نصر. والخليفة إذ ذاك هو المعتز.
(*) الخطط ١: ٣١٢، والنجوم ٢: ٣٣٧، وحسن المحاضرة ٢: ١٢.
(٤) ط (٣: ١٩٣٠)، ث (٧: ٢١٤، ٢٢٧): أرخوز. خـ: أرجوز.
(٥) الشراك: قرية من أعمال البحيرة.

البطرك الذى مات قبلك، لكن قد وصل أمر الملك بأن تطيع الواصل به وهو على دينك ومذهبك ولا تخالفه فيما يأمرك به. فتطلع الشجاع الذى لا يخاف هيبة ملوك الأرض المتكلم بالحق أنبا مينا فى وجه يودس الجديد، اعنى بطرس الشماس الذى وثق به السلطان وظن أنه قد أعطى سلطان البطركيه فقال له: نعم ما قال فيك الإنجيل الصادق، «لا يأخذ أحد كرامه من ذاته الا أن تعطى من السما من عند الله» ولكن اسمع ما

لقتال عمال ابن عزيز وابن ضوء ومن معهما. ومات أبو حرملة فى السجن يوم الأحد لأربع بقين من ربيع الآخر، وصُلب بالمصلى. وقدم مزاحم بن خاقان من الحوف بابن عزيز وابن ضوء وبمئة رجل من الأسرى، يوم الأحد لعشر خلون من ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسين.

وعسكر مزاحم بن خاقان يوم السبت للنصف من جمادى الأولى بالجيزة، وتوجّه سائراً إلى جابر. فلقيه بتروجة، فهرب جابر، وأسر جمع كثير من أصحابه. ومضى جابر إلى نهيا من أرض الجيزة لثلاث عشرة خلت من جمادى الآخرة. فخرج إليهم أزجور فحاربهم، فظفر منهم بأربعين رجلاً. ومضى جابر إلى الفيوم، فنزل البطس[1]. وواقع الأعراب بتَنْهَمَت، فقتل كثيراً منهم. ورجع مُزاحم بن خاقان فى إثره، فنزل نهيا بعد مسير جابر منها بأربعة أيام. ورحل مزاحم إلى الفيوم، فواقع جابر فيما بين تنهمت وأقْنَى[2]. وأسر ابن عمّ لجابر، يقال له أصبغ[3]. وانهزم جابر، فرجع إلى جنبويه من كورة البَدَقُون[4]، ورجع مزاحم إلى الفسطاط

(١) البطس: تعرف اليوم بطامية مين مركز سنورس.
(٢) أقنى: كانت فى المكان الذى يعرف اليوم بأسم أطلال مدينة بوهميريا الشهيرة بقصر البنات، بأراضى ناحية المشرك، من مركز أبشواى بمديرية الفيوم وتعرف تنهمت الآن باسم تهمت السدر وهى من نواحى الجبال بالفيوم.
(٣) ر: أصبع.
(٤) فى كتاب المسالك لابن خرداذيه (٨٢، ٨٣) أنها من كور البحيرة، وجعلها ياقوت بالذال، من كور الحوف الغربى.

يقول الله عليك وعلى من يسلك مسلكك ويقطع
عليك بالأمر الذى تستحقه، إذ قال سيدنا المسيح
من فيه الطاهر «كل شجره لا يغرسها الأب
السماوى تقطع وتقلع من أصلها». كذلك أنت
يزول عنك هذا الإسم وتموت موتة فقر، موتة سو.
فأجابه ذلك الجاهل وقال للأب القديس: أفعل
الآن ما آمرك به لتخلص من العذاب الذى أنزله
عليك حتى أعلم أنك [لا] تقاوم أمر الملك.
وألتفت المرذول فقال للوالى: عوض ما يجيب

يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خلت من رجب. [و][١] طلب جابر الأمان، فآمنه مُزاحم، هو وستة نفر من قومه. فدخلو الفسطاط بأمان. فسُجن جابر خوفاً من الأنذال أن يغتالوه. ثمّ بُعث به إلى العراق مع رخْش سنة أربع وخمسين فى ولاية أزجور.

وأمر ازجور، فى ولايته على الشّرط، بمنع النساء من الحمامات والمقابر وسجن المؤنثين[٢]، والنوائح. ومنع من الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم فى الصلوات بالمسجد الجامع، وأمر الحسن بن الربيع إمام المسجد الجامع بتركها، وذلك فى رجب سنة ثلاث وخمسين؛ ولم يزل أهل مصر على الجهر بها فى المسجد الجامع منذ الإسلام إلى أن منع منها ازجور. وأخذ أهل المسجد الجامع بتمام الصفوف، ووجّه بذلك رجلاً من العجم يكنى أبا داوه[٣]، فكان يُقدّم من مؤخّر المسجد بالسوط. وأمر أهل الحلَق[٤] بتحويل وجوههم إلى القبلة قبل إقامة الصلاة. ومنع من المساند التى يُستَنَد إليها. ومنع من الحُصُر التى يجعلها الناس لمجالسهم فى المسجد. وأمر أن تُصلى التراويح فى شهر رمضان خمس تراويح، ولم تزل أهل مصر يصلون ستّ

(١) زيادة فى ر.
(٢) كذا فى عن خـ (١: ٣١٣). وفى ر: الموسر.
(٣) لعله أبا ذواه، بالذال، كالرجل الذى مر.
(٤) الحلق: جمع حلقة.

بالسـمع والطاعة لأمر الملك هوذا هو يقول كلاما أنه يسـأل الله أن ينزع منى السلطان الذى يسلمه لى الملك. فأجاب الوالى وقال للبطرك: لا تقاوم أمر الملك لكن تتمم ما أمر. حينئذ قال له: أنا أفعل ذلك بفرح لأتمم النامـوس الذى أمـرنى بطاعة الملك كطاعـة الله لأنه يقـول: من قـاوم السلطان وخالفه فقد قاوم الله ربه. فلما سمع الوالى ذلك فرح بجواب البطرك وقال للمرذول: مهما أردت مره به. فقال: ينفذ ويحضر جميع الأساقفه الذين

تراويح، حتى جعلها أزجور خمساً في شهر رمضان سنة ثلاث وخمسين ومئتين. ومنع أزجور من التثويب[١]، وأمر بالأذان يوم الجمعة فى مؤخر المسجد.

ثمّ صُرف أزجور عن الشرط في ذى القعدة سنة ثلاث وخمسين ومئتين، وأُفرد بها محمد بن إسبنديار، وأزجور الآمر والناهى. فأمر أزجور بالتَغْليس[٢] بصلاة الصبح، وذلك أنّهم أسفرو بها[٣] فى ولاية يزيد. وأمر أزجور أن لا يُشقّ على ميت ثوب، ولا يُسَوّد وجه، ولا يحلق شعر. ومنع من الخَلُوق الذى يجعل على الثياب مع السُّوار، وكان أُحدث فى ولاية يزيد بن عبدالله، ومنع النساء من الصِّياح، وعاقب فيه وتَشَدّد. ومرض مُزاحم بن خاقان، فاستخلف ابنه أحمد. [و][٤] توفى مزاحم ليلة الاثنين لخمس خلون من المحرم سنة أربع وخمسين ومئتين[٥].

١٠٦. أحمد بن مزاحم بن خاقان(*)

ثمّ وليها أحمد بن مزاحم، باستخلاف أبيه له، على صلاتها، فجعل على شرطه أزجور.

---

(١) التثويب: تكرير الأذان.
(٢) التغليس: أى أن يصلو فى الغلس، وهى ظلمة آخر الليل.
(٣) أسفرو بها: صلوها فى الضوء.   (٤) زيادة فى ر.
(٥) ن (٢ : ٣٣٨): فكانت ولاية مزاحم هذا على مصر سنة واحدة وعشرة أشهر ويومين.
(*) الخطط ١ : ٣١٣، والنجوم ٢ : ٣٤١، وحسن المحاضرة ٢ : ١٢.

تحت حكمه لأمرهم معه بما يجب. فسأل الأب الوالى أن يمهله أياما إلى أن يجمعهم. فقال المخالف: نمضى به إلى الاعتقال حتى أدخل الكنايس بمصر واصعد مذابحها كفعل البطاركه

فاعتقل البطرك واسقف مصرتودو٥٤٨وس [تادرس] وتقدم إلى الكتاب بمكاتبة جميع الأساقفه لكى يحضرو، وظن هذا المخالف أنهم يطيعونه ويفعلون له ما قد اضمر خارجا عن قوانين

فوليها أحمد إلى أن توفى بها لتسع[1] خلون من ربيع الآخر سنة أربع وخمسين ومئتين، وليها شهرين ويوماً، واستخلف عليها أزجور.

١٠٧. أزجور التركى[*]

ثمّ وليها أزجور، باستخلاف أحمد بن مزاحم، على صلاتها[2]. فجعل على شرطه بُولغيا. وخرج فى إمرته رجل من العلويين، يقال له بُغَا الأكبر، وهو أحمد [بن إبراهيم][3] بن عبدالله بن طباطبا إبراهيم[4] بن إسماعيل بن إبراهيم بن حسن بن حسن، خرج بالسانه من الصعيد. فبعث إليه أزجور بأربع مئة رجل لمحاربته، فهرب بغا منهم ومات.

فوليها أزجور إلى شهر رمضان سنة أربع وخمسين ومئتين، وليها خمسة أشهر ونصفاً، ثمّ خرج منها إلى الحاجّ لمستهلّ ذى القعدة سنة أربع وخمسين ومئتين.

(١) خـ (١ : ٣١٣)، ن (٢ : ٣٤١): لسبع. وهو الأصح، لأنه تولى شهرين ويوماً واحداً.
(*) الخطط ١ : ٣١٣، والنجوم ٢ : ٣٤١، وحسن المحاضرة ٢ : ١٢. واسمه فى خـ: أرجوز. وفى ن: أرخوز. وفى س: أرجور.
(٢) قال بعض المؤرخين إن المعتز جعل له أمر مصر جميعه لا الصلاة وحدها (ن ٢ : ٢٤١، ٣٤٢).
(٣) زيادة فى ر عن خـ (٢ : ٣٣٩).
(٤) كذا فى ر. وفى ص: طباطبا بن ابراهيم. وذلك خطأ لأن طباطبا لقب إبراهيم أو أبيه اسماعيل. انظر مقاتل الطالبين لأبى الفرج الأصبهانى ١٩٩.

الأب البطرك كتابا مملو حزنا وغما و لم يشرح فيه خبرا ليلا [لئلا] يضعف قلوبهم أن لا يجاهدو، مكتوب فيه هكذا : فى كل زمان لا يدع الشيطان عروسة المسيح البيعه الجامعه بغير مقاوم لها ويقم اضطرابا وشعثا لكى يغلبها بمناصبته، وعريسها المسيح الحق يحطم قوته بالقول الذى قاله لريس الحوارين بطرس: أن أبواب الجحيم لا يقهرونها(*). وقد عرفتم الان ان السيد المسيح هو الغالب فتقدمو إلى الجهاد ولا تخالفو وتوكلو على الرب

(*) «وعلى هذه الصخرة أبنى كنيستى وأبواب الجحيم لن تقوى عليهاه انجيل متى ١٦ : ١٨ .

مصر ونظم الحكم تحت العرب والعباسيين

تحدد مركز مصر السياسى بمقتضى معاهدة بابليون الأولى التى عقدت عقب استيلاء المسلمين على حصن بابليون سنة ٢٠هـ(٦٤١م). وقد أورد الطبرى[١] ومن نقل عنه من المؤرخين مثل ابن خلدون[٢] والقلقشندى[٣] وأبى المحاسن[٤] هذا الصلح، وهاك نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم بحرهم[٥] لا يدخل عليهم شئ من ذلك ولا ينقص ولا يساكنهم النوب[٦]. وعلى أهل مصر أن يعطو الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف وعليهم ما جنى لصوتهم[٧]. فإن أبى أحد

(١) تاريخ الأمم والملوك جـ ٤ ص ٢٢٩.
(٢) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٢ ص١١٥.
(٣) صبح الأعشى جـ ١٣ ص ٣٢٤.
(٤) النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٢٤ ـ ٢٥.
(٥) يقصد برهم أراضيهم الزراعية ويقصد ببحر هم نهر النيل. يقول المسعودى فى مروج الذهب (طبعة القاهرة جـ١ ص ٢١١): «وليس في أنهار الدنيا نهر يسمى بحراً غير نيل مصر لكبره واستبحاره» ولا زلنا فى كلامنا الدارج نطلق على نهر النيل اسم البحر.
(٦) النوب أهل النوبة.
(٧) اللصوت: اللصوص.

فهو يذله ويبطل موامرته ويمجد بيعته عروسته ، ونحن أيضا نفرح لأننا قد تسلحنا كالجند للقتال فى الحرب لننال الأكليل السماوى، كما أنه يدعونا فى كل زمان كقول لسان العطر بولس: أن الإنسان لاينال الأكليل إلا أن يقاتل، فأسرعو الآن لتنالو ذلك يا أحباى [احبائى] الذين أنا أحبهم بالرب.

فلما وقفو الأساقفه على كتابه وهو يعزيهم، أسرعو وسارو واجتمعو بفسطاط مصر. فلما علم

منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزاء بقدرهم، وذمتنا ممن أبى برينة، وإن نقص نهرهم منغايته إذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك، ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوب فله مثل مالهم وعليه مثل ما عليهم، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا. عليهم أثلاثاً، فى كل ثلث جباية ثلث ما عليهم على مافى هذا الكتاب، عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين. وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً وكذا وكذا فرساً على أن لا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة.

شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه. وكتب وردان [1] وحضر. فدخل فى ذلك أهل مصر كلهم وقبلوا الصلح».

نرى من هذا الصلح أن المصريين صاروا أهل ذمة يؤدون الجزية، وأن قيمة الجزية[2] كانت تتوقف على مقدار ارتفاع أو ا نخفاض ماء النيل فى كل عام، كما أنها كانت تدفع على ثلاثة

(١) وردان مولى عمرو بن العاص وحامل لوائه (ابن عبد الحكم: فتوح مصر ـ طبعة تورى ـ ص ٩٣).

(٢) نفهم من لفظ الجزية الذى ورد فى هذا الصلح أنه يعنى الجزية والخراج معا أى جزية الرؤوس وأحيانا تعنى الجزية والخراج معا أى جزية الرؤوس والضريبة العقارية ويلاحظ Van Berchem أن كلمة خراج كانت تعنى أحيانا جزية الرؤوس وأحيانا تعنى ضرائب أخرى تختلف فى طبيعتها عن ضريبتى الرؤوس والعقار . انظر: M. Van Berchrm

La Propriete trrritoriale et L'impot foncirt. p. 21.

ذلك الضال ولد الشيطان أنهم قد اجتمعو فى البيعه يوم الاحد، قام بشيطنه ومعه جند من عند الوالى وتقدم بغير خوف وصعد على الهيكل ليقول صلاة الشكر والسلامة كالبطرك والقلنسوه التى عليها مكتوب اسم الملك على رأسه، فلما رأوه الأبا الأساقفه وقد فعل هذا الفعل اجتمعو بروح القدس فوثب إليه أنبا مينا أسقف صنبو، وأبا مويسيس أسقف وسيم ومسكا القلنسوه ورمياها، ورميا به من على الهيكل. وقالا له: يا يوليانوس

أقساط في السنة. وفيما يختص بالروم فى هذا الصلح عرفنا أن أمرهم كان معلقاً بموافقة الأمبراطور، ولذا ترك لهم عمرو الخيار فى قبول هذا الصلح. وأما أهل النوب فكانت مسألتهم تختلف عن مسألة الروم إذ كانت النوبة أثناء فتح العرب لمصر مملكة قوية مستقلة ولربما كانت الإشارة هنا إلى من كان يقيم فى مصر من النوبيين.

ويجدر أن نشير هنا إلى ما يراه بتلر من أن صلح بابليون كان يختص بأهل مدينة مصر (بابليون) لا القطر المصرى كله. ويؤيد بتلر وجهة نظره هذه بأنه من عادة العرب عند فتحهم لمدينة مهمة مثل دمشق أو القدس أن يعقدوا صلحاً مع أهلها، كما أنه فى الوقت الذى عقد فيه هذا الصلح لم يكن قد تم استيلاء العرب على الصعيد أو الوجه البحرى. أما مقدار الجزية الذى جاء فى الصلح وهو ٥٠ مليون دينار[١] فهذا ما يجب استبعاده[٢]. ولكن رأى بتلر يخالف ما ذكرته المصادر القديمة التى أوردت نص هذا الصلح إذ ذكرت هذه المصادر أن أهل مصر كلهم قبلوا هذا الصلح ودخلوا فيه. ونحن نوافق بتلر فى أن مقدار الجزية كان على

(١) لم يذكر فى نص الصلح إذا كانت الجزية بالدينار أو الدرهم وانما ذكر الرقم فقط وهو ٥٠ مليون ولكننا نعلم أن العرب كانوا يجبون الضرائب من مصر بالدينار لا بالدرهم (انظر المقريزى: النقود الآسلامية ص١١).

(2)Butler: the Treaty of Misr. PP. 25 - 26, 47 - 48.

الجديد ما تستحق بيع مصر أن تتنجس بك. فامتلا
خزيا ذلك النجس ثم غضب جدا وامر الذين معه
أن يمضو بجميع الأساقفه إلى الحبس ويعملو فى
رقابهم وأرجلهم الحديد. فلما نظرهم الأب البطرك
القديس قبلهم وعزاهم وقال: يا أحباى الذى يقاتل
عنا أعظم ممن يقاتلنا والرب ينجينا من أعدائنا
وينقذنا ممن قام علينا ويخلصنا من عمال الأثم.
فلما سمعو ذلك قالو: يا أبانا نحن مستعدون

القطر كله لا على مدينة مصر وقد رأينا أيضا ما كان لبابليون من الأهمية، وأنها كانت بمثابة قلب مصر.

١. النظام الإدارى

لما فتح العرب مصر وجدوا بها نظما قامت منذ أقدم الأزمنة ونمت وترعرعت فى خلال العصور المختلفة، فقضت عليهم الحنكة السياسية ألا يمسوا تلك النظم، بل أبقوا عليها كما فعل الرمان من قبلهم عندما كانوا يحتلون بلاداً راقية فى نظمها متقدمة فى حضارتها. واكتفى العرب بشغل بعض المناصب الرئيسية، ليشرفوا على الإدارة وجباية الأموال بوجه عام.

كان الخليفة يعين فى مصر واليا يمثله، ويقال ولاية عمرو بن العاص مثلا أو ولاية عبد العزيز بن مروان، ويقال للوالى أيضاً «أمير مصر» وللدار التى يقيم فيها والى مصر «دار الإمارة». ونجد فى أوراق البردى اليونانية اسم آخر للوالى هو سيمبولس[١].

وكان الوالى يؤم المسلمين فى المسجد الجامع فى صلاة الجمع والأعياد بوصفه نائباً عن الخليفة، ولذا يطلق عليه أمير الصلاة، ويقال عن ولايته ولاية الصلاة. واذ كان المسلمون يعتبرون أن إمامة الصلاة مما يختص به الخلفاء، يطلقون على الخليفة لفظ إمام، كانت إمامه

(1)Grohmann: Arabic Papyri vol. 111. P. 62.

للمـوت مـعك ونحن نومن ونتـوكل أننا نال الخلاص بصلواتك.

فلما مضت لهم فى السجن أيام قلايل وذلك النجس يتفكر فيما يعمله بهم من السو وبالبطرك، فـتـقـدم إلى الوالى بأن يخـرجـهم من السـجن ويوقـفـهم بين يديه فـفـعل، فـقـال الكافـر للأب البطرك : أنا ما أفعل بك شيا تخاف منه كما كان غـيـرى يفـعل بغـيـرك ممن هو قـبلك، من زمـان أبا

الوالى فى الصلاة نيابة عن الخليفة تدل على عظم سلطة الوالى وعلى رئاسته العليا السياسية فى الدولة. ولم يكن الوالى مسئولا أمام أحد عن عمله إلا أمام الخليفة. وكان يجمع أحيانا إلى سلطته إدارة المالية المعبر عنها بالخراج مما يجعله مطلق التصرف فى الدولة، وأحيانا يسند الخليفة عمل الخراج إلى شخص آخر يكون مسئولا أمام الخليفة مباشرة لا أمام الوالى، وكان هذا يحد سلطة الوالى كثيرا إذ يصبح عاجزا عن التصرف فى الأمور المالية كما يشاء. ولذا كان لعامل الخراج أهمية كبيرة وكثيرا ما يكون منافسا للوالى مع أن الوالى هو رئيس الولاية بالنيابة عن الخليفة. وحسبنا دليل على أهمية عامل الخراج من أنه عندما هزم عمرو بن العاص الروم وطردهم من الإسكندرية سنة ٢٥هـ أراد الخليفة عثمان بن عفان أن يولى عمرا على الحرب (أى يوليه على الصلاة) وأن يولى عبد الله بن سعد على الخراج فقال عمرو «أنا كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها[١]». ورفض ما أراد عثمان بن عفان وترك ولاية مصر.

ونتبين أيضا تلك الأهمية التى كانت لعامل الخراج من أنه بعد وفاة عمرو ابن العاص، عين معاوية بن أبى سفيان (٤٠ ـ ٦٠هـ = ٦٦٠ ـ ٦٨٠م) أخاه عتبة بن أبى سفيان (٤٣ ـ ٤٤هـ) واليا على الصلاة فى مصر وولى وردان الخراج، ثم خرج عتبة بن أبى سفيان إلى معاوية فى نفر من عرب مصر، فسأل معاوية الوفد عن عتبة، فقال أحدهم «حوت بحر يا أمير

(١) ابن عبد الحكم ـ فتوح مصر ـ طبعة توري ـ ص ١٧٨

أغــاتون البطرك انه كــان يلزم يعــمل بمراكب الأسطول(*) كما كان تاودوروس الخلقدونى ريس الاسكندريه يعــمل باغــاتون فى مملكة يزيد بن معاويه الملك، قم أخرج من البيعه الأنيه الذهب والفضه ليحملو إلى بيت مال الملك فلهذا جيت. فلما سمع منه الأب البطرك قال فى نفسه: أحاط بى مخاض الموت واهوال الجحيم حدثتنى. قال هذا لعلمه بأن ليس شيء فى البيع مما يطلبه منه. وقد كان جرى على الآبا قبله أمور مشهوره لم

(*) من الواضح أن الكنيسة المصرية كانت تدعم الاسطول الإسلامى فى مصر بالمال والعتاد والخبرات والعاملين فيه.

المؤمنين على بر» . فقال معاوية لعتبة: اسمع ما يقوله فيك رعيتك فقال: صدقوا يا أمير المؤمنين حجبتنى عن الخراج ولهم على حقوق وأكره أن أجلس فأسأل فلا أفعل فأبخل. فضم إليه معاوية الخراج(١).

ولعل أبلغ مثل يرينا مدى ما وصلت إليه سلطة عامل الخراج، هو عبيد الله بن الحبحاب عامل الخراج فى مصر زمن الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥هـ) ، فقد ظل عاملا على خراج مصر منذ ولى هشام الخلافة حتى خرج إلى إمارة أفريقية فى سنة ١١٦هـ(٢) أو سنة ١١٤هـ (٣) وفى خلال هذه المدة تتابع على حكم مصر خمسة ولاة (٤)، وقد امتد نفوذه إلى عزل الولاة وتوليتهم برضى الخليفة. فنراه عندما تنازع مع الحر بن يوسف والى مصر سنة ١٠٨ هـ يكتب إلى الخليفة هشام يشتكيه؛ وسرعان ما عزل الخليفة الحر عن ولاية مصر، وولى بدله حفصا بن الوليد على الصلاة، ولكن عبيد الله بن الحبحاب كتب إلى الخليفة يقول« إنك لم تعزل الحر إذ وليت حفصا». فجعل الخليفة الاختيار إلى عبيد الله فاختار

(١) ابن عبد الحكم ـ طبعة المعهد العلمى الفرنسى ـ ص ٧٨.
(٢) المقريزى : خطط جـ١ ص ٢٠٨.
(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ١ ص ٢٧٣.
(٤) الكندى: كتاب الولاة والقضاة ص ٧٢ـ ٧٦.

يتركو شيا من أوانى البيع مع اموالهم حتى أخذوه منهم المخالفون المبغضون في زمان بعد زمان، ولما كرز هذا الأب الجليل على الكرسي لم يجد شى حتى أنهم في مدينة اسكندريه لم يجدو ما يتقربون فيه إلا كاس زجاج وكاس خشب. فقال الأب القديس لذلك الكافر: أنت ما تعرف حال البيعه من ذلك الزمان وإلى الآن. فقال له الكافر الشقى: هوذا أعرف عندك كتابا تقدر أن تصير غنيا بسرعه فيه صنعة عمل الذهب: فأجاب الأب الروحانى

عبد الملك بن رفاعة [١]. وقد ولى مصر بعد عبد الملك بن رفاعه هذا، أخوه الوليد بن رفاعة، (١٠٩ ـ ١١٧هـ) ويقول أبو المحاسن [٢]: «ولم تطل مدة الوليد هذا على مصر إلا لخروج عبيد الله بن الحبحاب المتولى على خراج مصر منها، وقد تقدم عزل جماعة كبيرة من العمال بمصر بسبب عبيد الله المذكور، فدبر عليه الوليد هذا حتى أخرجه هشام من مصر واستعمله على أفريقية، فسار إليها عبيد الله بن الحبحاب واشتغل بها عن خراج مصر». ولعل من أسباب نفوذ ابن الحبحاب أنه كان يمثل سياسة الخليفة المالية أحسن تمثيل.

وكان بيد الوالى أيضا الحرب أى الرئاسة على الجيش في الولاية، ولأهمية ذلك كان يقال أحيانا: ولى فلان الحرب كناية عن ولايته لمصر[٣]. وفوالى مصر كان يشرف على شئون الحامية الوجودة في مصر، وكان يقود بنفسه الجيش في الحملات التأمينية لمصر أو لصد الأعداء عنها، أو يرسل من يقوده نيابة عنه. ومثل تلك الحملات كانت بوجه خاص في السنوات الأولى بعد الفتح، فقد قاد عمرو بن العاص الحملات لفتح برقة وطرابلس، كما أرسل عبد الله بن سعد لفتح النوبة، وكذلك خرج عبد الله بن سعد أثناء ولايته على مصر

(١) الكندى ص ٧٤ ـ ٧٥.
(٢) النجوم الزاهرة جـ١ ص ٢٦٦.
(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ـ طبعة تورى ـ ص ١٧٨ وطبعة المعهد ص ٧٨.

وقال له: ما أعرف شيا مما تقول لكن أفعل ما تريد وتوكلي على الله لأني عارف أن مافي البيعه شيا مما تذكر وقد قلت للملك الكذب، فأجاب وقال للبطرك : أنا أفعل معك جميلا ولا ألزمك بأن تنفق شيا على المراكب لكن وحق الملك لا عمل [يعمل] أحد المشاق [غزل الكتان] بالزفت غيرك وأساقفتك بايديكم. فقال له: أنا أفعل هذا مسرورا واتشبه بقول بولس الرسول الذى قال: «أنا أعمل

على رأس الحملات التي سارت لغزو أفريقية والنوبة[١] كما غزا الروم في غزوة ذى الصوارى. وفي ولاية عتبة بن أبى سفيان (٤٣ ـ ٤٤هـ) عندما شكا قائد رباط الإسكندرية من قلة من معه من الجنود خرج عتبة ورابط فيها وذلك فى سنة ٤٤هـ [٢] كذلك خرج الحر بن يوسف في ولايته على مصر مرابطا فى دمياط ثلاثة أشهر من سنة ١٠٧هـ[٣]. كما نرى قرة بن شريك يطلب من صاحب كورة كوم اشقاو أن يعجل فى إرسال المال المفروض على كورته ليأمر للجند بعطائهم [٤]، ونجده أيضا يهتم بالإشراف على الأدوات اللازمة لتنظيف وتجهيز مراكب الأسطول ويهتم بالمؤن التي يحتاجها الأسطول[٥] كما يشرف على أجور الجند الذين يخرجون مع الأسطول للغزو[٦].

وللوالي أيضا الإشراف على الشرطة، وكان مقرها مدينة الفسطاط التي بناها عمرو بن العاص. ولما بنى العباسيون مدينة العسكر التي كانت تقع شمالي الفسطاط عملت شرطة

---

(١) الكندى ص ١٢. (٢) الكندى ص ٣٦.
(٣) الكندى ص ٧٤.
(4)Grohmann: Arabic papyri. vol. 111. PP. 12 - 13- Becker: Neue Arabische papyri- Der Islam- 11. PP. 251 - 252.
(5)Bell: Tramslations of the Greek Aphrodito Papyri. 11. P. 277
(6)Bell: op Cet. 11. PP. 375- 376.

(*) رسالة بولس الرسولي الاولى اصحاح: ٤ / ١٢ ، ١٣ .

بيدى»(*) ثم قال يشتمونا ونحن نبارك عليهم ويطردونا ونحن نصبر عليهمْ ويسبونا ونسالهم.

فخرج الأب أنبا مينا والأساقفه الذين معه ليفعلو ما أمرو به كل يوم فى صناعة المراكب بمصر يعملون بأيديهم كلما تحتاج إليه المراكب فى مدة سنه، ووجوههم فى الشمس النهار كله فى أيام الصيف، والبطرك والأساقفة فى وسط الناس، والرمادية(*) فى فسطاط مصريبكون بتنهد.

(*) الرمادية: الجماهير الفقيرة المغلوبة على أمرها.

أيضا فى العسكر وقيل لها الشرطة العليا [١] وصفت بالعليا لأهميتها. وكان الوالى هو الذى يعين صاحب الشرطة كما ورد فى المصادر القديمة، مثل كتاب الولاة والقضاة للكندى وكتاب النجوم الزاهرة لأبى المحاسن. وفى حالات نادرة جداً كان الخليفة هو الذى يعين صاحب الشرطة، ومن ذلك ما كان من الخليفة المأمون حين عين صاحب الشرطة بمصر بعد ماقضى على ثورة البشمور التى كانت فيها سنة ٣١٧هـ [٢] وصاحب الشرطة هذا كان بمثابة نائب للوالى يؤم الناس فى الصلاة إذا مرض الوالى، ويحكم الولاية إذا خرج الوالى من مقر ولايته. فنرى خارجة بن حذافة صاحب الشرطة يؤم الناس فى الصلاة أثناء مرض عمرو بن العاص[٣]، ونرى عابس بن سعيد المرادى صاحب الشرطة ينوب عن عبد العزيز بن مروان والى مصر فى حكم البلاد عند خروجه إلى الخليفة عبد الملك بن مروان سنة ٦٧هـ[٤]. ولذا نجد أن صاحب الشرطة كثيرا ما يعينه الخليفة واليا على البلاد إذا ما عزل الوالى أو مات أو تنحى عن أمور الولاية. فمثلا كان حفص بن الوليد على شرطة مصر قبل إن يلى على صلاة

(١) المقريزى: خطط جـ١ ص ٣٠٤.
(٢) الكندى: كتاب الولاة ص ١٩٢ وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ٢ ص ٢١٦.
(٣) ابن عبد الحكم ـ طبعة تورى ـ ص ١٠٥ والكندى ص ٣١ ـ ٣٢.
(٤) كتاب الولاة للكندى ص ٤٩.

وبعد هذا أعيد الأب وجماعة الأساقفه إلى الحبس وكان يطالبهم بأنية البيع ويقول لهم: أني ما وصلت من عند الملك إلا لأجل ذلك. فلما جازت أيام وهم في الحبس وكان يطالبهم، فنظر الرب إلى تنهد اصفياه ففعل اعجوبه وانتقم الذى يقدر على الانتقام. وقد كنا قلنا فيما تقدم أن الوالى كان محبا للنصارى، وكان إذا رأى هذا الإنسان المرذول يقلق البطرك والاساقفه ولا يتمكن من ارداعه لخوفه من الملك، فكان يقول له : لا

مصر من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك(١). وتكاد المراجع العربية لا تذكر شيئا عن أعمال الشرطة في مصر، و لكن لابد أن الولاة كانوا يعهدون إلى صاحب الشرطة بتنفيذ العقوبات التأديبية التي يفرضونها، كما كانت وظيفة صاحب الشرطة في الخلافة نفسها، ولابد أنه كان لصاحب الشرطة عمال في العاصمة وفي الأقاليم لتنفيذ أوامره ونلاحظ أن استتباب الأمن في مصر وتطبيق القوانين فيها وتنفيذ الأحكام القضائية ومنع الجرائم، كل ذلك كان يضمن للخلافة استغلال موارد البلاد على أتم وجه ويضمن لها أكثر ما يمكن من الضرائب. ويظهر أن المصادر القديمة ترجع دائما استتباب الأمن في البلاد إلى ا لولاة لا إلى أصحاب الشرطة لأن الوالى هو الرئيس الأعلى في الولاية وهو الذى يأمر صاحب الشرطة بذلك، فمثلا نسمع في عهد ولاية يحيى بن داؤد الخرسى الشهير بابن ممدود والذى يعرف بأبي صالح (١٦٢ ـ ١٦٤هـ) أنه لما قدم إلى مصر وجد بها السبل مخيفة، لكثرة المفسدين وقطاع الطرق، فأخذ في قمع المفسدين وأبادهم وقتل منهم جماعة كثيرة. وقد بلغ من استتباب الأمن أنه منع غلق الأبواب والحوانيت ليلا حتى جعلوا عليها شرائج (٢) القصب والشباك لمنع الكلاب من دخولها ليلا (٣).

(١) الكندى ص ٧٤ ـ ٧٥.

(٢) شرائج جمع شريجة وهى باب من القصب يعمل للدكاكين.

(٣) الكندى ص ١٢٢ وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١ ص ٤٤.

يجوز لك ان تفعل هذا بمقدم النصارى. فيقول له: وأنت أيضا تقول أنه كبير النصارى وترفض امر الملك، فانا أمضى إلى الملك فأعرفه أنك نزعت منى ما جعله لى الملك . فعند ذلك كمل فيه قول سليمان الحكيم: لسان الجاهل فخ له(*). فقال له الوالى: أنت تريد ان تمضى إلى الملك وتكذب على وترفع على كما قلت وفعلت مع هذه الشيخ الخايف من الله، أنا الآن بعد يومى هذا لا ادعك تشاهد الضو، ويعلم كل أحد أن الله قد أخذ لهذا

(*) الأمثال : ١٧ / ٢٠ .

وبالطبع كل هذه الأشياء لم يقم بها أبو صالح، وانما قام بها صاحب الشرطة وأعوانه، ولكن الوالى كان هو الآمر الناهى، وكانت الأحوال فى مصر تتوقف على درجة حزمه وشدته أو لينه وضعفه.

ومن الوظائف الرئيسية الهامة فى تلك الفترة أيضا وظيفة صاحب البريد ولم تكن تلك الوظيفة قائمة فى عهد الخلفاء الراشدين، وانما بدأتها الدولة الأموية ثم تقدم نظام البريد فى عهد الدولة العباسية.و يقال إن معاوية بن أبى سفيان هو أول من وضع البريد لوصول الأخبار بسرعة، وتبعه فى ذلك الأمويون ومن بعده العباسيون، ولذا نجدهم يهتمون بعمارة الطرق لتقصير المسافات ولوصول الأخبار بسرعة.

وقد وصلت الينا نقوش معاصرة لعبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦هـ)، كشفت بالقرب من بيت المقدس وتشير إلى أو امره بصنعة الأميال [١] وبعمارة أربعة طرق تخرج من إيلياء[٢] ومن دمشق [٣] وقد اهتم العباسيون اهتماماً كبيراً بالطرق حتى أصبحت بغداد مركزاً تتشعب

(١) صنعة الأميال هى مسح الأراضى لوضع انصاب حجرية ثابتة على كل مسافة قدرها ميل.
(٢) أيليا هى بيت المقدس (معجم البلدان لياقوت جـ١ ص ٤٢٤).
(3)van Berchem, Materiaux Pour un Corpus Iuscriptionum Arabicarum (Jéperrtoire Chronologique d'epig- raphie Arabe. t. I. PP. 13-16.

الشيخ حقه منك. فامر في تلك الساعة أن يمضو به إلى الحبس ويطرحوه في المطبق [السجن] ويكبل بالحديد في يديه ورجليه ويحتفظ به في موضع ضيق. فأقام هكذا تلت سنين وتقدم للوقت بالافراج عن البطرك والأساقفة المجاهدين عن الحق، وكانو يسبحون الله ويقولون كما قال اشعيا النبي: أن الله يهلك مؤامرة المخالفين المنافقين ولا يخلي الرب المتوكلين عليه الخايفين الله، وقد تمت الآن كلمة ملاخيا النبي فينا: انتم الخايفين من

منه الطرق إلى جميع الجهات، فكانت جميع الطرق تؤدى إلى بغداد كما كانت جميع الطرق تؤدى إلى روما. هذا ولم يكن البريد نظاماً يستعمله الشعب إنما كان نظاماً رسمياً حكومياً، ويظهر أن الخلفاء استعملوا نظام البريد في أول الأمر لنقل الأخبار بسرعة من مقر خلافتهم إلى الولايات المختلفة ولتلقى الأخبار ثم ما لبث هذا النظام أن تطور واستعمله الخلفاء العباسيون للتجسس على ولاة الأقاليم وعمالها (١). ولم يرد في المصادر القديمة ذكراً لأصحاب البريد الموفدين من الخلفاء إلى مصر اللهم إلا في موضع أو موضعين، فيذكر الكندى في كتابه الولاة والقضاة أن صاحب البريد بمصر كتب إلى الخليفة المتوكل بأمر يتعلق بأحد الجند(٢)، وفي موضع آخر يذكر أن صاحب البريد في مصر في ولاية داود بن يزيد بن حاتم (١٧٤ ـ

(١) كان أبو جعفر المنصور يقول. ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابى أربعة نفر لا يكون في بابى أعف منهم فقيل له يا أمير المؤمنين من هم قال. هم أركان الملك ولا يصلح الملك إلا بهم، كما أن البريد لا يصلح إلا بأربعة قوائم إن نقصت واحدة وهى، أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى، والثالث صاحب خراج يتقص ولا يظلم الرعية فإنى عن ظلمها غنى، والرابع ثم عض على أصبعه السبابة ثلاث مرات يقول في كل مرة آه آه قيل له من هو يا أمير المؤمنين ؟ قال. صاحب بريد يكتب إلى بخبر هؤلاء على الصحة. الطبرى جـ٩ ص ٢٩٧ ـ ويقول قدامه بن جعفر في كتاب الخراج عند كلامه على ديوان البريد ص ١٨٤ ـ ١٨٥ : «والذى يحتاج إليه في صاحب هذا الديوان هو أن يكون ثقة إما في نفسه أو عند الخليفة القائم بالأمر في وقته، لأن هذا الديوان ليس فيه من العمل ما يحتاج معه إلى ا لكافى المتصفح وانما يحتاج إلى الثقة المتحفظ».
(٢) ص ٢٠٣.

اسمى تضى عليكم شمس البر، اخرجو وانتم مسروررون مثل العجول التى تنطلق لامهاتها وتدوسون المنافقين.

فمضى الأب إلى اسكندريه ودخل إلى البيعه بفرح ومجدو الله علانيه وكان مهتما بقطيع المسيح وتدبير الكرسى الانجيلى بالنعمه التى معه. وكان مع هذا كله حزينا على ذلك المسكين البايس الخاطى الذى اسلم نفسه للموت بالخطيه وصلى إلى الله قايلا: أنت الله الرحوم الذى قلت

١٧٥هـ) أراد أن يتدخل فى عمل قاضى مصر إذ ذاك أبو الطاهر عبد الملك بن محمد الحزمى فلم يكن من القاضى إلا أن استعفى عن القضاء [(١)] ويظهر أن إغفال ذكر أصحاب البريد فى تلك المصادر راجع إلى أن مهام وظيفتهم كانت تعنى الخلافة وتعنى عمال الخليفة أكثر مما تعنى مصر نفسها.

تحدثنا حتى الآن عن الوظائف الرئيسية التى كانت وقفا على الفاتحين، وسنتحدث عن وظيفة القاضى فى فصل آخر، وفيما عدا ذلك أبقى الفاتحون معظم الأنظمة الموجودة كما تركوا الوظائف والأعمال فى يد أهل البلاد.

وكانت مصر بعد الفتح مباشرة مقسمة إداريا إلى قسمين رئيسين مصر العليا، ومصر السفلى. فيذكر ابن عبد الحكم [(٢)] أن الخليفة عمر بن الخطاب توفى وعلى مصر أميران عمرو بن العاص بأسفل الأرض [(٣)]، و عبد الله بن سعد بن أبى سرح على الصعيد. ولسنا نظن أن هذا البعد عن الدقة من ابن عبد الحكم ينقض ما نعرفه من أن عمرو بن العاص كان الرئيس

---

(١) ص ٣٨٤.
(٢) فتوح مصر وأخبارها ـ طبعة تورى – ص ١٧٣.
(٣) أسفل الأرض أى مصر السفلى أو الوجه البحرى. وكان مقسما جغرافيا إلى الحوف الشرقى شرقى فرع دمياط والحوف الغربى غربى فرع رشيد وبطن الريف بين فرعى رشيد ودمياط (القلقشندى: صبح الأعشى جـ٣ ص ٣٨٠ ـ ٣٩٠)

أني لا أحب موت الخاطى مثل ما يرجع ويتوب، وانت يا رب تحفظ نفس هذا الأخر ليلا [لئلا] يموت في الخطيه لكن خلصه لكي يندم ويبكى على غلطه حتى تحى نفسه، لأن الشيطان في كل حين يجذب الناس إلى الجحيم الذين يطيعونه. والشيطان مبغض الخير ملا [نفس] الذى في الحبس موامره وفكر سو وكان يقول في قلبه النجس منه ومن الأساقفه والبيعه لأجله.

ولما تمت تلت سنين وهو في الحبس عزل الوالى

الأعلى وكانت له ولاية مصر كلها. ويذكر الكندى(١) أنه في ولاية حفص بن الوليد الثانية على مصر (١٢٤ ـ ١٢٧هـ) جعل على الصعيد رجاء بن أشيم وعلى أسفل الأرض فهد بن مهدى الحضرمي.

من هذا يتبين أن مصر كانت مقسمة إداريا إلى مصر العليا والسفلى، وهذان القسمان الرئيسيان كانا مقسمين إلى أقسام أو كور، ويقال إنه كان بها ثمانون كورة (٢)، وهذه كانت مقسمة بدورها إلى قرى. ولفظ كورة مشتق من الاسم اليوناني كورة التي لم تكن شيئا آخر سوى الأقاليم المعروفة في العهد البيزنطى باسم بجارشي Pagarchie أى أن العرب احتفظوا بنظم البيزنطيين الإدارية وكان على رأس الكورة «صاحب الكورة وهذا اللقب ترجمة مضبوطة للفظ اليوناني بجاركوس(٣) فنجد مثلا قرة بن شريك والى مصر زمن الوليد بن عبد الملك (٩٠ ـ ٩٦هـ) يرسل كتابا إلى بسيل صاحب اشقوه (٤) وفى كتاب آخر يخبر صاحب

---

(١) كتاب الولاة وكتاب القضاة ص ٨٤.

(٢) ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ٤ ص ٢ والمقريزى ك خطط جـ١ ص ٢٦.

(3)Wiet: Précis de l'hist. d'Egypte t. 11, n. 127

(4)Becler: Neue Arabische Papyri PP. 251 - 252, Grohmann, Arabic Papyi, vol. III p. 12.
اشقوه كانت كورة من كور الصعيد وهي الآن كوم اشقاو بين أبو تيج وطهطا في محافظة أسيوط وقد عثر فيها سنة ١٩٠١م على مجموعة من الأوراق البردية التي ألقت شعاعا من النور على استبداد حكم قرة بن شريك في مصر.

ابن عبدالرحمن عن مصر، وانفذ غيره إلى مصر، وعند وصوله الفسطاط كشف عن الحبوس ليعلم جريرة كل معتقل،فلما أعرض عليه خبر بطرس أمر باحضاره فلما نظره عرفه فقال له : أليس أنت الذى انفذه الملك إلى مصر فى ذلك الزمان ؟ فقال له: نعم فسأله: ما الذى لحقك وقطع ذكرك من عند الملك وصرت مع الموتى. فأجاب وقال عن البطرك العظايم والوالى ابن عبدالرحمن المعزول، فانه عطل أمر الملك واعتقلنى تلت سنين.

الكورة بأن يرسل التعليمات الخاصة بدفع الجزية إلى جسطال كورته والى موازيت القرى [1].
وهنا مرة أخرى نجد كلمتين غريبتين على اللغة العربية! فكلمة جسطال هنا بمعنى الموظف المشرف على مالية الكورة أى مندوب ديوان الخراج والأموال، أما موازيت فمعناها رؤساء أو مشايخ القرى. ويرى الأستاذ جاستون فييت[2] G. Wiet أن كلمة جسطال مقابلة للكلمة البنزنطية أو جستاليوس ، وأن كلمة ما زوت مقابلة للكلمة البنزنطية ميزوتروس

ومما سبق نتبين إلى أى حد أبقى العرب على النظم التى وجدوها فى البلاد، بل أبقوا على الأسماء كما كانت من قبلهم. ومع أن مصر كانت مقسمة إدارياً إلى هذه الأقسام، فقد كانت جميعها تحت سلطة الوالى العليا مباشرة، ولم يعط الولاة فرصة لعمال الأقاليم للتمكين لأنفسهم وللاستقلال محلياً بأمور إقليمهم، فكان الحكم فى مصر مركزياً إلى أقصى حد، كانت اللامر كزية معدومة فى البلاد، فكما أن الوالى كان تحت سلطة الخليفة مباشرة نرى الوالى بدوره يضع رؤساء الأقاليم المختلفة تحت سلطته مباشرة. ولقد ألقت أوراق البردى التى كشفت فى كوم أشقاو شعاعاً من النورعلى حكم الولاة فى مصر، وخاصة فى العهد الأموى، وبوجه أخص فى عهد ولاية قرة بن شريك (٩٠ ـ ٩٦هـ) إذ عرفنا من تلك الأوراق إلى أى

---

(1) Becker: op. cit. pp. 254. Grohmann, op. Cit. p. 17

(2)Précis de l'hist. d'Egypte. t. 11; P. 127.

وقال كلاما كتيرا عن النصارى وعن البيعه. قال له الوالي: تمضى إلى عند الملك انفذك إليه. قال له : نعم هذا غرضى لاتمم ما فى قلبي.

فانفذه الوالى سرعه واصحبه كتابا يشرح فيه ما جرى عليه . فاعاده الشيطان مبغض الخير إلى ما كان فيه أولا، وجعل فى قلب الملك له محبه أكتر من الأولى، سيما وقد قال له أننى أريد أن أدخل فى دينك وأعود إلى مصر و اخذ حقى من

حد كانت تمتد سلطة الوالى فى الأقاليم، فنراه يرسل كتبا كثيرة إلى عماله يطلب منهم ما تجمع من الضرائب، وفى الوقت نفسه يطلب من صاحب الكورة أن يعدل بين الناس ولا يفعل شيئا يكرهونه[١]، ثم نرى الوالى يرسل إلى صاحب الكورة يذكر له أن صاحب البريد أخبره بأنه أوقع الغرامة على بعض القرى ويطلب من صاحب الكورة أن يرد ما كان قد عمله حتى يكلمه فى هذا الأمر [٢]. وهنا مرة أخرى نرى أنه كما كان للخليفة صاحب بريد يخبره بأعمال الوالى، كان للوالى أيضا صاحب بريد يخبره بأعمال عمال الأقاليم فى مصر. وفى كتاب آخر نجد قرة بن شريك يرسل إلى صاحب كورة اشقوه بشأن أحد الأفراد الذى أعطى مالا لآخر، يطلب منه أن ينظر فى أمر تسديد الدين الذى لأحدهما على الآخر [٣]. ونجد أيضا كتابا لقرة يأمر فيه بالقبض على أحد المجرمين [٤]. وفى كتاب آخر نراه يحدد أجور الصناع الذين يعملون فى بناء السفن ولا يترك تحديد ذلك لصاحب الكورة التى منها الصناع[٥].

(1)Becker: Neue Arabische Papyri. PP. 247 _ 248, Grohman : Arabic Papyri vol. III. PP. -5.

(2) Grohmann: Arabic Papyri. vol. III. p. 28.

(3)op. cit. pp. 30 - 31.

(4)van Ber chem: Une Page Nouvelle de l'Histoire d' Egypte. p. 161.

(5)Bell: Translations of the Greek Aphrodito Papyri (Der Islam, Band II) p. 271.

اعدائى. ففرح الملك بذلك، فانكر النجس اسم المسيح المخلص واعترف بدين الإسلام، فدفع له الملك كرامات كثيرات فى ذلك اليوم ثيابا ومالا وخيلا وسرارى وسماه أبا الخير.

فاراد الرب تبارك اسمه أن يريح الأب القديس أنبا مينا ليلا [لئلا] ينظر إلى شى من العذاب من هذا الرجل الجاحد، فاظهر الله اعجوبه ، لما نظر الذى سمى أبا الخير وهو أبو كل الشرور والمكر،

هذه كلها أمثلة ترينا إلى أى حد تغلغلت سلطة الوالى فى شئون البلاد المختلفة وحتى فى أمور القضاء الذى كان يعتبر مستقلا، كان الوالى فى أوقات كثيرة هو الذى يعين القاضى ويصدق الخليفة على هذا التعيين. وقد احتاج الوالى تبعاً لذلك إلى كتبة كثيرين ليستعين بهم فى تحرير رسائله إلى مختلف الجهات فى مصر والى الخليفة نفسه. ولذا نرى فى آخر الكتب التى كان يرسلها الولاة أسماء الكتبة الذين كانوا يحررونها (١)، مما يدل على أنه كان بمصر فى ذلك العهد ديوان رسائل أو ديوان إنشاء . ويشير القلقشندى (٢) إلى وجود ديوان إنشاء فى ذلك العهد من الفتح إلى بداية الدولة الطولونية، إلا أنه يذكر أنه كان قليل الأهمية فيقول: «ولم يكن لديوان الإنشاء بالديار المصرية فى هذه المدة صرف عناية تقاصراً عن التشبه بديوان الخلافة إذ كانت الخلافة يومئذ فى غاية العز ورفعة السلطان، ونيابة مصر بل سائر النيابات مضمحلة فى جانبها، والولايات الصادرة عن النواب فى نياباتهم متصاغرة متضائلة بالنسبة إلى ما يصدر من أبواب الخلافة، فلذلك لم يقع مما كتب منها ما تتوفر الدواعى على نقله ولا تنصرف الهمم لتدوينه».

وقد كان والى مصر بعد الفتح ومنذ ولاية عمرو بن العاص الأولى عليها يشرف أحيانا على

(1)Grohmann; op. cit. pp. 5,8, 13, 20, etc.

(٢) صبح الأعشى جـ ١١ ص ٢٨.

فـدفع له الملك مـا طلبـه منه من الكتب للوالى
بمصر، فـسار إلى مصر واعتقد أنه يفعل بالبطرك
كل سو تصل قدرته إليه، فمن قبل أن يصل إلى
مصر مات عبد الله الملك، فلما علم الشقى أن
رجاه قد بطل تم عليه قول النبى: مرذول الانسان
الذى يتوكل على انسان. فخزى ومضى الى بلده
التى ولد فيها فنظره أهله وأقاربه ومعارفه فصار
عندهم مبغوضا ممقوتا كمثل اليهود الذين قتلو
ربهم، وكانو يبكتونه قايلين له: يامن صار ولد

بلاد برقة وما يليها من شمال أفريقية، إذ نجد إشارات كثيرة خلال المصادر القديمة تبين سلطة والى مصر واشرافه على عمال برقة والمغرب وعلى الجيوش المرسلة إلى هناك، فنرى مثلا أن عبد العزيز ابن مروان والى مصر (٦٥ ـ ٨٦هـ) يقع سوء تفاهم بينه وبين حسان ابن النعمان الغسانى الذى قدم من الشام ليتولى أمر جيوش المغرب، فيعزله ويولى موسى بن نصير أمر المغرب[١] وكذلك نرى صالح بن على بن عبد الله العباسى فى ولايته الثانية على مصر (١٣٦ ـ ١٣٧هـ) يولى أبا عون على جيوش المغرب[٢].

على أن هذا الإشراف الذى كان لولاة مصر لم يمنع من أن يكون لبرقة والمغرب عمالها وولاتها. ولكن كانت تضم برقة والمغرب أحيانا تحت سلطة والى مصر مباشرة، فقد جمع لمسلمة بن مخلد والى مصر (٤٧ ـ ٦٢هـ) أمر مصر والمغرب[٣]، كما امتدت سلطة صالح بن على فى ولايته الثانية على مصر إلى المغرب وفلسطين [٤]، ونجد الخليفة أبا جعفر المنصور يضم إلى والى مصر يزيد بن حاتم (١٤٤ ـ ١٥٢هـ) برقة بالإضافة إلى مصر[٥].

(١) الكندى كتاب الولاة والقضاة ص ٥٢ ـ ٥٣.
(٢) الكندى ص ١٠٢.
(٣) الكندى ص ٣٨.
(٤) الكندى ص ١٠٢ وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٣٢٨.
(٥) الكندى ص ١٠٢ وأبو المحاسن جـ ٢ ص ٣.

الشيطان وزاغ عن طريق الحياه اين تركت خوف الله والجحيم وصوت خالقنا الذى يقطع بالأمر الهايل «أن كلمن جحدنى قدام الناس أنا اجحده قدام الأب الذى فى السموات[1]، انكرت هذا الصوت الحق فانك تسمع عوضه: اذهبو به إلى النار التى لا تطفأ والدود الذى لا ينام جزا مخالفتك[2]وقوله أيضا لمن هو مثلك : تباعدو عنى يا ملاعين إلى النار الموقده المعدة لابليس وجنوده[3]. ثم يقال لك : أن عوض الأسقفيه

(١) متى: أصحاح ١٠ / ٣٣ .

(٢) مرقس: أصحاح ٩ / ٤٤ .

(٣) متى: أصحاح ٢٥ / ٤١ .

ونلاحظ أن ولاة مصر فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين كانوا من العرب، ولا عجب فقد كان معظم الوظائف الكبرى فى الدولة الإسلامية حينئذ للعرب دون سواهم.

وقد أعطى الخلفاء الأمويون لعمالهم على الولايات قسطا كبيراً من الحرية ولذا ظهر فى الدولة الأموية شخصيات بارزة مثل عمرو بن العاص وزياد بن أبيه والحجاج بن يوسف الثقفى وخالد بن عبد الله القرى وعبد العزيز بن مروان وموسى بن نصير وغيرهم. وفى عهد الدولة الأموية فى مصر نجد معاوية يولى عمرو بن العاص صلاة مصر وخراجها ويجعلها طعمة له بعد عطاء جندها والنفقة على إدارتها، فظل عمرو من سنة ٣٨هـ إلى سنة ٤٣هـ حين وفاته. ونجد مثلا مسلمة بن مخلد يظل والياً على مصر خمس عشرة سنة (٤٧ ـ ٦٢) وتوفى هو وال عليها، وكذلك عبد العزيز بن مروان يظل فى ولايته على مصر حوالى إحدى وعشرين سنة (٦٥ ـ ٨٦هـ) وتوفى وهو وال عليها ، وكان عبد العزيز شبه ملك مستقل فى حكم البلاد من مقره فى الفسطاط أولا ثم فى حلوان التى أمر ببنائها فى سنة ٧٠هـ، واتخذها عاصمة له على أثر وقوع الطاعون بمصر [1] أو على أثر مرضه بالجذام [2].

وفى العصر العباسى يتغير الحال، فالدولة العباسية قامت على أكتاف الفرس ولذا نجد بين

(١) الكندى ص ٤٩ وخطط المقريزى جـ ١ ص ٢٠٩ وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١ ص ١٧٣.
(٢) أبو صالح الأرمنى: كنائس وأديرة مصر ص ٦٦ وسعيد بن بطريق: التاريخ المجموع جـ ٢ ص ٤٠.

التى طلبتها اكتسبت الخلاف وعوض النعيم الروحانى اكتسبت نجاسة الجحود. ويسمع من هذا كثيرا وهو ممتلى حزنا وخجلا كل يوم. ثم أنه مضى إلى أساقفة كورة مصر الذين أبلاهم بذلك العذاب وسال أن يسألو الله فيه أن ينقذه من تلك الضلاله. وكأن قلبه مستقيم . وكان يسمع من فم الأساقفة كما قل الرب لتلاميذه فى ذلك الزمان: من أجل يهودا الاسخريوطى انه لا يهلك إلا ابن الهلاك.

ولاة مصر من قبل خلفائها عناصر فارسية.وكان آخر وال عربى على مصر عنبسة بن إسحق (٢٣٨ ـ ٢٤٢هـ)(١) على أنه ظهر عنصر جديد فى الدولة العباسية اعتمد عليه الخلفاء وهو عنصر الأتراك. وقد بدأ الخليفة المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ) سياسة الاعتماد على الأتراك . والاستكثار منهم، إذ رأى فيهم قوما يحبون القتال والحرب وليست لهم عصبية العرب وليس لهم وطن قديم يريدون إحياءه كالفرس. وسرعان ما تغلغل الأتراك فى الدولة وأصبحت بيدهم شؤونها الحربية والمدينة. ونجد مصر تتأثر بتلك السياسة أيضاً فيليها ولاة من الترك كان أولهم يزيد بن عبد الله التركى (٢٤٢ ـ ٢٥٣هـ)(٢).

وأهم ما نلاحظ فى حكم مصر فى العصر العباسى كثرة تغيير الولاة، وقد يكون هذا راجعاً إلى بعد مقر الخلاف العباسية (أعنى بغداد وسامرا) عن مصر، فلم يأمن الخلفاء أن يتركوا ولاة مصر فى الحكم طويلا لئلا يطمعوا فى الاستقلال بالبلاد. وقد يكون ذلك راجعاً أيضا إلى ضعف الخلفاء العباسيين الحقيقى بالرغم من مظاهر العظمة الخارجية، وخاصة منذ عهد المعتصم، ولذا عنى هؤلاء الخلفاء بتولية ولاة كثيرين فى مدد متقاربة قصيرة كيلا يتمكن

(١) الكندى : كتاب الولاة والقضاة ص ٢٠٢ وخطط المقريزى جـ ٢ ص ٢٩٤ وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٣٠٠.
(٢) الكندى: كتاب الولاة والقضاة ص ٢٠٢ وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٣٠٨.

ثم بعد ذلك أراد الرب أن ينيح الأب أنبا مينا وينقله إلى أورشليم العليا من هذا العالم المملو نصبا وتعبا وتنيح. وكان مدة مقامه على الكرسى سبع سنين فى أخر يوم من طوبه. وتمم تعاليمه حافظا لأمانة أبايه ومضى إلى السيد المسيح بسلام، إلى الرب الذى أحبه، واخذ أكليل الغلبه من جماعة أخوته المجاهدين وتنعم معهم فى كورة الاحيا.

أحدهم من الاستقلال بها أو التمكين لنفسه فيها، كما استخدموا البريد للتجسس على أعمال هؤلاء الولاة.

على أن ما كانت تخشاه الدولة العباسية من استقلال الولاة قد تحقق نتيجة لسياسة الإقطاع التى اتبعتها ، فمنذ عهد الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ـ ١٩٣هـ) إتبع الخلفاء العباسيون سياسة إقطاع بعض أقاليم الدولة العباسى لبعض الشخصيات على أن يؤدوا مالا معيناً للخلافة.

ولا ريب فى أن النظام الإقطاعى فى الشرق كان يختلف اختلافا كبيرا عنه فى الغرب، ولعل أكبر فرق بين النظامين الشرقى والغربى أن الإقطاع الأوروبى كان يتوارث فى أسرة صاحب الإقطاع وفق تقاليد وراثية معروفة أما فى الشرق فلم يكن من حق صاحب الإقطاع أن يورث إقطاعه، كذلك كان السكان فى الغرب يقطعون مع الأرض بعكس النظام فى الشرق. وقد أقطع الخليفة الرشيد افريقية (تونس الحالية) لا براهيم بن الأغلب فى سنة ١٨٤هـ[1] وربما تكون قسمة العالم الإسلامى إلى قسمين إقطاعيين فى عهد الخليفة المعتمد (٢٥٦ ـ ٢٧٩هـ) الذى عاصره أحمد بن طولون، والذى قسم الدولة العباسية إلى إقطاعين:

....

(١) الطبرى جـ ١٠ ص ٧١.

وبعد نياحته مضى ذلك الشيطان [بطرس] الى البلد التى ولد فيها ومات هناك بموت مر وهو موت الخطيه والفقر كما تنبأ عليه أبونا أنبا مينا. وتعجب كلمن شاهده ومجد الله وقال: لقد تم ما تنبا به عليه الأب انبا مينا بروح القدس . وقال كما قال داوود عبدالله فى المزمور: أنه يذل المتكبر مثل الجريح . وقال ايضا فى المزمور ١١٨ : ملعون كلمن يحيد عن وصاياك .

شرقى وغربى، على أن يحكم القسم الشرقى أخوه الموفق ويحكم القسم الغربى ابنه المفوض إلى الله، ربما تكون هذه القسمة قد سبقتها قسمة أخرى فى عهد الخليفة المأمون، فيذكر الطبرى [(١)] أنه فى سنة ٢١٣هـ ولى المأمون أخاه المعتصم الشام ومصر، وولى ابنه العباس بن المأمون الجزيرة والثغور والعواصم وقد ثبت المعتصم من الحكام من ثبت وعزل من عزل فى البلاد الخاضعة الحكمه. وتدل أوراق البردى على أنه فى سنة ٢١٧هـ كانت الأوامر والرسائل التى تصدر إلى الولاة باسم الخليفة المأمون يذكر فيها اسم المعتصم بجانبه[(٢)]. وقد علمنا من نص «بروتوكول» [(٣)] تاريخه ٢١٧ ـ ٢١٨هـ أن الأمير المعتصم كتب اسمه بعد الخليفة المأمون مع كيدر الذى كان والياعلى مصر فى سنة ٢١٧ ـ ٢١٩هـ فى حين أن كيدر هذا كان الوالى الذى أقامه الخليفة مباشرة[(٤)].

ولما ولى المعتصم الخلافة (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ) حذ حذو الرشيد والمأمون فاقطع أشناس

---

(١) تاريخ الأمم والملوك جـ ١٠ ص ٢٧٩.
(٢) جروهمان: المحاضرة الثالثة عن الأوراق البردية العربية ص ١١.
(٣) كان درج البردى يتألف من عشرين ورقة ملصق بعضها ببعض وتسمى الورقة الأولى من هذه الأوراق باليونانية Protocol وكانت تشمل على الكتابة الرسمية التى تسمى الآن الطراز (جروهمان: أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية جـ ١ ص ٤).
(٤) جروهمان : المحاضرة الثالثة عن الأوراق البردية ص ١١.

وبقـيـت البـيـعـة أرمله بلا راع [وخلى الكرسى بعـده سنه واحـده] وافـتـقـد الرب خـرافـه الذين اشـتـراهم بدمه، واجـتـمـعـو الاساقـفـه الى مـدينة الاسكندريه وتشـاورو وسـألو الرب أن يظهـر لهم راعيا أمينا وذكـرو اسمـا كتير وأقامو عدة أيام فى هذا والرب يحـفظ مـصطفـاه الذى يصطفـيـه ويمسـحـه بدهن رحـمـتـه ليـدعوه للبطركـيه لأنهـا كـانت له . وكـانو أباونا إذا اجـتـمـعـو للاتفـاق على

التركى ولاية مصر. وقد علمنا من أوراق البردى أن القائد أبا جعفر أشناس تولى الأمارة على مصـر فى سنة ٢١٩هـ من قبل المعتـصم ثم أذن له بأن يولى الحكام بنفسـه وهذا يدل على مكانه أشناس، فقد كان يذكر اسمه فى خطبة الجمعة مع الخليفة. ومنذ سنة ٢٢٧هـ كان تحت حكمه دولة تمتد من بغداد إلى آخر حدود المغرب. كما ضربت السكة باسمه الذى نقش على الموازين والمكاييل [١]، وقد ظل أشناس صاحب إقطاع مصر ويعين ولاتها من قبله إلى أن توفى سنة ٢٣٠هـ.

ثم أعطى الخليفة الواثق (٢٢٧ ـ ٢٣٢هـ) مصر لإيتاخ التركى إقطاعاً [٢] ولم تقـتـصـر سلطة إيتاخ على مصـر، بل نرى الخليـفـة المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ) يفـوض إليـه فى سنة ٢٣٤هـ أمر الكوفة والحجاز وتهامة ومكة والمدينة مضافا إلى مصـر[٣]. ولكـن لـم يـلـبـث المتـوكل أن أمر بالقبـض على إيتـاخ فى المحرم سنة ٢٣٥هـ وأقطع مصـر ابنه وولى عهـده المنتـصـر [٤] الذى ظل يولى ولاة مصر إلى أن توفى المتوكل وولى المنتصر الخلافة (٢٤٧ ـ ٢٤٨هـ). وفى سنة ٢٥٤ ولى ابن طولون بالنيـابة عن باكـيـاك التـركى صـاحب إقطاع مصر[٥].

---

(١) جروهمان: المحاضرة الثالثة عن الأوراق البردية العربية ص ١٢.
(٢) أبو المحاسن : النجوم جـ ٢ ص ٢٥٥.
(٣) أبو المحاسن جـ ٢ ص ٢٧٥.
(٤) أبو المحاسن جـ٢ ص ٢٧٨.
(٥) المقريزى: خطط جـ١ ص ٣١٣.

إقامة بطرك يكتبون اسما كتير فى رقاع صغار ويضعونها على الهيكل ويصلون الأساقفه والكهنه والشعب الارتدكسى الى الرب بنيه خالصه ويصيحون «كيرياليسن» ، ثم يجعلون طفلا لم يعرف خطيه يمد يده ياخذ رقعه من جملة الرقاع، فالذى يخرج اسمه يقدمونه على البطركيه . فلما فعلو ذلك وكان قيما لبيعة القديس أبى مينا قس اسمه يوحنا ولد الأب انبا خايل [خايال] ومولده فى «بنا بوصير» وترهب بوادى هبيب فاتمنوه على

على أن سياسة إقطاع الأتراك ولاية مصر ادت إلى نتيجة لم تكن فى الحسبان. إذ كان هؤلاء القواد الترك يؤثرون البقاء فى عاصمة الخلافة خشية أن تدبر ضدهم الدسائس، كما كان الخليفة نفسه يرحب ببقائهم فى العاصمة خوفا من أن يستقلوا بالبلاد التى كانوا يحكمونها فكان هؤلاء الأتراك لا يحكمون بأنفسهم بل يستخلفون من يقوم يالأمر نيابة عنهم على أن يحمل إليهم هؤلاء النواب الأموال ويدعون لهم على المنابر كما يدعى للخليفة(١).

وتدل الوثائق البردية على أنه كان يدعى للخليفة وللوالى معا فى خطبة الجمعة(٢). وإذا كان الخلفاء يراقبون أصحاب الإقطاع لئلا يستقلوا بالبلاد، فإنه لم يكن فى استطاعتهم أو لم يدر بخلدهم أن يراقبوا نوابهم، ولم يكن من العسير على نائب وال له شخصية بارزة وله آمال واسعة أن يستقل بأمور البلاد بعد أن تطرق الضعف إلى مركز الخلافة نفسها. وهذا ماحدث فى عهد أحمد بن طولون الذى استقل بمصر عن الخلافة وأسس بها دولة مستقلة عرفت باسم الدولة الطولونية كانت أول دولة مستقلة فى تاريخ مصر وقتها.

(١) الدكتور زكى محمد حسن : مصر والحضارة الإسلامية ص ٤.
(٢) جروهمان: المحاضرة الثالثة عن الأوراق البردية العربية ص ١٢.

الأقنوميه . من قبل الأب انبا مينا المتنيح فذكره شيخ شماس دين من كهنه اسكندريه فقال لهم: هل ذكرتم القس يوحنا قيم بيعة أبى مينا لتكتبو اسمه؟ ولم يكونو ذكروه بل الرب ذكره على فم الشيخ الكاهن، فكتبو اسمه وصلو وفعلو ما قدمنا ذكره تلت دفعات فخرج اسمه فيها التلت [مرات] فتعجبو الناس الحاضرون وصرخو وقالو بالحقيقه انه مستحق فقدموه وجلس على الكرسى.

---

٢. النظام المالى

الجزية والزكاة

قبل أن نبدأ بتفصيل الكلام على النظام المالى للعرب فى مصر يجدر بنا أن يشيرا أولا إلى معنى الجزية والخراج. فالمعروف أن الجزية هى الضرائب المفروضة على الرءوس أما الخراج فهو ضريبة الأرض، ولكننا كثيراً ما نجد فى المراجع خلطا بين هاتين الضريبتين فنرى الجزية تعنى ضريبة الرءوس وضريبة الأراضى معاً. ويلاحظ Van Berchem[١] أن كلمة خراج يقصد بها الضريبة العقارية ، وأيضا جزية الرءوس،وأحيانا تطلق على ضرائب أخرى تختلف فى طبيعتها عن هاتين الضريبتين.

بعد غزو العرب لمصر، وأعنى هنا بعد معاهدة بابليون الأولى، فرض العرب على أهل مصر الجزية، وهاك نص ما ذكره المؤرخون. «فاجتمعوا على عهد بينهم واصطلحوا على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها [٢]من القبط دينارين عن كل نفس شريفهم ووضيعهم ومن بلغ الحلم منهم، ليس على الشيخ الفانى ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم ولا على النساء شيء... وأحصوا عدد القبط يومئذ خاصة من بلغ منهم الجزية وفرض عليهم الديناران

(١) la Propreté territoriale et l'impot p. 21.

(٢) أعلاها وأسفلها أى الوجه القبلى والوجه البحرى.

السيره العشرون من سير البيعه المقدسه الاب الجليل أنبا يوحنا [الرابع] البطرك وهو من العدد الثامن والأربعون

[٧٧٥ / ٧٩٩]

وبعد جلوس الأب أنبا يوحنا كتب سنوديقا مملتيه حكمه إلى الأب المغبوط جرجه بطرك انطاكيه يعلمه اتحاده معه بالامانه وسبب جلوسه على الكرسي، وجرجه هذا الذى ذكرناه كان

رفع ذلك عرفاؤهم[١] بالأيمان المؤكدة، فكان جميع من أحصى يومئذ بمصر أعلاها وأسفلها من جميع القبط فيها أحصوا وكتبوا ورفعوا أكثر من ستة آلاف نفس وكانت فريضتهم يومئذ إثنى عشر ألف ألف دينار فى كل سنة[٢]».

هذا فيما يتعلق بالجزية التى فرضت على أهل الذمة فى مصر كما ذكرها بعض المؤرخين. ويذكر البلاذرى [٣] فى رواية له عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه وضع على كل حالم دينارين جزية إلا أن يكون فقيراً. ولا نفهم من هذا النص إذا كان الفقراء قد أعفوا من الجزية أم قدرت عليهم جزية أقل من غيرهم. أى أنه إذا استثنينا النص الذى ذكره البلاذرى بأن الفقراء لم يدفعوا الدينارين نفهم مما ذكره المؤرخون أن المصريين تساووا فى دفع الجزية.

وقد أثبتت أوراق البردى فساد الرأى الذى يقول بمساواة الذميين فى دفع الجزية وأثبتت أن الجزية كانت تتناسب مع ثروة الشخص. ففى كتاب من قرة شريك إلى صاحب كورة أشقوه.

(١) العريف:العالم بالشئ ومن يعرف أصحابه والجمع عرفاء . ويذكر De Sacy أن العريف معناها كاتب وهى المقابلة للكلمة اليونانية جرافس أى كاتب "Sur la Nature et les

Révolutions du droit de Propriété P. 179.

(٢) ابن عبد الحكم (طبعة المعهد الفرنسى) ص ٦٣ ـ ٦٤ وخطط المقريزى جـ١ ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣ والسيوطى:حسن المحاضرة جـ١ ص ٥١.

(٣) فتوح البلدان ص ٢١٤.

قد قام واحد من أساقفته ورفع عليه [طعون] عند الملك حتى أخذه وقيده وحبسه وجلس الأسقف الرافع عليه على الكرسى، ولم يكن كتب رساله إلى بطرك اسكندريه ولا تقليدا، فمات وعاد جرجه وافرج عنه وجلس على كرسى انطاكيه بعد عشر سنين بمجد وكرامه. فلما وقف على كتب المغبوط أنبا يوحنا عند وصول رسله إلى انطاكيه قبلهم وفرح بهم وكذلك جماعة المطارنه

نجده يأمره بأن يرسل كشفاً بالأماكن المختلفة لمعرفة عدد الرجال فى كل مكان، والجزية الواجب عليهم أداؤها وما يملكه كل رجل من الأراضى وما يقوم به من الأعمال. ويطلب من صاحب الكورة ألا يوجد أى مجال للشكوى أو الاستياء منه ويذكره بأنه مصمم على مكافأة من يسير سيراً حسناً ومعاقبة من يتنكب عن طريق العدل [١] ونحن نرى من هذا الكتاب أنه لو كان كل فرد يدفع جزية مساوية لما يدفعه الآخر لما طلب والى مصر كشفاً بما يملكه كل شخص وما يقوم به من عمل وبالجزية الواجبة عليهم، ولما طلب من صاحب الكورة أن يكون منتبهاً فى عمله، وقد حفظت لنا أوراق البردى أيضاً كشوفاً من القرن الثالث الهجرى دونت فيها أسماء أشخاص مختلفين، وذكرت فيها مقدار الجزية الواجبة على كل، وقد اختلفت هذه الجزية باختلاف كل شخص وقلما نجد شخصين يدفعان جزية متساوية: فشخص يدفع ديناراً، وآخر ديناراً ونصفاً، وثالث ثلثى دينار، ورابع ديناراً وثلثاً وهكذا[٢]. وهذا بلا شك راجع إلى تقدير الجزية على أساس ثروة كل شخص. ويجمع الفقهاء أيضاً على أن الجزية

(1)Bell. Translations of the Greee Aphrodito, der Islam, II, P. 272.

(2) Grohmann: Arabic Papyri in the Egyptian Library. vol. III pp. 197 -178, 201 - 203, 217, 219, 220 - 221.

والأساقفه المجتمعين عنده مجدو السيد المسيح على اتفاق كلمتهما على الأمانه الارتدكسيه واجتماعها بعد الأيام التى جازت بفرح عظيم وبهجه روحانيه،وكتب جرجه ومطارنته وأساقفته جواب السنوديقا إلى الأب أنبا يوحنا كالقوانين البيعية السالمه من الزوغان.

وكان أنبا يوحنا حسن الهيئة تام القامة مويدا من الله فى جميع اموره، وكان كل أحد يشتهى

كانت تتناسب إلى حد ما مع ثروة الشخص فيؤخذ من الموسر ثمانية وأربعون درهما ومن الوسط أربعة وعشرون ومن دون الوسط إثنا عشر درهما[٢] وعن هشام بن أبى رقية اللخمى أن صاحب إخنا [٣] قدم على عمرو بن العاص فقال له «أخبرنا ما على أحدنا من الجزية فيصبر[٤] لها فقال عمرو وهو يشير إلى ركن الكنيسة. ولو أعطيتنى من الأرض إلى السقف ما أخبرتك ما عليك إنما أنتم خزانة لنا إن كثر علينا كثرنا عليكم وان خفف عنا خففنا عنكم [٥]» وهذا يبين لنا أن العرب لم يحددوا الجزية على أهل الذمة فى مصر، وانما كتفوا بفرضها عليهم كما يظهر ذلك من نص معاهدة بابليون، وترك تقديرها للوالى أو

(١) أبو يوسف: كتاب الخراج ص ٦٩ ويحيى بن آدم القرشى: كتاب الخراج ص ٥١ والماوردى: الأحكام السلطانية ص ١٣٨.

(٢) إخنا بالكسر والنون مقصور وبعض الناس يقول إخنو ووجدته فى غير نسخة من كتاب فتوح مصر بالجيم واحفيت فى السؤال عنه بمصر فلم أجد من يعرفه إلا بالخاء وقال القضاعى وهو يعدد كور الحوف الغربى وكورتا إخنا ورشيد والبحيرة وجمع ذلك قرب الاسكندرية وأخبار الفتوح تدل على أنها مدينة قديمة (معجم البلدان لياقوت جـ١ ص ١٦٦).

(٣) فى الخطط للمقريزى جـ ١ ص ٧٧ «فنصبرلها».

(٤) ابن عبدالحكم : فتوح مصر (طبعة تورى) ص ١٥٣ - ١٥٤ وخطط المقريزى جـ١ ص ٧٧.

أن ينظر صورته المقبوله [المباركه] ورزق قبولا عند كل الملوك والولاه مثل يوسف الصديق الذى كانت يد الله معه وخلصه من جميع أحزانه وأعطاه نعمه وحكمه امام فرعون.

وكان الأب يوحنا مداوما على فعل الخير، واهتم ببنا [ء] بيعه ومسكن بطريركتى وزينه بكل زينة حسنه، وزين [كذلك] البيع باسكندريه بكل زينة وجمال، وكان الزمان مساعدا له وكانت

الخليفة. ويذكر ابن عبدالحكم[١] فى رواية له عن عبد الملك بن مسلمة عن ابن وهبة عن يونس عن ابن شهاب «أن عمر بن الخطاب كان يأخذ ممن صالحه من المعاهدين ما سمى على نفسه لا يضع من ذلك شيئا ولا يزيد عليه، ومن نزل منهم على الجزية ولم يسم شيئا نظر عمر فى أمره فإذا احتاجوا خفف عنهم وإن استغنوا زاد عليهم بقدر استغنائهم».

وكانت الجزية فى مصر تدفع نقداً بالدنانير الذهب وكسور الدنانير، وكان المصريون يعرفون تلك الضريبة حسب ما ورد فى قطع «الاوستراكا» وفى أوراق البردى المكتوبة باليونانية باسم دمزيا أما فى أوراق البردى العربية فتعرف باسم الجزية [٢].

ضرائب الصناعة والتجارة

كانت حكومة العرب منذ الغزو تفرض ضرائب على الصناع والأجراء.[٣].

وكان العرب فى مصر ـ كالبيزنطيين ـ يفرضون ضرائب على التجارة وتعرف هذه الضرائب بالمكوس[١].

---

(١) المرجع نفسه ص ١٥٣. (٢) الأحكام السلطانية ص ١٣١ - ١٣٢ و١٤٠.
(٣) ابن عبد الحكم : طبعة تورى ١ ص ١٥٢ ـ ١٥٣.
(٤) كلمة مكس مشتقة من اللفظ المصرية القديمة «مكس» وهو صك خراج مصر الذى نراه دوماً فى =

السلاطين تهابه وتبلغه أغراضه وتقبل قوله ولا تمنعه من شي يريده، وكان الشعب الارتدكسى يطيعه وكان فى البيعه فى أيامه هدو وسلامه وما يفتر من فعل الخير. وأكثر اهتمامه بعمارة بيع اسكندريه حتى أنه عمل تذكارا عظيما له بهذه المدينه. وكانت سيرته جميله حتى أن المخالفين الذين بمدينة اسكندريه حسدوه كعادتهم الملاعين مع الارتدكسيين حتى فى الأمانه وخاصه فى أيام هذا القديس يوحنا لنظرهم لأعماله الحسنه فى

كما فرضت ضرائب على التجارة الخارجية التى تمر بثغور مصر أو التى ترد إليها أو تُصدر منها، فيذكر المقريزى فى خططه جـ١ ص ١٠٩ أنه كان يجبى من التجار فى الثغور المصرية، وهى دمياط وتنيس ورشيد وعيذاب وأسوان والاسكندرية، ضرائب مقررة.

الضرائب الأخرى

كانت حكومة العرب فى مصر تفرض على المصريين ضرائب أخرى غير تلك التى ذكرناها، ويمكننا اعتبار واجب الضيافة على أهل البلاد للجند المسلمين وغيرهم الذين يمرون فى البلاد من هذه الضرائب، فقد اشتراط على القبط بعد غزو العرب لمصر أن من نزل عليه ضيف واحد أو أكثر من المسلمين وجبت عليه الضيافة لهم ثلاثة أيام(٢).

وقد ورد فى نصوص أوراق البردى ذكر الضرائب غير عادية. فنرى قرة بن شريك يطالب

=يد تماثيل ملوك الفراعنه. ويذكر المقريزى أن أصل المكس فى اللغة الجباية يقال مكسه يمكسه مكسا، والمكس دراهم كانت تؤخذ من بائع السلع فى الأسواق فى الجاهلية، والماكس هو العشار ويقال للعاشر صاحب مكس والمكس أيضا انتقاص الثمن فى البياعة ومكس درهم معناه انتقاص درهم فى بيع ونحوه وعشر القوم معناه أخذ عشر أموالهم، العشار هو قابض العشر (الخطط جـ٢ ص ١٢١).

(٢) ابن عبد الحكم ، طبعة المعهد ص ٦٤ وخطط المقريزى : جـ١ ص ٢٩٢ والسيوطى:حسن المحاضرة جـ١ ص ٥١.

البيعه وفى جميع البيع باسكندريه بالمجد والكرامه.

والكذاب الذى كان فى ذلك الزمان أبا الهراطقه إنسان يسمى يوليانوس كان رجلا طبيبا ماهرا، وكان ملوك الإسلام تراعيه لأجل صناعته ولم يفتر من ذكر ابينا البطرك أنبا يوحنا بكلام الحسد.

وكان الله الذى يعرف الخفايا يرفع هذا الإنسان

فى رسائله إلى صاحب أشقوه بجمع تلك الضرائب العادية أو بجبايتها من الناس[1]. ونعرف أنه فى ولاية موسى بن مصعب الخثعمى على مصر (١٦٧ ـ ١٦٨هـ) فرضت ضرائب على أهل الأسواق والدواب[2].

لما ولى ابن طولون مصر ألغى ضرائب كان قد ابتدعها ابن المدبر[3] ويحدثنا المقريزى[4] عن هذه الضرائب فيقول: إن أحمد بن محمد بن مدبر لما ولى خراج مصر بعد سنة خمسين ومائتين ابتدع فى مصر بدعا صارت مستمرة من بعده فأحاط بالنطرون وحجر عليه بعد ما كان مباحا لجميع الناس وقرر على الكلأ الذى ترعاه البهائم مالا سماه المراعى، وقرر على ما يطعم الله من البحر مالا سماه المصايد إلى غير ذلك، فانقسم حينئذ مال مصر إلى خراجى وهلالى. والخراجى ما يجبى مسانهة، أما الهلالى فهو ما يجى مشاهرة. وكان الهلالى يعرف فى زمن ابن المدبر وما بعده بالمرافق والمعاون وهى التى ألغاها ابن طولون. ويلاحظ بيكر Becker حسب ما ورد فى أوراق البردى أن ابن المدبر ولى خراج مصر منذ سنة ٢٤٧هـ لا

(1)Bell: op. cit. pp. 272, 281 _ 282.

(٢)الكندى: الولاة والقضاة ص ١٢٥.

(٣) الكندى: ص ٢٠٥ ـ ٢١١ والمقريزى: جـ١ ص ٢١٢ ـ ٢١٣ و Zaky M. Hassan: les Tulunides. P. 38.

(٤) خطط جـ١ ص ١٠٣ و١٠٧ ـ ١٠٩ وجـ٢ ص ٢٦٧ و Zaky Hassan. op. Cit. pp. 244 _ 246.

يوما بعد يوم، وكانت روايح طيب تعاليمه قد بلغت إلى كل أحد، ولأجل هذا كانو محبو الله يفتكرون ويقولون نحن نسلم إليه اموالنا ليبنى بها بيع اسكندريه تذكارا لنا ولمن يجى بعدنا . وهكذا كانو يحملون إليه، المزين بالفضايل، مالا جزيلا وكرامات ويسيلونه [يسئلونه] أن يهتم فى عمارة البيع، حتى تم ما قيل فى النبى داود: غيرة بيتك اكلتنى. فقبل ذلك منهم لعلمه بمحبتهم وابذالهم مالهم وخيرهم وامانتهم المستقيمة بالله.

كما يذكر المقريزى بعد سنة ٢٥٠هـ [١] وتبين من أوراق البردى أنه فرضت ضريبة مراعى المواشي وضريبة الصيد بين سنتي ٢٤٧ و٢٥٣هـ [٢].

ونلاحظ على وجه الإجمال أن النظام المالى العربى كان مأخوذا إلى حد كبير من النظام البيزنطى، ولم يكن أخف منه وطأة فكان النظام المالى فى مجمله صورة مماثلة للنظام البيزنطى. وقد زادت وطأة هذا النظام خاصة في عهد أصحاب إقطاع مصر من الترك كما يتبين من أوراق البردى.

الفلاح والأرض الزراعية

لتفهم وضع الفلاح والملكية الزراعية يجب أن نرجع إلى مصدرين: كتابات المؤرخين وان كان أغلبهم قد كتب بعد الفتح بثلاثة قرون، وهى اما كتب تتناول الفتح وأحداثه، أو كتب تتناول الخراج وموارد الدولة الاسلامية، وهذه تصور الجانب المثالى فالأمر اختلف عند التطبيق، ثم أوراق البردى العربية والقبطية أو الصورة الحقيقية لما كانت عليها الادارة. فكما ذكر المؤرخون أن العرب أقروا كل اقليم مفتوح على جبايته السابقة وجعلت الأرض فى مصر

(1)Zaky Hassan op. Cit. p. 37.

(٢) جروهمان : المحاضرة الرابعة عن الأوراق البردية العربية ص ٧.

وكان قد صحبه شماس محب لله مستيقظ جدا ممتلى امانه وحكمه روحانيه اسمه مرقس، وهذا كان اسكندرانيا، وقد مسك رجل [قيادة] السفينه التى هى البيعه ، سفينة النجاه من طوفان الشياطين باجتهاد ، وكان أبونا أنبا يوحنا يعرفه من صباه، وكان قيّم بيعة أبى مينا، وبحكم معرفته له ولأهله جعله شماسا، وكان يقرا الإنجيل فى كل موضع يقدس فيه ويحضره بصوت حنين والحان مطربة تخشع لسماعها القلوب. ولأجل هذا كان

خراجية وتركت بيد أصابها، وهذا يدفعنا إلى التساؤل هل أبقى العرب على طرق الجباية وعلى الملكية بصورتها السابقة فى القرن السادس والسابع ؟ فمن واقع البرديات احتفظ العرب بالعديد من الأوضاع السابقة وان كانوا فى نفس الوقت نبذوا البعض الآخر. فقد احتفظوا بتقدير الخراج وفقا لنوعية الأرض وخصوبتها ولكنهم تركوا نظام الجباية الذاتية واحتفظوا بالموظفين الأقباط، وان كانت صورة توزيع الملكية الموجودة فى أواخر العصر البيزنطى لم تعد كما هى. ففى الفترة البيزنطية كانت الملكية الزراعية فى مصر كما يلى: أرض تتبع الكنيسة التى تحولت إلى أحد كبار الملاك ـ أرض اقطاع ـ القرى المتمتعة بالجباية الذاتية ـ أراضى صغار الملاك ـ أراض تتبع الدولة. الثلاث الأول تمتعوا بالجباية الذاتية وكان لهم موظفوهم الذين يتسلمون الضرائب النقدية والعينية ويقومون بتسليمها مباشرة لمسئول البنك التابع للولاية هذا فى حالة الضرائب المالية، أما المحاصيل العينية فكانوا يتولون ارسالها الى الاسكندرية.

وكان صغار الملاك هم الفئة الوحيدة التى خضعت للاشراف المباشر من الادارة فى الباجاركيه (القسم الادارى اللاقليم) وموظفيها فهل ظل هذا التوزيع قائما وتلك الاقطاعات بكيفها وكمها قائمة فى العصر الاسلامى؟ بلاشك اختلف الوضع كثيرا وسنعرض لكل منها على حدة بالتفصيل.

الشعوب يكرون إلى البيعه ليسمعو قرا[ء]ته وحسن صوته، ولمعرفته بالقرا[ء]ه وحسن منظره. وعند قرأته، يجعل كل كلمه فى موضعها وكان عالما بالكتب وقرأة جميع المسطاغوجى. وكانو يقولون مبارك هو الرب الإله الذى دفع ولدا حكيما لداود كما قيل . كذلك كان الشعب المومن يقول يتمجد الله مبارك هو الله الذى أقام لنا هذا الشماس المحب لله مرقس، مبارك هو الرب الذى جعل هذا الغصن يزهر لنا من هذه الشجرة

أولا: نلاحظ اختفاء نظام الجباية الذاتية وقد خضعت جميع اراضي الدولة لنفس الادارة وكما ذكر ابن عبد الحكم (يجمع عرفاء كل قرية ومازوتها ورؤساء أهلها، فيتناظرون فى العمارة والخراب حتى اذا أقروا من القسم بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة إلى الكور، ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى، فوزعوا ذلك على احتمال القرى وسعة المزارع[1] «أى أنهم أعتمدوا على القرية كوحدة رئيسية واحتفظوا بمجلسها القديم بل بنفس الأسماء فالمازوت تحريف لاسم الميزون البيزنطى (أحد أعيان القرية والمشرف على الجبايات المالية) وعلى أساس تقديرهم لنوعية الأرض والمساحات المنزرعة ترفع إلى ديوان الخراج بالكورة Curia وهو تعبير يونانى بمعنى القسم وتعادل الباجاركية. وفى عدد من البرديات القبطية استعمل لفظ الباجاركية بدلا من الكورة. وبعد استشارة المسئولين هناك وتحديد نصيب كل فرد فى الاقليم يعو د رؤساء القرى لتوزيع الأنصبة عليهم اذ تساوت الجباية فى العصر الاسلامى»ولم يعد هناك فرق بين أرض وأخرى فى الجباية.

ثانيا: بالنسبة للاقطاعيات الكبرى كاقطاعيات أبيون وايميانوس وكريستيدورا فلا توجد اشارة اليها فى البرديات العربية أو القبطية المعاصرة للغزو وبعده وليست هناك اشارة الى الملكيات الكبرى والتى عرفها العرب فيما بعد باسم الأوسية، بل جميعها تشير الى مليكات

(١)ابن عبد الحكم : ص ٢٠٦.

المباركه أبانا القديس يوحنا وولده مرقس. طوبى لمدينتنا التي استحقت هذه النعمه . وكان أبونا البطرك إذا شاهد هذا الشماس وأفعاله يفرح به ويشكر الله الذى وهب له هذه الموهبه للبيعه فتركه له مشيرا في جميع أحواله. كان مرقس كلما قدمه البطرك ازداد تواضعا لكل أحد من صغير وكبير، وأفضل من هذا طاعته للأب في كلما يامره به. فلما امتلا من النعمه طلب من أبينا أن يجعله مستحق الاسكيم الملايكى الذى هو

صغرى وخاصة أن سجلات أبيون توقفت عند ٦٢٠م فهل صودرت أملاكهم أم تركت في أيديهم؟ انها تحولت في الغالب الى اقطاعات خاصة بالخلافة فان أبيون وايميانوس كانا من كبار موظفى الدولة البيزنطية فربما صودرت أملاكهم على هذا الأساس.

وتشير المراجع إلى أن عمر بن الخطاب أقطع ابن سندر ١٠٠٠ فدان في منية الأصبغ وبعد وفاته اشتراها الأصبغ بن عبد العزيز [١] والفدان يعادل ٢ أرورة أى أن ماحازه ابن سندر يقرب من ألفى أرورة، وهى مساحة واسعة اذا قيست بما كان يملكه الكونت ايميانوس، فمن أين جاءت تلك الأراضى والمعروف أنها أرض زراعية خصبة، حقيقة أن كل ما يخص الأباطرة من أرض آل إلى الخلفاء ولكن الضياع الامبراطورية كانت قليلة جداً وما وصلنا من القرن السادس نادر فغالبا كانت الأراضى التى وهبتها الخلافة نتيجه مصادرات كبار الموظفين والاقطاعيين أو هروب اصحابها.

أما عن الأراضى التى تتبع الدولة في العصر البيزنطى فنادرا ما نجد اشارة الى أراض تتبع الاقليم فغالبيتها كانت أرض أفراد، ولكن في القرن الثانى الهجرى الثامن الميلادى بدأت تنمو اقطاعيات جديدة وان كان أصحابها هذه المرة من العرب. وذكر المقريزى أن خلفاء بنى أمية وبنى العباس كانوا يمنحون الاقطاعات للمقربين اليهم ويشير ساويرس بن المقفع إلى أن أحد

(١) ابن عبد الحكم: ص ١٨٦.

الرهبنه، فأخذه معه إلى البريه عند نظره لشهوته إلى دير الأب المضى [ء] أبى مقار، مجمع الرهبان وموضع الحكم العاليه والصلاة الدايمه ليلا ونهارا بتمجيد الثالوث المقدس فى السابع والعشرين من برمهات، وهو يوم نياح القديس أبى مقار. فلما لبس الاسكيم نظر إليه إنسان شيخ راهب مضا[ء] بروح القدس. فقال هذا الشماس الذى اسمه مرقس هو مستحق أن يجلس على كرسى ابيه

الأفراد فى عهد يزيد بن معاوية كان له دخل خارج أواسيه ٧ آلاف دينار، وفى عدد من برديات القرن الثانى والثالث الهجريين الثامن والتاسع الميلاديين اشارة الى أواسى ومصاريفها وأجور عمالها ومزارعيها وهى غالبا قد تكونت من الهبات والشراء وازداد حجمها فى العصر العباسى بعد شيوع نظام المقابلة حيث يتولى شخص مسئولية جمع الضرائب عن الاقليم وهو قريب من نظام الجباية الذاتية البيزنطى.

ثالثا: بالنسبة لأرض الكنائس: تمتعت الكنائس بأراض زراعية ممتدة المساحة بل كان لها حق الحماية الذى حرم منه الأقطاعيون فأصبحت تملك قرى بأسرها، وكانت الكنائس تدفع الضرائب للدولة كما ثبت من برديات كوم أشقوه [1] فيما عدا ما حصلت عليه عن طريق الهبة الامبراطورية، ولكن ما اشترته وما وهبه أفراد وما استصلحته فرضت عليه ضرائب وقد حدد الحكم الاسلامى موقفه، بأنه لا تؤخذ جزية ممن ترهب أوتبتل فاذا كانوا قد أعفوا من جزية الرؤوس فهل أعفت أراضيهم من الخراج الذى كان يفرض عليهم فى العصر البيزنطى؟ خاصة أن جميع أراضيهم كانت مؤجرة لمزارعين.

فى مجموعة البردى القبطية اشارة إلى ايصالات ضرائب دفعت بواسطة ديرابوتوماس أصدرها أبو للوس وباخوم إلى أبى جورج رئيس الدير السابق. وايصالات أخرى لدير من أجل

(١) المقريزى : الخطط جـ١ ص ١٧٨.

مرقس الإنجيلي. وبدا ان يزيد فى التواضع والطهاره والقدس حتى تم فيه ما قال الله: لمن انظر إلا على المتواضع القلب الخايف مني.

فإذا سمعتم يا أخوه منى هذا الكلام فلا تواخذو عليّ انني تركت عنى كلام الأبا المغبوطين وبنا [ء] البيعه بمدينة اسكندريه وذكرهم مع لزومه لنا، وهكذا يجب علينا أن نذكر النبيين المتواضعين الذين فازو بالاعمال وارضو الابا[ء] بتقبلهم حتى

ضريبة النقود ومن الدير البحرى ذكرت فى الاستروا كا اسم رهبان دير فى جيما ودير القديس فيبيون حيث وجد أرشيف كامل خاص بالدير ذكر فيه أنه دفع شعير وكتان للقسم السابع والثامن، ودفع كرياكوس القس ميزانا من الشعير، وفى بردية أخرى يبدو فيها قس متوليا لوظيفة كاتب العدل ويشرف على الجبايات حيث أرسل أحد الأشخاص إلى الشماس يطلب منه تحريره من أعباء الأرض فى قريته ورفع جزء من الحقول المفروضة عليه لعدم استطاعته دفع الضريبة، وفى خطاب آخر قس ينصح أحد الأفراد بدفع ما عليه من الضرائب، وجميع تلك الوثائق مؤرخة فى القرن الثامن فلا نستطيع التأكد هل صدرت بعد قرار عبد العزيز بن مروان بفرض الجزية على الرهبان أم قبلها؟ فقد أرسل عبد العزيز شخصا يدعى يزيد ومعه آخرون فأحصوا كل الرهبان فى كل وادى هبيب وجبل حراء وفرضوا على كل منهم جزية دينارا وأمروا ألا يرهبوا أحدا بعد من أحصاه ويذكر أبو صالح الأرمنى (أن الأساقفة بالكور الزمهم بأن يفوا بألف دينار خارج عن خراج أو اسيهم))(١).

وفى بردية تعود لعام ٦٩٧م/ ٧٦هـ من دير أبو بولس فى بلدة جيما بالأقصر طلب رؤساء الدير مسئول الأقليم الذى يخاطبونه بالأمير السماح لثلاثة رهبان من الدير بالسفر من الفيوم الى الفسطاط لبيع أثواب من انتاجهم ويطلبون التصريح لهم بثلاثة أشهر حيث كانت الدولة

(١) أبو صالح الارمنى : تاريخ . ص ١٦٣ .

تسمع الاجيال والقبايل الآتية فينمو هم أيضا بنعمه روح القدس كمثل ما كتب لسان العطر بولس وقال: انى غيور بالروح ولا أدع عنى هذا. وتفسير انى غيور يعني بالاعمال الروحانيه. اسمعو كيف بدا ابونا البطرك انبا يوحنا ان يهتم ببنا[ء] البيعه مثل ما طلبا منه المحبان لله الطوبانيان كورا [كوريا] وبرنابا لما رأيا شهوة شعب المسيح فى هذا. وكان للبيع وصايا فدعا الشماس مرقس وقال له: يا

تحظر ترك الفرد موطنه بدون تصريح ويذكرون بأنهم قاموا بأعباء ما عليهم من الضرائب تختص بالقسم الثانى عشر وغالبا المقصود ضرائب الجزية. وهناك عدد من ايصالات الخراج والجزية دفعها رهبان، فجورج الراهب دفع صولدا لمدفوعات القسم الثانى من العام الأول فى شهر برمودة .

رابعا: الأراضى الامبراطورية وقد ألحقت هى والأرض ا لموات وأراضى كبار موظفى بيزنطة بالخلافة، وكانت مساحاتها عامة صغيرة. فغالبية الأرض ملكها صغار الملاك وقد أبقيت فى أيدى اصحابها على أن يدفعوا عنها الخراج، ولكن يلاحظ أنه منذ القرن الأول الاسلامى حوت قوائم الخراج أسماء عربية كمستأجرين وملاك، وأشارت إلى إيجارات أراض بالمقاسمة بين مسلم ومسيحى رغم أن عمر بن الخطاب منع الجند من امتلاك الأرض بل أصدر أمرا إلى أمراء الأجناد أن يلغوا الجند أن عطاءهم قائم ورزق عيالهم سائل، فلا يزرعون ولا يزارعون»[1] وذكر ابن تيمية (اذا احتاج الجند المرصدون للجهاد إلى فلاحة أرضهم ألزم من صناعته الفلاحة بأن يصنعها لهم دون مقابل كما ألزم الفلاح أن يفلح للجند[2] دون مقابل. بل ان أحد الجنود قام بزراعة أرض فى مصر مخالفا أمر عمر فأرسله عمر إلى مكة ونزع منه الأرض.

(١) ابن عبدالحكم : ص٢١٧.

(٢) ابن تيمية: الحسبه فى الاسلام ص ١٦.

ولدى يكون لك أجر من الله أن تقف على بنا[ء] البيع [باسكندرية] لأنك عارف بالمدينه والصناع واعمالهم، وأنا أعلم أن الله معك واعتقد وآمن أن الذى تهتم به والخير بامانتك يكون لك ويتم. فقال: قدسك يعرف أن حجج المخالفين الملاعين كثيره التى يقاومونا بها وهو خطيه علىّ إن قاومت روح القدس الساكنه فيك، والآن فأنت يا أبى قد أردت فعل الخير. ثم ضرب له المطانوه(*) وقال له: صلى على يا أبى. فقال له: الرب يبارك عليك

(*) الميطانيــة : انحناءه مع رسم الشخص ذاته بالصليب. وهى من طقوس العبادة فى الكنيسة كما=

ولقد بدت الحاجة ماسة إلى استخدام القبائل العربية نتيجة لهروب الفلاحين من الأرض بسبب التعسف فى جمع الاموال منهم والزامهم بزراعة الأرض التى اغتصبها العرب دون مقابل. وبدأ ذلك واضحا مع بداية القرن الثانى الهجرى الثامن الميلادى. وفى عهد هشام بن عبد الملك أرسل عامل الخراج ابن الحبحاب إلى الخليفة يطلب ارسال ثلاثة آلاف من قيس إلى اللجون الشرقى،[1] وقد وصل بنى نصر وبنى سليم ومنحتهم الدولة مالا اشتروا به ابلا لمعاونتهم على الاستقرار وكان دخل الواحد منهم كما ذكر المقريزى ١٠ دنانير فى الشهر وأدى هذا إلى انثيال العرب على مصر فنزل بنو أمية وخاصة بنو آبان بن عثمان بن عفان وخالد بن يزيد بن معاوية، ومسلمة ابن عبد الملك بن مروان، وحبيب بن عبد الملك ، وبنو مروان بن الحكم للصعيد فى كورة الأشمونيين[2].

وكانت الأرض التى يزرعها العرب تعتبر فى البداية أرضا عشرية أى لا يدفع عنها خراج، ولقد ازدادت أعداد الملاك العرب وما امتلكوه من أراض عن طريق شراء الأرض الخراجية أوالهبة من الدولة أو احياء الأرض الموات[3]وامتلاك أراضى المصرين الهاربين. وكان العرب

(١) المقريزى: الخطط ١٤٥ ـ ١٤٦.
(٢) القلقشندى: قلائد الجمان تحقيق: ابراهيم الابيارى ص ١٩٦.
(٤) أبو يوسف: كتاب الخراج ص ٧٥. الماوردى: الاحكام السلطانية ص ١٧٧.

ويكون معك حتى تكمل عمارة بيته المقدس لتفتخر به بعدنا. فقال للبطرك: تأمرني أبوتك ان أضع الأساس كما ينور الله علي.

= أنها تقدم تعبيراً عن التوقير والاحترام للرتب الكنسية الرفيعة مثل البابا أو الأسقف.

فاهتم البطرك بكلما يحتاج إليه البنا[ء] وجمع الفعله والرويسا وصلى ووضع أساس البيعه والمساكن المحيطة بها ، وسلم كلما تحتاج إليه في يد الشماس مرقس المحب لله ليهتم بالبنا[ء] وهكذا اوتمن على بنا[ء] البيعه المقدسه وكان الله

يرحبون بامتلاك تلك الأرض ففي بردية تعود لأواخر القرن الأول أو أوائل الثاني الهجري السابع والثامن الميلادي: (أما بعد فان ا لأمير أصلحه الله بعثنا إلى أرض ماؤها... فيها جائع، والكبير فيها ضائع فنحن على اليقين في بلد حزين نمسي جائعين نصبح ضائعين). وبدخول أهل الذمة في الاسلام أصبح من الصعب التمييز بين المسلمين من المصريين والعرب في القوائم البردية ولو أن عدد من أسلم في البداية كان قليلا فذكرت في احدى قوائم الخراج ١٣٠اسما مسيحيا واسما واحدا اسلاميا ولكن الدولة وجدت أن مساحات من الأرض الخراجية تحولت إلى أرض عشرية اما بالاسلام أو بشراء العرب لها، ونفس الشئ حدث في العراق مما أدى بالحجاج بن يوسف إلى أن يجعل جميع الأرض خراجية وكان ذلك في عهد الوليد بن عبد الملك ومنها امتد إلى بقية الأقطار، وبرديات القرن الثاني الهجري تشير إلى تحول مصر إلى أرض خراجية، ففي بردية ترجع لنفس الفترة يخاطب المسئول للضرائب امرأة تدعى رضا رفضت أن تدفع ما عليها من الخراج ووليت أحد الأقباط كوكيل لها وكانت تمتلك ضيعة واسعة فالضرايبة عليها كانت ٢٠٠ دينار وبما أن ضريبة الفدان دينار واحد فانها كانت تمتلك ما يقرب من مائتي فدان، ولم تكن الضريبة ثابتة فرجل يرسل إلى الأمير يطلب رقيمة بما عليه من الخراج وهذا يعني أنه لا يعرف مقدار الخراج الذي عليه مسبقا أو أن هناك قيمة ثابتة.

معينا له بالنعمه، والبنا[ء] كل يوم ينمو ويتقدم، فوسوس الشيطان فى قلب الكذاب المخالف صاحب الطبيعتين [يوليانوس] أن يذكر الأب أنبا يوحنا عند السلطان أنه أخذ مواضع للسلطان بناها كنايس، وفعل هذا حسدا لكى يبطل البنا[ء]، مثل الكلدانيين الذين ارادو تبطيل بنا[ء] بيت الله المقدس. فصبر الأب انبا يوحنا واحتمل أمرا عظيما مما لحقه من الكذاب وخسر لأجل ذلك للسلطان مالا كثيرا، وكان النجس يفرح بهذا، وكان يذكر

ولقد امتلك العرب منذ القرن الثامن الميلادى/ الثانى الهجرى مساحات كبيرة من الأرض وأشرف بعضهم على زراعتها. فيذكر شخص يدعى محمد بن المنذر مقدار ما بذره من القمح والشعير والجذور فيذكرن أنه بذر من القمح مائة أردب، وثمانى أرادب وويبة ومن الشعير ١٥ أردبا ونصف وبذر من اللساسة مائة وأربعين أردبا.

موقف الدولة من أهل البلاد من الأقباط:

كان أهم ما فرض على المصريين الجزية والخراج الى جانب ضرائب أخرى، ولقد حددت الشريعة ومعاهدات الفتح مقدار الجزية: تذكر الآية «قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون»، وقد اختلف الفقهاء فى مقدار الجزية فذهب أبو حنيفة إلى أنها ٤٠ درهما للاغنياء ٢٤ للأوسط ١٢ للفقراء وجعلها الشافعى دينارا.

ولقد أمر عمر المصريين الا يتشبهوا بالعرب فى لبوسهم، وأمر بالجزية أن تكون ٤٠ درهما على أهل الورق (الفضة)، و٤ دنانير على أهل الذهب، وذكر ابن عبد الحكم أن الجزية كانت على مصر ديناران ونفس المقدار ذكره البلاذرى. من الواضح أن مقدار الجزية لم يكن ثابتا فى العصر الاسلامى، فالبرديات تذكر جزية مقدارها ١ صولد وفى بردية أخرى دفع ٣

أنبا يوحنا بكل سو وكذب وكلما شاهدوه كل يوم في نمو وزياده وشعبه مستقيم وتعاليمه دايمه وبيعه مثمره، وهو أيضا يبنى ويجدد في البيع، قد ازدادو غيظا فلم يقدرو على مقاومة قوة الله كمثل فعل الكلدانيين في هيكل أورشليم، وبدد الله أمرهم، وكذلك فعل هكذا هاهنا. بدد مؤامرة المخالفين اليهود الجدد. وبرأفة السيد المسيح جعل في قلب السلطان أن يامر الأب أنبا يوحنا بكمال البيعه وترتيبها كما يريد. وكملها في مدة خمس سنين

أفراد ٣ صولدات للخزانة عن جزيتهم، وكذلك في إحدى البرديات القبطية التي تعود لأول العصر الاسلامي دفعت ضريبة مقدارها ١٤,٥ قيراط للقسم الأول و ٣٥ قيراطا للقسم الثاني. وفي ايصال آخر ذكرت أموال تتراوح بين قيراطين وصولد وفي ايصال عربي يعود إلى ٧٣١م / ١١٣ هـ دفع رجل جزيته دينارا وسدسا وثمنا ونصف قيراط. وفي بردية ترجع إلى القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ذكر للجزية ومقدارها (سدس وثمن دفعها شنودة ودينار سوير ابلوا، جرجه بلودنبر وثلث وربع مرقورة يحنس ربع وسدس) (٣٣) ولقد اعتادت الدولة القيام بمسح شامل وتعداد للسكان لتقدير الجزية، فذكر المقريزى: أن عمرا أحصى من عليه الجزية فكانوا ٨ ملايين وذكر البعض ٦ ملايين.

وفي عهد هشام بن عبد الملك قام الوليد بن رفاعة باحصاء السكان والأرض استغرق منه ٦ أشهر بالصعيد وثلاثة بالدلتا فيقال أنه أحصى فوق العشرة آلاف قرية أصغر قرية فيها ٥٠٠ من القبط وذكر ان جملة ذلك ٥ مليون،

وكانت الجزية تفرض على ضربين: على الرؤوس أى على الأفراد بأسمائهم أو على القرية ككل، وفي هذه الحالة اذا توفي أحدهم عليها أن تدفع القرية جزيته. وفي مجموعة بردى كوم اشقوه كتب قرة بن شريك لأهالي شبرا أبسيرو من نفس الكورة «أنه أصابكم من جزية سنة خمس وثمن مائة دينر وأربعة دينر وثلث دينر».

وكرزها باسم ريس الملايكة ميخايل، وهذه البيعه تسمى اليوم بمدينة اسكندريه بيعة التوبه.

وكان مع ابينا البطرك كاتب اسمه يوحنا شماس وهو الذى استحق أسقفية كرسى سخا بعد وفاة الأب أنبا يوحنا.

فلما كان بعد تمام بيعة الملاك ميخايل باحكام الرب الغير مدروكة نزل غلا عظيم على مدينة اسكندريه وصعيد مصر، حتى أن القمح بلغ تلت

ولقد أمر عمر بن عبد العزيز عامل الخراج حيان ابن سريج (٩٩ ـ ١٠٥هـ) ان يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم،حتى اذا مات فرد من أهل القرية كانت تلك الجزية ثابتة عليهم، مما يؤكد أن الجزية تكون مسئولية القرية ككل. وفى احدى البرديات ا لقبطية يتكاتف مجلس القرية ويقوم بتسديد الأعباء والخدمات الاجبارية ولقد وضع الحجاج الجزية عمن اسلم، ويبدو أن هذا امتد إلى الأقطار الأخرى أيضا فطلب عبد الملك بن مروان من واليه عبد العزيز بن مروان أن يضع الجزية عمن أسلم فنصحه بألا يفعل فاستجاب له (أن أهل الذمة لا يتحملون جزية من ترهب منهم، فكيف نضعها على من أسلم).

وكانت الجزية تفرض فى شهر محرم من كل سنة، ولكن أوراق البردى تثبت أنها جبيت فى فترات مختلفة فخضعت لأهواء وأمزجة الوالى والجباه مما أرهق الفلاح ودفعه للهرب.

وكانت قوائم الجزية تتضمن أسماء الأفراد ومقدار جزيتهم، وأحيانا صفاتهم الجسدية المميزة. وكان على الشخص الذى يبغى ترك قريته أن يخبر موظف الاحصاء فى بلدته الأصلية بمحل اقامته أو كتابة اقرار يرسل إلى ديوان الضرائب بالمدينة، وان كان فى نهاية القرن الأول لم يعد مسموحا بترك الفرد لموطنه والاستقرار فى منطقة أخرى بل أصبح عليه الحصول على تصريح تحدد فيه مدة الاقامة لضمان دفع ما عليه من الجزية فى منطقته الأصلية كما حدث فى الالتماس الذى قدمه الرهبان إلى الوالى.

وبيات بدينار وفنيت أنفس كتير، وكان أبونا حزينا
لما يرى من الموتى والفنا[ء] ويدعو بدموع ويقول
كاشعيا النبي: صرفت وجهك عنا واسلمتنا لأجل
أثامنا، والآن يارب فانت أبونا ونحن كلنا تراب
وعمل يديك لا تصنع بنا مثل خطايانا ولا تغضب
علينا إلى التمام، ولا تذكر خطايانا، والتفت لنا
يارب لأنا شعبك. وكان يواصل الصلاه ليلا ونهارا
قايلا: يارب أرحم خليفتك وعمل يديك لا تصنع
بنا متل خطايانا فنحن مستحقون لكل أدب لأنا لم

الخراج:

كان الخراج الذى يجبى من البلدان التى غزاها المسلمون يمثل المورد الأساسى للدولة الاسلامية وقد عرف العرب أهمية أرض مصر وخصوبتها وما يمكن أن تدره ولقد بدأ تفهمهم لهذا الامر من خلال معاهدة الفتح التى نصت على عدم جمع خراج مصر الا اذا وصلت زيادة نهر هم إلى الحد المطلوب، فان نقص رفع عنهم بقدر النقص، ولقد ذكر البلادزى أن ضريبة الأرض على كل جريب دينار وثلاثة أرادب طعاما، وأورد ابن عبد الحكم فى كتابة (فتوح مصر والمغرب) أن الضريبة على كل فدان نصف أردب وويبتان من الشعير فى حين ذكر اليعقوبى أن مقدار الخراج كان على كل ١٠٠ أردب أردبان.

أما بالنسبة لمساحة أرض مصر فكانت فى العصر البيزنطى لا تتجاوز ٦ ملايين فدان الا بقليل . وذكر ابن حوقل أن أرض مصر على عهد ابن المدبر ٦٨١م - ٢٤٧هـ كانت ٢ مليون فدان بسبب هروب الفلاحين.

الزراعة:

وفقا لشروط الفتح كان من المفروض أن تتم الجباية على ثلاثة أقساط كما كان الأمر فى العصر البيزنطى، ولكن الواقع اختلف اذا أثبتت البرديات أنها تمت على أقساط عدة وفى

نسلك فى طريق وصاياك. والآن فيارب لا تودبنا بقضيب غضبك ولا تذكر أثامنا أمامك.

وكان ينظر إلى ضيق الناس من عظيم الغلا وكانت الرحمة تقلقه إلى الدعا، فدعا ولده الشماس مرقس ومشاركه فى أفعاله، وأعطاه السلطان أن يفعل رحمة مع كلمن فى المدينه. وكانت مخازن البيعة وحسابها تحت يده أيتمنه الأب أنبا يوحنا عليها عند تجربته لطريقه. وكان

شهور مختلفة وفى البرديات القبطية التى تعود للقرن السابع والثامن الميلاديين الأول والثانى من الهجرة، نجد الايصالات والعقود تستعمل الدورة الضريبية البيزنطية Indiction التى كانت تقوم على تقدير الضريبة كل ١٥ عاماً، فجميع ايصالات السداد القبطية يذكر فيها العام الثانى أو الثالث أو الخامس أو الحادى عشر وهكذا الى جانب استعمالهم الشهور القبطية بل ان عددا من الايصالات الاسلامية نفسها استعمل النموذج نفسه.

وكان البيزنطيون يستعملون السنة الشمسية فيكبسون الربع كل ٤ سنوات وعلى أساسه يحسب فيضان النيل وتوزيع الزراعات، فى حين كان العرب يتبعون السنة الهلالية. ولما رأوا تداخل السنين القمرية فى السنين الشمسية أسقطوا عند رأس كل ٣٢ سنة قمرية سنة وسموا ذلك الازدلاق لأن كل ٣٣ سنة قمرية باثنتين وثلاثين شمسية، ولكن استعمال التقدير الضرائبى أو دورة الـ ١٥ عاماً وفقا للتقدير الشمسى ظل سائدا فى الفترة الأولى.

وكان استيفاء الخراج مرتبطا بالنيل ووفائه، فالدرجة العليا كانت تسعة عشر ذراعا والصغرى اثنى عشر ذراعا كما كان فى العصر البيزنطى، وكان العرب يعتبرون تمام الخراج حينما يصل النيل إلى ستة عشر ذراعا وكانت الأرض تروى فى شهر توت ويرتب من يحفظ الجسور والترع من أهل البلاد. وكان النيل يصل إلى نهايته فى شهر بابه وتبدأ الزيادة عادة

يغيت كل جايع ويدفع لهم طعامهم بكرة وعشيه في كل يوم.

وكان يشاهد على باب البطرك خلقا كتيرا من كل جنس هو يقوم بهم [يعطيهم] من [شون] البيعة لأنها كانت ذلك الزمان مملوه خيرات، حتى ان ريحة طيب أعماله الحسنه فاحت وملت المواضع. وبسيليوس وأوسابيوس الأسقفان هذان اللذان جعلا لها الصدقه اهتماما لا يقطعانها أكتر

خلال شهر أبيب وتستمر إلى مسرى وتوت حتى ان بعض القرى يصعب الوصول اليها بواسطة القوارب وينحسر الماء في شهر هاتور وكياك فتبذر البذور ويزرع القرط والكتان والقمح ويبدأ تقدير الخراج، ففي هاتور يبدأ الحرث وزرع النباتات غير السمسم ويطالب الناس بأول قسط من الخراج ويبلغ حوالى الثمن وفي أمشير يتم الربع وفي برمهات الثمن الثالث. وبعض المحاصيل تزرع متأخرة كقصب السكر الذى يزرع في برمودة ويطالب المزارعون بسداد نصف الخراج وفي بشنس يعاد المسح لأن المزروعات قد اكتمل نضجها، فالتقرير النهائى على الخراج من واقع المحصول ومقدار الفيضان ويدفع الربع ا لثالث من الخراج تضاف اليه مصاريف الصرف والجهبذة (أى مصاريف الجباة) وحق القرط البرسيم الذى يؤخذ لحيوانات الغزاة والكتاب وفقا لكشوف خاصة ويبدو أن هناك ضريبة أصبحت مفروضة على القرط الذى كان معفيا من قبل. وفي بؤونة يؤخذ جزء من متأخرات الجباية . وفي أبيب يستكمل جزء من الخراج ويذكر ابن حوقل أن أرض الفيوم تزرع في آبيب وتحصد في هاتور وكياك، وكذلك يتأخر حصد الكتان الى مسرى وأبيب ويبدو أن الخراج كان يدفع وفقا لوقت نضج المحصول فالمحاصيل كما هو واضح اختلف وقت حصادها وتعدد خلال شهور السنة فجباية الخراج كانت في شهر توت ومسرى وطوبة وبشنس وبرمودة وأبيب كما ثبت من ايصالات القرن السابع والثامنى الميلاديين.

من كل وصيه. هكذا هذا القديس فعل مثلهما حسدا لفضلهما حتى يشاكلهما فى ذلك، ومع فعله هذا لم يخل بشى من الوصايا ويحضر الريسا والأغنيا ويقول لهم : كونو رحومين للضعفا ويحثهم على الصدقات [بكلام] من الكتب المقدسه ويقول لهم: اغتنمو هذا الوقت وهذه النعمة التى هى جليله عند الله. وكان يعظهم بما قاله داود النبى لولده: لا تصرف وجهه عنك. وقول غيره من الانبيا: أن الصدقه تخلص من

سياسة الدولة الاسلامية تجاه الخراج وجبايته:

اهتم الخلفاء بجباية الخراج اهتماما كبيرا، وحرصوا على الحصول على نفس النسب التى كانت تجبى فى العصر البيزنطى وزيادتها. ومن الخطابات المتبادلة بين عمرو وعمر نلاحظ اهتمام الخليفة بخراج مصر ولومه عمرا لأن الفراعنة والمقوقس جبوها أكثر مما جباها عمرو واتهمه بأن عماله الذين وصفهم بعمال السوء هم المسئولون عن هذا، ولكن عمرا كان متفهما لطبيعة مصر واحتياجاتها وأن الاثقال على أهلها سيؤدى إلى خرابها فذكر للخليفة أن الفراعنة جبوها أكثر منه لأنهم كانوا أرغب فى عمارة أرضهم منه، وأن النهر يخرج الدر وحلبها حلبا يقطع درها ولن تفيد منه الدولة الاسلامية خيرا فانه سيضر بالأرض ومزارعيها. وفى خطاب آخر لعمرو الى الخليفة (أهل الأرض انتظرونى الى أن تدرك غلتهم. فنظرت للمسلمين فكان الرفق بهم خيرا من أن نخرج بهم).

ويقال انه أرسل أحد المصريين إلى مكة بناء على طلب الخليفة حيث ذكر الرجل أن محاولة أخذ الخراج قبل تمام الزرع يعنى الأضرار بالمزارع والعجز فى الجباية فيما تلى ذلك من أعوام.

ويبدو أن عمرا اتخذ هذا الموقف بناء على نصيحة المقوقس (كيرس) حيث ذكر له أن خراب الأرض وعمارتها يأتى من خمسة وجوه: أن يستخرج الخراج فى آن واحد عند فراغ

الموت وتصعد من الجحيم ولا تدع انسانا أن يدخل الظلمه. وكان يذكرهم أيضا ما كان بولس يكاتب به طيماتاوس ولده إذ يقول له: أغنيا هذا الزمان أوصيهم أن لا يتكبرو بل يجعلو توكلهم على الله الذى يعطى الغنا لكل أحد لكى يستغنو فى كل شئ ويجعلو لهم أساسا ليتمسكو بحياة الحق.

وكان يوصيهم بهذا وغيره حتى حسدو أفعاله الأغنيا والريسا وصارو يفعلون كما أوصاهم من

أهلها من زرعها، ويدفع خراجها فى آن واحد عند فراغ أهلها من عصر كرومها، ويحفر فى كل سنة خلوجها، وتسد ترعها وجسورها، ولا يقبل محل أهلها.

ولقد عهد العرب الى الأقباط والجباة السابقين بأمور الجباية لمعرفتهم بأحوال بلادهم. وأن هؤلاء الجباة لم يختلفوا فى أساليبهم وطرقهم عما اعتادوه فى العصر البيزنطى من عسف وجور تجاه الأهالى وبخاصة أن الولاة حرصوا على جباية الخراج وتخوفوا من نقصانه حتى لا يتهمهم الخللفاء بالاهمال كما حدث مع عمرو حين جباها عبد الله بن سعد عندما استعمله عثمان ١٤ مليونا فقال لعمرو (يا أبا عبد الله درت اللقحة بأكثر من درها الأول فرد عليه عمرو أضررتم بوليدها (..) وقد حرص الولاة على الخراج فمصيرهم ومصير عمالهم مرتهن بتأديته، وأدى هذا بدوره الى الشدة فى الجباية فسليمان بن عبد الملك أرسل الى متولى خراجه أسامة بن زيد وأمره بأن يحلب الدر حتى ينقطع ويحلب الدم حتى ينصرم [١]. وأراد معاوية أن يزيد على المصريين قيراطا فى خراج أراضيهم ولكن وردان عامل خراجه كتب اليه (أن عهدكم ينص على ألا يزاد عليهم) فعزله معاوية[٢] وزاد من الخراج.

وقد أدت الشدة فى الجباية الى محاولة المصريين هجر أراضيهم، وزاد عدد القرى التى خلت من أصحابها وهذا أدى بالولاة الى محاولة ربط الفلاح بالأرض عن طريق عدم السماح

(١) الكندى: فضائل مصر ص ٤٥. (٢) المقريزى: الخطط جـ١ ص ١٤٥.

مالهم، ولم يتأخر أحد منهم عن الصدقه والافتقاد للأرامل والأيتام والحبوس بالطعام والكسوه، وكذلك الكهنة والفقرا. وكان جماعة من الريسا في ذلك الزمان ينزل عليهم الفقرا وكان يساعدونهم أيضا، وكان يأوى الغربا حتى رحم الرب شعبه ورفع عنهم الغلا بصلاة الأب القديس أنبا يوحنا.

ثم تنيح بطرك انطاكيه أنبا جرجه واوسم عوضه

له بترك قريته الا بتصريح وهذا يعود غالبا الى ولاية عبد العزيز بن مروان فى خلافة عبد الملك، وان كانت أغلب البرديات التى وصلتنا وخاصة فيما يتعلق بتصريحات الاقامة واعادة المزارعين تعود لعهد قرة بن شريك. وفى عهد الوليد بن عبد الملك قام أخوه عبد الله والى مصر بزيادة الخراج فكان من يدفع دينارا يلزمه بدفع دينار وثلثين رغم انخفاض النيل سنة ٨٧هـ [١]. وفى امرة الحر بن يوسف أرسل عامل الخراج عبيد الله بن الحبحاب الى هشام بن عبد الملك أن أرض مصر تحتمل الزيادة فزاد على كل دينار قيراطا وثارت عليه كورة بتمى وقرنيط وطرابيا والحوف الشرقى فبعث اليهم بجنود فأخضعوا ثورتهم عام ٨٧هـ فى نفس الوقت الذى ثار فيه أهل الصعيد وقامت ثورة ثالثة فى عهد هشام ابن عبد الملك فى عام ١٢٠ هـ فأرسل حنظلة بن صفوان أمير مصر الجند فأخمدوها أيضا[٢] وتكررت، ثوراتهم فى عهد الأمويين فثاروا سنة ١٢٢ هـ فى عهد الملك بن مروان فأرسل اليهم موسى ابن نصير حيث أخمد ثورة قام بها يحنس القبطى فى سمنود. وتجددت الثورة فى رشيد فى عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية وتمكنوا من أخضاعها هى الأخرى. فالدافع الى تلك الثورات هو تعسف الولاة فى جمع الاموال الزائدة وقد كشفت هذه الاحداث عن أن العلاقة بين

(١) المقريزى: اغاثة الأمة بكشف الغمة ص ١١.
(٢) المقريزى: الخطط ص ١٤٥ ـ ١٤٦.

انسان قديس اسمه كيرياكوس بتدبير من الله واجتماع كلمة المطارنه والاساقفه وجميع شعب الشام والمشرق، وكان مملو من نعمة الروح القدس. فلما اتصلت به أعمال الأب القديس أنبا يوحنا أحضر مطارنته وأساقفته وقال هلم ما يجب أن نتأخر عن مكاتبة الأب أنبا يوحنا صاحب الكرسى الإنجيلى بمدينة اسكندريه العظمى التى هى لنا ميراث من أبانا من زمان الأب ساويرس وتاودوسيوس المجاهدين على الأمانه الارتدكسيه.

معظم الحكام المسلمين والبلدان التى تم احتلالها لم تكن إلا حلبها حتى تدر الدم والبطش بكل من يحاول الاعتراض على ذلك.

وقد استغل بعض الولاة عدم وجود تقدير ثابت للجزية كما هو واضح من قول عمرو فى البرديات لتحميل البعض فوق ما يحتملونه. ولقد استبدل العرب بالأقباط جباة مسلمين فى عام ٨٧هـ فى عهد عبد الملك لزيادة طرق الجباية السابقة ووسائلها.

الضرائب التى على الأرض الزراعية:

فرض على الأرض غداة الغزو عدد من الضرائب كان أهمها ضريبة الخراج حيث فرض دينار على كل جريب وثلاثة أرادب طعاماً. ويقال ان أهل مصر صولحوا بعد المعاهدة فى مكان الحنطة والزيت والعسل والخل على دينارين آخرين، ولكن الحقيقة أن الضرائب التى فرضت على الأرض كانت ضرائب نقدية وعينية وفرضت على الأرض الزراعية وفقا لمحصولها ضريبة مالية الى جانب ضريبة تعرف بضريبة الطعام على القمح وعدد من المحاصيل الأخرى خصصت للقوات الغازية، وبعض المؤرخين يعدها جزءا من ضريبة الخراج اعتمادا على أن المعاهدات ذكرت دينارا على الفدان وثلاثة أرادب قمحا ولكن نستطيع القول وفقا للبرديات ان كلا من الضريبتين أصبحت تجبى منفصلة عن الأخرى، فالخراج كان يجبى نقدا ويمكن أن يتغاضى عن النقد فى بعض الأحيان بالنصيب العينى ولكن ضريبة الطعام كانت تجبى دائما عينا.

وقد كنت بدأت بذكر الأب أنبا جرجه المتنيح أذ كان في السنين الماضيه التى اعتقل فيها لم تصل سنوديقا من ناحيته إلى مصر إلى الأب مينا لأجل اضطهاده واعتقاله. ولأن أنبا مينا لم يكتب أيضا لاشتغاله فيما جرى عليه من الشماس المحروم بطرس الجاحد الغير مستحق الاسم، إلى حين خروجه هو والأساقفه من الحبس ومكاتبتهم التى ذكرناها آنفا، فقال الأب أنبا كيرياكوس: أن نحن لم نكتب كان علينا اثم وخطيه لأجل الاتفاق

ضريبة الخراج:

كان الخراج يتوقف على حالة الفيضان وعلى نوع الأرض وقد اعتاد العرب القيام بمسح شامل للأرض لتقدير الخراج، ومسحها عبد الله بن الحبحاب الهشام بن عبد الملك، والوليد بن رفاعة في عهد عبد الملك ويبدو أن كل أقليم كان له مساحوه. ورغم أن اغلب الوثائق التى وصلتنا عن كيفية مسح الأرض وتقدير الخراج تعود للقرن الثالث الهجرى فانها تدل على ما كان معروفا من قبل، ففي بردية تعود إلى ٨١٣م / ٢٦٢هـ عن مسح الاقليم ورد فيها نوع المحصول ومساحته فذكر السلجم والكروم وحددت الأرض البور ومقدارها، والأرض غير المخصصة للزراعة(١).

وفي تقرير آخر للمساحين عن أرض أسفل أشمون تزرع خضرا وكروما أوردوا المساحة وماهو مؤجر منها، وفي تقرير مساحة من كورة طحا والتقرير مرفوع لموظف خراج ذكر فيه اسم صاحب الأرض ومساحة الأرض والمحصول. وكانت تقارير المساحة عادة تضمن ذكر اسم القرية وما يزرع والأرض البور وكانت الأرض البور تضاف إلى أملاك بعض المزارعين أو القرية

---

(١) جروهمان: جـ٦ ص ٣٧٩.

الذى بيننا والاتحاد. وكانو زمان ابابنا السالفين متفقين على الامانه الحق والمحبه، ويذكرون اسما آبابنا على هياكل كورة مصر جميعها، فلا نقطع ما بيننا وبينهم من المحبه المسيحيه والاتفاق الروحاني، فكتب أبونا أنبا كيرياكوس بطرك انطاكيه إلى انبا يوحنا بطرك اسكندريه سنوديقا مملو من نعمة روح القدس وانفذها على يد مطران دمشق انسطاسيوس ومعه أسقفان من كرسيه، ويذكر فيها ما بين الكرسين، انطاكيه واسكندريه،

القرية لاستصلاحها وتعفى من الضرائب إلى أن تستصلح فتفرض عليها الضرائب، وفى احدى الاحصائيات ذكر للترع والقنوات الموجودة في الأرض، وهناك موظف يدعى الدليل كان يقوم بكتابة سجلات أملاك الأراضى وتقدير قيمتها لتحديد مقدار الضريبة المفروضة عليها وارسال الأوامر الرسمية للحضور مع وصف تفصيلى للأنواع المختلفة للأراضى الصالحة للزراعة ومهورة بامضائه لاثبات صحة ما ورد فيها [١]. ولقد اختلفت الضريبة وفقا لنوع المحصول فكان يؤخذ في الفترة الأولى على فدان القمح نصف أردب وويبتين شعيرا ولكنها أصبحت تدفع نقدا فكان يجبى على القمح دينار والشعير من نصف دينار إلى دينار والنخيل تؤخذ عليه ضريبة مقدارها قيراط وسدس قيراط = $\frac{١}{٤}$ + $\frac{١}{٤٤}$ دينار وعلى الفجل دينار والسلجم من دينار الى دينارين [٢] أما القرط [البرسيم] وهو مستخدم فى غذاء الماشية فلم تكن عليه ضريبة ولكن فرضت عليه بعد ذلك ضريبة دينار. وفى عدد من البرديات نجد اشارة الى ضرائب على الأرز ثمن قيراط وعلى القرط ٧ والجزر ثلث + $\frac{١}{١٢}$ ويبدو أن الضريبة لم تكن ثابتة فى كل الأقاليم.

(١) جروهمان: جـ ٤ ص ١٩٦.
(٢) جروهمان: جـ٤ ص ٢٣١.

من الاتحاد الارتدكسي وكيف جلس على كرسى اغناطيوس اللابس الاهوت. فلما وصلت الى انبا يوحنا ووقف عليها فرح فرحا عظيما ومجد السيد يسوع المسيح الذى يهتم ببيعته وشعبه فى كل زمان الذى اشتراهم بدمه الكريم، فأمر أبونا أنبا يوحنا بقرا[ء]ة الكتب على الشعب، فتعجبو عند سماعهم ما فيها من الألفاظ لبعد عهدهم بوصول سنوديقا وشكرو الله على ذلك، فلما شاهدو الرسل انسطايوس والأسقفان بيعة اسكندريه عجبو

وكانت هناك مشكلة الكروم والنبيذ، فالنبيذ كان المشروب المفضل لدى المصريين وزرعت مساحات كبيرة من الأرض بالكروم وكان المصريون يتولون عصرها بعد جنيها، وفى إحدى البرديات القبطية التى تعود للقرن الثامن «تطلب جرتان من النبيذ من أجل الجنود» وهذا يثير تساؤلا: هل كان العرب يتسلمون ضرائب من النبيذ؟ ونفس الأمر بالنسبة للخنازير ويقال أن أبا عبيدة سأل عمر (أن عمالك يأخذون الخمر فى الخراج، فقال لا تأخذوا منهم ، ولكن ولوهم بيعها وخذوا أنتم الثمن. فأصبح المصريون يبيعونها ويدفعون خراجها مالا وعليها عشر أثمانها [1].

وكذلك لا نعرف بالضبط هل كانت تؤخذ على الماشية ضرائب فى الفترة الأولى، فالوليد بن الرفاعة أحصى الحيوانات أثناء قيامه بمسح أرض مصر وفى كشوف القرن الثالث ذكر لكل كورة وعدد المواشي وأسماه أصحابها وأوصافها من أجل ضريبة المراعي.

وفى احدى البرديات القبطية اشارة إلى جمع خشب نخيل acacia ونصيب مفروض على كل قرية «ففى رسالة لموظف كبير أنه حمل خشب نخيل فى ٢ هاتور لصالح الشحنة الكبرى وقائمة بالقرى التى جمعت منها. ولقد ذكر المقريزى أشجار سنط فى بعض مناطق النيل بها حراس يحمونها حتى يصنع منها مراكب الأسطول فلا يقطع منها الا ما تدعو الحاجة إليه.

(١) أبو عبيد القاسم: الاموال ص ٦٢.

من نقوشها وزينتها وطقس البطرك والأساقفة
والكهنه والسبع طغمات البيعيه ووقار جميعهم
والسكينه التى عليهم وخوفهم من الله، فبهتو
ومجدو الله على عظم النعمة عليهم من نعمة
مارى مرقس الانجيلى المقدسه . فلما شاهدو ذلك
قالوا ما قاله داود فى المزمور(*): كما سمعنا كذلك
ر أينا . وفرحوا فرحا عظيما روحانيا كما كتب فى
الأبركسيس(*): ان الكلام يصل الى مسامع البيعه

(*) المزمور ٧٨ / ٣ .

(*) رؤيا يوحنا اللاهوتى .

الصفحتان الأولى والثانية من مخطوط لرؤيا يوحنا اللاهوتى يعود إلى ٢٥ طوبة سنة ١٤٥٧ قبطية.

بيروشليم من أجلهم. فانفذو برنابا إلى انطاكيه . فلما وصل وراى نعمة الله فرح.

وأقامو عند الأب القديس يوحنا أياما قليلا وودعهم بمجد وكرامه بعد أن كتب لهم جواب كتبهم، فمضو إلى كورتهم ممجدين الله على ما عاينو.

اردت يا أبابي القديسين ان اتمم الخطاب بافعال أبينا المبارك انبا يوحنا، غير ان لساني الناقص لا

ضريبة الطعام:

ويعود انشاؤها للضرائب العينية التى قررت على الحنطة والزيت حيث قرر مدان من الحنطة وثلاثة أقساط من الزيت فى كل شهر، لكل انسان من أهل الشام والجزيرة. وأما عرب مصر وجنودهم فأردب كل شهر لكل انسان وذكر مؤرخون آخرون وثلاثة أرادب قمحاً. وذكر اليعقوبى أردبين عن كل مائة أردب وتحولت تلك الجبايات إلى ما يعرف بضريبة الطعام وهى ضريبة عينية أهم ما يجبى فيها القمح وهى تشبه الأنونة الأهلية، وهى الشحنة السعيدة التى تحمل الى القسطنطينية وكان أول ارسالها الى مكة في عهد عمر فى عام الرمادة ٢١ هـ حيث حدث لديه قحط شديد فأرسل إلى عمرو ليبعث اليه بطعام فأرسل اليه عمرو ما أراد. ويقال أنه دفع الى كل بيت بالمدينة بعيرا عليه طعام مما يوضح مدى ما نهب من مصر.

ولقد أمر عمر بحفر خليج فى النيل الى القلزم الذى عرف بخليج أمير المؤمنين لتسهيل نقل الطعام الى المدينة ومكة وظل يحمل فيه الطعام بعد عهد عمر بن عبد العزيز الى أن قضى عليه اهمال الولاة فحمل الطعام والمال وكسوة الكعبة على القوافل والبحر الاحمر حتى عهد قريب.

وكان يحمل معه كذلك الزيت وانقطع فى الفتنة الأولى ثم عاد فى أيام معاوية ويزيد، ثم انقطع الى زمن عبد الملك بن مروان ثم لم يزل يحمل الى خلافة أبى جعفر المنصور،

يستطيع ان يقول يسيرا من أفعاله، لكن عندى ذكرى للناس القديسين الذين كانو فى زمانه يجب ان أذكر لابوتكم حسن الأفعال ونبوتهم لتسر قلوبكم كما هو مكتوب إذا ذكر الصديق فرحت الشعوب.

كان فى ذلك الزمان شيخ قديس فى البرلس اسمه جرجس وكان حسن الأفعال وينظر من البعد بروح القدس اسرارا عظيمه قبل ان يكون الشى

والبرديات تشير إلى أنه كانت تجبى إلى جانب القمح محصولات أخرى. وفى بردية تعود لآخر القرن السابع من حساب ثيودورا من القسم الأول ٣٢ أردبا وفى القسم الثانى ١٢٠ أردبا وفى القسم الثالث ٥ أرادب من التبن و ٩ مقاييس (قدح) و١٤ مقياسا من السمسم و ١٥ مقياسا من الشعير. وفى الكرنك من القرن الثامن الميلادى بردية تذكر مدفوعات من الشعير والفول تتراوح بين أردب وأربعة.

وفى خطاب آخر يأمر الوالى كاتبه أن يتجه إلى شنشور (فى المنوفية) ويخرج الأقباط (أى يجمع منهم الخراج) ويرسل إليه مائة أردب قمحا. وفى أمر لقرة بن شريك إلى أهالى كوم أشقوه أنهم أصابهم من ضريبة الطعام أحد عشر أردبا قمحا وثلاث وثلث فى صفر احدى وتسعين. وفى خطاب مرسل الى أبو الياس القس لاقناع شخص يدعى اندرياس الراعى بأن يدفع الضريبة التى عليه وهى ١٨ كيلة قمحا ويذكر أن عليه أن يدفع ضريبته قمحا، وأنه لن يقبل أى شئ خلافه، وكان القمح ينقل بالسفن الى الأهراء فى الفسطاط لنقله بالسفن إلى مقر الخلافة.

وفى بردية أخرى ترجع للقرن الثالث نقل ٣٣٠ أردبا الى الفسطاط مع ايراد ١٠ أرادب للنفقات . وورد فى حسابات أوسية فى القرن الثانى الهجرى (والى حسن النوتى مائة وسعيد

ليعلم به لجودة أعماله. وكان قد تنيح انبا جرجه أسقف مصر في ذلك الزمان وكان رجلا قديسا رحوما محبا للصدقه، وأقام عندهم زمانا عظيما يرعاهم بطهر وصدق فحزن عليه الشعب المومن واجتمعو وتشاور وكاتبو للأب انبا يوحنا وسألوه أن يجعل ولده مرقس الشماس اسقفا عليهم بمصر عوضا من جرجه المتنيح، فلما وقف على الكتب اراد بلوغهم غرضهم لمراعاته قلوبهم، وأمر ان يقدم

بن... الفسطاط المائة بدينار) أى أنه كان يتقاضى على نقل ١٠٠ أردب قمحا دينارا . وكان صاحب الاقطاع يتحمل النفقات وفي نفس البردية يذكر أنه دفع مالا إلى ابراهيم النوتى لحمل ١٥٠ أردبا وتوصيلها الى الفسطاط . وقد نقلت غلات أخرى بخلاف القمح والعدس والقرط وأصناف أخرى من الغلال و وفي ايصال يعود لعام ٨٧هـ ١٣ ـ ١٤ أكتوبر ٧٠٦ وهو ايصال من لغتين صادر من موظفين باهراء باب ليون لدفع الضريبة (من أهل مدينة ...وكتبوا عبد الله بن جرير في ذى القعدة سنة سبع وثمانين ... ومبلغها ستمائة وسبعة عشر وثلث وأردب قمحا[1].

وكانت الأهراء لقمح مصر السفلى، يخزن بها القمح الذى ينقل الى بلاد العرب والقمح الذى تؤخذ منه المؤن العينية للجند العرب وأسرهم في مصر.

وفي نهاية القرن السابع وأوائل الثامن ذكر لشخص يدعى أبو مزيل باعتباره محتسب الأهراء فاضطلع بأعباء جمع الأهراء في الفسطاط. وذكر في بردية أخرى أثنان من المشرفين وأهل كوم أشقوة سلموا ألف أردب قمحا ضريبة للطعام الى اهراء بابليون وسألوا مشرف الاهراء أن يعطيهم ايصالا يفيد تسلمه القمح. وفي احدى البرديات القبطية يذكر أن البحارة

(١) جروهمان : جـ ٤ ص ٢٨٦.

لهم مرقس الشماس. وخاطبه فلم يفعل وطرح فى رجليه قيودا حديدا. واقسمه قسا ليتمه اسقفا وهذا بغير اختياره، وكان باكيا حزينا ويقول: انت يارب تعلم اننى لا اصلح لهذا الأمر فاسلك يا سيدى ان تخلصنى من هذا الذى لا أقدر عليه، فسمع الرب محب البشر الذى يصطفى من يختاره لنعمته قبل ولاده، فقال لذلك المومن: قم اخرج من هذا الموضع الذى انت فيه. فقام فى تلك الساعه فوقع

تسلموا أجرهم نبيذا. وكان على أهل القرى واجبات تتعلق بالخدمة فى الأسطول كما ورد فى احدى البرديات القبطية.

والى جانب الضريبتين . الرئيسيتين على المزارعين كان هناك عدد من الضرائب الأخرى كضريبة الجسور، وفى احدى برديات القرن الثالث ذكر أنها ربع دينار، وفى وثيقة أخرى اشارة إلى ضريبة تخص البحرية فرضت على القرى مقدارها نصف صولد. ثم نفقات الجباية وكانت حوالى ربع دينار كما جاء فى وثيقة حساب يرجع تاريخها الى القرن الثانى الهجرى ومما فرض على المصريين ضيافات العرب ويرد فى احدى البرديات ذكر ضريبة النزل.

نظام الجباية:

كان التقسيم الادارى فى مصر على قمته الوالى وكانت له سلطات ادارية واسعة بوصفه نائبا عن الخليفة، وكان يجمع فى بعض الأحيان بين السلطة الادارية والمالية المتمثلة فى ولاية الخراج وان كان الخليفة فى أحيان أخرى يعين عاملا مستقلا مسئولا مسئولية مباشرة أمامه عن الخراج وكان معنى انفصال الخراج عن الولاية أن تصبح يد الوالى مغلولة، فعمرو احتج على هذا وترك الولاية حين ولى عثمان عبد الله بن أبى سعد الخراج أثناء ولايته لمصر.

وقسمت مصر الى قسمين: مصر العليا ومصر السفلى، وان كان يوحنا النقيوسى ذكر أنها

الحديد من رجليه وانفتح له الباب وخرج ولم يستيقظ له أحد ممن كان يحفظه، فلما أصبح طلبه فلم يجد، فامر بالبحث عنه فما قدر عليه فصعب عليه، ثم انه قدّم ولدا له اسمه قسما واوسمه للمصريين فاقام أياما ومات.

وكان انسان يسمى ميخايل حسن الفعال اقسمه لهم اسقفا. وكان البطرك قد وجد على

قسمت غداة الغزو الى ثلاثة أقسام هى مصر السفلى والريف واركاديا، وقسمت بدورها الى كور وهى تعادل الباجاركية القديمة فكان يرأسها وفقا للبرديات باجارك وقمص، وذكر أحيانا بلفظ دوق، وقسمت تلك بدورها الى قرى يرأسها المازوت، وكان عمله ذا اختصاصات مالية وادارية.

وكان لديوان الخراج العام ادارات فى الباجاركية يتولاها موظف يطلق عليه الجسطال ويرد فى بعض البرديات لفظ تولاريوس وهو كاتب السجل. وظلت الوظيفة قائمة فى العصر الاسلامى الأول، والبرديات القبطية التى تعود الى القرن السابع والثامن احتفظت بأسماء وظائف بيزنطية كرؤساء القرى الذين عهد لهم بالاشراف على الجباية، لكن بعد فترة حلت محلها أسماء اسلامية فجابى الضرائب العينية حمل لقب القبال.

وكان يتبع ديوان الخراج بحارة السفن المصريين الذين كانوا يجبرون على العمل فى الاسطول كجنود ومجدفين تحت ظروف بالغة السوء بعيدا عن أهلهم وبلدانهم لفترات طويلة قد تستغرق حياتهم كلها، ويبدو أن المزارعين كانوا يدفعون نفقاتهم. وكذلك ظهرت وظيفة محتسب الأهراء أو المشرف على مخازن القمح. أما الضريبة النقدية فان الجباة كانوا يسلمونها لمسئولى القرى وهؤلاء بدورهم يسلمونها لفروع ديوان الخراج بالكورة التابعة لهم، وكانت

الشماس مرقس لهروبه ومخالفته لأمره، فكتب كتابا إلى الأب القديس جرجه في البرلس الذى ذكرناه انفا يعلمه انه واجد [حزين] على ولده مرقس لمخالفته أياه وهروبه منه وانه وكس [خاب] جاهه عند المصريين . فاجابه جرجه القديس النبى وقال له: لا تواخذ ابوتك ولدك لاجل مخالفته لك فانت اردت ان تقاوم امر الله بل الله قد حفظه لياخذ كرسيك ورياستك بعدك . فلما سمع الاب

الأعمال تجرى في ديوان الخراج باليونانية والقبطية الى أن عربت سنة ٨٧هـ فى عهد عبدالملك ابن مروان فكتبت بالحروف النبطية، وكما ذكر ابن عبد الحكم (يجتمع عرفاء القرية ومازوتها ورؤساء أهلها فيتناظرون فى العمارة والخراب حتى اذا أقروا فى القسم بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة الى الكور ثم يذهبون الى رؤساء الكورة ويوزعون الأنصبة على احتمال كل قرية وسعة المزارع ومساحة الأرض الشاغرة فيبذرون، وأما بعد الحصاد فانهم يأخذون نصيبا لكتابهم ولعمال الجباية) . فالواضح أن التقدير الاجمالى يأتى من ديوان الخراج الى الكور التى تحدد نصيب كل قرية ، أما التخصيص فانه يرجع لمجالس القرى حيث يبدأ توزيع الخراج وفقا للمساحة والمحصول. ويذكر ابن عبد الحكم أن من يعجز عن زراعة الأرض يتولى الاخرون عنه ومن أراد الاستزادة أخذ ويبدو أن القرية تحملت مسئولية الخراج ككل فمن ترك الأرض تكفل الباقون بزراعتها، ويؤكد هذا بردية تعود الى القرن الثامن الميلادى ٧٢٢م ١١٤هـ فالقرية كونت ما يشبه المجلس البلدى تولى دفع الأعباء والضرائب، و هذا الاتفاق وقعه سبعة عشر من أعيان القرية، ونص على أن من يرفض القيام بأعبائه عليه أن يدفع مقابلا ماليا.

وكان على المواطنين المقيمين فى الكورة اذا رغبوا فى الرحيل الى مكان آخر أن يحصلوا على تصريح من المدن المسجلين بها ليعرف الموظفون أماكنهم، وكان هناك عمال بريد فى

البطرك هذه النبوه تعجب لنه [لأنه] كان يصدق بكلما يقول له الشيخ القديس السايح.

فلما علم بهذا مرقس عاد إلى البطرك وسجد له واستغفر منه فلم يجد عليه بعد. وكان عنده من ذلك اليوم جليل القدر ولم يرجع يفارقه فى كل موضع كان يمضى إليه.

ثم توجه البطرك إلى الفسطاط مصر لاجل الخراج الذى كان على الاواسى البيعيه وهذه اخر

الكورة لابلاغ الوالى عن أعمال الباجاركات كما ورد فى احدى برديات كوم أشقوة وهى رسالة من قرة بن شريك الى باجارك أنصنا. والايصالات الصادرة الى الأهالى فى القرن الأول الهجرى كان أغلبها بالقبطية والدفع على أساس الدوة الضريبية البيزنطية، وكان يستعمل فيها الصولد وهو يعادل الدينار، والقيراط والنوميزما وتيرميزما، ففى ايصال من القرن السابع دفع ٢ نوميزما (تعادل الصولد) وهى ضرائب عن القسم الثانى من العام الثانى بتاريخ ١٤ بابه لمساعد رئيس القرية، وحصل على ايصال بناء على طلبه. ودفع شخص اسمه أبيون بن كركينا صولدا كضرائب للقسم العاشر. حتى عقود البيع والايجار كانت تذكر فيها الدورة الضريبية البيزنطية، فبيعت جمال مقابل صولد و ١٤ قيراطا فى أمشير من السنة التاسعة.

وفى خطاب آخر دفعت ضريبة القسم السابع ١٤٫٥ قيراطا ونصفا من الذهب المينا لحساب ضريبة. وفى خطاب كان فيه الجابى رجلا عربيا يدعى يزيد بن عبد الرحمن أرسل الى شخص يدعى سيفريوس ليبلغه بما عليه من الضرائب للسنة العاشرة ويعود الخطاب بتاريخه الى القرن الثامن. وايصال آخر ليزيد ابن عبد الرحمن شبيه بالسابق الى سيفريوس وجولد سميث يعين الأشخاص الذين عليهم الضرائب وكذلك دفع أبو سيفريوس نصف صولد فى القسم السابع باسم الخدمة البحرية ومن مجموع تلك الايصالات يتضح أن العرب استعملوا

دفعه مضى إليها، فعمل مبغض الخير الشيطان ان يثير عليه ملأ [الناس] وقال : هذا الشيخ [إلى متى] يقاومنى وينى البيع والتذكارات ، انا أيضا اجعل اجرته ان تكون نكده. كان فى ذلك الزمان وال باغض المسيح رمى الشيطان فى قلبه ان يهدم بعض بيع مصر لكن الرب محب البشر انتقم منه سريعا ومات موته سو سرعه وولى مكانه بعده انسان محب للنصارى، فتقدم لهم بتنظيف بيعهم

الصولد فى معاملاتهم فلقد ظلت النقود البيزنطية مستعملة مع اضافات عربية عليها الى عهد عبد الملك بن مروان والملاحظ أن غالبية ايصالات تلك الفترة كانت باللغة القبطية.

أما بالنسبة لنظام الجباية فقد احتفظ العرب بالجباة السابقين ويذكر يوحنا النقيوسى أن بعض الموظفين البيزنطيين الملكانيين بقوا عند الفتح واعتنقوا الاسلام فولاهم العرب اداراتهم السابقة، فابقوا على شخص اسمه ميناس وولوه حكم مصر السفلى، وشنودة تولى الريف، وفيليوخوليوس حكم اركاديا والفيوم، وكان هؤلاء أشد الموظفين سوءا وقسوة تجاه المصريين، ومع ذلك فان الجباة المحليين لم يكونوا بالأفضل حالا وظل الجباة الأقباط الى عام ٨٧هـ. وطريقة الجباية تختلف كثيرا عما كان مألوفا فى العصر البيزنطى. ففى رسالة من حاكم الكورة ويدعى الباجارك الى عدد من رؤساء القرى يتضح أسلوب وطريقة الجبابة آنذاك (من فلاديوس اسبيوس بمشيئة الله الباجارك بواسطة زكريا ابنه الى عدد من رؤساء القرى المذكورة فى القائمة التى أعطيتها لأخى أبو يوسف، فوالدى كما تعلمون اهتم بأمر المحصول والضريبة العينية وأثمان البيع ومحصول البذور وعليكم بجمعها وارسالها الى، وأنا جعلته مسئولا عن قراكم وعليكم اختيار كتاب أو مسجلين وجعلهم مسئولين عن نصيب كل قرية، وهم مسئولون كذلك عن عدم ترك أى كيلة أو أى مقدار من المحصول لأى رجل قبل أن يدفع

التى كـان الاول قـد شـرع فى هدمـهـا، لكنـه لم يامرهم بان ينوها.

وكان البطرك بمصر قد قضى جميع حوايجه وعـول على العـوده الى اسكندريه، وكـان عـيـد الســيـد(*) [فى] تمنيه وعشرين يوما من كيهاك فطلب إليـه الأسـاقـفـه والشـعب ان يقـدس لهم ويقربهم قبل مفارقته لهم. وكانت هذه النبوه منهم ان ياخذو السراير المقدسه من يده قبل خروجه من

(*) تحتفل به الكنيسة المصرية فى التاسع والعشرين من كيهك وهو عيد الميلاد المجيد.

ضريبة المحصول وبذور المحصول والضرائب المالية والضرائب العامة ومن يتأخر سيعطى الفرصة ضده. وسأجعله مسئولا عن أى مزارع فى القرية يبـع محصوله أو أى سلة من التبن الا بموافقة كتابية منى أو من والدى، وعليكم ارسال المخالف لكى يعرف نتيجة عدم طاعته وفى النهاية يطلب ٢ من الكتبة ليساعداه فى جمع محصول قريتين.

وكما هو واضح من الخطاب فان الباجارك أو حاكم الإقليم كان يعين رؤساء القرى الذين يعينون بدورهم كتابا وجباة لجمع المحاصيل والضرائب، وهؤلاء تقع عليهم مسئولية الضرائب كاملة. وكان فشل رؤساء القرى فى الجبايات يعرضهم للعقاب، فمن رسالة من شخص يدعى بارشا الى الأمير فى بابليون يذكر أنه قبض على الرجال وأرسلهم تحت الحراسة الى بابليون مكبلين بالأغلال. وغالبا، كان هؤلاء الأفراد من الجباة لا من الأهالى . وخطاب من محمد ربما كان مسئول الخراج الى فيكتور ذكر فيه أن رؤساء أحدى القرى لم يفوا بالتزاماتهم المالية وخاصة الضرائب النقدية ويطلب تعيين رؤساء أخر يتحملون المسئولية وأن عليه مراقبتهم ومطالبتهم بالضرائب.

ولقد أصبحت الزراعة عبئا حاول التخلص منه أهالى البلاد، ففى بردية عبارة عن رسالة مرسلة الى أحدى الموظفين بواسطة قس طلب الشخص رفع عبء الحقول التى عليه وتسليمها لأخرين يتحملون عنه أعباء الضرائب، ويتعهد الشخص المرسل اليه الخطاب بمعاونته فى

هذا العالم، فلما دخل البيعه نظرها بغير سقف فتنهد فقال: ياربى والاهى يسوع المسيح انت قلت لبطرس ريس التلاميذ اننى ابنى بيعتى على الصخره ولا تقهرها ابواب الجحيم، وان كان قد ظلمها بعض الملوك المنافقين يسيرا بكلمتك يارب لا تبطل إلى الأبد، وقد طرحت الملوك الطاغيه مثل ديقلاديانوس ويوليانوس من يشبههما واما البيعه فهى ترتفع فى كل زمان، وقضى الايمان يا سيد انا

السداد ان عجز عن ذلك. وكان الجباة حريصين على ألا يفلت أحد من الجباية لأن العبء كان يقع عليهم، فقد توفى شخص اسمه ميناس وترك نساء ووريثات له فكتب مسئول الخراج يطلب تقييدهن فى السجلات لفرض الضرائب عليهن ويأمر بأن يكون متيقظا لأمور الجباية فانه لن يتغاضى عن أى نقص فى السجلات وينذر بمعاقبته، ويبلغه أنه لن يضع عصابة على عينيه فلا يتهاون فيما يجب أن يدفع، ويذكر أن على الجباة ألا يحددوا للشخص ما يدفعه قبل أن تأتى الكشوف من ديوان الكورة، فالشدة كانت الطابع المميز فى الجباية حتى على الجباة أنفسهم، فباجارك يرسل الى أحد مرؤوسيه (أنه أرسل سيرينوس لاكمال الجزية وعينه كمشرف عليه وأن هذا لصالحه ويطلب منه تسليم جباياته ويهدد بأنه سيحقه. وفى رسالة من جابى الى الجهبذ يذكر له أنه نفذ تعليماته كاملة ولم يترك أى ناحية بلا تقدير ولم يضف لتعليمات الوالى أى زيادة أو نقصان.

وصيغة التهديد نفسها تتردد فى رسائل لقرة بن شريك والى مصر الى الباجارك باسيل فى كوم أشقوة ٧١٠م / ٩٠هـ يتهمه بالتقصير لتأخيره الخراج ويتوعده هو وعماله، ومع ذلك استمر باسيل فى التأخير، فعاد قرة يكرر له بأن الوقت حان لاعطيات الجند وأبنائهم ويطلب سرعة جمع المال (فان أهل الأرض قد حملوا منذ أشهر ثم عجل الى ما اكتمل عندك من

اطلب اليك وارغب ان تجـددها بالنعـمـه وتضع كلمن يقاومها من الملوك المنافقين وتريهم ضعفهم سريعا وتبطل موامراتهم وتنعم على بسلطان طالب الحق يامر بعمارة البيع واعادتها إلى ما كانت عليه من الزينه والفخر باشراق نورك فيها . وفيما هو يصلى بهـذا ومثله سمع صوتا يقول مثل داود المغبوط : أما انت فاخدك الى أريحك من تعب هذا الزمـان والذى يجى بعـدك هو الذى يبنى البـيـع

المال أولا بـأول)[١] ثم يعود لتذكرته بأمر الخراج (ولعمرى حان الأجل منذ أكثر من شهرين وقد كتبت اليك قبل كتبى هذا آمرك أن تجعل الينا بما قد جمعت من جزية كورتك وأردت أن أرفق بهم وأتجاوز عنهم بما قد قبضت منهم على النحو الذى كانوا يؤدون فى بيت المال كل سنة) فهو يطلب العدالة فى الجباية ويطلب دخل الدولة بلا تأخير وهما أمران من الصعب تحقيقهما معا مع هروب الفلاحين وترك الأرض بورا.

وأمام هذا الضغط من الولاة كان على الجباة أن يفوا بالتزاماتهم كاملة خوفا من تعرضهم للعقاب فتعسفوا مع الأهالى، وفى بردية عربية وهى أمر من أحد الجباة الى شخص تأخر فى دفع ضرائبه فى مدينة انصنا (استحضر لنا من مدينة أنصنا بقطر الطحان ومر العمال بأحضارة واستحضر الينا أسرته أجمعين واستحضر أباه وابنه واستعجل احضاره ان شاء الله) وهكذا كان احتجاز اسر المصريين حتى يتموا سداد ما قرر عليهم من الأموال، وكانت الاسرة خلال فترة الاحتجار (التى كانت تمتد أحياناً حتى تتم دورة المحصول الجديد ويكون وافياً دون أن يأتى فيضان النيل منخفضاً الخ..) تكلف بأعمال السخرة والخدمة عند الغزاة الفاتحين العرب. وفى كتاب آخر «لأبى على حسن ابقاه الله عافانا الله واياك لا تضع كتابى فى يدك حتى

(١) جروهمان : جـ٣ ص ١٤٩.

ويجـددها . فلمـا سـمع هذا بدا بالقـداس، فلمـا اكـمل الخـدمـه ناول الشـعـب من السـراير المقـدسـه واعطاهم السـلام وعـادو الاسـاقفـه الى كـراسيهم، فـحـينذ توعك ابونا انبـا يوحنا ولحـقـه ضـربان فى راسـه، وكـانو الابا الاسـاقـفـه يريدون بلوغـه مـراده وطيبـة قلبـه ويقـولون له: يا ابانا لا يضـيق صـدرك بسبب خـراب البيعه، الرب يقيم لها من يعمـرها اجود ما كانت بصلواتك وقدسك، وهو لا يصغى

تركب الى شنشور (فى المنوفية) وتخرج الأقباط حتى تنفق الى مائة أردب قمحا وابعث به ساعة يأتيك كتابى» وأمر آخر من ضابط الى مرزوسيه في رمجوس (فى الأشمونين) يطلب التنكيل بشخص لم يدفع ما عليه من أعباء. وفى خطاب من قرة بن شريك الى با سيل ذكر أن الوليد بن العباد صاحب البريد أخبره أنه فرضت غرامة على قرية بسبب تأخيرها فى دفع الجزية.

ولقد ارتفعت شكوى الجباة من خلال البرديات من هروب الفلاحين وتعذرهم فى الدفع ففى بردية حسابات اشارة الى بنود غير مدفوعة أو الى احالة منقولة من قسم إلى القسم الذى يليه. وفى أمر من القرن الثامن الميلادى من الباجارك فلافيوس الى رؤساء القرى والقس فى الكنائس يطالبهم بمزارعين لتولي وظائف محلية صغرى بسبب فرار العمال. ويشكو أحد المستأجرين من المالك الذى يبدو أنه عربي، ويصفه بالرجل العظيم، ويذكر أن لديه وثيقة بايجار حقل يتبع هذا الشخص، ويرغب فى مقابلة المالك بشأنه ويبدو أن المالك العربى اتفق معه فى أول الأمر على زراعتها ثم ترك الأرض فلم يتول هو زراعتها ولم يتركها للرجل. (أنه دفع لجميع الرجال أجرهم الا أنا واذا كان يريد أن ابذر الحقول فليعطنى وثيقة واذا لم يرغب فليتسلمها منى). لأنه فى هذه الحالة كان على المزارع أن يدفع ضرائب الأرض، وقام بعض الملاك العرب بالتهرب من دفع الضرائب ومقاومة الحكومة كامرأة تدعى رضا رفضت أن تدفع

لقولهم لن [لأن] قلبه اشتغل بما سمعه من الصوت وانه خارج من هذا العالم . وكان يطلب إلى الاساقفة ويقول لهم خدونى الى مدينتى [حيث] الموضع الذى اختاره الرب لى لكى اسجد للرب على كرسي ابى مرقس الانجيلى قبل خروج روحى من جسدى.

فسمعو منه وحملوه إلى مركب، وكان معه

خراج أراضيها وأثارت المشاكل مع الجباة وأدى هذا بالجباة الى أن يصحبوا معهم جندا محليين وهو أشبه بنظام البوكلارى الذى كان ملحقا بالضياع الكبرى فى بيزنطة، لقد تم تطبيق هذا النظام فى عام ٥٠هـ فمن رساله لقرة بن شريك (أما بعد فان ناسا من الجند ذكروا الى كتبة من قريتهم كانت تجرى عليهم منذ أربعين سنة ولم نجد شيئا من الكتب فلا أدرى ما صدق ذلك من كذبه فاذا جاءك كتبى هذا فلا تقدم فى كورتك الا سألت أهلها عما فى قريتهم من تلك الكتبة ولمن هى فاذا علمت ما فى كل قرية منها فارفع الى كتابا بما وجدت)[١] ويبدو أن هؤلاء الجند أعانوا السلطات المحلية فى كل قرية فى شكل قوة شرطة للمحافظة على الأمن وجباية الضرائب.

ومن المعروف أن الجباة فى عهد عبد الملك أصبح غالبيتهم من المسلمين ففى شكوى متأخرة نسبيا ١٣٧ هـ اشتكى أهالى طحا من عمرو بن عطاس جامع الضرائب ومعاونيه فقام أمير الكورة بتشكيل مجلس من الرؤساء المحليين نوقشت فيه الشكوى والتى ثبت كذبها بالطبع ولا نعلم هل كان هذا اجراء متبعا فى الفترة السابقة أم لا.

والمشكلة الأساسية التى بدأت تتضح هى هروب الفلاحين، فالى جانب الضرائب التى عليهم كانت هناك الأراضى البور التى تضاف إلى أرض البعض ويتحمل ما عليها من ضرائب

(١) جروهمان: جـ٣ ص ١٥٠.

الاساقفه ميخايل اسقف مصر وجرجه اسقف منف.

وفى يوم انحدارهم من مصر ولى على مصر وال جديد اسمه الليث بن الفضل(*) وكان انسانا خيرا محبا للنصارى ، فلما انحدرنا بدا البطرك ان يخاطبنا وهو فى المركب ويقول: قد حضر فكر على قلبى أقوله لكم لجل قدسكم واظهر لكم ما خفى عنكم، قد علمتم ما لقيت من التعب

(*) ولى مصر من قبل الرشيد على صلاتها وخراجها بدلاً عن إسماعيل بن عيسى فى حوالى ٢٠ نوفمبر ٧٩٨م = ٥ شوال ١٨٢هـ . انظر الهامش السفلى ص٤٥٥ .

وذكرت بعض البرديات أنه كان يطلب منهم زراعتها قطانى (بقول) وتعفى لفترة من الضريبة ولكن المتبع أن القرية تتحمل ضرائب من ترك أرضه بل وما يسرقه اللصوص وغيرهم من المحصول. وفى احصاءات عربية ذكر لأراض خراب. أما بالنسبة للسخرة فكانت فى أعمال الجسور. وفى رسالة من رئيس قرية الى شخص مسئول يذكر أنه أحضر ٢٠ عاملا للعمل فى القنوات.

ولقد حاول العرب الحد من هروب الفلاحين وتركهم الأرض بأن منعوا المزارعين من مغادرة مواطنهم الا بتصريح، فالمواطن اذا أراد أن يتجه الى مكان ليقيم فيه ردحا من الزمن لم يكن ملزما فقط بالحصول على تصريح من المدينة أو المنطقة التى يتبعها، بل كان ملزما بافادة الموظف المحلى بمحل اقامته الجديد فالمزاعون كان عليهم دفع ضرائبهم فى أماكن تسجيلهم وأقاليمهم التى نشأوا بها، وفى البداية كان يسمح بالجباية فى الكورة التى انتقل اليها الشخص حيث تحول الاتصالات الى مكان تواجده الجديد ولكن الدولة منعت هذا التصرف، ثم أعادته ثانية قبل نهاية العصر الأموى.

ولقد أجبر المزارعون على التواجد فى أماكن زراعتهم وظهرت عقود ضمانة تتضمن التعهد باستمرار العامل فى عمله فى الأرض، ويبدو أن تطبيق هذا النظام بدأ منذ عهد عبد العزيز بن مروان فى خلافة عبد الملك بن مروان. وفى بردية تعود لعام سبعمائة وأربعة وعشرين من

وصبرى الى سفك الدم، والان فانا منتقل الى
حيث ابايى فقد طلبت إلى الله ان لا يخرجنى
بغته بغير ثمره بل يقينى سنه واحده ويعطينى بان
اعود اليه بكل قلبي واتوب وابكى على خطيتى
ويرينى سلطانا عادلا بارض مصر يحب النصارى
ولم يمنعنى الله من هذا وانعم على بالحياه إلى
سنه واخرها هذه الايام، وقد بلغنى ان واليا قد ولى
مصر وانه يفعل مع البيع والاخوه كل جيد وانا

الميلاد، يطلب رئيس دير من الأقصر السماح للرهبان بترك مدينتهم والذهاب للفسطاط لمدة ثلاثة أشهر حددها، وتعهد رئيس الدير بضمان عودتهم. ومع ذلك اشتدت حركة هروب الفلاحين وخاصة في عهد عبد الملك بن مروان بعد زيادته الخراج رغم انخفاض النيل ٧٨هـ.

وبدأ الولاة في احصاء كل الغرباء عن كل قرية والعودة الى قوائم التعداد القديمة لترحيل كل من يثبت أنه وافد حديث. بل فى احدى البرديات طلب الوالي ترحيل كل من أقام أقل من خمسة عشر عاما فى الاقليم، والوالى الذى لم تذكر البردية اسمه فغالبا هو قرة بن شريك فالأمر يخص كوم اشقوه فيأمر الوالي الباجارك حاكم الأقليم بأن أهالى الفيوم واهناسيا واشمون وقوص الذين لديه فى قريته يجب القبض عليهم وارسالهم اليه وعليه أن يكتب أسماءهم فبعضهم هرب من أقليمه من خمسة عشر عاما، ويطلب مراجعة القوائم وتسليم هؤلاء الأشخاص لحامل الخطاب هم وزوجاتهم وأبنائهم وممتلكاتهم، مع ذكر بلدهم الأصلية.

وكان هروب المزارعين يعرضهم للعقاب والغرامة ففى خطاب من قرة لحاكم اشقوه.:

«لقد أرسلت اليّ بالنبطى البو الذى فر بالأربعة الدينر (الدينار) وثلث الدينر غرمته»(١).
وفى خطاب أخر الى باسيل «حاكم الكورة» يطلب منه عدم السماح بايواء جالية (ذميون)

---

(١) جروهمان : جـ٣ ص ١٥٢.

مـاض الى الله ولا تنظرونى بعـد فى الجسـد لن [لأن] زمانى قد اقترب هذا الذى اعلمت به من الله فاسمعوا الان إذا أنا مت اسرعو واجلسو من يختاره الله على الكرسى.

فلما سمعا الابوان الاسقفان هذا تيقنا موته فتنهدا ولم يقدرا ان يصبرا من كثرة البكا لقوله: انكم لا تشاهدونى بعد فى الجسد. فقالا له: يا ابانا لما اظهر الله خروجك من هذا العالم من اعلمك

لديه وفى رسالة موجهة من مرقص لشخص يدعوه بالدوق والمقصود حاكم الكورة، أن فلاحا هرب ومعه نيران لثور يخصان الدوق ويطلب شخصاً ليذهب لمكان الفلاح أخنوخ الذى أخذ النير ويذكر أن الفلاح لا يريد العودة والعمل ، وهذا أدى بالحكام العرب الى أن تأخذ ضمانات على بقاء الفلاح فى أرضه ووفائه بالإيجار والخراج، ولقد أصبح هذا التقليد شائعا، ولدينا عدد كبير من الوثائق بالعربية والقبطية تشتمل كلها على ضمانات، ففى بردية يتعهد اسحق بن ابراهيم وبقطر الحارس بضمانة مزارع ويتعهد بأنه فى حالة هروبه يدفع ٢٠ دينارا. وفى خطاب الوالى الى موظفيه يطلب اطلاق سراح شخص لأن أبو الرازى ضمن ما عليه من مال.

وضمانه أخرى فى احدى البرديات القبطية معنونة الى موظف كبير حيث يضمن أبو الياس عمل شخص فى الحقل مدة خمسة أشهر.

وأحيانا يتعهد الضامن بالعمل فى الحقل فى حالة فرار الفلاح الذى يضمنه فيثودور يضمن لآخر عمل فلاح ويتعهد أن يحل محله فى احضاره، وضمانة مرفوعة للأمير بأسماء فلاحين يتعهد الضامن بوجودهم فى حقولهم، وضمن عاصر عنب شخصاً آخر فى زراعته. وأحيانا يضمن البعض الخراج والضرائب لآخرين (عافاكم الله ورحمكم فان وقاد بن عبد الله قد ضمن لنا ما يلزم بالمال مولى اسماعيل أخو وقاد من الخراج والضرائب والنوائب فى السنة

به انه يجلس على الكرسى بعدك: فقال لهما الذى قد حرسه الله الى الان وسر به ان يرعى شعبه واردت انا ان اجعله اسقفا وكان تدبير الله ان يحفظه لهذه الخدمه وهو ولدى القس مرقس. قال هذا وهم منحدرون في المركب، فلما وصل إلى مدينة اسكندريه ثقل عليه المرض والورسكين [الحمى].

وهذا عجب آخر اظهره الله لابيناالقديس انبا

كلها فخلوا بينه جزاء ما رفع عليه) فالفلاح لم يحظر عليه ترك اقليمه فقط بل منع فى أحيان كثيرة من ترك الأرض الى أن يسدد ما عليه، وقد امتدت الضمانة الى الوظائف فهناك ضمانة لموظف مدني، وضمان من اثنين من الموظفين لحضور شخص. ومع ذلك فان الفرار من القرية قد استمر.

وفي بردية بتاريخ ٧٣٢م/ ١١٣هـ ذكر شخص فى كورة الأشمونيين يقيم فى الفسطاط أرسل اليه عامل الأشمونيين يبلغه بقيمة ضريبته [١] ، وفي بردية أخرى من قرية البسكلون بالمنيا وتعود الى ١١٢ هـ ذكر لشخص من أعلى أشمون سمح له بالعمل فى أسفل أشمون لوفاء جزيته والتماس معيشته لمدة شهرين[٢] وسمح لآخر بالعمل لوفاء جزيته ومعيشته لمدة خمسة أشهر فى مستهل شعبان سنة ثلاث ومائة الى السلخ من ذى الحجة فى سنة.. فمن لقيه بعد الأجل الذى أجلته فليعده الى مدينته.

ولقد استمرت الدولة خلال القرنين الثانى والثالث فى حصر الأشخاص غير المقيمين فى أقاليمهم، فالمزارع أصبح مربوطا باقليمه وزراعته وربما كان هذا أحد الأسباب الرئيسية لثورات القبط خلال هذه الفترة. وأدى هذا بدوره الى اضطراب الأمور فى القرى ففى

(١) جروهمان: جـ٣ ص ١٧٤.

(٢) جروهمان: جـ٣ ص ١٧٥.

يوحنا لا تجب الغفله عنه، لما كان في اليوم السادس عشر من شهر طوبه عيد القديس فيلاتاوس(*) الشهيد وهو يوم ولد فيه هذا الأب كما ذكر الجمع وهو اليوم الذى وسم فيه بطركا وفى هذا اليوم بعينه اسلم نفسه للرب.

(*) يذكر عنه السنكسار أنه ولد فى مدينة انطاكية، وقتل على يد دقلديانوس.

والذى اقامه على الكرسى اربع وعشرون سنه وكانت وفاته فى سنة خمس مايه وخمس عشره

احدى البرديات العربية أوامر بالقبض على أهل الريب والجرائم ومنع بقاء أحد بالقرية غير أهلها.

وقد قام في مصر في العصر العباسى نظام آخر لجباية الضرائب وهو نظام قبالات (١) الأراضى، ويشبه نظام الالتزام، الذى وجد فى العهد الرومانى، فيقول المقريزى (٢): «وكان من خبر أراضى مصر، بعد نزول العرب بأريافها واستيطانهم وأهاليهم فيها واتخاذهم الزرع معاشا وكسبا وانقياد جمهور القبط إلى إظهار الإسلام واختلاط أنسابهم بأنساب المسلمين لنكاحهم المسلمات، أن متولى خراج مصر كان يجلس فى جامع عمرو بن العاص من الفسطاط فى الوقت الذى تهيأ فيه قبالة الأراضى وقد اجتمع الناس من القرى والمدن فيقوم رجل ينادى على البلاد صفقات صفقات وكتاب الخراج بين يدى متولى الخراج يكتبون ما ينتهى إليه مبالغ الكور والصفقات على من يتقبلها من الناس، وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالأربع سنين لأجل الظمأ والاستبحار وغير ذلك، فإذا انقضى هذا الأمر خرج كل من كان تقبل أرضا وضمنها إلى ناحيته فيتولى زراعتها واصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها بنفسه وأهله ومن

(١) يذكر دى ساسى أن كلمة قبالة معناها أن أحد الأشخاص يضمن دفع ضريبة معينة أو يلتزم بتنفيذ عهد أو ارتباط. Sur la nature et les Revolutions du droit de propriete territoriale p. 200.

(٢) الخطط جـ١ ص ٨٢.

للشهدا. وعظم حزن الشعب الارتدكسي في ذلك اليوم عليه، ولما كملت عليه الصلوات والقداس جعل جسده المقدس مع ابايه القديسين التاودوسيين، وقبل الرب نفسه الطاهره واعد مع القديسين في كورة الاحيا والمجد للسيد يسوع المسيح ولابيه الرحوم والروح القدس المحيي الان وكل اوان والى دهر الدهور امين.

ينتدبه لذلك ويحمل ماعليه من الخراج في إبانه على أقساط ويحسب له من مبلغ قبالته وضمانه لتلكم الأراضي ما ينفقه على عمارة جسورها وسعة ترعها وحفر خلجها بضرابة مقدرة في ديوان الخراج ويتأخر من مبلغ الخراج في كل سنة في جهات الضمان والمتقبلين، يقال لما تأخر من مال الخراج البواقي. وكانت الولاة تشدد في طلب ذلك مرة وتسامح به مرة، فإذا مضى من الزمان ثلاثون سنة حولوا السنة[١] وراكو البلاد[٢] كلها وعدلوها تعديلا جديداً فزيد فيما يحتمل الزيادة من غير ضمان البلاد ونقص فيما يحتاج إلى التنقيص فيها ولم يزل ذلك يعمل في جامع عمرو بن العاص إلى أن عمر أحمد بن طولون جامعه وصار العسكر[٣] منزلا لأمراء مصر فنقل الديوان إلى جامع أحمد بن طولون».

من الوصف السابق نعرف أنه كان يقوم في جامع عمرو ثم في جامع ابن طولون مزاد لتقبل الأرض أو ضمان خراجها، وكان التقبل لأربع سنوات (حتى تتعادل سنو المحصول الضعيف بسني المحصول الطيب) وكان المتقبل يخصم من المبلغ المطالب بدفعه ما ينفقه في كرى الترع وما الى ذلك . ولسنا نعرف تماما تفصيل علاقة المتقبل مع رجال الإدارة.

---

(١) تحويل السنة معناه تحويل السنين القمرية إلى شمسية فإذا جمع الخراج على حسب السنين القمرية فكأننا نجمع الخراج في مدى ٣٢ سنة شمسية ثلاثا وثلاثين مرة وهذا ضد طبيعة الأشياء. وعلى هذا تحذف سنة كل ٣٣ سنة قمرية خراج سنة. وهذا ما يسمى التحويل (خطط المقريزى جـ١ ص ٧٣ De Sacy: Sur la Nature et les Revolutions p. 200.

(٢) الفعل راك والاسم روك. معناها تقويم الأراضي ومسحها .De Sacy: op. cit. p. 200

(٣) في الواقع كانت القطائع هي مقر أمراء الدولة الطولونية منذ أن بناها أحمد ابن طولون لا العسكر.

فهرس الجزء الثالث

الهيئة العامة لقصور الثقافة

تاريخ مصر

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس بن المقفع

4

إعداد و تحقيق :
عبد العزيز جمال الدين

لم يكن ابن المقفع آخر المؤرخين المصريين، لكنه ومخطوطته كانا الأشهر فى هذا السياق، وقد تعاقب من بعده من الآباء والرهبان المصريين من عكفوا على استكمال هذا التأريخ حتى بداية القرن العشرين. وبجهد الباحث المجد عكف المحقق المصرى عبد العزيز جمال الدين على جمع هذه المخطوطات وتحقيقها والتعليق عليها، موضحاً ما كتب فيها وما كتب فى التاريخ الرسمى الشهير، ليضع أمامنا عملاً قل أن نجده فى الثقافات الحديثة، لنقف أمام وجهتى نظر للتاريخ متأملين كيفية عمل الفعل البشرى فى تسجيل الأحداث حسب الانتماء الثقافى، وليفتح الباب على مصراعيه أمام العاملين فى مجال البحث التاريخى ليعيدوا التأمل فى آلية ومسار واحدة من أهم عمليات التدوين الذى حكم مخيلة البشر فى رؤيتهم لماضيهم التليد.

وزارة الثقافة

السعر: سبعة جنيهات

تصميم الغلاف : أحمد اللباد

تاريخ مصر

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس بن المقفع

الجزء الرابع

وزارة الثقافة

مطبوعات

الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة

سعد عبد الرحمن

أمين عام النشر

محمد أبو المجد

الإشراف العام

صبحي موسى

الإشراف الفني

د. خالد سرور

المتابعة والتنفيذ

عادل سميح

- تاريخ مصر
من خلال مخطوطة
تاريخ البطاركة (الجزء الرابع)
- إعداد وتحقيق:
عبدالعزيز جمال الدين
- طبعة:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2012م
17x 24 سم
- تصميم الغلاف: أحمد اللباد
- رقم الإيداع: ٢٦٤٢/ ٢٠١٢
- الترقيم الدولي: 978-977-704-939-0
- المراسلات:
باسم / المشرف العام
على العنوان التالي: 16 أ شارع
أمين سامي - القصر العيني
القاهرة - رقم بريدي 11561
ت: 27947897

التجهيزات والطباعة:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

- حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
- يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابي من الهيئة العامة لقصور الثقافة، أو بالإشارة إلى المصدر.

تاريخ مصر

من بدايات القرن الأول الميلادى
حتى نهاية القرن العشرين

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس بن المقفع

إعداد وتحقيق
عبد العزيز جمال الدين

الجزء الرابع

من مرقس حتى يوساب البطرك ٥٢ (٨٣٠ - ٨٤٩م)

مرقس البطرك وهو من عدد الابا
التاسع والاربعون
[٧٩٩ / ٨١٩م]
[السيره العشرين من سير البيعه]

ثم عاد الاسقفان الى مصر وهما ابا ميخايل اسقفها وجرجه اسقف منف بسرعه ليقدما امر من يرسم بعده، فلما اجتمعو الاساقفه والشعب الارتدكسى باسكندريه وتشاورو فيمن يقدمونه، فقالو الاساقفه: نحن سمعنا ان ابانا انبا يوحنا ذكر

وقد ظهرت في العصر العباسى مسألة ضمان الوالى لخراج مصر كله وكان الخليفة أبو جعفر المنصور أول من أراد إدخالها فى مصر(١) ونتبين هذا مما ذكره الكندى(٢) والمقريزى (٣) عن محمد بن الأشعث والى مصر (١٤١ ـ ١٤٣) إذ قالا: «فلما استقر محمد بن الأشعث بها بعث أبو جعفر إلى نوفل بن الفرات أن أعرض على محمد بن الأشعث ضمان خراج مصر فإن ضمنه فأشهد عليه وأشخص إلى وان أبى فاعمل على الخراج، فعرض عليه ذلك فأبى» أى أن الخليفة أراد أن يجعل الوالى يلتزم بدفع مبلغ معين عن القطر كله. ويبعد أن يرفض أى شخص أن يلى خراج مصر، ولكن من المعقول أن يرفض ضمان خراجها مثلما فعل محمد بن الأشعث، وذلك خشية العجز عن القيام بما التزم به نظراً لاضطراب أمور البلاد فى كثير من الأحيان، أو لاحتياجه إلى المال للنفقة على الإدارة وعلى الجند.

(1) Zaky M. Hassan: Les Tulunides pp. 243 - 244

(٢) الولاة والقضاة ص ١٠٩.
(٣) الخطط جـ١ ص ٣٠٦.

اسم القس مرقس انه الذى يجلس بعده. فقالو جمع الكهنه من فم واحد: هو مستحق بالحقيقه هذا الطقس، هذا القديس الذى ارضى روح القدس وارضى روح ابينا الطوباني يوحنا مدة مقامه معه في جميع ايامه. ثم ان جميع الاساقفه والكهنه كتبو كتبا الى انبا ميخايل اسقف مصر يقولون: ابوتك تعلم ما جرى علينا من اليتم في مضى ابينا الطوباني ابا يوحنا الى الرب في هذا الزمان الصعب وتقلب الملوك، وابوتك تعلم ان

وكانت الضرائب بعد الغزو - إذا استثنينا الضرائب غير العادية - تجبى كل سنة قمرية. وكان المصريون قبل الغزو يعتمدون في الزراعة والحصاد وجباية الخراج على السنين الشمسية والشهور القبطية. وقد اضطر العرب إلى تحويل السنة الخراجية القبطية إلى السنة الهلالية العربية، فكانوا يسقطون سنة عند رأس كل اثنين وثلاثين سنة قمرية، وسموا ذلك الازدلاق لأن لكل ثلاث وثلاثين سنة قمرية اثنين وثلاثين سنة شمسية بالتقريب[١].

وكان الأهالي الذين يقومون بدفع ما عليهم من الضرائب يتسلمون إيصالات عرفت في أوراق البردى العربية باسم براءة[٢] وكان جابي الضريبة العينية ينتخبه السكان ويسمى القبال[٣] ونسمع عن قبال قرية في ورقة بردية كتبت سنة ١٣٤هـ[٤].

وكانت الضرا ئب العينية المكونة من الحبوب ترسل إلى أهراء العاصمة[٥] أما الضرائب

(١) انظر المقريزى - خطط جـ١ ص ٢٧٠ - ٢٧٣.

(2)Grum: Coptic Ostraca. pp; 36 - 37, Grohmann: Arabic papyri vol. III. p. 141 - 142.

(3)Papyri Schott - Reinhardt I. 45.

(4) Grohmann: Arabic Papyri vol. III. p. 102.

(5) Bell: Translations of Greek Papyri (Der Islam II) p. 271 - 381.

قطيع خراف [بغير راع يدخله الديب فيشتته،
وكل مدينة] بغير سور العدو يهلكها، ولجل هذا
اجتمعنا في البيعه العظمى باسكندريه والابا [ء]
الاساقفه فقد كتبنا نقول واحد منا طاب به قلبنا
على القس مرقس ان يكون لنا ابا لانا علمنا ان
الرب قد اصطفاه وان ابانا الماضى قد اعملكم بهذا
قبل نياحته، من اجل ذلك نقول كما قال المغبوط
داود: عوض الابا[ء] صارو ابنا [ء] تجعلهم ريسا
على جميع الارض.

النقدية فكانت ترسل إلى ديوان الخراج والأموال [1] عن طريق فروعه في الأقاليم، وكان يشرف على كل فرع من فروع المالية فى الأقاليم موظف يسمى الجسطال[2].

ويظهرن أنه كانت ما تزال تتبع فى مصر فى ذلك العصر وسائل الشدة لجباية الخراج. ونعرف أن الليث بن الفضل والى مصر خرج الى الخليفة الرشيد فى سنة ١٨٧هـ وسأله أن يعث معه بالجيوش لأنه لا يستطيع استخراج الخراج من أهل الحوف إلا بجيش[3].

كذلك تبين ورقة بردية عربية من القرن الثالث الهجرى مدى الشدة التى كانت تتبع فى جباية الأموال، ففيها أمر بأنه إذا لم يؤد كل فرد ما عليه من الأموال يضرب عشرة سياط ويغرم فى صلب ماله دينارا[4].

النقود الاسلامية فى مصر

كان بين البيزنطيين وبين الدولة الساسانية معاهدة خاصة بالعملة تقضى بأن يضرب الساسانيون نقوداً من الفضة وبألاّ يتخذوا عملة ذهبية سوى العملة الرومية، ولهذا كانت عملة

(١) ديوان الخراج والأموال بمثابة وزارة المالية وقد وجد العرب فى مصر ذلك الديوان فأبقوه على حاله حتى أنه كان يكتب باليونانية والقبطية إلى أن أمر عبد الله ابن عبد الملك بتعريب هذا الديوان سنة ٨٧هـ.
(٢) Becker: Neue Arabische Papyri. p. 353; Grohmann . op. cit vol. III p. 17.
(٣) الكندى: ص ١٤٠ ومتز جـ١ ص ٢٢١ ـ ٢٢٢.
(4)Grohmann. Arabic Papyri vol. III. p. 104.

وأنفذو الكتب مع بعض الاساقفه وارشيد ياقن المدينه، فلما اتصل بالقس مرقس خبر الكتب التى كتبت من اجله حزن جدا ونهض للوقت وهرب إلى دير ابى مقار بوادى هبيب. وكانت البريه(*) ذلك الزمان مثل فردوس الله فيها قوم قديسون روحانيون منهم من تنبا على هذا القديس انه مستحق لهذه الخدمة كما ذكرنا انفا. فلما وقف الاب انبا ميخايل اسقف مصر على الكتب ذكر كلام معلمه ابا يوحنا البطرك المنتيح فاحضر

(*) برية وادى النطرون.

بلاد الفرس الجارية هى الدراهم الفضية، بينما شاعت العملة الذهبية فى البلاد التى كانت تحت حكم الرومان من قبل [١].

وكان العرب فى الجاهلية يتعاملون بالدراهم الفارسية وكانت من الفضة، والدنانير البيزنطية وكانت من الذهب. وتذكر بعض المراجع أن أول من ضرب النقود من الخلفاء هو عبد الملك بن مروان [٢]، على أن المقريزى [٣] ذكر أن عمر بن الخطاب أقر النقود على حالها إلا أنه فى سنة ١٨هـ ضرب الدراهم على نقش الفارسية وشكلها غير أنه زاد فى بعضها «الحمد لله» وفى بعضها «محمد رسول الله» وفى بعضها «لا إله إلا الله وحده» ولما بويع عثمان بن عفان بالخلافة ضرب دراهم ونقش عليها «الله أكبر» [٤].

و قد سك معاوية فى خلافته أيضا دراهم ودنانير [٥]. ولما قام عبد الله ابن الزبير بمكة ضرب دراهم مدورة، ويقال إنه أول من ضرب الدراهم المستديرة كذلك ضرب أخوه مصعب

---

(١) آدم متز: الحضارة الإسلامية جـ٢ ص ٣١٦.
(٢) الماوردى: الأحكام السلطانية ص ١٤٨ والقلقشندى: صبح الأعشى جـ١ ص ٤٢٤ وأبو المحاسن: النجوم جـ١ ص ١٧٦.
(٣) المقريزى : النقود الاسلامية ص ٤ - ٥ والمقريزى: إغاثة الأمة ص ٥١ - ٥٢
(٤) المقريزى : النقود الاسلامية ص ٥ وإغاثة الأمة ص ٥٢.
(٥) المقريزى : النقود ص ٥٠ وإغاثة الأمة ص ٥٢ - ٥٣.

جميع الريسا بمصر ومضو الى الوالى ودخلو اليه الاساقفه انبا ميخايل والرسل ولم يمكن غيرهم من الدخول فقال لهم: ما حاجتكم؟ فقال له انبا ميخايل : نحن نعلم رياستك لاجل ان أبانا الشيخ ابا المذهب الذى كان لنا قد توفى. فقال لهم : فما تريدون؟ فقالو له ا لله يديم ايامك ، وعلى اواسى البيعه خراج كتير ومال، ولاجل ذلك أردنا ان نقيم اخر عوضه يدبر البيعه والشعب . فقال الوالى: فما اسمه؟ قالو له: مرقس. فامر بكتب اسمه فى

بن الزبير دراهم بالعراق، فلما قدم الحجاج بن يوسف العراق من قبل أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان أبطل تلك العملة وقال: «ما نبقى من سنة الفاسق أو المنافق شيئا[1]»

غير أن هذه النقود التى سكها خلفاء الدولة الإسلامية وأمراؤها لم تثبت على وزن واحد بل، كانت متغيرة الأوزان [2] كذلك كان العرب يتعاملون بالنقود الأجنبية جنباً إلى جنب مع النقود الإسلامية، إلى أن ولى عبد الملك ابن مروان الخلافة وتمهدت له الأمور فى الدولة بعد القضاء على منافسيه والخارجين عليه، فأراد أن يصلح النقود ويوحدها فى جميع المملكة الإسلامية ويستغنى عن النقود الأجنبية[3].

(١) المقريزى . النقود ص ٥ ـ ٦ وإغاثة الأمة ص٥٣.

(٢) انظر المقريزى: النقود ص ٤ ـ ٦ وإغاثة الأمة ص ٥١ ـ ٥٣ De Sacy: Traite des monnaies Musulmanes pp. 17 - 19 والأب انستاس الكرملى: النقود العربية وعلم النميات ص ٢٧ – ٣٣

(٣) روى المؤرخون أن السبب الذى حدا بعبد الملك إلى هذا هو أن القراطيس كانت تدخل بلاد الروم من أرض مصر ويأتى العرب من قبل الروم بالدنانير فكان عبد الملك بن مروان أول من أحدث الكتاب الذى يكتب فى رؤوس الطوامير من (قل هو الله أحد) وغيرها من ذكر الله. فكتب إليه ملك الروم إنكم أحدثتم فى قراطيسكم كتابا نكرهه، فإن تركتموه وإلا أتاكم فى الدنانير من ذكر نبيكم ما تكرهونه. قال فكبر ذلك فى صدر عبد الملك وكره أن يدع سنة حسنة سنها فأرسل إلى خالد بن يزيد بن معاوية فاستشاره فى ذلك فلم يكن منه إلا أن قال. حرم دنانيرهم فلا يتعامل بها واضرب للناس سكا ولاتعف هؤلاء الكفرة مما كرهوا فى الطوامير. فقال عبد الملك: فرجتها عنى فرج الله عنك، وضرب الدنانير (البلاذرى. فتوح البلدان ص ٢٤٠ المقريزى: النقود ص ٦ وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١ ص ١٧٦ ـ ١٧٧).

الديوان ثم اذن لهم في اقامته عوض انبا يوحنا وخرجو من عنده.

ثم بلغ الاسقف انبا ميخايل هروب القس مرقس، كان انبا ميخايل الاسقف متولى ما يتعلق بالديارات فانفذ للوقت الاساقفه والكهنه وامرهم ان يقيدوه ويمضو به الى اسكندريه ففعلو به ذلك في اليوم التاني من امشير يوم عيد(*) الاب لنجينوس، وكان يوم وصوله الى اسكندريه، وكان

(*) الاب لنجينوس رئيس دير الزجاج بالاسكندرية، ويذكر السنكسار ان الانبا بولا أول =

ولذا نرى عبد الملك يضرب الدنانير والدراهم في سنة ٦٧هـ بعد تعديل في أوزانها. وقد أرسل إلى الأمصار الإسلامية كلها لتضرب نقودها بمقتضى السكة التي ضربها عبد الملك[١]. وربما حمل المؤرخين على القول بأن عبدالملك بن مروان أول من ضرب النقود في الإسلام كونه نظم سك النقود وجعلها وزنا واحدا وجعلها تسرى في جميع أنحاء المملكة الإسلامية، لأننا رأينا أنه ضربت نقود فعلا قبل عبد الملك. وكان الخلفاء من بعد عبد الملك يضربون سكة على وزن سكته وأحيانا يغيرون في أوزانها. ولما انتهت الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ صار الخلفاء العباسيون يضربون سكا أيضا.

* * *

تدل قطع «الاستراكا» [٢] على أن المعاملات بين الأهالي في مصر قبل الفتح كان أساسها العملة الذهبية المعروفة بالدينار tremision, solidus denarius [٣]، أي أن مصر كانت تتبع قاعدة الذهب [٤]. ويذهب علماء الاقتصاد السياسي إلى القول بأن نظام المعدن الفردى

(١) انظر: المقريزى: شذور العقود ص ٦ ـ ٨ والأب انستاس الكرملي النقود العربيه ص ٣٤ ـ ٣٩.

(٢) قطع من الفخار والأحجار، كتبت عليها بعض الشعوب، ولا سيما الاغريق والفراعنة والقبط، واستنبط منها علماء الآثار كثيرا من الحقائق التاريخية.

(3) Crum: Coptie Ostraca. pp. 23. 45. 78. 79. 80.

(٤) إذا كان أساس النظام النقدى في الدولة الذهب يقال إنها تتبع قاعدة الذهب gold standard (الدكتور عبد ا لحكيم الرفاعي. الاقتصاد السياسي جـ١ ص ٤٧٩).

مع الأساقفه ابا جرجه اسقف منف واوسم فى اليوم المذكور بمدينة اسكندريه، فلما جلس على الكرسى الانجيلى وجميع الشعب يشهدون له بالاستحقاق فقرا عليهم الاكساكسيس الذى يسمى عند الارتدكسين اللوغس وذكر فيه انه عارف باعمالهم وهذا اللوغس ممتلى من نعمة روح القدس مقالات الارتدكسيين، وأظهر فيه سقطة المجمع الخلقدونى والرد عليهم وبين ضلالتهم وانهم عابدون انسانا. ورد على الذين انكرو الام

= السواح توفى فى نفس هذا اليوم سنة ٣٤١ م. وتحتفل بهما الكنيسة المصرية فى ذات اليوم.

الذهبى لا يمنع استعمال نقود أخرى غير الذهب، بخاصة النقود الفضية، ولكن الذهب يكون وحده هو العملة القانونية التى لها قوة إبراء غير محدودة[١]، وتعتبر النقود الأخرى عملة مساعدة[٢] ولانجد فى الاستراكا سوى إشارة أو اثنتين إلى النقود الفضية فى مصر وتعرف بالدراهم [٣]. ويظهر أن النقود الصغيرة التى كانت تستعمل فى مصر إذ ذاك ـ كالقروش وكسورها اليوم ـ كانت العملة البرنزية [٤].

ويقول المقريزى [٥]: «أما مصر من بين الأمصار فما برح نقدها المنسوب إليه قيم الأعمال وأثمان المبيعات ذهباً فى سائر دولها جاهلية وإسلاما، ويشهد لذلك بالصحة أن خراج مصر فى قديم الدهر وحديثه إنما هو الذهب».

وتؤيد أوراق البردى وقطع الاستراكا ما ذكره المقريزى، إذ تشهد كلها بأن الجزية والضرائب

(١) أى تكون أداة للوفاء فإن القانون لا يعترف لغيرها بقوة الإبراء من الديون ـ عبد الحكيم الرفاعى: الاقتصاد السياسى ص ٤٤٨.

(٢) عبد الحكيم الرفاعى: الاقتصاد السياسى ص. ٤٨.

(3)Crum: op. cit. p. 23.

(4)Crum: op. cit. p. 23. 42. 45.

(٥) النقود الإسلامية ص ١١ وإغاثة الأمة ص ٦٢.

المسيح الاهنا الذى قبلها عنا بارادته بالجسد، وهم يقولون أنه خيال ، فلما كمل خدمة القداس كالعاده ناول الشعب اجمع من السراير المقدسه بالجسد والدم الطاهر.

فلمّا تم كل شى وبعد تكريزه بأسبوع كانت جمعة الرفاع فمضى الى الدير المقدس دير الزجاج ليتعكف فيه على الصلوات فى ايام الصيام المقدس، فلما وصل الى هناك وصلت اليه كتب

وإيجار لأراضى وأجور العمال وسائر المعاملات كانت تدفع بالدنانير وأقسامها، وتعرف الدنانير فى أوراق البردى اليونانية باسم Solidi[١] ويظهر أن مصر بعد الغزو كان يتعامل فيها بالدنانير الذهبية التى كان يتعامل بها قبل ذلك، ولابد أن النقود الإسلامية قد دخلت فيها بعد الفتح ويذكر Quatremere[٢] وSauvaire [٣] أن الكاتب القبطى بشندى Picendi أسقف قفط الذى عاصر فتح العرب، كتب كتابا إلى أساقفة إمته (و هذا الكتاب محفوظ فى مكتبة باريس) يقول فيه: «إن العرب أخذوا النقود الذهبية المنقوش عليها الصليب المقدس وصورة السيد المسيح ومسحوا الصليب وصورة المسيح وكتبوا محلها اسم نبيهم محمد الذى يتبعون تعاليمه واسم خليفة نبيهم ونقشوا الاسمين معاً على النقود الذهبية».

وربما ظلت النقود الأجنبية فى مصر يتعامل بها جنباً إلى جنب مع النقود الإسلامية حتى إصلاح عبد الملك بن مروان للسكة وتحريمه الدنانير الأجنبية، أى أن السكة فى مصر

(1) Crum: Coptic Ostraca. pp. 36 - 37, Bell: (der Islam 11) . pp. 271. 274 etc. Becker: NeueArabische Papyri. pp. 254 _ 267 etc, Grohmann Arabic Papyri vol. 11. pp. 44, 45, 48, ol. III. pp. 17. 31 48. 141

(2) Memoires geographiques et Historiques sur l'Egypte t. 1, p343.

(3) Materiaux (Journal Asiatique. Septieme Serie T. XIV)pp. 456 - 457.

انبا ميخايل اسقف مصر تشير عليه بالدخول الى مصر بعد عيد الفصح المقدس ليسلم على الوالى. وكان ذلك تدبيرا من الله لان بعض البيع كانت مهدومه إلى ذلك الوقت والشعب حزين لذلك.

فلما تم عيد الفصح دخل الاب البطرك انبا مرقس الى فسطاط مصر ليسلم على الوالى . فلما وصل مصر اعلمو الاب ميخايل الاسقف والشعب بوصوله فخرجو اليه بالاناجيل والصلبان والمجامر

خضعت للسكة الإسلامية، وهذا مظهر من مظاهر التبعية دون شك. ولم تستقل سكة مصر عن السكة المستعملة فى الخلافة إلا بعد أن استقلت عنها كما حدث فى عهد أحمد بن طولون [1]. وفى ذلك يقول المقريزى [2] «ومع هذا فإن مصر لم تزل منذ فتحت دار إمارة وسكتها إنما هى سكة بنى أمية ثم بنى العباس إلا أن الأمير أبا العباس أحمد ابن طولون ضرب بمصر دنانير عرفت بالأحمدية».

البحرية

«ساهمت مصر بنصيب وافر فى إنشاء الأساطيل الأولى وكان عمرو بنى العاص اول من تنبه إلى قيمة الاساطيل فى الحروب وذلك عندما استخدم الاسطول المصرى وملاحيه من المصريين القبط فى نقل المؤون والعتاد لمساندة حملته على شمال افريقيا بعد احتلاله للأسكندرية تحت قيادة القائد البيزنطى السابق للأسطول فى مصر الذى قبل العيش فى مصر

---

(1) Stanley Lane - Poole: Catalogue of the Collection of Arabic Coins preserved in the Khedivial Library at Cairo pp. 135 - 6

(٢) النقود الإسلامية ص ١٢.

ولقوه بفرح عظيم وتهليل وقرا[ء]ه وكانو يقولون : نعم وحسن وصولك الينا يامرقس ابن مرقس . فمضى لمنزله ليستريح لانه كان اخر النهار، وبالغداة قام البطرك والاسقف أنبا ميخايل وباقى الاساقفه المجتمعين معهما ليجتمعو بالوالى، فلما وصلو الى داره استاذنو عليه فامر بدخوله ، فلما دخل وسلم على الوالى التقاه ودعا له حتى تعجب الوالى من حلاوة لفظه وكلامه الممتلى نعمه ، ومن النعمه التى هو مشتمل بها فجعل الله فى

والعمل لدى الغزاة الجدد من العرب. كما يذكر ساويرس فى سيرة البطرك بنيامين. فكان المسلمون يقومون بغزواتهم البحرية ضد البيزنطيين من الشام بقيادة معاوية ومن مصر بقيادة عبد الله بن سعد. ولا تنسى أن سكان مصر ولا سيما القبط كان لهم الفضل فى بناء السفن وتزويدها بالجند والمجدفين، وتشييد دور الصناعات فى وادى النيل بذلك».

أجل إن مصر اشتهرت منذ البداية بصناعة السفن التى كان يحتاج إليها أسطول العرب، فالعرب عند ظهور الإسلام لم يكونوا شعباً بحرياً (١).

(١) ولكن أهل بلاد العرب الجنوبية فى ممالك معين وسبأ وحمير بإقليم اليمن كانوا يشتغلون بنقل التجارة بين مواطن المدنيات القديمة فى الهند ومصر وبلاد الجزيرة والشام بل والصين فيذكر فى بعض المراجع القديمة أن السفن العمانية واليمنية كانت تنقل الحجاج البوذيين من الصين إلى الهند. وكانت سفنهم تمخر عباب البحر الواقع جنوبى شبه جزيرة العرب والذى أصبح ينسب إليهم فيقال بحر العرب أو البحر العربى - ومهما يكن من شئ فإن الامبراطورية الاسلامية لم تصبح دولة بحرية بمعنى الكلمة لأن الشعوب التى قامت على أكتافها كالعرب والفرس والترك كانت تتألف فى البداية من قبائل معظمها رحل.

Hans Mzik Beitrage zur historischen Geographie (Leipzig 1929)p. 42.

راجع أيضا مادة «سفينة» فى ملحق دائرة المعارف الإسلامية.

قلبه له رحمه وامره ان يجلس وساواه فى المخاطبه وقال له: قوّ منّبتك وشد ازرك فانى اقضى جميع حوايجك وكلما تريده منى ابلغك اياه. فقال له البطرك: ان الله يرفع سلطانك ويسعد ايامك ويوفق رعيتك ببقاك. وخرج من عنده بسلام.

فلما راو مخاطبة الوالى له واهتمامه بامر البيع قال انبا ميخايل اسقف مصر: الواجب ان نهتم بعمارة البيع فى هذا الوقت لما ظهر من محبة

ولكن عندما اتسعت امبراطوريتهم وشملت شعوبا وأمما بحرية، وعندما اضطروا إلى محاربة شعوب بحرية وعملوا على الاستيلاء على جزائر فى البحار، بدأوا يشعرون بحاجتهم الماسة إلى أسطول يكون عونا لهم فى تحقيق أمانيهم فى مد سلطاتهم وغزو الروم فى عقر دارهم.

لم يكن البحر يركب للغزو فى حياة الرسول أو فى خلافة أبى بكر وعمر بن الخطاب، وقيل إن أول من ركب البحر للغزو فى الإسلام العلاء بن الحضرمى وذلك فى خلافة عمر بن الخطاب، إذ ندب أهل البحرين وكان أميراً عليها غزو فارس عن طريق البحر بغير إذن الخليفة فغرقت سفن المسلمين وغضب عمر على العلاء، وأمر بتأمير سعد بن أبى وقاص عليه.

ولما فتح المسلمون الشام ألح معاوية بن أبى سفيان ـ وهو يومئذ على جند دمشق والأردن ـ على الخليفة عمر بن الخطاب فى غزو البحر معللا ذلك بقرب الروم من حمص، ولكن الخليفة لم يوافقه على ذلك لأنه خشى على المسلمين من ركوب البحر وقال فى ذلك: «والذى بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً» وسرعان ما غير العرب سياستهم وسعوا الى إنشاء أسطول بحرى للغزو فى البحر على أن يكون جند الاسطول من غير العرب.

الوالى للنصارى. ولما كان بالغداه عاد البطرك الى الوالى فسلم عليه فبجله واكرمه ورفعه واجلسه وخاطبه قايلا: قد قلت لك بالامس انى اقضى جميع حوايجك ولم تطلب منى حاجه والان فمهما كان لك من حاجه فاذكرها فانها مقضيه عندى لمحبتى لك. فقال له البطرك بكلام لين: الرب يحفظ ايامك ويزيد فى رفعتك وسلطانك، تعلم ان لم يولو عبدك على مال ولا خراج بل على الانفس والبيع، وارغب الى جلالتك ان لنا

فغزا المسلمون جزائر عدة مثل قبرص وصقلية ورودس وأرواد وكريت وغيرها من الجزائر بجنود وبحارة من القبط وغير العرب بل إن معاوية بن أبى سفيان غزا مضيق القسطنطينية فى سنة ٣٢هـ [١] ونعرف أن عبد الله بن سعد بن أبى سرح والى مصر من قبل عثمان بن عفان قد قاتل البيزنطيين بحراً فى غزوة ذى الصوارى وانتصر عليهم بالبحارة القبط وتحت قيادتهم رغم قلة سفنهم.

كان طبيعياً أن يستخدم العرب فى غزواتهم البحرية شعوب الأمم التى فتحوها والتى مرنت على ركوب البحار منذ القدم. وإذ كنا فى معرض الكلام على مصر فلا بد أن نذكر هنا أن العرب أفادوا من خبرة المصريين البحرية وقيادتهم للأساطيل ومن العمال المصريين أيما إفادة فقد أصبحت مصر عقب الفتح مركزاً لصناعة السفن اللازمة لأسطول الخلافة كما كانت تمد هذا الأسطول بخيرة الملاحين والعمال المصريين وان كان ذلك يتم تحت ظروف حياتية قاسية حتى أن المصرى كان يقضى معظم حياته أو حياته كلها فى خدمة الاسطول تحت أحط

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ٥ ص ٧٧. راجع أيضاً Lammens Etude sar le regme du califet emaiyade Moawia ler pp. 52,270,279.

هاهنا بيعا قد هدم الظالم بعضها قبل وصولك الى مصر فهدم الرب دياره وقطع حياته من على الارض، فان راى رايك فيها ان يتقدم لنا بعمارتها لنصلي فيها وندعى لجلالتك فالامر لك ، فجعل الله فى قلبه عاجلا أن يامر بعمارتها فبنيت جميع بيع فسطاط مصر، وكان فرح عظيم لجميع الارتدكسيين وسبحو الله على عظم رحمته التى فعلها معهم وعاد حزنهم الى فرح. وكان ابونا مرقس يتهلل بالروح ويرتل مع داود ويقول: مبارك

الظروف المعيشية. وأصبح اسم «الصناعة» فى مصر يدل على المكان الذى تبنى فيه السفن الحربية. وقد عقد المقريزى فى كتابه الخطط جـ٢ ص ١٨٩) فصلا فى ذكر المواضع المعروفة بالصناعة ، كما أشار فى مواضع أخرى من هذا الكتاب جـ١ ص ٣٠١) إلى أن الصناعة كانت بجزيرة الروضة وأنها أسست فى سنة ٥٤هـ، ويلوح أن ذلك كان على أثر غزو الروم ثغر البرلس والخسارة الفادحة التى حلت بالمسلمين فى قتالهم. وقد سميت جزيرة الروضة حينئذ «جزيرة الصناعة» كما كانت تسمى أحيانا «جزيرة مصر»[١] ولكننا نرجح أن «الصناعة» أنشئت فى مصر قبل هذا التاريخ، فعبد الله بن سعد غزا غزوته البحرية فى سنة ٣٤هـ وليس بعيد الاحتمال أن يكون المسلمون قد بدأوا يعنون ببناء السفن الحربية منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان (٢٣ ـ ٣٥هـ) وأن قتال الروم جعل المسلمين يعنون بصناعة السفن فى جهات مختلفة من أنحاء دولتهم بعد أن كانت الصناعة فى مصر وحدها. فيذكر البلاذرى[٢] أنه لما كانت سنة ٤٩هـ هاجم الروم السواحل الإسلامية وكانت الصناعة بمصر فقط فأمر معاوية بن أبى سفيان بانشاء دار للصناعة فى عكا.

(1) Maspero et Wiet: Materiaux pour servir a la Geographie d'Egypte p. 68; et G. Wiet: Corpus Inscriptionum Arabicarum, Egypte II. pp. 197 - 199.

(٢) فتوح البلدان اص ١٧٧.

الرب الذى لم يرفض صلاتى ولم يبعد رحمته عنى.

وعاد الى اسكندريه واهتم باجتماع اتحاد الكرسيين اسكندريه مع انطاكيه، وكتب سنوديقا كما جرت العاده ممتليه من كل حكمه وارسلها الى كرياكوس بطرك انطاكيه يعلمه فيها بنياح الاب انبا يوحنا وكيف كان جلوسه على الكرسى الانجيلى، واعلمه فى رسالته عن جميع المخالفين،

ولما ولى عبد الملك بن مروان الخلافة بعث إلى حسان بن النعمان عامله على إفريقية يأمره بإتخاذ صناعة بتونس لإنشاء الآلات البحرية، وقد كتب عبد الملك بن مروان إلى أخيه عبد العزيز والى مصر أن يوجه إلى أفريقية (تونس) ألف قبطى بأهلهم وولدهم لإنشاء دار صناعة فيها. أما مهمة البربر هناك فكانت أن يجروا ويحملوا إلى دار الصناعة ما تحتاجه من خشب لصنع المراكب[1] هؤلاء القبط أسسوا كذلك ميناء تونس واعطوه اسم المدينة التى قدموا منها وهى «تنيس».

ويظهر أن بناء السفن فى مصر كان له شأن عظيم فى فجر الإسلام ولا سيما فى العهد الأموى فقد ألقت أوراق البردى شعاعاً من النور على صناعة السفن بمصر وأظهرت مهارة المصريين فى تلك الصناعة ومهارة الملاحين المصريين وتقدير الحكومة الإسلامة المركزية لتلك المهارة ومدى استغلالها على يد الأمراء المسلمين.

وقد أظهرت أوراق البردى التى كشفت فى كوم أشقاو والتى ترجع إلى عصر الوليد بن عبد الملك أن صناعة السفن كانت زاهرة بوادى النيل فى جزيرة الروضة [2] وفى

(١) أبو عبيد البكرى: المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب (طبعة الجزائر سنة ١٨٥٧م) ص ٣٨ ـ ٣٩ راجع أيضاً مقال الأستاذ فييت عن المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى ص ٣٣ - ٣٤ من كتاب «فى مصر الإسلامية» الذى أخرجه الدكتور زكى محمد حسن وعبد الرحمن زكى).

(2) Bell: (Der Islam vol. IV) P. 92

واجتهاد ابابنا على صحة الامانه وبعد كل الشقاق والمخالفين والمجمع الطمث الخلقدونى لأنه سبب الشك بجميع المسكونه، وشيعة نسطور الذين هم اليهود الجدد. وبين اتفاق الكرسيين ويدعوه ابا وشريكا فى الخدمه. وارسلها مع اسقفين فهمى الخطاب بكلام اليونانى، احدهما مرقس اسقف الفرما، والشماس جرجه قيم بيعه اسكندريه ، فلما وصلو بالسنوديقا الى البطرك كرياكوس ووقف عليها حزن على نقله [نياحة] الاب يوحنا وفرح

- -

القلزم [١] وفى الإسكندرية [٢]، فبعض تلك الأوراق يكشف لنا أن الوالى قرة بن شريك كثيراً ما يطلب من صاحب كورة أشقوه أن يرسل إليه عمالا وصناعا وملاحين للعمل فى دور الصناعة [احواض السفن] والمساهمة فى إعداد الأسطول المصرى الحربى. كما تشهد تلك الأوراق بأن الوالى كان ينفق مقدما على أجور هؤلاء العمال والملاحين الذين يعملون فى الأسطول المصرى [٣]، وكان يفرض على الكور قدراً من الأدوات والآلات المختلفة اللازمة لصناعة السفن ولتنظيفها ، وكذلك يفرض عليها[٤] تموين الملاحين الذين يشتغلون فى إعداد الأسطول[٥].

ولم يقتصر نشاط المصريين على إعداد الأسطول المصرى، بل كان والى مصر يرسل بعض الملاحين المصريين للعمل فى أسطول المغرب [٦] أو أسطول المشرق[٧] والمساهمة فى المشروعات البحرية العامة للدولة الإسلامية.

....

(1) Bell: (Der Islam vol. II)P. 277

(2) Bell: (Der Islam vol. II)P. 280.

(3) Bell: (Der Islam vol. II) PP. 271, 272, 279, 280.

(٤) هذه الحقوق للحكومة على الهيئات أو الأفراد كلها من آثار الليتورجيا Leiturgia أو الالتزامات الاجتماعية التى عرفت فى العالم القديم.

(5) Bell: op Cit. PP. 277, 279, & (der Islam Vol. XVII) P. 8.

(6) Bell: op. Cit. vol. II. P. 279.

(7) Bell: op. cit. vol. XVII. P. 6-8.

بجلوس الاب انبا مرقس والاساقفه القديسين، فلما قرى الكتب فى بيعة انطاكيه فامتلت نفوسهم فرحا عند سماعهم كلامه والحكم المملوه طيبا روحانيا التى تنبع من قلب انبا مرقس الممتلى روح القدس، وباركو الرب واعطو الطوبى للابا[ء] الذين يستحقون الجلوس على كرسى مرقس الانجيلى، ثم تعجبو من الاساقفه الواصلين من مصر بالسنوديقا لحسن منظرهم ولباسهم واتضاعهم وفصاحة منطقهم وطيب كلامهم.

ولابد أن المصريين كانوا يصنعون أيضا سفنا نيلية غير تلك السفن الحربية لأن الطريق المائى فى مصر كان يستخدم كثيرا للنقل [1] والتجارة فى ذلك العهد. وطبيعى أنه كانت هناك سفن بحرية معدة للتجارة الخارجية.

وقد ظلت صناعة السفن الحربية زاهرة فى مصر فى العهد العباسى أيضا، فيذكر المقريزى (الخطط جـ٣ ص ١٩١) أنه بعد أن نزل الروم دمياط فى سنة ٢٣٨هـ فى خلافة المتوكل وفى ولاية عنبسة بن اسحق على مصر «وقع الاهتمام من ذلك الوقت بأمر الأسطول، وأنشئت الشوانى [2] برسم الأسطول، وانتدب الأمراء له الرماة، فاجتهد الناس بمصر فى تعليم أولادهم الرماية وجميع أنواع المحاربة وانتخب له القواد العارفون بمحاربة العدو، وكان لا ينزل فى رجال الأسطول غشيم ولا جاهل بأمور الحرب.

وكتب المقريزى أن بعض مناطق وادى النيل كان بها أشجار لا تحصى من سنط ، لها حراس يحمونها حتى يعمل منها مراكب الأسطول فلا يقطع منها إلا ما تدعو الحاجة إليه، وكان فيها ما تبلغ قيمة العود الواحد منه مائة دينار. ويذكر أيضاً أنه كان لا يباع مما فى البهنسا

(١) انظر مقال فييت عن المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى ص ٤ ـ ٦.
(٢) الشونة: المركب المعد للحرب والجمع شوان.

وقامو عند البطرك [كرياكوس] اياما قليلا ووعهم بكرمات تضاهى البطركية، وكتب معهم كتب السلامه بتمجيد ابينا القديس مرقس البطرك. ولما وصلو الى مصر وقريت كتب البطرك كرياكوس ببيع مصر مجدو الشعب الله وفرحو باتحاد الاتنين بعضهما مع بعض.

ونذكر ايضا امر فعله الرب فى ايام ابينا مرقس لتفرح قلوبكم وتعرفو انه قد ضاهى الاب ساويرس

إلا ما فضل عن احتياج المصالح السلطانية. ولكن المقريزى (الخطط جـ١ ص ١١٠ ـ ١١١) يعود فيقول إن هذا بطل جميعه فى زمانه أى فى عصر المماليك واستولت الأيدى على تلك الأشجار فلم يبق منها شئ البتة ونسى هذا من الديوان وان كنا لا نعرف متى نشأ هذا النظام ومتى ألغى، فان من المحتمل أن هذا الاهتمام بالأخشاب يرجع إلى عهد الولاة ولا سيما فى نهايته.

ومما يذكره المقريزى أيضان أن القرظ وهو ثمر شجر السنط كان لا يتصرف فيه إلا الديوان واذا وجد مع أحد شئ منه اشتراه من غير الديوان نكل به واستهلك ما وجد معه، فإذا اجتمع مال القرظ أقيم منه مراكب تباع. ولكنه يضيف أن ذلك كله بطل فى عصر المماليك.

ومن هذا نرى أن صناعة السفن فى مصر، وخاصة السفن الحربية المعدة لمحاربة الأعداء وللدفاع عن الشواطئ، كانت من أهم الصناعات فى فجر الإسلام كما أن المصريين كان لهم الفضل الأكبر فى عظمة الدولة الإسلامية البحرية، إذ كانت الخلافة تعتمد عليهم فى إنشاء أسطولها الحربى. بل المعروف أن بناء السفن كان فى البداية بمصر فقط وظل كذلك إلى زمن معاوية بن أبى سفيان. وحتى بعد ذلك العهد كانت الخلافة تستخدم العمال المصريين فى دور الصناعة التى أنشاتها فى المشرق والمغرب كما يتبين من أوراق البردى.

وكيرلس وديسقرس هولا الذين ابعدو المخالفين فى زمانهم، كان بمصر قوم يعرفون ببار سنوفه(*) ويسمون ايضا «من ليس لهم راس» اقامت هذه الهارسيس زمانا كتير من ايام بطرس البطرك الذى جلس بعد طيماتاوس المعترف فى زمان زينون الملك الدين، كانو بعد هذه المدة باقين خلافهم، فحزن الاب مرقس الذى يهتم بخلاص انفس الناس ودعا الى الرب من اجلهم، ويقول : يارب القوات الابدى النور الذى لا يدرك ولا يلمس ولا يشاهده

(*) انظر الجزء الأول من الكتاب ومن المعروف أن هذه الجماعة ظلت منتشرة فى مصر ولها عدد كبير من الاتباع حتى أن البابا مرقس البطرك رقم ٤٩ أقام لهم كنيسة عرفت باسم «بيعة البطريك» بعد أن تبعوا بطركيته.

ونلاحظ أن الدولة الإسلامية التى كانت تخشى غزو البحر حتى خلافة عمر بن الخطاب استطاعت بعد ذلك أن يكون لها شأن فى البحر. فمنذ أيام عثمان بن عفان بدأ المسلمون يمتلكون بعض الجزر فى البحر المتوسط، واستطاعت مصر فى خلافته أن تهزم الروم فى موقعة ذى الصوارى البحرية. وقد سميت بهذا الاسم لكثرة صوارى السفن التى التحمت فى القتال فيها، وتسمى فى الكتب الأوربية واقعة فونيكه Phoenicus وربما كان ذلك لوقوعها بالقرب من ثغر فونيكة غربى الأسكندرية [١]. الحق أن هذه المعركة كانت نصرا بحريا كبيرا على البيزنطيين. ومما ذكره المقريزى فى وصفها أن قسطنطين بن هرقل [٢] قدم لغزو الإسكندرية سنة ٣٤هـ على رأس أسطول من نحو ألف سفينة. وكان عبد الله بن سعد قد أنزل نصف جنوده إلى البحر ثم فوجئ بقدوم العدو وعلم من أحد الرسل أو المراقبين أن الروم أقبلوا فى

(١) Justus Perthes: Atlas Antiquuis Tab 18 D 3 ولكن معظم المستشرقين يرون أن هذه الواقعة البحرية حدثت فى آسيا الصغرى بجوار ثغر فونيكس Phoeinx راجع M. Canard: Expedition des Arabes Contre Constantinople dans l'Hisoire et dans la Legende (Journal Asiatique, Janvier - Mars 1926 وانظر ماكتبه الدكتور زكى محمد حسن فى هذا الصدد فى عدد شهر مايو سنة ١٩٤٤ من مجلة المقتطف ص ٤٨٢ - ٤٨٣.

(٢) يجدر الإشارة هنا أن امبراطور البيزنطيين حينذاك كان قسطانز بن هرقل لا قسطنطين كما تذكر المراجع العربية.

احـد ولا يدنو اليـه، الذى ينظر الى الخليـقـه التى خلقـهـا بيـده وهى غـارقـه فى عـمق الخطيـه لاجل الخلاف صنعت لنا خلاصا بسر لا يدرك، وجعلت الارض مثل السـما بموتك وقيامتك المقدسه كما قال بولس الحكيم لكى يجمع الامم اليه بالسـلامه بقوة صليبه الذى اهلك العدو، وبشرنا بالسـلامة للقريب والبعيـد، ومضيت الى الجبل حتى رددت الخـروف الضـال وخلصـتـه من فم الديب الردى، ولم تاخده بسيف ولا سوط بل برحمتك العظيمة،

ألف مركب (؟!) بقيادة قسطنطين بن هرقل «وكانت مراكب المسلمين مائتى مركب ونيفا فقام عبد الله بن سعد بين ظهرانى الناس فقال: بلغنى أن ابن هرقل قد أقبل عليكم فى ألف مركب فأشيروا على . فما كلمه رجل من المسلمين فجلس قليلا لترجع إليهم أفندتهم ثم قام ثانية فكلمهم فما كلمه أحد فجلس، ثم قام الثالثة فقال إنه لم يبق شئ فأشيروا على، فقام رجل من أهل المدينة كان متطوعاً مع عبد الله بن سعد فقال: أيها الأمير إن الله جل ثناؤه يقول كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين فقال عبد الله اركبوا فركبوا. وانما فى كل مركب نصف شحنته لأنه قد خرج النصف الآخر إلى البر... فلقوهم فاقتتلوا بالنبل والنشاب وتأخر ابن هرقل لئلا تصيبه الهزيمة وجعلت القوارب تختلف إليه بالأخبار فقال: ما فعلوا؟ قالوا: قد اقتتلوا بالنبل والنشاب فقال: غلبت الروم. ثم أتوه فقال: ما فعلوا؟ قالوا : قد نفذ النبل والنشاب فهم يرمون بالحجارة فقال غلبت الروم . ثم أتوه فقال: ما فعلوا؟ قالوا: قد نفدت الحجارة وربطوا المراكب بعضها ببعض يقتتلون بالسـيوف. قال: غُلبت الروم (بضم الغين)!

وانتهى الأمر بأن أصبحت الدولة الإسلامية سيدة فى البحر المتوسط. والبك نص ما ذكره

ولم تقنع بعودته لكن دعوت القوات السماويه والطغمات الملايكيه العلويه لكى يفرحو معك، اذ قلت لهم فى إنجيلك: «افرحو معى لوجود خروفى الضال»(*). والان يارب اسمع صلاة عبدك وليدخل دعاى امامك بسبب هذه الخراف الضاله ولتجمع اعضا [ء] بيعتك ليكونو قطيعا واحدا وراعيا واحدا كالقول الصادق فى الانجيل . فسمع الرب دعاه بسرعة فحرك قلوب ريسا تلك الهارسيس، وكان مقدمهم اسمه ابراهيم وابوه

(*) متى : ١٨ / ١٢ ، ١٣ .

ابن خالدون «المقدمة» (فصل ٣٤) عن عظمة المسلمين فى هذا البحر من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه، فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم بشئ من جوانبه وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة واقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم والأفرنج»

وإذا كان الفضل لعظمة الخلافة البحرية يرجع إلى الشعوب التى فتحوها والتى تعلموا منها هذا الفن والتى استخدموها فى حاجاتهم البحرية فلنا أن نقول غير مبالغين بأن الفضل الأكبر والأول يرجع إلى مصر والمصريين

وليس فى المراجع العربية ما يمكننا بوساطته أن نعرف شيئاً يستحق الذكر عن أشكال السفن الحربية المصرية ومعداتها فى فجر الإسلام، ولكن أكبر الظن أنها لم تكن تختلف كثيراً عن السفن المعروفة عند الروم فى ذلك العصر لأنها كانت من صناعة عمال تأثروا بالأساليب المعروفة عند الرومان والبيزنطيين، بل إن السفن التى صنعت بمصر للمسلمين فى البداية «أخذت أشكالها من سفن الروم التى استولى عليها عمرو بن العاص فى واقعة

الجسدانى جرجه كان اسقفا لهم وهو علمهما ان يعرفا الضلاله التى كانو فيها وتركو ينبوع ما[ء] الحياه من الكرسى الانجيلى وحفرو لنفوسهم بير السقطة كما قال ارميا النبى. فقاما مسرعين وحضرا عند الاب البطرك انبا مرقس الجديد وطرحا نفسيهما بين يديه وسجدا له قايلين: مبارك الله الذى انار علينا بتعاليم قدسك التى وصلت الى مسامعنا وردنا من الضلاله التى غشيت علينا طول هذه المده، نحن الآن محسوبان من خرافك

- -

الإسكندرية»[1] طبيعى أن المراكب الحربية كانت متنوعة فى أحجامها وأغراضها كما تدل على ذلك الأسماء المختلفة التى اطلقت عليها بعد ذلك مثل الحراقات والشونات والطرادات والعشاريات والشلندات والمسطحات [2]. وإذا كنا لا نعرف تماما معدات تلك السفن وأسلحتها فإننا نظن أنها كانت تشبه ما عرف بعد ذلك عن السفن الحربية الإسلامية فى العصور الوسطى، وكان فى بعضها أبراج وقلاع للدفاع والهجوم وفى بعضها منجنيقات وآلات تقذف النفط، وكان بعضها لحمل المؤن لرجال الأسطول والبعض الآخر لحمل الخيل[3].

(١) اسماعيل سرهنك: حقائق الأخبار عن دول البحار جـ٢ ص ٢٢

(٢) انظر الدكتور زكى محمد حسن: كنوز الفاطمين ص ٥٠ حاشية ٥ وما جاء فيها من مراجع وانظر مادة سفينة فى ملحق دائرة المعارف الإسلامية.

(٣) راجع جورجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى جـ ١ ص ١٨٠ - ١٨٢ عبد الفتاح عبادة: سفن الأسطول الاسلامى وأنواعها ومعداتها (فى أعداد السنة الحادية والعشرين من مجلة الهلال ثم طبعت مستقلة بمطبعة الهلال سنة ١٩١٣م).

مـثل اولادك الذين لكرسـيك الانجـيلى الذى للقـديس مـارى مـرقس، فلمـا راى ابينا البطرك رفـضهـمـا مـا كـانا عليـه وعـودتهـمـا الى القطيع الروحانى فرح جدا ومجد الله لاجل ذلك، وقال التسبيح الذى ينبغى كما قال داود المسبح لله فى المزمور(*): «اذا رد الرب سبى شعبه صرنا كالمتعزين فليفرح يعقوب وليتهلل اسرايل.

(*) مزامير: ١٤ / ٧.

ومن نعمه المضيه فى ابينا القديس البطرك اراد

موقف مصر من الحركات السياسية والدينية التى ظهرت فى الخلافة

بعد وفاة الخليفة عثمان مباشرة ظهر الخلاف مرة أخرى بين المسلمين حول مسألة الخلافة ومن الذى يتولاها، وهل هى إرث فى بيت النبى محمد وفى فرع معين من هذا البيت كبنى هاشم أو بنى أمية، أم يتقلد أمرها أى فرد كفء لها بغض النظر عن القبيلة التى ينتسب إليها. فالدين الإسلامى لم ينص على شكل حكومة معينة للأمة العربية أو لغيرها من الأمم، ولم يعهد الرسول إلى شخص معين من بعده ليكون زعيما للعرب يتولى الإشراف على أمورها الدنيوية والدينية.

وكان امتناع العباس عم الرسول وعلى بن أبى طالب وطلحة والزبير وغيرهم ممن لم يرضوا بمبايعة أبى بكر الصديق بالخلافة إيذانا بما حدث بعد ذلك من انقسام المسلمين إلى سنين وشيعيين. وكثر النزاع حول الخلافة ومن يتولاها، وكان هذا النزاع تارة بالكلام والجدل وتارة بالسيف والحرب، وقد اتبع كل فرقة أو حزب من الأحزاب التى نشأت أفراد عديدون، إما إيمانا بعقائدها ومبادئها، وإما رغبة فى منفعة أو مصلحة مادية تعود عليهم.

وقبل أن نعرض للكلام عن الحركات التى قامت فى الخلافة والتى اشتركت فيها مصر،

ان يجرب ويكشف امانة الرجلين ان كانا متضعين كما ينبغي لمن يريد ان يعود الى المسيح، ام هما لابسان الكبريا[ء] لاجل الرياسه التى كانا فيها، حينذ قال لهما بتواضع ورحمه: اعلما ما قاله الذى فيه ينبوع الرحمه لسان العطر بولس فى بعض رسايله: ما نصيب المومن من غير المومن، وما مسرة المسيح مع الشيطان، وانتما الان مع الشيطان فلا نظنا انكما تقيمان فى هذا الطقس الذى انتما فيه مما اخذتماه من هذه الملة المخالفه

يجدر بنا أن نشير إلى أن الذين اشتركوا فى تلك الحركات لم يكونوا من المصريين الوطنيين الذين اعتنقوا الدين الإسلامى، وانما كانو من الجند العربى الذين استقروا بمصر أو من الأجناد الأخرى الذين أتوا إليها فى عهد الدولة العباسية. أما المصريون أنفسهم سواء أكانوا من الأقباط أو من الذين أسلموا بعد الفتح فلم يشتركوا فى تلك المنازعات ـ إذا استثنينا معاونتهم إلى حد ما للعباسيين ضد الأمويين.

١. الحركات السياسية والدينية زمن الخلفاء الراشدين

(٢٠.٤٠ هـ= ٦٤٠.٦٦٠م)

أ. موقف مصر من الحركة التى قامت ضد عثمان بن عفان

ظهر النزاع حول الخلافة بأجلى مظاهره فى الثورة التى قامت ضد الخليفة عثمان بن عفان، إذ احتكم فى ذلك النزاع إلى السيف بدلا من أن يحكم العقل واللسان، وكانت هذه أول مرة يحتكم فيها إلى السيف فى النزاع الخليفى الذى يدور حول مسائل الحكم والملك.

فلم تمض ست سنوات من حكمه حتى بدأت تسرى ضده حركة تذمر فى الولايات المختلفة وقد ترأس هذه الحركة عبدالله بن سبأ الذى أخذ يتنقل فى البلاد يدعو إلى الثورة ضد

بغير وسم حسبما فى القوانين، ولم تحل عليكما روح ا لقدس الهابطه على الابا الاساقفه عند قرا[ء]ةالصلاه القانونيه التى قررها الابا[ء] الحواريون عليهم. فلما سمعا ذلك منه اجابا بالاتضاع لما صار اليهما من النعمة بدعا الاب القديس فقالا له: يا ابانا القديس ومن الان ما نستحق ان نكون فى طقس ولا نبقى فيه لكنا اتينا اليك لنكون تحت ظل صلواتك، ولكنا نطلب منك شيا واحدا ان تسال الرب فى ان يغفر لنا اثم

عثمان، فبدأ بالحجاز ثم البصرة والكوفة والشام، ولكن يظهر أن محاولاته لم تكن ذات بال فى تلك البلدان، فلم ينجح فى الحجاز أو الشام وعندما أتى إلى مصر وجد أن الحالة فيها كانت مهيأة للثورة ضد عثمان فأخذ ينشر دعايته وتعاليمه، فكان مما نشره مذهب الرجعة. وأخذ يقول إنه يعجب ممن يقول إن عيسى يرجع ويكذب برجوع محمد عليه الصلاة والسلام وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[١]، ولذا فإن محمدا أحق بالرجوع من عيسى. كذلك نادى عبدالله بن سبأ بمذهب الوصاية، فذكر أن لكل نبى وصى وعلى بن أبى طالب وصى محمد ﷺ، ولما كان محمد خاتم الأنبياء فإن عليا خاتم الأوصياء، أى أن عثمان قد اغتصب الخلافة من وصى الرسول، وبذلك حرض ابن سبأ جند العرب فى مصر على الوثوب على عثمان لأخذه الخلافة بغير حق[٢].

وقد أنكر المتمردون على عثمان أموراً، منها الدور الفخمة التى شيدها لأهله وبناته بالمدينة، وتوليته أهله وبنى عمه من بنى أمية على الأعمال والولايات دون غيرهم[٣]، كذلك قالوا إن

(١) سورة القصص آية ٨٥.
(٢) الطبرى: تاريخ الاسم والملوك ج ٥ ص٩٨، خطط المقريزى. ج٢ ص٣٣٤.
(٣) ابن قتيبة: الامامة والسياسة ج١ ص٣٦.

ما كنا عليه من الضلالة والتفريط. وقالا هذا بقوة ايمان واعتراف، والتمسا منه دواه وقرطاسا وهما جالسان بين يديه وكتبا بخطهما انهما يحرمان نفسيهما وانهما لا يلتمسان منه طقس اسقفيه ولا كهنوت في موضع من المواضع . فلما نظر قوة امانتهما ورجوعهما الى الأمانه الارتدكسيه التى لابائنا القديسين اللابسين النور بارك عليهما من عمق قلبه قايلا كما قال بولس الرسول: اله الرجا يملوكما من كل فرح وسلامه لتكثرا في الايمان

عثمان وسع على نفسه وعلى أهله بخلاف أبي بكر وعمر اللذين اعتادا التقلل والكف عن أموال المسلمين، فنفر المسلمون من ذلك التبذير وعهدهم قريب بضبط أبي بكر وعمر[1]، وزعموا أيضا أن الوليد بن عقبة صلى بالناس الصبح وهو أمير عليها أربع ركعات وهو سكران ثم قال لهم: إن شئتم أن أزيدكم ركعة زدتكم. فلما بلغ عثمان ذلك لم يسرع إلى إقامة الحد عليه بل أخر ذلك[2].

ولم يغفل فيلسوف المؤرخين ابن خلدون[3]، ما انطوت عليه هذه الحركة، فقد أوضح أن المسألة لم تكن مسألة عثمان إنما كانت عود إلى الجاهلية ونزاع بين القبائل على السيادة، وأنفة بعض القبائل العربية مثل بنى بكر بن وائل وعبدالقيس وربيعة والأزد وكندة وتميم وقضاعة وغيرهم، من سيادة قريش، فأظهروا الطعن فى ولاة عثمان وفى الخليفة نفسه، فلما وصلت تلك الأخبار إلى الصحابة بالمدينة ارتابوا لها وحملوا عثمان على النظر فى الأمر.

ومما يدل على أن المسألة كانت مسألة أغراض مختلفة ما رواه الطبرى[4] من أنه عندما

(١) ابن طباطبا: الفخرى ص٨٦.
(٢) ابن قتيبة: الامامة والسياسة ج١ ص٣٦.
(٣) ابن قتيبة: الامامة والسياسة ج١ ص٣١.
(٤) تاريخ الأمم والملوك ج٥ ص٩٨ ـ ٩٩.

المستقيم بقوة الروح القدس. وكعادة المحبه واظهار الخير في كل وقت والمجازاة عليه اظهر لهما سرعه، ثم امر ان يوخذ الرجلان جرجه وولده ابراهيم، وبعد ان تحقق نياتهما اوسمهما اسقفين وقرا عليها الصلاة القانونيه والبسهما ثياب الاسقفيه . وكان ذلك ببيعة الشهيد مارى مينا بمريوط في يوم عيده الجليل وهو الخامس عشر من هتور، وجميع الشعب الارتدكسى مجتمع لعيد الشهيد وكان الجمع قياما على اطراف اصابع ارجلهم ينظرون ما

أوانى مار مينا التى كان يحمل فيها الماء المقدس.

حرض عبدالله بن سبأ جند العرب فى مصر على الطعن فى أمراء عثمان «واظهار الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر». أخذ جند العرب فى مصر يكتبون الكتب إلى الأمصار المختلفة فى عيوب ولاتهم، ويكاتبهم أخوانهم فى مثل ذلك، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يحدث، حتى «أوسعوا الأرض إذاعة وهم يريدون غير ما يظهرون ويسرون غير ما يبدون، فيقول أهل كل مصر إنا لفى عافية مما ابتلى به هؤلاء. إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار فقالوا إنا لفى عافية مما فيه الناس».

ويظهر أن الخليفة عثمان كان يجهل تلك الحركة فى بادىء الأمر، إذ أنها كانت حركة سرية. ويظهر أيضا أنها وصلت إلى مسامع الصحابة بالمدينة أولا فأعلموا عثمان بها وأشاروا عليه بأن يرسل رجالا ممن يثق بهم إلى الأمصار المختلفة ليتبين ذلك الأمر ففعل، وأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة وأسامة بن زيد إلى البصرة وعبدالله بن عمر إلى الشام وعمار بن يسار إلى مصر، وأرسل غيرهم إلى سائر الجهات، فلما عاد الرسل إلى عثمان أخبروه أن الحالة على ما يرام وأن أهل البلاد لا ينكرون شيئاً وأن أمراءهم يقسطون بينهم ويقومون عليهم، ولكن عمار بن ياسر الذى أرسله الخليفة إلى مصر تخلف ولم يعد إلى المدينة، ولشد ما كانت

كـان ويمجـدون الرب الصـانع العجـايب على يد هذا القديس قايلين: المجد لك يا محب البشر الذى انقذ نفسى هذين من عبودية الشيطان المضل.

ثم لما اكـمل العـيـد المقـدس عـاد الى مـدينة اسكندريه وجميع الشعب بفرح عظيم ويمدحون الاب البطرك لانه قـدم للرب هذا القـربان واخـذ هذين الاسقفين اليه ولازمهما.

وبعد قليل تنيح اسقفان من جمله الاساقفه

دهشتهم عندما أرسل واليها عبدا لله بن سعد كتابا إلى المدينة يقول إن قوما استمالوه، منهم عبدالله بن سبأ وخالد بن ملجم وكنانة بن بشر(١).

ويجدر بنا الآن أن نعرف موقف الجند العرب المتمردين فى مصر وكيف كانت هذه البلاد سببا فى تعجيل الحوادث وفى إشعال نار تلك الثورة التى انتهت بقتل الخليفة عثمان بن عفان، والتى كانت سببا فى انقسام المسلمين على أنفسهم انقساما طال أمده وتعددت مناحيه.

كان عبدالله بن سبأ طرد من البصرة والكوفة ولم يلق أى نجاح فى الشام، ثم قدم إلى مصر فوجد جندها من العرب متهيئة لقبول دعوته وللطعن فى عثمان، وهذا الأمر يستلفت النظر ويدعو الباحث إلى أن يتساءل عن السبب فى ذلك؛ فلم نجحت دعوة ابن سبأ فى مصر نجاحا كبيراً؟ ولم يطرد منها كما حدث له فى البصرة أو الكوفة مثلا؟ نحن لا نجد فى المصادر القديمة ذكر السبب فى ذلك، ولكن إذا أعوزتنا الأدلة النقلية فلا بأس من أن نلجأ إلى الأدلة العقلية. ويظهر أن الدعوة ضد عثمان نجحت نجاحا كبيراً فى مصر لأن أفراد القبائل العربية التى لا تنتمى لقريش ومن بينهم بعض الصحابة والمجاهدين الذين استقروا بمصر وكذلك الانصار من أهل المدينة بل واليهود الذين شتتهم أبو بكر وعمر بن الخطاب خارج الجزيرة

(١) الطبرى ج٥ ص٩٩، تاريخ ابن خلدون ج٢ ص١٣٩، خطط المقريزى ج٢ ص٣٣٤ ـ ٣٣٥.

بكورة مصر احدهما بقيره اسقف طنبذا ومينا اسقف اتريب ، فقسم ابراهيم على اتريب وجرجه اباه على طنبذا، وصار هذان الاسقفان مصطفيين عنده إلى يوم نياحتهما، والمجد للسيد يسوع المسيح الذى يفرح بكل من يعود الى الحياه.

فلما نظر البرسنوفيون المقدم ذكرهم الذين كانوا بكورة مصر [الفسطاط] ان ريساهم قد عادو ارتدكسيين ولم يبق لهم اساس كتبو الى انبا مرقس

العربية وخاصة إلى مصر رأوا فيها فرصة للقيام ضد الخلافة القرشية، وهم فى ذلك لم يقصدوا الخليفة عثمان نفسه وانما أرادوا زعزعة سيادة قريش خاصة الفرع الأموى الممثل فى عثمان وبنى أمية، فقد كرهوا تلك السيادة التى زادت منذ ظهور الإسلام. على أنه وجد أيضاً فى مصر بعض القرشيين الذين ثاروا ضد عثمان ولكنهم ليسوا من الفرع الأموى بل من بنو هاشم الفرع النبوى المناهض للأمويين، وعلى رأسهم محمد بن أبى بكر الصديق ومحمد بن أبى حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، ولا يبعد أن يكون هؤلاء ممن طمعوا فى الخلافة نفسها، فهم يرمون سيادة قريش بالطبع، ولكن ربما حدثتهم أنفسهم وسط حركة التذمر التى سرت بين الناس أن يلقوا دلوهم فى الدلاء علهم يصلون إلى منصب الخلافة أو إلى أى منصب عظيم فى الدولة الإسلامية. كان عبدالله بن سبأ ذا مواهب متعددة جعلته يجذب الكثيرين إلى تعاليمه، ولم يكن تأثيره عظيما على العامة فحسب، بل نرى أيضاً أنه استطاع بمهارته أن يجذب إليه رجالا من أئمة الحديث وأن يؤلبهم على عثمان، مثل عمار بن ياسر الذى كان عثمان قد أوفده للاستفسار عن حقيقة ما قيل بصدد التذمر والثورة ولكنه تنكر للخليفة ولم يعد إليه.

واستطاع عبدالله بن سبأ أن يجذب إليه أيضا أحدكبار أئمة الحديث، كان مقيما بالشام عندما كان ابن سبأ يتنقل فى الأمصار المختلفة ليثير الناس ضد عثمان، ذلك هو أبو ذر

يسـالونه ان يمضى اليـهم ليكرز بيعهم، فلما وقف على الكتب فرح فرحا عظيما وترك جميع اشغاله ومضى مسرعا الى مصر وكرز لهم البيع والديارات وجعل لهم القداسات بالناموس البيعى واعطاهم السراير المقدسه جسد ودم السيد يسوع المسيح الاهنا. وكان بفسطاط مصر فرح عظيم ومسره روحانيه.

وكان السيد يسوع المسيح يفعل مع ابينا

- -

الغفارى(١) . وكان هناك فريق من الصحابة يفضل علياً على غيره، وطبيعى أن يكون فى مصر فريق ممن يؤمنون بأن علياً أحق بالخلافة ممن عداه.

وهكذا نرى أن التمرد ضد عثمان كان الباعث عليه اتجاهات وميول مختلفة، فمن متذمر من خلافة قريش وسيادة الفرع الاموى، ومن طامع فى الخلافة ومن شيعى خرج مؤمنا بحق على بن أبى طالب فى الخلافة، وقد تتجمع هذه العوامل المختلفة فى بلد آخر غير مصر. ولكن يظهر أن الذى ساعد على نجاح تلك الحركة فيها والذى سهل على ابن سبأ القيام بمهمته هو انشغال والى مصر إذ ذاك، عبدالله بن سعد بن أبى سرح، بالحروب الخارجية التى قام بها، إذ غزا النوبة سنة ٣١هـ وغزا شمال إفريقية سنة ٢٧هـ كما حارب الروم فى وقعة ذى الصوارى سنة ٣٤هـ(٢) ، وفى هذه الأثناء بالذات كان عبدالله بن سبأ يقوم بدعوته وفى سنة ٣٤هـ كان المتمردون على عثمان من جند العرب فى مصر والأمصار المختلفة يتكاتبون للاجتماع لمناظرته فيما كانوا يذكرون أنهم نقموا عليه بسببه(٣) ، أى أن الحركة التى كان يدعو إليها ابن سبأ والتى كان مركزها فى مصر كانت قد اختمرت وخرجت إلى دور العمل والتنفيذ فى السنة التى كان يغزو فيها عبدالله بن سعد الروم، ويظهر أن عبدالله بن سعد لم يعلم بأمر هذه

(١) الطبرى ج٥ ص٦٦.
(٢) الكندى: الولاة والقضاة ص١٢ ـ ١٣.
(٣) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك ج٥ ص٩٢.

القديس مرقس كلما يساله فيه، وكانت كل الجموع تجتمع اليه لتسمع كلامه وتعاليمه العذبه.

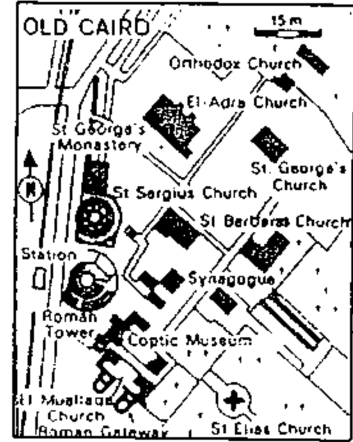

ومن بعد ايام قليل نظر تلك البيعه التى كرسها للبرسنوفيين اصحاب تلك المقاله اذا دخل اليها ليقدس [فوجدها صغيره] لا تسع الجموع فدعا بالصناع وانفق عليها من عنده حتى بنيت بنا حسنا وسميت بيعة البطرك الى يومنا هذا.

وكانت هذه النعمة العجيبة تنمو فى ايامه، فلم

الثورة إلا سنة ٣٥هـ بعد رجوعه من غزوة ذى الصوارى كما يخبرنا بذلك أبو المحاسن[(١)]، فليس هناك ما يشير إلى أنه علم بهذه الحركة قبل ذلك الوقت وإلا لما تغافل أو تعامى عنها وهو أخو عثمان فى الرضاعة وموضع ثقته.

وتذكر بعض المراجع المتأخرة أن الذى ساعد على نجاح تلك الحركة فى مصر هو سخط اجناد العرب بها على واليها عبدالله بن سعد لأنهم كرهوا أن يليهم بعد عمرو بن العاص ولأنه استخدمهم فى قتال أهل المغرب وغيرها[(٢)]. ولعل عمرا نفسه ـ وهو المعروف بدهائه العظيم ـ كانت له يد فى إثارة الاضطراب بمصر ليفسد الأمر على خلفه عبدالله بن سعد. ولعل كثيرا من الجند العرب فى مصر أصبحوا لا يرحبون بقتال أهل المغرب إما رغبة فى الراحة أو استخفافاً بنتائج هذا القتال وما يصيبونه فيه من غنائم قليلة لا تبرر تركهم مصر الغنية بالاسلاب.

ولنرى الآن ما تم من أمر هذه الحركة وإلى أى حد نجح المتمردون فى حركتهم.

وفد عبدالله بن سعد بن أبى سرح إلى عثمان بن عفان بالمدينة فى رجب سنة ٣٥هـ واستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهنى فى قول، أو السائب ابن هشام بن كنانة العامرى

(١) النجوم الزاهرة ج١ ص٨٠.
(٢) النجوم الزاهرة ص٨٠، السيوطى: حسن المحاضرة جـ٢ ص٢.

يصبر العدو [الشيطان] عند نظره السلامه والامور العلويه والوصايا التى ثبتها فى قلوب المومنين وتخلص السبى الذى عاد بصلواته، فاطلق سهاما فى بيعة المشرق وعمل فى مطران من مطارنة كرياكوس البطرك بانطاكية يسمى إبراهيم حتى انه قال كلاما معوجا فى سراير المسيح ما لا اردنا ذكره لولا الضرورة لكى لا ينجس مسامع المومنين الاصفيا سماعه لانى اعلم انكم مشتملون بالنعمه فى كل حين بنور البشير مارى مرقس، لان

فى قول آخر[1]، ولكن خليفته عليها طُرد من الفسطاط فى شوال من السنة المذكورة على يد محمد بن أبى حذيفة الذى أخذ يدعو الناس إلى خلع عثمان ويحرض عليه بكل الوسائل الممكنة لدرجة أنه كان كما يذكر المقريزى[2] يكتب الكتب على لسان أزواج الرسول عليه الصلاة والسلام ويدعى أنهن كتبنها ويقرأها فى المسجد فإذا فيها الاستغاثة مما عمل فى الإسلام وما صنع فى الإسلام، وبالطبع صدق أناس وكذب آخرون وبالطبع كان لعثمان شيعة فى مصر فناوأوا ابن أبى حذيفة وأرسلوا إلى عثمان من يخبره بصنيعه، ومن بين شيعة عثمان فى مصر معاوية بن حديج وخارجة ابن حذافة ومسلمة بن مخلد وبسر بن أبى أرطاة وغيرهم كثير[3].

وأراد عثمان بن عفان معالجة الموقف باللين والسياسة لا بالعنف والشدة، فأرسل سعد بن أبى وقاص عله يستطيع أن يصلح بين المصريين ويصل إلى حل فى المسألة. ولكن سرعان ما خطب ابن أبى حذيفة فى أتباعه يحضهم على التماسك وألا ينخدعوا لرسول عثمان بدعوى أنه جاء ليشتت أمرهم ويفل عزيمتهم، وكان لكلامه أكبر الأثر فى أتباعه إذ سار إلى سعد بن

---

(١) الكندى: الولاة والقضاة ص١٣ ـ ١٤، خطط المقريزى جـ٢ ص٣٣٥.
(٢) الكندى ص ١٤، المقريزى جـ٢ ص٣٣٥.
(٣) الكندى: الولاة والقضاة ص ١٥، خطط المقريزى جـ٢ ص٣٣٥.

بصلوات ابينا البشير الإنجيلى لا تخليه الى الابد من النعمه. وهذه الضلاله التى ضل فيها ذلك المطران بتجديفه على السراير. حينئذ لما سمع ابونا مرقس حزن جدا وقال: ما الذى نربح اذا كنا الزمان كله باتحاد واحد فى الامانه فتظهر هذه المقاله الغريبه فى بيعة انطاكيه وهذا الوجع هو لى من اجل اتحاد الابا[ء] الارتدكسيين الذى نحن وهم متمسكون به ولاسيما لقول بولس(*) «اذا تالم عضو واحد من الجسد فقد تألمت جميع الاعضا، واذا تمجد عضو

(*) رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس: ١٢ / ٢٦ .

أبى وقاص نحو مائة شخص فأساءوا إليه واضطروه إلى العودة من حيث أتى. وما لبث عبدالله بن سعد أن أتى مصر إلا أنه لم يكد يبلغ جسر القلزم حتى منعه أتباع ابن أبى حذيفة من الدخول فيها، فطلب منهم أن يسمحوا له بالدخول ليخبر جنده بما أتى به، ولكنهم أصروا على منعه فرحل إلى عسقلان وظل بها إلى أن توفى(١) .

ولم تقف الحركة فى مصر عند هذا الحد من عصيان الخليفة، بل فكر ابن أبى حذيفة فى إرسال جيش من مصر إلى عثمان بن عفان، فأرسل ستمائة رجل على كل مائة منهم رئيس أما قائدهم الأعلى فكان عبدالرحمن ابن عديس البلوى. وكانت النتيجة أن قتل عثمان فى ذى الحجة سنة ٣٥هـ وعاد هذا الجيش ثانية إلى مصر(٢) . وهناك رواية أخرى تذكر أن وفد مصر، وكان معهم الثائرون من البصرة والكوفة، خرجوا متظاهرين بأن غرضهم العمرة(٣) ولكنهم كانوا يريدون الثورة على عثمان ابن عفان، وكان من بينهم محمد بن أبى بكر الصديق فشكوا إلى عثمان بن عفان واليه على مصر عبدالله بن سعد وطلبوا منه عزله فأجابهم عثمان إلى طلبهم وكتب بتولية محمد بن أبى بكر على مصر وعزل عبدالله بن سعد فقفل ذلك الوفد راجعاً، وبينما هم فى الطريق رأوا راكباً ارتابوا فى أمره ففتشوه وإذا معه كتاب من عثمان

(١) الكندى ص١٦ ـ١٧، خطط المقريزى جـ٢ ص٣٣٥.
(٢) الكندى ص١٧، خطط المقريزى جـ٢ ص٣٣٥.
(٣) العمرة: زيارة البيت الحرام فى غير أوقات الحج ويسمى الحج الأصغر.

واحد من الجسد قد تمجد معه جميع الجسد » ، قال هذا القديس مرقس البطرك وهو داع الى الرب.

ولاجل عظم اهتمامه بالامانه والاتحاد معهم كتب الى الاب البطرك كيرياكوس بما هذه نسخته: اتصل بنا ما قد بذره الشيطان فى بيعتكم المقدسه من ضلال ابراهيم فحزنت بيعتنا وتجمعنا لذلك لانا لم نسمع قبل هذه الايام بشى غريب

إلى عبدالله بن سعد يأمر فيه بقتل محمد بن أبى بكر ونفر ممن معه، فأخذوا الكتاب ورجعوا ثانية إلى المدينة. وقرأوه على من فيها من الصحابة وقد أنكر عثمان ذلك الكتاب وحلف لهم أنه لا يعلم من أمره شيئاً، فظنوا أن الكتاب كتبه مروان بن الحكم كاتب عثمان وابن عمه وطلبوا إليه أن يسلم إليهم مروان فلم يرض عثمان بذلك إذ أن مروان حلف هو الآخر أنه لم يكتبه. فطلبوا إليه أن يعتزل الخلافة فأبى وتمسك بها، وما لبث الثوار أن تطاولوا عليه وقتلوه أفظع قتلة وربما شجعهم على قتله ما علموا من استنجاده بمعاوية بن أبى سفيان وعبدالله ابن عامر والى البصرة وأمراء الأجناد فأرادوا أن يتموا ثورتهم قبل وصول المدد إلى عثمان خوفا من أن يقضى على حركتهم هذه بالفشل. ويقال إن محمداً بن أبى بكر هو أول من حرض الثوار على قتله وأول من دخل عليه ليقتله[1].

قد تكون الرواية السابقة صحيحة وقد يكون خصوم عثمان دسوها دساً يتهموه بالخداع أو الغفلة، خصوصاً إذا علمنا أن عبدالله بن سعد كان قد خرج من مصر قبل خروج الثائرين إلى عثمان.

ولم يضع قتل عثمان حداً لتلك الفتنة، بل كان بداية الفتن والمنازعات التى حفل بها التاريخ الإسلامى فى العصور الوسطى.

(١) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة جـ١ ص٤١ ـ ٤٨، ابن الأثير: الكامل فى التاريخ جـ٣ ص١٢٨ ـ ١٣٦.

من اتحادنا بالامانه الارتدكسيه، وما جمعه الرب وجعل جميعنا بالنور الحقيقي وصرنا الان مثل من قد سبى سبيا ويقدمه كرامة للملك، وفيما هو مهتم بهذا قام عليه شعب غريب وملك السبى لكنى اومن من ذلك الملك الذى نحن متدرعون بسلاحه لقتال اعدايه ان يخزى اعداه سريعا وينقذ السبى من ايديهم، ومن اجل ذلك ايها الاب المبارك لا تغفل عن طلب الضال واغذه بالطعام الذى يجب ان يغذى به الاعلا[ء]، الذى هو كلام

ب.أثر النزاع بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان فى مصر

كان مقتل عثمان بن عفان كما يقول ابن خلدون (١) فتنة ابتلى الله بها الأمة، فقد بويع على بن أبى طالب من بعده بالخلافة فى سنة ٣٥هـ ولكن النزاع تجدد بين المسلمين حول هذه المسألة. إذ رأى على ومن تبعه أن بيعته قد انعقدت ولزمت من تأخر عنها وذلك لاجتماع من اجتمع عليها بالمدينة. ورأى آخرون أن بيعته لم تنعقد لإفتراق الصحابة ولا تكون البيعة صحيحة إلا باتفاق أهل الحل والعقد كما أنها لا تكون صحيحة بغيرهم أو بحضور أقلية منهم، كذلك رأوا أن المسلمين كانوا حينئذ فى فوضى واضطراب فيجب أولاً المطالبة بدم عثمان ثم الاتفاق على خليفة المسلمين. وكان على رأس هذا الفريق المعارض لخلافة على، معاوية بن أبى سفيان والى بلاد الشام من قبل عثمان بن عفان وابن عمه.

وقد بادر على بعد توليه الخلافة بعزل ولاة عثمان وارسال عماله إلى الولايات، كذلك أرسل بيعته إلى جميع الأمصار. والظاهر أن البيعة جاءته من كل مكان إلا بلاد الشام التى كان يليها معاوية بن أبى سفيان، فكان لابد من نشوب النزاع بين الطرفين بينما هما يستعدان لذلك وقع على مسرح الخلاف السياسى حادث جديد. هو خروج طلحة والزبير وعائشة زوج الرسول على خلافة على واشتباكهم معه فى موقعة الجمل التى انتهت بانتصار على وقتل

(١) المقدمة ص١٧٩ (فصل فى ولاية العهد).

الله كما كتب لنا المعلم بولس يقول: ان الضعفا في الامانه أقبلوهم وايدوهم ليس بمحاورة فكر لكن بصنعة الطب، طب الاجساد الذى يعرف العلة فيها بمعالجة الاعلا[ء] تعافو وتقوو، وانت الآن طبيب الانفس، وبقدرة تعليم سيدنا المسيح تبطل الذى للعدو، والسلامة لابينا القديس المبارك امين.

فلما وصلت الكتب الى البطرك انطاكية كرياكوس تعجب من اهتمام هذا القديس واهتم

طلحة والزبير وأسر السيدة عائشة في سنة ٣٦هـ. وفي تلك الأثناء استطاع معاوية أن يستميل إليه رجلا من أكبر دهاة العرب: هو عمرو ابن العاص. ويذكر اليعقوبي [١] أن عمرو بن العاص اشترط على معاوية بن أبي سفيان أن تكون ولاية مصر طعمة له نظير مساعدته له ضد على فقبل معاوية ذلك.

سار على بن أبي طالب في أواخر سنة ٣٦هـ من الكوفة التي اتخذها مقراً لخلافته بعد موقعة الجمل ـ نحو الشام لمحاربة معاوية وتقابل الفريقان في سهل صفين، حيث نشب القتال بين الفريقين. وانتهت تلك الموقعة في صفر من سنة ٣٧هـ بحيلة ارتآها عمرو بن العاص. إذ أشار على معاوية برفع المصاحف على الرماح والنداء بتحكيم القرآن بدلا من تحكيم السيف فكان ذلك سببا في فتور أكثر جند على بعد أن كانوا قاب قوسين أو أدنى من الانتصار. وقد اختير عمرو بن العاص حكما من قبل معاوية كما اختير أبو موسى الأشعري من قبل على. وقيل إن هذا التحكيم انتهى باتفاق الحكمين على خلع على معاوية، فأعلن أبو موسى الأشعرى خلعهما، ثم قام عمرو فأعلن خلع على وتثبيت معاوية لأنه ولى عثمان والطالب بدمه وأحق الناس بأن يخلفه [٢].

(١) تاريخ ابن خلدون جـ٢ ص٢١٦ ـ ٢١٧.

(٢) انظر الطبرى جـ٦ ص٣٧ ـ ٤٠، المسعودى: مروج الذهب. جـ٢ ص٢٨ ـ ٣٣ (ط. القاهرة).

بكل جهده فى اعادة ذلك الظالم فلم يقدر عليه، وكان الشيطان يميل قلبه حتى ان جماعه ممن معه من الاساقفه باعمال انطاكيه مالو اليه وضلو معه فى هذه الضلاله وسموهم اهل المشرق الإبراهيميين(*) هولا افترقو من البيعه والمجمع الارتدكسى.

(*) شيعة الابراهيميين فى انطاكية .

فلما عاد ابونا انبا مرقس الى اسكندريه بعد بنا البيعه المعروفه به فرحو الارتدكسيون وامتلو

وقد خرج معاوية من التحكيم أقوى مما كان فقد رضى أهل الشام بخلافته، ولابد أن فريقاً غيرهم من الناس اعتقد بصحة التحكيم وبصحة خلاف معاوية، كذلك خرج فريق من أتباع على عليه بسبب رضائه بالتحكيم وهذا الفريق هو الذى يعرف بالخوارج، كما أن فريقاً آخر من جند على ملوا الحرب والنزاع، وقد عزم على على محاربة أهل الشام لاعتقاده أن الحكمين حكما الهوى ولم يحكما القرآن، وحث الناس على قتالهم فى سنة ٣٨ فتقاتلوا ولم يطيعوه إذ كانوا قد ملوا الحرب وسئموا القتال.

وقد اتفق ثلاثة من الخوارج على قتل على ومعاوية وعمرو فلم ينجح من هؤلاء الخوارج سوى عبدالرحمن بن ملجم الذى قتل علياً بالكوفة فى شهر رمضان من سنة ٤٠هـ. وبقتله انتهى عهد الخلفاء الراشدين وبايع المسلمون من بعده ابنه الحسن بن على، ولكن خلافته لم تزد على بضعة أشهر، إذ كان لا قبل له بمحاربة معاوية وجنده فتنازل له عن حقه فى الخلافة.

* * *

تجلى النزاع بين على ومعاوية بأجلى مظاهره فى مصر التى كانت مركزا للمتمردين على عثمان بن عفان. فبعد مقتله فى ذى الحجة سنة ٣٥هـ عاد الركب الذى كان قد خرج عليه إلى مصر ثانية، ويلوح أن نفراً منهم تخلفوا فى المدينة ومنهم محمد بن أبى بكر نفسه، ويظهر

جـمـيـعـهـم جـسـدا الهـيـا، فـامـا الريس المحب لله سليمان وجماعة معه فحضرو عند ابينا وسلوه سوالا كتيرا قايلين له: ان ارض مصر جميعها امتلت مسره ببنا البيع وخاصة هذه البيعه التى بنيتها بمصر [الفسطاط]، وانت تعلم يا ابانا انه من حياة ابينا انبا يوحنا سالناه فى بنا[ء] بيعه السيد المخلص ان يوسعها ويزيد فيها لاجل كونها فى وسط المدينه فلم يتفق هذا الامر وبقيت الى الان، ونحن نسلك ان تورينا هذا الفرح فى ايامك.

أن أولئك المتمردين كانوا يتوقعون أن ينتقم منهم شيعة عثمان أو أنهم كانوا كعادتهم دائما يمزجون السياسة بالدين، وذلك لأنهم لما أتوا الفسطاط ودخلوا المسجد صاحوا: «إنا لسنا قتلة عثمان ولكن الله قتله»[١] أما شيعة عثمان فى مصر فقد بايعوا معاوية بن حديج على الطلب بدم عثمان فسار بهم إلى الصعيد، ولكن ابن أبى حذيفة أرسل إليهم من يحاربهم والتقى الفريقان في إحدى قرى البهنسا فكان النصر حليف شيعة عثمان وهزم جيش ابن أبى حذيفة. ثم سار معاوية بن حديج إلى برقة ولا نعرف لماذا سار إليها ـ ثم رجع ثانية إلى الاسكندرية فأرسلى إليه ابن أبى حذيفة جيشاً آخر على رأسه قيس بن حرمل اللخمى فاقتتل الجيشان بخربتا[٢] فى أول شهر رمضان سنة ٣٦هـ فقتل قيس بن حرمل وهزم جيشه[٣]. وعلى هذا نرى أن شيعة عثمان فى مصر انتصرت للمرة الثانية على الحزب الذى ثار على عثمان ولما يمض عام واحد على مقتله.

نرى إذن أن النزاع الذى كان يقوم في حاضرة الخلافة أو حول منصب الخلافة كان يؤدى إلى فوضى ونزاع في مصر حتى تكاد تنعدم سلطة الخليفة في تلك الظروف، فنرى ابن أبى

(١) الكندى: الولاة والقضاة ص١٨ خطط المقريزى جـ٢ ص٣٣٥.
(٢) خربتا. بفتح الخاء أو كسرها كانت من كور الحو ف الغربى بالقرب من الإسكندرية (ياقوت: معجم البلدان جـ٢ ص٤١٦).
(٣) الكندى ص ١٨ ـ ١٩، خطط المقريزى جـ٢ ص٣٣٥ ـ ٣٣٦.

فأجاب الراعي الصالح وقال لهم: انتم تعلمون حسد هولا المجاورين لكم [الخلقدونيين] ومتى بدانا بعمل ما ذكرتموه فهم يرفعون فينا للسطان ويشكونا فنقع في تجربه مثل ما قد صبرنا دفعات عليهم أنا وأبي يوحنا عند بنا بيعة ميخايل الملاك «بيعة التوبه». وكلما كلمهم سألو وزادو في السوال قايلين له: صلواتك المقدسات يكن لنا حصنا حتى يكمل هذا التذكار. فلما نظر قوة إيمانهم وحموة امانتهم اجاب سوالهم واحضر

حذيفة يغتصب ولاية مصر لنفسه دون أن يعينه خليفة، كما نرى شيعة عثمان وشيعة على يقتتلان في مصر.

ويظهر أن انتصار شيعة عثمان على ابن أبي حذيفة شجع معاوية بن أبي سفيان على القدوم إلى مصر لثروتها وخيراتها الوفيرة ولموقعها الجغرافى الممتاز فوصل فى نفر من أصحابه إلى سلمنت من كورة عين شمس في شوال سنة ٣٦هـ فخرج إليه ابن أبى حذيفة وأهل مصر[١] ليمنعوه من دخولها، فبعث معاوية ـ بما عرف عنه من الدهاء وحسن السياسة إلى ابن أبي حذيفة يقول إنهم لم يجيئوا لقتال أحد وإنما جاءوا يطلبون القصاص لدم عثمان ويريدون القبض على قاتليه وهما عبدالرحمن بن عديس وكنانة بن بشر اللذين كانا على رأس الوفد الذى يذهب إلى المدينة لقتل عثمان، فلم يجب ابن أبي حذيفة طلب معاوية وقال له لو طلبت منا جديا رطب السرة بعثمان ما دفعناه إليك!! وهنا لجأ معاوية إلى الحيلة مرة أخرى فعرض على ابن أبي حذيفة وأتباعه بأن يعطوه رهنا لكى يتفادوا حربه ضدهم. فرضى ابن أبى حذيفة بذلك وخرج فى الرهن هو وابن عديس وكنانة بن بشر وغيرهم من قتلة عثمان فلما

(١) مصر هنا تعنى الفسطاط لا القطر المصرى لأن معاوية بوصوله إلى عين شمس كان قد دخل القطر المصرى فعلا وليس الفسطاط عاصمة مصر.

جماعه من الصناع والمهندسين ووضع الاساس على اسم السيد يسوع المسيح، وكانت هذه البيعه في وسط المدينه. وكان يقوم وقت الصلاه ووقت صياح الديك ليشاهد البنا مثل أحد المهندسين ويدبره لن [لأن] الرب قد انعم عليه بكل حكمه، وكان يحسب تعبه راحه لاجل محبته وشهوته للصالحات وبنا البيع. وعندما بنى البيعه المذكوره بنعمه الرب الحالة فيه زينها بكل زينه إلى ان صارت كمدا للمخالفين الخلقدونيين وفرحه وبهجه للمومنين الارتدكسيين.

بلغوا لد[1] سجنهم معاوية بها. وسار هو إلى دمشق فهربوا من السجن فتبعهم صاحب فلسطين وقتلهم في ذى الحجة سنة ٣٦هـ[2] .

واستطاع معاوية بمهارته وسياسته أن يقضى على معظم الحزب العلوى في مصر، ولا سيما الذين كانوا قد ثاروا على عثمان، دون أن يكلفه ذلك حربا أو سفك دماء. ولم يلجأ إلى حربهم أو إلى دخول مصر عنوة في وقت كان يستعد فيه لحرب يتوقف عليها مصير الخلافة بينه وبين على بن أبى طالب.

ولما بلغ عليا نبأ قتل ابن أبى حذيفة أرسل إلى مصر قيس بن سعيد ابن عبادة الأنصارى واليا عليها من قبله فدخلها في بداية ربيع الأول سنة ٣٧هـ. ويظهر أن قيسا كان من أصحاب المقدرة السياسية الذين يعرفون كيف يستميلون الرجال حتى المعادين لآرائهم ومبادئهم، فنراه يحسن إلى شيعة عثمان بخربتا ويكرمهم ويبعث إليهم بأعطياتهم. ولعل معاوية خشى أن تجعل سياسته هذه من مصر ولاية علوية لا تعرف غير على والطاعةله فيقضى بذلك على حزب بنى أمية، فعمل هو وعمرو بن العاص على إخراجه من مصر بأية وسيلة،

(١) هى الآن اللد Lydda في فلسطين على الطريق بين مصر وسوريا (لد. بالضم والتشديد.. قرية قرب بيت المقدس من نواحى فلسطين) ياقوت: معجم البلدان جـ٤ ص٣٥٤).
(٢) الكندى: الولاة والقضاة ص ١٩، وخطط المقريزى: جـ٢ ص٣٣٦.

ولما كان فى اليوم السابع عشر من توت يوم عيد الصليب اجتمع الأساقفه الذين فى كورة اسكندريه واساقفه اخر من المجاورين بمصر وكرزت البيعه على اسم السيد يسوع المسيح. فما اعظم ذلك الفرح الذى كان فى ذلك اليوم بتسبيح وبركات وتمجيد كطغمات السماويين فى العلا. وتصدق ذلك اليوم على الفقرا واهل الحاجه باشيا كثيره فما اكثر اعمال الاب الجليل مرقس البطرك التى لا يحصى لها عدد ولا يقدر لساني الناقص ان ينطق بها.

ولكنه امتنع منهما بالدهاء والمكايدة. وأخيرا لجأ معاوية إلى مكيدة استطاع بها أن يجعل عليا يشك فى إخلاص قيس بن سعد فكان معاوية يحدث رجلا من ذوى الرأى من قريش فى هذا ويقول «ما ابتدعت من مكايدة قط أعجب إلى من مكايدة كدت بها قيس بن سعد حين امتنع منى قيس». إذ تظاهر معاوية لأهل الشام بأن قيسا من شيعته وأن كتبه ونصائحه تأتيه منه وكتب بذلك إلى شيعته فى العراق، فسمع بذلك جواسيس على فى العراق، وانتهى ذلك الخبر إلى على وأراد أن يتحقق من صحته فأرسل إلى قيس يأمره بمحاربة شيعة عثمان بخربتا فرفض قيس مقاتلتهم معللا ذلك بأنهم وجوه أهل مصر وأشرافهم فمنهم مسلمة بن مخلد وبسر بن أبى أرطأة ومعاوية بن خدج وقال إن معاملتهم بالحسنى خير من قتالهم؛ فقتالهم لا يجدى نفعا وأنه فى الواقع يكيد لهم بمعاملتهم بالحسنى، ثم كتب إلى على: «إن كنت تتهمنى فاعزلنى وابعث غيرى» فعزله على وكانت ولايته على مصر حوالى أربعة أشهر. وولى على مصر الأشتر مالك بن الحارث النخعى وهو من أعوان على وكبار قواده حضر معه موقعتى الجمل وصفين. وسار الأشتر إلى مصر حتى نزل القلزم فى بداية رجب سنة ٣٧هـ، وهناك شرب عسلا فمات مسموما. ولما سمع بذلك معاوية وعمرو قال عمرو: «إن لله جنودا من عسل»[١] ومن المحتمل أنه كان لمعاوية وعمر يد فى مقتله.

(١) الكندى: الولاة والقضاة ص٢٠ ـ ٢٤، خطط المقريزى جـ٢ ص٣٣٦.

وفى تلك الايام اقام الاب قيما على الخدمة البطركيه وكان ذلك القيم مملو حسدا وسو لكل احد وخاصة لرجل كاتب لابينا انبا مرقس وكان يذكر عنه كل قبيح لكى يطرده ابونا البطرك ويسلم له البيعه وحده، فيردعه ابونا ويمنعه ان يتكلم بهذا الكلام، فلم يقبل الدوا من الطبيب، ولما كان يوم من الايام وهو اليوم السادس عشر من طوبه اراد الاب القديس ان يتم يوم نياح الاب يوحنا الذى توفى فيه حضر ذلك الشرير وبدا ان

وكتب أبو المحاسن[١] أن معاوية استاء من تولية الأشتر مصر لكفايته وشدته فكتب إلى عامل القلزم يمنيه بوعود مختلفة على أن يهلك الأشتر بكل طريقة يقدر عليها، فكان أن قدم عامل القلزم للأشتر طعاما وعسلا مسموما فمات لساعته.

لما علم على بموت الأشتر أرسل إلى مصر محمد بن أبى بكر فكان حكمه بداية النهاية لحكم على بن أبى طالب فى مصر، ولا غرو فقد كان رجلا يجهل أمور السياسة والحكم، وكانت تغلب على طبيعته روح الفوضى والثورة، وفيه حب للرياسة والزهو، وقد تجلت طبيعته هذه فى ثورته ضد عثمان وفى سياسته فى مصر عندما وليها.

قدم محمد بن أبى بكر إلى مصر فى رمضان سنة ٣٧هـ. ويقال إن قيس ابن سعد لقيه فنصحه عدة نصائح تختص بحكم مصر، تذكرنا بسياسة قيس قبل أن يعزله على، ومن تلك النصائح أن يصانع شيعة عثمان فى مصر ليكشف بمعاملته الحسنة عن أمرهم وآرائهم، كما نصحه بأن يحسن سياسته مع الشعب بوجه عام وبأن يتحبب إلى الناس وذلك بأن يعود المرضى ويشهد الجنائز، وغير ذلك من النصائح التى تستحق التقدير. على أن محمد بن أبى بكر لم يفعل شيئا من ذلك، بل كان أول ما عمله أن كتب إلى معاوية بن حديج ومن معه من شيعة عثمان يدعوهم إلى بيعته فلم يجيبوه فبعث إلى دورهم فهدمها ونهب أموالهم

(١) النجوم الزاهرة: جـ١ ص١٠٣ ـ ١٠٤.

الست مريم وطفلها المسيح.

يتكلم فى الاخ الكاتب مثل اخوة يوسف معه فقال البطرك له: الان قد عسر داؤك، الان قد جربناك فى كل شى لخلاص نفسك وانت لا تكف بل تزيد، والان فظلمك يكون هلى هامتك كما قال النبى فى المزمور. وكان هناك قونه [ايقونه] فيها صورة السيده الجليله مريم والسيد المسيح فى حضنها منصوبه فى موضع جلوس البطرك فنظر اليها ذلك القيم ومد اصبعه من يده اليمنا وقال: ان كنت وقوتها قلت كذبا فيما ذكرته فهذه

وسجن ذراريهم، فنهضت شيعة عثمان لمحاربته ولما علم أنه لا قبل له بهم كف عنهم ثم صالحهم على أن يسيرهم إلى معاوية ففعلوا ولحقوا بمعاوية[١] . ويظهر أن ذلك جعل معاوية يتخذ خطة الهجوم وينهى خطة السياسة والمكائد ويرسل جيشا لفتح مصر.

فى ذلك الوقت الذى عزم فيه معاوية على إرسال جيش لاستخلاص مصر من على، كان قد اتفق هو وعلى على التحكيم عقب موقعة صفين، ونعرف أن مدة التحكيم كانت بمثابة هدنة يضع فيها الفريقان المتحاربان السلاح. وتذكر المصادر أنهما لما اتفقا على التحكيم غفل علىي أن يشترط على معاوية ألا يقاتل أهل مصر[٢] ، ولذا أصبح معاوية حل من قتال أهلها. ويذكر أبو المحاسن[٣] أن معاوية طمع فى مصر لما اختلف أهل العراق على على، وكان معاوية قبل ذلك يهاب مصر لكثرة الشيعة بها بالرغم من أن أهل خربتا كانوا عثمانية، ويذكر أيضا أن معاوية قصد باستيلائه على مصر أن يستعين بها على حرب على. ولأهمية تلك المسألة استشار معاوية خواصه ومن بينهم عمرو. فقال عمرو: «أهمك أمر مصر وخراجها الكثير وعدد أهلها فتدعونا لنشير عليك فيها فاعزم وانهض، فى افتتاحها عزك وعز أصحابك وكبت

(١) الكند ص ٢٦ ـ ٢٨ ، خطط المقريزى جـ٢ ص٣٣٧.
(٢) الكندى ص٢٨ ، خطط المقريزى جـ٣ ص٣٣٧.
(٣) النجوم الزاهرة جـ١ ص١٠٧ ـ ١٠٨.

الصوره تنتقم مني. فاسمعو الان ما نزل على هذا الشقى من الامر المر من فم ذلك النبى القديس الذى قوله بسلطان قال له قولا مملو خوفا مثل قول دانيال النبى للشيخين المخالفين شهود سوسنه(*) العفيفه قايلا: يامن عتق فى ايامه السو ملاك الرب يضربك ويقطعك نصفين مثل ما ضرب الذى شهد على سوسنه بالزور. فى تلك الساعه عند تمام الكلام الخارج من فيه وقع ذلك الشقى على جنبه الايمن تحت رجليه وهو جانب يده اليمنا التى

(*) سوسنه: هو اسم للست مريم.

عدوك. فقال له معاوية. يا ابن العاص: «إنما أهمك الذى كان بيننا»[1] وقد رأى بقية خواصه ما رأى عمرو. وفي تلك الأثناء كاتب معاوية شيعته في مصر وعلى رأسهم معاوية بن خديج ومسلمة ابن مخلد يمنهم بقدوم جيشه فكتبا إليه: «أما بعد فعجل علينا بخيلك ورجلك، فإن عدونا قد أصبحوا لنا هائبين فإن أتانا المدد من قبلك يفتح الله علينا».

هذه هى الرواية التى يذكرها أبو المحاسن ويستفاد منها أن شيعة عثمان بمصر لم يخرجوا منها، وأن معاوية لم يرسل جيشاً لاستخلاص هذه البلاد إلا بعد أن تمهدت له الأمور فى مصر.

وقد تكون شيعة عثمان فى مصر قد خرجت حقا فى ولاية محمد بن أبى بكر كما ذكرنا سابقاً، ولكن الأرجح أنها لم تخرج كلها بل ظل فيها طائفة منهم.

وقد أرسل معاوية سنة ٣٨هـ جيشاً إلى مصر بقيادة عمرو بن العاص.

وهنا يجب أن نتذكر أن عمراً لم يكن يستخلص مصر هذه المرة من أيدى البيزنطيين كما فعل سنة ٢٠هـ وإنما كان يستخلصها من شيعة على ابن أبى طالب، فكان جيش عمرو فى تلك المرة يحارب فريقا من شعبه يدين بدينه، لا شعبا أجنبياً عنه ويدين بدين غير الدين

(١) يشير معاوية بذلك إلى الاتفاق الذى كان بينه وبين عمرو على أن يعطيه مصر طعمة له وذلك عند ما تعاهد معه على قتال على.

مدها الى الصوره بالسو وانفلج الى يوم وفاته. فلما نظرو الاعجوبه والامر الهايل خافو جميعهم من كلامه الذى كان مثل كلام الانبيا.

والآن يا ساداتى الابا[ء] وأولاد الارتدكسيين قد بدات وذكرت لكم انى لا أقدر ان انتهى فى ذكر افعال اباى لعظمها لاننى كالسرات [كالسائرين] خلف الحصادين، وليس لى قلب مضى[ء] لانى غارق في ظلمة ذنوبى . وقد سمعنا من قوم ثقات

الإسلامى. ففى سنة ٢٠هـ وقف العرب كتلة واحدة أمام البيزنطيين، وهنا فى سنة ٣٨هـ انقسم العرب على أنفسهم وأصبح حزب منهم يقاتل حزبا آخر. وكان جيش عمرو يتكون من أهل دمشق وعليهم يزيد بن أسد البجلى وأهل فلسطين وعليهم رجل من خثعم وكان معاوية بن حديج على رأس شيعة عثمان، وأبو الأعور السلمى على أهل الأردن. وتقابل جيش عمرو مع جيش محمد بن أبى بكر فاقتتلوا بالمسناة[١] وهزم الجيش الذى كان يقوده محمد بن أبى بكر بعد أن تكبد الفريقان خسائر فادحة في الأرواح. ويبين شدة القتال فى تلك الموقعة ما قاله عمرو: «شهدت أربعة وعشرين زحفاً فلم أر يوما كيوم المسناة ولم أر الأبطال إلا يومئذ» وبعد انتصار عمرو دخل هو وأهل الشام مدينة الفسطاط[٢] .

هرب محمد بن أبى بكر بعد تلك الموقعة فأقبل معاوية بن حديج في رهط من أنصاره يبحث عنه فدلتهم على مكانه امرأة فسار إليه معاوية بن حديج وقتله وقال: يقتل كنانة بن بشر ويترك محمد بن أبى بكر وانما أمرهما واحد[٣] ! ويقال إن محمدا طلب العفو من معاوية بن حديج فقال له معاوية: «قتلت ثمانين رجلا من قومى فى عثمان وأتركك وأنت صاحبه!» فقتله ووضعه فى جيفة حمار ميت وأحرقه بالنار. فكانت ولاية محمد بن أبى بكر

(١) المسناة: مكان بين عين شمس وأم دنين أى شمالى القاهرة.
(٢) الكندى: الولاة والقضاة ص٢٩.
(٣) الكندى ص٢٩.

صادقين كانو يخدمون ابائنا القديسين في كل زمان ما نحن ذاكرون بعضه ، واذكر ايضا ما ظهر من هذا الاب انبا مرقس البطرك لكي تتعجبو وتمجدو الله من اجل الرافه والرحمه التي يعملها مع اصفياه كما قال بولس: ان الذين يحبون الله يصنع معهم كل عمل جيد. كان في زمان هذا القديس جراد عظيم ظهر في أعمال البحيره واسكندريه فاكل جميع اثمار الارض والكروم كما هو مكتوب في المزمور انه قال: فجا جراد وجندب

على مصر خمسة أشهر ومقتله في ١٤ من صفر سنة ٣٨هـ وقيل أيضاً إنه قطع رأسه وأرسله إلى معاوية بن أبي سفيان بدمشق وطيف به، وهو أول رأس طيف به في الإسلام[١] ، وبذلك انتهى حكم الخلفاء الراشدين من مصر في صفر سنة ٣٨هـ[٢] . وتقديراً لهذه الخدمات التي أداها عمرو بن العاص ولاه معاوية مصر صلاتها وخراجها وجعلها له طعمة بعد عطاء جندها والنفقة على إدارتها، وهذه هي ولاية عمرو بن العاص الثانية على مصر. ولم يلبث عمرو أن خرج للتحكيم الذي كان بين علي ومعاوية واستخلف على مصر ابنه عبدالله، وقيل خارجة بن حذافة صاحب شرطته، وبعد أن أدى مهمته في التحكيم كما رأينا عاد ثانية إلى مصر[٣] ليجمع أموالها لحسابه وحده. وهكذا أصبحت مصر ولاية تابعة للدولة الأموية منذ سنة ٣٨ هـ بالرغم من أن علياً ظل خليفة حتى سنة ٤٠هـ.

٢. النزاع الذي قام حول الخلافة زمن الخلفاء الأمويين (٤٠-١٣٢هـ = ٦٦١-٧٥٠م):

أ. دعوة ابن الزبير لنفسه بالخلافة وأثر ذلك في مصر

طمع عبدالله بن الزبير في الخلافة كما طمع غيره وتجلت أمنيته هذه منذ خروجه مع أبيه

---

(١) خطط المقريزي: جـ٢ ص٣٣٧.
(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١ ص١١٠.
(٣) الكندي ص٣١، خطط المقريزي: جـ٢ ص٣٣٧.

فـاكل جـمـيع عـشب الارض. فـحـزن الاب عند معرفته بذلك وامر الشعب الارتدكسى ان يخرجو بالبـخور والصلبان و الإناجيل ويسالو الله الرحوم ان يزيل عنهم الغضب الحال بهم، وخرج معهم الاب وهو يسـال الله فى قلبـه بدمـوع غـزيره، وخرجو خار ج المدينه موضع الجراد كما قال لهم ونظرو الجراد وقد طار متعاليا الى الجو وكان امرا عظيـما حتى غطا الجو، وكانت دموع الشعب تخـتلط مع دعـاهم والاب البطرك يقـول: يارب

فى موقعة الجمل[١] ، على أن الفرصة لم تكن قد حانت بعد لخروجه وادعائه الخلافة، بل نراه يشترك فى خدمة الدولة زمن معاوية ابن أبى سفيان ويخرج فى الجيش الذى سار لغزو القسطنطينية سنة ٤٩هـ بقيادة يزيد بن معاوية[٢] . وعندما أخذ معاوية قبيل وفاته البيعة لابنه يزيد، عارض فى تلك البيعة نفر يسير من أهل المدينة منهم الحسين بن على وعبدالله ابن الزبير. وقد حذره معاوية من هؤلاء النفر وخاصة من ابن الزبير إذ قال له «... وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فإن أمكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير فإن هو وثب عليك فظفرت به فقطعه إربا إربا واحقن دماء قومك ما استطعت»[٣] ولما ولى يزيد بن معاوية الخلافة (٦٠ ـ ٦٤هـ = ٦٨٠ ـ ٦٨٣ م) امتنع الحسين والزبير عن مبايعته. فأما الحسين فقد خرج على يزيد وقتل فى اليوم العاشر من المحرم سنة ٦١هـ بكربلاء، وبقتله خلال الجو لابن الزبير فدعا لنفسه بالخلافة فى سنة ٦١هـ وبايعه أهل تهامة والحجاز[٤] . وقد أرسل يزيد جيشا فى سنة ٦٣هـ لمحاربة ابن الزبير وأتباعه فى المدينة ثم مكة، ومات يزيد ولما يتم إخضاع ابن الزبير. ثم ولى الخلافة معاوية الثانى ابن يزيد، إلا أن مدة خلافته لم تطل فقيل إنه ملك

(١) انظر الطبرى: تاريخ الأمم والملوك جـ٥ ص١٦٩، ابن طباطبا: الفخرى ص٧٦.
(٢) الطبرى: جـ٦ ص١٣٠.
(٣) ابن طباطبا: الفخرى ص٩٨.
(٤) الدينورى: الأخبار الطوال من ص٢٦٠، الطبرى: ج٦ ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

يارب الرأفـه والرحـمـه لا تهلكنا لاجل خطايانا وذنوبنا ولكن تجاوز عن سيآتنا لجل رحمتك، وكما سمعت صراخ اهل نينوى اسمع يارب تضرعنا واقبل دعانا يارب وكما سمعت دعا موسى فى ذلك الزمان وازلت الجراد عن ارض مصر اسمع اليوم دعانا وانظر دموع شعبك وتنهدهم من عمق قلوبهم وازل عنا هذا الغضب.

ولولا انا نكره التطويل لشرحنا كلما قالوه من

أربعين يوما وقيل ثلاثة أشهر، وحدثت بعدموته فترة هرج ومرج ونزاع حول منصب الخلافة، وفى تلك الأثناء اتسع نطاق دعوة ابن الزبير الذى بايعه أهل الشام كلهم إلا أهل الأردن، وكذلك بايعه أهل مصر كما غلب على أهل العراق والحجاز واليمن.

ولما بويع مروان بن الحكم بالخلافة في سنة ٦٤هـ (٦٨٤م) كان عليه أن يقضى على معارضة عبدالله بن الزبير. أما فى الشام فقد انتصر على الضحاك بن قيس عامل عبدالله بن الزبير فى موقعة مرج راهط وقتله وبذلك خلصت بلاد الشام لمروان، وكذلك استولى مروان بن الحكم على مصر من عامل ابن الزبير كما سنرى، ومات مروان في سنة ٦٥هـ (٦٨٥م) وابن الزبير متغلب على الحجاز والعراق.

وفى عهد عبدالملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦هـ = ٦٨٥ ـ ٧٠٥م) تم القضاء على ابن الزبير، إذا تغلب بنو أمية على العراق فى سنة ٧٢هـ، وعلى الحجاز في سنة ٧٣هـ، وانتهى الأمر بقتل ابن الزبير فى هذه السنة.

* * *

وقد مر بنا أن مصر أصبحت ولاية تابعة للدولة الأموية منذ سنة ٣٨هـ وأصبح ولاتها منذ ذلك الحين يولون من قبل الخلفاء الأمويين، ولم تظهر دعوة ابن الزبير فى مصر إلا عقب وفاة

الدعا والتضرع بالاتضاع والحرقه والدموع، والله العظيم الذى يسمع دعا عبيده ويخلص الذين يصرخون اليه ويدعونه، يا لعظم تلك الاعجوبه التى لم تنقص شيا عما كان فى ايام موسى، يا لعظم قوة المسيح التى فى ابينا البطرك، ففى تلك الساعة طار الجراد فوق روسهم الى ان نزل فى لجج بحر اليم ومات جميعه بصلاته.

اسمعو الآن يا اباى واخوتى ما تفرح به قلوبكم

الخليفة يزيد وذلك فى ولاية سعيد ابن يزيد عليها (٦٢ـ ٦٤هـ). وقد قام بتلك الدعوة الخوارج وكانوا يحسبون ابن الزبير على مذهبهم[١]. والواقع أن هذه الفرق المختلفة من الشيعة والخوارج كانت تؤيد جموع الثائرين على الخلافة علها تستطيع الوصول إلى مآربها المختلفة دينية كانت أو سياسية. فلم يقل أحد بأن ابن الزبير كان يدين بمذهب الخوارج، ولكن ربما ادعى الخوارج فى مصر ذلك، وساعدهم فى دعوتهم هذه ما لاقوه من ترحيب ابن الزبير بهم واعتماده عليهم فى نشر دعوته.

أوفد الخوارج فى مصر وفدا إلى ابن الزبير ـ ليرسل إلى مصر أميرا من قبله يؤازرونه. كذلك خرج من مصر إلى ابن الزبير أناس من غير الخوارج، منهم أبو عبيدة وعياض ابن عقبة بن نافع بن عبد قيس الفهرى وأبو بكر بن القاسم بن قيس العذرى وحيان بن الأعين الحضرمى وحجوة ابن الأسود الصدفى ـ ثم أرسل ابن الزبير واليا من قبله على مصر هو عبدالرحمن بن عتة بن جحدم الفهرى، فقدم مصر فى طائفة من الخوارج الذين قاموا ضد واليها سعيد بن يزيد فاعتزل الولاية سنة ٦٤هـ ومن ثم بدأت ولاية عبدالرحمن بن جحدم فى شعبان سنة ٦٤هـ وأصبحت مصر ولاية تابعة لخلافة عبدالله بن الزبير. وقد بايعه الناس فى مصر ومنهم شيعة بنى أمية الذين بايعوه فى الظاهر إلا أنهم كانوا مخلصين للأمويين

(١) الكندى: الولاة والقضاة ص٤٠ ـ ٤١، خطط المقريزى: جـ٢ ص ٣٣٧.

برافة الله التي جعلها في هذا الاب ، لما كان بعد ذلك عند عودته من مصر وهو يفتقد الشعب اجتاز بلد تسمي الان اغروه، وقديما اغرا[ر][*] وخرجو الكهنه للقايه كالعاده ليقرو قدامه، وجماعه من الشعب ريسا مقدمون وبارك عليهم ودعا لهم جميعهم، فخرج مع الناس انسان به شيطان فصرعه بين الناس وخنقه حتى خرج الزبد من فيه، فلما راه ابونا حزن عليه وتحنن وامتلا من روح

(*) أغرار : هى الآن غالبا قرية الغريره. وهى ناحية إدارية تكونت سنة ١٩٢١ ، تقع فى زمام ناحية كيمان المطاعنه مركز اسنا محافظة جرجا .

وللحكم الأموى فى الباطن(١) . فلما بويع مروان بن الحكم خليفة بالشام فى ذى القعدة سنة ٦٤ هـ دعاه شيعته بمصر لاستخلاصها من عامل ابن الزبير.

فقدم مروان بن الحكم إلى مصر وأرسل أمامه جيشا بقيادة ابنه عبدالعزيز بن مروان وأمره أن يدخل مصر عن طريق أيلة. وقد أشار الجند على ابن جحدم بحفر خندق حول الفسطاط للدفاع عن مصر، فأمر بحفر هذا الخندق فحفر فى شهر واحد.

وقد أعقب ابن جحدم ذلك بإرسال جيش إلى الشام أمر عليه السائب ابن كنانة بن هشام العامرى كما سير إليها حملة بحرية بقيادة الأكدر بن حمام اللخمي. وأرسل إلى أيلة جيشا آخر بقيادة زهير بن قيس البلوى ليمنع عبدالعزيز بن مروان من السير إليها. أما جيش السائب فقد انتصر عليه مروان بخدعة غريبة إذ أخبره روح بن زنباع بأن للسائب بفلسطين ولدا رضيعا فأخذه مروان ولما التقى بجيش السائب أظهر له ابنه وهدده بقطع رأس ابنه إذا لم يرجع، فرجع السائب دون قتال ولذلك سمى جيشه جيش الكرارين، وأما المراكب التى سيرها ابن جحدم فقد هبت عليها ريح عاصف أغرقتها ونجا أميرها الأكدر وعاد إلى الفسطاط. وقد التقى جيش زهير بن قيس بعبد العزيز على مقربة من أيلة وتقاتلا فانهزم زهير ومن معه(٢) .

(١) الكندى: الولاة والقضاة ص٤٠ ـ ٤٢ ، خطط المقريزى جـ٢ ص٣٣٧.
(٢) الكندى ص ٤٢ ـ ٤٣ ، خطط المقريزى جـ٢ ص٣٣٧ ـ ٣٣٨.

القدس وقال لهم قدموه الى ورسم على وجهه علامة الصليب وقال: الرب يسوع المسيح الكلمه الوحيد من الاب الذى اخزى الشياطين وعتق خليقته منهم، انت الذى عرفوك الشياطين وانت الذى القيتهم فى قعر الجحيم فصرخو وقالو: ما لنا ولك يا يسوع ابن الله اتيت لتهلكنا قبل الوقت الذى نعذب فيه، انت الان يا سيدى يسوع المسيح اصرف هذا الشيطان النجس واخرجه من هذا الرجل. فلما قال هذا سقط الرجل على الارض

وسار مروان إلى مصر حتى نزل عين شمس فخرج إليه ابن جحدم فى اتباعه وتحاربوا يوما أو يومين ثم رجعوا إلى خندقهم. وأخذوا يحاربون مروان وهم فى الخندق، وقد سميت تلك الأيام بأيام الخندق والتراويح، فكان أهل مدينة الفسطاط، يتناوبون القتال فيخرج نفر للقتال ثم يرجع ثم يخرج غيرهم، وهكذا وقد اشتد القتال بين الفريقين حتى قام نفر ليصلحوا بين المصريين ومروان وتم ذلك الصلح وكتب مروان كتابا أمن فيه المصريين ثم دخل الفسطاط فى غرة جمادى الأولى سنة ٦٥هـ[١] . وانتهى فى مصر حكم ابن الزبير بعد أن دام نحو تسعة أشهر وهى المدة التى ولى فيها عبدالرحمن بن جحدم.

وقد بايع الجند العرب فى مصر مروان بن الحكم إلا نفرا لم يرضوا بنكث بيعه ابن الزبير بعد أن بايعوه طائعين. ولما كان مروان يريد أن يقضى على خلافة ابن الزبير نهائيا من مصر، فقد قتلهم بعد أن أبوا بيعته وكانوا ثمانين رجلا.

وأقام مروان بن الحكم بمصر شهرين ثم غادرها فى أول رجب سنة ٦٥هـ بعد أن وطد أمورها وأعادها ثانية إلى الحكم الأموى، كما ولى عليها ابنه عبد العزيز بعد أن زوده بالنصائح الهامة التى تجعل منه حاكما قديرا وتساعده على حكم مصر[٢].

(١) الكندى ص٤٣ ـ ٤٥، خطط المقريزى جـ٢ ص ٣٣٨.
(٢) الكندى ص ٤٧ ـ ٤٨.

وانقطع حسه وسبت [دون حركة] كانه نايم، وقام بعد ساعه وقد خرج منه الشيطان بصلواته، فسجد على قدميه المقدسه وشكر الله على ما ناله من الخلاص. حينذ قال له الاب قول الرب الذى قاله في الإنجيل لصاحب اليد اليابسه لما ابراه: قد عوفيت فلا تعود تخطى فينالك اكثر من هذا وانظر كيف تصعد لتأخذ السراير المقدسه وأعلم أن الذى حل بك هو بسبب انك كنت تتناول السراير المقدسه بجهل، فاحفظ نفسك من الكلام

على أن جند العرب فى مصر بعد خروجهم عن طاعة ابن الزبير لم يقفوا على الحياد فى النزاع الذى كان بينه وبين الخلفاء الأمويين، بل مدوا يد المساعدة إلى الأمويين كى تعينهم على التخلص منه، فأرسل عبد العزيز بن مروان والى مصر (٦٥ ـ ٨٦هـ) فى سنة ٧٢هـ حملة بحرية إلى مكة لقتال ابن الزبير كان عدتها ثلاثة آلاف رجل، وكان فى هذا البعث رجل اسمه عبد الرحمن بن بحنس [١] أحد موالي تجيب يقال إنه هو الذى قتل ابن الزبير في جمادى الآخرة سنة ٧٣هـ[٢]

وقد رفعت خلافة ابن الزبير من شأن الخوارج بمصر لفترة يسيرة، إلا أنه، كما يقول المقريزى [٣] انكفت ألسنتهم هم والعلوية بعد تغلب مروان على مصر. على أنهم عادوا الى الظهور في ولاية قرة بن شريك على مصر (٩٠ ـ ٩٦هـ) في خلافة الوليد بن عبد الملك، فيذكر الكندى [٤] والمقريزى [٥] أنه عندما خرج قرة إلى الإسكندرية فى سنة ٩١هـ اتفق الخوارج بالاسكندرية، وكانت عدتهم نحو مائة، على الفتك به وكان رئيسهم إذ ذاك المهاجر

---

(١) كتب الاسم فى المصادر بحنس ويحتمل أن يكون ذلك الاسم «يحنس»
(٢) الكندى ص ٥١، خطط المقريزى: جـ١ ص ٢١٠.
(٣) الخطط جـ٢ ص ٣٣٨.
(٤) الولاة والقضاة ص ٦٤.
(٥) الخطط جـ٢ ص ٣٣٨.

البطال الذى يخرج من فيك. فنظرتم يا احباى هذه النعمه العظيمه التى استحقها ابونا انبا مرقس وانه بكلام فمه يطرد الشياطين بامر وسلطان مثل الحوارين تلاميذ المسيح الرسل الاطهار. وكان يدهن جماعه من المرضى بالزيت باسم السيد المسيح ويصلى عليهم فيرون [فيبرؤن] عاجلا.

فان قال إحد من المقاومين: فلاى شى لم يشف نفسه من وجع الضربان الذى كان به فليقرا فى

ابن أبى المثنى التجيبى أحد بنى فهم، وقد علم بذلك رجل يكنى بأبى سليمان فأبلغ قرة ما عزم عليه الخوارج فأخذهم بغتة قبل أن يتفرقوا وحبسهم وقد أقروا بما عزموا عليه فقتلهم.

وبذلك انتهى ذلك الدور من أدوار النزاع حول الخلافة وظلت مصر تقريبا طوال الحكم الأموى فيها (٣٨ ـ ١٣٢هـ) هادئة لا تشترك فى أية منازعات أو حركات ظهرت فى مقر الخلافة أو فى غيرها من أنحاء الدولة الإسلامية إذا استثنينا تلك الفترة التى قامت فيها خلافة ابن الزبير فى مصر كما تقدم. على أن مصر دخلت فى أواخر ذلك العهد فى النزاع الذى قام بين الأمويين والعباسيين والذى انتهى بقيام الدولة العباسية كما سنرى.

ب.زوال الخلافة الأموية وأثر ذلك فى مصر

تجمعت الظروف والعوامل التى أدت إلى زوال الخلافة الأموية وظهر أثرها بوضوح منذ أواخر القرن الأول الهجرى وأوائل القرن الثانى، فمن شيعة يعملون على الكيد لبنى أمية ليغتصبوا الخلافة منهم، ومن خوارج كانت مبادئهم وحركاتهم هادمة لخلافة قريش، إلى موال كرهوا الدولة الأموية لتفضيلها العرب عليهم.

وهذه العناصر المناوئة للدولة وجدت منذ قيام الدولة الأموية،ومع ذلك لم يظهر أثرها فى إضعافها إلا بعد أن ظهر الضعف من جانب الدولة نفسها، ولعل أهم مظاهر ذلك الضعف هو انقسام البيت الأموى على نفسه انقساما تاما منذ خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥

الكتب فيجد قول الله انه يجرب اصفياه بالعلل والتجارب مثل ايوب الصديق بالجذام، ويوسف برميه في الجب من ايدى اخوته، ودانيال مع الاسود الضوار، والتلته فتيه في اتون النار، واشعيا النبي بمنشار الخشب. واهل هذه الطبقه من الانبيا والصالحين كتير لو شرحنا ما نال كل منهم لما وسعه المصاحف، لان القديس بطرس الحوارى كان ظله اذا مر على مريض في الطريق قد برى من مرضه، ولاجل هذا كانو المرضى يجلسون فى

ـ١٢٦هـ=٧٤٣ ـ ٧٤٤) إلى أن ولى الخلافة مروان بن محمد اخر الخلفاء الأمويين فى سنة ١٢٧هـ (٧٤٤هـ)، وإذ أصبح كل فرد من أفراد البيت الأموى يتخذ لنفسه حزبا يستعين به على الوصول إلى الخلافة، مما شجع الطامعين من غير بنى أمية على إلقاء دلوهم فى الدلاء علهم يصلون إلى ما يريدون. وكان صاحب النصيب الأكبر فى هذه الغنيمة هم العباسيون.

كذلك وضح خطر العصبية القبلية فى أواخر عهد الدولة الأموية ومما زاد فى شقة الخلاف بين أفراد القبائل أن الخلفاء زجوا بأنفسهم فى هذه المنازعات، فتعصب بعضهم لعرب الشمال وتعصب آخرون لعرب الجنوب.

وقد استغل بنو العباس عم النبى محمد كل هذه الظروف السيئة التى أحاطت بالخلافة الأموية، يظهر أنهم بدأوا منذ أواخر القرن الأول الهجرى ينظرون من جانبهم فيما طمح إليه الشيعة[١] فأخذوا يعملون لأنفسهم واستغلوا فى حركتهم الشيعة والموالى استغلالا كبيرا؛ إذا كانوا يدعون لواحد من آل محمد وطبيعى أن هذا يشمل آل على وآل العباس.

وفى الوقت الذى أثمرت فيه الدعوة العباسية كان حال الخلافة الأموية قد ساء إلى أقصى حد. وقد وجدت الدعوة العباسية فى شخصية أبى مسلم الخراسانى صاحب الفضل فى

(١) المسعودى: كتاب التنبيه والإشراف ص ٣٣٨.

الطريق التى يعبر فيها فيمر ظله عليهم فيبرون [فيبرؤن] وكان في ساق بولس نمله(*) وهو متالم منها لا يقدر على بروها [وكانت الحزق التى تشد عليها تبرى المرضا وكان بصلاته يبرى العميان] وانما ابلاه الله بها رحمة منه ليلا [لئلا] يكبر نفسه عندما يعمل العجايب باسم المسيح، وسمعان الحبيس كان به قروح تدودت لم يقدر على بروها، وكان بصلاته يبرى العميان ويطهر البرص ويعمل اعمالا كتيره، وكلما اقام فى علته

(*) يقصد بالنملة هنا حبه نافرة فى الجلد.

إخراجها إلى حيز العمل والتنفيذ، فهو كما يقول ابن طباطبا [١] «رجل الدولة وصاحب الدعوة وعلى يده كان الفتح». وقد نجح أبو مسلم فى إظهار الدعوة العباسية ورفع راية العباسين فى خراسان سنة ١٢٩هـ[٢]. وتمت الغلبة للعباسين على الأمويين فى خراسان والعراق، وسار أبو مسلم بجنده من خراسان إلى الكوفة حيث بايع أبا العباس السفاح بالخلافة فى سنة ١٣٢هـ. وتبعه الناس من بعده. وتقابل جيش العباسين مع الجيش الآموى الذى كان يقوده مروان بن محمد عند نهر الزاب (أحد روافد نهر دجلة)، وهناك كانت الغلبة للعباسين فى سنة ١٣٢هـ (٧٥٠م[٣]) وفر مروان بعد ذلك هاربا إلى مصر.

ولا نعرف على وجه التحقيق متى بدأت الدعوة العباسية فى مصر لأن العباسين كما عرفنا اهتموا بخراسان والمشرق لنشر دعوتهم فيها ولأن محور الحوادث منذ البداية كان فى المشرق، ولكن كان مقدرا أن تكون نهايتها فى مصر التى فر إليها الخليفة مروان بن محمد ولقى فيها حتفه.

أول ما نسمع عن الدعوة العباسية فى مصرأيام خلافة هشام ابن عبد الملك (١٠٥ ـ

(١) الفخرى ص ١١٨.
(٢) الطبرى جـ٩ ص ٨٢ ـ ٨٤.
(٣) ا لطبرى جـ٩ ص ١٣٠ ـ ١٣٢، ابن طاطبا: الفخرى ص ١٢٥ ـ ١٢٦.

تلت سنين، وابونا القديس انبا مرقس البطرك قام اثنتى عشره سنه فى وجعه، وكان يشكر المسيح ويقول: اشكرك يا ربى والاهى اذا جعلتنى مستحقا لهذه الالام مثل العازر المسكين.

وكانت الشعوب وجميع كورة مصر فى سلامة وهدو فى جميع ايامه.

فلم يصبر مبغض الخير الشيطان لما راى من اعماله وعجايبه التى هى كل يوم تزيد، فبدا ان

١٢٥هـ) وفى ولاية عبد الرحمن بن خالد عليها (١١٧ ـ ١١٩هـ) إذ يذكر أبو المحاسن [١] أن دعاة بنى العباس أرسلوا إليه سرا فاكرمهم ووعدهم فبلغ ذلك هشاما فعزله.

لكن مصر ظلت هادئة لم تتأثر مما كان يدور فى المشرق حتى كانت خلافة مروان بن محمد (١٢٧ ـ ١٣٢هـ) فيبدأ الاضطراب فى مصر منذ توليه الخلافة ونرى الجند لا يطيعون أوامر الخليفة فى كثير من الأحيان، كما نرى النزاع بين القيسية واليمنية يتجلى باجلى مظاهره فى مصر ولا غرو فقد عمت روح العصبية القبلية إذ ذاك فى جميع أنحاء الدولة الإسلامية، فاليمنيون لا ينفذون أوامر الخليفة، والقيسيون أو المضريون فى جانب الخليفة، ولكن بعضهم يشقون عصا الطاعة، كما يثور بعض أفراد البيت الأموى تعصبا للخليفة مروان بن محمد وبعضهم يثور ضده، كذلك يظهر الخوارج فى مصر. أى أن ما يحدث فى مقر الخلافة يقع مثله فى مصر. وهنا نجد ظاهرة لم نعهدها من قبل وهى ثورة المصريين الوطنيين [البشمورا] ومساعدتهم للعباسين ضد الأمويين، فالمصريون الوطنيون لم يشتركوا فى المنازعات الخلافية من قبل ولكنهم لعبوا هنا دورا لا يغفل أثره، فتهيأت بذلك الظروف للعباسين، كى يتموا نصرهم ضد الأمويين، وكى ينشروا دعوتهم فى مصر.

لما بويع مروان بن محمد بالخلافة فى صفر ١٢٧هـ كان على ولاية مصر إذ ذاك حفص

(١) النجوم الزاهرة جـ١ ص ٢٧٨.

يقيم الفتن على كورة مصر وصار حزن فى كل مكان وفى اسكندريه، فلحق البطرك قلق عظيم حتى ان الانسان اذا سمعه لا يصبر عن البكا.

وانا الان اذكر لكم ذلك كان قد مات(*) فى تلك الأيام هرون الرشيد ببغداد وجلس موضعه محمد ولده المعروف بالامين، وكان سبب ذلك ان هرون الرشيد قد جمع قبل موته وجوه دولته وقال لهم الخلافه بعدى للسيد المامون ولدى، فلما

(*) وفاة هارون الرشيد وقيام الخلاف بين ولديه الأمين والمأمون وكان ذلك فى حوالى ٢٥ مارس ٨٠٩م = ٣ جماد الثانى ١٩٣هـ.

بن الوليد الحضرمى، فلما أعلن بالفسطاط نبأ بيعة مروان، كتب حفص إليه يستعفيه من ولايته على مصر فأعفاه مروان منها [١] وهنا يجدر أن نشير إلى أن حفصا هذا كان من عرب الجنوب، أو من اليمنية الذين كانوا فى ذلك الوقت فى عداء مستحكم مع المضرية أى عرب الشمال الموالين للخليفة.

ولى مروان بن محمد حسان بن عتاهية على صلاة مصر، وولى على الخراج عيسى بن أبى عطاء، وهنا تتجلى العصبية القبلية بأجلى مظاهرها، كما تتجلى حالة الفوضى التى وصلت إليها البلاد ، وكيف قطعت الدولة العباسية شوطا بعيدا وسط تلك الفوضى الشاملة التى عمت أنحاء الدولة الأموية إذ ذاك. فقد كانت سياسة مروان بن محمد تنطوى على الاتحاد مع القيسية أو المضرية ضد اليمنية ، فكان طبيعيا أن يثور اليمنيون فى مصر ضد سياسة الخليفة لذا نجد أن حسان بن عتاهية عندما قدم إلى مصر فى ١٢ من جمادى الآخرة سنة ١٢٧هـ يأمر بحل الفرق التى كان حفص بن الوليد [٢] قد جندها على أن حسان لم يكد يستقر فى ولاية مصر حتى ثار قواد الفرق التى جندها حفص وأعلنوا عدم رضاهم إلا بحفص بن الوليد[٣]. وكان هذا فى الواقع نزاعا بين ا ليمنية والمضرية. إذ كان اليمنيون يثورون ضد عامل

(١) الكندى: الولاة والقضاة ص ٨٤، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١ ص ٢٩٢.
(٢) الكندى ص ٨٥. (٣) الكندى ص ٨٥.

وصل الخبر إلى محمد الامين امتلا غضبا وجمع اليه جماعه وحاربه فقتله وجلس على كرسى الملك.

ولما وقع الخلف بين الاخين قام [بمصر] تاير [ثائر] وحشد اليه جماعه وخلايق لا يحصى عددها(*)، وحفظ طريق مصر والمشرق . وكان ينهب جميع مال المسافرين إلى مصر والصعيد والحبشه والنوبه حتى انقطعت الطريق وجميع

(*) اضطراب الأحوال فى مصر وانقسامها بين أيدى المتمردين على الخلافة العباسية.

مروان بن محمد الذى كان يهمه موالاة المضريين، على أن الذى شجعهم على عصيان الخليفة هو حالة الفوضى والاضطراب التى سادت أنحاء الدولة إذ ذاك ، إذ كان الخليفة فى ذلك الوقت مشغولا بمحاربة الخارجين على الدولة من مختلف الطوائف والأحزاب، حتى إنه عجز عن عمل أى شئ ضد الدعوة العباسية.

ويظهر أن الدعوة العباسية فى مصر كانت فى ذلك الوقت قد قطعت شوطا بعيدا. إذا أرسل ثابت بن نعيم الجذامى ـ وكان ممن خرجوا على مروان بن محمد ـ كتابا إلى حفص بن الوليد يدعو فيه إلى خلع مروان ابن محمد. كذلك أتى إلى مصر رسول زامل بن عمرو الذى خلع مروان بحمص ودعاهم إلى مثل ما دعاهم إليه ثابت بن نعيم[١]. والمهم هنا أن اليمنية وسائر الخارجين على مروان ساروا إلى دار حسان بن ثابت وحاصروه فيها وطلبوا منه أن يخرج من مصر فنزل على رغبتهم واتجه إلى الشام ليلحق بمروان، فكانت ولاية حسان بن ثابت على مصر ستة عشر يوما. كذلك أخرج الثائرون من مصر صاحب الخراج عيسى بن أبى عطاء. وولى الثائرون عليهم حفص بن الوليد [٢] على أنه بالرغم من أن حفصا كان من اليمنيين إلا أنه كان رجل دولة بالمعنى الصحيح يعرف أن مصلحة الدولة فوق مصلحة القبيلة وأن طاعة

(١) الكندى ص ٨٥ ـ ٨٦.
(٢) الكندى ص ٨٦، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١ ص ٣٠١.

المسالك من خوفه، واستطال الثوار على مصر وجميع أعمالها بحكم اضطراب مملكة بغداد، وخرجو الخوارج على المملكه بمصر وجبو الخراج لنفوسهم ، وكان من جملتهم رجل يسمى عبدالعزيز الجروى(*) اخذ من شطنوف الى الفرما وشرقية مصر بلبيس واعمالها، ورجل اسمه السرى بن الحكم اخذ من مصر [الفسطاط] الى اسوان ، واستوليا على الخراج، وقوم يسمون لخما وجذاما القبيلتين اخذو غربى مصرى واعمال اسكندريه

(*) عبد العزيز الجروى يستقل بشرق الدلتا. والسرى ابن الحكم يستولى على الصعيد، وقبيلتى لخم وجذام تحتلان غرب الدلتا والاسكندرية ومريوط.

الخليفة واجبة. ويتبين لنا ذلك مما قاله الكندى [1] إذ يذكر أنه ولى مصر فى هذه المرة كرها وأن قواد الجند هم الذين أجبروه على ذلك.

وفى تلك الأثناء قدم حنظلة بن صفوان الكلبى من إفريقية إلى مصر وكان أهلها قد أخرجوه منها، فنزل بالجيزة. وعند ذلك كتب مروان إلى أهل مصر بتولية حنظلة بن صفوان عليهم. ولكن الجند من عرب مصر عصوا أمر الخليفة مرة أخرى، بل حاربوا حنظلة وأخرجوه من الفسطاط إلى الحوف الشرقى، وظل حفص بن الوليد واليا على مصر طوال سنة ١٢٧هـ حتى أوائل سنة ١٢٨هـ[2].

على أن الخليفة مروان بن محمد وجد أن تنفيذ أوامره فى مصر لا يكون إلا بالقوة، لذا عزل حفص بن الوليد عن ولايتها فى المحرم سنة ١٢٨هـ وولى عليها حوثرة بن سهيل الباهلى وزوده بالجيوش لقتال حفص والجند العرب فى مصر، فسار حوثرة إلى مصر يصحبه سبعة آلاف رجل من أهل حمص والجزيرة وقنسرين، وهنا نجد حفصا مرة أخرى يلبى نداء عقله ولا يستمع لنداء العصبية القبلية حين اجتمع إليه الجند وطلبوا منه أن يمنع حوثرة من دخول

---

(١) الكندى ص ٨٦.
(٢) الكندى ص ٨٧، أبو المحاسن جـ١ ص٣٠٢.

ومريوط وملكو البحيره جميعها ، وكانت هاتان القبيلتان في اكثر الاوقات متحاربتين ونهب بعضهم بعضا، وكان على البلاد منهما بلا عظيم، فلما ضيقو على مدينة اسكندريه دعو أهلها واستغاثو بالرب وسألوه ان يخلصهم من هذه الامه الظالمه.

وكان فى تلك الايام غربى اسكندريه دير يسمى دير الزجاج وفيه شيخ حبيس وقد اعطى نعمه ان ينظر بروح القدس علامات واشيا، واسم ذلك

مصر، إذ أبى عليهم ذلك وسلم ما بيده إلى أبى الجراح الجرشى بشر ابن أوس الذى أرسله حوثرة ريثما يحضر إلى مصر[1].

ولما دخل حوثرة أرض مصر يصحبه الجنود، خشى أهل مصر منه، فأرسلوا إليه يزيد بن مسروق الحضرمى يسأله الأمان فلقيه بالعريش وأجابه إلى ما طلب، وكتب إلى الجند من عرب مصر كتاب أمان فخرج إليه حفص بن الوليد فى وجوه الجند، إلا أن حوثرة لم يعبأ بالأمان الذى أعطاهم إياه فأمر بالقبض عليهم. ثم سار إلى الفسطاط فى ١٢ من المحرم سنة ١٢٨هـ. وعقب دخول حوثرة الفسطاط بعث فى طلب رؤساء الفتنة وكانوا من اليمنين وتمكن من القبض عليهم وقتلهم، ومنهم حفص بن الوليد، وذلك سنة ١٢٨هـ[2].

ولم يكد حوثرة يتخلص من اليمنية فى مصر ويمهد أمورها حتى ظهرت فيها حركة أخرى كانت صدى لحركة الخوارج بالحجاز. فعندما قام عبد الله ابن يحيى الملقب بطالب الحق فى الحجاز ضد مروان بن محمد ودعا إلى نفسه بالخلافة، قدم إلى مصر داعيته ودعا لمبايعته ، فأجابه نفر من تجيب وغيرهم، ولما علم حسان بن عتاهية صاحب الشرطة بذلك قبض عليهم فقتلهم حوثرة بن سهيل[3].

(١) الكندى ص ٨٧.
(٢) الكندى ص ٨٨ ـ ٩١، أبو المحاسن جـ١ ص ٣٠٥.
(٣) الكندى ص ٩٢، خطط المقريزى جـ٢ ص ٣٣٨.

الشيخ يوانس، فقال لاهل اسكندريه نبوه: اراكم قلقين من اجل هذه الامه هكذا صدقوني انه تجى امه من الغرب وتهلك هذه الامه وهذه المدينة بغير رحمه وينهبون كلما فيها.

فلما كان بعد قوله هذا دخل الى اسكندريه قوم ومعهم شي كثير من جزاير الروم يسمون الاندلسيين(*)، وأقامو على هذه القضيه من مصر الي جزاير الروم ينهبون ويجيبون السبى [النصارى] الى اسكندريه ويبعونهم كالعبيد، فلما نظر ابونا

(*) فى عهد الحكم بن هشام الأموى بالاندلس وعلى أثر وقعة الربض بقرطبة في عام ١٩٨هـ - ٨١٤م التى قامت بينه وبين=

وما زال حوثرة يمهد أمور مصر حتى استدعاه مروان بن محمد سنة ١٣١هـ ليخرج إلى العراق لقتال الخراسانية دعاة بنى العباس (١).

ولى مصر بعد ذلك المغيرة بن عبدالملك الفزارى فى جمادى الأولى سنة ١٣٢هـ ثم عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير، وفى تلك الأثناء كان مروان بن محمد قد هزم أمام جيش العباسين في وقعة الزاب (جمادى الآخرة سنة ١٣٢هـ) وفر إلى حران عاصمة الجزيرة. وكانت مصر البلد الذى فكر مروان فى الهرب إليه عله يستطيع منها أن يقضى على العباسين ليسترد سلطانه المهدد بالضياع، وذلك بما لها من مزايا عديدة من حيث الموقع والثروة. ويقال إن مروان فكر أولا وهو بحران فى الهرب إلى بلاد الروم حيث يجمع أمره ويلم شمل جنوده ليحارب العباسيين، واستشار فى ذلك رجلا من أخص الناس عنده وهو اسماعيل بن عبد الله القسوى. فكان ذلك رأى اسماعيل، غير أنه تذكر معاداة مروان لليمنين وتحامله عليهم فصرفه عن هذا الرأى، وقال له يا أمير المؤمنين: أعيذك بالله أن تحكم أهل الشرك فى نفسك وحرمك لأن الروم لا وفاء لهم(٢).

(١) الكندى ص ٩٢، أبو المحاسن جـ١ ص ٣٠٥.
(٢) الدينورى: الأخبار الطوال ص ٣٤٦ ـ ٣٤٧.

مرقس ذلك السبى حزن جدا لبيعهم الانفس مثل الغنم ويسلم منهم كثير، ومما فى قلبه من الرحمه كان يشترى منهم كثيرا مثل رهبان وقساوسه وشماسه وعذارى وامهات اولاد الى ان اشترى منهم ستة آلاف نفس، وكان اذا اشترى منهم شخصا كتب له عتاقته لساعته وسلم له كتاب عتقه في يده ويقول لهم: من اراد منكم ان يجلس عندى فهو مثل ولدى ومن اراد العودة الى بلده دفعت له ما يوصله الى أهله.

=أهل قرطبة هرب العديد منهم في سفنهم وأتوا إلى اسكندرية التى تعودوا أن يقدموا إليها للتجارة فوجودوا أحوالها مضطربة بسبب الصراعات المسلحة التى كانت قائمة فيها بين والى الخليفة وبين المدعو عمر بن هلال الذى حرضه عبدالعزيز الجروى الذى استقل بسلطانه فى الدلتا، على الدعوة له باسكندرية فاستعان بهؤلاء القرطبيين للإستيلاء على اسكندرية. وتطورت الأمور حتى صار لهؤلاء القرطبيون السيادة

وحين عاود الخليفة سؤاله قال : «الرأى أن تقطع الفرات وتستقرى(١) مدن الشام مدينة مدينة فإن لك بكل مدينة صنائع ونصحاء، وتضمهم جميعا إليك وتسير حتى تنزل ببلاد مصر، فهى أكثر أهل الأرض مالا وخيلا ورجالا فتجعل الشام أمامك وإفريقية خلفك، فإن رأيت ما تحب انصرفت إلى الشام، وإن تكن الأخرى اتسع لك المهرب نحو إفريقية فإنها أرض واسعة نائية منفردة (٢)» وقد صادف هذا الرأى قبولا لدى الخليفة، إلا أن مروان عندما وصل إلى مصر وجد أن الدعوة العباسية قد قطعت مرحلة كبرى فيها فكان أمامه محاربة العباسيين في داخل مصر وخارجها، وكانت النتيجة أن غلب على أمره فى النهاية.

لما وصلت الأخبار إلى مصر بانهزام مروان فى موقعة الزاب أخذ واليها عبد الملك بن مروان يستعد لمقاومة العباسيين فصادر كل ما وجده من الذهب والفضة والنحاس والحديد وغيره ليستعمل ذلك فى الصناعة وغيرها من الأمور اللازمة للدفاع. وقد اخترعت في ذلك الوقت مادة من العقاقير تدهن بها المراكب كيلا توثر فيها النيران، ويحدثنا ساويرس بن المقفع بأنه شاهد تلك الظاهرة بنفسه وهى عدم تأثر المراكب بالنيران إذا ما دهنت بتلك المادة، بل كانت

(١) استقرى البلاد تتبعها وطاف بها.
(٢) الدينورى ص ٣٤٧.

= كاملة على اسكندرية مدة أربعة عشر عاماً أنتهت فى عام ٨٢٧م = ٢١٢هـ . بخروجهم إلى جزيرة كريت (اقريطش) وقيامهم بأعمال القرصنة فى البحر المتوسط.

وكان جماعه منهم عند نظرهم افعاله يقعدون عنده فيسلمهم لمعلمين يعلمونهم المزامير وعلم البيعه، ومن اراد منهم ان يروح لاهله زوده ودفع له ما يحتاجه.

فشاعت اخباره وما فعل الى ممالك الملوك واهل الدول وصار له بينهم سمعه جميله، فحسده الشيطان على افعاله فحرك عليه البلايا واظهرشوكة شره، وكان فى مدينة اسكندريه فى

النيران تنطفئ في الحال (١) . ولا بد أن أهالي مصر الوطنيين قد نالهم بلاء عظيم من جراء مصادرة أموالهم وأستخدامهم فى كثير من الأمور اللازمة للعرب.

وممن ثاروا على مروان في مصر عمرو بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان وتبعه فى ذلك الدماحس بن العزيز الكنانى فى جمع من قيس، فأرسل إليهم الوالى عبد الملك بن مروان جيشاً قوامه سبعة آلاف شخص برياسة موسى بن المهند، وفى بلبيس التقى هذا الجيش مع الثائرين الذى طلبوا الصلح، فأجابهم موسى بن المهند إلى ماطلبوا، ثم ظفر بعمرو بن سهيل وحبسه فى الفسطاط (٢). وحسبنا دليلاً على الاضطراب الذى وصلت إليه مصر فى تلك الفترة أن يتمرد على مروان بن محمد بعض أفراد البيت الأموى كعمرو ابن سهيل وأن يتبع هذا المتمرد جزء من قبيلة قيس التى كانت موالية لمروان. ولما عزم مروان على المسير إلى مصر اجتمع بعض الجند فيها على منعه من دخولها وأمروا عليهم عبيد الله بن عبد الرحمن بن عميرة الحضرمى وهو ـ كما نرى من نسبه ـ ينتمى إلى عرب الجنوب الذين أصبحوا فى عداء مستحكم مع الخلفاء الأمويين. وقد أرسل مروان على مقدمة جيشة ابنه عبيد الله بن

(١) ساويرس ص ٢٧٣ جـ ٢.
(٢) الكندى ص ٩٤، أبو المحاسن جـ١ ص ٣١٦.

تلك الايام وال كبير في جنسه من المسلمين يسمى عمر بن مالك فثارو عليه اللخميون والجذاميون والمداجه وطلبو قتله حتى يملكون المدينه وبدو يقاتلونه فما قدرو عليه، وكان شيخ كبير من الاندلسيين كان قد وصل الى اسكندريه منذ صباه ويعلم كل مكر ودغل، وكان يتوسط بين لخم والاندلسيين ليساعدوه على قتل الوالى،واتفق راى الجميع على ذلك فاتو اليه فى اليوم العاشر من بوونه سنة خمس ومايتين وتلتين للشهدا، فلما اتفق

مروان، فلما وصل إلى مصر دعا ابن عميرة الجند إلى النهوض معه فتثاقلوا عنه ولم يقوموا بشئ مما عزموا عليه [1]، ثم قدم مروان مصر لثمان بقين من شوال سنة ١٣٢هـ فوجد أن أهل الحوف الشرقى قد أصبحوا من أعوان العباسيين، كما وجد الأسود بن نافع بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى فى الاسكندرية قد صار من أنصارهم، وكذا عبد الأعلى بن سعيد بن عبد الله ابن مروان الجيشانى بصعيد مصر ويحيى بن مسلم بن الاشج مولى بنى زهرة باسوان[2]. ومن هذا ندرك كيف نظمت الدعوة العباسية فى مصر.

ونجح مروان فى أن يخضع الاسكندرية والصعيد ولكنه لم يجن ثمار هذا النصر لأن صالح بن على بن عبد الله العباسى وأبا عون تبعاه إلى مصر على رأس الجيوش العباسية فوصلا إليها بعده بنحو شهر كما يحدثنا بذلك ساويرس [3] أو بعد مجيئة بشهرين تقريبا

(١) الكندى ص ٩٤ – ٩٥.

(٢) الكندى ص ٩٥.

(٣) تاريخ البطاركة ص ٣٩١ جـ ٢ .

يذكر ساويرس أن مروان قدم إلى مصر فى عشرين بؤونة سنة ٤٦٧ للشهداء، وأن الخراسانيين وصلوا مصر فى يوم ١٩ أبيب. وساويرس فى الواقع أكثر ثقة من المراجع المتأخرة لأنه استمد معلوماته من الوثائق اليونانية والقبطية المعاصرة لتلك الحوادث والتى كانت محفوظة بالأديرة.

راى الشيخ معهم هداهم الى ماعملوه فقتلو الوالى وملكو المدينه.

والذى جرى بعد ذلك يحزن ويولم، فلما كان تانى يوم بعد قتل الوالى وهو الحادى عشر من بوونه انفسد ما بين اللخميين والاندلسيين وصار عوض الصلح عداوه وحرب، والتقو ولم يزل الحرب بينهم الى الليل وظفرو الأندلسيون ، فلما نظرو اهل اسكندريه ذلك جردو سيوفهم ومشو فى

أعنى فى النصف من ذى الحجة كما تخبرنا بذلك المراجع المتأخرة[١]. وقد زاد الحالة حرجا فى ذلك الوقت ثورة أهل البشمور[٢] فى وجه عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير والى مصر قبل قدوم الخليفة إليها وقد امتنعوا عن دفع الخراج، فحاربهم عبد الملك ولكنهم هزموه. ولما وصل مروان بن محمد إلى مصر وعلم بثورتهم، أرسل يعرض عليهم الأمان ولكنهم لم يقبلوا ذلك منه وظلوا على ثورتهم، وساعدهم على ذلك أن المنطقة التى ثاروا فيها كانت تحيط بها المستنقعات، وتعيق حركة الجيوش المهاجمة. وفشلت الجيوش التى أرسلها مروان لمحاربتهم.

ولما اقترب العباسيون من الحدود المصرية وبلغوا غزة صمم مروان على إحراق مدينة الفسطاط وأعلن وجوب إخلائها فى ثلاثة أيام، فهرب جميع أهلها إلى الجيزة و إلى جزيرة الروضة ثم أمر مروان بإحراقها. ولما علم بوصول الخراسانيين إلى الفرما أمر بإحراق جميع المراكب فى مصر وإحراق ما يستطاع إحراقه من المدن والكور وتخريب ما يستطاع تخريبه فى الوجه البحرى، وتم إحراق بعض المدن وتخريبها فى شرقى الدلتا فألحق بمصر وأهلها ومدنها وحرثها ونسلها وحيواناتها وأموالها خراباً هائلاً، ولم يهتم سوى بنجاة نفسه وجنده فكانت

(١) الكندى ص ٩٦، أبو المحاسن جـ١ ص ٣١٧.

(٢) إقليم البشمور أو البشرود كما فى المراجع العربية: هو المنطقة الرملية للواقعة على ساحل الدلتا بين فرعى دمياط ورشيد والمعروفة فى التاريخ القديم باسم بيكولى Bucolics التى حدثت فيها حرب الفلاحين فى عهد الإمبراطور ماركس أورليوس (G. Wiet: Hist. de la Nation Egypt. t. V. p. 37).

الاسواق والشوارع والحمامات والبيوت وقتلو من
وجدو من الأندلسيين في كل موضع. فكان عدة
الذين قتلو منهم ثمانين نفسا. فلما افترق القتال
وانهزموا اللخميون سالو الاندلسيون عن قضية
اصحابهم فاعلمو ان الإسكندرانيين قتلوهم،
وامتلو غيظا كالأسد الضاريه لشجاعتهم فجردو
سيوفهم وخرجو في المدينه مغضبين وقتلو كلمن
لقوه من اهل البلد من المسلمين والنصارى واليهود
واى موضع وجدو فيه احدا من اصحابهم المقتولين

مصر تجني منه ومن أمثاله من الحكام العرب كل الخراب والدمار. أما مروان نفسه فقد عبر إلى الضفة الغربية للنيل في مراكب هو وجنده بعد أن أحرق الفسطاط على الضفة الشرقية. ويذكر ساويرس أن مروان قام بحركة التخريب والإحراق لأنه ظن أن الخراسانيين إذا أتوا إلى الضفة الشرقية للنيل ووجدوها خالية من الناس والبهائم والغلات ولم يجدوا مراكب يركبون فيها رجعوا من حيث أتوا [(١)].

وهنا نجد ظاهرة جديدة لم نعهدها من قبل وهي اشتراك المصريين الوطنيين ونقصد هنا الأقباط الذين كانوا يكونون أغلبية الشعب المصرى حينذاك، في تلك الحركة التي أدت إلى زوال الخلافة الأموية. ذلك أن المصريين الوطنيين لم يشتركوا في المنازعات الخليفية قبل ذلك وانما في هذه المرة نراهم يرحبون بالعباسيين لأنهم أرادوا التخلص من الحكم العربي الأموى بالإضافة إلى أن العباسيين وعدوهم برفع الجزية والمغارم عنهم، وهذا ما لم يحدث بالطبع عندما تمكن العباسيون من الاستيلاء على مصر.

ظل أهل البشمور على ثورتهم، بل ساروا إلى الفرما لمقابلة الخراسانيين يشكون إليهم من مروان بن محمد ومن اضطهاده الشعب القبطي على العموم[(٢)] ولم يكن هذا شعور أهل

(١) ساويرس بن المقفع: تاريخ البطاركة ص ٤١٨ جـ٢ .
(٢) ساويرس تاريخ البطاركة ص ٤٢٦ جـ ٢.

احرقوه بالنار، فلما انتهو الى بيعة المخلص وهى السطير التى بناها ابونا مرقس وجدو بعض اصحابهم على ابوابها مطروحا لان المسلمين قتلوهم هناك فى الدور وحملوهم رموهم عند باب البيعه فعند ذلك غضبو جدا، وظهر فى ذلك الوقت شيخ من فوق الدور ينظر الى الطريق،وهو الشيطان الذى ظهر بذلك الشبه وقال للاندلسيين: انا رايت صاحب هذه البيعه وقد قتل اصحابكم .

البشمور فقط بل كان شعورن القبط على وجه الإجمال ففى ذلك الوقت كان مروان قد قبض على بطرك الأقباط أنبا ميخائيل لأنه لم يقم بدفع المال الذى طلبه منه كما أنه لم يعمل شيئا لردع أهل البشمور [1] ويحدثنا أحد القساوسة الذين كانوا فى السجن إذ ذاك مع البطرك عن المعاملة السيئة التى لقيها هذا الرئيس الدينى على يد مروان ثم يقول إن الخراسانيين كانوا فى الضفة الشرقية للنيل ينظرون ماحل بالبطرك ولو وجدوا سبيلا إلى العبور إلى مروان لقتلوه لما رأوا من ظلمه وقسوة قلبه [2]. وهذا يظهرلنا شعور القبط إذ ذاك نحو الأمويين وأنهم كانوا يأمولون فى الخلاص على أيدى العباسيين.

لم يجد العباسيون إذ ذاك مراكب يعبرون فيها إلى الضفة الغربية للنيل حيث كان مروان مقيما بالجيزة. وكان مروان قد أحرق الجسرين اللذين يصلان الفسطاط بجزيرة الروضة وبالجيزة. وكانت هناك مخاضات فى النيل يمكن العبور منها بسهولة إلى الضفة الغربية ولم يكن العباسيون يعرفونها، ولكن دلهم عليها قوم يعرفونها وعبروا معهم إلى الضفة الغربية واستولوا بعدها على مراكب مروان التى عبر فيها هو وجنده إلى الجيزة.

ثم دارت رحى الحرب بين مروان وبين العباسيين وكتب النصر لهم ففر مروان حتى وصل

---

(١) ساويرس ص ٣٩٨ وما بعدها جـ٢.

(٢) ساويرس ص ٤٢٤ وما بعدها جـ ٢.

فرمو النار فى البيعه وكان النار تعلو جدا حتى انها احرقت دوركتير واماكن بعيده.

فلما علم ابونا بهذا الامر بكى بكا مر وحزن جدا، وقتلو مالا يحصى عدده من الخلايق ومواضع كتير نهبوها واحرقوها. وبعد هذا نحن الآن نريد أن نتكلم على ما دخل على قلب ابينا البطرك مرقس من الالم وخاصة بيعة السطير، وكان ينوح ويبكى ويقول بهذا النوح كما قيل فى

إلى بوصير[١]، وهناك لحق به صالح بن على العباسى حيث قتله لسبع بقين من ذى الحجة سنة ١٣٢هـ[٢] وبذلك زالت الخلافة الأموية نهائيا، وأعقب العباسيون ذلك بقتل كثير من

(١) بوصير أو أبو صيرة اسم لبلدان كثيرة فى مصر. وهذا الاسم من بقايا التاريخ القديم إذ كان المصريون القدماء يسمون بلدانا كثيرة باسم الإله أوزير. وبوصير هذا مشتق من الاسم الإله أوزير (أوزيريس). وبوصير هذا مشتق من الاسم المصرى القديم بروسرأى «مكان الإله أوزير» (سليم حسن بك: أقسام مصر الجغرافية. ص ١٨٧). وكان هناك زمن مقتل مروان أربع قرى بمصر باسم بوصير، فكان هناك بوصير قوريدس من أعمال الأشمونين وبوصير السدر فى كورة الجيزة، وبوصير دفدنو فى كورة الفيوم، وبوصير بنا فى كورة سمنود (ياقوت معجم البلدان جـ١ص ٧٦٠) وقد أختلف المؤرخون فى المكان الذى قتل فيه مروان. فيذكر الكندى أنه قتل فى بوصير من كورة الأشمونين (ص ٩٦) ويذكر ابن العميد فى كتابه تاريخ المسلمين ص ٩٦ أنه قتل فى بوصير قوريدس. ويذكر المقريزى فى الخطط جـ١ ص ٣٠٤ وأبو المحاسن جـ١ص ٣١٧ أنه قتل ببوصير بالجيزة. ويرى الأستاذ فييت أن مروان قتل فى أبى صير الملق الحالية التى تقع الآن فى مركز الواسطى فى مديرية بنى سويف وذلك لأنه يوجد هناك ضريح صغير باسم مروان يعمل له كل عاما احتفال سنوى. كذلك نعلم أن مروان حمل معه ثروته إلى مصر. وقد اكتشف أخيرا فى أبى صير الملق إبريق فخم من الطراز الساسانى يرجح أنه كان ملكا له (انظر: زكى محمد حسن: الفنون الإيرانية ص ٢٧٠). والأصح أنها كانت بوصير التى فى أعمال الجيزة. وبوصير الملق الحالية قرية من الجيزة وربما كانت ضمن كورة الجيزة فى العهد العربى. وساويرس يذكر أن الخراسانيين عبروا فى آخر يوم من ابيب أى بعد وصولهم إلى الفسطاط بعشرة أيام ويذكر أنهم عندما عبروا إلى الجيزة قتلوا مروان (ص ٤٥٧ وما بعدها جـ ٢) إذا قارنا ذلك بما ورد فى المصادر العربية بأن مروان قتل بعد وصول الجيش العباسى إلى الفسطاط بنحو تسعة أيام. نرجح أن قتله كان قريبا من الجيزة ونرجح أن أباصير هى أبو صير الملق الحالية لقربها من الجيزة.

(٢) الكندى ص ٩٦ ـ ٩٧، أبو المحاسن جـ١ ص ٣١٧.

المزمـور «يا الله دخلت الامم الى ميـراثك ونجسـو هيكل قدسك جعلو يروشليم خرابا كمثل ظلمة الحبس، جعلو جثث عبيدك طعاما لطير السما، ولحوم قديسيك لوحوش الارض وسفكوا دما[ء]هم مثل الما[ء] حول يروشليم ولم يكن لهم من يدفنهم»(*). ثم نزل من على كرسيه وجلس على الارض. وكان مداوما هذا النوح مثل قول ايوب المغبوط «انا كنت فى السلامه بدّدنى ونزع عنى

(*) المزمور ٧٩ / ١ ، ٢ ، ٣ .

أنصار بنى أمية فى مصر وأسر البعض الآخر، ثم دخل صالح بن على العباسى الفسطاط فى المحرم سنة ١٣٣ هـ وبعث برأس مروان بن محمد إلى العراق [١]. ولم ينس العباسيون أن يكافئوا القبط الذين رحبوا بهم، فخففوا عنهم الخراج وأخلوا سبيل أنبا ميخائيل الذى حبسه مروان، ولما طلب البطرك من قائد العباسيين فى مصر أن يحمى أملاك الكنيسة فى جميع البلاد ولا يتعرض لها، أجابه إلى ما أراد. كذلك أعفى العباسيون البشامرة من دفع الخراج[٢].

وهكذا زالت الدولة الأموية نهائيا بعد انتصار العباسيين على مروان ابن محمد فى مصر، وأصبحت مصر منذ أواخر سنة ١٣٢هـ وأوائل سنة ١٣٣هـ ولاية تابعة للخلافة العباسية بالعراق.

الحركات السياسية والدينية منذ قيام الدولة العباسية الى قيام الدولة الطولونية (١٣٢ . ٢٥٤هـ).

أ. موقف الأمويين والعلويين فى مصر من الخلافة العباسية

لم يكن زوال الخلافة الأموية ومقتل مروان معناه انتهاء المقاومة الأموية نهائيا، فقد ظهر من

(١) الكندى ص ٩٧، أبو المحاسن جـ١ ص ٣١٧.
(٢) ساويرس ص ٤٦٠ جـ٢. ولعل الأعفاء كان عن هذه السنة فقط.

حلتى وارشق فىّ سهامه»(*). ويقول هذا وما يشاكله . ولم يفطر ذلك اليوم وتلك الليله ولم يقدر احد ان يجلسه على كرسيه ولا على حصير بل كان مطروحا على الأرض ينوح فلما كان نصف الليل قام ليصلى كعادته، فلما اصبح خرج ومعه اثنان من اولاده وقال: يا ايها المدينه المقدسه التى كثر فيها القتل وملكها العدو يا كرسى الذى قد اعتقدت اننى اجلس عليه [الى حين انتقالى]، ايها الموضع الذى لاباى [لآبائى] القديسين

(*) ايوب : الاصحاح ١٦ / ١٢ .

وقت لآخرن بعض أنصار البيت الأموى أو أفراده، قاموا ضد الخلافة العباسية ولم يتهاون العباسيون فى القضاء على المعارضين لهم حتى لو كان هؤلاء ممن ناصروهم من قبل.

ونلاحظ أيضا أن قيام الدولة العباسية لم يكن معناه أنتهاء مطالبة العلويين بالخلافة وتركهم مناوأة الحكومة القائمة، فقد كان العباسيون فى نظر العلويين وشيعتهم مغتصبين للخلافة كما كان الأمويون من قبلهم لذا نجد أنه كلما قام خليفة عباسى، قام علوى يدعو إلى نفسه بالخلافة. وقد استعمل العباسيون كل الوسائل من قتل وغدر للقضاء على المعارضة العلوية، ولا يكاد تاريخ أى خليفة يخلو من وقائعه مع العلويين، وظلت فرق الشيعة من جانبها تكيد للدلة العباسية فى الخفاء أو تحاربها جهراً إن أمكن الجهر. والذى يهمنا الآن هو موقف الأمويين والعلويين بمصر من الخلافة العباسية وموقف الخلفاء العباسيين منهم.

فى عهد الخليفة العباسى المهدى (١٥٨ ـ ١٦٩هـ) وفى ولاية إبراهيم ابن صالح على مصر من قبل ذلك الخليفة (١٦٥ ـ ١٦٧هـ) نسمع عن خروج أحد الأمويين وأنه دعا إلى نفسه بالخلافة ، ذلك الأموى هو دحية ابن مصعب بن الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان الذى خرج بالصعيد، فلما بلغ ذلك والى مصر تراخى عنه ولم يحفل بأمره ولم يهتم بمحاربته للقضاء عليه وكان نتيجة سياسة هذا الوالى المتراخية أن استفحل أمر دحية وملك أغلب بلاد

اللابسى النور الذى تنيحو فيه بابتهاج وسرور، وانا صرت غريبا منه لاجل خطاياى. قال هذا وخرج من المدينه وسار من مكان الى مكان يشق بحار مياه واماكن صعبه فأقام فى هذا الضيق خمس سنين من بعد خروجه من المدينة كمن هو سبى، وكان فى جميع ذلك شاكرا لله ليلا ونهارا. وما ذا حل باولاد البيعه من البلايا فى ذلك الزمان والابا[ء] الاساقفه والاراخنه، وكانو ياتون اليه ويعزونه ويسالونه وكل منهم يساله ان يمضى به

الصعيد وكاد أمره أن يتم وتخرج مصر من حكم العباسيين . فلما علم الخليفة المهدى بذلك سخط على الوالى وعزله سنة ١٦٧هـ(١).

ولى مصر بعد ذلك موسى بن مصعب بن الربيع الخثعمى (١٦٧ ـ١٦٨هـ) فأرسل جيشا مكونا من خمسة آلاف محارب بقيادة عبد الرحمن بن موسى بن على بن رباح اللخمى، إلى الصعيد لمحاربة دحية. وما لبث هذا الوالى أن قتل فى ٧ شوال سنة ١٦٨هـ أثناء محاربته قيسا واليمنية الذين ثاروا ضده فى الحوف (٢). ولى مصر بعد مقتله عسامة بن عمرو وافتتح أمرته بحرب دحية الأموى بالصعيد، وأرسل إليه الجيوش بقيادة أخيه بكار بن عمرو فحارب يوسف بن نصير الذى كان على مقدمة جيش دحية، وقد عاد الجيشان دون أن يحدث بينهما ما يستحق الذكر (٣). وبعد ذلك بأيام يسيرة ورد الخبر بعزله عن ولاية مصر وتولية الفضل بن صالح بن على العباسى عليها فى آخر المحرم سنة ١٦٩هـ(٤). وكان أمامه قبل كل شئ أن يقضى على دحية الذى تفاقم خطره وبايعه كثير من الناس حتى كاتبه البعض ودعوه إلى دخول الفسطاط(٥).

(١) الكندى ص ١٢٤، أبو المحاسن جـ٢ ص ٤٩.
(٢) الكندى ص ١٢٦، أبو المحاسن جـ٢ ص ٥٤ ـ ٥٥.
(٣) أبو المحاسن جـ٢ ص ٥٧. (٤) أبو المحاسن جـ٢ ص ٦٠.
(٥) الكندى ص ١٢٩.

الى منزله لياخذ بركته فلم يفعل . وكان الارخن الدين مقاره بن ساث [نبات] النبرواى(*) من كرسي سمنود، فلما سمع ما جرى قام ومضى الى عند عبد العزيز المتولى على المشرق وخاطبه بسبب الاب البطريرك انبا مرقس ، وان الأمم الذين تغلبوا على اسكندريه نهبوا جميع ماله وترك كرسيه رجا[ء] سكن تحت ظل الله وظلك، فان كنت قد ظفرت بنعمه امامك فاكتب له كتابا باسمك ليتقوى بامرك ليكون في موضعه امنا.

(*) نبروه: تقع في محافظة كفر الشيخ عرفت بالفسيخ النبراوى. ورد اسمها في قوانين ابن مماتي وفي تحفة الإرشاد من أعمال السمنودية. أما سمنود فكانت عاصمة للمملكة المصرية في عهد الأسرة الثلاثين الفرعونية. واسمها المصرى سبنترت مكون من مقطعين «سب» بمعنى الأرض، و«نترت» بمعنى المقدسة ثم حرف اسمها سبنترت إلى =

أتى الفضل إلى مصر ومعه جيوش من الشام استخدمها في قتال دحية في بويط[1]، وقد تقهقر أصحاب دحية أمامه وتوجه بعدها دحية على رأس حامية من جنده إلى الواحات فبعث إلى أهلها - وكانوا من المسالمة [2] والبربر الذين يدينون بمذهب الخوارج - يدعوهم إلى القيام معه فأبوا أن يقاتلوا معه حتى يتبين إذا كان يدين بمذهبهم فأجابهم بأنه على مذهبهم فخرجوا اليه وقاتلوا معه يوم الدير. وقد أرسل إليه الفضل بن صالح جيشا كبيرا بقيادة عبد الله بن على فخرج إليه دحية في أهل الواحات فهزم عبد الله بن على وقتل يومئذ عبد العزيز بن مروان بن الأصبغ، على أن أهل الواحات مالبثوا أن تخلوا عن دحية لإيثاره العرب على المسالمة وتقديمهم على البربر، كما أنه لم يرض بأن يتبرأ من عثمان فتبين لهم أنه على غير مذهب الخوارج فتركوه وانصرفوا عنه، فلما علم عبد الله بن على بانصرافهم عنه أتى ثانية لمحاربة دحية فقتل يومئذ مروان بن عبد الملك بن أبى بكر بن عبد العزيز بن مروان [3]. وقد انتهى الأمر بأسر دحية وأتى به إلى الفسطاط فضرب الفضل عنقه وصلب جثته وبعث برأسه إلى الهادى وكان قتله في جمادى الآخرة سنة ١٦٩هـ [4]. وكان القضاء على دحية الأموى

(١) بويط بالضم ثم الفتح قرية في مصر الوسطى قريبة من ديروط.
(٢) المسالمة لفظ كان يطلق على القبط (خطط المقريزى جـ١ ص ٥٠) أو من يسلم حديثا من القبط أو اليهود (خطط جـ١ ص ١١٠).
(٣) الكندى ص ١٢٩ - ١٣٠
(٤) أبو المحاسن جـ٢ ص ٦٠ - ٦١.

=سبنوتس الرومية وسمنوت القبطية ثم سمنود حاليا.

(*) سخا: هي سخوى Skhouy القبطية قرب برارى شمال الدلتا، كانت عاصمة للغربية وقت الايوبيين.

(*) انتقال البطرك إلى مدينة نبروه بسبب سقوط الاسكندرية في يد الاندلسيين.

حينذ [حينئذ] كتب له سجلا عظيما كما التمس الريس المحب لله، حينذ اخذ ذلك الارخن نصيب دروتاوس ارخن سخا(*) الذى اوى اليه الاب القديس سويرس حتى تنيح عنده ، ثم انفذ رسلا من عنده وسجل [كتاب] الامير الى الأب البطرك ان ياتى ويقيم فى منزله، فقام ابونا البطرك وصلى وسار الى أن وصل الى نبروه(*) فخرج اليه ولقيه وكلمن معه من اجل الرياسه ، فلما راى الاب سجد له بقوة امانته وقال : الرب قد صنع

معناه انتهاء أول المحاولات وآخرها من جانب الأمويين فى مصر لاسترداد الخلافة. على أنهم بعد ذلك كانوا أحيانا ينضمون إلى الثائرين على الخلافة العباسية من العلويين وذلك رغبة فى الكيد للدولة العباسية.

وقد ظهرت الدعوة العلوية فى مصر منذ عهد الخليفة أبى جعفر المنصو (١٣٦ ـ ١٥٨هـ) ففى أمارة حميد بن قحطبة (١٤٣ ـ ١٤٤هـ) قدم إلى مصر على بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب داعية لأبيه وعمه [(١)]. وقد كان أبوه محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على المعروف بالنفس الزكية قد دعا إلى نفسه سرا فى خلافة المنصور وتلقب بأمير المؤمنين، وفى سنة ١٤٥هـ ظهر بعد أن اختفى زمنا كان أشياعه يقيمون له الدعوة حتى كثر أنصاره فى خراسان واعترف الناس بإمامته فى مكة والمدنية، ومن ثم أرسل أخاه إبراهيم إلى البصرة لنشر دعوته. على أن محمدا كان مصيره القتل على يد عيسى بن موسى ، فدعا أخوه إبراهيم إلى نفسه وقام لنصرته كثيرون من فقهاء البصرة وذوى الرأى والجاه. ولكن إبراهيم لقى حتفه كأخيه على يد عيسى بن موسى العباسى أيضا فى موقعة باخمرا [(٢)] وذلك فى أول ذى الحجة سنة ١٤٥هـ.

(١) خطط المقريزى جـ٢ ص ٣٣٨.
(٢) باخمرا: موضع بين الكوفة وواسط وهو إلى الكوفة أقرب (ياقوت: معجم البلدان جـ١ ص ٤٥٨).

معى اليوم رحمة عظيمه اذ جعل ابوتك ان تنزل بيت عبدك وانا اومن ان مجيك الينا يكون بركه ومعافاة لانفسنا. ثم مضى معه الى البيعه بالقرا[ء]ة امامه كما يجب للبطاركة وجعله فى موضع يشاكل [يناسب] رياسته وهو موضع اعمره والده على اسم القديس ابى مقارى بوادى هبيب.

ومع جميع ذلك لم يكن يتخلى هذا الاب القديس عن الاهتمام بالبيع المقدسه باسكندريه

أما ما كان من أمر هذه الدعوة فى مصر فهو أنه لما قدم على بن محمد إليها يدعو لأبيه وعمه توانى حميد بن قحطبة فى الأمر ولم يجد فى القبض عليه، وبعث إلى أبى جعفر المنصور يقول إنه أرسل فى طلبه فلم يجده. وكان ذلك سببا فى سخط أبى جعفر المنصور على الوالى وعزله فى ذى القعدة سنة ١٤٤هـ. ولى مصر بعد ذلك يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة (١٤٤ ـ ١٥٢هـ) وفى بدء ولايته كانت دعوة بنى الحسن بن على قد ظهرت فى هذه البلاد وبايع كثير من الناس لعلى بن محمد، وكان على هذا أول علوى قدم مصر. وكاد أمر بنى الحسن أن يتم فى مصر حتى قدمت الخطباء إليها برأس ابراهيم بن عبد الله بن الحسن فى ذى الحجة سنة ١٤٥هـ فنصبوه فى المسجد الجامع أياما(١). فخمدت تلك الحركة كما خمدت فى الحجاز والبصرة بمقتل زعمائها سنة ١٦٠هـ. وأما على بن محمد النفس الزكية فقد اختلف فى أمره فزعم بعضهم أنه حمل إلى أبى جعفر المنصور وقيل إنه اختفى بمصر عند عسامة ابن عمرو حتى مرض ومات. وقد حمل عسامة إلى العراق وحبس زمانا حتى آلت الخلافة إلى المهدى فأمنه على أن يصدقه عن على بن محمد فاعترف بأنه مات فى بيته (٢) وهكذا انتهت تلك الحركة فى مصر وقد كان يزيد بن حاتم قد منع

(١) الكندى ص ١١١ ـ ١١٤، خطط المقريزى جـ٢ ص ٣٣٨، أبو المحاسن جـ٢ ص ١ ـ ٢.
(٢) الكندى ص ١١٥.

والبطركيه، وبيعة الشهيد ابى مينا بمريوط، وايضا لاجل اتحاد الاعضا[ء] التى افترقت من بيعة انطاكيه التى افرقها ابراهيم المطران ومن معه.

وفيما هو مهتم بهذه الامور اخذ الرب الاب كيرياكوس بانطاكيه وتنيح وجلس بعده انسان جيد اسمه «ديونوسيوس» فلما جلس المذكور على الكرسى بدا بمخاطبة ابراهيم [المطران] بخطاب لين واعاد جماعه ممن كان قد ضل معه فاظهرو

أهلها من الحج بسبب خروج هؤلاء العلويين فلما قتل ابراهيم ابن عبد الله العلوى أذن لهم فى الحج [1].

ويجدر بنا أن نشير إلى أن بعض أفراد البيت الأموى الذين بقوا فى مصر كانوا ممن بايع لعلى بن محمد ومن هؤلاء مصعب ومنصور وزيد. أبناء الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان.

وحدث بعد ذلك أن آوت مصر أحد العلويين الذى استطاع بعد خروجه منها أن يقتطع لنفسه جزءا من بلاد الدولة العباسية ويكون لنفسه دولة مستقلة، ذلك العلوى هو ادريس بن عبد الله أخو محمد الملقب بالنفس الزكية. ففى عهد الخليفة الهادى (١٦٩ ـ ١٧٠هـ) خرج الحسين بن على بن الحسن ابن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب بالمدينة يدعو إلى نفسه ومنها سار إلى مكة حيث التقى بجيش العباسين فى فخ [2] فقتل بعد أن أبلى بلاء شديدا. وكانت هذه الموقعة من الشدة بحيث قيل لمن تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأفجع من فخ. وكان ممن ناصر الحسين بن على فى حركته هذه يحيى وادريس ابنا عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على وقد هربا قبل هذه الموقعة. أما يحيى فقد ثار فى بلاد الديلم فى عهد هرون الرشيد وانتصر له أهل اليمن وغدا أمره من الخطر بحيث هدد سلامة الدولة العباسية وأقلق بال

(١) أبو المحاسن جـ٢ ص ٢.

(٢) فخ بفتح أوله وتشديد ثانيه... وهو واد بمكة (ياقوت معجم البلدان جـ٣ ص ٨٥٤).

التـوبه واعـتـرفـو بضـلالتـهم . فلمـا اتصل بابينا القديس مرقس ذلك فرح جدا واسرع وكتب كتبا الى الاب ديونوسـيـوس بطرك انطاكـيـه باهتـمـام باعادة [الخراف] الضاله اول كتابه هكذا:

مبارك الرب اله المجد الذى لم يزل فى كل حين مهتما بقطيعه وبيعته الذين اشتراهم بدمه الطاهر وعلم فى البد[ء]ان ابوتك يصيـر باسـمـه المقدس [بركـه] كـمـا شـهـد عن بولس ان هذا يكون لى

الرشيد فأنفذ إليه الفضل البرمكى، فما زال به حتى رضى بالصلح على أن يكتب له الرشيد أمانا بيده، ولكنه قتله ومداد الأمان لم يجف بعد.

أما إدريس بن عبد الله فقد توجه إلى بلاد المغرب الأقصى وبايعه البربر فى سنة ١٧٢هـ، وكون هناك أول دولة للعلويين وهى دولة الأدارسة.

مر إدريس بن عبد الله على مصر فى طريقه الى المغرب فى ولاية على ابن سليمان بن على بن عبد الله العباسى (سنة ١٦٩هـ - ١٧١هـ) زمن هرون الرشيد. ويقال إنه لما قدم إلى مصر علم واليها بمكانه وقابله سرا ولم يفضح أمره حتى توجه إلى المغرب [١]. ويقـول أبو المحـاسن [٢] بأن واضح ابن عبد الله المنصورى الذى كان واليا على مصر زمن المهدى سنة ١٦٢هـ، وكان على بريد مصـر عندما قدم إدريس إليها، وكان يميل إلى العلويين فحمل إدريس على البريد إلى الغرب. أى أن مصر سهلت الطريق لإدريس بن عبد الله وساعدته فى خروجه على الدولة العباسية.ولو قبض عليه واليها إذ ذاك أو أخبر عامل البريد بوجوده فى مصر لما قامت تلك الدولة العلوية فى المغرب بالرغم من أنف هرون الرشيد.

ويظهر أن تعقب العباسـين للعلويين واضطهادهم إياهم قد ألجأهم إلى الفرار إلى الجهات

(١) الكندى ص ١٣١.
(٢) النجوم الزاهرة جـ٢ ص ٤٠.

انا[ء] منتخبا باسمي امام الملوك والأم، كذلك بارادته المقدسه اصطفاك لاسيما فى هذا الزمان الذى اقتناه وهو التمام كما قال الرسول المغبوط، وانا اسيل الان ابوتك ان تقدم صلوات ودعا كتير الى السيد المسيح الرووف الهنا ليهدينا وبيعته لانا قد افتقرنا جدا، لان باحكامه الغير مفحوصه يتمم ما قد بدا. وقال ان الامم [المخالفه] دخلو الى ميراثه ونجسو هياكلنا المقدسه وجعلو المدينة العظمى اسكندريه مثل محرس [سجن] حبس لما جرى من

البعيدة عن مقر الخلافة العباسية ولاسيما ما كان مرتعا خصيبا للمعارضة كبلاد البربر[١]، والذى يهمنا أن كثيرا من آل البيت قد أتوا إلى مصر ليكونوا بعيدين عن الاضطهادات والمضايقات التى نالتهم على أيدى الخلفاء العباسيين. ولاتزال مصر حافلة بقبور آل البيت منذ ذلك العهد البعيد.

ولم نسمع بأن أحداً تعرض للعلويين فى مصر بسوء طوال ذلك العهد إلى أن كان زمن الخليفة المتوكل على الله العباسى (٢٣٢هـ - ٢٤٧هـ)، وكان يبغض العلويين، فأرسل كتابا هو وابنه المنتصر - صاحب اقطاع مصر حينذاك - إلى والى مصر اسحاق بن يحيى (٢٣٥ - ٢٣٦هـ) يأمره بإخراج آل على بن أبى طالب من مصر فأخرجوا من الفسطاط فى رجب سنة ٢٣٦هـ إلى العراق وهناك أمروا بالخروج إلى المدينة فى شوال من سنة ٢٣٦هـ[٢] ويذكر المقريزى [٣] أن الذين بقوا فى مصر من العلويين اضطروا إلى الإختفاء.

أصبح العلويون والشيعة فى مصر غير آمنين على أنفسهم من اضطهاد العباسيين منذ عهد

(١) أبو المحاسن جـ٢ ص ٦٨.
(٢) الكندى ص ١٩٨، خطط المقريزى جـ٢ ص ٣٣٩، أبو المحاسن جـ٢ ص ٢٨٣ - ٢٨٥.
(٣) خطط جـ٢ ٣٣٩.

الحروب فيها ين الامم، حتى ان قتلاها لم يجدو من يدفنهم واجساد كتير منهم صارت طعاما لطير السما ووحوش الارض.

وبهذه الأفكار كان يتكلم لأنه مثل ما كتب عن يروشليم فى نواح ارميا النبى لما جرى عليها بعد قيامة السيد المسيح لاجل ما فعلوه ا ليهود الكفار ارسل عليهم طيطس ملك الروم الكافر المجوسى يفعل فيهم ما هو مشروح فى كتاب «يوسف ابن

المتوكل. وقد عمل الوالى يزيد بن عبد الله على استئصال شأفتهم فعاقبهم وأبادهم وحمل منهم جماعة إلى العراق على أقبح وجه[1].

ولما قتل المتوكل فى شوال سنة ٢٤٧هـ وبويع ابنه المنتصر بالخلافة أرسل إلى يزيد بن عبد الله يقره على ولايته بمصر[2] ثم ورد كتابه إلى يزيد بألا يقبل [3] أحد من العلويين على ضيعة، ولا يركب فرساً ولا يسافر من الفسطاط إلى طرف من أطرافها، وأن يمنعوا من اتخاذ العبيد إلا العبد الواحد ، وإن كانت بينه وبين أحد من الطالبيين خصومة من سائر الناس قبل قول خصمه فيه ولم يطالب ببينه [4].

توفى الخليفة المنتصر فى شهر ربيع الأول ٢٤٨هـ وبويع المستعين بالله فى شهر ربيع الآخر. وفى خلافته علم يزيد بن عبد الله بأن رجلا يقال له محمد بن على بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب بويع له، فأخذه فاعترف بذلك كما اعترف بمن بايعه، فأخذ

(١) الكندى ص ٢٠٣ ، خطط المقريزى جـ٢ ص ٣٣٩، أبو المحاسن جـ٢ ص ٣٠٩.
(٢) أبو المحاسن جـ٢ ص ٣١٣.
(٣) قبل وقبل قبالة. ضمن والتزم، قبل المزارع الأرض. جعله يلتزمها بعقد.
(٤) الكندى ص ٢٠٤ ، المقريزى جـ٢ ص ٣٣٩.

كـروتوس» الذى اهتم وجـمع اخـبـار اليـهـود فى البيت التانى، ومن اجل ذلك خرجنا من المدينه لما شاهدناه فيـهم لانهم لم يكفو عن القتل والنهب والحريق وليس من يمنعهم ولذلك اخترنا ان نسكن فى الغربه وندعو الى السيد المسيح الاهنا، واردنا اعـلام ابوتك ذلك، ولكن حـزن عظيم بسـبب الذين افترقو من البيعه بجريرة المسمى «إبراهيم»، ولما اتصل بنا الان ان بعض منهم طلبـو التـوبة ويعودون من ضلالتهم فرحنا جدا ونسينا الاوجاع

بعضهم فضربوا بالسياط ثم أخرج العلوى فى جمع من آل أبى طالب إلى العراق فى شهر رمضان سنة ٢٤٨هـ (١).

خلع المستعين من الخلافة فى المحرم سنة ٢٥٢هـ وبويع المعتز (٢٥٢ - ٢٥٥هـ). فاضطربت الأمور فى مصر لاضطراب أمر الخلافة (٢) بسبب تحكم الأتراك فى شئون الدولة. والأتراك كما نعلم كانوا فى البداية من الرقيق الذين اتخذهم الخلفاء العباسيون جنوداً، ثم كثر عددهم وقوى نفوذهم منذ أيام الخليفة المتعصم الذى أكثر من شرائهم، إذ رأى فيهم قوماً أشداء يميلون إلى الحرب، وليس لهم وطن أو مجد قديم يعملون على إحيائه وليست لهم عصبية العرب، وإذا خصهم أحد بمنحه وعطاياه فلا يعرفون رئيساً إلا هو، وقد بلغ من قوة نفوذهم فى عهد المعتصم نفسه أن اضطر إلى مغادرة بغداد حاضرة الخلافة العباسية وبناء حاضرة جديدة له ولجنده الأتراك هى سامراً (٢٢١هـ) ليكون بعيداً عن الجند العربى والفارسى ببغداد(٣). على أن هؤلاء ما لبثوا أن تدخلوا على ممر الزمن فى معامع السياسة، وصاروا يولون ويعزلون من شاؤا من الخلفاء، وأصبح بيدهم القوة المدنية والحربية فى الدولة.

(١) الكندى ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.   (٢) أبو المحاسن جـ٢ ص ٣١٤.
(٣) اليعقوبى : كتاب البلدان ص ٢٥٦، ياقوت : معجم البلدان جـ٣ ص ١٦، ١٧ وابن الأثير: الكامل فى التاريخ جـ٦ ص ٣١٩، الدكتور زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر جـ١ ص ٢٤ ـ ٢٥.

المحيطة بنا لانه اذا كان اتحاد فى البيعة المقدسة وهى تحت السلامه تضاعفت عندنا النعم، والان يا ابى القديس نحن نعلم رحمة السيد المسيح الاهنا الذى اتى الى العالم ليس لجل [لأجل] الصالحين لكن من اجل الخطاه وافتح لهم الان باب التوبه واهدهم إلى طريق الحق لكى تفرح بعودتهم طغمات السموات لنهم [لأنهم] اعدو فى ابنا[ء] النور. فلما وصلت هذه الكتب الى الاب ديونوسيوس فرح جدا وجميع شعب سوريه لكثرة

وكان هذا إيذانا باضطراب الأحوال فى الأقاليم المختلفة فى الدولة الإسلامية كما كان فرصة لذوى الأغراض المختلفة للقيام ضد الخلافة العباسية ومن بينهم العلويون. ففى خلافة المعز ثار فى الإسكندرية جابر بن الوليد المدلجى فى ربيع الآخر سنة ٢٥٢هـ، واشتد أمره وقويت شوكته وبسط سلطانه على بلاد كثيرة من الوجه البحرى. وجبى منها الخراج، ولم يستطع يزيد ابن عبد الله والى مصر إذ ذاك أن يقمع حركته، فأرسل إليه الخليفة نجدة بقيادة مزاحم بن خاقان الذى قدم من العراق فى عسكر عظيم، (رجب سنة ٢٥٢هـ) وقد استطاعت جيوش الخليفة أن تهزم جابراً وتظفر به فى النهاية، لما كتبوا إلى الخليفة بذلك ورد عليهم الجواب بصرف يزيد بن عبد الله عن إمرة مصر وتولية مزاحم بن خاقان بدلا منه (ربيع الأول سنة ٢٥٣هـ[1]) .

والذى يهمنا فى حركة جابر بن الوليد ماكان من انضمام أحد العلويين إلى تلك الحركة، وهوعبد الله بن أحمد بن محمد بن اسماعيل بن محمد بن عبد الله ابن على بن الحسين بن على بن أبى طالب، وكان يقال له ابن الأرقط. فلما هزمت جيوش جابر بن الوليد بعد قدوم مزاحم بن خاقان، أخذ ابن الأرقط وأخرج إلى العراق فى ربيع الأول سنة ٢٥٣هـ. وفى ولاية

(١) الكندى ص ٣٠٥ ـ ٢١٠، خطط المقريزى جـ٢ ص ٣٣٩؛ أبو المحاسن جـ٢ص ٣١٤.

اهتمامه وصلاحه، اعنى ابانا انبا مرقس، ولذلك عاد الذين ضلو فى تلك الايام عند سماعهم كتبه، الا يسيرا مع إبراهيم الذى هو راس الضلاله وهم يسمون الان إبراهيميين. وصارت بيعة انطاكيه بفرح عظيم.

ثم ان الاب ديونوسيوس بطرك انطاكيه كتب سنوديقا الى الاب انبا مرقس يظهر له اتحاد المحبه ويشكر محبته واهتمامه فى خلاص كل احد،

أزجور التركى على مصر (ربيع الاخر ـ رمضان سنة ٢٥٤هـ) خرج أحد العلويين بالصعيد وهو احمد بن ابراهيم بن عبد الله بن طباطبا بن اسماعيل بن ابراهيم ابن الحسن بن الحسين بن علي وكان يعرف باسم بغا الأكبر [١]. فحاربه أصحاب أزجور ففر ثم مات.

كذلك خرج من العلويين بغا الأصغر واسمه احمد بن محمد بن عبد الله ابن طباطبا فيما بين الإسكندرية وبرقة فى موضع يقال له الكنائس. وذلك فى شهر جمادى الأولى سنة ٢٥٥هـ ثم سار فى جمع إلى الصعيد حيث هزم على يد أحمد بن طولون وقتل فى الحرب وأتى برأسه إلى الفسطاط فى شعبان سنة ٢٥٥هـ [٢]. كذلك ثار بصعيد مصر سنة ٢٥٥هـ أحد العلويين ويقال له ابن الصوفى العلوى، ودخل إسنا فى سنة ٢٥٥هـ فنهبها وقتل أهلها فبعث إليه احمد بن طولون جيشاً لقتاله، وانتهى أمر ذلك العلوى بأن ذهب إلى المدينة المنورة حيث قضى فيها بقية أيامه[٣].

ومن ذلك نرى كيف تتابعت حركات العلويين فى مصر منذ عهد الخليفة المتوكل العباسى. فكأن أضطهاده لهم وتضييقه عليهم هو ومن أتى بعده من الخلفاء لم يمنعهم من الخروج

(١) خطط المقريزى جـ٢ ص ٣٣٩.
(٢) الكندى ص ٢١٢، المقريزى جـ٢ ص ٣٣٩.
(٣) الكندى ص ٢١٣ ـ ٢١٤و Zaky M. Hassan: Les Tulunides. PP. 54 - 56.

ولذلك صار فرح عظيم فى كورة مصر والمشرق بهذا الاتحاد ومجدو الله.

فلما تمت هذه النعمه لم يصبر الشيطان الذى هو مقاوم الصلح فى كل حين ومقيم الشرور فبدا وانزل على برية وادى هبيب بلايا عظيمة، التى هى مسكن للعرب [فى ذلك الزمان]، وكانت برية وادى هبيب مثل فردوس النعيم فنهبوها العرب واسرو الرهبان وهدمو بيعها والمناشيب [اعنى

- -

علانية بعد أن كانوا يكيدون للخلافة العباسية سرا، علهم ينالون حظا من السلطان ويتخلصون من الخلافة العباسية واضطهادها. كما شجعهم على الخروج فى تلك الفترة أيضا ضعف الخلافة العباسية نفسها وسوء حالة الخلفاء الذين أصبحوا ألعوبة فى يد الأتراك.

ب. أثر النزاع بين الأمين والمأمون فى مصر

قام النزاع بن الخليفة الأمين وأخيه المأمون بسبب نظام ولاية العهد فقد كان الخليفة هارون الرشيد قد أخذ البيعة من بعده لابنه الأمين ثم المأمون، على أن يلى الأمين العراق والشام إلى آخر المغرب ويلى المأمون من همذان إلى المشرق على ألا يكون للأمين سلطان عليه (٣).

لكن الأمين أظهر منذ توليه الخلافة عدم رغبته فى تنفيذ عهد الرشيد (٢)، فخلع المأمون من ولاية العهد وبايع لابنه موسى،وقامت الحروب لهذا بين الأمين والمأمون منذ سنة ١٩٥ هـ وانتهت بحصار جيش المأمون بغداد وقتل الأمين فى سنة ١٩٨ (٣) وبذلك انتهت خلافة

(١) الطبرى جـ١ ص ٥٣، ٦٩، ـ ٧٠ و٧٣، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٢ ص ٨١، ١٠٥ ـ ١٠٦، ١٠٩ ـ ١١٠.

(٢) الطبرى جـ١٠ ص ١٢٤.

(٣) الطبرى جـ١٠ ص ١٣٠، ١٣٨ ـ١٣٩، ١٧٠، ١٧٤ ـ ١٧٥, ١٩٥.

القلالى] وتشتتو الشيوخ القديسين فى كل موضع من الارض . فلما نظر الاب انبا مرقس هذا الامر الصعب افكر القديس معدن المحبه الروحانيه التى تنبع منه المحبه والامانه، لكل احد ولا سيما فى البريه المقدسه التى لابابنا فى تلك الامور، فلم يحتمل هذا الحزن بل كان يسيل [يسأل] الرب من عمق قلبه ويقول قول داوود فى المزمور(*) «اضطرب قلبى داخلى وفى كلاى اشتعل النار، عرفنى يارب انتهاى لان رجاى قد فنى وليس لى

(*) المزمور ٣٩ / ٤ ، ٥ .

محمد الأمين وآلت الخلافة لعبد الله المأمون ولم ينتقل المأمون بعد توليه الخلافة إلى بغداد بل ظل فى مبدأ الأمر فى مرو عاصمة خراسان.

كانت خلافة الأمين (١٩٣ ـ ١٩٨هـ)، أو بعبارة أخرى فترة النزاع بين الأمين والمأمون ، عهد فوضى واضطراب فى جميع أنحاء الدولة الإسلامية. ولم تنته تلك الفوضى باعتلاء المامون عرش الخلافة فى سنة ١٩٨هـ، بل ظلت آثارها عدة سنين وحدثت ثورات مختلفة فى أنحاء الدولة، ثورات من جانب العلويين، وأخرى من جانب الأمويين الذين استغلوا ذلك النزاع حول الخلافة لينالوا هم أيضا حظا من السلطان.

وقد شملت هذه الفوضى مسلمو مصر أيضا، فتحزب فريق للأمين وتحزب فريق آخر للمأمون، كما ظهرت فى تلك الأثناء رغبة بعض الشخصيات فى الاستقلال بمصر عن الخلافة ونجحوا فى ذلك إلى حد ما، واستطاع بعض الأندلسيين فى تلك الفترة أن يؤسسوا لهم شبه سلطة مستقلة عن الخلافة بالأسكندرية ، فكانت مصر فى تلك الفترة يكاد لا يربطها شئ بالحكومة المركزية الإسلامية.

لماولى الأمين الخلافة كان على ولاية مصر الحسن بن التختاخ (١) وقد بدأ اضطراب الجند

(١) فى النجوم الزاهرة لأبى المحاسن جـ٢ ص ١٤١ أن اسمه الحسن بن البحباح

مينا سلامه انجو به». لان قد انقضى افراح كورة مصر ووادى هبيب الذى هو قدس القديسين صار خرابا [و] مساكن للسباع الضاريه، ومساكن اباى المباركين الذين رقدو بصلواتهم، وصارت ماوى للبوم ومغاير ثعالب السو هذه الامه النجسه».

وكان أبونا لا يفتر من البكا ليلا نهارا من اجل الضيق والحزن الموافى [الكثير] وخاصة خراب الديارات المقدسه وكنايسها . فلما نظر الرب هذه البلايا والاحزان التى صبر عليها هذا القديس اراد

فى مصر عقب وفاة الرشيد مباشرة ونشب القتال بين الحسن هذا وبين الثائرين عليه، وقتل من الفريقين جمع غفير قبل أن يسكن الأمر، ثم أخذ بعد ذلك فى جمع الخراج، وكتب إليه الفضل بن الربيع بأن يرسل الأموال إلى بغداد، ولما مر الرسل الذين كانوا يحملونها بفلسطين وثب أهل الرملة عليهم وأخذوها منهم [(١)]. وحسبنا مثل هذا الحادث دليلاً على الفوضى التى حلت إذ ذاك بالبلاد . وما لبث الخليفة الأمين أن عزل ابن التختاخ عن إمرة مصر (ربيع الأول سنة ١٩٤هـ) وولى عليها حاتم ابن هرثمة بن أعين، الذى قدم من بغداد على رأس جيش قوامه ألف من الجنود الفرس، ونزل ببلبيس.وهناك اتفق معه أهل الحوف على أن يدفعوا ما عليهم من الخراج، ولكنهم ما لبثوا أن نقضوا ذلك الصلح واجتمعوا لقتال الوالى ، فبعث حاتم لمحاربتهم جيشاً أفلح فى هزيمتهم [(٢)]. ثم عزل الأمين حاتم بن هرثمة فى جمادى الآخرة سنة ١٩٥هـ. ولعل سبب ذلك أن والده هرثمة بن أعين انضم للمأمون ضد الأمين. وولى الأمين على مصر جابر ابن الأشعث الطائى .

وقد ظهرت الاضطراب فى مصر عندما علم أهلها بخلع الأمين أخاه المأمون من ولاية

(١) الكندى ص ١٤٦، أبو المحاسن جـ٢ ص ١٤١ .
(٢) الكندى ص ١٤٧، أبو المحاسن جـ٢ ص ١٤٤ .

القديس مرقص الانجيلي

ان يريحه من نفاق هذا العالم فاخذته حمى اياما قليلا ، فظهر له في منام مرقس الانجيلي في اليوم السابع عشر من شهر برموده وكان يوم احد الفصح تلك السنه وقال له: افرح يا مرقس خليفتي المأمون، أفرح ايها المجاهد على الحق هو ذا قد وهبك السيد يسوع المسيح هذه الموهبه ان ينقلك الى مساكنه الابديه في يوم قيامته المقدسه، كن مستعدا للقاه، في هذه الليله تفارق هذا الجسد، وهذه علامة لك أن عند تناولك من

العهد. ففكر فريق من الجند في خلع الأمين غضبا للمأمون وتزعم هذه الحركة السرى بن الحكم بن يوسف فبعث إليهم والى مصر لينهاهم عما قاموا من أجله ويخوفهم عواقب الفتن. ولكن السرى بن الحكم ظل يدعو الناس إلى خلع الأمين [1]. وقد أتى السرى إلى مصر زمن الرشيد إذ كان من جند الليث بن الفضل والى مصر حينئذ (١٨٢ ـ ١٨٧هـ). ويقال إنه كان خامل الذكر ولم يرتفع شأنه إلا بقيامة في خلع الأمين [2]، وقد شجع السرى بن الحكم على القيام بحركته هذه ما بلغه من انتصار طاهر بن الحسين على جيوش الأمين [3].

ولم يهمل الخليفة المأمون من جانبه أمر مصر فكتب إلى وجوه القوم فيها يدعوهم إلى القيام بدعوته فأجابوه كلهم سرا، ثم ورد كتاب قائده هرثمة بن أعين إلى عباد بن محمد بن حيان وكان وكيلا على ضياع هرثمة بمصر ـ يدعوه إلى الدعوة للمأمون، فجمع الجند في المسجد وقرأ عليهم كتاب هرثمة ودعاهم إلى خلع الأمين فأجابه نفر عظيم منهم فأعطاهم عباد رزقا يسيراً وبايعوا للمأمون. وكان خلع الأمين بمصر في جمادى الآخرة سنة ١٩٦هـ.

(١) الكندى ص ١٤٧ ـ ١٤٨.
(٢) الكندى ص ١٤٨.
(٣) أبو المحاسن جـ٢ ص ١٥٠.

السراير المقدسه الله يقبل روحك اليه. فلما استيقظ الاب القديس قال للاساقفه الجلوس عنده اسرعو لتتمو القداس مجدا لقيامة المسيح ربنا، فلما نظروه الابا الاساقفه وهو قلق جدا ما أرادو مفارقته، فلما صلب عليهم فعلو ارادته وقدسو فلما فرغ القداس جم [جاؤوا] اليه بالكاس فتناول جسد ودم المسيح الاهنا. ثم قال اودعكم جميعكم للرب. وفتح فاه واسلم الروح.

وثار الجند على الوالي جابر بن الأشعث فأخرجوه من مصر في رجب من هذه السنة ثم ولى هذه البلاد عباد بن محمد من قبل المأمون [1].

ولما علم الأمين بخلعه في مصر واخراج واليه جابر بن الأشعث كتب إلى ربيعة بن قيس ـ وكان زعيم قبيلة قيس بالحوف ـ يبلغه اختياره إياه والياً على مصر وكتب إلى بعض وجوه القوم في مصر يطلب إليهم أن يشدوا أزر ربيعة بن قيس، فقام هؤلاء يدعون إلى خلع المأمون وساروا إلى الفسطاط لمحاربة عباد، إلا أن عباد سرعان ماحفر خندقا حول الفسطاط للدفاع عنها فسار ربيعة بن قيس إلى الخندق في آخر ربيع الآخر سنة ١٩٧هـ ووقعت الحرب بين الطرفين عند الخندق عدة أشهر دون أن ينتصر أحدهما، فرأى عباد أن يحاربهم في الحوف فأرسل إليهم جيشاً بقيادة عبد العزيز ابن الوزير الجروى في ذى القعدة سنة ١٩٧هـ فانهزم الجروى ومضى في قومه من لخم وجذام فاقوس [2]. وهناك حرضه قومه على أن يدعو لنفسه وقالوا له: «لم لا تدعو لنفسك فما أنت بدون هؤلاء الذين غلبوا على الأرض؟». فصادف ذلك هوى في نفس الجروى وذهب إلى بلبيس ومن هناك بعث عماله لجباية الخراج من مصر

(١) الكندى ص ١٤٨ ـ ١٤٩.
(٢) الكندى ص ١٤٩ ـ ١٥١.

يا لعظم ذلك الحـــزن الذى نال جـــمـــيع الارتدكسيين فاجتمعو اليه وقرا[ء]و عليه كما يجب وكفنوه وجعلوه فى تابوت خشب فى بيعة نبــروه الى زمـــان اراد الله ان ينقله الى مـــدينة اسكندريه . والذى اقام على الكرسى عشرون سنه وسبعون يوما، وكان نياحته في التانى والعشرين من برموده، [سنة] خمس مايه [و] خمس وتلتين للشهدا وهو ماسك البيعه المقدسه وكتب فى ايامه

السفلي. وهكذا نرى أن النزاع في مصر لأجل الأمين أو المأمون بدأ يتطور إلى نزاع للاستئثار بالسلطة دون الخلافة.

وكانت آخر مرة سار فيها أهل الحوف إلى الفسطاط لمحاربة عباد فى المحرم سنة ١٩٨هـ فعقد عباد السرى بن الحكم لمحاربتهم فاقتتل الفريقان، وفى تلك الأثناء وصل إلى مصر خبر مقتل الأمين فى المحرم وبيعة المأمون فتفرق أهل الحوف، ثم عزل المأمون عبادا فى صفر سنة ١٩٨ وولى المطلب ابن عبد الله الخزاعى[١].

ساد الاضطراب فى مصر كما رأينا زمن الخليفة الأمين ولم ينته ذلك الاضطراب بمقتله وتولية أخيه المأمون الخلافة، بل تطور الأمر فى هذه البلاد إلى نزاع بين بعض القواد للاستئثار بالسلطة فيها والاستقلال بأمورها عن الخلافة، فكان على المأمون أن يبذل جهداً خاصاً لإعادة مصر إلى سلطانه والقضاء على الفتن فيها.

ومما يدل على اضطراب الحالة فى مصر حينئذ أن أعمال الشرطة فيها وليها خمسة رجال على التوالى فى بضعة أسابيع [٢]. وقد عزل المأمون المطلب ابن عبد الله عن ولاية مصر فى

(١) الكندى ص ١٥١ ـ ١٥٢.
(٢) أبو المحاسن جـ٢ ص ١٥٧.

احدا وعشرين مصطاغوجيا وعشرين ارطستيكيا ، وسكن مع القديسين فى كورة الاحيا والمجد للاب الابن والروح القدس الى الابد امين.

(*) اسمه قبل البطركية يوسف ويُكنى أبا يعقوب. كما يرد اسمه يوساب.

ابا يعقوب(*) البطرك

وهو من العدد الخمسون

[٨١٩ / ٨٣٠م]

كان قبل نياحة الاب القديس انبا مرقس كانت البريه المقدسه بوادى هبيب خرابا، التى ذاق خرابها

شوال سنة ١٩٨ هـ بعد أن وليها سبعة أشهر ونصف، وولى مكانه العباس بن موسى، وقد أرسل العباس ابنه عبد الله إلى مصر خليفة له ريثما يحضر هو، فقدم عبد الله إلى مصر فى شوال من هذه السنة، وكان أول ما فعله هو القبض على المطلب بن عبدالله وزجه فى السجن. وقد اشتد عبد الله فثار الجند عليه وقاتلوه غير مرة، حتى هزموه فى النهاية وأخرجوه من مصر، ثم قصدوا المطلب بن عبد الله حيث أخرجوه من حبسه وولوه عليهم فى المحرم سنة ١٩٩هـ(١).

حدث كل ذلك ووالى مصر نفسه العباس بن موسى لم يحضر إليها فلما علم بما حدث لابنه عبد الله قدم من مكة إلى الحوف فنزل بلبيس ولم يلبث إلا قليلا حتى توفى وذلك فى جمادى الاخرة سنة ١٩٩ . ومن هذا نرى أن الوالى الذى عينه الخليفة، لم يستطع دخول الحاضرة كما لم يستطع الوقوف وجها لوجه أمام الوالى الذى انتخبه الجند، ومن هذا ندرك أيضا كيف تلاشت سلطة الخليفة على ولاية مصر تقريباً.

بعد موت العباس، كاتب المطلب أهل الحوف فبايعوه، فولى على الوجه البحرى يزيد بن

(١) الكندى ص ١٥٣ - ١٥٤، أبو المحاسن جـ٢ ص ١٦١ ـ ١٦٢.

الاب المذكور حتى انه سال الرب فى نقله من هذا العالم والا يبقيه للحزن الذى ناله على تلك المواضع لما نالها من العرب المخالفين وكونهم ملكوها وطردو ابائنا القديسين الذين كانو فيها، وقتلو منهم جماعه واحرقو البيع والمناشيب، واعنى القلالى، بالنار، ولاجل ما نالهم من القتل تفرقو الرهبان فى المدن والقرى والديارات باعمال مصر والصعيدين ولم يبق فيها منهم الانفر يسير ممن اختار الموت ليفدى نفس اخوته بنفسه فورث الحياة

خطاب الكلبى، وبعد ذلك بعث المطلب إلى الجروى بولايته على تنيس وأمره بالشخوص إلى الفسطاط[1] ويظهر أن المطلب أراد بذلك أن يخدع الجروى ويوقع به لأنه عرف رغبته فى الاستقلال وطمعه فى ولاية مصر، فالمسالة لم تعد تتصل بالحكومة المركزية فى بغداد، وانما أصبحت مصر وسط هذه الفوضى غنيمة لمن غلب ، فالوالى الذى عينه الجند يرى أن طاعته واجبة على أهل مصر، والجروى لايرى نفسه أقل من الوالى كفاية. وبعد قليل نرى السرى أيضا ينضم إلى زمرةالطامعين فى مصر ويحاول أن يؤسس له ملكا وراثيا فيها، كل هذا يحدث والخليفة المأمون مشغول بالقضاء على الثورات المختلفة التى قامت فى أنحاد الدولة الإسلامية .

لم يذهب الجروى إلى الفسطاط كما أمره المطلب، وازاء هذا بعث المطلب بوال على تنيس ولكن الجروى أخرجه منها، فبعث إليه السرى ابن الحكم فى جمع من الجند يسألونه الصلح فأجابهم إليه، إلا أنه أراد الغدر بهم ففطنوا إلى ذلك وحاربوه، ثم عاد فدعاهم إلى الصلح واستطاع أن يقبض على السرى خدعة ويأسره ثم مضى به إلى تنيس حيث سجنه بها (جمادى الأولى سنة ١٩٩هـ) ويظهر أن بلاداً عدة فى شرقى الدلتا دخلت فى حوزة الجروى إذ ذاك وزادت قوته نتيجة لذلك بدليل تحديه قوة الوالى. فبعد أن سجن السرى بن الحكم،

(١) الكندى ص ١٥٦.

الابديه بصبره. وحفظهم الرب فلم يرجع احد يوذيهم ولا يضرهم.

وكان فى ذلك الزمان فى دير ابينا ابى مقار قس مضى الافعال اسمه يعقوب ، هذا لما بدا خراب الديارات خرج منها ومضى الى دير فى الصعيد ليتعبد فيه منتظرا زمانا يعود فيه الى الجبل المقدس ميزان القلوب وادى هبيب، والرب محب البشر العارف السراير المخفيه التى يظهرها لقديسيه فى

ذهب لمقاتلة يزيد بن الخطاب، عامل المطلب على الوجه البحرى، واستطاع الجروى أن يهزمه فأرسل إليه المطلب جيشا لمحاربته بقيادة ابن عبد الغفار الجمحى ولكن الجروى هزم ذلك الجيش وأسر ابن عبد الغفار وذلك فى أول رجب سنة ١٩٩هـ [١].

عزم المطلب إزاء هذا على أن يوجه كل قوته للقضاء على الجروى فلما علم الجروى بذلك أخرج السرى من سجنه وعاهده على أن يطلق سراحه ويذكر للمصريين أن كتاباً ورد من الخلافة بولايته على مصر، على شرط أن يقوم السرى بمحاربة المطلب، فعاهده السرى على ذلك. وعند ذلك أطلقه الجروى وأعلن ولايته إلى الجند، فبايعه الجند من أهل خراسان وامتنع الجند العرب وقد وقعت حروب بين السرى وبين المطلب انتهت بأن طلب المطلب الأمان من السرى على أن يسلم إليه الأمر ويخرج من مصر. فأمنه السرى وخرج المطلب إلى مكة فى رمضان سنة ٢٠٠.

وعقب ذلك ولى السرى بن الحكم مصر بإجماع الجند فى مستهل شهر رمضان سنة ٢٠٠هـ[٢]. وقد أدرك المعاصرون من المصريين أن الذين ولوا مصر إذ ذاك كانوا خارجين على الخلافة، فيذكر ساويرس [٣] نقلا عن الوثائق المعاصرة له: واستطال الثوار على مصر وجميع

(١) الكندى ص ١٥٧. (٢) الكندى ص ١٥٩ ـ ١٦١.
(٣) تاريخ البطاركة ص ٦٨٠ جـ ٢.

كل زمان ويفعل ارادته فيهم صنع امرا عجيبا فى هذا الانسان المذكور القس يعقوب القديس وهو انه استحق ان ينظر جليان النور، لأنه كان فى الموضع الذى كان فيه يصلى كما جرت عادته فنظر امورا عجيبه، وذلك ان السيده الطاهره ام النور ظهرت له قايمه عند راسه ليلا وعليها تاج عظيم تنير بنور عظيم جدا ومعها ملاكان وقالت له ملكة الحق(*): يا ولدى يعقوب ما الذى فعلت معك من الشر انا التى ربيتك من صغرك وحفظتك الى الان

(*) ملكة الحق، اسم آخر للست مريم لأنها تمثل الحق والعدل =

اعمالها بحكم اضطراب مملكة بغداد، وخرجو الخوارج على المملكة بمصر، وجبو الخراج لنفوسهم، وكان من جملتهم رجل يسمى عبدالعزيز الجروى أخذ من شطانوف إلى الفرما وشرقية مصر بلبيس واعمالها، ورجل اسمه السرى بن الحكم أخذ من مصر (الفسطاط) إلى اسوان، واستوليا على الخراج، وقوم يسمون لخما وجذاما القبيلتين أخذو غربى مصر واعمال اسكندريه ومريوط وملكو البحيرة جميعها.

هكذا قسمت مصر بين الخارجين على الخلافة كما يذكر ساويرس، فالجروى كما رأينا سابقا كان صاحب السلطة الفعلية في شرقي الدلتا، كما كان صاحب الفضل في تولية السرى بن الحكم على مصر ليتخلص بذلك من المطلب بن عبد الله ، إلا أنه لكى يتخلص من المطلب، أوجد له منافساً آخر في شخص السرى، الذى سرعان ما طمع فى أن يكون صاحب السلطة الفعلية فى مصر كلها، فبعد أن كان الجروى والسرى يحاربان لأجل الخليفة المأمون، أصبح كل منهما يحارب الآخر، وهذا أدى إلى النزاع بين الجروى والسرى نزاعا متواصلا في السنين التالية، بل إن هذا النزاع استمر بين أولادهما بعد و فاة الاثنين.

أما منطقة غربى الدلتا ، ونعنى منطقة الاسكندرية بوجه خاص، فقد خرجت عن سلطة والى مصر منذ ولاية عباد بن محمد بن حيان (١٩٦ ـ ١٩٨هـ) إذ تغلب بهلول اللخمى على الاسكندرية في ولايته. فلما ولى المطلب بن عبدالله مصر من قبل المأمون سنة ١٩٨هـ

لما اصطفاك ولدى الحبيب من وقت كنت فى بطن امك ليقيمك على بيته فمضيت الان عنى، لاتفعل هكذا لكن قم وعد الى المكان الذى خرجت منه لانك انت تكون ريسا على شعب عظيم وهم المصطفون الى مكان الراحة قريبا غير بعيد. فلحقه خوف عظيم ولم يكن ذا قلبين، ولا شاك فى المنام الذى شاهده بل نهض مسرعا وعاد الى البريه المقدسه ميزان القلوب، فلما وصل اليها اراد الرب أن يطيب قلبه اظهر له الاب الروحانى ابا مقار

=وهي حتى اليوم ومن قبلها «ماعت» رمزاً للعدالة فى جميع أنحاء العالم. ومن هنا نعرف لماذا سمي وادى هيب بميزان القلوب «شيهات»، فقد كانت ستنا مريم سيدة هذا الودى.

ولى على الاسكندرية، حديج بن عبدالواحد بن محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج، فثار ضده بنو مدلج بالاسكندرية، فبعث إليهم المطلب بأخيه هرون فانهزم هرون أمامهم[1].

ولما ولى المطلب بن عبد الله ولايته الثانية على مصر بإجماع الجند (سنة ١٩٩هـ ـ ٢٠٠هـ) ولى على الاسكندرية محمد بن هبيرة ابن هاشم بن حديج ، فاستخلف محمد هذا عمر بن عبد الملك بن محمد ابن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج الذى يعرف باسم عمر بن هلال [2] فوليها عمر بن هلال ثلاثة أشهر ثم عزله المطلب وولى عليها أخاه الفضل ابن عبد الله [3].

فى تلك الأثناء كانت مراكب الأندلسيين قد رست عند الاسكندرية وكثيراً ما كان الأندلسيون يأتون إلى الاسكندرية فيتبادلون التجارة مع الناس، ولكن ولاة مصر كانوا لا يسمحون لهم بالدخول فيها [4]. أما فى هذه المرة فإن أهل الأندلس لم يأتوا للتجارة وانما خرجوا من وطنهم مطرودين وذلك فى عهد ملكهم الحكم بن هشام الأموى على أثر وقعة

(١) الكندى ص ١٥٣.
(٢) يذكر الكندى أنه عرف باسم عمر بن هلال ويذكر المقريزى فى الخطط ١ ص ١٧٢ أه عرف باسم عمر بن ملاك.
(٣) الكندى ص ١٥٧، خطط المثريزى جـ١ ص ١٧٢.
(٤) الكندى ص ١٥٨، خطط المقريزى جـ١ ص ١٧٢.

وقال له: نعم مجيك الى هاهنا ايها المامون عند الرب. انظر، لا تكن ذا قلبين ولاتشك فى المنام الذى رايته لن [لأن] بك يجتمعون اولادى الى مواضعهم التى بددهم منها الشيطان.

فأقام في وسط من بقي من الرهبان يعزيهم ويسليهم يوما بعد يوم. ولما نظر المنام زاد فى نسكه واعماله الحسنه حتى شاهد امور عجيبه عظيمه علويه، وكان كلمن يشاهد النور الذى هو حايط به يعلم ان الله قد اصطفاه.

الربض بقرطبة في رمضان سنة ١٩٨هـ[١]. فرسا فريق منهم بالقرب من الاسكندرية وكان عددهم حوالى ١٥,٠٠٠ شخص إذ استثنينا النساء والأطفال [٢].

لماعزل عمر بن هلال، كتب إليه عبد العزيز الجروى يأمره بالدعاء له فيها وبإخراج واليها من قبل المطلب فلم يجد عمر بن هلال بدأ من استدعاء هؤلاء القرطبيين [الاندلسيين] ليساعدوه فى ذلك وسرعان ما لبوا طلبه واستطاع أن يخرج واليها ـ الفضل بن عبد الله ـ ويدعو للجروى بالاسكندرية. إلا أن أهل الاسكندرية ثاروا ضد الأندلسيين وأخرجوهم من الاسكندرية إلى مراكبهم بعد أن قتلوا منهم نفراً، وأقاموا عليهم الفضل ثانياً [٣].

ثم عزل المطلب أخاه الفضل عن الاسكندرية وولى عليها إسحاق بن أبرهه ابن الصباح فسار إليه عمر بن هلال فى شهر رمضان سنة ١٩٩هـ، فعزله المطلب وولاها أبا بكر [٤] بن جنادة بن عيسى المعافرى [٥] ولما انتصر السرى ابن الحكم على المطلب وولى مصر فى

(١) ابن الأثير جـ٦ ص ٢٠٩ ـ ٢١٠ وأبو المحاسن جـ٢ ص ١٥٨. Dozy: Histoire des Musulmans d' Espagne. t. I. PP. 296 - 300.
(2) Dozy: op. Cit. p. 300.
(٣)الكندى ص ١٥٨، خطط المقريزى جـ١ ص ١٧٢.
(٤) في خطط المقريزى (جـ١ص ١٧٣) يقول إن اسمه أبو ذكر بن جنادة.
(٥) الكندى ص ١٥٨، خطط المقريزى جـ١ ص ١٧٣.

ثم اظهر الله امرا عجيبا له فيما هو قايم يصلى للرب بالليل، ويجعل بقية ليله فى عمل يديه كعادته، لحقه خوف ورعب وبكى جدا فقال له من كان معه : ما الذى حل بك يا ابى القديس؟ ما أنت نايم. فقال لهم يا اولادى افكارى اختطفت الى فوق وسمعت امرا لاجل ابينا القديس انبا مرقس ان يقيم على البطركيه اربعين سنه، ثم بعد ذلك سمعت امرا اخر من عند الرب بان ينيح ابانا البطرك فى هذه السنه ولاجل ذلك بكيت

رمضان سنة ٢٠٠هـ بإجماع الجند، وسار عمر بن هلال إلى أبى بكر بن جنادة وأخرجه من الاسكندرية ودعا للجروى بها، وكان الجروى والسرى إذ ذاك متسالمين، فلما علم الأندلسيون بولاية ابن هلال على الاسكندرية قدموا إليه، إلا أنه لم يعاملهم فى تلك المرة كما عاملهم أولا إذ بلغه عنهم بعض الفساد فأمر بإخراجهم من الاسكندرية إلى مراكبهم.[١].

حقد الاندلسيون على ابن هلال، وظهر فى الاسكندرية فى ذلك الوقت طائفة تعرف بالصوفية[٢] «يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فيما زعموا، ويعارضون السلطان فى أمره واتخذوا رئيسا لهم رجلا منهم يقال له أبو عبد الرحمن الصوفى، وقد أتحد الأندلسيون مع هولاء الصوفية كما تقووا بقبيلة لخم وكانت أقوى من فى ناحية الاسكندرية، ثم ساروا إلى عمر بن هلال ليثأروا لأنفسهم منه فحاصروه وانتهى الأمر بقتله فى ذى القعدة سنة ٢٠٠هـ[٣]. وعقب مقتل ابن هلال انقلبت صداقة الأندلسيين واللخميين إلى عداوة ووقعت الحرب بينهم. ولما رأى أهل الأسكندرية ما حدث بين الفريقين جردوا سيوفهم وقتلوا من

(١) الكندى ص ١٦١ ـ ١٦٢، المقريزى جـ١ ص ١٧٣.

(٢) يذكر ادم متز فى كتابه الحضارة الإسلامية جـ٢ ص ١٤ أن أول ظهور الطوائف الصوفية حوالى عام٢٠٠هـ وذلك فى مصر مهد الرهبنة المسيحية أما الصوفية ذاتها كمذهب فقديمة فى مصر قدم الديانة الاوزيرية.

(٣) الكندى ص ١٦٢، المقريزى ص ١٧٣.

بحرقة قلب فسألت الرب ان يصطفى من يجلسه على هذا الكرسى باستحقاق، ثم سكت.

ولم يمض بعد نظره الرويا الا زمان يسير حتى بدا الاب مرقس القديس ان يمرض مرض وفاته، كما شرحنا انه سال الرب ان ينقله اليه، وكان عنده ابا[ء] اساقفه فسالوه بتضرع قايلين : يا ابانا المغبوط نسألك ان تقول لنا ما اظهره الرب لك، من يستحق ان يجلس بعدك على الكرسى

الأندلسيين نحو ثمانين نفسا، فلما علم الأندلسيون بذلك بعد انتصارهم على اللخميين خرجوا لقتال كل من لاقوة من أهل الاسكندرية، مسلمين كانوا أو نصارى أو يهود وأحرقوا كل موضع عثروا فيه على أحد من أصحابهم المقتولين (١).

أصبح الاندلسيون أصحاب السلطة الفعلية فى الاسكندرية منذ انتصارهم على عمر بن هلال وتأكد سلطانهم عندما هزموا اللخميين وملكوا الإسكندرية عنوة فى ذى الحجة سنة ٢٠٠هـ(٢) فولوا عليها أبا عبد الرحمن الصوفي، إلا أن الأحوال فى الاسكندرية اضطربت فى عهده وعم القتل والنهب فيها فعزله الاندلسيون عنها وولوا عليها رجلا منهم يعرف بالكنانى(٣).

وهكذا نرى أن الاسكندرية أصبحت شبه دولة مستقلة للأندلسيين، وأصبحت مصر بمثابة قطائع مقسمة بين أفراد أو جماعات مختلفة، كل منها مستقلة عن الأخرى وهى كلها مستقلة عن الخلافة.

بلغ الجروى مقتل ابن هلال وما فعله الاندلسيون بالاسكندرية فسار إليها فى خمسين ألفا

(١) ساويرس: تاريخ البطاركة ـ ص ٦٨٢ وما بعدها.
(٢) الكندى ص ١٦٣.
(٣) الكندى ص ١٦٣ ـ ١٦٤. خطط المقريزى جـ١ ص ١٧٣.

الإنجيلي؟. ولم يكن الاب القديس يظهر للاساقفه ولا يوجدهم انه يعرف شيا من هذا بل قال لهم : قد اوقد الرب المصباح وجعله على المنارة ليضى على ساير من في بيته الذى هو البيعه. فوقف احد الاساقفه ممن كان فيه امانة قويه في الاب البطرك وبدا ان يساله ويقسم عليه باسم الرب والكرسى المقدس ان يقول له من الذى اصطفاه الرب للجلوس بعده على الكرسى . فاجاب بصوت خفى [خفيض] وقال : للاسقف يعقوب القديس

وحاصرها وكاد يفتحها في المحرم سنة ٢٠١هـ ولكن السرى خشى ازدياد نفوذ الجروى فبعث عمرو بن وهب الخزاعى على رأس جيش إلى مقره في تنيس، فترك الجروى حصار الاسكندرية ورجع إلى تنيس حيث أخرج جيش السرى منها. ومن ثم تطورت المنافسة الخفية بين الجروى والسرى إلى نزاع علنى بينهما.

وربما خشى الاندلسيون على مصيرهم فرأوا أن يتقووا بانضمامهم إلى الوالى، لذلك نراهم يدعون في الاسكندرية للسرى بن الحكم سنة ٢٠١هـ[١] على أن السرى ما لبث أن أختلف مع آل عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدى، وكانوا وجوه أهل خراسان بمصر، فبايعهم الجند على القيام ضد السرى وأظهروا كتابا من طاهر بن الحسين (قائد المأمون) بولاية سليمان بن غالب ابن جبريل البجلى على مصر، فلم يكن من السرى إلا الرضوخ لهم وذلك في ربيع الأول سنة ٢٠١هـ فكانت ولاية السرى في هذه المده ستة أشهر[٢].

أمر سليمان بن غالب السرى بن الحكم بترك العاصمة والذهاب إلى اخميم . على أن السرى مالبث أن تقوى ثانية بانضمام بنى مدلج وكثير من الناس إليه . فسار بهم يريد الفسطاط، ولما علم سليمان بن غالب بذلك أرسل إليه جيشا لمحاربته قبل أن يصل إليها فدارت الدائرة على السرى وأسر هو وابنه ميمون ، فأمر سليمان بردهما ثانية إلى اخميم وسجنهما

(١) الكندى ص ١٦٥.

(٢) الكندى ص ١٦٥.

الذى من بيعة ابينا القديس ابى مقار هو الرجل المزين بافعاله . وتقدم الى الاسقف ان لا يعلم احدا بهذا واقسم عليه بالبيعه على ذلك حتى ينظرو مجد الله يتم فيه.

ثم تنيح الاب القديس كما ذكرنا انفا. فيا لهذا المجد العظيم الذى لكرسى القديس مارى مرقس الانجيلي ولكلمن يجلس عليه لانه بنعمه روح القدس البار يصطفي ويختار بحلوله على كل

وذلك فى جمادى الأولى سنة ٢٠١هـ [١]، ولا نعرف لماذا لم يقتل سليمان بن غالب السرى بعد أن ظفر به، وربما دعاه إلى هذا التصرف خوفه من أتباع السرى ومن ثورتهم ضده، وما لبث أهل خراسان بمصر أن قاموا ضد سليمان بن غالب وذلك لتقديمه أتباعه وبطانته عليهم، وانتهى الأمر بأن خلعه الجند من ولاية مصر فى شعبان من سنة ٢٠١هـ ثم لحق سليمان بالجروى [٢]. بعد عزل سليمان، ولى السرى بن الحكم مصر للمرة الثانية على أنه فى هذه المرة لم يتولاها كالمرة الأولى بمبايعة الجند له وإنما وليها بأمر من الخليفة المأمون [٣] ويظهر أن اضطراب الحال فى الدولة الإسلامية دعا المأمون إلى التسليم بالأمر الواقع فى مصر ريثما تهدأ الأمور فولى السرى الذى كان له أتباع كثيرون إذ ذاك.

وحدث فى سنة ٢٠١هـ أن بايع المأمون لولاية عهده عليا الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق وسماه الرضا من آل محمد ، وأمر جنده بطرح السواد شعار العباسين ولبس ثياب الخضرة شعار العلويين، وكتب بذلك إلى جميع الآفاق.

وقد ظن أهل بغداد أن هذا من عمل الفضل بن سهل الذى كان يدبر أمور المأمون فى مرو. والفرس كما نعلم كانوا يميلون إلى العلويين. ولذا نجد أهل بغداد يبايعون بالخلافة

(١) الكندى ص ١٦٦.
(٢) الكندى ص ١٦٦ ـ ١٦٧.
(٣) الكندى ص ١٦٧.

واحد منهم، كما قال الرب لتلاميذه ورسله: هو ذا انا معكم كل الايام والى انقضا العالم.

وانا أشرح لكم يسيرا من اعمال يعقوب القديس القس فى رهبنته قبل ان يجعلونه قسا، ومن قبل ان يجلس على الكرسى، غير انى اعرف عجزى وانى لا ابلغ شيا من عظم افعاله ومجد الثالوث الحايط به ولذلك اختصر فى الكلام. فاما بداية وسمه وما صبر عليه فهو ربح وبركه لجميع الارثدكسيين.

إبراهيم بن المهدى عم المأمون فى سنة ٢٠١هـ ويخلعون المأمون . واضطربت الأحوال فى بغداد، ولم يعلم المأمون بذلك إذ كتم الفضل بن سهل هذه الأخبار عنه ويقال إن الذى أعلمه بهده الأمور عليا الرضا بل إنه أشار عليه بالرجوع إلى بغداد لتهدأ الحالة وليضبط الأمور بنفسه، فسار المأمون إليها وفى طريقه إلى هناك مات الفضل بن سهل سنة ٢٠٢هـ ثم مات على الرضا فى طوس سنة ٢٠٣ . وأخيراً دخل المأمون بغداد فى سنة ٢٠٤هـ واختفى إبراهيم بن المهدى، واستطاع المأمون بعد دخوله بغداد أن يقبض على ناصية الحال ويقضى على الاضطرابات التى سادت فيها بعد أن تخلص من النفوذ الفارسى ومن النفوذ العلوى، وقد استعطفه إبراهيم بن المهدى فصفح عنه.

أما فى مصر فإن أمورها فى تلك الفترة كانت تسير دائما متأثرة بما يجرى فى الخلافة فينعكس عليها ما يحدث هناك واضحا جليا. لذا نرى الخليفة المأمون يكتب إلى السرى بن الحكم يأمره بالبيعة فيها لولى عهده على الرضا فى المحرم سنة ٢٠٢هـ فبويع له بها، على أن المسلمين المصريين أنقسموا على أنفسهم كما حدث فى بغداد وسائر الدولة الإسلامية، إذ كتب إبراهيم بن المهدى إلى وجوه الجند بمصر يأمرهم بخلع المأمون وولى عهده، والثورة ضد السرى، وكان من السهل أن يلقى إبراهيم بن المهدى أنصارا له بمصر، لاحباً فى خلافته وإنما طمعا من بعض الزعماء فى السلطان أو لتذمرهم من ولاية السرى أو غير ذلك من

لما تنيح ابونا البطرك انبا مرقس حزنت البيعه عليه حزنا عظيما وجميع الشعب وخاصة المدينه المحبه لله اسكندريه لعدمهم نظر ابيهم ومن غيبته عنهم، وبعد ايام زال الحرب والقتال من اسكندريه ومصر وجميع قبايل الاندلسيين(*) واللخميين والمداجه. وبدوا يتهلون ويصلون الى الله فى ان يذكر بيعته التى اشتراها بدمه ويظهر لهم راعيهم الذى رعاهم ويعزيهم فى قلقهم ، فاجتمع الابا[ء] الاساقفه والشعب المحب للمسيح وطلبو من

(*) كان الاندلسيون قد خرجوا من الاسكندرية منذ عام ٨٢٧ م = ٢١٢هـ ورحلوا إلى جزيرة كريت «أقريطش» واحتلوها وجعلوها مركزا لأعمال القرصنة فى البحر المتوسط.

الأغراض المختلفة التى كانوا يسترونها وراء قيامهم بالدعوة لأحد الخلفاء أو لأحد الخارجين على الخلافة. فقام بالدعوة لإبراهيم فى مصر الحارث بن زرعة بن قحزم بالفسطاط، وعبد العزيز ابن الوزير الجروى بالدلتا وسلامة ابن عبد الملك الأزدى الطحاوى بالصعيد، وسليمان بن غالب بن جبريل الذى كان منضما إلى الجروى . وعقدوا الولاية لعبد العزيز بن عبد الرحمن الأزدى، على أن السرى حاربه حتى ظفر به، وقتله فى صفر سنة ٢٠٢هـ [١] وانضم بعد ذلك كل من كره بيعة على الرضا إلى الجروى لعظم سلطانه إذ ذاك، فسار الجروى إلى الإسكندرية للمرة الثانية لمحاربة الاندلسيين بها فحاصرها وانتهى الأمر بأن اصطلح الاندلسيون على فتح حصن الإسكندرية والدعوة للجروى بها . ثم دعى للجروى بالصعيد أيضا.

وعندما علم الجند بموت على الرضا وانخذال إبراهيم بن المهدى أظهروا بيعة المأمون والدعوة إليه، وقد ورد كتاب المأمون إلى السرى بذلك وبغسل المنابر التى دعى عليها لعلى الرضا فغسلت[٢] . وانتهز الاندلسيون أيضا هذه الفرصة فأخرجوا عامل الجروى بالإسكندرية منها وأغلقوا الحصن دونه وخلعوا الجروى ودعوا إلى السرى بن الحكم ، فسار إليهم الجروى فى رمضان سنة ٢٠٣هـ. على أن القبط بسخا ثاروا ضده وانضم إليهم بنومدلج فهزمهم

(١) الكندى ص ١٦٨.
(٢) الكندى ص ١٧٠.

يستحق هذه الرتبة وذكرو جماعه وفيهم المضى[ء]
يعقوب القس، وكان هذا تدبير من الله، وجعل
اسمه في فمهم لانه المستحق لهذه الرياسه، فذكر
الاسقف المغبوط الذى كان قال له الاب البطرك
مرقس المتنيح من اجل العمود المضى[ء] يعقوب،
فاعلم السر لجماعة الاساقفه فصرخو بصوت
واحد: يستحق يستحق الذى افعاله مثل افعال
الملايكه وهو الارضى وهو سماوى فاسرعو وجاو
[جاؤوا] الى البريه الى بيعة القديس ابى مقار

الجروى وهرب بنو مدلج ثم بعث الجروى بجيوش إلى الإسكندرية لمحاصرتها [1]. وربما دعا القبط إلى الثورة ضد الجروى ما أتاه من أفعال؛ إذ يذكر ساويرس[2] أن الجروى ما كان يفتر من قتل الناس وأخذ أموالهم وكان يدفن فى الأرض ما يأخذه من أموال ، وإذا دفن المال يقتل الذين ساعدوه على دفنه كي لا يبيحوا بسره. وكذلك جمع الجروى قمح أرض مصر جميعاً ووضعه في الأهراء تحت تصرفه، حتى ندر القمح وعز وجوده، فحدثت مجاعة كبيرة بسبب ذلك ولاسيما بالإسكندرية، وكان يرمى من وراء ذلك إلى أن تسلم إليه البلاد جميعها.

لكن السرى بن الحكم أفسد على الجروى خططه فأرسل جيشاً فى ذى القعدة سنة ٢٠٣ إلى بلاد الصعيد لا ستخلاصها منه ، فمنهم سلامة ابن عبد الملك الطحاوى حليف الجروى بالصعيد، وأسر هو وابنه إبراهيم وأرسلا إلى الفسطاط حيث قتلا هناك فى المحرم سنة ٢٠٤هـ[3].

وفى تلك الأثناء سار عبد العزيز الجروى لحصار الاسكندرية للمرة الرابعة فأغلق الأندلسيون حصنها ولكن الجروى حاصرهم حصاراً شديداً وأخذ يضرب الحصن بالمجانيق وظل على ذلك

(١) الكندى ص ١٧٠.
(٢) تاريخ البطاركة ص ٧٤٢ جـ ٢ .
(٣) الكندى ص ١٧١.

واخـذو القس يعقـوب قـبل ان يعلم وسـارو به الى مـدينة اسكندريه، وكـان يبكى ويقـول : مـبارك هو الرب الويل لى انا الغيـر مـسـتـحق لهـذه الكرامـه العظيمه لنقصى عن هذا الامر والمجد العظيم الذى انا قـادم عليـه، ويسـال الله ليله ونهـاره اجـمع ان يخرجه من العالم قبل ان يقلده هذا الامر. وهو ذا هو باك وسايل فى هذا اذا راى مناما عجيبا كعادته ان الله يعزيه ويقول له كما قال ليعقوب الاب الاول: لاتخف يا يعقوب فهو ذا أنا معك الى مصر

سبعة أشهر من بداية شعبان سنة ٢٠٤هـ إلى آخر صفر سنة ٢٠٥هـ. وانتهى الأمر بأن قتل الجروى أثناء الحصار . ومات السرى بن الحكم بعده بثلاثة أشهر فى الفسطاط فى آخر جمادى الأولى سنة ٢٠٥هـ بعد أن ولى مصر ثلاث سنين وتسعة أشهر.

بويع بولاية مصـر بعد السـرى بن الحكم ابنه أبو نصـر بن السـرى، ولم يكن معنى ذلك القضـاء على المنازعات التى قـامت حـول ولاية مـصـر، إذا ورث أبناء السـرى والجـروى نزاع والديهما، فكان بيد أبى نصر من أرض مصر الفسطاط والصعيد وغربى الدلتا وكان بيد على بن عبد العزيز الجروى، بقية الوجه البحرى بما فى ذلك الحوف الشرقى، وقد وقعت الحروب بينهما ثم اصطلحا على أن يكف أحدهما عن الآخر. وأخيراً توفى أبو نصر فى ٨ شعبان سنة ٢٠٦هـ بعد أن ولى مصر أربعة عشر شهراً [(١)].

بايع الجند عبيد الله بن السرى بولاية مصر بعد وفاة أخيه فى شعبان سنة ٢٠٦هـ ولم يتعرض كل من عبيدالله وعلى بن الجروى للآخر حتى انتهت سنة ٢٠٦هـ، حين عقد المأمون ولاية مصر لخالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى وبعثه إليها فى جيش من ربيعة فلما دخل الحدود المصرية أرسل إلى عبيد الله يعلمه بذلك فامتنع عبيدالله عن التسليم له واحتج بأن كتاب المأمون قد ورد إليه بولايته هو، واستعد عبيدالله الحرب خالد فحفر خندقاً حول

(١) الكندى ص ١٧٢ ـ ١٧٣.

واقويك واكون معك فى جهادك لتستحق الاكليل
مثل اخويك المجاهدين ساويرس وديسقرس ريسا
على الاساقفه بيد كامله وشرطونيه صحيحه.
واستوجب ان ينظر شيخ راهب كان خرج من
البريه عندما فرشوا الانجيل فوق راسه صورتين
احديهما تشبه صورة ديسقرس والاخرى تشبه
صورة ساويرس تمسكان الإنجيل من هاهنا ومن
هاهنا واسم يعقوب البطرك فى وسطهما فلما نظر
هذه الاعجوبه، وفيما هو مفكر راى قوما يتحدثون

الفسطاط وجند الجنود، فسار خالد إلى خندق عبيد الله وهناك وقع القتال بينهما وانتهى بأسر خالد بن يزيد فأكرمه عبيد الله بن السرى وخيره بين المقام فى مصر أو الرحيل حيث شاء فاختار الذهاب إلى مكة عن طريق القلزم [١]. ويظهر أن الأمور فى مختلف انحاء الدولة الإسلامية شغلت المأمون حتى ذلك الوقت عن التفرغ للقضاء على الفوضى فى مصر وإرجاعها ثانية إلى حظيرته، فأرسل رسولا من قبله يقر عبيد الله على ما بيده من أرض مصر ويقر علياً ابن الجروى على ما بيده[٢].

حدث بعد ذلك نزاع بين عبيد الله بن السرى وبين على بن الجروى وسببه أن قوما من أهل الحوف منعوا ابن الجروى من جباية الخراج وكتبوا إلى عبيد الله بن السرى يطلبون منه المساعدة ضد على الجروى، فأمدهم بما طلبوا وبعث إليهم أخاه أحمد بن السرى فى سنة ٢٠٧ هـ فوقعت حروب بينهما كان نتيجتها أن دخل عبيد الله تنيس، مقر ولاية الجروى، وهرب ابن الجروى إلى الفرما ثم العريش فى ربيع الأول سنة ٢٠٩هـ [٣]، أى أن مصر كلها خضعت لعبيد الله بن السرى إذا استثنينا الاسكندرية التى كانت تحت سلطة الأندلسيين. على أنه لم يكن من السهل أن يتخلى ابن الجروى عن ولايته فى مصر السفلى. فحدثت مناوشات

(١) الكندى ص ١٧٣ ـ ١٧٦.
(٢) الكندى ص ١٧٦ ـ ١٧٧.
(٣) الكندى ص ١٧٧ - ١٧٨.

ويقـولون هذا الانسـان فـعله يشـبـه فـعل هذين الرجلين بالحقيقه.

يا ابهاتي ان هذا القديس كانت سيرته فاضله مثل سيرة القديس ساويرس في افعاله، وكان عظة للمخالفين بالخوف وبحسن امانته واعترافه وطقسه. وكانو يهابون كلامه لانه عند جلوسه عمل مقاله نوثاتيريون يقطع فيه جميع الهارسيس الكسـار سطوس والجمع الطمث الخلقدونى

وحروب بينه وبين ابن السرى [١]، وبينما قدم عبد الله بن طاهر بن الحسين من الشام موفداً من قبل الخليفة المأمون ليقضى على تلك الفوضى التى سادت فى مصر منذ نحو إحدى عشرة سنة، كادت مصر فى أثنائها تكون مستقلة عن الخلافة، لاترسل إليها الخراج والأموال ولا ترضخ فيها لأوامر الخليفة ولا تقبل العمال الذين يوليهم وقد تغلب على كل ناحية فيها قائد أو زعيم.

سار عبد الله بن طاهر إلى مصر فاستقبله على بن الجروى بالأموال والأنزال وانضم إليه، ثم أرسل ابن طاهر إلى عبد الله بن السرى يدعوه إلى الطاعة ولكن عبيداً أخذ يستعد لحربه فحفر خندقه وأعد سفنه وأحكم أموره وكانت النتيجة أن اشتبك الفريقان ووقعت الحرب بينهما فانهزم عبيد وقتل معظم أصحابه حتى أشرف على الهلاك فطلب الأمان. فكتب ابن طاهر إلى الخليفة المأمون كتابا يسأل فيه أمان عبيد فأجابه الخليفة إلى ذلك. ثم كتب عبد الله بن طاهر لعبيد كتاب أمان أشهد فيه شهوداً من الجند والفقهاء وأشراف إهل مصر فى صفر سنة ٢١١هـ وخلع عليه ابن طاهر وأجازه بعشرة آلاف دينار وأمره بالخروج إلى المأمون[٢] وبذلك خلصت معظم مصر للخلافة على يد عبد الله بن طاهر وكان أمامه أن يقضى على الدولة التى أقامها الأندلسيون بالاسكندرية منذ عشر سنوات.

(١) الكندى ص ١٧٨ ـ ١٧٩، خطط المقريزى جـ١ ص ١٧٩.
(٢) الكندى ص ١٨٠ ـ ١٨٢.

واصحاب الخيال الذين هم الغايانيون هولا الذين ينكرون الالام المحييه التى لله الكلمه التى قبلها بالجسد.

وفى بعض الايام قرب الشعب وجا الى منزله، وكانت عادة الاسكندرانيين ان يدعون عندهم المخالفون ليرو اعيادهم ومجد البطرك وكانو يفعلون هذا حتى يظهرو لهم المجد الذى اعطاهم الله وما يظهره لهم من اعمال الابا[ء] الذين جاو [جاؤا]

سار عبد الله بن طاهر فى قواده إلى الاسكندرية فى بداية صفر سنة ٢١٢هـ وحاصرها فى شهر ربيع الأول فطلب أهلها الأمان، وصالح الأندلسيين على أن يسيرهم من الاسكندرية حيث أحبوا فخرجوا الى جزيرة أقريطش (كريت) وملكوها وكان أميرهم أبو حفص عمر بن عيسى، ثم ولى ابن طاهر على الإسكندرية الياس بن سامان، ورجع ثانية إلى الفسطاط فى جمادى الآخرة سنة ٢١٢هـ [١].

وهكذا عادت مصر بفضل مجهودات عبد الله بن طاهر ولاية خاضعة للخلافة بعد أن سادت فيها الفوضى وكادت تخرج من حكم الخليفة وتستقل بأمورها منتهزة فرصة النزاع بين الأمين والمأمون ثم الاضطراب الذى قام فى أوائل حكم المأمون. ويجدر بنا أن نلاحظ أن السرى بن الحكم، الخراسانى الأصل، استطاع أن يكون لنفسه ولأسرته من بعده ملكا شبه مستقل دام نحو عشر سنوات ولم تسيطر هذه الأسرة على مصر طوال هذه المدة وإنما سيطرت على العاصمة دائما وعلى الوجه القبلى فى الغالب. ونلاحظ أيضا أن أسرة السرى كانت كغيرها من الأسرات التى استقلت بمصر فيما بعد، مثل ا لطولونيين والأخشيديين، أى أنه لم يكن لها أساس قومى فى البلاد التى اتخذتها مسرحاً لنشاطها. فهذه الأسرات التى قامت فى مصر الإسلامية لم تكن نتيجة لحركات قومية وإنما كانت حركات فردية قام بها

(١) الكندى ص ١٨٣ ـ ١٨٤، خطط المقريزى جـ١ ص ١٧٣.

وجلسو على كرسى البشير مرقس، ففعلو هذا مع الاب البطرك يعقوب وحضر جماعة منهم فنظرو الممتلى من نعمة الروح القدس وهم مختلطون مع الارتدكسيين وقال مثل ما قال بولس الرسول(*): اى شركه للحق مع الاثم او اى شركة للنور مع الظلمه، او كيف يتفق المسيح مع الشيطان، او اى نصيب لمومن مع مخالف، وكما ان ليس لهم معنا نصـــيب في الروحـــانيـــات ولا يكون لهم فى الجسدانيات. فخرجو جميعهم بخزى وخجل من

(*) رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل كورنتوس : ٦ / ١٤ ، ١٥ .

ذوو الشخصيات الطموحة القوية من المغامرين. ولذا لم يكن من المنتظر أن تعمر طويلا بعد وفاة مؤسسيها ، وخاصة إن كان خلفاء هؤلاء المؤسسين لا تتوفر لديهم القوة والشخصية التى كانت لأسلافهم. ويصح أن تعتبر أسرة السرى مقدمة لأسرة ابن طولون التى استقلت بمصر استقلالا فعلياً فى الواقع وذاتياً فى الظاهرة.

جـ . مصر والمحنة بخلق القرآن

مسألة خلق القرآن هي إحدى المسائل التى أثارتها المعتزلة حين ظهرت بتعاليمها كما ظهر غيرها من الفرق والمذاهب.

ولا يعنينا هنا أن نبحث في اراء المعتزلة الدينية ومعتقداتهم وإنما يهمنا أن الدولة العباسية فى وقت ما اتخذت الاعتزال مذهبا رسميا لها، وحملت جميع رعايا دولتها على اعتناق ذلك المذهب مستعملة فى ذلك جميع وسائل القوة والعنف، ومسلمو مصر ممن حمل على اتخاذ ذلك المذهب . كانت مسألة خلق القرآن هي مسألة التى تركز فيها الاعتزال فى تلك الفترة (٢١٨ ـ ٢٣٤هـ) لكثرة القول والجدل فيها، ولأنها مبنية على أكبر أصل من أصولهم وهو التوحيد وعدم تعدد صفات الله [١].

---

(١) أحمد أمين بك: ضحى الإسلام جـ٣ ص ١٦٥ .

باب البيعه، وكان فيهم انسان غنى مسلط على جباية خراج اسكندريه فى ذلك الوقت وكان له سلطان في الاندلسين(*) وولايه، فمضى مسرعا واعلم صاحب الخراج ما جرى وتكلم فى الاب البطرك ابا يعقوب وقال له أنه قد احرمهم، فلما سمع المخالف هذا امتلا غضبا على ابينا البطرك وقال كلاما عظيما، وارسل الى الاب وقال له: انى ادعك ان تلتفت فى البيعه، اذا قلت السلام لا تجد انسانا يقول لك ومع روحك [يرد عليك] . فلما

(*) من الواضح أن خروج الاندلسيين لم يكن كاملاً بل بقيت منهم أعداد من التجار فى الغالب وأصحاب الأموال والأملاك.

وقد أظهر المأمون القول بخلق القرآن فى سنة ٢١٢هـ (١)، إلا أنه لم يحمل الناس على اتباعه إلا فى سنة ٢١٨ هـ قبيل وفاته وهو خارج بغداد لغزو الروم إذا كتب إلى والى بغداد إسحق بن إبراهيم يطلب منه أن يمتحن القضاة الفقهاء والمحدثين فى خلق القرآن ويعاقب من لا يقر بخلقه على أن المأمون توفى بعد ذلك بنحو أربعة أشهر (رجبت سنة ٢١٨هـ) فحمل هذا الأمر من بعده أخوه المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ) ثم الواثق (٢١٧ ـ ٢٣٢هـ) وقد عذب كثير ممن امتنعوا عن القول بخلق القرآن، وقتل البعض الآخر، وبقدر ما كان الخلفاء يشتدون فى تلك المسألة كان العلماء والشعب يعارضون فيها (٢)، وقد أصبحت كلمة المحنة تعنى اختبار العلماء فى القول بخلق القرآن وما لاقوه فى ذلك من عذاب (٣)، وهكذا أصبحت الدولة الإسلامية كلها موضوع محاكمة،. ويهمنا ما كان من أمر مصر فى هذه المسألة.

فى ولاية كيدر نصر بن عبد الله على مصر (٢١٧ ـ ٢١٩هـ) ورد عليه كتاب المعتصم (صاحب إقطاع مصر حينذاك) فى جمادى الآخرة سنة ٢١٨هـ يأمره بأخذ الناس بالمحنة

---

(١) الطبرى جـ١٠ ص ٢٧٩.
(٢) أحمد أمين بك : ضحى الإسلام جـ٣ ص ١٥٦ ـ ١٨٢.
(٣) المرجع نفسه ص ١٦٦.

سمع ابونا هذا الكلام من المخالف قال بنعمة روح القدس: هكذا نعم ما تنبا به على هذا المخالف اشعيا النبي اذا يقول(*): ان غضبه وزخره وفكره يرجع على راسه، وظلمك وغضبك قد صعد الى فانا اربطك بلجام في شفتيك ولا يزول من مكانه حتى تتم القضيه عليه، وهكذا تكون قضيته، وحقا اقول لكم انني لا ادخل بيعه الرب حتى يتم الله هذا الحكم فيه عاجلا.

(*) اشعيا: ٣٧ / ٢٩.

بخلق القرآن وأن يمتحن قاضي مصر إذ ذاك هرون بن عبد الله الزهري وأن يمتحن المحدثين والفقهاء والشهود، وأن يعزل القاضي إن لم يقر بخلق القرآن، وكذلك طلب منه ألا يأذن لأحد في حديث أو فتوى أو شهادة إلا إذا أقر بخلق القرآن [١]. يظهر أنه لم تقم بين مسلموا مصر في أول الأمر معارضة شديدة للقول بخلق القرآن، كما قامت في العراق مقر الخلافة، ولم تتعرض مصر لما تعرضت له العراق من قتل وتعذيب واضطهاد لهذا السبب، وربما أقر مسلموا مصر القول بخلق القرآن تقية فكفاهم هذا شراء كثيراً. فيذكر الكندي أنه حين ورد كتاب المعتصم على كيدر يأمره بأخذ الناس بالمحنة أحضر هرون بن عبد الله القاضي ودعاه إلى هذا فأجاب إليه ووافقه على ذلك عامة الشهود ومن عرف بالعدالة كما أجاب أكثر الفقهاء إلا من هرب منهم وكذلك كان هرون ابن عبد الله يوقف شهادة من لا يقول بخلق القرآن ويقبل شهادة من يقر بخلقه[٢].

ظل هرون بن عبد الله يلي قضاء مصر إلى أن ورد عليه كتاب الخليفة المعتصم في سنة ٢٢٦هـ يأمره بالتوقف عن الحكم. وولي القضاء بعده محمد ابن أبي الليث الخوارزمي. ولعل مسلموا مصر لم يقوموا بمعارضة شديدة ضد المحنة طالما لم يؤخذوا فيها بالشدة، فيذكر الكندي[٣] أن أمر المحنة كان سهلا في خلافة المعتصم، «فلم يكن الناس يؤخذون بها شاءوا

(١) الكندي ص ١٩٣، ٤٤٥ ـ ٤٤٧، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ٢ ص ٢١٨ ـ ٢١٩.
(٢) الكندي ص ٤٤٧.
(٣) الكندي ص ٤٥١.

وبعد ذلك وقع للمذكور خصومه وقتل واخذ جميع مافى بيته ولم يبق له شى فلما نظرو المخالفون الذين فى اسكندريه هذا العجب الذى كان وتمام ما قاله الاب المشتمل بروح القدس، لم يقدر احد من المخالفين ان يخاطبه بكلمه وكان بطركهم يوقره ويخافه ويحيد عنه.

وكانت اعماله الحسنه تتزايد وتنمو اكثر من اعمال رهبانيته، ولم يكن ينظر مجد الناس بل

أو أبوا حتى مات المعتصم وقام الواثق سنة سبع وعشرين ومائتين فأمر أن يؤخذ الناس بها وورد كتابه على محمد بن أبى الليث بذلك وكأنها نار أضرمت». فالخليفة الواثق (٢٢٧ ـ ٢٣٢هـ) كان يقول بخلق القرآن عن عقيدة كما قال به المأمون[١]، لذا نجده يرسل إلى قاضى مصر محمد بن أبى الليث يأمره بامتحان الناس جميعاً حتى لم يبق أحد من فقيه أو محدث أو مؤذن أو معلم حتى أخذ بالمحنة، وعندئذ عارض كثير من المصريين المحنة وثاروا ضدها . فملئت السجون منهم كما هرب الكثيرون.

وقد أمر ابن أبى الليث أن يكتب على المساجد لا إله إلا الله رب القرآن المخلوق، كما منع الفقهاء من أصحاب مالك والشافعى من الجلوس فى المسجد وأمرهم أن لا يقربوه وقد اختص أصحاب مالك والشافعى بالمنع لأنه لم يكن للمذاهب الأخرى أتباع فى مصر حينذاك.

وعلى وجه الإجمال نلاحظ أن أمر المحنة فى مصر كان سهلا خفيف الوطأة على المصريين فلم يقاسوا بسببها إلا بضع سنوات فى عهد الخليفة الواثق فملئت السجون منهم، كما تحمل البعض الآخر مشقة الرحيل عن مصر. ولكننا لا نسمع عن كثير من حوادث قتل أو تعذيب كما كانت الحال فى العراق. فلما ولى الخليفة المتوكل العباسى وجد أن المسألة طال أمدها فأبطل هذه المحنة .

(١) الكندى ص ٤٥٣.

يعمل باعمال الله وعقله فوق مثل بولس الرسول الذى لم يكن يفتر من الكرازه والبشاره باسم يسوع المسيح ويسبح الله فقال لشعبه: سمعت ان منكم قوما بطالين كسالى وانا طلب اليكم ان تعملو اعمالكم بدعه، وتاكلو خبزكم كما قال بولس الرسول : ان بيدى كنت اخدم ولم اثقل عليكم ونعم اصلاح نصيب المحتاج، ولا ياخد من احد، وكان هو يسير من الدنيا يكفيه وليس ينصب للموايد مثل الناس بل ياكل خبزه

الأقباط والنظام المالى

كانت سياسة الخلفاء بوجه عام ترمى إلى استغلال مصر استغلالا منظما، وان اختلف بعضهم عن البعض الآخر من حيث درجة الاستغلال، واذا بينما نرى بعض الخلفاء أو ولاتهم يشتط فى جمع الضرائب نرى البعض الآخر يرى أن من مصلحة الراعى أن يقص صوف غنمه وليس من مصلحته أن يسلخها. وحسبنا أن نشير فى هذه المناسبة إلى ما ذكره الماوردى[1] من أن «الحجاج كتب إلى عبد الملك بن مروان يستأذنه فى أخذ الفضل من أموال السواد فمنعه من ذلك وكتب إليه: لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك وأبق لهم لحوما يعقدون بها شحوما». فإن هذا مثل يرينا كيف كانت سياسة هذا الخليفة ترمى إلى عدم تحميل البلاد فوق ما تحتمل كيلا يجف معينها ويؤثر ذلك على ماليته ولكن بعض الخلفاء لم يراع هذا المبدأ وراحوا يتزون كل ما تملك البلاد، فنرى الخليفة سليمان بن عبد الملك (٩٦هـ ـ ٥٩٩م) يكتب إلى أسامه بن زيد التنوخى متولى خراج مصر «أحلب الدر حتى ينقطع وأحلب الدم حتى ينصرم [2]» وقد ظهر اهتمام الخلفاء بثروة

---

(١) الأحكام السلطانية ص ١٤٣.
(٢) أبو المحاسن جـ١ ص ٣٣١.

بالدموع، بل كانت اعماله تنير فى وجهه، وكلما يطلبه من الله يعطيه، وكلمته تقطع اكثر من سيف ذى فمين.

واخبركم يا اخوتى انه كان فى ايام هذا المغبوط البطرك انبا يعقوب له قرابه، محب للمسيح، ريس مقدم فى نبروه اسمه مقاره، فلما سمع بجلوسه على الكرسى فرح فرحا عظيما ومجد الله الذى يختار اصفياه وزاد فى الصدقه ومحبة الاخوه،

مصر عقب الفتح مباشرة، فيذكر ابن عبد الحكم [1] عن هشام بن أبى رقية اللخمى أن عمرو بن العاص لما فتح مصر قال للقبط: إن من كتمنى كنزا عنده فقدرت عليه قتلته. وسمع عمرو بأن أحد أهالى الصعيد يقال له بطرس عنده كنز فلما سأله أنكر ذلك، وعندما تبين لعمرو ابن العاص صحة ما سمعه عنه أمر بقتله. فلما سمع بذلك الأقباط أخرجوا كنوزهم خوفا من القتل.

ويظهر أن العنصر المالى الرئيسى الذى كان يهتم به العرب هو الجزية ولذا كانت الجزية سببا فى إسلام كثير من الأقباط الذين أرادوا التخلص منها وهذا طبعا معناه نقص فى دخل الدولة. وربما حدا هذا بالخلفاء إلى مضاعفة مقدار الجزية على من بقى من الأقباط على دينه حتى لقد قيل إن الخليفة عمر بن عبد العزيز أرسل إلى حيان بن سريج عامله على خراج مصر أن يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم [2]. وإذا كان هذا النص صحيحاً وإذا كان الأقباط الأحياء يكلفون بجزية من مات منهم فلا نستبعد أن يجعلهم الخلفاء يتحملون جزية من أسلم

(١) فتوح مصر ـ طبعة تورى ـ ص ٨٧.

(٢) ابن عبد الحكم . طبعة تورى . ص ١٥٤ وخطط المقريزى جـ١ ص ٧٧ يقول الماوردى فى كلامه عن أهل الذمة والجزية «ومن مات سهم فيها أخذ من تركته بقدر ما مضغ منها ومن أسلم منهم كان ما لزم من جزيته ديناً فى ذمته يؤخذ بها. الأحكام السلطانية ص ١٣٩.

م٨ -تاريخ مصر ج٤ (الهيئة العامة لقصور الثقافة)

وارسل الى اسكندريه ما تحتاج اليه البيع بحكم انه قريب البطرك وكان يكرم الاساقفه ويخافهم. وبدا الغلا والسبى يقل فى اسكندريه، ولم يجد البطرك ما يدفع للبيع كالعاده ولم يبق معه شى وانقطع مضى الشعب من كل موضع الى بيعة الشهيد مارى مينا بمريوط ومنه. وكان البطرك [محصور] بالبيع، وسبب هذا، الحرب والقتال الذى كان بين المصريين والمداجه والاندلسيين وكان هذا بالاسكندريه.

منهم. ولا نستطيع أن نعرف بالتقريب ماهى نسبة نقص الجزية بسبب أعتناق الأقباط الدين الإسلامى لأن المؤرخين كثيراً ما يجمعون بين الجزية والخراج فيقال إن عمرو بن العاص جبى من مصر ١٢ مليون دينار وجباها عبد الله بن سعد بن أبى سرح فى خلافة عثمان بن عفان ٢٤ مليون دينار وقد سر عثمان بن عفان من ذلك وعاتب عمرو بن العاص فى هذه الكلمات:

«يا أبا عبد الله درت اللقحة بأكثر من درها الأول فقال عمرو: «أضررتم بولدها» ويذكر اخرون أنه قال: «ذلك أن لم يمت الفصيل [١]» ويذكر المقريزى [٢] أن الذى جباه عمرو ثم عبدالله إنما هو من الجماجم[٣] خاصة دون الخراج.

بلغ خراج الأرض مع جزية الرءوس فى أيام معاوية بن أبى سفيان خمسة ملايين دينار وبلغ فى أيام هرون الرشيد أربعة ملايين دينار وبعد ذلك أصبح ما يجبيه الخلفاء حوالى ٣ ملايين دينار [٤] إذا استثنينا فترات معينة ولعل الفرق الهائل بين ما جباه عبد الله (٢٤ مليون

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر- طبعة تورى ص ١٦١ وخطط المقريزى جـ١ ص ٩٨.
(٢) الخطط جـ١ ص ٦٨.
(٣) يقصد بالجماجم هنا جزية الرءوس.
(٤) اليعقوبى : البلدان ص ٣٣٩.

وكان شماس اسمه جرجه من مقدمي كهنة اسكندريه وكان قيما لبيعة اسكندريه، فبدا يتكلم عن هذا الاب حتى انه قال له: تدفع لنا ما نحتاج اليه كما جرت العاده والا فامض الى البريه من حيث جيت. فلما سمع قول هذا العاتى الاب البطرك وانه ما احتشم منه وزاد فى كلامه قال له: لا تعود من الان تدخل رجلك من هذا الباب الى هذا الموضع. فخرج الشماس بغضب عظيم من عنده [و] مضى الى بيته ولم يلتمس من الاب

دينار) وماجباه الخلفاء بعد ذلك (حوالى ٣ ملايين دينار) يوضح حجم النهب والخراب الذى أصاب مصر فانتهى الأمر إلى أن نقصت الجباية من ٢٤ مليون دينار إلى ٣ مليون.

وتشهد المكاتبات التى دارت بين الخليفة عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص عقب الفتح مباشرة على مدى الاهتمام بجباية أموال مصر ؛ فعندما بلغت عمر بن الخطاب اكذوبة أن المقوقس جباها قبل عمرو بستة وعشرين مليون دينار وأن عمروا جباها اثنى عشر مليون دينار كتب الخليفة إلى عمرو يستبطئه فى الخراج. وهذا ما دار بينهما من المكاتبات:

كتب الخليفة إلى عمرو يقول: «بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص. سلام عليك فأنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو. أما بعد فأنى فكرت فى أمرك والذى أنت عليه فإذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة قد أعطى الله أهلها عددا وجلدا وقوة فى بر وبحر وأنها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملا محكما مع شدة عتوهم وكفرهم فعجبت من ذلك وأعجب مما عجبت أنها لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولاجدب، ولقد أكثرت فى مكاتبتك فى الذى على أرضك من الخراج وظننت أن ذلك سيأتينا على غير نزر، ورجوت أن تفيق فترفع إلىّ ذلك فإذا أنت

القديس تحليلا ولا تاب فلحقه حمى صالبه [شديدة]، وكانو يمسكونه من قوة النيران التى تلحقه، وتوفى فى يومه، واعلمو البطرك بهذا فحزن عظيما وطلب الى الله ان يحل نفسه من الرباط الذى ارتبط به ويحله ايضا من الخطيه. ومن يوم وفاة هذا الشماس دخل الموت والفنا الى جميع بيته ولم يبق فيه احد الى اليوم، فلما نظر الجمع وسمع هذه الاعجوبه وان كلامه بسلطان كمثل

تأتينى بمعاريض تعبأ بها لا توافق الذى فى نفسى. ولست قابلا منك دون الذى كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك. ولست أدرى مع ذلك ما الذى أنفرك من كتابى وقبضك؟ فلئن كنت مجزئا كافئا صحيحا إن البراءة لنافعة ولئن كنت مضيعا نطفا إن ا لأمر لعلى غير ما تحدث به نفسك. وقد تركت أن أبتلى ذلك منك فى العام الماضى رجاء أن تفيق فترفع إلىّ ذلك وقد علمت أنه لم يمنعك من ذلك إلا أن عمالك عمال السوء وما توالس عليه وتلفف اتخذوك كهفا وعندى بأذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك فيه فلا تجزع أبا عبد الله أن يؤخذ منك الحق وتعطاه فأن النهر يخرج الدر والحق أبلج ودعنى وما عنه تلجلج فأنه قد برح الخلفاء والسلام[1]».

فكتب إليه عمرو بن العاص. «بسم الله الرحمن الرحيم. لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص. سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو. أما بعد فقد بلغنى كتاب أمير المؤمنين فى الذى استبطأنى فيه من الخراج والذى ذكر فيه من عمل الفراعنة قبلى واعجابه من خراجها على أيديهم ونقص ذلك منها منذ كان الإسلام، ولعمرى للخراج يومئذ

(١) ابن عبد الحكم ـ طبعة تورى ـ ص ٥٨ ـ ١٥٩ وخطط المقريزى جـ١ ص ٧٨ والسيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص ٦٤.

الرسل خافو وفزعو وارتعبو ولم يجسر احد ان يخاطبه، وكان عندهم مثل نبي.

فلما قربت الاربعون يوما الصوم المقدس اراد الاب ان يمضى الى برية ابى مقار ليقوى الاخوه الرهبان ويعزيهم ويقيم عندهم الى عيد الفصح المقدس كما جرت عادة الابا البطاركه، فلما وصل اليها فرح جميعهم ولقوه وصاحو: مبارك الاتى باسم الرب. وجا كل الابا[ء] الشيوخ من مغايرهم

أو فر وأكثر والأرض أعمر لأنهم كانوا على كفرهم وعتوهم أرغب في عمارة أرضهم منا منذ كان الإسلام وذكرت أن النهر يخرج الدر فحلبتها حلباً قطع ذلك درها وأكثرت في كتابك وأنبت وعرضت وثربت وعلمت أن ذلك عن شئ تخفيه على غير خبر فجنت لعمرى بالمفظعات المقذعات ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق وقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن بعده فكنا بحمد الله مؤدين لأماناتنا حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا نرى غير ذلك قبيحا والعمل به سيئاً فيعرف ذلك لنا ويصدق فيه قيلنا، معاذ الله من تلك الطعم ومن شر الشيم والاجتراء على كل مأثم فأقبض عملك فإن الله قد نزهنى من تلك الطعم الدنية والرغبة فيها بعد كتابك الذى لم تستبق فيه عرضاً ولم تكرم فيه أخا . والله يا ابن الخطاب لأنا حين يراد ذلك منى أشد لنفسي غضباً ولها إنزاها وإكراما وما عملت من عمل أرى على فيه متعلقا ولكنى حفظت مالم تحفظ ولو كنت من يهود يثرب ما زدت يغفر الله لك ولنا وسكت عن أشياء كنت بها عالما وكان اللسان بها منى ذلولا ولكن الله عظم من حقك ما لا يجهل والسلام(١).

(١) ابن عبد الحكم، ص ١٥٩ ـ ١٦١ طبعة تورى وخطط المقريزى جـ١ ص ٧٨ و٧٩ والسيوطى: حسن المحاضرة ص ٦٤ ـ ٦٥.

باجبال يجرون كمثل الوحوش المشتاقين الى مجارى الما[ء] وكانو ياخدون بركته بفرح عظيم. وكانت هذه البريه مثل فردوس الرب بصلاة الاب البطرك ومساعدة بني المعموديه المصريين، وكان للبطرك محبه عظيمه للبريه اكتر من الرهبان ويفعل فيها مثل كرنيليوس في زمانه، فارسل الى جميع الابا وأبهات القلالى وقال: كلمن يحتاج الى شى لمنشوبيته ياتى ياخذ. لان البربر كانو قد نهبو جميع مالهم وهدمو البيع واحرقو القلالى

ولم تقف المكاتبات بين عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص فيما يختص بالخراج عند هذا الحد. فقد عاود عمر بن الخطاب الكتابة فكتب إلى عمرو «سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو. أما بعد فقد عجبت من كثرة كتبى إليك فى إبطائك بالخراج وكتابك إلى ببينات الطرق وقد علمت أني لست أرضى منك إلا بالحق البين،.ولم أقدمك إلى مصر أجعلها لك طعمة ولا لقومك ولكنى وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك فإذا أتاك كتابى فأحمل الخراج فإنه فيء المسلمين وعندى من قد تعلم قوم محصورون والسلام[1]».

فكتب إليه عمرو بن العاص. «بسم الله الرحمن الرحيم. لعمر بن الخطاب من عمرو بن العاص. سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو. أما بعد فقد أتانى كتاب أمير المؤمنين يستبطئنى فى الخراج ويزعم أني بعيد عن الحق وأنكب عن الطريق وأني والله ما أرغب عن صالح فكان الرفق بهم خيراً من أن يخرق بهم فيصيروا إلى بيع مالا غنى بهم عنه والسلام [1]».

(1) ابن عبد الحكم ، ص ١٥٩ ـ ١٦١ طبعة تورى وخطط المقريزى جـ١ ص ٧٨ و٧٩ والسيوطى : حسن المحاضرة ص ٦٤ ـ ٦٥.

بالنار. فلما اجتمعو الابا[ء] الرهبان سبحو الرب على تجديد النعمة عليهم ومجدو الله على ذلك، ولما راى الاب ان الحمام قد عاد الى وكره الاول فرح. وكان فى ايام قسيسيته قد بدا بعمارة هيكل على اسم القديس شنوده قبلى هيكل القديس ابى مقار وكانو الرهبان يجتمعون اليه عوض البيع المهدومه، وكمله وجدد البيع وسبحو ومجدو التالوت كالملايكه، فلما راى الشيطان هذا زار [زأر] كمثل السبع وأعد سهاما للبطرك وللبيعه.

هذه الرسائل ترينا إلى أى حد كان الخليفة يهتم بخراج مصر وأنه كان يريد أن يجبى مثلما كان يجبيه الروم من قبل . ولذا نجد أن المصريين سرعان ما عادوا إلى ماكانوا فيه تحت حكم الروم فوقعوا تحت الأعباء المالية الكثيرة التى تطلبتها الخلافة وأصبح المطلوب منهم توفير المال اللازم لبيت المال وللمنتفعين من الولاة والموظفين أيضاً. وفى العصر العباسى اضطربت الأحوال المالية وذلك لكثرة تغيير الولاة وبسبب إقطاع مصر لبعض قواد الترك أو أولياء العهد فكان هم الوالى جمع ما يمكن جمعه من المال لنفسه أولا وللخلافة أو لصاحب الإقطاع ثانيا.

ولنستعرض الآن الفترات التى أشتد التحول فيها إلى الدين الإسلامى بسبب المغارم المالية الباهظة ولنبدأ بولاية عبد العزيز بن مروان الذى كان يمثل الخليفة عبد الملك بن مروان فى مصر (٦٥ ـ ٨٦هـ).

كان عهد عبد العزيز بن مروان عهد رخاء ويسر للعرب فى مصر حتى انه أنفق مالا كثيراً فى بناء مدينة حلوان، يقال إنه بلغ مليون دينار [١] وقد زيدت أعطيات الجند فى عهده[٢] كما اشتركت مصر فى القضاء على ثورة عبد الله بن الزبير وقد تطلب هذا كله كثرة الإنفاق

(١) «سعيد بن بطريق : التاريخ جـ٢ ص ٤٠.
(٢) الكندى ص ٤٩.

وكان في ذلك الزمان للبطرك شماس يختص به لخدمته و يفعل ما يريد بغير مشاوره، فضرب احد التلاميذ لاجل شي عمله وعنف عليه، فمن كترة ما ضربه مات، وكان ذلك منصوبه من فخاخ العدو الشيطان، فلما شاهدو المداجه خفرا الدير ذلك مسكو الاب البطرك واقلقوه لاجل موت الانسان وطلبو منه الشماس ليقتلوه عوضه، وكان الاب مجتهدا في خلاص نفس الشماس لاجل تربيته له من صباه، وكان يظن انه يقدمه في درجة

والأموال الكثيرة حتى قيل إن عبد العزيز بن مروان كان يجبى خراج مصر أسبوعياً خوفاً من فتنة تنزل به يحتاج فيها إلى المال. ولم يزل على ذلك حتى قتل عبد الله بن الزبير وتم الأمر لعبد الملك بن مروان (١).

وكانت نتيجة حاجة هذا الوالى إلى المال أن اتجه إلى شئ لم يتجه إليه أحد من قبل، فأمر بإحصاء (٢) جميع الرهبان في كل الكور وفي وادى النطرون وسائر الأماكن وفرض ديناراً جزية على كل راهب وأمر الا يترهب أحد بعد من أحصاه، وكانت هذه أول جزية أخذت من الرهبان (٣). ويقال إنه ألزم أساقفة الكور أن يؤدوا ألفى دينار سنوياً بالإضافة إلى خراج أملاكهم (٤).

---

(١) سعيد بن بطريق جـ٢ ص ٤١ .Wiet: Histoire de la Nation Egyptienne p. 47

(٢) ساويرس ص ١٠٧ جـ ٢ : ونذكر هنا أن بعض المخطوطات كان فيها تصحيف في كلمة «احصى» أو أن خطأ أدى إلى قراءتها «اخصى» فشاء بعض المستشرقين أن يستنبط منها توحش المسلمين في هذه المناسبة. ولكن فطن إلى هذا الخطأ مستشرقون آخرون كالأستاذ فيت في مقاله Kibt في دائرة المعارف الإسلامية .Wiet: art. Kibt (Encyclopaedia of Islam) P. 993

(٣) ساويرس ص ١٠٧ جـ٢ .

(٤) ساويرس ص ١٠٧ جـ ٢ .

الكهنوت. ولما رأو المداجه اعتنا الاب به وعلمو انه ما يسلمه اليهم تشددو فى طلبه وطلبو منه مالا جــزيلا، ولم يكن مع البطرك شي يدفع لهم فاعانوه الاساقفه والشعب المحبون لله الى ان دفعو لهم شيا وخلصوه من ايديهم.

ثم خرج الاب المغبوط يعقوب الى الصعيد ليتفقد الشعب والديارات فلما لقوه الشعب والرهبان كانو يمجدون الله ويقولون : مبارك الاتى باسم الرب. وتعجبو من اعماله ويقولون:

ونحن نعلم أن الرهبنة كانت منتشرة حينذاك، وقد ساعد على انتشارها ما وقع للمصريين من ظلم واضطهاد، ففضل الكثيرون أن يعيشوا فى عزلة عن العالم منفردين أو جماعات فى أديرة. ولما كان الراهب لا يملك شيئا ويعيش فى عزلة عن العالم، لذا لم تفرض عليه أى ضريبة. على أن الأديرة التى كانت تزداد كثرة على مر الأيام مالبث أن وقف عليها أملاك كثيرة وزادت ثروتها، ولكن الحكومة فى عهد الرومان والبيزنطيين لم تكتف باعفائها من الضرائب ، بل كانت تدفع لها قدراً معيناً من الإيرادات المالية (١).

فلما احتل العرب مصر حافظوا على ماكان موجوداً قبلهم من التقليد الذى يحرم فرض أية ضريبة أو جزية على الرهبان. وبذلك وجدت تحت حكم العرب من أول الفتح طبقة ممتازة من المسيحيين لا تقع تحت طائلة الأعباء المالية. وقد لجأ كثير من الأقباط إلى هذه الأديرة كى يتخلصوا من الضرائب (٢). ففطنت الحكومة إلى ذلك وبادرت بإحصاء الرهبان، وفرضت عليهم جزية الدينار التى أشرنا إليها.

ولما زاد أحتياج عبدالعزيز بن مروان إلى المال لجأ إلا الأديرة التى أصبحت تملك ثروات

(1) Munier: L Egypte Byzantine. P. 77.

2) Wiet: Precis de L'hist. d' Egypte. T. II. P. 132.

مبارك ابونا ايلياس الجديد. واقام عندهم اياما قليلا وعاد، و كانو يفتخرون باعماله وفضايله.

وذكر ابونا الاتحاد والمحبه والرباط الذى بينه وبين ديونوسيوس بطرك انطاكيه وكان يحب النظر اليه بالمشاهده او بالمكاتبه ويمنعه من ذلك الحروب التي كانت بارض مصر وفى الطرق، لانها اقامت اربع عشره سنه. وكان يطلب الى الله ان يتبت المحبه بين الكرسيين الجليلين الاسكندراني والانطاكي، ويدعو الى الله ان يجمع بينهما

ضخمة. ففرض على رهبانها جزية سنوية كي يسد بذلك عجز ميزانية الدولة، وكان من أثر هذا أن اعتنق الكثيرون الدين الإسلامي.

وبعد وفاة عبدالعزيز ولى مصر عبد الله بن عبد الملك بن مروان، وذلك في جمادى الآخرة سنة ٨٦هـ ولم تمض بضعة أشهر حتى توفي الخليفة عبد الملك بن مروان، وبويع بعده بالخلافة ابنه الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦) فأقر الوليد أخاه عبد الله على ولاية مصر حتى سنة ٩٠هـ. وقد تشدد عبد الله بن عبد الملك على الأقباط فى الأمور المالية. فألزم البطرك بدفع ثلاثة آلاف دينار أو يعتقله فلقى البطرك مشقة عظيمة فى جمع هذا المال من الأساقفة والرهبان والأقباط على العموم، كذلك زاد عبد الله الخراج على المصريين، فمن كان يدفع ديناراً خراجاً ألزمه بدفع دينار وثلثين، حتى أن كنائس كثيرة سرى إليها الخراب لهذا السبب[1]، وقد زاد وطأة ذلك الوالي على المصريين ما حدث فى أيامه من الغلاء، وذلك على أثر انخفاض النيل [2] فى سنة ٨٧هـ.

والظاهر أن هذا الوالي عمد إلى ابتزاز الأموال، ولا سيما من القبط وربما أسلم نفر منهم

(١) ساويرس ص ١١٧ جـ ٢ .
(٢)الكندى ص ٥٩ والمقريزى: إغاثة الأمة ص ١١. وأبو المحاسن جـ١ ص ٢١٠ ـ ٢١١.

بالمشـاهده والمكاتبـه، فلم يرفض الله صـلاة هذا الاب بل كملها بنظر الاب ديونوسيوس بالجسد.

وانا اعلمكم بالسبب واعلمكم القلق الضيق الذى لحق ارض مصر والاب يعقوب البطرك.

و ملكو الاندلسيـون اسكندريه وعبـد العـزيز الجـروى ملك بعض البـلاد. وكـان الاب مـبـتـهـلا وباكيا لاجل خراب البلاد وطول استمرار الحروب فى القتال وان اجساد الناس طعام لطيور السما.

ليتخلص من هذه الأعباء، وقامت فى عهده حركة مقاومة سلبية ضد هذه السياسة المالية من جانب الذين ضايقهم الأعباء المالية والذين لم يريدوا تغيير دينهم بسببها. فأخذ بعض الأفراد يهربون إلى مناطق أخرى غير تلك التى كانو مقيدين فيها بعد أن وجدو ألا فائدة من الاعتصام فى الأديرة. غير أن هذا الوالى ومن جاء بعده تشددو فى مراقبة هذه الحركة التى كانت تثير الفوضى فى البلاد، فضلا عن تأثيرها فى مالية الدولة. فأمر عبد الله بن عبد الملك بوسم الغرباء الذين وجدو فى الأقاليم المختلفة على أيديهم وجباههم وأرسلهم إلى مواضع لم يعرفوها[1].

وولى مصر بعد عزل عبدالله بن عبد الملك فى سنة ٩٠هـ قرة ابن شريك، وظل على ولايتها إلى أن مات بها فى سنة ٩٦هـ. ويذكر ساويرس أن قرة أنزل بلايا عظيمة بالمسلمين والنصارى على السواء، وبالكنائس والرهبان [2]. وكتب المقريزى عن قرة أنه «أنزل بالنصارى شدائد لم يبتلو قبلها بمثلها» [3]. وتكثر النصوص والروايات من التحدث عن ظلم قرة بن شريك وعسفه، فيذكر أبو المحاسن أن قرة كان سئ التدبير، خبيثا ظالما غشوما فاسقا

(١) ساويرس ص ١١٧ جـ ٢.
(٢) ساويرس ص ١١٩ جـ ٢..
(٣) الخطط جـ٢ ص ٤٩٢.

(*) الجروى يحتكر الأموال والغلال ويرفع أسعارها وينهب الأموال.

وان الجـــروى(*) ما كان يفتر من قتل الناس واخذ اموالهم، وكان يدفن ما ياخذه من الاموال ليـــلا في الارض واذا دفن المال يقـــتل الذين يساعدونه على دفنه حتى لا يبقى من يعرف مكان شي يدفنه، فتـمت فيـه كلمـة ميـخـا النبى اذ يقـول:(*) هولا المتفكرون بالسـو والدغل لانهم دفعـو ايديهم في ذلك واخـذو الحـقـوق وظلمـو اليتامى واختطفو الانسان وبيته وورثته. لاجل هذا يقول الله أني اجيب الشرور على قبايلهم ولا يتم

(*) ميخا: ٢ / ١، ٢، ٣.

متهتكا»[١]، وقيل إن عمر ابن عبد العزيز ذكر عنده ظلم الحجاج وغيره من ولاة الامصار أيام الوليد بن عبد الملك، فقال: «الحجاج بالعراق، والوليد بالشام، وقرة بن شريك بمصر ! وعثمان بالمدينة! وخالد بمكة ! اللهم قد امتلأت الدنيا ظلماً وجوراً فأرح الناس» [٢]. فنراه يشدد فى طلب المتأخر من الجزية التى لم تدفع منذ عهد الوالى الذى سبقه[٣]، ويأمر عماله على الأقاليم بأن يقدمو له سجلات بأسماء القرى والأقاليم المختلفة، واحصاء الرجال والجزية الواجبة عليهم وما يملكه كل رجل من الأراضى والخدمات التي يؤديها [٤]. ولكنا نراه أحياناً يفرض ضرائب غير عادية [٥].

ويذكر ساويرس [٦] أن قرة فرض على البلاد مائة ألف دينار سوى خراجها المعروف وقد استمرت فى عهد قرة حركة الهرب التى بدأت فى ولاية عبد الله بن عبد الملك بل وانها اتخذت فى عهده شكلا واسعاً فكانت أسرات بأسرها رجالا ونساء وأطفالا تهرب من مكان

(١) النجوم الزاهرة جـ١ ص ٢١٧. فى طبعة دار الكتب «منهمكا».
(٢) المرجع نفسه ص ٢١٨.

(3) Becker: op. cit. d. 267, Grohmann: op. cit. p. 48.
(4) Bell: op. cit. p. 272.
(5) Bell: op. cit. p. 272.

(٦) ساويرس ص ١٤٢ جـ ٢ . .

ما ظنو . فجا[ء] على هذا الرجل حكم الله العالى القوى، وكان قد جمع قمح ارض مصر جميعها وجعله فى الأهرا[ء] تحت احتكره وقال: اجعل الغلا فى ارض مصر جميعها، واجمع اموالهم كما فعل فرعون يوسف فيطيعنى كل مقاوم. وفعل هذا وصار غلا عظيم حتى بلغ القمح ويبه واحدة بدينار، ولم يطلق قمحا الى اسكندريه غرضا فى هلاك الاندلسيين الذين ملكو مدينة اسكندريه، وصارت الويبه القمح فى اسكندريه بدينارين

إلى مكان، لا تستقر فى مكان معين وذلك فراراً من دفع الضرائب. واضطر قرة إزاء هذا إلى إنشاء هيئة خاصة لوقف تلك الحركة وإعادة كل شخص إلى موضعه [١].

وتلقى أوراق بردى كوم اشقاو شعاعا من النور على هذه الحركة التى كان محورها الزراع أو الجالية [٢] وكان الوالى يأمر باعادتهم إلى قراهم الأصلية فنراه يكتب إلى صاحب أشقوه أنه علم بوجود جالية بأرضه ويطلب منه أن يرد الجالية ـ أى الهاربين ـ إلى أرضهم الأصلية[٣] ونراه يرسل مندوبين للنظر فى حركة الهرب ويطلب من صاحب الكورة أن ييسر مهمتهم وأن يرسل معهم رجالا ثقات يعرفون الكتابة ليقومو حضرتهم بكتابة أسماء الهاربين وألقابهم وليبينو أيضا من أين هرب كل شخص والى أى جهة ذهب. وذلك لحصر الذين عادو إلى قراهم والذين سمح لهم بالاستقرار على أن يؤدو الضرائب، وليقومو على وجه الإجمال بالاستفسار عن كل ما يجب أن يعرف. ثم يعود قرة فيطلب من صاحب الكورة أن يأمر هؤلاء

(١) المرجع نفسه ص ١٤٣ .

(٢) قيل لأهل الذمة الجالية لأن عمر بن الخطاب أجلاهم عن جزيرة العرب ولزمهم هذا الاسم أينما حلو ثم لزم كل من لزمته الجزية من أهل الكتاب بكل بلد وإن لم يجلو عن أوطانهم. ويقال استعمل فلان على الجالية أى على جزية أهل الذمة (لسان العرب).

(3) Grohmann: Arabic Papyri. Vol. 111 P. 24.

ودرهم واحد وماكانو يجدون شيا يشترونه، وهلكو الناس بارض مصر ولاسيما باسكندريه (*)، فعلم ذلك المتكبر ان الناس قد هلكو ففتح فمه وقال كلمه، لم يقلها الله. انا ادعهم ان يبيعو القمح قدحا بدينار. فكمل عليه كلام ناحوم(*) النبى اذ قال : يقول الله لى الانتقام يعطينى واهلك مقاومى واعداى عاجلا. فرحم الرب تنهد الخلق وما يراه من الغلا وما الناس فيه وانتقم الله منه هكذا لانه [الجروى] مضى بجيشه الى اسكندريه ليقاتل

(*) يلاحظ اهتمام ساويرس باحداث الاسكندرية لأنها كانت مقر البطرك.

(*) ناحوم: الاصحاح الأول / ٢ ، ٣ .

الرجال بالعمل فى هذه المسألة بجد ونشاط وألا يقبل أحد منهم هدية أو رشوة من أى شخص وإلا فسيحل العقاب بصاحب الكورة كما سيحل بالرجل المذنب [١] وفى كتاب آخر لقرة نراه يطلب من صاحب أشقوه أن يرسل إليه الهاربين مع عائلاتهم وكل ما معهم من أشياء وأن يعد سجلا يكتب فيه أسماء الأشخاص الذين أرسلو، وفى أى موضع من كورته هربو، وأملاك كل شخص، والوقت الذى أمضاه كل شخص فى كورته، وكل شئ يعرفه عن الهاربين دون كذب أو محاباة، وأن يرسل. كل الأشخاص وهذه المعلومات مع المندوب الذى أرسله قرة لهذا الغرض، ويهدده بأشد العقاب الجثمانى والمالى إن هو توانى عن النظر فى هذه المسألة وتغافل عن أحد الهاربين كما يهدد الأشخاص الذين يوجد بينهم أحد الهاربين بغرامة مالية كبيرة فوق مقدورهم [٢].

وظل قرة يتابع تلك الحركة بنشاط كى يقضى عليها إلى أن مات سنة ٩٦هـ. وفى عهد خلافة سليمان بن عبد الملك كان المتولى على خراج مصر أسامة بن زيد التنوخى فكتب إليه سليمان بن عبد الملك «احلب الدر حتى ينقطع ، واحلب الدم حتى ينصرم [٣]» أى أن

(1) Bell: Translations of the Greek Aphrodito Papyri (Der Islam, Band 11.) P. 270.

(2) Bell: op. cit. PP. 274 - 275.

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ١ ص ٢٣١ .

الاندلسـيين فـهـربو منه الى داخل السـور واغلقـو الابواب حـتى اكلو دوابهـم من الجـوع وكـان قـد قـوى عليـهـم وصـار يضـرب الحصن بالمنجنيـقـات ليهدم الحصن وظن انه يهلك كلمن فيها بالسيف، وكان يطلب البطرك لانه انفذ اليه يشفع في انسان ان يصلحه اسـقـفـا فلم يقبل [البطرك] ان يخـرج عن قانون البيعه. فلما نظر المحب لله مقاره غضب عبدالعزيز الجروى كتب الى الاب البطرك وطلب اليـه ان يقـسـم ذلك الانسـان اسـقـفـا فـفـعل. وكـان

سياسة هذا الخليفة كانت سياسة استغلال لموارد مصر إلى أقصى حد ممكن وقد وجد من أسامه خير منفذ لأوامره. وقيل إن سليمان بن عبد الملك قال يوماً وقد أعجبه فعل أسامه ابن زيد: «هذا أسامة لا يرتشي ديناراً ولا درهما» فقال له ابن عمه عمر ابن عبدالعزيز بن مروان : « أنا أدلك على من هو شر من أسـامـة ولا يرتشي دينادراً ولا درهمـا» . قال سليـمـان: «ومن هو» ؟ قال عمر: «عدو الله إبليس» فغضب سليمان وقام من مجلسه[١].

نفذ أسامه بن زيد تعليمات الخليفة بكل دقة واشتد في طلب الخراج والجزية وأمر عماله ألا يتوانو في جمع الضرائب فأسلم الكثيرون في عهده كي يتخلصوا من الأعباء المالية ولكن حركة الهرب استمرت من جانب الذين أثقلت كاهلهم الأعباء المالية ولم يرغبو في اعتناق الدين الإسلامي.

وقد أمر أسامه ألا يأوى أحد غريبا في الكنائس أو الفنادق أو السواحل. ولشدة الخوف منه طرد الناس من كان عندهم من الغرباء أو الهاربين[٢]. ولكي لا يتمكن أحد من الهرب من منطقة إلى أخرى عملت سجلات للأهالي أشبه بجوازات السفر اليوم Passport فالزم كل

(١) المرجع نفسه ص ٢٣٢.
(٢) ساويرس : تاريخ البطاركة ص ١٥٣ جـ ٢ .

الجروى حريصا فى طلب البطرك وقال انه يهدم البيع ويقتل الاساقفة فى كل موضع إن لم يجتمع به البطرك ، فسمع مقاره الارخن النبراوى، فكتب الى البطرك كتابا يقول له لابد من ان تجتمع بهذا الرجل والا فهو يهدم البيع ويقتل الناس، وحلف له وقال: انى ادفع جميع مالى عنك ولا يلحقك ما يغمك. فقال البطرك كلمة اشعيا النبى: ان ليس نفسى عندى عزيزه وانها لله ولينظر الرب خلاصى لانى توكلت عليه فلا اخاف ما يصنعون بى

شخص يريد الانتقال من جهة إلى جهة فى أنحاء القطر المصرى أو يريد ركوب سفينة أو النزول منها أن يحمل معه سجله وقد أمر الوالى بالقبض على أى شخص يرى ما شيا فى موضع ما أو عابرا من موضع إلى موضع وليس معه سجله . وإذا وجد شخص راكبا مركبا أو نازلا منها وليس معه سجله تنهب المركب وتحرق بالنار. أما من فقد سجله أو أتلفه فقد ألزمه الوالى بالحصول على سجل آخر مقابل دفع غرامة قدرها خمسة دنانير (١).

وقد عمل أسامة بن زيد إحصاء ثانيا للرهبان بعد الاحصاء الاول الذى تم فى عهد عبد العزيز بن مروان وأمر الرهبان ألا يقبلو فى الرهبنة من يأتى إليهم وأمر بوسم كل راهب بحلقة حديد فى يده اليسرى ليكون معروفا، ووسم كل واحد منهم بإسم بيعته وديره والتاريخ الهجرى وفرض على كل واحد منهم دينارا جزية . أما من وجد هاربا أوغير موسوم فقد كان يلقى عقابا قاسيا (٢) ويقال إن أسامة بن زيد جبى مصر فى خلافة سليمان ابن عبد الملك اثنى عشر مليون دينار (٣) .

وبهذه المناسبة نذكر أن أول من أخذ الجزية ممن أسلم من أهل الذمة الحجاج بن يوسف،

(١) المرجع نفسه ص ١٥٦ جـ٢ .
(٢) المرجع نفسه ص ١٥٣ جـ٢ . وخطط المقريزى جـ٢ ص ٤٩٢ ـ ٤٩٣.
(٣) خطط المقريزى جـ١ ص ٩٩.

الـنـاس(*) . فقام وخرج للقاه، وكان معهم قس محب لله اسمه يوساب لبيعة القديس ابى مقار استحق ان يجلس على الكرسى الرسولى ونحن نذكر فضايله فى هذه السيره، وبينما هو فى الطريق وقد فرغ من صلاته فقال للقس يوساب: امن بالله يا ولدى ان هذا الرجل لا ينظرنا ولا ننظره حيا. فلما كان الصباح وقع عليه حجر من الحصن فطارت عيناه من وجهه وطار يافوخه ومات. هكذا تمت عليه كلمة زكريا النبى انه فكر

(*) اشعيا : الاصحاح ٥١ .

ثم كتب عبد الملك بن مروان إلى عبدالعزيز بن مروان والى مصر من قبله أن يضع الجزية على من أسلم من أهل الذمة فكلمه ابن حجيرة فى ذلك وقال «أعيذك بالله أيها الأمير أن تكون أول من سن ذلك بمصر. فوالله أن أهل الذمة ليتحملون جزية من ترهب منهم فكيف تضعها على من أسلم منهم؟» فتركهم عند ذلك[١]».

وكتب عمر بن العزيز أيضا إلى حيان بن سريج أن يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم[٢] كما ذكرنا من قبل وربما كان هذا الأمر هو الذى بعث ساويرس على أن يقول إن عمر بن عبد العزيز أمر بأن تؤخذ الجزية من سائر الناس الذين لا يسلمون حتى فى الحالات التى لم تجر عادتهم بالقيام بها[٣]. ونحن لا نعرف تماما متى بدأ أخذ الجزية ممن أسلم. والظاهر أن هذا بدأ قبل عهد عمر بن عبدالعزيز [٤].

ويعلق السير توماس ارنولد[٥] Thomas Arnold «ولكن الولاة المتأخرين استمراو فى فرض

(١) ابن عبد الحكم ص ١٥٦ ، خطط المقريزى جـ١ ص ٧٧ ـ ٧٨.
(٢) ابن عبد الحكم ص ١٥٤ ، خطط المقريزى جـ١ ص ٧٧.
(٣) ساويرس: تاريخ البطاركة ص ١٦٣ وما بعدها جـ ٢ .
(٤) ابن عبد الحكم ص ١٥٦ والمقريزى ص ٧٧.
(5) The Preaching of Islam p. 103.

بالسو وما بلغ ان يفعله وخلصوه من الحجاره. فلما راو اصحابه هذا حملو جسده ودفنوه فى بعض الضياع، وكانو يسدون انافهم من ريحته ونتن جتته، فوصل الخبر الى الاب فمجدو الله اصحابه الذين كانو معه وسمعو ما قاله لهم قبل ان يكون فقالو للاب: قد تم ماقلته يا ابانا. فقال : يا اولادى هذا فعله الله به لن [لأن] هذا الانسان اراد قتل بنى بشر بالجوع.

ثم تولى ولده بعده وكان اسمه على ولم يعمل

الجزية على الذين أسلمو وبالجملة لم يكن هناك استمرار فى مثل هذا السياسة بل كان الولاة يتبعون فى ذلك سياسات مختلفة على حسب أهوائهم دون السير على وتيرة واحدة.

ثم حدث أن الخليفة يزيد بن عبد الملك (١٠١ ـ ١٠٥هـ) أخذ المسيحين بالشدة من الوجهة المالية فأعاد الخراج الذى كان عمر بن عبد العزيز قد رفعه عن الكنائس والأساقفة. ويدلنا على مبلغ كراهية المسيحيين له تلك الكلمات التى يصفه بها مؤرخ البطاركة إذا يقول «إنه سلك فى طريق الشيطان وحاد عن طرق الله[١]».

ولما بويع هشام بن عبد الله الملك (١٠٥ ـ١٢٥هـ) بالخلافة تفاءل المسيحيون خيرا. ويصفة مؤرخ البطاركة بأنه رجل يخاف الله مخلص للأرتودكسيين ومحب لسائر الناس [٢]. وقد أمر هشام بأن يعطى كل من يدفع خراجا إيصالا باسمه كيلا يظلم أحد فى مملكته[٣].

على أن سياسة هشام بن عبد الملك المالية كانت كسياسة غيره من الخلفاء . وليس أدل على ذلك من أن عامله على خراج مصر وهو عبيد الله بن الحبحاب ظل فى هذا المنصب منذ أن ولى هشام الخلافة إلى سنة ١١٦هـ[٤] أو إلى سنة ١١٤هـ[٥] فى قول آخر، بينما

(١) ساويرس : ص ١٦٣ وما بعدها جـ ٢ .
(٢) ساويرس ص ١٦٦ جـ ٢.
(٣) ساويرس ص ١٦٨ جـ ٢.
(٤) خطط المقريزى جـ١ ص ٢٠٨.
(٥) أبو المحاسن جـ١ ص ٢٧٣.

باعمال ابيه فجا رخا عظيم حتى نسى الناس ما كانو عليه من الغلا وقالوا: نسبحك اللهم في ذلك اليوم كما قال اشعيا النبي(*): لنك [لأنك] غضبت علينا ثم رددت غضبك عنا ورحمتنا لنك ربنا ومخلصنا وتوكلنا عليك. وبعد هذا نظر الله تشرد الرهبان اولاد ابى مقار وتشتتهم فى كل مكان فاعادهم الى مواضعهم المقدسه فشكر الله الاب البطريرك ومجده وقال كما قال داود النبى فى المزمور(*)[٨٥]: رجعت واحييتنا، شعبك يفرح

(*) اشعيا : الاصحاح ٥٧ / ١٦

(*) المزامير : ٨٥ / ٦ ، ٧ .

تعاقب على حكم البلاد فى زمنه خمسة ولاة، وكان يتمتع أثناء ذلك بنفوذ كبير لا يحد، يولى من شاء من الموظفين ويعزل من يشاء. بل إنه نجح فى عزل اثنين من الولاة، وهما الحر بن يوسف، وحفص بن الوليد. وجعل إليه الخليفة أمر اختيار من أحب من الولاة ، فاختار عبد الملك بن رفاعة(١). وكان له الأمر أيضا فى تولية القضاة، فقد قام بأمر توبة بن نمر الحضرمى حتى ولى القضاء فى سنة ٢١٦هـ (٢) وطبيعى أن من الأسباب التى حصل بها ابن الحبحاب على هذه السلطة الواسعة أنه كان يمثل سياسة الخليفة المالية أحسن تمثيل . أما قوام هذه السياسة فنتبينه من بعض أخبار هذا العامل على الخراج. فإننا نعرف مثلا أنه لما ولى خراج مصر أمر بأن تحصى الناس والبهائم،وأن تقاس الأراضى الزراعية والأراضى البور وضع أميالا أى علامات للمسافات فى حقول مصر على الحدود والطرقات، وضاعف الخراج وأمر بأن تختم رقاب الناس بسمة الأسد (٣) وذلك لتسهل معرفة هؤلاء الذين تجب عليهم الجزية والضرائب. ويذكر المقريزى (٤) أن الخليفة هشام ابن عبد الملك أوصى عبيد الله بن الحبحاب بالعمارة، فيقال إنه لم يظهر فى خراج مصر بعد تناقصه كثرة إلا فى وقتين، أحدهما فى خلافة هشام

(١) الكندى ص ٧٤ ـ ٧٥.　　(٢) الكندى ص ٣٤١ ـ ٣٤٢.
(٣) ساويرس : تاريخ البطاركة ص ١٧١ جـ ٢.
(٤) الخطط جـ١ ص ٩٨ ـ ٩٩.

بك، ارنا يا رب رحمتك واعطنا خلاصك. وايضا تكلم بالسلام على شعبه وابراراه. فراى الاب انبا يعقوب هيكل ابى شنوده انه لا يسع جماعة الرهبان فبنى البيعه التى على اسم ابى مقار وهى هيكل بنيامين لنه [لأنه] كان قد دثر، وزينها بكل زينه وكملها وكرزها اول يوم من برموده وكان هذا تذكارا للبطرك ومجدا للرب.

وكان مقارة النبراوى الارخن يشتهى ان يرى الاب البطرك ويبارك عليه فى منزله وجا الى بيته،

ابن عبدالملك عندما ولى الخراج عبيد الله بن الحبحاب، والوقت الثانى فى إمارة أحمد بن طولون لما تسلم أرض مصر من أحمد بن محمد بن مدبر، فبعد أن كان خراج مصر دون الثلاثة ملايين دينار خرج ابن الحبحاب بنفسه ومسح العامر من أرض مصر والغامر[1] فراكها كلها وأصلحها، وآستطاع أن يجبى من مصر أربعة ملايين دينار.

ويذكر الكندى [2] والمقريزى [3] أنه فى أمرة الحر بن يوسف (١٠٥ ـ ١٠٨هـ) كتب عبيد الله بن الحبحاب إلى هشام بن عبد الملك بأن أرض مصر تحتمل الزيادة، فزاد على كل دينار قيراطاً [4].

وازاء هذه الأعباء المالية الثقيلة بدأ الأقباط للمرة الأولى يتركون سبيل المقاومة السلبية ويقامون حكومة العرب مقاومة إيجابية. فثار الأقباط فى سنة ١٠٧هـ فى الوجهين البحرى والقبلى فبعث إليهم الحر جيشاً لمحاربتهم فقتل منهم نفر كثير [5].

(١) الغامر الأرض الخراب أو البور. (٢) الولاة والقضاة ص ٧٣.
(٣) الخطط جـ١ ص ٧٩.
(٤) القيراط نوع من العملة المستعملة حينذاك فكان الدينار ينقسم إلى ٢٤ قيراطا (ابن عبدالحكم ـ طبعة تورى ص ١٥٣).
(٥) الكندى ص ٧٣ ـ ٧٤ وساويرس ص ١٧٣ جـ٢. وخطط المقريزى جـ١ ص ٧٩.

وكـان قـد ولد له ولد ذكـر فـفـرح به وكـان عنده
وعـمل صـدقات كثيرا ورحمـه، واراد الله ان يمجد
البطرك بهذا السـبب فاظهر هذه الاعـجوبه، وبعـد
ايام يسيره اعتل الصبى ومات فاخذه بامانه وجا به
الى قلاية البطرك، مثل ما فعل ريس الجماعة الذى
اقـام المسـيح ابنتـه، وقـال الارخن للبطرك: اعن
عـبـدك فـان ابنى يموت: فـقـال: احـضـره الى .
فاحـضره فـقـبل الصبى إليـه وصلب على صـدره
وفـواده وجـبـهـتـه وقـال: يا سـيدى يسـوع المسـيح

وعند ما ولى مصر الوليد بن رفاعة من قبل هشام بن عبد الملك (١٠٩ ـ ١١٧هـ) خرج ليحصى أهلها، وينظر فى تعديل خراجهم، واصطحب معه جماعة من الكتاب والأعوان ليساعدوه فى مهمته هذه، فأقام بالصعيد ستة أشهر حتى بلغ أسوان، وأقام بالوجه البحرى ثلاثة أشهر، فأحصو من القرى أكثر من عشرة آلاف قرية، ولم يحص فى أصغر قرية منها أقل من خمسمائة رجل ممن تفرض عليهم الجزية (١).

وقد تتابعت ثورات القبط، فثار أقباط الصعيد وحاربو عمال الحكومة فى سنة ١٢١هـ، فبعث إليهم حنظلة بن صفوان والى مصر (١١٩ ـ ١٢٤هـ) جيشاً لمحاربتهم، فانتصر عليهم وقتل منهم عدداً كبيراً (٢) وفى ولاية حفص بن الوليد الثالثة على مصر (١٢٧ ـ ١٢٧هـ) أعلن إعفاء كل من يسلم من الجزية، فاعتنق نحو أربعة وعشرين ألفاً من الأقباط الدين الإسلامى .

(١) ابن عبد الحكم ـ طبعة تورى ص ١٥٦ وخطط لمقريزى جـ١ ص ٧٤ والسيوطى: حسن المحاضرة جـ١ ص ٦٣ ـ ٦٤ فى مجموعة الارشيدوق رينز بالمكتبة الأهلية فى فينا وثيقة بردية تشير إلى أحصاء سكان مصر فى ولاية الوليد بن رفاعه . وتفصل هذه الوثيقة البيانات التى كان على الموظفين جمعها عن كل شخص . وراجع .Papyrus Eizherzog Rainer. Führer durch die Ausstellung (Wien1894). No 599 p 152.

(٢) خطط المقريزى جـ١ ص ٧٩.

معطى الحياه والمنعم بالنعمه من عنده: أقم هذا الطفل لابيه دفعة اخرى حيا. فعادت اليه نسمة الحياة وفتح عينيه وحرك يديه ورجليه. فقال ابونا بصوت عال لابيه الارخن مقاره كما قال السيد المسيح لريس الجماعه: ان ولدك لم يمت بل كان نايما. فلما راى الارخن هذا العجب العظيم لحقه خوف شديد منه ومجد الله صانع العجايب فى قديسيه. وفى تلك الساعه زاد الارخن فى صدقته وفعله الخير وكانت صدقته تفيض من يديه كالنهر

ومع ذلك فقد تتابعت ثورات القبط فخرج ثائر منهم بسمنود، يدعى يحنس ، فبعث إليه عبد الملك بن مروان ابن موسى بن نصير ، والى مصر إذ ذاك جيشاً لمحاربته، وكان ذلك فى سنة ١٣٢هـ، فقتل يحنس مع كثير من أصحابه (١).

ثم ثار القبط برشيد فى سنة ١٣٢هـ، فأرسل إليهم مروان بن محمد جيشاً لمحاربتهم، وذلك حينما دخل مصر فاراً من بنى العباس فهزمهم هذا الجيش (٢)، كذلك ثار ضده أهل البشرود ولكنه لم يستطع القضاء على ثورتهم، إذ سرعان ما هاجمه العباسيون وقضوا عليه.

ولما قامت الدولة العباسية فى مصر تفاءل الأقباط خيراً وخمدت ثورة البشموريين من أجل ذلك ، إلا أن المشكلة المالية لم تنته وعادت إلى ما كانت عليه زمن الأمويين، بل عادت للعهد السابق فلم تمض ثلاث سنوات على قيام الدولة العباسية بمصر حتى ضوعف الخراج على الأقباط ولم يتم ما وعدو به من التخفيف عنهم .

ولكن حدث من ناحية أخرى أن قرر الخليفة السفاح أن يعفى من الجزية كل من يعتنق الدين الإسلامى ويقيم شعائره، فتخلى كثير من المسيحيين، أغنياء كانو أو فقراء، عن دينهم

(١) الكندى ص ٩٤ وخطط المقريزى جـ١ ص ٧٩.
(٢) الكندى ص ٩٦ وخطط المقريزى جـ١ ص ٧٩.

الجارى الفايض، ودفع تلت ماله للارامل والايتام [المعوزين] ويكسوهم الثياب ويفعل كلما يجب فعله.

ووصل هذا الخبر الى مدينة يروشليم وانفد مقاره الارخن وبنى فيها بيعه، وهى الان ملجا الارتدكسيين الى اليوم ولمن يطرق المدينة للصلاه فيها، بناها تذكارا له الى الابد وهى تعرف ببيعة المجدلانية، فبارك الله عمل يديه وضاعف له أمواله مثل القديس ايوب.

واعتنقو الدين الإسلامى بسبب فداحة الجزية والأعباء الملقاة عليهم. وسرعان ما عاد القبط الذين بقو على دينهم إلى الثورة فثار الأقباط يسمنود فى سنة ١٣٥هـ فى ولاية أبى عون الأولى على مصر ١٣٣٠ ـ ١٣٦هـ) فبعث إليهم أبو عون جيشاً لمحاربتهم فهزموا وقتل أبو مينا زعيم تلك الثورة [١].

ثم ثار القبط فى سخا سنة ١٥٠هـ ولاية يزيد بن حاتم بن قبيصة على مصر (١٤٤ ـ ١٥٢هـ) وانضم إليهم أهل البشرود وبعض جهات الوجه البحرى، ولكن العرب انهزمو أمام القبط فى هذه المرة [٢]. ثم خرج القبط فى سنة ١٥٦هـ فى ولاية موسى بن على بن رباح اللخمى (١٥٥ ـ ١٦١هـ) فأرسل إليهم الوالى جيشاً هزمهم [٣].

وكثيراً ما ثار العرب ضد الحكومة بسبب الخراج بعد أن زاد عددهم وأصبحو يملكون الأراضى فى البلاد، وكثيراً ما اشتراكو مع الأقباط فى ثوراتهم. وكانت آخر ثورة للأقباط تلك التى حدثت فى جمادى الأولى سنة ٢١٦هـ زمن الخليفة المأمون أثناء ولاية عيسى بن منصور على مصر من قبل المعتصم (٢١٦ ـ ٢١٧هـ) إذ ثار أهل الوجه البحرى كلهم سواء فى

(١) الكندى ص ١٠٢ وأبو المحاسن جـ١ ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦.
(٢) الكندى ص ١١٦ وخطط المقريزى جـ١ ص ٧٩.
(٣) الكندى ص ١١٩ وخطط المقريزى جـ١ ص ٧٩.

واراد الله ان يرى هذا الرجل سرا عظيما عجيبا من كثرة امانته ليرزقه الله رجا[ء] الحياة الابديه، وفي بعض الايام اقسم يمينا ان يتمم فعلين، وهما ان لا يرد احد يساله، ولا يغلق بابه في وجه احد.

اسمعو ماجرى له، كان له امانه ورجا بشفاعة القديس تاودرس، وكان يرشده في اعماله ويقضي حوايجه، وكان في زمان خلافة هرون الرشيد كثر الخراج على مقاره هذا لكثرة وصاياه واعماله، فمضى الى الملك ليوفي ما عليه فطال مقامه وانفق

ذلك العرب والقبط ـ فطردوا عمال الحكومة، وقدم الأفشين قائد المأمون من برقة لمحاربتهم، فسار إلى أهل الحوف وهزمهم وأرسل القواد وعيسى بن منصور إلى مختلف جهات الوجه البحرى لمحاربة الثائرين. ثم أقبل الأفشين في جنوده إلى الإسكندرية فهزم كل من اعترضه في طريقه إلى أن دخلها في ذى الحج سنة ٢١٦هـ، ثم سار بعد فتحها إلى أهل البشرود، فامتنعو عليه حتى قدم المأمون إلى مصر [١].

وقد عرف أهل البشرود أو البشمور بتمردهم والثورة منذ التاريخ القديم، وقد شجعتهم طبيعة المنطقة التي يعيشون فيها على ذلك فإن هذه المنطقة الرملية على ساحل الدلتا بين فرعي رشيد ودمياط [٢] كانت تحيط بها المستنقعات والأوحال التي تعيق حركة الجند وقد ثارو زمن المأمون لكثرة الخراج الواقع على كاهلهم والقسوة التي كانت تستعمل في جبايته وقبل مجئ المأمون إلى مصر كتب البطرك أنبا يوساب إليهم كتبا ينصحهم بأن يرجعو عن ثورتهم ويحذرهم من قوة السلطان فلم يرجعو، ولما رأى الأفشين تمادى البشموريين في ثورتهم كتب إلى الخليفة المأمون يعلمه بما حدث [٣] فرأى المأمون أن يأتي إلى مصر لإخماد تلك

(١) الكندى ص ١٩٠ ـ ١٩١.

(2) Wiet: Hist. de la Nation. Egypt. T. IV. p. 73.

(٣) ساويرس ص ٨١٧ جـ٢ .

جميع ما كان معه، لنه [لانه] لم يكن يمتنع من دفع الصدقه ولم يجتمع بالملك، فجاز يوم وهو ماضى الى قصر الملك فراى فى الطريق منزلا عظيما مزينا لم يراه قبل ذلك اليوم، فقال لغلمانه قد ضللنا عن طريقنا لان هذه الدار لم نرها فى طريقنا قبل اليوم،. وصار مثل انسان قد سها او بغير عقله، فنظر الى انسان نير وقد خرج من الدار يشبه معرفه له لما كان بارض مصر فقال للارخن : يا مقارة لك ايام منذ وصلت الى هاهنا ولم تفتقد

الثورة فجاء في جيشه وصحب معه البطرك ديونوسيوس بطرك أنطاكية [1] في المحرم سنة ٢١٧هـ .

أرسل المأمون البطرك أنبايوساب والبطرك ديونوسيوس إلى البشموريين. ووعدهم إلا يعاقبهم إن هم رجعو عن ثورتهم ولكن البشموريين لم يجيبوا البطركين فسير المأمون إليهم الأفشين بجنده ولكنهم قاوموا جند الأفشين بشدة فلما علم المأمون بذلك سار إليهم بجيشه وركز جميع قواته ضدهم إلى أن سلم البشموريون فأعمل فيهم القتل بالسيف وأحرقو مساكنهم وهدموا كنائسهم [2] .

وبعد ثورة البشموريين التى كانت آخر ثورة للأقباط فى عهد الولاة، اسلم العديد من المصريين وعلى الأخص في الوجه البحرى إذ يظهر أن عدداً كبيراً من الأقباط أسلم فى ذلك الوقت [3].

وهكذا نجد ان المصريين كانوا قد قبلوا النظام المالى الذى فرضه الخلفاء حتى سنة ١٠٧هـ

(١) ساويرس ص ٨١٦ جـ ٢ .
(٢) ساويرس ص ٨٢٢ وما بعدها جـ ٢ .
(٣) خطط المقريزى جـ١ ص ٧٩ ـ ٨٠.

بى، فكلمه الارخن مقاره بحضور من معه فتقدم
اليه وعانقه وقبل بعضهما بعضا ومسك صاحب
الدار يد الارخن ودخل به الى الدار من عدة ابواب
وجا به الى موضع فيه مال عظيم يشبه خزاين
الملوك وقال له: خذ جميع ماتحتاج اليه لنفقتك
واذا مضيت الى بلدك فانت تعيده الى وانا اليوم
انجز حاجاتك عند الملك وكلما تحتاج اليه. فاخذ
الارخن المال من بيت ذلك الانسان النير الذى كان
يخاطبه وخرج ودفعه لمن كان معه من غلمانه

ثم بدأو يقاومون حكومة العرب مقاومة علنية دموية ظلت أكثر من قرن لاسيما فى منطقة الدلتا. على أن ثورات القبط كان يقضى عليها سريعاً. وكان يتبع إخمادها فى العادة تحول جزء كبير من الأقباط إلى الدين الإسلامى. ولم تكن هذه الثورات حركات قومية بالمعنى الصحيح وانما كانت حركات غير منظمة لم يعرف فيها القبط كيف يوجدون أنفسهم وكيف يتخذون لهم قيادة حكيمة. وكان هدفها خفض الضرائب أو الهرب من دفعها. فبينما نجد أن الاضطهاد الدقلديانوسى ضد المسيحية فى مصر قد زاد من قوتها وولد حركة قومية بين المسيحيين نجد أن القبط يغلبون على أمرهم فى ثوراتهم ضد العرب(*).

(*) انظر: ١ ـ مصر فى فجر الإسلام . د. سيدة اسماعيل الكاشف دار الفكر العربى. القاهرة ١٩٤٧.
٢ ـ الفلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الإسلامى . د. زبيده عطا. سلسلة تاريخ المصريين ٤٨ . الهيئةالمصرية العامة . القاهرة ١٩٩١.

القيام على الباب، وركب الرجل فرسه واسرع قدام الارخن فلما قرب من القصر بدو الاعوان ينادون اليه ويقولون: اين مقاره المصرى. فاخذو بيده وادخلوه الى الملك فخاطبه الملك وقال له: اطلب جميع حوايجك وكلما تحتاج إليه حتى اقضيه لك فى هذا اليوم. فا نجز له حاجاته والانسان النير الذى خاطبه خرج به من القصر، فلما صار بعيد من القصر غاب عنه ولم يعد الارخن ينظره، وظن انه قد عاد الى داره التى اجتاز

علاقة الحكام المسلمين بالأقباط المصريين

عهد الخليفة يزيد بن معاوية (٦٠ ـ ٦٤هـ = ٦٨٢ ـ ٦٨٤م) بولاية اقليم الاسكندرية والبحيرة ومريوط، وما يليها لأحد المسيحيين الملكانيين، ويسمى تيودوسيوس(١). ووقف تيودوسيوس موقفا عدائيا من القبط الأرثوذكس، وبطركهم الأب اغاثو. وساعده فى ذلك ما صار له من سلطان بفضل مرسوم الخليفة. فقد طلب من البطرك اغاثو جزية سنوية على تلاميذه مقدارها ستة وثلاثون دينار. كما كان يلزمه بكل ما يحتاجه من نفقات على الأسطول والنوتية. كما طالبه بزيادة على خراج كنائسه، وقدرها سبعة آلاف دينار(٢). وفى الحقيقة كان

(١) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، يسميه تاوضوسيوا. وفى موضع آخر ص ١٢٢ تادرس. انظر أيضا، السنكسار. جـ ١، ص١٢٧، ترتون: أهل الذمة فى الاسلام، ص٢٢. ويذكر هؤلاء ان تيودوسيوس ذهب الى الخليفة المذكور بدمشق وقدم له هدايا وأموالا عظيمة وطلب منه أن يوليه حكم الاسكندرية وما يجاورها، وأن يكتب الخليفة له سجلا بذلك. فكتب الخليفة يزيد لتيودوسيوس سجلا يحق له به حكم الاسكندرية والبحيرة ومريوط. كما أشار الخليفة فى هذا السجل الى أن والى مصر ليس له سلطان على هذا الحاكم.

(٢) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، السنكسار، جـ١، ص١٢٣ وما بعدها. وأصل البطرك أغاثو من مريوط. وكان قسا فى الكنيسة فى بطريركية الأب بنيامين. وشهد اضطهادات المقوقس وتحدى مذهبه الذى كان يدعو اليه القبط. فكان ليلا يتزيا بزى العلمانيين، ونهارا يتنكر فى زى نجار ـ يحمل آلات النجارة ـ كما ذكرنا آنفا فى التمهيد ـ وعاد الى الظهور بعد الفتح العربى وعودة البطرك بنيامين الذى عهد اليه بتدبير أمور البيعة، وولى البطركية من بعده. انظر ابن المقفع: المصدر السابق.

به فيها، فلما وصل الى الموضع الذى كانت فيه الدار لم يجد لها اثرا بالجمله فشخص الرجل وغاب عقله ساعه، وبعد هذا فهم انه الشهيد العظيم تادرس [الشاطبى] الاسفهسلار (*) لجل محبته له، فمجد الله وزاد على الرحمه والصداقه والاعمال الحسنه، وكان ثابتا على هذا الحال الى الزمان الذى نقله الله من هذا العالم.

(*) تحتفل بشهادته الكنيسة المصرية فى ٢٠ أبيب. أنظر السنكسار جـ ٢ ص ٣٢٢ . مكتبة المحبة.

فنعود الان الى ذكر بقية قصة الاب انبا يعقوب البطرك، فما فعلنا هذا وذكرنا جبر هذا الارخن

موقف هذا الحاكم من البطرك اغاثو يمثل انتقاما من القبط اليعاقبة وبطركهم، ورغبة فى اضعاف شأنهم، وعودة سيادة الملكانيين عليهم، كما كان الحال فى العهد البيزنطى، وخاصة أن هذا الحاكم كان يمارس سلطان واسعة فى دائرة حكمه، فكان يفرض ضرائب جديدة، ويزيد مقدار الضرائب المفروضة فعلا.

ثم أمر تيودوسيوس، أصحابه برجم البطرك اغاثو بالحجارة وقتله: فكان هذا البطرك لا يخرج من قلايته[1] ليلا ولا نهارا. ولما توفى البطرك اغاثو حجر تيودوسيوس على كل أمواله، وعلى جميع أموال الكنائس القبطية فى الاسكندرية وختم عليها. فانتشرت المجاعة فى المدينة واستمر الحال على ذلك حتى توفى تيودوسيوس[2].

ويشيد المؤرخون المسلمون وغير المسلمين بدور القبط الواضح فى الادارة والحكومة فى

(١) القلاية جمعها قلالى، وهى أماكن منفردة للمتعبدين و النساك المنعزلين عن السكن بين الناس. وهى تعد أصلا لسكنى الرهبان ويقوم الرهبان بحفرها فى الصحراء أو أماكن الجبال أو بنائها من الطوب. انظر عبدالمسيح البرموس: تحفة السائلين. ص١٧ . حكيم أمين: دراسات فى تاريخ الرهبانية، ص ١٣٨ . والمقصود هنا البناء الذى يسكنه البطرك ويكون فيه اقامته طوال توليه كرسى البطركية.

(٢) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة ص ٥ جـ ٢ .

مقاره الا غرضا فى عز الاراخنه الارتدكسيين، فان الله لا يدعهم فى هذا الدهر ولا فى الاتى كما قال بولس الرسول(*): لا تدع عمل الخير حتى تحصد ما بذرته، وما دام الزمان معنا تفعل الخير مع كل احد ولا سيما اخوتنا اهل الايمان. ثم انه كان يوصى طيماتاوس ولده ويقول له: اكثر من تذكار فعل الخير للمومنين عند ما يكاتبه يقول له هكذا: ان اغنيا [ء] هذا الزمان تقدم ليهم بان لا تتكبر قلوبهم ولا يجعلو رجاهم وتوكلهم على غناهم

(*) الغلاطين: الاصحاح ٦ / ٩ ، ١٠ .

ولاية عبدالعزيز بن مروان (٦٥ ـ ٨٦هـ) الذى اتخذ له كاتبين أرثوذكسيين هما: أثناسيوس(١) وأصله من مدينة الرها، والثانى يسمى اسحق من أهل شبرا(٢).

خدم هذان الكاتبان مصالح القبط، ومصالح بطركهم يوحنا(٣). وعملا على تحقيق كل آمالهم ورغباتهم بشأن الكنائس وغيرها. وكان حاكم الاسكندرية تيودوسيوس ـ كما ذكرنا ـ قد حجر على أموال الكنائس وأملاكها بعد وفاة البطرك أغاثو، فلما أقيم يوحنا بطركا، بعث لأثناسيوس وزميله اسحق يعلمهما بما أصاب القبط على يد حاكم الاسكندرية وما حل بيبعهم آنذاك. وتمكن هذان الكاتبان بما لهما من نفوذ وسلطان أن ينهيا هذا الحجر، فعادت جميع أملاك وأموال الكنائس القبطية الى البطرك يوحنا(٤).

(١) ويسميه أحد المورخين السريان اثناسيوس بن غومايه Athnasius Bel Gaumaye ويقول انه كان يشتهر بالنبل، والذكاء، وكان متبحر فى العلوم الكنسية والدنيوية. وذاعت شهرته حتى بلغت اخباره الخليفة الاموى عبدالملك بن مروان الذى عهد اليه بتعليم أخيه عبدالعزيز بن مروان الذى ولى امرة مصر..
chronique de Michel le Syrien, T. 2. fasc. 3, p. 475.

(٢) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة جـ٢.

Amélineur: Histoire du Patriarche Copte Isaac, p. 43.

(٣) أصله من سمنود، وترهب بدير أبى مقار، وكان كاتبا للبطريرك أغاثو وولى البطركية من بعده، الأنبا ايسيدورس: الخريدة النفيسة، جـ٢، ص١٢١.

(٤) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة جـ٢.

فـان الغنى لا ربح فيـه، لكن يكون توكلهم على الله الذى يعطينا كل شى يغنى، ويكون فـعلنا فى الخيـر ويكون غنانا فى الافـعال الحـميـده لنكون مـسـتـقـيـمين ليكون لنا اساس ثابت فـيـما ياتى، ونتمسك بحياة الحق.

فلذلك ابسطو عذرى واسمعو منى بقية اعمال هذا الأب القديس المؤيد الذى هو نبى واعطاه الله ان ينظر الاسرار من البعد.

ويبدو أن أثناسيوس قد تولى ديوان الخراج فى عهد الوالى عبدالعزيز بن مروان. واستمر فى اهتمامه بمصالح القبط والكنيسة القبطية طوال عهده. فلما توفى البطرك سيمون[١] (فـى سنة ٦٩١م)وأصبحت الكنيسة بدون راع لها، طلب أثناسيوس ومن معه من الكتاب القبط من الوالى عبدالعزيز بن مروان، أن يرسل الأسقف اغريغوريس الى الاسكندرية للتحفظ على أموال الكنائس ورعاية شئونها[٢] وأجاب عبدالعزيز بن مروان الكتاب القبط الى طلبهم، وأنفذ اغريغوريس الى الاسكندرية وكتب له سجلا، يفوضه التصرف فى أموال الكنائس، وعهد اليه بتدبير شئونها، وقام اغريغوريس بهذه المهام نحو ثلاث سنوات[٣].

وكان أثناسيوس ينعت فى المكاتبات الرسمية بالكاتب الأفخم، ويضم ديوانه عشرين كاتبا، ثم زاد عددهم حتى بلغ أربعين كاتبا[٤]. وزادت ايرادات أثناسيوس وأولاده. الى جانب ما كان

(١) أصله من أهل المشرق، جاء به والده منذ صباه الى الاسكندرية. صار قسا فى بطركية أغاثو. وبعد وفاة البطرك اسحق، وقع اختيار القبط على الأب سيمون ليكون بطركا لهم. وحاول بعض الكهنة دس السم له. وحارب البطرك سيمون ظاهرة التسرى بين الأساقفة والقبط. وتعرض لكثير من المحن. انظر: ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة..

(٢) ساويرس ابن المقفع: المصدر السابق.

(٣) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة.

(٤) ترتون: أهل الذمة فى الاسلام، ص٢١.

لما ذكر الرب كورة مصر الضعيفه ليزيل منها الحروب اظهر الامر للاب القديس وعرفه ان هذا يكون قريبا غير بعيد وكان يعلم ان الارشيدياقن الذى له يفعل افعالا بغير ارادته فدعاه وقال له : يا ولدى سوف يجى سلطان الى بلاد مصر قريبا ويملك على مصر وعلى رويساها وعلى اسكندريه وجمع كورتها، فاذا وصلنا مع سلامة الله الى اسكندريه فاياك ان تسمع من احد من الناس ان

- -

يحصل عليه من الهدايا والأموال العظيمة من الوالى عبدالعزيز بن مروان حتى بلغ ما يتقاضاه ستين ألف دينار سنويا(١). وصارت كل شئون البلاد المصرية فى ولاية عبدالعزيز بن مروان ـ تحت تصرف كاتبه أثناسيوس(٢). وأثرى أثناسيوس نتيجة ذلك كله ثراء كبيرا، واتسعت أملاكه. فقيل انه كان يمتلك أربعة آلاف عبد، الى جانب عدد لا يحصى من الضياع والدور والحدائق، ومقدار عظيم من الذهب والفضة(٣). وكان أثناسيوس غيورا على دينه، متحمسا لمذهبه، فشيد كثيرا من الكنائس بمصر خاصة فى الفسطاط، ومنها كنيسة مار جرجس وكنيسة أبى قير(٤).

(١) ترتون: أهل الذمة فى الاسلام، ص ٢١.

(2) chronique de Michel..., T. 2, fasc. 3, p. 475.

(3) Ibid. p. 475.

(٤) انظر: .Ibid., p. 476

وابن بطريق: التاريخ المجموع، ص٤١.

وقد سعى باثناسيوس أحد الملكانيين ويسمى سرجيوس بن منصور، عند الخليفة عبدالملك بن مروان فى دمشق، واتهمه أمامه بنهب أموال مصر، وحملها معه الى الشام بعد وفاة عبدالعزيز بن مروان. فاستدعى عبدالملك اثناسيوس، وقد تمكن الأخير من ارضاء الخليفة وقدم له مبلغا عظيما من الأموال. ويقال ان عبدالملك قبض على اثناسيوس وأهله وأخذ منهم كل ما جمعوه من الأموال.

تمد عينك الى شي من هذا العالم فتكون مظلما في اعمال الله ونكون ذليلين عند الامه المخالفه الذين اذلهم قدامنا، والشيطان امامهم، واعلم انك اذا خليت كلامي فتقع بيعة الله في بلا عظيم.

ثم بعد ان قال له هذا القول بقليل وصل الى كورة مصر امير من عند ملك المسلمين اسمه عبدالله بن طاهر(*)، وكان رجلا خيرا رحوما في دينه محبا للعدل مبغضا للظلم ومن اجل ذلك

(*) عبد الله ابن طاهر يصل إلى مصر والياً عليها في ١٣ ابريل ٨٢٦م = الأول من محرم =

ولم يكن أثناسيوس واسحق هما الموظفان الوحيدان من أهل الذمة في حكومة عبدالعزيز بن مروان، اذ كان هناك كثير من الكتاب القبط[١]، الى جانب بعض حكام الأقاليم نذكر منهم بطرس حاكم الصعيد، الذى أسلم في نهاية حكم عبدالعزيز بن مروان[٢]. وأيضا كان حاكم مريوط مسيحيا الا أنه كان من أتباع المذهب الملكاني. وهكذا تغلغل الذميون من المسيحيين خاصة في الأعمال الادارية والحكومية المختلفة.

ومن صور تغلغل الذميين في شئون الادارة والحكم ما نلمسه في عصر قرة بن شريك (٩٠ ـ ٩٦ هـ) فقد كان يتولى ديوان الاسكندرية رجل من أهل الذمة، من المسيحيين الملكانيين ويسمى تاودرس[٣]. وكان هذا الحاكم على عداء شديد مع البطرك القبطى الاسكندروس[٤].

---

(١) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة.
(٢) المصدر نفسه. ص ١٠٨ جـ ٢.
(٣) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة.
ويقول ترتون، ص٢٢ـ ٢٣ ان اسمه تيودور، وانه كان يلقب في الكتب الرسمية باسم اجستاليس Augustales وكان هذا لقب حاكم الاسكندرية في العصر البيزنطى.
(٤) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة ص ١٢١ جـ ٢. وقد ولى الاسكندروس البطركية بعد ثلاث سنوات من وفاة البطرك سيمون. وكان متواضعا، انظر المصدر نفسه ص ١٠٣ جـ٢.

اخضع الله له كل عاص واذل له امة الاندلسيين التى باسكندريه واقام بمصر اياما حتى استقامت له الأمور.

=٢١١ فى عهد الخليفة المأمون الذى عزله فى ٢٨ يناير ٨٢٩م= ١٧ ذو القعدة ٢١٣ هـ انظر الهامش السفلى ص ٥٠٦.

نعود الان الى خبر انبا يعقوب مع ديونوسيوس بطرك انطاكيه وانه لم يمكنه ان ينفذ سنوديقا لجل الحروب بمصر والمشرق، وكذلك الأب البطرك ديونوسيوس كان يسمع بافعال الاب البطرك انبا يعقوب وكان يشتهى ان يسلم عليه وهو فى

وكان جباة الضرائب، وحكام الكورات أيضا فى عصر هذا الوالى من القبط[١]. وقد عهد قرة بن شريك الى أحد القبط ويدعى يونس بجباية الخراج من الرهبان والأساقفة وكان يونس يتمتع بمكانة عظيمة لدى قرة وكبار رجال الحكومة المصرية فى ذلك العصر. وقد قال قرة بن شريك: «يجب أن تعلم أن الرهبان والأساقفة الذين فى سائر الأماكن قد ثقل عليهم الخراج. وها هنا أمر سهل منهم من هو مكثر ومنهم من لا يقدر على قوته. ونحن نعرف حال سائر النصارى فان رأيت أن توليني أمرهم واستخرجت الخراجات» فولاه قرة بن شريك أمر خراج الرهبان والأساقفة وان كان الواضح من هذه الرواية أنه ولاه أمر الجزية والخراج عامة، ويؤكد ذلك أن قرة بن شريك قد أوصى يونس أن يضاعف الجزية على غير القبط[٢] وهكذا رأينا أن العرب تركوا معظم وظائف الدولة فى أيدى الذميين. على أن هذا النظام لم يكن من مميزات حكومة قرة بنى شريك أو العهد الأموى، وانما كان من مميزات النظام المالى نفسه الذى تركه البيزنطيون لخلفائهم العرب[٣].

(١) سيدة كاشف: مصر فى فجر الاسلام، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧.
(٢) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة. ص ١٣٣ جـ ٢.
(3) Lammans: Un Gouverneur Omaiyade, p. 115.

الجسد، فلما اتفق له هذا الأمير وهو متوجه إلى مصر سار صحبته [البطرك ديونوسيوس] اليها حتى وصل إلى مصر، فلما نظره ابونا انبا يعقوب فرح فرحا عظيما روحانيا وتلقاه احسن تلق وتهللت جميع كورة مصر بمشاهدتهما بعضا لبعض. وكانو الكهنه المصريون يقرو قدامهما من قول داود: الرحمه والعدل التقيا والصدق والسلامة اقبلا الينا. ثم اقام الاب ديونوسيوس البطرك بانطاكيه عند الاب انبا يعقوب البطرك اياما كثيرة

وفى الوقت الذى نجد فيه بعض الولاة فى مصر يستخدمون الذميين فى شئون الحكم والادارة نجد بعض الخلفاء الأمويين، يعارضون هذه السياسة، وينهون ولاتهم فى مختلف الأقاليم الاسلامية عن استخدام أهل الذمة، والاعتماد على المسلمين بدلا منهم. ومن هؤلاء الخلفاء عمر بن عبدالعزيز (٩٩ ـ ١٠١هـ) فقد كره هذا الخليفة ـ كما كره الخليفة العباسى المتوكل بعد ذلك ـ استعمال الذميين فى الادارة وأعمال الدواوين. وتعددت روايات المؤرخين حول تفسير سياسته واتجاهاته ولكن كتبه العديدة التى وجهها الى عماله فى مختلف الأقاليم الاسلامية، جاء فيها توصيات بعدم استخدام أهل الذمة، واحلال المسلمين محلهم. ويجدر بنا الاشارة الى بعض هذه الكتب ومنها: «أما بعد، فان المشركين نجس حين جعلهم الله جند الشيطان، وجعلهم الأخسرين أعمالا، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، فأولئك لعمرى مما تجب عليهم لعنة الله، ولعنة اللاعنين. ان المسلمين كانوا فيما مضى. اذا قدموا بلدة فيها أهل الشرك، يستعينون بهم لعلمهم بالجباية والكتابة والتدبير، فكانت لهم فى ذلك مدة، فقد قضاها الله.. فلا أعلم كاتبا ولا عاملا فى شيء من عملك، على غير دين الاسلام الا عزلت واستبدلت مكانه رجلا مسلما. فان محق أعمالهم محق

ليشبع كل واحد منهما من قدس الاخر فبدو
اساقفة كورة مصر ان يحضرو خصايم [متلازمين]
بين يدى الاب ديونوسيوس لاجل الارشيد ياقن
الذى لابينا الاب انبا يعقوب من اجل انه خوّله
كلما بدينا وقلنا، فبدا الاب ديونوسيوس مثل من
يريد ان يذكر لهذا القديس انبا يعقوب ان يردع
الارشيد ياقن وان لا يكون فيه ضجر على الاساقفه
ولا يخاطبهم الا بما يجب. فلما سمع ذلك العمود
المضى انبا يعقوب نبعت منه روح النبوه وقال

أديانهم، فان أولى بهم انزالهم منزلتهم، التى أنزلهم الله بها من الذل والصغار، فافعل ذلك، واكتب الى كيف فعلت»[(١)].

وهكذا أمر هذا الخليفة عماله باستخدام المسلمين، فان لم يكن فيهم خير، فغيرهم من الذميين أولى ألا يكون فيهم خير أيضا[(٢)]. وكان والى مصر آنذاك حيان بن شريح، الذى احتج لدى الخليفة بأن هذا الاجراء، سيؤدى الى اعتناق معظم أهل الذمة فى مصر الاسلام،

(١) عبدالله بن عبدالحكم: سيرة عمر بن عبدالعزيز، ص ١٣٥ ـ ١٣٦. ابن النقاش. الذمة فى استعمال أهل الذمة ورقة ٨٣، مخطوط بدار الكتب رقم ٣٩٥٢ تاريخ. ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ق١ ص ٢١٢ ـ ٢١٣ ويزيد فى النهاية هذا الكتاب «وأمر بمنع اليهود والنصارى من الركوب على السروج الا على الأكف. وليكتب كل منكم بما فعله من عمله».

(٢) ابن كثير: عمر بن عبدالعزيز. ص ٩١ ويرى بعض المؤرخين المحدثين أن هذا الخليفة كره أن يكون للذمى سلطان على المسلمين. وأن بعض كتبه الى ولاته فى هذا الشأن يعد رسالة تعليمية، جاء فيها «أما بعد، فان الله عز وجل. أكرم بالاسلام أهله، وشرفهم وأعزهم، وضرب الذل والصغار على من خالفهم، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس. فلا تولين أمور المسلمين أحدا من أهل الذمة، فتبسط أيديهم وألسنتهم، وتذلهم بعد أن أعزهم الله. ونهينهم بعد أن أكرمهم الله تعالى. فان الله عز وجل يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودّوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بيّنا لكم الآيات إن كنتم تعقلون﴾. ترتون: أهل الذمة فى الاسلام، ص ٢٣.

للاب ديونوسيوس: وكيف حتى استجرو الاسافقه وقالو فيمن هو مصطفى الله ومبشر به فطوبى له مثل الذى عمل ساعة واحده فى الكرم مع صاحب الاحدى عشره ساعه فاخذ اجرة النهار اجمع، فلما سمع ديونوسيوس البطرك كلام الاب انبا يعقوب البطرك ونظر الى روح القدس يتلالا فى وجهه وضع له مطانوه وقال كما قال داود النبى: كما سمعنا كذلك راينا. انا اومن انى

مما ينتج عنه قلة الجباية، مما يضر بموارد الخزانة العامة(١). وكان معظم الولاة حريصين على المحافظة على مستوى الايرادات.

واستجاب والى مصر لأوامر الخليفة، فعزل الموظفين من أهل الذمة من مختلف الأعمال واستبدل بهم غيرهم من المسلمين، كما أبعد أهل الذمة عن العمل فى المواريث، كما نزع منهم رئاسة الكور المختلفة(٢).

وتشير الرواية القبطية الى أن عمر بن عبدالعزيز كتب الى عامله بمصر «من أراد أن يقيم فى حاله وبلاده، فيكون على دين محمد مثله، ومن لا يريد يخرج من أعمالى» فعزل القبط وغيرهم من الذميين من وظائفهم، وجعل مكانهم المسلمين «ودخلت (تسلطت) اليد على النصارى من الولاة والمتصرفين المسلمين فى كل مكان كبيرهم وصغيرهم، غنيهم وفقيرهم»(٣).

ولنا أن نتساءل بعد ذلك، هل استمر الخلفاء والولاة، بعد عصر عمر بن عبدالعزيز فى انتهاج سياسة اقصاء الذميين عن المناصب الحكومية والادارية؟

وفى الحقيقة أن الأوضاع قد عادت الى ما كانت عليه قبل خلافة عمر بن عبدالعزيز

(١) ابن قيم الجوزية أحكام أهل الذمة، ق١، ص٢١٣.
(٢) الكندى: الولاة والقضاة، ص ٦٩ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ ١، ص٢٣٨.
(٣) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ١٦٣ جـ ٢.

شاهدت انسانا له عند الله منزلة ان يشفع في كورة مصر. ثم سال ابانا البطرك يعقوب ان يدعه ليمضى الى كرسيه فدفع له كرامات عظيمة كقدر رياسته ثم ودعه هو والاساقفه بسلام يمجدون الله ويباركونه لاجل مشاهدتهم لقدسه وحسن صورته وهيبته وعفافه.

فلما وصل الى المشرق بلد سوريه كان يحدث بما شاهده من قدس ابينا انبا يعقوب ويشكر السيد يسوع المسيح الذى يمجد اصفياه.

واستمرت سياسة استخدام الذميين في الادارة وأعمال الدواوين، فكان من بينهم الكتاب ورؤساء الأقاليم وغير ذلك من الأعمال طوال عصر الولاة الأمويين في مصر، بل وفي عصر الولاة العباسيين، بتأييد من الخلفاء أنفسهم الا في عدة حالات كما سنرى وذلك بسبب كفائتهم التى كانت تنقص العرب والمسلمين منهم.

أختار الخليفة العباسى المأمون (١٩٧ ـ ٢١٨هـ = ٨١٣ ـ ٨٣٣م) معاملة أهل الذمة وخاصة زعماء القبط في مصر بدهاء لأنهم كانوا مفاتيح حكمه في البلاد. فقد قدم الى مصر في سنة ٢١٧هـ للقضاء على ثورات المصرين في الدلتاء والحوف بعد أن فشل قواده الأتراك في انجاز ذلك، وصحب معه جيوشه الجرارة، وظل يدمر ويقتل كل ما يقابله من الثوار المصرين ويحرق أراضيهم ومحاصيلهم وحيواناتهم حتى ابادهم وأسر من بقي من أهالى تلك البلاد وحملهم إلى مستنقعات جنوب العراق للعمل كعبيد لتعميرها واصلاحها. في اعقاب ذلك. تقدم اليه أحد كبار رجال القبط ويسمى بكام، وطلب من الخليفة أن يوليه كورة بورة[١] فعرض عليه المأمون اعتناق الاسلام حتى يمكن له أن يعهد اليه بهذه الولاية. ولكن بكام كان متمسكا بدينه في الوقت نفسه الذى كان فيه شديد الحرص على الولاية، فقال للخليفة

(١) بورة مدينة على ساحل النيل، بالقرب من دمياط. وتنسب اليها العمائم البورية والسمك البورى. انظر: ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٤، ص٥٠٦.

فاما الامير عبدالله بن طاهر فعند وصوله الى مصر ولى اميرا من اصحابه على مدينة اسكندريه وعلى جباية الخراج بها وباعمالها، واسم الذى ولاه ايلياس بن يزيد(*).

(*) هو إلياس ابن أسد ابن سامان خدا.

فاما [حكاية] ذلك الشماس الذى لابينا يعقوب فسها عن الخطاب الذى كان خاطبه به أولا وهو قوله له أنه لا يمد عينه الى شى من امور العالم، وعمد الى ضياع اراضى اخد منها بقطا وظن

المأمون: «لأمير المؤمنين عشرة آلاف مولى مسلم، أفلا يكون له مولى واحد نصراني». وعند ذلك عهد اليه المأمون بكورة بورة وما حولها(١).

أحسن بكام معاملة القبط، كما أحسن معاملة المسلمين، على حد سواء، ولم يتحيز لاخوانه في العقيدة المسيحية، فكسب بذلك محبة وود سكان الكورة على اختلاف مذاهبهم الدينية(٢).

وفي عهد الخليفة المأمون أيضا، كان يلي الديوان في مصر، أحد القبط ويسمى اسحق بن أندونة، ينتسب الى أسرة عريقة تشتهر بالثراء. وكان قد أمل في البطركية الا أن قانون البيعة قد حال بينه وبين تحقيق آماله(٣).

وتشير بعض الروايات التاريخية الى أن المأمون حينما قدم الى مصر شكا اليه المسلمون من تسلط الذميين عليهم، وأن الخليفة سأل أحد أصحابه، ويسمى، عمرو بن عبدالله الشيباني عن أصل قبط مصر، فأجابه بأن أصلهم يرجع الى فراعنة مصر القدماء وذكره بأن الخليفة عمر بن الخطاب كان قد نهى عن استخدامهم في أعمال الحكومة والكتابة. ثم قرأ عليه قصيدة لخالد

(١) ابن بطريق: التاريخ المجموع، ص٥٨. ترتون: أهل الذمة فى الاسلام، ص ٢٤.
(٢) ابن بطريق: المصدر السابق، ص٥٨، ترتون: المصدر السابق، ص٢٤ ـ ٢٥.
فأذن للقبط ببناء كثير من الكنائس. كما سمح للمسلمين ببناء مسجد آخر غير المسجد الموجود.
(٣) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ٧٩٠ جـ٢.

بذلك انه يحصل شيا للبيعه ولم يعلم ان سوف يتم ما قاله وتنبا الاب يعقوب. فلذلك لحق الاب والشماس احزان كثيره لما الزما به من الخراج وليس معهما ما يقومان به، وكان الاب المبارك يقول قول الحكيم بولس الرسول لذلك الشماس: ما كان يجب لك يا ولدى ان تجعل عليك حجه بل تسمع ما وصيتك به بامانه ومحبه للسيد المسيح . او ما سمعت يا ولدى ما قاله بولس(*): ان الذين يريدون ان يكونو اغنيا يقعون فى البلايا

(*) الرسالة الأولى إلى تيموثاوس: ٩، ١٠ .

بن صفوان، مدح فيها عمرو بن العاص، كما حرضه فيها ضد القبط وأغراه بهم، وفيها يقول خالد بن صفوان:

يا عمرو قد ملكت يمينك مصرنا — وبسطت فينا العدل والأقساطا
فاقتل بسيفك من تعدى طوره — واجعل فتوح سيوفك الأقباطا
فيهم أقيم الجور فى جنباتها — ورأى الأنام البغى والافراطا[1]

فلما عاد الخليفة المأمون الى بغداد أمر بعزل جميع الذميين من وظائفهم وسجن الكثير منهم[2].

استمر ولاة مصر فى العصر العباسى. يستخدمون الذميين فى أعمالهم، ويعتمدون عليهم فى ادارة البلاد. فقد قام كل من مقارة بن يوسف ـ وكان يتولى شئون بيت المال واستخراج

(١) ابن النقاش: الذمة فى استعمال أهل الذمة ورقة ٨٦ ـ ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة. ق١، ص٢١٧ ـ ٢١٨. ويزيد بيتا رابعا جاء فيه:

عبدوا الصليب وثلثوا معبودهم — وتوازروا ونقدوا الأشراطا

(٢) ابن النقاش: الذمة فى استعمال أهل الذمة ورقة ٨٦ ـ ٨٧. ويقول ان الامام على بن حمزة الكسائى كان يقرأ القرآن على الخليفة بعد عودته الى بغداد، فلما وصل الى قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ قال الكسائى للخليفة: انك تقرأ كتاب الله ولا تعمل بما جاء فيه. ولذلك أمر بعزل الذميين من أعمالهم. واستخدم المسلمين بدلا منهم.

والعشرات وشهوات الجهل اللاتى لا يربحن شيا، ويطرح الناس فى الفنا والهــــلاك . واصل كل الشرور محبة الفضه التى احبها قوم كتيرا فضلو عن الامانه وجذبو لهم هموما عظيمه، فبكى ذلك الشماس وساله ان يغفر له مخالفته.

وبدا ذلك الامير ان يشدد على الاب فى طلب الخراج، ولم يكن معه ما يدفع كما ذكرنا من عدم البيعه لانقطاع الناس عن الحضور الى بيعة القديس

لأموال ـ وابراهيم بن ساويرس، بدور عظيم فى سياسة البلاد، وذلك فى أثناء ولاية عبدالواحد بن يحيى الوزير (٢٣٦ ـ ٢٣٨هـ = ٨٥١ ـ ٨٥٢م) ـ وكان هذان الموظفان من القبط، يرفعان من شأن اخوانهم فى العقيدة، ويحققان لبطركهم رغباته بقدر المستطاع. وظهر هذا واضحا حينما أساء والى الاسكندرية، أحمد بن دينار، الى البطرك اليعقوبى قزمان[١]. فقد تقدم مقارة بن يوسف، وابراهيم بن ساويرس الى الوالى عبدالواحد، يطلبان منه استدعاء البطرك قزمان الى الفسطاط بحجة أنه ولى البطركية حديثا، ولا علم له بما على كنائسه من خراج.

واستجاب عبدالواحد لطلب هذين القبطين، وأرسل من يستدعى البطرك من الاسكندرية. فلما قدم الى الفسطاط، استقر الأمر على أن يسكن مدينة دميرة[٢]، وجميع سكانها من القبط، كما اهتم هذان القبطيان بأمور البيعة وتعهدا بضمان الخراج المفروض عليها[٣]. وهكذا نجح الموظفان القبطيان فى انقاذ البطرك القبطى من يد والى الاسكندرية.

(١) ويسمى أيضا قسما وقد جلس على كرسى البطركية بعد وفاة أنبا خايال. وكان شماسا فى بيعة القديس أبى مقار. وأصله من سمنود انظر الجزء الثالث من ساويرس.

(٢) قرية كبيرة بمصر بالقرب من دمياط: انظر ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٨، ص٤٧٢.

(٣) ساويرس ابن المقفع: المصدر السابق، سيرة البطرك قسما وهو ٥٤ من العدد. ويعلق على عناية الموظفين القبط باخوانهم وبطركهم فيقول: «وكان من نعمة الله أن جماعة من المؤمنين متولين ديوان السلطان ، =

الشهيد مارى مينا لكثرة الحروب، ولما لم يجد شيا يدفعه فى الخراج اخرج انية [أوانى] البيعه للامة المخالفه. والرب محب البشر الذى يظهر عجايبه فى كل حين فى بيعته وجعلها غالبة للملوك فى كل زمان، اظهر اعجوبه يجب ان نتعجب منها، لما جلس الامير يوما من الايام ليكسر الآنية وفيما الصايغ يكسر كاسا من الكاسات المقدسه سكب دم على يديه كثيرا جدا مثل دم خروف قد ذبح، فلما نظرو هذه الاعجوبه نزل عليهم خوف عظيم

وظهر فى العصر العباسى بعض الكارهين لاستخدام الذميين فى المصالح الحكومية ـ كما حدث فى العصر الأموى من قبل ـ فقد حاد الخليفة العباسى المتوكل (٢٢٣ ـ ٢٤٧ = ٨٤٨ ـ ٨٦١م) عن سياسة التسامح التى اتبعها بعض الخلفاء العباسيين فعانى أهل الذمة فى عصره من بعض المضايقات. فقد نهى المتوكل عن استخدام أهل الذمة فى دواوين الحكومة التى ترتبط بمصالح المسلمين[١].

تعددت روايات المؤرخين حول سياسة المتوكل نحو أهل الذمة، وكتبه الى عماله بضرورة اتباعها، واقصاء الذميين عن مختلف الأعمال. وهناك كتاب للمتوكل فى هذا الشأن وفيه يوصى عماله فى مختلف الأقاليم الاسلامية، بأن يكون موظفوهم من أهل الأمانة والنصح، وهو يرى أن هذه الخصائص لا تتوافر عند أهل الذمة، فنراه فى هذا الكتاب يقول: «فأما الأمانة، فليس أحد منهم مأمونا على أموال الفىء وأمور المسلمين، لأنهم عداة الدين ونعاته.

= وجميعهم يبذلون أنفسهم مع البيعة شهوة واجتهادا عن أمانتهم، وأراحوا البطرك والبيعة والمؤمنين وصاروا تحت هدوء وسلام ولا يوجد موضع واحد فيه اضطراب فى تلك الأيام».

(١) ساويرس ابن المقفع. المصدر السابق البطرك قسما وهو ٥٤ من العدد. الطبرى: تاريخ الأمم والملوك جـ٧، ص٣٥٥، ابن الأثير: الكامل، جـ٥، ص٢٨٥.
ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ق١، ص٢٢١ ـ ٢٢٢.

وخاف الامير وكلمن حضر وامر ان لا يكسر شي منها، ثم انه خاف ان يجعلها في خزاينه فامر باعادتها إلى الاب وأمره اشد بالقيام بمال الخراج فناله صعوبه عظيمه قبل ان يوفي ما عليه من الخراج، ثم بعد ذلك عزل الامير بمدينة اسكندريه وسار الى كورته ولحقه علة هناك وكانت علة موته. وبعد ايام كثير ذكر العجب العظيم وهو خروج الدم من الكاس، وفي ذلك الوقت تقدم الى اولاده

وأما النصيحة، فغير موجودة عند من كان مقامه بين ظهراني المسلمين على.. قهر وذلة وصغار»[1].

ونهى المتوكل في كتابه هذا، عن استخدام الذميين في شيء من أمور المسلمين، وأموالهم وتدبير خراجهم، فلا يكون منهم في الدواوين الخاصة والعامة في العاصمة والنواحي، وأعمال الجهبذة والمعادن والبريد وسائر الأعمال[2].

وفي الوقت نفسه حدد المتوكل في كتابه، بعض الحالات التي يمكن استخدام المسلمين لأهل الذمة فيها فكتب: «من كان متقلدا لعمل من خاص أعمال أمير المؤمنين ونفقاته، ولا يد له، ولا سلطان على المسلمين. فان اقراره في ذلك العمل، ريث ما يؤخذ بما جرى على يده، ويجار لمكان غيره من المسلمين ثم يصرف عنه، وخلا من استعان به مستعين في قهرمته (خدمه) وخاصة نفقات منزله وحشمه»[3].

(١) ابن زبر القاضي (أبو محمد عبدالله بن أحمد): شروط النصارى ورقة ١٦، مخطوط بدار الكتب تحت رقم (٣٩٥٢ تاريخ).
(٢) المصدر نفسه، ورقة ١٧.
(٣) المصدر نفسه، ورقة ١٧، ١٨.

واكد عليهم بان ينفذو الى مصر بالمال الذى اخذه من البطرك ليسلم الى من يوجد بطركا على مدينة اسكندرية ففعلو اولاده ذلك [فى ايام من يذكر فيما بعد] وتمت هذه الاعجوبه في ايام من استحق ان تتم على يديه، كما انا نظهر الامر لمحبتكم عند تمام هذه السيره.

فاسمعو عجبا اخر أيضا ظهر في ايام هذا القديس انبا يعقوب البطرك لما كان فى ايام ايلياس

كما هدد المتوكل عماله، اذا تهاونوا فى تنفيذ ما جاء فى هذا الكتاب، أو حاولوا الاغضاء عن أحد من أهل الذمة، باخفاء أمره تحت اسم غيره من المسلمين[1]. ونرى أن كل ما كتبه المؤرخون الأقدمون عن سياسة المتوكل ازاء أهل الذمة، كانت كتابات عامة، ولا نجد كتابات مفصلة ـ الا نزرا يسيرـ عن الاجراءات التنفيذية التى اتخذت فى هذا العصر في مختلف الأقاليم الاسلامية.

ولى الخليفة المتوكل على مصر، رجلا فارسيا مسلما يسمى عبدالمسيح بن اسحق وجعل له الولاية والخراج، وأمره أن ينتهج سياسة نحو القبط وكنائسهم مثل سياسته نحو النصارى فى

(١) المصدر نفسه. ورقة ١٨. ويذكر القلقشندى كتابا للمتوكل جاء فيه «وقد انتهى الى أمير المؤمنين ان أناسا لا رأى لهم، ولا روية، يستعينون بأهل الذمة فى أفعالهم، ويتخذونهم بطانة من دون المسلمين، ويسلطونهم على الرعية، فيعسفونهم، ويبسطون أيديهم الى ظلمهم وغشهم. والعدوان عليهم. فأعظم أمير المؤمنين ذلك، وأنكره... وتبرأ منه. وأحب التقرب الى الله بحسمه والنهى عنه. ورأى أن يكتب الى عماله على الكور والأمصار، وولاة الثغور والأجناد فى ترك استعمالهم لأهل الذمة فى شىء من أعمالها وأمورهم. والاشراك لهم فى أماناتهم وما قلدهم أمير المؤمنين واستحفظهم اياه...» وأشار الخليفة فى كتابه هذا الى ما يتميز به المسلمون دون الذميين من الثقة والأمانة والدقة وغير ذلك.
انظر: صبح الأعشى، جـ١٣. ص٣٦٨.

الامير الوالى باسكندريه. توفى اسقف فى الصعيد على كرسى «فاو»(*) فانفذو انسانا للبطرك يوسمه عوضه، فخاف الرجل [ان] يطلع الله البطرك على اعماله فيمنعه فمضى الى الامير ودفع له مالا وساله ان يتقدم الى الاب البطرك انبا يعقوب باصلاحه، فلما سال الامير فى اصلاحه امتنع الاب البطرك لقوة اعتقاده وتشدده فى القوانين، فسالوه الحاضرون وقالو له: تجيب [توافق] سوال الأمير ليلا [لئلا] يجرى عليك وعلى البيعه شر.

(*) فاو: تعرف الآن باسم فاو قبلى لأنه أقيمت قرية حديثة باسم فاو بحرى. وهى تابعة لمركز دشنا قرب مدينة الأقصر.
كان اسمها القبطى فابو Phebôou.

بغداد والمشرق. فأنزل عبدالمسيح بالقبط كثيرا من الاضطهاد، وأخرجهم من الديوان ومن كثير من المصالح الحكومية، وولى مكانهم موظفين من المسلمين[1].

ثم أمر المتوكل واليه على مصر، ببناء المقياس الهاشمى للنيل، وبمنع القبط من تولى أمره، وأن يعهد بذلك الى المسلمين[2]. ولكن هذه السياسة التى انتهجها المتوكل، لم تدم طويلا، وعاد ولاة مصر الى استخدامى الذميين فى أعمالهم، وفى ادارة البلاد.

وتشير بعض أوراق البردى الى استخدام القبط بصفة خاصة فى تحصيل الجزية والخراج، سواء أكان ذلك قبل عصر الخليفة المتوكل أم بعده. فنجد ورقة بردية، يرجع تاريخها الى ١٣

(١) ساويرس ابن المقفع تاريخ البطاركة. سيرة البطرك قسما وهو ٥٤ من العدد. ويصف هذا المؤرخ ما صارت عليه أحوال القبط الموظفين منهم وغير الموظفين والبطرك تحت ضيقة عظيمة، وصعوبة، من هذا الذى ليس بانسان. ومن قوة أمانتهم لما صرفوا من أشغالهم، توكلوا على رحمة الله تعالى ذكره وسألوا أن لا ينساهم. فأما أبونا البطرك، لما شاهد الأراخنة وما نالهم من الصعوبة من ذلك الشيطان والبطالة، وقطع معايشهم، وأنهم الذين كانوا يهتمون بأمور البيعة كان حزينا جدا وقد أحملت كتب المؤمنين الى الأب البطرك، يسألونه الدعاءلهم. وكانوا أيضا يكاتبون الآباء الصالحين المنقطعين الى الله فى الجبال والديارات بمواصلة الدعاء لهم وللمؤمنين بالمسيح، أن يكشف الله عنهم هذه الغمة، ولا ينساهم، ولا يدعهم تحت رجزه وغضبه».

(٢) الكندى: الولاة والقضاة، ص٢٠٣.

ولم يزالو يلطفون به الى ان اصلحه اسقفا، فلما سار قال عليه امرا هو هكذا مثل قول بطرس لسيمون الساحر فى ذلك الزمان فقال: موضع توكل هذا الاسقف على اخذ النعمة به فهو يضمحل بعد قليل، فتكون النعمه التى نالها بعيده منه. فلما سار وقرب من كرسيه اعتل فى الطريق ومات قبل ان ينظر الكرسى. فمن الان لا يخاف من هذه الاعمال العجيبة فيمجد الله الذى

طوبة سنة ٢٣٣هـ (١٠ سبتمبر سنة ٨٤٧م) جاء فيها أن القسطال[١] لكورتى الأشمونين وأسفل انصنا وقوص، كان قبطيا ويسمى مينا بن ابراهيم[٢]. وهناك بردية أخرى مؤرخة فى سنة ٢٤٩هـ (٨٦٣/٨٦٤م) وفيها أن القسطال كان قبطيا ويسمى ابن ابهيوه[٣]. كما تشير بعض أوراق البردى الى أن رؤساء القرى فى القرن الثانى الهجرى والثامن الميلادى، كان كلهم من المصريين القبط تقريبا[٤].

والحقيقة أن المصريين القبط بصفة خاصة، دون غيرهم من أهل الذمة، كان لهم دور واضح فى ادارة البلاد المصرية ـ كما ذكرنا ـ فكان منهم الكتاب وعمال الدواوين وحاكم الأقاليم وعمال ديوان الخراج، وكانوا يستفيدون دائما من مناصبهم فى خدمة اخوانهم القبط ورعاية كنائسهم، وتوفير كل سبل الراحة لبطركهم. ونبحث فيما يلى موقف ولاة مصر المسلمين فى ذلك العصر، من اقامة البطاركة.

(١) ويكتبها البعض بالجيم بدلا من القاف. والقسطال لقب يطلق على الموظف المشرف على مالية الكورة، أو بمعنى آخر مندوب ديوان الخراج والأموال. ويرى جاستون فيت G. Wiet أن كلمة جسطال تقابل الكلمة البيزنطية أوجستاليوس. انظر سيدة كاشف: مصر فى فجر الاسلام، ص٢٦.

(٢) جروهمان: أوراق البردى، جـ١، ص١٣٤، ١٤٠.

(٣) المصدر نفسه، ص١٤٥، واسم القرية التى كان يقوم بتحصيل خراجها غير واضح.

(٤) المصدر نفسه، ص ٧٠.

يظهرها من هذا المصطفى. ولو انا نذكر يسيرا من كثير سمعناه من عجايب هذا القديس وجهاده الجيد لكثر القول جدا ولا نقدر ان نشرحها لضعف عقولنا المظلمه عنها، لكن نذكر مما يجب ذكره ونشرح تمام جهاده ربحا لمن يسمع وبركه.

لما كان عند توجهه الى الشرق ليفتقد البيع والشعب ووصل الى ضيعة تسمى بيت [منيت] تشمت احضروا له شابا به شيطان قد اخرسه

كان والى مصر له حق الاشراف على اختيار بطرك القبط. باعتبار الوالى نائب الخليفة، فى مصر. ويبدو من النصوص التاريخية أن الأساقفة كانوا يستشيرون الوالى فى اختيار البطرك، كما أنهم كانوا يقدمون من الاسكندرية الى العاصمة ـ الفسطاط ـ بعد اختيارهم للبطرك، لمقابلة والى مصر، وتقديم واجب التحية له. وكانت موافقة الوالى على البطرك الجديد. شرطا ضروريا لاتمام رسامته بطركا.

وهناك أمثلة عديدة، منها، ما حدث فى ولاية عبدالعزيز بن مروان، عندما توفى البطرك يوحنا الثالث (يوحنا السمنودى) (٦٧هـ ـ ٦٨٦م) فقد اجتمع الأساقفة والكهنة والقبط بالاسكندرية واتفقوا فيما بينهم على ترشيح الشماس جرجه، بطركا دون مشورة الوالى عبدالعزيز بن مروان كالعادة ، وأنه اذا اعترض على ذلك، يخبرونه بأن البطرك يوحنا كان قد أوصى به أن يكون بطركا من بعده، وأنه لا يمكن مخالفة هذه الوصية. وبالفعل عينوا جرجه فى درجة قسيس. وألبسوه الثياب الخاصة بذلك وقرروا رسامته بطركا فى غد ذلك اليوم[١].

(١) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، سيرة البطرك اسحاق وهو رقم ٤١ من العدد ص ٤٤ جـ٢.

واطرشه وسالوه ان يضع يده عليه، وان الاب اخذ زيتا يسيرا من على عظام القديس ساويرس ودهن به الصبى ورسم على وجهه واذنيه وقال: باسم السيد يسوع المسيح الذى انقذ خليقته من عبودية الشيطان ليعف هذا الشاب وينحل عنه رباط الشيطان . وللوقت عوفى وانفتح فوه واذناه وتكلم وسمع، وكلمن ابصره تعجب ومجدو الله بالحقيقة.

ومن محاسن الصدف، أن اليوم الذى تقرر تنصيب القس جرجه فيه بطركا، لم يكن يوم أحد، وقد جرت العادة بين القبط على أن يتم تعيين بطاركتهم فى يوم الأحد دون غيره من أيام الأسبوع. وقد أدرك ذلك أرشيدياقن[١] المدينة، ويسمى مرقس، فمنعهم من تنفيذ رغبتهم فى رسامة جرجه بطركا، فى غير يوم الأحد، حتى لا يخالف القوانين الكنسية التى جرت العادة بمراعاتها واتباعها[٢]. وفى ذلك اليوم قدم الى الاسكندرية رسل الوالى عبدالعزيز بن مروان، وطلبوا من الأساقفة والكهنة وبطركهم المرشح، الرحيل معهم الى الفسطاط لمقابلة الوالى عبدالعزيز، ولكن ما لبث أن اكتشفت حقيقة الأمر، وفطن الجميع الى أن جرجه، ليس هو الذى أوصى به البطرك يوحنا، ليكون خلفا له، وانما الأب اسحق. فغضب عبدالعزيز بن مروان لذلك أشد الغضب، وأبطل تعيين جرجه، وأمر باقامة الأب اسحق بطركا بدله[٣].

(١) Archdeacon وهو رئيس الشمامسة ويكون مسئولا عن نظام الكنيسة ونظافتها. كما يكون من مهامه الاشراف على أملاك الكنائس ومساعدة الأسقف فى أعماله كما يكون حريصا على مراعاة العادات والتقاليد والقوانين الكنسية. انظر: The Oxford Dictionary of Christian Church, p. 79.

(٢) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ٤٦ جـ٢ ، ويقول: «وهذا أمر من الله، ليقدم من اصطفاه، أولا وهو أبا اسحق الراهب من أهل شبراء انظر أيضا:

Amélineau: Hist, du. P. Isaac. pp. 444-5.

(٣) ساويرس ابن المقفع: المصدر السابق، ٤٦ ، ٤٧ جـ٢ Ibid., pp. 45-47.

وكان هذا الاب فى قدسه مثل التلاميذ لما صبر عليه من التجارب وما تتم على يديه من العجايب [مثل] احيا[ء] الميت واخرج الشياطين، واعلا [مرضى] كثير ابرأهم، والسيده ام النور ظهرت له [وتكالمه] قبل ان يصير بطركا، والسيد المسيح ايضا والقديسون الذين استحق ان يراهم.

ثم انه اشتهى ان يقيم فى مدينة «تندا» اياما قليلا عند عبوره عليها، فلما اقام بها شهد لنا بعض الاساقفه من الثقات الصادقين وقال: انى

وبعد وفاة البطرك اسحق، حدث خلاف بين الأساقفة والكهنة والشعب القبطى على من يصبح بطركا بعد وفاة الأب اسحق. فرأى قوم منهم، أحقية يوحنا، وكان راهبا بدير الزجاج، كما كان رجلا عالما كاتبا. فى حين اختار الآخرون الأب بقطر، وكان أيضا ممن اشتهروا بالفضل والعلم. ورجحت كفة الفريق الأول، فقد كان من بينهم أعضاء الكنيسة الانجليلية التى تضم مائة وأربعين كاهنا. فكتب حاكم مدينة الاسكندرية تادرس الى الوالى عبدالعزيز بن مروان، يخبره باتفاق القوم على اختيار الأب يوحنا بطركا لهم[1]. مما يثبت ضرورة موافقة والى مصر على تنصيب البطرك الجديد. وتوجه تادرس وفى صحبته البطرك المرشح وبعض الكهنة الى الفسطاط ـ كما جرت العادة ـ للقاء الوالى وتقديمى الولاء والتحية له. ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان، فقد اعترض أحد الأساقفة على اقامة يوحنا بطركا، مما أصاب الجميع بذهول عظيم. فلما سأل الأمير هذا الأسقف، عمن يصلح لهذا المنصب، رشح الأب سيمون[2].

(١) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة ص ٥٩ جـ٢.
(٢) المصدر نفسه. ص ٥٤ وما بعدها جـ٢. كان والدا الاب سيمون قد حضرا به الى الاسكندرية، حيث قدماه قربانا للبيعة لأجل جسد القديس ساويرس. فأخذ تادرس سيمون فى بطركية الأب أغاتون، وعهد الى الأب يوحنا ـ وكان شماسا ـ ليعلمه قوة الكتابة وفصول الكتب [والعلوم البيعية] فتعلم سيمون الكتابة القديمة، وكثيرا من الحديثة فى زمن يسير. ولما أدرك البطرك أغاتون صلاحيته، أوسمه قسا. وكان يلى الأب يوحنا فى الدرجة فى دير الزجاج. انظر كذلك السنكسار، جـ٢، ص٢٣٣.

مضيت اليه لافتقده واخذ بركته، فلما وقفت على باب موضعه سمعته يقول كلاما خفيا وهو : يا سيدى وام سيدى انا اسالك ان تغفرى لى و انا مستعد لما تامرينى به وان اتممه واكون حافظا له الى النفس الاخير. قال الاسقف: ولما عولت ان اتطلع من الباب الذى هو داخله وقبل وصولى صاح بصوت عظيم: من هذا الذى يرى. فخفت من هيبته ورجعت الى وراى فسمعته يقول: الله

علم عبدالعزيز بن مروان أن الأب سيمون هذا، من أصل سريانى، من أهل المشرق. فقال للأساقفة المجتمعين: «فما تقدروا أنتم أن تقيموا واحدا من بلادكم» فأعلموه أنه لا يوجد أفضل من يوحنا، وأنهم يختارونه بطركا لهم، وأن الأمر لله وللوالى. وسأل عبدالعزيز سيمون عن رأيه فى الأب يوحنا، فأجابه: «ما يوجد فى كورة مصر، ولا فى المشرق من يستحق مثل هذا، وهو أبى الروحانى، وربانى من صغرى، وسيرته سيرة الملائكة». وانتهى الأمر باتفاق الأساقفة والكهنة وغيرهم من الحاضرين على اقامة سيمون بطركا لهم، ووافق الوالى عبدالعزيز على رأيهم[١].

وكان قد حدث بعد وفاة الأب سيمون (٨٢هـ = ٧٠١م) أن خلا كرسى البطركية حوالى ثلاث سنوات، وتولى شئون الكنيسة خلالها الأسقف اغريغوريس. وفى ختام هذه السنوات الثلاث، اتفق الأساقفة والكهنة على ترشيح القس الاكسندروس بطركا، وكان راهبا بدير الزجاج، عالما بالكتب. وطبقا للعادة المتبعة، قدم القوم معه الى الوالى عبدالعزيز بن مروان الذى أجابهم الى رغبتهم، ووافق على اختيارهم، وأقيم هذا القس بطركا فى عيد القديس مارى مرقس فى (٨٦هـ = ٧٠٥م = ٤٢٠ ش)[٢].

(١) ساويرس ابن المقفع: المرجع السابق، ص ٥٤ وما بعدها جـ ٢.
(٢) ساويرس ابن المقفع: المرجع السابق، ص١٠٢ / ١٠٣ جـ ٢.

يغفر لك أيها الاخ الذى منعني الا اشاهد مجد سيدتي ونورها وتركها ان تمضى عني.

فلمــا نظر الطوباوى البطرك هذه الاســرار العظيمه التي ظهرت شهد ان ما يجلس احد من البطاركه على هذا الكرسى الا من يختاره الرب، لكن الشيطان يقاوم تقدمتهم ولا يدعهم ان يفعلو الخير، وقوم يقولون فى قلوبهم: إن تقدمنا واخذنا الدرجه، هو من مولدنا، وليس هو هكذا بل رب المجد هو الذى يختار. والاب انبا يعقوب القايل هذا

وتحفظ لنا النصوص التاريخية مثلا آخر، لتدخل الولاة فى اختيار البطرك، وضرورة موافقتهم على اقامة البطرك الجديد. فلما تولى حفص بن الوليد حكم مصر - للمرة الثانية - (١٢٥هـ = ٧٤٣م) - فى عهد الخليفة هشام بن عبدالملك - اجتمع اليه الأساقفة والكهنة من جميع أرجاء مصر، وسألوه أن يأذن لهم فى اقامة البطرك. فأذن لهم حفص، بترشيح من يرونه يصلح لهذا المنصب، واشترط عليهم أن يلقاه قبل ان يتم تعيينه بطركا. ولكن حدث بين الأساقفة والكهنة، اختلاف فى الرأى كاد يودى بالكنيسة القبطية[١].

وانتهى الأمر، باختيار القس (ميخايل) خايال - ويسمى أيضا كيل - ليكون بطركا. وكان قسا فى بيعة القديس أبى مقار. وبادر المجتمعون الى حفص بن الوليد ليعلموه بما تم بينهم، وأعطاهم كتابا، يطلب فيه من شيوخ وكهنة وادى هبيب، تسليم القس خايال اليهم. ثم أذن لهم باقامته بطركا بعد قدومهم به اليه[٢].

(١) المصدر نفسه، ص ١٦٦ / ١٦٧ وكانت الكنيسة القبطية بدون بطرك منذ وفاة الأب تادرس فى ولاية القاسم بن عبيدالله للخراج (١١٦ - ١٢٥هـ = ٧٣٤ - ٧٤٣م) حتى ذلك الوقت الذى تمت فيه اقامة أنبا خايال بطركا فى ولاية حفص بن الوليد، انظر المصدر نفسه، ص ١٩٢ جـ٢.

(٢) المصدر نفسه، ٢٥٨ جـ٢. وتشير الرواية القبطية الى أن الفريق الذاهب الى وادى هبيب لاحضار أنبا خايال تقابل مع وفد من شيوخ ورهبان هذا الوادى وكان من بينهم أنبا خايال. وكان هذا الوفد قادما=

قبل موته: ان الله [هو] الذى يختار من يقيمه والشيطان مضاد له والله الغالب.

وكانت عادته اذا اراد ان يقسم الاساقفه ان يسهر ويصوم ويطوى حتى يظهر الله له اعمالهم.

وكان يحفظ ايام نياح الابا[ء] من مرقس الانجيلى الى مرقس ابيه بالروح، ويعيد لهم ويلبس فيها ويقدس ان كان فى المدينه او فى الديارات او فى القرى مجدا لسيدنا المسيح وتذكارا لاباية.

فلما أراد الله ان يريحه من التعب وينقله الى

وهكذا كان لوالى مصر حق التدخل فى اقامة البطرك الجديد طوال العصر الأموى. وذكرنا من الأمثلة ما يوضح ذلك ويؤكده. ونجد فى العصر العباسى أيضا من الأمثلة ما يؤكد استمرار هذا الحق لولاة مصر.

لما توفى البطرك يوحنا فى ولاية الليث بن الفضل على مصر (١٨٢ ـ ١٨٧هـ = ٧٩٨ ـ ٨٠٣م) ـ فى عهد الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣هـ = ٧٨٦ ـ ٨٠٩م) اجتمع الأساقفة والكهنة الأرثوذكس بالاسكندرية، واتفقوا على ترشيح القس مرقس بطركا، وكتبوا بذلك الى الأنبا (ميخايل) أسقف مصر(١).

= لتهنئة حفص ابن الوليد بالولاية، وليلتمس منه ازالة الظلم الذى نزل بهم فى ولاية سلفه ـ القاسم بن عبيدالله ـ وبعد عودة وفد الأساقفة ومعهم أنبا خايال، أخبروا الوالى حفص بن الوليد بما حدث مما أثار دهشته واعجابه. المصدر نفسه والصفحة.

(١) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ٦٢٧ وما بعدها جـ٢ . وجاء فى هذا الكتاب: «أبوتك تعلم ما جرى علينا من اليتم فى مضى أبونا الطوبانى أبا يوحنا الرابع الى الرب فى هذا الزمان الصعب وتقلب الملوك وأبوتك تعلم أن قطيع خراف بغير راع يدخله الذئب فيشتته وكل مدينة بغير سور العدو يهلكها. ولأجل هذا اجتمعنا فى البيعة العظمى بالاسكندرية والآباء والأساقفة. فقد كتبنا نقول، واحد منا طلب به قلبنا على القس مرقس أن يكون لنا أباه.

مساكن النوارنيين السماويه فظهر له الرب وهو راكب سحابه من نور ومعه الاثنا عشر تلميذا فقال له: تقو ايها العبد الصالح الذى عمل فى وزنات سيده وربح، انا الان اخذك إليّ واريحك من تعبك وتجلس مع اصحابك الذين جاهدو مثلك وكملت مثلهم.

وقبل هذه الرويا العجيب تنيح زخريا اسقف «تندا» وجلس موضعه الارشيدياقن الذى قدمنا ذكره وقلنا عنه ان يكون وعا[ء] مختارا لله.

ثم قدم انبا ميخايل على الوالى وفى صحبته جميع الرؤسا، القبط ليخبره بما حدث، ويلتمس منه الموافقة على اقامة القس مرقس بطركا. فأمر الوالى بكتابة اسمه فى الديوان وأذن لهم فى قسمته بطركا لهم[1].

وتذكر المصادر التاريخية، مثلا آخر، لدور الولاة العباسيين فى اقامة البطرك الجديد. فبعد وفاة الأب سيمون الثانى (٢١٥/٢١٦هـ = ٨٣٠/ ٨٣١م) بدأ أهالى الاسكندرية يفكرون فيمن يتولى البطركية بعده. وطمع فى البطركية صاحب ديوان مصر اسحق السيد بن اندونة، وكان فاحش الثراء، ووعد حاكم الاسكندرية عبدالله بن زيد بألف دينار، اذ ساعده فى اقامته بطركا للقبط[2].

وكانت اقامة اسحق بطركا، أمرا يخالف قانون الكنيسة القبطية فى ذلك الوقت لأنه كان علمانيا، ومتزوجا. فرفض الأساقفة تنصيبه، واستقر رأيهم على ترشيح القس يوساب ـ أحد رهبان دير أبى مقار ـ وطلبوا من عبدالله بن زيد حاكم الاسكندرية الموافقة

(١) المصدر نفسه، ص ٦٢٨ جـ٢. ابن العميد: تاريخ المسلمين، ص ١٢٢.
(٢) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ٧٩٠ وما بعدها جـ٢.

واعتل ابونا يعقوب البطرك وضعفت قوته، وفى اربعه عشر يوما من امشير تنيح وهو يوم تنيح فيه الاب القديس ساويرس [و] فى اربع ساعات من الليل سمعوه قايلا: جيد يا ابوى ساويرس وديسقرس مجيكما.ورجع قال: العالم كله فى حل بصلوات القديسين. واسلم الروح فى يد الرب ففاح من جسده بخور طيب حتى ملا جميع الموضع.

فلما اصبح الصبح كفنو جسده وقدمو القربان

على تنصيبه بطركا، الا أنه رفض ذلك طمعا فيما وعده به اسحاق من منحه ألف دينار[1].

وغضب الأساقفة من موقف عبدالله بن زيد منهم، وهددوه بالرحيل الى والى مصر بالفسطاط، ليحقق لهم رغبتهم. وانتهى الأمر بموافقة والى الاسكندرية على اقامة الأب يوساب بطركا فى ٢١ هاتور سنة ٥٤٧ش[2] = (٢١٦هـ ـ ٨٣١م). ونستخلص من هذه الرواية أن والى الاسكندرية كان يحل محل والى مصر فى الموافقة على اقامة البطرك وان كنا لم نلمس ذلك فى عصر الولاة الأمويين. ونستخلص أيضا أن الوالى المسلم فى هذا العصر لم يكن يشترط رؤية الشخص المرشح للبطركية قبل قسمته، كما كان الحال فى العصر الأموى.

وبعد أن تحدثنا عن دور القبط ـ بصفة خاصة ـ فى أعمال الحكومة والادارة، وما كان من دور ولاة مصر المسلمين فى اختيار بطركهم، نتساءل عن موقف الولاة المسلمين من كل من

(١) المصدر نفسه، والقس يوساب أصله من منوف العليا. وآباؤه من كبار رجال القبط، وقد خدم حاكم الاسكندرية ثم خرج الى وادى هبيب. ثم أقامة البطرك مرقص شماسا ثم قسا.
(٢) المصدر السابق، ص ٧٢٧ وما بعدها جـ٢.

تذكارا للابوين المغبوطين ساويرس والاب يعقوب، وكملت رويا الراهب القديس عن الصورتين اللتين راهما تكرزانه بالانجيل.

وهكذا تمت سيرته بشيخوخة حسنه وهو ماسك الكرسى المقدس الانجيلى عشر سنين وثمانية اشهر، وسلم القطيع لرب الصباوت ثابت، واستحق ان يسمع الصوت القايل: تعالو الى يا مباركى ابى ارثو الملك المعد لكم من قبل خلق العالم.

المذهبين المسيحيين فى مصر. الملكانى واليعقوبى؟ وهل كان هؤلاء الولاة ينتصرون لليعاقبة دون الملكانيين؟ أم كانوا يعدلون بين الفريقين؟

كان عمرو بن العاص ـ عقب فتح مصر ـ قد كتب أمانا للبطرك اليعقوبى بنيامين فعاد الى كرسيه، بعد أن غاب عنه ثلاث عشرة سنة. ويصف المقريزى[1] أثر ذلك فيقول: «فغلبت اليعاقبة على كنائس مصر، ودياراتها كلها، وانفردوا بها، دون الملكانيين».

ومما لا شك فيه أن القبط اليعاقبة كانوا قد تنفسوا الصعداء بعد زوال حكم البيزنطيين، وقيام الحكم الاسلامى فى مصر، نتيجة لما قاسوه من الاضطهاد والظلم فى عهد الرومان. وكان طبيعيا أن يتقرب القبط من الحاكم العربى، حتى يقوى أمرهم على الملكانيين، خصومهم فى المذهب، فقد جاء الوقت لتكون فيه كفتهم هى الراجحة.

وكان أكثر سكان مصر آنذاك من القبط اليعاقبة، وقد تقرب عمرو والمسلمون اليهم كثيرا، وتوددوا اليهم أكثر من الملكانيين أتباع كنيسة القسطنطينية وهم أقلية قليلة، وقد ضعف أمرهم بزوال حكم الرومان فى مصر. وقد سار خلفاء عمرو بن العاص على نفس منوال هذه السياسية.

(١) الخطط، جـ٤، ص٣٩٣ ـ ٣٩٤ .

والاخ الذى كان قد تنبا عليه رسمه اسقفا قويا متقنا لا يكنز درهما واحدا غنيا باعمال الرب وبالكتب الروحانيه واستحق ان يغمض عينه بيده وياخذ بركته، ومن قوة امانته جعل جسده في تابوت وتركه فى مدينته التى هى «تندا» ليتبارك به ويتشفع بقدميه. وبعد أيام يسيرة تنيح الاسقف بصلوات ابيه التى صلاها عليه امام السيد المسيح، له المجد مع ابيه وروح القدس المحيى السماوى من الان والى ابد الابدين امين.

وانتصر المسلمون غالبا للقبط اليعاقبة على الملكانين. وأخذ القبط كثيرا من الكنائس والأديرة التى كانت فى يد خصومهم الملكانيين. كما انتهزوا فرصة حسن علاقاتهم بالمسلمين لكى يجذبوا بعض الملكانين الى مذهبهم[1].

كان الملكانيون فى مصر، طوال عصر الولاة، ليس لهم بطرك الا فى فترات محدودة بعكس ما كان عليه الحال بالنسبة للقبط اليعاقبة. ونذكر فيما يلى الفترات التى تمتع فيها بعض الملكانين بالحرية، وبعض النفوذ والسلطان.

استطاع تاوضوسيوس أحد الملكانيين الخلقدونيين ـ فى خلافة يزيد بن معاوية ـ أن يستصدر من الخليفة سجلا يمنحه السلطة والحكم على الاسكندرية ومريوط وما يليهما، بحيث لا يكون لوالى مصر، سلطان عليه، وقد توصل الى ذلك بعد أن أدى مبلغا عظيما من المال للخليفة يزيد. فتسلط هذا الحاكم الملكانى على القبط وبطركهم أغاثون وفرض عليه الغرامات المالية، ثم حجر على أموال الكنيسة القبطية وأملاكها بعد وفاة البطرك أغاثون[2] البطرك ٣٩ .

(١) سيدة كاشف: مصر فى فجر الاسلام، ص١٩٦ ، الراهب البراموسى حسن السلوك فى تاريخ البطاركة والملوك، جـ١ ، ص٢٠٨ ـ ٢٠٩ ، ستانلى لين بول: سيرة القاهرة، ص ٧١.
(٢) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ٥ جـ٢ ، السنكسار، جـ١ ، ص١٢٧ ـ ١٢٨ .

الاب انبا سيمون البطرك وهو من
العدد الحادى والخمسون
٨٣٠م

ولما تنيح الاب القــديس الجليل البطرك انبــا يعـقـوب مـصطفى الرب ومـختـاره العـمـود النيـر، ومضى الى الرب، وبصلواته التى قدمها له بدد الله العسـاكر والحروب والقوم الذين كانو يثيرونها فى كل وقت، الذين كانو على مدينة اسكندريه ومصر

كما اتخذ عبدالعزيز بن مروان ـ فى أثناء ولايته على مصرـ فراشين له من الملكانيين. ولما انتقل من الفسطاط الى حلوان، واتخذها عاصمة له، سمح لهؤلاء الملكانيين ببناء كنيسة لهم فى هذه العاصمة الجديدة(١).

كذلك نجد الخليفة هشام بن عبدالملك، بعد أن تم الاتفاق بينه وبين الامبراطور البيزنطى(٢)، يسمح للملكانيين فى مصر، باقامة بطرك لهم. وتم اختيارهم للأب قزما، الذى أقام فى كرسى البطركية الملكانية ثمانى وعشرين سنة(٣). وكان قزما أميا لا يعرف القراءة، ولا الكتابة،

(١) ابن بطريق: التاريخ المجموع، ص ٤١، أبو صالح الأرمنى، ص ٦٧.
(٢) قيل انه حدث فى سنة ١٠٧هـ ـ ٧٢٥م أن أرسل الامبراطور البيزنطى لاون، هدية الى الخليفة هشام فأتت هذه الهدية أكلها، وتمكن الخلقدونيون فى مصر من اقامة بطرك لهم. انظر: ترتون: أهل الذمة فى الاسلام، ص ٨٢، ميخائيل شاروبيم: الكافى فى تاريخ مصر القديمة والحديثة، جـ٢، ص ١٢٤.
(٣) ابن بطريق: التاريخ المجموع. ص ٤٥. ويذكر أن الملكانيين كانوا بدون بطرك منذ هروب بطركهم الى القسطنطينية فى السنة الثالثة من خلافة عمر بن الخطاب الى أن أقيم قزمان هذا بطركا، وغلبت اليعاقبة على جميع الكنائس بمصر. انظر، المصدر نفسه، ص ٤٥ ـ ٤٦. فى حين أشار ساويرس الى أن = الملكانيين كان لهم بطرك فى خلافة الوليه بن عبدالملك وولاية قرة بن شريك على مصر، وان كان لم يبق فى كرسيه طويلا. وتحول الى المذهب اليعقوبى. ثم يشير فى موضع آخر الى اقامة بطرك لهم فى ولاية القاسم بن عبيدالله وليس أبيه عبيدالله بن الحبحاب.

واعمالها . ومن بعد وفاته بمدة يسيرة قدمو عوضا منه بامر الله تعالى شماسا راهبا اسمه سيمون من مدينة اسكندريه من نسل طيب، وكان ولد الاب انبا يعقوب وفى قلايته، وتربى منذ صباه عند الاب البطرك انبا مرقس المتنيح. واقام على الكرسى الانجيلى خمسة شهور وستة عشر يوما وتنيح فى اليوم التالت من بابه. وكان مدة مقامة [مصابا] بوجع النقرس يتوجع منه وجعا شديدا الى ان تنيح. الرب يرحمنا بصلواتهم اجمعين.

ويعمل فى صناعة الأبر. ولما ولى البطركية للملكانيين خرج من الاسكندرية وقصد الخليفة هشام فى دمشق، وطلب منه أن يعيد للملكانيين الكنائس التى استولى عليها اليعقوبيون فى مصر. فعهد الى واليه بمصر عبيدالله ابن الحبحاب، أن يسلم للبطرك قزما، كل ما بيد اليعاقبة القبط من الكنائس الملكانية[١].

ووقع خلاف بين الملكانيين واليعاقبة فى مصر، فى خلافة مروان بن محمد (١٢٧ ـ ١٣٢هـ = ٧٤٥ ـ ٧٥٠م) ـ آخر الخلفاء الأمويين ـ وكان يتولى حكم مصر آنذاك عبدالملك بن مروان، وكان هذا الخلاف حول أحقية كل فريق منهما، فى ملكية كنيسة أبى مينا بمريوط. وتولى عبدالله الفصل بينهما فى هذا الخصام، وكان بطرك القبط فى ذلك الوقت هو الأب خايال (ميخايل)، فى حين كان بطرك الملكانيين الأب قسما[٢].

قضى كل من الفريقين، اليعاقبة والملكانيين، صوم الأربعين، وهم يترددون على قصر الوالى عبدالملك، كل يوم من الصباح الى آخر النهار، حتى يفصل بينهم، ويحكم بأحقية أى فريق منهما للكنيسة دون الفريق الآخر، وانتهى الأمر بأن عهد عبدالملك الى

(١) ابن بطريق: التاريخ المجموع، ص ٤٥. ويسمى هذا الوالى عبدالله بن الجيحان السكوى.
(٢)ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ٢٧٤ جـ ٢.

السيره الحاديه والعشرين من سير البيعه المقدسه
الاب انبا يوساب(*) البطرك
وهو من العدد التانى والخمسون
[٨٣٠ / ٨٤٩م]

فلما تنيح الاب سيمون اجتمع الشعب الارتدكسى بمدينة اسكندريه وتشاورو فى ان يقيمو بطركا بحكم ان الكرسى خال، لانه كان قد اقام بغير [بدون] بطرك بعد الاب انبا يعقوب مده كبيره، وتسلو باقامة الاب انبا سيمون، فلما تنيح

(*) هو من مدينة منوف. فى ايامة قامت عدة مشاحنات من الاهالى ضد بعض الاساقفة خاصة فى تنيس والفسطاط وطالبوا بعزلهم كما تعددت فى شمال الدلتا ثورات البشمور حتى ابادهم واحرقهم واحرق بلادهم الخليفة المأمون. ويقال أن الخليفة المأمون أعطى انبا يوساب تفويضاً بخط يده باقراره رئيساً عاماً روحانيا على الأمة القبطية وجميع كنايس مصر.

صاحب الديوان ويسمي يسا بن يمن، أن يحكم بين الفريقين، ويدرس حجج كل منهما[١].

أمر يسا، صاحب الديوان، كل فريق بكتابة حججه وآرائه فى أحقيته فى ملكية الكنيسة الا أن الملكانين أغدقوا عليه الهدايا والأموال، طمعا فى أن يحكم لهم يسا، بأحقيتهم للكنيسة على حين تقدم البطرك خايال، بالحجج التى تبرر أحقيته للكنيسة، وتحدث عن تاريخ بنائها، وكان كتابه الي صاحب الديوان، باللغتين العربية والقبطية. واستمر التحكيم بين الفريقين شهرا كاملا دون الوصول الى قرار حاسم[٢].

فلما ولى الديوان القاضى أبو الحسين وتولى التحكيم بين المتخاصمين، نيابة عن الوالى. سأل كل فريق عن رئيسه الدينى، وأصل عقيدته، واطلع على الكتب التى قدموها، لسلفه الذى كان يتولى التحكيم بينهم. ويبدو أنه أدرك عدم أحقية الملكانين فى الكنيسة، لأنه طلب

(١) المصدر نفسه، ص ٢٧٥ وما بعدها جـ ٢.

(٢) المصدر نفسه، وقد أشار بعض الأرثوذكسيين على الأسقف أنبا موسيس أن يشير على البطرك خايال بدفع مبلغ من المال لصاحب الديوان كما فعل الملكانيون، حتى ينصفهم ولكنه رفض ذلك وقال ان هذا التصرف لا يليق بالقبط المؤمنين، وعليهم جميعا الصبر وان الله لن يتخلى عنهم.

زاد قلقهم وكانو يقولون كما قال داود النبى: لا تذكر يارب اثامنا الاولى بل لتدركنا رافتك سريعا لانا افتقرنا جدا.

وكان كل منهم يتقصى بالمدينه، وبحشو جمع الاسكندرانيين والابا الأساقفه، وطلبو من يصلح ان يجلس على الكرسي، وانتم عارفون باهل اسكندريه انهم محبون لنعيم الجسد، فافتكرو فكرا رديا فى تلك الايام خارجا عن القوانين البيعيه، وكان بفسطاط مصر فى ذلك الزمان رجل ذو

من الفريقين، تقديم حجج وأسانيد أخرى. وحاول الملكانيون، وفى مقدمتهم البطرك قزما، أن يتفقوا مع اليعاقبة، على ما يرضى كلا من الفريقين. كما تحول بعض الملكانين، ومنهم قسطنطين أسقف مصر الملكانى، الى المذهب اليعقوبى[١].

ثم جمع القاضى أبو الحسين، الفريقين المتخاصمين، وحضر الاجتماع أصحاب الدواوين والكتاب ووجوه القوم، ليصدر القاضى حكمه النهائى فى هذا الخصام. فطلب من البطركين أن يقسم كل منهما بأحقيته فى الكنيسة. فرفض ذلك أنبا خايال، فى حين أقسم الأب قزما. ثم سأل كليهما عن شهودهما. فأجاب الأب خايال، أن هذه البيعة، بنيت منذ ثلاثمائة وخمسين سنة، وأن القائمين على بنائها، هما تاوفيلس وطيماتاوس واسمهما مكتوب على الكنيسة. فلما تأكد القاضى من صدق البطرك خايال[٢]، وضع حدا لهذه الخصومة، وحكم بأحقية القبط اليعاقبة فى كنيسة أبى مينا بمريوط دون الملكانيين[٣]. وهكذا انتصر اليعاقبة وتسلموا بيعتهم، وهم فرحون، مسروررون.

(١) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ٢٩٨ وما بعدها جـ ٢.
(٢) وجرت مناظرات بين البطرك خايال والبطرك قزما عن الاتحاد، وكتب الأب خايال: «أنه لا يجب أن يقال ان فى المسيح طبيعتين، متفرقتين بعد الاتحاد، ولا اثنين ولا شخصين» انظر أيضا السنكسار، جـ٢، ص ٣٥.
(٣) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ٣٠١ وما بعدها جـ٢.

جنس وذو مال، له من الذهب والفضه والاثاث [مالا يحصى] وكان صاحب ديوان السلطان، الذى هو ملك مصر، اسمه اسحق السيد ابن اندونه(*)، فلما نظروا الجماعة اهل اسكندريه محله وغناه مع جاهه، كتبو اليه كتابا يقولون له : انا ما نختار احدا نقدمه بطركا سواك . وكان رجلا علمانيا وهو متزوج بامراه ، فانعزل بعض الاساقفه عن هذه النوبه التي فعلوها المراون [المراؤون] اهل اسكندريه واتبعو هذا لاجل مجد الناس ولم يذكرو

(*) قلده فيما بعد البطرك يوساب وكالة البطركية.

ثم كان العصر العباسي، وفي عهد الخليفة أبي جعفر المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨هـ = ٧٥٣ ـ ٧٧٥م)، أصبح بلطيان بطركا على الملكانيين. وكان طبيبا حاذقا، وتولى كرسى البطركية ستا وأربعين سنة. وعظم نفوذه في عهد الخليفة هارون الرشيد واسترد كثيرا من الكنائس الملكانية، بأمر من الخليفة نفسه(١).

كان والى مصر عبيدالله بن المهدى (١٧٩ ـ ١٨٠هـ = ٧٩٥ ـ ٧٩٦م) قد أهدى الخليفة هارون الرشيد، جارية مصرية. فمرضت، وطلب الخليفة أحد أطباء مصر لعلاجها، فبعث اليه عبيدالله، بلطيان البطرك الملكانى المعروف بمهارته فى الطب، ونجح هذا البطرك في علاج جارية الخليفة. فسر لذلك الرشيد، وأعطى بلطيان كثيرا من الأموال والهدايا، كما كتب له منشورا، يحق له بمقتضاه، استرداد الكنائس الملكانية من أيدى اليعاقبة(٢).

ويرى بعض الكتاب المحدثين أن الشروط التي اشترطها عمر ابن الخطاب، في العهد الذى

(١) ابن بطريق: التاريخ المجموع، ص ٤٩، ٥٢.
(٢) المصدر نفسه، ص ٥١ ـ ٥٢ المقريزى: الخطط جـ ٤، ص ٣٩٦ و
Le R. P. Antefage: Les Coptes, pp. 23-24.

ما هو مكتوب في مزمور : ان الرب يبدد عظام المراين [المرائين] للناس. وايضا فيخرون لان الرب يرذلهم.

ثم مضى بعض الاساقفه الى هذا اسحق وساعدوه وقالو له ما لنا بطرك الا انت . واسماهم: زكريا اسقف وسيم، وتادرس اسقف مصر، ثم انهما جعلاه ان يكتب كتابا الى اسكندريه يعد كهنتها واهلها بجميل كثير يفعله معهم متى صار بطركا ويقول اني اذا جلست على هذا الكرسي

منحه لأهل الذمة، كانت نواة هذه المضايقات، وأساسا اعتمد عليه بعض الخلفاء والولاة في التشديد على الذميين، والتضييق عليهم. فالخليفة عمر بن الخطاب، هو أول من وضعهم في مرتبة أدنى من مرتبة المسلمين فأمر أن تختم رقاب أهل الذمة بالرصاص، ويظهروا مناطقهم، ويجزوا نواصيهم، ويركبوا على الأكف عرضا، مما أدى أحيانا الى تعرض أهل الذمة للمضايقات[1].

والحقيقة أن عمر بن الخطاب قد اشترط على أهل الذمة بعض الشروط، التي تتضمن تحديد شكل الملابس، وطريقة الركوب. فقد اشترط عليهم لبس الزنار، ونهاهم عن التشبه بالمسلمين في ثيابهم. وسروجهم، ونعالهم، وأن تكون قلانسهم مضربة، ومنع نساءهم من ركوب الرحائل[2].

وهناك أمثلة كثيرة على هذه الأحداث، نذكر منها، ما حدث في ولاية عبدالعزيز بن مروان، حينما قدم الى الاسكندرية، ولم يخرج البطرك يوحنا لاستقباله والسلام عليه. وعند

(١) توفيق الطويل: قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والاسلام ص١٥٧ ــ ١٥٨.
(٢) على حسني الخربوطلي: الحضارة العربية الاسلامية، ص ١٤٣.

بنيت لكم ما انهدم من بيعكم وجددت عمارة رباع البيع، وازيل عنكم الجوالى [و] جميع ايامى أقوم بها من مالى عن الكهنه وضعفا الشعب. ووعدهم باشيا اخرى كتيره.

فلما سمعو ذلك مالو اليه ورغبو اليه ونسو قول الانجيل: لا ياخذ احد كرامه من ذاته الا ان يعطاها من السما من عند الله.

وكان فى ذلك الزمان اساقفه قديسون ممن يقول الحق ممتلين من النعمه، وهو انبا خايال

ذلك سعى به قوم من الملكانيين، وأوغروا صدر عبدالعزيز، اذ زعموا له أن البطرك لم يخرج للقائه، لتكبره، وجبروته، ولا تساع ثرائه(١).

وغضب عبدالعزيز على البطرك أشد الغضب. واستدعاه. وعنفه، وفرض عليه غرامة مالية قدرها مائة ألف دينار. وعهد به الى رجل يدعى «سعد» يشتهر بالقسوة حتى يعذبه. حتى الموت ليرغمه على أداء الأموال للوالى. وهدد سعد البطرك يوحنا، اذا لم يدفع المبلغ المطلوب منه، بأنه يلبسه ملابس يهودى، ويلطخ وجهه بالرماد، ويطوف به أنحاء المدينة. وانتهى الأمر بقبول البطرك يوحنا دفع مبلغ عشرة آلاف دينار(٢).

(١) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ٢٤ وما بعدها جـ٢. وأصل يوحنا من سمنود، وقد ولى البطركية بعد وفاة الأب أغاتون. المصدر نفسه، ١٦ وما بعدها جـ٢، السنكسار، جـ١، ص١٢٨.

(٢) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ٢٥ وما بعدها جـ٢. ويروى أن يوحنا قال لسعد: ليس حتى معى مائة درهم فما شئت ان تفعل بجسدى فافعل، فنفسى وجسدى معا بين يدى المسيح. فغضب لذلك سعد، وأمر بقصرية نحاس. مملوءة جمر نار، وتجعل رجلاه فيها حتى يقبل دفع المطلوب منه. ويشير ساويرس الى ان زوجة عبدالعزيز بن مروان، تعرضت فى هذا اليوم لشدائد عظيمة، وبعثت الى تأمره ألا يلحق أى أذى بالبطرك. كما قال الوالى نفسه لسعد: «اياك أن تمس جسده لاجل ما نالنا فى هذه الليلة بسببه. ولكن مهما قدرت عليه خذه منه بلطف. والا فلا تقربه بسوء، لأن الله قد أظهر لى أنه عبده». كما أشار ساويرس الى أن البطرك يوحنا، قال لسعد، لما هدده بلباس يهودى: «أن لم يخلصنى الرب الهى من يديك، والا فما لك قدرة أن تفعل بى شيئا الا بأمره».

اسقف بلبيس، وانبا خايال اسقف صا، وانبا يوحنا
اسقف بنا، وكثير مثلهم كاملين في الدين والامانه،
فلما بلغهم ما فعله الاسقفان وجماعة اهل
اسكندريه تحركت فيهم النعمه الالهيه، وجمعو
لهذين مجمعا وتوجهو الى اسكندريه على ما
يقتضيه القانون. ولما حققو راى الاسكندرانيين قالو
لهم: اين تركتم خوف الرب وخالفتم القوانين حتى
انكم عمدتم الى رجل علماني متزوج بامراه
لتجلسوه على كرسي مارى مرقس الانجيلي

علم الكتاب والمتصرفون القبط بالاسكندرية، بأن الغرامة المالية المفروضة على البطرك يوحنا قد خفضت الى عشرة آلاف دينار، فأبدوا سرورهم، وطمأنوا البطرك بأن الأساقفة وكتاب الدواوين سيتحملون سدادها، وتعهدوا للوالي عبدالعزيز بن مروان بذلك، فأطلق سراح البطرك يوحنا، وعم الفرح والسرور قلوب القبط الأرثوذكس(١).

تعرض القبط وبطركهم اسحاق مرة أخرى في ولاية عبدالعزيز بن مروان، لبعض الأذى والضيق فقد كانت كنيستا الحبشة والنوبة تابعتين للكنيسة القبطية بالاسكندرية، فلما وقع سوء التفاهم بين ملكي البلدين، رأى البطرك القبطي اسحق، أن يكتب اليهما ليزيل ما بينهما من

(١) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ٣٣ وما بعدها جـ٢. ويشير الى أن عبدالعزيز بن مروان لما أحضر البطرك للاتفاق معه على دفع عشرة آلاف دينار، أمر باحضار وسادة كبيرة ليجلس عليها البطرك، وقال له أما تعلم أن السلطان لا يقاوم؟ فأجاب البطرك: السلطان نسمع منه أمره فيما يجب، ونخالف أمره فيما يغضب الله. فقد قال ربنا في الانجيل، لا تخافوا ممن يقتل الجسد، وليس له سلطان على النفس، ولكن خافوا ممن يقدر يهلك النفس والجسد جميعا، يعني الله القادر على ذلك وحده. عند ذلك قال له الأمير: الهك يحب الصدق والحق. فأجاب يوحنا: الهي حق كله، ليس فيه كذب، بل يهلك كل من ينطق بالكذب. فقال له الأمير: انك صادق وثقة. وان ما دفعه لك القبط بسبب مطالبتي لك بالأموال، ادفعه لي ولا أطلب منك أكثر من ذلك. وبذلك أطلق سراح يوحنا وخرج من دار الامارة في موكب حافل بالقراءة والترتيل حتى بلغ الكنيسة وقدس مع شعبه.

بخلاف ما جرت به العاده والقوانين. فعند ذلك سكنو ولم يجاوبوه بحرف واحد لعلمهم بغلطهم.

وبمعونة الله الذى يفتقد شعبه في كل حين ويضي وجهه على ميراثه، ذكر إنسان قديس كامل في فعل الخير، فثبت ذكره عند الجمع بتدبير نعمة الله، الذى هو المصباح المضى يوساب القس والقيم ببيعه القديس ابى مقار بوادى هبيب، وعند ذكره ابتهج قلبى وتهلل [وطاب قلوب الجميع به والاساقفه والكهنه لمعرفتهم به].

سوء تفاهم. فسعى قوم بالبطرك لدى عبدالعزيز، واخبروه بأن البطرك يراسل ملكى الحبشة والنوبة، فغضب عبد العزيز، وأمر باحضار البطرك ليقتله حتى يحول بينه وبين التخاطب مع ملكى دولتين أجنبيتين [١].

وبادر الكتاب القبط، بتحرير كتب أخرى، غير التى كتبها البطرك، وأعطوها للرسل المبعوثين الى ملكى الحبشة والنوبة، واستردوا الكتب الأولى التى كتبها البطرك ثم أخبروا الأمير عبدالعزيز، بأنهم استدعوا رسل البطرك واستردوا منهم الكتب التى كانوا يحملونها الى ملكى الحبشة والنوبة، وقرأ عبدالعزيز الكتب، فلم يجد فيها شينا يضر مصالحه، فهدأت ثورته وأطلق سراح البطرك[٢].

وتذكر الرواية القبطية أن الوالى عبدالعزيز بن مروان، قد أساء ـ آنذاك ـ الى القبط وبطركهم، اذ أمر بكسر جميع الصلبان فى كور مصر، سواء أكانت من الذهب أم الفضة كما كتب عدة رقاع، جعلها على أبواب كنائس مصر جميعها، وفيها: «محمد الرسول الكبير الذى لله وعيسى أيضا رسول الله، وان الله لم يلد ولم يولد»[٣].

(١) المصدر نفسه. ص ٢٤ جـ ٢.
(٢) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ٤٨ وما بعدها جـ٢.
(٣) المصدر نفسه، ص ٤٩ جـ٢.

واردت ان اذكر يسيرا من سيرته فى رهبنته والاعمال التى فعلها فخفت ان اقطع ذكر صفه الحال فى جلوسه، ولكنى اذكر ذلك فيما بعد ليبتهج قلب من يسمع سيرة هذا القديس.

فلما طابت قلوب الجمع به مع الاساقفه والكهنة لمعرفتهم به عند كونه مصاحبا للاب انبا مرقس فانفذو بعض الاساقفه وكهنة الاسكندريه الى الوادى وبينما هم سايرون قالو هكذا: ان كان الرب يختار تقدمة هذا الانسان فانا نجد باب قلايته

وكان الأصبغ بن عبدالعزيز بن مروان، يلى كثيرا من أمور مصر فى ولاية أبيه. وكان يحوذ طاعة الجميع. الا أنه كان مبغضا أشد البغض للقبط، ينزل بهم كل أذى ممكن. وقد احتضن شماسا يسمى بنيامين، وكان يظهر للأصبغ جميع أسرار القبط، كما ترجم له الانجيل وكتب القيامة وغيرها من الكتب الدينية الخاصة بالقبط الى اللغة العربية. وكان الأصبغ يحرص أشد الحرص على قراءتها، لينظر هل يشتمون فيها المسلمين ام لا. واستمر الأصبغ على موقفه العدائى من القبط[1].

وجد الملكانيون المخالفون للعقيدة الأرثوذكسية الفرصة سانحة أمامهم للايقاع بخصومهم فقدموا كل مساعدة ممكنة للأصبغ للايقاع بالقبط، وحرضوه على رهبانهم، وذهبوا الى أنهم يمتلكون أموالا وأملاكا كثيرة. فأمر الأصبغ باحصاء الرهبان فى جميع أنحاء البلاد المصرية، وفرض عليهم الجزية لأول مرة فى مصر الاسلامية، ومنع الأديرة من قبول رهبان جدد، كما ألزم الاساقفة فى مختلف الأقاليم بدفع ألفى دينار، زيادة عن خراج وساياهم.. وأمام هذه الشدائد اضطر كثير من القبط، الى ترك دينهم المسيحى واعتناق الاسلام[2].

(١) المصدر نفسه، ص ١٠٦ جـ٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٧ ، ١٠٨ جـ٢.

مفتوحا. فلما وصلو الى الدير بالغداه وقفو على باب قلايته فوجدوه قايما وقد خرج ليغلق الباب خلف اولاده، وقد مضو ليملو الما، فبهتو ونظر بعضهم الى بعض قايلين: قد تم ما قلناه ونظر اليهم المتمسك بالطهر والاتضاع سجد لهم وسلم عليهم ودخل بهم الى قلايته بسرعه. فلما سارو داخل بيته ضربو بيدهم اليه وطرحو القيد الحديد فى رجليه وقالو له : انت بالحقيقه مستحق البطريركيه. فبدا ان يبكى بكا عظيما ويقول: ما

وتعرض القبط أيضا لبعض المضايقات فى ولاية عبدالله بن عبدالملك الذى ولى مصر بعد عبدالعزيز بن مروان (٨٦ ـ ٩٠هـ = ٧٠٥ ـ ٧٠٩م) فقد انتهج هذا الوالى سياسة اضطهاد القبط، ولجأ أحيانا الى وسائل التعذيب، والى القتل أحيانا أخرى[١]. وتصف بتشر[٢] فترة حكم هذا الوالى، بأنها فترة شؤم، عانى القبط منها، فى حين كانوا ينتظرون منه العدل والانصاف، ولكنه خيب ظنهم.

جرت العادة ـ كما ذكرنا ـ على أن يخرج البطرك من الاسكندرية. الى الفسطاط، للسلام على الوالى الجديد وتهنئته. فلما ولى عبدالله ولاية مصر، خرج اليه البطرك الاكسندروس لتهنئته بامارة مصر والسلام عليه. ففرض عبدالله على البطرك غرامة مالية قدرها ثلاثة آلاف دينار، وسلمه لأحد حجابه، وأمره باهانته والتضييق عليه، حتى يسدد هذه الغرامة[٣]. وحاول القبط تخفيض مقدار هذه الغرامة، ولكن دون جدوى. وانتشر القلق بين عامة القبط والرهبان والاساقفة، حتى اضطر أحد الشمامسة أن يطلب من الوالى عبدالله، ان يسلمه البطرك،

(١) المصدر نفسه، ص ١١٣ وما بعدها جـ ٢.
(٢) تاريخ الأمة القبطية، م٣، ص١٧٢.
(٣) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ١١٤ وما بعدها جـ ٢.

ربح رجل ناقص يدخل تحت هذا النيـر العظيـم.
فعزوه وطيبو قلبه، واجتمعو في البيعه واخدو السراير المقدسه، لانه كان عيد الملاك ميخايل التاني عشر من هتور. وتبارك من الابا القديسين وسالهم ان يدعو له وان يتم الله سعيه، فدعو له وباركو عليه جميعا من عمق قلوبهم، وودعوه باكين لانهم عدمو من ديرهم انسانا قديسا فيه روح الله، فلما سارو ووصلو ظهر الصخره وهو معهم سمعو صوتا خلفه قايلا: الرب يصحبك يا

ليتجول به في مدن الوجه البحرى لجمع المبلغ المطلوب من القبط ورؤسائهم في هذه البلاد واستجاب الوالي لطلب الشماس وانتهى الأمر، بأن سدد البطرك الغرامة المالية[1].

وكان عبدالله يأمر أعوانه. بأن يجمعوا له الأساقفة والرهبان، فيسخر منهم. ويسمعهم ما لا يحبون، وكان يقول لهم: «أنتم عندى مثل الرومان. ومن قتل منكم واحدا، غفر الله له، لأنكم اعداء الله»[2].

وبعد عبدالله، تولى حكم مصر، من هو أشد منه قسوة، فقاسى القبط في عهده كثيرا من الشدائد، وهو الوالي قرة بن شريك (٩٠ ـ ٩٦هـ = ٧٠٩ ـ ٧١٥م) الذى أساء معاملة القبط، وسجن كثيرا منهم، كما ضيق على البيع والرهبان[3].

حدث عندما قدم قرة بن شريك الى مصر، أن خرج البطرك الاكسندروس ـ كما جرت العادة ـ للسلام عليه وتهنئته. ولكن قرة بن شريك ألزمه بدفع غرامة مالية قدرها ثلاثة آلاف دينار، كما دفع من قبل لسلفه عبدالله. وأصر قرة على طلبه، على الرغم من أن البطرك أكد

(١) المصدر نفسه، ص ١١٦ وما بعدها جـ ٢.
(٢) المصدر نفسه، ص ١١٦ وما بعدها جـ ٢.
(٣) المصدر نفسه، ص ١١٩ وما بعدها جـ ٢.

يوساب ويقويك لتصبر على البلايا التى تحل بك وبها تنال اكليل الحياه. فلما سمع القديس والذين معه هذا الصوت العظيم ولم ينظرو احد تعجبو وبهتو وعلمو ان سوف تناله تجارب عظيمه واحزان شديده.

ووصلو الى مدينة اسكندريه، فلما سمع الجمع خرجو للقاهم متهللين ممجدين الله، فعرفوهم ما جرى لهم فى الطريق وكيف وجدو باب قلايته مفتوحا، واخدهم اياه والصوت الذى سمعوه

له، أنه لا يمتلك منها شيئا، بل انه لا يقدر على أداء خراج الكنائس، وأنه انما جمع المبلغ الذى دفعه لسلفه من عامة القبط وغيرهم[1].

اضطر البطرك أمام اصرار والى مصر على دفع الغرامة التى حددها، الى التجول ثانية فى مدن وقرى الصعيد، ليجمع من القبط ما يقدرون على دفعه اليه. وقد رحب به شعب الصعيد ترحيبا كبيرا، لأنه البطرك الوحيد الذى زار الصعيد منذ عهد بنيامين وتمكن البطرك من دفع ألف دينار لقرة بن شريك، بعد سنتين، لحقه فيها كثير من الضيق[2].

(١) المصدر نفسه، ص ١٢٣ جـ٢. وما بعدها. ويذكر ساويرس أن البطرك الأكسندروس قال لقرة بن شريك عندما طالبه بالمال: «شرعنا يأمرنا أن لا يكون لنا قنية. ولا نكنز ذهب ولا فضة، بل تصرف حاجة يوم بيوم، لما نحتاجه من الكلف للفقراء والمحتاجين. وانما فعل بى عبدالله ما فعل بسعاية الناس السوء، حتى كلفنى وألزمنى ثلاث ألاف دينار. ولم يوجد معى منها شيء. حتى أخرجنى الى البلاد، كالمكدى اتصدق. حتى وفق الله لى. ما طيب به نفسى. وعلىَّ الى الآن خمسمائة دينار، فمن أين يكون معى شيء». وامتنع البطرك أن يقسم على الا يوجد عنده أموال.

(٢) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص١٢٣ وما بعدها جـ٢. ويقص أنه من سوء حظ هذا البطرك ان عثر راهبان. على خمسة كيزان نحاس مملوءة مالا من سكة الرومان. فأخفيا واحدا منها لهما، وأعطيا الأربعة الاخرى لأبيهما. وقد بادر بدوره الى ارسال هذه الأموال الى البطرك ليدفع منها الغرامة المطلوبة منه، فتسلمها وكيل البطرك الاكسندروس وكاتبه نيابة عنه فى أثناء تغيبه فى بلاد الصعيد. =

خلفهم عند طريق الشارويم ظهر الصخر. فمجدوا الله صانع العجايب وحده في كل حين.

واعلموا الامير والي اسكندريه، وكان اسمه عبدالله بن يزيد، يوصولهم بهذا القديس لياخذو رايه قبل قسمته وامره كما جرت العادة في كل زمان. فامتنع الوالي ولم يمكنهم من ذلك وقال: اسحق بن اندونه الذي من مصر انفذ الي ووعدني بالف دينار اذا جلس على هذا الكرسي، فان كنتم قد اخترتم هذا فادفعو لي ما قد وعدني به اسحق.

ولم تنته المضايقات التي سببها والي مصر قرة بن شريك للبطرك القبطي الاكسندروس عند هذا الحد. اذ ما لبث أن أوقع بعض المغرضين بالبطرك، فقد أبلغوا قرة بن شريك بأن لدى هذا البطرك من يضربون له الدنانير. فقبض قرة على البطرك وأغلق البطركية، وعاقب البطرك وأصحابه أشد عقوبة. ولما ثبت بطلان هذه السعاية وكذبها، أطلق سراحهم، وأمر بفتح البطركية(١).

ثم حدث بعد ذلك، أن ثار كهنة الاسكندرية وقبطها على البطرك، وألزموه بدفع رسوم مالية لهم، الا أنه لم يكن لديه الأموال الكافية للاستجابة لطلبهم، فأساءوا اليه وأهانوه، وحاول البطرك الدفاع عن نفسه، فقال لهم، ان أموال الكنائس قد نهبها الوالي قرة بن

= وحدث بعد ذلك أن ترك الراهبان الرهبنة، ولبسا لباسا فاخرا، مما لفت اليهما الأنظار. واضطر أحدهما الى الاعتراف بحقيقة الامر. فوصل الخبر الى الوالي قرة بن شريك فأمر بغلق الابسقوبية ـ الدار البطركية ـ والاستيلاء على ما فيها وفي غيرها من البيع من الأواني والذهب والفضة والكتب. وأساء الى أصحاب البطرك، فأخذ أربعة الكيزان المذكورة. كما أحضر البطرك من الصعيد، وأراد قتله، الا أنه طرحه في السجن وهو مكبل بالحديد، وبعد سبعة أيام أفرج عنه، وألزمه في الوقت نفسه بدفع الغرامة المطلوبة منه.

(١) المصدر نفسه، ص ١٢٩ جـ٢.

ومنعهم من قسمته اياما وكانو الابا الاساقفه ملازمين داره طالبين منه متضرعين في تمكينهم، وهو لا يفعل لمحبته في المال. فاجتمعو الاساقفه الذين من المشرق وقالو له: ليس نحن تحت سلطانك فان لم تمكنا والا مضينا الى فسطاط مصر ونقسمه هناك. فلما نظر ثباتهم وانهم يفعلون ما ذكروه فاذن لهم، فاجتمعو الى بيعة مرقس الانجيلي على ما جرت به العاده في احد وعشرين يوما من هتور سنة خمس مايه وسبع واربعين

شريك، حتى انهم أصبحوا في القداس يستخدمون كاسات من الزجاج بدلا من الكاسات الذهبية والفضية(١).

وكان الوالي أسامة بن زيد (٩٦ ـ ٩٩ هـ = ٧١٥ ـ ٧١٨م) أشد قسوة ممن سبقه من ولاة مصر في العصر الأموي، كما كان أبغضهم للقبط خاصة، فقد أمر بعدم ترهب أي راهب جديد، وأحصى الرهبان في مصر، وأمر أن يوسم كل واحد منهم بحلقة حديدية، توضع في يده اليسرى، وعليها اسم بيعته وديره، وألا ينقش الصليب على هذه الحلقة وأن يكون التاريخ المسجل على الحلقة هو التاريخ الهجري (سنة ٩٦هـ) وعاقب الوالي الرهبان الذين خالفوا هذه الأوامر، عقابا شديدا، وصل الى حد القتل أحيانا(٢).

وكان أسامة بن زيد، مثله مثل بعض الولاة، حريصا على جمع المال بأية وسيلة فأمر عماله بالاستيلاء على بعض الممتلكات. وكان يقول لعماله: «سلمت لكم أنفس الناس، فاحملوا القماش والمال والبهائم، وكل ما تجدونه لهم، ولا تراعوا أحدا، وأي موضع نزلتموه، فانهبوه»(٣).

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٣١ جـ٢.
(٢) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ١٥٣جـ٢ ، المقريزي: الخطط، جـ٤، ص٣٩٥.
(٣) ابن المقفع: المصدر السابق، ص ١٥٥ جـ٢. ابن العميد، المصدر السابق، ص٦٩ ويقول ابن المقفع:=

للشهدا وكملو الصلاة على الهيكل وبدو ان يصعدو الى الرتبه البطركيه يباركون ويمجدون الله.

والان فاريد هاهنا ان اذكر سيرته منذ صباه ذلك الطوباني القديس ليمجد الله كلمن سمعها قبل ان اذكر تمام قسمته وما جرى عليه من الشدايد وصبره عليها.

وهذا القديس من ابا[ء] اخيار مشهورين من مدينة منوف العليا معروفين من مقدمي مصر، فلما ماتو بقي القديس يتيما فنظره انسان ارخن محب

وطلب أسامة من الرهبان ألف دينار، وأغلق أبواب البيع. كما طلب من رؤسائهم دينارا عن كل واحد منهم، وعذبهم في سبيل أداء ذلك. وهددهم بهدم جميع الكنائس والاديرة في مصر. وانتهت هذه المظالم بنهاية عهد أسامة، فقد توفى الخليفة الأموى سليمان بن عبدالملك، وولى الخلافة عمر بن عبدالعزيز الذى عزل أسامة عن حكم مصر[١] (في سنة ٩٩هـ = ٧١٨م).

ورغم ما نعرفه من تسامح وعدل عمر بن عبدالعزيز، فان أهل الذمة عامة، والقبط منهم خاصة، تعرضوا فى عهده للمضايقات. فقد نهى عن استخدامهم فى الادارة وأعمال الحكومة ـ كما ذكرنا آنفا ـ وكتب الى ولاته، أن من أراد أن يستمر فى الاقامة فى العمل بالدواوين، فعليه اعتناق الاسلام[٢]. كما شدد عليهم فى الملبس والركوب.

وأبدى ساويرس حيرته، من أوامر عمر بن عبدالعزيز، فهو يأمر دائما ولاته بالعدل والرحمة والتسامح، وقام بكثير من الاصلاحات التى عادت بالفائدة على المسلمين والذميين ورفع

= المصدر نفسه والصفحة ـ ان عماله كانوا تنفيذا لأوامره يقلعون الأعمدة والأخشاب. ويبيعون ما يساوى عشرة دنانير بدينار.

(١) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ١٦١ جـ٢، ابن العميد: تاريخ المسلمين، ص ٦٩.

(٢) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ١٦٣ جـ٢.

الله كان متولى كورة مصر اسمه تادرس من اهل نقيوس وهو يتيم، فاخذه اليه ليصيره له ولدا محبة للمسيح لعظم جنسه. واقام عنده مدة طويله ففكر في نفسه وقال: هو دا انا اليوم يتيم وما لى اجود من البريه المقدسه، فهي دار اليتاما. فمضى الى الريس الذى هو عنده وقد رباه وساله بتواضع ان يفسح له فى المسير الى البريه المقدسه، فقال له: يا ولدى انت من جنس جيد وتربيت في نعمه، فيلحقك تعب فى البريه ولا تقدر على شقاها. فلم يمكنه من الخروج وانفده الى مدينة اسكندريه الى

الخراج عن الكنيسة والأساقفة. ولكن الخليفة فى الوقت نفسه يدعو أهل الذمة الى اعتناق الاسلام، ويشجع على اعتناقه برفع الجزية عمن أسلم من الذميين ويضيفها على من يبقى على دينه. وعليه يشبهه ساويرس بالدجال، ويقول: ذلك لأنه يصنع خيرا كثيرا أمام الناس ويفعل السوء أمام الله[1].

ثم ولى الخلافة يزيد بن عبدالملك بعد وفاة عمر بن عبدالعزيز (١٠١ ـ ١٠٥هـ = ٧١٩ ـ ٧٢٣م) وكان شديد العداء للذميين، وخاصة القبط، الذين عانوا الكثير من الشدائد فى عهده. وأمر يزيد (فى سنة ١٠٤هـ) بكسر الصلبان. وازالة الصور من البيع فى مختلف أرجاء الدولة الاسلامية[2].

(١) المصدر نفسه، ص ١٦٢ جـ٢.
(٢) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ١٦٥ جـ٢. أبن العميد: تاريخ المسلمين، ص٧٠، المقريزى: الخطط، جـ٤، ص٣٩٥. ويجدر بنا الاشارة الى أن الامبراطور البيزنطى ليو الأيسورى، أصدر قرارا بحظر الصور والتماثيل الدينية، كما فعل الخليفة يزيد بن عبدلملك، ولكن قرار الامبراطور كان فى سنة ١٠٨هـ ٧٢٦م. انظر سيدة كاشف: مصر فى فجر الاسلام، ص ٢٠٢.
ويشير المقريزى ـ الخطط، جـ٤، ص٣٩٧ ـ الى أنه فى بطركية قسما أمر امبراطور الرومان نوفيل بن خائيل سنة ٢٤٤هـ بمحو الصور من الكنائس. لأنه سمع أن قيم كنيسة عمل فى صورة مريم شبه ثدى، يخرج منه لبن فى يوم عيدها. واتخذ ذلك وسيلة لجمع المال. فقتل هذا القيم، وأمر بمحو الصور من=

الاب البطرك انبا مرقس وكتب اليه كتابا يذكر فيه له قصة حاله وسلمه اليه مثل الوديعه.

ففرح به القديس مرقس وسلمه الى انسان شماس كان له [رعاية] ولد [أولاد] القلاية يومئذ وكان عالما ليعلمه الكتابة بلغة اليوناني(*). وكانت معونة الله معه ولا تدعه ان ينسى ما كان اراده من المضى الى الديارات. فلما اقام عند الاب القديس انبا مرقس اياما قلايل ضرب له المطانوه وساله ان ينفده الى الجبل المقدس، فنظر شهوته واظهر الله

(*) من الواضح أن تعليم اللغة اليونانية كان سببه أن معظم التراث الدينى المسيحى فى هذا الوقت كان مكتوب بها.

أما الخليفة هشام بن عبدالملك (١٠٥ ـ ١٢٦هـ = ٧٢٣ ـ ٧٤٤م) فقد أبدى عطفه، وبسط رعايته على القبط الأرثوذكس في مصر. وكان يحرص على أن يراعى فى معاملتهم شروط العهد التى منحها عمرو بن العاص للقبط بعد الفتح العربى. وولى الخليفة عبيدالله بن الحبحاب على خراج مصر، وأوصاه بالقبط وغيرهم من المصريين(١). ولكن هذا الوالى، لم ينفذ أوامر الخليفة ووصاياه. فحينما قدم عبيدالله الى مصر، أوقع الظلم على القبط وغيرهم من أهل الذمة فى مصر. وأمر بوسم جميع القبط على أيديهم، بعلامة صورة الأسد، وقطع يد من لم ينفذ هذا الأمر. الا أن البطرك الاكسندروس امتنع عن ذلك، وأصر على الخروج الى

= الكنائس، وكتب ذلك الى قسما بطريرك القبط فى مصر، ولكنه ما لبث أن سمح باعادة الصور الى الكنائس ثانية.

(١) ابن العميد: تاريخ المسلمين، ص٧٠. ويقول انه ولى عبدالله ابن صفوان. فى حين يسميه ساويرس عبيدالله، فقط، انظر: تاريخ البطاركة، ص ١٦١ جـ١. ويقول المقريزى: ان الوالى المذكور هو حنظلة بن صفوان. الخطط، جـ٤، ص٣٩٥ ـ ونرى أن الأصح هو عبيدالله بن الحبحاب الذى ولاه الخليفة على خراج مصر (١٠٥ ـ ١١٦ هـ = ٧٢٣ ـ ٧٣٤م) فى حين كان حنظلة بن صفوان يلى أمرة مصر منذ سنة ١٠٢هـ = ٧٢٠م. ثم عزله هشام وجعل مكانه محمد بن عبدالملك، فى سنة ١٠٥هـ = ٧٢٣م. انظر سيدة كاشف: مصر فى فجر الاسلام، ص٣٧٠ (جدول بأسماء الولاة وعمال الخراج) ويذكر ساويرس أن الخليفة هشام كان ينتهج السياسة نفسها بالنسبة للمسيحيين الأرثوذكس فى بلاد الشام، وكان يقرب اليه بطركهم أثناسيوس. كما كان يقدم له الكثير من الأموال للكنائس والأديرة.

له ما يجده الصبى من النعمه فانفذه سريعا الى دير ابى مقار الى عند قس قديس اغومنس اسمه بولا، وكان يتعجب الناس من سيرته وان الله يظهر له اسرارا ونبوات، فلما نظر الى الصبى فرح به جدا وبحسن طريقته وتواضعه.

ولم يزل يغديه بالتعاليم المقدسه التى للابا الرهبان لاسيما لما نظر طريقته، وكان يبارك عليه ليلا ونهارا فاستحق ان يصير شماسا.

وبعد قليل استحق ان يكون قسا بيد الاب انبا مرقس البطرك.

الفسطاط لمقابلة والى مصر، لعله يعفيه من الوسم. ولكن عبيدالله أصر على ضرورة وسمه أسوة بجميع قبط مصر. وأصر البطرك على موقفه، ولم ينقذه من تنفيذ الأمر سوى وفاته[1].

والزم هذا الوالى أنبا صمول أسقف وسيم[2] بدفع ألف دينار غرامة لبيت المال الا أنه كان فقيرا، ولا يصل الى قوت يومه. والتمس من الوالى اعفاءه من الغرامة، فأمر الوالى الشرطة بالقبض عليه، وسلمته الشرطة لنفر من البربر، ألحقوا به صنوفا مختلفة من العذاب، حتى جمع له القبط، ثلاثمائة دينار، قدمها للوالى، فأفرج عنه، بعد أن أوشك على الموت[3].

والحقيقة التاريخية، أن المصريين الذين اسلموا نالوا من مظالم هذا الوالى الأموى، ما ناله القبط أيضا وكان عبيدالله بن الحبحاب عامل الخراج (١٠٥ ـ ١١٦هـ) يتبع سياسة ظالمة نحو أهالى مصر على اختلاف أديانهم. وتقدم بعض المسلمين، بشكواهم الى الخليفة هشام بن

(١) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ١٧٤ وما بعدها جـ٢.
(٢) أوسيم قرية على بعد ميل من الفسطاط فى الطريق الى الجيزة. انظر: ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٢٠، ص٢٧٧.
(٣) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ١٧٧ وما بعدها جـ٢. ويذكر أن سبب ذلك هو اتهام أنبا صمويل بتحريضه البطرك على ألا يقبل الوسم، وأشار عليه بالهروب الى الاسكندرية. وعليه طلب من عبيدالله مهلة ثلاثة أيام حتى يفكر فى الأمر، وبذلك يتمكن من الخروج الى الاسكندرية سرا. ولكن البطرك مات فى الطريق قبل وصوله الاسكندرية.

ولما كبر هذا الاغومنس بولس اعتل عللا مختلفه وكان هذا القديس يخدمه النهار والليل برجا وامانه لينال بركته. وكان هذا الشيخ يجعل يده على راسه ويباركه بركات عظيمه لا تحصى، فلما قربت وفاته بدا ان يقول للصبى الذى حلت روحه عليه: يا يوساب هو ذا الرب قد انعم عليك بنعمه وميراثه لترثه. ثم قال مثل قول الرب لبطرس: وانت ايضا ارجع زمانا وثبت اخوتك الذين هم قد صارو مشاركين لك فى تعب هذه الخدمه وقدمهم كهنه. وكان له اولاد عنده

عبدالملك الذى بادر بعزله عن خراج مصر، وجعل مكانه ابنه القاسم عبيدالله، الذى كان أكثر ظلما وقسوة من أبيه[1].

وتعرض القبط والبطرك أنبا خايال أيضا فى ولاية حفص ابن الوليد، لكثير من المضايقات ورأى بعض القبط الأرثوذكس الخلاص منها، اما بالهجرة من القطر المصرى أو باعتناق الاسلام. وبلغ عدد من من اعتنق الاسلام منهم، أربعة وعشرين ألف قبطى. وأبدى البطرك ألمه وأسفه لهذه الأحداث. ولكن هذه المضايقات، انتهت بنهاية ولاية حفص بن الوليد[2].

نعمت مصر، بعد ذلك، بالهدوء والأمن فى ولاية حسان بن عتاهية (سنة ١٢٧هـ ـ ٧٤٥م) الذى بسط رعايته وحمايته على البيع والأساقفة والرهبان. وكان دائما على علاقة طيبة مع البطرك أنبا خايال. وقد انتهج من جاء بعده من الولاة هذه السياسة نفسها، حتى اذا ولى حكم مصر عبدالملك بن مروان فى (سنة ١٣٢هـ ـ ٧٥١م) ـ فى عهد الخليفة مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ـ عانى القبط كثير من المضايقات، ذلك أن عبدالملك كان

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٩٦ جـ٢.

ويشبه ساويرس ذلك بما جاء فى الانجيل: «ان كل شجرة ردينة تثمر ثمرة ردينة».

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٦٦ وما بعدها جـ٢. السنكسار، جـ٢، ص٣٤.

يخدمونه [و] غيره فتم قوله عند جلوسه على الكرسى واستحقو هولايك الاخوه له فى الخدمة النعمه الشماسيه والقسيسيه مدة فى بيعة القديس ابى مقار. وذكرت هذا ليكون منفعه لكلمن سمعه من الاولاد الرهبان ليعلمو ان الله يصطفى من يخدمه بنية صادقه.

والان فاعود الى بقية خبر هذا القديس الاب الجليل انبا يوساب. لما جلس على الكرسى الانجيلى

شديد الكراهية للقبط. وتفرغ عبدالملك لجمع أكبر قدر من الذهب والفضة وغيرهما. ليبعثها الى الخليفة(١).

واعتقل عبدالملك البطرك. وبعض الأساقفة، وأساء معاملتهم، كما اعتقل أيضا ثلاثمائة رجل وامرأة، وألقاهم جميعا فى السجن(٢). وبعد عدة أيام، استدعى عبدالملك اليه البطرك، وطلب منه دفع خراج البيع، وشدد فى التضييق عليه، فطلب البطرك من الوالى اطلاق سبيله، ليتجول فى مدن وقرى الصعيد، ليجمع الأموال المطلوبة منه، فكان ذلك. ثم أطلق عبدالملك سراح البطرك بعد أن قدم له الأموال التى جمعها من القبط(٣).

وحدث أن اعتقل عبدالملك البطرك مرة ثانية، مما أثار غضب ملك النوبة كرياكوس وجهز فرقة من الجند، ليتقدم بها الى مصر، لقتال عبدالملك، وليرغمه على أن يطلق سراح البطرك حتى أنه وصل إلى بركة الحبش جنوب الفسطاط، مما أثار مخاوف عبدالملك، فأطلق سراح البطرك، وعهد اليه بتحسين العلاقة بينه وبين ملك النوبة(٤).

(١) المصدر نفسه، ص٢٧٢.
(٢) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ٣٠٩ وما بعدها جـ٢.، السنكسار، جـ٢، ص٣٤ ـ ٣٥.
(٣) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ٣١٨ وما بعدها جـ٢..
(٤) السنكسار، جـ٢، ص٣٥ وكذلك ساويرس ص ٣٦٣ وما بعدها جـ٢. =

وكانت البيعه ليس لها شى فبدا ان يعمل تذكارات كروما وطواحين ومعاصر للبيعه، فلم يصبر عليه مبغض الخير الشيطان كعادته فاثار حربا عظيما فى بداية قسمته فى الاعمال التى شرقى مصر وغربيها، حتى انهم كانو ينهبون كل المواضع ويقتلون، وكان حرب عظيم فى كل مكان، كما قال عاموس النبى: ان هذا ما قاله الرب الضابط ان يكون نوح [بكاء] فى كل موضع. فلما نظر الاب القديس ذلك حزن وسال الرب ان يستر على

تعرض القبط أيضا لبعض المضايقات، فى أثناء الصراع بين الأمويين والعباسيين. فلما فر مروان بن محمد ـ آخر الخلفاء الأمويين ـ الى مصر، عاث جنده فى البلاد فسادا، ونهبوا رؤساء القبط، وسبوا النساء والأطفال، واستولوا على الأموال. كما هرب كثير من القس والرهبان خوفا من بطش مروان وجنده(١).

واعتقل مروان البطرك اليعقوبى أنبا خايال، والبطرك الملكانى قزما. ودفع قزما مبلغا من المال، فأطلق مروان سراحه، فى حين بقى أنبا خايال فى معتقله يقاسى العذاب، وتردد مروان فى قتله. ثم قال: «ما فائدتنا فى قتل هذا الشيخ، وقد كان منع البشامرة عن قتالنا، وكتب اليهم فما قبلوا منه. لكن نحمله معنا، ونجعله أيضا يكتب لهم، ويقول: ان كل ما حل به لأجلكم»(٢).

Quatrémere: Mémoire Géographiques et histoiriques sur l'Egypte, T. 2, pp. 56-57. et. = Fowler: Chris-tian Egypt, p. 61. and. Sanley Lane-Poole: A history of Egypt in the Middle ages, p. 27.

(١) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ٣٩٧ وما بعدها جـ٢..
(٢) المصدر نفسه، ص ٣٩٨ وما بعدها جـ ٢.

البيعه ويحفظها والشعب الارتدكسى فى كل موضع ،ويدعو ويقول كما قال داود فى المزمور: يارب أذكر مجمعك الذى كان من البدى ونجيت عصا [سبط] ميراثك،جبل صهيون الذى سكنت فيه، ارفع يدك على كبرياهم [كبرائهم] إلى الأبد لان كتيرة هى الاسوا[ء] التى صنعها العدو.

ولم يفتر الشيطان من اثارة الحروب والقتل. وكان متولى الخراج فى ذلك الزمان رجلان،

ولما وصل جيش أبى مسلم الخراسانى الى مصر، هرب جند مروان الى الصعيد. وهناك قتلوا كثيرا من القبط، ونهبوا أموالهم، وسبوا نساءهم وأطفالهم، وأحرقوا الديارات بمن فيها من الرهبان والراهبات[١]. ويشير بعض المؤرخين الى أن جند مروان كانت تدخل مدن الصعيد، فتقتل كثيرا من أهلها، وتهدم ما بها من الكنائس[٢].

وفى الحقيقة تعرض القبط جميعا وبطركهم أنبا خايال، خلال تواجد مروان بن محمد فى مصر، لشدائد عظيمة، فقد أراد مروان قتل البطرك عدة مرات، ولكنه كان فى كل مرة يتراجع عن قتله وقد انتقل مروان وبعض جنده الى الجيزة عندما وصل الجيش العباسى، ومروا فى أثناء ذلك على دير راهبات، فأسروهن جميعا[٣].

(١) المصدر نفسه، ص ٤٠٢ جـ٢، ابن العميد: تاريخ المسلمين، ص٩٩.
المقريزى: الخطط، جـ٤، ص٢٩٥.
(٢) أبو صالح الأرمنى، ص٩٨.
ويذكر من بين هذه المدن مدينة طما ويبلغ عدد سكانها خمسة عشر ألف قبطى، وليس بينهم يهودى واحد. وكان لهم ست وثلاثون كنيسة. وقد أرسل مروان بن محمد فرقه من الجند، فقتلت الكثير من أهل طما، وشردت آخرين. كما هدمت الكنائس ما عدا كنيسة أبى مينا، فى نظير تأدية ثلاثة آلاف دينار فلم يتمكن القبط الا من أداء ألفى دينار، فأصبح ثلث الكنيسة مسجدا للمسلمين.
(٣) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ٤٠٣ وما بعدها جـ٢. ابن العميد تاريخ المسلمين، ص٩٩.

احدهما اسمه احمد بن الاسبط، والاخر إبراهيم
بن تميم. هذان مع ما كانو الناس عليه من البلايا
لا يدعان طلب الخراج بغير رحمه، وكانو الناس
فى ضيق زايد لا يحصى. اصعب ما عليهم ما
يطلبه منهم متوليا الخراج، وطلب ما لا يقدرون
عليه. وبعد هذا انزل الله، الكريم باحكامه الحق،
غلا عظيما على كورة مصر حتى ان القمح بلغ
خمس ويبات بدينار. ومات بالجوع خلق كثير من
النسا والاطفال والصبيان والشيوخ والشبان ومن

ولما تغلب العباسيون على الخليفة مروان بن محمد في مصر، وقامت الخلافة العباسية، أطلق العباسيون سراح البطرك، ومن معه من المعتقلين. وقد أحسن الجند العباسيون للقبط وبطركهم، وطلبوا من كل قبطى أن يعلق صليبا من الذهب أو الفضة أو النحاس على جبهته وعلى ثوبه بل وعلى باب بيته، حتى يمكن التعرف عليهم دون غيرهم من المصريين، لتوفير الحماية لهم(١). ومع ذلك ما لبث أن ضوعفت الجزية والخراج على المصريين. فلما تقدم البطرك بالشكوى، قيل له: ان هذا أمر من الخليفة لأنه علم أن أهل مصر اذا وجدوا راحة سنة واحدة، نافقوا وحاربوا، كما حارب البشامرة مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين(٢).

والواقع، أنه كما تعرض أهل الذمة ـ وخاصة القبط ـ للمضايقات فى فترات معينة طوال العصر الأموى، تعرضوا أيضا لبعض الشدائد في عهد الخلافة العباسية فى بعض الفترات. نذكر منها، فترة النزاع بين الأمين والمأمون على الخلافة ـ رغم أن المصريين لم يكن لهم أى شأن فى ذلك ـ ، بعد وفاة أبيهما هارون الرشيد (١٩٣هـ ٨٠٩م) وما صاحب ذلك من تنافس بين الزعماء على الرئاسة ومناطق النفوذ فى مصر وانقسمت البلاد المصرية بين الزعماء

(١) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ٤٥٦ جـ٢.
(٢) المصدر نفسه، ص ٤٦٥ وما بعدها جـ ٢.

جـميع النــاس مـا لا يحـصى عـدده، مـن شـدة الجوع.

وكان متولى الخراج يوذى الناس فى كل مكان واكثر النصارى البشموريين كانوا يعذبونهم بعذاب شديد مثل بنى اسرايل. الى ان باعو اولادهم فى الخراج من كثر العذاب.

لانهم كـــانو يربطونهم فى الطواحين بدلا من الدواب ويضربونهم حتى يطحنوا مثل الدواب.

المتنافسين من العرب، فصار لعبدالعزيز الجروى شرقى الدلتا، فى حين ساد نفوذ السرى بن الحكم من مصر الى أسوان. أما قبيلتا لخم وجذام، فقد سيطرتا على غربى مصر، والاسكندرية ومريوط والبحيرة وأعمالها، وضيقوا على أهالى الاسكندرية[١] وكل أهالى مصر.

وخلال هذه الاضطرابات نزلت جماعة من القراصنة الأندلسيين فى مدينة الاسكندرية، وجاءوا بأعداد ضخمة من الرقيق والسبى. وكانوا يبيعونهم فى أسواق الاسكندرية، واشترى منهم البطرك اليعقوبى مرقص، حوالى ستة آلاف، من بينهم رهبان وقسس وشمامسة ونساء وأطفال، وقد أعتقهم البطرك مرقص، وجعل لهم حرية البقاء فى مصر أو الخروج الى بلادهم فاذا اختاروا مغادرة البلاد، كان يدفع لهم نفقات الرحيل حتى يبلغوا بلادهم[٢]. ويبدو أن الأندلسيين، كانوا يطردون سكان الاسكندرية من ديارهم، سواء من القبط أو اليهود ـ ويسكنون فيها[٣].

طمع الأندلسيون فى السيطرة على مدينة الاسكندرية. فحاربوا قبيلتى لخم وجذام وقتل فى

(١) المصدر نفسه، ص ٦٨٠ جـ٢.
(2) Chronique de Michel Le Syrien, T. 3, fasc. I, pp. 23-24.
(٣) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ٦٨١ وما بعدها جـ٢..

وكان الذى يعذبهم رجلا اسمه غيث. وتمادت عليهم الايام وانتهو الى الموت، فلما نظرو اهل البشموريين ان ليس لهم موضع يخرجون منه وموضعهم لا يقدر عسكر يسلكه لكثرة الوحلات فيه وما يعرف طرقه الاهم، فبدو أن ينافقو ويمتنعو ان يدفعو خراجا واتفقو وتامرو على ذلك.

وكان الملك فى ذلك الوقت عبد الله المامون ابن هرون الرشيد، ولما انتهى اليه حال مصر وما

أثناء ذلك كثير من أهالى الاسكندرية، سواء من القبط أو اليهود أو المسلمين. كما أحرقت معظم أحياء المدينة، وكثير من الكنائس. وعاث الأندلسيون فى المدينة نهبا وسلبا. وقتلا وتخريبا، مما اضطر البطرك مرقص الى مغادرة الاسكندرية، وقضى خمس سنوات فى ضيق وعذاب[1]. وتمكن أحد رؤساء القبط ويسمى مقارة بن ثابت النبراوى ـ من أهل سمنود ـ من الحصول، من عبدالعزيز الجروى على تصريح، يسمح فيه للبطرك، بالقدوم الى نبروه فى أمن وسلام[2]. وبالرغم من ذلك واصل البطرك اهتمامه ببيع الاسكندرية، وبيعة أبى مينا بمريوط[3].

(1) Chronic de Michel, T. 3, fasc. I, p. 60.

(٢) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ص ٦٩٣ وما بعدها جـ٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٧٠٣جـ٢، حاول عبدالعزيز الجروى أن يتدخل فى تعيين البطرك الجديد بعد وفاة الأب مرقص ورفض القبط هذا التدخل، وعينوا البطرك يعقوب. فغضب لذلك عبدالعزيز الجروى، وأقسم بضرورة قتل الأساقفة، وتخريب ما بقى من كنائس مصر اذا لم يسلم يعقوب نفسه، ولكنه توفى قبل أن يصله البطرك يعقوب. انظر بتشر: تاريخ الأمة القبطية، م٢، ص٢٢٠. ويذكر ساويرس أن سبب العداء بين البطرك يعقوب وبين عبدالعزيز الجروى، أن الأخير طلب من البطرك تعيين أحد الأشخاص أسقفا فرفض البطرك لمخالفة ذلك للقوانين الكنسية. فغضب عبدالعزيز وطلب البطرك اليه، وهدده اذا رفض قبوله. ولكن لم يتم ذلك لوفاة عبدالعزيز الجروى. انظر: ساويرس : ص ٧٧٤ جـ٢.

فعلوه المتغلبون والمتولون، انفذ اليهم عسكرا مقدمه امير اسمه الافشين فقتل الذين نافقو [البشمور] والخوارج من شرقي مصر، الى ان انتهى الى المدينة العظمى اسكندريه فاراد ان يقتل كلمن فيها من اهلها، لانهم مكنو العدو من الدخول الى مدينتهم فمنعه الله من ذلك لاجل دموع المومنين وصلاة البطرك انبا يوساب.

وكان الأفشين يقتل حتى الابريا بجريرة

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد تعرض الرهبان في برية شيهات[١]، لكثير من الأذى والارهاب، من العرب القاطنين في الصحراء. وقد أسر هؤلاء العرب، الرهبان وهدموا البيع والقلالي، في حين تمكن بعض الرهبان والقسس من الفرار من وجه هؤلاء العرب، وتشتتوا في كل موضوع من البلاد المصرية[٢].

ويصف أحد المؤرخين هذه الشدائد التي تعرض لها القبط في مصر عقب وفاة هارون الرشيد اذ اختلف أولاده، وقامت الخوارج وتغلبوا على الاسكندرية - يقصد بالخوارج الأندلسيين - وقتلوا الكثير، ونهبوا البلاد، وخرج البطرك مرقس من المدينة، وبقى غائبا عنها خمس سنوات وثار المغاربة، وأحرقوا الديارات بوادى هبيب، ونهبوها، ولم يبق بها من الرهبان الا نفر قليل[٣].

(١) برية شيهات هو الاسم القبطي لمنطقة أديرة وادى النطرون، ومعناه ميزان القلوب، لأنه مكان عبادة ونسك واصلاح السريرة. كما تسمى هذه المنطقة باسم الاسقيط أى الناسك أو النساك أو محل النسك= = وتسمى أيضا باسم وادى هبيب. انظر الخطط، جـ٤، ص٤١٥، عمر طوسون: وادى النطرون ورهبانه وأديرته، ص٣٩، عبدالمسيح البراموسي: تحفة السائلين، ص٤٤ .

(٢) ساويرس ابن المقفع: مصدر سابق.

(٣) ابن العميد: تاريخ المسلمين، ص١٢٣.

المفسدين الى ان ما بقى احد يراه الا قتله. وقتل جماعه من اراخنه النصارى فى كل موضع. وكان البطرك انبا يوساب حزينا لمشاهدته ذلك، من الوبا والغلا والسيف.

وتمو البشموريون موامرتهم وصنعو لهم سلاحا وحاربو السلطان واحمو نفوسهم ان لا يدفعو خراجا. فكلما يمضى اليهم ليتوسط حالهم قامو عليه وقتلوه.

وتعرض القبط وبطركهم الأب يوساب، أيضا لبعض الشدائد فى خلافة المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ = ٨٣٧ ـ ٨٤٢م) عندما دفع أحد القبط الطامعين فى أسقفية وسيم، ويسمى تادرس، مبلغا كبيرا من المال، ليأمر البطرك يوساب، بتعيينه أسقفا، الا أن البطرك رفض ذلك، مما أثار حنق الوالى وغضبه. فهدد البطرك بهدم كل كنائس مصر، وبدأ بهدم كنائس الفسطاط[١].

وألزم هذا الوالى أيضا البطرك بدفع غرامة مالية قدرها، ثلاثة آلاف دينار، حتى يوقف عملية التخريب والهدم فأقلق ذلك القبط، الا أنهم ـ وخاصة الكتاب والرؤساء منهم ـ طمأنوا البطرك، ووعدوا الوالى بسداد المبلغ، مما خفف من حدة غضبه.

تداعى أسقف مصر (الفسطاط) أمام القاضى محمد بن عبدالله ضد البطرك يوساب، وكان يساعده فى ذلك بعض الأساقفة. فكان القاضى يستدعى البطرك ـ وهؤلاء القوم مجتمعون عنده ـ ويسمعه كلاما مهينا، الا أن البطرك يوساب، كان يجيب على كلامه فى قوة وشجاعة، ويستشهد فى حديثه بعبارات من الكتاب المقدس. كما أظهر البطرك يوساب.

(١) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة.

لما نظر ابونا البطرك انبا يوساب حزن على اولايك الضعفا لأنهم لا يقدرون على مقاومة السلطان، وانهم باختيارهم اختارو الهلاك لنفوسهم.

فبدا المهتم بخلاص شعبه الامين بالحقيقه وكتب اليهم كتبا مملو خوفا ويذكر لهم ما يحل بهم ليعودو ويندمو ويرجعو عن خلافهم ويدعو [يتركوا] مقاومة السلطان. فلم يرجعو، فلم يفتر

للقاضى واعوانه سجلات من الخلفاء بتأييد حقه فى البطركية، وتنصيبه بطركا للقبط فى مصر، السجل الذى منحه اياه الخليفة هارون الرشيد، ثم السجل الذى منحه اياه الخليفة المأمون عندما قدم الى مصر، والسجل الآخر كان من الخليفة المعتصم أخى الخليفة هارون الرشيد، ثم إلى السجل الذى منحه أياه الخليفة المأمون الواقع، وصرف البطرك مكرما، معززا[1].

وكان هذا القاضى. يأخذ غلمان البطرك يوساب، القادمين اليه، كهدايا من أفريقية والحبشة والنوبة، ويضطرهم الى اعتناق الاسلام، وترك خدمة البطرك يوساب وكنيسته .

وكانت أشد الفترات قسوة بالنسبة لأهل الذمة، في العصر العباسي، هو عصر المتوكل على الله، الذى ضيق على الذمين جميعا ـ المسيحيين على اختلاف مذاهبهم واليهود ـ وظهر هذا واضحا في تحديد أشكال الملبس والمسكن، ومنع الخليفة استخدام أهل الذمة فى الوظائف: كما منعهم من بناء الكنائس، وأمر بهدم المستحدث منها.

وكان والي مصر آنذاك ـ عبدالمسيح بن اسحق ـ يمقت أهل الذمة من القبط واليهود مقت

(١) المصدر نفسه، ص٣٠١ وما بعدها.

من مكاتبتهم كل يوم. وكان يكتب اليهم فصولا من الكتب ويقول: قال لسان العطر بولس كلمن يقاوم السلطان فهو يقاوم حدود الله، والذى يقاومه يدان(*).

ولما وصلتهم كتب البطرك مع اساقفته، ونظرو اولايك الاشرار الابا الاساقفه، وثبو عليهم ونهبو كلما معهم، واهانوهم. فعادو الى البطرك وعرفوه ما جرى عليهم فقال: ما يبطى عن

(*) رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ١٣ / ١ ، ٢ ،٣ «لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة. لأنه ليس سلطان إلا من الله والسلاطين الكائنة هي مرتبة من الله. حتى إن من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونه. فإن =

شديدا، الا أنه «بدأ بالنصارى، وأنزل عليهم بلايا، وأذلهم جدا، بأحزان شتى». فأمر بمحو علامة الصليب، وكسر الموجود منه، وألزمهم بأداء الصلاة والطقوس الدينية بصوت خفي. كما منعهم من الصلاة على أمواتهم، ومن ضرب الناقوس. وحرم النبيذ في جميع أنحاء مصر، فصار القبط يلون عيدان النرجون بالماء، ويعصرونها، ويجعلونها محل النبيذ في القربان وعمل القداس(١).

أنزل هذا الوالي، كل ظلم ممكن بأهل الذمة، فأبعدهم عن أعمال الحكومة والدواوين واضطرهم الى صنع ثيابهم، حتى لا يتشبهوا بالمسلمين. وأمرهم بأن يضعوا على أبواب دورهم صورا مفزعة تمثل الشياطين، كما منعهم من ركوب الخيل، ولذا رأى كثير منهم اعتناق الاسلام(٢).

---

(١) المصدر نفسه، وكان القبط يقولون: «انك أسلمتنا في يد أعداء أثمة منافقين ماردين، ويد ملك ظالم، أشر من كل من على وجه الأرض. والآن لا نقدر أن نفتح فانا، لأن حزنا وعارا، صار لعبيدك، والذين يعبدونك، ولا تسلمنا لاجل اسمك».

(٢) المصدر نفسه، وكان من بين القبط الذين اعتنقواى الاسلام، قبطى يسمى اصطفن بن أندونه وأهله. وصار يذكر القبط بكل سوء. ويقول انهم كانوا يلبسون ثيابا بدون اكمام مثل الرهبان فى ذلك العصر.

=الحكام ليسوا خوفا للأعمال الصالحة بل للشريرة.

هولا الهلاك بل يتم عليهم ما قال النبى اشعيا: انى اسلمكم للسيف ويقع جميعكم بالقتل، لانى ناديتكم فلمم تسمعو كلامى وخالفتم وفعلتم الشر امامى.

(*) البطرك يوساب لا يتمكن من كتابة سنوديقا إلى شريكه فى الامانة بطرك انطاكية بسبب ثورات البشمور.

ولاجل هذه البلايا (*) والاحزان المذكورة ما تمكن الاب البطريرك ان يكتب سنوديقا الى شريكه فى الخدمه والامانه بطرك انطاكيه وكان مهتما بذلك اكتر مما ناله من التجارب، فانه لم

وما لبث أن عزل الخليفة المتوكل، هذا الوالى، وجعل ابنه مكانه، ولكنه انتهج سياسة أبيه فى معاملة أهل الذمة، بالقسوة والارهاب[1]. وسخر القبط فى اصلاح مراكب الأسطول. مقابل اطعامهم، وبدون أجر.

كما أمر هذا الوالى باحصاء عام للمدن والقرى، وفرض على كل ضيعة، تقديم عدد من الرجال للعمل فى الأسطول. وكان على القبط أن يشتروا من أموالهم، الأدوات والعدة اللازمة لذلك، ومن خالف هذه الأوامر، فرضت عليه غرامة مالية. وكان الوالى يجند أحيانا لهذا العمل الضعفاء الذين ليس لهم قدرة على السير، ولا يعرفون صنعة البحر، فيضطر هؤلاء بدورهم أن ينيبوا عنهم من يقوم بذلك بدلهم، نظير دفع مبلغ من المال لهم.

ولما ولى المنتصر بن المتوكل الخلافة (سنة ٢٤٧هـ ٨٦١م) جعل على خراج مصر أحمد بن مدبر، الذى اشتهر بالقسوة والشدة، وحبه لجمع المال، فأحزن ذلك الأب شنوده بطرك

(١) المصدر نفسه، ويقص لنا بعض العجائب التى هى فى الواقع من صنع الخيال، فلا يعقل مثلا أن تنزف صور مرسومة دما ولا يسيل من عيونهه دموع. ويروى هنا المؤرخ أن سكان وادى هبيب، شاهدوا الدم ينزف من جنب صورة السيد المسيح فى بيعة القديس ساويرس، واستعمل هذا الدم فى شفاء المرضى. وفى رواية أخرى أن جميع صور أديرة وادى هبيب كانت تسيل الدموع من عيونها، بسبب ما أنزله ولاة مصر من ظلم بالقبط. انظر المصدر نفسه، ص .

يجد راحه يوما واحدا منذ جلس ليكتب الى كرسي انطاكيه باتحاد المحبه وثبات الارتدكسيه.

ولم يدعه محب البشر فى حزنه هكذا لاجل اتحاد الكرسيين اسكندريه وانطاكيه فدبر بأمر عجيب ان يصل الاب ديونوسيوس بطرك انطاكيه الى مصر ويشاهد بعضهما بعضا حسب ما نذكره فيما بعد.

ولما نظر الامير الافشين تمادى البشموريين على

القبط[1]. ولما قدم ابن مدبر الى مصر، وضع يده على أموال المسلمين، والقبط، واليهود، وضاعف عليهم الجزية والخراج. وأمر باحصاء الرهبان فى جميع أرجاء مصر، وألزمهم بدفع الجزية والخراج.

وقرر ابن مدبر أن يصحب معه البطرك شنودة الى وادى هبيب، ليضمن له ما على أديرته من جزية وخراج، وطبق ابن مدبر هذه القرارات أيضا على باقى أديرة وبيع مصر كلها ورأى الأب شنودة، الهرب نجاة بنفسه من هذه المضايقات، كما هرب كثير من الأساقفة.

انفذ ابن مدبر نوابا عنه، الى مختلف الأقاليم المصرية، فسلبوا من الأديرة والكنائس ما بها من الآلات والأدوات الخاصة بالقداس، وألزموا القومة[2] بدفع ديارية الأساقفة وحملوا كل ذلك الى الديوان. كما أمر ابن مدبر باغلاق جميع الكنائس فى مصر الا كنيسة واحدة،

(١) المصدر نفسه، ويشير الى أن ابن مدبر أنزل كثيرا من البلايا بأهل فلسطين قبل قدومه أما البطرك شنودة فأصله من قرية البتنون، وعمل فى خدمة البطرك يوساب ثم عين أقنوما لبيعة القديس أبى مقار. وقد أقيم بطركا بعد وفاة البطرك قسما.

(٢) القومة: جمع قيم وهو الشماس. انظر القلقشندى: صبح الأعشى. جـ٥، ص٤٧٤. ويقومون بخدمة الكنيسة ومساعدة الأساقفة والقسس فى تقديم القداس. انظر:

Autefag.s: Les Copts, p.33.

شـرهم ونفـاقـهم وانهم لا يعـودون عن فـعلهم ، كتب الى الخليفه عبد الله المامون يعلمه بماجرى.

فاسمعو الآن ايضا، كان اسقف على كرسى تنيس اسمه اسحق وكان شعبه قد سعي به دفعات بكلام ردى وقالو للاب يوساب: اذا لم تقطع هذا الاسـقف وتزله عنا والا خـرجنا عن دين الارتدكسيه.

وكان ايضا بمصر اسقف اخر اسمه تادروس قد

- -

ليقدموا فيها القربان[١] وأنزل نواب ابن مدبر، المظالم بالأساقفة والرهبان، وكانوا يحملونهم مقيدين بالحديد الى مصر، حتى يؤدوا ما عليهم للديوان، واستمر البطرك مختفيا نحو ستة أشهر، فى حين كان شعبه القبطى فى أشد حالات الحزن والألم، لما أنزله ابن مدبر ونوابه بهم جميعا.

ورأى البطرك شنودة أن يعاود الظهور من مكمنه، ويسلم نفسه لابن مدبر. فكتب يلتمس منه الأمان، فوعده ابن مدبر بذلك، اذا قدم قبل أن يقبض عليه أحد عماله، أما اذا قبض عليه قبل أن يسلم نفسه، فان ابن مدبر سينزل به وبالكنائس والأساقفة أشد أنواع العذاب[٢]. فسلم البطرك شنودة نفسه لابن مدبر، الذى ما لبث أن طالبه بما عليه من خراج بلغ سبعة آلاف دينار. وقد تعاون جميع الأساقفة بمصر مع البطرك فى تسديدها «وكانت كورة مصر فى ضيق عظيم، وافتقر الأساقفة والرهبان، وكل واحد، من أجل الغرامات التى رتبها هذا الانسان المخوف، أكثر من جميع من تقدمه».

(١) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة.
(٢) المصدر نفسه، وذكر هذا المؤرخ أن ابن مدبر كان يكتب على ما يجمعه من الأموال، هذا ما كان يسرقه من تقدمتي، المصدر نفسه ص٢٨.

ذكر شعبه عنه مثل هذا، وكتبو المصريون الى البطرك يقولون له: ان لم تقطعه وتبعده عنا والارجمناه وقتلناه.

فلما نظر البطرك القديس قيام الشعب حزن جدا وقلق وقال: ما الذى فى هذا البلا[ء]. وكان يدعو ويقول يارب ثبت شعبك لرعاتهم، ولا تدع فى ايامى بغضا.

تنيس أحد معاقل ثورة البشمور
فى بحيرة تنيس (المنزلة)

ولم يفتر من مكاتبة الشعب [فى] تنيس ومصر

بعد وفاة الخليفة المنتصر، وقع نزاع بين المتنافسين على الخلافة (المستعين والمعتز) واستمر هذا النزاع ثلاث سنوات (حتى سنة ٢٥٢هـ = ٨٦٦م) وانتهى بتولية المعتز الخلافة. وفى أثناء هذا النزاع، كسدت التجارة بين مصر والمشرق، واستمر ابن مدبر عامل الخراج فى مصر، فى تشدده على جمع الأموال ومصادرتها من أهل الذمة وغيرهم فى مصر[١].

وعاثت العرب، القاطنون فى الجبال والبرارى فى أرض مصر من بقايا القبائل العربية التى هاجرت إلى مصر ثم حرمهم الولاة من غير العرب امتيازاتهم فسادا ونهبا، وخاصة فى الصعيد، ونهبوا كثيرا من الأديرة، وقتلوا من بها من الرهبان والراهبات. عند ذلك قرر الكاتبان القبطيان ابراهيم وساويرس السفر الى بغداد، العاصمة العباسية، وتقديم شكواهم الى الخليفة المعتز، ورحب الخليفة بمقدمهما، وكتب لهما سجلاً، يسمح للقبط باعادة بناء الكنائس فى مصر، وضمان سلامتها. وثبت السجل فى الديوان، الا أنه توفى قبل أن يوقع عليه.

ابتهج البطرك شنودة والقبط فى مصر، وقاموا باعادة بناء الكنائس فى كل مكان من

(١) ساويرس ابن المقفع: تاريخ البطاركة، جـ٢. كان المتوكل، قد أوصى بولاية أولاده الخلافة من بعده. فلما ولى بعده المنتصر، اعتقل أخويه المعتز والمؤيد، فلما ولى المستعين الخلافة (فى سنة ٢٤٨هـ ـ ٨٦٢م) أطلق سراحهما، الا أن المعتز حاربه من أجل الخلافة، فكان ما ذكرنا فى المتن.

المدينتين ، ويـقول من قول بولس : ما تفرحـون انتم اذا اعـتللنا نحن، وتكونون انتم اقـويا. هذا الذى ادعوه من اجلكم لتخلصو واكاتبكم به، ولا احضر عندكم كانني حاضر عندكم، ولا اصنع حرما ومنعا، كما امرنى الرب ان ابنـى ولا اهدم.

وبقى الشعب متمادين على فعلهم يقولون بقول واحد ولا يتغيرون عنه: انه ان لم ينقطع

أسوان الى الفرما وعم الفرح والسرور فى البلاد. ولكن ما لبث أن انقلب ابتهاجهم الى حزن، فقد ثار بعض المسلمين فى الاسكندرية، وانضم اليهم العربان، وعاثوا فى البلاد نهبا وسلبا، وأحرقوا الأديرة بمن فيها، ثم حاصروا الاسكندرية، ومنعوا وصول المؤن والمياه اليها. فساءت أحوال السكان داخل المدينة، وحرمت الكنائس من اقامة القربان، لعدم توفر الغلة والخمر «فأواس [أوقاف] البيع قد ملكها هؤلاء القوم، ونهبت مخازنها وأموالها وتقووا بها على محاصرة اسكندرية».

حزن البطرك شنودة لذلك أشد الحزن، واستقر به المقام فى مدينة المحلة الكبرى وكان يدفع للتجار الأموال، ليشتروا بها تجاراتهم، فاذا دخلوا مدينة الاسكندرية سلموا هذه الأموال للمسئول عن الكنائس بها ـ ويسمى الأقنوم ـ لينفق منها على البيع وبهذه الوسيلة استقامت أحوال كنائس الاسكندرية. واستمر العربان ومن معهم، ينهبون الأديرة والقلالى، والرهبان صابرون على ما حل بهم من ضيق وشدة.

فلما ولى مصر مزاحم بن خاقان (٢٥٣ ـ ٢٥٤هـ = ٨٦٧ ـ ٨٦٨م)، صحب معه الى مصر قوما من الأتراك الأقوياء، وأعد العدة لقتال القوم الثائرين بمدينة الاسكندرية وحاربهم فى

٥٢: يوساب البطرك ٨٣٠ / ٨٤٩ م

هذان الاسقفان والا فما بقى منا انسان واحد فى الامانه الارتدكسيه، بل نعود الى المخالفين وانت المطالب عنا.

فلما سمع هذا اسرع الى تنيس وسالهم ان يعودو عن غضبهم فلم يفعلو، بل زادو فى غضبهم، وكذلك مدينة مصر ايضا مع اسقفهم.

فما راى ذلك انفذ واجمع الاساقفه من كل موضع وعرفهم الخبر وقال لهم انا برى من هذا

البر والبحر، حتى تمكن من اخماد ثورتهم والقضاء عليهم. واسترداد ما نهبوه من المتاع والأموال، فأمنت مصر من شرهم. وعاد اليها الأمن والهدوء(١).

---

(١) المصدر نفسه، وكان ذلك وابن المدبر مازال على خراج مصر. كثر الاتراك فى مختلف أنحاء الدولة الاسلامية منذ خلافة المعتصم سنة ٢١٨هـ. وعلا أمرهم فى البلاد. فقد ضاق المعتصم من استئثار الفرس بالنفوذ كما ضاق بتيارات الشعوبية التى ثارت بين الفرس والعرب. كما كانت أم الخليفة تركية فاعتمد الخليفة على الاتراك، واتخذ منهم حرسا خاصا له، كما أسند اليهم مناصب الدولة، ومن ثم أصبح ولاة مصر معظمهم من الأتراك وكانوا يقيمون فى مقر الخلافة فى بغداد يرسلون الى مصر من ينوب عنهم فى حكم البلاد باسمهم، فيدعون لهم على المنابر، وينقشون أسماءهم على السكة. انظر: حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام السياسى، جـ٢، ص١٢٦ ـ ١٢٧.

وانتم [كذلك]. اخيرا نكتب ونمنع الاسقفين اسحق اسقف تنيس وتادرس اسقف مصر وحطوهما عن كرامتها وابعدوهما عن الاسقفيه.

ولم يتخل ابونا الرحوم من دوام الصلاه وسكب الدموع الغزيره و التنهد على قطع هذين الاسقفين.

وكان الافشين بمصر ينتظر جواب ما كتب به الى المامون بسبب اهل البشمور. وكان المامون

مصريو النوبة عبر التاريخ(*)

من القرن الأول الميلادى حتى القرن ١٦م

مقدمة جغرافية. النوبة وأسماؤها المختلفة فى التاريخ. النوبيون ومراحل تاريخهم.

من الضرورى قبل أن نبدأ بدراسة تاريخ ممالك النوبة المسيحية، أن نتعرض فى شىء من الإيجاز، للمقومات الجغرافية للبلاد التى قامت فيها هذه الممالك المسيحية، لمعرفة ما لهذه المقومات من أثر فى تشكيل المجتمع النوبى، وتفسير بعض نواحى حياته ونشاطه وأسس حضارته.

يطلق لفظ «النوبة» على أجزاء وادى النيل الممتدة على جانبى النهر الأعظم بين مدينتى أسوان والخرطوم الحالية، وعلى الرغم من انكماش أوطان النوبيين فى الوقت الحاضر فإن ذلك لا يمنع من دراسة إقليم النوبة بوضعه الجغرافى القديم، لأنه كان مجالا لنفوذ تلك الممالك التى أسهمت بنصيب كبير فى تاريخ السودان فى العصور الوسطى.

ويبدو من وصف الكتاب القدماء لهذه البلاد، أنه لم يطرأ تغيير ظاهر على بيئتها الطبيعية،

(*) انظر كتاب الاسلام والنوبة. تأليف: د. مصطفى محمد مسعود. مكتبة الانجلو المصرية. القاهرة ١٩٦٠.

رجـلا حكيـمـا فى فـعله ويبـحث عن مـذهبنا، ويجلس عنده قوم حكما يفسرون له كتبنا، وبهذا الحكم كان محبا للنصارى.

فجا[ء] الى مصر وجمع جيشه واستصحب معه البطرك ديونوسيوس بطرك انطاكيه.

فلما علم الاب البطرك انبا يوساب بوصول المامون وصحبته بطرك انطاكيه جمع الاساقفه

ما خلا ما تناولته يد الإنسان بالتعديل أحيانا، وبالتهذيب أحيانا أخرى(١).

ويتصف هذا الجزء من وادى النيل بظواهر جغرافية هامة، أثرت فى تاريخ الجماعات البشرية التى استوطنته فى مختلف العصور. ومن أهم هذه الظواهر كثرة انحناءات المجرى فيما بين مدينتى أسوان والخرطوم، فضلا عن اعتراض الجنادل، وهو بهاتين الظاهرتين يمثل القطب الذى ترتبط به حياة السكان، الذين تجمعوا فى واديه الصحراوى الضيق(٢) وثمة ظاهرة أخرى هى اختلاف الأحوال الجوية بين جزأى هذا الاقليم، فبينما نرى منطقة يصيبها مطر صيفى محدود وتمتد من جنوبى بربر إلى الخرطوم، نرى منطقة نادرة الأمطار أو تكاد تكون عديمة الأمطار، وهذه تمتد من شمالى بربر إلى أسوان، لذلك قسم الجغرافيون إقليم النوبة إلى ثلاثة أقسام هى: وادى النوبة العليا ـ ووادى النوبة الوسطى ـ ووادى النوبة السفلى(٣).

أما وادى النوبة العليا فيمتد من منطقة التقاء النيلين الأبيض والأزرق إلى دنقلة، وتبتعد حافة الوادى بعض الأحيان قليلا على جانبى النهر فيتسع الوادى، وتصبح له صفة الحوض، الذى

(1) Kirwan, L. P. "The Ballana Civilization". Bulletin de la Societe Royale de Geographie d'Egypte XXV, P. 103.

(2) Tothill, J.D. : ed. Agriculture in the Sudan p. 740.

(٣) محمد عوض محمد ـ السودان الشمالى ـ سكانه وقبائله ـ ص٢٨٥.

وسار الى فسطاط مصر ليسلم عليه كما يجب للملوك.

فلما نظر الاب ديونوسيوس الاب انبا يوساب فرح فرحا عظيما روحانيا، وكان هذا تدبيرا من الله كما بدأت، وقلت انه ما قدر ان ينفذ السنوديقا الى دينوسيوس، وكان له منزله عند عبد الله المامون، فلما عرفوه بوصول انبا يوساب تقدم بدخوله اليه، فلما حضر عنده قبله بفرح بنعمه الله الحالة عليه، ثم عرفه انبا ديونوسيوس ان ابانا

تنغمر بعض أجزائه خلال أيام الفيضان. ويتمثل ذلك في الجزء الذى يقع فيما وراء شندى[1] . وكذلك الجزء الذى يمتد إلى ما وراء الجانب الأيسر من النهر، فيما بين مروى وأبو فاطمة[2] . وتمثل هذه المناطق التى يتسع فيها الوادى على أحد الجانبين مركز تجمع السكان الذين تساعدهم البيئة الطبيعية على مباشرة الزراعة معتمدين على مياه النهر.

وتفهم أحوال المناخ في النوبة العليا من موقع الإقليم على الحافة الصحراوية التى تتضاءل فيها كميات المطر السنوى إلى حد كبير، إذ يلاحظ المتجه شمالا من الخرطوم تناقص كمية المطرى السنوى، فهى فى الخرطوم ١٦٣ مليمترا سنوياً، وفى أتبرا ٧٥ مليمترا سنوياً، ومن ثم يزداد الجفاف شمالا فتنخفض كمية المطر السنوى فى كريمة إلى ٢٥ مليمترا سنويا، وتتساقط هذه الكمية المحدودة فى شهور الصيفى، فيما بين يوليو وسبتمبر[3] . وهى الشهور التى ترتفع فيها الحرارة بشكل ملحوظ وتسود فيها رياح الجنوب الساخنة. وهذه الكميات المحدودة من المطر لا تؤثر فى حياة السكان ونشاطهم، إلا فى حدود ضيقة، ولكنها مع ذلك تتجمع فى بطون الأودية الجافة والأخوار، وتسيل فى اتجاه الوادى من الصحراء التى تشرف على الجانبين،

(1) Tothill, J.D. - ed. op. cit. p. 744.

(٢) محمد عوض محمد ـ نهر النيل ـ ص١٢١.

(3) Tothill., J.D. - ed. op. cit. p. 740.

لم يتاخر من مكاتبة البشموريين واردعهم ان لا يقاومو امرك.

ففرح المامون بهذا الامر ثم قال للبطرك انبا يوساب: هو ذا آمرك انت ورفيقك البطرك ديونوسيوس ان تمضيا الى هولا القوم(*)، وتردعاهم كما يجب فى ناموسكما، ليرجعو عن خلافهم ويطيعو امرى، فان اجابو فانا افعل معهم الخير فى كلما يطلبونه منى، وان تمادو على الخلاف فنحن بريون من دماهم.

(*) المأمون يرسل البطرك انبا يوساب والبطرك ديونوسيوس لتحذير البشمور من قوته وسطوته.

فتبعث بعض النشاط فى بطون تلك الأودية، حيث تمرح الحيوانات فى مناطق العشب القصير الذى يتبع فصل المطر. وتمثل هذه الأودية من ناحية أخرى طرق المواصلات التى تنساب من الشرق والغرب إلى الوادى. ومنها واد الملك الذى ينساب منحدرا من الجنوب الغربى إلى الوادى قرب الدبة. ووادى مقدم الذى ينساب فى قلب صحراء بيوضة نحو الشمال. أما من ناحية الشرق فهناك وادى عامور الذى ينساب من السفوح الغربية لتلال البحر الأحمر.

فى هذه المنطقة ـ أى فى وادى النوبة العليا ـ قامت دولة كوش، وكانت عاصمتها نباتا ثم بعدها مروى[١] ، التى تكونت فى منطقة يتسع فيها الوادى اتساعاً ملحوظاً، حتى أصبحت مركزاً زاول فيه السكان الزراعة. وكانت مروى تعتبر مركزاً هاماً للتجارة، لا بين الجنوب والشمال عن طريق النيل فحسب، بل كذلك بين سهول كردفان فى الغرب وموانى البحر الأحمر فى الشرق[٢] . ووصف سترابون وديودور الصقلى وبلينى هذه البلاد. فأشار سترابون إلى موقعها بين التقاء نهر Astaboras «الأتبرا» ونهر Astasobas «النيل الأعظم». وهى غنية بثروتها المعدنية والغابية، وكان سكانها يزاولون الزراعة والصيد. ولاحظ سترابون تجمع السكان

(١) مدينةنباتا وهى العاصمة القديمة لدولة كوش تقع عند سفح جبل البركل قريبا من الشلال الرابع، أما مروى فهى بخلاف مروى الجديدة والتى تجاور مدينة نباتا. ومروى القديمة تقع بالقرب من كبوشية الحالية ويسمى الإقليم الواقع بين الأتبرا والنيل جزيرة مروى.

(2) Triminghom, J.S. Islam in the Sudan. pp. 42 - 43.

ففعل ابوانا البطركان وسارا الى البشموريين وسالاهم ثم نصحاهم ووبخاهم ليتخلو عن افعالهم، فلم بجيبو ولا قبلو سوالهما(*) [ولا سلم لهم البشموريين]، فعادا واعلما المامون بذلك فامر حينذ المامون الافشين الامير بان يسير اليهم بعسكره وان يقاتل البشمورين.

(*) البشمور يرفضون وساطة البطركين يوساب و ديونيسيوس ويستمروا في مقاومة جيوش المأمون بقيادة التركى افشين.

فلم يقدر عليهم لتحصين مواضعهم بالمياه، ومواضعهم تسمى التنفير(*) بل كانوا يقتلون من

(*) وهى ما نسميه الآن البرارى.

على امتداد هذا الجزء من وادى النيل فعلى الجانب الأيسر كان يعيش النوبيون والليبيون. وفى الناحية اليمنى كان يعيش الميجاباريون Megabari والبليميون Blemmyes . أما الصحراء فكانت خالية من السكان إلا فى بعض مواقع(١) كالواحات. وفى هذه المنطقة أيضاً قامت دولة علوة حوالى منتصف القرن السادس الميلادى، وكان طرفها الشمالى منطقة الأبواب (كبوشية الحالية) وتمتد إلى جنوب التقاء النيلين الأبيض والأزرق. وقامت العاصمة سوبا على الضفة اليمنى للنيل الأزرق.

أما وادى النوبة الوسطى، فيمتد من دنقلة إلى حلفا، وكان ولا يزال جزءاً أساسياً من أوطان النوبيين. واحتفظ النوبيون به عندما اضطرتهم الأحوال البشرية التى سادت إلى التخلى عن أغنى الأجزاء من وطنهم. ويتصف هذا الإقليم بضيق واديه وكثرة ما يعترض مجرى النهر من جنادل(٢) . ويقلل القيمة الإنتاجية لهذا الإقليم، ضيق الشريط الخصيب على جانبى النيل، وارتفاعه كثيراً عن مستوى النهر.ومما يزيد الحياة صعوبة كذلك وقوع هذا الإقليم فى وسط

(1) Budge, E. A. Wallis.: The Egyptian Sudan. p. 158.
نقلاً عن Strabo .

(٢) محمد عوض محمد ـ نهر النيل ص١٢٢ ـ ١٢٣.

عسكر الافشين كان يوم جماعه ، فلما اتصل الخبر بالمامون سار بجيشه(*) وانحدر الى هناك، وامر ان يحشدو جميع من يعرف طرق البشموريين من اهل المدن والقرى المجاوره لهم ومن كل الاماكن ومن اهل تندا وشبرا سنبوط الذين يعرفون طرق تلك الاماكن. وكانت العساكر تتبعهم الى ان سلمو لهم البشموريين، فهلكوهم وقتلوهم بالسيف بغير اهمال ونهبوهم واخربو مساكنهم واحرقوها بالنار وهدمو بيعهم، وتم عليهم قول داود النبى فى

(*) المأمون يجمع جيوشه ويهاجم البشمور بعد فشل الأفشين فى القضاء عليهم.

النطاق عديم المطر، وتتراوح كمية المطر السنوى بين الصفروخمسة مليمترات. فلا يصيب الإقليم إلا بعض الرذاذ الذى يتساقط فجأة ودون أن يكون لسقوطه قيمة تذكر(١) .

وبهذا يمكننا تصوير مدى قسوة الأحوال الطبيعية فى هذا الإقليم، ومدى ارتباط حياة السكان تماما بالنهر، ونوع الفيضان والمستوى الذى يصل إليه ماؤه. ويمارس السكان زراعة السلوكا فى الأجزاء الضيقة المحدودة التى ينحسر عنها النهر فى مدة انخفاض المناسيب، وتزرع فى هذه الأجزاء المحاصيل دون ريّ معتمدة على ما تتشبع به من رطوبة فى موسم فيضان النهر. ويغلب عليها أن تكون من المحاصيل سريعة النضج. أما الزراعة الحقيقية فتعتمد على الساقية التى تروى مساحات محدودة لا تزيد على عشرة أفدنة. وامتدت المضخات إلى هذا الجزء، ولكنها لم تجد أرضا فسيحة لخدمتها إلا فى منطقة الأحواض التى تعرف باسم حوض دبيرة وحوض حلفا(٢) .

ويكتنف ذلك الإقليم على الجانبين صحراء جافة جرداء تنعدم فيها مظاهر الحياة إلا فى مناطق الواحات. وأهم هذه الواحات ما يمر بها درب الأربعين وهى واحة بيرنطرون ونخيلة وسليمة.

(1) Tothill, J.D. - ed. op. cit. pp. 74 - 750.

(2) Tothill, J. D. , ed. : op. cit. p. 749.

المزمور [٧٧]: اسلم قوتهم للسبى ومالهم لاعداهم واسلم شعبه للسيف ولم يشفق على ميراثه.

ولما نظر المامون كثرة القتلى امر العسكر ان ترفع السيف والذى بقى منهم اسره الى مدينة بغداد (*) من الرجال والنسا.

فسال الاب البطرك انبا ديونوسيوس(*) : اى شى كان السبب فى نفاق هولا القوم؟ فعرفوه انه بسبب ظلم متولى الخراج لهم أولا. فتوجع قلبه

(*) كان من تقاليد العباسين الطواف بأسراهم فى الحروب بعاصمتهم بغداد.
(*) كان البطرك ديونوسيوس من المفاوضين للبشمور فكيف لا يعرف سبب ثورتهم؟

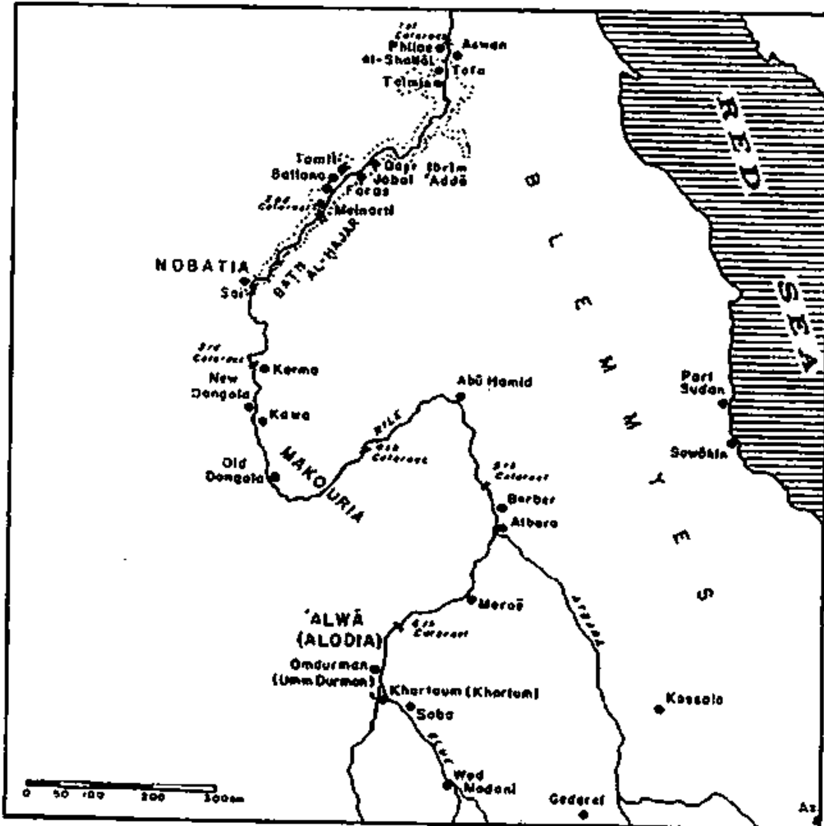

النوبة وممالكها.

على هلاكهم وتقدم الى المامون وقال له لمنزلته عنده، وكان مع المامون اخوه المسمى ابرهيم(*) الذى ملك بعده وقال له: السبب فى نفاقهم ظلم متولى الخراج لهم وعنتهما عليهم.

(*) ابراهيم: هو الخليفة المعتصم فيما بعد تولى فى سبتمبر ٨٣٣ م = رجب ٢١٨هـ.

فلما سمع منه هذا قال له اعف نفسك(*) ولا تقم بمصر بعد هذه الساعه، ان سمع اخى ابرهيم ذلك فهو يقتلك، لان جباة الخراج كانو من عنده.

(*) المامون يعفى البطرك ديونوسيوس ويأمره بالرحيل عن مصر بسبب نصيحة منه حول المعاملة القاسية للمصريين عند تحصيل الخراج.

وأما وادى النوبة السفلى فيمتد بين وادى حلفا وأسوان، ويمثل بذلك المرحلة الأخيرة للوادى الضيق. وهذا الجزء من الوطن النوبى محدود القيمة، ففى مدة ارتفاع المناسيب يبدو النهر منحصرا بين حائطين جبليين شديدى الانحدار، ويبدو هذان الحائطان عموديين فى بعض المواضع، ويشرف على النهر مباشرة بعض الثغرات التى تمثل فتحات للأخوار والوديان التى تنساب إلى النهر من الجانبين الشرقى والغربى.

أما فيما يتعلق بالنهر ذاته فهو معتدل الجريان صالح للملاحة[١] وفى مدة انخفاض المناسيب ينحسر النهر عن شريط ضيق، يظهر هنا وهناك فى أحد الجانبين، وفى هذا الشريط يكثر النخيل ويهبط السكان من حافتى الوادى ليمارسوا الزراعة، فيزرعون مساحات محدودة للغاية. أما فى موسم الفيضان فتغمر تلك المساحات، ويصعد السكان إلى قراهم فيما وراء مستوى التخزين ويباشرون زراعة مساحات أشد ضيقا فى مصاطب يعدونها. ويرفعون الماء إليها بالسواقى.

ويعتبر هذا الاقليم ـ وقد بدا فقره ـ موطنا من مواطن العزلة التى يعبر عنها العلماء بأنها مناطق الطرد. ونرى النوبيين جيلا بعد جيل يخرجون من أوطانهم الفقيرة متتبعين مجرى النهر شمالا وجنوبا، ولكنهم مهما طال بهم البعد عن أوطانهم يعودون إليها. ويعيش كثير من

(١) محمد عوض محمد ـ نهر النيل ـ طبعة ثانية ص١٢٣.

فلما سمع الاب ديونوسيوس هذا خرج وهو قلق وودع الاب انبا يوساب وقال له: ما يمكن ان اقيم ساعة واحده بمصر. واستعلم منه الخبر فاعاده عليه وودعه وهو باك.

فلما سمع ابرهيم هذا الخبر طلب البطرك ديونوسيوس وارسل اليه فاعلم بمسيره الى بلده فغضب جدا وتمكن الغضب منه اياما كثيره.

سكان القرى النوبية اليوم على المساعدات المادية من أولئك الذين يعيشون فى مصر والسودان[1]

وقامت فى هاتين المنطقتين ـ النوبة السفلى والوسطى ـ مملكة النوبة الشمالية وأطلق عليها اسم مَقُرّة،وعاصمتها دنقلة، وامتدت هذه المملكة من جنوبى أسوان إلى منطقة الأبواب[2]. ويبدوى أن اختيار دنقلة عاصمة للدولة المسيحية فى الشمال،كان نتيجة لوقوعها فى منطقة يتسع فيها الوادى، بحيث يسمح بقيام حياة بشرية مستقرة.

* * *

عرفت هذه المنطقة جميعها ـ أى النوبة العليا والوسطى والسفلى ـ وهى التى تمتد من الشلال الأول فى الشمال إلى جنوبى إلتقاء النيلين الأبيض والأزرق باسم النوبة فى العصور الوسطى. ولكن ما مصدر هذه التسمية؟

ليس لدينا من الوثائق ما يشير إلى ظهور كلمة نوبة قبل العصر البطلمى فى مصر. وأول من أشار إليها إراتوسطينى Eratosthenes الجغرافى وأمين مكتبة الاسكندرية (٢٧٦ ـ ١٩٩

(١) محمد عوض محمد ـ السودان الشمالى ـ سكانه وقبائله. ص٢٨٥.

(٢) لا زال النهر ما بين الشلال الأول والسادس يعرف باسم النيل النوبى. ويعنى هذا أن النوبين خلعوا اسمهم على النهر بعد أن تخلوا عن جزء كبير من واديه من الخرطوم إلى الدبة.

ولما توفى المامـون وجلس ابرهيم [المعتـصم] اخوه هرب البطرك ديونوسيوس ولم يقم بانطاكيه ولا باعمالها حتى عاهده انه لا يقتله. فلما عاد الملك ابراهيم ايضا الى مصر وخرج البطرك ودعه كما يجب عليه للملوك ووصل اليها واقام بها.

وكان الاب البطرك انبا يوساب بمصر فنظر الى ذلك الارخن اسحق [السيد ابن اندونه وهو ليس اسحق اسقف تنيس] الذى كان طلب البطركيه

ق. م.)، ثم أخذها عنه سترابون. ويبدو مما ذكره سترابون عن هذه المنطقة وسكانها أنها أخذت اسمها من أحد الشعوب التي كانت تعيش على الضفة الغربية للنيل وهم النوبيون. ثم صار هذا الشعب فيما بعد سيدا عليها كما أن اسمه ظل علما على هذه المنطقة كلها طوال العصور الوسطى(١). بيد أن سترابون ذكر أن النوبيين شعب مستقل عن الأثيوبيين، على حين ذكرهم بليني على أنهم شعب من مجموعة الشعوب الأثيوبية التي تعيش في وادى النيل (٢).

وجاء فى النقوش المصرية القديمة ذكر كلمة نوب nubu ومعناها الذهب ـ أى بلاد الذهب ـ وهو أحد الاسماء التي أطلق المصريون القدماء على هذه البلاد، كما وصفت البلاد بهذا الاسم فى كتابه فى الأسرة الثانية عشرة فى عهد الملك امنحتب الأول(٣).

وأقدم تعريف للبلاد الواقعة جنوبى مصر مباشرة، جاء فى نقوش الدولة القديمة. إذ أطلق المصريون على هذه البلاد اسم خنت، ومعناها الأراضى الجنوبية(٤). ويقول ريزنر إن المصريين القدماء أطلقوا اسم الأراضى الجنوبية على الأقاليم المتاخمة لمصر من ناحية الجنوب وتمتد إلى أواسط أفريقيا وشرقها وتضم شعب بنت، والزنوج فى الجنوب، والنوبيين بوادى النيل،

(1) Beckett, H. W. : ASN. II, Report for 1907 - 8, p. 343.

(2) Kirwan. L. P. : "A Survey of Nubian Origins", SNR., XX Part II. 1937, . PP. 47 - 48.

(3) MacMich aeL, H. A. : AHistory of the Arabs in the.

(4) Budge, E. A. W. : A Hist. of Ethiopia Nubia, and (Abyssinia, I.p.I.

وهو متقد نارا بسبب سخرة الاسكندرانيين به والاساقفه، وعند اجتماعه به تلقاه ببشر كعادته مع كل احد يكلمه بكلام لين ليونسه من افكاره القلقه، ثم دبر امر الحكمة ليطيب نفسه فقال له: يا سيدى اسحق انا مشتاق اليك واودك جدا، واريد ان تكون عديل نفسى، واحب ان تكون تنوب عني في جميع اسبابى، ويكون معك خاتم البطركيه ليعلم كل احد انك المدبر لى فى جميع الامور البيعيه والسلطانيه.

والليبين فى الصحراء الغربية، وبدو الصحراء الشرقية[١] . وأطلق المصريون القدماء على الجهات الجنوبية كذلك اسم تاستى، أى أرض القسى.

وجاء فى الآثار أن خشب الأبنوس كان يأتى من تاستى، وهذا لا يعنى بلاد النوبة السفلى، بل يعنى بلاد السودان الواقعة جنوبى الشلال الثانى[٢] ثم تطورت هذه الأسماء، فأطلق على هذه البلاد فى الدولة الحديثة اسم خنت ـ هن – نفر. وتدل المتون على أن هذا الاسم كان يطلق على السودان حتى الشلال الثالث على الأقل، بل يحتمل أنه أطلق على كل البلاد التى خضعت لمصر فى هذه الجهات الجنوبية، ولم يكن يقتصر على جزء معين من بلاد النوبة [٣].

وجاء فى الآثار كذلك ذكر اسم نحسيو، ويقصد به سكان الجنوب ولما دخل الزنوج لأول مرة بلاد النوبة – حوالى بداية الأسرة الثانية عشرة – واستوطنوا بعض جهاتها، كانوا كذلك يسمون نحسيو. وعلى هذا فإن اسم نحسيو أخذ بالتدريج يحمل المعنى الخاص بالزنوج [٤].

وأطلق اسم كوش على الإقليم الواقع جنوبى وادى حلفا وعاصمته نباتا ويحكمه نائب ملك يحمل لقب ابن الملك صاحب كوش.

ولما ضعفت مصر حوالى منتصف القرن الثامن ق. م. ووقعت فريسة للغزاة، وأضحت

(1) Reisner, G. A.: "Outline of the Ancient Hist. of the Sudan", SNR. 1, No. 1, 1918 P. 3.

(٢) سليم حسن ـ مصر القديمة. جـ ١٠ ص ٨٠.

(٣) المصدر السابق ص ٧٨.
(٤) المصدر السابق ص ٨١.

فلما سمع منه هذا فرح جدا وطاب قلبه فقال لابينا البطرك: انا عبـدك وبين يديك فى كلمـا تامرنى به.

ولما حضرو فى بيعه السيده بمصر فى قصر الشمع يوم عيد الشعانين وسم الارخن اسحق شماسا، وكان فى البيعه جمع كتير فى ذلك اليوم لا يحصى عدده.

ايقونة الشعانين من مخطوطة قبطية من القرن ١١

فحضر المبغض للخير الشيطان واثار بلا[ء]

أرضها ميدانا للحرب بين المتنافسين عليها من ملوك آشور، وملوك نباتا، ورد ذكر هذا الصراع فى الوثائق الآشورية وأشير إلى ملوك نباتا باسم كوش. وعليه فإن كوش فى نظر الأشوريين امتدت وقتذاك إلى الشلال الرابع.[١]

أما اليونانيون فأطلقو على هذا الأقاليم كلها اسم إثيوبيا. وورد ذكر الأثيوبيين فى أشعار هوميروس، ونوه هذا الشاعر بمكانة الأثيوبين عند الآلهة اليونانية. وحدد هيرودوت موقع أثيوبيا فى أقصى الجنوب، بيد أن نظرة هيرودوت لأوطان الأثيوبيين كانت أوسع من نظرة من جاء بعده من الكتاب، فشملت فى نظر هيرودوت، أراضى واسعة فى أفريقيا وجنوب غربى آسيا ، بل والهند كذلك. وعلى الرغم من أن هيرودوت زار مصر فى القرن الخامس قبل الميلاد، ووصل فى رحلته جنوبا إلى أسوان، فإن وصفه لشعوب أثيوبيا وتحديد أوطانهم لا يستند على حقائق جغرافية أو أثنولوجية[٢].

وحدد سترابون موقع إثيوبيا بالأراضى الضيقة التى تحاذى النيل، وتمتد من جنوبى أسوان إلى منطقة المستنقعات التى يتعذر سكناها.

(1) Budge, E. A. W. : A Hist. of Ethiopia. op. Cit. P. 2.

(2) Beckett, H. W. : op. cit. P. 343.

أنظر كذلك:

Herodotus: The History, II, P. 148 I. PP. 218, 264.

عظيما ودخل فى الاسقفين المقطوعين [اسحاق اسقف تنيس وتادرس اسقف مصر] وجعلهما له وعا[ء]ين، فمضيا الى الافشين الامير من قبل الملك وقالا له: قد اسلم الله اليك اعداك واعدا[ء] الملك وافنيتهم ويجب ان لا تبقى احدا ممن كان سبب نفاقهم . فقال لهما: ومن هو الذى احوجهم للنفاق على الملك؟ فقالا له : البطرك يوساب فعل ذلك، اراد بذلك حتى أن يقتله، وهو ذا هو مجتمع

أما تقدير كل من بلينى وديودور الصقلى لأوطان الأثيوبيين، فتشمل إثيوبيا فى نظرهما جميع الأراضيالممتدة جنوبى مصر إلى قلب أفريقيا والتى تمتد شرقا إلى البحر الأحمر. ويبدو أن إسم إثيوبيا كان من أختراع الكتاب اليونانيين ويقصد به وطن الزنوج، ولم يعرف لهذه المناطق حدود جغرافية واضحة(١).

وفى العصر الرومانى عرفت النوبة السفلى باسم دود يكاشينوس "Dodekaschoinos" وتريا كونتاشينوس "Hierosykaminos" وتمتد الثانية من المحرقة إلى عكاشه جنوبى الشلال الثانى، وتدل هذه الأسماء على امتداد التنظيم الرومانى إلى هذه الأقاليم وتقسيم الرومان لها إلى أقسام. والى الجنوب من الشلال الثانى قامت دولة كوش ، وظلت هذه الأقسام إلى قيام الممالك المسيحية فعرفت بأسماء أخرى.

(1) Arkell, A. J. : A History of the Sudan to 1821. p. 113.

أطلق ريزنر على دولة نباتا - مروى إسم اثيوبيا، مؤثرا طريقة الكتاب القدماء الذين عاصروا دولة مروى، وأطلقوا على ملكها اسم ملك الاثيوبيين، ولما كان تاريخ بعض أقاليم دولة مروى أو كوش أو اثيوبيا، كما سماها الكتاب القدماء، اختلط بتاريخ دولة اكسوم فى الحبشة، فإن الأحباش فى الوقت الحاضر يطلقون على دولتهم اسم اثيوبيا بدلا من الحبشة. ولهذا يحسن أن نحدد اسم مملكه نباتا - مروى باسم دولة كوش تمييزا لها عن اثيوبيا الحالية (الحبشة).

فى البيعه ومعه جمع كتير ما يخالفونه، وكلما فعل بامره حتى لحق الملك ولحق الأمير حفظه الله التعب العظيم.

ووقت دخول الاسقفين الى الافشين كان سكران فامتلا غيظا وانفذ اخاه الى البيعه ومعه جمعا كتيرا ليحضر اليه الاب البطرك ليقتله، وكان يمشى امامهم اسحق الذى كان اسقف تنيس مثل

وقبل أن ننتقل إلى دراسة النوبيين ومراحل تاريخهم، نرى من الضرورى أن نتعرف على أوطانهم وتوزيع سلالاتهم الحالية فى الوطن النوبى.

تمثل الأوطان الحالية للنوبين، تلك الأراضى الملاصقة لنهر النيل من شمالى أسوان إلى بلدة الدبة وكورتى (١)، وهم يستقلون أحيانا بهذه الجبهات النوبية، لا يشاركهم فيها أحد، يجاورهم أحيانا جماعات عربية (٢).

وينقسم النوبيون إلى خمس مجموعات رئيسية: الدناقلة فى الجنوب ما بين الدبة وأبو فاطمة، ثم المحس والسكوت فى إقليم الجنادل، ثم الفديجة ما بين وادى حلفا وكرسكو، والكنوز فى الجزء الشمالى الممتد من كرسكو إلى أسوان (٣).

وعلى الرغم من أن النوبيين فى تاريخهم الطويل دخلت بلادهم عناصر مختلفة واندمجت فيهم، فإنهم ظلوا متمسكين بثقافتهم وبلغتهم الخاصة (٤).

---

(١) هذا التحديد ينصب على الأوطان الحالية للنوبين، وهى تمثل نصف المساحة التى كانوا يحتلونه من قبل، فامتدت كما سبق أن أوضحنا إلى الجنوب من إلتقاء النيلين الأبيض والأزرق، بل أمتد نفوذها أحيانا إلى بعض جهات الجزيرة. ولكنها انكمشت إلى الحدود الحالية على أثر ضغط القبائل العربية التى احتلت أخصب بقاعها إلى الجنوب من الدبة كما ستوضحه فيما بعد.

(٢) محمد عوض محمد - السودان الشمالى - ص ٨٤.

(٣) المصدر السابق ص ٣٠٢ (٤) المصدر السابق ص ٢٨٥.

يهودا الاسخريوطى الذى اسلم السيد المسيح لليهود. فدخل الى الهيكل واوما باصبعه الى البطرك لكي يعرفهم به لياخدوه، فجرد اخو الأفشين سيفه لياخذ راس البطرك، فعند ذلك مالت يده فوقع السيف فى عمود رخام انكسر، فازداد غضبا وكان فى وسطه سكين فاخذها من وسطه واوما بها الى جنب البطرك ليقتله، فيا لعظم تلك الاعجوبه فى تلك الساعه عند كل احد التى

وتختلف لغة النوبيين اختلافا يسيراً من إقليم إلى إقليم، فلغة الدناقلة والكنوز تكون مجموعة متشابهة، ولغة السكوت والمحس والفديجة تكون مجموعة ثانية متشابهة (١).

هذا من حيث توزيع سكان النوبة الأصلية فى الوقت الحاضر، أما الجزء الممتد من الدبة إلى جنوبى التقاء النيلين الأبيض والأزرق، وهو الوطن القديم للنوبيين المسيحيين فيحتله الآن الجعليون.

وفيما يتعلق بموضوع المراحل التاريخية للجماعات النوبية واستقرارها فى أوطانها حتى ظهور ممالكهم فى القرن السادس الميلادى، فإنه كان ولا يزال موضع خلاف بين العلماء، وخصوصا عندما تعرضوا لأصل هؤلاء النوبيين، حتى أضحى فى نظرهم مشكلة تشغل تفكيرهم. وخرج علينا كثير من العلماء بأبحاث وآراء متعددة متضاربة حول أصل النوبيين. ولا يهمنا من هذا الموضوع شئ بقدر ما يهمنا التعرف على المرحل التى مرت بها هذه الجماعات النوبية حتى اكتمل مجتمعهم عندما استقبلوا الدعوة المسيحية، والأسس التى أقاموا عليها حضارتهم وهل هم شعب أصيل فى أوطانه أو هو عنصر دخيل فرض ثقافته على شعوب سبقته إلى هذه الأوطان؟.

(1) Hamilton' J. A. ed. : the Anglo Egytian Sudan from Within. P. 168.
أنظر كذلك Griffith. F L I. Ency. Brit. Art. Nubia.

اظهرها الله فى قديسيه لما ضربه بالسكين قطعت الثياب التى عليه وانتهت الى المنطقة التى فى وسطه فقطعتها ولم ينل جسده شي بالجمله، فتبلبل جميع الشعب الذى فى البيعه وكثر صياحهم وظنو انه قد مات، فلما نظر ذلك المشتمل بالاعمال الصالحه وراى قلق الشعب واضطرابه اوما بيده اليهم وقال هلم: لا تقلقو . فلما علمو انه حى فرحو فرحا عظيما ومجدو الله

يحسن أن نستعرض فى إيجاز المناسبات التى ذكر فيها اسم النوبيين، وهل يمثلون العنصر الوحيد فى أوطانهم التى ورد ذكر اسمهم فيها أو شاركهم غيرهم من العناصر الأخرى؟.

عرف العرب سكان وادى النيل من أسوان إلى جنوبى الخرطوم الحالية باسم النوبة، وسبقهم فى الإشارة إلى النوبيين كثير من الكتاب القدماء أمثال أراتوسطينى وسترابون وبلينى [(١)].

وجاء بعد هؤلاء بطليموس الذى عاش فى القرن الثانى للميلاد. وذكر أن النوبيين يعيشون على الضفة الغربية للنيل وفى جزيرة مروى[(٢)]، وجزر النيل[(٣)] كذلك.

(١) كان اراتوسطينى أول من أشار إلى النوبيين فى مؤلفه الجغرافى عن النيل (٢٠٠ ق. م.) وتبعه سترابون وذكر أن النوبيين بأقسامهم الكثيرة يؤلفون وحدة مستقلة عن سلطان ملوك مروى، وهم يعيشون على الضفة الغربية للنيل، ويمتد وطنهم من شمال مروى إلى انحناءة النيل.

Strabo. " The Geogrephy of Strabo." VIII. P. 7.

أما بلينى، وهو أيضا من كتاب القرن الأول الميلادى فيشير إلى أن النوبيين كانوا يقطنون على بعد ثمانية أيام من جزيرة سمبرتى Sembritae » و(هى غير معروفة لنا الآن) إلى مدينة يقال لها تنوبسس Tenupsis على النيل Arkell. A, J. oP. Cit. P. 178.

وتنوبسس هذه ربما يقصد بها بانوبيس Panubs فى جزيرة أرجو.

(2) Kirwan. L. P. :" A Survey of Nudian Origins" SNR. XX part I. 1937. p. 46.

(3) Arkell: A. J. : op. Cit. 178.

وعدو اليه لينظرو ما لحقه فوجدو سالما ولم ينقطع غير الثياب والمنطقة فسبحو الله وصرخو قايلين كقول داود النبي: الرب يحفظ اصفياه الرب يحفظ الابرار وينجيهم من يد الخطاه. وشكرو الله على خلاصه وقالو: لولا ان الرب نجانا كانت نفسي تكون في الجحيم،وان قلت ان رجلي زلت فرحمتك يا رب اعانتني، ولكثرة اوجاع قلبي افرحني عزاك.

وذكر أجاثيماروس Agathemarus، أنهم كانوا يسكنون على ضفتي النيل الشرقية والغربية[1].

وذكر بروكوبيوس Procopius (٥٤٥م) أن النباطيينNobatae سكنوا الواحة الخارجة في القرن الثالث الميلادى عندما استدعاهم دقلديانوس (٢٨٤ - ٢٩٦م) للاستقرار في منطقة النوبة السفلي الرومانية، ليدفعوا عن الرومان خطر البليميين. ثم تحدث عنهم مرة أخرى أنهم يسكنون النوبة السفلي في منتصف القرن السادس الميلادى [2].

وفي القرن الرابع الميلادى نسمع عن غزوة قام بها عيزانا أول ملوك أكسوم المسيحية على مملكة كوش. وجاء في اللوحة التي سجل عليها عيزانا انتصاراته، أن النوبيين يحتلون جزءاً من جزيرة مروى، وكانت لهم مدن على طول النيل.

وفي بردية ترجع إلى القرن الخامس الميلادى (٤٢٥ - ٤٥٠م) نرى أسقف فيلة يوجه نداء للأمبراطور تاوداسيوس الثاني ليحمى كنائسه من إغارات البليميين والنوباديين «Annoubades» وهذه الوثيقة المعاصرة تؤيد وجود النوباديين في . منتصف القرن الخامس الميلادى[3].

(1) Kiewan, L.P. : op cit. 49.

(2) Procopius, : History of the Wars, transt. by. H. B. Dewing. P. 185.

(3) Kirwan, L. P. ; op. cit. p. 53.

فلما نظر اخو الافشين هذه الاعجوبه وعلم ان الرب معه اخذه ليمضى به الى اخيه كما امره، وفيما هم يجذبونه ليخرجوه والشعب متعلق به فقال لهم: لا تمسكونى فما نحن مقاومون السلطان. فخرج والشعب يتبعونه باكين يسجدون على رجليه ويديه ويظنون انه يقتل، فلما نظرهم اخو الامير يمسكونه غضب جدا ورفع يده وضربه بمقرعه على راسه فانجرحت عينه، ودخل الى

وتحدث المؤرخ الرومانى برسيق «Priscus» عن نص المعاهدة التى فرضها مكسيمينوس «Maximinus» (٤٥١م) على النباطين والبليميين وهى معاهدة عدم اعتداء لمدة مائة عام[1].

ويذكر يوحنا الافسى فى كتابه «التاريخ الكنسى» أن النباطين يسكنون إلى الجنوب من أسوان، على حين يعيش البليميون فى الصحراء الشرقية. تشير الوثائق القبطية إلى أن المملكة المسيحية فى الشمال أطلق عليها اسم نوباتيا «Nobatia» أو نوباديا «Nobadia»[2].

وعلى هذا فإن لدينا من معلومات عن النوبيين منذ القرن الثالث قبل الميلادى حتى القرن السادس الميلادى، لاتزيد على أن تصفهم بأنهم قبيلة أوشعب من الشعوب التى تسكن وادى النيل من الشلال الأول حتى جزيرة مروى، وهم أحيانا يسكنون غرب النيل وأحيانا أخرى على جانبى النيل، وأحيانا يحتلون بعض جهات الأتبرا وجزيرة مروى، ثم نسمع عن وجودهم فى الواحة الخارجة. وأخيرا نراهم فى القرنين الخامس والسادس يسكنون جهات النوبة السفلى.. وحتى عهد الملك سلكو - حوالى منتصف القرن السادس الميلادى على الأرجح - كانوا يمثلون عنصرا متمايزاً عن بقية الأثيوبيين.

(1) Arkill, A. J. : op. cit P. 179.

(2) Kirwan, L.P. : op. cit. P. 55.

الافشين فخاطبه بما ينبغي، وبما قالوه عنه الاساقفه وسعو به، فقال له : بنعمة الله امر الاسقفين امر عجيب وذلك انى قطعتهما عن اسقفيتهما. ثم اعلمه سبب قطعهما لقيام شعبهما عليهما، فعلم الافشين الحق وبطلان قولهما عنه وبدا ان ينزل البلايا عليهما. وقال للحاضرين: لقد اراد هذان الرجلان ان يكسباني خطيه عظيمه

إن هذه الإشارات المختلفة إلى النوبيين فى خلال التسعة قرون التى سبقت الغزو العربى لمصر، أثارت الخلاف بين العلماء عن أصل النوبيين. هل هم فى الأصل قوقازيون حاميون، أم أقوام من الجنوب وتغلب عليهم الصفات الزنجية؟ الواقع أن بعض العلماء وقعوا فى خطأ كبير عندما بنوا نظرياتهم الخاصة بأصل النوبيين على أسس لغوية دون غيرها. وبذلك حدث خلط بين النوبيين على النيل وبين النوباوين سكان جبال نوبا فى جنوب كردفان، رغم ما بينهما من فروق جثمانية وثقافية واضحة (١).

بيد أن البحث الأثرى فى المنطقة - التى غمرتها المياه بسبب تعلية خزان أسوان سنة ١٩٠٧ ـ على يد ريزنر وغيره من الأثريين، كشف عن ثقافات مختلفة فى منطقة النوبة، لعلها تفيد فى تفهم خصائص هذه الجماعات التى عمرت المنطقة منذ أقدم العصور، وصفاتها الطبيعية ونوع حضارتها ومدى اتصالها بغيرها من الجماعات المجاورة وتأثرها بها.

ونظراً لاستقرار الجماعات البشرية فى بلاد النوبة منذ عهد سحيق يرجع إلى ما قبل التاريخ، فإن العلماء لجأوا إلى تقسيم المقابر التى تحوى أثار هذه الجماعات وبقايا عظامها إلى مجموعات رمز لها بالأحرف .. A. B. C. D. X وتمثل كل مجموعة من هذه المجموعات الثقافية عصراً معيناً.

(١) محمد عوض محمد - السودان الشمالى - ص ٢٧٨.

واقتل ابا النصارى جميعا. فلما نظر القديس ان الانتقام يحل بهما بسببه قال له: مذهبى يامرنى بفعل الخير مع من يعمل معى الشر، والذى سعيا به هذان قد طرح الله فى قلبك الصحيح، فاسالك ان تفعل معهما خيرا برياستك وتركهما كرامة لله. فلما نظر فعله تعجب واطلق الاسقفين، فمجد الشعب الله وشكروه وقالو انه مستحق

وتشمل المجموعة الثقافية A (من حوالى ٥٠٠٠ ق. م. إلى ٣٠٠٠ ق. م.) عصر ما قبل التاريخ وعصر الأسرات الأول، وفيه تكونت السلالة النوبية الأولى، ودل البحث الأثرى بالنوبة السفلى على وجود سلسلة مراكز للسكان عند فتحات الأودية حيث كونت الرواسب مساحات مختلفة صالحة للزراعة، وقامت حياة سكانها على الزراعة، كما دلت بقايا هؤلاء السكان على أنهم من نفس سلالة قدماء المصريين الذين سكنوا مصر قبل ظهور الأسرات المصرية وهم جميعاً من الجنس الحامي، كما أن فخارهم ومصنوعاتهم من المعدن والحجر والعاج وغيرها كانت مطابقة في مادتها وشكلها للمصنوعات التي وجدت في نفس العهد المصرى [1]. كما أن طريقة الدفن تشبه تلك التى وجدت فى مصر فى ذلك العهد.

ولاحظ اليوت سمث أن المؤثرات الزنجية لم تصل إلى مصر ولا إلى بلاد النوبة قبل عهد الأسرة الثالثة المصرية، باستثناء النساء الزنجيات اللائى اتخذهن المصريون أو النوبيون أزواجاً لهم.. ويضيف إلى هذا قوله: «إن الأبحاث الأثرية تؤيد ما ذهبت إليه من أن سكان النوبة حتى الأسرة الثالثة كانوا امتداداً لسكان مصر نحو الجنوب [2]».

(١) سليم حسن ـ مصر القديمة ـ جـ١٠ ص ٢ ـ ٤.
وانظر Arlell, A.J. : op. cit. PP. 37 - 38.

(2) Illiot Smith, G.: "Anatomical Report" 'A' ASN B. 3, PP. 22- 23.

المجد لاقامته هذا الاب القديس العامل بوصاياه علينا مقدما.

ولما علم المامون الخبر من الواردين عليه امر ان يكتب له سجل بكرامته ورعايته ان لا يعترضه احد في احكامه ولا في من يوسمه او يقطعه.

ثم بعد ذلك امر المامون ان يطلب من بقي من البشموريين بكورة مصر وان يسيرو الى بغداد، فسيرو واقامو في الحبوس مدة كبيرة حتى اراد الله

والمجموعة الثقافية «B» في بلاد النوبة، تقابل من حيث الزمن عصر بناة الأهرام حتى الأسرة السادسة. غير أنه لم يلاحظ عليها أى أثر مصرى بارز كالكتابة مثلا. والواقع أن ثقافة النوبيين في هذا العهد تمثل صورة منحطة من ثقافة المجموعة A التي كانت فيما يبدو مخالفة لهـا [١]. ويرى فرث أن أهم ما يلاحظ على ثقافة المجموعة النوبية «B» ـ اختفاء الأوانى الفخارية، وأن العدد القليل الذى عثر عليه من نوع محلي ردئ يختلف عن الفخار المصرى[٢]. ويرى ريزنر أن طريقة الدفن عندهم تختلف عن تلك التي اتبعت في عهد ثقافة المجموعة «A» ويدل هذا على أن مظاهر ا لاحتكاك الحضارى بين مصر والنوبة في هذا العهد كانت ضعيفة [٣].

أما المجموعة الثقافية «C» (٢٤٠٠ – ١٦٠٠ ق. م.) فدلت الأبحاث الأثرية على أن سكان النوبة في هذا العصر كانوا من الحاميين الذين اختلطت دماؤهم بدم الزنوج، وهم قوم من الرعاة اضطروا إلى ترك أوطانهم الأصلية والتقدم شمالا تحت ضغط جماعات أقوى منها[٤]. وإذا قورنت ثقافتهم بثقافة الدولة الوسطى المصرية وجدت متخلفة عنها.

(١) سليم حسن – مصر القديمة جـ١٠ ص ١٨ ـ ١٩.

(2) Firth, C. M. : ASN, Report for 1908 - 9, I, p. 1.

(3) Ibid, op. cit . p. 12.

(4) Ibid, op. cit. p. 14.

خلاصهم من يد ابرهيم الملك بعد اخيه، فمنهم من رجع الى بلده ومنهم من بقى هناك ببغداد وانشو بساتين واقامو هناك الى اليوم وهم الى اليوم يسمون أهل البشروديين(*).

ثم بعد ذلك اراد الاب يوساب ان يرسم اسقفين بمصر وتنيس عوضا من المقطوعين [اسحاق وتادرس] ليتمم قول السليح بولس: واعظم ما على الاهتمام بالبيع. فاما اسحق [ابن اندونه]

(*) تذكر بعض المصادر أن البشموريين تم توطينهم في مستنقعات الأهواز (شط العرب) في جنوب العراق المطل على الخليج الفارسي ليصلحوا أراضيها لحساب العباسيين، وذلك في ظل ظروف مناخية سيئة وأمراض الملاريا والقحط الشديد، ولعل=

وفي عهد الدولة الحديثة نزحت أفواج كبيرة من مصر إلى بلاد النوبة. وظهرت في بلاد النوبة نهضة ثقافية مركزها نباتا، وازدحمت البلاد بطوائف مختلفة حملت معها ألوانا من الحضارة المصرية. ويمكن القول إن بلاد النوبة مصرت تمصيرا تاما وانتشرت عبادة الآلهة المصرية جميعاً وخاصة آمون.

أما المجموعة الثقافية «X» (من ٣٠٠م - ٥٥٠م) فتشير تقارير العلماء الذين قاموا بفحص مقابر أصحاب هذه الثقافة في بلانة وقسطل وفركة إلى وجود الأثر الزنجي واضحا [(١)]، ويرجع إلى هجرة زنجية من الجنوب واستقرار أصحابها في بلاد النوبة واختلاطهم بسكانها[(٢)]، كما أثبت فحص الجماجم البشرية وجود عدد من النساء مساو تقريبا لمثله من الرجال، مما يدل على أن وجود هذه العناصر الزنجية لم يكن الغرض منه مجرد الغزو، بل كان الدافع لهم الاستقرار في هذه الجهات وتعميرها، ويبدو من التقرير الذى وضعه الدكتور البطراوى أن هذه الهجرة كانت زنجية تحت قيادة حامية [(٣)]. وأهم ما يلاحظ على هؤلاء القوم، أنهم مارسوا الزراعة بوصفها حرفة أساسية تساندها حرفة الرعي، واختفاء الطابع

(1) Kirwan, L.P. : The Oxiord University Excaxations at Firka p. 36.

(2) Ibid, op. cit. p. 38.

(٣) محمد عوض محمد - السودان الشمالي ص ٢٩٨.

= بقاياهم شارك بعد ذلك في ثورات الزنج على الخلافة العباسية، نظراً لتمرسهم بأساليب القتال في المستنقعات، عندما كانوا في براري شمال الدلتا بمصر.

الارخن الذى صيره شماسا ونايبا عنه اوسمه اسقفا علي وسيم، واوسم انسانا اسمه ديمتريوس على تنيس وبقى فسطاط مصر بغير اسقف، وبقى [اسحق ابن اندونه] اسقف وسيم مدبر كرسي مصر ، وجعل سلطانه عليه. ولم يكن احد يقدر ان يقاومه بقوة كلامه عند الولاه وعند اخوته وجماعته، وبقى على الكرسيين الى يوم وفاته.

فلما افاق البطرك قليلا اهتم بامر الحبشه والنوبه

المصرى فى بناء المقابر وطرق الدفن، وكثرة وجود الضحايا البشرية والحيوانية. وهى تمثل خليطا من حضارة بيزنطية ومروية لم تخل من الآثار البدائية (١).

واختلف العلماء فى أصل أصحاب هذه المجموعة الثقافية «X» ويرى فرث أنهم نباطيو دقلديانوس. ولا يسلم كروان بهذا الرأى لأسباب منها أنه لم يعثر على آثار أصحاب هذه الثقافة إلا منذ القرن الرابع الميلادى على حين أن النباطيين جاءوا إلى النوبة فى القرن الثالث الميلادى، كما أن النباطين لم يتخطوا مدينة المحرقة، على حين وجدت آثار المجموعة «X» فى جهات تقع إلى الجنوب من الشلال الثانى عند فركه (٢).

واعتقد البعض اعتمادا على ما ذكر ه المؤرخ أوليمبيودوروس Olympiodorus أن البليميين هم أصحاب الثقافة «X» . لأن هذا المؤرخ لاحظ أن البليميين يحتلون خمس مدن على النيل من إبريم إلى فيلة فى أواخر القرن الخامس الميلادى. وفى هذه المنطقة ذاتها عثر على آثار المجموعة الثقافية «X»، مما يرجع معة نسبة البليميين إلى هذه الثقافة. ولكن يصعب التسليم بهذا الرأى لأن البقايا التى عثر عليها فى مقابر المجموعة الثقافية «X» تدل على أن أصحابها كانوا قوما مستقرين يمارسون الزراعة، على حين أن البليميين شعب رعوى متنقل، ثم أن

(1) Kirwan, L. P. : " The Ballana Civilization " op. Cit. P. 104.

(2) Kirwan, L. p. : Firka P. 39.

وانفذ اليهم كتبا وتفقدهم وتفقد بيعهم ولم يتمكن لخلف [حروب] الملوك مع ولاة مصر المسلمين. وكان يطلب الى الله ان تكون السلامه بينهم ليبلغ غرضه فى عمارة المواضع التى للاب البشير مارى مرقس، فسمع الله دعاه واجاب طلبته.

وكان الحرب قد اقام اربع عشره سنه بينهم [بين ملوك الحبشه والنوبه من جهة والولاه المسلمين من

وجودهم فى هذه المنطقتن كان مؤقتا لم يلبثوا أن طردوا منها على يد الملك سلكو. وبفحص الجماجم وجود نسبة كبيرة من الدماء الزنجية، وهى تختلف عن تلك التى وجدت فى مقابر المجموعتين الثقافيتين "B, A" ، وهى كما سبق تنسب للجنس الحامى أيضا، وينسب إليه البليميون. وثالثهما يتعلق بتوزيع اثار هذه المجموعة إذ عثر عليها جنوبى الشلال الثانى، على حين أن البليميين لم يتخطوا إبريم فى المدة التى استقروا فيها موقتا على النيل ثم طردهم نهائيا على يد الملك سلكو[١].

ورأى آخر ينسب أصحاب هذه الثقافة إلى النوبا ـ النوباديين ـ "Noba Noubades" ، الذين خضعوا لسلطان الملك سلكو، الذى أطلق على نفسه لقب ملك النوباديين والأثيوبيين، وهذا اللقب يؤكد قيام التحالف بين النوبيين والمرويين، والذى ظهرت آثاره فى مخلفات المجموعة الثقافية «X» ، وهى تحتوى ـ كما سبق أن بينا ـ على عناصر ثقافية مشتركة نوبية ومروية[٢] وتمكن النوباديون (النوبيون) بفضل ملكهم سلكو بعد طرد البليميين من منطقة إبريم ـ الشلال، أن يصبحوا سادة هذه المنطقة التى تمتد من فيلة شمالا حتى الشلال الثالث جنوبا، وأن يؤسسوا مملكه نوباتيا (النوبة) وعاصمتها بلانة [٣].

(1) Kirwan, L. P. : Firka op . Cit. P. 39.

(2) Ibid, Op. cit. P. 43.

(3) Kirwan, L. P. : "A Survey of Nubian Origins", SNR. XX Part. II. P. 59.

جهة أخرى] الى أن ملك ابراهيم [المعتصم] اخو المامون وجعل حفظه على طريق الحبشه والنوبه.

وكان الملك على النوبه زكريا، فانفذ ابراهيم يقول له: ان كنت تفعل كما كان يفعل غيرك من الملوك فانفذ خراج اربع عشره سنه سلفت والا نحن نحاربك.

وكان كاتب الوالي في الصعيد انسان شماس اسمه جرجه، فكتب الى البطرك يعرفه ما صدرت

هذه هى مجموعة البحوث التى قام بها علماء الآثار، وهى وان لم تقطع برأى صريح فى أصل النوبيين، فإنها مع هذا ألقت ضوءاً على المجموعات البشرية التى عمرت بلاد النوبة منذ أقدم العصور وتتابعها الزمنى.

ومن السهل أن نسلم ـ بعد دراسة نتائج أبحاث علماء الآثار والأجناس ـ بأن النوبيين بوضعهم الذى كانوا عليه عندما استقبلوا الدعوة المسيحية كانوا يمثلون خليطا من سلالات حامية مثل سلالة قدماء المصريين فى عصر الأسرات الأول وما قبلها، ومن سلالات زنجية، وذلك لأن بلاد النوبة منذ عهد الأسرة الثالثة المصرية استقبلت جماعات حامية من الشرق والغرب وجماعات مصرية من الشمال، كما أنها أخذت تستقبل من الجنوب جماعات زنجية(١).

ويرى كروان أن النوباديين "Annoubades" الذين ورد ذكرهم فى بردية ليدن (٢) والنباطين الذين عقد معهم مكسمينوس صلحا، ونوبادى سلكو، هم جميعا النوبيون الذين أغاروا على

(١) تمثل مروى فى رأى فرث نقطة التقاء هذه العناصر الحامية القادمة من الشرق والنيلية (الزنجية) القادمة من الجنوب، ثم أخذ هذا الخليط يهبط أرض النوبة السفلية

Firth, C. M: ASN Report for 1910 - 11, P. 37.

(٢) وهى البردية التى تشير إلى نداء أسقف فيلة إلى الامبراطور ناوداسيوس الثانى لحماية كنائس أسوان والفنتين من البليميين و النوباديين.

به كتب الملك ابراهيم، فلما سمع هذا البطرك مجد الله وفرح وقال: هذه الوسيله لأكتب ايضا بمايتعلق بالبيعه الى الملوك. فكتب كتبا متضمنه ما يجب من نعمة روح القدس يسلم عليهم ويفخهم ويوجدهم {يخبرهم} ما يفعلونه معه ملوك المسلمين من الجميل لما اجلسه الرب على الكرسى الجليل المقدس، ويقول: وانا غير مستحق لذلك، وكنت مشتاقا الى اخباركم، وكانت خطيتى تمنعنى الا اكاتبكم لاجل الحروب التى كانت

مروى فى القرن الرابع الميلادى، ثم اندفعوا شمالا أمام الغزو الأكسومى إلى جهات النوبة الوسطى. ومن الجائز أن هؤلاءعاشوا جنبا إلى جنب مع المرويين وأخذوا عنهم بعض ثقافتهم التى تتمثل فى ثقافة المجموعة «X» إلى جانب المؤثرات البيزنطية كما سبق ذكره [١]. ويبدو أن هؤلاء الطارئين يمثلون العنصر الزنجى فى ثقافة المجموعة «X» ومن الجائز أن يكون هؤلاء من سلالة العناصر الزنجية التى امتدت أوطانها جنوبى مروى، من أرض الجزيرة شرقا إلى جبال كردفان غربا. ويفسر هذا وجود أوجه شبه بين الفرجاب الذين يعيشون قرب بارة بكردفان وسكان جبل مويا. وأيضا بين النوباويين بجبال كردفان وسكان دار فونج بأرض الجزيرة، لا فى الصفات الطبيعية فحسب، بل فى بعض عناصر ثقافتها كذلك.. وهؤلاء هم الذين أغاروا على مروى، ثم تكون منهم بعد ذلك الحلف المروى النوبى تحت زعامة سلكو [٢].

بيد أن دى فيار يفرق بين النوبا Nuba، وهم فى نظره أصحاب البلاد الأصليين وبين النباطيين Nobatae الذين ظهروا فى بلاد النوبة السفلى الرومانية منذ عهد دقلديانوس. ويرى دى فيار أن أصل النباطيين من ليبيا، وأنهم نزحوا من شمال إفريقيا تحت ضغط الرومان الذين شنوا عليهم حربا لا هوادة فيها اقتضتها سياستهم التنظيمية الجديدة، وإزاء هذا الضغط الرومانى، اضطر هؤلاء إلى الهجرة إلى الصحراء، متخذين طريق الواحات، كما فعل أسلافهم

(1) Kirwan , L. P. : " The Oxford Excavations in Nubia" JEA, XXI, p. 197.

(2) Kirwan, L. P. : Firka op . cit. P. 43.

بارض مصر، ومخالفة اهل البشموريين لاوامر الملك الى ان قتلهم واخرب مواضعهم وهدم بيعهم، فوجدنا الوسيله بهذه المكاتبه ان نعلمكم ماجرى ، ويجب الان يا احباى ان تتمو ما يجب عليكم لهولا الملوك، وان كان لا يجب ان نامركم بشى من هذا فقد قاسيت عذابا من اخوتى كما قاسى يوسف بن يعقوب من اخوته، ويجب الان ان تطلبو السلامه تكون بينكم يا محبى الله، وتصير السلامه فى البيعه من اجلكم.

فى الطمحو وخلفاؤهم من الهوارة وغيرهم، وساعدهم ظهور الجمل (فى القرن الأول الميلادى) على سرعة تحركهم فى الصحراء. وعلى الرغم من هذا فإن علاقتهم بالرومان لم تنقطع، وكثيرا ما ترددوا على المدن الرومانية بشمال افريقيا ليغشوا أسواقها، كما أنهم قاموا بدور الوسيط فى نقل المتاجر الرومانية، واستقر بعضهم فى الواحة الخارجية، وعندما اضطر دقلديانوس إلى الاستعانة بهم ضد البليميين، استدعاهم إلى بلاد النوبة السفلى فى القرن الثالث الميلادى، وسيطروا على منطقة النوبة السفلى، واختلطوا بسكانها القدماء، وأخذوا عنهم بعض عاداتهم، ودخلوا فيما بعد فى المسيحية، وأسوا مملكة النوبة المسيحية. فهم يمثلون إذن فى رأى دى فيار الطبقة الارستقراطية فى المجتمع النوبى، على حين يمثل النوبيون الاصليون عامة الشعب، وهم الذين كشفت عنهم أعمال التنقيب فى مقابر المجموعة «X» التى سبق ذكرها (١).

ومع مافى هذا الرأى من طرافه إلا أنه لا يمكن قبوله، لأن معنى هذا أنه قبيل مجئ هذه الطبقة الاستقراطية من ليبيا إلى بلاد النوبة السفلى، كان جميع سكانها من الزنوج، وهذا مما لا يتفق والحقائق التاريخية ونتائج الابحاث الأثرية.

أما البحوث اللغوية التى قام بها بعض علماء اللغات لحل مشكلة أصل النوبيين كما يدعون، فقد لا تفيد كثيرا بقدر ما تزيد هذا الموضوع تعقيدا. وذلك أن فردريك ملر ومدرسته

(1) De Villard, : Storia della Nubia Cristiana. PP. 133 - 139.

وهذه الرساله انفذها الى الوالى الذى فى المعدن باسوان لينفذها [إلى زكريا ملك النوبه].

فلما وصلت الكتب الى زكريا الملك وقريت عليه قال: ما الذى اصنع فى ما التمس منى الملك [ابراهيم]. من يجمع لى بقط اربع عشرة سنه انفسا [عبيدا] انفذهم اليه، و[أنا] لا اتمكن من مفارقة كرسيي ليلا [لئلا] يهلكونا البربر المخالفون لى، ويجب ان انفذ ابنى اليه. فاحضر ولده الاكبر

- -

لاحظوا وجود نوع من التشابه بين اللغة السائدة فى بلاد النوبة وبين بعض اللغات الموجودة فى شمال تلال كردفان، فبنوا نظرياتهم على أساس أن النوبيين والنوباويين (سكان جبال النوبا فى جنوب كردفان) من سلالة واحدة، ورغم مابين الشعبين من خلاف كبير. ويرى عوض بناء على ما قام به سلجمان من دراسات فى هذا الموضوع أن ملر ومدرسته وقعوا فى خلط مزدوج. ذلك أن اللغة التى قد تشبه من بعض الوجوه لغة النوبيين لم تكن سوى واحدة من ثلاث فى الجبال جنوب كردفان. وثمة خطأ كبير آخر هو أن السلالة النوبية قوقازية على حين أن النوبويين فى جبال كردفان تغلب عليهم الصفات الزنجية، كما أن ثقافتهم تختلف تمام الاختلاف(١).

يرى زيلارس أن لغة جبال النوبا بكردفان واللغة النوبية على النيل هما فرعان من لغة واحدة كانت منتشرة فى شمال كردفان ثم انتقلت بواسطة أصحابها إلى كل من الاقليمين(٢).

(١) محمد عوض محمد ـ السودان الشمالى ـ سكانه وقبائله ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩.
أنظر Seligman, S . G. "Some Aspects of the Hamitic Problem in the A. E. Sudan, JRAI, 43, 1913.

(٢) محمد عوض محمد ـ نفس المصدر ـ ص ٢٩٠ ـ ٢/١.
أنظر
Hillelson, S. : "Nubian Origins " , SNR, XIII, I, PP. 132- 146.
Henderson, K. D. D. : "Nubian Origins" SNR, XX, II, PP. 90 - 92.
Henderson, K. D. D: "Nubian Origns" SNR, XXI, I, PP.. 222 - 224.

وكان اسمه جرجه وضرب بالبوق وجعل مناديا ينادى «ان الملك له بعدى» ثم ا نفذه الى مصر صحبة الرسل الواصلين من مصر مع هدايا اعدها.

ولما وصل الى مصر اجتمع به الاب المغبوط انبا يوساب، فلما نظر اليه جرجه بن زكريا الملك فرح فرحا عظيما وسجد بين يديه فبارك عليه البطرك واعاد عليه بعض ما جرى عليه ليقيم عذره فى تاخر كتبه عن مملكتهم ، فقال له جرجه: مبارك الرب الذى لم يفعل معنا مثل خطايانا لكن خطيتنا

ومن الضرورى اذن أن نبحث أصل هذه اللغة، هل هى حامية أوزنجية؟ يرى راينش أن اللغة النوبية حامية الأصل ثم دخلتها مؤثرات أجنبية (١) ولعل هذه المؤاثرات الأجنبية من الجنوب.

وعليه فان النوبيين ـ كما وصفهم اليوث سمث ـ حاميو الأصل من نفس سلالة قدماء المصريين وتأثروا على مدى العصور بمؤثرات زنجية ظهرت بوضوح فى المجموعة الثقافية «X» وبالتالى يغلب على اللغةالنوبية أنها ذات أصل حامى تأثرت ببعض المؤثرات الزنجية. أما عن وجود شبة بين أحدى اللغات الثلاث الموجودة فى جبال كردفان الجنوبية وبين اللغة النوبية فان هذا لا يقوم دليلا على اشتراك هاتين السلالتين فى أصل واحد، فهو لا يستند على حقائق علمية، فالاختلاف واضح بينهما، والأرجح أن بعض الموجات النوبية سوءأ كان هذا قبل سقوط دنقلة أو بعدها هاجرت إلى بعض جهات كردفان أمام الضغط العربى المستمر، واستقرت بعض عناصرها فى شمال جبال كردفان، وفرضت أسمها ولغتها على سكان الجبال دون غيرهم، وهذه كانت واحدة من اللغات الثلاث الموجودة بهذه الجبال. وما لبث أن أطلق العرب اسم نوبا على سكان الجبال جميعاً. وربما كان هذا راجعاً إلى أن هؤلاء النوبيين المهاجرين كانوا عنصرا بارزا مما جعل اسمهم علما على الجبال جميعاً على الرغم من أن السكان الأصليين لا يطلقون على أنفسهم اسم «نوبا» ولكن «سكان الجبال».

---

(١) محمد عوض محمد - السودان الشمالى ـ سكانه وقبائله ، ص ٢٩١.

منعتك الى الان، وقدسك الذى جعلنى مستحقا ان اقبل يديك المقدستين ايها السراج المضى لجميع المسكونه وللارتدكسين.

وبدا ان يمشى فى الطريق الى بغداد ساله ان يدعو له ان يعيده الله اليه بسلام. فوصل الى بغداد مدينة الملك فقبله الملك بفرح وقال له: قد وهب الله لك بقط جميع ما مضى من السنين لجل حضورك الى عندى وطاعتك لى . واقام عنده اياما كثيره مكرما ثم سرحه بكرامات كثير ذهب وفضه

بلاد النوبة قبيل دخول المسيحية

النوبيون وعلاقاتهم بالدولة الرومانية

دولة مروى، اضطراب الأمن بمناطق النوبة الوسطى والسفلى، تخلى الرومان عن منطقة النوبة السفلى، استمرار إغارات البليميين، موقف الدولة الرومانية، حملة مكسيمينوس، طرد البليميين من وادى النيل، اغلاق معبد فيلة .

* * *

كانت بلاد النوبة جزءا من دولة كوش التى امتدت من الشلال الأول جنوبا إلى جهات النيل الأزرق وكردفان[١].

ويرجع ظهور هذه الدولة إلى حوالى منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، على يد سلالة من كهنة آمون، الذين هجروا طيبة حوالى منتصف القرن العاشر قبل الميلاد،على أثر تولية الملك شاشانق الأول الليبى الأصل حكم مصر.

وأنشأت هذه السلالة الكهنوتية دولة جعلت عاصمتها نبات[٢]، واستقلت عن حكم

(1)Arkell, A.J. : A History of the Sudan to AD. 1821. pp. 112 - 113.

(٢) اتين دريتون وجاك فانديه: مصر، تعريب عباس بيومى ص ٥٨٦.

Arkell, op, Cit, pp. 112 - 113.

وملبوس وانفذ صحبته عسكرا لكى يوصلوه الى بلاده بسلام.

فلما وصل إلى مصر ومن معه بمجد عظيم وتبحيل وصليب [ذهب] بيده يقبله كل احد موضع اكرام الملك له، وسال ابانا البطرك ان يحمل هيكلا مكرزا معمولا من خشب يتفصل [يفك] ويتركب الى داخل قصر الملك حيث كان نازلا فيه، وكانو معه اساقفه من بلاده يقدسون له

مصر. ولم تقف جهود ملوكها عند شئونهم الداخلية، بل يبدو أن فكرة تخليص مصر من يد الليبيين الأجانب غدت ركنا من أركان سياستهم رغبة في توحيد القطرين.

وتحقيقا لهذه السياسة، قام ملوك هذه الأسرة الكوشية بمحاولات انتهت بضم مصر إلى كوش وتوحيدهما فى مملكه واحدة عاصمتها طيبة[1]. وأسس هؤلاء الملوك الكوشيون الأسرة الخامسة والعشرين فى مصر، وهى الأسرة التى منعت الآشوريين مدة من دخول البلاد المصرية. ثم ما لبث الأشوريون أن استولوا على مصر واضطر تانوت آمون آخر ملوك هذه الأسرة فى مصر إلى التقهقر جنوباً إلى نباتا عاصمة أجداده. وبهذا انتهى حكم الملوك الكوشيين الذى استمر فى مصر من سنة ٧١٥ق. م. إلى سنة ٦٦٣ق. م. وانتهت الأسرة الخامسة والعشرون[2].

أما فى الجنوب فظلت دولة الكوشيين قائمة، وأضفى ملوكها على أنفسهم ألقابا مصرية، وتشبهوا بفراعنة مصر، وظلت نباتا عاصمتهم تمثل مركزا لنوع من الحضارة المصرية، وظلت اللغة المصرية هى اللغة الرسمية للبلاد، وعندما حلت محلها لغة وطنية ظلت تكتب كذلك

(1) Arkell, A. J. : op. cit . p. 125.

(2) Ibid, op. cit. p. 128 - 136.

انظر كذلك اتين دريتون وجاك فانديه - «مصر» ترجمة عباس بيومى ص ٥٩٧ ـ ٦٠٣.

فيتقرب ابن الملك وكلمن معه. وامر بضرب الناقوس فوق السطوح الذى لقصر [الملك] فى وقت القداس كما يفعل فى البيعه، فتعجب كل احد من هذا وفرح جميع النصارى بهذا وجدو الله على ما اظهره بصلاة هذا القديس الاب البطرك.

وفى ايامه سافر ابن الملك المذكور واخذ فى هيئة المسير، فمشى معه ابونا البطرك الى موضع

باخط الهيروغليفى، ودفن ملوك هذه الأسرة فى أهرام على الطريقة المصرية، وبنيت المعابد وانتشرت عبادة الآلهة المصرية إلى جانب المعبودات المحلية. ثم فقدت نباتا أهميتها منذ بداية القرن السادس قبل الميلاد، لانقطاع صلتها بمصر، ونفاذ مواردها من مناجم الذهب القريبة، وانتقل مركز الحكم والإدارة إلى مروى [١]، التى تمتاز بموقع جغرافى فريد وسط سهل غنى بموارده الزراعية،علاوة على وجود صناعة الحديد بالقرب منها. وظلت مروى عاصمة.دولة كوش من ٣٠٠ ق. م. إلى ٣٥٠م على وجه التقريب، أى أن الدور المروى من تاريخ هذه الدولة يعاصر حكم البطالمة ثم الرمان فى مصر.

وفى مروى أخذت الثقافة المصرية تتضاءل شيئاً فشيئاً ، حتى غدت مزيجا من ثقافات مختلفة، مصرية ويونانية ورومانية، فضلا عن ثقافات حبشية سبئية وخاصة فى ناحيتى الدين والفن [٢].

وفى الدور المروى من تاريخ دولة كوش يتحدث الكتاب القدماء عن ملكات (كنداكة) ،

---

(١) مدينة مروى قرب كبوشية الحالية.

Smith H. F. C. ; " The Transfer of the Capital of Kush From Napata to Meroe " Kush, III PP. 20 - 52.

(2) Hamiktom, J. A. - ed. : The Anglo Egyptian Sudan from Within p. 18.

يعرف ببولاق(*) بمجد عظيم . وتعزى بذلك الاب عما جرى عليه من التجارب، ومن لا يتعجل اذا سمع هذه العجايب، وهو ان كل بطرك يجلس على هذا الكرسى المقدس يصرف اهتمامه الى تلتة اقسام: الاهتمام بسنوديقا الى بطرك انطاكيه، التانى امرنا الذى يتعلق بالحبشه والنوبه، والتالت تنجز سجلات من ملك مصر له [للبطرك] وللاساقفة ليستقيم امر البيع الارتدكسيه. فجمع الله لابونا البطرك انبا يوساب هذه التلتة اقسم بالمشاهدة،

(*) بولاق: كلمة مصرية فرعونية تعنى الحدود. ولعل المقصود هنا وصول البطرك مع أبن ملك النوبة زكريا إلى مسيناء بولاق المعروف قرب القاهرة العالية، هذا مع العلم بأنه كانت هناك مدينة بنفس الاسم جنوب اسوان على الحدود بينى مصر والنوبة، ولا يستبعد أن البطرك سار مع ابن الملك إليها.

يبدو أنهن حكمن أحيانا كوصيات على العرش نيابة عن أولادهن القصر(١). ويتضح من أخبار ذلك الدور من تاريخ كوش أن العلاقات الطيبة بين البطالمة وحكام كوش استمرت حتى نهاية العهد البطلمي، بدليل أن كليوبترة بعثت بابنيها من القائد الروماني انطونيوس إلى الجنوب ليكونا في مأمن من خطر الرومان الذين هددوا ملكها في مصر، ولتنشد مساعدة الكوشيين لها ضد روما (٢). وربما كان مرجع هذه العلاقات الطيبة إلى أن الدولة البطلمية فى عز أيامها لم تجنح إلى التوسع جنوبى أسوان، بل شجعت المنطقة الممتدة من أسوان إلى المحرقة Hierosykaminos، وهى بلاد النوبة السفلي التى عرفت قديما باسم Dodekasch على أن تظل مستقلة عن مصر وكوش تحت حكم أمرائها الوطنيين (٣). على أن هذه المنطقة لم تلبث أن فقدت استقلالها زمن بطليموس السادس (١٨١ ـ ١٤٥ق.م)، وظلت كذلك حتى نهاية الدولة البطلمية على يد الرومان عام ٣٢ ق. م. (٤).

* * *

(١) أطلق هؤلاء الكتاب على ملكة مروى اسم كنداكة، ويبدو أن هذا كان لقبا بمعنى ملكة .
أنظر: Arkell, A. J. op . cit. p. 126.

(2) Woolley. and Maciver, : Karanog - The Romano - Nubian Cemetery P. 85.

(3) Beckett, H. W.: ASN, II, Report 1907 - 8, P. 349.

(٤) يبدو أن فراعنة مصر من أيام الأسرة الثانية والعشرين عجزوا عن دعم النفوذ المصرى القديم فى =

ووصـول الملك المامـون من بلاده، فـوصل اخـيـه ديونوسيوس بطرك انطاكيه. ومشاهدته له، ووصول ابن ملك النوبه كما ذكرنا ، واستقامة الامور ونظره المجد العظيم بالحقـيقـه كمـا قال داود النبى : ان تسجد له كل الامم.

وفعل له عـجبا اخر حتى كمل الله له جميع ما طلبه حتى يتمجد كرسي الاب الجليل مارى مرقس البشير، بركات صلواته تحفظنا.

كان فى ذلك الزمان اسقف اسمه يوحنا، وكان

ويعد العهد الرومانى فى مصر بداية عهد جديد فى تاريخ العلاقات بين مصر الرومانية وبين ملوك كوش، إذا عـاد الكوشـيـون إلى بسط نفوذهـم على إقليم دوديكاشـينوس ولم يعـترفـوا للرومان بحقهم فى تلك البلاد، باعتبارهم ورثة البطالمة، كما لم يعترفوا بالحدود القديمه التى امتد إليها نفوذ البطالمة من قبل [1]، بل سـاعدوا المصريين الذين ثاروا عـام ٣٩ ق. م. على الرومان فى إقليم طيبـة عندما ظهر جباة الضرائب من الرومانيين لأول مرة فى تلك المنطقه، ولذلك أوغل القائد الرومانى كورنيليوس جالوس Cornelius Gallus جنوبا حـتى أسـوان، بعد أن قضى على الثورة فى طيبـة [2]، واستدعى إلى أسوان حكام إقليم تريا كونشتشينوى

= بلاد النوبة السفلى، ولذا صارت هذه البلاد جزءا من دولة كوش مع تمتعها بشئ من الاستقلال عنها ، وظلت هكذا حتى انتقل إليها آرك أمن الذى عرف باسم أرجمينيز Argemenes أحد ملوك مروى على أثر نزاع بينه وبين كهنة نباتا. وكان هذا الملك معاصراً لبطليموس الثاني والثالث والرابع، وتلقى علومه فى جامعة الإسكندرية وتثقف بالثقافة اليونانية واتخذ هذا الملك مدينة دكة Pseleckis عاصمة له، وبنى بها معـبـدا، وأنشـأ عـلاقـات ودية بدولة البطالمة، وخلفه على عـرش هذا المملكة النوبيـة أخـوه أركـرا من Arkharaimen, فسار على سياسة سلفه، وبموت أركرامن ، انتقلت هذه المملكة الصغيرة إلى بطليموس السادس وأصبحت جزءا من مصر.

Firth . C. M. : ASN. Report for 1910 - 11, 11, O, 29.

Beckett H. W. : ASN. Report for 1907 - 1908. 11, p. 349.

(1) Wooley - Maciver: K aranog, P. 85.

(2) Budge, E. A. W. : The Egyptian Sudan, II P. 166.

الاب انبا يعقوب قد وسمه لبلاد الحبشه، وكان ملك الحبشه قد خرج فى حرب فعمدو اهل البلاد فاخرجو الاسقف واقامو اسقفا باختيارهم بخلاف القانون، فعاد المذكور الى مصر ونزل فى دير برموس بوادى هبيب، لنه [لأنه] كان ترهب فيه اولا، والرب محب البشر الذى يريد خلاصهم ويردهم الى معرفة الحق لم يجعل تلك الكورة ومن فيها ان يقيمو على الخلاف الذى فعلوه، لكن اثار عليهم الكرسى الانجيلى دفعة أخرى ليظهر الرب عجايبه هكذا فانزل عليهم وبا وفنا عظيما

Triakontachoinoi [١]، وأوضح لهم أن هذا الاقليم منطقة نفوذ رومانية، على أن تظل تحت حكم أمرائها من الكوشيين [٢]. ويعتبر هذا أول اتفاق بين الرومان والكوشيين على تحديد مناطق النفوذ والحدود بينهما.

بيد أنه لم يقدر لهذا الاتفاق أن يدوم طويلا، ولم يتح للرومان أيضا فرصة التمتع بثمرة ما أحرزوه من كسب فى هذه المنطقة، إذ شجعت أخبار الفشل الرومانى فى اليمن طوائف الكوشيين على الثورة على الحكم الرومانى، واحتلوا الفنتين وأسوان، وحطموا تماثيل أغسطس قيصر، وهزموا الحامية الرومانية [٣].

كان من الطبيعى أن يرد الرومان هذا الهجوم، فقاد جالوس بترونيوس Gallus Petronius حملة تعقب فيها الكوشيين جنوبا وطاردهم حتى دكة، ثم دارت بين الجانبين مفاوضات غير مجدية، فعاد القائد الرومانى إلى الحرب، ونشبت معركة انتهت بهزيمة الكوشيين وأسرقادتهم وارسالهم إلى الأسكندرية، ثم استولى بترونيوس على دكة وابريم، ووصل فى زحفه جنوبا حتى نباتا فحاصرها. وعلى الرغم من العرض الذى تقدمت به كندا كة إلى بترونيوس برد الأسرى الرومانيين واعادة تماثيل قيصر إلى أسوان، فان بترونيوس هاجم نباتا واستولى عليها،

(١) وهى المنطقة التى تمتد من المحرقة إلى عكاشة جنوبى الشلال الثانى أنظر الفصل السابق.

(2) Milne, J. G. : A History of Egypt Under Roman Rule V. P. 17.

(3) Strabo: op. Cit. P. 137.

وعلى بهايمهم، وجعل ملكهم مغلوبا من كلمن يقاومه ويقتل اصحابه. فلما عاد من الحرب لحقه حزن عظيم ولم يعلم بما جرى على الاسقف ولا كيف انفوه من بلدهم وكانت الملكة [هى] التى فعلت هذا كما فعلت اوضوكسية ذلك الزمان مع يوحنا فم الذهب. فلما علم الملك بذلك اسرع وكتب الى الراعى الصالح انبا يوساب يقول له انا اسجد للكرسى الانجيلى الذى استحقت ابوتك الجلوس عليه، وبنعمته ثبت ملكى، والان فان قوما من كورتى ضلو عن نور الكرسى المقدس وجعلو

ثم قفل راجعا إلى الإسكندرية. وفى طريق عودته قوى بترونيوس حصون إبريم، وترك فيها حامية من أربعمائة جندى مزودة بمؤن تكفيها ثلاث سنوات[١].

لم يكد بترونيوس يصل إلى الاسكندرية حتى سمع بنبأ الاغارة من جديد على حامية إبريم، فعاد مسرعا وخلص هذه الحامية من الحصار الذى فرضه الكوشيون عليها [٢]. وانهزمت جيوش كندا كة، وقبلت دفع جزية وإرسال عدد من الرهائن [٣]. ثم سعت كندا كة إلى الصلح، وأرسلت سفراءها إلى الإمبراطور، واستغلت الدولة الرومانية هذه الحال، فأ كدت حقوقها فى منطقة دوديكاشينوس واحتلتها القوات الرومانية. ودام السلام بين الرومان وبين الكوشيين مدة غير قصيرة [٤]. ثم بدا فى منتصف القرن الأول الميلادى كأن الدولة الرومانية تريد غزو بلاد كوش كلها، إذ أرسل الامبراطور نيرون (٥٤ ـ ٦٨م) بعثة إلى بلاد كوش لاستطلاع أحوالها، ووصلت البعثة جنوبا حتى إقليم السدود. بيد أن تقريرها جاء مخيبا لآمال الامبراطور فعدل عن مشروعه [٥].

(1) Ibid : op. Cit. p. 139.

(2) Ibid : op. Cit. p. 141.

(3) Woolley - Maciver: op. cit. P. 86.

(4) Milne, J. G. op cit. P. 36.

(5) Ibid: op. Cit. p. 36.
Pliny: Natural History, II, P. 475.

ارجلهم فى الطريق المملوه شوكا لما اخرجو خليفتك، فانزل الرب مجازاة ذلك على روسنا فاذاقنا عنه الانتقام بموت الناس والبهايم بالوبا [ء]. ومنع السما [ء] من المطر علينا، والان يا ابانا القديس فاغفل عن جهلنا وانفذ الينا من يدعو الى الله فينا ويصلى عنا لنخلص بصلوتك المسموعه.

لما وقف الاب على الكتب فرح بامانته وانفذ سرعه واحضر ذلك الاسقف من دير برموس، وعزاه وتبته وسيره اليهم، وانفذ معه قوما مامونين

وفى مدة قرنين (من ٦٠م إلى ٢٦٠م) قام الرومان بسلسلة من مشاريع التعمير فى هذه المنطقة، غرضها توسيع التجارة بين مصر وبلاد دارفور وكردفان. ولهذا أقيمت المعابد فى فيلة وكلابشة، وكشف الرومان طريق القوافل القديم الذى يؤدى إلى هاتين المقاطعتين الغنيتين بمواردهما الطبيعية، كما أقيم معبد فى الواحة الداخلة. ومما لا شك فيه أن الرومان كانوا يهدفون إلى قيام علاقات صداقة بينهم وبين القبائل التى تعيش فى الغرب والجنوب لتحقيق أغراضهم التجارية(١)

غير أن هذه السياسة السلمية لم تلبث أن طرأ عليها ما أفسدها بسبب إغارات البليميين(٢). ويبدو أن البليميين كانوا يستوطنون بعض جهات النوبة السفلى. جنوبى المحرقة

(1) Budge: A Hist. of Ethiopia.., I. P. 8.

(٢) أطلق الكتاب القدماء منذ القرن الأول الميلادى ـ على سكان الصحراء الشرقية اسم البليميين Blemmyes (Strabo : op. cit.; P. 5). وذكر بروكوبيوس فى القرن السادس الميلادى أنهم يكون المنطقة الممتدة من حدود مصر إلى أكسوم (Procopius op.cit.p. 185)، على حين أن كوزمس التاجر المصرى الذى عاش فى هذا الوقت أيضا أطلق على سكان هذه المنطقة اسم بجا. Bega.

(Cosmas. Christian Topography of Cosmas - ed. Mac Crindle Haklyot Society P. 62.

والظاهر أن البليميين هم البجة أو شعبة منهم. ففى القرن الرابع عشر الميلادى يشير كل من الادريسى وابن الوردى إلى وجود جماعة تسكن الصحراء الشرقية يقال لها البليون، ويشير الرحالة البرتغالى الفارز إلى وجود جماعة تدعى Bellones (بلونيون) ولا يبعد أن يكون هؤلاء وأولئك هم البليميون الذين أشار=

لجل الطريق، ودفع له ما يتسفر به وما يكفيه وشيعهم وهو يبارك عليهم يسهل الله طريقهم، فسمع الله له ووصلو الى الملك المحب ففرح بهم وكلمن فى كورته.

فرمى الشيطان عدو السلامه فى قلب قوم من اهل تلك الكورة الى ان وقفو للملك وقالو له نحن نطلب من امرك ان تامر هذاالاسقف ان يختتن لن [لأن] كلمن فى كورتنا مختتنون سواه. ومن قوة فعل الشيطان طاب قلب الملك بهذا ان

منذ زمن البطالمة [1]. ولكننا لا نعرف إذا كانوا قد خضعوا لنفوذ دولة مروى فى الجنوب بعد ضم منطقة دوديكاشينوس للإدارة الرومانية فى مصر. أما المعروف فهو أن البليميين لم يستقلوا بهذه المنطقة تماما على الرغم من احتلالهم لها [2]. ومن هذه المنطقة بدأت سلسلة الإغارات التى شغلت الرومان وضايقتهم وكلفتهم الكثير من الجهد، وكانت أولى هذه الاغارات عام ٢٥٠م. ومما شجع المغيرين على القيام بهجومهم على الأطراف الرومانية، حالة الفوضى والانقسام فى جوف الدولة الرومانية، وقلة حاميات الأطراف[3]، وكذلك تصفيةالحكم

= إليهم الكتاب فى العهد الرومانى، ولو صح هذا، ونسبوا إلى البجا لأصبحوا يعتبرون من الجنس الحامى. ويرى سلجمان أنهم من نفس سلالة قدماء المصريين واقتبسوا من حضارتهم وتعلموا الزراعة واستئناس الحيوان. ويبدو أن لفظ البجا، أو البجه هو الاسم الحديث للقبائل القديمة التى كانت معروفة لقدماء المصريين تحت إسم ميجا أو ميجوى، واستعان بهم قدماء المصريين منذ الأسرة السادسة (٢٥٠٠ق م) فى مختلف الأعمال وعلى الأخص كانوا يؤلفون منهم فرقا عسكرية تستخدم للبوليس والحرب. ومن أهم أقسام البجا فى الوقت الحضار. البشارين، الهدندوة، الأمرار، وبنى عامر، الحلانقه، قارن.

Paul, A. : A History of The Beja Tribes, PP. 20 - 57.

Kirwan, L. P. : "Studies in the Later History of Nubia" L.A.A.A. XXIV, PP. 1- 11.

Kirwan, L. P. : Firka, P. 41.

محمد عوض محمد - السودان الشمالى . ص ٣١ - ٣٣.

(1) Beckett, H. W. : ASN. II, Report for 1907 - 8,p. 350.

(2) Emery, W.B.: The Royal Tombs of Ballana and Qustul, I. P. 5.

(3) Budge, E.A. Wallis: The Egyptian Sudan op. cit, p. 175.

يوخد ذلك الشيخ الاسقف ويختن والا فيعود إلى المكان الذى جا منه. فلما تذكر [الاسقف] صعوبة الطريق التى سلكها فى مضية وعودته، ثم ما يلقاها ايضا [فهان عليه ذلك و] خاف من صعوبة الطريق فى البر والبحر فقال: انا افعل هذا لخلاص الانفس التى اقامنى الرب راعيا لهم بغير استحقاقى، والآن فقد قال بولس الرسول ووصانا وقال: اذا دعى احد بغير ختان فلا يختتن. فلما ساعدهم على ذلك اظهر الله فيه امرا عجيبا بما

العسكرى فى منطقة دوديكاشينوس، وإلحاقها بالإدارة المدنية الرومانية بالفنتين. ثم أنه ليس من المستبعد أن يكون البليميون اندفعوا شمالا نحو دوديكاشينوس تحت ضغط قبائل النوبا الذين كانوا مصدر تهديد لدولة مروى فى الجنوب [١].

وفى الواقع أن الإمبراطورية الرومانية قبيل عهد دقلديانوس واجهت مشاكل عديدة فى الداخل والخارج. ففى مصر مثلا قامت حركات قومية تدعو إلى الثورة ضد الرومان للتخلص من نفوذهم. وتركزت هذه الحركات فى الدلتا بزعامة فيرموس المصرى. واشتعلت ثورة قومية أخرى فى طيبة كذلك. وانضم إلى هؤلاء وأولئك أهل تدمر الذين جاءوا إلى الصحراء الشرقية، والليبيون بالصحراء الغربية، واشترك البليميون فى هذه الحركة العامة. ومما زاد هذه الحركات اشتعالا، قيام يوليوس أيميليانوس Marcus Julius Aemilianus [٢]. بحركة غرضها الاستقلال بمصر. ذلك أن البليميين انتهزوا فرصة انشغال الجيوش الرومانية بالقضاء على حركة إيميليانوس والقبض عليه واندفعوا شمالا من قواعدهم بالنوبة السفلى وانضم إليهم أهل طيبة واحتلوا قفط ثم انضم إليهم أهل تدمر بقيادة ملكتهم الزباء Zenobia، وما لبث هؤلاء الحلفاء أن أصبحوا سادة مصر العليا [٣].

(1) Emery, W.B. op. cit. p. 5.

(٢) نادى الرومانيون المتوطنون بالاسكندرية بهذا القائد ملكا على مصر كلها ولم يلبث أن قبض عليه.
Woolley, Maciver, op. cit. P. 90.

(3) Miln, J. G. op. Cit. p. 79.

قد كتب به الى ابينا البطرك انبا يوساب، وهو انه لما مسكوه ليختتوه وكشفوا عنه فوجدو علامة الختان فيه كانه مختون من تامن يوم من ولادته، واقسم في كتابه انه لم يعرف هذا قط الا ذلك اليوم. وطاب قلب الملك واهل الكوره وفرحو فرحا عظيما بهذه العجوبه قبلوه بفرح.

ولما وصلت الكتب الى البطرك بذلك فـــرح كتيرا لعودة هولا الضالين الى راعيهم، وبالاعجوبة التى ظهرت قايلا: مبارك الرب الذى رد سبى شعبه

ثم استتب الأمر للدولة الرومانية بالتخلص من أيميليانوس، وشرع القائد الرومانى بروبوس Probus في القضاء على الثوار جميعاً، فأوقع هزيمة بفيرموس، ثم قضى على أهل تدمر، ورد البليميين إلى ما وراء الشلال الأول في عام ٢٧٤م [١]، وأحرز النصر النهائى على الليبيين بالصحراء الغربية [٢]. ولم يأت عام ٣٨٠م حتى عاد الرومان إلى احتلال دوديكاشينوس مرة أخرى. ولم يشأ القائد الرومانى أن يخاطر بقواته بالتوغل إلى الجنوب من المحرقة، ولذا لم يستطع أن يقضى على البليميين، فظل خطرهم قائماً [٣].

* * *

أما المرحلة الثانية من مراحل الصراع بين الرومان والبليميين، فتبدأ بعهد دقلديانوس (٢٨٤ – ٣٠٥م)، إذ وجه هذا الامبراطور عنايته لحل مشكلة الحدود الجنوبية لمصر، وكانت ما تزال موضع تهديد البليميين. فرأى أن منطقة النوبة الرومانية (دوديكاشينوس) منطقة فقيرة لضيق واديها وأن إنتاجها لا يوازى بحال ما يصرف على الدفاع عنها، وأن الاحتفاظ بقوات كبيرة فيه يكلف الخزانة الرومانية ثمنا كبيراً [٤]. ولهذا قرر إخلاء منطقة دوديكاشينوس ونقل

---

(1) Emery, W. B. op. cit. p. 6.

(2) Milne, J. G. op cit p. 81.

(3) Woolley - Maciver op. cit. p. 91.

(4) Ibid. op. cit P. 91.

Procopius op cit p. 185.

وانقذهم من يد العدو ولم يجعلهم فى الضلالة الى الأبد.

ومن كثرة اهتمام هذا الراعى الصالح وبذله نفسه عن خرافه، اصلح اساقفه كثيرا وانفذهم الى كل موضع من كرسى مارى مرقس الانجيلى وهى افريقيه و الخمس مدن والقيروان واترابولس [طرابلس الغرب] وكورة مصر والحبشه والنوبه لنه [لأنه] قال: اذا لم يكن الرعاة كثيرا لحفظ الرعيه والاهلكت فما اغفل عنها ليلا [لئلا] يضيع منها

الحامية الرومانية من المحرقة إلى أسوان والفنتين. ثم أغرى دقلديانوس النباطيين Nobotae بترك الواحة الخارجة ليستقروا بهذه المنطقه التى انسحب الرومان منها على أن يمنحهم ملكيتها. واستهدف بذلك أن يضرب عصفورين بحجر واحد، فان انتقال النباطين إلى منطقة النوبة السفلى سينهى أعمال الفوضى التى كان النباطيون يقومون بها فى الواحة الخارجة، ثم أن نظرتهم لوطنهم الجديد سوف تدفعهم إلى مقاومة إغارات البليميين. وقبل النباطيون عروض الإمبراطور واستقروا على كلتا الضفتين فيما وراء الفنتين [١]. وقرر دقلديانوس للنباطين أتاوة سنوية ومثلها للبليميين على ألا يقوموا بعمل عدائى ضد روما [٢]. لم تقف جهود دقلديانوس عند ذلك، علما منه بأن هذه القبائل لا سبيل إلى إرغامها على أحترام مواثيقها إلا بالقوة، فاختار جزيرة بالنيل قرب الفنتين، وأقام قلعة حصينة تقوم بالدفاع عن الحدود الجنوبية لمصر ضد المغيرين [٣]، وبالإضافة إلى كل هذا، رأى دقلديانوس أن يستغل عاطفة البليميين الدينية، فأقام معبدا جمع فيه رموز عقائد البليميين، والنباطيين والرومان ليدل على أن رابطة دينية تجمع بين الرومان وهذه القبائل وتذكرهم باحترام مواثيقهم [٤].

....

(1) Ibid - op. cit. PP. 183- 187.

(2) Ibid. op. cit. P. 187.

(3) Procopius op. cit. P. 187.

(4) Wolley - Maciver op . cit. P. 92.

شى او يهلك ولو واحـــد كنت مطلوبا به من المسيح، فلاى شى اقامنى الا لحفظ قطيعه من السبع القايم يطلب غفلة الراعى ليخطف ويفترس ويهلك ، ثم اقول امام الرب ان الذين سلمتهم لى لم يهلك منهم ولا واحد . وفيما هو فى ذلك تحرك العدو المناصب ليقيم عليه بلايا واحزانا، والرب كان مع هذا الانسان الاب القديس يخلصه فى كل حين ويريه ضعف اعداه واعدا[ء] البيعه يوما بعد يوم كقول الرب الذى قال: ابواب الجحيم لا تقهر بيعتى.

وبمقتضى المعاهدة التى أبرمت بين دقلديانوس والنباطين قام النباطيون بدورهم الذى كلفوا به وهو أن يصبحوا المنطقة الحاجزة بين البليميين فى الجنوب وبين الرومان فى ا لشمال. ويبدو كذلك أن ملوك النباطين سيطروا على المنطقة التى انسحب منها الرومان [١].

وعلى العموم يمكن القول إن دقلديانوس نجح إلى حد كبير فى وقف الاغارات التى شنها البليميون على جنوب مصر طوال القرون الثلاثة التى سبقت حكمه [٢]. وفى عهد قسطنطين الأكبر (٣١٣ - ٣٣٧م) ساد السلام بين الرومان والبليميين، ودل ظهور رسل البليميين وسفرائهم فى بلاط قسطنطين [٣] على استمرار ذلك السلام[٤].

* * *

أما عن سياسة الرومان فى حوض النيل الأوسط والأعلى، فإنها ارتبطت بالاتجاه العام نحو بسط نفوذهم على تجارة الشرق، والإعتماد على حليف قوى لتنفيذ أغراضهم التجارية والسياسية. وذلك أن تجارة الهند والصين وشرق أفريقيا تحولت من أيدى التجار الرومانيين أواخر

(1) Milne, J. G. op. cit p. 99.

(2) Budge, E.A.W. : The Egyptian Sudan, II, P. 177.

(٣) إن تاريخ هذه البعثة النوبية إلى القسطنطينية غير معروف تماماً.

(4) Woolley - Maciver op. cit. p. 92.

ولما كان فى ذلك الزمان انفذ الملك ابراهيم [المعتصم] الى مصر ان توخد من البيع فى كل مكان العمد والرخام. وكان الواصل فى هذا الطلب انسانا مخالفا مبغضا من النسطوريه اسمه العازر، فلما وصل الى مصر اجتمع اليه اهل مذهبه النجس الذين هم الهراطقة الخلقدونيون المقيمون باسكندريه، ولم يزالو يسعون بالبيع ليلا ونهارا وحسنو له ان يهدم بيع مدينة الاسكندريه، وكانو يدلونه على المواضع التى فيها العمد والبلاط فياخذهم غصبا بيده.

القرن الثانى الميلادى، إلى وسطاء من الفرس والأحباش والحميريين على أثر الاضطرابات التى شملت أنحاء الامبراطورية الرومانية حوالى ذلك الوقت (١). وفضلا عن هذا فان دولة مروى ـ التى تمتعت بمركز تجارى ممتاز لتحكمها فى الطرق التجارية المؤدية إلى مصر فى الشمال عن طريق النيل وتجارة وسط أفريقيا المتجهة إلى البحر الأحمر ـ أخذت فى الاضمحلال التدريجى منذ منتصف القرن الثالث الميلادى عندما أخذ يغير عليها النوبا (٢). وكذلك عندما هدد البليميون منطقة النوبة السفلى وجنوبى مصر فى الشمال ومروى فى الجنوب . ولم يعد النيل طريقا صالحا لمرور التجارة بين الجنوب والشمال، ففقد الرومان وارداتهم من وسط أفريقيا وخاصة الرقيق والعاج وريش النعام والأبنوس عن طريق النيل (٣). ولهذا حاول الرومان توثيق علاقاتهم بدولة أكسوم، واستخدامها فى قمع حركات البجا الشماليين (البليميين) والنوبا، لفتح طرق التجارة من جديد إلى قلب أفريقيا. وتم أول اتصال لهذا الغرض فى عام ٢٧٥م على عهد الامبراطور أورليان Aurelian(٤) واستمر اتصال التجار الرومان بدولة أكسوم حيث توجد ميناء عدول أعظم سوق لتجارة الرقيق ومنتجات شرق ووسط أفريقيا. ومن بين هؤلاء

(1) Bury, J. B.: History of the Later Roman Empire, II. p. 318.

(٢) وربما كان مصدرهم من الجنوب.

(3) Bury, J.B.: op. cit . P. 318.

(4) Paul, A. : A History of The Beja Tribes of the Sudan, P. 41

فلما اخرجوه الى بيعة الشهيد مار مينا بمريوط، من كترة حسدهم لها، وقالو له ليس بشبهها شي من البيع، وان كلما توجهت لطلبه تجده فيها. فقام ذلك النسطورى مسرعا بمشورة السعاه ودخل الى بيعة الشهيد مارى مينا بمريوط، فلما نظر اليها والى زينتها وحسن ما فيها من العمد والرخام الملون تعجب وبهت وقال: هذا الذى يحتاج اليه الملك، هذا هاهنا ولم اعلم به.

فلما سمع ابونا انبا يوساب البطرك ان ذلك

التجار فرومنتيوس المصرى Frumentius الذى أوفدة قسطنطين الأكبر لعقد معاهدة تجارية مع عيزانا ملك أكسوم، الذى اعتنق المسيحية على يدفرومنتيوس حوالى ٣٤٠م. ومنذ ذلك الحين أخذت المسيحية فى الإنتشار فى بلاد أكسوم بعد أن مهدلها التجار اليونانيون الذين وفدوا على هذه الديار من قبل. ورسم البطريرك أثناسيوس فرومنتيوس أسقفا لأكسوم (١).

يبدو أن مهمة فرومنتيوس لم تقف عند التبشير بالمسيحية فى بلاد أكسوم، بل حمل عيزانا على تجريد حملته المشهورة على مروى حوالى ٣٥٦م. وذكر عيزانا فى اللوحة التى تركها تخليداً لانتصاره، غرضه من هذه الحملة وهو تأديب النوبا الذين يغيرون على جيرانهم ولم يحترموا عهودهم، فأحرق بيوتهم المبنية من القش والطين، وخرب مزارع القطن ، وألقى بتماثيلهم إلى النهر. ومن بين المدن التى ذكرها عيزانا، مدينتا علوه، ودارو (٢) وترتب على هذه الحملة القضاء على البيت الملكى المروى، ولكنها ـ على ما يبدو ـ لم تترك أثرا للمسيحية فى تلك الجهات.

* * *

ثم أن السلام الذى ساد مدة بين البيزنطين والبليميين ما لبث أن تزعزع منذ أواخر عهد

(1) Trimingham, J.S.: op. cit

(٢) وهذه المدينة الأخيرة «دارو» تقع جنوب أسوان.

الانسـان السـو لـم [لن] يمنع يده لما في قلبـه من السو والبغضه وما لقوه المخالفون: فقال له : هو ذا كل البيع التى بحكمى بين يديك فافعل فيـها مـا امرك به الملك وهذه البيـعـه فـقط احب منك الا تعترضها، ومهما التمسته منى سلمته اليك. فلم يقبل المخالف قوله ولا سواله بل جاوبه مواجهة بما لا يجب . ثم بدا واخرج من البيعه الرخام الملون والبلاط المعدوم [النادر] الذى هو قايم من كل لون وليس له نظيـر ولا يعـرف له ثمن، فلمـا وصل

الامبـراطور تاوداسيـوس الأول Theodosius (٢٧٨ - ٣٩٥م). ويمكن تفسـيـر هذا بأن البليميين بدأو يحسون بخطر المسيحية التى تهدد معبوداتهم ومعتقداتهم، وبأنهم شعروا بهذا الخطر من ناحية أكسوم بعد أن اعتنق ملكها عيزانا الدين المسيحى. كما أصدر تاوداسيوس الأول مرسومه الشهير عام ٣٨٥م وهو المرسوم الذى قضى بإبطال جميع مظاهر الديانات المصرية المخالفة. وفى هذا يتضح أن الضغط المسيحى المزدوج عن طريق أكسوم وعن طريق مرسوم تاوداسيوس خلق عند البليميين ضرورة الدفاع وشن الإغارات.

وأول مـا قـام به البليـمـيـون هو احـتـلالهم جزءا كـبـيـرا من أرض النوبة الرومـانيـة (دوديكاشينوس) وتحـديهم قـرارات تاوداسـيـوس واظهـار الميل إلى أنصـار الديانات المصـرية ودعاتها، كالاحتفال بالمؤرخ اليمبيودرس Olympiodorus الذى زار المنطقة المحتلة فى أرض النوبة الرومـانيـة عـام ٤٢١م [١]. وحوالى ذلك الوقت بدأ البليميون سلسلة إغاراتهم على منطقة طيبة والواحة الخارجة فاحتلوا الواحة الخارجة سنة ٤٢٩ ونهبوا مدنها وأسروا سكانها ومن بينهم نسطورس الذى كان منفيا بها. بيد أن البليميين اضطروا إلى إطلاق أسراهم [٢]

(1) Woolley - Maciver: op. cit. P. 94.

(2) Ibid, : op. cit. P. 95.

الرخام الى مدينة اسكندريه لينفذوه الى مدينة الملك فحزن الاب حزنا عظيما على البيعه وقال: انا اعلم انك تقدر ايها الشهيد القديس ان تاخذ حقك من هذا المخالف الذى لم يوقر بيتك الذى هو عزا لجميع المومنين. ولم يفتر الليل والنهار من هذا الحزن للذى حل لهذه البيعه المقدسه. وكان مهتما بعمارتها سرعة وانفذ احضر صفايح مزوقه من مصر واسكندريه وبدا ان يتعمر المواضع التى

لعجزهم عن الاحتفاظ بهم أمام ضغط قبيلة ليبية قوية تدعى مازيكى Mazici (١) التى كانت تهدد خطوط انسحابهم (٢).

ومنذ حوالى منتصف القرن الخامس الميلادى لم يصبح البليميون وحدهم عنصر الشغب ومثيرى الاضطراب فى الأطراف الجنوبية المصرية، بل شاركهم النباطيون وكانوا من قبل حماة هذه المنطقة والمدافعين عنها ضد البليمين . ومعنى هذا أن مشروع المنطقة الحاجزة الذى ابتكره دقلديانوس لم يعد صالحا فى هذا الوقت. ويؤدى اتفاق البليمين والنباطين وقيامهما بعمل مشترك إلى الاعتقاد بأن هاتين القبيلتين أجمعتا رأيهما على الوقوف فى وجه الامبراطورية الرومانيه فى بادئ الأمر(٣).

ومن الدلائل على ذلك بردية معاصرة لأواخر عهد تاوداسيوس الثانى، إذ تخبر هذه البردية عن إغارة مشتركة قام بها البليميون والنباطيون على كنائس فيلة التى أقيمت محل معابدها. ولهذا التمس أبيون Appion أسقف أسوان والفنتين من هذا الامبراطور أن يكلف القائد الرومانى الذى ترابط قواته فى تلك المنطقة أن يحمى هذه الكنائس من إغاراتهم (٤). ومع

(١) المزيكى ربما كانوا من قبيلة الطوارق التى تعيش فى الصحراء الليبية.
Arkell, A. J. op. cit. p. 179.

(2) Milne, J. G. : op. cit . P. 99.

(3) Emery: op. cit. p. II.

(4) Ibid: op. cit. p. II.
Kirwan, L. P. : " The Ballana Civilization". SGE. XXV 1953, P. 107.

قلع منها البلاط بكل زينه حسنه حتى ان كل من يشاهدها ما يعلم ان قد مضى منها شى.

وفى تلك الأيام والعازر المخالف باسكندريه تم عليه القول المكتوب «من الذى قاوم الرب فخلص؟. فضربه الرب عاجلا بضربة هكذا، وهو ان جسده تنفخ و احشاه بالمرض المسمى الاستسقا، وتغير لون وجهه وبقى مطروحا لا يقدر ان يرفع راسه، وكان قد ناله فقر عظيم حتى انه ما وجد من يقوم بقوت نفسه ودوابه أو يتداوى به.

هذا يبدو أن البليميين استقروا فى منطقة طيبة، وخضعت لهم الحامية الرومانية فى هذه المنطقة، وأقاموا نوعا من الحكم المستقر، واتخذوا بطلمى قاعدة لجيوشهم التى كانت تشن إغاراتها على مايلى طيبة شمالا[1].

لم يسكت الرومان طويلا على هذه الحال، بل أصدر الإمبراطور مارقيان Marcianus (٤٥٠ – ٤٥٧م) أوامره إلى القائد مكسيمينوس Maximinus بضرورة إخضاع البليميين والنباطيين بالقوة [2]. فزحف القائد الرومانى نحو بلادهم وما زال يحاربهم حتى عقد هدنة بينهم وبين الرومان لمدة مائة عام [3]. وفى شروط هذه المعاهدة نقلا عن برسيق Priscus نص: أن يرد البليميون وحلفاؤهم الأسرى الرومان، وأن يدفعوا تعويضا لما أصاب الأفراد والممتلكات من أضرار خلال أغاراتهم، وأن يرسلوا عددا من الرهائن[4]. وفى مقابل هذا سمح لهم بالحج إلى فيلة وحمل تمثال معبودتهم إيزيس إلى بلادهم. والتقى مكسيمينوس بمبعوثى البليميين والنباطين فى الجزيرة المقدسة (فيله)، حيث نقشت نصوص هذه المعاهدة على جدران هيكل الإلهة إيزيس [5]. ولم يوقف الرومان ما كانوا يمنحونه لكل من البليميين

(1) Woolley - Maciver, : op. cit. P. 96.

(2) Emery, W. E. : op. cit. p.13.

(3) Kirwan. L.P. : LAAA. XXIV, P. 82.

(4) Budge, E.A.W. : Ethiopia, op. cit . p. 102.

(5) Woolley - Maciver: op. cit. p. 96.

فسال الاب البطرك فيما ينفقه عل نفسه وان يصلي عليه ففعل الاب هذا كالمكتوب الذى هو : «ان جاع عدوك فاطعمه وان عطش فاسقيه». وكان الوجع يتزايد عليه كتيرا وهو مطروح، وكل ما يشاهده يمجد الله وشهيده مار مينا ويعطى الطوبى للراعى الصالح لنه [لأنه] كان يعمل الخير مع كل من يسعى اليه.

وصار لسان الاب كالسيف القاطع ، فمن لا

والنباطين من أتاوة منذ عهد دقلديانوس (١). ومع أن موافقة الرومان فى وثيقة رسمية على السماح للبليمين والنباطين بالحج إلى فيلة وحمل تمثال معبودتهم، يدعو إلى الدهشة بعد أن أصبحت الدولة الرومانية مسيحية، فيبدو من تنازل الرومان وقبولهم هذا الشرط على أنهم كانوا غير راغبين فى فرض المسيحية بالقوة على هؤلاء القوم حتى هذا العهد. وبمقتضى هذه المعاهدة انسحب البليميون من منطقة طيبة إلى منطقة دوديكاشينوس، واتخذوا كلابشة Talmis عاصمة لهم. أما النباطيون فاستقروا فى المنطقة الواقعة جنوبى أبريم.

بيد أنه لم يكد يصل البليمين وحلفاءهم خبر موت القائد الرومانى مكسيمينوس، حتى عادوا إلى شن إغاراتهم من جديد، وأطلقوا سراح رهائنهم بالقوة (٢). ثم استطاع القائد الرومانى فلورس Florus أن يوقع بهم هزيمة ساحقة احترموا بعدها شروط الصلح التى عقدوها مع سلفه مكسيمينوس.

والمعتقد أن معاهدة الصلح نفذت بعد ذلك بحرص شديد، بدليل عدم تجدد الإغارات على منطقة طيبة مدة قرن تقريبا، واستمرار البليمين على ولائهم لمعبودتهم ايزيس. على أن المعابد الوثنية فى منطقة طيبة أصابها التدمير والانهيار. كما أن المسيحية بدأت تتسرب إلى

(1) Ibid. : op. cit. p. 98.

(2) Emery, W.E.: op. cit. p. 13.

نقلا عن: Priscus, - ed. Meubuhr, p. 153.

يتعجب من سماع فضايل هذا الاب القديس السعيد انبا يوساب.

وايضا عجبا اخر اسمعو يا احبا لهذا الاب، كان باسكندريه رجل مخالف من الخلقدونيين غنى جدا، وكان له سواق(*)، فلما خرج فى بعض الايام ليتفرج فى بعض كرومه بظاهر اسكندريه راى ساقيه مكسورة فالتمس نجار، وكان شيخ قس نجار فقال له الخلقدونى: تقوم تمضى معى لتعمل

(*) سواق: جمع ساقية. آلة تدار بالثيران لجلب الماء اللازم لرى الحقول، وهى مازالت مستعملة حتى اليوم فى الريف المصرى.

النباطين الذين لم يستمروا - فيما يبدو - على تحالفهم مع البليميين، بل أطلقوا على أنفسهم أصدقاء روما. وعلى الرغم من أن المسيحية وجدت لها أنصارا بين النباطين، فإن البليميين ظلوا على تشبثهم لدينهم المصرى [١]، ولم يظهروا أى ميل للدين الجديد حتى بداية القرن السادس الميلادى.

* * *

أما العبادات التى مارسها كل من البليميين والنباطين قبيل دخول المسيحية إلى بلاد النوبة، فيبدو واضحا أنها كانت خليطا من مصرية قديمة، ومروية. وفى الدليل على ذلك قول بروكوبيوس، أن البليميين والنباطين عبدوا إيزيس وأوزوريس. لكن إيزيس تمتعت بمكانة سامية تفوق ما كانت تتمتع به الالهة الأخرى عند تلك القبائل من التبجيل والتعظيم. ولا غرو فإن معبد فيلة شهد مواكب الحجاج من البليميين والنباطين كل عام تحمل تمثال إيزيس إلى أراضيهم لتمنحهم الخصب والثروة [٢].

ولعل ضخامة هذه المراسم الاوزيرية وتجمع القبائل كل عام فى فيلة منذ أيام دقلديانوس،

....

(1) Woolley - Maciver: op. cit. p. 97.

(2) Kirwan, L.P. : LAAA. XXIV, P. 88.

لى الساقيه. فقال له القس: اليوم يوم الجمعه العظيم وما اعمل فيه شيا، لانه يوم صلب فيه كلمة الله مخلص العالم. فاجابه الملعون الهراطقى وفتح فاه المخالف وجدف على الله الكلمه وقال ما لا يجب ذكره، فوبخه الشيخ القس ومضى وتركه، وكان ابونا البطرك فى البرية بوادى هبيب يعيد فى الدير عيد الفصح ويكمل عيد قيامة المسيح، ولما عاد الى اسكندريه حكى له الشيخ القس ما جرى من

طبق خزف عليه رسم المسيح

هما اللذان أثارا جستنيان إلى القيام بحركه لخدمة المسيحية، وخاصة وأن هذه المواسم الاوزيرية الكبرى كانت تروح وتغدو بمواكبها الصاخبة فى قلب أسقفية أسوان وألفنتين،حيث توجد الكنائس والأديرة المسيحية الجديدة، ثم إن تجمع هذه القبائل فى فيلة أثار القلاقل على الحدود المصرية مع قرب انتهاء أجل الهدنة (١)، ولا سيما بعد أن أخذ النزاع يدب بين البليميين والنباطيين (٢).وسواء أكان جستنيان مدفوعا بعوامل سياسية أودينية، فإنه انتهز فرصة انقضاء أجل الهدنة ليقضى على الاوزيرية فى فيلة، كعبة البليميين والنباطيين. ولكن كيف السبيل إلى تحقيق هذه الغاية ومنطقة النوبة السفلى من الشلال الأول حتى أبريم تحت سيطرة البليميين الذين يتحكمون فى المسالك المؤدية إلى فيله ؟.

يبدو أن جستنيان كان على صلات بالعناصر النوبية التى أخذت تميل إلى المسيحية، فشجعها على حرب البليميين وطردهم من وادى النيل(٣). وانبرى «سلكو» أحد ملوك النباطين لهذه المهمة. وليست لدينا الوثائق الخاصة بجهود هذا الملك ضد البليميين إلا وثيقة

(1) Budge, E. A.W.: The Egyptian Sudan II P. 178.

(2) Beckett H. W.: ASN., Report for 1907 - 8II, p. 365.

(3) Budge : op cit. p. 294.

Beckett H. W.: op. cit. p. 367.

تجديف المخالف، فاجاب بصوت النبوه المشتمل بروح القدس وقال: تخرس الشفاه الناطقه بالتجديف على المسيح الاهى. وقال ايضا كما قال داود : عدو افترى على الرب وشعب جاهل اغضب اسمك. فيا لهذه العجوبه العظيمه، عند ذلك صار المخالف اخرس لا يتكلم ، وانفلج الى يوم وفاته. وكل من شاهد هذا من الاسكندرانيين المخالفين صار في خوف عظيم، حتى ان ريسهم غير البطرك المسمى صفرون صار له في ابينا

واحدة تتمثل في النقش الذى تركه محفورا على أحد جدران معبد كلابشه تخليدا لانتصاره على البليميين [١].

ومما جاء في هذا النقش أن «سلكو» حضر مرتين إلى كلابشة وتافه، وحارب البليميين في ثلاث مواقع، وانتصر عليهم في الرابعة واستولى على مدنهم. ثم أقسموا بآلهتهم يمين الطاعة والولاء له. فصالحهم. ثم عاد إلى الأجزاء العليا من مملكته ليقضى على حركات العناصر المعادية له من بين النوباديين، ثم عاد لشن حرب جديدة ضد البليميين، فاكتسح أراضهم، وطاردهم من أبريم حتى الشلال الأول [٢]. ويبدو أن حملته الأولى كانت ناجحة، ولكنها لم تكن حاسمة [٣]. ولهذا اضطر للقيام بحملته الثانية بعد عودته من الجنوب، فأحرز نصرا حاسما ضد البليميين، واحتل كلابشة وتافه اللتين لم يتح لملك نوبى من قبل أن استولى عليهما منذ احتلال البليميين لهذه المنطقة أواخر القرن الرابع الميلادى، كما قضى على منافسيه من زعماء النوبة. ولهذا أطلق على نفسه ملك النوباديين وجميع الأثيوبيين [٤].

(١) وأول من قام بنشر هذا النقش هو «جو» Gau في كتابه «آثار النوبة» وناقش نوبهرNiebuhr محتويات هذا النقش. وهناك نسخة أخرى حصل عليها كل من لبسيوس وكايو، وشرحه كل من ليترون Latronne وربفيو Revilleot شرحاً وافياً. أنظر ملحق رقم ١ .Budge, op cit. p. 292

(2) De Villard, : op. cit. pp. 56 - 57.

(3) Woolley - Maciver. P. 98.

(4) Budge: op. cit. p. 293.

اعتقاد وامانه وكان يجى اليه عدة دفوع فيتواضع له ويسلم عليه.

وفى سابع سنة من بعد تقدمته وهى خمس مايه واربع وخمسين للشهدا، اظهر الله علامة عظيمة فى السما، وظهر نجم عظيم فى المشرق وينتهى إلى المغرب مثل السيف الذى يلمع، واقام اياما كثيره وكانو الناس يقولون: ما راينا مثل هذا قط فما عسى ان يكون من هذا النجم.

وعلى الرغم من أن سلكو عزا انتصاراته على البليميين إلى الله، إلا أن النص لا يشير صراحة إلى اعتناقه المسيحية. ومن المرجح أن كاتبا قبطيا على جانب عظيم من الثقافة تولى كتابة هذا النقش على جدران معبد كلابشه [١]. ومما يزيد الشك فى تنصره أن النقش يحمل صورة ملك النوباديين فى زى فرعونى تزينه صور الآلهة [٢]. ولا يشير النص أيضا، إذا كان سلكو صالح البليميين بعد حملته الثانية كما فعل عقب حملته الأولى واستولى على بعض مدنهم وترك لهم بعضها، أم طردهم نهائيا من تلك المنطقة. ومما لاشك فيه أن البليميين لو تركوا بهذه المنطقة أو بعضها، لما سمحوا بوجود هذا النقش على جدران معبدهم [٣]. والأرجح أنه تم لسلكو طرد البليميين من النوبة السفلى ومنها اتجهوا إلى الصحراءالشرقية. ويؤيد هذا ما ذكره بروكوبيوس أن شعوبا كثيرة من بينها النباطيون والبليميون تعيش فى المنطقة الممتدة من أكسوم إلى الحدود المصرية عند الفنتين، بيد أن البليميين يسكنون الجهات الوسطى ويحتل النباطيون ضفتى النيل [٤]. وعليه فإن النباطين أصبحوا السكان الجدد لمنطقة النوبة السفلى. ويرى رفيو Revillout أن أحتلال النباطين لهذه المنطقة ما كان ليتحقق دون

(1) De Villard; op. cit. p. 57.

(2) Kirwan, L.P.: LAAA. op. cit. P. 85.

(3) Beckett, H. W. : ASN, op. cit. P. 365.

(4) Procopirs: op. cit. P. 185.

وبعد ايام جا[ء] وبا[ء] عظيم على البهايم ، وكانت الدواب تموت للوقت فى الغيطان وفى ساير المواضع الى ان لم يبق لحد من اهل مصر دابه، ولم يجدو ما يعملون عليه اعمالهم، ولا يقدر احد ان يمشى فى الازقه الابعد ان يسد انفه من كثرة جيف الدواب، حتى ان الزرع انقطع وقلت الثمره،و كانت ارض مصر فى حزن عظيم.

ثم عاد الوبا على الناس وفنو مثل البهايم كما

طرد البليميين عنوة. ذلك أن بروكوبيوس وهو المعاصر لهذه الاحداث حدد مواطن البليميين تحديدا جغرافيا يختلف عما ذكره أوليمبيودوروس [١].

ويبدو أن البليميين يمثلون الشعبة الشمالية للبجا الذين ظل اسمهم عاما على هذه المنطقة كلها طوال العصور الوسطى [٢]. وأخذ البليميون (البجا) ينظمون حياتهم الجديدة فى الصحراء الشرقية بالسيطرة على وسائل النقل والتجارة بين النيل والبحر الأحمر [٣].

وعلى هذا يمكن القول إن الانقسام بدأ يدب فى صفوف البليميين منذ هزيمتهم على يد فلورس [٤]، على حين استفاد النباطيون بعد أنفصالهم عن البليميين، فمارسوا سياسة مستقلة وحصنوا مراكزهم فى بلادهم وتوسعوا ناحية الجنوب. ثم بدأ اتصالهم من جديد بالبيزنطيين

(1) Woolley - Maciver: Op. cit. p. 98.
Trimingham, G. S. : op. cit. P. 47.
Beckett, H. W.: op. cit. P. 366.

(2) Ibid: op. cit. p. 351.

جاء فى اللوحة التى تركها عيزانا ملك أكسوم بعد هجومه على مروى أسماء الشعوب التى خضعت له ومن بينها البجا، وهو الإسم الذى عرف به سكان الصحراء الشرقية فى العصور الوسطى. (أنظر حاشية رقم ٢٢ ص ٢٩) De Villard: p . 60.

(3) De Villard: op. cit. P. 59.

(4) Morie, L.J. : Histoire de l'Ethiopie, Tome 1, er. P. 410.

قال داود عن اهل مصر: انه لم يوفرهم من الموت ولا دوابهم .

وكان ابونا لا يفتر من البكا على الناس والبهايم ويطلب من الله بدموع ويقول : يارب لقد حولت وجهك عن شعبك لجل ذنوبى، ولا تفعل معهم مثل اثامى وادركهم عاجلا برحمتك وخلص شعبك وجدد وجه الارض، الهم محب البشر. فسمع الله صلاة عبده ونقل [بدل] غضبه الى

بفضل ثيودور أسقف فيلة، وهو الذى قام بدور الوسيط بينهم وبين البيزنطيين، وسواء أكان هذا التوسط عن طريق الاقناع أو بذل المال، فإنه نجح فى حمل سلكو على مسايرة البيزنطيين مما دعاه إلى محاربة حلفائه القدامى وطردهم من وادى النيل[1]. وربما تم هذا بمساعدة القوات البيزنطية بقيادة نارسيس Narses.

لا شك أن الوفاق البيزنطى النوبى الجديد، شجع جستنيان على القضاء على آخر مظهر من مظاهر العبادات المصرية فى فيلة، فما كادت تنقضى مدة الهدنة حتى أمر قائدة نارسيس باغلاق معبد فيلة، وإرسال تماثيل الالهة إلى القسطيطينية، وسجن جميع كهنته[2] حوالى عام ٥٤٣م. ثم عهد إلى ثيودور الإشراف على الطقوس الدينية فيه بعد تحويل هيكله إلى كنيسة.

ولا شك أن الوفاق البيزنطى النوبى أدى إلى كسر شوكة البليميين الذين كانوا عقبة فى سبيل تقدم المسيحية إلى بلاد النوبة التى أصبحت بعد طردهم مهيأة لقبولها[3].

(1) De Villard: op. cit. P. 58.

(2) Procopius: op. cit . P. 189.

(3) Maspero, J. : "Theodore de Philai", Rev, de l'hist. des rel, 49. PP. 299 - 317.

سلامه على الناس والبهايم وعرفهم انه القادر على كل شي.

وكترت الناس في ارض مصر والبهايم، ونسو ما كان، حتى البهايم كانت تلد زوجا زوجاحتي صار الناس والبهايم كان لم يمت أحد ولا هلك شي منهم.

اريد ان اذكر لكم شيا من جهاد هذا الاب وتعبه الذى تعبه لكي تسمعو وتمجدو الله الذى

دخول المسيحية بلاد النوبة

انتشار المسيحية فى مصر ■ الاضطهادات الدينية والصراع المذهبى وأثرهما فى بلاد النوبة ■ المسيحية المبكرة عند النوبيين والبجه ■ أثر كنيسة أسوان ■ التبشير فى بلاد النوبة، وسائله ومراحله ■ طبيعة المسيحية فى بلاد النوبة ■ تحويل المعابد إلى كنائس ■ المسيحية فى أوطان البجه.

* * *

يحيط هذه المرحلة من مراحل التاريخ النوبى كثيرمن الغموض لقلة المصادر [١]. والقليل الذى كتب عن بلاد النوبة في العهد المسيحي، إنما جاء في إشارات عرضية على لسان بعض مؤلفى العصور الوسطى، وبالقدر الذى يتطلبه تحديد علاقة هذه البلاد بمصر أو بالعالم الخارجي. وهذه الإشارات العرضية القليلة لم تخل أحيانا من مبالغات أو تحريفات قد تتعارض أحيانا مع الآثار الباقية من العهد المسيحى فى بلاد النوبة، وهى آثار قليلة لم تدرس بعد دراسة كافية [٢]. أما كتابات أهل النوبة أنفسهم باللغة النوبية، أو النصوص اليونانية أو القبطية - سواء كانت مكتوبة على البردى أو الرقاق أو شواهد القبور - فمعظمها قصص قصيرة أو أدعيات للترحم على الميت فى قبره. يضاف إلى هذا جملة الأخبار القليلة المبعثرة فى جوف

(1) Griffith, F. Ll. : "Pakhoras - paknaras - Faras in Geography and History" JEA. XI. P. 268.

(2) Crowfoot, J.W. ; " Christian Nubia " JEA. XIII. P. 141.

صنع مع هذا الاب عجايبه وخلصه من احزانه وشدايده.

فلما تنيح انبا اسحاق [ابن اندونه] اسقف وسيم الذى كان تمسك كرسى مصر، وهو الذى كان يطلب اولا البطركيه، قدم عوضه «بنه» الشماس بسوال رويسا مصر، وقدم على كرسى وسيم اخر من اولاده اسمه بقيره، وتنيح بعد ايام قلايل، وكان ولد لأسحاق المتنيح اسمه تاودرس،

المخطوطات الكنسية بالاسكندرية أو القسطنطينية، وهى كذلك محدودة القيمة من الناحية التاريخية(١).

ويحتاج دخول المسيحية بلاد النوبة إلى كثير من الحذر فى معالجته، ولا سيما عند شرح الطريقة التى دخلت بها المسيحية، وتحديد تاريخ دخولها ومعرفة دعاتها الأول، لأن شيئا من هذا لم يعرف على وجه التأكيد، مع العلم بأن معظم الروايات التاريخية ترجح دخولها عن طريق مصر(٢).

دخلت المسيحية مصر حوالى منتصف القرن الأول الميلادى على يد القديس مرقس الإنجيلى (٣)الذى بنى أول كنيسة مصرية بالاسكندرية، ورسم إينيانوس أسقفا لها(٤). واجتذبت المسيحية عددا من يهود الاسكندرية وبرقة وغيرهم من سكان البلاد من اليونانيين والمصريين(٥). وحوالى نهاية القرن الثانى زاد عدد المسيحين زيادة تطلبت إنشاء ثلاث

(1) Roeder, G. : "Die Christiche Zeit Nubiens und des Sudan" ZK. XXX III. P. 365.

(2) Somers Clarke: Christian Antiquities in the Nile Valley P. 8. Budge. E.A.W. : P. The Egyptian Sudan, II. P. 288.

(3) Ibid. : op. Cit. P. 288.

(4)Butcher. E.L. : The Story of The Church of Egypt, I. PP 19 - 21.

(5) Budge, E.A.W.: op cit p. 278.

وهو الاسم المتفق لتلاته اساقفه جلسو على كرسى مصر، وهذا كان يطلب كرسي وسيم وما يرضى به الشعب، ولم يرد الاب ان يوسمه بغير اختيار الشعب، وكان في مصر في ذلك الزمان وال اسمه على ابن يحيى الارمنى(*) من قبل ابى اسحاق ابرهيم المعتصم ابن هرون الرشيد اخى عبد الله المامون، فترك تاودرس خوف الله ومضى الى الوالي ووعده بمال لكى يقهر [يغصب] البطرك

(*) تولى صلاة مصر من قبل اشناس التركي وزير المعتصم فى يوم الخميس الرابع من فبراير سنة ٨٤١ = ٧ ربيع ثانى ٢٢٦ . انظر الهامش السفلى الوالى رقم ٩٦ .

أسقفيات(١) في الاسكندرية والوجهين القبلي والبحرى. وانبرت المدرسة الفلسفية بالاسكندرية للوقوف في وجه الدعوة الجديدة، ونشطت في جمع الكتب الفلسفية وتأليفها لصرف الناس عن المسيحية(٢). ثم بدأ الأباطرة يحسون بالخطر الذى يهدد الدولة الرومانية من هذا الدين الجديد، فأصدر الامبراطور ساويرس مرسوما ٢٠٢م، يحرم فيه على رعاياه الدخول في الديانة المسيحية والدين اليهودى(٣).

لم يضعف هذا المرسوم من قوة الدعوة، بل أدى إلى ازدياد إقبال المصريين عليها. ولم يكد ينتصف القرن الثالث الميلادى حتى زاد عدد الأسقفيات إلى عشرين أسقفية في الوجهين البحرى والقبلي (٤).

لقيت المسيحية في مصر بيئة صالحة للنمو والانتشار، لأنها كانت تعبيرا قويا لنزعة قومية ضد الرومان، بدليل تمسك المصريين بلغتهم القبطية التى غدت فيما بعد لغة الكنيسة (٥)، فضلا عن التنظيم الكنسى الذى انفردت به الكنيسة المرقسية منذ نشأتها وخاصة في ترتيب

(1) Ibid. : op. cit. p. 288.

(٢) بتشر - كتاب تاريخ الأمة القبطية وكنيستها - تعريب تادرس شنوده ص ٥٨- ٥٩.

(٣) المصدر السابق ص ٦٤.

(4) Budge, E. A.W. : op. Cit . P. 289.

(5) Bonet - Mauray : L,Islamisme et le Christianisme en Afrique. p. 37.

على ان يقيمه اسقفا، فارسل الوالى يسال عن
الاب البطرك ويساله فيه، وكان يقول: انه لا يصير
اسقفا ابدا. وقاوم الوالى وقال: ما اتمكن من هذا،
فحنق عليه حنقا عظيما لاجل ما وعده به وبدا ان
يهدم بيع فسطاط مصر، فاول ما ابتدا جا الى
البيعه التى فى قصر الشمع التى تسمى المعلقه
فهدمو اعلاها حتى وصلو الى الاسطوان، وكان
الاب البطرك يحزن حزنا عظيما ويقلق ويبكى
بدموع مرة كما قال داود النبى: ايها الرب الاله

الوظائف الكهنوتية وهي الأسقفية والقسيسية والشماسية [١]، علاوة على انتشار الديرية والرهبنة، ظهور مدرسة اللاهوت بالاسكندرية، التي انبرت للرد على مدارس الفلسفة اليونانية. ومن هذه المدرسة اللاهوتية، قاد رواد المسيحية الأول البعثات التبشيرية إلى البلاد المجاورة [٢].

* * *

تعرض المسيحيون في مصر لسلسلة من الاضطهادات الدينية على عهد الامبراطور دسيوس Dicius سنة ٢٥٠م، ثم في عهد فالريان Valerian (٢٥٣ ـ ٢٦٠م) ودقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥م) الذى كان أشدهم عنفا في محاولة القضاء على المسيحية وأنصارها[٣]، لما في الدين الجديد من تهديد للوحدة الامبراطورية، وفي عهد دقلديانوس خاصة هجر المصريون المسيحيون مساكنهم واتجه بعضهم إلى منطقة طيبة الممتدة من الأقصر الحالية إلى أسوان، وهي المنطقة التي لم يستطع الرومان إتمام السيطرة عليها، بسبب الحركات البليمية المعادية لهم منذ القرن

(١) بتشر – نفس المصدر ص ٢٩.

(2) Bonet -Mauray : op. cit. p. 37.

(3) Budge. E.A.W. : op. cit. PP. 289 -290.
Bell, H. I. : HTR, 37, PP. 185 - 208

اله القوات حتى متى تغضب على صلاة عبدك، اطعمتنى خبزا بدموعى، وسقيتى دموعا، وجعلتنى مقالة [عبرة] لمعارفى وهزوا[ء] وطنزا [سخرية] لاعدائى، يارب الاه القوات ارجع يارب واضى وجهك علينا فنخلص .

جزء من عتبج الكنيسة المعلقة من القرن الرابع ـ الخامس يمثل استقبال المسيح.

الثالث الميلادى [١] . واتجهت جماعات أخرى من المهاجرين المصريين إلى الصحراء الغربية، فضلا عمن اتجه منهم إلى منطقة النوبة السفلى والوسطى، واستقروا فى جزر النيل وبين ثنايا التلال والصخور على جانبى النيل، حيث مارسوا عبادتهم الجديدة فى اطمئنان بعيدا عن ضغط الرومان[٢].

وغدا إقليم طيبة مركزا للدعوة المسيحية فيما حوله من أقاليم، وخاصة بلاد النوبة السفلى. وأنشئت فيه الأديرة، التى ازداد عددهم منذ القرن الثالث الميلادى ، ومنها دير أخميم «بانوبوليس» . والراجح أن المصريين المسيحيين، لم يركنوا إلى حياة العزلة والانطواء فى طيبة، بل اختلطوا بالسكان وزينوا لهم الدخول فى المسيحية.

أما فى الصحراء الغربية حيث توجد الواحة الخارجة، فإن المسيحية شقت طريقها إليها منذ القرن الثالث الميلادى، ولجأ إليها كثير من الأقباط فرارا بدينهم وحياتهم، وشارك المسيحيون القدامى إخوانهم المهاجرين فى مشاعرهم، ومدوا لهم يد المساعدة، وفى القرن الرابع الميلادى، زاد عدد المسيحين فى تلك الواحة زياده تطلبت إنشاء أسقفية بها [٣].

(١) أنظر ماسبق ذكره.
(٢) تعتبر منطقة النوبةالوسطى جنوبى الشلال الثانى أنسب الأقاليم لحياة هؤلاء المهاجرين لصعوبتها و خاصة المنطقة المعروفة ببطن الحجر .
Budge, E. A.W P. 290.
أنظر كذلك.
Dunbar, J.H. : "Betwixt Egypt & Nubia". AE. XIV P. 109.
(3) Ahmad Fakhry: the Necropolis of El Bagawat in Kharga Oasis. P. 12.

وكان يتنهد بتنهد عظيم بحزن قلب لاجل هدم البيعه. وان قوما تقدمو الى الاب وقالو له: الى متى تمسك ولا تصلح هذا الانسان اسقفا حتى يتهدم جميع البيع وقد نظر الله حرصك واجتهادك على الحق فافعل مع هذا الذى جعل توكله على السلطان فيما طلبه والله يستفل به وظلمه على راسه.

فرضى بما قالوه الشعب. ولم يتخل الوالى عن الغضب وطالب الاب بمال وقال: ما ارفع الهدم

وللواحة الخارجة أهمية خاصة فى نظر الرومان، لوقوعها على الطريق التجارى بين مصر والسودان (درب الأربعين) من ناحية، وبين وادى النيل وشمال أفريقيا من ناحية أخرى. لهذا أقيمت بها القلاع لتأمين القوافل المارة به، كما حفرت بها الآبار، وأنشئت بها المعابد. ومن الواضح أن دخول المسيحية إلى تلك الواحة فى هذا الوقت المبكر أتاح للمبشرين فرصة التعرف والاتصال بالتجار من النوبة وغيرهم، وأن رجال القوافل التجارية المارين بالواحة الخارجة، قاموا بالدعوة للدين الجديد بين من اتصلوا بهم من سكان النوبة، ونقلوا أخبار الصراع بين الرومان والمسيحية فى الإسكندرية إلى عملائهم وذويهم فى الجنوب [(١)]. ولا يبعد أن يكون هؤلاء التجار سهلوا للفارين من المصريين أمر الهروب والالتجاء إلى أقاليم النوبة، وأن التبشير للمسيحية بين النوبيين يرجع إلى هذا الوقت المبكر من تاريخ المسيحية.

وفى أوائل القرن الرابع الميلادى، اجتذبت المسيحية إلى صفوفها أعدادا كبيرة برغم مانزل بهم من اضطهاد فى هذا الحين على يد كل من جاليريوس Galerius (٣٠٥ ـ ٣١١م) ومكسنتيوس Maxintius (٣٠٥ ـ ٣١٣م) بدليل ما لقية أنطونيوس الكبير فى عام ٣١١م من نجاح منقطع النظير فى التفاف المريدين حوله حتى أمس قوة يخشى بأسها فى مصر [(٢)].

....

(1) Budge, E.A. W. : AHist. of Ethiopia..., op. cit. L., p. 113.

(2) Budge, E.A.: The Egyptian Sudan. op. cit p. 290.

عن البيع الا بتلته الاف دينار، فقلق الشعب والاساقفه الحاضرون معه وقالو: يا ابانا لا يضق صدرك نحن نقوم بهذا المال فقسطه علينا لتسلم البيع ولا يلحقها شى فتقدمو الاراخنه الى الوالى وضمنو له القيام بتلته الاف دينار، فهدا غضبه وامر بقسمة الاسقف فاقسمه الاب، وقال من عمق قلبه على الوالى كما قال داود النبى فى المزمور الخامس: «الانسان الظالم يرذله الرب وهو يصنع حكم الفقرا» . وقال ايضا الكلمة التى فى

ثم كانت أيام قسطنطين الأكبر (٣١٣ ـ ٣٣٧م) الذى لم يكد يحرز النصر على منافسه وخصيمه مكسنتيوس حتى أظهر ميله للمسيحية، وأصبحت الكنيسة متمتعة بحماية السلطات المدينية. ومع أن الامبراطور لم يعتنق المسيحية رسميا ولم يسمح بتعميده إلا وهو على فراش الموت سنة ٣٣٧م، فانه بذل كل مالديه من سلطة ونفوذ فى خدمة الديانة التى جاءت له بالظفر فى أرجاء ايطاليا[١]. ففى مصر جاهر الأقباط بدينهم، ومارسوا عبادتهم فى غير ضغط أو إكراه، وحولوا معظم المعابد المصرية إلى كنائس[٢] واستولوا على أوقافها واملاكها. وجاء فى كتاب حياة قسطنطين الذى ألفه يوسيبيوس Eusebius أن المسيحية دخلت أثيوبيا على يد البعثات التبشرية الدينية التى أوفدتها كنيسة الاسكندرية على عهد قسطنطين الأكبر[٣]. ومعنى هذا أن البعثات التبشيرية الرسمية بدأت نشاطها فى بلاد النوبة، فى عصر مبكر يرجع إلى القرن الرابع الميلادى [٤].

(١) فشر: تاريخ أوربا فى العصور الوسطى القسم الأول ـ تعريب الدكتور محمد مصطفى زيادة ص ٦ ـ ٧.
(٢) دليل المتحف القبطى: جـ٢، ص ١٤٠.
(٣) انظر الفصل السابق، وانظر : Trimingham, J.S.: op. cit. P. 49:
نقلا عن Eusebios: vit. Constantini P. 8.
(٤) تبدأ أخبار البعثات التبشرية الرسمية فى القرن السادس الميلادى ـ كما سيجئ بعد ـ انظر ص ٥٦ وما بعدها، واختلط على الكاتب أن اثيوبيا تشمل بلاد النوبة أيضاً ، لأنها كانت فى نظر القدماء كذلك. على أن المقصود هنا هو دولة أكسوم (الحبشة).

ناموس موسى: «في يوم النقمه اجازيهم فى يوم تزل اقدامهم». وقال ايضا: «فى يوم هلاكهم انا اجازيهم وادين الاعدا والمبغضين». وكان كل احد يعلم ان كلامه كالنبوه، وكانو يقولون ما ترى يكون بعد هذه النبوة.

ثم ان هذا الوالى بعد قليل ارسله السلطان الى بلاد الروم يغزو فيهم، فسبى منهم واخذ بلادا ثم عاد فارسله تانى دفعه، فخرج عليه قوم من الروم فقتلوه اشر قتله وجميع عسكره، كما كان الاب

وكيفما كان المحتمل وغير المحتمل، فان المسيحية أخذت تتسرب تسربا نظيما بطيئا إلى بلاد النوبة منذ أواخر القرن الثالث الميلادى، ولم ينقطع سيل الوافدين المسيحيين إلى بلاد النوبة. وأخذت هجرة الجماعات المصرية المسيحية إلى الجنوب تزداد تدريجيا لما نالها من اضطهاد بسبب الخلاف الذى نشب بين المسيحيين حول طبيعة المسيح (١)، حتى تطلب الأمر أنشاء

(١) اختلف كل من آريوس وأثناسيوس حول طبيعة المسيح ، وتدخل قسطنطين لحسم هذا الخلاف، وعقد مجمع نيقية سنة ٣٢٦م، حيث نجح قساوسة مصر وتأيد مذهبهم ثم أثار قساوسة القسطنطينية هذا الموضوع من جديد، ونجح كيرلس بطرك الكنيسة المرقسية على خصيمه نسطورس بطريك القسطنطيينية فى مجمع افسس آلأول سنة ٤٣١م، بعد أن استمال إليه الإمبراطور تاوداسيوس الثانى روما، ثم مالبث أن ثار الموضوع مرة أخرى، ونال قساوسة مصر والشام وعلى رأسهم ديوسقورس بطريق الاسكندرية نصرا جديداً فى مجمع افسس الثانى سنة ٤٤٩م وشجع هذا النصر قساوسة الاسكندرية، فبالغوا فى تقدير ديوسقورس إلى درجة أحفظت بابا روما ليو الكبير. ولهذا أصدر ليو قراراً يتعارض مع مذهب الكنيسة المرقسية، وانحاز الامبراطور مارقيان إلى هذا الرأى، وتقرر عقد مجمع دينى فى خلقيدونية سنة ٤٥١م، وفيه تقرر عزل ديوسقورس، وأقر المؤتمرون الصيغة البابوية. ومن أخطر نتائج خلقيدونية تكفير رجال الدين فى كل من مصر والشام. فتكونت فيهما شيع معادية للامبراطور وتحول النفور الدينى إلى نفور سياسى. وبخروج كنيسة الإسكندرية منهزمة أتاح الفرصة للامبراطور لبسط سيطرته على الكنسية البيزنطية. وأطلق على الأقلية المصرية التى قبلت قرارات خلقيدونية اسم ملكانيين. واشتدت معارضة المصريين لقرارات خلقيدونية، واضطرت الدولة إلى تجريد حملات حربية لقمع حركاتهم، ونزل بالمصريين اضطهاد شديد، استمر حتى الغزو العربى لمصر. أنظر:

Groves, C.P. : The Planting of Christianity in Africa, I. PP. 4f3 - 46.

قال من اجله. وعند [ذلك] زوال التعب عن البيع
وتجديد ماقدم هدم منها، واهتمام المومنين بها
وعمارتها إلى أن صارت خيرا مما كانت أولا وابهج،
لان البيعه هي التي على الصخره لا يقهرها شي
وهي تقهر وتهلك من يعاندها.

كان الاب يقول كما قال داود النبي: يارب من
يشبهك اوريتنا شدايد عظيمه ورجعت احييتنا،
ومن عمق الارض اصعدتنا، وايضا نزع الرب
مسحي والبسني سرورا وجعل نوحي الى فرح.

أسقفية في فيلة في القرن الرابع الميلادى (١). هذا فضلا عن إنشاء عدد من الأديرة والكنائس في منطقة طيبة وأسوان.

* * *

لكن إلى أى حد تأثر النوبيون والبليميون بهذه المراكز المسيحية التى نشأت بالقرب من أوطانهم فى القرن الرابع الميلادى، مع العلم بأنه ليست لدينا وثائق أو أخبار موثوق فى صحتها عن نشاط تبشيرى رسمى ببلاد النوبة قبل القرن السادس الميلادى؟ أما المعلومات السابقة لهذا التاريخ فمنها ماورد فى كتاب الكاتب العربى أبى البركات من قيام آنى Ani أسقف الإسكندرية بتعميد بعض النوبيين فى القرن الأول الميلادى، وربما كان المقصود بهم أولئك النوبيين الذين يعيشون فى مصر للعمل بها كما يفعلون اليوم، أو ربما كانوا ممن يعيشون فى جهات الأطراف مثل فيلة وأسوان، أو بعض أفراد مثل وصيف كنداكة ملكة مروى، الذى عمدة الأسقف فليبوس فى القرن الثانى للميلاد (٢). وفضلا عن هذا توجد مجموعة من

(1) Laturette, K. S. : AHistory of The Expansion of Christianity, II. P. 232.

(2) Roeder. G. op. : cit. PP. 376 -77.

تذكر بعض الروايات أن المسيحية دخلت بلاد النوبة على يد المبشرين المصريين.فى القرنين الأول والثانى للميلاد بدليل أن بطريرك الكنيسة المصرية منذ عهد المسيحية الأول يحمل لقب بطريرك الإسكندرية =

وكان اسقف مصر [بنه] يلتمس من الاب البطرك زيادة تقدمه.

وكان انسان قاض بمصر اسمه محمد بن عبد الله، وكان ذلك الرجل فى كلما يعانيه يرا[ء]يه فيه، وكان مخوفا لا يقدر احد ان يقاوم كلامه لانه كان عند جميع المسلمين مثل الفقيه والامام وعارف بمذهبهم، ويفعل افعالا مذمومه سرا، وكان محبا لشراب النبيذ وسماع الغنى، واقتنى

القصص التى تصور حياة الرهبان فى الأديرة المصرية على أطراف مصر الجنوبية وعلاقاتهم بالنوبيين والبليميين. ويبدو أن لهذه القصص أساسا تاريخيا يتصل بحركات هذه الجماعات ضد الرومان منذ القرن الثالث الميلادى، وتعرض الأديرة المصرية أحيانا لهجمات تلك الجماعات. وتصور هذه القصص وغيرها محاولات الرهبان كسب ود هذه الجماعات ومحاولة تنصيرهم والتمتع بحمايتهم وتجنب أذاهم. ومن هذه القصص أربعون قصة نشر منها كرم Crum ثلاثا وثلاثون. وتروى القصة الثانية والثلاثون منها نبوءة راهب يدعى مرقوريوس بإغارة النوبيين على إحدى الأديره المصرية، ونصحه أنستاسيوس كبير رهبان الدير بضيافة أولئك

= والديار المصرية والنوبة والحبشة والخمس مدن الغربية تجمعها الكلمات الثلاث المنقوشة على خاتمه «بطريرك الكرازه المرقسية» أنظر دليل المتحف القبطى جـ٢ من ١٤٠، وجاء فى كتاب: Maspero, J.: Histoire des Patriarches D'Alexandrie. p. 382 أنه أطلق عليه لقب بطريرك الإسكندرية والحبشة والنوبة والخمس مدن الغربية والبلاد الأخرى التى بشر فيها القديس مرقس» وتأيد هذا اللقب فى مجمع نيقية الأول سنة ٣٢٥م ومجمع القسطنطينية الثانى سنة ٣٨١م. وذكر أيضا فى تاريخ البطاركة والسنكسار فورد فى تاريخ حياة الأنباء ديمتريوس البطريق الثانى عشر (١٨٩ - ٢٣١م) أنه رئيس أساقفة مصر والخمس مدن الغربية والنوبة والحبشة. وأما الخمس مدن فهى برقه وتونس وطرابلس الغرب وفريجيا (أفريقيا) والقيروان. عن كتاب السلم الكبير، لشمس الدين بن كبر قسيس المعلقة. غير أن أخبار هذا التبشير المزعوم لم يرد عن نص صريح فى المراجع الكنيسة.

الجوارى الحسان، واحب اللذه والزنا بلا خوف من الله ولا حيا من الناس، كقول الانجيل عن مثله: وكان الله يصبر عليه ويمهله ويزيده يوما مقداره الف سنه. وهو مستمر على جهله وشتمه لاهل هذا المذهب الارتدكسى وغيره من مذاهب المسيح، ويحلف عليه، ففاتح الاب البطرك عدة دفعات ويخزى عليه فانزل الله فعله على هامته كقول داود فى المزمور: افض غضبك على الامه التى لا تعرفك.

المغيرين، لأن أميرهم سوف يصبح راهبا وقديسا. وفى القصة الثالثة والثلاثين تحقق النبوءة كاملة. وتتحقق حماية الدير على يد هذا الأمير النوبى. ويتضح فى نهاية القصة أن مرقوريوس هذا هو الذى تولى تنصير هذا الأمير النوبى وأتباعه خلال رحلة تبشرية قام بها فى بلاد النوبة(١). وعلى الرغم من أن تاريخ هذه القصص غير معروف تماما، وأنها مكتوبة بلغة عربية فى عصر متأخر (٢)، إلا أنها تعتبر ترديدا لنوع من الروايات التى احتفظت بذكرى التبشير فى بلاد النوبة فى وقت مبكر ربما يرجع إلى القرن الرابع أو الخامس الميلادى، وهو الوقت الذى طفح بأخبار الإغارات النوبية البليمية المشتركة على أطراف مصر الجنوبية قبل أن يعقد معهم القائد الرومانى مكسيمينوس صلحا فى عهد الإمبراطور مارقيان(٣).

(1) Crum, B. W. E. : ANobian Prince in an Egyptian Monastery in Studies Presented to Griffith, F. L. I. PP. 137 - 148.

وتعرف هذه القصص باسم بساتين الأبا الرهبان ـ فردوس النعيم ـ الأربعين خبر التى للأبا الرهبان بوادى هيب وغيره.

(٢) الراجح أن هذه القصص قديمة ترجع إلى القرن الرابع أو الخامس الميلادى وأنها مكتوبة باللغة القبطية أو اليونانية ثم ترجمت بعد ذلك إلى اللغة العربية حين ترجمت بعض طقوس الكنيسة المصرية إلى اللغة العربية.

(3) Kirwan, L, P. : LAAA., XXIV. PP. 92 - 94.

فلمـا نظر «بنه» [يوحنا] اسـقف مـصـر قـوة القاضى ومكانته من الوالى وامرا المسلمين صادقه لكى يفعل بما يهواه، ولا يقاومه احد فى حكمه مثله في المسلمين فيما يحكم به، صحيحا كان او خطا[ء] ام محالا. والاب انبا يوساب ما كان يفتر عن الجهاد فى الحق ويقول: انا اتوكل على الله. فلا يخاف الا من الله الذى خلقه.

والبطرك قد عرف ما صار بين الاسقف والقاضى

وثمة دليل على نشاط الجماعات المسيحية الأولى بمنطقة أسوان وجزيرة فيلة وجهودهم بمنطقة النوبة السفلى، هو ما تذكره وثيقة قبطية (١) عن بعثة تبشرية (٢) إلى تلك البلاد فى القرن الرابع الميلادى، ولهذه القصة أهمية خاصة لأنها توضح العلاقة بين رجال الدين المسيحين وجيرانهم النوبيين (٣).

* * *

(1) Ibid. op. cit, PP. 95 - 96:

(٢) إن هذه البعثة التبشرية ـ لوصحت ـ فهى بعثة غير رسمية، أى أنها غير صادرة عن الكنيسة العامة أو الحكومة البيزنطية.

(٣) تشير هذه الوثيقة إلى زيادة راهب اسمه بافنوليوس لراهب آخر عجوز يعيش فى جزيرة بالجنادل الأولى ويدعى إسحاق، وهو وتلميذ لناسك مشهور فى هذا الإقاليم اسمه أنبا هارون. و حدث إسحاق زائره عن أن سكان فيلة واوزوريون وقليل منهم مسيحيون، و هؤلاء هم المضطهدون من جيرانهم. ويزورهم رهبان أسوان وفيلة مرة فى كل أسبوع لتعليمهم قواعد الدين، فأرسل مقدونيوس وهو موظف رومانى تقريراً بهذه الأخبار إلى أثاناسيوس بطريرك الإسكندرية (٣٤٤ ـ ٣٩٠م) فعينه أسقفاً حتى يستطع أن يقوى من شأن المسيحية فى هذه المنطقة ، ثم خلفه مرقس وإسحاق.

Kirwan, L,p. : op. cit. P. 95.

Maspero, J. : op. cit. P. 382.

فبدا القاضى ان يتفكر ماذا يفعل بالبطرك من السو، فامر القاضى فى بعض الايام باحضار الاب البطرك وكان عنده اساقفه يوميذ وهم مساعدون «لبنه» اسقف مصر واسما هم : انبا بخوم اسقف بسطه(*)، وجرجه اسقف طحا، وجرجه ايضا اسقف اهناس(*)، وزخريا اسقف البحيره، ومينا اسقف البهنسا وقوم اخرون فقال القاضى للبطرك عند حضوره اليه: من جعل لك السلطان ان تكون ريسا على جميع النصارى . فقال له البطرك: الله.

(*) تل بسطه: قرب الزقازيق.
طخا: قرب سمالوط.
البهنسا : مركز بنى مزار.

(*) أهناس: اسم لموضعين بمصر فى الصعيد. ويذكر ياقوت الحموى فى تعريفه لهما ما يلى: وأهناس هذه قديمة أزلية... وهى على غرب النيل ليست بعيدة عن الفسطاط. وذكر بعضهم أن=

وفضلا عن هذا فإن ثيودور Theodore أسقف فيلة وأسوان [١] قام بدور هام فى التمهيد لدخلو النوبيين جميعاً فى الدين المسيحى فى القرن السادس الميلادى. وذلك أنه عاش فى هذه المنطقة أكثر من خمسين عاماً تعرف خلالها إلى زعماء النوبيين وتوثقت الصلة بينه وبينهم خلال زياراته المتعددة لبلادهم. ويبدو أنه قام بدور الوسيط بين هذه العناصر النوبية التى تزعمها سلكو وبين الدولة البيزنطية، وأنه ساعد بذلك على طرد البليميين من منطقة النوبة [٢]، لاستمرار مقاومتهم للبيزنطيين فى منطقة طيبة[٣].

من الوسائل التى لجأ إليها البيزنطيون لترغيب البليميين فى المسيحية، أنهم أقطعوهم إقطاعاً بمنطقة طيبة، يؤيد ذلك ثلاث وثائق مكتوبة باليونانية على رق غزال، وربما ترجع إلى القرن

(١) De Villand : op. cit. P. 56. وتولى تيودور أسقفية أسوان بعد أن . كرسه البطريرك تيموتاوس أسقفا سنة ٥٢٦م. وقد ظل يباشر سلطته حتى وفاته سنة ٥٨١م وعمر نحوا من ثمانين سنة.

(2) De Villard : op. cit . P. 56.

(٣) كثيراً ما هدد البليميون سكان منطقة طيبة المسيحيين، وفى القرن الخامس الميلادى مثلا، اضطر المشردون منهم إلى الالتجاء إلى دير إخميم للاحتماء فيه من هجمات البليميين. ويقال أن الآنبا شنودة آوى آلافاً من المسيحيين المشردين إلى دير إخميم حيث رحب بهم وكان يقدم لهم الطعام والشراب مدة ثلاث شهور.

ثم التفت القاضى الى الاساقفه المذكورين واسقف مصر معهم وقال لهم: لاتسمعو من هذا البطرك من اليوم ولا تسموه ابا، بل اجعلو لكم هذا ابا، يعنى «بنه» اسقف مصر، ويكون مقدمكم. فاجابوه الاساقفه: هذا الجيد ما قلت ايها القاضى يكون ما امرت به. وكان ذلك بتقرير منهم مع القاضي ووعدوه بمال يدفعونه اليه. فقال زخريا اسقف البحيره لابينا البطرك: ما قد قلت لك بالامس لا تمنع الاسقف انبا «بنه» يعنى اسقف

=المسيح عليه السلام وُلد فى أهناس وأن النخلة المذكورة فى القرآن المجيد «وهزى إليك بجذع النخلة» موجودة هناك وأن مريم عليها السلام أقامت بها إلى أن نشأ المسيح عليه السلام وسار إلى الشام .. انظر : معجم البلدان. المجلد الأول ص ٣٧٩ . مطبعة السعادة. القاهرة ١٩٠٦ = ١٣٢٣هـ. وينسب إليها دحية ابن مصعب ابن الأصبغ ابن عبدالعزيز ابن مروان ابن الحكم،

السادس الميلادى. وفى الوثيقة الأولى، أن الملك البليمى شاراشن منح أولاده الثلاثة حكم جزيرة تنارى، كما منحهم حق جباية الضرائب بها [(١)]. ويلاحظ أن اسمى الشاهدين البليميين على هذه الوثيقة يحملان علامة الصليب. وفى الوثيقة الثانية أصدر ملك بليمى آخر اسمه باكيتمن قراراً بتعيين القسيس IEPEUS حكم جزيرة تنارى، وهذا اللقب من الألقاب المعتادة فى الوثائق المسيحية. وقد اقترن اسم الملك فى هذه الوثيقة الثانية بعلامة الصليب، مما يرجح إعتناق أولئك البليميين فى هذه المنطقة للديانة المسيحية [(٢)]. أما الوثيقة الثالثة فهى إيصال باستلام عشرة صلادى ذهبا.[(٣)]

ويبدو أن منح البليميين إقطاعا فى الأرض المصرية كان جزءا من سياسة البيزنطيين فى البحر الأحمر للقضاء على نفوذ الحميريين التجارى فى هذا البحر بالتعاون مع دولة أكسوم المسيحية، فضلا عن إغراء البليميين بالدخول فى المسيحية والسيطرة على أوطانهم الممتدة جنوب شرقى مصر إلى حدودا أكسوم [(٤)] ولهذا أرسل الإمبراطور جوستن الثانى Justin, II

(١) تقع جزيرة تنارى مقابل قرية الجبلين على بعد خمسة وعشرين ميلا جنوبى الأقصر الحالية. Emery, W. E. : op. cit PP. 11- 12.

(2) Kirwan, L.P. : op. cit. pp. 87 - 91.

(3) Emery, W. E. : op. cit. P. 12.

(4) Kirwan, L.P.: op. cit. p. 87.

مصر ، ان لا يعمل جميع ما يهواه بامر القاضي. فاجابه ابونا القديس أنبا يوساب وقال له بصوت مملو خوفا بالقبطي: يا غير فهمين كيف ضللتم هذه الضلاله ؟ كيف قبلتم هذا الكلام الذى ليس له كمال لكن حق ما تنبا به عليكم بولس الرسول واظهر جهلكم لما قال: انا لم نفعل حق الله بفهم ان نتوب من ذاتنا . ولم تطيعو حق الله. وكان قوم من الفقها جلوسا عند القاضي ومنهم من يفهم لغة القبطي وكانو يميزون قوة كلام

خرج منها على السلطان وقصد الواح (الواحات) وغيرها ثم قتل سنة ١٦٩ هـ. وأهناس الصغرى فى كورة البهسنا أيضاً قرية كبيرة.

وبطريرك الإسكندرية تيموتاوس رسلهما إلى ملك أكسوم لهذا الغرض وهو حرب الحميريين[(١)]. وفي رواية أخرى أن الإمبراطور هدد بإرسال جيش من البليميين والنوبيين لحرب الحميريين إذا أبطأت أكسوم عن هذا الواجب المسيحي[(٢)]. ولا يبعد أن تكون جزيره تنارى التي أقطعها الرومان لفريق من البليميين ثمنا لخدماتهم للدولة البيزنطية [(٣)]، وقبولهم الدعوة المسيحية. ومما يدل على أن بعض البيلميين اعتنق المسيحية ماجاء في بردية نشرها ماسبيرو[(٤)]، وهي تشتمل على شكوى موجهة إلى حاكم طيبة البيزنطي فلا فيوس ماريانوس Flavius Marianus ضد الفيلارك في منطقة طيبة واسمه كلوذوس Kallothos أتهم فيها بتحريض البليميين على إعاده فتح معبد فيلة من جديد والارتداد عن الاعتقاد في الديانة

(1) Bury, J. B.: History of The Later Roman Empire,, II. P. 324.

(2) De Villard: op. cit , PP. 57 - 58.

استغل الإمبراطور جوستن حادثة نجران باليمن لإثارة عاطفة ملك أكسوم الدينية ليحرضه على حرب اليمن، واستعان في ذلك بالبطريرك تيموتاوس. أما عن حادثة نجران فيقال إن ذا نواس الحميرى اليهودى حاصر جماعة من المسيحيين في نجران باليمن. ولما رفضوا الارتداد عن المسيحية قتل منهم حوالى ٢٨٠ شخصا في ليلة واحدة. انظر:

Bury, J. B. : op. cit. p. 324.

(3) Kirwan, L.P. : op. cit. p. 86.

(4) Ibid. op. cit. p. 89.

البطرك وما يخاطب به الاساقفه، فاعادو على القاضى جميع ما قاله البطرك، فلما سمع غضب وقال للاب: انت تظن ان امرى لا يتم . فقال له ابونا بصوت متضع : هل لك ان تقدر ان تجعل يدك على الشمس وتستر ضو ها؟ فان كنت تقدر ان تفعل هذا فانت تستطيع ان تفعل ما قلت، او تقدر ان تقاوم الله وامر مولاى الملك الذى انت من قبله، وقد قلت انفا ان تقدمتى من الله ليس من انسان، والان معى سجل من الملك بتقويه يدى

المسيحية والعودة إلى الأوزيرية والراجح من هذه الوثيقة أن فريقاً من البليميين اعتنق المسيحية بعد إغلاق معبد فيلة سنة ٥٣٥م وأن كلوذوس أراد تحويلهم إلى الأوزيرية من جديد[١]. وكيفما كان الأمر فالواضح أن المسيحية والأوزيرية عاشتا جنباً إلى جنب فى طيبة وأسوان وفيلة. ولم يشأ البيزنطيون أن يقضوا على الأوزيرية بالقوة قبل منتصف القرن السادس الميلادى، بل أنهم سمحوا للبليميين والنوبيين بممارسة عباداتهم على الرغم من وجود الكنائس فى أسوان والفنتين [٢]. وينهض دليلا على وجود هذه الكنائس ما جاء على لسان برسيق Priscus، وما تذكره بردية أبيون، وما ذكره اليمبيودورس Alympiodirus حوالى منتصف القرن الخامس الميلادى، وبروكوبيوس فى منتصف القرن السادس الميلادى [٣]. وذكر كوزمس Cosmas التاجر المصرى الذى كتب كتابه المعروف [٤] ما بين سنتى (٥٣٧ -

(1) Ibid. op. cit. p. 89.

(٢) يزيد هذا ما ذكره برسبق حوالى منتصف القرن الخامس الميلادى عن معاهدة مكسيمينوس والسماح للبليميين والنباطين بالحج إلى فيلة، وماجاء على لسان اليمبيودورس من ممارسة البليميين للأوزيرية واحتفالاهم به. وفى منتصف القرن الخامس الميلادى أى حوالى ٥٤٥م يحدثنا بروكوبيوس عن ممارسة هذين الشعبين للأوزيرية ثم يعود ويذكر كيف أنهى جستنيان هذه العبادة بإغلاق معبد فيلة لإيزيس.

(٣) راجع الفصل السابق ص ٣٧ ـ ٣٩.

(4) Cosmas Indicopleusets. : The Christian Topography. ed. Mc Crindal, Hakluyt Soc. p. 120.

وانت هو ذا تقول هذا الكلام لهولا الاساقفه الذين ليس لهم على سلطان بل سلطانى عليهم من الله والملك، وانفاذ حكمى فى شعبى ورعيتى، ولى ان اقطع كل من حاد عن الطريق المستقيمه وانفيه. فلما سمع القاضى هذا منه قال له: كان بيدك سجل من الملك ان تفعل ما تريد؟ [فقال له ابونا: نعم] فقال له القاضى احضره الى لاقراه.

وكان له سجلات من الملوك من المامون عبد

٥٤٧م) «أن فى بلاد الحبشة وفى أكسوم ذاتها وفى البلاد المجاورة وعند النوباديين Nobades الجرمنتيين Garamentes توجد كنائس مسيحية وأساقفة ورهبان ونساك[١]». ويتضح من هذا النص اعتناق جماعات من النوبيين للمسيحية منذ القرن السادس الميلادى. ولا يمكن أن تكون المسيحية وصلت إلى تلك الأوطان فجأة بل بالتدريج وعلى مراحل ترجع إلى عهد الإضطهادات الأولى فى مصر[٢].

* * *

ثم بدأت المرحلة الحاسمة من مراحل الدعوة للمسيحية فى بلاد النوبة زمن الإمبراطور جستنيان (٥١٧ - ٥٦٥م). وذلك أن هذا الإمبراطور لم يقنع بأن ينسب إليه القضاء على معاقل الأوزيرية فحسب ـ كما فعل فى فيلة عندما أغلق معبدها، أو كما فعل فى أثينا عندما أغلق المدرسة الفلسفية بها - بل رغب كذلك فى أن يدخل القبائل الأوزيرية على أطراف إمبراطوريته فى حظيرة الدولة البيزنطية. ولهذا سعى إلى اجتذاب البليميين والنوبيين إلى الديانة

(١) الجرمانتيون هم القرعان وهم شعب رعوى تمتد أوطانهم من فزان جنوباً إلى النوبة مشتملة على صحراء بيوضة التى كانت تعرف حتى القرن السابع عشر باسم صحراء جوران أو جورهام. وهم يعيشون الآن فى شمال دارفور.

Kirwan, L. P. : "Christianity and the Kura'an."JEA., XX, PP. 201 - 3.

(2) Trimingham, J.S. : op. cit. PP. 50 - 51.

الله بن هرون الرشيد عند وصوله الى مصر، ومن
ابرهيم [المعتصم] اخيه، ولما ولى هرون الواثق ولد
إبرهيم سالوه في تجديد سجل لابينا فكتب له،
وهرون الواثق هو الذى ولى هذا القاضى مصر،
فسلم اليه ابونا السجلات ووقف عليهن وعلم
منهن ثبات من يرشد ممن يحيد عن الواجب
والطريق المستقيمه، وخزى القاضى وامتضح، وامر
ابانا بالانصراف مكرما فعجب كل الحاضرين.
وكان جماعه من الاساقفه لا يرضون بهذا وهم

المسيحية ليتسنى له السيطرة على وادى النيل الأوسط (١). ووضح هذا الاتجاه السياسى عندما بدأت عملية التبشير الحقيقى ببلاد النوبة على يد رسل الكنيسة المصرية. على أن التبشير بالمسيحية فى بلاد النوبة فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى كان إنعكاسا لصورة النزاع المذهبى بين الكنيستين المصرية والبيزنطية، وسباقا بينهما لكسب الأنصار. ولما كانت الكنيسة المرقسية فى مركز لا يسمح لها بخوض هذه المعركة التبشيرية بسبب عزل بطريركها ثيودوسيوس Theodosuis (٢) ونفيه إلى إحدى مدن تراقيا سنة ٥٣٩م فإن رجالها عزموا على الاستعانة بالإمبراطورة ثيودورا التى تميل إلى مذهب الكنيسة المصرية وتعطف على رجالها(٣). ولذا لم يكد يصل ثيودوسيوس من منفاه فى تراقيا إلى القسطنطينية بمساعدة ثيودورا، حتى أخذ يعمل على ما سبق أن عزم عليه وهو تحويل النوباديين Nobades إلى المسيحية. وممن شاركه هذا الشعور إثنان من رجال الكنيسة المصرية هما يوليان Julian ولونجينوس Longinus وهما اللذان قاما بالدور الأول فى نشر المسيحية فى ممالك النوبة التى قامت على أنقاض دولة مروى. وانقسمت إلى ثلاث ممالك مستقلة – مملكة نوباتيا Nobatia فى الشمال، وتمتد من أسوان إلى قرب الشلال الثالث وعاصمتها فرس، ومملكة مقرة

(1) Kirwan, L.P. : LAAA. op. cit . P. 87.

(2) De Villard : op. cit . P. 54.

(3) John of Ephesus Ecclessiastical History. Beek IV Part III. ed. by Payn Smith., P. 254.

مطيعون له واسماهم: مينا اسقف طانه، وشنوده اسقف صا(*)، وبقية الاساقفه. وكان يدفع لهم ثمرة شفتيه فيدعو لهم ويباركهم، وكان الاب البطرك يقول عن الاساقفه المخالفين يارب لا تحسب عليهم خطيه.

ثم ان الشيطان جاب عليه تجربه اخرى [بفعل اوليك]، وهى ان الاب انبا يوساب كان رحوما لا يريد هلاك احد من الناس، فجعل الشيطان فى

(*) صا: هى صا الحجر بمركز كفر الزيات . وهى من المدن القديمة. بها آثار للمعابد المصرية القديمة لا تزال مرئية فى جهتها الشمالية. أما طانه فقد اندثرت وحل محلها طنايا التى اضيفت إلى منية جنان مركزه القمح بمحافظة الشرقية، ثم حذف اسم طنايا واصبحت الناحية كلها باسم منية جنان.

Makoritae وتمتد من قرب الشلال الثالث إلى قرب كبوشية الحالية، ثم علوة Alodia وتمتد من قرب كبوشية إلى جنوبى الخرطوم الحالية وعاصمتها سوبا (١).

والمصدر الرئيسى لهذه المرحلة من مراحل التاريخ النوبى هو يوحنا الأفسى (٢). ومما جاء فى كتابه «التاريخ الكنسى» بشأن البعثات التبشيرية إلى بلاد النوبة فى منتصف القرن السادس الميلادى ، أن يوليان عرض على الإمبراطورة ثيودورا مشروعا للتبشير بين النوباديين Nobades، وقابلته الإمبراطورة بسرور عظيم وحماسة شديدة، ووعدته بالمساعدة. وأخبرت ثيودروا زوجها الإمبراطور بما اعتزمت القيام به على يد يوليان فى بلاد النوبة. بيد أن الإمبراطور ساءه أن يكون يوليان على رأس هذه البعثة التبشيرية، لأنه من الحزب المعادى لقرارات خلقيدونيه(٣)،

(1) Kirwan, L. P. : "A Contemporary Account of the Conversion of the Sudan to Christianity" SNR., XX, Part II. P. 290.

(٢) يوحنا أسقف أفسس ـ ولد فى أميدا شمال العراق حوالى سنة ٥١٦م. كتب كتابه التاريخ الكنسى باللغة السريانية، استقر ما يقرب من ثلاثين سنة فى مدينة القسطنطينية. وعلى الرغم من أنه من أتباع الكنيسة المصرية إلا أنه تمتع بثقة وصداقة جستيان، وتقلب يوحنا فى كثير من الوظائف فى البلاط الإمبراطورى واستفاد من هذا المركز فى تدوين ما يقع عليه بصره ويصل إليه سمعه فى البلاط الملكى فى بيزنطة. وأوفده الإمبراطور فى عدة بعثات إلى القبائل الغير مسيحية فى ليديا وكيريا وفريجيا.

(٣) كان يوليان من رجال الكنيسة المصرية التى عارضت قرارات خلقيدونية وهى القرارات التى لا تتفق ورأى الكنيسة المصرية فى طبيعة المسيح.

قلب القاضى الظالم الذى قد صار له وعا[ء] ان ياخذ غلمان البطرك من الروم والحبش الذين هم دون البلوغ ويستسلمهم، [يؤسلمهم] وكانو كتير من الناس لهذا السبب يرفعون [يرشدون] بعضهم على بعض بسبب الغلمان الذين عندهم، وياخذهم القاضى يردهم الى دين الإسلام تحت القلق والتهويل، فقام بحبس مواليهم الى زمان، ويصانعونه ويفرج عنهم. واستقصى عن غلمان البطرك الروم والحبش الذين يهدون اليه من افريقيه

ولهذا عزم جستنيان على أن يبعث سفارة إمبراطورية خاصة تحمل هدايا للملك النوباديين وخطابات لحاكم طيبة البيزنطى [١]. وعلمت ثيودورا بعزم الإمبراطور على أن يضمن لبعثته النجاح والسبق، فأسرعت بتحرير رسالة إلى حاكم طيبة، وطلبت إليه أن يحجز سفارة الإمبراطور حتى تصل سفارتها هى إلى بلاد النوبة [٢]، وهددته بالقتل إذا خالف أوامرها. وأطاع الحاكم أوامر ثيودورا وحجز سفارة الإمبراطور عند وصولها، وبرر عمله هذا لرئيس البعثة الإمبراطورية بعدم وجود وسائل النقل، وطلب إليه الانتظار حتى يدبر له الدواب والمرشدين الخبيرين بمسالك الصحراء. أما سفارة الإمبراطورة فوجدت الدواب والمرشدين اللازمين لها فى الانتظار [٣]. على أن حاكم طيبة لم يخف حقيقة الأمر عن مبعوث جستنيان وأبدى مخاوفه من الإمبراطورة ووعده بإعداد وسائل السفر، ثم واصلت البعثة الإمبراطورية سيرها مقتفية أثر يوليان دون أن يعبأ رئيسها بما دبر له من خيانة [٤].

وصل يوليان وصحبه أطراف النوبة حوالى عام ٥٤٣م [٥] ومعهم ثيودون أسقف فيلة،

(1) John of Ephesus. op . cit . pp. 251- 252.

(2) John of Ephesus: op. cit. p. 252.

(3) Ibid op. cit . PP. 252 - 253.

(4) Ibid. : op. cit. p. 253.

(5) De Villard: op. cit. P. 55.

واخمس مدن والحبشه والنوبه، وقالو له : ان له غلمانا باسكندريه في المكتب يتعلمون . فانفذ اعوانه اليها مع اسقف مصر المقطوع واسمه بنه، والذى تفسيره النار ، حتى دخل مدينة اسكندريه الى الموضع الذى كانو فيه الغلمان واخذهم، وساقهم كمثل الخراف الى الذبح وهم باكون بلا مغيث، حتى جابوهم الى مصر، وكانو تمنماية نفر، فلما راهم قاضى الظالم فرح وقال: وهذا شئ يكيد البطرك ويحزنه. وقال القاضى لابونا البطرك:

الذى رأى فيه يوليان خير معين له فى مهمته لخبرته بأحوال البلاد وأهلها [١]. وعند الأطراف النوبية التقت البعثة برسل ملك النوباديين الذين تولوا حراسة القافلة إلى عاصمتهم باخوراس Bakhoras، فرس [٢]. واستقبل الملك أعضاء البعثة أحسن استقبال وقبل هدايا الإمبراطورة بسرور بالغ، ولم يلبث أن أعلن هو وأمراؤه ترك ما كان عليه أجدادهم وأقروا جميعاً «أن لا إله إلا الله واحد لا شريك له [٣]». ورأى يوليان أن يشرح للنوباديين قواعد النزاع الذى نشب بين المسيحيين حول مسائل العقيدة، واضطهاد الإمبراطور ليثيودوسيوس وعزله ونفيه لرفضه الاعتراف بقرارات خلقيدونية [٤]، على حين أن الإمبراطورة تؤيده وتؤازره لتمسكه بعقيدته التى ضحى بمنصبه فى سبيلها «ولهذا أوفدتنا جلالتها إليكم لتسلكوا طريق البابا ثيودوسيوس وتذهبوا مذهبه وتثبتوا ثباته، أما الإمبراطور فإنه بعث بسفرائه إليكم وهم فى طريقهم إليكم [٥]». ثم وصل رسل الإمبراطور، فقدموا الهدايا ودعوا الملك النوبى إلى قبول المسيحية،

(1) Ibid: op. cit. P. 55.

(2) John ef Ephesus : op. cit. p. 253.

(3) Ibid: op. cit. P. 254.

يشبه هذا الشهادة عند المسلمين. وفى الواقع أن موضوع طبيعة المسيح كان شغل رجال الكنيسة الشاغل فى مثل هذا الوقت من تاريخ الصراع بين أنصار المذهبين.ويبدو من روح هذا النص معنى الطبيعة الإلهية الواحدة.

(4) John of Ephesus : op. cit . p. 254.

(5) Ibid: op. cit. P. 254.

لا يجوز لك ان تقاوم امر الملوك وتدوس اوامرهم ، ولا يجوز ان تستعبد هولا الصبيان وتنصرهم. فقال له البطرك: انا ما اقاوم امر الملك، ولا اقاوم كلمه صالحه، بل ما كان من كلام الظلم. قال له القاضى : فانا ظالم كما تقول؟ فقال له : انت عارف بان كل من تقدمك ما كان يلزم مثل هولا الذين هم نصارى اولاد نصارى باسلام، لانهم يقدمونهم للبيع هدايا، وهولا فمن عند ملك الحبشه والنوبه والروم جونى هدية اهديت الى.

على أن يتبع الكنيسة الأرثوذكسية ورجالها، وألا يضل كما يضل أولئك الذين طردوا منها(١). بيد أن الملك النوبى قبل الهدايا ورفض ما عرضته عليه السفارة الإمبراطورية وآثر مذهب الكنيسة المصرية(٢).

أما يوليان فظل فى نوباتيا نحواً من سنتين وقام بتعميد الملك والأمراء، وعاونه فى أعماله الأسقف ثيودور الذى عهد إليه يوليان برعاية النوباديين بعد سفره إلى القسطنطينية، حيث استقبلته ثيودورا استقبالا حسنا (٣).

وظل ثيودوسيوس مشغولا بأمر النوباديين وخاصة بعد وفاة يوليان. وأصدرت ثيودورا أمرا بتعيين القس لونجينوس أسقفا لبلاد نوباتيا سنة ٥٦٦م وبهذا تبدأ المرحلة الثانية من مراحل التبشير فى بلاد النوبة.

حاول لو نجينوس السفر إلى بلاد النوبة غير أن أعداءه أو غروا صدر الإمبراطور جوستن

(1) Ibid: op. cit. P. 254.

(2) Ibid. : op. cit. P. 255.

تحدث يوليان عن شدة الحرارة فى الصيف بقوله «إنه من الساعة التاسعة صباحا إلى الرابعة بعد الظهر كان يضطر إلى أن يلجأ إلى الكهوف المليئة بالماء، ويجلس فيها دون ملابس اللهم إلا الثوب الكتانى الذى كان يلف به جسمه كما يفعل أهل تلك البلاد».

(3) Ibid. : op. cit. p. 256.

وكـان القـاضي مما ملكه الشـيطان لا يسـمع
كـقـول داود : مثل الافعى الصـمـا[ء] التى تسـد
اذنيهـا لا تسـمع صـوت الراقي . فـامـر القـاضى
باحـضـار الصـبيـان قـدام البطرك وخـوفـهم حـتى
اسلمو قدامه وابونا حاضر ينظرهم، فقال وهو باك:
الويل لي ، تجدد حـزني وحـمي قلبى في باطنى،
ونظرت انتـقـامي وانفـصلت منى اعـضـاى، الان
يارب عـرفنى تمامى [مـوتى] لان احزان الجـحيم
احاطت بي. فقال القاضى للاب: ليس بقى بينك

الثاني ضده، وأوهموه أن لونجينوس سيؤلب النوباديين ضد الدولة البيزنطية فيعودون لحربها وشن الرغارات على أطرافها، فقبض عليه [١]. ولما كانت العيون ترصده في كل مكان فإنه لجأ إلى حيلة تمكنه من الفرار، فخرج متنكرا بوضع شعر مستعار على رأسه الأصلع ثم وصل سالما إلى بلاد النوبة حوالى سنة ٥٦٩م [٢]. واستقبل النوبيون لو نجينوس استقبالا عظيما، ولقي منهم مساعدة كبيرة لبناء كنيسة [٣]. وتبدو لباقة لو نجينوس ودهاؤه عندما أوعز إلى الملك النوبي بإرسال هدية للإمبراطور ليبرهن على نيل مقصده. ووصلت السفارة النوبية حاملة الهدايا، واستقبلها الإمبراطور بحضور رجال البلاط ومن بينهم يوحنا الإفسسي، وأخذ رسول الملك النوبي يمتدح لو نجينوس في حضرة الإمبراطور [٤].

وأقام لونجينوس بين النوباديين حوالي ست سنوات ، ثم رحل إلى الإسكندرية ليشترك في انتخاب بطريرك للكنيسة المرقسية. ولما علم الملك النوبي وأمراؤه بعزم لونجينوس على السفر

(1) Ibid. : op. cit. P. 257.

(2) Kirwan, L. P. : SNR. , XX. Part II, P. 292.

(٣) أخذ لونجينوس يعلم النوباديين الإنجيل وتطلب إنشاء الكنيسة تأليف هيئة كهنوتية تتولى تلقين طائفة من رجال الدين التعاليم اللازمة لأداء واجبهم المقدس

John of Ephesus : op. cit. P. 257.

(4)Ibid. : op. cit. pp. 257 - 258.

وبين هولا معامله فقد صارو مسلمين خد تمنهم
واتركهم. اجاب وقال له : ان كان غرضك ان
تستعيد الاحرار فما لي انا في هذا غرض لان هولا
احرار واعضا[ء] من جسمي والله يدينك عنهم
وتعطي عنهم جوابا بين يدى الله الاه الكل. فامر
القاضي بقسمة الغلمان فاقتسموهم المسلمون.
فلما راى الاب الرحوم هذا تنهد وقال امام الرب:
طلبت الدما[ء] وذكرتهم لا تنس صوت الفقرا.
وقال: اذلو شعبك وميراثك، ضرو وقتلو اليتامى

إلى مصر، حاولوا أن يستبقوه بينهم وأظهروا له حاجتهم إليه، التي يوضحها قول ملكهم «ستتركنا كاليتامى دون أب» [١]. ثم سمحوا له بالرحيل، وفي طريق عودته مر بجزيرة فيلة وعرض على الأسقف ثيودور ـ وهو كهل في الثمانين ـ أن يصحبه في رحلته، ولم يمنع ثيودور من السفر سوى كبر سنة [٢].

لم ينته الدور الذى قام به لو نجينوس في بلاد النوبة عند هذه الحوادث، بل كانت تنتظره مهمة لا تقل خطورة عما قام به في نوباتيا ، وهي تنصير أهل مملكة علوة Alodia ، ذلك أنه حوالى سنة ٥٧٨م بعث ملك علوة رسالة إلى ملك نوباتيا يعلن فيها رغبته في الدخول في المسيحية، ورجاه أن يسمح للأسقف لونجينوس بالسفر إلى مملكتة لتعميده هو رعاياه، وذلك بعد أن غادر لونجينوس بلاد نوباتيا. فأرسل ملك نوباتيا رسله إلى مصر لإقناع لونجينوس بالعودة إلى النوبة وزيارة علوة تلبية لرغبة ملكها [٣]. ولماعلم الملكانيون بنبأ هذه الدعوة الجديدة أخذوا يدسون الدسائس، وأوعزوا إلى بطرس بطريرك الكنيسة الملكانية بالإسكندرية بإصدار قرار بعزل لونجينوس، وأرسلوا صورة هذا القرار إلى ملك نوباتيا لتحويله عن لونجينوس ومذهبه.

(1) Ibid. : op. cit. P. 258.
(2) Ibid; op. cit.
(3) Trimingham, J.S.: op. cit. p. 55.

والغربا وقالو ان الله لا ينظر . ولم يكن يفتر من البكا والتنهد والنوح، وكان يقول: ان كل من يبغي هولا الصبيان الرب يهلكه. ويقول: انا يارب انسان خاطي لكن يارب تاتي على هذا القاضى الظالم بالانتقام عوضا من فعله السو، وتتم عليه كلمة سليمان الحكيم «ان يوم الانتقام يهلك المنافقون». وصبر الاب على هذا الحزن ويصلى ليلا ونهارا ويقول: يارب ليس من اجل خطيتى ترفض شعبك.

بيد أن الملك لم يستجب لهذه الدعوة وأصر على عودة لونجينوس لأنه لا يقبل له بديلا، وطرد رسل الملكانيين من بلاده [1].

وصل لو نجينوس إلى بلاد النوبة حوالى عام ٥٨٠م [2]، حيث وجد رسالة ثانية من ملك علوة بدعوته لزيارة بلاده. ولم يكد الملكانيون يسمعون بخبر هذه الدعوة الثانية حتى أرسلوا أسقفين ملكانيين إلى ملك علوة يحملان رسالة مشحونة بالطعن في حق لونجينوس لأنه على قولهم «هرطقى مطرود من الكنيسة ، ومن ثم فهو غير جدير بتعميد أحد» [3]. بيد أن ملك علوة رد هذين الأسقفين خائبين بعد أن قال لهما «إننا لا نعرفكم ولا نقبل التعميد إلا من هذا الذى عمد النوباديين من قبل. ثم أننا لا نصدق ما تقولونه في حقه لأننا نعرف أنكم أعداؤه[4]».

اما لونجينوس فلم يسعه إزاء هذه الدعاية ضده إلا أن يلبى دعوة ملك علوة وبهذا تبدأ المرحلة الثالثة من مراحل التبشير فى وادى النيل الأوسط، وهى المرحلة المعروفة بتنصير مملكة

(1) John of Ephesus : op. cit. p. 317.

(2) Ibid: op. cit . p. 326.

(3) Ibid : op. cit. PP. 317- 318.

(4) Ibid: op. cit. P. 318.

وكـان في زامنه قـوم مـومنون رهبـان قـديسـون يدعـون له بان يرزقـه الصبـر على ما يناله من هذه التجارب.

وكان انسـان سايح من جـملتهم اسمه «امونه» في دير ابى يحنس، وانبـا مـينا السـايح في جـبل ارمـون(*)، اعطى روح النبوه وكـان يشفى جـميع المرض، وشـهـد له جـمـاعـه ان له سلطانا على الارواح النجـسه يخـرجـهـا من الناس. وانا الحـقـير

(*) ارمون : قرية قديمة عرفت باسم ارميـون بمركـز كـفـر الشـيخ . تم تدميرها غالباً في ظل قمع ثورات البـشـمـور. وحـوالي سنة ١٧٨٥م نزل أهلها في قرية محلة الشيخ بالبـحـيـرة واعطوها اسم منشـاة أريمون.

علوة. وغـادر لونجـينوس مملكه النوبة بصـحـبـة بعض الأمـراء ورجـال ذوى خـبـرة بمسـالك الصحراء. وتعرض في هذه الرحلة لمصـاعب لم تـخل من تضـحـية ، أوضحها ملك علوة في خطابه إلى أورفـيلا Awarfiula [١]. ذلك أنه كـان على لونجـينـوس أن يسلك طريق الصـحـراء الشرقية وأن يتجنب النيل في المنطقة الواقعة جنوبى مملكة نوباتيا حيث توجد مملكة مقرة لعداء ملكها للملك نوباتيا. وربما كان هذا بتحريض من الملكانيين [٢]. وفي هذا يقول ملك النوبة في رسالة بعث بها إلى تيودور بطريرك الكنيسـة المصرية «ولكن بسبب المكيدة الخبيثة الى دبرها ذلك الذى يقـيم بيننا [٣]، فقد أرسلت أبى البار إلى ملك البليميين ليوصله إلى داخل البلاد». ولكن أهل المقرة سمعوا بهذا أيضـاً وأرسلوا عيونهم للبحث عنه في جميع الممالك في الجبال والسـهـول [٤]. ويبدوا أن قافلة لو نجينوس عرجت ثانيا إلى النيل جنوبى الشلال الرابع [٥]، حيث استقبله أيتيكيا Aitekia مبعوث ملك علوة واستأنف الجميع الرحلة في سفينة نيلية

(١) أورفيلا اسم محرف للملك نوباتيا. ويقول ما سبيرو في كتابه تاريخ البطاركة إن اسم هذا الملك إيربانومى Eirpanome وربما كان هذا الملك خليفة الملك سلكو. حاشية رقم ٤.

Maspero. J: op cit. P. 289.

(2) John of Ephesus : op. cit . p. 319.

(٣) يقصد به هنا ملك مقر، لأن مملكته تتوسط نوباتيا ومملكة علوة.

(4) John of Ephesns : op. cit . p. 325.

(5) Kirwan, L. P. SNR, vol. XX. Part II, P. 294.

العاجز حضرت عنده وخاطبنى بسبب البيعه، وكان خصيا من بطن امه طاهرا لله، وكان راهبا من صباه في دير ابى يحنس، وفي زمان خراب البريه، في اخر سنى البطرك انبا مرقس وقد ذكرناه انفا، التجى هذا الراهب الى بيعه على اسم [الأباء] التلاميذ فى قريه ، كان يظهر عجايب كثيرا من اشفا[ء] المرضى واخرج الشياطين، وحضرت انا الحقير عنده وكان يعلمنى الكتابه وذلك في عاشر سنه من بطركية الاب انبا يوساب.

حتى سوبا. ثم بدأ لونجينوس عمله فى الحال، فعمد الملك وأسرته المالكة والأمراء ومن بين من عمدهم بعض الأحباش كذلك [١]. ومما يدل على نجاح لونجينوس فى مهمته الدينية ماجاء فى الرسالة التى بعث بها ملك علوة إلى زميله ملك نوباتيا يحييه فيها باعتباره أخا فى الدين ويشكره على مساعداته القيمة ، ويطلب المزيد من المساعدة فى تأثيث كنيسة [٢].

* * *

والخلاصة أن مملكتين من ممالك وادى النيل الأوسط ثم تنصيرهما على مذهب الكنيسة المصرية، لكن ماذا كان مصير المملكة الثالثة ـ مقرة ـ، هل اعتنق إهلها المسيحية ، أو ظلوا

(١) قابل لونجينوس بعض الأحباش المسيحيين فى علوة. وهم ممن يعتنقون بعض الآراء الهرطقية التى تنسب إلى قس اسمه يوليان الهاليكارناسى. Julian of Halicarnasus وقد أعاد لونجينوس تعميدهم وتلقينهم مذهبه، ويرى البعض أن وجود أولئك الأحباش المسيحيين فى علوة قبل قدوم لونجينوس يعنى وصول المسيحية إلى علوة عن طريق الحبشة.
Trimingham, J.S. :op. cit P. 57 Note. غير أنه – فيما يبدو – لم يكن لهؤلاء الأحباش أثر يذكر فى بلاد علوة . Kirwan, L. P.: Firka, p. 55. وإذا وجدت مظاهر الفن الحبشى فى كنيسة دنقلة كما يقول كروفوت . فإن هذا الأثر ضعيف ، كما أن حملة عيزانا لم تترك أى أثر للمسيحية، لأن عيزانا نفسه لم يشر إلى رغبته فى نشر الدعوة الجديدة التى تلقاها على يد فرومنتيوس. وعلى هذا فان مصر – كما كانت دائما – مصدر الثقافة.

(2) John of Ephesus: op. cit. p. 321.

وكان هذا الشيخ القديس جالسا فى يوم من الايام يقرا فى سير البيع القديمه وما جرى على الابا فى سابع عشر سيره للبيعه، فقلت له انا بسذاجه ولا ادرى ما اقول: ما هذا الذى تقول؟ فقال لى بكلمة روح القدس: يا ابنى طوبى لمن كتب واهتم بسيرة البطاركه . وقال لى : يا ابنى صدقنى فيما اقوله لك ان لا يبتدى احد بثامن عشر سيره للبيعه حتى ياتى الذى اسمه ثمنيه عشر، وانت الذى تهتم بكتابتها لان الرب يدعوك.

على دينهم؟ على الرغم من الأهمية التى نعلقها على رواية يوحنا الإفسسى فى دراسة موضوع دخول المسيحية بلاد النوبة على اعتبار أنه كاتب معاصر، غير أنه مما يقلل من أهمية روايته أنه من مؤيدى مذهب الكنيسة المصرية، ومن المعادين لقرارات خلقيدونية [١] ولم تخل هذه الرواية بطبيعة الحال من مبالغة فى تعظيم رجال الكنيسة المصرية ومهاجمة منافسيهم أتباع المذهب الملكانى. مثال ذلك أنه لم يشر أية إشارة إلى تنصير مملكة مقرة[٢]. كما أنه فيما يبدو تعمد ألا يذكر شيئاً عن نشاط بعثة جستنيان إلى بلاد النوبة حوالى سنة ٥٤٣م، مع أنه لا يبعد أن تكون هذه البعثة عرجت على مملكة مقرة وأصابت فيها بعض النجاح [٣].

على أن هنالك كاتبا آخر يدعى يوحنا البكلرى Lohn of Biclarum وهو ملكانى المذهب ومعاصر لوحنا الإفسسى. ذكر أن أهل مملكة مقرة اعتنقوا المسيحية فى سنة ٥٦٩م، ثم تلاهم الجرامنتيون «القرعان» [٤]، ولا يبعد أن تكون البعثة الملكانية وهى فى طريقها إلى علوة ما بين (٥٧٠ - ٥٨٠م) لتحويلها عن لونجينوس مرت بمملكة مقرة واقليم القرعان،

---

(1) Kirwan, L. P. : SNR. XX, Part II., P. 295.

(2) Ibid : op. cit. P. 295.

(3) Ibid : op. cit. P. 295.

(4) Kura'an , L.P. Christianity and the Aure 'an' JEA., XX, P. 201.

فصرت كانني في غفله ولم أقدر ان اساله عن شي اخر.

وكان هذا الشيخ قد اقام كل زمانه سايحا وبارك على دفعات.

وقد اختصرت فيما كتبت وتركت كثيرا خوفا ممن يقرا فيما كتبته من خبر هذا القديس الشيخ السايح وتركت سيرة الابا وامسكت عن اخبارهم،

ووضعت أسس المذهب الملكانى [١]. وربما كان هذا هو سر العداء بين ملك مقرة وملك نوباتيا ولونجينوس كذلك [٢].

وعلى الرغم من اختلاف هذين الكاتبين فى المذهب وعدم اتفاق روايتيهما فالراجح أنه أصبح لكل من المذهبين المصرى والملكانى أساس فى بلاد النوبة (الممالك الثلاث). لكن إلى أى حد تأثرت بلاد النوبة بأحدهما أو بكليهما ، وأيهما كانت له الغلبة وأصبح هو المذهب السائد؟ يقول دى فيار أنه لا يأخذ برواية يوحنا الإفسسى لتعصبه لمذهبه، ويرى اعتمادا على نتائج الأبحاث الأثرية التى قام بها يونكر فى بلاد النوبة، أن شواهد القبور التى عثر على كثير منها تبرز صورة مخالفة . ذلك أن الأدعية المكتوبة عليها باللغة اليونانية تشبه أدعية الكنيسة البيزنطية، ولا يوجد لها شبيه فى مصر، مما يقوم دليلا على أن مصدرها بيزنطة ويعزز الرأى القائل بضعف الحركة المونوفيزية فى بلاد النوبة فى بدء الحركة التبشرية [٣]. وفضلا عن هذا فإن اللغة اليونانية كانت اللغة التى تكتب على شواهد القبور ، كما أن الكتب النوبية القديمة ترجمت عن اليونانية لا عن القبطية [٤]. وثمة دليل آخر على ازدياد النفوذ الملكانى وهو وجود

(1) Kirwan, L. P. : Firka P. 50.

(2) Ibid. op. cit. p. 50.

(3) De Villard, : op. cit . PP. 61.

(4) Kirwan, L. P. : Firka P. 51.
Griffith, F. L. : LAAA., XIII, P. 52.

وقد شرح انبا سويرى اسقف سنبو فى بعض ميامره خبر هذا السايح.

فلنعود الان الى ما فعله الله على يد الاب البطرك انبا يوساب فاذكر اعجوبه. وهى انه لما كان هذا الاب بمصر فى زمان قاضى الظلم الذى شرحنا حاله معه، حضر عنده انسان نصرانى قال له: انا يا ابى الروحانى ترأف على فان لى ولدا وقد اعتراه روح شيطان يعذبه منذ أيام كثيره، ثم انه

أسقف ملكانى فى وقت من الأوقات فى تافه بالنوبة السفلى، كما أن بعض ألقاب حكام النوبة مثل لقب إبارك eparch ودو مستيكرس Domesticus مأخوذة من المصطلحات اليزنطية الإدارية.(١).

غير أن نتائج أبحاث يونكرن لا تقلل من قيمة أثر الكنيسة المصرية فى بلاد النوبة. وربما كان المسئول عن وجود الأثر البيزنطى فى المقابر النوبية، نشاط الحركة الملكانية فى مملكة مقرة، وهذا يتفق مع رواية يوحنا البكلرى (٢).

لكن أى المذهبين كانت له الغلبة فى النهاية ؟ المعروف أن كتابات القبور أخذت الطابع المصرى تماما حين حلت اللغة القبطية محل اللغة اليونانية فى الطقوس الدينية (٣). وفضلا عن هذا فإن رواية سعيد بن بطريق يوتيخا بشأن خلو الكرسى البطريركى للكنيسة الملكانية بالاسكندرية مدة ٩٧ عاما – من خلافة عمر بن الخطاب إلى خلافة هشام بن عبد الملك – أتاح الفرصة لبطريرك الكنيسة المرقسية لا نتخاب أساقفة النوبة، بحيث أضحت كل بلاد

(1) Shinnie, P. L. : Medieval Nubia, P. 5.

(2) Kirwan, L.P. : JEA. XX. P. 202.

Kirwan, L.P. : Firka. P. 56.

(3) De Villard : op. cit . p. 62.

يصرخ ويقول ما ازول عنه حتى يامرنى انبا يوساب البطرك ، فارحم عبدك ولدى ايها الاب.

وكان الاب كتير التواضع، قال للرجل بقلب نقي متواضع : واى شي عملي انا يا ولدى مع هولا الذين ذكرتهم، لكن بامانتك يخلص ولدك . فاخذ الرجل قوله بقبول مثل ما اخذ قايد المايه قول الرب الذى قال: انى لا استحق أن تدخل [تحت] سقف بيتي بل قل كلمه فقط فيبر[أ]

النوبة على مذهب الكنيسة المصرية [1] وثمة دليل على التحول من المذهب الملكانى إلى المصرى وهو ما جاء في حياة إسحاق بطريرك الكنيسة المرقسية (٦٩٠ - ٦٩٣) من أن ملك مقرة يشكو قلة عدد الأساقفة في مملكته لأن ملك موريتانيا لا يسمح بمرور رجال الدين من مقرة إلى الإسكندرية لتكريزهم، ويدل هذا على رغبة النوبيين من أهل مقرة فى اتباع مذهب الكنيسة المصرية. أما المؤلفون العرب فإنهم أجمعوا على أن المسيحية في النوبة كانت على مذهب الكنيسة المصرية. فيقول المسعودى «لليعاقبة كرسيان لاثالث لهما أحدهما بأنطاكية والآخر بمصر، والغالب على نصارى مصر من الأقباط وغيرها بفسطاطها وسائر كورها وماليها من أرض النوبة يعقوبية» [2]. ويقول ابن الفقية «والنوبة يعقوبية وكذلك أهل علوا» [3].

---

(1) Ibid, : op. cit. p. 62.

Kirwan, L. P. : Firka. P. 49.

ويقول شنى أصبح انتصار اليعاقبة أمرا واقعاً بعد الغزو العربى لمصر إذ اعتبر الملكانيون انصار الإمبراطورية البيزنطية ، على حين لقيت الكنيسة القبطية كل عطف من العرب الحاكمين. وفى مدة تقرب من مائة عام من ٦٣٧م إلى ٧٣١م لم يكن للملكانيين بطرك ملكانى. وعلى هذا لم يستطع النوبيون الحصول على أساقفه ملكانيين. ووجد أنصار الكنيسة المصرية الفرصة سانحة لتدعيم سلطانهم.

Shinnie, P. L.: op. cit. P. 5.

(٢) المسعودى : التنبيه والاشراف ص ١٥١.

(٣) ابن الفقيه : كتاب البلدان ص ٧٧.

فـتـاى. كـذلك هذا الإنسـان المومن لم يفتـر من السوال اليه والتضرع قايلا: ترا[ء]ف على يا ابى. فقال له الاب: ماذا تريد ان افعله معك. فقال له: استحق ان تمشى معى ولا تدخل بيتى بل تكتب لى بيدك خطا باسمك لاغير يامر الشيطان بالخروج من ولدى.

فلما سمع ابونا هذا منه تعجب منه ومن عظم امـانتـه، ولم ير ان يدعـه ان يمضى عنه الا بما

ثم إلى أى حد تأثر النوبيون بالمسيحية، وهل كان اعتناقهم لها على نطلق واسع، أو شمل بعض طبقات الشعب دون البعض الآخر؟ الواضح مما كتبه يوحنا الأفسسى أن يوليان ولونجينوس بدءا بتعميد الملوك ثم الأمراء ثم بعض أفراد النوبيين. ومن غير المعقول أن يتم تعميد النوبيين جميعاً فى المدة القصيرة التى قضاها كل منهما فى بلاد النوبة[1]. ولابـد أن قراراً صدر من ملوك النوبة باعتبار المسيحية دين الدولة الرسمى، فاعتنقها الناس لا عن فهم واقتناع ولكن الناس على دين زعماء قبائلهم وملوكهم وفضلا عن هذا فإن عملية التبشير بالنوبة لابد أنها أخذت أبسط أنواع صورها لتلائم ظروف البيئة البدائية وثقافة السكان. واعتمد المبشرون على سرد القصص المحببة إلى نفوس السامعين أكثر من الاعتماد على الحجج المنطقية والمناقشات اللاهوتية. وبهذا يمكن تصور نوع التعاليم التى تلقاها النوبيون على يد مبشريهم الاول ولابد أن تكون هذه التعاليم خرجت أحيانا عن أصولها للحصول على كسب سريع [2]. ثم أنه لابد أن النوبيين لم يعتنقوا المسيحية دفعة واحدة، ولكن على مراحل، بدليل وجود بعض العادات القديمة بين النوبيين فى الوقت الذى كان يقوم فيه كل من يوليان

(١) نعلم أن يوليان بقى فى نوباتيا حوالى سنتين من ٥٤٣ إلى ٥٤٥م ثم ترك تيودور بها حتى سنة ٥٥١م عاد بعدها إلى أسقفيته. ثم جاء لونجينوس وبقى بنوباتيا حوالى ست سنوات من ٥٦٩ إلى ٥٧٥م ثم عاد مرة أخرى سنة ٥٨٠م إلى نوباتيا. وظل يمكث بها طويلا بل أتجه إلى علوا. ويبدو أن إقامته بها كانت قصيرة.

(2) Kirwan, L.P. : LAAA. op. cit. p. 103.

طلبه. فلما سمعت انا الخاطى كاتب هذه السيره هذا فصرت مثل الشماس المحب لله تاوفسطس، عند كونه مع الاب القديس ديسقرس فى جزيرة جاجرا (*) بسبب الرجل الاعسم الذى عوفى بدم يد المعترف، امنت ان الرب يفعل مع هذا الاب ما يرى ولد هذا الانسان.

(*) البابا ديسقرس البطرك ٢٥ من العدد: انظر الجزء الاول حيث يذكر أنه نفى إلى جزيرة جاجرا بسبب موقفه من مجمع خلقدونيه.

وفيما انا متفكر فى هذا اراد الرب ان يزيدنى فى هذا القديس ايمانا، فامرنى ان اخذ ورقه ودواه

ولونجينوس بالتبشير بينهم. مثال ذلك عادة وضع الأوانى الفخارية التى يحفظ فيها طعام الميت وشرابه في القبور (١). ثم ازداد انتشار المسيحية ببلاد النوبة حتى أصبحت عامة تقريباً بسبب هجرة الأقباط من مصر إلى بلاد النوبة على أثر الغزو الفارسى لمصر عام ٦١٩م واضطهاد الملكانيين للأقباط بعد استرداد البيزنطيين مصر. وفضلا عن هذا فإن التنظيم الإدارى لمملكة النوبة المتحدة (٢)، وتقسيمها إلى مديريات تحت سلطة حكام خاضعين للملك مباشرة بدنقلة أدى إلى ازدياد سلطة الحكومة ، وبالتالى ساعد على إحكام رقابتها على الحياة الدينية وأدى إلى أنتشار المسيحية(٣).

* * *

غير أنه لم يكن فى وسع النوبيين أن ينشئوا إلا القليل من الكنائس الجديدة بعد تنصيرهم، فبدأوا بتحويل المعابد الفرعونية إلى كنائس، وأول من استن هذه السنة هو الأسقف ثيودور. ففى حوالى أوائل القرن السادس الميلادى حول معبد فيلة لايزيس إلى كنيسة باسم القديس اسطفانوس(٤). وفي النوبة حيث يوجد كثير من المعابد المصرية التى تحمل جدرانها نقوشاً فرعونية تحولت هذه المعابد إلى كنائس بعد طمس هذه النقوش بطبقة من الجص، ونقشت

(1) Ibid : op. cit. p. 103.

(٢) مملكة النوبة المتحدة هى التى تكونت من مملكة نوباتيا ومقرة.

(3) Kirwan. L.P. ; LAAA. op. cit. p. 105.

(4) Roeder. G. : op. cit . p. 379.

واكتب فيها: يقول يوساب الحقير اصغر البطاركه جميعهم يامرك ايها الروح النجس ان تخرج من عبد المسيح الاهنا، ولا تعود اليه فيما بعد بقوة الاب والابن وروح القدس الاله الواحد .

فاخذ ابو الصبي الكتاب ومضى مسرعا الى بيته وقراه على ولد وللوقت خرج منه الشيطان ولم يعد إليه.

ومدة مقامه بمصر كان يأتي الى ابينا ويسجد له

صور تمثل السيد المسيح والحواريين [١]. وحوالي سنه ٥٥٩م حول الملك إربانم Erpanome معبد دندور إلى كنيسة. ونقش على جدارها كتابات ذات أهمية خاصةتوضح علاقة هذا الملك النوبي بأسقف فيلة. كما توضح علاقة الملك بمندوبه وممثله في كلابشه، والذى يحمل لقب hezarch أو eparch «نائب ملك» [٢] أما معبد كلابشه فيبدو أنه حول أيضاً إلى كنيسة حوالي ذلك الوقت، وعلى جداره نقشت كتابتان تخليداً لهذه الذكرى[٣].

وهذه هي المعابد التي عرف تاريخ تحويلها إلى كنائس. أما بقية المعابد الأخرى مثل معبد دكة وأمادا ووادى السبوع وأبو سمبل فلا نعرف تاريخ تحويلها. ومن الكنائس التي ظلت في حالة معقولة تلك التي تحتل قلب معبد وادى السبوع الذى بناه رمسيس الثاني وطليت جدارانه بالجص وكتبت عليها كتابات قبطية وصور تمثل ميلاد السيد المسيح وتلاميذه الإثنى عشر. وصورة للملاك ميخائيل وبجانبه صورة امرأة قد تكون إحدى المتبرعات لإنشاء هذه

(1) Ibid : op. cit. P. 380.
Kirwan, L. P. : LAAA. XXIV P. 93.

(٢) والراجح أن هذا الموظف hezarch كان يمثل الإمبراطور البيزنطي Kraus Johann. S.V. D. : Die Anfange, Des Christ. in Nubien. p. III.
Revillout : Memoire sur les Blemmye, P. 121.

(٣) عثر على نقشين على جدار هذا المعبد وجاء فيهما : «أنا بولس صليت في هذا المكان للمرة الأولى»، «باسم المسيح عيسى ـ أنا القسيس بولس وضعت الصليب في هذا المكان لأول مرة». انظر: Roeder, G. : op cit.

بامانة عظيمه ويقول : انا اشكر الرب بصلواتك لان بكلامك عوفى ولدى. وكان ابونا ينهيه ويجعل عليه قانونا [حلفان] للبيعه ان لا يقول لاحد هذا الكلام واما الرجل فحلف لنا ان الشيطان لم يعد الى ولده من ذلك اليوم.

وفى تلك الايام تنيح الاب ديونوسيوس بطرك انطاكيه، فاهتم المطارنه والاساقفه والشعب الارتدكسى، وقدمو عوضه انسانا كاملا فى

الكنيسة، وكذلك صورة القديس بطرس وبيده مفتاح كبير مازالت واضحة المعالم [١].

أما الكنائس التى بناها النوبيون، فأولها كنيسة مارى بابريم، وربما يرجع تاريخ بنائها إلى أواخر القرن السادس أو أوائل السابع. والكنيسة الثانية هى التى أشار إليها يوحنا الأفسى وقال إن لونجينوس بناها للنوبيين أثناء إقامته بينهم فى المرة الأولى من سنة ٥٦٩ ـ٥٧٥م. والكنيسة الثالثة هى كنيسة دنقلة. أما كنيسة فرس وبوهن فربما يرجع تاريخ بنائهما إلى أواخر القرن السادس وأوائل السابع الميلادى [٢]. أما سائر الكنائس المنتشرة على طول النيل من أسوان فى الشمال إلى القطينة على النيل الأبيض فى الجنوب، فلم يعرف تاريخ إنشائها لعدم وجود نصوص مكتوبة على جدرانها، ولم يبق من هذه الكنائس إلا أطلالها، ومعظمها اندثرت معالمه لأنها كانت مبنية من الطين. ولهذا فإن ما تبقى منها معظمه إلى الشمال من أبو حمد حيث تندر الأمطار. ويقول أبو صالح فى الوقت الذى وضع فيه كتابه حوالى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى إن مدينة علوة بها أربعمائة كنيسة [٣]، ويضيف بتلر [٤] أن فرنسسكو الفارز مبعوث ملك البرتغال إلى بلاط ملك الحبشة فى القرن السادس عشر الميلادى، ذكر أن شخصا سوريا يدعى يوحنا السورى حدثه أن ببلاد النوبة مائة وخمسين كنيسة مزينة جدرانها بصور السيد المسيح والسيدة العذراء والقديسين. وعثر سومرز كلارك على سبع وأربعين كنيسة

(1) Roeder, G, : op. cit. p. 381.
(2) Kirwan, L. P. LAAA. XXIV p. 100.
(٣) أبو صالح : ص ١٢٠.
(٤) المصدر السابق ص ٢٦٤ حاشية ١.

الخصال اسمه يوحنا، وكان [ذلك] في السنة الخامسة عشر من بطركيته، اعني الاب انبا يوساب.

وفي سنة خمس مايه واتنين وستين للشهد، ولما جلس على كرسي انطاكية كتب الى ابينا سنوديقا كالعاده بالاتحاد وانفذها مع مطرانين، وهما اتناسيوس مطران افميه، وطيماتاوس مطران دمشق وكهنة معهما، فلما اجتمع الاب انبا يوساب

في النوبة في جهات مختلفة على طول النيل من أسوان إلى جنوبى الخرطوم. ووصف هذه الكنائس ووضع لها رسوما في كتابه عن الآثار المسيحية بوادى النيل. وعثر دى فيار أخيراً على بقايا عشر كنائس أخرى منها اثنتان بقصر إبريم.

بقي هنا أن نشير إشارة خفيفة إلى البليميين ومدى تأثرهم بالمسيحية بعد القرن السادس الميلادى، فلا يبعد أن يكون لونجينوس عمد بعض زعمائهم أثناء مروره ببلادهم. غير أننا لا نسمع عن البليميين شيئا إلا بعد الفتح العربى بحوالى مائة سنة، حين عرفوا باسم البجا وهو اسمهم القديم، ووصفهم الكتاب العرب بأنهم وثنيون، ويقول اليعقوبى «ليس لهم شريعة إنما كانوا يعبدون صنما يسمونه حجاخوا» [1] ويقول أبو الفدا «إنهم يعبدون الأوثان[2]» أما الإدريسى فيقول بأنهم نصارى خوارج على مذهب اليعقوبية [3].

ويمكن القول إن المجموعة البجاوية ظلت على دينها المصرى السابق للمسيحية باستثناء جماعات قليلة منها اعتنقت المسيحية بحكم اتصالها بالجماعات المسيحية. ومنذ الفتح العربى لمصر أخذت المسيحية تمتد رويداً رويداً إلى أوطان البجة، وبقى بعضهم على دينهم المصرى حتى دخل الإسلام ديارهم .

---

(١) اليعقوبى: كتاب البلدان، ص ٣٣٦.
(٢) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ص ١٩٦.
(٣) الإدريسى : المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، ص ٢٧.

بوصولهم، الى قريب مصر، وصحبتهم السنوديقا سار الى اسكندريه كيما يجتمعوا به هناك بمجد، فلما قربو من المدينه انفذ يستقبلهم باساقفه وكهنة يقرون قدامهم الى ان دخلو بهم الى القلايه البطركيه بمجد وكرامه . فلما اخد ابونا السنوديقا امر بقرا[ء]تها على الشعب الارتدكسى ففرحو فرحا عظيما .

فلما نظر الشيطان المناصب هذه النعمة بدا ان يثير على ابينا البطرك بلايا من جهة من هو له

النظم والحضارة فى ممالك النوبة المسيحية

التنظيمات الإقليمية ■ التنظيمات السياسية ■ طبقات المجتمع ■ التنظيمات الكنسية ■ الاقتصاد النوبى ■ بعض مظاهر الحضارة النوبية.

* * *

يرجع ما وصل إلينا من تاريخ ممالك النوبة المسيحية إلى قطع من نصوص مكتوبة بواحدة أو أخرى من اللغات القبطية أو اليونانية أو النوبية، وإلى إشارات قليلة فى المؤلفات القبطية، وإلى ما ذكره بعض المؤلفين العرب الذين جاء ذكر النوبة عرضا فى مؤلفاتهم [١]. ولهـذا جاءت هذه المعلومات إما ناقصة أو غامضة فى كثير من الأحيان[٢].

والممالك المسيحية التى استقبلت المبشرين المصريين والبيزنطيين الرسميين حوالى منتصف القرن السادس الميلادى كانت ثلاثا، تحدث عنها يوحنا الأفسسى دون أن يعين لها حدودا جغرافية واضحة. أولاها: مملكة النوباديين Nobadae جنوبى الشلال الأول، وثانيتها: مملكة أطلق اليونانيون على سكانها اسم Alodaie، وهى فى أقصى الجنوب من بلاد النوبة، وثالثتها:

(1) Kirwan. L. P. : "Note on the topography of the Christian Nubian Kingdoms". JEA. XXI, 1934. P. 57.

(2) Quatremere, E. : Memoires, II p. 1.

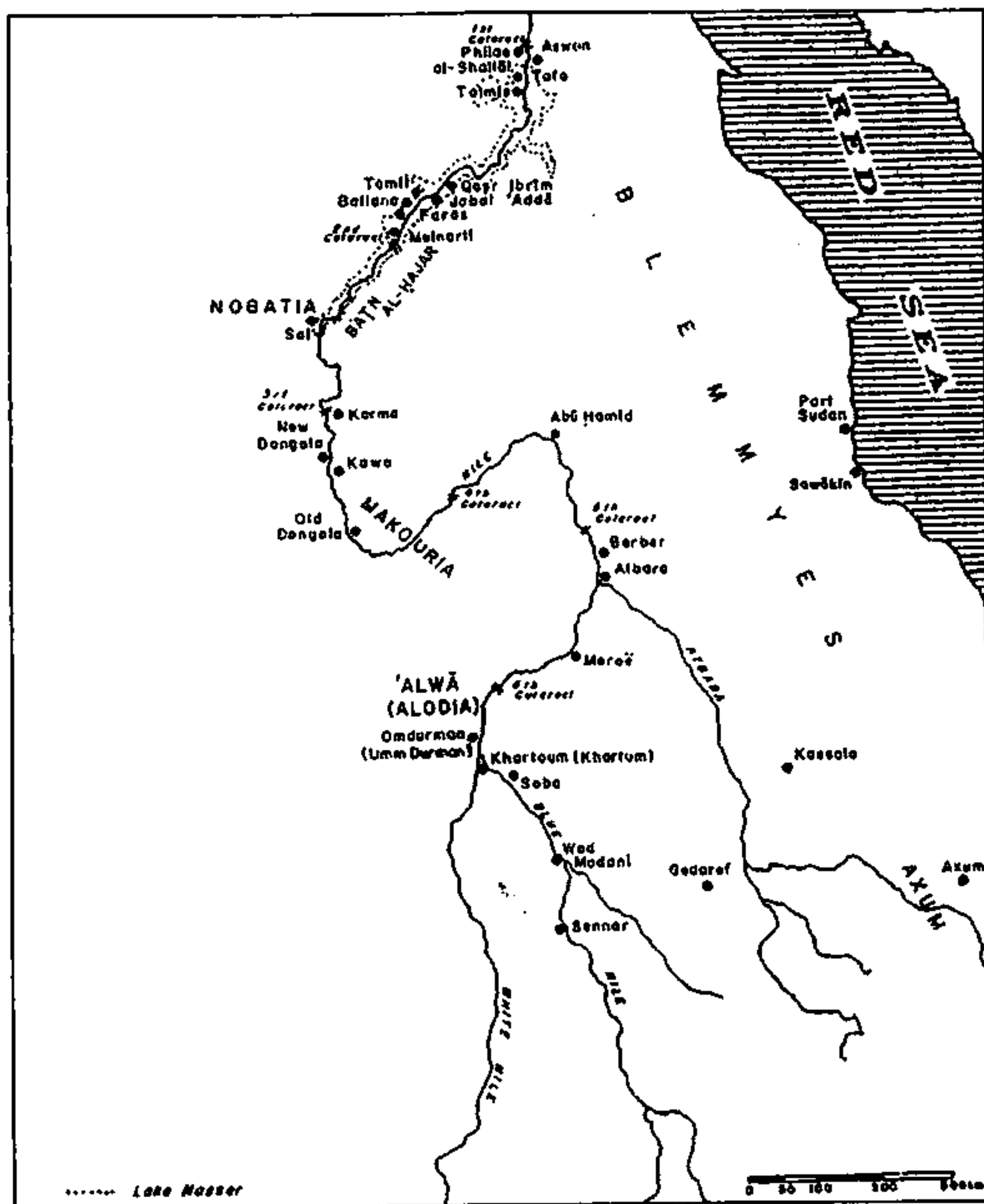

ممالك النوبة المسيحية

وعا[ء] كما فعل فى قاضى الظلم بمصر، وكان لذلك القـــاضى رجل ينوب عنه باسكندريه واعمالها، وكان اشر منه وكان اسمه محمد بن بشير ، فمضو اليه [المخالفين] الذين احرمهم اولا، واشارو عليه ان يهينه قدام المطرانين، وكانو مهتمين بهذا اولاد النار ويظنون ان هذاالامر ينتقل عليه، وهو المشتمل بالاتضاع لا يبالى ولا يفكر فيما يفكرون فيه، لنهم كانو مفكرين فى قلوبهم انهم

مملكة الماكوريين Makoritae – أى مقرة – وموقعها بين المملكتين السابقتين [١]. أما المملكة الأولى، فهى التى أسسها الملك سلكو حوالى ٥٣٠م . ويبدو أنه تمكن من إخضاع الماكوريين[٢] أصحاب المملكة الثالثة مدة قصيرة [٣]. أما المملكة الجنوبية التى يسكنها Alodaie فهى التى نشأت على أنقاض مملكة مروى بعد سقوطها على يد الملك عيزانا حوالى منتصف القرن الرابع الميلادى. وورد فى نقش الملك عيزانا اسم مدينة علوة alwah ضمن المدن المبنية بالطوب الأحمر والتى وقعت فى قبضته. وهى تقع على نهر سيدا Seda جنوبى إلتقائه بنهر تكازى Takkazi(أتبرا).

ومنذ عام ٥٨٠ ظلت هذه الممالك الثلاث المسيحية مستقلة بشئونها تحت حكم رؤساء وطنيين [٤]. غير أن المراجع العربية تخبر بأنه بعد استيلاء العرب بقيادة عمرو بن العاص على

(1) John of Ephesus, : op. cit. P. 319.

(٢) ربما كان هؤلاء الماكوريون هم الذين أشار إليهم سترابون باسم Meya Bapoi وأشار إليهم بطلميوس الجغرافى باسم Malloupai. Kirwan, L. P. op. cit. P. 57.

(٣) من الواضح أن خضوعهم لم يدم طويلا بدليل موقفهم العدائى أثناء بعثة لونجينوس التبشيرية.

(4) Kirwan L. P. : op. cit. p. 58.

والراجح أن علوة مدينة قديمة ترجع إلى حوالى منتصف القرن الرابع قبل الميلاد. ولا يبعد أن تكون مدينة (I) IL التى ورد ذكرها على لوحة تركها الملك ناستاسن Nastasen ملك مروى ٣٢٨ ق . م.=

اذا اهانوه قدام المطرانين ينقص جاهه، ولم يعلمو ان موامرتهم مرذوله عندما يظفر الظافر كل حين، وينال الاكليل على الجهاد، وينال الطوبى على صبره، وينتهي به ذلك الى اقصى المشرق، وصورته عندما يشاهده الابرار المطارنه فيما يجرى عليه.

حينئذ انفذ القاضي ، قاضي اسكندريه، ان يحضر الاب القديس انبا يوساب البطرك ويحضر معه المطرانين. فقال له لما حضر عنده: قد اعلموني

مصر سنة ٦٤٠م، قامت حملتان عربيتان من الأراضي المصرية سنة ٦٤٠ - ٦٥٢م بقيادة عبد الله بن سعد ابن أبي السرح لغزو تلك الممالك المسيحية، كما تخبر بأن عهد الصلح الذى عقده عبد الله بن سعد كان «لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته... من حد أرض أسوان إلى حد أرض علوة[١]» ومعنى هذا أن المملكتين نوباديا ومقرة أصبحتا مملكة واحدة عرفت باسم النوبة. أما المملكة الأخرى وهى علوة فيبدو أن المسلمين لم يتعرضوا لها على أن موضع الأهمية هنا، هو معرفة متى حدث هذا الاتحاد؟ أما المؤرخون فاختلفوا حول تاريخ اتحاد هاتين المملكتين، فهناك قول بأن هذا الاتحاد حدث فيما بين ٥٨٠ - ٦٥٢م وأن دنقلة أصبحت بذلك عاصمة للمملكة النوبية المتحدة، على حين ظلت فرس عاصمة المقاطعة الشمالية [٢].

=Kirwan, L. P. : op. cit. p. 57.

أنظر ايضا Shinnie, P. L. : "Excavations at Soba" SAS. No. 3, 1955. p. 11

وكذلك Cammerer, A. : Essai Sur l'histoire Antique d'Abyssinie p. 82.

ويقول كامرير: إن علوة اسم قديم لأنها ذكرت على نقش هيروغليفي في النقعة (قرب شندى) تحت اسم Alut.

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١ ، ص٢٠٠ ، سيرد ذكر هذه الحملات تفصيلا فيما بعد.

(2) Crawford, O. G. S. : op. cit. p. 23.

وانظر أيضا : Kirwan, L. P. : op. cit. p. 61.

ان لك غلمانا الذين امرك القاضى صاحبى ان لا تقبلهم اليك دفعة اخرى بعضهم عندك وقد اعدتهم الى دينك . فاجاب القديس وقال له : ما عندى شي مما ذكرته وانى لم اشاهد وجه واحد منهم من ذلك اليوم. فامر به ان يضرب على قفاه بغير رحمه(*)، ويلكمونه لكما كتيرا، ولم يتخلو عن ضربه وقتا كتيرا، وكانت راسه مطاطيه لا يشيلها لاجل ضعفه ولم يفتح فاه ينطق بلفظه الا قوله هكذا: اشكرك يا سيدى يسوع المسيح. فبكينا

(*) الضرب على القفا من وسائل التعذيب والاهانة.

وثمة قول آخر وهو أن اتحاد المملكتين «نوباديا ومقرة» حدث بعد مضى خمسين عاما على عقد هذا الصلح(١). ويستند صاحب هذا الرأى إلى أمرين: أولهما ماورد فى بعض المراجع القبطية (٢) بشأن نزاع نشب بين ملك مقرة وملك موريتانيا سنة ٦٩٠م بسبب حاجة الأولى إلى أساقفة ومنع الأخير إياهم من المرور بمملكته، وملك موريتانيا فى نظره هو ملك نوباديا. ومعنى هذا ـ فى رأيه - أنه حتى سنة ٦٩٠م كانت لا تزال المملكتان مستقلتين. وثانيهما ما ورد فى هذه المراجع كذلك (٣) من أن الملك مرقوريوس سلك مسلكاً جديداً نال عليه ثناء الكنيسة المصرية واستحق من أجله لقب قسطنطين الجديد. وربما كان هذا المسلك الجديد هو تحوله إلى المذهب المونوفيزى وتحويله معبد تافه فى نوباديا إلى كنيسة سنة ٧١٠(٤). وبهذا يكون مرقوريوس جمع بين حكم المملكتين بعد إخضاع المملكة الشمالية وتوحيدهما دينيا وسياسياً كذلك.

(1) De Villard, : op. cit. p. 76.

(٢) اعتمد دى فيار فى إيراد هذا الرأى على ما جاء فى سيرة البطريرك إسحق (٦٩٠ - ٦٩٣م) والتى جمعها الأسقف مينا. Ibid, : op. cit. p. 79.

(٣) واعتمد هذا المؤلف أيضاً على ما ورد فى سير بطاركة الإسكندرية Ibid. : op.cit. p. 80.

(٤) يقول دى فيار: إنه عثر على حجر فى معبد تافه يحمل نقوشاً يونانية مؤرخة ١٤ ديسمبر سنة ٧١٠م تمجد مرقوريوس لإتمامه هذا العمل الجليل. وربما كان هذا العمل. الجليل هو تحويل معبد تافه إلى كنيســة. وتافه تقع فى نوباديا ومعنى هذا أن مرقوريوس ملك مقرة، يحكم نوباديا كذلك.

نحن اولاده بكاا[ء] مر لمشاهدتنا ما جرى عليه من ذلك القاضى السو، ولم ييأس من الرحمه بل كان شجيع [شجاع]، فتعجب هو ليك المطرانان وقالا: تبارك الله الذى جعلنا مستحقين ان نشاهد جهاد هذا الاب. وكان ابونا المبارك يقول قول الرب لاجل قاضى الظلم: ان الرب يظهر فيه الانتقام الذى يحل به كما قال لوقا: الله ينتقم لاصفياه سريعا، الداعين له ليلا ونهارا ويطول روحه عليهم.

غير أن هذا الرأى لايمكن قبوله، لأنه لايتفق وما جاء فى عقد الصلح سنة ٦٥٢م [١] ثم إن اعتماد هذا الرأى على المراجع القبطية وحدها لا يعد دليلا كافيا على صحته، لعدم اتفاق رواياتها. إذ أن بعض هذه المصادر القبطية تقول إن النزاع كان بين ملك مقرة وملك الحبشة[٢]. ومع التسليم بصحة ماجاء بشأن ملك موريتانيا. فالمعروف أن موريتانيا هى ليبيا وأن الأساقفة كانوا يستخدمون الطريق الليبى - لا طريق النيل - فى سفرهم من الإسكندرية إلى دنقلة[٣]. ثم أن تحول مرقوريوس إلى المذهب المونوفيزى وتوحيد المملكتين دينيا، لايعنى أن المملكتين لم تتحدا سياسيا من قبل. والراجح أن الوحدة السياسيه تمت قبل الوحدة الدينية فى وقت سابق لحملة عبد الله بن سعد على بلاد النوبة سنة ٦٥٢م، أو فى وقت معاصر لها

(١) ونص الصلح على أن المملكة النوبية تمتد من أسوان إلى حد علوة.

(٢) يقول بتلر فى كتاب تاريخ أبى صالح الأرمنى (حاشية ١ ص ٣٦١) وان البطريرك إسحق تدخل لحسم النزاع بين ملك النوبة وملك الحبشة مما أدى إلى غضب عبد العزيز بن مروان والى مصر على البطريرك إسحق. انظر متن ساويرس أعلاه ص ٤٨ جـ٢. وورد فى كتاب رينودو «تاريخ بطاركة الإسكندرية» ما يؤيد رأى بتلر الذى استقاه من مصدر قبطى هو سيرة البطريرك إسحق التى جمعها ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين.

Renaudot, E, : "Hist. Patriarcharum Alexandrinarum." P. 178.

Conti Rossini : Note Ethiopiche - 1 - Una Guerra fra la Nubia e l. Ethiopie. Nel Seclo XII. p. 1.

(3) Maspero ; op. cit . p. 348.

Roeder , op. Cit. pp. 383- 484.

وبعد ذلك كتب الى البطرك انبا يوحنا كتب السنوديقا وودعهم بمجد وكرامه تصلح لهم وهم يعطون الطوبى لابونا يوساب، وجعلوا يشرون بفعله في جميع بلادهم.

وكانت فى ايامه نعمه وسلامه. وكان فى زمانه اعجوبه، ونظر الى الديارات فى كل موضع تنمو وتتزايد كل يوم بصلواته وصلوات القديسين الذين كانو فى ذلك الزمان، وباخاصه الديارات بوادى

على الأقل، فإن حاجة الدفاع عن البلاد والوقوف فى وجه الغزو الإسلامى فرضا هذه الوحدة السياسية [١] ، على أن تحتفظ كل من الدولتين بسيادتها على أراضيها واستقلالها الداخلى. ولابد أن هذا كان أشبه باتحاد فيدرالى أو تعاهدى، احتفظ فيه ملك المملكة الشمالية بسلطاته على أن يكون بمثابة نائب ملك ـ كما سيجئ تفصيله بعد - ولعل تحول ملك مقرة إلى المذهب المونوفيزى تضمن تأييداً وتأكيداً لهذه الوحدة السياسية التى سبقته.

أطلق الكتاب العرب على هذه الأقاليم جميعا اسم النوبة.و يتفق فى هذا كل من اليعقوبى (٨٩٤م) والمسعودى (٩٣٥م) . بيد أن اليعقوبى جعل الحد الشمالى لمقرة عند بلدة إسمها ماوا [٢] . على حين جعل المسعودى الحد الشمالى لمقرة عند أسوان. ومعنى هذا أن المملكة

(1) Arkell, A.J.; Ahist. of the Sudan. p. 186.

(٢) اليعقوبى: كتاب البلدان ، ص ٣٣٦ «ومن أسوان أول بلاد النوبة الذين يقال لهم مقرا وهو موضع يقال له ماوا». وفى موضع آخر «فأما من قصد من العلاقى إلى بلاد النوبة الذين يقال لهم علوة...» - أى أن اليعقوبى أطلق النوبة على كل الأقاليم جنوبى أسوان بما فيها مقرة وعلوة وجعل ماوا الحد الفاصل بين نوباديا ومقرة، بيد أنه لم يذكر شيئاً عن الحدود بين مقرة وعلوة. ومدينة ماوا غيرمعروفة، وربما قصد بها ماما وهى فى رأى كروفورد تقع قرب جبل فركة جنوبى الشلال الثانى، وهى تمثل نهاية اقليم السكوت، واعتبار الحد الفاصل بين نوباديا ومقره جنوبى ماما بحوالى ١٤ ميلا لهو أمر مقبول Crawford, op. cit. p. 23.

هبيب، كانت مثل فردوس الله لا سيما دير ابى مقار. ومعونة الله مع جميعهم وبالخاصه الاقنوم شنوده القس القديس الذى اظهر الله منه افعالا حسنه لا تحصى من امانته فى القديس ابى مقار، وجعل له تذكارات كروما وبساتين وبهايم وطواحين ومعاصر وخيرات كتيرا لا تحصى.

ولما شاهد الشعب المومن فعله ابتهجو بذلك وكانو يحسدونه على فعله ويساعدونه بحسن نياتهم.

الشمالية «نوباديا ومقرة» عرفت باسم مقرة. وعرفت الآخرى باسم علوه [1]، وأن الجزء الشمالى من مقرة والمتاخم لمصر عرف باسم مريس دون تعيين حدود سياسية واضحة لهذه الممالك. ويضيف المسعودى أن المملكتين مقرة وعلوة كانتا تحت حكم ملك واحد اسمه كبرى بن سرور، غير أن هذا الاتحاد لم يسمع عنه، وهو - إن صح - لم يدم طويلا. ويشير المسعودى إلى وجود عاصمتين هما دنقلة عاصمة مقرة، وسوبا عاصمة علوة. ويتفق عبد الله ابن أحمد بن سليم الأسوانى [2] (٩٦٩م) مع كل من اليعقوبى والمسعودى، ولكنه يضيف كثيراً من المعلومات الجغرافية والتاريخية لهاتين المملكتين، فذكر الأسوانى أن الحد الشمالى

(١) المسعودى : مروج الذهب. جـ٣، ص ٣٣ «فأما النوبة فافترقت فرقتين، فى شرقى النيل وغربيه، وأناخت على شطيه، فاتصلت ديارها بديار القبط أرض صعيد مصر من بلاد أسوان وغيرها. واتسعت مساكن النوبة على شاطئ النيل مصعدة، ولحقوا بقريب من أعاليه، وبنوا دار مملكة تدعى دنقلة. والفريق الآخر من النوبة يقال لها علوة وبنوا مدينة للملك سموها سوبة... والبلد المتصل من مملكته بأرض أسوان يعرف بمريس».

(٢) عبد الله بن أحمد بن سليم الأسوانى كان مبعوث الخليفة المعز لدين الله الفاطمى إلى ملك النوبة ليدعوه إلى الدخول فى الإسلام ويذكره بدفع البقط وكتب كتابه «أخبار النوبة ومقرة وعلوة والبجة والنيل» وهذا الكتاب مفقود ولكن المقريزى حفظ لنا فى كتابه المواعظ والاعتبار شيئا منه.

وكان فى الدير المقدس خلايق لا تحصى، ليس الارتدكسيون فقط بل هراطقه، (*) لاجل العجايب التى تظهر فى هذه البيعه . وفعل هذا الاقنوم شنوده وكان يرجو المجازاة من الله، كقول بولس الرسول: نحن بالروح بالامانه ننظر رجا[ء] حقيقيا. ولما راى الرهبان يتزايدون بنعمة الله التى تدعوهم، بدا وبنى بحرى البيعه الكبيره بيعه باسم الابا[ء] التلاميذ، وكملها وزينها بكل زينه، ودعا ابانا القديس انبا يوساب البطرك الى هذه البيعه،

(*) كان أصحاب المذاهب المخالفة يقيمون فى الدير المقدس بوادى هبيب.

لمريس[1] يقع عند مدينة القصر، بينها وبين أسوان خمسة أميال، وبينها وبين جزيرة بلاق (فيلة) ميل واحد، والى بلاق تنهى مراكب النوبة أما الحد الجنوبى لمريس فيقع عند المقس الأعلى[2]، بينها وبين الشلال الأول [3] ست مراحل، والعاصمة نجراش. ويتفق هذا التحديد مع ما ذكره أبو صالح الأرمنى (١٢٠٠م). ويرى دى فيار أن هذا الحد يقع عند قرية عكاشة جنوبى الشلال الثانى [4] وتبدأ مقرة بأقاليم ثلاثة هى : سقلودا وبقون وصفد

(١) مريس معناها فى اللغة القبطية الجنوب. وتنسب إليها الريح المريسية، وهى رياح الجنوب الباردة التى تهب على جنوبى مصر فى فصل الشتاء. أنظر عبد اللطيف البغدادى كتاب الإفادة، ص ١٣.

(٢) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١ ، ص ١٩٠ «... وأول الجنادل من بلد النوبة قرية تعرف بتقوى وهو ساحل، واليها تنتهى مراكب النوبة المصعدة من القصر أول بلدهم، ومنها إلى المقس الأعلى ست مراحل».

(٣) الشلال الأول هنا المقصود به أول الشلال فى الأراضى النوبية، ولم يدخل إبن سليم الجندل الأول (الشلال الأول) فى أرض النوبة لأنه داخل فى الحدود المصرية. وعلى هذا فإن الجندل الأول حسب قول ابن سليم يقابل الجندل الثانى (الشلال الثانى قرب حلفا) ومنها أى من تقوى (عند الشلال الثانى) إلى المقس الأعلى ست مراحل - حوالى ٧٢ ميلا - وهى منطقة الشلال الثانى.

(٤) أبو صالح: الشيخ أبو صالح الأرمنى، ص ١٢٠ . ويعتمد دى فيار فى تحديد هذا الموقع على ما ذكره أبو صالح من أن فى جهة المقس الأعلى يوجد السنباذج Corundum وهو حجر ساخن يوجد قرب عين ماء ساخنة. ومن تقرير لهيوم وجد أن هذه العين لاوجود لها فى وادى النيل كله إلا عند عكاشة ويسميها السكان هناك حمام عكاشة أنظر. De Villard :op. cit. p. 136 .

فلما نظرها امتلا قلبه سرورا وكرزها فى اول يوم من برموده فى السنة السابعه عشره من بطركيته ولم يفتر الاب من البركه على ابونا القس شنوده الاقنوم من عمق قلبه. وينظر التذكارات التى يعملها يوما بعد يوم وباخاصة هذه البيعه المقدسه الجامعة الحسنه ، وكان لنا نحن اولاد هذا الاب محبه ابينا له، وكان الاب يقول لنا : بقوة روح القدس الحال فيه، يا اولادى صدقونى ان لهذا الأخ تذكارات كثيره يفعلها، وبنا[ء] بيع وكنايس ،

بقل [١] وهي جميعا شمال مقر، تمتد جنوبا بعد انثناءة النيل الكبرى بحث تشمل إقليم شنقير [٢]. وتنتهي جنوبا عند حد الأبواب (كبوشية الحالية) حيث تبدأ مملكة علوة. ويذكر مفضل بن أبي الفضائل أن مريس تنقسم إلى قسمين: بلاد العلى وتنهى عند مهندى (جنوبى المحرقة الحالية) وبلاد الجبل وتنهى بنهاية حد مريس فى الجنوب (٢٨). ويشير ابن سليم إلى

(١) المقريزى : جـ١ ص ١٩١. سقلودا معناها فى اللغة المصرية السبع ولاه. ويبدو أنها تتفق مع إقليم السكوت. وبا كون مع إقليم المحس وصفد بقل مع إقليم الجوابرة Crawford .op. cit pp.. 24 - 25 :
وجاء فى رواية أخرى لابن سليم «أن وستو آخر قرى مريس آخر عمل متملكهم». والواقع أن هذه الرواية تتعارض مع ما سبق أن ذكره أن المقس الأعلى هى اخر مريس من ناحية الجنوب، ولكن إذا علمنا أن وستو أو باستو تقع شمالى دنقلة الأوردى بحوالى ٢٧ ميلا .Burckhardt, J.L: Travels in Nubia, P
.523 أى قرب أبو فاطمة التى تنتهى عندها لغة الدناقلة التى تشبه لغة الكنوز وهى اللغة المريسية، نرى أن ابن سليم ربما قصد الحد الشمالى للغة مريس الدنقلاوية لا الحد الجنوبى لإقليم مريس.
أنظر .Kirwan, L. P. :op. cit. p. 60

(٢) منطقة شنقير هى منطقة أبو حمد - بربر حيث يبدأ منها الطريق البرى إلى سواكن.
Crawford. :op. cit. p. 26.

(٣) إن مهندى غير معروفة تماما لكن دى فيار يرى أنها تقع إلى الجنوب من المحرقة وبهذا يمكن القول إن هذه التقسيمات تتفق تماما والتقسيمات الرومانية بأراضى النوبة ـ نقلا عن مفضل بن أبى الفضائل ، «النهج السديد».

De Villard, : op. cit. pp. . 137 - 138.

وكنا نسمع هذا منه فنقول ترى انه بنى بيع اخر في هذا الجبل . وكان كلامه كالنبوه ونحن لا نعلم حتى ظهر لنا بعد ذلك ما سوف نذكره.

وكان في يد ابونا عكاز لطيف دفعه لشنوده الاقنوم وقال له: خذ هذا يا ولدى تذكارا لك. فلما راينا هذا قلنا ان هذا بسبب امور تظهر لأن كل أفعاله بنعمة روح القدس.

ولما كان في السنة الثامنة عشره من بطركيته

صعوبة الانتقال بين جميع تلك الأقاليم بسبب وجود الجنادل التي تعترض سير النهر في كثير من المواضع[1].

اتفقت كتابات المؤلفين العرب على أن حد علوة من ناحية الشمال يبدأ عند منطقة تعرف بالأبواب [2] غير أن أحداً من الكتاب العرب أو غيرهم لم يعط صورة واضحة لمدى اتساع هذه المملكة أو يعين لبقية جهاتها حدوداً جغرافية واضحة. فيكتفي ابن سليم بقوله« إن مملكة علوة أوسع وأخصب من مملكة مقرة [3]». ولم يكن ابن سليم في تحديده لعلوة دقيقاً كذلك. إذ يشير إلى الحد الشرقي لعلوة مثلا بقوله «وعليه أي النيل الازرق جنس مولد من العلوة والبجه يقال لهم الديجيون وجنس يقال لهم بازة... وبعد هؤلاء أول بلاد الحبشة[4]». ومعنى هذا ـ في قوله ـ أن مملكة علوة تمتد شرقاً في اتجاه النيل الأزرق إلى حدود الحبشة.

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص ١٩٠ ـ ١٩١.

(٢) المصدر السابق، جـ١، ص ١٩٢ والأبواب هي كبوشية الحالية: Crawford op. cit. p. 24. ويرى دى فيار أن الأبواب هي الإقليم المحاذى للنيل من نقطة التقائه بنهر أتبرا إلى الشلال الرابع.
De Villard, : op. cit. p. 153.

(٣) المقريزى: المواعظ والاعتبار ، جـ١، ص ١٩٣.

(٤) الديجيون والبازة غير معروفين تماماً وربما البازة هم الباريا الذين كانوا يحتلون هذه المنطقة قبل أن ينتقلوا جنوباً.

ولى على مدينة اسكندريه امير اسمه مالك بن ناصر الحدر، وكان انسان سو ظالما. فلما دخل المدينه بدا ان يفعل سو بكتير من الناس اكتر من الوالي الذى كان قبله، فاعترض اصحاب الصنايع والتجار الكبار، والبزازين والباعه،و تقدم الى التجار الكبار والبزازين ان لا يبيعو ويشترو الا حدا يحده لهم، وعمل قياسا كبيرا [للأطوال] وجعل ينادى مناد ويقول: من وجد عنده توب ناقص عن هذا القياس انا اعتقله واهينه واقتله.

وقدر ابن حوقل [١] طول علوة بحوالي شهر وعرضها من النيل مشرقا بثمان مراحل (حوالى ٩٦ ميلا)، على حين أن ياقوت[٢] قدر المسافة من عاصمة مقرة إلى حدود علوة بثلاثة أشهر وقال: إن إلى الجنوب من علوه توجد أمه أخرى من السودان تدعى تكنة [٣]. والخلاصة أن هذه الأقوال في جملتها غير دقيقة ولا توضح إلى أى الجهات امتد نفوذ ملوك علوة المسيحيين. غير أن ما جاء في مخطوط تاريخ قلاون [٤] قد يوضح ولو قليلا الأقاليم التى تتألف منها

(١) ابن حوقل: كتاب صورة الارض، ص ٥٦.

(٢) ياقوت : معجم البلدان، ص ٣٢٣.

(٣) ربما كان هؤلاء التكنة هم الدنكاء والراجح أنه في هذا الوقت تقدموا شمالا على النيل الأبيض متجاوزين أوطانهماالحالية.

(٤) مخطوط تاريخ قلاون المعروف باسم تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور جـ٢ ص ٢٩٣ - ٢٩٣ ب.

أنظر كذلك Quatremere, E. : Memoires hist. et. geog... II. PP. 109- 112.

ومعظم هذه الأقاليم (الممالك) غير معروفة ، وحاول بعض الكتاب تحقيق أسمائها فيرى دى فيار أن بارة هم الباريا قبل انتقالهم من نهر أتبرا إلى أوطانهم الحالية. والتاكة هو الإقليم المحيط بكسلا، وكرسه ربما هم الذين أشار إليهم ابن سليم وكانوا يسكنون أرض الجزيرة، أما دنفوا وبقال وآرى فغير معروفة. أما الأنج فربما كانوا فى جبل حرزا، ويقول دى فيار: إن الأنج شعب قديم واسع الانتشار ، وبعد سقوط سوبا أطلق عليهم «القدماء». وفى الرصيرص تطلق كلمة الهمج على العنج. أنظر:

Mac Michael, H. A. : Ahist. of the Arahs in the sudan, I. P. 183.

Arkell, A. J. : op. cit. p. 196.

فلما شاهدو اهل اسكندريه هذا حزنو، و قالو: قد علمنا الان ان الله قد اذل هذه المدينه وسكانها بيد هذا الرجل الظالم. فاما الضعفا [ء] والحاكه والقراريون [النساجون] فكانوا يصيحون من قطع معايشهم وبطلو اولادهم حتى عدمو قوتهم، وعولو على الغربه والخروج الى البلدان ليعيشو، وكانو يصرخون ليلا ونهارا بان ينقذهم الله من هذا الظالم، فلم يغفل الله عن دعاهم، لكن سمعهم سريعا لانه قال على لسان داود النبى فى مزموره

مملكة علوة. ومن هذه الأقاليم بارة ـ التاكة ـ كدروا ـ دنفوا ـ آرى ـ بفال ـ الأنج ـ كرسه. ومهما يكن من أمر، فإن هذه الأقاليم على كثرتها لا تعطى لنا صورة واضحة تماماً عن مدى اتساع مملكة علوة. ولعل الأبحاث الأثرية التى تمت فى منطقة النيل الأوسط حيث قامت مملكة علوة المسيحية، يمكن أن تعطى صورة أدق لحدود هذه المملكة . ذلك أنه عثر على بقايا كنائس فى مناطق مختلفة على النيل الأبيض عند بلدة القطينة وقوز رجب على نهر أتبرا، وجبل سجدى بأرض الجزيرة وقرب خزان مكوار على النيل الأزرق.و ربما امتدت حدود علوة إلى أبعد من هذه المراكز شرقاً وغرباً وجنوباً بحيث شمل نفوذ ملك علوة جهات لم تبن فيها كنائس، أما لعدم اهتمامهم ببنائها لضعف عقيدتهم، وأما لأن أثار هذه المناطق زالت بفعل عوامل التعرية. وعلى كل حال فالراجح أن مملكة علوة امتدت من الأبواب (كبوشية) شمالا إلى القطينة على النيل الأبيض جنوباً وشملت جهات الأتبرا والنيل الأزرق حتى حدود الحبشة شرقاً وبعض جهات دارفور كردفان غرباً (١) .

* * *

أما عن التظيمات السياسية فى ممالك النوبة المسيحية، فالمصادر لا تعطى سوى صورة ضئيلة

---

(1) CrWford, : op. cit. p. 25. De Villard, : op. cit. op. cit. p. 156.
Arkell. A.J. : op. cit. p. 196

[٩٠] : اصـرخ الى وانا انجـيك واخلصك. وقـال ايضا :الرب قريب من الذين يدعونه.

فلما كان بعض الايام ركب ذلك الامير وجا[ء] الى قلاية البطرك ومعه سرارى، ثم انه قام وطاف جميع مساكن البطرك حتى انتهى إلى المخدع الذى ينام فيه البطاركه كل زمان، فطرد الاب منه وادخل سراريه اليه واكل معهن وشرب هناك ونام معهن فيه، وهو الموضع الممتلى بخورا وطيبا من صلوات

باهتة لما كان عليه حكم هذه الممالك فى تاريخه الطويل. غير أن هذه المصادر على قلتها وغموض بعضها لا تخلو من فائدة فى التعريف بألقاب الملوك وسلطاتهم ونظام وراثة العرش، والتعريف بحكام الولايات وألقابهم وسلطاتهم .

ولنبدأ هنا بدراسة نظم الحكم فى مملكة مقرة ثم ننتقل بعد ذلك إلى دراستها فى مملكة علوة.

بعد نقش سلكو المكتوب باللغة اليونانية على جدران معبد كلابشة أول مصدر سجل عليه اللقب الذى اتخذه سلكو لنفسه [١] وهو Basilikos أى ملك صغير. وهذا اللقب يتفق وما ادعاه سلكو لنفسه من سلطة على النوبادين وجميع الأثيوبيين. وربما يرجع هذا التخبط فى اختيار اللقب الفعلى للملك إلى الجهل باللغة اليونانية الدخيلة عليهم[٢].

أما نقش دندور ٥٥٩م فيشير إلى تطور الألقاب الملكية فى نوباديا، إذ يتخذ إرجامنز

(١) على الرغم من أن سلكو لا يعرف عنه تماما اعتناقه للديانة المسيحية فإنه على الأقل يعتبر المؤسس الأول لمملكة نوباديا المسيحية.

(2) Emery, W. E. : The Royal Tombs of Ballana & Qustul I. p. 12.
ويتفق هذا اللقب مع لقب مك أى حاكم إقليم وهو اللقب الذى حمله حكام الأقاليم الخاضعة لسلطان الفونج، وهناك كثيرون لا يزالون يحملون هذا اللقب حتى الآن.

De Vjllard, : op. cit. p. 83.

القديسين البطاركه، فلما شاهد هذا الانبا القديس حزن وبكى جدا وقال قول داود النبى فى المزمور [٧٨]: يا الله دخلت الامم الى ميراثك ونجسو هيكل قدسك. فلما فعل هذا الافعال الطمثه بغير حق خرج وعاد الى موضعه، والله صانع حق خرج وعاد الى موضعه، والله صانع العجايب فى كل حين انتقم منه، لحقه فى ذلك اليوم ضربان فى احشاه وقارب الموت عاجلا. ولم يتخل عن ظلمه وفعله السو.

Ergamenes لنفسه لقب ملك، وهو لقب يفوق فى المرتبة لقب Basilikos. ويوضح هذا النقش حقيقة أخرى، وهى أنه يوجد إلى جوار الملك عدد من الموظفين، وأعظم هؤلاء الموظفين خطرا هو الذى يحمل لقب هيزارك Hezarch أو إيبارك Eparch، وهو يعادل لقب (Dux) فى الألقاب البيزنطيه، ومعناه هنا نائب الملك أومندوب الملك [١]. وكان هذا الموظف الكبير ينوب عن الإمبراطور البيزنطى فى حكم نوباديا بالاشتراك مع إرجامنز، واتخذ هذا المندوب الإمبراطورى بلدة تالمس مقرا له [٢]. وفى ذلك دليل على اشتراك البيزنطيين مع الملك سلكو فى طرد البليميين من نوباديا إلى الصحراء الشرقية.

ومن الألقاب الأخرى التى ورد ذكرها مسبوقة بأسماء حامليها من الموظفين الملكيين Neciorp أى خصى أو أغا، وCipua Repitapio ومعناها البريدى أو حامل الرسائل، Cauata ومعناها أمين الأختام. وليس لدينا ما يوضح طبيعة العمل الذى مارسه أولئك الموظفون سوى ألقابهم التى يحملونها، وهى ألقاب بيزنطية أستعارها النوباديون وأطلقوها على موظفين فى بلادهم [٣].

(1) De Vllard, : op. cit. p. 85.

(2) Moric. L. J. : Hist. de l'Ethiopie et la Nubie Tomler p. 412.

أنظر أيضا : Beckett. H. W. : ASN, II. Roport 1907 - 8 p. I366.

(٣) يبدو أن النوباديين استعملوا هذه الألقاب البيزنطية ومنحوها لأشخاص ربما لم يسبق لهم ممارسة=

ثم مضو اولاد النار وسعو بالاب قايلين: هذا يكاتب ملوك الروم وينفذون اليه مالا كثيرا فانفذ [الوالى] سرعه واحضر ابانا وامر باعتقاله في موضع ضيق، ووكل به حفظه يحفظونه، وعول على عقوبته الى ان يدفع له الف دينار. وهو صابر ولم يزل يهدده الى ان استقر الحال على اربع مايه دينار، وفي جميع هذا الضربان يتزايد عليه والدم يجرى من تحته ولا ينام ليلا ولا نهارا ، ولم يقدر له على طبيب يداويه، ولم ينفع فيه دوا.

وعرفت نوباديا ومقرة بعد اتحادهما باسم النوبة، كما عرف ملك المملكتين باسم عظيم النوبة وعاصمته دنقلة [1] غير أن نقش تافه الخاص بالملك مرقوريوس والمكتوب سنة ٧١٠م يدل على أن هذا الحاكم يحمل لقب «ملك» ويشمل نفوذه جميع أجزاء مملكة النوبة المتحدة ـ نوباديا ومقرة. وإلى جانبه حاكم يحمل لقب نائب ملك Eparch [2] ويباشر سلطاته في نوباديا (مريس). وجاء في سيرة البطريرك ميخائيل (٧٤٤ – ٧٦٨م) التي جمعها ساويرس أن الملك كيرياكس Cyriacus (٧٥٠م) يسيطر على ثلاثة عشر ملكا [3]. ولهذا أطلق عليه

= مثل هذه الوظائف التي تحمل ألقابها. إذ لا يمكن أن نتصور مملكة حديثة النشأة لم يمض على تأسيسها أكثر من ١٥ عاما أن تطبق النظم البيزنطية بنصها وفصها، على حين أن حضارتهم التي سبق أن أشرنا إليها ، في حضارة المجموعة الثقافية لا توحى بمثل هذا النظام الذى لابد أن يمر في مراحل حضارية طويلة وأن يعتمد على أسس ثقافية عميقة.

De Villard op. cit. p. 86.

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص ٢٠٠، نص عقد الصلح الذى عقده عبد الله ابن سعد لعظيم النوبة «وأهل مملكته من حد أرض أسوان إلى حد أرض علوة».

(٢) إن اتحاد المملكتين نوباديا ومقرة تم على أساس أن تحتفظ كل من المملكتين باستقلالها الداخلي . ويظل حاكم المملكة الشمالية نوباديا أو مريس في منصبه يحمل لقب eparch «نائب ملك». والظاهر أن النوبيين احتفظوا بهذا اللقب حتى بعد أن شغر هذا المنصب بانسحاب نائب الإمبراطور البيزنطى في نوباديا على أثر خروج البيزنطيين من مصر ، ثم أطلق هذا اللقب على ملك نوباديا بعد اتحاد مملكته مع مقرة. أنظر:

De Villard, ;op. cit. p. 86.

(3) Griffith, FLI. Christ. Documents from Nobia. P. 28.

وكـان الاب مـعـتـقـلا على الاربع مـاية دينار، ويدعـو لله ليـلا ونهـارا قـايلا: ليـدخل اليك يارب ابتـهـالي وتنهـدات المعلولين الاسـرى. واقـام تحت الضـيق اياما وهو يهدده ويخـوفـه بسـبب احـضـار المال . وكـانو تلاميـذه واصحـابه تحت حـزن عظيم وقلق، فـاشـارو عليـه بدفع المال، فـقـال لهم الذى عليـه روح النبـوه: ان كـان مـا نخـرج من هذا الموضع حتى ندفع ما طلبه هذا الظالم، ففى اليوم السابع من دخولنا اليه يظهر ما يتعجب كل احد

لقب «الملك الكبير» [١] أوملك الملوك [٢] وعرف باسم ملك النوبة[٣] أو كابيل ملك مقرى ونوبة [٤] وعرف أحيانا باسم كاسل [٥].

واتخـذ ملوك النوبة عـادة شـارات للملك منهـا: السـرير (العـرش) ويصنع فى الغالـب من خشب الأبنوس، والتاج وهو مرصع بالأحجار الكريمة يعلوه صليب ذهب [٦]، ثم المظلة ترفع على رأس الملك فى المواكب[٧].

(١) أبو صالح ص ١٢٥.

(2) De Villard, :op. cit. PP. 97 - 99 - 172.

(٣) المسعودى : نفس المصدرجـ٣ ص ٣١.

(٤) يافوت معجم البلدان: ص ٣٢٣ -- «وملوكهم يزعمون أنهم من حمير ولقب ملكهم كابيل وكتابته إلى عماله وغيرهم: من كابيل مالك مقرى ونوبة» وربما كان أصل كلمة كابيل من قبل. وهو لقب أطلق على بعض أمراء اليـمن، ابن هشـام سيرة النبى جـ٤ ص ٢٥٨. ويقـول دى فيـار ص ١٧١ : وليس بمستبعد أن الأسرة المالكة النوبية ترجع في أصلها إلى جنوبى الجزيرة العربية، واذ عبر الحميريون البحر الأحمر واستقروا في السودان حيث نقلوا أسماء أجدادهم – مثل كوة – دارو – سبأ ولايبعد أن تكون الأخيرة حرفت إلي سويا (العاصمة).

(٥) الإدريسى : المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ١٩.

(٦) أبو صالح ص ١٢٥.

(7) De Vill ard: op. cit . p. 178.

منه من احكام الله التى تظهر سرعا، ثم دفع الاربع مايه دينار واطلقوه هو من كان معه فى الحبس. وانا كاتب هذه السيرة الحقير كنت معه فى السجن، الرب الشاهد لقد اتم كلام هذا القديس فى اليوم السابع من وزنه الدنانير ونحن عنده حتى دخلو اليه قوم اعلموه بوفاة الوالى، وأن مناديا ينادى فى الأسواق للناس قومو ادفنو الوالى، فمجد كل احد الله صانع العجايب مع قديسه. وصارو

وتمتع ملوك النوبة بسلطان مطلق على رعاياهم، فالملوك يملكون الأرض ومن عليها، ورعاياهم عبيد لهم، لاحق لهم فى امتلاك الأرض أو التصرف فيها ببيع أو شراء[1].

ولا خلاف بين الروايات التاريخية على أن نظام وراثة العرش النوبى كان يسير على نظام الأمومة [2]. ومن الدلائل على هذا قول أبى صالح «إن عادتهم جارية بأنه إذا مات ملك وخلف ولداً وكان له ابن أخت فيملك بعد خاله دون ولد الملك، وإن لم يكن له ابن أخت يملك ولده بعده بلاد النوبة» [3]، وسواء تمسك النوبيون بهذا النظام أو خالفوا بعض قواعده، فالمعروف أن وراثة العرش لم تخل من وقوع اضطرابات لسبب أو لآخر، بدليل ما جاء فى سيرة الأنبا ميخائيل من أم الملك زكريا بن مرقوريوس الذى خلف أباه على عرش النوبة سنة ٧١٠م آثر التفرغ للعبادة واختار لعرش النوبة أربعة ملوك تولوا الحكم واحدا بعد الآخر آخرهم كرياكس، ولم تخل هذه العملية من حوادث قتل واغتيال ذهب فيها أحد الملوك المتنافسين على العرش[4]. وارتقى عرش النوبة ملوك لا تعرف صلتهم بهذه السلسلة حتى جاء الملك

(١) المسعودى : نفس المصدر، جـ٣، ص ٤١.
(٢) نظام الأمومة – أى توريث ابن البنت أو ابن الأخت Matrelineam System وهو نظام حامى قديم ولازالت بعض الجماعات السودانية تسير عليه حتى الآن.
(٣) أبو صالح ص ١٢٥.

(4) De Villard : op. cit. p. 96 - 97.

اهل البلد يبجلون الاب ويكرمونه لما صبر عليه من الشدايد، الاحزان والضيق. وان الله قد خلصه من جميعها ويظهر على يديه العجايب.

ولما ناله من الضيق والحزن والشده و اراد الله ان يريحه من هذا العالم ويدعوه الى المساكن النيره ليكون فى الحياة الابديه كما وعد القديس وقال تتنعم الى الابد وتحيا الى الدهر. فاعتل بعد ذلك البطرك بحمى، وفى اليوم السابع من مرضه افتقده الرب واخذه اليه وتنيح في اليوم الثالث

زكريا بن يوحنا [١] ٨٢٣٠م) الذى عهد بولاية العهد لابنه جورج [٢] وتشير بعض المصادر السورية [٣] إلى زواج الملك زكريا هذا من أميرة من بيت الملك لكى يضفى على نفسه صفة الصلة الملكية، وأنه ظل يباشر سلطاته نيابة عن ابنه القاصر حتى بلغ سن الرشد. ومن الجائز أن زكريا هذا أحدا أفراد البيت الملكى بعلوة، وانتهز فرصة الاضطراب فى مملكة النوبة وضمها إليه، بدليل ما جاء فى بعض النصوص النوبية الخاصة بهذا الملك بأنه «نادى بنفسه ملكا» وهذه عباره غريبة على البروتوكول الملكى النوبى. والراجح أن اتحاد المملكتين «مقرة وعلوة» كان مؤقتا وتم بقوة السلاح [٤] ويبدو أن هذه العملية تكررت أكثر من مرة بدليل ما جاء فى قول المسعودى وأبى صالح من أن مقرة وعلوة كانتا تحت حكم ملك واحد [٥]. ثم أن ثمه

(١) تطلق المراجع العربية على هذا الملك اسم زكريا بن بخنس ، بيد أن هذه التسمية خطأ وربما كان اسم أبيه يحنس (يوحنا) وقرئت خطأ بعد قلب الياء باء والحاء إلى خاء

Ibid : op. cit. p. 106.

(٢) هو جورج الأول ابن زكريا وهو الذى قام برحلة إلى بغداد وحصل من الخليفة . المعتصم على وعد بتخفيف البقط كما سيجئ ذكره بعد، ويطلق عليه المقريزى اسم قيرقى.

(3) Michel Le Syrien : Chronique .. III. PP. 94 - 95.

(4) De Villard :op. cit. p. 100 - 106.

(٥) المسعودى: جـ٣ ص ٣١ «فأخبرت أن الملك للنوبة فى مدينة دنقلة كبرى ابن سرور وهو ملك ابن ملك فصاعدا وملكه يحتوى على مقرى وعلوة». أنظر أبو صالح ص ١٢٥ . «ملك النوبة له النوبة وأعمالها وأرض علوة والمقرة والأجناس المضافة إليها».

والعشرين من بابه سنة خمس ماية وست وستين(*) للشهدا، وكان يوم احد، وقت تناول السراير المقدسه.

(*) ٥٦٦ قبطية = ٨٥٠م = ٢٣٦هـ.

وكان مدة مقامه على الكرسي الإنجيلى الرسولى تمانى عشره سنه واحد عشر شهرا. وحملو جسده الى مدينة اسكندريه وجعلوه عند ابايه القديسين بمجد وكرامه، بكى الشعب عليه بدموع كتيره من اهل اسكندريه رجال ونسا لعدمهم رجلا ثبتا مجاهدا ونال أكليل الغلبة.

نزاعاً نشب داخل البيت الملكى النوبى على عهد جورج الأول. إذ ثار عليه ابن أخته وزوج ابنته نيوتى. بيد أن الملك جورج رصد له من يقتله [١]. فطالب ابن نيوتى بالعرش وبدأ صراع عنيف بينه وبين ابن الملك جورج.

الخلاصة أن ملوك النوبة توارثوا عرش آبائهم مخالفين فى هذا المبدأ الوراثى القديم الذى قام على أساسه المجتمع النوبى، على أن مخالفتهم لهذه القاعدة لم تدم. طويلا. ومنذ القرن الحادى عشرالميلادى أمست عملية انتقال الملك إلى ابن الأخت هى الظاهرة التى سادت التاريخ الملكى النوبى. ويذكر أبو صالح أن أحد ملوك النوبة ويدعى سلمون تنازل عن العرش لابن أخته زهدا فى الدنيا ورغبة منه فى التفرغ للعبادة فى إحدى الكنائس المصرية [٢].

(١) المقريزى: المقفى، مخطوط ، جـ٤، ص ١٦٦.

(٢) نزل هذا الملك ضيفاً على الخليفة المستنصر بالله الفاطمى الذى أحسن وفادته . وبعد موته دفن فى دير مارى جرجس - أبو صالح ص ١٢٤ - ١٢٥ «...كان يتعبد فى البيعة سلمون ملك النوبة لما نزل على الملك وخلع نفسه وقال من ذا الذى من الملوك يخلص من الحكم بين الناس من قبل الله تعالى ولم يميل مع الهوا ولم يسفك الدما ظلماً ولم يغتصب الناس لما لم يستحقه عليهم. فأنهى حاله إلى والى الصعيد الأعلا وهو سعد الدولة القواس فى خلافة المستنصر بالله ووزارة أمير الجيوش بدر، فسير من أخذه من هناك ووجه به إلى القاهرة. ولما وصل إلى الباب أكرم كرامة عظيمة... وبعد إقامته مدة تنيح ودفن فى دير القديس مارى جرجس بالخندق فى بطركية كيرلس وهو السابع والستين فى العدد وقبره من داخل سور البيعة مجاور الباب على يمين الداخل إليها.» أنظر روفيلة : تاريخ الأمة القبطية ص ١٤٠ ـ ١٤١.

وهذا ما شهدته بعينى واقتصرت على ما شرحته من كثرة عجاييه ونحن ندعو الى الرب ان يجعل صلواته معنا.

ويجب عليكم يا ساداتى القديسين ويجب على ايضا ان اعلمكم تمام نبوته مما كان قاله لى وهو فى الحياه، وتممه الرب بعد وفاته ليتعجب من يسمع ويمجد الله الممجد بمختاريه، وقد بديت وقلت ان فى الزمان الذى انزل قاضى الظلم على الاب البلايا بمصر قال: ان كنت انا خاطيا فان

والراجح أن النوبيين تمسكوا بمبدأ توريث ابن الأخت أو ابن البنت. وثبت مبدأ الوراثة على هذا النحو، وأضحى ركنا من أركان سياستهم التى ساروا عليها فيما بعد. غير أن هذا النظام لم يؤد إلى استقرار علاقة المتملكين وأولياء عهودهم من البيت الملكى النوبى، بل خلق مشاكل لم يكن من الهين عليهم حلها لصالح مملكتهم، فظهر الانقسام والتخاصم بينهم، مما أدى فيما بعد إلى سقوط المملكة المسيحية فى الشمال.

وجرى حكم الأقاليم على ما تقدمت الإشارة إليه من تعين ثلاثة عشر حاكما إقليميا أطلق عليهم جميعا لقب الملوك الخاضعين للملك الكبير بدنقلة [١]. وناب أولئك الحكام (الملوك) عن الملك الكبيرفى حكم الأقاليم، وكان عليهم إقامة الطقوس الدينية مثلما يفعل الكبير تماما، حتى وصفهم أبو صالح بأنهم «جميعهم كهنة [٢]». أما طبيعة وظائفهم الإدارية فلم يصلنا عنها شئ لعدم تعرض المؤرخين العرب أو غيرهم لهذا الموضوع، ومما لاشك فيه أن

(١) يفرق أبو صالح ص ١٢٥ بين هؤلاء الملوك وملك مقرة فأطلق على الأخير لقب الملك الكبير، أما هؤلاء الملوك الذين تحت طاعته فهم أشبه بالمكوك (جمع مك) الذين تولوا حكم الأقاليم فى عهد دولة الفونج وكانوا خاضعين للسلطان أو المانجل.

(٢) أبو صالح – ص ١٢٥ «وعدة ملوك النوبة ثلاثة عشر ملكا هؤلاء ضابطين البلاد وجميعهم تحت طاعة كريا كوس الملك الكبير وجميعهم كهنة...».

الله ينزل على هذا الرجل الظالم انتقاما لجل فعله ولكن ليس فى ايام حياتى بل بعد وفاتى.

ولما تنيح كان فى ذلك الزمان ملك للمسلمين اسمه جعفر بن إبرهيم(*)، فانفد الى مصر رجلا اسمه يعقوب بن إبرهيم ليكشف احوال مصر ويعرفه بها، فلما وصل اليها عرفوه بامر من الله حال القاضى الظالم وافعاله الرديه التى فعلها سرا وجهرا، فعند ذلك اخذه متولى الترتيب بغته ولم

(*) هو الخليفة هارون أبو جعفر الملقب بالواثق. تولى الخلافة بعد وفاة المعتصم فى ٧ فبراير ٨٤١م = ١٨ ربيع ثانى ٢٢٧هـ = ٥٥٨ قبطية.

حاكم مريس، كان أعظم هؤلاء الملوك وأكثرهم خطرا، وسماه المؤلفون العرب باسم صاحب الجبل (١). وأتخذ مدينة بجراش (٢) (فرس) عاصمة له. واتخذ هذا الملك فى اقليمه شارات خاصة وهى العمامة ذات القرنين والسوار الذهبى (٣). وعثر على صورتين تمثل صاحب الجبل فى زيه وشاراته: الأولى فى كنيسة عبد القادر والثانية فى فرس. وتمثل الصورة الأولى صاحب الجبل لابسا على رأسه عمامة يبرز منها قرنان، والعمامة مزينة فى واجهتها الأمامية بمثلثين متعاشقين، وهما رمز سليمان وفوقهما هلال صغير. وتمثل الصورة الأخرى صاحب الجبل

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ١ ص ١٩٠ يقول ايمن سليم: «... ولهذه الناحية (مريس) وال من قبل عظيم النوبة يعرف بصاحب الجبل من أجل ولاتهم لقربه من أرض الإسلام». وأطلق أبو صالح ص ١١٩ على هذا الملك لقب جوسار، ثم أطلق عليه صاحب الجبل. وربما ذكر أبو صالح اسم جريس الذى تولى منصب صاحب الجبل سنة ١٢٨٧ أى زمن أبى صالح ثم حرف إلى جوسار بدلا من جريس:
De Villard : op. cit. p. 135.

(٢) أطلق المقريزى جـ١ ص ١٩٠ على عاصمة مريس اسم بجراش على حين أن أبا صالح ص ١١٩ يطلق عليها اسم بجراس Bujaras والاسمان يطلقان على فرس الحالية قرب الشلال الثانى Griffiih, FLI: Faras... JEA. XI. p. 267.

(٣) أبو صالح : ص ١١٩) «بجراس Bujaras مدينة المريس.. وبها مقام جوسار اللابس العصابة Turban والقرنين والسوار الذهبين» ثم يعود فيقول «... مدينة تعرف بمدينة بوسقا مدينة حسنة.. وبها مقام صاحب الجبل». أما بوسقا فغير معروفه.

يعلم فظهرت جميع أعماله المرايه [المرائية] التى يرا [يرائى] بها الناس، وافعاله الباطنه النجسه الذميمه. فاخذه واشهره فى جميع شوارع مصر وحلق لحيته ونظف راسه. وكل احد يشاهده، ورماه الحبس نهب ماله.

وكل من كان ينطوى عليه من اصحابه تبددو فى كل موضع حتى اولاده، ثم نفاه الى مدينة الملك ومات هناك بموتة سو.

صورة إيبارك (هيزارك) صاحب الجبل، حاكم أقليم مريس وجدت قرب كنيسة فرس التى بنيت بالحجر على خلاف بقية كنايس النوبه. ويبدو الملك هنا حاملاً بيده نموذج كنيسة يبدو أنه مؤسسها والقديس راعى هذه الكنيسة أعلاها. كما أن السيد المسيح يحتضن إيبارك وياانده.
ومن الملاحظ على هذه الصورة اشتمالها على عدة رموز هامة منها تاج الملك الذى يحتوى على هلال وقرنين ونجمة سداسية. أما القرنان فيبدو أن استعمالهما كان استمراراً لعبادة أمون، الهلال هو فى الغالب أحد الرموز للأله القمر القادم من اليمن. والنجمة هى رمز سليمان ملك اليهود، ونحن نعرف أن اليهودية دخلت اليمن فى القرن الخامس الميلادى على وجه التقريب.

والقــاضى النايب عنه باسكندريه الذى امــر بضرب الاب انبا يوساب، عمل به مثل صاحبه واســر وهرب بعـد ذلك ولم يرجع احـد يراه فى المدينه، ولم يعـاينه احـد الى الان. وكل من نظر هذا او سمع به تعجب ومجد الله بسبب هذين الظالمين اللذين تم عليهما استحقاقهما والانتقام منهما كما هو مكتوب: جاهل وغير فهم يهلكان جميعا.

لابسا سوارا فى كلا ذراعيه لا تختلف كثيراً عن الأولى، ماعدا بعض زخارف على شكل قلب[1].

وتمتع صاحب الجبل فى إقليم مريس بسلطة لا تقل عن سلطة الملك الكبير، فكان عليه الدفاع عن حدود المملكة النوبية فى الشمال ضد أى غزو خارجي، وعدم السماح لأحد بالدخول إلى ما وراء الشلال الثانى مهما كان مركزه إلا بإذنه [2] ولهذا أقيمت مراكز

(١) تعتبر عادة لبس السوار الذهبى مظهراً من مظاهر السلطة، وهى عادة مأخوذة عن ملوك مروى الذين تبدو صورهم وأذرعتهم مضمومة وتحمل أساور ضخمة على جدران معبد النقعة قرب كبوشية وكذلك فى أهرام مروى، وهى تمثل ملوك مروى. ونسمع عن أسرة تعرف بسوار الذهب فى العصر الحاضر فى دنقلة. أما القرنان فيبدو أن استعمالهما كان استمراراً لعبادة آمون . ويرى دى فيار أن العمامة ذات القرنين و والمظلة والتاج من الشارات الملكية الساسانية التى وصلت إلى النوبيين إما عن طريق مصر أيام احتلال الفرس لها ما بين (٦١٦-٦٢٧م)، وإما وصلت عن طريق اليمن، لأنهم احتلوها مدة غير قصيرة ، وأن وجود الطاقية أم قرنين عند ملوك الفونج يؤيد وصولها من ناحية الجنوب. أما عن رمز سليمان فهو أثر يهودى، ونحن نعرف أن اليهودية دخلت اليمن فى القرن السادس وربما قبل ذلك أيضا. ولا يبعد ان يكون هذا الرمز مأخوذا عن الحميريين الذى وصلوا إلى وادى النيل الأوسط. أنظر الصورة فى الصفحة السابقة.

(٢) المقريزى : جـ١ ، ص ١٩٠ «وأول الجنادل من بلد النوبة قرية تعرف بتقوى هى ساحل واليها تنتهى مراكب النوبة المصعدة من القصر أول بلدهم، ولا تتجاوزها المراكب ولا يطلق لأحد من المسلمين ولا من غيرهم الصعود منها إلا بإذن من صاحب جبلهم» وفى موضع آخر «... ولا يطلق لأحد أن يجوزها إلا بإذن الملك (صاحب الجبل) ، ومن خالف كان جزاؤه القتل كائنا من كان . وبهذا الاحتياط تنكتم أخبارهم حتى أن العسكر منهم يهتم على البلد إلى البادية وغيرهم فلا يعلمون به».

ذكرنا لمحبتكم جهاد الاب القديس انبا يوساب ونذكر لكم فعله طول زمانه ومدة مقامه على الكرسي.

لم يشغل قلبه ولا شغله ما نزل عليه من الامور الصعبه بل كان مداوم الصلوات ليلا ونهارا، وكان يختم قراية المزامير في كل يوم، خمسه وسبعين مزمور بالنهار، وخمسه وسبعين مزمور الى نصف

عسكرية لمراقبة المرور ومنع تسرب أخبار البلاد إلى الخارج.وربما كان هذا الاحتياط الشديد لمنع تسرب العرب إلى ماوراء أطراف مريس جنوباً (١).

لم يقتصر مقام صاحب الجبل على مدينة فرس وحدها، بل كان مضطراً لأسباب حربية أو إدارية أن ينتقل من مدينة لأخرى. وذكر أبو صالح عدة مدن جرت عادة صاحب الجبل أن ينتقل بينها وهى: إبريم (٢)، ونجراس ويوسقا والدو (٣) وجزر ميخائيل (٤).

والى جانب الحكام الإقليميين فى مملكة النوبة كانت هناك طبقة أخرى من صغار الموظفين يحملون ألقاباً بيزنطية. ومن بين هؤلاء الموظفين من كان فى خدمة الملك مباشرة، ومنهم من كان في خدمة صاحب الجبل . غير أن معظم ألقاب هؤلاء الموظفين غير واضحة ومنها: خادم

---

(1) De Villard, : op. cit. p. 187.

(٢) أبو صالح ص ١٢١ «ومن بلاد النوبة مدينة إبريم وهى سكن صاحب الجبل». وكانت هذه المدينة طوال الاحتلال العثماني لمصر مكان لنفى المغضوب عليهم من الامراء المماليك، وقد استوطنها عدد من المماليك بعد مذبحة القلعة فى عهد محمد علي.

(٣) جاء في المواعظ والاعتبار ذكر بلدة أدواء التى ينسب إليها لقمان وذو النون المصرى، وأطلق عليها بورخارت اسم Adda أو الدر. غير أن دى فيار يرى أنها داود نسبة إلى شيخ بهذا الاسم سكن فيها وأخذت اسمه وهى تقع عند مدخل وادى الزرقاء.

(٤) وهى ذات أهمية استراتيجية هامة لوقوعها عند مدخل الشلال الثانى

De Villard, : op. cit. p. 140.

الليل، خارجا عما كان يقول من التسابيح بابتهال للرب ومسكنه وخشوع. وهذه التى كان عليها طول ايام حياته، اعنى التواضع والرحمه والسكينه والعفاف، وملازمة الصلوات واعطا الصدقات. حتى انه بعد هذه السنين التى اقامها بطركا كان همه وفكره وحواسه مثل من هو فى ركن من قلايه بوادى هبيب. فنال بذلك اكليل اعماله من

الملك أو أمين خاص الملك Domesticos، وأمين أول القصر الملكى Protodomesticos، وهى وظيفة كبيرة كان يشغل صاحبها إما منصب حاكم، أو أن يقوم بعمل القاضى أو يباشر بعض الشئون المالية. هذا فضلا عن حكام المدن، كحاكم مدينة درمس [١] الذى أشار إليه أبو صالح. ولابد أنه كان فى بلاد مريس موظف لمراجعة أوزان العملة حيث كانت العملة متداولة، بدليل ما جاء فى وثيقة عثر عليها فى مهندى «تسلمت ثمن أربع عملات طيبة ووزنها صحيح»، وأخرى فى نفس المدينة تدل على وجود موظف للإشراف على إصلاح المنازل. ومهما يكن من أمر فإن العدد الكبير من ألقاب الموظفين لم يعرف لها نظير، وتدل على مدى التعقيد فى الإدارة النوبية [٢].

(١) أبو صالح ص ١٢٥ « مدينة درمس من بلاد النوبة بها بيعة جليلة القدر حسنة الوضع مطلة على البحر فيها صفة صورة الملك الكبير وصورة صاحب درمس» ودرمس هذه هى تالمس (كلابشة الحالية).

(٢) كتبت هذه الألقاب باللغة النوبية وليست باليونانية أو القبطية، ومن عوامل تعقيدها واضطرابها أنها أخذت أصلا النظم البيزنطية وطبقت على الوظائف التى خلفها العهد المروى وما دخل عليها من تقاليد بدائية، على حين أن الشعب ظل محتفظاً بالألقاب والوظائف القديمة. وبمضى القرون اختفت التقاليد البيزنطية من مصر بعد دخول العرب فيها واختفت معها الألقاب التى تخلفت فى بلاد النوبة ولم يكن لها أساس أو معنى فى أذهان الناس، ثم حلت محلها أسماء وألقاب نوبية مما يستعملها الشعب وعادت بعض الألقاب المروية إلى الظهور من جديد فى الإدارة النوبية وهذا هو سر تعقيدها.
أنظر De Villard : op. cit. pp. 193 - 194.

الرب يسوع المسيح وصار مع القديسين فى كورة الاحيا، والمجد للاب والابن وروح القدس الى الابد امين.

تم الجز التانى من سير البطاركه القديسين صلواتهم تكون معنا وطلباتهم تحرسنا امين.

أما عن التنظيمات السياسية فى مملكة علوة فإن المراجع لا تذكر عنها شيئا يستحق الاهتمام. ويغلب على الظن أن نظمها السياسية تشبه ـ إلى حد بعيد ـ نظم الحكم فى مملكة النوبة (مقرة) ، فكبيرها عرف باسم «ملك علوة» وعاصمته صوبة [١] ، التى أطلقت عليها بعض المراجع المتأخرة اسم كوسة [٢]. واتبع ملوك علوة نظام الأمومة فى وراثة العرش [٣]. والراجح أن ملوك علوة تمتعوا بسلطة مطلقة على رعاياهم مثل ملوك مقرة. فالملك هو صاحب الأرض والشعب كله عبيده لا يخالفون له أمرا ولا يعصونه بدليل قول ابن سليم «وملكهم يسترق من شاء من رعيته بحرم وبغير جرم ولا ينكرون ذلك عليه بل يسجدون له ولا يعصون أمره على المكروه الواقع بهم وينادون الملك يعيش فليكن أمره [٤]». ولا نعرف من شارات ملكه سوى التاج.

(١) المقريزى : جـ١ ، ص ١٩٣.
(٢) الدمشقي : ص ٢٦٨ «النوبة صنفان أحدهما يقال لهم علوا وملكهم يسكن مدينة تسمى كوسة والآخر يسمى مقرا وملكهم يسكن دنقلة».
(٣) يؤكد ابن حوقل ، ص ٥٦ هذه الظاهرة بعد أن حققها بنفسه خلال زيارته لعلوة فيقول «ومن أعمر بلادهم في أرض علوة... وكان ملكهم وأنا بالناحية أسانيوس ارجوه بن حوقى وقد خلا له في ملكه سبع عشرة سنة، وتوفى فى مجلس ابن أخته أسطانيوس ابن بركى وهو مقيم فيهم إلى وقتنا هذا . ومن سنة جميع السودان إذا هلك الملك أن يقعد ابن اخته دون كل قريب وحميم من ولد وأهل».
(٤) المقريزى: جـ١ ص ١٩٣.

لا محل للخلاف في أن الطابع العام لحكومة الأقاليم في مملكة علوة يشبه ما كان معمولا به في دولة مقرة. اذ انقسمت المملكة إلى ولايات عرفت كل واحدة مها بالمملكة وعلى رأس كل منهـا ملك [١]. وكان ملك إقليم الأبواب الواقع في شمال المملكة (منطقة كبوشية الحالية)، أعظم أولئك الملوك الإقليمين قدراً وأعلاهم مقاماً.

* * *

وفيما يتعلق بالمجتمع النوبي المسيحي فقد اتفقت جميع الروايات التاريخية على أنه كان يتألف من طبقتين : الأولى وهى الطبقة الحاكمة، وتشمل الأسرة المالكة وعلى رأسها الملك الكبير سواء في دنقلة أو في سوبا، هذا فضلا عن حكام الأقاليم (الملوك). والطبقة الثانية هى طبقة العبيد، وهم عامة الشعب النوبى. وبين هاتين الطبقتين قامت فئة الموظفين، وقد تولى أفراد هذه الفئة مختلف الوظائف الملكية فى العاصمة والأقاليم، ولابد أن عددهم كان محدوداً . ومن الواضح أن الطبقة الحاكمة الشاملة للأسرة المالكة وفروعها هى وحدها التى مارست حقوقا سياسية ودينية [٢].

ويزعم بعض الكتاب ومنهم يوحنا النقيوسي والمسعودى وابن سليم والمهلبى أن ملوك النوبة يرجعون إلى أصل حميرى [٣] ويبدو أن المجتمع النوبى يشكل نوعا من الاقطاع غريبا فى تركيبه، ولم يعرف له نظير فى الإقطاع الأوربى أو غيره. فالملك هو صاحب الأرض، ولابد أن طبقة الحكام فى الأقاليم كان لهم نفس هذا الحق. أما الشعب فلا أملاك له، وهم عبيد الملك،

(١) سبق أن أشرنا إلى الأقاليم التى تتكون منها مملكة علوة والتى جاء ذكرها فى مخطوطه قلاوون، ولا حظنا أن حكام هذه المقاطعات عرفوا جميعاً باسم ملوك، كما عرف حكام مقاطعات مقرة بهذا اللقب كذلك. ومعنى هذا أن هاتين المملكتين الكبيرتين - مقرة وعلوة - كانتا تحتويان على عدد كبير من الممالك.

(٢) أشرنا من قبل إلى أن ملك النوبة وملوك الأقاليم مارسوا إقامة الطقوس الدينية وقاموا بأعمال القسس.

(٣) المسعودى: مروج الذهب جـ٢، ص ٣٧٢، ٣٨٣ جـ٣ ص٣١، ٣٣، ٣٤ «ملوكهم تزعم أنها من حمير».

المقريزى : جـ١ ص ـ١٩١، يقول ابن سليم «ويقال إن سلحا جد النوبة ومقرى جد المقرة من اليمن . وقيل النوبة ومقرى من حمير «أنظر .De Villard : op. cit. p. 160 وانظر كذلك Michael : op, cit. I. p. 168. ويرى دى فيار أن الشارات الملكية النوبية جاءت من بلاد اليمن على يد الحميرين الذين هاجر فريق منهم إلى النوبة حيث كونوا طبقة حاكمة، أنظر ص ٨٦. وكذلك .De Villard p. cit. p. 185

- -

يعملون في الأرض لصالح سادتهم [١]، يباعون ويشترون ويهدى بهم ويقومون مقام العملة. ويوضح ذلك أن العملة لم تعرف ببلاد النوبة إلا فى منطقة مريس، أماما وراءها جنوبا فالرقيق يقوم مقام العملة في البيع والشراء. فيقول ابن سليم الأسواني «ومن يخرج إلى بلد النوبة من المسلمين فمعاملته معه في تجارة أو هدية إليه (صاحب الجبل) أو إلى مولاه، يقبل الجميع ويكافئ عليه بالرقيق»، ثم يضيف «ولا يجوزها دينار ولا درهم، إذ كانوا يتبايعون بذلك إلا دون الجنادل مع المسلمين، ما فوق ذلك لا بيع بينهم ولا شراء، إنما هي مقايضة بالرقيق والمواشي والجبال والحبوب» [٢].

* * *

وفيما يتعلق بالتنظيمات الكنسية تشير جميع كتابات المؤرخين العرب والمصادر القبطية كذلك إلى أن بلاد النوبة اتجهت في زعامتها الروحية إلى الكنيسة المصرية [٣]. ويقصد بالنوبة هنا جميع بلاد مريس ومقرة وعلوة، وبدليل أن المقاطعات الكنسية التى أوردها فانسليب Vansleb [٤] في قائمته تشتمل على مقرة وعلوة وهاتان المقاطعتان الكنسيتان تشتملان على ثلاث عشرة أسقفية تابعة للكنيسة المصرية ومن هذه الأسقفيات : سبع في مريس وهي كورته وابريم وفرس ودنقلة وساى و تالمس (كلابشة) وشنقير [٥]. وأسقفيات علوة هى : بورا وجاجورا ومارتن وأوردياس وبنازى ومنكيزا [٦].

....

(١) المسعودى : مروج الذهب ، جـ٣، ص ٤١.

(٢) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ١ ، ص ١٩١.

(٣) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ١ ، ص١٩٣.

انظر أيضاً Roeder: op. cit. p. 384.

وكـــــذلك Renaudot : op. cit . pp. 178, 222.

(4) Vansleb, J.M. : Hist de l'Eglise D' Alex. Fonde par S. Marc. PP. 29-30.

لا شك أن قائمة فانسليب تحتوى على تحريف كثير لأسماء المدن والمقاطعات النوبية وهى تحتاج إلى تحقيق أنظر Crawford : op. cit. p. 26.

(٥) ذكر فانسليب هذه الأسقفيات محرفة وقد حاولنا تحقيقها كما هو واضح في المتن. وبعد أن ذكر فانسليب أن بالنوبة مقاطعتين كنسيتين هما مقرة وعلوة ، عاد فذكر أن أسقفيات مريس هى كذا وكذا. على حين أنه كان يجب عليه أن يذكر مقرة بدلا من مريس، وذلك لأنها تحتوى على أسقفيات لاتقع في حدود مريس ومنها . دنقلة، وساى، وشنقير. وهذا خلط في الأسماء.

(٦) من الصعب تحقيق هذه الأسماء فلا يوجد الآن ما يشبهها أو ماهو قريب منها. وموضع الصعوبة في قائمة فانسليب هو أنه نقل هذه الأسماء من مخطوط عربى أو قبطي، غير أنه لم يتمكن من مقابلتها=

غير أن الكنيسة الملكانية لم تتخل عن حقوقها الدينية القديمة في بلاد النوبة، وجاءت قوائم أقاليمها الكنسية متضمنة وجود أسقفية مريس ومطرانية نوبة [١]. لكن إذا جاز للكنيسة الملكانية أن تدعى نفوذا دينيا فى بلاد النوبة فهذا النفوذ لم يشمل مريس (نوباديا) بل اقتصر على مقرة ولمدة لم تتعد أوائل القرن الثامن الميلادى، بسبب تحول أهلها إلى مذهب الكنيسة المصرية . وبهذا أصبح لبلاد النوبة كلها «مريس - مقرة - علوة» كنيسة موحدة على رأسها مطران يعينه بطريرك الكنيسة المرقية ويتولى المطران رسامة أساقفة وقساوسةالبلاد جميعاً [٢].

والراجح أن أساقفة الكنيسة فى بلاد النوبة كانوا يرسلون من مصر، فيقول أبو صالح «ملك النوبة له النوبة وأعمالها وأرض علوة والمقرة والأجناس المضافة إليها.. وهى كرسى مارى مرقس الإنجيلى ومنه يقسم لهم» [٣] ويذكر أبو صالح أنه استمر العمل بهذا التقليد حتى أبطله الحاكم بأمر الله الفاطمى على عهد البطريرك زكريا (١٠٠٠ - ١٠٢٩م) [٤].

وشملت وظائف الاكليروس النوبى القسوس والشمامسة والمرتلين [٥]. وقد تقدمت الإشارة إلى ممارسة حكام الأقاليم (الملوك) وظائف كهنوتية علاوة على أعمالهم الإدارية. فكان من حقهم إقامة الطقوس الدينية داخل الهيكل، ويحرمون من ممارسة هذا الحق إذا ارتكبوا جريمة القتل [٦]. وقد يشغل القسيس أو الشماس منصباً إدارياً آخر إلى جانب وظيفته الدينية كموثق عقود أو أمين مخازن[٧].

=وتحقيقها، وثمة صعوبة أخرى وهى أنه نقلها بالأحرف اللاتينية فحدث تحريف وخطأ هجائى جعل من العسير مطابقتها على ما هنالك من أسماء، وعلى هذا فإن هذه المدن لا يعرف عنها شئ الآن.

De Villard. pp. 155 - 156 Crawford. p. 26.

(1) De Villard : op. cit. p. 130.

(2) De Villard :op. cit. p. 159.

(٣) أبو صالح ، ص ١٢٥ ، وترجمها بتلر فى حاشية ص ٢٧٢ من نفس الكتاب كما يلى:

"...Which consecrates (their bishops) for them".

(4) Roeder : op. cit. p. 386.

(5) De Villard : op. cit. pp. 166 - 167.

(٦) أبو صالح، ص ١٢٥ ، ويرى دى فيار أن هذه الصفة الدينية لملوك النوبة ربما ترجع إلى أصل فرعونى، وتسربت إلى الشعوب الإفريقية وظلت حتى العهد المسيحى فى بلاد النوبة. وأن فكرة النجاسة الناشئة عن قتل رجل منتشرة انتشاراً واسعاً .De Villard , P. 174 ولا تزال فكرة تقديس الملك أو الرئيس منتشرة عند الشعوب النيلية مثل رث (زعيم) الشلك.

(7) Ibid : op. cit. p. 167.

ويرأس الرهبان في الأديرة النوبية أرشمندريت «رئيس رهبان» . وورد في بعض النصوص أن الأسقف كان يتولى أحياناً منصب أرشمندريت[١] .

* * *

ويتضح من قول أبى صالح أن الطقوس الدينية بالكنائس كانت تودى باللغة اليونانية[٢]، غير أنه في خلال القرن الثامن الميلادى أخذ النوبيون يترجمون الطقوس الدينية عن اليونانية إلى اللغة النوبية [٣]. ويقول جريفث إن أول نص كتب باللغة النوبية يرجع إلى سنة ٧٩٥م[٤]. غير أنها لم تصبح لغة مدونة إلا منذ أواخر القرن العاشر الميلادى على الأقل[٥].

ودخل اللغة النوبية عدد من الكلمات اليونانية والقبطية [٦]، وكتبت بحروف ذات طابع قبطي، فضلا عن استعمال كثير من الحروف القبطية [٧]. وباستثناء بعض النقوش والكتابات المبعثرة هنا وهناك، فإنه لم يعثر إلا على سبعة مخطوطات باللغة النوبية تحمل الطابع الدينى ما خلا واحداً منها [٨]. وهذه المخطوطات وإن كانت عديمة القيمة من الناحية التاريخية فهى تلقى ضوءاً على طبيعة الأدب المسيحى في اللغة النوبية[٩]، واهمها المخطوط الذى كتبه الملك سلمون وأشار إليه أبو صالح [١٠]. ويوضح هذا المخطوط ما كان يتمتع به هذا الملك النوبى

(١) يشير دى فيار إلى لوحة عثر عليها في قبر توماس أسقف فرس وتدل على أنه كان يشغل أيضاً وظيفة ارشمندريت في دير موراج
De Villard : op. cit.

(٢) أبو صالح ص ١٢٥، «وقداسهم روميا»ويرى بتلر حاشية ص ٢٧٢. ونعرف من هذا الكتاب أن استعمال اللغة اليونانية في الطقوس الدينية ببلاد النوبة دليل على دخول المسيحية إلى هذه البلاد قبل أن ترجم الطقوس الدينية من اللغة اليونانية إلى اللغة القبطية في مصر أنظر

Budge, E. W. : Ethiopia, ... I, p. 117.

Budge, E. W. : The Egypt. Sudan II. P. 301.

Bulge, E. W.: Nubian Texts,pp. 7-10.

(3) Griffith. FLI : op. cit. p. 17.

(4) Griffith, FLI. : Oxford Ex. in Nubia, p. 55.

(5) Shinnie, P. L. ; Med. Nubia, P. 6.

ويرى شنى Shinnie أن اللغة النوبية القديمة ذات علاقة وثيقة باللهجة المحلية الحديثة المنتشرة ما بين الشلال الثانى وأبو فاطمة عند الشلال الثالث.

Ibid. : op. cit. pp. 6-7.

(6) Griffith, F. LI.: The Nubian texts of Christian period. pp. 5-6.

(7) Shinnie, P. L. : op. cit.

(8) Ibid. : op. cit. p. 70.

(9) Roeder, : op. cit. p. 392.

(١٠) أبو صالح، ص ١٢٤ – ١٢٥.

من علم ومعرفة. وتشتمل بعض هذه المخطوطات على ترجمة فقرات من الإنجيل وترانيم عن صلب السيد المسيح ومناقبه إلى اللغة النوبية (١) . ويحتوى بعضها الآخر على أعمال تشبه المعجزات قام بها الأسقف مينا، كما يحتوى على صورة تمثل هذا الأسقف، ممتطياً صهوة جواد وبيده رمح (٢)، وعلى الرغم من أن اللغة النوبية حلت محل اليونانية فى الصلاة إلا أن اليونانية ظلت تستعمل فى كتابة شواهد القبور حتى عهد متأخر يرجع إلى القرن الثانى عشر الميلادى، على حين أنه لم يعثر على شاهد قبر واحد باللغة النوبية (٣).

ومما لاشك فيه أن اللغة القبطية كان لها نفوذ واسع فى بلاد النوبة . فهى علاوة على أنها كانت لغة الوثائق الرسمية حتى القرن العاشر الميلادى على الأقل (٤)، نجدها قد استخدمت فى أغراض دينية كذلك. وكثير من شواهد القبور التى عثر عليها مكتوب باللغة القبطية. وأحياناً تسود اللغة القبطية على اليونانية فى كتابة شواهد القبور فى بعض جهات النوبة. ويرجع ذلك فى الغالب إلى هجرة جماعات من الأقباط واستقرارهم فى جهات النوبة المختلفة(٥). ويبدو ذلك واضحاً فى منطقة دير الغزال قرب مروى (٦).

غير أن معلوماتنا عن لغة أهل علوة قليلة جداً لضياع معظم آثارها. ويبدو مما ذكره ابن سليم أن أهل علوة ترجموا الطقوس الدينية إلى اللغة النوبية (٧). بيد أن الدمشقى يقول أنهم يقرأون الإنجيل بلغة الروم (٨). ومهما يكن من أمر فإنه لم يصلنا من مخلفات علوة اللغوى سوى شاهدى قبر عثر عليهما فى سوبا، يرجع أحدهما إلى سنة ٨٩٧م. وبفحص نقوشه وضح بما لايدع مجالا للشك أنها لغة نوبية مكتوبة بحروف ذات طابع متميز عن حروف اللغة النوبية فى المملكة الشمالية. ويقول جريفث ليس فيها أى أثر للغة اليونانية أو الحروف

(١) عثر على بعض هذه المخطوطات بادفو فى صعيد مصر واشتراها ملك ألمانيا وهى الآن بمتحف برلين. Roeder : op. cit. p. 392.

(2) Ibid op. cit. pp. 392-3.

(3) Griffith, FLl. : Oxford Ex, in Nubia. p. 53.
Sbinnie, P. L. : op. cit. p. 7.

(٤) يقول جريفث إن الوثائق الرسمية كانت تكتب بالقبطية حتى القرن ١٠م ثم حلت محلها اللغة النوبية.
Griffith, F.Ll. ; Christ. Doc. from Nubia pp. - 18.

(5) Griffith, F.Ll. : Oxford Ex in Nubia. p. 53.

(6) Shinnie, P. L. : op. cit. p. 7.

(٧) المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ١ ص ١٩٣.

(٨) الدمشقى: نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ص ٩٩.

القبطية [١]. غير أن لبسيوس ـ اعتماداً على مخطوط بمتحف برلين يشتمل على أنواع الكتابة المستعملة عند الشعوب التي تتكلم اللغات الحامية - يرى أن الكتابة التي يستعملها أهل علوة تعرف باسم كيليكيا [٢] كما يرى لبسيوس أن الكتابة التي أمكن العثور على نموذجين منها بالمتحف البريطاني تشبه الكتابة القبطية باستثناء بعض الزيادات التي دخلت عليها [٣]. ويوافقه شني على هذا، ويضيف أن الكتابات التي عثر عليها في سوبا لا تحمل دعاء لله أو اسم صاحبها [٤]. والخلاصة أن لغة علوة تختلف في طبيعتها وفي نوع كتابتها عن اللغة النوبية في مملكة مقرة [٥].

وإذا كانت رغبة أهل مقرة في الاستقلال بنوع خاص من الكتابة، هي التي دفعتهم إلى ترجمة الطقوس الدينية إلى لغة نوبية عامية كتبوها فيما بعد، فمن الصعب تفسير تمسكهم باللغة القبطية واليونانية دون النوبية في كتابة شواهد القبور [٦]. وهناك احتمال أن استمرار كتابة شواهد القبور بالحروف القبطية واليونانية عائد إلى أن محترفي كتابة هذه الشواهد كانوا من مصر ولا يجيدون نقش الحروف النوبية. ومن الطبيعي أن هذه القبريات سواء القبطية أو اليونانية لم تخل من تحريفان لغوية إملائية، فضلاً عن أنها لا تعبر إلا عن اسم المتوفى وعمره وتاريخ وفاته وطلب المغفرة له من الله، وقد تشير إلى منصبه الكنسي ، لكنها لا تذكر شيئاً عن تاريخ حياته أو نسبه [٧].

أما عن علاقة الكنيسة النوبية بالكنيسة المصرية، فلا شك أنها كانت طيبة. وفضلا عن إرسال الأساقفة المصريين إلى بلاد النوبة فإن ثمة علاقة نشأت بين ملوك النوبة المسيحيين وبطاركة الكنيسة المرقسية. ولعل مصدر هذه العلاقة هو ما اجتمع لملوك النوبة من سلطة سياسية ودينية معاً. وهذه السلطة الدينية جعلت منهم ممثلين للكنيسة النوبية. واختلفت طبيعة هذه العلاقات من حين إلى آخر تبعا لما تقتضيه مصالح الطرفين . مثال ذلك أن البطريرك إسحق تدخل حوالي سنة ٦٩٠م لفض نزاع نشب بين ملك النوبة وملك الحبشة ، غير أن

(1) Griffith, F. Ll. : Christian Documents from Nubia p. 14.

(2) Budge, E. W.: Nubian Texts pp. 7-8.

(3) Ibid : op. cit. p. 8.

(4) Shinnie, P. L. : Excavations at Soba, SAS. , III. P. 50.

(5) Budge, : op. cit. p. 8.

(6) Growfoot. J, W. : Christian Nubia, JEA. XIII, P. 146.

(7) Crowfoot, J. W. : op. cit. P. 146.

وساطته لم يقدر لها النجاح لخوفه من بطش عبد العزيز بن مروان والى مصر إذ ذاك (١). ومثال آخر أن خلافا نشب بين الملك زكريا ملك النوبة والأسقف كيرياكوس، وطلب الملك عزله، ولما لم يسفر التحقيق عن إدانة الأسقف . طلب البطريرك إلى الأسقف أن يقيم في إحدى الأديرة ، وعين من يقوم بعمله (٢).

وتتحدث المصادر القبطية عن حملة قام بها كيرياكوس ملك النوبة سنة ٧٥٠م على مصر لإرغام واليها على إطلاق سراح البطريرك ميخائيل(٣). وتفسر هذه الحملة من وجهة النظر النوبيـة (٤) أن البطريرك بات متمتعاً بحماية ملوك النوبة. لكن يبدو أن الملك النوبي انتهز فرصة ثورات الأقباط في إقليم الحوف بسبب نزع الصور المقدسة من الكنائس، وفداحة الضرائب، وقام بحملته على مصر.

ولما توترت العلاقات بين زكريا بن يحنس (يوحنا) ملك النوبة ووالى مصر بسبب امتناع زكريا عن تنفيذ التزاماته للخليفه، تدخل البطريرك يوساب لحسم هذا الخلاف ونصح زكريا بتنفيذ شروط العقد بين ولاة مصر وملوك النوبة. واستجاب الملك النوبي لهذه النصيحة وبعث بابنه جورج إلى بلاط الخليفة المعتصم ببغداد. وفي طريق عودته كرز له البطريرك مذبحا نصب في القصر الذى نزل فيه بالجيزة، وأقيم عليه القداس وسمح الوالى بدق الناقوس من سطح القصر(٥).

(1) Renaudot : op. cit. p. 178.

(2) Ibid. : op. cit. p. 221.
De Villard. : op. cit. pp. 96-97.

(٣) اختلفت المصادر القبطية حول تاريخ هذه الحملة واسم والى مصر إذ ذاك. أنظر الآراء المختلفة حول هذه الحملة في أبى صالح وكذلك .
De Villard,: op. cit
pp 97- 98.
Griffith. FLl. : Christ.Doc. p. 28.
Lane - Poole: op. cit. p27.

(٤) يشك بعض المؤرخين في مقدرة ملك النوبة على تجريد هذه الحملة لفقر النوبة وضعفها. ويرى رينودو أن الحبشة لابد آزرت النوبة في هذه الحملة.
Renaudot: op. cit. p. 222.
أنظر التفاصيل في
MacMichael: op. cit. I. p. 168.

(٥) علق رينودو على هذا المذبح بقوله: إنه الأول من نوعه إذ لم يكن هناك مذابح متنقلة ولم يسمح بإقامة الطقوس في أماكن بعيدة عن الكنائس.
Renaudot, op. cit. p. 285.

وجاء فى سيرة الأنبا فيلوتاوس البطرك ٦٣ (٩٧٠ - ٩٩٥م) أن الملك جورج ملك النوبة توسط لدى البطريرك لإعادة العلاقات الدينية بين الكنيسة المصرية والحبشة بعد انقطاعها مدة. وقبل البطريرك رجاء الملك النوبى[١].

وجاء فى تاريخ بطاركة الإسكندرية ما يشير إلى تجدد الاعتداء على البطريرك. ذلك أن اليازورى قبض على البطريرك كرستودولس وزج به فى السجن وصودرت أمواله بسبب ما ترامى إليه أن البطريرك يحرض ملك النوبة على عدم دفع التزاماته للخليفة، ونال الأقباط اضطهاد شديد. ولما وصلت أنباء هذه الحوادث إلى ملك النوبة أرسل معونة مالية للبطريرك ليستعين بها على تفريج أزمته[٢]. وثمة تهمة أخرى وجهت إلى البطريرك كرستودولس فى وزارة بدر الجمالى، ومجمل هذه التهمة أن البطريرك أرسل الأسقف فيتورى إلى بلاد النوبة وكلفه بهدم جميع المساجد الموجودة بها، لكن أظهر التحقيق الذى أجرى ببلاد النوبة كذب هذه التهمة وحكم على صاحبها بالاعدام[٣]. ولا يبعد أن يكون ملك النوبة تدخل لحسم هذا الخلاف لتمتعه بمكانة طيبة فى البلاط الفاطمى فى عهد المستنصر فجاء التحقيق فى صالح البطريرك.

غير أن تأثير الكنيسة النوبية فى حياة الناس لم يكن - فيما يبدو - قوياً، بل ظل المجتمع النوبى يعيش فى مثل ما عاش قبل دخول المسيحية. وربما كان بعض السبب فى هذا أن الطقوس الدينية تؤدى بلغة أجنبية لكبار رجال الدولة الذين اعتنقوا المسيحية أولاً وعلى رأسهم الملك الذى أمر النوبيين باعتناقها بأعتبارهم عبيده. وهو نفس الوضع الذى أدى إلى اسلامهم فيما بعد، فلم تختلط العقيدة الجديدة بقلوب الناس، وأخذت هذه الطقوس مظهراً تقليدياً رسمياً. فانحطت الروح الدينية ولم تظهر حركة إصلاح دينى، بل اكتفى النوبيون بترجمة الطقوس إلى اللغة النوبية التى لم تتخل عن بعض المعتقدات القديمة[٤].

ولم تنجب الكنيسة النوبية علماء متخصصين فى اللاهوت أو الفلسفة الدينية، أو رجال

(١) ساويرس بن المقفع: تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية،

(2) Renaudot. op. cit. p. 435.

(3) Renaudot. op. cit. pp. 443 - 445.

De Villard: op, cit. p. 128.

(4) Trimingham, J.S.: Islam in the Sudan. p. 70.

دين ذوى مثل مستمدة من تجارب القديسين والشهداء ـ مثلما كان الحال فى الكنيسة المصرية[١]. ولهذا ظل الجهاز الكنسى بيد رجال مصريين مبعوثين من الكنيسة المصرية. واقتصر العنصر الوطنى على تقلد الوظائف الدينية القليلة الخطر. وتحدد مستقبل الكنيسة النوبية بنوع العلاقات بين الكنيستين ـ غير أن هذه العلاقات لم تلبث أن خضعت لعوامل سياسية، فتأثر مركز الكنيسة النوبية تبعاً لهذا التدخل من جانب السلطات الحاكمة فى مصر. إذ منع الحاكم بأمر الله إرسال خطابات بطريرك الكنيسة المرقسية السنوية إلى كل من الحبشة والنوبة. وتبع هذا توقف إرسال الأساقفة مدة من الزمن، حتى إذا جاء العهد المملوكى وتعرضت الكنيسة المصرية لنوع من الضغط من جانب بعض سلاطين المماليك، فقدت بهذا نفوذها القديم فى بلاد النوبة. ومن الواضح كذلك أن اعتناق النوبيين للمسيحية كان صورياً، واقتصر أثرها حيث توجد المدن والقرى الكبيرة. وظلت الغالبية العظمى من النوبيين يمارسون عاداتهم القديمة[٢]. بدليل ما لاحظه ابن سليم من أن بعض سكان النوبة يعرفون الله ولكنهم يشركون معه بعض مظاهر الطبيعة كالنجوم والكواكب والأشجار ويعتقدون فى السحر[٣]. ويؤيد هذا وجود بعض التقاليد الموروثة عن العهد السابق للمسيحية. ومنها توريث ابن الأخت أو البنت، والطاقية أم قرنين كرمز للسلطة، ولبس السوار الذهبى، والختان الفرعونى، وبعض الشعائر الخاصة بحفلات الزواج والختان. ولابد أن هذه العادات لعبت دوراً هاماً فى حياة المجتمع المسيحى[٤].

* * *

وفيما يتعلق بالاقتصاد النوبى، فمعلوماتنا عنه قليلة وتعتمد أساساً على ما ورد فى كتب المؤرخين والجغرافيين العرب مثل ابن سليم الأسوانى وابن حوقل والإدريسى. ويبدو من كتابات هؤلاء أن الاقتصاد النوبى فى العهد المسيحى اعتمد على نوعين من الحرف هما الزراعة والتجارة. فضلا عن وجود الرعى فى مملكة علوة. ففى المملكة الشمالية (مقرة) تنحصر مواضع الخصب فى شريط ضيق يحاذى النيل، ويختلف ضيقا واتساعا من مكان إلى آخر.

(١) لم يسجل تاريخ الكنيسة النوبية استشهاداً أو اضطهاداً كما حدث فى مصر إبان عهدها الأول بالمسيحية. بل إن النوبيين قبلوا الدعوة الجديدة بأمر من ملوكهم.

(2) Crowfoot, J.W. : op. cit. pp. 142 - 143.

(٣) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص١٩٣.

(4) Crowfoot, J.W. : op. cit. pp. 142 - 143.

ففي جزئها الشمالي «مريس» ـ على حد قول ابن سليم ـ يضيق الوادى وتحفه الجبال من الجانبين، وتمتد القرى على حافة النهر. ويزرع النوبيون مساحات محدودة على شكل مدرجات تتراوح مساحتها من فدان إلى ثلاثة أفدنة اعتمدوا في ريها على الساقية. ونظراً لضيق الرقعة الزراعية اضطر النوبيون إلى زراعتها مرتين في السنة[1]. ويبدو أنهم عرفوا طريقة التسميد ليحافظوا على خصوبة التربة. واقتصرت زراعتهم على أنواع محدودة من الذرة وقليل من الشعير والسمسم واللوبيا، هذا فضلا عن انتشار أشجار النخيل في المدرجات العليا.

والجزء الجنوبي من مريس حتى المقس الأعلى، أشد أجزائها فقراً. إذ يمتد النيل بين حافتين جبليتين شديدتي الانحدار وصحراء قاحلة، «وبرها مجاوب ضيقة وجبال شاهقة وطرقات ضيقة حتى لا يمكن الراكب أن يصعد منها والراجل الضعيف يعجز عن سلوكها ورمال في غربها وشرقها، وفي جزائرها نخل يسير وزرع حقير وأكثر أكلهم السمك[2]».

وإلى الجنوب من ساى حتى دنقلة يختلف عرض الوادى من منطقة لأخرى ويعترض مجرى النهر عدد من الجزر العامرة. ويكثر شجر النخيل والبقل. وتظهر أحيانا بعض حدائق الكروم.

وإلى الجنوب من دنقلة حتى حدود علوة تزيد المسافة بينها وبين أسوان. ويبدو أن هذه المنطقة، أغنى جهات مقرة حيث يتسع الوادى قليلا فتكثر قطعان الماشية. وتتسع حقول القمح وحدائق الكروم وأشجار النخيل[3]. فيقول ابن سليم «ومسافة ما بين دنقلة إلى أول بلد علوة أكثر مما بينها وبين أسوان، وفي ذلك من القرى والضياع والجزائر والمواشي والنخل والشجر والبقل والزرع والكرم أضعاف ما في الجانب الذى يلى أرض الإسلام...».

ومما لا شك فيه أن مملكة علوة أغنى وأوسع ثروة من مملكة مقرة، لا تساع واديها وخصوبة أراضيها التى تعتمد في ريها على النيل أو مياه الأمطار الصيفية ويكثر فيها شجر النخيل ويزرع

---

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص١٩٠.

(٢) المصدر السابق، ص١٩١. تعرف هذه المنطقة الجنوبية من مريس باسم، الجنادل وهى المنطقة الممتدة من تقوى إلى المقس الأعلى، وتعرف الآن ببطن الحجر.

(٣) المصدر السابق، ص١٩٠.

الذرة[1]. «وسائر بقولهم من السلجم والبصل والفجل والقثاء والبطيخ»[2]. وعلى الرغم من اتساع الرقعة الزراعية في مملكة علوة إلا أن سكانها كانوا دون أهل مقرة في المستوى الحضاري، فلم يستغلوا خصوبة أرضهم استغلالا اقتصاديا، ولم يبذلوا جهداً في الاكثار من المحصول واتباع وسائل التسميد أو طرق الزراعة واعتمدوا على السحر[3].

والراجح أن الزراعة لم تكن من الوفرة والتنوع بحيث يمكن استغلال فائض منها في أغراض تجارية. أما التجارة فيبدو أن دور النوبيين فيها كان دور الوسيط للحصول على عمولة أو رسوم حماية التجارة وطرق القوافل[4]. ولم تعرف العملة الذهبية أو غيرها من أنواع العملات المعروفة آنذاك إلا في منطقة مريس. أما إلى الجنوب منها فكان يتم التبادل عن طريق المقايضة بالرقيق والمواشي والحبال والحديد والحبوب[5]. وتحدث بعض الكتاب العرب عن نقط تنتهي عندها التجارة على طول النيل. وهي بمثابة محطات يتم عندها التبادل التجارى مثل مدينة بلاق (جزيرة فيلة) التي كانت تنتهي عندها مراكب النوبة شمالا. وبلدة تقوى عند الشلال الثاني حيث تنتهي عندها مراكب النوبة المصعدة من القصر[6]. ويشير الإدريسي إلى ميناء نوبي آخر اسمه بلاق لا نعرف مكانه تماماً ويضعه بين ذراعي النيل وربما يقع قرب التقاء النيل بأتبرا. وفي هذا المكان يلتقي تجار النوبة ومصر والحبشة[7].

* * *

ولننتقل الآن إلى رسم صورة مبسطة لأهم مظاهر الحضارة النوبية في العهد المسيحي، ولعل أهم آثارها المادية تلك الكنائس المبعثرة هنا وهناك من أسوان شمالا إلى جبل سجدى بالقرب من سنار جنوبا. ويغلب عليها جميعا طابع عام مشترك، فهي من النوع المعروف باسم باسيلكا Basiliks والكنيسة النوبية بصفة عامة على شكل مستطيل توجد فيها ممرات في الجهة الشمالية والجنوبية تفصلها عن صحن الكنيسة سلسلة من الأعمدة. وفي الطرف الشرقي من

(١) المصدر السابق، ص١٩٣.
(٢) الإدريسي: المغرب. وأرض السودان ومصر والأندلس ص٢٠.
(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار جـ١، ص١٩٣.
(٤) الشاطر بصيلي: معالم تاريخ سودان وادى النيل ص٧.
(٥) المقريزي: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص١٩١.
(٦) المصدر السابق، ص١٩٠.
(٧) الإدريسي: نفس المصدر ص٢٠.

الكنيسة من الداخل يوجد الهيكل، ويقع المنبر عادة بالقرب من آخر عمود بالناحية الشرقية من الممر الشمالي[١]. إلا أن كنيسة دنقلة ذات طابع مختلف. فهي مكونة من طابقين، ربما استخدم الطابق السفلي كمخزن لحفظ أدوات الكنيسة. ويتصل بالطابق العلوى بسلم حلزوني. ويرى كروفوت، أن طراز الطابق العلوى لهذه الكنيسة يشبه طراز كنيسة حبشية قرب عدوة، وحول هذا الطابق العلوى أخيرا إلى مسجد[٢].

ويرى سومرز كلارك أن فن البناء في وادى النيل يختلف من مكان لآخر باختلاف المواد الطبيعية ودرجة كثافة السكان ومستواهم الحضارى. ويبدو من طابع البناء النوبى أنه متأثر بفقر البلاد وقلة مواردها الطبيعية وضعف المستوى الفنى[٣]. وإذا كان النوبيون استعانوا ببعض الفنانين المصريين لبناء كنائسهم وزخرفتها، إلا أن مادة البناء ـ ومعظمها من الطوب واللبن والطين ـ ظل الطابع السائد للعمارة النوبية[٤] باستثناء بعض الكنائس المبنية من الحجر مثل كنيسة فرس وكنيسة دير الغزال.

واقتصرت الزخرفة على الرسوم والنقوش على جدران الكنيسة الداخلية، غير أن معظمها اندثر بطبيعية الحال. ولعل أجمل هذه النقوش ما عثر عليه فى كنيسة عبدالقادر وكنيسة فرس. وعثر بجوار كنيسة عبدالقادر على نقش يمثل نائب ملك eparch في نوباديا فى ملابسه التقليدية حاملا نموذج كنيسة يبدو أنه مؤسسها[٥].

وفضلا عن هذا فإنه يوجد عدد من النقوش التى هى فى الواقع عبارة عن صور القديسين. ومشاهد من الإنجيل وأخرى لميلاد المسيح. ويرى جريفث أن طابعها العام يشبه الطابع البيزنطى[٦] ويقول شنى. إن الطابع العام لهذه النقوش يدل على البساطة وعدم النضج ولكنها توضح فى الوقت نفسه رغبة الفنانين وتحمسهم لفنهم[٧].

(1) Shinnie, p. L. : Medieval Nubia, pp. 8 - 9.
(2) Crowfoot, J. W. : op. cit. pp. 144 - 145.
(3) Somers Clarke. : Christian Antiquities in the Nile Valley p. 7.
(4) Griffith, F. Ll. : Oxford Ex. in Nubia, p. 52.
(5) Shinnie, P. L. : op. cit. pp. 12 - 18.
(6) Crowfoot, J.W. : op. cit. p. 146.
(7) Shinnie, P. L. : op. cit. p. 13.

أيقونه للسيدة الست مريم فى حالة تعبد (أيقونه حبشية)

ولم يعثر على بقايا مساكن إلا بأطلال سويا. وهى مبنية من اللبن وطرازها بسيط ساذج.

ويمكن التمييز بين نوعين من الفخار، فخار دنقلة وفخار سويا، إذ يشتمل الأول على أوانى صغيرة من طينة ناعمة ذات طلاء أبيض أو أصفر أو برتقالى. وكثير من هذه الأوانى يحمل رسوما لحيوانات أو رموزا مسيحية، وهى جميعا متأثرة بالفن القبطى، وأجود أنواع هذه الفخار يرجع إلى القرن التاسع أو العاشر الميلادى. أما فخار سويا فمن الآجر المطلى بطلاء أسود وبه زخارف على شكل زهور صغيرة صفراء وحمراء، وهو يمثل طابعا مستقلا لا وجود لمثله فى مقرة أو فى مصر.

النوبيون والعرب

الاتصال القديم بين الجزيرة العربية ووادى النيل ■ الهجرات العربية إلى مصر ■ أول اتصال بين المسلمين من ناحية وبين النوبيين والبجة من ناحية أخرى ■ توغل العرب جنوبا فى أرض النوبيين والبجة، عوامله ودوافعه المختلفة فى التاريخ ■ بعض آثاره السياسية والاجتماعية والثقافية حتى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ■ أثر الرق.

* * *

لقد صحب اتصال العرب بالنوبيين دخول لون جديد من الثقافة إلى بلاد النوبة، فصبغ سكانها بصبغة جديدة، وطبعهم بطابع خاص، مختلف عن الطابع القديم الذى اتصف به المجتمع النوبى فى العهد المسيحى. أما هذه الثقافة الجديدة فهى الثقافة الاسلامية.

وثمة ظاهرة أخرى هى نزوح بعض الجماعات النوبية من بلادها وتأثرها بتلك الثقافة خارج الوطن النوبى. وهذا العامل الأخير سنتعرض لذكرة فيما بعد.

أما عن صلة النوبيين بالعرب فقديمة وترجع إلى ما قبل ظهور الاسلام، وهذه حقيقة تؤيدها الحقائق الجغرافية والروايات التاريخية. ذلك أن البحر الأحمر لم يكن فى وقت من الأوقات حاجزاً يمنع الاتصال بين شواطئه الآسيوية وشواطئه الإفريقية، ولا يزيد اتساع البحر على المائة والعشرين من الأميال عند السودان. وليس من الصعب اجتيازه بالسفن الصغيرة.

وفى الجنوب يضيق البحر الأحمر جداً عند بوغاز باب المندب حتى لا يزيد على عشرة

أميال وهو الطريق الذى سلكته السلالات والأجناس من وإلى القارة الإفريقية منذ عشرات الآلاف من السنين(١).

ولعل التجارة كانت أهم وسيلة هذا الاتصال، إذ نشطت حركة تجارة العاج والصمغ واللبان والذهب بين الجزيرة العربية من ناحية وبين موانى مصر والسودان والحبشة من ناحية أخرى، واتخذ التجار العرب من بعض نقط على الساحل الإفريقى مراكز لهم، يوغلون منها بسلعهم وبضائعهم فى قلب القارة الإفريقية حتى وادى النيل على الأقل(٢). وفى الألفى سنة قبل الميلاد هاجرت جماعات عربية من جنوب غربى الجزيرة العربية إلى الحبشة. وبلغت هذه الهجرات أقصاها ما بين ١٥٠٠ ق م - ٣٠٠ ق م فى عهد دولتى معين وسبأ. وحمل المعينيون والسبئيون لواء التجارة فى البحر الأحمر ووصلوا فى توغلهم غربا إلى وادى النيل(٣). ونشطت حركة التجار العرب خاصة زمن البطالمة والرومان. ولاشك أن عدداً غير قليل من هؤلاء استقروا فى أجزاء مختلفة من حوض النيل، ولحق بهم عدد من أقاربهم وأهليهم. وفى القرنين السابقين للميلاد عبر عدد كبير من الحميريين (أهل اليمن) مضيق باب المندب فاستقر بعضهم فى الحبشة وتحرك بعضهم الآخر متتبعا النيل الأزرق ونهر أتبرا ليصلوا عن هذا الطريق إلى بلاد النوبة(٤).

وتشير بعض الروايات التاريخية إلى حملات عسكرية قام بها الحميريون فى وادى النيل الأوسط وشمال إفريقيا، وتركت هذه الحملات وراءها جماعات استقرت فى بلاد النوبة وأرض البجه وشمال أفريقيا(٥). ويرى ريد Reid أن هؤلاء الحميريين اختلطوا بالحاميين سكان

(١) محمد عوض محمد: السودان ووادى النيل ص ٣٨.

(2) MacMichael, H. A. : A History of the Arabs in the Sudan, I. pp. 3 - 4.
اتخذ هؤلاء التجار هذه المراكز كنقط ارتكاز تبدأ منها قوافلهم إلى مراكز التجارة الأساسية على النيل النوبى والنيل الأعظم. وكان لهؤلاء التجار وكلاء تجاريون فى كل هذه المراكز التجارية حيث يستقبلون القوافل التى ترد إليها من دارفور وليبيا وقلب إفريقية.

(3) Mac Michael, H. A. : op. cit. p. 4.

(4) Hamilton, J.A., ed: The Anglo Egyptian Sudan from Within p. 42.

(٥) ابن خلدون: العبر جـ١، ص١٧٦. تشير هذه الروايات الخيالية إلى حملة قادها أبرهة ذى المنار بن ذى القرنين الحميرى على السودان وبلاد النوبة والمغرب حوالى أوائل القرن الأول قبل الميلاد، ثم إلى حملة أخرى قادها ابنه أفريقش إلى شمال إفريقيا، واستقرت فى بلاد النوبة جماعات حميرية، ولعل وجود=

شرق السودان، وورثوا ملك أجدادهم من ناحية الأم حسبما يقضي به نظام التوريث المعروف عند الشعوب الحامية وهو توريث ابن الأخت أو ابن البنت(١). ويرى بول Paul أن ممن انتفع بهذا النظام الوراثي من العرب جماعة من الحضارمة ـ سكان حضر موت ـ الذين عبروا البحر الأحمر إلى ساحله الإفريقي في القرن السادس الميلادي ثم اختلطوا بالبجة وكونوا طبقة حاكمة خضع لها هؤلاء البجة المعروفون بالزنافج، وتعلموا لغتهم واعتنقوا المسيحية حتى يسهل عليهم قيادتهم والسيطرة عليهم(٢). وعلى الرغم أن عدد هذه الجماعات العربية المهاجرة لم يكن كبيرا، فما لا شك فيه أنها تركت بعض آثارها الثقافية ولا سيما في ناحيتي الدين والفن(٣).

أما الطريق الشمالي وهو طريق برزخ السويس، فهو ذو دور خطير في تاريخ العلاقات بين سكان الجزيرة العربية وسكان وادي النيل الأدنى منذ فجر التاريخ ولم تخل الآثار المصرية القديمة من الإشارة إلى بدو سيناء وفلسطين وسوريا وغيرهم من العرب الشماليين الذين عرفتهم مصر منذ عهد الأسرات الأول إما تجاراً يختلفون إلى الأسواق المصرية، أو غزاة

=العمامة ذات القرنين التي كانت شارة من شارات السلطة عند eparch نوباديا يفسر هذا الأثر الحميري بدليل أن أبا أبرهة عرف بالصعب ذي القرنين. انظر MacMichael: op. cit. pp. 7-8. ويشير ذي برسفال إلى حملة قادها أبو مالك ابن شمرير عش الحميري إلى معادن الزمرد في أرض البجه. ومن المحتمل أن يكون لقي حتفه هو ومعظم رجال جيشه حوالي منتصف القرن الأول الميلادي.

Causin de perseval, Essai sur l'histoire des Arabes avant l'Islamisme, I. p. 82.

هذا ويدعي سلالة ملوك البرنو الانتساب إلى سيف بن ذي يزن الحميري. انظر القلقشندي جـ١، ص١١٧.

(1) Reid, J. A. : "Some Notes on the Tribes of the White Nile Tribes," SNR" XIII, part II., 1930, p. 150.

(2) Paul, A. : A History of the Beja Tribes of the Sudan, PP. 64 - 67,

ويضيف بول أن هؤلاء الحضارمة عرفوا عند العرب الحدارية الذين استقروا في إقليم العتباي في الشمال، ثم اضطروا إلى الانتقال جنوباً في القرن الخامس عشر الميلادي حيث أسسوا مملكة البلو (مملكة بني عامر) في إقليم طوكر. أنظر المقريزي، المواعظ والاعتبار، جـ١، ص١٩٥.

(3) MacMichael, H.A. : op. cit. I. p.9.

يقول ماكمايكل MacMichael إن عبادة الشمس ظلت قائمة في تالمس (كلابشة) حتى حوالي منتصف القرن السادس الميلادي وهي العبادة التي كانت منتصرة في جنوب بلاد العرب والمستعمرات الحميرية في شمال الحبشة. أما عن الفن فيبدو أنه كان للسبئيين فيه بعض الأثر كما يبدو في الطابق العلوي من كنيسة دنقلة. فهو يشبه الطراز الحبشي المتأثر بالفن السبئي. هذا فضلا عن العمامة ذات القرنين كما سبق أوضحنا.

كالهكسوس، أو مهددين لمصالح الإمبراطورية المصرية فى سوريا، أو لاجئين يرغبون العيش فى كنف الفراعنة[1].

اتجهت سياسة المسلمين ـ منذ أن تم لهم غزو مصر ـ إلى فتح النوبة، وتلاقت رغبة الخليفة عمر مع رغبة قائده عمرو بن العاص فى مصر لضرورة غزو النوبة لضمان المحافظة على أطراف مصر من ناحية الجنوب وتأمين طريق التجارة[2] القديم بين البلدين. فأرسل عمرو فرقة من الفرسان بقيادة عقبة ابن نافع لفتح النوبة سنة ٦٤١م[3]. والراجح أن عدد المسلمين فى هذه الحملة لم يكن كبيرا بينما كانت خسائرهم كثيرة لشدة المقاومة التى أبداها النوبيون، فضلا عن مهارة هؤلاء فى الرمى بالسهام، حتى أطلق عليهم المؤرخون العرب اسم رماة الحدق[4] ولذا لم يستطع المسلمون أن يتوغلوا جنوبا.

بيد أن النوبيين بعد وفاة الخليفة عمر، أرسلوا سراياهم إلى الصعيد فخربوا وأفسدوا. واستعد عبدالله ابن أبى السرح الذى خلف عمرا فى ولاية مصر لملاقاتهم، رغبة منه فى تقليد الغزوات التى قام بها سلفه ومنافسه عمرو[5]. وتمكن جيش ابن أبى السرح من التوغل جنوبا حتى دنقلة عاصمة المملكة المسيحية الشمالية «مَقُرّة» سنة ٦٥٢م وحاصرها حصاراً شديداً واستخدم المنجنيق فى ضرب المدينة فخربت كنيستهم. ويقول المقريزى نقلا عن ابن سُلَيم الأسوانى فبهرهم أى (النوبيين) ذلك وطلب ملكهم واسمه قليدورث (قليدور) الصلح وخرج إلى عبدالله وأبدى ضعفا ومسكنة وتواضعا فتلقاه عبدالله ورفعه وقربه...» وقرر القائد العربى عقد صلح عرف باسم البقط[6]، مؤداه أن يدفع ملك النوبة لبيت مال المسلمين ٣٦٠ رأساً من الرقيق، ووعده عبدالله بن سعد بهدية سنوية من حبوب وملابس لما شكا له الملك النوبى قلة الطعام فى بلده. وكتب عبدالله بن سعد للنوبيين عهداً يعتبر أساساً للعلاقات بين عرب

---

(1) Breasted, J. H. : A History of Egypt from the earliest times to the persian Conquest, pp. 25 - 26, 214 - 219, 388.

(٢) المسعودى: مروج الذهب جـ٣، ص٣٨ ـ ٣٩.
(٣) ابن عبدالحكم: كتاب فتوح مصر وأخبارها، ص ١٦٩.
(٤) البلاذرى: فتوح البلدان، ص٣٣٦.

(5) Lane - Poole (S.): A History of Egypt in the Middle Ages, p. 21.

(٦) البقط ما كان يؤخذ من النوبة فى كل عام فى قرية القصر على بعد خمسة أميال جنوبى مدينة=

مصر والنوبة المسيحية. وقد نص فيه على حدود معلومة للمملكة التى عقدت الصلح مع المسلمين، وتمتد من أسوان شمالا إلى حد أرض علوة جنوبا أى إلى منطقة الأبواب (كبوشية الحالية). وبهذا لا يشمل الصلح دولة علوة المسيحية لعدم وصول جيوش المسلمين إليها، فضلا عن أن العقد لم يشر إلى البجة.

وينص هذا العقد كذلك على تأمين أهل النوبة وتأكيد بعدم محاربتهم ما داموا قائمين على تنفيذ الشروط التي بينهم وبين المسلمين، ومنها: إرسال ٣٦٠ رأساً من أفضل رقيق بلدهم، وحفظ من نزل بلدهم من مسلم أو معاهد، وحفظ المسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتهم، ولا يلتزم المسلمون بدفع عدو أو مغير على بلادهم[١].

ويرى بعض المؤرخين أن هذا الصلح جعل النوبيين والمسلمين على قدم المساواة فلا غالب هناك ولا مغلوب بدليل ما يدفعه المسلمون من أشياء مساوية تقريبا لما يدفعه النوبيون، وأنها مصلحة متبادلة[٢]، وهى أشبه بمعاهدة تجارية.

وعلق بعض المؤرخين العرب على هذه المعاهدة: فقال البلاذرى[٣] «ليس بيننا وبين الأساود عهد ولا ميثاق، إنما هى هدنة بيننا وبينهم». ويمكن أن يفسر هذا العقد بأنه معاهدة حسن جوار يحقق للمسلمين الاطمئنان على سلامة حدودهم من ناحية الجنوب، وفتح البلاد

=أسوان، ولفظ البقط حسب اجتهاد بعض الباحثين لفظ مشتق من أحد أصلين: الأول لاتينى يونانى الأصل ومعناه الاتفاق أو الموادعة، والثانى مصرى قديم وهو باق ومعناه الضريبة التى تدفع عيناً. أنظر ملحق رقم ٧.

Trimingham, J.S.: op. cit. p. 62 Note 3.

أما المقريزى فى المواعظ والاعتبار جـ١ ص١٩٩ فيذكر أن «البقط ما يقبض من سبى النوبة فى كل عام ويحمل إلى مصر ضريبة عليهم، ومعناه بعض ما فى أيدى النوبة. أنظر ملحق رقم ٧.

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص١٩٩.

(2) Becker, C.H. : Ency. Isl. L.,p. 6082. MacMichael, H.A.: op. cit. p, 158.

(٣) البلاذرى: فتوح البلدان، ص ٣٣٦، أخذ البلاذرى هذه المعلومات عن يزيد ابن أبى حبيب أحد سبى النوبة وكان يعيش فى مصر. وحفظ هذه الرواية شيوخ عن شيوخ ممن اهتموا بأمر النوبة، ومنهم، ابن أبى لهيعة وعبدالله بن صالح.

للتجارة، والحصول على سواعد النوبة القوية فى خدمة الدولة، وحفظ مصالح المسلمين وحريتهم الدينية، ونشر الثقافة الإسلامية فى بلاد النوبة بالطرق السلمية. ومهما يكن من أمر هذه المعاهدة، فإنها ظلت تمثل نوعا من الاتصال الدائم بين المسلمين والنوبيين المسيحيين مدة ستة قرون[١].

* * *

ومن الملحوظ فى هذه المعاهدة أن البجة[٢] لم يرد عنهم نص فيها، ويرجع هذا كما يقول ابن عبدالحكم[٣]، إلى عدم اكتراث عبدالله بن سعد بهم. غير أنهم ما لبثوا أن أغاروا على صعيد مصر حوالى سنة ٧٢٥م. فصالحهم ابن الحبحاب وكتب لهم عقداً[٤] ينص على دفع ثلثمائة من الإبل الصغيرة، على أن يجتازوا الريف تجارا غير مقيمين، وألا يقتلوا مسلماً أو ذمياً وألا يؤووا عبيد المسلمين، ويظل وكيلهم فى الريف، رهينة فى يد المسلمين.

غير أنه لم يكد يمضى قرن على هذه المعاهدة حتى عاد البجة إلى شن الإغارات من جديد على جهة أسوان وكثر إيذاؤهم للمسلمين فرفع ولاة الأمور فى أسوان خبرهم إلى المأمون (٨١٣ ـ ٨٣٣م) فجرد عليهم حملة بقيادة عبدالله بن الجهم سنة ٢٣٢هـ (٨٤١م) فكانت له معهم وقائع انتهت بموادعتهم وكتابة عقد جديد بينه وبين رئيسهم كنون بن عبدالعزيز[٥]، ومن أهم شروطه:

(١) استمر العمل بهذه المعاهدة حتى قيام الدولة المملوكة الأولى فى مصر، وعندها تأخذ العلاقات بين المسلمين والنوبيين شكلا آخر سنتعرض لذكره فيما بعد، وهو الدور الذى سيؤدى إلى سقوط المملكة المسيحية الشمالية (مقرّة).

(٢) أطلق المؤلفون العرب هذا الاسم على الشعوب الحامية التى تسكن الصحراء الشرقية ما بين النيل والبحر الأحمر، وتمتد أوطانهم من جنوبى مصر فى الشمال إلى حدود الحبشة فى الجنوب، وهم ما يعرفون الآن باسم البشاريين والهدندوة والامرار وبنى عامر. وآثرنا أن نتعرض للحديث عنهم هنا لارتباط تاريخهم بتاريخ جيرانهم النوبيين، وأن السرب. العربى جنوبى مصر لم يشمل النوبة فقط بل أرض البجة كذلك. وتحدث اليعقوبى عنهم وعما سماه ممالكهم، فى كتابه: تاريخ اليعقوبى، جـ١، ص٢١٧ ـ ٢١٩.

(٣) ابن عبدالحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص١٨٩.

(٤) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٥) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص١٩٥.

١ـ أن تكون بلاد البجة من حد أسوان إلى حد ما بين دهلك (مصوع) وباضع (جزيرة الريح) ملكا للخليفة ، وأن كنون بن عبدالعزيز وأهل بلده عبيد لأمير المؤمنين على أن يبقى كنون ملكا عليهم.

٢ـ أن يؤدى ملك البجة الخراج كل عام مائة من الإبل أو ٣٠٠ دينار لبيت المال.

٣ـ أن يحترم البجة الإسلام ولا يذكروه بسوء، وألا يقتلوا مسلما أو ذميا حرا أو عبدا فى أرض البجة أو فى مصر أو النوبة، وألا يعينوا أحدا على المسلمين.

٤ـ إذا دخل أحد من المسلمين فى بلادهم للتجارة أو الإقامة، أو مجتازا للحج، فهو آمن لآخر حدهم.

٥ـ إذا دخل البجه صعيد مصر مجتازين، أو تجارا لا يظهرون سلاحا ولا يدخلون المدائن والقرى.

٦ـ ألا يهدموا شيئا من المساجد التى ابتناها المسلمون بصيحة وهجر.

٧ـ وعلى كنون أن يدخل عمال أمير المؤمنين بلاد البجه لقبض صدقات من أسلم من البجه.

وفى رواية لابن حوقل أن أفرادا من البجه «أسلموا إسلام تكليف وضبطوا بعض شرائط الإسلام وظاهروا بالشهادتين ودانوا ببعض الفرائض»[١] ولهذا سامحهم عبدالله بن سعد ولم يحاربهم.

وفى نهاية القرن السابع الميلادى عبرت جماعة من عرب هوازن البحر الأحمر واستقرت فى أرض البجه حيث عرفوا باسم الحلانقة، ثم انتقلت إلى منطقة تاكة. ويرى بول أن هؤلاء الحلانقة كانوا أول من استقر من العرب المسلمين فى الوطن البجاوى[٢].

ويقال إن جماعات من الأمويين لجأت إلى بلاد البجه فى منتصف القرن الثامن الميلادى هربا من مذابح العباسيين، واستقر عدد منهم فى ميناء باضع (جزيرة الريح)[٣]. وفضلا عن

(١) ابن حوقل: كتاب صورة الأرض، ص٥٠ ـ ٥١.

(2) Paul, A.: A Hist. of the Beja Tribes of the Sudan, p. 73.

(٣) المسعودى: كتاب التنبيه والاشراف ص٣٠، ويرى بلوس أنه عثر على مقابر هؤلاء الأمويون على طول الطريق الذى سلكوه. Bloss, J.F.E.: The Story of Suakin," SNR., XIX., II., 1936., p. 279.

هذا فإن الأبحاث الأركيولوجية أثبتت وجود جاليات إسلامية فى منطقة خور بنت الواقعة على مسافة ٧٠ ميلا غربى سواكن. إذ عثر على شواهد قبور عربية يرجع تاريخها إلى منتصف القرن الثامن الميلادى (٧٦٠م)، ودل البحث الأثرى كذلك على وجود مسجد فى سنكات يرجع تاريخ بنائه إلى عام ٨٣١م[١].

ويرى بلوس Bloss أنه بعد الغزو العربى لمصر هاجرت جماعات عربية على طول الساحل الإفريقى للبحر الأحمر واستقرت فى أرض البجه واختلطت بهم وتزوجت من بناتهم على الرغم من أن موجة الفتوح الإسلامية كانت لا تزال على شدتها على طول ساحل البحر المتوسط[٢].

وفى رواية لابن حوقل أن جماعات من عرب الحوف وخاصة من قيس عيلان قامت بهجوم على البجة لتعديهم على أهل مدينة قفط قبل أن تغزوهم قوات ابن الجهم بحوالى ٣٠ سنة، ولا يبعد أن يكون هؤلاء استقروا فى العلاقى حيث توجد آثارهم. ويضيف ابن حوقل إلى أن بعض الذين اشتركوا فى حملة ابن الجهم ضد البجه آثروا البقاء فى العلاقى حيث بهرتهم معادن الذهب، ثم لحقت بهم ـ فى نفس الوقت ـ جماعات من أهل اليمامة، بسبب ضغط جماعات عربية أخرى.

ولم يكد يمضى أكثر من ست سنوات على حملة ابن الجهم على البجه حتى وفدت جماعات من ربيعة وجهينة سنة ٢٢٣هـ (٨٣٧م) إلى العلاقى بعد أن وصلتها أنباء المعادن التى تحويها تربة هذا الوادى[٣].

ومما لا شك فيه أن هذه الجماعات الإسلامية المختلفة تركت لونا من التأثير فيمن اختلطت بهم من البجه، بل أن بعضهم تخلف فى بلاد البجه وتعلم اللغة البجاوية ليسهل عليه التعامل مع البجاويين والتأثير فيهم. والدليل على ذلك أن زكريا ابن صالح المخزومى من سكان جدة وعبدالله بن إسماعيل القرشى قاما بترجمة عقد ابن الجهم إلى اللغة التبداوية[٤].

* * *

(1) Crawford, O. G.S.: The Stone Tombes of the N. E. Sudan, Kush. No. 2, 1954. p. 86.
Combe, E.T. : "Four Arabic Inscriptions from the Red Sea", SNR, XIII. PP. 288 - 291.

(2) Bloss, J.F.E.: op. cit. p. 278.

(٣) ابن حوقل: كتاب صورة الارض، ص٥٣.

(٤) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص١٩٦.

وإذا كانت الحملات الحربية التأديبية التى وجهها ولاة مصر ضد البجه أتاحت الفرصة لبعض الجماعات العربية للتعرف على خصائص البيئة البجاوية فاستقرت فيها واختلطت بسكانها فضلا عن وضع هذه الجهات من الناحية الرسمية ضمن النفوذ الإسلامى، فإن ثمة حملات حربية وجهها ولاة مصر المسلمون إلى بلاد النوبة كذلك لمثل هذا الغرض، وكانت هذه أيضا فرصة لبعض الجماعات العربية للاستقرار إلى جوار النوبيين والاختلاط بهم وخاصة فى منطقة النوبة السفلى. وترجع أسباب هذه الحملات الإسلامية نحو النوبة ـ فى الغالب ـ إلى اجبار النوبيين على دفع البقط. على أن ولاة مصر تمسكوا بهذا البقط وشروطه لما فيه من مبررات للاحتكاك والاعتداء لبسط نفوذهم على تلك الجهات، وكانوا من ناحيتهم لا يتأخرون فى مهاجمة النوبة كلما ماطلت أو ساومت فى دفع البقط. وربما كان البقط فى ذاته حملا ثقيلا ضاق به النوبيون ذرعا لما استتبعه من إعداد الرقيق الذى يرسل شخصيا للوالى أو لنائبه فى أسوان، أو إلى الوفد الذى كان يذهب لتسلم العدد الرسمى، فضلا عن حرمان النوبة من أفضل عناصرهم فى الجيش والأرض وذهابه للخدمة فى بلاط الخليفة أو الوالى فى مصر، ولم تخل عملية إعداد الرقيق سنويا من صعوبة لاضطرار النوبيين لشن الإغارات على جيرانهم للحصول على العدد المطلوب أو تعويضه من أبنائهم فيقول البلاذرى[١]، «وقد ادعوا (النوبيون) حديثا أنه ليس يجب عليهم البقط لكل سنة، وأنهم كانوا طولبوا بذلك فى خلافة المهدى، فرفعوا إليه أن هذا البقط مما يأخذون من رقيق أعدائهم فإذا لم يجدوا منه شيئا، عادوا على أولادهم فأعطوا فيه منهم بهذه العدة»، وفى كلتا الحالتين استنزاف قوى النوبيين، ولهذا حاولوا التخلص من هذه التبعية المذلة للدولة الإسلامية.

ومع هذا فإن النوبيين ظلوا يؤدون البقط سنوياً ويدفع لهم ما يقابله من جهاز. وكانوا إذا عجزوا عن دفع البقط يرغمهم ولاة المسلمين القريبون من بلادهم على دفعه بشن الإغارات عليهم، والامتناع عن إخراج الجهاز إليهم حتى إذا كانت أيام الخليفة المعتصم بالله (٨٣٣ ـ ٨٤٣م) وعظيم النوبة وقتذاك زكريا بن يوحنس (يوحنا) أنكر عليه إبنه وولى عهده جورج (قيرقى) بذل الطاعة للمسلمين واستعجزه فيما يدفع، وطلب إليه عصيانهم وشن الحرب عليهم. وامتنع النوبيون فعلا عن إرسال البقط مدة أربعة عشر عاماً واجه النوبيون خلالها ضغطاً حربياً متواصلا من جانب ولاة الصعيد الأقصى. غير أن زكريا رأى أن يوفد ابنه جورج

(١) البلاذرى: فتوح البلدان، ص٣٦٦.

إلى بلاط الخليفة في بغداد ليعاين بنفسه قوة المسلمين ومدى استعداد النوبة لمقاومتهم «حتى يحاربهم على خبرة» أو يحاول كسب ود المسلمين وعطفهم[1]. فشخص جورج إلى بغداد، وأتاحت له هذه الرحلة فرصة التعرف على مدى قوة المسلمين، «فبهره كثرة الجيوش وعظم العمارة» وأدرك ألا طاقة له بمخالفتهم، لاسيما وأن المعتصم أحسن وفادته وأكرمه[2]. وتم الاتفاق[3] على أن يدفع بقط سنة كل ثلاث سنين على ألا ينقص المسلمون ما سبق أن تعهدوا بدفعه من حبوب وثياب وغيرها. ولبى الخليفة طلب ولى عهد النوبة بالإفراج عن المسجونين النوبيين ولم يجبه إلى إزالة المسلحة التى أقامها المسلمون بمدينة القصر[4].

* * *

غير أن البجة عادوا إلى الفتنة، فأغاروا على الصعيد وامتنعوا عن دفع الخراج وقتلوا كثيرا من المسلمين بمناجم الذهب بالعلاقى، وكتب عامل البريد في مصر إلى الخليفة المتوكل ٢٣٢هـ - ٢٤٧هـ (٨٤٧ - ٦٨١م) فندب لحربهم محمد بن عبدالله القمى سنة ٢٤١هـ (٨٥٤م). وكتب الخليفة إلى واليه على مصر عنبسة بن إسحاق الضبى بأن يمده بالرجال. فسار القمى في عشرين ألفا من الجند والمتطوعة[5]. وسار إلى أسوان وأتى العلاقى فأخذ من ربيعة ومضر واليمن ثلاثة آلاف رجل من كل بطن ألف رجل»[6]. ووافته المراكب من البحر حاملة المؤن إلى ميناء عيذاب. ولجأ ملك البجه إلى المطاولة لتجويع المسلمين، غير أن القمى لجأ إلى حيلة حربية بارعة[7]، انهزم بسببها البجة، وأثخن فيهم القمى حتى طلب

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص٢٠١.
(٢) المقريزى: نفس المصدر، جـ١، ص٢٠١.
(٣) ليس من المعروف تماماً تاريخ هذا الاتفاق، ولكن المقريزى ذكر أنه كان في عهد المعتصم (٨٣٣ - ٨٤٣م) وورد أيضاً في كتاب «تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية لساويرس بن المقفع في حديثه عن حياة البطريرك يوساب البطرك ٥٢ (٨٣٠ - ٨٤٩م) أنظر MacMichael, H.A.: A Hist. of the Arabs in the Sudan, I. d. 164, Note 3.
(٤) المقريزى: نفس المصدر، جـ١، ص٢٠١.
(٥) البلاذرى: فتوح البلدان، ص ٢٣٩.
(٦) ابن حوقل: صورة الأرض. ص٥٣، يدل هذا العدد الذى اشترك في حملة القمى من ربيعة ومضر واليمن على اتساع أعمال المسلمين في إقليم المناجم وكثرة عددهم.
(٧) البلاذرى. نفس المصدر، ص ٢٣٩.

ملكهم على بابا(١) الصلح، على أن يدفع الخراج لما سلف ولما يأتى، وألا يمنعوا المسلمين من العمل فى المعدن. فصالحهم القمى «على أن يطأ على بابا بساط الخليفة فى سر من رأى» حيث أكرمه الخليفة(٢).

وعلى الرغم من أن على بابا يظل على دينه ولم يعتنق الإسلام(٣)، فإن صلحه مع العرب سنة ٨٥٤م كان تأكيدا لما سبق أن تعاقد عليه العرب والبجه واستغلال مناجم الذهب والزمـــــرد(٤). وبات العرب متمتعين بحماية الدولة الإسلامية وعين عليها وال من قبل الخليفة(٥) فاجتذبت هذه المعادن إليها جماعات عربية قامت على استخراجها والاتجار فيها. واحتكر العرب هذه الصناعة(٦). بعد أن دعم ولاة مصر بالتمكين للعرب من استغلال هذه المعادن مشاطرتهم أرباحها. مما أدى إلى هجرة جماعات كثيرة منهم إلى أرض المعادن بعد أن كشف عن كثير من مناجمها(٧). ولا ريب فى أن الحملات الحربية التى وجهها العرب إلى أرض البجه أتاحت الفرصة لكثير من الجماعات العربية للتخلف والاستقرار فيها للمشاركة فى خيراتها بعد أن راجت سوقها(٨).

ازداد إقبال العرب إذن على أرض المعادن وغيرها منذ عهد الخليفة المعتصم (٨٣٣-

(١) يبدو من اسم هذا الملك أنه ينسب إلى أصل عربى اللهم إلا إذا كان لفظ على بابا تحريفاً لاسم أو لباب البجاوى. Sanders, G. E. R: "The Bisharin," SNR., XVI., part II. 1933, p. 124.
(٢) البلاذرى: نفس المصدر، ص ٢٣٩.
(٣) البلاذرى نفس المصدر، ص٢٣٩.
(٤) كان لوجود معدنى الذهب والزمرد أثر كبير فى اجتذاب القبائل العربية المختلفة إلى أرض البجه والاختلاط بهم. ووصف كثير من المؤرخين العرب هذه المعادن وأماكنها فى الصحراء الشرقية وطرق استخراجها.
(٥) ابن حوقل. كتاب صورة الأرض، ص٥٤.
(٦) المقريزى: للوعظ والاعتبار، جـ١، ص ١٩٤.
(٧) المقريزى: نفس المصدر، جـ١، ص١٩٦.
(٨) زاد الإقبال على هذه المعادن وخاصة الذهب والزمرد بسبب ما طرأ على أحوال الدولة الإسلامية العامة من تحول من حياة البساطة إلى حياة الترف والرفاهية. فظهر البلاط الخليفى بمظهر العظمة، وبنى الخلفاء قصوراً فخمة أثثوها بأفخم الرياش. وشاركهم فى هذا الولاة والأمراء وبعض ذوى اليسار من المسلمين. وأن ثروة الفاطميين وكنوزهم وخاصة ما ظهر منها فى عهد المستنصر بالله الفاطمى لدليل واضح على مدى ما علقته الدولة من أهمية لاستخراج هذه المعادن لتزيين بلاطهم وقصورهم.

٨٤٢م)، لأن الخليفة استكثر من الجند الأتراك وأثبتهم في الديوان وأمر واليه في مصر كيدر بن نصر الصَّفْدى بإسقاط من في ديوان مصر من العرب وقطع العطاء عنهم(١). وأدى هـذا القرار الخطير إلى تمردات عربية ضد الوالى وانتهت بأسر زعماء العرب(٢). ومنذ عزل عنبسة بن إسحاق في عهد المتوكل (٨٤٧ ـ ٨٦١م) لم يعد حكام مصر يختارون من العرب، بل من الأتراك الذين يكرهونهم ويحقدون عليهم(٣). وبهذا فقد العرب نفوذهم القديم(٤). وعانوا ضيقا اقتصاديا شديدا بسبب ما فرض عليهم من أتاوات وضرائب مختلفة ابتدعها ابن المدبر والى الخراج في مصر من سنة ٨٥٢م إلى سنة ٨٦٧م. وأثارت التدابير المالية الجديدة حفيظة العرب على الأتراك فقاموا بعدة تمردات في أنحاء مختلفة قمعها الأتراك بعنف وقسوة، وزج بزعمائهم في السجون، وفرضت عليهم غرامات باهظة(٥).

كان لهذا الضغط السياسي والاقتصادى أسوأ الأثر في نفوس العرب، وبدأت جماعات كثيرة منهم تسعى للرحيل والهجرة. ولم يكن أمامهم إلا الانسياب جنوبا وغربا بعيداً عن ضغط الأتراك في مصر(٦). وحانت لهم هذه الفرصة عقب تأسيس الدولة الطولونية على يد أحمد بن طولون سنة ٨٦٨م حينما أعلن عن إعداد حملة حربية إلى بلاد النوبة وأرض البجه بقيادة أبي عبدالرحمن عبدالله بن عبدالحميد العمرى(٧)، فاشترك فيها كثير من العرب معظمهم من ربيعة وجهينة.

وبهذا تبدأ مرحلة جديدة من مراحل انتشار العرب إلى ما وراء حدود مصر الجنوبية،

(١) المقريزى: نفس المصدر، جـ١، ص ٩٤.
(٢) ابن تغرى بردى. النجوم الزاهرة، جـ٢، ص٢٢٣.
(3) Lane - Pooles S. : op. cit. p. 42.
(٤) المقريزى. نفس المصدر والصفحة. يقول المقريزى «فانقرضت دولة العرب في مصر وصار جندها العجم من عهد المعتصم إلى أن ولى الأمير أبو العباس أحمد بن طولون فاستكثر من العبيد».
(5) Lane - Poole, S. : op. cit. p. 43.
(6) MacMichael, H. A.: A Hist. of the Arabs in the Sudan. I. p. 166.
(٧) إن شخصية العمرى كانت من أعظم العوامل التى أدت إلى تحويل أنظار العرب إلى جهة الجنوب في النوبة وأرض البجه حيث استقرت أعداد كبيرة منهم. ولد العمرى في المدينة المنورة وترعرع فيها، ثم رحل إلى مدينة الفسطاط حيث اشتغل بتدريس الحديث، ثم اتجه بعد ذلك إلى مدينة القيروان، ثم عاد إلى مصر. وهناك وصلته أنباء مناجم الذهب بالنوبه والعلاقى فسال لعابه. وهكذا تحول رجل الدين إلى=

وروادها من أولئك الساخطين على الحكم التركى فى مصر والمغامرين الذين يجرون وراء الثروة حيثما وجدوا إليها سبيلا. ويظهر من رواية المقريزى فى كتابه المقفى الكبير[١]. أن هدف هذه الحملة لم يكن مجرد تأديب البجه كما يقول ابن خلدون[٢]، أو تأديب النوبيين كما يزعيم ما كمايكل[٣]، بل كان هدفها الكشف عن مناطق جديدة لمعدن الذهب فى أرض البجه[٤].

تقدم العمرى جنوبا سنة ٨٦٨م متجاوزا العلاقى إلى إقليم شنقير[٥]. واهتدى إلى مواقع جديدة للتبر تعرف بالشلة قرب شنقير[٦]. وتمكن من الحصول على حق إقامة قواعد على النهر للحصول على المياه الكافية لحياة مستقرة فى هذا الإقليم، بعد تغلبه على قوات جورج الأول ملك القوبة[٧].

غير أن بعض القبائل العربية من بلاد الشام وبخاصة سعد العشيرة وقيس عيلان خرجت على العمرى، بعد أن حصلوا من النوبيين على حق الإقامة الدائمة فى منطقة مريس ما بين أدندان وجبل عدة. فانهزم العمرى وانسحب بقواته شمالا إلى منجم قريب من منطقة

=مغامر كبير. واجتمع إليه كثير من طلاب المعدن، وسار على رأسهم نحو بلاد النوبة وأرض البجه. أنظر المقريزى: المقفى. مخطوط، المجلد الرابع، ص١٦٤ب. وانظر كذلك الملحق الموجود بآخر الكتاب عن «لعنة الحرس».

Quatremére. E. T. :Memoires geog. Hist. sur. l' Egypte.... II. pp. 59 - 80.

(١) المقريزى. المقفى، نفس المصدر والصفحة.

(٢) ابن خلدون. العبر، جـ٤، ص٣٠٢.

(3) MacMichael. H. A. : op. cit. p. 166.

(٤) وفى موضع آخر يقول ماكمايكل MacMichael إن هدفهم البحث عن المعادن والتخلص من الضرائب الثقيلة التى فرضت عليهم.

(٥) منطقة شنقير هى منطقة أبو حمد. وهى المنطقة التى تقع بين بربر ومروى الجديدة أنظر: Crawford, O.G. S. : Fung Kingdom of Sennar p. 26.

(٦) المقريزى: المواعظ والاعتبار، حـ١، ص١٩١. يقول ابن سليم «والنيل ينعطف من هذه النواحى (دنقلة) إلى مطلع الشمس وإلى مغربها مسيرة أيام حتى يصير المصعد كالمنحدر وهى الناحية التى تبلغ العطوف من النيل إلى المعدن المعروف بالشلة. وهو بلد يعرف بشنقير. ومنه خرج العمرى وتغلب على هذه الناحية إلى أن كان أمره ما كان.

(٧) انتهز العمرى فرصة النزاع داخل البيت الملكى النوبى بسبب وراثة العرش وحصل من نيوتى الثائر. على هذا الحق.

مـــسريس[1]، واتسعت أعمال العمرى وامتد نفوذه شرقا حتى عيذاب وشمالا إلى أسوان، فكثرت بهم العمارة فى البجه حتى صارت الرواحل التى تحمل الميرة إليهم من أسوان ستين ألف راحلة غير الجلاب التى تحمل من القلزم إلى عيذاب[2].

ويظهر أن العمرى كان يهدف إلى إقامة إمارة إسلامية تحت زعامته في هذه المنطقة، بدليل أن ابن طولون شك في نوايا العمرى نحوه وخشى ازدياد نفوذه فى هذه البلاد فيطمع فى مصر. فأرسل ابن طولون جيشا لمحاربة العمرى بقيادة صباح بن حركام البابكى. غير أن العمرى تغلب عليه وهزمه ولم يكتف بهذا بل تقدم بجيوشه شمالا حتى أدفو سنة ٨٦٩م، لكنه آثر العودة إلى المناجم[3]، وهناك خرجت عليه قبيلة ربيعة ونشبت الحرب بينها وبين قوات العمرى التى ظلت على ولائها له، وتمكن العمرى من هزيمتها. غير أن العمرى ما لبث أن قتل على يد أحد أفراد قبيلة مضر[4]. وبهذا انتهت قصة هذا المغامر.

واستقر كثير من عرب ربيعة وجهينة وغيرهم حول أسوان، غير أن الشقاق ما لبث أن دب فى صفوفهم وبدأ صراع عنيف بين هؤلاء جميعا بعد موت العمرى على امتلاك المعادن بالعلاقى، وتمكن فخذ من ربيعة أن يخرج من خالفه من العرب بعد أن استمال إليه البجه «وتصاهروا إلى رؤساء البجه وبذلك كف ضرهم عن المسلمين[5].

وإذا كان اليعقوبى وهو المؤرخ المعاصر لمعظم هذه الأحداث (٨٧١م) فانه لم يشير إلى أثر هذه الجماعات الإسلاميه المختلفه ـ وهم كثيرون كما قال بأرض البجه[6] ـ ودورهم فى نصر

(١) المقريزى. المقفى. المجلد الرابع، ص١٦٦ب. يرى دى فيار أن هـذا المنجم هو منجم أم جاريات. أنظر De Villard: op. cit. p. 113.

(٢) المقريزى: المقفى. المجلد الرابع، ص ١٦٧أ.

(٣) المقريزى المقفى: المجلد الرابع، ص١٦٦ب. لا نعرف سبب تردد العمرى في التقدم شمالا إلى الفسطاط رغم أن الطريق كان مفتوحا أمامه. وربما أحس بقرب وقوع خلاف بين رجاله وبينه فآثر العودة إلى مركز أعماله، وقد تحقق ظنه فخرجت عليه ربيعة وهزمها.

(٤) المصدر السابق، ص١٦٨ أ.

(٥) يبدو من قول ابن سليم أن ربيعة تحايلت على كهان البجه للدعوة بطاعة ربيعة والانضواء تحت لوائها لتتخذ منهم أعوانا ضد مخالفيها من العرب للانفراد بحكم هذه الجهات وإقامة إمارة إسلامية فيها. أنظر المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص١٩٦ ـ ١٩٧.

(٦) اليعقوبى: كتاب البلدان، ص٣٣٤ ـ ٣٣٥. ذكر اليعقوبى مواضع كثيرة بأرض البجه ليس من اليسير تحقيقها. غير أن موضع الأهمية فيما ذكره هو إشارته إلى جماعات عربية إسلامية كثيرة فى مواضع مختلفة بأرض البجه.

الثقافه الإسلاميه بين البجه، فإن أبا الحسن المسعودى الذى زار مصر حوالى ٣٣٢هـ (٩٤٠م) أى بعد حملة العمرى بحوالى سبعين سنة فقط، يتحدث عن الأثر الواضح لهذه الجماعات العربية الإسلامية فى نشر الثقافة الإسلامية فى إقليم البجه وبلاد النوبة كذلك. ويبدو من رواية المسعودى[١] أن الإسلام ظهر وانتشر بعد أن سكن جماعة من المسلمين أرض البجه، وممن سكن مناجم الذهب والعلاقى وعيذاب عرب ربيعة الذين اختلطوا بالبجه وتزوجوا من بناتهم، فاشتد ساعد البجه على من ناوأهم من النوبيين وغيرهم، كما اشتد ساعد ربيعة بالبجه على من خالفها من العرب، وتحالفت ربيعة مع البجه، وكان أميرهم زمن المسعودى أبا مروان بشر ابن إسحق بن ربيعة، الذى بلغ عدد جيشه ثلاثة آلاف فارس من ربيعة وأحلافها من العرب وثلاثين ألف محارب على الإبل من الحدار بة[٢]، وهم المسلمون من سائر البجه. والراجح أن جماعة من عرب ربيعة نجحوا فى وضع أساس أول إمارة عربية إسلامية بالعلاقى بعد أن استمالوا إليهم البجه وجماعات عربية من قبيلتى مضر وتميم فخضع لهم الجميع، ويقول المقريزى «واستولوا على معدن الذهب العلاقى فكثرت أموالهم واتسعت أحوالهم وصارت لهم مرافق ببلاد البجه واختطوا قرية تعرف بالنماس وحفروا بها آبارا»[٣]. ويتحدث المسعودى عن وصول الإسلام جنوبا حتى جزيرة سواكن حيث تسكن جماعة من البجه اعتنقت الإسلام تعرف باسم الخاسّة[٤].

* * *

أما بلاد النوبة فإن حديث المسعودى واضح تمام ولا سيما فيما يتعلق بتسرب بعض

(١) المسعودى: مروج الذهب، جـ٣، ص٣٢ ـ ٣٤.

(٢) الحدارية. فى رأى بول Paul,A.: A Hist. of the Beja Tribes p. 64. هم الحضارمة من حضر موت، جاءوا من بلاد العرب فى القرن السادس الميلادى وكانوا وثنيين ثم اعتنقوا المسيحية تشبهاً ببعض البجه. وهاهم يعتنقون الإسلام فى القرن العاشر. ويرى بول أن الحداربة هم البليون الذين أشار إليهم الإدريسى. ومعناها فى لغة البجا العربى. Paul, A. : op. cit. 64. ويقول أحد أفراد قبيلة الأمرأر: إن البليون جاءوا أصلا من الحجاز. Crawford: op. cit. p. 110. ويقول بول: إنه مما يؤيد صحة نسبهم العربى استعمالهم الحصان الذى يكرهه البجه، ويضيف أنهم اضطروا للهجرة جنوباً ووضعوا أساس مملكة البليون. ويرى كروفورد. Crawford: op. cit p. 110. أن البليين ربما يرجعون إلى قبيلة بلى التى هاجرت بعض جماعاتها إلى إقليم البجه قبل الإسلام.

(٣) المقريزى: البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ص٤٨.

(٤) نقل المقريزى هذا النص عن المسعودى. المقريزى جـ١، ص١٩٧.

الجماعات العربية من مصر إلى جزئها الشمالى المعروف باسم مريس، وما استتبع هذا التسرب العربى الإسلامى من ظهور بعض الأفكار الجديدة التى لا عهد للنوبيين بها من قبل. فيشير المسعودى[1] إلى أن جماعات من عرب قحطان وربيعة وقريش سكنوا أسوان، ثم أخذوا فى التقدم جنوبا فى أرض مريس حيث اشتروا أراضى من النوبيين استغلوها لصالحهم، وأثارت هذه الحالة ثائرة بعض ملوك النوبة[2]، وحاولوا تسوية هذه المشكلة وديا، وحجتهم فى ذلك هى أن النوبيين عبيد للملك، ولاحق لهم فى بيع هذه الأراضى، لأنها ملك خاص للملك ولا أملاك لهم. ولما أحيلت هذه المشكلة إلى حاكم أسوان وشيوخها وأهل العلم بها للفصل فيها لجأ العرب إلى حيلة تحفظ لهم حقوقهم فى بلاد النوبة، فأوعزوا إلى النوبيين ألا يعترفوا لملكهم بالرق ففعلوا، ومضى البيع وتأكدت حقوق العرب المادية فى أرض مريس، وتوارثوا هذه الأراضى جيلا بعد جيل. ومعنى هذا أن العرب أضحى لهم حق الإقامة الدائمة فى هذه الجهات.

غير أن ثمة ظاهرة تستحق الالتفات وهى أن هؤلاء العرب المسلمين كانوا يدفعون خراج هذه الأراضى لملك النوبة المسيحى[3]. ويدل هذا على اعتراف هذه الجماعات العربية بامتداد نفوذ هؤلاء الملوك إلى هذه المنطقة التى يعيشون فيها، وتنظيم العلاقات الاقتصادية بينهم وبين ملوك النوبة[4]. غير أن هذا النفوذ لم يعد أن يكون اسميا فقط. ذلك أن سكانها من النوبيين أنفسهم أصبحوا أحرارا غير عبيد شأنهم فى هذا شأن العرب الأحرار الذين اختلطوا بالنوبيين وتأثروا بهم وأخذوا عنهم بعض أفكارهم ونظمهم الاجتماعية. ولم يعترف لملك النوبة بالعبودية سوى أهل مقرة الأصليين، وهم من يسكنون إلى ما وراء الجنادل الثانية جنوبا وهى المنطقة التى يحرم على العرب الدخول فيها إلا للتجارة «وصارت النوبة أهل مملكة هذا الملك

(١) المسعودى مروج الذهب، جـ٣، ص٤١. انظر ملحق رقم ١١.

(٢) أثيرت هذه المشكلة مرة فى عهد الخليفة المأمون ومرة أخرى فى عهد المعتصم، وموضع الأهمية هنا أن النوبيين لم يقروا لملكهم بالعبودية فى كلتا المرتين.

(٣) لم يسمع عن مثل هذه الحالة فى تاريخ العلاقات بين الدولة الإسلامية ورعاياها، وبين الممالك المسيحية أو غيرها من الممالك التى تجاور أرض الدولة الإسلامية.

(٤) نلاحظ أن هذه الحالة التى نشأت عن ابتياع العرب المسلمين أراضى فى النوبة تخالف ما جاء فى عقد عبدالله بن سعد لملك النوبة سنة ٦٥٢م «وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه». غير أن هذه المنطقة المتاخمة لمصر جنوبا لم تقو على الصمود فى وجه القبائل العربية التى ازدحم بها إقليم أسوان فبدأوا بالانسياب جنوبا.

في نوعين: نوع ممن وصفنا أحرار غير عبيد، والنوع الآخر من أهل مملكته عبيد وهم من سكن النوبة في غير هذه البلاد المجاورة لأسوان». ومعنى هذا أن حوالى نصف سكان مملكة مقرة، وهم المريسيون لم تعد تربطهم بملكهم تلك الرابطة القديمة القائمة على أساس العبودية والطاعة العمياء له.

لكن هل مارس العرب حقوقهم الاقتصادية في بلاد النوبة من أسوان، أو أنهم انتقلوا إلى بلاد النوبة لاستغلال أملاكهم؟ على الرغم من أن نص المسعودى لا يعطى إجابة صريحة، إلا أن ابن سليم (٩٧٥م) يشير في صدد حديثه عن النوبة أن المنطقة من أسوان حتى الشلال الثانى هى الجهة التى يتصرف فيها المسلمون ولهم فيها أملاك[١]. هذا وتؤيد الأبحاث الأثرية فى منطقة مريس وجود جاليات عربية إسلامية مستقرة فى هذه المنطقة. ذلك أنه عثر فى غير قليل من الأماكن بأرض مريس على كثير من الكتابات العربية يرجع تاريخ أقدمها إلى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) وتدل كثرة شواهد القبور المكتوبة بالخط العربى وتحمل أسماء عربية فى كل من تافه (٢١٧هـ - ٨٣٢م) وفى كلابشة (٣١٧هـ - ٩٢٩م) على حياة هادئة مطمئنة لجاليات عربية إسلامية فى بلاد مريس[٢]. ويرى دى فيسار أن تنقل الجماعات العربية المختلفة بين منطقة مريس وأرض البجه كان أمراً مألوفاً، بدليل وجود كتابات عربية بالخط الكوفى على جدران قلعتين من دير يهيب بالقرب من منجم للذهب فى هذه المنطقة. ويرجع تاريخ هذه الكتابات إلى القرن العاشر الميلادى (٩٨٢ - ٩٨٣م)، فضلا عن كتابات أخرى فى نيزارى على بعد ٣٠ كيلو مترا جنوبى دير يهيب. ويرجع تاريخها إلى هذا العهد كذلك[٣].

لا شك أن اختلاط هذه الجماعات العربية المهاجرة بالعناصر النوبية والبجاوية، أدى إلى تأثرهم بالدماء العربية التى كانت تتجدد باستمرار مع توالى وصول عناصر عربية جديدة إلى هذه الجهات، بسبب اضطراب بعض أجزاء العالم الإسلامى وقيام الفتن والثورات. ولم تسلم مصر ذاتها أواخر عهد الإخشيديين (٩٣٥ - ٩٦٩م) من التعرض لأخطار خارجية. فالفاطميون أخذوا يطرقون أبواب مصر من ناحية الغرب بعد أن ثبتوا أقدامهم فى بلاد

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١ ص١٩٠.

(2) De Villard: op. cit. p. 118.

(3) Ibid. : op. cit. p. 115.

المغـرب[1]. وقام النوبيـون كعادتهم بإغارة على الواحة الخارجة سنة ٩٥١م وأتبعوها بحملة أخرى على أسوان سنة ٩٥٦م حيث قتل ملك النوبة جمعاً من المسلمين. فخرج إليه محمد بن عبدالله الخازن على عسكر مصر من قبل أنوجور بن الاخشيد (٣٤٥هـ ـ ٩٥٧م) فهزم النوبيين وتقدم جنوبا حتى إبريم وسبى كثيراً من أهلها وقدم بهم إلى مصر[2]. بيـد أن هذه الهزيمة لم تضع حدا لهجمات النوبيين على حدود مصر من ناحية الجنوب فتجددت إغاراتهم على صعيد مصر زمن كافور، وتقدموا شمالا حتى إدفو منتهزين فرصة اضطراب الأحوال فى مصر، وقيام المجاعة فيها بسبب انخفاض مياه النيل وتعرضها من الشرق لتهديد القرامطة[3].

وليس من المستبعد أن تكون هذه الإغارات النوبية نتيجة لدعاية فاطمية واسعة. الغرض منها إضعاف الإدارة المصرية وشغلها فى أكثر من جهة حتى لا تركز جهودها ضد الزحف الفاطمى من الغرب[4]. ويظهر أن ملك النوبة امتنع عن دفع البقط.

* * *

ثم تأسست الدولة الفاطمية فى مصر سنة ٩٦٩م فأرسل جوهر الصقلى قائد الخليفة المعز لدين الله الفاطمى، أحمد بن سُلَيم الأسوانى مبعوثا إلى جورج الثانى ملك النوبة، يطلب إليه دفع البقط[5]. ولابد أن الملك جورج شعر بالوضع الجديد فى مصر بقيام الدولة الفاطمية، فعاد إلى دفع البقط. أما ما يقال من أن جوهرا دعا ملك النوبة إلى اعتناق الإسلام فيرجحه أن الدولة الفاطمية قامت على مبدأ الدعاية والتوسع، وليس من غير المحتمل أن يكون جوهر فكر فى هذه الناحية من النوبة وفى أن يمتد الإسلام إليها على المذهب الشيعى.

وعلى الرغم من أن الملك جورج لم يقبل دعوة جوهر، وكذلك على الرغم مما سبق هذا من اضطراب العلاقات النوبية المصرية أواخر عهد الإخشيديين، فقد ازداد رسوخ قدم

(1) Lane Poole: op. cit. p. 8

(٢) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص ١٩٨.

(٣) المقريزى: نفس المصدر، ص ٣٢٩ أنظر:

Lane Poole: op. cit. p. 88.

(٤) يحيى بن سعيد: المغرب فى حلى المغرب، ص٧٤.

Quatremére: op. cit. p. 81.

(٥) المقريزى: المقفى، المجلد الرابع، ص٢٢٧أ.

Lane poole: op. cit p. 185.

الجماعات المسلمة ببلاد النوبة السفلى. فيذكر ابن سليم: أن المسلمين يتمتعون بكامل استقلالهم فى هذه المنطقة التى استقروا فيها حيث توجد أملاكهم[1]، فضلا عن أن كثيرا من النوبيين أنفسهم اعتنقوا الإسلام رغم جهلهم باللغة العربية[2]. والراجح أن العرب تعلموا لغة النوبيين بعد أن اختلطوا بهم واستطاعوا بذلك نشر ثقافتهم الإسلامية فى النوبة[3].

وتدل الأبحاث الأثرية التى قام بها دى فيار فى جهة مريس على تأثير هذه الجماعات العربية فى النوبيين، إذ أنه عثر فى مقابر نوبية على كتابات باللغة القبطية تحمل تأريخا مزدوجا من التقويمين القبطى والهجرى، وترجع معظم هذه الكتابات إلى القرن العاشر الميلادى (٩٠٦ ـ ٩٠٧م). ثم تظهر بعد هذا كتابات من هذا النوع أيضا لا تحمل سوى التأريخ الهجرى، وهى جميعا ترجع إلى نفس هذا القرن[4]. ويتضح كذلك مما جاء فى ابن سُلَيم عن مملكة علْوة أن المسلمين يختلفون إليها للتجارة ولابد أن عددهم كان كبيراً بدليل أنه أصبح لهم رباط خاص بهم يأوون إليه[5].

---

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١ ص١٩٠.

(٢) المصدر السابق، ص١٩٠، ويقول ابن سليم: «وفيها (مريس) جماعة من المسلمين قاطنون لا يفصح أحدهم «بالعربية». وهؤلاء بطبيعة الحال من النوبيين الذين اعتنقوا الإسلام، وظلوا محافظين على لغتهم النوبية التى لا تزال حية إلى اليوم. والراجح أن اعتناقهم الإسلام سبق تعلمهم للغة العربية.

(٣) يرى الأستاذ محمد عوض: السودان ووادى النيل، أن الجماعات السودانية اعتنقت الإسلام واتصلت بالنسب العربى، ولكنها احتفظت بلغتها الأصلية بعد أن دخلتها ألفاظ ومفردات وتراكيب عربية كثيرة، وهؤلاء هم النوبة والبجا وسكان الجبال فى دارفور. وقد كان من سياسة بعض العرب حباً فى سهولة نشر الإسلام أن تعلموا لغة البجة مثلا حتى يخالطوا السكان بسرعة ويؤثروا فيهم.

(٤) يدل استعمال التأريخين، ثم التأريخ الهجرى فى وثائق نوبية باللغة القبطية على مدى تأثر النوبيين بالثقافة الإسلامية، وعثر على معظم هذه الكتابات فى مقبرة ساكينيا بالنوبة السفلى. نشر دى فيار نتائج أبحاثه فى مقال خاص عن مقبرة ساكينيا وأشار إليها فى كتابه تاريخ النوبة المسيحية.

أنظر: De Villard, : op. cit. p. 119.

(٥) المقريزى: المواعظ، جـ١، ص١٩٣، يقول ابن سليم: «... وهذه الحكاية (عادات أهل علوة وتقاليدهم) صحيحة معروفة مشهورة عند جميع النوبة والعلوة وكل من يطرق ذلك البلد من تجار المسلمين لا يشكون فيه...» وفى موضع اخر: «... ولها (سوبا) رباط فيه جماعة من المسلمين...» وربما كان هذا الرباط بمثابة دار ضيافة يلجأ إليها المسلمون عند مرورهم بمدينة سوبا، أو لوكلائهم التجاريين المستقرين فيها، أنظر أيضاً: MacMichael, H.A. : op. cit. p. 171, Note 6.

ويقول اليعقوبى: البلدان، ص٣٣٥ ـ ٣٣٦: «... ثم مدينة علْوة العظمى التى تسمى سوبا وبها ينزل ملك علْوة، والمسلمون يختلفون إليها...» وسنتعرض فى شىء من التفصيل عن النفوذ العربى فى علوة فى ص ١٠٠٦.

ويتسم عهد الفاطميين في مصر (٩٦٩ ـ ١١٧١م) بقيام علاقات دالة على حسن الجوار والمسالمة بين مصر الفاطمية والنوبة المسيحية. غير أن هذا العهد شهد ميلاد إمارة عربية قوية اتخذت مدينة أسوان مركزا لها، وامتد نفوذها جنوبا في أرض مريس، وأنشأ هذه الإمارة زعيم من عرب ربيعة اسمه أبو مروان بشر بن إسحق[١]، ثم لم يلبث النزاع أن نشب في العلاقي وعيذاب بين بطون ربيعة ذاتها، وقتل بشر بن إسحق وخلفه على زعامة القبيلة ابن عمه أبو عبدالله محمد بن على المعروف باسم أبي يزيد بن اسحق. واختلط عرب ربيعة بالنوبيين وتزوجوا من بنات رؤسائهم، فأضحت لهم مصالح مادية في بلادهم، لانتفاعهم بنظام الوراثة المعروف عند النوبيين، وهو توريث ابن البنت أو ابن الأخت.

والراجح أن هذه العشيرة كونت طبقة حاكمة خضع لها النوبيون من أهل مريس الذين يزال عنهم السلطان الفعلي لملك النوبة المسيحي، لاسيما بعد أن تحول معظمهم إلى الإسلام. ثم اعترفت الدولة الفاطمية بهذه الإمارة العربية النوبية، وذلك حين استعان الخليفة الحاكم بأمر الله بأبي المكارم هبة الله أمير ربيعة في القبض على أبي ركوة[٢] الخارج على الدولة الفاطمية وهو يلوذ بالفرار من مصر من ناحية الجنوب[٣]. ونجح أبو المكارم في القبض على أبي ركوة سنة ١٠٠٦م، ولذا كوفيء بلقب كنز الدولة. وتوارث أبناؤه هذا اللقب «ولم تزل الإمارة فيهم وكلهم يعرفون بكنز الدولة»[٤]. وعرف بنو ربيعة بني كنز[٥]. وقصد الكتاب والشعراء

(١) هاجرت ربيعة إلى مصر حوالي منتصف القرن التاسع الميلادى، وانتشروا في جهات القطر المختلفة، فاستقر فريق منهم حول أسوان، وفريق آخر في العلاقي وعيذاب، وثالث حوالي بلبيس. ونجح فريق العلاقي في وضع نواة إمارة عربية إسلامية في العلاقي رئيسها أبو مروان بشر بن إسحق.

(٢) أبو ركوة هو الوليد بن هشام بن عبدالملك من بني أمية وسمي أبو ركوة لأنه كان يحمل ركوة لوضوئه على عادة الصوفية، ولجأ إلى القيروان ثم اتجه نحو مصر ونزل على ابى قرة في برقة ودعا للثورة ضد الحاكم لظلمه، فتبعه بنو قرة وبايعوه وهزموا والى برقة من قبل الحاكم وملكوها، وانضم إلى أبي ركوة جماعة من كتامة وانتصر على جيوش الحاكم، ووصل إلى أهرام الجيزة، غير أنه هزم في الفيوم لتخلي بني قرة عنه وفر إلى النوبة، فبعث الحاكم في طلبه. أنظر ابن خلدون: نفس المصدر، جـ٤، ص٥٨ ـ ٥٩.

(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص٧٠.

(٤) عمدت الدولة الفاطمية إلى الألقاب الضخمة تنعم بها على الناس مع باب المكافاة والاعتراف بالخدمات، وتلك عادة نشأت في بعض الدول الإسلامية بشكل واضح منذ أيام البويهيين في بغداد. أنظر المقريزى، البيان والإعراب، ص٥٠؛ وانظر ابن خلدون، نفس المصدر، جـ٥، ٢٨٨. أنظر كذلك MacMichael, H.A. op. cit. p. 150.

(٥) بنو كنز هم الكنوز الحاليون الذين يمتد وطنهم من أسوان في الشمال إلى كرسكو في الجنوب.

أمراء بنى كنز ومدحوهم، ومن أولئك الشديد أبو الحسن بن عرام وأبو محمد الحسن بن الزبير[١].

ومن الطبيعى أن يحسب الأيوبيون، الذين خلفوا الفاطميين فى حكم مصر سنة ١١٧١م كل حساب لأبناء هذه الإمارة. ويتضح هذا فى ثنايا العلاقات بين مصر الأيوبية زمن صلاح الدين والنوبة المسيحية. ذلك أن الجند السودانيين فى جيش الخليفة العاضد الفاطمى قاموا بحركة لإقصاء صلاح الدين من الوزارة العاضدية أواخر أيام الفاطميين، فجرد عليهم صلاح الدين حملة بقيادة شجاع الدين البعلبكى سنة ١١٧٢م. ودارت بين الفريقين معارك عنيفة فى شوارع القاهرة انهزم بعدها الجند السودانيون إلى الصعيد[٢].

واذا كان كنز الدولة اشترك مع قائد صلاح الدين فى القضاء على حركة المتمردين السودانيين، فإن ولاء بنى كنز لم يلبث أن تحول ضد صلاح الدين. ففى سنة ١١٧٢ - ١١٧٣م أرسل صلاح الدين أخاه توران شاه على رأس حملة لغزو النوبة. وربما كان أحد أهداف هذه الحملة الامعان فى القضاء على نفوذ بنى كنز، ظنا من صلاح الدين «أنهم شيعة للعلوية بمصر»[٣] غير أن هناك من المؤرخين من يرى أن صلاح الدين رغب فى فتح النوبة لتكون موئلا له ولأسرته إذا هاجمه نور الدين فى مصر[٤]. وربما كان صلاح الدين يفكر فى إيجاد بعض المكملات الاقتصادية لمشروع الاستقلال بمصر. أو ربما كان لهذه الحملة دوافع أخرى تتصل بمشروع غزو اليمن، إذ أن صلاح الدين أراد أن تكون طريقا قريبا لبلاد اليمن، وتوغل توران شاه فى بلاد النوبة حتى إبريم. غير أن تقرير توران شاه إلى صلاح الدين جاء مخيبا لذلك المشروع[٥].

---

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص١٩٨.

(2) Lane Poole: op, cit. p. 192.

(٣) يزعم ابن خلدون، نفس المصدر، جـ٥، ص٢٨٨ - أن بنى كنز شيعة للفاطميين، وربما فسر ابن خلدون قيام علاقات طيبة بينهم وبين الفاطمين منذ عهد الحاكم الذى منحهم الألقاب الضخمة أنهم شيعة للفاطميين. غير أن استعداد بنى كنز للتعاون مع صلاح الدين أوائل عهده لا يؤيد ما ذهب إليه ابن خلدون، وأن خروجهم عليه فيما بعد لم يكن بسبب تشيعهم للفاطميين بل لرغبتهم فى الاحتفاظ بنفوذهم فى إقليم أسوان. ذلك النفوذ الذى أراد صلاح الدين الانتقاص منه.

(٤) ابن خلدون: نفس المصدر، ص٢٨٦، العمرى: مسالك الأبصار مخطوط، جـ٢، ورقة ٤٩٢.

(5) Lane Poole: op. cit. p. 197.

وإذا كانت أنباء هذه الحملة ليس فيها ما يدل على قيام توران شاه بعمل عدائى ضد كنز الدولة، فالمعروف أن صلاح الدين أقطع هذا الاقليم إلى أحد أمرائه وهو أخو أبى الهيجاء السمين. ولهذا ثار كنز الدولة على صلاح الدين وجمع جيشا من النوبيين والعرب وهجم على أخى أبى الهيجاء وقتله[١]. والراجح أن كنز الدولة كان على اتصال ببقايا العناصر العاملة على إعادة الدولة الفاطمية، فدعا للأمير دواد بن العاضد[٢]. غير أن هذه المحاولة لم تنجح واستطاع صلاح الدين القضاء على هذه العناصر الثائرة فى مصر وأرسل أخاه الملك العادل على رأس جيش هزم كنز الدولة وقبض عليه وقتله[٣]. وأدت هذه الهزيمة إلى رحيل بنى كنز عن أسوان[٤]، فلم تعد مركز إمارتهم، بل نقلوا مركز نشاطهم إلى الجنوب فى بلاد مريس واندمجوا اندماجا تاما فى سكانها[٥].

* * *

ويفسر خروج النوبيين فى مصر على صلاح الدين حقيقة لا سبيل إلى تجاهلها. ذلك أن صلاح الدين عزف عن استخدام النوبيين فى الجيش الأيوبى، واستبدلهم بعناصر شمالية، كردية وتركية وديلمية. ولهذا قام النوبيون بعدة محاولات لإعادة سلطان الفاطميين ليستردوا مركزهم الذى كان لهم فى الجيش الفاطمى، غير أن موضع الأهمية هنا ليس تذمر النوبيين من النظام الجديد، بل إن وجود أعداد ضخمة منهم فى مصر فى هذا الوقت هو الظاهرة التى تسترعى الالتفات، وقد يكون لها ثمة أثر فى ضعف النوبة المسيحية واضمحلالها. فمنذ أن فقد العرب سلطانهم القديم فى الدولة الإسلامية على أيام المعتصم بالله، بدأ الولاة فى مصر يستخدمون عناصر غير عربية فى الجيش. وكان ابن طولون أول من استخدم السودانيين فى الجيش الطولونى. وبلغت عدتهم ٤٠ ألف سودانى[٦]، وهو عدد لا يستهان به، وأقطعهم

(١) ابن خلدون نفس المصدر، جـ٥، ص٢٨٨.
(٢) المقريزى: البيان والإعراب، ص٥٠.
(3) MacMichael H.A. : op. cit. p. 177.
(٤) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص١٩٨.
(٥) سنرى فيما بعد كيف أصبحت هذه الإمارة الإسلامية قوة ذات خطر فى بلاد النوبة ابتداء من منتصف القرن الثالث عشر الميلادى.
(٦) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ ١، ص٩٤.

إقطاعاً خاصاً عرف باسمهم[1]. وبلغ من كثرة عددهم حداً استوجب معه تعين حاجب خاص لصرف جراياتهم[2]. لكن كيف حصل ابن طولون على هؤلاء النوبيين للعمل فى جيشه؟ يقول المقريزى إنه حصل عليهم بطريق الشراء[3]. ولو صح هذا فإن بلاد النوبة تعرضت لحملات عنيفة من جانب تجار الرقيق وخاطفيهم[4].

وبهذا يمكننا أن نخرج باستنتاج مطمئن وهو أن من ضمن عوامل اضمحلال ممالك النوبة ما يمكن أن نسميه تبادل فى الجماعات والثقافات[5] بين مصر الإسلامية والنوبة المسيحية. فخرج من النوبة جماعات نوبية مسيحية التحقت بجيش مصر. ولفظت مصر بعض عناصر الشغب فيها ـ فى نظر ولاتها الأتراك ـ وهم جميعاً من العرب المسلمين فانسابوا إلى النوبة. ثم أخذ هؤلاء يؤثرون تأثيراً بشرياً وثقافياً فيما تبقى لدى النوبة من عناصر نوبية مستقرة، على حين أن هذه العناصر النوبية النازحة إلى مصر لابد أن تكون تحولت إلى الإسلام، بدليل ما تردد فى بعض المراجع من «شكوى أهل مصر من ضيق المسجد الجامع يوم الجمعة بالجند السودانيين»[6].

ولم تتوقف عملية جلب النوبيين للخدمة فى الجيش المصرى بعد وفاة ابن طولون، بل استمرت فى جيش الإخشيديين وخاصة فى عهد كافور[7] النوبى. ثم ازدادت أعدادهم فى عهد الفاطميين لا سيما فى عهد المستنصر بالله، وشجعت أم المستنصر وهى سودانية الأصل

(١) المصدر السابق، ص٣١٥: «... ثم قطعت القطائع وسميت كل قطيعة باسم من يسكنها فكانت للنوبة قطيعة مفردة تعرف بهم».

(٢) المصدر السابق ص ٣١٥.

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة.

(4) Walkely, C.E. J.: "The Story of Khartoum," SNR. XIII. part II. p. 224.

(٥) لم يكن التبادل هنا عملية مقصودة ومرتبة، بل هو محض الصدفة. ثم أن الأثر الإسلامى كان هو الغالب على هذا التبادل، سواء فى النوبة ذاتها أو مصر. ولم يتأثر المسلمون بالنوبيين إلا قليلا فيما سنشير إليه من تسرب بعض العادات القديمة إلى المسلمين بعد أن يتم تحويل النوبيين جميعاً إلى الإسلام.

(٦) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص٣٢٠، يقول المقريزى: «وشكا أهل مصر إلى ابن طولون ضيق المسجد الجامع يوم الجمعة بجنده وسودانه. فأمر ببناء المسجد الجامع بجبل يشكر».

(٧) المصدر السابق، ص٩٤:

على جلب أبناء جلدتها، وبلغت عدتهم حسب رواية ابن ميسر ٥٠ ألفا[١]. هذا فضلا عن طوائف سودانية (نوبية) كثيرة اتخذت أسماءخاصة وسكنت حارات خاصة بها كذلك[٢]. وشارك أولئك النوبيون في حوادث الدولة الفاطمية، فاستعان بهم الحاكم فى القضاء على الثورات[٣] واستعانت بهم أم المستنصر بالله على الأتراك[٤]. وتدخلت فئاتهم فى النزاع الذى نشب بين الخليفة الحافظ وابنه الأمير الحسن بسبب الخلاف على ولاية العهد[٥]. هذا وكان للنوبيات دور هام فى الحياة المصرية. فكثيرات منهن تخصصن فى تربية أولاد السلاطين وتنظيم الأفراح والأعياد وترتيب شئون الحريم السلطاني[٦].

* * *

ومما لا شك فيه أن العناصر النوبية النازحة إلى مصر لم يقتصر دورها فى الحياة المصرية على ما سبقت الإشارة إليه من الانخراط فى صفوف الجيش المصرى أو ممارسة الأعمال الحرة فى أحيائهم الكثيرة المنتشرة فى القاهرة، أو العمل فى بيوت السلاطين والأمراء، بل قدر لبعض فئاتهم أن يشارك مشاركة إيجابية فى الحياة العربية الإسلامية فى مصر قبل أن ينتشر الإسلام فى بلادهم[٧] . فتشير المراجع العربية إلى بعض شخصيات نوبية ممن اشتغل بالعلوم الدينية والفقهية مثل يزيد بن أبى حبيب، أو ممن سلك طريق التصوف مثل ذى النون المصرى النوبى الأصل وتحية النوبية.

---

(١) المصدر السابق: نفس الصفحة.

(٢) المصدر السابق ص ٣٦٤. ومن هذه الطوائف الريحانية وسكن فريق منهم حارة بهاء الدين (داخل باب الفتوح) وفريق آخر بالحسينية، وطائفة المنصورة وسكنت حارة تعرف بهذا الاسم (قرب بركة الفيل، خارج باب زويلة) وطائفة الفرجية والوزيرية وغيرها. وقد اتسعت أحوالها جميعا.

(3) Lane Poole: op. cit p. 132.

(٤) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص٣٣٥.
أنظر: Lane Poole: op. cit. p. 145.

(٥) المصدر السابق، جـ٢، ص١٧ ـ ١٨ أنظر: Lane Poole: op. cit. p. 168.

(٦) المصدر السابق: جـ٢، ص١١٦.

(٧) عبدالمجيد عابدين: الهجرات بين السودان والبلاد العربية، ص٥٧.

أما يزيد بن أبي حبيب، فأبوه أبو حبيب، وأسمه سويد، كان من سبى النوبة الذين أسرهم العرب في حملتهم الثانية على النوبة سنة ٦٥٢م. وقد أفادت ابنه يزيد صلته بعدد من الصحابة الذين شهدوا فتح مصر وتابعيهم، في أن أصبح محدثا ومؤرخا وفقيها كذلك. وتلمذ على يديه عدد من التلاميذ أضحوا من أشهر فقهاء مصر الأوائل منهم: الليث بن سعد وعبدالله بن لهيعة.

أما أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم الملقب بذى النون المصرى فأصله من النوبة، ونشأ في مصر في القرن الثاني للهجرة. وقد تلقى الموطأ عن بعض أصحاب مالك بن أنس حين خرج إلى الحجاز حاجا. ولما عاد ذو النون إلى مصر مال إلى حياة الزهد والتصوف[١].

سقوط مملكة مقرة المسيحية

انتشار الاسلام والعرب فيها

ازدياد النفوذ المملوكى على ساحل البحر الأحمر الأفريقى ■ الحملات المملوكية على النوبة، حملتا بيبرس، أسبابهما ونتائجهما ■ النزاع بين أفراد البيت الملكى النوبى ■ حملات قلاوون على النوبة: أسبابها، النزاع بين ملوك مقرة وملوك علوة ■ أول ملك نوبى مسلم. ظهور بنى كنز وازدياد نفوذهم ■ انتشار الإسلام وأثر العرب فيه ■ سقوط مملكة النوبة المسيحية الشمالية ■ بعض الآراء فى عوامل سقوطها، مناقشة رأى ابن خلدون ■ أحوال بلاد النوبة الداخلية بعد سقوط المملكة المسيحة.

* * *

لا شك أن استقرار بعض الجماعات العربية في إقليم العتباى، واستغلال مناجم الذهب بالعلاقى، بعث نوعاً من النشاط التجارى في هذه المنطقة. ويشير بعض جغرافى القرن العاشر الميلادى ومنهم ابن حوقل إلى أن عيذاب كانت ميناء للذهب[٢]. وذاعت شهرة عيذاب منذ القرن الثانى عشر الميلادى، بعد تحول قوافل الحجاج من مصر وبلاد المغرب، عن طريق سيناء إلى الصعيد الأعلى (قوص) فعيذاب، بسبب الحركات الصليبية على سواحل الشام وفلسطين،

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٢، ص٢٨٠ ـ ٢٨٣.

(2) Murray, G. W: "Aidhab," GJ. p. 235.

وقيام الإمارات الصليبية بها. وبلغت عيذاب ذروة مجدها وشهرتها حينما وصلتها كذلك سفن من اليمن والهند حاملة الأخشاب والتوابل. وبهذا أضحت صحراء عيذاب «عامرة آهلة بما يصدر أو يرد من قوافل الحجاج والتجار»[1]. وغدت عيذاب ميناء مصر الرئيسى على البحر الأحمر منذ أواخر الدولة الفاطمية إلى أوائل دولة المماليك الثانية[2]. وبلغ من أهميتها أن أشرفت عليها إدارة مصرية، فعينت الدولة المملوكية ـ إلى جانب واليها الحدربى ـ واليا مصريا وقاضياً مصرياً كذلك[3].

لفتت شهرة عيذاب أنظار الصليبيين، فحاولوا توجيه الضربات إليها، لقطع الطريق على الحجاج المسلمين من ناحية، والقضاء على مركزها التجارى من ناحية أخرى. وعلى الرغم من فشل الحملة الصليبية بقيادة أرناط ضد الأماكن المقدسة الإسلامية فى الحجاز سنة ١١٨٢، فإن سفن هذه الحملة حطمت ست عشرة سفينة للمسلمين فى عيذاب[4]. غير أن هذا الهجوم الصليبي لفت الأنظار إلى أهمية عيذاب، فازداد اهتمام سلاطين الأيوبيين والمماليك بها كلما ازدادت التجارة المصرية فى البحر الأحمر.

ويتضح اهتمام سلاطين المماليك بتجارة البحر الأحمر وساحله الأفريقى من علاقات الدولة

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص٢٠٢.

(٢) المقريزى: نفس المصدر، ص٢٠٢، يقول المقريزى عن عيذاب «فلم تزل مسلكا للحجاج فى ذهابهم وإيابهم زيادة على مائتى سنة، من أعوام بضع وخمسين وأربعمائة إلى أعوام بضع وستين وستمائة، وذلك منذ كانت الشدة العظمى أيام الخليفة المستنصر بالله أبى تميم معد بن الظاهر وانقطاع الحج فى البر، إلى أن كسا السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى الكعبة وعمل لها مفتاحا، ثم أخرج قافلة الحجاج من البر فى سنة ست وستين وستمائة، فقل سلوك الحجاج لهذه الصحراء، واستمرت بضائع التجار تحمل من عيذاب إلى قوص حتى بطل ذلك سنة ست وستين وسبعمائة». أى أنها ظلت ميناء للتجارة وطريقا للحجاج كذلك منذ حوالى ١٠٥٨م إلى ١٣٠٠م ـ ثم أضحت فى خدمة التجارة حتى خربها السلطان برسباى سنة ١٤٢١م أنظر: Leo Africanus: The Hist. and Desc. of Africa III, p. 837.

(3) Bloss, J. F.E. "The Story of Swakin," SNR., II., p. 280. وانظر:

Paul, A. : "Aidhab: A Medieval Sea Port" SNR., XXXVI, Part, 1, 1955. p. 66.

(4) Newbold, D.: "The Crusades in the Red Sea and the Sudan", SNR, XXVIII, part I, p. 220 - 6.

المملوكية بميناء سواكن المطل على ممالك النوبة المسيحية. ففي سنة ٦٦٢هـ (١٢٦٤م) احتج السلطان بيبرس إلى كل من صاحب سواكن وصاحب جزر دهلك[١]، لتعرضهما لأموال المتوفين من التجار المصريين[٢]. والراجح أن متملك سواكن لم يستجب للاحتجاج المملوكي، ولم يكد يمضى عام وبعض عام، حتى بعث والى قوص - تنفيذا لأمر السلطان بيبرس - حملة حربية لتأديب صاحب سواكن سنة ٦٦٤هـ (١٢٦٥م). ومن نتائج هذه الحملة، انهيار نفوذ صاحب سواكن وفراره واستقرار حامية مملوكية بسواكن نفسها[٣]، فضلا عن فرض أموال الزكاة على سكانها لحساب الدولة المملوكية[٤] وهى الأموال التى أشرف على جمعها والى عيذاب وقاضيها.

ويرى البعض أنه كان لسقوط سواكن في يد مصر، مغزى سياسى بعيد الأثر على ممالك النوبة المسيحية. لأنه أدى إلى إحكام الرقابة والسيطرة الإسلامية على الساحل الإفريقى للبحر الأحمر، مع التهديد المباشر لمعاقل المسيحية في النوبة[٥].

ويبدو أن هذه السيطرة المملوكية الجديدة على المنفذ البحرى لممالك النوبة المسيحية، أدت إلى قلق حكامها، فبدأوا يحسون بما نزل بمصالحهم الاقتصادية من أضرار، فضلا عن عزلهم عن العالم الخارجى، ولا سيما الأراضى المقدسة بفلسطين[٦]. وربما كان هذا هو الدافع للنوبيين للإغارة على أطراف مصر الجنوبية سنة ٦٧١ هـ (١٢٧٢م) فى السنة العاشرة من عهد بيبرس.

ذلك أن داود ملك النوبة أغار على ثغر عيذاب ونهب متاجرها وقتل عددا كبيرا من أهلها،

(١) أكبر الجزر المعروفة بأرخبيل دهلك بالبحر الأحمر، وموقعها قبالة مصوع - أنظر المقريزى كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك (نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة) جـ١، القسم الثانى، ص٥٠٦، حاشية رقم ١.

(٢) المصدر السابق: نفس الصفحة.

(٣) المصدر السابق: ص٥٥٠.

(٤) المصدر السابق: ص٥٥٨. ويتضح من هذا أن المسلمين كثر عددهم فى سواكن إلى درجة أوجبت على السلطان استخراج الزكاة منهم.

(٥) صلاح الدين الشامى - التوجيه البحرى للسودان وأثره فى طرق التجارة والمواصلات، ص١٢٦. رسالة لم تنشر.

(6) Crowfoot, J. W. : Christian Nubia, J. E. A. : XIII., pp. 148 - 149.

Kraus: op. cit, p. 1.

من بينهم الوالى والقاضى، ثم أغار داود على مدينة أسوان، وخرب عددا من السواقى، وأسر كثيرا من الأسوانيين وسخرهم فى بناء كنيسة سوس (المسيح) بدنقلة[1].

وثمة رأى[2] فى أسباب حركة الملك داود ضد عيذاب وأسوان، وهو أن النوبيين تأثروا بما أصاب الأقباط فى مصر من بعض حوادث اضطهاد. ولو صح هذا فإن الأقباط تعرضوا لموجة من الاضطهاد على عهد السلطان بيبرس، لا تهامهم بحرق بعض أحياء القاهرة سنة ٦٦٣هـ (١٢٦٤م)[3]. ولا يبعد أن يكون هذا أحد الأسباب التى أدت إلى حركة دواد ضد عيذاب وأسوان وسكانهما.

وكيفما كان الأمر فإن السلطان بيبرس أرسل حملة بقيادة والى قوص سنة ٦٧١ (١٢٧٣ - ١٢٧٣م) لغزو النوبة. ووصلت الحملة المملوكية فى تقدمها جنوبا إلى دنقلة. غير أنها لم تستطع الظفر بداود، فعادت بعدد من الأسرى إلى القاهرة ومن بينهم صاحب الجبل[4].

غير أن هذه الحملة كانت ضئيلة. ويبدو أن بيبرس أرسلها وفى نيته أن يجهز غيرها. وسنحت الفرصة حين أقبل أحد المطالبين بعرش مقرة ويدعى شكندة إلى القاهرة متظلما من خاله داود لا نتزاعه الملك منه «وكان له دونه»[5]، فصادفت تلك الاستغاثة هوى فى نفس بيبرس، الذى كان موتورا من داود. فجرد السلطان معه جيشا سنة ٦٧٤هـ (١١٧٦م)

(1) Quatremére, Et: "Memoires Geographiques et Historiquea sur l' Egypte et sur Quelques Contrees Vosines II., pp. 96. 149.

(2) Beckett, H. W. : ASN., II., Report 1907 - 8. p. 253.

(٣) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ٢، ص٨.

(٤) المصدر السابق: جـ١، ص٢٠٢. أطلق المقريزى على هذا الأسير اسم صاحب الخيل. غير أن كتر مير فى ترجمته لهذا النص ذكره باسم صاحب الجبل:

Quatremére: op. cit: p. 96.

(٥) المقريزى: السلوك، جـ١، القسم الثانى، ص٦٢٤. يطلق المقريزى على هذا المدعى اسم مشكذ على حين أن مفضل بن أبى الفضائل، النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد، جـ٢، ص٣٩٨ يطلق عليه اسم شكندة، وقال: إنه ابن عم الملك داود. ويطلق عليه ابن خلدون، العبر، جـ٥، ص٤٠٠، اسم سنتشكيل ويقول إنه ابن أخى داود. أما القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٥، ص٢٧٧ يطلق عليه اسم مرقشنكز ويقول إنه عم داود. «واستنجده على ابن أخيه (داود)».

بقيادة الأميرين آقسنقر الفارقاني الاستادرا وأيبك الأفرم أمير جاندار[١]. واشتملت الحملة على ثلثمائة فارس وأجناد الولايات وعدد من الرماة ورجال الحراريق والزردخاناة. واشترك فيها عربان الوجه القبلى[٢]. وأوغل الجيش المملوكي في بلاد النوبة. وخرج النوبيون إلى لقائه في ملابس سود يطلقون عليها اسم الدكاديك[٣]، وقاتلوا الجيش المملوكي قتالا عنيفا انتهى بهزيمة النوبيين وفرارهم. واستولى الأفرم على قلعة الدو (الدر) وزحف الفارقاني برا وبحرا لاستئصال ما تبقى من شأفة عناصر المقاومة النوبية، حتى وصل إلى جزائر ميكائيل، قرب الشلال الثاني، وتمكن من اختراق الجنادل بمراكبه. ففر النوبيون إلى الجزر. وحاول صاحب الجبل واسمه قمر الدولة أن يفرّ من وجه المماليك. غير أنه قبض عليه ثم أخلى سبيله على أن يستمر في تبعيته لشكندة. وكُتب له أمان بعد أن حلف لشكندة بالطاعة[٤]. ثم أوغلت الحملة في بلاد النوبة، حتى إذا اقتربت من دنقلة، خرج الملك داود للقائها في جيشه ومعه أخوته وبنو عمه[٥] واشتبك الفريقان في معركة انتهت بفرار داود، وقتل عدد من النوبيين وأسر عدد آخر من بينهم أخ لداود ويدعى سَنْكُوَا[٦]. ثم عادت الحملة المملوكية إلى دنقلة بعد أن تم إخضاع النوبيين. وتقرر تعيين شكندة ملكا للنوبة بدلا من داود. وتم تتويجه في دنقلة في نفس العام[٧].

ومما يدعو إلى الالتفات هنا، أن هذه الحملة تختلف في طابعها العام عما سبقها من حملات ضد النوبة. فهي ـ على قول ابن الفرات ـ تعتبر فتحا حقيقياً للنوبة[٨]. لأنها وضعت أسسا جديدة للعلاقات بين البلدين، بدليل الشروط الجديدة التي قطعها الملك شكندة على نفسه للسلطنة المملوكية[٩]، ومن هذه الشروط:

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص٢٠٢. ومفضل، نفس المصدر، جـ٢، ص٣٩٨.
(٢) المقريزى ـ المواعظ والاعتبار جـ١، ص٢٠٢.
(٣) المصدر السابق: نفس الصفحة، ومفضل، نفس المصدر، ص٣٩٩.
(٤) المقريزى: نفس المصدر والصحفة. وابن خلدون. نفس المصدر جـ٥، ص٤٠٠.
(٥) مفضل: نفس المصدر، ص٣٩٩.
(٦) النويرى: نهاية الأرب في فنون الأدب، مخطوطة، جـ٢٨، ورقة ١٠٩، والمقريزى، السلوك، جـ١، القسم الثاني، ص٦٣٢.
(٧) المقريزى: السلوك، نفس المصدر، ص١٢٢.
(٨) ابن الفرات: جـ٧، ص٤٥.
(٩) النويرى: نفس المصدر، جـ٢٨، ص٢٥٩ب. المقريزى. نفس المصدر، القسم الثالث، ملحق رقم ٥، مفضل، نفس المصدر، ص٣٩٩.

١ـ أن الملك شكندة أصبح تابعا للسلطان المملوكى، ونائبا عنه فى حكم بلاد النوبة.

٢ـ أن يرسل ملك النوبة نصف حصيلة ما يجمعه من بلاد النوبه خالصا للسلطان، فضلا عن عدد من الهدايا، تشتمل على عدد من الفيلة والزرافات الخ.

٣ـ أن يدفع كل فرد من العقلاء البالغين دينارا عينا للسلطان ما بقوا على النصرانية.

٤ـ أن تكون بلاد العلى وبلاد الجبل ملكا خاصا للسلطان.

٥ـ أن يسلم ملك النوبة ما كان لسلفه داود، وأخيه سنّكُوا وأقاربه، ومن قتل من عساكره، من المتاع والعقار إلى السلطان.

٦ـ ألا يترك شكندة أحدا من العربان فى بلاد النوبة، ومن وجده أرسله للسلطان.

٧ـ أن يطلع ملك النوبة السلطان بكل ما يصل إليه من أخبار.

وتأكدت هذه الشروط جميعا بيمين حلف عليها شكندة[١].

وموضع الأهمية هنا أن مقرة أضحت جزءا من السلطنة المملوكية، وأن السلطان المملوكى أصبح بيده عزل ملوك النوبة وتعيينهم. ثم أن حصيلة البلاد النوبية أصبحت مناصفة بين السلطان والملك النوبى. ولا يعنى عدم الإشارة إلى البقط هنا، أن النوبيين توقفوا عن دفعه بل الراجح أن عملية إرسال الرقيق النوبى إلى مصر استمرت بدليل قول المقريزى «والتزم (شكندة) أن يحمل جميع ما لداود ولكل من قتل وأسر من مال ودواب إلى السلطان مع البقط القديم[٢]». ثم أن السلطنة المملوكية طبقت على النوبيين لأول مرة الأسس الإسلامية الخاصة بمعاملة أهل البلاد التى تفتح عنوة. فعرضت الإسلام أو القتال أو الجزية. وأختار الملك النوبى دفع الجزية[٣]. وأصبح النوبيون أهل ذمة. ولهذا أنشأ السلطان بيبرس فى مصر ديوانا سماه ديوان النوبة. ومهمته مراقبة جمع الجزية والخراج. وتعيين العمال لذلك[٤]. ثم أن بلاد العلى وبلاد الجبل[٥]، أضحت تابعة تبعية يحتمل أن

(١) النويرى: نفس المصدر والصفحة، المقريزى نفس المصدر والصفحة. مفضل: نفس المصدر، ص٤٠٠.
(٢) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ١، ص٣٠٢.
(٣) النويرى: نفس المصدر، ص٢٥٩ب.
(٤) المقريزى: السلوك، جـ١، القسم الثانى، ص٦٢٣.
(٥) بلاد الجبل هى الجنادل الأولى. والعلا هى التى تليها جنوباً حتى جنوب المحرقة تقريباً وهى التى أطلق=

تكون إقطاعية او استغلالية مطلقة للسلطان، وهى حسبما ورد فى المراجع تقدر بربع بلاد النوبة[1].

ثم رأى الأميران آقسنقر الفارقاني وأيبك الأفرم، ضرورة تأكيد هذه اليمين التى حلف عليها شكندة بيمين أخرى تتضمن ولاءه للسلطان. وجاء فى هذه اليمين الثانية «متى ورد علىّ مرسوم السلطان فى ليل أو نهار يطلبه (أى شكندة) إلى الأبواب الشريفة يحضر لوقته وساعته، ولا يتأخر بوجه من الوجوه إلا بمقدار ما يدبر ما يحتاج إليه من أمور السفر»[2].

وكما هى العادة فى العصور الوسطى، فإن نسخة ثالثة لتلك اليمين حلف عليها أهل النوبة، تعهدوا فيها بالطاعة لملك النوبة، بشرط ولائه للسلطان، صاحب السلطة العليا فى البلاد. ولا طاعة له عليهم إذا خرج على السلطان. وأن يطالعوا السلطان إذا علموا على نائبه (الملك) أمراً يخالف المصلحة. والتعهد للملك بدفع دينار عيناً كجزية لإرسالها إلى القاهرة[3].

وعلى هذا أتمت الحملة مهمتها، بعد أن أطلقت أسرى عيذاب وأسوان. ويقال إن الحملة خربت كنيسة سوس (المسيح) بدنقلة[4]. وأخذت ما فيها من أدوات ذهبية ونفسية[5]. ثم غادرت دنقلة فى ذى الحجة من نفس العام ٦٧٤هـ (١٢٧٦م) إلى القاهرة مصطحبة معها عشرين أميراً نوبياً لضمان وفاء النوبيين بالتزاماتهم إزاء السلطنة المملوكية.

ومما يسترعى الإنتباه هنا، ما يتردد فى بعض المراجع بشأن الرقيق الذين غنمهم المماليك، فيقال إنه بلغ من كثرتهم أن بيع الرأس بثلاثة دراهم. ويقول المقريزى إنه «فضل بعد القتل،

....

=عليها فى العصر الرومانى اسم Dodekaschoinos ويعنى ذلك إعادة الحقوق القديمة لمصر فى هذه المنطقة والتى ضاعت منها عقب انسحاب القوات الرومانية منها على عهد دقلديانوس.

أنظر: MacMichael, H.A.: A Hist. of the Arabs in the Sudan, I. p. 182.

(١) يرى ما كمايكل Ibid.: op. cit. p. 181 وكذلك Arkell: op. cit. p. 195, أن المقصود بالنوبة هنا هو النوبة الأصلية Nobatia (مريس).

(٢) مفضل: نفس المصدر، ص٤٠٣.

(٣) النويرى: نفس المصدر، جـ٢٨، ص٢٥٩ب.

(٤) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص٢٠٢.

(٥) المقريزى: السلوك، جـ١، القسم الثانى، ص٦٢٣.

والبيع عشرة آلاف نفس»[١]. ولو صح هذا، فإن هذا العدد يدل على مدى ما تعرضت له بلاد النوبة من الخراب ونقص الرجال والأموال نتيجة لهذه الحملة.

لم تقتصر أهمية هذه الحملة على مقرة فقط، بل ترددت أصداؤها جنوباً، إذ أنها أثارت مخاوف ملك الأبواب وأقنعته بقوة المماليك وخطرهم على بلاده كذلك. يوضح هذا ما تذكره بعض المراجع[٢] من أن الملك داود لجأ إلى مملكة الأبواب هرباً من وجه المماليك. غير أن ملكها لم يوافقه، بل قاتله وقبض عليه وأرسله مقيداً إلى القاهرة حيث اعتقل بالقلعة إلى أن مات[٣].

وعلى الرغم من المواثيق والعهود التي حصل عليها بيبرس، فإنه ـ فيما يبدو ـ لم يكن مطمئنا تماما إلى إخلاص شكندة له. فيقول صاحب مخطوطة تاريخ قلاون، إن السلطان بيبرس عهد إلى أحد الإسماعيلية الفدائيين ويدعى سلامة، بالتردد على بلاد النوبة لمراقبة أعمال ملكها. ويقال إن سلامة اصطحب معه في إحدى رحلاتة إلى النوبة شاباً آخر إسماعيليا. وظل الإثنان يعملان عيوناً للسلطان بيبرس مدة طويلة[٤].

وكيفما كان الأمر، فالواضح أن السلطان بيبرس وطد للسيادة المملوكية في النوبة توطيداً تاماً، بدليل أن التقاسيم الإدارية المصرية لم تشتمل على شيء من بلاد النوبة إلا منذ عهد السلطان بيبرس[٥]. ومن ضمن هذه التنظيمات إنشاء طريق للبريد يبدأ من قوص، ثم يتشعب شعبتين، إحداهما إلى أسوان والنوبة، والأخرى إلى عيذاب. هذا فضلا عما ورد في شأن أخذ البيعة للملك السعيد بن السلطان بيبرس، وتحليف الناس له بالطاعة. «ولم يتخلف أحد عن اليمين من دنقلة إلى الفرات»[٦].

ثم مات شكندة قتيلا سنة ١٢٧٧م، وهي السنة التي توفى فيها السلطان بيبرس. ووثب على عرش النوبة أمير يدعى برِك. غير أن الطريقة التي وصل بها إلى الحكم عقب قتل شكندة

(١) المصدر السابق: نفس الصفحة.

(٢) ابن خلدون: نفس المصدر، جـ٥، ص٤٠٠. والقلقشندى، نفس المصدر، جـ٥، ص٢٧٧.

(٣) ابن خلدون: نفس المصدر السابق والصفحة.

(٤) مخطوطة تاريخ قلاون، تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور، جـ٢،ص ٣٠٩أ ، ٣١٠ف. ويقال إن سلامة من مواليد الأبواب . أى أنه نوبى وربما جاء اختيار السلطات بيبرس له لخبرته بأحوال البلاد.

(5) Stanley Lane - Poole : op. cit. p. 272.

(٦) مفضل: نفس المصدر، ص ٤٥٤.

جعلت السلطان قلاون ـ الذى اعتلى عرش السلطنة المملوكية سنة ١٢٧٩م ـ لا يطمئن إليه. ولا يبعد أن يكون هذا الملك حاول التخلص من السيادة المملوكية. وربما كان هذا هو السبب الذى حرك السلطان قلاون ضده. فيشير صاحب مخطوطة تاريخ قلاون، أن حملة مملوكية ـ لا يذكر تاريخها ـ قادها الأمير سنجر المسرورى المعروف بالخياط، إلى بلاد النوبة. وانتهت هذه الحملة بالقبض على الملك برك وقتله. ثم خلفه على عرش النوبة أمير يدعى سَمامون[1]. ويفسر لنا هذا، أن تعيين ملك للنوبة لابد أن يتم بموافقة السلطان المملوكى.

وبلغ النفوذ المملوكى فى النوبة حداً أقنع ملوك علوة بقوة السلطنة المملوكية، فتقربوا إليها بالهدايا. وبعثوا إلى السلطان قلاون سفراءهم ليعلنوا له ولاءهم وحكموه فيما ينشب بينهم وبين ملك دنقلة من نزاع. ومن ذلك ما ذكره صاحب مخطوطة تاريخ قلاون[2]. أن نزاعاً نشب بين أدور ملك الأبواب، وملك دنقلة. وأرسل أدور سفراءه إلى السلطان قلاون سنة ٦٨٥هـ (١٢٨٧م)، حاملين إليه هدايا، فيها فيلة وزرافة. وأكد أدور فى رسالته إلى السلطان ولاءه وخضوعه التام، وشكا إليه سوء المعاملة التى يلقاها ملك الأبواب من ملك دنقلة. وعلم سمامون ملك دنقلة بذهاب سفارة ملك الأبواب إلى مصر فبادر هو أيضاً بإرسال سفارة من قبله، لتدافع عن وجهة نظره، ولتشرح أسباب النزاع. ويقال إن هذه السفارة حملت معها إلى السلطان هدية مقدارها مائة وتسعون رأسا من الرقيق، ومائتا بقرة. ولا شك أن اهتمام الملك سمامون بإرسال سفرائه إلى السلطان قلاون مما يدل على السلطة التى صارت للدولة المملوكية على بلاد النوبة.

استمع السلطان قلاون إلى حجج كل من الطرفين. ويبدو أنه لم يقتنع بما أدلى به كل منهما، فأرسل من القاهرة رسولا إلى كل من المملكتين ليحقق مواضع الخلاف فى جوها. فاختار سنجر المقدمى رسولا إلى ملك الأبواب. وملوك بارة، والتاكه، وكدروا، ودنفوا، وآرى، وبفال، والأنج، وكرسه، وهى الممالك التى تتألف منها مملكة علوة وعاصمتها سوبا. ويقال إن الأمير سنجر صحب معه سفراء ملك الأبواب، وأنه سلك معهم جميعا طريق البحر الأحمر

(١) مخطوطة تاريخ قلاون: جـ٢، ص ٣١٠أ.

(٢) المصدر السابق، ص٢٩٠ب.

أنظر كذلك. Quatremere : op. cit. pp. 100 - 101.

وعيذاب خشية أن يتعرض لهم رجال ملك دنقلة، إذا هم ذهبوا جنوباً بطريق النيل. واختار السلطان قلاون علم الدين الحصني رسولا إلى ملك دنقلة.

ويبدو أن الرسول الأول، أتم مهمته وعاد مصر. أما الحصني فلا يعرف عن مصيره شئ. ويبدو أنه أنهى مهمته، وأنه عاد إلى القاهرة حيث أقنع السلطان بأن سمامون هو الجانب المعتدى. ويؤيد هذا ما ورد في مخطوطة تاريخ قلاون أيضاً، أنه على الرغم من محاولة الأمير سنجر المقدمي تجنب طريق دنقلة، وهو في طريق عودته إلى مصر فقد قبض عليه جواسيس الملك سمامون، وأراد الملك قتله. غير أن رجال حاشيته ورعاياه ثاروا عليه خوفا من بطش السلطان. وقالوا «أتريد أن تكون سببا في خراب ديارنا، وإحلال المصائب بنا» [١]. وربما كان هذا وحده كفيلا بإقناع السلطان قلاون بسوءنية الملك سمامون نحوه، ورغبته في الخروج عليه كذلك.

وكيفما كان الأمر، فقد أعد السلطان قلاون سنة ٦٨٥ - (١٢٨٧م) حملة حربية كبيرة لغزو النوبة بقيادة الأمير سنجر المسروري المعروف بالخياط متولى القاهرة، والأمير عز الدين الكوراني. وغادرت هذه الحملة القاهرة في نفس العام. وكتب السلطان إلى الأمير عز الدين أيدمر السيفي السلاح دار متولى قوص بأن يشترك في هذه الحملة بمن تحت يده من المماليك السلطانية، وأجناد مركز قوص، والعربان القاطنين في هذا الإقليم [٢]، وهم حسبماجاء في المراجع [٣] : أولاد أبى بكر، وأولاد عمر، وأولاد شريف،وأولاد شيبان، وأولاد الكنز، وبنو هلال، فضلا عن طائفة من أجناد الولايات بالوجه القبلي، والقراغلية. ووضع قادة الحملة خطة الزحف على النوبة. فانقسمت إلى قسمين، سار أحدهما بقيادة الأمير علم الدين سنجر الخياط متتبعا البر الغربي من النيل، وسار القسم الآخر بقيادة عز الدين أيدمر في البر الشرقي، حيث توجد المدن الهامة، غير أن سمامون - وهو رجل تصفه المراجع بالمكر والدهاء وسعة

(١) ورد في هذه المخطوطة أن رعايا الملك خلعوه وعينوا بدله ملكا آخر. غير أن هذه الرواية بنصها لا تتفق وما تلا ذلك من أحداث اشترك فيها سمامون نفسه. ويبدو أنهم وفقوا على خلعه وتعيين ملك غيره عقب الحملة التي بعث بها قلاون للقبض عليه سنة ١٢٨٧م وهي حملة قلاون الثانية. Quatremere : op. cit. p. 101.

(٢) المقريزي: السلوك ، جـ١ ، القسم الثالث، ص ٧٣٦ - ٧٣٧.

(٣) المصدر السابق، نفس الصفحة، وابن خلدون، نفس المصدر ، جـ٥، ص ٤٠٠.

الحيلة[١] - قرر ألا يلتحم بالجيش المملوكي في معركة حاسمة، إلا قرب عاصمته دنقلة، بعد أن يكون الجيش المملوكي قد حلت به نتائج السفر البعيد. ولهذا كتب سمامون إلى نائبه جريس صاحب الجبل بمقره بجزائر ميكائيل والدو (الدر)، يأمره بإخلاء البلاد التي تحت يده أمام الجيش الزاحف. ثم بلغ الجيش المملوكي بقيادة أيدمر دنقلة، حيث برز إليه سمامون، ودارت بينهما معركة انتهت بهزيمة النوبيين وفرار سمامون ، بعد أن قتل كثير ممن معه [٢]. وتتبع أيدمر حركات سمامون خمسة عشر يوما جنوبي دنقلة دون أن يظفر، ولم يقع في أسره سوى جريس صاحب الجبل وابن خالة الملك كذلك.

ثم عاد أيدمر إلى دنقلة، حيث تم تعيين ابن أخت سمامون ملكا على النوبة، وأفرج عن جريس وأعيد إلى منصبه [٣]، بعد أعلن ولاءه للملك الجديد والسلطنة المملوكية. وتعهد الملك الجديد بدفع البقط القديم والجزية السنوية وسائر الحقوق السلطانية، بدليل ما ذكره القلقشندي [٤] أن نسخة يمين أخذت على ملك النوبة الجديد عند استقراره نائباً عن السلطان قلاون في حكم بلاد النوبة. وهي لا تخرج عما سبق أن أعطاه شكندة من تعهدات والتزامات للسلطان بيبرس.

وفي سنة ٦٨٧هـ (١٢٨٨م) وردت كتب الأمير علم الدين سنجر الخياط إلى السلطان قلاون تنبئ بما تم . وقرر السلطان أن يبقى الأمير أيدمر، وهو صاحب الفضل فيما ناله الجيش المملوكي من انتصارات، ليكون أميرا مملوكيا مقيما، إلى جانب الملك النوبي الجديد . وتسهيلا لمهمته في بلاد النوبة بعث إليه السلطان قلاون من القاهرة أميراً نوبيا يدعى سعد الدين ابن أخت داود «ليكون مع الأمير أيدمر لخبرته بالبلاد وأهلها [٥]». هذا وتقرر أيضا أن تعسكر حامية مملوكية بدنقلة تحت قيادة أيدمر وعاد الأمير علم الدين ببقية الحملة المملوكية إلى القاهرة يصحبه عدد من ملوك النوبة ونسائهم فضلاً عن عدد كبير من الأسرى[٦].

(١) المقريزي نفس المصدر، جـ١ ، القسم، القسم الثالث ، ٧٣٧.
(٢) المقريزي : نفس المصدر، جـ١ ، القسم الثالث، ص ٧٣٧.
(٣) المصدر السابق ، نفس الصفحة.
(٤) القلقشندي: نفس المصدر، جـ١٣، ص ٢٩٠ - ٢٩١. على الرغم من انفراد القلقشندي بذكر هذه اليمين، فإن هذا لا يعني الشك في صحتها لتمسك سلاطين المماليك بحقوقهم في بلاد النوبة، ولاسيما بعد النصر العظيم الذي أحرزته الحملة القلاونية على ملك النوبة.
(٥) المقريزي: السلوك ، نفس المصدر، ص ٤٧٣.
(٦) المصدر السابق، نفس الصفحة.

غير أنه لم تكد الحملة المملوكية تغادر البلاد حتى ظهر سمامون مرة أخرى، وأخذ يعد العدة لاسترداد ملكه، وانتهى الأمر بفرار ملك النوبة الجديد، وكذلك جريس صاحب الجبل إلى القاهرة. ثم لم يلبث السلطان قلاون، أن أعد حملة ضخمة لإخضاع سمامون، وبلغت عدتها أربعين ألفا، واشترك فيها عربان الوجهين القبلي والبحرى. وامتازت هذه الحملة بوفرة عدد الحراريق التى بلغت عدتها خمسمائة ، لحمل الزاد والسلاح والأثقال.

غادرت هذه الحملة القاهرة فى سنه ٦٨٨هـ (١٢٨٩م) بقيادة عز الدين أيبك الأفرم. واشترك معه عدة من الأمراء من بينهم قبجاق المنصورى، وبكتمر الجو كندار، وأيدمر والى قوص، وصحبهم ملك النوبة الجديد وجريس. ثم مات هذا الملك فى الطريق إلى أسوان فدفن بها ، فعين السلطان قلاون بدله أحد أمراء النوبة الموجودين بالقاهرة،وهو ابن أخت الملك داود[١]، وألحقه بالحملة قبل أن تغادر أسوان. وتبع الجيش نفس الخطة التى سار عليها جيش الحملة السابقة، فانقسم إلى قسمين. فسار أيدمر والى قوص فى نصف العسكر فى البر الشرقى، وهو الطريق الذى سلكه فى الحملة السابقة، على حين سار الأفرم على رأس النصف الآخر فى البر الغربى، وتعاون بنو كنز تعاونا صادقا مع الحملة المملوكية، فتقدموا الجيش بصحبة جريس، لتأمين أهل البلاد وتجهيز الإقامات. وبدا هذا التعاون واضحا فى منطقة مريس حتى جزائر ميكائيل، حيث خرج المشايخ والأعيان للقاء الحملة، وإعلان ولائهم للسلطان. أما فى المنطقة التى ليس لجريس ولاية عليها، وهى الواقعة جنوبى الشلال الثانى حتى دنقلة، فإن أهلها هجروها إطاعة لسمامون، الذى اعتصم هذه المرة بجزيرة فى النيل، لا تذكرالمراجع عنها شيئا سوى أنها تبعد خمسة عشر يوما عن دنقلة. وبعث أيدمر إلى سمامون رسالة يطلب منه المفاوضة للدخول فى الطاعة، ووعده بالأمان. غير أن سمامون لم يقبل المفاوضة، وفر من الجزيرة جنوبا إلى جهة الأبواب، خوفا من وصول المراكب المملوكية للقبض عليه [٢]

ومما تجدر الإشارة إليه هنا، أن سمامون لم يكن فى حال تشبه الحالة الأولى من حيث وفرة الملتفين حوله. بل أن حاشيته وأتباعه من السواكرة، انفضوا من حوله، كما فارقه الأسقف

(١) المصدر السابق: ص ٧٤٩. يقول ابن خلدون، نفس المصدر، جـ٥، ص ٤٠٠، إنه داود بن أخى مرتشكين (شكندة).

(٢) المقريزى: السلوك ، نفس المصدر، ص ٧٤٩ - ٧٥١.

Quatremere : op. cit. PP. 105 - 106.

والقسوس وطلبوا الأمان من أيدمر، وعادوا جميعا صحبة الجيش المملوكي إلى دنقلة، بعد تطهير البلاد من مظاهر العصيان[1].

واحتفل أمراء المماليك بهذا النصر في دنقلة وألبسوا الملك النوبي الجديد تاج الملك، وبعد أن حلف هو وكبار رجال دولته على الولاء للسلطان ودفع الالتزامات المقررة من قبل. عسكرت بدنقلة طائفة من العسكر السلطاني، وعلى رأسها بيبرس العزى مملوك الأمير عز الدين والى قوص [2]. ثم عادت الحملة إلى القاهرة بعد أن وطدت للسيادة المملوكية في بلاد النوبة مرة أخرى.

أما سمامون، فلم يكد يعلم بخروج الحملة المملوكية من النوبة حتى عاد إلى دنقلة متخفيا، واستمال إليه السواكرة، ولم يلبث أن قبض على الأمير المملوكي المقيم في دنقلة، وهو بيبرس العزى، وأرسله هو ورجاله إلى القاهرة. أما الملك الجديد الذى عينه السلطان قلاون، وكذلك جريس، فانه قبض عليهما وقتلهما [3]. ثم أعقب سمامون ذلك برسالة إلى السلطان يسأله العفو ويتعهد بحسن السير والسلوك ودفع الالتزامات المقررة. ولكى يثبت للسلطان حسن نواياه، فإنه على قول المقريزى «بعث رقيقا وغيره تقدمة فقبل منه» [4].

ورضى السلطان قلاون بتأكيد سمامون وتعهداته وأقره على ما بيده في بلاد النوبه [5]. وربما كان مشاغله الداخلية والخارجية هي التي حملته على هذا الرضى [6]. ذلك أن قلاون، كان قد عزم على مهاجمة عكا بعد أن استطاع أن يقضى على الإمارة الصليبية بجهات طرابلس وأعمالها. ولم يبق من الولايات الصليبية سوى عكا مركز مملكة بيت المقدس الرمزية.

غير أن سمامون لم يكن عند العهد الذى قطعه على نفسه بصدد علاقاته بالسلطنة المملوكية. فلم يكد يسمع بوفاة قلاون، حتى امتنع عن إرسال البقط والجزية سنة ١٢٩١ وبعث إلى السلطان خليل بن قلاون في تلك السنة يعتذر له عن تأخير البقط إلى السنة التالية

(١) المقريزى: نفس المصدر، ص ٧٥٢.

Quatremere : op. cit. PP. 107.

(٢) المقريزى: نفس المصدر والصحفة.
(٣) المقريزى : نفس المصدر، ص ٧٥٣.
(٤) المصدر السابق: نفس الصفحة.
(٥) ابن خلدون: نفس المصدر، جـ٥، ص ٤٠٠.
(٦) المقريزى: نفس المصدر ، جـ٢٩، ص ٢٧٤أ.

متعللا بما أصاب بلاده من التخريب بسبب إغارات ملك الأبواب «التى زادت البلاد خرابا إلى خرابها وذهابا إلى ذهابها وسوادا إلى سوادها وفسادا إلى فسادها». وذكر سمامون فى تلك الرسالة أن دخول العسكر الإسلامية إليها فى الحملات السابقة لم يساعد على نهضة البلاد، بل كلفها غاليا.

بيد أن السلطان خليل لم يقبل هذه الاعذار، فأوفد إليه الرسل تنذر بعواقب تأخير البقط، وأسرع سمامون فسأل الأمان ووعد بإرسال البقط سريعاً . فقبل السلطان خليل هذا الوعد ، كما قبل والدة سمامون وبقية أهله رهائن فى دار الضيافة بالقاهرة. وبعد ذلك بقليل أرسل سمامون أخاه جريس – وهو غير جريس الذى تقدمت الإشارة إليه – برسالة استعطاف يطلب إرسال والدته إليه . ومما جاء فى رسالته «أن ملوك النوبة ما يدبرهم غير النساء» كما أرسل الشكوى من ملك الأبواب. ولم يفته أن يبعث بهدايا من الجمال والتمر والشب والسنباذج [١].

غير أن هذه المراوغة. أثارت السلطان خليل إلى استخدام القوة لعزل سمامون وتعيين ملك آخر للنوبة، والمرجع الوحيد الذى يدل على هذا الاتجاه هو مخطوطة تاريخ قلاون [٢] إذ تخبر أن حملة حربية – لم تذكر تاريخها [٣]. قامت لغزو النوبة، بقيادة عز الدين الأفرم [٤] وتدل حوادث هذه الحملة وما قامت به من أعمال، أن الغرض منها هو عزل الملك سمامون، والقبض على أمير نوبى آخر يدعى آنى [٥] ، لخروجه على السلطان. ويقال إن الأفرم تقدم

(١) ابن عبد الظاهر: الألطاف الخفية، ص ٣٩ – ٤٠.
(٢) مخطوطة تاريخ قلاون : جـ٢، ص ٣١٠أ.
(٣) يرى ماكمايكل أن هذه الحملة ربما أرسلت إلى بلاد النوبة ما بين ١٢٩٠ – ١٢٩٣م

MacMichael, : op. cit. p. 185.

(٤) كان عز الدين الأفرم أحد قواد الحملة التى جردها السلطان بيبرس سنة ١٢٧٦م فهو إذن صاحب خبرة ببلاد النوبة وأحوالها.
(٥) يطلق عليه صاحب مخطوطة تاريخ قلاون اسم الملك آنى. ويبدو أنه كان ملكا تابعاً للملك الكبير سمامون. وربما كان هذا الأمير حاكماً على المنطقة المجاورة لمملكة الأبواب Quatremere : op. cit. p. 112. وربما يكون هذا الأمير هو الذى خلف سمامون على العرش بعد ثورة النوبين ضده غير أنه ظل على عدائه للسلطان:

De Villard : op. cit. p. 218.

بقواته جنوبي دنقلة مسيرة ثلاثة وثلاثين يوماً [١]. غير أنه لم يظفر بالأمير الثائر آني لهروبه إلى بلاد الأنج [٢]. قبل وصول الجيش المملوكي بيومين، وعلى هذا عاد الأفرم إلى دنقلة بعد أسر كثير من النوبيين ونهب متاعهم. أما سمامون فليس يعرف عنه شئ. ويغلب على الظن أنه هرب إلى مكان مجهول ، لم يرجع منه، أو أنه مات قتيل، وأن الأمير آني خلفه في مملكة النوبة وفي عدائه للسلطان خليل.

ولهذا أرسل السلطان خليل من القاهرة أميرا نوبياً يدعى بدمة لمحاربة الأمير آني، وعقد الأمير الأفرم اجتماعاً كبيرا بحضور أمراء النوبة وأعيانها في كنيسة سوس بدنقلة، وتم في هذا الاجتماع تعيين بدمه ملكا حسبما تقضي به التقاليد النوبية. فألبس التاج بعد أن أقسم يمين الولاء والإخلاص للسلطان وتبعه جريس - ولعله كان أخا لسمامون - فأقسم يمين الولاء والطاعة. ويبدو أن جريس هذا كان نائبا لبدمة. ثم تلا ذلك صيغة يمين أخرى حلف عليها الاثنان بأنه لو ثار أحدهما ضد السلطان، جرد الآخر ضده السلاح للمحافظة على حقوق السلطان. ثم تبعهما الأمراء ورجال الدين [٣]. وكما هي العادة، فإن صيغة يمين أخرى حلف عليها النوبيون بالولاء للملك الجديد بشرط ولائه للسلطان المملوكي. ومن جملة ما قالوه: «لولا مولانا السلطان ما أطعناك، ومتى تغيرت أمسكناك، ونحن نرضى أن يقيم مولانا السلطان ملكا فلاحا أو جبليا. فإن بلاد النوبة مالها ملك إلا مولانا السلطان، ونحن رعيته» [٤].

ويمكن الحكم على أثر هذه الحملة في بلاد النوبة، على ضوء ما قامت به من أعمال، وما

(١) يرى ما كمايكل أن الأمير عز الدين الأفرم ربما توغل جنوباً حتى منطقة الأبواب (كبوشية) MacMichael : op. cit. p. 185.

(٢) Quatremere :op. cit. p. 109. ويرى ما كمايكل أن آني هرب إلى جبل حرزا بشمال كردفان. ويتفق هذا مع ما جاء في تاريخ قلاون، إذ يشير مؤلفه إلى أن الملك آني، هرب إلى بلاد الأنج، ولم يمنع المسلمين من المسير خلفه إلا قلة الماء لأن الطريق الذى كان عليهم أن يسلكوه عبارة عن صحراء تلجأ إليها الفيلة والقردة والخنازير والغزلان والنعام. MacMichael : op. cit. p. 185. ويرى آركل : Arkell : op. cit. p. 197. أن اسم الأنج يطلق على سكان شمال كردفان الذين قطنوا هذا الإقليم قبل مجئ العرب إليه ،وربما أطلق على المرويين. وهي في لغة الطوارق telanag أي ناس الشرق لأنهم أتوا من النيل.

(٣) مخطوطة تاريخ قلاون : جـ٢، ص ٣١١أ.

Quatremere : op. cit. p. 112.

(٤) المخطوطة تاريخ قلاون : ص ٣٠٨ ف - ٣٠٩أ.

حصلت عليه من نتائج. فهى فضلا عما قامت به من تطهير البلاد من عناصر الثورة، وتثبيت السيادة المملوكية عليها، فإنها عادت بعدد كبير من الأسرى والغنائم. والواضح مما ذكره صاحب مخطوطة تاريخ قلاون، أن كثيرا من النوبيين هجروا بلادهم بعد تخريب دورهم، وأن هذه الحملة ألقت الرعب والخوف فى قلوب جيرانهم، فأعلن ملك الأبواب ولاءه وخضوعه للسلطان ذلك أنه بعد مغادرة عز الدين الأفرم دنقلة إلى القاهرة بخمسة أيام - فيما يرويه صاحب مخطوطة تاريخ قلاون - وصلت رسالة إلى قائد الحملة من الملك بدمه يستأذنه فى السماح للهاربين النوبيين بالعودة إلى بلادهم واصلاح دورهم [١]. وثمة رسالة أخرى وصلته من ملك الأبواب يعتذر له فيها عن عدم لقائه، لأنه كان مشغولا هو الآخر بمطاردة الأمير الثائر آنى، وأضاف ملك الأبواب فى رسالته، أن بلاد الأنج تعرضت لغزو أجنبى، ولكنه سوف يبذل جهده لتخليصها من هذا الغزو. وإذا تم له ذلك، فإن جميع بلاد السودان ستخضع للسلطان المملوكى. وعلق صاحب هذه المخطوطة، على هذه الغزوة المملوكية بعد توغلها إلى أقصى الجنوب بقوله: «ودخل فى قلوب أهل البلاد من عساكر مولانا السلطان رعب عظيم، لأنها وصلت إلى أمكنة ما وصلها جيش قط إلا إن كان جيش الاسكندر ذى القرنين»[٢]

ومما لا شك فيه أن اختلاف الطامعين من أفراد الاسرة المالكة النوبية، واستمرار التجائهم إلى السلطنة المملوكية كان ضمينا ببقاء هذه السيادة على بلاد النوبة، حتى فى الحالات التى لم يكن للدولة المملوكية قوةكافية أو وقت كاف لليقظة والمراقبة فى بلاد النوبة، وليس أدل على ذلك من استمرار السيادة المملوكية فى السنوات الأولى من عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون. إذ المعروف أن هذا السلطان كان طفلا، وأن أمور الدولة كانت بيد فئة من المماليك الراغبين فى عرشها لأنفسهم. ومع هذا ظلت مملكة النوبة المسيحية على حالها من التبعية للسلطنة الملوكية. من الأدلة على ذلك قدوم أماى متملك النوبة إلى القاهرة [٣] سنة ٧٠٤هـ بهدية إلى السلطان الناصر وطلب مساعدته ضد أعدائه. فأنزله السلطان الناصر بدار الضيافة

(١) المصدر السابق: ص ٣١١أ.

(٢)المصدر السابق:

لم يسمع عن مثل هذه الغزوة التى ينسبها المؤلف إلى الإسكندر. وربما كان هذا من باب التشبيه بقوة الحملة ومدى ما وصلت إليه من أقاليم غير مطروقة.

(٣) المقريزى: السلوك، جـ٢، القسم الأول، ص ٧، أطلق المقريزى على هذا الملك اسم أياى على حين أن ابن خلدون، نفس المرجع، جـ٥، ص ٤٢٩ يطلق عليه اسم أماى (Amai). op. cit. p. 114.

وأمر بإعداد حملة حربية تلبية لطلبه بقيادة سيف الدين طقصبا والى قوص، واشتراك فيها جماعة من العربان. وغادرت الحملة قوص فى نفس هذا العام. وبعد أن أتمت مهمتها بالقضاء على عناصر الثورة النوبية، عادت إلى القاهرة. ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن هذه الحملة أمضت مدة تسعة عشر شهراً خلال سنتى ٧٠٦ - ٧٠٧هـ (١٣٠٦ - ١٣٠٧م)، وهى أطول مدة قضتها حملة مملوكية فى بلاد النوبة. وربما يكون بعض السبب فى هذا، هو شدة المقاومة النوبية وتعرض الحملة لمصاعب الطريق وقلة الزاد(١).

ظل الأمر على هذه الحال الدالة على ضعف المملكة النوبية وقنوعها بتبعيتها للسلطنة المملوكية، غير أن بعض العناصر النوبية الثائرة ظلت تسعى للفتنة بدليل ما تذكره بعض المراجع من أن أماى مات قتيلا ٧١١هـ (١٢١١م) وأن أخاه كرنبس(٢) خلفه على العرش. ويبدو أن الملك الجديد كان لا يزال فى حاجة إلى تأييد السلطنة المملوكية ضد هذه العناصر الثورية. ولهذا أعلن ولاءه للسلطان محمد الناصر، وقدم إلى القاهرة حاملا الجزية والضرائب المقررة على بلاده (٣).

غير أنه يبدو أن الملك كرنبس نجح فى تثبيت نفوذه فى الداخل بعد أن تخلص من منافسيه على عرش النوبة، وأنه لهذا اتجه إلى التخلص من التبعية للسلطنة المملوكية، فأظهر عداءاً واضحا نحوها وامتنع عن أداء الجزية سنة ٧١٥هـ (١٣١٥م) (٤). غير أن حركته وافقت استقرار الأمر فى الدولة المملوكية ببلوغ الناصر سنا مؤهلا للسلطنة واستطاعته التغلب على جميع عناصر الفتنة. وهذا هو سر إرسال الحملة الناصرية الأولى سنه ٧١٥هـ (١٣١٥م) إلى بلاد النوبة (٥).

(١) المقريزى : نفس المصدر، جـ٢ ، القسم الأول ، ص٧.
(٢) المصدر السابق: ص ١٠٧ ، وذكر ابن خلدون جـ٥ ص ٤٢٩ أن اسم هذا الملك كريش، وذكر أنه خلف أخاه آى (أماى) الذى توفى سنة ٧١٦هـ (١٣١٦م) ويوافقه القلقشندى، جـ٥، ص ٢٧٧، أن وفاته كانت سنة ٧١٦هـ.
(٣) المقريزى: نفس المصدر والصفحة.
(٤) ذكر القلقشندى: جـ٥، ص ٢٧٧، وابن خلدون، جـ٥، ص ٤٢٩: أن تاريخ امتناع كرنبس عن إرسال الجزية كان سنة ٧١٦هـ. غير أن المقريزى فى نفس المصدر يشير إلى حملة مملوكية فى عهد السلطان الناصر سنة ٧١٥هـ. ويعنى هذا أن حركة كرنبس هذه إما أن تكون سابقة لهذا التاريخ الأخير أو على الأقل معاصرة لها. ولعل ما ذكره كل من ابن خلدون والقلقشندى كان خاصاً بحملة ثانية تاريخها ٧١٦هـ.
(٥) المقريزى: نفس المصدر، ص١٤٥، ١٤٦.

بيد أن هذه الحملة لم تظفر بكرنبس لهروبه إلى مملكة الأبواب[1] ولا تشير المراجع - كما هي العادة - إلى عودة هذه الحملة إلى مصر، ولعلها بقيت في دنقلة إلى أجل غير مسمى لتقوم على تنفيذ أوامر السلطان، فيما يتعلق بتنصيب ملك جديد لبلاد النوبة.

وهنا تبدو ظاهرة جديدة هي في الواقع نقطة التحول في تاريخ بلاد النوبة. ذلك أنه كان من الأسرى النوبيين الذين أتت بهم الحملات الحربية السابقة على بلاد النوبة، عدد كبير من الأمراء، وأفراد البيت المالك وبعض المطالبين بالعرش النوبي، وأن هؤلاء وأولئك أودعوا سجن القلعة. واتجهت سياسة السلطنة المملوكية إلى استمالة أولئك الأمراء، فأعادت بعضهم إلى النوبة صحبة الجيوش المملوكية لتعيينهم ملوكا عليها [2]. ولاسيما بعض الذين أسلموا منهم ومن أمثلة هؤلاء أمير تطلق عليه بعض المراجع سيف الدين عبد الله برشمبو النوبي وهو ابن أخت داود ملك النوبة [3]. ويقول عنه النويري إنه تربى «في البيت السلطاني من جملة المماليك السلطانية» [4]. ويذكر القلقشندي أن عبد الله برشمبو هذا أسلم وحسن إسلامه وأقام بمصر بالأبواب السلطانية وأجرى عليه السلطان محمد بن قلاون رزقاً [5].

غير أن سياسة تعيين ملك مسلم حكم بلاد النوبة نقطة تحول خطيرة في تاريخ هذه البلاد، وهي أحد العوامل الحاسمة في سقوط مملكة النوبة المسيحية. ذلك أن اختيار السلطان الناصر لعبد الله برشمبو سنة ٧١٦هـ ١٣١٦٠م) لكي يكون ملكا على النوبة، أدى إلى ظهور بني كنز بصورة واضحة على مسرح الحوادث في بلاد النوبة، بعد أن أصهروا إلى البيت المالك النوبي، وتزوجوا من بنات ملوكها. وإذ ادعى أميرهم كنز الدولة بحقه في مملكة النوبة، فهو فضلا عن أنه أمير مسلم، فإن الملك ينتقل إليه بعد خاله الملك كرنبس حسبما يقض به نظام

(١) ابن خلدون: نفس المصدر، جـ٥، ص ٤٢٩. أنظر كذلك القلقشندى، نفس المصدر، جـ٥، ص ٢٧٧.
(٢) أرسل السلطان قلاون واحداً بعد آخر من أولئك الأمراء لتعيينه ملكاً على النوبة بدلا من سمامون. انظر ص ١٥٦، ١٥٨ من هذا الفصل.
(٣) المقريزي: نفس المصدر، جـ٣، ورقة ٩٥. وجاء في إحدى النسخ الخطية لكتاب السلوك، جـ٢ القسم الأول، ص ١٦١، حاشية رقم ٤: أن اسم هذا الأمير برشنبوا وفي نسخة أخرى سنبوا، والأخيرةهي التي نقلها كترمير في كتابه. op. cit. p. 115 على حين أن النويري ذكر اسمه سيف الدين عبد الله برشنبو النوبي. أما ابن خلدون، جـ٥، ص ٤٢٩، وكذلك القلقشندى جـ٥، ص ٢٧٧ ذكر أن اسمه عبد الله نشلي.
(٤) النويري: نفس المصدر والصفحة
(٥) القلقشندى: نفس المصدر، جـ٥ ص ٢٧٧.

الوراثة المعروف عند النوبيين. بدليل ما ذكره النويري[1]، أن الملك كرنبس لما علم برغبة السلطان في اختيار ملك مسلم لبلاد النوبة «أرسل ابن أخته كنز الدولة بن شجاع الدين نصر بن فخر الدين مالك بن الكنز إلى الأبواب السلطانية، وسأل شموله بالإنعام السلطاني في توليته الملك». ومما جاء في رسالته للسلطان الناصر قوله «إذا كان يقصد مولانا السلطان بأن يولي البلاد لمسلم فهذا مسلم وهو ابن أختي والملك ينتقل إليه بعدي»[2].

وإذا كان الملك كرنبس أدرك الاتجاه الجديد للسلطنة المملوكية بصدد تعيين ملك مسلم بدلا من ملك مسيحي، فرشح ابن أخته كنز الدولة، إلا أن هذا العرض لم يجد قبولا لدى السلطان الناصر. بدليل ما تذكره المراجع من أن السلطان قبض على كنز الدولة، ومنعه من العودة إلى بلاد النوبة، كما أعد حملة مملوكية سنة ٧١٦هـ ١٣١٦٠م) بقيادة الأمير أيبك جهاركي عبد الملك، لتأييد الأمير عبد الله برشمبو وتعيينه ملكا على بلاد النوبة[3]. أما كرنبس فيقال إن ملك الأبواب قبض عليه وعلى أخيه أبرام واحترز عليهما في جزيرة وبعث إلى قائد الحملة المملوكية يطلب إليه إرسال من يتسلمهما . فسار إليه جماعة من رجال الحلقة فتسلموهما وأحضرا إلى الأبواب السلطانية في حراسة شديدة. وعادت الحملة إلى القاهرة في جمادى الآخرة سنة ٧١٧هـ (١٣١٧م)[4]. وهكذا استقر عبد الله برشمبو - وهو أول ملك نوبي مسلم - في حكم بلاد النوبة.

غير أن الأمر لم يستتب للملك عبد الله برشمبو في بلاد النوبة، فخرج عليه النوبيون، ولم يعترفوا به ملكا عليهم. وبعض السبب في ذلك - حسبما ورد في النويري - «أنه غير قواعد البلاد وتعاطى نوعا من الكبر لم تجر عليه عادة ملك النوبة بمثله، وعامل أهل البلاد بغلظة

---

(١) النويريك نفس المصدر.
(٢) يبدو أن ماكمايكل MacMichael : op. cit. p. 186. لم يطلع على النص الذى انفرد بذكره النويرى، بصدد اعتلاء كنز الدولة عرش النوبة، وصلة هذا الأمير بآخر ملك نوبى مسيحى وهو كرنبس. والراجح أنه استعان بترجمة كترمير لما أورده المقريزى فى كتابه السلوك من إشارة عابرة لصلة كنز الدولة بكرنبس. ومع أن المقريزى ذكر أن كرنبس بعث بابن أخته كنز الدولة إلى السلطان يسألة فى أمره إلا أنه لم يتنبه لهذه العلاقة بدليل قول ماكمايكل «وسواء أكان كنز الدولة يتصل بالعائلة المالكة النوبية بصلة النسب أوأنه لم يكن له من الأمر شئ سوى اعتماده على القوة فهنا ما نجهله».
(٣) النويرى: نفس المصدر، جـ٣، ورقة ٩٦.
(٤) المصدر السابق.

وشدة فكرهوا ولايته» [١]. والراجح أن بنى كنز ومن انحاز إليهم من القبائل العربية فى بلاد النوبة وغيرهم من النوبيين هم الذين ثاروا عليه، إذ لم يكد يصل كنز الدولة إلى بلده الدو (الدر)[٢] سنة ٧١٧هـ (١٣١٧م) - بعد الافراج عنه [٣] حتى التف حوله النوبيون وأعلنوا ولاءهم له ونادوا به ملكا بدليل قول النويرى: «إنهم حيوه تحية الملك وهى قولهم موشاى موشاى. فهذه لفظة لا يخاطب بها غير الملوك» [٤].

وأكبر الظن أن احتفال النوبيين بكنز الدولة شجعه على محاولة الوصول إلى العرش مرة أخرى، فتقدم وحارب برشمبو وهزمه بعد أن خذلته جماعته. وقتل برشمبو وتولى كنز الدولة عرش النوبة. ويقال إن كنز الدولة «لم يضع تاج الملك على رأسه رعاية لحق أخواله وتعظيما لهم وحفظا لحرمتهم» [٥].

غير أن السلطان الناصر رفض الاعتراف باعتلاء كنز الدولة عرش النوبة، لسبب واضح وهو أن تولية ملك مسلم حكم النوبة، يؤدى إلى زوال نفوذ السلطنة المملوكية. ولهذا أطلق السلطان سراح أخيه كرنبس وإعادته إلى عرش النوبة [٦]. ولما وصل أبرام إلى دنقلة، خرج إليه كنز الدولة طائعا [٧]. ويقال إنه «سلم إليه الملك وصار فى خدمته» [٨]. ثم سار معه شمالا ليحث النوبيين على طاعة خاله أبرام. غير أن أبرام لم يرع العهد، فقبض على ابن أخته كنز الدولة ليرسله مقيداً إلى القاهر. ولم ينقذه من هذا المصير سوى موت أبرام بعد ذلك بثلاثة أيام [٩].

وهنا يلتف النوبيون حول كنز الدولة للمرة الثانية، ويصرون على أن يملكوه البلاد. ولم

---

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المقريزى: السلوك ، نفس المصدر، ص ١٦١.
(٤) النويرى: نفس المصدر، جـ٣، ورقة ٩٦.
(٥) المصدر السابق: نفس الصفحة. تظاهر كنز الدولة بحفظ كرامة أخواله فامتنع عن لبس التاج. والراجح أنه لم يفعل ذلك إلا لأن التاج يحمل علامة الصليب. الأمر الذى لا يتفق وعقيدته الإسلامية.
(٦) المصدر السابق: نفس الصفحة.
(٧) المقريزى: السلوك، جـ٢، القسم الأول، ص ١٦١.
(٨) النويرى: نفس المصدر، جـ٣٠، ورقة ٩٦.
(٩) المصدر السابق: نفس الصفحة.

يسع كنز الدولة - بعد أن غدر به خاله - إلا أن يلبس تاج الملك ويمارس حقوقه الملكية سنة ٧١٧هـ (١٣١٧م)[١]

وكيفما كان الأمر، فإن الدور الذى قام به الكنوز لم يرق فى نظر سلطان مصر. ومن الطبيعى أن تعمل السلطنة الملوكية على الحد من سلطانهم. وهذا هو سر الحملة التى بعث بها السلطان الناصر محمد إلى النوبة سنة ٧٢٣هـ (١٣٢٢م) بقيادة الأمير علاء الدين بن على قراسنقر، لخلع كنز الدولة وإعادة كرنبس إلى العرش. وأتمت الحملة عملها بإجلاس كرنبس على العرش بعد هروب كنز الدولة من دنقلة[٢].

وهنا تبدأ عملية المراوحة التقليدية المشابهة لما حدث فى النوبة منذ أيام بيبرس، وهى أنه لم تكد الحملة تنسحب شمالا حتى ظهر كنز الدولة من جديد وحارب كرنبس «وملك منه البلاد»[٣]. على أن موضع الأهمية هنا هو انتقال ملك النوبة من أيدى ملوكها المسيحيين إلى أيدى بنى كنز ٨٢٣هـ (١٣٢٣م)[٤]. ولكن هل يكفى انتقال الملك من أسرة إلى غيرها للدلالة على سقوط هذه المملكة؟ الواضح أن بنى كنز لم يكونوا يمثلون العنصر النوبى الأصيل، فهم من عرب ربيعة، وإذا كانوا اختلطوا بالنوبيين وتزاوجوا من بناتهم وتعلموا لغتهم فإن هذا لم يؤثر فى عروبتهم. إذ أنهم احتفظوا بلغتهم العربية إلى جانب اللغة النوبية. ثم أن نسبهم العربى واضح من اسم أول ملك تولى حكم النوبة منهم سنة ١٣٢٣م «كنز الدولة بن شجاع الدين نصر بن فخر الدين مالك بن الكنز»[٥]. ومعنى هذا أن ركنا هاما من الأركان التى يعتمد عليها نظام الحكم فى المملكة النوبية المسيحية قد انهار من أساسه. فالمعروف أن حكم النوبة انحصر فى أسرة أو أسر ملكية نوبية، ومارس ملوكها سلطات سياسية ودينية

(١) المقريزى: نفس المصدر، ص ١١٦.
(٢) المصدر السابق: ص ٢٥٠.
(٣) المصدر السابق: نفس الصفحة.
(٤) يرى البعض أنتقال الملك إلى بنى كنز يعد نهاية المملكة النوبية المسيحية، سنة ١٣٢٣م، وبداية لمرحلة جديدة فى تاريخ هذه البلاد.
MacMichael, H. A. : op. cit. p. 187.
Arkell, A. J. : "Fung Origins," SNR. XV, Part. II. p. 204.
(٥) النويرى: نفس المصدر، جـ١، ورقة ٩٥ - المقريزى، نفس المصدر، ص ١٦١.

مطلقة على رعاياهم، ولاسيما فيما يلي منطقة مريس جنوبا. بيد أن هذه السلطة المطلقة تضاءلت منذ أن تدخلت السلطنة المملوكية في شئون النوبة الداخلية. وأضحى ولاء النوبيين قسمة بين ملوك النوبة والسلطنة المملوكية، بدليل كثرة الإيمان التي حلفوا عليها لسلاطين المماليك [١] وظل مبدأ سيادة الملك على رعاياه باعتبارهم «عبيد الملك» معمولا به فيما وراء الشلال الثاني جنوبا على الأقل في عهد السيطرة المملوكية على بلاد النوبة، بدليل الاستمرار في دفع البقط من ناحية، وكثرة الهدايا من الرقيق إلى سلاطين المماليك من ناحية أخرى[٢]. ولا شك أن بقاء هذا النظام في النوبة يعني استمرار أحد الأسس التي قامت عليها الملكية المسيحية حتى سنة ١٣١٣م، وهو تاريخ انتقال الملك إلى بني كنز. وكان من الطبيعي أن يقضي على هذا المبدأ وأن تتغير نظرة ملوك النوبة العرب إلى رعاياهم كذلك.

إن بلاد النوبة منذ الربع الأول من القرن الرابع عشر، لا تعد وطن النوبيين فحسب بل شاركهم فيها قبائل عربية كثيرة من غير بني كنز، ولم يعد الشلال الثاني - كما كان من قبل - حاجزا يمنع تدفقهم على ما يليه جنوبا. بل الواضح أن كثيراً من الجماعات العربية التي تعيش في مصر، اشتركت في الحملات المملوكية على بلاد النوبة مدة نصف قرن [٣] من عام ١٢٧٦ إلى عام ١٣٢٣م. ولا بد أن كثيراً من هذه الجماعات فضلت البقاء في بلاد النوبة عقب كل انسحاب للقوات المملوكية إلى مصر، ومن هذه الجماعات، بني بكر وبني عمر وبني شيبان وبني هلال وغيرهم كثير. وربما كان الدافع لهم على البقاء في بلاد النوبة، شدة الضغط المملوكي عليهم في مصر [٤].

---

(١) راجع ص ١٤٧ - ١٥٠ من هذا الفصل.

(٢) راجع ص ١٤٩ - ١٥٧ من هذا الفصل.

(٣) راجع الحملات المملوكية على عهد بيبرس وقلاوون والناصر محمد وغيرهم، والتي اشترك العربان في كل حملة منها على بلاد النوبة.

(٤) قد يكون من بين الأسباب التي دفعت السلطنة المملوكية إلى أخذ المواثيق على الملك شكندة وخلفائه بتسليم العربان في النوبة إلى السلطنة المملوكية، هو خروج أولئك العربان على السلطنة والانفصال عن بقية الجيوش المملوكية عند انسحابها. ومع هذا فإننا نلاحظ اشتراك العربان في كل حملة مملوكية على النوبة. والراجح أن السلطنة المملوكية لم تكن تمنع مثل هذا الاتجاه من جانب بعض العربان إلا من تخشى ثورتهم عليها.

والواضح أن كنز الدولة استعان بالعرب المقيمين ببلاد النوبه للوصول إلى العرش، إذ يقول النويرى: «فاجتمع أهل النوبة على كنز الدولة وملكوه عليهم، فملك البلاد حينئذ ولبس تاج الملك واستقل بالمملكة وضم إليه العرب واستعان بهم على من ناوأه»[١]، والواضح كذلك من هذا النص أن العرب كانوا من القوة والكثرة العددية بحيث تمكنوا من التغلب على بقايا بيوت الإمارة النوبية القديمة، فضلا عن تحدى السلطان المملوكى، وإعلان الاستقلال عنه، وما كان يفيد كنز الدولة فى كثير أو قليل حقه المشروع فى ملك النوبة - عن طريق وراثة الأم - لولا ما اجتمعت إليه من قوة العرب المهاجرين والنوبيين المتوطنين الذين تأثروا بهم وامتزجت دماؤهم بدمائهم.

وإذا اقتصر دور العرب الذين استقروا فى بلاد النوبة، على القضاء على أحد مظاهر الملكية النوبية المسيحية ، وبإزالة البيت الملكى النوبى القديم وإحلال العنصر العربى محله، لكان دورهم فى سقوط الدولة وزوالها، ضئيلا بالقياس إلى ما هنالك من مظاهر أخرى اتصفت بها الملكيه النوبية المسيحية ومنها الديانة المسيحية، دين البلاد الرسمى، إذ لا يكفى لسقوط الدولة أن يحل ملك مسلم محل ملك مسيحى فى ظل النظم القديمه[٢].

المعروف أن العرب اختلطوا بالنوبيين واعتنق كثير من هؤلاء الدين الإسلامى، منذ القرن التاسع الميلادى فى أرض مريس، ثم فيما يليها جنوبا منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادى على الأقل . ويذكر بعض المؤلفين العرب أن الإسلام انتشر فى بلاد النوبة ولاسيما بعد أن أضحى ملوك النوبة من المسلمين فيقول ابن خلدون. «وبحثوا عن كربيس (كرنبس) ببلد الأبواب فألفوه بمصر، ووصل الخبر إلى السلطان فبعثه إلى النوبة فملكها. وانقطعت الجزية بإسلامهم»[٣] .

ويتضح من هذا النص، أن النوبيين أعفوا من دفع الجزية للسلطنة المملوكية لاعتناقهم

(١) النويرى: نفس الصفحة.

(٢) إذا لم يستتبع انتقال الملك من يد ملوك النوبة المسيحيين إلى ملوك مسلمين اعتناق النوبيين الإسلام. فلا يحق لنا القول بسقوط المملكة النوبية المسيحية. بل مجرد تغيير الأسرة المالكة.

(٣) ابن خلدون : نفس المصدر، جـ٥، ص ٤٢٩ .

الإسلام . غير أن القلقشندى، [1] يقول «فبعث السلطان كرنبس إليهم فملكهم وانقطعت الجزية عنهم من حين أسلم ملوكهم» . فهل يفهم من هذا النص أن كرنبس اعتنق الإسلام فانقطعت الجزية بإسلامه؟ لم يرد نص صريح فى مولفات السابقين كالنويرى والمقريزى عن اعتناق كرنبس الإسلام. ومع هذا فإن اعتناق الملك النوبى الإسلام لا يعفى رعياه المسيحيين من دفع الجزية للسلطنة المملوكية. فإن أنقطاع الجزية كان نتيجة عاملين: أولهما انتقال الملك إلى كنز الدولة الذى يقول عنه النويرى «إنه استقل بالمملكة»[2]. والثانى اعتناق النوبيين الإسلام حسبما ذكره ابن خلدون [3].

غير أن فضل الله العمرى (١٣٤٥م) يحدثنا عن علاقة ملك النوبة بالسلطنة المملوكية فيقول: «إنه رعية من رعايا صاحب مصر، وعليه حمل مقرر يقدمه فى كل سنة. ويخطب فى بلاده لخليفة العصر وصاحب مصر [4]». والظاهر أن هذا التعريف الذى وضعه العمرى لبلاد النوبة يرجع إلى تاريخ سابق قليلا لوضع مؤلفه. أى إلى عهد السلطان الناصر، وقبل أن يستقل بها كنز الدولة ١٣١٣م، بدليل قول: القلقشندى «هذا (ما يقوله العمرى) كان فى الدولةالناصرية «محمد بن قلاون». وهذه الأتاوة كانت مقررة عليهم من زمن الفتح... وهى (أى النوبة) الآن (أى نهاية القرن الخامس عشر) مملكة مستقلة بذاتها)[5].

---

(١) القلقشندى : نفس المصدر، جـ٥. ص ٢٧٧.

(٢) النويرى: نفس المصدر، جـ٣، ورقة ٩٦.

(٣) ابن خلدون: نفس المصدر، جـ٥، ص ٤٢٩.

(٤) ابن فضل الله العمرى: التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٢٩. يبدو أن العمرى أخذ هذه المعلومات عن سجلات ديوان الإنشاء أوغيره من الدواوين. وقد وضعت هذه السجلات فى عهد السلطان الناصر محمد عندما تولى عبيد الله بن برشمبو وكرنبس مرة ثانية حكم النوبة، ثم انقطع إرسال الجزية للسلطنة المملوكية بعد تولية كنز الدولة حكم النوبة سنة ١٣٢٣م، وربما لم تقطع الخطبة للخليفة بعد هذا التاريخ ١٣٢٣م باعتباره زعيما عاماً للمسلمين، وربما كانت عبارة العمرى «رعية من رعايا صاحب مصر» - استمرار لادعاء السلطنة المملوكية حقوقاً فى النوبة. ولابد أن الجامع الذى أشار إليه المقريزى، المواعظ، جـ١ ، ص ١٩٣ ، وقال إن كنز الدولة بناه فى دنقلة، قد كان أول جامع تقام فيه الصلاة الجامعة فى بلاد النوبة. والراجح أن كنز الدولة حول الطابق الثانى لكنيسة دنقلة إلى جامع وظل الطابق الارضى يمثل دار ضيافة بدليل قول المقريزى إنه كان يأوى إليه الغرباء، ولم يذكر تاريخ إنشاء هذا الجامع غير أنه يقال إنه أنشئ حوالى سنة ١٣١٨ وهو فى حكم كنز الدولة الأول للنوبة - نعوم شقير، جـ٢ ، ص ٥٥.

(٥) القلقشندى : نفس المصدر، جـ٨، ص ٦٠.

لكن هل يعني هذا أن المسيحية قضى عليها تماما في بلاد النوبة؟ الراجع أنه حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى على الأقل، كانت لا تزال في بلاد النوبة بقايا من الديانة المسيحية، لأسباب ترجيحية من بينها: أن بعض النوبيين ظلوا على المسيحية، أو أن بعض من أسلم ظل محتفظا بقليل أو كثير من العقائد المسيحية، لقرب عهدهم بالإسلام[1].

ولا تذكر المراجع اسم ملك مسيحي لبلاد النوبة بعد كنز الدولة والراجح أن خلفاءه جميعا، إما أنهم كانوا عربا أو نوبيين مستعربين. أماما ذكره ابن فضل الله العمرى [2]. بصدد رسم المكاتبة بين السلطنة المملوكية وملوك النوبة، والذى فرق فيه بين نوعين من المكاتبة، أحدهما إذا كان الملك مسلما، والآخر إذا لم يكن كذلك، فإنه يغلب على الظن أن رسم المكاتبة الذى أورده العمرى في مؤلفه، وضع أيضا في عهد السلطان الناصر حين تعاقب على حكمها ملكان أحدهما مسلم والآخر مسيحي [3]. ثم نقلها العمرى كما هي عن ديوان الإنشاء.

والخلاصة أنه لم يكد ينتصف القرن الرابع عشر الميلادى حتى كان النوبيون قد اعتنقوا الإسلام باستثناء أقلية نوبية ظلت على المسيحية، حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى حيث ظلت تحج إلى بيت المقدس[4].

وثمة عوامل أخرى مباشرة عجلت بسقوط مملكة النوبة المسيحية ومن بينها، ما ذكره ابن خلدون [5]، بصدد هجرة عرب جهينة من مصر إلى بلاد النوبة حيث يقول: «إن الجزية انقطعت بإسلامهم ثم انتشرت أحياء العرب من جهينة في بلادهم. واستوطنوها، وملكوها. وملئوها عبثا وفسادا. وذهب ملوك النوبة إلى مدافعتهم. فعجزوا ثم ساروا إلى مصانعتهم بالمصاهرة، فافترق ملكهم، وصار لبعض أبناء جهينة من أمهاتهم على عادة الأعاجم في

---

(1) Trimingham, J. S. : Islam in the Sudan, P. 71. Note 3.

(٢) ابن فضل الله العمرى: التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٣٠، أورد العمرى رسم المكاتبة بين السلطنة المملوكية وملوك النوبة فيما يلي: «صارت هذه المكاتبة إلى المجلس الجليل الكبير الفارس المجاهد المؤيد الأوحد العضد مجد الإسلام زين الأنام... هذا إذا كان مسلماً وان لم يكن مسلماً فمكاتبته كمكاتبة صاحب سيس ولا يعلم له السلطان بخطه».

(٣) كان عبد الله برشمبو أول ملك نوبى مسلم، ثم خلفه الملك كرنبس. وكان لا يزال مسيحياً.

(4) Crowfoot, J.W. : op. cit. p. 149.

(٥) ابن خلدون : نفس المصدر ، جـ٥، ص ٤٢٩.

تمليك الأخت وابن الأخت فتمزق ملكهم، واستولى أعراب جهينة على بلادهم، وليس في طريقه شئ من السياسة الملوكية للآفة التي تمنع انقياد بعضهم إلى بعض. فصاروا شيعا لهذا العهد. ولم يبق لبلادهم رسم للملك، وانما هم رحالة بادية يتبعون مواقع القطر شأن بواد الأعراب. ولم يبق لبلادهم رسم للملك، لما أحالته صبغة البداوة العربية من صبغتهم بالخلطة والالتحام».

ومعنى هذا أن عرب جهينة هاجروا إلى بلاد النوبة أوائل القرن الرابع عشرالميلادى، بعد أن قطعت الجزية عن النوبيين لإسلامهم، وأن هجرتهم بدأت إما بعد انتقال ملك النوبة مباشرة إلى بنى كنز، أوقبله بقليل. ويعنى هذا أن دورهم في إسقاط البيت الملكى النوبى غير أكيد. بل إنه كان من عمل بنى كنز، وغيرهم ممن سبقت الإشارة إليهم. واذا كان المقصود بملوك النوبة - في قول ابن خلدون - هم بنو كنز فإن هذا يجعل رأيه غير مقبول. والراجح كما يقول كروفوت [١]، أنه قد ينسب إلى عرب جهينة ضياع كثير من المظاهر التى امتازت بها الملكية النوبية. ومنها أن اللغة النوبية، لم تعد لغة الكتابة، بل ظلت تمثل لغة التفاهم بين النوبيين. وينسب إلى عرب جهينة كذلك تخريب كثير من الكنائس النوبية. فضلا عن زوال المبانى التى امتاز بها الفن المعمارى المسيحى النوبى.

أماما يقوله ابن خلدون بأن عرب جهينة صبغوا النوبيين بصبغة البداوة فأصبحوا رحالة يتبعون مواقع الغيث، فهذا لا يتفق وما هو معروف عن جو بلاد النوبة الجاف. والراجح أن عرب جهينة بعد أن استقروا في بلاد النوبة مدة تقرب من قرن ، اندفعوا جنوباً إلى الحبشة وغربا إلى جهات كردفان ودارفور. وصحبوا معهم بعض النوبيين أو النوبيين المستعربين إلى هذه الجهات حيث عاشوا جميعا عيشة البداوة متتبعين مواقع الغيث فيها [٢].

ويرجع بعض الباحثين سقوط مملكة النوبة المسيحية إلى عوامل منها، أن الكنيسة النوبية كانت دائما في حاجة لأن تتصل بمنبعها وهى كنيسة الإسكندرية، للحصول على الأساقفة.

....

(1) Crowfoot, J. W. Op. cit. p. 148.

(2) Ibid. : op. cit. p. 148.

Kirwan, L. P. : Oxford Univ. Exc, at Firka, p. 45.

غير أن هذه الصلة الدينية قطعت نهائيا منذ عهد البطريرك ٧٥ كيرلس الثالث سنة ١٢٣٥م[١]، فتركت الكنيسة النوبية دون عون خارجي، فتضعضع مركزها وجاءت نهايتها حوالى سنة ١٣٥٠م[٢]. ومنها أن دور رجال الدين النوبيين كان سلبيا. فكثيرا ما تخلوا عن ملوك النوبة وانضموا إلى الغزاة[٣].

ثم أن سوء حال الكنيسة المصرية، وما تعرض له الأقباط فى مصر منذ سنة ١٣٣٢م على يد السلطنة المملوكية، كان له أثره فى النوبة كذلك. ويقال إن هذا الاضطهاد، امتد إلى بلاد النوبة كذلك، على يد القبائل العربية. فخربت كنائس النوبيين، وحول الكثير منها إلى مساجد، من بينها كنيسة دنقلة التى حولت إلى مسجد [٤].

من الملحوظ أن مملكة النوبة المسيحية ظلت تقاوم وحدها الضغط العربى والمملوكى، ودون عون خارجي، فلم يتعاون معها أى من الممالك المسيحية المجاورة. فمثلا كان ملوك علوة حربا عليها، ولا شك أن النزاع الذى نشب بين ملوك النوبة وملوك علوة كان من أهم العوامل التى عجلت بسقوط مملكة النوبة المسيحية [٥]. ثم أن ملوك الأبواب تعاونوا مع السلطنة المملوكية ضد ملوك النوبة، ورفضوا إيواء الهاربين منهم. وكثيرا ما حاربوهم وسلموا الفارين منهم إلى سلاطين المماليك.

أما ملوك الحبشة من البيت الزغوى فلم يمدوا يد المساعدة لملوك النوبة ضد السلطنة المملوكية أو القبائل العربية التى ملكت ديارهم [٦].

* * *

(1) Budge, E.A.W. : The Egyptian Sudan, II. P. 130.
Beckett. H.W. : ASN., II 1907 - 8p. 353.

(2) Budge, E. A. W. : Nubian Texts p. 4.

(3) Budge, E.A.W. : AHist. of Ethiopia, I, P. IIS.

(4) Budge. E. A. W. : The Egyptian Sudan, op. cit, II, P. 130.
ويرى أن تحويل هذه الكنيسة إلى مسجد كان حوالى سنة ١٣١٨ على يد كنز الدولة، وربما كان هذا هو الجامع الذى أشار إليه المقريزى.

(5) Budge, E.A.W.: The Egyptian Sudan, op. cit. p. 139.

(6) Henderson. K. D. D.: "Fung Origins" SNR. XVII.. Part I- 1935 p. 150.

أما عن أحوال بلاد النوبة الداخلية بعد سقوط المملكة المسيحية بها سنة ١٣٢٣م فلم يصلنا عنها شئ حتى ٧٦٧هـ ١٣٦٦م [١]. وكل ما يمكن استخلاصه من رواية المقريزى[٢]. أن المنطقة ما بين عيذاب شرقا والواحات غربا، فضلا عن بلاد النوبة نفسها، أضحت مسرحا للاضطرابات التى كانت من عمل الكنوز وغيرهم من القبائل العربية التى استقرت فى بلاد النوبة مثل بنى جعد وبنى عكرمة.

وليس لهذا الاضطرابات أهمية سوى ما تدل عليه من تكاثر القبائل العربية جنوباً بسبب اضطراب الأحوال فى السلطنة المملوكية نفسها فى المرحلة الأخيرة من أيام الدولة المملوكية الأولى. وثمة أهمية أخرى توجب الإلتفات، وهى أن هذه القبائل العربية كانت تنقسم على نفسها لأسباب قد يكون من بينها التنافس على السلطة فى بلاد النوبة. ومن أمثلة ذلك ما ذكره المقريزى [٣]، من أن سفارة نوبية مؤلفة من ركن الدين كرنبس [٤]، أحد قواد جيش النوبة، وياقوت أحد التراجمة بها، وياقوت فارس الدين، وصلت إلى القاهرة سنة ٧٦٧هـ (١٣٦٦)، تخبر أن ثمة نزاعا نشب بين ملك النوبة وبين ابن أخيه [٥]. فقدم الأمير الثائر يعاونه عرب بنى جعد إلى دنقلة، حيث دارت معركة قتل فيها الملك ولاذ جيشه بالفرار. غير أن بعض الموالين للملك، أقاموا أخاه ملكا فى مدينة الدر تاركين دنقلة تحت رحمة الأمير الثائر وبنى جعد. غير أن هذا الأمير، دبر مكيدة تخلص بها من زعماء بنى جعد. ويقال إنه انتقل شمالا إلى الدر، حيث تم الصلح بينه وبين عمه، على أن يكون الأمير الثائر نائباً للملك. وطلب الأمير معاونة السلطان الأشرف ضد العرب لاسترداد ملك بلادهما على أن يدفعا له جزية سنوية[٦].

أرسل السلطان حملة مملوكية بقيادة الأمير عبد الغنى إلى بلاد النوبة. ويقول

(1) MaMichael. H.A.: op. cit. I. p. 187.

(٢) المقريزى: السلوك، مخطوط، المجلد السابع ص ١٤٨.

Quatremere : op. cit. p. 116.

(٣) المقريزى: السلوك مخطوط، المجلد السابع، ص ١٤٨أ.

(٤) المصدر السابق.

(٥) لم يذكر المقريزى اسم الملك ولا اسم ابن أخيه. غير أننا نستنتج من اعتماد الأمير الثائر على بنى جعد أنه من إحدى القبائل العربية وربما كان من فرع بنى كنز.

(٦) المصدر السابق : ص ١٤٩أ. وانظر:

Quatremere : op. cit. p. 118.

ماكمايكل[1]، وإن هدف هذه الحملة هو تأييد الملك الشرعى، وتأديب بنى كنز وبنى عكرمة، فضلا عن إعادة النفوذ المملوكى على هذه البلاد، ويقال إن زعماء بنى كنز أعلنوا ولاءهم للحملة المملوكية، بعد أن منحهم قائدها الأمان. وتقدمت الحملة جنوبا فى أرض النوبة قاصدة الدر، لإنقاذ ملك النوبة من الحصار الذى فرضه عليه بنو عكرمة. وعند مدينة إبريم قبض قائد الحملة على زعماء بنى كنز وبنى عكرمة. ثم قصدت فرقة مملوكة إلى جزائر ميكائيل، حيث يعكسر بنو عكرمة، ودارت موقعة قتل فيها كثير من بنى عكرمة وفر الباقون إلى الجبال[2].

وتدل أنباء هذه الحملة وما قامت به من أعمال فى بلاد النوبة، أنها لم تحرز نصرا حاسماً، وأن نجاحها كان جزئيا [3]. بدليل أنه تقرر أتخاذ مدينة الدر مقرا للملك بدلا من دنقلة، لسببين واضحين هما هجر سكانها لها كما يقول المقريزى [4]، وحتى لا يقع الملك فى أيدى بنى عكرمة، الذين كانوا يسيطرون عليها فيما يظهر.

اتمت الحملة مهمتها فى بلاد النوبة على هذا النحو بعد أن أجلست الملك على العرش ولبس الحلة الملكية [5]، ثم عادت إلى مصر فى نفس العام، يصحبها أسرى بنى كنز وبنى عكرمة الذين أودعوا السجن. ويقال إن الملك بعث بهدية قيمة إلى السلطان. أما ابن أخيه فإنه أقام فى قصر إبريم [6].

ويبدو أن السلطنة المملوكية كانت موتورة من بنى كنز وبنى عكرمة، فبعث بأسراهم إلى أسوان حيث قتلهم جميعاً واليها المعروف بالدم الأسود سنة ١٣٦٦م. غير أن هذا الحادث أثار بنى كنز وبنى عكرمة كذلك، فساروا فى قوة كبيرة نحو أسوان واشتبكوا فى معركة ضد القوات المملوكية قتل فيها الدم الأسود، وانتهى الأمر بتخريب أسوان ونهبها وقتل عدد كبير من سكانها [7].

(1) MacMichael, H. A. : op. cit. p. 187.

(٢) المصدر السابق : ص ١٤٩أ، وانظر:
Quatremere : op. cit. pp. 119 - 120.

(3) MacMichael, H. A. : op. cit p. 188.

(٤) المقريزى: السلوك، مخطوط، المجلد السابع، ص ١٩٤أ، وانظر:
Quatremere : op. cit. p. 120.

(٥) المصدر السابق: نفس الصفحة. (٦) المصدر السابق:

(٧) المصدر السابق: ص ٥٢ب، وانظر:
Quatremere : op. cit. pp. 120 - 126.

وظلت الأمور في هذه المنطقة على حال من الفوضى حتى إذا كان عام ٧٨٠هـ (١٣٧٩م) عاد النفوذ المملوكي مرة أخرى إلى هذه المنطقة، وتمكن حاكم أسوان من القبض على أحد عشر زعيما من زعماء بنى كنز وقتلهم وبعث برؤوسهم إلى القاهرة حيث علقت على باب زويلة، كما أرسل مائتان من أبناء هذه القبيلة مكبلين بالحديد إلى القاهرة [١].

ويقول المقريزى إن سياسة العنف والقسوة التي اتبعتها السلطنة المملوكية نحو بنى كنز وغيرهم أدت إلى إضعاف نفوذها في هذه المنطقة فأضحت تحت رحمة. بنى كنز الذين خربوا بعض جهاتها ولم تتمكن السلطنة المملوكية أن تبسط سلطانها على هذا الإقليم بصفة دائمة[٢]، وظل يتجاذبها بنو كنز حينا وسلاطين المماليك حينا آخر. ويشير المقريزى إلى إغارات قام بها بنو كنز على ثغر أسوان كان يقابلها سلاطين المماليك بتجريد الحملات عليهم[٣] وظلت عملية المراوحة التقليدية في هذه المنطقة هي العملية الوحيدة التي تسترعى الانتباه.

ووجدت السلطنة المملوكية فرصتها في استعادة إقليم أسوان وبسط نفوذها القديم على النوبة حينما لجأ نصر الدين ملك النوبة عام ٨٠٠هـ (١٣٩٨م) إلى القاهرة مستنجدا بالسلطان المملوكي برقوق ضد ابن عمه [٤]. ويبدو أن هذا الملك النوبى الهارب كان من أبناء بنى كنز، ويقال إن السلطان عين على أسوان واليا يدعى إبراهيم الشهابى، وأمره بتقديم المساعدة إلى نصر الدين، غير أننا لا نعرف عن أمر هذه المساعدة شيئا. وكل ما يمكن استنتاجه هو أن سلطنة المملوكية استعادت نفوذها على أسوان مؤقتا، «إلى أن كانت المحن من سنة ست وثمانمائة (١٤٠٤م) وخرب إقليم الصعيد، فارتفعت يد السلطنة عن ثغر أسوان. ولم يبق للسلطان في مدينة أسوان وال واتضع حاله عدة سنين[٤]». وفي سنة ٨١٥هـ (١٤١٣م) هاجمت قبيلة هوارة - التي كانت تعيش في صعيد مصر - ثغر أسوان وهزمت بنى كنز [٥]. والظاهر أن هذه القبيلة تقدمت جنوبا كذلك في أرض النوبة.

(١) المصدر السابق: المجلد الثامن. ص ١١٥أ. وانظر:

Quatremere : op. cit. p. 122.

(٢) المصدر السابق: ص ١١٩أ.
(٣) المصدر السابق: ص ١٥٢أ - ١٥٢ب.
(٤) المصدر السابق: المجلد العاشر، ص ٢٦٠أ.
(٥) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص ١٨٩.

والواضح أن الاضطرابات التى شملت جهات مصر الجنوبية وبلاد النوبة منذ حوالى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى، وارتفاع يد السلطنة المملوكية عنها، وما صارت إليه الأحوال فى مصر نفسها، شجعت القبائل العربية فى مصر على الهجرة جنوبا إلى بلاد النوبة ليعيشوا كيفما يطيب لهم العيش بعيدا عن ضغط المماليك، لا سيماوأن بلاد النوبة فى ذلك الحين كانت تفتقر إلى حكومة قوية تكبح جماحهم [١]. ومن هذه الهجرات هجرة جهينة وفزارة الذين اندفعوا جنوبا وغربا تاركين وراءهم بنى كنز وبنى عكرمة والهوارة وغيرهم فى بلاد النوبة [٢].

وفى هذا القرن (أى الخامس عشرالميلادى). تم اختلاط هؤلاء وأولئك جميعا بالنوبيين من أسوان حتى دنقلة . وفى هذا القرن تكونت كذلك المجموعات النوبية المستعربة والتى لا تختلف فى صفاتها الطبيعية وملامحها عن النوبيين الحاليين ، وهم الكنوز القديجة والسكوت والمحس والدناقلة[٣].

وظل بنو كنز يمثلون أقوى العناصر النوبية المستعربة فى بلاد التوبة، حتى نهاية الدولة المملوكية الثانية فى مصر والشام سنة ١٥١٧م على يد السلطان سليم.

سقوط مملكة علوة المسيحية

وانتشار الإسلام

عوامل سقواط مملكة علوة،النزاع بينها وبين جيرانها ■ أثر الرق ■ قطع العلاقات الدينية بينها وبين كنيسة الإسكندرية ■ الهجرات العربية إلى حوض النيل الأوسط وأثرها ■ الحلف السنارى وقيام مملكة الفونج ■ جهود العلماء ورجال الصوفية فى نشر الاسلام فى مملكة الفونج حتى نهاية القرن السادس عشر الميلادى.

* * *

(١) المصدر السابق ص ١٩٩ .

(2) MacMichael : op. cit. p. 188.
Arkell. A. J. : op. cit. p. 199.

(3) MacMichael, H.A.: op. cit. I. p. 187.
Arkell, A.J. : op. cit. p. 199.

اكتنف تاريخ مملكة علوة المسيحية كثير من الغموض بالقياس إلى تاريخ مملكة مقرة، وذلك لضياع معظم آثار علوة من جهة بفعل عوامل التعرية الجغرافية، ومن جهة أخرى بسبب بعدها عن مصر [١].

غير أن هذا لا يعني أن مملكة علوة كانت في عزلة عن مصر تماما، فكنيسة علوة ظلت تابعة للكنيسة المصرية منذ نشأتها فضلا عن وجود علاقات تجارية قديمة بين البلدين، بدليل تمسك السلطنة المملوكية بمدينة سوا كن للإشراف منها على حقوق مصرالتجارية في جهات حوض النيل الأوسط. ثم أن رغبة ملوك علوة في استمرار العلاقات بينهم وبين السلطنة المملوكية تبدو واضحة من شكوى أدور ملك الأبواب للسلطان قلاون من تعرض ملك مقرة لرسله المسافرين إلى مصر.

وكيفما كان الأمر ، فالواضح أن مملكة علوة المسيحية تعرضت لما سبق أن تعرضت له جارتها مقرة في الشمال، من عوامل أدت إلى تفككها وانحلالها وزوال الأسس التي قامت عليها الملكية المسيحية فيها، ثم صبغ هذه الملكية بصبغة إسلامية. غير أن ثمة عوامل أخرى خارجية أدت إلى سقوطها ومن هذه العوامل، أن مملكة علوة تعرضت لإغارات مملكة الزغاوة منذ القرن الثاني عشر الميلادى على طرق القوافل التجارية ما بين بحيرة تشاد غربا إلى النيل شرقا [٢]. وظلت مملكة علوة موضع تهديد الزغاوة حتى نهاية القرن الرابع عشر الميلادى[٣]. وقد سبقت الإشارة إلى أن الملك أدور ملك الأبواب شكا من تعرض بلاد الأنج لغزو أمير أجنبى ، ولا يعد أن يكون هذا الأمير هو أمير الزغاوة ثم أن طمع جيران مملكة علوة في الحصول على الرقيق منها، أدى إلى نزاع مستمر بين ملوك علوة وأولئك الجيران في الشمال أو الغرب. فالمعروف أن ملوك مقرة لجأوا إلى شن الإغارات على جيرانهم للحصول

(1) Griffith, F. Ll. : Christian Documents from Nubia p. 2.

Arkell, A.J."Fung Origins", SNR. XV. part II. 1932 p. 203.

(٢) امتدت مملكة الزغاوة حسبما ورد في المهلبي من بحيرة تشاد في الغرب إلى أطراف النوبة في الشرق، ويرى آركل أنها شملت الكانم ودافور في القرن الرابع عشر.

Arlell, A. J. : A Hist. of the Sudan p. 199.

(3) De Villard : op. cit. pp. 198 -210.

على الرقيق لدفع البقط، إذا لم يتوافر لديهم منه عدد كاف، فضلا عن الاتجار فيه كذلك[١]، ولعل استمرار حاجةالسلطنة المملوكية إلى الرقيق هى التى أدت إلى استمرار هذا النزاع الذى بدا واضحاً فى القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر الميلادى [٢].

أما في الغرب فإن أعراب جذام وغيرهم المهاجرين من مصر جنوبا اجتاحوا مملكة الزغاوة حتى سيطروا على منطقة دارفور [٣]. واتخذ أولئك الأعراب من هذه المنطقة قاعدة لشن إغاراتهم على ما جاورها من أقاليم حتى مملكة برنو فى الغرب، بدليل ما جاء في شكوى سلطان برنو إلى السلطان الملك الظاهر ابى سعيد برقوق سنة ٧٩٤هـ (١٣٩٢م) ضد أولئك الأعراب[٤]، جاء فيها «... فإن الأعراب الذين يسمون جذاما وغيرهم قد سبوا أحرارنا من النساء والصبيان وضعفاء الرجال وقرابتنا وغيرهم من المسلمين... وهؤلاء الأعراب قد أفسدوا أرضنا كلها فى بلد برنو كافة حتى الآن وسبوا أحرارنا وقرابتنا من المسلمين ويبيعونهم لجلاب مصر والشام وغيرهم ويختدمون ببعضهم...».

وليس من المستبعد – بعد أن اقترب أولئك الأعراب من أطراف علوة – أن يكونوا شنوا عليها حربا لهذا الغرض كذلك.

وكان لقطع العلاقات الدينية بين الكنيسة المصرية وكنائس علوة، توقف إرسال الأساقفة المصريين إلى بلاد النوبة منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادى أثر خطير فى حياة النوبيين الدينية، فأهملت الطقوس الدينية وهجرت الكنائس النوبية وخرب معظمها. وقد حفظ قسيس برتغالى يدعى الفارز الذى زار الحبشة بين سنتى ١٥٢٠ – ١٥٢٧م – صورة عن أحوال النوبيين (أهل علوة) الدينية أوائل القرن السادس عشر الميلادى بقوله «... إن أولئك النوبيين يجهلون دينهم فلا هم بالمسيحيين ولا هم بالمسلمين أو اليهود. ويقال إنهم كانوا على النصرانية، غير أنهم فقدوا دينهم، ولم تبق لهم عقيدة».[٥] ويظهر من قول الفارز أن النوبيين

(١) كان الرقيق إحدى وسائل التعامل التجارى بين ممالك النوبة المسيحية وغيرها بدل العملة التى لم تكن معروفة عندهم.

(2) Walkely, C. E. J. : "The Story of Khartoum". SNR. XVIII. part II. p. 224.

(3) Arkell, A.J. : A Hist of the Sudan to AD. 1821. pp. 199 - 200.

(٤) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٨، ص ١١٦.

(5) Father Francisco Alvarez, Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia. p. 65.

فشلوا فى الحصول على قساوسة من كنيسة الإسكندرية[١] فبعثوا إلى نجاشى الحبشة سنة ١٥٢٢م ليرسل إليهم من يرشدهم فى دينهم، غير أن النجاشى اعتذر عن تلبية هذه الرغبة «إذ أنه يعتمد على البطريرك فى بلاد المسلمين فى إرسال «أبونا» فكيف يعطيهم من يتفضل بهم عليه غيره» [٢]. ومما زاد فى عزلتهم سقوط مملكة مقرة فى الشمال واعتناق أهلها الإسلام. وذكر الفارز نقلا عن بعض الأحباش أنه منذ وفاة أسقف النوبة (علوة) منذ أمد بعيد لم يخلفه غيره بسبب الحروب بين القبائل العربية فى بلاد النوبة الشمالية، فتركت كنائسهم دون رعاية رجال الدين، فنسوا كل شئ عن المسيحية[٣]. وثمة دليل على هجر النوبيين كنائسهم وتخريب الاعراب معظمها، ما ذكره الفارز كذلك نقلا عن حنا السورى الذى زار علوة قبل ذلك بقليل حيث يقول« إنه كان بها ١٥٠ كنيسة قديمة تحمل جدرانها صور السيد المسيح والعذراء» [٤] وهذا عدد قليل بالقياس إلى ما عرف عن عدد كنائس علوة حوالى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى والتى بلغ عددها على قول أبى صالح ، حوالى ٤٠٠ كنيسة[٥].

أما الروايات التاريخية الوطنية فأجمعت على أن نهاية مملكة علوة وسقوطها أوائل القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) تم على يد جماعة من العرب والفونج. ويعنى هذا أن العرب وحلفاءهم استطاعوا اسقاط هذه المملكة عن طريق الغزوات العديدة أو أن أحوال

(١) ذكر الفارز خطأ أن العادة جرت فى الماضى بأن ترسل روما القس لهؤلاء القوم. وأن آخر قسيس جاء من روما مات منذ أمد بعيد. ولم يتمكنوا من الحصول على غيره بسبب الحروب بين المسلمين. والحقيقة بطبيعة الحال أن الإسكندرية لا روما هى التى كانت تبعث بهؤلاء الأساقفة. ثم توقف إرسالهم بسبب الحروب فى النوبة الشمالية «مقرة» وتعنت السلطة المملوكية ضد الكنيسة المصرية.

(٢) وبلاد المسلمين هنا يقصد بها مصر Ibid, op. cit. p. 352.

(3) Alvarez : op. cit. p. 352.

ويرى شينى Shinnie P. L. : Exxav, at Soba p. 13. أن رواية الفارز تشير إلى مملكة علوة أما Crawford. O. G. S. ; op. cit. p. 149. فيرى أن هذه الرواية تنطبق على مملكة مقرة أكثر من علوة. غير أن هذا لا يتفق وما عرف عن إسلام مقرة منذ قرنين مضيا، والراجح أن هؤلاء النوبيين الذين أشار إليهم الفارز تابعون لعلوة بدليل ما ذكره أن العرب يسيطرون على البلاد الواقعة جنوبى مصر وهى مقرة بطبيعة الحال فضلا عما ذكره أنهم يجاورون البلو. وهى مملكة البلو المجاورة للحبشة.

(4) Alavarez, F. : op. cit. p. 352.

(٥) أبو صالح : ص ١٢٠.

هذه المملكة كان اضمحلالية بحيث لم تقو على مواجهة هذه القبائل(١). وإذا سلمنا بصحة هذه الروايات التاريخية فيما يتعلق بدور العرب وحلفائهم ضد هذه المملكة المسيحية، فإن هذا يدعونا إلى الاعتقاد بأنه سبق سقوطها وصول جماعات عربية في أعداد وفيرة حتى تسنى لها طبع هذه البلاد وسكانها المسيحيين بطابع مخالف هو الطابع العربي الإسلامي.

وإذ أشار المؤلفون المسلمون إلى هجرة بعض الجماعات العربية من مصر إلى بلاد النوبة الشمالية (مقرة) وأوطان البجة، فإن أحدا من أولئك المؤلفين لم يشر إلى مثل هذه الهجرات العربية إلى بلاد علوة، بل إن أخبار هذه الهجرات واستقرار الجماعات العربية المختلفة فيها جاء من مصادر سودانية، وهي عبارة عن أوراق النسبة التي تحتفظ بها كثير من الأسرات السودانية في الوقت الحاضر(٢).

يضاف إلى ذلك ما سبقت الإشارة إليه من هجرة بعض الجماعات العربية من الجزيرة العربية عبر البحر الأحمر، سواء أكان هذا قبل الإسلام أو بعده على أثر وقوع أحداث هامة في بلاد العرب (٣). فالمعروف أن عددا من الهجرات العربية استقرت في جهات متفرقة في النيل الأزرق والأتبرا والحبشة. وإذا كانت هذه الهجرات العربية السابقة للإسلام قليلة العدد محدودة الأثر فلا شك في أن أعدادها زادت زيادة واضحة عقب الغزو العربي لمصر حتى سمح للعرب - المهاجرين أو المترددين على علوة للتجارة وغيرها - ببناء مسجد في سوبا(٤).

وموضع الأهمية هنا هل ظلت الجزيرة العربية هي المصدر الوحيد لتلك الهجرات العربية الإسلامية إلى حوض النيل الأوسط عبر البحر الأحمر مباشرة، أو كانت هنالك مصادر أخرى

(١) سبق أن أشرنا إلى بعض عوامل اضمحلال مملكتي مقرة وعلوة.

(٢) جمع ماكمايكل معظم أوراق النسبة العربية في السودان ونشرها في مؤلفه الضخم المعروف باسم A History of the Arabs in the Sudan. II. غير أن هذه الوثائق الوطنية تحتاج إلى تمحيص وغربلة حتى يتسنى الانتفاع بها، وذلك لأن معظم عرب السودان يميلون دائما إلى الانتساب إلى بيت الرسول أو أحد الصحابة، وأدى هذا إلى اصطناع كثير من هذه النسبة التي تجعل الاعتماد عليها وحدها أمراً غير مقبول.

(٣) ومن بين هذه الأحداث تخريب سد مأرب واضطهاد قريش للمسلمين وحروب الردة والنزاع على الخلافة بين الأمويين والعلويين وسقوط الدولة الأموية كذلك.

(٤) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص ١٠٠.

شاركت ، أو انفردت بتعريب هذا الجزء من حوض النيل ؟ أن ثمة رأيا يقول «هناك ثلاثة أبواب دخلت منها الدماء العربية إلى السودان : فالباب الشرقى من السودان كان واحدا من هذه الأبواب ... والباب الثانى هو الباب الشمالى فى وسط السودان الذى يفضى إلى مجرى النيل ومصر.. أما الباب الثالث فهو الطريق الشمالى الغربى أو الطريق الليبى ... ولعل هذا الباب لم يكن مصدرا للهجرات والغزو إلا بعد الإسلام [١]. ويعنى هذا أن كلا من الجزيرة العربية ومصر كانا مصدرا الهجرات العربية التى حملت الغزوات والهجرات الإسلامية إلى حوض النيل الأوسط . ومع تسليم الأستاذ عوض بأهمية مصر كمصدر للثقافة العربية فى وادى النيل الأوسط إلا أنه لم يقلل من أهمية الجزيرة العربية كمصدر مباشر للهجرات العربية التى قامت بنصيبها فى نشر العروبة فى هذا الاقليم.

غير أن هنالك من يرى أن الجزيرة العربية - كمصدر مباشر للهجرات العربية إلى حوض النيل الأوسط عبر البحر الأحمر مباشرة - كانت قليلة الأهمية ضعيفة الأثر بالقياس إلى المصدر الشمالى وهو مصر. فيقول الأستاذ عمار «إذا نحن استثنينا تلك الجماعات العربية القليلة التى وصلت إلى السودان رأسا عبر البحر الأحمر، سواء كان ذلك قبل الإسلام أم زمن التوسع الإسلامى، أم كانت هجرات حديثة كالتى أوصلت قبائل الرشايدة إلى حيث ينزلون الآن فى الشمال الشرقى للسودان. فإن تعريب السودان فى الواقع إنما تم عن طريق مصر إذ لا يسجل التاريخ - فى أى عهد من عهوده - وصول موجات هامة أو هجرات عنيفة إلى السودان عن طريق غير طريق مجرى النيل من الشمال إلى الجنوب» [٢]. ونجد للرأى الأخير تأييدا فيما ذكره ما كمايكل إذ يقول «إن بعض القبائل العربية فى السودان تدعى أن أجدادها وصلوا من جزيرة العرب مباشرة إلى السودان عبر البحر الأحمر لتأييد دعواهم فى الانتساب إلى أصل شريف أموى أو عباسى أو أنهم سلالة بعض صحابة رسول الله . ومع التسليم بوصول بعض الأسر العربية من حين إلى آخر عبر هذا الطريق إلى السودان إما للتجارة أو

(١) أنظر محمد عوض محمد: السودان الشمالى، ص ١٥٩ - ١٦٠ حيث يقول: «وحسبنا أن نقرر أن الباب الشرقى من السودان كان واحداً من الأبواب التى دخلت منها الدماء العربية ومعها الثقافة العربية إلى السودان، وأن تأثيرها لم يكن مقصوراً على الجهات التى تقابل الجزيرة العربية بل تجاوزتها إلى السودان الأوسط والسودان الغربى أيضاً».

(٢) عباس عمار: وحدة وادى النيل . أسسها الجغرافية ومظاهرها فى التاريخ ص ٨٠.

اتخاذه مكان هجرة أو بحثا عن المراعى كما فعلت قبيلة الرشايدة حديثا فإن التاريخ لم يسجل وصول هجرات واسعة عبرهذا الطريق مثلما سجل عن هجرة هذه القبائل العربية إلى مصر (١).

وكيفما كان الأمر فالمعروف أن كثيرا من الجماعات العربية انتقلت من مصر جنوبا حيث استقرت في بلاد النوبة الشمالية وأرض البجه عقب الغزو العربى لمصر، واختلطت الجماعات بعضها ببعض اختلاطا كان يغذيه وصول القبائل وسكناها بين النوبيين والبجه حينا بعد حين، ولا سيما بعد منتصف القرن التاسع الميلادى. وزادت جموع العرب المهاجرين من مصر جنوبا زيادة واضحة عقب قيام السلطنة المملوكية في مصر في منتصف القرن الثالث عشر الميلادى، ثم سقوط مملكة مقرة المسيحية بعد ذلك في يد العرب أوائل القرن الرابع عشر الميلادى. ومرجع ذلك في الغالب على قول ما كمايكل، أن أولئك العرب لم يطب لهم المقام في مصر ولاسيما بعد أن فقدوا ميزاتهم القديمة وأصبح ينظر إليهم كعنصر غير مرغوب في بقائه، فاستبدلوا بقوات حربية نظامية مدربة لأنهم لا يجيدون سوى شن الإغارات للحصول على الغنائم فضلا عن مماطلتهم في دفع الضرائب وإثارة القلاقل. وفي القرن الرابع عشر أصبح ينظر إليهم على أنهم خارجون على القانون. ثم أن رغبة العرب - في العيش عيشة البداوة التى تعودوها في بيئتهم الأصلية والبحث عن مراعى واسعة تناسب حياة الإبل والأغنام والتى لا يتوفر وجودها في مصر - دفعت بالعرب إلى الهجرة جنوبا حيث البيئة الرعوية التى تشبة بعض جهاتها البيئة الأصلية في الجزيرة العربية. هذا فضلا عن رغبتهم في الحصول على الرقيق (٢) ثم أن السلطنة المملوكية سمحت لأولئك العرب بالرحيل من مصر، وأكثر من هذا أنها أمعنت في مطاردتهم جنوبى مقرة ذاتها بدليل ما ذكره النويرى أن حملة مملوكية جردها السلطان الناصر محمد بن قلاون سنة ٦١٧هـ (١٣١٧م) ضد العرب الذين يسكنون حول عيذاب لاعتدائهم على بعثة أرسلها ملك اليمن بهدية إلي السلطان المملوكى. وأوغلت هذه

(1) Hamilton J. A. de C. ed. : The Anglo Egyptian Sudan From Within. "The Coming of The Arabs in the Sudan" by MacMichael, PP. 64-47.

(2) Hamilton ed. : op. cit. PP. 47-50.

أنظر أيضا:

Reid, J. A. : "Some notes on the tribes of the White Nile Province " SNR. XIII. part.II. 1930. P. 151.

الحملة جنوبا حتى سواكن، واتجهت غربا إلى التاكة ، والى جهة الأبواب ثم عادت إلى مصر عن طريق دنقلة[١].

والواضح تماماً أن سقوط مملكة مقرة المسيحية أوائل القرن الرابع عشر الميلادى، أدى إلى ازدياد موجة الهجرات العربية، ولا سيما بعد أن بات السابقون من العرب فى شغل بمنازعاتهم الداخلية عن المهاجرين الجدد، وربما كان أشد هذه الهجرات الجديدة عنفاً، هجرة جهينة التى أشار إليها ابن خلدون، وهى واحدة من خليط هائل من القبائل العدنانية والقحطانية وبطونها المختلفة التى تجمعت فى أنحاء النوبة الشمالية، على حين تجمع خليط آخر منها عقب سقوط دنقلة فى أرض البطانة والجزيرة ونشأت على أثر ذلك بعض المهاجر العربية قرب سنار الحالية[٢]. والراجح أن معاينة هذه الجماعات للمراعى الغنية ترامت أخبارها إلى ذويهم فى الشمال فاندفعت جموعهم جنوبا ولاسيما أولئك الذين حافظوا على بداوتهم [٣]، بعد أن ضاقت بهم مهاجرهم فى النوبة الشمالية، بسبب فقر بيئتها وندرة مراعيها[٤].

لكن كيف شق أولئك المهاجرون طريقهم نحو الجنوب؟ هل اضطروا إلى شن الإغارات على الوطنيين والدخول فى حرب ضد مملكة علوة المسيحية، يقول ابن خلدون: «وانتشروا (أى جهينة) ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة وكاثروا هنالك سائر الأمم وغلبوا على بلاد النوبة، وفرقوا كلمتهم وأزالوا ملكهم وحاربوا الحبشة فأرهقوهم إلى هذا العهد [٥]. والمفهوم من هذا أنه بعد سقوط دنقلة فى يد العرب أضحت المنطقة الممتدة من حلفا الحالية إلى شمال غربى الحبشة مسرحا لأعمال النهب والتخريب مدة لا تقل عن ثلثمائة عام [٦] وأن العرب فى تقدمهم جنوبهم قتلوا كثيراً من النوبيين وأسروا بعضهم حتى اضطر كثير من النوبيين إلى الهجرة غربا إلى تلال نوبا فى جنوب كردفان، وجبل حرزا وكاجا وغيرها فى شمال

(١) النويرى: نهاية الأرب، جـ٣٠، ص ٩٦ - ٩٧، المقريزى : السلوك، جـ٢، القسم الأول ، ص ١٦٢؛ انظر ملحق رقم ١٦.

(2) Henderson, K. D. D. : "Fung Origins" SNR. XVIII part I. 1933 p. 150.

(3) Hamilton, : ed. op. cit. p. 48.

(4) Trimingham, J. S. : Islam in the Sudan. P. 71.

(٥) ابن خلدون: العبر، جـ٢، ص ٢٤٧.

(6) Walkely. C. E. J. : "The Story of Khartoum", SNR. XVIII. part II. 1935 p. 124.

كـردفـان[1] غير أنه يبدو أن العرب لم يقابلوا فى تقدمهم جنوبا إلى جهات علوة وغيرها مقاومة عنيفة لعجز ملوكها عن دفعهم . وإذا كانوا اضطروا أحياناً إلى استخدام العنف، فإن الطابع العام لهذه الهجرات كان طابعا شبه سلمي ونجحوا فى تحقيق مآربهم بالاختلاط والتزاوج من بنات النوبيين وملوكهم. ويقول ما كما يكل «إن كل الدلائل تشير إلى أن النصر - باستثناء أقاليم معينة كإقليم جبال النوبا، حيث لا يزال العرب يمتلكون السهول، على حين يسكن الزنوج التلال - قد تم غالبا بالاتفاق والتزاوج مع بعض العنف بسبب ضعف مقاومة النوبيون. ويمكن القول إن الظاهرة الأساسية فى التاريخ الجنسى لشمال السودان ووسطه منذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادى كانت ظاهرة الاندماج التدريجى بين العرب والسود»[2].

لا شك أن لهذا الرأى وجاهته فهو يتفق وما ذكره ابن خلدون فى صدد هجرة جهينة إلى بلاد النوبة (علوة)[3]. أما عن اضطراب الأمن فى بلاد النوبة وأوطان البجه حتى الحدود الحبشية، فكان بسبب التنازع بين القبائل العربية ذاتها لسبب أو لآخر. وتشير بعض الروايات التاريخية إلى وجود مثل هذا النزاع بين قبيلتى جهينة ورفاعة أواخر القرن الثالث عشر الميلادى قرب عيذاب[4]. ولعل فى إشارة ابن خلدون إلى انقسام العرب على أنفسهم ، ما يزيد فهمنا لما صار إليه هذا الجزء من حوض النيل أوائل القرن الخامس عشر الميلادى. إذ يقول «واستولى

(1) Sager , J. W. : "Notes on The history, religion and Customs of the Nuba", SNR. V. part III. 1922 p. 139.

ويشبه سجر Sager تقدم العرب فى شمال السودان بتقدم الانجلوساكون فى بريتانى حيث قضوا على البريتون ومن نجا منهم فر إلى جبال كرنول وويلز.

(٢) عباس عمار - وحدة وادى النيل ، ص ١٦ ، نقلا عن:

Hamilton, : ed. op. cit. p. 59.

(٣) أنظر الجزء الخاص بسقوط مملكة مقره المسيحية ص ١٠٠٠ حيث ورد فيها نص ابن خلدون الذى يشير فيه إلى عجز ملوك النوبة عن صدهم، فاستمالوا إليهم العرب عن طريق المصاهرة،ابن خلدون : العبر، جـ٥ ص ٤٢٩.

(٤) المقريزى: السلوك ، جـ١ ، القسم الثالث ص ٧٠٠، أنظر كذلك:

Bloss. J. F. E. : "The of Suakin ". SNR. XIX, part II, 1936 p. 281.

أعراب جهينة على بلادهم (أى النوبيين فى علوة)، وليس فى طريقه شئ من السياسة الملوكية للآفة التى تمنع انقياد بعضهم إلى بعض فصاروا شيعا لهذا العهد» (١).

أما عن الطرق والمسالك التى سلكتها الجماعات العربية المختلفة، إلى حوض النيل الأوسط، فمن بينها الطريق الذى يتجه جنوبا بشرق من أسوان وكرسكو عبر أوطان البجه، الموازية للبحر الأحمر. غير أن أهمية هذا الطريق محدودة بالقياس إلى الطرق الأخرى لقلة الماء وفقر المرعى. والغالبية العظمى من العرب المهاجرين من مصر إلى حوض النيل الأوسط سلكت الطريق الذى يتبع مجرى النهر إلى منطقة دنقلة. وإذا كانت بعض القبائل آثرت أن تستقر على جوانب النهر، فإن منها من انتقل غربا بطريق وادى القعب، ونزل الأراضى المحيطة به، وسلك الآخرون الطريق الذى يبدأ من كورتى على طول وادى مقدم وعبر الدبة على طول وادى الملك إلى كردفان، حيث تتفرع الهجرات على شكل المروحة، فمنها ما يتحرك إلى دارفور وما يليها غربا وجنوبا، ومنها مايسير على جوانب النيل الأعظم وعبر صحراء بيوضه وأعلى الأتبرا و النيل الأزرق فى اتجاه جنوبى شرقى إلى حدود الحبشة (٢).

وثمة رأى آخر يقول إن الجماعات العربية التى هاجرت من مصر جنوبا إلى السودان بطريق النيل، لم تلازم النهر فى كل جزء منه، بل سلكت طريقا يتابع النهر من جنوب أسوان إلى كرسكو أو قبلها ثم يخترق صحراء العتمور مباشرة إلى أبو حمد حيث يتابع النهر مرة أخرى ويلازمه نحو الجنوب (٣). غير أن هذا الطريق إذا صح وسلكته بعض الجماعات العربية فلا بد وأن يكون هذا حدث قبل سقوط دنقلة أوائل القرن الرابع عشر الميلادى، لمنع العرب أو غيرهم من غير النوبيين التقدم جنوبى الشلال الثانى إلا للتجارة (٤) وبسقوط دنقلة انفتح الباب أمام الجماعات العربية المختلفة للانسياب جنوبا على طول النهر، الذى كان دائما الطريق الطبيعى للهجرات منذ فجر التاريخ، وذلك لا حاطته بصحراء قاحلة جرداء، على حين أن واديه الضيق يسمح بمرور القطعان حيث يوجد الماء والعشب كذلك (٥).

---

(١) ابن خلدون: العبر ، جـ٥، ص ٤٢٩.

(2) Hamilton, : ed. op. cit. p. 55.

(٣) محمد عوض محمد : السودان الشمالى ص ١٦٠ - ١٦١.

(٤) أنظر ص٩٠٧ من كتابنا هذا.

(5) Firth, C. M. ASN. Roport 1910 - II. p. 1.

أشتملت الجماعات العربية التى هاجرت إلى حوض النيل الأوسط على مجموعتا العدنانيين والقحطانيين. ويمثل العدنانيين فى الوقت الحاضر الكواهلة والمجموعة الجعلية وبعض القبائل الصغيرة الأخرى كالرشايدة. ويمثل القحطانيين، المجموعة الجهنية. إذن متى دخلت هذه الجماعات العربية حوض النيل الأوسط؟ وكيف تم انتشارها على هذه الصورة؟ إن أول إشارة إلى بنى كاهل وردت فى رحله ابن بطوطة إلى عيذاب وسواكن فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى (١٢٥٣م[١]، فذكر أن أولاد كاهل يسكنون المنطقة الممتدة من عيذاب إلى سواكن، وهم مختلطون بالبجة عارفون بلسانهم [٢]. وليس من المعروف تماماً متى استقر أولاد كاهل بين البجة والراجح أن هجرتهم إلى هذا الأقليم لهذا التاريخ (منتصف القرن الرابع عشر الميلادى) بدليل معرفتهم لغة البجة.

ويقال إن الكاهلة ينتسبون إلى كاهل بن أسد بن خزيمة، وأنهم جاءوا إلى السودان من جزيرة العرب مباشرة عبر البحر الأحمر واستقروا فى الإقليم الساحلى بين سواكن وعيذاب[٣] غير أنه لا يوجد من الدلائل ما يؤيد هذه الصلة المباشرة بالجزيرة العربية[٤]. والأرجح أن هجرة أولاد كاهل كانت عن طريق مصر. إذ تقول روايات العبابدة [٥]، إنهم ينتسبون إلى عباد من نسل الزبير بن العوام، وأن جدهم عبادا قدم من جزيرة العرب إلى مصر فى القرن الثالث عشر الميلادى، ثم مات ودفن فى وادى عباد قرب أدفو، وأن عبادا هذا جد كاهل [٦]، ومن ذريته أولاد كاهل الذين أشار إليهم ابن بطوطة. واختلط أولاد كاهل بالبجة عن طريق المصاهرة ونالوا مركز الزعامة فيهم. وعلى الرغم من أن كثيرا من الجماعات العربية اختلطت بالبجة وتصاهرت معهم منذ القرن التاسع الميلادى حيث اعتنق كثير منهم الإسلام، فإن البشاريين

(1) MacMichael, H. A. : A Hist. of The Arabs in the Sudan . I. p. 324.

(٢) ابن بطوطة: الرحلة جـ١، ص ١٥٤.

Murray, G. W. : Sons of Ismail, p. 303.

(٣) محمد عوض محمد : السودان الشمالى، ص ١٤٣.

(4) MacMichael, H. A. : op. cit. p. 324.

(٥) وهم شعبة من البجة يسكنون صحراء مصر الغربية وتلال البحر الأحمر.

(6) Murray, G. W. : op. cit. op. 30.

والأمرار وبنى عامر [١] ينتسبون كذلك إلى كاهل، مما يدعونا إلى الاعتقاد أنه كان لبنى كاهل الأثر الأكبر فى نشر الإسلام والثقافة العربية فيهم[٢].

ومن المؤكد أن أولاد كاهل عاشوا زمنا فى الأقاليم الساحلية الشرقية والمناطق التى تليها، واشتغلوا بالتجارة وتنظيم القوافل بين النيل والبحر الأحمر، ثم انتشروا انتشاراً تدريجياً نحو الغرب؛ وعرف هؤلاء جميعاً باسم الكواهلة. ويمكن تقسيم هذه الحركة كلها إلى مراحل تمثل الأولى منها نزولهم فى الساحل واستقرارهم فيه فى القرن الثالث عشر الميلادى حيث رآهم ابن بطوطة مختلطين بالبجة فى منتصف القرن الرابع عشر [٣]. وتمثل المرحلة الثانية انتقال شعب منهم إلى جهات أتبرا والنيل الأزرق فى القرن الخامس عشر الميلادى واحتشدوا فيه. وتمثل المرحلة الثالثة انتقال جماعات منهم آتية من الشرق ونزحت إلى جهات النيل الأبيض ثم إلى كردفان فى أزمنة متعاقبة [٤]. وبهذا أضحى للكواهلة أوطان ثلاثة [٥]. والواضح أن معظم هذه الأوطان التى استقروا فيها منذ القرن الخامس عشر الميلادى على الأقل كانت جزءاً من مملكة علوة المسيحية وعاصمتها سوبا. غير أنه لم يصلناشئ عن تاريخ هذه المرحلة من تاريخهم، ومع هذا فإن القليل الذى عرف عن رواياتهم وقصصهم فى وقت متأخر (القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين)، ولا سيما شعبة النيل الأبيض يدل على

(١) البشاريون الذين تقسمهم الحدود الإدارية بين مصر والسودان ، فتترك جزءاً منهم داخل الحدود المصرية وتترك جزءاً أخر يسكن إقليما يمتد حوالى ٨٠ ميلا إلى الجنوب (حتى البطانة) أما الأمرار فيحتلون مساحة من الأرض تبلغ ٨٠٠٠ ميل مربع ترتكز من ناحية الشرق على البحر الأحمر ابتداء من خط عرض ٢١ شمالا إلى قرب بور سودان جنوب ويسكن بنو عامر المنطقة جنوب خور بركة ويمتدون فى أرض رترية.

(٢) محمد عوض محمد : نفس المصدر، ص ١٤٤.

(٣) من الملاحظ أنه ليس للكواهلة أوطان فى أرض البجه فى الوقت الحاضر إذ زال أثرهم لاندماجهم التام فى قبائل البجه. وأوطانهم اليوم مبعثرة فى جهات متعددة أخصها إقليم النيل الأبيض وأواسط كردفان.

(٤) محمد عوض محمد : السودان الشمالى، ص ١٤٥ - ١٤٦، يقول الدكتور عوض: إن انتشار الكواهلة فى جهات كردفان استغرق حوالى ثلاثة قرون من القرن السابع عشر إلى أواخر القرن التاسع عشر. وعلى الرغم أن قسماً واحداً من العرب على النيل الأبيض يسمى الكواهلة إلا أن الحسانية والحسنيات ينتسبون إلى الكواهلة كذلك وهم يمتدون من خط عرض ١٢ جنوباً إلى جبل الأولياء. نفس المصدر ص ١٤٨.

(٥) وهذه الأوطان هى : الأولى النيل الأزرق والأتبرا، والثانية فى منطقة النيل الأبيض ، والثالثة فى كردفان.

أنهم استعملوا الحيلة أحيانا والحرب أحيانا أخرى لتوطيد أقدامهم. وتدل الأمثلة السائرة عند بعض شعبهم [١]، أنهم اتبعوا سياسة يبدو أنها متأصلة في بني كاهل وهي أن ينزلوا غرباء ويدفعوا لأصحاب البلاد أجراً عن الأرض التي يحتلونها، حتى إذا كثر عددهم، أدعوا الحق فيها، والتجأوا إلى القوة لإثبات حقهم[٢].

أما المجموعة الجعلية فتركزت على النيل الأعظم من جنوب الخرطوم الحالية حتى دنقلة. وتمثل هذه الشقة من النهر المركز الرئيسي، الذى انتشرت منه في شعب وفروع نحو البطانة والنيل الأزرق والنيل الأبيض جنوب الخرطوم ونحو الغرب إلى كردفان ، وفي الشمال حيث يعيش بعضهم مثل الجوابرة والركابية وسط الجماعات النوبية [٣].

وليس من المعروف تماما متى بدأت هجرة هذه الجماعات إلى حوض النيل الأوسط. ومن الجائز استنادا على بعض الروايات الوطنية أن تكون بدأت هجرتها من مصر إلى هذا الإقليم، منذ حوالي أواخر القرن العاشر الميلادى [٤]، سالكة طريق العتمور لتجنب مملكة مقرة المسيحية. ثم لحق بها عدد كبير في العهد المملوكي ولا سيما بعد سقوط دنقلة [٥]، سالكين طريق النيل من الشمال إلى الجنوب، حيث استقروا في أوطانهم الحالية على النيل الأعظم[٦].

ويقال إن الجعليين ينتسبون إلى ابراهيم الملقب بجعل، من نسل العباس عم النبي صلى الله وسلم . وترجع سبب هذه التسمية إلى أن ابراهيم هذا كان جوادا مضيافا، وأنه كان يقول للوطنيين وغيرهم من العرب «إنا جعلناكم منا» أى أصبحتم منا [٧]. وتدل هذه العبارة وكثرة

(١) ومن الأمثلة التي يرويها مستر ريد عن الحسانية وهم من كواهلة النيل الأبيض «لا تأمن الحساني إن كان غريب بلدانه». محمد عوض محمد: نفس المصدر ص ١٥٠، نقلا عن Reid, J. A. : op. cit. p. 149. وما بعدها.

(٢) المصدر السابق ١٤٨ى – ١٥٠.

(٣) محمد عوض محمد : نفس المصدر ، ص ١٦٤.

(4) MacMichael, H. A. : AHist. of the Arabs in the Sudan, II. p. 348.

ويقول ما كمايكل في موضع آخر إن أسلافهم هاجروا إلى مصر حوالى ٩٦٩م ثم هاجروا إلى السودان حوالى ١١٧١م .Ibid. : op. cit. pp. 9- 10.

(5) Ibid. : op. cit. pp. 9- 10.

(6) MacMichael, H.A. : "Nubian elements in Darfour" SNR. I. No. I. p. 31.

(7) MacMichael, H. A. : A Hist : of theArads in the Sndan; I. p. 197.

ترديدها أن التوغل العربى فى هذه المنطقة كان توغلا شبه سلمى مبنيا على التودد إلى السكان الوطنيين [١]. ويقول ما كمايكل إن انضواء كثير من الجماعات العربية وغيرها من الوطنيين تحت لوائه، جعل ذريتهم من هذا الخليط يدعون جميعا النسب إلى العباس [٢].

والراجح أن الجعليين لم يكونوا أول الأمر قبيلة واحدة بل مجموعة قبائل ذات نسب متقارب، وهاجرت على دفعات وعلى مدى قرون وبسطت نفوذها على هذه الجهات قطراً بعد قطر إلى أن نشأت بينهم أسرة قوية تولت الزعامة ووحدت القبيلة، فضلا عن إدماج المجموعة كلها بعضها فى بعض وإدماج السكان الأصليين فى المجموعة العربية [٣].

وتشتمل المجموعة الجعلية على عدد كبير من القبائل منها الجعليين الأصليين الذين ليس لهم اسم آخر، وتمتد مواطنهم من خانق سبلوقة إلى الأتبرا - والميرفاب إلى شمال الأتبرا حول بربر - والرباطاب من بربر إلى أبو حمد - والمناصير من أبو حمد إلى آخر الشلال الرابع - والشايقية من الشلال الرابع إلى إقليم الدبة - والجوابرة (بنى جابر) بين الدناقلة والمحس - والركابية ويشك فى نسبتهم إلى الجعليين وهم من العرب الشماليين ومواطنهم وسط بلاد المحس- والجموعية وأتباعهم شمال وجنوب أم درمان إلى حدود الكواهلة - والجمع قرب النيل الأبيض إلى الجنوب من بلاد الكواهلة - والبديرية، بعضهم فى بلادالنوبة والبعض فى كردفان. هذا فضلا عن قبائل أخرى مبعثرة بين كردفان والنيل الأبيض والبطانة[٤].

وثمة ظاهرة توجب الالتفات، وهى أن الإقليم الذى تحتله المجموعة الجعلية على النيل من جنوب الخرطوم حتى دنقلة، غلبت عليه الصبغة العربية، مما يدل على أن هذه الجماعات التى هاجرت إلى هذا الاقليم على مدى القرون كانت قوية كثيرة العدد، حضرية لا تميل إلى حياة البداوة، ولهذا فضلت الاستقرار فى مدن على طول النيل [٥]، على حين أن غيرها من الجماعات التى حافظت على بداوتها انتشرت غربا وشرقا وجنوبا فى طلب حاجات الرعى.

(١) محمد عوض محمد : نفس المصدر، ص ١٦٦.

(2) MacMichael, H.A. : SNR, I. Part I. 1918 p. 31.

(٣) محمد عوض محمد: السودان الشمالى ، ص ٢١١.

(٤) محمد عوض محمد : السودان الشمالى ، ص ١٦٨.

(5) Chatway, J.D.P. : "Notes on the hist. of Fungs", SNR., XIII. part II., 1939. p. 252.

والمجموعة العربية الثانية - في حوض النيل الأوسط بعد الجعليين من حيث عدد القبائل والبطون - هي المجموعة الجهنية التي تدعى الانتساب إلى عبد الله الجهني(١). وان كان يشك في صحة هذه النسبة، فإن جميع الشواهد تدل على نسبتها إلى قبيلة جهينة القحطانية ا لتي عاشت حول ينبع من حوالي ١٣٠٠ سنة، ومن هذا المركز توالت هجراتها إلى مصر (٢)، ثم توالت هجراتها جنوبا إلى بلاد النوبة وأوطان البجة منذ منتصف القرن التاسع الميلادي (٣). وانتشرت جماعات من جهينة في أوطان البجة حتى وصلت سواكن في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، بدليل ما أشار إليه المقريزي من نشوب نزاع بينها وبين رفاعة سنة ٦٨١هـ (١٢٨١م) قرب سواكن (٤)، ثم انتشروا جنوبا إلى أرض الحبشة. ولا بد أنها كانت من القوة بحيث يقول عنها ابن خلدون إنها حاربت الحبشة وأرهقتها حتى هذا الحين وهو أواخر القرن الخامس عشر الميلادي.

أما الجماعات الجهنية التي انتقلت إلى أرض مقرة فإنها احتشدت فيها حتى إذا كان منتصف القرن الرابع عشر، أخذت في الإنتشار جنوبا متبعة مواقع الغيث. ويدل هذا على أن جهينة سلكت في تقدمها جنوبا مسالك مختلفة، أهمها الطريق الشرقي عبر أوطان البجة، والآخر طريق النيل، ومنها احتلت أقاليم موزعة بين الأتبرا والنيل الأزرق شرقا إلى أقاصي دارفور غربا.

وتنقسم القبائل الجهنية في السودان إلى ثلاث مجموعات رئيسية: الأولى وتشمل رفاعة (ومعها أقرباؤها من القواسمة والعبد اللاب والعركيين وغيرهم) - اللحويين - والحلويين - والعوامرة - والخوالدة - والشكرية، ومواطنهم جميعا في أقاليم النيل الأزرق والبطانة، أى في النصف الشرقي من السودان. وتشتمل المجموعة الثانية على دار حامد - وبني جرار - والزيادية - والبزعة - والشنابلة - والمعاليا. ويطلق النسابون على هذه المجموعة اسم فزارة، ويعيشون في المنطقة الوسطى والشرقية من كردفان . أما المجموعة الثالثة فتشتمل على الدويحية - والمسلمية

---

(1) MacMichael, H. A. : A Hist, of the Arabs in the Sudan. I. 237.

(2) Ibid. : op. cit. I. pp. 237 - 238.

(٣) سبق أن أشرنا إلى هجرة جهينة إلى جهات مختلفة من حوض النيل إلى أوطان البجة وبلاد النوبة منذ منصف القرن التاسع الميلادى إلى القرن الخامس عشر.

(٤) المقريزي: السلوك، جـ١، القسم الثالث، ص ٧٠٠.

- والبقارة - والحاميد - والماهرية - والكبابيش - والمغاربة (الذين جاءوا من المغرب)- والحمر. وهم منتشرون فى كردفان ودارفور.

وينبغى أن نشير هنا إلى أن هذا الانتشار الواسع لم يتم دفعة واحدة، بل استغرق عدة قرون، وأن هذه الجماعات استقرت على شكل مجموعات متفرقة تحت سلطان ملوك علوة، محافظة على نظامها القبلى [1]. ولابد أنهم كانوا يدفعون أتاوة لملوك علوة [2]. ومن توالى وصول هجرات جديدة على مر القرون كثرت أعدادهم كثرة واضحة . فتقول إحدى الروايات الوطنية إنه كان لجهينة ٥٢ وحدة قبلية قرب سوبا على النيل الأزرق، وأكثر منها فى الأقاليم الغربية فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى [3]. ثم اشتد ضغط أعراب جهينة على ملوك علوة الذين حاولوا دفعهم أوصدهم على قول ابن خلدون، ولما لم يستطيعون لهم دفعا استمالوهم إليهم بالمصاهرة، فانتقل الملك إلى أبناء جهينة من بنات ملوك علوة حسبما يقتضى به نظام الوراثة المعروف عند النوبيين جميعاً، «فافترق ملكهم حتى هذا العهد» (أى القرن الخامس عشر الميلادى).

والمعروف أن مملكة علوة المسيحية تألفت من عدة ممالك صغيرة خاضعة للملك الكبير فى سوبا، وهذه الممالك الصغيرة هى التى انتقل سلطانها - دون سلطان الملك الكبير - إلى أبناء جهينة. ويذكر الدمشقى (١٢٥٦ - ١٣٢٧م) أن ملك علوة يسكن مدينة تسمى كوسة [4] لا مدينة سوبا العاصمة القديمة وليس من المستبعد أن يكون ملك علوة اضطر أمام ضغط الجماعات العربية المختلفة ومن بينها جهينة إلى نقل مقر ملكة فى القرن الرابع عشر الميلادى

(1) Morie, L.J. ; Hisoire de l'Ethiopie, la Nubie Tome Iere. p. 413.

(٢) أنظر ص ٩١٢ وما بعدها.

(3) MacMichael : op. cit. II, p. 28.

(٤) الدمشقى: كتاب نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، ص ٢٦٨ . أما كوسة فموقعها غير معروف تماما، ولكن الإدريسى يقول: «إن من بلاد النوبة مدينة كوسة الواغلة (أى الداخلة) وبينها وبين مدينة نوابية ٦ أيام وهى تبعد عن النيل يسيراً وموضعها فوق خط الاستواء. والإدريسى : المغرب، وأرض السودان ومصر والأندلس، ص ١٩ .

Crawford, O.G.S.: The Fung Kingdom, p. 27 Note 29.

إن كوسة تقع قرب موضع يعرف بزانكور عند بدء وادى الملك حيث عثر على بقايا فخار ومبانى تشبه ما كان موجوداً فى مملكة علوة المسيحية.

على الأقل إلى مدينة كوسة واتخذها عاصمة له (١)، وبهذا تكون سوبا فقدت مركزها القديم كعاصمة لمملكة علوة، فأضمحل شأنها وخربت دورها(٢).

وعلى الرغم من انتقال العاصمة من سوبا إلى كوسة واستيلاء القبائل العربية على معظم أقاليم علوة، فإن هذا لا يعني سقوط تلك المملكة حتى القرن الخامس عشر الميلادى على الأقل. ذلك بأن العرب لم ينشئوا حكومة مركزية تخضع لها سائر الأقاليم، لأسباب واضحة منها «عدم انقياد بعضهم إلى بعض فصاروا شيعا لهذا العهد(٣)».

والواضح تماما أن قبائل جهينة لم تكن الوحيدة التى أفادت من تداعى مملكة علوة وانحلالها، بل شاركتها القبائل العربية الأخرى التى استقرت فى جهات متعددة من مملكة علوة. وعلى هذا نشأت فى جوفها عدة إمارات عربية مستقلة. ويذكر القلقشندى أن من بين الإمارات التى نشأت فى أوطان البجة حتى الحدود الحبشية وبلاد النوبة كذلك ثمانى إمارات كان بين أمرائها والسلطنة المملوكية فى مصر مراسلات فى القرنين الثامن والتاسع للهجرة (الرابع عشر والخامس عشر للميلاد (٤). غير أنه ليس من الواضح تماما إن كانت هذه الإمارات يقع بعضها فى إحدى جهات علوة أو قريبا منها.

وكيفما كان الأمر، فالمعروف أنه منذ القرن الخامس عشر الميلادى على الأقل ظهرت عدة ممالك ومشيخات إسلامية فى حوض النيل الأوسط (٥)، وكان لظهورها أثر خطير فى تطور

(1) Crawford, O.G.S.: op. cit. pp. 27- 28.
De Villard : op. cit. p. 220.

(٢) زار داود روبينى الرحالة اليهودى اليمنى الأصل، مملكة سنار سنة ١٥٢٢م، ومر بمدينة سوبا سنة ١٥٢٣، فوجد أنها مخربة، وكل ما فيها عدة مساكن مبنية من القش والخشب.
Hillelson, S.: Reubini, SNR. XVI. part. I. 1933. p. 60.

(٣) ابن خلدون العبر، جـ٥، ص ٤٢٩.

(٤) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٨، ص ٥-٦، أورد القلقشندى أسماء ثمان من الأمراء كانت بينهم وبين السلطنة المملوكية مكاتبات وهم: سمرة بن كامل العامرى - وعباد بن قاسم - وكمال بن سوار - وجنيد، شيخ الجوابرة، الهكارية بأبواب النوبة - وشريف شيخ النمانمة بابواب النوبة أيضاً - وعلى شيخ دغيم، وزامل الثانى، وأبومهنا العمرانى. أما دنقلة فعليها ملك ولهذا أورد مكاتبة صاحبها فى جملة الملوك. أنظر ملحق رقم ١٨.

(٥) نعوم شقر: تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته، جـ٢، ص ١٠٣، ١٠٧، أورد المؤلف أسماء عدد من المشيخات والممالك التى دخلت فى حلف مع ملك الفونج، أوائل القرن السادس عشر الميلادى، ومن بينها: مشيخة الشنابلة، ومملكة الجموعية، ومملكة الجعليين فيما بعد لمشايخ العبد اللاب. هذا فضلا عن الممالك والمشيخات الأخرى التى خضعت لملوك الفونج رأساً. أنظر ملحق رقم ١٨.

الحياة الاجتماعية والسياسية كذلك، مما ساعد على زوال بعض الأسس التى قامت عليها الملكية المسيحية فى علوة. ذلك أن اختلاط العرب المهاجرين بتنظيماتهم القبليه المفككة بالسكان الوطنين ساعد على تفكك هذه الممالك المسيحية إزالة بعض التقاليد الاجتماعية القديمة ولاسيما بعد اختفاء معظم بيوت الإمارة القديمة، وأضحت الأرض ملكا للجماعة القبلية بعد أن كانت ملكا لنظام ملكى، وصارت الأرض توزع على الجماعة القبلية يقومون على استغلالها ودفع الضريبة عنها لشيخ القبيلة أوزعيم الدار.

وثمة تطور آخر طرأ على الحياة السياسية. ذلك أن الحكم أضحى وراثياً فى بيت شيخ القبيلة أو الدار، وتكونت من مجموعات القبائل - فى الإقليم الذى اتخذته داراً لها - زعامات إقليمية تولاها شيخ المشايخ وهو عادة شيخ أقوى قبيلة المجموعة وعرف باسم المانجل[1]. وبهذا أختفى نظام الوراثة القديم، أى نظام الأمومة.

ولعل أهم أثر لقيام هذه المشيخات الإسلامية فى حوض النيل الأوسط، هو ازدياد انتشار الإسلام بين كثير من أهل البلاد، وذلك أنه لما رأت القلة التى بقيت على النصرانية أن لا أمل لها فى قيام حركة للإصلاح فى مجتمعهم بسبب انقطاع علاقاتهم الدينية بكنيستهم الكبرى فى الاسكندرية، كان من الطبيعى أن ينشدوا ما يسد رمقهم الروحى فى الدين الجديد الإسلامى [2].

وقد أدت هذه الاحداث فى هذا الجزء من حوض النيل، إلى عدم استقرار الأحوال فيه بسبب اختلال الأمن، والنزاع بين القبائل العربية حول مواطن الرعى من ناحية وبينها وبين الوطنيين من ناحية أخرى [3]، مما أدى إلى تدهور الأحوال الاقتصادية. وزاد الأمور تعقيداً تعطيل التجارة بين هذه البلاد وبين مصر، واختلال سير القوافل بينهما، بسبب اضطراب

(١) ربما أخذت هذه الكلمة عن الاثيوبية ومعناها عظيم.

Budge: The Egyptian Sudan, II, p. 212.

أما المانجل فأصلها غير معروف وكانت من أرفع الألقاب فيما بعد فى مملكة الفونج، وكذلك. لقب أرباب.

(٢) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ١٠٠ .

(٣) نعوم شقير: نفس المصدر، جـ٢ ، ص ٧٢.

الأحوال في منطقة النوبة الشمالية(١). ولهذه الأسباب ظهرت الحاجة إلى إنشاءحكومة مركزية تخضع له شتى الجماعات والقبائل المتنازعة، لإقرار الأمن وحماية طرق التجارة القديمة. وتذكر المراجع الوطنية، أن عمارة دونقس زعيم الفونج جمع رجاله في جبل مويا (٢). ثم تحالف مع عبدالله جماع شيخ عرب القواسمة من جهينة وأصحابه الآخرين، على إخضاع ملك العنج وملك الغرب (٣). ودارت في أربجي(٤). معركة سنة ٩١٠هـ ١٥٠٥م (٥) انتصر فيها الحليفان، و فر العنج إلى جبال فازوغلي وكردفان، ومن بقي منهم اختلط بالغزاة واعتنق الإسلام (٦).

أما الفونج فاختلف المؤرخون حول أصلهم، ورأى البعض أنهم شعبة من الشلك مستندين في هذا على ما ذكره بروس الرحالة الاسكتلندى الذى زار سنار سنة ١٨٧١ (٧). وقيل إنهم قوم أتوا من الغرب، ويحتمل أن يكونوا فرعا من الأسرة المالكة في مملكة برنو (٨) وثمة رأى ثالث يقول إنهم هجرة عربية دخلت السودان من الحبشة بطريق النيل الأزرق (٩). أما الفونج أنفسهم فيقولون إنهم من ذرارى الأمويين الذين لجأوا إلى ملك الحبشة، فرارا من بنى

---

(١) أنظر ص ٩٦١ وما بعدها.

(٢) يقع جبل مويا على بعد عشرة أميال غرب سنار الحالية. والراجح أن عمارة لم يقم في جبل مويا، بل إنه كان يقيم في لمول Lamul حسبما ذكره روبينى الرحالة اليهودى الذى زار السودان سنة ١٥٢٢ .ولمول هي التاكة الحالية Crawford : op. cit. p. 153 ويرى الأستاذ شبيكة أنها تقع في مكان بين كوكوج والرصيرص. تاريخ ملوك السودان، نشر شبية ص ٥.

(٣) أحمد كاتب الشونة: تاريخ ملوك السودان، نشر مكي شبيكة، ص ١. ويقصد بالعنج هنا السكان السابقين للفونج، أما ملك الغرب فربما يكون ملك علوة المقيم في كوسة كما ذكر الدمشقي.

(٤) يقال: إن أربجي أسسها رجل يدعى حجازى بن معين حوالي سنة ١٤٤٧م.

Jackson, H. G. : Tooth of Fire, pp. 17 - 18.

(٥) يرى الأستاذ الشاطر أن تأسيس مملكة الفونج لا يرجع إلى سنة ١٥٠٥ بل إلى حوالي ١٥٢٣ لعدة أسباب من بينها أن روبينى زار عمارة في عاصمته لمول ولم تكن سنار قد أنشئت بعد ، راجع معالم تاريخ سوادان وادى النيل ص ٢٣.

(٦) أحمد كاتب الشونة. تاريخ ملوك السودان ص ٢.

(7) Arkell, A. J. : "Fung Origins " SNR., XVII, PP. 208 - 243.

نقلا عن Bruce : Travels to discover the Source of The Nile IV. p. 458.

(8) Arkell, A. J. : A Hist. of The Sudan. pp. 206 - 207.

(9) Chatway, J. O. P. : "Notes on the Hist. of the Fong". SNR, XIII, II. pp. 247 - 257.

العباس[١] ونجد لذلك تأييدا فيما أشار إليه كل من المسعودى [٢] والمقريزى عن هجرة بقايا الأمويين إلى بلاد النوبة وساحل البحر الأحمر، ولا يبعد أن يكون بعضهم استقر إما فى بلاد النوبة الشمالية ثم انتقل إلى أرض الجزيرة، أو أن بعضهم لجأ إلى الحبشة ومنها إلى أرض الجزيرة كذلك.

وكيفما كان الطريق الذى سلكه الفونج إلى جزيرة النيل الأزرق، أو درجة الصحة فى انتمائهم إلى العرب عامة أو بنى أمية خاصة، فموضع الأهمية فى الواقع فى هذه المرحلة من تاريخ الفونج أن أولئك القوم، سواء هبطوا جزيرة النيل الأزرق من الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب، عرضوا أنفسهم على قاعدة أنهم عرب ووافقهم الناس على نسبتهم هذه[٣]، لا سيما وأنهم لم تكن لهم لغة سوى العربية [٤]، أو يدينون بدين سوى الإسلام.

وتدل شروط الحلف بين الحليفين عمارة وعبد الله، أن يكون عمارة هو المقدم على زميله فى الزعامة وحمل لقب ملك. وأن يحل عبد الله محله مدة غيابه، أى أنه كان بمثابة نائب ملك،وحمل لقب شيخ. وانتقل هذا النظام الذى وضع أساسه الخليفان إلى أولادهما من بعدهما [٥].

اتخذ عبد الله مدينة قرى (قرب خانق سبلوقة) مقرا له، واختط عمارة مدينة سنار [٦] لتصبح عاصمة مملكة الفونج التى إمتدت مساحتها من سواكن شرقا إلى النيل الأبيض غربا، ومن أقصى جبال فازوغلى جنوبا إلى الشلال الثالث شمالا. أى أنها اشتملت على معظم النوبة العليا (علوة) وقسم كبير من بلاد النوبة الشمالية (مقرة). ويقال إن حملة حربية أرسلها ملك سنار لإخضاع النوبة السفلى، ووصلت حتى الشلال الثالث ولما أراد قائد الحملة التقدم

(1) MacMichael, H. A. : A Hist. of the Arabs in the Sudan. II. BA., PP. 36 - 37.

(٢) المسعودى : التنبيه والإشراف، ص ٣٢٩ - ٣٣٠، المقريزى:المواعظ والاعتبار، جـ١، ص ١٩١. انظر الملحق رقم ١٢.

(٣) أعلن عمارة هذه النسبة وغيرها فى رسالة بعث بها إلى السلطان سليم سنة ١٥٢٠م ليثنيه عن غزو سنار لأنها أرض إسلام وسكانها عرب، شقير، جـ٢، ص ٧٣.

(4) Nadler, L. F. : " Fang Origins" SNR, XIV, part I. 1391. p. 61.

(٥) نعوم شقير: نفس المصدر، جـ٢، ص ٧٣.

(٦) ومدينة سنار التى أسسها عمارة خلاف سنار الحالية وهى تبعد عنها بحوالى ثلاثة أميال.

شمالا هزمته جيوش الغز الأتراك عند حنك وظلت حنك تمثل حدا فاصلا بين نفوذ الفونج جنوبا وبين نفوذ الغز الأتراك الذى شمل النوبة [١] السفلى من حنك إلى أسوان.

وأضحت مدينة أربجى (قرب المسلمية) الحد الفصل بين نفوذ عبد الله الذى امتدت سلطته على جميع الوحدات القبلية حتى حنك (شمال دنقلة)[١]، على حين أن سلطة عمارة امتدت على ما يلى هذه الأقاليم جنوبا. هذا ولم يباشر ملوك سنار أو حلفاؤهم سلطاتهم على مملكة الفونج بصفة مباشرة، بل عن طريق المكوك (شيوخ القبائل) الذين تمتعوا بشئ من الاستقلال، على أن يدفعوا الضرائب المقررة لخزانة الملك فى سنار [٢]. واحتفظ ملوك سنار وحلفاؤهم فى قرى بحق تنصيب الملك أو المانجل من بين أفراد أسرة الملك المتوفى[٣].

وفى أيام عمارة امتد النفوذ العثمانى إلى الشام ومصر. وقام العثمانيون بعملية تأمين الحدود الجنوبية على غرار ما فعل جميع السابقين. غير أن الامتداد العثمانى اهتم بالناحية البحرية، لأن استيلاء العثمانيين على مصر كان مختلطاً فى عوامله ودوافعه بما لمصر من سيطرة على تجارة البحر الأحمر، وكانت تلك التجارة مهددة تمام التهديد من ناحية البرتغاليين. وهذا هو تفسير اهتمام العثمانيين بالناحية الجنوبية، مما جعلهم يقيمون قواعد فى سواكن ومصوع سنة ١٥٢٠م. وخشى عمارة من هذا الامتداد العثمانى من ناحية البحر، فبعث إلى الباب العالى يذكر له أن دولته إسلامية، وأن رعيته عرب بادية لا يملكون ما يصلح لدفع الجزية للسلطان. وعزز عمارة هذه الرسالة بكتاب يحوى أنساب قبائل العرب فى مملكته جمعه له السمر قندى أحد علماء سنار. ويقال إن السلطان العثمانى اقتنع بصحة ما تضمنته هذه الرسالة فعدل عن حرب سنار [٤].

(١) شقير: جـ٢ ، ص ١٠٨. (٢) نعوم شقير: نفس المصدر ، جـ٢ ، ص ٧٣.

(٣) الملك أو المانجل ، هو شيخ إحدى الوحدات القبلية التى تضمها مملكة الفونج. وتقام حفلة تنصيب الملك أو المانجل الجديد بأن يجلسه ملك سنار أو شيخ قرى على الككر (الكرسى) ويلبسه طاقية ذات قرنين ويقلده سيفاً. ويلاحظ أن هذه التقاليد قديمة ترجع إلى عهد ملوك مقرة المسيحية. ولا نعرف إذا كان هذا متبعاً عند ملوك علوة أم لا.

jacKson, H. C. : op. cit p. 92.

(٤) لا نعرف شيئا على وجه التحقيق عن السمر قندى الذى ينسب إليه جمع أوراق النسبة أو روايات زعماء القبائل عن نسبتهم وضمنها جميعاً فى كتاب بعث به عمارة إلى السلطان سليم. وربما كان السمر قندى أحدى الفقهاء الذين أتوا من مصر للعيش فى كنف ملوك الفونج والحصول على هباتهم : MacMichael op. cit. II, P. 7.

هكذا تم ميلاد هذه الحكومات الإسلامية أوائل القرن السادس عشر الميلادى على أنقاض مملكة علوة المسيحية. غير أن المعروف أن هذه الحكومات اشتملت على عناصر مختلفة، عربية وحامية وشبه زنجية، فضلا عن خليط منها جميعاً، وهى ذات ثقافات مختلفة ومختلطة كذلك. وهذا ما يوضحه بعدهم الشديد عن الاسلام المعهود وسيطرة المعتقدات السابقة من مسيحية وفرعونية ويصف صاحب الطبقات حال هؤلاء وأولئك جميعاً عقب تأسيس مملكة الفونج بقوله «أعلم أن الفونج ملكت أرض النوبة وتغلبت عليها أول القرن العاشر سنة عشر بعد التسعمائة (١٥٠٥م) وخطت مدينة سنار ولم تشتهر فى تلك البلاد مدرسة علم ولا قرآن. ويقال إن الرجل يطلق المرأة ويتزوجها غيره فى نهاره من غير عدة »[١].

تصور هذه الحالة التى وصفها صاحب الطبقات نوع الثقافة التى سادت جهات حوض النيل الأوسط أوائل القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى). وهى تدل دلالة واضحة على اختلاط الإسلام بالعقائد والعادات الوطنية، فشارك المهاجرون أهل البلاد الأصليين فى الجهل بقواعد الإسلام. ومرجع هذا فى الغالب إلى أن العرب لم تكن تهتم حتى هذا الوقت بشرح تفاصيل الأسس التى يقوم عليها الإسلام[٢]، بل كان الهدف بسط نفوذهم عليهم من ناحية أخرى. هذا والمعروف أن معظم أولئك المهاجرين كانوا على حال من البداوة، فنسوا الكثير من تعاليم الدين الاسلامى لبعد صلتهم بمواطن العلم والعلماء [٣].

غير أن بعض المصادر السودانية تشير إلى وجود نوع من النشاط الثقافى فى بلاد النوبة قبل قيام السلطنة السنارية. ومن الأمثلة على هذا ما تذكره إحدى الوثائق أن غلام الله بن عايد اليمنى الأصل، هبط أرض دنقله أواخر القرن الرابع عشر الميلادى واستقر فيها ، لأنها كانت فى غاية الضلالة والحيرة، لا فتقارها إلى العلم والعلماء. فعمر غلام الله هذا المساجد وعلم أبناءه وتلاميذه من أبناء المسلمين تلاوة القرآن وعلمهم كذلك بعض العلوم الأخرى [٤]. ثم

---

(١) محمد ضيف الله: طبقات ود ضيف الله، نشرها ابراهيم صديق، ص ٥. والمقصود بالعدة المدة التى تقضيها المرأة بعد طلاقها أو وفاة زوجها، وبين عقد زواجها من آخر وهى ٤ شهور.

(٢) عبد المجيد عابدين: دراسات سودانية ، ص م.

(٣) عبد العزيز أمين عبد المجيد : التربية فى السودان ، جـ١ ص ٥٦.

(4) MacMichael, H. A. op. cit. II. manusc. B. A. p. 36.

عرفت الدراسات الدينية فى السودان باسم العلوم وأطلق على الفقهاء العلماء أو رجال العلم لأنه لم يكن هنا علم سوى دراسة العقيدة.

ظهر في نواحي أبو حليمة على النيل الأزرق - قبل قيام السلطنة السنارية - أولاد عون السبعة، وتولى أحدهم ويدعى الضرير منصب القضاء في زمن الفنج[١].

وإذا استثنينا الحالات التي استخدم فيها العنف لنشر الإسلام بين الجماعات السودانية والقضاء على العادات القديمة [٢]، فإن أساليب الدعوة الإسلامية زمن الفونج كانت ضعيفه. وتميزت هذه المرحلة من تاريخ الدعوة بظهور طبقة من الفقهاء ورجال الصوفية الذين تعهدوها بأساليب جديدة قامت أساسا على شرح تفاصيل الدعوة ومبادئها للناس. والواضح مما ذكرته بعض المراجع السودانية المختلفة أن هذه الحركة العلمية مصدرها مصر والحجاز وبلاد المغرب وغيرها. ويرجع هذا في الغالب إلى هجرة أفراداً وأسرات مثقفة من هذه الدولة الإسلامية إلى جهات حوض النيل الأوسط لينزلوا في كنف ملوكها رغبة في عطائهم وإكرامهم، أو ليعيشوا في خيراتها وأراضيها الواسعة، أو ليتخذوه مأوى جديدا بعد أن ضاقت بهم أوطانهم [٣]. وفضلا عن هؤلاء فإن كثيرا من أبناء مملكة سنار كانوا يرحلون إلى مصر لتلقي العلم بالأزهر ثم يعودون إلى بلادهم. ومنهم من كان يحج إلى بيت الله الحرام ويأخذ العلم عن أحد فقهائها أو يأخذ الطريقة عن أحد مشايخ الطرق. وهؤلاء وأولئك جميعاً كان لهم أثر واضح في نشر الثقافة الإسلامية الدينية في مملكة سنار.

ومن الأمثلة الدالة على هذا ما تذكره المراجع بصدد هجرة بعض السناريين إلى مصر في طلب العلم أوائل القرن السادس عشر الميلادي. ومن بين هؤلاء محمود العركي الذي أخذ العلم عن ناصر الدين اللقاني وأخيه شمس الدين [٤] ثم عاد إلى وطنه فأسس سبع عشرة مدرسة ما بين الحسانية (توتي) وأليس (الكوة). ويعد محمود العركي أول من طبق أحكام الدين الإسلامي في هذه المنطقة بتفقيه الناس وأمرهم بالعدة [٥] في حدوده الضيقة.

(١) ذكرهم نعوم شقير، جـ٢، ص ٧٦، أولاد ضيف الله، والحقيقة أنهم أولاد غلام الله. أنظر عبد العزيز عبد المجيد: التربية في السودان في السودان، جـ١، ص ٥٩، حاشية ١.

(٢) ومن أمثلة هذا ما ذكره جاكسون، أن الملك عبد القادر الذي خلف أباه. الملك عمارة حوالي ١٥٣٧م ذهب إلى قتال السكان الوطنين في جبل مويا وجبل سقدى لأخراجهم من دينهم واحتلال بلادهم.
Jackson, H. C. : op. cit. p. 21.

(٣) عبد العزيز عبد المجيد: التربية في السودان، جـ١ ، ص ٥٥.

(٤) توفي شمس الدين اللقاني في سنة ٩٣٥هـ ١٥٣٠م.

(٥) محمد ضيف الله : طبقات ود ضيف الله، ص٥ ، ص ١٦٣.

وامتاز النصف الثاني من القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) بازدهار الثقافة الإسلامية في مملكة سنار. إذ أن عددا من السناريين ارتحلوا إلى مصر لطلب العلم بالأزهر، ومن بين هؤلاء أولاد جابر الأربعة [١] فأكبرهم إبراهيم المعروف بالبولاد تفقه على الشيخ محمد البنوفرى إمام المالكية في مصر، وأخذ عنه الفقه والأصول والنحو ثم عاد إلى ترنج مسقط رأسه في أرض الشايقية وكان أول من درس مختصر خليل في مملكة الفونج «وتخرج على يديه أربعون إنساناً صاروا كلهم أولياء وأقطاباً» . ومن إخوة إبراهيم، عبد الرحمن الذى نهج نهجه ورحل إلى الأزهر وتتلمذ على الشيخ البنوفرى. ومنهم من تردد على مصر من وقت إلى آخر للاتصال بعلمائها كما فعل الأخ الثالث إسماعيل، الذى أجازه الشيخ البنوفرى كذلك وغدت بلاد الشايقية مقصد الطلاب من أنحاء مختلفة في مملكة الفونج في منتصف القرن السادس عشر الميلادى [٢].

وحوالي سنة ٩٥٠هـ (١٥٤٣م) قدم من مصر الشيخ محمد القناوى المصرى الأزهرى الثقافة، تلميذ الشيخين سالم السهورى [٣]، ويوسف بن عبد الباقي الزرقاني.ودخل بربر وأربجى وسنار، غير أنه فضل سكنى بربر وبنى بها مسجدا لتدريس الرسالة والعقائد والنحو وسائر والعلوم، وولى القضاء فباشرة بعفة ونزاهة [٤]. وتخرج على يديه عدد من أبناء بربر

---

(١) وهم أولاد جابر بن عون سليم بن رباط بن غلام الله والد السادة الركابية، ولدوا في ترنج بأرض الشايقية. ويقول صاحب الطبقات إن أولاد جابر كالطبايع الأربع، أعلمهم إبراهيم وأصلحهم عبد الرحمن وأودعهم إسماعيل وأعبدهم عبد الرحيم. والواضح أن هذه الأسرة احتفظت بمركزها العلمي منذ عهد جدها الأكبر غلام الله بن عايد أواخر القرن الرابع عشر الميلادى.

(٢) طبقات: ص ٦.

(٣) عبد العزيز عبد المجيد: التربية في السودان جـ١ ص ٦٤.

(٤) طبقات ، ص ٣١.

إن معظم ما جمعته عن الشيخ المصرى القناوى مأخوذ عن حفيده الشيخ مجذوب مدثر كبير مدرسى معهد أم درمان العلمي وشيخ الطريقة التيجانية في السوادن . والشيخ المصرى من مدينة إدفو بصعيد مصر من قبيله النابية. ولما استقر في بربر تزوج من قبيلة الميرافاب. وتعرف طبقة الفقهاء التى أخذت عنه وعن أولاده وتلاميذه في مدينة بربر حتى الآن اسم المصاروة. وللشيخ المصرى مؤلفات عديدة منها شرحه على البسملة في المنطق وشرح على العقيدة المعروفة بالسنوسية الصغرى وشرح على العشماوية.

وغيرهم منهم حفيده الشيخ. المضوى [١] المصرى، والشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب من أهل دنقلة [٢].

ومن العلماء المصريين الذين قدموا إلى مملكة سنار فى النصف الثانى من القرن العاشر الهجرى كذلك - الشيخ محمد بن على بن قرم الكيمانى المصرى وهو شافعى المذهب وتلميذ الخطيب الشربينى. فأقام فى بربر ودرس المذهب الشافعى فى بربر وأربجى ومن تلاميذه ابنه الشيخ الشكاك [٣]، والقاضى دشين قاضى أربجى فى عهد الشيخ عجيب المانجلك ، وغيرهم كثير [٤].

ثم وفد من الحجاز أحد أئمة الصوفية ويدعى تاج الدين البهارى البغدادى، وهو خليفة الطريقة القادرية الجيلانية. واستقر تاج الدين فى أرض الجزيرة سبع سنين تمكن فيها من إدخال الطريقة الجيلانية بعد تسليك خمسة من المريدين منهم الشيخ محمد الهميم. ثم تولى هؤلاء تسليك غيرهم بعد عودة شيخهم إلى الحجاز [٥].

وفى هذا الوقت أيضا (أى النصف الثانى من القرن العاشر الهجرى) قدم التلمسانى المغربى على الشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب وسلكه طريق القوم وعلمه علم الكلام، وعلوم القرآن من تجويد وروايات ونحوها. وانتشر علم التوحيد والتجويد فى الجزيرة. وممن أخذ عنه عبد الله الأغبش من بربر [٦].

....

(١) اتصل الشيخ المضوى بالمتمة وشندى القديمة وعلم بمسجدها كثيرا من الناس حتى قيل إن عدد من يحضر عليه بلغ الثلثمائه. وله مؤلفات منها «شرحه المطول على القصيدة المعروفة ببدء الآمال فى فن التوحيد. وتوجد منه نسخة خطية بمكتبة المعهد العلمى. وله رسالة على البسملة تكلم فيها عن نواحى كثيرة تقع فى ٢٠ كراسة من القطع المتوسط . انظر الطبقات، ص ٣٢.

(٢) طبقات ، ص ١٦٥.

(٣) ويعد الشيخ الشكاك صاحب المدرسة الثانية فى بربر بعد مدرسة الشيخ المصرى القناوى. وله مسجد فى حلة السيد غرب بربر. قام الشيخ الشكاك بنشر الفقة الشافعى وأخذ عليه جماعة منهم أولاد الحاج. ومن الشايقية الذين تأثروا بمدرسة ابن قرم المصرى جماعة تدعى الخفاف (الذين يلبسون خفا) وكانوا على صلة تامة بعلماء الأزهر.

(٤) محمد ضيف الله: طبقات ص ١٦٩.

(٥) المصدر السابق ص ٤٤، ٤٥، ٣٥.

(٦) طبقات، ص ٥. يقول الشيخ مجذوب مدثر إن الشيخ عبد الله الأغبش قدم من دنقلة فى القرن العاشر وأسس مسجده غرب مدينة بربر وعلم فيه القرآن وتخرج عليه عدد يقدر بالمئات . ومدرسة الغبش كانت مشهورة بعلم القراءات.

وتمتع أولئك المشايخ بنفوذ واسع في مملكة سنار، فأقطعوا الإقطاعات الواسعة، ولم يرد لهم طلب عند الحكام والملوك، ومن استجار بهم [١] فهو آمن غضب السلطان،

والواضح من دراسة حياة أولئك الرواد أن مصر هى المصدر الأساسى للثقافة التى ظهرت فى مملكة سنار فى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) [٢]. ومن الملاحظ هنا أن الأثر المصرى يتميز عن غيره بأنه ذو طابع علمي فى معظمه يتجه إلى عموم الناس. فإن أولئك الذين أخذوا عن علماء الأزهر «بالمباشرة أو الواسطة» [٣]، ا تجهوا إلى تعليم الناس الفقه والتوحيد واللغة وغيرها من العلوم، على حين أن الطابع الصوفى كان غالبا على تعليم الثقافة الحجازية والمغربية [٤].

ومن الملحوظ هنا كذلك أن الطابع العلمى الذى تأثر به السناريون اتجه إلى حصر الانتباه فى العلوم النقلية، التى سادت العالم الإسلامى منذ القرن العاشر الهجرى بعد أن تغيرت أساليب التربية الإسلامية على يد الأتراك، انصراف العلماء إلى التأليف والتحرير لا إلى الاجتهاد والتخريج، وميل معظم علماء هذا العصر إلى اختصار ينقصه الشرح والتعليق [٥].

أما عن المذاهب الدينية، فالسناريون غلب عليهم مذهب مالك بسبب أتصالهم بأهل صعيد مصر الذين غلب عليهم هذا المذهب [٦] وأما الدراسة العلمية لهذا المذهب فقد ظلت مزدهرة بالأزهر إلى جانب المذاهب الأخرى، وانتقلت دراستها إلى بلاد الفونج على يد خريجى الأزهر، سناريين ومصريين مثل الشيخ إبراهيم البولاد والشيخ محمد القناوى المصرى وغيرهما.

وعلى الرغم من أن انتشار المذهب الشافعى كان محدودا إلا أن القليل من علماء الشافعية الذين تخرجوا فى الأزهر وتلاميذهم، كان لهم أثر واضح فى نشر تعاليم الإسلام . ومن هؤلاء

(١) عبد المجيد عابدين: تاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ٥٨.
(٢) عبد العزيز عبد المجيد: التربية فى السودان ، جـ١ ، ص ٧٠.
(٣) المباشرة : يقصد بها هنا السودانيون الذين رحلوا إلى مصر وأخذوا العلم عن علمائها هناك أو العلماء المصريين الذين قدموا إلى السودان حيث نشروا علومهم، أما الواسطة فتعنى أولئك الذين أخذوا العلم عن السودانيين الذين جاءوا من مصر.
(٤) عبد المجيد عابدين: تاريخ الثقافة العربية فى السودان ، ص٥٦ - ٥٧.
(٥) عبد العزيز عبد المجيد: التربية فى السودان ، جـ١ ، ص ٥٢.
(٦) المصدر السابق ، جـ١ ، ص ١٣٦.

محمد بن قرم الكيماني المصرى تلاميذه عبد الله العركى والقاضى دشين الشافعى قاضى أربجى وعبد الرحمن ولد حمدتو والشيخ ابراهيم الفرضى وغيرهم (١).

وانتشرت علوم القرآن فى مملكة سنار أواخر القرن العاشر الهجرى، ويقال إن الشيخ محمد سوار الذهب من دنقلة تلقى علوم القرآن على التلمسانى المغربى (٢) كما تلقاها من قبل على الشيخ محمد القناوى المصرى فى بربر (٣). وليس من المعروف تماما أيهما كان أقوى أثرا. غير أن انتشار قراءة ورش فى دنقلة وأبى عمرو فى معظم جهات مملكة سنار - وهما القراءتان الشائعتان فى بلاد المغرب - يدل على تأثر السناريين ببلاد المغرب فى علوم القرآن أكثر من تأثرهم بمصر(٤).

وإلى جانب الثقافة العلمية، ظهرت فى مملكة سنار منذ القرن العاشر الهجرى بوادر ثقافة دينية صوفية كذلك. وهى الثقافة التى كانت شائعة فى هذا الحين فى بلاد العالم الإسلامى مثل الحجاز والعراقى ومصر وبلاد المغرب، ومنها تسربت إلى مملك سنار على يد بعض الدعاة أو الموطنين الذين اتصلوا بمنابعها. وللسناريين صلات غير منقطعة بالحجاز ولا سيما فى موسم الحج لطلب العلم على علماء الحرمين، ثم أن بعض قادة الصوفية فى الحجاز وبلاد المغرب قدموا إلى مملكة سنار حيث طاب لهم فيها المقام (٥)، لترحيب السناريين بهم وتشجيع ملوك الفونج لهم (٦). ولقيت الطرق الصوفية فى مملكة سنار منبتا خصبا، ويرجع هذا فى الغالب إلى أن كثيراً من المشايخ أظهروا من الصفات ما جعل الناس يتهافتون عليهم ويتخذونهم ملاذا فى ساعات الضيق والعسرة (٧)، كما أن الحروب والانقسامات الداخلية التى سبقت عصر الفونج أورثت فى نفوس السناريين فى هذا العهد رغبة شديدة فى حياة مستقرة، مما دعاهم إلى الاستجابة لدعوة أولئك المشايخ الذى ظهروا مع قيام مملكة الفونج للانتظام فى سلك العبادة(٨).

(١) محمد ضيف الله: طبقات، ص ١٦٩.
(٢) نفس المصدر السابق، ٥. (٣) المصدر السابق: ص ١٦٥.
(٤) هذا هو رأى فضيلة الشيخ محمد المبارك عبد الله شيخ علماء السودان.
(5) Trimingham . J. S. : Islam in The Sudan, p. 195.
(٦) عبد المجيد عابدين: نفس المصدر، ص ٦١.
(٧) عبد المجيد عابدين: نفس المصدر، ص ٦٢.
(٨) المصدر السابق: ص ٦٣.

ويقال إن الطريقة الشاذلية [١] ، دخلت السودان قبل قيام مملكة الفونج، على يد الشريف حمد أبي دنانة سنة ١٤٤٥م. ثم رسخت دعائمها زمن الفونج على يد الشيخ خوجلي عبد الرحمن المتوفى سنة ١٧٤٣م والذى كان أول أمره قادريا ثم تحول شاذليا[٢].

ويظهر أن هاتين الطريقتين عندما دخلتا بلاد سنار، لم يكن لهما هيئة مركزية منظمة، تضم الشيخ الأكبر وخلفاءه ومريديه، بل كانت الطريق تسلك على يد شيوخ كثيرين منتشرين فى أنحاء البلاد مستقلين عن بعضهم إلا من حيث الرباط الروحي الذى يربطهم جميعا باعتبارهم من أتباع طريقة واحدة. ولم يدخل التنظيم على هذه الطرق إلا فى القرن التاسع عشر الميلادى.

ومن الملحوظ هنا أن بعض الفقهاء السناريين أصبحوا شيوخا صوفية ومن هؤلاء الشيخ عبد الله العركي. على أن أغلب رجال الصوفية في هذا العهد (القرن العاشر الهجرى) كان من غير العلماء ومن هؤلاء خليل بن على الصاردى الذى كان فى أول أمره خمارا شرابا [٣]. ومنهم الشيخ محمد الهميم الذى كان من أكبر قادة الصوفية في مملكة سنار «مع كونه أميا لم يقرأ إلا لغاية الزلزلة [٤] . وقد يكون بعض السبب فى هذا راجعا إلى أن الناس فى هذا الوقت (القرن العاشر الهجرى) كانوا لا يزالون فى مستوى ثقافى لم يتوافر فيه التعرف على حقيقة التعاليم الإسلامية وتدبر أصول الدين مما جعلهم لا يميزون بين مما هو من أصل الدين وما هو بدعة فيسهل التأثير فيهم، ويتملكهم كل شئ طريف غير مألوف، كالتحدث بالغيب والكرامات وادعاد الطب الروحاني ، ولا سيما إذا جاء هذا عن طريق الدين [٥].

وكيفما كان الأمر فإن أثر الطرق الصوفية يبدو واضحا فى التقريب بين الجماعات الجنسية،

(١) تنسب الطريقة الشاذلية إلى أبى الحسن الشاذلى ١١٩٦ - ١٢٥٨م ولد فى شاذلة فى تونس وانتشرت طريقته في مراكش في القرن الخامس عشر الميلادى على يد أبى عبد الله محمد بن سليمان الجزولى مؤلف دلائل الخيرات. ويقال. إن إحدى بناته تزوجت من الشريف حمد أبى دنانة الذى نزح إلى السودان ومعه ابنة السيد بن الحسن وسكنا البقعة المسماة بالمحمية وحينئذ عرف الناس الطريقة الشاذلية.

(2) Triminghgn, : op. cit. pp. 196 - 197.

(٣) محمد ضيف الله: طبقات ، ص ٨٤.

(٤) المصدر السابق : ص ١٥٠.

(٥) عبد العزيز عبد المجيد: نفس المصدر، ص ٢٣٤.

لأنها تعمل على إضعاف العصبية القبلية وإيجاد نوع من التعاون بين الجماعات المختلفة [١]. ومن ذلك أن التجمع الصوفي كان نواته شيخ الطريقة، يجتمع إليه الناس ويصبحون تحت لواء الشيخ طريقة واحدة تجمع الدعوة شملهم على اختلاف قبائلهم وسلالاتهم.

وهكذا يمكن القول إن القرن السادس عشر الميلادى كان عهد انتقال من المسيحية إلى الإسلام البدوى على أيدى جماعة من العلماء الذين وفدوا من البلاد المجاورة ، أو من الوطنيين الذين أخذوا العلم عن أولئك العلماء الوافدين.

خاتمة

مما سبقت دراسته يمكن القول إن الجزء الممتد من أسوان في الشمال إلى جنوبي التقاء النيلين الأبيض والأزرق في الجنوب ، عرف كله أو أجزء منه – في العصور القديمة بأسماء مختلفة. غير أنه ظل يعرف في العصور الوسطى باسم النوبة. وهو اسم سبق العرب في الإشارة أليه المؤلفون اليونانيون والرومان وغيرهم منذ القرن الثالث قبل الميلادى . ولعل كلمة نوب (ذهب) كانت من بين الأسماء التى أطلقت على هذه الأقاليم منذ أقدم العصور التاريخية المصرية .

ويبدو من وصف الكتاب القدماء ومؤلفى العصور الوسطى كذلك لهذه المنطقة ، أنه لم يطرأ تغيير ظاهر على بيئتها الطبيعية ، ماخلا ما تناولته يد الإنسان بالتعديل أحيانا وبالتهذيب أحيانا أخرى.

أما النوبيون فهم شعب قديم في أوطانه، وهم حاميو الأصل مثل قدماء المصريين في عصر الأسرات الأول وما قبلها . ثم أخذت بلاد النوبة منذ عهد الأسرة الثالثة المصرية، وعلى مدى العصور، تستقبل،جماعات حامية من الشرق والغرب وجماعات مصرية من الشمال، كما أنها أخذت تستقبل من الجنوب جماعات نيلية (زنجية). وظهرت آثار هذا الخليط بوضوح في مخلفات المجموعة الثقافية (x) ببلاد النوبة وهى ثقافة الجماعات النوبية التى استقبلت الدعوة المسيحية في القرن السادس الميلادى . أما عن حضارة أصحاب هذه المجموعة الثقافية فتدل

(١) محمد عوض محمد: السودان الشمالي، سكاني وقبائله، ص ١٧ – ١٨.

آثارها على أنهم قوم مارسوا الزراعة بوصفها حرفة أساسية تساندها حرفة الرعى، ولوحظ اختفاء الطابع المصرى فى بناء المقابر وطرق الدفن ، وكثرة وجود الضحايا البشرية والحيوانية. وهى تمثل خليطا من حضارات بيزنطية ومروية لم تخل من الآثار البدائية . ثم أن اللغة النوبية ذات أصل حامى ثم دخلتها بعض المؤاثرات الزنجية. وأن وجود بعض الشبه بين اللغة النوبية على النيل وبعض لغات جبال النوبا بكردفان وغيرها، لا يعنى أن سكانهما يرجعون إلى أصل واحد بل يرجع – فى الغالب – إلى هجرة نوبية من النيل إلى بعض جهات كردفان، حيث تركت بعض آثارها اللغوية. وربما كان للاتصال التجارى بين النوبيين وغيرهم من سكان الجبال أثر فى نشر اللغة النوبية بينهم.

خضعت بلاد النوبة لنفوذ دولة كوش وعاصمتها نباتا التى ظلت تمثل مركزا لنوع من الحضارة المصرية حتى فقدت أهميتها منذ منتصف القرن السادس قبل الميلاد فورثتها مروى من سنة ٣٠٠ ق. م. إلى سنة ٣٥٠م. ويلاحظ أنه فى هذا الدور، أخذت الثقافة المصرية تتضاءل شيئا فشيئا حتى غدت مزيجا من ثقافات مصرية ويونانية ورومانية فضلا عن ثقافات حبشية. ويظهر أن ملوك مروى لم يستطيعوا بسط نفوذهم بصفة دائمة على جميع الأقاليم التى خضعت لهم من قبل بل إن بعض جهاتها استقل تحت حكم أمرائها الوطنين ولاسيما المنطقة الممتدة من جنوبى أسوان حتى المحرقة، وهى المنطقة التى عرفت باسم دوديكاشينوس. ومع هذا لم يجنح البطالمة إلى التوسع جنوبا، فنشأت بين الدولتين علاقات طيبه كان من نتيجتها أن أعلن حكام هذه المنطقة الانضمام إلى مصر.

وإذا خلف الرومان فى حكم مصر سنة ٣٢ ق. م.، ادعوا حقوقا فى تلك المنطقة، باعتبارهم ورثة البطالمة، وقد تغلبوا على محاولات الكوشيين لاستردادها مدة من الزمن. ويظهر أن الرومان كانوا يهدفون إلى توسيع العلاقات التجارية بين مصر وجهات حوض النيل الأوسط، فأقاموا بمنطقة دوديكاشينوس حاميات عسكرى، وقاموا بسلسلة من مشاريع التعمير فيها، وحاولوا كذلك إقامة علاقات صداقة بينهم وبين القبائل التى تعيش فى الجنوب والغرب (فى كردفان ودارفور) لتحقيق أغراضهم التجارية. وهذا هو سر تمسكهم بمنطقة دوديكاشينوس . غير أن هذه السياسة لم يقدر لها النجاح بسبب إغارات البليميين الذين استقرت بعض شعبهم فى جهات النوبة السفلى جنوبى المحرقة منذ عهد البطالمة . ويظهر أن الحركات البليمية ضد الرومان اصطبغت بصبغة قومية بدليل اشتراكهم فى بعض الحركات

القومية المصرية ضد الرومان سنة ٢٥٠م. واتسعت دائرة هذه الحركات البليمية فشملت جهات طيبة وأسوان . ومع أن الرومان استطاعوا التغلب على هذه الحركات المعادية لهم سنة ٢٨٠م، إلا أنه بدا لهم صعوبة الاحتفاظ بمنطقة دوديكاشينوس لا ستمرار إغارات البليميين من ناحية وفقرها من ناحية أخرى . واتجهت سياسة الامبراطور دقلديانوس إلى التخلى عنها، على أن يحل النباطيون محل الرومان فى المنطقة التى انسحبوا منها ، ليقوموا بدورالمنطقة الحاجرة بين البليميين فى الجنوب وبين الرومان فى الشمال. ولا يعنى انسحاب الرومان من منطقة دوديكاشينوس، أنهم تخلوا عن مشروعاتهم التجارية فيما خلفها جنوبا، بل حاولوا البحث عن حليف قوى والاعتماد عليه فى الحصول على تجارة الشرق (الهند والصين وشرق أفريقيا) وفتح طريق التجارة إلى قلب أفريقيا . فاتجه الرومان إلى دولة أكسوم، لتوثيق علاقاتهم بها واستغلالها فى قمع حركات البليميين والنوبا كذلك. وبدت بوادر هذه السياسة منذ سنة ٣٨٥م على عهد الامبراطور أورليان. واستمر اتصال التجار الرومان بدولة أكسوم، حتى إذا كان عهد الامبراطور قسطنطين الأكبر (٣١٣ - ٣٣٧م) تم عقد معاهدة تجارية بين الرومان وملك أكسوم على يد التاجر الصورى فرومنتيوس. ثم اعتنق عيزانا ملك أكسوم المسيحية سنة ٣٤٠م، على يد فرومنتيوس الذى عمده البطريك أثناسيوس أسقفاً لأكسوم. غير أن الغرض التجارى لمهمة فرومنتيوس، يبدو واضحا، حين قام الملك عيزانا بحملته المشهورة على مملكة مروى حوالى منتصف القرن الرابع الميلادى، لتأديب النوبا والبجا (البليميين) الذين يغيرون على جيرانهم. وليس من المستبعد أن يكون هذا تم بإيعاز من فرومنتيوس، لفتح الطريق للتجارة من جديد.

غير أن هذه السياسة لم تضع حدا لحركات البليميين المعادية للرومان، بل على العكس من هذا فقد زادت حدتها. ذلك أن البليميين بدأوا يحسون بالخطر المسيحى المزدوج عن طريق أكسوم بعد اعتناق الملك عيزانا المسيحية، وعن طريق مرسوم تاوداسيوس (٣٨٥م)، الذى قضى بإبطال جميع مظاهر الديانات السابقة للمسيحية فى الامبراطورية الرومانية، ولهذا، بدأ البليميون سلسلة إغاراتهم على الأطراف الرومانية، فاحتلوا معظم إقليم دوديكاشينوس، وأغاروا على إقليم طيبة والواحة الخارجة سنة ٤٢٩م. ويدل اشتراك النباطيين مع البليميين على الخلود إلى السكينة مدة مائة عام بعد هزيمتهم على يد القائد الرومانى مكسيمينوس ثم فلورس فى منتصف القرن الخامس الميلادى، إلا أن السماح لهاتين القبيلتين بالحج إلى فيلة، وحمل تمثال

معبودتهم إيزيس إلى أوطانهم يحمل على الظن أن الرومان لم يرغبوا حتى هذا الحين (منتصف القرن الخامس الميلادى) فى فرض المسيحية بالقوة على هؤلاء القوم. وكيفما كان الأمر فإن البليميين والنباطين حافظوا من جانبهم على تنفيذ معاهدة الصلح التى عقدوها مع مكسيمينوس وفلورس، وظلوا على ولائهم لمعبوداتهم وخاصة إيزيس التى كانوا يحجون إلى معبدها فى فيلة كل عام. ولعل ضخامة هذه المواكب وتجمعها كل عام فى قلب أسقفية فيلة وأسوان - حيث توجد الكنائس والأديرة المسيحية - أثار القلاقل من جديد مع قرب انتهاء أجل الهدنة، لا سيما وأن النزاع بدأ يدب بين البليميين والنباطين.

ورأى جستنيان ضرورى القضاء على العبادات الايزيسية فى فيلة، على أن يسبق هذه الحركة طرد البلميين من منطقة دوديكاشينوس، لتحكمهم فى المسالك المؤدية إلى فيلة. وانبرى لهذه المهمة سلكو ملك النباطين الذى - فيما يبدو - كان على علاقة بالبيزنطيين بفضل ثيودور أسقف فيلة وأسوان، وشن سلكو على البليميين حربا شعواء سنة ٥٣٥م. تمكن بعدها من طردهم إلى الصحراء الشرقية. ولا يبعد أن يكون تم له هذا بمساعدة البيزنطيين. وبهذا تم ميلاد مملكة نوباتيا التى أضحت فرس عاصمتها.

ثم كانت الخطوة الطبيعية وهى إغلاق معبد فيلة، وقد قام القائد البيزنطى نارسس بهذه المهمة تنفيذا لأمر الامبراطور جستنيان حوالى سنة ٥٤٣م. وتم تحويل هذا المعبد إلى كنيسة، وبهذا أضحى الطريق ممهدا لدخول المسيحية بلاد النوبة بصفة رسمية فى منتصف القرن السادس الميلادى.

وعلى الرغم من أنه لم يرد نص صريح عن نشاط تبشيرى رسمى ببلاد النوبة قبل القرن السادس الميلادى، إلا أن معظم الروايات التاريخية ترجح دخولها عن طريق مصر، أما الطريقة التى دخلت بها المسيحية بلاد النوبة قبل القرن السادس الميلادى، ومعرفة دعاتها الأول، فإن شيئا من هذا لم يعرف على وجه التأكيد، مع العلم بأن بطريرك الكنيسة المصرية يحمل لقب بطريرك الإسكندرية والحبشة والنوبة وبنتابوليس (الخمس المدن الغربية) منذ عهد المسيحية الأول (القرنين الأول والثانى) . هذا والمعروف أن المسيحية حين ظهرت فى مصر فى القرن الأول الميلادى، اجتذبت إلى صفوفها عددا من المصريين وغيرهم من سكان البلاد. غير أن الاضطهادات التى حلت بهم وخاصة منذ منتصف القرن الثالث الميلادى أدت إلى هجرة كثير

من المسيحيين المصريين إلى منطقة طيبة والصحراء الغربية وجهات النوبة السفلى والوسطى. وغدا كل من أقليم طيبة والواحة الخارجة مراكزا هاما لنشر الدعوة المسيحية في بلاد النوبه منذ منتصف القرن الرابع الميلادى. ولم يكد يرفع الاضطهاد عن المسيحين المصريين على عهد قسطنطين الأكبر لاعترافه بالمسيحية ديانة رسمية حتى واجهوا اضطهادا جديدا بسبب مانشب بين المسيحيين أنفسهم من خلاف حول طبيعة المسيح. فازدادت هجرة المسيحيين المصريين إلى جهات طيبة وأسوان، حيث أنشئت الأديرة والكنائس. وتطلب الأمر إنشاء أسقفية في فيلة في منتصف القرن الرابع الميلادى. ويبدو أثر هذه المراكز المسيحية الجديدة التى نشأت بالقرب من أوطان النوبيين ساهمت في نشر المسيحية بينهم، فيما تذكره بعض القصص عن جهود الرهبان في التبشير للمسيحية في بلاد النوبة، ومحاولة أولئك الرهبان كسب ود الجماعات من النوبيين والبليميين، كما فعل الانبا شنودة كبير رهبان دير اخميم في منتصف القرن الخامس الميلادى. وهذا فضلا عن الدور الذى قام به ثيودور أسقف فيلة في التمهيد لدخول النوبيين جميعاً في الدين المسيحى في القرن السادس الميلادى. ثم أن البيزنطيين ، لجأوا إلى إغراء البليميين إلى المسيحية بأن أقطعوا بعضهم اقطاعا في منطقة طيبة ليتسنى لهم السيطرة على أوطانهم والاتصال بدولة أكسوم المسيحية لتنفيذ مشاريعهم التجارية في البحر الأحمر والمحيط الهندى والقضاء على نفوذ الحميريين ا لتجارى.

ثم بدأت المرحلة الحاسمة لإدخال النوبيين جميعاً في المسيحية في النصف الثاني من القرن السادس الميلادى، حيث أخذت صورة النزاع المذهبى بين الكنيستين المصرية والبيزنطية والسباق بينهما لكسب الأنصار تنعكس على النوبة كذلك. فقامت بعثة الكنيسة المصرية برئاسة يوليان، وقدر لها الوصول إلى مملكة نوباتيا قبل البعثة الامبراطورية بفضل نفوذ الامبراطورة ثيودورا وموضع الأهمية هنا أن الملك النوبى وأمراءه وأفراد أسرته، قبلوا التعميد على مذهب الكنيسة المصرية والذى مهد له من قبل على يد المهاجرين المصريين وثيودور أسقف فيله، على حين أن بعثة الامبراطور جستنيان قد لحقها الفشل في نوباتيا. وأتم القس لونجينوس ما بدأه سلفه يوليان في نوباتيا ٥٦٩م. وعلى الرغم من الدسائس التى حاكها له الملكانيون فقد لبى دعوة ملك علوة لزيارة مملكته وتعميده ورجال دولته سنة ٥٨٨م. وبهذا تم تنصير مملكتين من ممالك وادى النيل الأوسط على مذهب الكنيسة المصرية. أما المملكة الثالثة - مقرة - فلم يشر إليها يوحنا الأفسى - وهو المؤرخ المعاصر لهذه الحوادث جميعاً. غير أن

صمت يوحنا الأفسسي - المونوفيزى المذهب - يوحي بنجاح البعثة الملكانية في تحويل ملك مقرة إلى المسيحية على المذهب الملكاني، ونجد لذلك تأييدا فيما ذكره يوحنا البكارى الملكانى المذهب. إذ يشير إلى اعتناق أهل مقرة والجرمنتيين (القرعان) للديانة المسيحية سنة ٥٦٩م.

أما المذهب الذى ساد أخيرا ممالك النوبة المسيحية الثلاث فهو مذهب الكنيسة المصرية، بسبب خلو الكرسى البطريركى للكنيسة الملكانية بالإسكندرية ما يقرب من قرن، ومنع إرسال أساقفة ملكانيين إلى مقرة أو غيرها.

ويمكن رسم صورة تقريبية لمدى تأثر النوبيين بالمسيحية من الطريقة التى تلقوا بها تعاليم هذا الدين الجديد، ونوع هذه التعاليم. ذلك أن يوليان ولونجينوس بدءا بتعميد الملوك والأمراء ثم بعض أفراد الشعب. ومن غير المعقول أن يتم تعميد جميع النوبيين فى المدة القصيرة للتى قضاها كل منهما فى بلاد النوبة. والواضح أن النوبيين اعتنقوا المسيحية بأمر ملوكهم. ولابد أن عملية التبشير أخذت أبسط أنواع صورها لتلائم ظروف البيئة البدائية وثقافة السكان. ولابد أن تكون التعاليم التى تلقوها خرجت أحيانا عن أصولها للحصول على كسب سريع. ولكن على الرغم من بقاء بعض النوبيين على وثنيتهم فى الوقت الذى كان يقوم فيه يوليان ولونجينوس بعملهما فى بلاد النوبة فان للاقباط - الذين هاجروا من مصر على أثر الغزو الفارسى لها سنة ٦١٩م، واضطهاد الملكانيين لهم بعد استرداد البيزنطيين مصر - فضل كبير فى نشر الديانة المسيحية بينهم.

أما عن تنصير البليميين (البجا) فالمعروف أنهم ظلوا على وثنيتهم باستثناء جماعات قليلة منهم اعتنقت المسيحية. ولا يبعد أن يكون لو نجينوس عمد بعض زعمائهم أثناء مروره بأوطانهم فى طريق سفره إلى علوة سنة ٥٨٨م.، ثم أخذت المسيحية تتسرب إلى ديارهم رويداً رويداً بعد الغزو العربى لمصر.

* * *

أما عن اضمحلال ممالك النوبة المسيحية فيرجع إلى عوامل داخلية وأخرى خارجية. أما العوامل الداخلية فإنها ذات علاقة بالمستوى الحضارى الذى وصل إليه النوبيون بعد أن استقبلوا الدعوة المسيحية والنظم التى أقاموا عليها مجتمعهم المسيحى، وظروف البيئة الطبيعية

التي عاشوا فيها. والمعروف أن النوبيين حين استقبلوا الدعوة المسيحية كانوا ذوى حضارة معينة كشفت عنها الأبحاث الأثرية في بعض جهات النوبة السفلي وهي التي عرفت باسم ثقافة المجموعة (X) وهي مجموعة ثقافات أجنبية مختلطة بآثار بدائية. والواضح أن عوامل الاضمحلال من الداخل قديمة، وقد لازمت هذه الممالك منذ مولدها في القرن السادس الميلادى أو قبله بقليل. ولا يرجع بقاء هذه الممالك المسيحية - ما يقرب من ألف عام - إلى قوتها أو إلى ما اجتمع لديها من عناصر حضارية عريقة. بل يرجع - فى الغالب - إلى أن الحكومات التى تعاقبت على حكم مصر منذ االغزو العربى لها، لم تكن لها سياسة موسومة لإخضاع هذه الممالك بالقوة وصهرها في الإطار العربى الإسلامي العام، إنما تركت لعوامل التسرب البشرى والحضارى التدريجي حتى اكتملت عناصر قوتها في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، فكانت نهاية هذه الممالك. وأول ما نلاحظه أن هذه الممالك المسيحية لم تستطع أن تؤلف من بينها وحدة سياسية واحدة، بل ظلت منفصلة عن بعضها . وعلى الرغم من اتحاد الملكتين الشماليتين نوباديا ومقرة لمواجهة خطر الغزو الإسلامى من الشمال، فإن انفصال المملكة الجنوبية (علوة) عن جارتها في الشمال (مقرة) كان سبباً في إثارة النزاع بينهما مما أدى إلى اضمحلالهما وذلك بسبب الطبيعة القبلية التى كانت سائدة في هذا الاقليم.

وثمة ملاحظة أخرى هي التخبط في اختيار اللقب الفعلي للملك وموظفيه كذلك. ومرجع هذا - في الغالب - إلى أن هذه الألقاب أخذت أصلا عن النظم البيزنطية وطبقت على الوظائف التى خلفها العهد المروى وما دخل عليها من تقاليد بدائية، مما أدى إلى تعقيدها وعدم فهمها في أذهان الناس. ثم أن ملوك النوبة (مقرة وعلوة) تمتعوا بنفوذ مطلق على رعاياهم. فالملوك يملكون الأرض ومن عليها، ورعاياهم عبيد لهم.

وجرى العرف في وراثة العرش النوبى على نظام الأمومة . وسواء تمسك به النوبيون أو خالفوا بعض قواعده فالمعروف أن هذا النظام لم يؤد إلى استقرار علاقة المتملكين وأولياء عهودهم.

وعرف حكام الأقاليم باسم الملوك. ومارسوا سلطات إدارية ودينية. فجميعهم كهنة.

أما المجتمع النوبى فيشكل نوعاً من الإقطاع غريبا في تركيبه. فالطبقة الحاكمة الشاملة

للأسرة المالكة وفروعها وحكام الأقاليم كذلك يمثلون طبقة السادة أصحاب الأرض، أما الشعب فهم عبيد الملك، يباعون ويشترون ويهدى بهم، ويقومون مقام العملة.

واتجهت بلاد النوبة (مقرة وعلوة) فى زعامتها الروحية إلى الكنيسة المصرية ونشأت بينهما علاقات طيبة مصدرها حاجة الكنيسة النوبية إلى أساقفة، فضلا عما اجتمع لملوك النوبة من سلطة سياسية ودينية معاً. وهذه السلطة الدينية جعلت من ملوك النوبة ممثلين للكنيسة النوبية كذلك. وتبعاً لهذه الصفة الدينية لملوك النوبة فقد نشأت بينهم وبين بطاركة الكنيسة المصرية علاقات ودية، أختلفت طبيعتها من حين إلى آخر تبعاً لما تقتضيه مصالح الطرفين. غير أن موضع الأهمية هنا هو مدى تأثير الكنيسة النوبية فى حياة الناس.

الواقع أن المجتمع النوبى ظل يعيش فى مثل ما عاش قبل دخول المسيحية، ولم تختلط العقيدة الجديدة بقلوب الناس. واحتفظ النوبيون بكثير من عاداتهم القديمة. ولم تنجب الكنيسة النوبية علماء ذوى مثل مستمدة من تجارب القديسين - كما فعلت الكنيسة المصرية مثلا - فظلت تعتمد فى الحصول على الأساقفة على ما يرد إليها من الكنيسة المصرية الأمر الذى جعل الكنيسة النوبية تخضع لتطور الظروف السياسية فى مصر.

والغريب أن مقرة لم يكن تسودها لغة واحدة. فالطقوس الدينية كانت تؤدى باللغة اليونانية حتى القرن الثامن الميلادى إلى أن ترجمت إلى اللغة النوبية. ولم تصبح النوبية لغة مدونة إلا منذ أواخر القرن العاشر الميلادى، على حين أن القبريات النوبية ظلت تكتب باللغتين اليونانية والقبطية دون سواهما وهما كذلك لم تسلما من أخطاء لغوية إملائية. وتختلف لغة أهل علوة فى طبيعتها ونوع كتابتها عن اللغة النوبية فى مقرة.

وثمة ظاهرة هامة ذات أثر بعيد فى تاريخ بلاد النوبة، هى فقر البيئة - فمواضع الخصب تنحصر فى شريط ضيق بحاذى النيل يختلف ضيقاً واتساعا من مكان إلى آخر . وعلى الرغم من اتساع الرقعة الزراعية فى مملكة علوة عنها فى مملكة مقر، إلا أن أهل علوة كانوا دون أهل مقرة فى المستوى الحضارى، فلم يستغلوا خصوبة أرضهم استغلالا اقتصاديا، بل اعتمدوا على ا لسحر.

وأهم ما يلاحظ على التجارة فى بلاد النوبة أن العملة مثلا لم تكن معروفة إلا فى منطقة مريس. أما إلى الجنوب منها فكان التبادل يتم طريق المقايضة بالرقيق والمواشى وغيرها.

وتأثرت حضارة النوبيين بفقر البيئة وقلة الموارد الطبيعية. فالكنائس النوبية من النوع المعروف باسم باسيلكا. ومعظمها من الطوب واللبن والطين. ويغلب على النقوش والزخرفة البساطة وعدم النضج . وحتى بقايا المساكن التى أمكن العثور على قليل منها مبنية من اللبن وهى ذات طراز بسيط ساذج.

* * *

ويمكن تفسير أثر العوامل الخارجية فى اضمحلال ممالك النوبة المسيحية من تأثر النوبيين بالثقافة العربية الجديدة عليهم، إذ طبعتهم بطابع مختلف عن الطابع القديم الذى اتصفوا به فى العهد المسيحى. وإذا كان وادى النيل قد استقبل بعض الجماعات العربية من جزيرة العرب قبلى الإسلام عبر باب المندب أو البحر الأحمر، أو عن طريق برزخ السويس، سواء لغرض التجارة أو الهجرة أو الغزو فإن أثر هذه الجماعات العربية فيمن اختلطت بهم من سكان وادى النيل كان ضئيلا بالقياس إلى أثر الهجرات العربية الكبرى الى شقت طريقها إلى وادى النيل من الشمال (مصر) عقب ظهور الإسلام. وتعد حملة عمر بن العاص على مصر سنة ٦٣٩م إحدى طلائع هذه الهجرات الكبرى. وعلى الرغم من أن المسلمين فى محاولتهم الثانية غزو النوبة سنة ٦٥٢م – بقيادة عبد الله بن سعد بن أبى السرح – دخلوا دنقلة العاصمة واستولوا عليها، إلا أنهم لم يحتلوها بقواتهم كما فعلوا فى مصر وغيرها من البلاد التى غزوها،ولم يطبقوا عليها القواعد الخاصة بمعاملة أهل البلاد التى تفتح عنوة، بل اكتفوا بالبقط الذى ضمن للمسلمين حرية التجارة والعبادة فى بلاد النوبة ونشر الدعوة الإسلامية التى لا تفرض بحد السيف بل بالحجة والبرهان على يد التجار المسلمين. ويدل تمسك المسلمين فيما بعد بالبقط وشروطه على إدعاء نوع من السيادة فى بلاد النوبة لاسيما وأن المسلمين لم يلتزموا بدفع شئ رسمياً للنوبيين. ولا يعنى حرص النوبيين على الاستمرار فى دفع التزاماتهم إلى الدولة الإسلامية وقبض ما يقابلها من جهاز على رضى النوبيين بالبقط وشروطه، بل يدل على عجزهم عن ممارسة سياسة خارجية قوية. وإذا كان النوبيون حاولوا أحياناً الامتناع عن دفع البقط والإغارة على أطراف مصر للتخلص من هذه التبعية المضطربة لضيقهم ذرعا بالبقط وصعوبة الحصول على العدد المطلوب من الرقيق، إلا أنهم لم يحاولوا هذه المحاولات إلا فى حالات نادرة كانوا يستشعرون خلالها ضعف السلطة المركزية فى مصر

وتعرض البلاد للقلاقل الداخلية. ومع هذا فإن ولاة مصر كانوا يقابلون المحاولات النو بية بردهم وغزو بلادهم وإرغامهم على الوفاء بشروطهم.

وثمة ملاحظة توجب الالتفات هنا هي أنه على الرغم مما نص عليه عهد عبد الله بن سعد للنوبة من عدم السماح للعرب بالدخول إلى بلاد ا لنوبة إلا للتجارة، فإن الجماعات العربية المختلفة التي ازدحم بها إقليم أسوان - بعد الغزو العربى لمصر - لم تتقيد بهذا الشرط، بل أخذت فى التسرب التدريجي إلى بلاد النوبه السفلى (مريس) حيث استأجروا فيها أراضى استغلوها لصالحهم ثم استأثروا بها وتوارثوها جيلا بعد جيل. وتأثر النوبيون من أهل مريس بهذه الجماعات الإسلامية وأخذوا عنهم بعض أفكارهم ونظمهم الاجتماعية، خاصة النظام القبلي الذى أدى فى النهاية إلى تفكك ممالكهم واعتنق كثير منهم الإسلام. ولم يعد للملوك النوبة في هذه المنطقة سوى نفوذ اسمي.

وللصحراء الشرقية - حيث تعيش قبائل البجة - دور خطير فى تاريخ بلاد النوبة . إذا المعروف أن تنقل الجماعات المختلفة بين أوطان البجة وبلاد النوبة كان أمراً مألوفا فى العصور الوسطى. ومع أن ولاة المسلمين فى مصر لم يهتموا بادئ الأمر بأمر البجة، إلا أن اعتداءات البجة على صعيد مصر منذ منتصف القرن الثامن الميلادى، أدى إلى تجريد الحملات العسكرية عليهم لتأديبهم. وموضع الأهمية هنا أن هذه الحملات لم تؤد فقط إلى حفظ مصالح المسلمين الذين سبق أن استقروا فى أرض البجة للتجارة، وحفظ المساجد القائمة فعلا، ووضع بلادهم ضمن مناطق النفوذ الإسلامي وفرض الخراج والزكاة، بل أدت كذلك إلى استقرار كثير ممن اشتركوا فى هذه الحملات للعمل فى المعادن التى بهرتهم خاصة الذهب ، وأدت كذلك إلى هجرة قبائل عربية مختلفة إلى أرض المعادن والذهب بعد أن وصلتهم أنباؤها وخاصة بعد أن فقد العرب نفوذهم القديم بقطع العطاء عنهم وضغط الأتراك عليهم فى مصر.

ومن ثم فإن حملة العمرى سنة ٨٦٨م لم تكن فى الواقع حملة يقصد بها تأديب النوبيين أو البجة، بل الكشف عن مواطن جديدة للتبر والبحث عن مهاجر تتسع للقبائل العربية التى اشتركت فيها مثل ربيعة وجهينة وغيرها فى أوطان البجة وبلاد النوبة كذلك. واختلطت هذه الجماعات العربية المهاجرة بالعناصر النوبية (فى مريس) والبجاوية مما أدى إلى تأثرهم بالدماء العربية التى كانت تتجدد باستمرار مع توالى وصول عناصر عربية جديدة إلى هذه الأوطان بسبب اضطراب بعض أجزاء العام الإسلامى وقيام الفتن والثورات.

ويدل تأسيس أول إمارة عربية - حوالى أواخر القرن التاسع الميلادى - بزعامة ربيعة، فى أرض العلاقى واقليم أسوان على مدى ما صار للعرب من قوة فى هذه المناطق حتى اعترفت بها الدولة الفاطمية، فاستحق زعيمها أبو المكارم هبة الله لقب كنز الدولة. ثم حسب الأيوبيون لأمراء بنى كنز كل حساب وخشوا خطرهم وأدت هزيمة بنى كنز على يد العادل أخى صلاح الدين ١١٧٤م إلى رحيلهم عن أسوان التى لم تعد مركز إمارتهم، واستقروا فى جهات مريس حيث اندمجوا اندماجا تاما فى سكانها وخضع لهم النوبيون من أهل مريس الذين زال عنهم السلطان الفعلى للملك مقرة.

ويفسر وجود النوبيين بأعداد ضخمة فى مصر للخدمة فى جيشها منذ عهد ابن طولون - على الاقل - ظاهرة هامة كانت ذات أثر فى اضمحلال ممالك النوبة المسيحية. فخروج هذه العناصر النوبية المسيحية بطريق الشراء أوغيره استنزاف لقوى هذه الممالك المسيحية على حين لفظت مصر بعض عناصر الشغب بها - فى نظر ولاتها الأتراك - وهم جميعا من العرب المسلمين الذين انسابوا إلى النوبة فأثروا تأثيرا بشريا فيما تبقى لدى النوبة من عناصر نوبية مستقرة ثم أن هذه العناصر النوبية المسيحية النازحة إلى مصر لابد تحولت إلى الإسلام وأصبحت عنصرا بارزا فيها واتسعت أحوالها وشارك أولئك النوبيون فى حوادث الدول الإسلامية التى تعاقبت على حكم مصر.

* * *

وفى العهد المملوكى تبدأ مرحلة حاسمة فى تاريخ النوبة الشمالية «مقرة» وتبدأ هذه المرحلة باغارة ملك النوبة داود على ثغر عيذاب وأسوان سنة ١٢٧٢. بسبب ازدياد النفوذ المملوكى على ساحل البحر الأحمر، والضغط على ممالك النوبة المسيحية وبسبب ما نال الأقباط فى مصر من اضطهاد على يد السلطان بيبرس، فإن السلطان بيبرس أرسل حملة مملوكية سنة ١٢٧٣م إلى بلاد النوبة لتأديب داود.

وإذا كانت هذه الحملة لم تظفر بداود، فأن النزاع الذى نشب فى داخل البيت الملكى النوبى بسبب وراثة العرش والتجاء شكنده إلى السلطان، شجعه على إرسال حملة مملوكية ثانية لغزو النوبة سنة ١٢٧٦م. وموضع الأهمية فى هذه الحملة أنها جعلت بلاد النوبة الشمالية (مقرة) جزءا من الدولة المملوكية، وطبقت عليها لأول مرة القواعد الخاصة بمعاملة أهل البلاد التى تفتح عنوه، وأصبح بيد السلطان المملوكى حق تعيين وعزل من يشاء من ملوك النوبة. وتمسكت السلطنة المملوكية بهذا الحق، إذ تدل الحملات التى جردها السلطان

قلاون مرة بعد أخرى على الرغبة في تأكيد هذا الحق على الرغم من مراوغة ملك النوبة سمامون ومحاولته التخلص من التبعية للسلطنة المملوكية.

ومن أهم نتائج هذه الحملات القلاونية على بلاد النوبة أنها أقنعت ملوك علوة بقوة السلطنة المملوكية ،فتقربوا إليها بالهدايا وحكموا السلطان المملوكى فيما نشب بينهم وبين ملوك مقرة من نزاع.

وثمة ظاهرة أخرى، هى كثرة الرقيق والأسرى النوبيين الذين أرسلوا إلى القاهرة، وكثرة عدد اللاجئين من بيوت الإمارة النوبية ومدعى العرش النوبى، وثمة ظاهرة أخرى هى اشتراك عربان الوجه البحرى والقبلى فى هذه الحملات المملوكية كلها ، واستقرار كثير منهم فى بلاد النوبة، وعدم العودة إلى مصر صحبة الجيوش المملوكية.

وإذا كانت مشاغل السلطان قلاون فى بلاد الشام جعلته يقبل الوضع الذى خلقه ملك النوبة سمامون بعد استعطافه السلطان واسترضائه، فإن ابنه السلطان خليل لم يسمح باستمرار هذا الوضع وقبول مراوغة سمامون، بل أرسل حملة لتوطيد السيادة المملوكية فى بلاد النوبة وتعيين أحد الأمراء اللاجئين إلى مصر ويدعى يدمة - نائبا للسلطان فى حكم البلاد.

ولا شك فى أن اختلاف الطامعين من أفراد الأسرة المالكة النوبية كان ضمينا ببقاء هذه السيادة على بلاد النوبة حتى فى السنوات الأولى من عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون الذى كان لا يزال طفلا. وإذ حاول أحد ملوك النوبة ويدعى كرنبس الخروج على السلطان فإن حركته وافقت بلوغ الناصر سنا مؤهلا للحكم فرأى تعيين أحد الأمراء النوبيين - الذين تربوا فى البلاط السلطانى - ويدعى عبد الله برشمبو النوبى الذى اعتنق الإسلام ملكا على بلاد النوبة ونائبا عنه فى حكمها. والواقع أن سياسة تعيين ملك مسلم حكم بلاد النوبة، نقطة تحول خطيرة فى تاريخ هذه البلاد. إذ أدى ذلك إلى ظهور بنى كنز على مسرح الحوادث فى بلاد النوبة بعد أن أصهروا إلى البيت المالك النوبى وتزوجوا من بنات ملوكها. فادعى أميرهم كنز الدولة بحقه فى الملك. فهو فضلا عن أنه أمير مسلم فإن الملك ينتقل إليه بعد خاله الملك كرنبس حسبما يقضى به نظام الوراثة عند النوبيين.

ويدل تحدى كنز الدولة للسلطنة المملوكية والتخلص من عبد الله برشمبو، على ما صار لبنى كنز من قوة لا يسندها حقهم الطبيعى فى حكم بلاد النوبة فقط، بل تسندهم قوة العرب

المتوطنين، ولم تنجح الحملات الناصرية في القضاء على نفوذ بني كنز. والواضح أن دور العرب المستقرين في بلاد النوبة لم يقتصر على إسقاط البيت المالك النوبي سنه ١٣٢٢م فحسب ، بل نشر الثقافة الإسلامية بين النوبيين الذين انقطعت عنهم الجزية بإسلامهم لاسيما بعد قطع صلتهم بكنيسة الإسكندرية من ناحية وانعكاس صور اضطهاد الاقباط في مصر عليهم من ناحية أخرى.

* * *

ومن الطبيعي بعد أن سقطت المملكة المسيحية في الشمال أن تنعكس صورة الأحداث التي وقعت في بلاد النوبة الشمالية على مملكة علوة أيضا. وتتشابه العوامل التي أدت إلى سقوطها مع تلك التي أدت إلى سقوط جارتها في الشمال . فتعرض علوة لغزو جيرانها من الغرب والشمال للحصول على الرقيق، فضلا عن قطع علاقاتها بالكنيسة المصرية وفشل أهل علوة في الحصول على أساقفة من الحبشة أدى إلى تفككها وانحلالها.

ويدل سقوط علوة سنة ١٥٠٤ على يد جماعة من العرب والفونج على أنه سبق سقوطها وصول جماعات عربية في أعداد وفيرة. فنشأت عدة إمارات ومشيخات عربية في جهات حوض النيل الأوسط بعد تغلبها على الملوك الإقليميين في مملكة علوة . ولا شك في أن تلك الجماعات العربية المختلفة كان مصدرها مصر، باستثناء بعض الأسر العربية أو الأفراد الذين جاءوا عبر البحر الأحمر من الجزيرة العربية، أو بعض الجماعات العربية التي هاجرت من بلاد المغرب عن الطريق الليبي. فالمعروف أن كثيرا من الجماعات العربية انتقلت من مصر جنوبا، حيث استقرت في بلاد النوبة الشمالية (مريس) وأوطان البجة. وزادت جموع العرب المهاجرين إلى هذه الجهات زيادة واضحة عقب قيام السلطنة المملوكية بسبب الضغط المتواصل عليهم في مصر. وساعد على ذلك اضطراب الأحوال في بلاد النوبة الشمالية. ثم أخذ كثير من هذه الجماعات ولا سيما جهينة في الهجرة جنوبا إلى جهات النيل الأزرق حتى الحبشة وغربا إلى جهات دارفور وكردفان.

وتدل كثرة الوحدات القبلية العربية في جهات حوض النيل الأوسط وانتقال مقر الملك من سوبا إلى الغرب في (كوسة) على ما صار لهذه الجماعات العربية من قوة . ويبدو أثر هذه الجماعات العربية واضحاً في تطور الحياة الاجتماعية والسياسية، وزوال الأسس التي قامت

عليها الملكية المسيحية فى علوة، لا اختلاطهم بالسكان الوطنيين وازالة التقاليد الاجتماعية القديمة واختفاء معظم بيوت الإمارة القديمة. ولعل أهم أثر لقيام المشيخات الإسلامية فى حوض النيل الأوسط ازدياد انتشار الإسلام بين كثير من أهل البلاد بأعتبار أن ذلك كان مظهراً لقبول سيادة زعيم القبيلة على افرادها.

ومع هذا لم يؤد هذا التطور إلى استقرار الأحوال فى هذا الجزء من حوض النيل، بسبب اختلال الأمن، والنزاع بين القبائل العربية حول مواطن الرعى من ناحية وبينها وبين الاهالى من ناحية أخرى، مما أدى إلى تدهور الأحوال الاقتصادية . فظهرت الحاجة إلى إنشاء حكومة مركزية يخضع لها الجميع وحماية طرق التجارة القديمة، فكان الحلف السنارى الذى جمع بين الحليفين عمار دونقس زعيم الفونج وعبد الله جماع شيخ القواسمة من العبد اللاب. فقضى الحليفان على البيت الملكى النوبى فى علوة وتأسست دولة الفونج الإسلامية سنة ١٥٠٤م. وشملت هذه السلطنة جميع بلاد علوة وجزءا كبيراً من أرض النوبة الشمالية.ووضع الحليفان أساس النظام الذى جرى عليه حكم هذه السلطنة . ثم انتقل هذا النظام إلى خلفائهما من بعدهما.

والمعروف أن هذه السلطنة اشتملت على عناصر مختلفة عربية وحامية وشبه زنجية فضلا عن خليط منها جميعا، وهى ذات ثقافات مختلفة ومختلطة كذلك. وتشير الروايات الوطنية إلى اختلاط الإسلام بالعقائد والعادات الوطنية، والجهل بقواعد الإسلام، إذ أن الدعوة الإسلامية حتى هذا الوقت (أول القرن السادس عشر) لم تكن تهتم بشرح تفاصيل الأسس التى يقوم عليها الإسلام، بل كانت هذه الدعوة مجملة مبسطة ليسهل بسط نفوذهم عليهم، لاسيما وأن أولئك المهاجرين كانوا من البدو الجاهلين بفقه الإسلام، فظهرت الحاجة إلى علماء يتوفرون على شرح قواعد الإسلام.

الملاحق [1]

أولا ملحق رقم ١

نقش الملك سلكو باللغة اليونانية على جدران معبد كلابشة

وقد قام بعض العلماء على نشر هذا النقش، أولهم:

Gau, Antiquites de la Nubie, pI. I, No. 1.

ثم ناقش نوبهر محتوياته في Neibuhr, Inscriptiones Nubien

سنة ١٨٢٠، ثم نشره كل من كايو ولترون ولبسيوس في مؤلفاتهم وهي:

Cailliaud : Voyage aMeroe, tom, 3 eme P. 379.

Letronne : Oeuvres Choisies, tom. 1 ere , p. 3 tf.

Lepsius : Denkmaler, Abt. VI, B. 1 95.

وأخذ بدج عن الأخير Budge, E. A. wallis : The Egyptian Sudan, Vol. II, PP. 318 - 319.

النص الوارد هنا مأخوذة ترجمته عن بدج بعد مقابلتها لترجمة كروان لهذا النص وليس بينهما خلاف يستحق الذكر.

Kirwan, L. P. : LAAA. P. 94.

الترجمة العربية:

أنا سلكو رئيس[2] النوباديين وجميع الأثيوبيين . لقد جئت إلى تالمس [3]وتافه، حاربت

(١) بعض هذه الملاحق مأخوذ من مراجع مطبوعة معروفة، غير أني أوردتها هنا مع الملاحق المأخوذة من مراجع مخطوطة لأجعل منها كلها مجموعة واحدة للنصوص الهامة الخاصة بتاريخ السودان والنوبة.

(٢) على الرغم من ادعاء سلكو الزعامة على جميع النوباديين والأثيوبيين، إلا أنه اتخذ لنفسه لقب Basilikos أى ملك صغير. وهذا لا يتفق وما ادعاه سلكو لنفسه من سلطة . ويدل التخبط في اختيار اللقب الحقيقي لسلكو على الجهل باللغة اليونانية أنظر:

Emery, W. E. : The Royal Tombs of Ballana and Qustul, Vol., I, P. 12.

(٣) تالمس هي كلابشة الحالية حيث يوجد المعبد الذى نقش سلكو على جدرانه هذا النقش تخليدا لانتصاره على البليميين.

البليمين، ثم أعدت عليهم الكرة مرة أخرى، ونصرني الله عليهم في المرة الثالثة [١]. ثم قهرتهم نهائيا، فأصبحت بذلك سيدا على مدنهم، بعد أن سيطرت عليهم بقواتي [٢] ثم هاجمتهم (مرة خامسة) حتى توسلوا إلى، فعقدت معهم صلحا بعد أن حلفوا لى بآلهتهم [٣]. وقد وثقت في إيمانهم هذه لأنهم رجال شرفاء. ثم عدت إلى الجزء الأعلى من مملكتي، ولما تمت لى السيادة عليه، لم أشأ أن أكون في مؤخرة ملوكه، بل أصبحت في مقدمتهم [٤].

أما عن أولئك الذين نازعوني الزعامة فإنني لم أسمح لهم بأن يعيشوا في بلادهم إلا إذا التمسوا مني المغفرة، لأنني أصبحت أسدا في الجهات الدنيا من مملكتي وظبيا في الجهات العليا منها [٥].

لقد حاربت البليميين في المنطقة من ابريم إلى تالمس (الشلال [٦]). أما عن رؤساء

(١) ينسب سلكو إلى الله انتصاره على البليميين في الموقعة الثالثة. فهل يدل هذا على أن سلكو اعتنق المسيحية؟ يرى البعض أنه اعتنق المسيحية - أنظر:

Budge, E. A. Wallis: The Egyptian Sudan. Vol., II. P. 294.

Budge, E. A. Wallis : Hist of Ethiopia, Nubia, and Abyssinia, Vol, I. P, 116

غير أن كروان Kirwan, L. P. ; LAAA. Vol, XXIV, pp. 88.

استنادا إلى ما ذكره بركوبيوس حوالى ٥٤٣ يذكر أن البليميين والنباطيين يعبدون إيزيس وأوزوريس ويرى أنه ليس هنالك ما يدل على اعتناق سلكو المسيحية، بل أن ظهور صورته في النقش في زى فرعوني تزينه صور الآلهة يحمل على الظن أنه لم يكن مسيحيا. Ibid. op cit. p. 85.

(٢) الواضح من هذه العبارة أن سلكو احتل المنطقة الى يحتلها البليميون في بلاد النوبة وهي الممتدة من الشلال الأول حتى إبريم.

(٣) اضطر سلكو إلى شن حرب خامسة ضد البليميين ثم عقد معهم الصلح بعد أن حلفوا له بآلهتهم إيزيس وأوزوريس. والواضح أن سلكو وثق في هذه اليمين لتمسكهم بآلهتهم.

(٤) اطمأن سلكو إلى البليميين بعد أن أقسموا له يمين الطاعة فعاد إلى الجهات العليا من مملكته أى جنوبي إبريم وتم له إخضاع منافسيه ملوك النوباديين فأضحى زعيما بلقب رئيس وهو منصب لم يسبقه إليه غيره من ملوك النوباديين. أنظر:

Budge, E. A. Wallis: The Egyptian Sudan, op. Cit. p. 308.

(٥) بعد أن أخضع سلكو منافسيه أضحى شديد الباس، فهو أسد مخيف لكل السهل، وظبى قوى نشيط ضد سكان الجبال. Ibid : op. cit. p. 309.

(٦) يقول بدج: إنها تالمس (كلابشة) غير أنه من الواضح أن البليميين لم يكونوا عند العهد الذى قطعوه على أنفسهم ولهذا حاربهم سلكو مرة ثانية بعد عودته من الجهات الجنوبية، واكتسح بلادهم من إبريم إلى تالمس. والراجح أنها Tilelis أى الشلال الاول كما يقول كروان: .Kirwan, L. P. op. cit. p. 84 =

الشعوب الآخرين الذين نازعونى الرئاسة فإنى لم أدعهم يجلسون فى الظل بل فى الشمس، ولم يتمكنوا من أخذ شربة ماء إلى دورهم [١] ومن قاومنى منهم قضيت على أولاده ونسائه.

=اعتماداً على ترجمة جرفت لهذا النص: Griffith, F. Ll., Mer. Inscriptions، ومعنى هذا أن سلكو اضطر لحرب البليميين مرة ثانية بعد عودته من الجهات الجنوبية لعدم تمسكهم بالعهد الذى قطعوه على أنفسهم فيما يظهر، واكتسح بلادهم من إبريم إلى الشلال الأول. غير أن النص لا يشير صراحة إلى طردهم من هذه المنطقة.

(١) لا شك أن سلكو اضطر إلى خوض حرب ضد بقية النوباديين الذين خرجوا عليه حتى تم له إخضاعهم جميعاً تحت زعامته فاستحق اللقب الذى ادعاه لنفسه.

ملحق ١ : نقش سلكو.

الملحق رقم ٢

بساتين الآباء الرهبان - فردوس النعيم -
الأربعين خبر للاباء الرهبان بوادى هبيب وغيره

مأخوذ عن كرم: "Crum. B. W. E. : "A Nubian Prince in an Egyptian Monastery in Studies Presented to Griffith F. Ll., PP. 137 - 145.

نقلا عن نسخ مودعة بالمتحف البريطاني والمكتبة الأهلية بباريس.

... ولكن كن على حذر من قوم بنى حام[١]. ياتوك عراة الأجساد فى أوساطهم جلود المعزى. وسلاحهم من جريد النخل. وطعامهم من دبيب الارض. ياكلون النار والثعبان والفرس والورل والسحلفة والذيب والنمر. والكلب والقط. ولا ينجسون شيا من اللحوم الخبيثة النجسة. وهم أقوياء شجعان. لا يطيق بهم ا حد من سكان هذه الارض. فيملكون اكثرها. ويسبون اهلها ويقتلون ابطالها. ويرعون بافواههم كرومها وبساتينها. ويكون على هذه الاعمال منهم وبالاعظيما. وياتون اليك يا ابى انسطاسيوس وقد طعنت فى السن. لا قدرة لك على الطعام مستويا. وتنظرهم بعيناك. وبعد ذلك تموت قبل مخاطبتهم. ويمدون ايضا ايديهم فى هذا الدير. ويريدون فساده ومن فيه من الرهبان فلا يقدرون. فاندر ا فاندرا الريس الذى بعدك أن يعد لهم طعاما وشرابا من جميع الاطعمة الحلال والحرام. فاذا هم اكلوا من الطعام وشربوا من الشراب فانهم يعطوك امانا لهذا الدير. ولا يفسدون أحدا فيه. لان الذى يأتى اليه ابن اخوا المقدم فيهم. واصحابه. وفيه رحمة. واعرف واوصى ولدك الذى له الرياسة بعدك. يميز وجهه ويعرفه بشخصه، فهو ياتيه ليلا. ويدخل الى هذا الدير ويصير فيه راهبا ويكون قديسا. ويكون لهذا الدير رحمة من الله عظيمة الذى ارسله اليه. لان هولا الجند يقيموا فى هذه الارض ثلثه سنين ويجعلوها مثل القفار ولايتركوا فيها اثمار ولا اشجار لأنهم خلق كثير لا يحصى عددهم. فاذا كان اليوم الرابع عشر من ابن[٢]. تاتى إلى فتجدنى فى عنجق[٣]. وهذا مكان فى صدر البرية. يسكن فيه طير السما و يأوى اليه وحش البرية وما فيها من السباع والوحشه. وذلك لاجل ما فيها من الما المتجمع من الامطار والسيول.

---

(١) المقصود ببنى حام هنا هم النوبيون.

(٢) ابن هنا يقصد به أبيب فى الشهور القبطية: أنظر: Crum. B. W. E. op. cit. p. 142

(٣) عنجق: واحة خيالية لا وجود لها Ibid op. cit.

واد [إذا قوما قد وصلوا من ارض النوبه فملكوا ارض النخل والسدر والسنط وهى اسوان واسنا وارمنت وابيود [1] وجميع تلك الاعمال وكان كما قال هذا الراهب وما صار اليه.

الخبر الثالث والثلثون لنسطاسيوس ايضاً. قال نسطاسيوس الاب، انه لما أتى بنوا حام إلى ارض ابيود واسوان وغيرها من الاعمال كما كان وصف لى الولد القديس جعلت أفكر فى امرهم ورايتهم ياكلون ما كان من الحرام اكثر من الحلال ولا يحرمون شيا من سائر اللحوم. ويعبدون وحش البحر [فرس النهر] أيضاً فيأكلوه ويأكلون من السمك مالا ياكله احدا من الناس ولا يوديهم [يؤذيهم]، فعلمت انهم كما قال لى القديس مرقوريس. وبقيت مترقبا ما ينالنى من اولا يك، لأنهم كانوا قد افسدوا فى الارض وثمارها، واكلوا زرعها، واحرقوا بالنار غاباتها وسبوا أهلها وقتلوا ابطالها، وغنموا اموالهم، ولم يبق الا هذا الدير لاجل ما كان فيه من القديسين، ولما كان فى بعض الليالى واد [إذا] قد أتى الينا سياره عظيمه من هذا الجنس الحبشى بنى حام[2]. وهم عراة الاجساد، وفى اوساطهم من جلود المعز ما يسترون به عورتهم وفى ايديهم سلاح من جريد النخل، فنزلوا خارجا من هذا الدير. ولم ينالنا منهم سوا، اخرجنا اليهم طعاماً فاكلوا وشراباً فشربوا. ولما ارادوا المسير، دفع المقدم فيهم امانا لهذا الدير وهو لوحا من النحاس الاصفر مكتوبا فيه ثلثه اسطر بالقلم اليونانى، وفيه هكذا ، انا قفرير بن اخى غايان بن مروا ابن صليان، كتبت هذا الوح لهذا الدير احدر فيه من يوديه، ويغصبه مالاً. او طعاما أو غير ذلك. فيكون من الهالكين وانصرف هو ومن معه. وبقى اللوح فى هذا الدير، وكان مقام هولآ [لقوم ثلثة سنين، وكان فى هذه المده اذا اتى الينا قدما يريدون الفساد، فنخرج اليهم ذلك اللوح فيصقعون له ويرجعون إلى ورايهم ذاهبين. ولما كان آخر السنة الثالثة من مملكة هولاى القوم. اتى الينا رجل ومعه ثلثه غلمان يخدموه، ويرفعون اثوابه ان تقع على الارض. وبيده عصا من جريد يتوكا عليها ، وبيده الاخرى سيف يحمله . وعلى راسه مقدار ذراع واحد خرقه حرير مشدوده بها. كما يكون النسا. فلما رايناه تعجبنا منه وقلنا ما هذا الشيطان الذى اتى الى هذا الدير . وماذا يريد. وأنا علمت من ولدى الراهب القديس ان المدة

---

(١) أبيود. قرية من قرى صعيد مصر تقع جنوبى مدينة قفط ويبدو أنها كانت ذات أهمية فى الوقت الذى ترجع إليه حوادث هذه القصص.

(٢) ورد فى بعض النسخ الأخرى ذكر نوبى، وفى بعضها الآخر ذكر حبشى . والواقع أنه كثيرا ما يحدث الخلط بين هذه الأسماء جميعاً . Kirwan, L.P. LAAA. op. cit.

قد انقظت ولم يبق لهم ملكا. لان هذا الانسان كان من بني حام وانه اراد الدخول الى الدير. ففتحوا له الباب فدخل واراد البيعه فدللناه عليها. وانا نسطاسيوس كنت امامه ماشيا. لانى من ولدى الراهب ما كان انبانى به. ولما دخل الى البيعه وقف امام الهيكل وصلى. ولما فرغ من صلاته التفت إلى وقال. انا اريد ان تريني مقدم هذا الدير. لانه كان عجميا وان واحد من غلمانه كان يترجم له، فقلت له وما الذى تريده منه. فقال اذا رايته انا اخاطبه بالدى اريده منه، فقلت له انا هو. فجلس واجلسنى واخرج من بين ثيابه مما كان معلقا في عنقه. على صدره صوره من الذهب الاحمر منقوشه بالقلم. وكانت صوره ابينا القديس انبا بخوم، فتعجبت وقلت يا هذا المولا وانتم تعرفون في ارضكم القديس انبا بخوم . فقالوا نعم لان شابا راهبا لابس الثياب الصوف طرق ارضنا ورااينا له قدس عظيم . واكرز في ارضنا. وقال ان روحى صارت إلى السموات ورايت اهل العذاب وماهم فيه. ورايت اهل النعيم وماهم فيه. واظهر عجايب كثيرة. كان يقول ان روحي بعد قبضها عادت إلى جسده واندرنا انا ناتى إلى هذه الارض ونملكها ثلثه سنين ونعود إلى ارضنا. وكنت انا قد القيت نفسي اليه ورغبت إلى قدسه وبشرني انى اصير راهبا واسكن في دير انبا بخوم. المكان الذى كان فيه راهبنا. واسكن منزله. واصلى على قبره. واورانى كيف صوره القدس الجليل انبا بخوم وصنعها لى في لوحا من الخشب. واذا عملتها في هذا اللوح الذهب . وان ذلك الراهب مضى الى جبل عنجق من ارضنا. وهو ذا قد تم ما قاله. ولم يخل منه شيآ . فعلمت أنا نسطاسيوس انه والدى القديس مرقوريس الراهب. فتعجبت واطرقت بوجهى الى الارض . وكنت ساهيا زمانا طويلا. فلما رفعت راسى. قال لى الترجمان يا ابى الراهب ماهو ذا أنت فيه مفكرا فقلت. سبحان الله الذى اعطى قدسيه ومختاريه واصفياه الراغبين اليه هذه العطية واجلهم بها. يا ولدى هذا الراهب الذى ذكرت وصوله إلى ارضكم هو فى هذا الرير كان راهبا. وارضا الله باعماله. وهو دا ما كان من حاله. فسبح ذلك الرجل الله كثيرا. وقال ان هذا هو العجب. انه انبانى بما كان كذلك هذا الاب. ثم التفت إلى وقال لى انى اتيت لالبس الثوب والاسكيم. واكون من اولاد القديس انبا بخوم. الى حين انقضى مدتى . فبادر يا ابى الراهب والبس الثياب . فقلت انك راهباً من قبل اليوم. لان مرقوريس اندرك بدلك واندرنى وانى لا اشك انك ابن اخى الملك . قال نعم . واذا اعطيتك امانا في هذا الدير. وفى هذا اليوم وهو السابع والعشرين من ايلول عادوا بنى حام إلى ارضهم . وانا بعد ذلك في اليوم الثالث عشر من كانون الاول البسته الثياب

والاسكيم. واسكنته بيت ذلك الراهب مرقوريس. واريته قبره. وكان فيه يصلي ويذكر قدس مرقوره وقوله. وانه لم يكذب في لفظة واحد. انظروا الى قدس هذا الراهب ونضايله . وهدا ما كان من امر بني حام... انه ما يبقى احد منهم في هذه الارض الا هدا الراهب. وكان قديساً كثير الصوم والصلاه. وهذا ماكان من أمر هذا الراهب وكنت وقت لباسه الثياب اسميته قفرى. كما كان في اللوح مكتوب. الدى اعطانى اياه اماناً على هذا الدير. اسمعوا يا اخوتى واحبابى انا نسطاسيوس المسكين. بينما انا جالس في ديرى واذا سياره قد اتت يطلبونى طلبا عنيفا فخرجت اليهم وقلت ماذا تريدوا . فقالوا نريد نسطاسيوس اب هذا الدير. فقلت انا هو. فقالوا ان عندك رجل من اولاد حام وهو ابن أخو ممروا ابن صليان الملك الدى افسد هذه الارض . وقد جعلته راهبا وهو يكاتب عمه باخبار هذه الارض. وانا نريده. والا نحن نقتل جميع من فى هذا الدير ونطلق فيه النار. ولا نترك فيه شياً من العماره. وكان جميع ذلك من الشيطان عدو الخير. [فقلت] هو ذا الدير امامكم وجميع من فيه. وهو دا انا قايماً فى وسطكم . فادخلوا واكشفوا وفتشوا جيدا . فادا ما قدر تم عليه فخدوه ولا تخافوا احداً. فانى ما اعرف من هذا الانسان الدى انتم تدكروه. وانهم دخلوا وفتشوا الدير ولم يتركوا فيه مكانا. ولم يدخلوا الى منزل هذا الراهب قفرى. ولا علموا به. ولا المنزل الدى كان فيه . فخرجوا وقالوا ان هدا عظيما.وان الساعي الينا قد كدب ولم يرشدنا. والتفتوا إلى رجل كان معهم . من ناحيه تسمى صفيرة كما أسمها. وكان ساعيا. لانه كان شريرا كذاباً قتالا سفيهاً . نماماً مقاطعاً. لا يخاف الله. ولا يعرف الاه. وكان لاهيا بالزنا وشرب الخمر. واكتساب المال من غير حل. فسلط عليه هولآ القوم عند وصولهم . فاخذوا جميع ما يملك. وسبوا له ثلثه بنات . وقتلوا له ثلثه اولاد من الرجال الاشدآ الاقويا. ولم يرجع عن طغيانه ولا اعتبر بما ناله. وكان يقول انه ياخذ قفرى الراهب ابن اخى الملك فيقتله عوضا عن بنيه وبناته ولم يدرى انه بعض الانتقال وفى اخرته جهنم. فاخدوه وربطوا فى عنقه حبل من شعر المعزا وعلقوه على حايط الدير فمات لوقته.

* * *

تدل الشواهد الداخلية لهذه القصص الثلاث (الحادية والثلاثين والثانية والثلاثين والثالثة والثلاثين) أن حوادثها وقعت فى أديرة مصر على أطراف مصر الجنوبية. غير أن تاريخ هذه

- -

القصص غير معروف تماما. وتدل اللغة التى كتبت بها أنها دونت فى عصر متأخر قد يرجع إلى القرن العاشر أو الحادى عشر الميلادى .

والراجح أن هذه القصص ترديد لروايات قديمة تداولها الرهبان فى الأديرة. وهى تمثل جهود أولئك الرهبان القدامى فى نشر المسيحية بين النوبيين . وهى تشبه إلى حد كبير ما تردده الروايات عن الأنبا شنودة رئيس دير أخميم فى منتصف القرن الرابع الميلادى بصدد علاقته بالنوبيين والبليميين.

والراجح أن حوادث هذه القصص ترجع إلى القرن الرابع أو الخامس الميلادى حين كان النوبيون لا يزالون على دينهم. وهو الوقت الذى نشط فيه الرهبان للتبشير للمسيحية بينهم. وقد ظهرت آثار هذه الجهود التبشيرية فيما بعد حين أضحت المسيحية الدين الرسمى للنوبيين فى القرن السادس الميلادى وقبولهم مذهب الكنيسة المصرية دون المذهب الملكانى الذى شحذت الدولة البيزنطية جهودها لنشره بينهم.

ملحق رقم ٣

الوثائق الدالة على استقرار البليميين فى منطقة طيبة

عثر فلاح مصرى سنة ١٨٨٧م فى قرية الجبلين على بعد ٢٥ ميلا جنوبى الاقصر عل ثلاث وثائق مكتوبة باللغة اليونانية على رق غزال - نشرها كرال وهى محفوظة بالمتحف المصرى تحت رقم. 107 60 - 107 61، 107 62. Gen. du. Musee du Caire

وقد نقلها كروان إلى الإنجليزية وعلق عليها فى :

KirWan L. P. : LAAA. op cit. p. 87.

وكـذلك Emery. W.E. The Royal Tombs of Ballana and Qustul i, Text PP. II - 12.

ولا خلاف بين الترجمتين يستحق الذكر.

وفيما يلى نص الترجمة العربية للوثيقة رقم 10760 عن إمرى.

- ١ -

الترجمة العربية:

أنا شارشن ملك البليميين . أكتب إلى أولادى شاراشن وشاراتكور وشاراهيت، أنه طبقا لأمرى هذا قد منحتكم حكم الجزيرة المعروفة باسم تنارى، وألا يقف فى سبيلكم أحد. واذا أثار الرومان مشاكل وامتنعوا عن دفع الأتاوة العادية لكم فإنه ، لا الفيلارك ولا الهيبوتيرانوس، يمنعانكم من إرغام الرومان على دفع العطايا العادية عن جزيرتى.

شارشن: الملك.

(+) تنتكنا : أمين القصر - شاهد.

(+) كتبه سانسانوس الكاتب فى اليوم الرابع والعشرين من شهر...

تقع جزيرة تنارى جنوبى الجبلين ، أى أنها فى أرض مصرية. ويقول كروان Kirwan. LP. op cit. P. 87 لا يبعد أن يكون الامبراطور جستنيان أراد أن يتصل بدولة أكسوم ليستعين بها ضد الدولة الحميرية اليهودية باليمن. ورأى أن استخدام البليميين كجنود مرتزقة فى الجيش

البيزنطى يتيح له الفرصة لمد حدود امبراطوريته إلى الحبشة ، فأقطعهم هذه الجزيرة ثمنا لخدماتهم من ناحية، واجتذابهم إلى المسيحية من ناحية أخرى. ويدل رسم الصليب أمام اسمى الشاهدين البليميين على أن المسيحية وصلت إلى هذه الشعبة من البليميين على الأقل، على الرغم من أن الملك البليمى لا يحمل علامة الصليب.

أما امرى .Emery, W. E. op. cit فيرى أن استقرار البليميين فى الجزيرة يدل على ضعف النفوذ البيزنطى فى هذه المنطقة التى أقام فيها البليميون نوعا من الحكم المدنى على حساب البيزنطيين.

ويرى وولى وما سيفر Woolley - Maciver op. cit. p. 96 أن البليميين لم يكونوا مجرد غزاة بل أنهم استقروا فى منطقة طيبة حيث أقاموا حكومة مدنية وأن القوات البيزنطية خضعت لهم واتخذوا من بطليمى قاعدة لهم يرسلون منها قواتهم لإثارة الرعب فى المنطقة التى تقع إلى الشمال من طيبة.

- ٢ -

وثيقة رقم 10761 متحف الآثار المصرى - وهى خاصة بتعيين قسيس لجزيرة تنارى الخاضعة لنفوذ ملك البليميين نقلا عن:

Emery. W. E. : op. cit.

الترجمة العربية:

أنا (+) باكتمن أشهر الملوك. قد عينت باو القسيس المعروف لإدارة جزيرة تمسير المعروفة باسم تنارى. وقد سلمتها إليك من هذا اليوم فصاعدا . وأوافق على ماسطرته عاليه.

كتبه الكاتب أجاثونوس فى اليوم الثالث والعشرين من السنة من السنة الحادية عشرة.

ليس من المعروف تماما تاريخ تحرير هذه الوثيقة. وربما كانت لاحقة للوثيقة السابقة أى حوالى أواخر القرن السادس الميلادى. وموضع الأهمية فى هذه الوثيقة أن ملك البليميين يحمل هنا علامة الصليب. ثم أنه يعين قسيسا على حكم هذه الجزيرة نفسها ويقول كروان .Kirwan, L. P. op. cit. P. 90 إن لفظ IEPEUS ومعناها قسيس، من الألقاب المعتادة فى الوثائق الكنيسة، وتدل الشواهد الداخلية بأن البليميين المستقرين فى هذه المنطقة قد اعتنقوا المسيحية حوالى ذلك الحين (أواخر القرن السادس الميلادى).

ملحق رقم ٤

نقش دندور

في سنة ٥٥٩م حول معبد دندور إلى كنيسة . وقام الملك أرجمنيز بتسجيل هذه المناسبة على جدران هذا المعبد باللغة القبطية وقام على نشره كل من:

Bevillout, : Mem. Sur les Blemmyes, P. 121.

Kraus, J. Die Anfaoge Des Christiontams in Nubien. P. III.

وقد أخذ عنهما كروان Kirwan, L. P. LAAA : op. cit. p. 99.

وبكت Beckett. H. W. ; ASN. Vol. II. Report, 1907 - 8. p. 366

ولاتختلف ترجمة كل من أولئك العلماء لهذا النص كثيراً وفيما يلي ترجمته عن بكت Beckett, H. W. op. cit. p. 366.

الترجمة العربية:

بمشيئة الله وبأمر الملك أرجمنيز (اربانم) ويوسف نائب الملك في تالمس، بعد أن تسلمت الصليب من يد ثيودور أسقف فيلة، قد وضعت أنا ابراهام القسيس المسكين هذا الصليب في اليوم الذى وضع فيه أساس هذه الكنيسة وهو اليوم السابع والعشرين من طوبة من السنة السابعة (٢٣ يناير سنة ٥٥٩م) بحضور (شاى)[١] الخصى وباقنوتى مندوب الملك[٢] وأبيفانس حامل أختام ا لملك وماركوس [٣] البريدى [٤]. وأرجو ممن يقرأون هذه السطور أن يصلوا من أجلى إحساناً منهم.

يشير هذا النقش إلى أن أرجمنيز ملك نوباديا اعتنق المسيحية وأنه أخذ ينشئ الكنائس ويحول المعابد إلى كنائس كذلك بالتعاون مع ثيودور أسقف فيلة. ويدل هذا النقش كذلك على أن نوباديا أضحت بلاداً مسيحية. ومعنى هذا أن البليميين الذين قال بروكوبيوس

(١) ذكر كروان في ترجمته لهذا النص أن اسم الخصى، Shai
Kirwan, L. P. : op. cit. p. 99.

(٢) ذكر بكت هذا اللقب بمعنى Stephor وذكره كروان بمعنى Stepharis مندوب . Ibid. op. Cit.

(٣) ذكر بكت أن اسم هذا الموظف Marcus على حين أن كروان ذكره باسم Sirma

(٤) يقول بكت: إن لقب هذا الموظف Veredarius ، أما كروان فترجمها Courier ، بريدى.

Procopius, op. cit. أنهم حتى ذلك الحين (منتصف القرن السادس الميلادى) كانوا لا يزالون على اوزيريتهم، قد تركوا هذه المنطقة التى عاشوا فيها حوالى قرنين. كما يدل على ذلك نقش سلكو الذى سبق ذكره . ومما يدل على تعاون البيزنطيين مع سلكو على طرد أولئك البليميين من هذه المنطقة أن الدولة عينت إلى جوار ملك نوباديا موظفاً كبيراً يحمل لقب hezarch أو eparch ومقره مدينة كلابشة ويقتسم هذا الموظف السلطة مع ملك نوباديا، نيابة عن الامبراطور البيزنطى . انظر.

Morie. L. J. Histoire de. l' Ethiopie et la Nubie. tome. lere P. 412.

ويشتمل هذا النقش على اسماء عدد من الموظفين يعاونون نائب الملك فى حكم هذه المنطقة. والراجح أن أرجمنيز أول ملك نوبى مسيحى.

راقصتان داخل مربع وزخرفة نباتيه. سجادة قبطيه
من القرن ٩ . متحف اللوفر

ملحق رقم ٥

العهد الذى اعطاه عمرو بن العاص لأهل مصر

وهو يطلق عليه الطبرى «صلح عين شمس»

مأخوذ عن الطبرى، طبعة زوتبرج، الجزء الثالث، ص ٤٩١

«هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم، لا يدخل عليهم شئ من ذلك ولا ينتقص، ولا تساكنهم النوبة.وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح و انتهت زيادة نهرهم، خمسين ألف ألف. وعليهم ما جنى لصوتهم (لصوصهم) فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزية بقدرهم وذمتنا ممن أبى بريئة. وان نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك.ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوبة فله مثل ما لهم وعليهم مثل ما عليهم. ومن أبى منهم واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا. عليهم ما عليهم أثلاثا فى كل ثلث جباية ثلث ما عليهم. على مافى هذا الكتاب عهد ا الله وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين و ذمم المومنين. وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً وكذا فرساً على ألا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة» وشهد عليه الزبير وعبد الله ومحمد أبناه وكتب وردان وحضر.

ملحق رقم ٦

عهد عبد الله بن سعد بن أبى سرح لعظيم النوبه

مأخوذ عن المقريزى . المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار

طبعة بولاق الجزء الأول ص ٧٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم. عهد من الأمير عبد الله بن سعد بن أبى سرح لعظيم النوبة، ولجميع أهل مملكته.عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة من حد أرض أسوان إلى حد أرض علوة. أن عبد الله بن سعد جعل لهم أمانا وهدنة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاورهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة. أنكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد النبى صلى الله عليه وسلم. أن لا نحاربكم ولا ننصب لكم حربا ولا نغزوكم ما أقمتم على الشرائط التى بيننا وبينكم، على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه، وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه، وعليكم حفظ من نزل بلدكم أو يطرقه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم. وأن عليكم رد كل آبق خرج إليكم من عبيد المسلمين حتى تردوه إلى أرض الإسلام، ولا تستولوا عليه ولا تمنعوا منه. ولا تتعرضوا لمسلم قصده وجاوره إلى أن ينصرف عنه. وعليكم حفظ المسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم. ولا تمنعوا منه مصليا. وعليكم كنسه واسراجه وتكرمته. وعليكم فى كل سنة ثلثمائة وستون رأسا تدفعونها إلى إمام المسلمين من أوسط رقيق بلادكم غير المعيب، يكون فيها ذكران واناث، ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم، تدفعون ذلك إلى والى أسوان. وليس على مسلم دفع عدو عرض لكم ولا منعه عنكم، من حد أرض علوة إلى أرض أسوان. فإن أنتم آويتم عبدا لمسلم أو قتلتم مسلما أو معاهدا، أو تعرضتم للمسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم ، أو منعتم شيئاً من الثلثمائة رأس والستين رأسا، فقد برئت منكم هذه الهدنة والأمانة ، وعدنا نحن وأنتم على سواء حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين. علينا بذلك أعظم ما تدينون به من ذمة المسيح وذمة الحواريين وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وملتكم. الله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك.

كتبه عمرو بن شرحبيل فى رمضان سنة إحدى وثلاثين.

ملحق رقم ٧

البقط حسبما ورد فى كتب المؤلفين العرب

مأخوذ عن البلاذرى: فتوح البلدان

نشره، De Goeje طبعة ليدن ١٨٦٦م

(٣٦٦)... لما فتح المسلمون مصر بعث عمروبن العاص إلى القرى التى حولها الخيل ليطأهم فبعث عقبة بن نافع الفهرى - وكان نافع أخا العاصى لأمه - فدخلت خيولهم أرض النوبة كما تدخل صوائف الروم، فلقى المسلمون بالنوبة قتالا شديدا. لقد لاقوهم فرشقوهم بالنبل حتى جرح عامتهم فانصرفوا بجراحات كثيرة وحدق مفقودة فسموا رماة الحدق. فلم يزالوا على ذلك حتى ولى مصر عبد الله بن سعد بن أبى سرح فسألوه الصلح والموادعة فأجابهم إلى ذلك على غير جزية، لكن على هدنة ثلثمائة [رأس] فى كل سنة وعلى أن يهدى المسلمون إليهم طعاما بقدر ذلك... حدثنى محمد بن سعد، قال: حدثنى الواقدى، قال حدثنا ابراهيم بن جعفر عن عمر بن الحرث عن أبى قبيل حيى بن هانئ العافرى عن شيخ محمد حميد . قال شهدت النوبة مرتين فى ولاية عمر بن الخطاب، فلم أرقوما أحد فى حرب منهم. لقد رأيت أحدهم يقول للمسلم أين تحب أن أضع سهمى منك فربما عبث الفتى منا فقال فى مكان كذا فلا يخطئه. كانوا يكثرون الرمى بالنبل فما يكاد يرى من نبلهم فى الأرض شئ. فخرجوا إلينا ذات يوم فصافونا ونحن نريد أن نجعلها حملة واحدة بالسيوف فما قدرنا على معاملتهم. رمونا حتى ذهبت الأعين فعدت مائة وخمسين عينا مفقودة والهاولاء خير من الصلح. إن سلبهم لقليل وإن نكاتهم لشديدة . فلم يصالحهم . قال عبد الله بن صالح عن أبى لهيعة عن يزيد بن حبيب قال: ليس بيننا وبين الأساود عهد ولا ميثاق، إنما هى هدنة بيننا وبينهم على أن نعطيهم شيئاً من قمح وعدس ويعطونا رقيقا فلا بأس بشراء رقيقهم منهم أو من غيرهم. حدثنا أبو عبيد الله عن عبد الله بن صالح عن الليث بن سعد قال: إنما الصلح بيننا وبين النوبة على ألا نقاتلهم ولا يقاتلونا وأن يعطونا رقيقا ونعطيهم بقدر ذلك طعاما. فإن باعوا نساءهم وأبناءهم لم أر بذلك بأسا أن يشترى.

ومن رواية البحترى وغيره أن عبد الله بن سعد بن أبى سرح صالح أهل النوبة على أن

يهدوا في السنة أربعمائة رأس يخرجوا بها يأخذون بها طعاما. وكان المهدى أمير المؤمنين أمر بالزام النوبة في كل سنة ثلثمائة رأس وستين رأسا وزرافة على أن يعطوا قمحاً وخل [1] وخمر [2] وثيابا وفرشا أو قيمته.. وقد ادعوا حديثا أنه ليس يجب عليهم البقط لكل سنة وأنهم كانوا طولبوا بذلك في خلافة المهدى فرفعو إليه أن هذا البقط مما يأخذون من رقيق أعدائهم فإذا لم يجدوا منه شيئا عادوا على أولادهم فأعطوا منهم فيه بهذه العدة، فأمر بأن يحملوا في ذلك على أن يؤخذ منهم لكل ثلث سنين بقط سنة. ولم يوجد لهذه الدعوى ثبت في دواوين الحضرة ووجد في الديوان بمصر.

---

(١) وخلا.

(٢) وخمرا.

ملحق رقم ٨

هجرة القبائل العربية إلى مصر، ومنها إلى السودان (١)

أولا : القبائل القحطانية:

بنوجـذام: سكن بنو جذام الحوف منذ الغزو العربى لمصر حتى سنة ١٤٠٠م، ومنهم بنو عقبة الذين انفصلوا عن بقية الجذاميين ليلحقوا بنى هلال فى شمال أفريقيا. وقد اضمحل شأن جذام زمن صلاح الدين (١١٧١م) وحلت محلها طئ.

بنوطئ: هبط بنوطئ مصر عقب الغزو العربى لها بنحو قرنين أو ثلاثة، وسكنوا جهات الدلتا المختلفة، حيث لحق بهم عدد كبير من أهليهم. ومن طئ بنو ثعلبة.

بلي: ان بلى فروع من قضاعة من حمير، جاءوا مصر مع الغزو العربى. وقد قام نزاع بينهم وبين جهينة ثم تم الصلح بينهما. واستقرت بلى فى صحراء عيذاب وسكن بعضهم جهات إخميم.

جهينة: سكنت جهينة جنوبى ينبع، ثم دخلوا مصر مع الفتح، واشتركوا مع ربيعة فى حملة العرب على البجا حوالى منتصف القرن التاسع الميلادى وانتقل معظمهم إلى الصعيد واشتركوا فى الحملات على النوبة.

لخـم: فرع من طئ، أسسوا مملكة الحيرة سنة ٢٨٦م ونشب نزاع بينهم وبين غسان وبنى بكروبنى تميم وغيرهم من عرب سوريا. واعتنقوا المسيحية فى نهاية القرن الخامس الميلادى وانتهى حكمهم بالحيرة عقب ظهور الإسلام . ومن بطون لخم، يشكر الذين جاءوا مع الغزو العربى لمصر واستقروا فى الجبل الذى يعرف باسمهم (جبل يشكر) ثم لحقت بهم بطون أخرى فى القرنين السابع والثامن الميلاديين. واستقروا حول الإسكندرية. وفى القرنين الرابع عشر والخامس عشر استقر كثير من بطون لخم فى إقليم الصعيد.

ثانيا : القبائل العدنانية:

كنانة وقريش: ومن هؤلاء أولاد عدى بن كعب وبنو مخزوم وبنوامية وبنو العباس

---

(١) ملخصة عن MacMichael. H. A. : A Hist. of the Arabs in the Sudan, I. PP. 133 - 150.

MacMichael. H. A. " The Coming of the Arabs to the Sudan, AESW. PP. 42 - 46.

وغيرهم. وجاءت إلى مصر أعداد كبيرة منهم مع الغزو العربى لها. والمعروف أن معظم ولاة مصر كانوا من قريش. سكن كثير منهم الصعيد بجوار عرب جهينة . وفى نهاية القرن العاشر غادر جماعة من سلالة جعفر بن أبى طالب مكة واستقروا فى مصر - بين قوص وأسوان - حيث عرفوا باسم الأشراف الجعافرة.

قيس عيلان: استقدم عبد الله بن الحبحاب صاحب الخراج فى مصر سنة ٧٣٧م أعداد وفيرة من قيس عيلان الذين يسكنون نجد، ومنح بعض عائلاتهم أرضا حول بلبيس، وجمعوا ثروة طائلة من نقل المتاجر بين البحر وداخل البلاد، ولهذا لحق بهم عدد كبير من أقاربهم حتى بلغ عددهم فى عام واحد ١٥٠٠ أسرة معظمهم من بنى سليم، وهم بطن من قيس عيلان، وقد قام هؤلاء بعدة ثورات لم تقتصر على أقليم الحوف، بل امتد شررها حتى شمل معظم جهات الدلتا (٨٠٢ - ٨٠٨م).

فـزارة: ينسب إلى فزارة معظم رعاة الإبل غربى النيل الأبيض، وكانوا يمثلون أيام الغزو العربى لمصر شعبة مستقلة عن غطفان. وعلى هذا فإنهم يرجعون إلى قيس عيلان. كانوا ينزلوا حول مكة. ثم هاجرت جماعات منهم إلى مصر فى القرن السابع الميلادى، ولحق بهم أقاربهم فى القرن الحادى عشر الميلادى، مع بنى هلال.

بنو هلال وبنو سليم: وهم فرع من قيس عيلان، وتشمل بطوناً من هوازن وعكرمة. انفصل بنو هلال عن القبيلة الأصلية فى زمن متقدم. وفى بداية القرن السابع كانوا يسكنون مع أقاربهم بنى سليم قرب الطائف. ولما ضعف نفوذ الفاطميين فى بلاد المغرب، أصدر المستنصر بالله سنة ١٠٤٩م أمراً لبنى هلال بالزحف على بلاد المغرب للقضاء على الروح الانفصالية فيها. وفى سنة ١٠٥١م نزح كثير من بنى هلال وبنى سليم وبنى قيس، ومعهم بنوقرة ، إلى شمال أفريقيا، وغزوا تونس وطرابلس، وحتى زمن ابن خلدون ١٣٣٢ - ١٤٠٥م وكذلك ليو الأفريقى ١٥٥٣م، ولم نعد نسمع عن بنى هلال شيئاً فى بلاد المغرب، وبدأنا نسمع عن وجودهم فى الجنوب ولاسيما بعد حملة السلطان قلاون على دنقلة سنة ١٢٨٧م. ويذكر ابن خلدون أنهم يسكنون صعيد مصر. ويذكر المقريزى أنهم كثيرون حول أسوان وفى الصحراء الشرقية حتى عيذاب وهناك من الأدلة ما يثبت أن من بنى هلال من نزح إلى السودان.

ربيعة وبنو كنز: إن الوطن الأصلي لربيعة في الحجاز ومرتفعات نجد وتهامة. هاجر كثير من عرب ربيعة إلى بلاد الجزيرة في القرن الخامس الميلادى حيث اعتنقوا المسيحية في القرن السابع الميلادى. وفي سنة ٨٥٤م بدأت هجرتهم الكبرى إلى مصر ثم اندفعوا جنوباً واستقر عدد كبير منهم حول أسوان وشمال النوبة، وانضموا إلى جهينة في حملاتهم ضد البجة. واستقر كثير منهم في أرض البجة للعمل في المعادن. كان زعيمهم في هذا العهد (القرن التاسع الميلادى) إسحاق بن بشر. ثم انتقلت الزعامة إلى أبي يزيد بن إسحاق الذى فضل الإقامة في أسوان. وبهذا انتقل مركز القبيلة من العلاقي إلى أسوان حيث اختلطوا بالنوبيين وتزوجوا من بنات رؤسائهم، فأضحت لهم مصالح مادية في بلاد النوبة. ومن هؤلاء بنو كنز وهم من ربيعة. عرفوا بهذا الاسم زمن الحاكم بأمر الله الفاطمي. ولهؤلاء يرجع الفضل في تعريب بلاد النوبة الشمالية تعريباً جزئياً. ولعبوا دوراً خطيراً في إسقاط مملكة النوبة المسيحية «مقرة» ثم اندمجوا اندماجاً تاماً في النوبيين. وهم الذين يعرفون في الوقت الحاضر باسم الكنوز، ويمتد وطنهم من أسوان إلى كرسكو.

ملحق رقم ٩
عهد عبد الله بن الجهم لكنون بن عبد العزيز
عظيم البجة بأسوان

منقول عن المقريزى: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار.

طبع بولاق ص ١٩٥ - ١٩٦.

هذا كتاب كتبه عبد الله بن الجهم، مولى أمير المؤمنين، صاحب جيش الغزاة، عامل الأمير أبى اسحق بن أمير المؤمنين الرشيد أبقاه الله فى شهر ربيع الأول سنة ست عشرة ومايتين، لكنون بن عبد العزيز عظيم البجة بأسوان، انك سألتنى وطلبت إلى أن أؤمنك وأهل بلدك من البجة، وأعقد لك ولهم أمانا على وعلى جميع المسلمين، فأجبتك إلى أن عقدت لك وعلى جميع المسلمين أمانا ما استقمت واستقاموا على ما أعطيتنى، وشرطت لى فى كتابى هذا وذلك أن يكون سهل بلدك وجبلها من منتهى حد أسوان من أرض مصر إلى حد ما بين دهلك وباضع ملكا للمأمون عبد الله بن هرون أمير المؤمنين أعزه الله تعالى. وأنت وجميع أهل بلدك عبيد لأمير المؤمنين، إلا أنك تكون فى بلدك ملكا على ما أنت عليه فى البجة، وعلى أن تؤدى إليه الخراج فى كل عام على ما كان عليه سلف البجة. وذلك مابة من الإبل أو ثلثمائة دينار وازنة داخلة فى بيت المال، والخيار فى ذلك لأمير المؤمنين ولولاته، وليس لك أن تخرم شيئاً عليك من الخراج، وعلى أن كل أحد منكم إن ذكر محمدا رسول الله (صلعم) وكتاب الله أو دينه بما لا ينبغى أن يذكره به، أو قتل أحدا من المسلمين حرا أوعبدا، فقد برئت منه الذمة، ذمة الله وذمة رسوله (صلعم) وذمة أمير المؤمنين أعزه الله، وذمة جماعة المسلمين، وحل دمه كما يحل دم أهل الحرب وذراريهم، وعلى أن أحدا منكم إن أعان المحاربين على أهل الإسلام بمال ، أو دله على عورة من عورات المسلمين، أو أثر لعزتهم، فقد نقض ذمة عهده وحل دمه، وعلى أن أحداً منكم إن قتل أحدا من المسلمين عمدا أو سهوا أو خطأ حرا وعبد أو أحدا من ذمة المسلمين، أو أصاب لأحد من المسلمين أو أهل ذمتهم مالاً ببلد البجه، أو ببلاد الإسلام، أو ببلاد النوبة أو من شئ من البلدان براً أو بحراً، فعليه فى قتل المسلم عشر ديات، وفى قتل العبد المسلم عشر قيم وفى قتل الذمى عشر ديات من دياتهم، وفى كل مال أصبتموه للمسلمين وأهل الذمة عشرة أضعاف. وان دخل أحد من المسلمين بلاد البجة تاجراً، أو مقيما،

أو مجتازا، أو حاجا، فهو آمن فيكم كأحدكم حتى يخرج من بلادكم، ولا تؤوا أحدا من آبقي المسلمين، فان أتاكم آت فعليكم أن تردوه إلى المسلمين. وعلى أن تردوا أموال المسلمين إذا صارت في بلادكم بلا مؤنة تلزمهم في ذلك، وعلى أنكم إذا نزلتم ريف صعيد مصر لتجارة أو مجتازين لا تظهرون سلاحا ولا تدخلوا المداين والقرى بحال، ولا تمنعوا أحدا من المسلمين الدخول في بلادكم والتجارة فيها برا ولا بحرا، ولا تخيفوا السبيل ولا تقطعوا الطريق على أحد من المسلمين ولا أهل الذمة، ولا تسرقوا لمسلم ولا ذمي مالا، وعلى ألا تهدموا شيئا من المساجد التي ابتناها المسلمون بصحن [مدينة] هجر وسائر بلادكم طولا وعرضا، فان فعلتم ذلك فلا عهد لكم ولا ذمة. وعلى أن كنون بن عبدالعزيز يقيم بريف صعيد مصر وكيلا يفي للمسلمين بما شرط للمسلمين من دفع الخراج، ورد ما أصابه البجه للمسلمين من دم ومال. وعلى أن أحدا من البجه لا يعترض حد القصر إلى قرية يقال لها قبان من بلد النوبة حد الاعمدة. عقد عبد الله بن الجهم مولى أمير المؤمنين لكنون بن عبد العزيز كبير البجه الأمان على ما سمينا وشرطنا في كتابنا هذا، وعلى أن يوافي به أمير المؤمنين فإن زاغ كنون أو عاث فلا عهد له ولا ذمة، وعلى كنون أن يدخل عمال أمير المؤمنين بلاد البجه لقبض صدقات من أسلم من البجة ، وعلى كنون الوفاء بما شرط لعبد الله بن الجهم وأخذ بذلك عهد الله عليه بأعظم ما أخذ على خلقه من الوفاء والميثاق. ولكنون بن عبد العزيز ولجميع أهل البجه عهد الله وميثاقه، وذمة الأمير أبي اسحق بن أمير المؤمنين الرشيد وذمة عبد الله بن الجهم وذمة المسلمين بالوفاء بما أعطاه عبد الله بن الجهم ماوفي كنون بن عبد العزيز بجميع ما شرط عليه. وإن غير كنون أو بدل أحد من البجه فذمة الله جل اسمه وذمة أمير المؤمنين وذمة الأمير أبي اسحاق أمير المؤمنين الرشيد وذمه عبد الله بن الجهم وذمة المسلمين بريئة منهم. وترجم جميع مافي هذا الكتاب حرفا حرفا زكريا بن صالح المخزومي من سكان جده وعبد الله بن اسماعيل القرشي، ثم نسخه جماعة من شهود أسوان.

ملحق رقم ١٠

مناجم الذهب والزمرد باوطان البجه

عن اليعقوبين كتاب البلدان. نشردى خوية، ليدن ١٨٩١م.

ص ٣٣٠، ٣٣٥.

... ومن قفط تسلك إلى معدن الزمرد، وهو معدن يقال له خربة الملك على ثمان رحلات من مدينة قفط وفيه جبلان يقال لأحدهما العروس وللآخر الخصوم فيهما معادن الزمرد، وفيه موضع يقال له كوم الصابونى وكوم مهران ومكابر وسفسيد. وكل هذه معادن يوجد فيه الجوهر وتسمى الحفائر التى يخرج منها الجوهر شيم، واحدتها شيمة. وكان بها معدن قديم يقال له سر وحيط وهو معدن كان فى الجاهلية وكذلك معدن سابر. ومن المعدن الذى يقال له خربة الملك إلى جبل صاعد وهو معدن تبر مرحلة، وإلى الموضع الذى يقال له الكلبى، وموضع يقال له الشكرى وموضع يقال له العجلى، وموضع يقال له العلاقى الأدنى، وموضع يقال له الريفة وهو ساحل بحر خربة الملك. ولك هذه معادن تبر. ومن الخربة إلى معدن يقال له رحم معدن تبر ثلاث مراحل، وبرحم قوم من بلى وجهينة وغيرهم من أخلاط الناس يقصدون للتجارات، فهذه معادن الجوهر وما يتصل بها من معادن التبر القريبة. ثم مدينة أسوان العظمى وبها تجار المعادن وهم فى الجانب الشرقى من النيل.. ومن أراد المعادن معادن التبر خرج من أسوان إلى موضع يقال الضيقة بين جبلين، ثم البويب ثم البيضة، ثم بيت ابن زياد، ثم عذيفر ثم جبل الأحمر ثم جبل البياض ثم قبر أبى مسعود ثم عفار ثم وادى العلاقى. وكل هذه المواضع معادن التبر يقصدها أصحاب المطالب.. ووادى العلاقى كالمدينة العظيمة به خلق من الناس وأخلاط من العرب والعجم أصحاب المطالب، وبها أسواق وتجارات. وشربهم من آبار تحفر فى وادى العلاقى. وأكثر من بالعلاقى قوم من ربيعة من بنى حنيفة من أهل اليمامة انتقلوا إليها بالعيالات والذرية. ووادى العلاقى وماحواليه معادن للتبر وكل ما قرب منه يعتمل فيه الناس. لكل قوم من التجار وغير التجار عبيد سودان يعملون فى الحفر ثم يخرجون التبر كالزرنيخ الأصفر، ثم يسبك. ومن العلاقى إلى موضع يقال له الجبل مرحلة، ثم إلى موضع يقال له ؟ ثم إلى موضع يقال له كعار يجتمع الناس به لطلب التبر، وبه قوم من أهل اليمامة من ربيعة. ومن العلاقى إلى معدن يقال له بطن داح مرحلة. من العلاقى إلى موضع

يقال له أعماد مرحلتان، والى معدن يقال له ماء الصخرة مرحلة، والى معدن يقال له الأخشاب مرحلتان، والى معدن يقال له ميزاب تنزله بلى وجهينه أربع مراحل، والى معدن يقال له عربة بطحا مرحلتان، ومن العلاقى إلى عيذاب أربع مراحل. وعيذاب ساحل البحر المالح يركب الناس منه إلى مكة والحجاز واليمن ويأتيه التجار فيحملون التبر والعاج وغير ذلك في المراكب. ومن العلاقي إلى بركان وهي آخر معادن التبر التي يصير إليها المسلمون ثلثون مرحلة. ومن العلاقي إلى موضع يقال له دح ينزله قوم من بنى سليم وغيرهم من مضر عشر مراحل. من العلاقي إلى موضع يقال له السنطة وبه قوم من مضر وغيرهم عشر مراحل. ومن العلاقي إلى موضع يقال له الرفق عشر مراحل . ومن العلاقي إلى معدن يقال له سخيت عشر مراحل. فهذه المعادن التى يصل إليها المسلمون ويقصدونها لطلب التبر.

ملحق رقم ١١

شراء العرب أراض بالنوبه

منقول عن المسعودى: مروج الذهب، نشر دى مينار ودى كورتل .

باريس ١٨٦٦ - ١٨٧٧م ج٣، ص ٤٢ - ٤٣ .

ولمن بأسوان من المسلمين ضياع كثيرة داخلة في أرض النوبة، يؤدون خراجها إلى ملك النوبة. ابتيعت هذه الضياع من النوبة فى صدر الزمان فى دولة بنى أمية وبنى العباس. وقد كان ملك النوبة استعدى إلى المأمون حين دخل مصر على هؤلاء القوم بوفدهم إلى الفسطاط، ذكروا عنه أن أناسا من مملكته وعبيده. باعوا ضياعا من ضياعهم لمن جاورهم من أهل أسوان وأنها ضياعه والقوم عبيده ولا أملاك لهم، وانما تملكهم على هذه الضياع تملك العبيد العاملين فيها. فرد المأمون أمرهم إلى الحاكم بمدينة أسوان ومن بها من الشيوخ وأهل العلم. وعلم من ابتاع هذه الضياع أنها ستنزع من أيديهم، فاحتالوا على ملك النوبة بأن تقدموا إلى من ابتيع منهم من النوبة، أنهم إذا حضروا إلى حضرة الحاكم ألا يقروا لملكهم بالعبودية، وأن يقولوا سبيلنا معاشر المسلمين سبيلكم مع ملككم، يجب علينا طاعته وترك المخالفة له. فان كنتم أنتم عبيد لملككم وأموالكم له فنحن كذلك. فلما جمع بينهم الحاكم وبين صاحب الملك أتوا بهذا الكلام أو نحوه مما وقفوا عليه من هذا المعنى ، فمضى البيع لعدم إقرارهم بالرق لملكهم إلى هذا الوقت. وتوارث الناس تلك الضياع بأرض النوبة من بلاد مريس.وصار النوبة أهل مملكة هذا الملك في نوعين، نوع ممن وصفنا أحرار غير عبيد والنوع الآخر من أهل مملكته عبيد وهم من سكن بالنوبة فى غير هذه البلاد المجاورة لأسوان وهى بلاد مريس.

ملحق رقم ١٢

التجاء فلول الأمويين إلى بلاد النوبه وبلاد البجه

عن المسعودى: كتاب التنبيه والإشراف.

تشر دى خويه، ليدن، ١٨٩٧. ص ٣٢٩ - ٣٣٠.

لما قتل مروان بن محمد بن مروان، تفرقت بنو أمية فى البلاد هربا بأنفسهم وقد كان عبد الله بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، قتل منهم على نهر أبى فطرس من بلاد فلسطين نحوا من ثمانين رجلا مثلة، واحتذى أخوه داود بن على بالحجاز فعله. فقتل منهم نحوا من هذه العدة بأنواع المثل. وكان مع مروان حين قتل ابناء عبد الله وعبيد الله وكانا ولى عهده، فهربا فيمن تبعهما من أهلهما ومواليهما وخواصهما من العرب ومن انحاز إليهم من أهل خراسان من شيعة بنى أمية، فساروا إلى أسوان من صعيد مصر، وساروا على شاطئ النيل إلى أن دخلوا أرض النوبة وغيرهم من الأحابش، ثم توسطوا أرض البجة ميممين باضع من ساحل بحر القلزم، فكانت لهم مع من مروا به من هذه الأمم حروب ومغادرات، ونالهم جهد شديد وصبر عظيم، فهلك عبيد الله ابن مروان فى عدة من كان معهم قتلاوعطشا وضرا. وشاهد من بقى منهم أنواع الشدائد وضروب العجائب. ووقع عبد الله بن مروان فى عدة ممن نجا معه إلى باضع من ساحل المعدن وأرض البجة، وقطع البحر إلى جده من ساحل مكة، وتنقل فيمن نجا معه من أهله ومواليه فى البلاد متسترين راضين أن يعيشوا سرقة بعد أن كانوا ملوكا، فظفر بعبد الله أيام أبى العباس السفاح. فأودع السجن، فلم يزل فيه بقية أيام أبى العباس وأيام المنصور والمهدى والهادى، فأخرجه الرشيد وهو شيخ ضرير فسأله عن خبره فقال يا أمير المؤمنين حبست غلاما بصيرا وأخرجت شيخا ضريرا.

ملحق رقم ١٣

رسالة ملك الحبشة إلى جورج ملك النوبه للتدخل لإعادة العلاقات بين كنيسة الحبشة والكنيسة المرقسية

من حياة البطريرك فيلاتاوس وهو من العدد الثالث والستون ٩٧٠ - ٩٩٥م

عن تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المعروف بسير البيعة.

المقدسة لساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين.

الجزء الثالث

وفي أيامه (البطريرك فيلاتاوس) أنفذ ملك الحبشة إلى ملك النوبة كتابا، واسمه جرجس، وعرفه ما أدبه الرب به هو وأهل كورته وهو، أن امرأة ملكة على بني الهموية ثارت عليه وعلى كورته وسبت منها خلق كثير وأحرقت مدن كثير وأخربت البيع وطردته من مكان إلى مكان وأن هذا الذى لحقه جزى (جزاء) عما كان الملك الذى قبله فعله مع المطران في أيام الأب انبا قزما (قسما) مما قد شرحناه أولا من تزويره وكذبه، وقال له في الكتاب الذى أنفذه له: أحب أن تساعدنى وتشاركنى في التعب منجل (من أجل) الله ومن أجل اتفاق الأمانة، وتكتب كتاب من جهتك إلى الأب البطرك بمصر تسله أن يحللنا ويحلل بلادنا ويصلى علينا ليزيل الله عنا وعن أرضنا هذا البلا وينعم لنا بأن يقسم لنا مطران كما جرت عادة ابائنا ويدعى لنا بأن يزيل الله غضبه عنا. وذكرت لك أيها الاخ ذلك خوفا من ان ينقرض ويبطل دين النصرانية من عندنا لان هو ذا ستة بطاركه قد جلسو ولم يلتفتو إلى بلادنا بل هي ساية بلا راعى، وقد ماتو أساقفتنا وكهنتنا، وقد خربت البيع وعلمنا أنه بحكم حق نزل علينا هذا البلا عوضا مما فعلناه بالمطران. فلما وصلت الكتب إلى جرجس ملك النوبة ووقف عليها أنفذ من جهته كتبا ورسلا إلى البطرك فيلاتاوس وشرح له فيها جميع ما ذكره ملك الحبشة وساله ان يتراف على شعبه فاجاب سواله ورسم لهم راهبا من دير أبو مقار اسمه دانيال وانفذه لهم مطرانا فقبلوه بفرح وازال الله عنهم الغضب وابطل امر الامراة التى قامت عليهم.

ملحق رقم ١٤

نص اليمين التى حلف عليها مشكد ملك النوبه الجديد بدنقله للظاهر بيبرس بعد فتح المماليك لتلك البلاد سنة ١٦٧٤هـ (١٢٧٥م)

وهو منقول من النويرى (نهاية الأرب، جـ٢٨. ورقة ١٠٩. صورة شمسية بدار الكتب المصرية معارف عامة رقم ٥٤٩ وقد صحح وقوبل على النص الوارد فى ملحق رقم ٥ من كتاب السلوك جـ١ القسم الثالث ص ٩٧٣ - ٩٧٤ نشره الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة.

والله ! والله ! والله! وحق الثالوث المقدس، والانجيل الطاهر والسيدة الطاهرة العذراء أم النور والمعمودية، والأنبياء والمرسلين والحواريين والقديسين والشهداء الأبرار، والا أجحد المسيح كما جحده يودس، وأقول فيه ما يقول اليهود واعتقدما يعتقدونه، والا أكون يودس الذى طعن المسيح بالحربة، إننى اخلصت نيتى وطويتى من وقتى هذا وساعتى هذه للسلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس وانى أبذل جهدى وطاقتى فى تحصيل مرضاته، وانى مادمت نائبه لا أقطع ما قرر على فى كل سنة تمضى، وهو ما يفضل من مشاطرة البلاد على ما كان يتحصل لمن تقدم من ملوك النوبة، وأن يكون النصف من المتحصل للسلطان مخلصا من كل حق، والنصف الآخر أرصده لعمارة البلاد وحفظها من عدو يطرقها وأن يكون على كل سنة من الأفيلة ثلاثة،ومن الزرفات ثلاث، ومن إناث الفهود خمس، ومن الصهب الجياد مائة، من الأبقار الجياد المنتخبة أربعمائة، وانني أقرر على كل نفر من الرعية الذين تحت يدى فى البلاد من العقلاء البالغين ديناراً عينا، وأن يفرد بلاد العلى والجبل خالصاً للسلطان. وأنه مهما كان لداود ملك النوبة ولأخيه سنكوا ولأمه وأقاربه، ومن قتل من عسكره بسيوف العساكر المنصورة، أحمله إلى الباب العالي مع من يرصد لذلك. وأننى لا أترك شيئا منه قل ولا جل ولا أخفيه، ولا أمكن أحداً من إخفائه. ومتى خرجت عن جميع ما قررته أوشئ من هذا المذكور أعلاه، كنت بريئا من الله تعالى ومن المسيح ومن السيدة الطاهرة وأخسر دين النصرانية، وأصلى إلى غير الشرق، وأكفر بالصليب، واعتقد ما تعتقد اليهود. وأنى لا أترك أحداً من العربان ببلاد النوبة،ومن وجدته منهم أرسلته إلى الباب السلطاني. ومهما سمعت من الأخبار السارة والنافعة طالعت به السلطان فى وقته وساعته، ولا أنفرد بشئ من الأشياء إذا لم تكن مصلحة. وانني ولي من والى السلطان وعدو من عاداه والله على ما نقول شهيد.

ملحق رقم ١٥

نص اليمين التى حلف عليها النوبيون بطاعة السلطان بيبرس ونائبه فى حكم النوبه وهو الملك مشكد (شكنده)

منقول من النويرى: نهاية الأرب، الجزء ٢٨ ، مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية، معارف عامة، رقم ٥٤٩، ص ١٠٩

وكل نايب يكون للسلطان أطيعه، ولا أرى عليه بردئ، ولا أخبئ عنه مصلحة. وكل ما أسمعه من الأخبار الجيدة والردية أطالع نايبه به. ومتى علمت على نايب الملك مشكد أمراً يخالف المصلحة، لا أطيعه فيه وأطالع السلطان به في الوقت والساعة . وأننى لا أدخل فى حكم داود، ولا أكون معه، ولا أطالعه بخبر من الأخبار، ولا أرتضى به ملكا. ورضيت بأن أقوم بدينار عينا فى كل سنة خالية على

ملحق رقم ١٦
حملة السلطان الناصر محمد بن قلاون على العربان ببرية عيذاب: توغل الحملة فى أرض البجه وبلاد علوه وعودتها إلى مصر عن طريق دنقله
سنة ٧١٦هـ - ١٣٢٢م

منقولة من النويرى: نهاية الأرب، مخطوطة بدار الكتب المصرية.
صورة شمسية، معارف عامة رقم ٥٤٩ - جزء ٣٠.
ص ٩٦ - ٩٨.

(ص٩٦) وفي سنة ست عشرة وسبعمائة أمر السلطان بتجريد جماعة من العسكر إلى جهة الصعيد، أن يتوجهوا خلف العرب حيث كانوا من البرية. فجرد الأمير علاء الدين مغلطاى أمير مجلس، وهو المقدم على الجيش، وهو من جملة مقدمى الألوف، والأمير عز الدين أيدمر الدوادار، والأمير علم الدين سنجر الدمشيرى، والأمير علاء الدين على بن الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى، والأمير سيف الدين بهادر النقوى، والأمير سيف الدين الدمياطى، والأمير صارم الدين الجرمكى، والأمير سيف الدين طقصبا متولى الأعمال القوصية والأخميمية، وسبعة من مقدمى الحلقة المنصورية، وتوجهوا في نحو خمسمائة فارس. وكان رحيلهم من القاهرة في يوم الأربعاء العشرين من شوال من السنة. وكان سبب ذلك أن العربان ببرية عيذاب قطعوا الطريق على رسول اليمن الواصل إلى الأبواب السلطانية وأخذوا ما كان معه من التقادم ومن رافقه من غلمانه التجار. والذى حملهم على ذلك الأمير سيف الدين طقصبا متولى الأعمال القوصية اعتقل فياضا أمير هذه الطائفة من العرب، فحملت أصحابه الحمية على فعل ذلك. فلما اتصل فعلهم بالأبواب السلطانية، جرد هذا العسكر فى طلبهم. (٩٧) و رسم أن يتوجهوا إلى مدينة قوص ويتوجهوا منها إلى البرية ويتبعوا العرب حيث كانوا. فأخبرنى الأمير عز الدين الدوادار أحد الأمراء الذين توجهوا، وهو الثقة فى أخباره، أنهم توجهوا فى التاريخ المذكور حتى انتهوا إلى مدينة قوص، فأقاموا بظاهرها خمسة وخمسين يوماً. وفى مدة مقامهم توجه متولى الأعمال والأمير صارم الدين الجرمكى إلى البرية ليجتمعا بالعربان فى رد ما أخذوه من الأموال ومراجعة الطاعة. فاجتمعا بهم ولم يهنا بالموافقة على ما

أرادوا. ولما توجها طولع السلطان بتوجههما، وأن العسكر تأخر لقلة الظهر وسعة البرية وقلة الماء. وجهز بذلك الأمير بدر الدين بكتمر الحسامي أحد مقدمي الحلقة المنصورية.

فلما وصل إلى الأبواب السلطانية حصل من السلطان الإنكار الشديد بسبب تأخر العسكر عن دخول البرية، فعندها توجه العسكر من مدينة قوص في القمر الأول من المحرم سنة سبع عشرة وسبعمائة، ودخلوا إلى البرية، فانتهوا إلى ثغر عيذاب خمسة عشر يوماً. واجتمع العسكر بالأمير بن سيف الدين طقصبا وصارم الدين الجمركي بعيذاب، وأقاموا بها اثنى عشر يوماً. وكان متولي الأعمال قد استصحب معه فياضا أمير العرب الذى كانت الفتنة بسبب اعتقاله، ثم دخل الجيش من ثغر عيذاب، وساروا حتى انتهوا إلى سواكن في إثنى عشر يوماً يسلكون بين الجبال والأدغال. وحصل لهم ضرر كبير بسبب المياه وقلتها حتى كادوا يهلكون في ماء منها يقال له ديكام . فإن العربان كانوا قد غوروا المياه أمام العسكر، فأقام الجيش أربعة أيام، ووصل إلى ذلك الماء في اليوم الخامس، فوجدوا قفاراً واحداً وهو متغير اللون والطعم والريح. فبينما هم كذلك إذ قدمت كشافة العسكر، وكانوا قد قدموا من يستقرى لهم خبر تلك الجبال. فدخلوا من هناك وقت المغرب، وانتهوا إلى مياه قد اجتمعت من الأمطار فأقاموا بها بقية تلك الليلة إلى نصف النهار من اليوم الثانى وحملوا منها وارتحلوا، حتى انتهوا إلى سواكن ، فخرج إليهم متملكها بالطاعة والانقياد إلى أوامر السلطان، وقرر على نفسه قطيعة يحملها إلى الأبواب السلطانية في كل سنة وهي من الرقيق ثمانون رأساً ومن الجمال ثلثمائة رأس ومن العاج ثلثون قنطارا. واستقر بسواكن نيابة عن السلطان، وأقام العسكر بسواكن ستة أيام، واستصحب معه أولاد مهنا. وكان فضل أحد مقدمي العربان قد التحق بالعسكر فيما بين سواكن وعيذاب وصحبهم. وتوجه الجيش خلف العربان ودخلوا البرية يتبعون آثارهم، فساروا سبعة عشر يوما. وفي أثناء مسيرهم ظفروا بطوائف من السودان بقرب المياه في أودية هناك، فقتل العسكر منهم وأسر وسبى وغنم من مواشيهم من الأبقار والأغنام ما ارتفق به الجند. وانتهوا إلى وادى (اتيرب) في اليوم السابع عشر، فأقاموا بها يومين، ولم يجدوا من سواكن إلى هذا الوادى غير ماء واحد، وكان شربهم من مياه الأمطار ، وأمطرت البرية في غير الوقت المعتاد لطفا من الله تعالى بعباده، واتقاء عليهم. ثم ساروا إلى أن وصلوا أزبينات، وهو جبل صغير على شاطئ نهر أتبرا، وهو فرع من فروع نيل مصر، يخرج من بلاد الحبشة، فأقاموا عليه يوما واحدا ثم توجهوا يتبعون آثار العربان، وهم يسيرون على شاطئ ذلك النهر ثلاثة أيام،

والنهر على يمين العسكر. ثم فوزوا ودخلوا البرية إلى أرض السالة، فانتهوا فى اليوم الثالث من يوم دخولهم المفازة إلى جبل كسلان وهو جبل أقرع ليس فى تلك البرية غيره. وجبل ألوس، وبين الجبلين واد، هذا الجبل هو حد بلاد التاكة من الحبشة. (ص ٩٨) فلما وصلوا إليه وقد قربوا من الماء وهم فى أرض صفر التربة تشبه أرض بيسان فى كور الشام، وهى كثيرة أشجار السنط وأم غيلان وشجر الأهليلج والأبنوس والصبر والحمى وهو الذى يطرح التمر هندى، إذ طلع عليهم غبار أمامهم، فندبوا من يكشف الخبر، فعاد الكشافة وأخبروهم أن طائفة من السودان تسمى هلنكة قد اجتمعوا لقتال العسكر، وهم خلق كبير فتقدم العسكر إليهم.. واجتمع العسكر فى أرض خالية من الأشجار هى من طرق.. وقد صارت مثل البركة . فدخل العسكر فيها.. وهلنكة من أعلا البركة والعسكر أسفل منهم، وبأيدى هلنكة الحراب والمزاريق والسيوف ومع بعضهم النبل. فوقف العسكر، وأرسل إليهم: أننا لم نأت لقتالكم وانما جئنا فى طلب طائفة من العرب، أفسدوا وعصوا وقطعوا السبيل، وأمنوهم فردوا الأمان وأبوا إلا القتال، فقاتلهم العسكر ورموهم رشقا واحدا بالسهام فقتل من هلنكة أربعمائة وستون نفرا وجرح منهم خلق كبير. ولم يتمكن العسكر من أسرهم فأنهم كانوا يرون القتل أحب إليهم من الأسر وقتل منهم اثنان من ملوكهم، على ما حكاه من اجتمع بهم من غلمان العسكر. وكان سبب اجتماعهم بهم وسلامتهم منهم، أنهم كانوا انقطعوا وراء العسكر وناموا فلحقهم كشافة هلنكة فمسكوا بهم، وأتوا بهم إلى أكابرهم فسألوهم من أين انتم، وكان فيهم من يعرف لغة القوم، فقالوا نحن تجار، أغار علينا هذا العسكر ونهبونا وأخذوا أموالنا وأسروا، فلما قاتلوهم هزمنا منهم، فرقوا لهم وأطلقوهم. وذكروا لهم عدة من قتل منهم. ولما انهزمت هذه الطائفة من هلنكة تحصنوا بالأشجار وتركوا أحمالهم،فأخذ العسكر منه ما قد زاد على جملة من الذرة وليس لهم طعام غيرها، وحملوا حاجتهم من الماء ورجعوا من هناك من يومهم على آثارهم، وذلك فى سادس شهر ربيع الأول سنة سبع عشرة، وعادوا حتى انتهوا إلى أربينات. ولم يمكنهم الرجوع على الطريق الذى دخلوا منه لقلة المياه والأقوات والعلوفات، فعدلوا إلى جهة الأبواب من بلاد النوبة، وأخذوا على نهر أتبرا، فساروا على شاطيه عشرين يوما. وكانت دوابهم ترعى من الخلف ثم انتهوا إلى قباله الأبواب وأقاموا هناك وتوفر سيف الدين أبو بكر بن والى الليل فى الرسيلة من جهة متولى الأعمال القوصية الأمير سيف الدين طقصبا، إلى متملك الأبواب فخاف ولم يأت إلى العسكر، وأرسل إليهم بمائتى رأس بقر وأغنام وذرة،

ونهب العسكر ما وجدوه بتلك الجهة من الذرة وتوجهوا إلى مدينة دنقلة، في سبعة عشر يوما في أرض كثيرة الأشجار والأفيلة والقرود والنسانيس والوحش الذى يسمى المرغفيف، فأقاموا ثلاثة أيام. وملكها عبد الله برشنبو كما تقدم، وأضاف العسكر وزودهم، توجهوا إلى ثغر أسوان ثم مدينة قوص، وأقاموا بها خمسة عشر يوما. وحصل للعسكر في هذه السفرة مشقة كبيرة وكلفة عظيمة حتى بيعت قطيعة النعال بينهم بخمسين درهما. وابيع رطل البقسماط بدرهم ونصف في المراكب لأمرين: أولهما عدم الطهر. ومنها أن النيل كان قد عم البلاد وقطع الطرق إلا الجبال، وكان وصول العسكر إلى القاهرة المحروسة في يوم الثلاثاء التاسع من جمادى الآخرة سنة سبع عشرة.

ملحق رقم ١٧
المكاتبة إلى أهل الجانب الجنوبى ممن جرت العادة بالمكاتبة إليه من العرب

عن القلقشندى : صبح الأعشى، جـ٨، ص ٥ .

وقد ذكر في «التثقيف» ممن كوتب منهم جماعة بالطرقات الموصلة من الديار المصرية إلى بلاد الحبشة وغيرها، ثم قال: ولعل هؤلاء أيضا من عربان الممالك المحروسة، غير أنه لا إقطاعات لهم، وعد منهم ثمانية أشخاص وذكر أنه كتب إلى كل منهم الاسم ومجلس الأمير.

الأول: سمرة بن كامل العامرى.

الثاني: عباد بن قاسم.

الثالث: كمال بن سوار، قال: وهو مستحدث المكاتبة في العشر الأول من جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وسبعمائة.

الرابع: جنيد شيخ الجوابرة من الهكارية بأبواب النوبة. قال: وهو مستحدث المكاتبة في سنة تسع وستين وسبعمائة.

الخامس : شريف شيخ النمانمة، بأبواب النوبة أيضا، ومكاتبته مستجدة حينئذ.

السادس: على شيخ دغيم.

السابع: زامل الثانى.

الثامن : أبو مهنا العمرانى.

ملحق رقم ١٨

الممالك والمشيخات التى دخلت فى حلف مع الفونج بواسطة العابد الاب أول القرن السادس عشر الميلادى

نقلا عن نعوم شقير: تاريخ السودان القديم والحديث.

وجغرافيته، جـ٢، ص ١٠٣.

مشيخة الشنابلة: قامت على النيل الأزرق شمالى سنار، ومركزها المسلمية وأشهر مشايخها الشيخ شنبول الذى قتل فى أيام الملك عدلان الثانى.

مملكة الجموعية: امتدت غرب النيل الكبير والنيل الأبيض من عقبة قرى إلى الترعة الخضراء، ومركزها الفيزان المنسوبة إلى أولاد الملك المحينسة. وكان أهم فروعها الجميعاب والسرواب والفنيحاب وأقواهم الجميعاب.

مملكة الجعليين: قامت فى شمالى مشيخة العابد الاب على أنقاض مملكة مروى القديمة بين حجر العسل والدامر ومركزها شندى وكانت مملكة قوية تولاها فرع من الجعليين يعرف بالسعداب.

مملكة الميرافاب: فى شمالى الجعليين بين القرن ووادى السنقير، ومركزهم بربر ولهم ككر وطاقية.

مشيخة المناصير: امتدت من الشامخية إلى الشلال الرابع.

مملكة الشايقية: قامت على أطلال مملكة نبته القديمة وامتدت من الشلال الرابع إلى أبى دوم قشابى ومركزها مروى. وهى مملكة عربية محضة. وقامت فى شمالها مملكة الدفار ودنقلة والخندق وأرقو. وهى ممالك نوبية أو عربية منوبة.

قائمة باسماء ملوك النوبه الشمالية «مقرة»

سلكو		٥٣٦م
ايربانم (ارجمنيز)		٥٥٩ أو ٥٧٤م
قاليدور		٦٥١ - ٦٥٣م
زكريا بن باركى		٦٤٥ - ٦٥٥م
مرقوريوس		٦٩٧ - ٧١٠م
زكريا بن مرقوريوس		
سيمون		
ابرام	بين	٧٤٤ - ٨٦٨م
ماركو		
كيرياكوس		
ميكائيل		في أواخر القرن الثامن
يوحنا		؟؟؟
زكريا اسرائيل الثانى بن يوحنا (يحنس)		٨٢٢م
جورج الأول بن زكريا		٨٧٣ - ٨٩٢م
زكريا الثالث بن جورج الأول		؟؟؟
كبرى بن سرور		٩٤٣م
جورج الثانى		٩٦٩ - ١٠٠٢م
رفائيل		١٠٠٢ - ١٠٠٦م
سالمون		١٠٨٠م
باسيل		١٠٨٩م
جورج الثالث		١١٣٠ - ١١٥٨م
داود الأول		١٢٧٣ - ١٢٧٣م
داود الثانى ابن داود الأول		١٢٧٤ - ١٢٧٧م
شكنده أبن أخت داود الأول		١٢٧٥ - ١٢٧٦م

برك	١٢٧٩ - ١٢٩٠م
سمامون	١٢٧٦م
ابن احدى أخوات سمامون	١٢٨٨م
عودة سمامون للملك للمرة الثانية	؟؟؟
أحد أبناء أخت الملك داود الثانى	١٢٩٠م
عودة سمامون للملك للمرة الثالثة	١٢٩٠ - ١٢٩٣
آنى	؟؟؟
بدمة	؟؟؟
أماى	١٣٠٤ - ١٣٠٥م
كرنبس	١٣١٣م
عبد اللله برشمبو النوبى	١٣١٦م
كنز الدولة	١٣١٧م
ابرام شقيق كرنبس	(حكم ثلاثة أيام)
كرنبس ثانيا	١٣٢٣م
كنز الدولة ثانيا، ونهاية المملكة المسيحية الشمالية	١٣٢٣م

مطالعات فى الفكر الإسلامى
من العصرين الأموى والعباسى
مؤلفات سياسية

يدخل علم السياسة حسب تصنيف العلوم عند المسلمين فى باب العلوم العملية التى تضم ثلاثة فروع موضوعها الأعمال الصادرة عن البشر. أولها علم الأخلاق وهو ما يختص الفرد، ثانيهما علم تدبير المنزل ويتعلق بنظام الأسرة. أما الأخير فموضوعه أحوال أهل البلد بجملتهم وهو علم السياسة. وقد عرف بأنه علم يتناول أنواع الرياسات والسياسات والاجتماعات المدنية وأحولها. ويطلب هذا العلم لمنفعته وليس لذاته، أما منفعته فهى معرفة الاجتماعات المدنية الفاضلة ـ أى أنظمة الحكم العادلة ـ والتوصل به إلى الوسائل المؤدية لاستبقائها ومكافحة أسباب زوالها. والمحتاج إلى هذا العلم هم أهل السلطة أولا ثم سائر الناس لأن الإنسان مدنى بالطبع ويجب عليه اختيار المدينة الفاضلة مسكنا والهجرة عن الفاسدة، كما يجب عليه أن يعلم كيف ينفع أهل مدينته وينتفع بهم. والطريق إلى ذلك هو علم السياسة، الذى يجب على الفرد العادى أن يلم به ليوصله إلى حياة مدنية فاضلة، ويأتى هذا التوجيه ضمن المجرى الذى اتخذه علم السياسة فى العصور الاسلامية متجاوزا حد الاختصاص إلى قدر معين من الشمول.

ينقسم علم السياسة إلى فروع أولها علم آداب الملوك وهو معرفة الاخلاق والملكات التى يجب أن يتحلى بها الملوك لتنظيم دولتهم. والثانى علم آداب الوزارة وموضوعه أوصاف الوزراء وقوانين الوزارة.. والثالث علم الاحتساب ويشمل النظر فى أموال أهل المدينة وتطبيق القوانين المقررة اصطلاحا أم شرعا، والقائم بهذا الأمر هو المحتسب. أما الفرع الأخير من علم السياسة فهو علم قيادة الجيوش.

ضمن هذا التصور لعلم السياسة وضعت مؤلفات حاولت أن ترسم الصورة المثلى للعمل السياسي بدراستها للقواعد التي يتعين الاهتداء بها في إدارة شؤون الدولة. وقد استند الكتاب السياسيون إلى معيار المنفعة وهو معيار عملي بحت قد يفسر بدوره خلو مؤسساتهم قبل مقدمة ابن خلدون من الشروح المختصة بفلسفة الدولة وعدم ظهور ميل قوي إلى تنظير السياسة.

اشتملت فهارس المؤلفات السياسة على صنفين عريضين: ما يختص بعرض الوجه القانوني للدولة وقد عرف باسم الأحكام السلطانية. وما يختص بفن الحكم ـ الدهاء.

الأحكام السلطانية

يشير هذا الاصطلاح إلى المبادئ التي كرستها الشريعة لتنظيم السلطة. وهي فرع من الفقه عولجت أحكامه ضمن سائر المواد الفقهية ثم أفردت له بعض المؤلفات المستقلة. ويعد كتاب الخراج أول الكتب التي استقلت بعرض هذا الموضوع. وضعه أبو يوسف بعد تعينه قاضيا للقضاة من قبل هارون الرشيد. وذكر في مقدمته أن الخليفة سأله أن يضع له «كتابا جامعا يعمل به في جباية الخراج والعشور والصدقات والجوالي ـ أي الجزية ـ وغير ذلك مما يجب النظر فيه والعمل به..». وقد مر بنا أن السلطة الاسلامية بعد الرشيدين لم تعن بالبحث عن أساس دستوري لسياستها فمن المحتمل أن يكون الرشيد قد احتاج إلى الإلمام ببعض المبادئ العامة للسياسة المالية بوجه خاص دون أن نحمل طلبه على الرغبة في تقييد سياسته بأحكام الشريعة.

يشتمل كتاب الخراج على الفصول التالية:

الفيء والخراج. أحكام أرض السواد والشام والجزيرة. ذكر القطائع. أحكام الأراضي التي افتتحها النبي. موات الأرض.. أحكام متعلقة بأهل القرى والأمصار. ما يخرج من البحر. الضرائب والصدقات. إجارة الأرض، أحكام الجزر في الأنهار. الآبار والأنهار ومياه الشرب. المراعي. وسائل وأسس الجباية. أحكام حول أهل الذمة والمجوس والوثنيين والمرتدين. عشور التجار والعقوبات. رواتب القضاة والعمال. شؤون عسكرية.

يفهم من هذه العناوين أن كتاب الخراج مفرد في المقام الأول للشؤون المالية والاقتصادية لأن القسم الأكبر من فصوله منعقد على قضايا الزراعة والتجارة والضرائب. واذ كان غرض المؤلف بيان أحكام الشريعة في هذه الأمور فقد عني باستقصاء الخطى التي اتبعها محمد

وخلفاؤه بخصوصها. واقتضاه ذلك سلوك طريق أهل الحديث رغم أنه من أتباع مدرسة الرأئ التى أسسها أبو حنيفة. ومن هذه الجهة يخدم كتاب الخراج تاريخ الحديث كأقدم مصدر من مصادره بعد مؤطأ مالك بن أنس. على أنه رجع فى الأمور المختلف عليها، أو التى لم يرد فيها نص قاطع إلى رأيه الشخصى.

ويلاحظ أن انتماء أبو يوسف للسلطة لم يحل دون تضمين كتابه مقترحات جدية لإصلاح بعض الأوضاع القائمة، فعقد فصلا فى تقبيل السواد، يعنى التزام جبايته لقاء مبلغ إجمالى يدفعه الملتزم إلى الخليفة، بين فيه ما ينجم عنه من الفساد والظلم. يقول أبو يوسف [١]:

«ورأيت أن لاتقبل شياء من السواد ولاغير السود من البلاد، فإن المتقبل إذا كان فى قبالته فضل عن الخراج عسف أهل الخراج وحمل عليهم ما لايجب عليهم وظلمهم وأخذهم بما يجحف بهم ليسلم مما دخل فيه. وفى ذلك وأمثاله خراب البلاد وهلاك الرعية. والمتقبل لايبالى بهلاكهم بصلاح أمره فى قبالته. ولعله يستفصل بعد ما يتقبل به فضلا كثيرا وليس يمكنه ذلك إلابشدة منه على الرعية وضرب لهم شديد واقامة لهم فى الشمس وتعليق الحجارة فى الأعناق وعذاب عظيم ينال أهل الخراج مما ليس يجب عليهم من الفساد الذى نهى الله عنه. إنما أمر الله عز وجل أن يؤخذ منهم العفو - أى ما فضل عن حاجتهم وقدروا على دفعه - وليس يحل أن يكلفوا فوق طاقتهم . وإنما أكره القبالة لأنى لاآمن أن يحمل هذا المتقبل على أهل الخراج ماليس يجب عليهم فيعاملهم بما وصفت لك فيضر ذلك بهم فيخربوا ما عمروا ويدعوه فينكسر الخراج. وليس يبقى على الفساد شئ ولن يقل مع الصلاح شئ..». ولكنه استثنى من كراهة التقبيل ما وافق عليه أهل الأرض واعتبروه أخف عليهم. واشترط فى هذه الحالة أن يعين موظف من قبل الخليفة مباشرة يكون رقيبا يمنعه عن التعدى والظلم.

أما عن موظفى الخراج فذكر أبو يوسف ما يجب أن يتوفر فيهم من الخصال المناسبة لوظيفتهم. وقد أوصى بالاحتياط فى توليتهم بالبحث عن أحولهم كما يجب فيمن يعين للقضاء. وأوجب أن يزود موظف الخراج بتعليمات مشددة تمنعه من عسف أهل الأرض أو احتقارهم أو الاستخفاف بهم. واستطرد من هنا فوصف أنماطا من الإساءات التى تصدر عن موظفى الخراج وهى بجملتها لاتخرج عن التصرفات المعتادة لرجال السلطة كالجلوزة

---

(١) ص١٠٥، ط. القاهرة ١٣٥٢ه.

والتحاليل والتعذيب وابتزاز حقوق الآخرين، وشدد أبو يوسف على ضرورة حسم هذه الإساءات.

ثم أوصاه بعمارة الأرض فاقترح عليه في حالة استخباره بوجود أنهار قديمة وأرضين متروكة أن يرسل خبيرا يثق به لدراسة أوضاعها والتأكد من إمكان استصلاحها وأن يأمر في ضوء تقرير الخبير بحفر تلك الأنهار أو استصلاح الأرضين، على أن تكون نفقات العمل من بيت المال لما في ذلك من المصلحة في زيادة المعمورة من الأرض.

وتعرض بعد ذلك للإصلاحات التي يتطلبها انتظام الزراعة، فجعل نفقات كرى الأنهار العظام التي تأخذ من دجلة والفرات شركة بين بيت المال وأهل الخراج. أما الجداول الممتدة في أراضيهم فإصلاحها يجرى على نفقتهم.، ولكن ما يجرى من أشغال وإصلاحات على الأنهار العظام كالمسنيات ومفاتح المياه وسد البثوق فنفقاتها على بيت المال وحده.

ولضبط موظفي الخراج دعا إلى التفتيش عليهم سرا باستخدام عيون يرصدون تصرفاتهم لمحاسبتهم على ما يظهر منهم من خيانة لبيت المال أوظلم لأهل الخراج. ولكن هذا الإجراء ليس ناجحا وحده إذ يتعين على الخليفة أن ينظر بنفسه في مشكلات أهل الخراج وذلك بأن يعقد لهم مجلسا كل شهر أو شهرين. وعدد أبو يوسف فوائد هذا الإجراء على الوجه التالي[1]:

«ولعلك لاتجلس إلا مجلسا أو مجلسين حتى يسير ذلك في الأمصار والمدن فيخاف الظالم وقوفك على ظلمه فلا يجترئ على الظلم ويأمل الضعيف المقهور جلوسك ونظرك في أمره فيقوى قلبه ويكثر دعاؤه».

وفي فصل العقوبات تناول أبو يوسف أحكامها في الشريعة ودعا إلى الوقوف في تطبيقها عند هذه الأحكام. وثبت في غضون ذلك توصياته بشأن معاملة السجناء وإصلاح السجون. ويستفاد من ملاحظاته أن حالة السجون كانت في غاية التردى إذ كانت الدولة لاتتولى إعالة السجناء وتترك ذلك لأهاليهم ومن كان فقيراً سمحت له بالخروج مقيداً بالأغلال بحراسة السجانين للاستجداء. وإذا مات السجين لم تدفنه إدارة السجن فيدفنه رفاقه الذين معه في

(١) الخراج، ص١١٢.

السجن. ويدفن السجين بغير المراسم الدينيه كالغسل والتكفين والصلاة. وقد أدان أبو يوسف هذه الأوضاع وقال للرشيد.. «وإن ابن آدم لايعرى من الذنوب» وإن ارتكاب الجرم ليس طبعا فيه بل هو راجع إلى أحد أمرين: الجهل أوالقضاء، مما يوجب عدم المبالغة في العقوبة بحيث تصبح انتقاماً.

وقدم خطة لإصلاح السجون تتكون من البنود التالية:

١ـ تعيين موظف نزيه يتولى تسجيل أسماء السجناء من الذين لايملكون مصدرا للعيش.

٢ـ تخصيص مبالغ شهرية تدفع إلى كل واحد من السجناء المسجلين. وحدد مبلغ ما يدفع للواحد بعشرة دراهم في الشهر.

٣ـ تأمين كسوتهم. وهي في الشتاء قميص وكساء وفي الصيف قميص وازار، هذا للرجال. أما للنساء فقميص ومقنعة وكساء شتاء، وقميص ومقنعة وازار صيفا.

٤ـ أما السجين الذى يملك ما لا فالإنفاق عليه يكون من ماله الخاص.

٥ـ النظر في قضايا المحبوسين، فمن استحق منهم عقوبة تأديبية أدب وأطلق، ومن لم يكن عليه شئ خلى عنه.

٦ـ منع ضرب السجناء.

٧ـ استخدام الوسائل الاعتيادية في التحقيق وعدم تعذيب المتهم لحمله على الإقرار. فمن أقر على نفسه بالتعذيب فأقراره لايؤخذ به.

وفي عرضه لأصول التحقيق قال أبو يوسف بعدم جواز الإدانة استناد، إلى المعرفة الشخصية للقاضي. فإذا رأى القاضي إنسانا قد سرق فلايقيم عليه الحد حتى تقوم عنده بينة. وذكر أن هذا المبدأ مستند عنده إلى الاستحسان، وهو من أصول الاستنباط في مدرسة أهل الرأى. والقضاء الحديث يأخذ بهذا المبدأ.

إن كتاب الخراج لم يستوعب، كما بينت، كل قوانين الدولة لتركيزه على الأحكام ذات الصلة بالمشكلات المالية كما يدل عليه عنوانه. إن الاستيعاب التام لهذه القوانين جاء في مدة متأخرة عن كتاب الخراج وذلك بظهور كتابين في عصر واحد يحملان اسما واحدا هو الأحكام السلطانية. مؤلفا الكتابين هما أبو الحسن الماوردى ٤٥٠هـ وأبو يعلى الحنبلي

٤٥٨هـ. وقد عاش المؤلفان فى بغداد أكثر حياتهما وكان الأول فقيها وقاضيا ورجل دولة. أما الثانى فهو فقيه ومتكلم حنبلى شغل منصب القضاء فى دار الخلافة.، إلا أنه لم يشغل بالسياسة، كالماوردى، وكان قد اشترط لقبول القضاء أن لايحضر المواكب الرسمية ولايخرج فى الاستقبالات ولايدخل مجلس الخليفة، فعين على هذه الشروط.

هناك تقارب شديد بين أسلوب هذين الكاتبين يرجح اعتماد أحدهما على الآخر دون أن نملك من الأدلة ما يوصل إلى معرفة السابق منهما. وقد طبع كتاب أبو يعلى فى القاهرة عام ١٩٣٨، أما كتاب الماوردى فقد حظى بعدة طبعات تبدأ بطبعة المستشرق ر. انكر فى بون ١٨٥٣ وتنتهى بطبعة مصطفى البابى فى القاهرة ١٩٦٠. وترجم إلى الفرنسية عام ١٨٩٥. كما ترجم فصولا منه المستشرق انكر ونشرها فى كتابه (أبحاث حول الملكية الريفية فى البلاد الاسلامية) المطبوع فى باريس ١٨٤٦. ثم اختيرت فصول منه ترجمت إلى الهولندية ذكر أنها أجريت لأغراض إدارية. وترجمه إلى الفرنسية مرة أخرى. أ. فاكنان ونشر فى الجزائر عام ١٩١٥ثم ظهرت له ترجمة انجليزيةفى ١٩٤٧. تعبر هذه العناية التى حظى بها كتاب الماوردى عن الأهمية التى يتمتع بها فى مجاله، دون أن نغض الغايات التى يتوخاها الغربيون من الاهتمام بكتاب يتحدث بالتفصيل عن النظم القانونية والإدارية لبلدان تقع تحت سيطرتهم.

محتوى الأحكام السلطانية

يضم كتاب الماوردى عشرين بابا وزعت على الموضوعات التالية:

- عقد الإمامة ويشتمل على فصول تعالج أحكام الخلافة.
- تقليد الوزارة - حول أحكام وزارتى التفويض والتنفيذ والشروط الواجب توافرها فى الوزير
- تقليد الإمارة على البلاد، يعنى تعيين الولاة على الأقاليم
- تقليد الإمارة على الجهاد، ويختص بقضايا الحرب.
- فى الولاية على حروب المصالح، وهى الحروب التى تخوضها الدولة ضد ثلاثة أطراف: أهل الردة وهم المسلمون إذا ارتدوا عن دينهم، وأهل البغى وهم الثائرون ضد الدولة من المسلمين. أما الطرف الثالث فهم المحاربون ويقصد بهم العابثون بالأمن كقطاع الطرق.

يلى هذه الأبواب:أحكام - ولاية المظالم أى القضاء المختص بالنظر فى الخلافات بين الدول

ورعاياها ـ ولاية النقابة على ذوى الأنساب وهم العلويون العباسيون. ثم الإمامة على صلاة، فولاية الحج وولاية الصدقات (الزكاة) وباب فى قسمة الفئ والغنيمة وهى الأموال المأخوذة من غير المسلمين كالجزية وعشور التجارة والخراج. يلى ذلك أبواب فى أحكام الأراضى الزراعية وباب فى أحكام الأسواق والشوارع ومنازل الأسفار كالخانات والفنادق وما أشبة. ثم باب فى الديوان وآخر فى العقوبات. أما الباب الأخير فمكرس للحسبة.

يشتمل كتاب أبو يعلى على نفس الأبواب ولكن من غير تبويب. أما تفاصيل الموضوعات فمتقاربة إلا أن الأخير يعطى الصدارة لاجتهادات أحمد بن حنبل لكونه حنبليا. ولغة الكاتبين مركزة تتماشى مع الغرض الذى استهدفه المؤلفان وهو عرض الأحكام القانونية بطريقة أقرب إلى التقنين منها إلى البحث. ولكن كتاب الماوردى يعانى من العيب الذى يشيع فى مؤلفاتة الأخرى وهو الإسراف فى الاستشهاد بالشعر والأخبار مما يمكن أن يستغنى عنه كتاب يخدم غايات تشريعية بحتة. وقد تخلص أبو يعلى من هذه الاستطرادات.

جاءت أبواب الكتابين شاملة للوجوه المختلفة لنشاط الدولة من وجهة نظر الشريعة. ولكننا نعلم أن الدولة الاسلامية منذ الأوان الأموى لم تكن تدار على أسس دستورية فما الباعث إذن على وضع هذين الكتابين؟ يقول الماوردى فى مقدمة كتابة: «لما كانت الأحكام السلطانية بولاة الأمور أحق وكان امتزاجها بجميع الأحكام يقطعهم عن تصفحها مع تشاغلهم بالسياسة والتدبير، أفردت لها كتابا امتثلت فيه أمر من لزمت طاعتة ليعلم مذاهب الفقهاء فيما له فيستوفية وما علية منها فيوفية توخيا للعدل فى تنفيذه وقضائه وتحريا للنصفة فى أخذه وعطائه..» اى أن الكتاب ألف بناء على طلب من أحد المسؤولين. ولعلها أن تكون رغبة زينها له المؤلف، الذى عبر بنفسة عن ضرورة كتاب من هذا الطراز لكون الأحكام السلطانية مدرجة فى مصادر الفقه ضمن الأحكام الشرعية الأخرى بما يصعب معه على رجال الدولة مراجعتها واستخلاصها لانشاغلهم فى أمور السياسة والدولة. ولاسبيل للاعتقاد بان الطلب وقع من هذا المسؤول بناء على التفكير بضرورة الحكم وفق دستورية مستقاة من الشريعة أو غيرها، إذ لم نجد من بين الذين اشتغل الماوردى معهم من رجال الحكم من كان يصدر فى تصرفاته عن هذه النية. أما يعلى فيذكر فى شرح السبب الباعث على تأليف كتابه: «إنى كنت صنعت كتاب الإمامة وذكرته فى اثناء كتاب المعتمد وشرحت فيه مذاهب المتكلمين وحجاجهم وأدلتنا

والأجوبة عما ذكروه وقد رأيت أن أفراد كتابا في الإمامه أحذف فيه ما ذكرت هناك من الخلاف والدلائل وأزيد فيه فصولا أخر تتعلق بما يجوز للإمام فعله من الولايات وغيرها » يعني أنه وضع الكتاب في سياق اختصاصه كفقيه للفقه. وفي ظل الإهمال الرسمي للشريعة فإننا ملزمون بالوقوف عند هذه الاعتبارات وقد مر أن الدراسات الفقهية ازدهرت في إطار نظرى وكانت تشبع حاجة علمية ودينية لدى المختصين فيها. وهو ما يفسر استمراها ليس فقط في كل عصور الدولة الاسلامية وانما بعد ذلك، أى في العصور التي شهدت زوال السلطان السياسي للاسلام. وبتأثير نفس العامل واصل الفقهاء تقنين الأحكام السلطانية ومن بينها أحكام الأراضي المفتوحة في وقت تحولت فيه الأراضي الإسلامية إلى مستعمرات للفاتحين الجدد القادمين من أوربا وأمريكا. مهما يكن، فإن كتابي الأحكام السلطانية يعكسان الوجه القانوني المتفرض للدولة الإسلامية كما يعطيان القارئ فكرة مباشرة عن الجانب السياسي من شريعة الإسلام وفق الصيغة التي أخذتها الشريعة على يد الفقهاء.

الدهائيات

بدأ التأليف السياسي عند المسلمين على شكل مترجمات قام بها الكتاب المنحدرون من أصل فارسي. وتناولت الترجمة أدبيات ساسانية تدور حول الدهاء. وقد ذكر ابن النديم أن ابن المقفع ترجم كتابين أحدهما خداينامة في السير والثاني كتاب التاج في سيرة أنوشروان. وابن المقفع معاصر للبداية الحاسمة للترجمة مما يحمل على القول بأن الترجمات السياسية سبقت ـ أو زامنت على الأقل ـ ترجمة العلوم الأخرى التي نشطت منذ زمن المنصور. تلا ابن المقفع أبان بن عبد الحميد اللاحقى (٢٢٠هـ) وقد نسب إليه ابن النديم ترجمة كتابين في سيرة أشير وسيرة أنوشروان. ثم ترجم البلاذرى(٢٧٩) عهد أردشير شعرا. ومن المحتمل أن لاتكون المترجمات المذكورة كتبا لأن المجتمع الساساني لم يألف تصنيف الكتب فمن الأفضل أن ينظر إليها على أنها وصايا وعهود صدرت عن هؤلاء الملوك أو نسبت إليهم. وإلى جانب هذه المدونات، كانت هناك حكايات متداولة عن دهائيات ملوك الفرس الساسانين وقادتهم جاء بعضها عن طرق الرواية المرفوعة إلى العرب المعاصرين للحكم الساساني، وبعضها عن طريق المثقفين الفرس الذين عاشوا مع العرب منذ الفتح الاسلامي للعراق وايران، وتكاثروا بشكل خاص في العهد العباسي. وبصرف النظر عن صحة إسناد هذه المرويات فهي تؤلف مع

الترجمات المشار إليها تراث السياسة والأخلاق للفرس الساسانيين. وقد اعترف بالفرس في الفترة الاسلامية أساتذه في السياسة يضاهي مركزهم فيها مركز الإغريق في الفلسفة. وانتشر بين المسلمين انطباع بأن السياسة الحكيمة والوعي العمراني يكمنان في الدولة الساسانية ويدين هذا الانطباع لعدة عوامل:

١ـ النفوذ الفارسي الذي أمتد في الدور العباسي الأول إلى السياسة والثقافية والإدارة مقترنا باحياء التراث الساساني.

٢ـ اتخاذ الامبراطورية الساسانية مركزها في العراق بما أدى إلى وضع العرب في نقاط إجراءاتها وجعلهم على تماس مباشر بأعمال ملوكها وأخبارهم.

٣ـ الآثار العمرانية التي أحدثها الساسنيون في المطارح شملها حكمهم خاصة في العراق وايران.

٤ـ اقتباس العرب نظم الساسانيين في الادارة والضرائب والزراعة والكثير من قواعدالعمران. ويكفي هذا بحد ذاته في وضع السياسة الساسانية موضع القدرة بالنسبة للتفكير السياسي اللاحق.

إلى جانب التراث الساساني، اعتمد الكتاب السياسيون على مصدر قريب هو تجارب صدر الإسلام والدولة الأموية. وقد وفرت لهم معرفتهم الجيدة بتاريخ تلك الحقبة مادة سياسية ثمينة تألفت من سيرة محمد وخلفائة وفي مقدمتهم عمر وعلي، اللذين تشغل لافكار المنسوبة إليهما حيزا ملحوظا في المؤلفات. ثم من سيرة الخلفاء الأمويين البارزين كعبد الملك بن مروان وعمر بن عبد العزيز. وفي زمن متأخر دخلت سياسات العباسين في عداد العبر المستوحاه من تاريخ الاسلام.

العنصر الأخير في الفكر الدهاني يتمثل في الممارسات الشخصية للكتاب، وهم في الغالب من المشتغلين بالسياسة كرجال دولة أو أعضاء في الحاشية. وليس من شك في أن معاناتهم للأحداث قد عززت قدرتهم على فهم أصول السياسة، خاصة عندما تكون هذه الأحداث على تلك الدرجة من التعقيد التي عاناها الكيان السياسي للإسلام في أزمنته المختلفة. وقد وردت إلينا أكثر المؤلفات الدهانية من تلك الأحقاب التي شهدت التصدعات الحادة لهذا الكيان بسبب الصراع العاصف بين أطراف المجتمع الاسلامي، لتحمل من هنا بصمات الواقع

السياسى فى وعى الكتاب. ويمكن أن نضع على هذا الملاك ما سنقف عليه من إدراك عميق لأسرار السياسة يقترون بمخططات سديدة وضعها الكتاب بين أيدى سادتهم آملين أن تزودهم بالقوى العملية والفكرية التى تجعلهم قادة ناجحين.

وماذا عن التراث السياسى للإغريق؟ لقد اطلع المسلمون على بعض الآثار السياسة لهؤلاء الأساتذة الكبار ومنها بعض محورات أفلاطون كالجمهورية وتداولوا رسائل منسوبة إلى سقراط وأرسطو حيث يذكر ابن النديم مقالة فى السياسة لسقراط ومكتابات موجهه من أرسطو إلى تلميذه الإسكندر. ولم يصل إلينا شئ مما ذكره ابن النديم ولكن الفقرات المقتبسة من آثار سقراط وأرسطور فى الكتب الاسلامية تحمل طابعا إسلاميا طاغيا يحملنا على الإعتقاد بأنها نسبت إلى فلاسفة الاغريق من أجل أن تحظى بتثمين أكبر من القراء. أما سياسات أرسطو الحقيقة فلم تترجم. وربما كان إغفال هذه المتون المهمة لفيلسوف عنى به المسلمون أكثر من سواه راجعا إلى عدم توافقها مع مزاج العرب والشرقيين عموما بينما تركت محاورات أفلاطون بصماتها فى الفكر السياسى للفلاسفة، بفضل خلفياتها المشاعية المستمدة من تقاليد الشرق. وتحت تأثير أفلاطون كتب بن رشد مؤلفه الممتاز «جوامع سياسة أفلاطون». فإذا تركنا الفلاسفة جانبا، لم نجد لسياسيات الإغريق تأثير كبيرا فى المؤلفات الدهائية.

ترجع أقدم محاولات الكتابة فى أصول الدهاء إلى أوائل عهد الترجمة. وقد ترك ابن المقفع ثلاثة مؤلفات هى: الآين والأدب الصغير والأدب الكبير. والأول مفقود أما الأخيران فقد وصلا إلينا وطبعا عدة طبعات وهما صغيرا الحجم كرسهما ابن المقفع للبحث فى الأخلاق الفاضلة وتطرق فى غضون ذلك إلى أخلاق الملوك وقواعد السلوك السياسى بما فيه تلك الأصول التى يتعين على الحاشية مراعـــا مع الملوك والولاة للحصول رضاهم واتقاء غضبهم. وفى وصاياه للملك نصحه ابن المقفع بالحزم وتعاهد الأمور الجسيمة بنفسه دون أن يحظر عليه التنعم واللهو كما أوصاه بالانحياز إلى الخاصة وإيثارهم بالعطاء والتكريم. وشغلت وصاياه للحاشية جزءا كبيرا من الكتابين بما يتناسب مع نمو حجم هذه الفئة آنذاك وحاجتها إلى مرشد يعلمها كيفية التعامل مع أوليائها. ولم ينس أبن المقفع مع ذلك أن ينبه الحاشية إلى مخاطر صحبة الملوك وأن يدعو إلى تحاشيها ما أمكن. واقتضاه ذلك أن يقدم وصفا دقيقا لأخلاق الملوك استقصى فيه ما تختص به من الشذوذ عن أخلاق عامة الناس.

ظهرت بعد ابن المقفع مصنفات دهائية لم تصل إلينا. منها كتاب للمدائنى (٢١٥هـ) بعنوان «آداب السلطان» وآخر لسهل بن هارون رئيس بيت الحكمة فى زمن المأمون عنوانه «تدبير الملك والسياسة» وكتابان لأحمد بن أبى طاهر (طيفور) ـ ٢٨٠هـ ـ الأول فى تدبير المملكة والسياسة والثانى كتاب «الملك المصلح والوزير المعين»(١).

وورد فى فهرس أعده ميخائيل عواد فى مقدمة تحقيقه لكتاب رسوم دار الخلافة ثلاثة كتب للجاحظ وهى التاج وآداب صحبة الملوك وآداب الملوك. ولم يتسير لنا الإطلاع على الأخرين لأنهما مخطوطان، أما الأول فمطبوع. ونسبته إلى الجاحظ موضع خلاف وقد استند منكروها إلى عدم ذكر الكتاب ضمن مؤلفات الجاحظ التى عدها فى كتاب الحيوان. ولكن ذلك ليس كافيا للشك فى نسبته إليه، فقد ورد فى المقدمة أنه ألف الكتاب للفتح بن خاقان وزير المتوكل أى حين كان الجاحظ قد قارب السبعين من عمره، مما يرجع أن الكتاب من مؤلفاته الأخيرة التى تلت كتاب الحيوان. وكتاب التاج يضم تعليمات حول سلوك الحاشية فى حضرة الملك تناول المطاعمة والمنادمة والحوار معه والسلام عليه وعيادته إذا مرض. وتعليمات حول سلوك الملك فى مجلسه مع ندمائه وخواصه من الوفود. وفيه أبواب مخصصة لوصف أخلاق الملوك التى يجب أن يتميزوا بها عن بقية الناس ولوصف أزيائهم، مع باب لأصول السفارات. فالكتاب بمجمله يدور حول «الأتيكيت» والشؤون الشخصية، أى أنه من نفس نمط كتابى ابن المقفع السالفى الذكر.

ليس فى وسعنا معرفة ما إذا كان هذا الأفق الضيق الذى انحصرت فيه اهتمامات الجاحظ وابن المقفع هو نفسه ما صدرت عنه كتابات معاصريهما التى مرت الإشارة إليها، بالنظر إلى أنها لم تصل إلينا. ومهما يكن الحال، فإن كتاب العهود التالية قد تجاوزا ذلك إلى معالجات

(١) ينسب إلى نفس الوقت كتاب سلوك المالك فى تدبير الممالك تأليف شهاب الدين أحمد بن أبى الربيع بالاستناد إلى وهم وقع فيه حاجى خليفة صاحب كشف الظنون الذى ذكر الكتاب وقال إنه ألف للمعتصم المتوفى عام ٢٢٧هـ. وسرى هذا الوهم إلى بروكلمان فاعتبره أول كتاب عربى فى علم السياسة. والوهم ناجم فى الأصل عن تصحيف وقعت فيه بعض نسخ الكتاب المخطوطة حيث ذكر المعتصم بدلا من المستعصم الذى أرجح أن الكتاب ألف له. وهو ما نصت عليه مخطوطة باريس على هامش معيد النعم للسبكى. ولايغرب عن البال أن الألقاب المنسوبة إلى الدين، كلقب المؤلف، لم تكن متداولة فى عهد المعتصم مما يقوى ترجيحنا بأن يكون من رجال المستعصم. ومن نتائج هذا الوهم أن صاحب الأعلام خير الدين الزركلى ذكر ولادة ابن أبى الربيع فى سنة ٢١٨هـ ووصفه بأنه من رجال المعتصم الذى استخلف سنة ٢١٨هـ أى فى السنة التى قال إن ابن أبى الربيع ولد فيها ؟.

أشمل تناولت الوجوه المختلفة لنشاط رجل السياسة. وأقدم ماوصل إلينا من هذا النمط، وربما أفضلها أيضا، هى كتب الماوردى الثلاثة:

تسهيل النظر وتعجيل الظفر.

نصيحة الملوك.

قوانين الوزارة.

ينقسم البحث فى الكتاب الأول إلى بابين الأول فى أخلاق الملك والثانى فى سياسة الملك. **الباب الأول** يشتمل على دراسة للمبادئ الأخلاقية تعتمد على ثلاثة مصادر: أخلاقيات أرسطو، التقاليد الأخلاقية للعرب، والأخلاق الإسلامية. وقد استخدمت نظرية الأوساط الأرسطية فى تعيين الحدود بين المبادئ الأخلاقية المختلفة حيث نظر الماوردى إلى الفضائل بوصفها توسطا محمودا بين رذيلتين مذمومتين. إلا أنه سعى فى صياغة مصطلحاته إلى الربط بين مقتضيات البحث المنطقى والواقع العلمى. يتضح هذا الربط بشكل أفضل فى الفصل الذى تضمن النصائح الموجهة للملك حيث نجد شرحا لما يجب على الملك اتباعه للوصول إلى أخلاقية منتجة فى ضوء ما تم تنظيره فى الفصول السابقة. وكان مهيأ للماوردى أن يبتعد بذلك عن التجريد الفلسفى والوعظى للأخلاق، لولا الإسراف فى تطبيق نظرية الأوساط، الذى أوقعه أحيانا فى تكلف ممجوج.

فى الباب الثانى من تسهيل النظر بحث الماوردى قواعد الملك فقسمها إلى قسمين عريضين: تأسيس وسياسة. يتناول القسم الأول أسباب نشوء الدول وعوامل بقائها ـ المقصود هنا انتقال السلطة من يد إلى يد ـ أى نشوء الدولة على انقاض دولة أخرى وليس نشوءها ابتداء. وقد حصر أسباب التأسيس والدوام فى ثلاثة:

الدين. القوة. المال.

وعنده أن الدولة التى تقوم على الدين أقوى وأكثر دواما. وساق للبرهنة على ذلك فروضا متكلفة لايبدو أنه اضطر إليها إلابسبب العلاقة التى تجمعه بالدين بوصفه فقيها. أما القوة فتظهر بها الدولة الجديدة حين تتعرض الدولة القائمة للانحلال أو ينتشر فيها الظلم فيحدث فيها ثغرات ينفذ منها الطامعون. إن القوة الكافية لإقامة دولة تتطلب جيشا يجتمع فيه ثلاثة خصال: «كثرة العدد، شجاعة، قيادة مسموعة الكلمة». والاستيلاء على الملك بالقوة، يجعله

قائما على القهر ولكن إذا عدل أصحابه في الرعية وأحسنوا السيرة فيهم صار ملكهم ملك تفويض وطاعة. يعني ملكا يستند إلى رضا الناس كما لو أنهم اجتمعوا فقرروا تفويض الملك للقيام بشؤونهم، نيابة عنهم. وبغير هذا الشرط يكون ملك القهر كالحكم الذي يقوم على البلطجة يصفه الماوردي بأنه «جولة توثب ودولة تغلب بيبدها الظلم ويترتب عليه هلاك الرعية وخراب البلاد» وهي نفس النتائج التي ترتبت على أي حكم تديره زمرة من الأشقياء. أما تأسيس الملك بالمال فيتم بأن يكون ذو المال مخالطا للسلطة فيستعمل أعوان الملك بالبذل لينحازوا إليه. ولايتم ذلك إلاعند ضعف الدولة وفساد الأعوان. والملك الذي ينتقل بالمال قصير المدة لعدم الثقة بأعوان يعتمد ولاؤهم على استمرار البذل لهم. ولكن هذا الملك يمكن أن يدوم إذا اقترن بسبب يقتضي ثبوته.

هذه الوجوه الثلاثة لانتقال الملك يقابلها عند أرسطو ثلاثة عوامل تقف وراء الانقلابات السياسية في نظام الحكم الفردي، وهو نفس النظام الذي يستمد الماوردي ملاحظاته منه. والعوامل هي:

١. **فظاظة الحكام.**

٢. **تحقير المرؤوسين.**

٣. **طمع المرؤوسين في الحكم والثورة.** أما في الحكم الملكي المقيد بشريعة فالانقلاب يحدث على أحد وجهين: الأول خروج أعوان الملك على طاعته والثاني تحول الملك إلى طاغية بتعطيله للدستور. وبالمقارنة نرى الماوردي وأرسطو يعطيان للحاشية دورا اساسا في الانقلابات ولكنهما يفسحان في نفس الوقت مجالا لتأثير العامة يعبر عنه الماوردي بجعله ملك التفويض أكثر دواما بسبب استناده إلى رضا الناس، وعند أرسطو ما قرره بشأن السبب الأخير للانقلاب الذي يتعرض له الحكم الملكي حين يخرج الملك على الشريعة ويتحول إلى طاغية. ويعني ذلك ، إذا استخدامنا تعبير الماوردي، تحول ملك التفويض إلى ملك قهر. أي إلى طغيان.

سياسة الملك تتألف من أربع قواعد:

عمارة البلدان: التنمية والإعمار.

حراسة الرعية: رعاية شؤونها.

تدبير الجند: الدفاع

تقدير الأموال: السياسة المالية.

في شرحه للأولى قسم البلاد إلى نوعين: مزارع أي أرياف، وأمصار أي مدن. والمزارع هي الأصل الذي تقوم عليه حياة الدولة. وهي عنده مقياس الرخاء، فأي بلد انتعشت زراعته اكتفى بنفسه فلم يحتج إلى أحد وإنما يحتاج إليه الآخرون فيكون في وسعه اجتلاب المزيد من الاموال لقاء ما يصدره من المنتاجات الزراعية. وللريف على الملك ثلاث حقوق:

١- توفير وتنظيم المياه. ويلحق بهما توزيع المياه بالعدل ومنع التحكم فيها من ذوي السطوة.

٢- حماية المزاعين من العدوان والعسف لكونهم مطمع أنظار المتسلطين، حتى ينصرفوا إلى أعمالهم آمنين ولايتشاغلوا بالدفاع عن أنفسهم فيهملوا زراعة الأرض وعمارتها.

٣- تقدير الضرائب عليهم وفق الشرع والعدل مع التخفيف عنهم قدر الإمكان. ويعني هذا من جهة تجنب فرض الضرائب الاعتباطية، ومن جهة اتباع الرفق في الجباية. والسلطة التي لاتلتزم هذه القواعد هي ولاية قهر خارجة عن سيرة الإنصاف.

أما الأمصار فتحتاج إلى ستة شروط:

توفر المياه العذبة. توفر مصادر الميرة. صلاح البيئة. القرب من المراعي وغابات الاحتطاب. الموقع الحصين. وجود أرياف محيطة بالمدينة لتموينها بالغذاء. وهذه الشروط تختص بموقع المدينة. أما تأسيسها فيراعى فيه:

- توزيع المياه بطريقة يتسير الحصول عليها دون عناء.
- تقدير الطرق والشوارع بمقاييس تجعلها من السعة بحيث لاتثير مشكلة مرور لأهلها.
- بناء المساجد الكافية للصلاة.
- بناء الأسواق
- أن يراعى في إسكان أهل المدينة توزيعهم على مجموعات متجانسة.
- تسوير المدينة وتخصيص باب لضبط الداخلين والخارجين منها الأغراض الأمن.

ـ أن ينقل إليها من أعمال أهل الصناعات والعلوم ما يسد حاجة أهلها إلى هذه الأشياء.

وإذا أراد الملك أن يتخذ المدينة مقرا له فعليه أن يسكن فى طرف فسيح منها ويجعل حوله حاشيته وأمراء الجيش ويفرق الحراس فى بقية الأطراف لحمايته من كل الجهات. وعليه بعد ذلك أن يسكن عامة أهل المدينة فى وسطها لتوفير الحماية لهم. وقد نصحه أن لايظهر للعامة كثيرا حتى لايلين فى أعينهم.

لاحظ الماوردى أن المدن على نوعين: زراعية، وتجارية. والأولى أفضل لأن مواردها موجودة فيها. واشترط أن تبنى المدينة الزراعية وسط المنطقة المزروعة حتى تتساوى الطرق الموصلة إليها من جميع الأطراف. ومن مزايا هذه المدينة أن أهلها إذا نالهم حيف من داخلها تفرقوا فى ريفها فعاشوا فيه وإذا نال أهل الريف حيف لجأوا إلى المدينة فأمنوا فيها. وهكذا يكون كل واحد منهما ملاذا للآخر. أما المدينة التجارية فتلائم مطالب الملوك أى أنها للترف والزينة وليس لإنتاج المواد ـ يلمح الماوردى بهذا إلى أن التجارة من الأعمال غير المنتجة ـ وأسلوب بناء هذا الطراز من المدن يجب أن يتماشى مع طبيعة النشاط الاقتصادى فيها.

إن الكلام على هذه القاعدة ـ عمارة البلدان ـ يشغل الجزء الأكبر من هذا الفصل، فهى الغرض المقصود من تأسيس الملك. أما القواعد الثلاث الأخرى فهى لواحق يقتضيها التطبيق الأمثل للقاعدة الأولى. ولكن القاعدة الثانية وهى حراسة الرعية تستمد أهميتها من الوجوب العقلى للعدالة فضلا عن ضرورتها لاستقامة الدولة. وقرر الماوردى للرعية حقوقا على الملك لاتتجاوز فى مجملها المقدار الذى حدده المنصور فيما سبق، وما وصل إليه التطور السياسى لمفكرى البورجوازية فى العصر الحديث. أما القاعدة الثالثة فهى تدبير الجند، والمطلوب فيها أن يتفرغ الجند للجندية مع تعليمهم فنون الحرب التى هى صناعة تجمع بين العلم والعمل. وأوجب الإنفاق على الجند بما يكفيهم واشترط لهم حدا وسطا فلا يزيدهم لئلا يصرفوها فى وجوه الفساد ويستغنوا بها فيتقاعسوا عن واجباتهم ولاتنزل عن قدر الحاجة فتشره نفوسهم إلى أموال الرعية أو تدفعهم إلى الخيانة. ودعا الملك إلى العناية باستخبارات الجيش لئلا يغيب عليه شئ من شؤون وتصرفات أفراده. ثم لفت النظر إلى أن سياسة الجند من أصعب ما يعانية المدبر للدولة لأنهم أداة البطش والقهر لديه مما يستدعيه أن يسوسهم بالحزم حتى ينقادوا له والاصار مقهورا لهم. وتشير هذه الالتفاته إلى واقع التغلب العسكرى على الخلفاء منذ مقتل المتوكل.

القاعدة الرابعة تخص السياسة المالية. وينص الماوردى على تقدير الاموال كمهمة أساسية للسلطة ولكنه يعترف بصعوبتها لأن الملك يرى بسبب قدرته إمكان بلوغ كل غرض بأية وسيلة يختارها مما يبعث على الاختلال. إن السياسة المالية الحكيمة تقتضى مبدأين:

الأول تقدير الدخل أى الإيردات. ويشترط لاستقامته أن يكون مقيدا بما نصت عليه الشريعة بلا زيادة أو نقصان.

الثانى تقدير الخرج، أى المصروفات، ويخضع هذا لاعتبارين هما المطلوب والممكن، حتى لايقع تعسف فى الإنفاق يعجز عنه الدخل. وقاس حال الدولة على ذلك فأوضح أن الملك الذى يزيد فيه الدخل على الخرج هو الملك السليم لوجود احتياطى للنوائب تأمن الرعية به من التعدى إلى أموالها. أما الملك الذى يقصر فيه الدخل عن الخرج فهو الملك المعتل. وصاحب السلطة يضطر فى هذه الحالة إلى مخالفة لوازم الشرع وقوانين السياسة فى جباية الأموال فيهلك الرعية، وقد يقتدى به العسكريون فلايقوى على منعهم.. هناك حالة ثالثة يتكافأ فيها الدخل والخرج وفيها تكون الدولة سليمة الأوضاع فى زمان السلم ولكنها تختل إذا دهمتها الحوادث من حروب وغيرها. وعلاج هذا الوضع يكون بإحسان الملك إلى رعيته وعدله فيهم فى الظروف الاعتيادية حتى يكونوا له عونا إذا اختلت أموره. لأن استعداد الناس للتضحية من أجل السلطة يكون رهنا بالمكاسب التى وفرتها لهم.

يواصل الماوردى سرد قواعد السياسة الناجحة فيتحدث عن أعوان الملك مبينا أنهم كأعضائه التى لايتحرك إلابها. فعليه أن يحسن اختيارهم من الكفأة المخلصين وأن يعمل على تهذيبهم ومراقبتهم. ولما كان الكفاة أقلة فعلى الملك أن لايضيعهم وأن يختارهم دون النظر إلى أنسابهم أو ما ضيهم فى السيادة والجاه فإذا نفرت النفوس من صعودهم المسرع فعلى الملك أن يدرجهم فى الرتب حتى يتعود الناس عليهم. ثم بين مراتب الكفاة فحصرها فى أربعة: الوزراء القضاة، قادة الجيوش، موظفى الخراج. واستطرد فى وصف ما يجب أن يتوافر فى أصحاب هذه المراتب من المواصفات. ثم ذكر مراتب أخرى أوصى الملك بالتعامل معهم بحسب منزلتهم منه فى الخدمة وحثه على مراعاة الحدود الطبقية فى ذلك، والماوردى كما نعلم رجل دولة وعضو فى الأرستقراطية الحاكمة.. ثم اقترح على الملك أن يكتفى بعدد مناسب من الأعوان فلا يستكثر منهم لأن الاستكثار بعد الإكتفاء تضييع للمال. إلاأنه استدرك

فنصحه بعدم تضييع ذوى الكفاءة فإذا وجدهم ولم يجد لهم عملا فعليه أن يدخرهم لوقت الحاجة. ولم يضع خطة للطريقة التى يدخر فيها الأعوان. هل يحفظون كما تحفظ الأموال إلى أن تحين الحاجة إليهم؟وكيف يتعامل معهم أثناء عطالتهم؟

يعقد الماوردى بعد ذلك فصلا للنوائب التى تصيب الملك فصنفها إلى صنفين: فساد الزمن وتغير الأعوان. والأول على نوعين: ما يحدث عن أسباب إلهية وما يحدث عن عوارض بشرية الأولى هي الأقدار. والماوردى كرجل دين يؤمن بالإرادة الحرة للخالق أو مايسمية صدر الدين الشيرازى الإدار ة الجزافية. وهو يعتقد، كما يفهم من تسلسل آرائه في هذه المسألة، أن الله يتدخل في أمور الملك مباشرة فيمتحنه ببعض النوائب. ولمواجهتها يوصيه بأمرين: أن يصلح سريرته وسرائر رعاياه، يعنى أن يتدارك أخطاءه ويصفى نيته. وفى هذا الصدد يدلى بحديث نبوى يقول:« إذا جارت الولاة، قحطت السماء» . فما يصيب الملك من البلاء قد يكون نتيجة لجوره في الحكم مما يستجلب معه غضب الخالق.. نود أن ننبه القارئ إلى أن الماوردى تفصيلا يستشهد في مؤلفاته الدهائية والاجتماعية بأحاديث مرفوعة إلى النبي لاتوجد في مصادر الحديث المعتمدة ودون أن يعنى بالتأكد من صحة الحديث لأنة لايتوخى في هذه المؤلفات غرضا تشريعا.. الأمر الثاني أن يواجه القدر برباطة جأش لأن القدر كالعاصفة إذا هبت وجب عدم معاكستها حتى تمر. ولا يعطى الماوردى تفصيلا للنوائب التى تنزلها السماء بالملك.

أما العوارض البشرية فتحسم بحسم أسبابها ولكن بعد الوقوف على السبب الحقيقى. وهو أصعب ما في هذه السياسة. ويتعين على الملك أن يعيد النظر في سياسته إذا تبين له أن العوارض حدثت بسببها، فإذا كان ذلك قد حدث عن شدة وعسف منه تراجع اللين والعطف، وإذا كان قد حدث عن تهاون عالجه بالشدة. والأسباب تحسم بأضدادها كما تعالج الأمراض بمضاداتها من الأدوية.

هذا عن فساد الزمن، ونأتى إلى تغير الأعوان فنراه مردودا إلى أحد أمرين: أن يكون تعدى إليهم من الخارج إما لتقصير من الملك بحقهم وعدوان منه عليهم وإما لإغراء وقعوا في شباكه. ويجب صد الأخير بالحزم والحذر وبسياسة يمتزج فيها الإغراء والإرهاب. أما التقصير والعدوان فالملك مسؤول شخصيا عن إزالتهما.. الحالة الأخرى من تغير الأعوان هو ما يحدث

لفساد في ذواتهم أى لتغير في ولائهم بسبب من الأسباب غير ماذكر آنفا، وهو أخطر من الأول، وإصلاحه وحسم دواعيه يتقرر بموجب قواعد السياسه في تدبير الدولة. والدولة تساس بثلاثة أمور، القوة والرأى والمكيدة. ولكل من هذه أحوال تستخدم فيها، ففى بداية الدولة حيث لم تتوطد أركانها بعد يمكن الجمع بين هذه الأمور الثلاثة بينما يمكن الاستغناء عن المكيدة عند استقرار الدولة ويكتفى بالقوة لحفظ قواعدها المستقرة، وبالرأى الجامع للسياسة العادلة.. والأخير يجب اتباعه فى تدبير الرعية فى الأحوال الاعتيادية، فإذا اضطربت الأمور وفسدوا فتستعمل القوة لردع المفسدين إلى جانب الرأى. ولايجوز استعمال المكيدة مع الرعية في أى حال. ولكن يجوز استعمالها مع الحاشية وأعوان الملك. ويعطى الماوردى تفصيلات دقيقة عن الأساليب التى يلزم اتباعها مع هؤلاء وفق الحالات التى يكونون عليها. ويرجع اهتمامه بهذه المسألة إلى تفاقم دور الحاشية فى المرحلة التى عاصرها من الحكم العباسى، ومن المؤكد أنه كان يتوخى أن يضع بين يدى الخليفة، الذى كان الماوردى من رجاله الخلص، أسسا صالحة لاستخدام الأعوان والسيطرة على نشاطاتهم.

ويكتب عن الولاة فيوصى باختيارهم من أهل البيوتات وأن يمتنع عن استخدام العوام فى أعمال الحكومة. وهو بذلك يناقض نفسه فقد مر بنا قبل قليل وصيته فى استخدام الكفاة دون النظر إلى مكانتهم. ثم أوصى بعدم تنقيل الولاة. فما دام الوالى مرضى السيرة وجب إقراره فى عمله، لأنه إذا علم أن مكثه فى عمله قليل عمل لسوق يومه واحتجن[1] الأموال تأهبا لليوم الذى يخرج فيه من عمله. فإذا كان مطمئنا إلى بقائه فى منصبه نظر المزارعين فى زرعهم يفكر في إصلاحه ولايعالجه قبل أن ينضج! وحث الملك على عدم محاسبة موظفيه على مااكتسبوه فى وظائفهم لأنهم قد يكتسبون بحكم المنصب من مباحات الوجوه مالاتبعة فيها عليهم[2].

تحدث الماوردى بعد ذلك عن الاستخبارات فأوجب أن يضع تحت طائلتها الرعية والحاشية

---

(١) احتجن: تؤدى هنا معنيين فى وقت واحد هما الابتزاز والاكتناز.

(٢) حرم مسلمو صدر الاسلام كسب المسؤولين حتى من الوجوه المباحة كالهدايا. واعتبر السبب الذى جعله الماوردى وجها للكسب المباح مناطا للتحريم لأن مايكسبه الموظف بفعل مركزه الرسمى داخل فى باب الغلول. وقد أشار الطرطوشى فى«سراج الملوك» إلى مشاطرة عمر بن الخطاب لعماله، أى مصادرة نصف أموالهم، وقال تعليلا لها: كأن عمر رأى ما أصاب العامل من غير رشوة وان كان حلالا فلا يستحق ذلك لأن له بالأمرة بالقوة على أن ينال من الحلال مالايناله غيره..

والموظفين. ويبرر ذلك بأنه لايقدر على رعاية قوم تخفى عليه أخبارهم،فربما خفيت عليه أمور من الفساد والخيانة تفضي إلى انحلال الملكة. وربما شجعت غفلة الملك على حبك أسباب الكيد ضده فتقوى المؤامرات ويشتد خطرها. وأفضل طريقة للاستخبار هي التي تعتمد على ضربين من المخبرين؛ مكشوف ومستتر أي علني وسري. وسيساعده ذلك على أن يكون معروفا باليقظة فتأمن الرعية إلى حسن حراسته لها كما يتهيب أعوانه فعل الشر خوفا من الافتضاح. وحث الماوردي على متابعة تقارير المخبرين وقراءتها بإمعان لأنها تقدم؛ إلى جانب قيمتها الاستخبارية، فوائد وغرائب لاتخلو من متعة وموعظة.. والاستخبارات يجب أن تمد إلى سائر أنحاء المملكة وإن كانت عناية أكبر يجب أن تصرف إلى البعيد عن العاصمة لأن بعد الدار إذا رافقه قلة الاستخبار يبسط أيدي الظلمة في الرعية والمملكة ويعرض كلتيهما لخطر التآمر والكيد، وربما أفضى ذلك إلى فسادهم في الطاعة، وكثير من العصيان يبدأ بإهمال الملك واسترسال الأعوان في مخالفتهم. ولايصح أن يقتصر الاستخبار على فئة دون أخرى من الأعوان فتهمل مراقبة الصالحين منهم تعويلا على حسن الظن بهم لأن الأمناء عرضة للتلقب.

ينبغي القول إن تشديد الاستخبارات إلى هذا القدر يتناسب مع حاجة الحكم الا ستبدادي والفردي. لأن المستبد يواجه باستمرار خطر التآمر، ربما بسبب انفراده بمزايا السلطة مما يثير عليه الطامعين، الذين يجدون عنده نفس المؤهلات ولايملكون في مقابلها نفس المزايا، وربما أيضا بسبب الحاجز الذي يضعه الحكم المستبد بينه وبين الشعب بما يجعل من العسير معرفة ما يعتمل في داخله من رغبات ونوايا بغير الاستخبارات. وقد علمتنا تجارب السياسة المعاصرة أن جهاز الاستخبارات يتسع في الأنظمة المعزولة عن الشعب، لاسيما تللك الأنظمة ذات النهج القمعي الفاشي التي يدفعها الشعور بالعزلة والخوف الدائم من السقوط إلى توسيع الاعتماد على أجهزة القمع والتجسس. على أن الماوردي وهو يدعو إلى تنشيط الاستخبارات لايظهر ميلا إلى تشديد القمع.، وقد بدا وهو يتحدث عن هذا الموضوع مهتماً بتيقظ الملك كشرط للمحافظة على حكمه من العبث. وطبيعي أن اليقظة في حكم فردي تعتمد، حصرا، على جهاز الاستخبارات. وقد أخضع الماوردي ضرورة هذا الجهاز لاعتبارين: الأول ما يسمية حقوق الاسترعاء أي مطالب الوضع الداخلي بما في ذلك حماية الرعية. وهو المقصود بحقوق الاسترعاء. الثاني ما توجبه حقوق السياسة وهذا يشمل التجسس على ما تاخم المملكة من

دول، ليس فقط على سبيل التيقظ ضد النوايا السيئة للجيران وإنما أيضا لأن صلاح هذه الممالك وفسادها يسريان فيما جاورها.

نقرأ بعد هذا فصلا للبحث في شئون العملة، يوجب فيه على الملك أن يحافظ على عيارات النقود من الدراهم والدنانير فلا يسمح بغشها. ونهاه عن إلزام الناس بقبول النقود المغشوشة لأنه يحملهم على ترك التعامل بها إلى الذهب والفضة الخالصين. ويعني ذلك استهلاك أصول الأموال مع ضعف القدرة الشرائية إلا لعدد محدود من الناس هم أرباب الأموال الجمة. وفساد النقد يفضي إلى فساد أمور المملكة. هذا مادل عليه العرف. ولايتم للدولة شئ من الازدهار والطمأنينة بغير استقرار قانون الأخذ والعطاء.

تكلم الماوردى عن الضرائب وهو فى صدد الحديث عن النقود فحذر من زيادتها عما أوجبه القانون الشرعي. أو من فرض ضرائب لم ينص عليها. وكانت السلطة الاسلامية

قد اتبعت هذا الخط منذ الأمويين فتصرفت في نسب الضرائب المقررة، كما فرضت ضرائب جديدة شملت المزارعين وأهل المدينة. وتعرف ضرائب المدن غير المنصوص عليها فى الشريعة باسم المكوس. وقد جوبهت هذه السياسة باستنكار من قبل المعارضة السياسة كما أدانها الفقهاء. ويجد القارئ فيما يلي وصفا للأوضاع الناجمة عن التعسف فى فرض الضرائب يبدو أنه مستمد من واقع الحال. وقد لفت الانتباه إلى أن زيادة الضرائب تستلزم العنف لتحصيلها لأن الناس لايدفعونها عن طيب خاطر مما يترتب عليه نفور الرعية من الحكم، مع اشتطاط الموظفين الذين يجدون فى مثل هذه الأحوال فرصا للكسب الحرام. وينتهى هذا كله إلى عكس المطلوب وهو نقص حصيلة المأخوذ من الضرائب، وذلك بسبب المماطلة فى الدفع مع ما يلحق الزيادة فى الضرائب من انفتاح أبواب جديدة للصرف يؤدى إلى زيادة النفقات فى مقابل الزيادة الحاصلة فى واردات الضريبة.

تشغل خصومات الملك حيزا مهما من تسهيل النظر. ومن رأى الماوردى أن على الملك مداهنة الأعداء قبل مكاشفتهم بالخصومة. ودعاه إلى دفع الحرب بالمكيدة ما استطاع سبيلا إلى ذلك لأنه فى المكايد لايخسر ألا الأموال وبالحروب يخسر من الأرواح. وقسم الأعداء إلى ثلاثة أصناف أعطى لكل منها نوعا من التعامل بسبب حظه من القوة، فأوصاه، بانتهازية مكشوفة، أن يلاطف ويلاين الأقوى وأن يتطاول على من هو أضعف منه وأن يقارب ويسالم

من يكافئه فى القوة.. فإذا لم تنفع المداهنة نظر فى أمر الحرب فدرس ما يتوقعة من نتائج الفوز والخسارة ليضع خطته فى ضوئها. وهو يبنى التوقع على ثلاثة احتمالات تتصل بسيرة الملكين المتخاصمين:

١ـ أن يكون الملك أعدل.

٢ـ أن يكون عدوه أعدل.

٣ـ أن يتكافآ فى العدل.

والعدل هو العامل الحاسم فى ترجيح كفة أحد الخصمين. ويؤخذ من تعليله لذلك أنه راجع أولا إلى القيمة الذاتية للعدل بوصفه من أركان القوة الروحية. ثم إلى موقف الرعية من الملك فإذا كان عادلا وقفت وراءة فى حربه وإن كان جائرا خذلته وربما نصرت عليه خصمه. ولذلك يجب على الملك أن يخوص الحرب بلا تردد إن كان واثقا من عدله ومن حب رعاياه. والاوجب عليه التروى ودفع الحرب بالكيد والحذر. أما عند التكافؤ بين الملكين فى العدل فقد أدلى بتحليل مبهم يقول فيه إن الزمان فاسدا مالت احتمالات الظفر يكون إلى جانب الملك الذى أعوانه أصلح وإذا كان الزمان فاسدا مالت احتمالات الظفر إلى من كان أعوانه فاسدين، بسبب المناسبة بين الزمن والأعوان فى الصلاح والفساد. وفكرة صلاح الزمان وفسادها من الأفكار الغامضة التى ترددت فى الفكر الاسلامى دون أن يكشف عن مقاصده. وقد استخدم تعبير الزمان فى اصطلاحات فضفاضة تشمل المجتمع والسياسة وأخلاق الناس مقترنة فى الغالب بتعلقات غيبية تضفى على الزمان معنى مقاربا للقدر أوأشد غموضا منه. ومن العسير أن نستخلص أى مغزى من الطريقة التى استعمل بها الماوردى هذا الاصطلاح، وإن كنا نلمح من بعيد فكرة قلقة عن التناسب بين الظروف وأسلوب العمل. ويبدوا أن ما يعنية القول بأن الملك فى الزمان الفاسد يحتاج إلى أعوان فاسدين لكى يكسب النزال مع خصومه.

يختتم كتاب تسهيل النظر بفصل يحث فيه المؤلف على مراعاة المبادئ الدينية وتقريب علماء الدين. وتختلف هذه الدعوة فى جوها عن الدعوة التى تكررت فى الفصول السابقة من الكتاب إلى التقيد بأحكام الشريعة. فالأخيرة تهدف كما بينا مرارا إلى توفير قواعد دستورية تحكم الدولة بموجبها وتمنع الملك من إدارة ممتلكته وفقا لمزاجه الشخصى. أما مراعاة الدين فتهدف إلى تأكيد الصفة الدينية للدولة. وهى تتمثل، تطبيقا، فى رعاية، رجال الدين والمؤسسات الدينية والسهر على شؤون العبادة.

نصيحة الملوك

هذا الكتاب لايزال مخطوطا كسابقه. وهى ضمن مجموع يحتوى على كتاب معيد النعم للسبكى وعلى هامشه سلوك المالك لابن أبى الربيع. وتقع مخطوطة نصيحة الملوك فى ٩٨ ورقة مكتوبة بخط جيد يرجع تاريخ نسخه إلى عام ١٠٠٧ هجرية.

هذا الكتاب يشترك مع تسهيل النظر فى الموضوع ويجرى الماوردى فى ذلك على سنن المؤلفين القدماء فى تخصيص أكثر من كتاب للموضوع الواحد. على أن الكتابين لا يتفقان فى التفاصيل وإن اتفقا فى الموضوع إذا يغلب على نصيحة الملوك روح وعظى استغرق حوالى أربعة من مجموعة أبوابة العشرة. وتأتى المواعظ هنا كما لو كانت استكمالا للقضايا الأخلاقية التى طرحت فى الباب الأول من تسهيل النظر إلا أنها تميزت بنكهة دينية مفرطة. وقد استخدم الماوردى أسلوب الوعاظ واستعار الصور البلاغية المتداولة فى أوساطهم فجاءت مواعظه مملة وقاتمة. على أننا لانلبث أن نعثر فى أبواب الكتاب الأخرى على مادة سياسية لاتخلو من الجد. وقد كرس الباب الثالث لمحاولة جريئة فى تفسير انحلال الدول أقامها على فرضية التماثل فى أحوال الأمم والممالك وخضوعها لقانون واحد يحكم نشوئها وسقوطها. ولكى يثبت الماوردى فرضيته أسقط التجربة الإسلامية ـ فى حدود فهمه لها ـ على سائر الحالات فقال إن جميع الدول تبدأ بدعوة دينية تدعو إلى عبادة الله وحده. ثم يقع الاختلاف بين أهل الملة بعد وفاة مؤسسها وتميل بعد ذلك إلى الدنيا وتنزع إلى الشهوات مما يفتح عليها أبواب الصراع والتنافس المؤديين فى النهاية إلى اضمحلال الدولة. ويشير الماوردى الانتباه فى هذا الصدد إلى عاملين فى انحلال الدول يتمتعان بصفة أكثر شمولاً هما: ولايه العهد، التى تدفع إلى السلطة بملوك غير أكفاء لمجرد كونهم من أبناء الملك السابق. ويربط الماوردى بين ظهور ملوك من هذا النمط وبين الفساد والاختلال اللذين يعرضان للدول. أما العامل الثانى فهو خوف الملوك من النقد السياسى، الذى يدفعهم إلى تقريب المنافقين والمتزلفين وإبعاد الحكماء المناصحين لهم. وينجم عن ذلك وقوع الملك فريسة أهوائه وأخطائه التى تتفاقم فتضع الدولة على حافة الانهيار. ونستطيع أن نؤكد أن هذا المبدأ يحتفظ بقيمته إلى الآن بل هو أكثر معاصرة مما كان عليه فى أى وقت مضى. وقد لاحظ هارولد لاسكى، المفكر، السياسى الإنجليزى فى كتاب «أصول السياسة» أن الحكومة تستطيع أن تستفيد دائما من نقد

خصومها أكثر من مدح مؤيديها وتقريظهم، وهى إذ تخنق ذلك النقد تكون النتيجة النهائية على الأقل أنها تمهد السبيل لهدمها. والواقع أن هذا ما يحدث فى جميع أنظمة الحكم الفردى، وما يماثلة، وهو ميزة ملازمة للاستبداد.

ويحتوى الباب المكرس لسياسة الخاصة على وصايا بشأن العناصر المختلفة من الحاشية. وفى فصل عن أولاد الملك أورد مبادئ تربوية قال إنها تلزم الملوك فى شأن أولادهم. وقنن الأصول اللازمة للتصرف مع الحاشية والأعوان والموظفين ولكيفية اختيارهم للمهام التى تناسب مؤهلات كل منهم وبين للملك أنه لن يجد من الناس الكامل فى كل الأمور فعلية أن يختار لكل عمل من هو أصلح له وأسد لمسده وإن كان فيه تقصير وتختلف من جهات أخرى، وأن لايمتنع عن استعمال ذوى المعايب إذا كانت لهم كفاءة فى موضوع ما. وأوصاه أن لايستكثر من الموظفين، وقد سبقت هذه النصيحة فى تسهيل النظر وعللها هناك بالاقتصاد فى النفقات أما هنا فلمحذورين: الأول أن الموظفين إذا كثروا زادت المشاكل المترتبة على أعمالهم من مكاتبات وكتب وتفتيش وشكايات منهم أو عليهم مما يشغل الملك عن أمور كثيرة أهم وأجدر بأن ينشغل بها. والماوردى يضع بذلك يده على إحدى الأزمات التى يثيرها تضخم الجهاز الإدارى فى الدول المتخلفة حينما ينتقل من كونه وسيلة لتصريف شؤون الدولية إلى مشكلة معقدة تفرض تفرعاتها على أجهزة الدولة من أعلاها إلى أسفلها.. الثانى إلى أن كثرتهم مانعة من ظهور الصلاح فى جهاز العمل لأن كثرة العاملين مع القلة فى عدد الأمناء والكفاة تعنى زيارة فى عناصر الفساد والخيانة.

فى الباب المكرسى لسياسة العامة رفع الماوردى شأن الرعية ودورها فى المملكة إلى مرتبة متميزة من ين سائرى القوى الفاعلة فيها. فالرعية مصدر قوة الملك. وهى لدى المقارنة بقوة جنوده وأعوانه أقوى. كما لوقورنت أيضا بقوة أعدائه. فالخطر الناجم عن معاداة الرعية أدهى من الخطر الخارجى. ثم إن الدولة تكتسب تقدمها وهيبتها من صلاح الرعية وانتظام أمورها. وبالعكس كلما كانت حالة الرعية خسيسة متردية كانت المملكة أخس شأنا وأندر دخلا. ولكى يتم التنسيق بين مصالح التقدم فى المملكة وبين انتظام الرعية ثمة خطوط عريضة يتعين على الملك العمل بموجبها. وقد اشتملت جملة من هذه على التقيد بأحكام الشريعة، وعنى فى أثناء النص على ذلك بتأكيد سلطة القضاء وتوسيعها لتشمل الملك نفسه إذ دعاه إلى قبول

التقاضي مع أي فرد من رعاياه، على أن يكون أمام القضاة في منزله واحدة مع من يقاضيه. وضرب له أمثلة من سيرة الخلفاء الراشدين. ولم ينس الماوردي مركزه كرجل دولة فدعا الملك إلى معامله الناس بحسب طبقاتهم، ورغم أنه قيدها باعتبارات عملية فدعا إلى مراعاة ذوي الكفاءة والنجدة فإن المنزلة الرفيعة تبدأ عنده بأولاد الملوك والأشراف وذوي الأنساب ورجال الدين، ثم الفصائل التي تليهم من الدهاقين والملاك والتجارة ومن دونهم. والتناسب مفقود بين التدرج بحسب هذه الطبقات والتدرج بحسب الكفاءة لإن الأخيرة لاتخضع للحدود الطبقة.

من قواعد انتظام أمور الرعية أن يتعرف الملك أحوالها. ويقتضي ذلك تقوية جهاز التجسس ـ الاستخبارات. ولكن من المعلوم أن هذا الإجراء يخدم الملك دون الرعية، التي تكون في العادة الضحية الأولى للجهاز المذكور. ومن دون أن يلتفت الماوردي إلى تناقضه أوضح في شرحه لكيفية الاستفاده من الاستخبارات أن في الرعية أنماطا من الناس لايحملون نوايا طيبه للملك وهؤلاء هم الأعداء الداخليون الذين يعرفون مواطن الضعف في المملكة. فإذا أحكم الملك فعالياته التجسسية أمكنه معرفة هذه العناصر ومعرفة الأسباب التي حملتهم على مناوأته. وانتقل من هنا إلى سرد الأسباب المحتملة في مثل هذه العله. ثم أعطى وصفا لعلاج كل حالة على حدة. والغالب على هذه الوصفات أنها مكايد لاترخص بالقمع إلافي أحوال معدودة. والماوردي بوجه عام ضد الميول الإرهابيه للسلطه.

يلي بعد هذا، باب تدبير الأموال، وتتكرر فيه مطالبة الملك بعدم تجاوز ما قرره الشرع في الجباية والإنفاق. وقال إن الملك الحازم في كل عصر ومن كل ملة هو من يمشي على قوانين شريعته في هذه السياسة. ثم تحدث عن أخلاقية التصرفات الماليه فذكر البخل والجود والتبذير. وقد استخدمت هذه التعابير في البحوث الدهائية وفي المواعظ وفلسلفات الأخلاق دون تفريق بين ما إذا كان موضوعها ملكا أم فردا عاديا. ويرجع ذلك إلى أن الكتابة تجري هنا ضمن أجواء الحكم الفردي حيث يتخذ الحاكم صفه الرجل الذي يملك بين يديه أموالا طائلة يتصرف بها تبعا لمزاجه الشخصي. ويشترك في هذا المنحى كل من الدهائين المسلمين ومكيافللي، الذي كتب في الأمير عن البخل والجود بنفس الطريقة لأن أمير مكيافللي هو الآخر نموذج فردي. على أن الماوردي يفاجئنا بإعطائه معنى مغايرا لهذه المصطلحات آخذا بالاعتبار كون الملك رئيسا للدولة. إن هذا ما يستفاد من بعض عباراته التي تقول إن أدنى

منازل البخل أن يمنع المال سبيل الحق التى شرعها الدين، فالملك عنده يكون بخيلا إذا أخذ الأموال من غير حقها وأنفقها فى غير وجهها. أما التبذير فهو أن ينفق أمواله فى المحرمات من قبيل وسائل اللهو الشائعة فى قصور الحكام أو أن يكثر من بناء القصور أو يتخذ من الأثاث مالا يحتاج إليه. وبوجه عام فإن كل ما أنفق فى معصية الله مما يكسبه إثما أو ذما عند العقلاء فهو تبذير وإن قل، وكل ما أنفقه بخلاف ذلك فهو جود وإن كثر. ولاعلاقه لهذا التفسير بالغنى اللغوى أو الاصطلاحى لهذه المفردات.

يرد فى الباب التاسع حديث عن العلاقات الخارجية أوجب فيه أن يحل الملك خلافاته مع الملوك الآخرين بالطرق الدبلوماسية ـ المفاوضة واستعمال المكيد. وفى حالة التهديد بالحرب حذره من أن تستغل المفا وضة لزيادة قوة العدو ودعاه إلى عدم إتاحة الفرصة لمثل ذلك وقال إن الحرب إذا وجبت، أى إذا لم يجد عنها محصيا، فعلية أن لايتردد فى خوضها. واستطرد من هنا فاستقصى أصول الحرب التى إذا تقيد بها الملك ضمنت له الفوز.

فى الباب الأخير من نصيحة الملوك عرض لتصرفات الملوك المسلمين المنافية للشرع الإسلامى ووجهات نظر الفقهاء بشأنها. يبدأ العرض بمقدمة طويلة حلل فيها الأشياء حسب استعمالاتها ودرجات الضرورة فيها مع تبيان ما هو حرام أو حلال أو مشتبه منها والجهات التى ينصرف إليها استعمالاتها الشىء الواحد. ثم سجل وجهة نظره فى هذه المسألة فندد بإتيان الملوك للمحرمات المتفق عليها كشرب الخمر والزنا ولبس الحرير واستعمال أوانى الذهب والفضة. وأجاز الغناء بشرط عدم تطرقه إلى أمور محر مة كالحث على الفجور وأن يقتصر على ما هو نافع ومقبول من الكلام . ولم يعترض على لبس الألبسة الناعمة عدا ما هو داخل فى عددا الحرير كما تساهل فى مظاهر الأبهة فلم ير فيها حرجا مادامت تؤدى إلى إعزاز مملكة الإسلام. وبإجمال: اعترض الماوردى على المحرمات القطعية وأجاز مادونها. ويدخل فى قائمة التصرفات التى تسامح فيها مجمل ماكان شائعا فى زمنه فى أوساط ذوى السلطة. وبحكم مركزه فى الدولة، كان عليه أن يعطى المبرر الشرعى لتصر فات أولياء نعمته وهو ما هدف إليه من تخصيص هذا الباب، وإن كان ذلك لم يحل دون تسجيل تحفظاته بوصفه فقيها.

قوانين الوزارة

الكتاب الثالث للماوردى فى الدهاء هو قوانين الوزارة. وقد طبعته مكتبة الخانجى فى القاهرة سنة ١٣٢٩ بعنوان أدب الوزير. والكتاب صغيرالحجم يقع فى ٥٨ صفحة تناولت القواعد

والآداب المناسبة للوزير الناجح. والوزير عند الماوردى جامع لصفتي السائس والمسوس، فهو سائس للناس مسوس للملك مما يو جب عليه أن يعرف كيف يجمع بين الصفتين ويعطيهما حقها. وقد تحدث عن النوعين المعروفين للوزارة في العصر العباسي وهما وزارة التفويض ووزارة التنفيذ، فاستقصى الحدود القانونية لكل منهما ثم ذكر ما يستدعيانه من أصول الدهاء؛ فوزارة التفويض تجمع السيف والقلم فهي تشترط وزيرا يتمتع بالسطوة والمعر فة أما وزارة التنفيذ فتحتاج إلى الرأى والحزم، لأن وزير التفويض يقوم مقام الملك والخليفة أما الأخير فيعمل بمقتضى أوامرهما. وتترتب بالسطوة والمعرفة. أما وزارة التنفيذ فتحتاج إلى الرأى والحزم، لأن لوزير التفويض مهام ثقيلة لأنه مسؤول عن زيادة عمران الدولة وتكثير ثرواتها، كما أن عليه المساهمة في توسيع الدولة. وتدعو هذه الغاية إلى الحزم وربما اقتضت الحرب ولكن الأولى أن يلجأ الوزير إلى الكيد والاحتيال بدلا من المغامرة في الحرب. ويعبر الماوردى بذلك عن النزعة التوسعية للدول الكبيرة.

يتولى وزير التفويض أيضا مهمة الدفاع عن أمن المملكة وحمايتها من كيد الأعداء المنافسين في الداخل والخارج. والأعداء المنافسون ثلاثة أصناف: أكفاء عاقلون يجب مقاربتهم ومسالمتهم لكسب ودهم. وعظماء متقدمون يجب الحذر منهم مع ملاينتهم. وطامعون في السلطة وهؤلاء يردعون بالقوة. ولم أفهم معيار التفريق بين هذه الأصناف كما لم يكشف الماوردى بالتفصيل عن هوية كل صنف لكى نعرف من هي الفئات المعنية بهذا التصنيف.

والوزير مهما تكن صفته يحتاج إلى موظفين يكلفون بواجبات الدولة الرسمية. ولاختيارهم يؤخذ بنظر الاعتبار أن هناك أربعة أصناف من الناس:

خيرٌ عاقل. خير جاهل. شرير عاقل. شرير جاهل.

الأول يصلح لكل الأمور فيستعان به دون تحديد.. الثاني يصلح لأمور لاتتطلب علما. أما الثالث فيمكن الاستعانة به مع الحذر من مكره. والأخير لايجوز الاعتماد عليه البتة. ثم حدد شروط تعين الموظفين، وهي تختلف تبعا لنوع العمل، وذكر اختصاصتهم وصلاحياتهم كما تحدث عن عزل الموظفين فقيده ببعض الشروط ونهى عن العزل الكيفى، الذى قد يقدم عليه الوزير دون سبب معقول.

لاحظنا سابقا أن كتب الماوردى هي أفضل غرارات النظر الدهائى عند المسلمين. ويبدو هذا

المؤلف مع افتراض الثقة غير القابلة للشك فى أنه كتب بالفعل كل هذه المؤلفات، كاتبا سياسيا لامعا لاتقل براعته فى هذا الحقل عنها فى الفقه الذى يعتبر فيه من الأعلام المبرزين. على أن التأليف السياسى لم يتوقف عند هذا الكاتب الكبير فقد وصلت إلينا مؤلفات كثيرة من الأزمنة التالية يحتوى بعضها على ماده سياسية ثمنية. وقد اخترنا منها لهذا الغرض كتابين يتميز الأول فى أن كتابه من الملوك، أما الثانى فبمادته الشاملة التى تناهر، إن لم تفق، محتوى كتب الماوردى. سنبدأ بالكتاب الأول لنرى كيف يتحدث ملك مثقف بنفسه عن قضايا السياسة. والكتاب من تأليف السلطان موسى بن يوسف أبو حمو الذى حكم فى الجزائر من سنه ٧٥٣ إلى ٧٨٨ أو٧٩٢ على أختلاف الروايات. عنوانه «واسطة السلوك فى سياسة الملوك»» وقد طبع عدة طبعات فى كل من الجزائر وتونس واستنبول.. ذكر المؤلف فى المقدمة أن الغرض من الكتاب إيضاح قواعد السياسة الحكيمة لولده حتى تكون مرشد له عندما يستقل بالملك. والكتاب على أربعة أبواب:

الباب الأول فى قواعد الملك والوصايا والاداب والحكم المرشدة إلى الصواب.

الباب الثانى فى قواعد الملك وأركانه وما يحتاج الملك إليه فى قوام سلطانه.

الباب الثالث فى الأوصاف التى هى نظام الملك وكماله وبهجته وجماله.

الباب الرابع فى الفراسة.

وقد استخدم المؤلف تجاربة الشخصية كنماذج للسياسة ا لحكمية التى يتعين على ولده اتباعها. وأهم ما فى الكتاب هو الباب الثانى الذى بحث فيه قواعد الحكم وما يحتاج إليه الملك من الخصال لتستقيم أموره. وقد صنف الملك لهذا الغرض أربعة أصناف يبدو أنه استمدها من تاريخ الفرس والعرب وهى:

١ـ من له عقل يصلح به دنياه وآخرته ومثاله عمر بن عبد العزيز.

٢ـ من له عقل يصلح به دنياه دون آخرته ومثاله ملوك الفرس وبعض الملوك الحازمين من بنى أمية والعباس.

٣ـ من له عقل يصلح به آخرته دون دنياه. ولم يضرب له مثلا.

٤ـ من له عقل لايصلح به دنياه ولاآخرته ومثاله الواليد بن يزيد الأموى والأمين العباسى.

وأفضل الأصناف عنده هو الأول لأنه يمزج ين السياسة والتقوى ويراعى مقتضيات كل

منهما، فيقوم بأمور الدولة على الوجه المطلوب دون أن يشتط في سلوكه الشخصي عن القواعد المأمور بها في الشرع. وهذا النوع من الحكم يرجى له الدوام والانتظام. على أن القسم الثاني هو الآخر يكون ثابت الأركان طويل العمر رغم أن أصحابه ليس لهم دين ماداموا سائرين في السياسة على طريقة تستجيب لدواعي العدل والعمران. ويلاحظ السلطان أبو حمو أن الحكم يدوم مع حسن السياسة والفكر ولايصلح العكس، أي أنه لايدوم مع سوء السياسة والدين ولهذا السبب فالصنف الثالث ، أي الذي يصلح آخرته دون دنياه يؤول إلى خراب، وهذا هو الحكم الديني البحت. أما القسم الأخير فهو كالثالث لادوام له. وقال عن هذا النوع من الملوك بأنه يجوز على الرعية ويحدث الحوادث عليهم، يعني أنه يفرض عليهم التزامات غير شرعية من قبيل أن يرهقهم بالضرائب أو يرفع الأسعار أو يكلفهم أعمالا لاطاقة لهم بها. ومثل هذا الملك يحسن لمن أساء ويسيء لمن أحسن ويكل الأمور إلى غير أهل الكفاءة وهو في غالب أحواله منهمك في الملذات.

إن هذا التصنيف للملوك يتمتع بأهمية نسبية بمقدار تأكيدة على أولوية العمران والعدل ـ بصرف النظر عن المفهوم الفضفاض لهذا الأخير ـ مع تصريحه بالتعارض بين الحكم الديني البحت وبين متطلبات السياسة المدينة إلى حد اعتباره الأول من عوامل خراب الدول. ويبدو لي أنه لم يعثر على غرار لهذه الصنف من الملوك في التواريخ المعروفة لدية فنص عليه كافتراض منطقي ممكن الوقوع. على أننا نجد في هذا العصر أمثلة تطابق الوصف الذي ذهب إليه هذا السلطان المثقف. عاصرنا أنظمة حكم اعتمدت على الدين البحت ورفضت الاتصال بالدنيا فبقيت لذلك منعزلة عن مجرى الحياة ولم تأخذ بأي سبب من أسباب التطور. من هذا القبيل حكم أسرة آل حميد الدين في اليمين، وحكومة الدالاي لاما في التبت فعند هذه الحكومات يقترن المحتوى الديني الخالص للدولة بالتخلف الشامل في كافة وجوه الحياة تبعا لما أكده السلطان المذكور.

يعكس أبو حمو بهذه الملاحظات الثاقبة، بقايا الوعي السياسي للإسلام، الذي كان لايزال يحتفظ في زمانه ببعض الفاعلية. وفيما عدا ذلك لايجد القارئ أفكارا تتجاوز إطار الشخصي كملك مما يفقد الكتاب كثيرا من المزايا التي تمتعت بها مؤلفات الماوردي مثلا.

الكتاب الثانى عنوانه آثار الاول فى ترتيب الدول لكاتب غير مشهور هو الحسن بن عبد الله العباسى ألفه للظاهر بيبرس(٦٧٦هـ). وللكتاب طبعة قديمة في القاهرة غير مؤرخة. وقد جعله مؤلفه على أربعة أقسام ووزع كل قسم إلى أبواب. ولإعطاء فكرة عن اتساع موضوعاته أضع بين يدى القارئ فهرس الكتاب كما وضعه المؤلف:

القسم الاول: في الضوابط والأصول وقواعد المملكة. وأبوابه:

١ ـ في فضل الملك والحاجة الداعية إليه.

٢ ـ في أركان الملك ودعائمه وقوانينه.

٣ ـ في مجمع الملك وهيئاته وخصاله وأبهته.

٤ ـ فيما يجب للملوك على الرعية وللرعية على الملوك.

٥ ـ في حسن سيرته مع الملوك المجاورين والقبائل والأعداء والمعاندين.

٦ ـ في سيرة الملك مع أمراء دولته وأركان مملكته.

٧ ـ في سيرة الملك مع أهل الشريعة والعلماء والفقهاء والفضلاء.

٨ ـ في حسن سيرة الملك مع العباد والنساك وقبول نصائحهم.

٩ ـ في سيرته مع ذوى الشرف والبيوتات وإعانتهم.

القسم الثانى: في أصول الملك فى ذاته مع خواصه وخدمه. وأبوابه:

١ ـ في آداب الدخول علية ومخاطبته ومجالسته.

٢ ـ في أحوال الوزراء واختيارهم وما يجب لهم وما عليهم.

٣ ـ في كتاب الرسائل والدواوين وما لهم من الرسوم والقوانين.

٤ ـ في ولاة المظالم.

٥ ـ في أصحاب البريد والأخبار والعيون.

٦ ـ في الحجاب والنقباء والحرس والأعوان،

٧ ـ في ذكر رسل الملوك وصفاتها وهدايها وأتحافها.

٨ ـ في صحبة السلطان وشرائطها وما يحمد ويذم من ذلك.

القسم الثالث: فى الأمور المختصة بالملك وخواصه وحاشيته. وأبوابه:

١ـ فى هيئة الملك ولباسه وركوبه وجلوسه وانفراده بخصائص يتميز بها.

٢ـ فى آداب الأولاد والأقارب وحسن السيرة معهم.

٣ـ فى آداب خواص الملك معه فى جميع أحواله.

٤ـ فى أمر الحريم وسياستهن.

٥ـ فى سيرة الملك مع مماليكه والخدم وتفضيلهم.

٦ـ فى طعام الملك والأداب فيه.

٧ـ فى سماع تلاوة القرآن والمنادمة والمسامرة.

٨ـ فى مجلس السماع ـ الغناء ـ وراحة النفس واختيار ذلك.

٩ـ فى الرياضة واللعب بالكرة والمطاردة.

١٠ـ فى الصيد وصفات الجوارح والكواسر وأمراضها وعلاجاتها.

القسم الرابع فى الحروب. وأبوابه:

١ـ فى وصف أجناس الناس واختلاف أصنافهم وأطوارهم.

٢ـ فى الشجاعة وحدها وفضلها وصفاتها.

٣ـ فى الفروسية ورياضة الخيل والركوب.

٤ـ فى الأسلحة واستعمالها فى الحرب وصفات الرمى وفضله، والطعن والضرب للغزاة والحث على الجهاد.

٥ـ فى تولية الأعمال والمدن والأمصار.

٦ـ فى حفظ الثغور والقلاع وما يجب من أمرها.

٧ـ فى الحروب والمصافات وتعبية العساكر.

٨ـ فى الكر والهزيمة وما ينبغى أن يفعله الهازم والمهزوم.

٩ـ فى الحصار وفتح القلاع وما ينبغى أن يفعله الحاصر والمحصور.

١٠ـ فى حروب البحر ونصفاتها.

هذه الأبواب تكشف كما قلت عن اتساع موضوعات الكتاب. فى حين تدل معالجات المؤلف لموضوعاته على خبرة سياسة جيد ة مع ثقافة تستوعب عددا من وجوه المعرفة الشائعة فى عصره. وقد أعطى المؤلف تفاصيل دقيقة عن تنظيم المدن خططيا واجتماعيا و حرفيا. كما تحدث عن حقوق الرعية فدعا الملك إلى استعمال الرفق لا العنف أصل السياسة ومدعاة للحصول على رضا الناس. كما دعا إلى ضمان معيشة الفقراء والعاجزين وعدم إهمال شؤون الناس إلى الحد المفضى إلى هلاكهم بسبب العوز. ودعا إلى كف الجند عن الرعية وذلك بأن تتخذ منازلهم فى معزل عن منازل الرعية وأن يكون لهم جامع مفرد وحمايات مفردة. وأوجب الا يشتغل العسكريون فى الحرف لأنهم إذا عملوا فى الزراعة أو التجارة أو غيرها ضعفت أحوال الرعية من عدم التسبب الناجم عن مزاحمة العسكريين لهم بما يتمتعون به من نفوذ وسطوة، كما تضعف بيوت الأموال من عدم تحصيل الضرائب للسبب نفسه. إن هذه الوصية ترتبط بالطابع العسكرى لدولة الظاهر بيبرس التى عاش المؤلف فى كنفها مما اقتضى أن يضع حدودا تمنع من طغيان العسكرين على الجمهور كما يحدث عادة فى الدول ذات الأنظمة العسكرية حتى اليوم.

وتناول العباسى قضايا الأمن العام فبحث فى أصناف المجرمين مستقصيا الدوافع المختلفة للسلوك الإجرامى. وحول الطريقة الناجعة فى حسم مادة الأجرام أوصى بإزاحة الدوافع قبل الإقدام على العقوبة. وفى حالة كون السلوك الإجرامى. متفشيا فى جماعة فإن العلاج يجب إن يعتمد على السياسة لاالعقوبة. من هذا القبيل إن أهل الجبال والقبائل يكون فى طبعهم الظلم والقتل، كما يقول، فللتخلص من شرهم يجب أن يشغلوا بالجهاد والأسفار. وهذا الحل يشمل كل أولئك المصابين بداء الإجرام الناشئ حسب تقديرة من إفراط القوة الغضبية فيهم[١]. واعتبر إشغالهم بالحروب وتكليفهم بالمهام الثقيلة سبيلا إلى تصريف هذه القوة فيما هو أصلح. وفى مقابل التوصية بالرفق والسياسة مع عامة الناس، دعا إلى استعمال الشدة مع

(١) القوة الغضبية هى واحدة من أربع قوى حصر الإغريق فيها قوى الإنسان الغريزية. والغضبية من القوى الباعثة يقول الجرجانى فى تعريفها إنها تحمل القوة الفاعلية على تحريك الأعضاء عند ارتسام صورة أمر مهروب عنه فى الخيال طلبا لدفعه ضارا كان فى نفسه أو نافعا. بمعنى أنها قوة المقاومة ضد الأشياء الخارجية.

حاشية الملك إذا ارتكبوا أفعالا مخلة.. والى عدم قبول الشفاعات فيهم لأن جرائم هؤلاء أشد ضرراً على الناس من جرائم غيرهم بحكم مركزهم في السلطة. ثم تطرق إلى أهل القرى الصحراوية فأوصى باتباع الرفق معهم وذلك لصعوبة حياتهم. وأكد العباسى على محاربة الطائفية في المدن لأنها تؤدى إلى فتن عظيمة وخطوبة جسيمة وأثار الانتباه إلى دورها التخريبى فى الكثير من بلدان الشرق.

وأوجب المؤلف على الملك محاربة البدع المخالفة لما علية الجمهور، يقصد ما هو مخالف للعقيدة السنية التى كانت قد صارت عقيدة جمهور المسلمين آنذاك. وقد سبق للماوردى أن دعا بمثل هذه الدعوة في نصيحة الملوك. لكنه نهى عن استعمال العنف لهذا الغرض بعد أن لاحظ أن البدع قد انتشرت وترسخت في المجتمع الإسلامى فلم يصبح من المعقول مقاومتها بالقوة. ورأى أن الأسلوب السليم لذلك هو العمل الفكرى الذى يجب أن تقوم به الدولة وتساعد عليه لحماية الجمهور من خطر الهرطقة. أما العباسى فلم يقترح وسيلة معينة فاكتفى بالنص على اعتبار هذه المهمه من واجبات الدولة. ولما كانت الفلسفة هي إحدى أخطر أشكال البدع فإن على الملك ألا يتهاون معها. لكن العباسى أكد فى نفس الوقت على الأهمية الكبيرة للعلوم فاعتبر من شروط الملك الهمام أن يكون مثقفا مطلعا على علوم عصره فى حدود المستطاع وأن يرعا العلم وأهله. وأثار الانتباه إلى أن بقاء الدول وطول عمرها رهن بتعظيمها للعلوم وتمكين من يشتغل بها ورعاية جانبه. ثم أشار إلى دولتى الفرس واليو نان فقال إن عظمتها واستطالة مدتهما مدينان لاهتمامهما بالعلم.

إن هذا التمييز بين الفلسفة والعلوم يرجع فى الحقيقة إلى زمن المتوكل، الذى اضطهد الفلسفة وعلم الكلام بينما شجع العلوم وكان من رعاتها المبرزين. وقد تبناه الغزالى فى تهافت الفلاسفة كما تقبلة الأوساط الفقهية المعتدلة. ومعرفة السبب فى هذا الاتجاه ليست عسيرة، فالفلسفة خطر مباشرا على العقائد مادامت مجردة عن تعلقاتها الفلسفية. ولاسبيل إلى التخلص من ضغط الحاجة إلى مثل هذه الأداة فى مجتمع يزاول نموا حضاريا، على الرغم من حضور الدين كعامل سلبى.

فى حديثه عن الحروب قال العباسى إنها عوارض كالأمراض يجب دفعها بالسياسة مالم تلجئ الضرورة إلى خوضها. على أن لبعض الحروب أسباب معقولة تترتب عليها نتائج مهمه وهذه الأسباب هى:

- تأسيس دولة.

- تثبيت أركان دولة قائمة.

- الدفاع ضد العدوان الخارجي.

- حرب دينية بين أهل ملتين

- التوسع.

تدخل هذه الأمور في حكم الضرورات. وهناك حروب لاتترتب عليها نتائج على هذا المستوى من الخطورة وهي:

حروب الفتنة والسلب

حروب القبائل - الغزو

وهذه داخلة في حكم العبث والفوضى...

إن البحث في مشروعية وعدم مشروعية الحرب هي اليوم من موضوعات القانون الدولي. وقد روعيت في التمييز بين هذه الحالات معايير جديدة مستمدة من تطور المجتمع البشري في العصر الحديث. ومن حق العباسي أن يذهب بفضيلة السبق إلى وضع هذه المسألة على بساط البحث وإن تكن أسبابه المعقول ليست كلها معقولة في نظر الباحث المعاصر.

في الأبواب المكرسة لخصوصيات الملك قال المؤلف ان الهيئة المثالية للملك تقتضي صفات الهيبة والفطنة والذكاء وفخامة الصوت، وأن يكون لباسه من أفخر اللباس. أما الزى فيخضع للعادة السائدة في الزمان والمكان. ويذهب العباسي مذهبا غريبا في تمييز الملك عن سائر الناس فيحرم تقليده في ملابسه ويوجب انفراده بزي وهيئة خاصتين به. وهناك وصايا حول طعام الملك وشرابه ومتعه الشخصية وحول الرياضة وأشكالها مع تفصيل للألعاب الرياضة المناسبة لأعضاء الجسم. ووصايا حول الأولاد حث فيها الملك على عدم كثرتهم حتى يستطيع تربيتهم على نحو أفضل كما أعرب عن عدم تحبيذه للتكثير من النساء.

في عرض لأصول السفارة أوجب العباسي أن يتصف السفير بحسن الوجه والاسم وأن يكون تقيا ورعا لايؤثر فيه الإغراء فيخون واجبه أو يتسامح فيه. وأن يكون له من العقل والرزانة ما يستطيع به أداء الواجب المكلف به في سفارته على الوجه المطلوب. والسفير قد

يكون واحدا ـ لاننس أن السفارات لم تكن ثابته وانما كانت على شكل وفود تقوم بمهمة وتعود إلى وطنها ـ وربما اقتضت الحاجة تأليف الوفد من ثلاثة: عسكرى وقانونى وادارى. وهناك شرح آخر لكيفية استقباله لدى العودة. كما تناولت هذه الفقرات أصول التعامل مع الوفد الأجنبى.

* * *

خلاصة

هذه المجموعة من الكتب ليست كل ما كتبه المسلمون فى السياسة. ولكنى اخترتها لسببين: الأول أن مؤلفيها بذلوا جهدا فكريا فاعتمدوا على استنتاجاتهم الشخصية فى تقرير قواعد الدهاء. وهى بذلك تتميز من مؤلفات اقتصرت على سرد العبر والأمثال كنصيحة الملوك المنسوب للغزالى وعين الأدب والسياسة لابن هذيل. الثانى وضوح النزعة الدنيوية لدى مؤلفيها مما يميزها عن مؤلفات أخرى كتبت بروح دينية متطرفة، أشاعت فيها جوا فكريا قاتما. ومن أمثلتها كتاب سراج الملوك للطرطوشى.

إن الميزتين المذكورتين هما من النقاط المشتركة لهذه الكتب. وهناك أمور أخرى، من بينها الاتفاق على تأكيد العنصر الأخلاقى فى سلوك الملوك وعدم السماح إلا بقدر ضئيل من المرونة السياسية على حساب الأخلاق. وليس من النادر مع ذلك أن نجدها تسقط فى الانتهازية فتخرج عن هذا الخط العام. وقد مرت بنا بعض الأمثلة الدالة على أنها لاتصل فى تجاهلها للأخلاق مبلغ مكيافللى الذى رسم الخط الفاصل بين الأخلاق والسياسة معلنا القطيعة النهائية بينهما. وكثيرا ما أدى التمسك بالمبادئ الأخلاقية إلى شيوع نبرة وعظية ومفتعلة أفقدت هذه الفصول شيئا من طرافتها. ويمكن أن يوضع على نفس المنوال إسراف الكتاب، وخاصة الماوردى، فى الاستشهاد بالشعر والحكايات والأمثال، وكان من الأجدى لو اكتفوا بالوقائع ذات الدلالات الملائمة لمقتضى البحث كما فعل السلطان أبو حمو الذى تحدث عن تجاربة الشخصية، أو ميكافللى بإعتماده فى تعزيز وصاياه على وقائع تاريخية معروفة.

واتجه بعض المؤلفين إلى توسيع مفهوم السياسة الصائبة ليشمل وصايا عن السياسة الاقتصادية والعمرانية إلى جانب الدهاء فى إطاره الضيق. إن الملك الناجح طبقا لهذا الاتجاه ليس هو الداهية فحسب بل هو من يعطى لكل جانب من النشاط البشرى حقه. وقد دفع

ذلك إلى الحديث عن قواعد الدول وما يجب لتأسيسها وديمومتها مع محاولات غير ناضجة للتساؤل عن أصل الدولة.

هناك أيضا اتفاق على ضرورة التقيد بأحكام الشريعة فى محاولة، لتقنين تصرفات الحكام بإرجاعها إلى أصول دستورية. كما سجل الكثير من الكتاب نقدهم لأخطاء الحكام وأدانوا ميل السلطة إلى الجلوزة مؤكدين على تخفيف العنف بحيث لايتجاوز الحد الذى تقضية ضرورات بقائها وانتظام أمرها. وقد توافرت فى هذه المؤلفات شروح مسهبة للالتزامات المتبادلة بين الحاكم والشعب أشير فى بعضها إلى الأثر الحاسم للشعب فى قيام الدول وبقائها وزوالها. ويلتقى حول هذه النقطة كل من الكتاب المسلمين ومكيافللى. وقد جاء فى كتاب الأمير ما يلى: «من الضرورى لكل أمير أن يكسب صداقة شعبة وإلا فإنه لايجد له أى ملجأ فى أوقات الشدة» وهو ما قاله الماوردى نفسه بتوسع فى تسهيل النظر ونصيحة الملوك. ولابد أن يثير التساؤل هذا الاتجاه من كتاب لم يأتوا من صفوف المعارضة وكان أغلبهم رجال دولة أو أعضاء فى الحاشية. وفى وسعنا مع ذلك أن نلفت انتباه القارئ إلى مفارقة التوجه السياسى لمثقفين متبصرين يشغلون مثل هذا الموقع من السياسة الرسمية. ففى حين يتحرك الحكام تحت تأثير الشعور بالقوة فإن الحاشية المثقفة تستطيع أن تعطى لمنطق العلاقات السببية ما يعطية الحكام لمنطق السلطة. وعندما أقول: حاشية مثقفة أعنى شيئين:

وعى فكرى.

درجة معينة من السلطة.

ومع اجتماع هاتين الصفتين فى شخص واحد فإنه يظل قادرا على التفكير بطريقة سياسية معتدلة. على أن هذه القدرة معلقة من الجهة الأخرى بالدرجة المعطاة من السلطة. ويرجع ذلك إلى أن الصفتين المذكورتين تعانيان فى واقع الحال تناسبا عكسيا تتراجع فيه الأولى بمقدار ما تشتد الثانية ، أى بقدر ما تتسع صلاحيات المثقف المسؤول. وفى تقديرى أن المثقف يحتفظ بقدرته على مجابهة التأثيرات التى تفرضها السلطة على موقفة السياسى مادام يشغل مركزا ثانوياً ، أى مالم يتسلم صلاحيات مطلقة فيتحول هو نفسة إلى طاغية. وبمقدرى القول إن أفكار سياسة ناضجة ومعتدلة كالتى صدرت عن الكتاب المسلمين تدخل ضمن هذا الواقع ، الذى هو جدير أيضا بأن يفسر لنا حرصهم على أن يتمتع أولياء نعمتهم برؤية مماثلة تضئ لهم الطريق نحو سياسات أكثر عقلانية ، وبالتالى أكثر نجاحا وإنتاجا.

* * *

عهد الأشتر

أفردت الحديث عن هذا العهد بعد استكمال البحث في الكتابات الدهائية ، بالنظر إلى الخصائص التي ينفردها بها. وعهد الأشتر كتاب قيل إن علي بن أبي طالب أملاه على مالك بن الحارث الأشتر حين ولاه مصر. وقد وردنا في روايتين: رواية الشريف الرضى في نهج البلاغة ورواية ابن شعبة في تحف العقول. وهما متقاربتان في الزمن لأن ابن شعبة توفى في حدود ٣٨١ وتوفى الرضى في ٤٠٦ . أما محتواهما فمتماثل ما عدا فروقا في بعض العبارات ونقصا وزيادة في فقرات معينة منهما. وهناك شك حول نسبة العهد إلى علي بن أبي طالب يرد ضمن الشك في نهج البلاغة، وتحقيق ذلك يحتاج إلى وقفة طويلة قد تخرج بنا عن غرضنا. وبقدر مايتعلق بالعهد سأكتفي بأن أضع خطوطا عريضة لاحتمالين متعارضين بهذا الشأن:

الأول:١ـ ورد في بعض الاعتراضات على صحة العهد أن أفكارة الرئيسية تجد ما يماثلها في بعض وصايا الزعماء الرسميين في الأزمنة التالية . مما يرجح أن يكون العهد صدى لهذه الأفكار أراد صانعوه أن ينسب إلى علي بن أبي طالب لغرض من الأغراض.

٢ـ إن العهد كتب في فتره مضطربة من خلافة علي وأريد به أن يكون دستورا للحكم في إقليم غير مضمون الولاء يتنازعه نفوذ الفر يقين المتخاصمين علي ومعاوية. فهل فات الرجل أن إملاء مثل هذا الدستور في مثل هذه الظروف هو ضرب من العبث؟ لقد كانت المهمة المركزية التي أنيطت بمالك الأشتر هي الاحتفاظ بمصر التي تتعرض لضغط شديد من معاوية بهدف الاستيلاء عليها. ومن الصعب في هذه الأحوال أن ينصرف التفكير إلى وضع نظام للحكم بمثل تلك الدقة التي تضمنها العهد.

٣ـ في العهد مواد تتعلق بموسسات لم تكن حتى ذلك الحين قد استكملت شخصيتها النهائية من بينها المواد المتعلقة بتنظيم القضاء والديوان وشؤون الكتاب. مما يثير شكا مبررا في صحة هذه الفقرات على الأقل.

الثاني: ١ـ إن الملاحظة الواردة في البند الأول ينقضها اختلاف كبير بين أفكار العهد وأفكار الزعماء الرسميين المشار إليهم. ففي جميع الوصايا التي وردتنا عن هذا الفريق تطغى نزعة بيروقراطية متطرفة تضع حاجزا سميكا ليس بين الحاكم والرعايا بل أيضا بين الحاكم والحاشية. بينما يتضمن العهد إدانات مباشرة لهذه النزعة على النحو الذى ستكشف عنه

الفقرات التالية من البحث. كما يجد الباحث فرقا كبيرا فى الاتجاه السياسى والاجتماعى فالعهد يصدر فى مجمل مؤداه عن مطلقات المعارضة السياسية نفسها فى العصرين الأموى والعباسى أما عهود الزعماء فتصدر عن وجهة النظر المعروفة لرجال الحكم المسلمين.

٢ـ هناك اختلاف ملحوظ أيضا بين محتوى العهد الاجتماعى والسياسى وبين ماآلت إليه فى زمن ابن شعبة والرضى، اتجاهات الفرقة التى ينتميان إليها وهى الشيعة الإمامية. وذلك بعد أن اندمجت هذه الفرقة فى خط السلطة البويهية متخلية عن شعاراتها التى كانت قدر رفعتها فى العصر الأموى وأوائل العباسى. كما أننا لانجد للرضى بالذات موقفا اجتماعيا أو سياسيا مماثلا لما نجده فى العهد مما يجعلنا نستبعد أن يكون العهد من صنع الرضى كما يقال أحيانا.

مهما يكن من شئ فإن عدم القطع برأى نهائى حول نسبة العهد إلى على لايمنعنا من تناوله كوثيقة تاريخة تسجل موقفا سياسيا متميزا عن الموقف الرسمى وهو فى الحقيقة أقرب إلى أن يعبر عن أفكار وتطلعات معارضى صدر الاسلام على اختلاف تنظيماتهم وانتماءاتهم...

* * *

يبدأ عهد الأشتر بالمقدمة المعتادة للوصايا الاسلامية وهى الأمر بتقوى الله واتباع تعاليمه مع ما يلحق بها من العصمة عن شهوات النفس. ثم يخاطب عامله مبينا له أن البلاد التى سيتوجه إليها قد جربت قبله أشكالا من الولاة وأن موقف الناس منه هو موقفه نفسه من أولئك الولاة فى السابق وأوضح له أن سيرة الحاكم تعرف من كلام الناس عنه. يقول: «إنما يستدل على الصالحين بما يجرئ الله لهم على ألسن عباده» أو كما يرد فى مكان آخر من نهج البلاغة: السنة الخلق أقلام الحق. ولابد أن يكون المقصود بكلام الناس ما يعبر عن ردود الفعل تجاه سياسة السلطة ويشكل بالتالى صورة الانطباع السائد حول الوضع السياسى، أى ما يعتبر فى الوقت الحاضر ضمن مفهوم الرأى العام. وقد تضمنت كلمة تنسب إلى عمر بن الخطاب هذا المفهوم بطريقة مقاربة حيث يقول فى وصية لأحد عماله «اعتبر منزلتك عند الله بمنزلتك عند الناس»[٩].

---

(٧) الطبرى ـ جـ ٣، ص٦. وقد استشهد بها الجاحظ فى كتاب «البرصان والعرجان» ٧٠٢. والعامل هو سعد بن أبى وقاص.
يلاحظ أن وصية عمر تقلب القاعدة الدينية القائلة بأن على المؤمن أن ينال رضا الله أولا فهنا يتعين على الوالى أن يسعى للحصول على رضا الناس كمقدمة للحصول على رضا الله الذى يأتى فى المرتبة الثانية ويخضع لمقتضى العلاقة بين الحاكم ورعاياه.

يأتى هذا التعليم كمقدمة عامة تسبق تفصيل السياسة الواجبة الاتباع مع الرعية. وهنا يقول كاتب العهد:

«أشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم.

ولاتكون عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم.

فإنهم صنفان إما أخ لك فى الدين أو نظير لك فى الخلق.

يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل ويؤتى على أيديهم فى العمد والخطأ.

ولاتقول إنى مؤمر آمر فأوطاع فإن ذلك أدغال فى القلب ومنهكة للدين وتقرب من الغير».

إن الطبيعة القمعية للدولة كمؤسسة تقوم على العنف تتجسد هنا فى صيغة بشعة تظهرها فى شخص الحاكم على صورة حيوان ضار يكون الافتراس محتوى سلوكه اليومى. وبدافع من مقته لهذه الصورة يطلب كاتب العهد من عامله أن يجعل الحب منطقا للتعامل مع رعيته. لماذا؟ لانهم لايخرجون عن إحدى صفتين يشتركون بهما مع الوالى فهم بين أخ له فى الدين أو مشارك له فى الانسانية. وتبعا لذلك، فإن صاحب السلطة لايملك ميزة تجعلة فوق رعاياه وتسمح له بمعاملتهم كضحايا له. وعندما نضيف إلى هذا تأكيده على عدم العصمة حيث يشترك الناس كلهم فى الاستعداد لاقتراف الذنوب عن خطأ أو حتى عن عمد فإن الأساس الذى تنهض عليه سياسة التنكيل بالناس يصبح لاغيا.

على أن هذه النتيجة تصطدم بقسوة العقوبات المنصوص عليها فى الشريعة، مما لايدع للاعتقاد بأن المشرع الإسلامى قد نظر إلى الناس بالعين التى نظر إليهم بها كاتب العهد. ومن المؤكد فى الوقت ذاته أن كتاب العهد لا يريد من عامله تعطيل هذه العقوبات فكيف إذن سيكون تصورنا للحدود التى يجب أن تتوقف عندها وصيته؟ إن الاجابة على ذلك من الصعوبة بمكان. واننا لمضطرون إلى الاعتراف بأن العهد يتناقض فى هذا الوضع مع المبادئ التشريعية التى ينطلق منها. ولعلاج هذا التناقض كان يجب أن يعاد النظر فى هذه المبادئ بما يتلاءم مع روح العلاقة المقترحة بين الحاكم والرعية. ومع ذلك فسوف يتحتم علينا أن نبحث عن بعد آخر لهذا التعميم دون أن نغض النظر عن قصوره من الناحية التشريعية. ففى إحدى

الفقرات الأخيرة من العهد نجد الكاتب ينهى عاملة عن القتل الاعتباطى (سفك الدماء بغير حلها) ثم يردف نهيه عن القتل بتعداد لمحاذيره على جهة التغليظ فيعتبرة مؤذنا بزوال الدولة مستجلبا لغضب الله. وهو يؤكد في أثناء ذلك أن أول قضية جزائية ينظر إليها يوم القيامة هى القتول. ثم يومئ إلى أن الحكام يلجأون إلى هذه الطريقة لترسيخ قواعد حكمهم ليلفت نظر الوالى إلى أن السلطة لاتقوى بالقتل وانما تضعف وتكون قصيرة العمر.

وعندما نرجع إلى تصرفات السلطة الاسلامية منذ الأوان الأموى فسيمكننا ملاحظة أن هذا النهى يستهدف الوقوف ضد الإرهاب الحكومي الذى كان حينئذ محور التعامل مع المواطن العادى. ومن جهة أخرى يكتسب التأكد على ترويض السلطة وجعل الحب بدلا الإرهاب منطلقا للسياسة الرسمية فى علاقتها بالناس، أهميتة في التعبير عن الدور الذى تلعبه الأخلاق في تخفيف وطأة القانون . وقد يبدو لنا عند المقاربة أن أخلاقية كاتب العهد تسمو فى بعض الأحيان على روح التشريع، الأمر الذى يتمثل فى بعض الوجوه في إدانته لهمجية السلطة رغم عجزه الملحوظ عن إدانة التشريع.

في سياق هذه النظرة إلى سيرة العامل مع الرعية يقول كاتب العهد إن العامة يجب أن تكون قاعدة للحكم . إن هذا ما تنص عليه الفقرات التالية:

« ليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق وأعمها فى العدل وأجمعها لرضا الرعية. فإن سخط العامة يجحف برضا الخاصة وان سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة. وليس أحد من الرعية أثقل على الوالى مؤونة فى الرخاء وأقل معونة لها فى البلاء وأكره للأنصاف وأسال بالالحاف وأقل شكرا عند الإعطاء وأبطأ عذرا عند المنع وأضعف صبرا عند ملمات الدهر من أهل الخاصة. وانما عمود الدين وجماع المسلمين والعدة للأعداء العامة من الأمة، فليكن صغوك لهم وميلك إليهم.».

لم يبين الكاتب مايقصده بالخاصة، لكن هذه المفردة أطلقت فى النصوص الاسلامية على فئتين من الناس: الأغنياء والمتنفذين أو أصحاب المال والجاه. ثم أهل الفكر. وقد استعلمت الأخيرة من قبل الفلاسفة الذين تسموا بالخاصة، تمييزا لهم عن بقية الناس لأغراض تخصهم من بينها اكتساب حق التفكير بطريقة تخالف ما عليه الجمهور. ولابد أن يكون الصنف الأول هو المقصود هنا، بالنظر إلى الموضوع الذى يتحدث عنه وهو موضوع سياسى لاصلة له

بقضايا الفكر. أما العامة، فالكتاب يستعملها مرادف للرعية، استنتاجا من عبارته «أجمعها لرضا الرعية، فإن سخط العامة.. الخ» والعامة مأخوذة من الفعل عم أى شمل واشتقت منه لتسمية الأكثرية الساحقة من الأمة، وبذلك تكون العامة هي الشعب في الاصطلاح الحديث. وللخاصة صفات سلبية هي تلك الصفات الشائعة في الطبقات المصابة بخواص طفيلية، مثل الجشع، الاتكالية، الأنانية، وقلة الصبر، مما يجعل الاعتماد عليها في الحكم غير مضمون النتائج، هذا عدا عن أن حجمها، كأقلية، لايوفر القوة الكافية للسلطة. أما العامة فهي جماع المسلمين، أى أكثريتهم، ولكونها أكثر ية فإن إرادتها ـ رضاها ـ هي المعول عليها دون الخاصة، وهي بتجردها من سلبيات الخاصة لابد أن تكون عدة مضمونة في مجابهة الأعداء. ولهذه الأسباب يتحم إنحياز الوالي إلى العامة تبعا لقولة: فليكن صغوك لهم. والصغو في اللغة هو الانحياز.

في هذه الوصية نجد النزعة الديمقراطية لكاتب العهد متمثلة في دعوته إلى اتباع سياسة تحوز موافقة الأكثرية دون النظر إلى الطرف الآخر. ولاشك في أن إهمال رأى الأقلية في تقرير السياسة العامة هو المبادئ العامة للديمقراطية التي ينادى بها علم السياسة التقدمي في العصر الحاضر. ولاعبرة بما يثيرة بعض الكتاب من اشتراط الإجماع في التطبيق الأمثل للديمقراطية لأن المجتمع يتكشف باستمرار عن مصالح متضاربة يمتنع التوفيق بينها. في هذا الحالة تقضي السياسة الديمقراطية بتطمين مصالح وحقوق الأكثرية، وهم عامة الشعب، على حساب الأقلية وهم الخاصة، الذين يعتبر تجريدهم من امتيازاتهم الطبقية أحد المبادئ الجوهرية في التحويل الديمقراطي للمجتمع (*).

على أن الكاتب رغم وضوح انحيازه إلى الأكثرية لم يضع أسسا لكيفية الاعتماد عليها أو تجسد إرادتها. وإذا كان الأمر بالنسبة إلى الخاصة واضحا وميسورا إذ يقتضي عدم الاعتماد عليها إبعادها عن الوالي وحرمانها من النفوذ الذى تتمتع به مثيلاتها في حكومات الأقلية، فإنه بالنسبة إلى العامة غامض وغير محدد. وربما اتصلت هذه المسأله بالمآخذ التي تذكر على مبدأ الشورى فإذا وضعنا هذا النقص في حسابنا فإن التوصية بالاعتماد على العامة لايمكن أن

(*) معيار الأكثرية والأقليمية في معادلة عامة ـ خاصة يختلف عنه في النظام البرلماني. فهنا لاتوجد أقلية حقيقية لأنها تتحدد بفرق بضعة أصوات. لكن مفهوم العامة فضفاض لأنه يقوم على افتراض الوحدة المطلقة للشعب وعدم التباين في الآراء والمصالح والأمزجة.

تتعدى التأكيد على مبدأ يتوقف العمل به على شخص الحاكم. والضابط الوحيد فى ذلك هو نزعه المبدئية. وقد بينا فى مبحث الشورى أن هذه النزعة كانت، مع افتراض وجودها، إحدى الضمانات القليلة لصيرورة الشورى نظاما رسمايا للدولة فى تلك الظروف.

وزراء الحاكم وأعوانه:

بعد تقرير السياسة الواجبة مع الرعية، ينتقل كاتب العهد إلى بيان كيفية اختيار الأعوان والوزراء فيوصي عامله بتجنب الأشخاص الذين عملوا للولاة السابقين من الأشرار لأنهم شركاؤهم في آثامهم. فإذا كان هناك ما يدعوه إلى استخدام هؤلاء بسبب كفاءاتهم فإن كاتب العهد يؤكد أن الكفاءة ليست وقفا على الطغاة فلن يعدم الحاكمون بالعدل أعوانا يشبهونهم، في الصلاح والاستقامة ويملكون من الكفاءة ما يغنى عن الاستعانه بأعوان الظلمة. إن هذا التعليم المتشدد يصدر عن موقف علي بن أبي طالب نفسه من الاشخاص «غير المستقيمين». فعلى النقيض من أسلافه، لاسيما عمر الذى طبق شعار «نستعين بقوة المنافق واثمه عليه» كان علي يصر على الجمع بين الكفاءة والنزاهة، وربما اضطره تشدده إلى التضحية بالأولى لحساب الثانية، كما فعل عند تعيينه محمد بن أبى بكر واليا على مصر. وكان المذكور من أتباعة الصالحين لكنه كان شابا قليل الخبره وقد اعترف على فيما بعد أن إختياره هذا لم يكن فى محله.

ثم اشترط عليه بعد اختيار الأعوان إن يروضهم على عدم الإطراء له لأن كثرة الاطراء تورط الحاكم في الكبرياءوالزهور. أما الباعث على اهتمامه بهذا الشرط، الذى قد لايكون على جانب كبير من الأهمية، فهو الخوف من أن تكون الصلة المباشرة بين الأعوان بحكم مراكزها الرسمية ـ وبين الوالى سببا فى إفساده. وسيأتى فى السطور القادمة أن كاتب العهد لا يحبذ التهريج الإعلامي.

طبقات الرعية:

استعمل هذا الاصطلاح فى العهد للتمييز بين الفئات الاجتماعية المختلفة ليس على أساس علاقاتها بعلمية الإنتاج، بل على أساس الاختلاف فى المهنه أو الوضع الاجتماعى، وقد سماها الأصناف أيضا. والطبقات هي:

الجنود.

الموظفون وهم كتاب العامة والخاصة.

القضاة.

عمال الإنصاف والرفق.

أهل الجزية والخراج.

التجار وأهل الصناعات.

الطبقة السفلى وهم المساكين.

وهذه الطبقات لايصلح بعضها إلا ببعض ولايستغنى بعضها عن بعض. فالجنود هم حماة الرعية والمدفعون عن الدين وقوامهم بأموال الخراج، وقوام الخراج بالموظفين والقضاة لأنهم أدوات تنظيمه وتحصيلة. وهذه الأصناف كلها تبع للتجار وذوى الصناعات لأنهم محور النشاط الاقصادى فى عموم المجتمع.

ثم وصف أسلوب التعامل مع كل طبقة على التفاصيل الآتى:

الجنود:

أوصاه بأن يستعمل عليهم رؤساء يتمتعون بهذه الخصال.

١ـ العفة والنزاهة.

٢ـ الحلم والأناه.

٣ـ الرأفة بالضعفاء والقسوة على الأقوياء.

٤ـ التوسط بين العنف والضعف.

تكرس هذه الخصال مناوأة كاتب العهد للعجرفة العسكرية وهى تتساوى مع النزعة التى سيطرت على وصاياه المتعلقة بسياسة الوالى مع الرعية. ولا مفر من الاشارة إلى أنها تحمل أثرا من طوباويات على بن أبى طالب فمن المعلوم أنها لم تجد طريقها إلى الواقع لافى الماضى ولافى الحاضر وظلت إلى اليوم محصورة فى دائرة صغيرة من أهل الفكر والأنبياء غير المسلحين.

وأوجب كاتب العهد لأغراض تنظيم الجيش أن يتفقد الوالي أحوال الجنود وأن يتعامل معهم بروح أبوية مع تخصيص ما يكفيهم ويكفى أهاليهم حتى لايشغلهم العوز عن مجاهدة العدو. كما يجب التنوية بالأفعال البطولية وتكريم أصحابها تشجيعا لهم وتحفيزا لغيرهم. وقد تضمنت رواية ابن شعبة فقرة يوصى بها بوضع عيون ـ (مفتشين سريين) من الأمناء ليتابعوا مآثر ذوى البلاء والبطولة من الجنود فيثبتوها ثم يعرضونها على الوالي ليتخذ في ضوئها قرارته التكريمية، ومن حقنا مع ذلك أن نتعرض على التعليم الذى يوصى بمعاملة الجنود بروح أبوية ـ معاملة الآباء للأبناء، فهى من نتائج ذلك التفاوت في الرتبة الذى يمنح الأعلى حق الأبوة على الأدنى. ويبدوا لى أن كاتب العهد وهو يحمل كل ذلك الحب لرعاياة وكل ذلك الحرص على حمايتهم من عنجهية الحكام والرؤساء لم يتمتع بالقدرة الكافية على التحرر من آثار الوصاية التي يفرضها المجتمع الأبوى على أفراده.

القضاة:

نصت الفقرة المختصة بالقضاء على صفات من يجب اختياره لهذا المنصب وهى أن يكون القاضي:

١ـ من أهل العلم والحلم والورع.

٢ـ صارما فى الحق.

٣ـ منزها عن الطمع.

٤ـ أن يكون معتدا برأية حتى يكون لديه الاستعدا د لتصحيح أخطائه اذا اتضحت له الحجة فيها.

٥ـ أن يكون متوقفا في الشبهات. وهى الأمور الملتبسة التي تتطلب الفحص بإمعان وأناة حتى ترد إلى وجهها الصحيح. ويقتضى ذلك من القاضى أن يتريث ويلح فى الاستقصاء حتى يتهيأ له الانتقال من أدنى الفهم إلى أقصاه .

٦ـ أن لايكون ملولا يميل به عدم الصبر إلى اجتزاء الأمور وحرمان الخصوم من الإدلاء برأيهم فيها.

ثم لفت نظر القاضى إلى أمور قضائية صبها فى عبارات مكثفة يقول فيها:

«أكثر تعاهد قضائه». والمقصود تتبع الأحكام وفحصها. ويقع ذلك ضمن حق التمييز والتفتيش على القضاءة وقد تناولته كتب الفقة فيما بعد بالتفصيل. وفى الثانية يقول: «افسح له في البذل مايزيل علته وتقل معه حاجته إلى الناس» يعنى أن يعطية من المال ما يكفية، فالحاجة من بواعث الخيانه، وازاحتها إحدى الضمانات الواقية من السقوط فى هذا الدرك. وفى رواية ابن شعبة نص على التزامات بتنفيذ حكم القاضى وآخر بترتيب أعوان له من الفقهاء وأهل الورع يساعدونه فى الحكم. ولعلها أقدم إشارة إلى تعدد الأعضاء فى المحكمة الواحدة.

كبار الموظفين:

يشترط العهد أن يكون تعين كبار الموظفين ـ المعبر عنهم فيه بالعمال ـ بناء على الاختيار دون المحاباه والأثرة. وقد وصمهم بما يوصم به الموظفون حتى الآن: الجور والخيانة. وأمر باختيارهم من ذوى التجربة والحياء ومن لهم عراقة فى خدمة الإسلام معتبرا ذلك من وجهة نظره مدعاة للثقة بهم. وأمره أيضا بالتوسيع لهم فى العطاء لئلا تضطرهم الحاجة إلى الاختلاس، كما سبق مع القضاة، وقال إن هذا الإجراء يساعدهم على إصلاح أنفسهم كما يعطية حجة للإيقاع بهم إذا ثلموا الأمانة. ثم اشترط عليه وضعهم تحت المراقبة السرية من قبل مفتشين يختارهم من أهل الصدق والوفاء. ولعلنا إن نجد فى عدم الثقة بالموظفين مسوغا لإخضاعهم لهذا الإجراء المخالف للشريعة. وقد ربط مصير الموظف بالمفتشين فإذا اجتمعت تقاريرهم على إدانته بالخيانه كان ذلك موجبا لعزلة ومصادرة أمواله مع التشهير به ووسمه بالخيانه.

وحول صغار الموظفين ـ وهم الكتاب فى لغة العهد ـ توصية تنهى عن الاعتماد فى تعيينهم على الرأى الشخصى للوالى فربما تأثرت فراسته بتصنع المرشحين للعمل وحسن خدمتهم له دون أن يكون لهم وراء ذلك من النصيحة والأمانه شئ. وقد وضع المعيار البديل وهو: سوابق المرشح وفى مقدمتها أن يكون قد عمل للولاة الصالحين قبله مع حسن أثره فى العامة واشتهاره بالأمانه: وأمره بعد ذلك بتقسيم الواجبات وتخصيص رئيس لكل قسم. فى رواية ابن شعبة نص على تفقد حالهم أى التفتيش عليهم. وعين الغرض من التفتيش وهو ما فيهم من العجرفة فى معاملتهم للناس الذين لا يجدون بدا من مراجعتهم فيكونوا هدفا لسوء المعاملة. ثم حمله مسؤولية مايرتكبه الموظفون أذا هو تغابى عن عيوبهم.

التجار والصناع:

يقول كاتب العهد إن طبقة التجار تقوم بما يعجز عنه سائر الناس وهو التوغل في الأبعاد بحرا وبرا وسهلا وجبلا لاستجلاب المنافع والمرافق التي يحتاجها الناس ولا يجترئون عليها. ويأتي هذا من الطبيعة الخاصة لعمل التجار في ذلك الزمن بما ينطوى عليه من مخاطر تنشأ عن وعورة المواصلات وصعوبة تأمينها مع بدائية وسائط النقل.

ومن هنا اعتبرت التجارة عند القدماء من الأعمال الصعبة التي لايتولاها إلا ذوو الهمم العالية. وقد أسقط القدماء من حسابهم إمكان قيام الدولة بالأعمال التجارية بما يغني عن انفراد التجار بهذه الميزة. ثم أضاف إلى عنصر المخاطرة التي يتعرض لها التجار أن هذه الطبقة ومعها طبقة الصناع هم أناس مسالمون وأنهم بحكم المجال الذي يشتغلون فيه يحبون الأمن والاستقرار ولا يشكلون مصدر إقلاق للسلطة، مما يوجب العناية بهم وتفقد أمورهم. إلا أنه لم ينس أن ينبه الوالي إلى أن في أكثرية التجار والصناع ضيقا فاحشا وشحا قبيحا. ولم يوضح مايقصدة بالضيق. ولكن محمد عبده فسره بعسر المعاملة أي عدم التسامح في البيع والشراء. وأضاف أن فيهم أيضا احتكارا للمنافع وتحكما في البياعات وهذا من عوامل الإضرار بالعامة كما أنه عيب على الولاة فأوصاه بمنع الاحتكار وأن يجعل البيع بيعا سمحا بلا اجحاف وأن تكون الأسعار لا تجحف بالفريقين. وفي هذا نص على تدخل السلطة في الأسعار خلافا للحديث النبوي الذي ينهي عن التسعير.

الطبقة السفلى:

تضم هذه الطبقة تبعا لتحديدة: المساكين والمحتاجين وذوى العاهات واليتامى والعجزة. وقد أمره أن يخصص لهم نصيبا من بيت المال وغلات الصوافي ـ أراضي الدولة ـ أي دون أن يقتصر على نصيبهم من الزكاة وحذره من إهمالهم بحجة الانشغال بالأمور الخطيرة. ثم نظم له طريقة الاتصال بهم فأوصاه أن يعين لهم موظفين يتولون أمورهم فيستقصونهم ليعرفوهم مؤكدا على ضرورة الذهاب إليهم في مواقعهم لأن فيهم من لايستطيع الوصول إلى السلطة أو ممثليها ليعرض عليها حالته. يعني بالضبط عدم تعليق ذلك على القصص ـ العرائض، ووضع مسؤولية المبادرة إلى ضمانهم على السلطة. وقد أوجب أن يكون الموظف من أهل التقوى والتواضع، وهو شرط يفرضه التعامل مع هذه الفئة التي يجعلها وضعها البائس عرضة اللازدراء

والإهمال فيستحيل بالتالى أن يتولى أمورهم بكفاءة وعناية من يرى نفسه أرفع رتبة منهم. واعترف كاتب العهد أن شؤون هؤلاء المسحوقين ثقيلة على رجال الحكم والادارة لكنه استطرد فقال إن الحق هو فى العادة ثقيل إلا على من «طلب العافية ووثق بوعد الله» ولا بد أنه يقصد المؤمنين الصادقى الايمان.

إن هذه التوصية تتفق مع الصله التى جمعت بين على بن أبى طالب وهذه الفئة وهى من بين المحتويات الأساسية في العهد، التي تحملنا على توثيق نسبته أو بعضه إليه. وقد بدا الرجل حائرا فيما إذا كان بمقدوره تحقيق طموحاته بالنسبة لهؤلاء المسحوقين بالنظر الى عدم ثقته فى الكثير من أعوانه فتشبث بعاطفته الدينية متوقعا أن تكون هذه المهمة الثقيلة خفيفة على المؤمنين الصادقين.

الخراج:

يقول كاتب العهد إن الزراعة هي مصدر حياة الناس فالناس كلهم عيال على الخراج وأهله والخراج هو المصدر الأكبر لبيت المال. وقد شدد على عامله بالعناية أولا بعمارة الأرض وأن يقدمها على التفكير في حصيلة الخراج. وتعني العمارة ديمومة وتطور الإنتاج الزراعى مما يستدعي الإشراف المباشر على وضع الإنتاج فى الأرياف. ولهذا الغرض تنص رواية ابن شعبة على الأمر التالى:

أن يتصل الوالى بالمزراعين لمعرفة أوضاعهم وحاجتهم. وبعد أن ينهى استقصاءاته حول أيه قضية يتصل بالخبراء فيتداول معهم بشأنها. ثم يصدر قراره فى ضوء ذلك. وعلى سبيل المثال إذا كان المزارعون قد شكوا من فداحة الضريبة عليهم وجب على الوالى تخفيفها عنهم. وإذا كانوا قد طلبوا تعميرا أو إصلاحا وجب القيام به نيابة عنهم. وقد علل هذه الوصية بالاستناد إلى اعتبارين:

تحقيق العدل.

ديمومة الخراج.

ومنال العدل ضرورته الأخلاقية من جهة، وما ينتج عنه من الحصول على ثقة أهل الأرض بالوالى من الجهة الأخرى. أما الخراج فلا يدوم إلا بالعمارة فإذا خربت الأرض هبطت حصيلته. وندد بمن يجبى الخراج دون النظر فى عمارة الأرض لأنه إيذان بخراب البلاد وهلاك الناس. ثم ذكره بأن نفوس الولاة تميل إلى الجمع، يقصد الجباية، بما ينتج عنه من

إرهاق أهل الأرض وأفقارهم. وربط بين هذه الحالة وخراب الأرض، « وانما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها» وعلينا أن نتذكر بهذه المناسبة أن وضع الزراعة كان على الدوام هدفا للسياسة الاستنزافية التى سار عليها الخلفاء المسلمون والتى اعتمدت أساسا على (الجمع) دون النظر فى متعلقاته. وقد سبب إفقار مستمرا للفلاحين وجعل الريف نموذجا بائسا للظلم والخرا ب. وهو مايفسر لنا عناية بعض المفكرين والفقهاء بالتأكيد على العدل والإنصاف ـ فى حدود الشريعة على الأقل ـ وعلى الاهتمام بعمار ة القيعان ومراعاه ظروف المزراعين عند الجباية.

أموريباشرهاالوالى:

أوصى كاتب العهد عامله أن يتصدى بنفسه للنظر فى قضايا المتظلمين وذوى الحاجات، على أن يعقد لهذا الغرض مجلسا عاما اشترط إن يكون خاليا من الحرس حتى يكون بإمكان المتظلم عرض قضيته من غير تردد أو رهبة. كما أمره أن ينظر فى حاجات المتظلمين بلطف وأناه وأن يستحمل هفواتهم ولا يعاملهم باستعلاء.

ومهام أخرى يتعين على الوالى مباشرتها منها الإجابة على رسائل الولاة المرتبطين به إداريا إذا عجز الكتاب. ومنها تلبية حاجات الناس فى يوم ورودها، وبين له أن ذلك سيحرج، أعوانه أى موظيفة وعماله، فيمنعهم من تأخير معاملات الناس. ويدخل فى عددا الأمور المباشرة إقامة الفرائض الدينية وقد أكد كاتب العهد على أدائها وأوصاه بتفريغ أوقات لطقوس العبادة. وفى الحالات التى يؤم فيها الناس للصلاة أمره بعدم الإطاله لئلا يؤذى صاحب العلة والحاجة .وحدد الوقت المناسب لذلك بحديث رفعة إلى محمد يأمره فيه أن يصلى فى الناس صلاة أضعفهم أى أعجزهم عن القيام بالصلاة وما تتطلبة من جهد بدنى.

ثم أوصاه بعدم الاحتجاب لأنه يجعل الناس يجهلون اتجاهات السياسة القائمة فيسيئون فهمها كما يحرم الوالى من معرفة الاحتياجات العامة. ولابد لتحصيل الفهم المتبادل بين الحاكم والرعية من المخالطة لأن الحقائق، كما يقول، لا تعرف بالظن وانما بالاختبار. وقد نص كاتب العهد على أن هذه السياسة تقود إلى البلبلة حين وصف الاحتجاب بأنه يقطع عن الرعية علم ما احتجبوا دونه فيصغر عندهم الكبير ويعظم الصغير ويقبح الحسن ويحسن القبيح ويشاب الحق بالباطل. ودفعا لهذه الملابسات يجب على الوالى أن يكون على صلة مباشرة بالناس.

وفى فقرة تالية أكد على الوالى بأن يدافع عن سياسته أمام الرعية فإذا اتهموه بالحيف فى إجراء ما وجب عليه أن يصرح لهم بالعذر فيكشف لهم مبرر الإجراء المنتقد. وجعل التصريح بالعذر سبباً لجملة أشياء، منها ترويض نفسه على ممارسة الاتصال والتفاهم مع الرعية وتقتضى هذه الرياضة مجابهة عقدة التعالى التى تميز علاقة الحاكم بالشعب. ثم إن الانفتاح على الرعية بهذا الشكل يعطيه العذر الكافى لمطالبتهم بالسير فى خط السلطة.

إن هذا التعليم يصدر عن الميول الشعبية لكاتب العهد. ومن المعتاد أن تعمد السلطة وهى تتمثل مثل هذه الميول إلى مكاشفة الناس بالحقائق وعدم تضليلهم إعلامياً. وفى الغالب، فإن هذا يحدث حين يكون رجل الحكم مالكاً لقضية تتعدى مصالحة الخاصة كحاكم. ويعنى ذلك:

١ـ عدم جعل السلطة، كما فهمها الحكام المسلمون، مثلاً، وسيلة للتلذذ.

٢ـ أن لا يكون الحاكم معبراً عن مصالح طبقة فاسدة.. والحالتان لا تنفصلان عن بعضهما. فالحكام الذين أرادوا السلطة لأغراضهم الشخصية هم أنفسهم الذين يحكمون فى العادة نيابة عن طبقة من هذا النوع. إن السلطة التى تتلبس هاتين الحالتين تتجه تلقائياً نحو الاستبداد والبيروقراطية، أى نحو الا نعزال عن الشعب واتباع سياسة ما وراء الكواليس. وقد اتجه العهد حتى الآن إلى رسم الصورة التقريبية للسلطة البديلة عن هذه فى حدود المستوى المتواضع للفكر السياسى فى المرحلة التى كتب بها. ويتطابق هذا المبدأ مع سلوك على بن أبى طالب فى خلافته. وقد دافع عن نفسه أمام الخوارج بأنه لم يكتم عنهم شيئاً.

الحاشية والبطانة:

أطلق هذا الاصطلاحان فى الأدب السياسى الاسلامى على الفئة القريبة من الحاكم كالوزراء وقادة الجيش والموظفين الكبار، إلى أجانب أقرباء الحاكم وأصدقائه. وقد نسب كاتب العهد إليهم الاستئثار[١] والتطاول وقلة الإنصاف فى المعاملة. وهى صفات مألوفة عرفتها أنماط الحكم المختلفة قديماً وحديثاً.

لكى يضع حداً يمنع البطانة من سوء التصرف أوصى كاتب العهد بما يلى:

(١) الاستئثار: من الاثرة وهى الأنانية: واستأثر بالشىء انفرد به. والاستئثار فى لغة العهد يعنى انفراد الحاشية بالمصالح والامتيازات مستفيدة من علاقاتها بالحاكم.

١ـ عدم منحهم إقطاعات. لأنهم إذا امتلكوا أرضاً أضروا بجيرانهم لاعتمادهم في استثمارها على نفوذهم مما يوفر لهم ميزات لا يتمتع بها غيرهم كما يمكنهم من التصرف بقوة السلطة تبعاً لمصالحهم.

٢ـ أن لا يسمح لهم بأية صفقة عمل يحملون مؤونتها على غيرهم ويستقلون هم بثمراتها.

٣ـ تقديم ما يراه الوالي حقاً على مصالح الحاشية والبطانة والزامهم به رضوا أم كرهوا.

٤ـ أن لا يترك لعاطفته أثراً على سلوكه معهم.

وتعطى التوصية انطباعاً بأن خاصة الوالي لن تحصل على شيء. فمن حقنا لذلك أن نسأل: ما الذى يشد هؤلاء إلى السلطة إذا فقدوا الأمل في استغلالهم؟ الجواب هو أن تكون هناك قضية مشتركة بين القائد وأتباعه تحقق درجة معقولة من التجانس ويكون فيها القائد أسوة للأتباع في عدم استغلاله لسلطته وفي سيرته الشخصية القائمة على الورع. وعندئذ لا يعود هم الحاشية محصوراً في الاستيلاء على الامتيازات.

على أن تصور مثل هذا الوضع المثالي مستحيل إلا في سلطة ثورية وفق المفهوم العصرى. أعنى سلطة يتولاها ممثلوا الطبقات المسحوقة وتوجهها إيديولوجية علمية وأهداف محددة. ولابد أن يقودنا ذلك إلى القول بأن عهد الأشتر قد تجاوز الحدود الممكنة لمرحلته وهو يتصور بطانة للسلطة لا تملك شيئاً وحاكماً لا يمنح خاصته امتيازاً على سائر الناس. وحينما نعود إلى افتراض أن كاتب العهد هو على بن أبي طالب فإننا نعلم أن بطانة هذا القائد لم تحصل بالفعل على شيء، وكان هو نفسه قدوة لهم في عدم استغلال السلطة والاستئثار بامتيازات خاصة. على أننا نعلم أيضاً أن على بن أبي طالب فشل في كبح جماح بطانته عن الاستغلال والخيانة. وبعد أن أكلت الحرب في الجمل وصفّين وما تخللها وتلاها من أحداث خيرة أتباعه من أمثال عمار بن ياسر ومالك الأشتر وأدركت البطانة ضعف مركزه عاد أفرادها يتصرفون بروح الباحث عن الغنائم. وقد امتدت هذه الروح إلى أقرب أتباعه كابن عمه عبدالله بن عباس الذى عينه والياً على البصرة فنهب بيت مالها وهرب، وشقيقه عقيل الذى دفعه الحرمان

إليى الالتحاق بمعاوية. وانتهى الأمر بعد مقتله إلى عقد الصفقات السرية مع خصومه، فالتحق ابن عمه الآخر عبيد الله بن العباس بمعاوية بعد تقديم رشوة اتفقا عليها. وكان عبيدالله قائداً لجيش الحسن الذى بويع بالخلافة بعد والده. ثم جاء دور الحسن ليتنازل عن الخلافة لحساب معاوية لقاء خراج دْرا بجرد إحدى المقاطعات الكبيرة فى إيران.

لدى البحث عن تفسير لهذا الوضع فإننا نراه فى عدم تكامل المنهج الاجتماعى للحركة التى قادها على بن أبى طالب، وفى انعدام أيديولوجية اجتماعية تقف وراء الانحياز الذى أظهره للعامة. وكان من شأن ذلك أن يحرم الحركة من شروط الحركة الثورية بمفهومها المعاصر، وأن يبعدها، بالتالى، عن ذلك الجو الأخلاقى الصارم الذى يفترضه الموقف الثورى. ولم يكن أمام الحركة للتعويض عن هذا النقص غير الدور الذى تلعبه الأصالة الشخصية كما بينت سابقاً. ولعل هذا هو السبب فى أن النماذج النزيهة لم تتجاوز عدداً محدوداً من الأتباع.

وصايا ختامية:

بعد أن فرغ الكاتب من تفصيل المبادىء المطلوب من العامل أن يصرف شؤون ولايته وفقا لها، سجل الوصايا التالية وجعلها ختاماً للعهد:

ـ وجوب البحث عن سنن الماضين للاقتداء بها. وفيها دعوة للاستفادة من تجارب الغير توجب على القائد أن يدرس التاريخ.

ـ مجانبة الإعجاب بالنفس وحب الإطراء. ومن هذا القبيل عدم المنّ على الرعية بالإحسان أو التزيد فى أفعاله عما هو حاصل منها. بعبارة أخرى: أن يقدم الإنجاز البسيط فيثير حوله ضجيجاً لا يتناسب مع حجمه الفعلى. ولفهم اتجاه هذه التوصية يحسن أن نتذكر ما يفعله الإعلام الرسمى فى البلدان العربية وغيرها من بلدان العالم المتخلف. إن أجهزة الإعلام فى هذه البلدان تثير الضجيج حول أصغر الإجراءات كتبليط شارع أو إنشاء حديقة عامة، أما الإجراءات من الحجم الأكبر فإنها تضع المواطن العادى تحت طائلة تذكير يومى على مدى سنوات طويلة. ويعتبر ذلك فى باب المنّ على الشعب بمنجزات السلطة التى تعرضها أجهزة الإعلام بالطريقة التى يتحدث بها المحسنون عن أنفسهم.

- -

ـ الحذر من العجلة بالأمور قبل أن تتضح أسبابها ومن التهاون عند إمكانها، ومن اللجاجة فيها إذا تعذرت، وبذلك يزن سياسته بميزان دقيق يميز بين الممكن والمستحل، وبين ما تهيأت ونضجت أسباب المبادرة إليه وما لم تتهيأ بعد.

هذه التوصية تدعو إلى التصرف وفقاً للظروف، وهي ضد اتجاهين في السياسة: اتجاه مغامر يعمل قبل أن تنضج الأسباب متجاهلاً أحكام الظرف القائم وآخر متخاذل يعجز عن المبادرة إذا حان الوقت.

ـ ثم يكرر وصايا سبقت فينهاه عن الاستئثار والعجرفة والسطوة ويختتم بدعاء يسأل فيه التوفيق إلى العدل والحصول على ثناء العباد مع الآثار الجميلة في البلاد.

العنف والأغتيال السياسى فى الإسلام

الاغتيال اشتقاق من الجذر الثلاثى غ. و. ل الذى يفيد الهلاك، وصياغته على زنة افتعال تفيد الطلب، أى بما ينطوى على العمد والقصد. فالاغتيال هو إرادة الغول ـ الهلاك ـ للآخر، وبهذا المعنى يفيد القتل العمد. وإذا اعتبرنا اشتقاقه من غ. ى. ل. فهو مفسر فى قول الفيروز آبادى وابن منظور: «قتله غيلة، خدعه فذهب به إلى موضع فقتله». وأصل غ. ى. ل. هو الحرج ذو الأشجار الملتفة الكثيفة. وعندئذ قد يصح لنا الاستنتاج بناء على قول الفيروزى آبادى وابن منظور أن قولهم اغتاله مأخوذ من قتله فى الغيل، أى غفلة فى موضع خفى. مع ملاحظة أن عبارة قتله غيلة أكثر وروداً فى النصوص القديمة من اغتاله.

يرادف الاغتيال كلمة أخرى هى الفتك، التى تتضمن معنى مزدوجا: القتل عمداً وهو ما تؤديه الكلمة الانكليزية Murder التى تترجم تسامحاً إلى القتل بإطلاق. المعنى الثانى هو القتل على غِرّة كما نص عليه الزمخشرى فى «الأساس» . وهو المقصود فى الحديث النبوى: «الإيمان قيّد الفتك» الذى سيأتى الكلام عليه . وميز اللغويون الاغتيال عن الفتك؛ فالاغتيال إذا قتله من حيث لا يعلم، والفتك إذا قتله من حيث يراه وهو غارّ (غافل) غير مستعد. وتدخل الحالتان فى مفهوم الغدر. لكن الفتك أعم فهو يشتمل على جملة أركان تكتنف الفعل: العمد، الاستغفال، الاندفاع غير المحسوب، الجرأة والإقدام، ونجد هذه الأركان مجتمعة فى صفة الفاتك التى ترد فى معان تتراوح بين الإعجاب وعدم الارتياح. ولذلك لا نجدها تستعمل لوصف الشخصيات التاريخية المشتهرة بالشجاعة مثل على بن أبى طالب مع أنها تطلق مع الإشعار بالمهابة على الشجعان العاديين.

من هنا ينفرد الاغتيال بالدلالة على القتل العمد المشتمل على أحد ركنين:

١ـ استغفال المقتول، كأن يأتيه القاتل من ورائه، أو يكمن له.

٢ـ أو استدراجه للإيقاع به فى مكان معزول.

والاغتيال هو اللفظ الشائع اليوم، والذى يجب أن تقتصر عليه المعاجم الحديثة، دون قتل الغيلة لأنه مهجور فى العربية المعاصرة ولأن الأفضلية فى الاستعمال يجب أن تكون للاصطلاح المؤلف من كلمة واحدة.

الحكم الشرعى وتجارب العهد النبوى

أورد الفخر الرازى في تفسير الآية ٣٨ من سورة الحج من «تفسيره الكبير» ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾. إن مسلمي مكة استأذنوا النبى على قتل المشركين الذين آذوه، سراً، فنهاهم ونزلت الآية لتؤكد هذا النهى.

وفي هذا المعنى يرد حديث أخرجه أبو داوود فى كتاب الجهاد من سننه، نصه.. «الإيمان قَيَّد الفتك. لا يفتك مؤمن».. وقد تردد هذا الحديث فى أخبار قتل الحسين، إذ يروى أبو الفرج الأصفهانى فى «مقاتل الطالبين»[1] أنّ مسلم بن عقيل استشهد به حين دافع عن عدم تنفيده خطة رسمها له قائد شيعى بالكوفة لاغتيال عبيد الله بن زياد. ويمكن قبول صحة الحديث فى ضوء الآية الآنفة من سورة الحج، وهو يشكل بالتكامل مع الآية موقفاً شرعياً غير محبذ للاغتيال مهما تكن دوافعه. ويتجانس هذا الاتجاه مع قيم الفروسية الجاهلية التى تتمسك بالقتال وجهاً لوجه ولا تقر حتى ملاحقة الهارب. والفارس الجاهلى إذا صادف خصماً له خاطبه بالعبارة الشائعة: «خذ حذرك إنى قاتلك» قبل أن يهاجمه.

ولعل الموقف الاسلامى لا يتعدى هذا المنحى الجاهلى بقدر ما يكون قاعدة أخلاقية متعارف عليها. لكن هذا ليس هو السبب الأساسى فى النهى عن اغتيال المشركين بمكة، فهذا النهى يأتى فى سياق استراتيجية النبى محمد فى الطور الملكى. وكانت الدعوة الاسلامية حينذاك مقتصرة على التبشير وإمكاناتها لا تسمح باستعمال السلاح، كما أنها لم تكن قد امتلكت بعد مستقراً تتحرك منه لمزاولة هذا الشكل من الصراع. وفى الظروف الصعبة التى كانت عليها الدعوة آنذاك، كان مقتل أى شخص من المشركين يكفى لإعطاء مبرر لشن حملة إبادة ناجحة ضد تلك الفئة القليلة من مسلمى مكة. وفيما يتعلق بسلوك مسلم بن عقيل فهو ـ إذا صحت الرواية ـ لا يعبر عن التزام جدى بالحديث بقدر ما كان تبريراً لتردد مسلم، المعروف أنه لم يكن قدّ المهمة التى كلفه بها ابن عمه حين أوفده إلى العراق.

(١) ص٩٩ من . طـ القاهرة ١٩٤٩ (باب مقتل الحسين). انظر أيضاً: «الأخبار الطوال» للدينورى ص٢٣٦ القاهرة ١٣٣٠هـ.

وفي وسعنا الافتراض أن النهى عن الاغتيال كما يتحدد في الموقف الشرعي الاسلامي موجه لمحيط العلاقات الفردية، و«نافذ» ضمن الوضع الاعتيادي لمجتمع لم يتأزم فيه التناحر ـ حث تأخذ القوانين أو الأعراف مكانها في ضبط سلوك الأفراد، وتخضع حالات الصراع اليومي لاختصاص السلطة القضائية، وهو اختصاص لا يشمل أطراف الصراع السياسي والاجتماعي في ظروف التحولات التاريخية القائمة على العمل المسلح.

ويستفاد من دراسة السيرة النبوية أن فضلاً كثيراً في النجاحات التي أحرزها محمد يرجع إلى مرونته في اختيار الوسائل وقدرته على التصرف خارج منظومة المحرمات التي تشكلت منها شريعته. ولا شك في أن منشيء تاريخ من طراز محمد لا يعجز عن التفريق بين إقدام فردي ينتهك مبادىء داخلية تقوم عليها البنية الأخلاقية لمجتمع ما، وبين تكتيك حركة ينفذ بالسلاح منطلقاً من أرضية سياسية تاريخية أشمل وأبعد مدى.

تضمنت مصادر السيرة والتاريخ ثماني وقائع اغتيال ناجحة ومحاولة واحدة فاشلة حدثت جميعها إلا واحدة في المرحلة السابقة للحديبية. وهذه المرحلة اتسمت بالنمو البطيء للقدرة السياسية والعسكرية للإسلام الناشيء، وكانت فيها المدينة معقله الأوحد حينذاك، عرضة باستمرار للاجتياح. وقد استعمل تكتيك الاغتيال السياسي في ذلك الوقت ليوفر أحياناً، تعويضاً نوعياً عن الافتقار إلى قوة عسكرية ضاربة وليساعد أحياناً أخرى على ردع العناصر المناوئة داخل يثرب في وقت كانت سلطة الإسلام لم تترسخ بعد حتى في معقله الوحيد هذا.

اغتيال زعماء يهود

كانت في يثرب كما هو معلوم تجمعات يهودية تعيش غالباً في حصون بعيدة عن مركز المدينة. وكانوا خليطاً من مهاجرين وسكان أصليين (عرب) وقبائلهم الرئيسية هي بنو النضير وبنو القينُقاع وبنو قُريظة، إلى جانب يهود خيبر خارج يثرب على طريق الشام. وكان محمد قد سعى أول هجرته إلى التحالف معهم ضد مشركي مكة على أساس العقائد المشتركة للديانتين. لكنه أخفق، فكان لمحمد أن يسعى لأضعاف تأثيرهم عليه. وكانت وسيلته المبكرة إلى ذلك هي الاغتيال، الذي وجه للتخلص من عناصر مؤثرة بينهم. وقد نفذت ضدهم خمس خطط اغتيال نستعرضها فيما يلي:

كعب بن الأشرف:

زعيم يهودى بارز والده من قبيلة طيء وأمه من بنى النضير وكان حليفاً لبنى قريظة أقوى عشائر يثرب اليهودية. نشط ضد محمد منذ أول الهجرة وكان من حلقات الاتصال الأساسية بين اليهود وقريش. وبعد معركة بدر ذهب إلى مكة ليحرض قريش على الثأر لقتلاها فى تلك المعركة. وكان يقرض الشعر فنظم قصائد يعرّض فيها بنساء الصحابة وأنشد فى مكة قصيدة فى رثاء قتلى بدر من أهل مكة. وتقول مصادر السيرة إن ذلك مما أغاظ النبى كثيراً. لكن خطره فى الحقيقة لا يتمثل فى هذا الجانب، لا سيما وأن شعره، بحسب الأمثلة التى أوردتها هذه المصادر، لم يكن فى مستوى شعر الفحول الذين يُخشى من جاذبيتهم، وانما يكمن فى موقعه القيادى بين يهود يثرب.

للخلاص من عنصر خطر كهذا تقرر اغتياله. وقد وردت تفاصيل العملية فى روايات مختلفة يغلب عليها الاضطراب والابتسار، وأقدم هنا خلاصة موحدة بالمحتويات الرئيسية، المقبولة عندى، لهذه الروايات.

اختار النبى صحابياً يدعى محمد بن مسلمة عرف بخبرته فى حبك المكايد ــ اعتمده عمر بن الخطاب فيما بعد للتجسس على الولاة ــ وأمره بالتشاور مع زعيم الأوس سعد بن معاذ. وكان الأوس حلفاء بنى قريظة فى الجاهلية، فهم يعرفون بعضهم جيداً كما توطدت بينهم علاقات شخصية استمرت بعد الاسلام. وتقول المصادر أن محمد بن مسلمة اختار لتنفيذ المهمة نفراً من الأوس، وهو نفسه أوسى، بينهم رجل يكنى أبو نائلة كان هو وابن مسلمة رضيعين لكعب بن الأشرف. وتمت الخطة على مرحلتين: ذهب أولا محمد بن مسلمة أو أبو نائلة ــ بحسب اختلاف الروايات ــ إلى كعب وقال له إن هذا الرجل، يعنى محمد، قد طلب منا صدقة وانه قد عنّانا وانى قد آتيتك أستسلفك. ورأى كعب فى هذا الكلام من رضيعه مصداقاً لتحذيراته لهم من محمد فعقب عليه: وأيضاً، والله لتملنه. فقال صاحبه: إنا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أى شيء يصير شأنه، وقد أردنا أن تسلفنا وسقاً أو وسقين. فوافق كعب أن يسلفهم لقاء رهن. واتفقوا على موعد.

ورجع ابن مسلمة ــ أو أبو نائلة ــ إلى جماعته فأخبرهم. وتوجهت المجموعة لموعدها ومعها النبى محمد يسايرها حتى البقيع ــ من ضواحى المدينة ــ حيث بقى فى انتظارهم. ولما بلغوا

قلعة كعب ناداه ابن مسلمة أو أبو نائلة فنزل إليه فعرفه على جماعته، وتمشوا خارج القلعة للتحدث فى الشأن الذى تواعدوا عليه. ولم يطل بهم المسير حين مد ابن مسلمة أو صاحبه يده إلى رأس كعب، ثم سحبها ليشمها وهو يقول مداعباً إياه: ما أطيب عطرك. وكان كعب حديث عهد بالزواج من امرأة عرفت بكثرة التعطر. وبعد قليل أعاد المذكور هذه الحركة معبراً مرة أخرى عن إعجابه بعبيره، ثم رجاه أن يسمح لأصحابه أن يشموه ليتمتعوا معه بهذه الرائحة النادرة... وكانت هذه إشارة متفق عليها فتقدم أفراد المجموعة من كعب بوضعية من يريد أن يتشمم شعره المطيب وأهووا عليه بسيوفهم فقتلوه ثم قطعوا رأسه. وقد تمت هذه العملية بسرعة خاطفة لأنها نفذت فى أراضى اليهود الذين انتبهوا على صرخة كعب لحظة ضربه فأشعلوا نيرانهم فوق أسوار القلاع. وعاد المنفذون إلى البقيع ومعهم رأس كعب ووضعوه بين يدى النبى برهاناً على نجاح المهمة.

اغتيل كعب بن الأشرف فى الشهر الثالث من السنة الثانية للهجرة، بُعيد معركة بدر.. وقد اشتملت عملية اغتياله على تكتيكات وأهداف نجملها فيما يلى:

١ـ اختيار شخصين قريبين إلى المراد اغتياله لتسهيل استدراجه إلى الفخ.

٢ـ إيكال المهمة إلى رجال من الأوس وهم كما قلنا حلفاء بنى قريظة. ويهدف هذا التكتيك إلى منع ردود الفعل المحتملة إزاء مقتله فى أوساط الأوس.

٣ـ التظاهر أمام كعب بمعارضة النبى والاستياء منه، استغلالاً لوجود معارضة فعلية فى يثرب سواء من المنافقين أو الناس الأخرين الذين لم يكونوا مرتاحين لما تعرضت له مدينتهم من مشاكل بعد هجرة النبى إليها، ويدخل ذلك فى تكتيك الاندساس الهادف للإيقاع بالعدو.

٤ـ جعل العملية فى الليل لتسهيل الانسحاب بعد القيام بها.

أما الأهداف التى وفرها الاغتيال فهى:

١ـ التخلص من متآمر خطر على حركة ناشئة.

٢ـ إرعاب المناوئين للتخفيف من اندفاعهم ضد الحركة، لا سيما وأن نجاح الاغتيال قد بيَّن لهم أن الحركة تمتلك أدوات ووسائل كافية للردع. كما أثبتت لهم جدية محمد فى المجابهة.

٣ـ إن هذا العمل قد بيّن ليهود المدينة أن محمد ليس هدفاً سهل المنال كالمسيح، ولعله قد أزال ما قد يكون تبقى بعد معركة بدر من أوهام بهذا الخصوص.

استنتاج فقهي خاطىء:

قال السهيلي في «الروض الأُنُف» الذى شرح فيه سيرة ابن هشام، إن الفقهاء ـ عدا أبو حنيفة ـ رتبوا على قتل كعب بن الأشرف حكماً بوجوب قتل من سب النبى وإن كان ذا عهد[1]. والحكم مبنى على أن كعب قتل لأنه كان يهجو النبى. وقولهم «ذا عهد» يشير إلى ارتباط يهود المدينة فى ذلك الوقت بميثاق يثرب الذى حاول النبى محمد أن يجعله إطاراً للتحالف معهم. وقد أكسبهم هذا الميثاق صفة أهل الذمة. وهذا من الأقيسة السطحية القائمة على مناط شكلى، إذ لم يدخل هؤلاء الفقهاء فى اعتبارهم أركان الحدث من جهة ارتهانه بحالة حرب وكون المقتول من قادة العدو المقاتل وكونه بالتالى إجراءً سياسياً عسكرياً لا يصلح أن يكون سابقة، لحكم قضائى. وكم من الفرق بين هذه الحالة وحالة إنسان عادى يشتم النبى لغواً أو مهاترة. ولعل معارضة أبو حنيفة لهذا الحكم وعدم إجازته قتل من سب النبى مسلماً أو ذمياً هى نتاج هذا التفريق بين الحالتين. وأبو حنيفة معروف بدقة أحكامه وسعة أفقه فى الاجتهاد.

سلام بن أبى الحقيق:

كان من زعماء بنى النضير والتحق بعد إجلائهم بخيبر ليستمر فى مناهضة المسلمين من هنالك. وهو من المحرّضين الكبار الذين عملوا على دفع قريش لشن هجومها الأخير على المدينة حيث وقعت معركة الخندق.. وكان قد ذهب فى وفد يهودى إلى مكة لهذا الغرض. وبعد عودته وضعت خطة لتصفيته. ومصادر السيرة تفيد أن البادرة جاءت من الخزرج وأنها كانت بدافع المنافسة مع الأوس، خصوصهم القدماء الذين حصلوا على شر ف اغتيال كعب بن الأشرف. لكن الفكرة لم تكن، مع صحة هذه المصادر، لتغيب عن النبى الذى سبق أتباعه إلى إدراك الفوائد المترتبة على مثل هذه العمليات. وقد اختار لهذه المهمة مجموعة من رجال الخزرج وأمرهم بالتوجه إلى خيبر. وفيما يلى تفاصيل العملية:

كان على المجموعة أن تدخل حصن خيبر ليلاً، حسب الخطة، فتقدم أحدهم ويدعى

(١) ج٢/ ١٢٢ ـ القاهرة ١٩١٤.

عبدالله بن عتيك أو ابن عُقبة من بوابة الحصن، وتظاهر بأنه يقضي حاجته خارج السور فصاح عليه البواب: إن كنت تريد أن تدخل فادخل أريد أن أغلق الباب. فدخل وكمن في معلف حمار قريباً من المدخل. وبعد أن دخل أهل الحصن في وقتهم المحدد دخل البواب وأغلق البواب وانتظر عبدالله في مكمنه حتى أقفر المدخل من الناس فقام وأخذ المفاتيح، وكان قد رأى أين علقها البواب، وفتح البوابة. وكانت المجموعة تنتظر خارج الحصن فدخلوا. وكان الغسق قد حل، فتوجهوا إلى دار ابن أبي الحقيق فدخلوها. وكانت الدار أشبه بمجمعة تحتوى على عدة بيوت. ولم تصف الرواية كيف استطاعوا دخولها لكنها تذكر أنهم أغلقوا أبواب البيوت على أهلها من برة. ثم اقتحموا المنزل الذى يقيم فيه ابن أبي الحقيق، والرواية هنا مبتسرة لا توضح كيف اقتحموا المنزل. وعلى أى حال فقد وصلوا إليه فوجدوه مع زوجته على فراشهما. وكان البيت مظلماً ولكى يميزوه عن زوجته نادى عليه أحدهم فأجابه فزعاً: من أنت، فهجم باتجاه الصوت وضربه ضربة عشوائية بالسيف لم تصبه. ونهضت امرأته في وجوههم فارتبكوا؛ لأن النبي أوصاهم أن لا يتسببوا في قتل امرأة أو طفل. غير أنهم استطاعوا أخيراً دفعها عنه وتناولوه بأسيافهم فأجهزوا عليه. وفى هذه الأثناء خرج أهل الحصن من بيوتهم على صراخ المرأة، فاختفى المنفذون في إحدى زوايا الحصن، فلم يعثر لهم على أثر لشدة الظلام. وعاد اليهود بعد أن يئسوا من العثور عليهم إلى زعيمهم فوجدوه قد مات، فانشغلوا به، وانتهزت المجموعة هذه الفرصة فتسللوا من الحصن.

إن اغتيال سلام بن أبي الحقيق يندمج في اغتيال كعب بن الأشرف ويحقق نفس الأهداف بالنظر للدور والمركز المتماثلين لكلا الزعيمين:

ابن سنينة:

هكذا ورد الاسم في المصادر. وكان من يهود بني حارثة. ولم تذكر له الرواية دوراً يتعدى هجاء النبي والمسلمين بالشعر. تولى اغتياله بأمر النبي شخص يدعى مَحيصة بن مسعود. وكان المقتول حليفاً لشقيقي القاتل وهو حُويصة بن مسعود. وقد اغتاله بحضور شقيقه دون علم مسبق منه. وكان حويصة مشركاً متنفذاً وقد اختار النبي أخاه محيصة لهذه المهمة وهو مسلم، بخلاف أخيه، لتفادى مشكلات الثأر.

اغتيل ابن سنينة بعد اغتيال كعب بن الأشرف. ويؤخذ من الرواية التى تناولت الحدث أنه

جاء في سياق التخويف لغيره لأن اليهود جاءوا بعد مقتله إلى محمد يشكون ما حدث فأجابهم: «إنه لو قر كما قد قر غيره ممن هو على مثل رأيه ما اغتيل. لكنه نال منا الأذى وهجانا بالشعر». وكلام النبي هنا واضح فقد اغتيل الرجل لأنه نشط في المناهضة ولو سكت كما سكت غيره محتفظاً بوجهة نظره لسلم.

اغتيال امرأة:

ورد هذا الحدث في روايتين مختلفتين كثيراً، إحداهما في مصادر الحديث والأخرى في مصادر السيرة. رواية مصادر الحديث أخرجها النسائي وأبو داود في كتاب الحدود من سننهما وملخصها أن أعمى كانت له أم ولد (جارية ـ زوجة) وله منها ابنان وكانت تكثر الوقيعة بالنبي وتسبه وهو ينهاها ويزجرها فلا تنتهي. وذات ليلة ذكرت النبي وأخذت بشتمه فتناول مغولاً (سيف قصير دقيق) فوضعه في بطنها ثم اتكأ عليه حتى قتلها. وجاء الأعمى إلى النبي وقال له: يا رسول الله أنا صاحبها، كانت أم ولدي وكانت بي لطيفة رفيقة ولي منها ابنان مثل اللؤلؤتين ولكنها كانت تكثر الوقيعة فيك وتشتمك فأنهاها فلا تنتهي وأزجرها فلا تنزجر. فلما كانت البارحة ذكرتك فوقعت فيك فقمت إلى المغول فوضعته في بطنها فاتكأت عليها حتى قتلتها. فقال النبي «ألا اشهدوا أن دمها هدر». ولم تذكر الرواية اسمها.

رواية مصادر التاريخ تفيد أن المرأة هي عصماء بنت مروان وأنها كانت يهودية ولم تكن جارية بل زوجة رجل من بني خَطَمة كانت تحرض على الاسلام وتهجو النبي بالشعر. فنذر صحابي دعى عُمير بن عدى الخَطَمي ـ من نفس عشيرة زوجها ـ أن يغتالها إذا رجع النبي سالماً من معركة بدر. فلما رجع جاءها ليلاً فدخل عليها وهي بين أولادها وكان أحدهم على صدرها ترضعه، وكان عمير أعمى، فتلمسها فوجد الرضيع فنحاه عنها ووضع سيفه في صدرها حتى أنفذه من ظهرها. وعاد من الصبح وصلى مع النبي. ولما انتهت الصلاة نظر إليه النبي وقال: أقتلت ابنة مروان؟ قال: نعم يا رسول الله فقال: نصرت الله ورسوله يا عمير فقال: عليّ شيء من شأنها يا رسول الله؟ فقال: لا ينتطح فيها عنزان. وقال لأصحابه: إذا أحببتم أن تنظروا إلى رجل نصر الله ورسوله بالغيب فانظروا إلى عمير بن عدى.

ويصعب الجزم بأى الروايتين أصح. ولو أنهما تشتركان في كون القاتل أعمى وفى أن المبادرة إلى الاغتيال جاءت منه ولم تكن أمراً من محمد، وأنه أ قرها بعد أن تمت. وربما

استنتجنا من قوله في الرواية الثانية: أقتلت ابنة مروان؟ أن هناك أمراً ما، ما لم يكن هذا القول إضافة من الرواة للتدليل على معرفة النبي بالغيب. ويمكن ترجيح وجود أمر إذا أخذنا بما أوردته الرواية الثانية من كون القاتل من عشيرة زوجها لأن فيه تفادياً لمشكلات الثأر. وفي الروايتين إشكالات عسيرة الحل إذ يمكننا الارتياب في صحةالثانية من الوصف المبسط للعملية الذي يبدو منه كأن المرأة كانت تمثالاً تجلس أمام الأعمى في صمت وهو يلتقط المغول ويزيح رضيعها من على صدرها ثم يغرز المغول فيها ويتكيء عليها حتى تموت لكننا نجد هذا الأسلوب في السرد شائعاً في معظم روايات مصادر الحديث والكثير من روايات مصادر التاريخ العام. وهو ابتسار يكرس طبيعة النقل الشفوي للأخبار قبل مرحلة التدوين. ويتعذر علينا كذلك أن نعرف الصفة الحقيقية للمرأة، وهل كانت زوجة أم جارية؟ وهل هي يهودية؟ وما هو رد فعل زوجها إذا كان القاتل غيره؟ وماذا يدل عليه كون القاتل أعمى في الروايتين؟ يضاف إلى ذلك تعارض هذا الفعل مع التشديد في النهي عن قتل النساء. وقد رأينا كيف كادت خطة اغتيال ابن أبي الحقيق تفشل بسبب زوجته لأن المكلفين بذلك تحاشوا المساس بها التزاماً بوصية نبيهم. إننا مضطرون أمام هذه الإشكالات إلى التوقف بشأن الروايتين وعدم الجزم إن كان مثل هذا الحدث قد وقع فعلاً،ولو أن ورود الروايتين في مصادر متعددة، مختلفة الاختصاصات ـ حديث، سيرة، تاريخ عام، تراجم، وأموال ـ يمنع من التشكيك الاعتباطي فيهما مع بقاء التفاصيل مجهولة فيما يتعلق بهوية المرأة ودورها في الخصام إذا كان لنا أن نقبل المضمون الأولي للروايتين.

أبو عفك:

يهودي من بني عمرو بن عوف، كان يحرض على محمد شأنه شأن غيره من كبراء اليهود في يثرب، ولجأ في ذلك إلى الشعر. وتقول الرواية إن صحابياً يدعى سالم بن عُمير الأنصاري عزم على اغتياله وأنه دبر الخطة بنفسه. وقد بقي يترصده حتى جاء الصيف حيث ينام الناس في الأفنية. وفي إحدى الليالي كان أبو عفك ينام في منازل عشيرته فتسلل إليه سالم وقتله بالمغول. وكان قد ناهز المئة والعشرين. وأقر النبي هذه العملية.

وكان اغتياله بين معركة بدر وأحد، وهي المدة التي اغتيل فيها أقرانه اليهود عدا ابن أبي الحقيق الذي اغتيل بعد معركة أحد.

توقفت الاغتيالات الموجهة ضد الشخصيات اليهودية بعد فتح خيبر الذى أعقب معركة الخندق، آخر معارك الاسلام ضد أهل مكة. وبفتح خيبر كانت المعارضة اليهودية قد صفيت حيث سبقه إجلاء بنى القينقاع والنضير وإبادة بنى قريظة وأصبح الخيبريون رعايا لمحمد بموجب عقد الذمة الذى أعقب اجتياح معقلهم الأخير.

اغتيال زعيم قبيلة:

وقع هذا الحدث بين معركتى بدر وأحد. وقد رواه الطبرى فى أحداث السنة العاشرة للهجرة من فصل عدّد فيه سرايا النبى، أى الحملات التى كان يوجهها لأهداف موصوفة. يدعى هذا الرجل خالد بن سفيان وهو من هذيل. وكان قد قرر تجميع قوة من عشيرته وغيرها لمهاجمة يثرب بعد معركة بدر. وقد يكون فعل ذلك بتحريض من قريش. ويبدو أن محمد وقف من طريق استخباراته على جدية هذا القرار. وقد نفذ هذه المهمة صحابى يدعى عبدالله بن أنيس كان ضمن المجموعة التى اغتالت كعب بن الأشرف. وحسب رواية هذا الصحابى نفسه أن النبى دعاه وأبلغه أن خالد بن سفيان يجمع الناس ليغزو المدينة، وأمره أن يذهب إليه ليقتله. وتوجه إليه بعد أن عين النبى أوصافه حتى يستطيع تشخيصه، إذ لم يكن قد رآه من قبل، ووصل قبل الأصيل فرآه يمشى مع نساء كان يبحث لهن عن منزل. ويظهر من الرواية أنه كان بعيداً عن الحى. فسلم عليه فرد عليه السلام ثم سأله من الرجل؟ فقال: رجل من العرب سمع بك وبجمعك لهذا الرجل ـ يعنى محمد ـ فجاءك لذلك. فرد خالد، أجل أنا فى ذلك. فتمشى معه قليلاً يحادثه فى هذا الشأن فلما وجد منه غفلة عاجله بضربةمن سيفه فأرداه. وعاد إلى نبيه ليخبره بإتمام المهمة فكافأه بعصا لتكون وسيلة تعرّف بينهما يوم القيامة. وباغتيال خالد بن سفيان فشلت خطة الهجوم.

يلاحظ أن اغتيال هذا الزعيم تم بسهولة لأنه كان يتحرك على طريقة البدو، بلا حرس ولا أركان حرب. ولم يتطلب الأمر خطة معقدة كالتى اقتضاها اغتيال كعب بن الأشرف ـ التاجر والمتحصن فى قلعة. ويرجع تأثيرهالحاسم فى إفشال الهجوم إلى أنه كان قراراً منفرداً ومرتهناً بشخص القتيل، فانتهى بانتهائه. وكان محمد حين قرر اغتياله ملماً بهذه الحقائق جيداً لأنه كان يعتمد على جهاز رصد كفؤ.

اغتيال زعيم قبيلة آخر:

فى سيرة ابن هشام وتاريخ الطبرى أن زعيماً لقبائل قيس يدعى رفاعة بن قيس الجُشَمى كان يجمع قيساً لحرب رسول الله. فوجه إليه ثلاثة فدائيين ذكر منهم عبدالله بن أبى حَدْرَد فكمنوا له. ورماه ابن أبى حدرد بسهم فقتله وجاء برأسه إلى النبى.

أورد هذا الخبر أيضاً ابن حبيب فى «أسماء المغتالين من الأشراف» ويختلف الرواة فى اسم المغدور إذ يرد أحياناً قيس بن رفاعة.

ويمكن الشك فى قطع رأسه لأنه يفترض وقتاً طويلاً للعملية مع انفراد المقتول عن أصحابه، مما يتعارض مع خطة العملية التى اعتمدت على كمين متحرك. كذلك يتعارض حمل الرأس مع حكم، شرعى ينهى عنه لأنه من باب المُثلة (التمثيل بالجثث) لكن ثمة حاجة قد تكون دعت إليه لإثبات نجاح العملية. وكما بينت فمؤسس الاسلام لم يتقيد بالأحكام الشرعية إذا تعارضت مع مخططاته.

اغتيال عَبْهلة. الأسود العنسى:

كان عبهلة (أو عيهلة) من زعماء الردة وقد تحرك باليمن فى أواخر حياة محمد وسيطر على معظم أنحائها وامتد نفوذه إلى أجزاء واسعة من الجزيرة تصل حتى الخليج وكانت حركته من مستوى حركة مسيلمة (الكذاب) فى اليمامة من حيث قوتها وخطورتها.

كان من المعتاد أن يعالج محمد مثل هذه التحركات بالمجابهة الحربية لا سيما بعد أن صار هو القوة الأولى فى الجزيرة منذ صلح الحديبية. وهو السبب فى أننا لا نجد عمليات اغتيال فى هذه المرحلة. لكن طبيعة تحرك عبهلة فرضت على محمد مجابهة من طراز خاص تنطلق من خطة اغتيال تأتى فى سياق عمل منظم لسحق الحركة بأقل قدر من التكاليف. وكانت هذه الخطة من أعقد مخططات الاغتيال السياسى التى أوعز بها النبى محمد وأشدها إثارة. وفيما يلى تفاصيل العملية كما وردت فى تواريخ الطبرى وابن الأثير واليعقوبى وفتوح البلدان للبلاذرى.

كان محمد قد أصدر بنفسه قرار الاغتيال وكلف به جماعة من أهل اليمن واستغرقت العملية وقتاً أطول من أى عملية سابقة بحيث لم تتم إلا والنبى على فراش الموت.

نهض بالمهمة إلى جانب الأشخاص الذين كلفهم محمد، جماعة أخرى مؤثرة من أهل اليمن بينهم القائد العام لجيش عبهلة قيس بن عبد يغوث، الذى قدم تسهيلات بهذا الشأن بعد اختلافه مع نبيه، وقد تصدر التنفيذ زعماء «الأبناء» وهم من الفرس الذين استوطنوا اليمن بعد جلاء الأحباش عنها وكان لهم نفوذ سياسى كبير إلى جانب أقيالها. وكان هؤلاء قد ناهضوا حركة عبهلة وخاضوا ضده معركة خاسرة انتهت بقتل قائدهم المسمى «شهر» واستيلاء عبهلة على زوجته «آزاد». وتم التنسيق على المستوى الأبعد للخطة مع غير المرتدين من أهل صنعاء على أن يتحركوا إذا سمعوا الأذان من داخل قصر عبهلة.

كانت العقدة الأساسية فى الخطة هى كيفية الوصول إلى عبهلة لأنه كان يقيم فى قصر محصن ومحاط بحرس شداد لا يفارقونه ليلاً ولا نهاراً. وقد تولى حل العقدة آزاد، الزوجة المغصوبة التى عزمت على الثأر لزوجها. فدلت ابن عم لها يدعى فيروز كان من عناصر التنفيذ، على مكان خلفى فى القصر يكون وراء الحرس ويؤدى رأساً إلى غرفة نوم عبهلة. وفى ليلة متفق عليها مع آزاد جاء فيروز ومعه فارسيان آخران أحدهما يدعى داوذويه والآخر قيس بن جَشيش الديلمى ونقبوا القصر من المكان الذى عينته آزاد. ودخلوا عليه والحرس لا يشعر لأنه كان يقف خارج الحجرة، وباغتوه بسيوفهم فأجهزوا عليه. وتقول الرواية إن الحرس سمعوا صوته لحظة ضربه فنادوا على آزاد فقالت لهم: النبى يوحى إليه. . وكان قد عرف عند العرب من الأخبار التى تحدثت عن كيفية نزول الوحى على محمد ما يحدث له أثناءه من الرعدة والغيبوبة. وبقى الحرس فى مكانهم خارج الغرفة والمجموعة مع آزاد فى داخلها وعبهلة قتيل بينهم حتى الصباح. وكانوا قد رتبوا من يرفع الأذان من داخل القصر عند الصبح. وعلى صوت المؤذن تحرك مسلمو صنعاء وهجموا على القصر، وتحرك الحرس من جانبهم فخرجت إليهم المجموعة من غرفة عبهلة وألقت إليهم برأسه مقطوعاً، فأرتبكوا واختلت صفوفهم، مما سهل على المهاجمين احتلال القصر. وهرب جنود عبهلة إلى خارج صنعاء.

تشتمل عملية اغتيال الأسود العنسى على جملة عناصر ومدلولات تتميز بها عن سائر العمليات المماثلة فى تاريخ السيرة نستخلصها فيما يلى:

١ـ إنها كما قلنا فى البدء ليست عملية اغتيال فردى بحت، لأنها جاءت كجزء/ أساسى/ من خطة انقلابية لنسف الحركة من الداخل. وكما بينا فإن قادة العملية نظموا مسلمى صنعاء

للهجوم على القصر عند سماع الأذان، الذى قام هنا بدور كلمة السر التى أعلنت ساعة الصفر، مع ما فى رفع الأذان المحمدى من قصر عبهلة من إرباك لأتباعه.

٢- إن اغتيال عبهلة قد حسم الوضع لصالح محمد. ولكن هذا لم يتم إلا بالارتباط مع المخطط الانقلابى فى جملته. وقد أدى الاغتيال بدوره إلى نجاح الانقلاب بسرعة وبأقل كلفة مما أغنى عن حروب طويلة كانت ستكلف ما كلفه القضاء على حركة مسيلمة من ثمن باهظ، لا سيما وأن عبهلة أثبت أنه يتمتع بقدرات كبيرة لعلها هى التى أطمعته أن يضع نفسه نداً لمحمد، شأن نظيره مسيلمة.

٣- وهنا لابد من التنويه بأن مبادرة كالتى قام عبهلة كان يمكن أن تثمر لو توفر لها مقومان: أحدهما منهاج محدد، مقترن بايديولوجيا واضحة المعالم، كالذى كان لدى محمد. والثانى لو أنها ظهرت فى أوانها. إذ من الواضح أن عبهلة جاءمتأخراً، كما هو حال مسيلمة، بعد أن تهيأ لمحمد أن ينجز ما كانت المرحلة التاريخية فى جزيرة العرب وعموم المنطقة تريد أن ينجز على يد نبى ما.

وفى ظرف كهذا تميل فيه عوامل النصر الموضوعية مع محمد، فإن تحركاً كبيراً كتحرك عبهلة بدا مع تنفيذ ذكى وجرىء لخطة اغتيال أشبه بحدث عابر سرعان ما تلاشى على صوت المؤذن. ويؤدى الاغتيال هنا، ضمن ظروفه المادية وما ارتبط به من مخطط شامل، إلى نتائج بعيدةلا يؤديها الاغتيال الفردى.

٤- قامت بشوط كبير فى إنجاح عملية الاغتيال زوجة عبهلة المغصوبة آزاد. والمسؤولية هنا تقع على عبهلة نفسه لأنه خاطر بالزواج من امرأة قتل زوجها. ولابد أن جمال آزاد الفتاة الفارسية، قد أنساه مرتكسات مثل هذا التصرف. إن آزاد هى التى جعلت تنفيذ الخطة ممكناً، ولولاها لكانت شبه مستحيلة، مع الوضع الحصين الذى رتبه عبهلة لنفسه، ولكان على خليفة محمد أن يجهز جيشاً كالذى جهزه لحرب مسيلمة للقضاء على هذه الحركة.

من المفيد أن نذكر هنا أن حالة آزاد قد سبقتها حالة مماثلة لكنها لم تؤد إلى النتيجة نفسها. فقد سبق لمحمد أن أقدم على نفس المخاطرة حين تزوج من صفية بنت حُيَيّ بن أخطب أحد زعماء خيبر. وكانت صفية متزوجة من زعيم يهودى من بنى النضير هو كنانة بن الربيع، الذى التجأ إلى خيبر بعد إجلاء عشيرته عن يثرب. وقد قتل أبوها وزوجها فى معركة فتح خيبر التى

قادها علي بن أبي طالب وأشرف عليها محمد بنفسه. وأسرت صفية فتزوجها محمد. وتنقل مصادر السيرة عن صفية أنها كانت تكره محمد أشد الكره، وهو أمر طبيعي، لكن المصادر تضيف أنها قالت إن الله أدخل حبه في قلبها بعد ذلك. ومن المرجح أنها لم تكن صادقة في هذا القول. ويخبرنا «ابن سيد الناس» في سيرته المشهورة «عيون الأثر» أن تقريراً رفع إلى عمر بن الخطاب بأن أم المؤمنين صفية تحب السبت وتتصل باليهود سراً. فاستجوبها عمر فأنكرت حبها للسبت واعترفت باتصالها باليهود قائلة بأن لها أقرباء فيهم فهي تبرّهم. وقبل منها عمر وأغلق القضية. ولم يكن له بد من ذلك لأنها من «أمهات المؤمنين» فلا سبيل له عليها، فضلاً عن أن اليهود لم يعودوا في زمان عمر قوة يؤبه بها حتى يقلقه اتصال صفية بهم.

المهم في هذه الحالة أن صفية كان يمكن أن تلعب مع محمد نفس الدور الذى لعبته آزاد مع عبهلة لو أن محمد كان قد وقع في وضع مماثل. لكن الانتصارات الساحقة التي أحرزها مؤسس الاسلام منطلقاً من قاعدته التاريخية الراسخة قد نجته من عواقب هذا الزواج الخطر.

خطة فاشلة لاغتيال أبو سفيان:

بعد معركة بدر، التي قتل فيها نفر هام من زعماء قريش، تركزت قيادة أهل مكة في يد أبو سفيان، شيخ الأمويين. وكان أبو سفيان هو منظم وقائد حملتي أحد والخندق ووراء جميع النشاطات المعادية التي قام بها المكيون حتى فتح مكة، وكان من المنتظر أن يدرج في قائمة الاغتيالات. لكن الأمر لم يكن سهلاً، لسببين أولهما طول المسافة بين مكة ويثرب، وبالتالي عدم ضمان خط انسحاب لمجموعة تكلف بهذه العملية، لا سيما وأن قريش كانت تسيطر على معظم الطريق بين المدينتين. الثاني، وهو الأهم، صعوبة توفير مكمن في مكة تتحرك منه المجموعة، لأنها كانت خالية من المسلمين.

لكن هذه الصعوبات لم تمنع محمد من المحاولة، وقد وردت تفاصيل ذلك في الطبرى وابن الأثير ـ حوادث سنة ٤ ـ وتقول الرواية إن النبى اختار لهذا الغرض «فاتكاً متشيطناً» يدعى عمرو بن أمية الضَمري، دخل في الاسلام بعد أن شارك مع قريش في معركتي بدر وأحد. ولعله كان بانتظار اسلام مغامر كهذا ليجرب حظه مع أبو سفيان. وقد بعث معه رجلاً من الأنصار. وخرج الرجلان إلى مكة فدخلاها في الليل، وهو الوقت الذى تمت فيه المهام الأخرى. وكان أهل مكة يرشون أفنيتهم في المساء ويجلسون فيها للسمر. وفي طريقهما إلى

منزل أبو سفيان، مر عمرو وصاحبه بجماعة جالسين في فناء. فأصبروا عمرو، وكان معروفا لديهم لشهرته، فصرخوا: هذا عمرو بن أمية، فاهتاج أهل مكة وأدركوا أنه لم يأت إليهم إلا لغرض شرير. وكان عمرو يعرف دروب البلد فاستطاع الإفلات مع صاحبه في جنح الظلام.وعاد إلى المدينة وقد سلم أبو سفيان. ولم تكرر المحاولة. ولا شك في أن محمد كان مدركا لصعوبتها وهو عندما اختار فاتكا كعمرو بن أمية الضمر قد فعل غاية ما في الإمكان، ولم يكن ميسورا لغير هذا الرجل أن يوفق فيما فشل هو فيه. ومن الجدير بالذكر في هذه المناسبة أن شخصية عمرو بن أمية الضمري دخلت في الحكايات الشعبية التي تناولت بعض أحداث الفتوحات. وقد أخذت في هذه الحكايات نفس منحاها التاريخي. ولو أن عمرو في الحكايات الشعبية، خلافا له في مصادر التاريخ، لا يمكن أن يفشل في مهمة!

* * *

تنتهي إلى هنا قصة الاغتيالات في العهد النبوي.. وسوف نتناول فيما بعد قصتها في خلافة الراشدين.. وقبل أن نترك هذا الفصل يلزمنا إيراد بعض الملاحظات الضرورية:

١ـ إن محمد مارس هذا التكتيك كما قلنا في تعارض مع الحكم الشرعي الذي ثبته بنفسه. وهو بذلك يكرس تصوره الخاص للدائرة التي يمكن لهذا الحكم أن يتحقق فيها ـ حيث نجده يمارس الاغتيال في دائرة الصراع السياسي المسلح وبقدر ملموس من الذرائعية.

٢ـ إن الاغتيالات التي نفذت في عهد النبوة محدودة عدديا ومحصورة زمنيا.. وضمن هذه الحدود أعطى تكتيك الاغتيال نتائج ذات مفعول بالنسبة لمسيرة الثورة المحمدية.

٣ـ إن الأطراف التي وجهت ضدها الاغتيالات هي أطراف معسكر العدو الذي كان يضم المشركين واليهود. ويرتبط اغتيال الشخصيات اليهودية الخمس أو الأربع بالأدوار الخطرة التي لعبتها الجماعات اليهودية في يثرب ضد محمد وهو في أحرج أوضاعه. وقد أعطته الاغتيالات ورقة رابحة رجحت كفته عليهم وحدّت نشاطهم المناوىء.

وكما بينت، فقد توقفت الاغتيالات ضد اليهود بعد تصفية المعارضة اليهودية. وتحتوى مصادر الحديث والفقه والتفسير على وقائع كثيرة، عولجت كسوابق فقهية، كان أشخاصها من يهود المدينة، منها رواية تقول إن النبي كان إذا وزع الخمس يقول: «ابدأوا بجارنا اليهودي».

فى الخلافة الراشدية

وقعت في خلافة الراشدين أربعة حوادث اغتيال طالت خليفتين وصحابياً كبيراً وقائداً شيعياً. وقد جاءت هذه الحوادث في مجرى الصراع السياسي الذى انفجر بين المسلمين لحظة وفاة النبي، واستمر متفاقماً حتى تأوّج بالحرب الأهلية التي بدأت بالانتفاض المسلح ضد عثمان ثم تواصلت في خلافة علي لتنتهي بإنهيار دولة المدينة ـ حكومة الخلفاء الراشدين وتأسيس الامبراطورية الأموية.

نفذت ثلاثة من الاغتيالات بأيدى اسلامية وواحدة بيد أجنبية. وجرت ثلاثة منها في العلن كعملية اغتيال مكشوفة، وواحدة منها سراً. لكن إحدى العمليات، هي التي طالت الخليفة الثاني، اشتملت على احتمالات عنصر سرى يكمن خلف التنفيذ المكشوف للاغتيال.

اغتيال سعد بن عبادة:

هو زعيم الخزرج وأحد النقباء في بيعة العقبة التي مهدت لهجرة محمد إلى يثرب. عرف في الجاهلية بسمو أخلاقه وتعدد كفاءاته فلقب بالكامل. وينقل ابن عساكر[١] عن الواقدى أن النبي قال بسببه كلمته المشهورة: «خيار الناس في الجاهلية خيارهم في الاسلام إذا فقهوا في الدين». وكان هو قائد الأنصار في حروب الاسلام على عهد النبي وسلك حينذاك سلوك رجل متعفف عن الغنائم. كما يتولى حماية المدينة أثناء الحروب التي كان النبي يقودها بنفسه.

وكان سعد بن عبادة يتمسك بزعامة الأنصار ويعارض قريش. وقد أخرج البخارى[٢] أنه هتف يوم فتح مكة وفي يده راية الأنصار بسقوط الكعبة ـ كرمز لسيادة قريش ـ فشكاه أبو سفيان للنبي فقال: كذب سعد هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة. ثم أوعز بنزع الراية منه وتسليمها إلى ولده قيس في رواية أو إلى علي بن أبي طالب في رواية أخرى.

من هذا الموقع رشح سعد نفسه للخلافة يوم السقيفة. لكنه لم يحصل على إجماع الأوس، خصوم الخزرج التقليديين، مما رجح عليه كفة أبو بكر، الذى أيدته قريش ومعظم الأوس.

---

(١) تهذيب تاريخ دمشق الكبير. بيروت ١٩٧٩ ج٦/ ٩٠ في ترجمة سعد بن عبادة.
(٢) الصحيح ج٥ ص١٤٧ باب غزوة الفتح.

على أن سعد لم يقر بالهزيمة، وأصر على عدم الإقرار باستخلاف أبو بكر. وبسبب ذلك اختار العزلة فلم يشارك في نشاطات الخلافة في الداخل ولا في الفتوحات. وكان لا يحضر حتى الصلاة في المسجد وانما يصلي في بيته. ويبدو أنه لبث يتحين الفرص لمغادرة المدينة، فلما فتحت بلاد الشام هاجر إليها وأقام في حوران. لكنه لم يعش طويلاً. فقد مات في ظروف غامضة سنة ١٤ للهجرة. وقد وردت في موته أخبار نستعرضها فيما يلي:

- رواية ابن عساكر عن النضر بن شُميل وهي موجزة تذكر بأنه بال قائماً فمات، فسمع قائل يقول(١):

نحن قتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة

ورميناه بسهمين فلم نُخْط فؤاده

- ثلاث روايات أوردها صاحب العقد الفريد(٢) إحداها عن هشام الكلبي وتفيد أن عمر بن الخطاب بعث رجلاً إلى الشام فقال له ادعه إلى البيعة، واحمل له بكل ما قدرت عليه فإن أبى فاستعن الله عليه. فقدم الرجل إلى الشام فلقيه بحوران في حائط (بستان) فدعاه إلى البيعة فقال له: لا أبايع قرشياً أبداً. قال: فإني أقاتلك قال: وإن قاتلتني. قال: أفخارج أنت مما دخلت فيه الأمة؟ قال: أما من البيعة فأنا خارج. فرماه بسهم فقتله.

الثانية عن ميمون بن مهران، وتفيد أن سعد بن عُبادة رُمي في حمّام بالشام فقتل، ولا تزيد عليه شيئاً.

الثالثة عن ابن سيرين وفيها أن سعد بن عبادة رمي بسهم فمات فقالت: قتلته الجن.

وقتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة

ورميناه بسهمين فلم نخطيء فؤاده

- رواية في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد(٣) تقول ان سعد بن عبادة خرج إلى حوران فمات بها. واستطرد:فقيل قتلته الجن لأنه بال قائماً في الصحراء ليلاً. ثم أورد البيتين المنسوبين إلى الجن في نص مطابق لنص ابن عساكر. لكن ابن أبي الحديد يعود فينقل رواية

(١) تهذيب تاريخ دمشق ٦/ ٩٣.
(٢) ط ـ القاهرة ١٩٦٢ ج٤/ ٢٦٠ كتاب العسجدة الثانية.
(٣) ٣/ ٥٤٠.

تقول ان أمير الشام يومئذ أكمن له من رماه ليلاً وهو خارج إلى الصحراء بسهمين فقتله لخروجه عن طاعة الإمام، أى الخليفة. وأردف هذه الرواية بأيات قال إنها لبعض المتأخرين تضمنت إشارات صريحة عن ملابسات مقتل ابن عبادة سنرويها للقراء بعد قليل.

تتفق هذه الروايات في جملتها على أن سعد بن عبادة مات ميتة غامضة. ويمكننا أن نستبعد منها الرواية التى تقول إنه قتل مباشرة بأمر عمر بن الخطاب، لأن قتل زعيم الخزرج وقائد الأنصار وأحد نقباء بيعة العقبة على المكشوف تهور لا يقدم عليه سياسي محنك كعمر بنت الخطاب. ولعله كان سيثير فتنة تعيد إلى ذاكرة الخليفة أحداث الردة القريبة. ولا مفر بالتالى من قبول الروايات التى تحدثت عن الاغتيال. ومما يلفت النظر هنا دور الجن في العملية وتفسيره بأن سعد بال قائماً. والتبول قياماً مكروه في الشريعة، قد يكون سبباً فى التعرض لعقوبة خفية، مما يمكن أن يكون قد جرى توظيفه هنا لإعطاء سبب غيبى للموت. والوعى الدينى لا يستكثر مثل هذا الإسراف في العقوبة، المتضمَن فى قتل قائد إسلامى كبير سلفت له أيادى جليلة على الإسلام بسبب مخالفة بسيطة. أما قتله على يد الجن فيفهم منه أن هؤلاء الجن كانوا من المسلمين ـ والجن كالإنس فيهم المسلم وفيهم الكافر ـ وأنهم تولوا قتل الصحابى غيرة على الدين لأنه خالف الشرع بتبوله قائماً. هذا مع ما فى القول بأن سعد بال قائماً فقتلته الجن، أو مات ميتة خفية من تصغير لشأنه في عيون المؤمنين.

نأتى الآن إلى الأبيات التى أوردها ابن أبى الحديد لبعض المتأخرين وهذا نصها:

يقولون سعد شكّت الجن قلبه	الا ربما صححت دينك بالغدرِ
وما ذنب سعد أنه بال قائماً	ولكن سعدا لم يبايع أبا بكر
وقد صبرت عن لذة العيش أنفس	وما صبرت عن لذة النهى والأمر

إن قائل هذا الشعر لم يستوعب كيف يصح للجن أن تقتل رجلاً كسعد بن عبادة لمجرد أنه بال قائماً، وهو بالتالى يضع الحادث على ملاك الغدر ـ الاغتيال، مصرحاً بالسبب وهو موقف سعد من خلافة قريش متمثلاً فى رفضه مبايعة أبو بكر. وقد عزز الشاعر استنتاجه بالكلام عن شدة إغراء السلطة، الذى يضعف أمامه حتى الزهاد القادرين على ترويض أنفسهم للصبر عن متع الحياة. ومن الواضح أنه يلمح بذلك إلى عمر وأبو بكر اللذين عرفا بالزهد وبساطة العيش قبل الخلافة وفى أثنائها.

هذه الأبيات تعطي تفسيراً يمكن أن يكون سليماً لجمل ما حدث بشأن سعد بن عبادة. وقائلها قريب العهد بالحادث. وهي من جهتها شاهد على وعي سياسي قادر على أن يخر ق حجاب العقائد الشعبية ليطل منها على أسرار السياسة.

ونحن نميل إلى القبول بهذا التفسير ونعتقد أن اغتيال سعد تم بتدبير عمر بن الخطاب وأن الباعث عليه هو إصراره على عدم الإقرار بخلافة قريش وإباؤه أن يبايع للخليفتين حتى بعد أن بايع الهاشميون بصدارة على بن أبي طالب، صاحب الحق الأكثر رجحاناً من سعد في خلافة محمد.. ومع أن عمر لم يكن ليجهل أن زعيم الخزرج غير قادر على تغيير مجرى الخلافة فمن المحتمل أنه كان يخشى من تأثيره على الأنصار، وربما على غيرهم من المسلمين. وهناك ما يشير إلى أن نواياه المعادية للخليفتين قد تجاوزت الأنصار فعلاً. وقد اتضحت هذه الحقيقة في وقت لاحق حين انضم ولده قيس، الذى ورث الكثير من سجايا والده، إلى على بن أبى طالب وكان من أشد أنصاره حماساً ضد الأمويين إلى حد أنه امتنع عن مبايعة معاوية بن أبى سفيان بعد انتزاعه الخلافة من الحسن بن على حتى بعد أن بايعه الحسن نفسه..

إن مصرع سعد بن عبادة هو أول حدث من نوعه في تاريخ الاسلام يقتل فيه مسلم على يد رفاقه أنفسهم، وهذا الحدث يجرى من جهته على سنن شائعة في الحركات السياسية المسلحة بعد انتصارها. فهذه الحركات قلما تخلو بعد وصولها إلى السلطة من مصائر مأساوية يذهب ضحيتها بعض قادتها الذين يشاء سوء حظهم أن لا يتمتعوا بثمار انتصارهم.

اغتيال عمر بن الخطاب:

اغتيل عمر بن الخطاب على يد فيروز الديلمي المكنى أبو لؤلؤة. وكان عبداً للمغيرة بن شعبة الثقفي. وقد جرى اغتياله وهو يؤدى صلاة الصبح. وكانت العملية سهلة لم تتطلب خطة معقدة كالتى اضطر إليها المسلمون لتنفيذ الاغتيالات التى أمر بها النبى. وسبب هذا أن عمر كان بلا حرس لأنه، شأن صاحبيه أبو بكر وعلى، لم يكن يرتاح لمظاهر السلطة ويعتبرها من قبيل أعمال كسرى وقيصر ـ طغاة ذلك الزمان فى عيون العرب. وقد دخل أبو لؤلؤة مع جمهور المصلين إلى المسجد رغم أنه لم يكن مسلماً، دون أن يعترض عليه أحد. وكان يخفى خنجراً له رأسان فلما تقدم عمر صفوف المصلين اتجه إليه أبو لؤلؤة وطعنه ست طعنات، أو ثلاث بحسب اختلاف الروايات، كانت إحداها تحت سرته وهى التى قتلته. ويستدل من ذلك

أنه لم يطعنه من الخلف وإنما دغره من الأمام، مما يدل فى حد ذاته على سهولة العملية، الناتجة كما قلنا من انعدام مظاهر الحماية فى أيام عمر.

من هو قاتل عمر؟ وأية حالة طمّنها رحيله؟

المعروف أنّ الباعث على اغتيال عمر كان هو الانتقام لهزيمة الفرس وانهيار امبراطوريتهم. وهو ما حرك أبو لؤلؤة للقيام بهذه المغامرة. ويذكر عن هذا الفدائى المجوسى أنه كان يقول: أكل عمر كبدى. ولعله كان يقولها حقاً، إذا لم نشأ أن نتجاهل رد الفعل الطبيعى الناتج عن الأحاسيس القومية.

ومما أثار حفيظة أبو لؤلؤة ومن على شاكلته من الفرس أكثر، هو أنّ الفتوحات الإسلامية لم تخرج، رغم نتائجها التاريخية الهائلة، عن ناموس الفتوحات والحروب القديمة القائمة على جمع الغنائم واسترقاق الأسرى بما فى ذلك نساء المقاتلين وأطفالهم. ولقد قيل أن أبو لؤلؤة كان إذا رأى سبايا بنى قومه فى المدينة يمسح على رؤوس الأطفال ويبكى.

لكن هل كان اغتيال عمر مجرد رد فعل فارسى؟

كانت قريش هى الارستقراطية الأغنى والأكثر نفوذا فى بلاد العرب. ومع أنها حاربت الإسلام فى البداية فسرعان ما انضوت تحت لوائه لكى تتصدر العرب المسلمين كما تصدرت العرب الجاهليين. وبالطبع فقد أصبحت قريش بعد الاسلام أغنى وأقوى منها فى الجاهلية كما اتسعت قاعدتها العددية، كطبقة اجتماعية بالعناصر الارستقراطية الجديدة التى تكونت مع الفتوحات وتدامجت معها فى موقع اجتماعى واحد دون أن تكون بالضرورة من قريش.

وقد ساهم عمر بنفسه فى نمو هذه الفئة، وذلك عن طريق سياسته فى العطاء (التخصصيات المالية) وكان عمر بعد أن تدفقت عليه أموال الفتح قد اتبع قاعدة فى العطاء تقضى بتفضيل المسلمين الأولين ـ ومعظمهم من قريش ـ وأقرباء النبى من قريش أيضاً من حيث مقادير الأموال التى تدفع لهم. وقد تكدست لديهم بسبب ذلك مبالغ طائلة أضيفت لدى أكثرهم إلى ثروته السابقة من التجارة. ورغم أن هذا المبدأ حرم من العطاء عدداً من زعماء قريش الذين أسلموا متأخرين ـ بعد فتح مكة، فإن نفوذ هؤلاء استمر فى أبنائهم وأقاربهم الذين سبقوهم إلى الاسلام فشملهم التفضيل. وقد استند عمر بهذه السياسة إلى

منطق «حزبى» عبر عنه بقوله[1]: «لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه» صادرا فى ذلك عن نهج شبه سائد فى الحركات السياسية التى تصل إلى السلطة فيستأثر قادتها وكوادرها بامتيازات مخصوصة.

غير أن عمر لم يكن على وفاق تام مع هذه الفئة. ورغم أنه كان من قريش ومتمسكاً بزعامتها للعرب فقد صدر منه ما ينم عن عدم انسجام مع النزعات المعروفة لهذه القبيلة الارستقراطية. ويورد الطبرى كلاماً له يحذر فيه من فتيان قريش وذوى الأرومة النبيلة فيها يدل على معرفة جيدة بشخصية التاجر الذى يجمع بين احتياز الثروة والجاه[2]. ولهذا الاتجاه لدى عمر أصول اجتماعية وقبلية، فعشيرة عمر (بنوعدى) لم تكن ذات وجاهة أو ثروة قبل الاسلام. ويقول أبو حيان التوحيدى عن عمر نفسه إنه كان يشتغل دلالاً فى السوق[3]. وهى حرفة غير محترمة كثيراً عند العرب حتى الوقت الحاضر. وما يقال عن عمر أنه كان «يسفر» يتوسط، فى الخصومات بين قريش فمرجعه ليس إلى مكانته بل إلى كفاءته الشخصية.

ويبدو أن معايير عمر «الحزبية» والدينية لم تمنعه من الوقوع فى تناقض مع أولئك الناس الذين فضلهم بالعطاء بتأثير واحد من هذه المعايير. ولدينا روايات تحدثت عن نوايا مستجدة لديه بشأن الأموال تمس علاقته بهذه الفئة على نحو خطير. ونستعرضها فيما يلى:

الأولى فى كتاب الخراج لأبو يوسف وفيها يقول عمر[4]: «لئن عشت إلى هذه الليلة من

---

(١) الخراج، أبو يوسف، ط. السلفية ـ القاهرة ١٣٥٢هـ ص٤٣ فصل كيف فرض عمر لأصحاب رسول الله.

(٢) التاريخ ط ـ الاستقامة، القاهرة ١٩٣٩ ج٣/٤٢٧ باب مقتل عثمان. نص الكلام: «احذروا فتى قريش وابن كريمها، الذى لاينام إلا على الرضا، ويضحك عند الغضب، وهو يتناول من فوقه ومن تحته».

(٣) البصائر والذخائر. دمشق ١٩٦٦ ج٢ ق٢ ص٤١. وفى «الأمتاع والمؤانسة» يورد أبو حيان كلاماً لعمر بن العاص يقول فيه: «لعن الله زماناً عملنا فيه لابن الخطاب. لقد رأيته وأباه وأنهما لفى شملة ماتوارى ارساغهما وأن العاص بن وائل (والد المتكلم) لفى مقطعات الديباج مزررة بالذهب. ط بيروت بلا تاريخ ج٢/٩٥.

انظر أيضاً شرح النهج م١ ص٨٥ى وعبارة عمرو فيه: «لعن الله زماناً صرت فيه عاملاً لعمر. والله لقد رأيت عمر وأباه وعلى كل واحد منهما عباءة قطوانية لاتجاوز مابض ركبته وعلى عنقه حزمة حطب. والعاص بن وائل فى مزررات الديباج». وينبغى أن يكون هذا النص أقرب إلى الأصل لأن التوحيدى يعيد صياغة مروياته بأسلوبه ولا يتقيد بالنص الذى ينقله.

(٤) ص٤٦ فصل كيف فرض عمر لأصحاب رسول الله. أيضاً طبقات ابن سعد ج٢ ق٢ ص٢١٧.

قابل لألحقن آخر الناس بأولاهم حتى يكونوا فى العطاء سواء» ويفهم الثالثة فى تاريخ الطبرى وفيها يقول[١]: «لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين». ويفهم من قوله: «لو استقبلت ما استدبرت» إنه صرح به فى عامه الأخير. والأغنياء المقصودون هم الذين استفادوا من التوزيع المتحيز والمستفدين من عوائد الفتوحات. وكان بينهم تجار المسلمين من قريش وهم فريقين: المسلمين الأول كعثمان بن عفان ومسلمي الفتح. أما فقراء المهاجرين فهم فقراء المدن الذين هاجروا إليها من البوادى والأرياف بموجب نظام الهجرة الذى أشرنا إليه سابقاً.

إن الروايات الثلاثة متكاملة فى محتوياتها بشكل يبعث ـ مع ورودها عن رواة متفرقين لا يصدق عليهم وصف التواطؤ ـ على تعزيز الثقة بصحتها. وهى تشكل بما تضمنته من نوايا معلنة بشأن الأموال موقفاً جديداً موجهاً ضد الارستقراطية القديمة ـ الجديدة التى ساهم عمر نفسه فى بلورتها وترسيخ موقعها الاقتصادى. ويتمتع بأهمية دالة فى هذا الصدد، إجراء سبق لعمر أن اتخذه بحق القرشيين الذين اختصهم بأفضلية العطاء سبب فى حينه صراعا خفيا بينهم وبين الخليفة. ولنترك للطبرى تفسير ذلك..

ـ عن الحسن البصرى[٢] : كان عمر قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج (من المدينة إلى الأمصار) إلا بإذن وأجل (سفر مؤقت).

ـ عن الشعبى[٣]: لم يمت عمر حتى ملته قريش. وقد كان حصرهم فى المدينة وقال إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم فى البلاد.

ويضيف الشعبى أن بعضهم كان يستأذنه فى الخروج إلى الجهاد فيقول له قد جاهدت مع النبى وهذا يكفيك. وخير لك من الجهاد اليوم أن لا ترى الدنيا ولاتراك..

ويقول الشعبى فى نفس الرواية إن عثمان رفع الحجر عن قريش فتنقلوا فى البلاد فكان أحب إليهم من عمر. وهو ما تؤكده الرواية التالية:

(١) حوادث ٢٣. مقتل عمر ـ باب شىء من سيره مما لم يمض ذكره.
(٢) نفسه. حوادث ٣٦ مقتل عثمان.
(٣) نفسه. حوادث ٢٣ فصل مقتل عمر فى آخر الحديث عن الشورى. يريد عمر انهم سوف يتسلطون على الناس بوصفهم عشيرة النبى وصحابته الأقربين. ويبدو عمر من هنا مدركا للدور السلبى الذى تمارسه أمثال هذه الفئات فى الدول الناشئة حين تجمع بيدها السلطة والثروة. انظر أيضاً ابن عساكر ٥/ ٢٦٦.

- عن محمد وطلحة[1]: لم تمض سنة من إمارة عثمان حتى اتخذ رجال من قريش أموالاً في الأمصار وانقطع إليهم الناس - يقصد تجمعوا حولهم وصار لكل واحد حاشية وأتباع.

نقرأ في هذه الروايات مقدمات انشقاق سياسي بين عمر والارستقراطية الجديدة تسبق تصريحاته الثلاثة، منشأة الحجر عليها في المدينة. وهو إجراء يحد من اتساع هذه الفئة التي كانت تطمح إلى إيجاد مواقع لها في الأمصار مدفوعة بحافز طبيعي نحو تركيز وتوسيع مصالحها الاقتصادية ونفوذها الاجتماعي. ومن هنا كان تبرمها من عمر، وتوقها بالتالي إلى الخلاص منه (ما مات عمر حتى ملته قريش). على أن الخلاف لم يبلغ، حتى السنة الأخيرة من حياة الخليفة، من التناحر ما يكفي لتفجير صراع دموي. وينبغي لذلك أن لا نتوقع تحركا معاديا يستهدف التضحية بإمام عظيم، حتى في عيون الارستقراطية التي ملت منه، من أجل أن تتحرر وتنطلق. ولو أنها كانت تود، بحسب ما يسعنا استخلاصه من إفادات رجال الطبرى، لو أن هذا الإمام مات في أجله المسمى ليذهب إلى ربه دون أن تتحمل شيئاً من وزره. وللمؤمنين من أتباع الأديان السماوية نهج معروف في التوفيق بين الدين والدنيا يرتبط بحرصهم على الفوز بسعادة الدارين، نعيم الدنيا والآخرة معاً.

لكن انتقال عمر إلى موقع آخر، ذو طبيعة صدامية، كان من شأنه أن يثير ردود فعل من درجة أشد قد ترتقي بالرغبة إلى مرتبة الإرادة.

هنا يخبرنا الطبرى أن عبيدالله بن عمر قال مهددا بعد مقتل والده[2]:

والله لأ قتلن رجالاً ممن شرك (شارك) في دم أبي

وينقل الطبرى عن أحد رواة الخبر وهو عبدالعزيز بن سياه تعقيبا عليه يقول: إنه - أى عبيدالله - يعرّض بالمهاجرين والأنصار.

وكان عبيدالله قد قتل الهرمزان ورجلاً مسيحيا اسمه جفينة اتهمها بالتواطؤ على اغتيال والده ثم قتل ابنة أبو لؤلؤة وبقي شاهراً سيفه. ويقول الطبرى إن صهيب الرومي أرسل إليه حينذاك عمرو بن العاص وسعد بن أبي وقاص. وقد صاوله سعد حتى انتزع السيف منه وحجزه في داره. وتبعاً للرواية فإنه كان يردد هذا التهديد في تلك الساعة، مما يعني أنه كان

(١) نفسه. حوادث ٣٦. فصل مقتل عثمان.
(٢) نفسه، حوادث ٣٦. فصل مقتل عثمان.

يبنوى بعد أن فرغ من مقتل الثلاثة أن يتوجه إلى أولئك الرجال ليصفي حسابه معهم. ولذلك لم يلق السيف إلا بعد المبارزة مع عسكريين كبيرين ما كان بمقدوره أن يتغلب عليهما.

ويبدو أن عمر لم يكن بعيداً عن التفكير في احتمال كهذا، لأنه كان يسأل الداخلين عليه من الصحابة وهو يحتضر: أعن ملأ منكم كان هذا؟ وهم يقولون: معاذ الله. (عن ملأ: تواطؤ. والملأ اصطلاح يمني يشير إلى مجالس ممثلي القبائل التي كانت تشارك في إدارة الدولة في الدول اليمنية الغابرة).

وبوسعنا الافتراض أن الجهة التي كان يهمها التخلص من عمر قد جسدت إرادتها، أو رغبتها على الأقل، من خلال الغضب الفارسي على هادم الامبراطورية الساسانية. ومما له مغزاه أن أبو لؤلؤة كان عبداً للمغيرة بن شعبه الثقفي، وهو شخصية تآمرية قديرة كانت له وشائج صميمة مع الارستقراطية الجديدة، وهو الذي سعى لدى عمر للسماح لغلامه هذا بالإقامة في المدينة لأن عمر كان نهيي عن دخول الأعاجم، الذين فتحت بلدانهم، إلى عاصمة الفاتحين المسلمين، كإجراء أمني.

ترد في هذا السياق أخبار غامضة عن كعب الأحبار. وهو يهودي من اليمن أسلم في خلافة أبو بكر وقدم إلى المدينة في خلافة عمر. وتدور شبهات حول إسلام هذا الرجل، الذي يحل في التقييم الشيعي محل عبدالله بن سبأ في التقييم السني؛ كلاهما لعب دوراً في تأجيج الفتن بين المسلمين بحسب الاتهامات المتقابلة بين الطوائف.

أورد الطبري[1] في تفصيله لأحداث مقتل عمر أن كعب قال لعمر قبل اغتياله بثلاثة أيام أنه سيموت. ولما سأله الخليفة من أين علم ذلك قال انه مكتوب في التوراة. ويقال ان عمر دهش لهذا الكلام فأكد عليه: الله! إنك لتجد أن ابن الخطاب في التوراة؟ فرد عليه: «اللهم لا. ولكن أجد صفتك وحليتك». ولما ضرب عمر في اليوم الثالث ودخل عليه كعب أنشد عليه عمر بيتين يذكر فيهما نبوءة كعب.

وفي طبقات ابن سعد[2] رواية أخرى تفيد أنّ زوجة عمر، أم كلثوم بنت علي، قالت لزوجها وهي تبكي ـ وكانت شابة غريرة ـ إن هذا اليهودي، تقصد كعب الأحبار، يقول إنك

(١) نفسه حوادث ٢٣ مقتل عمر.
(٢) طبقات ابن سعد/ ٢٤٠.

على باب من أبواب جهنم. فأرسل إليه وسأله عن ذلك فقال يا أمير المؤمنين لا تعجل علي؛ والذى نفسي بيده لا ينسلخ (لاينصرم) ذو الحجة حتى تدخل الجنة. فقال عمر: أى شيء هذا مرة في الجنة ومرة في النار؟ فرد عليه: انا لنجدك في كتاب الله (التوراة) على باب من أبواب جهنم تمنع الناس أن يقعوا فيها.

تتحمل هذه الأخبار وجوهاً مختلفة؛ ان تكون بصحيحة، وتكون بالتالي دليلاً على معرفة كعب الأحبار بمخطط اغتيال عمر، وبمعنى ما: ضلوعه فيه. وأنا أستبعد ذلك لاعتبارات، منها أن حوار عمر مع كعب يظهره مؤمناً ساذجاً سريع التصديق، مما لا يأتلف مع شخصية قائد سياسي وعسكرى كبير يصعب علىي مشعوذ، أيا كان، أن يضحك عليه بهذه الطريقة المفضوحة. وينبغي أيضاً نفى صحة البيتين اللذين يقال ان عمر أنشدهما حين دخل عليه كعب لأنهما من الشعر المتين، الجيد السبك. ولم يكن لعمر من الشاعرية ما يمكنه من نظم مثل هذا الشعر وهو سليم فكيفى وهو، يحتضر؟

أو أنها اختراع أريد به إضفاء القداسة على الخليفة الثاني من حيث النص عليه في التوراةأسوة بالنص على محمد في الانجيل.

وقد تكون في أصلها شائعات بثت عن عمد بعد مقتل عمر لإعطاء هذا الحدث صفة التدبير الإلهي غير الخاضع لإرادة البشر، وبالتالي لقطع اللغط حوله. إن الكثير من الأخبار التي اعتدنا على اعتبارها مكذوبة واتهام المؤرخين باختلاقها هي في الواقع من هذا النمط. ونحن نعرف من تجاربنا الراهنة أن الأخبار الكاذبة غالباً ما تنشأ حول الحدث السياسي، وبالتزامن معه أحياناً، لدوافع وأسباب مختلفة.

يهمنا أيضاً أن نشير إلى صلة جفينة، المسيحى الذى مر ذكره، بسعد بن أبى وقاص وكون الأخير هو الذى جاء به إلى المدينة حين عاد إليها معزولاً من ولاية الكوفة بأمر عمر. ولابد أن تبعث على التساؤل هذه الصحبة إلى المدينة بين فاتح العراق وأحد العشرة المبشرين بالجنة وبين رجل نصراني من عرب الحيرة غريب على الحجاز. ومن الجدير بالذكر أن جفينة كان على صلةبالهرمزانى وأبو لؤلؤة وهو ما حدا بعبيد الله بن عمر إلى قتلهما معاً. وقد مر بنا أيضاً أن سعد بن أبى وقاص هو الذى انتزع السيف من يدى عبيدالله وحجزه في داره. ومن المفيد أن نذكر هنا أن عمر كان على خلاف شديد مع سعد بسبب سلوكه عند ولايته الكوفة، مما حمله

على عزله بعد أن أرسل مبعوثاً من قبله إلى الكوفة وأمره بإحراق باب قصر الإمارة الذى يقيم فيه سعد. وكان عمر يمنع الولاة من اتخاذ أبواب لمقراتهم حتى لا ينحجبوا عن الناس[1].

تتجمع من مجمل ما رويناه حتى الآن خيوط مؤامرة خفية قد تكون حيكت من خارج المجموعة الفارسية الصغيرة التى اتهمت بالتواطؤ مع القاتل. ولعل عبيدالله بن عمر كان مطلعاً، أو على الأقل متحسساً بملابسات من هذا القبيل حين هدد بقتل آخرين قال إنهم اشتركوا فى الجريمة، إذا صح ما نقله الطبرى. وقد حال الإسراع بالقبض عليه دون تنفيذ تهديداته، وبالتالى أدى إلى كتمان أسماء كان يمكن أن تظهر للعلن مع لمعان سيف الولد الموتور.

ولكن لماذا لم يتفوه عبيدالله بذكر هذه الأسماء بعد أن قبض عليه؟ هنا قد نجد أنفسنا أمام سر آخر يتعين علينا كى نستشفه أن نعرف من كان يقصدهم عبيدالله بالتهديد. وهم فى حالتنا هذه أحد ثلاثة: قريش، أو أنصار على بن أبى طالب، أو ورثة وأعوان سعد بن عبادة. وكان هؤلاء الثلاثة قد استقطبوا فى جبهتين متخاصمتين ستخوضان حرباً أهلية بعد قليل، تضم الأولى قريش وتضم الثانية الفريقين الآخرين. وقريش هى التى استلمت الخلافة فى شخص عثمان وهى التى احتجزت عبيدالله وتحكمت فيه. وبالتالى فلو أنه كان يقصد بتهديده الفريق الآخر فقد كان من مصلحتها أن لا يسكت. لكنه وقد سكت لابد أن يكون المقصود بالتهديد رجال من قريش. وبالطبع فإن قريش، الحاكمة، تملك القدرة على إسكاته. وثمة عامل هام يفترض أنه أثر على موقفى عبيدالله وهو مطالبة على بن أبى طالب بإعدامه لقتله الهرمزان. وكان على يصدر فى هذه المطالبة عن موقف شرعى بحت. وعلى معروف بعدم مرونته فى هذا الجانب. وقد لجّ فى مطالبة عثمان بعد استخلافه بإعدام عبيدالله إلى أن حسم عثمان القضية بتخريج قانونى قال فيه إنه، أى عثمان، ولى الهرمزان لأن الهرمزان لا ولى له (يقصد ليس له أقرباء يطالبون بدمه، وفى هذه الحالة يكون الخليفة هو الولى) وانه بالتالى قد تنازل عن دمه وقرر العفو عن قاتله. وهكذا وجد عبيدالله نفسه فى حماية قريش، والأمويين بالأخص، فكان من الطبيعى أن ينحاز إليهم ويعتبر قضية والده منتهية إلى هذيا الحد.

(١) الدينورى ـ الأخبار ـ الطوال ص١٢٥. وأورده ابن عساكر عن طبقات ابن سعد رغم الترجمة المنحازة التى اختص بها سعد بن أبى وقاص فى تاريخ دمشق الكبير ج٦/ ١٠٦.

لا مجال مع ذلك لأى قدر من الجزم بنتيجة قاطعة. وإن كنت لألمح من الضجيج الذى أثاره القدماء والمتأخرون من رواة التاريخ حول هذه «الجريمة الفارسية» دوراً فى التمييع والتستر.

على أننا لنملك حق البت فى الحقيقة التالية، وهى أن مقتل عمر قد استجاب لمصالح اجتماعية إن لم تكن هى التى دبرت قتله فإنها كانت المستفيد الأوحد من هذه العملية. وأنه ليبدو لنا الآن دون أن نجد حافزاً إضافياً لمواصلة الهجوم على أبو لؤلؤة المجوسى، أن الفاتح العظيم قد ذهب ضحية ـ محتومة ـ لتلك المفارقة الكبرى (التى تكررت أيضاً فى خلافة على بن أبى طالب وانتهت به إلى المصير المماثل الذى سنقصه بعد قليل) بين سياسة تقوم على الفتوحات ـ أى بناء امبراطورية ـ وتسعى فى نفس الوقت لإقامة نظام داخلى فى توزيع المنهوبات يقوم على التساوى بل ويسعى لمصادرة أموال الأغنياء (قادة الفتح ومؤسسى الامبراطورية) وتوزيعها على الجنود.. إن من يفكر فى المساواة، وفى أى إطار كانت، لا يستطيع أن يبنى امبراطورية ولا شك أيضاً أن من يبنى امبراطورية لا يسعه أن يسلك سلوك عمر. لقد خلق عمر بهذه السياسة المزدوجة تناقضاً لم يكن ممكناً حله باستخلاف عثمان بن عفان. وهو الخيار الوحيد الذى أمكن معه لتاريخ الاسلام أن يأخذ مساره اللاحق. ولم يكن خنجر أبو لؤلؤة غير الرافعة التى اختارتها المسيرة لإزاحة عقبة ناشزة فى مجراها.

اغتيال على بن أبى طالب:

وصل على بن أبى طالب إلى الخلافة بعد الحركة المسلحة التى أودت بعثمان. واغتيل على بيد نفس الحركة. والفريق الذى اغتاله هم الخوارج الذين انشقوا عليه فى صفين. فاغتيال على هو نتيجة لتناقض فى صفوف مجموعة سياسية واحدة أخذ بعداً تناحرياً أدى إلى انفجار صراع دموى بين شقيها. وهذه ظاهرة مطّردة فى تاريخ الحركات السياسية المسلحة بعد وصولها إلى السلطة.

وقد تسبب اغتيال الخليفة الرابع عن مسلك تدميرى لدى الخوارج هو ما دفعهم إلى اتخاذ قرارهم بتصفية زعيمهم السابق وخصومه فى آن واحد. والخطة معروفة، فقد تداول فريق من الخوارج فى أمر الأمة فوجدوا أزمتها تكمن فى زعامتها. واتخذوا من ثم قرارهم الذى يقضى

بالتخلص من هذه الزعامة التى تمثلت حسب تحديدهم فى على بن أبى طالب، ومعاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص. وعهد بالتنفيذ إلى ثلاثة فدائيين أرسل أحدهم إلى الكوفة والثانى إلى دمشق والثالث إلى مصر. وعينت الخطة للتنفيذ يوماً واحداً هو التاسع عشر من رمضان بعد أن حسبت المدة الكافية لوصول الثلاثة إلى مقاصدهم، وساعة واحدة هى ساعة صلاة الفجر.

وفى الوقت الموعود، كان كل من الثلاثة قد توجه إلى هدفه. ويبدو أن الفدائى الذى أرسل إلى معاوية لم يحسن توجيه الضربة، فوقع السيف فى إليه معاوية ولم يقتله. أما فدائى عمرو بن العاص فأجاد الضربة وقتله. ثم تبين أنه شخص آخر ناب عنه فى الصلاة لمرض ألمّ به ذلك اليوم. ويفهم من هذا أنه لم يكن يعرف شكل عمرو فلم يميزه عن نائبه. وكان اسم النائب القتيل «خارجة» فقال الفدائى قولته المشهورة: «أردت عَمْراً وأراد الله خارجة». ونجحت خطة اغتيال على بن أبى طالب. ونحاول الآن استقصاء عوامل نجاحها

١ـ فدائية الخوارج، وهى عامل مشترك بين الثلاثة الذين نفذوا ما عليهم دون تردد ودفعوا حياتهم ثمناً لها، لولا أن صاحب معاوية لم يظهر قدرة فى توجيه الضربة القاتلة إذا لم نضع فى الحسبان وضع معاوية الأكثر حصانة من زميليه لما عرف به من دهاء وحذر.

٢ـ وجود الطابور الخامس لمعاوية فى معسكر على، مع خوارج فى الكوفة بحكم كونها المكان الرئيسى للحركة التى انشق عنها الخوارج. وكان على ترك للخوارج بعد معركة النهروان حرية الإقامة فى عاصمته ولم يلاحقهم. وقد تمت العملية بتنسيق مشترك مع الطرفين، عملاء معاوية والخوارج. وكان من العناصر البارزة فى الطابور الخامس الأشعث بن قيس زعيم كندة وحفيد ملوكها الغابرين. وتفيد المصادر أنه ساعد الفدائى الخارجى فى الاختفاء حتى يحين موعد التنفيذ، وكان معه صبيحة اليوم الموعود. وقد دفع ذلك بعض المؤرخين الذين لايعرفون ألاعيب السياسة إلى جعل الأشعث من الخوارج[١]، وهو فى الحقيقة

(١) منهم سبط بن الجوزى، وهو مؤرخ لامع، فى «مرآة الزمان» مخطوطة فيض الله أفندى (مكتبة مليت باسطنبول) رقم ١٥٢١. المجلد الرابع فى ترجمة على بن أبى طالب.
كذلك: أبو الفرج الاصفهانى ـ مقاتل الطالبين طـ ـ القاهرة ١٩٤٩ ص٣٣باب مقتل على بن أبى طالب.
البلاذرى ـ أنساب الأشراف بيروت ١٩٧٢ ج٥/ ٤٩٣.

عدو مشترك لهم ولعلى وحليف سرى لمعاوية. وكان من الذين حرضوا على مقاتلة الخوارج في النهروان بدلاً من استئناف الحرب ضد معاوية.وكان التخلص من على هدفاً كبيراً لمعاوية سعى إليه الأشعث ومن على شاكلته من زعماء الارستقراطية العربية في العراق.

٣ـ عدم توافر إجراءات صيانة لحياة علي. وقد أشرنا إلى ذلك في قضية عمر بن الخطاب. والخلل هنا أشد، لأن عمر كان يحكم من دون معارضة مكشوفة أو جدية حتى عامه الأخير، أما على فحكم وسط قلاقل دامية وجبهة مفككة. وكما بينا، كان المنشقون عليه من الخوارج وخصومه من عملاء معاوية يجاورونه في الكوفة دون أن يتعرضوا للملاحقة. وقد أحسَّ أعوانه بالخطر وحذروه من الاغتيال ولم يلتفت إليهم ورفض أن يخصص له حرس شخصي. وهو ما كان الخوارج يعرفونه جيدا، فقد أورد الطبرى أن صاحب معاوية أخبره بعد القبض عليه أن على بن أبي طالب قد يكون قتل في نفس الساعة، وكشف له عن خطتهم. ولما شكك معاوية في احتمال نجاحهم في قتل على قال له الخارجي: إن علياً يخرج وليس معه من يحرسه. وقد حاول أولاده وبعض أعوانه الخلص أن يحرسوه من بعيد ولكن إجراءهم لم يكن جدياً. وهم بلا شك ملومون على ما حدث لأنهم وقد استوعبوا الخطر كان بمقدورهم أن يشكلوا حراسة منظمة من بينهم دون أن يشعروه بها. أما المراقبة من بعيد فقد دلت على بؤس القائمين بها لأن الفدائي الخارجي نفذ إلى المسجد واقترب من علي، الذى كان يصلي وحده دون أن يثير انتباه أحد إلا بعد أن صاح على اثر الضربة. وكانت صيحة مضروب فعلموا أنه أصيب.

٤ـ من الملاحظ أن كلاًمن خطة الخوارج الثلاثية وخطة اغتيال عمر بن الخطاب نُفّذت عند الصلاة. وتفسير ذلك أن للصلاة موعداً معلوماً لابد أن يظهر فيه المطلوب اغتياله ليؤم المصلين مما يوفر ضبطاً في توقيت العملية لا يتيسر خارج أوقات الصلاة. يضاف إليه أن الامام عند الصلاة يكون مكشوفاً وسهل المنال لأن الصلاة تتم ـ حسب الأصول الشرعية ـ دون شكليات وتوجب أن يندمج الإمام بالمصلين ليتساوى معهم. وقد بلغ التشدد في هذا المبدأ أنهم حرموا أن يصلي الإمام على ديكة حتى لا يكون أعلى مقاماً من المصلين. وقد بادر معاوية بعد التجربة التي مرت به إلى تسكير هذه الثغرة فأمر ببناء مقصورة منفردة يؤم منها المصين. وهو إجراء مخالف للشريعة . ولكن من المعروف أن معاوية لم يكن من الخلفاء الراشدين وكان في سياسته معنياً بتأمين مصالح امبراطوريته وليس بتنفيذ أحكام الشريعة.

٥ ـ من الجدير بالذكر أن قاتل على استخدم سيفاً مسموماً. وقد اعترف بعد القبض عليه أنه سمم سيف باتقان، لضمان أن تكون الضربة مميتة إذا هو لم يوفق إلى توجيه ضربة قاضية. وهو ما حدث بالفعل، فقد كان على القاتل أن يضرب ضربة خاطفة توفر له وقتاً للهروب من داخل المسجد قبل أن يحاصر. وقد عاش الخليفة بعد الضربة ثلاثة أيام رغم وقوعها في رأسه. ويستفاد من الوصف الذى أوردته المصادر عن كيفية الوفاة أن السم انتشر في جسمه ببطء حتى أجهز عليه في اليوم الثالث. ونحن نستنتج من هذا أن خطة اغتيال على كانت قد درست بعناية ومن جهات أخرى لا تقتصر على الخوارج مما ضمن لها نجاحا لم يتوفر لخطة اغتيال معاوية.

ماذا حقق الخوارج باغتيال على؟

تدل خطة الاغتيال الثلاثى التى رسمها الخوارج ونفذوها على خصوبة فى الخيال العنفى تقترن بحيوية التحرك غير المقيد باعتبارات ضيقة. وهى تمثل من هنا نهجاً قتاليا ثابتاً لا يطاله التردد ولا يخضع لدقة فى الحساب أو براعة فى التخريج النظرى.

لكن أصحاب الخطة تجاهلوا عنصراً هاما فى تكتكة العنف وهو ترتيب الأولويات فى المجابهة ضد خصوم متفرقين ومختلفين فى أهدافهم، وما يتيحه ذلك من إمكان العمل على كسب الأقرب إليهم لضرب الأبعد. وبالطبعى فهذا يعنى وجود توجه جبهوى، وهو مالم يعرفه تاريخ الخوارج قط. وقد انطوت الخطة من هذه الجهة على خطأ سياسى كبير تمخض مع نجاحها فى اغتيال على وحده، عن كارثة على الخوارج أنفسهم. فقد ترتب على مقتل على بن أبى طالب إنهاء خلافة الراشدين واقامة الخلافة الأموية، وقطع أى احتمال للحوار السلمى يمكن أن يظل قائماً مع بقاء السلطة الراشدية. وقد وجد الخوارج أنفسهم بعد انفراد معاوية بالسلطة أمام عدو مختلف حصرهم بين خيارى القتال أو البيعة.

أضف إلى ذلك أن مقتل على حرم الخوارج من الميزة التكتيكية التى تمثلت بوجود معسكرين متناحرين يشغلهما الاقتتال بينهما عن التفرغ لهم. وكان لدى الخوارج بفضل وجود هذين المعسكرين فرصة ثمينة لتنظيم أنفسهم والعمل على إقامة قاعدة لهم فى موقع مناسب خارج نفوذ على ومعاوية اللذين اقتصرت سلطتهما الفعلية على الشام والعراق.

كان ثمة أيضاً خطر لم يحسب الخوارج حسابه، فماذا كان سيحدث لو نجحت الاغتيالات كلها؟ الخوارج لم يطرحوا على أنفسهم هذا السؤال. والمصادر التى تحدثت عن الأمر لم تحدث عن أية لواحق يمكن أن تكون قد ارتهنت بالخطة فى حال نجاحها. ويمكن القول ببساطة، حسب هذه المصادر، إن قرار الاغتيالات كان أحادياً مبتوراً يكتفى بتصفية الزعماء الثلاثة بوصفهم سبب فساد الأمة. وليس لدينا ما يدل على أن الخوارج فكروا فى استثمار هذا الاقتحام الكبير للتحرك نحو استلام السلطة وإعلان قيام خلافة جديدة. وهو الاتجاه المعقول الذى يبرر هذه المغامرة ويعطيها مفعولها التاريخى المكافىء.

وفى ضوء هذه الثغرة الواسعة فى الخطة فإن نتيجة شديدة الاحتمال كان يمكن أن تترتب على شغور القيادة الإسلامية وهى أن يقع تحرك من الجانب البيزنطى المتربص على حدود الشام لتوجيه ضربة سريعة وخاطفة كانت ستؤدى على الأقل إلى إعادة احتلال بلاد الشام. ونحن نعرف أن محاولات تحرك من هذا القبيل حصلت عند اندلاع الحرب الأهلية بين العراق والشام مرتين، فى عهد معاوية وفى عهد عبدالملك بن مروان. لكنها اصطدمت حينذاك بخليفتين عظيمين كانت مواهبهما السياسية والعسكرية تتألق فى ظروف الأزمات فتمنحهما القدرة على احتواء التحركات المضادة مهما تعددت جبهاتها. وكان من المستبعد أن لا ينجح البيزنطيون هذه المرة مع ما سيحدثه اغتيال القادة الثلاثة من اختلال فى أوضاع الأقاليم الملاصقة لهم؛ الشام والعراق ومصر، وهى نفس الظروف التى مكنت الصليبيين فى عصر لاحق من القيام بفتوحاتهم الظافرة فى الشام.

ولم يكن للخوارج من الحنكة السياسية ما يبصّرهم بهذا المرتقب. وتدل خطتهم الثلاثية على براعة حزب مسلح يمتلك المؤهلات العالية للاقتحام العسكرى الناجح، لكن غير المقرون بتخطيط سياسى يبرر الإقدام عليه. فالخوارج كانوا مقاتلين جمعوا إلى الروح الفدائية فقراً ملحوظاً فى العمل السياسى. ويصدق هذا الوصف على الفرقة بتشعباتها العديدة طوال الخلافة الأموية، ولو أنهم اكتسبوا من بعدها بعض الخبرات التى ساعدتهم على التوصل إلى إقامة كيانات سياسية صغيرة نسبياً، خلال الحقبة الأولى من الحكم العباسى.

اغتيال مالك الأشتر:

كانت مصر من محاور الصراعى بين على بن أبى طالب والأمويين لما تتمتع به من ثقل استراتيجى يمكن أن يساهم فى ترجيح كفة الطرف الذى يسيطر عليها. وقد اختار على لولاية مصر أول الأمر قيس بن سعد بن عبادة فاستطاع ضبطها وإحباط محاولات الأمويين لانتزاعها من على. غير أن معاوية توصل فيما بعد وبأساليبه الماكرة إلى زعزعة الثقة بين قيس وخليفته، القليل الدهاء، فعزله عن مصر. وقد عين على فى مكانه ربيبه محمد بن أبى بكر وهو شاب متحمس ولكنه ضعيف الخبرة. بيد أن على وقد أدرك جسامة الخطر الذى يتهدد مصر سعى لتعزيز الولاية بشخصية كفوءة أخرى هى مالك الأشتر أحد قادة الحركة المسلحة التى أوصلته إلى الخلافة بعد مقتل عثمان بن عفان. وقد سبب تعيين الأشتر لولاية مصر قلقاً شديداً لدى معاوية فسعى لمنعه من الوصول إليها. وتختلف الروايات فى وصف الطريقة التى تم بها لمعاوية الخلاص من الأشتر ولو أنها تتفق فى جملتها على أنه اغتيل وهو فى طريقه إلى مصر.

وفيما يلى عرض لهذه الروايات مأخوذ من «شرح نهج البلاغة» لابن أبى الحديد..

١ـ إن معاوية بعث إلى رجل من أهل الخراج يثق به وعرض عليه أن يعفيه من الخراج المترتب عليه طيلة حياته إذا تمكن من اغتيال الأشتر. وكان هذا الرجل يقيم فى مفترق سبل تؤدى إلى مصر والحجاز على البحر الأحمر يمر منه من يريد التوجه إلى مصر. فلما وصل الأشتر إلى هناك تلقاه الرجل وضيّفه. وكان قد أعد شربة عسل مسمومة فقدمها له بعد الطعام فلما شربها مات على الأثر.

٢ـ إنه بعث رجلاً ليتابع الأشتر حتى يحتال فى اغتياله. وكان الرجل يحمل مزودتين فيهما شراب. فاستسقاه الأشتر يوماً فأعطاه من إحدى المزودتين، وكانت مسمومة ولما شربها مال عنقه ومات. وهرب الرجل قبل أن يلحق به رجال الأشتر.

٣ـ إنه دس إليه رجلاً من موالى عمر بن الخطاب. وكان آل عمر قد انحازوا إلى الأمويين منذ أيام عثمان لكن معسكر على لم يصل إلى درجة القطيعة معهم، بتأثير بعض الوشائج التى كانت تجمع بين على وعمر فى سنواته الأخيرة، وقد اطمأن الأشتير إلى الرجل وضمه إلى

مرافقيه في سفره. وبينما هم في بعض الطريق وعطش الأشتر قدم له المذكور شربة سويق مسمومة فمات منها(١).

تتفق هذه الروايات على أن الأشتر اغتيل بالسم وبتدبير من معاوية وأن السم دس في شراب من عسل أو ماء أو سويق. ورواية العسل أكثر شيوعاً، وقد وردت عن الواقدى وهو مؤرخ مبكر وموثوق، وروايته تفيد أن الرجل الذى سم الاشتر كان دهقاناً في العريش. وهذه البلدة من أعمال مصر لكنها قريبة إلى الشام. وقد اقترنت بالحادث كناية مشهورة لعمرو بن العاص وهي قوله بعد أن بلغه نفاذ خطة القتل: «إن لله جنوداً من عسل، أو منها العسل»(٢). والله كما نعلم قاسم مشترك لجميع الأطراف والطبقات والأحزاب المتصارعة في مجتمعات الأديان السماوية الثلاثة.

أدى اغتيال الأشتر إلى خسارة قائد كبير كان على بن أبي طالب يعتمد عليه كثيراً في صراعه المرير ضد الأمويين مما مكن معاوية أخيراً من الاستيلاء على مصر بعد أن انفرد بحاكمها الضعيف محمد بن أبي بكر.

وقد نجحت الخطة لأنها اعتمدت، بحسب الروايات كلها، على استغفال مالك الأشتر وهو درس استفاد منه اللاحقون في إحباط وتنفيذ خطط مماثلة كما سيأتي تفصيله في القسم التالي:

دلالات مستخلصة من حوادث الاغتيال الراشدية:

ترجع الاغتيالات في هذه الحقبة إلى الأصل الذى بنى عليه الاسلام كتحرك سياسي ـ اجتماعي أملته ظروف العرب الخاصة في المقام الأول، والظروف العامة للمنطقة في المقام الثاني. وقد رأينا كيف سلك مؤسس الاسلام بعد هجرته إلى يثرب خط العمل العسكرى، بما في ذلك الاغتيالات، كنهج ثابت أشاح به عن نهجه التبشيرى الذى اتبعه في مكة. وترتهن سياسات النبى محمد في يثرب بصراع قومي موجه لتوحيد أمة بينما يعكس نهجه في مكة

(١) ابن أبي الحديد ٢/ ٢٩. السويق شراب يتخذ من دقيق الحنطة أو الشعير.
(٢) بن أبي أصيبعة ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء. بيروت ٥ب١٩٦ ص١٧٤ترجمة الطبيب ابن أثال الذى كان يستحضر السموم لمعاوية بن أبي سفيان.

حالة صراع اجتماعي داخل معشر محدود هو المعشر القريشي ـ المكي. وكان ثمة صراع من هذا القبيل في يثرب ولكن داخل نفس الحركة، بين الفئات الاجتماعية والقبلية التي تتكون منها كتلة الصحابة المشكّلة لقوام الحركة في طورها اليثربي.

وحيث أفلح الاسلام في إقامة مجتمع ودولة شملت الجزيرة بامتداداتها العراقية والشامية وما وراءها من أقاليم، فقد تعين عليه أن يواجه كل مرتكساتهما. فالمجتمع يعني الصراع والدولة هي أداة الصراع التي لا وجود لها من دونه. وهو أداة قابلة للتداول. (اسم الدولة في العربية مأخوذ من هذا المعنى الدال في جوهره على الصراع). ولو أراد محمد لحركته أن تكون دعوة ولنفسه أن يكون محض مبشر فإن شيئاً مما قد سردناه للتو لن يقع في أوانه. ولو أننا قد لا نعدم عندئذ شيئاً آخر، ولكن بعد مضيي قرون يكون فيها الاسلام قد تمكن من قلوب الناس، وتوطدت مؤسسته الدينية، المؤهلة لأن تضع نفسها في خدمة دولة خارجة عنها لتكون أداتها القمعية أو غطاءها الايديولوجي، مثلما تهيأ للمسيحية والبوذية بعد ثلاث قرون من وفاة صاحب الدعوة.

وهناك دلالة هامة في أن كتاب الاسلام المقدس لم يصطبغ، رغم مضاهاته للكتب المقدسة التي قبله في طقوسيتها، بقداسة أحادية تجعل منه كتاباً إلهياً عديم اللحم والعظم، فقد استغرقه التاحر فأضفى عليه صفة خاصة به، ويتجاوز عدد المرات التي ذكر فيها القتل بمشتقاته في القرآن عدد المرات التي ورد فيها ذكر الصلاة بمشتقاتها (حوالي ١٧٤ مقابل ٩٩). ولغة الصراعي في الاسلام تحريضية شديدة النبرة تذكر القارىء بلغة البلاغات الحربية. ولا شك في أن مؤسس الاسلام كان يستجيب في ذلك لمستلزمات وضعه/ مهمته التاريخية. وهو في الحقيقة لم يكن شديد الافتقار إلى الوعي بنواميس التاريخ البشرى لأنه سجل في كتابه أن الناس لا يمكن أن يكونوا أمة واحدة فهم «لا يزالون مختلفين، إلا ما رحم ربك، ولذلك خلقهم» خلقهم كما يقول المفسرون ليختلفوا لا ليتفقوا. واذا كان الناس في حسابهم لا يمكنهم أن يكونوا أمة واحدة فهو يعرف أيضاً أن أمته نفسها لن تنجو من الاختلاف. وقد عايش بنفسه ولا سيما في مرحلة ما بعد مكة، جانباً من التكتلات التي بدأت تشق الصحابة إلى أجنحة. ولن يكن بمقدوره، لو أراد، أن يؤلف بين أتباعه، وهم طبقات لا طبقة واحدة، ولا

أن يمنعهم من الاقتتال وهم ينظمون حياتهم وفقاً لعلائق المادة وليس الروح، شأن غيرهم في كل زمان ومكان.

كان الصراع الذى خاضه الاسلام الأول من الحدة بما يكفي لتعزيز صياغة شخصية تناحرية مشتركة بين طبقات المجتمع الظالمة والمظلومة. ولو أن هذه الشخصية لم تنشأ من فراغ إذ يمكننا في الواقع أن نتابعها في الشخصية الجاهلية التى يشغل السيف موقعاً مؤثراً في علاقاتها. والمجتمع الجاهلي هو كما نعلم مجتمع تناحرى لم يعرف السلم إلا كهامش استغرقته الأشهر الحرم الأربعة في أضيق نطاق. ولم تقتصر هذه الظاهرة على الأغلبية الوثنية من العرب، حيث جرت العادة على اتهام الديانة الجاهلية بتأجيج العداوات، فالمسيحية الشرقية التى اعتنقتها بعض القبائل، ومنها قبائل كبيرة مثل تغلب، لم تستطع أن تخلق من البدوى مسيحياً بسيطاً من الغرار الذى عرفناه مثلاً في الحيرة. يقول الشاعر المسيحي جابر بن حُنَيّ التغلبي رداً على استخفاف صدر من قبيلة بهراء تجاه قبيلته[١] :

وقد زعمت بهراء أن رماحنا ... رماح نصارى لا تبوء الى الدم
نعاطى الملوك السلم ما قسطوا لنا ... وليس علينا قتلهم بمحرم

وقد سبق لبنى تغلب أن قتلوا ملكاً في الحادثة المعروفة. والشاعر يرد هنا ليس على بهراء وحدها، بل وعلى تعاليم الحد الأيمن لنبيه.. وثمة إدراك لضرورة هذا اللون من العلاقات يتمشى مع التورط فيها عملياً. فالطبرى ينسب إلى عمر بن الخطاب أنه علم المسلمين أن يطيعوا الخليفة إذا استقام ويقتلوه إذا اعوج. ولما اقترح عليه أحدهم الخلع بدل القتل ردّ عليه أن القتل أنكل لمن بعده، أى أكثر ردعاً[٢] . وسواء صدر هذا التوجيه عن عمر أو غيره فهو يحمل نزوعاً إلى أدلجة وشرعنة ما جرى في صدر الاسلام.

يمكننا أخيراً أن نرصد مؤشرين لهذه الأحداث: أولهما هو دلالتها، رغم ما قد يكون فيها

(١) جابر بن حنيّ (وزن قصي) التغلبي من شعراء القرن السادس الميلادى. توفي عام ٥٧٠م وهو عام ولادة النبي. والبيتان من قصيدة له من «المفضليات» التى جمعها المفضل الضبى المعاصر للمنصور. وهى من أوثق وأقدم مختارات الشعر الجاهلي.

(٢) التاريخ: باب مقتل عمر. والمعترض هو طلحة بن عبيدالله.

من تكدير لمزاج الانسان المستريح، على حيوية مجتمع غير قابل للوحدة، لأنه يشتمل فى مقومه الأساسى على تلك الشخصية الاجتماعية القادرة على التصرف خارج دائرة المحرمات حيثما اصطدمت بقناعاتها، أو بكلمة أدق، بمصالحها الجوهرية.

الثانى أن العنصر التحريضى للاسلام يوكد هنا حضوره على حساب الدور التخديرى للدين، إذ لا يسعنا بحال أن نفصل ما حدث فى صدر الاسلام عن الاسلام نفسه. ويمكننا أن نتلمس فى هذا المجرى تلك المؤثرات المتعددة المصادر التى شملها مجتمع صدر الاسلام سواء ما يعكس منه امتدادات المجتمع الجاهلى أو ما هو نتاج الصراعات الاجتماعية التى سبقت أو زامنت نشوءه. وبالطبع فإن هذه الحالة ما كانت لتستمر طويلاً مع وجود الدين كتكوين جوهرى فى الوعى الاسلامى. وسنصادف فى وقت مبكر نسبياً محاولات لاهوتية لضبط سلوك المسلم يتصدرها الحسن البصرى، وهو فقيه ومتكلم من أصل فارسى لم يعايش الاسلام الأول ولم يمتحن بموروثات العصر الجاهلى. وكان يتكلم لغة دينية ناضجة لا تشوبها لكنة جاهلية، من ذلك الغرار المألوف لدى الأحبار الخلص. والحسن البصرى هو من أقدم مؤدلجى السلام الاجتماعى فى الاسلام، ولو أن آراءه ظهرت فى وقت كان العنصر التحريض للاسلام لا يزال أبداً فى نفوس أتباعه وكان الكثير من الفقهاء لا يزالون يتلقون الجلد والنفى على أيدى الخلفاء الأمويين وولاتهم. وقد أخرج ابن عساكر فى ترجمة الحجاج بن يوسف الثقفى ما يلى: لما كانت فتنة ابن الأشعث ـ يقصد انتفاض أهل العراق بقيادة عبدالرحمن بن الأشعث الكندى ضد الحجاج ـ دخل جماعة على الحسن فقالوا: ما تقول فى هذا الطاغية الذى سفك الدم الحرام وأخذ المال الحرام وترك الصلاة وفعل وفعل؟ وذكروا من أفعاله فقال الحسن: «لا تقاتلوه فإنه إن يكن عقوبة من الله فما أنتم برادّى عقوبة الله بأسيافكم. وان يكن بلاءً فاصبروا حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين». فخرجوا من عنده وهم يقولون: نطيع هذا العلج؟ وكانوا قوماً عرباً فخرجوا مع ابن الأشعث[1]. وإشارة ابن عساكر أنهم كانوا من العرب وأنهم نبزوا الحسن بأنه «علج» يقصدون أعجمى يكرس ما ذهبنا إليه بشأن العنصر التحريضى لاسلام صدر الاسلام بتركيباته المعقدة التى لم يستوعبها الاكليروس الناشىء الذى كان الحسن البصرى يعبر عن اتجاهاته.

(١) تهذيب تاريخ دمشق... ج٤/ ٨٠.

في الخلافة الأموية

في هذه الحقبة، كانت الاغتيالات السياسية متقابلة بين السلطة والمعارضة. وقد مارسها الخلفاء الأمويون بدءاً من معاوية الذى استهلها باغتيال مالك الأشتر في خلافة على ثم واصلها بعد انفراده بالخلافة. أما المعارضة فقد انفردت منها الخوارج بالتوسع فى استعمال هذا التكتيك.. ونستقصى فيما يلي أهم وأشهر حوادث الاغتيال بادئين بما حدث منها على يد السلطة.

اغتيال الحسن بن على:

كان الحسن قد سلم الخلافة لمعاوية بعد مقتل والده، انسياقاً مع نهجه الاستسلامى المعروف، لكنه اشترط فى عقد التسليم، تحت ضغط المتشددين من أصحاب على، أن تعود إليه الخلافة بعد وفاة معاوية. وكان هذا الشرط فى غاية الخطورة بالنسبة لمستقبل الخلافة الأموية، لأنه يعنى حتمال استعادة الراشدين للخلافة في شخص الحسن، الذى كان أصغر سناً من معاوية. ولم يكن أمام الأمويين من خيار إلا التخلص من الحسن بوسيلة ما. لكن معاوية لم يستعجل الأمر، لأن وريثه يزيد كان لا يزال صغيراً وكان التفكير فى تعيينه ولياً للعهد سابقاً لأوانه . ولذلك عاش الحسن لمدة عشر سنوات بعد تنازله وهو فى دعة ينتظر، أو على الأصح، ينتظر أصحابه موت معاوية ليعود إلى المطالبة بالخلافة بحكم العقد المبرم بينهما. وفي هذه المدة كبر الوريث وصار مؤهلاً للولاية، كما جرى تسويقه فى عيون أهل الشام وبنى أمية على السواء، واقترب معاوية من شيخوخته بينما الحسن لا يزال يتمتع بشبابه. وعندئذ بدأ معاوية يفكر في إزالة هذه العقبة التى تحول دون استمرار الخلافة فى أسرته.

ثمة ما يشبه الاجماع على أن الحسن مات مسموماً، مع الميل إلى تحميل زوجته جعدة بنت الأشعث الكندى مسؤولية ذلك. وقد وردنا شعر يرثى فيه كثير عزة - أو النجاشي الشيعي - الحسن ويستهله بتوجيه الخطاب إلى جعدة إشعاراً باتهامها. وكنا قد أشرنا فى القسم الثانى إلى موقف الأشعث بن قيس المناهض لعلى والمتواطئ مع معاوية. ويبدو أن هذه الزيجة كانت تدبيراً من على للتقرب من الأشعث واستدراجه إلى جانبه. والأشعث زعيم كندة شبه المطاع إذ هو سليل ملوكها الغابرين. لكن حسابات على لم تكن موفقة، فالمصالح الاجتماعية غالباً ما تعلو على اعتبارات القرابة ناهيك عن المصاهرة. وقد تواطأ الأشعث مع قتلة على فليس

من الصعب أن يكون لدى ابنته التي نشأت في بيت تآمر، مناوئ لعلى وأولاده استعداد للقيام بدور مماثل لما قام به أبوها. وكان معاوية يعى هذه الحقائق وعى الحاكم الخبير باتجاهات وسرائر رعاياه.ومن المثير للانتباه أن جعدة بقيت زوجة للحسن الذى عرف بكثرة التطليق ولم تكن المرأة تثبت عنده إلا قليلا. ولعلها بقيت كذلك تقديراً لمكانتها وما ينجم عن ذلك من تمتين الروابط مع قبيلة كندة القوية.

من بين الذين أكدوا تسميم الحسن، «المدائنى». وهو من أقدم كتاب السير. وقد وردت روايته في شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد [1]. وهى تفيد بأن الحسن توفى بعد مرض دام أربعين يوماً وأن معاوية دس له سماً على يد جعدة بنت الأشعث زوجته وقال لها إن قتلتيه بالسم فلك مئة ألف (درهم) وأزوجك يزيد ابنى. فلما مات الحسن وفى لها بالمال ولم يزوجها من يزيد لعدم اطمئنانه إليها. لكن قولالمدائنى أن مرض الحسن دام أربعين يوماً غير واقعى بالنسبة لمسموم. ويغلب على الظن حصول التباس فى معدود الأربعين، وقد ورد فى رواية ابن عساكر [2] أن الحسن بعد أن سم كان يوضع تحته طست ويرفع نحوا من أربعين مرة. يشير إلى ماأحدثه السم فى بطنه من مفاعيل. فلعل المرة صارت فى رواية المدائنى يوماً على جهة الاشتباه.

ونص على موت الحسن مسموماً ابن عبد البر فى «الاستيعاب» [3] عن قتادة وأبى بكر بن حفص، وهما من قدماء الرواة. وأورد عن رواة أخرين أن جعدة سمته بتدسيس من معاوية. وقال هؤلاء الرواة فى تعقيب على هذا الخبر أن جعدة كان لها ضرائر. والمقصود من ذلك إلقاء الشك على علاقته بزوجها قبل أن يحدث له ما حدث.

وأشار إلى موته مسموماً ابن حجر فى «الإصابة» و«تهذيب التهذيب» وابن الأثير فى «أسد الغابة». والكتب الثلاثة هى، إلى جانب الاستيعاب من المصادر المعتمدة فى التراجم.

ويلاحظ تجاهل الطبرى لوفاة الحسن فلم يذكرها فى حوادث السنين التى يرجع المؤرخون وفاة الحسن فى إحداها. لكن ابن الأثير ذكرها فى حوادث سنة ٤٩، ونص على وفاته مسموما

(١) المجلد ٤ ص ٥. وكتاب المدائنى مفقود.

(٢) تهذيب تاريخ دمشق ٤ / ٢٢٩

(٣) الترجمة ٥٥٥ الحسن بن على. جـ١/ ٣٨٩ - ٣٩٠.

على سبيل القطع كما فعل فى «أسد الغابة» وهو بذلك يستدرك على أستاذه الطبرى (تاريخ ابن الأثير «الكامل» مبنى على تاريخ الطبرى حتى السنة التى ينتهى بها ثم يكملها حتى السنة التى سبق وفاته وهي سنة ٦٢٩هـ). لكن الطبرى ذكر ذلك فى «ذيل المذيل» عن ترجمته للحسن . والطبرى يتحسس للأخبار التى تسئ إلى الأمويين فيسعى لاستبعادها ما استطاع.

وروى ابن كثير فى البداية والنهاية (حوادث ٤٩) أن الحسن مات مسموما بتدبير من معاوية. وأن الذى دس إليه السم خادم له، فى رواية، وفى روايات أخرى زوجته جعدة. وأثبت الرثاء الذى يستهله الشاعر بمخاطبة جعدة ونسبه إلى كثير عزة. والرواية التى تتهم الخادم بتسميمه غير مشهورة فى المصادر، التى تميل فى جملتها إلى اتهام الزوجة بذلك.

وربط أبو الفرج مشروع البيعة ليزيد بالتخلص من شخصيتين هما الحسن بن على وسعد بن أبى وقاص[1] .وكان سعد من بين القلائل الذين تبقوا من قادة الاسلام الكبار، الذين يعسر تخطيهم في خطط الاستخلاف، لا سيما لشخصية عادية مثل يزيد. ويجب أن يفسر التخلص من سعد، إذا صحت رواية أبو الفرج، بمعارضته لاستخلاف يزيد وليس بطمعه فى الخلافة لأنه كان يومذاك قد عمى، والبصر شرط رائس فى صحة الاستخلاف عند المسلمين.

إن لجوء معاوية إلى السم للتخلص من المناوئين قد أشار إليه ابن أبى أصيبعة لدى ترجمته للطبيب السريانى ابن أثال. فقد جاء فى «عيون الأنباء» أن ابن اثال كان متخصصا بالسموم، وأن معاوية كان يقربه لذلك كثيرا. ثم استطرد فقال: ومات فى أيام معاوية جماعة كثيرة من أكابر الناس والأمراء من المسلمين بالسم[2]. وتلقى هذه الملحوظة الهامة لابن أبى اصيبعة بعض الضوء على الوفيات المشبوهة لأمثال سعد بن أبى وقاص، ورغم أن المؤرخين لم يعنوا باستقصائها فى ترجمتهم لهذه الشخصيات عدا الحالات المشهورة مثل حالة الحسن بن على . ويبدو أن ابن أثال كانت له مدرسة ومريدون فى هذا الفن ، لأنه قتل فى وقت مبكر من خلافة معاوية كما سنبين ، بينما حدثت اغتيالات بالسم من بعده. ويمكن أن نستنتج أن من أسباب اهتمام معاوية بمسألة التخصص فى تحضير السموم إنتاج سموم لطيفة لا يظهر لها أثر. وقد ذكرت الروايات التى تحدثت عن موت الحسن إنه سقى السم مرات عديدة فلم يمت،

(١) مقاتل الطالبين ا لقاهرةت ١٩٤٩ ص ٧٣ فصل وفاة الحسن.
(٢) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء . ط. بيروت ١٩٦٥ص ١٧١.

مما ألجأ فيما يبدو إلى استعمال وصفة أشد مفعولاً هي التي قتلته وتدل المحاولات الفاشلة السابقة على أن السموم كانت ضعيفة المفعول بسبب المبالغة في لطافتها.

بعد موت الحسن بدأ معاوية مساعيه العلنية لمبايعة يزيد ولياً لعهده. وقد نظر بعض القدماء إلى هذا الحدث على أنه من الأحداث الفاصلة في تحول الخلافة إلى ملكية، واشتداد وطأة الاستبداد على العرب. وينقل أبو الفرج عن رجل يدعى أبو اسحق أنه سئل: متى ذل الناس؟ فقال: حين مات الحسن. وادعى زياد وقتل حجر [1]. وهي ثلاثة أحداث متكاملة الدلالة في هذا الصدد، فموت الحسن أفسح المجال لمبايعة يزيد حيث اتخذ تحول الخلافة إلى ملكية شكله الرسمي، وادعاء زياد (استلحاقه بآل أبي سفيان) ارتهن بتسليطه على العراق ليفرض على أهله أول سياسة قمعية يقع العرب تحت طائلتها. وقتل حجر (ابن عدى الكندى) بأمر من معاوية نظر إليه في حينه على أنه تحدى مباشر للعرب الذين كانوا حتى ذلك الوقت يجاهرون بمعارضتهم للدولة دون أن تجرأ على قمعهم بهذه الطريقة.

اغتيال عبد الرحمن بن خالد بن الوليد:

كان عبد الرحمن قائداً عسكرياً مرموقاً كوالده. وقد انضم إلى معاوية في صراعه ضد علي بن أبي طالب. وبعد أن استتب الأمر لمعاوية عينه لقياده جبهة الفتوحات في أسيا الصغرى (أرض الروم) التي بدأ المسلمون يقضمونها بالتدريج بعد إخراج البيزنطيين من بلاد الشام. وقد أحرز عبد الرحمن نجاحات كبيرة في حروبه هناك جلبت له شهرة واسعة بين أهل الشام أضيفت إلى رصيده الموروث من والده. ويذكر الطبرى[2] أن عبد الرحمن انصرف عام ٤٦ من بلاد الروم إلى حمص وكان قد عظم شأنه بالشام ومال إليه أهلها لما كان عندهم من آثار أبيه ولغنائه عن المسلمين في أرض الروم وبأسه، حتى خافه معاوية فأمر ابن أثال أن يحتال في قتله. فلما وصل عبد الرحمن إلى حمص دس إليه ابن أثال شربة مسمومة، يقول ابن أبى أصيبعة[3] إنها شربة عسل. فمات منها. وكافأ معاوية ابن أثال بإعفائه من الضرائب طيلة حياته وتعيينه والياً على خراج (ضرائب) حمص.

(١) مقاتل الطالبين ص ٧٦.
(٢) التاريخ. حوادث سنة ٤٦ ط الاستقامة، القاهرة ١٩٣٩. جـ٥/ ٢٢٧. انظر أيضا: ابن عساكر في ترجمة خالد بن عبد الرحمن ٨٣/٥.
(٣) عيون الأنباء ص ١٧٤.

إن رواية الطبرى ، التي اعتمد عليها ابن عساكر وابن أبي اصيبعة كما يبدو، تجعل سبب الاغتيال خوف معاوية من منافسة عبد الرحمن له في سلطانه، لكن رواية لأبي الفرج[1] تربط الحدث ببيعة يزيد وخلاصتها أن معاوية لما أراد أن يظهر البيعة لابنه قال لأهل الشام إن أمير المؤمنين قد كبرت سنة ودق عظمه واقترب أجله ويريد أن يستخلف عليكم فمن ترون ؟ فقالوا : عبد الرحمن بن خالد. فسكت وأضمرها في نفسه حتى دس إليه الطبيب ابن أثال ، فسقاه سماً فقتله.

قد يكون محتملاً أن معاوية خاف على نفسه من عبد الرحمن عندما نعتبر أن تصفيته تمت في وقت مبكر نسبيا - بعد خمس سنوات من انفراده بالسلطة. لكن الباعث الأقوى يجب إرجاعه إلى بيعة يزيد إذ يصعب القولي أن معاوية الذى انتصر على رجل كعلى بن أبى طالب يخشى رجلاً كعبد الرحمن بن خالد، بينما نجد عبد الرحمن يشكل خطرا حقيقياً إزاء ابنه ، الذى لا يمتلك مثل رصيده. وتبدو رواية أبو الفرج من هنا معقولة أكثر، مما يحملنا على الاعتقاد أن اغتيال عبد الرحمن بن خالد يندرج في نفس الاعتبارات التي أدت إلى اغتيال الحسن بن علي والوفاة المشبوهة لسعد بن أبي وقاص وهي إزالة عقبات تقف دون البيعة ليزيد واستمرار الخلافة في بنى أمية.

تمت عملية أغتيال عبد الرحمن بن خالد في سهولة أكبر بالقياس إلى اغتيال الحسن. ذلك لأن عبد الرحمن لم يكن يحس بحاجة إلى التحفظ من خطر كهذا نظرا لعلاقاته الطبيعية بمعاوية.وقد حدثت قبل اغتيال الحسن وقبل شيوع الحديث عن بيعة يزيد، أى في وقت لم تظهر لعبد الرحمن بوادر تثير مخاوفه.

لكن العملية انكشفت بعد وقوعها وأدت إلى ردود فعل مباشرة انتهت باغتيال الطبيب ابن أثال. وقد قام بذلك ابن المغدور أو ابن أخيه، بحسب اختلاف الروايات واسم كليهما خالد (تميل الروايات إلى أنه ابن الأخ). وتفيد رواية أوردها أبو الفرج أن هذا الشخص كمن لابن أثال في مسجد دمشق وكان يمسى مع معاوية فلما خرج من القصر وحاذاه وثب عليه فقتله

---

(١) الأغاني جـ١٦ / ١٤٠ ط بيروت - بلا تاريخ في أخبار المهاجر بن خالد. تفهم هذه الرواية من حيث دلالتها على جس نبض المتنفذين من أهل الشام. أما التفاصيل التي تضمنتها فقد لا تكون واقعية بالضرورة..

وقد اعتقله معاوية وأمر بجلده مئتى سوط وأغرمه الدية ألفى دينار. وبقى فى السجن حتى وفاة معاوية وتقول الرواية إنه قال لمعاويةعند اعتقاله: «قتلت المأمور وبقى الآمر»[1]. وهذا مجرد تهديد. إذ كان المفروض أن يبدأ بالآمر لأنه الفاعل الأصلى. لكن من الواضح أنه قد اختار الأسهل والأقل كلفة. وهو بذلك قد تصرف بموجب حساب مسبق حدد له سلوكاً مزدوجاً: لم يسكت عن الجريمة التى ارتكبت بحق والده، أو عمه ، ولم يذهب فى إدراك ثأره إلى المدى المطلوب حين قرر قتل المأمور دون الآمر. ومع أن المأمور يستحق نفس العقوبة (لاسيما وهو طبيب مؤتمن على أرواح الناس فخان رسالته وتحول إلى أداة قتل بيد السلطان) فقد كان واثقاً أنه لن يقتل إذا اغتال المأمور، بخلاف مالو اغتال أو حاول اغتيال الآمر. وحسابه مبنى على اعتبارين: مكانته الأعلى بوصفه حفيد خالد بن الوليد، ومكانة القتيل الدون بوصفه طبيباً غير مسلم. وهو حساب مضبوط أدرك به جزءاً من ثأره من دون أن يكلفه حياته. ومما يؤكد لنا أنه أجرى هذا الحساب سلفاً ما ذكرته رواية أبو الفرج من أنه أشرك فى كمينه رجلاً من مواليه يمتاز بشدة البأس ورسم له خطة تقضى بأن يكون هو الذى يتولى قتل ابن أثال بينما يقتصر دور المولى على المراقبة والحماية من وراءه. والغرض من هذا بين فلو أن المولى هو الذى تولى قتل الطبيب لكان من المحتمل أن يقتل به، لا سيما وهو يتجرأ على اغتيال طبيب الخليفة وأداته الضاربة فى تصفية خصومه ومنافسيه.. وربما ساعدنا هذا الموقف الأخلاقى من جهته على ترجيح أن قاتل الطبيب هو ابن الأخ وليس الابن . وابن الأخ هو خالد بن المهاجر بن الوليد، وكان أبوه مع على بن أبى طالب خلافاً لأخيه الموالى لمعاوية والأمويين. ولابد أنه قد اكتسب من خلال ذلك شيئا من أخلاقيات على بن أبى طالب هى التى جعلته يتجنب توريط مولاه فى قضية تخصه شخصياً، رغم ما انطوت عليه خياراته من حسابات ربح وخسارة لم تكن لعلى بن أبى طالب خبرة كافية لها.

اغتيال عمر بن عبد العزيز:

تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة بين عامى ٩٩و ١٠١هـ ومجمل مدته سنتين ونصف. وكانت خلافته بمثابة انقلاب (أبيض) ضد السياسة الأموية نفذ فى أثنائه إجراءات كثيرة وجذرية استهدف بعضها الاتجاه العام للخلافة السائدة وبعضها الآخر المصالح المباشرة لأركان

(١) المصدر السابق. أيضاً ابن عساكر ٥ / ٩٥.

الأسرة. وكان مقدار الخطر الذى حملته خلافة عمر بن عبد العزيز على الوضع الأموى يكفى لإثارة اعتراضات شديدة من جانب أسرته. لكن هذه اعتراضات عبرت عن نفسها فى احتجاجات هادئة أخذت فى الغالب شكل عتاب أو نصائح من شيوخ الأسرة ووجهائها.. وفى هذا السياق المتطامن نفسه تأتى الوفاة العاجلة للخليفة لتضع حداً لانقلابه القصير العمر.

توفى عمر بن عبد العزيز قبل أن يكمل الأربعين. وكان لا يزال شاباً لم يستهلك طاقاته البدنية بالإسراف الذى اعتاده الخلفاء وأبناؤهم فى الملذات الحسية. وقد ذكر ابن كثير فى حوادث ١٠١ من البداية والنهاية أنه مات بالسل، فى رواية، وبالسم فى رواية أخرى. لكن مصادر سيرة عمر لم تتحدث عن أعراض سل حين تحدثت عن مرضه الذى توفى به. وتتجه معظم الروايات إلى القول أنه مات مسموماً. وقد أورد الطبرى فى حوادث ٩٩ التى أعقبت استخلاف عمر بعد أن استعرض مفاوضاته مع وفد من الخوارج أن بنى مروان «خافوا أن يخرج ما عندهم وفى أيديهم من الأموال فدسوا إليه من سقاه سماً». ذكر الطبرى ذلك بعد أن تحدث عن اتفاق وشيك بين الخوارج وبين الخليفة يعلن الخوارج بموجبه تأييدهم له مقابل خلع يزيد بن عبد الملك من ولاية العهد. وكان يزيد ولياً لعهد عمر بموجب وصية سليمان بن عبد الملك التى تضمنت استخلاف عمر ثم يزيد، وكان ذلك هو الاعتراض الأساسى الذى أبداه الخوارج على سياسة عمر. وفيما يتعلق بخبر اغتياله بالسم فإن رواية الطبرى لها قيمتها الكبرى فى إثبات هذا الاحتمال، لأن هذا المؤرخ الكبير قلما يتبنى خبراً مضاداً للأمويين مالم يتثبت منه. وقال الكتبى فى «الوفيات» مانصه: سقاه بنو أبيه السم لما شدد عليهم وانتزع كثيراً مما فى أيديهم[١]. وبينما ذكر أبو الفدا فى ترجمته لعمر فى مختصره أن موته بالسم معروف لدى اكثر الناس. وقد نص على وفاته مسموماً كذلك الشعرانى فى طبقاته عند ترجمته لعمر فى المجلد الأول. بينما أورد الغزالى فى أحياء علوم الدين[٢]، أن أعراض تسمم ظهرت فى مرض عمر الذى توفى فيه. اكتشف ذلك طبيبه وأخبره بها فقال عمر إنه قد أحس بالسم حين وقع فى بطنه. وفى «حلية الأولياء» لأبى نعيم حكاية ذات مضمون غيبى تحدثت عن

(١) انظر ط، بولاق ١٢٨٣هـ. ١٠٥/٢.
(٢) انظر جـ٤ / ٤٦٥ مطبعة الحلبى ١٢٩٦هـ القاهرة. «كتاب الموت».
أيضاً: ابن الجوزى، سيرة عمر بن عبد العزيز. القاهرة١٣٣١ هـ ص ٢٧٧.

تسميمه نسبت إلى الوليد ابن هشام (لم يذكر إن كان ابن عبد الملك) قال فيها: لقيني يهودى فأعلمني أن عمر سيلى أمر هذه الأمة فيعدل فيه. فلقيت عمر فأخبرته بقول اليهودى . فلما استخلف عمر و دنت وفاته لقيني اليهودى وقال لى: إن صاحبك قد سقى فأمره فليتدارك نفسه. قال فلقيت عمر فذكرت ذلك له. فقال قاتله الله ما أعلمه . لقد عرفت الساعة التى سقيت فيها[1]. لا شك أن مخترع هذه الحكاية قد استفاد من وجود خبر ذائع عن تسميم عمر لإعطاءه «كرامة ولى» مما يحرص ذوو الأمزجة الصوفية على منحها للأولياء . ومن المعتاد للحكايات التى تتوخى هذا الغرض أن تجرى على لسان يهودى أو نصرانى لأنهم عند المسلمين من أهل العلم الأول الذين سبقوهم إلى الاتصال بالسماء.

وتقرن رواية لابن عبد الحكم تسميم عمر بحكاية عن ملك الروم تقوم إن الملك المذكور لما بلغه سقى عمر أرسل إليه رأس الأساقفة وكتب إليه يعلمه حاله عنده وما يحفظه له من الحق عنده بوصفه من أهل الخير وطاعة الله ويقول له إنه قد بلغنى أنك سقيت وقد بعثت إليك رأس الأساقفة وأطبهم (أعلمهم بالطب) ليعالجك مما بك. فقدم عليه فقال له عمر: انظر إلى. فجسه فقال: سقيت يا أمير المؤمنين. وتقول الرواية إن عمر أبى أن يتقبل العلاج الذى وصفه له المبعوث الرومي. وأنه دعا فى نفس الوقت الرجل الذى اتهمه بدس السم إليه فاستجوبه فاعترف وقال إنه خدع وغر فقال عمر : خدع وغر، خلوه ولم يعرض له بشئ[2].

والحكاية بقدر ما يتعلق بملك الروم باطلة، لأن مدة وصول الخبر وارسال رأس الأساقفة لاتتناسب مع حالة مسموم. ولو أننا لا نعدم أن نجد لها أساساً لأن خلافة عمر كانت فترة سلام مع البيزنطيين، وقد سحب عمر القوات التى كانت تحاصر القسطنطينية بقيادة مسلمة بن عبد الملك، كما أظهر ميلاً إلى عدم التوسع فى الفتوحات حيث كان يقول «حسب المسلمين ما فتح الله عليهم» . فمن المنطقى أن تكون للبيزنطيين مصلحة فى بقائه. وقد يكون صدر عن الامبراطور البيزنطى فى هذه الأثناء رد فعل ما، فصاغ منه الناس حكاية. ومن الطريف فى هذه المناسبة أن بعض المصادر زعمت أن ملك الروم نعى عمر لقومه حين بلغته وفاته ورثاه رثاء مؤثراً!

(١) أنظر الترجمة ٣٣٣ جـ٥ ط مصر ١٩٣٥ .
أيضاً : ابن الجوزى - المصدر السابق ص ٢٧٦ .
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز . القاهرة ١٩٢٧ ص ١١٨ - ١١٩ .

لا يسعنا أيضاً قبول الخبر المتعلق بالمتهم بدس السم، فانكشاف مثل هذا الفعل ليس سهلاً. وإذا انكشف فليس من السهل ترك المتهم طليقاً، إن لم يكن من جهة عمر أو من جهة أولاده. كما أن الذين يقفون وراء المكيدة سيجدون أنفسهم مضطرين إلى القضاء على أداتهم الجرمية لإخفاء مكيدتهم. وما أيسر أن يأمر الخليفة الأموى الذى استلم بعد عمر بقتل المتهم «غضباً» له و«انتقاماً» من القاتل....

مهما يكن من شئ فإن روايات اغتيال عمر بالسم هى الأرجح بين المؤرخين. وقد ذكر أبو الفدا فى ترجمة عمر من مختصره أن أكثر الناس يميلون إلى هذا الرأى. وليس لدينا فى الحقيقة ما يضعف هذه الروايات غير سكوت بعض المؤرخين عنها، بينما لانجد مؤرخاً عنى بأبطالها أو تقدم برواية أخرى تصلح للتوثيق. وسكوت بعض المؤرخين يرتهن بالطبيعة السرية للحدث وهو كما رأينا حدث غير اعتيادى تقوم به أسرة حاكمة ضد خليفتها الذى يتمتع بشأن خطير ومكانة لاتطال.

علامة استفهام:

تقول بعض مصادر سيرة عمر إنه لم يتخذ عبيداً لمنزله أثناء الخلافة. لكن هذا لا يمنع أن يكون له خدم يتولون شؤونه الشخصية والمنزلية. وهناك ما يدل على أن مائدته كانت تحضر وفق الأصول وأنه كان يساهم أحياناً فى ترتيبها. فهل دس السم فى طعامه أو شرابه من طرف بعض الخدم؟ مر بنا أن بعض الروايات صرحت بذلك. وهو احتمال وارد من المعروف أن الخدم كانوا من الأدوات الشائعة لمثل هذه المكايد... لكن لدينا احتمال أخر قد يتوارد إلى الذهن.

كان عمر بن عبد العزيز متزوجاً من ابنة عمه فاطمة بنت عبد الملك، وكانت حياته معها قبل الخلافة مترعة بالحب والنعيم.ولكنها أصيبت بخيبة أمل كبرى بعد استخلاف عمر. وقد أوردت المصادر عنها أموراً تدل على تبرمها الشديد بحياتها فى تلك المدة. ومن ذلك إفادة لها بعد وفاته تقول فيها إنه لم يغتسل من جنابة منذ تولى الخلافة حتى مات[1]. ومثل هذه الإفادات كانت مألوفة من نساء العرب فى صدر الإسلام فلا يستبعد صدورها عن زوجة عمر،

(١) طبقات ابن سعد. ليدن ١٣٢٢هـ. جـ٥ / ٢٩٣ فى ترجمة عمر بن عبد العزيز.
أيضاً : ابن عبد الحكم ص ٥٠.

ولو أنها قد تكو غالت في ذلك لتعبر عن مدى عزوفه عن متع الحياة بسبب انهماكه في تنفيذ سياسته الإصلاحية.

بالطبع لم يكن في مقدور أميرة مدللة ربيت في بيت امبراطورى تجبى له كنوز الدنيا أن تتقبل وضعاً كالذى أراده لها خليفتها الزاهد، فطباع هؤلاء الناس هى أبعد ما تكون عن القناعة والعزوف عن الامتيازات الخرافية التى ينعمون بها. ورغم أن المصادر ذكرت أن فاطمة تابعت زوجها في البدء في التخلي عن بعض مقتنياتها النفيسة وارجاعها إلى بيت المال، فقد عادت تتذمر فيما بعد إلى الحد الذى جعلها تصرح بتلك الإفادة المثيرة عن حياتها الجنسية. وقد تحدثت الروايات في نفس الوقت عن علاقة حب جمعت بين الزوجة الساخطة وبين رجل من أبناء عمومتها بدأت في أيام عمر وانتهت بالزواج من هذا الرجل بعد وفاة الخليفة. وقد هجيت بسبب ذلك بشعر نسبه ابن عساكر[1] إلى الأحوص وصاحب الأغانى [2] إلى موسى شهوات وهو شاعر من موالي قريش. وفي رواية أن عمر سمع زوجته أو جاريتها تقول: أراحنا الله منك. وقد وردت في مصدر معتمد وعن محدث قريب الزمن منه[3]. وبالاستناد إلى هذا الوضع يتوارد احتمال أن تكون للزوجة يد في التخلص من الخليفة. وهو احتمال لا أستبعده ولا أثبته؛ لا أستبعده لأنه طبيعي جداً في هذه البيئات ومن هولاء الناس في ظرف كالذى وصفناه للتو. ولا أثبته لأني لا أملك رواية صريحة أو ضمنية تدل عليه. مهما يكن فإن مصير عمر بن عبد العزيز قد تقرر كما رجحنا في منزله وأن خطة تصفيته رسمت من طرف أسرته. وقد استعادت السياسة الأموية سيرتها الأولى على يدى يزيد بن عبد الملك تبعاً للترتيب الذى أوصى به سليمان بن عبد الملك. ولو قدر لعمر أن يستمر في الخلافة مدة أطول، وهو أمر كان في قيد الإمكان لأنه حين مات لم يكن قد بلغ الأربعين، لكان ممكناً أن يشتد ساعد المعارضة الاسلامية للخلافة الأموية لتنتهي إلى انقلاب جذرى يعيد حكم الخلفاء الراشدين. وهو ما

(١) تهذيب تاريخ دمشق ٥/ ١٩٩

(٢) جـ٣ / ٣٥٣. في أخبار موسى شهوات.

نص الشعر:

أبَعد الأغر ابن عبد العزيز	قريع قريش إذا يُذكَر
تزوجت داود مستخارة	الا ذلك الخلف الأعور

(٣) تاريخ أبو زرعة الدمشقى ١ / ١٩٥. فقرة ١٢٨. دمشق ١٩٨٠.

كان الأمويون يخشونه من خلافة عمر بن عبد العزيز.وقد جسدت هذه المخاوف عبارة شديدة الوقع ينسبها ابن عبد ربه إلى مسلمة بن عبد الملك قالها بعد وفاة عمر[1]: «أما والله ما أمنت الرق حتى رأيت هذا القبر» والرق الذى يقصده مسلمة هو خروج السلطة من أيديهم وتحويلهم إلى رعايا.

وفيات مشبوهة

ذكرنا عند الكلام على اغتيال الحسن بن على ما أورده أبو الفرج عن موت سعد بن أبى وقاص مسموماً بتدبير من معاوية. وهو خبر لم يشتهر بين المؤرخين فجعلناه على احداث الوفيات المشبوهة. وهناك وفيات أخرى حصلت فى ظروف غامضة أو جاءت فيها روايات اغتيال غير مقطوع بها يمكن وضعها فى نفس العداد. ومنها:

وفاة معاوية بن يزيد بن معاوية:

شاب تولى الخلافة بعد والده. ويتردد المؤرخون بين وصفه بالضعف ووصفه بالورع وعدم الرضا عن سياسة أبيه وجده . وقد تنازل عن الخلافة بعد أربعين يوماً أو ثلاثة أشهر واعتكف فى منزله. لكنه لم يعش طويلاً، فقد مات فى نفس السنة وهو فى الثالثة والعشرين. وتقول بعض الروايات إنه مات بالطاعون وبعضها أنه مات مسموماً. وهو بعد أن تنازل واعتزل السياسة لم يبق من له مصلحة فى التخلص منه مالم نأخذ بروايات تقول إنه أظهر ميولاً راشدية تحت تأثير مؤدبه عمرو بن مقصوص وكان من القدرية.

وفاة مروان بن الحكم:

تولى مروان الخلافة بعد معاوية بن يزيد مسجلاً بذلك انتقال السلطة من آل أبى سفيان إلى آله. وقد توفى بعد تسعة أشهر من استخلافه. وكان قد تزوج أرملة يزيد بن معاوية وهى أم ابنه الثانى خالد الذى طالب بالخلافة بعد تنازل أخيه لكن صغر سنة لم يساعده فى تحقيق هذه الغاية. ويقال أن مروان تزوج أمه بقصد إذلاله وأنه شتمه مرة فقال له: يا ابن الرطب! فأبلغ خالد ذلك إلى أمه ولا مها على الزواج من مروان فحميت ووعدته بالانتقام منه. وفى الليل انتهزت نوم مروان وتواطأت مع جواريها فألقين مخدة على عنقه وقعدن عليها حتى اختنق. وهذه أقرب إلى أن تكون حكاية لا رواية . على أن موت مروان قد حامت حوله بعد الشكوك

(١) العقد الفريد ط أحمد أمين - القاهرة ٤/ ٤٣٧.

رغم أنه كان قد قارب السبعين. وقد أورد اليعقوبي رواية تفيد أن أم خالد سقته سم في لبن[1]. وهو أمر غير مستبعد في بيئات القصور. بينما ذكرت بعض المصادر أنه مات بالطاعون وقد يكون، ولو أننا لا نملك دليلاً على حصول موجة طاعون بالشام سنة وفاته.

وفاة عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز:

هذا الحادث هو أكثر الحوادث مدعاة للريبة. فقد كان عبد الملك غلاما في السابعة عشرة حين مات فجأة في خلافة والده. وكان هذا الغلام أعجوبة في وعيه الديني والسياسي وقد وقف إلى جانب والده في سياسته الاصلاحية المعادية لأسرته، وكان أشد تطرفاً منه وأكثر اندفاعا في تنفيذ الاصلاحات. وقد تبناه الخوارج لهذا السبب. وتزعم بعض مصادرهم أن والده دفعه حين مات إلى مندوبيهم الذين كانوا في ذلك الحين يفاوضونه، ليتولوا غسله ودفنه بأنفسهم، باعتباره «صاحبهم» وكان من بين هؤلاء أبو حمزة، الذي احتل الحجاز في وقت لاحق، أيام مروان الحمار، وهو الذي صلى على الولد صلاة الجنازة كما تقول الرواية الخارجية[2].

لم أجد فيما رجعت إليه من المصادر شيئاً عن هذه الوفاة المفاجئة لغلام في السابعة عشرة، ولا ما يعين المرض الذي مات منه. فهل مات مسموما؟ المصادر أيضا لا تتضمن ما يشير إلى أعراض تسمم ظهرت عليه. على أن الحاجات التي طمنها رحيل هذا الغلام تلقي شيئاً من الريب على وفاته. لا شك أن الأسرة التي كانت تسعى لإنهاء خلافة الوالد قد وقفت على اتجاهات الولد فصار واضحاً لها أن بقاءه بعد والده يجعل العودة إلى سياسته من بعده أمراً ممكنا وهناك ما يدل على أن تجربة هذه الخليفة قد أثارت هلعاً لدى الأمويين من احتمال تكرارها (*). وهو احتمال يقويه وجود مثل هذا الوريث الخطر ويؤخذ من رواية لابن الجوزي

---

(١) التاريخ ط. النجف ١٣٥٨ هـ. جـ٣ / ص ٤.
(٢) انظر: منهج الطالبين للشقصي الرستاقي. القاهرة ١٩٧٨. جـ١ ص ٦١٨.
(*) جاء في «نسب قريش» لمصعب الزبيري أن هشام بن عبد الملك اتخذا طرازاً (قماش مطبوع) له قدر واستكثر منه حتى كان يحمل عل سبعمئة جمل، وحمله على ذلك أن عمر بن عبد العزيز لما مد يده إلى أموال بني أمية لم يتعرض لما قطعوا من الثياب ولبسوا بل تركها لهم. فرأى هشام أن عمر أمام عدل وأن من يأتي بعده من أئمة العدل يقتدي به فجعل يتخذ المتاع الجيد ويؤثر فيه ويلبسه ثم يدخره لولده، فإذا جاء بعده خليفة واستأنف سياسة عمر فسيبقى لأولاد هشام شئ كثير نفيس لا تشمله المصادرة لأنه مستعمل. ط - القاهرة غير مؤرخة. ص ١٦٤ فقرة ٤.

أن الأمويين كانوا يتخوفون من أن يكون عبد الملك بديلاً عن يزيد في ولاية العهد[1]. وفي مثل هذه الحالة يكون من المعقول جداً أن يفكروا في تصفية الولد قبل الوالد. لأن قطع الأصل مع بقاء الفرع قد لا يحسم الداء.

من هنا يتقوى الشك في هذه الوفاة. ويمكن تفسير سكوت المؤرخين عن سبب الوفاة في ضوء الطريقة التي يمكن أن يكون قد تم بها إنهاء الغلام قبل والده. وهي هنا استخدام سم لطيف خفي الأثر لا يترك أعراضاً على المسموم. وعلى أية حال، ينبغي أن لا نستبعد ما تقدمه الطبيعة من خدمات مجانية في بعض الأحوال. فلعل الغلام قد مات في أجله الموعود كما يحدث لأقرانه ليوفر على ذويه إثماً زائداً كان عليهم أن يثقلوا به ضمائرهم. ولو أن المشكلة تبقى قائمة على أي حال لاسيما حين نعلم أن الولد لم يمت وحده، فقد لحقه عمه المسمى سهل بن عبدالعزيز وكان على نهج أخيه ومن أعوانه الأشداء على الإصلاح. ثم لحق بالاثنين مولى عمر المسمى مزاحم وهو بدوره من ألص أعوانه. ويقول ابن عبدالحكم إن عمر صار بعد موت الثلاثة يتمنى الموت ويدعو الله لأجل ذلك[2]. وأنه لسؤال صعب أن يكون القضاء والقدر قد مالأ بني أمية إلى هذا الحد فصفى لهم أربعة خصوم كلهم شبان في أقل من سنة؟.

وفاة يزيد الناقص

هو يزيد بن الوليد بن عبدالملك. كان يعارض سياسة أسرته، وقد استصباه القَدَرية المناهضون لهذه الأسرة فانضم إلى جبهتهم ثم قاد تمرداً مسلحاً في ضاحية المزة، من ضواحي دمشق، وزحف على دمشق فاحتلها وقضى على حكم الوليد، ابن عمه، الذي اشتهر بمجونه وطغيانه. وألقى يزيد عند مبايعته بالخلافة خطاباً ضمنه برنامجاً في الحكم شبيهاً ببرنامج عمر بن عبدالعزيز مما كان يشكل الأهداف المشتركة للمعارضة الإسلامية لحكم الأمويين.

مات يزيد بعد ستة أشهر من استخلافه وكان عمره أربعين. وتقول بعض الروايات أنه مات بالطاعون، وغيرها أنه مات مسموماً. وليس لدينا ما يدل على أن طاعوناً جارفاً قد ضرب الشام في ذلك الوقت. واحتمال تسميمه قوي جداً وتبرره نفس الأسباب التي أدت إلى القضاء على

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٢٦٤.
(٢) سيرة عمر بن عبدالعزيز ١١٤.
«لكل من ابن عبدالحكم وابن الجوزي كتاب عن عمر بن عبدالعزيز يحمل نفس العنوان».

عمر بن عبدالعزيز. وقد أعقب وفاته استيلاء مروان الحمار على الخلافة بعد إزاحة شقيقه الضعيف إبراهيم بن الوليد. وربما كان لآخر خلفاء بنى أمية، المشهور بدهائه وجبروته، يد في تصفية هذا الخليفة القصير العمر.. ولو أن اليعقوبى ينقل خبراً عابراً يتهم أخاه ابراهيم بسمه.

على بن الحسين وابنه محمد الباقر:

حسب المأثور الشيعي (الاثنى عشرى) أن الأول مات مسموماً بتدبير من الوليد بن عبدالملك، والثاني بتدبير ابراهيم بن الوليد، وحسب مصادر التاريخ العام، مات الإمامان المذكوران في أجلهما الموعود دون أية شبهة وفي ظروف لا تحتمل أى شك في سبب الوفاة. ويعطى هذا المأثور الباطل دليلاً على الانطلاق المعكوس من الايديولوجيا إلى الوقائع، لأنه مبنى على اعتقاد جمهور الاثنى عشرية أن الإمام لا يموت إلا شهيداً. وهو مسلك يتميز به المؤرخون الدعاة في الغالب ويتحاشاه المؤرخون المحترفون. ولذا نجد خبر تسميم الإمامين في «بحار الأنوار» للمجلسى وهو من كتب الدعاة، ولا نجده في «تاريخ اليعقوبى» وهو من مصادر التاريخ العام رغم أن مؤلفى كلا الكتابين هما من الشيعة الاثنى عشرية.

* * *

قبل أن ننتقل إلى الكلام عن الاغتيالات التى قامت بها المعارضة نود التنويه بأن وسيلة الاغتيال التى استعملتها السلطة فى الخلافة الأموية قد اقتصرت على السم كما هو واضح من المخططات التى وصفناها. ويرجع هذا إلى أن الشخصيات التى طالتها الاغتيالات كانت لها مكانة في الأسرة الحاكمة أو فى المجتمع تمنع من تصفيتها علناً. والاغتيال بالسلاح قد يعرض الخطة للانكشاف بالقبض على القاتل. وقد وفر السم الذى كان يحضَّر كما قلت آنفاً بطريقة متقنة غطاء للخطط ساعد كثيراً على إخفائها، مما ساعد بدوره على البلبلة والاختلاف الذى يجده المرء وهو يجوس خلال المصادر ليتعرف على مصير أولئك الناس.

الاغتيال من جانب المعارضة

كانت المعارضة الإسلامية للأمويين تتألف من الشيعة والخوارج والقَدَرية وجمهور الفقهاء والمتكلمين ـ مثقفى ذلك الوقت. وقد سلكت المعارضة بجميع أطرافها سبيل العمل المسلح. وكان الأسلوب الغالب هو أسلوب الانتفاضات المسلحة ومن أبرزها انتفاضة الحسين في

كربلاء، والمختار في الكوفة، وزيد بن علي في الكوفة، وولده يحيى في جرجان، وابن الأشعث في العراق والمشرق والقدرية في الشام، والحارث بن سُرَيج في خراسان.

ونظراً لطول وتشعب هذا العصر وتعقد الأحداث فيه، لامجال لحصر الاغتيالات بالشكل الذى حاولناه في الأقسام الثلاثة الأولى وستقتصر دراستنا على حوادث منتقاة، إما لأهمية نتائجها أو لخطورة عنصر التنفيذ فيها.

على يد السلطة

اغتيال ادريس بن عبدالله:

من أحفاد الحسن بن علي. كان قد اشترك في تمرد قاده أحد أبناء عمه بالحجاز في خلافة موسى الهادى، أخ الرشيد، وهو التمرد المعروف بوقعة فخ. وبعد سحق التمرد هرب ادريس إلى مصر ومن هناك واصل سيره حتى المغرب الأقصى، حيث بدأ بتنظيم حركة ناجحة ضد العباسيين انتهت إلى إقامة أول دولة علوية في أفريقيا. وكانت حركة ادريس ثاني حركة انفصالية خطيرة ضد الخلافة العباسية بعد انفصال الأندلس بزعامة عبدالرحمن الداخل. وقد أرّقت هارون الرشيد، الذى استلم بعد أخيه الهادى، القصير المدة. لكن الرشيد ارتأى عدم أفضلية استخدام القوة العسكرية، ربما لبعد المكان، أو لاعتبار آخر فكر فيه، فلجأ إلى المكيدة لضرب ادريس وحركته.

يتفق معظم المؤرخين على أن ادريس مات مسموماً وعلى أن الرشيد دس إليه رجلاً استغفله حتى سمّه. لكنهم يختلفون في اسم الرجل وكيفية أدائه لمهمته. وتقول رواية لأبو الفرج الأصفهاني[1] إن هذا الرجل كان من الزيدية، وهو مذهب ادريس نفسه، وأن يحيى البرمكي رغّبه وأغراه لاغتيال ادريس. واسم الرجل في هذه الرواية هو سليمان بن جرير الجزرى. وهو مشابه لاسم متكلم زيدى يدعى سليمان بن جرير الرقي، والرقة كانت من أعمال الجزيرة. ومن المستبعد أن يكون هو الفاعل لأنه كان من أعلام الزيدية المناهضين لبني العباس، كما كان من كبار متكلميهم ورأسا لشعبة منهم تسمى الجريرية. ولعل رواية أبو الفرج قد وقع في

(١) مقاتل الطالبيين. القاهرة ١٩٤٩ ص ٤٨٩ الفصل المخصص لادريس بن عبدالله.

اشتباه ناتج عن تقارب الاسمين. وقد ورد الاسم عند ابن خلدون[1] هكذا: سليمان بن حريز ويعرف بالشماخ. فربما تصحفت حريز إلى جرير. أما الشماخ فهو اللقب الذى تتفق معظم الروايات على تلقيب الفاعل به. وهو ليس لقب سليمان الرقى. وينبغى مع هذا أن لا نستبعد أن يكون الرشيد أو كبير وزرائه قد اختار رجلاً زيديا لهذه المهمة حتى يمكنه استدراج ادريس للمكيدة. وتذكر رواية أخرى لأبو الفرج وردت أيضاً عند الطبرى[2] وابن خلدون أن الشماخ كان طبيباً وأظهر أنه من الشيعة.

أما كيفية تنفيذ الخطة فيستفاد من مجمل الروايات أن الرجل المذكور التحق بادريس متظاهراً أنه من أنصاره وأنه ساخط على العباسيين. ومن المحتمل جداً أن ادريس صدقه لكونه شيعياً. وقد أنس به وجعله من جملة خواصه. ثم حدث أن اشتكى ادريس وجعاً فى أسنانه فأعطاه مسواكاً مسموماً ونصحه أن يستالك به عند طلوع الفجر. وهرب الرجل فى نفس الليلة. وعند الفجر استيقظ ادريس وأخذ المسواك فجعل ينظف به أسنانه، ويفترض أنه كان قد بيَّن له أن فى المسواك مادة علاجية، فتسرب السم إلى جسده وقضى عليه. وقد وردت عن ابن خلدون عبارة تشكك فى هذه الرواية. ولعل ذلك لأنه استصعب أن يكون المسواك المسموم سبباً فى الموت، فمثل هذه الحالات من التسمم كانت ميسورة العلاج بالمضادات الترياقية آنذاك. وقد جاء فى رواية أخرى لأبو الفرج أن الشماخ قدم إليه سمكة مشوية مسمومة. وهو ما يرد أيضاً عن ابن حبيب الذى يسبق أبو الفرج بنحو القرن[3]. وفى رواية غيرها لأبو الفرج أنه قدم إليه عطراً مسموماً فقتله بعد أن شمه وتعطر به. وقد تكون هذه الوسائل أفتك من المسواك.

مهما يكن الخلاف حول كيفية التسميم فقد مات ادريس وكافأ الرشيد مغتاله بتعيينه موظفاً كبيراً فى مصر. وكانت لإدريس جارية حامل منه فانتظرها أعوانه حتى ولدت ولداً سموه ادريس وتعهدوه ليكون وريثاً لوالده. واستمروا فى هذه الأثناء يدبرون شؤون الدولة حتى

(١) التاريخ ١٣/٤ الفصل الخاص بالادارسة.
(٢) التاريخ حوادث ١٦٩ ـ أخبار الحسين بن على صاحب فخ. اغتيل ادريس سنة ١٧٥ لكن الطبرى ساق قصته استطراداً من قصة التمرد الذى شارك فيه.
(٣) انظر: «أسماء المغتالين من الأشراف» سلسلة: نوادر المخطوطات، تحقيق عبدالسلام هارون. القاهرة ١٩٥٤، ص١٩٨.

بلغ الوريث سن الرشد. وقد استطاعوا بذلك صيانة دولة الأدارسة من السقوط فلم يتحقق للرشيد الهدف الذى كان يتوخاه من اغتيال مؤسسها.

تصفية الوزير ثم ولى العهد:

بعد أن انفرد المأمون بالخلافة بمقتل أخيه الأمين، وكان مقيما حينذاك فى خراسان، استداعى على الرضا بن موسى الكاظم، وهو الإمام الثامن فى سلسلة الأئمة الاثنى عشر عند الإمامية، وقرر تعيينه ولياً للعهد، فى حركة دراماتيكية أراد أن ينقل بها الخلافة من بنى العباس إلى آل البيت. وقد تم ذلك خلافاً لرغبة الإمام الشيعى الذى قبل الخطة، مكرهاً، رغم أنه كان من المطالبين بالخلافة. ولعل السبب هو عدم تيقنه من قدرة المأمون على فرض خطته على أسرته العباسية ذات النفوذ القوى، أو عدم اطمئنانه إلى جدية الخطة. وقد سبب هذا الإجراء تمرداً فى بغداد قاده عم المأمون ابراهيم بن المهدى وتم فيه خلع المأمون ومبايعة ابراهيم بالخلافة. وكانت أخبار التمرد تصل إلى وزيره الفضل بن سهل فيكتمها عنه، وكأنه كان يتوق إلى معالجة الأوضاع بنفسه قبل أن ينتبه إليها المأمون، لأن الوزير كان من أهداف المتمردين وأحد الأسباب التى دعتهم إلى العصيان. لكن الأمور تفاقمت وخرجت من يد الوزير فاضطر على الرضا إلى مكاشفة الخليفة بتفاصيل ما يجرى فى بغداد وبيّن له أن العباسين وأنصارهم فى بغداد قد خرجوا على طاعته بسبب ولاية العهد وأن الفضل يستر عنه الأخبار ويتصرف باسمه فى أمور سببت المزيد من القلاقل وعرضت سلطته للخطر. وكان على ملتزماً بعدم غش المأمون، جرياً على أخلاقيات متوارثة لدى أئمة أهل البيت. قرر المأمون على الأثر أن يتوجه إلى بغداد لتدارك الأوضاع. وفى مدينة سرَخس كان الفضل بن سهل، الذى رافق الخليفة فى عودته، يغتسل فى حمام فشد عليه جماعة وتناولوه بسيوفهم فأردوه قتيلاً. وكان المهاجمون من حشم المأمون، فأمر بالبحث عنهم وجعل لمن جاء بهم عشرة آلاف دينار، فلما مثلوا أمامه قالوا: «أنت أمرتنا بقتله». فأمر بإعدامهم وبعث برؤوسهم إلى الحسن بن سهل، شقيق الفضل، وكان معتمد المأمون فى واسط[1]. وقد ورد قتل الفضل فى الحمام فى مصادر أخرى لم ينص بعضها على تورط المأمون. فابن العماد يقول إن الاغتيال كان بإيعاز من خال

(١) الطبرى: حوادث ٢٠٢ هـ.
ـ ابن الأثير، حوادث نفس السنة.

المأمــون[1]. بينما أوردها اليعقوبى بعبارات لا يفهم منها إن كان القتل من المأمون أو تصرفاً كيفياً من القتلة[2]. ورواها الخطيب البغدادى[3]، بطريقة لا تشعر بعلاقة المأمون بها. بينما صرح ابن حبيب[4] أن المأمون دس غالب الرومى، وهو مولاه، فقتله فى الحمام وأنه قبض عليه فقتله وقتل معه أربعة آخرين من الحشم.

لسنا بحاجة إلى مجاراة المؤرخين الذين يتحرجون أحياناً من توريط الخلفاء فى المكايد، فقد كان المأمون فى أمس الحاجة لإنهاء الفضل بن سهل الذى كان أحد أخطر عقبتين فى طريق تسوية الفتنة ببغداد. وصراخ القتلةحين قدموا للاعدام لالبس فيه، فالمأمون هو الذى أمر بقتل وزيره، وحتى لو لم يصرخوا لكان علينا أن نفهم سرالاغتيال: فالفضل يجب أن يذهب ثمناً لعرش الخليفة. وقد يتساءل القارئ: أما كان بمقدور الخليفة أن يقتل الفضل علناً وهو شئ مألوف عند الخلفاء بعد الراشدين؟ أو يعزله على الأقل؟ وأجيب أن الفضل مكان له أعوان مستعدون للتمرد لو قتل صاحبهم بأمر الخليفة، وأن له كذلك أخاً متنفذاً لم يكن ليسكت لو حدث هذا لأخيه. أما عزله فقد كان محتملاً أن يدفعه إلى القيام بنشاط مناوئ مستفيداً من كثرة أعوانه وإخلاطهم له. وقد جاء الاغتيال حلاً لهذه الاحتمالات الممكنة حينئذ. ومما له دلالة هامة هنا أن يبعث المأمون برؤوس القتلة إلى الحسن شقيق الفضل مشفوعة بكتاب يرثى فيه المغدور ويبكيه ويخبر الشقيق أنه قد صيره مكان شقيقه... سياسى بارع من طراز معاوية ورجل دولة دقيق الحساب.

بعد قتل الفضل فى سرخس، واصل المأمون سيره إلى بغداد فنزل فى طريقه بمدينة طوس ليقيم أياماً عند ضريح والده الرشيد. وهناك مات ولى العهد فجأة.. وميتة هذا الرجل محيرة؛ فالكثير من المصادر المعتمدة لا تنص على سبب قاطع يفيد الاغتيال لكنها أفادت أنه أكل عنباً فأكثر منه فمات، وكان فيما يقال مشغوفاً بأكل العنب[5]، والإكثار من أكل العنب لا يميت

---

(١) انظر شذرات الذهب حوادث سنة ٢٠٢هـ.

(٢) التاريخ، ٣/ ١٨٠ط النجف ١٣٥٨هـ حوادث ٢٠٢. نص العبارات: لما صار المأمون بقُومس قتل الفضل بن سهل فى الحمام دخل عليه غالب الرومى وسراجة الخادم فقتلهما المأمون وقتل قوماً معهما.

(٣) تاريخ بغداد. القاهرة ١٩٣١م، ٣٤٣/١٢ الترجمة ٦٧٨٤.

(٤) مصدر سابق. ص١٩٨.

(٥) الطبرى ـ التاريخ، ابن كثير ـ البداية والنهاية، حوادث ٢٠٣هـ. ابن خلدون ٣/ ٢٥٠ ابن خلكان الترجمة ٣٩٦. المسعودى ج٤/ ٢٨ من ط ـ محى الدين عبدالحميد الخامسة، القاهرة ١٩٧٣(باب ذكر أيام المأمون).

وإنما قد يحدث ارتباكات هضميةفي أسوأ الأحوال. تنص روايات أخرى على أن العنب كان مسموماً، وهي القناعة التي يبدو أن أبو الفرج قد توصل إليها. وقد أورد في ذلك روايتين تقول إحداهما إن المأمون أمر أحد أعوانه المسمى عبد الله بن بشير أن يطول أظفاره ثم أخرج إليه شيئاً يشبه التمر الهندي وقال له افركه واعجنه بيديك جميعا، ففعل . ثم دخل على الرضا وكان قد اعتل فسأله عن حاله ثم قال له: هل جاءك أحد من المترفقين اليوم (يقصد الممرضين والمعتنين بالمرضى) فقال له: لا. فغضب المأمون وصاح على غلمانه. ثم قال له: خذ ماء الرمان اليوم فإنه لا يستغنى عنه. ودعا برمان فأعطاه عبد الله بن بشير وقال له: اعصر ماءه بيديك. ففعل وسقاه الرضا بيده فشب، ومات بعد يومين وفي الرواية الأخرى يرد ذكر العنب وأن الرضا كان مولعاً بأكله فأخذ له عنب وغرست الابر في أقماعه. وتركت أياماً ثم قدم له فأكل منه، وكان مريضاً، فقتله وتضيف هذه الرواية أن ذلك كان من لطيف السموم [١].

وفي الروايتين ما يدعو إلى عدم الثقة بهما، ففي الأولى يجرى التسميم بحضور الخليفة حيث يعصر أحد الأعوان رماناً بيده بعد أن طول أظفاره وأشبعها سماً. ومثل هذه الطريقة في تحضير الأشربة والأطعمة غير مألوفة في دور الأباطرة التي يعد كل شئ فيها سلفاً ويقدمه خدم متخصصون في أواني وكؤوس مخصوصة وبطريقة مخصوصة أيضا . وسيكون من الشذوذ المثير للشك أن يعصرالرمان بحضور الخليفة وولي عهده. أما في الرواية الثانية فإن ترك العنب أياماً وفيهاالابر لابد أن يفسده، وكان الرضا- مثل سائر أهل بيته - متحرياً للنظافة وله معرفة جيدة بالطب، فهو لا يستسيغ أكل طعام فيه علامة فساد، مع إمكانية توفر أفضل الأصناف له.

وقد أشار اليعقوبي [٢] إلى مسألة التسميم بالرمان دون أن يجزم بصحتها. بينما ذكر ابن العماد أنه مات بالحمى أو بالسم [٣]. والترجيح الأول يعزز ماورد في بعض الروايات من أنه كان عليلاً قبل أن يدس إليه السم.

واستعرض المحقق الشيعي محسن الأمين قضية موت الرضا فجزم بأنه مات مسموماً، لكنه أورد عن علماء شيعةكبار شكهم في ذلك. وقدلاحظ أن الكُليني لم يتطرق إلى اغتياله، والكليني من أقدم مؤرخي الشيعة. ونقل الأمين كذلك عن «كشف الغمة» أن السيد رضى

---

(١) مقاتل الطالبين. ص ٥٦٦ - ٥٦٧ الفصل المخصص لعلي بن موسى.
(٢) التاريخ ٣/ ١٨٠ - ١٨١ حوادث ٢٠٣هـ.
(٣) مصدر سابق حوادث ٢٠٢هـ.

الدين على بن طاووس - من مراجع الشيعة فى القرن السابع - كان لا يوافق عل أن المأمون سم الرضا ولا يعتقده. وكان كثير المطالعة والتنقيب والتفتيش عن مثل ذلك. وعزز ابن طاووس قناعته بما كان يظهر من المأمون من الحنو على الرضا والميل إليه واختياره له دون أهله وأولاده[١].

وقد استبعد ابن الأثير رواية العنب المسموم[٢]. ورأى ابن الأثير جدير بالاعتبار لأنه مؤرخ رصين وقلما يتحيز فيما لا يتعلق بمعاصريه.

وترددت أصداء اغتيال الرضا فى الشعر، فى قصيدة باكية لدعبل الخزاعى وهو معاصر للرضا عبر عن حيرته بشأن الموت المفاجئ لإمامه ولو أنه مال فيما بعد إلى تأكيد الاغتيال حين صب غضبه ولعناته على بنى العباس:

شككت فما أدرى أمسقى بشربة؟	فابكيك ام ريب الردى فيهون
وايهماماقلت إن قلت شربة	وان قلت موت انه لقمين
أيا عجباً منهم يسمونك الرضا	وتلقاك مهم كلحةوغضون

لكن أبو فراس الحمدانى جزم بالاغتيال إذا قال فى قصيدته التى هاجم فيها العباسيين ودافع عن آل البيت:

«باءوابقتل الرضامن بعد بيعته».

وأبو فراس من أبناء القرن الرابع. ولعله يردد هنا ماشاع بين الناس، لاسيما الشيعة.

يستبين من مجمل ما استعرضناه أن تسميم الرضا غيرمتفق عليه. لكن ميتة مفاجئة كهذه وفى وقت كان المأمون محتاجاً إليها لابد أن تثير شكوكاً جدية. وأنا أميل، دون أن أستبق، إلى وجود خطة اغتيال، لاسيما وأننالا نملك دليلاً على إصابة الرضا بمرض قاتل سوى الحمى التى لم يذكر لها المؤرخون مضاعفات أو أعراضاً خطيرة. فضلاً عن أنه حين مات كان بين الرابعة والأربعين والخمسين، تبعاً لاختلاف الأقوال فى عمره، وفى مثل هذا السن لا يموت الانسان إلا بعلة واضحة. وكان المأمون قد كتب فور وفاته إلى العباسيين الغاضبين فى بغداد يخبرهم

---

(١) أعيان الشيعة(٢/ ٣٠ ترجمة على بن موسى الرضا ط - بيروت ١٩٨٣.
(٢) الكامل فى التاريخ. حوادث سنة ٢٠٣.

(يشرهم؟) بأن الرجل قد مات وأنه عاد إلى لبس السواد شعارالعباسيين الذى كان قد خلعه ولبس الخضرة شعار العلويين. وانتهت بذلك قصة ولايةالعهد التى فجرت الأزمة.. أترى المأمون كان على موعد مع القدر المسارع له فى هواه يجتاز مدينة طوس متوجهاً لإخماد الفتنة فى بغداد؟.

مقتل المتوكل:

قتل المتوكل بتدبير من ابنه المنتصر وحاشيته التركية. ولم تتضمن الخطة أية تعقيدات فقد باغته المسلحون وهم أنفسهم من أفراد القصر فى حجرته وخبطوه بسيوفهم جهاراً ودون أية تكتيكات. وقد وضعنا الحدث على ملاك الاغتيال لأنه دبر فى غفلة من المغدور ونفذ بالمباغتة. وتعكس طريقة قتله روح التهور غير المحسوب لدى المتغلبين الأتراك. وكان واضحاً أن الابن يقف وراء المؤامرة، وهو ماجرهر به البحترى فى مرثيته لولى نعمته.

أكان ولى العهد أضمر غدرة ؟ فمن عجب أن ولى العهد غادره

والسبب الذى حمل الابن على الغدر بالأب أنه قدم عليه فى ولاية العهد أخاه الأصغر. لكن ثمة ماهو أبعد من هذا السبب. فمقتل المتوكل ترتب عليه فقدان الخلافة العباسية سلطتها لحساب المتغلبين الأتراك، ومارافق ذلك من تفكك وحدة الدولة الاسلامية وظهور دويلات الطوائف. ومثل هذه التحولات الكبرى لا تنشأ من مجرد نزاع بين خليفة وابنه. وفى تقديرى أن المتغلبين الأتراك بعد أن اشتد بأسهم فى عهد المتوكل أخذوا يتأهبون للانقضاض على الخلافة وانتزاع السلطة الفعلية منها. وكان المتوكل قوياً مهيوباً، والدولة فى عهده لاتزال محتفظة بوحدتها وتكاملها المركزى. فلم يكن ميسوراً لأحد أن يتطاول على سلطته، فدبروا خطة لاغتياله. وقد انتهزوا تأخير الابن الأكبر فى عقد الولاية فاتخذوا منه أداة لتنفيذ المكيدة. وكان شاباً غراً ضعيفاً فانساق معهم. ولما قتل المتوكل استخلف الابن بقوة الحاشية التركية خلافاً لعقد الولاء. وبهذا تمت للأتراك السيطرة على الخلافة العباسية بإزاحة أخر الخلفاء الأقوياء.

على يد المعارضة

اتسعت حركة المعارضة فى الخلافة العباسية مع تفاقم وتعقد الأزمات الاجتماعية فى عموما المجتمع الاسلامى وحصلت فى أثناء ذلك تبدلات فى مواقع وفصائل الفرق المعارضة. فقد

أستمر الخوارج من خلال تشعباتهم المعروفة وأسلوبهم المعتاد (حرب العصابات) لغاية النصف الثاني من القرن الثالث قبل أن يبدأوا أنحساراً في الرقعة التي كانت تشملها نشاطاتهم ليتمركزوا في مواقع نفوذ حصلت في أيديهم نتيجة انتفاضات مسلحة تجاوزوا بها أسلوبهم القتالي السابق. أما القدرية فقد تطوروا حينئذ إلى المعتزلة وحافظوا على نهجهم المعارض إلى عهد المأمون الذى تحالف معهم وجعل مذهبهم رسمياً للدولة. وقد اشترك المعتزلة في أوائل العصر العباسي في حركة مذهبهم رسمياً للدولة. وقد اشترك المعتزلة في أوائل العصر العباسين في حركة مسلحة كبرى قادها ابراهيم بن عبد الله الحسنى في البصرة وكادت تقضى على الخلافة العباسية لحساب المعارضة الاسلامية . لكنها فشلت . ولم يظهر للمعتزلة نشاط سياسي هام بعد هذه الحركة . وبقي الفقهاء في معارضتهم للخلافة غير الراشدية التي أصبحت الآن من نصيب العباسين وشارك بعضهم في حركتي ابراهيم وأخيه محمد - الذى أستولى على المدينة في عهد المنصورة. لكن معارضتهم أخذت في التراجع بعد هاتين الحركتين لاسيما في ساحة العمل المسلح، لتنتهي إلى وئام مع السلطة الإسلامية تبلور في غضون القرن الرابع. ومن الشيعة ظهرت الزيدية بنشاط مسلح استهله الشقيقان ابراهيم ومحمد ضد المنصور. وتواصل متراوحاً بين الشدة والخفوت حتى انطفأت جذوته نهائياً بوصول الزيدية إلى السلطة في اليمن. وفي النصف الثاني من القرن الثاني بدأت الاسماعيلية الباطنية نشاطها السرى الذى تطور إلى حركة كاسحة غطت العالم الاسلامي من مشرقه إلى مغربه وكانت وسيلتها الضاربة في مرحلة الظهور هي العمل المسلح.

إلى جانب الفرق، ظهرت حركات مسلحة أخذت شكل الانتفاضات في أماكن معينة وعلى يد قيادات غير مرتبطة بتنظيم فرق كان من أعظمها شأناً انتفاضة البشمور في شمال مصر والزنج في جنوب العراق والبابكية (الخرمية) في أذربيجان.

من بين الحركات والفصائل المسلحة ، واصل الخوارج أسلوب الاغتيال ولكن في نطاق ضيق. والعملية الهامة التي قاموا بها في هذا المرحلة هي اغتيال القائد البارز المخضرم معن بن زائدة. وسنصفه بعد قليل . بيد أن الأسماعيلية ملأت الشاغر الذى تركه الخوارج. وكانت هذه الفرقة قد لجأت كما قلنا إلى استراتيجية العمل المسلح في مرحلة الظهور . وقد تجلى ذلك أول الأمر في انتفاضات كبرى هي التي تمخضت عن الخلافة الفاطمية والكيانات القرمطية في العراق واليمن وشرقي جزيرة العرب . وفي غضون القرن الخامس شرعت في استخدام

أسلوب الاغتيال. ويأتي لجوء الاسماعيلية إلى هذا الأسلوب في ترتيب مناقض لنظيره عند الخوارج، الذين استخدموه في البدء ضمن استراتيجيتهم العامة في «حرب العصابات» ثم تخلوا عنه لصالح الانتفاضات في مواقع نفوذهم. أما الاسماعيلية فقد بدأت بالانتفاضات وانشاء مواقع النفوذ ثم الكيانات وانتهت إلى الاغتيال. يقترن هذا التحول عند الاسماعيلية بمقدمات دخولها مرحلة الأفول متمثلة في انحسار الخلافة الفاطمية في مصر وشروعها في التدهور، وانكماش الحركة القرمطية في شرقي الجزيرة ثم زوالها في أواخر القرن الرابع بعد أن صفيت تماماً في العراق والشام. ولذلك لم تعط الاغتيالات مردوداً استراتيجياً للفرقة، وانما حققت لها مكاسب موضعية.. ويستدل من تحليل لابن أبي الحديد على أن الاسماعيلية سلكت هذا السبيل بدافع شرعي. ولأهمية هذا التحليل نورده بنصه [1].

«.. إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند أصحابنا (المعتزلة) أصل عظيم من أصول الدين. واليه تذهب الخوارج الذين خوجوا على السلطان متمسكين بالدين وشعار الاسلام مجتهدين في العبادة لأنهم إنما خرجوا لما غلب على ظنونهم، أو علموا، من جور الولاة وظلمهم أن أحكام الشريعة قد غيرت وحكم بما لم يحكم به الله. وعلى هذا الأصل تبنى الاسماعيلية من الشيعة قتل ولاة الجور غيلة».

إن لقاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نطاقات مختلفة: فردية وجماعية، كما ورد هذا التحليل في سياق شرح لكلمة في نهج البلاغة عن مكانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أن فيها ما يتعلق بالسلطة وما يختص بعامة الناس. وتحليل ابن أبي الحديد هنا منصب على نطاقها السياسي حيث يتعين على المسلم أن يقاوم السلطة الجائرة بالوسائل المتاحة له، حسب شروطها وظروفها، ومن ذلك استعمال السلاح سواء كان هذا السلاح في حرب مكشوفة ضد السلطة أم أعمال قتل منفردة. وقتل الحاكم الجائر مبدأ اسلامي قديم، متأثر بنزعة التمرد اللقاحية عند العرب الجاهليين. وقد أشرنا في القسم الأولى إلى أن الاسلام لم يحرم الاغتيال السياسي وانما حرم الاغتيال الشخصي.

على أن التعليل الشرعي للاغتيال لا ينفي دلالته الاستراتيجية بوصفه نتاجاً لحالة الانحسار

(١) شرح نهج البلاغة ٤/ ٤١٣.

التى أصيبت بها الحركة. وهو من هذه الجهة تعويض عن فشل الثورة. ولو أنه كان عند الاسماعيلية تعويضاً باهظ الثمن للمعسكر المعادى. وقد ساعد فى بعض حالاته على انتقال سلطة أو انهيار كيان كما أعطى الاسماعيلية وهى فى أوان تراجعها هيبة فى عيون أعدائها جعلت لها حضوراً مؤثراً فى الأحداث.

ربطت بعض المصادر بعض الاغتيالات التى قام بها الاسماعيلية بالصراع على السلطة بين أمراء الحرب الأتراك، بحيث ظهرت فى بعض الأحيان كما لو أنها كانت أعمالاً مأجورة. لكن الأحداث التى فسرت على هذا النحو، كانت فى الواقع قد تحددت سلفاً بحلف سرى بين بعض الأمراء والاسماعيلية ضمن هؤلاء بموجبه عدم التعرض لأعضاء الحركة مع تقديم تسهيلات تساعدهم على مواصلة التنظيم والدعوة[1]. هى من هذا أقرب إلى تكتيك الاستفادة من تناقضات الأعداء منها إلى مفهوم الارتزاق، الذى لا ينسجم مع المبادئ التى تعمل المجموعات الفدائية بموجبها. ومن الجدير بالملاحظة، أن الفدائيين الاسماعيليين كانوا يعملون تبعاً لتوجيهات من مركز قيادتهم وكانت المبادرات الفردية فى هذا المضمار شبه معدومة.

نأتى الآن إلى وصف بعض العمليات التى نفذتها المعارضة فى هذا العصر..

اغتيال معن ابن زائدة:

كان معن من قواد الأمويين فى أواخرهم ثم انضم العباسيين فى خلافة المنصور. وكان إرهابياً سفاكاً، عينه المنصور والياً على اليمن وكانت قد وقعت فيها قلاقل فقمعها بوحشية وأباد الكثير من أهلها. ثم أرسله المنصور إلى سجستان فأساء السيرة فيه. وهناك عزم الخوارج على تصفيته. وكان للخوارج حضور قوى فى تلك النواحين. وقد وصف ابن الأثير وابن خلكان كيفية ذلك فرويا ان المجموعة الفدائية التى تكلفت بالعمل تنكرت فى زى عمال بناء. وكان معن يبنى منشأت فى منزله فدخل هؤلاء مع العمال. ويفهم من الرواية أنهم أخذوا يأتون يومياً إلى المنزل ويخرجون منه عند انتهاء ساعات العمل. وهم فى أثناء ذلك ينتظرون

(١) ذكر ابن الأثير أسماء أمراء تواطأوا مع الباطنية أو قدموا لهم التسهيلات لنشر دعوتهم. ومن هؤلاء مجد الملك الباسلانى قال ابن الأثير أنه كان من قواد الدولة السلجوقية يتشيع كثير الصدقة على العلويين إلا أنه كان يذكر الصحابة ذكراً حسناً ويلعن من يسبهم. وقد قتله أولاد أمير آخر قتله الباطنية لأنهم اتهموه بالتواطؤ معهم على قتله. كما أثر الباطنية فى سورية على حفيد لالب ارسلان كان يستولى على حلب فاستعان بهم فى كثير من أمورهم وفى عهده كثروا بحلب..

الفرصة للتمكن منه. فلما بلغوا التسقيف جلبوا أسيافهم وأخفوها في القصب المعد لهذا الغرض. وسنحت الفرصة عندما استدعى معن حجاماً واختلى معه في حجرة ليحجم له. فأخرج الخوارج سيوفهم من مخابئها وداهموه في حجرته ففتكوا به. وقد شق أحدهم بطنه بخنجر للاشتفاء منه كما يبدو، وهتف آخر وهو يخبطه بالسيف: «أنا الغلام الطاقي» نسبة إلى قرية في سجستان تسمى الطاق[1].

إن قتل معن يأتي على سبيل التأديب والزجر لغيره من الولاة الذين عرفوا بالتعطش إلى الدماء. لكنه لم يترك أثراً رادعاً. فقد أخذ ابن أخيه يزيد بن مزيد مهمة عمه وأربى عليه في القتل والتنكيل في منطقة ولايته. وكان قد قبض على قتلة معن فقتلهم وقتل معهم عدداً كبيراً من الخوارج.

اغتيالات باطنية.

قتل المقتدر بالله العباسي:

عاصر المقتدر نهوض الدعوة الاسماعيلية وتوطد كل من دولتها في المغرب والحكم القرمطي في شبه جزيرة العرب وكانت الحملات توجه ضد القرامطة باسمه أو من قبله رأساً. ولأبو طاهر القرمطي رسالة جوابية إلى المقتدر رداً على رسالة تهديد كتبها إليه يدل محتواها ولغتها على مدى العداء المستحكم بين الطرفين.

أغتيل المقتدر سنة ٣٢٠ حين كان يحارب مؤنس الخادم، المتمردعليه. أما كيفية اغتياله فيقول ابن الأثير[2]إن جماعة من المغاربة والبربر لقوه في ظاهر بغداد حين انهزم فشهروا عليه سيوفهم فقال: ويحكم أنا الخليفة. قالوا قد عرفناك ياسفله أنت خليفة ابليس تبذل في كل رأس خمسة دنانير وفي كل أسير عشرة دنانير (يشيرون إلى المكافآت التي كان يعطيها لمرتزقته عن كل قتيل أو أسير يأسرونه). ثم ضربه أحدهم بسيفه على عاتقه فطاح على الأرض وجلس آخرون على صدره وذبحوه ورفعوا رأسه على خشبة وهم يكبرون ويلعنونه. ويخبرنا ابن الأبار[3] أن عبيد الله المهدى مؤسس الخلافة الفاطمية في المغرب ادعى المسؤولية عن تصفية المقتدر وأقام مجلساً للتهنئة بنجاح خطة الاغتيال. وقد نقل ابن الابار عن الصولى أن الذى

(١)الكامل حوادث سنة ١٥١، وفيات الأعيان الترجمة ٧٠٣.

(٢) الكامل حوادث سنة ١٥١، وفيات الأعيان الترجمة ٧٠٣.

(٣) التكملة ١٨٩/١.

قتل المقتدر رجل يسمى عليون الصنهاجي وأنه رماه بحربة في صدره فخرجت من ظهره. وقد يكون عليون هذا أحد أفراد المجموعة التي هاجمت المقتدر بحسب رواية ابن الأثير. وفي كلتا الروايتين فالقاتل من المغرب، مما يعزز إدعاء المهدى الفاطمي.

إن اغتيال المقتدر هو من أوائل العمليات الكبيرة التي نفذتها الاسماعيلية . لكنه حدث حين كانت الحركة في أوج قوتها وانتصاراتها فكان لذلك حدثاً منفرداً لا يندرج في سياق موجة الاغتيالات التي سيشهدها القرن التالي. أما مردوده فكان ضئيلاً إذا لم يترك أثراً كبيراً على العدو الذى كان المقتدر رمزاً واحداً من رموزه العديدة ولم يكن شغور مكانه ليسبب ارتباكاً أو قصوراً في مركز السلطة ، لاسيما وأن السلطة الفعلية كانت حينئذاك بأيدى أمراء الحرب الأتراك المتسلطين على الخلافة. أما ابتهاج عبيد الله المهدى به فهو من باب استعراض القوة وإظهار قدرة الحركة على توجيه الضربات الموجعة للعدو في الوقت والمكان الذى يختاره.

اغتيال أمير حرب تركي:

تم ذلك عام ٤٤٠ أى بعد من قرن على اغتيال المقتدر. وكان الهدف هو حاكم همدان الأمير آق سنقر. وكان هذا الشخص كما يصفه ابن الأثير كثير الغزو للاسماعيلية والقتل فيهم والنهب لأموالهم والتخريب لبلادهم. وقد جرى قتله في كمين نصب له وهوفي طريقه لزيارة أحد رجال الدين جرياً على عادة أمراء الحرب الأتراك في توقير هذه الفئة والعناية بشؤونها.

ظهر التعذيب أيضاً في معاقبة الهاربين من الجيش منذ الفتوحات الأولى. وكانت العقوبة أيام الراشدين هي التعزى[*] وتتم بإقامة الهارب حاسراً في مكان عام للتشهير به . وقد أضاف مصعب بن الزبير، في العراق، إلى نزع العمامة حلق الرأس واللحية. وفي ولاية بشر بن مروان – شقيق عبد الملك – للعراق فرض التعذيب الجسدى فكان الهارب يرفع عن القاع ويسمر في يديه مسماران في حائط – على طريقة صلب المسيح – ويترك لشأنه، فربما بقي معلقاً حتى يموت وربما خرق المسمار كفه فسلم [١].

(*) التعزى عقوبة معنوية تكون عادة بجلدات محدودة العدد.

(١) ابن الأثير «الكامل في التاريخ» في أخبار الحجاج وقد ورد فيه لجند عاشق كتب إلى حبيبته:

لولا مخافة بشر أو عقوبته ... وأن ينوط لفي كفي مسمار
إذن لعطلت ثغري ثم زرتكم ... إن الحب لمن يهواه زوار.

عطلت ثغرى: كناية عن الهرب من جبهة القتال. والثغور هي خطوط التماس مع دار الحرب وكانت بمثابة الحدود الرسمية للدولة الاسلامية.

إن مصدر العذيب فى الحالات الموصوفة آنفا هو الدولة، وضحياه هم عامة الناس. وهو أمر مفهوم مادام القادر على التعذيب هو المالك لأجهزة الدولة. ولدينا مع ذلك استثناء هام كان فيه ضحايا التعذيب هم الحكام أنفسهم جرى ذلك فى أوان التغلب الذى فرضه العسكريون الأتراك على الخلفاء العباسين بعد المتوكل، وقد ظهرت حينذاك طريقة سمل العيون لإرغام الخليفة غير المرغوب فيه على التنازل. ويهدف السمل إلى حرمان الخليفة من أحد شروط الاستخلاف وهو سلامة الجسد حيث يصبح بعد أن يفقد إحدى عينيه أو كلتيهما فى حكم المنخلع. وكان ذلك يتم فى هجوم مباغت يدبره المتغلب ضد الخليفة يقوم المهاجمون خلاله بسمل عينيه أو إحداهما . وقد يكون التدبيرم خفيا بحيث من عناصر غير منضبطة، أو مباشرا بحكم السلطة الفعلية التى يتمتع بها المتغلب . وفى كلتا الحاليتين يسقط اسم الخلافة عن الخليفة القائم ويستبدل به غيره. وكان السبب فى ذلك عدم قدرة المتغلبين على خلع الخليفة دون مبرر شرعى لأنه قد يثير مقاومة الخليفة ويظهرهم للناس مستهترين أكثر مما ينبغى.

فنون التعذيب وأبطاله.

فى بداية الدعوة الاسلامية بمكة وجد تجار قريش حاجة لإرهاب عبيدهم ومواليهم الذين أسلموا فعذبوهم ليرجعوا عن الاسلام . وكانت وسيلتهم فى ذلك هى التشميس الذى يعتمد على شمس الجزيرة الحارقة. فكانوا يكتفون الضحية ويلقونه فى الشمس بعد إلباسه أدراع الحديد أو وضع جندلة على ظهره أو صدره ويترك على هذا الحال ساعات غير محدودة قد تستمر مادامت شمس النهار فى عنفوانها. وظهر التشميس أيضا فى صدر الاسلام لتعذيب الممتنعين عن دفع الخراج وفى بعض الحالات كان يدهن جسد الضحية قبل تشميسها بدهن الحيوان فيحدث أن تظهر به ديدان ترعى جسد الضحية فيعانى من ذلك آلاما شديدة حتى يموت.

إن التشميس هو أقدم وسائل التعذيب وهو وسيلة مشتركة بين الجاهلية والاسلام. ونبدأ الأن بعرض مفصل للوسائل التى ظهرت فى الاسلام.

حمل الرؤوس المقطوعة:

و تدخل فى باب المثلة بالميت. وقد بدأها الأمويون فى زمان معاوية. ويقال إن أول رأس

حمل في الاسلام هو رأس عمرو بن الحمق، أحد أتباع علي بن أبي طالب، وقد قتله زياد بن أبيه. ومن الحوادث المشهورة في هذا الباب حمل رؤوس الحسين وأصحابه بعد معركة كربلاء. وقد ثبتت الرؤوس على الرماح وسير به من كربلاء إلى الكوفة حيث قدمت لحاكمها عبيد الله بن زياد . ثم استأنفوا السير بها إلى دمشق لتقديمها إلى الخليفة الأموى. ولم تتكرر هذه المثلة بكثرة أيام العباسيين، إلا أنها انتشرت في الأندلس أيام ملوك الطوائف، ومن المبرزين فيها المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية الذى أقام في قصره حديقة لزرع الرؤوس المقطوعة. وكان المعتمد شاعراً.

الضرب والجلد:

باليد أو السوط أو الهراوة أو المقرعة. وهو الشكل المعتاد في تعذيب الاعتراف كما استعمل في التأديب والانتقام السياسي . والضرب باليد غالباً مايكون صفعاً على القفا والوجنتين ولم يكن الغرض منه الإيلام بقدر الإهانة. ويضرب بالهراوة على الكتفين والظهر والأرداف. أما المقرعة فللرأس وهي أشد إيلاماً من اليد والهراوة. ويمكن اعتبار المقرعة تطويراً للدرة، وهي عصا خفيفة كان عمر بن الخطاب يحملها في تطوافه بالأسواق والدروب ويقرع بهان المخالفين لتعليماته. وقد استبدل بها عثمان السوط، أو العصا بحسب الروايات، وكان ذلك من أسباب النقمة عليه.

أما الضرب بالسوط فهو الجلد، ينفذ في المضروب واقفاً أو مبطوحاً، وقد يقنطر ويضرب، هو ما اختاره والي المدينة لجلد مالك بن أنس مؤسس المذهب المالكي. وكان قد أفتى، كما في رواية لابن عبد البر في «الانتقاء» بعد شرعية البيعة للمنصور لأنها أخذت بالإكراه، فأمر الوالي بتأديبه، وتم ذلك برفعه من يديه ورجليه بعد أن قلبوه على وجهه وأخذوا بجلده على الظهر. وليس للأسواط مقدار معلوم إلا في العقوبات الشرعية التي تضمنت حداً أعلى هو مئة جلدة لجريمة الزنا. لكن التحديد الشرعي لم يعمل به . وكان المقدار يتحدد تبعاً لرغبة الآمر وربما استمر حتى الموت كما حدث لبشار بن برد الذى جلد بأمر المهدى بعد أن هجاه. وغالباً ما يتم الجلد دفعة واحدة ولكن يحدث أن يقسط على دفعات، ومن أمثلته جلد أبو حنيفة ، مؤسس المذهب الحنفي، مئة سوط بأمر حاكم العراق الأموى - عمر بن هبيرة لرفضه عرضاً بالعمل في إدارته . وقد نفذ الحكم بالتقسيط، كل

يوم عشرة أسواط. وكان الهدف من التقسيط إعطاءه فرصة للتراجع وقبول المنصب الذى عرض عليه [1].

تقطيع الأوصال:

ويشمل قطع اليدين والرجلين واللسان وصلم الآذان وجدع الأنف وجب المذاكير (الأعضاء التناسلية للرجل) وقطع اليد الواحدة منصوص عليه فى الشريعة عقوبة للسارق، وكذلك قطع اليدين والرجلين وهو لقطاع الطرق. وقد توسع الحكام المسلمون بعد الراشدين فى هذه الوسيلة دون التقيد بالجرائم المنصوص عليها، وطبقت على الجرائم السياسية. وكان المقطوع يترك حتى يموت من تلقائه فإذا لم يمت قطعوا رأسه. وأقدم مثال لهذه الطريقة هو قتل عبد الرحمن بن ملجم، قاتل على بن أبى طالب، وقد أعدم ببتر يديه ورجليه و لسانه وسمل عينيه. ثم قطع رأسه [2]. والبتر هو الغالب فى هذه الحالات، أما الصلم والجدع فنادراً ما يحصل. ولكن جب المذاكير كان فى بعض الأحيان عقوبة يفرضها السيد على عبده إذا صدر منه فعل جنسى لا يرضاه السيد.

سلخ الجلود:

فى رواية لابن الأثير [3] أن قائداً من الخوارج يدعى محمد بن عبادة أسر فى أيام المعتضد بالله فسلخ جلده كما تسلخ الشاة. نقل ابن الأثير حادثاً آخر كان ضحيته أحمد بن عبد الملك بن عطاش صاحب قلعة أصفهان الاسماعيلية. وكان السلاجقة قد حاصروا القلعة بقيادة السلطان محمد بن ملكشاه ثم افتتحوها وأسروا صاحبها ابن عطاش. ويقول ابن الأثير: فسلخ جلده حتى مات ثم حشى جلده تبناً [4]. والغرض من حشوه عرضه بعد ذلك للتشهير

(١) هذا هو المروى فى المصادر التى ترجمت للنعمان. وقد نسب ابن حجر فى «الخيرات الحسان» هذا الإجراء إلى المنصور وقال إنه مات بعد الجلد بخمسة أيام. ومن المعروف أن المنصور سجنه ولم يجلده وأنه مات فى السجن مسموماً كما ترجحه رواية أخرى لابن حجر.

(٢) الدينورى، «الأخبار الطوال» ص ٢١٧.

- ابن طاووس، فرحة الغرى. ط حجر. ايران. ١٣١١ هـ ص ٥. نقلاً عن «مقتل أمير المؤمنين للثقفى (من الكتب القديمة المفقودة). وابن طاووس من رجال القرن السابع.

- ابن الأثير، «أسد الغابة» طهران ١٣٢٢ هـ. ٤/ ٣٨٥.

(٣) الكامل فى التاريخ ٧ / ١٥١.

(٤) نفسه ١٠/ ١٥١.

والتخويف. وقبض المعز الفاطمى على الفقيه الدمشقى أبو بكر النابلسى بعد أن بلغه قوله: «لو أن معى عشرة أسهم لرميت تسعة فى المغاربة (الفاطميين) وواحداً فى الروم» واعترف بالقول واغلظ لهم بالكلام فسلخوا جلده وحشوه تبناً وصلبوه [1]. السلخ من أشنع صنوف التعذبى ويستدعى الإقدام عليه نزعة سادية فى غاية الإفراط.

الاعدام حرقا:

فرضه أبو بكر على رجل مأبون يدعى الفجاءة السلمى. وورد فى حروب الردة ما يدل على أن أبا بكر ضمن تعليماته لقادة الجيوش التى أرسلها لمحاربة المرتدين أوامر بالإحراق. وروى الطبرى كتابين له فى هذا المعنين كما نقل وقائع نفذت فيها أوامره[2]. ويخبرنا البلاذرى فى «فتوح البلدان» أن خالد بن الوليد أحرق بعض المرتدين بعد أسرهم وأن اعتراضاً من الصحابة قدم لأبى بكر ضد هذا الإجراء، فدهم أبو بكر قائلا: «لاأشيم سيفاً سله الله على الكفار». يقصد خالداً.

واستعمل بعض ولاة الأمويين هذه العقوبة ضد الثائرين عليهم. وقد ذكرت آنفاً إحراق المغيرة بن سعيد العجلى حيا بأمر خالد القسرى حاكم العراق. وفى أوائل العباسيين أعدام الكاتب عبد الله بن المقفع حرقاً بأمر سفيان بن معاوية أحد ولاة المنصور [3] وقد طور العباسيون فى وقت لاحق هذ الفن إلى شئ الضحايا فوق نار هادئة. وهو مافعله المتعضد بحق محمد بن الحسن المعروف بشليمة أحد قادة الزنج فى البصرة، وكان المعتضد قد أعطاه الأمان ثم اكتشف أنه يواصل نشاطه المعادى سرا فأمرم بنار فأوقدت ثم شد على خشبة من خشب الخيم وأدير على النار كما يدار الشواء حتى تقطع جلده ثم ضربت عنقه [4].

---

(١) نفسه ٢/ ٣٣٠ حوادث ٣٦٣.

(٢) تاريخ الطبرى ٢/٤٨٨، ٤٩٠، ٤٩١.

(٣) ابن النديم، الفهرست ط فلوجل ١٧٨.

قال ابن النديم: حل المنصور دمه لما فعله فى شرط عبد الله بن على. وكان ابن المقفع قد حرر الأمان الذى أعطاه المنصور لعمه عبد الله وضمنه شروط باهظة تقطع عليه سبيل نقضه.

(٤) الطبرى ٨/١٦٥.

انظر كذلك: ابن النديم ص ١٩.

وفي البداية والنهاية أنه وجد نصراني يشرب الخمر مع أمرأة مسلمة في نهار رمضان فحكم نائب دمشق المنصور ابن قلاوون بإحراق النصراني وجلد المرأة. فأحرق بسوق الخيل (حوادث ٦٨٧هـ) والمنصور من حكام المماليك بمصر.

تعذيب متعدد الوسائل

تجمع هذه الطريقة عدة أشكال من التعذيب ضد شخص واحد. وقد استخدمت ضد أسرى القرامطة في بغداد، ومن أمثلتها تعذيب ابن أبي القوارس من قادة القرامطة في سواد الكوفة، بأمر المعتضد وتفصيله كما أورده الطبرى [(١)].

«وعلقت بالأخرى جندلة وترك في حاله تلك من نصف النهار إلى المغرب. ثم «قلعت أضراسه أولاً. ثم خلعت إحدى يديه بشدها إلى بكره متحركة. قطعت يداه ورجلاه في الصباح وقطع رأسه وصلب في الجانب الشرقي- من بغداد - وحملت جثته بعد أيام إلى محلة تدعى الياسرية كانت تعلق فيها جثث القرامطة ليصلب معهم».

مثال آخر وصفه الطبرى أيضاً وهو لصاحب الشامة الحسين بن زكرويه قائد القرامطة في السواد وكان قد أسر مع عدد من أصحابه وجئ بهم إلى بغداد ليعدموا:

«بنيت دكة في مكان عام ونودى على الناس لحضور حفلة الاعدام. وبدأوا يقتادون الأسرى واحداً واحداً وكان الرجل يؤخذ ويبطح فتقطع يمنى يديه ويحلق بها ليراها الناس ثم ترمى. ثم تقطع رجله اليسرى ويحلق به لنفس الغرض وترمى. ثم يسرى يديه فيمنى رجليه ويرمى بكل ما يقطع إلى أسفل، ثم يقعد فيقطع رأسه ويرمى به مع جثته إلى أسفل.

وقدم حسين بن زكرويه وضرب مئة سوط، وقطعت يداه ورجلاه. وكوى بالنار فغشى عليه فأخذ خشب فأضرمت فيه نار ووضع في خواصيره وبطنه فجعل يفتح عينيه ثم يغمضهما. فلما خافوا أن يموت ضربوا عنقه. ورفع رأسه على خشبة فكبر الجلادون من فوق الدكة وتبعهم سائر الناس بالتكبير» [(٢)] ولم تجر العادة بالتكبير في مثل هذه الأحوال إلا حين يكون الرأس المقطوع لعدو خطر. وهو ما فعله الأمويون عند قطع رأس الحسين بن علي في كربلاء. وكان الحسين بن زكرويه حينما أدخل إلى بغداد واستقبله الناس خاطبهم بقوله: يا قتلة الحسين.

---

(١) الطبرى ٨/ ٢٠٧.
(٢) نفسه ٨/ ٢٣٠.

تنور الزيات:

ابتكره محمد بن عبد الملك الزيات وزير الواثق لتعذيب عمال الخراج المختلسين. وكان يصنع من خشب تخرج منه مسامير حادة وفي وسطه خشبة معترضة يجلس عليها المعذب. وقد عذب فيه صانعه بعد عزله زمن المتوكل بسبب إهانة كان قد وجهها إليه قبل أن يستخلف. ووصف الطبرى تعذيبه على الوجه التالى[1].

«حبس أولاً. ثم سوهر (منع من النوم) فوكل به سجان ينخسه بمسلة كلما أراد أن يغفو. ثم ترك أياماً فنام وانتبه فاشتهى فاكهة وعنباً فقدمت إلى فأكل . ثم أعيد إلى المساهرة أياماً نقل بعدها إلى التنور حيث مكث أياماً كلما أراد أن يغفو سقط، على مسمار فانتبه، فكان يضطر إلى البقاء فوق الخشبة المعترضة ومقاومة النوم. وهى الفكرة التى تكمن وراء صنع التنور بهذا الشكل. أى أن المعذب يجد أمامه خيارين، إما النوم على المسامير أو السهرطيلة إقامته فى التنور.

أشكال مفردة:

تدخل هذه الأشكال فى عداد المبادرات الأنية ولذلك لا تجرى على نسق واحد أو تصميم متبع. وفيما يلى وصف لبعض الوقائع:

القتل بالطشت المحمى:

قبض السفاح العباسي على عبد الحميد الكاتب، وكان فى معية مروان آخر الخلفاء الأمويين، فسلمه إلى صاحب شرطته فكان يحمي له طشتاً ويضعه على رأسه إلى أن مات..

التعذيب بالمقدحة:

أوردت مصادر السيرة [2] أن النبى محمد دفع كنانة بن الربيع ، من زعماء بنى النضير، إلى الزبير قائلاً: عذبه حتى تستأصل ما عنده. وكان تحت يده كنز من أموال بنى النضير.. وعذبه الزبير بالمقدحة فكان يقدح فى صدره حتى أشرف على الموت ثم سلمه النبى إلى محمد بن مسلمة لقتله ثاراً لأخيه الذى قتله بنو النضير.

(١) نفسه ٧/ ٣٤٠ .

(٢) ابن هشام «السيرة» وقائع فتح خيبر.

- ابن كثير، «البدية والنهاية» القاهرة ١٩٣٢، ٤/ ١٩٧ .

الموت بالنورة:

من الوسائل التى قيل ان ابراهيم الإمام، زعيم الدعوة العباسية، قتل بها على يد مروان بن محمد أخر خلفاء الأمويين وضع رأسه في جراب ملئ بالنورة وشده عليه بإحكام. وقد ترك على هذه الحالة إلى أن مات مختنقاً (١).

النفخ بالنمل:

سعيد بن عمر الحرشى كان والياً على خراسان لعمر بن هبيرة حاكم العراق (كان المشرق يدار من العراق أيام الأمويين) وكان يستخف بأوامره، فأرسل إليه رجلاً يستطلع حاله. فعاد الرجل فأيد ما ذكروا عنه. وكان سعيد بعد أن علم بالرجل وضع له سماً في بطيخة لكنه لم يمت ورجع إلى العراق فعولج حتى برئ. وعزل عمر بن هبيرة سعيداً وعذبه بأن نفخ في بطنه النمل(٢). ولم تذكر الرواية إن كان قد مات أم لا.

التعطيش:

عام ٤٠٣هـ هجمت خفاجة على الحجاج فقتلوا منهم خلقاً وهرب الكثيرون إلى الصحراء فماتوا عطشاً فقبض الوزير البويهى فخر الملك على قائدهم وأركانه وأمر بصلبهم على مسيل ماء بحيث يرونه ولا يصلون إليه حتى ماتوا عطشاً (٣).

التبريد بعد الجلد:

أورد الغزالى فى «إحياء علوم الدين» أن عبد الملك بن مروان خطب ابنة التابعى سعيد بن المسيب، وكانت مشهورة بجمالها، لابنه الوليد فرفض سعيد لورعه ومعارضته لسياسة الأمويين، فأمر عبد الملك بتأديبه فضرب مئة سوط في يوم بارد وألبس جبة صوف ثم صب عليه جرة ماء بارد. وارتكب عمر بن عبد العزيز إجراء مماثلاً بحق خبيب بن عبد الله بن الزبير بأمر من الوليد بن عبد الملك حين كان عمر والياً على المدينة. وتقول بعد الروايات أن الوليد لم يضمن أمره صب الماء البارد وأن عمر أضاف هذه العقوبة من عنده. ولعل هذا هو السبب فى

(١) تاريخ الدولة العباسية لمؤلف مجهول. دار الطليعة بيروت. فصل: ابراهيم الامام.
(٢) الطبرى ٥/ ٣٦٩.
(٣) ابن كثير: المصدر السابق، حوادث سنة ٤٠٣هـ.

حدة شعوره اللاحق بالجريمة كما تقول الروايات حيث أعلن الندم والتوبة وحاول التخلص من الولاية (*). وكان يومذاك فى الخامسة والعشرين من عمره.

التكسير بالعيدان الغليظة:

مر بنا ذكر خالد القسرى الذى كان والياً على الحجاز ثم على العراق لهشام بن عبد الملك. وقد عزل خالد بيوسف بن عمر الثقفى ثم قتل بسبب مخالفات صدرت منه ضد الخليفة . وكان قتله على الشكل التالى: (١).

وضع عود غليظ على قدميه وقام عليها عدد من الجلادين فكسرت قدماه. ثم وضع العود فى ساقيه فكسرت بنفس الطريقة. ثم نقل إلى فخذيه ومنهما إلى حقوبه وانتهى العمود إلى صدره فكسر ، وعندها مات . وكان خلال ذلك ساكتاً لايتأوه..

قرض اللحم:

استخدمه قرامطة شرقى الجزيرة. وكان مؤسس الدولة القرمطية أبو سعيد الجنابى قد اغتيل بيد خادمه بعد أن دخل الحمام، وقام الخادم بعده بقتل عدد من القادة استدرجهم إلى الحمام . وقبضوا على الخادم بعد اكتشاف أمره فشدوه بالحبال ثم أخذوا يقرضون لحمه بالمقايض حتى مات(٢).

إخراج الروح من طريق آخر:

عقيدة خروج الروح من الفم عن الموت أوحت لمعتضد بأشكال من القتل أراد بها إخراج روح المقتول من غير طريق الفم. قال المسعودى فى «مروج الذهب» إن المعتضد كان شديد الرغبة فى أن يمثل بمن يقتله وذكر من وسائل ذلك:

١ ـ إذا غضب على القائد النبيل أو الذى يختصه من غلمانه أمر أن تحفر له حفيرة ثم يداس التراب بالأرجل حتى تخرج روحه من دبره بعد أن تكون قد سدت كل المنافذ التى يمكن أن تخرج بواسطتها من فمه.

(*) كان عمر يقول لمن يبشره بحسن العاقبة لما قام به فى خلافته: «فكيف بخبيب ؟» وكان خبيب قد مات نتيجة تعذيبه بهذه الطريقة ويبدو مما ذكرته الرواية أنه كان شاباً حكيماً بعيد الإدراك رفيع الخلق فأراد الأمويون التخلص منه. انظر «نسب قريش» لمصعب الزبيرى ٦/ ٢٤٠ و«نسب قريش» للزبير بن بكار ١/ ٣٨٠.

(١) نفسه (٥٦٣/٥).

(٢) المقريزى «اتعاظ الحنفاء القاهرة ١٩٤٧ ص ٢٢١.

٢ - يؤخذ الرجل فيكتف ويؤخذ القطن ويحشى فى أذنيه وخيشومه وفمه. ثم توضع منافخ في دبره حتى ينتفخ ويتضخم جسده. ثم يسد الدبر بشئ من القطن وبعدها يفصد من العرقين فوق حاجبيه حتى تخرج الروح من ذلك الموضع.

قلع الأظافر:

أقيمت وليمة قرشية حضرها هشام بن عبد الملك حين كان أميرا، ووجيه يدعى عمارة الكلبي. واقتضى ترتيب الوليمة أن يجلس عمارة فوق هشام، فاستكثرها منه وآلى على نفسه أن يعاقبه متى أفضت إليه الخلافة . فلما استخلف أمر أن يؤتى به وتقلع أضراسه وأظافر يديه. ففعلوا به ذلك. وكان يقول فيما بعد يندب نفسه[١]:

عذبوني بعذاب ... قلعوا جوهر رأسي
ثم زادوني عذابا ... نزعوا مني طساسي
بالمدى حزز لحمي ... وباطراف المواسي

وهنا يذكر أشكالاً أخرى من التعذيب لم تذكرها الرواية ولعلها جاءت استطراداً منه لاستكمال صورة العدوان الذى وقع عليه.

التعذيب بالقصب:

فيروز بن حصين من قادة انتفاضة ابن الأشعث ضد الحجاج فى العراق. أسر بعد فشل الانتفاضة، وكان تحت يديه أموال طائلة يعود بعضها للحركة . ولا ستحصال الأموال منه أمر الحجاج بتعذيبه، فعرى من ملابسه ولفوه بقصب مشقوق ثم أخذوا يجرون القصب فوق جسده. ولزيادة إيلامه كانوا يذرون الملح ويصبون الخل على الجروح التى يسببها القصب. وبعد أن يئس الحجاج من اعترافه بالأموال قطع رأسه.

التعذيب الجنسى:

من الوقائع النادرة فى هذا المجال اغتصاب نساء المدينة على يد جنود من أهل الشام بأمر من يزيد بن معاوية، وسيرد الكلام عليها لاحقاً. لكنى لم أعثر حتى الآن على رواية موثوقة بشأن الاعتداء الجنسى على الأسرى أو المعتقلين. سوى مارواه الذهبى فى «سير أعلام النبلاء» أن الحاكم بأمر الله الفاطمى كان يتجول فى الأسواق على حمار ومعه غلام أسود ضخم فمن

(١) امالي القالي - بيروت ص ٥٧.

أراد تأديبه أمر الأسود فأولج فيه جهاراً (١). ويبدو أن التغليظ في النهى عن الزنا جهراً مع بقايا القيم والتقاليد القبلية قد جعل مثل هذه الاقترافات غير ميسورة. وكان ولاة الأمويين يعتقلون النساء ويقتلونهن أحياناً ولكن مع عدم المساس بشرفهن الشخصي. وقصة زوجة الكميت بن زيد مع والي العراق خالد القسرى تحتفظ هنا بدلالة هامة. فقد كان الكميت معتقلاً بأمر هشام بن عبد الملك وينتظر تنفيذ حكم من هشام بقطع لسانه على قصائده الهاشميات، فدبر خطة هروب مع زوجته فلبس ثيابها وانسل من السجن بدلاً منها وأخذوها إلى خالد القسرى فلم يزد هذا الارهابي الخطر على أن قال: حرة فدت ابن عمها!

تعذيب أدبي:

كان يطبق على المخالفات التي لا ترقى إلى درجة الجنحة أو الجناية أو التي لا تمس أمن السلطة ومصالحها. ومن وسائله حلق اللحى أو نتفها - والنتف يجمع بين التعذيب الجسدي والأدبي معاً - وحلق الرؤوس. وكان هذه العقوبات تفرض أحياناً على الزعران والزنادقة. ومنها قص الشعر الطويل، وكان يطبق على المراهقين أو الفتيان اللاهين. وقد تباهى ابن الجوزى في «القصاص والمذكرون» بحملة قادها في بغداد ضد هؤلاء فقصوا فيها «أكثر من عشرة آلاف طائلة - أى خصلة طويلة». ومن وسائل التعذيب الأدبي التي شاعت هو التشهير، وكان يتم في الغالب بإركاب المشهر به على حمار والطواف به في المدينة ومعه أشخاص ينادون بجريمته. ويورد الجاحظ في «مفاخرة الجوارى والغلمان» تشهيراً بهذه الوسيلة لجارية ماجنة في بغداد قبض عليها وهي تجامع مخنثاً بكنديج (قضيب اصطناعي) ويؤخذ من رواية الجاحظ أنها اعتبرت هذه الوسيلة معادلة للقتل، لأنها كانت تخاطب الرجال عند الطواف بها وتقول متهمة إياهم بالظلم: «إنكم تنيكوننا الدهر كله فلما نكناكم مرة واحدة قتلتمونا» (*). وابتكر عبيد الله بن زياد وسيلة إضافية في التعذيب الأدبي بهذه الطريقة طبقها على الشاعر المتمرد يزيد بن مفرغ الحميرى، أمر بأن يسقى مادة مسهلة ثم يطاف به. وكان الشاعر يسلح على نفسه أثناء الطواف.

(١) ١٥/ ١٧٦. الرواية في حاجة إلى توثيق.

(*) في العامية البغدادية المعاصرة يقال للمرأة الماجنة أو المستهترة: مشهورة. ويبدو أن هذا من آثار تلك العقوبة التي شاع استعمالها أنذاك في بغداد. ومنه قولهم في التوبيخ: مسخم (بتفخيم السين إلى الصاد) ويشار به إلى المشهر به قديماً إذ كانوا يلطخون وجهه بالسخام ونحوه. وورد اصطلاح «تجبيه» ومعناه في القاموس المحيط أن تحمر وجوه الزانيين ويحملا على بعير أوحمار ويخالف بين وجهيهما.

خارطة التعذيب:

تفاقم التعذيب على يد الأمويين، متلازماً مع تحول دولة المدينة البسيطة إلى امبراطورية يحكمها خليفة مطلق السلطة. لكن ذلك لا يعنى أن التعذيب لم يمارس من قبل. وقد أشرنا آنفاً إلى أوامر أبى بكر بحرق المرتدين ودفاعه عن أفعال من هذا القبيل صدرت عن خالد بن الوليد فى حروب الردة (*). ويمكن اعتبار خلافة عثمان نقطة تحول أولية فى القمع الاسلامى فهو مؤسس جهاز الشرطة في الاسلام ، وقد ذكر ابن حبيب فى «المحبر» اسم مدير الشرطة الذى عينه وهو عبد الله بن منقذ التيمى - من قريش - ونوه بما يدل على بساطة جهازه، كمؤشر لى سلطة قمعية فى طور النشوء. وانتهج ولاة عثمان نهجاً قمعيا، ومحدوداً فى دار الاسلام منفلتاً فى دار الحرب (جبهة الفتوحات).. ولم يرد عن عمر بن الخطاب شئ من ذلك، أما على فهناك رواية تقول بأنه أحرق مرتدين . وقد أخرجها البلاذرى فى «أنساب الأشراف» على وجهين يرد فى أحدهما أنه أحرقهم أحياء وفى الآخر أحرقهم بعد قتلهم بالسيف[1]. وتربط بعض المصادر هذا الحدث بأتباع عبد الله بن سبأ الذى قيل أنهم ألهوا علياً فأحرقهم فى روايات ، ونفاهم فى روايات أخرى. وتورد الروايات التى ذكرت الاحراق رجزاً قيل أن على أنشده عند أو بعد إحراقهم. وعبد الله بن سبأ مشكوك فى تأريخه ، كما أن الغلو لم يكن قد ظهر فى زمان على . لكن رواية البلاذرى عن حرق المرتدين ممكنة بالنظر لوجود مثل هذه الحالات فى ذلك الوقت. ومن المستبعد مع ذلك أن يكون على قد أحرقهم أحياء لما نعرفه عنه من تشدد فى مراعاة أحكام الشريعة. والوجه الثانى لرواية البلاذرى أحرى عندى بالقبول . مع التنبيه إلى أن الرجز الذى نسب إلى على فى هذا الحادث ركيك لا يحتمل صدوره عنه. وهو من عناصر الضعف فى الرواية، مالم يكن أضيف إليها فيما بعد.

يستثنى من خلفاء الأمويين عمر بن عبد العزيز، الذى حكم أقل من ثلاث سنوات، ويزيد الناقص الذى حكم ستة أشهر. أما الباقون فكانوا قمعيين بدرجات متفاوتة. وظهرت ملامح نزعة سادية لدى بعض الولاة والقواد مثل زياد بن أبيه وابنه عبيد الله ومسلم بن عقبة المرى والحجاج وقرة بن شريك وبشر بن مروان ويزيد بن المهلب وخالد القسرى وأخوه أسد . ويروى

(*) يروى ابن سعد فى الطبقات أن أبا بكر كان يقول: إن لى شيطاناً يعترينى فإذا رأيتمونى غضبت فاجتنبونى لا أوثر فى أشعاركم وأبشاركم - أى فى رؤوسكم وجلودكم - ج٣ / ١٥١ . ويروى أبو عبيد عن اسحق أن أبا بكر بعث سلمة بن سلامة بن وقش إلى خالد يأمره أن لا يستبقى من بنى حنيفة رجلاً قد أنبت . فوجد خالداً قد صالحهم . الأموال ص ٢٥٧.
أنبت يعنى نبتت له عانة دليلاً على احتلامه، أى بلوغه العمر الذى يجوز فيه قتله حسب الشريعة.

(١) «أنساب الأشراف» ٥/ ١٨٨.

أن عمر بن عبد العزيز استعرض بعض هؤلاء يوماً - قبل خلافته - فتحدث بما يشعر بالهول من اجتماع عدد منهم فى وقت واحد قال : الحجاج بالعراق ، والوليد بالشام، وقرة بمصر، وعثمان بالمدينة، وخالد بمكة.. اللهم قد امتلأت الدنيا ظلماً وجوراً فأرح الناس ! و اشتهر الحجاج من بين هؤلاء. وتقول رواية شعبية إنه كان إذا أعدم أحداً يستمنى على نفسه.. ويكرس هذا الجنوح فى الخيال حالة الاقتران السيكولوجى بين الجنس والعنف مما عسى أن يكون الحدس الشعبى قد لمسه من خلال نموذج سادى تصدر قصص الارهاب فى تاريخنا.

وأنتظم الخلفاء العباسيون فى نفس السلك، مع استثناءات من النزعة السادية يمكن أن تشمل المأمون والواثق، والخلفاء الذين وقعوا تحت طائلة البويهيين والسلاجقة ففقدوا سلطتهم الفعلى، وخلفاء الحقبة العباسية الأخيرة الذين عاشوا فى ظروف خاصة واقتصرت سلطتهم فى الغالب على بغداد وما حولها. وعرف بالدموية من ولاتهم وقوادهم : أبو مسلم الخراسانى وعبد الله بن على ومعن بن زائدة ويزيد بن مزيد وعقبة بن مسلم . ومن الوزراء الفضل بن مروان ومحمد بن عبد الملك الزيات وحامد بن العباس. وفى الأندلس، تميز المعتمد بن عباد بميله إلى التلذذ بمشهد الرؤوس التى كان يأمر بقطعها . وقد مر بنا أنه كان يشتلها فى حديقة داره. واشتهر بالقسوة معظم ملوك الطوائف من غير المعتمد، وكذا المرابطون والموحدون الذين اقترن تاريخهم بأعمال الإعدام الجماعية التى ذهب ضحاياها مئات الألوف من خصومهم . ومن الخلفاء الفاطميين عرف الحاكم بأمر الله بحالته المرضية التى تجمع بين أعراض التقلب والمزاج الدموى. وعرف من القرامطة أبو طاهر القرمطى بالمذابح المجانية فى مكة وغيرها من النواحى التى امتدت إليها غزواته مالم نضع فى الحسبان احتمال المبالغة فى أخباره التى وردتنا فى مصادر معادية للقرامطة.

* * *

جلادون من الخلفاء يندمون عند الموت:

بتأثير الحرمة المؤكدة للقتل الكيفى والتعذيب كان بعض الخلفاء يتنغصون عند الموت خوفهم من دخول جهنم. فقال عبد الملك بن مروان ليتنى كنت غسالاً . وبلغت الفقيه أبو حازم فقال: الحمد لله الذى جعلهم يتمنون عند الموت مانحن فيه. ولا نتمنى عند الموت ماهم فيه.. (ترجمة عبد الملك من الطبرى وابن الأثير) وقال الواثق العباسى: لوددت أنى أقلت العثرة وانى حمال أحمل على رأسى». وطلب منه العهد لولده فقال: لا يرانى الله أتقلدها حياً وميتاً . (اليعقوبى ٨٣/٢) وفى قوله هذا إشارة إلى حتمية اقتران القمع الدموى بالسلطة الفردية.

وقال والده المعتصم عند الموت : لو كنت أعلم أن عمرى هكذا قصير لم أفعل مافعلت - الطبرى فى ترجمته . وانفرد الحجاج براحة ضمير مطلقة ترجع إلى ولائه الدينى للأمويين.

وسائل الاعدام:

لم يتطلع الفقهاء المسلمون إلى يوم تلغى فيه عقوبة الاعدام، مفترضين الضرورة الأبدية للعقوبات مادام الانسان مزيجاً من ا لخير والشر . وإنما تداولوا حديثاً نبوياً يقول: «أعف الناس قتلة أهل الإيمان » أى أن المؤمن إذا اضطر إلى القتل نفذه بأقل الوسائل إيلاماً . وقد استنتج منه ابن تيمية أن القتل المشروع هو ضرب الرقبة بالسيف ونحوه لأن ذلك أوحى أنوا ع القتل - يقصد أسرع بحيثى لا يتعذب المحكوم به [(١)] وينبنى على هذا أن الإعدام يجب أن ينفذ بالسيف ما دام الوسيلة الأقل إيلاماً ، فإذا وجدت وسيلة أخرى حلت محله . وهو المستفاد من الحديث. ولم يلتفت الفقهاء إلى تعارض هذا الحكم مع حكمين بالقتل يقترنان بالتعذيب. أولهما حكم قطاع الطرق، المنصوص عليه فى القرآن، بقطع اليدين والرجلين والصلب وهو يقتضى قتلهم بهذه الطريقة . إلا أن جمهور الفقهاء . جعلوا الصلب بعد القتل . وقد أوله ابن تيمية برفعهم على مكان عال ليراهم الناس ويشتهر أمرهم [(٢)]. لكن القتل بقطع الأطراف هو بحد ذاته تعذيب. ولم يكن للفقهاء الذين حرموا التعذيب إلا الامتثال لهذا الحكم بسبب صدروه عن الوحى الالهى.

الحكم الآخر هو رجم الزانى والزانية المحصنين - أى المتزوجين وهى ذات أصل سومرى وكانت تفرض على المرأة المراهطة. وانتقلت إلى المسلمين عن طريق التوراة. وينص هذا الحكم على الرجم حتى الموت . وكانت عقوبة الزانية المحصنة حبسها فى منزلها حتى الموت وفقاً لنص الآية (١٥) من سورة النساء . ثم نسخت بالرجم . وقد أثار حكم الرجم التباسات ناشئة عن شناعته من جهة وعدم النص عليه فى القرآن من جهة أخرى. فأنكره فريق من المسلمين بينهم الخوارجن وتساهل آخرون فى تنفيذه . ويبدو أن القائلين به شعروا بالحاجة أمام الإنكار ، إلى توكيد وروده فى الكتاب والسنة فقالوا إن حكم الرجم منصوص عليه فى آية منسوخة التلاوة باقى الحكم [(*)]. ونص الآية كما ترد فى مصادر التفسير والناسخ والمنسوخ منسوبة إلى عمر بن الخطاب

﴿والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم﴾.

(١) السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية ص ٧٧ - ٧٨.
(٢) نفسه ٧٨. قال ابن تيمية إن بعض الفقهاء قالوا بالقتل أثناء الصلب خلافا لقول جمهورهم.
(*) الآية المنسوخة التلاوة الباقيةالحكم، هى التى حذفت من القرآن مع بقاء حكمها سارياً.

وقد نسخت تلاوة الآية برفعها من القرآن مع بقاء حكمها. ولا سبيل إلى البت في صحة هذه الرواية لأن أسلوب الآية المدعاة من الركاكة بحيث يصعب القول إنها صادرة عن مؤلف القرآن. ويزداد الأمر التباساً حين يراد منا أن نقبل بأن آية باقية التلاوة (الآية ١٥ من سورة النساء) نسخها آية منسوخة التلاوة (اية الرجم) مما لا نجد له نظيراً في الناسخ والمنسوخ. على أن مصادر الحديث والسنة اشتملت على وقائع نفذ فيها الحكم على يد النبي وبعض الأحاديث التي تصرح به، مما يعزز الاعتقاد بوروده كحكم شرعي منصوص عليه في الأصول. وعندئذ قد يكون من المعقول أن يقال بأن الآية ١٥ من سورة النساء قد نسخت بالسنة. ويوافق معظم الأصوليين على أن السنة تنسخ القرآن. على أننا نعثر في «طبقات الصوفية» للسُبكي أن الصحابي عبدالله بين أبي أوفيى سئل إن كان النبي قد رجم فقال نعم. فسئل: بعدما نزلت سورة النور أم قبلها؟ فقال لا أدري (ص٣٣٣) وتعزز هذه الرواية الشك في الرجم لأن سورة النور اقتصرت على عقوبة الجلد.

ونظراً لتحريم الاجتهاد في موضع النص لم يكن ميسوراً إعلان رأي ما بشأن هاتين العقوبتين. ولعل الفقهاء قد وضعوهما على باب الاستثناء من حكم الحديث، وهو عام في سائر الأحكام التي قال الفقهاء بوجوب تنفيذها بضربة واحدة سريعة بالسيف.

الجلد: وللفقهاء تقييدات للجلد. فقد قال أبو حنيفة أن السكران لا يجلد إلا إذا بلغ في سكره حداً لا يفرق فيه بين السماء والأرض وبين الرجل والمرأة. والمعروف عن أبو حنيفة أنه أباح النبيذ. وقد استفاد الناس من هذه الرخصة. وفي «محاضرات» الراغب الأصفهاني أن رجلاً لقيه في الطريق وهو سكران من النبيذ فقال: يا أبا حنيفة يا ابن الزانية قد شربت النبيذ بفتواك! .بينما أثارت هذه الفتوى زوبعة بين أتباعه فضلاً عن خصومه(١). وقال الفقهاء إن السارق لا يقطع إلا إذا سرق من مال محرز. والمحرز أن يكون مقفلاً أو مدفوناً من مالكه. ولذا لا يقطع من سرق الكعبة أو المسجد أو بيت المال لعدم توفر شرط الأحراز فيها. كما لا يقطع

---

(١)قال أبو سعيد السيرافي، وكان حنيفاً، في حديث عن إباحة أبو حنيفة للنبيذ: ولأبي حنيفة مسائل لا أرتضيها له وقد خالفه فيها أعيان أصحابه والناقلة لمذهبه. معجم الأدباء لياقوت ٧/ ١٧٠.

سارق البساتين والزروع. وكذا من سرق من حرز هتكه غيره[١]. ولا يقطع سارق المواد التى يسرع إليها التلف كاللحم والفواكه وسارق المباح الكثير كالخشب[٢]. وحددوا معنى السرقة بأخذ المال على سبيل الخفية والاستتار فإن اختلس أو نشل لم يكن سارقاً ولا قطع عليه[٣]. ويشمل هذا الحكم النشالين أو الطرارين. ولا يستفاد من هذا إباحة السرقة فى هذه الأمور فالمقصود هو عقوبة القطع فإذا لم تتوفر شروطها عوقب السارق بعقوبات أخف كالحبس أو التعزير.

وقال أبو حنيفة بعدم العقوبة على اللواط فى رواية[٤]، وفى أخرى بالجلد مادون الحد المقرر للزانى[٥] ويروى عنه أنه قال من استأجر امرأة ليزنى بها لايُحد لأن العقد يصير شبهة[٦]. يقصد أن عقد الاستجار هو كعقد الزواج، لأنه يتضمن ركنين هما المهر الذى يدفع للمرأة فى شكل أجرة، والتراضى بينهما. وأخذ الأجرة دليل مادى على رضا المرأة. وفى المحلى لابن حزم أن أبا حنيفة لم ير الزنى إلا ما كان مطارفة، وأما ما كان فيه عطاء أو استئجار فليس زنا ولا حدفيه. وقد استند فى هذا إلى خبر الجائعة التى أتت راعياً فسألته الطعام فأبى عليها حتى تعطيه نفسها فوافقت. ثم جاءت إلى عمر (بن الخطاب) فأخبرته فقال: مهر. ودرأ عنها الحد[٧]. ولا يعنى هذا القول من أبو حنيفة إباحة البغاء. ويجب على أى حال أن يفهم فى ضوء الاتجاه إلى تقليص حالات تطبيق العقوبة على الزنا، مع ما يحمله من التفريق بين زنا الرغبة وزنا الحاجة.

يقصد بالمطارفة ما كان عن مجرد رغبة عابثة. ورواية ابن حزم أقرب إلى المعقول. وهى بحسب قصة الجائعة المنقولة عن عمر حكم خاص بالمرأة المزنى بها دون الرجل، لأنها زنت

(١) انظر: أبواب الحدود فى «المختصر النافع» وأحكام الماوردى السلطانية. كذلك: المغنى لابن قدامة ـ أعلاه ـ ٨/ ٢٥٣.

(٢) الاقسرائى. المصدر أعلاه.

(٣) المغنى لابن قدامة ـ أعلاه ـ ص ٨/ ٢٤٠.

(٤) نفسه ٨/ ١٨٨ ـ ١٨٩.

(٥) المحلى لابن حزم، القاهرة ١٣٤٧ هـ، ١١/ ٣٨٢.

(٦) أبو المعالى الجوينى (إمام الحرمين)، «مغيث الخلق فى ترجيح القول الحق» القاهرة ١٩٣٤ ص٤٤.

(٧) المحلى ـ أعلاه ـ ١١/ ٢٥٠.

اضطراراً ـ لا مطارفة ـ وهذا لا يرفع العقوبة عن الراعى الذى لا تذكر الرواية حكمه، إذ يبدو إنه كان مجهولاً لعمر، وإلا لكان من المفروض أن يقع عليه الحد. ورواية الجوينى تفيد أن عدم العقوبة يشمل الرجل ويجب عدم الوثوق بها لأن كتابه مكرس للتشنيع بأبو حنيفة وليس لدراسة الأحكام الفقهية.

ويمكن أن نفهم من مجمل هذه الأقوال أن أبو حنيفة يريد رفع العقوبة عن المرأة التى تزنى اضطراراً. وبالطبع فهذا يشمل البغايا لأن زناهن للحاجة وليس للرغبة. ولابد أن العقوبة لا تسقط عن الرجل (الفاعل) لعدم توفر هذا القيد.

ويمكننا أن نرصد اتجاهاً عاماً بين الفقهاء في التشدد فى جرائم القتل العمد وقطع الطريق والتساهل فيما عداها. وهناك قاعدة تقول: يخير الشهود (أى من شهدوا الجريمة) بين إقامة الحد عند الإمام وبين الستر على المشهود عليه واستتابته، بحسب المصلحة؛ فإن ترجح عندهم أنه يتوب ستروه وإن كان فى ترك الحد عليه ضرر للناس كان الراجح رفعه إلى الإمام[١]. وتعطى هذه القاعدة دوراً للجمهور فى معالجة الجريمة دون رفعها إلى السلطة. ولم يحدد صنف الجرائم المشمولة بهذا الإجراء لكن الإشارة إلى ما فيه «ضرر للناس» يمكن أن تنسحب على جرائم القتل والسرقة التى لا يجوز التستر على فاعلها ولابد بالتالى أن يكون المقصود هنا هو الجرائم الشخصية التى يسميها القرآن «فواحش» وهى الزنى وشرب الخمر وما أشبه.

وللقاعدة المذكورة أصل فى القرآن هو الآية ١٦ من سورة النساء: ﴿ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾.

والاشارة إلى الرجل والمرأة. وقد ذكر الزمخشرى فى تفسير هذه الآية إن المراد بالإيذاء ذمهما وتعنيفهما وتهديدهما بالرفع إلى الأمام. فإن تابا قبل الرفع إلى الأمام فاعرضوا عنهما ولا تتعرضوا لهما[٢]. وقد وردت روايات تتضمن هذا المعنى. ففى طبقات ابن سعد عن عبدالرحمن بن حرملة أنه جاء إلى سعيد بن المسيب يسأله: وجدت رجلاً سكراناً أفتراه يسعنى أن لا أرفعه إلى السلطان؟ فقال له سعيد: إن استطعت أن تستره بثوبك فاستره[٣]. ويورد ابن

(١) المقدسى، حاشية على «المقنع» لابن قدامة. السلفية ١٣٨٢، ٣/ ٤٤٤ ـ ٤٤٥.
(٢) الكشاف ١/ ٢٥٦ تفسير سورة النساء.
(٣) ابن سعد، طـ ليدن، ٥/ ٩٩.

سعد توجيهاً لعمر بن عبدالعزيز بعدم التعرض لمرتكبي الفواحش وراء البيوت[1] . وأشار الغزالي في «إحياء علوم الدين» إلى أن النبي شجع المقارفين على الستر والانكار[2] . وقد ورد هذا التوجيه في حديث أخرجه مالك في الموطأ نصه: «من أتى شيئاً من هذه القاذورات فليستتر بستر الله. فإن من أبدى لنا صفحته نقم عليه كتاب الله»[3] . وربما أمكننا استبعاد صحة هذا الحديث إذا استبعدنا كون النبي كان مجرد وكيل تنفيذ فهو يسعى لتخفيف قسوة أحكام شرعها غيره. لكن الحديث على أى حال ينسجم مع القاعدة الفقهية المذكورة.

وأوردت مصادر الفقه والحديث قول النبي : «تدرأ، أو ادرأوا، الحدود بالشبهات». ويشتمل هذا الحديث على مبدأ قضائي هام هو تفسير الشك لمصلحة المتهم. ويقول ابن حزم إن أشد الفقهاء قولاً بمضمونه واستعمالاً له هو أبو حنيفة وأصحابه، ثم مالك، ثم الشافعي[4].

وشدد الفقهاء على مسألة تعذيب العبيد. وقد استعرضنا بعض الأحاديث المتعلقة بذلك. وهناك اتفاق عام على تحريم الخصاء لأنه مثلة. ويعتبر العبد منعتقاً تلقائياً إذا خصاه مولاه. ولهذا السبب لم تزدهر تجارة الخصيان في العالم الاسلامي آنذاك رغم الحاجة إلى هذا الصنف من العبيد. والأندلسين كانوا يحصلون على حاجتهم من الخصيان من الامبراطورية الجرمانية المقدسة التي تخصصت في هذه التجارة وينعتق العبد تلقائياً كذلك إذا عذبه مولاه على رأى الامامية. وحرموا الضرب واللطم للعبيد ولكن دون أن يرتبوا عليهما الانعتاق مالم يبلغا حد التنكيل، وهو المبالغة في الايلام. كما خففت عقوبة الجلد الشرعية على العبد إلى نصف مقدارها على الحر في الجرائم التي تستوجبها. ويروى عن على بن أبي طالب إنه قال في تعليل هذا التخفيف: «إن الله أكرم من أن يجمع عليه الرق والحد». واختلفوا على حكم السيد إذا قتل عبده. وقد أخرج النسائي حديثاً يقول[5]: من قتل عبده قتلناه ومن جدعه جدعناه ومن خصاه خصيناه». والحديث مقبول عند عامة الفقهاء والمحدثين لكنهم تفاوتوا في التزامه نصياً: فسره بعضهم على سبيل الزجر والتغليظ في النهي فلم يعتبروه نصاً في العقوبة وقالوا بعقوبة القاتل بما دون القتل، واحتجوا عليه بخبر في سنن البيهقي يفيد أن رجلاً قتل عبده فجلده

(١) نفسه ٥/ ٢٦٩.
(٢) رحياء علوم الدين ٣/ ١٢٠.
(٣) الموطأ ص٣٣٥.
(٤) المحلى ١١/ ١٥٣.
(٥) سنن النسائي ٨/ ٢٠.

النبي ونفاه سنة ومحا سهمه من المسلمين ولم يقتله. وقال آخرون يقتل الحر إذا قتل عبد غيره ومن هؤلاء: أبو حنيفة وسفيان الثورى، فى رواية عنه، وابن أبى ليلى والشافعى وداود الظاهرى. وقالت فئة ثالثة بقتل السيد إذا قتل عبده ومنهم البخارى وابراهيم النخعى وسفيان الثورى فى رواية أخرى عنه. وأهل السنة والامامية على اتفاق بأن الحر لا يقتل بالعبد، سواء كان عبده أو عبد غيره. ويكرس رأى هاتين الطائفتين حالة التردى الاشمل فى العصور البعد ـ اسلامية مما يتضح على الخصوص من مقارنته بآراء الفقهاء الذين ذكرنا أسماءهم للتو، وهم معدودون، حسب التصنيف الطائفى المعاصر، من أئمة أهل السنة[1].

وتسقط الحدود بالتقادم. وهو للخمر بزوال ريحته من الفم عند العموم، وشهر عند الشيبانى. وللزنا والقذف والسرقة مضى شهر عند الفقهاء الثلاثة والتقادم لا يشمل القتل العمد.

أحكام عامة:

١ـ منع الخصاء للانسان والحيوان. واعتبروه من واجبات المحتسب الذى يتولى تأديب الخاصى وملاحقته بالقصاص أو الدية فى حالة حدوث وفاة بسبب الخصاء. وقد طبق المنع بالملموس. فكان أمراء المسلمين وأغنيائهم يحصلون بالشراء على الخصيان المجلوبين من خارج دار الاسلام .

٢ـ مراعاة حرمة المنازل بمنع دخولها بغير اذن أهلها. وسمح للمحتسب باقتحام المنزل عند الشك باحتمال وقوع جريمة كأن يصل إلى علم المحتسب أن رجلاً خلا بآخر ليقتله أو احتمال حصول زنا أو لواط. ولا يجوز الاقتحام فى حالة شرب الخمر لأنه من المخالفات الشخصية التى تعنى صاحبها وحده. وفى السماح له بذلك فى حالة الزنا واللواط إشكال أنها

(١) يلاحظ هنا أن أتباع الفقهاء الأوائل، ومنهم رؤساء المذاهب الأربعة وأئمة أهل البيت يختلفون حول الكثير من آرائهم. ويرجع هذا من بعض الوجوه إلى اختلاف الروايات عن الفقهاء الذين لم يتركوا مؤلفات. لكننا نجد من جهة أخرى أن الفقهاء المذكورين كانوا قد ظهروا فى وقت مبكر من العصور الاسلامية فأدلوا بآراء أشكلت على أتباعهم الذين جازوا فى أطوار متأخرة تبلور فيها الوعى الدينى على حساب العقلانية الاجتماعية التى تميز بها معظم فقهاء الطور الأول. ومن هنا نقدهم لبعض آراء أبو حنيفة، وتعمد بعضهم إخفاءها أو تجاهلها لا سيما فى العصور السلفية.

معدودة في المخالفات الشخصية. ولم يوضح النص الفقهي ملابسات الحدث وما إذا كان الفعل على سبيل الاغتصاب.

آراء للغزالي:

الغزالي غير معدود في الفقهاء إنما في الأصوليين (علماء أصول الفقه) وهو قبل هذا فيلسوف ولاهوتي ومتصوف ومفكر اجتماعي وكاتب سياسي. وكتابه «احياء علوم الدين» يجمع هذه الاختصاصات في جملتها. وقد تعرض في الكتاب الخامس إلى كيفية التعامل مع أهل المعاصي وقسمهم لهذا الغرض إلى ثلاثة أقسام:

«القسم الأول، وهو أشدها ما يتضرر به الناس بالظلم والغصب وشهادة الزور والغيبة والنميمة وهؤلاء يجب الاعراض عنهم وترك مخالطتهم والانقباض عن معاملتهم لأن المعصية شديدة فيما يرجع إلى إيذاء الخلق. ثم هؤلاء ينقسمون إلى من يظلم في الدماء والى من يظلم في الأموال والى من يظلم في الأعراض. وبعضها أشد من بعض. فالاستحباب في اهانتهم والاعراض عنهم مؤكد جداً.

القسم الثاني: صاحب الماخور الذي يهيء أسباب الفساد ويسهل طرقه على الخلق فهذا لا يؤذى الخلق في دنياهم ولكن يفسد بفعله دينهم وإن كان على وفق رضاهم، فهو قريب من الأول ولكنه أخف منه، فإن المعصية بين العبد وبين الله إلى العفو أقرب. ولكن من حيث أنه متعدٍ على الجملة إلى غيره فهو شديد. وهذا أيضاً يقتضي الاهانة والاعراض والمقاطعة وترك جواب السلام إذا ظُن أن فيه نوعاً من الزجر له أو لغيره.

القسم الثالث: الذي يفسق في نفسه بشرب خمر أو ترك واجب أو مقارفة محظور يخصه فالأمر أخف. لكنه في وقت مباشرته إن صودف يجب منعه بما يمتنع به منه ولو بالضرب والاستخفاف فإن النهي عن المنكر واجب. فإذا فرغ منه وعُلم أن ذلك من عادته وهو مصر عليه؛ فإن تحقق أن نصحه يمنعه عن العودة إليه وجب النصح وإن لم يتحقق ولكنه كان يرجو فالأفضل النصح والزجر باللطف أو بالتغليظ إن كان هو الأنفع. فاما الاعراض عن جواب سلامه والكف عن مخالطته حيث يُعلم أنه يصر وأن النصح ليس ينفعه فهذا فيه نظر..».

لا يذكر الغزالي ما يستحق هؤلاء الأصناف من العقوبة بموجب الشرع ويقتصر على مسألة

التعامل معهم في المجتمع. وقد شدد على الأفعال التي تمس الناس. وتساهل في الأفعال التي يؤذي بها الانسان نفسه دون غيره. وهو الحكم العام عند الفقهاء. والملخص في قولهم: «إن حقوق العباد مبناها على الشح، وحقوق الله مبناها على السعة» وحقوق الله هي أفعال الفرد لنفسه كشرب الخمر وترك الصلاة والزنا وما أشبه. والحساب على هذه يسير لأن ضررها لا يصل إلى الناس.

وقد أسرف الغزالي حين اعتبر البغاء من أفعال النفس التي لا يتعدى ضررها إلى الغير، فالبغاء آفة اجتماعية وليس فعلاً فردياً. وانما حمله عليه تقريره أن العلاقة بين البغي والرجل هي بتراضي الطرفين، ولم ينتبه إلى وضع البغي، الاضطراري في الأصل.

هوية الجلادين والسجانين:

عندما واجه الأمويون مسألة تأسيس الدولة اصطدموا بالجذور الجاهلية فوجدوا حاجة إلى ترويض العرب حتى يصبحوا رعايا لدولتهم التي لم يألفها الجاهليون. وقد استعانوا لهذا الغرض بعناصر أجنبية سلموها أمر السجون ومهمة الجلادين لاسيما بعد أن تعذر عليهم تأمين ما يكفي لهذه المهام من الأفراد العرب. وكان جلادو الأمويين من الأتراك. واليه يشير فتى عربي هرب من سجن ابن زياد في العراق:

وجاء البخاريون يبتدرونني ... لهم أعين خُزْر توقَّد كالجمر
عكوف على الأبواب من يزمرونا به ... فليس براءٍ آخر الدهر

والبخاريون نسبة إلى بخارى، من مدن آسيا الوسطى.

ويصف جعفر بن عُلبة سجناً أموياً كان فيه:

إذا باب دورانٍ ترنم في الدجى ... وشد باغلاق علينا وأقفال
وأظلم ليل، قام علج بجلجلٍ ... يدور به حتى الصباح باعمال
وحراسي سوء ما ينامون حوله ... فكيف لمظلومٍ بحيلة محتال
ويصبر فيه ذو الشجاعة والندى ... على الذل للمأمور والعلج والوالي

والعرب يطلقون العلج على الأعجمي. وقوله: جلجل إشارة إلى المفاتيح لما تحدثه من قرقعة عند استعمالها.

مسؤولية الجلاد:

اختلف الفقهاء في مسؤولية الجلاد فبرأ بعضهم لأنه مأمور وألقوا بالمسؤولية على الآمر فقط. وأشركه آخرون بالاثم. لكن الشيعة يقولون بتجريم الجلاد الذى يعذب السجناء ويحكمون عليه بالحبس الأبدى ـ التخليد في السجن في اصطلاحهم.

رأى للمؤرخين:

في سياق المعارضة الفقهية للتعذيب، دعا المؤرخ السخاوى إلى تجنب رواية أخباره، «إلا ما يضطر المؤرخ إلى إيراده منها بشرط بما يقتضى الانكار، إذا أمكن، حتى لا يكون تطرقاً لمن لا يروم فعل مثله وحجة يحتج بها». وأورد في هذا المعنى خبراً يفيد أن الحجاج قال لأنس بن مالك حدثنى بأشد عقوبة عاقب بها النبى. فحدثه بها. فلم بلغ الحسن البصرى ذلك قال: وددت أنه لم يحدثه[1]. وانكار البصرى لحديث أنس، مرجعه إلى الخوف من أن يستغل الحجاج تلك العقوبة لتعزيز وسائله الإرهابية أو الاندفاع أكثر في هذا الاتجاه. وأعرب ابن الأثير عن الامتعاض من هذه الأفعال لكنه أدلى برأى مغاير إذ دعا إلى تدوين أخبار الظالمين حتى يعلموا أن أخبارهم تنقل وتبقى على وجه الدهر فربما تركوا الظلم لهذا إن لم يتركوه لله[2]. وهنا خلاف في المقصود من الرواية بين الحسن وابن الأثير لم يلحظه السخاوى. فابن الأثير يتحدث عن أفعال حكام المسلمين والحسن البصرى يقصد الرواية عن النبى. وما أورده من اشكال في هذا الخصوص يتعلق بمسألة القدوة. فالحديث الذى رواه أنس للحجاج يمكن أن يوفر له عذراً في التمادى، كما قلنا، مستمداً من السنة، في حين قد يكون تصرف النبى المروى عنه مأخوذاً في خصوصياته التي لا تعتبر في عداد السنة. وهناك فرق بين أن تروى خبراً عن حاكم عرف بالظلم فتفضحه، وخبراً عن نبى مشرع فتضيف مادة إلى الشريعة. ويبدو السخاوى مع هذا حذراً من أن يستفيد الحكام من رواية وسائل التعذيب فيطبقوها. وهو المستفاد من قوله: حتى لا يكون ذلك تطرقاً لمن يروم فعل مثله.

* * *

(١) الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ. بغداد ١٩٧٣ ص١٢٧.
(٢) الكامل في التاريخ ٨/ ١٢٤.

العصبية العربية فى مواجهة المصريين

«لعنة الحرس»

كان العرب يمثلون فى المجتمعات التى يغزونها أرستقراطية السيف والدم (الجنس) ويشغلون بالتالى قمة الهرم الاجتماعى. أما قاعدة الهرم فتتكون من الرقيق، يعلوهم الذميون سكان البلاد الأصليون .

وكان يقوم نتيجة لذلك تناقض اجتماعى بين العرب وغير العرب، وبين المسلمين وغير المسلمين، وكان المفروض أن يقف المسلمون الجدد ـ وهم من غير العرب طبعا ـ على قدم المساواة الكاملة مع المسلمين الأصليين أى العر ب. غير أن ذلك لم يتحقق قط إذ ظل العرب متمسكين بعروبتهم الجنسية كعامل يحفظ عليهم بقاءهم كطبقة مغلقة تستحوذ على كل الأموال ولا يستطيع غيرهم أن يشاركهم إياها.

وكل ما سمحوا به للمسلمين الجدد هو أن ينتسبوا إلى القبائل العربية، التى تتكون الطبقة الغربية من مجموعها. فيحملوا اسمها فى صورة من التبعية تعرف باسم «الولاء».

ومن هنا نفسر هذا الإدعاء الشائع حول الأصول العربية لبعض سكان مصر فهم عروبى الولاء وليسوا من جنس العرب.

ثم أن الدولة رفضت ـ حرصا على مواردها ـ أن تسقط عن هؤلاء المسلمين الجدد ـ أو الموالى ـ لما تضخم عددهم الجزية التى كانت عليهم بحكم القرآن نفسه (التوبة: ٢٩) أن يدفعوها وهم ذميون. هذا إلى أنه أصبح عليهم أداء الزكاة بما هم مسلمون. وهكذا لم يحقق اعتناق الإسلام وضعا اجتماعيا أفضل للموالى فلاهم دخلوا الطبقة العربية الحاكمة ولا هم بقوا فى طبقتهم التى ورثوا عضويتها. بل أصبحوا يكونون طبقة قلقة فى المجتمع الجديد، وبذلك لم يحل اعتناق الإسلام التناقض بين العر ب والأجناس الأخرى، بل أعطاه صورة جديدة وظل هذا التناقض أحد مصادر حركات الاستقلال السياسية والاجتماعية والثقافية فى البلدان التى احتلها العرب. وقد سجلت الروايات صورة نادرة لإحدى محاولات المتأسلمين فى مصر لحل هذا التناقض بطريقة فريدة فى بابها.

وهى فى بعض جوانبها تشبه ما حدث للبرامكة ونكبتهم.

الحرس ـ بفتح الحاء والراء ـ قرية مصرية كل ما بقى لنا من أخبارها أنها من شرقى مصر وأغلب الظن أنها من الإقليم الذى تشغله محافظة الشرقية. دخل سكان هذه القرية الإسلام ولكن يبدو أنهم كانوا يتمتعون بنشاط خاص كما هو الحال بالنسبة للبلدان التى احتلها العرب فأهل هذه البلدان أصحاب حضارات يفتقدها العر ب الذين اعتبروا أنفسهم أهل سيف لا يشغلهم عنه الثقافة والعلم. فقد ظهر منهم فى القرن الثانى ـ التاسع الميلادى عدد من الشخصيات العلمية، فكان هناك كلب القضاعى الحرسى (ت ٢٠٧هـ) الذى روى عن الفقيه عمرو بن الحارث (ت١٤٨هـ) ، صاحب القراءة العظيم نافع (ت ١٦٩هـ). وكان منهم ـ وهو أهمهم وأشهرهم ـ زكريا بن يحيى (ت ٢٤٢هـ) المعروف بكاتب العمرى، والذى تتلمذ على علماء أجلاء يكفى أن أحدهم العالم المصرى الجليل عبد الله بن وهب (ت ١٩٧هـ). وقد يكون من المفيد أن تتأمل الاسم الكامل لهذا العالم الحرسى، وهو: زكريا بن يحيى صالح بن يعقوب. فإن طوله يدل على قدم دخول الأسرة فى الإسلام، هذا من جهة، ومن أخرى يلحظ أن اسمه واسم أسلافه هى أسماء أنبياء أو بتعبر أدق أسماءدينية لا تتعارض مع الإسلام ولكنها تخلو ـ ربما عن عمد ـ من الطابع العربى الخالص. كما كان هناك أحمد بن رزق الله بن ابى الجراح (ت ٢٤٦هـ) تلميذ العالم المصرى الكبير يونس بن عبد الأعلى (ت ٢٤٦هـ). وكان هناك كذلك أبو بكر زكريا بن يحيى (ت٢٥٤هـ) نجل العالم المذكور أنفا.

كان هؤلاء الحرسيون يمارسون نشاطهم العلمى فى العاصمة ـ الفسطاط ـ حيث كان يقيم ـ فيما يبدو ـ عدد غير قليل من مواطنيهم ويكونون جميعا تكوينا متميزات يعرف باسم «أهل الحر س». ويبدو كذلك أن أهل الحرس هؤلاء ـ علماء وغيرهم ـ أصابوا من النجاح والشهرة فى الفسطاط ما نبه إليهم أفراد الطبقة العربية الذين بدءوا يرون فيهم حالة جديدة من حالات الارتقاء الطبقى الذى كان ـ بما هو حركة اجتماعية مستمرة ـ يهدد وضعهم كطبقة عليا متفردة بالسلطان، ورأى العر ب أن يبادروا إلى القضاء على هذا النجاح الجديد الذى تحرزه الطبقة الشعبية. فأخذوا يتحرشون بأهل الحرس، ويؤذونهم وينكرون عليهم حقهم فى

التفوق محتجين بأنهم ليسوا عربا ينتمون إلى الطبقة الأستقراطية الحاكمة صاحبة الحق فى الاستئثار بكل أنواع التفوق، ولكنهم. كبط مصر ينتمون إلى الطبقة الشعبية المحكومة التى ليس لها أى حق في التمتع بأى نوع من التفوق.

وتزعم حركة اضطهاد أهل الحرس، ثلاثة من وجوه الطبقة العربية أولهم: هاشم بن عبد الله التجيبى أحد ذرية معاوية بن خديج (ت ٥٢ هـ) الذى كان من أبرز شخصيات الغزو العربى مثلما كان من أهم زعماء الأرستقراطية العربية الغازية. وكان هاشم مازال محافظا على وضعه الطبقي المورث وكان يلي الوظائف الكبرى. أما الثاني أبو رحب العلاء بن عاصم الخلانى فهو أحد رجال الدين، ولى القصص بجامع عمرو فى مقابل عشرة دنانير فى الشهر. كما كان إمام لجامع عمرو استخلفه أحد الأمراء على حكم مصر سنة ١٩٣هـ إلى حين قدومه. أما الثالث فهو أبو الدهمج رياح بن ذوابة التجيبى الكندى الذى كان أحد شيوخ المؤرخين.

هؤلاء الرجال الثلاثة أذن من أقوى القبائل العربية فى مصر وأغناها وأشدها أرستقراطية. وقد استاءوا من أولئك الحرسيين النشطين الممتازين الذين استطاعوا بالعمل والمثابرة أن يحققوا لأنفسهم حياة أفضل من حياتهم. ولسنا نشك فى أن الزعماء العرب الثلاثة فى شعورهم العدائى نحو هؤلاء الحرسيين الناجحين إنما كانوا يعكسون إحساس الطبقة الأرستقراطية التى ينتمون إليها واحساسها بخطورة هذه الظاهرة. ويعد زكريا بن يحيى خير نموذج للارتقاء الطبقي الذى حققه أهل الحرس لأنفسهم، فقد استطاع أن يرتفع إلى العلم والسلطة والثراء. وقد جعله ذلك هدفا لنقمة الشاعر العربي يحيى الخولانى الذى وصفه بأنه «صار بعد الذل للجور يرهب» وأنه «بعد قران العرى أصبح فاكتسى»، وأنه بعد الحفا والمشى قد صار يركب».

أو كما قال شاعر. عربى أخر:

عصبة من طبنة النيل مناسى الجدود

لبسوا بعد التباين نقيات البرود

وتسموا وتكنوا بعد جرجه وشنوده

لم يستطيع أهل الحرس الصبر على الاضطهاد، وكانوا لا بدلا لهم من أن يتخذوا إجراء

مضادا، أى كان لا بد من أن يحلوا هذا التناقض بينهم وبنى العرب فلجئوا إلى زعيمهم أو عميدهم فى العاصمة الذى لم يكن سوى زكريا بن يحيى يشكون إليه أنهم يؤذون ويطعن فى شرفهم، ويسألونه حتى متى يصبرون على هذا.. ولم يكن زكريا يجهل الموقف ، بل لعله كان قد روى فيه طويلا، ذلك بأنه قدم إليهم أعجب حل يمكن أن يخطر بالبال. فقد نصحهم لكى يتخلصوا من اضطهاد العرب بأن يتحولوا إلى عرب طالما أن إسلامهم لم يشفع لهم. وأكد لهم أنهم يستطيعون تحقيق هذا المستحيل إذا جمعوا مبلغا من المال يقدمونه إلى قاضى مصر فيسجل لهم سجلا يثبت لهم نسبا عربيا. فهل اقترح زكريا على مواطنيه هذا الإجراء العجيب لأنه كان مألوفا حينذاك مثلما كان مألوفا فى مجتمعنا المعاصر أن تشترى الأسرة لنفسها «حجة» تثبت لها شرف الانتساب إلى النبى؟ أو أنه فعل ذلك اطمئنانا إلى إمكان اتخاذ هذا الإجراء الشاذ فى عهد قاضى مصر الموجود حينذاك والذى كان هو نفسه يعمل كاتبا له حتى اشتهر بلقب « كاتبا العمرى»، وأيا كان الأمر فمن كان هذا القاضى؟

هو عبد الرحمن بن عبد الله العمر ى، أحد أحفاد عمر بن الخطاب الذى ينسب إليه، فقيه مدنى ملكى ـ تلميذ مباشر لمالك (ت ١٧٩ هـ) ـ دخل مصر فى صفر ١٨٥هـ قاضيا عليها من قبل الخليفة هارون الرشيد. وكانت له وجهات نظر خاصة فى كثير من وسائل الفقه والقضاء سرعان ما راح يطبقها فى مصر ، فكان يميل مثلا إلى اتخاذ الشهود بمعنى أن يعين عددا من الأفراد تكون كل وظيفتهم هى أداء الشهادة على المتخاصمين . وقد ضرب رقما قياسيا فى عدد شهوده فاتخذ مائة شاهد وجعل عليهم رئيسا. ويلحظ أنه اختار هؤلاء الشهود من أهل المدينة بالحجاز ـ بلده ـ بالذات، من موالى قريش وغيرهم. على أن الجديد الذى لم يسبق إليه أنه دون أسماء هؤلاء الشهود فى سجل خاص وأسقط سائر الناس حتى تكفيهم عوائد هذه الوظيفة مشقة الكد والعمل ويركنوا إلى حياة الدعة والبطالة، فأصبح ذلك تقليدا متبعا منذ ذلك الحين. والعمرى هو أول من عمل تابوت القضاء فى بيت المال لتودع فيه أموال اليتامى ومال من لا وارث له، واتخذ لنفسه عددا من الكتاب كان زكريا بن يحيى من أبرزهم.

على أن ذلك ليس كل شئ بالنسبة الى القاضى العمرى الذى لعله كان مزدوج الشخصية فقد كان يتزين ويسرف فى التزين. أتاه أحدهم بعد قيامه من مجلس حكمه فإذا هو مضجع

وقد ترجل، وصفر يديه(من أثر الحنة) وكحل عينيه واتشح بأزار معصفر وأدهن بملاب على وزن سحاب وهو عطر من الزعفران، ولاشك فى أن هناك علاقة وثيقة بين التجمل وبين كلفه الشديد بفن الغناء. فقد كان يشدو بأطراف الغناء على مغانى أهل المدينة، ويبرز كثيرا فى مجالسه ولا يتحاشى أن يقول: هذا غنى به ابن سريج، وهذا غنى به الدلال، وهذا من جيد غناء الغريض. ولم يكن بمصر مسمعة إلا ركب إليها يسمع غناءها وربما قوم ما انكسر من غنائها ويرى ذلك من الدين. ويضيف الرواية الذى دخل عليه فوجده فى كامل زينته أنه كان وهو فى حالة تلك يضرب بأصابع يديه بعضها على بعض ويقول:

كأني من تذكر أم عمرو.. سرت بي قرقف صرف مدام

(القرقف/ الخمر القوية. المدام ـ بضم الميم: الخمر).

ونستطيع أن نزن هذه التصرفات إذا تصور ناها تصدر فى مجتمعنا المعاصر عن رجل يكاد منصبه يوازى منصب وزير العدل. ومهما بدا ذلك السلوك متنافيا مع ما يجب أن يأخذ القاضى نفسه به من الوقار والاتزان فمن الممكن اغتفاره على حال من و جهة النظر الفنية الجمالية. على أن الذى لاسبيل الى اغتفاره بحال هو تصر فاته المالية المتسمة بالتفريط الشديد وعدم مراعاة أى قانون مالي أو أدبي. فقد عهد الى مساعده الكبير يحيى بن عبد الله بن بكير بالإشراف على أموال الأيتام ـ أى دورا ـ ونخيلا، وراح يستغلها ويدفع الى الأيتام المستحقين من الأرباح ما ينفقونه ويخصم ما يصل اليهم من أصل أموالهم. فلما استهلكوا رؤوس أموالهم ادعى يحيى الأصول وقال: هى لى. فخوصم عند صديقه ورئيسه القاضى العمرى فقال: لا أراه ظلمكم بشئ هى أموالكم استهلكتموها.

شكل أهل الحرس لجنة منهم لمباشرة هذه القضية الهامة وبدأت اللجنة فجمعت من الحرسيين ستة آلاف دينار ـ وهو مبلغ يدل على ثراء الحرسيين ونجاحهم العلمى ـ ثم توجهت الى القاضى العمرى ـ الذى لاشك فى أن صديقه زكريا بن يحيى عميد أهل الحرس كان قد فاتحه فى الأمر ـ وعرضت عليه مطلبها مشفوعا بالمبلغ الكبير. وبالرغم من حب العمرى الشديد للمال واستخفافه فإنه لم يجسر على اتخاذ هذه الخطوة بصفة مباشرة. ولذلك نصح أعضاء اللجنة بأن يحصلوا أولا على أذن بذلك من الخليفة هارون نفسه.

ووافق أعضاء اللجنة، وقرروا السفر الى بغداد، ولكنهم فضلوا أن يتزودوا بسند قانونى يسهل مهمة اقناع الخليفة بإصدار أمره العالى الى قاضى مصر باتخاذ الإجراءات اللازمة لأثبات الجنسية العربية لأهل الحرس فماذا يفعلون؟ ذهب اثنان من أعضاء اللجنة ـ ولعلهما فعلا ذلك من قبل فى محاولة سابقة ـ الى ناسخ يدعى عبد الكريم القراطيسى «كان يضع الخطوط على نظيرها» أى يزورها، فدفعا له ألف دينار وما كان أكثر آلاف الدنانير معهم ـ فى مقابل أن يزور على لسان قاضى مصر الأسبق المفضل بن فضالة (ت ١٨٤هـ) حكما باثبات أنساب أهل الحرس الى حوتكة بن أسلم بن الحاف بن قضاعة. ثم توجها الى متولى ديوان المفضل حيث تحفظ الأحكام فدفعا اليه ألف دينار أخرى ليودع ذلك الحكم الديوان فلما تم لهما ذلك شدا الرحال الى بغداد. وسرعان ما عرفا طريقهما الى بلاط الخليفة هارون حيث أنفقا مالا عظيما للوصل الى الخليفة وعرض قضيتهم على مسامعه مؤكدين أن هناك قاضيا سابقا قد صدر حكما رسميا بعروبتهم ولم يكن المفضل هناك ليطعن بالتزوير، وعلى كل حال فإن هذه الورقة الى جانب الدنانير الذهبية، كان لها أثر فعال فى نجاح مساعى الرجلين وكتب الخليفة هارون الى قاضى مصر يأمره بالتسجيل لأهل الحرس. لم يعد أمام العمرى ما يخافه فشمر عن ساعده وشرع يتخذ الإجراءت الرسمية لمنح أهل الحرس الجنسية العربية. غير أن القاضى المدقق لم يشأ أن يكتفى بحكم زميله. بل أراد أن يقوم بواجب التأكد بنفسه من صحة الدعوى فدعا الحرسين إلى إقامة البينة عنده على أنسابهم ولم يكن شئ أسهل من ذلك على أهل الحرس فالدنانير الذهبية متوفرة، والشهود العرب الذين يحبون الدنانير أكثر توافرا وسرعان ما وجد أهل الحرس، الذين يعرفون دائما الطريق إلى ما يريدون ـ الشهود المناسبين فى أهل الحوف الشرقى وأهل الشرقية وجماعة من بادية الشام لم يجدوا جميعا مانعا من أن يحضروا إلى الفسطاط، ويمثلوا أمام القاضى الجليل ويقسموا، بالله العظيم أن أهل الحرس عرب خلص كاللبن الصريح. قد نستطيع تفسير إقدام هؤلاء الناس ـ وهم عرب ـ على تلك الشهادة الزور بأنهم بدأه جفاة لا يعينهم سوى الدنانير، وأيا كان الأمر فإن الشهود كانوا كافيين جدا لاقناع القاضى العمرى اقتناعا قانونيا بعروبة أهل الحرس وإمكان إصداره حكما بذلك، فأسجل لهم سجلا بتثبيت أنسابهم إلى قبيلة من قضاعة هى حوتكه.

لقد وقعت المعجزة، وتحقق المستحيل، وأصبح أهل الحرس عربا، ومن قضاعه. وأخيرا استطاع أهل الحرس أن يتخلصوا من ماضيهم الطبقي اللعين الذى ظل يطاردهم كالشبح. وآن لهم أن يتعربوا مع السادة العر ب على قمة الهرم، يتحدثون معهم فى مهام الأمور ويتبادلون معهم العلاقات المختلفة، ويلقون فى خلال ذلك بنظرات التعالى والزهور على زملائهم السابقين الذين مازالوال يرزحون عند القاعدة، ولن يستطيع هاشم بن حديج، ولا أبو رحب الخولانى ولا أبو الدهمج بعد اليوم أن يتحرشوا بهم أو يؤذوهم أو يعيروهم بأصلهم القبطى الذى أفلحوا فى أن يبتروه كما يبتر الذنب. لقد تساوت الرءوس، صحيح أن الناس ـ بعض الناس ـ سيظلون يذكرون الماضى زمنا، ولكنهم لن يلبثوا حتى يزولوا ولا يعود أحد يعرف سوى أن أهل الحرس عرب أقحاح من قضاعه، والفضل لصديقهم العزيز القاضى العمرى ـ بعد الدنانير طبعا ـ فلازموه وأحاطوا به يتقدمهم عميدهم زكريا بن يحيى يغدون عليه إذ غدا ويروحون إذ راح، وهم يرفلون فى نسبهم العربى الجديد، ويزهون بجنسيتهم الجديدة التى تتلألأ على هاماتهم كالتيجان.

لم يكن اعتناق أهل الحرس الإسلام ونجاحهم فى ظل النظام الجديد كافيا لحل التناقض بينهم وبين العرب بل على العكس أدى إلى قيام تناقض جديد أشد حدة، فقد اضطروا إلى ذلك الحل الشاذ لعلهم يتخلصون من هذا التناقض ويحصلون على الاستقرار الاجتماعى والطمأنينة النفسية. غير أن هذا الحل الجديد قد أدى بدوره إلى تناقض جديد فقد كان يشكل سابقة شديدة الخطورة على الطبقة العربية يؤدى السكوت عليها إلى فتح الباب أمام تكرارها إلى ما لانهاية مما يؤدى بالضرورة إلى اختفاء العرب كطبقة. ولذلك هبت الطبقة العربية. وقد أصابها الذعر، تهاجم القاضى العمرى وأهل الحرس وزعيمهم زكريا بن يحيى، وتعارض الحكم الصادر وتعمل كل ما تستطيع لوقف تنفيذه، ولعب الأدب دورا بارزا فى المعركة، فلمع ثلاثة من الشعراء من ذوى الأصل العربى هم: يحيى الخولانى، معلى الطائى، طاهر القيسى، ونستطيع أن نحس الذعر الذى أصاب العر ب فى صيحة يحيى الخولانى:

ألا قم فاندب العربا ... وابك الدين والحسبا

ولا تنفك تنعى العدل ... لما بان فاغتربا

كما نستطيع أن نستشعر دهشة العرب إزاء هذا التصرف الجرئ فى قول يحيى أيضا:

ومن أعجب الأشياء أن عصابة ... من القبط فينا أصحبوا قد تعربوا
وقالوا: أبونا حوتك، وأبوهم ... من القبط علج حبله متذبذب
وجاءوا باجلاف من الحوف فأدعوا ... بأنهم منهم سفاها وأجلبوا
ألا لعن الرحمن من كان راضيا ... بهم رغما مادامت الشمس تغرب

وكان طبيعيا أن يركز الشعراء هجومهم على القاضى العمرى سبب البلية كلها فانطلقوا يهجونه ويعددون عيوبه، فقال يحيى الخولانى يصف ركوبه لسماع الغناء الذى كان يصاحبه موكب من أهل الحرس:

مر بنا راكب على فرس ... يامن رأى هريدا على فرس
قد كشف الخف من ضلالته ... فى عصبة من مسالم الحرس
يقدمه خالد ويتبعه ... لوط قران الكلبين فى مرس
فقلت: من ذا اللعين؟ قيل ... أبو الندى غدا مسرعا إلى عرس
كيما يرى قينة ذكرت ... تشدو بصوت يخال كالجرس
أصبح فى المخزيات منغمسا ... وليس فى غيرها بمنغمس

وقال معلى الطائى يسخر من تظاهره بالتقوى، ويصفه بالظلم واللصوصية ويذكر شغفه بالغناء ويسخر منه ويحض على اغتياله:

كم تطول فى قراءتك ... والجور يضحك من صلاتك
تقضى نهارك بالهوى ... وتبيت بين مغنياتك
ليت الثلاثين التى تجزى ... تقوم بمسمعاتك
فاشرب على صرف الزمان ... بما ارتشيت من الحواتك
إن كنت قد ألحقتهم عرب ... فزوجهم بناتك
ولتكشفن بما أتيت ... صدور قوم من مماتك
وكأننى بمنية تسعى ... إليك بكف فاتك
أفقرته من ماله ... بقضية، أو لم يؤاتك

لا تعجلن أبا الندى حتى تصير إلى وفاتك
أن المقامع تطلقن من الجحيم إلى مماتك
بل لو ملكت لسان أكثم ما وصلت إلى صفاتك

ولم يكن بد من أن يمد الشعراء هجومهم على القاضى العمرى حتى يتناول أهل الحرس ومعاونيه فى القضاء.

قال يحيى الخولاني:

كم فقير كان قد مسوله بالموراريث التى كان منح
زكريا وكبيش منهم والمدينيون أصحاب البلح
فأفادوا الدور فضلا بعدما كلب الفقر عليهم والح

وقال يحيى أيضا يسب زكريا بن يحيى:

وفى زكريا أية فأعجبوا لها فقد صار بعد الذل للوجود يرهب
وبعد قران العمر أصبح فاكتسى وبعد الحفا والمشى قد صار يركب

ثم أننا نتساءل: هل لزم أهل الحرس الصمت المطلق فى هذا الجانب القولى من المعركة؟ أو لم يكن لهم شعراء يتبنون قضيتهم ويدافعون عن موقفهم؟ أو لم يستطيعوا حتى أن لم يقل فى هذه المعركة دفاعا عن أهل الحرس، ذلك بأن الشعر كان ينتمى طبقيا إلى العرب بما هم أصحاب الطبقة الحاكمة السائدة التى تستطيع أن تعطى وتمنع والتى تصطنع التقاليد السلوكية التى كان الشعر كفن يتغنى بها على أنها مثل عليا، هذا إلى أن الشعر يستطيع فى تلك المرحلة التاريخية أن يتصور أن يتخذ موقف الدفاع أو حتى العطف على الطبقة الشعبية التى كان أفرادها يوصفون بأنهم «لا ناس» فى حين أن الموالى «أشباه الناس» أما العرب فهم «الناس». ولعل ما كتب من شعر فى هذه الفترة دفاعا عن أهل الحرس لم يجد طريقة إلى التسجيل الرسمى المضاد للشعب المصرى.

على أن الخليفة هارون لم يلبث حتى مات فى جمادى الأول ١٩٣هـ ليخلفه ابنه محمد

الأمين، ولما كان الأمين يفضل إنفاق وقته فى المتع على أنفاقه فى معالجة شئون الحكم فقد فوض أموره إلى الفضل بن الربيع (ت ٢٠٨هـ) حاجب والده الرشيد ووزيره. وترامت سيرة القاضى العمرى إلى الوزير، ولعل العرب واصلوا السعى لدية فلم يتردد فى استصدار مرسوم بعزله. وصدر المرسوم بعد سنه كاملة من موت الرشيد (جمادى الأول ١٩٤هـ). وحمله من بغداد إلى مصر موظف خاص. ولم يكد ذلك الرسول يعلن النبأ فى مسجد مصر الجامع حتى عمت موجه هائلة من الفرح عند العرب، وتكاثفوا حوله يدعون ويثنون، ويهللون ويكبرون، فقد تخلصوا أخيرا بعد تسع سنوات كاملة وشهرين اثنين من القاضى الذى عبث بهم ولم يتمالك أحدهم نفسه فقال ـ ربما من أبيات أكثر:

بنعـــمـــه الله ورأى الفـــضل

نحى عن الحكم عـــدوالعــــدل

هذا ســــوار لرســـول العــــزل

وأيا كان الأمر فبهذا يبدأ الفصل الأخير من المهزلة التى لعب بطولتها القاضى العمرى.

من المفارقات أن قاضى مصر الجديدة، هاشم بن أبى بكر البكرى (ت ١٩٦هـ)، كان من ذرية أبى بكر الصديق كذلك، ولا شك فى أنه كان يعرف كل شئ، بل لعله كان مزودا بتعليمات معينة. وقد بادر العرب إلى الالتفاف به، واطلاعه على كل ما فعل القاضى العمرى وأعوانه، وتزعم هذه الحركة الانتقامية أبو رجب العلاء بن عاصم الذى أشار على القاضى الجديد بالقبض على سلفه وأعوانه وحبسهم والتحقيق معهم. ولم يتردد القاضى البكرى لحظه، فقبض على القاضى العمرى، وسجنه وقيده وطالبه بما صار إليه من الأموال والأقوات وأخذ البكرى بما زعمه العر ب من أن جملة ما اكتسبه العمرى فى فترة ولايته القضاء عليهم مائة ألف (دينار طبعا)، فطالبه بها. كما تتبع البكرى أصحاب العمرى كلهم وسجنهم وأسقط كل من شهد لأهل الحرس فلم يرجع أحد منهم عند أحد من القضاء، وكان نصيب يحيى بن عبدالله بكير من هذه الإجراءت التطهيرية كبيرا، فقد بادر أولاد العرب والعاطلين بالوراثة إلى القاضى الجديد يشكون إليه احتياله على أموالهم واستهلاكه إياها فأخذه بالحساب، فأنكر، فأمر به فربط على عمود فى المسجد الجامع مقابل لباب إسرائيل، ومناد ينادى: « هذا جزاء

كل خائن». وظل على ذلك أياما لا يحل رباطه إلا وقت كل صلاة. ولابد أن بكيرا كان يتمتع بقدرة كبيرة على الاحتمال، ولم يستطع البكرى أن يصل منه إلى درهم واحد، فلما يئس منه خلى عنه.

استطاع القاضى العمرى أن يجد شخصا واحدا على الأقل يقف إلى جانبه منذ أن بدأت أيامه السيئة، ذلك هو عبد العزيز بن مطرف المطر وهو الذى كان يرأس فرقة الشهود التى كونها من المدينين وغيرهم، والذى تناوله يحيى الخولانى بالهجاء فيمن هجا من أصحاب العمرى. وقف المطر فى إلى جانب صديقه فى محنته فقام بأمره وضمن عنه مالا عظيما للبكرى. على أن البكرى لم يستطع أن ينال شيئا من المبالغ الطائلة التى أدين بها العمرى لا لأنه كان مصرا على عدم الدفع فحسب، ولكن كذلك لأنه لم يكن له مال بمصر، فقد كان رجلا بعيد النظر يحسب حساب ذلك اليوم ويعلم أنه سيجئ حتما، ولذلك سبق إلى تهريب كل أمواله إلى مدين، إحدى مدن الحجاز على ساحل البحر الأحمر. فلما وقعت الواقعة شرع فى تنفيذ الخطة المرسومة، فعمل على الهرب من السجن ومن مصر كلها إلى حيث أمواله. وقد افلح فى أن يفلت من السجن ويهرب. وان لم يكن قد تيسر بفضل أصدقاء له لم يتخلوا عنه، فلا بد أنه بفضل أو فى الأصدقاء: الدنانير وغاظ هربه خصومه الذين كانوا يمنون أنفسهم بالتشفى منه غيظا.

وصل العمرى إلى مدين حيث احتمل أمواله، واتفق مع مجموعة من رجال البادية على أن يخفروه فى رحلته، ثم سار يقطع شبه الجزيرة من شمالها متجها نحو الشرق - وربما إلى العراق - يتبعه هؤلاء الرجال. فلما وصل إلى فيد، شمالى شرق شبه الجزيرة، خرج عليه جماعة من قبيلتى أسد وطى فأوقعوا به وأخذوا جميع ما حواه. ولم يغن عنه حراسه المأجورون شيئا، كما لم يستطيع هو أن يفعل أكثر من أن يشترى جلده بكل ما معه من هؤلاء البدو قطاع الطريق « فما تخلص منهم إلا بحشاشة نفسه».

وغسل العرب أيديهم من القاضى العجيب، والتفتوا ليزيلوا أهم أثر تركه بينهم وهو قضية أهل الحرس.

بما أن المرسوم لا يلغيه إلا مرسوم مثله فقد كان لابد من استصدار مرسوم جديد يلغى المرسوم السابق الذى منح أهل الحرس حق التمتع بالجنسية العربية. وأخذ الزعيمان العربيان أبو رحب العلاء بن عاصم وهاشم بن عبد الله التجيبى هذه المهمة على عاتقها. وكانت الظروف مواتية تماما، فالخليفة الرشيد صاحب المرسوم الأول قد مات، والخليفة الجديد لا يعنيه التفكير فى مثل هذه الأمور، ووزيره الفضل بن الربيع عربى قح والقاضى العمرى قد ذهب إلى غير رجعة.

قام أبو رحب وهاشم بن عبد الله بتشكيل وفد يسافر إلى بغداد ويحصل على المرسوم المطلوب. ووصل الوفد إلى بلاط الخليفة، وذكروا ما فعل العمرى فى أهل الحرس، وأنه الحقهم بالعرب، ونسبهم إلى حوتكه بن أسلم بن الحاف بن قضاعة، واقتنع المسئولون بفساد هذا الحكم وعدالة مطلب الوفد فكتب الخليفة إلى قاضى مصر بكتاب يقرر فيه مبدأ عاما هو «أنه لا يمنح أحدا من غير العرب اللحاق بالعرب» ويأمره فيما يتعلق بأهل الحرس « أن يردهم إلى ما كانوا من أنسابهم»، فرجع الوفد بذلك.

لم يكن كتاب الخليفة إلى القاضى البكرى سوى وثيقة النصر للطبقة العربية فى المعركة. وكان على القاضى أن يعلن المتخاصمين ويجلس للنظر فى القضية. ولكن إذا كان القاضى العمرى لم يصدر حكمه بإثبات الجنسية العربية لأهل الحرس إلا بعد ان شهد بذلك لديه شهود، فقد كان على القاضى البكرى كذلك ألا يصدر الحكم بأن أهل الحرس ليسوا عربا بل قبط أى مصريون إلا بعد أن يشهد بذلك شهود كان من بينهم إلى جانب عبد الله بن وهب، وسعيد بن عفير اللذين مر ذكرهما ـ النسابة، الاخبارى، المؤرخ المحدث الذى روى عنه البخارى: سعيد بن مريم(ت ٢٢٤هـ).

نستطيع أن نتصور مسجد مصر الجامع (جامع عمرو) وقد غص بالجماهير المتطلعة من سكان الفسطاط والقاضى البكرى فى مجلسه يحيط به كتابه، وبين يديه قد مثل الزعماء من العرب ومن أهل الحرس. وفتح القاضى الجلسة، وعرض القضية وطالب كلا من الطرفين بالدليل على دعواه. أما أهل الحرس فقد قدموا إليه الحكم الذى أصدره سلفه العمرى بعروبتهم، وأما العرب فقد تركوا الأمر للشهود الذين أجمعوا على أن أهل الحرس من القبط،

والعمرى قضى فيهم بجور» فنقض البكرى قضية العمرى فيهم، وأشهد على قضائه بردهم إلى أصلهم من القبط، وأخرج من تحت مصلاه مقراضا كان يخفيه لهذا الغرض فقطع حكم القاضي وهو يقول لأهل الحرس الذين يشهدون انهيار كفاحهم ويتجرعون كأس الهزيمة المرة:«العرب لا يحتاجون إلى كتاب من قاض، إن كنتم عربا فليس ينازعكم أحد»، ولسنا نستبعد أن الشاعر معلى الطائى قد انفجر فى نفس هذه اللحظة يصرخ بأعلى صوته بتلك الأبيات القاسية:

يابنى البظراء موتو كمدا	واسخنوا عينا بتخريق السجل
لو أراد الله أن يجعلكم	من بنى العباس طرا لفعل
لكن الرحمن قد صيركم	قبط مصر، ومن القبط سفل
كيف ياقبط تكونوا عربا	ومريس أصلكم شر الجيل؟

أما زميله يحيى الخولانى فقد وجد من السعادة ما أوحى إليه قصيدة راقصة، قال:

اشكروا الله على إحسانه	فله الحمد كثيرا والرغب
رجع القبط إلى أصلهم	بعد خزى طوقوه وتعب
ودنانير رشوها قاضيا	جائرا قد كان فينا يغتصب
ما كفته رشوة ظاهرة	وقضايا جوركم فيها عجب
أن أتى أعظم ما يأتى به	أحد أن صير القبط عرب

ولم ينس طاهر القيسى أن يشيد بالدور الهام الذى لعبه أبو رحب العلاء بن عاصم فى الوصول إلى هذه النتيجة العظيمة فقال:

ولقد قمعت بنى الخبائث عندما	رامـوا العلا وتحوتكوا وتعربوا
فرددتهم قبطا إلى آبائهم	ونسيب أصلهم الذى قد غيبوا

أما بعد ـ فهكذا انتهت معركة من معارك الصراع الطبقى فى مصر فى القرن الثانى للهجرة، هذا الصراع الذى كان نتيجة حتمية للتناقض الطبقى الحاد فى المجتمع المصرى حينذاك.

لم تكن قضية أهل الحرس(١٨٥ـ ١٩٤هـ) الحالة الوحيدة ولا الأولى ولا الأخيرة من حالات الصراع الطبقي في المجتمع المصرى الإسلامى المبكر، فهى فى الحق ليست سوى حلقة من سلسلة طويلة متكاملة تكون في مجموعها حركة تاريخية كانت تحدث كنتيجة حتمية للتناقض بين العرب والمصريين تذكر منها على الاخص ثورات البشمور التى امتدت من الخلافة الأموية حتى الخلافة العباسية.

* (أنظر كتاب الهلال ٤١٦/ أوراق مصرية. د. عبد الله خورشيد ، القاهرة/ ١٩٨٥).

عبودية القبط للعرب

وفي الصعيد حيث هيمنت القبائل العربية كان التناقض يتحول إلى تناقض عنصرى من نمط خاص. حيث نجد العلاقات بين الأسر القبطية ومشايخ القبائل أشبه بعلاقة السيد بالعبد. ولقد ترك بوركهارت وصفا معاصرا ذكر فيه ان الاسر القبطية كانت اشبه بالـ Hareedirary SLaves† الذين يمتلكهم مشايخ القبائل العربية. وأضاف ان كل اسرة قبطية كانت تحت سلطه وحماية أحد المشايخ وتعتبر من املاكه مقابل ان تقوم بالعمل فى أرض مفردة له. وكان لهؤلاء المشايخ حق توارث الأسر القبطية وحق بيعها فيما بينهم . والواقع أن وصف بوركهارت ليس فيه اى مبالغة حيث يذكر على باشا مبارك فى خططه (جـ ١٧ص ٢٥الاميريه) « ثم ان نصارى بلاد الهلة قليلون وكانوا مستعبدين لهم قبل حكم العزيز محمد على ويقتسمونهم ويتوارثونهم كالمماليك ويحكمون فيهم ويحامون عنهم، كما كان فى كثير من البلاد إلا أن أهل الهلة أشد فى ذلك.

علم الأنساب العربية

« كان نظام تعدد الأزواج والطوطمية سائدا عند عرب الجاهلية بجانب نظام الزواج الخارجي، وبذلك لم تكن نسبة الأبناء للآباء أنما كانت للقبيلة في الغالب وأحيانا للأم. أما سلاسل الأنساب التي تنسب للجاهليين فلم يكن عرب الجاهلية يعرفونها وهي من صنعة الرواة والنسابين في القرن الثاني للهجرة.

وفكرة الأنساب بدأت وجودها لما أسس عمر خليفة المسلمين ديوان الخراج وراعى في تقييد الأسماء وتدوينها اعتبارين الديني والقبلي، وكان هذا مقدمة بعد قرن من زمان لوضع شجرات الأنساب» .«سبرنجر»

إن دراسة ظاهرة الأنساب عند العرب القدماء كمظهر للصلات العائلية بين أفراد سلالة بعينها، أو بمعنى أشمل كمظهر لصلات القرابة بين القبائل العربية من وجهة عامة وبين البطون والأفخاذ من وجهة خاصة، مع صرف جانب كبير من التدقيق لسلاسل الآباء والأجداد ونسبة الأبناء لهم، لا يمكن أن يخلص بها الباحث مجردة عن دراسة العوامل والمؤثرات التي كونت طبيعة العنصر العربي. ذلك لأن ظاهرة الأنساب من حيث هي مظهر لصلات اجتماعية إنما تتأثر وتتهذب بما في المحيط الذي يكنفها من فواعل اجتماعية وطبيعية، فتتباين مظاهرها بتباين الظروف التي تترك أثرها الثابت في البيئة. البداوة أساس ثقافة العرب التقليدية، والبداوة شيء يتصل بكل القبائل التي تعيش متبدية، وجميع ما يتصل بالبداوة أس من الأسس التي تقوم عليها نواحي الحياة عند البداو، إذ البداوة لأهل البادية بداية الحياة، لأن فيها تتجلى روح القبيلة بها تحتفظ الجماعة ببقائها وتصون كيانها، ومن مجموع التصورات والادراكات التي تتمثل لأهل البادية تنشأ الفكر الدينية ثم اللغة ثم ينشأ الفن، ومن بعد ذلك تتحور الأخلاق فتأخذ طابعا خاصا، ومن ثم يتكون قانون العرف البدائي. ومن غير المستطاع أن تنفك جمعية إنسانية طبيعتها البداوة عن كل ما توارثته فتنسلخ عن كل ما انتقل اليها عن اسلافها الأقدمين، ثم تستطيع بعد ذلك أن تحتفظ بكيانها الأصيل من غير أن يهتز لذلك التغيير الطارئ أعماق وجودها هزا عنيفا، ذلك لأن طبيعة العرب المطبوعة على البداوة وما يتبعها من مظاهر لا

يمكن تغييرها إلا بتقطيع أسباب البداوة فى نفوس الأعراب بأنزلاقهم لحياة حضرية تتقطع معها أسباب البداوة فيهم، ولهذا ظل العرب بعيدين عن الأشتراك فى الحركة الثقافية التى قامت فى كيان المدنية الإسلامية ولم يقوموا إلا بدور ثانوى فى بناء الحضارة الإسلامية.

فإذا لاحظنا أن البداوة نظام تقوم فيه توزيع الثروة على اساس مستمد من الأسلوب والمغانم من جهة، وعلى الرعى والصيد وبعض الزرع من جهة أخرى، لهذا كانت الحياة الاقتصادية غير مستقرة لأنها تستند على الغزو ومهاجمة القوافل والإغارة على القبائل الأخرى والأقاليم والدساكر المتحضرة التى تقوم بجانب منازل البدو، ومن التنقل بين المراعى وبعض الزرع بجانب العيون والآبار ومسالك السيول فى الوديان. وهذا يعرض البدو كثيرا لأخطار القحط والمجاعات، كما يجعل وسائل عيشهم ضيقة السبل، وهذا يضطر القبائل للتنقل دائما فى طلب ارتياد المراعى وانتجاع المياه، وتأخذ فى التخلص من أسباب الزيادة فى الاستهلاك خصوصا إذا ما قام دون ارتحالها موانع طبيعية، والى وسائل التخلص من أسباب زيادة الاستهلاك «وأد البنات».

ونحن نعرف من التاريخ أن العرب كانوا على عادة وأد البنات فى الجاهلية حتى أن القرآن حرم عليهم ذلك، وكان نتيجة ذلك أن كان يأتى وقت على القبيلة لا يجد ر جالها لأنفسهم نساء بنسبة عددهم فيضطر كل جماعة من الرجال الى المشاركة فى إمراة واحدة. وهذا النظام من الزواج يعر ف بنظام تعدد الأزواج وهو شائع بين القبائل البدوية فى العالم ومازال البعض من هذه القبائل فى بعض أطراف العالم دارجاً عليها. وفى مثل هذا النظام يتعذر أن يعرف الأب على وجه التحقيق، فإذا ولدت المرأة فإن المولود ينسب الى أمه أو قبيلته.

ويتفق علماء الاجتماع على أن هذا النظام كان سائدا عند الجاهلية. ويذكر«استرابون» الجغرافى الرومانى المشهور عن العرب أنهم كانوا على هذا النظام دارجين، وأن ذكور أسرة بعينها يتزوجون بإمرأة واحدة، ومن الملاحظات التى يبديها «استرابون» يرى الباحثون فى علم الاجتماع أن نظام تعدد الأزواج كان سائدا فى بلاد العرب وأن النسبة لم تكن الأباء، وأن الجاهليين كانوا دارجين على نظام الأمومة، والنسبة عندهم للأم أو القبيلة.

كان الزواج عند العرب القدماء على عدة ضروب، وابسط هذه الضروب، الزواج المشترك،

وهو أن يشترك الذكور في الزواج بالإناث، وهذا الضرب كان شائعا في عصور التاريخ الأولى وهو مجرد عن القيود، وتطور عنه مع الزمن زواج المساكنة وهو أن يساكن الرجل المرأة مدة حملها، وتمخض عن هذا الضرب زواج المتعة. وقد ظل الضرب الأخير معروفا عند العرب حتى القرن الرابع عشر للميلاد حتى أن قبيلة «زبيد» النازلة على الشاطئ الآسيوى من البحر الأحمر كانت تجرى على ضرب من الزواج المؤقت الاختيارى حيث يساكن الرجل المرأة باختياره مدة حملها وكان ذلك على عهد «ابن بطوطة» الرحالة المغربى الشهير.

ولو نظرنا للنصوص الأثرية لوجدنا ما يثبت درج العرب القدماء على هذا النظام، إذ النصوص الأثرية تثبت أن النسبة كانت للأم. فهذا نص أثرى من القرن الأول لميلاد عثر عليه في مداين صالح ـ الحجر ـ مكتوب بالخط النبطى جاء فيه:

«هذا القبر الذى بنته كمكم بنت وائلة بنت حرم وكليبة ابنتها لأنفسهن وذريتهن».

هذا الى ان هناك تمثال للزباء عليه نقش بالخط التدمرى نسبتها فيه لأمها كما أن أبنائها وهب اللات وخيراز وتيم اللاه من زوجها أذينه كانوا ينتسبون اليها وحدها دون إبيهم، مما يثبت ان المجتمع التدمرى كان دراجا على نظام الأمومة.

ـ٣ـ

لنا أن نخلص مما سبق بأن العرب كانت فى الجاهلية دراجة على نظام الأمومة إلا الذين أخذوا بأسباب التحضر بحكم الاتصال بمراكز الحضارة فى العالم القديم وخاصة فى اليمن.

وإذا لاحظنا أن حقوق المرأة فى اليمن كانت متساوية لحقوق الرجل لها نفس حظ الذكر تتعاطى أعماله وتقوم بوظيفة الكهانة. كان لنا أن نجد فى هذا بداية انتظام الحياة الزوجية على أساس متحول من نظام الأمومة. غير أن هذا الانتظام لم يكن على اساس تعدد الزوجات، لأن العرف لم يكن يسمع للرجل بتزوج غير زوجته، وكل ما كان يسمع به أن المرأة إذا لم تلد لزوجها قدمت له جارية لتلد له، وكان ذلك بداءة ذى بدء من حق المرأة غير أنه مع الزمن صار حقا للرجل وصار مقدمة لنظام تعدد الزوجات.

أما فى الشمال فقد كان هنالك مجتمعان: حضرى وبدوى، أما الحضرى فقد كان يدرج

على نظام مزيج من تعدد الأزواج والزوجات ولهذا كان لأنسابهم على وجه عام اتصال، أما البدو فقد كانوا على نظام تعدد الأزواج دراجين. وهذا يفسر لنا ورود آثار منقطعة الأنساب، النسبة فيها للأم بجانب آثار متصلة واضحة النسبة للأب.

أما عرب الحجاز ونجد فقد كانوا بدوا حتى زمن قصي الذى جمع شمل قبيلة قريش وأسكنها مكة وما حولها، وكان سببا لأن يأخذ القريشيون بأسباب الحياة المتحضرة لوقوعهم على طرق التجارة من الجنوب إلى الشمال، ومع الزمن أخذوا يشتغلون بالتجارة فتحضروا وانتظمت حياتهم على أساس حوالى القرن الرابع للميلاد، والى ذلك التاريخ كان عرب الحجاز ونجد دارجين على نظام الأمومة، فما انتظمت حياتهم على أساس فى القرن الرابع للميلاد حتى أخذ نظام الأمومة فى ا لضعف والتلاشى وانتهت الحياة الزوجية عندهم إلى نظام تعدد الزوجات فى القرن السادس للميلاد وأتى الإسلام فتقبلها وجعلها متكافئة مع مبادئه

ومن المهم لنا فى هذا أن نتتبع نظام الطوطمية الذى كان عليه العرب والذى كان يرد لثلاثة أسس أولية:

١ـ اتفاق القبيلة على كائن أعلى عادة يكون نباتا أوحيوان وأحيانا جمادا، تعتقد أنه الجد الأعلى لها وأنها من صلبة منحدرة.

٢ـ الانتساب إليه والتسمى باسمه.

٣ـ تقديسه، وكان يشترك فى هذا التقديس كل أفراد القبيلة، أما إذا كان الطوطم خاصا بالشق Sex فإن الذكور أو الإناث فقط من القبيلة هى التى تقدس الطوطم.

فإذا تتبعنا العرب على عهدهم الجاهلى لنتثبت من قيام هذه الشرائط الأولية بينهم، سنجد أن العرب وإن لم تتفق يوما فى اعتقاد فى نبات أو حيوان على أنها منحدرة من صلبه إلا أنه من الشائع التلقيب بصيغة الجمع فى قولهم أنمار وكلاب وأراقم وضباب وهذا يجعل أبناء قبيلة النمر أنمار وقبيلة الكلب كلابا... ومن هنا لنا نستخلص وجود فكرة مهمة عن رواة العرب فى العصر الاسلامى عن انتساب قبائلهم فى الجاهلية لأجداد من الحيوانات أعنى الطواطم.

ذلك أن التسمى بأسماء حيوانية ونباتية شائعة عند العرب القدماء ويمكننا أن نعد من بين أسماء القبائل والبطون والأفخاذ أكثر من خمسمائة اسم من ذلك: بنو أسد بدن وبنو بكر وبنو بهثة وبنو ثعلب وبنو ثور وبنو جعدة وبنو جعل وبنو حداء وبنو حمامة وبنو حنش وبنو دؤبل نعامة وبنو نمر ضب وبنو ضبيعة وبنو عضل وبنو عنز وبنو غراب وبنو فهد وقريش وبنو كلب وبنو نعامة وبنو نمر وبنو وبر وبنو هوزن وبنو يربوع، غير أن لهذا التسمى صلة مقطوعة فى الرويات العربية فى نسبة أبناءالقبيلة للحيوان التى تحمل اسمها، غير أنه من المهم أن نلاحظ أن الرويات العربية وقد تأخر العهد بتدوينها الى أواخر القرن الثانى للهجرة، ومضت فى أذهان الرواة نيفا وأربع قرون من الزمان، فقد تأثرت بأوضاع المجتمع وتطورت تبعا له. وهذه حقيقة أولية معروفة فى سير التراث الشعبىLagends فى الزمان وتطوره. فإذا رجعنا الى الآثار وحدها وجدنا ما يسند القول بأن العرب القدماء كانت تنتسب لآباء من الحيوانات أو النبات.

-٤-

ثم هناك عبادة العرب وتقديسها للطواطم وهذا شئ لا يتطرق اليه الريب، فنحن نعرف أن العرب كانت تنصب أوثانها وتنحت أصنامها على أشكال من الحيوانات وكان تقديسها كثيرا ما ينصرف لصور من الحيوان والنبات وأحيانا لصور من الجماد، وهذا تقديس الحجر الأسود فى الجاهلية واحترامه فى الإسلام ليس إلا بقية من بقايا الطوطمية.

كذلك من بقايا الطوطمية عند العرب اجتماع القبيلة الواحدة للثار باسمها لأحد أفرادها، ذلك نظرا لأن هذا الاجتماع مظهر من مطالبة القبيلة بحق الطوطم الذى هو الجد الأعلى، واذا لوحظ بجانب ذلك أن آخر حدود العرب الاجتماعى هو الحى، حيث لم تكن للأعراب نظام الأسرة، جاز لنا أن نحكم من مجموع هذه القرائن بالاضافة الى ما سبق بمقدار تحكم نظام الطوطمية عند العرب القدماء. ولما كان من شرائط الطوطمية الزواج الخارجى Exogamy وكان سبب قيام نظام الزواج الخارجى عند العرب اثنين: الأول منها نظام الطوطمية نفسه، فإن صلة القرابة بين الآخذين بهذا النظام لا تعود للدم إنما للأنتساب لطوتم واحد، فيحرم صلة الزواج بين أفراد الطوطم الواحد، ويكون الزواج خارجيا، بمعنى أن إناث القبيلة يتزوجون برجال من غير قبيلتهن ورجالها يتزوجون بإناث من غير قبيلتهم. وهذا يؤدى

الى الزواج الخارجExogamy. إما السبب الثانى فيرجع لاختلال التوازن بين عدد الذكور والإناث فى القبيلة بأن تكون الكثرة العددية فى جانب الذكور لتفشى عادة وأد البنات فيها فينظر الذكور للزواج من الخارج أو اكتفاء عدة من الرجال بإمراة واحدة، والأول يسوق لنظام الزواج الخارجى والثانى لنظام الأمومة، حيث تكون الأم هى مدار العائلة، وفى مثل هذه الحالات تنقطع صلة الأنساب الدموية. لأن النسبة من جهة للطوتم، ومن جهة أخرى معرفة الأب مجهولة.

ولنا أن نخلص من هذا كله الى أن العرب القدماء لم يكونوا يعرفون من فكرة الأنساب ذلك الاتصال الذى نعرفه اليوم نحن عنها، لأن كل ما كانت تعيه خواطرهم ذكريات مبهمة عن جد تنتسب القبيلة اليه. وهذا الجد عادة يكون آخذا صورة حيوان أو نبات أو جماد تعتقد القبيلة بأنها منحدرة منه.

إذا صح كل هذا، وهذا ما لا نرتاب فيه، فتكون النتيجة أن فكرة النسب والأنساب التى تسند للعرب القدماء لا تستند على أساس طبيعى معقول من حقائق الجماعات العربية كما نخلص بها من التحقيق العلمى.

ونحن لو رجعنا الى الوراء الى العهد الذى نشأت فيه القبائل وتكونت فيه البطون والأفخاذ فإننا سنجد فى التكاثر العددى السبب الأول، مثال ذلك أن عرب الوسط، وهم ينزلون تهامة والحجاز ، نجد أنهم ينقسمون الى فرعين كبيرين «معد»و«عك» والفرع الأخير نزل نواحى زبيد جنوبى تهامة وقد ذكرها اليونان فى كتبهم تحت اسم Acchaitai وتفرع مع الزمن عنهم القبائل والبطون والأفخاد. أما«معد» فهو فرع انقسم الى قسمين «نزار» و«قنص» والأخير انقسم إلى خمسة بطون: قضاعة ومضر وربيعة وأياد وأنمار، وقد نزلت كلها فى تهامة والحجاز ونجد، فكانت مساكن قضاعة حوالى جدة على البحر الأحمر فما دونها شرقا إلى منتهى ذات عرق (الحد الفاصل بين نجد وتهامة) والى حيز الحرم من السهل والجبل، وقبائل مضر أقامت فى حيز الحرم إلى السروات وما دونها من الغور وما والاها من البلاد، أما ربيعة فقد أقامت فى مهبط الجبل من غمر ذى كنده وبطن ذى عرق وما اتصل بها من بلاد نجد الى الغور من تهامة، وأقامت أياد وأنمار معا ما بين حد أرض مضر الى حد نجران وما الاها وصاقبها. وعندما ضاقت بهم الأرض «نزح بنو قضاعة ثم تهامة وكذا أياد،

التى أنزلت فى الجزيرة، وصار لقنص وغيره من أولاد معد أرض مكة وأوديتها، فلما تكاثروا مع الزمن جميعا ضاقت بهم الأرض فنزح بنو قضاعة ثم أغاز ثم تهامة وكذا أياد التى نزلت فى الجزيرة شمال العراق. ولم يبق من بنى معد فى تهامة إلا ربيعة ومضر فنزحت ربيعة ولم تزل مضر بعد خروج ربيعة مقيمة وحدها فى تهامة حتى كثر أفرادها وتكونت الأحياء المختلفة والبطون والأفخاذ فرحل منها من رحل والباقون تمخض الزمن عنهم بقبيلة قريش »(أبن خلدون).

على هذا الأساس الذى يرويه رواة العرب يتبين لنا أن نشأة القبائل ترجع لكثرة الأفراد فى قبيلة وتزايدها زيادة يضيق دونها الوسط فتضطر للارتحال تصريفا لكثرتها العديدة، وارتحال العدد الزائد يكون سببا فى نشأة قبائل وبطون جديدة. وكثيرا ما تنشأ هذه القبائل من اجتماع عدة بطون من قبائل مختلفة.

ولقد روت المراجع العربية أن قبائل تنوخ وغسان والعنق تكونت من شتيت البطون التى تناثرت فى الصحراء من بقايا القبائل العربية المهاجرة. إذا فيمكننا أن نقول أن الصلات بين القبائل البدوية لم تكن لترجع للانحدار من أصل واحد تتفرع عنه بالزيادة العديدة فقط كما يريد الرواة أن يحملونا على ذلك إنما كانت لأسباب عديدة منها هذا السبب، فإذا لاحظنا أن الصلات الدموية بين القبائل والبطون والأفخاذ لا تجرى على أساس ثابت يمكن الاعتماد عليه سقطت حجة النسابين فى فكرة الأنساب وشجرات أنساب القبائل.

-٥-

فإذا رجعنا من فكرة الأنساب العامة للقبائل وصلاتها وعلاقاتها من القرابة والدم الى فكرة النسب والأنساب بين عرب البادية، لم نجد دليلا يسند القول بأن الأعراب كانت لهم القدرة على معرفة سلسلة آبائهم وأجدادهم تصاعدا فى الماضى لبضعة بطون غير قول الرواة واجتماع النسابين، وهو لا يكفى وحده لقبول هذه الفكرة ما لم يقم معها الدليل عليها خصوصا ونحن نرى أن تكأة الصلات بين الأفراد لا تؤدى الى مثل هذه الفكرة نظر لدرج المجتمع العربى على نظامى الطوطمية والأمومة.

غير أن لنا دليلا من الحاضر نستمده لنقيس استناد عليه ذلك الماضى وهذا الدليل يقوم على أساس أولى فى أن البداوة ثقافة العرب التقليدية وأنها لم تتغاير فى الزمان الى صورة مغايرة من عهد الجاهلين الى اليوم بما يجعلنا نمتحن فكرة الرواة والنسابين فى أعراب البادية اليوم. وسنجد أن نتيجة هذا الامتحان مما يثبت كذب الرواة والنسابين، فإن جميع الرحلات التى قام بها الباحثون فى صحراء الجزيرة وبادية بلاد العرب اتفقت على أن العرب يجهلون فكرة الأنساب ولا يتذكرون شيئا عن آباء أجدادهم وذكرياتهم مبهمة عن أنسابهم وتجرى من حول جد كبير ينتسبون اليه، ووهذا يرجع من وجهة نظر خاصة إلى ثبات ظروف الحياة على وتيرة واحدة فى البادية.

إذا صح ما قدمناه ـ وهذا ما لانشك فيه ـ فى أن عرب الجاهلية كانوا يجهلون فكرة الأنساب، فليس لنا إلا أن نحكم بأن كل ما قرره الرواه عن الأنساب وما رووه من شجرات الأنساب عن الجاهلية منتحلة لا تمت للعصر الجاهلي بسبب، هذا الى أنه لا يمكننا أن نصدق أن ذاكرة العربى كانت خزانة تعي سلسلة نسبه أبا عن جد لأن ذلك رغم منافاته لمشاهداتنا عن أعراب اليوم وهم لم يتغيروا قليلا أو كثيرا عن أعراب الجاهلية، فإنه من الصعب نسبة مثل هذا الزعم لقوم أميين لأننا رغم وجود الوثائق وأخذنا بتسجيل الأسماء نعجز عن معرفة أباء أجدادنا فى كثير من الحالات.

إن مثل هذه الدعوى الخطيرة التى روج لها الرواة العرب والنسابون فى القرن الثانى للإسلام كانت السبب فى وهم الكثيرين أن العرب شعب له مقدرة فائقة فى معرفة أنسابه. ولست أدرى كيف يكون للعرب هذه المقدرة التى تنسب لهم، ثم لايتفق اثنان من نسابيهم على نسب واحد من أنسابهم؟

هذه دولة حمير ـ أضرب بها مثلا على سبيل التمثيل لا الحصر ـ فأقول أنك لا تجد الرواة العرب اتفاقا فى عدد ملوكها وأسماء هذه الملوك وتعاقبهم فى الملك. ونحن نعرف من الاستكشافات الأثرية الأخيرة حقائق عن دولة حمير تباين كل المباينة ما رواة العرب وما قاله نسابوهم عن ملوك حمير، مما يكشف أنها من صنع خيالهم الخصيب الذى حاك هذه التخيلات من حول بعض الحقائق التى مضت فى طى الزمن فشوهت مع الزمان.

وهذا نسب عدنان، لو القيت نظرة علية لوجدته مشحونا بأسماء لاهي الى العربية تمت بصلة ولا الى السريانية كما ظن ابن دريد، وهي تدل على كذب الرواة. ويكفينا أن نلاحظ مع» ليون كايتاني «هذه الحقيقة الملموسة في أن النسابين حاولوا أن ير جعوا بكل معاصرى الرسول المعروفين وعددهم يربو عن أربعة آلاف الى آدم أبى البشر فى سلسلة من الأنساب.

ـ٦ـ

لنا أن نبحث الآن في الكيفية التي استندت عليها شجرات الأنساب، وسنجد أن ديوان الخراج الذى وضع قواعده عمر بن الخطاب كان الأساس لاستحداث فكرة النسب ووضع شجرات الأنساب فيما بعد. بيان ذلك أن عمر بن الخطاب أسس الديوان شاملا لأسماء المسلمين المهاجرين والأنصار ومن تابعهم ومقدار اعطياتهم تبعا للنسب النبوى والسبق فى الإسلام، وكان لكل مسلم راتب يتناوله هو ورواتب لعائلته وأولاده، ويجب أن نلاحظ أن ديوان الخراج أسس على عهد عمر بن الخطاب على اعتبار أن كل المسلمين وقتئذ جند، وهاك شئ من التقسيم:

المهاجرون والأنصار الذين شهدوا غزوة بدر	٥٠٠٠درهم
الذين لم يشهدوا غزوة بدر	٤٠٠٠درهم
أزواج النبى	١٢٠٠٠درهم
العباس عم النبى	١٢٠٠٠درهم
الحسن والحسين	٥٠٠٠ درهم
ابن الخليفة	٣٠٠٠ درهم
أبناء المهاجرين والأنصار	٢٠٠٠ درهم
أهل مكة	٨٠٠ درهم
سائر المسلمين	٣٠٠ ـ ٥٠٠درهم
نساء المهاجرين والأنصار	٢٠٠ ـ ٦٠٠درهم

وكان التقييد فى الديوان يراعى فيه اعتباران: السبق للإسلام والنسب، أعنى الاعتبار الدينى والقبلى فرتب الأفراد باعتبار الشعب والقبائل والعمارات والبطون والأفخاذ والفضائل حتى يتميز كل عن غيره. فالعرب كانوا يرتبون باعتبار القرابة من الرسول فيبدأ بالترتيب بأصل النسب النبوى ثم بما يتفرع عنه، لهذا بدأ عمر ديوان الخراج بالعباس عم النبى ثم ببنى هاشم ثم بمن بعدهم طبقة طبقة. فالعرب لما كانوا ينقسمون حسب زعمهم الى قحطانيين وعدنايين فتتقدم العرب العدنانيين فى الديوان لأن النبى منهم، وعدنان يجمع ربيعة ومضر فتتقدم مضر على ربيعة لأنه منها ومضر تجمع قريش وغير قريش بنى هاشم وغيرهم فتتقدم بنى هاشم، وهكذا ترى قطب الدائرة بين هاشم ثم من يليهم وهكذا.

وكان مراعاة الجانب القبلى فى تدوين ديوان الخراج سببا أساسيا فى فتح الباب لوضع الأنساب والتر ويج لفكرتها، لأن العرب كانت تعيش قبائل بحكم طبيعتها، وتعد القبيلة وحدة لنفسها كوحدة الأسرة فتنمحى فيها شخصية الفرد، فالمحمدة التى يأتيها الفرد محمدة للقبيلة، والعار لها، والشاعر النابغ تفتخر به القبيلة.و لقد حاول الإسلام ضمن ما حاول أن يجعل الأخوة الدينية بدل الأخوة القبائلية ولكن العرب ظلوا ينحازون فى القتال الى قبائل ويذكرون مواقفهم بما لهم من ذكريات مبهمة عن ما ضيهم . وكان مراعاة عمر للاعتبار القبلى فى الديوان سببا للتناحر بين القبائل، وعاشت الدولة الأموية تتقاتل بالعصبية حتى أتت الدولة العباسية، وكانت الأفكار قد هضمت فكرة النسب والأنساب. فقام جماعة من الرواة هم النسابون وأخذوا يضعون شجرات الأنساب ويملؤون الفراغ ما بين المعروفين من أعلام عصرهم وبين شجرة نسب الرسول فكانت بذلك سببا لوضع الأنساب وتناقلها. ويجب ألا ننسى أن عمر بن الخطاب راعى الاعتبار القبلى فى التدوين بديوان الخراج مما مهد لكثيرون أن يندفعوا لأغراض مادية فى الرغبة على الحصول على مخصص أكبر من الديوان الى تزكية نفوسهم كأفراد من هذه القبيلة أو ذالك ولجأوا الى أنساب مفتعلة ليصلوا الى أغراضهم فكانت هذه مقدمة أساسية تطورت مع الزمن فانتهت كما قلنا الى شجرات الأنساب.

ولقد اشتهر القرن الأول بأن الحياة فيه كانت عربية محضة. فكان الاقتتال بالعصبية، ولقد فأخرت القبائل بعضها بما لها من مواقف حاسمة فى الجاهلية والإسلام وتهاجى الشعراء

وتفاخروا بقبائلهم، فهذا جرير والفرزدق والأخطل يتهاجون بالقبائل فيفخر جرير على الأخطل بقبيلتي تميم وقيس ويفضلها على قبيلة تغلب ويفخر الأخطل بقبيلة تغلب على تميم ويفخر جرير على الفرزدق بقبيلته والفرزدق على جرير بما لأجداد من مآثره، وفي وسط هذا الاقتتال وجد بعض الرواة سبيلا يذكون به هذا الاقتتال بالعصبية بين القبائل لأغراض ومصالح لهم فزجوا أنفسهم في الميدان كنسابين، وكان أظهر هؤلاء في ذلك الزمان البكرى الذى روى عنه رؤبة ابن الحجاج وسعيد بن المسيب. وفكرة الأنساب للأفراد، الشئ الذى اختص به العصر الثاني من ا لإسلام أيام العباسين، إنما كان السبيل لتنظيم أنساب القبائل وبيان صلاتها ببعض. ولما جاءت الدولة العباسية ، وجاء معها التفكير المنظم وقامت الشعوبية في الإسلام انتظمت فكرة الأنساب واستقرت في العقول وظهر جماعة من النسابين كان لهم اليد الطولى في وضع شجرات الأنساب ونشرها بين الناس.

-٧-

اشتهر من بين هؤلاء النسابين نفر أشهرهم اثنان: محمد بن السائب الكلبي وابنه أبي المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي. وبجانبهما اشتهر نفر مثل سحيم المكنى بأبي يقظان المتوفى سنة ١٩٠هـ وكان من مشايخ المدائن. ويروى عنه أنه جمع نسب تميم وخندف أو قل وضع لتميم وخندف نسبهما، غير أنه من المهم أن نلاحظ أن هؤلاء النسابين والرواة في القرن الثاني يختلف عن طابع نسابي القرن الأول ورواته . لأن اهتمام النسابين والرواة في القرن الثاني كان موجها لإيجاد شجرات الأنساب بعكس نسابي ورواة العصر الأول الذين كان اهتمامهم موجها لفكرة الأنساب العامة والصلات القبلية بين القبائل خضوعا لروح العصر، وهذا الاختلاف في الطابع يبين لنا سر عدم وضع شجرات أنساب الأفراد في القرن الأول للهجرة .

وقد قلنا أن محمد السائب الكلبي المتوفى سنة ١٤٦هـ والذى ينتسب لقبيلة كلب هو أول من صنف في الأنساب على وجه منظم، ومن هنا شهرته كأب لعلم الأنساب وموجدا لها. وكان صاحب علم غزير أخذ على رأى ر واة العرب نسب قريش عن أبي صالح عن عقيل بن أبي طالب، وأخذ نسب كنده عن أبي العباس الكندى، ونسب معد بن عدنان عن البخار بن

أوس العدوانى، وكان هو وأبو اليعقوب المنهدى من مشايخ ابنه أبى النذر بن محمد السائب الكلبى شيخ النسابين، غير أنه كان متهما فى روايته ، صاحب لهو لا يعتد بما يرويه كما تتفق المصادر العربية، وهذا يجعلنا نشك فى قيمة ما رواه من أنساب وما قدمه من شجرات للنسب، وكلها تمتاز بأن سندها ساقط فى العموم. ويجب أن نلاحظ أن فكرة الأسناد هنا لم تكن بنفس أهميتها فى رواية الحديث النبوى، وإن كان ابن السائب الكلبى يرى الأسناد فى الخبر كالعلم فى الثواب. ويجب ألا يغرب عن البال أن الأفكار المتسلطة على ذهن العصر وأهمها الترويج للهاشميين وأبناء هاشم ورفع شأنهم لم يكن ابن الكلبى ليخلص من تأثيرها بجانب فكرة الأنساب التى راجت فى القرن الأول للهجرة والتى أخذت حيزا فى ذهنية ذلك العصر.

ومن أعلام الناس الذين أخذت فكرة الأنساب حيزا كبيرا من ذهنيتهم أبو المنذر هشام بن محمد السائب الكلبى المتوفى سنة ٢٠٤هـ هو قد تلقى النسب والأنساب عن والده وكذلك شيخه أبى اليعقوب المنهدى. وكان شديد الاتصال بالعباسيين يغلب عليه التشيع، روى عن أبيه وعن معروف المولى وروى عنه كثيرون منهم شباب العصفرى وابنه العباس بن هشام ومحمد بن سعيد (كاتب الواقدى) وعلى بن حرب الموصلى وعبد الله بن الضحك المهداوى وابو الأشعث أحمد بن مقدام العجلى.

وكان هشام آية فى معرفة النسب ووضع شجراتها حتى صار فردا يضرب به المثل، وأهم كتاب له« جمهرة النسب» وهو أشهر مؤلف فى علم الأنساب وعليه تعويل أهل العلم من نسابى العرب، وهذا الكتاب هو المصدر الوحيد لما كتب فى نسب العرب مثل كتاب المعارف لابن قتيبة والأنساب للسمعانى ، وقد عول عليه ابن حزم الظاهرى فيما كتب عن أنساب العرب. الا أ ن دراستنا على الجمهرة وتلخيص ياقوت الحموى لها (فى المقتضب من جمهرة النسب)، أثبتت أن هشام الكلبى كان يأخذ لنفسه الحرية فى وضع الأنساب مستمدا مادته من الذكريات المبهمة التى حفظت عن الجاهلية ورويت فى العصر الإسلامى.

والعلماء لا يرضون عن هشام الكلبى ويطعنون فى نزاهته، فهذا السمعانى يقول إنه يروى الغرائب والأخبار التى لا أصل لها، وأبو الفرج الأصفهانى يشك فيه وفى نزاهته فيقول أن الأخبار التى وضعها عن الجاهلية التوليد بين فيها، وأن ما ذكره عن الجاهليين موضوع كله. وهو يروى الكثير عنه غير أنه يعقبها بعبارة ولعلها من أكاذيب ابن الكلبى.

-٨-

إذا فسدت مروءة الرواة والنسابين وأحاطت بهم ظروف مختلفة تحملهم على الكذب والانتحال ككسب المال والتقرب الى الأمراء والظهور على الخصوم والمنافسين ظهرت وجوه الانتحال وذهبت الثقة بما يرويه الرواة.

ولم تكن العصبية بين القبائل فى القرن الأول للهجرة والخلافات السياسية والأغراض الدينية والاجتماعية إلا التكأة لوضع شجرات الأنساب، فنحن نعلم أن العرب انتظمت حياتها على نظام القبائل، والقبيلة كانت الوحدة الاجتماعية التى يفنى فيها الشخص، ولقد حاول النبى محمد أن يغير من هذه الطبيعة في نفوس العرب وبذل جهدا خارقا ليجعل من الأخوة الدينية سببا للوحدة الاجتماعية بدلا من الأخوة القبلية - نسبة الى القبيلة - غير أن ذلك كان من المستحيل، حتى أنه في عصر الفتوحات الإسلامية كان العربى يذهب فى صفوف المسلمين غير مندمج فى جموعهم لا حقا بأبناء قبيلته. فمن هنا يتبين أن كل فئة من العرب كانت تحيا ذاتها ولذات نفسها مع الصلات التى كانت هذه الصلات تأخذ صورة من منازلة الفئة الأخرى. ولذلك ما فرغ من الفتوحات حتى أخذ ينازل الفئات المجاورة التى تربطها به صلة القربة، أو يتحالفان للقرابة بينهما ويشنان الغارة على الجماعه العربية عنهما. وكان هذا الصراع بين قبائل العرب فى العصر الأموى مقدمة لزوال دولة العرب، وكان فى الآن نفسه سببا فى أذكاء العصبية القبلية وكانت كل فئه تفتخر بقبيلتها مما يثبت أنها كانت تعيش لذاتها وبذاتها.

ولا أدل على ذلك عندنا من صفحة الصراع الدموى بين قبائل العرب فى العصر الأموى (و حتى فى الأندلس البعيدة)، والذى كان من مظاهره الباقية افتخار كل قبيلة على الأخرى بشعرائها، وكان ذلك بدوره سببا لأن تلجأ كل فئة الى الرواة والنسابين رجاء نصرة عصبتهم على عصبية الفئه المجاورة لهم، وليس تعوزنا النصوص العر بية التى تثبت هذا القول من غير لبس أو تردد، لأن هناك شبه اجماع عند المتقدمين بهذه الحقائق الأساسية التى نخلص بها من أسباب الانتحال تمهد لنا سبيل البحث والدرس. فإذا أردنا أن ننظر لشجرات الأنساب فيجب أن نضع موضع النظر قبل كل شئ العوامل والمؤثرات والفواعل التى كان يغلى بها قلب

المجتمع العربى فى فجر الإسلام وضحاه، والمتحصل من هذا كله أن التكون الاجتماعى للعرب لم يسايره وضع الأنساب من حيث هي مظهر لصلات التكون الاجتماعى، وكما قلنا أن «ديوان» المسلمين كان مقدمة لذلك. وهو أن كان بداءة ذى بدء مواطنا لتكون العرب الاجتماعى فى عصر الخليفة عمر إلا أنه فتح الباب لأوجه من الانتحال.

ولعل من المستطاع لو نظرنا لأسباب الوضع أن نخلص بالنصوص التى أعوزتنا فى فحص النواحى المصطنعة، ولا جرم أن هذا الأمر ينتهى بنا الى تدقيقات واسعة تغربل كل ما وصلنا عن النسابين والرواة.

والذى لامعدل عنه تدبر أسباب الوضع لتكوين فكرة عامة يتدبر معها الباحث فى الأنساب السبيل الى حيث لا يخطئ، ونحن لو تدبرنا أسباب الوضع لوجدنا العصبية التى أوفيناها حقها من البحث تنزل فى الرأس، ثم يليها الدين والصراع بين الأمويين والهاشميين على الخلافة مما يدخل من جانب تحت العصبية القبلية، ومن جانب تحت السبب الدينى.

خاتمة

ودراسة كيفية افتعال الأنساب ليست بالشئ الهين، لأن التكوين الاجتماعى عند العرب كان يسمح ويساعد على تغطية أوجه الانتحال، ودليل ذلك واضح فى النصوص التى تقدمت، والمتحصل أن الناظر فى افتعال الأنساب يجب أن يلاحظ أن تكون العرب الاجتماعى كان يختلق فى العصر الذى وضعت له الأنساب من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب كما سبق الى ذلك البيان. فقدكان مجتمع عرب الجنوب Arabia Felix يقوم على أساس نظام الأبوة وتعدد الأزواج ـ من النساء ـ بعكس المجتمع الشمالى الذى كانت بدويته تقف عقبة دون تخلصه من أثار نظام الأمومة فى البيئات التى كانت تأخذ بأسباب الحضارة كما حدث فى بيئة مكة على عهد قصى.

هذا الى أن دراسة التكوين الاجتماعى عند العرب القدماء وتطور هذا التكوين وانتهائه الى صورة ما فى العصر الجاهلى، يتكافأ والمحيط الطبيعى والاجتماعى، تبين الى أى حد كان النسابون ينتحلون الأنساب ويضعوها. ولما كان كل واقعة فى التاريخ تخفى وراء مظهرها

المادى مظهرا نفسيا فاكتشاف هذا المظهر النفسى معناه الكشف عن حقيقة خفية من الحقائق التى تمضى فى صلب التاريخ، والمظهر النفسى وراء شجرات الأنساب يكشف عن وجه دقيق للحياة والتفكير والصراع فى العصر الأموى والعباسى، ومن هنا نحن نرى فى شجرات الأنساب سجلا دقيقا للمنازعات التى قامت فى العصر الإسلامى، فضلا عما لها من قيمة أسطورية لأنها فى العادة تحاك من حول أصل تاريخى. فدرسها إذن من الناحية الأسطورية تكشف للمؤرخ عن مادة واسعة غنية بالحقائق التاريخية يستعين بها فى توضيح ما غمض من أحوال العرب قبل الإسلام، ولا يخالجنى الشك أننا لو اتخذنا هذا الطريق فى دراسة شجرات الأنساب للاستعانة بها فى دراسة تاريخ العرب فإننا سنخرج بصورة جديدة عن تاريخ العرب لا أقول أنه أقرب إلى الواقع فحسب، إنما أقرب الى الواقع من كل عرفناه الى اليوم.

المراجع:

(1) kinship and Marrige in Early Arabia,By W. Robertoson Smith 2nd Edbtion, London 1903.

(2)Das Matriacht bei den alten Arabien Von G.Wilke

(الأمومة عند العرب تأليف ويلكن ونقله للعربية بندلي صليبا الجوزى قازان)

(3)Geschichte des Volkes Arab.Von G.Eurold.Berlin 1935.

(4)Travels in Arabien Desert, BY DOVghtY, 2vol.cambridge, 1888.

Beduins tribes ofthe Euphrates,By Lady Anne Bleint,2nd Vol.London.1879

أنساب العرب القدماء لجورجي

زيدان صاحب مجلة الهلال، القاهرة، ١٩٠٦

(7)Al-Ansab Al-Arabiya, Von.I.A.Edham.

(٨) تاريخ التمدن الإسلامى لجورجي زيدان، القاهرة، ١٩٠٨.

(٩) فجر الإسلام لأحمد أمين، القاهرة، ١٩٢٨.

The Kitab Al- Ansab of Abid Al-Karim Ibn Muhammde Al-Samani Reproduced in Faximile front Manuscript in The British Museum,With an Introduction BY D.s Margoliouth, London,1912.

(*) المقال بتصرف عن كتاب «المؤلفات الكاملة للدكتور إسماعيل أدهم/ جزء ٣قضايا ومناقشات» ـ تحرير تقديم: د. أحمد إبراهيم الهوارى. دار المعارف/القاهرة ,١٩٨٦

فهرس الجزء الرابع

الموضوع	الصفحة

الهيئة العامة لقصور الثقافة

تاريخ مصر

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس بن المقفع

5

إعداد و تحقيق :
عبد العزيز جمال الدين

لم يكن ابن المقفع آخر المؤرخين المصريين، لكنه ومخطوطته كانا الأشهر فى هذا السياق، وقد تعاقب من بعده من الآباء والرهبان المصريين من عكفوا على استكمال هذا التاريخ حتى بداية القرن العشرين. وبجهد الباحث المجد عكف المحقق المصرى عبد العزيز جمال الدين على جمع هذه المخطوطات وتحقيقها والتعليق عليها، موضحاً ما كتب فيها وما كتب فى التاريخ الرسمى الشهير، ليضع أمامنا عملاً قل أن نجده فى الثقافات الحديثة، لنقف أمام وجهتى نظر للتاريخ متأملين كيفية عمل الفعل البشرى فى تسجيل الأحداث حسب الانتماء الثقافى، وليفتح الباب على مصراعيه أمام العاملين فى مجال البحث التاريخى ليعيدوا التأمل فى آلية ومسار واحدة من أهم عمليات التدوين الذى حكم مخيلة البشر فى رؤيتهم لماضيهم التليد.

السعر: سبعة جنيهات

تصميم الغلاف: أحمد اللباد

تاريخ مصر

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس بن المقفع

الجزء الخامس

وزارة الثقافة

مطبوعات

الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة

سعد عبد الرحمن

أمين عام النشر

محمد أبو المجد

الإشراف العام

صبحي موسى

الإشراف الفني

د. خالد سرور

المتابعة والتنفيذ

عادل سميح

• تاريخ مصر
من خلال مخطوطة
تاريخ البطاركة (الجزء الخامس)
• إعداد وتحقيق:
عبدالعزيز جمال الدين
• طبعة:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2012م
17 x 24 سم
• تصميم الغلاف: أحمد اللباد
• رقم الإيداع: ٢٦٤٣/ ٢٠١٢
• الترقيم الدولي: 978-977-704-010-9
• المراسلات:
باسم / المشرف العام
على العنوان التالي: 16 أ شارع
أمين سامي - القصر العيني
القاهرة - رقم بريدي 11561
ت: 27947897

التجهيزات والطباعة:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابي من الهيئة العامة لقصور الثقافة، أو بالإشارة إلى المصدر.

تاريخ مصر

من بدايات القرن الأول الميلادى
حتى نهاية القرن العشرين

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس بن المقفع

إعداد وتحقيق

عبد العزيز جمال الدين

الجزء الخامس

من أنبا خايال حتى سانوتيوس البطرك ٦٥ (١٠٣٢ - ١٠٤٦م)

السيرة الحادية والعشرين(*) من سير البيعة المقدسة انبا خايال البطرك وهو من العدد الثالث والخمسون [٨٤٩/٨٥١م]

ولما تنيح الاب انبا يوساب البطرك صنع الرب عجايبه فى قديسيه وجعلهم يذكرو الاب القس خايال الذى كان اغومنس بدير ابو يحنس بوادى هبيب. وكان مشهور عند كل واحد بالعفاف والحكمة ومعرفة الكتب الالهية لانه كان كاتب

(*) كاتب هذه السيرة هو ميخايل اسقف تنيس. وهو كذلك كاتب الأجزاء التالية بما فيها سيرة البطرك ٦٥ شنوده الثانى (سانوتيوس) ١٠٣٢/١٠٤٦م.

انظر ص٧٠٨)

علاقات الروم بالمشرق من عام ٨٥٦ حتى عام ١٢٢٢م

حكم الامبراطور ميخائيل الثالث ٨٥٦ - ٦٧،

فى عام ٨٥٦ ميلادية، بعد حكم دام أربعة عشر عاما، سلمت تيودورا الحكم الى ابنها بعد أن بلغ الواحدة

الدولة الطولونية

١٠٨. أحمد بن طولون

ثم وليها أحمد بن طولون، من قبل المعتز، على صلاتها، دخلها يوم الخميس لسبع بقين من شهر رمضان سنة أربع وخمسين [٨٦٨م]. فأقر بوخيا على الشرط إلى اثنى عشرة ليلة بقيت من شوال سنة أربع وخمسين ومئتين، فصرفه وجعل مكانه بوزان التركى. فاستخلف محمد ابن إسبنديار. فكان بوزان ربما صلى بالناس فى المسجد الجامع.

ثم خرج بغا الأصغر وهو أحمد [بن محمد] بن عبدالله بن طباطبا، خرج فيما بين الإسكندرية وبرقة، بموضع يقال له الكنايس [مركز كفر الدوار]، ومعه ابن عم الجابر بن الوليد المدلجى، وذلك فى جمادى الأولى سنة خمس وخمسين ومئتين، وسار فى جمع معه إلى الصعيد . فلقيه بهم بن الحسين فحاربه، فقتل بغا، وأتى برأسه إلى الفسطاط يوم الثلاثاء لإحدى عشرة بقيت من شعبان سنة خمس وخمسين ومئتين.

ثم صرف بوزان عن الشرط، وولى مكانه موسى بن طونيق، يوم الاربعاء لثمان خلون من رجب سنة خمس وخمسين ومئتين. [وخلع المعتز لثلاث بقين من رجب سنة خمس وخمسين ومئتين]، وبويع المهتدى بن الواثق ، [فأقر أحمد بن طولون عليها] وخرج ابن الصوفى العلوى بصعيد مصر، وهو ابراهيم بن محمد بن يحيى بن عبدالله بن محمد بن عمر بن على ابن أبى

للاب انبا يوساب المتنيح وهو شماس. لحقه وجع ايام كثيره فسال الاب انبا يوساب ان يطلقه يمضى الى البريه المقدسه. مع ارادة الله استحق ان يكون اغومنس بعد ان كان قسا من يد الاب انبا يوساب. فاخذوه وهو غير راضى ودخلو به الى المدينة العظمى اسكندرية واجلسوه على الكرسى فى اليوم الرابع والعشرين من هتور وهم متممين تذكار البطريرك الشهيد مارى بطرس، فلما جلس على الكرسى كان يظهر العلوم التى استفادها من

والعشرين، لكنه كان ضعيفا،فترك شئون الامبراطورية تسير على نحو ما كانت عليه فى عهد وصاية أمه، ولم يخرج عن سياستها قط، فلا نكاد نلاحظ فرقاً بين حكمه وحكم أمه، وكما لاحظ الطبرى فى كتابه تاريخ الرسل والملوك «وكان خاله بطرناس هو المدبر أمره»، ولقد لقبه مؤرخو الروم بأسم الامبراطور شارد الذهن Blabes لانه كان دائما غائبا عن الوعى، لانصرافه الى اللهو والعبث وساعده على ذلك، أن سياسة الاستقرار التى أرست قواعدها أمه

طالب،كان خروجه فى سنة ثلاث وخمسين ومئتين. فدخل إسنا فى ذى القعدة سنة ست وخمسين ومئتين. فنهبها وقتل أهلها. فبعث إليه أحمد بن طولون بابن ازداد فى جيش، فواقعه بهو [قرب قوص بالصعيد] يوم الأربعاء لخمس خلون من ربيع الأول سنة ست وخمسين ومئتين. فانهزم ابن أزداد وجرح، ثم ظفر به ابن الصوفى وقطع يديه ورجليه، وصلبه ، فعقد أحمد ابن طولون لبهم بن الحسين على جيش ، وضم إليه ابن عجيف. فخرجاإلى الصعيد يوم الخميس لتسع عشرة خلت من ربيع الأول سنة ست وخمسين فالتقوا بناحية إخميم يوم الخميس لثلاث خلون من ربيع الآخر. فانهزم ابن الصوفى، ومضى منهزماً وترك جميع ما كان معه وقتلت رجالته. فبعث أحمد ابن طولون إلى بهم بخلع وطوق من ذهب. ومضى ابن الصوفى إلى الواح فأقام به سنتين . ثم خرج إلى الأشمونين فى المحرم سنة تسع وخمسين. فبعث إليه بأبى المغيث فى خمس مئة . فوجد ابن الصوفى قد سار إلى أسوان لمحاربة أبى عبد الرحمن العمرى عبدالله بن عبد الحميد بن عبدالله بن عبد العزيز بن عبدالله بن عمر بن الخطاب. فالتقى هو والعمرى، فظفر به العمرى وبجميع جيشه، فقتل منهم مقتلة عظيمة. ورجع ابن الصوفى إلى أسوان، فقطع لأهلها ثلاث مئة ألف نخلة، وظهر فساده بها. فبعث أحمد ابن طولون بأبن سيما مدداً لبهم بن الحسين . واضطرب أمر ابن الصوفى مع أصحابه، فتركهم ومضى إلى عيذاب، فركب البحر إلى مكة، فأقام بها. ثم بعث به منها بعد ذلك بحين إلى أحمد بن طولون ، فسجنه ثم أطلقه. فخرج إلى المدينة فمات.

المعلمين القديسين الفضلا المويدين حتى يتعجب كل احد منه ومجدو الله. وكان ضعيف الجسم. وكانو المتوليين لاستخراج الخراج يلزموه بخراج الاواسى. وذاق طعم الاوجاع والبلايا.

فلما كان فى يوم من الايام بكا بدموع غزيرة وقال يا ربى يسوع المسيح انت تعلم ان الانفراد غرضى طول زمانى وليس لى قدرة على هذه التجارب لاننى ضعيف الجسد يوم بعد يوم وانا

تيودورا بدأت تأتى بثمارها، كما أن حركة التبشير الارثوذوكسى كانت قائمة على أشدها فى البلقان، مما أحدث تنافسا بين روما وكنيسة القسطنطينية.

تأزم العلاقات بين كنيسة القسطنطينية وكنيسة روما:

وكان من الطبيعى أن يؤدى انتشار المسيحية الارثوذوكسية بين الشعوب السلافية والبلغارية الى زيادة هيبة ونفوذ القسطنطينية وكنيستها فى أوروبا الشرقية وشبه جزيرة البلقان، مما أغضب البابا وسلطات الكنيسة

وكان عيسى بن الشيخ بن السليل الشيبانى والياً على فلسطين والأردن، ثم تغلب على دمشق، وامتنع من حمل المال إلى العراق. فحمل ابن مدبر صاحب خراج مصر إلى العراق بسبع مئة ألف دينار وخمسين ألف دينار. فعارضها [قطع عليها الطريق] عيسى بن الشيخ فذهب بها. وكتب [المهتدى] إلى أحمد بن طولون بالخروج إليه وتسلم أعمالة. ففرض أحمد بن طولون فروضاً، واتخذ السودان فأكثر. وأظهر أحمد الخروج إليه، وذلك فى صفر سنة وخمسين ومئتين. ثم رأى أن يكاتبه قبل شخوصه إليه. فكتب إليه مع قيس بن حفص كاتب بكار القاضى وأحمد بن يحيى السراج. فرجعا بما لم يوافق أحمد بن طولون. ثم خرج أحمد بن طولون يوم الخميس لست خلون من جمادى الآخرة سنة ست وخمسين، واستخلف أخاه موسى بن طولون على مصر، وصرفه عن الشرط. فجعل موسى على شرطه محمد بن عيسى. ورجع أحمد بن طولون من الطريق، بكتاب ورد عليه من العراق . فدخل الفسطاط لأيام خلت من شعبان . فعاد موسى بن طولون إلى الشرط. وبعث إلى عيسى بن الشيخ بماجور فحاربه ، فانهزم أصحاب عيسى، وقتل ابنه بمصر، وتسلم ماجور أعمال الشام.

وتوفى المهتدى فى شعبان سنة ست وخمسين ومئتين، وبويع المعتمد بن المتوكل، فأقر أحمد بن طولون عليها. وابتدأ أحمد بن طولون فى بنيان الميدان فى شعبان سنة ست وخمسين. وأمر بحرث قبور اليهود والنصارى وبنى موضعهما.

اعلم انك تقبل دعا المضيقين عليهم وقد قلت: اصرخ الى فى يوم شدتك فاخلصك ولتمجدنى وانا اسلك يارب ان تظهر علامة رحمتك فى هذا الزمان الضيق ولا تدعنى اشاهد تجارب اخر لاننى غير قادر على حملها فسمع محب البشر دعا ذلك القديس لانه عالم بخبرة كل احد ويسمع القول المكتوب: اذا تكلمت اقول هانذا. فلما كان فى ايام الصوم توجه الى البرية المقدسة ليتم عيد الفصح كعادة الابا البطاركة. ولما كان بعد عيد

الكاثوليكية اللاتينية فى روما. وحاول البابا اجبار ميخائيل الثالث على عزل البطريرك فوتيوس Photios الذى تولى كرسى البطريركية بعد موت ميثوديوس، بحجة أنه حرف فى تفسير بعض نصوص الكتاب المقدس، وذلك فى عام ٨٦٣م؛ غير أن الامبراطور ميخائيل الثالث رفض طلب البابا. وقد كانت الحقيقة وراء هذا الصراع بين البطريرك والبابا، أن كلا منهما يريد الآخر أن يذعن لمشيئته، فكل منهما كان يعتقد أن منصبه اعلى من منصب الآخر، وكان كل منهما يحاول تفسير النصوص الدينية

وقدم العباس وخمارويه ابنا أحمد بن طولون بأخيه موسى إلى العراق وجعل مكان موسى على الشرط موسى بن طونيق، وذلك فى جمادى الآخرة سنة سبع وخمسين. ثم أمر أحمد برد أخيه موسى فى رجب. فرجع من الطريق فرده إلى الشرط، ثم صرفه عن الشرط فى شهر رمضان سنة سبع وخمسين، وجعل مكانه طغلغ فاستخلف طخشى بن بلبرد.

وورد كتاب يارجوخ إلى أحمد بن طولون بتسلم الأعمال الخارجة عن يده من أرض مصر. فتسلم الإسكندرية من إسحاق بن دينار، وخرج إليها يوم الاثنين لثمان خلون من شهر رمضان سنة سبع وخمسين. واستخلف على الفسطاط طغلغ، وجعل على الشرط طخشى بن بلبرد . ثم قدم أحمد بن طولون من الإسكندرية يوم الخميس لأربع عشرة بقيت من شوال سنة سبع ،وقد سخط على أخيه موسى بن طولون، وأمر موسى بلباس البياض.

وخرج أحمد أيضاً إلى سكندرية خرجته الثانية، يوم السبت لثمان بقين من شعبان سنة تسع وخمسين. فاستخلف عليها ابنه العباس بن أحمد . فصرف طخشى عن الشرط، وجعل مكانه محمد بن هرثمة. وقدم أحمد إلى الفسطاط يوم الخميس لثمان خلون من شوال سنة تسع وخمسين.

وأمر أحمد ببنيان المسجد على الجبل فى صفر سنة تسع وخمسين. وأمر أيضاً ببنيان المارستان للمرضى فبنى لهم فى سنة تسع وخمسين.

الفصح المقدس توجع. فدعاه السيد المسيح اليه وتنيح في الثاني والعشرين من برمودة سنة سبع وستين وستماية للشهدا الابرار، وتم عليه قول المزمور، شهوة قلبه اعطيته ولم تمنعه ارادة شفتيه وجعلو جسده في بيعة القديس ابو مقار ونال الاكليل مع القديسين في كورة الاحياء. ومدة مقامه على الكرسي المرقسي سنة واحدة وخمسة شهور. والمجد للاب والابن والروح القدس الى الابد امين.

بطريقته الخاصة، حسب ثقافته، وعقليته وطريقة تفكيره، مما أدى إلى القطيعة بين الكنيستين، ووصل العداء الى اقصاه عام ٨٦٧ ميلادية عندما انعقد مجلس السنودس Synodos وهو المجلس الأعلى للاساقفة المسئول عن مراقبة شئون الكنيسة الارثوذوكسية، وكان الامبراطور ميخائيل الثالث يترأس هذه الجلسة، التى أصدر فيها السنودس قرارا بطرد بابا روما من الكنيسة؛ وبالتالى قطعت العلاقة بين ا لكنيستين، واتخذت كل منهما طريقا مستقلا. ولقد اتخذ ميخائيل الثالث هذه الخطوة بعد فشله

وورد كتاب [الخليفة] المعتمد إلى أحمد بن طولون يستحثه في حمل الأموال فكتب إليه: لست أطيق ذلك والخراج بيد غيرى. فأنفذ المعتمد نفيساً الخادم إلى أحمد بن طولون، بتقليده الخراج بمصر، وبولايته على الثغور الشامية. فأقر أحمد بن طولون أبا أيوب أحمد بن محمد بن شجاع على الخراج خليفة له عليه.

وضج أهل الثغور من ولاتهم . فبعث أحمد بن طولون إلى أخيه موسى، وهو مقيم بطرسوس، بتقليدها؛ فامتنع موسى من ولايتها. وكتب أحمد إلى إبراهيم بن عبد الوهاب بولايتها، فامتنع. فعقد أحمد عليها لطخشى بن بلبرد. فخرج إليها في جمادى الأولى سنة أربع وستين ومئتين. وجعل مكانه على الشرط الحسن بن غالب الطرسوسي.

وتقدم أبو أحمد الموفق إلى موسى بن بغا في صرف أحمد بن طولون عن مصر. وتقليدها ماجور التركي. فكتب موسى بذلك إلى ماجور [وهو والى دمشق يومئذ ، فتوقف] لعجزه عن مقاتلة أحمد بن طولون. فخرج موسى ابن بغا فنزل الرقة. وبلغ ابن طولون أنه سائر إليه، وأنه مجد في محاربته فأخذ أحمد بن طولون في الحذر منه، وابتدأ في بنيان حصن الجزيرة [الروضة] التى بين الجسرين، ورأى أن يجعله معقلاً لماله وحرمه، وذلك في سنة ثلاث وستين.

واجتهد أحمد بن طولون في بنيان المراكب الحربية، وإطافتها بالجزيرة. وأظهر الامتناع من موسى بن بغا بكل ما قدر عليه. وأقام موسى بن بغا بالرقة عشرة أشهر، وأحمد في إحكام

في ارضاء البابا نيقولا الأول، فقد أرسل اليه ثوبا مطرزا بصورة المسيح وحوله حواريوه كدليل على أنه قد رفع الحظر على عبادة الايقونات تماما. وقد سجل المؤرخون اللاتين وصفا لهذا الثوب الجميل، الذى لم يبق له أثر، غير أن البابا ظل متصلبا في موقفه من الأمبراطور ومن كنيسة القسطنطينية.

نهاية الأسرة العمورية ٨٦٧م:

ولم تمض شهور على انعقاد مجلس السنودس وطرد البابا نيقولا الأول من رحمة كنيسة القسطنطينية، حتى لقى الامبراطور حتفه؛ اذ اغتاله

الاب انبا قزما البطرك وهو من العدد الرابع والخمسون[٨٥١/٨٥٩م]

فلما تنيح الاب انبا خايال جلس على الكرسى بنعمة الروح القدس وباتفاق من الابا الاساقفة والشعب الارتدكسى بمدينة اسكندرية قزما وكان شماسا من بيعة القديس ابو مقار واصله من سمنود فاجتمعو الى البيعة واوسموه بطركا فى اليوم الرابع عشر من ابيب سنة سبع وستين

أموره. فاضطرب أصحاب موسى عليه، وضاق بهم منزلهم، وطالبوا موسى بالمسير أو الرجوع إلى العراق. فبينا هو في ذلك، توفي موسى بن بغا في صفر سنة أربع وستين.

ثم توفي ماجور بدمشق، واستخلف ابنه علياً. فحرك ذلك أحمد بن طولون على المسير. فكتب إلى علي يخبره بأنه سائر إليه، وأمره بإقامة الأنزال والميرة لعساكره. فرد عليه علي بن ماجور أحسن جواب.

ثم صرف أحمد الحسن بن غالب الطرسوسي عن شرطه. يوم الاربعاء لثمان خلون من رجب سنة أربع وستين، وجعل مكانه إبراهيم بن بلبرد أخا طخشي.

وشكا [المسلمين من] أهل مصر إلى أحمد ضيق المسجد الجامع يوم الجمعة بجنده وسودانه. فأمر بابتناء المسجد الجامع [على جبل] يشكر؛ ابتدأ في بنائه سنة أربع وقضى في ست وستين ومئتين.

وخرج أحمد بن طولون في جيوشه لثمان [بقين] من شعبان سنة أربع وستين، واستخلف ابنه العباس على مصر. وضم [إليه] أحمد بن محمد الواسطي مدبراً. فبلغ أحمد إلى الرملة، فتلقاه محمد بن رافع خليفة ماجور عليها، وأقام له الدعوة بها. فأقره عليها [ومضى إلى دمشق. فتلقاه علي بن ماجور، وأقام له بها الدعوة]. فأقام أحمد بها حتى استوثق له أمرها. ثم استخلف عليها أحمد بن دوغباش. ومضى إلى حمص، فلقيه عيسى الكرخي خليفة ماجور،

وخمسماية للشهدا الاطهار. وكان هدو وسلامة في البيعة فحرك مبغض الخير الشيطان شوكة سو وجعل للبيعة عشرة، لما كان في تلك السنة وقد قرب عيد الشهيد مارى مينا اجتمع اليه الشعب المومنين من المدن والقرى ليقدمو قرابينهم وصلواتهم في تلك البيعة التي هي مسرة لجميع الارتدكسين، فاجتمع هناك قوم بهم شياطين فقفز واحد منهم ووثب على اخر مثله ولم يزالو يتخانقو الى ان مات احدهما. فلما سمع الامير والى

أحد رفاقه ويدعى باسيلوس Basile-us، احتجاجا على سياسة الامبراطور المستكينة. وبموت ميخائيل الثالث، أسدل الستار على الأسرة العمورية، وبدأ باسيليوس حكم أسرة جديدة، جاءت من اقليم مقدونيا العريق بتاريخه منذ العصر الهللينستى، والتى عرفت باسم الأسرة المقدونية.

وعموما فان الاحداث الجسام التى شهدها عصر الاسرتين الايسورية والعمورية ساعدت على اكتمال الشخصية الرومية وتميزها عن التراث اللاتينى الغربى، وكانت تلك الحركة

فسلمها إليه. ثم بعث إلى سيما الطويل، وهو بأنطاكيه، يأمره بالدعاء له، فلم يجبه سيما إلى ذلك. فسار إليه أحمد بن طولون في جيش عظيم. وبلغ ذلك سيما، فتحصن بأنطاكية وامتنع. فحاصره أحمد ورمى حصنها المنجنيق، وطال حصاره لها. فاشتد ذلك على أهلها، فبعثوا إلى أحمد ابن طولون فخبروه بالموضع الذى يمكنه أن يدخل إليها منه. فقصده، وعاونه أهلها على سيما. فدخلها أحمد في المحرم سنة خمس وستين ومئتين. فقتل سيما. واستباح أمواله ورجاله. وورد كتاب أحمد إلى الفسطاط بفتح أنطاكية وقتل سيما، في صفر سنة خمس وستين. ومضى أحمد بن طولون إلى طرسوس بأصحابه فغلا السعر بها، واضطرب أهلها ونابذوه. فقاتلهم. وتقدم أحمد إلى أصحابه أن ينهزموا عن أهل طرسوس، ليبلغ ذلك طاغية ملك الروم. فيعلم أن جيوش ابن طولون لم تقم لأهل طرسوس. فانهزموا منهم . فخرج عنهم ، وولى عليهم طخشى بن بلبرد.

وقد كان رأى أحمد بن طولون أن يقيم بالثغور، حتى أتاه الخبر من مصر أن ابنه العباس قد خالف عليه، فأزعجه ذلك. وكان السبب في مخالفته لأبيه أنه استخص قواداً من قواده كانوا على خوف شديد من أحمد بن طولون؛ كان منهم على بن أعور، وعبدالله بن طغيا، وأحمد بن صالح الرشيدى، وأحمد بن أسلم. فحسنوا للعباس التغلب على مصر، والقبض على أحمد ابن محمد الواسطى. وبلغ الواسطى ماعزموا عليه من ذلك، فكتب إلى أحمد ابن طولون يخبره بذلك. وبلغ العباس ذلك، فازداد وحشة من أبيه لما علم أنه اطلع على أمره.

اسكندرية وكان اسمه احمد ابن دينار هذا الامر فامر ان يوخذ الاب قزما. فاخذه وعذبه حتى اخذ منه جميع ما دفع اليه من الصدقات في يوم العيد تلك السنة. ولم يترك منه شيا. وكاد ان ينزل على البطرك بلايا ويخسره مالا. وتقدم اليه ان لا يزول [يخرج] من اسكندرية.

وكان في ذلك الزمان ارخنين بمصر محبين لله اسم احدهما مقاره ابن يوسف كاتب صاحب

قد بدأت منذ عصر هرقل، ففي عصر هاتين الاسرتين استقلت كنيسة القسطنطينية اليونانية عن كنيسة روما اللاتينية، واتخذت الأولى المذهب الارثوذوكسي (أي أصحاب النظرية الحقة)، بينما اتخذت الثانية المذهب الكاثوليكي (أي أصحاب النص الحرفي)، وأصبح بابا روما نداً لبطريرك القسطنطينية، ولا يقل عنه، فقد أصبح البابا يسيطر روحيا على العالم الأوروبي الغربي، ويعتمد على ملوكه في حماية ممتلكاته، تماما مثلما أصبح بطريرك القسطنطينية يهيمن

وكانت للعباس أيضاً طائفة تطيف به من أهل الشعر كانوا خاصته، منهم جعفر بن جدار، وأبو معشر أحمد بن المؤمل، ومحمد بن سهل المنتوف. فشاورهم فيما عزم عليه، فأشاروا عليه أن يفعل. وخافوا من أحمد بن طولون، فأشاروا على العباس أن يبعد عن أبيه ويخرج من مصر. فعمد العباس إلى أحمد بن محمد الواسطي فقيده. ثم سار العباس في الطائفة التي معه، والواسطي معه؛ كان خروجه إلى الجيزة يوم الأحد لثمان خلون من شعبان سنة خمس وستين ومئتين، فعسكر بها. واستخلف أخاه ربيعة بن أحمد على الفسطاط. وأظهر العباس أنه سائر إلى سكندرية، لكتاب ورد عليه من أبيه يأمره بذلك. فتوجه إلى الإسكندرية ثم سار إلى برقة.

وقدم أحمد بن طولون من الشام إلى الفسطاط، يوم الخميس لأربع خلون من شهر رمضان سنة خمس وستين. فأنفذ أبا بكرة بكار بن قتيبة القاضي، ومعمر بن محمد الجوهري، والصابوني القاضي، وزياداً المعدني، إلى العباس. فكتب معهم إليه كتاباً ألان له فيه جانبه، ووعده أن لا يسوءه ولا يأخذه بقبيح عمله. فصاروا إليه إلى برقة. فانقاد العباس إلى الرجوع، وهم بالشخوص معهم إلى أبيه، ففزعت الطائفة التي حسنت له الخروج من أبيه أحمد، وعلموا أنه موقع بهم، فحرضوه على المقام. فرجع إلى قولهم. وانصرف بكار بن قتيبة ومعمر بن محمد إلى أحمد بن طولون. فدخلا الفسطاط أول ذي الحجة سنة خمس وستين.

وعزم العباس على المسير إلى إفريقية، ورأى أنها أمنع له من برقة. فكتب إلى إبراهيم بن

ديوان وله موضع عند جميع من يتولا فسطاط مصر، والاخر ابراهيم ابن سويرس متولى بيت المال وعلى جميع استخراج الاموال ليحملها الى خزاين الملك. فلما اتصل بهما ما جرى فى بيعة الشهيد مارى مينا وما خسره الاب البطرك تشاورو بحكمة وتقدما الى والى مصر وهو عبدالواحد ابن يحيى الوزير فقالو له ننفذ الى اسكندرية ونحضر البطرك الى ها هنا ونكتب عليه خراج الاواسى من اجل انه جديد قد ولى فى هذه الايام، وفعلو اوليك

روحيا على كنائس الشطر الشرقى من الامبراطورية ولا يعترف بالبابا ولا بكنيسته فى روما.

كذلك فان نجاح حركة التبشير، التى قادها الرهبان ورجال الدين والمبشرون الروم فى أصقاع أوروبا الشرقية بعد انتصار عبادة الايقونات، حولت جيران الأمبراطورية المتبربرين من أمثال السلاف، والبلغار، والروس، الى شعوب متحضرة، فقد اعتنقت هذه الشعون المسيحية الارثوذوكسية على مذهب كنيسة القسطنطينية، وذلك منذ منتصف القرن التاسع، وتكونت لديها كنائس قومية، تخضع

أحمد بن محمد بن الأغلب، أن كتاب المعتمد ورد عليه بتقليده إفريقية، ويأمره بالدعاء له بها، ويخبره أنه سائر إليه. ثم مضى العباس متوجها إلى إفريقية فى جمادى الأولى سنة ست وستين. فنزل لبدة، فخرج إليه عاملها وأهلها، فتلقوه وأكرموه. فأمر العباس بنهبها، فنهبت وأهلها على غرة. فقتلت رجالهم، وفضحت نساؤهم. وبلغ الخبر إلياس بن منصور النفوسى، وهو يومئذ رأس الإباضية، [فغضب لذلك وسار إلى العباس ليقاتله]. وبعث إبراهيم بن أحمد بن الأغلب بغلام له، يقال له بلاغ، إلى محمد بن قرهب عامله على أطرابلس، فى جمع كثير من أهل إفريقية. فأطبق الجيشان على العباس، فباشر العباس يومئذ الحرب بنفسه، وحسن بلاؤه يومئذ.

وقتل يومئذ صناديد عسكره، ووجوه أصحابه وحماته، ونهبت أمواله وسلاحه، ورجع هارباً إلى برقة فى ضر وإخلال.

وعقد أحمد بن طولون لإبراهيم بن بلبرد على جيش، وبعث به إلى برقة، وذلك فى شهر رمضان سنة سبع وستين. وجعل مكانه على الشرط سرى بن سهل. فأقام إبراهيم فيما بين برقة والإسكندرية. ثم أجمع أحمد بن طولون على النهوض بنفسه إلى برقة، فاستعد لذلك، وخرج فى عسكر عظيم. فزعموا أن عسكره ذلك كان مضموماً على مئة ألف. وخرج من الفسطاط يوم الخميس لثنى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة ثمان وستين ومئتين. فأقام بالإسكندرية

الاراخنة المحبين لله هذا الامر ليجدو السبيل الى اخراج البطرك من اسكندرية وانتزاعه من يد ذلك الامير فانفذ الوزير قوما وكتب باحضار الاب البطرك فلما علم الامير ذلك وانه بسبب الخراج لم يقدر يعوقه عن المسيره ولما سار ووصل الى مصر وسلم على الوزير بمصر فتخير له مدينة شرقى مصر تعرف بدميره كلمن يسكن بها نصرانى فسكنها الاب البطرك لما كان باسكندرية من البلايا. واعتنا الارخنان المذكوران بامور البيعة

للكنيسة الأم، ويهيمن بطريرك القسطنطينية على أساقفتها بنفوذه الروحى، ويدين هؤلاء الاساقفة لبطريرك القسطنطينية بالولاء والطاعة. كما أن هذه الشعوب، بدأت تسير نحو طريق الحضارة والأستنارة لأول مرة فى تاريخها، بعد أن نجح المبشرون الروم فى تطوير ابجدية سلافية مشتقة من الابجدية القبطية، والتى تعرف بالابجدية الكريلية (أو السيريلية)، وبتحويل هذه الشعوب الى شعوب مسيحية متحضرة، تخلصت امبراطورية الروم من خطر هذه

وهرب أحمد بن محمد الواسطى من يدى العباس، فأتى سكندرية. فلقى أحمد ابن طولون بها، وهو عازم على المسير إلى برقة. فصغر أمر العباس عنده، فعقد ابن طولون لطبار على بعض الجيش الذى كان معه، فيهم أحمد بن وصيف وتيتك وسعد الأيسر. ومضوا يريدون برقة. فالتقى طبار مع أصحاب العباس بموضع يقال له دنباره من أرض برقة، يوم الاثنين لتسع بقين من جمادى الآخرة سنة ثمان وستين ومئتين. وانهزم أصحاب العباس، وقتل منهم كثير. وهرب العباس. فاتبعوه فأدركوه يوم الأحد لأربع خلون من رجب سنة ثمان.

ورجع أحمد بن طولون إلى الفسطاط يوم الثلاثاء لثلاث عشرة خلت من رجب سنة ثمان وستين. وأتى بالأسرى، فيهم جعفر بن جدار وأبو معشر ومحمد بن سهل المنتوف وعبدالله بن طغيا قد أعطوا أماناً. فرأى بكار القاضى أن لا أمان لهم. وكان دخولهم يوم الاربعاء لثمان بقين من شوال سنة ثمان وستين. ثم أخرجوا يوم الاربعاء لمستهل ذى القعدة، وقد بنيت لهم دكة عظيمة رفيعة السمك. فأمر أحمد بن طولون بأبن جدار، فضرب ثلاث مئة سوط. ثم تقدم إليه العباس فقطع يديه ورجليه، وألقى من الدكه.

ثم بعث أحمد بن طولون بلؤلؤ غلامه فى جيش إلى الشام. فكاتبه أبو أحمد الموفق وبعث إليه أبو أحمد، فحمله فى الماء من الرقة جمادى الأولى سنة تسع وستين، فبلغ ذلك أحمد بن طولون، فسارع إلى الخروج، ورجا أن يلحق لؤلؤا. واستخلف على مصر ابنه خمارويه بن أحمد.

وجعلا الاب البطرك بغير هم من امور السلطان لمواتاة الزمان لهما، وكان ابراهيم يضمن حسابه [من] خراج اواسى البيعة ويقوم به من عنده ولا يدع احد يخاطب الاب البطرك. وكان من نعمة الله ان جماعة من المومنين متوليين ديوان السلطان وجميعهم يذلو انفسهم على البيعة شهوة واجتهادا عن امانتهم واراحو البطرك والبيعة والمومنين. وصارو تحت هدو وسلامة ولا موضع واحد كان فيه اضطراب فى تلك الايام، وهم مواصلين

الشعوب وعدوانهما، فامنت جانبهم،حتى أن الامبراطورية الرومية شعرت أن مستقبلها يقبع فى شرق أوروبا السلافى، وليس فى غرب أوروبا اللاتينى، وهذا أيضا ساعد على تبلور شخصية الروم وكيستهم واستقلالهم عن تراث الغرب اللاتينى.

وبالاضافة الى ذلك فان انطلاق نهضة أدبية وفنية رومية جديدة، منذ أواخر القرن التاسع الميلادى، فيها يعرف بالعصر الذهبى الثانى للقسطنطينية، جعل الفن البيزنطى يكتمل فى مفاهيمه وأشكاله، ويستقل

ثم خرج أحمد فى صفر سنة تسع وستين، وخرج معه بالعباس مقيداً. فسار أحمد حتى نزل دمشق. فكتب إلى خلف الفرغانى عامله على طرسوس؛ كان طخشى قد استخلفه عليها عند وفاته. فكتب إليه أحمد يأمره بالقبض على يازمان الخادم، وبحمله إليه. فعلم أهل طرسوس بذلك، وأخذوا يا زمان من يدى خلف، وأخرجوا خلفاً من طرسوس، وولوا عليهم يازمان. فمضى أحمد بن طولون إلى دمشق، يريد المسير لمحاربة أهل طرسوس. فتلقاه كتاب المعتمد، يعلمه أنه خارج إليه، فتوقف أحمد بن طولون. وخرج المعتمد من العراق كالمتصيد، ثم ركب الطريق إلى الرقة. وبلغ أبا أحمد الموفق مسيره، وهو إذ ذاك موافق العلوى بالبصرة. فكتب أبو أحمد إلى إسحاق ابن كنداج الخزرى، وإلى صاعد بن مخلد، يخبرهما أن المعتمد قد مضى إلى أحمد بن طولون، وإن تم له هذا لم يبق من الموالى أحد، ويأمر إسحاق أن يلحقه فيرده، ووعده على رده أموالاً وإقطاعات. فلما سار المعتمد إلى الحديثة، أتاه إسحاق بن كنداج بهدايا وألطاف، واستأذنه فى خطاب الذين ساروا معه، وهم خطاريش وأحمد بن خاقان وتيتك وإبراهيم بن مدبر. فأذن له فى خطابهم. فخلا بهم إسحاق فقيدهم ثم عاد إلى المعتمد، فقال: إن الذى عزم عليه أمير المؤمنين هو الخطأ. وأخذه وأحدره إلى سر من رأى يوم الأحد لخمس خلون من شعبان سنة تسع وستين. ووكل به إسحاق بن كنداج خمس مئة رجل. فعقد أبو أحمد الموفق لإسحاق أبن كنداج على مصر. وبلغ أحمد أبن طولون ما فعله أبو أحمد

٥٤: انبا قزما البطرك ٨٥١/٨٥٩م

الصلوات والقداسات شاكرين لله على ما انعم به عليهم كما قال داود: بنور وجهك يسلكون وباسمك يتهللون كل النهار وبحقك يرتفعون لانك انت فخر قوتهم وبحقك يعلوا قرننا.

فلما دامت هذه النعمة والسلامة بدا الاب قزما بالاهتمام يكتب سنوديقا الى الاب يوحنا بطريرك انطاكية، فكتب وانفذ على يد اساقفة قديسين وهم انبا سويرس اسقف دلوج [دلاص/ بنى

عن الفن الموروث من حضارة الاغريق والرومان.

عصر الأسرة المقدونية
(٨٦٧ - ١٠٥٧م)

يعتبر عصر الأسرة المقدونية من أزهى وأقوى عصور الروم، فقد تخلصت الامبراطورية من كل مشاكلها في أواخر القرن التاسع، ثم انتقل العرش إلى أسرة قوية راسخة الاركان، انطلق أباطرتها الاقوياء الاكفاء يعملون متفانين، ومستخدمين الكفاءات، ومطلقين القدرات والمواهب المغمورة، ولم يكن أباطرة

واسحاق بن كنداج، فرجع إلى دمشق. وكتب إلى عامله يأمره بإحضار القضاة والفقهاء والأشراف، وكتب بخبر المعتمد وما فعل به . وورد كتابه إلى مصر، فقرىء على أهلها ، بأن أبا أحمد نكث بيعة المعتمد، وأسره، وحرش عليه في دار أحمد بن الخصيب، وأن المعتمد قد صار من ذلك إلى ما لا يجوز ذكره، وأن المعتمد يبكي بكاء شديداً. ثم خطب الخاطب بمصر يوم الجمعة، فذكر ما نيل من المعتمد، وزاد في خطبته: اللهم فاكفه من حصره ومن ظلمه. وخرج من مصر بكار بن قتيبة، ومنهال بن حبيب، وإسحاق بن محمد بن معمر، وقيس بن حفص، وعبدالله بن بشير، وحوثرة بن عبدالرحمن، وسعيد بن سعدون، وفهد ابن موسى، وعلى بن محمد بن عبدالحكم، وغيرهم إلى دمشق. وحضر هناك أهل الشأمات والثغور. فلما اجتمعوا، أمر أحمد بن طولون بكتاب خلع فيه أبا أحمد الموفق من ولاية العهد، لمخالفته المعتمد، وحصره إياه، وكتب فيه: إن أبا أحمد خلع الطاعة، وبرئ من الذمة فوجب جهاده على الأمة. وشهد على ذلك جميع من حضر إلا بكار بن قتيبة ومحمد بن إبراهيم الإسكندراني، وفهد بن موسى. وقال بكار: لم يصح عندى ما فعله أبو أحمد ولم أعلمه وامتنع من الشهادة والخلع. وكان ذلك يوم الخميس لاثنى عشرة ليلة خلت من ذى القعدة سنة تسع وستين ومئتين.

وبلغ أبا أحمد ما فعله أحمد بن طولون، فكتب إلى أعماله يأمرهم بلعنه على المنابر. فلعن

سويف] وانبا خايال اسقف البشرودين ومعهم كهنة. فلما وصلو اليه قبلهم بفرح عظيم واتحاد المحبة والامانة وباركو الرب جميع بيع انطاكية، وفرحو بما علمو من سلامته وسلامة البيعة بمصر واعمالها وشيعهم بعد ايام بمجد وكرامة وكتب بسلامة يتضمنو المحبة والاتحاد، ويدعو فى كتبه ان يديم الرب هذه السلامة.

وفيما هو فى ذلك لم يصبر مبغض الخير فبدا وطرح زوان سو فى قلب ملك المسلمين وهو جعفر

البيت المقدونى يسعون وراء القوة وحدها، بل تميزوا بحب الفنون والثقافة، وبفضل محافظتهم على ثروة البلاد، وحسن ادارة مرافقها، أصبحت الامبراطورية فى عهدهم أعظم دولة فى الشرق، اذ جمعت بين القوة المرهوبة الجانب، والرقى الحضارى والفنى، وأصبحت النموذج الامثل الذى احتذت به كثير من الدول. وهؤلاء هم أباطرتها:

الامبراطور باسيليوس الأول؛ (٨٦٧ - ٨٨٦م)؛

كان باسيليوس - مؤسس هذه الاسرة - فلاحا مقدونيا فظا ومغامرا،

عليها، وكان مما يلعن به: اللهم العنه لعناً يفل حده، ويتعس جده، واجعله مثلاً للغابرين، إنك لا تصلح عمل المفسدين.

ثم مضى أحمد بن طولون إلى طرسوس من دمشق. فلما صار بالمصيصة، بعث بوجوه من معه إلى يازمان الخادم يدعوه إلى طاعته والدعاء له، ويعطيه أماناً على ما أسلفه. فلم يجبه يازمان إلى شئ مما سأل. فزحف أحمد بن طولون إلى أدنة، ثم إلى طرسوس. فوجد يا زمان قد تحصن بها، ونصب المجانيق على سورها. فنزل أحمد بن طولون بجيوشه عليها فى شدة من البرد، وكثرة من الأمطار والثلوج. فأرسل يازمان الماء على عسكر أحمد بن طولون من نهر البردان، فغرق عسكره. ولم يكن لابن طولون مقام، فرحل عنها ليلاً. ورجع إلى أدنة، فأقام بها.

وارتحل أحمد بن طولون من أدنة إلى المصيصة، فأقام بها أياماً. وعرضت له علته التى كان منها حتفه، فأغذ السير إلى مصر والعلة تزيد عليه حتى بلغ الفرما. فركب فى الليل إلى الفسطاط، فدخلها يوم الخميس لعشر بقين من جمادى الآخرة سنة سبعين ومئتين. فأمر أحمد بن طولون بكشف بكار بن قتيبة، ووقفه للناس. وأمر بسجنه فى جمادى الآخرة سنة سبعين. وسجن كاتبه قيس بن حفص وأصحابه. وأمرهم برفع حساب ما جرى على أيديهم. ثم أطلق بكاراً فى شعبان سنة سبعين. وجعل النظر فى الأحباس إلى مسرى بن سهل صاحب الشرط.

يتمتع بذكاء ودهاء، وعزيمة قوية، وعريكة لا تلين، جعلت منه الرجل المناسب في المكان المناسب، ونتيجة لذلك أحبه الناس واحترموه، ونسوا تماما أنه كان مغتصبا للعرش بعد أن استعاد للامبراطورية هيبتها وكرامتها. ولقد قام باسيليوس بعدة اصلاحات هامة ، صححت مسار الامبراطورية ووضعتها على الطريق الصحيح.

سياسته الدينية وموقفه من طائفة البوالس:

ولما كان باسيليوس الأول ينتمي إلى أصول أوروبية، فقد كان شديد

المتوكل [تولى الخلافة العباسية في ٢٣٢هـ=٨٤٧م] فانزل على البيع في كل مكان بلايا لا تحصى عددها. وذاك انه امر بهدم البيع كلها ولا يكون احد من النصارى الارتدكسيين والملكيين والنسطوريين ولا اليهود بلباس ابيض بل بلباس مصبوغ ليظهرو في وسط المسلمين. وامر ان تجعل صور مفزعة على الواح خشب وتسمر على ابواب النصارى، والزم اكثرهم بالاسلام، وامر ان لا يخدم نصراني في خدمة السلطان بالجملة الا

وتزايدت علة أحمد بن طولون، فأمر الناس بالدعاء له. فغدا الناس بالدعاء له إلى مسجد محمود بسفح المقطم. يوم الاثنين لست خلون من شوال سنة سبعين. وحضر معهم القصاص. فدعوا له، ثم غدوا أيضاً بالدعاء له. وحضرت اليهود والنصارى معتزلين عن المسلمين. وحضروا أيضا اليوم الثالث مع النساء والصبيان. وأقاموا على ذلك أياماً. ثم توفي أحمد بن طولون ليلة الأحد لعشر خلون من ذي القعدة سنة سبعين ومتين. فبلغت وفاته المعتمد فاشتد وجده عليه وجزعه.

١٠٩ - خمارويه بن احمد

ثم وليها أبو الجيش خمارويه بن أحمد، على صلاتها وخراجها؛ بايعه الجند يوم الأحد لعشر خلون من ذي القعدة سنة سبعين [٨٨٣م] فأقر السري بن سهل على الشرط . وأحضر أخاه العباس لمبايعته فامتنع، فأدخل منزلاً من الميدان، وكان آخر العهد به.

وعقد خمارويه لأبي عبدالله أحمد بن محمد الواسطي على جيش إلى الشام فخرج من الفسطاط يوم الخميس لست خلون من ذي الحجة سنة سبعين. ثم عقد لسعد الأيسر على جيش آخر في سلخ ذي الحجة. وبعث بمراكب كثيرة في البحر [المتوسط]، فكانت مقيمة بسواحل الشام. ونزل أحمد بن محمد الواسطي فلسطين، وهو خائف جزع من خمارويه أن يوقع به، لأنه كان أشار عليه بقتل العباس. فكتب الواسطي إلى أبي العباس أحمد المعتضد بن أبي أحمد الموفق، بكتاب يصغر فيه أمر خمارويه. ويحضه على المسير إليه.

القـوم المسلمين ومن ينتـقل الى الاسـلام. ولاجل ذلك قلت المحبة والصبر من قلوب كثير حتى انهم انكرو السيد المسيح، فمنهم من انكر بسبب رتبة العالم لمحبتهم فيه، واخرين لما لحقهم من الفقر فلما علم السلطان انه قـد زرع هذا الامـر الطمث فى الكورة البرانية فبدا ان يذره فى كورة مصـر ويرمى فى قلب المتوكل ان يدوم على تغلبه. فـانفـذ الى كـورة مـصـر انسـان من جـهـتـه غيـر نـصرانى بل فريسى اسمه الغير عبدالمسيح ابن اسحاق [عنبسه

التمسك بعبادة الايقونات والتماثيل، وتصوير الرسل والقديسين فى صور بشرية، ولهذا فقد كان من الطبيعى أن يتخلص من بقايا أعداء الايقونية، والذين يتمثلون فى طائفة «البوالس Paulikaioi أى اتبـــاع بولوس السميساطى؛ وقد تكونت هذه الطائفة من المسيحين الاصوليين الاسيويين، الذين كانوا ينتشرون فى آسيا الصغرى وأرمينيا، وكانوا يتخذون من بولوس تلميذ المسيح رائدا، وذلك ردا على اتباع الكنيسة اللاتينية والبابا الذى يعتبر نفسه خليفة بطرس

وأقبل أبو العباس أحمد بن أبى أحمد الموفق من بغداد. وانضم إليه إسحاق ابن كنداج ومحمد بن ديوداد [المعروف بابن] أبى الساج، حتى أتوا الرقة. فسلم أهل قنسرين والعواصم، ودعوا له. وسار إلى شيزر، فلقيه بها أصحاب دادويه، فقاتلوه قتالاً شديداً. فهزمهم أبو العباس. ثم أتى حتى دخل دمشق. فأقام بها أياماً. وبلغ الخبر خمارويه، فخرج إلى الشام فى جيش عظيم، كان خروجه يوم الخميس لعشر خلون من صفر سنة إحدى وسبعين ومئتين. فالتقيا هو وأبو العباس أبن أبى أحمد الموفق بنهر أبى فطرس من أرض فلسطين، [و] يقال له اليوم الطواحين، فاقتلوا، فانهزم أصحاب خمارويه، وكان فى سبعين ألفا، وكان أبو العباس فى نحو من أربعة آلاف، واحتوى أبو العباس على عسكر خمارويه بما فيه. ومضى خمارويه على وجهه إلى الفسطاط لا يلوى على شئ. وأقبل كمين خمارويه عليهم سعد الأيسر، وفيهم أحمد بن إسماعيل العجمى، وتشركين، وحوطامش، ولم يعلموا بهزيمة خمارويه، حتى أشرفوا على العسكر. فأقبلوا إلى أبى العباس فحاربوه حتى أزالوه عن العسكر، وهزموه اثنى عشر ميلاً، وذلك فى صفر سنة إحدى وسبعين ومئتين.

ورجع أبو العباس إلى دمشق فلم تفتح له. وقدم خمارويه إلى الفسطاط يوم الجمعة لثلاث خلون من ربيع الأول سنة إحدى وسبعين.

ومضى سعد الأيسر مع الواسطى فدخلا دمشق [و] ملكاها، ودعوا فيها لخمارويه. ثم

بن اسحاق الضبى انظر جـ٢] ولاه خراج مصر والولاية، وامره ان يفعل ببيع مصر والنصارى مثلما فعل بمدينة بغداد والمشرق. فلما وصل الى مصر بدا بالنصارى وانزل عليهم بلايا واذلهم جدا باحزان شتى كما احكمها فيه الشيطان. فكان المذكور يتظاهر عند المسلمين انه يفعل وصايا ناموسهم بالمراياة التى كان يفعلها حتى انهم كانو يقولو ما راينا احد وصل الى مصر مثل هذا يتمم وصايا دين الاسلام. واذا كان فى يوم جمعة مشى

الحوارى الأول للسيد المسيح. وكان مذهب البوالس قد بدأ يتبلور منذ القرن الخامس الميلادى، وأصبحوا قوة مؤثرة فى القرن الثامن، وكانوا ينكرون الايقونية، بل ويذهبون إلى حد تكفير عبادة مريم العذراء أم المسيح، وينكرون حادثة العشاء الربانى الأخير للمسيح وحوارييه، والتى هام الفنانون الدينيون بها عشقا، وصاروا يتبارون فى رسم المسيح وحوارييه على هذه المائدة الربانية. ولما انتصرت عبادة الايقونات، وسيطر الايقونيون على كنيسة القسطنطينية،

خرج خمارويه من الفسطاط لسبع بقين من شهر رمضان من سنة إحدى وسبعين، حتى أتى فلسطين. ثم عاد إلى الفسطاط، فدخلها لاثنى عشرة بقين من شوال سنة إحدى وسبعين. فصرف السرى بن سهل عن الشرط، يوم الاثنين لخمس خلون من جمادى الأولى سنة اثنتين وسبعين، وجعل مكانه موسى بن طونيق. وخرج خمارويه إلى الشام فى ذى القعدة سنة اثنتين وسبعين ومئتين. فقتل سعداً الأيسر فى شئ ظهر منه من خلاف. ومضى خمارويه فدخل دمشق يوم الثلاثاء سابع المحرم سنة ثلاث وسبعين. ومضى من دمشق فلقى إسحاق بن كنداج بموضع يقال له باجروان ودانمان من أرض الرافقة. فكانت على خمارويه وأصحابه، فانهزم أصحابه. وثبت هو فى طائفة من حماته، فهزموا إسحاق بن كنداج، فمضى إسحاق منهزماً، واتبعه خمارويه حتى بلغ أوائل أصحابه إلى سر من رأى.

ثم سفر قوم من وجوه الجند بين إسحاق وبين خمارويه، فاصطلحا وتصاهرا. وأتى إسحاق إلى خمارويه، فأقام فى عسكره، ودعا له فى أعماله التى بيده.

وكاتب خمارويه أبا أحمد الموفق، فسأله الصلح على مال يبذله عما فى يده. فأجابه أبو أحمد إلى ذلك، وكتب له بذلك كتاباً، فقدم به فائق الخادم إلى الفسطاط فى رجب سنة ثلاث وسبعين، يذكر فيه أن المعتمد وأبا أحمد وأبا العباس كتبوه بأيديهم، بولاية خمارويه

راجلا هو وجيشه الى الجامع فى وسط مصر يصلى، وكان مبغضا للرب يسوع المسيح وصليبه المقدس ومن يتلبس به، ثم بدا هذا المبغض يخفى اظهار علامة الصليب لا تظهر بالجملة، وجعلو يكسرو كل صليب فى البيع بالجملة، ولا يدع احد من النصارى يمشى بعلامة الصليب. وضيق علينا و[على] مذهبنا حتى ان النصارى ما صارو يتمكنو من الصلاة فى البيع الا بصوت خفى، فاذا جاز انسان بالبيعة لا يسمع صوت كلام من يصلى،

انشق البوالس عنها، ورفضوا الاعتراف بها أو الاذعان لسلطانها، بل كانوا فى طريقهم الى انشاء كنيسة خاصة بهم، ولولا اسراع باسيليوس بالقضاء على حركتهم التى كادت أن تحول كنيسة القسطنطينية الى كنيستين متعاديتين.

محاولة باسيليوس الأخيرة لتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية:

ولقد كان باسيليوس متأثرا إلى حد كبير بالامبراطور جستنيان ودعوته لتوحيد الكنيسة، فالامبراطورية الواحدة لن تقوم الا على الكنيسة الواحدة المتحدة، ولحسن الحظ كان

وولده ثلاثين سنة على مصر والشامات. ثم قدم خمارويه إلى الفسطاط، سلخ رجب سنة ثلاث وسبعين ومئتين. فأمر بالدعاء لأبى أحمد الموفق، وترك الدعاء عليه.

وجعل خمارويه على المظالم بمصر محمد بن عبدة بن حرب فى شعبان سنة أربع وسبعين، ثم صرف موسى بن طونيق عن الشرط، لمستهل المحرم سنة أربع وسبعين، وجعل مكانه أحمد بن محمد بن الحكم العجيفى.

وبلغ خمارويه مسير محمد بن ديوداد المعروف بابن أبى الساج [إلى أعماله]. فخرج إليه خمارويه من مصر فى ذى القعدة سنة أربع وسبعين. فلقيه بثنية العقاب من أرض دمشق. فانهزم أصحاب خمارويه، وثبت خمارويه، فحاربهم فكشفهم، وانهزموا عنه أقبح هزيمة.

وعاد خمارويه إلى الفسطاط، فدخلها يوم الخميس لست بقين من جمادى الآخرة سنة ست وسبعين. ثم خرج إلى الإسكندرية يوم الجمعة لأربع خلون من شوال سنة ست وسبعين. وأتى الخبر إلى الفسطاط بأن يا زمان الخادم دعا لخمارويه بطرسوس والثغور، فى جمادى الآخرة سنة سبع وسبعين.

وخرج خمارويه إلى الشام يوم الثلاثاء لسبع عشرة من ذى القعدة سنة سبع وسبعين. ومات أبو أحمد الموفق سنة ثمان وسبعين، وعقد العهد لابنه أبى العباس.ثم توفى المعتمد لعشر بقين من رجب سنة تسع وسبعين، وبويع المعتضد بن أبى أحمد الموفق . فبعث إليه خمارويه

ومنعوهم ان لا يصلو على نصرانى اذا مات، وقطع ضرب الناقوس. وصار مثل ديقلاديانوس الذى صارت اعماله مثل اعماله ولم يقنعه ذلك حتى بدا يمنع النصارى من القداسات، وان لا يقدسو بالجملة [جماعة]. وامر ان يمنع النبيذ فى جميع اعماله وباخاص مدينة مصر، حتى انه لا يظهر جملة ولا يباع ولا يشترى، فافتقر جماعة ممن كانو يتجرو فيه. وغرضه فى هذا جميعه حتى لا يوجد خمر يرفع به القداس، وعدم حتى صارو النصارى

بابا روما فى ذلك الوقت فى حالة ضعف بسبب تدهور الدولة الكارولنجية التى كانت تحمى كنيسته، ومن ثم قبل البابا أن يدخل فى مفاوضات مع كنيسة القسطنطينية برعاية من الامبراطور، والذى كان يهدف إلى زيادة نفوذ كنيسة القسطنطينية ومد سلطانها على الكنيسة اللاتينية، ومن أجل ذلك تنازل باسيليوس عن الكثير ليرضى البابا وكنيسته، حتى أن الدارس يبدو له لأول وهله أن هذا الاتفاق كان انتصارا للكنيسة اللاتينية، التى تصر

بالهدايا، مع الحسين بن عبدالله ابن منصور الجوهرى . وصرف أحمد بن محمد العجيفى عن الشرط، وجعل مكانه الحسين بن وصيف، يوم الأحد لتسع خلون من شوال سنة سبع وسبعين. وقدم خمارويه من الشام ، فدخل الفسطاط يوم السبت لست خلون من ربيع الأول سنة ثمانين ومئتين.

وورد كتاب المعتضد على خمارويه لخمس بقين من ربيع الأول سنة ثمانين ومئتين، وبولايته هو وولده ثلاثين سنة من الفرات إلى برقة، وجعل إليه الصلاة والخراج والقضاء وجميع الأعمال، على أن يحمل فى كل عام من المال مئتى ألف دينار عما مضى، وثلاث مئة ألف عن كل عام للمستقبل. ثم قدم رسول المعتضد فى شهر رمضان سنة ثمانين باخلع، وهى اثنتا عشرة خلعة وسيف وتاج ووشاح، مع خادم يدعى سنيف.

وعقد المعتضد على قطر الندى بنت خمارويه سنة إحدى وثمانين.

وفيها خرج خمارويه إلى نزهة بمريوط، خرج من الفسطاط لأربع بقين من شعبان سنة إحدى وثمانين. ثم مضى إلى الصعيد حتى بلغ سيوط. ثم رجع من الشرقية إلى الفسطاط مستهل ذى القعدة سنة إحدى وثمانين. وصرف الحسين بن وصيف عن الشرط، يوم الثلاثاء لست خلون من شعبان سنة اثنتين وثمانين، ورد موسى بن طونيق مكانه. وخرج خمارويه إلى الشام يوم الخميس لثمان خلون من شعبان سنة اثنتين وثمانين. فأقام بمنية الأصبغ، منية مطر.

ياخذو عيدان الزرجون يلوها بالما [ء] ويعصروها حتى لا يعدمو القربان. وكان الحزن والضيق على النصارى، وكانو يقولو كما قالت الثلثة فتية: انك اسلمتنا فى ايدى اعدا اثمة منافقين ماردين وملك ظالم اشـر من كلمن على وجـه الأرض والان لا نقدر نفتح فانا [فمنا] لاخا [لأن] حزنا وعار صار لعبيدك والذين يعبدونك ولا تسلمنا لاجل اسمك. ولم يزل هذا الظالم يثقل نيره على النصارى من شدة بغضه لهم وبدا ان يتمم عليهم كل امر سو.

على أنها أسبق كنائس العالم وبالتالى يتوجب على جميع الكنائس أن تذعن للبابا، لأنه خليفة بطرس نائب المسيح على الارض؛ لكن هذا التصالح لم يثن الكنيسة الشرقية الاغريقية في القسطنطينية عن تمسكها بأنها الكنيسة الأولى. وأن سلطة البطريرك فوق سلطة البابا، وكل ما حققه باسيليوس هو أنه أوقف الصراع الظاهرى بين الكنيستين، أو بين البابا والبطريرك. غير أن الصراع الحقيقى ظل خفيا يتوقد. والحقيقة أن الامبراطور باسيليوس جعل الأمر أكثر

ثم رحل يوم الثلاثاء لعشر بقين من شعبان سنة اثنتين حتى دمشق. فكان بها مقتله ليلة الأحد لليلتين بقيتا من ذى القعدة سنة اثنتين وثمانين؛ يقال إن خدمه قتلوه، وهم طاهر ولؤلؤ وناشى وسابور وممافط ونظيف. فقتلوا جميعاً، وحملت رؤوسهم إلى الفسطاط، فجعلت على الجسر. وحمل خمارويه إلى الفسطاط، فدفن بها. فكانت ولايته عليها اثنى عشرة سنة وثمانية عشر يوماً.

١١٠ - ابو العساكر جيش بن خمارويه

ثم وليها أبو العساكر جيش بن خمارويه، وبويع يوم الأحد لليلة بقيت من ذى القعدة سنة أثنان وثمانين ومئتين [٨٩٥م] بدمشق، وإليه صلاتها وخراجها. فسار إلى مصر فدخلها، وجعل على الشرط موسى بن طونيق.

واشتملت عليه طائفة من الجند، وحملوه على أمور كرهها معظم الجند. فتنكروا له، وتنكر لهم. وخافوا على أنفسهم، فدنوا من الفساد عليه. فخرج متنزهاً إلى منية الأصبغ، فهرب من عسكره محمد بن إسحاق بن كنداج، وخاقان المفلحى، ومحمد بن كمشجور بندقة، وبدر بن جف ومحمد بن قرا طُغان فى ثلاث مئة رجل من وجوه قواده. فلحقوا بالمعتضد وكان أحمد بن طُغان على الثغر فخلع جيشاً. وخلعه طغج بن جف بدمشق. ثم وثب جيش على عمه نصر بن أحمد بن طولون فقتله. فوثب به يرمش وصافى وفائق فى أكثر الجيش والموالى،

تعقيدا عندما عزل البطريرك فوتيوس Photios، ونفاه الى أحد الاديرة النائية ترضيــة للبــابا ؛ وبدون أن يحــسب حسابا لعواطف شعب القسطنطينية، سمح لرسول البابا أن يعلن متفاخرا، انه «قد تم طرد فوتيوس من الكنيسة»، مما سبب سخطا شديداً بين الروم، لدرجة أن باسيليوس حاول في عام ٨٧٣ ميلادية أن يصلح من موقفه باستدعاء فوتيوس من منفاه إلى القسطنطينية ليعينه معلما لأولاده، وعندما خلا كرسى البطريركية بعد

واخــرج [كُـتـاب الدواوين النصـارى] من ديوان السلطان وجعل عوضا منهم المسلمين. فلما تمم هذه الامور كما تممها فى بلاد المشرق وجعل النصارى واليهود يصبغو ثيابهم، وجعل على ابوابهم صور مفزعة التى ذكرناها فى بلاد المشرق، وصفة هذه الصورة انها تشبه شيطان عليها روس كثير ووجوه لها نابين راكبة على صورة تشبه خنزير وحشة جدا مخوفة المنظر، وامر ان لا يركب نصــرانى بالجملة فرس. هذا فعله ذلك الشــرير

فخلعوه. وبايعوا أخاه هارون بن خمارويه. وجمع له القضاة والفقهاء والقراء، فتبرأ إليهم من بيعته. وحللهم منها، وأشهدهم على نفسه بذلك . وكان خلعه يوم الأحد لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين. فكانت ولايته ستة أشهر واثنى عشر يوماً. ثم سجن فمات بعد أيام.

١١١ - هارون بن خمارويه

ثم وليها هارون بن خمارويه [فى ٢٨٣هـ = ٨٩٦م]، يوم خلع جيش، فجعل على الشرط موسى ابن طونيق. وقامت الطائفة من الجند ممن كره ولاية هارون بن خمارويه، [وكاتبوا ربيعه بن أحمد بن طولون]، وكان بالإسكندرية، ودعوه إلى الولاية، ووعدوه القيام معه. فجمع ربيعة جمعاً كثيراً من أهل البحيرة من البربر وغيرهم، وأقبل فيهم حتى نزل منبوبة [امبابه] من كورة وسيم. ثم عدى النيل، فنزل باب المدينة. فخرج إليه نفر من القواد، فسألوه ما الذى حمله على المسير. فأخبر هم أن ناساً من القواد بايعوه. فناوشوه الحرب، وقتلت بينهم قتلى. ثم طعن فرس ربيعة فسقط، فأسروه؛ أسره شفيع اليعامورى. فأتى به إلى محمد بن أبى فحبسه. ثم أخرج يوم الثلاثاء لإحد عشرة خلت من شعبان سنة أربع وثمانين إلى دار الإمارة القديمة بالعسكر. فضرب ألفاً ومئتى سوط، ومات.

بافكار الشيطان وان بهذه الاسباب يخرجو [النصارى] من اديانهم. وقوما كثير ما صبرو ولا توكلو على الاههم وانكرو اسم المخلص في تلك الايام الشديدة ونسو ما قاله في الانجيل المقدس: والذى يصبر الى التمام فهو يخلص ويكرز بهذا الانجيل. فاما الكتاب المومنين الذين تقدم ذكرهم فكانو تحت ضيقة عظيمة وصعوبة من هذا الذى ليس بانسان ومن قوة اماناتهم لما صرفو من اشغالهم توكلو على رحمة الله تعالى ذكره وسالوه

أربع سنوات، أعاد فوتيوس الى منصبه السابق، ونجح في أقناع البابا لكي يعترف بهذا التعين، وتلى ذلك عودة العلاقات بين الكنيستين غير أن العلاقة لم تكن من القلب، لأن الجرح الذى حدث لم يندمل أبداً، بل على العكس زاد اتساعا في القرن الحادى عشر. ففى عام ١٠٥٤ ميلادية أنشطرت الكنيسة الواحدة الى شطرين منفصلين، وذهب كل شطر في طريقه.

سياسته الخارجية:

كانت الأصول الثابتة لسياسة

ثم كانت فتنة ابن قريش، وذلك أنه أنكر أن يكون أحد خيراً من أهل رسول الله، فوثب به الرعية، فضرب بالسياط يوم الجمعة في جمادى الأولى سنة خمس وثمانين. فمات بعد يومين.

وتوفى أمير المؤمنين المعتضد في ربيع الآخر سنة تسع وثمانين، وبويع أبو محمد ابنه، ولقب المكتفي بالله. وخرج القرمطي بالشام في سنة تسعين ومئتين، فبعث إليه هارون بالقواد. فحاربوه فهزمهم، وبلغ كل مبلغ. فبعث إليه الجيوش من العراق فحاربوه.

وقتل أبو علاثة محمد بن أحمد بن عياض بن أبي طيبة الجفي، وكان رجلاً ذا لسان وعارضة، فكان ممقوتاً عند كثير من الناس. فزلت به القدم، فتشاهد عليه أقوام من سفل الناس وأوضاعهم. و[بلغ] السلطان ذلك منهم، فقبل شباداتهم فضرب مراراً. وأرادوا بذلك أن يذلوه من ضربهم إياه. وانكشف للناس ظلمهم له وما قصد به فيه، وكان أشد الناس عليه عامة أهل المسجد. كان قتله لست بقين من شهر رمضان سنة إحدى وتسعين ومئتين.

سمعت ابن قديد يقول: أقبح ما أتى أهل هذا المسجد شهادتهم على [ابن] الفطاس حتى باعوه، وعلى أبي علاثة حتى قتلوه.

وبعث المكتفي بالله محمد بن سليمان الكاتب. فوردت أخباره إلى مصر بنزوله حمص، وكان بدر الحمامي والياً على الشام من قبل هارون. فكتب بدر إلى محمد بن سليمان بالسمع والطاعة، ثم تلقاه هو والحسين بن أحمد الماذرائي، فكانا معه في عسكره. وكتب محمد بن

الروم تتركز في جانبين ، أولهما صد غارات المسلمين وردهم عن آسيا الصغرى وأرمينيا، وثانيهما استعادة ممتلكات الامبراطورية في ايطاليا وجزر البحر المتوسط. فقد كانت الامبراطورى بين شقي الرحى، خطر العباسيين في المشرق، وقوة الكارولنجيين في أوروبا الغربية. وشاءت الظروف أن تضع بين يدى باسيليوس الأول فرصتين نادرتين. ففى المشرق كانت الدولة العباسية تمر بأزمة طاحنة، وتعانى من عوامل التفكك والانهيار بسبب انتشار

ان لا ينساهم. فاما ابونا [قزما] البطرك لما شاهد الاراخنة وما نالهم من الصعوبة من ذلك الشيطان والبطالة وقطع معايشهم وانهم الذى كانو يهتمو بامور البيعة كان حزين جدا، وتواصلت كتب المومنين الى الاب البطرك يسالوه الدعا لهم، وكانو ايضا يكاتبو الابا الصالحين المنقطعين الى الله فى الجبال والديارات بمواصلة الدعا لهم وللمومنين بالمسيح ان يكشف الله عنهم هذه الغمة ولا ينساهم ولا يدعهم تحت رجزه وغضبه. وكان الابا

سليمان إلى دميانة، وهو بالثغر، يأمره بالمسير فى مراكبه إلى سواحل مصر وفلسطين. وضم إليه رشيق الوردامي المعروف بغلام زرافة، فسار مع دميانة. وأقبل محمد بن سليمان إلى فلسطين، وعليها وصيف بن صوارتكين عاملاً لهارون. فكتب وصيف إلى محمد بن سليمان بالسمع والطاعة. ولحق صافي مولى خمارويه محمد بن سليمان.

وأتت الأخبار إلى مصر يتبع بعضها بعضاً بمسير محمد بن سليمان. فأخرج هارون مضاربه يوم الاثنين مستهل ذى الحجة سنة إحدى وتسعين ومئتين. وخرج إليها هارون ، فنزلها يوم التروية. وبعث هارون بوصيف القطرميز فى المراكب الحربية ومعه خصيب البربرى وحماد بن ما يخشى. فساروا فى النيل حتى أتوا تنيس، ليمنعوا دميانه. فلقيهم دميانة ليلة النحر فحاربهم. فانكشفوا عنه، واستأمن إليه كثير منهم، وهرب وصيف القطرميز. ودخل دميانة تنيس، فأمن أهلها وسكنهم . ومضى حماد بن ما يخشى إلى قرى أسفل الأرض. ففرض فروضاً، وأقبل بهم. ومضى دميانة إلى دمياط، فكتب إلى أصحاب هارون كتاباً يدعوهم إلى طاعة المكتفي. فأبوها، فسار إليهم فى خليج دمياط. فالتقوا غداة يوم الجمعة لثلاث بقين من ذى الحجة سنة إحدى وتسعين. فقتل كثير من أصحاب القطرميز، وانهزم الباقون، وأسر خصيب البربرى ووصيف القطرميز وحماد بن ما يخشى. واحتوى دميانة على مراكبهم بما فيها.

وسار هارون بن خمارويه، فنزل العباسة، واستخلف على الفسطاط حسن بن السير. وخرج هارون معه بجميع أهله وأعمامه، خوفاً من قيامهم بعده بالفسطاط، فكانوا معه فى ضر

الرهبان مواصلين الدعا ليلا ونهارا ان يحفظو الاسم الصالح الذى به النجاة من العذاب.

وكان ايضا فى ذلك الوقت انسانا نصرانيا وانتقل إلى مذهب الاسلام واولاده اسمه اصطفن ابن اندونه وجعله ابليس وعا [وعاء] يتكلم فيه وكان يذكر المومنين بكل سو ويقول ان النصارى قبل هذا اليوم لا يلبسو ثياب لها اكمام بل يلبسو ثيابا بغير اكمام كما تلبس الرهبان الذين هم يدعوهم اباوهم فاذا كان الابا تلبس هذا اللباس

حركات الاستقلال عنها؛ ففى فارس استقل اقليم خراسان، وتأسست فيه دولة تعرف بالدولة الطاهرية؛ وفى مصر استقل أحمد بن طولون وأسس الدولة الطولونية؛ وفى شمال أفريقيا تزايدت شوكة الأغالبة، وأصبح لهم السيادة البحرية على الحوض الغربى من البحر المتوسط، بل أغلقوه فى وجه سفن الروم مستغلين قواعدهم فى تارنتوم وصقلية، والتى منها شنوا غارات بحرية حتى على الاملاك البابوية فى ايطاليا، بل أغاروا على روما نفسها. ولم تستطع الدولة

وجهد. ثم نزل دميانة دميره، فلقيه بها محمد بن أبى نجيح. فاقتتلوا قتالاً شديداً، فظفر بهم دميانه. وبعث على ابن فلفل فى عدة مراكب ، فكانوا فى النيل بإزاء دميانة ليمنعوه من المسير. وتفرق كثير من أصحاب هارون عنه فى البر والبحر، وبقى فى نفر يسير. وتشاغل باللهو والطرب، فأجمع عماه شيبان وعدى ابنا أحمد بن طولون على قتله. فدخلا عليه، وهو ثمل فى شرابه، فقتلاه ليلة الأحد لإحدى عشرة ليلة بقيت من صفر سنة آثنتين وتسعين ومئتين، وسنه يومئذ ثمان وعشرون سنة. كانت ولايته عليها ثماني سنين وثمانية أشهر [وأياماً].

١١٢ - شيبان بن أحمد

ثم وليها شيبان بن أحمد بن طولون أبو المقانب، بويع لعشر بقين من صفر سنة أثنتين وتسعين [٩٠٤م]. فأقر موسى بن طونيق على الشرط. وقدم شيبان الفسطاط يوم الثلاثاء لسبع بقين من صفر، فسلم إليه أمرها كله. وبلغ طغج ابن جف وفائقا مولى خمارويه وغيرهما من وجوه الجند والقواد قتل هارون، فأنكروه وخالفوا شيبان. فكاتبوا الحسين بن حمدان بن حمدون، وهو إذ ذاك من وجوه أصحاب محمد بن سليمان، فأخبروه بمقتل هارون، وسألوه أخذ الأمان لهم، وحركوه على المسير إلى الفسطاط. وأقبل محمد بن سليمان حتى نزل جرجير، فوافاه بها كتاب طغج بن جف بالسمع والطاعة. ونزل محمد ابن سليمان العباسة، فلقيه بها طغج فى ناس من القواد كثير، فساروا لسيره إلى الفسطاط. وأقبل دميانة بمراكبه إلى

بالحرى ان تكون اولادهم مثلهم. وكان ظنه ان الكتاب يمتنعو من اللباس وينكرو دينهم. وان الرب محب البشر ارذل موامرتهم وبددها كما هو مكتوب في سفر ايوب المملو حكمة الذى يغير موامرة الاشرار. كذلك فعل الله بهذا الانسان الفاجر واعاد موامرته على راسه كما قال ارميا النبي: عودو ايها الذين يعملون الموامرة المخفية ازرعو لكم زرعا جيدا ولا تزرعو على الشوك ليلا

العباسية أن تفعل شيئا لقمع حركات الاستقلال، ولم يتبق لها سوى العراق والشام.

وفي أوروبا الغربية، أدت الحروب التي قامت بين أبناء لويس التقي ابن شرلمان إلى صراع هز كيان الامبراطورية الكارولنجية، فلقد شجعت المنازعات الداخلية بين الورثة إلى طمع أعدائها فيها. مثل النورمانديين والمجريين والاغالبة، حتى أن المؤرخين يطلقون على هذه الفترة من تاريخ الدولة الكارلنجية – اسم «الغزو الثاني للبرابرة»، تشبيها بالغزو

- -

ساحل الفسطاط، فنزل به سلخ صفر سنة اثنتين وتسعين. وعسكر شيبان يوم الاربعاء مستهل ربيع الأول بعين شمس. فأتاهم محمد بن سليمان، فمضى إليه عامة أصحاب شيبان يسألونه أمانهم. فلما رأى شيبان ذلك، أرسل إلى محمد بن سليمان في أمانه وأمان إخوته وأهله، فأمنهم. وخرج شيبان ليلة الخميس لليلة خلت من ربيع الأول سنة اثنتين إلى محمد بن سليمان، وانصرف عسكره كله. ثم دخل محمد بن سليمان الفسطاط. وكانت ولايته عليها اثنى عشر يوماً.

ثم دخل محمد بن سليمان الكاتب يوم الخميس لمستهل ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين ومئتين. فأمر بإحراق القطائع فأحرقت. ونهب أصحابه الفسطاط يومئذ. فركب محمد بن سليمان، فطافها وأطلق من في السجون، وسكن الناس. ودعا من الغد على المنبر لأمير المؤمنين المكتفي بالله. وصرف موسى ابن طونيق عن الفسطاط يوم الجمعة لليلتين خلتا من ربيع الأول. وجعل محمد ابن سليمان مكانه رجلاً من أصحابه يقال له البكتمرى. وصرف أبا زرعة محمد بن عثمان القاضي عن قضائه، ورد محمد بن عبدة بن حرب على القضاء. وبعث محمد بن سليمان بطفج بن جف والياً إلى قنسرين، وضم إليه جمعاً من جند بني طولون. ثم أمر بإخراج الأعراب الذين قدموا معه. ثم أخرج ولد أحمد بن طولون ، وهم عشرون إنساناً، وأخرج بدرا الحمامي والياً على دمشق. وأخرج منها قواد بني طولون ومواليهم، وقتاً بعد وقت،

يخرج غضبي لان غضبي يشتعل ولا يخمد. كذلك هذا الشرير ناله هذا.

وفي ذلك الوقت وصل كتاب الملك يامره [يأمر عنبسه بن اسحاق] بالعودة اليه وان يحمل إليه مال مصر وما جمعه له ومعه حساب الارخنين [مقار بن يوسف، إبراهيم ابن ساويرس] والكتاب الذين استخدمهم من المسلمين لانه كان قد صرف النصارى. وكان ذلك بتدبير من الله جل اسمه،

الأول ، الذى أتى على الامبراطورية الرومانية القديمة عام ٤٧٦ ميلادية. فقد استقل لوثر الابن الاكبر للويس التقى باقليم يمتد من الراين حتى أطراف الولايات البابوية في ايطاليا بما في ذلك العاصمة الكارولنجية آكس لاشابل (آخن) ومدينة روما، وأطلق عليه اسم برجنديا؛ أما الابن الثانى المسمى بلويس الجرمانى، فقد استقل بالشطر الشرقى الذى تسكنه القبائل الجرمانية، وأدى القسم باللغة الالمانية؛ أما الجزء الغربى من الامبراطورية الكارولنجية، والذى كان يتحدث

فلم يبق بمصر منهم أحد يذكر. فخلت منهم الديار، وعفت منهم الآثار، وتعطلت منهم المنازل، وحل بهم الذل بعد العز، والتطريد والتشريد بعد اجتماع الشمل ونضرة الملك ومساعدة الأيام.

وجعل محمد بن سليمان أبا على الحسين بن أحمد الماذرائى على خراجها، وصرف عنه أبا الطيب أحمد بن على بن أحمد الماذرائى.

وورد كتاب المكتفى بولاية الحسين بن أحمد على الخراج، وجعل إليه النظر فى أمر بنى طولون وضياعهم. ثم ورد كتاب المكتفى بولاية النوشرى عليها.

١١٣ - عيسى النوشرى

ثم وليها عيسى النوشرى على صلاتها، من قبل المكتفى؛ دخلها خليفته عليها يوم الأحد لأربع عشرة خلت من جمادى الأولى سنة اثنتين وتسعين ومئتين، فتسلم الشرطتين وسائر الأعمال. ثم قدمها عيسى النوشرى يوم الثلاثاء لسبع خلون من جمادى الآخرة. فصرف البكتمرى عن الشرط، وجعل مكانه يوسف بن إسرائيل. وجعل على الإسكندرية على بن وهوذان، والمهاجر ابن طليق على أسفل الأرض ، وأبا عبدان...

فخرج إليه أبو أحمد بن تيتك على مقدمه ابن الخليج إلى معسكره بمنية الأصبغ يوم

فلما وقف عليه وقراه علم منه فساد راى الملك فيه، وكان قد تزوج بمصر واقتنى سرارى وبنا مساكن ورزق اولادا واقتنا نعما كثيرة لا تحصى، وللوقت اصابه فلاجا [فالجا] وبطلت حركات يديه ورجليه ومات موتة سو عقيب هذا الامر بايام قلايل، كان قد احصاها تادرس الكاتب الذى كان يكتب لمن قبله الرسايل، وهذا كان له صيت عظيم فى صناعته وحسن خطه وايراده [إيراده] الالفاظ المستحسنة لجميع من يقراها، وذكر انها

سكانه باللغة اللاتينية فقد منح لشارل، وأصبح هذا الجزء يعرف بفرنسا، وأدى شارل القسم بالفرنسية؛ وقد أقر الاخوة المتصارعون هذا التقسيم فى معاهدة عقدوها عام ٨٧٠ ميلادية وتسمى بمعاهدة مرسون. وفى وسط هذا الخضم المتلاطم من الصراع، لم يجد البابا من يحميه ويحمى ممتلكاته من النورمانديين ومن الاغالبة.

ولقد بدأ باسيليوس بتصفية حساباته مع الدولة العباسية فى آسيا الصغرى، فبدأ فى تعديل حدود دولته

الخميس لثلاث خلون من المحرم سنة ثلاث وتسعين. ونزل أبو الأغر فلقيته مقدمة ابن الخليج سنة ثلاث وتسعين ومئتين.

وأقام ابن الخليج بالفسطاط صفر وربيعين. ثم بلغه مسير أبى شجاع فاتك المعتضدى إليه، ومسير دميانة فى المراكب. فنزل فاتك بالنويرة، ومعه بدر الحمام؛ وعسكر ابن الخليج بباب المدينة. وتنخل [اختار] من أصحابه ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف، فسار بهم ليلاً ليبيت فاتكاً. فضلوا الطريق وتاهوا ليلتهم، وأسفر ابن الخليج قبل أن يبلغ النويرة. فعلم بهم أصحاب فاتك فنهضوا واقتتلوا. فانهزم أصحاب ابن الخليج، وثبت هو يحميهم فى جمع يسير، ثم اتبع أصحابه منهزماً، ولم يُتبع حتى دخل الفسطاط. وكانت هذه الوقعة يوم الخميس لثلاث خلون من رجب سنة ثلاث وتسعين. واستتر ابن الخليج فى منزل رجل يقال له تريك.

ودخل دميانة فى مراكبه إلى الفسطاط. وأقبل عيسى النوشرى، والحسين ابن أحمد الماذرائى. ومن كان معهما إلى الفسطاط. فدخلوها لخمس خلون من رجب سنة ثلاث وتسعين ومئتين. فعاد عيسى النوشرى إلى ما كان عليه من [صلاتها. والماذرائى إلى ما كان عليه من] الخراج. وعاد يوسف بن إسرائيل إلى الفسطاط. وأتى تريك إلى عيسى النوشرى. فخبره بأن ابن الخليج عنده. فهجم عليه، فأخذ وقيد، وذلك يوم الاثنين لست خلون من رجب. فجميع ما أقامه ابن الخليج منتزيا على الفسطاط سبعة أشهر وعشرون يوماً.

احد وعشرين يوما، وفرح به اكثر المسلمون لانه كان لا يرفع اقدارهم واضعف معايشهم وخسر التجار اموالهم واغتصبهم [اغتصب منهم] اجود الرباع الذين كانو يملكوها واخذها قهرا. وكان مهما صلح له من الادر احضر صاحبها وابتاعه منه وكتب كتابه الدار وسلم اليه المال بحضور الشهود في ذلك الوقت، وبعد انفصال البيع ينفذ ويستعيد المال. ولم يفوز منه بما اخذه من المال الا رجلين كانا اخوين، وكان لهما دار مليحة البنا قد ورثاها

معها، بدفع قواتها شرقا على طول تلك الحدود، من كيليكيا في الركن الشمالي الغربي من البحر المتوسط، إلى أرمينيا وطرابيزون في الركن الجنوبي الشرقي من البحر الأسود، وبذلك سد المنافذ الاستراتيجية التي اعتاد العرب المسلمون أن يزحفوا منها على آسيا الصغرى ، ولم يجد باسيليوس من يتصدى له من العرب سوى أمراء طرسوس وبلاد الشام. ولتأمين حدود دولته من خطر أي توسع اسلامي مستقبلا، حرص باسيليوس على أن يسيطر على أرمينيا، وجعلها في قبضة قواته تماما.

ودخل فاتك الفسطاط في عسكره يوم الخميس لعشر خلون من رجب. وأمر دميانة بالخروج، وأخرج معه ابن الخليج في ثلاثة مراكب وحمامة [نوع من السفن]، ومعه ثلاثون رجلاً من وجوه أصحابه. وكان خروجهم يوم الاثنين لست خلون من شعبان سنة ثلاث. ثم طيف بابن الخليج وأصحابه ببغداد، واجتمع الناس لهم هناك، وكان يوماً مذكوراً.

ثم أمر الحسين بن أحمد بهدم الميدان، فابتدئ في هدمه في شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين، وبيعت أنقاضه، ودثر كأنه لم يكن.

وخرج فاتك من الفسطاط إلى العراق للنصف من جمادى الأولى سنة أربع وتسعين ومئتين. وأمر النوشرى بنفي المؤنثين، ومنع النواح والنداء على الجنائز، وأمر بإغلاق المسجد الجامع فيما بين الصلوات، فكان يفتح للصلاة فقط. [و] أقام على ذلك أياماً، فضج أهل المسجد من ذلك ، ففتح لهم.

ثم صرف يوسف بن إسرائيل عن الشرط، وجعل مكانه محمد بن طاهر، يوم الاثنين لأربع خلون من شهر رمضان سنة خمس وتسعين.

وتوفى المكتفي بالله يوم السبت لإحدى عشرة خلت من ذى القعدة سنة خمس وتسعين، وورد الخبر بوفاته إلى مصر ليومين بقيا من ذى القعدة. فشغب الجند على عيسى النوشرى، وكانت منهم طائفة يقال لها الزريحه فحاربوا النوشرى على طلب مال البيعة، فظفر بهم

عن ابيهما، وكان قد انفق فيها مال كثير وكانت مثل الفردوس لا تعدم شيا من الاشجار والاثمار، وكانت مشرفة على نهر مصر وكانت تعرف بابيهما على ابن سعيد الاصفهاني. فان هذين الرجلين الاخوين لما احضرهم اليه وطلب منهم الدار المقدم ذكرها قالا له: انا لا ناخذ لها ثمين ولا نكتب لها كتابا [لكنا] قد وهبناك اياها ولا نرجع فيما قلناه لك والشاهد علينا الله تعالى. وقالا له: انا في الساعة نرحل منها ونخليها لك الى [بعد]

خطر البلغار والروس:

لم يستطع باسيليوس الاول أن ينسى أبدا ممتلكات القسطنطينية التي كانت بين يديها منذ أيام جستنيان مثله الأعلى، والتي ضاعت منها، فقد استولى اللومبارديون في القرن السابع على مساحات كبيرة من ايطاليا، وسقطت أسبانيا في حوزة القوط الغربيين، واستولى العرب على مصر والشام وفلسطين، وشمال أفريقيا، ومنذ نهاية القرن السادس، بدأت قبائل الصرب وكرواتيا تنفصل عن الاسرة السلافية الكبرى، وراحت

النوشرى وأخرجهم. وبويع جعفر بن أحمد المعتضد، وسمى المقتدر بالله، فأقر النوشرى على صلاتها.

وهزم زيادة الله بن عبدالله بن إبراهيم بن الأغلب بافريقية، وزال سلطانه. فأقبل إلى مصر، فنزل الجيزة في شهر رمضان سنة ست وتسعين ومئتين. ومنعه النوشرى من العبور إلى الفسطاط إلا أن يعبر وحده. وكانت بينه وبين أصحاب النوشرى مناوشة بالجيزة على الجسر. ثم أذن له، فدخل الفسطاط ليلاً.

ثم توفي عيسى النوشرى يوم الاربعاء لأربع بقين من شعبان سنة سبع وتسعين ومئتين، وهو وال عليها، ودفن بها. كانت ولايته عليها خمس سنين وشهرين ونصفاً، منها سبعة أشهر وعشرون يوماً انتزى فيها ابن الخليج. وقام بالأمر من بعده ابنه أبو الفتح محمد بن عيسى النوشرى.

١١٤ - أبو منصور تكين

ثم وليها أبو منصور تكين ، من قبل المقتدر بالله أمير المؤمنين، على صلاتها؛ دعى له بها يوم الجمعة لإحدى عشرة خلت من شوال سنة سبع وتسعين [٩٠٩م] فاقر محمد بن طاهر على الشرط، وتقدم إلى تكين في الجد في أمر المغرب والاحتراس منه. فعقد لأبى النمر أحمد بن صالح من الأبناء على برقة. وبعث معه بجيش فيه جمع كثير. فسار إليها أبو النمر فدخلها.

مدة ثلثة أيام. وظن ان الله يغفل عن ظلمه اياهما، فخرجا من عنده، وكانا ينقلا ما كان لهما في الدار واخلوها له وسكن فيها. وهو المكان الذى فلج فيه وبطلت يديه. ولما مات كما ذكرنا نهب المصريون ما كان له من المال والمتاع، وان هذين الاخوين اتيا الى الدار فوقفا على بابها وكانا يقولا للناس: ان هذه الدار لنا وجميع ما فيها، وان هذا الانسان اغتصبنا ذلك. وكانو المصريون يعرفون

تتحرك وتسير ببطء في موجه مهاجرة من الاصقاع المجاورة لنهر الفستولا، التي كانت تعرف باسم صرماتيا الكبرى Sarmatia Magna (سيبيريا)؛ كما انضمت بعض القبائل السلافية إلى قبائل البلغار، وهم شعب أسيوى العنصر، نجح في التوسع غربا ليوطن نفسه فيما يعرف الآن باسم بلغاريا؛ ودأب البلغار على مهاجمة حدود الامبراطورية الشرقية لأن مملكتهم كانت تشكل تهديدا دائما لأمن ولاياتها في البلقان. وفي نفس الوقت كانت هناك جماعة كبيرة من

واشتد سلطانه بها. وفرض بها فروضاً من البربر وغيرهم. وخرج منها حتى بلغ سرت، وحسن أمره في ولايته. فبعث إليه صاحب توزر بحباسة بن يوسف رجل من البربر من كتامة، فكان موافقا له، قد انتصف كل واحد منهما، وامتنع من صاحبه. وعزم تكين على صرف أبي النمر أحمد بن صالح عما يتولاه ببرقة، وعقد عليها لخير المنصورى. وبلغ حباسة خبره، فبعث إلى أبي النمر وهو موافقه: ما الذى يحملك على حربنا وأنت معزول؟ فبعث إليه بكتاب ورد عليه من مصر بذلك. فانصرف أبو النمر إلى برقة وتبعه حباسة. ثم رحل أبو النمر من برقة يريد مصر، ونزل حباسة عليها. وخرج خير المنصورى إلى برقة، ومعه عبد العزيز بن كليب الجرشي. فوقع بينهما تشاجر، فنفس كل واحد منهما الولاية على صاحبه و تجافيا. فظفر بهما حباسة وهزمهما جميعاً. وانصرفا إلى مصر منهزمين. وكتب تكين كتاباً إلى صاحب إفريقية على لسان أمير المؤمنين المقتدر، يدعوه فيه إلى الطاعة والتمسك بها. وجمع وجوه أهل مصر فقرأه عليهم وأنفذه إليهم، وذلك في سنة ثلاث مئة.

وخرج رجل بمدين، زعموا أنه من آل أبي طالب. فخرج إليه محمد ابن طاهر صاحب الشرط، فأتي به. فطيف به لأربع عشرة خلت من شعبان سنة ثلاث مئة.

وأمر تكين في يوم نوروز ومهرجان بجمع المؤنثين وأمرهم بإظهار المعازف والمزامير والطبول،

صحة ما قالاه ولم ينازعهما احد عليها فملكاها وما فيها فاصبحا اغنيا لما وجداه فيها.

وكان له ولدا كبير كثير السو مثل ابيه وازيد منه، فوضع يده مكان ابيه وذكر ان كتب الملك ولت اليه بان يكون عوضا عن ابيه بعد أن مكث ستة أشهر لا يرى ولا عرف له مكان حتى صنع الكتب عن امر الخليفة. ولما جلس بدا ان يعمل السو مثل ابيه وظن انه ينتقم من المصريين لما فعل [الملك] بابيه واهله واولاده، فخافت المصريون منه

الشعوب المحاربة الاسيوية يعرفون باسم الأفار Avares قد كونت لنفسها مملكة كبيرة على حدود بلغاريا الشرقية والشمالية، وهؤلاء أيضا بدأوا يهاجمون أراضى الروم من آن لآخر. غير أن نجاح حركة التبشير المسيحى، الذى قامت به كنيسة القسطنطينية الارثوذوكسية منذ أواخر عهد ميخائيل الثالث، هدأت من درجة خطورة البلغار والسلاف، لكن لم تقض عليها. والى الشمال الشرقى من الافار، كان السلافيون الشرقيون أجداد الروس الحاليين - يعيشون فى

وشهرهم فى لباسهم. وطافوا الفسطاط على المسجد الجامع، كان ذلك يوم الثلاثاء لسبع خلون من ذى القعدة سنة ثلاث مئة.

وقدم نحرير الخادم من العراق، فى إخراج ابن أبى قماش كاتب تكين. وذلك أنه رفع عليه وكثر فأخرجه فى ربيع الأول سنة إحدى وثلاث مئة.

ثم سار حباسة بن يوسف في جيوشه من برقة قاصداً للاسكندرية، فى مئة ألف أو زيادة عليها. فدخل الإسكندرية يوم السبت لثمان خلون من المحرم سنة اثنتين وثلاث مئة. وقدمت الجيوش من المشرق. فقدم القاسم بن سيما إلى مصر مدداً لتكين، لعشر بقين من صفر. ثم قدم أبو على الحسين بن أحمد الماذرائى، وأبو بكر محمد بن على بن أحمد الماذرائى إلى مصر على تدبيرها؛ دخلا يوم السبت لسبع خلون من ربيع الأول سنة اثنتين وثلاث مئة. وقدم معهما أحمد بن كيغلغ، وأبو قابوس محمود بن حمك، فى جمع من القواد. ثم خرج ابن عمرون على مقدمة تكين إلى الجيزة. وخرج تكين فى جيوشه إلى الجيزة فعسكر بها. وسار حباسة من الإسكندرية فعسكر بمشتول. فنودى بالنفير فى الفسطاط يوم الثلاثاء لعشر بقين من جمادى الآخر، فلم يتخلف عن الخروج إلى الجيزة أحد من الخاصة والعامة. ثم انصرفوا عشياً ولم يكن لقاء. ثم نودى يوم الخميس، فخرج الناس خروجاً لم ير مثله قط فى الاجتماع والنشاط وحسن البصيرة. وأتاهم حباسة فى جيشه يومئذ. فيما بين الظهر والعصر. فالتقوا وكثرت

وقالو: لقد سخط الله علينا بهذا الانسان وابوه من قبله فما الحيلة فيه. وتم قول اشعيا النبي: ليهلكو الخطاة ومخالفي الناموس معا، والذى تخلو عن اوامر الرب يفنو لانهم يخزون. وكانت البلايا على النصارى فى كل يوم تتزايد من هذا المتولى واعماله الردية تتزايد فى كل يوم، فمن لا يحزن قط يحزن لاهل مصر واكثرها النصارى. يا اخوتى اسمعو هذا، اذا كان صليب المسيح يكسر فى كل مكان ولا يقدر احد يظهره لتتمسك النصارى

تجمعات صغيرة فى مناطق الادغال والغابات والمستنقعات على ضفاف نهرى الطونة Tanais والدنيبر Dnieper، اللذين يتدفقان عبر الأراضى الجنوبية الغربية لروسيا، وكانوا يعيشون عيشة بدائية قبلية، ثم توحدوا تحت زعامة واحدة، وفى منتصف القرن التاسع غزا أرض الروس جماعة من الفايكنج، الذين جاءوا من اسكندنافيا، ونظموا هذه القبائل الروسية فى مناطق الغابات فى شكل امارات صغيرة متحدة، ثم توحدت هذه الامارات ودانت بالولاء

- -

القتلى منهم. وقتلت رجالة حباسة كلهم. ثم من الله وله الحمد بهزيمتهم، ومنح أهل مصر أكتافهم. ومضوا على وجوههم هاربين، ورأوا من اجتماع الناس، ونصر الله مالم يسمع بمثله. ومضى جمع من الرعية فاتبعوهم. وعبروا خلفهم خليج بوهة [بالمنوفية]. واختلط الظلام. فخرج عليهم كمين لحباسة بعد المغرب. فاقتطع طائفة منهم، فقتل من يرحمهم الله نحواً من عشرة آلاف. وأصبح الجند يوم الجمعة على مصافهم بالجيزة. ثم نودى بالنفير يوم الجمعة صلاة المغرب. فاضطرب الناس لذلك اضطراباً شديداً. وخرجت الرعية إلى الجيزة ليلتهم كلها كخروجهم بالأمس. ثم عادوا إلى الفسطاط فى غداة يوم السبت، ولم يكن لقاء.

وأقبل مؤنس الخادم من العراق فى جيوشه. فدخلها يوم الاثنين للنصف من شهر رمضان، ومعه جمع من الأمراء سار بهم معه. ونزل الحمراء، ولقى الناس من جنده كل ما كرهوا. ثم أمر أحمد بن كيغلغ بالخروج إلى الشام فى شهر رمضان. فصرف تكين عن صلاتها، يوم الخميس لأربع عشرة، وأمره بالخروج يوم السبت لسبع خلون من ذى الحجة. وأقام مؤنس بالفسطاط يدعى الأستاذ.

١١٥ - ذكا الأعور

ثم وليها ذكا الأعور، ومن قبل المقتدر بالله، على صلاتها؛ دخلها يوم السبت لثنتى عشرة

٥٤: انبا قزما البطرك ٨٥١/٨٥٩م

بروتيه ويرجو به الخلاص، وكذلك الناقوس المقدس الذى صوته يطرد الشيطان وجنوده ويقيم الكسلان الى ذكر الاهه امر ان يقطعه حتى يتم قول بولس الرسول: يعذبونا ونحن ثابتين وصرنا مثل المرذولين. واكثر من جميع ذلك عذبت النصارى الى ان انكرو امانتهم وانتقلو من الحياة الى الموت.

اسمعو ما كان فى ذلك الزمان فانها لكم موعظة ايها الاخوة المومنين بالمسيح، لتعلمو ان

والزعامة لأمير دوقية كييف Kiev على نهر الدينبر، مكونة شعبا ووطنا واحدا يعرف فى ذلك الوقت باسم بلاد الروس Rus، والتى توسعت فيما بعد وأصبحت تعرف باسم امارة موسكوفا Muscovy، ثم الى دولة بلاد الروس مرة أخرى، ولما اشتد ساعد هذه الدولة، باتت تتطلع للتوسع والغزو من أجل السلب والنهب؛ وفى عام ٨٦٦م شقوا طريقهم عبر نهر الدنيبر إلى البحر الاسود، ورست سفنهم عند ساحل القسطنطينية، وتقدموا حتى عسكروا

ليلة خلت من صفر سنة ثلاث وثلاث مئة [٩١٥م]. فجعل على شرطه محمد بن طاهر. ثم خرج مؤنس الخادم منها فى جميع جيوشه يوم الخميس لثمان خلون من ربيع الآخر سنة ثلاث وثلاث مئة.

وخرج ذكا إلى الإسكندرية بعد خروج مؤنس. وخرج القاسم بن سيما إلى الشام لأربع عشرة خلت من المحرم سنة أربع وثلاث مئة. وقدم ذكا من الإسكندرية إلى الفسطاط لثمان خلون من ربيع الأول سنة أربع وثلاث مئة، وجعل على الإسكندرية ابنه مظفر بن ذكا.

وتتبع ذكا كل من يوما إليه بمكاتبة صاحب إفريقية. فسجن كثيراً منهم، وقطع أيدى قوم وأرجلهم. وجلا أهل لوبية ومراقية إلى الإسكندرية فى شوال سنة أربع وثلاث مئة، خوفاً من ابن المهدى صاحب برقة. فبعث ذكا بجمع من القواد مرة بعد أخرى إلى الإسكندرية.

وفسد ما بين ذكا وبين الرعية، وذلك أن الرعية كتبوا على أبواب المسجد الجامع ذكر الصحابة والقرآن [بما لا يليق]. فرضيه جمع من الناس وكرهه آخرون. وكان محمد بن طاهر صاحب الشرط معيناً لأهل المسجد والرعية على ذلك. فاجتمع الناس لأربع عشرة خلت من رمضان سنة خمس وثلاث مئة إلى دار ذكا بالمصلى القديم، يتشكرونه على ما أذن لهم فيه. فوثب الجند بالناس. وحرضهم على ذلك محمد بن إسماعيل بن مخلد. فنهب قوم، وجرح آخرون. وأقبل ابن مخلد من الغد إلى المسجد الجامع، فلم يترك شيئاً مما كتب عليه

الرب عال مخوف مرهوب ويظهر عجايبه كما انه لم يخفى قوته فى الزمان الذى صلبوه فيه اليهود الكفرة ولم يصدقو ما رواه من العجايب، مثل انشقاق ستر الهيكل الذى انشق من فوق الى اسفل، ومثل الموتا الذين قامو من القبور، ومثل الصخور الذى تشققت، ومثل انقسام النهار باثنين. كذلك ايضا عرف اصفياه المومنين باسمه تمام سرايره ليعرف كل احد انه الذى يرذل الامم الذين لا يطيعوه. كان فى وقت مجى هذا المبغض الى

تحت أسوارها، لكنهم لم يمكثوا طويلا لأنهم قصدوا بحملتهم الاغارة وليس الغزو، وعادوا الى وطنهم محملين بالاسلاب والغنائم. ولما شعر الروس أن هذه المغامرة قد جلبت لهم فيضا من الخيرات، فقد اعتادوا القيام بعمليات الاغارة على حدود الامبراطورية الشمالية، ونهب الحقول والمدن. غير أن باسيليوس ترك معالجة أزمة الشعوب السلافيةوالكرواتية والبلغارية للمبشرين الروم لأن اهتمامه كان منصبا على هدف واحد، الا وهو

حتى محاه. ونهب الناس فى المسجد والأسواق، وأفطر الجند يومئذ. وعزل ذكا محمد بن طاهر عن الشرط، وجعل مكانه وصيفاً الكاتب، يوم الثلاثاء لست عشرة خلت من رمضان سنة خمس وثلاث مئة.

ثم وقع الاختلاف بين المظفر بن ذكر بالإسكندرية وبين بربر البحيرة. فخرج عنها مظفر إلى تروجة، ثم رجع إلى الإسكندرية. وسارت مقدمة صاحب إفريقية إلى لوبية ومراقية، فهرب أهل الإسكندرية منها، وجلوا عنها. وخرج منها مظفر بن ذكا فى خمسة [خلون من صفر]. ودخلت مقدمة ابن صاحب إفريقية إليها، يوم الجمعة لثمان خلون من صفر سنة سبع وثلاث مئة [٩١٩م]. وهرب أهل القوة من الفسطاط إلى الشام فى البر والبحر. فهلك أكثرهم بفلسطين، وذكا مقيم بالفسطاط قد خالفه الجند، وأبوا الخروج معه إلى الجيزة، وامتنعوا وسألوا العطاء. واجتمع قوم من أهل المسجد، فصاروا إلى ذكا، فسألوه الخروج إلى الجيزة والمقام بها، فوعدهم ذلك. ثم خرج إليها، فعسكر بها للنصف من صفر سنة سبع وثلاث مئة فى طائفة يسيرة.

وقدم الحسين بن أحمد الماذرائى، والياً على خراجها فى صفر. فخرج إلى الجيزة، ووضع العطاء بها . وجد ذكا فى أمر الحرب، وأمر ببناء الحصن على الجسر الغربى بالجيزة ملاصق مسجد همدان. واحتفر خندقاً خندق به على عسكره، وعلى الجيزة، وذلك فى صفر سنة سبع [وثلاث مئة]. وعزل وصيفاً الكاتب عن الشرط، يوم الاثنين لخمس بقين من صفر، ورد محمد

ارض مصر فى سنة تسع وستين وخمسماية للشهدا الاطهار ظهرت هذه العلامة المخوفة، وذلك ان جميع من يسكن من الرهبان دير ابو مقار شاهدوا صورة السيد المسيح الرحوم الذى فى بيعة القديس سويرس التى على الصخرة وقد انفتح جنبها وخرج منه دم، وخاف جميع من نظر هذا الدم ومجدو الله على اعماله العجيبة. والقوم الثقات الذى يجب ان يصدقو اخذو من ذلك الدم بامانة وجعلوه على قوم بهم امراض مختلفة فعوفو

استعادة ممتلكات بلاده فى الغرب الأوروبى.

باسيليوس والغرب الأوروبى:

لاحت الفرصة لباسيليوس الأول عندما طلب البابا والامبراطور شارل - ملك الفرنجة الغالين - منه المساعدة ضد سطوة وتهديد الاغالبة المسلمين بالاندلس، وعلى الفسور رحب باسيليوس، لأنه وجد فى ذلك فرصة لأعادة نفوذ الروم فى ايطاليا والبحر المتوسط الى الوضع الذى كان عليه أيام جستنيان؛ فأتجه بقواته غربا، حيث نجح فى اجلاء الاغالبة عن تارنتوم

بن طاهر مكانه. ثم مرض ذكا، وهو مقيم على مصافه بالجيزة، وتوفى بها عشية الاربعاء لإحدى عشرة خلت من شهر ربيع الآخر سنة سبع [وثلاث مئة]، ودفن فى مقبرة الفسطاط. فكانت إمرته عليها أربع سنين وشهراً.

١١٦ - أبو منصور تكين
الثانية

ثم وليها أبو منصور تكين الثانية، ومن قبل المقتدر بالله على صلاتها. فتسلم له خليفته وقد حضر، أبو قابوس محمود بن حمك، يوم الأحد لثمان خلون من ربيع الأول ، ونزل الجيزة. وقدم إبراهيم بن كيغلغ يوم الثلاثاء لسبع بقين من ربيع الآخر. ودخل تكين والياً عليها يوم الخميس لإحدى عشرة خلت من شعبان سنة سبع [٩١٩م]. ونزل الجيزة وحفر خندقاً ثانياً. وجعل على شرطه محمد ابن طاهر. وأقبلت مراكب صاحب إفريقية قاصدة إلى الإسكندرية، عليها سليمان الخادم. فبعث ثمل الخادم صاحب مراكب طرسوس، فأتى فى مراكبه إلى رشيد. فلقى سليمان الخادم لعشر بقين من شوال سنة سبع وثلاث مئة، فاقتتلوا. وبعث الله الريح على مراكب سليمان، فألقتها إلى البر فتكسرت. وأخذ من فيها أخذاً باليد، وأسرهم ثمل، وقتل منهم خلقاً كثيراً، واستأمن إليه من بقى . ودخل بهم الفسطاط فأنزلهم المقس يوم الاثنين لأربع بقين من شوال سنة سبع [وثلاث مئة]، ومعه سليمان الخادم وكل رئيس كان فى تلك

من امراضهم للوقت. واراد الرب ان يظهر علامة للمومنين ويكثرو من الرجا به وبصليبه الزكى فاظهر فى هذه السنة عجايب كثير، وذلك ان جميع الصور التى بوادى هبيب بدير القديس ابو مقار وغيره كانت عيونها تفيض دموعا مثل ينابيع المياه، فعلمو ان هذا بسبب ما فعلوه ولاة السو الظلمة فى اخفا [ء] الصليب. وكانت هذه العجايب تصبرهم وتثبتهم على جميع ما كان يجرى من الولاة والقضاة.

عام ٨٨٠م، وبعد عدة شهور قضاها فى قتال مرهق، نجح فى ا ستعادة عدد من المناطق فى جنوب ايطاليا، غير أن نشوة النصر وبريقه أديا إلى ضياع صقلية ومالطة وكريت. وكل ما أسفرت عنه حملته فى الغرب هو استعادة اقليمين فقط من أملاك الدولة الكارولنجية فى الغرب اللاتينى.

وعموما فقدى حقق باسيليوس الأول انتصارات هائلة لبلاده، سواء على الصعيد الداخلى أو الخارجى، وجعل من الامبراطورية بالفعل قوة مرهوبة الجانب، حتى أن لويس الثانى

المراكب. فأمر تكين بتمييز الأسارى، فأطلق أهل القيروان وطرابلس وبرقة وصقلية وميز كتامة وزويلة ناحية. ثم أذن للناس فى قتلهم، فقتلهم الجند والرعية، كانت عدة القتلى سبع مئة أو نحو ذلك. ودخل ثمل الفسطاط، ومعه سليمان. فطيف به مقيداً، وبرؤساء المراكب، وهم مئة وسبعة عشر، وذلك يوم الثلاثاء لثلاث بقين من شوال.

وأقبل مؤنس الخادم إلى مصر، دخلها يوم الخميس لخمس خلون من المحرم سنة ثمان وثلاث مئة. فنزل الجيزة فعسكر بها، وكان فى نحو من ثلاثة آلاف . فبعث بإبراهيم بن كيغلغ إلى جزيرة الأشمونين وكان بها [عسكر صاحب إفريقية] وأقبل عبد الرحمن ابن صاحب إفريقية من الإسكندرية إلى الفيوم فنزلها. ومات إبراهيم بن كيغلغ بالبهنسى مستهل ذى القعدة سنة ثمان وثلاث مئة.

وظهر تكين على جمع تعاقدوا بالفسطاط على الخروج ليلة الختم من شهر رمضان، فيهم ابن المدينى القاضى ونفر معه. فهرب ابن المدينى، ثم ظفر به فى دار إسرائيل، فأخذه.

وملكت البربر جزيرة الأشمونين كلها مع الفيوم، وأزالوا عنها جند [ابن] كيغلغ. ثم دخل جنى الخادم المعروف بالصفوانى إلى الفسطاط سلخ ذى الحجة فعسكر بالجيزة. وبعث مؤنس بأبى قابوس محمود بن حمك إلى ذات الصفا من الفيوم، فقتل نفراً من البربر، وغنم غنائم. ثم انصرف إلى الجيزة سنة تسع وثلاث مئة [٩٢١م].

ولما كان في ذلك الزمان تقدم الوالي بعمل مراكب في ساير البلاد الذين على السواحل لانه كان في ذلك الوقت قد وصل الى دمياط الروم ونهبوها واقامو بها ثلثة ايام ومضوا بسبيها [اسراهم وذهبها وفضتها الى بلاد الروم. ولاجل ذلك عملت مراكب كثيرة من الاسطول، وكانو في كل سنة يصلحوا ما فسد منها ويجددو عوض ما تحطم منها، وكانو يمضو بها الى بلاد الروم ويحاربوهم، وينفق في الاسطول في كل سنة مالا كثيرا.

ـ خليفة شارل ـ طلب منه السعى لتوحيدالامبراطورية الرومانية بشطريها تحت تاج العرش في القسطنطينية، غير أن هذا الحلم لم يتحقق، فقد مات باسيليوس في ظروف أليمة عام ٨٨٦، تاركا العرش لأبنه ليون السادس الملقب بالحكيم.

ليون السادس الملقب بالحكيم ٨٨٦ـ ٩١٢:

اختلفت الظروف التي نشأ فيها ليون السادس عن الظروف التي نشأ فيها أبوه، فبينما نشأ الأب في ظروف قاسية صعبة، وعاش حياة الجنود

ومضى ثمل الخادم في مراكبه إلى سكندرية، وبها ابن بعله أميرا عليها . ثم ظفر بهم ثمل وهرب ابن بعله. ودخل ثمل الإسكندرية، فنفى أهلها إلى رشيد، وذلك في المحرم سنة تسع وثلاث مئة. ورجع ثمل إلى الفسطاط. فمضى في مراكبه إلى اللاهون. وسار مؤنس وتكين في عسكرهما، وعلى مقدمتهما جني الصفواني، يوم الخميس لثماني عشرة خلت من صفر سنة تسع. فدخلوا مدينة الفيوم. ومضى ابن صاحب إفريقية إلى تهنمت وأقنى، ثم مضى هارباً إلى برقة، ولم يكن بينهم لقاء. فرجع مؤنس وتكين إلى الجيزة يوم السبت لأربع خلون من ربيع الأول سنة تسع.

وصرف تكين عن مصر يوم الأحد لثلاث عشرة خلت من ربيع الأول سنة تسع وثلاث مئة. وولى مؤنس عليها أبا قابوس محمود بن حمك، فأقام عليها أياما. ثم رد تكين عليها يوم الجمعة لخمس بقين من ربيع الأول فأقام أربعة. ثم صرف تكين عنها سلخ ربيع الأول. وأمره مؤنس بالخروج عنها إلى الشام. فخرج في أربعة آلاف من أهل الديوان. قال ابن مهران:

وَليتَ ولايَةً وَعُزِلْتَ عَنْهَا ... كَمَا قَدْ كُنْتَ تَعزِلُ مَن تُولّى
رَحِمْتُكَ يَا أبَا مَنْصور لما ... خَرَجْتَ كَذا بلا عَلَمٍ وَطَبْلِ

فلما وليها تكين بعد ذلك أمر فراشاً، فضم ابن مهران ضمة كان فيها نفسه.

---

٥٤ : انبا قزما البطرك ٨٥١/٨٥٩م

[تسخير المصريين القبط في الأسطول الإسلامي]

فاما النصارى فانهم يسيروهم في المراكب ولا يدفعو لهم ما ينفقوه في طريقهم ولا درهم واحد ولا زاد الطريق، بل كانو يجرو عليهم جراية من الطعام فقط، وكانو يلزموهم بالمسير بهذا. وكان المتولي من كثرة بغضته للنصارى يفعل هذا ويحصي البلاد كلها ويجعل على كل ضيعة عدة من الرجال يسافرو في الاسطول. وكان ايضا لا يدفع لهم سلاحا. ويفتقد احوالهم فمن وجده بغير

القاسية التي جعلت منه محاربا صعب المراس، تربى الابن في النعيم المقيم، وبذخ القصور، وبينما حرم الأب من التعليم الراقي، تلقى الابن منذ نعومة أظفاره التعليم من خيرة الاساتذة والعلماء، ومن ثم فقد كانت نظرة كل منهما الى قيادة الدولة تختلف عن الآخر. فالأب رأى أن القوة فوق الثقافة، والابن اعتبر الثقافة فوق القوة، فضلا على أن الظروف التي تولى فيها ليون الحكم، كانت أفضل من الظروف التي تولى فيها أبوه، فقد

---

١١٧ - هلال بن بدر

ثم وليها هلال بن بدر، من قبل المقتدر، على صلاتها؛ دخلها يوم الاثنين لست خلون من ربيع الآخر سنة تسع وثلاث مئة [٩٢١م]. فأقر محمد بن طاهر على الشرط. وخرج مؤنس منها يوم السبت لثماني عشرة خلت من ربيع الآخر، ومعه أبو قابوس. وخرج ثمل في مراكبه، ومعه الأسارى سليمان الخادم وأبو خليل وغيرهما.

ثم شغب الجند على هلال بن بدر في أرزاقهم، وخرجوا إلى منية الأصبغ. وصلح أمر الفرسان، واجتمعت الرجالة والبحريون إلى محمد بن طاهر صاحب الشرط، وكان صاحبهم والمستولي على أمورهم. وتحقق هلال بن بدر فساد أمرهم من قبله، فطلبه فاستتر. ثم ظهر عليه وعلى أخيه أبي الفتح أحمد بن طاهر فمضى بهما إلى هلال. فقتلهما لأربع بقين من صفر سنة عشر وثلاث مئة.

وجعل هلال على الشرط علي بن فارس سبعة أيام، ثم صرفه وجعل مكانه كنجور يوم الثلاثاء لسبع بقين من ربيع الأول سنة عشر. وكانت مصر في أيام هلال من النهب والقتل والفساد على نهاية. ثم صرف عنها في ربيع الآخر سنة إحدى عشرة وثلاث مئة، وخرج منها لثلاث بقين من ربيع الآخر.

كان الأب قد حقق معظم المهمات الصعبة، ومن ثم فقد استمتع الابن بتولى زمام حكم مستقر، محبوب من الناس، ومرهوب من الاعداء، فقبع أغلب الوقت فى القصر، ينهل من ينابيع الفكر والثقافة، ويقضى وقته فى التأليف المتنوع، الذى جعل منه امبراطورا أديباً، استحق من أجله لقب الحكيمSophos .

ولقد تنوعت مؤلفات ليون الحكيم، فغطت عدة مواضيع، فقد

سلاح او فى سلاحه نقصا ياسى اليه [يقسو عليه] ويغرمه خسارة، وياخذه بابتياع عدة يقاتل بها. حتى انهم كانو ياخذو اقوام ضعفا لا قدرة لهم على السير وليس يعرفون صنعة البحر ولا القتال فيدفعو ما يملكوه لمن يسافر عنهم. ولما شكو ما ينالهم من الكلف وانهم متى وجدو سبيلا الى المضى من هذه الاعمال الى غيرها مضو اليها، فامر [الوالى] ان يطلق لكل واحد من النصارى ديناران ويزيد عليها ما يقيم به بديلا عن نفسه من

---

١١٨ - احمد بن كيغلغ

ثم وليها أحمد بن كيغلغ، من قبل المقتدر، على صلاتها؛ قدمها ابنه العباس خليفة لأبيه مستهل جمادى الأولى سنة إحدى عشرة [٩٢٣م]. فأقر كنجور على الشرط. وأقبل أحمد بن كيغلغ، ومعه محمد بن الحسين بن عبد الوهاب الماذرائى على الخراج، فنزلا المنية، لأيام بقيت من رجب سنة إحدى عشرة. فأحضر الجند، ووضع، العطاء، وأسقط كثيراً من الرجالة [الجند المشاة]. فشغب الرجالة، وخرجوا إلى ابن كيغلغ، فتنحى عنهم إلى فاقوس. وعزم محمد بن الحسين ابن عبد الوهاب على التوجه إلى الشام. فخرج إليه الجند، فأدخلوه الفسطاط لثمان خلون من شوال سنة إحدى عشرة وثلاث مئة. وبقى أحمد بن كيغلغ بموضعه. ثم صرف عنها، وقدم رسول تكين بولايته عليها.

١١٩ - ابو منصور تكين

الثالثة

تم وليها تكين المرة الثالثة، من قبل المقتدر، على صلاتها؛ قدمها الرسول بإمرته يوم الخميس لثلاث خلون من ذى القعدة سنة إحدى عشرة وثلاث مئة. فأقر كنجور على الشرط. وأسقط كثيراً من الرجالة الذين أثبتهم هلال بن بدر، وهم كانوا أهل الشغب والنهب والشر. ونادى

المسلمين بخمسة عشر دينار. وكان هذا من الاضطهاد الذى نالهم يشتهون الموت، فاطلع الرب الرووف الرحيم المفتقد لشعبه فى كل حين نظر الى تنهد شعبه وبكاهم فلم يطول تلك الايام بل اقصرها واظهر كثرة رحمته على كورة مصر البايسة، وسمع صوت الفقرا كما قال داود النبى: سمع صوت الفقرا ولم يرذل اصفياه. وان الملك [جعفر المتوكل] لما اتصل به ما فعله هذا المتولى بمصر وما صنعه بالنصارى والضيق الذى هم فيه

كتب فى الادارة والاقتصاد عندما اصدر مؤلفه الشيق «كتاب المحتسب» Eparchikon، والذى خصصه لدراسة أصول التجارة والاسواق، والسلع، وطوائف تجارها، والتموين، والاسعار، والحرف الصناعية المختلفة ومراقبة النقابات لها، كما كتب فى فن البروتوكول، وتدرج المناصب والرتب. ومن أهم مؤلفاته كتابه عن الحرب، الذى يعتبر من أهم المراجع لدراسة الجيش والبحرية عند الروم فى القرن التاسع؛ فكتب بقلم الخبير عن التجنيد والتنظيم، والتدريب

فيهم ببراءة الذمة ممن أقام بالفسطاط منهم. واجتمع الناس إلى تكين يشكرونه على ما فعل بهم.

وعزل كنجور عن الشرط يوم الاربعاء لليلتين خلتا من المحرم سنة ثلاث عشرة، وجعل مكانه قزل تكين. ثم عزل قزل تكين، وجعل مكانه وصيفاً الكاتب يوم الخميس للنصف من صفر سنة ثلاث عشرة. ثم عزل وصيفاً الكاتب، وجعل مكانه بجكم الأعور يوم السبت لثلاث بقين من رجب سنة سبع عشرة.

وصلى تكين الجمعة فى دار الإمارة، وترك حضور الجمعة فى المسجدين جميعاً فى سنة سبع [عشرة] وثلاث مئة.

ثم كان قتل المقتدر فى شوال سنة عشرين وثلاث مئة، وبويع أبو منصور القاهر بالله، فأقره عليها. ثم مات تكين بمصر، وهو واليها، ويوم السبت لست عشرة خلت من ربيع الأول سنة إحدى وعشرين وثلاث مئة، وأخرج به فى تابوت إلى بيت المقدس. فكانت إمرته هذه الثالثة عليها تسع سنين وشهرين وخمسة أيام.

وجعل ابنه محمد بن تكين فى موضعه. وأقام أبو بكر محمد بن على الماذرائى بأمر البلد كله. ونظر فى أعماله. فشغب الجند عليه فى طلب أرزاقهم، وأحرقوا دوره ودور أهله.

فارسل وعزل ذلك الوالى السو الذى عمل هذا بالنصارى وانفذ غيره انسان يعرف بيزيد ابن عبدالله [٨٥٦م]، وهذا كان يفعل حسنة مع الناس. وهدت ارض مصر واظهرت التجار الغلات وتزايدت الانعام والخيرات فى كل مكان، وزال البلا عن الناس وطابت نفوس سكان ارض مصر وراو خيرا كثيرا. وكان ذلك فى ايام جعفر المتوكل على الله.

وهذا الملك صرف اهتمامه فى ذلك الوقت الى

والتسليح، والتموين، وأساليب المعارك، حتى أزياء الجنود والضباط لم يغفلها، وكذلك اخلاء الجرحى من ميدان القتال، وركز فى هذا الكتاب العلمى على أهمية فرقة الفرسان المسلحة بالاسلحة الثقيلة، وتحدث عن قواعد أساطيل الامبراطورية الثلاث، وعن الأسر العريقة التى ينتقى منها القادة. كما ألف هذا الامبراطور كتابا عن مستقبل الامبراطورية، وكتابا سماه التنبؤات Prophetica وهو عبارة عن مجموعة من الالغاز السياسية والطرائف عن الاتراك،

وخرج محمد بن تكين فعسكر فى منية الأصبغ.ورحل إلى بلبيس. فبعث إليه محمد بن على يأمره بالخروج عن أرض مصر. وعسكر الجند الذين بالفسطاط بباب المدينة وأقاموا هناك، وذلك سلخ ربيع الأول سنة إحدى وعشرين. ولحق محمد بن تكين بالشام. ثم أقبل سائراً إلى مصر. يذكر ولايته إياها من قبل القاهر. فامتنع محمد بن على فى ذلك . واستجاش بالمغاربة ، ورئيسهم حبشى بن أحمد السلمى يكنى أبا مالك. فخرج حبشى يمنع محمداً من مسيره إليها، وأقام بجرجير.

١٢٠ - ابو بكر محمد بن طغج

ثم وليها أبو بكر محمد بن طغج، من قبل القاهر بالله. على صلاتها. ورد الكتاب بولايته عليها يوم الأحد لسبع خلون من شهر رمضان سنة إحدى وعشرين [٩٣٣م]. ودعى له بها، وهو إذ ذاك مقيم بدمشق. فكانت ولايته عليها اثنين وثلاثين يوماً، ولم يدخلها.

١٢١ - احمد بن كيغلغ
الثانية

ثم وليها أحمد بن كيغلغ ولايته الثانية عليها، من قبل القاهر بالله، قدم الرسول بذلك يوم الخميس لتسع من شوال سنة إحدى وعشرين. واستخلف أبا الفتح [محمد بن] عيسى النوشرى، فأقر بجكم الأعور على الشرط. وشغب الجند فى طلب أرزاقهم على محمد بن على الماذرائى صاحب الخراج فاستتر منهم، فأحرقوا داره ودور أهله. وصرف بجكم عن الشرط،

المدن التي بارض المشرق ومصر مما يقارب النهر [النيل] لاجل نهب الروم دمياط في ايامه. ثم تقدم بنفقة مال في بنا الاسوار على تنيس ودمياط وكذلك المدينة العظمى اسكندرية وجميع الاعمال بالبرلس واشمون والطينه ورشيد ونستروه خوفا من الروم، وتممهم كما يجب. وصير حصونا وعمل تذكارات كثيرة بارض مصر عوضا مما فعل بالنصارى. وكان بمصر قاضيا بعيدا عن الظلم يحكم بالحق وكان غير مرابي اسمه الحارث ابن

والبنادق، ومستقبل علاقاتهم مع الامبراطورية،و كأنه فعلا يقرأ الغيب، حتى مجال الوعظ والارشاد الديني طرقه، فكتب مجموعة من الخطب،والمقالات، والمواعظ الدينية المؤثرة. ولهذا فقد أحب الدفئ والتأليف، ولم يعكر صفو حياته الهادئة الا أمران، صدامه مع الكنيسة في مظاهرة لاستعراض القوة، وحروبه الفاشلة مع المسلمين والبلغار.

سياسته الخارجية:

وبقدر ما كان ليون السادس رجلا مثقفا، غزير العلم، واسع الاطلاع،

وجعل مكانه الحسين بن معقل، يوم الأحد لأربع بقين من شوال سنة إحدى وعشرين. فرده محمد بن على الماذرائي إلى الشرط. فحارب الجند بجكم بالجزيرة [الروضه] والجيزة، فانهزم منهم. وعاد ابن معقل إلى الشرط. ثم نزغ الشيطان بين الجند، فتفرقوا فرقتين: فكان على أهل الشرق منهم حبكويه، وعلى المغاربة حبشي بن أحمد. وأجتمعت كل فرقة على قتال الأخرى. فالتقوا يوم الثلاثاء لخمس خلون من ذى الحجة سنة إحدى وعشرين وثلاث مئة عند المصلى الجديد. فاقتتلوا، فقتل من المغاربة نحو من أربعين رجلاً، وانهزم المغاربة، فلجأ أكثرهم إلى الجيزة، وتبعهم حبشي بن أحمد بعسكر منهم ثم سار بهم إلى الصعيد فنزل سيوط. ثم عاد حبشي في المغاربة إلى الجيزة سلخ صفر سنة اثنتين وعشرين وثلاث مئة. فخرج إليه من كان بالفسطاط من الجند ، فعسكروا بالجيزة مستهل ربيع الأول سنة اثنين وعشرين. ومضى قوم من أهل مصر إلى حبشي، فسألوه الصلح. وجمع كل منهم إليه، فالتقوا يوم الثلاثاء لثمان خلون من ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين بالجيزة. فتوافقوا، وجرى بينهم الصلح. فكره ذلك حبكويه، فانضم في أصحابه إلى الجيزة، وأقام الآخرون في الجزيرة. فبينا هم في ذلك أتاهم محمد بن تكين من فلسطين.، فصبحهم يوم الأحد لثلاث عشرة خلت من ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين. فنزل الجزيرة [الروضه] مع الجند، أظهر كتاباً بولايته. فأنكر ذلك أبو بكر محمد بن على الماذرائي. وبعث محمد بن تكين إلى حبشي ومن معه يأمرهم بالدخول في طاعته والانقياد إليه، فأبوا ذلك.

كثير العطاء الفكرى، حتى استحق عليه لقب الحكيم، غير أنه لم يكن حكيما على الاطلاق فى سياسته الخارجية، ورجل فى مثل علمه واطلاعه كان يمكن أن يكون داهية، يحقق بالسياسة والكياسة ماعجز عنه من سبقوه بالحرب؛ فقد ارتكب أخطاء فادحة، ومنى بفشل ذريع، بسبب قراراته غير المدروسة، ووطنيته المندفعة، ويتمثل ذلك فى سياسته ازاء البلغار.

حروبه مع البلغار

كان البلغار على طول تاريخهم،

مسكين عوضا عن القاضى [عبدالمسيح ابن اسحاق] الظالم الذى ذكرناه ولقاه الله فعله مع الاب انبا يوساب البطرك هولاى الثلثة المتولين ذلك الزمان، الوالى والناظر والقاضى، كانو كواحد فى الحق وفعل الخير مع كل احد، حتى ان الناس نسيو ما حل بهم من البلايا والجوع كمثل قول حزقيال النبى: سيتعلمو انى انا الرب عندما اهشم النير الذى عليهم وانجيهم من ايدى مبغضيهم ولا تنهبهم الامم ولا تاكلهم وحوش الارض ويكونو

---

١٢٢ - محمد بن تكين

ودعى لمحمد بن تكين بالإمارة، وعزل الحسين بن معقل عن الشرط، وولى مكانه بجكم الأعور. ورجع حبشى فى أصحابه إلى الصعيد، ولحق به محمد بن عيسى النوشرى. فأمروه عليهم وهم على الدعاء لأحمد بن كيغلغ ثم عدى حبشى النيل وأصحابه إلى الشرقية، وأقبلوا إلى الفسطاط. فعسكر محمد بن تكين من بركة المعافر إلى الفج. ثم أتت طائفة من المغاربة، فلقيت عسكر محمد بن تكين ليلة السبت لست خلون من ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين، فقتل من الفريقين جماعة. ثم التقوا من الغد. فانهزمت المغاربة، ورجع محمد بن تكين فنزل دار الإمارة.

وأقبل أحمد بن كيغلغ إلى مصر، وأتت المغاربة إلى الجيزة، فنزلوا بولاق. وعقد محمد بن تكين لحبكويه وأحمد بن بدر السميساطى على ألف من الجند فى طلب المغاربة حيث كانوا. فالتقوا فى شرقيون فى بلقينة يوم السبت لتسع بقين من جمادى الآخرة سنة اثنتين وعشرين، فاقتتلوا قتالاً شديداً. فانهزم حبكويه وأحمد بن بدر وأصحابهما، واتبعهم المغاربة، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً. ثم عدى المغاربة النيل، فصاروا إلى بلبيس. فعسكر محمد بن تكين بباب المدينة. ولحق بجكم بالمغاربة، فجعل محمد بن تكين على الشرط الحسين بن على بن معقل. وأقبل أحمد بن كيغلغ فنزل المنية يوم الخميس لثلاث خلون من رجب سنة اثنتين وعشرين وثلاث

مترجيين ولا يكون من يخوفهم واقيم لهم شجرة السلامة ولا يهلكو من على الارض. فعل الله لاهل مصر هذا الفعل فى اخر الايام ايام جعفر المتوكل وكذلك فعل فى المدينة العظمى حتى اطمان كلمن كان بها وحولها.

وكان بحر [ترعة] اسكندرية قد نشف ولم يكن فيه ما [ماء] وكان اهلها فى ضيق عظيم لاجل ذلك، ولا يصل اليها مركبا الا فى ايام النيل

مصدر مضايقات مستمرة، وتحرشات دائمة مع الروم، وتعديات لم تتوقف عن حدود معينة خاصة منذ أن أسسوا مملكتهم، وراحوا يعملون على بنائها وترسيخها حتى أصبحت فى القرن التاسع قوة ضاربة، تمتد على طول ضفاف الدانوب حتى جبال البندوس Pindos الواقعة بين اقليم تساليا واقليم ايروس فى شمال اليونان، كما ضمت اليها برلندا وموراقيا، وبذلك تم لهم السيطرة على البلقان. وفى عام ٨٩٣م تولى ملك بلغارى قوى اسمه سميون Simeon كان قد نشأ وتربى

مئة. فانضمت إليه المغاربة، ولحق به كثيرن من أصحاب محمد بن تكين فأمنهم. ومضى محمد بن تكين فى النيل وترك عسكره فأصبح أصحابه وهم لا يحسونه، فلحقوا كلهم بأحمد بن كيغلغ. ودخل أحمد بن كيغلغ الفسطاط يوم الأحد لست خلون من رجب سنة اثنتين وعشرين وثلاث مئة. فصرف ابن معقل عن الشرط، ورد بجكم الأعور. وكان مقام محمد بن تكين بالفسطاط مئة يوم واثنى عشر يوماً.

١٢٣ - احمد بن كيغلغ [الثالثة]

ثم وردت الأخبار بخلع القاهر بالله، وولاية أبى العباس الراضى بن المقتدر. فعاد محمد بن تكين، فألقى إلى الناس أن أمير المؤمنين الراضى بالله ولاه مصر. فأقبل فى جمع معه، فخرج إليه حبشى بن أحمد فى المغاربة. فالتقوا فيما بين فاقوس وبلبيس، بموضع يقال له الطواحين، فاقتتلوا، فانهزم محمد بن تكين، وأسر وبعث به إلى الفسطاط، فأخرج إلى الصعيد.

وخرج بجكم إلى الحج، فجعل مكانه على الشرط محمد بن زياد، الذى يقال له كوجك. ثم عزل سلخ ربيع الأول سنة ثلاث وعشرين، فجعل على الشرط محمد بن عيسى النوشرى.

ووردت الأخبار بمسير محمد بن طغج إلى مصر، وأن الراضى بالله عقد له على ولايتها. فبعث أحمد بن كيغلغ بحبشى بن أحمد فى المغاربة إلى الفرما، ليمنع محمد بن طغج من

في القسطنطينية عندما سلمه أبوه للقصر الامبراطوري كرهينة، فهام بها حبا بعد أن خلبته ثقافتها وفنونها، وتمنى لويجلس يوما على عرشها. من ثم راح يبحث عن مبرر يدفعه للزحف عليها؛ ولقد قدم له ليون هذا المبرر، عندما اتخذ قرارا أحمقا يقضى بنقل التجار البلغار من مقر وكالاتهم في القسطنطينية إلى مدينة نائية هي «سالونيك» المطلة على بحر ايجة في أقصى شمال شرق اليونان. ولقد اتخذ ليون هذا القرار تحت ضغط التجار الروم الذين كانوا يخافون من

[الفيضان]، فلما علم بذلك الملك جعفر المتوكل امر بحفر البحر المذكور من اوله الى داخل المدينة، فامتلا ما [ماء] لان البحر النيل اليه يجرى، فصارت المراكب الكبار تدخل اليها حتى انها ترسى بالمراسى في وسط البلد، واصلحت له قناطر اذا هو امتلى فخرج منها الى البحر المالح [البحر المتوسط]. فتنيحت نفوس اهل اسكندرية ومن يصل اليها من الغربا، وكثرت المراكب والتجار فيها. وزرعت الناس الكروم والبساتين على الخليج

المسير. ووقعت الرعية بصاحب الشرط محمد بن عيسى النوشرى. فصرفه أحمد بن كيغلغ عن الشرط، وجعل مكانه سعيد بن عثمان غلام الأحول. ثم أقبلت مراكب محمد بن طغج فدخلت تنيس، عليها صاعد ابن كلملم. وسارت مقدمته في البر، ودخل صاعد إلى دمياط. وعزم أحمد ابن كيغلغ على التسليم إلى محمد بن طغج، فأبى ذلك محمد بن على الماذرائي، وانتظر ما يأمر به السلطان. وبعث بحبشي ليمانعه. وبعث بعلى بن بدر في المراكب، فلقى صاعد بن كلملم ببوش، من أرض سمنود على بحيرة ترسا، فاقتتلوا. فانهزم على بن بدر، وذلك لسبع عشرة خلت من شعبان سنة ثلاث وعشرين. وأقبل صاعد في مراكبه إلى الفسطاط، فكان في جزيرة راشدة وبالجزيرة. ثم مضى منحدراً في النيل إلى أسفل الأرض، ليلة الثلاثاء سلخ شعبان. وأقبل محمد بن طغج، فعسكر أحمد بن كيغلغ للنصف من شهر رمضان. فخرج إلى محمد بن طغج كثير من الجند مستأمنين. وعاد صاعد بن كلملم، فنزل الجزيرة يوم الأحد لعشر بقين من شهر رمضان. ولحق سعيد بن عثمان صاحب الشرط بمحمد بن طغج، فجعل بجكم مكانه. والتقى محمد بن طغج وأحمد بن كيغلغ يوم الاربعاء لسبع بقين من شهر رمضان. فكف أحمد بن كيغلغ عن القتال، وسلم إلى محمد بن طغج، وتكففا جميعاً. وكره حبشي والمغاربة جميعاً المقام مع محمد بن طغج، فركبوا طريق الشرقية، ومعهم بجكم وعلى بن بدر ونظيف الموسوى وعلى المغربي.

لكثرة الما وفى داخل مساكنهم كمثل خارج المدينة، لان ارضها ارض جيدة مقدسة تاتى بالثمار. وعمر الناس الادر فى الخراب حتى انهم وصلو بالبنا الى الموضع الذى يسمى مطرمور [قسطورين] الموضع الذى فيه قلاية الاب البطرك. وكانو يمجدوا الله على ما راوه من النعم التى كانت عليهم ويدعو للملك جعفر المتوكل.

وكان الاب البطرك انبا قزما ساكنا فى البلد المعروفة بدميره بهدو وسلامة طول الايام والاراخنة

منافسة التجار البلغار، ولم يكتف ليون بذلك، بل فرض على التجار البلغار فى سالونيك ضرائب باهظة، ولقد حاول سيمون أن يحل المشكلة سلميا، غير أنه لم يجد استجابة من الامبراطور ليون، عندئذ لجأ الى السلاح من أجل نصرة التجارة البلغار ومن أجل تحقيق أمله الدفين. واندلعت الحرب التى ظلت مشتعلة لمائة عام كانت خلالها كفة البلغار هى الراجحة؛ اذ تمكنوا من الزحف على القسطنطينية وحصارها، وتكبيد القوات المدافعة عنها خسائر فادحة، ولم تستطع جيوش الروم أن تصد

---

١٢٤ - محمد بن طغج
الثانية

ثم وليها محمد بن طغج الثانية، من قبل الراضى بالله، على صلاتها وخراجها؛ دخلها يوم الخميس لست بقين من رمضان سنة ثلاث وعشرين وثلاث مئة [٩٣٥م] وجعل على شرطه سعيد بن عثمان.

ولحق بحبشى وأصحابه بالفيوم، فخرج إليهم صاعد بن كلملم فى مراكبه يوم السبت لثلاث خلون من شوال سنة ثلاث وعشرين وثلاث مئة.

ثم قدم أبو الفتح الفضل بن جعفر بن محمد بن فرات مكشفاً، وقدم بالخلع، فخلعت على محمد بن طغج.

ودخل صاعد [بن] كلملم فى مراكبه إلى المنهى ثم صار إلى الفيوم. فاقتتل مع حبشى، فكان بينهم قتلى. ثم ظفر حبشى بصاعد، فأسره وقتله وقتل أصحابه، وذلك لتسع بقين من شوال. ثم مضى حبشى من الفيوم إلى الإسكندرية فى جيشه، وسار على بن بدر وبجكم فى المراكب التى كانت لصاعد. فصبحوا الفسطاط أول يوم من ذى القعدة سنة ثلاث. فأرسوا بجزيرة الصناعة [الروضه] فشعثوها، ثم مضوا إلى جزيرة راشدة. وركب محمد بن طغج فى جيشه، فوقف بحيالهم. ثم انحدروا إلى الإسكندرية آخر النهار. ولقوا حبشياً. وأجمعوا على

٥٤: انبا قزما البطرك ٨٥١/٨٥٩م

تقدم البلغار بسبب انشغالها بصد الفتوحات البحرية للاغالبة. وانتهت المرحلة الأولى من حرب «المائة عام» سنة ٩٠٤م بعقد هدنة كانت في صالح البلغار، فمقابل انسحابهم من حول أسوار القسطنطينية، تنازل ليون الحكيم عن جزء كبير من ألبانيا ومقدونيا، ترضية لهم، ولأنه كان يعتقد خطأ أن توسع البلغار أكثر من اللازم سوف يشتت قوتهم ويضعفهم؛ غير أن البلغار كانوا عازمين على أن تصبح مملكتهم القوة القابضة على البلقان، وبالرغم من أن هذه الحملة تركت معظم اراضي الامبراطورية دون

بمصر كانو يتولو اموره وتحملو اثقاله ولا يدعوه يحتاج الى احد من الناس ولا الى ما يقوم بحاله وقلايته واولاده وغلمانه، ثم حلت هذه النعمة العظيمة في اخر ايامه عند انقضا مدته، وعادو النصارى الذى كانو بعدو عن مصر اليها لما سمعو بالنعم الذى اسبغت عليهم. واستقامت امور النصارى.

وفي ذلك الزمان وصل الى مصر ناظر يدعى سليمان، وعند وصوله توفا [توفي] مقاره احد

اللحاق ببرقة. فساروا إليها ، وكتبوا إلى صاحب إفريقية يستأذنونه في الدخول في عمله، ويسألونه أن يبعث إليهم بجيش يأخذون به مصر، فإنهم يعلمون وجوه الحرب وكيف الوصول إليها. فبينا هم في ذلك، توفي حبشي بن أحمد بالرمادة في صفر سنة أربع وعشرين. وبعث إليهم صاحب إفريقية بجيش أمرهم بالسير معهم إلى مصر. وبلغ ذلك محمد بن طغج فأمر بإخراج العساكر إلى الإسكندرية والصعيد، وذلك في ربيع الأول سنة أربع وعشرين. وسار بجكم على مقدمة أهل المغرب، فدخل الإسكندرية في ربيع الآخر سنة أربع. وبعث الأمير محمد بن طغج بأخيه الحسن وصالح بن نافع في الجيوش [إلى] الإسكندرية لثمان بقين من ربيع الآخر سنة أربع. فالتقوا مع أهل المغرب، وعليهم رجل يقال له يعيش من كتامة، وآخر يقال له أبو تازرت كتامي. فالتقوا فيما بين تروجة وأبلوق [كفر سليم مركز كفر الدوار] لخمس خلون من جمادى الأولى. فانهزمت المغاربة، وقتلوا قتلاً ذريعاً، وأسر منهم جمع كبير من وجوههم، وقتل أميرهم يعيش. ودخل الحسن بن طغج وصالح بن نافع الإسكندرية، فقتلوا من بها منهم. ولحق بجكم ومن معه ببرقة، وسكنوا رمادة، وهو في سلطان صاحب إفريقية. ثم قفل الجيش مع الحسن بن طغج وصالح بن نافع، فنزلوا الجيزة ومعهم الأسارى في جمادى الأولى سنة أربع وعشرين. فطيف بالأسارى أول يوم من جمادى الآخرة، وهم مئة رجل وأربعة رجال، وبأربعة آخرين من وجوههم، قد أفردوا عن أولئك، فيهم رئيس لهم يقال له عامر المجنون، فسجنوا ولم يقتلوا.

الارخنين، فاما ابرهيم فكان مقيما على فعل الخير لم يفتر عنه ويهتم بامور البيعة ويحمل امور الاب البطرك، وكذلك يفعل مع اساقفه ارض مصر والديارات، وكان يبذل نفسه عنهم فى اسبابهم ويقضى حوايجهم لعظم محبته للمسيح ومكانه [مكانته] عند الولاة. وعلم انه لابد ان ينزل العدو البلايا على البيع كعادته ان يفعل فى كل زمان ووقت، والرب يسوع المسيح الرووف الذى لا يحزن احد الا بقدر طاقته وما يقدر ان يحمله كما

ماس تقريبا، الا أنها حققت للبلغار السيادة المطلقة على البلقان استمرت حتى مطلع القرن الحادى عشر. كل ذلك بسبب قرار أرعن اتخذه ليون دون تفكير أو ترو.

وفى عام ٩٠٧ عاد الروس الى الاغارة على حدود الامبراطورية طمعا فى مزيد من الاسلاب والغنائم، ووصلوا فى هذا الزحف الى مشارف القسطنطينية، بل علقوا دروعهم على أسوارها؛ واشترطوا على الروم أن يكون انسحابهم منها مقابل منحهم حق الافضلية فى التجارة معها؛ ولقد ظل الروس أيضا أعداء خطرين على

وخرج الفضل بن جعفر بن فرات إلى الشام لليلة خلت من جمادى الآخرة. ثم قدم الفسطاط يوم الخميس لخمس بقين من المحرم سنة سبع وعشرين. ثم خرج من مصر أيضاً يوم الخميس لثمان خلون من ربيع الأول سنة سبع وعشرين وثلاث مئة . ثم توفى بالرملة يوم الأحد لثمان خلون من جمادى الأولى سنة سبع وعشرين وثلاث مئة.

وورد الكتاب بالزيادة فى اسم الأمير محمد بن طغج، فلقب بالإخشيد، ودعى له بذلك على المنبر فى شهر رمضان سنة سبع وعشرين وثلاث مئة.

ووردت الأخبار بمسير محمد بن رائق إلى الشامات. ففرض محمد بن طغج الفروض، وبعث بمراكبه إلى الشام، وأطلق عامراً المجنون مع الطائفة الأسارى الذين أسروا يوم أبلوق، وذلك فى ذى القعدة سنة سبع. وبعث محمد بن طغج بعمران بن فارس إلى الشام فى جيش. ثم أتى الخبر بدخول محمد بن رائق إلى دمشق، وأن عبيد الله بن طغج سار إلى الرملة، فسلمت إليه فى ذى القعدة.

وعسكر الأمير محمد سلخ ذى الحجة، ثم سار إلى الشام فى المحرم سنة ثمان وعشرين، واستخلف أخاه الحسن عليها. ونزل الأمير الفرما، فأتاه الحسن ابن طاهر بن يحيى العلوى يسأله الصلح. فبعث يعلى بن محمد بن كلا ليوافق محمد بن رائق على ذلك. ثم تم بينهما

الامبراطورية حتى عام ٩٨٨ ميلادية عندما قرر فلاديمير Vladimir دوق كـيف Kiev أن يعتنق المسيحية الارثوذوكسية، وأصر على الزواج من شقيقة الامبراطور باسيليوس الثانى، ومنذ هذه اللحظة تحول الروس من أعداء للامبراطورية الرومية الى أصدقاء وحلفاء لها.

سياسته ازاء الدويلات الاسلامية:

أما بالنسبة لسياسة ليون ازاء الدويلات الاسلامية، فلم تخرج عن سياسة أبيه، وهى محاولة وقف التعاظم البحرى الاسلامى فى البحر المتوسط فى القرن التاسع، فمن

قال الرسول بولس اراد الله ان ياخذ الاب قزما اليه ويريحه من هذا العالم الزايل وينقله الى مساكن الابرار، فتنيح واسلم روحه بيد الخالق تحت هدو وسلامة. ومدة مقامه على الكرسى الانجيلى سبع سنين وخمسة اشهر. وكان هذا الاب لما مرض المرضة التى تنيح فيها مضى الى ناحية من اعمال اسفل الارض [الوجه البحرى] وبنا بها بيعة، وكانت هذه الناحية من كرسى سخا واسمها دنوشر والبيعة على اسم القديس الشهيد

الصلح على أن يسلم ابن رائق الرملة ويخرج عنها. وقدم الأمير محمد بن طغج من الفرما إلى الفسطاط يوم الخميس مستهل جمادى الأولى سنة ثمان وعشرين.

وقدم بجكم الأعور وعلى المغربى من برقة مستأمنين إلى الأمير، فأمنهما.

وتوفى سعيد بن عثمان صاحب الشرط للنصف من صفر سنة ثمان وعشرين، فقام غلامه بدر مقامه إلى تسع بقين من جمادى الأولى، فصرف وجعل مكانه شادن مولى الفضل بن جعفر بن فرات . ثم صرف لست خلون من شعبان سنة ثمان وعشرين، وجعل مكانه على بن سبك.

وأقبل محمد بن رائق من دمشق في شعبان سنة ثمان. فبعث الأمير بالجيوش إلى الرملة. ثم خرج الأمير محمد بن طغج متوجها إلى الشام، فعسكر يوم الاربعاء لست عشرة خلت من شعبان، وسار يريد الرملة . فالتقى مع محمد بن رائق يوم الاربعاء للنصف من شهر رمضان بالعريش. فكانت بينهما وقعة عظيمة . واضطربت ميسرة محمد بن طغج، وانهزم من فيها. ثم كر عليهم محمد بن طغج بنفسه وطائفة من أصحابه وغلمانه. فهزمهم وأسر كثيراً منهم، وأثخنهم قتلاً وأسراً. ومضى ابن رائق منهزماً. وتبعه الأمير محمد بن طغج إلى الرملة فدخلها، وأتى بالأسرى إلى الفسطاط، فطيف بهم وهم نحو من خمس مئة رجل لليلتين خلتا من شوال.

ابطلماوس، فاقام بها منفردا ليكمل عمارتها فاشتد به الوجع فعاد الى المكان الذى كان ياوى فيه بدنوشر وتنيح فيه في اليوم الحادى والعشرين من هتور مسا [ء] في سنة خمس وسبعين وخمس مابة للشهدا الابرار، وجعل جسده في البيعة الذى بناها، ونال الاكليل مع ابابة القديسين الابا الاطهار في كورة الاحيا، والمجد للاب والابن والروح القدس الاله الواحد الان وكل اوان والى ابد الابدين [بقولنا اجمعين امين.. امين.. امين.. كيرياليصون.

كريت شن الربض حملات هاجموا فيها السواحل المطلة على البحر المتوسط، مثل طرسوس وطرابلس، وجزر الارخبيل اليونانى. ولهذا بدأ يدعم البحرية الرومية بالسفن، وجعل لها ثلاثة أساطيل. غير أنه فشل في اخراج الربض، [وهم الاندلسيون الذين طردوا من الاسكندرية بعد أن احتلوها حوالى ١٢ سنة على يد عبدالله ابن طاهر عامل الخليفة المأمون في مايو ٨٢٧م فاستقرا في كريت] من كريت عام ٩١٠ ميلادية، وبالرغم من دعمه للبحرية الرومية،

وسار الحسين بن طغج [و] يكنى أبا نصر من الرملة، فكان باللجون [بوادى الاردن] فسرى عليه محمد بن رائق، فقتل أبا نصر الحسين بن طغج يوم الثلاثاء لإحدى عشرة خلت من ذى القعدة سنة ثمان وعشرين وثلاث مئة. ثم تداعى محمد بن طغج ومحمد بن رائق إلى الصلح أيضاً فمضى ابن رائق إلى دمشق على صلح.

وقدم الأمير محمد بن طغج إلى الفسطاط يوم الخميس لثلاث خلون من المحرم سنة تسع وعشرين. فصرف على بن سبك عن الشرط لثمان بقين من ربيع الآخر سنة تسع وعشرين، وولى مكانه الحسين بن على بن معقل. ثم صرفه للنصف من رجب وجعل مكانه ينال الحباكى عن الشرط، ورد إليها على بن سبك ولايته الثانية يوم الاثنين لأربع خلون من ذى الحجة سنة تسع. وورد الخبر بمقتل محمد ابن رائق بالموصل، قتله بنو حمدان في [شعبان] سنة ثلاثين وثلاث مئة. فبعث الأمير محمد بن طغج بجيوشه إلى الشام مع على بن محمد بن كلا. وصرف على بن سبك عن الشرط، وجعل مكانه أحمد بن موسى بن زغلمان لمستهل رمضان سنة ثلاثين.

ثم عسكر الأمير محمد بن طغج، وأجمع على الخروج إلى الشام. ثم سار لست خلون من شوال سنة ثلاثين، واستخلف على الفسطاط أخاه أبا المظفر. وخلا الفسطاط من الجند فخرج محمد بن يحيى [بن محمد] بن أحمد بن عبدالله بن موسى بن على بن أبي طالب، الذى

السيرة الثانية والعشرين من سير البيعة المقدسة شنوده البطرك (ابونا سانوتيوس)

الذى كان اقنوما وهو من عدد الابا الخامس والخمسون

[٨٥٩/٨٨٠م]

نبتدى الان يا اخوتى المومنين بالمسيح، ونذكر ما جرى بعد نياحة الاب القديس انبا قزما لتكون ربحا ورجا لنفوس المومنين. لما تنيح الاب انبا قزما اجتمع الابا الاساقفة والشعب الارتدكسى بمدينة

استمرت البحرية الاسلامية تضيف لنفسها فى كل يوم فتوحات جديدة فى الجزء الاوسط من البحر المتوسط، فقد سقطت أغلب أجزاء صقلية فى أيدى الاغالبة، الذين استعاضوا عن فقدان تارنتوم باحتلال ريجيوم Rhe-gium عند الطرف الجنوبى الغربى لايطاليا، المواجه للركن الشمالى الشرقى لصقلية، وبذلك أصبح الاغالبة يتحكمون فى مضيق ميسانا Messana الاستراتيجى، الذى يفصل بين صقلية وشبه الجزيرة الايطالية، وأعلن أمير الاغالبة فى القيروان، أنه سوف يستمر فى ريجيوم حتى يستولى

يقال له ابن السراج ، فمضى إلى الصعيد. فخرج بشرونة، وصار إلى غربى النيل ، فنهب سمسطا [تابعة للبهنسا، وذلك فى ذى القعدة سنة ثلاثين. ومضى على وجهه فلحق طريق المغرب، فصار إلى سلطان صاحب إفريقية.

وصرف أحمد بن موسى بن زغلمان عن الشرط، وقدم محمود بن داود، رجل من أصحاب ابن رائق، فتسلم الشرط يوم الثلاثاء لثمان خلون من جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثين [وثلاث مئة]. ثم قدم الأمير محمد بن طغج، ونزل البستان يوم الأحد لثلاث عشرة خلت من جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثين وثلاث مئة. وتوفى محمد بن داود يوم الاربعاء لست بقين من جمادى الأولى سنة اثنتين وثلاثين، فجعل مكانه على الشرط مظفر بن العباس الجيشانى. ووردت الأخبار بمسير المتقى لله إلى الشامات، ومعه بنو حمدان. فأمر الأمير بمضربه، فأخرج لثمان خلون من رجب سنة اثنتين وثلاثين، واستخلف أخاه الحسن بن طغج على الفسطاط. ومضى محمد بن طغج إلى الرقة، فلقى المتقى لله، وأقام فى عسكره. ثم رجع إلى مصر، فنزل البستان يوم الخميس سلخ ربيع الآخر سنة ثلاث وثلاثين وثلاث مئة. ودخل داره يوم الاثنين لأربع خلون من جمادى الأولى. وأتى الخبر [بسمل] المتقى وخلعه، وبيعة عبدالله بن المكتفى، وسمى المستكفى، يوم الجمعة لسبع خلون من جمادى الآخرة، فأقره عليها.

اسكندرية فى شهر كيهك سنة خمس وسبعين وخمس ماية للشهدا الاطهار، وبدو ان يفكرو فيمن يصلح لهذه الرتبة وان يكون مستحق الجلوس على الكرسى الرسولى، وكانو الاساقفة يتخيرو وهم لا يشاور الكهنة ولا الاراخنة بمدينة اسكندرية ومصر، وكذلك كانو الكهنة والاراخنة لا يشاركو الاساقفة. ولم يعلمو ان الذى قدمه الرب قد اختاره وعرفه كما هو مكتوب: ان الرب عارف افكار الحكما انه [انها] باطلة.

على ايطاليا وبالذات مدينة روما. فقد كان الاغالبة يعتقدون أن الطريق الى القسطنطينية تمر عبر روما. ولم يستطع ليون الحكيم أن يفعل شيئا، لأنه كان متورطا حتى أذنيه فى مستنقع الحرب مع البلغار فى البلقان، كما عجزت الامبراطورية الرومانية الغربية هى الأخرى أن تفعل شيئا، لأنها كانت تعانى من التفكك الداخلى، ومن غارات النورديين عليها. ووسط هذه الأنواء مات ليون الحكيم عام ٩١٢م تاركا ابنا صغيرا اسمه قسطنطين.

وبعث الأمير بفاتك وكافور غلاميه فى الجيوش إلى الشام. وقدمت وفاة عبيدالله بن طغج من الرملة فى جمادى الآخرة. وخرج محمد بن طغج إلى الشام يوم السبت لخمس خلون من شعبان سنة ثلاث وثلاثين [وثلاث مئة]، واستخلف أخاه الحسن عليها. والتقى أصحاب الأمير محمد بن طغج مع على بن [عبدالله بن] حمدان أبن حمدان، والأمير مقيم فى (اللد) من أرض فلسطين. وصرف المظفر بن العباس عن الشرط يوم الاثنين لست بقين من ذى القعدة سنة ثلاث وثلاثين، وجعل مكانه لؤلؤ الغورى. ثم سار الأمير، فلقى على بن حمدان بأرض حمص، فاقتتلوا. ومضى محمد بن طغج إلى حلب فدخلها.

وخلع ا لمستكفى، ودعى للمطيع لله بمصر، وهو الفضل بن جعفر المقتدر بالله، ويوم الجمعة لثلاث خلون من شوال سنة أربع وثلاثين وثلاث مئة [٩٤٥م].

وصرف لؤلؤا الغورى عن الشرط للنصف من ذى الحجة سنة أربع وثلاثين، وجعل مكانه على بن سبك بولايته الثالثة. وعاد الأمير إلى دمشق، فأقام بها. وتوفى الأمير محمد بن طغج بدمشق لثمان بقين من ذى الحجة سنة أربع وثلاثين وثلاث مئة.وورد الخبر بوفاته إلى الفسطاط يوم الاثنين لليلتين خلتا من المحرم سنة خمس وثلاثين وثلاث مئة.

إلى هنا انتهى ما كتبه أبو عمر، وأخرسته المنية قبل إكماله. قال ذلك ابن زولاق فى أول كتابه «أخبار قضاة مصر». وما بعد ذلك ليس من كلام أبى عمر.

فلما طال ذلك عليهم اجتمعو الاساقفة وشعب اسكندريه وسارو الى مصر ليجتمعو بها ويكون رايهم راى واحد. فلما حضرو بدو يذكرو اسما جماعة من الكهنة والرهبان والعلمانيين الذين يشهد لهم بعفة اللسان والطهارة والعلم ومعرفة الكتب الالهية [فكانوا] مختلفين القول، كل انسان منهم له هوا فيمن يعرفه فيشهد الحاضرين بما علموه، وكانو يقولو القول الذى كان فى بنى

الامبراطور قنسطنطين السابع تحت الوصاية ٩١٢-٩٤٤،

يوم مات أبوه، لم يكن قسطنطين السابع قد تجاوز السابعة من عمره بعد، وأزيحت الامبراطورة الأم عن مسرح الاحداث، وبالرغم من أنه كان من المفروض أن تعين وصية على الامبراطور الطفل طبقا للتقاليد المتبعة، وجريا على عادة من سبقها، لكن اصرار الكنيسة على موقفها منها، كان السبب فى ابعادها عن هذا الحق، وعوضا عن وصايتها تشكل مجلس

---

١٢٥ - ابو القاسم انو جور بن الاخشيد

ثم وليها أبو القاسم أنو جور بن الإخشيد، باستخلاف أبيه الإخشيد عليها، يوم ورد الخبر بموت أبيه، وكان أبو المظفر الحسن بن طغج بمصر. وقبض على أبى بكر محمد بن على بن مقاتل يوم الثالث من المحرم سنة خمس وثلاثين [وثلاث مئة ٩٤٦م]، وجعل مكانه [على الخراج] أبا بكر محمد بن على بن أحمد الماذرائى. وراح الأمير أبو القاسم أنوجور إلى الجامع يوم الجمعة ثالث عشر المحرم، ودعى له فيه وحده.

وقدم الحاج يوم الاربعاء خامس وعشرين المحرم. ثم كان النيروز للقبط، موافقاً ليوم السبت ثامن وعشرين المحرم، فمنع الناس من صب الماء. وقدم العسكر يوم الثلاثاء أول صفر سنة خمس وثلاثين، وخلع يوم الاربعاء على أبى على الحسنين بن محمد بن على الماذرائى. وخرج أبو المظفر إلى المضرب يوم الأحد رابع عشر ربيع الأول. وكان الارتفاع من المشرق كد والطالع العقرب. فأقام فيه أياماً، ثم رحل والعسكر معه يوم الثلاثاء حادى وعشرين شهر ربيع الأول. وكان مقام العسكر بمصر شهراً واحداً وأحداً وعشرين يوماً. وقرئ يوم الجمعة أول ربيع الآخر على منبر الجامع كتاب من المطيع لله إلى الأمير أبى القاسم أنوجور يعزيه فيه عن الإخشيد.

وقدم محمد بن يحيى بن محمد بن أحمد بن عبدالله بن موسى بن عبدالله ابن على بن

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/٨٨٠م

اسرايل: ليس لنا نصيب في داود ولا ميراث في بيت يسا. ولم يزالو في هذه الافكار كل واحد يرد على صاحبه. وكان ذلك الوقت في بيعة القديس ابو مقار اقنوم اسمه شنوده [ابن الله] الذى قد كنا ذكرنا فضايله وبناوه البيعة الذى بدير ابو مقار وغيرها من البيع، وكان هذا في ذلك الوقت قد دخل الى ابراهيم الارخن بسبب خراج اواسى البيعة، فلما راوه الابا الاساقفة والشعب الارتدكسى واراخنة اسكندريه فرحو به فرحا شديدا ليشاركهم

من كبار رجال البلاط ضم شخصيتين كبيرتين: هما الاسكندر شقيق الامبراطور الراحل ليون الحكيم، وعم الامبراطور القاصر؛ والشخصية الثانية هى رجل البلاط القوى رومانوس ليكابينوس Romanus Lecapinus . ولم يلبث الاسكندر عم الامبراطور أن مات بعد عام واحد أى فى عام ٩١٣م. وعلى أثر ذلك عمت الفوضى فى البلاد بسبب انقسام مجلس الوصاية على نفسه . وهنا علا نجم رومانوس ليكابينوس، فظهر مجلس

أبي طالب، المعروف بالسراج، من المغرب يوم الاثنين ثامن عشر ربيع الآخر سنة خمس وثلاثين فأخبر [به أنوجور] ، وتقدم إليه بالخروج واللحاق بالعسكر، فخرج بعد أيام، وتوفي بالرملة.

وكان والي الريف بالأشمونين غلبون. فتظلم التجار منه، وأذاعوا أنه يريد أن يثور بها. فتجهز إليه شادن في جماعة من الجند، وكان خروجه يوم الاثنين سلخ جمادى الآخرة سنة خمس. فكبس غلبون لشادن في السحر، فقتل جماعة من أصحابه، وأفلت شادن بنفسه.

وبعثت أسارى ابن حمدان، وزينت الأسواق، وأدخل بالأسارى من المساء يوم الأحد السادس. وخلع على عليّ بن صالح بن نافع. وعرفنا أن الوقعة كانت بينهم يوم الثلاثاء أربع وعشرين جمادى الأولى، وأنه انهزم بين الظهر والعصر من أكسال بنواحي الأردن. ودخل ابن طغج إلى دمشق بعد كسرته لابن حمدان.

ولما عاد شادن إلى الفسطاط بعد كبسة أصحابه وقتلهم، وبعث إليه عسكر كثيف مع الحسين بن لؤلؤ وتكين الخاقاني وغيرهما . وشغب الأجناد في طلب الأرزاق، ثم ساروا إلى غلبون. فخالفهم في الطريق، وجاء إلى الفسطاط، وقاتل من بقي فيها من الغلمان، ودخلها ونزل دار الإمارة. ثم كرت عليه الغلمان والعساكر، فخرج إلى الشرقية. وتجمعت العساكر ولحقته، وكانت بينهم مقتلة شديدة . فقتل غلبون في معركتها، ونصب رأسه بالمصلى لخمس بقين من ذى الحجة سنة ست وثلاثين وثلاث مئة. فطيف بالأسارى، ولم يحج في هذه السنة

الوصاية، وقلل من دوره، حتى كاد وجودة أن يكون معدوما؛ ثم عمل على تهدئة الاوضاع المضطربة فى البلاد، بطمئنة الناس أن هناك فى القصر رجلا قويا أمينا على مصالح الأمبراطورية والامبراطور. كما نجح فى استعادة اديسا Edessa وبعض المناطق الواقعة حولها. وفى اديسا ادعى أنه قد استعاد الايقونة ذات السر الاعجازى، والتى كانت تعرف باسم صورة المسيح «التى لم ترسمها يد انسان»، وقد استبشر الروم بها خيرا، وحملت

فى الراى لانه كان فيه روحا مقدسة ويعرفهم من الرجل الذى يصلح لهذه الدرجة من الابا القديسين، فذكر لهم قوما يعرفهم بالطهارة. ثم ان الارخن ابراهيم قضى حوايج الاقنوم الذى وصل لاجلها وسار وهو مسرعا الى البرية فى الليلة السابعة والعشرين من كيهك، وكان قصدا منه ان يلحق [عيد] الميلاد المجيد فى بيعته، فلما كان فى الغد حضر الجمع الى بيعة القديس ابو سرجه

لاشتغالهم بغلبون.

وقدم كافور من الشام فى الجيوش، وجرت وحشة بين الأمير أنوجور وبين كافور، ثم صلح الأمر بينهما. وعزل تكين الخاقانى عن الشرط، وولى نصر العالى وأظهر الظلم والقسوة، وعزل فى سنة أربع وأربعين.

وفى سنة سبع وأربعين وثلاث مئة، وقع بين الأمير أنوجور وبين كافور منافرة ووحشة، ثم مضى إليه الأمير وانصلح الحال. وولى الشرطة بدر غلام يأنس فى سنة إحدى وخمسين. وتوفى أنوجور بن الإخشيد يوم الأحد لثمان خلون من ذى القعدة سنة تسع وأربعين وثلاث مئة.

١٢٦ - ابو الحسن على بن الاخشيد

أبو الحسن على بن الإخشيد، دعى له يوم الجمعة ثالث عشر ذى القعدة سنة تسع وأربعين وثلاث مئة [٩٦٠م]، والناظر فى البلد والمستولى على الدولة كافور، والإمرة لعلى إلى سنة خمس وخمسين. فتوفى لإحدى عشرة ليلة خلت من المحرم سنة خمس وخمسين [وثلاث مئة ٩٦٥م]، وعمره يومئذ ثمان وعشرون سنة ونصف. وحمل فى تابوت إلى البيت المقدس، ودفن مع أخيه ووالده بباب الأسباط [وكانت مدة سلطنة على بن الاخشيد المذكور على مصر خمس سنين وشهرين ويومين].

بقصر الشمع لما هم بصدده، فلما اجتمعو ظهرت اية لجميعهم وقالو بكلمة واحدة يحلفون انه ما يستحق هذه الرتبة الا اقنوم بيعة القديس ابو مقار، وقال جميعهم مستحق مستحق مستحق بالحقيقة هذا هو الرجل الذى اصطفاه الله لهذه الدرجة. وللوقت خرجو لطلبه فقال لهم الارخن ابراهيم: يا ابهاتى المباركين اهتدو وارعو، لانهم كانو يطلبوه انه بمصر ولم يعلمو بمسيره وانه سار الى ديره

فى حرص شديد إلى القسطنطينية لتدخلها منتصرة على رأس موكب مهيب، وقيل أن ليكابينوس كان يخفى طموحا فى نفسه، وهو أن يحول العرش الى اسرته بعد التخلص من الامبراطور.

ولقد كان لرومانوس ليكابينوس ثلاثة أبناء، هم خريستوفوروس Christophoros واسطفان، وقسطنطين، وكان له عدد من البنات أكبرهم هيلانة. وبالرغم من أن رومانوس كان يفكر فى مستقبل

---

١٢٧ - كافور

واستبد كافور بالأمر بعد موت على بن الإخشيد، ودعى باسمه على المنابر فى المحرم سنة خمس وخمسين وثلاث مئة [٩٦٥م]. ووردت رسل المطيع وخلعه وهداياه وطوق وسوار. ورفعت المطارد على رأسه. ووافت رسل صاحب هجر القرمطى إلى كافور، ومعهم نحو المئتى حمل من متاع الحاج الذين قطع عليهم بنو سليم. فأمر برده إلى الحاج وسلم إليهم.

ولما تم لكافور ملك مصر والحرمين، ولبس الخلع ولقب وطوق وسور، لم يعش بعد ذلك سوى مئة يوم، وتوفى كافور فى جمادى [الأولى] سنة سبع وخمسين وثلاث مئة.

١٢٨ - ابو الفوارس احمد بن على بن الإخشيد

وأجمع الرأى بعد وفاته على ولاية أبى الفوارس أحمد بن على بن الإخشيد. فحسنت سيرته، وأمر برفع الكلف والمؤن، وتعطيل المواخير، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. ونقص النيل، وكثر الغلاء فى أيامه واشتد، حتى أكل الناس الجيف والكلاب.

ووافى الخبر من الرملة بأن الحسن بن عبيدالله بن طغج خالف، وأخذ البيعة لنفسه، وقبض على أموال كافور بالرملة. وجاء القائد جوهر إلى الفسطاط، فخرج الناس للقائه فدخل بعد عصر يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان سنة ثمان وخمسين وثلاث مئة [٩٦٨م].

أبنائه، الا أنهم كانوا على علاقة سيئة بابيهم. وعلى اى حال فقد عمل رومانوس على دعم مركزه رويدا رويدا، لأنه لم يكن متعجلا للاستيلاء على العرش حتى لا يسمونه مغتصبا. ورأى رومانوس أن خير وسيلة للسيطرة على القصر هى ربط هذا الامبراطور القاصر برباط المصاهرة معه، فقد زوجه من ابنته هيلانة. ثم شرع رومانوس فى انجاز عدد من المشروعات الاصلاحية والتنظيمات الادارية، وبالرغم من أنه أصدرها باسم

مسرعا، والان فانا احضره اليكم بحجة كانكم تسالوه عن قوم اخرين قد سهى عنهم. ثم كتب للوقت الى الرجل المستحق النعمة بذلك وانه ما طابت نفوس الاساقفة والشعب المسيحى على رجل من القوم الذين اشار بهم عليهم، فاسرع بمحبته المسيحية وحضر الى مصر فى اول يوم من طوبه ودخل الى كنيسة ابو سرجه وهم مجتمعين فيها، فوافاهم [و] قد بدو فى القداس والجمع يقولو:

وخطب للمعز يوم الجمعة على المنابر بمصر فى السنة. وجاء المعز من المغرب إلى الديار المصرية، فدخل يوم الثلاثاء سادس رمضان سنة اثنتين وستين وثلاث مئة.

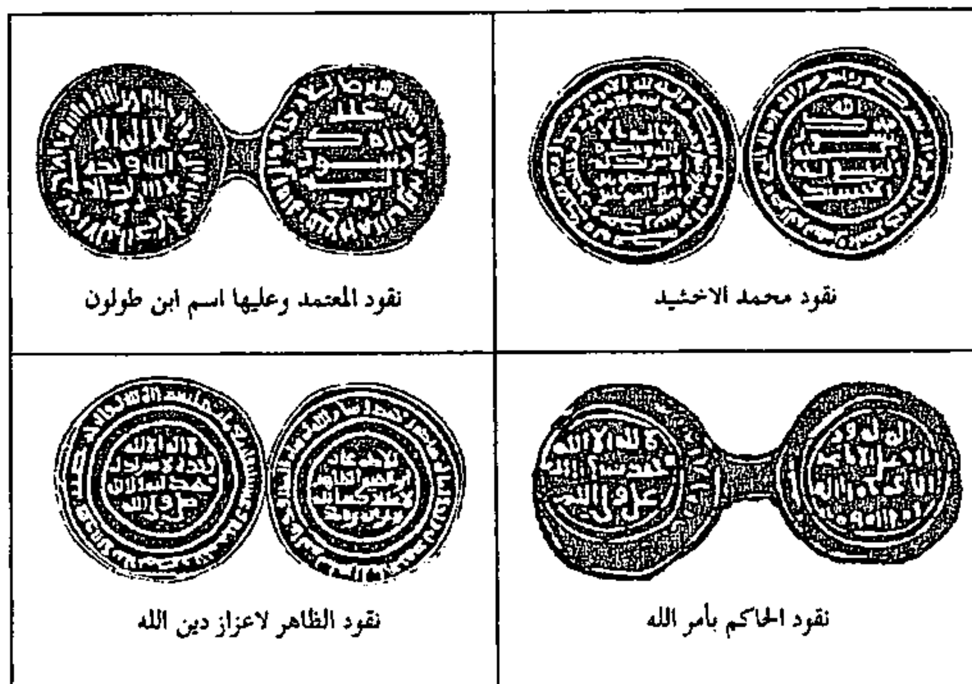

نقود محمد الاخشيد

نقود المعتمد وعليها اسم ابن طولون

نقود الحاكم بأمر الله

نقود الظاهر لاعزاز دين الله

مستحق مستحق مستحق بالحقيقة، فلما نظروه الجماعة صاح جميعهم بزيادة، مستحق بالحقيقة الذى اصطفاه الرب. ووثبو اليه ومسكوه ورمو فى رجليه قيد حديد، وكان يصرخ ويبكى ويقول: ما هذا الذى تفعلوه امام الرب ظنكم انى مستحق هذه الدرجة لا تظنو هذا ولا تفعلوه. وكان يظن انه يخلص منهم بهذا، وكانت اصواتهم تتزايد وكان الله قد اختاره واراد ان يقدمه راعيا لهذه الامة

قسطنطين السابع زوج ابنته، الا أن الهدف الحقيقى من ورائها كان تعزيز مكانته في قلوب شعوب الامبراطورية. وهكذا ظل الامبراطور قسطنطين السابع يلهو، ويرتع وينهل من العلم والثقافة، بينما كان الامبراطور الفعلى هو رومانوس ليكابينوس، حتى أن بعض المؤرخين يخطئون ويدرجون اسمه بين قائمة الاباطرة. وظل على ذلك الحال لمدة واحد وثلاثين عاما.

حوليات تاريخية من ٢٥٨هـ = ٨٧١م إلى ٥٠٠هـ = ١١٠٦م

سنة ٢٥٨ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأحد ١٨ نوفمبر ٨٧١م

* استولى الحسن الزيدى على جُرْجان وهزم قائد الخليفة موسى بن بُغَار الذى خرج لرده.

* ولد فى هذه السنة وزيران هما: الوزير العباسى الأديب القاسم بن عُبيد الله وهو الذى عقد البيعة للمكتفى بعد ذلك، والوزير المصرى أبو بكر المَاذَرَائى تولى الوزارة ابان حكم الأخشيد.

* ولد فى هذه السنة من رجال العلم: الفقيه الشافعى أبو بكر الصبغى ولد بنيّسابور، وفيها ولد الفقيه الحنفى أبو محمد عبدالله الكَلاَبَاذى ولد بنواحى بخارى، وفيها ولد عالم اللغة عبدالله بن دُرُسْتَويه وهو فارسى الأصل عاش ببغداد.

* توفى فى هذه السنة شيخ خراسان أبو عبدالله الذُّهْلى عن ست وثمانين وهو ممن روى عنهم البخارى.

الضعيفة. وفرح الاساقفة وجميع من فى البيعة وقالو: مبارك الاتى باسم الرب ضو [ضوء] الرب اشرق علينا. ثم حملوه سرعة الى اسكندريه ليكرز هناك، فلما وصلو الى قريب المدينة فخرج اليهم خلق عظيم فاستقبلوه ودخلو به بمجد وكرامة، وكان يصحبه شيوخ رهبان من وادى هبيب لكثرة امانتهم فيه، وذلك فى اليوم الحادى عشر من طوبه. وكان يوم فيه مطر عظيم، فبارك الرب

سقوط رومانوس وتسلم قنسطنطين السابع العرش ٩٤٤م:

ازدادات علاقة رومانوس ليكابينوس سوءا مع أبنائه، حتى أنهم وشوا به عند الامبراطور الذى أمر بنفيه الى احدى الجزر القريبة من القسطنطينية عام ٩٤٤م، وبقى فيها منفيا حتى موته عام ٩٤٨م. ولما حاول أبناؤه أن يكملوا لعبة أبيهم ألقى القبض عليهم، وأرسلوا الى نفس المنفى، وبذلك هلك أبناء

---

* ممن توفى من رجال العلم: المحدث أحمد بن الفرات الأصبهانى ممن روى عنه أبو داود فى سننه، والمحدث المصرى النشأة أبو عبدالله ابن سَنْجر له العين فى الحديث، وفيها توفى بنيسابور الواعظ الزاهد يحيى أبو مُعَاذ، وفيها توفى المؤرخ أحمد بن الحارث الخَرَّاز له أسماء الخلفاء وكتابهم ومغازى البحر فى دولة بنى هاشم، وقاضى الثغور جعفر بن عبدالواحد، وقاضى الأندلس أبو عَمرو الحَضْرَمى.

* وافق هذا التاريخ (٨٧١م) وفاة ملك إنجلترا السكسونى ايثلرد الذى رد الغزو الدنماركى عن إنجلترا.

سنة ٢٥٩ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الجمعة ٧ نوفمبر ٨٧٢م.

* دخل الزَّنْج مدينة الأهواز (رجب) بعد هزيمة عاملها اصعجور ووفاته غرقاً وأسر الحسن بن هرثمة وفى ذى القعدة أنفذ المعتمد قائده موسى بن بُغَار للاشتراك فى حرب الزنج.

* تجددت الحرب بين المسلمين والروم، وكانت القيادة لأحمد القابوسى الذى غلب على الروم عند مَلَطية.

جميع من فى اسكندريه وقالو: حقا ان الله يظهر ثمار كثيره كما فى الابركسيس انه فعل خيرا وصلاحا وامطر عليهم مطر الرضا واعطاهم ثمارا. وقدموه بطركا فى اليوم الثالث عشر من طوبه سنة خمس وسبعين وخمس مايه للشهدا الاطهار [الاحد ٨ يناير ٨٥٩م]. وكان [الانبا شنوده] من [قرية تعرف] بالبتنون [مركز شبين الكوم] ربوه قوم اخيار مثل طماتاوس، ثم انتقل الى الشيخ

رومانوس ليكابينوس، ولم تبق من ذريته سوى بناته.

وبعد التخلص من ليكابينوس، وجد قسطنطين السابع الذى اشتهر باسم برفيروجينيتوس Prophyro-gennetos نفسه امبراطورا فعليا وهو فى سن الاربعين، بعد فترة طويلة من العزلة والتعود على الخمول، والتمتع بحياة الأبهة والعظمة وترف القصر. وكان من الصعب عليه أن يترك الحياة التى تعود عليها، كما أنه كان رجل قلم وفكر، لا رجل سيف وحرب،

---

* ولى محمد الأول الأموى أمير الأندلس ابن عَمْروس والياً على أمشقة بعد سنوات من الخلاف، بينما خرج الأمير نفسه إلى طُلَيطلة مرة أخرى بعد أن كان قد أمَّن أهلها فارتدوا إلى الثورة فهزم قائدهم عبدالرحمن بن حبيب.

* فر الثائر العلوى الذى استبد بالصعيد واستولى على اسنا إلى مدينة أسوان منهزماً، وجيش ابن طولون على أثره فواصل الهرب إلى عيذاب ومنها ركب البحر إلى مكة وتفرق أصحابه.

* إستولى يعقوب الصفار على إقليم خراسان بعد أن هزم جيوش الخليفة التى أرسلت لردعه.

سنة ٢٦٠ هجرية

استهلت السنة بيوم الثلاثاء الموافق ٢٧ أكتوبر ٨٧٣م.

* اتسع نفوذ يعقوب الصفار فبعد أن استولى على نَيسابور اتجه إلى طَبَرستان وعليها الحسن العلوى الذى انهزم أمامه وأخلى سَارِية وآمُل وغيرها من المدن فدخلها الصفار وجبى خراجها وعاد إلى سِجِستان.

القديس انبا يوساب البطرك الذى حلت عليه روحه من البدى والى الان، كما بدات وذكرت. اسمعو الان يا احباى ما فعله هذا الاب البطرك انبا شنوده عند جلوسه على الكرسي المرقسى، كان كلامه يشبه تواضعه وكانت دموعه فى كل حين قدام كل احد، واذا عزوه فيقول: اذا ما تفكرت فى مجد عروس المسيح الذى هى البيعة وحسنها وعلوها الروحانى، ثم اذكر سوى [حقارتى] انا، فلا اترك

فترك أمور الامبراطورية لزوجته، وانصرف الى التأليف والكتابة، والاهتمام بالتعليم، وتنظيم البلاد، حتى قيل عنه أنه ادرى رجل براجبات البلاد، والتى شهدت أزهى عصورها فى عهد ذلك الامبراطور.

انتصاره السلمى على ملك البلغار،

وفى زحمة الفوضى التى سادت فى مجلس الأوصياء، استغل سيميون Simeon، ملك البلغار الفرصة لتحقيق حلمه الدفين،و هو الاستيلاء على القسطنطينية، فبدأ الزحف

---

* توالت انتصارات ثور الزّنج وفيها قتل عَامل الكوفة على بن يزيد.

* انتهز الامبراطور البيزنطى باسيل الأول أحداث الخلافة الداخلية ووثب على قلعة اللؤلؤة بالقرب من طَرَسُوس.

* شهدت السنة غلاء مفرطاً فى العراق والحجاز بسبب القحط حتى بلغ سعر الأردب أربعة دنانير.

* ثار أهل الموصل على عاملهم التركى اذكوتكين وقاتلوه وأخرجوه ونهبوا داره، كما أغار الأعراب على حِمْص وقتلوا عاملها منْجور التركى وخلفه تركى آخر هو بكْتُمر.

* ظهر موسى بن ذى النون بسنت مرية بالأندلس وأغار على طليطلة وغلب على عاملها ابن طريشة.

* ولد فى هذه السنة: بفاراب من نواحى التركستان الفيلسوف الحكيم أبو نصر الفَارَابى مؤلف المدينة الفاضلة والملقب بالمعلم الثانى.

الحـزن والبـكا بيني وبين نفـسي، واقـول من الذى يفكر فى هذا هكذى، وما الخطيـة التى صنعتـها يبعتك اللهم، واى غضب اغضبت سيدها حتى تقدمت عليها انا المرذول الخاطى افتـضحت بى. واكثـر من هذا كـان يقـول، وداوم البكا. وكـان كلمن يسمعـه يعزيه ويسليـه فلا يقدرو. وكـان يقـول: لا تظنو انى ادع هذا البكا عندمـا اتذكـره من اثامى وذنوبى فيـتعجب كل احـد من تواضعه

نحوها مستوليا فى طريقه اليها على اقليم مقدونيا، ثم اقليم تساليا، ثم مدينة أدرنة عام ٩١٤م. وعسكر بجيوشه على مقربة من شمال القسطنطينية. وحاول البطريرك نيقولاوس التفاوض مع البلغار، واقناعهم بعدم جدوى مهاجمة العاصمة. غير أنه لم يجد استجابة منهم، وفى عام ٩٢٤م رمى سيميون بكل قوته لحصار المدينة، ودخولها، واعلان نفسه امبراطورا على بلغاريا الكبرى بعد أن تضم ممتكات

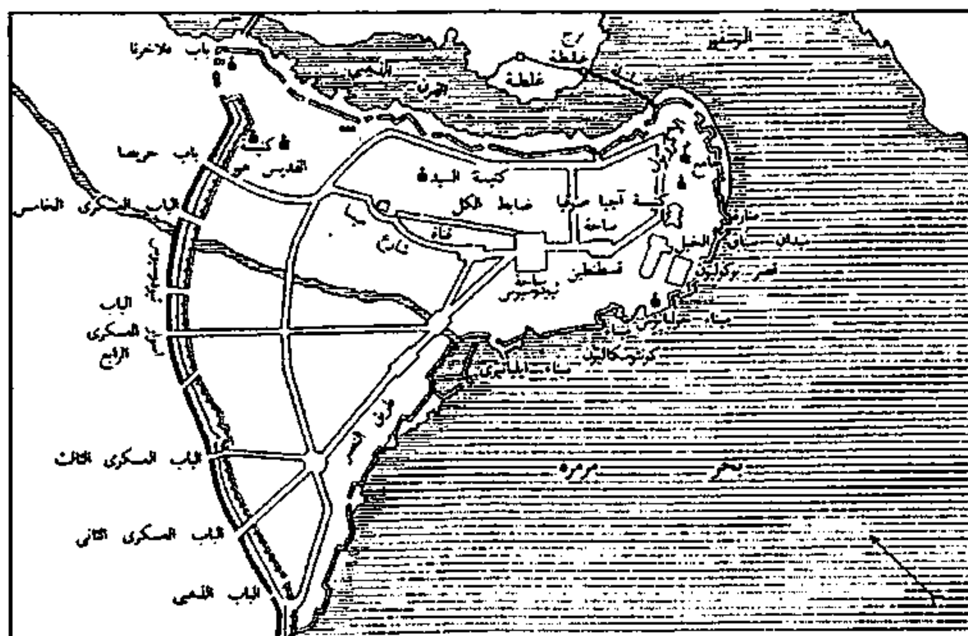

خريطة القسطنطينية سنة ١٢٠٤

م٥ تاريخ مصر جـ١ (الهيئة العامة لقصور الثقافة)

ونعمة جلوسه الممتلى نعمة وهيبة، واسم المسيح فى فيه يتلوه كل ساعة مثل طفل عينيه الى امه. ولتواضعه لم يكن يعول على شى بل على الاسم المخلص يسوع المسيح وجميع توكله عليه، ويتذكر قول بولس الرسول لليهود فى الابركسيس ويقول: ليس هو اخــر ان يكون الخــلاص به وليس اسم تحت السـمـا اعطى للناس الذى خلاصهم منه الا هو. وجعل الاب انبا شنوده اساسا فى كتبه نجاة

القسطنطينية اليها، واستعداد لهذا الحدث، أعلن سيميون قيام كنيسة بلغارية فى عاصمة مملكته بريسلاف Preslav الواقعة فى وسط سهل بلغاريا. ولم يستطع سيميون احتلال القسطنطينية لمناعتها، ولعدم توفر أسطول بحرى له، ليحكم به قبضته حول المدينة من البحر، فبينما حاصرها من البر شمالا، استمر تموين المدينة من البحر جنوبا. ولما يئس سيميون من طول الحصار، طلب أن يتفاوض مع الامبراطور وجها لوجه، عندئذ أدرك الامبراطور أن الثقافة

سنة ٢٦١ هجرية

الأول من المحرم وافق يوم السبت ١٦ أكتوبر ٨٧٤م.

* عقد الخليفة المعتمد ولاية العهد لابنه جعفر المفوض كما ولاه بلاد المغرب والشام قد تولى ولاية عهد المفوض أخوه أبو أحمد الموفق واشترط أن تكون ولاية العهد لأخيه إذا توفى (أى الخليفة) وابنه مازال قاصراً.

* تعتبر هذه السنة بداية قيام الدولة السامانية بتولية نَصْر السَامَانى على سَمَرْقند خلفاً لأبيه أحمد بن أسَد بن سامان، فاقره الخليفة المعتمد على إمارة التركستان (ما وراء النهر) وقد دام حكم نصر ١٨ سنة.

* عصى أهل برقة على عاملها ابن الفرج الفرْغانى نائب أحمد بن طولون أمير مصر فانفذ إليهم غلامه لُؤلؤة على أن يستخدم الرفق أولا ثم السيف حتى استأمنوه فأمنهم وعادوا للطاعة.

* تولى إمارة تونس أبو عقال إبراهيم بن الأغلب وله من العمر أربع وعشرون خلفاً لأخيه أبى الغرانيق.

* عاود أهل الموصل حرب عمال الخليفة الذى كانوا عليها نيابة عن إساتكين التركى فبعد

كل احد باسم السيد يسوع المسيح الاهنا بالحقيقة. وهذا كان رجاه ولهذا كانت اموره قد سهلها من توكل عليه.

ولما فعل هذه السنة فى كتبه اعتمدها الابا الاساقفة ايضا فى كتبهم والاراخنة المومنين والاطفال فى المكاتب، وكتب كتب وصايا فى جميع اعمال البشير مارى مرقس، وتقدم اليهم ان يدعو له ان لا يغلبه الشيطان فيما يفعله فى جميع

والفن يمكن أن تهزم القوة والعنف، فاستقبل الملك البلغارى فى أفخم قصور العاصمة وأكثرها ترفا، وهو قصر البلاخرناى Blachernae. ولقد عرف رجال البلاط نقطة الضعف فى الملك البلغارى، فحرصوا على اغراقه فى حفلات الاستقبال الفاخرة، واستعراض مظاهر الأبهة والفخفخة والترف بشكل بهر الملك البلغارى، فخرج من مفاوضاته مع قسطنطين السابع وهو يسبح بحمد الامبراطور والامبراطورية. ولم يعلن رفع الحصار

أن أخرجوا «اذكوتكين» قاتلوا خليفته الهيثم بن عبدالله وأخرجوه ثم قاتلوا خليفته اسحق بن يوسف وأرجوه.

سنة ٢٦٢ هجرية

استهلت السنة بيوم الخميس الموافق ٦ أكتوبر ٨٧٥م.

* فى المحرم من السنة سار يعقوب الصفّار من فارس يريد العراق بعد أن لعنه الخليفة بسبب نزعته التوسعية فبلغ الأهواز ثم واسط حتى واجهته قوات الخليفة وعلى رأسها أخو أبو أحمد الموفق فكانت الغلبة له فأنسحب الصفار إلى المشرق وكان قد أضمر الاستيلاء على العراق.

* اشتدت الفرقة بين أحمد بن طولون أمير مصر وأبى أحمد الموفق الذى أنفذ إليه جيشاً لاخراجه من مصر بقيادة موسى بن بُغَا ولكنه ارتد بعد أن بلغ الرّقة.

* سيّر محمد الأول الأموى أمير الأندلس ابنه المُنذر إلى بَطَلْيوس وكان قد استولى عليها ملك جلِّيقية (النافار) فأسرع وأخلاها وتترس بحصن كركر الذى حاصره المنذر وأكثر فيه القتل.

* استولى الزّنج على البطيحة ونهبوها وعلى رأسهم على بن أبان الذى لم يلبث أن هزمه أحمد بن لَيثويه قائد الخليفة.

عن عاصمتها فحسب، بل أعلن أن الأنسب هو أن تنضم مملكة البلغار الى الامبراطورية، وليس ضم الامبراطورية الى مملكة البلغار. وبذلك طويت صفحة من الأطماع والقوة، وتضاءل خطر البلغار على حدود الأمبراطورية، ومن الملاحظ أن تزايد سلطة كتدرائية البلغار في بريسلاف ، وتزايد سلطات بطريركها، تزامن مع ضعف ملوك الدولة البلغارية، وفي نفس الوقت نهضت امبراطورية الروم من كبوتها مرة أخرى، بعد أن تخلصت من مشاكلها الداخلية والخارجية. فبعد

اموره. فبهت الناس من هذا الفعل وفرح به ملايكة السموات ورب الملايكة فضلا عن الناس الذين تحت سلطانه. وكان يصلي ويقول: لا تذكرون نصيب سيمون الساحر الذى كان دفع فضته للحواريون وطلب منهم نعمة روح القدس، فقال هذه المشية للحواريون لا يفعل احد هذا ليلا [لئلا] يسمع الصوت الذى سمعه سيمون: فضتك تكون معك للهلاك لانك ظننت ان تكسب موهبة الله بالمال. ثم كتب هذا المستحق لكل نعمة ان

سنة ٢٦٣ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم السبت ٢٤ سبتمبر ٨٧٦م.

* ولى الخليفة العباسى وزارته الحسن بن مَخلد وكان على ديوان الضِياع خلفاً لعبيد الله ابن يحيى بن خاقان المتوفى، وقبل نهاية السنة (ذى الحجة) خلفه عليها الوزير سليمان بن وهب.

* ظهر يعقوب الصفار للعام الثانى فى العراق واستولى على جُنْدَ نيسَابور ودخل فى قتال مع الزَّنج فى الأهواز.

* بدأ إبراهيم الأغلبى فى بناء مدينة رَقَّادة فى الجنوب من القَيْروان لتكون عاصمة للأغالبة بدلا من العباسة.

* ولى المعتمد أمير مصر أحمد بن طولون إمارة الثغور الشمالية لإخراج الروم من حصن اللؤلؤة الذى سُلم إليهم غدراً، كما قلده خراج مصر وكان فى يد أحمد ابن المُدَبِّر.

* انفذ محمد الأول الأموى ابنه المنذر إلى ما رْدة وجاوزها إلى أرض جِلّيقية ونشبت بين الفريقين عدة وقائع.

* ولد بالفسطاط المؤرخ المصرى المُسَبِّحى سعيد بن البَطْرِيق مؤلف التاريخ المعروف باسمه.

يعتمد كل احد هذا الاساس ليهديهم الى خلاص نفوسهم، ثم ثبت المومنين ان لا يفعلون مكرا ولا دغلا ولا تحيل على هدية بباب من الابواب على شرطونية، ليلا [لئلا] يكونو مثل نصيب حنانيا وصفير زوجته اللذان كذبا روح القدس واماتهما بطرس السليح. فلما سمعو هذا الكلام المملو [المملوء] من نعمة الروح القدس، سمعت النصارى بارض مصر من كتبه الواصلة الى ساير الاساقفة، وكذلك كتبا [كتابه] الى كرسي

موت قسطنطين بروفير وجنيتوس عام ٩٥٩م آل العرش الى عدد من القادة العظام، الذين شاء الحظ أن يواجهوا خطرا جديدا يحدق بالامبراطورية الا وهو خطر السلاجقة الأتراك.

الامبراطور رومانوس الثانى: ٩٥٩، ٩٦٣م:

كان رومانوس الثانى آخر أباطرة الشق الأول من البيت المقدونى، اذ أدى ضعفه، وتجمع رفاق السوء من حوله، الى تركه شئون الامبراطورية برمتها الى زوجته الذكية يودوكسيا

---

* توفى ببغداد عن أربع وخمسين الوزير عبيد الله بن يحيى بن خاقان استوزره المتوكل والمعتمد لحين وفاته إذ وقع من دابته أثناء لعبه بالصوالج.

سنة ٢٦٤ هجرية

أهل المحرم يوم الجمعة الموافق ١٣ سبتمبر ٨٧٧م:

* سار ابن طولون من مصر لحرب الروم واستخلاص ما استولوا عليه فدخل الشام التى دانت مدنها حتى بلغ الرّقة ودعى له على منابر الشام وجعل الرقة قاعدة لعمليات الحربية.

* شهدت هذه السنة افتتاح مدينة سَرَقُوسة الحصينة بجزيرة صقلية خرج إليها أحمد بن عبدالله الأغلبى أمير صقلية الجديد وضرب حصاراً حولها دام تسعة أشهر من المحرم إلى أواخر شهر رمضان ثم دهمها بعد أن دك أسوارها ولم ينج من مقاتليها سوى القليل، وانفذ إليها امبراطور بيزنطة باسيل الأول اسطولا فكسره المسلمون واستولوا على أربع من سفنه.

* خرج المُنْذر ابن أمير الأندلس محمد الأول لحرب الصائفة حتى بلغ بَنْبَلونة فى أقصى الشمال ثم انحرف إلى سَرَقُسْطة وتُطيلة وخرب حصونها وعاد إلى قرطبة.

* دخل الزنج مدينة واسط فخرج أبو أحمد الموفق لقتالهم ومعه القائد التركى موسى بن بُغَا الذى لم يلبث أن توفى فى الطريق فحمل جثمانه إلى سامراء ودفن بها.

انطاكيـة، وفرحـو بهـذا التـعليم الذى اقلق ابليس وجنوده، وباركو الله طالبين رحمته شاكرين له على اقامته لهم مثل هذا الراعى الصالح الذى اخزى الشيطان بهذه الافعال. وكان يقول امام الرب باكيا: انت قلت فى انجيل لوقا «من منكم يهتم بنا برج ولم يقدر على تمامه واى ملك يريد محاربة ملك اخر»، وباقى الفصل معروف عند العلما، «فاجعل ياربى معونتك وقوتك وعزتك لى رسلا لكى اخرج فى لقا عدوى المناصب لى وتهلكه من

Eudoxia وفى متحف المكتبة الوطنية بـ باريس توجد لوحة منحوتة من العاج تصور المسيح وهو يعلو بقامته متوسطا رومانوس وزوجته يودوكسيا، وقد وضع كلتا يديه على رأسيهما يباركهما؛ وبينما انعزل رومانوس الى رفاقه ولهوه، مارست يودوكسيا مهامها «كامبراطورة على الروم» كما يظهر من النقش المحفور على اللوحة السابقة. ولقد كانت يودوكسيا موفقه فى اختيارها لأصحاب المواهب والكفاءات لمساعدتها فى تسير أمور الامبراطورية، وكان على رأس

---

* أسر عبدالله بن كاوس فى حرب الروم وحمل إلى القسطنطينية.

* ولد فى هذه السنة هرون ابن خمارويه ابن طولون والرابع من الأمراء الطولونين بعد ذلك، وفيها ولد قاضى القضاة أبو السائب الهَمَذانى.

سنة ٢٦٥ هجرية

وافقت غرة المحرم يوم الأربعاء ٣ سبتمبر ٨٧٨م.

* خرج أحمد بن طولون قاصداً أنطاكية وأناب عنه ابنه وولى عهده العباس وبعد أن ضرب الحصار حولها استولى عليها وقتل سيما الطويل الذى كان عاملا عليها وتمرد وأسرع امبراطور الروم لمصالحة ابن طولون فأعاد إليه عبيدالله بن رشيد ابن كاوس أمير الثغور الذى كان قد وقع أسيراً فى يد الروم فى السنة الماضية ومعه جماعة من أسرى المسلمين وعدة مصاحف هدية منه إليه.

* انتهز العباس ولى عهد ابن طولون خروج أبيه إلى الشام وأنطاكية وأعلن التمرد على أبيه وجمع أتباعاً له ولجأ إلى برقة ومعه أموال بيت المال وكثيراً من السلاح والمهمات فأرسل أبوه وراءه من يقبض عليه.

* استولى الزّنج على النُعْمانية وهى بلدة بين واسط وبغداد ولكنهم رُدوا عن الأهواز على يد مسرور البَلْخى.

البيعة». ويقول كلاما كثير مثل هذا من زبور داود وغيره، وكان الرب معه فى جميع اموره حتى فاح ريح طيبه فى كل المواضع.

يا اخوتى كانت ضيعة من قرى مريوط تسمى بوخبشا وكان بها قوم مرذولين انجاس يسمون بالاربعة عشرية، وهم القوم الذين ينكرون الالام، وان السيد لم يقبل الالام بالجسد بل كانت مثل المنام. وهو لا [هؤلاء] لما سمعو بنعمة روح القدس

مستشاريها نقفور فوقاس وشقيقه ليون فوقاس؛ ولقد لعب نقفور فوقاس Nicephoros phocas دورا بارزا، فقد كان من عائلة اقطاعية كبيرة فى آسيا الصغرى، وقد تلقى تدريبا عسكريا رفيعا جعله من أكفأ المحاربين، كما أن اهتمامه بموطنه فى آسيا الصغرى، جعله على معرفة دقيقة بشئون جبهة القتال الشرقية مع الدولة الاسلامية، كما كان خبيرا بفنون تدريب الجيوش، فقد وضع كتابا عن «مسار الحرب» تناول فيه ذلك بالتفصيل، ولقد وقع اختيار رومانوس الثانى ويودوكسيا على

---

* أعلن عمرو بن الليث الصفّار ولاءه للخليفة بعد أن خلف أخاه يعقوب ابن الليث فأمّره الخليفة على ولايات المشرق التى شملت فارس وخراسان وسجِسْتان.

* استوزر المعتمد إسماعيل بن بُلْبُل بعد أن غضب على وزيره سليمان ابن وهب فحبسه وابنه ثم صولحا على تسعمائة ألف دينار.

سنة ٢٦٦ هجرية

استهلت السنة بيوم الأحد الموافق ٢٣ أغسطس ٨٧٩م.

* دخل الزّنْج وعلى رأسهم قائدهم على بن أبَان مدينة الأهواز بعد أن أوقعوا الهزيمة بقائد الخليفة أغَرْتمِش التركي ونصبوا رؤوس القتلى على أسوار مدينتهم، ثم واصلوا الزحف فاستولوا على مدينة رَامَهُرْمُز باقليم خُوزِستان واستباحوها ولكن الأكراد لم يلبثوا أن أوقعوا بهم.

* اشتد القحط والغلاء فى أفريقية.

* تولى عبدالله بن طاهر شرطة بغداد من قبل عمرو بن الليث الصفار.

* استولى الخُجُسْتانى على جُرْجان من أميرها العلوى وعلى أطراف طَبَرستان هزم جيشا للصفارين.

نقفور فوقاس عندما شعرا بتحرقه لشن الحرب على الدولة الاسلامية. ولقد اختار نقفور منطقة حساسة بالنسبة لعواطف شعب القسطنطينية ألا وهى جزيرة كريت التى كان الربض الاندلسيون قد احتلوها، وكان احتلالهم لها يشكل حجر عثرة فى طريق تجارة الأمبراطورية مع الغرب الأوروبى، كما أن امتدادها عند مدخل بحر ايجة يحقق لها السيطرة على مدخل هذا البحر، الذى تقع عليه سواحل آسيا الصغرى وسواحل اليونان؛ ومن ثم، أعد نقفور فوقاس

الفايضة فى ابينا انبا شنوده البطرك جاو [جاؤا] اليه بفرح عظيم قايلين: ايها الاب اعطنا خاتم امانتك واعتراف بوصاياك لكى نومن بذلك من الان. فلما نظر الى امانتهم قبلهم بفرح واخذهم اليه واعطاهم ختم المعمودية المقدسة وهداهم الى الاعتراف بامانة ابابنا المويدين، فاعترفو واحرمو اغابس واروريجنس وبلیناريوس وبوليانوس ولفرناساوس، وكلمن يومن بامانتهم الطمثة. وكرز لهم بيعة وكهنة وقال لهم شهادة بولس: نعمة الله

---

* أمر محمد الأول ابن عبدالرحمن الأموى صاحب الأندلس ببناء أسطول من السفن فى نهر قرطبة يحاصر به سواحل جلِّيقية إلا ان أكثره تحطم عندما مخر مياه البحر، كما هزم أسطول عربى عند صقلية وارتد إلى بَلَرْم.

سنة ٢٦٧ هجرية

وافق الأول من السنة يوم الجمعة ١٢ أغسطس ٨٨٠م.

* بنى أحمد الموفق ولى عهد الخليفة المعتمد مدينة سماها المُوَفَّقِية بالقرب من المختارة مدينة صاحب الزّنج.

* تفاقمت ثورة الزّنج فى جنوب العراق ووصلت طلائع الثوار إلى مدينة واسط واستباحوها وأشعلوا النيران فيها فجهز الموفق ابنه العباس (الخليفة المعتضد بعد ذلك) لحربهم وعلى يديه تم أول انتصار حاسم على الزّنج وأصاب منهم مقتلة وأغرق مراكبهم فسارع أبوه لنجدته وسارا معاً إلى المنيعة مدينة صاحب الزنج واستنقذوا منها خمسة آلاف من المسلمات غير الزنجيات ثم استوليا على مدينة المنصورة وفيها لقى عدد من زعماء الزّنج مصرعهم ثم انتقلا إلى المختارة وحاصراها (رجب من العام).

* تولى إمارة صقلية الحسن بن العباس فبث السرايا وغزا قَطَّانية (كتانيا) وطرمين فأفسد زرعها وقطع أشجارها قبل أن يعود إلى عاصمته بَلَرِم، وردّ الروم بالمثل.

حالة عليكم لانكم كنتم عبيدا للخطية فسمعتم وصرتم احرار من الخطية وعبيد الحق. وعلمهم هذا وهو اول قربان قدمه للرب من تعاليمه المقدسة.

ثم عاد الى مدينة اسكندريه وبدا يتمم الناموس القانونى فيما يتعلق بكرسي انطاكية، وكتب سنوديقا عظيمة يتعجب منها كل احد، وانفذها مع اسقفين قديسين احدهما اسقف ملوبولاس داوخ، ويوحنا اسقف ديوسيا، وكهنة معهم، وسيرهم الى الاب يوحنا بطرك انطاكية. وكانت

حملة بحرية كبيرة، حشد فيها كل طاقة الدولة وأساطيلها، واتجه الى الجزيرة وفتحها بالقوة عام ٩٦١م، واستولى على الأسلاب والغنائم، ثم أبحر عائدا الى القسطنطينية عام ٩٦٢، ودخل المدينة فى موكب نصر مهيب، استعرض فيه أسراه وسباياه وفي مقدمتهم أمير كريت الربضى. وهكذا نجح نقفور فوقاس فى تخليص هذه الجزيرة الهامة، ذات الموقع الاستراتيجى الهام من أيدى المسلمين.

وفى السنة التالية لعودته، تألق نجمه عندما هاجم القلاع العربية

---

* وثب أحمد بن طولون أمير مصر والشام على أحمد بن المدبر متولى خراج الشام وحبسه ثم صالحه على ستمائة ألف دينار.

* قوى أمر الثائر الأندلسى عمر بن حَفْصُون (وهو من أصل أسبانى) واتسع نفوذه فانحاز فى هذه السنة إلى قلعة بُبَشْتر الجبلية ودام أمره سنوات بعد ذلك.

* قبض عمرو بن الليث الصفار على محمد بن عبدالله بن طاهر وحبسه مما أثار عليه غضب الخليفة.

سنة ٢٦٨ هجرية

استهل المحرم بيوم الثلاثاء الموافق الأول من أغسطس ٨٨١م.

* خرج ابن طولون أمير مصر بنفسه إلى الأسكندرية التى لجأ إليها ابنه العباس الثائر عليه قادماً من برقة فظفر به ورده معه إلى القطائع.

* توفى بخراسان الثائر الخُجُسْتانى (أحمد بن عبدالله) قتل على يد بعض غلمانه بعد أن ارتفع شأنه فى المشرق حتى ضرب الدنانير والدراهم باسمه وخلفه فى هَراه رافع بن هَرْثَمة.

* أغزى أحمد بن طولون قائده خلفا الفَرْغَانى التركى نائب الثغور الصائفة وبلغ القتلى من الروم بضعة عشر ألفا، وفى ناحية أخرى أغار الامبراطور باسيل (الملقب بابن الصقلبية) على مدينة مَلَطية فرده عنها بمساعدة أهل مَرْعَش والحَدَث.

المتاخمة لحدود الامبراطورية فى آسيا الصغرى، فاتجه فى حملة عسكرية الى كيليكيا عن طريق ممرات جبال طوروس، واستولى على عدد من القلاع والحصون الاسلامية الهامة، ثم عبر جبال الأمانوس Amanus متجها الى شمال سوريا، ومستوليا فى طريقة على القلاع الدفاعية التى كانت تحمى الشام، ثم اتجه الى حلب عاصمة سيف الدولة الحمدانى وحاصر المدينة، حتى وقعت فى قبضته، وأباد قوات الحمدانيين، غير أن قلعة حلب الحصنة ، ظلت تقاوم،

هذه السنوديقا متضمنة تعاليم كثيرة من اقوال كيرلس واتناسيوس وساويرس وديسقرس وجماعة الابا[ء]. فلما وقف عليها عند وصولها اليه صحبة الابا الاساقفة راها [رأها] ملوة من نعمة روح القدس ففرح جدا ومجد الله، وعلم من خطاب الواصلين اليه ثبات وتحقيق الاتحاد المغبوط والاساس القوى بين كرسيه وكرسى البشير مارى مرقس الانجيلى. حينيذ [حينئذ] اذاع ذلك فى بيعه جميعها القريبة والبعيدة، وبارك الله وكتب له جوابا

---

* انحاز جعفر السحان أحد قواد صاحب الزّنج إلى الموفق فأحسن إليه فتبعه خلق كثير من الزنج مستأمنين ثم عاود الموفق حصار المختارة مدينة الزنج (ربيع آخر) ثم ارتد عنها لعنف المقاومة.

* تمرد لؤلؤ الخادم على مولاه أحمد بن طولون وكاتب الموفق للقدوم عليه.

* أنفذ أمير الأندلس ولى عهده المنذر للقضاء على الخارجين عليه فقصد المنذر سَرَقُسْطة فأهلك زرعها وخرب عمائرها، واستولى على حصن روطة وأسر صاحبه عبدالواحد الروطى، ومنها سار إلى دير تروجة وعليه محمد بن مركب ومنها سار إلى لارْدَة ثم قَرْطَاجنة وعليها إسماعيل بن موسى فأذعن بالطاعة كما أوغل فى أرض الأسبان.

* عزل الحسن بن العباس عن صقلية بسبب فشل قائدة أبى ثور وخلفه عليها محمد بن الفضل الذى جدد الغزو واستولى عنوة على قلعة مدينة الملك.

* سار عمرو بن الليث إلى فارس ثم دخل إصْطخر وشيراز.

* توفى فى هذه السنة: فقيه مصر فى عصره أبو عبدالله محمد بن الحكم عن ست وثمانين وهو أخو المؤرخ ابن عبدالحكم مؤرخ مصر، له أحكام القرآن والرد على الشافعى.

كما يجب وودعهم ومن معهم بكرامات جزيلة وكتب. هو ايضا كتابا يشكر فيه انبا شنوده ويكرمه ويسجله ويمدح فعله الذى ثبته فى البيعة بمصر وذكر فى كتبه هكذى: من يقدر ان يقول يسيرا من الكرايمات التى تستحقها ايها الاب لان طغمات السموات لا يسكنو من مدح امانتك لانك جعلت رجاك بالرب يسوع المسيح، واساس عبادة الاوثان قطعتها من البيعة بنعمة الروح القدس يكون حصنها عليك وعلى الاشجار التى

حتى جاءتها النجدات العربية بقوات ضخمة، ولما رأى فوقاس أنه لا قبل له بهذه الجيوش العربية، آثر الانسحاب بدلا من المخاطرة؛ وعاد الى القسطنطينية عام ٩٦٢م. ورغم فشله فى الاحتفاظ بحلب، لكن مجرد استيلائه على المدينة بعض الوقت أكسبه شعبية عارمة بين الروم، وأصبح أكثر شهرة من الامبراطور رومانوس الثانى نفسه.

وفى ذات العام الذى عاد فيه نقفور فوقاس من حملته على حلب، كانت مدينة روما تشهد حدثا كبيرا،

سنة ٢٦٩ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم السبت ٢١ يوليو ٨٨٢م.

* استولى ابو أحمد الموفق على المُخْتارة مدينة صاحب الزّنج فكان ذلك ايذانا بخاتمة هذا الثائر.

* خرج ابن طولون إلى الشام وفيها وقع الخلاف بين قائده الفرغانى وياَزمَان الخادم مما أدى إلى ثورة أهل الثغور على ابن طولون فسار إليهم حتى بلغ أطَنَة (أدَنَة) ثم عاد إلى دمشق، وفى الوقت نفسه خرج الخليفة المعتمد إلى الرّقَة متظاهراً بالصيد للاتصال بابن طولون لينقذه من وصاية الموفق عليه ولكن عامل الموصل ابن كُنْداج (أو ابن كُنْداجق) أعادة إلى بغداد.

* خرج محمد بن الفضل أمير صقلية غازياً فبلغ رمطة ثم قطانية فسبى وغنم وعاد إلى بلرم فى ذى الحجة.

سنة ٢٧٠ هجرية

أهل المحرم يوم الخميس الموافق ١١ يوليو ٨٨٣م.

* تولى أبو الجيش خُمَارَوَيْه إمارة مصر خلفاً لأبيه أحمد بن طولون بعد مبايعة الجند له فى يوم الأحد العاشر من ذى القعدة على أثر وفاة أبيه وله من العمر عشرون عاماً، أمه أم ولد يقال لها ميّاس وكانت ولادته بسامراء قبل وفود أبيه على مصر.

غرستها لتنمو اثمار حسنة ماية وستين وثلثين، والمجد والكرامة لكرسى الاب الجليل مارى مرقس. فلما وصلت الكتب اليه قراها وفرح بها وامر الشعب بقرايتها بمدينة اسكندريه ففرحو ومجدو الله وعظموه لما سمعو، ومدحو الاب انبا شنوده على فعله وتعليمه. وتنيح من كرسيه اساقفة وذاع خبر كتبه ووصاياه وتعليمه فى قطع الشرطونية، فلحق من كان يترجا انه ينالها بالمال امرا عظيما، ولم يظهرو ذلك. واوسم بنعمة الله الحالة عليه قوما

فقد كان آوتو Otto الكبير ملك المانيا قد توسع فى ايطاليا، وكان يعمل على ابقاء فرنسا ضعيفة ومفككة، بينما تظل ألمانيا قوية موحدة، وكان يسعى للحصول على لقب امبراطور وتاج الامبراطورية الغربية، وبالفعل قام البابا يوحنا الثانى عشر بتتويجه امبراطورا فى روما عام ٩٦٢م، وكان ذلك يعتبر ايذانا بقيام الامبراطورية الرومانية المقدسة. وقد حاول أوتو الحصول على اعتراف من سلطات القسطنطينية بذلك اللقب، ومن أجل ذلك سعى الى تزويج ابنه ووريثه أوتو

---

* إنضم لُؤْلؤ غلام ابن طولون المتمرد إلى أحمد المُوَفق ولى العهد واشترك معه ومع ابنه العباس فى حرب الزّنج (٣ المحرم) وأوقعوا الهزيمة الحاسمة بهم وظفروا بصاحب الزنج وقتلوه.

* خرجت الروم فى غزوة صليبية ونزلوا قَلَمْيَة من نواحى طَرَسوس فخرج عليهم قائد ابن طولون وردهم وبلغ عدد قتلاهم نحواً من سبعين ألفا وفى مقدمتهم بطريق البطارقة وعدد من البطارقة ومن جملة الغنائم سبعة صلبان كبار من الذهب والفضة والصليب الأعظم المكلل بالجواهر.

* توفى فى العاشر من ذى القعدة (أو ١٨ القعدة) أمير مصر أحمد ابن طولون عن خمسين سنة وكان قد مرض بأنطاكية ابان حرب الروم وعاد إلى مصر على محفة، ودام حكمه نحواً من سبعة عشرة عاما وترك وراءه دولةً مستقلة عن التبعية العباسية وخلفه ابنه أبو الجيش خُمَارَوَيْه، واليه تنسب القطائع والمسجد الجامع المعروف باسمه حتى اليوم.

* قتل صاحب الزنج وهو على بن محمد بن أحمد بن عبدالرحيم يقال اسمه نَهْبود (٢ صفر) وقد دام أمره ١٤ سنة و٥ أشهر.

* توفى فى هذه السنة الحسن العلوى مؤسس الدولة العلوية بطَبرستان، كما توفى حول هذا التاريخ الحبيب الطالبى وهو ثالث الأئمة المكتومين عند الاسماعيلية.

كثير مجاهدين على الامانة الارتدكسية ممن يستحق، وكان الرب معينا له وساترا عليه مثل داوود النبي، وكان يوصي من يوسمه ويوكد عليه ان لا يقبل احد منهم كرامة ممن يوسمه بل يكونو متشبهين به في هذه النعمة. ويقول لهم: قال بولس لسان العطر «اعدو لعلى اخذ ما اخذت فيه»، فتشبهو بي يا اخوة فقد جعلت روحي علامة لكم.

وكان المتقدمون والولاة لحسن طريقته وصورته

الثاني من الأميرة ثيوفانو Theophano أبنه الامبراطور رومانوس الثاني؛ وكلف البابا الجديد، الذي عينه بدلا من يوحنا الثاني عشر، واسمه ليو الثامن بالتوسط لاتمام هذا الزواج، غير أن رومانوس قتل في ظروف غامضة، وهتفت الجماهير بنقفور بطل المعارك ومحرر كريت امبراطورا، وتزوج نقفور من أرملة رومانوس يودوكسيا Eudoxia، ومرة أخرى عرض أوتو زواج ابنه من ثيوفانو ابنة الامبراطور الراحل، فرفض نقفور لنفس الأسباب السابقة. ولم يتم هذا

---

* توفي بالمدينة أحمد بن ابراهيم العلوى الذى ثار على ابن طولون فى الصعيد واستولى على إسنا سنة ٢٥٥هـ.

سنة ٢٧١ هجرية

وافق الأول من السنة يوم الاثنين ٢٩ يونية ٨٨٤م.

* ورث خمارويه الذى استهلت السنة وله فى الحكم خمسون يوماً فى إمارة مصر عداء أبى أحمد الموفق الذى تحول إلى لقاء مسلح بأرض فلسطين فجرت فى ١٦ شوال معركة الطَوَاحِين وكان فى جانب الموفق ابن كُنْدَاج وابن أبى السَّاج وأنقذ المعركة قائد خُمارويه سعد الأيسر الذى استولى على دمشق.

* سير أمير الأندلس ابنه المُنْذر إلى مدينة بَطَلْيُوس لقتال الثائر ابن مروان الجِلِّيقى فنحاه عنها بعد أن خرَّب المدينة، وسار جيش ثان بقيادة هاشم بن عبدالعزيز إلى سَرَقُسطة وعليها الثائر محمد بن لُبّ فملكها وأخرج منها ابن لُبّ وكان حليفاً للثائر عمر بن حَفْصُون بالرغم من المصالحة.

* تولى إمارة صقلية سَوَادة بن خَفَاجة خلفاً لأميرها المقتول الحسين بن أحمد وبدأ بالإغارة على مدينة قَطَانية ومنها إلى طرمين حتى أتاه بطريق الروم طالباً الهدنة والمفاداة فهادنه ثلاثة أشهر وفاداه بثلثمائة أسير من المسلمين.

الزواج الا بعد مقتل نقفور عام ٩٦٩م.

نقفور فوقاس أمبراطورا ٩٦٢ - ٩٦٩م:

ولما كان الامبراطور رومانوس الثانى قد أوصى بأن تكون زوجته الأمبراطورة يودوكسيا وصية على ولديه القاصرين: باسيليوس الثانى، وكان صبيا فى السابعة من عمره؛ وأخيه قسطنطين الذى يكبره بعام، فقد انتقلت الوصاية على الاميرين الى زوج الام الامبراطور الجديد نقفور فوقاس، غير أن سلطات الكنيسة رفضت أن تبارك هذا الزواج بل حتى

وامانته وافعاله يجلوه ويكرموه ويقضو حوايجه، وكان الشعب تحت رجا وامن وعافية. ثم انه اهتم بامر ديارات الصعيد واساقفته واراد ان يعرف مزاجهم وما هم عليه فسار اليهم ووصل الى بلادهم ففرحو بوصوله اليهم وباركو الله مثل داوود النبى ومثل اولاد اليهود لما سبحو الرب عند دخوله يروشليم راكب الجحش، فعلمهم ورتبهم فسمعو منه تعليمه ووصاياه، وعاد ووصل الى مدينة اسكندريه وبدا ان يتفقد البيع والمواضع التى وهنت

سنة ٢٧٢ هجرية

استهلت السنة بيوم الجمعة الموافق ١٨ يونية ٨٨٥م

* وقع زلزال بمصر فى جمادى الآخرة من السنة هدم كثيراً من الدور وبعض جوانب المسجد الجامع ولقى نحو ألف حتفهم.

* عاد خُمَارويه إلى فلسطين للمرة الثانية ورجع دون حرب.

* نظم إمبراطور بيزنطة حملة صليبية عليها البطريق أنجفور فنزل على مدينة سيرينة ثم منتية فانسحب منهما المسلمون إلى بلرم.

* وفيها توفى ابراهيم بن جعفر الهمذانى من زعماء الخوارج ممن اشتركوا فى ثورة الزنج كما توفى على المُهَلّبى حليف صاحب الزنج قتلا كلاهما فى السجن.

سنة ٢٧٣ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأربعاء ٨ يونية ٨٨٦م.

* تمت المصالحة بين أمير مصر الطولونى خُمَارويه والخليفة العباسى المعتمد وولى عهده أحمد الموفق بعد أن اكتسح خُمَارويه الشام ودخل دمشق وانتهى عند حدود العراق، وتضمن

منها ليعمرها ويجددها. وكان يشتهى ان يعمل فى ايامه تذكارا، وكان باسكندريه فى الموضع التى كانت فيه القلاية البطركيه واسمه باليونانى «قسطوريون» موضع تاوى اليه المساكين والمنقطعين، وكان الما [ء] الذى عندهم مالحا مرا وهو بعيدا منهم وكانو يريدو نقله اليهم ويتعبو فيه تعبا شديدا وتقودهم الضرورة الى ان يشربو منه لعدم الما [ء] الحلو، لانهم كانو يتركوه اياما فى الوعا حتى يطيب قليلا ثم يشربوه. ففكر الاب

رفضت أن تعترف بشرعيته، وقاد رهبان الأديرة حملة شعواء على نقفور ويودوكسيا، ووصفوهما بأنهما الزوجان الاثمان، واتهموهما بتدبير موت رومانوس، ووصفوا الامبراطور القتيل بأنه يوحنا معمدان جديد، ووصفوا الامبراطورة يودوكسيا بأنها هيروديا العصر. ولقد أثارت حملة الرهبان غضب نقفور فوقاس، الذى لم يكن يفكر فى شئ سوى فى استعادة مجد القسطنطينية الضائع، ومن ثم، لم يكن ليترك الكنيسة والرهبان دون عقاب، تأمينا للجبهة

الصلح ولاية خمارويه على ما بين الموصل وبرقة ثلاثين سنة وأمر خمارويه بالدعاء للموفق بعد الخليفة وترك الدعاء عليه.

* تولى عرش الأندلس أبو الحكم المنذر خلفاً لأبيه أبى عبدالله بن عبدالرحمن (٨ ربيع أول).

* وقع الخلاف بين ابن كنداج أمير الموصل وابن أبى الساج أمير أرمينية وانتهى إلى الحرب وفيها دارت الدائرة مرتين على ابن أبى الساج.

* قبض الموفق على لُؤلؤ مولى ابن طولون الذى كان قد تمرد على مولاه وانحاز إلى الموفق واشترك فى حرب الزنج واستصفى أمواله وكانت أربعمائة ألف دينار.

* توفى فى هذه السنة بمصر القاضى أحمد بن العلاء الرَّقى، وفيها توفى الزاهد حنبل بن اسحق ابن عم الامام أحمد بن حنبل.

* وافق هذا التاريخ وفاة الامبراطور البيزنطى باسيل الأول.

سنة ٢٧٤ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأحد ٢٨ مايو ٨٨٧م.

* خرج أمير الأندلس أبو الحكم المنذر الأموى بنفسه لحرب الثائر ابن حفصون وفى طريقه استولى على حصون جبل باغة وقبض على حاكمها عيشون نائب ابن حفصون وصلب مع

الداخلية، وحتى لا يثيروا الشعب عليه أثناء غيابه في ميادين القتال.

تقليم أظافر الرهبان والكنيسة والاقطاع،

ويبدو أن عدوئ الصراع بين الأباطرة والكنيسة قد انتقلت من الغرب الأوروبي الى الشرق الاغريقي أو العكس، فقد كان قصد كنيسة القسطنطينية من هجومها على نقفور هو اثبات أن للبطريرك الكلمة العليا على الامبراطور. ولقد سبق أن رأينا بوادر صدام حدث بين الامبراطور ليون الحكيم والبطريرك نيسقولاءوس

فكرا صالحا وحفر لهم خليج [ترعة] من الخليج الذى حفره المتوكل على الله جعفر حتى دخل الما منه الى اسكندرية وصارت المراكب تصل منه الى الاسواق، وزرع الناس عليه الكروم والبساتين، كما شرحنا اولا، ثم انه نزل حتى فتح فم خليج صغير وجراه الى الموضع المقدم ذكره وصار الما يقيم عندهم حلوا طيبا. وكانت الافعال الجيدة قدامه مثل العنكبوت يسهلها الله تعالى له ويساعده على نجازها، وفي ذلك عمل لمدينة اسكندريه مجارى

خنزير وكلب إمعاناً في التمثيل به ومنها سار إلى بُبَشْتر التي إحتمى بها ابن حفصون وحاصرها.

* خرج أبو أحمد الموفق أخو الخليفة وولى العهد إلى فارس لحرب عمرو ابن الليث الصفار الذى حاول الاستقلال بالمشرق عن دولة الخلافة.

* سار ابن كُنْدَاج أمير الموصل إلى الشام وهي من أملاك خُمارويه فهرع اليه خمارويه من مصر حتى عبر نهر الفرات وأوقع به الهزيمة وأعلن ابن كُنْدَاج خضوعه، كما قضى خُمارويه قبل نهاية السنة على محاولة مماثلة قام بها ابن أبى الساج الذى أعلن الطاعة.

* توفي في هذه السنة بقرطبة الفيلسوف الفلكي المتفنن عباس بن فِرْناس أول من استنبط صناعة الزجاج بالأندلس، وأول من حاول الطيران، وأول من صنع قبة سماوية.

سنة٢٧٥ هجرية

استهلت السنة بيوم الخميس الموافق ١٦ مايو ٨٨٨م.

* تولى في الخامس عشر من صفر إمارة الأندلس أبو محمد عبدالله بن محمد خلفاً لأخيه أبى الحكم المنذر، بويع يوم وفاة أخيه فكان ذلك سبباً في رفع الحصار على بُبَشْتر التي إحتمى بها الثائر ابن حفصون.

تحت الارض ليحلو ابارهم وينقلو منها الما [ء] الى جباب [جمع جب] عندهم للمياه الحلوه، وهو الذى فعله الاب البطرك انبا شنوده، ثم انه عمل ايضا فسقية كبيره [سبيل] لاوليك الضعفا الصعاليك الذى قدمنا ذكرهم. واقام انسانا يملا تلك الفسقية التى عملها بالة عملها ليشربو منها لاجل انهم لم يكونو يستطيعو يملو لطول الرشا. واصلح ايضا خنادق ومواضع للمياه ومساقى. وكان ايضا لما عبر بضيعة قريبة من مربوط تسمى اتريس، وهو اسمها الى اليوم، خرج اليه سكانها

المتصوف، والذى انتهى بانتصار الامبراطور.ولقد رأى نقفور أنه ليس أقل شجاعة من ليون الحكيم فى تحديه للرهبان والكنيسة، فشرع فى تقليم أظافرها، وكسر شوكة الأديرة، وابعادها عن التدخل فى شئون الحكم، فأصدر فى عام ٩٦٤م قرارا أكال فيه الاتهامات لرهبان الأديرة، ووصفهم بأنهم خرجوا عن حدود العقيدة، والتمسك بتعاليمها، فقد تركوا الزهد والتقشف، الذى هو صلب الرهبنة، الى حياة الترف ومتاع

---

* عاد ابن أبى الساج إلى الخلاف مع خُمارويه الذى أوقع به هزيمة ثانية عند ثَنِّية العُقَاب بقرب دمشق واستولى على أمواله وراح يطارده حتى الرَّقة والموصل.

* قبض أبو أحمد الموفق على ولده أبى العباس أحمد لمخالفته له وحبسه فى حجرة بداره.

* والى يازَمان الخادم حرب الصائفة فغزا البحر واستولى على عدة مراكب للروم.

* توفى بسامراء عن تسعة عشرة الامام المنتظر عند الشيعة الامامية وهو أبو القاسم محمد بن الامام الحسن العسكرى ومن ألقابه صاحب الزمان وصاحب السرداب وهو آخر الأئمة الاثنى عشر، قيل دخل فى هذا التاريخ سرداباً فى بيت أبيه ولم يخرج منه، ضريحه وضريح أبيه من مزارات الشيعة.

سنة ٢٧٦ هجرية

الأول من المحرم وافق يوم الثلاثاء ٦ مايو ٨٨٩م.

* استعاد عمرو بن الليث الصَفّار مكانته عند الخليفة المعتمد فولاه شرطة بغداد ونقش اسمه على الأعلام والتُرس.

* خرج أمير الأندلس الجديد أبو محمد عبدالله الأموى لحرب الثائر ابن حفصون فخرب إقليم بُبَشتر ولكنه لم يخضع الثائر الذى استولى على إستِجه ثم طرد منها.

فاخذو بركته وقالو: يا ابانا القديس ان البحر بعيد منا تقدير ميل ولا نصل اليه الا بعد تعب عظيم. فبنا لهم فى تلك الناحية بيرا فنبع لهم منها ما [ماء] فباركه وقدسه ما [ماء] حلو فامتارو منه ودوابهم، وهو مع هذا لا يدع الاهتمام بالكتب الارطستيكا المملوة نعمة وتعليم روحانى ليتغذا منها كل احد.

ولما كان فى السنة التانية من جلوسه فى ايام الصوم المقدس كتب ارطستيكا مملوة من كل نعمة

الدنيا؛ وأشار الى أن من بين الرهبان طبقة من الاقطاعيين، ومن ثم ألغى نظام الديرية، الذى كان معمولا به، وصادر أملاك الأديرة فى العاصمة والأقاليم، وطردهم الى الكهوف والصحارى حيث يجب أن يكونوا؛ كما حرم اقامة أديرة جديدة، أو وقف الأموال والعقارات على الأديرة والرهبان، وبذلك أبعد الرهبان عن التدخل فى شئون السياسة، ولقد ضرب نقفور بهذا القرار عصفورين بحجر واحد: فقد قلم أظافر الكنيسة والأديرة وأبعدها عن التدخل فى

---

* عاد خمارويه من الشام إلى مصر بعد سلسلة من الانتصارات ولم يلبث أن رجع إليها.

* قدم محمد بن أبى الساج أمير أرمينية السابق إلى الموفق هارباً من خمارويه بعد أن توالت هزائمة ومطاردة خمارويه له حتى حدود العراق فولاه أذْرَبيجان.

* توفى كاتب الموفق صاعد بن مَخْلد الملقب بذى الوزارتين كان نصرانيا وأسلم.

سنة٢٧٧ هجرية

استهلت السنة بيوم السبت الموافق ٢٥ ابريل ٨٩٠م.

* دعا يَازَمَان أمير الثغور لخمارويه على المنابر فى طَرَسوس، وفى الوقت نفسه خرج خُمارويه إلى الشام للمرة الرابعة وعاد من سنته.

* تولى يوسف بن يعقوب المظالم وأمر من ينادى «من كانت له مظلمة قبل الموفق (ولى العهد) أو أحد من الناس فليحضر».

* خلع راشد بن النّضْر إمام عُمان الإباضى وبويع عزّان الخَرُوصى.

* توفى بالأندلس الأمير محمد بن عبدالله والد الخليفة عبدالرحمن الناصر الذى ولد فى هذه السنة قتله أخوه المطرف فى نزاع بينهما.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

الى [أن] انتهى الى ذكر فريومنا بتدبير كلمة الله فقال: نومن هكذى في اخر الزمان لما ارد الله ان يخلص جنسنا من العبودية المرة، ارسل ابنه الوحيد الى العالم متجسدا من روح القد [س] ومن مريم العدرى جسدا] مساويا لنا في كل شي ما خلا الخطية ذو نفس غير مدروكة وجعل الجسد معه واحد بغير تغيير ولا اختلاط ولا افتراق بل طبيعة واحدة واقنوم واحد ووجه واحد تالم [تألم] بالجسد عنا ومات وقام من الموتا كالذى في

شئون الامبراطورية، وفي نفس الوقت ضمن أموالا طائلة ليستكمل بها حروبه مع الحمدانيين في الشام.

ولقد جره صدامه مع الكنيسة والرهبان الى تقليم أظافر الاقطاعيين والنبلاء، فقد كانت الكنيسة تجد فيهم أنصارها، كما كان من بين الاقطاعيين رهبان، كما أن ارتباط الكنيسة بالاقطاع لم يكن في الغرب فقط، بل في الشرق أيضا، وتطورت حركة مصادرة الأراضي والأملاك حتى شملت أغنياء الطبقة الوسطى، مما

سنة ٢٧٨ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الخميس ٥ ابريل ٨٩١م.

* شهدت هذه السنة بداية ظهور طائفة القَرَامطة (نسبة إلى قِرْمط).

* بويع أبو العباس ابن الموفق (الذى توفى في سنته) بولاية العهد بعد المفوض ابن الخليفة المعتز ولقب المعتضد بالله وخطب له يوم الجمعة بعد المفوض.

* جرى قتال في بغداد بين أصحاب وصيف الخادم والبربر.

* غزا يَازَمَان أميُر الثغور الصائفة وبلغ حصنا للروم يقال له سلند فنصب عليه المجانيق إلا أن حجراً أصابه فقضى نحبه في الطريق إلى طَرَسوس حيث دفن.

* قبض على الوزير أبو صقر سليمان بن بُلبل وانتهبت منازله، وأطلق القواد أبا العباس المعتضد من سجن أبيه الموفق قبيل وفاته.

* توفي ولى عهد الخلافة أبو أحمد الموفق بالله وأخو الخليفة المعتمد وأبو الخليفة المعتضد، أبوه المتوكل وأمه أم ولد يقال لها إسحق مات بداء الفيل وحمل على سرير من بلاد الجبل إلى بغداد، وكان أخوه قد جعل له الولاية بعد ابنه المفوض فجعل المعتمد الولاية لابنه أبي العباس المعتضد بعد المفوض ثم خلع فأصبح ابنه ولياً للعهد بعد عمه.

الكتب، وصعد الى السما وجلس عن يمين الاب، فان قلنا ان الله تالم عنا ومات فلنفهم الان بامانة انه تالم عنا بالجسد وهو الغير متالم، وهو هذا الواحد كما علمنا الابا الذى للبيعة المقدسة، وكلمن يفرقه بتجديف ويقول ان الله الكلمة لم يتالم ولم يموت لكن الانسان هو المتالم والمايت، لكى يفرقه اثنين، الله الكلمة على حدة والانسان على حدة، ويجعله وجهين وطبيعتين كل واحد يفعل ما يشاكلها من طبعا، يريدو بذلك ان يدخلو

جعله مكروها وقلل من شعبيته بين الروم.

سياسة نقفور فوقاس الخارجية:

وما أن انتهى من تأمين الجبهة الداخلية، حتى شرع فى تامين جبهة الامبراطورية مع البلغار فى حرب وقائية خوفا من عودتهم الى مهاجمة القسطنطينية، وكان التوقيت مناسبا، فقد كان البلغار فى موقف ضعيف بعد أن غابت عنهم شمس القوة منذ موت ملكهم سميون، وتولى من بعده ملوك ضعاف، بينما تزايدات سطوة بطاركة كيستهم؛ كما هدف نقفور

سنة ٢٧٩ هجرية

استهلت السنة بيوم الاثنين الموافق ٣ ابريل ٨٩٢م.

* جلس على دست الخلافة العباسية ببغداد أبو العباس أحمد المعتضد بالله ابن الموفق بن المتوكل وذلك فى العشرين من شهر رجب خلفاً لعمه المعتمد على الله وكان المعتضد ولياً لعهد عمه قبل شهور من وفاته بعد أن قدّمه على ابنه المفوض.

* عاصر الخليفة الجديد فى الأندلس أبو محمد عبدالله الأول، وفى مصر خُمَارويه بن أحمد بن طولون، وفى أفريقية (تونس وصقلية) ابراهيم الأغلبى، وفى طَبَرستان القائم بالحق محمد بن زيد، وفى التركستان (ما وراء النهر) اسماعيل السامانى، وفى خُراسان عمرو بن الليث الصفّار، كما عاصر الخليفة الجديد الامبراطور البيزنطى ليو السادس، وفى فرنسا أودو الأول، وفى انجلترا الفرد الأكبر.

* كان الخليفة المعتمد قبيل وفاته فى هذه السنة قد أمر بتقديم ابن أخيه المعتضد على ابنه جعفر المفوض فى ولاية العهد وفوض له ما كان لأبيه المفوض فاشتد على أصحاب البدع والاهواء فمنع جلوس المنجمين والقصاصين كما منع الوراقين من بيع كتب الكلام والجدل.

* تولى عبيدالله بن سليمان بن وهب وزارة المعتضد.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/٨٨٠م

الامـانة النجـسـة التى لنسطور والجمع المرذول الطمث الخلقدونى فى الامانة المستقيمة، هولا البيعة الجامعة الرسولية تحرمهم ونحن نهرب من هولا ونرذلهم، ونحرم ايضا الذين يفرقو الله الكلمة طبيعتين من بعد الاتحاد الذى لا يدرك. ونحن نعترف باستقامة ان الله الكلمة قبل اليه بارادته الالام بالجسد لاشك اتحاد واحد فى كل شى، لان الطبيعتين الذين صارو واحد فى الابتدا لم يفترقا بالجملة بامر من الامور بتدبير الكلمة، لانهما غير

من مفاجئة البلغار بالحرب أن يؤمن ظهره تماما قبل سحب الجيوش والقوات الى الشرق، للدخول فى حرب شاملة مع المسلمين، فقد كان يخشى ان يستغل أحد ملوك البلغار غيابه، ويؤجج عواطف البلغار ضد الروم، ويحيى آمالهم القديمة فى فتح القسطنطينية، ولهذا قام بأخذ المبادرة، وغزا بلادهم عام ٩٦٧م، ولم يجد أى صعوبة فى ذلك، وبذلك ضمن سلامة الجبهة البلغارية من الخطر.

وبالنسبة لتصاعد خطر أوتو الكبير ملك ألمانيا، الذى نجح فى تقويض قوة

---

* قضى قائد المعتضد على ثورة عُمَان واستعادها من الامام عزّان الخَروصى.

* تولى إمارة ما وراء النهر اسماعيل السامانى خلفاً لأخيه نَصر وهو ثانى ملوك السامانيين.

* توفى فى هذه السنة الخليفة المعتمد على الله العباسى بن المتوكل ليلة الاثنين التاسع عشر من رجب وله من العمر ثمان وأربعون ومدة خلافته ٢٣ سنة و٣ أيام.

سنة ٢٨٠ هجرية

الأول من المحرم وافق يوم الجمعة ٢٣ مارس ٨٩٣م.

* سار الخليفة المعتضد لتأديب بنى شيّبان بنواحى الموصل فبذلوا له الرهائن واستأمنوه فعاد إلى بغداد.

سنة ٢٨١ هجرية

أهل المحرم يوم الأربعاء الموافق ١٣ مارس ٨٩٤م

* شهدت هذه السنة زفاف قطر الندى ابنة خُمارويه إلى الخليفة المعتضد العباسى وقد صحبها إلى بغداد عمها خزرج بن أحمد بن طولون ووزير ابيها ابن الجصّاص وقد شيد لها على رأس كل منزلة قصر تنزل فيه، وبلغت تكاليف الجهاز ما يعجز خزانة البلاد، وكان صداق قطر الندى ألف ألف درهم.

مفترقين، وحتى فى حين الالام قبلها بجسده ليلا نظل مثل فوتنس وسبليوس هذين الذين قالا بكفرهما، «بان اللاهوت بعدت وصلب الناسوت»، ونحن نحرمهما ونهرب منهما واقاويلهما الكفر، ونهرب عن عبادتهما الانسان. ولما وصلت هذه التعاليم الى البيع والشعب فرحو بها وشكرو الله الذى اعطا هذا الاب هذه النعمة التى هى تعاليم كيرلس والابا القديسين. فلما نظر مبغض الخير الشيطان جميع ذلك وان الاب انبا

دولة الفرنجة فى فرنسا، وعزلها عن مكان الصدارة فى غرب أوروبا، وتوسع فى جنوب ايطاليا، حيث توجه البابا يوحنا الثانى عشر امبراطورا على الرومان، وذلك فى كنيسة القديس بطرس فى روما عام ٩٦٢م. وراح يسعى من أجل الحصول على اعتراف من القسطنطينية بأحقيته فى حمل هذا اللقب على نحو ما فعل شرلمان من قبل؛ فقد أعلن نقفور رفضه لتصرفات أوتو الكبير، ولما كرر أوتو مطلبه فى تزويج ابنه وخليفته أوتو الثانى من ثيوفانو ا بنة الامبراطور

---

* انفذ خمارويه نائبه على دمشق طُغْج بن جُف الأخْشيدى لغزو الروم فتوجه من طَرَسوس حتى بلغ طَرابزون على البحر الأسود وفتح مَلُوريَة فى جمادى الآخر من السنة.

* خرج المعتضد للمرة الثانية لتأديب حمدان بن حَمْدون صاحب قلعة ماردين فاستولى عليها وهرب صاحبها ثم هدمت القلعة.

سنة ٢٨٢ هجرية

استهلت السنة بيوم الأحد الموافق ٢ مارس ٨٩٥م.

* فى الثانى من المحرم وصل ركب العروس قطر الندى إبنة خمارويه إلى بغداد فانزلت فى دار صاعد حتى عاد زوجها الخليفة المعتضد من الموصل وبُنى بها فى الخامس من ربيع الأول وأقيمت احتفالات جلت عن الوصف.

* توفى فى هذه السنة بدمشق أمير مصر أبو الجيش خُمارويه بن أحمد ابن طولون وذلك فى السابع عشر من ذى القعدة أغتيل على يد بعض خدمه وتعقبهم نائبه طُغْج وقبض عليهم وصلبهم وكانوا نيفا وعشرين، توفى وله من العمر اثنتان وثلاثون ومدة حكمه اثنتى عشرة سنة، ونقل فى تابوت إلى مصر، وخلفه ابنه جيش.

شنوده قد اظهر التعاليم فى قلوب الناس المومنين فى كل مكان باسم الرب يسوع المسيح، قلق جدا ولم يفتر واستعد لمقاتلته ومجاهدته، وطرح فى قلوب اناس، غير ذى فهم ممتلية من الغش والدغل مشتهية لذات العالم وشهواتها قوما انجاس، ان يقولو على الله الكلمة، ولم يهتدو لقراة الكتب المقدسة ولا فحصو عن وصايا هذا الاب القديس لكنه استجذبهم اليه لمحبتهم شهوات العالم وترك العلوم المودية الى النجاة، وقالو بلسانهم المستحق

الراحل رومانوس، كرر نقفور فوكاس رفضه بصفته وليا على أبناء رومانوس بحق زواجه من أرملته، وذلك خوفا من أن يستغل أوتو الكبير ذلك الزواج فى المطالبة بحق ارث عرش الامبراطورية الرومانية الشرقية، ليوحد الامبراطوريتين فى امبراطورية واحدة، وبذلك يكون قد نجح فيما فشل فيه شرلمان.

نقفور فوقاس Phocas وحملاته الصليبية ضد المسلمين ٩٦٧ - ٩٧٦،

ولو حللنا الدوافع، التى جعلت نقفور فوقاس يفكر فى القيام بحملة

---

* توفى الوزير الأندلس عبدالملك بن أبى حَوْثَرة قتل فى حرب مع بعض الثوار بجوار اشبيلية، وفيها توفى الأمير محمد ابن الخليفة المتوكل وعم المعتضد وكان أديبا شاعرا.

سنة ٢٨٣ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الخميس ١٩ فبراير ٨٩٦م.

* خُلع جيش بن خُمارويه بعد سبعة أشهر من توليه إمارة مصر خلفاً لأبيه خمارويه وقد اعترف فى مجلس عُقد له بعجزه عن القيام بتدبير المملكة وشهد على المحضر عدول البلد وذلك فى العاشر من جمادى الاخرة وتوفى بعد أيام مقتولا فى سجنه، وكان عدد من كبار قواده قد هرب إلى المعتضد ببغداد.

* تولى أبو موسى هرون بن خُمارويه إمارة مصر على أثر خلع أخيه وتولى أبو جعفر بن أُبَىّ الوصاية عليه.

* سار الخليفة المعتضد للمرة الثالثة إلى الموصل للقضاء على فتنة هرون الشارى زعيم الصُفْرية فظفر به وقتله.

* جرى الفداء فى هذه السنة بين المسلمين والروم فكان جملة من فودى به من المسلمين

القطع والتبضيع ان طبيعة اللاهوت ماتت، هم وجماعة سكان بضيعة من اعمال الصعيد تسمى البلينا وما معها من الاعمال التى حولها. فلما بلغ الخبر الى ابينا انبا شنوده البطرك هدم قوة الشياطن وقلع اصل شوكه الذى غرسه فى قلوب المخالفين، كما قال الابركسيس: ان يهوذا الجليلى قام فى تلك الايام وقاد اليه كثير وفي الاخير هلك ومن كان معه تبدد. فلما تكلم اوليك بهذا الكلام ذاع فى تلك الكورة وبقية المدن والضياع وظهرت قلة

صليبية لا نتزاع الأراضى المقدسة من أيدى المسلمين، لوجدنا أنها تنبع من عدة مسببات، فهذا المشروع العاطفى الدينى الكبير يتناسب مع شخصيته وتفكيره وتربيته. فقد كان نقفور شديد التدين والورع وفى نفس الوقت كان عسكريا فذا، فأراد أن يوظف قدرته العسكرية في خدمة العقيدة، وكان يفكر فى هذا المشروع حتى قبل توليه العرش، عندما هاجم حلب وقضى على قوات الدولة الحمدانية، مما جله يستمرء الحرب مع المسلمين ويخطط لها. ولهذا ففى العام التالى لتوليه

من الرجال والنساء والصبيان ألفين وخمسمائة وأربعة أنفس، ووافقت هذه السنة غارة الصقالبة من البلغار على القسطنطينية واستعانة الامبراطور بأسرى المسلمين فى ردهم وإعلان استقلال الكنيسة البلغارية عن القسطنطينية.

* ولد بمصر المؤرخ أبو عمر الكنْدى مؤلف كتاب الولاة والقضاة أى ولاة مصر وقضاتها، وفيها مولد الطبيب ابن زَهْرون (ثابت بن ابراهيم) بمدينة الرَّقة التى انتقل منها إلى بغداد وعاش بها.

* توفى فى هذه السنة الشاعر العباسى ابن الرومى (على بن العباس) عن اثنين وستين وقيل توفى مسموما لهجوه الوزير عبيدالله، له ديوان شعر مطبوع متداول، وفيها توفى بالبصرة الأديب الراوية أبو العيناء (محمد بن القاسم) عن اثنين وتسعين.

* توفى من رجال الحكم فى هذا التاريخ: محمد بن زيادة الله الأغلبى بتدبير إبن عمه ابراهيم الأغلبى أمير تونس، وفيها توفى أبو العشائر نصر بن أحمد ابن طولون بتدبير ابن أخيه جيش بن خمارويه، وفيها توفى رافع بن هَرْثَمة أمير خراسان من قبل الطاهرين قُتل فى حرب الصفّار وكان على جيش المعتضد، وفيها توفى الوزير الأندلسى الأديب تمام بن عامر الثقفى عن تسع وثمانين وزر لمحمد الأول وخليفته وله ارجوزة أرخ بها فتح الأندلس.

فـــهم رعــاتهم فى تلك الايام، وهو انه اضطرب واهتم اليـــهم بقلق عظيم ليـــصلح قطيع الرب المخلص يسـوع المسيح باى وصل يعيد لله الاعضـا التى فصلها ابليس من البيعة والامانة الارتدكسية، وكتب كتبا مملوة حكمة ووصايا واظهر فيها تعاليم ابائنا المعلمين الى هولا الذين احـــتــوا عليـــهم الشيطان، ولما وصلت اليهم وقريت عليهم اعترفو بالامانة المستقيمة والدين الصحيح دين ابائنا وكتبو يعترفو بضلالتهم ويسالو الصفح عنهم ويومنو

العرش، وقبل أن ينظم جبهته الداخلية، ويؤمن الوطن من البلغار، كتب في عام ٩٦٤م رسالة الى الخليفة العباسى المطيع لله، يتوعده فيها بالويل والثبور وعظائم الأمور، وأنه قادم لا محالة لا تنزاع الأرض المقدسة فى فلسطين وبيت المقدس، وللأسف لم يؤخذ هذا الانذار مأخذ الجد من قبل الخليفة وبلاط قصره في بغداد.

كذلك فقدى رأى نقفور فوقاس أن قيامه بمثل هذه الحملة الصليبية، سوف يلهب عواطف شعوب

---

* توفي الفقيه الصوفي سهل التُّستَرى عن ثلاث وثمانين له رقائق المحبين، والزاهد العابد السرّاج النيسابورى، وقاضي القضاة ابن أبى الشوارب.

سنة ٢٨٤ هجرية

استهلت السنة بيوم الثلاثاء الموافق ٨ فبراير ٨٩٧م.

* السنة الأولى من ولاية هارون بن خمارويه على مصر.

* انفق عمر بن الليث الصفار ألف ألف درهم لاصلاح طريق الحج من العراق إلى مكة وبالغ فى التقرب للخليفة بأن بعث برأس الثائر رافع بن هرْثمة لينصب فى بغداد.

* أوقع الأمير عيسى النُّوشَرى (أمير مصر بعد ذلك) الهزيمة ببكر ابن أبى دُلف الذى أظهر العصيان واستباح عسكره عند أصبهان.

* إنتقضت طَرَسوس على بنى طولون بعد أن أخرجوا عامل مصر منها فولى المعتضد ابن الاخشيد.

بالايمان الصحيحة. ثم ان الاساقفة الذين في تلك المواضع حضرو الى الاب البطرك وسجدو له على الارض قايلين له: قد اضيت نفوسنا وابريتها من السقم بتعاليمك المحيية، ولم تتركنا وشعبنا في الضلالة هذه المدة، ولو غفلت عنا قليلا كنا هلكنا، وكان المناصب للحق العدو الملعون قد اصادنا في شركه ولم نقدر على ان نتخلص منه. فعمل الاب البطرك انبا شنوده عملا حسنا لكي يكون تاديبا للاساقفة وغيرهم وكلمن يحيد عن

الامبراطورية، وتجمع الأفئدة من حوله، وتنسيبهم تهمة التآمر والخيانة على رومانوس، وهي تهمة كان الرهبان قد عمقوها في أذهان الناس، وتحت اليها الكنيسة برفضها تتويجه امبراطورا؛ وحتى لا يبدو في عيون الناس مغتصبا للعرش، كان عليه أن يبحث عن دور مؤثر يبدو فيه رجل العناية الالهية، التي أجلسته على العرش لهذه لرسالة الكبرى؛ كما هدف من ذلك أيضا تحويل انتباه الناس عن الكنيسة، التي كانت تدخل في صراع معه؛ وامتصاص غضب الجماهير؛ بعد

---

* ولد بأصفهان مؤلف الموسوعات أبو الفرج الأصَفَهاني مؤلف كتاب الأغاني وغيره وانتقل إلى بغداد وعاش بها.

* توفي في هذه السنة الشاعر أبو عُبادة البُحتُرى (الوليد بن عُبيد) أحد فحول شعراء العصر وذلك عن ثمان وسبعين بمسقط رأسه منْبِج، ديوان شعره وديوان حماسته مشهور متداول.

* دبر البربر مقتل الأمير الأندلسي أبي عثمان سعيد بن جودى الذى تزعم عرب القيْسية في وجه إتساع نفوذ البربر.

سنة ٢٨٥ هجرية

وافق هلال المحرم يوم السبت ٢٨ يناير ٨٩٨م.

* عصفت رياح سافية على جنوب العراق أعقبها مطر وبَرَد وزن البَرَدَة مائة وخمسون درهماً واقتلعت الرياح مئات النخيل.

* غزا الصائفة راغب الخادم مولى الموفق ودخل أرض الروم براً وبحراً واستولى على عدة سفن لهم، كما بلغ ابن الأخشيد في غزاته اسكندرونة.

الامانة ان جعل هولا الاساقفة الصعيدين قامو فى وسط جماعة الابا الرهبان القديسين فى بيعة القديس ابو مقار يوم الحد الفصح المقدس، ووضعو مطانوه للجماعة وسالوهم ورغبو اليهم ان يصلو عنهم ويستغفرو لهم مما كان الشيطان صنعه لهم من التجارب، وقالو باعتراف: انا كنا جدفنا تجديفا عظيما من تعليم الشيطان اللعين. وذكروه حرفاحرفا حتى عجب كل احد من الابا الحاضرين من كلامهم، فصلو عليهم وباركو عليهم وفرحو

مصادرته لممتكات الأديرة، وكبار رجال الدين والنبلاء والأغنياء؛ واقناع الناس أنه فعل ذلك من أجل قضية عزيزة على قلوب الروم جميعا الا وهى استعادة الأرض المقدسة فى فلسطين.

كذلك كان هدف نقفور من هذه الحرب المقدسة، تأجيج عواطف المسيحيين فى الغرب الأوروبى، وكسب تعاطفهم معه من أجل ابطال مشروع أوتو الكبير فى تأسيس امبراطورية رومانية واحدة مقدسة تدافع عن المسيحية؛ ولكى يعلن

سنة ٢٨٦ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأربعاء ١٧ يناير ٨٩٩م.

* ظهر بالبحرين أبو سعيد الجنّابى زعيم القرامطة وقويت شوكته بما إنضم اليه خلال السنة من الأعراب حتى انه قصد البصرة فبنى المعتضد عليها سوراً.

* سأل هرون بن خمارويه الخليفة تجديد ولايته على مصر والشام مقابل أن يتنازل له عن حكم قِنَّسرين والثغور مع أربعمائة ألف دينار تحمل إليه كل سنة فأجابه المعتضد.

* وقعت الحرب بين اسماعيل السامانى وعمرو بن الليث الصفّار فأنكسر عمرو مرتين ثم قبض عليه أهل بلْخ وحملوه إلى السامانى فأكرمه وبعث به إلى الخليفة الذى شهّره وحبسه إلى أن مات.

* توفى فى هذه السنة أسحق الأحمر مؤسس الفرقة الإسحاقية من غُلاة الشيعة.

سنة ٢٨٧ هجرية

وافق الأول من السنة يوم الاثنين ٧ يناير ٩٠٠م.

* تفشى خطر القرامطة وأغاروا على البصرة فسار لحربهم العباس الغنوى ولكنه هُزم وأسر وقتل خلق من جنده.

برجوعهم عن الامانة الردية التى زرعها الشيطان فى قلوبهم، وفرح ايضا بذلك الاب انبا شنوده وباركهم. وكان فى تلك الساعة كلام عجيب قاله الاب وكان كالنبوة وهو امر مخوف، وكان فى بيعة القديس ابو مقار فى ذلك اليوم اسقفان احدهما اسقف سمنود والاخر اسقف منية طانة، لما نظرو الى فعل البطرك مع الاساقفة الصعيدين الذين ضلو ورعيتهم بقولهم ان اللاهوت مات، وكانا هذان الاسقفان امانتهما مفسودة ايضا، ولما

للغرب أن رسالة الدفاع عن المسيحية منوط بها رجل واحد، هو الامبراطور الحقيقى للرومان؛ ومنوط بها الامبراطورية الرومانية الشرقية، والتى لا يجب أن يكون هناك امبراطورية غيرها؛ ولا امبراطورا آخر غير امبراطورها، وبالفعل لفتت هذه الحملة أنظار الكنيسة الغربية الى قضية طرد المسلمين من الأراضى المقدسة، واعلان الجهاد المقدس من أجل هذا الشأن. فكانت حملته ممهدة للحروب الصليبية الكبرى ضد المشرق الاسلامى فى القرن الحادى عشر؛ ولا

---

* أوقع بدر غلام الطائى بالقرامطة على غرة فقتل منهم مقتلة عظيمة.

* توفيت ببغداد فى التاسع من رجب فى هذه السنة الأميرة المصرية قطر الندى (أو أسماء) بنت خُمارويه أمير مصر الطولونى وزوجة الخليفة المتعضد وكان قد عقد قرانها بها فى عام ٢٨١ ووصل ركبها إلى بغداد فى المحرم من السنة التالية، فكانت مدة زواجها خمس سنين وسبعة أشهر.

سنة ٢٨٨ هجرية

استهلت السنة بيوم الجمعة ٢٦ ديسمبر ٩٠٠م.

* وافق السادس من المحرم إنقضاء تسعة قرون شمسية ميلادية.

* ظهر أبو عبدالله الشيعى داعية الفاطميين فى المغرب قادماً اليه من اليمين واتخذ من موضع يعرف باسم «فج الأخيار» مركزا لدعوته بين قبائل كُتامة متنبئاً بقرب ظهور المهدى المنتظر.

سنة ٢٨٩ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأربعاء ١٦ ديسمبر ٩٠١م.

* جلس على دست الخلافة العباسية ببغداد الخليفة المكتفى بالله (أبو الحسن على) بويع

علم بالروح القدس فعل هذا باساقفة الصعيد قدامهم لكى تظهر امانة هذين الاسقفين فى ذلك الوقت فتفهما وقال لبعضهما بعض كما قال اهل اثناس لبولس الرسول فى الابركسيس: ما هذا التعليم الجديد؟ انك تاتى الى مسامعنا بكلام غريب. فسمعهما انسان عارف بالكتب المقدسة فاردى قلبه ايمانهما، ثم جا هذا الانسان الى الاب البطرك واعلمه بما قالاه هذين الاسقفين. فتعجب وقال كلمة نبوة الذى كانت قطع عليهما قال

تختلف حملة نقفور فوقاس عن الحملات الصليبية الغربية سوى أن القسطنطينية هى التى تحملت وحدها وزرها، وأن الكنيسة الأرثوذوكسية لم تباركها، ولم تدع الى الجهاد من أجلها.

أما السبب العسكرى المباشر، فهو استغلال فرصة نادرة، وهى تدهور الدولة العباسية وضعفها، وتفككها إلى دويلات اسلامية متعددة، فقد استقلت مصر عن الدولة العباسية منذ عهد بنى طولون (٨٦٨ ـ ٩٠٥)، ثم تلاهم بنو الأخشيد (٩٣٥ ـ

يوم وفاة أبيه الخليفة المعتضد وبعهد منه وذلك فى الثانى والعشرين من ربيع الآخر، وله من العمر ست وعشرون، أمه أم ولد تركية تسمى جيجك.

* إنتشرت القرامطة بسواد الكوفة يتزعمهم ابن أبى الفوارس الذى وقع فى أسر المعتضد فحمل مع جماعة منهم فعذبوا وصلبوا.

* أعلن محمد بن هارون قائد اسماعيل السامانى الثورة فسار اليه اسماعيل وهزمه وضم الرى وقزوين اليه.

* توفى فى الثانى والعشرين من ربيع الآخر ببغداد الخليفة العباسى المعتضد بالله ابن أبى أحمد الموفق وخليفة عمه المعتمد، توفى وله من العمر سبع وأربعون ودفن بدار الرخام ومدة خلافته تسع سنين وتسعة أشهر، وهو الذى كان قد تزوج قطر الندى ابنة خمارويه والتى توفيت قبل عامين.

* توفى أمير تونس ابراهيم الثانى الأغلبى فى السابع عشر من ذى القعدة عند كونشيا الايطالية غازياً ومدة إمارته ٢٨ سنة و٦ أشهر.

* توفى بنيسابور أمير خراسان عمرو بن الليث الصفّار بعد حكم دام أربعاً وعشرين سنة وانتهى الى العزل والحبس قبل أن يعيده المعتضد إلى خراسان.

٩٦٩م)، كما استقل بنو سيف الدولة الحمداني بشمال الشام؛ واستولوا على المدن الرئيسية فيه، مثل حلب، وحمص، وحماة، وأنطاكية، واللاذقية، وشيزر، واستقل اقليم خراسان، وقامت فيه الدولة الطاهرية؛ كما استقل الأغالبة بشمال أفريقيا؛ واغلب العنصر الفارسي على البلاط في بغداد؛ وأصبح العباسيون ألعوبة في أيدي البويهيين. ونظرا لانسلاخ الشام من بين أيديهم، لم يعد العباسيون يهتمون بالدفاع عنها؛ ومن ثم ترك الشام لقدره، يواجه وحده

المثل المكتوب فى انجيل لوقا: اتظنو ان هولا الجليلين اكثر خطايا من كل اهل الجليل، ليس كذلك فان لم تتوبو فانكم تهلكون كذلك، ومثل الثمانية عشر الذى سقط عليهم البرج فى سيلوحا وقتلهم اكثر خطية من رجال يروشليم، لا اقول لكم ان لم تتوبو تهلكو مثلهم. هذا ما قاله الاب انبا شنوده البطرك ولم تعلم الاسقفان انه وبخهما به وقطع عليهما الرب الذى يعلم الخطايا، فعل

سنة ٢٩٠ هجرية

استهل المحرم بيوم الأحد الموافق ٥ ديسمبر ٩٠٢م.

* عاث القرامطة فى أرض الشام بزعامة يحيى بن زَكْرَوَيه وهزموا أمير دمشق طُغْج الأخشْيد وأبا الاخر قائد جيش الخليفة، وانتهت الوقائع بهزيمة القرمطي وقتله على يد بدر الحمامي قائد هرون بن خمارويه الطولوني.

* ولى القرامطة الحسين بن زَكْرَوَيه الملقب ذو الشامة خلفاً لأخيه يحيى المقتول وهرب ذو الشامةى بعد الهزيمة إلى نواحي الكوفة.

* تولى إمارة تونس أبو العباس عبدالله الثاني خلفاً لابراهيم الأغلبى وبعد شهر من ولايته خلفه أبو نصر زيادة الثالث.

* توفى مقتولاً الأمير الأغلبى أبو العباس عبدالله الثاني بعد أيام من توليه الامارة خلفاً لابراهيم الأغلبى، قتله بعض الصقالبة.

* قتل زعيم القرامطة يحيى بن زكرويه على يد بدر غلام أحمد بن طولون بعد أن عاش في ما بين الشام والعراق.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/٨٨٠م

امرا عجيبا لكلامه لانهما كانا متفكرين انهما لا يعودا الى الامانة الصحيحة بل يبقيا على ما هم عليه، فوقع بهما الانتقام وماتا بموت سو يعلم به كل احد فى بنا قبل ان يصلا الى كراسيهما.

والان يا احباى فيجب علينا حفظ الامانة الصحيحة بغير زوغان التى هى الصخرة الارتدكسية ليعتدونا مع من سلك الطريق المستقيم ونال النياح. اقول لكم انا الخاطى البايس كاتب

حملات الروم المقدسة؛ كما ثبت لنقفور من غزواته السابقة فى الشام، أن الدولة الحمدانية ليست ندا لجيوش الروم، وباختصار، لقد كان وضع الدولة العباسية ـ المنهوكة القوى ـ فرصة لن تتكرر لتصفية الحسابات القديمة معها.

مراحل الحرب المقدسة ونتائجها:

وكرجل دارس لفن الاستراتيجية العسكرية، فان نقفور لم يجازف بالهجوم على الأرض المقدسة مرة واحدة؛ وانما مهد للحملة بحروب صغيرة استولى خلالها على الممرات

سنة ٢٩١ هجرية

الأول من المحرم وافق يوم الخميس ٢٤ نوفمبر ٩٠٣م.

* فى هذه السنة زوّج الخليفة المكتفى ابنه أبا محمد من إبنة وزيره القاسم ابن عبيد الله، وكان صداقها مائة ألف دينار.

* أغارت جموع الترك الشرقيين على حدود الدولة السامانية فنادى أميرها اسماعيل بن أحمد السامانى بالنفير فهرع اليه المتطوعة من خراسان وسجِسْتان وطَبَرستان وأخذوا الترك على غرة وأوقعوا بهم هزيمة ما حقة.

* أنفذ الامبراطور البيزنطى ليو السادس جيشاً قوامه مائة ألف فبلغوا مدينة الحدث فنهبوا وسبوا وأحرقوا، وفى السنة نفسها غزا الصائفة غلام زرافة من طَرَسوس فبلغ انطاكية واستولى عليها عنوة وقتل نحواً من خمسة آلاف وأسر ضعفهم واستنقذ أربعة آلاف من أسرى المسلمين وفاضت الغنائم حتى كان سهم الفارس ألف دينار.

* وقع فى الأسر الزعيم القرمطى الحسين بن زكرويه قبض عليه رجل من قرية الدالية على طريق الكوفة فأرسل إلى بغداد مشهراً على جمل وزينت المدينة إبتهاجاً بالقبض عليه ثم قتل وصلب فى حضرة الخليفة.

* لقى مصرعه صلباً الثائر القرمطى الحسين بن زكرويه صاحب الشامة.

هذه السيرة انني رايت بعيني ذلك انه دفعات شتى ينظر الى السما ويصلب على وجهه ويقول: ياربي يسوع المسيح عينني وتراف على وافتقدني برحمتك. فلما تاملته اول يوم ظهر لي امرا عجيبا وهو ان في تلك [الساعة] التى رايته شاخصا الى السما يقول هذا قد طرى امرا نزل الينا ويشغل قلبه، فاعلم انه كان فى تلك الساعة (وهكذا كان فى كل ساعة يفعل هذا) اتصل الخبر بشي، كان قد وصل فى تلك الايام من جنس المسلمين من

والمعاقل، والقلاع الهامة، فى آسيا الصغرى والشام؛ ومن ثم ركز أول حروبه التمهيدية على اقليم قلقيلية (كيليكيا) المتاخم لحدود الشام الشمالية، وتمكن ما بين عامى ٩٦٣ ـ ٩٦٥م من الاستيلاء على المعاقل الرئيسية للمسلمين مثل أدنة Ada-na(فى جنوب شرق آسيا الصغرى شمال شرق ميناء طرسوس) وطرسوس والمصيصة (مامسترا Ma-mistra فى قلقيلية) كما استولت قواته أيضا على جزيرة قبرص عام ٩٦٥م. وبالاستيلاء على قبرص ومن

سنة ٢٩٢ هجرية

استهل المحرم بيوم الثلاثاء الموافق ١٣ نوفمبر ٩٠٤م.

* شهدت هذه السنة نهاية الدولة الطولونية فى مصر والشام منذ أن استقل أحمد بن طولون بحكم مصر عام ٢٥٨ هـ وقد عاشت ٣٤ سنة، وهى أول دولة شبه مستقلة قامت فى مصر بعد الغزو العربى.

* تولى شيبان بن أحمد بن طولون إمارة مصر بعد مقتل ابن أخيه هارون ابن خمارويه فى التاسع عشر من صفر ولكن إمارته لم تدم سوى إثنى عشر يوماً.

* دخل محمد بن سليمان العباسى مصر كما وصلها اسطول من ثمانى سفن حربية عليها أمير البحر دميانة وتم استسلام شيبان الطولونى وحمله مع أهل البيت الطولونى إلى بغداد فبذلك عادت مصر إلى السيادة العباسية فتولاها محمد ابن سليمان وخلفه قبل نهاية السنة عيسى النُّوشَرى.

* أحرق القائد العباسى محمد بن سليمان على أثر استسلام شيبان الطولونى مدينة القطائع حتى صارت خراباً.

* استولى اسطول عربى على تِسَاليا اليونانية ابان حكم الامبراطور ليو السادس.

خراسان قوما جند مضو الى اسكندريه وسالو عن ابينا البطريك، فقالو لهم المومنين: ماذا تطلبون منه؟ فقالو: ان اولاد الياس الذى كان واليا انفذونا اليه بمال ندفعه له وكان ابوهم قد اخذه من البطرك. فعلم الجمع انه المال الذى اخذه والى اسكندريه من الاب البطرك انبا يعقوب عند خروج الدم من الكاس الفضة لما ارادو كسره، فوجدوه فى سخا فجاوو اليه واعلموه الخبر وان الياس الوالى فى يوم وفاته اوصى اولاده ان ينفذو

قبل كريت ـ أوقف نقفور فوقاس غارت المسلمين البحرية على شواطئ بحر ايجة والأناضول، وظهر أسطولهم من جديد كقوة بحرية تسيطر على الحوض الشرقي للبحر المتوسط، ولقد عاث جنود الاسطول الرومى نهبا وسلبا فى هذه المدن السورية الشمالية، حتى قيل أن بوابات هذه المدن البرونزية الضخمة اقتلعت ونقلت الى القسطنطينية كشاهد على انتصاراته.

أما الفترة ما بين ٩٦٦ ـ ٩٦٧م فقد خصصها للاغارة على الشام

---

* توفى قتيلاً فى الثانى عشر من صفر أمير مصر أبو موسى هارون بن خمارويه رابع الأمراء الطولونيين عن ثمان وعشرين وخلفه عمه شيبان لمدة أيام.

سنة ٢٩٣ هجرية

وافق هلال المحرم يوم السبت ٢ نوفمبر ٩٠٥م.

* توالى ثلاث ولاة على مصر فى هذه السنة: ففى الثالث من المحرم استولى محمد بن على الخَلَنْجى الطولونى على الحكمى قسراً من عيسى النُوْشَرِى ثم استعادها منه بحد السلاح فاتك قائد الخليفة بعد أن هزم جيشان للخليفة كان على الأول ابن ألاغر وعلى الثانى ابن كَيْغَلَغ.

* أقيم على دجلة مقياس مثل مقياس الروضة بمصر طوله ٢٥ ذراعاً ولكل ذراع علامات وذلك بعد الفيضان المدمر (ولكن لم يلبث أن خرب).

* عاثت القرامطة ببلاد الشام وعلى رأسهم أبو غانم عبدالله بن سعيد القَرْمَطى الذى استولى على بُصرى ثم على طَبَرية ثم على هِيت، كما دخلوا دمشق ونهبوها واتجهوا من بادية السماوة إلى الكوفة وأوقعوا الهزيمة بقوات للخليفة.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

وحصونه وقلاعه، وكما توقع نقفور، لم يصمد سيف الدولة الحمداني ففر هاربا الى شيزر؛ وكان يمكن لنقفور أن يتقدم لاجتياح الشام، لولا علمه بوقوع بعض القلاقل في الوطن، التي كانت تقتضي منه العودة للقضاء عليها، كما أن النقص في المؤن والعتاد، لم يشجعه على التوغل في بلاد المسلمين. كما كان عليه أن يؤمن جبهته مع البلغار، قبل أن يشرع في الهجوم الكبير، ولهذا أوقف المعركة وعاد الى القسطنطينية في مطلع عام ٩٦٧م. وعندما جاءت الى

هذا المال وهو كذا وكذا الى كرسى اسكندريه لانني اخذته وقت كونى واليا بها من بطرك اسمه يعقوب فتسلو [فتسألوا] عن البطرك فى هذا الوقت الذى قام عوضا منه وتسالوه ان يحللنى من رباطى ثم يجيبون لكم الرسل الذين يمضون بالمال رقعة من البطرك الذى يجلس بعده. فلما سمع الاب انبا شنوده هذا لم يهمه هذا الامر ولا اخذ المال بالجملة وكان رجاه بالرب الغنى بالرحمة وكان يقول قول بولس: «الذى احسبه انه ربح

---

* قتل في هذه السنة أبو عبدالله الخَلَنّجي الذى استولى على مصر وحكمها شهورا كما استولى على أنحاء من فلسطين حتى ظفر به فاتك قائد جيش الخليفة المكتفي.

سنة ٢٩٤ هجرية

استهلت السنة بيوم الأربعاء الموافق ٢٢ أكتوبر ٩٠٦م.

* تولى إمارة مصر للمرة الثانية عيسى النُوْشَرى بعد أن استعادها قائد المكتفى فَاتك الخادم.

* خرج زَكْرَوَيه القَرْمَطى لاعتراض قافلة الحاج الثانية وسلب ما قيمته ألفا ألفى دينار ثم انتظر قدوم القافلة الثالثة وفيها خزائن الخليفة وتم له سلبها بعد أن وضع السيف في جميع الحاج الذين استسلموا له بسبب نفاد الماء فعظم ذلك على المكتفي فأنفذ لقتاله وصيفاً الخادم الذى هزمه ولقى القرمطى مصرعه في المعركة (٥ ربيع الأول).

* أغارت الروم على قُورُس من أعمال حلب فقاتلهم أهلها قتالاً شديداً ثم انهزموا فدخلها الروم وأحرقوا جامعها وساقوا من بقي من أهلها أسرى.

* توفي في هذه السنة من رجال الحكم: أبو حاتم بن أفْلَح سادس أمراء الدولة الرُستُمية الإباضية بالمغرب الأوسط ومدة حكمه ثلاثة عشر عاماً وكانت تَاهَرت عاصمة له، وفيها توفي بالأندلس لُبّ بن فَرْتُون غازياً وكان على طَرَسونة وتطيلة في إمارة عبدالله الأموى.

احسبه خسارة لاجل المسيح الذى خسرت كل شى لاجله. واعده كلا شيد لاربح المسيح لاننى اعرف الذى يومن به وقلبى طيب انه يقدر ان يحفظنى الى يوم وفاتى». ولم يزالو الرسل المذكورين يسالوه ان يجعل ذلك الانسان فى حل كما اوصاهم اولاده والا فما يقدرو على العودة، فسالناه نحن اصحابه ورغبنا اليه ان لا يدع هولا القوم مع بعد المسافة ان يضيع تعبهم حتى يحلله فكتب اليهم يقول: الذى وصلتم لاجله فى حل وطابت

القسطنطينية سفارة بلغارية تطالب باتاوة مالية كبيرة، رفض نقفور الاذعان لمطالب البلغار وأعلن الحرب عليهم؛ وتوغل فى أراضيهم حتى جبال البلقان؛ كما أرسل الى ملك الروس سفايتو سلاف Swaitoslav رسالة، حثه فيها على التوسع فى الاراضى البلغارية، ومنحه التأييد اللازم؛ وبالفعل غزة الدولة الروسية الوليدة بلغاريا من الشمال عن طريق نهر الدنيبر، وقضوا عليها، ثم عبر الروس جبال البلقان؛ وظهروا فى سهول تراقيا، وطمعوا فيها؛ ورفضوا

---

* توفى قتلاً زَكرَوَيه القَرْمَطى ممن ادعوا الألوهية ولزم قطع الطريق على الحاج وقتل جميع من يستسلمون له، قتل على يد وصيف قائد المكتفى وأحرق جثمانه وأرسل رأسه إلى خراسان حتى لا ينقطع أهلها عن الحج.

سنة ٢٩٥ هجرية

استهلت السنة بيوم الاثنين الموافق ١٢ أكتوبر ٩٠٧م.

* تولى الخلافة العباسية ببغداد أبو جعفر المقتدر بالله بن المعتضد خلفاً لأخيه المكتفى ، أمه أم ولد تسمى شَغَب، تولى صبياً وله من العمر ثلاثة عشرة ولكن خلافته دامت نحواً من ربع قرن.

* عاصر المقتدر العباسى: فى الأندلس أبو محمد عبدالله الأول ثم ابنه عبدالرحمن الناصر أول من تلقب بالخليفة وأمير المؤمنين فى الأندلس، وفى المغرب عاصره أول الدولة الفاطمية عُبيد الله المهدى، وفى بيزنطة ليو السادس وقسطنطين السابع ورومانوس الأول، وفى فرنسا شارل الثالث وروبرت الأول، وفى إنجلترا ادوارد الأول.

* جرى فى هذه السنة الفداء بين المسلمين والروم وكانت عدة من فودى ثلاثة آلاف انسان.

٥٥: شوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

نفوسهم وعادو الى بلادهم فرحين. وكان الاب مهتم بمن بقى ممن ظل بهواه فى اثر الشيطان.

ولما كان فى تلك الايام وجعفر المتوكل يوميذ خليفة، ثار عليه ولده محمد وكنيته المنتصر، فغلبه واخذ مملكته، فلما ولى عزل جميع الولاة الذين كانو فى زمان ابيه، وكذلك سليمان ابن وهب الوزير الذى كان محبا للاب جدا، وانفذ الى مصر انسان يعرف باحمد ابن محمد المدبر، فكان رجلا

الانسحاب منها خاصة بعد علمهم بموت ملك البلغار.

وبعد غيبة عام ونصف عام عاد نقفور الى الشام،وكانت الظروف مواتية تماما له، فقد توفى سيف الدولة الحمدانى، عماد الدولة الحمدانية؛ وخلفه ابن له ضعيف اسمه سعد الدولة، آثر أن يذعن لمطالب الروم، واستسلمت معاقل الحمدانيين فى حماة وحمص وشيزر، وفتحت لنقفور بواباتها؛ وتعرضت طرابلس للتخريب، وتصالحت معه اللاذقية لتنجو من الخراب. وكان يمكن له أن

---

* وصل عبيد الله المهدى متخفياً إلى شمال افريقية قادماً من سَلَسيمْية بسورية بعد أن مهد للدعوة الفاطمية أبو عبدالله الشيعى ثم استخدم القوة فى نشرها مستغلاً ضعف حكم الأغالبة.

* توفى مريضاً فى الثانى عشر من ذى القعدة الخليفة العباسى المكتفى بالله عن واحد وثلاثين عاماً ومدة خلافته نحواً من ست سنين وفى أيامه استولى المسلمون على أنْطاكية ثانية العواصم البيزنطية، وخلف فى بيت المال ما جملته خمسة عشر ألف ألف دينار.

* توفى فى منتصف صفر من السنة اسماعيل السامانى ثانى سلاطين الدولة السامانية فى أسيا الوسطى ودام حكمه ست سنوات وخلفه ابنه أبو نصر أحمد.

* توفى بالأندلس موسى بن ذى النون الثائرى البربرى على أمير الأندلس أبى محمد عبدالله وجد بنى ذى النُون أصحاب طُلّيطلة بعد ذلك.

سنة ٢٩٦ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الجمعة ٣٠ سبتمبر ٩٠٨م.

* شهدت هذه السنة نهاية دولة الأغالبة بتونس على يد الفاطميين وكان عاشر الأغالبة

شديد صعب في افعاله مخوف عند كل احد لا يغلب، ففعل افعالا لم يفعلها احد قبله. وكان قد اقام بفلسطين مدة كبيرة واذاق اهل تلك البلاد صعوبة وبلايا، ويقال انه لم يسمع بمن يجرى مجراه في فهمه وتقدمته عند الملوك، وكان يحسب لهم فصولا لا يفهموها. وكان عشرة لكلمن يجالسه في امور المملكة، وكان جميع من في الدولة يريد ابعاده عن الملك لهذا، وكان عليه خراج كثير عن زراعة اواسيه فارادو ان يجربوه

يتقدم بسهولة نحو فلسطين، غير أنه غادر الشام عائدا الى القسطنطينية، تاركا جنده يكملون غزو المواقع والمدن الاستراتيجية. وكان أكبر نصر حققه جنوده، هو الاستيلاء على أنطاكية في خريف عام ٩٦٩م. فقد كان لهذه المدينة مزايا استراتيجية هامة، لأنها المعقل الأمامي والرئيسي للشام، كما كانت ذات مركز تجارى هام، فضلا عن أهميتها الدينية؛ فقد كانت المقر الأصلى لكرسي البطريركية. ثم حاصرت جيوش نقفور مدينة حلب الشهباء. عاصمة

وآخرهم أبو نصر زيادة الله الثالث وفي أيامه إستولى أبو عبدالله الشيعى على عاصمته رقادة (٢٥ جمادى الاخرة) فخرج هارباً إلى مصر وتوفى بالرملة من فلسطين.

* شهدت هذه السنة زوال الدولة الرستمية الاباضية بافريقيا بعد مقتل آخر أئمتها اليقظان بن محمد على يد أبى عبدالله الشيعى.

* قبض أليسع بن مدرار أمير سجلماسة على عبيدالله المهدى (أول الفاطميين بعد ذلك) الذى جاء الى المغرب متخفياً تطارده عيون الخليفة العباسى وأودعه السجن.

* خلع الخليفة المقتدر بالله العباسى بعد عام (٢١ ربيع أول) من توليته وبايعوا المعتز ولقبوه المنصف بالله ولم يلبث أن قتل وأعيد المقتدر إلى كرسى الخلافة.

* تولى وزارة المقتدر أبو الحسن على بن الفرات فصادر أموال جميع من خرجوا مع ابن المعتز وتولى شرطة المقتدر مؤنس الخازن.

* توفى مقتولاً الخليفة الشاعر عبدالله بن المعتز ابن الخليفة المتوكل الذى لم تدم خلافته سوى يوم وليلة له ديوان شعر متداول، كما قتل فى أحداث خلع المقتدر الوزير أبو عبدالله محمد بن داود الجراح، والأمير أبو عبدالله محمد ابن الخليفة المعتمد وكان قد خوطب فى تولى الخلافة ولكنه توفى فى ساعته مفلوجاً، وفيها توفى سوسن حاجب المقتدر قتل على يد الوزير ابن الفرات.

فسلمو له اباه ليحاسبه فطالبه بجميع ما عليه بغير حشمة واستوفا منه الزايد حتى تعجبت الملوك وقررو له من الجارى في الشهر ستة الف دينار فلما سمع ابونا البطرك بوصوله مصر حزن وقال الرب يزيل عن شعبه كل موامرة سو [مؤامرة سوء] كعادته. وكان يعرف ما يجرى بالنعمة التى كانت معه ويخاف على البيعة والديارات وسكانها. وعند وصوله [ابن المدبر] الى مصر وضع يده على كل [اواسي] المسلمين والنصارى واليهود واضعف

الحمدانيين وقلعتهم قرابة شهر كامل، حتى استسلمت، وعقد أميرها صلحا مع الروم فى أواخر عام ٩٦٩م ومطلع عام ٩٧٠م (صفر ٣٥٩هـ)، وقد حفظ لنا المؤرخ العربى ابن العديم تفاصيل ذلك الصلح، الذى بمقتضاه أذعنت حلب لنفوذ القسطنطينية. وكان سقوط حلب هو آخر ما وصل اليه جنود نقفور، بعدها خبأ نار الجهاد، ولم يتقدم جنود الروم نحو بيت المقدس، وبذلك انتهت هذه الحملة المقدسة.

سنة ٢٩٧ هجرية

استهلت السنة بيوم الأربعاء الموافق ٢٠ سبتمبر ٩٠٩م.

* هرع أبو عبدالله الشيعى إلى سجلْماسة واستخلص عبيدالله المهدى من السجن الذى أودعه فيه أليسع بن مِدْرار وصحبه مَشرفاً إلى تونس وفى مدينة رَقّادة عاصمة الأغالبة بويع عبيد الله بالخلافة وتلقب بالمهدى أمير المؤمنين (٢١ ربيع اخر).

* تولى إمارة مصر تكِين الحربى خلفاً لعيسى النُوْشَرى الذى توفى فى عامه وهى لاية تكِين الأولى على مصر.

* استبد سبك السبكرى قائد عمرو الصفّار بحفيديه طاهر ويعقوب ابنى محمد بن عمرو وأرسلهما أسيرين إلى بغداد تقرباً للخليفة المقتدر.

* توفِي أمير مصر عيسى النوشرى وكانت مدة ولايته خمس سنين وهو الذى قضى على ثورة الخَجَندى، حمل جثمانه إلى القدس ودفن بها.

سنة ٢٩٨ هجرية

وافق الأول من السنة يوم الأحد ٩ سبتمبر ٩١٠م.

* قاد أبو عبدالله الشيعي جيشاً قضى به على ثورة لقبيلة زَنَاتَة ولكن لم يأت شهر جمادى

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

عليهم الخراج، فقوم لكل دينار دينار وقوم للدينار ثلثه حتى ملا الحبوس فى كل الاماكن. وانفذ الى الديارات بكل موضع واحصى الرهبان التى فيها وطالبهم بالجزية والخراج عن الحشيش الذى فى البهلس وعن النخل والشجر المثمرة المغروسة فى بيوتهم. فلما اتصل الخبر بابينا انبا شنوده بكا بكا مرا وقال: ايها الجبل المقدس وادى هبيب الذى هو مينا الانفس الضالة كيف اقام عليك الشيطان هذا البلا الذى يحل بالقديسين الساكنين فيك وقد

نتائج الحملة:

وبالرغم من أن هذه الحملة قد اخفقت فى هدفها الرئيسى وهو غزو بيت المقدس، الا أن الانتصارات التى حققتها على الحمدانيين، والاستيلاء على المعاقل الاستراتيجية الهامة فى آسيا الصغيرى والشام، بعثت موجه من السرور والرضا بين جميع طوائف الشعب فى القسطنطينية وانطلقت طاقاته الخلاقة، تبدع فى كافة مجالات الفكر والحضارة. ولهذا يتفق المؤرخون أن هذه الفترة والتى بدأت بحكم باسيليوس الأول ٨٦٧م وحتى

الثانية من السنة حتى عقد عبيدالله بالمهدى العزم على التخلص من قائده ومؤسس دولته عبدالله الشيعى ومن أخيه أبى العباس متهما اياهما بالتآمر على عرشه وتم له ذلك (١٥ جمادى) على يد عَرُوبة بن يوسف الذى كافأه المهدى بتوليه على المغرب الأوسط.

* اقيمت أم موسى الهاشمية قَهْرَمَانة لقصر الخليفة تحمل الرسائل من المقتدر وأمه إلى الوزير، وهى التى أصبح لها شأن فى تسيير أمور الدولة فيما بعد.

* قدم بغداد من غزو الصائفة القاسم بن سيما ومعه خلق من الأسرى وخمسون من أكابر الروم مشهرين على الجمال وبأيديهم صلبان الذهب والفضة.

* توفى ببغداد عن ثلاث وثمانين اسحق بن حُنَين أحد مشاهير الأطباء والمترجمين من اليونانية والسريانية فى العصر العباسى الأول منها كتب أَرِسْطاطاليس وكتب إقْليدس.

* توفى سلطان اليمن الزيدى الداعى إلى الحق (يحيى بن الحسين) مؤسس أسرة بنى الرّس الحاكمة عن ثمان وسبعين له مؤلفات منها: الاحكام فى الحلال والحرام والرد على أهل الزيغ، وفيها توفى أمير خراسان محمد (الثانى) وهو الخامس من أمراء الطاهريين وبه انتهت سلالة هذه الأسرة.

* توفى فى هذه السنة الفيلسوف المتهم بالزندقة والالحاد: ابن الرّاوندى (أحمد ابن يحيى) واليه تنسب الفرقة الرَاوندية وكان أبوه يهودياً.

علمت الان ان هذا لاجل ذنوبى. وكـــان هذا الانســـان الظالم يطلب الاب ليـــاخـــذه ويمضى يضمنه ما يتعلق بهذا الوادى وجميع الديارات التى بارض مصر، فلما عرف ابونا هذا قال: ماذا اصنع مع هذا الانســان. وخـاف ان يقف فى وجـهـه اذا وجده فيكون سببا لهلاك الديارات والرهبان وعول على ان يهـرب، وقـال: لعلى اذ لم اجد ينسا هذه الامور التى بدا يفعلها. ثم انه غير حليته وزيه بزى متضع والذين كانو معه بارك عليهم وانفذهم الى

حكم باسيليوس الثانى ١٠٢٥م، هى أزهى عـصـور امـبـراطورية الروم، بل أطلقوا عليها العصر الذهبى الثانى للقسطنطينيـة؛ فـقـد أدت هذه الانتصارات الحـربيـة إلى رخـاء اقـتـصـادى، بعد أن أدى وقف خطر الغارات الاسلامية الى استقرار الزراعة فى أقاليم الامبراطورية الشرقية، مما أدى الى وفرة انتاج الحاصلات؛ كـما أدى الى اعادة تعمير المدن الاغريقية الرومانية العريقة.

يقابل ذلك فى العالم الاسـلامى انتشار الفزع والخوف، والشعور بان

سنة ٢٩٩ هجرية

وافقت غرة المحرم يوم الخميس ٢٩ أغسطس ٩١١م.

* وصلت طلائع القرامطة أبواب البصرة فردهم عنها عاملها ابن كُنداجق وكان الوزير يستمده، وفيها دخل بالأمان إلى بغداد الأغبر والعظيم من قواد القرامطة.

* ثار أهل طرابلس على الخليفة الفاطمى عبيدالله مهدى ثم استردها وعين عليها أحد الزعماء الموالين له، كما ثارت عليه قبيلة كتامة انتقاما لمقتل أبى عبدالله الشيعى وكاتبوا الخليفة العباسى ببغداد.

* تولى أبو على بن عبدالله بن خاقان وزارة المقتدر بعد أن قبض على وزيره ابن الفرات ونهبت دوره على أثر ذلك شاع النهب فى بغداد كلها.

* ولى عبيدالله المهدى عليا بن عمر البلوى أميرا على صقلية بعد أن انسحبت من تبعية الأغالبة.

سنة ٣٠٠ هجرية

استهلت السنة الأخيرة من القرن الثالث الهجرى بيوم الثلاثاء الموافق ١٨ أغسطس ٩١٢م.

* تولى حكم الأندلس عبدالرحمن الناصر الحفيد السادس لعبدالرحمن الداخل مؤسس

٥٥ : شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

مواضع، ومضى هو الى مكان لا يعرفه فيه احدا بالهيه [بالهيئة] التى تزيا بها، وتبعه شماسا كان كاتبا له. وكانو متشردين من موضع الى موضع فى البحر والبر، ودفعات يركبو مراكب بزى رهبان، ودفعات يمشو بارجلهم. وكذلك الاساقفة لم يقدرو ان يظهرو لاجل البطرك راسهم ومدبرهم. وفى تردد ابينا الى كل مكان ناله تعب عظيم.

وكان هذا الرجل الظالم يفتكر ماذا يفعله بالسبع ديارات [وهى ديارات مقار، براموس،

ديار الاسلام مقبلة على خطر داهم؛ وشخص المؤرخون المسلمون من أمثال ابن حوقل وغيره سبب انتصارات الروم بأنها نتيجة لضعف العرب وتفككهم.

نهاية نقفور فوقاس ٩٦٩م:

وبالرغم من هذه الانتصارات العظيمة، التى جلبت الرخاء والاستقرار، الا أنها قوبلت بالجحود والنكران من قبل البطريرك والرهبان، ومن طوائف الشعب، الذى كانت تسيطر عليه أوهام الكنيسة؛ كما أن سياسة التضيق المالى على الناس

هذا البيت تولى خلفاً لجده أبى محمد عبدالله على أثر وفاته فى هذه السنة دون معارضة من أعمامه فكانت سنه اثنين وعشرين عاماً وهو أول من حمل لقب الخلافة وعرف بأمير المؤمنين.

* ثارت طرابلس مرة أخرى فى وجه حكم عبيدالله الفاطمى فأنفذ اليها ابنه أبا القاسم الذى قضى على الثورة، كما نشبت ثورة فى صقلية وأخرج أهلها الوالى الفاطمى عليا البلوى واختاروا عربياً هو أحمد بن قرهب.

* شهدت هذه السنة أول حملة قام بها الفاطميون لغزو مصر قادها قائده حباسة ولكنها لم تتقدم أكثر من إقليم برقة، وكان عليها تكين الحربى للسنة الثالثة.

* وافق نهاية القرن الثالث وفاة الامبراطور البيزنطى ليو السادس.

سنة ٣٠١ هجرية

أهل القرن الرابع يوم السبت الموافق السابع من أغسطس ٩١٣م.

* شهد مولد القرن الرابع الهجرى: فى بغداد الخليفة المُقْتَدر بالله العباسى، وفى قُرْطبة عبدالرحمن الناصر، وفى المغرب يحيى الرابع الأدْريسى، وفى أفريقية عُبيدالله المهدى الفاطمى، وفى صِقِلّية أحمد بن قُرْهُب، وفى سِجِلْماسة أحمد ابن ميمون، وفى سِجِستان عمرو بن

جعلته مكروها. غير أن الشيء الذى لا نفهمه هو اشتراك زوجته يودوكسيا مع زمرة المتآمرين، الذين كان على رأسهم ابن أخيه يوحنا الزمسكى؛ وهو ضابط شاب كان قد عينه دمستقا Domisticus على الشرق وعاد لتوه من جبهة الحرب فى الشام ساخطا على تصرفات عمه؛ ومتطلعا للجلوس على العرش مكانه؛ ولقد صور الكتاب الروم ليلة تنفيذ المؤامرة بصورة مؤثرة؛ تعيد الى الأذهان مؤامرة اغتيال يوليوس قيصر فى روما قبل ذلك بألف وثلاثة عشرة سنة؛ اذ

السريان، يوحنا الصغير، الانبا مويس، يوحنا الاسود، بشوى] والبطريرك والاساقفة، ومن شر فعله انفذ الى كل مكان نوابا عنه، فمضو على قومة البيع واحضرو ما عند كل واحد من الة البيع لتحمل اليه ويطالبو القومة بديارية الاساقفة ويحملوها الى الديوان. وكذلك بيع مصر قبض عليها واحصى ما فيها من الالة، حتى انه امر ان تغلق البيع التى بها، ولا يمكنوهم من القربان الا فى بيعة واحدة. وكان النواب عنه ياخذو القومة

الليث الصَفار، وفى خراسان نصر السامانى، ومن الولاة فى مصر: أبو منصورتكين الرومى، وفى دمشق محمد ابن طُغج الأخشيدى، وفى حلب مُؤْنس الخادم، وفى الموصل أبو الهَيْجاء الحَمدانى، وفى مكة مُؤْنس المظَفر، وفى المدينة محمد بن يوسف العلوى، وفى البحرين أبو طاهر القِرْمطى، وعاصر مطلع هذا القرن فى أوروبا، قسطنطين السابع إمبراطور بيزنطة، وكُونْراد إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة، وفى فرنسا شارل البسيط، وفى انجلترا إدوارد الأكبر، وفى الصين أسرة التانج.

* تولى وزارة المقتدر على بن عيسى وكان أميراً على مكة، وفيها خلع المقتدر على إبنه العباس وهو إبن أربع سنين وقلده أعمال الحرب فى مصر والمغرب.

* تولى عرش خراسان وما وراء النهر الملكُ السعيد نصر السامانى خلفاً لأبيه أبى النصر أحمد على أثر اغتياله.

* خرج فى شوال من السنة عبدالرحمن الناصر فى غزوته الثانية لاخضاع الثورة التى قادها ابن حَفْصُون فى ريّة والجزيرة.

* استولى جيش عُبَيد الله المهدى الفاطمى على إقليم برقة وعليه قائده حبَاسة ابن يوسف قاصداً الاسكندرية.

فى كل مكان يحبسوهم ويقيدوهم بالحديد ويحملوهم الى مصر ليقومو بالديارية للديوان. وعول انه فى زمانه اجمع ياخذ مال البيع والاساقفة والديارة للديوان.

فلما قرر هذا فى ديار مصر ضاقت البيع وحزنو الاساقفة كقول زخريا النبى: صوت الرعاة حزن وتنهد عظيم. كذلك تلك الديارات المقدسة غرمو الابا الرهبان الخراج.

وكان البطرك هاربا من مكان الى مكان فى

اقتحم عليه المتآمرون مخدعه الدافئ؛ يقودهم يوحنا الزمسكى نفسه وذلك فى احدى ليالى شتاء عام ٩٦٩ القارسة البرودة ثم جروه من فراشه، وطرحوه أرضاً، ثم انهالوا عليه بالخناجر طعنا حتى لفظ أنفاسه.

الامبراطور يوحنا الزمسكى Tzimisles ٩٦٩، ٩٧٦؛

عرف يوحنا الزمسكى فى المصادر العربية باسم ابن الشمشيق أو ابن الشوموشيق؛ وتعزى المصادر الرومية السبب الذى دفعه لتدبير مقتل عمه بانه كان يطمع أن يقوم العم بنقل

---

* فى السادس من ربيع ادخل إلى بغداد مُشَهّرا على جمل الحَلاّج المتهم بالزندقة وصُلب ثم حبس.

* ممن توفى فى هذه السنة: أحمد بن نصر السامانى صاحب خراسان اغتاله بعض غلمانه، كما اغتيل أبو سعيد الجَنّضانى القِرْمِطى على يد خادم له وكان قد إستولى على بلاد البحرين والاحساء.

سنة ٣٠٢ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الأربعاء ٢٧ من يوليو ٩١٤م.

* فى أول المحرم دخل عسكر عبيدالله المهدى الفاطمى مدينة الأسكندرية بقيادة حَبَاسَة بن يوسف فسار إليه أبو منصور تَكين أمير مصر وكانت وقعة قتل فيها آلاف من الجانبين حتى كسر العسكر المصرى حباسة وأَجلاه عن الأسكندرية ثم طارده إلى برقة.

* غزا الصائفة بشر الخادم ودخل أرض الروم ففتح وغنم وأسر مائة وخمسين بطريقا (قائداً) وبلغ السبى ألفى إنسان.

* أسر نصر السامانى أمير خراسان عمه اسحق بن إسماعيل وكان قد خلع بيعة الخليفة المقتدر.

البرد لانه كان زمان الشتا وهو حزين باكى على البيعة والاساقفة ويقول من داوود: انا وحدى اخطات، ماذا اصنع ببيعة الله حتى انزل عليها هذا البلا العظيم. ولم يزال هاربا متغربا الى تمام ستة شهور، فلما نظر الى غضب هذا الرجل [ابن المدبر] لا يرجع بل متزايد فاستعد الاب ان يسلم نفسه عن البيعة والاساقفة. وكان يقول: انسانا واحدا اذا افتقر لا يضطرب له كل مكان لكن اذا افتقر الموضع كله ضاق بسكانه فاسلم نفسه فدا

وراثة العرش الى بيت فوقاس بعد أن يتخلص من ولدى الامبراطور رومانوس القاصرين، وهما باسيليوس الثانى، وأخيه قسطنطين الثامن، وأن يعلن نقفور اختيار يوحنا وريثا للعرش، بصفته الساعد الأيمن له فى حروبه المقدسة فى الشام؛ ولما شعر يوحنا الزمسكى أن عمه لا ينوى ذلك مطلقا اقدم على التخلص من عمه، ولكى يبعد الأنظار عن ذلك، أعلن عقب توليه العرش، أنه يتعهد بحفظ العرش لولدى رومانوس.

---

* ممن ولد فى هذا التاريخ ببغداد الأديب المنشىء العباسى عيسى بن الجَرَّاح، وفيها ولد القاضى ابن قُرَيْعَة.

* توفى فى هذه السنة الشاعر البغدادى أبو الحسن بن بَسّام عن ٨٢ عاماً وهو مؤلف كتاب المعاقرين.

* فيها توفى قاضى مصر والشام أبو زُرْعَة (محمد ابن عثمان) أول من حكم بمذهب الشافعى فى الشام وكانوا على مذهب الأوزاعى، وفيها توفى الفقية المصرى بِشْر بن نصر.

سنة ٣٠٢ هجرية

استهلت السنة بيوم الاثنين الموافق ١٧ يوليو ٩١٥م.

* اختط الخليفة الفاطمى عُبَيدُ الله المهدى مدينته الجديدة بالقرب من القيروان وأسماها المَهْدِية نسبة إليه وأقام حولها سوراً محكماً وجعلها عاصمة لدولته.

* جنح الثائر الأندلسى عمر بن حَفْصون إلى المصالحة فاستجاب الناصر لعقد صلح مع إبداء الحذر من غدره.

* تولى إمارة مصر ذَكا الرومى خلفاً لأبى منصور تكِين.

عن البيعة بحكمة، ومضى فى السر من موضع الى موضع حتى وصل الى مصر ودخل الى منزل انسان مومن، وكتب كتابا الى هذا الوالى الذى ذكرناه يلتمس منه امانا لكى يظهر له. وبكثرة دغله عليه ومكره الذى بلا غور كتب هذا الكتاب: اذا انت حضرت عندى من قبل ان يقبضك احد ممن يطلبك من جهتى فى كل الاماكن فانت مطلق ومسامح بالبلا الذى اردت انزله بك وبالبيع، فان قبضك انسان واحضرك الى

اذعانه لمطالب الكنيسة:

وبالرغم من أن يوحنا الزمسكى استطاع أن يتخلص من المناوئين له فى الحكم، وأن يدعم نفسه بأصدقائه وشركائه فى الجريمة، لكنه لم يستطع أن يسكت صوت الكنيسة، فقد أعلن البطريرك أنه لن يتوج يوحنا امبراطورا، لأنه قاتل ومغتصب للعرش. ولم يكن يوحنا الزمسكى فى موقف قوى، حتى يدخل فى صراع مع الكنيسة، وكان كل أمله أن يفلت من تهمة قتل عمه ويحظى بالعرش. ولذا سعى الى كسب رضى الكنيسة،

---

* أغار الروم على الثغور انتقاماً من هزيمة العام الذى سبق منتهزين فرصة إنشغال جيش الخليفة فى حرب الثائر ابن حَمْدان.

* جرت معركة بين قائد الخليفة رَائِق فخف إليه مُؤنِس الخادم على عسكر مصر وأوقع به وأسره وأدخله بغداد مُشْهراً.

* شهدت هذه السنة مولد شاعر العربية فى كل العصور أبى الطيب المُتَنَّبى بمدينة الكوفة.

سنة ٣٠٤ هجرية

استهلت السنة بيوم الجمعة الموافق ٥ يوليو ٩١٦م.

* فى الأول من المحرم خرج أمير مصر الجديد ذَكَا الرومى إلى الأسكندرية وقضى على عملاء الفاطميين بها وقطع أيدى وأرجل بعضهم فعظمت هيبته.

* عاد مُؤْنس المظَّفر لغزو الصائفة فدخل أرض الروم من ناحية مَلَطية بينما غزاها أبو القاسم بن بِسْطَام من ناحية طَرَسُوس.

* شهدت السنة وفاة آخر أمراء دولة الاغالبة أصحاب تونس، وهو زيادة الله الثالث بن أبى

فانى افعل بك ما اضمرت به لك واكثر منه. فلما وقف ابونا على هذا الامان الذى هو ممتلى من سم الافاعى حزن جدا وقال: ما الذى اصنع ان انا حضرت اليه بسرعة حتى يرانى انسان ويمسكنى، فهو يقول انك حضرت من غير ارادتك فينزل على غضبه، ثم انه ثبت برجا [برجاء] الرب [يسوع] المسيح ويقول مثل قول داود: ان انا سلكت وسط ظلال الموت لا اخاف لانك معى. ثم قام فى تلك الحالة والثياب الزرية التى عليه

وتمريغ وجهه فى تراب عتباتها، ووجدت الكنيسة أن فى ذلك فرصة لاستعادة حقوقها التى سلبها اياها نقفور فوقاس، فأعلنت أنها لن تتوجه امبراطور قبل أن يستجيب لشروطها: وهى أن يعلن براءته من جريمة قتل عمه، وأن يتخلص من أرملته الخائنة؛ وأن يعلن تعهدا بأنه سوف يحفظ العرش حتى يشب ولدا رومانوس عن الطوق، وأن يلغى كافة القرارات، التى كان الأمبراطور القتيل قد أصدرها فى حق الكنيسة، وأثرياء الرهبان والنبلاء، وأن تزول ثروة عمه

العباس عبدالله، دال ملكهم على يد الفاطميين توفى زيادة الله على الأرجح بالرَمْلة من أرض فلسطين ناجياً بنفسه.

سنة ٣٠٥ هجرية

وافق الأول من السنة يوم الثلاثاء ٢٤ يونية ٩١٧م.

* وصل رسولان من إمبراطور الروم قُسْطَنطين السابع إلى الخليفة المقتدر ببغداد يطلبان باسمه المهادنة والفداء فادخلا مع الوزير وأديا الرسالة ووقف على جانبى الطريق إلى قصر الخليفة مائة وستوين ألف من الجند وسبعة آلاف من الخدم وسبعمائة من الحجاب ومائة من الأسود فى السلاسل، فأجابهما الخليفة وسير مؤنساً الخادم ليحضر الفداء معه مائة وعشرون ألف دينار لفداء أسرى المسلمين.

* عاث أرْدُنيو ملك ليون الأسبانى فى إقليم طَلَبيرة انتقاماً لهزائمه على يد وزير الناصر الذى سار إليه للمرة الثانية ولكنه هزم واستشهد، بينما غزا سانشو ملك النافار بلتيرة وأحرق مسجدها فاستعد عبدالرحمن للانتقام وانفذ جيشاً تحت إمرة حاجبه بدر بن أحمد.

* وردت على الخليفة المقتدر ببغداد هدايا صاحب عُمَان وفيها الوان الطيب والرماح وطرائف البحر ونوادر الطير والحيوان.

كانه راهب وخرج ومشى فى الطريق ليلا حتى وقف على باب ذلك الانسان بقوة قلب بتوكله على الله الثابت، فلما نظره الحاجب دخل مسرعا وقال له: هوذا البطرك قد جا. فلما اصبح وجلس فى الديوان احضر ابونا البطرك وكاتبه مينا لانه لم يفارقه يوما قط، فلما نظرهما وراى نعمة الله الحالة امامه فقال لهما بكلام لين: اين كنتما طول هذه المدة والان فقد اتيت اختيارا منك ماينالك منى سو. ثم تركهما ذلك اليوم ولم يخاطبهم وبعد ثلثة

وممتلكاته الى الشعب، وتوزع على الفقراء والمساكين. وبالفعل نفذ الزمسكى كافة طلبات الكنيسة، فأعلن براءته من الجريمة، وتعهد بالحفاظ على حياة الأميرين القاصرين، وحفظ العرش لهما حتى يكبرا، ثم نفى زوجة الامبراطور القتيل ثيودوكسيا الى أحد الأديرة النائية فى أرمينيا؛ ثم ألغى كافة القرارات التى أصدرها عمه الراحل فى حق الكنيسة والأديرة والنبلاء، وأعاد اليهم ممتلكاتهم، وصادر ثروة عمه وحرم منها أبناءه، ووزعها على الفقراء والمساكين. وما أن

---

* قُبض على الثائر الأندلسى حبيب بن سَوَادة صاحب قَرْمُونة وأرسل فى الأصفاد إلى قرطبة.

* توفى بالرَقة القائد العباسى العباس الغَنَوى وكان على حرب القرامطة.

* توفى السبكرى غلام الصفار وبه انتهى حكم الدولة الصفارية بالمشرق.

سنة ٣٠٦ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الأحد ١٤ يونية ٩١٨م.

* خرج فى المحرم بدر الحاجب قائد ووزير عبدالرحمن الناصر للجهاد والانتقام من ملك ليون وعند مطونية هزم الأسبان فى معركتين حاسمتين فلم ينج منهم سوى فلول قليلة.

* وقعت فتنة فى بغداد بين الحنابلة والعامة فأخذ الخليفة جماعة منهم وسيرهم إلى البصرة وحبسوا فيها.

* أصبح لأم المقتدر شأن فى حكم الدولة فأمرت قَهْرَمانتها ثَمل أن تجلس للمظالم فاستبشع الناس عملها غير أن كثيراً من المظلومين انتفعوا بذلك.

ايام مضى اليه ابونا القديس ليسلم عليه فبدا ان يحرك عليه مصايد الموت الذى افكر فيهم وقال له: اعلم ان كل ولايتى قد كتبو عليهم الخراج الا انت. فاجب الاب القديس بكلام متواضع وقال مهما تامر به رياستك فعلته. وكان عادته ان يضعف على الناس البلايا اذا ما رادوه فى الكلام، واذا ماسكتو ولم يرادوه فى الكلام عدل عليهم. وكان على البيعة خراج فى كل سنة الفى دينار، فقال لابينا: لاجل ما جيت بارادتك اراعيك

انتهى من ذلك فى أواخر عام ٩٦٩م حتى وافقت الكنيسة على تتويجه، وعلى اثر ذلك أعلن زواجه من ابنة الامبراطور قسطنطين السابع، ليلحق نسبه بنسب البيت المقدونى، وحتى يعطى لنفسه حقا شرعيا لتولى العرش.

وعلى اثرمصادرة أموالهم، هرب أبناء نقفور فوقاس الى مسقط رأس أبيهم فى اقليم قبادوقيا Cappadocia فى جنوب شرق آسيا الصغرى، وأثاروا عشيرة آل فوقاس ضد ابن عمهم يوحنا الزمسكى، وقامت حركة تمرد

---

* ولد فى هذه السنة بالفُسْطاط مؤرخُ مصر ابن زولاق مؤلف كتاب فضائل مصر وأخبارها.

* توفى فى ربيع من هذه السنة حَفْصون من المولدين بالأندلس عن ٧٢ عاماً وهو الذى قاد الثورة ضد الحكم العربى ثلاثين سنة.

* توفى فى هذا التاريخ الحسين بن حَمْدان عم سيف الدولة الحمدانى وكان من كبار القواد والولاة فى عصره حتى ثار على المقتدر فقضى عليه ومات فى حبسه.

سنة ٣٠٧ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الخميس ٣ يونية ٩١٩م.

* تولى إمارة مصر أبو منصور تكِين للمرة الثانية على أثر وفاة سلفه ذَكَا الرومى وما أن دخل مصر حتى استعد لصد الغزو الفاطمى وعلى رأس الجيش القائم ابن الخليفة المهدى الذى نجح فى دخول الأسكندرية ولكن لم يلبث تكِين أن أستظهر عليه واستولى على المراكب التى حملته.

* إنتشر الجدب فى العراق وأشتد الغلاء وثارت العامة ونهبت دكاكين الدقيق وأحرقت

واسامحك. ثم الزمه بخراج سنتين قبل وصوله الى مصر، وكتب عليه عن الديارات الفى وثلثماية دينار حتى اجتمع عليه فى تلك السنة سبعة الف دينار. هذا بداية البلا من عظم الخراج الذى ثبته على البيعة وعلى الاساقفة والديارات التى فى كورة مصر، وكانت هذه السنة سنة ثمان وسبعين وخمس ماية للشهدا، وهى ثالث سنة من بطركيته. وكانت جزية النصارى التى بارض مصر الفى دينار زاد عليه أربعة الف دينار حتى صارت ستة الف

مناونة له، تزعمها ابن عم له يدعى بارداس فوقاس Bardas Phocas استمرت بضع سنين، الى أن دعم حنا الزمسكى نفسه، ثم قضى على هذه الحركة فى مهدها قبل أن تتحول الى حرب أهليه.

الحرب مع الروس:

رأينا كيف أن خطرالروس بدأ يتعاظم منذ اتحادهم فى شكل دولة تحت امارة كييف، وبدأوا منذ عام ٨٦٦ يغيرون على أراضى امبراطورية الروم، وأكثر من مرة وصلوا الى أسوار القسطنطينية، وكانت الامبراطورية

- -

الجسور وأخرجت المحابيس من السجون ثم سكنت الفتنة بعد أن فتحت مخازن القمح والشعير وبيع ما فيها.

* انهزم يوسف بن أبى الساج صاحب أذْربيجان على يد مؤنس الخادم وأدخل بغداد مشّهراً على جمل وعليه بُرْنس بأذناب الثعالب.

* دخلت القرامطة مينة البصرة فنهبوا وقتلوا وسبوا.

* توفى فى هذه السنة من رجال الحكم والحرب: ذَكَا الرومى أمير مصر توفى بها بعد أربع سنوات، وفيها توفى حَبَاسَة بن يوسف قائد الخليفة المهدى الفاطمى توفى بالأسكندرية بعد دخولها، وفيها توفى فى محبسه القائد الساماني أحمد ابن سهل بمدينة بخارى.

سنة ٣٠٨ هجرية

استهلت السنة بيوم الثلاثاء الموافق ٢٣ مايو ٩٢٠م.

* فى الثالث عشر من المحرم خرج من قرطبة فى حملة كبرى أميرُ الأندلس عبدالرحمن الناصر على رأس جيش كثيف رداً على فظائع الملكين الأسبانيين وفى طريقه إلى مملكة ليون

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

ترضيـــهم، أمــلا فى أن تروضـــهم بحـضـارتهـا، وتنشـر المــسيحـيــة الأرثوذوكـسـيــة بينهم، لتـربطهم بكنيستها، وتحولهم الى دولة تسير فى ركابها، فقد سعت الى اعطاء التجار الروس بعض الامـتـيـازات التـجـارية، واسـتـخـدمت جنودهم الأجـلاف فى جيـوشـهـا واسـاطيلهـا. وبالفعل هدأ الروس لبعض الوقت. ولما لقى تقفور مصرعـه، وجـد الروس أن الفرصــة مـواتيـة لغـزو أراضى الامبــراطورية والتوغل فيـها منتهزين فرصـة عدم الاستقرار الذى ساد بعد مصرع نقفور

دينار. حتى ان الانسـان الفقـير الذى يعجز قـوته ياخـذ منه فى كل سنة خـمـسين درهمـا، حـتى ضجت أهل مصر واعمالها من عظم هذا العذاب وجحد [انكر دينه واسلم] كثير من النصارى لاجل قلة ما بايديهم من الدراهم. وكتب الاب كتبا الى الاساقفة يعلمهم حضوره فيما هو بصدده. وكانت كتبه من وقف عليها يبكى ويقول كما قال بولس: اريدكم ان تكونو فهمين يا اخوتى لان بامره كثرو علينا اكثر من قوتنا، فلا نكون نحن معولين على

وعليها أوردونيو ومملكة النافار عليها سانشو خرب كل ما صادفه من حصون ومعاقل وأبراج وكنائس وديّارات بعد أن فرت حامياتها إلى الجبال، ثم اجتمعت قوات الملكين بالقرب من بنبلونة فألحق بهما هزيمة ساحقة وأعدم جميع من فى أسره من أمراء وفرسان وقوامس أخذا بالثأر وعاد إلى قرطبة بعد ثلاثة أشهر.

* وصلت فى المحرم النجدةُ التى أرسلها الخليفة إلى مصر وعليها مؤنس الخادم للرد على الغزو الفاطمى للأسكندرية.

سنة ٢٠٩ هجرية

واثق هلال المحرم يوم السبت ١٢ مايو ٩٢١م.

* تولى إمارة مصر فى هذه السنة أربعة مما يدل على عدم الاستقرار فى سياسة الحكومة المركزية إذ تولاها: تكين للمرة الثانية وخلفه أبو قابوس محمود فاستصغره الجند فعزل بعد ثلاثة أيام، وعاد تكين للمرة الثالثة وعزل بعد ثلاثة أيام وخلفه هلال بن بدر ولكن لم تنقطع الفتن وقاتل الوالى الجديد المشاغبين عليه.

* قلد الخليفة المقتدر يونس الخادم بلاد مصر والشام ولقبه المظّفر وأمر بأن يكتب بذلك فى المراسلات إلى الولايات.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/٨٨٠م

انفسنا لكن على الله الذى يقيم الموتى هو الذى ينجينا من شدايدنا، فكونو انتم ايضا مشتركين فى الدعا عنا. ويقول فى كتبه: ان قلبى طيب على جميعكم لان فرحى بكم فى هذه الاحزان والتجارب وانا اكتب اليكم بدموع غزيرة ولا تحزن قلوبكم بل تعلمو محبتى لكم. فلما وقفو الاساقفة على كتبه تعزو وعلمو انه قد اسلم نفسه للموت لافداهم وسلامة البيعة. وكانو شاكرين ممجدين لله باهتمام راعيهم بهم. ثم اجتمعو الى فسطاط مصر

فوقاس وثورة أبنائه فى آسيا الصغرى، وتوسعوا عبر نهر الدنيبر متوغلين فى أراضى البلقان، واحتلوا مدينة فيليب العريقة Philippolis والتى تقع على الحدود بين تراقيا ومقدونيا ، وضعوا أيديهم على مناجم الذهب فيها عام ٩٧٠م. وأعملوا فى المدينة نهبا وتخريبا قبل أن يصل الى المدينة نجدة عاجلة من القسطنطينية.

ونتيجة لذلك توجه يوحنا الزمسكى بقواته ـ بعد أن فرغ من مشاكله الداخلية وقضى على الحرب الأهلية فى آسيا الصغرى ـ لملاقاة

---

* فى يوم الثلاثاء السابع والعشرين من ذى القعدة أخرج أبو مغيث الحسن ابن منصور الحلاج الفيلسوف المتهم بالزندقة وصُلب بعد تعذيبه وله من العمر ٦٥، وكان قد ظهر أمره سنة ٢٩٩ وقبض عليه وحبس سنة ٣٠١هـ.

* ممن توفى من رجال اللغة والفقه: اللغوى المصرى أبو الحسن على بن الحسن الهنَائى له المنجد وله المنضد فى اللغة، وفيها توفى الأديب الأندلسى ابن الأُفشين (محمد بن موسى) مؤلف طبقات الكتاب، وفيها توفى العباس بن سهل الصوفى بسبب تعذيب الوزير له وكان موافقاً للحلاج الفيلسوف المقتول، والزاهد أبو نصر الخفاف.

* توفى أمير جُرْجان الثائر ليلى بن النعمان وكان قد ارتفع شأنه ولقب بالمؤيد.

سنة ٣١٠ هجرية

وافق الأول من السنة يوم الأربعاء الأول من مايو ٩٢٢م.

* تجدد القتال بين الأسبان وعبدالرحمن الناصر صاحب الأندلس، فأغار أُردونيو ملك ليون على نَاجِرة واستولى عليها كما استولى سانشو ملك نافار على بقيرة وأسر من فيها من المسلمين وقتلهم فضجت الأندلس لهذه الأنباء واستعد عبدالرحمن للأخذ بالثأر.

ولما علمو بما استقر على الاب وعلى البيعة المقدسة قسطو ذلك عليهم بحسب القدرة لمعرفتهم ان ليس مع الاب شيا كمن تقدمه، لانه لم تكن نفسه تتطلع لشى من مال الهلاك، حتى ان من هذه الاسباب والخسارة اضعفو الاساقفة الديارية خمسة اضعاف مما كانت وما قدرو ان يوفو ما تقرر على الاب. وكانت كورة مصر في ضيق عظيم، وافتقرو الاساقفة والرهبان وكل احد من اجل الغرامات التى رتبها هذا الانسان الخوف اكثر

الروس عام ٩٧١م. والتحم معهم فى معركتين شهيرتين هما معركتا برستالافا وسلتريا Silosrtia، وبعد مذبحة دامية نجح يوحنا الزمسكى فى دحر الروس، بعد أن حاصرت قواته مدينة سلستريا، التى احتمى فيها ملكهم سفايتو سلاف وزوجته، وما تبقى لديه من قوات، وأجبر الزمسكى سفايتوسلاف على توقيع صلح تعهد بمقتضاه بالانسحاب من بلغاريا وعاصمتها برسلاف، وبذلك ضمت امبراطورية الروم بلاد البلغار اليها، واصبحت حدود الامبراطورية الجديدة

---

* قبض الخليفة على أم موسى القَهْرمانة وكانت قد زوجت بنت أخ لها من حفيد للخليفة المتوكل فوكل بها القهرمانة ثمل واستخلصت منها ما قيمته ألف ألف دينار.

* في السادس والعشرين من شوال توفى الفقيه المفسر المؤرخ أبو جعفر محمد ابن جرير الطبرى عن ٨٥ سنة، وهو مؤلف التفسير المعروف باسم تفسير ابن جرير والموسوعة التاريخية تاريخ الأمم والملوك المعروفة باسم تاريخ الطبرى وكلاهما مطبوع متداول.

* توفى فى هذا التاريخ الفيلسوف الفلكى أبو محمد النُوبَخْتِي له الرد على المنجمين ومختصر كتاب الكون والفساد لارسطو، وفيها توفى طبيب العيون خلف الطولونى مؤلف كتاب النهاية والكفاية فى تركيب العينين وخلقتهما وعلاجهما وأدويتهما.

سنة ٣١١ هجرية

استهلت السنة بيوم الاثنين الموافق ٢١ ابريل ٩٢٣م.

* انفذ عبدالرحمن الناصر وزيره وقائده عبدالحميد بن بَسيل لحرب الأسبان ريثما يستعد هو للخروج بنفسه، فدخل الوزير مملكة النافار وعاث فيها وقاتل ملكها سانشو وهزمه فى أكثر من معركة.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

من جميع من تقدمه. وكان يكتب على المال اذا انفذه «هذا ما كان يسرقه من تقدمتي».

وكان الاب في جهاد عظيم ومع هذا كان على قلبه هم عظيم ممن بقي من الصعيد من المقالة الفاسدة ويقول الويل لي اذا تركت الشيطان يتسلط على ميراث ملك السما والارض، فما ربحي اذا هلكت هذه الانفس. ثم ان هذا الراعي الصالح قام وسار الى بلاد الصعيد كما [قام]

ملاصقة لحدود الدولة الروسية، وتمتد حتى ضفاف نهر الدانوب. لقد حقق يوحنا الزمسكي نصرا ساحقا على الروس، غير أن ذلك النصر لم يكن نهاية للخطر الروسي على الروم، فقد أصبحت حدود امبراطوريته بعد ضم رومانيا مشتركة مع حدود روسيا، كما أن الروس كانوا شعباً صعب المراس لا ينسى هزيمته بسهولة، ومن ثم كان هذا النصر فاتحة فصل مرير ودامي للحروب بين الروس والروم.

وبعد أن فرغ يوحنا الزمسكي من حروبه مع الروس، اتجه لأحياء

---

* تولى إمارة مصر أبو العباس أحمد بن كَيْغَلَغ وكانت إمارته ستة أشهر وخلفه للمرة الرابعة أبو منصور تكين وذلك ارضاء لجند مصرى.

* نَكب ابن الفرات عليَ بن مُقْلة كاتب الوزير وهو الذى ضُرب به المثل فى جودة الخط.

* أغار أبو الحسن الجَّنابى القِرْمِطى على البصرة روضع السيف فى أهلها وأحرق البلد والمسجد الجامع.

* استولى يوسف بن أبي الساجى صاحب أذْربَيجان على الرّى.

* ولد فى هذه السنة ببغداد جبرئيل بن بَخْتَيْشوع وتعلم بها وحذق صناعة الطب واتخذه عضد الدولة طبيباً له وقد كان جده بَخْتَيْشوع طبيباً للخليفة الرشيد.

* توفى ببغداد إمام الطب الفيلسوف أبو بكر الرازى عن ٦٠ عاماً وقد تولى رياسة البيمارِسْتَان العَضُدى قبل وفاته وهو مؤلف كتاب الطب المنصورى وكتاب سر الصناعة، وكتاب الكافى، ومنافع الأغذية، وخزانة الأطباء، والجدرى والحصبة، وأكثرها متداول.

* أعدم وصلب شاكر الزاهد خادم الحلاج وكان متهماً مثله بالزندقة.

سيده في طلب الضال وسلك الطرق الصعبة المخوفه ولم يهمه ذلك ولا شفق على نفسه لانقاذ الظالين [الضالين] وبمعونة الله وصل الى المكان وخرج اليه الشعب المومن واستقبلوه بفرح وبارك على جميعهم، وبدى ان يجذب اليه الذين ظلو [ضلوا] ويغذيهم بكلام روحاني مقدس، ولم يقول لهم كلام جافي مثل الطبيب الماهر، فكان يقول لهم بكلام لطيف مثل الاب بتواضع كما في الابركسيس: «توبو وعودو لتمحي ذنوبكم». ثم

الدعوة الى الحروب المقدسة ضد المسلمين من أجل استعادة بين المقدس، وكانت تطورات هامة قد حدثت على الساحة الاسلامية، فقد قامت دولة الفاطميين في مصر (٩٦٩ ـ ١١٧١م) وهي دولة قوية سعت الى المطالبة بحقها في شمال الشام وجوف سوريا، بصفتها وارثة لكل الاراضي التي فقدتها دولة الحمدانيين خاصة حلب وأنطاكية، وكان هدف الفاطميين هو تأمين حدود مصر الشرقية، استعدادا

سنة ٣١٢ هجرية

استهلت السنة بيوم الجمعة الموافق ٩ إبريل ٩٢٤م.

* في السادس عشر من المحرم خرج عبدالرحمن الناصر من عاصمته قرطبة معتزماً غزو الأسبان، فاخترق لُورْقة ومُرْسية وطَرْطُوسة وسَرَقُسطة ودخل أرض النافار في شهر ربيع فساد الذعر أهلها وفروا إلى الجبال وتوالى استيلاء عبدالرحمن على الحصون والقلاع قهراً أو بعد هرب إهلها منها حتى بلغ العاصمة بَنْبلونة فدمرها وأحرق قصورها وكنائسها ونهبها ثم إلتقى بقوات الأسبان المتحالفة فسحقها وشتتها وعاد إلى قرطبة بعد غياب أربعة أشهر.

* ورد رسول آخر من ملك الروم قُسطنطين السابع إلى بغداد طالباً من الخليفة المقتدر الهدنة وتقرير الفداء بعد غزاة الصائفة فأجابه المقتدر إلى طلبه.

* استولى أبو طاهر القِرْمِطي على الكوفة سار إليها من هَجَر، ولم يحج في هذه السنة أحدٌ خوفاً من فتك القرامطة بهم بعد أن أغاروا على قافلة للحجاج فيها عم أم الخليفة أبو الهيجاء الحَمْداني صاحب ديار ربيعة وجماعة من أعيان الدولة وأسروهم وأخذوا أموالهم وقتلوا كثيراً من الحجاج.

فتح فاه وقال لهم من كلام الاب انبا كيرلس ما ازال ضلالتهم. وكثير من اوليك فرحو وقالوا عيننا [اعيننا] يا ابانا القديس. فلما علم ابليس ذلك ظهر فى وسط المجمع المقدس والتحف بشيخ علمانى كان سبب التجديف اولا ومقدم لهذا الامر لما سمع ذكر القديس كيرلس وميامره التى هى مثل الفاس القاطع لكل تجديف صرخ الشيخ السو الضال وقال بلسانه الذى يستحق القطع: واى شى لنا نحن مع كيرلس. فلما سمع الاب صوته ذلك

للدخول فى جولة حاسمة مع دولة القرامطة. وبالفعل قام المعز لدين الله بارسال أحد جيوشه الى الشام عام ٩٧١ أثناء انشغال حنا الزمسكى بالحرب مع الروس لاسترداد أنطاكية، وكاد الفاطميون ينجحون فى استردادها، لولا مهاجمة القرامطة لجيوشهم، مما أفشل نجاحهم، وردت القسطنطينية على ذلك بأن قامت عام ٩٧٣م بمهاجمة المدن الاسلامية فى وادى الفرات الاعلى مثل نصيبين Nisibis احدى قلاع المسيحية قديما، وآمد lAmida (ديار بكر الحالية)، والرها Edessa (أورفة الحالية

---

* أمر الخليفة بالقبض على وزيره ابن الفرات وابنه المحسِّن وصودر لهما نحواً من ألف ألف دينار.

* عاد إلى مصر أبو منصور تكِين أميراً عليها للمرة الرابعة بعد أن اضطربت أحوالها.

* قبض فى بغداد على ثلاثة من أتباع الحلاج وطولبوا بالرجوع عن اعتقادهم فيه فلما رفضوا قتلوا وصلبوا.

سنة ٣١٢ هجرية

وافق الأول من السنة يوم الثلاثاء ٢٩ مارس ٩٢٥م.

* غزا أمير صقلية سالم بن راشد ما بقى من النواحى فى الجزيرة ثم عبر باسطوله البحر إلى الساحل الإيطالى وحاصر مدينة ترَنت (طارنت) الهامة وفتحها بالسيف ثم انتقل إلى مدينة أدرنت وخربها ونهبها.

* ندب الخليفة مؤنسا الخادم لحرب القرامطة بعد أن نزلوا على الكوفة واعترضوا قافلة الحجاج ولم يسمحوا لها بالمسير إلى مكة حتى دفعوا لهم حق الطريق.

* ضم ابن أبى العافية مدينة فاس إليه وقاتل الأدارسة واستولى على بلادهم.

في تركيا)، ثم ملطية Melitene (الى الشمال الغربي من آمد)، ولكن هذه الهجمات لم يكتب لها التوفيق والنجاح. وازاء هذا التوسع المستمر في اعالي الرافدين في اتجاه قلب الدولة العباسية قامت ثورة في بغداد عام ٩٧٣ ضد الخليفة العباسي المطيع، لتخاذله في الدفاع عن ديار الاسلام، أطاحت به وتولى مكانه الخليفة الطائع.

وفي عام ٩٧٥ قاد يوحنا الزمسكي قواته من أنطاكية، وموليا وجهه شطر حلب، ولم تقاوم المدينة،

النجس عند انكاره الاب كيرلس احرمه حرما يستحقه، وافرزه عن نصيب المومنين وكلمن يقتدى بضلالته. وكان هذا قد بدى عند مضى الاب الى تلك المواضع اولا واحرق ميامر الابا المعلمين التى اهدمو اكثر كفره وضلالته. ومن جملة ما احرق الاثنى عشر كفالاون لكيرلس، ومن قول ابيفانيوس، ورسايل كثير لابابنا. وتم على هذا [الرجل] ومن يتبعه قول عاموس: انهم يعصو لمربح في والدى ندر فيها الابواب. وكلام مقدس

---

* تولى قضاء مصر هارون بن حَمَّاد حلفاً لعبدالله بن مُكْرَم.

* توفي بالمغرب الحسن الحَجَّام (الحسن بن محمد بن القاسم بن ادريس) أخر الأدارسة وكانت فاس عاصمة له ولم يمتد حكمه سوى عامين.

* وافق هذا التاريخ وفاة ملك ليون الأسباني أزْدُونيو الثاني الذى عاش في حرب مع أمراء المسلمين بالأندلس حتى كانت هزيمته الساحقية على يد عبدالرحمن الناصر وعلى أثر وفاته تنازع خلفاؤه العرش سنوات.

سنة ٣١٤ هجرية

وافق الأول من السنة يوم الأحد ١٩ مارس ٩٢٦م.

* نشر القرامطة الفزع حتى أن حجاج خراسان عادوا من حيث أتوا وسار أهل مكة عنها عندما بلغهم مسير أبى طاهر القِرْمِطي إليها ونقلوا حرمهم وأموالهم إلى الطائف خوفاً منه.

* ولى الخليفة ابن أبى الساج أمر المشرق وأمره بقتال أبى طاهر القِرْمِطي وجهزه بألف ألف دينار.

* اشتد البرد في العراق وأتلف النخل والشجر وجمد ماء نهر دجلة عند الموصل وعبرت

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/٨٨٠م

اهدروه بتمويه الشيطان الذى سكن قلب ذلك الشيخ فاراد الاب ان يعيده من ضلالته، وقال كما فى الابركسيس: يضيق على ان اقول لكم اولا كلام الله لترموه خارجا ولا يجعلونكم تستحقو الحياة الموبدة هو ذا انتم تعودو الى الامم. وبنعمة الله التى مع ابينا انبا شنوده اعاد كلمن اتبع الشيخ الضال واعترفو بالامانة الحسنة. فلما خزى الشيطان ولم يربح فى مصيدته شى بهذه الاعمال

ثم اتجه الى بعلبك واستسلمت له، وفتحت دمشق له بواباتها، ومن دمشق اتجه الى شمال فلسطين، فاستسلمت طبرية والناصرية وقيسارية، ولم يبق أمامه سوى دخول بيت المقدس، التى تجمعت فيها القوات العربية دفاعا عن المدينة المقدسة، ولم يشأ يوحنا الزمسكى أن يغامر بقواته أمام الدفاع الباسل عن القدس، فتركها واستدار شمالا ليستولى على صيدا وبيروت، لكن استعصى عليه الاستيلاء على طرابلس، حيث لاقى مقاومة شديدة قفل بعدها عائدا الى القسطنطينية.

عليه الدواب وسقطت الثلوج ببغداد وجمدت الأدهان والأشربة حتى ماء الورد والخل فى القنانى.

* لم تنقطع خلال السنة الغارات بين المسلمين والروم فغزا أهل طَرَسوس الصائفة ودخلوا أرض الروم وغنموا وعادوا، ودخل إمبراطور الروم مَلَطية ومعه مَلِيح الأرمنى صاحب الدروب فأخربها ونبشوا القبور فقاتلهم أهلها وأخرجوهم فلم يظفر من المدينة بشيء.

* ولد فى هذه السنة الوزير أبو طاهر محمد بن بويه تولى وزارة معز الدولة وعز الدولة كما وزر للخليفة المطيع بعد ذلك.

* فيها توفى الوزير أبو على الماذَرَائى من كبار رجال الدولة الطولونية.

سنة ٣١٥ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الميس ٨ مارس ٩٢٧م.

* قدم على بن عيسى بغداد بعد أن تولى وزارة المقتدر للمرة الثالثة فمشت الأمور واستتبت الأحوال وقد تولى الأعمال بنفسه ليلا ونهاراً وجمع حوله الأكفاء من الرجال.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

نهاية يوحنا الزمسكى:
عاد يوحنا الزمسكى الى القسطنطينية، ولم يمض وقت طويل بعد عودته حتى أصابه مرض لم يمهله طويلا، فمات فى مطلع عام ٩٧٦م. وبموته عاد العرش لأحد أبناء رومانوس الثانى، وهو باسيليوس الثانى والذى كان وقتذاك فى العشرين من عمره.

عودة العرش الى آل البيت المقدونى مرة آخرى:

حكم باسيليوس الثانى ٩٧٦-١٠٢٥م:
وعلى أثر موت يوحنا الزمسكى،

الصعيدية، فبدا ان يحتال حيلة اخرى ويضل قوم اخرين ليلا يطل من محاربة الاب.

ولما عاد الاب من الصعيد ووصل الى مصر كان هناك انسان سو تقدم الى الاب وساله ان ياخذ منه مالا كثيرا ويجعله اسقف، وكان الاب لا يلتفت الى شى من هذا لمحبته المسيح، ولما كان قد قرره فى معنى الشرطونية. فلم يزل ذلك الجاهل يتردد اليه بكل جهة فلم يفعل ما طلب، ففكر فى امر

---

* انفذ عُبَيدالله المهدى الفاطمى إبنه أبا القاسم إلى المغرب حتى وصل إلى ما وراء تَاهَرْت للقضاء على ثورة ابن خزر، وفيها أمر ببناء مدينة جديدة سماها المحمدية (المَسِيلة حاليا) ونقل إليها خلقاً كثيراً بعد أن وفر فيها حاجاتهم من الطعام وغيره.

* شَغِب الجند على الخليفة المقتدر وخرجوا إلى المصلى ونهبوا القصر المعروف بالثريا وذبحوا ما فيه من وحوش الحديقة حتى ضمن لهم مؤنس المظفر ارزاقهم فعادوا.

* استولى أنصار ابن شِيَرويه على جُرْجان ثم على طبرستان وكان على جيشه مَرْداويج بن زيّار مؤسس الدولة الزيارية بعد ذلك.

* أغار ملك الروم على مدينة سُمَيْساطَ وضرب الناقوس فى مسجدها فخرج المسلمون فى أثر الروم وقاتلوهم وغنموا غنيمة عظيمة، فأنفذ إليها الخليفة جيشاً بقيادة مؤنس المظفر وخرج لوداعه ولى العهد والوزير.

* استفحل أمر أبو طاهر القرمطى الذى أوقع هزيمة منكرة بجيش الخليفة وعليه ابن أبى الساج الذى جرح وأخذ أسيراً وسار القرمطى إلى الأنبار ولم يتجاسر أحد أن يتبعه ولولا قطع القنطرة على دجلة لملك القرمطى بغداد دون منازعة.

مخزى، فوجد انسان راهب من أهل سورية فمضى به الى منزله واعطاه مالا والبسه ثيابا وعلمه ان يمشى معه وكانه البطرك، وانه يقترض منه مال ويمضى معه الى الشهود ليشهدو عليه، فلما قرر ذلك مع الراهب مضى به الى الشهود الذين لم يعرفو البطرك فقالو له: نشهد عليك. فقال: نعم. واخذ الحجة وخباها عنده. وكان يطلب يوما يجد فيه وسيلة لاحضار الاب الى الحاكم، فعلم احد المومنين بذلك فمضى واعلم الاب ما قد كان

تم انتقال العرش فى هدوء الى الاميرين باسيليوس الثانى، وشقيقه قسطنطين الثامن، وفي البداية حكم الاميرين معا كامبراطورين شريكين، وساعد على ذلك تباين اهتمامات كل منهما عن الآخر، فبينما كان باسيليوس الثانى محباً للتحرك والعنف، ويهوى المغامرات والمخاطرات، وحياة الحرب، كان أخوه على النقيض منه تماما يكره السلطة، فتركها لاخيه.

ولقد أمضى باسيليوس الثانى السنوات التسع الأولى من الحكم

سنة ٣١٦ هجرية

استهلت السنة بيوم الاثنين ٢٥ فبراير ٩٢٨م.

* فى الثامن من المحرم دخل أبو طاهر القرْمطِي مدينة الرَحَبة بعد حروب ووضع فى أهلها السيف ثم دخل قَرْقِيسياء ثم سِنْجار على اتاوة حتى إنتهى إلى الرَقة وبعد أن أخلاها وصل إليها عسكر الخليفة، وبنى القرمطى فى هذه السنة داراً سماها دار الهجرة وأعلن الدعوة لعبيدالله المهدى الفاطمى.

* استقال الوزير على بن عيسى بسبب اضطراب الأحوال وعجزه عن مواجهة خطر القرامطة.

* أغار ملك الروم منتهزاً اضطراب شئون الدولة على مدينة خِلاط وبَدْلِيس بارمينية فى ثلثمائة ألف فقتل وسبى.

* أظهر كثير من أهل السواد مذهب القرامطة بعد أن كانوا يخفون اعتقادهم غير أن قائدى الخليفة: هرون وصانف قضيا على التمرد وعادا باعلام القرامطة البيضاء منكسة إلى بغداد.

* فى هذه السنة كان إبتداء أمر أبى يزيد الخارجى بالمغرب، كما قام خارجى اخر بسجستان ولكنه هزم وتفرق أتباعه.

لاهيا، يسعى وراء المتعة واشباع الذات، ثم فجأة أدار ظهره للعبث والمجون، وأقبل على التدين والتنسك، حتى قيل عنه، أنه كان يرتدى «قميص الرهبنة تحت السترة الامبراطورية»، ولعل هذا التحول جاء نتيجة لمحاولته تقليد نقفور فوقاس ويوحنا الزمسكى، لأنه اتجه بعد ذلك الى الحرب والقتال من أجل اعادة الهيبه للامبراطورية، ومن ثم قضى أكثر سنوات عمره فى معارك طاحنة وحروب شرسة، ولم يوقفه عن ذلك

من ذلك الانسان، وكانت عادته ان يتحفظ من كلمن يسلك الطريق الردية، فلما سمع ما عمله ذلك الانسان السو عمل عملا بحكمة ليحله بنعمة الله الذى فيه وباسمه الذى لا ينقطع ذكره من فيه ليلا ولا نهارا. وكان بمصر رجلا من المسلمين يعتقد فى البطرك اعتقادا جيدا فاحضره يوما وعرفه ما قد عرف به من فعل الغير شماس وكيف اشهد على الراهب الشامى شهود يقطع بهم الحكم، فقال المسلم: اذا كان هذا الجاهل قد

---

* دخل سبعمائة من الروم والأرمن إلى مَلَطية ومعهم الفؤوس والمعاول وأظهروا أنهم يتكسبون بالعمل وتبين أن مليحا الأرمنى عميل الروم أرسلهم عيوناً إذا ما كبس الروم المدينة فقام عليهم أهلها وفتكوا بهم.

* توفى الداعى العلوى (الحسن بن قاسم) اخر أمراء الدولة العلوية بطبرستان قتل على يد أسْفار بن شيرَوَيه الديْلمى، ثم دارت الدائرة على أسفار فقتل على يد قائده مرداويج بن زيّار فأعلن إستقلاله بالبلاد التى استولى عليها ومنها همذان واصبهان.

سنة ٣١٧ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم السبت ١٤ فبراير ٩٢٩م.

* اتخذ عبدالرحمن الثالث الأموى بالأندلس لقب الخلافة فسمى أمير المؤمنين الناصر لدين الله.

* فى ليلة السبت الخامس عشر من المحرم خلع الخليفة المقتدر العباسى ببغداد بتدبير خاصته من الترك الذين بايعوا أخاه محمداً ابن الخليفة المعتصم ولقبوه القاهر بالله وعلى أثر ذلك شاع السلب والنهب فى المدينة.

فعل هذا ليغلبنا وكيف لم تموت الثقات المعروفين ويسرقهم بشى لا يعرفوه، لكن بنعمة الله نرجو ان يخلصنا واياهم من ضلالة هذا الجاهل. ثم قال له المسلم: ماذا تحب ان تفعل؟ فقال له الاب بفهمه وحكمته النيرة: اريد ان تمضى الى هولا القوم الثقات الذين قد احتال عليهم هذا وتطيب قلوبهم وتحضرهم الى عندى، وانا اجلس مع هولاى الاساقفة الذين معى كاننى واحد منهم، وقول انت لهم «فمن من هولا الذى شهدتهم عليه وفعل

سوى موته وهو فى سن الثامنة والستين.

وفى عام ٩٨٥ حدثت أول مؤامرة ضد العرش المقدونى، فقمعها باسيليوس الثانى بقسوة، ولما عرف أن الرؤس المدبرة لها هم الاقطاعيون فى الاقاليم، الذين كانوا يمولون المؤامرات للاطاحة به، قام بالتخلص من الرؤس المتورطة فى المؤامرة من البلاد، ثم قاده ذلك الى استئصال وتصفية رؤس البيوت الاقطاعية، وتوزيع ثرواتها على الفقراء

---

* تولى وزارة القاهر أبو على بن مُقْلة وتولى نَازُوك التركى الحجابة وشرطة بغداد.

* فى يوم السابع عشر من نفس الشهر بويع المقتدر للمرة الثانية وخلع القاهر بسبب خلاف بين القادة الأتراك.

* أغار أبو طاهر القرمطى على مكة يوم التروية فاعمل السيف فى حجاج البيت وقتل أمير مكة وعَرى الكعبة وقلع بابها واقتلع الحجر الأسود وطرح القتلى فى بئر زمزم ثم عاد إلى هَجَر ومعه الحجر الأسود الذى رد بعد ذلك فى خلافة المطيع.

* وقع خلاف بين أبى منصور تكين أمير مصر ومحمد بن طغج الأخشيد أمير الحوف.

* نشبت فتنة فى بغداد بين الحنابلة وبعض العامة بسبب تفسير آية من القرآن واقتتلوا ووقع بعض الضحايا.

* توفيت فى هذه السنة ثمل القهرمانة من خاصة أم المقتدر وخلفت أموالا كثيرة.

سنة ٣١٨ هجرية

استهلت السنة بيوم الأربعاء ٣ فبراير ٩٣٠م.

* خرج الخليفة الأموى الأندلسى عبدالرحمن الناصر فى قوات كثيرة إلى الشمال حتى

ذلك». وحضرو وقال لهم المسلم كما قال ابونا فقالوا: ما هو واحد من هولا. فقال لابونا عرف الشيوخ ما قد تم عليه من ذلك الشماس الجاهل، فلما سمعو تعجبو وبهتو ثم انهم اقسمو ان لا يشهدو بعد ذلك بعد اليوم. ولم يعلم الشماس بما جرى، وبعد ايام مضى الى القاضى ولم يعلم بان الرب قد ارذل موامرته، واخرج الحجة للقاضى، فامر باحضار الاب فقال له: تعرف ما يقول هذا الانسان؟ فقال له الاب: لا. فقال القاضى: الشهود

والمعدمين، كما أصدر قرارا يحرم فيه على أصحاب الاقطاعات الآخرين زيادة اقطاعاتهم عن طريق اغراء واجبار صغار الملاك على بيع أراضيهم، وقد شمل هذا القرار المدنيين، والاقطاعيين من رجال الدين على حد سواء، وبذلك أوقف باسيليوس الثانى - ولو مؤقتا - تنامى اخطبوط الاقطاع، وثبت الميزان الاجتماعى حفاظا على بقاء الطبقة الوسطى؛ كما تركت عمليات المصادرة ثروة فى يد الدولة، سخرها للانفاق على مشروعاته الحربية.

بلغ طُلَيطلة وحاصرها وكانت تضطرم بالثورة ضده تغزيها دسانس ملك ليون راميرو الثانى بعد أن رفض زعماؤها دعوة الناصر إلى الطاعة.

* كثر الشغب فى بغداد بين طوائف العسكر بعد عزل وعودة المقتدر حتى أن الجند السودان بعد أن إحترقت دورهم نزحوا إلى واسط وامتلكوها حتى أخرجهم منها مؤنس المظفر.

* خلع المقتدر على إبنه هارون واقطعه المشرق من فارس إلى سِجِستان وخلع على إبنه أبى العباس واقطعه المغرب.

سنة ٣١٩ هجرية

وافق مستهل العام يوم الاثنين ٢٤ يناير ٩٣١م.

* تعددت الغارات بين المسلمين والروم فى هذه السنة، ففى ربيع الأول غزا ثمال والى طَرَسوس بلاد الروم وقد بلغت الثلوج صدور الخيل، ثم عاد إليها فى رجب لحرب الصائفة حتى بلغ عمُورية فدخلها بعد أن أخلاها الروم وتوغلت قواته حتى بلغت أنْقرة، وعاد فى رمضان وبلغ قيمة السبى ١٣٦ ألف دينار، ورد الروم بمناصرة الأرمن بالغارة علَى خلاَط وما حولها فى أرمينية وقتلوا خلقاً من المسلمين فخف لنجدتها والى أذْرَبيجان كما أغاروا على سُمَيساط فردهم سعيد الحمدانى.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

الذى يقطع بهم الشرع يشهدو عليك. ثم قال للشماس: احضر شهودك. فمضى مسرعا الى الشهود. فلما نظروه لعنوه وشتموه وقالو له: لم تلبس علينا المحال؟ فخزى خزيا عظيما وعاد الى القاضى قايلا: ما وجدت شهودى. فامره بالحضور بالغداة، فلما كان بالغداة بكر ابونا بالحضور الى القاضى، وانتظر القاضى ذلك المزور المحروم فلم يراه لاجل كذبه، فقال للاب: عود الى منزلك. ولحق الغير شماس فضيحة عظيمة واقام مدة لا يظهر.

توثيق العلاقة مع الدولة الروسية:

يعاصر حكم باسيليوس الثانى حكم فلاديمير، الذى يعتبر بحق مؤسس الدولة الروسية، فقد نجح فلاديمير فى ترويض قبائل السلاف الشرقيين وتلجيمهم، سواء فى وسط روسيا أو جنوبها، وكان فلاديمير يسعى لتحضير هؤلاء الاجلاف، وتأسيس امبراطورية روسية مستنيرة منهم.

وفى أثناء ذلك، قامت حركة التمرد الثانية ضد باسيليوس الثانى عام ٩٨٧م فى منطقة نائية من بلاد

---

* استولى ابن أبى العافية على تلمْسان بالمغرب فبذلك أمتدت أملاكه من المغرب الأوسط إلى السوس.

* جرت وقعة عند همذان بين جيش الخليفة ومرداويج الديلمى الذى تم له الإستيلاء على بلاد الجبل وهمذان وخوزستان والأهواز.

* نزلت القرامطة الكوفة فهرب أهلها إلى بغداد كما فر إليها أهل الديَنَور بعد أن كبسهم الديلم فبلغوا بغداد فى يوم عيد الأضحى وقد سودوا وجوههم ورفعوا المصاحف على رؤوس القصب ومنعوا الخطيب من الخطابة وأعلنوا سب المقتدر وثار معهم عامة بغداد.

* قبض الخليفة على وزيره سليمان بن الحسن وحبسه ١٤ شهراً من وزارته واستوزر عبيدالله الكَلْوذَانى ولم يلبث أن عزله بعد شهرين بحسين بن القاسم.

سنة ٣٢٠ هجرية

وافق الأول من السنة يوم الجمعة ١٣ يناير ٩٣٢م.

* تولى الخلافة العباسية ببغداد محمد بن المعتضد ولقب القاهر بالله وذلك فى ٢٨ شوال من السنة.

ثم بعد ذلك حضر عنده وساله ان يسامحه واعترف بذنبه له، وقبله وقال له: يا ولدى لابد لنا الجميع من الوقوف امام منبر الله العظيم عراة مساكين مكشفين الرووس، فاجتهد يا ولدى فى فعل الخير فى كل وقت ولا تنطق بالكذب ليلا تسمع المكتوب «ان الرب يهلك كلمهن ينطق بالكذب». فبقى الشماس تحت خوف عظيم وهو يضرب المطانوه ويقول اغفر لى.

وفى تلك [الايام] مات الملك ابن المتوكل الذى

البلغار، وكادت أن تنجح لتعاطف بعض قوات الحامية الرومية مع الثوار، ووجد باسيليوس أن الوصول الى هذه المنطقة سوف يستغرق وقتا طويلا تكون الثورة فيه قد استفحلت، فلجأ إلى طلب النجدة من فلاديمير - قيصر الروس - لقمعها لأن موقعها أقرب الى حدود الروسيا؛ وكان فلاديمير سعيدا بهذا التكليف، فهاهي ذى القسطنطينية العظيمة التي ذهب يسعى اليها جاءت تسعى إليه بنفسها ونفيسها. واشترط فلاديمير أن يقوم بهذه المهمة مقابل وعد من

---

* سار الخليفة الأموى عبدالرحمن الناصر من قرطبة قاصداً طليطلة الثائرة للمرة الثانية فاستنجد أهلها بملك ليون راميرو الثاني ولكنه هزم فاضطرت المدينة للتسليم فدخلها الناصر في رجب من السنة وهدم أسوارها للقضاء على أعمال التمرد.

* اشتدت الوحشة بين الخليفة المقتدر ومؤنس المظفر الذى استولى على الموصل فخرج الخليفة إلى قتاله ولكن العسكر كانت قلوبهم مع مؤنس فعزم الخليفة على الهرب إلى واسط وفى هذا الصراع لقى المقتدر مصرعه على يد أحد الجند من البربر.

* عزل الخليفة المقتدر (قبل مقتله) وزيره الحسن بن قاسم واستوزر أبا الفتح ابن الفرات.

* نزل المقتدر (قبل مقتله) لمرْداويج بن زَيّار الدّيْلمى عن حكم أذربيجان وسجستان وما حولها نظير مال يؤديه مؤسساً بذلك الدولة الزيارية عازماً الاستيلاء على بغداد نفسها ليقضى على الدولة العربية وينقل الحكم إلى الفرس.

* اشتدو الغلاء فى بغداد بسبب الفتن الكثيرة حتى نهب الجند دور الوزراء، وصادر القاهر أموال أم المقتدر وجميع حاشية الخليفة المقتول وحل أوقافها وباعها بالرغم من معارضة الفقهاء.

* توفى الخليفة المقتدر العباسى مقتولا (٢٧ شوال) وله من العمر ٣٨ وقد تولى الخلافة وهو ابن ١٣ سنة فكان أصغر من وليها سناً ودامت خلافته ٢٥ سنة خلع خلالها وأعيد.

هو المنتصر قاتل ابيه، ولم يقم ملك غيره ستة شهور، وانتقم الله منه لاجل ما فعل مع ابيه بعد قتله، ولاجل انه ايضا نام مع سرارى ابيه بعد قتله. وان جسمه تخبث قبل موته، وملك بعده المستعين وكان رجلا صالحا خيرا كما شهد عنه. وفعل خيرا فى ايامه فى ارض مصر واعمالها وبلدته والمشرق والشام.

ويجب علينا ان نقول ما حل بهذا الملك فى مملكته، وما فعل الله لابينا البطرك انبا شنوده. لنعود

الامبراطور بتزويجه من شقيقته الجميلة المثقفة آنا Anna وتحت الحاح الحاجة، وافق الامبراطور باسيليوس مبدئيا على طلبه، ولاعتقاده أن وجود أميرة مثقفة مثل آنا على رأس البلاط فى كييف، سوف يساعد على نشر الحضارة والثقافة الرومية والعقيدة الارذوكسية بين الروس؛ وعلى أثر تلقيه ذلك الوعد، انطلق فلاديمير وجنوده كالدببة الضارية، وسحقوا أعداء باسيليوس فى بلغاريا، ا لتى كانوا يعرفونها جيدا بفضل غزواتهم السابقة لها. وعقب هذا النصر تم عقد معاهدة

سنة ٣٢١ هجرية

وافق الأول من المحرم فى هذه السنة يوم الثلاثاء الأول من يناير عام ٩٣٣م

* تولى فى هذه السنة على مصر أربعة من الولاة: أولهم أبو المنصور تكين الذى توفى فى شهر ربيع الأول، ثم إبنه باستخلاف من أبيه، ثم محمد بن طُغج لمدة أثنين وثلاثين يوماً ثم القائد التركى أحمد بن كَيْغَلَغ فى شهر شعبان.

* شغب الجند على الخليفة القاهر ببغداد فلجأ إلى دار مؤنس الخادم الذى انقلب عليه بعيد ذلك فحبسه كما حبس عدداً من الأمراء والقواد وأمر بهم فقتلوا واختفى الوزير ابن مقلة وأحرقت داره واختط القاهر لنفسه سياسة متزمتة دموية وأصبح لقبه الذى نقش على العملة «المنتقم من أعداء دين الله»، وأمر بالتشديد على تحريم الخمور والقبض على القيان والمغنين والمخنثين وكسر آلات اللهو.

* استولى ملك ليون الأسبانى على مدينة وحصن أوسمة المطل على نهر دويرو ورد عبدالرحمن الناصر بالاستعداد لرد الاعتداء.

* توفيت فى هذه السنة السيدة شغب زوجة الخليفة المعتضد وكانت من جواريه وهى أم الخليفة المقتدر وكانت صاحبة الأمر فى الدولة منذ تولى إبنها الصبى الخلافة عام ٢٩٥ هـ وكان دخلها فى السنة ألف ألف دينار وقد لاقت عنتا بعد مقتل إبنها وتولية القاهر.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

الى ما كان المنتصر فعله حتى قتل اباه وجلس عوضه. وكان له اخوين اسم احدهما المعتز والاخر المويد وكان جعفر المتوكل ابوهما قد قرر ان الملك بعده يكون لاولاده الثلثة، فلما جلس محمد بعد ابيه جعفر اخذ اخوته المذكوران اعتقلهما فى موضع ضيق ليقتلهما، ولما لم تطول مدته مات كما قلنا، ولما جلس بعده احمد المستعين اخرج الاخوين من الاعتقال. واخذ المعتز جماعة كانوا التحقوا به وحشد عسكر وخرج ليحارب اخيه

صداقة بين امبراطورية الروم وروسيا، صفيت بمقتضاها كل جوانب الخلاف السابقة بين الدولتين، ونصت على أن ترسل روسيا كل عام ستة آلاف جندى للخدمة فى الجيش الأمبراطورى. وقد أدت سياسة الانفتاح على روسيا الى انتشارالمسيحية الأرثوذوكسية بين القبائل الروسية نتيجة لفتح الأبواب على مصراعيها أمام المبشرين الروم الى كافة أصقاع روسيا. وتكونت كنيسة أرثوذوكسية روسية فى كييف سرعان ما أصبحت أما لكنائس صغرى انتشرت فى كافة أنحاء المدن

---

* توفى من رجال الحكم: مؤنس الخادم الذى لقبه الخليفة بالمظفر توفى فى نحو التسعين وكان صاحب الأمر فى الدولة العباسية زهاء نصف قرن حتى انقلب عليه الخليفة القاهر وقتله، وفيها توفى أمير مصر أبو منصور تكِين (١٦ ربيع أول) وقد تولى أمرتها أربع مرات جملتها نحواً من ١٥ سنة.

سنة ٣٢٢ هجرية

استهلت السنة بيوم الأحد ٢٢ ديسمبر ٩٣٣م.

* استوحش الناس من الخليفة القاهر قسوته فمازالوا به حتى خلعوه فى يوم الاثنين الخامس من جمادى الأول وسملوا عينيه حتى لا يصلح للخلافة فكان أول خليفة سملت عيناه فكانت مدة خلافته سنة وستة أشهر وستة أيام.

* بويع بالخلافة أحمد ابن الخليفة المقتدر فى اليوم الثانى لخلع القاهر وعرف باسم أبى العباس الراضى بالله أحمد بن المقتدر، أمه أم ولد إسمها ظَلُوم وله من العمر فى هذا التاريخ ٢٥ عاماً.

* فى النصف من جمادى الأول (مايو) خرج الخليفة الأموى عبدالرحمن الناصر من

المستعين احمد الرجل الجيد الذى اطلقه من الاعتقال ومعه اخوه لينزعه من الملك ويجلس عوضا منه، وضيق المعتز على المستعين جدا، فخرج من مدينة الملك الذى تسمى سر من راى وخلف زوجته وماله واولاده فى دار المملكة وهرب الى مدينة الملك اولا بغداد، واستولى المعتز على دار الملك وجميع ما فيها، واخذ الاموال وانفق فى العساكر الذين معه. واما ذلك المستعين الذى هرب فكانت بطاعته مواضعا كثيرة، فلم يزالو الاخوين

الروسية الهامة مثل نوفوجورد Novo-gord ، وبشكوف، وتفر Tver، وسوزدال Suzdal، وفلاديمير، وموسكو. وسرعان ماحملت هذه الكنيسة رسالة نشر المسيحية الى سيبيريا والاسكا. وكان لذلك أثره فى تأزم العلاقة بين كنيسة القسطنطينية وكنيسة روما . وبالرغم من أن «آنا» رفضت أن تقترن بالتسار فلاديمير حسب وعد أخيها، مما أدى الى أن فلاديمير قلب ظهر المجن للقسطنطينية بالاغارة على حدودها فى كريميا Cri-mea ، لكن هذه الحادثة لم تغير من

قرطبة قاصداً الامارات الأسبانية فى الشمال فأقتحم مملكة نافار فطلبت ملكتها تيودورا المصالحة والتعهد بالطاعة وعدم الدخول فى أحلاف ضد المسلمين فأمنها، ثم أغار على أراضى إلبة ففر أهلها إلى الجبال وتم استلاؤه على حصون مملكة ليون بما فيها حصن أوسمة الذى استولى عليه ملكها فى العام الفائت وانتهى عبدالرحمن إلى بُرْغُش قاعدة مملكة قشتالة وخربها.

* ثار العسكر مطالبين بارزاقهم وأحرقوا دار الماذَرائى صاحب الخراج وكادت تتحول الفتنة إلى حرب أهلية.

* ظهر نجم عماد الدولة على بن بُوَية جد البُوَيهيين منذ هذه السنة وكان فى الأصل من عمال مَرْدَاويج الدَّيلمى فاستولى ابن بويه على فارس بينما أستولى مرداويج على الأهواز مما يدل على ضعف الخلافة كذلك دخل الروم فى نفس السنة مَلَطية وسُمَيْساط وخربوهما.

* خرج اسطول الخليفة الأموى الأندلسى وقوامه ٤٠ سفينة بقيادة عبدالملك ابن أبى حَمَامة من ثغر المَرية وسار إلى جزر البليار الإسلامية ومنها إلى ميناء بالش وهاجمها كما هاجم موانى اينش ومسنيط وأخرب ما بهما من السفن ثم حاصر برشلونة وقتل قائده فى الحصار حاكمها وانتهى إلى طَرْطُوشة عند مصب نهر إبرو قبل عودته إلى المرية.

* توفى فى هذه السنة بمدينة المهدية عُبيد الله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية بشمال

يتحاربو ثلثة سنين الى هذه السنة التى كتبنا فيها هذه السيرة وهى سنة اثنين وثمانين وخمسماية للشهدا الاطهار، الموافق لملك الاسلام سنة اثنين وخمسين ومايتى للهجرة.

ولما جرى بين المعتز والمستعين انقطعت الطرق ولم يقدر احد يحمل شى من الخراج من ملك مصر، ليكون كلما استخرجه ابن المدبر محتاط عليه بفسطاط مصر ينتظر من يصح له الملك

الموقف شيئا، ولم توقف المد الحضارى الرومى الارثوذوكسى الى اصقاع روسيا. فقد أخذت روسيا تبنى حضارتها على النمط الرومى فكرا وروحا، وتقلد مظاهر حضارتها فى الفنون والعمارة. وبعد موت فلاديمير، تولى ابنه ياروسلاف، الذى اقتفى أثر سياسة أبية، حتى أصبحت الروسيا تتمتع بمكانة مرموقة، ومركز حضارى تفوق على سائر ماعداها من الدول السلافية فى شرق أوروبا. وكان هذا أكبر انتصار حققه باسيليوس الثانى فى المجال السلمى.

أفريقية (منتصف ربيع أول) عن ٦٣ عاماً بعد حكم دام ٢٤ سنة وخلفه إبنه الذى أخفى موت أبيه سنة كاملة وهو أبو القاسم محمد باسم القائم بأمر الله.

سنة ٣٢٣ هجرية

وافق الأول من السنة يوم الخميس ١١ ديسمبر ٩٣٤م.

* التمس راميرو الثانى ملك ليون الأسبانى الصلح من عبدالرحمن الناصر صاحب الأندلس بعد غارات العام الذى سلف فأجابه عبدالرحمن وكان سفيره إلى ليون الوزير يحيى بن اسحق.

* لم يحج أحد من العراق فى هذه السنة بسبب إعتراض أبى طاهر القرْمِطى لقوافل الحجاج وقطعه الطريق.

* شهدت هذه السنة حملات بحرية ناجحة، فيها خرج أسطول عبدالرحمن من المَرية للعام الثانى بقيادة بن أبى حَمَامة وقصد شواطىء المغرب للقضاء على الثائرين على حكم الناصر، وفيها أغار أسطول الخليفة الفاطمى القائم بأمر الله وعدته ثلاثون سفينة على بلاد إيطاليا وفتح مدينة جنوة الشهيرة وواقع جزيرة سردينية وعاد إلى المهدية محملا بالغنائم.

٥٥ : شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

فيسلمه اليه، ولاجل ذلك تعطلت جميع التجار من طرق مصر والمشرق وافتقر الناس بمصر لانقطاع السبيل وثقل الخراج. ولم يلتفت ذلك الرجل السو الذى هو ابن المدبر الى حروب الملكين ولا ما على الصقع من الخوف بل كان يضمر للناس البلايا ويحصل الاموال. وكان معتقد انه يحمله الى من يملك ويتقدم به عنده فتواف الرب وبدد الحروب، ووصل الى ارض مصر اول يوم من برموده بان المعتز قد غلب وهزم المستعين، فخطب

باسيليوس الثانى والمسألة البغارية:

لقد سبق وأن عرفنا أن بلغاريا أصبحت مملكة تدور فى فلك القسطنطينية منذ أن طرد يوحنا الزمسكى الروس منها. غير أنه بعد موت يوحنا الزمسكى تولى ملك بلغارى ملك طموح اسمه بريليب Prilep (والمعروف أحيانا باسم صمويل Samuel)، حاول احياء القوة البلغارية، والاستقلال بلاده عن القسطنطينية؛ واستغل بريليب انشغال باسيليوس الثانى عام ٩٧٧ فى القضاء على المؤامرات الداخلية التى

---

* غلت الأسعار فى بغداد حتى بيع كُرَ القمح (٤٠ أردبا) بمائة وعشرين دينارا والشعير بتسعين فأقام الناس أياماً لا يأكلون سوى الذرة والدخن والعدس.

* وقع القتال عند تِنِّيس بمصر بين ابن كَيْغَلَغ أمير مصر المعزول ومحمد ابن طُغْج أميرها الجديد وخرج أتباع ابن كيغلغ إلى برقة بعد هزيمتهم وصاروا إلى القائم الفاطمى بتونس وحرضوه على أخذ مصر وهونوا عليه أمرها.

* عظمت حركة الحنابلة فى بغداد تولوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وصاروا يكبسون دور الخاصة والعامة ويكسرون دنان النبيذ وآلات الغناء ويعترضون على البيع والشراء إذا خالف الشريعة ثم أوقفوا عند حدهم.

* أمر الوزير ابن مُقْلة بضرب عالم القراءات بن شَنَّبوذ لانه يبدل فى حروف القرآن.

* قتل فى هذه السنة مَرْدَاويج بن زيّار الديلمى المؤسس الأول للدولة الزيّارية قتله بعض الترك فى الحمام بالأهواز واجتمع الديلم على تولية أخيه وَشْمكير.

سنة ٣٢٤ هجرية

استهلت السنة بيوم الأثنين الموافق ٣٠ نوفمبر ٩٣٥م.

* عزل الخليفة العباسى الراضى وزيره ابن مُقْلة وقبض عليه وأحرقت داره للمرة الثالثة

له بمصر، وكان فرح من جميع القبايل من اجل ما كان من الخوف على البلاد، لان العرب بارض مصر كانت قد افسدت، وهم القوم الذى مساكنهم فى الجبل والبرارى، وافسدو فى الصعيد ونهبو وقتلو. ومن جملة ما نهبو دير ابو شنوده ودير القلمون بالفيوم ودير انبا بخوم الذى من اعمال طحا عند ناحية تعرف ببير حواس، واحرقو الحصون ونهبو الاعمال وقتلو جماعة من الرهبان القديسين الذين فيهم، وافسدو جماعة من

هددت العرش المقدوني، واستطاع بقواته أن ينتزع اقليم تساليا واقليم مقدونيا من قبضة الروم ما بين أعوام ٩٧٦ ـ ٩٨٦م، وتقدم جنوبا نحو وسط بلاد اليونان، وبذلك نجح بريليب فى خلال عشر سنوات فقط أن يمد رقعة بلغاريا الى أقصى توسع عرفته منذ انشائها. ولم يكد باسيليوس الثانى يفرغ من مشاكله الداخلية، حتى أسرع لردع البلغار؛ فشن فى عام ٩٨٦ الحرب عليهم، مستخدما كل وسائل الفتك والعنف والدمار؛ حتى أجلاهم عن البلقان؛ ثم

وخلفه عبدالرحمن بن عيسى الذى لم يلبث أن قبض عليه الخليفة فاستوزر أبا جعفر الكرخى الذى أبدى عجزاً كذلك فخلعه بسليمان بن الحسن كل ذلك فى عام واحد.

* أستحدث منصب أمير الأمراء وتولاه محمد بن رائق الذى جمع سلطات الدولة فى يده بعد عجز الوزراء وانحطاط سلطة الخليفة.

* أغار الامبراطور البيزنطى على سُمَيْساط فسار إليه سيف الدولة الحَمْدانى ولكن الروم غلبت عليه، بينما شن عرب بنى نُمَيْر الغارات على ديار بكر ومضر وقطعوا الطرق، كما سار معز الدولة على بن بويه على كِرْمان وأستولى عليها كل ذلك بسبب ضعف الحكومة المركزية.

* أعلن صاحب سَرَقُسطة التُجيبى بالأندلس إعترافه بسيادة ملك ليون كما دخل فى حلف مع مملكة نافار ومع البَشْكَنس فى وجه الخليفة عبدالرحمن الناصر ولكن قائده أحمد بن إلياس هزم القوات المتحالفة فغرق كثير منها فى نهر إبرو وصدت حامية قلعة مجريط (مدريد) محاولة ملك ليون للاستيلاء عليها.

* أضاف الخليفة الراضى حكم الشام إلى محمد بن طُغْج.

سنة ٣٢٥ هجرية

استهلت السنة بيوم السبت ١٩ نوفمبر ٩٣٦م.

* فى الأول من المحرم إنحدر الخليفة الراضى من بغداد إلى واسط ومعه أمير الأمراء ابن

الرهبانات العذارى وقتلو منهم بالسيف، وفعلو بارض مصر افعال ان ذكرنا اليسير منها طال الشرح وبعد على القارى فهمه.

وكان قبل وصول هذا الانسان الذى تقدم ذكره، الذى ثبت الظلم والخراج على الديارات والبيع، اتصل خبره بالارخنين ابرهيم وسويرس المذكورين، فعولو على المضى الى مدينة الملك. فلما علم الاب انبا شنوده بذلك قال لهما بتذكرة

حاصر مدينة تربادستا (صوفيا الحالية)، الا أن ملك البلغار ألحق بجيش الروم المحاصر خسائر فادحة عند بوابات تراجان بالقرب من المدينة، بل أن باسيليوس الثاني نفسه نجا من الموت بأعجوبة. ولقد استمرت الحرب الطاحنة بين باسيليوس الثاني وبريليب عشر سنوات، نجح خلالها الملك بريليب في أول الأمر في الاستيلاء على ميناء دورازو Durazzo، كما انقض على بلاد الصرب، وحاول الوصول الى موانئ بحر ايجة، وحاصر

رائق وقضى على ثورة الجند الحجرية والساجية وسار إلى الأهواز لإجلاء البَرِيدى عنها دون نتيجة.

* بدأ فى هذه السنة الخليفة الأموى الأندلسى عبدالرحمن الناصر بناء مدينة الزهراء على مرتفعات جبل العروس (سييرا مورينا) وعلى بعد ثلاثة أميال من قرطبة واستمر البناء والتعمير أربعين سنة.

* بعث الخليفة الفاطمى القائم مدداً جديداً إلى أمير صقلية سالم بن راشد لإخماد ثورة أهل جرجنت.

* دخل أبو طاهر القرمطى الكوفة وعجز أمير الأمراء ابن رائق عن رده ولم يحج أحد من العراق فى هذه السنة خوفاً من القرامطة، وتولى الوزارة أبو الفتح وابن الفرات.

* فى منتصف رجب خرج عبدالرحمن الناصر إلى شمال الأندلس لحرب المتحالفين عليه من ملوك الأسبان ومعهم بعض الخارجين عليه من التُجيبين أصحاب سَرَقُسطة فاستولى منهم على قلعة أيوب (١٢ رمضان) وكانت تحميها فرقة من الفرسان الأسبان ثم دخل بلاد البَشْكَنس وخربها حتى أعلنت ملكتها الطاعة ثم سار إلى تَطِيلة وسَرَقُسطة حتى طلب صاحبها الأمان وخاض وعاث ونهب فى أرض ليون.

كتبها لهما يقول فيها: انا اسال السيد المسيح ان يكتب السلامة لكما ويحفظكما ويعينكما على بلوغ ارادتكما، واذا تفضل الله بوصول ولدى المحبين لله وبلغتما اغراضكما فيكون سوالكما فى بيع مصر الذى اخربو فى هذا الحين. وانا ارجو ان يعمرو فى ايامى وانظرهم قبل ان يقبض روحى، وهذه هى شهوتى على الرب يسوع المسيح. وكان هذا الارخن المبارك ابرهيم احدهما قد جعل هذا فى نفسه وكان مهتم به، فلما وصل الى مدينة

مدينة سالونيك، ووصل فى تقدمه حتى كورنثا فى جنوب غرب اليونان.

وكان هذا آخر ما وصل اليه بريليب البلغارى فى توسعه، بعدها بدأ باسيليوس الثانى يقتفى أثره، مصمما على الانتقام لشرف بلاده وتأديب البلغار، وانتظر بقواته المتربصة عودة البلغار من كورنثا، وقطع عليهم الطريق، وألحق بالجيش البلغارى المرهق من المعارك هزيمة ساحقة؛ وانسحب البلغار على أثرها من دورازو عام ١٠٠١م، وتتبعهم باسيليوس حتى أجلاهم عن مقدونيا عام

---

* ممن توفى*قاضى مصر أبو يعقوب إسحاق الشاشى مؤلف أصول الفقه وهو متداول.

* ممن توفى من رجال الحكم: الإمام الزيدى اليمنى الناصر العلوى الذى قاتل القرامطة وظفر بهم، والأمير عدنان بن أحمد بن طولون، وحول هذا التاريخ توفى الثائر الأندلسى هابل ابن حريز.

سنة ٣٢٦ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأربعاء ٨ نوفمبر ٩٣٧م.

* جرت معركة بين الروم وناصر الدولة الحَمْدانى وفيها أستولى الحمدانى على سرير الامبراطور وصليبه.

* وردت رسالة من الروم باسم رومانس وقسطنطين واسطفانس إلى الخليفة معنونة باسم الشريف البهى ضابط سلطان المسلمين وكانت الكتابة اليونانية بالذهب والترجمة العربية بالفضة ورد عليها الراضى بمثلها ووافق على طلب الهدنة.

* منح عبدالرحمن الناصر خليفة الأندلس الأمان لمحمد بن هاشم التُجِيبى صاحب سَرَقُسطة بعد أن ضرب الحصار حولها عدة أشهر.

الملك جعل الخبر عند قوم مومنين [نصارى] من خدام الملك ففرحو بذلك وتقدمو الى المعتز الذى كان متوليا تلك الايام، وسالوه فى امر البيع وشرحو له ما فعله ابن المدبر وما جرى منه، فاجاب سوالهم وكتب لهم سجل بان يبنو البيع فى كل ارض مصر. وثبتا السجل وقالا نلتمس خطه وعلامة بذلك، فمات وملك بعده اخيه المستعين فكتب ابرهيم الارخن رقعة يعرفه فيها الحال عن السجل الذى كان اخوه كتبه وانه لم

١٠٧٧م؛ ولم يبق بذلك للبلغار سوى بلادهم الأصلية القديمة وسط البلقان، غير أن ذلك لم يفت فى عضد بريليب، وظل يتصدى لقوات الروم حتى عام ١٠١٤م حيث تمكن باسيليوس فى ذلك العام من تطويق معظم الجيش البلغارى فى وادى نهر ستروموِن Strimon بالبلقان، وبالرغم من أن فرصة البلغار من الفكاك من الحصار كانت ضئيلة للغاية، غير أنهم قاتلوا قتال الأبطال، وما أن أرخى الليل سدوله، حتى كانت جثث الآلاف من قتلاهم مبعثرة فى الوادى،

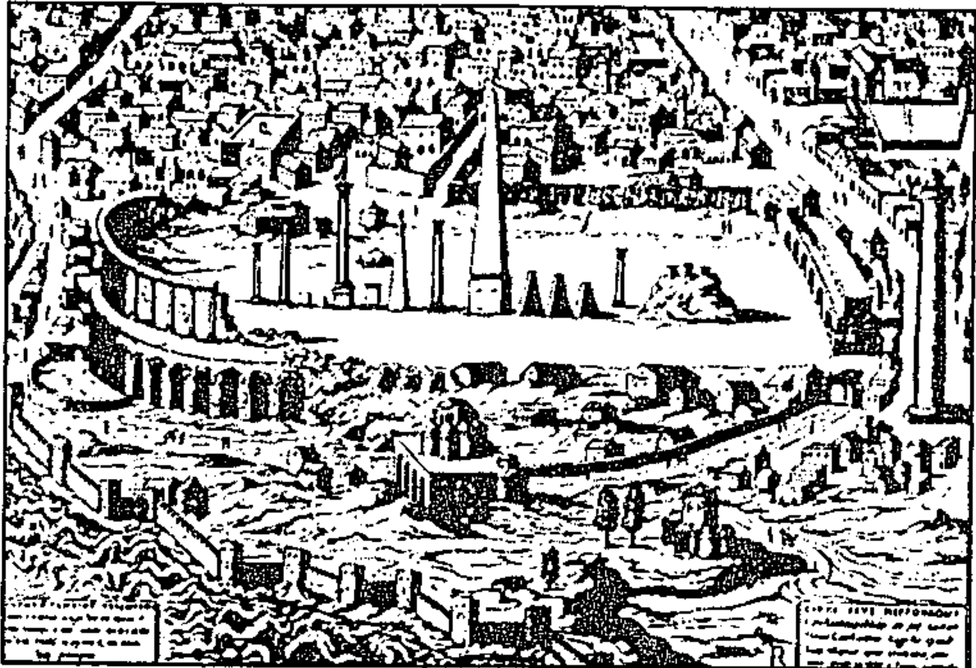

لوحة مطبوعة بطريقة الحفر من القرن ١٥ تبين أطلال مضمار السباق البيزنطى فى القسطنطينية وبه بعض الآثار المصرية.

يبق فيه الا العلامة فامر ان يكشف من الديوان ويخرج منه، فكشف واحضر اليه فوقف عليه وامر بتمامه وان يستقر بايدى الذمة بارض كورة المصريين. واكد فيه غاية التاكيد على من تجاوزه ان يحل به نقمة الملك. وامر لهم بان يعاد اليهم جميع ما كان اغتصب للبيع والديارات من الانية وغيرها والارضين والرباع والاواسى وغير ذلك مما كان بايدى النصارى وكانو فيه متصرفين. فلما وصل هذا السجل الى ارض مصر فرح بذلك

ووقع فى الأسر منهم أربعة عشر ألفا، ولكى يلقن باسيليوس الثانى البلغار درسا لا ينسوه، أمر بتقسيم الأسرى أمامه، أمر بفقئ عيونهم جميعا فيما عدا قادة المجاميع، ثم أمرهم على الفور بالعودة الى ملكهم بربليب، وعندما مثلوا بين يديه كان منظرهم مروعا، حتى أن الملك البلغارى انتابته نوبة اغماء، ومات من الحزن فى خريف نفس العام (١٠١٤). ومن ثم استحق باسيليوس الثانى لقب سفاح البلغار Bulgaroctonos ذلك اللقب الذى سبق منحه لقسطنطين الخامس الأيسورى.

---

* استولى معز الدولة البويهى على الأهواز واستولى اليَشْكُرى نائب وَشْمَكِير على أذربيجان.

* وقع الخلاف فى هذه السنة لأول مرة بين زعماء القرامطة.

* فى ذى القعدة من السنة جرى الفداء بين الروم والمسلمين على نهر البدندون (بالأنضول) وكان ممثل الخليفة ابن ورقاء الشيبانى وعدد من فودى من المسلمين ٦٣٠٠ من ذكور وأناث.

سنة ٣٢٧ هجرية

استهلت السنة بيوم الاثنين ٢٩ أكتوبر ٩٣٨م.

* أمر الخليفة الراضى أن يزاد فى ألقاب محمد بن طُغْج أمير مصر لقب الإخشيد فدعى له بذلك على منابر مصر.

* فى صيف هذه السنة جرت معركة الخندق بالأندلس بين عبدالرحمن الناصر وقوات الأسبان المتحالفة على رأسها روميرو ملك ليون وملكة نافار وبعد أن عبر عبدالرحمن نهر التاجة ثم نهر وبرو حاصر سَمُورة عاصمة ليون وبعد أن أوقع الهزيمة بالأسبان ارتد بين سورى

الاب انبا شنوده وجميع الاساقفة والشعب المحب لله، وظهرت الرهبان الذين كانو سلمو من السيف وعمرو بيعهم ودياراتهم، وكذلك الشام اهتمو فى عمارة ما فسد من بيعهم. وكان هذا الاب يشكر الله ويمجده ويقول الشكر لله الذى تمم شهوتى وانقذ ميراثيه وجدد وجه الارض. وبنا الاب خيمة داوود التى سقطت كما قال الرب: «والذى وها منها انا اقيمه وابنيه وليطلب الرب بقية الناس وجميع الامم ينادو باسمه عليهم». وبهذا العزى

وبالرغم من ذلك ظل البلغار يقاتلون لمدة أربعة سنوات أخرى، اذ خلف بربليب على العرش ابنه جبريل، ولم يكن ندا لباسيليوس الثانى، فاستمر يتراجع أمام قوات الروم حتى سقطت المدن البلغارية الهامة واحدة تلو الأخرى، اذ سقطت العاصمة برسلاف عام ١٠١٨، وكان أخرها مدينة أو خريدا Ochrida عاصمة بلغاريا البلقانية، وآخر قلاعها المحصنة، وذلك فى أواخر عام ١٠١٨م معلنا نهاية المملكة البلغارية، وضمها كلها للأمبراطورية. بعد هذا

المدينة فتكاثروا عليه فكانت أول هزيمة حاسمة لعبدالرحمن فى حروبه مع الأسبان (١١ شوال)، وفيها أخذ أمير سرقسطة محمد بن هاشم التجيبى أسيراً حتى فودى بمال كثير.

* خرج الخليفة الراضى لحرب ناصر الدولة الحمدانى وبصحبته أمير الأمراء بجكم وبعد مناوشات إنهزم الحَمْدانى فطارده بجكم إلى نصيبين فلجأ الحمدانى إلى أور ثم اصطلحا وصاهر بَجْكم ناصر الدولة.

* اذن أبو طاهر القرمطى بفتح طريق الحجاج على أن يأخذ عن كل جمل خمسة دنانير فكانت أول سنة أخذ فيها المكس من الحجاج.

* نزلت جماعة مسلحة من النورمان ناحية من جزيرة صقلية وعملوا على تحصينها وجعلوا منها منطلقاً لأعمال القرصنة فى البحر بينما كانت الفتنة ناشبة بين أهل صقلية وأميرها خليل بن إسحق.

* ولد فى هذه السنة الشاعر ابن نُباتة المصرى ديوان شعره مطبوع متداول.

* استشهد القاضى جحّاف بن يمن قاضى بلنسيه فى أحد مواقع الحرب مع الأسبان وهو جد القاضى ابن جَحّاف الذى استشهد بدوره حرقاً بعد قرن ونصف من هذا التاريخ.

نهض الاب انبا شنوده الى المتولى بارض مصر وساله ان يتمم امر الملك، فكتب له الى جميع البلاد ببنا جميع البيع فى كل المواضع حسب ما ورد به امر الملك؛ المستعين بالله، واخذ ابونا الكتب وسلمها الى قوم من جهته الى ساير الاعمال الريفين والصعيدين، وكتب هو ايضا الى الاساقفة وعزاهم فى كتبه بتعزية حسنة مملوة حكمة من كتب البيعة. فلما وصلت الكتب الى الولاه مكنو المومنين من عمارة البيع فى كل موضع الى مدينة

النصر الكاسح المرهق، عاد باسيليوس الى القسطنطينية ليستقبل استقبال الفاتحين، ودخلها يعلو هامته النصر، ويسير فى ركابه كافة أفراد الأسرة المالكة البلغارية رجالا ونساء. حقا لقد انهكت الحروب البلغارية قوى امبراطورية الروم ومواردها، لكنها جعلت حدودها تصل الى أقصى اتساع لها ؛ صحيح أنه اتساع أقل بكثير مما كانت عليه أيام جستنيان، لكنه كان الى حد ما أكبر مما حققه خلفاء جستنين جميعا، فقد أصبحت تمتد من بلجراد حتى الدانوب،

سنة ٣٢٨ هجرية

أهل شهر المحرم يوم الجمعة الموافق ١٨ أكتوبر ٩٣٩م.

* مازالت الثورة فى صقلية ناشبة بين أميرها خليل بن إسحق وأهل جرجنت وقد طال حصارها أكثر من ثلاث سنين.

* خرج ابن رائق عن الطاعة وقصد الشام واستولى على حِمْص وعلى غيرها من المدن حتى بلغ العريش فأنفذ إليه الخليفة واليه على مصر محمد بن الأخشيد ولكنه أنهزم.

* أوقع سيف الدولة الحمدانى الهزيمة بجيش الروم وكان على رأسه الامبراطور (الدُّمُسْتُق كما تسميه المصادر العربية).

* توفى فى هذه السنة من الوزراء: الوزير الأديب أبو على أحمد بن على ابن مُقْلة بعد أن عاش عامين فى السجن مقطوع اليد واللسان وكان قد تولى الوزارة ثلاث مرات وأشتهر بجودة الخط (توفى فى ١١ شوال).

* توفى بالاسكندرية الطبيب النصرانى سعيد بن البطريق مؤلف نظم الجوهر ويعرف بتاريخ ابن البطريق وذلك عن ٦٥ عاماً.

اسوان والى مدينة الفرما. فيالذلك الفرح فى ذلك الوقت المبارك الذى كان بارض مصر من الرجال والنسا والاطفال كما هو مكتوب فى الابركسيس: «ان البيعة التى فى جميع اليهودية وارض الجليل والسامرة لهم السلامة وهم يسلكو بخوف الله». وكانو يكثرو بتاييد الروح القدس، فمن لا يتعجب الان ويمجد الله ويعترف بهذه النعمة كما قال الرب المسيح فى انجيله المقدس: «من اعترف بى قدام الناس انا اعترف به قدام ملايكة السما».

وأصبحت تجاور حدود المجر. أم البلقان فقد كان جائزة النصر التى استحقها الروم بجدارة، فقد أصبح أغلبها اما فى أيديهم، أو يدين لهم بالولاء.

الحروب الشرقية:

ورغم انشغاله فى حروب البلغار، لم ينس باسيليوس الجبهة الشرقية، خاصة أن الدويلات العربية فى الشام كانت ضعيفة ومفككة، غير أن قيام الدولة الفاطمية فى مصر غير مجرد الأحداث، فالدولة الفاطمية كانت دولة عقائدية، تعتبر الحرب جهادا مفروضا عليه، وكانت دولة فتية،

سنة ٣٢٩ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الثلاثاء ٦ أكتوبر ٩٤٠م.

* تولى الخلافة العباسية ببغداد الخليفة إبراهيم المتقى بالله بن المعتمد بن الموفق بويع يوم ٢٠ ربيع أول بعد خمسة أيام من وفاة الخليفة الراضى أمه أم ولد إسمها خَلُوب وهو الحادى عشر من الخلفاء العباسين ولم يزل خليفة حتى خلع بعد نحو خمس سنوات.

* تولى إمرة الأمراء ببغداد فى هذه السنة أربعة دليلا على إضطراب أحوال الدولة وضعف الخلافة وهم: أبو الخير بَجْكَم توفى اغتيالا، أبو عبدالله البَريدى الذى أستولى على بغداد ودامت إمارته ٢٤ يوماً، ثم القائد الديلمى كُورتَكِين ومدته شهران ثم ابن رائق للمرة الثانية (٢١ الحجة).

* تولى وزارة المتقى ابنُ ميمون خلفاً لابن مُخَلّد ثم أبو إسحق القراريطى، تولى لأول مرة حجابة الحجاب بدر الخَرْشَنى.

* أغار الروم على كفر توثا بالقرب من رأس العين فقتلوا وسلبوا منتهزين اضطراب الأحوال فى بغداد.

* ولد فى هذه السنة المؤرخ المصرى أبو منصور الفَرْغَانى (أحمد ابن عبدالله) مؤلف سِيرة كافور الأخشيدى.

واذكر ان كان فى ايام ابينا انبا شنوده جماعة من الناس يقولو ان الفصح فى السنة التى صلب فيها المخلص يسوع المسيح كان فى اليوم السادس عشر من برموده، وكان الاب انبا شنوده مهتم بهذا الامر الى ان اظهر لهم الصواب وحققه عندهم، وهو ان القيامة المقدسة كانت فى سنة خمسة الف وخمسماية اربعة وثلثين للعالم، وان الصلبوت كان في يوم الجمعة السابع والعشرين يوما خلت من برمهات. وهذا اليوم الذى خرج فيه ادم من

أخذت تطالب بحق مصر فى الشام، وبدأت تفرض سيطرتها على كثير من أجزائه؛ ولقد حاول باسيليوس أن يقتفى اثر سابقية نقفور ويوحنا الزمسكى، فهاجم الشام عام ٩٩٥م، واستولى على حمص وحلب وصيدا، ثم عاود الهجوم مرة أخرى على الشام عام ٩٩٩م، حيث تقدمت جيوشه نحو طرابلس، وانتهت المعارك بينه وبين القاطميين بتوقيع معاهدة بينه و بين الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله عام ١٠٠١، استطاع بمقتضاها أن يحافظ على المكاسب التى حققها

---

* شهدت السنة (منتصف ربيع الأول) وفاة الخليفة العباسى الراضى بالله عن واحد وثلاثين عاماً وشهور كانت مدته ست سنين وعشرة أشهر وأيام، يذكر عنه أنه آخر خليفة له شعر مدون وآخر خليفة خطب يوم الجمعة.

* توفى ببغداد الطبيب السريانى الأصل بَخْتَيْشوع بن يوحنا ثالث من عرف بهذا الاسم وكان من خاصة الخليفة المقتدر.

سنة ٣٣٠ هجرية

استهلت السنة بيوم الأحد ٢٦ سبتمبر ٩٤١م.

* استولى أبو الحسين البَريدى على بغداد فى جيش من الترك والديلم وهرب الخليفة إلى الموصل وبرفقته ولى عهده وأمير الأمراء ابن رائق (٢١ جمادى الآخرة) ودخل أصحاب البريدى قصر الخليفة فقتلوا ونهبوا ولكن لم يتعرضوا للقاهر الخليفة المعزول المسحول العينين، غير أن الخلاف لم يلبث أن دب بين البريدى والترك.

* خف ناصر الدولة الحمدانى إلى نُصْرة الخليفة المتقى الذى عاد إلى بغداد بعد أن هرب منها البريدى.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

الفردوس. والقيامة فى اليوم التاسع والعشرين من برمهات يوم الاحد، وصح ذلك فى عقولهم. وانا الحقير المسكين كاتب هذه السيرة كنت اقول: من لعله يكتب سيرة هذا الاب. لكثرة اماناتى فيه، حتى ظهر لى فى منامى الرب المسيح وارسل الى الشيخ القديس امونه الذى كنت بدات بذكره وقال لى: يا ولدى يوحنا اما تذكر ما قلته لك وانا معك فى الدنيا وانت عندى تتعلم الكتابة، ان ليس احد يكتب السيرة الثامنة عشر الى ان ياتى الذى

كل من ليكابينوس، ونقفور ويوحنا الزمسكى فيم يختص بالشام وأسيا الصغرى. ولم تحدث أى مصادمت بينه وبين الدولة الفاطمية منذ توقيع هذه المعاهدة وحتى وفاته.

فرض الروم لهيمنتهم على أرمينيا:

وكما اهتم باسيليوس بآسيا الصغرى وحماها من خطر غارات السلاجقة الأتراك، الذين بدأوا يظهرون على مسرح الأحداث، فقد رأى أن يؤمن أرمينيا. ولم تجد قواته أى صعوبة فى اجتياحها، نظرا لترحيب الأرمن بقوات الروم ورغبتهم في أن

---

* إشتد الغلاء فى بغداد بسبب الجفاف والفتن حتى بيع كُرّ القمح بما يساوى ٢١٠ ديناراً وقيل أن بعض الجياع أكلت الجيف.

* ظهر فى المحرم مُذنب هائل أوله فى برج القوسى وآخرة فى برج العقرب وبقى ظاهراً ثلاثة عشر يوماً ثم إضمحل.

* تبادل الروم والمسلمون الغارات فوصل الروم إلى قريب حلب وخربوا ونهبوا وسبوا، ودخل الثملى أمير الثغور أرض الروم من طَرَسُوس فقتل وسبى وغنم وعاد سالماً.

سنة ٣٣١ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الخميس ١٥ سبتمبر ٩٤٢م.

* تزوج ابن الخليفة المتقى وولى عهده أبو منصور إسحق من إبنة ناصر الدولة الحمدانى وكان الصداق منتى ألف دينار ولم يلبث الحمدانى أن إنقلب على الخليفة وصادر ضياعه ودواوينه فكرهه الناس ونُهبت داره بعد هربه إلى الموصل وجاء على أثره سيف الدولة.

* تولى توزون التركى إمارة الأمراء ولقب بابى الوفا المظفر، وتولى تعين واقالة الوزراء منهم أبو العباس الكاتب الأصبهانى.

اول اسمه ثمنية عشر، وتتم امور عجيبة عظيمة، وانت تكون الكاتب لجميع خطابه هذا الذى اول اسميه ثمانية عشر الذى هو ابونا سانوتيوس. فبهت ولم اعلم تفسيرى ما قاله فقال لى: اذا ما حسبت من واحد الى ماية التى هى من Á الى P´ وجدته سبعة عشر حرف والثامن عشر حرف C´ التى هى اول اسم هذا الاب شنوده. قال لى هذا وغاب عنى ولم اشاهده بعدها، وظهر ما كان فى تلك الليلة، ليعلم كل احد منزلة الابا البطاركة

يكونوان طواعية تابعين لهم. وكان ذلك فى عامى ١٠٢١ ـ ١٠٢٢، كما كان يهدف من ذلك أيضا أن يجعل من ارمينيا حاجزا تتكسر على صخورها الصلبة غارات المسلمين القادمة عبر الحدود الايرانية، ولكن الشئ الذى لم يجد له المؤرخون تفسيرا، تدمير باسيليوس الثانى للقوات الأرمينية، مع أن هذه القوات كان يمكن أن تقوم بالدفاع عن حدود الامبراطورية مع المسلمين، كما أنه لم يضم أرمينيا كلها الى حوزة القسطنطينية، ولم يقم بتحصينها

---

* أخذ الاخشيد أمير مصر البيعة لابنه أنوجور على المصريين وعلى جميع القواد والجند.

* أغار الروم على نصيبين فقتلوا وسبوا ثم أطلقوا السبى فى مقابل منديل فى أحد الأديرة زعموا أن المسيح مسح وجهه به فارتسمت صورته عليه.

* هاجر كثير من أهل بغداد إلى الشام ومصر هرباً من الفتنة وحج من حج نظير مال يدفعه لقطاع الطريق من القرامطة.

* ضم الأخشيد أمير مصر ولاية الشام وأناب عنه بدرا الخَرْشَنى أمير الأمراء السابق.

* توفى من رجال الحكم بدر الخَرْشَنى أمير الأمراء الذى لجأ إلى مصر فأقامه الأخشيد نائباً على الشام ولم يلبث أن توفى بعد شهرين.

سنة ٣٣٢ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الاثنين ٤ سبتمبر ٩٤٣م.

* فارق الخليفة المتقى بغداد إلى تكريت ومعه أهل بيته وبصحبته الوزير ابن شير زاد لاجئا إلى ناصر الدولة الحمدانى وبعد هزيمة هذا الأخير على يد أمير الأمراء توزون لجأ الخليفة إلى نصيبين حتى إستأمن توزون فحلف للمتقى الا يغدر به فعاد إلى بغداد.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

ويمجدوهم الذى تعبو وصبرو على التجارب، وهو اننى نظرت الاب انبا يوساب البطرك وعليه لباس نور مضى يلمع بمجد عظيم ومعه قوم ايضا نيرين وهم يقـولو له: دعنا ان نمضى الى المكان الذى خرجنا منه فقال لهم: امنو اننى لا افارق حتى ان يجعل ولدى الاساس الذى اهتم ببنايه. وكان اوليك القوم النيرين يقلقونى لاتمم الكلام المقدس، وكنت حزين القلب حيث لا اقدر واولايك وانبا يوساب رايتهم مجتهدين فى بنا الاساس، ومن بعد

كحاجز محصن يحمى المدخل الى أراضى الأمبراطورية، ومن ثم لم يكن لهذه الغزوة أى جدوى أو شفاعة تبرر القيام بها.

احلام باسيليوس فى ايطاليا وصقلية:

كان باسيليوس الثانى، لا يخفى اهتمامه وأحلامه، باستعادة الممتلكات السليبه فى الغاب الأيطالى، واجلاء الأغالبة عن صقلية، واعادتها الى القسطنطينية، ولهذا اهتم بتطوير الادارة، وتنظيم شئون الممتلكات القليلة المتبقية فى جنوب ايطاليا، وكان بين الفينة والفينة ينتهز الفرصة

---

* فى هذه السنة برز إسم الروس فى الحوليات الإسلامية حين أغاروا على نواحى أَذْرَبِيجان بعد عبور البحر (بحر قزوين على الأرجح) حتى بلغوا بَرْذَعة فهرب من كان بها وقتلوا من لم يخرج وغنموا وسبوا فبرز لقتالهم المَرْزُبان بن محمد واستمرت المناوشات ستة أشهر حتى جلوا وساعد على جلاءهم إنتشار الوباء.

* خرج الاخشيد أمير مصر إلى الرقة إستجابة لنداء الخليفة العباسى وعرض عليه أن يصحبه إلى الشام ومصر ليكون فى مأمن من غدر أمير الأمراء ولكن أبى وكاتب توزون (انظر ما سبق).

* عمت الفوضى مدينة بغداد وغلت الأثمان وتعطلت الأسواق وكثرت كبسات اللصوص حتى تحارس الناس بالبوقات.

* لم تقع فى هذه السنة حروب بين الروم والمسلمين.

* لقى الزعيم القرْمِطى أبو طاهر سليمان بن الحسن الجَنّابى حتفه وهو الذى نعتوه عدو الله والأعرابى الزنديق وأبو طاهر هو الذى اقتلع الحجر الأسود وروع الحجاج، وخلفه أخوه ابو سعيد القرمطى.

* توفى بالمغرب يحيى بن إدريس من سلاطين دولة الآدارسة بعد أن حكم نحواً من أربعين

قليل رايت عـمد قد اقامـوها وباركـو على وغـابو عنى، فعلمت ان اوليك العمد الابا القديسين الذى اشتهى ان اكتب سيرهم المقدسة ولم اقدر لقلة فهمي، فلما اصبحت قلت لاخوتى الاحبا الذين معى اولاد الاب انبا شنوده المذكور صفة الحال والمنام الذى رايته، فيعزونى وقوو قلبى لما قلت: اننى لا اقدر على تفسير كلام الابا القديسين بل مثل الفقير الحقير اكتب ما تصل اليه استطاعتى. ومن ذلك الوقت بدات فى كتابة السيرة الثامنة

لتوسيع رقعة هذه الممتلكات، خاصة وأن الامبراطورية الرومانية المقدسة، كانت مشغولة وقتذاك بالصراع مع بابوات كنيسة روما، وبصدد توسعات الأغالبة فى أراضيها؛ ولم يكن تهديد الأغالبة هو الخطر الوحيد، الذى واجهته الامبراطورية الرومانية المقدسة فى ايطاليا، انما كان هناك أيضا خطر الغزاة النورمانديين. وكان النورمانديون قد جاءوا فى أول الأمر الى ايطاليا للعمل كجنود مرتزقة، يعملون فى خدمة أى أمير يدفع لهم مالا أكثر، وفى أول الأمر لم يكن النورمانديون

سنة وهو الذى عاصر قيام الدولة الفاطمية وزوال حكم الأدارسة، وكان قد دعا للخليفة عبدالرحمن الناصر على منابر المغرب بعد أن اعترف الأدارسة بطاعته إلى حين.

سنة ٣٣٣ هجرية

استهلت السنة بيوم السبت ٢٤ أغسطس ٩٤٤م.

* تولى الخلافة العباسية ببغداد أبو القاسم عبدالله ابن الخليفة المكتفى ولقب بالمستكفى بالله وبإمام الحق، بويع خلفاً للمتقى المخلوع وذلك فى ٢٠ صفر، وأم المستكفى أم ولد تسمى غُصن، وله من العمر فى هذا التاريخ ٤١ سنة.

* اضطر أمير الأمراء التركى تُوزون الخليفة المتقى إلى خلع نفسه ثم سَمل عينيه وكان قد عاد إلى بغداد من الرّقة بعد أن إستأمن توزون فغدر به وعاش المكتفى بعد خلعه ٢٥ سنة وهو أعمى.

* استولى سيف الدولة الحمدانى على حلب وكانت تابعة للأخشيد أمير مصر فهرب منها نائبه يانس.

* أوقع الروم بأهل بَغْراس ومَرْعَش فهب سيف الدولة إلى نجدتهم وأوقع بالروم غير إنه منى بهزيمة شديدة فى طريق العودة عبر ممرات جبال طوروس فاستنقذ الروم أسراهم.

عشر والتاسعة عشر والعشرين على ما سمعته من لسان الاخوة الثقات المومنين الذين عاينو ما عاينته انا ايضا بعيني مع اباى القديسين.

واقول ايضا اعجوبة كانت بصلوات الابا القديسين من قبل ان نذكر التجارب التى صبر عليها ابونيا انبا شنوده. مضى ابونا الى بيعة القديس الشهيد ذو الثلثة اكاليل مارى مينا بمريوط فى خمسة عشر يوما من هتور، وبينما هو ساير فى

يشكلون خطرا على الروم، بل على العكس كانت القسطنطينية تستخدمهم فى قواتها هناك لقمع حركات التمرد التى تقوم بها العناصر المناوئة للأمبراطورية. ولكن موت باسيليوس عام ١٠٢٥، جعل استعادة الممتلكات السليبة فى الغرب حلما صعب المنال.

خلفاء الامبراطور باسيليوس الثانى حتى نهاية الأسرة المقدونية:

وبموت باسيليوس بدأت شمس امبراطورية الروم تميل نحو الغروب؛ بينما بدأ فجر النهضة الأوروبية

---

* لم تنقطع المناوشات بين أمير الأمراء تُوزون والسلطان معز الدولة البويهى حتى كلَّ رجال الجانبين من القتال.

سنة ٣٣٤ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأربعاء ١٢ أغسطس ٩٤٥م.

* بدأت فى هذه السنة مرحلة جديدة فى تاريخ الخلافة العباسية ببغداد إذ أصبح الحكم فى يد سلاطين بنى بُوَيْه، ففى ١١ جمادى الأولى دخل أبو الحسن أحمد بن بُويه بغداد فاحتفى به الخليفة المستكفى وخلع عليه ولقبه معز الدولة وله العراق، ولقب أخاه عليا عماد الدولة وله فارس، ولقب أخاه الحسن ركن الدولة وله الرى والجبال.

* شهدت هذه السنة: فى الأندلس الخليفة الأموى عبدالرحمن الناصر، وفى أفريقية الخليفة القائم الفاطمى ثم إبنه الخليفة المنصور، وفى مصر وملحقاتها محمد ابن الاخشيد ثم إبنه أنوجور، وفى جلب والثغور سيف الدولة الحَمْدانى، وفى خُراسان وما وراء النهر نوح اسامانى، وفى الجزيرة ناصر الدولة الحمدانى وفى عُمان القرامطة.

* فى ٢٨ جمادى الآخرة من السنة خلع معزُ الدولة الخليفةَ المستكفى بعد أن أشهد على نفسه بالخلع فسُملت عيناه ونُهبت داره وكانت مدة خلافته ١٦ شهراً.

الطريق ونحن تابعيه وقبل وصولنا الى البيعة فى اليوم الثالث عشر من هتور اجتمع بنا خلق كثير من الشعب المومنين، ولما لم يجدو ما يشربو والسبب فى ذلك ان السما لم تمطر ثلث سنين ونشفت الابار والجباب، فلما نظر الاب البطرك الشعب وهم متغادين الى البيعة وهم عطاش ولم يجدو ما [ء]، فحزن لذلك حزنا عظيما ودخل الى البيعة المقدسة واجتمع اليه جميع من كان يريد العيد وسالوه قايلين: نسالك يا ابانا ان تدعو

يقترب؛ دخلت الأمبراطورية فى مرحلة عصيبة وفترة حرجة، اذ بدأت الأوضاعت السياسية المستقرة تتدهور، وأصبح واضحا أن البلاد قد دخلت فى بداية نفق طويل مظلم، ملئ بالفوضى، والاضطراب الاجتماعى، والافلاس الاقتصادى، والضعف العسكرى. وبينما كل ذلك كان يحدث، كانت أوروبا الغربية تشهد ارهاصات حركات التغيير والتنوير والاصلاح؛ لتزيح عن كاهلها تراب العصور القديمة؛ فقد بدأت الكنيسة تصلح نفسها وتعالج أمراضها المزمنة،

---

* بويع أبو القاسم الفضل إبن الخليفة المقتدر بالخلافة ولقب باسم المطيع لله وله ٢٤ عاماً وقرر له المعز فى كل يوم مائة دينار وكاتباً لتدبير شئونه.

* وقع القتال بين معز الدولة البويهى وناصر الدولة الحمدانى فخرج الأول من بغداد ومعه الخليفة المطيع فانهزم معز الدولة عند عُكْبَرا ودخل ناصر الدولة بغداد ومعه الخليفة أسيراً ثم هرب منها.

* فيها توفى بالمهدية عن ٥٦ عاماً الخليفة الفاطمى القائم بأمر الله إبن الخليفة المهدى وثانى الفاطميين بعد عشر سنوات فى دست الخلافة الفاطمية بأفريقية وكان قد قاد حملتين لفتح مصر دون أن يحرز نجاحاً، وفى دمشق توفى أبو بكر الأخشيد مؤسس الدولة الأخشيدية بمصر والشام وكان قد ولد ببغداد قبل ٦٦ عاماً.

سنة ٣٣٥ هجرية

استهلت السنة بيوم الأحد الموافق ٢ أغسطس ٩٤٦م.

* مع مستهل السنة مرت سبعة أيام على تولية أُنوجور الأخشيدى إمارة مصر والشام والأمر للخصى كافور خادم أبيه.

الى الرب ان يتـراف علينا لكيـلا نموت واولادنا وبهايمنا عطشا. وكان يعزيهم ويقول لهم: ان [أنا] اومن ان الله يرينا رحمته سريعا بصلوات شهيده. ولما اكمل القداس في اليوم الخامس عشر من هتور ناول الشعب من السراير المقدسة وسال الرب من كل قلبه وافكاره ان يذكر الرب شعبه الضعيف فى تلك المواضع ويسـر قلوبهم بالما، والرب مـحب البشر الذى يسمع دعا عبيده فى كل حين ويتمم شهوات الخايفين منه صنع امرا عـجيبـا فى ذلك

ونظمـهـا المتـداعـيـة، بفـضل الروح الاصـلاحـيـة الجديدة التى بدأت فى عـهـد البـابا ليـو التـاسع (١٠٤٩ ـ ١٠٥٤)، والتى طالب فـيـهـا رجـال الدين بالانضبـاط، وبفـضل حـركـة الاصلاح التى قـادتهـا مـؤسـسـة دير كـلـونـى Cluny فى فـرنـسـا، والتى تكونت عام ٩١٠م، ولعبت دورا كبيرا وفعـالا فى مكافحـة الفوضى داخل الكنيـسـة، والحد من تجاوزات السلطة الزمنية على حقـوق الكنيـسـة. كـمـا واكب ذلك حدوث نهـضـة تجارية فى المدن السـاحلية الأيطالية مـثل جنوة وفلورنسا والبندقية، وبناء أساطيل لها

---

* أعلنت في طَرَسوس (بالأنضـول) الدعوة لسيف الدولة الحمداني صاحب حلب فـانفذ إليها ٨٠ ألف دينار للفداء مع الروم وجرى الفداء على يد نصر الثملي أمير الثغور وبلغ عدد الأسرى ٢٤٠٠ أسيراً من الجانبين.

* عاد مـعز الدولة البـويهى إلى بغـداد بعـد إنهـزام ناصـر الدولة الحـمـدانى على أن تكون للحمدانى من تكريت إلى الشام وجدد المعز الامان للخليفة المطيع.

* مازال الحج من العراق موقوفاً بسبب غارات القرامطة.

* ثار أهل صقلية بأميرهم عَطّاف الأزْدى في يوم عيد الفطر فامتنع بقلعة الخالصة وسار وفد من أهل صقلية إلى المهدية بتونس مطالبين الخليفة الفاطمى (المنصور) بإقرار الحكم على أسس متينة.

سنة ٣٣٦ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الجمعة ٢٣ يوليو ٩٤٧م.

* قدمت إلى قرطبة سفارة من الامبراطور البيزنطى قُسطنطين السابع تحمل الهدايا النفيسة إلى الخليفة الأندلسى عبدالرحمن الناصر للسعى فى توثيق الروابط بينهما.

اليوم، انه لما كان الناس مجتمعين عند الاب وقد قرب مغيب الشمس وهم ياكلون الخبز بدات السما تقطر مطرا ثم تظلم فقال ابونا بمسرة روحانية: ياربى يسوع المسيح الهى الغنى برافته [برأفته] ان كان تريد ان ترحم شعبك فارحمهم وليمتلو من مسرتك وبركتك. فلما قال هذا ودخل الى مخدعه يستريح وينام يسيرا، ولما رفع يديه ليتمم صلاة النوم كعادته وسال الرب ان يذكر

قادرة على الابحار بسلام، وحمل البضائع بين شرق البحر المتوسط وغربه؛ حتى أنها قادت فيما بعد الدعوة للحروب الاستعمارية الصليبية في الشرق وفقدت الموانئ اليونانية التابعة لدولة الروم عرش التجارة. كل هذا كان يحدث، بينما توالى على عرش البلاد سلسلة من الأباطرة الضعاف المستهترين، فضلا عن النكبات التى بدأت تلوح فى الأفق، وأولها خطر السلاجقة الأتراك.

حكم قنسطنطين الثامن، ١٠٢٥-١٠٢٨:

من الناحية النظرية، كان من

---

* خرج السلطان معز الدولة وبصحبته الخليفة المطيع من بغداد لحرب البريدى فلما قاربوه استأمن جيش البريدى للمعز وهرب البريدى إلى القرامطة مستجيرا بهم.

* فى المحرم قضى الخليفة المنصور الفاطمى على ثورة مَخْلَد بن كَيْدَاد وشتت شمل جيشه وطارده إلى الصحراء ثم أسره وساقه إلى المهدية التى توفى بها.

* تولى إمارة صقلية من قبل الخليفة الفاطمى الحسن بن على الكلبى، خلفاً لأبى عطاف الأزدى الضعيف فعاد الروم إلى دفع ما عليهم من مال، ثم عبر أمير صقلية الجديد البحر إلى ساحل إيطاليا ونزل بميناء ريو ومنها إخترق إقليم قلورية (كالابريا) ففر أهله إلى مدينة بارى ثم استأمنوه فأمنهم وعاد الجيش والأسطول إلى ميناء مسينا للشتاء.

* ساق سيف الدولة الحَمْدانى قواته إلى داخل أرض الروم رداً على غاراتهم على أطرف الشام ولحق بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وأسترد ما أخذوه كما أسترد حصن برزويه من الأكراد.

* سمل نوح السامانى عيون أخويه وعمه حتى لا يطمع أحد منهم فى الحكم.

شعبه، فلما تم صلاته حدث رعدا عظيم من السما ونزل مطرا يجرى على الارض مثل الانهار الجارية، ولم تزل المطر الى الغد وكان جميع من فى تلك الاماكن ياتى الى البيعة وكانو ياركو ويهللو ويقولو مباركة الساعة التى اتيت فيها الينا لان الله انقذنا بصلواتك الطاهرة من هذه الغمة. وامتلت الجباب فى كل المواضع ورويت الاراضى والكروم حتى ذكر من كان هناك ان المطر كفاهم تلث سنين.

المفروض أن يكون قسطنطين الثامن شريكا لأخيه باسيليوس الثانى فى حكم الامبراطورية، ولكن من الناحية الفعلية كان معزولا، فقد قضى حياته فى ردهات القصر الامبراطورى بين اللهو والثقافة، اذ تجمع حوله مجموعة السمار من الطواشى، أو الخصيان، هيأوا له كل سبل المتعة، فنشأ لا يهتم الا بملذاته وهو اياته، حتى ابنتيه ا للتين أنجبهما من زواجه وهما زوى Zoe وثيودورا، لم يهتم بتربيتهما أو حتى تزويجهما. وفجأة وهو فى السبعين من عمره، وجد

سنة ٣٣٧ هجرية

استهلت السنة بيوم الثلاثاء الموافق ١١ يوليو ٩٤٨م.

* ولّى أُنوجور الأخشيدى صاحب مصر عمه الحسن بن طُغج نيابة الشام.

* مازال النزاع مستعراً بين السلطان معز الدولة البويهى وناصر الدولة الحَمْدانى صاحب الموصل فخرج إليها قاصداً ناصر الدولة واستولى عليها مما أضطر ناصر الدولة إلى المصالحة.

سنة ٣٣٨ هجرية

استهلت السنة بيوم الأحد الموافق الأول من يوليو ٩٤٩م.

* بنى الخليفة الفاطمى المنصور بالله مدينة جديدة دعاها المنصورية قامت بالقرب من مدينة القيروان وهى غير المهدية التى بناها جده عبيدالله فأصبحت المنصورية عاصمة الفاطمين حتى إنتقل منها إبنه المعز إلى مصر عام ٣٦٢م.

* استفحل أمر عِمْران بن شاهين فى إقليم البَطيحة (جنوب العراق) والتفت حوله جماعات من العامة والصيادين واللصوص وتغلبوا على تلك النواحى.

واقول لكم عجبا اخر فى اليوم بعينه، وذلك ان ابانا القديس انبا شنوده اطلع على كاهن من قسوس بيعة الشهيد مارى مينا انه ظلم امرأة ارملة كان لها فى جواره قطعة كرم، وانه اخذ منها جزوا [جزءاً] واضافه الى كرمه، فاحضره الاب وردعه وساله ان لا يفعل اثما. وان ذلك القس لم يقبل منه فاحرمه باستحقاق فاظهر الله فيه اعجوبة لانه داس المنع برجليه. وذلك يا اخوتى واحباى المومنين صدقو هذا منى، ولا تظن انفسكم شى من الامور

نفسه امبراطورا منفردا، فقد مات باسيليوس أعزبا.

وأخيرا وهو على فراش الموت تذكر أن ابنته الكبرى زوى Zoe قد شارفت على الإربعين دون أن تتزوج، فاختار لها أحد النبلاء المقربين الى القصر، ليكون زوجا وشريكا لها فى الحكم من بعده، وهو رومانوس الثالث الشهير بكنية رومانوس الفضى Rom-anus Argyrus وبعد بضعة أيام من زواجها فاضت روحه.

حكم الامبراطورة زوى وزوجها رومانوس الثالث ١٠٢٨ ، ١٠٣٤:

كانت زوى تشبه أباها فى حبه

---

* قطعت القرامطة الطرق فامتنع حجاج العراق من أداء الفريضة فى هذه السنة.

* تولى أبو السائب الهَمَذانى قضاء القضاة ببغداد، وتولى شعلة بن بدر الأخشيدى نيابة الشام من قبل أُنوجُور صاحب مصر.

* وقعت فتنة فى بغداد بين الشيعة والسنة ونهبت فى خلالها ضاحية الكَرْخ.

* توفى فى هذه السنة الخليفة العباسى المستكفى بالله ابن المتكفى عن ٤٦ عاماً وكان قد بويع بعد أبيه عام ٣٣٣ هـ ثم استبد به معز الدولة البويهى وسمل عينيه وعزله ومات مقتولا.

* توفى بشيراز عن ٥٩ عاماً السلطان عماد الدولة أو الحسن على البويهى أول ملوك بنى بُويه وكان على فارس ودام حكمه ١٦ سنة، وهو والد عضد الدولة البويهى.

* قضى الخليفة الأندلسى عبدالرحمن الناصر بقتل إبنه عبدالله حين تآمر مع بعض فتيان القصر بقرطبة على مبايعته بالخلافة بعد أن آثر أبوه أخاه الحكم بولاية العهد كما قضى بإعدام جميع من إشترك فى المؤامرة.

* ممن توفى فى هذا التاريخ من رجال اللغة والأدب: العلامة النحوى المصرى أبو جعفر أحمد بن إسماعيل النحاس مؤلف: اعراب القرآن، واشتقاق الأسماء الحسنى.

الدنيانية وامنو ان الله قادر على كل شي، وهو ان المطر الذى ذكرناها كانت قد نزلت على جميع الاراضى والكروم الاكرم ذلك القس الذى احرمه ابونا. وتم عليه قول النبي: «نصيب مطرا عليه ونصيب لا امطر عليه». وكان جميع من راى هذه الاعجوبة يمجد الله.

خبر اخر، لما كان فى السنة الثامنة من بطركية هذا الاب وقرب ايام الصوم المقدس اراد المسير الى

للمجون والترف، فضلا عما اتصفت به كانثى ماكرة عنيدة، متقلبة العواطف، تفيض غرورا وكبرياء، ولا تتردد فى الفتك بأقرب المقربين اليها اذا ما وقف فى طريق نزواتها؛ ولقد تركت زوى أمور الحكم لزوجها رومانوس الثالث، وتفرغت للهو والمسرات. وكان يضمر فى نفسه أن ينقل وراثة العرش الى اسرته، ولكنه كان فى ذلك واهما تماما، اذ لم يدرك مكر زوجته وذكاءها، فضلا عن كونه رجلا متوسط الذكاء، متواضع القدرات، سئ الطالع. كما أنه ورث

سنة ٣٣٩ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الخميس ٢٠ يونية ٩٥٠م.

* أعيد إلى مكة الحجر الأسود من بلدة هَجَر وكان قد إقتلعه أبو طاهر القِرْمطى من موضعه بالكعبة قبل اثنين وعشرين عاماً، وحمل أولا من هَجَر إلى الكوفة وعلقوه بمسجدها حتى يراه الناس ثم حمله بعد ذلك سَنْبَر بن الحسن القرمطى إلى مكة.

* غزا سيف الدولة بلاد الروم وأوغل فيها حتى أصبح على سبعة أيام من القسطنطينية وأسر وسبى وأحرق غير إنه لم يأخذ حذره فى طريق العودة فأوقع به الروم وأستعادوا ما أخذ، ثم أن الروم بعثوا فى طلب الهدنة فلم يستجب سيف الدولة لهم وتهددهم ودخل بلادهم ثانية من ناحية حَرَّان فغنم وأسر كما غزاها أهل طرسوس براً وبحراً وهى الغزوة التى خلدها المتنبى فى شعره.

* أصلح صانعان ماهران الحجر الأسود فشدا عليه طوقاً من الفضة بلغ محتواه ٣٧٩٧ درهماً من المعدن.

* تجددت الزلازل فى شمال الشام ودامت ٤٠ يوماً، وتهدمت حصون منها دلوك وتل حامد ورعبان.

خزانة مفلسة نتيجة لسياسة الاسراف والتبذير التى اتبعها صهره الراحل.

ولقد بدا لرومانوس ضرورة ان يضفى على منصبه الجديد قناعا من الشرعية، تمهيدا لكسب رضاء الجماهير، من أجل التخلص من زوجته وشقيقتها، ونقل العرش الى أسرته؛ ولكى يبهر الناس والكنيسة بحروب مثل التى قام بها من سبقوه من أجل تحرير الأرض المقدسة؛ هاجم رومانوس الثالث ممتلكات الدولة الفاطمية فى الشام، فأوعز الى حاكم انطاكية أن يغزو حلب، وبسهولة أوقع

البرية المقدسة بوادى هبيب ليتم الصوم هناك والفصح المقدس، فاشارو عليه قوم مومنين ان لا يمضى خوفا من العرب المفسدين، لانهم زمان نزولهم من ارض الصعيد الى ارض الريف بعد [موسم] ربيع دوابهم، فيجرى عليك منهم امر. فقال الاب القديس فى قلبه: ان انا فعلت هذا فعلت مسرة الشيطان اذا انا امتنعت عن المسير الى المواضع المقدسة، فان الشعب يتاخر بسببى ويعدمو بركات القديسين. فاستعان بالله وتوجه الى الوادى

---

* أوغل سيف الدولة الحمدانى فى أرض الروم أن جمع لغزوته جيوش الموصل والجزيرة والشام وحلب.

* وافق هذا التاريخ وفاة راميرو الثانى ملك ليون الأسبانى . صاحب الوقائع مع عبدالرحمن الناصر فتنازع العرش أولاده.

* إشتعلت الحرب الداخلية بعدوفاة راميرو الثانى ملك ليون الأسبانى بين ولديه أردونيو وسانشو وانتهز أمراء الولايات الإسلامية المجاورة الفرصة فعاثوا فى أرض ليون.

* شهدت السنة وفاة الخليفة القاهر بالله العباسى إبن الخليفة المعتضد عن ٥٢ عاماً، وكان قد خلف أخاه عام ٣٢٠هـ ولم يلبث أن خلع فى ٦ جمادى من عام ٣٢٢ وسملت عيناه ، توفى فى جمادى الأول من هذه السنة.

* توفى بدمشق العالم والفيلسوف الموسوعى أبو نصر الفارابى الملقب بالمعلم الثانى (أى بعد أرسطو) وذلك عن ٧٩ عاماً، ومن مؤلفاته المطبوعة المتداولة: إحصاء العلوم، أراء أهل المدينة الفاضلة، المدخل إلى صناعة الموسيقى، جوامع السياسة.

سنة ٣٤٠ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأثنين ٩ يونية ٩٥١م.

* هدم الخليفة الناصر الأندلسى منارة مسجد مدينة الزهراء القديمة وأقام منارة عظيمة

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

وكانت العرب يعرفو وقت اجتماع الغرب هناك، فوصلو من الصعيد فى خفية وملكو بيعة الاب مقار والحصون ونهبو جميع ما فيها من المتاع والطعام وغير ذلك. وكان اول يوم من برموده طافو الديارات كلها ونهبو كلمن فيها، ومن دخل اليها من الشعب. واخرجو اكثرهم بالسلاح، فلما نظر الاب هذا الامر حزن لذلك. ثم اجتمع اليه الابا الاساقفة والرهبان وهم باكيين قايلين: انا منجلك [من اجلك] اقمنا ها هنا ونريد منك الا

أمير حلب هزيمة مزلة بقائد لواء أنطاكية، ولما وصلت أنباء الهزيمة زاد السخط عليه، فحاول أن يمتص هذا الغضب، بالقيام بعمل عسكرى متهور غير مدروس، انتهى بهزيمة أشد وبالا من الهزيمة الأولى وذلك بالقرب من حلب عام ١٠٣٠م.

ولم يمض عام على هزيمته فى الشام، حتى بدأ طالع النحس الذى تميز به حكمه فى الظهور، اذ ضرب القسطنطينية زالزال عنيف خرب شطرا كبيرا منها؛ ثم اجتاح الوباء آسيا الصغرى، فقضى على شطر كبير

مربعة ذات ١٤ شباكاً وعقود ولها سلمان للصعود والنزول وعلى قمتها تفاحتان من ذهب وتفاحة من فضة (أزيلت بعد سقوط الأندلس وأقيم فى مكانها برج لأجراس كنيسة).

* فى ليلة عيد الأضحى من هذه السنة جرت معركة حاسمة على أرض إيطاليا ين الحسن الكلبى أمير صقلية والروم من أهل صقلية وإيطاليا والقسطنطينية وبعد أن إخترق إقليم كالبريا إستولى على ترانت وقسانة فأنهزم الروم هزيمة شنيعة وأكثر.

سنة ٣٤١ هجرية

استهلت السنة بيوم السبت الموافق ٩٥٢م.

* تولى الخلافة الفاطمية أبو تميم معد إبن الخليفة المنصور الذى عرف بلقبه المعز لدين الله فاتح مصر بعد ذلك.

* قبض الوزير المهلبى العباسى على جماعة كانوا يقولون بالتناسخ فزعم بعضهم أن روح الإمام على قد إنتقلت إليه وزعمت واحدة أن روح فاطمة الزهراء إنتقلت إليها فضربوا وتعزروا.

تمنعنا الخروج ليلا [لئلا] نموت بايدى هولا القوم الكفرة. وكان هذا في يوم الجمعة من جمعة الفصح، ولما سمع ابونا انبا شنوده هذا علم انها خديعة وفخ شيطاني نصبه عليه الشيطان لما كان فيه من الروح القدس، وعلم انه الذى جمع الناس واقلقهم يريد بذلك خراب البرية حتى لا يكون فيها من يذكر اسم الله العلى. عند ذلك قال بقوة: قلب الرب يضربك ايها الشيطان ويرذل موامرتك التى فعلتها. وكانو الابا الاساقفة يسالوه الخروج

من القوى البشرية العاملة فى حقولها، فهجرت القوى، وأهملت الزراعة، وتقلص الانتاج الزراعي، حتى لم يعد يكفي لاطعام السكان، مما أدى الى حدوث مجاعة كبرى فى أسيا الصغرى عام ١٠٣١م. واستغلت الكنيسة الغاضبة على الامبراطور ذلك لتبرر ما حدث بأنه لعنة من الله على البلاد نتيجة لتصرفات الامبراطور، وصدقت جماهير القسطنطينية، التى كانت تهوى الخرافات والخزعبلات وتؤمن بها، مقولة الرهبان والكنيسة، فاصبح الامبراطور ممقوتا من زوجته،

---

* إستولى الروم على مدينة سروج فقتلوا وسبوا وأحرقوا المساجد رداً على غزوة سيف الدولة التى قادها فى العام الذى سبق.

* وقع الخلاف بين أهل مكة فخطب أهل العراق لركن الدولة والمصريون للاخشيد صاحب مصر.

* سار صاحب عمان الرباضى وبصحبته يعقوب القرمطى إلى البصرة فهرع إليها الوزير المهلبى فاستباح عسكرهما وعاد إلى بغداد بالأسرى والغنائم.

* قصد الحسن الكلبى أمير صقلية حصن جراجة بجنوب إيطاليا وحصره فأرسل إليه الامبراطور قسطنطين يطلب منه الهدنة فهادنه، وعاد الحسن إلى ريو (بايطاليا) وبنى بها مسجداً كبيراً وسط المدينة وبنى فى أحد أركانه مئذنة وشرط على الروم انهم لا يمنعون المسلمين من عمارته وإقامة الصلاة فيه والآذان وأن لا يدخله نصرانى ومن دخله من الأسارى المسلمين فهو آمن وأن اخرجوا حجراً منه هدمت كنائسهم كلها بصقلية وأفريقية.

* أمر السلطان معز الدولة (ربيع الأول) بضرب وزيره المهلبى ١٥٠ مقرعة لأمور نقمها عليه ولم يعزله من الوزارة.

* استولى ركن الدولة البويهى على جرجان واستخلف عليه ابن فيرزان ولكن ما أن رجع عنها حتى استردها صاحبها وشمكير الديلمى.

ليصحبوه، فقال لهم: اغفرو لي يا اباى القديسين ما نفارق هذا الموضع حتى نتم عيد الفصح ولو ان دمي يسفك. فلما راو الرهبان شجاعته وقوة قلبه حسدوه على الشجاعة وتقوو ولم يتركو الشيطان يغلبهم، وجعلو العرب يقلقو جماعة الرهبان لكيلا يتمو عيد الفصح، ويتمو مشية ابوهم الشيطان. وجردو سيوفهم ووقفو على الصخرة شرقي البيعة، فاخذو ما وجدو على الناس من اللباس، ومن امتنع جرحوه بالسيف. وكان هذا يوم الخميس من جمعة

ممقوتا من الكنيسة والرهبان، وممقوتا من عامة الشعب، وتحطمت أحلامه في نقل العرش الى أسرته.

وفي أثناء ذلك، كانت الشائعات تملأ القسطنطينية عن فسق «زوى» ومغامراتها العاطفية مع عشيقها الوسيم، الذى يصغرها باثنين وعشرين عاما، ولم يعد مجونها ومغامراتها تخفي على أحد. ويبدو أن رومانوس كان آخرمن يعلم، فلما علم وحاول أن يضع لذلك حداً رأت «زوى» أن تضع له حدا أيضا، لتفسح الطريق لعشيقها الوسيم ليأخذ نصيبه في

---

* توفي في هذه السنة بمدينة المنصورية (بتونس) الخليفة المنصور الفاطمي وهو إسماعيل إبن الخليفة القائم وحفيد المهدى، ثالث الفاطميين، توفى عن ٣٩ ومدة حكمه ٧ أعوام و١٦ يوماً.

* توفى الأمير المغربى الثائر على حكم الفاطميين بالمغرب الأقصى موسى بن أبى العافية فى أحدى وقائعه بعد أن أقام إمارة مستقلة كانت مكناسة عاصمة لها ودام حكمها فى عقبه نحو ربع قرن.

سنة ٣٤٢ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأربعاء ١٨ مايو ٩٥٣م.

* غزا سيف الدولة الحمدانى بلاد الروم وأوغل فيها وأوقع بجيش الامبراطور البيزنطى وأخذ ابنه قسطنطين أسيرا ودخل به إلى حلب وبقى عنده إلى أن مات.

* توفى من رجال الحكم: الأمير الاخشيدى الحسن بن طغج أخو الاخشيد وعم أنوجور صاحب مصر تولى إمارة دمشق، توفى بالرملة ودفن بالقدس، وفيها توفى بمصر الأمير العباسى والفقيه المحدث أبو بكر محمد بن موسى بن يعقوب حفيد الخليفة المأمون تولى إمارة مكة وتوفى عن ٧٦ عاماً.

الفصح تاسع برموده فمن سلم من الشعب دخل الى البيعة وكانو صارخين باكيين قايلين: يا ابانا عيننا [أعنا] فقد قوى علينا هولاى العربان. فلما راى هذا القديس قلق الشعب نهض واخذ عكازه فى يده الذى عليه علامة الصليب وخرج الى العرب قايلا: الصالح ليا[لى] اموت مع شعب الله أو لعلهم اذا راونى يمتنعو من سوهم ويخلص منهم هذا الشعب الضعيف، فلما نظر الاساقفة حسن نية الاب وانه اسلم نفسه للموت عن شعبه

الجلوس على العرش الدافئ، ففى عام ١٠٣٤ عثر على رومانوس مخنوقا فى حمام القصر، ولم تعرف هوية الجناة، ولم تمض ساعات على مواراته التراب، حتى أعلنت زوى نبأ زواجها من عشيقها ميخائيل، ليشاركها العرش باسم الامبراطور ميخائيل الرابع.

الامبراطور ميخائيل الرابع ١٠٣٤ - ١٠٤١:

تولى ميخائيل الرابع - الزوج الثانى للامبراطورة زوى - العرش وهو معذب الضمير؛ فقد كانت الالسنة لا

سنة ٣٤٣ هجرية

استهلت السنة بيوم الأحد الموافق ٧ مايو ٩٥٤م.

* عاد سيف الدولة الحمدانى فى شهر ربيع الأول إلى غزو بلاد الروم فتحالف على حربه الروم والروس والبلغار وألتقى الجمعان عند مدينة الحدث بالأنضول فى شهر شعبان وبعد قتال مرير أنهزم الروم وحلفاؤهم وأسر جمع من الأمراء وكثير من بطارقة الكنيسة.

* تولى السلطان السامانى عبدالملك بن نوح على عرش بلاد التركستان (ما وراء النهر) وخراسان ولقب أبا الفوارس الرشيد خلفاً لأبيه السابع من السامانيين وتولى الحجابة له ألبتكين التركى.

سنة ٣٤٤ هجرية

أهل المحرم يوم الجمعة الموافق ٢٧ إبريل ٩٥٥م.

* وصل إلى قرطبة سفير الامبراطور الألمانى أوتو الأول (أو الكبير) وهو القس يوحنا الجوزينى راجياً تدخل الخليفة عبدالرحمن الأموى لمنع الغارات العربية على إيطاليا وفرنسا وسويسرا وتوغلها فيها.

مسكوه ومنعوه من الخروج الى العرب، وقالو: لا ندعك ان تسلم نفسك بيد هولا القاتولين [القتلة] الانجاس. فلما سمعهم قال لهم بتواضع وسكينة وقوة نفس كما قال بولس: انا اعلمكم ان بهذا يكون لى خلاص بصلواتكم، وبتدبير الروح القدس يسوع المسيح اتكالى ورجاى فى الحياة والموت، فاما حياتى فبالمسيح والموت ربحا لى». وتقوى بالمسيح وخرج الى العرب الكفرة، وبرافة [برآفة] الله رجعو الى ورايهم ولم يظهرو فى ذلك

تكف عن سيرته وعن علاقاته الغرامية مع الامبراطورة قبل موت زوجها الأول، وتشير اليه أصابع الاتهام بالاشتراك فى جريمة القصر، ولهذا كاد الاحساس بالذنب يقتله، ويطيح بعقله، فضلا عما كان يعانيه من داء الصرع، الذى كانت نوباته تتتابه من حين الى حين؛ ولهذا أولى ظهره لزوجته، ولأمور العرش والدنيا، وكرس نفسه للتقوى والورع، وللتمسح فى أعتاب مقامات القديسين، وكسب رضاء الرهبان، اذ جمع حوله طائفة منهم جعلهم يقيمون معه فى القصر،

---

* عقد سلطان بغداد معز الدولة البويهى إمرة الأمراء لابنه أبى منصور بختيار وكان معز الدولة قد أصيب بمرض أرجف الناس به واضطربت بغداد حتى اضطر معز الدولة للركوب على ما به من مرض فسكنت الأحوال.

* إجتاحت الزلازل بعض أنحاء مصر ودامت مقدار ثلاث ساعات فهلك فيها خلق كثير.

* جرت معارك بحرية بين اسطول الخليفة الاموى عبدالرحمن الناصر بالاندلس وأسطول الخليفة الشيعى المعز لدين الله الفاطمى بأفريقية وكان على هذا الأخير أمير صقلية الحسن الكلبى الذى أغار على ثغر المرية الأندلسى وأحرق بعض السفن.

* انفسخ الصلح بين معز الدولة وعمران صاحب البطيحة الذى كان قد قطع الطريق وأستولى على أموال للسلطان ظنا منه انه مات.

* فى رجب من السنة غزا سيف الدولة الحمدانى بلاد الروم حتى بلغ خرشنة وصارخة ثم عاد إلى أطنة بعد ما خرب وأحرق وسبى.

*ممن توفى فى هذه السنة من رجال العلم: الفقيه الشافعى المصرى ابن الحداد عن ٨٠ عاماً مؤلف كتاب الباهر والفرائض ودفن بسفح المقطم، ومحدث نيسابور أبو عبدالله ابن الأخرم عن ٩٤.

ويرشدونه لأعمال البر والتقوى؛ وكان أغلب هؤلاء الرهبان ممن عانوا التعذيب والنفى أيام الحملة لتحريم عبادة الايقونات؛ وراح يرمم الاديرة، والكنائس، ومقامات القديسين، وأهل الحظوة، ويتوخى فى معاملاته العدل، والنقاء، والطهارة، ولما أكسبه هذا التصرف ثقة فى نفسه، أعلن على الملأ انفصاله عن زوجته الفاجرة، وخوفا من أن تدبر له أمرا كما فعلت مع زوجها الأول، وضعها تحت مراقبة دقيقة، وأجبرها على الاعتكاف فى جناحها بالقصر. وأما شئون الدولة

اليوم. لكن عادو [انصرفوا] بمعونة الله ونية هذا الاب انبا شنوده وثباته فخزى الشيطان عدو الخير. فلما سمع الارخن المومن اصفطن وسويرس الحسن الفعل مع الرب، لانه كان له امانة فى البطرك ومحبة فى الديارات المقدسة، فقام بسرعة ووصل الى الديارات واجتمع مع الاب والرهبان والاساقفة وقوى نفوسهم واعد نفسه قدامهم، وقال للاب: انا اسلم نفسى عنك وعن الشعب الى ان يخرجو من بين هولا المردة. فنظر الاب الى ضعف قلوب

سنة ٣٤٥ هجرية

وافق الأول من السنة يوم الثلاثاء ١٥ إبريل ٩٥٦م.

* أوفد الخليفة عبدالرحمن الناصر مبعوثاً إلى الامبراطور الألمانى أوتو الأول بمدينة توبنجن وكان آسقفاً من رعاياه يدعى ربيعان فأكرم الامبراطور إستقباله وعاد بعد عامين فارتاح الناصر لنجاح مهمته.

* رد الروم غارات سيف الدولة فى العام الذى سبق بغارة بحرية على أهل طرسوس فقتلوا وسبوا وأحرقوا فعاود سيف الدولة الغزو مستولياً على بعض حصونها وسبى وغنم وعاد إلى حلب.

* أغار ملك النوبة المسيحى على أملاك مصر حتى بلغ مدينة أسوان وأوقع بها السلب والنهب فأنفذ إليه كافور الوصى على أنوجور الاخشيدى جيشاً برياً بقيادة محمد بن عبدالله الخازن وعمارة على النيل وعمارة ثانية على البحر الأحمر ففر الغزاة وأخلوا حصونهم عند ابريم.

* توفى بمصر فى جمادى من السنة المؤرخ والراوية الاخبارى أبو الحسن على ابن الحسين المسعودى والذى إشتهر بمؤلفة المطبوع المتداولة «مروج الذهب» ومثله كتاب التنبيه والإرشاد وله أخبار الخوارج وذخائر العلوم وغيرها.

الشعب وانهم معولين على الخروج وهم خايفين من العرب المحيطين بهم يريدو ان ياخذوهم ويقتلوهم بحد السلاح، وكان يقويهم ويعزيهم بنعمة الروح القدس ويقول كما قال بولس للذين معه في المركب: «ان نفس واحدة منكم لن تهلك». وكان يقول لهم ان الله انتخبكم من يدى هولا الظلمة ويقاتل عنكم. فنظر فيهم قوم قليلى الامانة بما قاله لهم وقلوبهم ضعيفة فتقدم اليهم ان يجمعو ساير الشعب الى البيعة في يوم الاحد

فقد تركها لشقيق له اسمه يوحنا. وكان يوحنا جشعا، نهما، في جمع الاموال لنفسه، بل قاده الطمع الى أن يفكر في نقل العرش الى أسرته؛ وخوفا من موت أخيه من داء الصرع في أى وقت، سعى الى الامبراطورة زوى، وأقنعها أن تتبنى ابن شقيق له ولأخيه الامبراطور، ويدعى ميخائيل، الذى اشتهر بلقب كالافاتيس Ka-laphatis أى بائع الشموع، وهى المهنة التى كان يعمل بها أبوه، وبفضل يوحنا شقيق الامبراطور، أصبح ميخائيل بائع الشموع مرشحا

---

* توفى بمصر الوزير أبو بكر الماذرائى عن ٨٧ عاماً.

سنة ٣٤٦ هجرية

استهلت السنة بيوم السبت الموافق ٤ ابريل ٩٥٧م.

* جدد الخليفة الأموى الأندلسى عبدالرحمن الناصر جامع قرطبة الكبير وزاد فيه زيادات كثيرة وثبت لوحة على بابه المسمى باب النخيل (ما زالت موجودة) تؤرخ لذلك جاء فيها «بسم الله الرحمن الرحيم. أمر عبدالله عبدالرحمن أمير المؤمنين الناصر لدين الله أطال الله بقاءه. ببنيان هذه اللوحة... فتم ذلك بعون الله، في شهر ذى الحجة سنة أربعة وثلث مائة على يد مولاه ووزيره وصاحب بانيه عبدالله بن بدر. عمل سعيد بن أيوب».

سنة ٣٤٧ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الخميس ٢٥ مارس ٩٥٨م.

* أنفذ الخليفة الفاطمى المعز لدين الله وهو بالمهدية قائده جوهر الصقلى ومعه الزعيم البربرى زيرى بن مناد للقضاء على إستقلال الإمارات المغربية فدخل تاهرت وأفكان ومنها سار إلى فاس حتى إنتهى إلى ساحل المحيط فملأ قلالا (جمع قلة) بسمكه ودخلها معه إلى المعز.

ليناولهم من السراير المقدسة ليلا قبل الصبح ويسير معهم الى ان يوصلهم الى الريف فقويت نفوسهم ثم قام فى نصف الليل واجتمع اليه الاساقفة والرهبان والشعب وابتدى بالقداسى، وبينما هو يطوف بالبخور على الهيكل، وعيناه يفيض دموعا بحرقة كما قال عبوديا النبى، بكيت الكهنة الذين يخدمون حول هيكل الرب، وكان يبكى ويقول كما قال النبى: «امهل يارب شعبك ولاترذل ميراثك هذه الرذله وتسود عليه الامم ليلا

للزواج من زوى، وللعرش فى حالة موت ميخائيل الرابع. وحدث ما كان متوقعا فعلا اذ مات ميخائيل الرابع فى ظروف غامضة فى نهاية عام ١٠١٤م دون أن يكمل السادس والثلاثين من عمره.

ميخائيل الخامس كالافاتيس الشماع ١٠٤١ ـ ١٠٤٢م:

وللمرة الثالثة زفت زوى، التى تقدم بها العمر، الى هذا الشاب المغامر المستهتر، وأول ما فعله هو أنه انقلب على عمه، الذى كان سببا فى الاتيان به الى العرش، فالقى القبض

---

* تبادل الروم والمسلمون الغارات فدخلت القوات البيزنطية أمد وميافارقين وضربوا سميساط ثم أغار سيف الدولة على الروم من ناحية حلب ولكنه هزم ونجا بعدد يسير من رجاله.

* إستولى معز الدولة البويهى على الموصل فلجأ أميرها ناصر الدولة البويهى إلى أخيه سيف الدولة في حلب الذى توسط فى الصلح.

سنة ٣٤٨ هجرية

استهلت السنة بيوم الاثنين الموافق ١٤ مارس ٩٥٩م.

* تم الصلح بين الحمدانيين ومعز الدولة بوساطة سيف الدولة على مال يؤديه أخوه ناصر الدولة الذى عاد إلى الموصل.

* عاد الروم وأغاروا على طرسوس والرها ووقع فى أسرهم إبن ناصر الدولة.

* خلع الخليفة المطيع العباسى على بختيار إبن السلطان معز الدولة وعقد له لواء ولقبه أمير الأمراء عز الدولة.

* وافق هذا التاريخ وفاة الامبراطور قسطنطين السابع وخلفه إبنه رومانوس الثانى ولم

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

يقولو الام اين هو الاههم». والابا الرهبان يبكو بحرقة ودموعهم ممتزجة بالافكار لما يريد ان ينالهم من العرب المفسدين. وتناولو السراير قبل الصبح وكان الاب يبكى على خراب البرية من الرهبان، ثم سرح الشعب وخرج وهو يعزيهم وكانو يباركو الله وتعجبو من قوة الاب وجسارته، لانهم كانو ينظروه مثل موسى النبى امام بنى اسراييل، فبصلواته وطهارته نجا الله الشعب من ايدى العرب ذلك اليوم ولم يفتر من البكا لنظره الرهبان وهم

عليه، ونفاه الى أحد الاديرة النائية، ثم استدار الى زوجته الشمطاء، ففرض عليها الانزواء فى مقصورتها فى القصر، ثم اتهمها بمحاولة دس السم له فى الطعام، وقدمها للمحاكمة وقضى الحكم بنفيها عام ١٠٤٢م الى جزيرة نائية.

غير أن ميخائيل الخامس لم يستمتع طويلا بالعرش، اذ اعتبره الناس مغتصبا للحكم، كما أن محاكمته لزوى سليلة الأسرة المقدونية العريقة، أثارت عليه الجماهير. ففى احتفالات عيد الفصح عام ١٠٤٢

تنقطع فى عهده كذلك الغارات بين الروم والمسلمين، وهو الذى تزوجت إبنته من إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة أوتو الثانى.

سنة ٣٤٩ هجرية

استهلت السنة بيومن السبت الموافق ٣ مارس ٩٦٠م.

* تولى إمارة مصر فى العشرين من القعدة = ٩ يناير ٩٦١م أبو الحسن على بن الاخشيد خلفاً لأخيه أبوجور وأقره الخليفة المطيع وأضاف إليه حكم الشام والحجاز كما كان لأبيه وأخيه وغير أن الأمر كان لوزيره الخصى كافور الاخشيدى.

* أغار سيف الدولة على بلاد الروم حتى بلغ خرشنة فقتل وسبى وأسر غير أنهم كمنوا له فى طريق العودة بين مفارق الجبال واستخلصوا ما أخذه منهم.

* إشتدت الفتن بين أهل السنة والشيعة ببغداد حتى تعطلت الصلوات فى أكثر المساجد.

* ظهر فى أرمينية رجل يدعى أنه من حفدة الخليفة المكتفى وتلقب بالمستجير بالله ودعا إلى الرضى من آل محمد ولبس الصوف واستولى على عدة بلاد حتى قضى على دعوته صاحب أذربيجان الديلمى.

متعادين الى ارض الريف خوفا من الفساد، حتى انه لم يبق فى الديارات الا قوما يسير. ولم يزال الشيطان يقيم التجارب على البيع فى ديار مصر.

خبر اخر، وفى ذلك الزمان قام انسان مسلم من [قبيلة] المدلجة سكان اسكندرية ومعه خلق كثير من اصحابه مقاتلين قد عرف منهم الشجاعة، وان العربان لما سمعو بخبره جاوو اليه جماعة كبيرة وانطوى اليه جماعة من الناس حتى الفعلة، فصارو

تظاهرت مجموعة من الناس، وهتفت بسقوط ميخائيل الخامس وبحياة زوى، ومطالبين باعادتها من المنفى، وتحولت المظاهرة الى أعمال الشغب والسلب والنهب والتخريب، واندفعت الجماهير نحو القصر تريد الفتك بالامبراطور الجحود؛ ولتهدئة الموقف، أرسل الامبراطور ميخائيل على الفور يستدعى زوى من منفاها، ورغم عودتها الا أن الجماهير أصرت على عزل ميخائيل من منصبه، حيث لا حق له فى الجلوس على العرش بعد طلاقه من الامبراطور. وطالب الناس

---

* توفى فى السابع من القعدة أمير مصر أنوجور الاخشيدى ثانى أمراء الاخشيد عن ثلاثين عاماً وكان قد تولى الحكم بعد أبيه ١٤ سنة و١٠ أيام، وفى عهده ضم إقليم النوبة إلى مصر، حمل جثمانه إلى القدس ودفن عند أبيه الاخشيد.

سنة ٣٥٠ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الأربعاء ٢٠ فبراير ٩٦١م.

* تولى إمارة الأندلس الخليفة أبو المطرف الحكم الثانى المستنصر بالله خلفاً لأبيه عبد الرحمن الناصر على أثر وفاته فى الثانى من شهر رمضان، أمه أم ولد واسمها مرجانة.

* تولى إمارة ماوراء النهر (التركستان) منصورن السامانى خلفاً لأخيه عبدالملك بن نوح السامانى ولقب بالملك السعيد أبى صالح منصور.

* أنفذ الامبراطور البيزنطى رومانوس الثانى حملة بحرية إلى جزيرة إقريطش (كريت) إستولى عليها من حكامها الأندلسيين وكان قد إستولى عليها عمر ابن شعيب سنة ٢٣٠هـ.

* بنى معز الدولة البويهى قصراً له فى أعلى بغداد بلغ ما أنفق عليه ١٣ ألف ألف درهم ونقل إليه الكثير من عمارة القصور القديمة ولكن لم يلبث أن تخرب بعد وفاته.

خلق كثير، وكانو يمضون الى كل موضع فيه متصرف من قبل الملك فياخذوه ويطالبوه بالمال الذى تحت يده ويقتلوه. فاحرقو بلاد كثيرة وقتلو عالم كثير. وكانو ينفذو اصحابه عسكر بعد عسكر الى شرقى مصر حتى وصلو الى بنا وملكوها وجبو خراج مريوط واعمالها الى بنا المدينة، ولا يقدر احد يقاتلهم، فانهم كانوا قاتولين اشد الناس لا يقاومو. فلما قوى امرهم وملكو البلاد وكل اواسى بيعة الشهيد ابو مينا بمريوط

بعودة شقيقة زوى وهى ثيودورا، التى كانت تقيم فى أحد الاديرة، وتمارس حياة الرهبنة، وهرب ميخائيل الخامس عندما شعر أن زوى والجماهير ستفتك به؛ وتعقبته الجماهير حتى عثرت عليه مختبئا، فقادوه الى زوى وشقيقتها ثيودورا. وانتقمت زوى منه بأن أمرت بسمل عينيه، ونفيه الى مكان بعيد، عندئذ هدأت الجماهير وارتاح فؤادها.

حكم زوى وقنسطنطين التاسع موناماخوس وثيودورا، ١٠٤٢ - ١٠٥٥م،

أعادت الجماهير الغاضبة فى عام ١٠٤٢م، زوى وشقيقتها ثيودورا الى

---

* توفى بمدينة الزهراء الأندلسية الخليفة الأموى عبدالرحمن الناصر وله من العمر ثمان وسبعون وذلك فى الثانى من رمضان (١٥ أكتوبر) وكانت أمه أم ولد تسمى مزنة ودام حكمه ٥٠ سنة و٦ أشهر، وهو باستثناء المستنصر الفاطمى أطول خلفاء الإسلام عهداً بالحكم وتعتبر إمارته العصر الذهبى للحكم العربى فى الأندلس.

* توفى أمير ماوراء النهر وخراسان الملك المؤيد أبو الفوارس عبدالملك بن نوح السامانى من سقطة فرس، وقد دام حكمه ٧ سنين وخلفه أخوه المنصور.

* توفى حول هذا التاريخ الطبيب المؤرخ ابن الجزار (أحمد بن إبراهيم القيروانى) مؤلف زاد المسافر فى الطب، والبغية فى الأدوية المركبة، وله رسالة: أسباب الوباء (أى الطاعون) بمصر والحيلة فى دفعه.

* توفى بمصر الأمير فاتك الرومى الذى إشتهر بقصائد المتنبى فى مدحه ورثاءه.

سنة ٣٥١ هجرية

استهلت السنة بيوم الأحد الموافق ٩ فبراير ٩٦٢م.

* أحرز البيزنطيون أعظم إنتصارات لهم بدخولهم مدينة حلب بعد أن خرج منها سيف

ومحلة بطره، وكذلك اواسى بيعة القديس ابو مقار، نهبو جميعها واكلو زرعها وتقاسموها. ولما طغو وبغو وكثر مالهم ورجالهم ودوابهم ونساهم واولادهم وعمايرهم عمد المقدم فيهم ومن معه من المقاتلين الذين اختارهم فحاصر مدينة اسكندرية وطلب ان تسلم اليه لينهبها كما نهب غيرها من البلاد، وسبى الاولاد والنسوان وقتل الرجال واخذ الاموال. ولم يقدر على فتحها بوجيه من الوجوه لانه لم يكن له استطاعة على مقاتلة

العرش لتحكمان معا طبقا لوصية ابيهما، ولم يمضى وقت طويل على حكم الأختين، حتى طلب رجال البلاط بوجوب زواج احداهن حرصا على بقاء سلالة البيت المقدونى، ولما كانت ليودورا راهبة متبتلة، تمسك بعذريتها، فقد رفضت باصرار مسألة الزواج، بينما لم تمانع أختها فى أن تجرب حظها مع الرجال للمرة الرابع. واختار لها رجال البلاط رجلا وسيما اسمه قسطنطين ليكون زوجا، وزفت العروس الشمطاء ـ لأنها كانت فى الثانية والستين من عمرها ـ الى

الدولة الحمدانى منهزما وغنموا كل ما وقع فى أيديه وأحرقوا ما عجزوا عن حمله ولكن بقيت قلعتها صامدة ونجا كل من إحتمى بها من سكان بينما لقى إبن أخت الامبراطور حتفه فى حصارها.

* إمتنع ألبتكين (جد الغزنويين) أمير هراة على المنصور السامانى وهزم الجيش الذى أرسل إليه وأسر قواده ومنهم خال المنصور.

* إستولى أمير صقلية الحسن الكلبى على قلعة طبرمين بعد حصار طال دام سبعة أشهر وأسكنها نفراً من المسلمين وسميت المعزية نسبة للخليفة المعز الفاطمى.

* وقع بالعراق برد وزن البيضة منه أكثر من رطل.

* أرسل الخليفة المعز الفاطمى نجدة بحرية إلى جزيرة كريت قاتلت الروم وأسرت من كان منهم فى الجزيرة.

* إستولى ركن الدولة على طبرستان ثم على جرجان وأزاح عنها صاحبها وشمكير ثانى أمراء الدولة الزيارية.

* بينما كانت الروم توالى غاراتها وتخرب الثغور إستمرت الفتنة الطائفية بين السنية والشيعة فى بغداد وامتد لهيبها إلى البصرة وهمذان وشغل الناس بها.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/٨٨٠م

الحصون لانه لم يكن له الة لها. وحاصرها ومنع الميرة ان تدخل اليها من البحيرة ومن البحر، واقام جسور في اماكن قريبة من المدينة فمنع المياه عنهم، وكانو يشربو من الابار والجباب. وقلت الغلات بمدينة اسكندرية ولم توجد بدينار ولا درهم، وعدمت البيع القربان لقلة الغلة والخمر، لان اواسى البيع كانت قد ملكت ومخازنها واموالها نهبت بيد هولا القوم المفسدين وتقوو بها على محاصرة اسكندريه.

زوجها الرابع. وعلى اثر انتهاء مراسم الزواج أعلن توليه العرش شريكا للأختين باسم قسطنطين التاسع. والذى اشتهر بأسم موناخوس أى المحارب بمفرده.

وسرعان ما تكشف للعروس أن الرجل لا يميل اليها على الاطلاق، وأنه لم يقترن بها الا من أجل العرش، وبذخ القصر وحياة اللهو. فقد أعلن عن هويته بأنه فاسق وماجن ومستهتر، لا يقوم من المأدب، ولا يفيق من السكر، ولا تنفض من حوله العشيقات، وقد بلغ من استهتاره أن

---

* وقع الأمير الشاعر الفارس أبو فراس الحمدانى فى أسر الروم وحمل معهم إلى القسطنطينية حتى فداه سيف الدولة.

سنة ٣٥٢ هجرية

استهلت السنة بيوم الجمعة ٣٠ يناير ٩٦٣م.

* أصاب سيف الدولة شلل فى يده ورجله بسبب هزيمته على يد الروم.

* خرج سيف الدولة بالرغم من مرضه غازياً فسار إلى حران ثم إلى ملطية من أرض الروم وملأ يديه سبيان وغنائم ودخل أهل طرسوس أرض الروم حتى بلغوا قونية، بينما عبرت الروم الفرات لقصد الجزيرة فتهيأ لهم ناصر الدولة المطيع بسبب أحداث حلب.

* بينما كانت هذه الأحداث الجسام جارية شغل السلطان معز الدولة أهل بغداد باحتفالات تقام فى يوم عاشوراء (١٠ المحرم من السنة) وإعتباره يوم حداد تغلق فيه الأسواق ويمنع فيه الطباخون عن الطبخ ويرتفع فيه النواح فكان ذلك أول يوم جرى فيه هذا التقليد الشيعى الذى إنتشر من بغداد إلى غيرها.

* أغار القرامطة على الشام وكانت تابعة لمصر غير أن المصريين عجزوا عن قمعهم بسبب الغزو الفاطمى لبلادهم من الغرب.

جعلهن يقمن فى القصر، ويتدخلن فى شئون الحكم، بل ويسيرن أمور الامبراطورية. ولم تشأ زوى التى صدمت بهذا الزواج أن تنتقم لنفسها منه خوفا من أن تعيد الى ذاكرة الجماهير سيرتها الأولى، وجريمتها البشعة مع زوجها الأول، وكل ما فعلته أنها سمحت له بعشيقة واحدة لكى تقيم فى القصر، وبذلك أصبح الحكم من الناحية الفعلية رباعيا يتكون من الأختين، والامبراطور وعشيقته. ولقد انزوت ثيودورا كعادتها للصلاة والتعبد فى جناحها، بينما

ولما بلغ الاب ما نال الشعب بها طلب ان يرسل اليهم شيا يقتاتون به فلم يتمكن لاجل الحصار الذى كان عليها من هولاى القوم. ودام هذا الامر على هذه المدينة، فطرح الله فى قلب سكان رشيد ان عملو مراكب اوسقوها غلة واقلعو بها فى البحر المالح الى مدينة اسكندرية، وبهذا السبب كانت سلامة اسكندرية وكثرت عندهم الغلات برافة الله عليهم وعلى اطفالهم. ولما طال حصارها وضاق صدور السكان بها اجتمع رووساها وتشاورو

سنة ٣٥٣ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الثلاثاء ١٩ يناير ٩٦٤م.

* انفذ الامبراطور البيزنطى نقفور (نسيفوروس) حملة بحرية ضمت ٤٠ ألفا لنجدة أهل صقلية فقاتلهم أميرهم الحسن الكلبى فمنوا على يديه بهزيمة ما حقة قتل فيها قائد الحملة منويل وجمع من القواد البطارقة وهرب من سلم إلى مدينة ريو الايطالية، فأعد الكلبى قوات برية وبحرية إستولت على مدينة ربطة بعد حصار طويل.

* إشتد الغلاء فى بلاد الشام حتى عز الخبز وأكل الناس الرطبة والحشائش.

* حاصر البيزنطيون مدينة المصيصة بالأنضول يقودهم الامبراطور وكانوا ثلاثمائة ألف ولكنه عجز عن الاستيلاء عليها فأحرق ما حولها من الضياع ثم إنتقل إلى حصار مدينة طرسوس وطال الحصار حتى إشتد الغلاء وكثر الوباء فرحلوا عنها.

* واصل شيعة بغداد إقامة المآتم فى يوم عاشوراء بالنواح والندب وإغلاق الأسواق.

* اكتشف فى قصر الخلافة ببغداد تمثال من نحاس على هيئة إمرأة جميلة حولها تماثيل صغار فى هيئة الخدم وكان قد جلبه الخليفة المقتدر لتفرج عليه الجوارى والنساء، وفيها عمل سيف الدولة الحمدانى خيمة عظيمة إرتفاع عمودها ٥٠ ذراعاً.

مع الوالى بها وقالو يجب ان ندبر صورا [سورا] على جميع المدينة، فجعل اصحاب الدور والرباع كل واحد منهم حايط الى عند جاره، فصار عليها صور يدور وجعلو له ابوابا وامرو ان لا يفتح الا بواب واحد، وبتدبير الله تعالى الذى ينجي الفقير والمسكين. عملو ذلك وتحصنت المدينة وامن اهلها من العدو. ولم يقدرو هذه المحاصرة لها على فتحها. وكان الاب حزين القلب لا يعلم فى اى موضع ياوى اليه لانهم نهبو جميع المواضع الذى

شغلت زوى نفسها بهواية صناعة العطور، وانشغلت العشيقة بجمع الأموال والحلى والجواهر، وانصرف الامبراطور الى مجونه وسماره. ولحسن الحظ أن العشيقة ماتت عام ١٠٤٤، فلم يغير موتها من الأمر شيئا، اذ بقى الامبراطور يلهو، والامبراطورية تحتضر، مما أقلق بطريرك الكنيسة. وفى عام ١٠٥٠م ماتت زوى قرينة الامبراطور؛ وبذلك يكون حقه فى الحكم قد سقط بموت زوجته الوارثة الحقيقية للعرش، وزادت

---

* تجدد القتال بين السلطان معز الدولة البويهى ببغداد وناصر الدولة الحمدانى بالموصل وانتهى بالمصالحة.

* تمرد نجا غلام سيف الدولة وأظهر العصيان واستولى على أرمينية.

سنة ٣٥٤ هجرية

استهلت السنة بيوم السبت ٧ يناير ٩٦٥م.

* إنتقلت معركة صقلية إلى البحر فهزم أسطول الحسن الكلبى بقيادة إبنه أحمد بن الحسن الأسطولين البيزنطى والصقلى فى المعركة التى تعرف باسم وقعة المجاز (أى بوغاز مسينا) وغرقت أكثر سفن العدو ثم عقد صلح بين الطرفين.

* فى الانضول عاد الامبراطور البيزنطى نقفور إلى حصار مدينة المصيصة ففتحها عنوة ووضع السيف فى رقاب أهلها ونقل كل ما بها إلى القسطنطينية كما استولى على طرسوس بالأمان وأحرق مسجدها فهجرها أهلها براً وبحراً إلى أنطاكية.

* ولد بالبصرة عالم الرياضيات والطبيعيات أبو على بن الهيثم (محمد ابن الحسن) الذى انتقل بعد ذلك إلى مصر واشتهر بابحاثه فى علم البصريات.

له. وكان لا يقدر يظهر بفسطاط مصر لاجل ابن المدبر الظالم لانه مع هذه البلايا كلها كان له مطالبا بالخراج، اعنى خراج الاواسى وغير ذلك، وجميع من هرب من هذا العدو التجا الى مصر خوفا منه فقبض هذا الرجل السو ابن المدبر عليه ورماه السجن. ومن هذا خاف ابونا من الدخول الى فسطاط مصر، من المطالبة بخراج الاواسى الذى كانت للبيع ونهبت. ولما علم ابونا بسكان المحلة الكبيرة وامانتهم مضى الى عندهم واقام

أحلامن البطريرك ميخائيل كيرولاريوس Michael kerularios فى أن يكون بطريركا وامبراطورا فى آن واحد، متأثرا بتعاليم الدعوة الكلونية التى دعت الى وجوب أن يكون الاباطرة بابوات، والبابوات أباطرة، غير أن الامبراطور بادل البطريرك الكراهية، وتشبث بالعرش، وبدأ الموقف كما لو كان بداية صراع طويل بين الدولة والكنيسة. لولا وقوع حدث كبير أوقف مؤقتا ذلك الصراع.

---

* ولد بمدينة واسط الوزير أبو غالب فخر الدولة وزير السلطان بهاء الدين البويهى، وفيها ولد قاضى قضاة مصر من الشيعة الاسماعيلية عبدالعزيز ابن النعمان.

* شهدت هذه السنة وفاة الشاعر أبى الطيب المتنبى (أحمد بن الحسين) عن ٥١ عاماً قتل فى الطريق عند دير العاقول، ديوان شعره وشروحه مطبوعة متداولة.

* خر الحسن الكلبى أمير صقلية صريعاً من شدة الفرح على أثر سماع أخبار الانتصارات الحاسمة التى أحرزها إبنه وابن أخيه على البيزنطيين والايطاليين، وخلفه إبنه أحمد بن الحسن فى حكم صقلية.

* توفى الناصر الحمودى أول ملوك الدولة الحمودية بقرطبة عن ٥٤ وكان قبل ذلك على سبتة ومالقة.

سنة ٣٥٥ هجرية

استهلت السنة بيوم الخميس الموافق ٢٨ ديسمبر ٩٦٥م.

* إنسحبت القوات الأموية المرابطة فى مدينة جرينويل الفرنسية وما حولها من الوديان.

* تولى إمارة مصر الأستاذ أبو مسك كافور الإخشيدى، بعد وفاة سيده أبى الحسن على بن الاخشيد وخطب له على المنابر.

---

٥٥ : شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

هناك داعيا لله ان ينجى بيعته وشعبه من هذا الضيق. ولم يفارق البكا لاجل بيع اسكندرية، وانه لا يمكن ينفذ شيا الى قومتها [القيمين عليها] ليقومو بالقداسات. وكان جميع من يسافر من موضع الى موضع ومعه درهم واحد يوخذ منه ويقتل لاجله. وكان لا يسافر انسان الا وعليه ثياب خلقان كراد لا منفعة فيه، كما قال زخريا النبى: اجرة الناس لا تكف قوتهم واجرة البهايم لا تكون. وكلمن يدخل ويخرج لا يجد سلامة من الضيق.

الانفصال النهائى بين الكنيستين ١٠٥٤م:
وفى منتصف القرن الحادى عشر، وبالتحديد فى عام ١٠٥٤ هبت زوبعة على الكنيستين طيرت الرماد، وأظهرت النيران المتقدة من جديد، فقد تولى كرسى البابوية فى روما البابا ليو التاسع، وهو أحد رجال الدين، الذين أنجبتهم حركة مؤسسة دير كلونى، وكان رجلا قويا ما لبث أن بدأ يطبق مبادئ الاصلاح الكلونى لدعم نفوذ البابوية سياسيا ودينيا لمناصرة السلطة الدينية على السلطة الزمنية عملا بنظرية «السيفين». ولقد

---

* وقع خسوف كلى للقمر ليلة السبت ١٣ شعبان.

* عاود الامبراطور البيزنطى شن غاراته فحاصر مدينة آمد ولكنها صدته فانصرف إلى نصيبين وكان بها سيف الدولة فسار منها الامبراطور إلى أنطاكية فعجز عن فتحها فخرب ما حلولها.

* أغار بنو سليم على قافلة الحجاج من مصر والشام وكانت تضم ٢٠ ألف جمل ونهبوها.

* جرى الفداء بين البيزنطيين وسيف الدولة وكان جملة ما خلص من الأسر ما بين أمير وراجل ٣٢٧٠ وكان من بين من فودى فى هذا اليوم الأمير أبو فراس الحمدانى الشاعر الفارس وكانت أخت الامبراطور البيزنطى قد أخذته لتفادى به أخا لها فى أسر المسلمين، وكان جملة ما أنفقه سيف الدولة على الفداء ٣٠٠ ألف دينار.

* إستولى معز الدولة على إمارة عمان من القرامطة وأحرق ٨٩ مركباً لهم.

* توفى فى الحادى عشر من المحرم أمير مصر أبو الحسن على بن الاخشيد بعلة أخيه أنوجور وقيل مسموماً وكانت مدة حكمه أربع سنين وبضعة أشهر وخلفه كافور.

* توفى حول هذا التاريخ المؤرخ المصرى أبو عمر الكندى مؤلف كتاب الولاة والقضاة أى

وفيما هذا الامر يتزايد نظر الله جلت قدرته ما على قلب ابونا من امر بيع اسكندرية فهداه الى ان كتب كتابا الى التجار الذين بها مساعى [معامل] الكتان من البلاد الشرقية ان يخرجو اليه بغير شى معهم، فلما وصلو اليه دفع لهم ما توجهو به اليه وقال لهم: ابتاعو لكم تجاير [تجارة] من الريف وسلمو عوضا منه للاقنوم باسكندرية ليصرفه فيما تحتاج اليه البيع. ففرحو بذلك وشكرو اهتمامه، واخذو منه المال وربحو غرر [تعب] الطريق،

بدأ ليو التاسع بفرض نفوذ البابوية على كل شبر فى ايطاليا، بما فى ذلك الأراضى التابعة للقسطنطينية فى اطرافها الجنوبية. ومن ثم فقد أغضبت هذه التصرفات البطريرك ميخائيل كيرولاريوس، واعتبرها تعديا على حقوقه؛ فأرسل فى عام ١٠٥٣م خطابا توجيهيا الى أحد أساقفته فى جنوب ايطاليا أدان فيه تصرف البابا، ووصف البابوية بأنها أضحت دمية فى أيدى النورماندين يحركونها كيفما يريدون، وذهب فى ادانته للكنيسة البابوية الى حد وصفها بالكفر،

ولاة مصر وقضاتها وهو مطبوع متداول، والأديب المؤرخ أبو إسحق البجيرمى صاحب ديوان الانشاء لكافور مؤلف كتاب ايمان العرب فى الجاهلية وهو مطبوع.

سنة ٣٥٦ هجرية

وافق مستهل المحرم يوم الاثنين ١٧ ديسمبر ٩٦٦م.

* أعد الخليفة الفاطمى المعز لدين الله العدة لفتح مصر وهو بعد بأفريقية فعبد الطريق من تونس إلى مصر وحفر الابار وأجزل العطايا والمنح وسير أول حملة استطلاعية استولت فى هذه السنة على واحة سيوة.

* تولى أبوالمعالى سعد الدولة شريف (الأول) الحمدانى فى ٢٤ صفر إمارة حلب خلفاً لأبيه سيف الدولة.

* أسلم الوزير يعقوب بن كلس على يد كافور الأخشيدى وكان يهودياً.

* عقد معز الدولة العهد لابنه عز الدولة بختيار ولم يلبث أياماً حتى خلف أباه فكان أول ما فعله مصالحة صاحب البطيحة وسحب الجيوش من واسط.

* وقع خلاف بين القرامطة بسبب انحياز الخليفة المعز الفاطمى لأبناء أبى طاهر القرمطى.

فاستقامت احوال البيع والقلاية باسكندرية كالزمان الذى كان لها فيه الاواسى. ولم تزال العربان تنهب قلالى الرهبان والديارات لان بيوتهم ورجالهم هناك فى الوادى نزولا، حتى انهم سكنو فى الجواسق والاسكنا، وبنو ابواب مساكنهم. وكانو يرصدوهم الى الوقت الذى يخرجو فيه يستقو الما يقتلو بعضهم وياخذو من بعضهم ما يجدوه عليه من الثياب وما معهم من الاوعية التى يحملو فيها الما. وكانو الابا الرهبان باكين يسالو

والمروق على الكنيسة الصحيحة. وأعلن كيرولاريوس أن الكنيسة الشرقية أصبحت فى حل من أى ارتباط مع الكنيسة الغربية، ولا شأن لها بها، واضطر الامبراطور الضعيف قسطنطين التاسع، أن يعلن موافقته على هذا القرار. وبذلك تم الانفصال بين الكنيستين والذى لا يزال قائما حتى يومنا هذا.

نهاية حكم البيت المقدونى ١٠٥٦:

بعد موت الامبراطورة زوى عام ١٠٥٠، بقى من سلالة الأسرة المقدونية أختها العجوز ثيودورا؛ والتى

---

* قبض أبو تغلب على أبيه ناصر الدولة الحمدانى صاحب الموصل وأودعه قلعتها ورتب له كل ما يحتاج إليه.

* شهدت السنة وفاة عدد من الملوك والأمراء فى الشرق والغرب فخلت منهم ساحة الأحداث منهم : السلطان معز الدولة البويهى (أحمدن بن بويه) فى ١٧ ربيع آخر عن ٥٣ سنة، كان على كرمان والأهواز والعراق وبغداد ودام حكمه ٢٢ سنة، كان فى أول أمره حطاباً وكان أبوه صائد سمك وهو أخو ركن الدولة وعم عضد الدولة، وقد أظهر التوبة على فراش مرضه وتصدق بأكثر أمواله وأعتق مماليكه.

* توفى سيف الدولة الحمدانى أمير حلب والثغور واشهر الأمراء الحمدانيين غزا بلاد الروم ٤٠ غزوة ودام حكمه لحلب ٢٣ سنة وتوفى عن ٥٣، اشتهر بمدائح المتنبى فيه.

* توفى وشمكير بن زيار (ظهير الدولة أبو منصور) صاحب جرجان وطبرستان وثانى أمراء الدولة الزيارية وخلفه ابنه أبو منصور بيستون، وفيها توفى الحسن بن الفيرزان صاحب شكور.

* شهدت السنة وفاة اثنين من أعلام رواة الأدب هما: أبو الفرج الأصفهانى (على بن الحسين) مؤلف كتاب الأغانى موسوعة الأدب المتداولة، وكتاب مقاتل الطالبيين، والإماء الشواعر وغيرها وذلك ببغداد عن ٧٢ عاماً، وفيها توفى الأديب الروايه أبو على القالى عن ٦٨ ومؤلف كتاب الأمالى (١٤ الحجة) أو أمالى القالى وله كتاب الأمثال.

السيد المسيح ان ينقذهم، وكانو صابرين على الحر والبرد والخوف ويقولو كما قال داود: اخرجنا من هذا الضيق وخلصنا وانقذنا برحمتك.

وكذلك بيعة الشهيد مارى مينا بمريوط التى كانت مسرة لجميع شعوب مصر الارتدكسين صارت برية لا يتمكن احد من الوصول اليها فى تلك الايام التى كان فيها الحصار على اسكندرية من المداجلة والعربان وغيرهم من المفسدين الذى

كانت وقتذاك فى السبعين من عمرها، ولقد عرض عليها رجال البلاط أن تتزوج من الامبراطور الأرمل، ولكنها رفضت، لتمسكها برهبانيتها، وانقطاعها للعبادة، ولهذا حقد عليها قسطنطين التاسع، واضطهدها، ثم طردها من القصر، لأنه كان يعتبر رفضها الزواج منه معناه طرده من منصبه، اذ لاحق له فى البقاء على العرش بعد موت زوجته، وفى وجود شقيقتها شريكتها شرعا فى الحكم. وبقى الامبراطور الضعيف وحده يعربد فى القصر تاركا الامبراطورية لقدرها، ومن ثم سخر منه شعب

---

* توفى قاضى بغداد أبو نصر يوسف الأزدى عن ٥١ عاماً وهو من بيت تولى منه أبوه وجده القضاء،و فيها توفى قاضى الأندلس المؤرخ مطرف بن عيسى مؤلف (إنسان العرب النازلين فى البيرة وأخبارهم) وفيها توفى بمدينة واسط الراوية الإمامى المصنف أبو طالب عبيدالله الانبارى مؤلف كتاب الانتصارات وكتاب الإبانة عن إختلاف الناس فى الامامة.

سنة ٣٥٧ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم السبت ٧ ديسمبر ٩٦٧م.

* تزوج فى هذه السنة السلطان معز الدولة بختيار من إبنة (عسكر الرومى) الكردى عن صداق مقداره مائة ألف دينار، وفيها تزوج الحسن بن عبيدالله الاخشيد من إبنة عمه فاطمة بنت الاخشيد وأصبح وصياً على إبن عمه أبى الفوارس أحمد.

* انتهى المعز لدين الله الفاطمى من التجهيز لحملته الكبرى على مصر بعد أن قضى على كل معارضة له فى بلاد أفريقية والمغرب.

* تولى إمارة مصر أبو الفوارس أحمد بن على بن الاخشيد خلفاً لمولى جده كافور، وهو صبى فى الحادية عشرة وجعل الوصاية لابن عمه وخليفته الحسن ابن عبيدالله.

جمعهم مقدم المداجة. وخرجت جميع المواضع المقدسة وكذلك بيعة السيدة الطاهرة باتريب وساير البيع التي كانت عزا للمومنين، وكذلك ديارات الصعيد والبيع التي فيه كما قال عاموس النبي: انى اترك اعيادكم الى حزن وتسبيحكم الى نوح. وكان الاب كثير الحزن والبكا على برية ابو مقار المقدسة [وتسبحة الله لا يفترو منها، وكانوا متشبهين بملايكة الله الذين لا يفترون من التسبيح] صارت منزلا للقاتولين المفسدين، والتجو

القسطنطينية، وأطلقوا عليه لقبا ساخرا هو «المحارب مع نفسه» Mon-omachos ولم يلبث الامبراطور أن مات عام ١٠٥٥م. فاعيدت ثيودورا الى القصر الامبراطورى بصفتها امبراطورة، وتركت أولى الأمر يسيرون أمور الدولة، بينما انقطعت هي للعبادة ومرة أخرى رفضت الزواج، ولقد كان لتحليها بالتقوى والاخلاق الكريمة أن كسبت احترام الناس، اذ لم يحدث خلال العامين اللذين حكمت فيهما البلاد أى ثورات، أو حروب، وظلت تحكم بسلام حتى موتها عام ١٠٥٧، ولقد استطاع رجال البلاط أن يؤثروا

---

* قبض الوزير جعفر بن الفرات على جماعة من أعيان مصر وصادرهم ومنهم يعقوب بن كلس الذى هرب إلى المعز الفاطمى بتونس وحسن له غزو مصر.

* إنتصرت القرامطة على نائب مصر فى الشام الحسن بن عبيدالله الاخشيدى وتعهد بدفع اتاوة سنوية لهم.

* لم يحج أحد من مصر أوالشام بسبب قطع العربان لطريق الحج.

*توفى بمصر فى ٢٠ جمادى الأولى أمير مصر الأستاذ أبو المسك كافور عن ٦٥ عاماً، كان عتيق محمد الاخشيد وأتابك إبنيه أنوجور وعلى، تولى الحكم سنتين وأربعة أشهر وكانت مدة تسلطه على مصر ٢١ سنة وشهرين، وهو ممدوح المتنبى قبل أن يفارقه ويهجوه.

* توفى الأمير الفارس الشاعر أبو فراس الحمدانى (الحارث بن سعيد) إبن عم سيف الدولة مات مقتولا فى نزاع مع خاله سعد الدولة بالقرب من حمص وله من العمر ٣٧. ديوان شعره متداول.

* توفى الخليفة العباسى المعزول المتقى بالله (أبو إسحق إبراهيم) عن ٥٨ عاماً وكان قد تولى خلفاً لأخيه الراضى ولم تدم خلافته سوى أربع سنين إذ خلع فى ٢٠ صفر ٣٣٣م.

القديسين الذين كانو فى البرية الى كل موضع وتفرقت الاخوه الصالحين النيرين.

وباحكام الله الغير مدروكة لما تعطلت الاعياد التى ذكرناها، قام واحد من جنس الملك وحشد حوله اقواما كثير مقاتلة [يقصد القرامطة] وقاتل الملك، وسار الى الموضع الذى يسمى الان مكة بارض الحجاز ويسمى الكعبة وملكها، وملك البيت الذى يحج اليه المسلمين من كل الاعمال وهو المكان الذى يقولو لا يدخله الا شريف لكرامته

عليها ـ قبل أن تلفظ أنفاسها ـ لكى تختار من يخلفها، وجاء اختيارها لرجل ورع مسن، ينتمى الى احدى الأسر التى جاء منها عدد كبير من بطاركة الكنيسة، وهو ميخائيل المتعسكر.

ميخائيل السادس Michael Stratoti- cus ١٠٥٧، ١٠٥٩،

اعترض على اختيار ميخائيل السادس زعماء البيوت الاقطاعية فى الولايات الامبراطورية، والتى اعتبرت أن اختيار هذا الرجل هو من فعل حزب البلاط؛ واستغل الاقطاعيون

سنة ٣٥٨ هجرية

استهلت السنة بيوم الأربعاء الموافق ٢٥ نوفمبر ٩٦٨م.

* خرجت الحملة الفاطمية الكبرى لغزو مصر من تونس فى يوم ١٤ ربيع الثانى بقيادة جوهر الصقلى مؤلفة من جيش برى وأسطول ساحلى ومزودة بالعتاد والمؤن والأموال وبلغ ما أنفق عليها ٢٤ مليون دينار، فى ١٨ رجب بلغت الأسكندرية ودخلها جوهر دون مقاومة.

* عقد جوهر الصقلى مع وفد من المصريين عهداً يضمن دخول جيشه مدينة الفسطاط وتم ذلك يوم الثلاثاء ١٨ شعبان وخطب على منبر الجامع العتيق للمعز الفاطمى وانقطع الدعاء لبنى العباس.

* تولى إمارة صقلية يعيش مولى الحسن الكلبى خلفاً لابن سيده أحمد بن الحسن.

* التقى عند الرملة بفلسطين الحسن بن عبدالله الاخشيد بجيش الفاطميين بقيادة جعفر بن فلاح فانهزم الحسن وحمل أسيراً إلى المغرب وبه إنتهى حكم الاخشيديين فى مصر والشام.

* استولى أحد الفتاك المسمى الرعيلى على مدينة أنطاكية فأغار عليها الروم واستولوا عليها فهرب الرعيلى بحراً إلى الشام.

* بدأ جعفر الصقلى فى ر مضان تخطيط وبناء مدينة المنصورية التى سميت القاهرة بعد ذلك كما وضع أساس القصر الكبير.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/٨٨٠م

عند المسلمين، وملوك المسلمين يحملو اليه فى كل وقت الاموال والثياب. ولما ملكه هذا الثاير احرقه بالنار وما فيه وارذلهم وقال: هذه افعال مرذولة يفعلوها المسلمين. وربط خيله في ذلك المكان حتى صار فى تلك السنة برية قفرا ولم يدخل اليه احد من الخلايق الذين كانو يمضو اليه فى كل عام، وكان المسلمين تحت حزن عظيم لاجل خراب البيت.

فلما اراد الرب ان ينظر الى شعبه وبيعته جعل

انتهاء سلالة البيت المقدونى الذى كان يستهوى أفئدة الجماهير وطالبوا بإقصاء حزب البلاط عن الحكم بما فى ذلك الامبراطور؛ وتزعم حزب «رجال الاقطاع» رجل يدعى اسحق كومنينوس، واندلعت الثورة ١٠٥٧، وظلت مستعرة عامين، فشل خلالهما ميخائيل السادس ومعه رجال البلاط فى اخمادها بكل وسائل الاغراء والوعود؛ ووصلت الثورة على الامبراطور ورجال البلاط الى نقطة حاسمة عام ١٠٥٩، عندما ثارت القسطنطينية عن بكرة أبيها بعد أن

---

* توفى فى هذه السنة ناصر الدولة الحمدانى (الحسن بن أبى الهيجاء) أمير الموصل وأخو سيف الدولة وصاحب الوقائع مع معز الدولة البويهى وكان قد حجر عليه إبنه أبو تغلب.

* شهدت هذه السنة (توافق ٩٦٩م) إغتيال الأمبراطور البيزنطى الفاتح نقفور (نيقوموس فوكاس) بتدبير من زوجته يودوكسيا وعلى يد إبن أخيه وخليفته يوحنا الزمسكى (الدمستق).

سنة ٣٥٩ هجرية

استهلت السنة بيوم الأحد الموافق ١٤ نوفمبر ٩٦٩م.

* فى يوم الخميس ١٣ جمادى الأولى شهد جوهر إقامة أبواب القصر الشرقى الكبير بالقاهرة الذى أعده لاستقبال الخليفة المعز.

* أنقض بالعراق كوكب عظيم أضاء منه الدنيا حتى صار وكأنه الشمس وسمع عند إنقضاضه صوت كالرعد.

* تولى إمارة صقلية أبو القاسم على بن الحسن الكلبى خلفاً ليعيش مولى الكلبيين فساد الأمن والهدوء أنحاء الجزيرة.

زال مفعول سحر البيت المقدونى، وانتهت الثورة بخلع ميخائيل السادس المتعسكر، وطرد حزب البلاط من القصر، ودخل اسحق كومنينوس العاصمة منتصرا حيث توج امبراطورا. وبذلك انتهى عصر البيت المقدونى، وبدأ حكم أسرة جديدة عرفت باسم أسرة دوقاس.

أسرة دوقاس ومواجهة التحديات
(١٠٥٧ . ١٠٨١)

من الناحية الفعلية انتهت الأسرة المقدونية بموت باسيليوس الثانى عام

الملك ارسل الى ارض مصر واليا اسمه مزاحم [ابن خاقان] رجلا كان فى مذهبه تقيا عفيفا عارف بفرايض دينه عادلا فى طرايقه، وصحبته جيش كبير من الاتراك. وكانو هولاى القوم شجعانا مقاتلين لا يقدر احد على مقاومتهم لان سلاحهم كان خلاف سلاح اهل مصر وهو النشاب. ولما وصل الى فسطاط مصر اخذ الاموال الذى كان استخرجها ابن المدبر وانفق فى الرجال، واقام عساكر كثير خارجا عما وصل صحبته من الشرق.

---

* ولدت فى هذه السنة ست الملك بنت نزار بن الخليفة المعز وهو الذى تولى أبوها الخلافة باسم العزيز بالله وكان لها دور فى خلافة أخيها الحاكم بأمر الله بعد ذلك.

* توفى بدمشق الأمير أبو شجاع فاتك الأخشيد وكان نائب سلطان مصر على الشام وهو غير فاتك ممدوح المتنبى، كما توفى بدمشق الأمير صالح العقيلى وهو آخر من ولى دمشق من قبل الاخشيد.

* توفى أبو عبدالله محمد بن الحسن العلوى الطالبى وكان قد أعلن عن حقه فى الامامة وتلقب بالمهدى لدين الله وانتهت ثورته بوفاته مسموماً.

سنة ٣٦٠ هجرية

استهلت السنة بيوم الجمعة الموافق ٤ نوفمبر ٩٧٠م.

* فى الأول من المحرم أصابت الخليفة المطيع العباسى سكتة ثقل بسببها لسانه واسترخى جانبه الأيمن.

* انقضى ستة عشر شهراً منذ دخلت مصر فى حكم الفاطميين وتولى عليها جوهر الصقلى من قبل المعز لدين الله الفاطمى.

---

٥٥ : شنوده البطرك ٨٥٩/٨٨٠م

وبدا ان يدبر تدبيرا على القوم الذين اثارو الفتن بارض مصر ومدينة اسكندرية. ولما علم ان معهم بعض بلاد مصر انفذ الى هناك مقدما من جيشه وصحبته خيلا مقاتلة ورجالة [مشاة] تمشى بين ايديهم مقاتلة ايضا، وانفذ في البحر مراكب اسطول فيها خلق كثير من الرجال المقاتلين، وسارو اليهم، وكانو باعمال بنا وابوصير من الوجه البحرى من ارض مصر بين هاتين الناحيتين نزولا [مرابطين]، فقتل اكثرهم بالسيف وغرق فى البحر

١٠٢٥، وبموته بدأ العد التنازلى لسقوط امبراطورية الروم. فقد بدأت بوادر الشيخوخة تظهر بسرعة على كافة الاحوال فيها ، وبدأ الطالع فى سمائها بنذر اقتراب نهايتها، ليتخلق على أشلائها امبراطورية جديدة لشعب جديد. فلقد شهد النصف الثانى من القرن الحادى عشر عدة أزمات فى الداخل وهزائم فى الخارج، وعجزت الامبراطورية عن مواجهة هذه التحديات، وعندما تعجز الامبراطوريات عن مواجهة مثل هذه

---

* أغار القرامطة بقيادة الحسن القرمطى على الشام وحاصروا دمشق وهزموا القائد الفاطمى ونائب دمشق جعفر بن فلاح الذى قتل فى المعركة واستولوا على دمشق وولوا عليها ظالم بن موهوب.

* عقدت مصالحة بين أبى المعالى سعد الدولة بن سيف الدولة الحمدانى وقرعويه غلام أبيه الذى كان قد ثار عليه وأعلنا الولاء للمعز الفاطمى.

* أضاف الفاطميون إلى صيغة الأذان التقليدية جملة حى على خير العمل.

* أمر جوهر الصقلى بحفر خندق حول القاهرة بعد أن هاجم القرامطة مدينة السويس إستعداداً للالتقاء بهم.

* أصبح من المواسم المقررة منذ حكم السلطان معز الدولة ببغداد الاحتفال بعيد يوم الغدير فى ١٨ ذى الحجة فضلا عن يوم عاشوراء فى العاشر من المحرم ويحيونه كالعادة بالنواح واللطم والبكاء.

سنة ٣٦١ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الثلاثاء ٢٤ أكتوبر ٩٧١م.

* فرغ جوهر الصقلى من بناء الجامع الأزهر فى رمضان من هذه السنة، وبدأ الخليفة المعز

[النيل] كثير، ومن هرب منهم وطلب الاسطول اخدوه الرجال الذين فيه وهم النفاطين احرقوه بالنار بين سندفا والمحلة، حتى ان من كثرة ما احرقوه النفاطين بالنار احترق بعض حوانيت المحلة وفيها بضايع التجار. وافتقر كثير من الاغنيا فى ذلك اليوم واباد الله اوليك الكفرة ومن فضل منهم وهرب التجا الى البحيرة ولم يقدر يعود لان مراكب النفط كانت على المعادى [المعديات] نزولا على المخايض.

التحديات فان العمر الافتراضى لها يكون قد أوشك على الانتهاء.

فعلى الصعيد الداخلي زادت حدة الصراع بين الحزب البيروقراطى الحاكم أو حزب القلم ـ كما أطلق عليه ـ وبين أرباب السيف أو الحزب الاقطاعي العسكرى؛ وكان الحزب البيروقراطى هو حزب البلاط ورجال القصر، وعشيقات الاباطرة، ووصيفات زوجاتهم، وأنصار البلاط من الأدباء والفلاسفة والكتاب العاملين بالقلم؛ وكان هذا الحزب يتركز في العاصمة؛ ويستمد قوته من

لدين الله الفاطمي رحلته التاريخية إلى مصر من المنصورية بتونس فى أواخر شهر شعبان ولحق به رجاله وعماله وأهل بيته.

* أغار الامبراطور البيزنطي زيمنسكيس الأول (يسميه العرب ابن الشمشقيق) على الرها ونواحها حتى بلغت قواته نصيبين وديار بكر فسبوا وغنموا وقتلوا وأحرقوا وخربوا ما وصلت إليه أيديهم.

* استعمل الخليفة الفاطمي المعز لدين الله قبل أن يبدأ رحلته إلى مصر: بلكين بن زيرى الصنهاجي على أفريقية، وعبدالله بن يخلف الكتاني على طرابلس، وأقر أبا القاسم الحسن بن على الكلبي على صقلية.

* فى يوم الجمعة مستهل ربيع الأول إشتد القتال على باب مدينة القاهرة الجديدة بين القرامطة وعلى رأسهم حسن الأعصم القرمطى والفاطميون وعليهم جوهر الصقلى وبعد يومين إنهزم القرامطة فارتدوا نحو السويس.

*أغار بنو هلال على قافلة الحج المصرى ونهبوا وقتلوا ولم يسلم منهم سوى قلة.

* توفى فى هذه السنة الزعيم القرمطى أبو القاسم سعيد بن أبى سعيد الجنابى فلم يبق من أبناء أبى سعيد سوى يوسف أخى أبى القاسم الذى تولى زعامة القرامطة من بعده مجلس من ستة حتى لا يستبد أحد منهم بشئ دون الآخرين.

ولما كـــان هذا، ظهـــر في يوم حـــريق المحلة وحوانيتها سر عجيب يجب ان نظهره للمومنين لعظم توكلهم على الله الذى يحفظ اصفياه ولا يدعهم ان يرو الفساد وينجيهم في زمان الغضب، كان في ذلك الموضع تاجرين متجاورين احدهما له مال كثير ولم يكن يرحم المستورين والفقرا، والاخر رحوم جيد وكلما يربحه يدفعه للبيع والمستورين والايتام، فلما حاط النار بالحوانيت الى

ادارة القصر التى سيطرت على الاباطرة منذ موت باسيليوس الثانى وحتى سقوط الاسرة المقدونية. وكان حزبا ضعيفا، قصير النظر، ينظر الى مصالح الامبراطورية من خلال مصالحه الخاصة، ويكثر فيه الانتهازيون البيروقواطيون، الذين لا يريدون لأحد أن ينافسهم في سلطاتهم، خاصة لو كان أقوى منهم، حتى ولو كان في ذلك خسارة للامبراطورية. وكان هذا الحزب يرى أن رسالة الامبراطورية الخالدة هي في المقام الأول قبل كل

سنة ٣٦٢ هجرية

استهلت السنة بيوم السبت الموافق ١٢ أكتوبر ٩٧٢م.

* دخل الخليفة المعز الفاطمى مدينة الأسكندرية فى شهر شعبان من السنة فتلقاه قاضى مصر أبو طاهر الذهلى والأعيان وتابع سيره إلى الجيزة وعبر النيل إلى مدينته الجديدة المسماة القاهرة فى الثامن من رمضان وقد زينت أحسن زينة فلما دخل القصر خر ساجداً وصلى ركعتين.

* إنهارت المعاقل العربية الإسلامية فى إقليم دوفينيه الفرنسى بعد سلسلة من الغارات عليها إتخذت الطابع الصليبى تزعمها اسقف دير كلونى.

* تجدد القتال بين البيزنطيين وأمير الموصل أبى تغلب هبة الله إبن ناصر الدولة الحمدانى فاستعد أبى تغلب لهذه المواجهة وأوقع بالقوات البيزنطية ووقع قائدها الدمستق فى أسره.

* أخذ الحسن الأعصم زعيم القرامطة فى الاستعداد لغزو مصر للمرة الثانية بعد أن أخمد ثورة أبناء عمه فى البحرين فسار إلى الشام واسترد أكثر البلاد وكان هذا من أسباب تعجيل المعز بالقدوم إلى مصر.

* نشبت عدة ثورات فى أفريقية والمغرب على نائب بلكين بن زيرى شملت باغية وتاهرت وتلمسان.

مـخـازن التـاجرين فـاحـرق جـمـيـعـهـم، وان الرب المتكلم على لسـان داوود حيث يقـول: طوبى لمن يرحم الفـقـيـر والمسكين في يوم السـو ينجيـه الرب. ويقـول ايضـا: لم ارا صـديقا قط رفضـه الرب، فنجا الرب جـمـيـع مـا لهـذا الرجل الرحـوم من النار ولم يحترق له شي بالجملة، واما الغنى الذى كان ليس فيـه رحـمـة تسلط النار على جميع مـاله وصـار غناه مثل التراب للريح. وكلمن نظر هذا الامر العجيب

شئ رسالة فكر وفن وحضارة. وليست رسالة حروب وقتال.

أما الحزب الاقطاعي العسكرى، فـقـد كـان ينظر باحتـقـار الى أرباب القلم ويعـزى اليـهـم الازمات بسـبب سـيطرتهم على العـرش وعلى من يجلس عليـه، فـهـم الذين يختـارون الاباطرة، وهم الذين يدبرون المؤامرات للتخلص منهم، وأن حال الامبراطورية لن ينصلح الا اذا تولى رجـال أقـويـاء وعسكريون زمام الحكم. وكان الحزب الاقطاعي العسكرى يتكون من كـبـار الاقطاعيين من رجال الجيش -Magna

* ولد بخوارزم في ذى الحجة من هذه السنة العالم الموسوعى أبو ريحان البيرونى مؤلف الاثار الباقية وتاريخ الهند وغيرها.

* توفى من رجال الحكم فى هذه السنة: أمير صقلية أبو الحسين أحمد ابن الحسن الكلبى وهو الذى غزا أرض إيطاليا وأحرق الاسطول البـيزنطى إبان حكم أبيه وخلفه بعد وفاته فترة، وفيها توفى جودر الخادم أحد مؤسسى الدولة الفاطمية بشمال أفريقية وكان لقبه مولى أمير المؤمنين، واليه ينسب حى الجودرية بالقاهرة، وفيها توفى الوزير أبو الفضل الشيرازى توفى فى سجن عز الدولة البويهى عن ٥٩ عاماً، وكان قد وزر لأبيه معز الدولة.

* ممن توفى من رجال الأدب فى هذه السنة: الشاعر ابن هانى الأندلسى أشهر شعراء الأندلس والمغرب قتل غيلة وهو فى طريقه إلى مصر فى ركب الخليفة المعز عن ٣٦ عاماً، وله ديوان شعر مطبوع متداول

سنة ٣٦٣ هجرية

وافق مستهل المحرم يوم الخميس ٢ أكتوبر ٩٧٣م.

* خلع الخليفة العباسى المطيع لله نفسه ببغداد فى يوم الثالث عشر من ذى القعدة بعد أن إزدادت علته وثقل لسانه وتعذرت حركته.

مجد الله سبحنه، حتى ان كثير جعلو توكلهم فى ذلك الوقت على الذى يخلص المتوكلين عليه.

ومن بعد ذلك عاد مقدم الجيش الى مصر واسلم الله فى يديه المداجة وقتلهم بالسيف، ومن بقى منهم انهزم فى الجبال الى الصعيد ودرسهم مثل النورج على الاجران، وكلما نهبوه وملكوه اخذ منهم وملكه. وانتقم الرب للديارات التى اخربوها والابا القديسين الاطهار الذين سفكو دماهم والعذارى الذين افسدوهم واظهر فيهم

١١، الذين يسيطرون على الاقاليم الزراعية التى تأتى منها الغلال والرجال؛ وكان لهم أتباع مسلحون. وكان الاقطاع قد بدأ يستشرى فى الولايات الاسيوية منذ القرن العاشر الميلادى، عندما بدأت الضرائب تثقل كواهل صغار المزارعين، والى جانب الشعور بعدم الأمان، مما شجع صغار الملاك على التنازل طواعيه عن حيازاتهم الزراعية الصغيرة، لتدخل فى أملاك أحد الشخصيات العسكرية الاقطاعية، مقابل أن يدخل المتنازلون فى خدمة سيدهم الاقطاعى

---

* بويع بالخلافة فى بغداد أبو الفضل عبدالكريم ابن الخليفة المطيع لله على أثر خلع نفسه ولقب بالطائع لله وله من العمر ٤٦ عاماً.

* زال خطر القرامطة عن الشرق الأوسط بعد ارتداد الحسن الاعصم القرمطى بقواته واستعادة الفاطميين لبلاد الشام.

* استولى البيزنطيون على مدينة نصيبين واستباحوا وقتلوا وسلبوا وجاءت جموع من أهلها إلى بغداد مستنفرين الناس فى المساجد وسارت جماهير ثائرة إلى قصر الخلافة واقتلعت بعض شبابيكه إعلاناً عن سخطهم عليه وسار وفد من رجال العلم إلى السلطان عز الدولة الذى جهز جيشاً من المتطوعة التقوا بمقدمة الروم وأسروا أميرهم وجماعة من بطاريقهم وقوادهم.

* أبطل فى بغداد ما كان تجرى عليه العادة فى يوم عاشوراء بسبب حروب الروم وذلك بفضل الحاجب سبكتكين وكان سنياً.

* جعل من راتب الوزير الناصح ابن بقية ألف رطل من الثلج فى اليوم غير ألف شمعة فى الشهر.

* عزل عن نيابة الشام ظالم بن موهب وتولاها جيش بن الصمصامة.

عجايبه، وتم فيهم قول النبي اوسيا اذ يقول: شرهم الان ذكر امام الرب واحاط بهم افكار قلوبهم وكانو امام وجهي. وامنت ارض مصر وفرح اهلها ومساكينها. فاما ابن المدبر الذى ذكرناه الظالم لم يرجع عن فعله الردى عنا، وهذا كتب الى جميع ارض مصر بان يوخذ من كل واحد خراجين فى تلك السنة، وكل نصراني جزيتين. فعاد الناس الذين بارض مصر فقرا بهذا السبب بامر هذا الانسان، حتى ان الاغنيا لم يجدو الخبز ولا يقدرو

الذى يتعهد بحمايتهم؛ وبذلك أصبح ولاء الاتباع لسيدهم الاقطاعي أقوى من ولائهم للدولة. ومن أسباب تنامى الاقطاع أيضا كثرة السيولة المالية لدى بعض الطبقات العسكرية، وشعورهم بأن الاستثمار فى شراء الأرض هو الا ضمن؛ وكان من نتيجة التكالب على شراء الأرض اختفاء طبقة صغار الملاك واعيان القرى، الذين كانوا يعاونون الادارة المحلية ويمدونها بالمال والرجال، وأصبح السادة الاقطاعيون العسكريون هم الذين يملكون القدرة على امداد

---

* ولد بمعرة النعمان من نواحى حلب الشاعر الفيلسوف الضرير أبو العلاء المعرى (أحمد ابن عبدالله) مؤلف رسالة الغفران وسقط الزند واللزوميات، وفيها ولد عالم القراءات الأندلسى أحمد بن قاسم الاقليشى.

* ممن توفى من رجال العلم فى هذه السنة: القاضى النعمان فقيه وداعية المذهب الاسماعيلى الفاطمى، ومؤلف كتاب دعائم الاسلام وذكر الحلال. والحرام، وكتاب الهمة فى إتباع اداب الأئمة وهو متداول.

* شهدت السنة وفاة الأمير البيزنطى الدمستق فى أسر أبى تغلب الحمدانى صاحب الموصل.

سنة ٣٦٤ هجرية

استهلت السنة بيوم الاثنين الموافق ٢١ سبتمبر ٩٧٤م.

* اشتدت فتنة العيارين من رعاع وحرافيش بغداد وأشعلوا الحرائق فى الأسواق واستفحل أمرهم حتى أخذوا الخفارة على الدروب وركبوا الجند وتلقبوا بالقواد وغلبوا على الأمور.

* سقطت دمشق فى يد ألفتكين التركى فأزال حكم الفاطميين وأعاد الخطبة للخليفة الطائع العباسى.

عليه. وكان جميع الناس فى البلايا من غضبه على الاب البطرك، وطالبه بالخراج الذى عليه عن الاواسى وما يتعلق باسكندرية وبيعة الشهيد مينا بمريوط والديارات، وجزية الرهبان الذى كان قرر عليه اول سنة وهو سبعة الف دينار، وصبر منه على امر عظيم ولم يوفها الا بعد عذاب شديد وضيقة. وكان مستغيث بالله ليرحمه وبيعه وشعبه. وفى هذا كله فكره وحواسه عند الرب الرووف، ولم يضعف قلبه فى هذه الامور الهايلة يوما قط

الدولة بالمال والمتطوعين. ولقد شعر الاباطرة بخطورة اختفاء طبقة صغار المزارعين، وتنامى اخطبوط الاقطاع العسكرى منذ أن أصدر الامبراطور رومانوس الأول عدة قرارات للحد من تزايد الاقطاعات، ووقف بيع الأراضى للاقطاعيين وذلك عام ٩٢٢، وانتهاء بقرار الامبراطور باسيليوس الثانى للحد من الاسر الاقطاعية. وباءت كل هذه المجهودات بالفشل، بل على العكس فان أباطرة القرن الحادى عشر الميلادى ساعدوا على تزايد عدد الاقطاعيين، عندما بدأوا يمنحون حق

---

* استغل عضد الدولة صاحب أصبهان ثورة أهل العراق على ابن عمه عز الدولة بختيار فأوعز لجنده الأتراك بخلعه وقبض عليه ودخل بغداد إلا أن أباه ركن الدولة أنكر عليه فعلته فتراجع مؤقتاً من بغداد.

* ظهر بالمغرب مذنب كبير له ذيل وضوء عظيم فظل طالعاً نحو شهر ثم إختفى.

* ثار خلف بن حسين ومعه جمع من البربر بأفريقية على بلكين بن زيرى نائب المعز إلا انهم هزموا وأخذ خلف إلى القيروان وطيف به على جمل ثم صلب.

* ولد بالبصرة قاضى القضاة المصنف البحاثة أبو الحسن الماوردى مؤلف كتاب الاداب السلطانية فى السياسة وكتاب أدب الدنيا والدين فى الحكم.

* ولد بقرطبة الوزير أبو الحزم جهور بن محمد الذى استقل بقرطبة بعد سقوط الخلافة الأموية بالأندلس.

* فى الثامن والعشرين من المحرم توفى الخليفة العباسى المخلوع المطيع لله عن ٦٣عاماً وهو ابن الخليفة المعتضد أمه أم ولد تسمى مشعلة تولى خلفاً للمستكفى ودامت خلافته ٢٩ سنة فلج فى آخر أيامها.

* ممن توفى فى هذه السنة من رجال الحكم: أمير الزاب بأفريقية أبو على بن غلبون (جعفر

بقوة سيدنا المسيح الذى قال: اطلبو اولا ملكوت الله وبره وهذا كله تزادونه. وكان الرب معه ويخلصه من احزانه يوم بعد يوم ولم يقدر الشيطان ان يحيده او يميله الى سلطانه، ولم تميل جوارحه قط يوما الى شيا منها فى هذا للعالم، وكان لا يقدم اسقفا الا من اصطفاه الله قوما صالحين لا يقدر احد يذكر عنهم ما ينكر. الذى اذكر واحد منهم وهو الاسقف القديس انبا جرجه اسقف القيس الذى فعل افعالا حسنة تقبله بفرح

المنفعة لضياع ومقاطعات تابعة للدولة لبعض الافراد الذين قدموا خدمات هامة للعرش ويعرف ذلك بحق الهبة Pronoia الذى انتشر فى أقاليم الامبراطورية. ولقد رأينا كيف أن الامبراطورة ثيودورا آخر حفيدات الاسرة المقدونية، اختارت تحت الحاح حزب البلاط البيروقراطى شيخاً كهلا من السلك المدنى اسمه ميخائيل ستراتيوتيكوس، والذى لم يكن ينتمى لاسرة معينة أو مميزة؛ وكان ذلك الاختيار بمثابة الشرارة ا لتى أشعلت فتيل الصراع بين أرباب القلم وأرباب

ابن على) وهو بانى مدينة المسيلة بالمغرب، وفيها توفى سبكتكين الحاجب في يوم وفاة الخليفة المطيع.

سنة ٣٦٥ هجرية

وافق مستهل السنة يوم الجمعة ١٠ سبتمبر ٩٧٥م.

* تولى الخلافة الفاطمية بمصر والشام وأفريقية العزيز بالله (نزار) خلفاً لأبيه المعز وله ٢١ سنة.

* سقط حصن فراكسنيه باقليم غاليسيا الفرنسى بعد أن ظل ٨٠ عاماً معقلاً عربياً هاماً فى شرق فرنسا وقسمت ممتلكات العرب حوله على الأشراف والجنود الذين اشتركوا فى هزيمة العرب.

* استمرت المعارك فى أفريقية والمغرب بين بلكين الصنهاجى والزناتية الذين طاردهم حتى مشارف الصحراء فاستولى خزرون الزناتى على سجلماسة وأعلن ولاءه للخليفة الأندلسى.

* غزا أمير صقلية أبو القاسم بن الحسن الكلبى مدينة مسينا فأخلاها أهلها وعبر البوغاز إلى أرض إيطاليا فحاصر مدينة كسنتة وأستولى عليها بالأمان ثم استولى على قلعة جلوا بينما

روحانيا هذا عند وسمه اسقفا، عندما اعلن روح القدس امره لابونا البطرك، فاخذه واراد ان يقبل نصيبه ولم يرد ذلك، الا ان الله تعالى يعطى هذه الدرجة لمن يختاره، فاظهر للاب البطرك انبا شنوده فى المنام ان يصلحه اسقفا، فامن بما راى واخذه قهرا.

ونحن ايضا نذكر لكم عجوبة اخرى لا يجب علينا ان نخفيها، انا كنا قد ذكرنا ذلك الكافر

السيف، ذلك الصراع هو أهم ما يميز تاريخ دولة الروم فى الفترة ما بين ١٠٢٥ ـ ١٠٥٧م. فلقد رد الاقطاعيون العسكريون على ذلك الاختيار بوقف امداد الجيش بالمتطوعين من الفلاحين التابعين لهم. ونتج عن ذلك نقص كبير فى أعداد قوات الجيش؛ وفى محاولة لسد هذا النقص، لجأ الحزب البيروقراطى الى سد العجز بالجنود المرتزقة من كافة القوميات التى لا ولاء لها الا لرواتبها، والتى كلفت خزانة الدولة نفقات فوق طاقتها؛ فضلا عن أن بعض هؤلاء

تجول أخوه القاسم بالأسطول حذاء شواطئ قلوبرية (كلابريا) فغنم غنائم كثيرة وعاد وأخوه إلى مسينا.

* ثار القائد البيزنطى سقلاروس وأعلن الخلاف واستظهر بابى تغلب الحمدانى وصاهره.

* توفى فى يوم الجمعة ١٧ ربيع أول بمدينة القاهرة الخليفة الفاطمى المعز لدين الله عن ٤٦ سنة ودام حكمه ٢٣ سنة و١٦ شهر منها ثلاث سنين بمصر.

سنة ٣٦٦ هجرية

استهلت السنة بيوم الأربعاء الموافق ١٣ أغسطس ٩٧٦م.

* تولى عرش السامانيين الملك الرضى نوح الثانى بن منصور وله من العمر ١٣ سنة خلفاً لأبيه الملك السعيد منصور الأول.

* تزوجت إبنة السلطان عز الدولة البويهى شاه زمان من الخليفة الطائع بالله على صداق مقداره مائة ألف دينار.

* استعاد أبو المعالى شريف الحمدانى مدينة حلب بعد حصارها واستئمان بكجور الذى ولاه على حمص فعمرها.

* قبض عضد الدولة على وزير أبيه الفتح ابن العميد وسمل عينيه وجدع أنفه واستصفى أمواله.

الجنود المرتزقة كان ينتمى الى مذاهب دينية طالما اضطهدتها الدولة،وكان البعض الآخر من قوميات تحمل فى نفسها غلا لدولة الروم وتتمنى زوالها لما أصاب بلادهم من جراء سطوتها.

وخلال هذا الصراع الداخلى بين أرباب السيف والقلم، انتهزت الكنيسة الفرصة، وزجت بنفسها فى ذلك الصراع، فقد كان بطاركتها يهدفون الى أن يكون البطريرك امبراطورا، والامبراطور بطريركا عملا بنظرية السيفين، التى كانت تتبناها الكنيسة الكاثوليكية. وفى نفس الوقت

اصطفن ابن اندونه المصرى الذى صار وعا للشيطان فى افكار واضطهاده للاخوة بنى المعمودية، واميرا اسمه يحى ابن عبدالله اشر منه، فبدا ان يعمل السو مثل ابيه، وصار يسعى بالابا الرهبان وثبت عليهم الجزية. وكان ابونا يساله ان يقصر عن ذكر الرهبان امام الامير إذ كان كاتبه، ولم يقبل سواله ولم يكف عن فعله السو، فانتقم الرب لاصفياه منه، وطلعت فى كفه الايمن بثرة الذى يمسك بها القلم ويكتب النميمة والسو على

---

* تولى إمار الأندلس الخليفة الأموى أبو الوليد هشام الثانى المؤيد على أثر وفاة أبيه الحكم الثانى.

* شهدت السنة وفاة ثلاثة من سلاطين الدولة الاسلامية، ففى أقصى المشرق توفى الملك السديد منصور الأول بن نوح السامانى وكان على بلاد ماوراء النهر وخراسان، وفيها توفى ركن الدولة البويهى (الحسن بن بوية) عن نيف وسبعين حكم منها بلاد فارس نحواً من ٤٤ سنة، وفيها توفى (٢ صفر) فى أقصى المغرب الخليفة الأموى الأندلسى أبو مطرف الحكم الثانى المستنصر بن عبدالرحمن الناصر، كما توفى بالرملة الزعيم القرمطى الحسن الأعصم بعد فشل غزوة مصر.

* ممن توفى من رجال العلم فى هذه السنة: القاضى المصرى ابن حيوية عن نحو التسعين.

سنة ٣٦٧ هجرية

استهلت السنة بيوم الأحد الموافق ١٩ أغسطس ٩٧٧م.

* بدأت فى هذه السنة نواة الامبراطورية الغزنوية بأفغانستان الحالية بعد إستقلال سبكتكين بغزنة وما حولها.

ابابنا الرهبان وصارت خراجا [دمل]، فاكلت كفه وذراعه جميعا حتى قطعت الاطبا ذراعه. فلما علم انه اذا عاش من بعد قطع ذراعه يكون فضيحة عظيمة منهم من قطعة ومات موتة سو، كما قال اشعيا النبى: «الويل لمن يكتب الشر ويحيد عن احكام الضعفا ويخطف احكام المتواضعين فى الشعب». فلما قبل هذا الجاحد هذا الانتقام من الرب بحق، ولم يقصر ابن المدبر عن افعاله الردية، مثل فرعون فى زمانه وبخاص على الابا[ء]

استغلت الكنيسة الكاثوليكية فوضى الصراع الاجتماعى فى القسطنطينية لتشن الحرب على الكنيسة الارثوذوكسية، التى كانت تعتبرها كنيسة مارقة، مطرودة من رحمتها؛ ولذلك عمل بابوات روما على زيادة آلام الدولة الرومية بالضغط على جروحها، وذلك بتأليب الشعوب التابعة لها ـ سواء فى شرق أوروبا أو البلقان أو جنوب روسيا للتمرد عليها، فحرضت الكرواتيين، البلغار، والصرب للقيام بحركات طالبت بالانفصال عنها.

---

* سير الخليفة العزيز بالله الفاطمى باديس بن زيرى الصنهاجي أميراً على الموسم ليحج بالناس وكانت الخطبة للعزيز بمكة.

* دخل عضد الدولة أمير فارس بغداد وخطب له على منابرها بعد أن أخرج منها ابن عمه عز الدولة بختيار ملتجئاً إلى الموصل.

* أقال الخليفة الأندلسى هشام المؤيد بالله وزيره القوى جعفر المصحفى وقبض على أهله وأتباعه وتحفظ على أموالهم.

* جرت معركة فاصلة فى ١٨ شوال من السنة عند قصر الحصن من نواحى تكريت بنى عضد الدولة وابن عمه عز الدولة بختيار ومعه حليفه أبو تغلب الحمدانى فأنهزم وأسر بختيار وفى الثالث عشر من ذى القعدة سار عضد الدولة إلى الموصل وملكها من صاحبها أبى تغلب الذى جلا عنها.

* ممن ولد فى هذه السنة الفقيه المعتزلى ابن مهر يزد، وأمير ديار بكر نصر الدولة بن مروان الذى دام حكمه لها إحدى وخمسين سنة.

* توفى فى هذه السنة سلطان العراق البويهى عز الدولة بختيار بن معز الدولة عن ٣٦ سنة وكان قد خلف أباه قبل عامين ودخل فى نزاع مع ابن عمه عضد الدولة الذى هزمه وأسره ثم أمر بقتله.

خطر النورمان وتزايد قوة المدن الايطالية:

وفى الوقت الذى كان فيه قوى الامبراطورية تخور، كانت القوة البحرية لبعض المدن الايطالية تتزايد؛ اذ أصبحت جنوة والبندقية تمتلكان أساطيل بحرية تحتكر التجارة، وتكتشف طرقا جديدة كانت بداية لثورة فى المعرفة البحرية والتجارية، هذه الثورة قادت الى نهضة مدن شمال ايطاليا، فقد أدى النشاط التجارى الى تقدم الحضارة والحياة الفكرية فى هذه المدن، وساعدها على

الرهبان الذين فى البرارى ومطالبته لهم بما لا يقدروا عليه، الى ان لم يقدر احدهم يصبر فسقطو فى ايدى اسر النكا [اسر الشهوة] وتزوجو وبعدو عن يروشليم المقدسة التى هى برية ابو مقار، وابونا ينظر هذا وقلبه يحترق. وهو مواصل الطلب على الابا وهو يسال الرب ان لا يميته حتى ينظرخلاصهم من هذا الجهاد. وان الله محب البشر السامع لخايفيه صنع عجبا وانتقم لمختاريه من ظالمهم وقطع تنهدهم.

---

* أمر عضد الدولة بالقاء الوزير ابن بقية تحت أقدام الفيلة فقتلته بعد أن كان قد سمله ثم أمر به فصلب على الجسر وهو الذى نظم فيه الانبارى مرثيته المشهورة التى مطلعها: علو فى الحياة وفى الممات.

* ممن توفى فى هذه السنة من علماء الجغرافيا أبو القاسم محمد بن حوقل الذى دامت رحلاته ٢٨ سنة شملت المغرب وصقلية والأندلس و مؤلف المسالك والممالك وهو متداول.

سنة ٣٦٨ هجرية

استهلت السنة بيوم الجمعة الموافق ١٩ أغصطس ٩٧٨م.

* أمر الخليفة الطائع أن تضرب الطبول ثلاث مرات فى اليوم أمام باب السلطان عضد الدولة وأن يخطب له على منابر بغداد وكلاهما تقليدان لم يكونا إلا للخليفة.

* استلب رجل من الرعاع يسمى قسام الحارثى إمارة دمشق وكان ترابا ونجح فى رد واليين أرسلهما الخليفة العزيز الفاطمى.

* وضع المنصور أبن أبى عامر أساس مدينة الزهراء وجعلها عاصمة لملكه بدلا من قرطبة وأقام قصره فى سره المدينة.

وهذا ما جرى انه لما افتقد الرب الوالى الواصل من خراسان من قبل الملك الى مصر واباد المنافقين، وجا عوضه رجلا اخر ايضا شجاعا قويا مخوفا خاف منه ولاة مصر وصارو معه مثل عصفور فى كف طفل، ولم يقدر احد ان يقاوم امره لا قاضى ولا والى ولا صاحب ديوان، ووقعت مخافته فى نفوس الكبار والصغار حتى اخوه شقيقه، واذا نظر الى انسان استكبر نهب ماله واذله وينفذ قوما كتير الى مواضع النفى سرا ويفرقهم

ذلك الاستقرار الذى تمتعت به غرب أوروبا فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر، فبفضل النشاط التجارى زاد اتصال هذه المدن بالمشرق الاسلامى، وباتت تتطلع لاستيعاب ممتلكات دولة الروم عن طريق السيطرة على اقتصادها. وكانت الكنيسة الكاثوليكية تبارك ذلك.

أما بالنسبة لممتلكات الروم فى جنوب ايطاليا وصقلية، فقد أصبحت تحت رحمة النورمان. ويرجع تاريخ النورمان الى حوالى عام ١٠١٩م عندما مر أربعون حاجا نورمانديا

---

* مد عضد الدولة أملاكه بعد إستيلاءه على بغداد إلى الموصل وميافارقى وآمد بينما خرج صاحب الموصل أبو تغلب الحمدانى من جهه إلى الشام قاصداً أن يستجير بالخليفة الفاطمى فى مصر.

* لقب الخليفة العزيز الفاطمى وزيره يعقوب بن كلس (وكان يهودياً وأسلم) بالوزير الأجل.

* ولد فى هذه السنة بقرطبة الخليفة الأندلسى عبدالرحمن الرابع حفيد عبدالرحمن الناصر والذى يعرف بلقبه المرتضى الأموى.

* توفى بدمشق أبو القاسم العقيقى صاحب المنشئات وهو الذى إشترى السلطان بيبرس بعد ذلك داره وبناها داراً له ومدرسة وتربة دفن فيها وتعرف بالظاهرية.

سنة ٣٦٩ هجرية

وافق هلال المحرم من السنة يوم الجمعة ٩ أغسطس ٩٧٨م.

* تزوج الخليفة الطائع من إبنة عضد الدولة على صداق مقداره مئتا ألف دينار، وكان القاضى التنوخى وكيلا عن الخليفة واللغوى أبو على الفارسى عن عضد الدولة، وغرض عضد الدولة أن تلد إبنته ولداً يجعله ولياً لعهد الخلافة.

من نساهم واولادهم، وفعل ذلك باخيه شقيقه بغير حشمة، فاطاعه كل احد بخوف ورعدة. فلما ظهر له فعل ابن المدبر الذميم امر باحضاره من الديوان بخزى وفضيحة واجلس عوضا منه رجلا خايفا على نفسه معروف بالخير في دين الاسلام، فتولا خراج ارض مصر وبدا ان يفعل خير حتى انه جعل كل احد يدعو له وطرح الله في قلبه ان يفعل خير مع الرهبان وخاصة من امر الجزية، وكانو يباركو الله والاب البطرك ليلا ونهارا ولا يفترو من الشكر

خلال عودتهم من الحج الى بيت المقدس، بجنوب ايطاليا وهم فى طريقهم الى وطنهم فى شمال فرنسا، وراعهم ما شاهدوه، وما حل بهذه المناطق من فوضى وخراب تحت حكم الروم؛ فعقدوا العزم على الهجرة من بلادهم الى هذه المناطق واستيطانها. فبدأوا يتسللون من موطنهم فى شمال فرنسا الى هذه المناطق فى جنوب ايطاليا وصقلية، وبدأوا فى أول الأمر يعملون كجنود مرتزقة فى الحاميات الرومية هناك، حتى تكاثر عددهم وأصبحوا قوة مميزة. وفى سنة ١٠٥٧

---

* نشبت فتنة بين عامة شيراز من المسلمين والمجوس ونهبت دور المجوس فقضى عليها بشدة.

* تولى وزارة عضد الدولة نصر بن هرون وكان نصرانياً خلفاً للمطهر بن عبدالله الذى قتل فى حرب صاحب البطيحة فأمر نصراً بتعمير ما خرب من البيع والاديرة أسوة بالمساجد.

* التجأ القائد البيزنطي المسمى فى المراجع العربية « ورد بن منير» إلى عضد الدولة باذلا طاعته مستنصراً إياه فى قتال منافسيه على عرش الروم وكان قد صاهر من قبل أبى تغلب الحمدانى للغرض نفسه.

* توفى الطبيب ابن زهرون (أبو الحسن ثابت بن إبراهيم الصابى) عم أبى إسحق الصابى الكاتب وذلك عن ٩٦ عاماً من المؤلفات المنسوبة إليه كتاب جوابات ومسائل فى الطب.

سنة ٣٧٠ هجرية

استهلت السنة بيوم السبت الموافق ١٧ يونية ٩٨٠م.

* أنفذ الخليفة العزيز بالله الفاطمى قائده بلتكين على رأس جيش إلى الشام فهزم المفرج بن جراح الذى ملك بعض أنحاء فلسطين وعزل قساما الحارثى عن دمشق وحمله معه إلى القاهرة.

لله على نعمه السابغة عليهم، وعادو الى الديارات مسرعين بقلوب طيبة موضع الاغذية الروحانية، وكانو يشكرو الله لجمع الراعى الحقيقى المسيح لهم وانقاذهم من ايدى الخاطف ابليس. ولما انزل الله غضبه على هذا الظالم، وانه لما عزل عن الخراج امر الوالى ان يعرا [يعرى] من الثياب التى كانت عليه، وان يلبس ثوب صوف خشن لا يلبسه عبد، ففعل به ذلك وحبس فى موضع ضيق لا يقدر ان يلتفت فيه يمنة ولا يسرة، وجعلت موونته لا تكفيه

اختاروا قائدا وزعيما لهم هو روبرت جيسكار Robert Guiscard الذى سرعان ما دان له كل الجنود النورمان بالولاء؛ وبدأ روبرت وابنه بوهيمند يقوضان الوجود الرومى فى صقلية وجنوب ايطاليا لاقامة دولة نورماندية على أشلائها؛ ولم يكتف جيسكار بذلك، بل تطلع فى أحلامه الى الاستيلاء على القسطنطينية نفسها بقوة السلاح.

خطر القبائل الاسيوية والسلاجقة:

وبينما كانت أوروبا الغربية تنعم بالاستقرار بعد انحسار غارات

---

* خرج الخليفة الطائع للقاء عضد الدولة بعد عودته من همذان عند دخوله بغداد ولم يكن من عادة الخليفة أن يخرج لأحد من الأمراء مما يدل على إنحطاط هيبة الخلافة فى عهد الطائع.

* ولد بمصر الوزير المصنف أبو القاسم المغربى تولى وزارته مشرف الدولة البويهى ومؤلف كتاب السياسة وهو مطبوع.

* شهدت هذه السنة مولد الفيلسوف الطبيب الشيخ الرئيس ابن سينا (الحسين بن عبدالله) بقرية أفشنة بالقرب من مدينة بخارى، أبوه من مدينة بلخ وأمه تسمى ستارة من أفشنة.

سنة ٣٧١ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الخميس ٧ يوليو ٩٨١م.

* فى الرابع من المحرم جرت فى شمال الأندلس المعركة الحاسمة بين المنصور ابن أبى عامر من ناحية وبين القائد غالب بن عبد الرحمن وحليفه راميرو ملك ليون الأسبانى وفيها هزم وصرع غالب كما قتل عدد من فرسان النصارى منهم راميرو من أمراء البشكنس.

* فى ذى القعدة من هذه السنة خرج المكن بردويل (بلدوين) وحاصر جزيرة مالطة

الفـايكنج والهنغـاريين؛ وبعـد أن انتظمت أوضـاعـهـا السـياسـية والاجتماعية والدينية، وما تبع ذلك من تقدم ونهضة، كانت الامبراطورية الرومية على وشك الدخول فى دوامة الغزوات الاسيوية عليها؛ فما أن اعتلى اسحق كومنين العرش عام ١٠٥٧، حتى لأح فى الافق هذا الخطر الذى يذكرنا بخطر هجوم الجرمان على الامبراطورية الرومانية فى القرن الرابع الميلادى، مما أدى الى سقوطها فى القرن الخامس. ولقد كانت قبائل من الرعاة الاسيويين تسكن سهل آسيا

وهو مغلغل بالحديد، فاذا كان فى ايام الصيف اخرج منه وجعل فى حرارة الشمس ويدورون وجهة اليها حيث دارت من الغداة فى كل نهار الى الساعة التاسعة منه، فدفعات كثيرة يغشى عليه حتى يسقط الى الارض ويصير كالميت، فيضربوه فى اوداجه ويقيموه ويجلسوه فى الشمس قهرا. واقام فى هذا العذاب عدة شهور، وكلمن كان يذكر شره وسو فعله وما ناله الان يتعجبو ويمجدو الله ويقولو كقول داوود: «رايت المنافق يتعالا مثل

فتجهز أبو القاسم الكلبى أمير صقلية فخرج بإسطوله غير إنه رأى أن يرجع مما أطمع فيه بولدوين.

* انفذ السلطان عضد الدولة القاضى ابن الباقلانى إلى القسطنطينية برسالة إلى الامبراطور البيزنطى باسيل الثانى رداً على رسالة منه إلى السلطان فى بغداد.

* أمر عضد الدولة بالقبض على القاضى التنوخى وعزله عن جميع مناصبه لأمر أخذه عليه، وفى الوقت نفسه أطلق كاتبه الأديب أبا إسحق الصابى بعد أن سجنه أربع سنين.

* توفى من رجال الحكم: الحسن بن الأخشيد وكان نائباً لأخيه على إمارة الشام حتى سقوطها فى يد الفاطميين، والأمير الزيادى أبو الجيش إسحق ابن إبراهيم توفى بزبيد من اليمن.

سنة ٣٧٢ هجرية

استهلت السنة بيوم الاثنين الموافق ٢٦ يونية ٩٨٢م.

* فى العشرين من المحرم جرت معركة برية وبحرية فى مياه إيطاليا الجنوبية بين أوتو الثانى إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة وأمير صقلية أبى القاسم العلوى وكان الامبراطور قد إستعاد

ارز لبنان فجزته فلم يكن وطلبته فلم اجده فى مكانه».

ومن بعد ايام يسيرة انفذ الملك الى ارض مصر واليا على الخراج وكان رجلا صالحا خيرا، ولما وصل فعل الخير واظهر بفعله خوف الله، وطرح الله فى قلب الوالى بكورة مصر ان يكرمه ويبجله ويوقره على كلمن بمصر فى ذلك الزمان، وقدمه ومضى انسان راهب قديس الى مدينة الملك واستعان بقوم نصارى متصرفين اخيار ليعضدوه

الصفرى الاوسط منذ عصور قديمة، وكان أغلبها ينتمى الى أصول أسيوية تركية. ومنذ القرن السادس الميلادى نجح بعضها فى اقامة مملكة على ضفاف نهر جيحون (نهر الاوكسوس Oxus)، لكن قوات الدولة الاموية التى وصلت الى هذه المناطق فى القرن الثامن الميلادى قضت عليها. وفى العصر العباسى عادت هذه القبائل الى التجمع مرة أخرى، وأقامت عدة ممالك على أطراف الدولة السامانية والدولة الغزنوية، وامتدت هذه الممالك من بعض مناطق

مدينة تارنت فأوقع أبو القاسم بالقوات المسيحية المتحالفة ولم ينج الامبراطور نفسه إلا بمعجزة، وبلغت عدد القتلى وعدد الأسرى عدة آلاف من بينهم عدد من البطارقة والقواد.

* توقف الحج من العراق فى هذه السنة بسبب سيادة الفاطميين على الحجاز والدعاء للخليفة الفاطمى.

* وقعت الحرب بين راميرو الثالث ملك ليون الأسبانى وبين أمير جليقية برمند الذى توج ملكا على البلاد بعد أن أوقع أنصاره الهزيمة بالملك راميرو مما أدى إلى تدخل المنصور ابن أبى عامر.

* تولى إمارة دمشق بكجور التركى خلفاً للقائد الفاطمى بلتكين.

* تولى إمارة صقلية جابر بن أبى القاسم العلوى بعد إستشهاد أبيه.

سنة ٣٧٣ هجرية

الأول من المحرم وافق يوم الجمعة ١٥ يونية ٩٨٣م.

* فى الثانى عشر من المحرم تولى سلطنة العراق وبغداد صمصام الدولة أبو كاليجار المرزبان ابن السلطان عضد الدولة على أثر إعلان وفاته وجاء إليه الخليفة الطائع العباسى معزيا ولقبه تاج الدولة وشمس الملة.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

فيما التمسه، وسال الملك بسبب جزية الرهبان وخراجهم ففعل له ذلك بنعمة الله وكتب له سجلا. ووصل الى مصر ولم يعترض احد من الرهبان بجزية، واطلقو النصارى [للنصارى] ان يعدو اعيادهم ظاهرا علانية. وفرح الوالى بالسجل جدا لاجل صلاحه ورافته بالرهبان، وتمم فى الحال امر الملك، وكان يستشهد لكل احد استشهادات من القرآن: ان من يرفض العالم ويسكن الجبال لا يجب ان يلزم بخراج ولا جزية. وكتب سجلا عن

افغانستان الحالية الى أقليم خراسان شمال ايران، وبدأت هذه الممالك تتأثر بتراث هاتين الدولتين الاسلاميتين، وبدأ الاسلام ينتشر فيها على المذهب السنى، ولما سقطت الدولة السامانية فى نهاية القرن العاشر الميلادى ورثت هذه الممالك تراثها، ومما ساعد على تبلور شخصية هذه الممالك الاسيوية، ظهور زعيم قوى من بين أبنائها، وحد شملها، وعمل على نشر الاسلام فيها، وهذا الزعيم هو سلجوق بن دقاق. ومن الملاحظ أن الاسم الأول لهذا الزعيم مزيج من

---

* لجأ بعض زعماء البربر الصنهاجيين وعلى رأسهم أخوة بلكين بن زيرين (زاوى وجلالة وماكسن) إلى الأندلس ورحب بهم المنصور بن أبى عامر فى قرطبة فقادوا الصوائف ودخلوا أرض جليقية وأوقعوا الهزيمة بأهلها وغنموا شيئاً كثيراً وعادوا إلى قرطبة.

* تحرك القرامطة من هجر إلى مشارف بغداد بعد موت عضد الدولة ثم ارتدوا عنها بعد أن صولحوا على مال.

* خرج المنصور ابن أبى عامر إلى الغزو فدخل مملكة ليون وأوقع بملكها واجتمع له من السبى ٣٠ ألفاً وفيها خرب مدينة فروسة.

* تولى إمارة أفريقية المنصور بن يوسف بلكين بن زيرى الصنهاجى ولقبه الخليفة العزيز عدة العزيز بالله.

* اشتد الغلاء فى العراق ومات خلق فى الطرق جوعاً وبلغ الكُرّ من القمح أربعة الاف درهم.

* فى الثانى عشر من المحرم أعلن وفاة السلطان أبو شجاع عضد الدولة (فنا خسرو) البويهى وكان على فارس بعد عمه عماد الدولة ثم انتزع العراق وبغداد من ابن عمه عز الدولة وهو أول من خوطب بالملك شاهنشاه فى الإسلام وخطب له على منابر بغداد بعد

نفسه يثبت امر الرهبان. وعظمت مسرة الاب البطرك بهذه النعمة لاهتمامه بامر الديارات والرهبان وامور البيع. ومن كثر اهتمامه بالبرية المقدسة، اعنى الاب البطرك، اقام فى بيعة ابو مقار تذكارا جيدا، وهو انه لما ذكر فعل الرب بالرهبان والبيعة عول على بنا صور حصين على البيعة القتاليكية ففعل ذلك ليكون كهفا وحصنا، بعد السيد المسيح، الذى لا يقاوم، وجمع حجارة كثير ولازم العمل حتى كمل بابراجا وجعل فيه مساكنا

التراث الأغريقى الممتزج بالطابع الاسيوى، لأن اسم سلجوق باللغة الاسيوية لهذا الشعب هو تحريف للاسم الاغريقى سليوقوس Seleucus الملك المقدونى الذى أسس أسرة حاكمة امبراطورية فى الشام الصغرى خلال العصر الهللينستى حتى اسقطها الرومان فى النصف الثانى من القرن الأول الميلادى. وفى عام ١٠٣٤ قاد حفيد سلجوق بن دقاق واسمه طغرل بك بن ميكائيل بن سلجوق شعبه للقضاء على الدولة الغزنوية، التى كانت قد تدهورت،

الخليفة وكانت وفاته بالفالج وذلك حسب رواية فى ٨ شوال من السنة السابقة وله من العمر ٤٨ سنة.

* فى ١٣ شعبان من السنة توفى أمير جرجان السلطان مويد الدولة وذلك بعد مدة يسيرة من وفاة عضد الدولة وله ٤٣ سنة، وكان قد تزوج من إبنة عمه معز الدولة وأنفق فى عرسها ٧٠٠ ألف دينار.

* توفى من زعماء العصر فى ٢٣ الحجة أبو الفتوح بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى أمير أفريقية ومؤسس الدولة الصنهاجية بتونس والمغرب وكان قد وليها من قبل المعز الفاطمى حين إنتقل إلى مصر سنة ٣٦١.

* توفى من رجال الحكم فى هذه السنة: نصر بن هرون وزير عضد الدولة مات قتلا على يد شرف الدولة على أثر توليته لانه كان يسئ إليه فى أيام أبيه.

سنة ٣٧٤ هجرية

وافق مستهل المحرم يوم الأربعاء ٤ يونية ٩٨٤م.

* استنجد راميرو الثالث ملك ليون بعد هزيمته من أمير جليقية بالمنصور ابن أبى عامرعلى أن يعترف بطاعته له ولكن لم يلبث راميرو أن توفى فتقدم منافسه طالباً نجدة المنصور فى

وهزم طغرل بك جيش مسعود الغزنوى فى معركة داندافان Danda-quan عام ١٠٤٠م. معلنا قيام دولة السلاجقة الاسلامية، ولم يكن فى مقدور الدولة العباسية الضعيفة التى سيطر عليها البويهيون سوى أن تعلن اعترافها بهذه الدولة عام ١٠٤١م، ثم واصل طغرل بك توسيع فتوحاته فى شمال خراسان، فاستولى على خوارزم، وقزوين، وكرمان، وبلاد الديلم. وفى عام ١٠٥٥م توج فتوحاته بالاستيلاء على تبريز

ومرتفعات فى اقرب مدة، حتى انه كان يعمل مع الفعلة كواحد منهم. وكما كان يعمل وهو اقنوم الدير المقدس كذلك فعل فى تكميل هذا الحصن. وكان هذا الاب شنوده صابر فى كلما يجرى عليه من الشدايد والبلايا ليظفر باجرة ضميره كقول بولس: ان القوة تتم بالضعف. ونزل عليه وجع النقرس فزاد فى الصبر وذكر قول بولس: واذا مرضت فحينيذ انا قوى.

مقابل إعلان طاعته والسماح بحامية إسلامية فى بلاده فأنجده المنصور بجيش اخضع الثائرين عليه.

* أغار القرامطة على البصرة بعد وفاة عضد الدولة فجمع لهم مال أخذوه وأنصرفوا.

* تولى عليان بن ثمال الخفاجى إمارة الكوفة وهو أول من تولاها من بنى ثمال.

* تولى قضاء مصر الفقيه القيروانى ابن حيون وله ٣٤ سنة.

* جرى الصلح بين صمصام الدولة صاحب بغداد وابن عمه فخر الدولة صاحب جرجان.

* توفى بمصر تميم ابن الخليفة المعز الفاطمى عن ٣٧ عاماً ولم يبايع بولاية العهد لانها كانت لأخيه الأصغر نزار الذى عرف بالعزيز بالله، واشتهر منذ حداثته بأنصرافه إلى الأدب.

* توفى على بن كانة قائد السلطان ركن الدولة مات مسموماً بتدبير من الوزير الصاحب بن عباد الذى إستولى على ماله وعلى أعماله.

سنة ٣٧٥ هجرية

أهل شهر المحرم يوم الأحد الموافق ٢٤ مايو ٩٨٥م.

* فى النصف من شهر صفر إقتحم المنصور بن أبى عامر مدينة برشلونة أكبر مدن مملكة

وضعف الاب البطرك ولحقه ضربان في يديه ورجليه وصار اكثر وقته هكذى، حتى انه صار لا يقدر يكمل القداس ولا يحضر في ايام الاعياد من شدة الوجع، وما تخلى مبغض الخير عن نصب الفخاخ ومساعدته لمن ينصبها. وكان بعد كمال الحصن لم يصبر الشيطان واقام له وعا يتكلم فيه شيخ غير نصراني لا مستحق ان يسما يعقوب، صادق قوما من اليهود ومضى الى الوالى الشجاع برقاع كتبها في الاب البطرك والبيع مملوة نمايما

وأذربيجسان. وبذلك فرضت دولة السلاجقة وجودها.

وعلى صعيد آخر بدأت قبائل أسيوية أخرى تنتمى الى نفس الأصل، وتعرف البشناق Pechanges تستقر في وادى الدانوب الادنى، وجنوب غرب روسيا، وبذلك أصبحت المنطقة الممتدة من الدانوب الادنى غربا، الى ما وراء نهر جيحون والدنيبر شرقا، تموج بهذه القبائل الاسيوية التركية الأصل؛ ولقد ساعد على توسعها شرقا أن دولة الروم لم يكن لها حدود ثابتة من ناحية الشرق، بعكس الحال من

أراجون (أرغون) الأسبانية بعد هزيمة أميرها الكونت بوريل فأشاع فيها الدمار والخراب وكان من بين الأسرى نائب بوريل الذى حمل إلى قرطبة.

* بدأ منذ هذه السنة زوال سلطان القرامطة ذلك أن القرامطة أغاروا بزعامة إسحق وجعفر الهجريين وملكا الكوفة وخطبا لشرف الدولة فانفذ إليهم صمصام الدولة جيشين أوقعا بهما الهزيمة فأخليا المدينة.

* استولى الثائران البربريان خزرون بن فلفول الزناتي وزيرى بن عطية على فاس بعد هزيمة المنصور الصنهاجي.

* استولى شرف الدولة على الأهواز ثم على البصرة وكانت لأخيه أبى طاهر تاج الدولة الذى قبض عليه ثم أطلقه.

* وقعت فتنتان في هذه السنة ببغداد واحدة بسبب ضرائب جديدة فرضت على بعض أنواع الثياب، والثانية بين الديلم بزعامة أسفار بن كردويه انتهت بتثبيت حكم صمصام الدولة.

* أفرج صمصام الدولة عن القائد البيزنطى ورد الرومى وشرط عليه إطلاق عدد كبير من أسرى المسلمين وأن ينزل له عن بعض الحصون وأن يمتنع عن شن الغارات على أرض المسلمين.

وكذب، وسلموها الى قوما قريبين من الوالى لكيما ان يعطيهم السلطان ان يستخرجو منه ما ذكروه في رقاعهم كل سنةماية الف دينار. ولم يزال هذا الغير نصرانى واليهود اصدقاه مواصلين ذلك، فلما بلغ الاب البطرك هذا الحال حزن على هذا الشيخ يعقوب وسال الرب فى خلاص نفسه ليلا يغرق في بحار اثامه، ويقول: يا رب لا تجعل الشيطان يهلكه بل نجيه منه ليعرف حقك. وكان يكاتب الاراخنة المصريين بارداعه [بإرداعه] ورجوعه،

ناحية الغرب، حيث كانت مملكة البلغار تقف عازلا بينها وبين قبائل البشناق. ولم يمض وقت طويل حتى تحركت قبائل البشناق تحت زحف فرع آخر من هذه القبائل الاسيوية تعرف بالغز Chuz والكومان، متجهه نحو الأراضى الرومية، ولقد حاولت سلطات القسطنطينية تهدئة الاوضاع سلميا باقامة علاقات تجارية طبيعية مع البشناق؛ بل جندت بعضهم فى جيشها كجنود مرتزقة؛ وفى أول الأمر استجاب البشناق لتلك السياسة، ورضوا أن يقوموا بدور الوسيط

---

* في يوم الخميس ٢٦ ربيع الأول ولد بالقاهرة منصور ابن الخليفة العزيز الفاطمى الذى عرف بالحاكم بأمر الله وتولى الخلافة وهو دون الثانية عشرة من العمر.

* ممن توفى فى هذه السنة من رجال الحكم: جعفر الكلبى أمير صقلية من قبل العزيز الفاطمى فاستقامت أمورها له واجتمع حول قصره فى بلرم (بلرمو) جماعة من الأدباء والعلماء، وفيها توفى الحسن الادريسى آخر أمراء الأدارسة بالمغرب قتل على يد المنصور الصنهاجي، وفيها توفى بزيد الأمير الزبادى عبدالله ابن إسحق بعد حكم قلق دام أربع سنين، وفيها توفى ابن للسلطان مؤيد الدولة فى بغداد فجاء الخليفة الطائع معزيا على غير ماجرى عليه العرف.

سنة ٣٧٦ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الخميس ١٣ مايو ٩٨٦م.

* تجددت الفتن فى بغداد بين الأتراك والديلم بالرغم من الصلح الذى تم بين أبناء عضد الدولة الثلاثة (شرف الدولة صمصام الدولة وأبو النصر) وانتهت باستقرار شرف الدولة فى بغداد واعتقال أخيه صمصام الدولة فى قرية بفارس.

وينفذ الى من يكون من جهته مالا ليقوم بحاله، ويكف عن شره. وكان شره يتضاعف بقوة الشيطان حتى انه كان يفتح فاه بغير خوف الله ويشتم الاب البطرك ويقول كلاما لا ينبغي. فلما نظر الاب انه قد صبر على فعل الشيطان الشرير ومن انطوى اليه من اليهود الكفرة، خاف الاب البطرك قليلا، وكان مخفيا في اعمال الشرق خوفا من الوالي، فلما تم فعلهم طلب الاب البطرك والابا الاساقفة الذين بكورة مصر وكلمن ظفرو به الولاة

التجارى بين الاقاليم الاسيوية الثانية فى شبه جزيرة القرم Crimea وبين التجار الروس والخزر وما جاورهم. وكان الروم مطمئنين لوجود مملكة البلغار كدرع عازل بينهم وبين البشناق. غير أن هذا الوضع تبدل عندما قام الامبراطور يوحنا الزمسكى بغزو مملكة البلغار، وضمها الى حوزة الامبراطورية، ومن ثم لم يعد هناك حاجز فاصل بين حدودها وبين البشناق. فقد أصبح البشناق هم جيرانها، يتعاملون معها وجها لوج، وندا لند؛ وقد أدى ذلك الى

---

* تولى إمارة البطيحة (جنوب العراق) أبو الحسن على بن نصر بعد وفاة أخيه المظفر بعهد منه ولقبه الخليفة مهذب الدولة فحمدت سيرته.

* شهدت هذه السنة وفاة واحد من أشهر علماء الفلك وهو الراصد المحقق أبو الحسين عبدالرحمن بن عمر الصوفى عن ٨٥ عاماً مؤلف كتاب صور الكواكب وهو متداولة وقد بلغ عدد النجوم التى رصدها ١٠٢٢ نجماً، كما توفى الفلكى عبيدالله بن الحسن الملقب غلام زحل مؤلف أحكام النجوم.

* توفى عالم اللغة والنحو أبو على الفارسى (الحسن بن أحمد) فى نحو التسعين من العمر مؤلف كتاب الايضاح والجواهر فى النحو (وقيل بل توفى فى السنة التالية).

سنة ٣٧٧ هجرية

استهلت السنة بيوم الثلاثاء ٣ مايو ٩٨٧م.

* جلس الخليفة الطائع لشرف الدولة جلوسا عاماً ببغداد حضره أعيان الدولة وخلع عليه بعد أن ضربت القباب على شاطئ دجلة وزينت الدور على الجانبين.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

احتكاكهم بها، وهنا طويت صفحة السلام بينهم وبين الدولة الرومية. ففى القرن الحادى عشر عبر البشناق نهر الدانوب ووصلوا الى شاطئه الجنوبى، وتقدموا حتى وصلوا الى مدينة أدرنة Hadrianopolis، بل وصلت طلائعهم الى مشارف القسطنطينية ذاتها، وهناك الحقوا هزيمة مهينة بجيش الامبراطور قسطنطين التاسع مونوماخوس، واضطر لعقد صلح معهم، مقابل ثمن باهظ، وهو منحهم أراضى فى البلقان للاقامة فيها، والانعام على زعمائهم

فى الطريق غرموه المال. وكانت الولاة من الغز ومنظرهم مخوف مبغضين للنصارى، وكانو يصهلو على النسا مثل الخيل ويخطفو اولاد الناس وينجسوهم بغير خوف وينهبو مواشيهم ويذبحوها وياكلونها، واكثر طعامهم لحم الخيل ومداومة الاكل والشرب والفسق، فنظر الرب الرحوم الى سو فعلهم انزل فى قلب الوالى تاديبهم، حتى ان من هيبته ونظرهم اليه وهو يقتل كبارهم وينهب اموالهم فلزمهم خوفه والا كانو يهلكو الناس،

---

* وصلت رسل الامبراطور البيزنطى باسيل الثانى إلى الخليفة العزيز الفاطمى بالقاهرة حاملين الهدايا وطالبين عقد هدنةوكان العزيز قد أعد أسطولاً لغزو الروم فأجابهم واشترط شروطاً منها إنه لا يبقى على أرض الروم أسير من المسلمين وأن يخطب للعزيز فى جامع القسطنطينية كل يوم جمعة فضلا عما يحمل إليه من الهدايا النفيسة ومدة الهدنة ٧ سنين.

* فى الأندلس استولى المنصور ابن أبى عامر على قلمرية (كوليمرا) المطلة على المحيط فى شمال البرتغال دخلها ثم سار إلى مملكة النافار وصد غارة ملكهم سانشو وطارد جيشه حتى عاصمته بنبلونة.

* أخذ المنصور الصنهاجى أمير أفريقية يتحرر من تبعيته للخليفة الفاطمى فسار إلى أنصاره من كتامة وأوقع بهم وخرب عاصمتهم ستيف وقتل داعية الخليفة أبا فهم وسلخ جلده تشفياً فيه.

* توفيت فى هذه السنة الفقيهة الحاسبة ستيتة أمة الواحد بنت القاضى أبى عبيدالله المحاملى وأم القاضى أبى الحسين محمد المحاملى وكانت تحدث وتفتى.

* توفى قسام الحارثى الثائر الذى تزعم جماعة من الرعاع واستولى على دمشق قبل أن يهزمه جيش الخليفة العزيز ويرسله مقيداً إلى القاهرة وفيها توفى فى هذه السنة.

لانهم كانو قد فعلو افعالا منكرة تضيق السيرة عن شرحها وصعوبتها. وكانو الابا الاسافقة من شدة الخوف يتزايو بزى العلمانيين ويغيرو لباسهم ويمشو رجالة [على أرجلهم] بغير دواب حتى يمضو الى [الحاجات] التى يريدوها، وامر هولا يتزايد. وكان الرب قد ستر على الاب البطرك من ترتيب هولا الذين رفعو عليه يعقوب واليهود مثلما قال اشعيا النبى: «بان موامرة الاشرار بغير الناموس سكرو فيه وهلكو الاطهار بكلام الظلم.

بالقاب رومية رفيعة. غير أنه لم يمض وقت طويل حتى عاودت هذه القبائل الزحف على حدود الامبراطورية بعد أن انضم اليها جحافل من أبناء عمومتها من الغز والكومان، والمزيد من البشناق، وحتى بدت امبراطورية الروم بين شقى الرحى، بين مطرقة البشناق وسندان السلاجقة.

العلاقات بين الروم والسلاجقة قبل معركة منزكرت:

فى أول الأمر أغمضت القسطنطينية عيونها عن فتوحات

سنة ٣٧٨ هجرية

وافق هلال المحرم يوم السبت ٢١ إبريل ٩٨٨م.

* أمر السلطان شرف الدولة ببناء مرصد ببغداد تولى العمل فيه الفلكى ابن رستم الكوهى.

* فى الأندلس خرج المنصور ابن أبى عامر للغزو فبعد أن عبر نهر دويرو ودخل مملكة ليون وهاجم عاصمتها واقتحم أسوارها خربها وكان ملكها قد تمرد على الحامية الإسلامية. بها وكان ذلك شرطاً لمساعدته وتوليه عرش ليون، ثم سار المنصور إلى سمورة التى لجأ إليها الملك واستولى عليها فهرب منها الملك سراً.

* أهدى الصاحب بن عباد وزير السلطان فخر الدولة السلطنة ديناراً زنته ألف مثقال نقشت على أحد وجهيه قصيدة فى فخر الدولة.

* اشتدت العواصف والرياح فجرفت دجلة وأغرقت كثيراً من السفن عليها وهددت منارة مسجد فم الصلح بينما اشتد الحر خلال شهر تموز فكان الناس يتساقطون موتى فى الطرقات، بينما إنتشر الوباء فى البصرة.

* عزل الخليفة العزيز الفاطمى نائبه على دمشق بكجور التركى بعد أن أعلن العصيان ولكنه هزم وهرب إلى الرقة.

السلاجقة فى اقليم خراسان ومنطقة بحر قزوين ابان القرن العاشر الميلادى، لكن عندما توغل ابراهيم ينال شقيق طغرل بك فى أراضى القوقاز، واجتاح طرابيزون Trebi-zond، وارز روم Erzerum، وأسر ملك أبخازيا أحد الملوك المتحالفين مع الروم، وذلك فى عام ١٠٤٨م نفذ صبر الامبراطورية، فتحرك الامبراطور قسطنطين التاسع مونوماخوس ليحد من هجوم السلاجقة؛ وأجرى فى عام ١٠٤٩م مفاوضات مع طغرل بك من أجل اطلاق سراح ملك الابخاز،

اسمعو الان هذه العجوبة كما قال السيد [المسيح]: ان ابواب الجحيم لا تقهرها. وابواب الجحيم هى رووسا الشر، وكان اوليك الذين رفعو على الاب والبيع لا يقدرو من هيبة الوالى ان يتقدمو اليه، لكن واحد من كتابه المقدمين عنده كان يكتب عنه بطلب الاب والاساقفة، ومن بعد ايام ظهر للوالى ان ذلك الكاتب العانى [المكلف] بهولا الرفاعين يزور عنه الكتب بغير امره، فاخذه بغضب شديد ونهب جميع ماله وامر بحلق لحيته

---

* منى القرامطة بهزيمة جديدة على يد الأصيفر من بنى المنتفق.

* قبض السلطان شرف الدولة على شكر الخادم أخص خاصة أبيه عضد الدولة وعزم على قتله فشفع له فيه فخرج إلى مصر وفيها قربة الخليفة الفاطمى وأصبح له شأن فى دولته.

سنة ٣٧٩ هجرية

استهلت السنة بيوم الخميس الموافق ١١ ابريل ٩٨٩م.

* تولى أبو نصر فيروز شاه بن عضد الدولة عهد أخيه شرف الدولة وهو على فراش موته وخلفه فى حكم العراق وخلع عليه الخليفة الطائع ولقبه بهاء الدولة وضياء الملة.

*قضى المنصور ابن أبى عامر صاحب الأندلس على مؤامرة للوثوب عليه إشترك فيه إبنه الأكبر عبدالله وأمير سرقسطة عبدالرحمن التجيبى فأقال عبدالرحمن وأقام ولده يحيى مكانه ثم قبض على الأب وحاكمه وأعدمه، وقبل نهاية العام أوقع بسانشو ملك النافار بسبب احتماء ابنه عبدالله به مما اضطره إلى إطلاقه.

* قطع ابن ا لجراح الطائى طريق الحج عند فيد فصالحوه على ٣٠٠ ألف درهم وشى من الثياب أخذها وانصرف.

وقـيــده بالحـديد وخلده فى السـجن. فلمـا راو المفسـدين ذلك مع رجاهم به افتضحو وتم عليهم قـول اشـعـيـا النبى: «لتـهلك الخطاه ومـخـالفى الناموس معا والذين تخلو عن الرب فانهم يخزو». ومن بعد قليل اهلك الله يعقـوب الغيـر نصـرانى واليهودى صديقه وماتو موتة سو كما قال داوود: «جاهل وغير فهم يهلكان جميعا». وكلمن شاهد انتقام الرب من معاندى البيعة يتعجب ويمجد الله. ولما بلغ ابونا مـوت يعقـوب حـزن قلبـه لموته قـبل

مقابل تعهد من الامبراطور نفسه بأن يعمر مسجد القسطنطينية لتقام فيه صلاة الجمعة، وأن يدعى لطغرل بلك من على منبره.

وعلى صـعـيـد آخـر كـانت هذه الدولة السلجوقية السنية تشعر بعداء شديد نحو الدولة الفاطمية الشيعية فى مـصـر، وتطمع فى احـتـلال ممتلكاتها فى الشام، بل والزحف على مصر لاقتلاع جذور الفاطميين؛ غير أن الدولة الفاطمية وقتذاك كانت على وفـاق مع دولة الروم، فـقـد كـان يجمعهما قارب واحد وهو العداء نحو

---

* دام القتال ١٢ يوما ببغداد بين الأتراك والديلم حتى تدخل بهاء الدولة وشرع فى الصلح بينهم.

* لجأ أبو إسحق أحمد ابن الخليفة الطائع إلى البطيحة محتمياً بصاحبها مهذب الدولة وعاش فى ضيافته حتى أتته الخلافة بعد ذلك فجعل شعاره لهذا السبب «حسبنا الله ونعم الوكيل».

* ثارت قبائل كتامة ثانية على المنصور الصنهاجى بقيادة أبى الفرج فسار المنصور إلى سطيف عاصمتهم وقضى على الفتنة كما قضى فى السنة نفسها على ثورة عمه أبى النهار.

* فى مستهل جمادى الآخرة توفى السلطان أبو الفوارس شرف الدولة صاحب العراق وتولاها بعد أبيه عضد الدولة ونازعه أخوه صمصام الدولة الذى سملت عيناه، توفى عن ٢٩ عاماً بمرض الاستسقاء وحمل إلى مشهد الإمام على ودفن به.

سنة ٣٨٠ هجرية

وافق هلال المحرم يو الاثنين ٣١ مارس ٩٩٠

* بدأ الخليفة العزيز بالله الفاطمى بناء مسجده فى القاهرة الذى يعرف اليوم باسم إبنه الحاكم وهو الذى إستكمل البناء وافتتحه للصلاة بعد نحو ربع قرن من هذا التاريخ.

الدولة العباسية، كما أن خطر السلاجقة كان يهدد الدولتين معا. ولهذا أراد طغرل بلك أن يختبر صدق نوايا الامبراطور قسطنطين التاسع بعد عقد الاتفاق السابق، فطلب منه أن يسهل عبور قوات سلجوقية الى الشام للاستيلاء على بعض ممتلكات الدولة الفاطمية وربما فتح مصر، غير أن امبراطور الروم الذى كانت تربطه صلات مودة وصداقة مع الخليفة الفاطمى المستنصر بالله، رفض الغدر بصديقه؛ فقد كان وجود الدولة الفاطمية أمرا مفيدا للاستراتيجية

توبته وبكا عليه. وكان الاب يقول عن يعقوب النصرانى الرب يغفر له وينيح نفسه حتى كان كلمن سمعه يتعجب. ولما رأى مبغض الخير ذلك لم يصبر ان يدبر فتنا وانه اثار فتنة اخرى وصنع سوا نحن نذكره ولهذا كتب بولس فى رسالته لاجل هذه التجارب: انكم تكونو تعلمو ان فى الايام الاخيرة يكون زمان سو، تحب الناس نفوسهم ويحبو الفضة متكبرين فاجرين شتامين غير مطيعين لابايهم غير شاكرين غير انقيا غير رحومين غير

---

*ظهرت فى هذه السنة إمارة آل مروان الأكراد فى ديار بكر على يد مؤسسها أبى على الحسن مروان.

* فترت العلاقة بين الطائع والسلطان بها الدولة البويهى الذى أخذ فى الكيد له.

* زحف زبو الذواد (محمد بن المسيب العقيلى) على الموصل واستولى عليها من الحمدانيين ولم يلبث أن استعادها بهاء الدولة.

* فى ١٤ جمادى من العام ضربت بقرطبة عنق الأمير عبدالله الابن الأكبر للمنصور ابن أبى عامر لتآمره على أبيه والتجاءه إلى ملك النافار الأسبانى الذى أوقع به المنصور.

* توفى فى هذه السنة الوزير المصرى اليهودى يعقوب ابن كلس عن ٦٢ عاماً ، هرب إلى مصر وأسلم على يد كافور ثم هرب إلى تونس ودخل فى خدمة المعز وحسن له فتح مصر وصحبه إليها وتولى وزارته ووزارة ابنه العزيز وخلفه أبو عبدالله الموصلى.

سنة ٣٨١ هجرية

استهلت السنة بيوم الجمعة ٢٠ مارس ٩٩١م.

* فى ١٢ رمضان من السنة تولى الخلافة العباسية أبو العباس أحمد القادر بالله ابن إسحق ابن الخليفة المقتدر، أمه أم ولد إسمها دمنة، خلف ابن عمه الطائع الذى خلع نفسه وعاش

ثابتين شياطين لا يصبرو ولا يقبلو التعاليم ولا يحبو الخير، اشدا غليظى الرقاب محبين للشهوات اكثر من حبهم لله. فجعل الشيطان هذه الخصال كلها في قوما اخصهم اوعية لنفسه وجعلهم الة له، وقدمنا ذكرهم، وسلطهم على الرفيعة [الوقيعة] على الاب البطرك، وكانو كما قال بولص الرسول: قوما ارديا في قلوبهم خوالى من الامانة فلم يتم لهم فعلهم، فمن هولا قس راهب من دير الهنانطون دخل الى مصر [الفسطاط] وكتب

الرومية. ولقد أثار هذا الرفض شكوك طغرل بك في أن تتحول هذه الصداقة بين الفاطميين والروم الى تحالف مشترك ضد الدولة العباسية المتدهورة، وقد أدى هذا الرفض الى نقض اتفاق السلام، وشرع طغرل بك في الاغارة على أراضي امبراطورية الروم الواقعة بين بحيرة فان، ومدينة أرزروم، وضرب حصارا حول حصن منزكرت (أو ملاذكرد)، لكنه لم يستطع الاستيلاء عليه.

وردا على هذا التحالف بين القسطنطينية والقاهرة، تحرك الخليفة

الخليفة الجديد قبل توليته مستتراً عند صاحب البطيحة، والقادر هو ثالث خليفة عباسى لم يكن أبوه خليفة.

* قبض السلطان بهاء الدولة على الخليفة الطائع طمعاً في أمواله بتدبير من وزيره أبي نصر فانزله من سريره وأجبره على خلع نفسه ولجأ إلى مهذب الدولة صاحب البطيحة .

* تولى إمارة حلب وحمص أبو الفضائل سعيد الحمداني خلفاً لأبيه سعد الدولة.

* عزل الخليفة الفاطمى المنصور بن باديس الصنهاجي من ولاية أفريقية بعد أن طمع في الاستقلال بها وتولى عليها أبو عبدالله محمد بن أبي العرب.

* توفى في هذه السنة من أمراء الولايات: سعد الدولة الحمدانى صاحب حلب وحمص وابن سيف الدولة وحمل جثمانه إلى الرقة ودفن بها وخلفه إبنه سعيد الدولة، وفيها توفى بمصر جوهر الصقلى قائد المعز الفاطمى وأول الأمراء الفاطميين عليها و مؤسس مدينة القاهرة والجامع الأزهر والقصر الكبير، وفيها توفى بكجور التركى أمير الشام من قبل الخليفة العزيز الفاطمين إلى أن أعلن التمرد فهزم وقتل في هذا التاريخ.

* عاصر خلافة القادر العباسى التى إمتدت نحو نصف قرن: في الأندلس المؤيد بالله هشام ابن الحكم، ولكن السلطان للمنصور ابن أبي عامر، وفى مصر الخليفة العزيز بالله الفاطمى، وفى حلب أبو الفضائل سعيد الحمدانى، وفى المشرق نوح السامانى، وفى فرنسا لوثير ثم

رفايع فى البطرك وسلمها للولاة، فلما راه الشيطان وقد تزايا بهذا طرح فى قلب خواص ذلك الامير الوالى ان اخذو منه الرفايع ودخلو بها اليه، فامر ان يلازم الباب الى ان يسال عنه، فاقام عنده ايام ولم يريد الرب ان يغرقه فى بحار الخطية، فطرح فى قلوب المومنين ان يردعوه عن جهله ويحيدوه عن ابواب الولاة ولا يكبر [يكيد] فى الاب، فاحتشم من كثرة تبكيت اوليك المومنين له، فمضى وطلب بعد ذلك ولم يوجد ولا عرفو له

العباسى القائم بأمر الله، فأرسل دعوة لاستضافة طغرل بك فى بغداد، فوصل اليها فى نهاية عام ١٠٥٥م، حيث استقبل استقبال الفاتحين، وكبطل منقذ للمذهب السنى، وسلم الخليفة العباسى الضعيف زمام دولته المتدهورة للبطل السلجوقى، ليفعل بها ما يشاء، فقام على الفور باسقاط دولة بنى بويه، وهرب قائد جند الاتراك البساسيرى، الذى كان يسيطر على الخليفة، وتم احياء الخلافة العباسية وتمكينها من زمام الامر.

ولقد كان دخول طغرل بك بغداد

لويس الخامس، وفى انجلترا ايثلرد الثانى، وتوفى فى نفس العام إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة شارل السمين.

سنة ٣٨٢ هجرية

وافق مستهل المحرم يوم الأربعاء ٩ مارس ٩٩٢م.

* أغار إمبراطور الروم باسيل الثانى على أرمينية وحاصر مدينة خلاط وانتهى إلى عقد هدنة مع ابن مروان صاحب ديار بكر.

* سلم السلطان بهاء الخليفة الطائع المعزول إلى خليفته القادر بالله الذى أحسن وفادته ووكل به من ثقات جنده من يقوم بخدمته.

* شغبت الجند ببغداد وطلبوا تسليمهم أبا الحسن الكوفى المعروف بان المعلم متولى بغداد الذى أصبحت أمور الدولة فى يديه فقبضوا عليه وسقوه السم مرتين ثم قتلوه خنقاً.

سنة ٣٨٣ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأحد ٢٦ فبراير ٩٩٣م.

* كادت الدولة السامانية أن تسقط بعد ثورة اثنين من مشاهير قوادها هما ابن سيمجور

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

موضعا الى هذا اليوم. فقلق الشيطان وتزايد غضبه ومضى الى الغير شماس باعمال البشمور، وكان قد لبس لباس الرهبان ثم نزع هذا اللباس، فملا قلبه شرا واضمر ان يتم ما قاله القس الذى بعد، وكان الشماس يشبه القس، ومن يراه يقول هو ذلك القس الرفاع، فلما ظهر للولاة لم يشكو انه القس، فقالو له: اين كنت من تلك الايام وقد تقدم اليك بملازمة الباب الى ان تنجز ما سالت فيه وفيه خط السلطان، فمن تلك الساعة كتب له

انتصارا سياسيا لدولة الأتراك السلاجقة، جعل القسطنطينية تعيد حساباتها فى علاقاتها الخارجية، فضحت بعلاقات حسن الجوار مع الدولة الفاطمية التى ساءت علاقاتها معها، فقد انشغل الفاطميون عن صداقة الروم خلال الأزمة الاقتصادية التى تعرضوا لها، والتى أدت الى تقلص نفوذهم فى الشام، فضلا عن انشغالهم بالزحف السلجوقى على العراق والشام، ففى عهد الامبراطورة العجوزة ثيودورا توقفت الصداقة الرومية الفاطمية تماما، بل انقلبت الى

وفائق الخاصة واستيلاء بغراخان الايلكخانى على بخارى غير أن الملك نوح السامانى بعد وفاة بغراخان فى السنة التى سبقت نجح فى إسترداد بخارى والقضاء على الثورة.

* فى ليلة الفطر من هذه السنة توفى الخليفة المطيع لله العباسى (ابن الخليفة الطائع) وكان قد خلع نفسه تحت تهديد السلطان بهاء الدولة ونهبت داره وعاش فى كنف ابن عمه الخليفة القادر لحين وفاته.

سنة ٣٨٤ هجرية

استهلت السنة بيوم الخميس الموافق ١٥ فبراير ٩٩٤م.

* مازال خطر القرامطة ماثلا على طريق الحج حتى انه لم يحج أحد فى هذه السنة من العراق.

* استعان الملك السامانى نوح بصاحب غزنة سبكتكين فى حربه مع الثائرين عليه فانتصرت جيوشهما بغرب هراة واستعاد نوح نيسابور عاصمة خراسان فمنح حليفه لقب ناصر الدولة.

* جرت معركة عند واسط بين بهاء الدولة وصمصام الدولة وكان النصر فيها للأول.

سجلا عظيم وسير معه من الجند اصحاب الخيل عدة ومضو معه الى الموضع الذى كان فيه ابينا البطرك القديس مخفيا، وكان هذا الامر من قبل ان يعلم احد من الناس ولا من الكتاب بالباب، لانه كان قد سال ان يكتب له سجلا ولا يثبت بالدواوين خوفا ان يشهر امره ولا يظفر بحاجته، فقبض عليه وحمله الى مصر فلما سمع الاراخنة والشعب مصر هذا الخبر وان البطرك قد وصل الى مصر [الفسطاط] مقبوضا عليه نالهم حزنا شديدا

عداء على عندما استقبلت الامبراطورة مبعوثا موفدا من قبل السلطان السلجوقي طغرل بك عام ١٠٥٥م، وامرت بأن يدعى من على منبر جامع القسطنطينية فى خطبة الجمعة للخليفة العباسى والسلطان السلجوقي معا.

اباطرة أسرة دوقاس:

١ - الامبراطور اسحق كومنينوس (١٠٥٧ ،١٠٥٩):

كان اسحق كومنينوس Isaac Commnenos فى الأصل زعيما لأرباب السيوف، ومن كبار الأسر

---

* ولد بقرطية فى اليوم الأخير من شهر رمضان الفيلسوف ابن حزم صاحب التصانيف، منها الفصل فى الملل والأهواء والنحل.

* توفى الأديب المنشئ أبو إسحق إبراهيم بن هلال الصابى.. عن إحدى وسبعين وكان على ديوان الرسائل لمعز الدولة البويهى له رسائل الصابى مطبوعة متداولة.

سنة ٣٨٥ هجرية

استهلت السنة بيوم الثلاثاء الموافق ٥ فبراير ٩٩٥م.

* فى منتصف ربيع الثانى أوقع المنصور ابن أبى عامر بملك النافار الكونت غرسيا فرانديز الذى جرح وأسر ولم يلبث أن توفى فخلفه ابنه سانشو على أن يدفع جزية سنوية للمسلمين.

* تحركت القرامطة صوب البصرة فاستعد لهم بهاء الدولة فانصرفوا عنها

* ولى فخر الدولة البويهى وزيرين له فى وقت واحد على أن يتبادلا التوقيع يوماً بعد يوم هما أبو العباس الضبى وأبو على بن حمويه.

* شهدت هذه السنة (على الأرجح) مولد مؤسس دولة السلاجقة الكبرى وهو أبو طالب ركن الدين طغرل بك بن ميكاييل بن سلجوق.

* توفى الفلكى أبو عبدالرحمن العتقى له النجوم وأحكامها توفى بمصر.

وكذلك ايضا حزنو جدا وكانو خايفين من هذا الشماس. فلم يظهر احد منهم وكان الاب تحت الوجع من الضربان والنقرس الذى كان اصابه. فلما اقلقه السفر والطلب والقلق تزايد به اكثر، وعند وصوله امر الوالى بطرحه فى السجن مع المعتقلين اللصوص والقتلة وفعلة السو، فكان يحمل فى محفة على رووس اربعة من غلمانه الى ان قذف به فى الموضع الضيق، فنال تعب عظيم. وسمع اخباره جميع الناس النصارى والمسلمين

الاقطاعية فى آسيا الصغرى، قاده رفاقه جنرالات الجيش بالقوة ليخلع ميخائيل ستراتيوتيكوس الكهل، رجل حزب أرباب القلم، والذى كان حزب البلاط قد أجبر الامبراطورة العجوز ثيودورا على اختياره خليفة لها قبل موتها؛ ولما لم يكن ميخائيل ستراتيوتيكوس ينتمى لأسرة معينة، ولهذا أعتبر خاتمة الأسرة المقدونية.

ولم يكن العسكريون وحدهم الذين حملوا اسحق كومنينوس على الأعناق، بل ساعده كذلك صديقه قسطنطين دوقاس Constantinos

---

سنة ٣٨٦ هجرية

وافق هلال المحرم يوم السبت ٢٥ يناير ٩٩٦م.

* شهدت السنة وفاة الخليفة الفاطمى العزيز بالله ثانى الخلفاء الفاطميين بمصر، وتوفى بالقاهرة فى ٢٨ رمضان عن ٤٣ سنة بمرض النقرس بعد حكم دام نحواً من عشرين سنة وكان فى طريقه لغزو الروم.

* بدأت الخلافة الفاطمية بمصر فى هذه السنة مرحلة جديدة حين تولى أبو على منصور الخلافة بعد أبيه الخليفة العزيز بالله واشتهر بلقبه الحاكم بأمر الله، وهو مصرى المولد والدار والمنشأ والثالث بعد جده المعز من خلفاء القاهرة والسادس منذ خلافة المهدى بافريقية تولى وله من العمر ١٦ سنة.

* تبادل إمارة البصرة فى هذه السنة نواب صمصام الدولة البويهى ثم مهذب الدولة صاحب البطيحة.

* تولى فى هذه السنة المنصور بن يوسف بلكين الصنهاجى إمارة أفريقية من قبل الحاكم الفاطمى خلفاً لأبيه وهو الذى غزا جزيرة سردينية، كما تولى عمه حماد ابن يوسف ولاية أشير وهوجد بنى حماد.

* تولى إمار الموصل حسام الدولة المقلد العيلى خلفاً لأخيه أبى الذواد.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

وكان الوالى قد امر ان لا يدخل اليه احدا من ساير الناس الا تلميذ واحد ياتى اليه بطعام وقت الحاجة اليه، ولا يمكن من الحديث معه والوصية له بما يريد، بل كانو المتوكلين بالسجن ياخذو منه الطعام الذى ياتى به التلميذ فياخذو منه ما يريدو ويدفعو له ما يريدو مما بقى منه. وكان الذى يصل اليه ينال منه نزرا يسيرا فى كل ثلثة ايام ثم يناول الباقى الى القوم المعتقلين معه. وكان الله الذى لا يطرح [لاينسى] من يعبده قد طرح فى قلب المسجونين

Ducas زعيم التجار فى العاصمة، وممثل الرأسمالية الارستقراطية المتحالفة مع الكنيسة. فقد كان متزوجا من ابنه شقيق البطريرك الشهير كيرولاريوس Kerularios، بل أن شقا من أرباب القلمن، ممن كانوا على علاقة وثيقة بقسطنطين دوقاس ويتزعمهم المفكر والفيلسوف ميخائيل بسيللوس، انضموا الى الثوار الاقطاعيين فى آسيا الصغرى مستنكرين سيطرة رجال البلاط، وموظفى القصر فى اختيار مرشح الامبراطورة العجوز، وشارك رجال

---

* توفى أمير أفريقية البربرى المنصور بن يوسف بلكين الصنهاجى وخلفه ابنه أبو مناد باديس.

سنة ٣٨٧ هجرية

استهلت السنة بيوم الثلاثاء الموافق ١٢ يناير ٩٩٧م.

* توثقت الصلة بين دولة الغزنويين الناشئة وشاهات خوارزم بزواج على ابن مأمون صاحب خوارزم من أخت يمين الدولة محمود الغزنوى.

* تولى إسماعيل بن سبكتكين عرش الغزنويين خلفاً لأبيه غير أن أخاه الأكبر يمين الدولة محمود نازعه هذا الحق وانتهت المفاوضات إلى مجابهة عسكرية.

* دخل الأمير عبدالملك بن المنصور بن أبى عامر مدينة فاس بعد أن عبر البحر إلى المغرب من الأندلس وتولى أمرها فترة.

* استولى الخليفة الحاكم الفاطمى على سواحل الشام وضم الثغور إلى حكمه، وفى القاهرة هرب وزيره أمين الدولة الحسن بن عمار الكتامى إلى الصحراء بعد سنة واحدة من توليه الوزارة وخلفه برجوان الخادم.

له المحبة والرعاية، وكانو يخدموه كخدمة المماليك لساداتهم، ويحملوه الى المكان الذى يريق فيه الما ويعيدوه الى موضعه برفق. ومن شدة ما لقيه من الضيق كان يشكر الله ويدعو اليه ان ينيح الاساقفة ليلا ينالهم ما ناله، ولا يطرحهم فى ذلك الضيق الشديد، لان السجل الذى قد كان كتبه الوالى لذلك الغير شماس يتضمن القبض على الاساقفة ويسيرهم الى مصر. فلما طرح الاب البطرك فى السجن عاد الرافع وخرج الى جميع بلاد ارض

النقابات الحرفية فى الثورة عندما قاد التمرد العسكريون من القسطنطينية، وهكذا سقط الامبراطور ميخائيل ستراتيوتيكوس، وحمل اسحق كومنينوس على أسنة الرماح ليجلس على العرش، معلنا أنه أخذ العرش بحد السيف عام ١٠٥٧م، وتخليد لذلك سك عملة ذهبية ظهر على وجهها وهو يمسك بالسيف، رمز انتصار حزب الاقطاع العسكرى. وكان هذا دليلا على أن حزب أرباب القلم والبلاط قد أبعد عن الحكم والتحكم، غير أن هذا الحزب لم

---

* دخل المنصور ابن أبى عامر مدينة شنت ياقب (٢ شعبان) المقدسة التى تطل على خليج بسكاى على رأس جيش كبير يعاونه اسطول بحرى وتعتبر الحد الأقصى الذى بلغه الفتح الإسلامى فى أسبانيا.

* شهدت السنة وفاة عدد من كبار رجال الحكم من سلاطين وأمراء منهم: السلطان صمصام الدولة المرزبان أبو كاليجار ابن عضد الدولة البويهى الذى كان على العراق وغلب عليه أخوه شرف الدولة وسمل عينيه وحبسه وتوفى ببعض نواحى فارس اغتيالا وذلك عن ٣٤ عاماً، وفيها توفى بالرى ابن عمه السلطان فخر الدولة ابن ركن الدولة توفى مسموماً كما سم ولداه فى هذه السنة فاستعاد قابوس بن وشمكير حكم طبرستان والرى، وفيها توفى الحسن بن مروان الكردى صاحب ميافارقين مات مقتولاً على أبواب آمد.

* توفى ببخارى فى ١٣رجب الملك السامانين أبو القاسم نوح بن منصور عن ٣٤ عاماً حكم منها ٢١ سنة وخلفه إبنه منصور وبموته اختل ملك السامانيين، وفيها توفى بنواحى بلخ السلطان ناصر الدولة سبكتكين صاحب غزنة بعد حكم دام ٢٠ سنة وعهد لابنه الأصغر إسماعيل.

* توفى المؤرخ المصرى ابن زولاق عن ٨١ عاماً (الحسن بن إبراهيم) تولى ديوان المظالم فترة، اشتهر بكتبه: قضاة مصر، خطط مصر، مختصر تاريخ مصر وجميعها متداولة.

مصر اعلاها واسفلها وقبض على جماعة من الاساقفة قبل اشتهار امره. وكان اذا قبض على احدهم يشهره لانه كان ينزع عنه الثياب ويلبسه غيرها ولا يدع عليه من لباسه الا القلنسوة الذى يلبسوها الرهبان، ويركبهم الدواب بغير سروج ويهزو بهم قدام اهل البلاد. وكان قوما منهم هربو وقوم وقعو فى يديه فصانعوه عن نفوسهم وهربو.

واقام ابونا انبا شنوده فى هذا الضيق اربعين يوما، فاطلع الله على صبره وشدة ما ناله من

يقضى عليه نهائيا، وظل خارج الحكم يعمل فى الخفاء ليعود اليه، مما سبب احدى المشاق التى واجهها اسحق كومنينوس.

ولقد كان اسحق كومنينوس موزع الولاء والعواطف بين الذين ساعدوه ونصروه، وبين الواجب الذى يتحتم عليه القيام به لانقاذ الامبراطورية، حتى ولو كان ذلك ضد مصلحة هذه العناصر. ولكن الواجب انتصر على العواطف فى النهاية. فبعد اقصاء حزب البلاط أعطى

---

* توفى العالم الموسوعى أبو عبدالله محمد بن أحمد الخوارزمى مؤلف مفاتيح العلوم وهو مطبوع.

* توفى فى هذه السنة من رجال العلم: أبو الفضل الشيبانى عن ٩٠ عاماً له الامالى وينسب إليه معجم أبى المفضل للقنائى وهو متداول، والفقيه الحنبلى عمر ابن مسلم له المقنع وكتاب الخلاف بين أحمد ومالك، والفقيه المعتزلى أبو القاسم الأسدى له الأمد فى القراءات، والمحدث أبوعبدالله العكبرى عن ٨٣ عاماً، الابانة فى أصول الديانة، والزاهد الواعظ ابن سمعون توفى ببغداد عن ٨٧ عاماً.

* توفى من الأمراء والولاة: عبدالله بن قحطان توفى بزبيد وكان قد خلع بيعة العباسيين وخطب للخليفة الفاطمى، وفيها توفى صندل الخادم خاصكى السلطان بهاء الدولة وخلفه أبو المسك عنبر.

سنة ٣٨٨ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الاثنين ٢ يناير ٩٩٨م.

* جرت الخطبة فى الحرمين الشريفين للخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله.

* إستعاد شمس المعالى قابوس بن وشمكير إمارة طبرستان وكان قد أخرجه منها عضد الدولة.

التعب والمرض الذى وصفناه، فرحمه وطرح فى قلب الوالى ان اطلقه من السجن بعد ان طلب منه ما لا يقدر عليه ولا يسير منه. فتخلص من يديه لابس اكليل الغلبة مباركا. وكان يقول: اننى لا استحق ان اجرب لان خطاياى عظيمة. فنال النصارى بخلاصة مسرة عظيمة.

ولما تخلص لما يمنع [يحرم] ذلك الشماس [باعمال البشمور] لان الله كان قد منعه من

الفرصة للحزب الارستقراطى العسكرى، وبدأ هذا الحزب يعمل لمصلحته، ويزيد من مساحة اقطاعاته العسكرية، ونتج عنه اعتراض الامبراطور على تصرفات هذا الحزب، فتصدى لخطره، وحاول تقليم أظافره عندما صادر مساحات كبيرة من الأراضى التى استولى عليها كبار الاقطاعيين بطرق غير قانونية، كما أنه لم يترك الوظائف الكبرى حكرا عليهم، حتى لا يصبح تحت رحمتهم مما أدى الى صدامه معهم. لقد كان اسحق كسومنينوس يطبق الادارة

---

* تبادل نيسابور القائدان السامانيان ابن سيمجور وبكتوزون.

* تولى إمارة دمشق للحاكم الفاطمى بشارة الاخشيدى خلفاً لأبى تمام أبن فلاح وبدأ بشارة ولايته بالخروج إلى حرب الروم من سنته.

* تولى إمارة جزيرة صقلية جعفر الكلبى بعد أبيه يوسف بن عبد الله الذى أصيب بالفالج.

* ممن توفى فى هذه السنة من رجال الأدب واللغة: أبو بكر الأدفوى النحوى عن ٨٤ عاماً مولف كتاب الاستغناء فى علوم القرآن وهو غير الادفوى صاحب الطالع السعيد، وفيها توفى الوزير الأديب أبو القاسم الجكار كان على ديوان الرسائل لعضد الدولة ثم تولى الوزارة، وفيها توفى بمصر الأديب المؤرخ أبو الحسن الشابشتى، مؤلف كتاب الديارات وهو مطبوع متداول وكان على خزانة كتب الخليفة العزيز الفاطمى.

سنة ٣٨٩ هجرية

استهلت السنة بيوم الجمعة الموافق ٢٣ ديسمبر ٩٩٨م.

* على أثر مقتل صمصام الدولة إستولى بهاء الدولة البويهى على خوزستان وفارس.

* اعترض قافلة الحج أبو الجراح الطائى وفيها الشريفان الرضى والمرتضى ولم بطلقهما حتى أعطى تسعة الاف دينار.

الكهنوة لانه كان لبس ثياب الرهبان ونزعها عنه. وكان يقربه اليه ويقول له الرب يغفر لك.

فاما الابا الاساقفة الذين قبض عليهم [الرافع] واراد بهم الدخول الى مصر بلغه وهو فى الطريق، خلاص الاب البطرك فرفع يده عنهم واعاد عليهم ثيابهم وما كان اخذ لهم من الدواب والغلمان والاثاث، ما خلا ذهب او فضة فانه كان اعطا بعضه للرجال الذين معه ومنه ما نفقه فيما يريد، لانه كان فقيرا جدا كثير المحرقة من غير مال ولا

العسكرية الحازمة على الاقتصاد، ولهذا صادر كثيرا من الأراضى والأموال التى كان معظمها ملكا للبيوت الاقطاعية، سواء كانت عسكرية أم مدينة أم كنسية، ولهذا لم تقتنع القوى المؤثرة على الساحة باصلاحاته الاقتصادية.

صدامه مع البطريرك كيرولاريوس:

تجمع الساخطون على اسحق حول البطريرك كيرولاريوس، وكان رجلا طموحا، عاون اسحق كومنينوس فى الاطاحة بميخائيل ستراتيوتيكوس؛ وقد كافاه الامبراطور

---

* قبض بعض خاصة السلطان السامانى منصور بن نوح عليه وسملوا عينيه وأقاموا أخاه عبدالملك خلفاً له وهو بعد صبى صغير وكانت مدة حكم منصور ١٩ شهراً.

* إتخذ محمود الغزنوى مدينة بلخ عاصمة له وخلع التبعية السامانية وخطب للقادر بالله العباسي.

* أوقع زيرى بن عطية الزناتى الهزيمة بقوات باديس الصنهاجى على أبواب تاهرت ثم انقلب النصر إلى هزيمة لقوات باديس الصنهاجى قتل فيها تسعة الاف من صنهاجة وزويلة.

* توفى فى ليلة ٤ صفر قاضى قضاة مصر وداعية الفاطميين محمد بن النعمان ويعرف بابن حيون عن ٥٤ عاماً وهو ابن قاضى القضاة النعمان بن محمد إشتهر بجودة الأحكام وتروى عنه فى ذلك النوادر، وخلفه إبنه عبدالعزيز.

* قتل فى حروب البربر بأفريقية زعيم زناتة فلفل بن سعيد.

سنة ٣٩٠ هجرية

استهلت السنة بيوم الأربعاء ١٢ ديسمبر ٩٩٩م.

* هرب السلطان المنتصر السامانى (أبو إبراهيم إسماعيل) متخفياً إلى خوارزم وكان فى سجن بغراخان الإيلكخانى بعد هزيمته عند بخارى.

ماورثه، ففرحو الابا الاساقفة بخلاصهم من يديه ولم يسالوه عن شيا مما صار اليه منهم، لانهم كانو قد ظنو ان الاخبار التي وصلت اليهم بخلاص البطرك غير صحيحة. وكان الاب يقول لهذا الشماس ليس انت الذى اسلمتنى فى ايدى الولاة لكن خطاياى التى اوقعتنى فى التجارب. وكان كلمن سمع منه هذا القول يقول ما راينا هكذى قط.

نذكر الان ما نال الغير شماس [من اعمال

الجديد على ذلك بأن تنازل له عن حق الامبراطور فى تعيين رجال الدين فى كاتدرائية أيا صوفيا، وجعل ذلك حقا من حقوق البطريرك؛ كما تنازل له عن كل العقارات والهبات والأراضى الموقوفة لصالح هذه الكاتدرائية. وبذلك أصبح البطريرك كيرولاريوس مستقلا - فى كل ما يتعلق بالشئون الكنيسة - عن الامبراطور الذى كان من المفروض أن يكون رأس الكنيسة الأعلى، لكن كيرولاريوس لم يقنع بذلك،بل ذهب فى اطماعه الى أن يحلم أن يكون

---

* استولى يانس الصقلى خادم الخليفة الحاكم على برقة وكانت تابعة لباديس الصنهاجى الذى أرسل إليه جيشاً هزمه وقتله على أبواب طرابلس فانفذ الحاكم نجدة بقيادة يحيى بن على الأندلسى.

* تولى إمارة دمشق فحل بن تميم نائباً عن الحاكم الفاطمى فمرض ومات بعد أشهر قليلة فخلفه فى العام نفسه القائد على بن جعفر بن فلاح.

* فى ٢٦ ربيع الثانى من السنة قتل بالقاهرة الأستاذ أبو الفتوح برجوان الخادم مدبر دولة العزيز الفاطمى ثم الحاكم بالله الذى ثقل عليه نفوذه فتخلص منه بالقتل بتدبير من ريدان الخادم الصقلى، واستصفيت أمواله منه ألف سروال ديبقى وألف تكة حرير وإليه تنسب حارة برجوان، كما توفى فى السنة نفسها وزير الحاكم أمين الدولة الحسن بن عمار وكان قد هرب من بطش الحاكم به.

* توفيت حول هذا التاريخ بالأندلس السيدة صبح زوجة الخليفة الحكم الأموى وأم إبنه الخليفة هشام وهى التى مهدت لظهور المنصور ابن أبى عامر ثم تحول إلى خصومة بعد أن استبد بالحكم ، وفيها توفيت ببغداد الفقيهة أمة السلام أم الفتح بنت القاضى ابن شجرة وله ٩١ عاماً.

البشمور] لكي يمجد الله منجله [من أجله] كلمن سمع ما ناله، انه لما تخلص ابونا من الاعتقال وابطل الله جميع ما قالو للوالي عنه، كان ذلك الشماس ياتي اليه ويساله في زي مومن ويقول له: اسلك [اسئلك] يا ابي ان تغفر لي لاني قد عظمت خطيتي وقد فعلت بك افعالا لا استحق ان تغفر لي بسببها، لاني عارف بما فعلته من السو واني لم اقدم اليك صلاحا. ومع ذلك كان [البطرك] يقول له: «الرب يغفر لك. فساله

امبراطور يجمع السلطتين الدينية والزمنية في وقت واحد، تقليدا لمسمى بابوات كنيسة روما الكاثوليكية. ومن المعروف أن البطريرك ميخائيل كيرولاريوس كان يسعى لذلك الهدف منذ أيام قسطنطين التاسع مونوماخوس. وهو الذى أوصل الخلاف مع الكنيسة الكاثوليكية الى درجة القطيعة، عندما صب الكاردينال همبرت مبعوث البابا ليو التاسع اللعنات عليه، معلنا أن كيرولاريوس واتباعه من زمرة الشيطان، وبالمثل

---

* توفي عالم الرياضيات والهندسة أبو سهل الكوهي الذى تولى بناء مرصد بغداد لشرف الدولة البويهي.

* توفي من رجال الحكم: الوزير الساماني عبيدالله العتبي، وحبش الكناني نائب الفاطميين على الشام.

سنة ٣٩١ هجرية

وافق مستهل المحرم يوم الأحد الأول من ديسمبر ١٠٠٠م.

* عقد الخليفة القادر بالله العباسي ولاية العهد لولده أبي الفضل ولقبه الغالب بأمر الله وعمره نحو ثماني سنين وكان قد قد جلس بأبهة الخلافة ودخل عليه الحجاج بعد عودتهم من مكة وحضر المجلس القضاة والأشراف.

* بدأت في هذه السنة أولى غزوات يمين الدولة محمود الغزنوى لبلاد الهند وهي التي بلغت سبع عشرة غزوة إستولى في خلالها على شمال الهند حتى مجرى نهر الكنج.

* تولى إمارة المغرب المعز بن زيرى خلفاً لأبيه زيرى بن عطية على أثر مصرعه.

* تولى قرواش العقيلي إمارة الموصل خلفاً لأبيه حسام الدولة المقلد بن المسيب على أثر إغتياله.

بتواضع ان يكتب كتاب فيه تحليل [من الحرمان] لانه كان لا يقدر يسلك بين المومنين ولا يدخل الى بيعة من البيع الا اذا نظروه الاطفال من جميع الناس المسلمين والنصارى يرجموه ويقولو: ان هذا الانسان انسان سو رفاع. وكان لا يقدر يمشي بين الناس. وان ابونا المبارك انبا شنوده امر يوحنا كاتبه ان يكتب له كتابا الى جميع المومنين يقول لهم فيه: انني حللت وثاق هذا الشماس من فمي فلا يمنعه احد من المومنين تناول القربان. ولما كتب

فعل كيرولاريوس ذلك بالنسبة لبابا رومالبو التاسع واتباعه.

وربما أراد اسحق كومنينوس أن يحسن علاقاته مع كنيسة روما، والتى لم يكن يرضيها الا ذهاب كيرولاريوس. وكان الامبراطور قد ضاق به ذرعا لتدخله في أمور الامبراطورية السياسية سرا وعلانية، ولهذا عزم على التخلص منه، وأخذ ينتظر الفرصة حتى جاءته، عندما ذهب كيرولاريوس الى الاعتكاف فى أحد الأديرة النائية خلال أسبوع الأحزان فى ربيع عام ١٠٥٨م. فأرسل

---

* تجددت الفتنة فى بغداد بين الأتراك والعامة من أهل الكرخ قتل فيها كثيرون.

* توفى فى هذه السنة الوزير المحدث أبو جعفر بن حنزابة (جعفر ابن الفضل) تولى الوزارة بمصر فى العصر الاخشيدى وهو الذى سار اليه لعلمه الحافظ الدارقطنى فى تأليف مسنده، توفى بمصر يوم الأحد ١٣ صفر، كما توفى وزير الخليفة العزيز الفاطمى أبو الحسن على بن العداس وكان قد عزل قبل وفاته.

* توفى زعيم زناتة الأمير البربرى زيرى بن عطية المغراوى الذى كان قد استولى على فاس وناصر الخلافة الأموية بالأندلس ودخل فى صراع مع حلفاء الفاطميين قتل فيه.

* توفى أمير الموصل حسام الدولة المقلد بن المسيب العقيلى بعد حكم دام خمس سنوات قتله غلام له غيلة، كما توفى أمير سجستان الذى كان قد قاتل أباه خلف بن أحمد وانتصر عليه ثم غدر به الأب وقتله.

سنة ٣٩٢ هجرية

استهلت السنة بيوم الخميس الموافق ٢٠ نوفمبر ١٠٠١م.

* جرت فى المحرم من هذه السنة أولى المعارك الحاسمة بين السلطان يمين الدولة محمود

الكتاب وختمه بخاتمه الذى هو علامة الصليب المقدس طواه ودفعه له. ولما خرج من عنده امر [البطرك] تلميذا له كان معه نفقة القلاية ان يدفع اليه نفقة يستعين بها على ما يريده، وامر ايضا ان يعطا دابة من الدواب وتكون مرحله [سريعه]، وامر له بثلثة ثياب مما كانو غلمانه يلبسوه وودعه. فقلت له انا الحقير كاتب هذه السيرة: يا ابى كيف فعلت هذا وكان غير مستحق لما فعلته معه من اطلاقه ان يتناول القربان. فقال لى: يا ولدى

اليه يطلب منه تنفيذ أمر الامبراطور بالتنازل عن منصب البطريرك. وكان ذلك صدمة نفسية شديدة للبطريرك الذى رفض بشدة ترك منصبه، وهنا استخدم الامبراطور اسحق كومنينوس سلاح التشهير اللاأخلاقي، فادعى أن البطريرك قد ارتكب في خلوته بعض المعاصى والموبقات التى تستوجب محاكمته. ولم يتحمل البطريرك الصدمة فمات قبل ابتداء المحاكمة. ولما علم الناس بموت البطريرك القوى بطل الارثوذوكسية فى مواجهة الكاثوليكية خيم عليهم الحزن، وزاد

الغزنوى والملك الهندوكي جيبال بالقرب من بشاور وفيها أبيد من الهنادكة ١٥ ألفاً ووقع الملك نفسه فى أسر السلطان حتى تم فك اساره بأموال ونفائس منها قطيع من الفيلة ورهائن منها ابن الملك.

* لم يحج أحد من المشرق فى هذه السنة بسبب غارات العربان على قافلة الحج.

* خرج المنصور ابن أبى عامر حاجب الأندلس لغزو الأسبان للمرة الأخيرة وعاث ونهب فى أرض ليون والنافار وفى طريق العودة بدأ المرض يتسلل إليه.

* تولى عبد الملك بن المنصور ابن أبى عامر وله ٢٨ سنة حجابة الأندلس للخليفة هشام المؤيد على أثر وفاة أبيه وجمع فى يديه كل السلطات.

* تولى إمارة دمشق للحاكم الفاطمى أبو منصور ختكين فظلم وأساء السيرة فخلفه فى السنة نفسها تموصلت البربرى.

* وقعت فتنة بين العامة وبعض نصارى بغداد مما أثار العامة فأحرقوا كنيستهم فى قطيعة الدقيق.

* فى يوم الاثنين ٢٧ رمضان من السنة توفى المنصور ابن أبى عامر مجدد الدولة الإسلامية فى الأندلس بمدينة سالم ودفن فى صحن قصرها وذلك بعد غزوته الأخيرة فى أرض ليون والنافار وله من العمر ٦٤ عاماً، حكم منها (مع وجود الخليفة الأموى) ٢٧ سنة.

المبارك الا تعلم ان الانسان الخاطى اذا جسر وتناول القربان من قبل اقراره بخطيته امام الله وسواله الصفح عنه والتجاوز وظن ان القربان به يتم كونه نصرانى فقد زاده القربان خطايا، لكنه ان ظن ان القربان يغفر الخطايا كما قال فى انجيله المقدس: «هذا جسدى كلو منه فى كل حين مغفرة لخطاياكم»، فانه قد تناول القربان وامحا خطيته، لكنه لقلة فهميه وغلبة الفكر الشيطانى عليه لا يفهم هذا.

سخطهم على اسحق كومنينوس، ولكى يتقى غضب الشعب عليه، وتربص رجال الكنيسة للأنتقام منه، وليريح نفسه من الشعور بالذنب لما اقترفه فى حق البطريرك، توجه باكيا الى قبر البطريرك كيرولاريوس نادما على ما فعل، طالبا من روحه المغفرة.

وحتى لا يدفع ثمن الاخطاء التى ارتكبها، وتكفيرا عن عقدة الذنب، اختار أحد أصدقائه وهو قسطنطين دوقاس، زعيم التجار وممثل الرأسمالية التجارية، والذى كان يشغل فى عهده منصب وزير الخزانة، ومن المعروف أن

---

* توفى سعيد الدولة الحمدانى (سعيد بن شريف) صاحب حلب بعد ١١ عاماً من الحكم، قيل مات مسموماً.

* توفى ببغداد عالم اللغة والنحو عثمان بن جنى عن ٦٥ عاماً له من المطبوع: المعجم اللغوى المسمى الخصائص وكتاب سر الصناعة والتصريف الملوكى والمقتضب من كلام العرب.

سنة ٣٩٣ هجرية

استهلت السنة بيوم الثلاثاء ١٠ نوفمبر ١٠٠٢م.

* ابتدأ الحاكم بأمر الله الفاطمى فى بناء مسجد راشدة يوم ١٧ ربيع الثانى وقد تم بناؤه واعداده وفرشه وأنارته بالقناديل بعد عامين.

* قضى عميد الجيوش على الفتنة بين السنية والشيعة فى بغداد فمنع الشيعة من النواح وتعليق المسموح يوم عاشوراء ومنع السنية ما إبتدعوه من البكاء على قبر مصعب بن الزبير فى ٢٦ الحجة متشبهين بالشيعية.

* جاد التقليد إلى المعز بن زيرى من عبد الملك بن أبى عامر صاحب الأندلس بتوليته على جميع أقطار المغرب.

ومعما [مع ما] ذكرناه من فعل الاب معه لم يتخلا عن السو، ولما مضى الى الاعمال التى كان يسكنها وهى ناحية بجوار «صا»، وكان متشور [متسلط] على الكهنة فى الكنايس ويوذيهم، وكان يجالس الولاة، وكان اكثر زمانه مداوم الرفايع [المظالم] على الناس وبخاصة النصارى والكهنة منهم. وتم عليه قول داود النبى اذ قال: «جلس مع الاغنيا ليقتل البرى فى خفية». فلما تزايد امره وخافت منه التجار وذوى الاموال

قسطنطين دوقاس كان أحد الزعماء الذين ساعدوه فى الوصول الى العرش، وكان متزوجا من ابنة شقيق البطريرك الراحل، ولهذا لما عرض عليه تولى العرش، قبله على الفور فى عام ١٠٥٩م، وتوج باسم قسطنطين دوقاس العاشر.

حكم قسطنطين العاشر دوقاس، ١٠٩٥، ١٠٦٧:

سبق أن أشرنا إلى أن قسطنطين دوقاس كان نقيب رجال المال والاعمال فى العاصمة، وعلى اتصال بالكنيس، ولهذا كان فى تفكيره

---

* ضم محمود الغزنوى بلاد سجستان إلى مملكته بعد هزيمة واستسلام خلف ابن أحمد الذى نفاه إلى الجوزجان.

* خرج حاجب الأندلس الجديد عبدالملك بن أبى عامر فى أول غزوة له لقتال الأسبان تشبها بأبيه فسار إلى طليطلة ومنها إلى بلد سالم وانتهى إلى برشلونة وانضم إليه فى الغزو حليفه ملك قشتالة المسيحى.

* فى ليلة الفطر من السنة توفى عن ٧٣ عاماً الخليفة العباسى الطائع لله ابن الخليفة المطيع وكان قد تولى الخلافة بعد أن خلع أبوه نفسه لمرض فدامت خلافته إلى أن خلع بدوره فى شعبان من سنة ٣٨١ وبويع القادر بالخلافة وظل الطائع محبوساً فى دار الخلافة لحين وفاته.

سنة ٣٩٤ هجرية

وافق هلال المحرم يوم السبت ٣٠ أكتوبر ١٠٠٣م.

* خرج حاجب الأندلس الجديد عبدالملك بن المنصور بن أبى عامر إلى مملكة قشتالة وعاث فى أرضها ولم يد ملكها سانشو مقاومة بل سار بنفسه إلى قرطبة طالباً الصلح.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

والموسرين من سكان الاعمال اجتمع قوما من اهل اسكندرية مع تجار الاعمال البحرية الذين هم معامليهم وشكو بعضهم لبعض حال هذا الشماس. وكان باسكندرية واليا صالحا عابدا فى مذهبه، فمضى اليه اهل اسكندرية والتجار الذى ذكرناهم وقالو: ان هذا الثغر لا يكثر ارتفاعه [خراجه] ولا يستخرج منه مالا الا من تاجر يرد اليه في البحر والبر لان ليس له خراج من زراعة ارض ولا غيرها، وانا نحن تجار البر لا نقدر نخرج

أقرب الى الحزب البيروقراطى منه الى حزب المؤسسة العسكرية، التى لم يكن يشعر نحوها بأى ود، وقد بادلته هذه المؤسسة نفس الشعور؛ ومن ثم لم يهتم باصلاح الجيش، وركز كل جهوده لاصلاح الاقتصاد والادارة، فقد كان خوفه من أن تؤدى الحالة الاقتصادية المتفاقمة، وتدهور قيمة السوليدوس الرومى Solidus الى ثورة الشعب عليه، من أجل ذلك ضحى بالقوة العسكرية من أجل انقاذ الحالة الاقتصادية، فخفض من عدد فرق القوات ، وأعاد تنظيمها فى ضوء

---

* وثب بهاء الدولة على وزيره ومدبر دولته أبى على الاسكافى بسبب ما ذاع من فضله وحنكته مما أثار الغيرة فى نفس السلطان فأمر به فخنق.

* أستولى أبو العباس ابن واصل على البطيحة وأخرج منها صاحبها مهذب الدولة وكان واصل فى ضيافته قبل أن يتمرد عليه كما أوقع أبو العباس الهزيمة بجيش عميد الدولة متولى بغداد.

سنة ٣٩٥ هجرية

وافق مستهل السنة يوم الأربعاء ١٨ أكتوبر ١٠٠٤م.

* أسس الحاكم بأمرالله الفاطمى بالقاهرة دار الحكمة واتخذ لها دار الأمير مختار الصقلى الملاصقة للقصر الكبير وحمل إليها خزائن القصر من الكتب فأصبحت تضم مائة ألف مجلد فى قول، وأوقف عليها الحاكم قسماً من أملاكه، كما عرفت باسم دار العلم.

* خرج السلطان يمين الدولة محمود الغزنوى فى غزوته الهندية الثالثة وفيها استولى على إمارة بهيرة الهندوكية ثم على الملتان من أبى الفتح القرمطى وأقام نائباً له فى الهند قبل عودته.

منها الى الوجه البحرى، لان رجل رفاع [جابى] يسكنها يوذى من يصل منا الى تلك الاعمال وغيرها مما يسعى به الى الوالى قصدا ان يتقدم الى قلبه، ونحن فلا نقدر على المضى الى تلك البلاد، وهو ذا التجار اهل البلاد البحرية وقوف خارجا قد امتنعو ان يدخلو بمالهم من التجارة الى هذا الثغر، بحكم ان البضايع اذا ظهرت لهذا الرفاع سعى بهم الى الولاة وقال لهم: انه اذا خرجت هذه البضايع من البلاد ضعفت البلاد. فلما علم الوالى

الظروف المالية الجديدة، مما نتج عنه نقص عدد المجندين فى الجيش، كما انخفضت لياقة الجنود القتالية، بعد أن سرح عددا من الضباط الاقطاعيين وجنودهم التابعين لهم، وجعل البدل النقدى بديلا عن الخدمة العسكرية، وذلك بالنسبة لاقاليم آسيا الصغرى، التى يسيطر عليها الاقطاعيون العسكريون. وردا على ذلك أرادت المؤسسة العسكرية الاقطاعيون العسكرية الاقطاعية أن تسخر من هذا البيروقراطى وتصرفاته، فتركت الجيش يتدهور، لترى ماذا يفعل هذا

---

* خرج بنواحى برقة ثائر ادعى انه من ولد هشام الأموى واشتهر باسم أبى ركوة وتعاظم خطره فجهز الحاكم جيشا لرده ولكنه هزم فتقدم أبو ركوة صوب مصر.

* فى الأندلس خرج فى هذه السنة الحاجب عبدالملك بن المنصور العامرى فى ثالث غزواته فسار إلى طليطلة ودخل أرض مملكة ليون واستولى قائده واضح على مدينة سمورة وشارك فى هذه العمليات حليفه سانشو ملك قشتالة.

* ولد للخليفة الحاكم الفاطمى ابنه أبو الحسن على وهو الذى تولى الخلافة الفاطمية بعد ذلك وعرف بلقبه الظاهر لإعزاز الدين.

سنة ٣٩٦ هجرية

استهلت السنة بيوم الاثنين الموافق ٨ أكتوبر ١٠٠٥م.

* استقبل حاجب الأندلس عبدالملك بن أبى عامر بمدينة سالم مبعوث الامبراطور البيزنطى باسيل الثانى حاملا رسالة مكتوبة بماء الذهب مع هدايا نفيسة بصحبة جماعة من مسلمى المشرق ممن كانوا قد وقعوا فى أسر الامبراطور توكيداً لمعاهدة الصداقة بين القسطنطينية وقرطبة.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/٨٨٠م

حال هذا الرفاع السر امر للوقت اصحاب الخيل الذين يخدمون بين يديه والقراغلامية [الشرطة] ان يمضى منهم اثنى عشر رجلا واختارهم من اصحابه لما يعلم من شدة وامرهم ان يسيرو الى هذا الرجل ويقبضو عليه اشد القبض ولا يرحموه. ولما توجهو اليه واخذوه ربطوه بسلاسل من حديد فى يديه ورجليه واركبوه دابة سولان [بغلة]، هذه الدابة اذا تحرك الراكب عليها تسمع صوت الحديد فتفزع وترجف وتطرحه فيقع عليه الحديد

الامبراطور والامبراطورية مقبلة على جولات من الصراع الشرس مع أعدائها!: البشناق والغز فى الشرق، والسلاجقة الاتراك فى الشمال؛ وردا على هذا التصرف فتح قسطنطين دوقاس الابواب على مصرعها للجنود المرتزقة مختلف القوميات والطوائف والنحل مثل النورمان، والسوريان، والارمن، والبشناق، والغز، لكى تقوم بحراسة الاطراف البعيدة للامبراطورية؛ ولم يستفد من دروس التاريخ ـ خاصة من أسباب سقوط الامبراطورية الرومانية فى الغرب ـ

---

* عاد السلطان محمود الغزنوى إلى بلاد الهند لخروج نائبه نواسة شاه فقبض عليه وافتدى نفسه بأربعة الاف درهم.

* قلد الخليفة الطائع قرواش العقيلى إمارة الموصل ولقبه معتمد الدولة.

* كانت الخطبة بالحرمين للحاكم الفاطمى فكان إذا ذكر إسم الحاكم أمر الناس بالوقوف تعظيما له وفى مصر كان إذا ذكر إسمه قاموا وسجدوا فى السوق وغيره.

سنة ٣٩٧ هجرية

استهل المحرم بيوم الجمعة الموافق ٢٧ سبتمبر ١٠٠٦م.

* أمر الحاكم الفاطمى بكسوة الكعبة بستائر من الكتان الأبيض المصرى.

* أوقع حاجب الأندلس عبدالملك ابن أبى عامر هزيمة حاسمة فى غزوته الخامسة التى عرفت باسم غزوة النصر على جيوش الأسبان المتحالفة التى ضمت ملوك النافار وليون وقشتالة وذلك بالقرب من قلونية وعاد مع نهاية السنة إلى قرطبة.

* فى أقصى المشرق تألف حلف هندوكى فى وجه السلطان محمود الغزنوى تزعمه داور

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

ويهشمه، وكانت اكثر اوقاتها اذا لم يقع من على ظهرها تلتفت اليه وتاكل بفمها رجليه. وكان يصيح ولا يُجاب. وكلمن راه يفرح ويدعو للوالى الذى اخذه، وكانو يقولو: الله الذى لم تقبل وصاياه طرحك ياهذا الانسان فى هذا البلا العظيم ونحن نسال الله ان لا ينقذك من هذه الغمة. وكان وجهه وقاحا يقول: انى اتخلص من هذه الامور لاننى رجلا ناصح للسلطان وهو لا يفسدنى وانا اجازى كل انسان منكم بقدر عمله، ولم يقول بلسانه اذا

عندما سمحت لجيشها الوطنى أن يصبح جيشا يتكون من المرتزقة الجرمان، والوندال، والقوط؛ لان الجند المرتزقة لا تدين بالولاء الكامل للدولة التى ترتدى زيها العسكرى وترفع بيارقها وأعلامها، وليست على استعداد أن تموت من أجلها؛ انما كل ما يهمها هو رواتبها الباهظة، التى كلفت خزانة الامبراطورية نفقات باهظة، وعندما كانت تعجز عن ذلك، كانت الجند المرتزقة تنهب الاقاليم، وتستولى على الضياع، وتطرد الفلاحين من أراضيهم بعد أن

صاحب الملتان وانتجابالا صاحب لاهور فقضى القضاء التام عليه وراح يطارد القوات الهاربة حتى سفوح الهيمالايا.

* استفحل أمر الثائر أبى ركوة بعد أن إستولى على برقة وهزم جيش الحاكم وضرب السكة باسمه وتقدم حتى وصل مشارف الجيزة غير أن القائد الفضل بن عبدالله هزمه وأخذه أسيراً فشهر به فى القاهرة حتى مات ثم صلب، وكان قد هزم ثلاثة جيوش أرسلها الحاكم لقتاله.

* دخل السلطان بهاء الدولة البصرة وملكها واستولى على ذخائر ابن واصل.

* منح الحاكم قائده الفضل بن عبدالله الذى قضى على ثورة أبى ركوة الأقطاعات الجليلة ولكن لم يلبث أن انقلب عليه وقتله.

سنة ٣٩٨ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأربعاء ١٧ سبتمبر ١٠٠٧م.

* وقع الخليفة الأندلسى هشام المؤيد بالله مرسوماً بخط يده ضمنه ألقاب وزيره عبدالملك بن أبى عامر وهى : الحاجب المظفر سيف الدولة أبى مروان.

---

٥٥ : شنوده البطرك ٨٥٩/٨٨٠م

شا الله، فكانو الناس يقولو انك مستحق اكثر من هذا لانك اسلمت ابونا انبا شنوده فى السجن، ومن كثرة ما جرى عليه من الافترا من ساير الامم ليس النصارى وحدهم بل وجميع الامم. فلما راى ان جميع الناس له مبغضين وان الوالى لا يضمر له صلاحا غطى وجهه بعمامته من الخزى. فلما وصلو به دار الولاية احضره بين يديه فقال له: انت الرجل المذكور عنك هذا الشر العظيم. وظن ذلك الكافر انه اذا خاطب الوالى بما فعله مع البطرك

تسلبهم مواشيهم وممتلكاتهم، فضلا عن ذلك، كان جند الارمن والسوريان حاقدة على الامبراطورية التى طالما اضطهدتهم لعقيدتهم المونوفيزية، ويتمنون سقوطها، بل وعلى استعداد للتعاون مع أعدائها من أجل ذلك الغرض، تماما مثلما فعل الاقباط مع العرب عند الغزو الاسلامى لمصر؛ ولقد عبر أحد زعماء المؤسسة العسكرية عن سخطه لتصرفات الامبراطور البيروقراطية، وهو القائد كيكاومينوس Kekaume-nos عندما قال لابنه يعظمه «يابنى

---

* عاد أهل الكرخ ببغداد فى هذه السنة إلى عادة النواح فى عاشوراء.

* إنقلب الحاكم على أهل الذمة فأمر بهدم بعض كنائسهم فى مصر والشام.

* خرج حاجب الأندلس عبدالملك إلى بلاد النافار لتأديب ملكها سانشو بسبب غدره فاستولى عنوة على حصن شنت مرتين المنيع.

* رحل الشاعر الفيلسوف أبو العلاء المعرى من المعرة إلى بغداد وأقام بها ١٩ شهراً.

* صلى الحاكم الفاطمى الجمعة وأقام الخطبة فى جامع راشدة الجديد بالقاهرة.

* توفى عالم الأندلس الرياضى الفلكى الفيلسوف أبو القاسم المجريطى (نسبة إلى مجريط أى مدريد) عن ٦٠ سنة، له كتاب الأحجار، روضة الحدائق، ثمار العدد، إختصار كتاب تعديل الكواكب.

* ممن توفى فى هذه السنة من رجال العلم والأدب والتاريخ: الفقيه أبو محمد عبدالله بن محمد البخارى الخوارزمى، جلس للتدريب ببغداد سنوات، والمؤرخ المصرى أبو منصور الفرغانى (أحمد بن عبدالله) عن ٧١ عاماً مؤلف سيرة العزيز الفاطمى وكافور الاخشيدى.

يخلى سبيله ويشكره على فعله، فقال: نعم انا ذلك الذى سلمت البطرك لوالى مصر وحصلت منه مالا كثيرا وسجلاته بيدى مثبوتة وان لا يفعل معى احد سوا ممن يكون من قبله. فقال الوالى: كانك الذى فعلت هذا الذى بلغنى، والان فقد ظهر لى انك من حزب الشيطان الملعون، وهو ذا انت لابس وجه وقاح اذ لم تخاف من الله ولا احتشمت من ابوك البطرك حين فعلت به هذا الفعل، فقد صح عندى جميع ما قالوه التجار

اياك أن تكون بيروقراطيا، لأنه من المحال أن تكون قائدا عسكريا ومهرجا كوميديا فى آن واحده.

ولقد أخطأ قسطنطين دوقاس مرة اخرى، عندما اعتقد أن المعضلات الاجتماعية والعقائدية، يمكن أن تخضع لنظريات السياسة والادارة ومعادلاتها، وذلك عندما زج بنفسه فى فتنة كانت نائمة فأيقظها، ألا وهى مشكلة النحل، والقوميات المختلفة التى تتكون منها شعوب الامبراطورية المتباينة، وذلك بتطبيق نظرية بيروقراطية عتيقة، وهى أن الرخاء

سنة ٣٩٩ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الأحد ٥ سبتمبر ١٠٠٨م.

* امتنع أهل العراق عن أداء فريضة الحج خوفاً من الأصيفر الأعرابى قاطع الطريق حتى صالحوه على مال.

* ثار الأمير محمد بن هشام حفيد الناصر على الخليفة المؤيد وأرغمه على خلع نفسه، فلما استقر فى عرش الأندلس باسم المهدى فى ١٧ جمادى الآخرة هجر مدينة الزهراء التى بناها جده عبدالرحمن الناصر فبدأ خرابها منذ هذا التاريخ.

* تولى إمارة دمشق للحاكم الفاطمى قائده أبو الجيوش حامد بن ملهم.

* أعلن بالأندلس وفاة الخليفة المؤيد بالله هشام بن الحكم وله من العمر ٤٨ سنة ولم يكن له فى الحكم شئ، وفى ٢٧ شعبان دفن فى قرطبة رجل مجهول وأعلن للناس انه الخليفة المعزول هشام المؤيد حتى يضع المهدى حداً للمؤامرات، وبه إنهارت الدولة العامرية بالأندلس.

* توفى بالقاهرة الفلكى المصرى المشهور ابن يونس (أبو الحسن على ابن عبدالرحمن) مولف الزيج الحاكمى وهو مطبوع متداول وله جداول السمت وجداول فى الشمس والقمر.

عنك واهل الاعمال التى انت فيها وما تفعله مع الضعفا، لانك قد قلت بلسانك انك رفعت على البطرك، لكنى الان مجازيك على فعلك لان الله قد طرحك في يدى. وامر للوقت ان يطرح على الارض واحضر اليه غلمان اقويا اشدا لا يرحمون خليقة الله بايديهم عصى كانها خشب السقوف وامر ان يضرب بذلك الخشب. فلما قال الجند: انه قارب الموت. امرهم ان لا يضربوه بعد ذلك بالخشب بل ياخذوه ويقيموه على قامته ويجلدوه

الاقتصادى لا يتحقق الا من خلال السلام الاجتماعى، والسلام الاجتماعى لا يتحقق الا من خلال تحقيق الوئام والانسجام بين النحل والملل والقوميات، ومزجها معا فى فكر واحد، ولذا عاد الى الزج بالسياسة فى أمور العقيدة، ليوفق بين المذهب الملكانى الاريوسى، والمذهب اليعقوبى المونوفيزى، ارضاء للسوريان والارمن، بل وربما للنورمان الكاثوليك أيضا على طريقة أباطرة القرنين السادس والسابع الميلاديين، غير أن هذه السياسة لم تثبت فشلها فحسب،

سنة ٤٠٠ هجرية

استهلت السنة الأخيرة من القرن الرابع بيوم الخميس الموافق ٢٥ أغسطس ١٠٠٩م.

* شهدت أحداث الأندلس فى هذه السنة أبرز الوقائع فى تاريخ العصر: فيها جدد الخليفة المهدى المغتصب للخلافة الأموية البيعة لنفسه وقضى على ثورة البربر بمساعدة قوات نصرانية لحليفه ملك قشتالة وولى خادمه واضحا الحجابة.

* حاول سليمان المستعين أخو الخليفة هشام المؤيد الاستيلاء على عرش قرطبة فى ربيع الأول من السنة ولكن محمد المهدى أزاحه بمساعدة القشتاليين النصارى فى شوال من السنة، وفى ذى الحجة أعلن عن ظهور هشام المؤيد الذى قيل انه توفى ودفن فى السنة السابقة.

* دارت الشائعات فى بغداد بموت الخليفة القادر فخرج وجلس للناس بعد صلاة الجمعة وعليه ابهة الخلافة تكذيباً لهذه الشائعات .

* أهدى الخليفة الحاكم الفاطمى إلى جامع عمر بالفسطاط تنورا من الفضة توقد فيه ألف ومئتا فتيلة فضلا عن جملة قناديل من الذهب والفضة.

* ولى الحاكم إثنين من فقهاء السنة فى دار العلم بالقاهرة بعد أن ثارت عليه الخواطر بسبب استيلاءه على بعض المخلفات النبوية بالمدينة.

بل أدت الى تفتح الجروح القديمة بين اليعاقبة والملكانيين، فأحيت فيهم الشعور بالاضطهاد، والمعاملة المجحفة، خاصة بين أهم قوميتين من بين قوميات الامبراطورية وهما: الارمن والسوريان؛ ولقد استطاع الارمن بسبب طبيعة بلادهم الجبلية الوعرة أن يتقوقعوا على أنفسهم، ويستقلوا بتنظيماتهم السياسية والعسكرية، ومكونين كيانا مستقلا داخل الامبراطورية، منتظرين اليوم الذى تسقط فيه وتنهار ليكتمل استقلالهم.

ولقد تحقق ما توقعه رجال

بالسياط ثلثماية سوط. فقال الجند: متى ما جلدناه مات لوقته. لانهم ظنو انه يريد منه مالا ليلا يموت فيعدم المال. فقال لهم: ليس الامر كما تزعمون افعلو ما امركم به. فجلدوه خمسون سوطا بجلود البقر فقارب الموت ايضا، ولم يبق له حركة بعد ذلك امرهم ان يمضو به الى السجن ويضيقو عليه بالحديد والخشب، ولا يطعموه طعاما إلا بمقدار يسير لا يكفه. وكان ذلك بين يومين مقدار يسير، وكان في الاعتقا يشتهي الموت من شدة ما ناله من

---

* هرب إلى الشام الوزير أبو القاسم المغربى بعد أن قتل الحاكم أباه.

* توفى فى هذا التاريخ على الأرجح الفيلسوف المعتزلى الأديب أبو حيان التوحيدى توفى فى مخبأه هرباً من الوزير المهلبى الذى اتهمه بالزندقة وهو مؤلف كتاب المقابسات وكتاب الامتاع والمؤانسة والصداقة والصديق وجميعها مطبوعة متداولة.

* توفى فى هذا التاريخ على الأرجح الطبيب على بن عباس المجوسى مؤلف كتاب كامل الصناعة فى الطب، وفيها توفى الفلكى أبو جعفر الخازن مؤلف زيج الصفائح وشرح كتاب اقليدس.

سنة ٤٠١ هجرية

أهل القرن الخامس الهجري يوم الثلاثاء الموافق ١٥ أغسطس ١٠١٠ ميلادية.

* شهد مولد القرن الخامس الهجرى: فى بغداد الخليفة القادر بالله العباسى وله ٢٠ عاماً، وفى القاهرة الحاكم بأمر الله الفاطمى وله ١٥ عاماً،و فى قرطبة الخليفة الأموى سليمان المستعين وله عام واحد، وفى المشرق فاتح الهند يمين الدولة محمودى بن سبكتكين وله ١٢ سنة، وفى المغرب أبو مناد باديس بن زيرى وله ١٥ سنة، وفى التركستان (ما وراء النهر) قطب

الضيق والعقوبة والخزى، حتى ان القوم الذين لا يرجمون احدا الذين يحرسون السجن لما سمعو ما كان يعمله ارادو ان يتمو قتله ليلا فخافو من القوم الذين في السجن ينمو عليهم، وكانو يريدو ذلك بكل جهد يبتغو بذلك رحمة من الله. فلما راى الناس لا يشتهى احد منهم حياته ولا بقاه حتى القوم الذين كانو معه فى الاعتقال كانو يلعنوه ويريدو ان يبعده الله عنهم بالموت ليلا يسلم ويخرج فينم عليهم عند الولاة، لانهم كانو قد

المؤسسة العسكرية، عندما استيقظ قسطنطين دوقاس ذات يوم، ليجد قبائل الغز التركية تدق أبواب البلقان، بعد أن عبروا الدانوب بأسرهم، ونسائهم وأطفالهم، ومواشيهم، ينوون البقاء في البلقان الى الأبد، وباءت كل محاولات قسطنطين دوقاس لطردهم بالفشل، وتحمل سكان سلونيك، ومقدونيا، وتراقيا، أعمال التخريب والسلب والنهب، ومن جانب هذه القبائل التركية الأصل.

وأخيرا مات قسطنطين دوقاس

الدولة أبو نصر إيلكخان، وفى المغرب الأوسط حماد بن بلكين وله ٣ سنوات، وفى صقلية جعفر الكلبي، وفى خوارزم أبو العباس مأمون بن مأمون، وفى حلب مرتضى الدولة أبو نصر منصور الحمداني، وفى مكة أبو الطيب داود السليمانى، وفى اليمن زياد ابن اسحق الزيادى وفيها كان أمير الأمراء ببغداد السلطان بهاء الدولة البويهي.

* وشهد مولد القرن فى القسطنطينية الامبراطور البيزنطى باسيل الثالث، وفى فرنسا ردبرت الثانى، وفى ألمانيا امبراطور الدولة الرومانية المقدسة هنريش الثانى، وفى انجلترا ايثلرد الثانى السكسونى، وفى روما البابا سلفستر الثانى، وفى الصين الامبراطور سونج.

* زحفت قوات البربر ومعها سليمان المستعين على قرطبة لانتزاعها من الخليفة هشام المؤيد.

* أعلن اعتماد الدولة صاحب الموصل العقيلى قطع خطبة العباسين معلنا ولاءه للحاكم بالله الفاطمى بمصر ولكن لم يلبث أن أبطل الخطبة له ودعا للخليفة القادر على العادة.

* وقع القحط بخراسان واشتدت المجاعة حتى أكل الناس الكلاب والسنانير وتلاه وباء عظيم حتى عجز الناس عن دفن الموتى، بينما زاد فيضان دجلة وأغرق جانباً من بغداد.

* ولى الخليفة الفاطمى الحاكم بالله لؤلؤ بن عبدالله إمارة دمشق ولقبه بمنتخب الدولة.

العاشر عام ١٠٦٧م تاركا العرش لارملته الشهيرة يودوكيا Eudocia التى لقبها أهل القسطنطينية بكنية ساخرة هي «الارملة الطروب» Mak-rembolitessa أو «ذات الرغبة البعيدة»، بعد أن أنجب منها ولدا اسمه ميخائيل، ولم يمض على موت الامبراطور بضعة شهور، حتى سلمت يودوكيا نفسها والعرش معها، لزوج جديد من رجال المؤسسة العسكرية، وهو الامبراطور رومانوس الرابع الملقب باسم ديوجين.

اقرو قدامه بذنوبهم وما فعلوه وما هم معتقلين عليه. وكان معهم رجلا قد اصاب وديعة فى الارض لها مقدار، فاعتقل عليها حتى يظهرها، ولمحبته للدنيا لم يريد ان يظهرها فاعتقل بهذا السبب، وكان قد اوصاه عند دخوله الى السجن بوصية لاولاده يعرفهم المكان الذى فيه الوديعة ليلا يموت فى الاعتقال ويضيع ماله، فلما علم هذا الانسان انه رفاع للولاة ندم على ما قاله له وكان يشتهى ان يقتله فى الليل، ولم يكن له ما يقتله به

---

* خرب الثوار الزهراء ضاحية قرطبة فتحولت إلى اطلال.

* لم يحج أحد فى هذه السنة من العراق خوفاً من قطاع الطرق بينما حج أهل مصر وغيرها كالعادة.

سنة ٤٠٢ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم السبت ٤ أغسطس ١٠١١م.

* استولى السلطان محمود الغزنوى على قصدار وأمن ملكها بعد أن حصل على ما كان ملتزماً به من المال وقدره ١٥ مليون درهم، وسبق أن قضى على عبث الغوريين بشمال الهند وقتل زعيمهم ابن سورى، واتجه قبل نهاية العام مرة ثانية إلى الهند وقضى على مؤامرات داود القرمطى صاحب الملتان.

* عاد الخليفة الحاكم إلى نزواته الأولى فأمر باغلاق دار العلم وأوقف الأرزاق التى كان يجريها على القراء والغرباء والفقراء. ورجع عن ميله إلى اعتناق المذهب المالكى ومن الخطبة فى المساجد وكان قد جهز مسجد عمرو بتنور من فضة يوقد فيه ١٢٠ فتيلا وفرش الأزهر بالبسط الفاخرة.

* عقد الخليفة العباسي ببغداد مجلساً قرئت فيه وثيقة تضمنت القدح فى أنساب

فكان ياتى الى جراحه التى اصابته من ضرب السياط ويذر عليها من اوساخ السجن وعكارة ما انعقد فى سقوفه من الانفاس الردية ما يوديه الى موته، فاذا ناله من ذلك الالم فيصيح ويقول له: قتلتنى يا هذا الانسان. ولا يجيبه احد من الناس ولا من الموكلين بالسجن لانهم كانو يريدو موته، فعلم ان الله قد انتقم منه لاجل ما فعله مع ابونا البطرك وغيره من المومنين الصالحين.

حكم الامبراطور رومانوس الرابع ديوجين Diogenes ١٠٦٨م.

هكذا وصل ذلك الجندى المحترف الى العرش عام ١٠٦٨م، وكفل ابن زوجته الامبراطورة من زوجها الراحل، وكان يسمى ميخائيل، وكان لا يزال قاصرا وتعهد ديوجين بحفظ العرش له حتى يبلغ سن الرشد.

ولما كان رومانوس ديوجين من أعضاء المؤسسة العسكرية، ففد حاول أن يجعل هدفه الاوحد هو اعادة بناء الجيش بالقدر الكاف، الذى يمكنه من انقاذ ما يمكن انقاذه من الامبراطورية

الفاطميين وعقائدهم بانهم خوارج لانسب لهم وكفار وزنادقة وأقر الوثيقة التى أرسلت إلى الأمصار فقهاء العصر منهم القدورى والأكفانى والشريف الرضى والاسفراييني.

* استولى لؤلؤ الجراحى مولى سعد الدولة الحمدانى على حلب من صالح المرداسى وأخرجه منها.

* سمح السلطان فخر الملك للشيعة فى العراق بالعودة إلى إحياء يوم عاشوراء بالنواح والبكاء والانتحار وتعليق المسوح وغلق الأسواق.

سنة ٤٠٣ هجرية

وافق هلال المحرم من هذه السنة يوم الأربعاء ٢٣ يوليو ١٠١٢م.

* جددت البيعة للخليفة الأموى الأندلسى سليمان المستعين بالله وذلك للمرة الثانية وكان اخر من تولى من بيت عبدالرحمن الداخل واستيلاء الحموديين على قرطبة.

* تولى وزارة الخليفة الحاكم بالله الفاطمى أمين الأمناء الحسين بن طاهر الوزان وكان على بيت المال.

* بعث السلطان محمود الغزنوى برسالة الخليفة الحاكم الفاطمى الذى دعاه فيها للدخول فى طاعته إلى الخليفة العباسى ببغداد.

انظرو يا اخوتي المومنين ان واحد من الناس الواصلين من اسكندرية الى مصر [الفسطاط] حضر الى ابونا البطرك وعرفه ما نال هذا الشماس من العذاب وظن انه يفرح بذلك. فقال: الله يغفر له ذنوبه التي اوقعته في هذه التجارب. فعجب الحاضرين من ذلك وسبحو الله وقالو: ما راينا مثل هذا قط. وكان يدعو الى الله ان يخلصه من هذا الضيق الذى انتهى اليه ليلا تهلك نفسه قبل توبته. لانه كما قال اشيعا النبى بان الله لا يريد موت

المتداعية، ولهذا عكف على اصلاح الجيش، وتقوية نقاط الضعف، واكمال جوانب النقص، لأنه حدد أزمة الامبراطورية في علة واحدة، هي عجزها عن وضع حد حاسم لغارات السلاجقة على ولاياتها الاسيوية، وترويع مواطنيها، ونهب ممتلكاتهم. وكان الرأى العام في القسطنطينية يطالب بعمل حربى حاسم ضد السلاجقة، كما كان مواطني الولايات الاسيوية الشرقية يطالبون حكومة الدولة التي يدفعون لها الضرائب، أن تقوم بحمايتهم من النهب والسلب

---

* توفى من رجال الحكم في هذا التاريخ: السلطان أبو نصر بهاء الدولة البويهى وهو الذى خلع الخليفة الطائع وولى القادر الخلافة وله من العمر ٤٣ سنة حكم منها ٢٥ سنة، توفى بأرجان (٥ جمادى الثانية) ودفن بالكوفة.

* وفيها توفى أمير جرجان وطبرستان شمس المعالى قابوس بن وشمكير مؤسس الدولة الزيارية بعد حكم دام ١٥ سنة، توفى مقتولا، له كتاب (كمال البلاغة) وهو مطبوع.

* وفيها توفى كذلك من رجال الحكم: المؤيد الأموى(هشام بن الحكم) من خلفاء الدولة الأموية بالأندلس ومن أحفاد عبدالرحمن وله من العمر ٤٨ عاماً، وفيها توفى ملك الترك إيلكخان وخلفه أخوه طغان خان الذى راسل محمود الغزنوى وصالحه، وفيها توفى الأمير الزيدى يوسف بن يحيى الداعى.

سنة ٤٠٤ هجرية

أستهلت السنة بيوم الاثنين الموافق ١٣ يوليو ١٠١٣م.

* أعلن الخليفة الحاكم بالله الفاطمى ابن عمه عبدالرحيم بن الياس ولى عهد له على غير رضاء من عمته ست الملك.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

الخاطى حتى يتوب. ولما طال اعتقاله ولم يكن له ما ياخذ منه الوالى احضره اليه وقال له: هوذا انا اطلقك ومتى ما سمعت عنك انك اذيت تاجرا أو غيره فلا تخلص من يدى مرة اخرى. وكانت القروح التى اصابته من ضرب السياط وذر عليها ذلك الرجل الذى معه فى السجن ذلك البلا خوفا منه تدمل عليه الى حين وفاته، وكان يريد لها فى كل يوم ما يلبسه حتى يغسل لباسه منها منجل [من أجل] أنها كانت لا تبرا ولا تقبل الدوا. ولما

والخراب الذى يلحقه بهم السلاجقة. وهكذا وضع رومانوس ديوجين ذلك نصب عينيه ولم يضيع وقتا بعد توليه الحكم، اذ شرع على الفور فى اصلاح وترميم الحصون والقلاع الهامة على طول حدود البلاد، وفى عجلة من الزمن قام بتجنيد أكبر عدد ممكن من المرتزقة من كافة الاجناس والقوميات، وحرص على اختيار ضباط أكفاء، يتولون قيادتهم، وتدريبهم، وتعويدهم على النظام والطاعة، وقد أثمر هذا المجهود الشاق، والجهد المضنى، فى نجاح رومانوس

---

* أقام الخليفة الأندلسى سليمان المستعين أنصاره من البربر حكاماً للولايات ومنهم على بن حمود صاحب سبتة الذى انقلب عليه وأطاح به بعد قليل.

* أمر الحاكم بأمر الله بقطع يدى وزيره أبى القاسم الجرجرانى.

* بدا أن الحاكم قد رجع من بعض معتقداته المتطرفه فأمر بنفى المنجمين من مصر واعتق أكثر مماليكه وأمر بمنع النساء من المشى فى الأسواق.

* أوقع السلطان محمود الغزنوى هزيمة جديدة بالهندوك فكتب الخليفة له عهداً بما فى يده من الممالك ولقبه نظام الدين ويمين الدين.

* توفى فى هذه السنة من رجال الحكم: سلطان اليمن الإمام الزيدى المهدى لدين الله (الحسن ابن القاسم) عن ٢٤ عاماً قتل فى حرب مع معارضيه، له تفسير غريب القرآن وفيها توفى أمير بادية الشام مفرج بن دغفل كان نائب الخليفة المعز الفاطمى.

سنة ٤٠٥ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الجمعة ٢ يوليو ١٠١٤م.

* قرأ الخليفة القادر العباسى ببغداد فى حفل عام عهد السلطان ركن الدين البويهى (ابن

ناله من البلا والفضيحة والخزى مضى الى الناحية التى كان يسكنها قريبا من صا واخذ زوجته واولاده وعاد الى البلد الذى ولد فيها من اعمال البشمور وهى البجوم [قرب ادكو]، فسكن بها. فلما بلغ ابونا ذلك شكر الله وقال كما قال داود النبى: مبارك الرب الذى لم تبعد صلاتى ولا رحمته عنى.

وبعد ذلك بدد الله الشكوك وفاعلى الاثم وكانت سلامة عظيمة فى البيعة والبرية المقدسة وكان ابونا مواصل الدعا والابتهال الى الله سبحنه

ديوجين فى تجهيز جيش، أصبح جاهزا للعمل فى ربيع عام ١٠٦٨م وكان يقوده بنفسه.

كانت استراتيجية رومانوس ديوجين تعتمد على الحروب الخاطفة Blitzlrieg، والتى تقوم على المبدأ الرومانى القديم: «اقتف أثر العدو، ودمره، ثم عده وذلك عن طريق قوة متحركة غير ثابتة؛ وكانت المناطق التى حددها الامبراطورية فى ثغور أعالى الشام، وثغور أعالى بلاد النهرين، وعند أرمينيا، ومن ثم وضع خطة لاغلاق هذه المنافذ، وخلق

بهاء الدولة) ولقبه جلال الدولة وجمال الملة وركن الدين وهو أول من حمل هذا اللقب الأخير.

* انتزع السلطان محمود الغزنوى حصن تنيسر (تانيشر) من الهنادكة بعد أن استماتوا فى الدفاع عنه فحطم ما به من الأصنام وحمل الغنائم من الأموال والفيلة عائداً إلى غزنة.

* تولى قضاء مصر أبو العباس أحمد بن أبى العوام وكان مشرفاً على دار القرب وعلى شئون المساجد.

* توفى أمين الأمناء الوزير المصرى الحسن بن طاهر الوزان، وكان على بيت المال فى خلافة الحاكم ثم تولى وزارته حتى انقلب عليه الحاكم واغتاله، كما أمر بقتل وزيره أبى العباس الفضل بن جعفر بعد خمسة أيام من وزارته وخلفه أبو الحسن على ابن جعفر الكتامى.

سنة ٤٠٦ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الثلاثاء ٢١ يونية ١٠١٥م.

* عبر على بن حمود الادريسى صاحب سبتة البحر إلى الأندلس ودخل مالقة بمساعدة شيعته وساروا قاصدين قرطبة، وجرت معركة حاسمة فى ظاهرها هزم فيها الخليفة هشام المستعين.

وتعا[لى] ان يقويه على ما يناله من ولاة الظلم، لانه كان زمان ردى وسلطان ظالم ممتلى من السو بقدر اعمال اهل تلك الارض.

والان نذكر يسيرا مما جرى للاب انبا شنوده. انه لما جرت السلامة فى البيعة وطابت نفسه ونفوس الشعب المسيحى كان يداوم الدعا والابتهال الى الله فى كل حين، ويقول: انا اسلك [اسالك] يا ربى والاهى يسوع المسيح ان تحفظ شعبك من البلايا اما انا فانى استحق ما نالنى من التجارب

منطقة عازلة غير مأهولة، بين حدود الامبراطورية مع الشام وأعالى الرافدين، وأن يتم ذلك على ثلاثة مراحل.

كانت المرحلة الاولى تجريد حملة ضد امارة حلب فى أعالى الشام عام ١٠٦٨م، وبالفعل نجحت هذه الحملة فى سحق قوات محمود بن نصر المرادسى أمير حلب ومن معه من التركمان والعرب؛ واستولى على حصونها، ودمرها، غير أنه اضطر الى العودة قبل أن أن يكمل أهداف الحملة، وذلك أن الأنباء وردت اليه أن

---

* تولى المعز بن باديس إمارة افريقية (تونس والمغرب الأوسط) وأقره الحاكم بالله الفاطمى ولقبه شرف الدولة.

* منع الوزير فخر الملك الشيعة من إقامة الحداد والنواح فى يوم عاشوراء درءاً للفتنة.

* استولى أبو نصر المنصور بن لؤلؤ على حلب فزال آخر حكم للحمدانيين بحلب ودانت حلب للخليفة الفاطمى بمصر.

سنة ٤٠٧ هجرية

استهلت السنة بيوم الأحد الموافق ١٠ يونية ١٠١٦م.

* دخل على بن حمود مدينة قرطبة (٢٨ محرم) ودعا إلى البيعة لنفسه فبويع بالخلافة وتلقب بالناصر لدين الله وبه بدأت صفحة الدولة الحمودية بالأندلس.

* ضم السلطان يمين الدولة محمود الغزنوى خوارزم إلى إمبراطوريته وبعد معاركه حمل يمين الدولة آلاف الأسرى معه إلى غزنة ثم أفرج عنهم وأجرى عليه الأرزاق وسيرهم إلى الهند حراساً على فتوحه فيها.

* ولى الخليفة الحاكم الفاطمى غلامه فاتك الرومى أميراً على حلب ولقبه عزيز الدولة.

منجل [من أجل] خطاياى لكن لاجل رحمتك احفظ شعبك وغنم رعيتك والبيعة الطاهرة التى اشتريتها بدمك الزكى ويكون هذا الشعب تحت الهدو والسلامة بغير اضطراب، وهو مواصل الشكر والدعا لله فى هذا الوجه لا يفتر ليلا ولا نهارا. وان المبغض للخير الشيطان لم يصبر. ولما نظر ان الله قد بدد القوم الذين كانو فى حزبه وهم وعا له يتكلم فيهم، قلق واراد ان يقيم على البيعة بلايا واحزان ليرى ويفرح، فنصب فخا ودخل الى الوعا

أحد زعماء التركمان ـ واسمه أفشين ـ بدأ بشن غارات على عمق من أراضى الامبراطورية بالقرب من أرمينية. وفى العام التالى عام ١٠٦٩م كانت المرحلة الثانية فى الشام أيضا ليكمل ما بدأه، وتوغل فى أعالى الشام مستوليا على منبج من أعمال حلب Beroia (وكانت قديما تسمى هيرابولس Hierapolis) والتى تقع الى الشمال الشرقى منها، وخربها، وطرد سكانها، وأسر بعضا منهم، ثم واصل سيره الى الشمال من حلب نحو بلدة اعزاز، ففعل نفس الشئ،

---

* تجددت الفتنة بين الشيعة وأهل السنة بواسط فهرب وجوه الشيعة إلى الجزيرة (العراق).

* خرج محمود الغزنوى بعد استيلاءه على خوارزم إلى الهند غازيا لعامه وقصد مملكة كشمير التى أعلن ملكها مع شعبه دخلوه فى الإسلام ثم سار لفتح قنوج مكتسحاً كل ما فى طريقه من مقاومة بما فى ذلك حصن مهاون على نهر جمنة.

* توفى فى هذه السنة آخر خلفاء الدولة الأموى بالأندلس المستعين بالله سليمان بن الحكم قبض عليه على بن حمودفى زحفه على قرطبة وقتله مع أهل بيته.

سنة ٤٠٨ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الخميس ٣٠ مايو ١٠١٧م.

* بويع بالخلافة فى الأندلس القاسم بن حمود وكان أميراً لاشبيلية وذلك بعد ستة أيام من مقتل أخيه الناصر لدين الله على بن حمود أول الخلفاء الحموديين بقرطبة.

* تولى إمارة دمشق من قبل الخليفة الحاكم الفاطمى سديد الدولة أبو منصور ولم يستمر سوى بضعة شهور.

الجـديد الذى هو راهب من دير ابو يحنس بوادى هبيب، كان قد ظهر له فى الديارات فعل سو من صفره، وكان جنسه من مريوط وكان معروفا بالسعاية والكذب ليس فيه رحمة، كما قال بولس الرسول فى رسالته الى أهل رومية: كما انهم لم يحزنو ويجعلو الله لهم حافظا اسلمهم الرب لشهوات نفوسهم فقست قلوبهم ليفعلو ما لا يجب فعله سرا [من] ظلم وغش وحسد ومكر سو شريرين سبايين. وصار هذا الراهب مسكنا جديدا

وكان هدفه خلق حزام أمنى على طول حدود الامبرطورية مع الشام، ولم يتم رومانوس ديوجين عمله على الوجه الاتم بسبب تناقص المؤن، وظهور أعراض وباء فى جيشه. أما المرحلة الثالثة فقد كانت فى عام ١٠٧١، والتى انتهت بكارثة ملاذكر..

كارثة هزيمة منزكرت عام ١٠٧١م:

لقد كان عام ١٠٧١م بحق هو عام الكوارث بالنسبة لامبراطورية الروم، فبعد فترة وجيزة من سقوط

---

* تولى أبو المظفر شرف الدولة أرسلان خان عرش بلاد ماوراء النهر (سمرقند وفرغانة) خلفاً لأخيه طغان خان بينما تولى عرش بخارى أخوه قدرخان يوسف

* عظمت سطوة العيارين ببغداد فافسدوا ونهبوا. بينما استمرت الفتنة بين الشيعة وأهل السنة بالكرخ وقتل فيها خلق كثير.

* قدم سلطان الدولة البويهى بغداد فضرب له الطبل فى أوقات الصلوات الخمس على غير العادة.

* توفى بقرطبة أول ملوك الخلافة الحمودية بالأندلس الناصر على بن حمود عن ٥٤ عاماً إغتاله بعض خدمه (٢٨ القعدة) بعد أن استولى عليها من المستعين الأموى ولم تدم خلافته سوى عدة أشهر.

سنة ٤٠٩ هجرية

وافق مستهل المحرم يوم الثلاثاء ٢٠ مايو ١٠١٨م.

* جرت معرك حاسمة بالقرب من غرناطة بين عبدالرحمن المرتضى المطالب بعرش الخلافة الأموية وبين الحموديين وفيها هزم المرتضى وقتل.

للشيطان وكان متظاهرا بالديانة في بادية امره وكان الشيطان يقول له: ايها الاخ هوذا انت قد لبست هذا الاسكيم وليس يجب لك ان تفعل هذه الافعال لكن يصلح لك ان تخلى هذه الامور الذميمة وتمضى الى الاب البطرك يصلحك شماسا حتى تكمل وتصير من الرهبان القديسين. فلما طرح هذا الفكر فى قلبه فقال فى نفسه ان هذا فكر صالح، ولم يكن يشاور احد من الابا ليهديه الي طريق الصواب، وكان هذا فعله في

بارى، خرج رومانوس ديوجين على رأس جيشه في حملته الثالثة من سلسلة حملاته لضرب السلاجقة، بل كانت هذه الحملة الثالثة هي الحاسمة لأن الحملتين السابقتين لم تكونا سوى تمهيدا لها. ومن أجل ذلك جند أعدادا غفيرة من المرتزقة من الروس والخزر، واللان والغز، والقفجق والكرج، ومن الفرنجة والارمن، مما نتج عنه أن أصبح جيشه - بالرغم من عدده وعدته -، أقل تماسكا وانضباطا، بل أقل خبرة

---

* توفي مقتولاً الأميرالأندلسي الأموى عبد الرحمن المرتضى بن محمد المطالب بالخلافة بعد عامين من الدعوة له.

* فيها توفي من رجال الحكم: وزير الوزراء الفاطمي ذو الرياستين المظفر قطب الدولة على بن جعفر بن فلاح توفي اغتيالاً، وفيها توفي الأمير العباسي الغالب بالله ابن الخليفة القادر عن ٢٧ عاماً وكان قد بويع له بالخلافة ولكنه مات قبل أن يليها.

سنة ٤١٠ هجرية

استهلت السنة بيوم السبت الموافق ٩ مايو ١٠١٩م

* استولى السلطان يمين الدولة محمود الغزنوى على قنوج إحدى الإمارات الهندوكية الكبرى في شمال الهند واستسلم إليه ملكها راجا بالهن (راجيبال) ودخل مع قومه في الإسلام، وبعث السلطان إلى الخليفة القادر بخبر بما فتحه الله عليه من بلاد الهند.

* ثار أهل صقلية على أميرهم أبو الفتوح يوسف الكلبى وحاصروا قصر الإمارة بسبب إبنه جعفر الذى ساءت سيرته فغادر الجزيرة وتولى الإمارة إبنه أسد الدولة أحمد الأكحل للمرة الثانية.

جـمـيع ايامـه، وكـان يرذل مـشـاورة الابا لقلة [دينـ]ـه، ويثبت على ما يوعيه له الشيطان من الفكر الردى في قلبه. فنهض من البـرية مـوضع الانفراد والعباده ونزل الى [الر]يف موضع القلق والزنا، وقال: ان البطرك يعرف افعالى انها ذميمة من صبـاى فـان انا مضـيت اليـه ليس يتـمم لى شهوتي. [فـ]لما مضى الى بعض الاراخنة بمصر واسلهم ان يكتبوا لى كتابا ليوسم شماسا، فقام ومضى الى فسطاط مصر واجتمع [بـ]قوم من

ودراية بفنون القتـال، ولقـد ارتكب رومانوس ديوجين عدة أخطاء فادحة، منها أنه لم يرسل فرقة للاستطلاع كعادة الجيوش الكبيرة لرصد تحركات العدو ومواقعه حتى يكون على علم بالموقف قبل أن يتوجه بجيشه الى حدود فارس؛ بينما كانت جواسيس الامبراطور آلب آرسلان تحيطه علما أول بأول عن جيوش الروم وتحركاتها، بل كانت المعلومات تصل اليه من داخل معسكر الروم عن طريق الجنود المرتزقة من القبائل الاسيوية، وكان

سنة ٤١١ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأربعاء ٢٧ ابريل ١٠٢٠م.

* في ليلة الثلاثاء ٢٨ شوال من السنة خرج الخليفة الحاكم الفاطمي إلى صحراء القاهرة ولم يعرف له خبر منذ هذا التاريخ وله من العمر ٣٦ سنة و٧ أشهر ودام حكمه نحواً من ٢٥ سنة واتهمت عمته مع ابن دواس شيخ الشيوخ بتدبير قتله حماية للبيت الفاطمي.

* بويع بالخلافة الفاطمية في مصر أبو الحسن على الملقب بالظاهر لإعزاز الدين خلفاً لأبيه الحاكم بأمر الله وذلكن بعد سبعة أيام من إختفاء الحاكم، والخليفة الجديد صبى له من العمر إحدى عشرة سنة كان في مثل سن أبيه حين تولى الخلافة، فخرج بتدبير من عمته ست الملك في موكب عظيم على رأسه تاج جده المعز وبين يديه الوزير وأرباب الدولة.

* تألف حزب هندوكى بزعامة راجابيدا للقضاء على الوجود الإسلامى فى الهند فخرج إليهم محمود الغزنوى حتى بلغ نهر الكنج وعبره لأول مرة حتى بلغ معقل مارى فاستولى عليه ثم أوقع بقوات الحلف قتلا وأسراً ونجا زعيمه بيدا هرباً.

* ثار عزيز الدولة فاتك الواحدى أمير حلب على مولاه الخليفة الفاطمى وقطع خطبته ودعا لنفسه مستعيناً بامبراطور الروم باسيل الثانى.

الكتاب النصارى الذين لا يعرفون ذميم طريقته وسالهم سوالا عظيما. فمن جودة اعتقادهم فى الرهبان كتبو له كتابا الى الاب البطرك فيما التمسه منهم. وكان ابونا باعمال الشرق مقيما بوجع النقرس وهو يتزايد به، فلما وصل هذا الراهب الى باب البطرك كان فى الساعة التاسعة من النهار، فخرج بعض اولاده وهو حزين لشدة وجعه وهو باكيا لما يناله من ذلك، فقال لهم: انى اريد الاجتماع بابونا البطرك فان معى كتبا من

السلطان ألب ارسلان قد علم بأمر هذه الحملة عند عبوره نهر الفرات عائدا الى خراسان، فلما اكتشف مكان ديوجين، وتوافرت لديه كافة المعلومات عن قواته، قرر أن ينصب فخا لاصطياده وقواته داخل وادى منزكرت فى اقليم ارزروم. وكانت بداية الالتحام عندما نجح أحد قادته واسمه صندوق فى مهاجمة مقدمة جيش الروم، واحداث ثغرة فى دفاعاته،وعلى أثر ذلك بعث السلطان آلب آرسلان الى رومانوس ديوجين

---

* توفى شيخ الشيوخ سيف الدولة الحسين بن دواس الكتامى صاحب الأمر فى دولة الفاطميين بعيد اختفاء الحاكم وقيل بتدبير من ست الملك عمة الحاكم والوصية على الخليفة الجديد، كما توفى حول التاريخ نفسه أبو عبدالله الدرزى الداعية الشيعى واليه تنسب الطائفة الدرزية أو الدروز وكان قد وفد على مصر منذ عام ٤٠٧ ودخل فى خدمة الحاكم.

سنة ٤١٢ هجرية

استهلت السنة بيوم الاثنين الموافق ١٧ ابريل ١٠٢١م.

* دخل قرطبة يحيى بن على الحمودى فخرج منها عمه المأمون منسحباً إلى اشبيلية وبويع يحيى بالخلافة وتلقب بالمعتلى بالله (أول جمادى).

* عاد السلطان الغزنوى يمين الدولة محمود إلى الهند وأخضع ولاية كوليار لسلطانه وصالح راجا جنده على الطاعة وعلى مال معلوم.

* استولى المؤيد جناح الحبشى على اليمن مؤسساً ما يعرف بالدولة الجناحية.

* استقل مجاهد العامرى بكورة دانية ومد سلطانه إلى الجزائر الشرقية فكان ذلك بداية الدولة العامرية بالأندلس.

جهة الكتاب الاراخنة بمصر واريد ان اوقفه عليها. فقالو له: يا اخونا الراهب ما سمعت ما نحن فيه وانه وجعا من مدة طويلة من النقرس ولا يقدر احد يخاطبه ولا يقول له قولا من شدة الوجع، لكن عرفنا حاجتك التى [وصلـ]ت لاجلها وما تريده، او تصبر لعل الله الرحوم يرزقه العافية تجتمع به ويجاوبك عن كتبك. فلما سمع [الغير] راهب من اولاد القلاية هذا ظهر الشر فى وجهه وعبس مثل الشيطان وقال لهم: كتاب مصر الذى كتبو لى

يعرض عليه الصلح، غير أن الامبراطور المغرور، المتعجل للنصر بأى ثمن، رفض هذا العرض، مقررا أن المعركة هى الفيصل الحاسم.

وفى صبيحة يوم الجمعة الموافق الثامن عشر من أغسطس عام ١٠٧١م، وعند موضع يعرف بالزهرة فى شمال بحيرة «وان» فى أرمينيا، نفذ السلطان السلجوقى خطته بدقة، فما أن اطمأن أن جيش الروم قد دخل الوادى، حتى أغلق مخارجه، وفزجئ رومانوس ديوجين بأن عليه القتال

سنة ٤١٣ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الجمعة ٦ ابريل ١٠٢٢م.

* السنة الثانية لخلافة الظاهر لاعزاز الدين الفاطمى فى مصر.

* أعلن البربر فى الأندلس خلع الخليفة الحمودى يحيى المعتلى (١٢ القعدة) ولم يكن قد مضت على خلافته سوى ١٨ شهراً وغادر قرطبة إلى مالقة وجددت البيعة لعمه القاسم الحمودى.

* وقع الصلح بين مشرف الدولة وأخيه سلطان الدولة على أن يكون العراق كله للأول وان يكون فارس وكرمان للثانى.

* توفى من رجال الحكم: عزيز الدولة فاتك الرومى أمير حلب من قبل الفاطميين اغتاله غلام هندى وهو نائم وهو الذى ألف له المعرى كتابه (رسالة الصاهل والشاحج)، وفيها توفى القائد المغربى أبو عبدالله ابن الحسن وزير المعز بن باديس صاحب أفريقية توفى مقتولاً.

سنة ٤١٤ هجرية

استهلت السنة بيوم الثلاثاء الموافق ٢٦ مارس ١٠٢٣م.

* أعلن أهل قرطبة خلع الخليفة القاسم الحمودى للمرة الثانية (جمادى الآخرة) وحاصر

[و] اريد تمام ما جيت بسببه، وانكم ايها القوم الذين يمنعونى من الاجتماع به وتقولو انه عليل، واذا كان هذا [فا]نى امضى انا واعمل ما اريد من الشر. فلما قال هذا بغضبا قالو له الاخوة: هوذا نراك تتكلم بكلام الجبابرة ونحن [مثلك] حضرنا وما وجدنا سبيل للاجتماع به، فتقيم اليوم هاهنا الى الغداة ندخل بك اليه وسلم اليه الكتب الذين معك كما تزعم. فلما [فلم] يميل الى قولهم ولا رجع الى رايهم لما قد داخله من الافكار الشيطانية،

حتى الموت أو الاستسلام، وكانت قوات السلطان السلجوقى تتكون من أمهر الرماة من الفرسان خفيفى العتاد والحركة، والقدرة على المناورة، بينما كانت قوات رومانوس ديوجين تتكون من الفرسان المدججين بالسلاح الثقيل الذى يحد من قدرتهم على المناورة والتحرك، ولما رأت القوات المرتزقة من التركمان والاتراك، العاملة فى جيش الروم هذا الموقف اليائس، استجابت لنداء العاطفة مع أبناء عمومتها السلاجقة، فانسحبت معلنة انضمامها الى قوات آلب آرسلان.و

البربر المدينة ٥٠ يوماً فلجأ القاسم إلى أشبيلية ولكنها لم تفتح أبوابها له، وأخذت البيعة لعبدالرحمن بن هشام بن عبدالجبار حفيد الناصر (١٣ رمضان) وتلقب بالمستظهر بالله وله من العمر ٢٣ سنة ولكن لم تدم خلافته كذلك سوى ٤٧ يوماً.

* ثار أهل قرطبة على المستظهر الأموى وهاجمت العامة قصره فهرب مختفياً وبويع بالخلافة محمد بن عبدالرحمن بن عبدالله (حفيد آخر للناصر) وتلقب بالمستكفى بالله وله من العمر ٤٢ عاماً وفى أيامه شاع الخراب فى قصور الزهراء.

* دخل السلطان البويهى الجديد مشرف الدولة إلى بغداد فخرج للقاءه الخليفة القادر على غير ما جرى به العرف.

* جرى بمكة يوم العيد بعد صلاة الجمعة أن قام درويش كان قد جاء من مصر وضرب الحجر الأسود بعمود كان يحمله حتى تقشر جزء من وجهه ففتك به الحجاج، أما الحجر فقد عجن ما تفتت منه بالمسك وأعيد إلى موضعه.

* غزا السلطان محمود الغزنوى الهند واكتسح إقليم الكجرات، وبعث إلى الخليفة القائم العباسي برسالة بسط فيها أخبار فتوحاته ووقعها بـ «عبد مولانا أمير المؤمنين وصنيعته محمود ابن سبكتكين».

وتكلم بالقبيح من لسانه الشيطانى فلم يجيبوه عن كلامه بلفظه واحدة لانهم كانو مشغولين بوجع الاب البطرك، وخرج من عندهم وقد امتلى من الافكار الشيطانية وحمى صدره ووغر قلبه واظلمت عيناه عن الافكار الصالحة، كما قال داوود النبى: مالو جميعا ورذلو وليس من يعمل صالحا ولا واحد، حناجرهم قبور مفتحة، والسنتهم غاشة، سم الافاعى تحت شفاههم. هولا الذين افواههم مملوة لعنة ومراة وارجلهم سريعة لسفك

بالرغم من ذلك فقد كان فى مقدور جيش الروم أن يتصرف بطريقة أفضل، لأنه كان لا يزال هو الاكثر عددا وعدة، لكن فجأة قرر المرتزقة اللاتين اعلان حيادهم، وانسحبوا الى تل عال، ليتفرجوا على المعركة، وقد أدى انسحاب اللاتين ا لى فوضى عارمة، وتفرق جيش رومانوس الى مجموعات قتالية متباعدة، ولقد قدم لنا ابن العديم وصفا دقيقا للمعركة، وذكر أنه فى اللحظة التى كان فيها خطباء صلاة الجمعة على المنابر يدعون بالنصر للسلطان السلجوقى،

---

* توفى باشبيلية القاضى ابن عباد المؤسس الأول لدولة بنى عباد باشبيلية وكان قد ولاه المنصور ابن أبى عامر فى الأصل قاضيا عليها.

سنة ٤١٥ هجرية

وافق هلال الأول من المحرم في هذه السنة يوم الأحد ١٥ مارس ١٠٢٤م.

* عبر السلطان محمود الغزنوى نهر جيحون وأسر الزعيم السلجوقى إسرائيل ابن سلجوق عم طغرلبك.

* بذل الخليفة الفاطمى الظاهر الأموال الجزيلة لحجاج مكة كسباً لدعوة الفاطمية الشيعية مما أثار الخليفة العباسي فأعيد كثير من الهدايا إلى بغداد واحرقت بها.

* تجددت الفتن بين الشيعة وأهل السنة في البصرة بعد أن منع الشيعة من النواح فى يوم عاشوراء.

* تولى وزارة الخليفة الظاهر الفاطمى نجيب الدولة على بن أحمد الجرجرائى بعد وفاة عمته ست الملك وكانت الوصية على الظاهر، وكان الحاكم قد أمر بقطع يدى وزيره قبل ١٦ عاماً خلت.

الدما موضع السلامة لم يعرفوه وليس خوف الله امامهم. فخرج من عندهم ومضى الى مريوط الضيعة التى ولد فيها، وكان اهله بها سكانا فاقام بها اياما يتدبر بما يريد ان يفعله بابونا البطرك من البلايا، فاول ما فعل من الشر الذى رتبه له ابوه الشيطان انه كان يمضى الى والى [بعد] والى ويعرفه انه يريد المضى الى مصر ويقول لهم ان فى الاعمال للبطرك مالا وابقار واغنام واواسى وغير ذلك فاحفظ[ـه] الى ان يصل لك كتاب الوالى

كانت المعركة تدور رحاها، فقد حمل رومانوس بقواته على الجيش السلجوقى، لكن آلب آرسلان سحبه الى الكمين، وبدأ فى سحق قواته بلا رحمة، بالرغم من أن مجموعات جيش الروم قد قاتلت ببسالة، غير أن الذعر من الموقف اليائس جعلهم يهملون تدعيم الحراسة حول رومانوس، فوقع فى الاسر، وخارت قوى القوات الرومية، فاستلمت، واستولى السلاجقة على عتادهم، وأسروا منهم أقواما لا تعد ولا تحصى، وامتلأ الوادى بجثث قتلاهم.

---

* توفيت بالقاهرة عن ٥٦ عاماً ست الملك بنت الخليفة العزيز الفاطمى وأخت الخليفة الحاكم وهى التى دبرت كما قيل قتله انقاذاً من مصير الخلافة الفاطمية فى مصر.

سنة ٤١٦ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الخميس ٤ مارس ١٠٢٥م.

* خرج السلطان محمود الغزنوى إلى الهند فى غزوته الأخيرة وفيها كان دخوله معبد سومنات أعظم مقدسات الهنادكة (تطل سومنات على المحيط الهندى مقابلة لمدينة بومباى الحالية يفصل بينهما خليج كامباى) ونهب السلطان بوابة المعبد معه إلى غزنة (أعيدت عام ١٨٤٢م) كما أعيد بناء المعبد بعد استقلال الهند عام ١٩٤٧.

* خلع أهل قرطبة بيعة المستكفى بالله الأموى بعد أسابيع من توليته فخرج مستخفياً إلى مالقة (ربيع الأول) وخلعه يحيى الحمودى.

* خطب ببغداد لأبى طاهر جلال الدولة وهو بالبصرة على أثر وفاة أخيه مشرف الدولة ولكنه لم يدخلها فقطعت خطبته فى شوال وخطب لابن أخيه أبى كاليجار ابن سلطان الدولة.

بمصر. ولما وصل الى مصر كتب كتبا الى الوالى ودفعها اليه فيها يقول: الذى انهيه اليك ايها الامير ان سلطانك على جميع كورة مصر وجميع من يسمع سلطانك يخاف منه الا البطرك المقيم باسكندرية وهو يفعل افعالا تغضب الله، وذلك انه يسحر قوم من المسلمين ليدخل بهم الى البرية ويعمدهم ويقعدهم فى دينه، فان يشد منى الامير فانا امضى الى البرية واخرج بعض المسلمين الذى فيها وقد صيرهم رهبان، ويقولو البطرك الذى

ولم يكن أمام رومانوس ديوجين الا أن يقبل صاغرا شروط آلب آرسلان المهينة، فقد اعترف الامبراطور الرومى بحق الدولة السلجوقية فى امتلاك وادى منزكرت ومرعش، والرها وانطاكية ومنبج. وتعهد باطلاق سراح جميع الاسرى من الترك وأقرباءهم، الذين كانوا فى سجون القسطنطينية منذ سنوات، يرسفون فى الاغلال، ويعاملون معاملة الذل والمهانة، وتعهد بأن تدفع القسطنطينية اتاوة سنوية لسلطان

---

* غزا النورمان لأول مرج جزيرة صقلية فجهز المعز بن باديس صاحب المغرب وصقلية اسطولا من ٤٠٠ سفينة لردهم إلا أن العواصف أغرقت أكثر سفنه.

* توفى سلطان العراق مشرف الدولة البويهى (ربيع أول) وعمره ٢٣ سنة حكم منها نحواً من ٥ سنين.

* توفى منفياً الخليفة الأموى الأندلسى المستكفى بالله (محمد بن عبدالرحمن) عن ٤٤ عاماً ولم يمتد حكمه سوى ١٧ يوماً، وهو أبو الأديبة الشاعرة ولادة بنت المستكفى.

* توفى فى هذه السنة من رجال الأدب: الشاعر أبو الحسن التهامى (على ابن محمد) كان قد جاء إلى مصر متخفياً ثم حبس فى خزانة البنود وقتل فى سجنه لأسباب سياسية.

*توفى بمصر المؤرخ ابن الطحان (يحيى بن على) له تاريخ علماء مصر وله ذيل تاريخ مصر لابن يونس.

* شهدت هذه السنة وفاة باسيل الثانى امبراطور بيزنطة الذى عاصر حكمه خلافة الطائع والقادر والقائم العباسيين ودخل فى حروب مع الخليفة العزيز ثم الحاكم الفاطمى انتهت بهزيمته قبل وفاته.

جعلنا وفعل بنا هذا ثم ان الغير راهب الذى لا يستحق الاسم تيدرا ابن اوضوريطس لما اخذ هذه الافكار ممن صيره له وعا وكان يمشى امامه.

وكان الامير قد وصل له كتاب الملك بان يتسلم جميع كورة مصر، وان تكون جميع الولاة من تحت يده بخلاف ما جرت به العادة، فانه كان والى اسكندرية ليس بينه وبين الوالى بمصر معاملة ولا خطابا بل كانوا يتهادو الهدايا بينهم، وكانو

السلاجقة، وأن يمدوه بالقوات العسكرية عندما يطلب منهم ذلك، وبالرغم من أن الروم افتدوا رومانوس بمبلغ كبير قدره نصف مليون سوليدوس رومى من الذهب، الا انهم اعتبروا هذه الهزيمة عملا فرديا من جانب الامبراطور المهزوم، وبالتالى لا شأن للامبراطورية به.

ولقد كان لأنباء الهزيمة فى منزكسرت وقع كبير على شعب القسطنطينية، ووصفوا هذا اليوم «باليوم الرهيب» وقارنوها بهزيمة

سنة ٤١٧ هجرية

استهلت السنة بيوم الثلاثاء الموافق ٢٢ فبراير ١٠٢٦م.

* عاد السلطان يمين الدولة محمود الغزنوى من غزوته الكبرى والأخيرة فى الهند ودخل عاصمته غزنة فى ١٠ صفر من العام.

* تولى إمارة صقلية باتفاق أهلها صمصام الدولة حسن بن يوسف بعد مقتل أحمد الأكحل الكلبى.

*عمت الفوضى مدينة بغداد بسبب تسلط الجند الأتراك واستغلها العيارون والرعاع فى النهب والسب واحترق الكثير من البيوت والأسواق فاغلقت أبواب الحارات على أهلها.

* جرى الصلح بين قبائل كتامة وزناتة البربرية وبين المعز بن باديس الصنهاجى صاحب أفريقية فأعطوه العهود والمواثيق على الطاعة والدخول فى حكمه واشترطوا أن يوكل إليهم حفظ الطرق.

* هاجم أعراب خفاجة مدينة الأنبار ونهبوها وأحرقوا أسواقها.

* توفى من رجال الحكم: الوزير أبو سعد ابن ماكولا توفى فى حبس جلال الدولة، وفيها توفى الأمير حماد بن بلكين الصنهاجى عم المعز بن باديس صاحب أفريقية، وفيها توفى مقتولاً بصقلية أميرها أحمد الأكحل الكلبى بتدبير من المعز بن باديس لسوء سيرته.

٥٥ : شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

مــصطلحين كل الايام، وكــانو من تحت سلطان واحد. فعند وصول السجل اليه من الخليفة ببغداد فرح فرحا عظيما وامر جنده ان يخرجو معه ويلبسو افخر ثيابهم وزينتهم ويمضو معه الى اسكندرية، ووهب لهم على سبيل الاكرام، لما ناله من الفرح، ما ينفقوه فى طريقهم. وكان الذى انفقه من عنده على وجوه دولته، وكان عددهم الف ومايتى فارس سوا اتباعهم، لكل رجل منهم زوجا من الثياب الكبار الفاخرة، وعمامة من عمل

الامبـراطورية الرومانية القديمة فى كـارهاى عـام ٥٢ ق. م. ورغم أنهم وافقـوا على دفع الفدية وشروط الهدنة، الا أنهم ثاروا على رومانوس ديوجين وطالبوا بعزله ومحاكمته، وبالفعل ألقى القبض عليه وسملت عيناه، ثم أرسل إلى دير بعيد ليقضى فيه ما تبقى له من عمر، ولم يعش المسكين طويلا اذ مـات فى السنة التالية عام ١٠٧٢م. وفى ذلك الوقت كـان الامبـر ميـخائيل دوقـاس ابن الامبـراطور الراحل قسطنطين دوقاس

سنة ٤١٨ هجرية

والنقب الأول من المحرم يوم السبت ١١ فبراير ١٠٢٧م.

* بايع أهل قرطبة هشام بن محمد من حفدة عبدالرحمن الناصر بالخلافة وكان بناحية ألبونت وذلك خلفاً ليحيى الحمودى وتلقب بالمعتد بالله.

* تسلم الخليفة القادر كتاب السلطان محمود الغزنوى متضمنا أخبار فتوحاته الهندية وتخريب معبد سومنات الذى كان يضم ٥٦ سارية مصفحة بالذهب والجواهر، وفى طريق عودته أوقع بقبائل الجات الثائرة على حكمه.

* استولى الخراب على قصر معز الدولة ببغداد بعد أن جرد من اثاثه ونقبت جدرانه، وبذلت أموال لحل ما على سقوفه من الذهب.

سنة ٤١٩ هجرية

أهل شهر المحرم في يوم الأربعاء الموافق ٣٠ يناير ١٠٢٨م.

* شغب الجند الأتراك ببغداد على السلطان جلال الدولة ونهبوا دار الوزير ابن ماكولا ودور رجال الحاشية وحصروا السلطان فى قصره.

---

٥٥ : شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

من يودوكيا قد بلغ سن الرشيد، فهتفوا به امبراطورا.

تحليل لاسباب ونتائج هزيمة منزكرت:

لقد حسمت معركة منزكرت مصير آسيا الصغرى، فقد نجح السلاجقة فى التوغل فيها، ولم يعد فى استطاعة الروم منعهم من التسلل اليها، واستيطانها استيطانا أبديا، ولم تعد سيادة الامبراطورية على آسيا الصغرى سوى سيادة اسمية، بينما كان المالك الحقيقى هم السلاجقة الاتراك . ولقد كان فقدان الاقاليم

البشمور، وخمسة دنانيره واعد لهم زادا وحمله فى المراكب فى البحر. ولما وصل الى اسكندرية اراد ان يقيم فيها واليا من قبله، وكذلك ايضا الخمس. مدن [بنتابولس] فسار الى اسكندرية كما ذكرنا ومعه هذا العسكر المجمل بالزينة القوى العزيمة، وانه لما راها فرح بها واستحسن ماواها [مأواها] واقام بها اياما واصلح امورها وما فسد منها، وكان دخوله اليها اول شهر رمضان فاقام بها الى العيد، ومن بعد ذلك عول على العودة الى مصر. فلما

---

* تولى إمارة دمشق من قبل الخليفة الظاهر الفاطمى بمصر أبو الجيوش أبو منصور انوشتكين فاستعاد حلب وجميع الشام بعد أن أوقع (فى العام التالى) بصالح ابن مرادس وابن الجراح الطائى.

* توفى فى معارك الخلافة بالأندلس خيران الصقلبى وكان على مدينة المرية، وفيها توفى من رجال الحكم أبو الحسن بن طراد الأسدى فى دفاعه عن الجزيرة (الاندلس) وكانت لأبيه، وفيه توفى الأمير قوام الدولة ابن السلطان بهاء الدولة فحمل تابوته إلى شيراز ودفن بها.

* وافقت هذه السنة وفاة الامبراطور البيزنطى قسطنطين الثامن وهو ابن الامبراطور رومانوس الثانى تولى الحكم مشاركة مع أخيه باسيل الثانى الذى توفى قبله بعامين، فخلفتهما أختهما زوى الثانية التى تزوجت رومانوس الثالث.

سنة ٤٢٠ هجرية

استهلت السنة بيوم الاثنين ٢٠ يناير ١٠٢٩م.

* فى الأندلس جددت البيعة للخليفة المعتد بالله الأموى (هشام بن محمد) بعد أن نقل مقره فى هذه السنة من ألبونت إلى قرطبة وكان قد قضى بألبونت ٢٠ شهراً.

سمع الراهب بذلك تم الرفيعة وذكر فيها البطرك والرهبان. ولما وصل الى مريوط، واقام بها يوما وليلة ليستريح عسكره من تعب الطريق قبل ان يسير الى مصر، وجد الغير راهب الوسيلة الى رفيعته بوصوله الى مريوط فرح فرحا عظيما، وقال: لقد سهل الله طريقي. ودخل الى العسكر، وخاطب من اوصله الى الوالي، فسلم اليه الرفيعة الذى كان ملاها من الشر من ابوه الشيطان، فوقف عليها وميزها وميزه ايضا، وهو واقف بين

الشرقية خاصة أرمينيا وقبادوقيا ضربة اقتصادية قاتلة، فقد وصف الاستاذ فريونيس Vryonis ذلك بأنه بمثابة فصل «الرأس عن الجسد» فقد كانت هاتان الولايتان من أغنى ولايات الروم، وكانتا تمدانها بالغلال، والرجال. والاسر الحاكمة القيادية، فقد تشتت الاسر الاقطاعية العريقة بعد أن سلبها السلاجقة اقطاعياتها، وهاجر كثير منها الى القسطنطينية، لينشر الذعر والسخط، ويدعو للثورة على العرش.

---

* توالت انتصارات السلطان محمود الغزنوى في أقاليم الغرب فاستولت قواته على الرى فقضى على حكم آخر سلاطين بنى بويه بها وهو مجد الدولة الذى نفاه إلى خراسان، كما استسلم له منوجهر بن قابوس صاحب طبرستان وجرجان، وقبل أن ينتهى العام عبرالسلطان الغزنوى النهر إلى بخارى وأوقع بالأتراك الغز (الأوغوز) وشتتهم بين البلاد.

* عاودت قبائل زناته الخلاف مع المعز بن باديس صاحب أفريقية فاوقع بهم.

* توفى في هذه السنة مؤرخ مصر عز الملك المُسَبِّحى (محمد بن عبدالله) عن ٦٤ عاماً له التاريخ الذى يحمل اسمه.

* ممن توفى من رجال الحكم: أسد الدولة صالح بن مرداس أمير بادية الشام وأول الأمراء المرداسيين بحلب، وفيها توفى الأمير ميكال بن سلجوق وأبو السلطان طغرلبك مؤسس الدولة السلجوقية.

سنة ٤٢١ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الجمعة ٩ يناير ١٠٣٠م.

* خلع أهل قرطبة بيعة خليفتهم المعتد بالله بعد عشرين شهرا فلجأ إلى لارْدَة فى ضيافه بنى هود.

وكما حسمت منزكرت مصير آسيا الصغرى السياسى، فقد حسمت مصيرها الحضارى أيضا، اذ انسلخت بعد ذلك تماما عن ثوبها المسيحى، وتحولت الى السيادة التركية الاسلامية، فقد حقق السلاجقة ما فشل فيه الامويون والعباسيون، اذ غلب السلاجقة المسلمون الاتراك على سكان آسيا الصغرى النصارى الاروام، بل تحول كثير من قاطنى آسيا الصغرى الى الاسلام، واستبدلوا اللغة اليونانية باللغة التركية، وخلال

يديه، فراه لابس ثياب الرهبان، فاراد ان يفعل فيه سوا وقال فى نفسه: لو لم يكن هذا كافرا لم يرفع فى اب النصارى وفى البرية، بل هذا عدوا وغير فهم. فاقلب العدو مبغض الخير فكره وطرح فى قلبه ان يقبل الرفيعة، ثم سلم الرفيعة الى كاتبه، وقال له: اكشف عن هذا الامر بتحقيق. ففعل الكاتب ما امره به الوالى. وملا الشيطان قلبه على البطرك، فقال للراهب: فى اى موضع هولا الذى جعلهم البطرك نصارى واصلحهم رهبانا: فاجاب

---

* بايع الخليفة القادر بالله العباسى لابنه أبى جعفر عبدالله بولاية العهد.

* عادت الشيعة إلى النواح فى يوم عاشوراء فتجددت الفتنة بينهم وبين أهل السنة وفيها قتل جماعة من الجانبين.

* خرجت القوات البيزنطية وقوامها ٣٠٠ ألف بقيادة رومانوس الثالث زوج الامبراطورة إلى الشام حتى بلغت مفارق حلب وعليها شِبْل الدولة نصر بن صالح المِرْدَاسى واختلف أمراء الروم فيما بينهم فتراجعوا ففتك بهم العرب والأرمن ولم ينج سوى الامبراطور.

* تولى جلال الدولة محمد ابن السلطان محمود الغزنوى عرش الامبراطورية الغزنوية خلفاً لأبيه وكان نائبه على بَلْخ، غير أن الجند نادت بأخيه مسعود سلطانا، ودخل على الأثر مسعود العاصمة غَزْنة وخلع آخاه وقبض عليه وسُملت عيناه حتى لا يطمع فى العرش.

* شهدت هذه السنة وفاة السلطان يمين الدولة محمود الغزنوى (١١ صفر) عن ٦١ عاماً ومؤسس الامبراطورية الغزنوية التى شملت الهند وخُراسان وفارس وما وراء النهر بعد حكم نشط استمر ٣٤ عاماً غزا خلاله الهند ١٧ غزوة وباسمه وضع المؤرخ العتبى تاريخه المسمى تاريخ يمينى.

* توفى فى هذه السنة باصبهان عن ٧٧ عاماً الفيلسوف أبو على مِيسْكَويه (أحمد بن محمد) مؤلف كتاب تهذيب الأخلاق.

وقال لهم: فى البرية لكن ان اعطيتنى سلطانا ورجالا يشدو منى فاننى اسير الى البرية احضرهم اليك الى مصر. فانفذ معهم فارسين من الاتراك جميع من ينظرهم يخاف من منظرهم، وسار معهم الذى اخذ نصيبه مع يهوذا الاسخر يوطى الى دير القديس ابو يحنس بوادى هبيب، فلما علم الابا الرهبان الذين هناك قلقو وماجو واضطربو، ثم دخل الى قلاية احد الرهبان، وهذا كان خايفا من الله وكان بينه وبينه عداوة من قديم،

السنوات العشر التى تلت هزيمة منزكرت تزاوج الاتراك مع سكان آسيا الصغرى، ترمز القصة الشعبية التركية التى دارت حول هيام البطل التركى سيدى غازى بأميرة رومية والذى انتهى بزواجها منه واعتناقها الاسلام، الى التحول الدينى والثقافى الذى حدث فى اسيا الصغرى بعد هزيمة منزكرت. ولم يقاوم سكان آسيا الصغرى الاتراك السلجوقيين، بل على العكس فضلوا حكمهم طوال قرون عديدة، فقد عانت ولايات آسيا

سنة ٤٢٢ هجرية

استهلت السنة بيوم الثلاثاء الموافق ٢٩ ديسمبر ١٠٣٠م.

* تولى القائم بأمر الله العباسى الخلافة ببغداد خلفا لأبيه الخليفة القادر وبعهد منه وله من العمر ٣٢ سنة وهو أبو جعفر عبدالله بن أحمد، أمه أم ولد رومية اسمها بدر الدجى.

* خرج السلطان مسعود الغزنوى لأول مرة من غزنة فاستولى على مُكْران ثم سار منها إلى كِرمان واستولى عليها ولم تلبث أن خرجت من طاعته.

* نهب الأتراك الغُز مدينة هرَاة على أثر وفاة محمود الغزنوى ونشبت الفتنة بين ولديه.

* خرج رومانوس الثالث البيزنطى للغزو فاستولى على مدينة الرُهَا بعد أن اشترى نصيب ابن عطير فيها وهو النصف فخرب مساجدها، كما استولى الروم على قلعة أفاميّة بالشام بتدبير مع أميرها المخلوع ابن المفرج.

* خُلع الخليفة الأندلسى المعتد بالله آخر خلفاء بنى أمية بقرطبة وتولى الحكم الوزير المخضرم أبو الحزم ابن جَهْوَر.

* تولى إمارة الموصل أبو السرايا نصر الحمدانى ولم يدم حكمه سوى أربعة أيام قتل بتدبير من الخليفة القائم.

الصغرى طويلا من الاستغلال منذ أيام الرومان، بل شعروا بقرابة فى العنصر واللغة مع الاتراك السلجوقيين الذين كانوا مثلهم ينتمون الى العنصر الأسيوى؛ وكان هذا الشئ هو تكرار لما فعله الاقباط المصريون عندما رحبوا بحكم المسلمين وفضلوه على حكم الروم الظالم. كما وجدوا أن لغة السلاجقة التركية أقرب الى لغاتهم الاسيوية القومية منها الى اليونانية. كما أنه لم يكن فى نية السلاجقة الانسحاب من الاقاليم الاسيوية التى

فجعلهما اوثقاه بالحديد ودخلا به الى مصر وهو لا يعلم ما سبب الامر الذى اخذ عليه. وكان يقول وهو فى الطريق: الرب معونتى فلا اخاف، الرب ناصر حياتى فلا اجزع. فلما دخل [تيدر ابن اوضوريطس] بذلك الاخ الى مصر الى كاتب الامير الذى كان الامر اليه مردود قال له: هذا من المسلمين الذين جعلهم البطرك نصارى فقال له: ماذا تقول ايها الراهب فيما قاله الراهب عنك. فاجاب وقال: انا نصرانى منذ صباى وابى وامى

---

* شهدت هذه السنة وفاة الخليفة العباسى أبو العباس القادر بالله (أحمد بن اسحق) فى ذى الحجة عن ٧٦ عاماً حكم منها ٤١ عاماً متوالية، وهو آخر خليفة عباسى تولى الأحكام وتصدر مجالس العلم إذ كان من علماء الخلفاء.

* وفيها وقع فى أسر الغزنويين بالهند الأمير إسرائيل بن سلجوق عم طغرلبك فلقى مصرعه.

* عاصر خلافة القائم العباسى فى هذه السنة: إمبراطور بيزنطة رومانوس الثالث، والبابا يوحنا ١٩ فى روما، وهنرى الأول فى فرنسا، وامبراطور الدولة الرومانية المقدسة فى المانيا، والملك كانوت أول ملوك انجلترا من البيت الدنماركى.

سنة ٤٢٣ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأحد ١٩ سبتمبر ١٠٣١م.

* بعث الخليفة الظاهر من مصر بكسوة الكعبة فكسيت ولم يحج فى هذه السنة أحد من العراق أو المشرق وحج الناس من مصر.

واهل مدينتي يعرفاني، فاما [فأما] البطرك الذى يقول عنه فان كان ابى فهو اب جميع النصارى وانا واحد منهم وهذا الرجل فانى لم اراه يوما قط لاننى في البرية تربيت. وكان هذا الكاتب رجلا سو لا يخاف الله محبا للفضة والذهب كثير الشر، فاحضر اليه قوما شهدو عليه زور بانه اعترف انه كان مسلم قبل ذلك، وان بطرك النصارى جعله نصرانى منذ زمان طويل، غرضا منه ان يغرم البطرك مالا. وجمع على ذلك الراهب مجمعا من

فتحوها، انما جاءوا مع جيوشهم بأسرهم، ومتاعهم بهدف الاستيطان فى الاراضى التى استولوا عليها، وشرعوا فى تغيير هويتها الحضارية. ومن ثم فقد قامت عدة دويلات تركمانية مستقلة تحت زعامة الاتراك فى جهات كثيرة من آسيا الصغرى والشام، وبالرغم من تعرض هذه الدويلات التركمانية لمرحلة من الضعف بسبب تنازعها على السيادة فيما بينها، ووجود العصبية القبلية، غير أن أحدى هذه الدويلات السلجوقية وعاصمتها قونية -Icon

* تولى الوزير ابن جَهْوَر الحكم فى قرطبة ونودى فى المدينة بطرد كل أموى منها بعد أن ساءت سيرة امرائهم ووزرائهم وأنذر كل من يأوى أموياً.

* انتشر الطاعون والجدرى فى المشرق كله من الهند وشمل غَزْنة وخُراسان وأَصْبهان وامتد غرباً حتى دخل الموصل والجزيرة وبغداد.

سنة ٤٢٤ هجرية

وافق مستهل المحرم يوم الميس ٧ ديسمبر ١٠٣٢م.

* عاد الشيعة إلى إقامة المآتم فى يوم عاشوراء وتصدر ذلك العيّارون وغيرهم من حرافيش بغداد وتستروا بذلك فى سلب الناس أموالهم.

* تحولت البصرة إلى ميدان صراع بين جلال الدولة البويهى ومعه ابنه وبين الملك العزيز ابن أخيه عماد الدولة (ابن سلطان الدولة) الذى خُطب له على منابرها.

* ثار أهل الكَرْخ على العيَّارين (رعاع المدينة) وكبسوا دورهم ونهبوا سلاحهم.

* توفى فى هذه السنة عن ٨٤ عاماً إمام اليمن الزيدى الناطق بالحق (أبو طالب يحيى بن الحسين الطالبى) مؤلف كتاب (الافادة فى تاريخ الأئمة والسادة) وكتاب (جوامع الأدلة).

* توفى من رجال العلم فى هذه السنة: قاضى حلب الفقيه الحنفى أبو الحسن العُقيلى عن

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

ion، نجحت فى فرض زعامتها على بقيـة الدويلات فى آسيـا الصـغرى بطريقتـهـا البـدوية ا لرعـوية غيـر المستقرة، ولقد أطلقت الاميرة الأدبية آنا كومنينا عليهم اسم التركمان -Tur komanoi، تميـزا لهم عن القبـائل التركية المستقرة التى أطلقت عليها اسم الاتراك Turkoi.

ولقد كان السلطان ألب آرسلان مـدركـا لابعـاد ذلك الانتـصـار، وأن أبواب الاناضـول قـد فـتـحت على مصراعيها له، غير أن المنية وافته قبل أن يقـود جيـشـه اليـهـا، ليـتم فـصل

القـوم المخـالفين وقـرر معـهم الشـهـادة عليـهـم انه مـسلم، وامـر ان تقلع عنه ثياب الرهبـان والبسـه ثياب المسلمين، واعلمهم ما قد فكر فيه من السو الذى يريد ان يفعله بالبطرك. واحـضـره مجلس الشـهـود الزور وهو لابس الثياب الذى البسه اياها ووعـده بمال يدفعه اليه اذا هو جـدد الاسلام بين يدى الشـهـود ايضا، فلم يقدر احد يرده عن الامانة المستقيمة. وكان كلما فعلو به شي مما يريدو لا يزداد الا ايمانا وهو يصيح ويقول: انا نصرانى وابى

---

٤٤ عاماً اغتاله لصوص الأعراب على طريق الحج، وفيها توفى الواعظ الصوفى البغدادى ابن السَمّاك (أحمد بن حسين) عن ٩٥ عاماً.

سنة ٤٢٥ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الاثنين ٢٦ نوفمبر ١٠٣٣م.

* أخذ الغُز (الأوغوز الترك) يشنون غارات منتظمة على مدن خراُسان.

* وقع زلزال بفلسطين هدم نحو ثلث مدينة الرَمْلة وهبت ريح سوداء على نصيبين قلعت معظم أشجارها.

* استعادت قوات جلال الدولة البصرة بعد أن أجلوا عنها ابن أخيه عماد الدولة غير أن أهلها لم يلبثوا أن شغبوا على جلال الدولة.

سنة ٤٢٦ هجرية

استهلت السنة بيوم السبت الموافق ١٦ نوفمبر ١٠٣٤م.

* أظهر القاضى ابن عَبّاد صاحب أشبيلية بالأندلس شخصاً زعم أنه الخليفة هشام

وامي واهل مدينتي يعرفوني ويشهدو لي بذلك. وكان يلطم على يوجهه. ويقولو له: انك اعترفت بدين الاسلام امام الشهود الحاضرين ثم تعود الى الانكار. لكن الرب كان معه في جميع شدايده ونجاه من جميعها، وان الكاتب لم يلتفت الى ما قاله واخذ خطوط الشهود الزور الذين اقامهم للشهادة عليه، ولم يفعل ان يجدد الاسلام كما طلبو منه. ولما لم يطيعهم القوة في السجن تحت ضيق عظيم. وللوقت كتب [هذا الكاتب] كتبا

الأناضول نهائيا عن القسطنطينية، واختار السلاجقة خليفة لهم هو سليمان بن قطلمش والذى كان والده ابن عم طغرل بك. ولم يكن سليمان متعجلا، فبدأ يستعد لتحقيق أهداف ألب آرسلان.

الامبراطور ميخائيل دوقاس بارابيناكس ١٠٧١-١٠٧٨م:

شب ميخائيل منذ نعومة أظفاره في القصر الامبراطورى حيث الدعة والرغد، كما توفرت لديه الفرصة في أن يتلقى المعرفة والعلم على أيدى أشهر مفكرى عصره، وهو الفيلسوف

المُؤَيد بالله المختفي فبايعه ودعا الناس للدخول في طاعته وظل يحكم أشبيلية باسمه عشرين سنة.

* مُني السلاجقة بهزيمة ثانية على يد السلطان مسعود الغزنوى بالقرب من نَسَا ثم عقد صلح مؤقت بين الطرفين.

* بسط العيارون وغوغاء بغداد سلطانهم على المدينة بمواطأة الجند الأتراك سراً ولم يعد للخليفة ولا للسلطان البويهى جلال الدولة نفوذ أو حكم.

سنة ٤٢٧ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأربعاء ٥ نوفمبر ١٠٣٥م.

* السنة السادسة عشرة لحكم الخليفة الفاطمي الظاهر لإعزاز الدين في مصر. وفيها بعث الظاهر خمسة آلاف دينار لشق قناة مدينة الكوفة بالعراق ولم يأذن الخليفة العباسى بذلك إلا بعد أن أخذ مشورة رجال الدين من أهل السنة.

* تولى الخلافة الفاطمية بمصرّ المستنصر بالله وهو معد ابن الخليفة الظاهر ابن الخليفة الحاكم، الخامس من الخلفاء الفاطميين بمصر.

ميخائيل بسيللوس، ولهذا فقد كان اهتمامه بالفكر والثقافة يفوق اهتمامه بالاستراتيجية والعسكرية ، فضلا عن أن هزيمة منزكرت التى أطاحت برأس سلفه وزوج أمه، جعلته يفكر ألف مرة ومرة قبل أن يقدم على ميدان القتال الذى كان عازفا عنه تماما. وهكذا ألقت الاقدار برجل غير مناسب، فى وقت كانت فيه الامبراطورية فى مسيس الحاجة الى عبقرية عسكرية، وقيادة حازمة، لأنقاذ البلاد من براثن السلاجقة والبشناق.

ولقد أحاط بارابيناكس -Parapi

الى حيث الاب البطرك وسير منها قوما من الاتراك، الذين لا يعرفون الكلام بلسان اهل مصر، ومعهم ذلك الراهب السو الرافع ليأخذوه ويحضروه الى مصر، فسميع قوما من النصارى الارتدكسيين ما جرى وما ارادو بالبطرك من السو، كتبو له كتبا واعلموه فيها ما فعله هذا الغير راهب والقوم المسيرين اليه. فلما وقف على الكتب الواصلة اليه وما اثاره الشيطان من البلايا خرج وصرخ الى الرب ان يزيل هذه التجربة، ثم شكر

---

* لقى المعتلى بالله الحمودى مصرعه على أسوار قَرْمُونة بالأندلس فى حربه مع القاضى ابن عبّاد صاحب أشبيلية.

* تولى إمارة مالقة بالأندلس أدريس بن على الملقب المتأيد بالله خلفاً لأخيه المعتلى بالله.

* فى يوم الأحد الخامس عشر من شعبان توفى الخليفة الظاهر لإعزاز الدين وله من العمر ٣٢ سنة حكم منها ١٦ سنة وخلفه ابنه مَعَدّ باسم المستنصر بالله.

سنة ٤٢٨ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الاثنين ٢٥ أكتوبر ١٠٣٦م

* انقطع الحج هذه السنة بسبب المنازعات وعدم أمن الطريق إلا من مصر الفاطمية.

* بويع على الحكم فى غرناطة أبو مَناد باديس الصُنهاجى خلفاً لأبيه حَبُّوس ابن ماكْسِن ولقب بالمظفر وهو الذى استوزر اليهودى ابن غرالة.

* ولد بمرو فى هذه السنة الحسن الصبّاح زعيم طائفة الباطنية الاسماعيلية التى تعرف بالحشاشين وكان قد تتلمذ على ابن عطّاش قبل أن يدخل إلى مصر فى خلافة المستنصر ثم جعل من قلعة ألْموت مركزاً للدعوة.

الرب وقال: يا ربى يسوع المسيح انا اعلم ان البيعة لم تخطى. وقال ما قاله بولس الرسول: نحن منفيين فى كل شي وليس نحن مضيقين [متضايقين]، هم يطردونا وليس نحن مطرودين، هم يضطهدونا فلا تتركنا لهم يقتلونا وليس نحن هالكين فى كل حين، نحن صابرين على موت المسيح الرب فى اجسادنا لكى تظهر حياة يسوع المسيحى فى اجسادنا التى تموت. واستعد ان يجعل نفسه عوضا من البيعة المقدسة التى اتمن

nakes نفسه بمجموعة من السياسين المفكرين قليلى الخبرة فى فنون الحرب، وراح هؤلاء يستخدمون سلاح الدبلوماسية والسياسة كبديل عن المعارك لوقف تقدم السلاجقة ولانقاذ ما يمكن انقاذه، غير أن الدبلوماسية الماهرة أن لم تساندها قوة عسكرية حاضرة، تصبح عديمة الجدوى. ولقد بدأت هذه السياسة الدبلوماسية باحياء فكرة التحالف والتصاهر مع زعيم النورمانديين، وقد عرضت الامبراطورية ثمن هذا التحالف والمصاهرة بأن تنازلت عن

---

* شهدت هذه السنة وفاة الفيلسوف الطبيب الشيخ الرئيس ابن سينا أبو على الحسين بن عبدالله عن ٥٨ عاماً مؤلف كتاب الشفاء وكتاب الإرشادات والتنبيهات والحكمة المشرقية فى الفلسفة ومؤلف كتاب القانون فى الطب، توفى ودفن بهمذان.

* توفى من رجال الحكم ناصر الدولة الحَمْدانى أمير الشام من قبل الفاطميين.

* توفى من رجال الأدب: الشاعر العباسى المشهور مِهْيار الدَّيْلمى له ديوان شعر مطبوع فى ٤ مجلدات، كان قد أعلن إسلامه عام ٣٩٤.

سنة ٤٢٩ هجرية

استهلت السنة بيوم الجمعة الموافق ١٤ أكتوبر ١٠٣٧م.

* قام مسعود الغزنوى بمحاولة أخيرة لطرد السلاجقة من خُراسان ولكنه هزم عند سرخس على يد طغرلبك، وعلى الأثر استولى السلاجقة على مرو ونيسابور وسَرْخَس ومعظم خراسان باستثناء بَلْخ.

* جرت معركة حاسمة بين قوات الخليفة المستنصر الفاطمى بقيادة أنوشتكين الدِزْبرى وبين شبل الدولة المِرْداسى صاحب حلب الذى كان طامعاً فى الاستقلال بها وفيها هزم وقتل.

حقها فى المطالبة بأراضيها فى جنوب ايطاليا وصقلية الى الابد، وبعد أن رفض جيسكارد التصاهر والتحالف مرة فى عهد رومانوس ديوجين، ومرة أخرى فى مطلع حكم بارابيناكس، قبل فى عام ١٠٧٤ مشروع المصاهرة تحت الحاح القسطنطينية لكى يحظى منها باعتراف رسمي بأنها قد تنازلت عن ممتلكاتها له؛ لكن هدف السياسة فى القصر كان أبعد من ذلك، فقد كان الهدف هو توريط روبير جيسكارد فى معاركها ضد السلاجقة فى المشرق، فاذا انتصر أنقذت نفسها من

عليها. ومع ذلك كان لا يقدر يتحرك عن مرقده بل كان يترجا معونة الله له، وكان اولاده الروحانيين انبا سمعان اسقف «بنا» الذى كان اوسمه اسقفا فى تلك الايام، واخوه الروحانى الشماس مقاره عندهم منذ صباه ياخذو بركته، فقال لهم: يا اولادى ما اقدر ان اتحرك من مرقدى وأنا الان مستعد لامر الرب فاما انتم فيجب عليكم ان تبعدو من وجه الشيطان ليلا يفعل بكم سو منجلى ليلا [من أجلى لئلا] يظن احد ان معكم

سنة ٤٣٠ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الثلاثاء ٢ أكتوبر ١٠٣٨م.

* بدأ فى هذه السنة قيام الدولة السلجوقية على يد طُغْرُلبك حفيد سلجوق فأصبح يؤرخ لها منذ هذه السنة.

* استقبل الخليفة المستنصر الفاطمى بمصر العام الثالث لحكمه.

* منح الخليفة القائم العباسى ابن السلطان جلال الدولة البويهى اسم الملك العزيز وكان على واسط.

* أوقع السلطان مسعود الغزنوى أول هزيمة بالسلاجقة وطردهم من بعض نواحى خُراسان ولكن لم يلبث أن دارت الدائرة عليه فانسحب عائداً إلى عاصمته غَزْنَة.

* توفى بالقاهرة حول هذا التاريخ عالم الرياضيات والفيزياء عن نحو ٧٦ عاماً، أبو على ابن الهَيْثَم صاحب مشروع إقامة سد على النيل عند أسوان، شملت مؤلفاته الرياضيات والفلك والبصريات.

* توفى فى سجنه الوزير الأديب ابن مَاكُولا (هبة الله بن على) عن ٦٥ عاماً تولى الوزارة عدة مرات.

ما [مال] للبيعة. وقص عليهم ما جرى من الراهب ووصول كتب الاراخنة اليه بذلك. ولما كان في هذين الاخوين من الامانة قالو له ما يكون هذا يا ابانا القديس ولا نفارقك بل نحن نجعل نفوسنا فداك. فبينما هم يتكلمان بهذا اذ نادى ذلك الغير راهب على الباب: افتحو وكان قد اخذ سجلا [من] الولاة ليشدو منه ويساعدوه على ما اخذ من الاتراك الذين سارو معه. فاخذ شرطى ودخل الى حيث ابينا لما فتح له الباب وكان قصده

خطر السلاجقة، أما اذا هلك فلعلها تكون قد تخلصت منه، وربما أعطاها ذلك الامل في العودة الى أراضيها في جنوب ايطاليا وصقلية. فسلاح ضرب الخصم بالخصم، كان من أهم أسلحة الدبلوماسية عند الروم، لكن روبير جيسكارد ـ ذلك القائد المحنك ـ فطن الى ذلك، ولم يتدخل أبدا بقواته ضد السلاجقة.

وفي خلال ذلك تفاقم الموقف العسكرى عندما استجاب بارابيناكس لرأى أحد مستشاريه بتقليص حجم

---

* توفي حول هذا التاريخ إسماعيل بن ذى النون من ملوك الطوائف بالأندلس أصحاب طليطلة.

سنة ٤٣١ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الأحد ٢٣ سبتمبر ١٠٣٩م

* عاد الجند الأتراك في بغداد إلى الشغب ووقع النهب وانتشر الخوف حتى لم يحضر صلاة الجمعة سوى بعض أفراد.

* أوقع السلاجقة بقيادة الأخوين طغرلبك وجغرى داود بالسلطان الغزنوى مسعود الأول وكانت هزيمة تامة لاذ بعدها بالفرار إلى غزنة (رمضان).

* انتهت في المحرم من العام المعارك بين البربر وبين الأندلسيين من أتباع القاضى ابن عبّاد صاحب أشبيلية إلى هزيمة الأندلسيين وفيها قتل إسماعيل بن عباد.

* بويع أبو زكريا يحيى بن إدريس الحَمُّودى بالخلافة في الأندلس وتلقب بالقائم بأمر الله (على أثر وفاة أبيه المتأيد بالله) ولم تستمر خلافته سوى بضعة أشهر تنازل بعدها لابن عمه حسن بن يحيى حاكم بُذة (جمادى الآخرة).

ان يفجعه فيموت فلما نظرو الاتراك والشرط الذين معه انه مريض هكذى بوجع النقرس ولا سبيل له على النهوض فلم يقربوه. وكانو يشتمو ذلك الراهب على فعله، حتى ان احد الاتراك جرد سيفه واراد ان يقتله. ولم يكن هذا الراهب يحتشم بالجملة بل كان يقول انكم ارسلتم معى لتتمو ما امر به الامير وانكم اذا لم تفعلو ما امركم به فان الامير يجازيكم بفعلكم. فدخل الشيطان فيهم وحملهم الى ان اقامو الاب البطرك عن فراشه

المعونات والاتاوات التى كانت تدفعها الامبراطورية لزعماء بعض قبائل الغز والبشناق والصقالبة، الذين كانوا يقومون بحراسة الحدود وحماية مدن الدانوب، وقد أثار ذلك القرار ثائرة هذه القبائل. والتفوا حول احد قادة الروم المتمردين على الامبراطور والمطالبين بالعرش، واسمه نقفور، وانضمت اليهم قبائل كثيرة من الغز والبشناق، واندفعوا نحو القسطنطينية يخربون ويدمرون كل مافى طريقهم؛ وتحت مسيس الحاجة توجه باراييناكس بالنداء الى زعماء الغرب الكاثوليكي

---

* استولى سليمان (المستعين بالله) بن هود على سَرَقُسطة فانتقل إليها وكان على لارْدَة المجاورة.

* ولد بمصر عالم الحساب الفرضى (المنطق الرياضى) كامل بن ثابت المنصورى.

* وفيها توفي بمصر مسند زمانه أبو عبدالله محمد ابن الفضل الفرّاء عن ٩٠ عاماً.

* توفى من رجال اللغة والأدب فى هذا التاريخ: عالم اللغة الخراسانى الحاكم ابن دُوست له الرد على الزجّاجى، وفيها توفى الشاعر النديم عبدالله الزوزنى كان قزما مقرباً من أمراء خراسان، وفيها توفى ابن خيران صاحب ديوان الانشاء للخليفة المستنصر الفاطمى.

سنة ٤٣٢ هجرية

أهلت السنة بيوم الخميس الموافق ١١ سبتمبر ١٠٤٠م.

* اعترف الخليفة العباسى القائم بأمر الله بالدولة السلجوقية وعاصمتها نيسابور واعترف بطغرلبك سلطاناً عليها وقرئت الخطبة باسمه فى مساجد نيسابور.

* تولى مودود بن مسعود الأول عرض الدولة الغزنوية خلفاً لأبيه فدخل عاصمته غزنة

وحملوه على ايديهم ووطاه معه الى ان انزلوه مركبا اعدوه له يحملوه فيه الى مصر. ثم ان هذا الراهب اخذ هذين الاخوين الذين ذكرتهم ورد ايديهم الى ورايهم وشدهم بوثاق عظيم وكذلك من وجده من الغلمان والاصحاب وانزلهم الى المركب مثل اللصوص، ونهب جميع ما وجد فى قلاية الاب البطرك من الثياب والانية والكتب المقدسة وغير ذلك. وكان هذا الاب كثير الاهتمام بالكتب البيعية حتى انه كان له عدة من النساخ

لانقاذه، لكن النداء لم يجد من يستجيب اليه، وهنا استخدم مستشاروه سلاح الوقيعة بين زعماء الغز والبشناق والصقالبة ، فدب بينهم الشقاق والنزاع ، فاضطروا الى فك الحصار عن القسطنطينية، والعودة الى ضفاف الدانواب محملين بالغنائم والأسلاب.

ولقد واجة ميخائيل بارابيناكس مشكلة أخرى مع أحد البارونات اللاتين، فعندما وجه صيحة النجدة الى العالم الأوروبى الغربى لانقاذ المسيحية فى الشرق، تقدم اليه أحد

قادماً من خراسان فى شهر شعبان وأوقع بعمه محمد وشيعته وانتقم من كل من اشترك فى اغتيال أبيه، وبنى فى هذا الموقع مدينة تذكارية باسم فتح أباد.

* شهدت السنة وفاة السلطان ناصر دين الله مسعود بن محمود الغزنوى بعد حكم دام نحواً من ١٢ سنة وكان فى حياة أبيه والياً على هراة ثم وليا للعهد واخضع قبائل الغور ثم قدم أبوه عليه أخاه محمداً لأسباب غير أن الجند تمسكت به، اغتاله فى طريقه إلى السند بعض مواليه بعد هزيمته على يد السلاجقة، وفى ذى الحجة من العام توفى كذلك أخوه الأمير مجدود وكان على لاهور ثم أظهر العصيان على أخيه مودود، توفى فى الطريق إلى غزنة.

سنة ٤٣٣ هجرية

وافق مستهل المحرم يوم الاثنين ٣١ أغسطس ١٠٤١م.

* تولى إمارة أشبيلية من ملوك الطوائف بالأندلس المعتضد بالله (عباد ابن محمد) خلفاً لأبيه القاضى ابن عباد فعمل على ضم ما حولها ومنها شِلْب ولبْلة وشَلْطيش.

* فيها توفى من الوزراء: قَسِيم الدولة أنوشتكين الدِّزْبَرى وزير الخليفة المستنصر ونائبه على الشام وخلفه ناصر الدولة الحمدانى، وفيها قتل الوزير أبو جعفر بقية بتدبير حسن بن يحيى

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

ينسخو له كتبا، وكان لا يكتب له الا قوما علما جيدين خبيرين بقراءة الكتب ما خلا خطوطهم، وكان اذا فرغ له كتابا يفرح به كما يفرح بينا بيعة فيامر ان يصاغ عليه ذهبا وفضة، فانتهب ذلك الراهب اكثر الكتب وصارت اليه، لانه كان قد تعلم ان يقرى قبل ذلك، وكان قصده ان ينتفع بالثمن عنها، لان الشيطان ملا قلبه افكار ردية. وتوجه الى مصر وكان لا يدع احد من اصحابه ولا غلمانه يتقدم اليه ولا يتحدث معه ولا يراه

البارونات النورمانديين واسمه ـ روسل ـ بارون بايليول، غير أن هذا البارون المطوع كان يسعى لتحقيق ثروة على حساب القضية ، ولا يعنيه شئ من أمر مصير المسيحية في الشرق. ولقد بدأ روسل بأستحواذ ثقة الامبراطور بارابيناكس المطلقة، ثم شرع يستغل هذه الثقة في العمل لمصالحة، فبالرغم من أنه أقسم يمين الولاء للامبراطورية، الا أنه لم يتردد في أن يستولى على مساحة كبيرة من أراضى الاناضول واحتفظ بها لنفسه، وعند أول فرصة لاحت له أعلنها امارة خاصة به،

صاحب مالقة، وفيها توفى أبو سعد العميدى رئيس ديوان الإنشاء في خلافة المستنصر بمصر ومؤلف (تنصيح البلاغة).

* ممن توفى من رجال العلم: محدث الاسكندرية أبو عمرو القضاعى الشافعى عن ٧٥ عاماً له كتاب (الفوائد) والحافظ أبو عثمان القرشي الهروى.

* توفى بالشام الزعيم الشيعى داعى الدعاة حمزة بن على الدّرزى داعية مذهب الدّرزية بالشام وهو ممن دعا إلى تأليه الحاكم وهو أحد الحدود الخمسة عند الباطنية وأول المعصومين.

سنة ٤٣٤ هجرية

استهلت السنة بيوم السبت الموافق ٢١ أغسطس ١٠٤٢م.

* وقعت الزلازل بتبريز فهدمت أسوارها وقلعتها وأكثر دورها وهلك تحت الردم ٤٠ ألفا وقيل أكثر ولبس الناس بها السواد لعظم المصيبة.

* تولى على إمارة مالقة بالأندلس ادريس بن يحيى ولقب بالعالى الحَمّودى وكان مسجوناً على عهد أخيه المستنصر حسن بن يحيى الذى قتل.

* تم للسلطان السلجوقى طغرلبك الاستيلاء على خُوارَزم من ملك شاه وكان عليها من قبل الغزنويين.

بالجملة. وكان ابونا لا يعلم ما [جرى]. وكان فى جملة ما اخذه هذا الراهب من قلاية البطرك صناديق كان فى بعضها الكتب وفى بعضها ثياب وبعضها يجعل فيه طعام للغلمان. ولما وصل الى مصر حمل تلك الصناديق على انها مملوة من الذهب والفضة والانية، ولم يعلم ان الاب البطرك لم يقتنى قط مالا ولا ذخيرة الا كتب البيعة وكسوة كان يلبسها بين الشعب وقت القداس، وكانت قليلة القيمة لان اكثرها كان من الصوف،

واستقل بها عن الامبراطورية، وتوكيدا لذلك توجه بالنداء الى السلطان سليمان طالبا معونته ضد الامبراطور. ولم يتردد السلطان فى تلبية طلبه، وهكذا أصبح القائد المسلم حليفا للخائن المسيحي من أجل تدمير الامبراطورية.

وعلى أثر ذلك اندلعت أعمال الشغب فى كل أنحاء البلاد، وجدد القائد العسكرى نقفور مطالبته بعرش الامبراطورية، وقبل أن يلجأ نقفور لطلب المعونة من سليمان، حذا الامبراطور حذو البارون، وطلب من

---

* تولى إمارة حلب للمرة الثالثة معز الدولة المِرْداسى (ثمال بن صالح) بعد وفاة القائد أنوشتكين من قبل المستنصر الفاطمى.

* تتابع الأحداث فى الأندلس: ففى هذه السنة قتل الخليفة الحَمّودى يحيى القائم بأمر الله صاحب مالقة على يد قريبه المستنصر بالله حسن بن يحيى، ولم تلبث أن دبرت زوجته وهى أخت يحيى المقتول قتله بالسم فى العام نفسه.

* توفى من رجال الأندلس فى هذه السنة: الحاجب أبو عبدالله محمد ابن بِرْزال من ملوك الطوائف ومؤسس إمارة بنى برزال فى قَرْمونة، وفيها توفى القائد أبو الفوارس نجاء العلوى وكان فى خدمة الحمّوديين أصحاب مالقة، أغتيل على أبوابها، وفيها توفى ابن قاسم الفهرى صاحب حصن ألبونت ودام حكمه ١٣ سنة.

سنة ٤٣٥ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأربعاء ١٠ أغسطس ١٠٤٢م.

* تميزت هذه السنة بسلسلة من فتوحات السلاجقة وانتصاراتهم.

* استولى السلطان طُغْرلبك على الرىّ واتهم عسكره بتخريبها ونهبها حتى أن الخليفة

لانه كان قليل لباس الحرير الا فى ايام الاعياد، وكان ثوب واحد يكفه سنينا واعواما. ولما كشف هذا الكاتب تلك الصناديق لم يجد فيها شيا فظن ان الراهب اخذ جميع ما فيها من المال والانية لنفسه واحضر الخشب اليه، فاحضره سرا وقال له: ايها الانسان اننى لم اجد فى الصناديق شيا وانى لا اشك انك اخذت ما فيها. فقال له: هكذى وجدتها وهكذى حملتها اليك لانى قد وجدت عندك رحمة ومحبة. وللوقت القا الله فى قلبه

السلطان سليمان معونته لاعادة النظام الى البلاد، وكان سليمان سعيدا بذلك، فأى مناسبة تحقق له التدخل فى شئون الروم كانت تزيد من قوته ونفوذه، وبسرعة انقلب على حليفه البارون وقبض عليه، ثم عرض تسليمه الى الامبراطور مقابل فدية كبيرة، ومقابل الاعتراف بحق دولة السلاجقة فى حكم الاقاليم التى استولوا عليها فى آسيا الصغرى. وكلما زادت الخلافات الداخلية، تزايدت طالبات النجدة من القادة المتصارعين الى سليمان، وفى كل مرة يخرج السلطان السلجوقى أكثر قوة

العباسي حين بلغه ما وقع بها انفذ القاضى الماوردى إليه مستنكراً ما صنع عسكره ويأمره أن يأخذ الأمر بالعدل.

* دخل السلاجقة الموصل وعاثوا وأفسدوا فاتفق صاحبها قِرواش العُقيلى مع دُبَيس الأسدى صاحب الحِلة على لقاء السلاجقة فأوقعوا بهم.

* توفى فى هذه السنة من رجال الحكم: السلطان البويهى أبو طاهر جلال الدولة (ابن بهاء الدولة وحفيد عضد الدولة) وله ٥٢ عاماً حكم منها ١٧ سنة ودفن بمقابر قريش ببغداد فى ٥ شعبان، وفيها توفى أمير الأندلس وصاحب قرطبة أبو الحزم جَهْور كان وزيراً لهشام الثالث آخر الأمويين بالأندلس ثم تولى الأمر بعد وفاته ودامت حكومته ١٣ سنة وخلفه ابنه أبو الوليد محمد.

سنة ٤٣٦ هجرية

استهلت السنة بيوم الأحد ٢٩ يوليو ١٠٤٤م.

* ادخل إلى بغداد السلطان عماد الدين أبو كاليجار المَرْزُبان ملك فارس البويهى بعد وفاة جلال الدولة فضم بذلك العراق إلى حكمه ولم يخرج الخليفة إلى لقائه ونزل بالقصر

بغضة هذا الراهب وفسد عليه وتغير لوقته ولم يخرج من عنده الا وقد اراد قتله بيده لكنه خاف من هيبة الوالي. وكان جميع اولاد الاب وغلمانه تحت ضيق عظيم من الاهانة والرباط والوجع والجوع والعطش وقلة رحمة الاعوان لهم لانهم لم ياخذو معهم منهم شيا، وكانو قد ايسو من عطاهم وبخاص اذا وصلو الى مصر فان امرهم يخرج عن ايديهم ولا جل ذلك لم يكونو يرحموهم. فلما راوهم الاخوة المومنين الذين اتو اليهم لينظروهم

بعد أن شق طريقه فى ثبات الى قلب أراضى الروم، حتى ضم اليه اقليم ليديا وأيونيا. وفى عام ١٠٧٨ كان في موقف من القوة والنفوذ جعله يؤسس سلطنة الروم السلاجقة فى الجزء الاوسط من آسيا الصغرى. واختار لها عاصمة هى نيقية Nilaia الواقعة على أحد الطرق التجارية الرئيسية، وكانت هذه المدينة أجمل وأغنى مدن الامبراطورية فى آسيا الصغرى، ومن هذا الموقع الهام فى آسيا الصغرى اتسعت سلطنة سلاجقة الروم، حتى وصلت الى شواطئ البحر

السلطاني وأمر بضرب الطبل له فى أوقات الصلوات الخمس على غير العادة بالرغم من احتجاج الفقهاء.

* تولى وزارة الخليفة المستنصر الفاطمى: أبو منصور صَدَقة الفلاحى خلفاً للجرجرائى المتوفى.

* توفى من رجال الحكم بالأندلس: مجاهد العامرى مؤسس الدولة العامرية بدانية وجزر الباليار دام حكمه بها ١٤ عاماً غزا فى خلالها جزيرة سردينية وكانت للافرنج، وفيها توفى هذيل بن خَلَف مؤسس دولة بنى رزِين بالسَّهلة.

* توفى الوزير الفاطمى أبو القاسم الجرجرائى من ألقابه نجيب الدولة، والوزير الأجل الأوحد، وصفى أمير المؤمنين، استوزره الحاكم ثم الظاهر والمستنصر وكان الحاكم قد أمر بقطع يديه عام ٤٠٤هـ.

سنة ٤٣٧ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الجمعة ١٩ يوليو ١٠٤٥م.

* تولى على واسط الملك العزيز ابن جلال الدولة.

الأسود في الشمال، وساحل البحر المتوسط في الجنوب الغربي، والى الشام شرقا، وأصبحت هذه السلطنة، منافسة خطيرة للامبراطورية الرومية، ولقد كان سقوط نيقية صدمة للاوروبيين لانها كانت ترتبط بتاريخ عقد المجامع الكنسية التى بلورت قانون الايمان المسيحى، كما كانت مركزا للدراسات اللاهوتية.

ولقد أحدث سقوط نيقية في حوزة السلطان سليمان بن قطلمش دويا هائلا في أوساط الكنيسة اللاتينية في الغرب، فهي مدينة المجامع

وما هم عليه عند وصولهم اليهم، راوهم على هذه القضية بكو عليهم بكا شديدا وبخاص لما راو الاب البطرك على حال الوجع وهو راقد على فراشه لا يستطيع القيام ولا تقدر اولاده ياتون اليه، ازداد بكاهم وسالو الله ان ياذن لهم بالفرج. فمضو الاخوة وابتاعو من اموالهم قيود حديد واتو بهم الى الموكلين بهم وسالوهم ان يحلو ايديهم من خلفهم ويطرحو القيود في ارجلهم ودفعو لهم ذهبا وفضة وكان هذا باعمال الريف على ساحل اتريب

---

* انفذ الخليفة المستنصر جيشاً إلى حلب لاستخلاصها من معز الدولة المِرْداسي ثمال الكلابي فلما استظهر عليه استنجد بامبراطور الروم قسطنطين التاسع فلم ينجده.

* تعدد قيام الإمارات الأندلسية بعد سقوط الخلافة الأموية بقرطبة، ففي هذه السنة تولى إمارة بَطَلْيوس من ملوك الطوائف: المظفر أبو بكر ابن الأفطَس خلفاً لأبيه، وتولى إمارة مورون عزِ الدولة محمد بن نوح الدمرى.

* دخل الإمام الزيدى أبو الفتح الناصر بن حسين إلى اليمن (وكان عليها الصُلَيْحيون) ودعا لنفسه بالامامة واستولى على صنعاء وصعدة وبنى حصنَ ظُفار.

سنة ٤٣٨ هجرية

وافق مستهل المحرم يوم الثلاثاء ٨ يوليو ١٠٤٦م.

* حاصر السلطان طغرلبك السلجوقي مدينة أصبهان فصالحوه على مال عظيم وخطبوا له على منابرها مع أميرها كما استولى أخوه على حلوان.

* ثار بالأندلس محمد بن أدريس على حكم ابن عمه الخليفة العالى بالله بعد ٤ سنوات من الحكم فبويع محمد (الأول) وتلقب بالمهدى بالله، وفي سَرَقُسْطة تولى سعد الدولة المقتدر

وما حولها. وكان الغير راهب يقول: ما افعل هذا؟ ولما يعلم ان الله ارذله وافسد قلب الكاتب عليه وهو يعمل مع الامير فى هلاكه. وكان النصارى القيام على شط النهر ينظرو ما فعلو بهم ويدعو الله ان يهلك اعدا البيعة وكانو يكو ويتنهدو. وكان وصولهم الى ساحل مصر فى الساعة العاشرة من الليل. ولما اصبحو جعل الشرط [الشرطة] مع الاب من قبل ذلك الكاتب، لانه كان قد طلع له بالصناديق في الليل كما ذكرنا اولا. وحضر

المسكونية، ولهذا وجه البابا جريجورى السابع عدة رسائل الى ملوك وزعماء الغرب، وعلى رأسهم هنرى الرابع امبراطور ألمانيا ودوق برجنديا، يدعوهم فيها الى اعداد حملة صليبية من بلاد الغرب الاوروبى لانقاذ القسطنطينية من خطر السلاجقة المسلمين، ولقد كان هدف البابا من ذلك هو اعادة الكنيسة الشرقية الارثوذوكسية الى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية العالمية، غير أن دعوة البابا لم تأت بأى نتائج اذ لم يستجب اليه أمراء أوروبا ، بل أن البابا نفسه دخل

أحمد خَلَفاً لأبيه سليمان المستعين بن هود، وفيها استقل يوسف المظفر بن سليمان المستعين بحكم رادة بعد انفصلت عن إمارة سرقسطة والحكم فيها لبني هود.

* أغارت الترك على بلاد ما وراء النهر استولوا على بخارى وسمرقند وخُوارَزم فقطع طغرلبك السلجوقي نهر جيحون والتقى بهم وهزمهم ثم عاد إلى خراسان.

* توفي في هذه السنة المؤرخ الراوية ابن النديم صاحب الفهرست وهو أول معجم عن المؤلفات العربية حتى عصره، وهو أبو الفرج محمد بن اسحق كان وراقا يبع المخطوطات.

سنة ٤٣٩ هجرية

أهل المحرم يوم الأحد الموافق ٢٨ يونية ١٠٤٧م.

* فشا الطاعون في الموصل والجزيرة حتى انهم أقاموا صلاة الجنازة على أربعمائة متوفى دفعة واحدة، وانتشر الغلاء حتى بيعت الرمانة بقيراطين والخيارة بقيراط.

* وصل الرحالة الفارسي ناصر خسرو إلى القاهرة وامتدت إقامته بها نحو السنتين وضمن كتابه (سفر نامه) وصف أحوالها وما تحتويه من عمائر وصنائع وأسواق ومواكب واحتفالات.

الراهب الى الكاتب كانه لم يدخل اليه فى الليل ولا اجتمع به وقت سلم اليه الصناديق، وقال امام الناس الحاضرين: قد اتيت بالاب البطرك واولاده واصحابه وجميع ماله. فامر الكاتب باعتقال ذلك الراهب، وامر ايضا ان يحتفظ بالمركب وجميع من فيه، وكان معول على ان يستاذن الامير على ما يريد فعله من السو، وانه لم يحضر اليه ما كان تقرر احضاره. فخاف لاجل الصناديق الذى كان سلمها اليه ليلا ليلا [لئلا] يرفع فيه ويقول انها

فى جولة طويلة من الصراع مع الامبراطور هنرى الرابع حول أحقية أى منهما فى تعين الآخر.

وهكذا فشل ميخائيل السابع فى انقاذ الامبراطورية، وثارت عليه الجماهير حتى أرغم فى عام ١٠٧٨م على دخول الدير والاعتزال لصالح جندى متقدم فى السن هو نقفور بوتانياتس.

نقفور الثالث بوتانياتس Botaniates (١٠٧٨-١٠٨١م):

فى أثناء الفوضى التى سادت فى أواخر عهد ميخائيل السابع، تمرد

---

* دبر أبو منصور الفلاحى (وزير الخليفة المستنصر الفاطمى) مقتل أبى سعد التسترى اليهودى الذى كان ناظراً على ديوان الخليفة.

سنة ٤٤٠ هجرية

استهلت السنة بيوم الخميس الموافق ١٦ يونية ١٠٤٨م.

* احتفل الخليفة العباسى بختان ابنه أبى العباس محمد ولقبه بذخيرة الدين وذكر اسمه على المنابر.

* تولى عرش الغزنويين مسعود الثانى ابن السلطان مودود المتوفى فى عامه، وكان مسعود طفلا صغيراً لم يحكم (اسميا) سوى بضعة أسابيع وتوفى، وخلفه عمه أبو الحسن بهاء الدولة على بن مسعود (فى رجب من السنة).

* تولى حكم فارس والعراق الملك الرحيم (أبو نصر خسرو فَيروز) البُويهى خلفاً لأبيه السلطان عماد الدين أبى كَالِيجار المتوفى فى سنته.

* قطع المعز بن باديس الصنْهاجى صاحب أفريقية خطبة الخليفة المستنصر الفاطمى إعلاناً باستقلاله عن التبعية الفاطمية.

كانت مملوة ذهبا وفضة. فاخرجه من الاعتقال وامر باحضار الاب البطرك. وكان لا يقدر يركب دابة بل يحملوه على راس حمال الى حبس ضيق فى وسط اللصوص والقتلة، فشكر الرب على جميع ذلك. وكان يعزى أولاده ليلا يضجرو ويعزيهم بكلام بطرس السليح فى اول رسالته القتاليقون اذا يقول: ما افتخاركم اذا اخطى احدكم يعذبوكم فتصبرو فافعلو الخير واذا ما توجعتم فاصبرو فهى نعمة من الله قد دعيتم اليها

عليه نقفور بوتانياتس (جامع الاعشاب)، وكان قائدا لاحد ثغور آسيا الصغرى، ووجدت حركته تأييدا من جنوده، فهتفوا به امبراطورا. وقاد قواته ليدخل العاصمة حيث أحسنت الجماهير استقباله، وقام البطريرك بتتويجه وذلك فى عام ١٠٧٨م. وتوقع الناس منه أن يحل كل قضاياهم، ولكن نظرا لأنه كان متقدماً فى العمر، فلم يستطع أن يحسن ادارة الامبراطورية لا فى الداخل أو الخارج. كما أنه واجه رفض

---

* عزل الخليفة المستنصر ناصرَ الدولة الحمدانى من إمارة دمشق وأرسل إلى مصر مقبوضاً عليه فانقلب عليه وعمل على خلع المستنصر، وخلفه على دمشق طارق الصقلبى من قواد الخليفة.

* شهدت السنة وفاة اثنين من مشاهير العصر من رجال الحكم هما: السلطان البويهى عماد الدين أبى كاليجار المرزبان (جمادى أول) فى الأربعين من العمر تولى على فارس ثم ضم إليها العراق بعد حكم دام ٤ سنين و٤ أشهر ، وفيها توفى السلطان الغزنوى شهاب الدولة أبو سعد مودود بن مسعود وكان حكمه ٦ سنوات وخلفه ابنه الطفل.

* توفى فى هذه السنة بخُوارَزْم عن ٧٨ عاماً العالم الفيلسوف المؤرخ أبو الريحان البَيْرُونى، له من المطبوع (الآثار الباقية فى القرون الخالية). (القانون المسعودى) نسبة إلى السلطان مسعود الغزنوى، (تحقيق ما للهند من مقولة..) وغيرها، وقد احتفل العالم غرباً وشرقاً بمرور ألف سنة ميلادية على مولده عام ١٩٧٣.

* توفى من رجال الحكم: الوزير ذو السعادات أبو الفجر محمد بن جعفر وزير السلطان أبى كاليجار، والوزير الفاطمى أبو منصور صدقة الفلاحى قتل فى المحرم بايعاز من أم الخليفة المستنصر إنتقاماً من اغتيال أبى سعيد التسترى اليهودى ناظر ديوانها، وفيها توفى الأمير العباسى محمد بن الحسن حفيد المقتدر عاش متنسكا بعيداً عن شئون الدولة.

لان الرب يسوع المسيح قد تالم عنا وجعل ذلك تذكارا لنتبع اثاره، والان تصبرو وتعزو يا اولادى المباركين واخوتى فى الرب انه لا يتخلى عنا بل يكون معنا كما كان مع ابانا وينجينا من جميع شدايدنا. وكان يعزيهم ويشدد قلوبهم بهذا الكلام وغيره وهم متعجبين لصبره. فلما كان بالغداة انفذ كاتب الامير قوما من المسلمين الذين شهدو بالزور الى الاعتقال ليشاهدو رحاله [الصناديق] ظنو انهم يجدو فيه مالا كثيرا كما ذكر الغير راهب، فلما

زعماء الارستقراطية العسكرية التى تملك الضياع الشاسعة مما أدى الى تفاقم الازمة الاقتصادية؛ كما ظهر عدد من المدعين باحقيتهم فى العرش فى مناطق مختلفة من الامبراوطرية، ولم يستطيع نقفور جامع الاعشاب أن يصمد على العرش أكثر من ثلاث سنوات، اذ نجح أحد زعماء الارستقراطية العسكرية واسمه الكسيوس كومنين Alexios Comne-nos فى عزله، والفوز بعرش الامبراطورية.

سنة ٤٤١ هجرية

وافق هلال المحرم من السنة يوم الاثنين ٥ يونية ١٠٤٩م.

* تولى عرش الغزنويين السلطان عز الدولة عبدالرشيد ابن السلطان محمود الغزنوى بعد مبايعة كبار الدولة له وكان مسجوناً بقلعة ميدين فقضى بذلك على الفوضى التى نشبت على أثر وفاة أخيه مودود.

* عادت الفتنة فى بغداد بين أهل السنة وبين الشيعة من أهل الكرخ وكان سلاطين بنى بويه يميلون إليهم سراً ولا يظهرون ذلك خوفاً من الناس.

* عزل الخليفة المستنصر الفاطمى نائبه طارقا الصقلبى عن دمشق بعد عام واحد وولى مكانه عدة الدولة رفق المستنصر (المحرم)، وبعد شهرين ولى عليها حيدرة بن مفلح ولقبه معين الدولة.

* دخل فى هذه السنة إلى مصر الطبيب البغدادى النصرانى ابن بطلان وأقام بها ثلاث سنوات وفى خلالها جرت مناظرات (مدونة) بينه وبين الطبيب المصرى ابن رضوان.

سنة ٤٤٢ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم السبت ٢٦ مايو ١٠٥٠م.

* تولى وزارة الخليفة المستنصر الفاطمى الوزير أبو محمد اليازورى (الحسن بن على) بالاضافة إلى منصب قاضى القضاة.

جااو وفتشوه لم يجدو الا ما لا قدر له ولا يذكر، فلما نظرو ذلك عادو الى الكاتب وقالو له: ما وجدنا الا ما لا قدر له ونحتشم نحضره اليك وهو باقيا بحيث هو. فلما سمع ذلك ايضا امتلى غضبا على الغير راهب، فمنع جميع النصارى المومنين الوصول الى الاب البطرك وانه فى الاعتقال الضيق واولاده حزنو وقلقو، وكان قوم منهم يحضرو ياخذو بركته ولا يكلموه بكلمة واحدة خوفا من السلطان. وبعد ايام وهو واولاده فى الحبس التمسو

حكم أسرة كومنين وبداية الحروب الصليبية

حكم الكسيوس كومنينوس Alexios Commenous ١٠٨١-١١١٨م:

وفى يوم الاحد الذى وافق عيد الفصح الشرقى لعام ١٠٨١م، بينما كان يستبد بالناس اليأس والقنوط حول مستقبل الامبراطورية، التى كانت تواجه أشد أزماتها الاقتصادية، استولى الكسيوس كومنينوس على العرش، مؤسسا آخر الاسرات القوية. فلقد ظلت أسرته تتوارث العرش حتى عام ١١٨٥م. ولقد كان الكسيوس

---

* تولى إمارة الموصل قريش بن بدران خلفاً لعمه قرواش وقريش هذا الذى اشتهر امره ابان ثورة البساسيرى.

* نجح ابن راشد الإباضى فى الثورة على حكم بنى بويه فى عُمَان وكان عليها أبو المظفر ابن السلطان أبى كاليجار فاستولى على البلاد وأظهر العدل وأسقط المكوس ولبس الصوف وخطب لنفسه.

* اغرى الوزير اليازورى الخليفة المستنصر بإرسال جماعات من العرب النازلين بمصر من زغبة ورياح وغيرهم إلى أفريقية لمناوأة المعز بن باديس على أن يملكوا ما يقتحمونه من الأرض.

سنة ٤٤٣ هجرية

استهلت السنة بيوم الأربعاء الموافق ١٥ مايو ١٠٥١م.

* ظهر ببغداد فى السابع من صفر (٢١ يونية) وقت العصر مذنّب غلب نوره على نور الشمس له ذيل نحو ذراعين وسار سيراً بطيئا ثم تلاشى.

* أعلن عرب بنى قرة فى مصر العصيان على الخليفة المستنصر وأقاموا بالجيزة وهزموا

منه مالا ويفرجو عنه فلم يكون معه شي يدفعه اليهم، فامر الامير باحضار الراهب الذى امتلى عليه غضبا لما اعلمه به الكاتب من امره. فلما حضر قال له اين المال الذى اخذته من البطرك الذى ذكرت لى وقلت انك اذا جيت الى هاهنا تجيب معه مال كثيرا؟ فخاف منه وقال له: ان الخبر قد وصل اليه قبل وصولى اليه فسلم ماله لاولاده وحفظوه وهم هاهنا معه وهم، سمعان اسقف «بنا»، ومقاره الشماس اخوه. وقال هذا

كومنينوس جنديا ماهرا وسياسيا داهية، وله تاريخ عسكرى مشرف، وحكم البلاد بقدرة بالغة، ووضع حدا لحالة الفوضى والاضطرابات التى كانت سائدة قبل مجيئه، حتى بدت الحياة تبشر بالتفاؤل والرخاء، وشهد الفن والثقافة انطلاقة جديدة. ولقد كان الكسوس من أبرز رجالات الطبقة العسكرية الارستقراطية، فهو ابن يوحنا كومنين، الذى لم يشأ عمه اسحق كومنين أن يحمله وزر حكم الامبراطورية المضنى، عندما تنازل عن العرش عام ١٠٥٩م، اختار وزير

جيشاً للخليفة فجمع لهم العرب من طىء وكلب وغيرهما فادركوهم باقليم البحيرة وأوقعوا بهم.

* أحرز الملك الرحيم البويهى انتصارين على الديلم والأتراك عند دورق بالأهواز ثم عند تُستَر واستولى أخوه على إصطخروشيراز، غير أن الهزيمة لحقته بعد تحالف أعدائه مع طغرلبك فاستقر بواسط بينما اتخذ طغرلبك أصبهان عاصمة له.

* عادت الفتنة بين السنية وأهل الكرخ من الشيعية بعد أن هدأت وعجز الخليفة والسلطان البويهى عن السيطرة عليها فتركوا الأمر للعيارين والشطار والحرافيش.

سنة ٤٤٤ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الأحد ٣ مايو ١٠٥٢م.

* نشر ديوان الخليفة العباسى القائم بأمر الله محضراً تضمن اتهام الفاطميين بانهم مجوس ديصانية ووقع على المحضر القضاة والفقهاء والأشراف.

* استولى فى شعبان من هذه السنة الملك الرحيم على البصرة وما حولها من أخيه أبى على بن أبى كاليجار وكان فى جيشه البساسيرى صاحب الثورة فيما بعد.

٥٥: شنوده البطرك ٨٥٩/ ٨٨٠م

حتى دفع عن نفسه. فلما سمع الكاتب ظن انه صحيح واحضر الرجلين. فلما علم ابونا بذلك كان داعيا لهما ان ينجيهما الله فامر [الامير] ان يحضرو اليه واحدا واحدا لياخذهما من كلامهما، فاحضر اليه اولا مقاره الشماس فقال له: اين مال البطرك قد اعلمونى انك اخذت ماله وهربت به غير هذه الدفعة فامضى الان واحضره الى لاطلقك بغير عذاب، فقال له الاخ: اذا كنت تلك الدفعة اخذت المال وهربت فهوذا هذه الدفعة قد احضرته

خزانته قسطنطين دوكاس ليكون الامبراطور الوريث. ولهذا كان الكسيوس على علم تام باحوال الامبراطورية فى الداخل والخارج، فلم يضيع وقته، وطفق يعمل بجد ونشاط لاصلاح الاحوال منذ اليوم الأول لجلوسه على العرش، حتى لا يخيب آمال الذين هتفوا به امبراطورا.

أحوال الامبراطورية الرومية عند تولى الكسيوس،

تقول آنا كومنينا ، ابنة الامبراطور الكسيوس، ومؤلفة الكتاب المعروف باسم «سفر الكسيوس» Alexiad،

---

* ممن توفوا فى هذه السنة من رجال الحكم والرياسة: السلطان الغزنوى عبدالرشيد، الثالث عشر من سلاطين الدولة الغزنوية اغتاله ابن أخيه الثائر طغرل بن مسعود، وفيها توفى أمير الموصل العُقيلى معتمد الدولة قرواش بن مقلد توفى حبيساً فى قلعة الجراحية على يد أخ له، وفيها توفى بمالقة المهدى الحمّودى من ملوك الطوائف قتل بالسم بعد حكم دام ٦ سنوات فبويع أخوه ادريس ابن يحيى.

سنة ٤٤٥ هجرية

استهلت السنة بيوم الجمعة الموافق ٢٣ إبريل ١٠٥٣م.

* جرت فى هذه السنة محاجة بين علماء أهل السنة وعلى رأسهم الصوفى عبدالكريم القُشَيرى صاحب الرسالة القشيرية وبين السلطان طغرلبك لأنه أمر بلعن الأشعرى باعتبار أنه مبتدع.

* عاد الأمير أبو منصور (ابن الملك أبى كاليجار) إلى شيراز وأظهر أهلها الطاعة له وأخرجوا منها أخاه أبا سعد، وخطب أبو منصور لطغرلبك السلجوقى وللملك الرحيم البويهى ولنفسه بعدهما.

* قبض المعتضد بن عباد صاحب أشبيلية من ملوك الطوائف بالأندلس على الأمير عبدون

وكلما له ويملكه وهو فى رحله والى السلطان ان ياخذه او يتركه. فسمع منه وانفذه فى موضع وحده وامر باحضار اخيه [سمعان] الاسقف بنا، فلما نظره الوالى قال له: انت سمعان اسقف «بنا» ؟ قال: نعم انا هو فقال له: واين مال البطرك الذى عندك؟ فقال له: ما مع ابى مالا وكلما يجده ينفقه على البيع والمنقطعين، والذى فى رحله هو الذى فضل عليه من النفقة. قال الاخوين امامه هذا بثبات لان البطرك لم يكن يدخر شيا بل

تقول على لسان أبيها «ولقد وجدت الامبراطورية محاطة من كل جانب بالبرابرة، كما وجدتها تعانى من نضب موارد الثروة، التى تمكنها من الوقوف فى وجه هؤلاء الاعداء، الذين يغيرون عليها بلا رحمة، ولعلكم تدركون المخاطر التى تصديت لها، وكيف أفلت بالكاد من أن ألقى مصرعى بسيوف البرابرة، وفى كل مرة كان هؤلاء الاعداء يغيرون علينا بقوات تفوقنا عددا. ولعلكم جميعاً تعرفون الكثير عن حملات التى قام بها الفرس (يقصد السلاجقة

ابن خزرون صاحب شذونة واركش وسجنه مكبلا بالحديد ثم قتله، وفعل ذلك بصاحب مورون.

* وصل طغرلبك إلى أصفهان مريضاً وترددت الشائعات بموته ثم عوفى فجاءه صاحب البصرة يشكو أخاه الملك الرحيم الذى أخرجه منها فوعده بنصرته.

* بلغت قوات السلاجقة حلوان (من العراق) فأثار ذلك ذعر أهل بغداد.

سنة ٤٤٦ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم السبت ١٢ ابريل ١٠٥٤م.

* استولت قبائل بنى هلال على القيروان وهى التى أطلقها المستنصر الفاطمى للشغب على المعز بن باديس صاحب أفريقية بعد أن خلع بيعة الفاطميين.

* انتشر الطاعون فى مصر واشتدت المجاعة.

* بلغ السلاجقة بقيادة الأخوين طغرلبك وداود إقليم اذربيجان بعد أن تم لهما ضم خوارزم دون مقاومة ومن اذربيخان دخلا أراضى الامبراطورية البيزنطية وسار طغرلبك إلى أرمينية وحاصر مدينة ملازكرد ونهب ما حولها وأخربها.

صرف جميعه للبيع والمستورين. فلما راى ذلك وعلم صحة ما قالاه ونظر ضعف جسم الاب الاسقف [سمعان] امر ان يعاد الى السجن، وامر باحضار اخيه [مقاره] الشماس دفعة ثانية وهو عليه ممتلى غضبا. فحزن عليه الاب البطرك وعلم انه يقاسي عقوبة. فلما دخلو به اليه قال له: ان انت لم تعطيني مال البطرك عذبتك بعذاب شديدا. فاعاد عليه ذلك الاخ القول الاول وقال له: قد كنت اعلمتك انه ليس لابي شيا الا ما في رحله.

الشرقيين) ضدنا، وعن غارات الباتزيناك (البشناق)، كما انكم يجب ألا تنسوا الحراب المصوبة نحونا من ايطاليا (يقصد النورمان) في الوقت الذى قل فيه المال والسلاح». بهذه الكلمات لخصت آنا ابنة الامبراطور الاديبة أحوال الامبراطورية، فهي شاهدة عصر، وليست ناقلة عن الآخرين وهنا يكمن أهمية كتابها. ومن ثم سوف نلقى بعض الضوء على أعداء الامبراطورية خاصة في جهة السلاجقة الاتراك.

---

* ألقى المعتضد بن عباد صاحب أشبيلية بالأندلس الحصار براً وبحراً حول الجزيرة الخضراء للقضاء نهائياً على حكم الحمّوديين بالأندلس فاضطر الخليفة الواثق الحمودى من التسليم ولجأ إلى المرية فى حماية صاحبها المعتصم بن صمادح، لحين وفاته بعد أربع سنين.

* كتب الخليفة القائم العباسي إلى طغرلبك يستنهضه للمسير إلى العراق بعد أن بدت الوحشة بين الخليفة والبساسيرى.

* ولد بنواحي البصرة فى هذه السنة مؤلف المقامات وهو أبو محمد القاسم ابن على الحريرى اشتهر بالمقامات المنسوبة إلى اسمه وله درة الغواص.

* ممن توفى فى هذه السنة من رجال الحكم والإمارة: الخليفة الأندلسي الحمودى ادريس بن يحيى العالى بالله بعد حكم دام سنتين وعهد لابنه محمد، وفيها توفى صاحب بلبلة فتح اليحصبى من ملوك الطوائف بالأندلسي بعد أن تنازل عنها مضطرا للمعتضد بن عباد، كما وافقت السنة وفاة الامبراطور البيزنطى قسطنطين التاسع زوج الامبراطورة تيودورا.

سنة ٤٤٧ هجرية

استهلت السنة بيوم الأحد الموافق ٢ ابريل ١٠٥٥م.

* تميزت هذه السنة بالصراع بين الخلافة العباسية السنية والخلافة الفاطمية الشيعية بمصر.

الجبهة السلجوقية:

كان السلاجقة الاتراك دائمى الاغارة على ممتلكات الامبراطورية فى آسيا الصغرى، وكانت سلطنة سلاجقة الروم أقوى السلطنات السلجوقية جمعاء؛ فقد كان على رأسها السلطان المشهور سليمان بن قطلمش الذى وصلت السلطنة فى عهده الى أوج قوتها واتساعها؛ اذ يذكر ابن العديم أنه يستولى فى عام ٤٧٧هـ (١٠٨٤م) على منطقة أنطاكية وما حولها منتهزا فرصة انشغال الكيسوس فى صد التورمان، وبذلك أصبح نفوذ سليمان يمتد من

فامر ان يبطح على بطنه وتشبح رجليه ويضرب فضرب حتى جرى الدم من جسمه. فلما نظر [الامير] الى الدم امر ان ترفع عنه العقوبة واعادته الى السجين. فلما نظر الاب ما ناله من العذاب عزاه وقال له: افرح يا ولدى الحبيب لانك استحقيت ان تعذب لاجل البيعة، وانا اومن انك تنال الاجر من السيد المسيح. وصلب على جسده وفى الوقت زال عنه الالم، ولم يظهر عليه ضرب بالجملة، فلما شاهد من فى الحبس معه من

---

* دخل السلطان ركن الدين أبو طالب طغرلبك بغداد (٢٥ محرم) فهرب منها البساسيرى الثائر إلى مدينة الرحبة عند صاحبها دبيس وكاتب المستنصر الفاطمى بمصر ومشت بينهما الرسل بينما تقدم الخليفة القائم إلى خطباء المساجد ببغداد بالخطبة للسلطان السلجوقى وذلك قبل دخوله المدينة (الجمعة ٢٢ المحرم).

* قامت باليمن دولة جديدة شيعية باستيلاء على بن محمد الصُلَيحى على اليمن فأزال الدعوة العباسية وخطب للمستنصر الفاطمى عرفت بالدولة الصليحية نسبة إلى الاصلوح من نواحيها ودام حكمها ٦٠ سنة ورد المستنصر بان منح الصليحى الألقاب الآتية: الأمير الأجل، تاج الدولة، سيف الإمام المظفر عمدة الخلافة.

* بعث الخليفة العباسى رسولا إلى المعز بن باديس صاحب أفريقية بعد أن خلع عهد الفاطميين ومعه الهدايا الثمينة والعهد من قبله فوقع الرسول فى أيدى الروم فحملوه إلى القسطنطينية وحملة الروم إلى المستنصر وكانت بينهما هدنة ولكنه اضطر إلى رده إلى بغداد.

* بعث الخليفة المستنصر القاضى أبا عبدالله القضاعى إلى الامبراطورة تيودورا بالقسطنطينية لتسوية الخلافات بين الدولتين بعد المعارك البرية والبحرية المتلاحقة وكانت سجالا.

* توفى فى هذه السنة أبو زكريا يحيى بن عمر اللمتونى المؤسس الأول لدولة المرابطين بالمغرب.

المعتقلين من الامم تعجبو وتقدمو اليه وسجدو له وقالو: هذا الرجل قديس الله. واقام الاب واولاده في الحبس ثلثون يوما والمومنين تحت كا ابة وحزن بفسطاط مصر. وهم بين اللصوص والقتلة فاطلع الرب على صبره وتواضعه وانه لم يضجر يوما واحدا بل يبارك الله بغير فتور ولا ملل ويقول: انا اشكرك ياسيدى يسوع المسيح انك لم تفعل هذا الا باستحقاق. فجعل الله فى قلب الامير رافة، فدفع عنه الاراخنة بمصر مالا كثيرا وافرج عنه

مدينة نيقية فى شمال غرب الاناضول حتى طرابلس على ساحل الشام؛ وأصبحت ثغور الشام الاساسية فى قبضته فضلا عن أهم مدينتين مقدستين عند النصارى وهما نيقية وأنطاكية. ولقد عجز الكسيوس عن صد هجمات السلاجقة لانها كانت تتزامن مع غزوات البشناق من الشمال، وتقدم النورمان من الغرب؛ غير أنه لم يرى فى السلاجقة والبشناق نفس الخطر الذى رآه فى النورمان.

وما لبثت الظروف أن تحولت

سنة ٤٤٨ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الخميس ٢١ مارس ١٠٥٦م.

* جرت مصاهرة بين بيت الخلافة العباسية وبين السلاجقة ففيها تزوج الخليفة القائم بنت الأمير داود أخى طغرلبك المسماة خديجة أرسلان خاتون وذهبت أم الخليفة إلى حيث هى وتسلمتها واحضرتها إلى بغداد.

* أقيم أذان أهل السنة بالكرخ بالرغم من أن أهلها من الشيعة.

* عم الوباء والقحط مصر بسبب انقطاع الفيضان (بلغت الزيادة ١٦ ذراعا) كما شمل القحط الشام وبغداد وكان الطاعون يقضى على المطعون فى ساعات.

* جرت معركة بالقرب من سنجار بين البَساسيرى الثائر ومعه دُبيس الأسدى وبين قُريش العُقَيلى صاحب الموصل ومعه قُتُلْمش ابن عم طغرلبك وفيها دارت الدائرة على البساسيرى وحليفه.

* توفى ببغداد عالم الفلسفة أبو على عيسى بن إسحق بن زَرعة كان عالما باليونانية واشتغل بالترجمة منها (اختصار ارسطو) توفى عن ٧٨ عاماً.

وعن اولاده وشكر الرب الذى كان معه ونجاه من جميع شدايده. وكان يسبح كما قال داوود النبى: الفخ انكسر ونحن نجونا لان معونتنا من عند الرب الهنا. وكان كل احد ياتى اليه ويسجد له كاستحقاقه. فلما خلص الرب ابانا من ذلك البلا وقف امام الرب بدموع غزيرة لاجل الاخ الراهب الذى جرى منه هذا الامر. وقال: الرب يغفر له. ثم قال طالبا معنا الراهب الاخر الذى اخرج من الديارات وقال عنه انه مسلم ليخلصه من يدى

لصالح الكيسوس، عندما تدهورت دولة سلاجقة الروم أقوى الممالك السلجوقية فى آسيا الصغرى - فجاة بعد موت سليمان بن قطلمس عام ١٠٨٦م، فقد أدى موته الى انقسام دولته على نفسها، وتحولت الى بضع سلطنات صغيرة يحكم كل منها أحد أبنائه أو أقاربه، فزال خطر سلاجقة الروم، وتحولوا من سياسة التوسع فى أراضى الروم الى الدفاع عن وجودهم بعد أن شعروا بتحفز الصليبين اللاتين للانقضاض عليهم.
أما الدولة السلجوقية الكبرى،

سنة ٤٤٩ هجرية

استهلت السنة بيوم الاثنين الموافق ١٠ مارس ١٠٥٧م.

* جلس الخليفة العباسى جلوساً عاماً حضره السلطان طغرلبك لأول مرة وكان قد عاد من الموصل بعد أن سلمها عمه إبراهيم إينال وخرج لاستقباله رئيس الرؤساء وأبلغه سلام الخليفة وقدم له جاماً من ذهب وألبسه فرجية من عند الخليفة، وفى هذا الاحتفال حضر السلطان، والخليفة على سرير عال نحو سبعة أذرع وعليه بردة النبى فقبل السلطان الأرض فأعلن الخليفة أنه ولاه جميع ماولاه الله من بلاده ولقبه بملك الشرق والغرب.

* تنازل معز الدولة ثَمال المِرْداسى عن إمارة حلب للخليفة الفاطمى بعد ٩ سنوات من حكمه لها وسار منها إلى القاهرة، وولى المستنصر على حلب مكين الدولة ابن ملهم.

* استعفى ابن النّسوى صاحب شَرطية بغداد لسيطرة العيّارين واللصوص عليها.

* سار باديس الصنهاجى أمير غرناطة بالأندلس إلى مالقة واستولى عليها فغادرها صاحبها المستعلى الحمودى إلى المغرب فكان ذلك آخر عهد الحمّوديين بالأندلس.

* أوقع البساسيرى بعد هزيمته فى العام المنصرم بقوات الخليفة عدة هزائم.

* أمر الخليفة المستنصر بالقبض على وزيره اليازُورى وقرر عليه أموالا عظيمة.

الامم ويصبره ويجعل معه رجا الامانة المستقيمة والرب الكريم الذى يسمع دعا خايفيه، سمع دعا ابونا القديس وطرح فى قلوب الولاة عندما كشفو عنه وجدوه نصرانيا اطلقوه من السجن فايزا باكليل الاعتراف. ومضى الى ديره ولم يعرفه احد الى يوم وفاته.

وكانو الاراخنة يسالو الاب قايلين: نحن نضرع اليك ان تجعلنا فى حل لناخذ قصاص البيعة من هذا الغير راهب. فلم يدعهم الاب وقال لهم: ليس

والتى كان مقرها وعرشها فى بغداد، فبالرغم من أنها كانت من الناحية النظرية دولة قوية متحدة، يديرها سلطان واحد أكبر هو ملك شاه الا أنها كانت من الناحية الفعلية منقسمة الى أجزاء ودويلات صغرى؛ يسود بينها التنافس والعداء؛ لكن وجود السلطان الأعظم فى بغداد، الذى يدينون بالتبعية له، كان يحول دون اندلاع هذا العداء. ولقد حاول الكسيوس بسياسة الدهاء أن يستثمر هذا العداء عن طريق الوقيعة بين أمراء

---

* شهدت هذه السنة وفاة الشاعر الحكيم الضرير أبو العلاء المعرى بمسقط رأسه معرة النعمان عن ٨٦ عاماً فى الثالث من ربيع الأول على الأرجح، له من المطبوع المتداول (رسالة الغفران، سقط الزند، اللزوميات).

* توفى بأشبيلية عالم الهندسة المتفلسف ابن خلدون الحضرمى (عمر ابن أحمد) وهو غير سميه المؤرخ.

سنة ٤٥٠ هجرية

استهلت السنة بيوم السبت الموافق ٢٨ فبراير ١٠٥٨م.

* شهدت السنة سلسلة من انتصارات البساسيرى الثائر توجت باستيلائه على بغداد وهرب الخليفة منها.

* استولى البساسيرى وحليفه دُبيس صاحب الحلة على الموصل بعد أن فارقها إينال عم طغرلبك وكان ذلك بداية اتهام إينال بالعصيان، وخرب البساسيرى قلعة الموصل.

* دخل البساسيرى بغداد فى الثامن من ذى القعدة ومعه صاحب الحلة وخطب له على منابرها وهو ما يعرف فى التاريخ الإسلامى بالحادث العظيم، بينما خرج الخليفة من المدينة فى حماية قريش بن بدران العقيلى وانتهى إلى بلدة الحديثة.

السلاجقة، غير أن سياسته هذه لم تؤتى ثمارها؛ كما أن حملاته لم تنجح في زحزحة السلاجقة شبرا واحداً عن المناطق التى احتلوها فى آسيا الصغرى. وللمرة الثانية ساعدت الظروف الكسيوس، عندما مات السلطان الاعظم ملك شاة في بغداد عام ١٠٩٢م، واندلعت المعارك بين سلاطين السلاجقة الصغار بشكل شرس ينذر بزوال الخطر السلجوقى. وكان في مقدور الكسيوس أن يستغل الموقف ويستعيد لامبراطورية الروم ما فقدته، لكن خططه الحربية انقلبت

هو الذى فعل بى هذا بل خطاياى، وان كان هذا مستحق مجازاة فهو ينالها بفعله الذميم. قال ابونا هذا لمعرفته بما يناله من البلايا لان هذه كانت عادته ان يظهر الله له ما يكون ولا يظهره لاحد من الناس الى حين تمامه، لانه كان يهرب من مجد الناس. فهرب ذلك الغير راهب من مصر خوفا من الاراخنة ومن الولاة ايضا لانهم طلبسوه لاجل ما ظهر من بطلان قوله جميعه، فانحدر الى مريوط عند اهله. ولم يتركه الشيطان ان يتخلى عن

---

* استمال البساسيرى بايحاء من المستنصر الفاطمىَ إبراهيم إينال واطمعوه فى السلطنة فأعلن العصيان على ابن أخيه طغرلبك الذى لاحقه بهمذان ثم إلى الرى.

* تولى وزارة المستنصر الفاطمى بمصر ابو الفرج محمد بن جعفر المغربى، وولى المستنصر امارة دمشق وامارة حلب ناصر الدولة الحمدانى.

* ممن توفى من رجال الحكم والامارة فى هذه السنة: توفى فى هذه السنة الملك الرحيم أبو نصر خسرو فيروز ابن السلطان ابى كاليجار وخليفته فى العراق وفارس واخر سلاطين بنى بويه، توفى مسجونا بقلعة الرى، وفيها توفى عز الدين البكرى (والد البكرى الجغرافى) امير شلطيش بالاندلس قبل اجلاء المعتضد ابن عماد له وقد دام حكمه ٤٠ سنة، وفيها توفى اغتيالا البيازورى وزير الخليفة المستنصر الفاطمى بعد ان وزر له ٨ سنوات، وفيها توفى رئيس الرؤساء القاسم ابن المسلمة وزير الخليفة القائم قتل فى ثورة البساسيرى، وفيها توفى الناصر بن مزين من ملوك الطوائف.

سنة ٤٥١ هجرية

وافق الاول من المحرم يوم الاربعاء ١٧ نوفمبر ١٠٥٩م.

* وقعت الحرب بين طغْرلبك ومعه ابناء اخيه داود وبين عمه ابراهيم إينال الذى حالف

افعاله الردية فقام ودخل الى البرية المقدسة وعذب الابا الرهبان، وصار عثرة لجميع الرهبان. فاتصل خبره باهل اسكندرية من قوم تجار مشهورين مسلمين كانو يترددو الى الديارات يبتاعو الحصر وغيرها لانهم شاهدو ما يفعله هذا الراهب بالرهبان، فعرفو الوالى ظلمه لهم واستشهدو بالقوم المسلمين فانفذ عند ذلك الى والى مريوط بالقبض عليه وتوثقه بالحديد واخوه العلمانى وانفاذهما اليه. فلما قبض عليه وعلى اخوه

رأسا على عقب، عندما شعر بتزايد خطر الصليبين على بلاد الروم ذاتها بدعوى تحرير الأراضى المقدسة من المسلمين.

الجبهة الشمالية ضد البشناق:

كان البشناق (patzinak) من أشرس القبائل الاسيوية البدوية التى تنتمى بصلة قرابة لقبائل الاتراك السلاجقة، والتى لم تتوقف عن مهاجمة الحدود الشمالية للامبراطورية فى البلقان، وذلك فى نفس الوقت الذى هاجم فيه السلاجقة الحدود الشرقية. ولقد أوقع البشناق هزيمة

الفاطميين على ان تكون الخطبة لهم اذا استولى على البلاد ولكنه هزم عند الرى واسر وقتل (٩ جمادى الآخر).

* احترقت ضاحية الكرخ ببغداد واحترقت فيها خزانة الكتب التى اسسها الوزير اردشير ونهب ما تخلف منها ومن بينها ١٠٠ مصحف بخط ابن مقلة.

* سار السلطان طغرلبك بعد أن انتهى من عصيان عمه إلى بغداد لاستعادة الخلافة والقضاء على ثورة البساسيرى الذى استولى على المدينة فهرب منها البساسيرى (٦ القعدة) قبل أن يدخلها السلطان فى ٢٥ من الشهر وانفذ وراءه جيشاً لملاحقته فى الشام التى لجأ إليها وفيها قتل وحملت رأسه إلى بغداد ومن بغداد سار السلطان إلى واسط ومنها إلى البطائح حيث قضى صلحا على عصيان دبيس صاحب الحلة.

* عاد الخليفة القائم بأمر الله إلى بغداد وكان قد جأ إلى الحديثة هرباً من البساسيرى.

* توفى فى هذه السنة من رجال الحكم: السلطان الغزنوى فروخ زاد ابن مسعود بعد حكم دام ٧ سنوات ثار عليه مماليكه واتفقوا على قتله حتى أدركه أصحابه ثم مات بمرض القولنج، وفيها توفى السلطان السلجوقى داود جغرى بك ابن ميكايل وكان على خراسان وأخلف عدة أبناء كان لهم دور فى تاريخ العصر وهم ألب أرسلان وياقوتى وسليمان وقاورت.

العلماني نظر اليه الوالي وقال له: ما سمعت مافعلت انا بالغير شماس الذى فعل مثل فعلك، واما الان فانى اجازيك واخوك العلماني بما تستحقاه. وامر ان يبطحا ويضربا واجاد الاعوان ضربهما بالسياط الى ان صارا كالاموات، وجر بارجلهما فى اسواق المدينة واعتقلا واوثقا بالحديد. وبعد سنة وهما مقيدين بالسلاسل الحديد، ودفعا كلما يملكاه، وكانت امهما واخوتهما يطوفا كل موضع ويتصدقو ما يدفعوه عنهما الى ان اطلقا

بجيش رومى يقوده الكيسوس عند سيلستريا silistria (درسترا الحالية فى وادى الدانوب الادنى)، وكاد الامبرطور أن يقع أسيرا فى قبضتهم، لولا أن الظروف خدمت الامبراطور الكيسوس، عندما دب النزاع بين قبائل البشناق وأبناء عمومتهم من قبائل الكومان حول توزيع الغنائم والاسلاب، وشغلهم هذا الصراع عن الاستمرار فى الزحف على البلقان من الشمال. ولما كان الكيسوس لايرى خطرا ملحا يهدد الامبراطورية من جانب البشناق، فقد آثر استرضاءهم

سنة ٤٥٢ هجرية

استهلت السنة بيوم الأحد الموافق ٦ فبراير ١٠٦٠م.

* دخل بغداد السلطان طغرلبك (الجمعة ١٧ صفر) وفى حاشيته السلطان أبو كاليجار البويهى وأمراء الولايات فاعتبر هذا التاريخ خاتمة دولة بنى بويه.

* استولى على حلب محمود بن شبل الدولة المرداسى بعد حصارها مرتين وأوقع الهزيمة بناصر الدولة الحمدانى الذى أنفذه الخليفة المستنصر من دمشق، كما استولى عطيه المرداسى على الرحبة وخطب فيها للفاطميين.

* عاد إلى بغداد بعد هزيمة البساسيرى ولى عهد الخليفة الصبى وعمره أربع سنوات وهو أبو القاسم زخيرة الدين المقتدى بأمر الله ومعه جدته أم الخليفة.

* اغتال الداعى الصابيحى المؤيد نجاح الذى كان قد استولى على اليمن وأسس دولة بنى نجاح ودام حكمها نحو قرن من الزمان.

* توفى عن ٥٥ عاماً السلطان المنصور عبدالعزيز بن أبى عامر مؤسس الدولة العامرية ببَلَنسية وما حولها وخلفه ابنه عبدالملك، وفيها توفى من رجال الحكم المؤيد نجاح الحبشى الذى استولى سنة ٤١٢ على اليمن اغتاله الداعى الصليحى انتقاماً، وصاحب شرطة بغداد أبو

بحال زرية. وتجذم [اصابه مرض الجذام] الراهب المذكور وصار لونه اسود وكلمن سمع تعجب ومجد الرب الذى اخذ قصاص الاب البطرك لعظم صبره، ويقولو: بالحقيقة عجايب الله فى قديسيه وباركو الرب الهنا.

ولما اكمل ابونا سانوتيوس، وهو شنوده البطرك المجاهد فى جميع ايامه، المغبوط فى خدمته المرضية الله تعالى، وكمل سعيه وحسن اجتهاده وصبره

بعقد هدنة معهم، لكى يوقفوا التعدى على نهب المناطق الشمالية مقابل مساعدة مالية سنوية تدفع لزعمائهم؛ غير أن هذه الهدنة لم تدعم طويلا. اذ تحالف البشناق فى عام ١٠٩٠ـ ١٠٩١م مع حاكم اقليم سمرنة (smyrna) التركى (أزمير الحالية)، وهاجموا القسطنطينية برا وبحرا، ولولا أن الكيسوس استخدم بذكاء سلاح الوقيعة بين زعماء البشناق واستقطاب الكومان والروس الى جانبه لينزل بالبشناق هزيمة ساحقة عند جبل ليفونيون

محمد النسوى عن ٨٠ عاماً وهو الذى أجرى الصلح بين الشيعة والسنية، يوفيها توفى أمير فاس بالمغرب دوناس بن حمامة الزناتى بعد حكم دام ١٢ سنة عنى خلاله بتعمير عاصمته.

سنة ٤٥٢ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الجمعة ٢٦ يناير ١٠٦١م.

* أرسل السلطان طغرلبك السلجوقى إلى الخليفة العباسى يلتمس الزواج من ابنته وكان رسوله الوزير عميد الملك الكندرى فانزعج الخليفة لذلك إذ لم يسبق أن طمع أحد فى مصاهرة بيت الخلافة.

* شهدت السنة وفاة سلطان المغرب الأوسط الصنهاجى شرف الدولة المعز ابن باديس وذلك بعد حكم دام ٤٧ عاماً وكان قد أعلن استقلاله عن التبعية الفاطمية عام ٤١٧هـ مما أثار الحروب بينه وبين المستنصر صاحب مصر. توفى بمرض الكبد.

* شهدت السنة وفاة الطبيب المصرى أبو الحسن على بن رضوان كبير الأطباء إبان خلافة الفاطميين وصاحب المحاورات مع الطبيب البغدادى ابن بُطلان له من المؤلفات: كفاية الطبيب، دفع مضار الأبدان، النافع فى الطب، أصول الطب، وجميعها مخطوطة.

Levounion شمال البلقان فى نهاية ربيع عام ١٠٩١م. ومنذ ذلك الوقت لم يعد البشناق خطرا يهدد الامبراطورية ويلقق راحتها. ولذلك فان ابنه الامبراطور «آنا» عندما كتبت سيرة ابيها، توقفت طويلا عند هذه المعركة التى اعتبرتها من أعظم معاركه الخالدة، التى انقذ بها الامبراطورية من خطر قبائل البشناق الرعاة، البدو الاجلاف التى كانت تبيد فى طريقها الحرث والنسل، وتقضى على الاخضر واليابس.

على كل الشدايد والبلوى من تجارب الشيطان، وما لقيه من الولاة والظلمة ومكابدة الاوقات الصعبة التى لا توصف، وشاخ وضعفت قوته وشا[ء] الرب ان ينقله الى دار كرامته ومعدن نياحته، وان يريحه مع الابا والابرار الصالحين الاخبار، فمرض وتنيح فى الرابع والعشرين من برموده. وكان مدة مقامه على الكرسى المرقسى احدى وعشرين سنة وثلثة شهور. فاجتمع الابا الاساقفة والكهنة والشعب المسيحى فحزنو عليه حزنا شديدا، وبكو

سنة ٤٥٤ هجرية

أهلت السنة بيوم الثلاثاء الموافق ١٥ يناير ١٠٦٢م.

* جرى عقد زواج السلطان طغرلبك السلجوقى من ابنة الخليفة القائم بأمر الله العباسى بظاهر مدينة تبريز فى شعبان من السنة، وكتب الخليفة الوكالة باسم الوزير عميد الملك الكُنْدُرى وسيرت الكتب من بغداد مع أبى الغنائم ابن المحلبان.

* أغار ملك قشتالة الأسبانى فرناندو الأول على أراضى مملكة طليطلة الاسلامية وخربها حتى أذعن صاحبها المأمون بن ذى النون للصلح وأداء جزية سنوية.

* فى مصر انقطع الوباء الذى دام ثمانى سنوات وصحبته مجاعة وقحط.

* تولى إمارة حلب أبو ذَؤابة عطية بن صالح المِرداسى خلفاً لأخيه ثُمال الذى لم يدم حكمه سوى عام واحد، فأغار عليه ابن أخيه محمود بن نصر لاستعادتها منه.

* تولى على اليمن الداعى الصُليح بعد أن اغتال المؤيدَ نجاح الحبشى غيرى أن أمره لم يدم سوى عامين.

* عزل الخليفة العباسى وزيره أبا الفتح ابن دارُست الذى انسحب إلى الأهواز وتوفى بها وخلفه فخر الدولة بن جهير للمرة الثانية.

عليه بكا طويلا، وصلو عليه كما يجب لمثله وجنزوه كما ينبغى لرياسته، وقدسه وكفنوه ودفنوه.

صلاته وبركته تكون معنا وتشملنا الى النفس الاخيرة امين والمجد للاب والابن والروح القدس من الان وكل اوان والى دهر الداهرين وابد الابدين امين امين امين.

قيام الدعوة الصليبية فى الغرب الاوروبى:

منذ أن فتح المسلمون العرب فلسطين في القرن السابع الميلادى، لم تتعطل رحلات الحجاج المسيحيين من كافة أنحاء العالم الى القدس، لكن بعد معركة منزكرت قل عدد الحجاج الى فلسطين تحت تأثير ادعاء الروم بأن المسيحيين الشرقيين يعيشون مضطهدين تحت حكم السلاجقة، بالرغم من أن المسيحيين الشرقين تحدثوا عن التسامح العظيم الذى أبدته دولة سلاجقة الروم ازاءهم

---

* توفى بمصر المؤرخ صاحب الخطط أبو عبدالله القضاعي مؤلف خطط مصر وكتاب تاريخ الخلفاء، ودقائق الأخبار وحدائق الاعتبار، وعيون المعارف، وكان سفير الخليفة الفاطمى إلى الامبراطور البيزنطى.

سنة ٤٥٥ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم السبت ٤ يناير ١٠٦٣م.

* فى المحرم من السنة قدم السلطان طغرلبك من أرمينية إلى بغداد فخرج الوزير ابن جهير والأمراء فى استقباله ومنهم أبو على ابن الملك أبى كاليجار البويهى وابن كاكويه صاحب أصبهان.

* استولى الصليحى صاحب اليمن على مكة فأحسن السيرة وجلب إليها الأرزاق ورفع جور من تقدمه.

* تولى أمير الجيوش بدر الجمالى إمارة دمشق ولكن أمره لم يدم طويلا.

* انهدمت أسوار طرابلس الشام بفعل الزلازل، وفى مصر إنتشر الطاعون وكان يقضى على ألف إنسان فى اليوم.

خاصة فى عصر ملك شاه السلطان الأعلى للسلاجقة، لكن تحت تأثير الدعاية العاطفية المواجهة الى الغرب اللاتينى، طلبا للمساعدات العسكرية، كادت رحلات الحج الى فلسطين تتوقف؛ فقد كان سخط الراغبين فى الحج الى فلسطين يتزايد عاما بعد عام ؛ ولهذا عندما طلب الكسيوس النجدة مرة أخرى من الكنيسة وملوك الغرب اللاتينى، وذلك فى عام ١٠٩٥م موضحا أنه يريدها فى شكل قوات موالية له، وعلى درجة كبيرة من التدريب، لقي طلبه اهتماما. فقد

بسم الاب والابن والروح القدس

اله واحد له المجد الدايم الى الابد امين

نبتدى بعون الله وحسن توفيقه بنسخ الجزو الثالث من سير الابا البطاركة الاخيار الاطهار خلفا الاب البشير مارى مرقص الانجيلى صلواته وصلواتهم تحفظنا امين. وهم بطاركة القبط بارض مصر المومنين الارتدكسيين الذين جاهدو وصبرو على كل الم ومشقة ونصب وتعب من المناصبين والهراطقة واعدا البيعة، ولم يصدهم ذلك عن

---

* كثر طمع الأعراب فى بلاد العراق على أثر وفاة طغرلبك وانتشروا على أطرافها ونهبوا وسلبوا مما اضطر أصحابها إلى حمل السلاح للدفاع عن أنفسهم وممتلكاتهم.

* تولى فى هذه السنة العرش السلجوقى ألب أرسلان بن محمد بن داود جغرى بك ابن أخى السلطان طغرلبك المتوفى وكانت الولاية لسليمان بن داود الذى كان طغرلبك قد تزوج أمه وكان على خراسان فوقع الشقاق فى الأسرة.

* ثار بافريقية حَموُ بن مليك صاحب صفاقس وهزم تميم الصُنهاجى أمير البلاد عند المهدية.

* شهدت هذه السنة وفاة السلطان طُغرلبك السلجوقى (الجمعة ٨ رمضان) عن ٧٠ سنة أول سلاطين الدولة السلجوقية العظام وهو الذى قضى على ثورة البساسيرى وأزال ملك بنى بويه وعقد قرانه من ابنه الخليفة إلا أنه توفى قبل أن تزف إليه.

سنة ٤٥٦ هجرية

استهلت السنة بيوم الخميس الموافق ٢٥ ديسمبر ١٠٦٣م.

* غزا النورمانديون باسطولهم مينة بَرْبَشْتَر الأندلسية وبعد دفاع بطولى استسلمت بشروط غير أن الغزاة أوقعوا بأهلها قتلا وسبيا وبلغ عدد الضحايا ٤ آلاف قتيل.

حب المسيح سيدهم والاعتراف الحسن والاقرار بالامانة المقدسة واقامة منار الدين، وثبتو على الامانة المستقيمة التى ورثوها عن ابايهم القديسيين الصايرة اليهم من الابا الحواريين تلاميذ السيد المسيح الذين راو وشاهدو وصنعو العجايب كما كان سيدهم يصنع واعطاهم السلطان على ذلك وعلى مقاومة الملوك والسلاطين بتاييد الروح القدس الناطق على السنتهم كما وعدهم السيد المسيح له المجد الى الابد امين.

كانت البابوية قد فرغت من صراعها مع الأباطرة فى الغرب وحققت انتصارها عليهم؛ كما أن كنيسة روما لم تفقد أبدا الأمل فى أن تخضع كنيسة القسطنطينية لكرسي البابوية. ولهذا فقد أحياء استجداء الكسيوس كومنين هذه الآمال، وراح البابا أوربانوس الثانى Urbanus II يروج لهذه الدعوة. وفى شهر نوفمبر عام ١٠٥٩م فى مدينة كليرمونت Clermont ـ بوسط فرنسا ـ عقد مجمعا دينيا؛ وكانت هذه المدينة وقتذاك تعج بالحجاج الغربيين فى

---

* قبض السلطان ألب أرسلان على وزير عمه (طغرلبك) عميد الملك الكُنْدُرى متهماً إياه بتغذية الفتنة ضده وأبعده إلى مرو معتقلا، وفيها لقى مصرعه.

* عادت ابنة الخليفة القائم العباسى وعروس طُغْرلْبك إلى بغداد من الرى وفى صحبتها الأمير ايتكين العثمانى.

* فى المحرم من السنة أعلن شهاب الدين قُتُلمش من أعمام السلطان الثورة عليه وسار للاستيلاء على الرىّ فخف إليه ألب أرسلان ولكن لم يلبث أن توفى.

* فى الأول من شهر ربيع الأول غزا ألب أرسلان بلاد الروم للمرة الأولى واستولى على مدينة «مريم نشين» بعد أن نقبوا سورها وأسر فيها خلقا كثيراً ثم استولى على مدينة (أعال لال) ببلاد الكُرّج (القوقاز) وهدم أبراجها وعاد بعدها إلى كِرْمان.

* شهدت السنة وفاة الفيلسوف والفقيه المجتهد ابن حزم الظاهرى (أبو محمد على ابن أحمد) توفى بناحية لَبْلَة بالأندلس عن ٧٢ عاماً، له من المطبوع: المحلى فى الفقه، الفصل بين الملل والأهواء والنحل، الإحكام لأصول الأحكام، وله طوق الحمامة فى الأدب.

السيرة الثالثة والعشرين من سير البيعة المقدسة

قال الاب الفاضل انبا ميخاييل [الدمراوى] اسقف مدينة تنيس ان من الواجب يا احباى لاجل المحبة المسيحية ان نسطر ما اخر تسيطره مما كان فى البيعة الارتدكسية الذى شاهده وعرفه اوليك الرعاة فى كل جيل، وكانو خداما للكلمة . وطلبت من الله سبحانه اعانة ضعفى انا البايس الخاطى لابتدى واجعل لسانى الناقص قلم سريع

طريقهم لحضور حج عيد ميلاد عام ١٠٥٩م. وفى نهاية الاجتماع ألقى البابا أو ربانوس الثانى خطبة غراء نارية، تهيب بالمسيحيين أن يحملوا السلاح لاجلاء المسلمين عن بيت المقدس، ومساعدة أشقائهم فى المشرق ؛ ووعد البابا المتطوعين لهذه الحرب بغفران الخطايا، والتكفير عن ذنوبهم؛ ووعد المثقلين بالديون بأسقاطها عنهم وحماية المتطوعين وممتلكاتهم ونسائهم أثناء غيابهم فى الشرق، واستمع المسيحيون اللاتين

سنة ٤٥٧ هجرية

وافق الاول من المحرم الاثنين ١٣ ديسمبر ١٠٦٤م.

* بعد تسعة أشهر من إحتلال النورمان لمدينة بِرْبَشْتَر الأنلسية أوقع المقتدر ابن هود صاحب سرقسطة بالقوات الغازية فلم ينج منها أحد وبلغ السبى وحده خمسة آلاف.

* عبر السلطان أَلْب أَرسلاَن السلجوقى نهر جيحون (أموداريا) وسار صوب جنّد القريبة من بخارى (بها قبر جده سلجوق) فاستسلم ملكُها ودخل فى طاعته.

* وقعت الحرب بين بنى حَمّاد الصنْهاجيين أصحاب المغرب الأوسط وبين العرب حلفاء المعز بن زيرى وقد تم للعرب فى الوقعة الاخيرة امتلاك الاقليم.

سنة ٤٥٨ هجرية

استهلت السنة بيوم السبت الموافق ٣ ديسمبر ١٠٦٥م.

* عهد السلطان السَلجُوقى الَبْ أرْسلان بالولاية لابنه مَلِكْشاه واخذ العهود والمواثيق وأمر بالخطبة له فى جميع البلاد.

الكتابة لكيما يتحرك بموهبة الروح القدس، فاكتب ما سمعته وعرفته من الصادقين الذى يقبل قولهم، ونسلك منهاج من تقدمنا الذين نالو النعمة، لان هذا الامر كان خطر ببالى ان اكمله، وتشبهت بالامراة الارملة التى القت فى الخزانة الفلسين الحقيرين ولم يكن لها غيرهما فقبلهما الرب فاحص القلوب منها. ووجدت الذى تضمنته السير الذى رتبها الابا القديسين بقوة الروح القدس هو ما جرت عليه البيعة من زمان الاب القديس

الى خطبة البابا التى تعلن الجهاد الصليبى ضد الاسلام واستجابوا لها، ولكن بطريقة مغايرة فى الشرق، واستمع المسيحيون اللاتين الى خطبة البابا التى تعلن الجهاد الصليبى ضد الاسلام واستجاب لها الامبراطور فى طلب قوات مرتزقة، تقبل الخدمة تحت قيادة ضباط أروام، فقد انتشرت دعوة البابا، ودوت فى جوانب أوروبا الغربية، مطلقة العنان لأحلام مكبوتة، ولبى الدعوة جموع غفيرة من الناس، قليل منهم كانت تحركة رغبة صادقة أملا فى تحقيق الثراء والشهرة، كما أن

---

* استولى المأمون بن ذى النُون صاحب طُلَيطلة من ملوك الطوائف على بَلَنسية فقضى بذلك على دولة بنى عامر.

* دخل السلطان ألْب أرسْلان بلاد الروم واستولى على مدينة آنى وخربها ثم على مدينة قرس وكانتا عاصمتين لأرمينية القديمة فبذلك أصبح طريقه مفتوحا إلى قلب الأنضول.

* توفى المؤرخ يحيى الانطاكى مؤلف ذيل التاريخ (أى تاريخ ابن البطريق).

* وافقت هذه السنة وفاة فرناندو ملك قشتالة (ديسمبر) وعلى اثر ذلك نشبت حرب اهلية بين ابناءه، كما وافقت غزو وليم دوق نورماندیا بريطانيا وهو الذى عرف باسم وليم الاول أو وليم الفاتح.

سنة ٤٥٩ هجرية

وافق هلال المحرم من السنة يوم الاربعاء ٢٢ نوفمبر ١٠٦٦م.

* نشبت الثورة فى أشبيلية بالأندلس (١٠ صفر) بسبب استبداد الوزير ابن نغرالة اليهودى، وتدبير اغتيال ولى العهد فقبضت عليه العامة وقتل وصلب ونهبت سائر دور اليهود.

* دمر السلاجقة إقليم كابادوكيا البيزنطى بالأنضول وبلغوا مدينة قَيْصَرية وخربوها.

الانجيلى مارى مرقس البكر الطاهر الشهيد، والى زمان الانبا سانوتيوس [شنوده]، وهو الخامس والخمسين المرسوم بطريركا بعد انبا قسما [قزما]، وهذا الاب سانوتيوس هو الذى لحقه شدايد عظيمة حسب ما تضمنته سيرته، ومن بعده الى زمان انبا سانوتيوس الخامس والستون الذى وسمنى انا الغير مستحق قسا، لم يكتب شى من السير، فكتبت انا البايسى ميخاييل ذلك بمعونة الله سبحنه لى.

الفقراء المضطهدين من عبودية الاقطاع وجدوا فى قبول الدعوة ملاذا ومهربا من أوضاعهم المتردية التى كانوا يعيشون فيها؛ وكذلك المثقلون بالديون جذبهم وعد البابا باسقاط هذه الديون عنهم، كما ساهم سكان المدن الايطالية التجارية فى هذه الحملة بغية السيطرة على الموانئ التجارية فى الشرق وفتح طريق تجارى اليها كذلك هدفت البابوية الى توريط النورمان فى هذه الحرب، وتحويل طاقاتهم العدوانية بعيدا عن ايطاليا والممتلكات البابوية وتوجيهها نحو

---

* عاد القحط والوباء وعم بلاد مصر واستمر نحواً من خمس سنين وهى الفترة التى عرفت فى التاريخ الفاطمى باسم الشدة الكبرى أو الشدة المستنصرية إبان خلافة المستنصر فضلا عن الفتن والحروب الأهلية التى جرت خلالها.

سنة ٤٦٠ هجرية

استهلت السنة بيوم الأحد الموافق ١١ فبراير ١٠٦٧م.

* كُسر شرفُ الدولة بن قُريش من بنى كلاب وكانوا شيعة الفاطميين بالرحبة وكُسرت الأعلام الفاطمية وطيف بها فى بغداد.

* عزل الخليفة وزيره فخر الدولة ابن جَهِير ثم أعيد إليها فى العام التالى، وفى مصر عزل الخليفة المستنصر أمير الجيوش بدر الجمالى من إمارة دمشق وولاها الأمير بارز طُغان.

* تولى على إمارة بَطَلْيوس بالأندلس المنصور بن الأفطس خلفاً لأبيه.

* ممن ولد فى هذه السنة: الكاتب المؤرخ تاج الرياسة ابن الصيرفى (على ابن مُنْجب) رئيس ديوان الانشاء فى خلافة الآمر الفاطمى ومؤلف كتاب «الاشارة فى مَن ولى الوزارة».

انبا خاييل (خايال) [الثالث] البطريرك وهو من العدد السادس والخمسون

[٨٨٠/ ٨٩٤م]

لما توفى سانوتيوس [شنوده] البطريرك الذى بنى هيكل مارى مرقس باسكندرية، وثبت هذا الهيكل ماية وخمسة عشر سنة، اقسم [أقيم] من بعده انبا خايال، وكان ذو خصال ثلثة [سلسة] جميلة تشبه الذهب المسبوك فى النار لاجل التجارب التى لحقته

بلاد الشام؛ أما حكام وأمراء دول أوروبا فقد كان يحدوهم الأمل فى تأسيس امارات لاتينية لهم فى الشرق. ولهذا السبب نظر الكسيوس كومنين الى الدعوة الصليبية بنفس نظرة القلق التى نظر بها الى البشناق والسلاجقة والنورمان، خاصة أن أحدا من زعماء الصليبيين لم يستشره أو يخطره بخصوص الخطط التى وضعت فى الغرب من أجل فتح الشرق وتحرير الأرض المقدسة!!

الكسيوس كومنين والحملة الصليبية الأولى عام ١٠٩٦م،

وفى يوليو عام ١٠٩٦م كان

* عاصر هذا التاريخ استيلاء سانشو ملك قشتالة على أملاك أخويه فى ليون وجلّيقية فلجأ الفونسو صاحب ليون إلى حماية المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة.

سنة ٤٦١ هجرية

أهلت السنة بيوم الجمعة الموافق ٣١ أكتوبر ١٠٦٨م.

* وقع حريق بالمسجد الأموى الكبير بدمشق وامتدت النار إلى جيرانه وبقى المسجد على حالته من الخراب نحواً من قرن ونصف القرن حتى جدده السلطان العادل الأيوبى صاحب مصر.

* استمر القحط والغلاء فى مصر حتى بيع الأردب بمائة دينار ثم انعدم وجوده، بينما كان يباع السمك فى الكوفة كل أربعين رطلا بحبة.

* وثب صيرفى فى مصر على الأمير ناصر الدولة الحمدانى فجُرح الحمدانى وشُنق الصيرفى.

سنة ٤٦٢ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الثلاثاء ٢٠ أكتوبر ١٠٦٩م.

* دخل الامبراطور البيزنطى رومانُوس الرابع مدينة منّبج غازياً فنهب وفتك بأهلها بعد أن

وصبـر عليهـا. وذلك انه كـان على كرسى سـخـا [بكفـر الشـيخ] اسـقـف شرير، وكـان من جـملة كرسيه الضيعة المعروفة بدنوشر، وكـان فيها بيعة على اسم الشـهـيـد طلمـاوس تحتـاج إلى تكريز، فاجتمع رويسـا الناحية إلى الاب البطرك انبا خايال والابا الاساقفة الذين حضرو معه التكريز وسالوهم الحضور الى البيعة لينالو بركتهم، فحضرو جميعا واجتـمع شـعب عظيم، وحضرو وقت القداس، وكـان اسقف سخا المذكور غايب عن البيعة مهتم

الكـسـيوس قـد فـرغ لـتـوه من حـملة الربيع ضد السلاجقة الروم عندما فـوجئ برجـال ينتـمـون الى الغـرب الأوروبى، ويرطنون باللغـة اللاتينيـة أو مشتقاتها، ويدينون بالكاثوليكية، يملأون شـوارع المدينة العاصـمـة، واسـتـمـر تدفق هؤلاء الغـرباء على القسطنطينية بقـيادة زعـيم يدعى بطرس الناسك، ومـا أن انتـهى العـام حتى كـان عـددهم قـد تزايد بأعـداد غفيرة جدا، وكان على الكسـيوس كـومنين أن يوفـر الطعـام والاقـامـة

أوقع الهزيمة بأميرحلب المرداسى وابن حَسّان الطائى ثم عاد من حيث أتى. ورد السلاجقة بتخريب مدينة عَمُّورية.

* حاصر أمير الجيوش بدر الجمالى مدينة صور براً وبحراً لإعادتها إلى التبعية الفاطمية وضيق على أهلها سنة كاملة فلم يبلغ غرضه فرجع عنها.

* تفاقم الغلاء فى مصر وشحت الأقوات حتى هاجمت العامة دار الخلافة الفاطمية ونهبوا ما فيها من تحف حملها التجار إلى بغداد منها ٨٠ ألف قطعة بلور و٧٠ ألف قطعة ديباج.

* أبطل أمير مكة الخطبة للمستنصر الفاطمى وأعاد الخطبة للخليفة القائم العباسى ثم للسلطان ملكشاه فمنحه السلطان ٣٠ ألف دينار ووعده بعشرة الاف فى كل سنة وكان المستنصر فى شغل من أمر الغلاء والقحط.

* ولد فى هذه السنة محدث بغداد فى عصره أبو البركات الأنماطى.

* توفى من رجال الحكم فى هذه السنة: الشريف حَيْدَرة بن أبى الجن قبض عليه بدر الجمالى وقتله ومثّل به.

سنة ٤٦٣ هجرية

استهلت السنة بيوم السبت الموافق ٩ أكتوبر ١٠٧٠م.

* شهدت هذه السنة معركة ملاذكردى (مانزكرت) الفاصلة التى اعتبرت تمهيداً للحروب

٥٦: انبا خايل البطريرك ٨٨٠/٨٩٤م

بعـمل طعـام لهم، وتصـرم النهـار وجـاز وقت القـداس، فـانفـذو الى الاسـقف فلم يحـضـر لانه مشتغل بما ذكرنا. فسالو الاساقفة والجماعة الاب البطرك ان يحمل القربان على الهيكل لتبتدى الكهنة بقراة الكتب وتفسيرها على حال رفق ومهلة الى ان يحضر الاسقفى، ففعل ذلك. ومن بعد هذا الاسقف فوجدهم قد بدو قبل حضوره، فغضب وقال للبطرك بضجر من جعل لك ان تفعل هذا فى كرسى بغير امرى ولا حضورى. ثم

والنفـقـات لهم. كـمـا اكـتـشف الكسـيـوس أنهم لم يكونوا أولئك الجنود المدربين المحنكين فى فن القتال الذين كان يتمناهم، فقد كان هؤلاء الضيوف المتطفلون رجالا فوضويين، لادارية لهم بالحرب. ثم أنهم بعد وصولهم بدأوا يتحرشون بأهل القسطنطينية، فكانوا ينهبون متاجرهم ومنازلهم ويرتكبون الكثير من أعمال اللصوصية، وسارعان ما أدى ذلك التحرش الى احياء العداء القديم بين الكاثوليك اللاتين والروم الأرثوذوكس، وظهرت حدة الاختلافات اللغوية،

الصليبية فيها شن الامبراطور البيزنطى رومانوس الرابع حرباً شاملة على الدول الإسلامية المجاورة على رأس ٢٠٠ ألف من الروم والفرنجة والروس والبُوشناق والجركس فخف إليه السلطان ألب أرسلان من خُوَىَ باذربيجان على رأس ١٥ ألفاً وجرت الوقعة يوم الجمعة ٢٠ الحجة (١٩ أغسطس) والخطباء على المنابر وحمل السلطان كفنه وزحف على جيش الحلفاء فأوقع بهم هزيمة منكرة أسر فيها الامبراطور الذى فدى نفسه بمليون ونصف مليون دينار.

* غزا الأمير الخوارزمى أتْسر بن أوق أرض فلسطين واستولى على الرملة وبيت المقدس وسار صوب مصر غير أن دمشق وقفت فى وجه الخوارزمية.

* خطب أمير حلب المرداسى (محمود بن صالح) للخليفة القائم وللسلطان ألب أرسلان بعد استقرار دولة السلاجقة وانتصارات جيوشها، ومع ذلك سار إليها ألب أرسلان حتى أعلن أميرها استسلامه فأقره على ولايته.

سنة ٤٦٤ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الميس ٢٩ سبتمبر ١٠٧١م.

* تزوج ولى عهد الخلافة عُدة الدين (المقتدى بالله) ابن الخليفة القائم من سفرى خاتون

تقدم الى الهيكل واخذ الدورن [وعاء القربان] الذى حمل عليه كسره ورماه وخرج مغضبا، فصعب ذلك على الاب البطرك وعلى جميع الحاضرين، ثم اخذو دورن اخر حملوه على الهيكل وكملو القداس وقربو الناس. فلما كان بالغداة جلس الاب البطرك واجتمع اليه الاساقفة وقطعو ذلك الاسقف وقدمو غيره. فلما علم ذلك داخله الشيطان، وتسلط عليه الغضب، فمضى الى الامير المتولى بفسطاط مصر من قبل الخليفة وهو احمد

والحضارية، والمذهبية بين الطرفين، وتشكك الكسيوس من نوايا هذه الحملة ومن زعمائها الذين كانوا آخر من وصل اى القسطنطينية؛ ولم يكن زعماء الصليبيين يختلفون فى نوعيتهم كثيرا عن رجالهم بالرغم من أن الكثيرين منهم كانوا ينحدرون من أرقى الأسر فى أوروبا. فقد كان على رأسهم جودفرى بوايون دوق اللورين الأدنى، وأخوه بلدوين دوق بولونيا، وبوهيموند ابن روبر جويكارد عدو الامبراطورية اللدود، وريموند الرابع امير تولوز وبروفانس، وروبرت أمير

ابنة السلطان ألب أرسلان وتم العقد بنيسابور وكان الوكيلان الوزيرين: عميد الدولة ابن جَهير عن الخليفة ونظام المُلْك عن السلطان ونُثر على الناس الجوهر والذهب.

* أقر الخليفة ملكشاه ابن السلطان ألب أرسلان ولياً لعهد أبيه.

* شهدت السنة وفاة ملك قشتالة سانشو (شانجة) القوى فى حربه مع سانشو الرابع ملك النافار وكان مقتله على أسوار زامورة.

سنة ٤٦٥ هجرية

استهلت السنة بيوم الاثنين الموافق ١٧ سبتمبر ١٠٧٣م.

* شهدت السنة انتقال سلطنة السلاجقة العظمى إلى ملكشاه خلفاً لأبيه ألب أرسلان باسم جلال الدولة معز الدين أبو الفتح ملكشاه (١٠ ربيع الأول).

* أوصى السلطان ألب أرسلان قبل وفاته ابنه ملكشاه بأن يتولى عمه قاورت بك أعمال فارس وكرمان وأخوه إلياس (إيَاز) بلخ، ولكن لم تلبث أن وقعت الحرب مع قاورت عند همذان فى شعبان من السنة وكان فى جانب ملكشاه شرف الدولة العُقَيلى صاحب الموصل ودُبيس صاحب الحلة.

٥٦: انبا خايل البطريرك ٨٨٠/٨٩٤م

ابن طولون النايب عن خليفة بغداد، وكان محب لجمع المال، فشكا له البطرك واغراه عليه، وقال له: ان معه مال عظيم. وكان ابن طولون مهتم بتجريد عسكر الشام ففرح بقول الاسقف لياخذ من البطرك ما ينفقه فى العسكر، فانفذ واحضر الاب البطرك وخاطبه قايلا: انت تعلم ما نحتاج اليه من الاموال برسم الحمل الى الخليفة ببغداد لانه صاحب هذه الارض، وبخاصة لما عليه من الحروب، وانتم يا مقدمى النصارى تحت سلامه،

نورماندیا، ابن وليام الفاتح وشقيق ملك انجلترا.

وقبل أن يصل هؤلاء القادة، قرر الكسيوس أن يوزع المتطوعين، فأسرع بنقلهم بزعامة قائدهم بطرس الناسك عبر البوسفور الى آسيا الصغرى، مكلفا اياهم بتحرير نيقية من أيدى السلاجقة، وما أن وطأت أقدامهم مشارف نيقية، حتى انقض عليهم السلاجقة من كل مكان، وفتكوا بالشطر الأكبر منهم، أما الذين استطاعوا النجاة بأنفسهم ، فقد عادوا الى القسطنطينية؛ وكان بطرس

---

* تولى عرش غرناطة بالأندلس عبدالله بن بلّقين خلفاً لجده باديس الصنهاجى.

* أصبح نظام الملك مدبرا لشئون دولة ملكشاه ومنحه السلطان لقب أتابك بمعنى مربى الأمير فعمل على قمع ثورات الجند.

* أقيمت الخطبة فى القدس للخليفة المستنصر الفاطمى.

* ولد فى هذه السنة الطبيب الأديب النصرانى ابن التلميذ (موفق الملك هبة الله بن صاعد) الذى انتهت إليه رياسة الأطباء بالعراق.

* شهدت السنة اغتيال السلطان ألب أرسلان (عضد الدولة أبو شجاع الملك العادل محمد بن جغرى بك) عن ٣٩ عاماً على يد مستحفظ إحدى القلاع (٦ ربيع أول) وتوفى بعد أربعة أيام وحمل جثمانه إلى مرو وكان قد سار إلى التركستان بعد أن عبر نهر جيحون على رأس ٢٠٠ ألف، كما شهدت السنة مقتل أخيه قاورد فى النزاع بينه وبين ابن أخيه ملكشاه.

* توفى من رجال الحكم فى هذه السنة صاحب غرناطة بالأندلس ومجددها أبو مناد باديس الصنهاجى (٢٠ شوال) بعد حكم دام ٣٧ سنة وهو الذى استوزر ابن نغزالة اليهودى، وفيها توفى صاحب حلب الأمير المرداسى عطية ابن صالح الذى هجرها إلى الرقة ثم إلى بلاد الروم ومات بالقسطنطينية، وفيها توفى بمصر ناصر الدولة الحمدانى أمير الشام ووزير المستنصر

وما تحتاجو الى ذهب ولا فضة الا خبز تاكلوه وثوب تلبسوه، وقد عرفت ان لك مال كثير وانية لا تحصى ذهب وفضة وديباج وانواع الحرير للبيع، وانا احبك واوقر شيخوختك، وقد احضرتك بغير اجحاف فتجد به عنده وعندى نعمة. فسكت البطرك ولم يدرى ماذا يجيبه، ثم قال له بسكينة وتواضع: ان مملكتكم ليس فيها ظلم، وانتم قوم تعرفون الحق وانا انسان ضعيف لا املك ذهبا ولا فضة ولا شيا مما سعى به اليك، وعظمتك تعلم انا

الناسك قد سبقهم اليها قبل وقوع الكارثة. وهناك انضم اليهم المزيد من الصليبيين القادمين من الغرب مع القادة والأمراء.

ولما أدرك الكسيوس أن أمراء الحملة مهتمون بأنفسهم ومكاسبهم أكثر من اهتمامهم بالقضية الصليبية وانتزاع الأراضى المقدسة من أيدى المسلمين، لم يطق وجودهم. لكنه كظم غيظه، فقد اعتقد فى قرارة نفسه ـ كما تذكر ابنته فى كتابها عنه ـ أن هدف هذه الحملة هو خلعه من على عرش بلاده، ولاستيلاء على

آخر من كانت له الامارة من الحمدانيين مات مقتولا بقصره المسمى منازل العز على يد ألديكز التركى، وفيها توفى ببغداد سيد بنى العباس فى زمانه محمد بن على المهتدى الملقب راهب بنى هاشم، وفيها توفى مقتولا بمصر الوزير عبدالظاهر بن العجمى.

* ممن توفى من الأدباء فى هذه السنة الشاعر صَرْدُرّ (أبو على المنصور على ابن الحسن) له ديوان شعر متداول.

سنة ٤٦٦ هجرية

الأول من المحرم وافق يوم الجمعة ٦ سبتمبر ١٠٧٣م.

* استولى المعتمد بن عبّاد صاحب أشبيلية على مدينة جيّان من أعمال مملكة غَرْناطة الإسلامية على أثر وفاة ملكها باديس الصُنْهاجى فاضطر خليفته الشاب أن يتحالف مع ملك قشتالة المسيحى لدفع هذا الغزو عن غَرناطة نفسها التى سار إليها المعتمد وذلك فى نظير جزية سنوية مقدارها ٢٠ ألف دينار يدفعها للملك المسيحى.

* استدعى الخليفة المستنصر أمير الجيوش بدر الجمالى وكان على عكا ليوليه وزارته.

* غرق الجانب الشرقى من بغداد بسبب فيضان دجلة حتى أن صلاة الجمعة أقيمت مرتين

[أنا] قوم مامورين ان لا نكنز كنوزا على الارض ولا نهتم بغد، والان فانا بين يديك افعل ما تريد، فسلطانك على جسدى، وروحى بيد خالقها. فلما سمع احمد ابن طولون ذلك غضب وقال: حقا ان اكرامى لك اوجب انكارك على بمالك، وكلمن هو خارج عن ديننا اذا اكرم لا يعرف الاكرام. ثم امر بحبسه. وكان فى الحبس الذى اعتقل فيه انسانا ريس يعرف بابن المدبر،وكان رجلا مامون يحب الصدقة كثير المال، فكان يخدم البطرك

كيسة وعاصمته، وتأسيس امارات لاتينية على أشلائها؛ ودعم من ظنونه سلوكهم الهمجى، فقد عاثوا فى العاصمة والأقاليم نهبا وسلبا، ورغم ذلك فعل ما فى وسعه لاكرام وفادتهم، والاغداق عليهم بالهدايا النفيسة، فقد كان يعرف أنهم قوم جشعون محبون المال ـ على حد قول آنا كومنينا فى كتابها ـ كما تعهد بامداد جيوشهم بالعتاد والمؤن خلال حروبهم فى آسيا الصغرى، وامدادها بالخبرة العسكرية والنصائح والادلاء، مقابل أن يقسموا أمامه قسمين: قسم

على ظهر مركب وصحبت الفيضان سيول هدمت وخربت حتى دخلت المياة من شبابيك البيمارستان العضدى، واعتبر الناس ذلك عقاباً لأهل المفاسد وأصحاب الحانات والمغانى والمواخير.

سنة ٤٦٧ هجرية

وافق مستهل السنة يوم الأربعاء ٢٧ أغسطس ١٠٧٤م.

* جلس على دست الخلافة العباسية ببغداد أبو القاسم عُدة الدين المُقْتَدى بأمر الله (محمد ابن الخليفة عبدالله القائم بأمر الله) وخلفاً له وله من العمر ١٨ سنة ولم يكن للقائم من أبناء سواه وقد اشتهر عهد المقتدى بحركة إصلاحية، وبعد أن تمت البيعة له صلى بالوزراء والفقهاء صلاة العصر وفيهم قاضى القضاة.

* اشترك جماعة من أعيان الفلكين فى عمل الرصد للسلطان مَلِكشاه منهم عمر الخيام الذى ألف له «الزيج الملكشاهى».

* عقد المعتمد بن عبّاد صاحب أشبيلية معاهدة سرية مع ملك قشتالة المسيحى ألفونسو

شخصي يتعهدون فيه بالولاء له، وقسم يتعهدون فيه بأن يعيدوا الى امبرطورية الروم كل شبر من أرضيها ينتزعونه من براثن السلاجقة. وقد مارس الكسيوس عليهم الكثير من الضغط النفسي، والاغراء المادى، والوعود الخلابة لكي يحصل من زعمائهم على هذين القسمين، غير أنهم كانوا يضمرون الغدر بالامبراطور الكيسوس.

وفي ربيع عام ١٠٩٧ تحركت الحملة الصليبية الأولى من القسطنطينية، وتوجهت صوب نيقية ـ

ويصوم معه ويفطر معه على خبز وملح وباقلا مصلوق وما يجرى مجراه. وكان ذلك الريس لا ياكل شيا مما يحمل اليه من داره فاقام معه فى الحبس سنة، وكان الحبس مملو جدا وبعد انقضا السنة دفع البطرك للسجان شيا حتى عمل له بيت ما [بيت ماء = بيت راحة مرحاض] طوب وطين طوله ذراعين فى ذراعين، ليلا يكون يريق الما قدام المعتقلين لانه ظن ان مدة حبسه تطول الى يوم وفاته. وفى اليوم الذى فرغ البنا من بيت الما فيه

السادس لاقتسام مملكة غرناطة من صاحبها عبدالله بن بلقين فلما فشلت عقد المعتمد الصلح مع ابن بلقين.

* أعيدت الخطبة بمكة للخليفة المستنصر الفاطمى مرة أخرى.

* هاجم نصر المرداسى أمير حلب قلعة منّبج واستعادها من الروم.

* فى ليلة الخميس ١٣ شعبان توفى الخليفة العباسى القائم بأمر الله (عبدالله ابن القادر بالله) عن ٧٦ عاماً وامتدت خلافته ٤٤ سنة و٨ أشهر.

سنة ٤٦٨ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأحد ١٦ أغسطس ١٠٧٥م.

* السنة الأولى من خلافة المقتدى بالله العباسى التى امتدت عشرين سنة.

* تمكن الخُوارزميون وعلى رأسهم أتْسِز التركمانى من دخول دمشق فى شهر شعبان من السنة بعد أن اشتدت بها المجاعة فاستسلمت بالأمان وكان عليها ابن حيدرة كما تغلب القائد الخوارزمى على يافا وقطع خطبة الفاطميين لآخر مرة وخطب للمقتدى العباسى.

* باشر أمير الجيوش بدر الجمالى وزارة الخليفة المستنصر الذى ألبسه خلعتها.

افرج الله عنه. وذاك انه كان لاحمد بن طولون كاتبين اخوين احدهما يسمى يوحنا والاخر ابرالم [إبراهيم] ولدى موسى، وكان يحبهما وكانا قد اكثرا الطلبة اليه ان يضمنه لهما وياخذاه من الحبس الى منزلهما فلم يفعل. وكان احمد ابن الماذرائى وزير ابن طولون له كاتب يسمى يونس، فسال هذا الكاتب صاحبه الوزير ان يسال الامير فى البطرك، ثم مضى الى ام احمد ابن طولون وكانت امراة ورعة فى دينها عارفة به، وقال لها:

عاصمة السلاجقة ـ وداهمتها واستولت عليها؛ وكانت بداية مفعمة بالأمل للأمبراطور وشعبه، غير أن نهب الصليبين للمدينة أفقد الأمل بريقه. وتقدم الصليبيون نحو ميناء طرطوس فاستولوا عليه، لكنهم رفضوا تسليمه لمندوب الأمبراطور المصاحب للحملة. وبينما اتجه الكسيوس وجيشه غربا لاستعادة المدن الهامة فى آسيا الصغرى مثل أزمير، وايفيسوس، وسارديس؛ اندفع الصليبيون شرقا نحو أنطاكية، وحاول السلاجقة على عجل أن يوقفوا تقدمهم فدخلوا

سنة ٤٦٩ هجرية

أهلت السنة فى يوم الجمعة الموافق ٥ أغسطس ١٠٧٦م.

* سار الخوارزمية وعلى رأسهم أتسِز التركمانى لغزو مصر غير أن أمير الجيوش بدر الجمالى وزير المستنصر أوقع به الهزيمة فعاد اتسز إلى فلسطين واستعاد فتح القدس حتى لم يسلم من القتل من التجأوا إلى المسجد الأقصى.

* جرت ملاحاة بين فقهاء الحنابلة واتباع الفقيه الصوفى أبى القاسم القُشَيرى بسبب انتصارهم لمذهب الأشاعرة حتى لقى بعضهم مصرعه فى هذا النزاع.

* استولى محيط العلوى على المدينة وأعاد خطبة المستنصر الفاطمى بعد أن طرد أميرها ابن مُهَنّا.

سنة ٤٧٠ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الثلاثاء ٢٥ يوليو ١٠٧٧م.

* بعد حروب طويلة تم الصلح بين تميم بن المعز صاحب أفريقية (تونس) والناصر ابن علّناس صاحب المغرب الأوسط (الجزائر) وهو الخامس من بنى حمّاد، وزوجه تميم ابنة له

قد علمتي طول حبس البطرك، وقد مات جماعة من الاساقفة باقليم مصر ولم يقام عوضهم، والحاجة داعية الى اقامة عوضهم. فقالت له: الم تعلم ان يوحنا وابرهيم ابنا موسى وهما كاتبيه وخاصته قد اجتهدا ان ينقلاه من حبسه الى منزلهما فما قدرا، فكيف يسمع منك انت. فقال لها: انا افعل ما قد جعله الله في قلبي والامر لله جلت قدرته. فشجعته على ذلك، فمضى واخذ معه ولدا له يسما مقاره، وقاما في الغلس [الفجر]

معهم في معركة سريعة عند مدينة دوريلايوم Dorylaeum الواقعة الى الجنوب من نيقية، وذلك في شهر يوليو من العام نفسه، وكانت النتيجة أن تلقى السلاجقة واحدة من أبشع الهزائم القليلة التي عرفوها في تاريخهم، ويحاول المؤرخون الغربيون أن يرفعوا من قدر هذا النصر لدرجة تجعله مساويا لانتصار السلاجقة الحاسم في منزكرت، لأن انتصار دوريلايوم فتح الطريق أمام الصليبين للوصول الى قلب الأناضول،

تدعى بلارة وسيَّرها إليه من المهدية مع فاخر الجهاز وكان مهرها ٣٠ ألف دينار أخذ منه أبوها دينارا واحداً ورد الباقي.

* في شعبان من السنة الموافق مستهل عام ١٠٧٨م ثار نقفور حاكم إقليم عَمُّورية بالأنضول على إمبراطور ميخاييل السابع فاستعان نقفور بالسلاجقة وعلى رأسهم سليمان بن قُتُلْمش الذى استولى باسمه على نيقية ونيقوميديا وخلقدونيا حتى البوسفور بما يعادل ثلاثة أرباعَ أرض الأنضول.

* تجددت الفتنة بين الحنابلة وفقهاء المدرسة النظامية ببغداد.

سنة ٤٧١ هجرية

استهلت السنة بيوم السبت الموافق ١٤ يوليو ١٠٧٨م.

* السنة الرابعة والأربعون من خلافة المستنصر الفاطمي والسنة الرابعة للخليفة المقتدى العباسي.

* أخذ السلاجقة يتدفقون على الممتلكات البيزنطية في الأنضول وأعلنت حامية نيقية السلجوقية العصيان في وجه نقفور الثالث عقدوا اتفاقية مع منافس له في مقابل اقتسام الأنضول.

الى دار احمد ابن على الماذرائى، وكان له عاده اذا خرج بالغداة لا يجاوب احدا ولا يسمع منه كلاما حتى يمضى الى الجامع ويركع فيه خمس ركعات ثم يعود الى داره وموضع جلوسه، فلما عاد من الجامع والشمعة بين يديه وجد يوحنا وولده جالسين على باب داره حتى أنهما فرشا اغشية سروجهما وجلسا عليهما، فلما اذن لهما فى الدخول معه سالهما عن سبب بكورهما بخلاف العادة، فسقعا [فاضطربا] بين يديه وقالا: يا سيدنا

والاستيلاء بسهولة على أهم مدنه مثل قيصرية (Caesarea Mazaca) Kayseri في قابادوقيا، وقونية Iconion المدينة العريقة؛ أما نطاكية، فقد وجد الصليبيون صعوبة فى الاستيلاء عليها، لمناعة تحصيناتها، فضرب بوهيموند حولها الحصار، حتى استسلمت له فى يونيو عام ١٠٩٨م. ورفض بوهيموند النورمانى أن يسلم المدينة لمندوب الأمبراطور الرومى، متعللا بأن الامبرطور الكسيوس كومنين لم يف بوعده بامداد قوات الصليبين بالمؤن والعتاد.

---

* عزل الخليفة العباسى وزيره فخر الدولة أبو نصر بن جَهير وخلفه أبو شجاع ظهير الدين الروز روارى لبضعة أيام عاد بعدها ابن جهير إلى منصبه.

* استولى تاج الدولة تُتش بن ألب أرسلان على دمشق وقبض على زعيم الخوارزمية أتسز التركمانى وقتله.

* توفى فى هذه السنة إمام اللغة وواضع أصول البلاغة عبدالقاهر الجُرْجَانى مؤلفاته مطبوعة متداولة أشهرها أسرار البلاغة، اعجاز القرآن، دلائل الاعجاز، العوامل المئة.

سنة ٤٧٢ هجرية

وافق مستهل المحرم يوم الخميس ٤ يوليو ١٠٧٩م.

* فى صفر من السنة تم للسلطان الغزنوى إبراهيم بن مسعود غزو الهند وحصار قلعة أجور بالقرب من لاهور وتسلمها دون قتال وتوالت فتوحاته مستولياً على روبال بالقرب من البحر وفى خلال ذلك كان ينشر الإسلام فى الأقاليم التى فتحها.

* أعيدت الخطبة فى مكة للخليفة العباسى وللسلطان ملكشاه من بعده.

* تم لسلاجقة الروم وعلى رأسهم سليمان بن قُتُلْمِش تثبيت أقدامهم فى نِيقَية وما حولها.

الوزير ننهى اليك ان ليس لنا صلاة فى كنايسنا ولا من حكم في أمورنا، وقد طال حبس بطركنا ونحن نسالك مساعدتنا نحن وجميع شعب النصارى، وتسال الامير فيه، فقال لهما: اما تعلما موضع ابنى موسى عنده ومكانهما منه، وقد سالاه دفعات كثير فلم يجيب سوالهم، غير انى اصرف اهتمامى فى ذلك. وحلف لهما، ثم مضى الى الامير كعادته، وانهى اليه امور دولته، وذكر له حال البطرك. فقال له الامير: انا اقتله فانه تجالد على.

فانسحب المندوب الامبراطورى محتجا على احتفاظ بوهيموند بانطاكية، وتأسيسه امارة لاتينية بها، أما الكسيوس فقد بعث الى الصليبين بانه قادم على رأس قواته لمساعدتهم فى الزحف على بيت المقدس بشرط أن يسلموه أنطاكية. وفى نفس الوقت أعلن بلدوين كونت فلاندرز Flan نفسه أميرا على اديسا Edssa (اقليم الرها فى أعالى الفرات)، ثم اندلع الصراع بينه وبين تنكريد Tancred أمير صقلية حول امتلاك طرسوس، ومن ناحية أخرى

---

* توفى بدمشق شاعر الشام فى عصره أبو الفتيان محمد بن حَيّوس عن ٧٩ عاماً له ديوان شعر مطبوع متداول.

* توفى من رجال الحكم فى هذه السنة: نصر بن مروان صاحب ديار بكر وخلفه ابنه منصور وتولى وزارته ابن الأنبارى، وفيها توفى صاحب مَيّافارِقين نظام الملك منصور بن بَهْرام وخلفه ابنه ناصر الدولة.

* مات غرقاً ابن علاف اليهودى ضامن البصرة وكان قد جمع الأموال واكتنزها حتى عظم أمره.

* توفى من رجال العلم: المحدث أبو منصور العُكبَرى عن ٨٨ عاماً، والفقيه المحدث أبو عبد لله يحيى بن أبى مسعود توفى بهَراة، والصوفى الزاهد هيّاج ابن عُبيد الحِطِّينى فقيه الحرم ومفتى مكة عن ٨٠ عاماً.

سنة ٤٧٣ هجرية

استهلت السنة بيوم الاثنين الموافق ٢٢ يونية ١٠٨٠م.

* عاد السلطان ملكشاه فى المحرم إلى أصبهان بعد أن اصطلح وتحالف مع ابن عمه سلطان شاه بن قاورد وزوجه السلطان من ابنة له.

٥٦: انبا خايل البطريرك ٨٨٠/٨٩٤م

قال له: ما في قتله فايده، ولكن نجتهد في ان نحصل منه شيا لبيت المال اصوب من قتله. فقال له: لعله انفذ يسلك [يسألك] في هذا الامر. فحلف له وقال: انه من يوم اعتقاله ما قرات منه رقعة، ولا خاطبني فيه احد الى هذه الغاية التى جاني يوحنا الكاتب وولده [مقاره] وبكيا، فحلفت لهما انني اخاطبك بسببه. وامر باحضار يوحنا الكاتب وولده، فلما حضرا كتب لهما رقعة الى متولى الاعتقال بتسليم البطرك لهما يمضيا به الى

تبادل بوهيموند رسائل غاضبة مع رايموند أمير تولوز (Touloues) حول أنطاكية، وهكذا سببت هذه الانتصارات صراعات بين قادة الصليبين، لأنها زادت شهية كل منهم في تحقيق مكاسب خاصة في المشرق الثرى، مما أدى الى تصادم الطموح الشخصى، واثارة البغضاء بين قادة الصليبين، وتحقيق ما كان الكسيوس يتوجس منه خيفة فقد تنكروا للوعد الذى قطعوه على أنفسهم أمامه قبل القيام بالحملة؛ وكان الوحيد من أمراء الصليبين، الذى لم ينل شيئا لنفسه،

---

* انقرضت الدولة المرداسية بحلب بعد أن استسلم سابق المرداسي أميرها لشرف الدولة مسلم العقيلي الذى حاصر قلعتها.

* تولى المُكَرّم أحمد سلطنة اليمن خلفاً لأبيه الداعى الصُلَيحي فمن ثم كان الثانى من أمراء الدولة الصُلَيحية باليمن.

* استولى القاضى أبو الحسن ابن عمار الملقب بجلال الملك صاحب طرابلس الشام على حصن جبلة من البيزنطين.

* ولد بغرناطة المهندس الجغرافي الأندلسي أبو حامد ابن أبي الربيع الذى يشتهر بابى حامد الغرناطى (محمد بن عبدالرحيم) مؤلف تحفة الألباب ونخبة الأعجاب في وصف العالم وعجائب الأرض.

* توفى بالأندلس المنصور بن الأفطس صاحب بطليوس ومن ملوك الطوائف بعد حكم دام ١٣ سنة انقسمت فيه الإمارة بينه وبين أخيه المتوكل.

سنة ٤٧٤ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الجمعة ١١ يونية ١٠٨١م.

* خطب الخليفة المقتدى العباسي ابنة للسلطان ملكشاه وكان مقدم الصداق ٥٠ ألف دينار واشترطت أمها انه لا يبقى له سرية ولا زوجة غيرها.

حيث يريدا، ويقررا امره على ما يستقر [من الاموال]. فحينيذ اخرج من الحبس الى دار الوزير، ولم يدخل بيت الما [المرحاض] الذى بنى له فى الحبس بالجملة. وكان قد انفق عليه ثلثمايه دينار، لانه ساعة كماله فرج الله عنه وخرج من الحبس، وصار فى موضع مفروش مزين كما يجب بجوار الوزير. واستأذن يوحنا الوزير [الماذرائى] فى ان يحمل اليه ما يوكل كل يوم، فقال الوزير من دارى يحمل اليه، فان اردت انت تحمل اليه شى اخر

هو الكونت ريمون دى سان جيل، والذى دافع عن الكسيوس ضد جشع أمراء الصليبيين الآخرين.

وخلال تقدمهم البطئ نحو فلسطين، لم يتوقفوا عن التشاحن حول تقسيم الغنائم، تاركين رجالهم ينهبون المدن والقرى التى يمرون عبرها، حتى وصلوا فى النهاية إلى بيت القدس، والتى كان الفاطميون أعداء السلاجقة قد زحفوا عليها وأخذوها بالتفاهم مع قادة الحملة الصليبية عام ١٠٩٨ أثناء انشغال السلاجقة بالدفاع عن شمال الشام

---

* سار تاج الدولة تُتش صاحب دمشق إلى حصن طرطوس (أَنطَرْسوس) وتسلمه من بنى عمار.

* فيها استولي شرف الدولة مسلم العقيلى صاحب الموصل على حَرّان من النُمَيريين، فسارع صاحب الرها صالحه وخطب له ونقش السكة باسمه.

* أعلن سليمان بن قُتُلْمش السلجوقى أن المدن التى استولى عليها من الأنضول لم تعد خاضعة لامبراطور بيزنطة وجعل من نيقية عاصمة له ثم انتقل منها إلى قونية.

* استعاد القادر بن ذى النون مدينة طليطلة فى حماية ملك قشتالة الفونسو السادس فى نظير إتاوة سنوية.

* انتزع سديد الدولة على بن مُقَلَّد بن مُنقذ قلعة شَيْزَر من البيزنطيين بعد أن كان قد استولى عليها الامبراطور باسيل الثانى ووطن فيها جالية من الأرمن.

* شهدت السنة تولية الامبراطور البيزنطى الكسيس كومنين الذى عاصر أحداث الحرب الصليبية الأولى.

سنة ٤٧٥ هجرية

استهلت السنة بيوم الأربعاء الموافق الأول من يونية ١٠٨٢م.

* سار تاج الملك تُتش صاحب دمشق إلى أنطاكية من بلاد الروم مما أثار خوف شرف الدولة العقيلى صاحب حلب فاستنجد بالخليفة الفاطمى فى مصر.

فـالامـر اليك. فكان يحـمل اليـه فى كل يوم من الطعام والشـراب شيـا كثيـر. ثم استـقـر حاله بعد سوالات كثير وخطوب [مخاطبات] على عشرين الف دينار، منها عشرة الف الى شهر، والبقية وهى النص الى اربعة شـهـور. فطابت نفس ابن طولون بذلك، وكـان متـوجـه الى الشـام، فـامر ان يكتب على يوحنا وولده مقاره [صك] بما استقر، ويشـهد عليهما ان المال فى جهتهما، ففعلا ذلك. وحينيذ تسلما البطرك واجتهدا ان يمضيا به الى منزلهـما،

ضـد الصليـبـيين، ولكن ما أن وصل جيش الصليبين الى بيت المقدس عام ١٠٩٩ حتى طردوا الفاطميين منها، واستولوا عليها فى يونيو من نفس العام، وبينما كان الصليبيون يحتفلون بالنصر وينهبون المدن الفلسطينية، ويقتلون أعدادا كبيرة من السكان اليهود والمسلمين، فوجئ الجميع باعلان رايموند أمير تولوز نفسه ملكا على امارة أورشليم اللاتينية، والتى بقيت عاصمة للصليبين فى المشرق حتى استردها الصالح نجم الدين أيوب من الفرنج عام ١٢٤٤م.

---

* تجددت الفتنة في بغداد بين الحنابلة والفقيه الشافعي الأشعرى أبي القاسم البكرى وكان من معلمي النظامية.

* توفى بسرقسطة من الأندلس المقتدر بالله الهودى (أحمد بن سليمان) من ملوك الطوائف وثانى ملوك بنى هود بسرقسطة، خلف أباه عليها بينما وزع ممتلكاته الأخرى على أبنائه الثلاثة فاستولى على سرقسطة صاحب الترجمة كما ضم إليه طرطوشة ثم دانية وهزم الأسبان وأباد حملة لهم.

* توفى مسموماً جمال الملك منصور ابن الوزير نظام الملك وزير السلطان بسبب مهرج كان يمزح من السلطان مقلدا أباه نظام الملك فقتله.

سنة ٤٧٦ هجرية

وافق مستهل المحرم يوم الاحد ٢١ مايو ١٠٨٣م.

* استعاد السلطان تميم الصنهاجى صاحبُ أفريقية المهديةَ ثم القيروان بعد محاولة فاشلة للثائر مالك بن علوى.

* فى أول المحرم عاد تاج الدولة تتش إلى دمشق فحاصرها شرف الدولة العُقيلى صاحب

قيام الممالك اللاتينية على أشلاء امبراطورية الروم،

كان الأمراء اللاتين الذين أقاموا أنفسهم ملوكا على المناطق التى استولوا عليها قد حشوا اليمن الذى أقسموه أمام الامبرطور يختزنون فى ذاكرتهم أعمال السلب والنهب وهتك الأعراض، التى ارتكبها هؤلاء الكاثوليك اللاتين فى بلادهم، ولذا كانت قلوبهم تشتعل كرها ومقتل نحوهم. ولما أدرك الكسيوس أنه لايقدر على اجلائهم بالقوة، لجأ الى سلاحه القديم وهو ضرب الخصم

فلم يفعل بل مضى الى كنيسة الست السيدة بقصر الشمع، بزقاق ابو حصين التى صارت الان للملكية، واقام بها عشرين يوما والاراخنه يحضرو عنده ويتحدثو معه، وياكلو ويشربو عنده، ويتباركو منه. وكان لكل واحد منهم [يوم] يحمل اليه فيه ما يحتاج اليه، فلما قرب فراغ الشهر ولم يحصل له شيا من العشرة الف دينار، ولا كان مع البطرك شيا بالجملة، فلقو لذلك واحصو الكراسى الخالية من الاساقفة فوجدوها عشرة فاقامو لها عشرة

حلب الذى أعلن ولاءه للفاطميين إلا انه انسحب منها لعدم وصول نجدة له من مصر، كما تسلم تاج الدولة قلعة بعلبك من ابن صقيل وكان عليها من قبل المستنصر الفاطمى.

* عصى أهل حرّان على شرف الدولة العقيلى أثناء خروجه إلى دمشق فحاصر المدينة وأعاد فتحها وصلب زعماء الثورة.

* عزم تاج الدولة تتش السلجوقى صاحب دمشق على مصاهرة أمير الجيوش وزير المستنصر الفاطمى الشيعى فأشار عليه القاضى ابن عمار بألاّ يفعل.

سنة ٤٧٧ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الجمعة ١٠ مايو ١٠٨٤م.

* استولى الأمير السلجوقى سليمان بن قُتُلمش صاحب قونية على مدينة أنطاكية من البيزنطيين وكانت فى أيديهم نحواً من عشرين سَنة منتهزاً الاضطراب الذى حدث بسبب عصيان ملك أرمينية على الامبراطور (١٠٨٥م).

* جدد أمير الجيوش بدر الجمالى مسجد العطارين بالاسكندرية وأرخ ذلك فى لوحة مازالت مثبتة بالجدار عند الباب الشرقى، وكان ابنه على الاسكندرية فحاول العصيان لخلع أبيه فسار أمير الجيوش إلى الاسكندرية وحاصرها وأخذ ابنه أسيراً وشرع فى تجديد المسجد.

اساقفة، فقدموهم اليه بعد ان قررو عليهم مالا [أموال] يقومو به فى مدة عشرة ايام، ورسمهم اساقفة. واحضر يوحنا وولده الفى دينار، ودفع لهم الوزير الف دينار من ماله قرضة، ومضو الى كتاب مسلمين اقترضو منهم سبعة الف دينار، فحملو العشرة الف الى الامير عند انقضا الشهر، وحلفو له ان ليس للبطرك فيها ديناروا درهم، ولا وجدو له شيا، وان جميعها قرضا عليه. فاخذ المال ودفع لهم الخط [الصك] وخزقوه وكتب يوحنا

بالخصم، فقد كان ذلك كل ما يستطيع أن يفعله؛ غير أن الصليبين اللاتين اكتشفوا لعبته، ولقيت سياسته هذه استياء كبيرا فى الغرب الأوروبى لقرون طويلة، حتى أنهم كانوا فى أوروبا العصور الوسطى، وحتى عصر النهضة الأوروبية يصفون الشخص المنافق اللعوب، والمتلون الماكر، بأنه ذو مسلك«بيزنطى». ولاشك أن اللاتين كان عندهم صفات أشد بشاعة ومقتا من هذه الصفات، وهكذا لعبت الدعاية المبالغ فيها بين الطرفين دورا واضحا فى اثارة اللاتين

---

* توفى الوزير والأديب الأندلسى الشاعر أبو بكر محمد بن عَمّار عن ٥٥ عاماً استوزره المعتمد بن عباد صاحب أشبيليه ثم انقلب عليه فقبض عليه بالحيلة وقتله وهو صاحب البيت الذى سرى مسرى المثل وهو:

ألقاب مملكة في غير موضعها   كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

سنة ٤٧٨ هجرية

استهلت السنة بيوم الثلاثاء الموافق ٢٩ ابريل ١٠٨٥م.

* حاصر أمير الجيوش بدر الجمالى فى عساكر مصر دمشقَ وبها تاج الدولة تُتُش فلم يظفر به.

* فى فاتحة صفر من السنة وقيل فى ٢٧ المحرم (٢٥ مايو) سقطت طُلَيْطلة فى يد ملك قشتالة ألفونسو السادس وكانت للقادر بن ذى النون وذلك بعد حصار دام ٩ أشهر فهرب صاحبها إلى بلنسية واهتزت الأندلس لسقوطها وبعدها تحولت طليطلة إلى مدينة مسيحية وعاصمة لمملكة قشتالة بعد ٣٧٠ سنة من الحكم الإسلامى، والى هذا الحدث يشير شاعر العصر فى قصيدة متداولة يطالب أهله بالهجرة من البلاد بقوله:

وولده غيره بالباقى وهو عشرة الف دينار اخرى، وكتبو فيه تلميذه انبا بخوم اسقف طحا وتلميذ اخر حتى صارو اربعة ضمنو المال الى اربعة شهور.

فلما عاد الى البطرك حسه وسكن روعه، اجتمع اليه السنودس وتشاورو فى حال المال المقترض والذى بقى للامير، فاستقر رايهم على ان ينفذو الى كراسيهم، وياخذو من كل انسان قيراط ذهب، ونقضو بفعلهم هذا قانون الابا الحواريون.

الكاثوليك ضد الروم الارثوذوكس؛ وانتهى الامر الى تفجر العداء الصريح بينهما. ووصل الامر أن أرسل عليها الصليبيون، فاستعادت جيوش الكسيوس أطنه، وطرطوس، وغيرها من البلدان التى كانت تدخل فى نطاق امارة أنطاكية النورماندية؛ وعلى أثر ذلك سارع بوهيموند الى السفر الى أوروبا ليحرض البابا ضد الكسيوس كومنين، متهما اياه بخيانة القضية الصليبية؛ تاركا ابن شقيقة «تانكريد» ليحكم امارة أنطاكية مكانه؛ وفى الغرب دعا بوهيموند الى

حثوا رواحلكم يا أهل أندلس   فما المقام بها إلا من الغلط

* توفى من رجال الحكم والامارة فى هذه السنة: أبو بكر بن عبدالعزيز المنصور العامرى من ملوك الطوائف بعد حكم دام ١٠ سنين، وصاحب الحلة منصور بن دبيس حكم ٦ سنوات وخلفه ابنه سيف الدولة صدقة، وفيها توفى الوزير الفاطمى أبو الفرج المغربى (محمد بن جعفر) وكان قد استوزره الخليفة المستنصر ولقبه «الوزير الأجل الكامل» وبعد عزله تولى ديوان الرسائل لحين وفاته.

سنة ٤٧٩ هجرية

وافق مستهل المحرم يوم السبت ١٨ ابريل ١٠٨٦م.

* شهدت هذه السنة إحدى المعارك الحاسمة فى تاريخ الأندلس، ففيها أوقع السلطان المرابطى يوسف بن تاشفين فى يوم الجمعة ١٢ رجب (٢٣ أكتوبر) هزيمة منكرة بقوات الحلف الأسبانى المسيحى بقيادة الفونسو السادس ملك قشتالة فى موضع بالقرب من مدينة بَطَلْيوس وكانت القوات المتحالفة تبلغ عدة أضعاف الجيش المرابطى ولم يسلم منها مع الملك الفونسو سوى مائة. وهى المعركة التى منح فيها الخليفة العباسى ابن تاشفين لقب أمير المسلمين.

ومعلمى البيعة القديسين القايلين ان لا يوخذ عن موهبة الله وهى الكهنوت لا ذهب ولا فضة اعنى الشرطونية، فاخذو من العشرة اساقفة الذى صيروهم على الكراسى ما استقر عليهم. ثم مضى الاب البطرك الى وادى هبيب، فباع الرمارم التى هى موضع وقوف الرهبان فى البيعة للصلاة، واخذ من كل راهب عن موضع وقوفه دينار واحد. ثم مضى الى اسكندرية، وسال الكهنة ان يمكنوه ان ياخذ ما فى الكنايس يبيعه ويحمل ثمنه

حرب صليبية ضد الكسيوس كومنين نفسه؛ وعند عودته من الغرب فى اواخر عام ١١٠٧م على رأس جيش كبير من المتطوعين، وجد الكسيوس فى انتظاره بقواته، حيث أوقع به هزيمة مهينة عند ميناء دور يخايوم (دور ازو) على بحر الادرياتيك عام ١١٠٨م، وأجبره على قبول شروطه المهينة باعلان تبعيته لامبراطورية الروم، وأن يعيد تحكمه لانطاكية كنوع من الاقطاع الممنوح له منها، وأن يعيد لها أى أراضى يستولى عليها

---

* فى مستهل هذه السنة كان ملك قشتالة الفونسو السادس قد استعد لغزو بَلَنْسِية والاستيلاء عليها من بنى هود إلا أن نزول المرابطين بقيادة ابن تاشفين لنجدة أهل الأندلس اضطره لرفع الحصار.

* شهدت السنة وفاة المؤسس الأول لدولة سلاجقة الروم بالأنضول الأمير سليمان بن قُتُلْمِش صاحب قونية وأنطاكية (ابن اسرائيل بن سلجوق) ابن عمة السلطان ملكشاه توفى صريعاً بعد محاولته الاستيلاء على حلب وقيل قتل نفسه لهزيمته على يد تاج الدولة تتش وخليفة أُرتُق بن أكسب.

سنة ٤٨٠ هجرية

استهلت السنة بيوم الخميس الموافق ٨ ابريل ١٠٨٧م.

* فى المحرم من السنة جرى زفاف الخاتون ابنة السلطان ملكشاه إلى الخليفة المقتدى العباسى فجاءت إلى دار الخلافة ببغداد فى محفة مجللة عليها بالذهب والجوهر تحفها مئتا جارية ونقل جهازها على ١٣٠ جملا و٧٤ بغلا و٣٣ فرساً جميعها مكسوة بالحرير واستخدم فى السماط ٤٠ ألف مَنّ من السكر.

من المسلمين مستقبلا، ثم اقسم أمامه بمين الولاء للامبراطورية وللامبراطور.
وقضى بوهيموند السنوات الثلاث الاخيرة من حياته فى أعمال ليست بذات قيمة، حتى مات فى أبوليا Apulia عام ١١١١م، وتولى حكم أنطاكية من بعده ابن شقيقه ـ تانكريد ـ Tancred، وكان لايقل عن عمه كراهية للروم؛ رفض اعادة أنطاكية الى حوزة الأمبراطورية. ولحسن حظ تانكريد أن الظروف شغلت الكسوس بحروب مع السلاجقة منذ عام ١١١٤، فلم يستطع

للسلطان، فلم يطيعوه وجرى بينهم خطوب كتير الى ان تقرر معهم ان يبيع رباع الكنايس ويحمل ثمنها، واشرطو عليه ان يعطيهم فى كل سنة الف دينار، ويكون هذا رسما عليه مستقر فى كل سنة، وعلى من يجلس بعده على كرسى مرقس الانجيلى. واخذو خطه بذلك وخطوط اساقفته. حينئذا باعو رباع الكنايس باسكندرية، وسلمو اليه ثمنها، فاجتمع له من هذا كله مع صدقات حملت اليه عشرة الف دينار، بمقدار ما اقترضه،

---

* أعلن السلطان ملكشاه ابنه أحمد ولياً لعهده وأقره الخليفة وجعل من ألقابه: ملك الملوك. عضد الدولة. تاج الملة. عدة أمير المسلمين.

* استولى الفرنج على المهدية من تونس فصالحهم أميرها تميم الصُنهاجى على مال أخذوه.

* تولى إمارة حلب قسيم الدولة آق سُنْقَر من قبل السلطان ملكشاه وكان سنقر زوج مربية السلطان يعرف بالاتابك وهو جد بيت آل زنكى.

* تولى إمارة حلب قسيم الدولة آق سُنْقَر من قبل السلطان ملكشاه وكان سنقر زوج مربية السلطان يعرف بالاتابك وهو جد بيت آل زنكى.

* تحالف تاج الدولة تُتُش صاحب دمشق وآق سُنْقر صاحب حلب والأمير بُوزان صاحب الرّفها على رد أمير الجيوش بدر الجمالى وزير المستنصر الفاطمى عن سواحل الشام وتهديد دمشق.

سنة ٤٨١ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الاثنين ٢٧ مارس ١٠٨٨م.

* فى ربيع الأول من السنة عبر السلطان المرابطى يوسف بن تاشفين البحر إلى الأندلس

وبقى عليه عشرة الف دينار للامير لا يعرف لها وجه. وصار هذا البطرك القديس إذا كتب كتاب عن نفسه لا يقول من ميخاييل بل من خايا [خايال] وتفسيره الاخير اى انه اخر من ولدته امه التى هى الكنيسه، اذ صار حسنها الى كتابة مما جرى من اخذ المال من الاساقفة على الشرطونية.

وفى تلك الايام [حوالى سنة ٨٧٧م] جرى بين الروم والمسلمين غزاه فسبو المسلمين الروم من

تسير حملة للقضاء عليه، فلما فرغ منها وجد أن تانكريد قدمات، وبقيت مشكلة أنطاكية معلقة، ولم يستطع الكسيوس التقدم للاستيلاء عليها لعودة التأزم بينه وبين السلاجقة.

موت الكسيوس كومنين آخر الاباطرة الاقوياء:

وأخيرا وبعد حياة حافلة بالاصلاحات، والحروب والمؤمرات، مات الكسيوس كومنين عام ١١١٨؛ وبموته ينتهى آخر عهود الاباطرة الاقوياء، الذين بذلوا كل ما فى طاقتهم من أجل اعادة الهيبة الى

فتلقاه بالمؤن والزاد المعتمد بن عبّاد صاحب أشبيلية بالجزيرة الخضراء وفيها بعث بكتبه إلى ملوك الطوائف يستدعيهم للجهاد للتخلص من الخطر الأسبانى الذى يتمثل فى غزو الفارس الأسبانى المسمى القمبيطور (أو السيد) على بلنسية.

* وقعت الفتنة بين العامة ببغداد والجند الأتراك فى أثناء تشييد قنطرة جديدة دشنوا بناءها بنقل الآجر فى أطباق من الذهب والفضة.

* تولى المنصور بن الناصر على المغرب الأوسط خلفاً لأبيه الناصر ابن علّناس.

* استولى الافرنج على زُويلة من أعمال تونس انتقاماً من غزوات البحر التى كان يقوم بها تميم بن المعز على بلادهم، ونجح الحلف المسيحى الذى يضم جنوة من الاستيلاء على جزيرة قوصرة (بين المهدية وصقلية) فصالحهم على ٣٠ ألف دينار ورد جميع السبى.

سنة ٤٨٢ هجرية

وافق مستهل المحرم يوم الجمعة ١٦ مارس ١٠٨٩م.

* انفذ أمير الجيوش الأفضل قوات برية وبحرية تم لها الاستيلاء على صور وصيدا وعكا وجُبيل من موانى الشام وولى عليها أمراء من قبل الخليفة المستنصر الفاطمى.

الامبراطورية، لكن قضت الحملات الصليبية على آماله وأحلامه، وأفسدت سياسته، واستنفذت اقتصاده؛ فعندما مات كان اللاتين الغربيون قد وضعوا أيديهم على جميع المناطق التى استولوا عليها من المسلمين؛ ولم تزد الأمبراطورية شبرا واحدا عما كانت عليه عندما توج امبراطور عليها، وبالرغم من ذلك فقد أوجد الكسيوس فى البلاد جيشا قويا وقادر، يستطيع أن يزود به عن الامبراطورية وقت الخطر؛ وهذا الامان جعل الحياة تعود الى طبيعتها فى

بلادهم، وجابو الى مصر منهم شي كثير جداً، وكذلك الروم استسارو من المسلمين خلق كثير. فكتب الملكان لاون والاكسندرس الى احمد ابن طولون كتب يلتمسا الصلح، وان يخلى كل واحد منهما ما حصل فى يده من الماسورين نفس بنفس. فكتب ابن طولون الى الملكين يشتمهما ويهددهما مثل انسان ضعيف هارب وهو يشتم الذى يطرده.

فكتب اليه كتاب هذه نسخته: «من لاون والاكسندرس الملكان الضابطان من قبل السيد

---

* تجددت بالحرب بين السلطان تميم بن المعز صاحب تونس والثائر ابن علوى الذى لم يلبث أن لجأ إلى الصحراء.

* تجددت الفتنة في بغداد وكثر التخريب والقتل والحريق حتى استنجد الخليفة بصاحب الحلة سيف الدولة صَدَقة الدُبَيسى فهدم بيوت العيارين ونفاهم من المدينة.

* توفى الأديب العسقلانى المنشىء الحسن بن الشحباء له ديوان شعر توفى مسجوناً بالقاهرة.

* توفى إمام اليمن معيد الدين أبو هاشم الحسن بن يحيى.

سنة ٤٨٣ هجرية

استهلت السنة بيوم الاربعاء الموافق ٦ مارس ١٠٩٠م.

* مع مطلع هذه السنة عبر أمير المسلمين يوسف بن تاشفين المرابطى البحر إلى الأندلس للمرة الثالثة، وفى ١٠ رجب خلع السلطان أميرَ غَرْناطة عبدالله ابن بَلَقين الصُنهاجى ونفاه إلى صحراء أغْمَات بالمغرب، وعاد السلطان إلى المغرب فى رمضان وفى الشهر التالى استولى نائبه وابن عمه سير بن أبى بكر على مدينة طريف والقى الحصار على رُنْدة ودخل مدينة جَيّان صلحاً واستعد للوثوب على أشبيلية نفسها.

٥٦: انبا خايل البطريرك ٨٨٠/٨٩٤م

يسوع المسيح على بلاد الروم يكاتبا احمد ابن طولون. «السلام عليكم بمقدار استحقاقك. وصلت الينا كتبك جوابا عما كنا كتبنا به عن الماسورين. فوجدنا فيها كلام ينقض بعضه بعض. اول ذلك تدعوا لنا مثل صديق، ثم بعد ذلك تخوفنا مثل عدو، فلم يتبين لنا منك ما نعتمد عليه ليكن جوابنا لك بحسبه، بل شتمت مذهبنا وهذا ما لا يجب لك ان تكتب به بما لا تعرف تاويله، ولا يجوز ان تشتم مذهبنا ما لم يظهر فيه عيبا.

مجال الحياة اليومية والاقتصادية للشعب الرومي، وبالرغم من أن امبراطوريتهم ضحت ولم تستفد كثيرا من حملة الصليبين، غير أن هزيمة السلاجقة في معركة دوريلايوم أفادت الأمبراطورية فقد حولت السلاجقة من الهجوم الى الدفاع عن وجودهم، كما أن قيام الامارات اللاتينية فى سوريا وفلسطين، حول انتباه المسلمين بعيدا عن حلمهم القديم، وهو فتح القسطنطينية، وخفف من ضغطهم عليها، وأعطاها فسحة من الوقت لتلتقط أنفاسها.

---

* هاجم تاج الدولة تُتش صاحبُ دمشق مع حليفيه آق سنقر وبوزان حصنَ بَعَلْبك وعليه ابن مُلاعب بسبب دخوله فى طاعة المستنصر الفاطمى فضم تُتش بعلبك إليه وسار ابن ملاعب لاجئاً إلى مصر.

* نهب الأعراب مدينة البصرة بما فيها دار كتبها واحرقوها.

* برز اسم الحسن الصَّباح زعيم الباطنية الاسماعيلية (أو طائفة الحشاشين) باستيلائه على قلعة ألَمُوت الحصينة التى جعل منها منطلقاً لمغامراته.

* أرسل الامبراطور البيزنطى الكسيس كومنين رسالة إلى البابا أوربان الثانى لتوكيد التحالف بين البابوية والامبراطورية البيزنطية على حرب السلاجقة المسلمين.

سنة ٤٨٤ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الأحد ٢٣ فبراير ١٠٩١م.

* استسلمت مدينة قَصْريانة الحصينة للكونت روبرت الأول النورماندى فتم بسقوطها استيلاء النورمان على جزيرة صقلية بأسرها وخروج العرب منها بعد نحو عشرين سنة من بدء غزوهم الجزيرة.

خلفاء الكسيوس كومنين، (١١١٨.١١٨٥)،
١. الامبراطور يوحنا كومنين الثاني، (١١١٨.١١٤٣)،

كان عصر يوحنا كومنين الثاني أسعد حظا من عصر أبيه، فقد جنى ثمار أعماله التي غرسها بكفاحه، ومن ثم وجد الابن نفسه حاكما على امبرطورية مزدهرة اقتصاديا، وعلى شعب مفعم بالآمال، ولهذا سار يوحنا على نهج سياسة أبيه، بل اتخذ منه نموذجا ومثلا أعلى. ولقد أثبت يوحنا كومنين أنه كان واحدا من أكفأ أباطرة الروم وذلك بفضل صفاته الاخلاقية

وقد تاملنا ما وصل الينا من غيرك منذ ظهور دينكم والى الان فما وجدنا فيها شيا مثلما واجهتنا به من الشتم للمذهب. فعلمنا ان متقدميكم اجل منكم وانت لم تلحقهم فى فن من الفنون. وجدفت على اعتقادنا فى ابن الله، وزعمت انك لا تعرف ولدا الا من نطفة. وهذا بعيد من المسلك الجيد. لكن العقل يشهد لنا ان الهنا دايم لم يزل حيا ناطقا، فسميت كلمته ابنا وحياته روح قدس ،ونحن وانتم معا على ان الله خلق الكل بغير

---

* تم للمرابطين بسط سلطانهم على أكثر دويلات ملوك الطوائف بالأندلس، ففى ٢٢ رجب (٧ سبتمبر) اقتحم سير بن أبى بكر المرابطى مدينة أشبيلية واستولى عليها من صاحبها المعتمد بن عباد كما استسلم ابناه وكان الأول على مارتلة والثانى على رُندة، وفى ١٧ ربيع استولى سير على قَرْمونة.

* وقعت زلزلة بالشام هدمت أبراج سور أنطاكية فأمر السلطان بعمارته.

* استولى تُتش ومعه آق سنقر وبوزان على حمص وعلى حصن فَامِّية غير أن حليفية امتنعا عن الاشتراك فى حصار طرابلس وعليها ابن عمّار لانه تولاها بأمر السلطان.

* ألزم الوزير أبو شجاع الرّوْذروارى أهل الذمة ببغداد بلبس الغيار وشد الزنار.

* دخل فى هذه السنة إلى بغداد الإمام أبو حامد الغزالى قادماً من نيسابور ومعه توقيع من الوزير نظام الملك للتدريس بالمدرسة النظامية.

* أعلن إسلامه فى هذه السنة الكاتب المنشىء أمين الدولة كمال الرؤساء العلاء ابن الموصلايا على يد الخليفة المقتدى وعينه فى الوزارة بعد خلع أبى شجاع كما أسلم ابن أخته أبو نصر هبة الله.

* توفى الأمير معين الدين أُرتُق بن أكسب التركمانى كان على القدس وهو الذى تنسب

اداة عمل، بل بقوله كن فكان. وبقية الكتاب فيه كلام ركيك لم يكتب بمثله احد ممن تقدمك».

فاما الاب انبا خايال فانه اقام تحت ضيق صدر بسبب العشرة الف دينار الباقية عليه. ثم انه استخار الله تعالى وانحدر الى مدينة تنيس لياخذ منها شيا من صدقات النصارى المحبين لله، ثم يطوف في تلك البلاد ليحصل شيا آخر منها، فلما اقام في تنيس يوم واحد حضرو جماعة ليتباركو

المستقيمة، فقد كان مثابرا لايكل ولايمل، ذلك لآخر لحظة فى حياته،؛ كمان كان سياسيا بعيد النظر، كما أن حلاوة طبعه، ودماثة خلقه ؛ جعلت مستشاريه يخلصون له؛ ويلتفون حوله، يقدمون له أفضل المشورة، وخالص التجربة. كما أحبه شعبه حتى لقبه باسم «يوحنا الطيب» . ولقد ظهرت قدرته في العفو عند المغفرة، عندما تآمرت شقيقته آنا كومنينا وزوجها عليه، بهدف التخلص منه، والجلوس على العرش

إليه الدولة الأُرتُقية التى قامت فى حصن كيفا على يد ابنه سُقْمان وفى ماردين على يد ابنه الغازى.

سنة ٤٨٥ هجرية

الأول من المحرم وافق يوم الخميس ١٢ فبراير ١٠٩٢م.

* فى يوم الاثنين منتصف شهر ربيع الأول من السنة اقترن كوكب زحل والمريخ فى برج السرطان وهو حدث نادر فتنبأ المنجمون أن هذا القران يعنى موت سلطان عظيم ووزير كبير يقصدون موت السلطان ملكشاه سيد الملوك ونظام الملك سيد الوزراء.

* دخل السلطان ملكشاه بغداد للمرة الثالث والأخيرة فى ١٨ رمضان من السنة ووقعت النفرة بينه وبين الخليفة لامور أخذها عليه.

* تولى فى النصف من شعبان مغيث الدين وناصر الدنيا والدين محمود بن ملكشاه (وهو طفل فى الرابعة) عرش السلاجقة العظمى خلفاً لأبيه ولكن لم يلبث أن ثار عمه بركيارورق وأوقع الهزيمة بجيش أم السلطان تركان خاتون فى ذى القعدة من السنة وتولى العرش السلجوقى باعتبار انه الابن الأكبر للسلطان المتوفى.

منه ويسالو عن اخباره وما انتهت اليه حاله، واذا راهب مستور الوجه نحيف الجسم زرى المنظر عليه تراج خلق دخل الى البطرك وسط الجمع واخذ بركته، فلم يقول له احد اجلس فجلس الى جانب التلاميذ وقال لاحدهم لماذا ابونا البطرك قلق بسبب ما هو مطلوب به وما يتوقعه من المطالبة، امضى اليه ويقول [قول] له بعد اربعين يوم يمزق الرب عنه الخط ولا يطلب منه مال بلى يترك له. فتقدم التلميذ واعلم البطرك بذلك فامر التلميذ

بدلا منه، ومن المدهش أن زوج شقيقته آنا هو الذى أبلغ عن هذه المؤمراة عام ١١١٩م، فلم يقتل أو يسمل أعين أعدائه انما قام بمصادرة أموالهم ، أما شقيقته فقد عفا عنها، فانزوت منذ ذلك الوقت عن الحياة العامة ، وعكفت على تأليف عملها الكبير عن أبيها وهو «سفرالكسيوس» Alexiad.

ولقد سار يوحنا على نهج أبيه فى السياسة الخارجية، لكنه زاد عليها توثيق علاقاته مع القوى العظمى فى الغرب، خاصة الامبراطورية الرومانية

---

* بدأ ملكشاه في بناء مسجده ببغداد وتولى منجمه بهران وجماعة من أهل الرصد تحديد قبلته.

* ثار أهل بلنسية بالأندلس على أميرها المغتصب القادر ذى النون خوفاً من أن يسلمها للأسبان كما فعل بطليطلة وبايعوا القاضى ابن جَحّاف فى ٢٤ رمضان.

* فى الثالث من شوال من هذه السنة بدأ مرض السلطان ملكشاه بالحمى وتوفى ليلة الجمعة فى النصف من الشهر وله من العمر ٣٨ عاماً كتمت تركان خاتون موته وسارت بالجثمان إلى أصبهان ودعت لابنها الطفل وارسلت إلى الخليفة للخطبة له فأجابها، إلا أن ظهور عمه بركياروق ومطالبته بالعرش هدم هذا التدبير.

* استولى تاج الدولة تتش أخو السلطان ملكشاه على حمص وغيرها من مدن الساحل التى كانت تابعة للخليفة المستنصر الفاطمى كما انفذ عسكرا إلى اليمين لأخذها من أصحابها الشيعة وطمع فى السلطنة بعد وفاة أخيه فاخضع حلب وحرّان والرها وأنطاكية لطاعته.

* شهدت السنة وفاة الوزير نظام الملك (الحسن بن على الطوسى) استوزره السلطان ألب أرسلان عشر سنين ثم خليفته ملكشاه لحين وفاته، وهو مؤسس المدارس النظامية فى بغداد ونيسابور وغيرها، توفى مقتولا (١٠ رمضان) عن ٧٧ عاماً بالقرب من نهاوند على يد أحد الباطنية.

باحضاره اليه فلم يجدوه، وفتشو عليه مدينة تنيس فما عرفو له خبر حتى كان الارض بلعته او السما اخفته، فانفذو الى دمياط والى المواضع القرية منهم يطلبوه، فلم يجدوه.

ومن بعد ثلثة ايام خرج احمد ابن طولون من مصر ساير الى دمشق [حوالى عام ٨٨٢م] لاجل ما وصل اليه من الاخبار التى اقلقته، فانفق فى العسكر ثلثماية الف دينار، واقام تسعة وعشرين

المقدسة فى ألمانيا، وكذلك من المدن البحرية الجديدة فى ايطاليا مثل جنوة وبيزا، وربما كان ذلك بتأثير زوجته الهنغارية، والمتيمة بطرق الحياة الاوروبية الغربية، فضلا عن محاولته التقليل من احتكار البندقية للاقتصاد فى القسطنطينية، وضمان أصدقاء يؤيدونه ضد أطماع النورماندين. ومن أجل استعادة أنطاكية العزيزة على نفسه، صادق الامراء الصليبين وأقام معهم علاقات قوية، ليس حبا فيهم وكرها فى المسلمين، ولكن اتقاء لشرورهم، وأملا فى ضرب بعضهم

---

* لقى القادر ذو النون صاحب طُلَيطلة (السابق) بالأندلس مصرعه فى بلنسية التى حاول اغتصابها (٢٣ رمضان) بعد أن ثار عليه أهلها وهرب مختبئا فى حمام القصر.

سنة ٤٨٦ هجرية

استهلت السنة بيوم الثلاثاء الأول من فبراير ١٠٩٣م.

* دخل السلطان السلجوقى إلى بغداد للمرة الأولى وولى وزارته مؤيد الملك الحسين ابن وزير أبيه المقتول نظام الملك، وتوافد على بغداد الأمراء يعلنون دخولهم فى طاعته وفيهم صاحب حلب آق سُنْقر وصاحب الرُها الأمير بوزان بعد أن فارقا تُتُش.

* سار الفونسو السادس ملك قشتالة الأسبانى إلى مدينة شَنْتَرين باقليم البرتغال واستولى عليها لأول مرة بعد حكم العرب لها الذى دام ثلاثة قرون (ثم استعادوها لفترة).

* انتهز الأعراب وفاة السلطان ملكشاه وراحوا يقطعون الطريق على الحجاج من الشام ونهبوا ما معهم فعاد الحجاج إلى الشام على أقبح صورة كما أغار الأعراب على الكوفة.

* احكم السيد القمبيطور الأسبانى حصار بلنسية وأحرق ما حولها وقطع عنها الأقوات.

٥٦: انبا خاييل البطريرك ٨٨٠/٨٩٤م

يوما ساير ولم يستريح في مكان، وكانت هذه عقوبة سماوية حلت به من عند الله لاجل ظلمه.

وفي تمام الاربعين يوم التي اخبر بها الراهب مات [حوالى عام ٨٨٣م] احمد ابن طولون بعد عودته موت سو، وجلس ابنه خمارويه موضعه. فعند ذلك اخرج احمد ابن على المادرانى [الماذرائي] الوزير الخط بالضمان وسلمه ليوحنا المليجى كاتبه، وانفذ احضر الاب البطرك من

بالبعض فى الوقت المناسب. كما حاول اقامة جسر من التفاهم مع دولة الاتابكة في الموصل، عندما أحس بصعودهم كقوة اسلامية جديدة، وتبادل الهدايا مع زعيمهم عماد الدين زنكى. وعندما هاجم البشناق حدود الامبرطور ية الشمالية، وعبروا فى عام ١١١٢ نهر الدانوب، متجهين لغزو القسطنطينية، أسرع بجيوشه وصدهم، ثم طوقهم، وأنزل بهم هزيمة حاسمة، أنهت بالمرة وللابد مشكلة الامبراطورية مع البشناق، وهكذا يتضح أن السمة العامة

---

* دخل إلى بغداد أبو الحسين المرزوى الواعظ (اردشير بن منصور) وجلس للتدريس بالنظامية وكان الإمام الغزالى وعدة من الأئمة يحضرون مجلسه.

* ممن ولد فى هذه السنة: بقرطبة عالم القراءات أبو بكر يحيى بن سعدون انتقل إلى مصر ودرّس بها.

* فى المحرم من السنة قتل الوزير تاج الملك انتقاماً من اشتراكه فى تدبير اغتيال نظام الملك.

سنة ٤٨٧ هجرية

وافق مستهل المحرم يوم السبت ٢١ يناير ١٠٩٤م.

* سميت هذه السنة سنة موت الخلفاء والأمراء لتعدد من توفى فيها من الخلفاء والأمراء والولاة وأدعى المنجمون أن ذلك كان بسبب اقتران الكواكب.

* تولى الخلافة العباسية ببغداد أبو العباس أحمد بن المقتدى باسم المُستَظْهَر بالله وله من العمر نحو ١٧ سنة وذلك فى النصف من المحرم.

تنيس، فلما وصل نزل فى بيعة السيدة بقصر الشمع حين كان اولا، واحضر الاراخنة عنده، واحضرو الخط فخرقه بيده، وعاد الى قلايته يمجد الله حزينا على ما انحل من قانون البيعة وعلى ما ياتى بعده على كرسيه من حال الشرطونية وما يجرى بينه وبين اسكندرانيين. ثم اقام بطركا سبعة وعشرين سنة، وتنيح فى الحادى والعشرين من امشير فى ايام خمارويه ابن احمد ابن طولون.

لسياسة يوحنا كومنين الثانى، هى الصداقة مع الجميع من أجل الحفاظ على الامبراطورية، واستخدام القوة كحل أخيرا وعندما لاتجدى القوة نفعا، يستخدم سلاح الدهاء، والوقيعة بين الاعداء.

حروب يوحنا من أجل حماية الامبراطورية:

وما كاد يوحنا ينتهى من قضية البنادقة، حتى استدار للدفاع عن الامبراطورية ضد الاخطار التى كانت تتعرض لها. وكان أول تعامله العسكرى مع القبائل الهنغارية (المجر

---

* تولى الخلافة الفاطمية بالقاهرة أبو القاسم أحمد بن المستنصر باسم المسْتَعْلى بالله وله من العمر ٢٠ سنة وذلك فى ١٨ الحجة من العام.

* خطب ببغداد فى يوم الجمعة ١٤ المحرم للسلطان بَرْكيَاَرُوق وله من العمر ٢٥ سنة ولقبه الخليفة المقتدى بركن الدين أبا المظفر وأرسل إليه المقتدى الخلع والتقليد ولم يلبث أن غادر السلطان بغداد إلى الموصل.

* دعا تاج الدولة تُتُش لنفسه فى وجه ابن أخيه بَرْكيارُوق فضم إليه حلب والجزيرة وديار بكر وسار إلى أصبهان وعندها فى شهر شوال أوقع الهزيمة بعمه بَرْكياروق.

* بينما كانت تجرى هذه الأحداث فى المشرق كان المرابطون يسطون سلطانهم على دويلات غرب الأندلس العربية ففى صفر من السنة سقطت بَطَلْيوس فى أيديهم، وفى شرق الأندلس استسلم القاضى ابن جَحّاف صاحب بَلَنسية (٢٨ جمادى أول) للسيد القمبيطور المحاصر للمدينة فدخلها الأسبان (١٧) مارس) واحتلوها ونكلوا بأهلها وعلى رأسهم القاضى ابن جحاف.

* فى رمضان من السنة عبرت قوات السلطان يوسف بن تَاشَفين البحر من الأندلس لنجدة المسلمين فيها.

م ١٥ تاريخ مصر ج٥ (الهيئة العامة لقصور الثقافة)

يه)، فقد بدأ الهنغاريون في ذلك الوقت يلعبون مع الامبرطورية نفس الدور الذى كان يلعبه البلغار، وهو محاولة التوسع والاستيلاد على بعض أراضى الامبراطورية فى شمال البلقان لاقامة دولة قومية عليها، وظل الهنغاريون يتوسعون حتى وصلوا الى صوفيا عام ١١٢٨، وهنا أدرك يوحنا أن الهنغاريين قد وصلوا الى درجة تتوجب التعامل معهم عسكريا قبل أن يشرعوا فى اقامة الدولة، والتى قد تجد لها مؤيدين من الصليبيين والنورمان، فقاد جيشه نحو الدانوب،واجتاح

وكان خمارويه المذكور بنا جامع خارجا عن مصر وهو الجامع المعروف به الى الان، ثم ان خمارويه سمع بخبر وادى هبيب، فسار اليه ودخل الى بيعة القديس ابو مقار ونظر جسده المقدس وسال عنه، فقيل له هذا جسد صاحب هذه البيعة. فامر بحله من كفنه، فمسك شعر لحيته، ففتح عينيه فى وجهه، فوقع على ظهره، واقام ساعة مغشيا عليه لا ينطق، فحملوه الى خيمته، واخذومن زيت قنديل ابو مقار فمسحو به جبينه،

---

* فى النصف من المحرم توفى ببغداد على حين فجأة الخليفة العباسى المقتدى بالله وله من العمر ٣٨ سنة و ٨ أشهر أمه أم ولد أرمينية تدعى أرجوان، ولد بعد موت أبيه بستة أشهر وتولى الخلافة وله ١٩ سنة خلفاً لجده القائم.

* فى ١٨ من الحجة توفى بالقاهرة الخليفة أبو تميم معّد المستنصر الفاطمى وله من العمر ٦٧ سنة و٥ أشهر، تولى الخلافة ٦٠ سنة و٤ أشهر ولم يول الخلافة الأموية أو العباسية من هو أطول عهداً منه وخلفه ابنه أحمد باسم المستعلى بالله.

* توفى بالقاهرة أمير الجيوش بدر الجمالى تولى وزارة المستنصر وامارة دمشق وأصبح صاحب الأمر فى الدولة الفاطمية.

* توفى على أبواب حلب أميرها قسيم الدولة آق سنقر فى حربه مع تاج الدولة تُتُش وهو أبو السلطان زنكى وجد السلطان نور الدين محمود.

* توفى أمير مكة الشريف محمد بن أبى هاشم عن ٧٠ سنة وكان موزع الولاء بين الخلافتين العباسين والفاطمية.

* فيها توفى الأمير بوزان صاحب الرُّها بتدبير من تاج الدولة تتش.

* عاصر هذا التاريخ الامبراطور ألكسوس كومنين، والبابا أوربان الثانى.

ثم ظهر له اية اخرى فى هذه البيعة، وهو انه جاز باب الاسكنا من بحريه بجانب القوصرة، فابصر صورة الشهيد وهى تنظر الى الغرب، وقالو [له] انها صورة القديس تادرس. وكان فى يد خمارويه حزمة ريحان فرما بها الى الصورة، وقال: خذها يا فارس يا شجاع. فخرجت يد من الصورة واخذت الحزمة الريحان، واقامت الحزمة الريحان فى يده حتى ابصرها كل واحد، فخاف خمارويه ابن احمد ابن طولون جدا وبهت من هذه العجايب،

الاجزاء الوسطى من وادية حيث يتجمع الهنغاريون، وشتت شملهم، وقضى على امالهم فى تكوين دولة قومية عنصرية وعدوانية، وضم أراضيهم الى الامبراطورية، وبذلك وصلت حدود امبراطورية الروم الى أقصى اتساع لها فى عهده، ووضع قوات فى شمال البلقان لمراقبة أى محاولة جديدة ضد الامبرطورية، لكنه كان متسامحا مع الهنغاريين، لانه كان متزوجا من سيدة هنغارية.

وفى عام ١١٣٠ اتجه بقواته لمحاربة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى.

سنة ٤٨٨ هجرية

استهلت السنة بيوم الخميس ١١ يناير ١٠٩٥م.

* بدأ فى هذه السنة إشعال فتيل الحروب الصليبية ففى شهر ربيع (مارس) عقد البابا أوربان الثانى مجمعاً دينياً فى بياكنزا بإيطاليا اشترك فيه مبعوث للامبراطور البيزنطى وتم فيه الاتفاق على أن السلاجقة المسلمين لا يهددون بيزنطة وحدها بل المسيحية عامة مما يستلزم تقديم العون المادى إلى الامبراطور لصدهم، ثم عقد مؤتمرين فى نفس السنة الأول فى كليرمونت والثانى فى ليموج وفى ١٠ نوفمبر (٩ القعدة) وجه البابا نداء إلى جميع المسيحيين بالاشتراك فى استخلاص الأراضى المقدسة من المسلمين على أن يشترك ممثل للبابوية فى هذه الحملات الصليبية.

* فى رمضان من السنة بدأت قوات المرابطين الهجوم على بلنسية لاستخلاصها من أيدى الأسبان بقيادة القمبيطور بينما سار جيش آخر صوب طُلَيطلة وعاث فى أرضها، وفيها قتل دون ديجو ابن الزعيم الأسبانى السيد القمبيطور.

* اقتسم ابنا تاج الدولة تُتُش صاحب الشام بعد موته أملاكه، فاستولى رضوان على حلب، وسار دُقاق إلى دمشق وولى وزارته أبا القاسم الخوارزمى.

* توفى من رجال الحكم والامارة فى هذه السنة: المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية من

وكان السلاجقة أثناء حروبهم الشرسة مع الصليبين قد استولوا على الطريق البرى الذى كان يربط بين أنطاكية والقسطنطينية؛ وكان يهم يوحنا أن يظل هذا الطريق مفتوحا، لانه لم يفقد الامل فى استعادة أنطاكية من أيدى الصليبين. وكان سلاجقة الروم وقتذاك يمرون بأضعف مرحلة فى تاريخ دولتهم، فمنذ موت ملك شاه، لم تتوقف الخلافات بين السلطنات السلجوقية فى آسيا الصغرى، ونجح يوحنا بقواته فى فتح الطريق وتأمينة، لكنه لم يفكر فى شن حملات

ثم امر ان تعمل علامة فى تلك الصورة لتكن ظاهرة الى كل جيل، فصورو فى يده صليب اخر، وذلك الصليب فى يد تلك الصورة الى الان. ومن ذلك اليوم صار يراعى النصارى لاسيما الاساقفة والرهبان.

وكان انبا بخوم اسقف طحا [الذى قد كتب اسمه فى الضمان عن الاب البطريرك] له اخوين اساقفة ايضا، وكان له عوامل [عمال]وغلمان

ملوك الطوائف الكبار بالأندلس حتى الفتح المرابطى، توفى بمنفاه فى أغْمات بصحراء المغرب، وتوفيت فى نفس السنة زوجته اعتماد الرُمّيكية الشاعرة وأم ولده المأمون وابنته بثينة الكاتبة، وفيها توفى أمير تونس عبدالحق ابن خراسان، وصاحب ميّافارقين منصور بن مَرْوان آخر بنى مروان فى الجزيرة بعد حكم دام ١٠٨ سنة، وفيها توفى الوزير ظهير الدين أبو شجاع الروذراورى وزر للخليفة المقتدى ٨ سنوات وتوفى بالمدينة، وفيها قتل أحمد خان صاحب سمرقند قبض عليه عسكره لمظالمه وافتى الفقهاء بقتله واجلوا ابن عمه مسعودا.

سنة ٤٨٩ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الاثنين ٣١ ديسمبر ١٠٩٥م.

* تزعم بطرس الناسك الدعوة لحملة صليبية لاستخلاص الأراضى المقدسة (فلسطين) من أيدى المسلمين فسار على رأس جماعات من العامة إلى كولونيا ومنها سار حتى بلغ أسوار القسطنطينية وعندها عبرت الحملة البحر إلى الأنضول وفى خلال مسيرتهم كانوا ينهبون المدن بل والكنائس التى كانوا يمرون بها فباغتهم السلاجقة بالقرب من نيقية وأوقعوا بهم، وفى الوقت نفسه وقف اليهود من الحملة موقفاً معادياً باعتبارها ضد مصالحهم، وقبل نهاية

٥٦: انبا خايل البطريرك ٨٨٠/٨٩٤م

نحو من ثلثمايه، وكانوا فى كرسيه يحفظوا البلاد، وقد تعلم بعضهم رمى النشاب لان [لأن] البربر كانو يغزوهم من الغرب، ولاجل ذلك كان الامير يحبه وعول عليه فى تفقد تلك البلاد لخوفه من ملك الغرب [الفاطمى] الذى هو من جنس محمد [الاسلام] ويسمى الفاطمي. وكان هذا الاسقف قد اقام معادى [جواسيس] بجانب الغرب يوصلو اليه الاخبار فى كل وقت. فلما تنيح انبا خايال اقامو زمانا لم يرسمو بطركا، فرسمو الملكيه بطركا

عسكرية توسعية ضد السلاجقة فى الشام الاعلى لتخوفه من الصليبين، فالحروب الطويلة مع السلاجقة أوجدت نوعا من التفاهم معهم، بعكس الصليبيين الذين لم يكن يفهمهم أو يثق بهم، موقنا أنهم أخطر على الامبراطورية من السلاجقة أنفسهم.

يوحنا وامارة أنطاكية النورماندية:

كانت مشكلة امارة أنطاكية من أهم المشاكل التى خلفتها الحملة الصليبية الاولى، وكانت قضية

العام تحركت حملة جديدة بقيادة الكونت جودفرى بوايون كما تحركت حملة ثانية بقيادة ريمون دى تولوز سارت صوب القسطنطينية.

* يتنبأ المنجمون فى بغداد باقتراب وقوع طوفان مثل طوفان نوح بسبب إجتماع الكواكب فى برج الحوت.

* استعاد الزعيم الأرمنى ثويرون حكم الرُّها وأعلن تبعيته للامبراطور البيزنطى.

* استولى أمير الجيوش الأفضل الجمالى وزير الخليفة المستعلى الفاطمى على ميناء صور على غرة وسار منها إلى القدس وعليها سكمان بن أُرتُق وأخوه ايلغازى فاستأمنه أهلها وفتحوا له أبوابها فخرج منها إبنا أُرتق.

* استولى الأمير كربوقا على الموصل بعد أن خرج من حبس رضوان بن تتش صاحب حلب.

* ثارت مُرسية من الأندلس على صاحبها أحمد بن طاهر الثغرى.

* ممن ولد من الفقهاء: شيخ الشافعية باليمن المصنف المكثر أبو الحسين العمرانى له البيان فى فروع الشافعية، وفيها ولد بنيسابور الفقيه المتكلم أبو الفتح ناصر بن سليمان الأنصارى.

* ممن توفى فى هذه السنة من رجال الحكم والامارة: المتوكل بن الأفْطَسَ (أبو جعفر عمر

لهم وبجحو على الارتدكسين وتكبرو كثير، فلما اتصل الخبر بابا [بأبا] نجوم الاسقف صعب عليه هذا الامر، فنهض للوقت واخذ من بلاده هدايا كثير وفواكه كثير غريبه فى غير وقتها وحملها الى الامير ففرح به وساله عن اخبار الغرب، فقال ليس الا الخير والسلامة بسعادتك. واقام عنده ايام وعاد بعد ان اوصاه بان لا يخفى عنه شيا مما يتصل به من اخبار الغرب. ثم غاب خمسة ايام وعاد، فلما راه خاف وظن وانه قد وصل اليه خبر، فقال له

استعادتها تمثل اهتماما خاصا للامبراطور يوحنا نظرا لاهميتها الدينية والاستراتيجية والتاريخية؛ ومنذ أن تنكر تانكريد خليفة بوهيموند في حكم أنطاكية ـ للمعاهدة التى كان بوهيموند قد وقعها مع الكسيوس، والتي بمقتضاها تجعل من أنطاكية اقطاعا ممنوحا للنورمان من قبل امبراطور القسطنطينية، لم يتوقف يوحنا كومنين عن التفكير في استعادة هذه الامارة؛ ولهذا حرص على معالجة المسألة بدبلوماسية هادئة حتى لايغضب الصليبين ويعطيهم الفرصة

التُجَيبى) آخر ملوك الطوائف من بنى الأفطس أصحاب بطليوس أزاحه عنها السلطان يوسف بن تاشفين المرابطى حتى لا تقع بَطَلْيوس في يد الأسبان، وفيها توفى بقرطبة الوزير الأديب أبو مروان عبدالملك بن سراج له استدراك على كتاب البارع، وفيها توفى صاحب أربل القاسم الشهرزورى.

* توفى من أهل العلم: الفقيه المفسر منصور بن محمد السمعانى جد السمعانى صاحب كتاب الأنساب له تفسير السمعانى وهو مخطوط، وفيها توفى بأصبهان عن ٩٢ عاماً المحدث القاسم بن الفضل له من المخطوط (الفوائد العوالى)، والقاضى وادع بن سليمان كان على معرة النعمان.

سنة ٤٩٠ هجرية

استهل المحرم بيوم الجمعة الموافق ١٩ ديسمبر ١٠٩٦م.

* شهدت هذه السنة قيام الدولة الخوارزمية على يد محمد بن أنوشْتكِين من مماليك السلاجقة.

* أرسل البابا أوربان الثانى يدعو جمهورية جنوا إلى مد الحملة الصليبية بالسفن فقدمت ١٢ سفينة حربية غير الناقلات.

٥٦: انبا خايل البطريرك ٨٨٠/٨٩٤م

الاسقف: لا تخاف يا مولاى الامير فليس الا الخير، وانما انا لا يجوز لى ان اخفى عنك شي مما يكون فيه ربح لهذه المملكة، وذلك بانى فارقت حضرتك فاتصل بى ان الملكية المخالفين لنا الذين هم من الروم قد اقامو لهم بطركا، فخفت ان يكون عينا لملك الروم هاهنا، فياتى فى المراكب الى اسكندرية، ولهذا رايت ان اعلمك ذلك. فكتب قاطاتيكا [خطابا] الى والى اسكندرية بان يسمع منه ما يامره به. فلما اخذ الامر انحدر الى

لاتخاذ هذه الازمة ذريعة للانقلاب على الامبراطورية الرومية والتوسع فى آسيا الصغرى والشام على حسابها؛ ولهذا شرع أثر توليه العرش فى بدء مفاوضات طويلة، بدأت فى أواخر عام ١١١٨ ميلادية واستمرت حتى خريف عام ١١٣٧، فقد كان النورمان يشكلون خطرا داهما على الامبرطورية، فهم لم يتخلوا أبدا عن حلم الاستيلاء على القسطنطينية. وبدأ هذا الخطر يتزايد منذ عام ١١٠٣ عندما قام روجر النورمانى

---

* وصلت حملة صليبية ثالثة إلى القسطنطينية بقيادة بوهيمونت النورمانى، وحملة رابعة بقيادة روبرت أمير نورمانديا وعبرت الجيوش الأربعة إلى الأنضول ونجحت فى الاستيلاء على نيقية (٢٦ يونية ١٠٩٧) من قلج أرسلان كما استولت على قيصرية ثم على مرعش قبل نهاية العام فرحب بهم أصحابها الأرمن.

* وقعت الحرب بين ولدى تاج الدولة تتش فانهزم دقَّاق صاحب دمشق عند قِنّسرين على يد أخيه رضوان صاحب حلب وتم الاتفاق على أن يخطب لرضوان فى حلب قبل أخيه دقاق.

* خلع وقتل أمير مرسية أحمد بن طاهر بعد خمسة شهور من دخولها فى طاعته.

* انحاز فخر الدين صاحب حلب إلى الفاطميين وخطب على منابر حلب للخليفة المستعلى بأمر الله ولم يلبث أن تراجع وأعاد الخطبة إلى خليفة بغداد دون أن يتنبه للخطر الصليبى الذى اقترب منه.

* اغتال الباطنية عدداً من أمراء السلاجقة منهم الأمير برسق شحنة بغداد، وعبدالرحمن السميرى وزير أم السلطان بركيارق.

اسكندرية وامر ان يقبض على بطرك الملكية الغير بطرك، وان يقطع اصبعيه التى يصلب بهما من يده اليمنى، ووجد عنده ستة اساقفة من ملته المخالفة، فخزق عليهم ثيابهم مع بطركهم، ثم جمع سنودس من الاساقفة الارتدكسيين ومضو الى وادى هبيب بمعونة الله جل اسمه وامر سماوى.

بضم صقلية وجنوب ايطاليا الى المملكة النورمانية، وتوج نفسه ملكا على الصقليين فى بالرمو، وبذلك أصبح منافسا للقوة الاوروبية الكبرى، والتى كانت تتمثل فى الامبراطورية الرومانية المقدسة مما أدى الى قلقها الشديد؛ ولقد استغل يوحنا هذا القلق فى بناء جسور الصداقة والتقارب مع الامبراطورية المقدسة، فعقد اتفاقا مع لوثر أمير سكسونيا، والذى كان قد انتخب بعد موت هنرى الخامس عام ١١٢٥ امبرطورا على الامبراطورية

سنة ٤٩١ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأربعاء ٩ ديسمبر ١٠٩٧م.

* أخذ الخطر الصليبى يدق أبواب بغداد فانفذ الخليفة المستظهر بالله رسولا إلى السلطان بَرْكَيَارُوق مستنفرا إياه لتدارك الأمر قبل أن يزداد عنفا، فأمر السلطان الوزير عبدالملك بن جَهير وسيف الدين صَدَقة صاحب الحلة بالخروج مع العسكر إلى جهاد الصليبين.

* توالت فتوحات الصليبين فى الأنضول وشمال الشام ففى هذه السنة استولى بلدَوين البولندى على الرُّها من صاحبها ثورون الأرمنى وباتفاق مع أهلها ثم استولى على سُمَيساط ثم على سَرُوج وألقى الحصار على أنطاكية سبعة أشهر ودخلها فى رجب (٣ يونية ١٠٩٧) ومنها سار إلى مَعَرّة النعمان واستولى عليها.

* بينما الصليبيون يجتاحون الإمارات الإسلامية كان الأمراء فى نزاع وصراع على الحكم ففيها خرج محمد بن ملكشاه على أخيه السلطان بركياروق وكان قد اقطعه بلاد أران، وفيها نشبت حرب بين سَنجَر (أخو السلطان) ودولت شاه عند بَلْخ وفيها أسر دولت شاه.

* استعاد تميم بن المعز صاحب أفريقية جزيرة جرْبة ثم جزيرة قرقنة من الفرنج.

* استغل الأمير البيزنطى حنا دوقاس الوجود الصليبى فى الأنضول واستولى من السلاجقة

٥٦: انبا خاييل البطريرك ٨٨٠/٨٩٤م

الاب غبريال البطرك وهو من العدد السابع والخمسون [٩١٠ / ٩٢١م]

واوسمو غبريال بطركا، وكان شابا من اهل المه [الميه قرب شبين الكوم]، ودخل الى البريه وترهب بدير ابو مقار فى منشوبيه هناك تعرف بضرو تاوس [دورتاوس]، الذى هو ابوكما [الاسود] اخو يوحنا فى الرهبنة. وكانت طريقته حسنة فى المنشوبيه،

الرومانية المقدسة. وبعد موت لوثر الثانى عام ١١٣٨، وطد علاقاته مع خليفته كونراد الثالث (١١٣٨ - ١١٥٢)، بل زوج ابنه عمانوئيل من شقيقة زوجة كونراد، وتحول التصاهر الى تحالف حقيقى ضد النورمان. وكان من نتائج هذا التحالف أن تراجع النورمان عن خططهم وأطماعهم ازاء الامبراطورية الرومية، مما ساعد على حل القضية الانطاكية. ففى عام ١١٧٣ بعد أن فرغ يوحنا من حملة عسكرية فى اقليم قليقلة على إقليم ليديا بعد أن أوقع بهم عند ضور ليوم، كما استولى تنكود على طَرَسوس ومنها سار إلى أطنة ثم إلى المصيصة بمساعدة الأرمن ثم إلى مَرْعش التى ضمت إلى حكم بيزنطة.

سنة ٤٩٢ هجرية

استهلت السنة بيوم الأحد الموافق ٢٨ نوفمبر ١٠٩٨م.

* بدأ الصليبيون زحفهم على بيت المقدس بالاستيلاء على الرملة فى رجب من السنة (يونية ١٠٩٩) ثم فتحت لهم بيت لحم أبوابها وضربوا الحصار حول القدس وبدأ الهجوم الشامل بقيادة جود فرى دى بوايون وامتد ٤٠ يوماً وبعد استسلامها اعملوا فى أهلها السيف فكانت مذبحة رهبة شملت اليهود الذين جمعوا فى كنيس وأحرقوا فى دخله.

* شهدت هذه السنة فى يوم الجمعة ١٣ من شعبان سقوط بيت المقدس فى أيدى الصليبين وقيام ما عرف فى التاريخ الوسيط باسم مملكة القدس (أو اورشليم الصليبية).

* خرج أمير الجيوش الملك الأفضل على رأس جيش مصرى لانقاذ الموقف والتحم مع الصليبين المنتصرين عند عَسْقَلان فى شهر رمضان فكان مصير حملته الفشل، وفى الوقت نفسه احتل تَنكرد إقليم الخليل، وفى شمال الشام استولى بولدوين على قلعة البيرة وتخلى عنها لأحد زعماء الأرمن.

وكان كلمن فيها، حميد الطريقة، وكان فى هذه المنشوبيه قس شيخ كبير يسما مكسيموس يقول ان العادة جارية فى هذه المنشوبيه ان لا يتقدم احد منهم يقول «الليلويا» الا من حفظ المزامير كلها ظاهر [عن ظهر قلب] من غير كتاب، وكان ذلك سببا لمعرفة الرهبان [فى هذه المنشوبية] جميع المزامير ظاهرا. وكان لتقدمته نبوة من شيخ كبير يسمى دروتاوس، وذلك ان الاخوة حضرو عنده دفعة لياخذوا بركته، وحضر هذا غبريال معهم

فى آسيا الصغرى ضد السلاجقة نجح خلاها فى تأمين الطريق البرى الذى يربط بين القسطنطينية وأنطاكية، قرر أن يقوم بعمل عسكرى يضع به حدا لهذه المفاوضات التى طالت مدتها ـ مع زوج وريثة امارة أنطاكية النورمانية؛ وكان يوحنا قد فقد الامل فى نجاح هذه المفاوضات منذ عام ١١٣٥، وأخذ يبحث عن حلول أخرى؛ فاتصل ببعض الامراء الذين كان يعنيهم أمر النورمان، وعلى رأسهم أباطرة الامبراطورية الرومانية المقدسة، الذين كانوا يتطلعون لجعل أنطاكية

---

* خطب لمحمد شاه بن ملكشاه وأخوه السلطان بركياروق على منابر بغداد وهو مازال مقيماً بمدينة قُم وذلك بعد الاتفاق مع أمراء الموصل والجزيرة ولقبه الخليفة غياث الدنيا والدين (١٧ الحجة).

* شهدت السنة موت الفارس الأسبانى السيد (القمبيطور) فاتح بلنسية على أثر مقتل ابنه وتولت زوجته خمينا الدفاع عن بلنسية المحاصرة.

* تولت خمينا زوجة الفارس الأسبانى السيد (القمبيطور) المتوفى الدفاع عن مدينة بلنسية التى يحاصرها المرابطون.

* تولى عرش الدولة الغزنوية علاء الدولة أبو سعد مسعود الثالث خلفاً لأبيه إبراهيم المتوفى فأصبح بذلك السادس عشر من سلاطين الغزنويين.

* توفى السلطان الغزنوى ظهير الدولة إبراهيم بن مسعود (الثانى) بعد حكم دام ٤١ سنة.

سنة ٤٩٣ هجرية

وافق مستهل المحرم يوم الخميس ١٧ نوفمبر ١٠٩٩م.

* أعيدت الخطبة للسلطان بَرْكيَاروق فى بغداد.

فجلسو يسمعو كلامه كلهم الا غبريال، فانه اخذ بركته وخرج لانه كان يحب التفرد ولا يخالط احد، فمد الشيخ يده ومسك يد غبريال وجذبه اليه وهو مبتسم تبسم روحاني، وقال له: تهرب منى ايها الاخ ولا تجلس عندى لمحبتك الوحدة، اقول لك يا ولدى انك لابد تجلس فى وسط جمع كبير رجال ونسا معا. فلما مسكوه غصبا ليجعلوه بطركا ذكر كلام هذا الشيخ القديس. ولما مضى الى اسكندرية ليكرزوه قال له أهل اسكندرية كما

جزاء تابعا لهم فى الشرق؛ كما استعان بجمهوريتى بيزا وجنوده، وكسبها الى جانبه، بعدما كانتا حليفتين للنورمان. واستطاع يوحنا أن يقنع الامبراطور لوثر الثانى بغزو جنوب ايطاليا، وكان لوثر الثانى مؤيدا من قبل البابوية على أمل ضم الممتلكات النورمانية الى الممتلكات البابوية بعد سقوط هذه الدولة. وفى ضوء ذلك تقدم يوحنا نحو أنطاكية، فضرب الحصار حولها، حتى استسلمت، وقبل زوج الوريثة النورمانية شروط يوحنا فى الاعتراف

---

* وصل إلى ميناء يافا اسطول من البندقية يضم مئتى سفينة للمساهمة فى حرب المسلمين على أن يكون لهم ثلث الفتوح والغنائم، وذلك بعد أن سقطت يافا فى أيدى الصليبيين، وأعلنت عسقلان وقَيْسارية وعكا ولاءها للصليبيين فى نظير جزية مشتركة مقدارها ٥٠٠٠ دينار شهريا.

* فى الشمال أوقع ملك غازى بن دانشمند صاحب سيواس فى الأنضول بالصليبين واستعاد منهم مَلَطية، وفى الوقت نفسه ضرب بوهيموند الحصار حول أنطاكية.

* تعقب السلطان بركياروق الباطنية من طائفة الحشاشين وقتل منهم نيفا وثلاثمائة.

* أرسل تنكرد النورماندى (ابن أخت بوهيموند صاحب أنطاكية وخليفته) إلى الأمير دَقَّاق (أو دقماق) بن تتش صاحب دمشق إنذاراً يدعوه فيه إلى اعتناق المسيحية أو إخلاء دمشق على الفور ورد دقاق بأن أعدم رسله إليه باستثناء واحد اعتنق الإسلام.

* فى ٢٦ شوال (٩ أغسطس ١١٠٠) سقطت حيفا فى أيدى الصليبيين.

* زاد عبثُ العَّيارين ببغداد وتعاظم خطرهم فأمر الخليفة وزيره بتطهير البلد منهم سجناً ونفياً.

* توفى اغتيالا على أيدى الباطنية: الأمير بلكابك بأصبهان وهو فى ديوان السلطان، ووزير

جرى عادتهم: اكتب لنا خطك بالامانة، فقال لهم كلمة عجيبة: اتونا بنجار يعمل لهولاى القوم امانة جديدة، ما الحاجة الى الخط، نحن مقيمين على الامانة المستقيمة التى رسمها الابا الثلثماية وثمنية عشر بمدينة نيقية، لا نزيد عليها ولا ننقص منها.

فلما كرزوه طالبوه اهل اسكندرية بالالف دينار الذى قررها انبا خايال المتنيح عوضا مما اخذه من رباع الكنيسة، فلم تصل قدرته الى شيء، فاقتضى

بأن أنطاكيـــة اقطاع من لدن امبراطورية القسطنطينية، وعلى أن يضع نفسه في خدمتها؛ وتعبيرا عن ذلك، رفع البيرق الامبراطورى الرومى فوق قلعة المدينة، كما تعهد بوحنا من جانبه، بمساعدة امارة أنطاكية، والامارات الصليبية الاخرى فى الشام، فى الاستيلاء على المدن العربية الهامة التى لم تسقط بعد مثل حلب، وحمص، وحماة؛ كما تضمن الاتفاق الجديد نصا يعطى لامبراطورية الروم الحق فى استعادة أنطاكية، اذا ما تمكن النورمانيون فى الاستيلاء على

السلطان بركياروق أبو المحاسن الدهستاني، ووزير محمد ابن ملكشاه مؤيد الملك بن نظام الملك.

* شهدت السنة موت الدوق جودفرى دى بوايون الصليبى فاتح بيت المقدس الوصى على عرش القدس والملقب حامى القبر المقدس وبطل ملحمة الشاعر تاسو (تحرير القدس) وأخو بلدوين أول ملوك مملكة القدس.

سنة ٤٩٤ هجرية

استهلت السنة بيوم الثلاثاء ٦ نوفمبر ١١٠٠م.

* أصبحت القدس وما حولها مملكة صليبية ففى شهر ربيع من السنة (٢٥ ديسمبر) توج بولدوين دى بوايون وكان على الرها ملكاً على القدس ووضع مبعوث البابا الاسقف دايمبرت تاجا على رأسه فى كنيسة بيت لحم ثم انه سار إلى ميناء أرسوف واستولى عليها وكانت تابعة للفاطميين.

* انفذ الخليفة الفاطمى بعد فوات الأوان حملة لانقاذ القدس بقيادة سعد الدولة القواسى والتقت قواته بالصليبيين عند عسقلان ولكنه انهزم.

٥٧: الاب غبريال البطرك ٩١٠/٩٢١م

الحال ان مشى فى الكرسى، وحل القوانين، وصار كلام الله متجر يباع بالدنانير لمن يطلب ان يقسم [يعين] كاهنا واستقرت الدياريه فى جميع كراسى مصر على كل نسمة من الرجال والنسا قيراط ذهب فى السنة وصار الاساقفة ياخذو ذلك فيقتاتو به ومنه يدفعو الدياريه للبطرك فى كل سنة، وهى جملة دنانير على كل واحد على قدر كرسيه، فيدفع منه لاهل اسكندرية المستقر لهم، ويصرف الباقى فى صدقات رعيته.

احدى هذه المدن ونقلوا مركزهم اليها؛ ولهذا السبب ساعدت جيوش يوحنا الصليبيين والنورمان ضد المسلمين؛ غير أن نجاح الصليبيين كان محدودا نظرا لمقاومة المسلمين؛ وبالتالى رفض النورمان تسليم أنطاكية ليوحنا، الذى أصر على جلاء النورمان عنها فى الحال، لانه ساعدهم فى تحقيق بعض الانتصارات، واستعد لتخليصها بالقوة من براثن النورمان.وتمهيدا لذلك جدد فى عام ١١٤٠م تحالفه مع الامبراطور كونارد الثالث. وفى عام ١١٤٢ تقدم نحو

---

* استولى ريموند الصنجيلى على ميناء طَرَطوس بمساعدة اسطول جنوه:

* بينما كانت الأحداث تجرى على هذا النحو فى فلسطين كان الخليفة العباسى ببغداد منصرفاً إلى خلافاته المذهبية مع الفاطمين الشيعة فأمر بالجهر بالتسليمة فى الصلاة نكاية بهم وأن يفتح مسجد قصره لصلاة التراويح، وفى الوقت نفسه تجددت الحرب بين السلطان بركياروق وأخيه محمد بن ملكشاه (جمادى الآخرة) وفيها انهزم الثانى عند همذان وأسر وزيره مؤيد الدولة وقتل وسار بَرْكَيارُوق إلى الرى ومنها إلى بغداد.

* شهد هذا التاريخ السنة السابعة والأخيرة من خلافة المستعلى بالله الفاطمى بمصر.

سنة ٤٩٥ هجرية

وافق هلال المحرم يوم السبت ٢٦ أكتوبر ١١٠١م.

* حكم فى هذه السنة خليفتان فاطميان بمصر، ففى أولها كان على مصر الخليفة المستعلى بالله ثم خلفه فى صفر من السنة ابنه على المنصور باسم الآمر باحكام الله وله خمس سنين.

* استجاب ألفونسو السادس ملك قشتالة لاستغاثة خمينا زوجة القمبيطور للدفاع عن

٥٧: الاب غبريال البطرك ٩١٠-٩٢١م

انطاكية بقواته، لكن القدر لم يمهله لتحقيق هذا الحلم؛ فبينما يقضي بعض الوقت في رحلة صيد فوق جبال قلقيلة، أصابه سهم طائش مسموم في ذراعه، تسبب في موته بعيدا عن عاصمته وعرشه. وهكذا انتهت حياة هذا الامبراطور الشجاع.

الامبراطور عمانوئيل الاول كومنين (١١٤٣-١١٨٠م):

وقبل أن توافيه المنية، اختار يوحنا كومنين أصغر ابنائه من زوجته الهنغارية وهو عمانوئيل ليكون وريثا للعرش من بعده ؛ فقد كان عمانوئيل

وقيل عن هذا القديس انبا غبريال البطرك انه اقام مدة بطركيته كلها في وادى هبيب لم يفارقه ولم يسكن الريف ولا مصر ولا اسكندرية. وكان اذا خرج من هناك في امرمهم يكون مثل الغريب الى ان يرجع الى الوادى المذكور. وذكر عنه ايضا ان شهوة الخطية كانت تعذبه، وانه لاجل ذلك كان يصوم مدة لا يفطر، فلم يجد لذلك راحة لانه كان في بدايته وشبابه قد اذل نفسه واتعبها، فلما صار بطركا ووجد الراحة هاج عليه هذا الامر،

بلنسية التي يحاصرها المرابطون ولكنه لم يلبث أن ارتد عنها كما اخلاها سكانها من النصارى وفي الأول من شعبان (٥ مايو) من السنة استعادها المرابطون بقيادة الأمير أبي محمد المزدلي بعد ثماني سنوات من الوجود الأسباني.

* في شعبان من السنة كذلك انفذ الفاطميون حملة ثانية لانقاذ فلسطين من الصليبيين بقيادة شرف المعالي ابن أمير الجيوش فأوقع الهزيمة ببولدوين الذى توج ملكا على القدس عند الرملة (مايو ١١٠٢).

* وقعت الفتنة بين شِحنة بغداد إِيلْغازى بن أُرتق والعامة حتى تدخل الخليفة في الأمر.

* تولى وزارة الخليفة العباسي سديد الدولة أبو المعالي عبدالرازق ولقب عضد الدولة.

* تجدد القتال للمرة الثالثة بين السلطان بَرْكِيارُوق وأخويه محمد شاه وسَنْجر وتقرر الصلح بسبب ملل المحاربين من الطرفين على أن يكون بركياروق السلطان ومحمد شاه الملك ولكن لم يلبث القتال أن تجدد للمرة الرابعة عند الري.

* في ١٤ صفر من السنة توفي بالقاهرة الخليفة الفاطمي المستعلي بالله وله ٢٧ سنة حكم منها نحو ثماني سنين وكان قد بويع خلفاً لأبيه المستنصر بيد أن الأمر كان لوزير أمير الجيوش الأفضل الجمالي، وقد شهد حكمه الحملة الصليبية الأولى، وخلفه ابنه المنصور باسم الأمر باحكام الله.

فلما اتعب نفسه بالصوم ولم يجد راحة شكا ذلك للشيوخ الرهبان، فاشرو عليه وقالو له ان هذه النفس لا يذلها الا التواضع والهوان. فعند ذلك عمل مجرفة حديد لنفسه، وصار يقوم فى الليل بعد الصلاة ويلبس تراج بلاكم، يطوف على قلالى الرهبان من برا، وينظف بيوت ما هم [مائهم: المراحيض] من غير ما يعلم به واحد فاقام كذلك سنين الى ان زال عنه ذلك. واقام احد عشر

أحب الابناء الى قلب أبيه ولهذا خطب له برتا Bertha الالمانية شقيقة زوجة صديقه كونراد الثالث امبرطور الدولة الرومانية المقدسة فى الغرب تمهيدا لتوليه العرش؛ ولقد نشأ عمانوئيل محبا لطريقة الحياة الاوروبية الغربية التى وجد فيها الكثير من التقاليد الجديدة التى هام بها حبا، فقد سحره طريقة عمل وتقاليد البلاط فى قصور أباطرة وملوك أوربا؛ كما كان شديد الوالع بنظام الفروسية فى أوروبا وقواعدها التى يتقيد بها الفارس؛وعشق مبارياتها ومبارزات

سنة ٤٩٦ هجرية

وافق الأول من المحرم يوم الأربعاء ١٥ أكتوبر ١١٠٢م.

* السنة الأولى من خلافة الآمر بأمر الله الفاطمى فى مصر التى امتدت نحوا من ٣٠ سنة.

* تجددت الحرب للمرة الخامسة بين السلطان بركياروق وأخيه محمد شاه باذربيجان وتوقف القتال بسبب اعياء عسكر الجانبين.

* استولى دُقاق (ابن تُتش) صاحب دمشق على الرَحبة.

* هاجم الملك الصليبى بولدوين مدينة عكا براً إلا أن ضعف قواته البحرية دعته إلى رفع الحصار.

* اطلق المسلمون سراح بوهيموند صاحب أنطاكية وعاد إليها ولكن لم يلبث أن غادر الأراضى المقدسة إلى أوروبا وترك حكم الرُّها إلى ريتشارد دى سالرنو.

* جنحت بعض السفن الصليبية أمام ساحل الشام فاسرت السلطات الفاطمية مَن عليها وبيعوا رقيقاً فى القاهرة.

* اغتال الباطنية الفقيه أبو المظفر بن الخَجَنْدى بالرى وقتل قاتله.

٥٧: الاب غبريال البطرك ٩١٠/٩٢١م

سنه بطركا، وتنيح فى الحادى عشر من امشير ودفن فى دير ابو مقار بوادى هبيب.

قسما [قزما] البطرك وهو من العدد الثامن والخمسون

[٩٢١/ ٩٣٣م]

وقسم بعده قسما [قزما] بطركا وظهر فى ايامه امر عظيم عجيب، وذاك انه رسم مطرانا من الرهبان على بلاد الحبشة، وهى كورة واسعة التى هى مملكة سابا، وهى التى كانت ملكة التيمن

الفرسان ؛ فادخل هذا النظام فى بلاط القسطنطينية بعد توليه العرش، وأحاط نفسه ببطانة من الاوروبيين الذين جلبهم من انجلترا وفرنسا وايطاليا، حيث أسند اليهم الاشراف على المراسيم «والاتيكيت» فى البلاط، وكذلك فى ادارة القصر. ونتيجة لهذا الانفتاح على الحياة الاوروبية، سرت فى عهده موجة تقليد للسلوك الاوروبى بين شباب الروم من أبناء الطبقات الراقية؛ وفى تبنى نظامى الفروسية والاقطاع، أهم ملامح الحضارة الأوروبية فى العصور

سنة ٤٩٧ هجرية

استهلت السنة بيوم الاثنين الموافق ٥ أكتوبر ١١٠٣م.

* جرى الصلح بين أولاد السلطان ملكشاه السلجوقى على أن يكون اسم السلطنة لبركياروق ويخطب له فى بغداد والعراق وفارس، وأن تكون أرمينية وأذِربيجان والجزيرة والموصل لمحمد شاه وأن تكون خراسان لسَنجر.

* فى جمادى الثانية وصلت عمارة بحرية جنوية مددا للصليبيين فأغارت على طرابلس ولكن ردت عنها ثم استولت على جُبيل صلحا ففتك الصليبيون بأهلها.

* فى شعبان من السنة سقطت عكا فى يد بلدوين ملك القدس بعد أن استعان بالأسطول الصليبى (مايو ١١٠٤) وكان يعليها زَهْر الملك أمير الجيوش الذى قاتل حتى عجز فاستسلم فنقض الصليبيون العهد وفتكوا بأهلها فبذلك سقطت آخر معاقل الفاطميين الهامة فى الشام.

* تحالف معين الدولة سُقْمان بن أُرْتق وشمس الدولة جكرمش على قتال الصليبين بالرغم من الحروب التى بينهما ولاذ بوهيموند صاحب أنطاكية بالفرار.

* استولى المرابطون على إمارة ألبونت بالأندلس ثم على شنتمرية الشرق.

* استولى بُلُك بن بهرام الارتقى على مدينة عانة من بنى يعيش بعد أن أجلاه الصليبيون من سُروج.

[اليمن] جاءت منها الى سليمن ابن داوود الملك، وإذا اراد ملكها يطوفها يقيم سنة كاملة يطوف سوى ايام الاحاد الى ان يعود الى مكانه. وهى كورة مجاورة للهند وما يليه، وهى داخلة فى كرسى مارى مرقص الانجيلى الى يومنا هذا. فلما انفذ المطران المذكور الى هناك، وكان اسمه بطرس، فقبله ملكها المبارك بابتهاج. فلما قربت وفاة ملكها احضر المطران وسلم اليه تاج المملكة ولديه وقال له: انت خليفة الملك المسيح الاله

الوسطى. وبلغ من تساهله مع مواطنى البلدان الاوروبية أن سمح لهم بامتيازات لم تمنح لاى شعب من قبل، فقد أقام مواطنوا المدن التجارية الايطالية فى القسطنطينية وكالات تجارية دائمة. مثل البنادقة وأهل جنوة وبيزا، كما أقاموا فنادق وحانات وملاهى، ولهذا أصبحت الحياة الاجتماعية فى عصر عمانويل أكثر تنوعا وصخبا عن ذى قبل؛ أما على المستوى الشعبى فقد سبب ذلك موجة من السخط والكراهية ازاء ملك الاوروبين الكاثوليك، واحتقار

---

* شهدت السنة وفاة الملك دُقَاق (أو دُقمان) بن تتش صاحب دمشق (وأخو رضوان صاحب حلب فخطب لابنه وله عام ثم لعمه بكتاش بن تتش (فى الحجة) وله ١٠ سنين وكان الأمر كله للاتابك طغتكين جد البوريين أصحاب دمشق بعد ذلك.

سنة ٤٩٨ هجرية

وافق مستهل المحرم يوم الجمعة ٢٣ سبتمبر ١١٠٤م.

* فى ٣ ربيع الثانى خطب فى بغداد للسلطان ملكشاه الثانى ابن بركياروق وله من العمر ٥ سنوات وذلك خلفاً لأبيه.

* استقل طُغتكين بإمارة دمشق وكان من مماليك تتش السلجوقى مؤسساً بذلك دولة بنى بورى التى حكمت الشام نيفا ونصف قرن وعرف طغتكين باسم معتمد الدولة ظهير الدين.

* انفذ الفاطميون حملة ثالثة إلى الشام بقيادة سناء الملك حسين ابن أمير الجيوش يعاونه أسطول بحرى مع محالفة طُغتكين أمير دمشق فكان أول تحالف إسلامى سنى شيعى ضد الصليبين.

* جرت الحرب بين تنكرد صاحب أنطاكية (خليفة بوهيموند) ورضوان ابن تُتش صاحب حلب وفيها انهزم رضوان عند أرتاح التى استولى عليها تنكرد.

العظيم الذى كل ممالك العالم بامره وهوذا قد سلمت اليك مملكتى وولدى وجعلتهم فى يديك لتدبرهم بارادة الرب، ومن رايته منهم مستحقا وديعا خيرا اجعل عليه تاج المملكة. ثم تنيح الملك، وكان المطران رجل عاقل، فراى الولد الصغير اوفا من الكبير، فجعل عليه التاج واجلسه ملكا. واذا براهب من دير انبا اندونه [من اديرة وادى النطرون] يدور البلاد ويجوب الارض ومعه رفيق له يدور معه [مينا]، وكان اسمه بقطر،

لطريقة حياتهم؛ وبالمثل بادل الكاثوليك الغربيون المواطنين الروم الارثوذوكس الكراهية والاحتقار، فعاملوهم باستعلاء، واتهموا بالنفاق وخيانة القضية الصليبية، حتى أنهم كانوا يصفون الشخص الماكر والمداهن واللعوب والمنافق بأنه «ذو مسلك بيزنطى».

ولهذا حرص عما نويل، بعد توليه العرش على زيادة وتوثيق علاقاته مع أمراء الصليبيين فى المشرق الاسلامى، خاصة مع بلدوين الثالث أمير بيت المقدس، وكو نراد

---

* بينما أحداث الحروب الصليبية مستعرة بعث أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين المرابطى صاحب المغرب والأندلس إلى الخليفة المستنصر ببغداد يخبره بأن خطب له على منابر ممالكه وطلب الخلع والتعليق فانفذها إليه.

* تفاقم خطر الباطنية من طائفة الحشاشين فقطعوا فى هذه السنة الطريق على قافلة الحج عند الرَيّ وقتلوا وسلبوا وغنموا ومن ضحاياهم الفقيه أبو الفرج ابن المشاط.

* شهدت السنة وفاة السلطان بَرْكْيَاروق فى الثانى من ربيع الثانى له من العمر ٢٥ سنة منها ١٢ سنة في حروب مع أخوته وذلك فى الطريق من أصبهان إلى بغداد وجُعل الأمير إياز اتابكا لابنه الطفل.

* توفى فى هذه السنة معتمد الدولة سُقْمان الأرتقى مؤسس الدولة الأرتقية وهو فى الطريق من حصن كيفا إلى دمشق خوف استيلاء الصليبيين عليها مات بعلة الخوانيق، وفيها توفى جيّاش بن نَجاح الحبشى صاحب اليمن ومؤلف كتاب المفيد فى أخبار زبيد.

* شهدت السنة وفاة الزعيم الصليبى ريموند الصنجلى (دى سان جيل) أثناء حصار طرابلس وهو الذى كان قد استولى على طَرَطُوس قبل ذلك، وخلفه وليم جوردان (٢٨ فبراير ١١٠٥).

فمضيا الى بلاد الحبشة وحضرا عند المطران [بطرس] وطلبا منه ان يعطيهما دنانير ويبرهما بشى من ماله، فلم يدفع لهما شيا. فعلمهما الشيطان ان لبس احدهما ثياب الاساقفة والاخر عمل تلميذه، وكتبو كتب مزورة [لابن الملك الكبير] عن البطرك يقولو فيها: «بلغنا ان جا الى عندكم انسان ضال اسمه بطرس وحكى عنا انا انفذناه اليكم مطرانا، وليس هو صحيح ولا الكتب الذى معه من عندنا ولا نحن رسمناه بل زور عنا ما

الثالث امبراطور الدولة الرومانية المقدسة؛ وحرصا على هذه العلاقة أتم زواجه من برتا Berthaالتى كانت: مخطوبة له منذ عهد أبيه، حتى يتحول التصاهر الى تحالف وثيق العرى بين الامبراطورية الرومية، والامبراطورية الرومانية المقدسة، على أمل أن يؤدى ذلك الى اتحادهما عن طريق وريث يجمع بين الدماء اليونانية الشرقية والدماء الأوربية الغربية، وبذلك يعيد احياء الامبراطورية الرومانية القديمة بشطريها، فقد كان الامبراطور عمانونيل طموحا يقتفى

سنة ٤٩٩ هجرية

وافق هلال المحرم يوم الأربعاء ١٣ سبتمبر ١١٠٥م.

* أغار قلج أرسلان على الرها وفرض حصاراً حولها.

* وقعت الحرب بين طُغْتكين أتابك دمشق والصليبيين بسبب بناء حصن.

* استولى الباطنية على حصن فاميّة وقتلوا صاحبه خَلَف بن مُلاعب فخف إلى نجدتهم تنكرد صاحب أنطاكية إلا إنه انصرف دون أن يحقق شيئاً.

* استولى صَدَقة صاحب الحلة بايعاذ من السلطان على البصرة من صاحبها إسماعيل بن أرسلان.

* أغارت قوات فاطمية فى فلسطين على قافلة من الصليبيين بين يافا وارسوف.

* ظهر بنواحى نهاوند رجل يدعى النبوة وتعلق بالسحر والنجوم فتبعه خلق كثير وحملوا إليه الأموال ثم أُخذ وقتل.

* اغتال الباطنية بأصبهان القاضى أبو العلاء صاعد النيسابورى عن ٧٠ سنة.

مسيرة جستنيان وحروبه من أجل بناء الامبراطورية الموحدة. ولهذا كان ينظر الى الجـزء الأوروبى كـجـزء تابع لامبراطورية الروم، ويتحين الفرصة لتحقيق ذلك. وعندما وصل موكب العروس الالمانية برتا الى القسطنطينية، أقيمت الافراح، ومدت المآدب، اعلانا بالزواج والاتحاد؛ فقد كانت الاميرة الالمانية تحمل معها خطابا من كونراد الثالث، يتعهد فيه بالدفاع عن الامبراطورية والامبراطور فى حالة تعرضهما لأى خطر، وفى القصر الامبراطورى أعطيت الامبراطورة

وصل اليكم على يده. والذى انفذناه صحيحا وهو المطران الواصل اليكم بكتبنا على يديه، فعند وقوفكم عليها ابعدو بطرس عنكم، واجلسو هذا مينا على الكرسى. وبلغنا ايضا انه اجلس ابن الملك الصغير فى المملكة ورفض الكبير، وهذا ظلم لان الكبير احق بالملك من الصغير». ومضيا بالكتب الى ابن الملك الكبير، وكان منفرد فى موضع وحده وكان قد تبعه يسير من الناس، فلما وقف على الكتب المزورة فرح جدا وجمع اليه

سنة ٥٠٠ هجرية

استهلت السنة بيوم الأحد ٢ سبتمبر ١١٠٦م.

* فى الأول من المحرم تولى أمير المسلمين أبو الحسن على بن يوسف ابن تاشفين عرش المرابطين فى المغرب والأندلس خلفاً لأبيه وله من العمر ٢٣ سنة.

* سقط حصن فامية فى مستهل العام فى يد تنكرد بعد أن جرد عليه حملة ثانية وكان الحصن قد استولى عليه الباطنية وقتلوا صاحبه خلَف ابن مُلاعب فلجأ ابنه مصبح إلى تنكرد كما استولى على كفر طاب واستعد للهجوم على شيرز وعليها آل منقذ.

* استولى صَدَقة بن مَزيد صاحب الحِلة على تِكْريت كما استولى قلج أرسلان على الموصل.

* رحل فى هذه السنة إلى المشرق محمد بن تُومَرت وهو ابن ١٥ سنة وهو الذى عرف فيما بعد باسم المهدى ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين وحج وجاور وانتهى إلى العراق.

* أذن البابا باسكال الثانى للأمير بوهيموند بتنظيم حملة صليبية ضد الامبراطورية

٥٨: الاب [قزما] البطرك ٩٢١/٩٣٣م

الجيش وعرفهم بالكتب وما فيها ووجد بها السبيل الى محاربة اخيه، وانظم [انضم] اليه الجيش فغلبه وقبض عليه ونفاه، ونفا المطران ايضا، واجلس ذلك الراهب مينا عوضه. ومن بعد ايام يسيرة وقع الخلف بين هذين الراهبين المزورين، فنهب بقطر قلاية المطرنة واخذ جميع ما فيها، وانهزم هاربا الى ديار [الإسلام] واسلم واتلف جميع ما وصل صحبته فيما لا يرضى الله. فلما بلغ البطرك [قزما] خبر مينا وما فعله حتى نفا المطران وجلس عوضه

الالمانية لقبا يونانيا حسب تقاليد العرش وهو أيرينى (Irene) ومعناه «السلام» أى بين الشرق اليونانى والغرب اللاتينى. وبعد الزواج شرع عمانوئيل فى استثمار تعهد كوانراد الثالث لردع «روجر» ملك صقلية وجنوب ايطاليا النورمانى، وثنيه عن أى أحلام فى غزو اراضى الامبراطورية فى الغرب خاصة فى بحر الادرياتك، وكذلك فى ارهاب حكام امارة أنطاكية وما حولها، لكن خططه قلبت رأسا على عقب عندما فوجئ بوصول الحملة الصليبية الثانية، حتى

البيزنطية على سبيل الانتقام مما اضطر الامبراطور إلى استدعاء معظم قواته من اللاذقية وقليقية لمواجهة هذا الخطر الجديد.

* شهدت هذه السنة وفى اليوم الأول منها وفاة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين وفاتح الأندلس وصاحب الانتصار الساحق فى معركة الزلاقة الحاسمة ضد التجمع المسيحى الأسبانى.

* توفى السلطان السلجوقى قلج أرسلان مات غريقاً فى نهر الخابور فى قتاله مع رضوان صاحب حلب.

* قتل وصلب زعيم الباطنية من طائفة الحشاشين ابن عطّاش (أحمد بن عبدالملك) كان قد استولى على قلعة أصبهان فطارده السلطان محمد بن ملكشاه حتى قبض عليه.

* توفى عن ٦٦ عاما الوزير أبو المظفر فخر الملك (ابن الوزير نظام الملك) وكان وزيراً للسلطان بركياروق ثم للسلطان سَنجر اغتاله أحد الباطنية فى يوم عاشوراء (١٠ المحرم)، كما لقى حتفه أخوه سعد الملك وكان وزيراً للسلطان محمد ابن ملكشاه قتله بسبب اشتراكه فى مؤامرة.

برتا (ايرينى) لم تنجب له الذكر الذى قد يطالب بعرش الغرب مستقبلا، لانها أنجبت له بنات.

عما نوئيل والحملة الصليبية الثانية:

وفى العام التالى لتولى عمانوئيل عرش الامبراطورية الرومانية، أى فى عام ١١٤٤م (٥٣٩هـ) نجح أتابك الموصل عماد الدين زنكى فى استعادة مدينة الرها Edessaوما حولها بعد حصار طويل كان قد ضربه على المدينة، حتى استسلمت ، وبذلك قضى على أول وأقدم امارة أقامها الصليبيون فى المشرق الاسلامى، ولقد

حزن جدا وكتب كتبا احرمه وقطعه، فلما سمع الملك ذلك اخذ مينا الراهب المزور فقتله، ولم يعد البطرك يقسم لهم مطرانا بقية ايام بطركيته، ولا البطرك الذى جلس بعده الى تمام خمسة بطاركة وهو فيلاتاوس.والسيرة توضح لنا ذلك عند ما نحتاج الى معرفته اذا بلغنا اليه بمعونة الله لانه لا يجوز لنا ان نذكر بقية هذا الخبر قبل ان نصل اليه، ثم ان الملك انفذ الى بطرس المطران ليعيده الى كرسيه، فوجده قد توفى فى النفى وبقى تلميذه

مصر من حكم الطولونيين حتى نهاية حكم المماليك

أولاً: مصر فى عصر الطولونيين

(٢٥٤ ـ ٢٩٢هـ = ٨٦٨ ـ ٩٠٥م)

١. أحمد بن طولون فى سامرا

فى سنة ٢٥٤م (٨٦٨م) أقطع الخليفة العباسى المعتز، مصر، للقائد التركى باكباك، فأرسل هذا القائد نائبا عنه الى وادى النيل. وكان هذا النائب هو أحمد بن طولون الذى أصبح من الشخصيات ذات الشأن فى تاريخ مصر.

وكان طولون، والد هذا النائب من العنصر التركى من بلاد ما وراء النهر (التركستان الروسية سابقا). ويقال انه كان ضمن الجزية التى أرسلها حاكم بخارى الى البلاط العباسى فى سنة من السنين، كما يقال أيضا انه كان مملوكا لنوح بن أسد والى بخارى وان نوحا أعتقه وأهداه الى الخليفة العباسى المأمون. ووصل طولون الى البلاط فى بغداد نحو سنة ٢٠٠هـ (٨١٦م). أما اسمه طولون فمشتق من كلمة تركية بمعنى البدر الكامل.

وتقدم طولون بمواهبه وصفاته العسكرية الى أن وصل الى رياسة حرس الخليفة. والظاهر انه لم يكن له شأن عظيم فى الدسائس والثورات التى قام بها الجند الترك منذ وفاة المعتصم سنة ٢٧٧هـ (٨٤٢م).

٥٨: الاب [قزما] البطرك ٩٢١/٩٣٣م

فطلب ان يسير الى مصر فلم يمكنه الملك وقال له تجلس عوضا من معلمك. فسال الملك ان يمكنه من السير الى مصر ليرسمه البطرك مطرانا ويعود، فلم يفعل بل لبسه الثياب بغير اختياره، واجلسه بغير قسمة، ومكث الى زمان الاب فيلاثاوس البطرك حتى شاخ وكبر جدا، وكان يفعل افعال الاساقفة. ثم ان الاب قسما [قزما] تنيح، وكانت مدته فى البطركية اثنى عشر سنة، وتنيح فى اليوم الثالث من برمهات صلاته معنا امين.

أحدث سقوط امارة الرها الصليبية فى أيدى المسلمين دويا هائلا فى الغرب المسيحى فقد كانت امارة الرها خنجرا فى ظهر الجبهة الاسلامية، تعيق وحدتها فضلا عن أهمية المنطقة الاستراتيجية، وتحكمها فى الطريق الذى يربط بين الموصل والشام.
ولما كان بابا الكنيسة الكاثوليكية يوجينيوس الثالث Eugenius غارقا فى صراعه مع الامبراطور كونراد الثالث، فقد كان فى وضع لايسمح له بتزعم الدعوة لحملة صليبية ثانية ضد ديار الاسلام فى المشرق، ولهذا تولى عنه

وولد ابنه أحمد فى بغداد سنة ٢٢٠هـ (٨٣٥م)، ثم انتقل مقر الحكومة العباسية فى السنة التالية من بغداد الى سامراء، وهى العاصمة الجديدة التى أنشأها المعتصم شمالى بغداد. ونشأ أحمد ابن طولون فى سامرا حيث تلقى العلوم العسكرية التى كان يتلقاها الجند الترك، ودرس فضلا عن ذلك قسطا من العلوم الدينية.

ورحل أحمد بن طولون الى مدينة طرسوس، وكانت من أهم الثغور الشامية الواقعة على الحدود بين الدولتين الاسلامية والبيزنطية، وذلك للاشتغال بالجهاد فى محاربة البيزنطيين فى هذه المدينة.

ولفت أحمد بن طولون الأنظار منذ شبابه المبكر الى شجاعته ومرءوته، والمصادر التاريخية تعطينا صورا مختلفة لذلك.

وتوفى طولون، والد أحمد، فى سنة ٢٤٠هـ (٨٥٤م). ولقى أحمد بن طولون وأخوه موسى الشئ الكثير من عناية الجند الترك بعد وفاة أبيهما.

٢. أحمد بن طولون فى مصر

ذكرنا أن الخلفاء العباسين منذ خلافة المعتصم (٢١٨ـ ٢٧٧هـ)درجوا على اقطاع مصر للقواد الأتراك، وكان هؤلاء القواد الترك يؤثرون البقاء فى عاصمة الخلافة ويرسلون من يقوم

انبا مقاره [مكاريوس] وهو من
العدد التاسع والخمسون
[٩٣٣/ ٩٥٢م]

وقسم عوضه مقاره الراهب من دير ابو مقار، من ضيعة بالريف تسمى شبرا [شبراخيت] قريب من اسكندرية، كرز فى اسكندرية ودير ابو مقار ومصر على العادة.

فلما نجز شغله من مصر، انحدر الى اسكندرية

ذلك لويس السابع ملك فرنسا، الصديق الحميم لروجر الثانى ملك صقلية النورمانى، والعدو الاول لأمبراطور الروم. وكلف البابا الراهب برنارد رئيس رهبان دير سانت كلير فو Clarovaux بالدعوة للحملة الصليبية الثانية؛ كما نجح لويس السابع فى اقناع خصمه الالمانى كونراد الثالث بالاشتراك فى هذه الحملة أملا فى ايجاد موضع قدم للامبراطورية الرومانية المقدسة فى المشرق الاسلامى. ولذلك تلقى عمانوئيل أنباء هذه الحملة بقلق شديد، فقد

بالأمر نيابة عنهم، على أن يحمل اليهم هؤلاء النواب الأموال ويدعون لهم على المنابر كما يدعى للخليفة. وكان باكباك من أعظم قواد الترك شأنا فى خلافة المعتز (٢٥٢ـ٢٥٥م/٨٦٦ـ٨٦٩م)، وكان متزوجا حينذاك من والدة أحمد بن طولون بعد وفاة أبيه طولون.

وحين أقطع باكباك مصر، وقع اختياره على أحمد لينوب عنه فى حكمها.

ولكن أحمد بن طولون لم يعين نائبا عن باكباك فى حكم مصر كلها، بل كان على الاسكندرية نائب خاص بها، وعلى برقة نائب آخر، وكانت برقة تتبع مصر.

ووجد أحمد بن طولون عند قدومه الى مصر، أن صاحب النفوذ فيها هو أحمد بن المدبر العامل على الخراج، وكان معينا من قبل الخليفة، فبدأت المنافسة بين الرجلين. وأدرك ابن المدبر أن أمره لن يستقيم مع النائب الجديد، فبدأ يدبر له المكائد والدسائس بواسطة أعوانه فى بلاط الخليفة ودوائر الحكومة ليصل الى عزله. ولم يكن ابن المدبر يعلم أن ابن طولون كان قد استمال اليه رجال البلاط العباسى بالهدايا النفسية واتخذ له نائبا فى سامرا يوافيه بكل ما يجرى فى الخلافة، وفشل ابن المدبر فى محاولاته لعزل ابن طولون كذلك لم يرحب بقدوم ابن طولون، شقير الخادم، عامل البريد وكان من موالى والدة الخليفة المعتز.

كان يدرك مطامع الملك الفرنسي، والامبراطور الالماني، في أراضي أمبراطورية الروم آسيا الصغرى، كما خاف عمانويل من أن تذهب هذه الحملة بالنفوذ الذى حققة بصعوبة على الامراء الصليبين في المشرق وعلى حاكم أنطاكية الصليبي بالذات، كما أن ذكرى أعمال السلب والنهب،التي قام بها جنود الحملة الاولى في أراضي الامبراطورية الرومية في آسيا الصغرى كانت لاتزال عالقة بالاذهان؛ ولهذا شرع عمانويل على الفور في ترميم اسوار وقلاع العاصمة. و لما وصلت القوات الالمانية الى القسطنطينية في شهر سبتمبر عام ١١٤٧(٥٤٣هـ)، أظهر عمانويل نفسه بمظهر المضياف الكريم مثل جده وأبيه، لكنه كان يتمنى اللحظة التي يتخلص فيها من هؤلاء الضيوف الفضوليين. وبعد أن حصل منهم على يمين الولاء لشخصه، والتعهد بأعادة كل الأراضي التي يخرجوا المسلمين منها الامبراطورية الرومية، قام بنقل القوات الالمانية الى آسيا الصغرى، قبل وصول القوات الفرنسية حتى لايعطي الامبراطور الالماني والملك الفرنسي فرصة للتآمر عليه، وحتى يسهل عليه الوقيعة بينهما اذا لزم الامر. وقد قدم عمانويل نصيحته لهم بالابتعاد عن قونية ـ عاصمة السلاجقة ـ واتخاذ طريق آخر للاراضي المقدسة في جنوب الشام، لكن جنود الحملة كانوا يشكون في نوايا عمانويل، فلم يعملوا بنصيحته، واتجهوا نحو قونية؛ وحدث ما توقعة عمانويل، اذا اطبق السلاجقة على كونراد الثالث وجنوده من كل جانب، وانزلوا بهم هزيمة ساحقة، ولقي الجنود الالمان نفس المصير الذى لقيه جنود بطرس الناسك في الحملة الاولى، وتحطمت القوة الالمانية قبل ان تصل الى قونية، واجبرت على التراجع وهي تجرجر ذيول الهزيمة حتى وصلت الى مدينة نيقو ميديا وذلك في أول نوفمبر عام ١١٤٧م.

وبعد بضعة أسابيع، وصل لويس السابع وجنوده، حيث انضموا الى بقايا القوات الالمانية المندحرة، واتجهت القوات الصليبية الفرنسية الالمانية صوب دمشق للاستيلاء عليها بالرغم من أن أمراء دمشق كانوا على علاقة طيبة بالصليبيين بعكس أمراء حلب. غير أن مشروع فتح دمشق باء بالفشل، بسبب عدم كفاءة الجنود الصليبيين ونقص عتادهم ومؤنهم. وازاء ذلك غادر كونراد الثالث بلاد الشام متجها الى سالونيك، حيث التقى بأمبرطور الروم عمانو ئيل، وجدد تحالفه القديم معه، واشتكى الامبراطور عمانوئيل لحليفة الالماني من تصرفات روجر النورماني ملك صقيلة حليف لويس السابع، فقد استغل الحملة الصليبية ليتوسع على حساب ممتلكات القسطنطينية في البحر الادرياتيكي، فقد استولى على جزيرة كورفو وغيرها من جزر بحر الأدرياتيك، بل وصل عدوانه الى المدن اليونانية الهامة في شمال بلاد اليونان، مثل كورنثا حيث مصانع الحرير، والى طيبة Thebes عاصمة اقليم بؤوتيا Boeotia، بل أن قواته أغارت على آثينا نفسها، ولهذا شارك الامبراطور الالماني كونراد حليفة عمانوئيل الرأى في وجوب التصدى للعدوان النورماني، واتفقا على تجهيز حملة مشتركة لهذا الغرض، ولم ينتظر عمانوئيل اشتراك الالمان معه، وشرع على الفور في اعداد حملة لطرد لنورمان من بلاد اليونان، على أمل أن يحالفه الحظ بعد ذلك في استعادة نفوذ الروم في جنوب ايطاليا وصقلية.

ولكي يؤمن البلاد في أثناء غيابه، سعى عمانوئيل الى التفاهم مع مسعود سلطان السلاجقة الروم في قونية، ولما علم لويس السابع بنبأ ذلك الاتفاق بعد عودته فاشلا من الشرق ونزوله ضيفا لدى صديقه روجر في جنوب ايطاليا ـ أقام الدنيا وأقعدها ضد عمانوئيل، والقى عليه باللوم في فشل الحملة الصليبية الثانية، واقترح

هو وصديقه الاستيلاء على القسطنطينية نفسها قبل محاربة المسلمين؛ وأخذا ينشران الكراهية في أوروبا الغربية ضد عمانو نيل وضد الامبراطورية الرومية.

سياسة عمانوئيل مع الامارات الصليبية في المشرق:

واذا كانت سياسة الامبراطور عمانوئيل قد لاقت فشلا ذريعا في الغرب الايطالي فان سياسته في المشرق مع الامارات الصليبية قد لاقت بعض النجاح، فقد كانت هذه الامارات الصليبية في حالة ضعف، وتشعر بالخوف من تصاعد قوة سلاطين البيت الزنكي خاصة من السلطان نور الدين محمود، الذي خلف أباه عماد الدين زنكي؛ وكان الفارس الفرنسي رينودى شاتيون Rinaud de Chatillos، والذى عرف في المصادر العربية باسم أرناط صاحب الكرك - زوجا لوريثة امارة أنطاكية الصليبية، وكان من أشد الأمراء الصليبيين خوفا ورعبا من السلطان نور الدين محمود، ولهذا نسى كل خلافاته مع القسطنطينية، وانتهز فرصه زحف عمانوئيل بقواته على اقليم قليقية Cillcia عام ١١٥٨م واقامته في مقر قيادته في المصيصة Mamistra (في اقليم قلقية بالقرب من ميناء طرسوس) ليقوم بتمثيلية التى قام بها الامبراطور هنرى الرابع امبراطور الدولة الرومانية المقدسة مع البابا جريجورى السابع في كانوسا عام ١٠٧٨م، فقد سار أرناط - صاحب الكرك - الى مقر عمانوئيل في المصيصة، حافى القدمين، عارى الرأس، مرتديا قميصا من الصوف رداء النساك، محيطا رقبته بحبل، طالبا العفو والغفران؛ وقد أجابه عمانوئيل بالطبع الى طلبه، بعد أن حصل منه على اعتراف بعودة امارة أنطاكية الى سيادة القسطنطينية، وحق الامبراطور بصفته رأس الكنيسة أن يعين الأسقف على كنيسة أنطاكية، وقد اعتبر أمراء الصليبيين ذلك التصرف من قبل دى شاتيون عارا على الكاثوليك. ولم يمض وقت طويل حتى وفد الى مقر عمانوئيل الملك بلدوين الثالث ملك بيت المقدس، لتقديم فروض الطاعة والولاء للامبراطور الرومى، وتوالى قدوم أمراء الصليبيين لاعلان خضوعهم للامبراطور عمانوئيل. وعقد عمانوئيل معهم معاهدة تعهد فيها بتقديم المساعدة للامارات الصليبية ضد الدولة الزنكية. وفي عيد الفصح لعام ١١٥٩ دخل عمانوئيل أنطاكية ممتطيا جواده، وأرناط يمسك بلجامة ويتبعه سائر أمراء الصليبيين سيرا على الأقدام، ومجردين من سلاحهم، وخرج شعب المدينة عن بكرة أبيه لاستقبال عمانوئيل يحمل أغصان الزيتون وسعف النخيل، كما لوكان ذلك اعادة لمشهد دخول السيد المسيح أورشليم منتصرا، بينما راحت أجراس الكنائس تدق مرحبة؛ وابتهاجا بدخول عمانوئيل أنطاكية، أعلن لشعبها طلاق زوجته الألمانية، واختيار احدى بنات مدينتهم زوجة له، أملا أن تكون أما لولي العهد، حيث لم تنجب له الزوجة الألمانية سوى بنات، وكانت العروس المحظوظة فتاة تدعى ماريا؛ وزفت ماريا الأنطاكية الى الامبراطور، وكان ذلك شرفا كبيرا لأهل أنطاكية، ورفعا لمعنويتهم وفي غبطة الفرحة والنشوة، أعلن عمانوئيل أن كل آسيا الصغرى وأعالي الفرات والشام هي أرض رومية يجب أن تعود للامبراطورية، وتعهد للأمراء الصليبيين بأنه سوف يتصدى لأطماع نور الدين محمود بحزم، وأنه سوف ينتزع منه اقليم الرها ؛ ولكن ذلك التعهد كان تعهدا أجوفا، قصد به تهدئة ذعر الأمراء الصليبيين لأنه نفسه كان يعلم مدى قوة نور الدين محمود؛ لهذا كان يتحاشى الدخول في مواجهة معه؛ وفي حركة تمثيلة أمر قواته بالزحف على اقليم الرها، بينما بعث سرا الى نور الدين محمود يشرح له الظروف التى أطلق فيها تهديداته، ويطلب التفاوض معه؛ واستمرت المفاوضات بين نور الدين محمود وعمانوئيل تجرى في سرية تامة، حتى انتهت بعقد

٥٩: الاب مقاره البطرك ٩٣٣/٩٥٢م

صلح بينما؛ عندها أصدرا وامره الى قواته أن تستدير عائدة؛ ثم شرح لأمراء الصليبيين بأنه مضطرا لتأجيل عملية الزحف على الرها لأن عليه أولا أن يقمع مؤ مراة تدبر ضده فى العاصمة. وانطلت الحلية على الأمراء الصليبين. لقد كان من مصلحة عمانوئيل أن تبقى الدولة الزنكية قائمة وقوية لارهاب الامراء اللاتين خاصة بلدوين الثالث ملك اورشليم الذى بقى وفيا للامبراطور عمانوئيل حتى وفاته، وخلفه عمورى(Amaury) الأول كملك على بيت المقدس وذلك فى ١٨ فبراير عام ١١٦٢م وهو لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمر ه.

ولقد كان عمورى(أو عماورى) الأول يحلم بالاستيلاء على مصر، التى كان نور الدين محمود قد فرض سلطانه عليها بعد خلاف الوزيرين شاور وضرغام، وعين أكبر قواده صلاح الدين الأيوبى وزيرا أكبر فى بلاط الدولة الفاطمية المتدهورة، ولقد شجع عمانوئيل عمورى الاول على غزو مصر، واتفق معه على ارسال حملة مشتركة لتحقيق ذلك. ولما وصلت الحملة الصليبية الرومية المشتركة الى سواحل دمياط قادمة من الشام، تصدى لها صلاح الدين الأيوبى، وأبعدها عن السواحل المصرية بسهولة، فقد كانت مرهقة من طول السفر، فضلا عن نفاذ مؤنها وعتادها.

سياسة عمانوئيل مع دولة السلاجقة الروم:

استغل عمانوئيل حالة التشر ذم والانقسام التى كان عليها أمراء سلاجقة الروم، فى محاولة لاستعادة ممتلكات امبراطورية منهم فى آسيا الصغرى، فحاول اشعال نار الوقيعة بين أمراء قونية فى الجنوب وأنقرة فى الشمال، والدانشمند أمراء قبادو قيا فى الشرق، غير أن وجود سلطان ذكى وقوى فى قونية واسمه قلج أرسلان، أفسد عليه مخططاته. وبالرغم من أن سياسة عمانوئيل مع هذا السلطان، اتسمت بالود لبضع سنين فى بداية تولية العرش، لكنها تحولت الى عداء مستحكم فيما بعد. فقد أدار قلج أرسلان له ظهره وتحول إلى صداقة عدوه فريدرش باربا وسا؛ وكان هذا السلطان السلجوقى قد زار القسطنطينية فى صيف عام ١١٦١-١١٦٢م، ونزل ضيفا على عمانوئيل، الذى استقبله بالحفاوة والتكريم، وانزله أجمل قصوره، حتى أن اقامة قلج أرسلان امتدت الى ثمانين يوما، عقد فى نهايتها معاهدة صداقة مع امبراطور الروم؛ ورغم ذلك انقلب عليه.

فلقد استطاع فريدرش بارباروسا أن يكسب الى جانبه السلطان قلج أرسلان، ويوغر صدره ضد عمانوئيل، ويؤلبه عليه، ويغريه على التقدم لفتح ممتلكات الروم فى آسيا الصغرى، وذلك عندما تورط عمانوئيل فى محاولة فتح جنوب ايطاليا، حتى يحول اهتمام عمانوئيل عن الغرب، بفتح جبهة فى الشرق ضده. وكان قلج أرسلان، رغم ارتباطه باتفاق صداقة مع عمانوئيل، يعرف نيته وأحلامه فى آسيا الصغرى، منذ أن أعلنها صراحة لاتعوض، فقد كان عمانوئيل غارقا فى الغرب، وعلى الفور قام سلطان قونية السلجوقى بالقضاء على مناوئيه من الدانشمند، وأمراء أنقره، ثم بدأ يستعد للتوسع على حساب الامبراطورية الرومية فى آسيا الصغرى؛ وردا على ذلك، أعد عمانوئيل جيشا مضادا، أشرك فيه بعض الأمراء السلاجقة المعارضين للسلطان قلج أرسلان، وقاد عمانوئيل جيشه فى خريف عام ١١٧٦ متجها نحو قونية، عاصمة السطان قلج أرسلان.

معركة موريو كيفالون (أو معركة الروءس الكثيرة) ١١٧٦م:

وانتظر قلج أرسلان حتى دخل عمانوئيل وجيشه احدى الممرات الجبلية الضيقة، ذات الرءوس المتعددة فى فريجيا، عند موضع يقال له سوريو كيفالون Myriocephalon، ثم أطبق عليه من كل جانب، وفتك بجيش

عـمـانوئيل، الذى نجـا من الموت بأعـجـوبة، وبلغ من هول هزيمة جيش الروم فى موريو كيفالون، أن قـورن بهـزيمه فى مـوقـعـة منزكـزت سنة ١٠٧١م، فـقـد فقدت الامبراطورية الرومية فى معركة واحدة هيبتها، ومعها كل المكاسب التى قـاتل من أجلهـا أباطرتها الكبار عبر قرون طويلة، وفقدت معها سيادتها على آسيا الصـغـرى الى الأبد؛ وأملى السلطان السلجوقي المنتصر شروطه على الإمبراطور المهزوم: وهي هدم وازالة جميع الحصون والقـلاع الحـربيـة فى آسـيـا الصـغـرى، والتنازل عن ادعـاءاته فى أراضي السلاجقة، وكان قبول تلك الشروط هو بمثابة الاعتراف بعـجـز الامـبـراطورية عن طرد السـلاجـقـة الأتراك من آسـيـا الصغرى، وعلى اثر هذه المعركة بدأت جحـافل التركمان تتدفق من منابع الأنهـار الاسـيـوية فـوق المرتفعات متجهة نحو مصباتها فى بحر ايجة.

ولقـد كانت فـرحـة فـريدرش بارباروسـا فى هزيمة عـمـانوئيل لاتوصـف، وتشـفـيـه فى خـسـارته لايقـاس، فـبـعث الـيـه بخطاب يـسخر فيه من أحلامه الواهمة في اسـتـعـادة الامـبـراطورية الرومـانيـة قائمـة فـعـلا فى الغـرب، وتمارس سـيـادتهم على كل أنحـاء أوروبا، ولا ينقـصـهـا سـوى اسـتـعـادة سـيطرتهـا على الاقليم اليـونانى الشـرقي (يقـصـد الامـبـراطورية الرومـيـة)؛ وأنه ليس من حق عـمـانوئيل أن يحـمـل لقب امـبـراطور، اذ لايوجـد سـوى امـبـراطور واحـد، هو فـريدرش بارباروسيا، وريث عرش الرومان. ورغم هذه الكارثة لم يـسـتـسـلم عـمـانوئيل، ورد على سـخـرية فريدرش بالانتقام منه عن طريق تشجيع المدن الايطالية الثائرة ضد التـدخل الالماني في ايطاليـا، وكـانـت هذه المدن قـد كـونت عصبة بزعامة مدينة ميلان، وراح يمدها بالمال والسـلاح، وظل على ذلك حتى آخر أيام حكمه. لكن ذلك لم يغـيـر من الواقع المرير، فـقـد بدأ أفـول نجم امـبـراطورية الروم بعد هذه المعركة، وفقدت سيطرتها على الامارات الصليبية في المشرق الاسلامي، كما فقدت سيطرها على آسيا الصغر ى، مما أتاح للدولة الايوبيـة الناشـئـة الفرصة لتعزيز مركزها في الشرق الادني، لتـتـولى قـيـادة المقاومـة الاسلامية ضد الخطر الصليبي.

نهاية عمانوئيل ١١٨٠م:

وأخـيـرا مـات الامـبـراطور عـمـانوئيل كـومنين عـام ١١٨٠ كـسـيـر الفـؤاد، تاركـا امـبـراطورية الروم تعـانى من التـدهور والضـعـف والافـلاس، بسبب سياسته وأحلامه الواهمة؛ فـعلى الصـعـيـد الداخلي، أدت الحروب الكثيـرة الى زيادة نفـوذ الاقطاعـيين الذين اسـتـفـادوا من نظام الهبات العسكرية Pronoia، الذى ضـمن لهم حـقـوقـا مـالية وقضائية، جعلهم دويلات داخل الامبراطورية، وهذا بالطبع أضعف السلطة المركزية للدولة؛ ورواكب ذلك تردى الاحـوال الاقـتـصـادية بسبب كـثـرة الضـرائب لتـمـويل المعارك والحروب، فـضـلا عن أن طرد التـجـار البنادقـة دون ترتيب مخطط وبطريقـة مـفـاجئة غـيـر مدروسة، أحدث هزة في السوق التـجـارية وانهـيـارا مـفـاجـئـا فى الاقتصاد.

وفي أثناء انشغاله بالمعارك مع السلاجـقـة عـام ١١٦٨ كـانت زوجته الانطاكية ماريا، قد أنجبت له وريثا للعرش، أسمته الكسيوس الثاني كومنين، كما اتخذت لها عشيقا، راحت تلهو معه، غير عابئة بمشاعر الناس، حتى لاكت الالسن سـيـرتهـا؛ وبعـد مـوته، أصـبـحت الملكة الانطاكـيـة هى الوصية على ابنها الصغير؛ وكما تركت نفـسـهـا لعشيقها، تركت له أيضا تصريف شئون الامبراطورية المنهارة ومن حـولها بطانتـهـا من اللاتين الاجانب.

حكم الامبراطورة ماريا كوصية على ابنها القاصر الكسيوس كومنين الثاني ١١٨٠-١١٨٣:

وعندمـا مـات أبوه، كـان الكـسـيـوس كـومنين الثـانى فى الثانية عشرة من عمره، فعينت أمه الانطاكية اللاتينية وصية عليه وعلى عرش الامـبـراطورية، لحين

بلوغه السن القانونية؛ وخطبت له الأمير آن الفرنسية؛ وكانت ماريا مكروهة من شعب القسطنطينية بقدر كراهيتهم اللاتين الكاثوليك. فقد كانت في نظرهم امرأة أجنبية لانها سليلة البيت الانطاكي النورماني، ولم تحاول ماريا منذ مجيئها الى القصر أن تتأقلم مع ظروف الحياة اليونانية الشرقية في القسطنطينية؛ فقد عاشت عيشة الاوروبيات الغربيات المتحررة، الصاخبة؛ وكان كل همها الاعتناء بأختيار ملابسها الانيقة، وتبديل عشاقها من اللاتين، الذين ملات بهم القصر والادارات المختلفة، وأصبحوا محل ثقتها، حتى بدأ حكمها كما لوكان حكما لاتينيا؛ ثم اصطفت من عشاقها عشيقا، ألقت اليه بنفسها ونفيسها، وأصبح الآمر الناهي في القصر، وتناقلت ألسنه الروم مغامرات الامبراطورة والعشيق؛ وأضفى الخيال الشر قي الكثير من المبالغات على هذه الغراميات، حتى بدا العرش الكومنيني وقد تحول الى فراش غرام، في وقت كانت فيه الامبراطورية في مسيس الحاجة الى رجل قوى، يقيلها من عثرتها، وبأخذ بيدها قبل أن تغرق. وفي مناخ السخط السياسي تنمو بذرة المؤمرات، التي يكون أبطالها عادة من الرجال الطموحين المتطلعين الى العرش. ولقد تزعمت عملية السخط ابنة الامبراطور الراحل عمانونيل من زوجته الالمانية الاولى؛ فقد جمعت حولها الناقمين على مسلك ماريا، واعتمادها على الاجانب من اللاتين الكاثوليك أعداء الامبراطورية، حتى كادت أن تصبح دولة لاتينية؛ ولقد ترددت الشائعات حول اعتزام الامبراطورة الام وعشيقها التخلص من الامبر اطور الصغير لافساح المجال أمام العشيق ليصبح امبراطورا بمعاونة اللاتين. وتحول الامر الى مواجهة صريحة وتمرد علني على الامبراطور المستهتر ة، وصلت الى حد تدبير مؤمراة للتخلص من العشيق باغتياله أثناء احتفالات عيد الفصح عام ١١٨٢، ولكن المؤامرة كشف أمرها، ثم اندفعت الجماهير في شوارع القسطنطينية تفتك بأرواح اللاتين وتنهب ممتلكاتهم.

وبينما كان هذا يحدث، كان أندرونيك كومنين ابن شقيق الامبراطور الراحل عمانونيل، يرقب ما يدور حول العرش من بعيد، ولقد كان أندرونيق طموحا وذكيا ومثقفا، لكنه كان فتى محبا للحياة وللمتعة الدنيوية، قضى حياته متجولا بين قصور أمراء اللاتين في الشرق،حيث هربت معه ثيودورا كومنين ـ أرملة بلدوين الثالث ـ والتى صاحبته كعشيقة في كل مكان كان يذهب اليه؛ وبسبب تطلعه لأعتلاء العرش أمر عمه بنفيه الى احد ثغور البحر الاسود النائية، تماما مثلما نفى الامبراطور أغسطس ـ مؤسس الامبراطورية الرومانية ـ الشاعر الماجن أو فيد لاى تومسى Tomi على البحر الاسود بسبب تورطه في فضيحة أخلاقية تمس ابنته الماجنة جوليا؛ ومن منفاه راح أندرونيك يدبر المؤامرات، وينفخ في دخان الفتنة لكى يصل الى العرش، ولأنه لايوجد من بين أبناء البيت الكومنيني، من هو أفضل منه، التفوا حوله وساعدوه كأفضل وريث يمكن أن ينقذ الامبراطورية، ولما حدثت المواجهة العلنية مع الامبراطورة وعشيقها عام ١١٨٣م، بعد أحداث ابريل عام ١١٨٢ الدامية، فرت الامبراطورة الام وعشيقها، وهتف الناس بأندرونيق امبراطور وهكذا وصل أندرونيك الاول الى العرش.

حكم الامبراطور أندرونيكوس الاول (أندرونيق) كومنين (١١٨٣. ١١٨٥)،

وعندما وصل أندرو نيكوس الى العرش، كان قد تجاوز الثالثة والستين من عمره، ولقد بدأ حكمه بالتخلص من الامبراطورة، وبطانتها من اللاتين الكاثوليك الذين كانوا يديرون حكم الامبراطورية باسمها؛ كما ألقى القبض على عشيقها وقتله. ولقد كان أندرونيكوس ذكيا فأعلن في البداية حر صه على حياة ابن عمه الامبراطور القاصر ، وأنهما شريكان في الحكم، لكن بعد أن

٥٩: الاب مقاره البطرك ٩٥٢/٩٣٣م

ستتب له الحكم تخلص من الامبراطور القاصر، وتزوج من خطيبته الاميرة«آن» الفرنسية، التي كانت تبلغ الثالثة عشرة من عمرها بينما كان خطيبها القتيل يبلغ الخامسة عشرة من عمره.

ولقد كان حكم أندرونيكوس يقوم على مقته الشديد للعناصر اللاتينية، وتجسر يدهم من كل امتيازاتهم، وبسبب ذلك أتهم بتدبير مذبحة للتجار الايطالين في القسطنطينية بعد مصادرة أموالهم، ولهذا حقد عليه الاوروبيون الكاثوليك سواء من البنادقة أو النورمان. وبالرغم من ذلك كانت ادارته للولايات ادارة عادلة وقادرة، فقد عمل على رفع كفاءة الموظفين العاملين في هذه الولايات واختيار العناصر الامينة منهم. ولكي يمنع استشراء الفساد والرشوة، رفع من رواتب موظفي الدولة. كما عمل جاهدا على تخفيف الضرائب عن كو اهل الناس، وفرض عقوبات رداعة ضد المستغلين من عمال الضرائب؛ كما أصلح القضاء؛ ودقق في اختيار القضاة. ولقد راعه التفاوت الطبقي والاجتماعي في الولايات بين الاقطاعيين وصغار الملاك، فأراد أن يحدث توازنا اجتماعيا يصلح الخلل، فأصدر عدة قوانين صارمة ضد الاقطاعيين الذين تفاقم خطرهم، وقضوا على طبقة صغار الملاك، وزاد نفوذهم في القضاء والادارة، وتحكموا في الجيش، حتى كادوا يشكلون دويلات شبه مستقله داخل الامبراطورية ويتحكمون في مستقبل العرش. ولقد فات أندرونيكوس أن نظام هذه الاسر الاقطاعية ضارب في جذور المجتمع ولايمكن القضاء عليه بسهولة؛ فمنها جاء البيت الكومنيني ومن سبقه من البيوت الامبراطورية، وأن هذه الاسر الاقطاعية هي التي جاءت به ـ هو نفسه ـ الى العرش؛ ولذلك كان اصطدامه معها سببا في انفضاضها عنه وهي التي بيدها القوة العسكرية، القادرة على مؤازرته في معاركه الخارجية، بل أن البيوت الاقطاعية، التي كان يتزعمها أحد أقربائه ويدعى اسحق أنجيلوس ـ بدأت تعمل هي الأخرى على اسقاطه؛ وفي غمرة المواجهة والصراع، قام الامبراطور بالقبض على اسحق أنجيلوس ووضعه في السجن، مما أدى الى اشتعال الموقف. ورغم نزاهته في الحكم، الا أن الجماهير لم تتعاطف معه بسبب طريقة حكمه الاستبدادية، أو ما يعرف بنظام المستبد العادل. ولقد عمل اللاتين ـ خاصة النورمان والبنادقة ـ على اسقاطه أيضا بسبب المذابح التي دبرها للتجار الايطاليين وخوفا من تهديداته المستمرة لهم.

سياسة أندرونيكوس الخارجية:

حاول أندرونيكوس أن يقيم علاقات متوازنة مع القوى الاسلامية في المشرق، والتي كانت تتمثل في البيت الايوبي بقيادة صلاح الدين، ومع القوة اللاتينية الصليبية في الغرب، فقد كان قلقا من اصرار وليام الاول ملك صقلية النورماني على تجهيز حملة ضد الامبراطورية، بهدف الاستيلاء على عرش القسطنطينية؛ ومن أجل ذلك حاول التصالح مع البنادقة، الذين لم ينسوا ما حل بهم من كوارث على يد عمه الامبراطور الراحل؛ كما عمل أندرونيكوس على التقرب من البابا حتى يتدخل لوقف الخطر النورماني، مقابل التلويح له بوحدة الكنيستين، أو منح الكنيسة الكاثوليكية بعض الحقوق والامتيازات على حساب كنيسة القسطنطينية.

ولما كانت سياسة صلاح الدين الايوبي هي كسب النصارى الارثوذوكس ـ والذين كان ينتمي اليهم معظم النصارى العرب ـ الى صفه في حروبه لطرد الصليبين من بيت المقدس، فقد رحب صلاح الدين بالسفارة التي بعث بها أندرو نيكوس الى الشرق في صيف عام ١١٨٥م من أجل تكوين جبهة رومية ـ أيوبية ضد الصليبين والنورمان الكاثوليك؛ وبالرغم من أننا لانعرف رد صلاح الدين على هذه السفارة التي وصلت الى

٥٩: الاب مقاره البطرك ٩٥٢/٩٣٣م

عاصمة الايوبيين قبل سقوط أندرونيكوس بشهور قليلة. لكن من المفهوم أن صلاح الدين لم يكن يمانع في ذلك.

سقوط أندرونيكوس أواخر عام ١١٨٥م:

بدأت النكبات تنهال على رأس أندرونيكوس عندما قام حاكم قبرص باعلان انفصاله عن تبعيته للقسطنطينية، ولم يكن في استطاعة الامبراطور أن يقضي على هذا التمرد؛ وبضياع قبرص فقدت الامبراطورية مصدرا ماليا وتجاريا كان يدر عليها الكثير فضلا عن الخسارة الاستراتيجية؛ فقد كانت قبرص القاعدة البحرية لاسطول الروم في شرق البحر المتوسط، وبذلك لم تعد الامبراطورية قادرة على حماية غرب بلاد اليونان من الغارات البحرية النورمانية؛ فضلا عن فقدها مناجم الفضة التي اشتهرت بها هذه الجزيرة، وانعكس ذلك على الفنون والصناعات.

ولم يمر على نكبة قبرص بضعة أسابيع حتى هاجم وليام النورماني ميناء ديراخيوم Dyrra-chiumواستولى عليه دون مقاومة تذكر ؛ ولم يتدخل أسطول البندقية ـ كما اعتاد قديما ـ في حماية ومساعدة أسطول القسطنطينية، لأن البنادقة كانو ا ينتظرون لحظة التشفي انتقاما لما حل بهم في القسطنطينية على يد عمانوئيل عام ١١٧١م وعلى يد غوغاء القسطنطينية عام ١١٨٢م، ثم على يد أندرونيق عام ١١٨٢م. وبسقوط ديراخيوم أصبح الطريق مفتوحا أمام وليام النورماني للوصول إلى سالونيك ـ ثاني مدن الامبراطورية ـ وضرب حولهما الحصار حتى سقطت في صيف عام ١١٨٥م، وعلى أثر دخولها قام النورمان بمذبحة ضد سكانها العزل من الروم الارثوذوكس انتقاما للمذابح التي وقعت ضد اللاتين الكاثوليك في القسطنطينية عام ١١٨٢.

ولما وصلت أنباء هذه الكارثة الى القسطنطينية ثار شعب العاصمة، وانضم اليهم زعماء الاسر الاقطاعية، واتهموا أندرونيكوس بالجبن والتخاذل في صد العدوان والاستعداد له رغم علمه به؛ فعزلوه وسملوا عينية وعذبوه حتى مات، وهتفوا بزعيم معارضيه اسحق أنجيلوس امبراطور، واقتادوه من السجن الى العرش، وهكذا سقطت أسرة البيت الكومنيني مع سقوط أندرونيكوس آخر أباطرتها.

أسرة أنجيلوس والغزو اللاتيني للقسطنطينية (١١٨٥. ١٢٠٤م)

حكم اسحق الانجيلي ١١٨٥. ١١٩٥:

جاءت ثورة عام ١١٨٥م بأسرة جديدة الى عرش الامبراطورية، هي أسرة آل أنجليوس (الانجيلي)، فقد صعد الى العرش اسحق الانجيلي خلفا للامبراطور المعزول أندرونيكوس. ودام حكمه عشر سنوات فقط، كانت عبارة عن سنوات عجاف، اذ حلت بالبلاد عدة كوارث ونكبات في الداخل والخارج، فقد ساء الوضع الاقتصادي في الولايات بعد استقلال قبرص وفقدان عوائد اقتصادية كبرى كانت الجزيرة تدرها على الدولة من جراء التجارة بين بلاد الشرق البحر المتوسط وغربه، فضلا عن تلاعب التجارة الايطاليين بالاقتصاد وتحكمهم فيه، بعد أن تزايد نفوذهم وامتيازاتهم، وزاد معها جشعهم وحقدهم على القسطنطينية. وبالرغم من أن أسحق لم يأل جهدا في استعادة قبرص ولو عن طريق التفاهم مع القوة الاسلامية الجديدة بقيادة صلاح الدين الايوبي، لكن إحلامه كانت سرابا ووهما.

ومن ناحية أخرى استغلت بعض القوميات العرقية في البلقان ضعف الامبراطورية، وتكالب الاعداء عليها فاستقلت عنها، بل وحاولت بناء دويلات على حساب الممتلكات الامبراطورية في البلقان، وكان على رأس هذه القوميات البلغار الذين كان يحرضهم الامبراطور الالماني فردريك بارباروسا العدو اللدود للقسطنطينية؛ كما استقل الصرب، وأسسوا لهم دولة، ولم يكن في وسع اسحق أن يفعل

٥٩: الاب مقاره البطرك ٩٣٣/٩٥٢م

شيئا. بالاضافة الى ذلك كان النورمان ـ أعداء الامبراطورية القدامى ـ يستعدون للانقضاض على ارضيها والتوسع فيها، بتشجيع من تجار بيزا وجنوة والبندقية. وباختصار كانت امبراطورية الروم فى مهب الريح.

الوفاق بين الروم والمسلمين ونتائجه:

أدرك اسحق ـ كما أدرك سلفه أندرونيكوس ـ أن التحالف مع القوى الاسلامية فى المشرق هو طوق النجاة للامبراطورية، ففى المشرق الاسلامى كان صلاح الدين قد وحد الجبهة الاسلامية، ونظم صفوفها تحت راية الخليفة العباسى فى بغداد. واستطاع صلاح الدين بقواته الظافرة أن ينزل هزيمة ساحقة بقوات الامارات الصليبية فى الشام فى الرابع من شهر يوليو عام ١١٨٧م (الموافق الخامس والعشرين من ربيع الآخر عام ٥٨٣هـ) عند حطين، ودب الذعر فى امارات الشام الصليبية، واصبحت تحت رحمة صلاح الدين؛ ثم تابع صلاح الدين فتوحاته صوب عكا، وحيفا، ونابلس، وصوب صيدا وغزة. وكانت قمة انتصاراته هو انتزاعه امارة بيت المقدس من يد ملكها اللاتينى؛ ولقد حرص صلاح الدين: أن يتوافق دخوله الى المدينةالمقدسة المحررة مع مناسبة دينية عزيزة على المسلمين، وهى ليلة الاسراء والمعراج فى السابع والعشرين من رجب عام ٥٨٣هـ (يوم الجمعة الموافق الثانى عشر من شهر أكتوبر ـ تشرين الأول عام ١١٨٧م). وتوالت الانتصارات على المسلمين، والهزا ثم على الصليبيين فى الشام خلال عام ١١٨٨ وعام ١١٨٩م.

كان أندرونيكوس قبل عزله قد أرسل وفدا يعرض اتفاقا مع صلاح الدين فى صيف عام ١١٨٥م. غير أن قيام الثورة وسقوط أندرونيكوس عطل مهمة الوفد، فضلا عن أن صلاح الدين رأى أن ا لظروف قد تغيرت وبالتالى لابد من تغيير بعض بنود الاتفاق. فالامبراطورية فى ضعف بينما هو فى أوج قوته. ولهذا طالب بمزيد من التنازلات التى يتوجب على امبراطورية الروم تقديمها، ملوحا باعادة كنائس الشام الارتودكسية، وارجاعها الى الاصل الارثودوكسى والى الاشراف الرومى بعد أن انتزعها من اللاتين. وكان لذلك تأثير عاطفى جياش فى نفوس الروم واتباع المذهب الارتودكسى. وأحدث انقساما فى الجبهة الصليبية بين الكاثوليك والارثوذوكس. وتعبيرا عن الوئام الاسلامى الرومى، سمح الامبراطور اسحق الانجيلى باقامة شعائر الصلاة فى مسجد القسطنطينية؛ كما سمح بالدعاء للخليفة العباسى من فوق المنبر خلال صلاة الجمعة. ولقد أكد هذا الوفاق بين الجانبين كل من أبى شامة فى كتابه«الروضتين فى أخبار الدولتين»، والقاضى بهاء الدين ابن شداد فى كتابه «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية»؛ بل قيل أن اسحق الانجيلى هو الذى حذر صلاح الدين من قرب قدوم الحملة الصليبية الثالثة حتى يأخذ حيطته؛ اذ لم يكن يقلق باله انتصارات صلاح الدين بقدر ما كان يقلقه أطماع الصليبين، ومن ثم فقد كان هذا الوفاق مع المسلمين أحد الدوافع التى شجعت اسحق على تجميع باقى جيوشه لطرد البلغار من تراقيا، والصرب من مقدونيا؛ ومن الملاحظ أن انتصارات صلاح الدين فى الشام تتواكب مع انتصارات اسحق على النورمان، الذين هزمهم، وأرغمهم على الجلاء عن سالونيك ودورازو وابعادهم عن تهديد القسطنطينية، وقبل وليام الثانى ملك النورمان صاغرا توقيع معاهدة مع اسحق حفظا لماء وجهه، وبذلك أنهى اسحق الى الأبد خطر النورمان وهذه بلاشك احدى ثمار الوفاق مع الجبهة الاسلامية.

وبعد ابعاد خطر النورمان عن القسطنطينية، استدار اسحق لقمع ثورات البلغار والصرب، فبدأ بهزيمة البلغار وطردهم من الاجزاء التى كانوا قد احتلوها فى

تراقيا؛ كما أبعد قبائل الصرب عن مقدونيا؛ ثم آثر التصالح معهم معترفا بهم كقومية مستقلة؛ وتعزيزا لهذه المعاهدة زفت ابنة شقيقة الى ملك الصرب.

الحملة الصليبية الثالثة وموقف الروم منها:(١١٨٩-١١٩٢م):

أحدث انتصار صلاح الدين على الامارات الصليبية في حطين في الرابع من شهر يوليو عام ١١٨٧م، ثم انتزاعه بيت المقدس من ملكها اللاتيني ودخولها في موكب ديني رائع وافق ليلة الاسراء والمعراج لعام ٥٨٣هـ(الثاني عشر من أكتوبر عام ١١٨٧م) - أحدث دويا هائلا في الغرب الصليبي، وتعالت الصيحات بوجوب ارسال حملة صليبية ثالثة لاستعادة بيت المقدس؛ وجمعت التبرعات وفرضت ضرائب العشور في الغرب وسميت باسم «عشور صلاح الدين»، وتم اعداد الحملة التي تزعمها ثلاثة من كبار ملوك أوربا الغربية، وهم: فردريك بارباروسا امبراطور ألمانيا وعدو الدولة الرومية اللدود، وفيليب أغسطس ملك فرنسا، ورتشارد قلب الاسد ملك انجلترا. وكان من الطبيعي أن يخطر الملوك الصليبيون اسحق بقدوم الحملة ويطلبون مسبقا تعاونه معها؛ غير أن اسحق كان عازفا عن محاربة صلاح الدين ويتوجس خيفة من نوايا هذه الحملة خاصة أن أحد زعمائها هو الامبراطور الالماني فردريك بارباروسا، صديقاً وحليفا للنورمانديين. ولم يكن في مقدور اسحق أن يظهر ما يبطن، فتظاهر بالاستعداد لتسهيل مهمة الحملة الصليبية الثالثة، بينما اتجه سرا الى تحذير صلاح الدين من قدوم هذه الحملة، وعقد معه تحالفا ضد منافسة سلطان قونية السلجوقي على أساس أن يقوم بوضع كل العراقيل لاعاقة فردريك بارباروسا في آسيا الصغرى، وفي نفس الوقت يتظاهر أمامه باستعداده لمساعدة الحملة، والتقى مع فردريك بارباروسا الذى أصر على أن تكون حملته عبر آسيا الصغرى لالحاق الضرر والخراب بأغنى أقاليم الامبراطورية؛ كما كانت الانباء قد وصلت الى اسحق حول مفاوضة فردريك بارباروسا مع الصرب والبلغار، وتأليبهم لكي يثوروا على القسطنطينية. ورغم ذلك التقى اسحق مع فردريك عند أدرنه، وتعهد بنقل قوات فردريك بسفنه عبر آسيا الصغرى عن طريق البسفور، وأن يمدهم بالمؤن اللازمة. واخترق فرديك بارباروسا آسيا الصغرى متخذا الطريق البرى، وأحدثت جيوشه بالقرى والمدن والاقاليم المختلفة التي مر بها مالم يلحق بها من قبل على يد الحملات الصليبية السابقة، بل وصلت كراهية فردريك باباروسا الى حد الدعوة لتحويل هذه الحملة الى القسطنطينية بدلا من بيت المقدس خاصة بعد ما افتضح أمر الوفاق الاسلامي الرومي. ولكن شاء الله أن يخلص الروم والمسلمين من شرور هذا الامبراطور الالماني، اذ سقط في نهر جارف في قلقيلية عندما كان يحاول عبوره، وذلك في العاشر من شهر يوليو(حزيران) عام ١١٩٠م. ومات غريقا. وبذلك فقدت الحملة الصليبية أحدى زعاماتها المؤثرة، وزحها المتحرقة بالتعصب الاعمى، والجشع النهم.

أما القائدان الآخر فيليب أغسطس - ملك فرنسا - ورتشارد قلب الاسد ملك انجلترا، فقد أبحر كل منهما بقواته من صقلية بعد أن أمضيا شتاء عام ١١٩٠-١١٩١فيها، وفي ربيع عام ١١٩١م (١٢ربيع الاول عام ٥٨٧هـ) وصلت قوات فيليب الى ساحل فلسطين، حيث رست عند ميناء عكا؛ بينما توقف رتشارد في قبرص قبل ابحاره الى فلسطين ليؤمنها كقاعدة للامداد والتموين لقواته، وقضى فيها فصل الربيع كله، ولم يغادرها الى فلسطين الا في الثامن من يونيو عام ١١٩١م حيث وصل الى عكا التي كانت القوات الصليبية تحاصرها منذ عامين؛ وتكاتفت القوات الفرنسية والانجليزية في ضرب عكا حتى سقطت في أيديهم في الثاني

٥٩: الاب مقاره البطرك ٩٥٢/٩٣٣م

عشر من شهر يوليو عام ١١٩١م وقد ارتكب رتشارد مذابح بربرية ضد الاسرى المسلمين، واستمر يواصل مسيرته نحو يافا فى طريقه الى بيت المقدس.

أما فيليب أغسطس فقد كان يحقد على فتوحات الملك الانجليزى، وأراد أن يتركه فريسة لصلاح الدين وحده، فانسحب بقواته عائدا الى فرنسا متعللا بتدهور صحته؛ وواصل رتشارد تحقيق انتصارات هزيلة دون مساعدة فعلية من اسحق الانجيلى الذى شغل نفسه بتأديب الصرب والبلغار. ولم يبق رتشارد طويلا اذ تدهورت صحته، ولما علم بثورة أخيه جون (يوحنا) عليه، تملكته رغبة ملحة للعودة إلى انجلترا لانقاذ عرشه؛ ولهذا أرسل الى صلاح الدين يطلب التفاوض؛ وأملى صلاح الدين شروطه لعلمه بارهاق الملك الانجليزى ونضوب امداداته بعد أن غدر به صديقه الفرنسى؛ وعقد صلح الرملة فى الثانى والعشرين من شهر شعبان عام ٥٨٨هـ (الثانى من شهر سبتمبر عام ١١٩٢م) والتى نصت على أن يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور الى يافا، بينما تبقى القدس فى أيدى المسلمين مقابل السماح للحجاج المسيحيين بزيارة الاماكن المقدسة فى حماية الدولة الاسلامية، ودون مطالبتهم بأى ضرائب أو نفقات. ولعل السبب لقبول صلاح الدين التنازل هو تيقنه بأن الوقت فى جانبه لكى يحرر ساحل فلسطين، وأن ذلك الصلح كان بمثابة مساعدة الملك الانجليزى على حفظ ماء وجهه بعد فشله فى استرداد بيت المقدس، الذى كان الهدف الاساسى من الحملة الصليبية الثالثة. وهكذا كتب لهذه الحملة الفشل، فقد تركت مستقبل ما تبقى من امارات صليبية فى الشام وفلسطين تحت رحمة المسلمين، والقى الصليبييون باللوم على اسحق الانجيلى واتهموه بخيانة القضية الصليبية. وفى طريق عودته، توقف رتشارد عند قبرص، وطرد حاكمها الرومى المنشق اسحق كومنين، و ضمها اليه، تاركا فيها حامية عسكرية، ثم عاد الى بلاده.

نهاية اسحق الانجيلى وتولى اخيه الكسيوس:

ورغم نجاحه فى انقاذ ما أمكن انقاذه من الامبراطورية فى البلقان، وانتصاره على النورمان، غير أن ذلك لم يضع نهاية سعيدة لحياة وحكم اسحق الانجيلى، فقد كان أشد الناس عداوة له هم أقاربه الذين كانوا يعملون على اسقاطه، ويتحرق كل فرد فيهم لوضع التاج على رأس، وارتداء العباءة الامبراطورية؛ بالاضافة الى ذلك فقد كان تجار البندقية وجنوة وبيزا متورطين فى هذه المؤامرات الاسرية، كما كان يشجع عليها امبراطور ألمانيا الجديد. وكان هدف التجار الايطاليين الحصول على مزيد من الامتيازات من أجل تحقيق السيطرة الكاملة على تجارة القسطنطينية فى الشرق. ولهذا أوعزوا الى شقيق الامبراطور الأصغر وهو الكسيوس أن يطالب بالعرش، وأوغروا صدره ضد أخيه، وأمدوه بالمال والدعم للقيام بانقلاب ضد أخيه، ونجح الكسيوس فى عزل أخيه اسحق فى انقلاب هادى تم فى عام ١١٩٥م؛ وبعد أن وضع التاج وارتدى قميص الحكم، أقدم على جريمة مجردة من كل المشاعر الانسانية واللخوية، اذ أمر بسمل عينى أخيه المعزول، ونفيه الى أحد الاديرة النائية؛ واستقبل ذلك الانقلاب بارتياح شديد فى الغرب اللاتينى، الذى برر أسباب هزيمة الحملة الصليبية الثالثة بخيانة اسحق للدعوة الصليبية، وتآمره مع المسلمين ضد بنى دينه.

حكم الكسيوس الثالث الانجيلى (١١٩٥-١٢٠٣):

كان الكسيوس الثالث فى الحقيقة شريكا لسياسة أخيه المعزول فى الاتصال والتفاهم مع المسلمين، ولهذا لم يحدث أى تغيير فى سياسة الامبراطورية الخارجية؛ لكن بالنسبة لسياسته الداخلية فقد ساء الوضع، وعمت الفوضى والاضطرابات سائر أنحاء الامبراطورية، وظلت

قائمة حتى نهاية البيت الانجيلي. وساء الوضع أكثر عندما تمكن ابن شقيقه المعزول، والذى كان سجينا مع والده، من الهرب من السجن حيث توجه الى أوروبا الغربية، وراح يتصل بزعمائها وملوكها، يحثهم على ارسال حملة لاسقاط عمه عن العرش. وكان من أشد المتحمسين لقضية الكسيوس بن اسحق، امبراطور المانيا وصقلية الجديد هنرى السادس.

موقف هنري السادس امبراطور ألمانيا وصقلية من القسطنطينية:

بتولي هنرى السادس ابن فردريك بارباروسا عرش ألمانيا، تغير النظام السياسي الذى كان قائما في أوروبا الغربية، فقد ورث هنرى - الى جانب عرش ألمانيا - عرش صقلية بصفته زوجا لابنه ملك صقلية الراحل وليام النورماني، وبذلك بدأ يتطلع الى تأسيس امبراطورية عالمية، تجمع كل ممتلكات الامبراطورية الرومانية القديمة، وأن تكون امبراطورية مسيحية. وبالطبع لم يكن بابا روما يشعر بالراحة ازاء أطماع هنرى، ولكي يعطى نفسه حقا شرعيا للمطالبة بعرش القسطنطينية فقد زوج هنرى أخاه فيليب السوابى philippus Swabiusمن «ايرينا» ابنه الامبراطور المخلوع اسحق. والذى لاشك فيه أن وراثه لمملكة صقيلة ذات الموقع والمزايا الاستراتيجية، فتحت شهيته لانشاء امبراطورية في الشرق والغرب على السواء؛ ولما كان هنرى السادس بطبيعته طموحا؛ فقد أدرك أن تحقيق هدفه لن يتحقق الا بغزوه للقسطنطينية؛ وأن حكم الكسيوس الثالث حكم غير شرعي لأنه مغتصب للعرش؛ وبالطبع كان هذا الادعاء كان كافيا لأن يلقى الرعب في قلب الامبراطور الكسيوس الثالث؛ فقد كان هذا الموقف شبيها بما كان يفعله الرومان مع ملوك البطالمة المتأخرين من أجل الابتزاز السياسي والاقتصادى لمصر؛ وبالفعل أرسل هنرى السادس رسالة تهديد وابتزاز الى الكسيوس الثالث يطالبه فيها بدفع اتاوة كبيرة سنوية من أجل السكوت عن حقه، واضطر الكسيوس صاغرا أن يشترى سكوت هنرى باتاوة كبيرة، اضطر بسببها لأن يفرض ضريبة جديدة سميت«الاتاوة الالمانية»؛ ومن أجل جمع الاتاوة انتزعت الاشياء الثمينة من المقابر الامبراطورية، والتحف النادرة من القصور؛ لكن ذلك لم يشبع هنرى، اذ بدأ في عام ١١٩٧م يعد العدة للخروج في حملة لغزو القسطنطينية؛ وعند الطرف الشمالي الشرقي لصقلية عند مضيق مسينا Mes-sinaالذى يفصل بينها وبين ايطاليا - تجمع أسطوله استعداد للابحار نحو الشرق، خاصة أنه وجد تشجيعا من ملوك قبرص لتقديم العون لهذه الحملة؛ وسارع الكسيوس الثالث بارسال الوفود عارضا المزيد من الاتاوات، غير أن الامبراطور الالماني رفض باستعلاء مناقشة الفكرة. وخلال ذلك كان البابا يرقب الموقف باهتمام شديد، فقد كان البابا لايريد أبدأ أن ينجح هنرى في عزمه؛ وأمره أن يهجر تماما فكرة غزو القسطنطينية وأن يرضى بالحل الذى عرضه عليه الكسيوس ؛ كما أمره أن يكفر عن صلافته وغطرسته بالانضمام الى الحملة الصليبية الرابعة التى كان الفرنسيون يعدون لها؛ وفي النهاية وجد هنرى نفسه مضطرا لأن ينصاع لمطالب البابا، ويلغى مشروعه. غير أنه لم يلبث أن أصيب بالحمى ومات في خريف العام نفسه في عام ١١٩٧م. وتنفس الروم الصعداء، بعد أن تخصلوا من دفع الاتاوة الالمانية، التى أثقلت كاهلهم، كما شعر البابا بالراحة لذهاب هذا الامبراطور الذى كان ينافسه في فرض الهيمنة على العالم المسيحى.

الحملة الصليبية الرابعة:

وفي أواخر عام ١١٩٩م نشطت في الغرب الاوروبى دعوة لارسال حملة صليبية ضد الدولة الايوبية، التى جعلت من القاهرة قلعة المقاومة ضد الحملات الصليبية والوجود الصليبى في

٥٩: الاب مقاره البطرك ٩٣٣/٩٥٢م

الشام وذلك لأجبارها على اعادة بيت المقدس الذى كان صلاح الدين قد حرره، وكانت الروح المحركة لهذه الدعوة هو البابا أنوسنت الثالث Innocent III (١١٩٨ـ ١٢١٦م)، فبعد جلوسه على كرسى البابوية فى شهر فبراير عام ١١٩٨م قام بأرسال الدعاة الى كافة مدن غرب أوروبا؛ وبعث بالرسل الى ملوك وأباطرة الدول الى كافة مدن غرب أوروبا؛ وبعث بالرسل الى ملوك وأباطرة الدول الاوروبية الكبرى الثلاث: ألمانيا، وفرنسا، وانجلترا؛ لكن هؤلاء الملوك كانوا متورطين فى صراعاتهم الداخلية وبين بعضهم البعض، فضلا عن فتور حماسهم للقضية الصليبية لادراكهم عدم جدواها؛ كما بعث البابا بدعوة الى الامير اللاجئ الكسيوس بن اسحق الانجيلى، ونتيجة لذلك استجاب لدعوة البابا كبار الاقطاعيين ودوقات أوروبا، وعلى رأسهم ثيبولت Thi-bault كونت مقاطعة شمبانيا فى فرنسا، وبلدوين Baldwin دوق الفلاندرز، ولويس بلوا وغيرهم ممن فى درجتهم. وفى أثناء التجهيز للحملة مات ثيبولت، فانتقلت قيادة الحملة الى المركيز بونيفاس مركيز مونتفيرات Bon-fiace de Montefcrart، وفى اطار التجهيز للحملة، زار المركيز بونيفاس صديقه فيليب دوق سوابيا wabia sوزعيم أسرة الهوهنشتاوفن Hohenstrauffen الالمانية العريقة، وكان حينذاك قد أصبح امبراطورا على ألمانيا بعد وفاة شقيقة هنرى السادس، كما كان متزوجا من الاميرة ايرينا Irinaابنة اسحق الانجيلى الكبرى،والتى كانت ذات تأثير قوى على أفكاره؛ كما كان فيليب يأوى فى بلاطه شقيق زوجته الامير الرومى الكسيوس؛ وكان فيليب قد ورث الحقد المزمن على الامبراطورية الرومية. ولما كان فيليب متورطا فى الصراع مع البابا ومنافسة أوتو حول مشكلة الصقليتين ، فقد اعتذر عن الاشتراك فى هذه الحملة؛ غير أنه قدم لها العون وسمح للمتطوعين الألمان أن يشتركوا فيها، وطلب من صديقه بونيفاس أن يكو ن ممثله فى هذه الحملة، لكى يعيد صهره الكسيوس الى عرش القسطنطينية.

نفوذ انريكو داندولو على الحملة:

فى أثناء ذلك كانت جمهورية البندقية تشهد أعظم أيامها فى عهد الدوج Dodge الشهير انر يكو داندولو Enrico Dandolo ، الذى كان يعد واحدا من أعظم حكام البندقية بالرغم من أنه كان فى الثمانين من عمره؛ وكان أيضا ضريرا؛ فقد كان داندولو يضع مصالح البندقية فوق كل اعتبار: فوق البابا والكنيسة والدعوة الصليبية؛ اذ كان يدير امارته بعقلية تاجر البندقية الذكى الصبور الذى يزن كل شئ بميزان الربح والخسارة، وبفضل هذه السياسة حقق للبندقية السيطرة التامة على البحر المتوسط، مضيقا الخناق على الجمهوريات الايطالية الأخرى المنافسة للبندقية مثل جنوة وبيزا. فقد أدرك داندولو بحدسه أن الوقت قد حان لضم مدينة القسطنطينية الى امبراطورية البندقية التجارية للسيطرة على تجارتها؛ وكان كل ما يحتاجه هو العثور على عذر أو وسيلة لتحقيق ذلك الهدف؛ فلما علم بأن قادة الحملة قد خططوا للسير الى فلسطين عن طريق الابحار الى السواحل المصرية أولا فى سفن البنادقة الكبيرة المربحة، أدرك أن الفرصة التى كان ينتظرها قد جاءت تسعى اليه.

وبالفعل وصل وفد من زعماء الحملة الى البندقية فى فبراير ١٠٢١م للتفاوض فى أمر السفن التى سوف تنقل الجنود والعتاد الى السواحل المصرية، لكن داندولو لم يكن يريد للحملة أن تتجه الى مصر، لأنه كان صديقا للدولة الايوبية وله فيها مصالح، كما كان على علاقة طيبة بالسلطان العادل، الذى كان يعامل التجار البنادقة المقيمين فى مصر معاملة طيبة على أنهم رعايا دولة؛ فقد كان للبندقية فى ثغر الاسكندرية جالية كبيرة وحى

خاص بهم، به فندقان وكنيستان ومخبز ووكالات تجارية وحمام؛ فقد كان البنادقة يبيعون لمصر الاسلحة والذخيرة وخام الحديد والاخشاب اللازمة لصناعة السفن؛ وكذلك المماليك الذين يأتون بهم من تجاراتهم في أصقاع آسيا، بالرغم من حظر البابا التعامل التجارى مع مصر.

فلقد أدرك داندولو بحكمته وذكائه أنه لايستطيع الاعتراض الصريح على توجه الحملة لمصر، حتى لايتهم من جانب البابا والصليبيين بأنه خائن للقضية الصليبية، ومن ثم لجأ إلى الحيلة والدهاء، اذ أنه طلب أجرا باهظا لنقل الجنود الصليبيين على متن سفنه قيل أنه ثمانون ألف مارك ألمانى من الفضة وهو مبلغ كان يعلم أنه ليس فى مقدور قادة الحملة دفعه، وكلما طالت المفاوضات، طالت اقامة المتطوعين فى البندقية حتى كادت نقودهم تنفذ مما شكل ضغطا على قادة الحملة ليقبلوا مطالب داندولو الذى عرض أن يقوم بنقل الجنود بشرط أن تتجه الحملة أولا الى ميناء زارا zara على ساحل دالماتيا Dalmatia فى بحر الادرياتيك لينتزعوا هذا الثغر الهام من ملك المجر؛ ولما كان هذه الملك المجرى مسيحيا تقيا شارك فى الحملات الصليبية السابقة، فقد روع البابا أنوسنت الثالث لهذا المطلب ورفض الموافقة عليه؛ غير أنه لم يكن أمام قادة الحملة الا الانصياع لمطلب انريكو داندولو، وهكذا أبحرت الحملة قاصدة ميناء زارا.

وبالطبع لم يكن سكان ثغر زارا ندا للقوات البندقية والصليبية المشتركة، لكنهم رغم ذلك قاتلوا من وراء مليكهم ببسالة، وفضل أغلبهم الموت دفاعا عن مدينتهم وثغرهم على الاستسلام المهين، وضرب البنادقة والصليبيون حصارا حول الميناء بهدف تجويع سكانه حتى الموت أو الاستسلام؛ ولم ينج من كارثة الحصار سوى حفنة قليلة من سكانه؛ وأخيرا سقط الميناء فى أيدى البنادقة والصليبين فى نوفمبر عام ١٢٠٢م.

وبعد الاستيلاء على الميناء، انتظر الصليبيون حتى شهر مايو عام ١٢٠٣م وطالبوا داندولو بنقلهم الى السواحل المصرية، فعاود مطالبتهم بالدين، ثم بدأ مندوبوه يغررونهم بذهب القسطنطينية، وجواهر تاج القسطنطينية؛ وفى نفس الوقت كان الامبراطور الالمانى فيليب يضغط على ممثلة المركيز بونيفاس موتفيرات قائد الحملة لكى يعيد صهره الكسيوس الى عرشه، بالاضافة الى ذلك أسرف الكسيوس فى وعوده اذا ما أعيد الى العرش؛ فقد وعد البابا أنوسنت الثالث بتوحيد الكنيستين تحت زعامته، ووعد قادة الحملة بتسديد الدين الذى عليهم بحق البنادقة بالاضافة الى المساعدة فى تجهيز الحملة الى مقصدها الاصلى وهو سواحل مصر؛ كما وعد البنادقة باطلاق يدهم فى تجار جنوة وبيزا، الذين كان الامبراطور المغتصب الكسيوس الثالث قد استمالهم الى صفه على حساب التجار البنادقة. كما كان هناك شعور عام بين الصليبيين بأن دولة الروم دونة خائنة، وأنما السبب فى فشل الحملات الصليبية، وأنما تتعامل سرا مع المسلمين. وبذلك استطاع انريكو داندولو أن يستغل كل هذه الظروف ليحول الحملة الصليبية الرابعة عن هدفها الاساسى لتتجه صوب القسطنطينية بدلا من مصر.

الصليبيون فى القسطنطينية:

وفى الرابع والعشرين من شهر مايو عام ١٢٠٣م ظهر الارمادا البندقى قبالة سواحل القسطنطينية، ثم ضرب الحصار البحرى حولها؛ ولما كانت ضاحية جالاتا Galta التى تقع على الساحل الشرقى من القرن الذهبى ملكا فى حوزة اللاتين والجالية الاوروبية الغربية فى القسطنطينية، فقد استسلمت بسرعة، بل ورحب أهلها بالغزاة؛ بعدها قام الصليبيون الغزاة بتدمير المرفأ العائم الذى كان يحرس مدخل القرن الذهبى، ثم داروا بسفنهم حول الخليج لكى

يهاجموا القسطنطينية من الخلف، بينما هاجمها المشاة الصليبيون ـ الذين نزلوا عند بحر مرمرة ـ برا. ولقد تصدى سكان القسطنطينية لذلك الغزو الغادر بشجاعة؛ كما تصدت له قوات الحراسة، خاص حرس الامبراطور الشخصي المسمى باسم«الفارانجيان» ، لكن الامبراطور الكسيوس الثالث المغتصب ولى الادبار، اذ فر من المدينة حاملا معه جواهر التاج الامبراطوري، وأموال الدولة وكنوز القصر. وبالرغم من أن المهاجمين كانوا يفوقون المدافعين عددا وعدة، الا أنه كان في امكانهم الصمود لوظل القرن الذهبي مغلقا في وجه سفن العدو؛ ولما تفاقمت الامور، اضطرت القسطنطينية الى التسليم لحفنة من أشقائها المسحيين في السابع عشر من شهر يوليو عام ١٢٠٣.

وفي بادئ الامر أبدى البنادق تحفظا في سياستهم، فأخفوا طموحهم الشخصي؛ وأقنعوا الصليبيين بالبقاء بعيدا عن المدينة في مخيماتهم خارج الاسوار، ثم قاموا باستدعاء الامبراطور المعزول اسحق من منفاه، وأعادوه الى العرش؛ غير أنه كان ضريرا ومسنا، ولذا قاموا بتعيين ابنه الكسيوس امبراطور شريكا لابيه باسم الكسيوس الرابع؛ وأصبح هذا الامبراطور أداة طيعة في أيدي البنادقة والصليبيين، يحركوه كما يشاءون.

بعد ذلك طالب البنادقة والصليبيون الكسيوس الرابع بتنفيذ وعودة التي كان قد قطعها على نفسه؛ غير أنه لم يكن مقدوره أن يفعل شيئا، فقد وجد الخزانة خاوية، والقصر منهوبا، كما أن محاولته تحقيق وحدة الكنيستين أثارت عاصفة من الاحتجاج من جانب سكان القسطنطينية، معلنين تمسكهم بكنيستهم الأغريقية العريقة ومذهبهم الأرثوذوكسي القويم. كما أن غزو عاصمتهم عنوة أذلهم وجرح كبرياءهم؛ فضلا عن النهب الذي تعرضت له القرى المحيطة بأسوار القسطنطينية من قبل الصليبيين؛ كل ذلك جعلهم يتحفزون للثورة للفتك بالأباطرة الدمى، وسادتهم اللاتين الكاثوليك.

ثورة القسطنطينية وتعيين الكسيوس دوقاس امبراطورا:

وفي أعياد الميلاد في يناير عام ١٢٠٤ طبقا للتقويم الكنسي الشرقي هب سكان القسطنطينية عن بكرة أبيهم في واحدة من أعنف الثورات التي شهدتها هذه العاصمة، وزحفت الجماهير على القصر الامبراطوري، حيث القوا القبض على الامبراطور الكسيوس الرابع وقتلوه، وعزلوا أباه والقوه في السجن حيث مات بعد ذلك بقليل، ثم حملوا إلى العرش زوج ابنة الكسيوس الثالث. وكان يسمى الكسيوس دوقاس الخامس، وكان ينتمي الى الحزب المعادي للأفرنج والبنادقة؛ فأعلن أنه لن يعترف بأي تعهدات أو التزامات قطعها الكسيوس الرابع على نفسه لأسياده الصليبيين؛ وأنه سوف يتبع سياسة حازمة وصارمة ازاء البنادقة والغزاة اللاتين. وقبل أن يستتب الأمر لألكسيوس دوقاس وينفذ وعوده، هزم البنادقة والصليبيون على أخذ المبادرة فعقدا اجتماعا في ربيع عام ١٢٠٤، قرروا فيه الهجوم على القسطنطينية والاستيلاء عليها بالقوة، ونهبها وتقسيما بينهم بشرط ألا يتعرضوا للكنائس والرهبان والنساء.

وفي أعياد الفصح لعام ١٢٠٤، اقتحم الصليبيون والبنادقة العاصمة، وكان سكانها مستعدين ومتلهفين للدفاع عنها؛ ولما كان الامبراطور الجديد الكسيوس دوقاس الخامس يعرف أن الموقف ميئوس منه، فقد حاول أن يتفاهم مع اللاتين بشأن السلام والجلاء، لكن المواظفين لم يعطوه الفرصة، اذ اندفعوا بأسلحتهم الى أسوار المدينة، ودارت معركة ثانية مع الصليبيين، وبالرغم من أن المدافعين كانوا أقل بكثير من المهاجمين عددا وعدة، ألا أنهم صمدوا حتى الثالث عشر من أبريل عام ١٢٠٤م.

سقوط القسطنطينية فى أيدى اللاتين:

ولقد كان عيد الفصح لعام ١٢٠٤ عيداً حزيناً فى القسطنطينية، ففى الثالث عشر من شهر ابريل اقتحم الصليبيون اللاتين القسطنطينية عنوة، وهرب الامبراطور الكسيوس دوقاس الخامس، ومعه بطريرك العاصمة ونخبة من الزعامات والقيادات؛ ولجأوا الى البلقان وآسيا الصغرى، عازمين على أن يستأنفوا المقاومة، وحرب التحرير من هناك.

وتصف حوليات العالم الأرثوذكسى استيلاء اللاتين على القسطنطينية فى ذلك اليوم الأسود بأنهـا« كارثة لايمكن نسيانها»؛ ولم يكن ذلك كارثة على الحضارة الشرقية الأغريقية فحسب، بل أيضا على الحضارة الانسانية جمعاء؛ فقد كانت القسطنطينية فى ذلك الوقت مدينة المدائن، وأجمل حواضر العصر، فقد فاقت فى جمالها حتى روما العاصمة العريقة، وتربعت على عرش المسيحية الأرثوذوكسية بلامنازع. كما كانت كنز الفنون والتراث الخالد، ففيها تراكمت عبر القرون رائع الفنون والمخطوطات والكتب، ولقد ظلت هذه الكنوز القيمة بعيدة عن العبث لما يقرب من ألف عام، اذ لم ينالها أذى على يد أحد من الجيوش المتعددة، التى كانت تحاصر المدينة من آن الآخر.

لكن فى هذه المرة أطلق اللاتين لجنودهم العنان ليعيثوا فيها سلباً ونهباً وتخريباً وهتكاً للأعراض وسلباً للأموال والممتلكات، حتى أن كنيسة أيا صوفيا لم سلم من عبث الجنود. ولأيام ثلاثة ابيحت المدينة الجميلة للعبث البربرى اللاتينى. ويتحدث شهود العيان عن بشاعة هذا التخريب، و النهب والتدمير، فنهبت كنوزها وآثارها، ودمرت مرافقهـا وملاعبها، وهتكت أعراض الراهبات، ودخلت الجنود الصليبية وهم سكارى كنسية أيا صوفيا، ونهبوا محتوياتها ونفائسها ومخطوطات، بل وصل بهم الاستهتار أن أجلسوا عاهرة على كرسى البطريرك، وجعلوها ترقص وتغنى أغان خليعة أمام المذبح، والجنود تترنح من فرط الشراب، وتركل بأقدامها الأناجيل اليونانية، وتعبئ الخمر فى أوانى الشعائر. حتى أن أحد شهود العيان قال متأثرا«ان المسلمين ـ اذا ماقورنوا بهؤلاء الذين يحملون شارة صليب المسيح على أكتافهم ـ يبدو أكثر رحمة وعطفا». هكذا ظل التخريب والعبث طوال السبعين ساعة التى تلت الفتح، وكشف القناع عن حقيقة هؤلاء الجنود البرابرة القساة، الذين جاءوا تحت ستار الدفاع عن المسيحية، فاذا بهم ينتهكون حرمات الكنائس والكاتدرائيات، ويعبثون بمقدساتها، ويضرمون النيران فى مرافق المدينة، ويسرقون ويحطمون روائع الفنون التى لاتقدر بثمن، وكذلك الكتب التى لايمكن استعاضتها.

أما بالنسبة لقادة الحملة، فقد شحنوا الى أوطانهم التحف والكنوز والآثار الكبرى، فقد قدرت قيمة لكنوز المنهوبة بما يعادل ٨٠,٠٠٠ (ثمانمائة ألف) دينار ذهبى، بالاضافة الى آيات الفن النادرة، التى كان قسطنطين الكبير قد نقلها الى القسطنطينية من مدينة روما، و غيرها من حواضر العالم، فقد خلع البنادقة مجموعة الجياد البرونزية المعروفة باسم مجموعة لسبوس، التى كانت تزيد ميدان مضمار سباق الخيول والعربات، وحملوها الى البندقية ونصبوها فى مواجهة كادرائيتهم الشهيرة، القديس موقس. ولاتزال حتى اليوم باقية هناك. وذكر أحد شهود العيان وهو المؤرخ والشاعر الرومى نيكيتاس الخونياتى Niketas Choniates أن من بين الاعمال التى نهبا زعماء الحملة التمثال الشهير كان مصنوعا من البرونز، وكان شعارا المدينة روما الوثنية، ويمثلها فى هيئة ذئبة كبيرة ترضع الطفلين ريموس وروموولوس مؤسسا مدينة روما كما ورد فى الاساطير الرومانية، وكذلك تمثال باريس الطروادى الذى يمسك بالتفاحة الذهبية عندما احتكمت

اليه ربات الاغريق الشهيرات آثينا وهيرا وأفروديت ليحكم بينهن أيهن أحق بها كأجمل ربة كما ورد في أساطير الحرب الطروادية؛ بالاضافة الى عدد من التماثيل الكبرى، التي كان الامبراطور أوكتافيوس أغسطس قد نصبها في روما بعد انتصار ه على الملكة المصرية كليوباترا السابعة في معركة أكتيوم، كما صهر الغزاة عددا من التماثيل، والتحف الذهبية والفضية، ليحولوها الى عملات من فضة وذهب، ليدفعوا منها رواتب الجنود، وليجهزوا لحملاتهم الصليبية المزعومة. حتى قبور أباطرة الروم لم تسلم من النبش والسرقة على يد الجنود. ولهذا فان بعض مؤرخي عصور الروم يعتبرون نهاية امبر اطور يتهم الفعلية عند عام ١٢٠٤م، لانه لم يعد لها من ناحية الواقع وجو د سياسي وحضار ى ملموس كما عر فت في عصورها السابقة فقد هجمت المؤثرات الاروبية اللاتينية والفر نجية على تراث الروم الاغريقي فأفسدته. كما قوضت ركائزه الأساسية؛ وقصمت ظهر الامبراطور ية الشرقية حامية العقيدة الارثوذوكسية وبدأت بعض ولاياتها تنفض عنها خوفا من اللاتين. وأصبح احتمال الغزو العثماني لها ممكنا بعد الدمار الذى لحق بها من جراء الغزوة اللاتينية الصليبية.

تقسيم الامبراطورية بين قادة الحملة:

وبعد الاستيلاء على القسطنطينية، شرع الحلفاء اللاتين والبنادقة في تقسيم الغنائم والاسلاب طبقا لاتفاق مسبق بينهم؛ ولقد لعب انريكو داندلو دوراً بارزا في عمليت التقسيم، فقد بذل جهده في تقليص مكاسب بونيفاس قائد الحملة، لأنه كان لايثق فيه، ولذلك اقترح بأن ينتخب ستة من اللاتين ومثلهم من البنادقة لاختيار امبراطور لاتيني للقسطنطينية، وتم الاقتراع وفاز مرشح داندولوا وهو بلدوين كونت فلاندر ز وهينولتBaldwin Count of Flanders and Hainault، كما تم اختيار قس من البندقية اسمه توماس مار سيني Thomas Mar-sini ليكون أو ل بطريرك كاثو ليكي على القسطنطينية. وفي السادس والعشر ين من شهر مايو عام ١٢٠٤ توج بلدوين امبراطورا في كنيسة أ يا صوفيا بالقسطنطينية، وقاد القداس ومراسيم التتويج ـ الذى تم باللغة اللاتينية ـ البطريرك البندقي الجديد مارسيني، ولقد كان أول قداس يتم طبقا للمذهب الكاثوليكي وباللغة اللاتينية مما سبب جرحا لكبرياء شعب القسطنطينية الذى يتحدث الاغريقية ويدين بالارثوذوكسية.

بعد ذلك شرع الحلفاء المنتصرون في تقسيم أجزاء الامبراطورية تقسيما مساحيا كما اتفق عليه من قبل، فقد منح الامبراطور بلدوين نصف المساحة التي احتفظت بها البندقية لنفسها، ومساوية للمساحة الباقية التي قسمت الى اقطاعيات وامار ات ووزعت على مختلف فرسان الحملة من اللاتين ؛ فقد منح بلدوين خمسة أثمان مدينة القسطنطينية وجنوب اقليم تراقيا، وجزءا صغيرا من شمال غرب آسيا الصغرى مجاورا للبوسفور وبحر مرمرة، كما منح ملكية عدد من الجزر الهامة في بحر ايجة مثل لسبوس، وخيوس، وسافوس؛ لكن من الناحية الفعلية لم يكن بلدوين يتحكم الا في الجزء الخاص من القسطنطينية، لأن الباقي كان يملكه اسميا بحق تبعية الامراء له، الذين حكموا هذه المناطق بصفته صاحب الاقطاع الأول.

أما بونيفاس فقدكون لنفسه مملكة سالونيك اللاتينية من مدينة سالونيك وبعض الاجزاء المجاورة والمحيطة بها من مقدونيا وتساليا وتراقيا، وبالمثل حكم بونيفاس هذه المملكة بصفته تابعا اقطاعيا للملك بلدوين. أما قليم البلوبونيسوس(المورة) فقد أعطى للفارسين الفرنسين وليام دى شامبليت William de Cham-

pletteوجيفرى دى فلها ردوين Jeffery de Vilehardouin، وعمل هذان الفارسان على نشر الثقافة الفرنسية خاصة فى اقليم آخيا جنوب المورة حتى أصبحت تعرف بأسم فرنسا أخرى autre Franceوكان الفرسان عموما أكثر ثراء وقوة من الزعماء الكبار وخاصة الامبراطور اللاتينى.

وعلى الناحية الاخرى، فقد حصل البنادقة على نصيب الاسد، بصفتهم أصحاب المصلحة فى تحريك الحملة البندقية، فقد حصلوا على ثلاثة أثمان مدينة القسطنطينية، وكان يدخل فى نصيبهم الحى الذى به كاتدرائية أيا صوفيا، وبذلك أصبح أمر كنيسة القسطنطينية فى أيدى البنادقة، كما حرص البنادقة على أن تكون المناطق التى تحقق الامن لمصالحهم التجارية فى أيديهم، فقد حصلوا على ميناءه دورازوه على بحر الادرياتيك، وعلى جزر البحر الايونى الهامة، وكذلك على بعض جزر بحر إيجه، وكذلك حصلوا على موانىء بحرمرورة والدردنيل، وعلى مدينة أدرنة وحصلوا على جزيرة كريت، وبذلك كان نصيبهم أغنى من نصيب الامبراطور اللاتينى. فقد شرع البنادقة فى اقامة مستوطنات لهم على طول السواحل الهامة، وبذلك حققت البندقية لنفسها امتيازات جعلتها تسيطر على التجارة الشرقية.

هكذا تحولت امبراطورية الروم بعد الغزو اللاتينى الى لوحه من الشطرنج فقد قسم الامبراطور اللاتينى ممتلكاته الى عدد كبير من الاقطاعات، التى منحسها للامراء والفرسان، بشرط أن يقسموا يمين الولاء له بصفته صاحب الاقطاع الرئيسى، وذلك طبقا لنظام الاقطاع الذى كان فى قمة اكتماله فى أوروبا فى ذلك الوقت. أما البنادقة فقد اعتبروا أنفسهم شركاء للامبراطور وليسوا توابع له، ولهذا لم يقسموا له يمين الولاء.

امبراطورية الروم فى المنفى:

ولقد كره الروم سادتهم اللاتين الجدد، لانهم جاءوا كغزاة، لأنهم كانوا متعالين متغطرسين، ولانهم كانوا أتباع الكنيسة الكاثوليكية والبابا فى روما، كما أن عاداتهم وسلوكهم كان مختلفا، ويفرضون تطبيق نظما غربية على الشرق الاغريقى العريق؛ وبذلك سببوا بين شعوب الروم قلقا، وحنينا لحمل السلاح من أجل الكفاح، وتحرير أوطانهم وعاصمتهم بعد قرون من الهدوء والدعة.

ولقد هاجر امراء البيت الحاكم، وأعضاء البيوتات العريقة من القسطنطينية بعد سقوطها، حاملين أموالهم، وممتلكاتهم، ومعهم أتباعهم بهدف قيادة الكفاح المسلح ضد اللاتين من مناطق مختلفة من أجزاء الامبراطورية، تنافست فيما بينها على تحرير القسطنطينية. وهذه الدويلات هى:

١. مملكة طرابيزون Tribesond:

قامت هذه المملكة فى جنوب شرق البحر الاسود. وكانت عاصمتها طرابيزون المدينة العريقة التى كان الاغريق قد أسسوها عام ٧٥٦ق.م أثناء حركة الانتشار والاستيطان، وكانت تعرف فى الاصل باسم طرابيزوس Trapezos. وكانت مدينة ذات مركز تجارى واستراتيجى هام، مما جلب الربح الوفير لسكانها، وبالرغم من أن قبائل الاتراك كانت تسيطر على السهل الواقع جنوب الساحل الجنوبى للبحر الاسود، الا أن هذه المملكة الصغيرة كانت كثيرة النماء، ومما ساعد على ذلك بعدها عن مواقع اللاتين مما جعلها فى مأمن منهم وبعيدة عن توسعاتهم وأطماعهم.

وفى الحقيقة يعود تأسيس هذه المملكة الى قبيل سقوط القسطنطينية بقليل؛ فقد أسسها

حفيدا الامبراطور الرومى أندرونيكوس الاول وهما الكسيوس ودافيد كومنيوس؛ اللذان كان لهما صلة قرابة بأسرة جابراس Gabras الحاكمة في منطقة جورجيا، فقد كانت خالتهما هى «تمارة Tha-mar»ملكة جورجيا. وكان الكسيوس ودافيد طفلين صغيرين عندما توفى والدهما عمانوئيل كومنين عام ١١٨٠م، وبعد عزل جدهما لامهما الامبراطور أندرونيكوس وموته عام ١١٨٥م أصبحا الورثين الشرعيين لعرش القسطنطينية ومنافسين للأمبراطور اسحق الانجيلى، ولما شرع اسحق فى القضاء على منافسيه فى الحكم من أسرة كومنين، هربا الى Tiflis تفليس عاصمة جورجيا (تبليسى الحالية) ليقيما فى بلاط خالتهما الملكة «تمارة ابنه الامبراطور أندرونيكوس. ولقد انتهزت الخالة تمار فرصة الاستيلاء الاول للصليبيين على القسطنطينية فى ١٨يوليو ١٢٠٣، وأعدت جيشا من قوات جورجيا، لتنصيب الاميرين حاكمين على طرابيزون كوريثين لعرش الامبراطورية فى المنفى، ولقد تم ذلك فى ابريل عام ١٢٠٤م بعد الاستيلاء الاول للصليبين على القسطنطينية قبل اندلاع الثورة التى استولى الصليبيون خلالها على زمام الحكم فى العاصمة؛ ولذلك تذكر المصادر أن مؤسس امارة طرابيزون هما الكسيوس ودافيد حفيد أندرونيكوس ولدا عمانوئيل كومنين. وسرعان ما توالى قدوم كثير من زعماء الروم الساخطين ميممين وجوههم شطر طرابيزون، وزاد عدد اللاجئين اليها بعد سقو ط القسطنطينية نهائيا فى أيدى قادة الحملة الصليبية الرابعة. ثم قام دافيد بتوسيع الامارة بسلسلة من الفتوحات غربا على طول ساحل البحر الاسود بمساعدة جنود مرتزقة من جو رجيا، فاستولى على بونطس pon-tosوسينوب sinope وهراقليا Hieracliaوكلها مدن عريقة تقع على ساحل البحر الاسود.

وبالرغم من أن حكام هذه المملكة كانوا من أسر ة كومنين العريقة، وبالرغم من أن هذه المملكة كانت غنية، ودام حكم أسرة كومنين فيهاحتى القرن الخامس عشر الميلادى، الا أن ملوك هذه المملكة لم يستطيعوا تحرير القسطنطينية، وذلك لبعده هذه المملكة عن القسطنطينية فضلا عن وجود الخطر التركى الذى كان يحيق بها، وأنتهى أمرها بسقوطها فى أيدى العثمانين عام ١٤٦١م(٢).

دوقية ايبروس:

وكان من بين الامراء الهاربين من القسطنطينية بعد سقوطها ميخائيل الانجيلى، أحد أعضاء أسرة أنجيلوس، الذى اتجه الى اقليم نائى فى شمال غرب بلاد اليونان، هو اقليم ايبروس الجبلى الوعر، وأسس فيه دوقية امتدت من شمال ميناء دورازو، الذى كان فى أيدى البنادقة، الى خليج كورنثا جنوبا، وتساليا شرقا، واتخذ من مدينة ارتا Artaعاصمة لهذه الدوقية بعد الاستيلاء عليها، وارغم الامبراطور اللاجئ الذى طرده الصليبيون وهو الكسيوس الثالث الانجيلى، أن يبايعه وريثا لعرش القسطنطينية ليضفى على نفسه صفة الشرعية. ولما كانت هذه الدوقية مجاورة لمملكة البلغار المعادية ودوقيات الصليبيين اللاتين فى اقليم البيلوبونيسوس، وعلى مقر بة من ممتلكات البنادقة، فقد سلك ميخائيل سياسة كلها دهاء وشجاعة، اذ خلق نوعا من الوفاق مع البلغار واللاتين والبنادقة، مما ضمن البقاء لدوقيته. ولهذا جعل ميخائيل رسالة دوقيته، هى الحفاظ على ثرات الروم الحضارى وحمايته من الضياع فى بحر التأثير البلغارى الفرنجى واللاتينى فى الاقاليم الغر بية من بلاد اليونان ـ ولم يفكر فى اعداد جيوش لتحر ير ولايات الامبراطورية من اللاتين، وطردهم من القسطنطينية؛ ومن ثم اعتبر نفسه حاكما مستقلا؛ كما جعل له كنيسة مستقلة عن سائر الكنائس الاخرى؛ ولذلك أبقى على النظم الادارية؛ التى

٥٩ : الاب مقاره البطرك ٩٥٢/٩٣٣م

كانت سائدة فى ابيروس عندما كانت اقليما تابعا لامبراطورية القسطنطينية قبل سقوطها.

مملكة نيقية:

أما المملكة التى أخذت على عاتقها الدفاع عن شرف امبراطورية الروم بعد أن مرغه الصليبيون اللاتين فى الوحل، فهى مملكة نيقينة فى آسيا الصغرى، التى قامت عام ١٢٠٦ وكان على رأسها الامبراطور المخلوع الكسيوس الثالث، فقد بنت وجودها على حركة قومية، تدعو لتحرير العاصمة والاقاليم، وطرد الصليبيين، والتمكين لنفسها فى الاقاليم الاسيوية الرومية؛ ولقد ساعدها على ذلك أنها كانت على مقربة من الامبراطورية الاتينية فى القسطنطينية، بعكس الحال الذى كانت عليه طرابيزون النائية؛ كما كانت ذات موارد اقتصادية غنية، بعكس الوضع الذى كانت فيه دوقية ايبرو س الفقيرة. بالاضافة الى ذلك فقد تميزت مملكة نيقية بكثافة سكانية عالية، كما كان بها أعرق المدن والحواضر الاغريقية التى تثير الحنين القومى والحضار ى مثل سمرنة smyrna (أزمير)، وافيسوس (افسة) Ephesos، ونيقوميديا Nikomedia وبرجامون pergamon؛ ويكفى أن عاصمتها كانت نيقية، تلك المدينة الجميلة التى تقع على الجانب الآخر من مضيق البسفور فى مواجهة القسطنطينية ـ فقد كانت نيقية مدينة عزيزة عند المسيحيين؛ ففيها انعقد أول مجمع دينى مسكونى لتوحيد الكنيسة. كما كانت مدينة محصنة بأسوار قوية وعالية.

كان المؤسس الفعلى لامبراطورية نيقية أحد أفراد الارستقراطيين العسكريين الروم الذين هر بوا بعد سقوط القسطنطينية، وكان اسمه تيودور لاسكاريس Theodoros Laskaris الذى عرف فى المصادر العربية بالاشكرى وكان فى الثلاثين من عمره عندما لجأ الى نيقية؛ وكان شقيقا لزوجة امبراطورية الروم المخلوع الكسيوس الثالث، بل كان من أبرز قواد الامبراطورية العسكريين، وخاض عددا من المعارك ضد الصليبيين؛ ولما أدرك امبراطور القسطنطينية اللاتينى خطورة ما يفعله لاسكاريس حاول غزو آسيا الصغرى، وكاد أن يقضى على نيقية لولا أن ظهر فى الافق كالوجان ملك البغار، الذى فتك بالصليبيين فى معركة أدر نة فى الخامس عشر من أبريل عام ١٢٠٥، والتى قتل فيها بالدوين امبراطور القسطنطينية اللاتينى، وبذلك أنقذت الظروف ثيودور لاسكاريس، وأنقذت معه مشروعه لتحر ير الامبراطورية.

عاد لاسكاريس ينظم قواته، ويقيم دعائم مملكته وهو يحمل لقب سلطان نيقية Despotes tes Nikaias، وظل يحمل ذلك اللقب أربع سنوات منذ مجيئه؛ وكان من بين مشروعاته اعادة الكنيسة الارثوذوكيسة الرومية، ولذا دعا البطريرك السابق حنا كوماتيروس Komateros إلى أن يأتى إلى نيقية؛ ويترك بلغاريا التى كان قد لجأ اليها، غير أن كوماتيروس رفض الدعوة؛ فأشرف على ا نتخاب بطريرك آخر، اسمه ميخائيل أوتوربانوس فى يناير عام ١٢٠٨، وفى نفس العام تنازل لاسكاريس عن لقب السلطان despotesواستبدله بلقب الملك Basileus، وقام البطريرك الجديد بتتويجه امبراطورا ووريثا لعرش القسطنطينية، وبذلك أصبحت نيقية مقرا لعرش الامبراطور الذى بناه فى نيقية، وهو مقر قيادة امبراطورية الروم فى المنفى. وأصبحت أسرة لاسكاريس هى أمل جميع شعوبها فى العودة. وأصبح كل من يتولى عرش امبراطورية نيقية يحمل لقب لاسكاريس، الذى ترجمه العر ب الى الاسكرى أو الاشكر ى، وظل لقب الاشكرى يطلق على كل من جلس على عرش القسطنطينية فيما بعد، حتى الفتح العثمانى تماما كما كان لقب بطليمو س يحمله كل من

خلف بطليموس الاول على عرش مصر، حتى الفتح الروماني.

وبعد مقتل الامبراطور اللاتيني بلدوين، انتخب الصليبيون شقيقه هنرى، الذى شغله خطر البلغار عن غزو نيقية؛ ؛كما واجه ثيودور لاسكاريس خطر السلاجقة، الذين كانوا يرفضون قيام أى دولة تنافسهم فى آسيا الصغرى. وتحول دون تقدمهم غربا تجاه ساحل بحر أيجة؛ ولذلك توترت العلاقات بين سلاجقة الروم فى قونية، وامبراطورية الاشاكرة فى نيقية، خاصة بعد لجؤ الكسيوس الثالث انجيلوس والد الاميرة آنا Anna، زوجة تيودور الاشكرى الى بلاط سلطان قونية السلجوقى، طالبا مساعدته فى استرداد العرش من زوج ابنته؛ وبالفعل غزا السلطان غياث الدين خسرو بعض أقاليم نيقية فى عام ١٢١١م من أجل اعادة الكسيوى، غير أن تيودور الاشكرى لاقى السلطان السلجوقى عند نهر مايندر Maender وهزمه، وألقى القبض على أنجيلوس الكسيوس الثالث(١)، ونفاه الى أحد الاديرة التى بقى فيها حتى موته؛ ولقد رفع هذا الانتصار من شأن تيودور الاشكرى بين شعوب آسيا الصغرى الرومية وزاد من أملهم فى تحرير القسطنطينية، كما أمن هذا الانتصار حدود نيقية الشرقية، وجعلها فى نظر الروم جديرة بأن تكون الوريث الشرعى لعرش القسطنطينية.

ورغم ابتهاج هنرى - امبراطور القسطنطينية اللاتينى - لانتصار تيودور، الا أن تيودور تقدم لتحرير القسطنطينية وسط حماس اتباعه؛ وهرع الفرسان والدوقات اللاتين لنجده سيدهم الامبراطور هنرى بحق التبعية الاقطاعية له، وتمكن هنرى وفرسانه من اختراق آسيا الصغرى فى عام ١٢١٢ - ١٢١٣، لكن أحد لم يحقق نصرا حاسما على الآخر، فعقدت هدنة بين هنرى وتيودور الاشكرى، تم فيها رسم الحدود بين الدولتين فى آسيا الصغرى؛ وقبل تيودور أن يظل الجزء الشمالى من آسيا الصغرى تابعا للمملكة اللاتينية فى القسطنطينية مؤقتا. وفى عام ١٢١٦ مات هنرى وبذلك تخلصت نيقية من أخطر وألد أعدائها؛ وبموت هنرى بدأت شمس المملكة اللاتينية فى القسطنطينية فى المغيب؛ وبدأ باباوات روما يعترفون بوجود امبراطورية الاشاكرة، اذ بدأوا يتصلون بها لاجراء مباحثات من أجل توحيد الكنيستين. وأخيرا مات تيودور الاشكرى فى عام ١٢٢٢ بعد أن وضع الاساس الثابت لعرش امبراطورية الروم فى المنفى.

٥٩: الاب مقاره البطرك ٩٣٣/٩٥٢م

لانه لم يكن احد من البطاركة مقيم باسكندرية بعد انبا خايال البطرك الذى اباع رباع الكنايس. وعند انحداره عول على العبور على والدته ليسلم عليها ويسرها بما صار اليه من الموهبة العالية، وكانت قد كبرت جدا، فلما وصل إلى الضيعة ومعه شعب كبير من الاساقفة وغيرهم ليودعوه، قيل لوالدته وهى جالسة تغزل فى منزلها، هوذا ابنك مقاره قد صار بطركا ووصل الى ها هنا لكى يفتقدك، فلم تجاوب الذى قال لها ذلك بكلمة

وفى الوقت الذى كان ابن طولون يمكن لنفسه فى مصر حدث أن الخليفة المهتدى (٢٥٥ـ ٢٥٦هـ) أمر بضرب عنق باكباك.

وشاء الحظ أن يكون صاحب اقطاع مصر الجديدة هو القائد يارجوخ الذى كان أحمد بن طولون زوجا لابنته. فكتب اليه يارجوخ:تسلم من نفسك لنفسك وزاده الأعمال الخارجة عن قصبة مصر، وكتب الى اسحق بن دينار وكان يحكم الاسكندرية أن يسلمها لأحمد ابن طولون. وكان ذلك فى سنة ٢٥٧ هـ = ٨٧١م وهكذا قدر لأحمد ابن طولون أن يستفيد من باكباك ومن يارجوخ فى سنتين متقاربه وأن يمكن لسلطانه فى مصر. وكانت سنة ٢٥٧هـ سنة حاسمه فى حياة ابن طولون فقد أطلقت يد ابن طولون رسميا فى شئون البلاد من قبل يارجوخ. وليس من شك فى أن ذلك تم بعلم الخليفة المعتمد ورضاه (٢٥٦ـ ٢٧٩هـ/ ٨٧٠ـ٨٩٢م) أذ وافق على أن تلحق أسرة ابن طولون به فى مصر. ودان حكام الكور والأقاليم فى مصر لأحمد بن طولون بالطاعة والولاء، وأصبح اسحق ابن دينار عاملا على الاسكندرية من قبله فى سنة ٢٥٦هـ (٨٧٠م)، كما خضع له أحمد بن عيسى الصعيدى صاحب برقة. أما شقير الخادم فذكر أن أحمد بن طولون استطاع أن يتخلص منه بعد زوال سلطان أم الخليفة المعتز، وقيل فى رواية أخرى ذكرها اليعقوبى فى تاريخه، أن الخليفة المعتمد عزل شقيرا من منصبه فى مصر.

أما ابن المدبر فقد ضاعف ابن طولون جهده للتخلص منه واستطاع أن يحصل من الخليفة

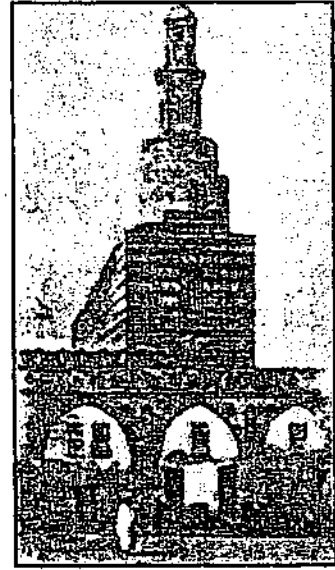
منارة جامع ابن طولون

واحدة، ولا تحركت من موضعها، ولا خرجت للقايه، بل كانت تلك العجوز العارفة جالسة فى شغلها تبكى بكا عظيما. فلما دخل من باب منزلها لم تقم للقايه، بل بقيت جالسة تبكى. وكان مسروراً بما اعطى من الموهبة، فلما راها على هذه القضية احتشم جدا من الذين كانو معه، لانها اهانته قدامهم، اذ لم تتلقاه وتفرح به، بل كانت باكية وهو قايم، فقال لها: يا كبيرة لعلك لم تعرفينى انا ولدك مقاره قد اعطانى الرب هذا المجد

المهتدى على الموافقة على عزل ابن المدبر من مصر. وعين أحمد بن طولون عامل خراج خاضعا له هو محمد بن هلال سنة ٢٥٦هـ. لكن هذا العامل لم يمكث طويلا لأن قتل الخليفة المهتدى وتولية المعتمد، جعلت ابن المدبر ينجح فى العودة الى خراج مصر، ولكنه لم يستعد سلطانه الأول وذلك بفضل نشاط ابن طولون وقوة شكيمته. ونجح ابن طولون فى ابعاد ابن المدبر مرة ثانية وقلده المعتمد خراج فلسطين ودمشق والأردن فى سنة ٢٥٧هـ.

وفى سنة ٢٥٩هـ مات يارجوخ صاحب اقطاع مصر. ولا يتفق المؤرخون فى تعيين الشخص الذى أقطع مصر من بعده، ولكن يظهر لنا أن الفوضى فى سامراء شجعت أحمد بن طولون على أن يمضى قدما فى بسط سلطانه على مصر كلها وأن يصبح أميرا على مصر وليس مجرد نائب صاحب اقطاع يقيم فى عاصمة الخلافة. وأصبح نفوذ ابن طولون لا يعتمد على باكباك أو يارجوخ أو غيره، وانما أصبح يعتمد على قوته الشخصية ووفرة ماله وجنده وعسكره.

٣. مصر دولة مستقلة

(أ) سياسة أحمد بن طولون الاقتصادية

حين قدم أحمد بن طولون الى مصر لأول مرة سنة ٢٥٤هـ (٨٦٨م)، كان سلطانه لا يتجاوز منطقة الفسطاط. لكن قدر للأمور أن تجرى كما يتمنى ابن طولون ويشتهى، وما هى الا

٥٩: الاب مقاره البطرك ٩٣٣/٩٥٢م

العظيم فما تفرحي انتي الان معي وانا في هذا اللباس الذى هو لباس ومجد الملوك. فاجابته بفهم وقالت له: اما انا فعارفة بك يا ولدى، واما انت فما تعرف ما صرت اليه، وانت مسرور بما نلته وانا حزينة عليك، فليت لو اتونى بك محمولا على نعش ميتا ولا تدخل على بهذا المجد الفارغ، لا تنظر يا ولدى الى ما نلته وتفرح بل ابكى واحزن لان هذا الشعب كله الذى يمجدك انت مطلوب بخطاياهم. فلم يفهم ما قالته له بالجملة من

خمس سنوات حتى استطاع ابن طولون أن يكون أميرا على مصر كلها وأن يضم لنفسه ادارة الخراج في البلاد. وكانت الدولة الطولونية تمثل الانتقال من عصر التبعية الى عصر الاستقلال، من عصر الوالى الذى يمثل سياسة الخلفاء ويأتمر بأمرهم، الى عصر الحاكم القوى الواسع السلطان الذى يسنده الشعب ويسنده الجيش والأسطول، والذى يعمل بما فيه الخير والمصلحة للبلد وأبنائه.

وكان أول ما اتجه اليه أحمد بن طولون العناية بالنواحي الاقتصادية حتى يتم استقلال مصر سياسيا واقتصاديا، وحتى يمكنها المحافظة على هذا الاستقلال، وحتى يعيش أبناء مصر فى رخاء. كان لابد لمشروعات أحمد بن طولون المختلفة من الأموال الوفيرة. وطبيعى كان على مصر وحدها أن تدبر هذه الأموال الطائلة. ولكى ندرك الدور الكبير الذى كان ينتظر أحمد بن طولون فى الناحية المالية يجب أن نعرف أن دخل البلاد قبل الدولة الطولونية كان يذهب الى بيت مال الخلافة أو جيوب الولاة أو أعمال الخراج بدون أن تفيد مصر نفسها شيئا كثيرا. ولما كانت البلاد فى عصر الولاة لا تحكمها أسرة تحرص على ازدهارها، وكان غرض الخلافة الأساسي هو جباية أكبر دخل ممكن، عرفنا انها لم تكن من الوجهة الماليه الا شبه مزرعة تستغل بدون كبير رعاية لازدهارها أو بقاء قدرتها على الانتاج. وقد زادت الحالة سواء فى العصر العباسي حين كثير تعيين الولاة وعزلهم فكان كل وال يعمل على اثراء نفسه فى أقصر

الحشمة والخجل والحيا من الناس الذين معه، وخرج من عندهاوهو حزين باكى لاهانتها له وكلامها له بحضرة شعبه، فمكث على الكرسى عشرين سنة وتنيح فى الرابع والعشرين من برمهات.

تاوفانس البطرك وهو من العدد الستين

[٩٥٢/ ٩٥٦م]

[هذا الذى اهملته نعمة الله فجن وقيل انه القى فى النيل عند وفاته].

وقت ممكن قبل أن يغادر البلاد. وظهر أيضا فى العصر العباسى وفى عهد أبى جعفر المنصور مسألة ضمان الوالى لخراج مصر كله، أى أن الخليفة أراد أن يجعل الوالى يلتزم بدفع مبلغ معين عن القطر كله دون النظر الى قدرة البلاد على الدفع وظروفها المختلفة.

ولما صارت مصر تقطع للقواد الترك زاد الطين بلة لما عرف عنهم من العنف وسوء الادارة وزيادة الضرائب ثم تولى أحمد بن محمد مدبر خراج مصر وكان متعسفافى فرض الضرائب على المسلمين وأهل الذمة على السواء فزادت الضرائب على المصريين زيادة فاحشة.

ومر بنا أنه حين قدم أحمد بن طولون الى مصر سنة ٢٥٤هـ وجد فيها ابن المدبر عاملا على خراجها.

وكان ابن المدبر قد ولى خراج مصر منذ سنة ٢٤٧هـ/ ٨٦١م كما اتضح لنا من الأوراق البردية وكما يذكر اليعقوبى فى تاريخه، وليس كما ذكر المقريزى فى الخطط أنه ولى الخراج بعد سنة ٢٥٠هـ. ولجأ ابن المدبر الى أساليب كثيرة لجمع الأموال، فقد كان يبغى جمع الأموال الطائلة لنفسه، وكان يكثر من تقديم الهدايا والأعطيات الى الحكومة المركزية فى العراق حتى يأمن على مركزه فى مصر. ولم يهتم ابن المدبر بمصلحة مصر أو المصريين وأدخل فى مصر ضرائب جديدة ولجأ الى القسوة فى جبايتها. وكان مما ابتدعه ابن المدبر أنه أحاط بالنطرون(كربونات الصوديوم) وحجر عليه بعد أن كان مباحا لجميع الناس، وفرض

واقسموا عوضه تاوفانيوس، وكان من اهل اسكندرية وقد كبر، وحدث فيه ضيق صدر لكبر سنه وشيخوخته. وكان يدفع للاسكندرانيين الالف دينار المستقرية لهم فى كل سنة، فضاق به [الألف دينار] فى بعض السنين وسالهم ان يسامحوه منها بشىء، فلم يفعلو وتخاصمو معه وضيقو عليه، وقالو له ما نخلى لك من الالف دينار درهم واحد. ثم قالو له انما انت اجل منا بهذه الشياب والاسكيم، ونحن البسناك اياها وهى لنا، فاما ان

ضريبة على الكلأ الذى ترعاه البهائم سماها «المراعى» وفرض ضريبة على ما يستخرج من البحر سماها «المصايد». ونتبين من الأوراق البردية التى نشرها المستشرق الأستاذ أدولف جرومان، أن ضريبة مراعى المواشى وضريبة المصايد كانت أثقلها على النفوس اذ كان الناس يعتبرونها غير شرعية، ولعلهم كانوا يعدونها مخالفة الآية القرآنية الشريفة: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ﴾ [المائدة: آية ٩٦].

ويظهر أن ابن المدبر نفسه احتال فى تسميتها، فيذكر المقريزى فى ذلك:«وأما المصايد فهى ما أطعم الله سبحانه وتعالى من صيد البحر وأول من أدخلها الديوان أيضا ابن مدبر وصير لها ديوان واحتشم من ذكر المصايد وشناعة القول فيها فأمر أن يكتب فى الديوان: خراج مضارب الأوتار ومغارس الشباك» وفرض ابن المدبر فضلا عن ذلك ضرائب على أشجار اللبخ والسرو والنخيل. وانقسمت ضرائب مصر منذ مجئ ابن المدبر الى ضرائب خراجية وعرفت الضرائب الهلالية باسم«المرافق والمعاون». وأصبح الشعب والفلاح فى مصر ينوء تحت عبء ثقيل من الضرائب، وقامت بعض الثورات فى الاسكندرية وشرقى الدلتا والجيزة ولكنها أخمدت كلها بقسوة فظيعة.

هكذا كانت مالية مصر واقتصادها حين استطاع أحمد بن طولون أن ينحى ابن المدبر وأن يشرف بنفسه على ميزانية البلاد. ولسنا نعرف تماما كل اصلاحات أحمد بن طولون المالية،

توفينا ما هو مستقر لنا عليك وعلى من كان قبلك والا فاعطينا ثيابنا. فغلب عليه الضجر. فنزع الثياب والاسكيم من عليه ورماهم في وجوههم، وقال لهم ان كانو لكم فخذوهم فما لى بهم حاجة. فلما نزعهم عنه ورماهم لهم نزل عليه روح نجس فخبطه حتى صار مكبل بالحديد بقية ايام حياته. ثم اخفوه حتى لا يراه احد، فاجتمع الاساقفة وحملوه الى مصر ليطبوه [ليعالجوه]،

ولكن المصادر التاريخية تروى أن خراج البلاد قد انحط فى عهد الولاة الذين سبقوه حتى بلغ ثمانمائة ألف دينار بينما ارتفع فى نهاية حكمه حتى وصل الى أربعة ملايين وثلاثمائه ألف. وكتب المؤلفون أن القمح فى عصر خمارويه ابن أحمد بن طولون، ثلاثة أرادب بدينار، وكان هذا السعر الأخير يعتبر رخيصا جدا فى العصور التالية.

ويحدثنا المؤرخون عن الغاء أحمد بن طولون للضرائب الظالمة. وأكبر الظن أن أحمد بن طولون أحسن توزيع الضرائب كما خفف بعضها. أما الخراج على المراعى، فتؤكد الأوراق البردية والمصادر التاريخية استمرار هذه الضريبة طوال العصور الاسلامية فى مصر.

وكانت أملاك الحكومة الخاصة تدر دخلا كبيرا يفوق كل ما كانت تدره قبل ذلك، وكان يشرف على هذه الأراضى ديوان خاص اسمه ديوان الأملاك.

وعنى أحمد بن طولون بتطهير مصر من اللصوص وقطاع الطرق والمجرمين الذين كانوا يعكرون صفو السكان الهادئين ولاسيما فى الريف.

كذلك اهتم أحمد بن طولون بالقضاء على الثورات والفتن الداخلية ومنها ثورات العلويين التى كانت قد تتابعت قبيل مجئ أحمد بن طولون الى مصر وبعد قدومه اليها.

وكانت النتيجة لهذه العناية بالفلاح وبالأرض وبالهيئة الادارية فضلا عن القضاء على الفتن والثورات الداخلية وعلى المفسدين، أن شهدت مصر نهضة زراعية كبرى. ويحدثنا

فحملوه فى مركب واقلعوا به، ولم تدعهم الحشمة ان يجعلوه فوق سطح المركب بل جعلوه فى الخن، فصرخ وجدف وقال ما يقولوه المخالفين، فقيل ان واحد من تلاميذ الاساقفة الذين معه نزل فى الليل الى الخن وبل مخدة وجعلها على وجهه وهو نايم، وجلس عليها حتى مات. وقيل انه سقى شيا [سما] حتى مات خوفا من الفضيحة. وكانت مدته بطركيته اربع سنين وستة أشهر.

المقريزى أنه استغل فى الزراعة نحو مليون فدان فى العصر الطولونى، وكان هذا أعظم استغلال شهدته مصر حينذاك. وتجلى هذا الرخاء العظيم الذى توفر لابن طولون فى الملايين التى أنفقها فى مشروعاته والتى ادخرها لأولاده من بعده. وكانت عناية خمارويه بالزراعة لا تقل عن عناية أبيه.

والحق أن العصر الطولونى خلا من الأزمات الاقتصادية، وامتاز بالرخاء وزيادة الانتاج. وكان فيضان النيل طيبا فى سنى الأسرة الطولونية اللهم الا اذا استثنينا بعض سنين من حكم خمارويه ثم السنة الأولى والسنة السابقة للأخيرة من حكم هارون بن خمارويه، فقد كان الفيضان فيها غير طيب وان لم يبلغ من النقصان حد الخطر الذى كان يبلغه بعد ذلك فى عصر الفاطميين والمماليك والذى كانت تنتج عنه الأوبئة والقحط.

ولم تقتصر نهضة مصر على الناحية الزراعية وانما امتدت الى الصناعة والتجارة. كان على رأس الصناعات، صناعة النسج. وأكبر الظن أن مصانع الطراز كانت مصدر ربح وافر للأمراء الطولونيين.

وظلت الصناعات المصرية الأخرى تحظى بالعناية والرعاية مثل صناعة الورق من البردى الذى كان ينمو بكثرة فى مصر وخاصة فى مستنقعات الدلتا والفيوم.

كذلك كانت فى مصر معاصر لا ستخراج الزيت من السمسم وبعض الحبوب والبقول.

مينا البطرك وهو من العدد الحادى والستون

[٩٥٦/ ٩٧٤م]

[قيل أن فى عهده تولى ساويرس ابن المقفع اسقفية الاشمونين].

وقسم عوضه انسان من صندلا [مركز كفر الشيخ] ولدا لراهب قديس من دير ابو مقار بوادى هبيب من قلاية تعرف بدربنا، وكان هذا الرجل مختار. وسبب رهبانيته ان ابواه الزماه بالزيجة فى

كذلك كان المصريون يعصرون القصب ليصنعوا منه السكر، ونعرف ذلك مما جاء فى الأوراق البردية.

ومن الصناعات التى لابد أن تكون قد نجحت فى عصر بنى طولون، صناعة الأسلحة. فقد كان الجيش الطولونى وافر العدد وكانت تلزمه بطبيعة الحال كميات كبيرة من الأسلحة. وقد أشار المؤرخ ابن الزيات فى كتاب الكواكب السيارة، الى بناء سماه مصنع ابن طولون. وربما كان هذا البناء داراً لبعض الصناعات فى عصر بنى طولون.

واذا تذكرنا الجهاز الفاخر الذى أعده خماروية لابنته قطر الندى رجحنا أن من الصناعات التى ازدهرت فى مصر الطولونية صناعة الحلى والأثاث الثمين والتحف المصنوعة من المعادن النفيسة كالذهب الذى اشتهرت بصناعاته منذ عصور الفراعنة، فبالرغم من أن مصر لم تملك ذهباً كالذى ملكته روما وغيرها إلا أنها أبدعت فى مصنوعاته حتى فاقت فى ذلك معظم حضارات العالم. كذلك تفوقت فى الصناعات الجلدية.

كذلك من الصناعات التى ازدهرت فى مصر الطولونية صناعة الخشب. والمعروف أن المصريين مهروا منذ عصر الفراعنة فى صناعة الأخشاب بالرغم من ندرة الأخشاب الجيدة بمصر. واذا صح ما ذكره المقريزى فقد كانت الفسطاط فى العصر الطولونى أسواق خشب كبيرة. وقد بلغ النجارون والفنانون فى الحفر على الخشب مهارة عظيمة تشهد بها التحف الخشبية التى ترجع الى هذا العصر.

صباه بغير اختياره وكان طايعا لهما جدا، وكملو كلما يحتاج اليه العرس، وهو يرى ذلك كانه خيال او منام، فلما دخلو به حجلته [حجرته] مع زوجته واخلوه معها، وكانت من اهله وقبيلته، جلس وقال لها: يا اختى ماذا نربح فى هذا العالم، نقول الان قد اجتمعنا وكملنا شهوة اجسادنا ورزقنا الاولاد اناث وذكور، ما الفايده فى ذلك، وماذا نربح فيه اليس نموت اخر ذلك والقبر نهايته ولابد منهما كما هو مكتوب ان العالم يزول وكل

ومن الصناعات التى ازدهرت فى مصر الطولونية، صناعة الخزف. أكبر الظن أن أحمد بن طولون أدخل فى البلاد الخزف ذا البريق المعدنى الذى اشتهرت بصناعته مصر ولا سيما فى عصر الفاطميين.

ولسنا نعرف كيف كانت تنظم هيئات الصناع فى العصر الطولونى. واذا صح لنا أن نفرض أن النظام المعروف فى العصور المتأخرة كانت نواته موجودة فى العصر الطولونى، جاز أن نظن أن كل طائفة من الصناع كانت لها شبه نقابة أو جماعة يرأسها عريف أو شيخ.

ومما يدل على نشاط مصر التجارى فى أواخر القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) نص كتبه الجغرافى المشهور ابن خرداذبة [١] عن التجارة. فقد تحدث عن التجار اليهود الردانية[٢] الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والافرنجية والأندلسية والصقلبية. وذكر انهم يسافرون من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق برا وبحرا. «يجلبون من المغرب الخدم

(١) انظر: ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص١٥٣ ١٥٤ (طبعة ليدن١٨٨٩م)، والدكتور زكى محمد حسن: الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى:ص ٧ـ٩ (طبعة القاهرة ١٩٤٥م).

(٢) الردانية: يرى الدكتور نعيم زكى ان اسم «اليهود الردانية» من الكلمة الفارسية الطريق Rehdan ويقال ان مركزهم كان فى فارس. ويقول أيضا ان مركز تجمعهم وخروجهم كان من مدينة الرى Rhagaبجوار طهران، وكانت الرى فى القرن التاسع الميلادى عاصمة فارس التجارية (انظر: دكتور نعيم زكى فهمى: دور اليهود فى تجارة العصور الوسطى: ص١١ـ طبعة القاهرة ١٩٧١م).

شهواته والذى يفعل الخير يدوم الى الابد. فلما طيب قلب الامراة بهذا الكلامى ومثله من الكتب المقدسة لحفظ طهارة اجسادهم اقام على ذلك ثلثة ايام حتى قوى امانتها، ثم قال لها: يا اختى قد طاب قلبنا بعضنا مع بعض، فاجلسى انتى الان فى بيتك، وامضى انا الى وادى هبيب اترهب، بل احفظى هذا السر ولا تعلمى به احد، فقالت له نعم. فحينيذ نهض فى اليوم الرابع غلسا [الفجر] ولم يعلم به احدا، فمضى الى الوادى المذكور

والجوارى والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور [١] والسيوف، ويركبون من فرنجة[٢] فى البحر الغربى فيخرجون بالفرما[٣] ويحملون تجارتهم على الظهر (الدواب) الى القلزم[٤]. وبينهما خمسة وعشرون فرسخا[٥]، ثم يركبون البحر الشرقى (البحر الأحمر) من القلزم الى الجار وجدة[٦]، ثم يمضون الى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصينى وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحى حتى يرجعوا الى القلزم، ثم يحملونه الى الفرما، ثم يركبون فى البحر الغربى، فربما عدلوا بتجاراتهم الى القسطينطينية فباعوها من الروم، وربما صاروا بها الى ملك فرنجة فيبيعونها هناك، وان شاءوا حملوا تجارتهم مرنجة فى البحر الغربى فيخرجون بأنطاكية ويسيرون على الأرض ثلاث مراحل الى الجابية[٧]،

(١) السمور: حيوان برى يتخذ من جلده فراء ثمينة والجمع سمامير.
(٢) فرنجة: تعنى هنا فرنسا.
(٣) الفرما: فى شبه جزيرة سيناء، وهى مدينة بلوزيوم pelusium القديمة أو طينة الحالية وهى الى الشرق من بور سعيد على البحر المتوسط، وكان ينتهى عندها الفرع الثالث الذى كان لدلتا النيل شرقى فرع دمياط والذى كان يعرف باسم الفرع البلوزى.
(٤) القلزم: السويس الحالية.
(٥) الفرسخ: ثلاثة أميال.
(٦) الجار: كانت ميناء المدينة المنورة على البحر الأحمر، أما جدة فهى ميناء مكة.
(٧) الجابية: قرية من دمشق.

وسكن فى القلاية المذكورة التى هى دربنا عند شيخ قديس وهو اب القلاية، فعلمه مخافة الله، ولما عرفه السر البسه ثياب الرهبنة، واخفا امره تلت سنين لم يعلم به احد ممن يعرفه، فلما كان تاني يوم من مسيره من بيته سالو عنه اهله ليخرج اليهم كعادته فلم يجدوه، فسالو عنه زوجته فقالت لهم: خرج من عندى من وقت كبير من الليل. فطلبوه طلبا حثيثا فلم يجدوه، وصار ذلك العرس حزن وكابة. فلما انقضت ايام صنعهم الحزن

ثم يركبون فى الفرات الى بغداد، ثم يركبون فى دجلة الى الأبلة[1]، ومن الأبلة، الى عمان والسند والهند والصين. كل ذلك متصل بعضه ببعض».

والحق ان تجارة مصر الداخلية والخارجية نشطت نشاطا كبيرا فى العصر الطولونى. وحسبنا أن نقرأ ما كتبه المقريزى فى كتابه الخطط عن القطائع لنتبين ما كان من الرخاء بالبلاد فى عصر أحمد بن طولون وخمارويه. وخير دليل على ازدهار التجارة ما نعرفه عن وجود الأسواق الكبيرة.

وذكر المقريزى أن كل طائفة من التجار كان لها سوق كبير فقال:«ولكل من الباعة سوق حسن عامر فصارت القطائع مدينة كبيرة أعمر وأحسن من الشام».

والحق أن أحمد بن طولون عنى بالفلاح وبالزراعة والأرض، وبالصناعة والتجارة، وبالنواحى الادارية، وأقصى عن ديوان الخراج كل من تشكك فى ذمته بحيث لم يضم إلا الموظفين الأكفاء المشهود لهم بالأمانة والعدالة. كذلك عمل ابن طولون على القضاء على الفتن والثورات الداخلية وعلى المفسدين.

فلا عجب أن شهدت مصر نهضة زراعية وصناعية وتجارية كبرى، وتجلى هذا الرخاء العظيم الذى توفر لابن طولون فى ملايين الدنانير التى أنفقها فى مشروعاته.

(١) الأبلة: ميناء قديم أنشئت مدينة البصرة بالقرب منه.

عقيب الفرح والعرس اراد اهل الامراة ان ياخذوها عندهم ليزوجوها لرجلا اخر، فلم تجيب الى ذلك ولا قبلت رايهم، وقالت لهم: الذى قضى على به الرب انا اقيم فى بيتى هذا حزينة على زوجى الى يوم وفاتى. فلما اقام مينا المذكور ثلثة سنين فى الدير وامره مخفى عن ابيه واهله، ثم عرفو بعد ذلك خبره وانه حى وقد ترهب فى دير ابو مقار فاسرعو اهله ومضواليه حتى راوه هناك حى خادما لله تعالى ممجدا له. وحفظت الامراة العهد المستقر

وكان رخاء مصر فى عهد أحمد بن طولون وابنه خمارويه مضربا للأمثال. ولا شك أن ذلك الرخاء كان ناتجا الى حد كبير عن بقاء ايراد البلاد فيها أن يتسرب شيء كثير منه الى الخلافة العباسية. وبعد أن أتسعت حدود مصر فشملت الشام والثغور يجدر بنا الا نفكر فى اقامة أى وزن لمساعدة من الشام أو لغنائم من الروم، فقد كانت الحاميات الطولونية فى الشام تكلف الطولونيين نفقات طائلة، كما أن الغنائم من الروم كان يستأثر بها الجند ولاتكاد خزينة الحكومة تستفيد منها شيئا.

ونرى أحمد بن طولون ومن بعده ابنه خمارويه يعمد الى السوق المالية فى مصر فيجعلها مطمئنة باصلاح العملة وسك الدينار الطولونى الذى يمتاز بثقل وزن الذهب فيه وخلوه من الغش والتزييف وذلك حتى تجرى المعاملات الاقتصادية فى جو من الثقة والطمأنينة.

وكانت السكة فى مصر قبل أحمد بن طولون تتبع سكة الخلافة. وكانت السكة تعتبر فى العالم الاسلامى من شارات الملك[1] وهى بلاشك ركيزة من ركائز الاستقلال الاقتصادى. ولم تستقل سكة مصر عن السكة المستعملة فى الخلافة الا بعد أن استقلت مصر على يد أحمد بن طولون. ولهذا نرى المقريزى يقول:«ومع هذا فان مصر لم تزل منذ فتحت دار امارة،

(١) ابن خلدون: المقدمة (الفصل السادس والثلاثون فى شارات الملك والسلطان الخاصه به).

بينهـا وبينه ولم تنقـضـه. واقـام هذا بوادى هـبـيب زمانا طويلا ثم صـار سايحـا. فلمـا تنيح الاب انبـا تاوفـانيـوس البطرك، اجتـمـعـو الاساقـفـة والاراخنة ليـقـيـمـو عـوضـه، بلغـهم خـبـر هذا الاب الشـيخ القـديس ابن القـلاية وتعبده فى الديارات وان لديه علم، فـمضـو اليه ولا حلفوه ولا كلموه بما لايريده ولم يزعـجـوه لاجل قـدسـه، بل خـاطبـوه بسـكـينة ووقـار قايلين:قد اتيناك يا ابانا القـديس ندعوك الى امـر الالهى لتكون لنا اب على الكرسى الرسـولى

وسكتها انما هي سكة بنى أمية ثم بنى العباس الا أن الأمير أبا العباس أحمد بن طولون ضرب بمصر دنانير عرفت بالأحمدية»[١].

والمعروف أن أحمد بن طولون أسس فى مصر دارا لضرب النقود حيث ضربت الدنانير التى عـرفت بالأحـمدية وامتـازت بعيـارها الجيـد[٢]. وقـد احـتـفظت مـصـر للآن ببعض الدنانيـر الطـولونيـة[٣]. كما توجد دنانير من العصر الطولوني فى دور حفظ مجموعات النقود «متولى دار الضـرب»، وكـان الأمـيـر أحـمـد بن طولون فى بعض الأحـيـان يعـهـد بالاشراف على دار الضرب الى القاضي. والمعروف أن النقود كانت تضرب فى مـصـر باسـم الخليفة العباسى حتى سنة ٢٦٦هـ (٧٨٩ـ٨٨٠م). أمـا النقـود التى نعرفـها من العـصـر الطولونى فـقـد ضـربت فى أماكن مختلفة مثل مصر ودمشق وحران وحمص وحلب وأنطاكية[٤].

(١) المقـريزى: النقـود الاسـلاميـة:ص١٢(وهو المعروف باسم شـذور العـقـود القـديمة والاسـلاميـة. طبع القسطنطينية ١٢٩٨هـ).

(٢) المقريزى: كتاب النقود الاسلامية: ص١٢، البلوى:سيرة أحمد بن طولون: ص ١٩٦(تحقيق محمد كرد على دمشق ١٩٣٩م) والأب أنسـتـان مـارى الكرملى: النقـود العـربيـة وعلم النميات:ص٥٤و٥٧(طبع القاهرة ١٩٣٩م).

Dr. Zaky M. Hassan : Les Tulunides PP. 210 - 211.

(٣) انظـر Lane-Poole (Stanley) : Catalogue of the Collection of Arabic Coins Preserved in the Khedivial Library at cairo PP. 135_ 136.

(٤) انظر: دكتورة سيدة كاشف: أحمد بن طولون: ص ١٨٧ـ ١٨٨.

وجـمـيـعنا نصنـع لك مطانوات لاجل الله، لا تردنا خايبين بل تتكلف وتقبل سعينا من جهـة الرب. وسـجـد جـمـيـعـهم له. فلمـا فـعلو ذلك وراى انه مـغلوب مـعـهم، قـال لهم: ارفـعـو رووسكم مـا اخـالفكم. فلمـا رفـعـو روسـهم وهـمـو ان يضـعـو ايديهم عليـه ويقـسـمـوه، قـال لهـم: بامـر من الله اسمعو مني ما اقوله لكم، هوذا تروني شيخ كبير، وما بقى في حركة لهذا الامر لانه امر عظيم، وانتم عارفين قوانين البيعة وما يجب فيها، وانه ينبغي ان

(ب) الجيش والبحرية

نحن لا نـستطيع القـول بأن أحـمـد بن طولون قـدم الى مـصـر وفى عـقله خطة مـرتبـة للاستـقلال بها واقامة ملك عريض لبيته فيها، ولكن الذى نستطيع أن نؤكده أن أحمد بن طولون كان ذكيا طموحا عريض الآمال استفاد من مشكلات الخلافة وغيرها، للتمكين لنفسه فى مصر وللاستقلال بها. وكان ابن طولون كثير العطايا والمنح لكسب الشخصيات المختلفة فى قصر الخلافة وفى مصر لتنفيذ ما يريد. كذلك روى مؤرخو[١] العصر الطولونى مدى عناية ابن طولون وبراعته فى الكشف عن الجواسيس الذين سيرهم أعداؤه لرصد أعماله والكشف عن أخطائه. وفوق هذا كله فقد عرف ابن طولون كيف يستفيد من النزاع بين الخليفة المعتمد (٢٥٦ـ٢٧٩هـ) وبين أخيه الموفق، وأن يستفيد من محاولات حكام شرق العالم الاسلامى للانفصال عن الخلافة العباسية، وان يستفيد من ثورة الزنج فى البصرة ووادى الفرات الأدنى، والتى شغل الموفق باخضاعها والتى استمرت أربعة عشر عاما ضد الخلافة العباسية.

فمثلا حين رغب الخليفة المعتمد أن تحمل اليه أموال مصر سرا وكتب الى ابن طولون يطلب اليه هذا، انتهز ابن طولون الفرصة وقال انه لا يستطيع أن يوفر للخليفة ذلك الطلب الا اذا كان الخراج بيده، فانفذ المعتمد نفيساً الخادم بتقليد خراج مصر والخراج بالثغور الشامية.

(١) انظر: البلوى: سيرة ابن طولون:ص٥٩ .

يكون من يقــدم الى هذه الرتبــة وسط الـسن لا شيخا فانى ولا شاب ليلا تعذبه شهوة الجسد ولا زايد فى الكبر ليلا يثقل عليه جسده ولا يقدر على ما فعل ما يلزمه. فقالو له: ما نتركك بالجملة الا ان تعرفنا من يصلح لهذه الرتبه. فلما علم انهم لا يتركوه الا ان يدلهم على غيره، فقال لهم: ولدى مينا يصلح لهذا الامر وانا اشهد له بذلك وبحسن طريقته الالهية وانه عالم وسنه متوسط. فصاحو جميعهم مستحق مستحق مستحق، وقامو اليه

وكان من أهم أهداف أحمد بن طولون هو بناء جيش مصرى لا يعتمد على الخلافة، وانما يدين بالولاء والطاعة لابن طولون ويكون عدته فى استكمال الاستقلال بمصر وفى تحقيق مشروعاته. وواتت أحمد بن طولون الفرصة حين فكر الخليفة المهتدى (٢٥٥-٢٥٦هـ) فى أن يكل الى ابن طولون اخضاع أحد الولاة الثائرين فى الشام. فقد حدث فى هذا الوقت أن أحمد بن عيسى بن شيخ الشيبانى والى فلسطين والأردن كان قد توفى واستولى ابنه على أعماله وشق عصا الطاعة على الخليفة، ثم استولى على سبعمائة وخمسين ألف دينار كانت مرحلة من مال مصر الى العراق.

وكان أحمد بن طولون لا يتأخر عن القيام بذلك لأن ابن الشيخ لم يكن ثائرا على الخلافة فحسب، بل كان منافسا خطيرا وجارا مقلقا لابن طولون، والظاهرة انه كان يطمع فى ملك مصر. ونص المقريزى فى الخطط، على ذلك بعبارة مختصرة فكتب «وكانت الأمور قد اضطربت ببغداد فطمع ابن شيخ فى التغلب على الشامات وأشيع أنه يريد مصر».

وبادر ابن طولون بتعبئة مالديه من الجند، كما عنى بالاسراع فى تكوين جيش قوى يساعده فى اخضاع ابن الشيخ ويكون فى الوقت نفسه عدته فى نجاح قضيته الشخصية حين يرى الوقت مناسبا لاثارتها. ولذلك طلب ابن طولون اذن الخليفة فى شراء عدد كبير من العبيد الترك والسودان والحبش وسكان جزائر البحر المتوسط.

واخذوه قهراً وقيدوه بالحديد في رجليه وحملوه الى اسكندرية فاوسموه فيها بطركا، وعادو معه الاساقفة والشيوخ فاجتاز بضيعته المذكورة، فمال اليها ليسلم على اهله، فلما اتصل بهم خبره خرجو للقايه بالمجامر والصلبان، وطلعو به المنزل يستريح، فلما جلس والجمع معه حضر انسان شرير من اهل الضيعة فقال لاحد الاساقفة: اليس انتم تقولون انه لا يجوز لمن تزوج ان يصير بطركا؟. قال له: نعم. فقال: هذا قد تزوج وزوجته

أما ابن الشيخ فقد أبى أن يعترف بسلطان المعتمد، وهو الخليفة الجديد. وعرض عليه المعتمد أن يوليه أرمينية اذا قبل الخضوع ونزح عن الشام فرفض. ولعل ابن الشيخ كان يريد الجمع بين الولايتين، وأن يضيف اليهما مصر اذا استطاع الى ذلك سبيل. وذكر المقريزى فى هذه المسألة رواية أخرى، قال: « فلما قتل المهتدى في رجب سنة ٢٥٦هـ وبويع المعتمد بالله أحمد بن المتوكل لم يدع ابن شيخ له، ولا بايع هو ولا أصحابه، فبعث اليه بتقليد أرمينية زيادة على ما معه من بلاد الشام وفسح له فى الاستخلاف عليها والاقامة على عمله، فدعا حينئذ للمعتمد» .

وعلى كل حال فان المعتمد كتب الى ابن طولون ليتأهب لحرب ابن شيخ«وأن يزيد فى عدته ، وكتب لابن المدبر أن يطلق له من المال ما يريد، فعرض ابن طولون الرجال، وأثبت من يصلح، واشترى العبيد من الروم والسودان، وعمل سائر ما يحتاج اليه» .

وبعد أن تم كل هذا الاستعداد كتب أحمد بن طولون الى ابن الشيخ يدعوه الى الخضوع فلم يفعل. واستخلف ابن طولون أخاه موسى على مصر، وسافر على رأس جنده الى حدود فلسطين. ولعله كان حريصا كل الحرص على ابقاء جيشه سليما لينفعه فى فرص أخرى اذا كان فى استطاعته أن يتجنب الحرب.فاننا نرى انه كتب مرة ثانية الى ابن الشيخ يدعوه الى

باقية الى الان عندنا فى الضيعة. فلما سمع ذلك الاسقف هذا القول حزن واخبر بقية الاساقفة الذين معه، وقال لهم: يا اخوه اعلمو اننا قد اصابتنا مصيبة عظيمة وفضيحة وصرنا عارا عند كل احد. وعرفهم الخبر فسكتو وصارو سكارى بغير خمر من الحزن والكابة. فلما راهم مينا البطرك يتشاورو علم انهم لاجله، فقال لهم: يا اخوه ما بالكم تتشاوروا؟ فقالو له:قد عرفونا انك متزوج وقد فعلنا معك ما لا يجوز وما هو مخالف

الخضوع والى ارجاع المال الذى كان مرسلا من مصر الى العراق والذى اغتصبه حين مروره فى أرضه. ولما لم يتلق ابن طولون من خصمه رداً مرضياً استعد لمهاجمته، ولكنه تلقى من الخليفة أمرا بالعودة الى مصر، اذ عهد الخليفة بأمر اخضاع ابن الشيخ الى أماجور الذى أقطع الشام. فهل أدرك الخليفة فى اللحظة الأخيرة أن من الحكمة منع ابن طولون من التوغل فى الشام لئلا يضمها الى مصر ويستقل بهما؟! أو هل كان المطلوب التخلص من أما جور بتكليفه أن يخضع ذلك الثائر الخطر؟!

وعلى أية حال فقد غنم ابن طولون من الأمر كله، اذ رجع بجيشه كاملا وصار هذا الجيش فى يده أداة قام عليها سلطانه وسلطان ابنه خمارويه من بعده. وقدر المؤرخون فى مناسبات مختلفة الجيش الطولونى بمائة ألف جندى. وذكر ابن سعيد ان أحمد بن طولون خلف عند وفاته سبعة آلاف مولى وأربعة وعشرين ألف عبد. ولعل هؤلاء السبعة آلاف كانوا من أبناء البلاد الاسلامية التى سيطر عليها العرب منذ القرن الأول الهجرى.

وكتب المؤرخ اليعقوبى أن كل الجنود الطولونية أقسمت يمين الطاعة لأحمد بن طولون فى سنة ٢٥٨هـ (٨٧٢م).

ولم نسمع عن جند ابن طولون أى ثورة أو فتن، ولاشك أن أحمد بن طولون استطاع أن يسيطر على الجيش وأن يحفظ النظام بين جنوده،بفضل حزمه وكرمه وبعد نظره.

القانون فاصدقنا عن نفسك. فقال لهم: الامر صحيح لكن احضرو الامراة. فاحضروها، فقال لها البطرك: عرفيهم السر الذى بينى وبينك. فاخبرتهم بذلك، فلما سمعو قولها مجدو الله عند معرفتهم بصحة الخبر من المراة ومن جميع أهلها.

وكانت تلك السنة التي جعل فيها هذا الاب مينا بطركا سنة ستماية ثلثة وسبعون للشهدا، وكانت مصر يوميذ لخليفة بغداد وكان الوالى عليها من قبله انسان يعرف بالاخشيد، اقام ثلثة

وعنى أحمد بن طولون بالأسطول عنايته بالجيش. ولكن لم تتضح الحاجة الماسة الى الأسطول الا بعد توسع أحمد بن طولون فى الشام، اذا اضطر الى حماية شواطئه ومواجهة الهجوم البيزنطى ثم المحافظة على طرق الاتصال البحرى بين مصر والشام.

ولم يكن من الصعب على ابن طولون الاهتمام بالناحية البحرية وقد رأينا كيف كان لسكان مصر منذ فجر الاسلام الفضل فى الانتصارات البحرية التى كسبتها الخلافة، وفى بناء السفن وتشييد دور الصناعات فى وادى النيل وفى أفريقيا وفى الشام.

وفى اعتقادنا أن المحافظة على البحرية المصرية أو انشاء أسطول مصرى فى زمن الطولونيين كان استمرار لتاريخ مصر الحربى المجيد، ولم يكن من الأمور الشاقة أو الصعبة مثل انشاء جيش قائم فى مصر حينذاك. والمعروف أن حملة أحمد بن طولون على الشام أتاحت له استخدام أسطوله بل انه أنشأ قاعدة بحرية فى عكا وحصن هذا الميناء على يد مهندس من بيت المقدس، وهو جد المقدسى الجغرافى المعروف.

ولما تولى خمارويه بادر بارسال الأسطول الطولونى للسهر على شواطئ الشام.

ويبدو أن عناية الطولونيين بالأسطول كانت كبيرة، كما كانت عنايتهم بالجيش، أما عن مراكب الأسطول المصرى فيقول المؤرخ ابن اياس ان عدة الأسطول الذى تركه أحمد بن طولون عند وفاته بلغت ألف سفينة.

سنين قبل ان يجعل هذا الاب بطركا، ثم سار الى فلسطين ومات هناك، وخلف ولدين احدهما ابو القسم والاخر ابو الحسن، فتوليا الولاية عوض ابيهما، وثار عليهما ثاير من الغرب اسمه حنابنا، فهربا من قدامه الى فلسطين، وملك هو مصر فلما علمو ان عساكره بمصر فقط عادو الى قتاله فهزموه، وكانا صبيين وكان معهما استاذ لابيهما، وكان اسمه كافور، وكان جنسه نوبى سبوه من بلاد النوبه وسلمه مولاه من صغره لمن علمه الخط

(جـ) القطائع حاضرة الطولونيين

عرفنا أن أحمد بن طولون خرج لمحاربة ابن الشيخ فى الشام سنة ٢٥٦هـ ثم ورد عليه كتاب الخليفة بالرجوع فعاد الى مصر. ثم بدأ أحمد بن طولون فى تأسيس حاضرة له وبدأ فى البنيان كما يقول الكندى فى شعبان من سنة ٢٥٦هـ. واختط ابن طولون عاصمته الجديدة فى المكان الواقع فى سفح جبل يشكر الى الشر ق من مدينة العسكر والى الشمال الشرقى من الفسطاط، حيث توجد الآن قرة ميدان، والمنشية، وميدان صلاح الدين[١].

وكان تفكير أحمد بن طولون فى ترك دار الامارة بمدينة العسكر أو فى الفسطاط يمثل اتجاهه الجديد فى الاستقلال بمصر وفى رغبته فى منافسة بلاط العباسين.

وقد اتخذ ابن طولون أولا لنفسه قصرا فى هذه الحاضرة الجديدة جعل أمامه ميدانا فسيحا على نمط ما كان فى مدينة سامراء. ثم اختط ابن طولون الأراضى المحيطة بذلك الميدان وأقطع كلا من كبار دولته وقواده وفئات جنده ومن احتاجوا اليهم من صناع وتجار قطيعة، فصارت كل قطيعة خاصة بأبناء الفئة الحربية الواحدة، أو أبناء الصناعة الواحدة، أو ابناء الجنس الواحد مثل قطيعة الروم، السودان وقطيعة البزازين وقطيعة الخبازين...الخ..

(١) انظر : دكتور زكى محمد حسن: الفن الاسلامى فى مصر.ج١ ص٥٧.

والادب وكلما يحتاج اليه، فلما كبر وراه [رآه] ناجب عارف سلم اليه مملكته وولديه، وهذا كان مثل يوسف بمصر. فلما انقضا للولدين سبع سنين ماتا جميعا، وتولا الاستاذ كافور بعدهما، ثم مات فاخذوه مقدمى الدولة وصبروه [حنطوه] واجلسوه على كرسى عال فى قصره ولبسوه ثوب باكمام طوال جدا حتى تصل الى باب المجلس الذى هو فيه. واقامو خدام بين يديه، وكلمن جا يسلم عليه يمنعوه من الدخول اليه، ويقولو سيدنا يامر ان

وسميت هذه الحاضرة الجديدة باسم القطائع. ولم يكن التخطيط أو الاسم غريبا، اذ كان تخطيط القطائع يشبه الى حد كبير تخطيط سامراء. كذلك كان يطلق اسم القطائع على مدينة سامراء التى بناها المعتصم اللهم الا القصور الملكية.

وأكبر الظن أن مهندسى القصور الطولونية نحوا فى بنائها نحو قصور الخلفاء فى سامرا. وكان لقصر أحمد بن طولون عدة أبواب كبيرة، وكان لكل باب منها اسم يدل أحيانا على الجهة التى يؤدى اليها، أو على نوع الخدم، وذلك كما كان متبعا فى قصور سامراء. وكان أهم أبواب القصر كما ذكر المقريزى فى الخطط: باب الميدان ومنه كان يمر الجند، وباب الخاصة للمصريين من الأمير، وباب الصوالجة وكان يؤدى الى الميدان الكبير المخصص للعب الصوالجة، وباب الحرم الذى كان لا يدخل منه الا النساء أو الخصيان، وباب الصلاة وكان يوصل الى جامع ابن طولون..الخ..

ولم تبق القطائع مدة طويلة مقر الأمير وخدمه وحشمه ورجال بلاطه وجيشه وحكومته فحسب، بل مالبث أن اتسع نطاقها وزادت عمارتها. وذكر مؤرخو مصر الاسلامية انها أصبحت مدينة كبيرة زاهرة وأنشئت فيها المساجد الجميلة والحمامات والأفران والطواحين والشوارع والحوانيت والمنازل وغير ذلك مما نجده فى المدن الكبرى، وامتدت عمارتها حتى اتصلت بمدينة الفسطاط.

تقبل كمه وتسلم عليه من برا لانه ضعيف لا يحتمل احد يدخل اليه، وكانو جعلو خلف الكرسى الذى اجلسـ[وه عليه] من اذا سلم عليه الناس حرك راسه وكمه كانه يرد عليهم. ولم يعلم احد من اهل قصره بذلك الا الاستاذين الخواص وسراريه وابو اليمن قزمان ابن مينا، فاقام هكذى ثلثة سنين ووزيره يجبى الخراج ويدبر الامور الى ان عرفو قوم الخبر، فكتبوا الى ملك الغرب واسمه معد ابو تميم المعز لدين الله، فلما عرف ذلك انفذ

ويظهر من تخطيط القطائع أن أحمد بن طولون لم يرد أن يجعلها مدينة حربية حصينة يغلب عليها الطابع العسكرى، مثلما كانت بغداد حين بناها أبو جعفر المنصور، وانما نرى أحمد بن طولون يتجه اتجاه الخليفة العباسى المعتصم حين بنى سامرا. اذا اتجه المعتصم فى بناء سامرا الى الابداع فى البناء وسائر الفنون الصناعية والزخرفية ليجعلها أكبر منافس لبغداد. وكذلك فعل أحمد بن طولون فى بناء القطائع ليجعلها تنافس سامرا وبغداد.

وكان سقوط الأسرة الطولونية ايذانا بسقوط هذه الحاضرة الجديدة وتخريبها، ولكن ذكراها لا تزال قائمة بفضل المسجد الجامع الذى كان يقوم فيها.

ونلاحظ أن انشاء القطائع لم يقض على العسكر أو الفسطاط، فمع أن الناس كانوا يعتبرون العسكر مدينة قائمة بذاتها وكذلك القطائع الا أنهما لم تكونا فى الحقيقة الا ضاحيتين للفسطاط أو امتداد لها. وظلت الفسطاط المركز الأعظم للحياة المصرية، بل ان المبانى الحكومية القديمة لم تهجر تماما، فمثلا أصبحت دار الامارة التى كان يسكنها الأمراء العباسيون فى العسكر. أصبحت ديوانا للخراج فى عصر الطولونيين.

(د) جامع ابن طولون

أراد أحمد بن طولون أن يكون له مسجد جامع كبير يتضاءل الى جانبه جامع عمرو بن

قايد من قواده اسمه جوهر، وكان شجاع مقاتل ومعه عسكر كبير، فلما سمع الاخشيديه بخبره، خرجوا لقتاله، ومنعو المراكب ان تعدى [النيل]. وكانت تلك السنة قليلة الما، فعرف قوم موضع المخاضة قبالة شطنوف [مركز اشمون]، فلما علم مقدم الاخشيدية وهو الاستاذ وكان اسمه فاتك وكان شجاع مقاتل وعسكره رجال مقاتلة ولم يكن فيهم من يعرف يرمى بالنشاب الا يسيرا منهم فاما الواصلين من المغرب فكان اكثر عسكرهم

العاص وجامع العسكر ويكون عنوانا لعظمة الأمير ولرخاء البلاد فى عصره. فاختار أحمد بن طولون مكانا لهذا الجامع على جبل يشكر[1] لأن المصريين كانوا يعتقدون أن موضع هذا الجبل مبارك ويزعمون أن الله عز وجل كلم موسى عليه[2] وفضلا عن ذلك فقد كان مكان الجامع يتوسط القطائع عاصمة ابن طولون الجديدة.

واختلف المؤرخون فى تاريخ انشاء الجامع ولكن السنين التى ذكرها المؤرخون متقاربة وتؤكد ان أحمد بن الطولون لم يبدأ فى منشآته العامة ومشاريعه العمرانية الا بعد أن أصبحت مصر كلها تحت سلطانه. فذكر ابن دقماق وأبو المحاسن أن الشروع فى تشييد المسجد كان فى سنة ٢٥٩هـ، أما القريزى فذكر أن بداية بنيان الجامع كان فى سنة ٢٦٣هـ. واختلف المؤرخون فى تاريخ الانتهاء من بناء الجامع اختلافا بسيطا، فذكر المقريزى أن الفراغ من بناء الجامع كان فى سنة ٢٦٥هـ، وهذا التاريخ وارد فى الكتابة التاريخية التى وجدت فى الجامع

(١) يذكر ابن دقماق فى كتابه الانتصار لواسطة عقد الأمصار ان يشكر كان رجلا صالحا، أما المقريزى فى الخطط، والقلقشندى فى صبح الأعشى فيذكران نقلا عن القضاعى ان هذا الجبل نسبة الى يشكر بن جديلة من قبيلة لخم التى اتخذت خطتها فى هذا الجبل بعد أن تم للعرب فتح مصر.

(٢) انظر: الدكتور زكي محمد حسن: الفن الاسلامى فى مصر ص٣٨وما ذكره من مراجع ص٣٧وما ذكره من مراجع.

رجالة عراة ملتفين باكسية صوف، وكانو اذا قاتلو
يجعلو اكسيتهم على ايديهم، ويقاتلو بالسيوف
والنشاب وفضلات حراب لطاف يزرقو [يطعنوا]
بها الاخشيدية، فقتلوهم وكانت مطاردهم
[أعلامهم] خرق مصبوغة عجيبة ملونة على
قصب فضة علامة للغلبة، فاذا ابصروهم ينشروه
يقوو [يقويهم] للحرب، وكانو الاخشيدية حطو
المطارد السود الذى معهم انهزم [فانهزم]
عسكرهم، فلما نظر الاستاذ فاتك تلك المطارد قد
حطها حاملوها وهمو بالهرب عدا اليهم فقتلهم

منقوشة بالخط الكوفى على لوح من الرخام[١].

أما مهندس الجامع فيذكر المقريزى انه كان رجلا قبطياً حسن الهندسة حاذق بها.

وأهم ما يمتاز به جامع أحمد بن طولون هو مئذنته أو منارته التى تقع فى الرواق الخارجى الغربى، وتكاد لا تتصل بسائر بناء الجامع. وهى مشيدة من الحجر وتتكون من قاعدة مربعة تقوم عليها طبقة أسطوانية عليها أخرى مثنة. وأما السلالم فمن الخارج على شكل مدرج حلزونى. وليس لهذه المنارة نظير فى البلاد الاسلامية اللهم إلا فى الجامع الكبير وفى مسجد أبى دلف فى سامرا وذكر المقريزى وابن دقماق أن أحمد بن طولون لما عقد العزم على تشييد الجامع قال: أريد أن أبنى بناء ان احترقت مصر بقى وان غرقت بقى، فقيل له «ينى بالجير والرماد والآجر الأحمر القوى النار الى السقف، ولا يجعل فيه أساطين رخام فانه لا صبر لها على النار» فبناه هذا البناء.

والحق أن جامع أحمد بن طولون يعتبر من أهم وأقدم الآثار الاسلامية فى مصر، ذلك أن جامع عمرو بن العاص وهو أقدم جامع فى مصر، لم يبق على حاله كما كان فى عصر بنائه اذ أدخل عليه على مر العصور الاسلامية اصلاحات كثيرة وأضيف اليه من الأبنية ما غير

(١) انظر: الدكتور زكى محمد حسن: الفن الاسلامى فى مصر ص٣٧ وما ذكره من مراجع.

وانهزم هو وعسكره. ولم تزل المغاربة يتبعوهم ويقتلوهم الى بلبيس، واسرو من مقدميهم جماعة فكبلهم جوهر بالحديد وانفذهم الى الغرب الى مولاه المعز لدين الله. وملك جوهر ارض مصر، وكان وصوله اليها فى سنة ٦٨٣ للشهداء. فاما ابو اليمن قزمان ابن مينا وزير كافور فانه وجد نعمة قدام جوهر فابقاه على حاله ناظر فى كورة مصر ولما هو مشهور به من الثقة والامانة التى عرفت منه وشهد له بها ثقات مصر.

معالمه. أما جامع أحمد بن طولون فقد احتفظ تقريبا بكل تصميماته الأولى وأصبح البناء الوحيد الذى توافرت فيه هذه الشروط فى مصر والشام قبل العصر الفاطمى[١].

ولم يكن جامع ابن طولون للصلاة فقط وانما كان مدرسة للعلوم الدينية، ومحلا تعلن فيه أمور الدولة، ومكانا تعقد فيه المحاكم. وجعل فيه ميضأة، وخزانة بها الأدوية والأشربة التى قد يحتاج اليها المصلون وعين له طبيبا خاصا يقوم بمداواة ما قد يطرأ على المصلين. ولم يضن ابن طولون على جامعه الكبير«بسلاسل النحاس المفرغة والقناديل المحكمة، وفرشه بالحصر العبدانية والسامانية» [٢].

(هـ)قناطر ابن طولون

والبيمارستان وانشاءات واصلاحات أخرى

شيد أحمد بن طولون فى الجهة الجنوبية الشرقية من القطائع قناطر للمياه لا تزال بعض عقودها قائمة. وكان الماء يسير فى عيونها الى القطائع. ويروى مؤرخو مصر الاسلامية ـ على عادة مؤرخى العصور الوسطى ـ القصص والأساطير التى تشير الى بناء هذه القناطر[٣].

(١) الدكتور زكى محمد حسن: الفن الاسلامى .ص٣٥و٥٤.
(٢) المقريزى: الخطط: ج٢ص٢٦٥
(٣) انظر: المقريزى: الخطط: ج٢ص٤٥٧ .

وبنا جوهر مدينة على [حول] القصر، وسماهم القاهرة المعزية.

وكان من جملة الاخشيدية استاذ امير اسمه تير وكان والى [على] البشمور (وهو الذى بنا المسجد بظاهر القاهرة)، فمنع جميع البشامرة، ان يدفعو جوالى، وحملهم على ان لا يطيعو جوهر، وقال لهم: ساعدونى وانا احمى بلادكم واوفر عليكم الخراج. فتبعه جمع كبير، فلما بلغ الملك المعز خبره عند وصوله الى مصر انفذ اليه عسكر، فلما

- -

والحق أن عاصمته الجديدة كانت محتاجة الى تدبير المياه لها والى توفير كل سبل الراحة لساكنيها. وقد أشار المشيرون على أحمد بن طولون أن يجرى الماء من عين أبى خليد، فاعترض قائلا: بأن هذه العين لا تعرف أبدا الا باسم أبى خليد، وأنه يريد أن يستنبط بئرا تنسب اليه فعدل عن العين الى الشرق وبنى عليها القناطر.

وكانت هذه القناطر شبيهة بالقناطر الرومانية المرفوعة وسماها المؤرخون المسلمون باسم السقاية.

وتطلبت هذه القناطر مجهودا كبير وأموالا ضخمة وكانت من المتانة والابداع بمكان كبير. وكان بناء هذه القناطر بآجر يماثل فى الشكل والحجم آجر الجامع الطولونى. ونعرف أن المهندس الذى تولى لابن طولون بناء هذه العيون هو نفسه المهندس القبطى الذى شيد له بعد ذلك المسجد الجامع.

وأنشأ ابن طولون المارستان للمرضى فى أرض العسكر سنة ٢٥٩هـ وجعل له حمامين، خص أحدهما بالرجال والآخر بالنساء، وأباحهما مجانا للناس على اختلافهم من غير تميز فى الأديان والمذاهب وكان هذا البيمارستان لعامة الشعب وشرط أحمد ابن طولون الا يعالج فيه جندى ولا مملوك. وأدخل ابن طولون فى هذا المارستان ضروبا من النظام جعلته فى مستوى أرقى المستشفيات فى هذا الوقت.

راو البشامرة العسكر تشاورو فيما بينهم وقالو: كيف نفسد نحن الملك ولا نامن ما يكون منه. ثم انهم تفرقو كل واحد منهم الى موضعيه، فهرب ذلك البايس تير الى دمياط وتبعه العسكر فركب مركب وهرب الى فلسطين، ودخل يافا فقبضوه هناك، واقام شهر يسقا سيرج حتى ارتفع جلده عن لحمه، وسلخ جلده وخرج مثل الزق فملوه تبن، وصلبوه على خشبة.

وكان اهل تنيس(*) في ضيق عظيم في ذلك

(*) تنيس: تقع مدينة تنيس فى

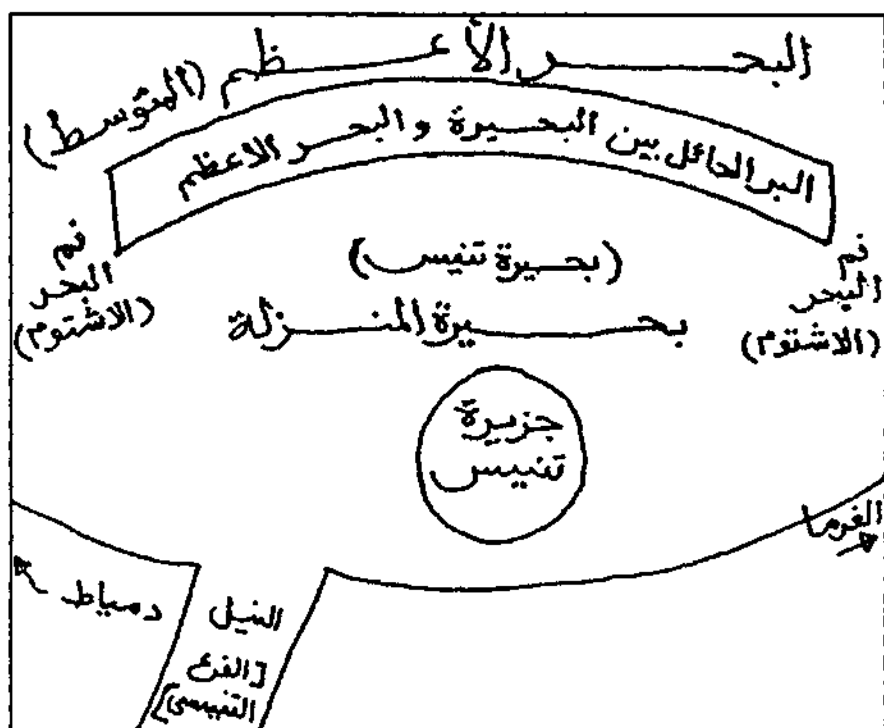

عن معجم البلدان

بحيرة المنزلة بشمال مصر، واستطاعت أن تشق طريقها عبر قرون عديدة من العصور القديمة والوسطى، لتحرز شهرة واسعة في عالم الصناعة والتجارة... وجاء كل ذلك على الرغم من ظروفها الصعبة بحكم وقوعها في جزيرة وسط بحيرة واسعة يغلب عليها الماء الملح ويقل فيها الماء العذب.

ومع ما أحرزته هذه الجزيرة من شهرة، فإنها انمحت من صفحة التاريخ في عصر الحروب الصليبية، في أواخر القرن السادس الهجرى ـ الثاني عشر للميلاد ـ عندما أمر الكامل محمد بن العادل أبي بكر الأيوبى بهدمها. وهكذا إذا كان التاريخ لا يؤكد أن تنيس تم تأسيسها بيد حاكم، فإنه يؤكد أن نهايتها جاءت نتيجة لقرار أصدره حاكم.

والواقع إن عصر الحروب الصليبية شهد قيام المسلمين بهدم بعض المدن بمصر والشام، لمجرد تخوفهم من أن يعود الصليبيون إلى إحتلالها واتخاذها قواعد ينطلقون منها إلى داخل البلاد. ومن هذه المدن نذكر ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ دمياط وطرابلس وتنيس والفسطاط. ولكن المسلمين عندما هدموا دمياط وطرابلس، شرعوا في بناء مدينتين جديدتين بدلاً منهما في الداخل ـ بعيداً إلى حد ما عن ساحل البحر ـ حتى تكونا في مأمن من أى هجوم بحرى صليبي. وهكذا هدمت دمياط القديمة عقب حملة لويس التاسع في منتصف القرن الثالث عشر للميلاد لتشيد بدلها دمياط جديدة في الداخل، وهدمت طرابلس القديمة عقب إستيلاء السلطان المنصور قلاون عليها في أواخر نفس القرن، لتحل محلها طرابلس جديدة أقامها المسلمون بعيداً عن ساحل البحر.

أما تنيس فقد هدمت ليخبو نورها إلي الأبد. وبذلك أنتهي دور تنيس في التاريخ في نهاية القرن السادس الهجرى ـ الثاني عشر للميلاد ـ وبقى إسمها في كتب التاريخ يحمل ذكريات مدينة كبيرة، نهضت بدور بارز طوال قرون طويلة، وسجلت نشاطا حضاريا يفوق حجمها في مختلف الميادين الأقتصادية والأجتماعية والفكرية وغيرها.

تنِّيس مدينة قديمة بديار مصر بالقرب من دمياط على بعد تسعة كيلو مترات من الجنوب الغربى لمدينة بورسعيد الحالية، كانت تنيس هذه قائمة في العصور الوسطى في الجهة الشمالية الشرقية من بحيرة المنزلة التى عرفت باسم بحيرة تنيس نسبة إلى بلدة تنِّيس الواقعة بها. وبعد أن أندثرت تنيس عرفت البحيرة باسم بحيرة المنزلة نسبة إلى بلدة المنزلة القريبة منها والتى هى اليوم قاعدة مركز المنزلة بمحافظة الدقهلية.

ويلاحظ التمييز بين تنِّيس هذه التى بكسر التاء وتشديد النون، وبين تانيس التى هى صان الحجر بمركز فاقوس، وكذلك التفرقة بين تنِّيس الأولى وبين تنيس بغير تشديد. ويقال لها التينه وهى التى تعرف اليوم باسم البربا بمركز جرجا مسقط رأس الملك مينا أول ملوك الفراعنة.

وللأهمية التاريخية لمدينة تنيس موضوع بحثنا تكلم كثير من المؤرخين عن موقعها وتناولوا ذلك من زوايا عديدة وأتفقوا في النهاية على مآثر تلك المدينة بعد التعريف بها.

من ذلك ما يذكره ياقوت الحموى في معجم البلدان من أن تنيس بكسرتين وتشديد النون وياء ساكنة والسين مهملة، جزيرة في بحر مصر قريبة من البر ما بين الفرما ودمياط، والفرما في شرقيها. كان النيل يجرى إليها وكانت ذات حدائق وبساتين. أما عن وصفها فقد ذكر ياقوت أنها كانت جزيرة في وسط بحيرة مفردة عن البحر الأعظم ـ أى البحر المتوسط أو بحر الروم ـ يحيط بهذه البحيرة البحر من كل جهة وبينها وبين البحر الأعظم بر آخر مستطيل وهى جزيرة بين البحرين، وأول هذا البر قرب الفرما، وهناك فوهه يدخل منها ماء البحر الأعظم إلى بحيرة تنيس في موضع يقال له القرباج فيه مراكب تعبر من بر

الفرما إلى البر المستطيل الذى يحول بين البحر الأعظم وبحيرة تنيس، يسار فى ذلك البر نحو ثلاثة أيام إلى قرب دمياط. وهناك أيضا فوهه أخرى تأخذ من البحر الأعظم إلى بحيرة تنيس، وبالقرب من ذلك فوهة النيل الذى يلقى بماء الفيضان إلى بحيرة تنيس.

وهذه البحيرة طولها مقدار إقلاع يوم واحد فى عرض نصف يوم، ويكون ماؤها أكثر السنة ملحا لدخول ماء بحر الروم إليه عند هبوب ريح الشمال، فإذا تكاملت زيادة النيل يبعد الماء الملح وتغلب حلاوة ماء النيل على ماء البحر فيصير ماء البحيرة عذبا حتى عشرة فراسخ حول تنيس، وعندئذ يدخر أهلها المياه فى جباب وصهاريج عظيمة بنوها تحت الأرض وهى قوية البنيان وتسمى المصانع. وتصبح هذه الصهاريج هى المصدر الرئيسى للمياه التى يستعملها أهالى تنيس وسكانها حتى السنة التالية عندما يفيض النيل، وكل من لديه ماء فوق حاجته يبيع الفائض لغيره، وبالمدينة مصانع كثيرة موقوفة يعطى ماؤها للغرباء.

والبحيرة قليلة العمق يسار فى أكثرها بالمدارى [ذراع طويل من الخشب] ومن حذق نواتى البحر أنهم يقلعون بريح واحدة يديرون القلاع بها حتى يذهبوا فى جهتين مختلفتين متساوية فى سرعة السير فيلقى المركب المركب فى مثل لحظ الطرف بريح واحدة. وبهذه البحيرة سمكه تسمى الدلفين فى خلقة الزق الكبير وتكثر فى مياه بحر الروم، ولها خاصية مشهورة وذلك أنها لا تزال تدفع الغريق عند غرقه وهو يجود بأنفاسه ودفعه مرة ورفعه تارة أخرى إلى أن تخرجه إلى الساحل أو الماء الرقيق، كما أنه إذا أكلها الإنسان رأى منامات هائلة، أى مزعجه.

ويذكر المسعودى أن «بحيرة تنيس ودمياط كانت أرضا لم يكن بمصر مثلها إستواء وطيب تربه، وكانت جنانا ونخلاً وشجراً ومزارع. ولم ير الناس إلى ما قبل الغزو العربى بمائة عام أرضا أحسن من هذه الأرض ولا أحسن إتصالاً من جنانها وكرومها إلا بلاد الفيوم، وكانت أرضها ترويها ترع لا تنضب مياهها تأتى من النيل صيفا وشتاء فكانت تنبت نباتاً يانعاً من القمح والنخيل والأعناب وسائر الشجر من فاكهة ورياحين، وكان بين البحر وبين هذه الأرض نحو مسيرة يوم واحد. غير أن البحر ما لبث أن طغى عليها فاقتحم ما كان يحجزه من كثبان الرمل، وكانت المياه تزيد طغيانا عاما بعد عام حتى عمت السهل المنخفض فغرقت معظم القرى، وأما التى كانت على إرتفاع من الأرض فلم تناله المياه وأعظم ما نجا من تلك الأراضى مدينة تيس الشهيرة بما لها من الأتساع والكبر، بعد أن عصفت بغيرها الطبيعه وكتب عليها الغرق واختفت جناتها وآثارها وتكونت على أرضها بحيرة مترامية الأطراف تطوى فى أعماقها مدائن الحدائق، هذه هى بحيرة تيس التى عرفت فيما بعد باسم بحيرة المنزلة».

أما المقريزى فيذكر أن «تِنِّيس بكسر التاء المنقوطة بأثنتين من فوقها وكسر النون المشددة وياء وسين مهملة بلده من بلاد مصر فى وسط الماء، وهى من كورة الخليج. وكان للملك بها أمناء يقسمون المياه ويعطون كل قرية قسطها وكان على تلك القرى حصن يدور بقناطر، وكان كل ملك يأتى يأمر بعمارتها والزيادة فيها ويجعلها له متنزها.

الغزو العربي ودور تنيس فى الأحداث السياسية

ذكر جماعة ممن شهد غزو مصر أنه مع بداية الغزو العربى، وبعد أن أستقرت أقدام عمرو بن العاص، وجه عمير بن وهب الجحى إلى تنيس ودمياط وتونه ودميره وشطا ودقهله وبنا بوصير لاحتلالها. وعندما دخلها أحمد بن طولون سنة ٢٦٩هـ/ ٨٨٢م بنى بها عدة حوانيت وصهاريج تعرف بصهاريج الأمير.

ويذكر المقريزى فى خططه انه عندما سار المسلمون إلى تنيس خرج إليهم حاكمها فناجزهم فى

مواقع كثيرة ودارت بينهم حروب قبل أن يظفر العرب ويهزموا جيشه ويأخذوه أسيراً. ومنذ تم لهم ذلك فتحوا المدينة وبنوا كنيستها جامعاً وغنموا أموالها وقسموها.

وتروى القصة أن شطا ابن حاكم دمياط التى استولى عليها المسلمون لما رأى أن العرب أبطأ عليهم فتح تنيس جمع جيشا من البرلس ودميره وأشموم طناح وجهزه ولحق باعداد المسلمين، ثم سار حتى ألتقى بحاكمها ومازال يقاتله حتى قتل ودفن بظاهر المدينة.

وأصبح العرب بفتح تنيس ودمياط والبلاد المجاورة مسيطرين على منافذ النيل إلى البحر. وأكبر الظن أن سلطان العرب الغزاة صار يمتد منذ ذلك الحين على كل بلاد مصر السفلى إلا بلاداً قليلة كانت في الجزائر التى فى مياه بحيرة المنزلة الفسيحة.

ونتيجة لذلك أحتفظت القبائل العربية ببقائها فى مصر بعد الغزو زمنا طويلا، فإن الحمدانى يذكر أن بنى عذره وهم قبائل عربية أقاموا بدمياط وما حولها بتنيس.

ولم تزل تنيس بيد المسلمين إلى أن كانت إمرة بشر بن صفوان الكلبى على مصر من قبل يزيد بن عبدالملك فى شهر رمضان سنة ١٠١هـ/٧١٩م فهاجم الروم تنيس وقتلوا أميرها مزاحم بن مسلمه المرادى فى جمع من الموالى.

واستمرت تنيس بحكم موقعها الهام تشارك في الأحداث السياسية، ذلك أنها نظرا لتطرف موقعها وحصانتها وصعوبة الوصول إليها غدت ملاذاً وملجأ للهاربين من وجه خصومهم وأعدائهم.

من ذلك أنه حدث أثناء الصراع بين الأمين والمأمون ولدى الخليفه هارون الرشيد أن أراد الأول الغدر بأخيه المأمون. وكان الوالى على مصر من قبل الأمين هو حاتم بن هرثمه بن أعين فلما ثار عليه أهل «نتو» ونمى بعث إليهم السرى بن الحكم وعبدالعزيز بن الوزير الجروى فتغلبا عليه فى شوال سنة ١٩٤هـ/٨٠٩م. ثم ولى الأمير جابر بن الأشعث الطائى مصر وكان لينا، فلما تباعد ما بين الأمين وأخيه المأمون وخلع الأمين أخاه من ولاية العهد وعهد إلى ابنه موسى، تكلم الجند فى مصر بينهم فى خلع محمد الأمين غضبا للمأمون، فبعث إليهم جابر ينهاهم عن ذلك ويخوفهم عواقب الفتن، وأقبل السرى بن عبدالحكم يدعو الناس إلى خلع محمد. وكتب المأمون إلى أشراف مصر يدعوهم إلى القيام بدعوته فأجابوه وبايعوا المأمون فى رجب سنة ١٩٦هـ/٨١١م ووثبوا بجابر فأخرجوه وولوا عباد بن محمد، فكتب محمد الأمين إلى رؤساء الحوف بولاية ربيعة بن قيس الجرشى - وكان رئيس قيس الحوف - فانقاد أهل الحوف كلهم معه يمنها وقيسها وأظهروا دعوة الأمين وخلع المأمون وساروا إلى الفسطاط لمحاربة أهلها، فعقد عباد بن محمد لعبد العزيز الجروى وأرسله فى جيش لقتال خصومه فخرج فى ذى العقدة سنة ١٩٧هـ/٨١٢م لقتالهم، فانهزم الجروى ومضى فى قومه وأتباعه إلى فاقوس، فقالوا له «لم لا تدعو لنفسك بدون هؤلاء الذين غلبوا على الأرض».

فصادف ذلك هوى فى نفس الجروى، فمضى فيهم إلى تنيس فنزلها، ثم بعث بعماله يجبون الخراج من مصر السفلى. وفى تلك الأثناء بلغ أهل الحوف قتل الأمين - وهم أنصاره - فتفرقوا. وولى إمرة مصر المطلب بن عبدالله الخزاعى من قبل المأمون، وولى عبدالعزيز الجروى شرطته ثم عزله، ثم صرف المطلب وولى العباس بن موسى بن عيسى فى شوال سنة ١٩٨هـ/ ٨١٣م، ثم عاد عبدالعزيز الجروى فتولى الشرطة مرة ثانية. فلما ثار الجند وأعادوا المطلب فى المحرم سنة ١٩٩هـ/ ٨١٤م هرب الجروى إلى تنيس وأقبل العباس بن موسى من مكة - وكان قد ترك الأمر لأبنه عبدالله فى مصر ريثما يحضر هو - فنزل بلبيس ودعا

قيسا إلى نصرته، ثم مضى إلى الجروى بتنيس فشاوره، فأشار عليه أن ينزل دار قيس. وبعد موت العباس بن موسى مسموعا فى طعام دسه إليه المطلب دان أهل الحوف للمطلب وبايعوه، وبعد ذلك بعث المطلب إلى عبدالعزيز بن الوزير الجروى بولايته على تنيس وأمره بالذهاب إلى الفسطاط ـ ويبدو أن المطلب أراد بذلك أن يخدع الجروى ويوقع به لأنه عرف رغبته فى الأستقلال وطمعه فى ولاية مصر ـ إلا أن الجروى رفض وامتنع عن الأمتثال لأمر الوالى. وازاء هذا بعث المطلب بوال على تنيس، ولكن الجروى منعه من ذلك وأخرجه منها، فبعث إليه المطلب السرى بن الحكم فى جمع من الجند يسألونه الصلح فأجابهم إليه، إلا أنه اجتهد فى الغدر بهم ففطنوا إلى ذلك وحاربوه، ثم عاد فدعاهم إلى الصلح ولجأ إلى خدعة أستطاع بها أن يقبض على السرى ويأسره ويسجنه بتنيس وذلك فى جمادى الأولى سنة ١٩٩هـ/٨١٤م.

وفى مجموع النزاع بين المطلب بن عبدالله وعبدالعزيز الجروى أخرج الأخير السرى بن الحكم من السجن وعاهده وعقد معه على أن يثور بالمطلب ويخلعه، فعاهده السرى على ذلك فألقى على عرب مصر أن كتابا ورد بولايته، فاستقبله الجند من أهل خراسان وأمده قيس بجمع منهم وحارب عرب مصر الذين أمتنعوا عن تأييده ومبايعته. فطلب المطلب الأمان فأمنه واستبد السرى بأمر مصر.

ولما ولى المطلب بن عبدالله الخزاعى ولايته الثانية على مصر باجماع الجند (١٩٩/ ٢٠٠هـ) ـ (٨١٤/ ٨١٥م) ولى على الاسكندرية محمد بن هبيرة الذى أستخلف عنه عمر بن هلال، وقام الأندلسيون الذين قدموا الاسكندرية بعد طردهم من وطنهم فى عهد الحكم بن هشام الأموى سنة ١٩٨هـ/٨١٣م بقتل عمر بن هلال هذا واستقلالهم بالاسكندرية، وبلغ الجروى ذلك فسار إليها فى خمسين ألفا من رجاله وحاصرها وكاد أن يفتحها فى المحرم سنة ٢٠١هـ/٨١٦م، ولكن اسرى بن عبدالحكم الذى خشى إزدياد نفوذ الجروى بعث عمرو بن وهب الخزاعى على رأس جيش إلى مقره بتنيس، فترك الجروى حصار الاسكندرية ورجع إلى تنيس حيث أخرج جيش السرى منها.

وشاعت الأحوال أن يقتل عبدالعزيز الجروى أثناء حصاره مدينة الاسكندرية فى صفر سنة ٢٠٥هـ/٨٢٠م، وبعده مات السرى بن الحكم فى جمادى الأولى من نفس السنة فبايع الجند سنة ٢٠٦هـ/٨٢١م عبيد الله بن السرى بعد وفاة أخيه أبو نصر بن السرى الذى خلف والده.

وفى تلك الأثناء بعث المأمون واليا على مصر هو مخلد بن يزيد، فامتنع عبيدالله عن التسليم له فاقتتلوا وانضم على بن عبدالعزيز الجروى إلى جانب مخلد وجرت بينهما حروب كان نتيجتها أن دخل عبيد الله مدينة تنيس مقر ولاية الجروى، وفر الأخير هاربا إلى العريش فى رجب سنة ٢٠٩هـ/٨٢٤م وخضعت مصر كلها إلى عبيد الله بن السرى إذا أستثنينا الاسكندرية التى كانت تحت سلطان الأندلسين.

وعندما ولى الخليفة العباسى المعتصم أرسل إلى والى مصر يأمره بأسقاط من فى الديوان من العرب وقطع أعطياتهم وأرزاقهم فتم ذلك، فثار يحى بن الوزير الجروى فى جمع من أتباعه فى تنيس وقال «هذا أمر لا نقوم فى أفضل منه لأنه منعنا حقنا وفيئنا». فخرج الوالى إليه وقاتله فى بحيرة تنيس وأسره وتفرق عنه أصحابه.

وفى تلك الأثناء ظلت تنيس تتعرض لهجمات الروم من ناحية البحر. من ذلك أنه حدث فى خلافة المتوكل سنة ٢٣٩هـ/ ٨٥٣م أن نزلت الروم بدمياط يوم عرفه فملكوها وقتلوا جمعا كثيرا من المسلمين ومضى الروم إلى تنيس فأقاموا بأشتومها

(موضع قرب تنيس وهو المكان الذى يعبر منه ماء البحر الملح إلى البحيرة)، وكان والى مصر عنبسه بن إسحق فلم يقاومهم (يقال أن سبب عدم مقاومتهم وغفلته أنه أراد طهور ولديه يوم العيد حتى يجمع بين العيد والفرح حتى بلغ به الأمر أن أرسل إلى ثغرى تنيس ودمياط فاحضر سائر من كان بهما من الجند والخراجين والزراقين وغيرهم.

ويبدو أن وقع غزوة الروم كان شديداً، فأمر الخليفة المتوكل والى مصر ببناء حصن على البحر بتنيس وأنفق فيه وفى حصن دمياط والفرما مالاً عظيماً.

وفى عهد الدولة الطولونية أثناء ولاية الأمير أبو موسى هرون بن خمارويه أضطربت أحوال مصر إلى أن ورد الخبر بموت الخليفه العباسى المعتضد بالله ومبايعة إبنه محمد المكتفى بالخلافة (٢٨٩/٢٩٥هـ) (٩٠١/٩٠٨م). وعندما خرج القرامطه بالشام سنة ٢٩٠هـ/ ٩٠٢م ـ وكانت تابعه لمصر ـ جهز والى مصر جيشا لمحاربتهم، ولم يستطع هذا الجيش إخراجهم من الشام بل حلت به الهزيمة. ثم وقعت بين هرون وبين الخليفه وحشة وتزايدت إلى أن أرسل المكتفى لحربه محمد بن سليمان الكاتب، فسار بن سليمان من بغداد إلى حمص وبعث بالمراكب والأسطول من الثغور إلى سواحل مصر، فخرج هرون لدفع محمد بن سليمان عن دخول مصر وأرسل المراكب الحربية لقتاله. وفى تنيس ألتقى الأسطولان العباسى والمصرى فحلت الهزيمة بأسطول مصر ووقعت تنيس فى يد محمد بن سليمان.

وعندما وصل محمد بن سليمان إلى مصر بالجند كان الأمير عيسى النوشرى من جملة القواد الذين قدموا معه، فأرسله بن سليمان إلى الخليفة يخبره بانتصاره، وتوجه عيسى إلى العراق. فلما وصل إلى دمشق وافاه كتاب الخليفة بولايته على مصر. ثم ورد كتاب الخلافة إلى جماعة من القواد ممن كان فى معسكر بن سليمان من بينهم «مهاجرين طليق» بتقليده ثغر تنيس ودمياط.

وتجدر الأشارة إلى اهتمام الطولونين بالبحرية، ولكن السيادة فى البحر فى ذلك العصر كانت لبنى الأغلب. والمعروف أن أسطول الخلافة فى طرسوس هو الذى قام بقيادة دميانه بمساعدة القائد محمد بن سليمان فى حملته على مصر، ونجح فى القضاء على الأسطول الطولونى فى تنيس.

وأثناء ولاية أحمد بن كيغلغ الأخشيدى سنة ٣٢١هـ/ ٩٣٣م من قبل القاهر محمد. وبعد تولية الخليفة الراضى بالله محمد بن المقتدر ورد كتاب بتولية الأمير محمد بن طغج على مصر وعزل أحمد بن كيغلغ، فأنكر الأخير ذلك وتهيأ لحربه، وجهز إليه عساكر مصر ومعه المغاربه ليمنعوه من الدخول إلى الفرما، وأرسل محمد بن طغج قسما من جيشه فى أسطول والتقى مع عساكر أحمد بن كيغلغ، وافلح هذا الأسطول فى الأستيلاء على تنيس ودمياط بعد موقعة هائلة وقتال شديد فى السابع عشر من شهر شعبان سنة ٣٢٣هـ/٩٣٤م وسلم الأمر إلى محمد بن طغج. وفى سنة ٣٤٨هـ ٩٥٩م وصلت مراكب من [فرنجة] صقليه فنهبوا مدينة تنيس.

وإبان العصر الفاطمى. ترتب على استيلاء الفاطمين على دمشق وقوعهم فى نزاع مع القرامطه. وذلك أن دمشق كانت تدفع الجزية لزعيم القرامطه ردحاً من الزمن، فغدت هذه الجزية لا تدفع إليهم بعد إستيلاء الفاطمين على هذه المدينة. وعندما سار جعفر بن فلاح ـ أحد قواد جوهر الصقلى ـ لملاقاة الحسن القرمطى دارت رحى الحرب بين الطرفين فأسر جعفر وقتل ووقع كثيرون صرعى فى حومة القتال فى شهر ذى القعدة سنة ٣٦٠هـ/ ٩٧١م. وعندئذ أسرع الحسن بالسير نحو الجنوب بعد إستيلاءه على دمشق فمر بالرمله وانقض على مصر وهاجم الفرما والقلزم على غره. وتحكم بذلك

على برزخ السويس فاعترفت بسلطانه مدينة تنيس، ومن ثم تقدم داخل البلاد وعسكر برجاله في عين شمس وهدد القاهرة.

ولما تلقى جوهر نبأ وصول الحسن إلى برزخ السويس شرع في إعداد وسائل الدفاع، وبعد محاولات وخدع أرغم القرامطه على الرجوع إلى القلزم. وكان ذلك في الوقت الذى وصلت الأمدادات إلى الفاطميين من القيروان، فتقوى بذلك جوهر وزحف إلى تنيس واستولى عليها.

وبعد مقتل الحاكم بأمر الله الفاطمي سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م أحضرت أخته ست الملك خطير الملك الوزير وعرفته الحال واستحلفته كتمان الخبر والطاعه والوفاء، وطلبت منه مكاتبة ولى العهد وكان مقيما بدمشق نيابة عن الحاكم ـ بأن يحضر، فكتب إليه بذلك، وأرسلت على بن داود أحد القواد إلى الفرما وقالت له: «إذا دخل ولى العهد فأقبض عليه وأحمله إلى تنيس، ثم كتبت إلى عامل تنيس بارسال ما عنده من المال، فأرسله وهو ألف ألف دينار وألف ألف درهم خراج ثلاث سنين، وجاء ولى العهد إلى الفرما فقبض عليه وحمل إلى تنيس.

وقد حدث في مستهل شهر المحرم سنة ٤٥٠هـ/١٠٨٥م أثناء خلافة المستنصر بالله الفاطمي أن قبض الخليفة على وزيره الناصر للدين عبدالرحمن اليازورى، وسبب ذلك أنه وشي به للمستنصر أنه يكاتب طغر لبك السلجوقي ويحسن له المجيء إلى مصر، وأنه أخرج أمواله مع ولده إلى بيت المقدس.

وكان أن أخرج الخليفة وزيرة إلى تنيس ومعه نساؤه وأولاده الصقالية، وأخرج الوزير ليلا وضربت رقبته في أسفل دار الأمارة بتنيس وحملت رأسه إلى المستنصر.

وفي سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م تفاقم الحال واختلفت أحوال مصر، وعجز الخليفه المستنصر الفاطمي أن يصنع شيئا لعلاجها فاستدعى واليه على عكا أمير الجيوش بدر الجمالى، فلبى الدعوه بشرط أن يستقدم معه عسكره من الأرمن بنى جنسه. وسار بدر الجمالى في مائة مركب أربعين يوما حتى وصل دمياط في شتاء سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٤م فأقام بها وتوجه إلى تنيس ليقترض من تجارها مالاً، مما يدل على نشاط تنيس التجارى وثراء تجارها في الوقت الذى كانت بقية بلاد مصر تعانى شدة عظمى.

وفي أواخر عهد المستنصر، لم يحاول الفاطميون العمل على محاربة النورمان الذين أستولوا على صقلية، فخرجت بذلك عن حكم الفاطميين، بل وجدنا الخلفاء بعد المستنصر يقيمون علاقات سلمية مع النورمان وبخاصة في المجال التجارى ولكن ظهور ملوك متعصبين منهم ومشاركتهم الصليبين الذين هددوا الشرق الأوسط جعلهم يغيرون من سياستهم نحو الفاطميين حتى أنهم أغاروا على موانيء مصر مثل تنيس ودمياط والاسكندرية في أواخر أيام الدولة الفاطمية.

وفي إطار الحركة الصليبية يمكن القول بأن مملكة بيت المقدس الصليبية وصلت سنة ٥١٠هـ/١١١٦م على يد ملكها بلدوين الأول إلى حدودها التاريخية المعروفة. ولم يبق بعد ذلك أمام بلدوين إلا أن يهاجم الفاطميين في عقر دارهم ليشعرهم بقوته بعد أن أحس هو بضعفهم.

وكان أن أستطاع بلدوين أن يعبر الصحراء الممتدة من غزه حتى العريش والفرما دون أن يتعرض لتهديد من جانب العدو. ولم يلبث أن وصل الصليبيون في سنة ٥١٢هـ/١١٨م واستولوا عليها ثم أتجه غربا نحو مصب النيل. ويروى إبن الأثير أن بلدوين الأول وصل إلى مدينة تنيس في بحر المنزلة، ولكن الأسطول الصليبى توقف ببحيرة المنزلة وتنيس ولم يستطع التقدم في النيل جنوبا صوب القاهرة.

وفي سنة ٥٧١هـ/١١٧٥م وصلت إلى تنيس من موانيء صقليه نحو أربعين مركبا فحاصروها يومين، ثم وصل إليها

من صقليه أيضا سنة ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م نحو أربعين مركبا فقاتلوا أهل تنيس حتى ملكوها. وكان محمد بن اسحق صاحب الأسطول قد حسيل بينه وبين مراكبه فاندمج في طائفة من المسلمين إلى مصلى تنيس، فلما أجنهم الليل هجم بمن معه على الفرنج وهم في غفلة فأخذ منهم مائة وعشرين فقطع رؤوسهم فاصبح الفرنج إلى المصلى وقاتلوا من بها من المسلمين، فقتل من المسلمين نحو السبعين وسار من بقى منهم إلى دمياط، فمال الفرنج على تنيس والقوا فيها النار فاحرقوها وعادوا وقد امتلأت أيديهم بالغنائم والأسرى إلى الاسكندرية بعد ما أقاموا بتنيس أربعة أيام.

وبقدوم سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م نزل فرنج عسقلان في عشر حراريق على أعمال تنيس وعليها رجل منهم يقال له المعز فأسر جماعه، وكان على مصر الملك العادل من قبل أخيه الملك الناصر صلاح الدين يوسف، فثار به المسلمون وقاتلوه وقبضوا عليه وقطعوا يديه ورجليه وصلبوه.

ثم أمر صلاح الدين سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م، عقب صلح الرمله مع الصليبين باخلاء تنيس ونقل أهلها إلى دمياط فأخليت في شهر صفر.

ثم أمر الملك الكامل محمد ابن العادل أبي بكر الأيوبي في سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٧م باخراج سكان تنيس منها ونقلها إلى دمياط، كما أمر بهدم ما بقي من سورها وبيوتها فاندفعت مياه البحر لتغرقها ولم يبق منها إلا رسومها في بحيرة المنزلة وفي اعقاب ذلك هرب سكانها من المصريين الأقباط إلى صحارى الشرقية والى خارج مصر حتى أن بعضهم ذهب إلى بلاد الحبشة: كما حدث في أيام الحاكم بأمر الله سابقا.

مكانة تنيس الاقتصادية

أشتهرت مصر منذ أقدم العصور بزراعة الكتان وصناعته فضرب المصريون بسهم وافر في زراعته واهتموا إهتماما كبيراً بأن ينسجوا من أليافه أنفس منسوجاتهم التي كانت تصنع منها الملابس الفاخرة. ومن أجل ذلك عنوا بزراعة الكتان وحصاده للحصول على الياف كتانية جيدة تسمح بغزل خيوط دقيقة. ولما كانت الأراضي التي

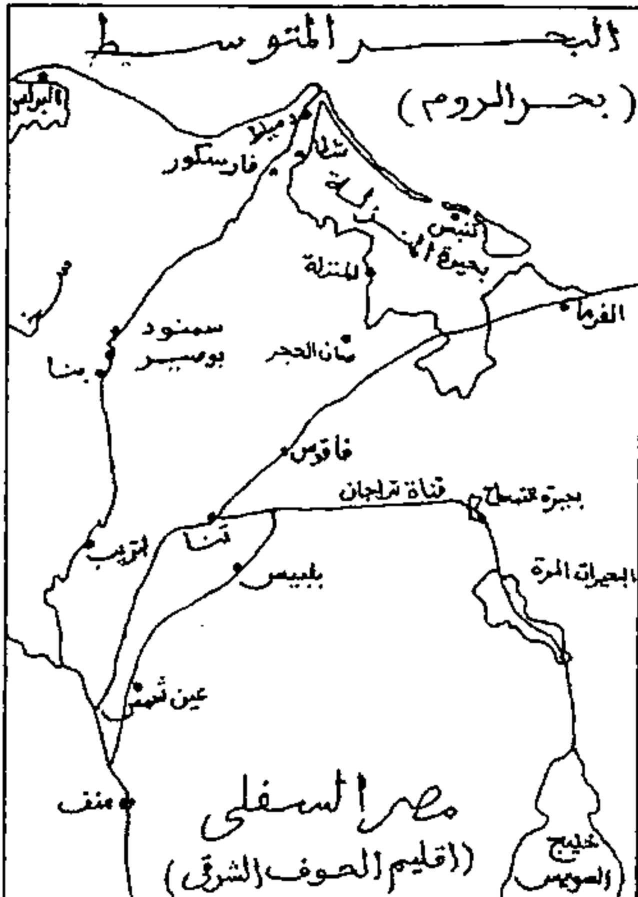

يرويها النيل متفاوته فى المستوى فإن نصيبها من الماء تباين حسب إرتفاعها وانخفاضها، بمعنى أن أوطأ الأراضى كانت أوفرها ماء، وهى التى تظل مغموره بالماء أطول مده مما يجعلها أصلح الأراضى لزراعة الكتان. وكان أن تركزت صناعات المنسوجات الكتانية فى مصر فى العصور الوسطى فى تنيس ودمياط وشطا ودبيق والبهنسا وأسيوط. وهى الأماكن المنخفضة الكثيرة المياه مما جعلها موضع إهتمام المصريين وعنايتهم بزراعة الكتان.

ويذكر ياقوت الحموى الذى عاش فى أوائل القرن السابع الهجرى أن نساجى الثياب فى تنيس ودمياط من القبط مما جعل العرب يطلقون على المنسوجات المصرية إسم قباطى.

وقد أسهمت حكومات مصر فى العصور الوسطى فى صناعة النسيج، حتى أنها كادت تسيطر على تلك الصناعة. والواقع أن هذه السيطرة لم تكن من إبتكار الحكام المسلمين، وانما أخذوها عن خبراتهم السابقة القديمة. كما أنه من الثابت أن البيزنطيين أنشأوا فى مصر مصانع حكوميه للنسيج إلى جانب المصانع الأهلية. ولما جاء المسلمون أبقوا على هذا النظام وعرفت مصانع النسيج باسم الطراز مشتق من الفارسيه (ترازيدان) وتراز يعنى التطريز. ثم أصبح يدل على ملابس الخليفة أو الأمير أو السلطان ورجال الحاشية أصحاب المناصب العالية لاسيما إذا كان فيها شيء من التطريز وعليها أشرطه من الكتابة واتسع مدلول هذه اللفظ حتى أنتهى فى العربية والفارسيه إلى الدلالة على المصنع والمكان الذى تصنع فيه هذه المنسوجات. ونقل المقريزى عن ابن الطوير حديثا طويلا عن صاحب الطراز وحقوقه وواجباته وهذا نصه: «الخدمة فى انطراز وينعت بالطراز الشريف ولا يتولاه إلا أعيان المستخدمين من أرباب العمائم والسيوف وله اختصاص بالخليفة دون كافة المستخدمين ومقامه بدمياط وتنيس وغيرها.

وقد عنى الخلفاء والأمراء المسلمون بكتابة أسمائهم على الأقمشة الثمينة التى كانوا يتخذونها ملابس لهم أو خلعا يخلعونها على كبار رجال دولتهم، وكانت الكتابة على النسيج بلحمه من الذهب أو الفضة أو الخطوط المتعددة الألوان، وكانت الكتابة تشمل إسم الخليفة وألقابه وبعض عبارات الأدعية، وكثيراً ما كان يذكر فيها رسم المدينة التى فيها طراز واسم الوزير وصاحب الخراج وناظر الطراز.

وكان المركزان الكبيران لصناعة نسيج الكتان فى مصر هما الفيوم وبحيرة تنيس بنواحيها، وهى مدينة تنيس ودمياط وشطا ودبيق، وغدت تنيس ودمياط أكبر مركزين لصناعة النسيج.

ويقول إبن حوقل فى كتابه «المسالك والممالك» «من جليل مدنها وفاخر خواصها ما خصت به تنيس ودمياط، وفيهما يتخذ ويعمل رفيع الكتان وثياب الشروب (المقصود الثياب التى تتشرب العرق) والدبيقى والمصبغات من الحلل التيسية التى ليس فى الأرض ما يدانيها من القيمة والحسن والنعمة والترف والدقة، وربما بلغت الحله من ثيابها مائتين دينار إذا كان فيها ذهب، وقد يبلغ ما لا ذهب فيه منها مائة دينار وزائداً وناقصا وان كان شطا ودبيق ودميره وتونه وما قاربهم بتلك الجزائر يعمل فيها الرفيع من هذه الأجناس، فليس ذلك بمقارب للتنيسى والدمياطى والشطوى».

وكان بتنيس من مناسج القماش نحو خمسة آلاف منسج، واختصت بصنع الثياب السريه وكسوه الكعبة. ويقول الفاكهى فى كتابة أخبار مكه «رأيت كسوة من قباطى مصر مكتوبا عليها «بسم الله بركة من الله مما أمر به عبدالله المهدى محمد أمير المؤمنين أصلحه الله محمد بن سليمان أن يصنع فى طراز تنيس كسوة الكعبة على يد الخطاب بن مسلمة عاملة سنة ١٥٩هـ». ويقول رأيت كسوة من كما

المهدى مكتوبا عليها «بسم الله بركة من الله لعبدالله المهدى محمد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه مما أمر به إسماعيل بن ابراهيم أن يصنع في طراز تنيس على يد الحكم بن عبيده سنة ١٦٢هـ».

ولقد برزت مدينة تنيس في صناعة المنسوجات الكتانية وأخذت هذه الصناعة في الأزدهار وبلغت ذروة مجدها إبان عهد الدولة الفاطمية إذ بلغت من التقدم والرقى قدراً كبيراً لم تشهده مصر الإسلامية في أى عهد من عهودها.

ومما يدل على عظمة تنيس في النسيج وتقدمها في هذه الصناعة وقتئذ أنه كان يصنع بها للخليفة ثوب يقال له «البدنة» لا يدخل فيه من الغزل ـ سداه (السدى من الثوب خلاف اللحمه وهو ما مد من خيوط النسيج) ولحمه ـ غير أوقيتين وينسج باقيه بالذهب صناعة محكمة لا تحتاج إلى تفصيل ولا خياطة وتبلغ قيمته ألف دينار، ولم يحفظ لنا التاريخ أن قطعة نسيج تبلغ قيمتها ألف دينار إلا في مدينة تنيس ودمياط.

وإلى جانب هذه الثياب الجيدة، ثياب رفيعه مهلهلة النسيج كأنها المنخل وهى المسماة «القصب» وكان هذا القصب يلون والملون منه ينسج بتنيس ولم ينسج في أى مكان آخر قصب ملون مثله، وكانت تصنع منه عمائم الرجال والوقايات وملابس النساء.

كذلك أشتهرت مدينة تنيس بصناعة الحرير القرقبى المنسوج بالذهب، ووجدت في خزائن المعز لدين الله خريطة كان قد أمر بعملها سنة ٣٥٣هـ/ ٩٧٤م من هذا الحرير زرقاء اللون مبينا عليها بالذهب أقطار العالم بما فيها من جبال وبحار وأنهار وطرق ومدن.

وبمدينة تنيس صناع مختصون بنسيج ملابس السلطان في مصانع خاصة تنسج بها أثوابه. ويروى الرحّاله ناصر خسرو أنه سمع عن عامل نسج عمامة السلطان فأمر له بخمسمائة دينار مغربى. وشاهد هذه العمامه ويقال أنها تساوى أربعة آلاف دينار مغربى. وما يصنع في هذه المصانع لا يعرض في الأسواق ولا يعطى أو يمنح لأحد، ويذكر أيضا أن ملك فارس أرسل رسله إلى مدينة تنيس بعشرين ألف دينار ليشترى له بها حلة من كسوة السلطان وبقى رسله هناك عدة سنين ولم يستطيعوا شراءها.

واشتغلت المناسج المصرية في خلافة العزيز بالله الفاطمى بصنع ثوبين جديدين من النسيج هما العتابى والسقلاطون (كلمه يونانيه تطلق على ثياب كتانية موشيه) وينسب الأول إلى أحد أحياء بغداد والثانى إلى بلاد الروم، ويمكن تعليل ذلك بحسن العلاقة بين العزيز وعضد الدولة، والصلح مع الروم سنة ٣٧٧هـ/٩٨٧م.

وفى القرن الخامس للهجرة ظهر نوع جديد من القماش وهو المسمى أبا قلمون (نسبة إلى قلمون أو أبو قلمون وهى الحربايه (من اليونانية kham ailen والفرنسية icomeleon) بمعنى أسد الأرض أو الحرباية، وأطلق هذا الأسم على نوع من النسيج. ومن خواصه أن يظهر بألوان شتى على حسب تعرضه للشمس والوضع الذى يكون فيه واختلاف ساعات النهار.

ويذكر المقدسى أن أبا قلمون هى دابه تحتك بحجارة على شط البحر فيقع منها وبرها وهو في لين الخز لونه لون الذهب لا يغادر منه شيئاً وهو عزيز الوجود فيجمع وينسج منه ثياب تتلون في اليوم ألوانا، وربما بلغ ثمن الثوب عشرة آلاف دينار). من الحرير المتغير الألوان. وكان يصنع في مدينة تنيس وحدها ولا ينسج في مكان آخر من العالم، وتصنع منه أستار هوادج الجمال ولبود (جمع لبده وهى الجزء المرتفع الوثير من سرج الخيل أو برذعة الحمار). سروج الخيل الخاصة بالسلطان وكان يصدر إلى بلاد المشرق والمغرب. واحتل هذا النوع مكانه مرموقه في أسواق القسطنطينية.

والشواهد كثيرة على ما تمتعت به تنيس من شهرة فائقة حتى أصبح يضرب بها المثل في جودة إنتاجها من الثياب. فقد روى إبن خلكان أنه وصل إلى حضرة سيف الدولة الحمداني الشاعران المشهوران أبو بكر محمد وأبوعثمان سعيد إبنا هاشم، ومدحاه، فأنزلهما بضيافته: وقام بواجب حقهما وبعث لهما مره وصيفا ووصيفه ومع كل واحد منهما بدره (البدرة: عشر آلاف درهم) وتخت ثياب من صنع مصر.

إلا أن هذه الصناعة المتميزة والتي أشتهرت بها هذه المدينة، فقدت كثيراً من العناية بها منذ أواخر عهد الدولة الفاطمية، نتيجة للظروف والأحداث التي مرت بها، والتي من أهمها ما أصيبت به مصر من شدة عظمى في عهد الخليفة المستنصر بالله. وكذا ما مرت بها من أحداث وأضطرابات سياسيه إبان عصر الأيوبيين والمماليك والتي ترتب عليها القضاء على مركز هام لصناعة المنسوجات في النصف الأول من القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى)، عندما أمر الملك الكامل بهدم مدينة تنيس.

والى جانب صناعة المنسوجات عرفت تنيس صناعة المعادن وأهمها الحديد حيث صنعوا منه المقصات والسكاكين.

واعتقد أن صناع المقصات هذه حتمتها وجود صناعة المنسوجات القائمة للحاجة إليها في قص القماش وتفصيله.

ويذكر ناصر خسرو أنه رأى مقراضا صنع بتنيس ثمنه خمسة دنانير مغربية يفتح إذا رفع مسماره ويقص إذا أنزل.

وكانت صناعة السلاح المتخذ من الصلب من الصناعات التي كادت تبلغ في تنيس مبلغ منسوجاتها من الوفرة والجودة. وكان هذا السلاح ينقل بواسطة السفن مع المقاتله لغزو بلاد الروم عن طريق الموانى ومنها تنيس التي أقام بها جيش كامل السلاح والعدة لوقت الطوارىء.

وكان من الطبيعى أن يترتب على تلك الصناعات وزيادة إنتاجها وسهولة إتصال تنيس بداخل البلاد وخارجها، وجود نشاط وعلاقات تجارية مع مختلف الدول.

وعلى الرغم من عدم إستقرار الحالة السياسية وسوء العلاقات بين الدولة البيزنطية ومصر منذ الغزو العربى لم تتوقف العلاقات التجارية، إذ كانت بيزنطه في حاجة إلى بعض المصنوعات المصرية الممتازة مما تنتجه مناسج تنيس ويقبل عليها الأباطرة لتزيين قصورهم، كما أهدى البابوات الكنائس المسيحية في أوربا كثيراً من هذه الأنواع.

وقد كان لموقع تنيس وارتباطها بشبكة من المواصلات الداخلية والخارجية أثر واضح في نشاطها التجارى، فهى على إتصال بشرق الدلتا بواسطة خليج من فرع دمياط يصب في بحيرة المنزلة. وفي هذا يقول الأدريسى الرحالة الجغرافي الذى زار مصر في القرن السادس الهجرى (الثاني عشر الميلادى). «إننا إذا أردنا المسير من دمسيس إلى تنيس متتبعين فرع النيل الترنيسى كان علينا أن نتوجه أولا إلى طلخا حيث ينقسم هذا الفرع إلى خليجين أحدهما يجرى غربا إلى دمياط والآخر يتجه شرقا إلى تنيس».

كما كانت حركة الملاحة في النيل بالغة النشاط، فقد شاهد ناصر خسرو في ساحل مدينة مصر من السفن أكثر مما رآه في بغداد والبصرة، وكان عند تنيس دائما نحو ألف مركب بعضها للتجار ومنها أيضا للسلطان، حيث يجلب إليها كل ما تحتاجه وتجرى المعاملات فيها بالسفن فلا طريق إليها إلا بذلك.

أما إتصال مصر البحرى بمدن وسواحل الشام، فكانت تنيس إحدى مراكز هذا الأتصال الهام إلى جانب الاسكندرية ودمياط. فبعد مغادرة الساحل الشمالي لمصر تسير المراكب بحذاء الساحل الشامى مارة بعسقلان وقيساريه ويافا.

كما كان هناك أتصال بحرى

بين تنيس والقسطنطينية وجزيرة قبرص، وأهم ما كانتا تشتغلان باصداره المنتجات المحلية وكانت السفينة تقطع المسافة بين تنيس والقسطنطينية في عشرين يوماً.

وقد ورد في الأخبار أن تجارة تنيس مع العراق في القرن الرابع الهجرى وحده بلغت من عشرين ألفا دينار إلى ثلاثين ألف في السنة الواحدة.

وقامت تنيس بدور تجارى هام مع كثير من الدول الأفريقية والأسيوية، فذكر اليعقوبى أن مراكب بلاد المغرب كانت ترد إلى ثغر تنيس.

وذكر المقريزى أن ما كان يحمل من ثغور تنيس والاسكندرية ودمياط إلى عسقلان وصور من المنتجات الزراعية بلغ مائة وعشرين ألف أردب من الغلال.

أما المسحى فقد ذكر في حوادث سنة ٣٨٤هـ «وفى ذى العقدة ورد يحيى بن اليمان من تنيس ودمياط والفرما بهديته وهى أسفاط (جمع سفط، وهو ما يعبىء فيه الطيب وما أشبهه من أدوات النساء). وتخوت وصناديق مال وخيل وبغال وحمير وثلاث مظال وكسوتان للكعبة. وفى ذى الحجة سنة ٤٠٢هـ وردت هدية تنس الواردة في كل سنة منها خمس نوق مزينة ومائة رأس من الخيل بسروجها ولجمها وصناعات عدة.

وبفضل نشاط مدينة تنيس التجارى أسهمت في إنعاش ايرادات الحكومة ـ خاصة في العصر الفاطمى ـ عندما أهتم الخلفاء بتنمية موارد بيت المال وتنظيم مصارفه، ففرضت الرسوم على التجارة والصناعة خاصة صناعة النسيج في مراحلها المختلفة إلى جانب الجزيه والخراج والضرائب المفروضه على الصناع والأجراء.

ويبدو أن المسلمين لم يحاولوا في أول الأمر التدخل في النشاط الاقتصادى للأفراد أو الحد من مكاسبهم، ولكن مع مرور الوقت أزدادت المكوس والضرائب حتى أن المقداسى الذى زار مصر في أوائل عهد الفاطميين يقول «أما الضرائب فثقيله بخاصة تنيس ودمياط، ويوجد بتنيس على زق الزيت دينار ومثل هذا واشباهه، رأيت بساحل تنيس ضرائبيا جالسا قيل: قبالة [إيراد] هذا الموضع في كل يوم ألف دينار ومثله عدة على ساحل البحر بالصعيد وساحل الاسكندرية».

وقد بلغ من شدة وطأة الضرائب بتنيس وكثرة الرسوم أن أهلها شكوا منذ أوائل القرن الثالث للهجرة ـ التاسع للميلاد إلى البطريك وهو مار بمصر حوالى سنة ٢٠٠هـ/ ٨١٥م أن الواحد يلزم يدفع خمسة دنانير في كل عام وهو مبلغ لا يقدرون عليه، ولكنه يحصل منهم بقسوة.

كذلك فرض العرب ضرائب على التجارة الخارجية التى تمر بالثغور أو التى ترد إليها أو تصدر منها، فكانت المكوس تجبى في الثغور الاسلامية ومنها تنيس، وهى تشتمل على عدة معاملات مثل الزكاة والجوالى ودار الضرب وواجب أهل الذمة والمواريث الحشرية.

ويروى ناصر خسرو أنه سمع من الثقات أنه يصل من مدينة تنيس لخزانة سلطان مصر يوميا ألف دينار مغربى ويصل ذلك المقدار مرة واحدة يحصله شخص واحدة يسلمه أهل المدينة إليه في وقت معين وهو يسلم للخزانه فلا يتأخر منه شيء.

ولا أدل على أهمية تنيس الأقتصادية من أنه منذ العصر الفاطمى صار لها ـ ولعيذاب أيضا ـ والى يحكمها ويشرف على شئونها. وكان يخلع على هؤلاء الولاه من خزانة الكسوة «بالبدنه» وهو نوع الثياب الذى يلبسه الخليفه الفاطمى في يوم فتح الخليج (وفاء النيل).

ويصف ناصر خسرو مدينة تنيس بعد رحلته إليها فيقول «أنها جزيرة ومدينة جميلة بعيده عن الساحل بحيث لا يرى من أسطحها، والمدينة مزدحمة وبها أسواق فخمة، وقد يبلغ عدد

الدكاكين بها عشرة آلاف منها مائة دكان عطار، وطول المدينة من الجنوب إلى الشمال ثلاث آلاف ومائتى ذراع، وعرضها من الشرق إلى الغرب ثلاثة آلاف وخمسة وثمانين ذراعاً. وكان لها تسعة عشر بوابه مصفحة بالحديد، كما كان بها ستة وثلاثون حماما ومائة معصرة للزيت والسيرج والقصب، ومائة وستون طاحونا. ومن الحوانيت ألفان وخمسمائة حانوت برسم البضائع. وبها نحو مائة وستين مسجداً، وبكل مسجد منارة. وبها جامع طوله مائة ذراع وعرضه إحدى وسبعون ذراعاً يوقد فيه كل ليلة ألف وثمانمائة قنديل، وبها إثنتان وسبعون كنيسه ومخبزاً، وقد هدم الحاكم كنائسها وبنى محلها مساجد.

وعن سور المدينة يذكر ياقوت الحموى أن سور تنيس أبتدىء فى بنيانه فى شهر ربيع الأول سنة ٢٣٠هـ/٨٤٤م وكان والى مصر يومئذ عيسى بن منصور بن عيسى الخراسانى من قبل إيتاخ التركى فى ايام الواثق بن المعتصم وأنتهى منه سنة ٢٣٩هـ/٨٥٣ فى ولاية عنبسه بن إسحق فى عهد المتوكل.

وفى الحق أن ثروة مصر الضخمة مكنت الفاطميين من بسط سلطانهم على الشام وفلسطين والحجاز، يضاف إلى ذلك أن نظام الضرائب الذى وضعه يعقوب بن كلس وعلوج بن الحسن كانت نتيجته أن زاد خراج مصر بمقدار كبير، وقد أسهمت تنيس بشكل واضح فى تلك الزيادة. فصار خراج مدن تنيس ودمياط والأشمونين يزيد عن ٢٠٠,٠٠٠ مائتين ألف دينار وذلك أمر لم تعهده مصر من قبل.

وهكذا يمكن القول أن عوامل كثيرة مختلفة تضافرت حتى جعلت تنيس فى ذلك المركز السامى، فبالاضافة إلى ما سبق أن ذكرناه عن بيئة تنيس وصلاحية تلك البيئة لزراعة الكتان، وموقعها الفذ الذى مكنها من الأتصال التجارى مع الداخل والخارج، يمكن أن نضيف إلى كل ذلك مهارة أهلها من الأقباط.

وقد مرت مدينة تنيس بأدوار من القحط والفقر، قبل أن تنتعش فى فترات لاحقه. من ذلك أن البطرك ديونيسوس الذى زار مصر سنة ٢٠٠هـ/ ٨١٥م يصف تنيس فيقول «ومع أن مدينة تنيس عامره بالسكان كثيرة الكنائس فأنى لم أر من البؤس فى بلد أكثر من بؤس أهلها، وقد سألتهم عن مصدر هذا البؤس فأجابونى «إن مدينتنا محاطه بالماء فلا نستطيع زرعا ولا تربية ماشية والماء الذى نشر به يجلب لنا من بعيد ونشترى الجره منه بأربعة دراهم ولا شغل لنا سوى نسج الكتان، فنساؤنا تغزله ونحن ننسجه ونعطى عن ذلك نصف درهم فى اليوم من تجار الأقمشة. ومع أن أجرتنا لا تكفى لا طعام كلابنا، فإن على كل منا أن يدفع ضريبة مقدارها خمسة دنانير، ومن أجل ذلك نضرب ونسجن ونلزم باعطاء أبناءنا وبناتنا رهائن فيلزمون بالعمل كالعبيد سنتين لأجل كل دينار، ولو ولدت عندهم إمرأة طفلا فأنهم يأخذون قسمنا بأن لا نطالب به، وقد يحدث أن تحل ضرائب جديدة قبل إطلاق هؤلاء النساء».

وفى سنة ٣٢٢هـ/٩٣٤م مات أسقف تنيس وكان بينه وبين البطريق وحشه، وولى الأخير على تنيس أسقفا من أنصاره من أهل تنيس، فانقسم هؤلاء والأقباط حزبين أحدهما مع البطريق والآخر ضده «وقام لكل حزب من الحزبين غرض فى نصرة هواه، حتى كان الأب لا يكلم إبنه ولا المرأة تخاطب بعلها». وانتشرت المحرمات بينهم وصارت القرابين تنتقل من هيكل إلى هيكل وتكسر على المذابح ويستعين كل فريق منهم على الآخر بالسلطان، حتى خرج جماعة من المناوئين للبطريرك وذهبوا إلى الأمير أبو بكر محمد بن طفج الأخشيد، فوجه معهم قائداً فى طائفة من الجند، فاغلق الكنيسة الجامعة ومنع الصلاة

فيها وقبض على الأسقف والبطريرك، وأحضر محتويات الكنيسة إلى الفسطاط.

وفي تاريخنا هذا «تاريخ البطاركة» قيل أنه كان بتنيس مجموعه من شباب المسلمين خارجين عن طاعة الأمير يجبون من الأهالى جبايات وينهبون البيوت ويفعلون أفعالا قبيحة، فأرسل المعز عسكراً لقتال المدينة بناء على شكوى النصارى فقاوم العصاة العسكر، ثم التجأوا للدخول تحت الطاعة بسبب قلة المياه العذبة، فدعا أمير الجيوش العصاة واستضافهم لمدة ثلاثة أيام وأهدى لكل واحد منهم خلعة وعشرة دنانير، وكان عددهم مائة. ثم أمر بشنقهم جميعاً على أسوار المدينة.

ومن تلك الثورات أن السودانيين ثاروا بمدينة تنيس على عهد الخليفة الفاطمى الظاهر لاعزاز دين الله. (٤١١/٤٢٧هـ) - (١٠٢٠/١٠٣٥م) وطالبوا بأرزاقهم وعاثوا وأفسدوا فى المدينة واعتدوا على الناس وقطعوا الطرقات وأخذوا من المودع (صندوق لحفظ مال مخصص لغرض معين، ومودع الحكم صندوق يوضع فى عهده قاضى القضاة لحفظ أموال اليتامى القصر وأموال الغائبين). ألف وخمسمائة دينار. فبعث إليهم الوزير الفاطمى نجيب الدولة على بن أحمد الجرجرانى على رأس خمسين فارساً للقبض على الجناه واخضاع ثورتهم.

ولقد عاش بمدينة تنيس وعمل بها اسقفنا ساويرس بن المقفع والذى توفى فى أواخر القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى)، وكذلك الانبا ميخايل الذى كان اسقفا لتنيس وكاتبا لأحد ذيول تاريخ البطاركة خاصة سيرة عشرة بطاركة أولهم خايال الثالث وآخرهم شنوده.

الزمان من شباب شجعان كانو فيها قد تغلبو عليها، ونهبو مال جماعة من الاغنيا الذين فيها، وقطعو على اهلها مال اخذوه منهم، وكانو مجتمعين ياكلو ويشربو ، وكان كل واحد منهم يفعل ما يريده حتى انهم اخذو البنات الابكار من والديهم غصبا وكذلك النسوة، وما كان احد يجسر يخاطبهم، وكان فى تنيس قوما من النصارى يعرفو باولاد قشلام، وانما سمو بهذا الاسم لسبب فعله ابوهم، وذلك ان ابوهم كان

فكان المريض اذا ادخل تنزع ثيابه ويودع ما معه من المال عند أمين المارستان ثم تقدم له ثياب أخرى وينزل به فى مكان تتوافر فيه وسائل الراحة، كما كان يعطى الأدوية والأغذية مجانا حتى يتم شفاؤه. وبلغ من عناية ابن طولون بهذا المارستان وحرصه على راحة المرضى، أنه كان يتفقده بنفسه كل يوم جمعة فيطوف على خزائن الأدوية ويتفقد أعمال الأطباء ويشرف على المرضى ويبالغ فى مواساتهم وادخال السرور عليهم.

ولم تكن هذه الانشاءات العظيمة هى كل ما فعله أحمد بن طولون من أجل مظاهر استقلاله، أو من أجل المصريين، وانما قام ابن طولون بكثير من التعمير والاصلاح الذى ينم عما ينتظر من أمير يريد تأسيس مملكته فى قلوب الناس. فقد ذكرت المصادر التاريخية كثيرا من أوصاف هذه المنشآت. ومن تلك المنشآت مسجد التنور الذى أقامه ابن طولون فى أعلى جبال المقطم بعد أن ضاق جامع العسكر بالمصلين من جند الأمير وعامة الشعب.

كذلك أصلح ابن طولون مقياس النيل بالروضة، كما قام بتطهير الخليج الذى ربط الاسكندرية بنهر النيل. ومن ضمن اصلاحاته أيضا اصلاح منارة الاسكندرية.

وقد استغرقت هذه الأعمال البنائية مدة طويلة وأموالا كثيرة.. وهكذا لم يعد دخل مصر يتسرب الى بيت مال الخلافة أو الى جيوب الولاة وأصحاب الاقطاع، بل بقيت أموال مصر فيها وبدأ وادى النيل حياته لنفسه فى مجموعة الأمم الاسلامية.

وقد استكمل خمارويه بن أحمد بن طولون منشآت أبيه، وتطورت الحياة فى مصر تطور

رجلا حكيما ولما راى ظلم تلك الشجعان قد كثر وعلا كتب الى الملك المعز يطلب منه معونة، وقال فى كتابه ان فى مملكتك مدينة تسمى تنيس فيها الف غلام مسلمين يفعلو كذا وكذا، وشرح له جميع افعالهم، والان فيجب ان ينفذ الامير احد من عنده ليكون واليها، ويكون معه عسكر جيد، فاذا وصل الينا فانا اساعده فيما يحتاج اليه. فانفذ المعز اليها رجلا كتامى اسمه مشعلة ومعه رجال كثيرة فلما وصل اغلقو ابواب المدينة فى وجهه

- -

كبيرا، وظهر فى القطائع مظاهر الترف والثراء العريض الذى حققه استقلال مصر واتساع سلطانها. وظهرت القطائع منافسة لسامراء، وبدا البلاط الطولونى فى مستوى لا يقل عن مستوى بلاط الخليفة من حيث التقاليد والمظهر والحياة.

وقد زاد خمارويه فى القصر الذى بناء أبوه ووسع فيه كثيرا. وبنى فى القصر قبة سماها«الدكة» جعلها على مثال «قبة الهواء» التى أنشأها حاتم بن هرثمة عامل الأمين العباسى على جبل المقطم حيث قلعة الجبل الآن. وكان خمارويه، ومن أتى بعده من الأمراء يختلفون الى هذه الدكة طلبا للراحة وتبديل الهواء.

وكان خمارويه مولعا بالبساتين فحول الميدان الذى أمام القصر الى بستان كبير زرع فيه أنواعا فريدة من الزهور، وبالغ فى تزيين بستانه، وجعل خمارويه فى هذا البستان مجلسا له سماه دار الذهب طلى حيطانه كلها بالذهب والازرود ونقشت بنقوش جميلة.

كذلك اتخذ خمارويه دار للسباع وجعل لكل سبع بيته الخاص وكلها تفضى الى قاعة فسيحة.

كذلك نعرف أن أحمد بن طولون اهتم بسباق الخيل وكان الميدان مسرحا لسباق الخيل، وكان ابن طولون يتخذ الاصطبلات العظيمة لكرائم الجياد. ويذكر المقريزى فى الخطط، أنه فى عهد خمارويه أصبحت حلبات السباق تقوم مقام الأعياد، وبلغت فى عهده حدا من الروعة جعل القضاعى يعتبرها من عجائب الاسلام.

تلك المفسدين، وقاتلوه ثلثة شهور حتى ضجت المدينة من العطش، لان ماهم من البحيرة التى تحلو ثلثة شهور سنة النيل العال، فيملو منها صهاريجهم، ثم تملح تسعة شهور فتحمل اليهم المراكب الما الحلو من بحر النيل من مسيرة يوم. فلما ضجو اجتمع قشلام مع رووساهم وكان عددهم مايةرجل وقال لهم وهم على الصور: الى متى نضيق على هذه المدينة ونبقى هكذى، فان اطعتموني كنت سفير بينكم وبين هذا الأمير

والحق أن البلاط الطولونى ظل ما ثلا فى الأذهان، وحين استقل محمد بن طغج الاخشيد بمصر قلد الكثير من مظاهر حياة الطولونيين وسار على نهجهم وأحيا تقاليد بلاطهم.

وقد أشار المؤرخ أبو المحاسن ابن تغرى بردى، والذى عاش فى عصر المماليك فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى)، الى عظمة الأعياد فى العصر الطولونى، وذلك عندما تحدث عن حلبة السباق فى عهد خمارويه وقال انها كانت تقوم عند الناس مقام الأعياد لكثرة الزينة وركوب سائر الجند والعساكر بالسلاح، وان الناس كانوا يجلسون لرؤية ذلك كما يجلسون فى الأعياد. وعلق على ذلك بقوله: «والتشبيه أيضا بتلك الأعياد لا بأعياد زماننا هذا فان أعيادنا الآن كالمآتم بالنسبة لتلك الأعياد السالفة»(١).

٤أحمد بن طولون يؤسس امبراطورية مصرية

عرفنا كيف أدرك أحمد بن طولون أن فى استطاعته الاستقلال بشئون مصر، فقد كانت حكومة العراق قد تطرق اليها الضعف، كما قام الزنج فى اقليم البصرة بثورة خطيرة فى عهد الخليفة المهتدى وبلغت هذه الثورة غايتها العظمى فى حكم المعتمد الذى هجر سامراء وأعاد مقر الحكم الى بغداد. وكان يجمع شمل الزنج، وظل القتال بينهم وبين جند الخليفة نحو أربعة عشر عاما. كذلك قامت ثورات أقليمية أخرى فى بعض أنحاء الدولة الاسلامية كتلك التى كانت تحدث فى ايران وفى بلاد الشام.

(١) انظر: المقريزى: الخطط: ج١ ص٣١٨، وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة: ج٣ص٥٢وما بعدها.

مشعله وأخذت منه لكل واحد منكم عشرة دنارنير وخلعة حسنة ويوليكم هذه المدينة من قبله، فليس لكم بمقاومة السلطان طاقة. فاستصوبو قوله وقالو له: انت تكون الواسطة فى هذا الامر ومهما رسمته لنا ما نخالفك. ثم تفرقو جماعة اوليك الاحداث، ومضى كل واحد منهم الى موضعه، ولم يبق الا المااية المقدمين، فامرهم قشلام بفتح الباب وخرج منه واغلق الباب وخرج معه شيوخ المسلمين بالناحية الذى كان وافقهم على هذا الرأى فمضو

وكان صاحب الأمر والنهى فى الخلافة العباسية هو الموفق أخ الخليفة المعتمد الذى لم يكن له من الأمر شئ.

واذا أردنا أن نصف حكم المعتمد فليس أفضل من النظر فى هذه السطور المقتبسة من كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية لابن طباطبا:«كان المعتمد مستضيفا، وكان أخوه الموفق طلحة الناصر هو الغالب على أموره. وكانت دولة المعتمد دولة عجيبة الوضع، كان هو وأخوه الموفق طلحة كالشريكين فى الخلافة، للمعتمد الخطبة والسكة والتسمى بأمرة المؤمنين، ولأخيه طلحة الأمر والنهى وقود العساكر ومحاربة الأعداء ومرابطة الثغور وترتيب الوزراء والأمراء وكان المعتمد مشغولا عن ذلك بلذاته»[١].

والواقع أن هذا الحكم الثنائى فى عهد المعتمد كان له خطره فى تاريخ مصر. واستطاع أحمد بن طولون بذكائه وقوة شخصيته أن يستغل هذا الوضع وأن يناضل الموفق دون الخليفة نفسه، فكان الموفق يلح فى طلب أموال مصر من أحمد بن طولون، ولكن حاكم مصر لم يقدم ما كان ينتظره أخو الخليفة ونائبه، فدب الخلاف بينهما وكان هذا ايذانا بعصيان ابن طولون واستقلاله بمصر وفى توسيع حدودها بعد ذلك.

(١) انظر: ابن طباطبا (أو ابن الطقطقى): الفخرى فى الأداب السلطانية والدول الاسلامية: ص ٢١٤(طبع القاهرة ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٧م)

الى مشعلة، فلما دخلو عليه اعلمه قشلام بجميع ما قرره وما فعله، واخذ منه الف دينار ومائة خلعة طايلة وكتب خطه انه لا يظلمهم فاطمنوا لذلك وعادو الى المدينة، ودفعو لكل واحد منهم عشرة دنانير وخلعة، واوقفوهم على الخط الذى كتبه ففرحو وطابت قلوبهم، وفتحو ابواب المدينة ودخلها مشعلة بمجد عظيم، وعمل لهم سماط عظيم ودعاهم جميعهم، وذلك شي كان قرره قشلام معه ان ينصب لهم، فقدم لهم طعام كثير

وقد كتب الموفق كتابا يعنف فيه ابن طولون، فرد عليه ابن طولون ردا خشنا ظهرت فيه روح الاستقلال والاعتداد بالنفس.

ولم يرد ابن طولون الا بعد أن جمع مجلسا حربيا من أعوانه ورجال الشرع فى البلد، وظهر فى كتاب ابن طولون براعة ومهارة كاتبه، ابن عبد كان[1]. وبرغم تأدب كاتبه فى اختيار العبارات والفاظ الا أنه بين فضل أحمد بن طولون على الدولة العباسية، وأنه يعمل على صيانتها والذب عنها.

وطبيعى أن الموفق غضب من رد ابن طولون أشد الغضب، وأرسل جيشا لاخضاع ابن طولون أو طرده من مصر. غير أن هذا الجيش العباسى لم يجاوز مدينة الرقة، وذلك بسبب ضعف الجند وقلة المال اللازم لتموينهم .

ولا ريب فى أن فشل جند العراق فى الوصول الى مصر واخضاع واليها، يعتبر فجرا لعصر جديد فى حياة ابن طولون بل فى تاريخ مصر.

(١) ترك لنا المقريزى فى كتابه الخطط نصا مختصرا من هذا الكتاب. ولكن ابن سعيد حفظ لنا النص فى كتابه «المغرب فى حلى المغرب» نقلا عن سيرة احمد بن طولون لابن الداية، الذى كان معاصرا للدولة الطولونية: انظر: ابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب. ص٩١ ـ ٩٢ (عنى بنشره وتحقيقة والتعليق عليه، الدكتور زكى محمد حسن والدكتور شوقى ضيف والدكتورة سيدة كاشف ـ مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٣م).

وشـراب وحلف عليـهـم براس الملك المعـز ان لا
يمضى احـد منهـم الى منزلة ثلثـة ايام بل تقيـمـو
عندى تاكلو وتشـربو مـعى. ومن بعـد الثلثـة ايام
سكرو من الشـراب. فـاغلق عليـهم البـاب وامـر
اجناده بذبحهم جميعهم فذبحو وصلبـهم على
صـور المدينة قـبل الصـبح، فلمـا كـان بالغـداة
ابصـرهم اهل المدينة وخـافو خوفا عظيـما. ثم انه
امر [بهدم] اكثر السور [المحيط بتنيس لحمايتها من
ماء البحر] فهدم وبقى مهدوم الى الان. [انظر الهامش
الخاص بتنانيس ص٢٠٤].

وهكذا نرى أن ابن طولون تغير مركزه كل التغيير فى مدة خمس سنوات منذ مجيئه الى مصر فى سنة ٢٥٤هـ (٨٦٨م) نائبا عن صاحب اقطاع مصر.

والحق أن تاريخ أحمد بن طولون وتاريخ أسرته من بعده ليس فى الحقيقة الا صراعا بينهم وبين الخلافة العباسية أو الحاكمين باسم الخليفة. واذا عرضنا لمسألة التقليد والحق الشرعى بالنسبة لأحمد بن طولون نرى أن الخليفة لم يعينه قط حاكما عاما على مصر. فقد ذكرنا انه قدم اليها نائبا عن واليها باكباك (زوج أمه)، وظل فيها بعد وفاة باكباك واقطاع مصر ليارجوخ حميه. وبعد وفاة الأخير تعقدت الأمور ولم يشأ ابن طولون أن يترك حكم مصر، واستغل لمصلحته الخلاف بين المعتمد والموفق، واستطاع بعطاياه وهداياه أن يجعل حكومة العراق تتركه مؤقتا حتى تحين الفرصة للتخلص منه.

ثم اعترف به الخليفة نائبا عن ابنه جعفر الذى كانت مصر من نصيبه فى الاقطاع (١)،

(١) حين ولى الخليفة المعتمد سنة ٢٥٦هـ (٨٧٠م) أرسل الى أخيه الموفق يستدعيه من مكة وكان قد نفى اليها من قبل. وفى سنة ٢٥٧هـ قسم الدولة قسمين، ولى على القسم الغربى ولده جعفر ولقبه المفوض، وهذا القسم يشمل مصر والمغرب ولما كان جعفر لم يزل صغيرا فقد عين موسى بن بغا عونا له. اما القسم الشرقى من الدولة ويشمل الكوفة والحجاز والحرمين واليمن وبغداد وواسط والبصرية والأهوا ز فقد ولى عليه أخاه أبا أحمد الموفق طلحة. ولم يقنع الموفق بهذه السلطات او بالعقد الذى علقه أخوه فى جوف الكعبة، فقد بايعه المعتمد وليا للعهد بعد ابنه المفوض، ودعا له على منابر العالم الاسلامى. (انظر: الطبرى: تاريخ الأمم والملوك ج٧ص ٥٩٨هـ ٥٩٩، والبلوى: سيرة ابن طولون: ص ٣٩، وابن طباطبا: الفخرى:ص٢٠٤، وابو المحاسن: النجوم الزاهرة:ج٣ص ٥٤).

وفى اول سنة ملكو هولاى المغاربة [الفاطميون] ارض مصر تشرقت الارض ولم [تروى] فبدا الغلا، وفى السنة الثانية اوفا النيل وزرعو الناس وافلح زرعهم، فلما ندت نزل عليه فيران كثيرة فهلك الزرع. وفى السنة الثالثة لحق الزرع ريح اهلكه. وفى السنة الرابعة نزل على الزرع جراد عظيم فاكله، ولم يزل الغلا الى تمام سبعة سنين متوالية، وكان غلا عظيم فى جميع ارض مصر حتى ان كورة مصر خلت من الناس لكثرة الموت والجوع

وأضاف اليه فضلا عن ذلك ولاية الخراج وحكم الثغور الشامية والعواصم(١). ولما لم يرسل أحمد بن طولون الى الموفق المبلغ الذى كان ينتظره، وانما بعث اليه بكتابه المشهور، أراد الموفق أن يولى على مصر أما جور، حاكم الشام، بالاتفاق مع موسى بن بغا الوصى على اقطاع جعفر المفوض. وقامت حملة الى مصر بقيادة موسى بن بغا، ولكنها توقفت، كما مربنا، عند الرقة، وأصبح أحمد بن طولون بذلك السيد الفعلى لوادى النيل(٢).

والملاحظ أن أحمد بن طولون ظل دائما معترفا بالخليفة العباسى المعتمد، وربما كان ذلك لأن المعتمد لم يكن فى يده من السلطان شئ، بل ان أحمد بن طولون أراد أن يظهر بمظهر المدافع عن المعتمد ضد أخيه الموفق. وهذه مسألة هامة، فان أحمد بن طولون كان فى أكثر الأحيان أقوى من الخليفة نفسه ولكنه كان يحرص على ارضائه لأن الاعتراف بالخليفة كان لايزال له شأنه عند العامة والخاصة، وكان الخليفة يتمتع بنفوذه وسيادته الروحية والدينية بالرغم من انقسام العالم الاسلامى الى دول ودويلات صغيرة مستقلة. فكان أحمد بن طولون يدعو للخليفة فى الخطبة على المنابر وينقش اسمه على النقود التى كانت تضرب بمصر.

وكانت وفاة «أماجور» والى الشام فى سنة ٢٦٤هـ (٨٧٨م) فرصة انتهزها أحمد بن طولون لتحقيق أطماعه، ولكنه كان لايريد أن يبدأ حملته عليها بدون سبب يستند اليه ويبرر

(١) الثغور والعواصم: هما خطا الدفاع الأمامى والخلفى بين الدولتين العباسية. والبيزنطية.
(٢) انظر: دكتورة سيدة كاشف: احمد بن طولون: ص١١٥.

الذى كان. وفى السنة السابعة بلغ القمح نصف ويبة وربع ويبة بدينار. وخربت عدة من كراسى الاساقفة لخلوها من الناس، ولم يقام لها اساقفة بل اضيفت الى الكراسى العامرة المجاورةى لها وهى ترنوط، اوراط، نستروه، انحلو، اصطف، حريوط، اتوشو، ابورسا، دقهله، نقيوس واماكن كثيرة ما يسع الزمان ذكر جميعها.

وكان الاب انبا مينا البطرك في هذا كله مقيما

به هذه الخطوة الجريئة. ولذا فانه أعلن رغبته فى الجهاد، وفى حماية حدود الدولة الاسلامية ضد البيزنطيين في آسيا الصغرى. ثم كتب كتاب تعزية الى على بن أماجور وأبلغه فيه انه قادم الى بلاده للاشراف على الثغور، وطلب اليه أن يقيم الانزال والضيافة لجنده.

ولم يجد على بن أماجور واتباعه بدا من الخضوع. وترك أحمد بن طولون على مصر ابنه الأكبر العباس ومعه الواسطى يساعده بالرأى والمشورة ككاتب ووزير له.

ثم سار أحمد بن طولون على رأس جنده الى الشام. وكان الموفق، وهو الرجل الوحيد آنئذ الذى يستطيع مقاومة ابن طولون، لا يزال مشغولا بحروب الزنج.

وخضعت دمشق لابن طولون، وأمر على بن أماجور والوصى عليه أحمد بن دوغباش، بالدعاء في الصلاة لابن طولون. وكذلك خضعت له حمص وحماه وحلب. وخضت انطاكية عنوة، ودخلها ابن طولون فى سنة٢٦٥هـ(٨٧٨مـ٨٧٩م). وانتهى المطاف بابن طولون الى طرسوس، ذلك الثغر الذى أمضى فيه ابن طولون زمنا من شبابه. ويذكر المؤرخ ابن الداية أن أحمد بن طولون دخل طرسوس«فى خلق كثير وعز منيع»[١].

وبلغ نفوذ أحمد بن طولون الغاية، فوصلت قواته الى حران وما جاورها، ووصلت قوات أخرى الى الرقة بقيادة لؤلؤ. وتذكر الروايات التاريخية ان أحمد بن طولون كان ينوى الغزو ضد البيزنطيين لولا ما بلغه من ثورة ابنه العباس فعاد الى القطائع فى سنة ٢٦٥هـ.

(١) انظر: ابن سعيد.المغرب.ص١٧٧.

بالريف، فلما اشتد الغلا انتقل وسكن فى ضيعة من اعمال تيدا [مركز كفر الشيخ] تعرف بمحلة دانيال، حتى ان امراة ريسة من اهل بلقونه [قرب سمنود] غنية خايفة من الله اسمها دينا اقامت بقية ايام الغلا تقوم بالبطرك وتلاميذه ومن يخصه. واقام سنة لم يدخل الى اسكندرية ولا الى وادى هبيب [.و] ليرفع الميرون حينيذ بنا مذبح لطيف فى محلة دانيال على اسم القديس مارى مرقس وحمل عليه الميرون، فلما انقضت سنى

وقد ذكرنا أن أحمد بن طولون حين خرج الى الشام فى سنة ٢٦٤هـ استخلف ابنه العباس على مصر. وتذكر الروايات التاريخية ان بطانة العباس حسنوا له التغلب على مصر والفتك بأحمد بن محمد الواسطى. ونحن لا نستبعد أن يكون الموفق قد عمد الى تدبير ذلك الأمر عن طريق عيونه فى مصر، وذلك لخلق الاضطرابات والشغب فى حكومة ابن طولون، ولينال منه بهذه الوسيلة ما لم يستطع أن يناله بالقوة.

وخرج العباس من مصر الى برقة بعد أن استولى من بيت المال على مليونى دينار واقترض من كبار التجار مائتى ألف دينار وكلف أبا أيوب العامل على الخراج أن يسددها من الضرائب الجديدة.

وفى ذلك الوقت عاد أحمد بن طولون الى مصر ودخل الفسطاط فى رمضان سنة٢٦٥هـ (٨٧٩م). وأرسل ابن طولون الى ابنه من يستميله ويذكره بواجب الأبناء فلم يعد وأبى[١]. فأرسل اليه ابن طولون جيشا هزمه وأعوانه فى برقة وأعاده الى مصر.

وجئ بالعباس وبطانته الى الفسطاط فى سنة ٢٦٨هـ.

وأمر أحمد بن طولون بضرب ابنه ومن أغروه على الخروج والعصيان بالسياط حتى مات بعضهم من الضرب وزج بابنه فى السجن.

(١) انظر نص كتاب احمد بن طولون الى ابنه والذى صاغه ابن عبد كان فى: القلقشندى: صبح الأعشى: ج٧ص٥ ـ ١٠.

الغـلا السـبـعـة وانعم الله على الخلق بالرخـا وعـادو اهل الغـربيـة الى امـاكنهم فلم يجـدو قـمـح يزرعـوه حـتى نقلو [نقلة] لهم التـجـار مـن الشـام.

ثم توفا الاب البطريرك انبـا مينا بعـد ان اقـام تمنيـة عـشر سنة، وكـان فى اخـر ايامـه رخـا عظيم حتى ابيع القمح اثنا عـشر اردبا بدينار وكـان يرمى على الناس بامر السلطان.

وهكذا بلغ أحمد بن طولون أوج عظمته حين تم له النصر في حملته على الشام، وأعقب ذلك بالتوفيق فى اخضاع ابنه العباس. ولذا فقد بدأ منذ ذلك التاريخ باضافة اسمه الى اسم الخليفة وحده حتى سنة ٢٦٦هـ(٨٧٩ـ٨٨٠م)، ولم يضف ابن طولون الى اسم الخليفة، اسم الموفق، كما كان يفعل سائر الولاة فى أنحاء العالم الاسلامى.

ولكن اسم الموفق كان يذكر فى مصر فى خطبة بوصفه وليا للعهد بعد المفوض. وقد خرج أحمد بن طولون ثانية الى الشام فى سنة ٢٦٩هـ(٨٨٢م) وذلك ليؤدب لؤلؤ أمير الرقة من قبل ابن طولون، الذى انضم الى الموفق واعترف بسلطانه. وكان ابن طولون قد عهد الى لؤلؤ بحكم حلب وقنسرين وحمص وديار مضر

ولا نعتقد أن رجوع ابن طولون الى الشام فى هذه المرة كان بقصد توسع جديد، وانما أراد ابن طولون أن يثبت سيادته فى البلاد التى ضمها الى مصر بعد أن كادت تخرج من السلطان المصرى على أثر خيانة لؤلؤ وانضمامه الى الموفق. كذلك كان الموفق قد قارب الانتصار على الزنج وأصبح من المتوقع أن يواجه أحمد بن طولون بقوته كاملة.

وكان أحمد بن طولون يأمل فى خروجه فى هذه المرة أيضا أن يجذب الخليفة العباسى المعتمد الى وادى النيل فينقل بذلك مقر الخلافة الى مصر. وكتب الى الخليفة بذلك من مصر فى سنة ٢٦٩هـ(١). واستخلف ابن طولون على مصر تلك المرة ابنه خمارويه..

(١) انظر: ابن سعيد: المغرب:ص١٢٦ ١٢٧.

السيرة الرابعة والعشرين من سير البيعة المقدسة انبا ابرهام[ابراهيم] السرياني(*) وهو من العدد الثانى والستون المعروف بابن زرعة

[٩٧٤/ ٩٧٨م]

(*) كان من التجار الكبار في ذلك الوقت، اكتسب تجارته من التردد على مصر ثم استقر بها، وكان يمد الخليفة المعز لدين الله الفاطمى وكبار رجال الله الفاطمى وكبار رجال دولته بما يحتاجونه من السلع النفيسة، ومن ثم نشأت صداقة وثيقة بينه وبين الخليفة ورجال دولته.

لما تنيح انبا مينا البطرك وبقى الكرسى خال اجتمع اساقفة كورة مصر من الريف والصعيدين وكتاب مصر وكهنة اسكندرية ومكثو عدة ايام فلم يجدو من يرتضوه للتقدمة، وكان بمصر انسان

وواضح مما رواه ابن الداية فى سيرة أحمد بن طولون، أن أمير مصر لم يفكر فى هذه الخطوة الجريئة الا بعد أن علم بخلع لؤلؤ وانحيازه الى الموفق. ولم يكن من السهل على ابن طولون أن يرى كفاح السنين المتواصل ينهار أمام عينيه، ولذلك نراه يضرب ضربة جريئة علها تكون قاضية على الموفق وألا عيبه، وفى الوقت نفسه تحفظ له ملك مصر ونفوذه فى الشام بل تعطى مصر حق زعامة العام الاسلامى حينئذ حين تصبح مقرا للخلافة العباسية.

وبينما كان ابن طولون فى دمشق سنة ٢٦٩هـ أتاه كتاب الخليفة المعتمد بأنه سائرا اليه. وتظاهر الخليفة بالخروج للصيد، وكان الموفق لايزال يحارب صاحب الزنج، واتجه الخليفة صوب الرقة، ولكن عيون الموفق أبلغوه الخبر، فأرسل الموفق الى اسحق به كنداج، عامل الموصل يأمره باللحاق بالخليفة ويعده بالأموال والاقطاعات. ولا أدل على هلع الموفق واضطرابه حينئذ مما قاله حين أرسل اسحق بن كنداج للحاق بالخليفة «اذا تم هذا الأمر الأمر استولى أحمد بن طولون على أمره فلم يكن لكم، ولا لأحد منكم مقدار.. فيكون ذلك سببا فى زوال دولة بنى العباس»(١).

ولحق اسحق بن كنداج بالخليفة عند الحديثة قبل أن يخرج من حدود العراق، وأقنعه بأن ما عزم عليه هو الخطأ، وذلك بعد أن قيد أتباعه. وعاد الخليفة الى سامرا شبه سجين فى شعبان سنة ٢٦٩هـ وعقد بعدها الموفق لاسحق بن كنداج على مصر.

(١) انظر: البلوى: سيرة احمد بن طولون:ص٢٩٠.

تاجر سرياني اسمه ابراهيم ابن زرعه وكان له صدقات على الارامل والمساكين والمستورين والضعفا، وكان شيخ لحيته نازلة على صدره مثل ابونا ابرهيم الاول، وكان بينه وبين الملك المعز ورجال دولته جميل عظيم لاجل بضايعه وامتعته التي كانت تتواصل وكان يعاملهم فيها، وكان جميع اراخنة مصر يحبوه ويكرموه، وكان الشعب مجتمعين في بيعة الشهيدين سرجيوس وواخس بمصر بقصر الشمع التي هى القستاليكى

وكان قرار الموفق بتولية اسحق بن كنداج على مصر مجرد حبر على ورق، وكان شبيها بقرار أمير المؤمنين على بن أبى طالب بعزل معاوية عن الشام وهو اذ ذلك ملك غير متوج عليها. فابن طولون لم يصبح مجرد وال على ولاية عباسية، وانما كان حينئذ، امبرطورا على امبراطورية واسعة امتدت الى حدود العراق فى الشر ق، وجبال طورس فى الشمال، وطرابلس فى الغرب.

ولهذا نرى أحمد بن طولون يتصرف حينئذ تصرفا لا يدهشنا، فنراه يعقد مؤتمرا في دمشق ويأمر عامله بأن يدعو القضاة والفقهاء والأشراف من كافة أنحاء دولته الواسعة، لأن أبا أحمد الموفق نكث بيعة المعتمد وأسره. وحينما اكتمل الاجتماع فى دمشق فى ذى القعدة سنة٢٦٩هـ(٨٨٣م)، أمر أحمد بن طولون بكتاب خلع فيه أبا حمد الموفق من ولاية العهد لمخالفته المعتمد وأسره له. وشهد على ذلك جميع من حضر الا بكار بن قتيبة ومحمد بن ابراهيم الاسكندرانى وفهد بن موسى(١) .

ولم يكتف ابن طولون بذلك، بل جرد حملته المشهورة على الحجاز ليمنع من أن يدعى للموفق على منابر مكة(٢).

(١) انظر: الكندى: الولاة والقضاة:ص ٢٦٦
(٢) انظر: البلوى: سيرة ابن طولون: ص ٢٩٨.

[البطركية] والاساقفة والكهنة والاراخنة مجتمعين لاجل العيد، فدخل ابرهيم [ابرهام] ابن زرعه ليصلي في البيعة فاومى احد الاراخنة الى احد الاساقفة قايلا انتم تطلبو من يصلح للبطركية وهوذا الذى يستحقها قد بعثه الله لنا. فسمع جماعة من الحاضرين فارضاهم [قو]له ولم يظهرو ذلك، ثم دعاه احد اصدقاه الاراخنة كانه يريد يخاطبه في شي فلما تقدم وصار في صحبتهم صاحو جميعهم: هذا هو الذى اختاره الرب.

وحين بلغ الموفق ما فعله ابن طولون، لم يستطيع عمل شئ الا أن يأمر عماله بلعن ابن طولون على المنابر. وأجاب ابن طولون على ذلك بأن أمر بلعن الموفق على منابر مصر والشام.

لكن الموفق لم يكن قادرا على عدوان جديد، فاتصل بابن طولون يعاتبه على المبادرة بخلعه ويعتذر له ما كان من لعنه على منابر بغداد. ولم يكن من ابن طولون، بعد أن تأكد من صدق رغبة الموفق، الا أن جنح الى المسالمة واعتذر اليه. وطرب الموفق لا ستجابة ابن طولون، وأطلق المعتمد من محبسه.

ولما فرغ ابن طولون من مؤمر دمشق وما كان فيه، سار نحو طرسوس لتأديب عاملها الثائر، وكان الفصل شتاء، ووجد ابن طولون مشقة في القتال فاضطر الى التراجع عن طرسوس الى المصيصة، وهناك مرض مرضه الذى أدى الى وفاته.

وحين اشتدت وطأة المرض على ابن طولون أسرع بالعودة الى مصر فوصل الفسطاط فى جمادى الآخرة سنة ٢٧٠هـ. ولم يقف مرضه حائلا دون متابعة الاشراف على دولته الواسعة.

وهكذا نرى أحمد بن طولون استمات في الدفاع عن حقوق اكتسبها حتى آخر رمق فى حياته، فقد وافته المنية ليلة الأحد لعشر خلون من ذى القعدة سنة ٢٧٠هـ(٧٧٤م) بعد أن حكم مصر سته عشر عاما.

وقبضوه للوقت وقيدوه بالحديد، فصرخ وبكا وقال: ما استحق هذا الامر.فحملوه للوقت وسارو به الى اسكندرية وقسموه هناك بطركا فابطل الشرطونية التى كانت البطاركة ياخذوها وياخذو الدنانير قرضا عليها وصدق [تصدق] بجميع ما كان له، وكان له مال عظيم. [و] عظم ذكره اكثر ممن تقدمه وكان المعز يحضره اليه فى كل وقت وياخذ رايه فيما يعن له ويتبارك به، وساله ان يسكن بمصر.

---

٥. مصر فى عهد خمارويه بن أحمد ابن طولون

وضحت نية أحمد بن طولون فى توريث ملكه لأولاده من بعده، فنراه يستخلف ابنه الأكبر العباس على مصر حين خرج الى الشام والثغور فى سنة ٢٦٤هـ.

وقبل أن يسير أحمد بن طولون الى الشام فى سنة ٢٦٩هـ، وحين وردت اليه موافقة الخليفة المعتمد على السير الى مصر، نراه يستخلف خمارويه على مصر ويترك معه جماعة من شيوخ القواد لمشاركته الحكم.

غير أن رغبة ابن طولون فى توريث ملكه وضحت تماما حين عاد من بلاد الشام مريضا محمولا، اذ أحس باقتراب منيته، ولذا نراه يبايع ابنه أبا الجيش خماويه بولاية الأمر من بعده.

ولم يكن ينقص ذلك الأمر الا أن أن يستوفى الشكل وأن توافق الخلافة العباسية على مبدأ التوريث. وكانت مبادئ التفاهم بين الموفق وبين أحمد بن طولون تمهد لاقرار الأمر الواقع لولا أن المنية عاجلت أحمد بن طولون قبل أن يستكمل الناحية الشكلية فى استقلاله بالملك وتوريثة لأبنائه من بعده(١).

وبعد وفاة أحمد بن طولون ولى خمارويه أمر مصر. وقد ترك أحمد بن طولون ملكا وسعا،

(١) انظر: دكتورة سيدة كاشف: أحمد بن طولون:ص١١٦ـ١١٧.

ولما راى جماعة من الاراخنة يتسرو بالسرارى ويولدو منهم الاولاد فاحرم [من يفـ]عله فاطاعوه كلهم الا ارخن واحـد جليل. [هو ابو الســرور الكبيـر] من اصحاب الدواوين كان عنده سرارى عـدة فلم يخـرجـهم وخالف البطرك، فـضـرب له الاب انبا فرهام البطرك عدة مطانوات فلم يطيعه، وبقى على سو فعله، كالافعا التى لاتسمع صوت الحاوى ولا دو يصنعه الحكيم، حينيذ ركب البطرك ومضى الى داره يخاطبه وقال فى نفسه لعل اذا

ومستشارين وأعوانا مهرة، وجندا كثيرى العدد، ومالا وفيرا، لكنه خلف لابنه مشكلة أخية الأكبر ، العباس، كذلك أعداءه القدماء وعلى رأسهم الموفق أخ الخليفة العباسي.

أما العباس، الابن الأكبر لأحمد بن طولون، فقد ذكرنا أنه قام بثورة على أبيه فى حياته. وقد نحي عن ولاية العهد لأن والده أوصى بالعرش لخمارويه. ويتفق جمهرة المؤرخين على أنه كان في السجن حين توفي أبوه. ولكن النويرى صاحب نهاية الأرب فى فنون الأدب، شذ عن سائر المؤرخين وزعم أن ابن طولون قبل وفاته ببضعة أيام، دعا اليه العباس وعقد له على حكومة الشام وأملاك مصر خار ج وادى النيل، وطلب اليه فى الوقت نفسه أن يخضع لأخيه خمارويه. لكننا نرى أن هذه الرواية غير محتملة لأننا نستبعد أن ينسى ابن طولون ثورة ابنه العباس عليه، وألا يفطن الى ما قد يجره التقسيم بين ابنيه من خراب على الأسر ة اذا طالب الابن الأكبر بالخضوع الصغير.

وعلى أية حال فان أول ما عنى به أعوان ابن طولون وقواده بعد وفاته هو أن يحصلوا من العباس على البيعة بالأمارة لأخية خمارويه . والظاهرة أن بطانة أحمد بن طولون وقواده بعد وفاته هو أن يحصلوا من العباس على البيعة بالامارة لأخيه خمارويه. والظاهر أن بطانة أحمد بن طولون، ولاسيما الواسطى ألحوا على خمارويه فى التخلص من العباس واستصدروا منه أمرا بقتله. أما أبو المحاسن فيذكر أن خمارويه أمر بقتل أخيه العباس لامتناعه عن مبايعته فقتل[1].

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة: ج٣ص٤٩.

سعيت اليه يحتشم منى فلما اعلموه ان البطرك جاى اليه اغلق بابا داره، فلما وصل البطرك الباب وقف ودقة ساعتين فلم يجيبه احد بكلمة، فاحرمه ونفض قدميه على العتبة وكانت حجر صوان فانقسمت بين اثنين وظهرت هذه الاية للناس وخاف كلمن فى مصر من البطرك. وبعد ايام سيرة هلك ذلك الارخن وكلما له [وكل ما له]. وكان وزير الملك المعز رجل يهودى اسمه ابو يعقوب بن كلس وصل معه من الغرب واسلم على يده،

والواقع أن وفاة أحمد بن طولون وضعت للمساعى السلمية التى كا ن يبذلها الموفق وأعوانه. اذ ظن الموفق أن وفاة أحمد بن طولون قضت على قوة الدولة الطولونية وأن فرصته حانت لاسترداد مصر والشام جميعا من قبضة الطولونيين. واستعان الموفق باسحق بن كنداج أمير الموصل، ومحمد بن أبى الساج والى أرمينية والجبال، وأرسل اليهما جندا من العراق بقيادة ابنه أبى العباس أحمد، وهو الذى تولى الخلافة بعد وفاة المعتمد بإسم المعتضد بالله، وزحف الجميع على الشام، واستولت جيوش العراق على الرقة وقنسرين وا لعواصم ودخلت دمشق، ثم تقدمت جنوبا تريد غزو مصر نفسها. لكن خمارويه نشط للأمر وخرج الى الشام وأحررز سلسلة من الانتصارات ضد جند الموفق ودخل دمشق واسترد سلطانه كاملا فى سنة ٢٧٣هـ ثم خرج لقتال ابن كنداج، حليف المو فق، فأنزل به الهزيمة، وأخذ أصحاب خمارويه يطاردونه حتى أبواب سامرا ه فعظم أمر خمارويه فى هذه الموقعة وهابته الناس[١].

وأدرك الموفق أخيرا أن خمارويه مع صغر سنه لا يقل عن أبيه قوة وعزيمة.

وبالرغم من انتصارات خمارويه كان هو البادئ بطلب الصلح والتفاهم فكتب، وهو ببلاد الشام، الى الموفق فى طلب الصلح[٢]. ويبدو أن رغبة خمارويه وجدت الترحيب والاستجابة

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة: ج٣ص٥١.
(٢) الكندى: الولاة والقضاة:ص٢٢٧ .

وكان للوزير صديق يهودى اسمه موسى قد رزق من المعز حظ وافر لاجل صداقته لوزيره، فلما راى محبة الملك للبطرك وتقدمته عنده حسده وعمل عليه مشورة وقال للمعز انا اريد تحضر بطريك النصارى اجادله بين يديك ليظهر لك دينه، فلم يواجه المعز البطرك بذلك ولا عرضه لمجادلة اليهودى، لكن قال له ان رايت ان تحضر احد اولادك الاساقفة يجادل اليهودى فافعل، فقررو بينهم يوما معلوم يكون فيه اجتماعهم، وكان من

لدى المعتمد والموفق وابنه أبى العباس، فجاء كتاب هؤلاء الثلاثة الى خمارويه فى الشام فى رجب سنة ٢٧٣هـ(٨٨٦م)، ويتضمن الكتاب تولية خمارويه وأولاده من بعده على مصر والشام جميعة والثغور ثلاثين سنة. وعاد خمارويه بعدها الى مصر فى أواخر رجب المذكور. وكان هذا الصلح مرحلة جديدة فى تاريخ العلاقات بين مصر والخلافة فقد استكملت تلك العلاقة الناحية الشكلية، واعترفت الخلافة باستقلال مصر الطولونية وبسلطانها على الشام والثغور(١).

وأكمل خمارويه انتصاره على أعدائه فاستولى على الرقة، واعترف بولايته على الموصل والجزيرة ودعى له على منابرها. كذلك أخضع خمارويه ابن أبى الساج فى سنة ٢٧٦هـ وطارد جيوشه الى نهر دجلة، وهناك بنى خمارويه على شاطىء دجلة سريراً فخماً من الذهب ليجلس عليه اشادة بما حازه من نصر مؤزر. أما عن العلاقة بين خامرويه ويازمان حاكم طرسوس، فالمعروف أن يازمان ثار على أحمد طولون منذ ٢٦٩هـ (٢٨٣)، ولم يستطيع آحمد بن طولون اخضاعه اذ مرض وهوبالشام وحمل الى مصروتوفى سنة ٢٧٠هـ

وفى سنة ٢٧٧هـ بادر يازمان الى الاعتراف بسلطان خمارويه ودعا له على المنابر فى طرسوس. وقد أدى استقرار الأمور لخامروية فى دولته المترامية الأطراف الى استئناف سياسة

(١) انظر: الكندى:الولاة والقضاة:ص٢٢٧ و٢٣٦ـ٢٣٨، وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة:ج٣ص٥١ـ٥٢.

جملة الاساقفة حاضر اسقف قديس فاضل على كرسي الاشمونين يسمى سويرس ويعرف بابن المقفع(*)، وكان كاتبا ثم صار اسقفا، واعطاه الرب نعمة وقوة في اللسان العربي الى ان كتب كتب كثيرة وميامر ومجادلات، ومن قرى كتبه عرف فضله وصحة علمه، ودفعات [مرات] كثيرة جادل قضاة من شيوخ المسلمين بامر الملك المعز فغلبهم بقوة الله ونعمته. واتفق انه كان جالس عند قاضي القضاة اذ عبر عليهم كلب، وكان يوم

(*)هو ساويرس ابن المقفع مؤلف الأجزاء الأولى من هذا الكتاب. وفيما يلي قصة تدل على ذكائه وحسن تصرفه.

الجهاد ضد البيزنطيين، فغزت جيوشه الأراضي البيزنطية عدة مرات سنة ٢٧٨-٢٧٩هـ (٨٩١- ٨٩٢م)، ومالبث البيزنطيون أن طلبوا الصلح في سنة ٢٨٣هـ (٨٩٦م).

وقد توثقت العلاقة بين خمارويه والخلافة العباسية مرة أخرى بعد وفاة الموفق وابن كنداج سنة ٢٧٨هـ، ووفاة الخليفة المعتمد سنة ٢٧٩هـ، وتولى المعتضد الخلافة سنة٢٧٩هـ.

واستطاع خمارويه أن يكسب رضا الخليفة الجديد بهداياه، وأقره المعتضد على ولاية البلاد الممتدة بين الفرات وبرقة ثلاثين سنة وجعلها لأولاده من بعده.

وقدم رسول الخليفة على خمارويه يحمل اليه الخلع والهدايا. وكان من أثر سياسة حسن التفاهم أن عرض خمارويه زواج ابنته أسماء التي تلقب بقطر الندى من ابن الخليفة العباسي ولكن الخليفة اختارها لنفسه.

وقد حلا لخمارويه أن يظهر اسرافه في ذلك الزواج فجهز ابنته بما لم تجهزبه عروس من قبل على حد قول المؤرخين. ويذكر ابن دقماق في كتابه الانتصار لواسطة عقد الأمصار، انه «حمل معها ما لم ير مثله، ولا سمع به» الا في وقته». وذكر المقريزي في الخطط:« انه لم يبق خطيرة[1] ولا طرفة[2] من كل لون وجنس الا حمله معها».

وعلى أية حال فقد أفاض المؤرخون في ذكر هذا الزواج وهذا الجهاز. وأمر خمارويه أن

(١) الخطير: النبيل. (٢) الطرفة: الغريب المستحسن.

الجمعة، وكان هناك جماعة من الشهود، فقال له قاضي القضاة: ما تقول يا سويرس فى هذا الكلب هو نصرانى او مسلم؟. فقال له: اسيله فهو يجيبك عن نفسه. فقال له القاضي: هل الكلب يتكلم، وانما نريدك انت تقول لنا. قال: نعم يجب ان نجرب [نختبر] هذا الكلب، وذلك ان اليوم يوم الجمعة والنصارى يصومو ولا ياكلو فيه لحم، فاذا افطرو عشية يشربو النبيذ والمسلمين ما يصوموه ولا يشربو فيه النبيذ وياكلو فيه اللحم، فحطو قدامه

يبنى لابنته على رأس كل مرحلة قصر لتنزل فيه العروس فى طريقها الى بغداد. كذلك أطلق خمارويه العنان للأفراح التى مازالت أغانيها من الأغانى الشعبية بمصر للآن ويصف المؤرخ أبو المحاسن رحلة العروس فيقول عن البعثة التى رافقتها أنهم كانوا «يسيرون بها سير الطفل فى المهد... وكانت فى مسيرها من مصر الى بغداد على بعد الشقة كأنها فى قصر أبيها حتى قدمت بغداد فى أول المحرم سنة ٢٨٢هـ»[(١)].

ويرى بعض المؤرخين ان المعتضد العباسى انما كان يرمى من وراء زواجه بقطر الندى الى افقار أبيها لما كان يتوقعه من اسرافه فى جهازها.

وهكذا نرى أن خمارويه سار على الخط الذى رسمه أبوه أحمد بن طولون، وكانت مصر فى عهده قوية ثرية تحرص الخلافة العباسية على المحافظة على ودها وتهابها الدولة البيزنطية.

أما فيما يتعلق بشئون مصر الداخلية فقد كان مؤمناً مثل أبيه بأن مصر للمصريين، فكان كريما مع أبنائها حريصا على تقدمها لا تشغله مشاريعه فى تثبيت أركان الدولة المصرية الواسعة عن اصلاح شئون مصر الداخلية ، والأخذ بكل وسائل التقدم فيها، وفضلا عن ذلك فقد كان شديد التسامح مع أهل الذمة.

كذلك انصرف خمارويه الى الأعمال الانشائية فزاد فى منشآت أبيه الشئ الكثير كما مر

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة: ج٣ص٦٢-٦٣.

لحم ونبيذ فان اكل اللحم فهو مسلم وان لم ياكله وشرب النبيذ فهو نصراني. فلما سمعو كلامه تعجبو من حكمته وقوة جوابه وتركوه.

فاخذ البطرك انبا افرهام هذا الاسقف في اليوم الذى استقر فيه حضوره بحضور الملك المعز ومضى معه إلى القصر، وحضر موسى اليهودى والوزير ابن كلس فجلسو زمان طويل وهم سكوت، فقال لهم الملك المعز: تكلمو فيما اجتمعتم فيه، ثم قال، تكلم يا بطرك وقول لنايبك

بنا، وبذل الأموال الطائلة على مبانيه ومتنزهاته مما يفيض في وصفه المؤرخون. وكان خمارويه مغرما بصيد الوحش والطيور وبتربية الخيل الأصلية.

وكان خمار ويه بن أحمد بن طولون حكيما في اختيار حرسه الخاص من عرب الحوف الذين كانوا يسكنون شرقي الدلتا، والذين كانوا يقلقون الحكومة بالسلب والنهب والثورات. فرأى خمارويه أن يبعدهم عن ذلك كله وكون منهم فرقة خاصة اتخذها حرسا له. وكان لرجال هذه الفرقة ملابس وأسلحة خاصة. والمعروف أ ن أحمد ابن طولون وخمارويه كانا يعنيان كثيرا بملابس الجيش وعدته، وكانا يستعرضان الجند ويخرجان في المواكب الرسمية في مناسبات الحفلات والأعياد وأيام الجمع فيقف الشعب على الجانبين معجبا بجلال أجسامهم و جميل نظامهم.

وقد انتهت حياة خمارويه بمقتله في دمشق في ذى الحجة من سنة ٢٨٢هـ بعد حكم دام اثنتي عشرة سنة.

واستطاع أبو المحاسن أن يصور لنا الحزن الشديد على خماروية في مصر حين ورد الخبر بوفاته، وكيف تحولت مصر الى مأتم كبير حين وصل تابوت خمارويه محمولا الى مصر حيث دفن بجوار أبيه.

يقول ما عنده. فقال البطرك للاسقف: تكلم يا ولدى فان الله يوفقك، فقال الاسقف للملك المعز: ما يجوز خطاب رجل يهودى بحضرة امير المومين. فقال له اليهودى: انت تعيبنى وتقول بحضرة امير المومنين ووزيره اني جاهل. قال له الاسقف انبا سويرس: اذا ظهر الحق لامير المومنين ما يكون فيه غضب. قال الملك المعز ما يجوز ان يغضب احد في المجادلة بل ينبغي للمجادلين ان يقول كل واحد منهم ما عنده ويوضح حجته

والحق أن خمارويه كان خير خلف لخير سلف فقد حافظ على الدولة المصرية المستقلة التى أسسها أحمد بن طولون، كما قاد الجيوش ونال الانتصارات الباهرة، وجاهد ضد البيزنطيين، واستطاع أن يسوى المشكلات التى قامت بين الخلافة وبين مصر، بل انه صاهر البيت ا لعباسي، وبدت مصر فى عهده غاية فى القوة والازدهار.

٦. الدولة الطولونية بعد خمارويه

كانت وفاة خمارويه بداية النهاية للدولة الطولونية. اذ سرعان ما دخلت الدولة فى دور التدهور والانحلال وانتهت بوفاته الدولة من حيث هى دولة لها قوتها ونفوذها. وحكم مصر بعد خمارويه اثنان من أبنائه هما أبو العساكر جيش وهارون، واخوه شيبان، ولم يزد حكمهم جميعا على عشر سنوات سقطت بعدها الأسرة الطولونية.

والحق ان انقسام البيت الطولونى بدا واضحا بين أبناء خمارويه الذين غلب عليهم الضعف والترف وبين أعمامهم الذين عز عليهم ضياع الملك الذى أسسه أحمد ابن طولون.

واشتعلت الفتنة فى الجيش الطولونى، ربما للمرة الأولى منذ انشائه، وبدت نذر هذه الفتنةقبل مصرع أبى العساكر جيش بن خمارويه فى جمادى الآخرة سنة ٢٨٣هـ ببضعة شهور. ولجأ بعض قواد الجيش الى الخلافة العباسية. وأصبحت الدولة الطولونية تجتاز منذ عصر جيش بن خمارويه أزمة دقيقة جدا.

كيف شا. قال الاسقف: ما انا شهدت عليك يا يهودى بالجهل بل نبى كبير جليل عند الله شهد عليك بذلك. قال له اليهودى: ومن هو النبى؟. قال له: هو اشعيا الذى قال فى اول كتابه عن الله عرف الثور قانيه والحمار عرف مذود سيده واسرايل لم يعرفنى. فقال الملك المعز لموسى: اليس هذا صحيح؟ قال: نعم هذا هو مكتوب. قال الاسقف:اليس قد قال الله ان البهايم افهم منكم وما يجوز لى ان اخاطب فى مجلس امير

وكان فى استطاعة الخليفة العباسى المعتضد أن يفتح مصر منذ لجأ اليه قواد الجيش الطولونى، ولكنه ـ فى رأينا ـ لم يكن قد نسى بعد صلة النسب التى كانت تربطه بأمرائها، وكانت قطر الندى خير مدافع عن قضيتهم فى بغداد، ولا سيما أن الخليفة كان مغرما بها الى حد كبير. وفضلا عن ذلك كله فلعل المعتضد لم يكن قد عرف تماما حالة الضعف التى وصلت اليها الدولة الطولونية بعد وفاة خمارويه. وهكذا ظل الحال بين الخلافة العباسية وبين مصر حتى توفيت قطر الندى، وحتى توفى الخليفة العباسى المعتضد سنة ٢٨٩هـ.

وبدأت الدولة المصرية تفقد بعض ممتلكاتها فى الخارج ورفض راغب، الذى استولى على طرسوس وأعمالها بعد ابن عجيف، أن يعترف بسلطان هارون بن خمارويه على طرسوس كذلك أصبح طغج بن جف مستقلا بدمشق استقلالا يكاد يكون تاما، ولكن القائد بدرا الحمامى سار اليه وثبت طغج فى حكمه على أن يعترف فى نظير ذلك بسلطان بنى طولون.

ثم استفحل خطر القرامطة فى الشام، ولم يكن طغج بن جف موفقا حين أرسل الى مصر يستنجد بنى طولون لاخضاع القرامطة، وذلك لأن وادى النيل فى تلك الساعة كان فى أمس الحاجة الى رئيس يوحد كلمته، ومال يفرج به عن أزمته، وسلام داخلى، وجند منظمين لانقاذ البلاد من الاضطراب الذى وصلت اليه.

وكان الخليفة العباسى المكتفى يرقب من بغداد تطور القتال بين القرامطة والطولونيين عازما

المومنين دام عزه من تكون البهايم اعقل منه وقد وصفه الله بالجهل. فاعجب الملك المعز ذلك وامرهم بالانصراف واستحكمت العدواة بين الفريقين وقوى غضب الوزير وصار يطلب عثرة على البطرك لاجل انه فضح اليهود بين يدى الملك المعز، والسيد المسيح يحفظ مختاريه وعبيده، فلما كان في بعض الايام وجد السبيل الى ان قال للمعز: مكتوب فى انجيل النصارى من كان فيه ايمان مثل حبة خردل فانه يقول للجبل انتقل

أن ينتهز هذه الفرصة للتخلص من الفريقين. فأرسل الى القرامطة جيشا قوى العدد والعدة وعلى رأسه محمد بن سليمان الذى كان كاتبا للؤلؤ القائد الطولونى.. وأوقع محمد بن سليمان الكاتب بالقرامطة شر هزيمة سنة ٢٩٠هـ (٩٠٣م) بقرب حماه. ورجع محمد بن سليمان الى بغداد بعد نصره الحاسم على القرامطة فأكرمه الخليفة وعينه قائدا عاما للجيش الخليفى، ثم أوفده على رأس حملة لاخضاع مصر وارجاعها الى حكم الخلافة المباشر.

سار محمد بن سليمان على رأس الحملة العراقية الى الشام حيث خضع له الولاة الطولونيون ومن بينهم بدر الحمامى الذى كان حينئذ واليا على الشام كلها. وكتب محمد بن سليمان الى أمير البحر دميانة ـ مولى يازمان ـ يطلب اليه أن يسير الى ساحل البحر فى مصر.

أما محمد بن سليمان فقد تقدم فى سيرة نحو مصر، وفى فلسطين خضع له وصيف بن سورتكين، الذى كان يحكمها من قبل الطولونيين.

أما ما كان من أمر هارون بن خمارويه فانه هم بالدفاع عن مصر، وبدأ بارسال السفن الحربية لقتال دميانة والتحم الأسطولان فى تنيس ثم فى دمياط، وهزم الأسطول المصرى واحتل أسطول الخلافة المدينتين. وبعدها ذهب هارون بن خامرويه الى مدينة العباسة[1] فى شرقى الدلتا وذلك للقاء الجيش العباسى، وأخذ معه أعمامه كلهم وأفراد أسرته.

(١) العباسة: سميت باسم العباسة بنت احمد بن طولون. وقد قامت هذه المدينة حول قصر مما شيده=

واسقط في البحر فيفعل(*)، فيرى امير المومنين رايه في مطالبتهم بتصحيح هذا القول ليعلم انهم على محال وكذب، فان هم لم يفعلوا وجب ان يفعل بهم ما يستحقوه على كذبهم. فوافقه هذا الكلام وانفذ الملك المعز طلب انبا افرهام البطرك وقال له: ماذا تقول في هذا الكلام هو في انجليكم ام لا؟ قال البطرك: نعم هو فيه. قال له: فهوذا انتم نصارى الوف وربوات في هذه البلاد واريد ان تحضر لي واحد منهم تظهر هذه الاية على يديه

(*) قصة نقل جبل المقطم.

وقد ذكر الكندى انه فعل ذلك كي لا يستطيع أحدهم أن يثور ضده في الفسطاط. والواقع أن العلاقة لم تكن طيبة بين أفراد الأسرة الطولونية، وكان عدم التعاون بينهم سببا كبيرا من أسباب ضعفهم وضح ذلك بعد مقتل خمارويه المفاجئ في سنة ٢٨٢هـ.

أما ما كان من أمر هارون في العباسة فانه بعث من هناك كتبا الى بدر وفائق وغيرهما من القواد يستعطفهم ويذكرهم بحرمة أبيه وجده وفضله عليهم وما يستحقه عندهم من عرفان الجميل، ولكن كتبه هذه لم تكن لها أى صدى.

وحين وصل محمد بن سليمان الى مصر كتب الى هارون يطلب منه التسليم، فجمع هارون قواده وعرض عليهم الأمر فرفضوا كلهم التسليم. وفي ذلك الموقف العصيب قتل هارون في ٢٩٢هـ (٩٠٤م) وانضم كثير من قواته الى العباسيين. وخلف شيبان بن أحمد بن طولون هارون ورجع الى الفسطاط ليهئ الدفاع عنها ويقاوم العراقيين. ثم جاءت الأبناء بأن دميانة وصل بأسطوله الى حذاء الفسطاط وبأنه حرق جزاء منها. وسار محمد بن سليمان من العباسة وعلى رأس جيشه وجيوش حلفائه الجدد.

وحاول شيبان في ذلك الوقت تنظيم البلاد ووزع العطايا على أتباعه. ويذكر أبو المحاسن أن

=خمارويه عند سفر ابنته قطرالندى في طريقها الى العراق، وكانت عمتها العباسة ترافقها في هذه الرحلة. وهذه المدينة بجوار الزقازيق الآن.

وانت يا مقدمهم يجب ان يكون فيك هذا الفعل والا افنيتكم بالسيف. حينيذ بهت البطرك وناله خوف عظيم ولم يدرى ما يجيبه به، فالهمه الله تعالى ان قال له امهلنى ثلثة ايام حتى ابحث واطلب من الرب جل اسمه ان يطيب قلب امير المومنين على عبيده، فامهله وعاد الى منزله بمصر [بالفسطاط] واحضر الكهنة والاراخنة بمصر وجميع الشعب الارثذكسى وعرفهم الامر وهو يبكى، وكان بمصر جماعة من رهبان وادى هبيب

شيبان ناوش العباسيين ساعة أدرك بعدها«قلة من معه من الرجال وكثرة جيوش محمد بن سليمان». لذلك استجاب شيبان لمحمد بن سليمان عندما كتب اليه الأخير يؤمنه على نفسه وأهله وولده وماله. وخرج شيبان للقائه والاعتراف بسلطانه وبذلك سقطت الدولة الطولونية وانتهى حكم شيبان الذى لم يطل أكثر من بضعة أيام.

ودخل محمد بن سليمان الفسطاط فى يوم الخميس آخر صفر سنة ٢٩٢هـ (٩٠٥م)ودعا على المنابر للخليفة المكتفى بالله[1] وكتب اليه يبشره باحتلال مصر.

٧. المصريون والدولة الطولونية

رأينا فى فيما سبق كيف قامت فى مصر على يد أحمد بن طولون أول دولة مصرية مستقلة. وكان هذا الاستقلال الذى نالته مصر على يديه أول استقلال لها منذ أن قضى الرومان على دولة البطالسة سنة ٣٠ق.م. وعلى الرغم من أن عمر هذه الدولة التى أسسها أحمد بن طولون كان قصيرا لم يزد على ٣٨سنة (٢٥٤ـ ٢٩٢هـ/ ٨٦٨ـ ٩٠٥م) الا أن

(١) الكندى: الولاة والقضاة: ص ٢٤٧. وينص الكندى على أن محمد بن سليمان دعا لأمير المؤمنين المكتفى بالله وحده، لأن الدعاء للخليفة على المنابر لم يبطل خلال الدولة الطولونية وانما كان يدعى لأمير الطولونى معه.
راجع عن العلاقة بين بنى طولون والخليفة العباسى:
zaky M. Hassan : Les Tulunides: P. 155.

فجعل على جميعهم قانون ان لا يمضى احد منهم الى منزله فى الثلثة ايام وان يجتمعو لمداومة الصلاة فى البيعة الليل والنهار، ففعلو ذلك الثلثة ايام ولياليها، فاما البطرك فلم يفطر فيها بالجملة، وبعضهم كان يفطر من الليل الى الليل على خبز وملح وما [ء] يسير، ولم يزل انبا ابراهام البطرك قايم يبكى بين يدى الله عنه فى تلك الايام ولياليها حتى لم يبق فيه حركة، وكان هذا الاجتماع المبارك فى كنيسة السيدة [العذراء] بقصر الشمع

- -

مصر أصبحت مستقلة للمرة الأولى منذ عصر البطالسة وعاد اليها سلطانها على الشام للمرة الأولى منذ عصر الفراعنة. ولم يعد دخل مصر يتسرب الى بيت مال الخلافة أو الى جيوب الولاة وأصحاب الاقطاع، بل بقيت معظم أموال مصر فيها، وبدأ وادى النيل حياته لنفسه. وبدأ المصريون يشتركون فى جيش بلادهم، وأغلب الظن انهم الموالى الذين ذكرهم المؤرخون. وشعر المصريون لأول مرة بعد قرون طويلة بأن بلدهم أصبحت لهم، وتعلق قلوبهم بأحمد بن طولون كما تعلق هو بهم. بل انه تزوج بواحدة من بنات المصريين فذكر ابن سعيد انه اتخذ زوجة من بنات الموالى يقال لها أسماء.

وكانت الأغلبية العظمى من سكان مصر فى العصر الطولونى قد استطاعوا أن يساهموا فى تقدم البلاد وأن ينعموا بعطف ظاهر، فهم أهل مصر سواء أسلموا أم بقوا على دينهم. وكان منهم العدد الوفير فى الوظائف الادارية فى البلاد وخاصة المالية منها. وكان منهم الأعداد الكثيرة فى مدينة الفسطاط والقطائع.

كذلك كان لهم نفوذ واسع المدى فى الريف كما كانت لهم مكانتهم الاجتماعية فى البلاد(١).

(١) انظر: ابن الداية: المكافأة ص ٦٨ (طبع القاهرة ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م).

المعروفة بالمعلقة، ولما كان صباح اليوم الثالث سقط البطرك القديس على الارض من حزن قلبه وصيامه وتعبه وغفى غفوة يسيرة فراى الست [ايزيت = ايزيس] السيدة الطاهرة مرتمريم [مريم] وهى تقول له بوجه فرح: ما الذى أصابك؟، فقال لها: ما تنظرى حزنى يا سيدتى، فان ملك هذه الارض قال لى ان لم تظهر لى فى هذا اليوم اية فى الجبل والا قتلت جميع اهل النصرانية بديار مصر وابادتهم من مملكتى بالسيف. فقالت له

أما أوراق البردى فى عصر الولاة وفى العصر الطولونى فهى تشير الى أن الذين أسلموا فى مصر من الأقباط احتفظوا بأسمائهم القبطية، أو بنسبهم المسيحى الى جانب أسمائهم العربية. ومما يشهد باختلاط الأسماء وثيقة من سنة ٢٣٣هـ، أى من عصر الولاة، بصداق يونة ابنة حليصى من زوجها يزيد بن قاسم(١)، وعقد زواج اسلامى من العصر الطولونى، واسم الزوج يحنس بن شنودة من مدينة الأشمونين والزوجة اسمها دورا ابنة شنودة(٢).

وفى كثير من الأوراق البردية لا نستطيع أن نتبين ديانة أصحابها. فمعظم المصريين بعد الفتح مسلمين كانوا أو أقباطا احتفظوا بأسمائهم القبطية وبقايا الأسماء المصرية القديمة أو بالأسماء المقتبسة من اليونانية والرومانية. ونذكر أن هذه الوثائق البردية، وخاصة تلك التى نشرها الأستاذ أدولف جرومان والتى كانت محفوظة فى دار الكتب المصرية، ترجع الى أماكن متفرقة فى الريف المصرى ولاسيما مصر الوسطى والصعيد. أما شواهد القبور(٣) التى وصلتنا من جبانة الفسطاط والعسكر والقطائع فقد غلب عليها الأسماء العربية.

(١) انظر: Grohmann : Arabic Papyri voll. I. PP. 199 - 112

(2) Grohmann : Op. CIT., Vol. I. PP. 82 - 84.

(٣) يوجد العديد من شواهد القبور محفوظا فى متحف الفن الاسلامى بالقاهرة(دار الآثار العربية سابقا)، وقد نشر المستشرق الفرنسى الأستاذ جاستون فيت نصوصها فى عدة مجلدات.

السيدة: لا تخاف فانى ما اغفل عن الدموع التى سكبتها فى بيعتى هذه، قوم الان وانزل من ها هنا واخرج من باب درب الحديد الذى يودى الى السوق الكبير ففيما انت خارج تجد انسان على كتفه جرة مملوة ما [ء] ومن علامته انه بعين واحدة فامسكه فهو الذى تظهر هذه الاية على يديه. فاستيقظ البطرك للوقيت وهو مرعوب وكان غلس[وقت الفجر] ونهض بسرعة ولم يدع احد يعلم به حتى وصل الى الباب فوجده مغلقا، فشك

ومنذ القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) نرى المصريين - مسلمين ومسيحيين - يتعاملون في عقود البيع والشراء والديون والميراث والهبة حسب الشريعة الاسلامية كما نرى أن ذلك ينص عليه فى العقود المختلفة.

وكان التقارب واضحا بين المسلمين فى مصر وبين أهلها المصريين، فقد احتفل المسلمون وأهل الذمة بالأعياد المسيحية والاسلامية على السواء، ولعل ذلك يرجع الى أن الكثير من المصريين المسلمين كانوا من أصل قبطي. وقد عدد المؤرخون القدامى تلك الأعياد أو وصفوا الاحتفال بها، ومن هؤلاء المؤرخين المسعودى[١]، ويحيى ابن سعيد الانطاكى[٢]، والمقريزى[٣].

وحين استقلت مصر في العصر الطولوني كان أمراؤها يشاركون الشعب فى هذه الناسبات. وكان من أهم الأعياد القومية فى مصر الاحتفال بوفاء النيل، ومن أقدم ما نعرفه عن هذه

(١) المسعودى: مروج الذهب: ج٢ص ٣٦٤ (طبعة باريس ١٨٦١ـ ١٨٧٧م).
(٢) يحى بن سعيد الانطاكى: تاريخ أو صلة كتاب سعيد بن بطريق المسمى «التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق: ص ١٩٦ـ ١٩٧ (طبعة بيروت ١٩٠٥م)
(٣) المقريزى: الخطط: ج١: ص ٢٦٤ـ ٢٦٩ و ٢٩٥ و ٤٩٤ و ج٢: ص ١٥٤.
(٤) ابن رسته: الأعلاق النفسية. ص ١١٦ (طبعة ليدن ١٨٩١ـ ١٨٩٢م).

فى قلبه وقال اظن ان الشيطان لعب بى، ثم دعا البواب ففتح له فاول من دخل من الباب الرجل الذى قيل له عنه فمسكه وقال له بمطانوه من جهة الرب ارحم هذا الشعب. ثم اخبره السبب فى اجتماعهم، فقال له الرجل: اغفر لى يا ابى فانى خاطى ولم ابلغ الى هذا الحد. فعند ذلك اخبره البطرك بما قالته له السيدة الطاهرة عند ظهورها له، ثم قال له: ما صناعتك؟، فاراد ان يخفيه امره، فجعل عليه الصليب وربطه بالحروم ان لا يخفيه

الاحتفالات فى العهد الاسلامى ما كتبه ابن رسته فى كتابه الذى ألفه سنة ٢٩٠هـ(٤).

وقد رأينا أن المصريين فى العصر الطولونى كانوا يعنون كثيرا بالأعياد الشعبية. وكانت موكب الجند الطولونى بملابسه وعدته فى مناسبات الحفلات والأعياد وأيام الجمع، تقوم عند الناس مقام الأعياد، وكذلك كان الحال بالنسبة الى سباق الخيل.

وكانت بمصر فى العصر الطولونى جالية غنية من اليهود، ويتجلى ذلك من المناسبات التى يرد فيها ذكرهم فى كتابات المقريزى وأبى المحاسن وغيرهما من المؤرخين المصريين.

وقد جاء ذكر اليهود حين فتح العرب مصر وذلك فى معاهدة الاسكندرية التى نعرفها أيضا باسم صلح بابليون الثانى، اذ كان من شروط هذه المعاهدة أن يباح لليهود الاقامة فى الاسكندرية. وحين أرسل عمرو بن العاص الى الخليفة عمر بن الخطاب يصف له مدينة الاسكندرية ذكر أن بالاسكندرية حوالى أربعين ألف يهودى(١).

وحين مرض أحمد بن طولون مرضه الأخير، خرج المصريون من نسائهم وأولادهم يدعون له الشفاء خرج المسلمون الى المساجد، واشترك اليهود مع المسيحيين فى الصعود الى جبل

(١) انظر: ابن عبد الحكم: فتوح مصر: ص٨٢(طبعة ليدن ١٩٣٠، وسعيد بن بطريق: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق:ص ٢٦(بيروت ١٩٠٥، ١٩٠٩م)، وابن العميد (الشيخ المكين جرجس بن العميد بن الياس): تاريخ المسلمين: ص٣٠ (ليدن ١٩٢٥م).

شيا من امره. فقال له: يا ابى انا اخبرك بحالى
على ان تكتمه، انا رجل دباغ وهذه عينى التى
تراها انا قلعتها لاجل وصية الرب عندما نظرت ما
ليس لى نظر شهوة ورايت اننى ماض الى الجحيم
بسببها ففكرت وقلت الاصلح لى ان امضى الى
الحياة بفرد عين كما قال السيد المسيح اخير من ان
امضى الى الجحيم بعينين، وانا فى هذا الموضع
اجير لرجل دباغ ما افضل مما اعمل به فى كل يوم
الا خبزا اكله والباقى للمستورين المنقطعين من

المقطم ليصلوا الى الله ويدعو بالشفاء لأمير مصر.

وفى العصر الطولونى ظهر النشاط الاقتصادى فى كافة المجالات، وكان الرخاء واضحا بعد فترة التأخر الاقتصادى التى سبقت ذلك العصر. وكان لبنى طولون بلاط يذكر بما كان للعباسين فى بغداد وسامراء، بل كانت آيات الفخامة والترف فى القطائع والفسطاط أعظم منها فى عاصمة العباسين. أما سائر أمراء الأسرة الطولونية فقد نشأوا فى هذا العز وكانت الأبهة والتقاليد فى بلاطهم طبيعية وغير متكلفة.

ومن الظاهرات الاجتماعية فى العصر الطولونى كثرة الجاسوسية الى حد كبير، وسبب ذلك اضطراب العلاقة بين أحمد ابن طولون والحكومة العباسية فى العراق. فكان للعباسين فى مصر عيون وجواسيس ينقلون اليهم ما يحدث فى البلاد، وكان لابن طولون نفسه عيون وجواسيس لكشف جواسيس العباسين ومن يتصل بهم من المصرين، وذلك فضلا عن عمال البريد الذين كان من اختصاصهم التجسس للحكومة أيضا. ويظهر من المصادر التاريخية أن هؤلاء الجواسيس كانوا مكر وهين من الشعب المصرى.

واستطاع ابن طولون ومن بعده خمارويه أن ينهضا بالفنون والعمارة فى مصر. والمعروف أنه لما أسس أحمد بن طولون الدولة الطولونية فى مصر نشأ فيها ما يعرف باسم الفن

الاخوه نسا ورجال، وهذا الما [ء] اسقيه لهم كل يوم قبل ان امضى الى شغلى وامضى به الى قوم فقرا منهم من لا قدرة لهم على شراه من السقا، فنهارى كله اعمل فى المدبغه وليلى قايم اصلى وهذه قضية حالى، وانا اسلك يا ابى لا تظهرنى لاحد فليس لى قدرة ان احتمل مجد الناس بل الذى اقوله لك افعله، اخرج انت وكهنتك وشعبك كله الى الجبل [جبل المقطم] الذى يقول لك الملك عنه ومعكم الاناجيل والصلبان والمجامر

الطولونى» نسبة الى الطولونيين، وفى الوقت نفسه نراه متميزا عما كان موجودا قبله ومقدمة لما وجد بعد العصر الطولونى فى مصر من فنون وآثار.

ولم يكن الفن الطولونى مستقلا كل الاستقلال عن فن الخلافة العباسية آنئذ فقد كان تابعاً له الى حد كبير وفى الوقت نفسه كان منافسا له . وأصبح البذخ والترف فى مصر حديث المعاصرين حينئذ ومن جاء بعدهم، وفى وقت كانت ثورة الزنج والفتن الداخلية قد استنزفت أموال الحكومة العباسية وجهودها.

ومن حسن الحظ أنه وصلت الينا آثار الطولونيين وتحفهم، ولم تكن كل معلوماتنا قاصرة على ما ذكرته المصادر التاريخية والأدبية عن عظمة الطولونيين وعلو شأن الفنون فى عصرهم(١).

وفى العصر الطولونى كانت الحركة العلمية والثقافية فى مصر الطولونية حلقة مستمرة بين عصر الولاة فى مصر وبين ما بعد الطولونيين. وكان أحمد بن طولون مشغوفا بمجالسة الفقهاء وأهل العلم مثل محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، وبلغ به ولعه بالحديث أنه كان ينتقل الى مجلس القاضى بكار بن قتيبة.

(١) انظر: الدكتور زكى محمد حسن: الفن الاسلامى فى مصر. ص٢١-٢٢ .

والشمع الكبير وليقف الملك وعسكره وجماعته
في جانب وانت وشعبك في جانب وانا خلفك
قايم في وسط الشعب بحيث لا يعرفني احد واقرا
انت وكهنتك وصيحو قايلين يارب ارحم
[كيريالصون] ساعة طويلة ثم امرهم بالسكوت
والهدو وتسجد ويسجدون كلهم معك وانا اسجد
معكم من غير ان يعرفني احد وافعل هكذى ثلث
مرات وكل دفعة تسجد وتقف ثم تصلب على
الجبل فسترى مجد الله، فلما قال هذا القول طاب

وكانت مدينة لقطائع في عهد الطولونيين حافلة بالعلماء والمحدثين والمتصوفة والأدباء والشعراء والمؤرخين. ولم تكن الحركة العلمية والثقافية وقفا على الفسطاط والقطائع والاسكندرية انما امتدت المراكز العلمية الثقافية في أنحاء الدلتا والصعيد.

كذلك اشتهرت مصر في العصر الطولوني بالتقدم في علم الطب، وكان هذا التقدم استمرار لازهار الطب في العصور السابقة.

وكان مقام الأسرة الطولونية في تاريخ الحضارة المصرية عظيما جدا، ولاعجب فانها كانت فاتحة العهد الذي أصبح فيه لمصر كيان مستقل.. وأصبحت الدولة الطولونية تخشاها الدولة العباسية نفسها، كما صار البيزنطيون يخطبون ودها بارسال الهدايا النفسية واطلاق الأسرى المسلمين.

وأصبحت مصر في عصر الطولونين امبراطورية واسعة تمتد الى برقة غربا، والى الشام وتخوم العراق شرقا، والى حدود مملكة الروم شمالا والى النوبة جنوبا.

ولا ريب في أن انشغال الدولة العباسية بثورة الزنج سهل لابن طولون تحقيق مشروعاته في الاستقلال بمصر ثم في تكوين دولة اتسعت حدودها، ولكننا نذكر أن الفضل في نجاحه لا

قلب البطرك بما سمعه منه ثم نهض وجميع الشعب معه وصعدو الى الملك وقالو له اخرج الى الجبل، فامر جميع عساكره وخواصه ووجوه دولته بالخروج وضربت البوقات وخرج الملك المعز ووزيره معه وتقدم بخروج ذلك الكافر موسى، ففعل الاب البطرك كما قال له ذلك القديس ووقف الملك المعز واصحابه في جانب، وجميع النصارى والبطرك في جانب اخر، ووقف الرجل خلف البطرك ولم يكن في الجمع من يعرفه

يرجع الى انشغال الخلافة فحسب، فان ابن طولون كان اداريا حازما من الطراز الأول، استطاع أن يوطد الأمن في مصر، رأن ينظم المالية، وأن يؤلف جيشا مصريا كبيرا منظما، وأن يتعهد الأسطول المصرى، كما استطاع أن ينهض بالعمارة والفنون فى البلاد.

وكان أسف المصريين على مرض ووفاة أحمد بن طولون عظيما، وكان حزنهم على مقتل خمارويه كبيرا. وكانت فجيعة المصريين أعظم يوم دكت قوات الخلافة العباسية صرح الدولة الطولونية وأحرقوا القطائع. والحق أن قائد العباسيين الذى قضى على الدولة الطولونية أخذ المصريين بمنتهى الشدة والقسوة. ويمكننا أن نفسر العنف الذى صحب سقوط الدولة الطولونية على أنه من الظواهر التى تصحب فترات الانقلاب، ولكن يبدو أن هذا العنف كان بسبب تعلق المصريين بالدولة الطولونية، التى كانت دولتهم. وتجلت الحسرة على ما حل بالطولونيين وزوال الدولة الطولونية من لهجة المؤرخين المصريين فى استهجان الفظائع التى ارتكبها القائد العباسى محمد بن سليمان وجنوده الخراسانية، ومن رثاء الشعراء المصريين والكتاب والمؤرخين للدولة الطولونية.

وقد بقيت ذكرى بنى طولون ماثلة فى أذهان المصريين ، يتحدث عنها المؤرخون والكتاب والأدباء ويتناقلونها جيلا بعد جيل.

الا البطرك وحده، وصرخو: يا رب ارحم. دفعات كثيرة ثم امرهم بالسكوت وسجد على الارض وسجدو جميعهم معه ثلث دفعات، وكل دفعة يرفع وجهه ويصلب يرتفع الجبل عن الارض فاذا سجدو نزل الجبل الى حده، فخاف الملك المعز خوفا عظيما وصاح الملك والمسلمين الله اكبر لا اله غيرك، ثم قال الملك المعز للبطرك بعد ثالث دفعة حسبك يا بطرك قد عرفت صحة دينكم، فلما اهتدو الناس التفت البطرك يطلب الرجل القديس

ثانياً: مصر بعد الطولونيين وقبيل الاخشيديين
(٢٩٢-٣٢٣هـ= ٩٠٥-٩٣٥م)

١. ثورة ابن الخليج

فقدت مصر استقلالها وعادت ولاية تابعة للخلافة العباسية فى سنة ٢٩٢هـ(٩٠٥م) وظلت كذلك الى قيام الدولة الأخشيدية فى سنة ٣٢٣هـ (٩٣٥م).

وبعد أن انتقل الحكم فى مصر الى العباسيين، ورد كتاب من الخليفة العباسى المكتفى، بتولية أبى موسى عيسى بن محمد النوشرى عليها. ولم يكد يستتب الأمر للنوشرى فى مصر، ومحمد ابن سليمان الكاتب لايزال فى طريقه إلى العراق مع من خرج معه من أفراد الأسرة الطولونية وأتباعهم ومواليهم وكبار الموظفين فى دولتهم، حتى انفصل عن ركبه ضابط سابق فى الجيش الطولونى اسمه ابن الخليج. وذكر أبو المحاسن أن ابن الخليج من الجند المصريين وأنه ولد بمدينة الفسطاط[1].

وقد عقد ابن الخليج العزم على أحياء الدولة الطولونية ويمم شطر مدينة الرملة فهزم واليها، وأمر بالدعوة على منابرها فى يوم الجمعة للخليفة ومن بعده لابراهيم بن خمارويه

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة: ج٣ ص ١٤٧.

فلم يجده. ثم قال الملك للبطرك انبا ابرهام: تمنى على شي افعله لك. فقال له: ما اتمنا الا ان يثبت الله دولتك ويعطيك النصر على اعدايك. فقال له: تمنا يا بطرك. فاعاد عليه القول ثلثة دفعات، فقال له الملك المعز: لابد ان تتمنا على شي، قال له البطرك: اذا كان ولابد فانا اسال مولانا ان يامر ان امكن من بنا بيعة ابو مرقوره بمصر. لانها كانت لما هدموها لم يمكنوهم من عمارتها وجعلت شونه للقصب، وكذلك المعلقة بمصر

بوصفه أمير للبلاد، وكان إبراهيم حينئذ أسيرا فى بغداد، ومن بعدهما لنفسه بوصفه نائبا عن ابراهيم. وقد ازداد أنصار ابن الخليج بسرعة مذهلة وسار ابن الخليج وأتباعه نحو مصر، واستعد والى مصر، عيسى بن النوشرى، للقائه، والتقى الجيشان عند غزة وكان النصر حليف ابن الخليج.

وتقدم ابن الخليج بعدها الى العريش ثم الى الفرما وتتابعت انتصاراته، وأعد النوشرى جيشا آخر ضخم العدد والعدة لصد ابن الخليج ولكن والى الخليفة هزم مرة ثانية ولم يجد بدا من الجلاء عن الفسطاط. وتعلق المصريون بأمل احياء دولتهم القومية المستقلة، وحين دخل ابن الخليج الفسطاط أحسن الشعب المصرى استقباله ودعا له الامام على المنبر بعد الخليفة وابراهيم بن خمارويه.

وعمل ابن الخليج على تهدئة الأمور والقضاء على الفوضى فى البلاد بعدما انتابها من وحشية محمد بن سليمان وجنده العباسين.. وحسبنا بعض مقتطفات مما ذكر أبو المحاسن عن انتقام العباسين ضد المصرين، فقال فى هذا الصدد: «كان محمد ابن سليمان هذا لا يسمى باسمه ولا بكنيته وما كان يدعى الا بالأستاذ، وكان حكمه فى أهل مصر بضرب أعناقهم وبقطع أيديهم وأرجلهم جورا، وتمزيق ظهورهم بالسياط، وصلبهم على جذوع النخل ونحو ذلك من أصناف النكال، ومازال على ذلك حتى رحل عن مدينة مصر فى يوم الخميس

بقصر الشمع فانها انهدم من حيطانها شى كثير
واعتل بعضها. فسال الاذن فى عمارتها ايضا، فامر
للوقت ان يكتب له سجل بتمكينه من ذلك،
واطلق له من بيت المال ما يصرفه فى العمارة
فاخذ السجل واعاد المال، وقال للملك المعز:
الرب يثبت ملكك وبيت المال احق بهذا المال.
فلما قرى [ابرهام] السجل عند بيعة ابو مرقوره
فاجتمعوا الباعة الذين هناك واوباش الناس وقالو:
لو قتلنا اجمعين بسيف واحد ما مكنا احد يجعل

مستهل شهر رجب من سنة أثنتين وتسعين ومائتين، واستصحب معه الأمير شيبان بن أحمد بن طولون.. وبنى عمه وأولادهم وأعوانهم حتى انه لم يدع من آل طولون أحدا، والجميع فى الحديد الى العراق وهم عشرون انسانا. ثم أخر ج قوادهم الى بغداد على أقبح وجه ولم يبق بمصر منهم أحد يذكر، وخلت منهم الديار وعفت منهم الآثار، وحل بهم الذل بعد العز، والتطريد والتشريد بعد اللذ. ثم سيق جماعة من أصحاب شيبان الى محمد ابن سليمان ممن كان أمنهم فذبحوا بين يديه. وزالت الدولة الطولونية وكانت من غرر الدول، وأيامهم من محاسن الأيام...»[١].

والذى يهمنا فى هذا المجال أن مصر بدت وكأنها فى سبيل استعادة استقلالها على يد ابن الخليج، وأفلح ابن الخليج فى جمع الضرائب وفى دفع رواتب الموظفين والجند. وما لبث أن استولى على الاسكندرية واستقر له الأمر فى العاصمة وفى الدلتا، وظلت الحرب سجالا بينه وبين عيسى النوشرى. ولما علم الخليفة المكتفى بذلك أرسل جيشا لمحاربته ولكن ابن الخليج هزم جيش الخليفة شر هزيمة فى أوائل المحرم سنة ٢٩٣هـ.

وقد عظم ذلك على الخليفة ـ والخلافة يومئذ فى دور صحوتها ويقظتها ـ فأرسل الخليفة

(١) انظر: أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٣ص ١٣٩ـ ١٤٠.

حجر على حجر فى هذه البيعة. فعاد البطرك الى الملك المعز بالخبر ففضب لذلك وركب من ساعته وجميع عساكره حتى اتى الى المكان فوقف وامر بحفر الاساس، فحفر بسرعة وجمع له عدة كثير من البنايين وحملت اليه الحجارة من كل مكان بامر الملك المعز وبنو فيه لوقته، فلم يجسر احد ينطق بكلمة الا شيخ واحد كان يصلى باوليك الباعة فى المسجد الذى هناك وهو الذى كان يجمع الجموع ويوليهم [يحرضهم]، فرمى نفسه

جيشا ثانيا التقى مع ابن الخليج بالقرب من النيروم[1] وفى هذه المرة استعدت الخلافة استعداد عظيما بعد أن أدركت فشلها المتكر ر أمام هذا الثائر المصرى الذى كان يمثل رغبة المصريين وآمالهم فى استعادة دولتهم المستقلة. واضطر ابن الخليج الى التقهقر الى الفسطاط وقبض عليه فى رجب سنة ٢٩٣هـ بعد أن دام سلطانه نحو سبعة أشهر وعشرين يوما.

وأخذ ابن الخليج الى بغداد ووقف بين يدى الخليفة العباسى فعنفه ثم طيف به وبأصحابه على ظهور الجمال فى بغداد ثم قتل شر قتله. وهكذا احتلت الخلافة العباسية مصر بعد نضال وقتال، مرة سنة ٢٩٢هـ وأخرى ٢٩٣هـ.

٢. محاولات الفاطميين للاستيلاء على مصر

ظلت مصر ولاية تابعة للخلافة العباسية حوالى ثلاثين عاما كانت فى أثنائها مرتعا للجيوش العباسية من الشرق وللجيوش الفاطمية من الغرب. وكانت مقاليد الأمور بمصر فى تلك الفترة فى أيدى ثلاث قوات: الولاة، وقواد الجيش العراقى فى مصر، والماذرائيين.

أما الولاة فكان أعظمهم مكانة وأكثرهم توفيقا هو الوالى أبو منصور تكين بن عبد الله، الذى ولى مصر أربع مرات فى تلك الفترة، وانتهت ولايته الرابعة حين وافته المنية فى ربيع الأول سنة ٣٢١هـ (٩٣٣م). وكان تكين على حد قول أبى المحاسن: «أميرا عاقلا شجاعا

(١) وردت فى المخطوط «النويرة» وصحتها النيروم من قرى الشرقية المندرسة.

في الاساس وقال: اريد اليوم اموت على اسم الله ولا ادع احد يبنى هذه البيعة. فعلم الملك المعز بذلك فامر ان ترمى عليه الحجارة ويبنا فوقه، فلما رمى عليه الجير والحجارة اراد ان يقوم فلم يمكنوه الاعوان لان المعز امر بدفنه في الاساس الذى طرح نفسه فيه، فلما راى البطرك ذلك نزل عن دابته وتطارح بين يدى المعز وساله فيه الى ان امر باصعاده من الاساس، فما صدق ان ينفلت منه

- -

عارفا مدبرا، ولى الأعمال الجليلة، وطالت أيامه فى السعادة وكان عنده سياسة ودربة بالأمور ومعرفة بالحروب»[1].

وكان للقواد العباسيين فى مصر نفوذ وسلطان عظيم حتى استطاعوا عزل الولاة قبل الرجوع الى الخليفة. وكان أظهر أولئك القواد مؤنس الخادم المظفر.

أما الماذرائيون فأسرة فارسية الأصل تنسب الى ماذارايا أو مادرايا وهى قرية من أعمال البصرة وقيل من أعمال واسط[2]. وكانت تقع حيث تقوم اليوم كوت العمارة[3].

ولم تصل هذه الأسرة الى الثروة والسلطان الا بسبب نزوح كثير من أفرادها الى مصر. ولسنا نعرف تماما متى كان خروج أول فرد منها الى مصر. والراجح أنه وفد اليها فى حاشية أمير من أمرائها لعله أحمد بن طولون. ولما لقى فيها الرخاء والنجاح استدعى اليه من العراق

(١) انظر: أبو المحاسن: النجوم الزاهرة: ج٣ص٢١١.

(٢) جاء اسمهم بالذال المعجمة فى بعض المصادر مثل الكندى: الولاة والقضاة: ص ٢٤٤، وياقوت: معجم البلدان ج٧ ص ٣٥٣(طبعة القاهرة ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٦م) مادة: ماذرايا، وسماهم السمعاني: المادرانيين، ولعل النون تصحيف فى المخطوط: كتاب أنساب العرب: ورقة٤٩٩، وسماهم المقريزى: الماردانين: الخطط: ج١ ص ٣٣٢ وج٢ ص١٥٥.

(٣) عند مخرج شط الحي من مجرى دجلة الشرقى.

سالما بعد ان اشرف على الموت، وعاد الملك المعز
الى قصره فلم يجسر احد بعد هذا ينطق بحرف
واحد الى ان كملت عمارة البيعة، وكذلك بيعة
المعلقة بقصر الشمع، وبنا كل البيع التى تحتاج الى
العمارة ولم يعترضه احد فى شيا من ذلك.
وكذلك البيع باسكندرية بنا فيها مواضع كثيرة
كانت قد وهت [وهنت] وانفق فى ذلك مالا
عظيما فلم يمكنه ان يوفى الاسكندرانيين الالف

نفرا من أفراد أسرته وتبعهم آخرون. وأول من نقرأ عنه من الماذارائيين فى ادارة مصر هو أحمد بن ابراهيم، أو محمد سنة ٢٦٦هـ. وذكر المقريزى أن الذى ولاه هو الخليفة المعتمد وذكر البلوى وابن سعيد(عن ابن الداية) أن الذى ولاه هو أحمد بن طولون أشرف على مالية البلاد بعد تخلص من ابن المدبر وأصبح منذ سنة ٢٦٤هـ فى عداء ظاهر مع الحكومة المركزية فى بغداد واستقل عنها بادارة مصر(١).

وأتيح لبعض أفراد هذه الأسرة ولاية طائفة من الوظائف الرئيسية فى مصر زمن الطولونيين خاصة الاشراف على الأموال والخراج. وكان الماذرائيون ينفذون من تدبير الشئون المالية الى السيطرة على معظم مرافق الادارة فى مصر. وكان على بن أحمد الماذرائى فى دمشق مع خمارويه عندما توفى هذا الأمير وعاد بعد ذلك الى مصر وأصبح صاحب الأمر والنهى فيها طوال الفترة القصيرة التى حكم فيها أبو العساكر جيش بن خمارويه. وأخفق على الماذرائى فى تهدئة الجند حين ثاروا على الأمير وانتهى الأمر بقتله وقتل جيش ابن خمارويه(٢).

والمعروف أنه فى سنة ٢٧٢هـ استقدم على بن أحمد الماذرائى الى مصر ولديه أبابكر

---

(١) انظر: Zaky M. Hassan : Les, Tulunides : PP. 63, 247. ودكتورة سيدة كاشف: مصر فى عصر الاخشيدين: ص٣٧ـ ٥٢ .

(٢) انظر: الطبرى: تاريخ الأمم والملوك: ج١١ص ٢٨٣، وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٣ ص ٩٣.

دينار المستقرة لهم لنفقة بيعهم، وبعد سوال كثير استقر ان يعطيهم في كل سنة خمسماية دينار.

وكان مدة مقام هذا البطرك انبا افرهام عل الكرسي ثلث سنين وستة اشهر، وتنيح مع ابايه القديسين.

ويقال ان انسان من الاراخنة يعرف بابي السرور الكبير كان له وجاهة في الدولة، وكان له سرارى كثير فامره باخراجهم فلم يفعل فاحرمه ومنعه من

محمد بن علي، وأبا الطيب أحمد بن علي، وأصبحت مصر منذ تلك السنة وطن الماذرائيين[1].

وظل الماذرائيون يتمتعون بنفوذ كبير في مصر بعد سقوط الدولة الطولونية حتى قامت الدولة الاخشيدية، وسوف نرى انه سيكون لهم شأن كبير في الدولة الاخشيدية أيضا. ويدلنا على عظم شأن هذه الأسرة مارواه المؤخرون من عظم شأنهم في المال والادارة. وأصبحت زعامة هذه الأسرة في يد أبي بكر محمد بن علي الماذرائي بعد مقتل أبيه على الماذارئي. وذكر المؤرخون أنه كان « أمير البلد في الحقيقة»[2]. قبل قيام الدولة الاخشيدية ويذكر المؤ خرون انه لما توفى تكين والى مصر في السادس عشر من ربيع الأول سنة ٣٢١هـ أصبح الأمر كله في مصر بيد أبي بكر محمد بن علي الماذرائي[3].

وفي تلك الفتره من تاريخ مصر، وبعد سقوط الدولة الطولونية، ظهر أمر عبيد الله

(١) انظر: النص العربي المنقول عن «التاريخ الكبير المقفى» للمقريزى، والذى نقله المستشرق الألمانى جوتشلك، في رسالته عن الماذرائين: ص ١٢٠

Gottaschalk (Hans): Die Madarajjun. (Berlin und Leipzig. 1931).

(٢) انظر: ملحق أخبار القضاة في الكندي: الولاة والقضاة: ص ٥٢٧.

(٣) الكندي: الولاة والقضاة: ص ٢٨١، والمقريزى: الخطط: ج١ ص ٣٢٨.

القربان فتحيل حتى سقاه سقية قتله ومضى الى الرب بسلام وبكا عليه الناس.

وكان في تقدمته نبوة وذاك انه لما كان علمانى مضى الى دير ابو مقار بوادى هبيب ليصلى هناك ومضى الى المغاير ليتبارك من السواح [النساك والرهبان] فاجتمع بواحد منهم وكان معه اثنين من اصحابه فبارك عليه ذلك القديس السايح واخذ بيده ومال به الى ناحية وقال: يا اخى هوذا انظر

المهدى[1]. وحاول الخليفة العباسى المكتفى القبض عليه، ولكنه استطاع الخروج من الشام مع ابنه ابى القاسم نزار[2] ومعه خاصته ومواليه، وعقد العزم على الاتجاه الى بلاد المغرب. وحين وصل المهدى الى مصر، كانت كتب الخليفة قد وصلت الى واليها ، النوشرى، بوصف المهدى والأمر بالقبض عليه وعلى كل من يشبهه.

وذكر المؤرخون أن النوشرى فرق الناس فى طلب المهدى وانه قبض عليه بنفسه ، ولكنه عاد فاطلق سراحه. ونحن لا نستطيع تعليل ذلك تماما، فر بما كان سبب اطلاق سراحه أنه لم يره شخصا خطيرا، ونحن نعرف أن مصر كانت دائما ملجأ وملاذا لآل البيت. وعلى أسوأ الفروض، ربما أغدق المهدى على والى مصر وعلى خاصته كثيرا من الأموال التى جعلتهم يغمضون أعينهم ويطلقون سراحه هو ومن معه. وربما ساعد على اطلاق سراحه شيعة الفاطميين من وجوه القوم فى مصر ومن عامة المصريين.

والمعروف من المصادر القديمة أن الاسماعيلية العلويين الذين ينتسب اليهم المهدى، بثوا دعاتهم سرا فى مصر وفى كل مكان من العالم الاسلامى، وهذا يفسر لنا ظهور الحركات العلوية المتتابعة فى مصر فى أواخر عصر الولاة وفى أوائل الدولة الطولونية.

(١) ينتسب المهدى الى اسماعيل بن جعفر الصادق، ومن نسل الحسين بن على والسيدة فاطمة الزهراء بنت النبى محمد.
(٢) هو الذى تولى الخلافة الفاطمية بعد المهدى وتلقب بالقائم.

الى صخرة عظيمة فوقك معلقة وهى نازلة عليك .
فلم يعلم معنى قوله فى ذلك اليوم، وانه عنى له بذلك عظم جلاله البطركية التى استحقها من الله.

ولما صارت مملكة مصر للمعز كما قلنا انفا كان انبا مينا البطرك فى بعض ايامه في ولاية جوهر وانبا ابرهام بعده، وكان المعز كلما اراد ان يعمل شى كعادته في الغرب يمنعه منه جوهر بلطف وسياسة ويقول ان اهل مصر قوم فيهم مكر وفطنة

ولم يعرف أن أحمد بن طولون كان معاديا للعلويين ولكنه قضى على الحركات العلوية فى مصر دون هوادة وذلك رغبة منه فى أن يستتب الأمن فى البلاد. وعلى كل حال فقد أصبح المهدى هذا أول الخلفاء الفاطميين، وأسس الدولة الفاطمية وجعل مركزها فى البداية مدينة القيروان، بعد أن تم له القضاء على دولة الأغالبة فى سنة ٢٩٦هـ (٩٠٩م).

وكان هؤلاء الفاطميون لا يعترفون للعباسيين بالخلافة أو الرئاسه الدينية أو السياسية. ولم يقنع الفاطميون ببلاد المغرب، وانما فكر المهدى على أثر قيام الخلافة الفاطمية، فى فتح مصر وذلك لخيراتها الواسعة ولموقعها الجغرافى، وليستطيعوا منها أن يوسعوا نطاق دعوتهم وأن يمدوا نفوذ خلافتهم الشيعية الى الشرق الاسلامى. ومن ثم أخذ المهدى يضع الخطط لغزو مصر. لكن غزو الفاطميين لمصر لم يحدث فى خلافة المكتفى أو ولاية عيسى النوشرى، اذ توفى عيسى النوشرى فى سنة ٢٩٧هـ (٩١٠م) وتوفى قبله الخليفة المكتفى سنة ٢٩٥هـ وبويع من بعده للخليفة المقتدر بالله[١].

وبعد وفاة النوشرى ولى مصر أبو منصور تكين بن عبد الله من قبل الخليفة المقتدر، ووصل الى الفسطاط فى بداية ذى الحجة من سنة ٢٩٧هـ.

وقد وجه تكين منذ توليه حكم مصر عنايته لدرء خطر الفاطميين فى المغرب. فأرسل جيشا

(١) هو جعفر بن الخليفة احمد المعتضد.

لا يخف عنهم شيا فكانهم يعلمو الغيب، فقال له
يوم يا جوهر ان كان ما يقال عن فطنة المصريين
صحيح فانا اريد اجربهم ثم امر ان يوخذ درج
كبير وورق كمثل السجل ويطو ى بلا كتابه
ويختم، فلما اوتى به دفعه للكاتب فعنونه باسم
الملك المعز وامر بضرب البوق قدامه وان ينادى
منادى فى الناس ان يحضروا لسماع سجل الملك
وامر دواسيس [جواسيس] يمشو خلفه ويسمعو ما
يقولوه اهل مصر، ففعل ذلك فسمعو بعض الناس

فى سنة ٢٠٧هـ ولكن هزيمة المصريين فى برقة على يد أعوان الخليفة المهدى كانت أكبر حافز للفاطميين على الهجوم على مصر نفسها. فوجه اليها المهدى جيشا من أفريقيا بقيادة ابنه أبى القاسم فى سنة ٣٠١هـ) ودان لهذا الجيش جزء كبير من مصر. فبعث اليه الخليفة المقتدر جيشا بقيادة مؤنس الخادم، من أعلام القواد العباسيين، وأفلح هذا الجيش فى صد الفاطميين وارغامهم على الجلاء عن مصر.

ولكن عبيد الله المهدى أعاد الكرة السنة التالية، ومرة أخرى قدمت الجيوش من المشرق بقيادة مؤنس الخادم، مددا لتكين، وكان النصر حليف العباسيين.

ولم يثن ذلك من عزم الخليفة الفاطمى، الذى انتشر دعاته فى مصر وأصبح له عيون فيها من وجوه المصريين. فجهز المهدى جيشا كثيفا عقد لواءه لابنه أبى القاسم سنة ٣٠٧هـ وساعد هذا الجيش أسطول فاطمى. وتوالت أمداد الخلافة العباسية لدرء هذا الخطر، ولم يهزم الفاطميون الا فى سنة ٣٠٨هـ. وكان لانتصار مؤنس الخادم فى هذه المرة وقع عظيم فى بغداد، فخلع عليه[1] الخليفة المقتدر ولقبه بالظفر.

ومهما يكن من الأمر فقد أصبحت مصر مر تعا للجيوش العديدة التى وفدت اليها من بغداد لقتال الفاطميين.

(١) منحه الخلع والهدايا الثمينة.

يقولو امضو بنا نسمع سجل الملك، وبعضهم
يقول لا تتعبو ما فيه شى هو فارغ، فعادو واعلموه
فتعجب من ذلك جدا.

وفى بداية قسمة انبا ابرهام بطركا كان الوزير
بمصر ابو اليمين قزمان ابن مينا المقدم ذكره،
وكان رجل دين بتول لم يتزوج قط ولم يسمع
عنه ان له صبوه ويفعل الخير مع كل الناس
ومشكور من كل احد ورزق نعمة ومحبة من المعز

وقد أدى ذلك الى اضطراب الأحوال المالية فى البلاد، فلا عجب اذ كتب أبو بكر محمد على الماذرانى، العامل على الخراج ينبه الحكومة المركزية فى بغداد الى كثرة الجيوش فى مصر، وما تحتاج اليه من نفقات طائلة.

وفى تلك الأثناء ظهر محمد بن طغج على مسرح السياسة المصرية لأول مرة.

ثالثا: مصر فى عصر الاخشيديين
(٣٢٣.٣٥٨هـ=٩٣٥.٩٦٩م)

١. أسرة الاخشيد

حكمت الدولة الاخشيدية مصر فترة أربع وثلاثين سنة من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى)، أو على وجه التحديد بين عامى ٣٢٣و٣٥٨هـ (٩٣٥ـ ٩٦٩م). ومؤسس هذه الدولة هو محمد بن طغج الاخشيد.

أما لقب «اخشيد» فقد منحه الخليفة العباسى الراضى بالله لمحمد بن طغج فى سنة ٣٢٦هـ أو فى سنة ٣٢٧هـ بناء على التماس الأخير. وقيل ان لفظ « الاخشيد» معناه بلغة اقليم فرغانة[١] «ملك الملوك»، وانه كان لقب ملوكهم كما كان قيصر لقب ملوك الروم، وكسرى لقب ملوك الفرس، وفرعون لقب ملوك مصر القدماء.

(١) فرغانة: أقليم من أقاليم ماوراء النهر، أى ماوراء نهر جيحون، أو بين نهرى سيحون وجيحون فى آسيا الوسطى. وأقليم ماوراء النهر هو التركستان الآن.

بحسن سيرته ونيته وقوة امانته، وكان يقبل قوله ومشورته وجعله متولى استخراج مال مصر، ولم يزال هكذى الى ان صار انبا ابرهام بطركا، فلما راى يعقوب ابن كلس الوزير تقدمة ابو اليمن عند المعز حسده وخاف ان يجعله وزيرا عوضه فاشار على المعز وقال له: قزمان ابن مينا يصلح ان تنفذه الى اعمال فلسطين ليدبرها لانه رجل مامون. وكان غرضه ابعاده عن المعز فانفذه الى فلسطين، فلما وصل اليها ونظر فيها استخرج منها ومن

ولعل محمد بن طغج عندما وصل الى منصب الامارة، أراد أن يصل نسبه ببيت الامارة فى موطنه اعلاء لشأن أسرته وقيل أيضا ان لقب أخشيد ايرانى الأصل بمعنى«الذكى» أو «النابه».

وكان جف جد الاخشيد من بين نفر من فرسان فرغانة وشجعانها، قدموا أوجئ بهم، الى الخليفة العباسى المعتصم بالله، فعنى بهم أشد العناية وأقطعهم قطائع فى مدينة سامرا.

ولما توفى المعتصم انتقل جف الى خدمة ابنه الخليفة الواثق. ولما مات الواثق صحب جف الخليفة المتوكل وظل فى بطانته الى أن توفى ببغداد فى الليلة التى قتل فيها المتوكل سنة ٢٤٧هـ (٨٦١م).

أما طغج بن جف فقد الحق بعد وفاة أبيه بخدمة أحمد بن طوولون والأسرة الطولونية من بعده. وكان طغج بن جف من القواد الطولونين الذين لم يرضوا عن قتل هارون بن خمارويه ولم يتعرفوا بخلفه شيبان بن أحمد بن طولون سنة ٢٩٢هـ. وقد قرر هؤلاء القواد أن يتصلوا بالجيش العباسى الذى كان يقو ده محمد بن سليمان الكاتب والذى سار الى مصر للقضاء على حكم بنى طولون بعد أن أفلح فى هزيمة القرامطة.

أما محمد بن طغج فقد ولد فى مدينة بغداد فى سنة ٢٦٨هـ (٨٨٢م). ولسنا نعرف شيئا عن نشأته، ولكنا نعرف أنه حين ولى أبوه دمشق وطبرية من قبل خمارويه، كان أبوه يستخلفه فى حكم طبرية.

اعمالها مايتى الف دينار، ثم قام خارجى من ديار الشرق يعرف بالقرمطى [هو الحسن بن أحمد بن أبى سعيد بن بهرام] فملك بلاد الشام حتى وصل الى اعمال فلسطين، فلما بلغ قزمان ابن مينا خبره اخذ المال الذى حصله ومضى به الى دير فوق جبل تابور وسلمه لمقدم الدير وجعله وداعة ليحفظه وعاد الى عمله، فلما وصل اليه القرمطى قال له لا تخف فما يلحقك منى شر وانا اجعلك بصحبتى كما كنت مع المعز وعاهده على

واتصل محمد بن طغج بتكين والى مصر. وعندما قدم الجيش الفاطمى لغزو مصر فى سنة ٣٠٢هـ أبلى محمد بن طغج بلاء حسنا مع تكين فى قتال هذا الجيش.

وفى سنة ٣٠٧هـ حين غزا الفاطميون مصر أبلى محمد بن طغج فى قتالهم بلاء حسنا. وعمل محمد بن طغج منذ ذلك الوقت على توثيق علاقته مع كبار رجال الحكم فى مصر فاتصل بأبى بكر محمد بن على الماذرائى، كما اتصل بالقائد العباسى مؤنس الخادم. وتقلد محمد بن طغج عدة مناصب ادرية فى مصر حينذاك. ويبدو أن تكين ولاه الاسكندرية قبل غزو الفاطميين لمصر. كذلك تقلد محمد ابن طغج حكم الحوفين الشرقى والغربى[1] من قبل تكين.

وقد استطاع محمد بن طغج أن يحصل على تقليد من بغداد بولاية الرملة سنة ٣١٦هـ ثم بولاية دمشق سنة ٣١٩هـ. وكان محمد ابن طغج يطمع فى حكم مصر قبل وفاة واليها تكين، ولكنه انتظر الى أن خلا مكانه واضطربت الأمور فى مصر.

٢. محمد بن طغج الاخشيد وتوليه مصر

استطاع محمد بن طغج الاخشيد أن يحصل من الخليفة العباسى القاهر على تقليد بولاية مصر فى سنة ٣٢١هـ ولكن اضطراب الأمور فى مصر، وفى مقر الخلافة نفسه، لم يترك

(١) الحوف الشرقي: شرقي الدلتا، والحوف الغربي: غربي الدلتا.

ذلك، فكتبو اصحاب الترتيب الى المعز بذلك ان ابو اليمن قزمان ابن مينا قد وافق القرمطى وصالحه، فلما علم الوزير بذلك وجد السبيل الى ذكره بالردى وقال للمعز: هذا قزمان ابن مينا الذى تقول انه ثقة مامون قد صالح عدوك ودفع له المايتى الف دينار التى استخرجها من بلادك ليقويه بها عليك. فغضب المعز وانفذ قبض على جميع اهله ونهب مالهم واعتقلهم. فلما وصل القرمطى الى مصر خرج المعز لمحاربته فهزمهه

للاستقلال سبيلا، اذ لم يدع للاخشيد على منابر مصر الا نحو اثنين وثلاثين يوما، ورد بعدها كتاب من الخليفة القاهر بتولية غيره.

وما لبثت الفرصة أن واتت محمد بن طغج ثانية حين ولاه الخليفة الراضى مصر. لكن تقليد الخليفة لم يعد يكفى فى ذلك الوقت لتثبيت الوالى، بل كان لابد للوالى من فرض نفسه والتغلب على عدة عقبات.

وقد كتب الاخشيد قبل قدومه الى مصر الى أبى بكر محمد بن على الماذرائى يطلب اليه أن يتركه يدخل مصر بجيشه على أن يكون له معه ما كان مع سائر الولاة من الأمر والنهى فلم يجبه الى طلبه، واضطره بذلك الى أن يدخل بجيشه فى الفسطاط فى سنة ٣٢٣هـ (٩٣٥م) وأن يستولى على مصر عنوة براً وبحرا ، وأن ينتصر على والى مصر السابق وان يهزم الثائرين عليه من القواد والجند. أما الماذرائى فقد اضطر الى الاختفاء، وفى الوقت نفسه أظهر ابنه الحسين بن محمد الماذرائى التسليم لابن طغج. وليس هذا الانقسام غريبا على ا لماذرائيين، فقد كانوا يضمنون به وجود أفراد منهم يتعاونون مع مختلف الحكام.

وهكذا خلصت مصر لابن طغج بفضل جهوده الشخصية وذلك بعد أن قلده الخليفة الراضى مصر فى سنة ٣٢٣هـ (٩٣٥م).

وقتله. وكتب قزمان ابن مينا الى المعز اعلمه بما
جرى له مع القرمطى وكيف تلافاه الى ان
تخلص منه وخلص المايتى الف دينار، فنقم المعز
على الوزير ابن كلس وقبض عليه وقتله وانفذ
احضر قزمان ابن مينا الدين الفاضل، فوصل
والمال صحبته فاخلع عليه واكرمه بعد ان افرج
عن جميع ماله واهله، واعاد اليهم ما لهم الماخوذ،
وكان قزمان ابن مينا قد حصل قبل مسيره الى
فلسطين تسعين الف دينار فلما اراد المسير دفعها

---

٣. تثبيت محمد بن طغج فى مصر واتساع سلطانه

كانت الحكومة المركزية فى بغداد ترقب جهود محمد بن طغج لتثبيت قدمه فى مصر، وما كادت الأحوال فى مصر تؤذن مصر بالاستقرار حتى قدم اليها الوزير العباسى الفضل بن جعفر بن الفرات(١)، ومعه خلع لمحمد بن طغج من قبل الخليفة الراضى.

وقد أقام ابن الفرات فى مصر الى سنة ٣٢٤هـ يبحث شئونها المالية ويكشف ضياعها ولا سيما ضياع الماذرائى. ولما خرج ابن الفرات الى الشام أخرج معه محمد بن على الماذرائى مقبوضا عليه. ويعتبر خروج ابن الفرات من مصر ايذانا ببدء عهد جديد فى حكم الاخشيد، اذ أنه لما كان الفضل بن جعفر بن الفرات فى مصر كان تدبير الأموال والخراج له، وتدبير الحرب والرجال للاخشيد، فلما غادرها ابن الفرات جمع الاخشيد الولايتين كما عمل أحمد بن طولون. كذلك تخلص محمد بن طغج من منافسة الماذرائيين، فضلا عن انه أفاد من مصادرة معظم ضياع أبى بكر محمد بن على الماذرائى فى مصر، ومصادرة أموال أولاده وحاشيته.

كذلك استطاع الاخشيد أن يهزم الجند المغاربة الذين كرهوا الخضوع له واتصلوا

(١) كان محمد بن طغج الاخشيد قد ارتبط برباط المصاهرة مع الفضل بن جعفر قبل ولايته الثانية على مصر اذ زوج ابنته من جعفر بن الفضل ابن جعفر.

للاب انبا افرهام البطرك وقال له: اذا سمعت انني توفيت فاصرفها في خلاص نفسي للبيع والمستورين والمنقطعين والاسارى، وان انا عدت فانا اخذ مالي. فلما عاد الى مصر وانصلحت حاله مع المعز طلب من البطرك التسعين الف دينار فقال له سمعت ما جرى عليك في الشام فظننت انك لا تعود الى هاهنا مما جرى على اهلك وخفت ان يبلغ المعز خبر المال فياخذه ولا يحصل لك منه شي ولا منفعة في الاخرة فاصرفته فيما امرتني به،

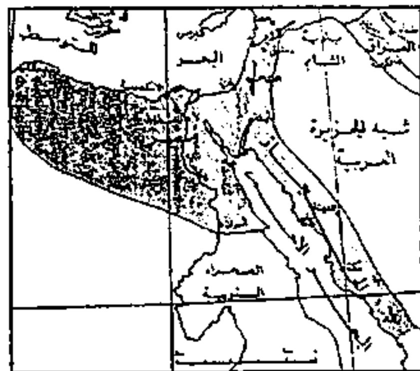
مناطق نفوذ الاخشيد.

بالفاطميين في المغرب. وقد فر هؤلاء الجند من الاسكندرية الى الرمادة في طريقهم الى برقة، وهناك توفي زعيمهم سنة ٣٢٤هـ، وكانوا قد كتبوا الى القائم بأمر الله الخليفة الفاطمي، يسألونه أن يبعث اليهم بجيش يفتحون به مصر. وقيل أيضا ان أبا بكر جعفر بالشام، اتهم بأنه كاتب الخليفة الفاطمي القائم بأمر الله وزين له فتح مصر(١).

وقد لبى الخليفة الفاطمي دعوة الجند المغاربة، وأنفذ اليهم جيشا أمره بالسير معهم الى الاسكندرية فبلغوها في ربيع الآخر سنة ٣٢٤هـ وبعث اليهم الاخشيد جيشا على رأسه أخوه الحسن ابن طغج وقائده صالح بن نافع.

والتقى الجيشان في قرية من قرى البحيرة، وحلت الهزيمة بالمغاربة وفرت فلولهم الى برقة(٢).

والراجح أن نجاح الاخشيد في التغلب على الصعاب التي لقيها بمصر حمل الخلافة العباسية على تأكيد ولايته لها. فالمعروف أن الاخشيد ولي مصر في سنة ٣٢٣هـ. ونرى في بعض المصادر القديمة أن الراضي قلد محمد بن طغج أعمال مصر مضافا الى ما بيده من

(١) المقريزي: الخطط: ج٢ ص٢٦.
(٢) الكندي: الولاة والقضاة:ص ٢٨٧ـ ٢٨٨.

فلم يقول له كلمة ولا في اى شي صرفت ماليى، بل قال له يا ابى قد احسنت الى وفعلت معى جميلا ورحمة اذ فرقت ما لى على اهل الحايجة ولم تبقيه للملك. ولما تنيح انبا ابرهام بعد ان اقام ثلث سنين ونصف ولم يبق معه شي من التسعين الف دينار ولا من المال الكثير الذى كان معه لنفسه قبل بطركيته درهم واحد بل اصرف جميع ذلك في بنا بيعة والصدقات وما يرضى الله سبحانه، وصار مثل الاب ابرهيم الاول في اعماله

الشام في سنة ٣٢٤هـ[١]. وهي السنة التي جمع الاخشيد فيها أيضا ولاية مصر مضافا اليها ولاية الخراج.

وقد اضطر الاخشيد الى القتال في الشام ليوطد سلطانه فيها، فاستطاع أن يصد هجوم محمد بن طغج الذى كان أميرا للأمراء في بغداد سنة ٣٢٤هـ (٩٣٦م)، والذى هاجم الشام وطالب الاخشيد بضريبة على الممتلكات الاخشيدية في الشام في سنة ٣٢٨هـ. ولم تكن نتيجة الحرب حاسمة بين الفريقين فعقد الاخشيد مع ابن رائق صلحا على أن يحكم ابن رائق الولايات الشامية شمالي الرملة، وعلى أن يحكم الاخشيد ما يقع جنو بيها، وأن يدفع الى ابن رائق جز ية سنوية قدرها مائة وأربعون ألف دينار. والحق أن الشام والثغور الشامية[٢] كانت موضع نزاع بينه وبين سيف الدولة الحمداني كما سنرى.

وهكذا نرى أن الاخشيد كان عليه أن يفرض نفسه على الولاية التى تقلد حكمها، وأن

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ج٨ص ١١٤(طبعة بولاق ١٢٩٠هـ)، وأبو الفدا: المختصر في في أخبار البشر: ج٢ص ٨٩(طبعة القسطنطينية ١٢٨٦هـ)، وابن خلدون: العبر وديوان المبتدا والخبر: ج٣ص ٤٠٩(طبعة القاهرة ١٢٨٤هـ).

(٢) المعروف أنه منذ حكم معاوية بن أبى سفيان حصنت الحدود الشمالية الشامية وحدود الجزيرة الشمالية تحصينا منيعا، وأقيم هناك خطان دفاعيان أحدهما أمامى يطلق عليه خط الثغور وهو يلى حدود الروم مباشرة، والآخر خلفى يطلق عليه اسم العواصم. وكان من أهم الثغور الشامية مدينة طرسوس.

المرضية وحسب مع الابرار فى ملكوت الله، الرب يرحمنا بصلاته وصلاة كلمن ارضاه باعماله، والمجد لله دايما ابدا سرمدا.

فيلاتاوس [فلتاؤس] البطرك وهو من العدد الثالث والستون [٩٧٩/ ١٠٠٣م]

اقام كرسى اسكندرية ستة شهور خال بلا بطرك، فاجتمع السنودس [المحفل الكنسى] الى

يتغلب على الثوار والمعارضين والغزاة، وأن يلجأ الى الوسائل السلمية حين يستطيع، والى القتال حيث لا تنفع الوسائل السلمية. أما الخلافة العباسية فى بغداد فقد سادت فيها الفوضى وكان موقفها من ذلك كله موقف المتفرج، وذلك حين لاتتدخل من وراء ستار لتزيد الطين بلة وتضيف سببا جديدا للخلاف والقتال بين الولاة الطامعين فى الاستقلال.

ولاريب فى أن الخلافة العباسية كانت مرغمة على تثبيت الولاة المنتصرين، فضلا عن انها كانت ترتاح الى بقاء مصر فى يد حاكم قوى يستطيع صد الفاطميين عنها ويحمى الخلافة منهم. وقديما كان لمثل هذا الاعتبار أثره فى قيام الأغالبة حين أقطعهم هارون الرشيد أفريقيا لتكون ولايتهم حاجزا يحمى مصر والشر ق الاسلامى من الأدراسة وغيرهم من الخارجين على الدولة العباسية.

وبعد عودة محمد بن طغج من الشام على اثر عقد صلحه مع ابن رائق وردت الأخبار فى سنة ٣٢٩هـ بوفاة الخليفة الراضى وبيعة أخيه المتقى بالله .

وقد وصل كتاب الخليفة الجديد فى نفس هذه السنة باقرار الاخشيد على مصر.

وقد احتل الاخشيد الشام بعد قتل ابن رائق ودخل دمشق فى سنة ٣٣٠هـ واستقر حكمه فى الشام بحد السيف.

مصر كما جرت العادة وذكرو انسان راهب يسمى يوحنا بدير ابو مقار فى منشوبية تعرف بذكر قفرى، فانفذو اليه احضروه الى مصر ومعه تلميذ بصحبته اسمه فيلاتاوس، فلما وصل يوحنا راوه شيخا كبير جدا قد طعن فى السن ولا يصلح لهذا الامر، ونظرو ولده فيلاتاوس فاذا هو تام القامة فجعلوه بطركا، فاعتمد اخذ المال على قسمة الاساقفة وكان على البيع سلامة عظيمة فى ايام الملك المعز الى ان مات، وكذلك ايام ولده الذى ملك بعده

ولا ريب فى أن قتل ابن رائق، واستقرار الحكم فى الشام للاخشيد، ونجاحه فى تدعيم حكمه فى مصر، كل ذلك يعتبر حدا فاصلا فى علاقته بالخلافة العباسية، فقد أصبح من القوة بحيث استطاع فى آخر ذى القعدة سنة ٣٣١هـ (٩٤٢م) ان يأخذ البيعة من قواده لابنه أبى القاسم أو نوجور من بعده[١].

٤.الاخشيد والخلافة العباسية

اختار الخليفة العباسى المتقى لامرة الأمراء« توزون»، وذلك فى سنة ٣٣١هـ. ولكن سرعان ما ساءت العلاقة بين الخليفة وبين أمير الأمراء الى حد اضطر معه الخليفة الى الاستنجاد بالاخشيد والكتابة اليه بأنه سائر للقائه. وخرج الخليفة الى الرقة مع وزيره ابن مقلة. أما الاخشيد فخرج من مصر الى ان وافى الخليفة المتقى بالرقة ولكنه لم يستطع دخولها خوفا من سيف الدولة على بن حمدان.

والظاهرة أن الخليفة المتقى رأى من بنى حمدان الملل والضجر منه فعمل على الصلح مع توزون، ولكنه كتب فى الوقت نفسه الى الاخشيد يستحثه على أن يعبر نهر الفرات ليلقاه فى

(١) المقريزى: الخطط: ج١ص ٣٢٩، دكتور حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلامى السياسى ج٣ ص١٥٤(الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٩٤٩م).

وهو نزار ابى المنصور العزيز بالله. وكان فى ايام هذا الملك جماعة كتاب نصارى مقدمين منهم قوم يعرفو ببنى المطيع قررو مع الاب البطرك ان لا يقسم اسقف الا برايهم لانه كان ياخذ المال ويقسم من لا يستحق. وكان بمنوف العليا اسقف اسمه مقاره وكان كاتب السنودس وكان اخوه اسقف طانه واسمه مينا مقيم بدمروا وكان البطرك بمحلة دانيال ساكن فتنيح انبا مينا الاسقف فى تلك الايام، فقال اخوه انبا مقاره اسقف منوف

الرقة. وخشى الاخشيد أن يحدث له ما حدث لابن رائق حين عبر الفرات وقتله الحمدانيون فى سنة ٣٣٠هـ. فاضطر الخليفة الى عبور نهر الفرات، واجتمع بالاخشيد وخلع عليه فى بداية سنة ٣٣٣هـ (٩٤٤م). وبالغ الاخشيد فى اظهار امارات الخضوع والاجلال للخليفة، كما قدم اليه وزيره وحاشيته الهدايا النفسية من المال والجو اهر والمنسوجات النفسية والطيب والدواب[١].

ويبدو ان الخليفة سر باخلاص الاخشيد وهداياه، فقال له:

«قد وليتك أعمالك ثلاثين سنة فاستخلف لك اونوجور»[٢].

وهكذا حصل الاخشيد على تقليد جديد من الخليفة بولاية مصر وممتلكاتها وحق توريثها لابنه من بعده، وان كان هذا الحق قد حدد بفتره ثلاثين سنة.

قد نص المؤرخ ابن زولاق على ما يرجع وجود نظام لولاية العر ش وضعه الاخشيد قبل لقاء

(١) المسعودى: مروج الذهب ج٨ص ٣٤٨ـ ٣٥٠(طبعة باريس ١٨٦١ـ ١٨٧٧م).
(٢) انظر: ابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب: ص٤٠(السفر الرابع من كتاب المغرب ـ طبعة ليدن ١٨٩٩م وانظر أيضا: ابن سعيد: الجزء الأول من القسم الخاص بمصر- طبعة جامعة القاهرة ١٩٥٣م نشر الدكتور زكى محمد حسن والدكتور شوقى ضيف والدكتورة سيدة اسماعيل كاشف).

للبطرك انبا فيلا تاوس: ان انت سمعت منى اشرت عليك بمشورة جيدة. قال له: وما هى؟، قال له: هذا الكرسى الذى كان لاخى هو كرسى جيد وهو موضع ولدك، ولاخى فيه مسكن جيد بدمروا فخذ الان احد اخوتك الرهبان الذى فى قلايتك واوسمه عليه اسقفا واسكن مسكنه بدمروا ويصير الكرسى برايك. فاستصوب رايه واخذ اباه الراهب الشيخ الذى كان عليه للبطركية المسما يوحنا فجعله اسقف فبلغ الخبر للاراخنة بمصر

الخليفة فقال:« كان يدعى للمتقى ثم الاخشيد ثم لاونوجور ثم لأبى المظفر الحسن بن طغج» (١).

والواقع ان هذا التقليد من قبل الخليفة لم يكن له شأن عملى كبير، وانما كان اقراراً للواقع واعطاء لامتياز لم يكن الخليفة ليستطيع أن يمنعه. اذ أن الاخشيد كان قد أخذ البيعة لابنه من كبار القواد قبل لقاء الخليفة كما ذكرنا، وذلك انه عمل فى سنة ٣٣١هـ على أن يعترف ذو الرأى فى مصر من أهل البلاد والقواد والجند بابنه أو نوجور خليفة (٢).

ومهما يكن من أمر فان الاخشيد علم بيأس الخليفة وعزمه على العودة الى توزون عدوه اللدود، فعرض عليه الاخشيد أن يسير معه الى مصر والشام ليكون الاخشيد ورجاله فى خدمته فرفض الخليفة هذه الدعوة.

ولسنا ندرى لماذا استنجد الخليفة بالاخشيد ثم رفض أن يصحبه الى مقر ولايته. والراجح عندنا أن الخليفة كان قد فقد ثقته فى القواد والزعماء وأصبح لا ينتظر أن يكرمه الاخشيد طويلا ففضل ألا يبعد عن حاضرة ملكه وأن يعمل على الصلح مع توزون أمير الأمراء.

(١) انظر: ابن سعيد(نقلا عن سيرة الاخشيد لابن زولاق): المغرب فى حلى المغرب. ص ٤٠(طبعة ليدن=١٨٩٩م).

(٢) المقريزى: الخطط: ج١ص ٣٢٩، وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٣ص ٢٥٤.

فاشتكوه للوزير فقبض عليه وطرحه في السجن الى ان اخذ منه ثلثة الف دينار لبيت المال.

وجرى في ايامه امر عجيب لا يجب أن نغفل عن ذكره.

«من هاهنا قصة الواضح ابن ابو الرجا(*) الشهيد من اهل مصر». وهو ان شابا من المسلمين الشهود المعدلين [الشهود العدل] بمصر الذين يحضرون مجلس قاضي الحكم بها وابوه رجلا شاهد يعرف بابن

(*) قصة الواضح ابن الرجا المسلم الذى تنصر وصار راهبًا وكان صديقًا لساويرس ابن المقفع مؤلف الاجزاء الأولى من هذا الكتاب.

ولو أتيح للاخشيد أن ينجح في جذب الخليفة ومقر الخلافة الى مصر لتغير الى حد ما مستقبل الخلافة ومستقبل وادى النيل حينذاك. ولم يكن الاخشيد أول وال عباسى فكر فى مثل هذا المشروع فانا نذكر محاولة أحمد بن طولون مع الخليفة المعتمد. وكان المعتمد كاد أن يحقق حلم أحمد بن طولون لولا أن قبض عليه عيون أخيه الموفق قبل سيره الى مصر.

وهكذا أخفق أحمد بن طولون فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى)، وأخفق محمد بن طغج الاخشيد فى القرن الرابع الهجرى(العاشر الميلادى) فى جعل مصر مركز الخلافة العباسية ولم يتم ذلك الا على يد الظاهر بيبرس وبعد سقوط الخلافة العباسية فى بغداد على يد المغول فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى)[١].

وقد عاد الاخشيد الى مصر فى سنة ٣٣٣هـ، وسار المتقى الى بغداد، وخرج توزن للقائه وكحله فأذهب عينيه ونادى بالخليفة المستكفى بالله.

ولما ولى المستكفى الخلافة سنة ٣٣٣هـ(٩٤٤م)أقر الاخشيد على ولاية مصر والشام، وقام الاخشيد بالدعوة له على المنابر فى أنحاء ولايته.

ولما عزل المستكفى وبويع المطيع لله خليفة سنة ٣٣٤هـ، (٩٤٦م) ظلت العلاقة بين

(١) انظر: دكتورة سيدة اسماعيل كاشف: مصر فى عصر الاخشيدين ص: ٨٥ـ ٨٧وما ذكرته من مراجع.

رجا، وكان الشاب قد تعلم ناموس [دين] المسلمين وحفظ القران فعبر فى بعض الايام على ساحل البحر الموضع الذى يباع فيه الحطب والبوص ويعرف ببركة رميس بمصر فوجد انسانا كان مسلم وتنصر وقد تعلق به جند الملك وهم يمسكوه، وقد اعدو له بركة رميس بالحطب والبوص ليحرقوه، وقد اجتمع عليه جمع كبير من الناس وهم متزاحمين لينظروه، وكان هذا الشاب ابن رجا ابوه غيور جدا فى دينه، كما كان بولس

الخلافة والاخشيد على حالها، وبادر المطيع باقرار الاخشيد على ولايته، وأمر الاخشيد بالدعوة للمطيع على المنابر.

والواقع أن المصادر التاريخية تبين لنا أن العلاقة بين الاخشيد وبين الحكومة المركزية فى بغداد ظلت علاقة طيبة، وأن الاخشيد لم يخرج على الخلافة كما خرج أحمد بن طولون على الموفق صاحب الأمر والنهى فى حكومة الخليفة المعتمد. ومن ناحية أخرى نلاحظ ان الدولة الطولونية عاصرت فترة صحوة الخلافة العباسية ويقظتها، بعكس ما كانت عليه الخلافة العباسية زمن الاخشيد والدولة الاخشيدية .

وتشهد النقود التى سكت فى عهد الاخشيد بتطور العلاقة بينه وبين الخلافة، فقد ظلت الدنانير تضرب فى مصر باسم الخليفة وحده حتى سنة ٣٢٩هـ، أما بعد سنة ٣٢٩هـ فقد كان الاخشيد ينقش اسمه على السكة مع اسم الخليفة(١).

ويظهر من المراجع التاريخية أن سلطان الاخشيد امتد الى الحجاز واليمن وانه خطب له هناك. وتذكر المصادر أيضا أن الخليفة المتقى عقد للاخشيد على مصر والشام والحرمين. كذلك أشار الاخشيد الى انه حاكم الحجاز واليمن فى كتابه الى امبراطور الدولة البيزنطية فى سنة ٣٢٥هـ (٢).

(١) انظر: دكتورة سيدة كاشف: مصر فى عصر الاخشيديين: ص٩٠ وما ذكرته من مراجع.
(٢) انظر هذه الرسالة فى: القلقشندى: صبح الأعشى ج٧ص١٠ وما بعدها.

فى ذلك الزمان الذى فيه نودى من السما وقيل له شاوول شاوول لم تطاردنى، وذلك القايل له هو الذى دعا هذا الشاب ليشاهد ذلك الشهيد، فلما حضر مثل بولس تقدم الى ذلك الشهيد وهو فى وسط الجند وقال له يا انسان ما الذى حملك على هلاك نفسك بسبب دين تكفر فيه بالله تعالى وتشرك به اخر فتستعجل بهذه النار فى الدنيا وفى الاخرة نار جهنم لانك تجعل الله ثالث ثلثة وهو واحد لا يشبهه شى وتقول ان الله ولد، والان

ونحن نرجع أن تقليد الاخشيد الحجاز واليمن كان أمرا صوريا ورمزيا. فلسنا نعتقد أن سلطان الاخشيد استقر فى تلك الأقاليم، اذ كان حكمها فى يد أسرات محلية ربما خضع أمراؤها خضوعا اسميا للخلفاء العباسيين أو لمن يقلدهم أولئك الخلفاء حكم البلاد، ولكن تصريف الأمور فيها ظل بيد الأمراء أنفسهم. ولاشك أن تقليد الاخشيد على الحرمين واليمن يشهد بضعف الخلافة ونزولها عن قسط من نفوذها السياسى للأقوياء من الو لاة.

وقد بلغ من قوة محمد بن طغج الاخشيد ان كان البيزنطيون يحترمونه ويخشون بأسه. وقد راسله الامبراطور البيزنطى رومانوس وكتب اليه متخطيا الخليفة العباسى، يتودد اليه ويطلب تبادل الأسرى وتنظيم الفداء، وقد بادله الاخشيد ودابود.

٥.الاخشيد والحمدانيون

مر بنا أن علاقة الاخشيد بالحكومة المركزية فى بغداد لم يطرأ عليها أى تغيير منذ عزل المتقى. فقد شغل الاخشيد بنزاعة مع سيف الدولة الحمدانى على حكم الشام. ووقفت الحكومة المركزية موقف المتفرج، فلم يكن لها فى هذا الخلاف رأى تبديه أو ارادة تمليها.

والحمدانيون أسرة عربية علوية تنتسب الى قبيلة تغلب[1]. أمكنها وسط الفوضى التى

(١) تغلب: من القبائل العدنانية من عرب الشمال.

فاسمع منى ودع عنك هذا الكفر وعود الى دينك وانا اجعلك لى اخ ويكرمك كل احد. فقال له: لا تنسبنى الى الكفر والشرك بالله تعالى وانى نجعله ثلثة، ونحن النصارى انما نعبد اله واحد هو الاب والابن والروح القدس، وليس الابن غريب من الله الاب الذى هو كلمته وكذلك روحه وسر ديننا عجيب مخفي عنكم لان عقولكم لا تحمله، وانت الان يا هذا قلبك مظلم لم تضى فيه نور الامانة وانا ارى انا بعد قليل يدنو منك النور ويضى قلبك

حلت بالدولة العباسية أن تقيم لنفسها ملكا فى بلاد الجزيرة منذ سنة ٣١٧هـ (٩٢٩م) وكانت عاصمتهم الموصل، وأميرهم أبو محمد الحسن ناصر الدولة.

واشترك الحمدانيون فى الأحوال السياسية فى بغداد حينئذ بين الأتراك والخليفة مما جعل لهم مراكز فى سياسة ذلك الحين.

ولما شبت الفتن فى بغداد بسبب القحط والغلاء فى سنة ٣٢٩هـ اضطر الخليفة المتقى وابن رائق الى الخروج الى الموصل حيث كان ناصر الدولة بن حمدان. وكان الخليفة يود أن يساعده ناصر الدولة على البريدى الذى كان يحكم واسط، ولكن ناصر الدولة اغتال ابن رائق ليحل محله فى منصب أمير الأمراء. ولم ير الخليفة بدا من منحه هذا اللقب فى سنة ٣٣٠هـ، كما خلع على أخيه أبى الحسن على ولقبه سيف الدولة.

وسار ناصر الدولة الى بغداد فهرب منها البريدى، وظل ناصر الدولة أميرا للأمراء نحو ثلاثة عشر شهرا ثم قاومه الترك فاضطر الى الرحيل عنها. واختار الخليفة القائد توزون أمير اللأمراء فى سنة ٣٣١هـ. وقد مر بنا أنه لما ساءت العلاقة بين الخليفة وبين توزون استنجد الخليفة بالاخشيد.

وكان سيف الدولة الحمدانى يحاول أن يؤسس له ملكا فى الشام.

ولما عاد الاخشيد الى مصر سنة ٣٣٣هـ بعد مقابلته للمتقى، سار سيف الدولة الى حلب

بنور المسيح وتجاهد عن الذى انا اجاهد عنه وعلى اسمه ابذل نفسى وجسدى للالم والموت وستقبل انت ايضا هذه الالام التى انا فيها. فلما سمع الشاب قوله حنق عليه وقال: اسمعو ما يقول هذا الظال [الضال] الكافر اترى اننى اكون ظال كافر مثلك. ثم قلع قدمه [نعله] من رجله ولطمه به على فمه ووجهه وراسه والمه باللطم جدا، وقال له: لا يكون هذا ابدا ان اكون مثلك ايها المرذول. فقال سوف تذكر كلامى وتعرف صحة قولى. ثم

وقنسرين وحمص وانطاكية والثغور الشامية وسائر الولايات والمدن الشامية فاستولى عليها وأقام الدعوة فيها للخليفة المستكفى، الذى خلف المتقى، ولأخيه ناصر الدولة الحمدانى ولنفسه.

وقد خرج الاخشيد بنفسه على رأس جيشه الى الشام للقاء سيف الدولة. ووقعت بينهما موقعة عند قنسرين، بالقرب من حلب، كان النصر فيها للاخشيد. ولكن هزيمة سيف الدولة لم تكن حاسمة مما دعا الاخشيد الى أن يجنح للسلم ويعمل على الصلح. وقد تم الصلح بينهما فى سنة ٣٣٤هـ على أن يكون لسيف الدولة من حمص وأعمالها الى شمالى الشام، وأن يكون للاخشيد من دمشق وأعمالها.

واستقر الاخشيد فى دمشق الى أن مات نهاية سنة ٣٣٤هـ. ويبدو لنا أن الاخشيد جنح الى عقد الصلح مع سيف الدولة لأنه كان يعلم أن النزاع بينه وبين الحمدانين على شمالى الشام واقليم الثغور كان لابد أن ينتهى بانتصار هم عليه لبعد الشقة بين مصر وبين هذا الاقليم، لأنه كان المجال الحيوى لتوسع الحمدانين. ومن المحتمل أن الاخشيد كان لايكره أن تظل دولة الحمدانيين دولة حاجزة بينه وبين البيزنطيين تكفيه مئونة التعرض لهجومهم من و قت لآخر. فضلا عن أن مصر كان يهددها حينذاك الفاطميون من الغرب، وكان طبيعيا أن يعمل الاخشيد على الاستعداد لصدهم(١).

(١) انظر عن علاقة الاخشيد بالحمدانين: دكتورة سيدة كاشف: مصر فى عصر الاخشيد ص٣٤٩-٣٥٣وما ذكرته من مراجع.

انهم ضربو عنقه وطرحو عليه حطب وبوص كثير
حتى صار مثل القصر العال واطلقو فيه النار، فلما
راو الناس عظم تلك النار التى تلهب ظنو ان
جسده قد صار رمادا وبقيت النار عليه ثلثة ايام
والجند يحرسوه نهارا وليلا، ومن بعد ذلك كشفو
عنه نار الحريق فوجدو جسده مثل الذهب لم
يحترق منه شيا، فاعلمو المعز بذلك فامر بدفنه.
ومضى ابن رجا الشاهد الذى ذكرناه الى منزله
وبات تلك الليلة وهو وجع القلب لاجل ما خاطب

---

٦. مصر والخلافة بعد وفاة الاخشيد

توفى محمد بن طفج الاخشيد فى دمشق فى شهر ذى الحجة سنة ٣٣٤هـ(٩٤٦م) ودفن فى بيت المقدس. وكان الاخشيد قد استخلف على مصر قبل سفره ابنه أبا القاسم أونوجور كما استخلف له عمه أبا المظفر الحسن بن طفج. ويبدو لنا أن الاخشيد كان يثق بأخيه الحسن ويسلم بضرورة التعاون بينهما فى حياته، ولكنه كان يخشى اذا جعله بعد ولده أونوجور فى ولاية الحكم أن يستأثر بلسطان وأن ينحى عنه أولاد الاخشيد. ولعل ذلك هو السبب فى أنه رتب أن يدبر أمور ولديه من بعده غلامه كافور دون عمها الحسن والواقع أن تاريخ العصر الاخشيدى هو تاريخ محمد بن طفج مؤسس الدولة الاخشيدية، ثم تاريخ كافور تابعه وتلميذه فى ميدان السياسة.

وكافور هذا كان عبدا نوبيا اشتراه الاخشيد بثمن بخس ولكنه أظهر من المزايا والصفات ما حبب فيه مولاه، وقد أخذ الاخشيد يرقيه فى بلاطه لعقله وحسن تدبيره، وجعله من كبار قواده، وعهد اليه بتربية ولديه أبى القاسم أونوجور ثم أبى الحسن على. ولاريب فى أن ارتفاع كافور[١] من عبد لا شأن له، الى منصب الوصاية ثم الامارة فى مصر ثم اتصال المتنبى

(١) انظر عن كافور الاخشيدى: دكتورة سيدة كاشف: مصر فى عصر الاخشيدين:ص١٢٧ـ ١٤٤وما ذكرته من مراجع.

به شهيد المسيح، فلم ياكل ولم يشرب تلك الليلة بل كان جالس باهت، فاجتمع اليه ابوه واخوته وقالو له: ما الذى حل بك؟. فاعلمهم ما قاله الشهيد فعند ذلك عزوه وقالو له: لا تجعل فى قلبك شى من كلام ذلك الضال. فلم ينسى ما بقلبه. ومن بعد تلك الايام ابصر الشاب المذكور جماعة من اهل مصر معولين على الحجاز ليحجو، فقال لابوه: اريد احج مع الناس. ففرح ابوه بذلك ودفع له ماية دينار وسلمه لصديق له

الشاعر به ومدحه وهجائه بغرر قصائده، كل ذلك أثار اعجاب المؤرخين المسلمين حتى عدوه من «أعاجيب الدنيا وسيرته من أغرب السير» وحفزهم الى أن ينسجوا حول نشأته قصصا مختلفة لسنا نعرف نصيبها من الصحة. ونلاحظ أن المناداة بأونوجور أميرا لمصر بعد وفاة الاخشيد لم تحدث الا بعد تردد ومحاولات لتنحيته، ولكن أبا بكر محمد بن على الماذرائى اعترض على عرض هذا الموضوع على بساط البحث وقال: ان الاخشيد عقد لابنه أونوجور قبل وفاته وان الخليفة المتقى أذن للاخشيد بذلك. ولما اعترض البعض بأن أونوجور لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، رد الماذرائى بأن صغر السن لا يجوز أن يكون سببا فى تنحيته عن الحكم وأن هارون بن خمارويه بن أحمد ابن طولون ولى حكم مصر وهو أصغر سنا من أونوجور. وتم الأمر لاونوجور واحتفل رسميا بتوليته حين خرج أونوجور فى موكب عظيم سار فيه عمه الحسن بن طغج وأبو بكر الماذرائى وقصد جامع عمرو ابن العاص فأدى صلاة الجمعة فى ١٣ من المحرم سنة ٣٣٥هـ(٩٤٦م) ودعى له على المنابر.

وكتب الماذرائى الى كافور الذى كان لايزال بالشام حين خرج مع سيده ينهى اليه ما تم من تولية أونوجور، فحمد له كافور هذا الحزم فى تصريف الأمور.

وما لبث كافور أن عاد الى مصر على رأس الجيش الذى كان قد سافر الى الشام مع الاخشيد، وكان وصوله الى الفسطاط فى شهر صفر سنة ٣٣٥هـ.

من المسافرين الى مكة، وقال له: هذا ولدى قد سلمته اليك تراعيه مثل ولدك الى ان تعيده معك ويكون في صحبتك بمشية الله. وابتاع له كلما يحتاج إليه، فلما ساروا ابصر الشاب منام في بعض الليالي وكان [كأن] شيخ راهب منير جدا وقف به وقال له اتبعني تربح نفسك، فلما استيقظ قص المنام على صديق والده الذى سار معه، فقال له: يا ولدى يوفقك الله فان الراهب هو الشيطان يريد يجربك فلا تجعل فكرك عنده. ثم ظهر له ليلة

وورد كتاب من الخليفة المطيع لله الى الأمير القاسم أونوجور يقره فيه على ولاية مصر والشام وما كان لأبيه من الولاية. وقرئ هذا الكتاب يوم الجمعة أول ربيع الآخر على منبر الجامع العتيق.

ثم أصبحت مقاليد الأمور في بغداد بيد بنى بويه وأضحى معز الدولة صاحب الأمر والنهى في الدولة العباسية. فلا عجب اذا سعى اليه الولاة والأمراء ومنهم أونوجور بن الاخشيد. وقد كتب أبو المحاسن أن أونوجور أرسل طائفة من الهدايا الى معز الدولة البويهى سنة ٣٣٨هـ وسأله أن يكون أخوه مشاركا له في امرة مصر وأن يخلفه بعد وفاته فأجابه معز الدولة الى ذلك[١]. وهكذا نال أونوجور موافقة الحكومة المركزية على استخلاف أخيه.

أما سلطان مصر على الحجاز بعد وفاة الاخشيد فقد ظل سلطان اسميا يقف عند ذكر اسم الأمير الاخشيدى في الخطبة في بعض السنين ولا يكاد يصل الى ذلك في سنين أخرى. وحسبنا ماذكره المؤرخون عن اخفاق المحاولة التى قام بها أمير الركب المصرى للخطبة لابن الاخشيد على المنابر في مكة سنة ٣٤٢هـ[٢].

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٣ص ٢٩٨.

(٢) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٨ص١٨٢(طبعة بولاق ١٢٩٠هـ)، صبح الأعشى ج٤ص ٢٦٨.

اخـرى وقـال له كـمـا قـال اول ليلة بلا زيادة ولا نقص، وثالث ليلة ايضـا قـال هكذى، فلمـا قـضـو حجهم وعادو مشو ستة أيام أو سبعة وهم عايدين فنزلو عن جمالهم ليلا ليريقو الما ثم ركب الرجل صديق والده جملة وتاخر هو فانقطع عنه ولم يرى احد، فسعى يجرى حتى تعب فلم يلحقهم وبقى وحـده تايه في البـرية فـجلس وهو خـايف من وحوش البـرية لا [لئـلا] ياكلوه، واذا شـاب راكب فرس بلباس مجمل متمنطق بمنطقة ذهب وقف

واستطاع كافور طوال حكم أونوجور أن يكون الحاكم الحقيقى للبلاد.

ولما توفى أونوجور فى ذى القعدة سنة٣٤٩هـ (ديسـمبـر ٩٦٠م) نودى بأخيه على بن الاخشيد أميرا على مصر ، وذلك باتفاق كافور وقواد الجند ورجال أبيه الاخشيد، وكان يبلغ من العمر حينذاك ثلاثا وعشرين سنة. وقد أقره الخليفة المطيع على ولاية مصر والشام والحرمين. وكانت الأمور على عهده بيد كافور كما كانت الحال فى عهد أخيه.

وقد خاطب علية القوم كافورا بلقب «الأستاذ»، والراجح أن هذا اللقب أصبح لقبا له منذ عهد اليه الاخشيد بتربية ولديه. أما الخليفة فقد كناه بأبى المسك.

ولما توفى على بن الاخشيد فى سنة ٣٥٥هـ(٩٦٦م)، ظلت مصر بعد وفاته أياما بغير أمير، فلم يذكر فى الخطبة الا اسم الخليفة المطيع. وكان كافور يدبر أمور مصر والشام، وما لبث ـ بعد نحو أسبوعين من وفاة على بن الاخشيد أن أعلن ورود كتاب من الخليفة المطيع بتقليده مصر، فدعى له على المنابر.

ولم يسمح كافور بتولية أحمد بن على بن الاخشيد لصغر سنه وأغلب الظن أن الخليفة العباسى لم يرسل تقليدا لكافور بولاية مصر كما أنه لم يعترض على امارته، ولاسيما أن الخلافة اعتادت أن ترى فى يده تدبير الأمور فى مصر.

قدامه، فلما راه قال له: من انت وكيف تهت في هذه البرية وحدك؟. فقال له الشاب: نزلت عن جملي اريق الما فانقطعت عن رفقتي. فقال له: اركب خلفي الفرس. فلما ركب طار به الفرس في الجو فلم يدرى انه في سما ولا في ارض حتى صار بسرعة في كنيسة الشهيد ابو مرقوره بمصر فانفتح له الباب وحده من غير ان يفتحه احد ودخل معه وهو راكب الفرس الى باب الاراديون [المحراب] فانزله هناك ولم يرجع يبصره، فبقى

وكان كافور يشعر بأنه غريب عن أسرة الاخشيد. ولعله كان يشعر بما نكاد نصل اليه من النصوص، وهو أنه وسط بين الأمير والوصي على العرش، فهو مستقل بحكم البلاد ولكنه غريب عن أسرتها الحاكمة، وهو مطلق التصرف في أمورها ولكن ذلك ليس جديدا عليه فقد كان هذا السلطان منذ وفاة الاخشيد، وهو أمير على البلاد ولكنه يؤثر الاحتفاظ بلقب الأستاذ حتى لايصدم أهل الرأى في البلد باغتصاب الألقاب الى جانب اغتصابه السلطان. بل ان كافورا لم ينقش اسمه على السكة بعكس جميع الأمراء الاخشيديين الذين كانوا ينقشون اسمهم على السكة مع اسم الخليفة العباسي.

وبعد وفاة كافور سنة ٣٥٧هـ اجتمع كبار القواد والموظفين وأولو الأمر في مصر وعقدوا الولاية لابى الفوارس أحمد بن على بن الاخشيد وكان صبيا في الحادية عشرة من عمره[1]. ولم يخرج على هذا الاجماع سوى الحسن بن عبيد الله بن طغج الذى أخذ البيعة لنفسه واستولى على ما كان لكافور من أموال في الرملة[2].

ودعى لأحمد بن على بن الاخشيد على منابر مصر والشام والحرمين، ثم من بعده للحسن ابن عبيد الله بن طغج اما بوصفه وصيا أو بوصفه خليفة له[3].

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة. (٢) الكندى: الولاة والقضاة: ص ٢٩٧.
(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة: ج٤ ص٩، المقريزى: الخطط ج١ ص٣٣٠.

باهت كانه في منام للعجب الذى شاهده، ثم فكر
في نفسه وقال ما هذا الذى حل بى اترى هذه بيعة
النصارى والتفت فراى القناديل موقودة والصور،
فقال اليس الساعة كنت في البرية فوقف داخل
الراديون الى ان اصبح الصبح فدخل امنوت البيعة
[قندلفت الكنيسة] وظن انه لص واراد ان يصيح،
فاشار اليه بيده ليسكت ويتقدم اليه فلما دنا منه
قال له الشاب: ما هذا الموضع؟. قال له: كنيسة
ابو مرقوره بمصر. قال له: هذه مدينة مصر؟.

ولسنا نعرف تماما هل جاء من الخليفة تقليد لأحمد بن علي بن الاخشيد علي ولاية مصر والشام والحرمين، أو سبق الغزو الفاطمى ورود هذا الاعتراف من الحكومة المركزية في بغداد. فالواقع أن المراجع التاريخية لا تشير الى هذا الاعتراف بشئ. ومهما يكن من الأمر فان دخول جوهر الصقلى مصر في شعبان سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م) وضع حدا لسلطان الدولة الاخشيدية ولسلطان الخلافة العباسية على مصر.

٧. علاقات مصر الخارجية في عصر الاخشيديين

(أ) مع الخلافة العباسية

مر بنا أن علاقة الاخشيديين بالخلافة العباسية كانت علاقة طيبة. والواقع أن استقلال مصر عن الخلافة العباسية في العصر الاخشيدى كان استقلالا ملموسا لاشك فيه وان ظلت الروابط الروحية ومقتضيات الأحوال السياسية تربطها بالحكومة المركزية في بغداد من غير أن تصل بها الى التبعية. وكان مثل الدولة الاخشيدية في ذلك مثل الدولة الطولونية، وان كان استقلال الطولونيين يبدو لبعض الباحثين أوضح وأظهر أثرا. ولعل بعض السبب في هذا ان الاخشيديين لم يحاربوا الحكومة المركزية صراحة كما فعل أحمد بن طو لون وخمارويه، وأن الاخشيديين خلفتهم الدولة الفاطمية التى جعلت من مصر مقرا للخلافة الفاطمية فأنست القوم ما كان للاخشيديين من مجد واستقلال.

قــال له: نعم وهوذا اراك كــانك طايش العــقل فعرفني خبرك وما حالك. فحينيذ اهتدى الشاب وقال له: كيف لا يضل عقلي وانا في هذه الليلة كنت في الموضع الفلاني وما عرفت كيف وصلت الى ها هنا الله هو العــالم بذلك. فلمــا ســمع الامنوت بذكر المكان الذى كان فيه قال له: الم اقـول لك انك طايش العـقل ســاهي لا تدرى مـا تقول، بينك وبين الموضع الذى ذكرته مسافة شهر واثنى عشر يوما وعلى ما ارى ما انت الا لص وقوة

ولا تذكر المراجع التاريخية أن مصر كانت ترسل أموالا معينة وبانتظام الى الحكومة المركزية في العراق طوال العصر الاخشيدى.ومع ذلك فالاخشيديون يتعاونون مع الخلافة في دفع النفقات اللازمة لفداء الأسرى المسلمين.

كذلك كان للأمراء الاخشيديين ممثلون في بغداد يسهرون على شئونهم ويراقبون ما يجرى في دار الخلافة، ويعملون على أن يستميلوا الى الاخشيديين من يستطيعون التأثير عليه بمختلف الوسائل من أولى الأمر.

وطبيعي جدا أن يكون للاخشيد وكيل في بغداد، وقد سبقه الى ذلك أحمد بن طولون فكان له وكلاء في سامرا وكانوا يقدمون مثل هذه المساعدة المالية لنفر من كبار رجال الدولة.

والواقع أن اللاخشيد كان يتشبه بأحمد بن طولون، وكان يقصده أمراء بغداد وقوادها وكتابها وأبناء وزرائها وكان ينفق عليهم بسخاء.

(ب) مع الحمدانيين

أما عن علاقة الاخشيديين بالحمدانيين في الشام فقد رأينا كيف حرص الحمدانيون على التوسع في بلاد الشام على حساب أملاك الدولة الاخشيدية، وانه وقعت حروب بين الاخشيد وبين سيف الدولة الحمدانى انتهت بالصلح وباقتسام النفوذ في بلاد الشام.

الشهيد خلتك تحتج بهذه الحجة البطالة ليتبين ما انت عليه في دخولك الى بيعته. فقال له الشاب: ومن صاحب هذه البيعة؟. قال له: هو القديس ابو مرقوره الجليل. قال: ابو مرقوره نبى؟ قال له القيم: لا، ولكنه الشهيد الجليل القوى لانه ترك مجد هذا العالم وطلب الاخرة ومات على اسم المسيح لاجل [لأجل] ايمانه به واظهاره اسمه قدام الملوك الكفرة ولقى منهم عذاب كثير لاجل اسم المسح وعوقب باصناف العذاب والوان العقوبات الى ان

وبعد تولية أونوجور وردت الأنباء باضطراب الأمور فى الشام وباستيلاء سيف الدولة الحمدانى على دمشق وبأنه عول على المسير الى الرملة لغزو مصر.

فنهض كافور ومعه سيده أونوجور الى الشام، ودارت المعركة بين المصريين وبين سيف الدولة. وقد انتصر المصريون وطاردوا سيف الدولة الى حلب فهرب الى الرقة.

ثم بدأت المفاوضات بين الطرفين وانتهت الى الشروط التى كانت بين الاخشيد وسيف الدولة. وعاد اونوجور وكافور الى مصر بعد عقد هذا الصلح وظل السلام قائما بين سيف الدولة الحمدانى وبين الاخشيديين منذ سنة ٣٣٦هـ[1].

(جـ) مع البيزنطيين

أما عن علاقة الاخشيديين بالدولة البيزنطيةـ أو دولة الروم فى آسيا الصغرى ـ فقد مر بنا أن البيزنطين فى عهد الامبراطور رومانوس الأول كانوا يحترمون الاخشيد ويخشون بأسه. وقد شرع الاخشيد «أمير مصر والشام والثغور الشامية» وهو فى دمشق فى ذى الحجة سنة ٣٣٤هـ(٩٤٥م)، فى الفداء الذى وقع بين المسلمين وبين البيزنطين سنة ٣٣٥هـ.

(١) انظر: ابن العديم الحلبى: زبدة الحلب فى تاريخ حلب.ص ٣٧٣ـ ٣٧٤، وابو المحاسن: النجوم الزاهرة: ج٣ص٢٩١ـ ٢٩٢.

اخذه الله اليه وقبله فى ملكوته السماوية الدايمة، وبنيت هذه البيعة وغيرها على اسمه فى مواضع كثير لتمجيد الله سبحنه فيها، وله عند الله شفاعة مقبولة يشفع فى الناس فيشفع فيهم ويظهر الله العجايب منه وبشفاعته. قال له الشاب: فكيف صفته وصورته؟. قال له: هو يشبهك وفى سنك. ثم اخذه ومضى به الى موضع صورته الجليلة فلما راها قال: حق هذه صورة الذى ظهر لى ورايته فى البرية وحملنى على ظهر فرسه هذه الى ها هنا

ولكن الاخشيد كان مريضا وما لبث أن توفى، فرجع كافور بالجيش الى مصر وبعث ثلاثين ألف دينار من مال هذا الفداء.. وقد أتم هذا الفداء سيف الدولة فعرف به ونسب اليه ومع ذلك فان الثغور الشامية لم تدخل فى طاعة سيف الدولة الا بعد وفاة الاخشيد[١].

وحين فرض الامبراطور البيز نطى رومانوس الثانى السيادة البيزنطية على حلب فى سنة ٣٥١هـ(٩٦٢م) فى عهد على بن الاخشيد، عجز سيف الدولة الحمدانى عن صد الروم واستنجد بالاخشيديين، فخرجت الجيوش الاخشيدية من دمشق لنجدة المسلمين وعندئذ انسحب الروم الى بلادهم.

ولكن ماكاد الامبراطور البيزنطى نقفور فوقاس يلى عرش الامبراطورية البيزنطية سنة ٣٥٢هـ(٩٦٣م) حتى بادر الى مهاجمة شمال الشام وأنزل الهزيمة بسيف الدولة الحمدانى. وتوالت هجمات نقفور فوكاس فى سنة ٣٥٧هـ(٩٦٧م) وفى سنة ٣٥٨هـ(٩٦٩م) على بلاد الشام، وجاءت الهجمات على انطاكية وحلب بعد وفاة كافور الاخشيدى حين كانت الدولة الاخشيدية فى طور الاحتضار.

....

(١) انظر: المسعودى: التنبيه والاشراف: ص١٦٥(طبعة القاهرة ١٩٣٨م)، ودكتورة سيدة كاشف: مصر فى عصر الاخشيدين: ص ٣٥٥ـ ٣٥٦.

وهذه المنطقة الذهب التى رايتها فى وسطه كهيتها [كهيئتها] والان فانا اعلمك انني رجلا مسلم من اهل هذه المدينة وقد رضيت لاجل هذه الاعجوبة ان اصير نصراني. واخبر القيم بجميع ما جرى له وقال له: انا ابن رجا الشاهد وماقدر اظهر ليلا احرق بالنار وتحرق البيعة بسببى لكن اريد ان تصنع معي جميلا وتاخذ الاجرة من السيد المسيح وتخفيني في موضع حتى لا يراني فيه احد حتى ادبر ما افعل، واتيني بكاهن خادم لله تعالى تقي

والواقع أن المسلمين فى القرن الرابع الهجرى لم يهملوا واجب الجهاد، وكان المحاربون منهم يتدفقون من كل أنحاء البلاد الاسلامية الى اقليم الثغور، ولاسيما مدينة طرسوس(١).

(د) مع النوبيين

أما القوة المسيحية الأخرى التى احتكت بالدولة الاخشيدية فكانت مملكة النوبة المسيحية.

والمعروف أن الحملة التى قام بها عبد الله بن سعد بن أبى سرح والى مصر فى سنة ٣١هـ انتهت الى عقد اتفاق بين مصر وبين مملكة النوبة المسيحية(٢).

ولكن هذه المعاهدة كانت تنقض بين حين وأخر، وكان ملوك النوبة يقدمون على غزو جنوب الصعيد كلما أحسوا من أنفسهم القوة على هذا الغزو وظنوا أن مصر لن تستطيع صدهم. ومع ذلك فقد كانت تجارة الرقيق زاهرة بين مصر وبلاد النوبة. وحسبنا الأعداد الكبيرة من الجند السودان فى جيش الطولونيين والاخشيديين.

وقد كتب المؤرخ والجغرافى المسعودى حين زار مصر فى سنة ٣٣٢هـ أن النوبيين كانوا

(١) انظر: دكتورة سيدة اسماعيل كاشف: مصر في عصر الاخشيدين ص٣٥٥ـ ٣٥٧ وما ذكرته من مراجع.
(٢) انظر: دكتورة سيدة اسماعيل كاشف: مصر في فجر الاسلام ص١٥ ـ١٦ وما ذكرته من مراجع.

فاضل فهيم عالم يعلمني قوانين النصارى ومذهبهم وفرايض شريعتهم ويثبتني في الامانة فان قلبي قد مال الى هذا الدين، فاجابه القيم الى ذلك واخفاه عنده في موضع مخفي في البيعة ومضى الى شيخ قس عالم تقي فاضل فاعلمه قضية الحال، فنهض معه وهو مسرور به فلما اجتمعا اجابة القس عن كلما سايله [سأله] عنه وابانه له وفهمه حقيقة الامر فيه، فساله الشاب ان ياتيه بالاناجيل وكتب البيعة العتيقة والحديثة ويفسر

لايزالون يقدمون السبى الذى اتفق عليه في البقط وكان يتسلمه نائب أمير مصر في أسوان(١).

وحدث في سنة ٣٣٩هـ أن أغار ملك النوبة على اقليم الواحات بمصر فقتل عددا من سكانها وسبى وحرق وخرب(٢).

كما حدث في ذى الحجة سنة ٣٤٤هـ أن أغار ملك النوبة على أسوان، فخرج اليه جيش من قبل أونوجور وعلى رأسه محمد بن عبد الله الخازن، واستطاع هذا الجيش أن يصد النوبيين، وأرسل بعض أسراهم الى مصر فضربت أعناقهم، ثم طارد الجيش المصرى ملك النوبة وفلول جيشه واستطاع أن يفتح مدينة ابريم وعاد الى مصر في منتصف جمادى الأولى سنة ٣٤٥هـ(٩٥٦م) ومعه مائة وخمسون أسيرا وعدد من رءوس القتلى(٣).

(هـ) مع الفاطميين

عرفنا كيف استطاع محمد بن طغج الاخشيد أن يهزم الفاطميين في سنة ٣٤٢هـ. والحق أن قيام الدولة الاخشيدية في مصر أجل الغزو الفاطمى لها. ويبدو أن الفاطميين أدركوا أن من

(١) المسعودى: مروج الذهب: ج٣ص٣٩ـ ٤٠.
(٢) تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكى: ص١١٢.
(٣) تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكى:ص١١٤، المقريزى: الخطط: ج١ص١٩٨و٣٢٩ـ٣٣٠، وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة:ج٣ص ٣٢٦.

له القبطى باللسان العربى، وقال له: اريد اقراها وافهمها واعرفها ليثبت عندى صحة الامانة باساس قوى لان هذه الالام والاوجاع لا تحتمل باطلا. فاحضر له القس الانجيل وكتب الانبيا وجميع كتب العتيقة والحديثة الدالة على حقيقة الامانة الارتدكسية ووحدانية السيد المسيح احدى التلتة اقانيم الاب والابن والروح القدس، وان الله لاهوت واحد وسبب تجسده وموته المحيى وقيامته من الموتى وطلوعه الى السما وحلول الروح القدس البارقليط

الأفضل لتحقيق أهدافهم وسياستهم أن يأخذوا الاخشيدين باللين وأن يعملو ا على كسب صداقتهم. واضطر الفاطميون الى مراقبة الحالة فى مصر عن كثب على الرغم من أن مطامعهم فى هذه البلاد كانت تشتد سنة بعد أخرى.

والحق أن الفاطميين عملوا على نشر الدعوة لأنفسهم فى مصر وذلك منذ أواخر عصر الولاة فيها وقبل قيام الدولة الفاطمية فى المغرب. ومنذ سقوط الدولة الطولونية ودعاتهم يزدادون نشاطاً وتغلغلا بين عامة المصريين وخاصتهم. وازداد اتصالهم بوجوه مصر منذ قيام الاخشيد بل وقبل قيام الدولة الاخشيدية .

وحاول المعز لدين الله، رابع الخلفاء الفاطميين، غزو مصر أيام كافور، وسار بجيشه الى حدود مصر الغربية لكن كافور جهز جيشا صد تيار تقدمه. وكان وجود كافور هو السبب الأساسى فى تأخير الغزو الفاطمى. وكان دعاة المعز فى مصر يقولون: «اذا زال الحجر الأسود ملك مولانا المعز لدين الله الأرض كلها، وبيننا وبينكم الحجر الأسود، يعنون كافور الاخشيد»(١).

أما الفاطميون فكانوا يستعدون لفتح مصر قبيل وفاة كافور منذ سنة ٣٥٥هـ. وفى نهاية

(١) انظر: المقريزى: اتعاظ الحنفا: ص١٤٦ـ ١٤٧ (نشره الدكتور جمال الدين الشيال. القاهرة ١٩٤٨م)، وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٤ ص٧٢.

على الرسل، ورجوع الناس من الضلالة الى صحة الامانة، فقال الشاب: مبارك هو الذى سلك هذه الطريقة الذى هو شاوول المسمى بولس الذى سمع صوت الرب يقول له شاوول شاوول مالك تناصبنى ثم اصطفاه من ضلالته، هكذى اسله ان يهدينى وينعم على بالاصطفا لاظهر اسمه بين الامم. وتمام هذا الكلام ياتى فى موضعه من هذه السيرة، واقام اياما يبحث فى كتب العتيقة والحديثة حتى انار الله قلبه ووقف على سراير المذهب

جمادى الآخرة من سنة ٣٥٧هـ (٩٦٨م) وردت الأخبار من مصر الى المغرب بوفاة كافور فبدأ المعز فى اعداد المال اللازم للحملة التى سيرها لفتح مصر سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م)(١).

٨ مصر والدولة الاخشيدية

نعمت مصر للمرة الثانية فى العصر الاسلامى باستقلالها وذلك فى ظل الاخشيديين. وأسس محمد بن طغج الاخشيد الدولة الاخشيدية التى عاشت فترة قريبة من تلك التى عاشتها الدولة الطولونية فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى، فظلت أربعا وثلاثين سنة من القرن الثالث الهجرى قبل أن تقوم فيها الخلافة الفاطمية.

وقد اتضح لنا من دراسة العصرين الطولونى والاخشيدى أن مصر شهدت ازدهار فى الحضارة وضح فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والفنية. كذلك شاركت مصر فى الأحداث الهامة التى كان صداها يتردد فى العالم الاسلامى كله.

وكما ظلت ذكرى الدولة ما ثلة فى أذهان المصريين وفى قلوبهم وعقولهم، فان أمراء الدولة الاخشيدية كانوا يتخذون الأمر الطولونيين والدولة الطولونية مثالا يحتذى به.

---

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا:ص١٣٨ـ ١٣٩، ودكتورة سيدة اسماعيل كاشف: مصر فى عصر الاخشيديين: ص٣٦٠ـ ٣٧٠.

وصحة الامانة كما قال الرسول: «ان الانسان اذا عاد الي الرب زالت الغشاوة عن قلبه وعرف ما كان فيه من الضلالة التي افنى فيها عمره وثبت اساسه على الصخرة الذى هو المسيح». وقال ما قاله بولس: «ما الذى يفرقني من محبة المسيح ضيق ام سبى ام جوع ام نار ام سجن وبقية الفصل لا يقدر شيا من هذا يفرقني من حب المسيح».

فلما قوى قلب ذلك الشاب في الامانة

وقد عاصر المؤرخ والجغرافى «المسعودى» صدر الدولة الاخشيدية وزار مصر عدة مرات وأقام بها فترة من الزمن قبل وفاته بها في سنة ٣٤٦هـ(٩٥٧م).

وأطنب المسعودى في وصف ازدهار البلاد واتساع تجاربها في المنسوجات والأقمشة والعطور والأطعمة والعقاقير والرقيق، وذكر أن بضائع العالم كله ترد الى الأسواق المصرية.

ونلاحظ أن تجارة الرقيق كانت رائجة في مصر منذ الغزو العربى. وكان في الفسطاط منذ فجر الاسلام في مصر، سوق للرقيق.

وأصبحت مصر في عصر الاخشيدى من أعظم أسواق الرقيق الأسود والأبيض. وكانت القوافل تجلب الى مصر الرقيق الأسود من الجنوب. أما الرقيق الأبيض فكان يصل الى أسواقها من بيزنطة وأرمينية وثغور البحر المتوسط ومن أسواق الرقيق في سائر ديار الاسلام.

وكان الأخشيديون يحسنون معاملة عبيدهم ويسمحون لهم بأن ينخرطون في سلك الجيش، وكان بعضهم يصل الى مكانة عالية فيه، وقد يعده ذلك لتقليد بعض الوظائف الرئيسية في الادارة(١).

(١) انظر: دكتورة سيدة اسماعيل كاشف: مصر في عصر الاخشيد ص٢٤٢ـ ٢٤٤ وما ذكرته من مراجع.

المستقيمة سال الشيخ الكاهن ان يعمده فخاف
ليلا تكون ضربة من الشيطان فاشار على الشاب
المذكور بان يمضى الى وادى هبيب، فمن كثرة
شهوته ساله سوالا عظيما بمطانوات كثيرة وقال
له: ربما لا اعيش حتى اصل الى هناك. والزمه
بكثرة تضرعه له، وبكاه حتى عمده وسماه
بولس، فلما لبس نور حلة المعمودية التمس ثياب
زرية ابتاعها من السوق ولبسها وساله ان يصلى
عليه، وخرج ولم يعرفه احد لتغيير زيه وسحنته من

ونلاحظ بوجه عام ان الأرقاء كثيرا ما كانوا ينخرطون فى سلك الجيش أو يتقلدون الوظائف الرئيسية فى الادارة.

وفى العصر الاخشيدى كانت الزراعة المصدر الأساسى لثروة مصر كما كانت منذ العصور القديمة. وتدل الأوراق البردية التى ترجع الى العصر الاخشيد ى الى أنه كثيرا ما كانت تفلح الأرض بالمزارعة، أى أن المستأجر يؤدى الايجار من المحصول .

وتدل الوثائق البردية على أن الجزء الذى يأخذه المالك من المحصول كان النصف فى بعض الأحيان وكان فى أحيان أخر الثلث أو الربع. وكان ينص فى عقد المزارعة على الطرف الذى يدفع الخراج أو يقوم بغير ذلك من النفقات ويبدو من الوثائق البردية أن المستأجر كان يأخذ على عاتقه عمارة الأرض أى اصلاح جسورها ومد ترعها وحفر خلجها(١).

وظلت الصناعات التى اشتهرت بها مصر الاسلامية، بل ومنذ العصور القديمة، متقدمة

(١) انظر: papyrus Erzherzog. Rainer: Fuhrer durch die Aus- stellung: p. 257 No. 1016 (Wien 1894).
Grohmann: Arabic Papyri in the Egyptian Library Vol. II. PP. 34, 60.
والمقريزى الخطط: ج١ ص٨٢.

كثرة صومه وصلاته واجتهاده وانتصابه لقراة الكتب الذى كانت قراتها عنده كالشهد.

واما الحجاج فانهم وصلو الى مصر وكانت العادة جارية بان ينفذو اذا قربو من مصر من يخبر بوصولهم فخرج اهل الحجاج مسافة يومين يستقبلوهم من بعيد، فلما خرجو اخوته من جملة الناس للقايه وطافو عليه وسالو عنه فلم يعرفو خبره، فلما وجدو صديق ابوهم هناك مالو اليه

ومزدهرة. وكان من أهم الصناعات في ا لعصر الاخشيدى صناعة النسيج. ومن الصناعات التى عرفتها مصر في ذلك العصر صناعة الحصر، وكان يصنع منها أنواع فاخرة تقليدا للحصر المصنوعة فى عبادان فى ايران.

أما الصناعة المصرية التى شهد العصر الاخشيدى تدهورها بعد أن كانت مزدهرة منذ عصر الفراعنة فهى صناعة القراطيس من البردى. وكان العالم الاسلامى وغير يستورد من مصر البردى للكتابة. أما فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) فيحدثنا الثعالبى أن كواغيد سمر قند عطلت قراطيس مصر والجلود التى كان الأوائل يكتبون عليها، لأنها أحسن وأنعم وأرفق وأوفق ولا تكون الا بسمر قند والصين.

ويذكر كراباتشيك[1] أن صناعة اعداد ورق البردى للكتابة انتهت فى مصر بالاجمال حوالى القرن الرابع الهجرى[2].

وفى ميدان التجارة استمر ما كان لمصر من شأن عظيم سواء فى التجارة الداخلية أو الخارجية. وأشار المؤرخون والجغرافيون والرحالة المسلمون، الى نشاط مصر التجارى والى

(١) المستشرق Karabacek من علماء البرديات فى عصرنا الحاضر.
(٢) دكتورة/ سيدة اسماعيل كاشف: مصر فى فجر الاسلام ص ٢٩١ـ ٢٩٢ وما ذكرته من مراجع.

وسالو عنه فبكا وعرفهم ان اخاهم تاه فى البرية ليلا، وقال لهم: وقفت طويلا انتظره فلم يجى وحثنى السير فلحقت اعقاب القافلة فسرت بغير اختيارى وحال الليل بينى وبينه وظننت انه ربما كان تقدمنى فى اول القافلة فلما اصبحت طفت يومى كله عليه فى القافلة من اولها الى اخرها وسالت كلمن فيها عنه فما عرفت له خبر فعلمت انه قد انقطع من القافلة فى ذلك الموضع واكلوه الوحوش. فلما سمعو هذه منه شقو ثيابهم وعادو

موقعها الممتاز فضلا عن أسواق مصر العامرة[١].

وقد بلغت ثروة بعض التجار فى مصر فى بداية عصر الاخشيد درجة عظيمة حتى ان أحدهم وهو عفان بن سليمان البزاز حين توفى استطاع الاخشيد أن يأخذ من ماله نحو مائة ألف دينار[٢].

أما النظم الادارية فى مصر فاستمرت كما هى منذ أن غزاها العرب دون تغيير جوهرى اللهم الا فيما يختص بمنصب الامارة أو المناصب العليا.

ولم تعرف مصر منصب الوزارة فى عصر الولاة ، ولما جاء الطولونيون اتخذوا وزراء لهم

(١) النويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب ج١ص ٣٤١(طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٩م) وابن خرداذبة: المسالك والممالك ص١٥٣ـ ١٥٤ (ليدن ١٨٨٩م)، والمسعودى: التنبيه والاشراف:ص٨١ وما بعدها (ليدن ١٨٩٤م)، وابن حوقل: المسالك والممالك: ص ٨١وما بعدها (لين ١٨٧٣م)، واليعقوبى: كتاب البلدان:ص٣٣٤وما بعدها (لين ١٧٩٢م)، والمقدسى: أحسن التقاسيم:ص ١٩٨(لين ١٨٨٧م)، والمقريزى: الخطط ج١ص ١٩٦ـ ١٩٧، والدكتور زكى محمد حسن: الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ص ٧ـ ٩(القاهرة ١٩٤٥م).

(٢) الكندى: كتاب الولاة وكتاب القضاة: ص ٥٤٣، ودكتورة سيدة كاشف: مصر فى عصر الاخشيد ص ٢٧٩ـ ٢٨١وما ذكرته من مراجع.

الى ابيهم فاخبروه بذلك فاقام عليه مناحة وجنازة عظيمة، فلما انقضت ايام الجنازة كان شاب من اصدقاه ساكن بجوار بيعة الشهيد ابو مرقوره بمصر فابصره يوم قد خرج من البيعة وعاد اليها وعليه ثياب صوف وعليه زنار صوف فقال بالحقيقة ان الناس يتشابهو ولو لم يكن ابن رجا قد مات لقلت انه هذا، ثم لقى ابوه واخوته فقال لهم: اردت اليوم ان امسك انسان نصراني عند كنيسة ابو مرقوره وقلت انه ولدكم لولا علمي بموته لقلت انه هو

تشبها بالخلفاء[١]. واتخذ الاخشيديون أيضا وزراء لهم. وكان من أشهر وزراء محمد بن طغج الاخشيد، أبو بكر محمد بن على الماذرائى.

ومر بنا أن أسرة الماذرائيين كان لها نفوذ كبير فى مصر وذلك فى السياسة والادارة والمال. وحين توفى عميدهم أبو بكر محمد بن على الماذرائى أيام انوجور سنة ٣٤٥هـ حضر أنوجور وكافور الصلاة عليه، وانتهى بموته ما كان للماذارئيين من سلطان فى ادارة مصر نحو أكثر من سبعين عاما.

ويبدو أن الاخشيد كان له أعوان آخرون يقومون بأعمال الوزير دون أن يكون لهن لقبه فى بعض الأحيان. ومن أشهر الوزراء فى العصر الاخشيدى جعفر ابن الفضل[٢]. وقد وزر جعفر ابن الفضل للاخشيديين من سنة ٣٣٤هـ الى الفتح الفاطمى لمصر.

أما عن القضاء، فبالرغم من استقلال مصر فى العصرين الطولونى والاخشيدى، فان أمر

(١) انظر: Dr. Zaky M.Hassan: Les Tulunides :PP. 194-195 وما ذكره من مراجع.

(٢) أبوه هو الوزير العباسى أبو جعفر الفضل بن الفرات، ومربنا أنه تصاهر مع محمد بن طغج، وكان يعد نفسه مصريا اخشيديا. ويعرف جعفر ابن الفضل باسم ابن حنزابة ـ بكسر الحاء وسكون النون ـ اسم جدته ويقال انها كانت جارية رومية.(انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ج١ص ١٣٩، وابن دقمان: الانتصار لواسطة عقد الامصار ج٤ ص١٠).

لانه يشبهه فى كل شمايله حتى مشيته وما شككت فيه الا بلباسه الصوف والزنار. فلما سمعو هذا تجدد عليهم الحزن والبكا. ثم ان اخوته اشتهيا ان ينظرا ذلك الشخص الذى قيل انه يشبه اخوهما فنهضا للعشا وهم متنكرين بلباس زرى واختفيا فى ركن عند باب البيعة ينظرا من يخرج ومن يدخل وقت صلاة الغروب، فلما انقضت الصلاة وخرجو النصارى خرج الشاب فى وسطهم فتاملوه فعرفوه وتبعوه الى الساحل فلما صارو فى

القضاء كان لايزال مرجعه الى الخلافة .وفى العصر الاخشيدى كان لابد للقضاء من الحصول على موافقة الأمير الاخشيدى. وكان الأمير الاخشيدى فى بعض الحالات يولى القضاء لمن يشاء بدون موافقة الخليفة.

وكان فى مصر الاخشيدية ـ كغيرها من أنحاء العالم الاسلامى ـ ما يسمونه النظر فى المظالم. وكان الغرض الأساسى من المظالم هو وقف تعدى ذوى الجاه والحسب، وتعد أشبه شئ بمحكمة الاستئناف أو محكمة النقض أو مجلس الدولة فى عصرنا الحالى. وكان اختصاص الناظر فى المظالم واختصاص القاضى يلتقيان فى كثير من الأحيان، وكان يصعب أحيانا أن نتبين أيهما أوسع سلطانا. والحق أن سلطان الناظر فى المظالم لم يكن واسعا الا حين كان هو الخليفة أو الأمير أو من يقرب من مرتبتهما، أو من كان مؤيدا من الأمير حائزا لثقته التامة.

والمعروف فى العصر الطولونى ان خمارويه عين محمد بن عبدة للنظر فى المظالم، وكان له كل اختصاص القاضى. وظل محمد بن عبدة بن حرب ينظر فى المظالم نحو أربع سنين ثم ولى القضاء فى سنة ٢٧٨هـ من قبل الخليفة المعتمد وذلك بعد أن تعطل منصب القضاء نحو سبع سنين.

وفى بداية العصر الاخشيدى كان القاضى ينظر فى المظالم. وفى سنة ٣٣١هـ أفراد للنظر

موضع منقطع عن الناس مسكاه وبكيا وضربا وجوههما وقالو له: ما هذا الذى فعلته بنا يا اخونا. فقال لهما: الذى بى ما تعرفاه. فقال احدهما للاخر: ما هذا موضع خطاب ليلا يكون قد داخله شيطان فنفتضح بين الناس. ولازماه الى ان مضيا به الى البيت برفق فجدد اهله الجنازة لما راوه على تلك الحالة، فخاطبه ابوه وامه وقالا لاخوته: لا تخاطبوه انتم حتى نكشف نحن عن حاله ليلا نصير فضيحة. ثم اغلقو الابواب ودخلو به الى

فى المظالم قاض مستقل. وبعد مقتل ابن رائق وعودة الاخشيد من الشام سنة ٣٣١هـ، كان الاخشيد يجلس للنظر فى المظالم بنفسه فى أيام الأربعاء. وبعده كان كافور يجلس كل سبت للمظالم[١].

وظهر قبيل العصر الاخشيدى المحتسب، ووظيفة الحسبة.. والمفروض أن المحتسب يراقب مراعاة أحكام الشريعة الاسلامية، ويسهر على حسن السلوك العام، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويشرف على نظام الأسواق، ويعمل بوجه عام على حماية الناس من غش التجار والصناع.

وظهر منصب الحسبة قبيل ولاية الاخشيد على مصر. ونعرف أيضا أن مؤنسا الخادم عين محتسبا قبيل ولاية الاخشيد أيضا. وبعد ذلك سنجد هذه الوظيفة فى مصر الاخشيدية كما كانت فى سائر أنحاء العالم الاسلامى آنذاك ظلت هذه الوظيفة قائمة طوال عصور مصر الاسلامية.

وكانت مصر طوال العصر الاخشيدى مركزا للحياة العلمية الدينية والدنيوية، وبرز علماء مصر فى مختلف العلوم والآداب والفنون.

(١) انظر عن القضاء والمظالم: دكتورة سيدة اسماعيل كاشف: مصر فى عصر الاخشيديين:ص ٢٠٥-٢٢٨ وما ذكرته من مراجع.

موضع منفرد فلما تحققو حاله قالو له: ما انت ولدنا. قال لهم انا بولس. يعنى الاسم الذى سموه به وقت المعمودية، قال له ابوه: فضحتنى يا ولدى وفضحت شيخوختى بين القضاة والشهود ولعلك فعلت هذا لانى لم ازوجك وقد كنت معتقد انى ازوجك اذا رجعت من الحج لاجل [لأجلَ] من فى مصر، وانفق فى عرسك مالا كثير، ومكثو يسالوه ويقولو له: لا تفضحنا فى وسط الناس ولا تخزينا فى هذه المدينة. ولم يزالو معه الى نصف الليل

وسارت مصر فى طريق الازدهار والأخذ بأسباب العلوم والآداب والفنون الى أن أصبحت زعيمة للعالم الاسلامى قاطبة. وحسبنا أن نذكر قول ابن خلدون المتوفى سنة٨٠٨هـ(١٤٠٥ـ ١٤٠٦م): « ولا أوفر اليوم فى الحضارة من مصر فهى أم العالم وايوان الاسلام وينبوع العلم والصنائع»[١].

والحق أن مصر فى العصر الاخشيدى كانت غنية بالفقهاء والعلماء والأدباء. وكانت هذه الطوائف تلتقى فى مجالس الأمراء وعلية القوم وتحظى بتقديرهم ورعايتهم. وكان بالفسطاط سوق كبير للوراقين يسعى اليه أهل العلم وا لأدب. وقيل ان الخليفة عبد الرحمن الناصر أرسل من الأندلس عشرة آلاف دينار لتفرق على فقهاء المالكية، فأمر كافور بعشرين ألف دينار لتفرق على فقهاء الشافعية[٢].

والمعروف أن المذاهب الفقهية الكبرى استقرت فى القرن الرابع الهجرى. وكانت السيادة فى مصر للمذهبين الشافعى والمالكى. وفى سنة ٣٢٦هـ كان للشافعين فى جامع عمرو بن العاص خمس عشرة حلقة وللمالكين مثلها، ولأصحاب أبى حنيفة ثلاث حلقات فقط[٣].

(١) ابن خلدون: المقدمة: ص٤٨١(فصل حملة العلم فى الاسلام اكثرهم من العجم. طبعة القاهرة ١٢٤٨هـ/ ١٩٣٠م).

(٢) ابن الزيات: الكواكب السيارة:ص ١٩٠ـ ١٩١.

(٣) ابن سعيد: المغرب:ص ٢٤(ليدن ١٨٩٩م)

وهو يقول لهم: ما اعرف ما تقولو فلما لم يجدو فيه حيلة جعلوه فى بيت مظلم ثلثة ايام بلا طعام بلا شراب فلم يقدرو عليه. ولعظم بكا امه وحزنها لم تفطر [تأكل] ايضا، فاخرجوه وقدمو له طعام فلم ياكل منه شى، وكان كانه قد خرج من صنيع [مطعم] او وليمة غير محتاج الى طعام ولا الى شراب كما قال اشعيا النبى: ان الذين عقولهم عند الرب تبدل قواهم ولا يجوعو ولا يعطشو. فلما اعياهم امره تشاورو على قتله ليلا يفتضحو

وقد عدد المؤرخون أسماء الكثير من الفقهاء والعلماء والأدباء والشعراء فى مصر الاخشيدية[1]. وكان زعيم الكتاب فى هذا العصر هو ابراهيم بن عبد الله بن محمد محمد النجيرمى، ومن انشائه الكتاب الذى أرسله الاخشيد الى المانوس (رومانوس) ملك الروم[2].

وكان أكبر نصيب لمصر فى الثقافة الاسلامية ما كتبه أبناؤها فى التاريخ. وقد نبغ من المؤرخين المصريين فى فجر الاسلام فى مصر عبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الحكم صاحب كتاب«فتوح مصر وأفريقيا والأندلس»، والذى توفى سنة ٢٥٧هـ، والذى شهد السنوات الأولى من مجئ أحمد بن طولون الى مصر. ولكن ابن عبد الحكم يمت الى عصر الولاة أكثر مما يمت للطولو نيين. ومن أشهر مؤرخى الدولة الطولونية المؤرخ المعروف بابن الداية، وهو أحمد بن يوسف، والمتوفى سنة ٣٣٩هـ. قدم أبوه يو سف بن ابراهيم من بغداد وعاصر أحمد بن طولون فى مصر بضع سنوات، أما ابنه أحمد المشهور بابن الداية فقد ولد فى مصر فى منتصف القرن الثالث الهجرى والتاسع الميلادى[3]. وكتب أحمد بن يوسف، أو ابن الداية،

(١) انظر عن الفقهاء والعلماء والادباء: دكتورة سيدة اسماعيل كاشف: مصر فى عصر الاخشيديين ص ٣٠٠ـ ٣٢٦ وما ذكرته من مراجع.

(٢) انظر الكتاب فى: ابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب ص١٨ـ ٢٣، والقلقشندى:صبح الأعشى ج٧ص ١٠ـ ١٨.

(٣) انظر: Zaky M. Hassan : Les Tulunides: PP. -11-12

به، ثم انهم رقت قلوبهم عليه واخرجوه سرا ومضو به الى الجيزة وقالو له: ابعد عنا نستريح من فضيحتك. فمضى الى وادى هبيب واقام هناك عند راهب فعلمه طرق الله ورهبه، فلما اقام اياما قلايل قال له بعض من لا يفهم من الرهبان: ان الرب لا يقبل نصرانيتك الا ان تمضى الى مصر وتشتهر بحيث تعرف. فسمع منه وعاد الى مصر طاعة لهم ومضى الى منزل ابوه وقد وطن نفسه على القتل على اسم المسيح، فلما راه ابوه بزى

فى التاريخ وا لطب والأخلاق والمنطق والفلك وغير ذلك مما يشهد بثقافته الواسعة. وللأسف ضاعت مؤلفاته ولم يبق منها الا كتاب المكافأة، وسيرة أحمد بن طولون وسيرة أبى الجيش خمارويه. أما العصر الاخشيدى فقد أخرج من المؤرخين ابن يونس الصدفى الذى توفى سنة ٣٤٧هـ(٩٥٨م)، أبو عمر محمد بن يوسف الكندى الذى توفى سنة ٣٥٠هـ (٩٦١م). والحسن بن ابراهيم بن زولاق الذى ألف كتابا عن «سيرة الاخشيد» والذى توفى سنة ٣٨٧هـ(٩٩٧م). كذلك ألف ابن زولاق كتابا فى أخبار سيبويه المصرى الذى توفى سنة ٣٥٨هـ(٩٦٩م) وكان سيبويه المصرى زميلا فى الدراسة لابن زولاق وكان من أدبا العصر الاخشيدى ومن علماء النحو المشهورين.

ويعتبر الكندى صاحب كتاب الولاة وكتاب القضاة شيخ المؤرخين المصريين قبل الدولة الفاطمية. ومن المؤرخين المصريين المسيحيين الذين أدركوا العصر الاخشيدى سعيد بن البطريق المتوفى سنة ٣٢٨هـ(٩٤٠م) وهو البطرك الرومى الملكانى افتيشيوس، وكان طبيبا مشهورا فى الفسطاط، ثم نصب بطركا على الاسكندرية سنة ٣٢١هـ (٩٣٣م). وقد عنى بالتاريخ وكتب فيه مؤلفا مشهورا هو «نظم الجوهر أو التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق» وتحدث فيه عن التاريخ منذ بدء الخليفة الى العصر الذى عاش فيه [١].

(١) انظر عن المؤرخين: دكتورة سيدة اسماعيل كاشف: مصر فى عصر الاخشيديين:ص٣٢٦ـ ٣٢٩.

الرهبان ضج واغتاض [اغتاظ] منه وقال له: ما هذه الفضيحة مضيت وعدت الى بطرطور صوف. يعنى القلنسوة المقدسة التى هى بيضة الخلاص، ثم اخذه وحبسه فى مطمورة مظلمة يطرح فيها كناسة التراب والرماد ووسخ الدار واطبق عليه طابقها واقسم على كلمن فى الدار لا يعطوه خبز ولا ما ومتى دفع احد شى من ذلك عاقبه وامر غلمانه وجواره ان يرمو عليه كلما يكنسوه من تراب ورماد ووسخ الدار وغالة القدور، واقام

ولا ننسى أن نشير هنا الى المؤرخ والجغرافى المسعودى الذى عاصر صدر الدولة الاخشيدية، والذى زار مصر عدة مرات وأقام بها فتره من الزمن قبل وفاته فى مصر سنة ٣٤٦هـ (٩٥٧م).

والمعروف أن المتنبى الشاعر زار مصر فى العصر الاخشيدى ووصل اليها فى سنة ٣٤٦هـ. وقيل انه صرح قبل قدومه انه اذا دخل مصر لايقصد العبد، يعنى كافورا، وانما يقصد مولاه، يعنى أبا القاسم أونوجور. ولم يكن هذا أول عهد المتنبى بالاخشيديين، فالراجع انه حين اتهم بادعاء النبوة فى بادية السماوة، قبض عليه ابن لؤلؤ نائب الاخشيد فى حمص وحبسه ثم استتابه وأطلقه. كما يروى للمتنبى الشعر فى رثاء محمد بن طغج الاخشيد.

والمعروف أن المتنبى كان متصلا بسيف الدولة الحمدانى وقال فى مدحه قصائد خالدات، ولكن أمرا حدث بينهما أدى الى أن يبحث المتنبى عن سيد آخر يرعاه.

ولعله سمع ببلاط كافور وما يلقاه الشعراء والأدباء من تقدير واكرام فيه، فعقد العزم على أن يمم شطر مصر. وقيل ان كافورا كتب اليه يستدعيه الى بلاطه.

وقابل المتنبى فى الرملة، وهو فى طريقه الى مصر، الأمير أبا محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج، ومدحه بعدة قصائد. ورحب كافور بالمتنبى وأخلى له دارا وخلع عليه وحمل اليه كثيرا من المال. وظل المتنبى فى بلاط كافور يقول فى مدحه القصيدة السنية بعد الأخرى.

كذلك سته ايام وامه باكية لا تفتر من البكا بسببه وهى حزينه عليه جدا، وكانت تدلى له الخبز والما بحبل فلا يذوق منه شى فلما كان بعد الستة ايام ضعفت قوته وكان ملازم الصوم والصلاة ليله ونهاره، وظهر له فى اليوم السابع الراهب الذى كان ظهر له اولا فى طريق مكة وفى يده خبز نقى فظن انه خيال فلم ياكل منه شيا حتى عرف انه امرا ظهرا له من عند الله، فقال له الراهب تعرفنى، قال له نعم انت الذى رايتك فى المنام ثلث دفعات

ولكن المتنبى كان يطمع من كافور بأكثر مما نال من عطاء، وكان يرجو أن ينصبه كافور واليا على اقليم من دولته، فلا عجب اذا تضاءل حماس المتنبى لكافور. وقال المتنبى فى يوم عرفة سنة ٤٥٠هـ قبل مغادرته مصر بيوم واحد قصيدته الدالية المشهورة التى هجا فيها كافورا، ومطلعها:

عيد بأية حال عدت باعيد

بما مضى أم لأمر فيك تجديد

كذلك نظم المتنبى قصائد أخرى كثيرة فى هجاء كافور[١]. وقد عنى الاخشيديون بالجيش والأسطول مثل عناية الطولونيين بهما. وكان الجيش الاخشيدى مثل الجيش الطولونى يتألف من عناصر مختلفة مثل الترك والسودان والمغاربة، ومماليك من أجناس مختلفة. أما البحرية فكان دور المصريين بارزا فيها منذ غزو العرب لها.

وكان محمد بن طغج الاخشيد يستعرض الجيش فى أيام الأعياد وفى بعض المناسبات الأخرى كما كان يفعل أحمد بن طولون من قبله.

(١) دكتورة سيدة اسماعيل كاشف: مصر فى عصر الاخشيديين: ص ١٣٩ـ ١٤٤ وما ذكرته من مراجع.

فى طريق مكة، قال له نعم انا ذاك وانا مقاره اب
وادى هبيب والان فقد ارسلت اليك لا عزيك
فتقوى واصبر فان لك مجازاة عظيمة، ثم غاب
عنه فاخذ ذلك الخبز واكل بعد ان صلب عليه
فقويت نفسه، ثم ان ابوه اخرجه من ذلك الموضع
وتعجب من بقاه بلا طعام ولا شراب هذه المدة
ولم يتغير وجهه، فخاطبه فى الرجوع عما هو عليه
وتعب معه فلم يقدر عليه بوجه من الوجوه وكان
له [ابن رجا] قديما سرية قد رزق منا ولدا قبل

وكان قواد الجيش يشتركون مع وجوه البلاد فى التشاور بشأن تولية الأمراء واعلان الولاء لهم[١].

وكان الاخشيديون يخرجون على رأس الجيش فى المعارك المختلفة فى معظم الأحيان كما كان يفعل الطولونيون.

وعنى البلاط الاخشيدى فى مصر بسباق الخيل كما عنى به بلاط ابن طولون. كذلك انتشر سباق الحمام فى عصر الاخشيديين[٢]. وكان الصيد من الرياضة المحببة الى علية القوم فى مصر فى العصرين الطولونى والاخشيدى. وكان اقليم الحوف فى الشرقية من الأقاليم التى يرتادها كثير منهم لهذا الغرض.

وقد حدثنا المسعودى عن التسامح الدينى فى عصر الاخشيديين وعن قيام أهل الذمة بقسط وافر من الأعمال الادارية والمالية فى مصر، وعن اشتراك الأمراء الاخشيديين فى الأعياد المسيحية مع سائر المصريين من مسلمين وقبط.

وكتب المسعودى عن الاحتفال بعيد الغطاس فى مصر بعد أن شاهده بعينيه فى سنة

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة: ج٣ ص ٣٢٧.
(٢) الغزولى: مطالع البدور فى منازل السرور: ج٢ص ١٧(الطبعة الأولى مصر ١٢٥٩ـ ١٣٠٠هـ).

مضيه الى مكة فتقدم ابوه الى اخوه الكبير بان يحضرها، فلما حضرت امره [أى أمر أخوه الكبير] أن يجامعها قدامه ففعل ذلك ووهبها له وكان ولده الطفل يتعلم العوم فقال لابوه المومن القديس ان انت لم تطيعنى وترجع عما انت عليه والا غرقت ابنك قدامك هذا الذى انت تحبه، فقال نعم انا احبه وهو ولدى غير انى احب الرب اكثر منه، فاحضر العوام الذى يعومه سرا ودفع له دينارين وقال له اذا نزل الصبى معك عشية لتعلمه

٣٣٠هـ، وكان المسلمون يشاركون الأقباط في الاحتفال بهذا العيد(١) وبغيره من أعياد المسيحيين.

وكان العصر الاخشيدى عصر ازدهار فى تشييد العمائر وانتاج التحف والآثار الفنية التى تمثل شتى ميادين الفن الاسلامى.. والمشهور أن الاخشيد كان يقلد ابن طولون فى أمور شتى ومنها عنايته بالعمارة والفنون.

واندثر الكثير من آثار الاخشيديين وبقى وصفها وذكرها فى المصادر التايخية. وأهم هذه المنشآت قصر المختار، والبستان الذى شيده الاخشيد فى جزيرة الروضة سنة ٣٢٥هـ. وأنشأ الاخشيد بستانا آخر شمالى الفسطاط عرف بعد ذلك باسم البستان الكافورى.

وعنى الأمراء الاخشيديون بناء المساجد مثل مسجد الريح، ومسجد الزمام، ابن عمروس، ومسجد الاقدام، ومسجد موسى(٢).

كذلك عنى الاخشيديون وكافور وكبار القوم مثل الماذرائيين وابى الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات، بناء الدور والمساجد والبساتين والقيساريات والأسواق.

(١) المسعودى: مروج الذهب: ج٢ ص ٣٦٤، المقريزى: الخطط ج١ص ٢٩٥و٤٩٤وج٢:ص ١٥٤.
(٢) ابن زولاق: أخبار سيبويه المصرى ص ٣٢، ٣٦، ٤١، ٤٤، ٥٦(طبعة القاهرة ١٣٥٢هـ ١٩٣٣م).

العوم غرقه وانا احضر لا نظره واعرف بانه هو، فاجابه العوام الى ذلك فلما كان عشية اخذ ابن رجا الشاهد ولده الراهب ابو الصبى ومضى به معه الى البحر ونزل بالصبى مع معلمه الى البحر ليعومه فلما صار فى وسط البحر غرقه وابوه الراهب ينظر اليه، ثم ان اباه اعاده الى داره وحبسه في موضع اخر منها وكتب فيه رقعة للسلطان، وكان الخليفة في ذلك الزمان الحاكم بامر الله. كما قال الرب في الانجيل يسلم الاب ابنه الى الموت،

ولم يبق من عمائر العصر الاخشيدى الا النذر اليسير، أهمها مشهد آل طباطبا قرب ضريح الامام الشافعي، ومحراب قديم في تلك المنطقة. فضلا عن مجموعة من شواهد القبور محفوظة في متحف الفن الاسلامى بالقاهرة.

كذلك وصلت الينا من العصر الاخشيدى بعض قطع من النسيج عليها كتابات حاملة أسماء الخلفاء العباسين والوزراء في العصر الاخشيدى.

كذلك نمت في العصر الاخشيدى صناعة الخزف ذى البريق المعدنى، ولكن زخارفه ظلت بدائية الى أن تم تطورها في العصر الفاطمي. ونلاحظ أن الفن الاسلامى في مصر في العصرين الطولوني والاخشيدى كان مرتبطا بالأساليب الفنية التي ازدهرت في العراق في العصر العباسي، وحين قامت الخلافة الفاطمية في مصر بعد العصر الاخشيدى، أصبح لمصر طراز فنى خاص بها عاش وازدهر نحو قرنين من الزمان[(١)].

وفي اعتقادنا أن الأ خشيد وكافور استطاعا القضاء على الفوضى واضطرب الأمن وما الى ذلك من القلاقل التى سادت في مصر بعد سقوط الطولونيين. ونعمت مصر في عصر الاخشيدين كما تعمت في عصر الطولونين، وأصبحت مقصدا للعلماء والفقهاء والأدباء.

(١) انظر عن الآثار والفنون في العصر الاخشيدى: دكتورة سيدة كاشف: مصر في عصر الاخشيدى: ص ٢٨٥ـ ٢٩٩ وما ذكرته من مراجع.

فامر الخليفة بحضوره مع ابيه عند قاضى القضاة
والشهود ويناظروه فان وجب عليه شيا يقتل واذا
لم يجب عليه شيا فيطلق سبيله، فلما اجتمعو
لذلك بحضور واسطة خير اقامه الحاكم بامر الله
ولم يثبت لابوه عليه حجة كما قال السيد المسيح:
انى اعطيكم نطق وحكمة لا يقدر احد يقاومها.
فانصرفو خايبين خجلين ولم يرجع احد يخاطبه.
فامر الحاكم باطلاقه يمضى الى حيث شا، فمضى
الى راس الخليج وشرع فى عمارة بيعة هناك ما بين

ومضت الحضارة الاسلامية قدما، وقطعت مصر أشواطا بعيدة فى كافة مجالات الحضارة. وتمهدت الأمور للتطور الكبير الذى حدث فى عصر الخلفاء الفاطميين.

رابعا: مصر فى عصر الفاطميين

١. مصر فى عصر الخلفاء الفاطميين

تمهيد:

كان من أثر ما حل بالعلويين من الاضطهاد بعد قيام الدولة العباسية أن لجأ بعضهم الى بلاد المغرب لبعدها عن مركز الخلافة. وكان التشيع قد انتشر فى هذه البلاد على يد الامام ادريس بن عبد الله ابن الحسن بن على بن أبى طالب الذى قدم الى المغرب فرارا من تعقب العباسيين له فى عهد الخليفة الهادى سنة ١٦٩هـ. وأقام الادارسة فى المغرب الأقصى دولة علوية سنة ١٧٢هـ، فلما توجه أبو عبد الله الشيعى الى المغرب فى أوائل سنة ٢٨٠هـ وجد الأمور ممهدة له، كما وجد التشيع قد استقر فى عقول البربر.

وقد نجح أبو عبد الله الشيعى فى نشر الدعوة الفاطمية فى تلك البلاد، كما عمل منذ سنة ٢٨٩هـ على نشر نفوذ الفاطميين. فى شمال أفريقيا. ولما انتصر على الأغالبة سنة ٢٩٦هـ ودخل رقادة مقر امارتهم، حذف اسم الخليفة العباسى من الخطبة، ثم وجه أهتمامه سنة

بركة الحبش وبنى وايل على اسم الملاك الجليل مخاييل وبناها، وكان بمصر قوم من الرمادية [الفقراء] فمضو ليلا وسرقو الخشب من هذه البيعة، فلما اصبح هذا القديس ابن رجا ابصر بعضهم فى تلك الناحية فقال لهم قد عرفت انكم البارحة اخذتم الخشب وعرفت الموضع الذى خبيتموه فيه فعيدوه الى موضعه والا شكوتكم لوالى القاهرة، فانكرو ذلك وقالو ما اخذنا شى، قال لهم انا امضى الى الحاكم بامر الله وهو ان شا

٢٩٧هـ الى أخذ البيعة لعبيد الله (ابن الامام الحسن ابن أحمد بن عبد اسماعيل بن جعفر الصادق) الذى استطاع أن يهرب مع أتباعه الى المغرب الأقصى، واقيمت الخطبة باسمه فى رقادة التى اتخذها عاصمة له، وتلقب بالمهدى أمير المؤمنين.

كان عبيد الله المهدى، يطمع فى أن يتخذ مصر قاعدة يوجه منها حملاته الى بغداد للقضاء على الخلافة العباسية المتداعية، لذلك وجه نشاطه على أثر تأسيس خلافته بالمغرب الى الاستيلاء على مصر سنة ٣٠١هـ، غير أن حملاته التى أنفذها اليها لم تستطع فتحها، فقد تصدت لها قوات العباسيين والاخشيديين فى مصر.

ولما ولى أبو القاسم الذى تلقب بالقائم بأمر الله الخلافة سنة ٣٢٢هـ، واصل سياسة أبيه المهدى فى غزو مصر، فأرسل اليها جيوشه سنة ٣٢٣هـ، فوصلت الاسكندرية فى أوائل سنة ٣٢٤هـ، وانضم اليها بعض زعماء المصريين فأنفذ اليهم الاخشيد قو ة كبير ة، استطاعت أن تهزم جند الفاطميين.

على أن هذه الهزائم التى لحقت بالفاطميين فى مصر، ولم تثبط من عزمهم على بسط سيادتهم عليها، فلجأ الخليفة القائم الى التودد الى محمد بن طغج الاخشيد، فأنفذ اليه رسولا ومعه كتاب، يطلب فيه صداقته ايثارا للمسالمة. غير أن الاخشيد لم تخف عليه مطامع الخليفة الفاطمى التى تنطوى على دعوته للدخول فى طاعته، فظل مواليا للخلافة العباسية فى بغداد

الله يتقدم باخذ الخشب من حيث جعلتموه فيه وتتاذو منه، فخافو واعادو الخشب الى البيعة على تمامه وكان هذا القديس ابن رجا قد سمى نفسه الواضح وصار صديقا للرجل العالم الفاضل انبا ساويرس اسقف الاشمونين المعروف بابن المقفع الذى ذكرناه انفا وهو الذى صنف عشرون [مقالة] سوى ميامر وتفاسير واجوبة ومسايل لابى البشر ابن جارود الكاتب المصرى، وهذه اسما العشرين كتابا: كتاب التوحيد، كتاب الاتحاد، كتاب الباهر

حتى توفى سنة ٣٣٤هـ (٩٤٦م) ثم واجهت مصر بعد وفاته عدة صعوبات، وبخاصة من ناحية سيف الدولة الحمدانى أمير حلب الذى أغار على دمشق وطمع فى المسير الى مصر للاستيلاء عليها.

لم يقم الفاطميون طوال عهد المنصور الذى آلت اليه الخلافة بعد وفاة ابنه القائم سنة ٣٤٤هـ بأى محاولة لغزو مصر. ويرجع سبب ذلك الى انشغال هذا الخليفة بالعمل على ضبط الأمور فى بلاد المغرب، فلما جاء الخليفة المعز سنة ٣٤١هـ (٩٥٢م) حاول اعادة الكرة للاستيلاء على البلاد المصرية، لكنه عنى أولا بنشر الدعوة فى هذه البلاد، فقدمت رسله الى كافور الذى كان وقتذاك يستأثر بالسلطة فى مصر تدعوه الى الاعتراف بسيادته، فرحب بهم ولم يعطهم أى رد حاسم، على حين استطاع دعاة الفاطميين أن يأخذوا البيعة للمعز من كثير من رجال بلاطه وكبار موظفى دولته.

ولما توفى كافور سنة ٣٥٧هـ(٩٦٨م)، اضطربت الحالة السياسية فى مصر، فوقع اختيار رجال البلاط على أبى الفوارس أحمد حفيد الأخشيد ولم يكن قد تجاوز الحادية عشرة من عمره، وما لبث أن استقل الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات بتدبر أمور ولاية مصر. غير أن هذا الوزير لم يكن فى وسعه أن يقضى على الفوضى التى انتشرت بمصر فى أواخر عهد

رد على اليهود، كتاب الشرح والتفصيل رد على النسطورية، كتاب فى الدين كتبه الوزير قزمان ابن مينا، كتاب نظم الجوهر، كتاب المجالس، كتاب طب الغم وشفا الحزن، كتاب المجامع، كتاب تفسير الامانة، كتاب التبليغ رد على اليهود، كتاب الرد على سعيد ابن بطريق(*)، كتاب فى معنى اطفال المومنين والكفار وكيف تقوم النفسين، كتاب الاستيضاح وهو مصباح النفس، كتاب السير، كتاب الاستبصار، كتاب ترتيب الكهنوت الاثنى

(*) سعيد ابن بطريق: ٨٧٧/٩٤٠م = ٢٦٣/٣٢٨هـ
طبيب ومؤرخ من أهل مصر، ولد بالفسطاط. أقيم بطركا ملكانيا فى الاسكندرية وسمى

الاخشيديين، بل ساءت فى أيامه الحالة المالية وحل بالبلاد القحط والوباء، من جراء انخفاض النيل، وفقدت الخلافة كل هيبة واستقرار.

كان الخليفة المعز لدين الله، يعد العدة لفتح مصر، قبيل وفاة كافور، فأمر بانشاء الطرق وحفر الآبار فى طريق مصر، وأقام المنازل على كل مرحلة، فلما بلغه خبر وفاته سنة ٣٥٧هـ أخذ فى اعداد المال اللازم لتجهيز حملة لغزو مصر، ثم وقع اختياره على جوهر الصقلى لقيادة الحملة، وخرج لوداعه يوم رحيله من القيروان فى الرابع عشر من شهر ربيع الثانى سنة ٣٥٨هـ، فسار جوهر على رأس جيشه حتى وصل برقة، فقدم له صاحبها فروض الطاعة، ثم مضى فى سيره حتى وصل الاسكندرية، فدخلها من غير مقاومة، وواصل بعد ذلك زحفه جنوبا، فتغلب على أنصار الاخشيدية، وأجاب أهالى الفسطاط الى ما التمسوه فى كتاب الأمان الذى كتبه وأعلنه للمصريين. وقد عرض فيه لبرامج الاصلاح الذى سيقوم به كاقامة شعائر الحج واصلاح الطرقات والعمل على استتاب الأمن وتوفير الأقوات ونشر العدل، كما ضمنه منحهم الحرية فى اقامة شعائرهم الدينية حسب مذهبهم، وتعهده وتأمينهم على أنفسهم وأموالهم وأهاليهم وضياعهم.

ولما تيسر لجوهر ضم مصر الى حوزة الفاطميين، عدل عن اتخاذ كل من الفسطاط والعسكر عاصمة له، وفكر فى انشاء مدينة جديدة، تكون مقرا للخلافة الفاطمية ومركزا لنشر دعوتهم الدينية، فوضع أساس مدينة القاهرة فى ليلة ١٧ شعبان سنة ٣٥٨هـ، كما وضع

عشر طقوس البيعة، كتاب اختلاف الفرق، كتاب الاحكام، كتاب ايضاح الاتحاد. وهذه الكتب قد سمي بعضها بخلاف ما ذكرناه، وربما كان للكتاب اسمين، وكان ساويرس الاسقف المذكور والواضح ابن رجا القدسين يتذاكر اكثر اوقاتهما ويفتشا كتب الله لنور عقولهما وجوهرهما حتى انهما فسرا الكتب الروحانية، ثم ان الواضح ابن رجا فسر كتابين باللغة العربية احدهما سماه الواضح وهو الاعتراف واظهر فيه اعوار [عيوب]

انتبخوس سنة ٣٢١هـ = ٩٣٣م. له كتاب «الجدل بين المخالف والنصراني» وكتاب «كناش» في الطب وكتاب «نظم الجوهر» في التاريخ، رد عليه ساويرس ابن المقفع في كتابه «الجامع»، وكذلك هاجمه ساويرس في كتابه «الرد على سعيد ابن بطريق» طبعه الاب بطرس شبلي ١٩٠٦ بباريس.

الليلة التالية، أساس قصر الخليفة المعز، وعرف هذا القصر باسم القصر الشرقي الكبير، ثم أقام حول تلك المدينة وقصر الخليفة سورا كبيرا، وأطلق جوهر على مدينته الجديدة، اسم «المنصورية» نسبة الى المنصور أبي المعز، وظلت هذه التسمية حتى قدم المعز الى مصر، فسماها القاهرة على اسم المدينة القديمة التي كانت في هذا الموضع.

أنشأ جوهو بسور القاهرة، أربعة أبواب، وهى باب النصر وباب الفتوح وبابىّ زويلة[1]. ويعرف أحد هذين البابين باسم باب القوس. وقد مر منه المعز عند قدومه الى القاهرة، أما الباب الثاني، فقد تشاءم منه الناس وهجروه.

كذلك رأى جوهر ألا يفاجئ المصريين من أهل السنة فى مساجدهم بشعائر المذهب الفاطمي، اثارتهم عليه، ومن ثم عول على بناء مسجد يكون رمزا لسيادة الدعوة الفاطمية، كما كانت القاهرة رمزا لسيادة الفاطميين على مصر، فشرع فى بناء الجامع الأزهر فى اليوم الرابع من شهر رمضان سنة ٣٥٩هـ(٩٧٠م)، وتم بناؤه فى سنتين تقريبا ، وأقيمت فيه الصلاة لأول مرة فى اليوم السابع من شهر رمضان سنة ٣٦١هـ(٩٧٢م). وقد سمى هذا الجامع فى بادئ الأمر بجامع القاهرة نسبة الى العاصمة الجديدة التى أنشأها جوهر. أما تسميته بالجامع الأزهر، فيظهر أن الفاطميين الذين ينتسبون الى فاطمة بنت النبى محمد سموه الأزهر، اشادة بذكر جدتهم فاطمة الزهراء.

(١) عرف بهذا الاسم نسبة الى قبيلة زويله احدى قبائل البربر التى جاءت مع جوهر من بلاد المغرب.

المخالفين واخصمهم من كتابهم، والكتاب الاخر سماه نوادر المفسرين، واحرق المخالفين بهذين الكتابين وخصمهم من دينهم كما فعل سمسوم [شمشون] الجبار لما جعل السرج [مشاعل النار] في اذناب الثعالب واطلقها في زرع اعدايه فاحرقه. وكتب فيها شرح حاله في نفسه. وقال فيها ان الاسقف انبا ساويرس ابن المقفع حكى له انه كان ببغداد انسان مقدم ابن ملك يعرف بالهاشمي وانه لم يهتم قط بشي من امور المملكة ولا كسوة ولا

شرع جوهر منذ أن وضع أساس مدينة القاهرة في التمهيد لاتخاذها حاضرة للخلافة الفاطمية، فأمر بحذف الدعوة لخلفاء بني العباس التي كانت تقام بمساجد مصر وأقامها للخليفة المعز، وضرب السكة باسم الخليفة الفاطمي بدلا من اسم الخليفة العباسي. كذلك منع جوهر الناس من لبس السواد شعار العباسيين، كما أمر بأن يؤذن في جميع المساجد بحي على خير العمل، وهي من العبارات التي يتخذ بها الأذان عند الشيعيين.

١. خلافة المعز لدين الله في مصر:

لما استقر سلطان الفاطميين في مصر، كتب جوهر الى المعز يستدعيه ليتولى بنفسه زمام الحكم في البلاد، فلقيت هذه الدعوة قبولا من نفس الخليفة الفاطمي، وسار اليها في موكب حافل ومعه أولاده واخوته وعشيرته ورفات آبائه (عبد الله المهدى والقائم والمنصور). وعندما وصل الى الاسكندرية في شعبان سنة ٣٦٢هـ، استقبله أعيان البلاد وعلى رأسهم ـ الوزير جعفر بن الفرات، ثم تابع سيره حتى دخل مدينة القاهرة في يوم الثلاثاء ٧من رمضان سنة ٣٦٢هـ وأصبحت ولاية مصر بعد قدوم المعز اليها دار خلافة بعد أن كانت دار امارة تابعة للخلفاء الفاطميين ببلاد المغرب، كما حلت القاهرة محل المنصورية، وغدت عاصمة الدولة الفاطمية.

كانت أمور ولاية مصر ، قد أسندها المعز الى الجوهر بعد الفتح، فأقر الوزير جعفر بن

جمـال سـوى انه كـان يركـب فى كل يوم ومعـه
جنده ويرصـــد بيع النصــارى فى وقت القــداس
فـيدخلهـا راكب ويامـر باخـذ القـربان من على
الهـيكل ويكسـروه ويخلطوه بالتـراب ويقلب
الكاس، وكلما فعل ذلك فى بيعة مضى الى اخرى
وفعل فيها مثل ذلك حتى كادت بغداد تخلو بيعها
من القـداسـات وامتنع اكـثـر الكهنة من القـداس
خوفا من هذا وكانت معونة الله تجذبه ولا يدرى،
فلما كان فى بعض الايام دخل الى بيعـة من البيع

الفرات فى منصبه، كما أبقى على الموظفين المصريين فى وظائفهم، وأشـرك مع كل مـوظف مصرى موظف آخر من المغاربة، وصار جوهر. يشرف على الدواوين وجباية الخراج حتى أوائل سنة ٣٦٣هـ، حيث تسلم المعز منه دواوين مصر وجباية أموالها والنظر فى أحولها.

وهكذا، استأثر المعز بالنفوذ والسـلطان فى مصر، ولم يشأ أن يترك لجوهر ما يساعده على الاستئثار بالحكم، بل أبقاه بجانبه يشير عليه بما تتطلبه أحوال البلاد، وما لبث أن صرفه عن بعض المناصب الادارية وأسندها الى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن.

لما انتقل الخليفة المعز الى القاهرة سنة ٣٦٢هـ، لم يعمل الفاطميـون بكتاب الأمان الذى التزم فيه جوهر الصقلى اطلاق الحرية للمصريين فى المعتقدات الدينية، بل تركز الاهتمام فى تحويل المصريين الى المذهب الشيعى، كذلك أمعن الفاطميـون فى اظهار شعائرهم المخالفة لشعائر السنيين كالأذان بحى على خير العمل، والاحتفال باليوم العاشر من المحرم وهو اليوم قتل فيه الحسين بكر بلاء وعيد الغدير المعروف بغدير خم وهو اليوم الثامن عشر من ذى الحجة) وسبب الاحتفال به ما يرويه الشيعة من أن النبى محمد، وبعد عودته من حجة الوداع فى السنة العاشرة للهجرة نزل بغدير خم فى طريقه إلى المدينة وأخذ بيد على بن أبى طالب، وقال: ألستم تعلمون أنى أولى بكل مؤمن من نفسه؟ قالوا: بلى: فقال: من كنت مولاه، فعلى مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه. ويعلق الشيعة أهمية كبـرى على

كعادته ففتح الله عينيه فابصر فى صينية القربان طفلا جميلا نبيلا وفى وقت القسمة ابصر الكاهن وقد ذبحه وصفى دمه فى الكاس وفصل لحمه قطعة قطعة فى الصينية، فبهت الهاشمى ولم يستطيع الحركة، ثم خرج الكاهن يقرب الشعب باللحم وكذلك الشماس بكاس الدم وهو ينضرهما [ينظرهما] فتعجب وقال لجنده: الا ترو هذا الفاعل الصانع. يعنى الكاهن، قالو له: نحن نراه. قال لهم: نصبر لهذا ياخذ طفلا يذبحه

هذا الحديث، اذ يعتبرونه بمثابة مبايعة علنية من الرسول لعلى بن أبى طالب.

أثار احياء الشعائر الشيعية فى مصر، استياء المصريين السنيين، لما كان يقترن بها فى كثير من الأحيان من اعتداءات الشيعيين والمغاربة عليهم. ولم ينشأ التوتر بين المصريين والمغاربة الشيعيين من احياء الشعائر الشيعية وحدها . بل أدى انحياز الفاطميين الى المغاربة والاعتماد عليهم فى ادارة شئون دولتهم الى استغلال نفوذهم فى الحاق الأذى بالمصريين. فقاموا بنهب أملاكهم واغتصبوا الدور وأجلوا السكان عنها مما حمل المصريين على رفع شكاياتهم الى المعز، فأصدر أوامره الى المغاربة باخلاء هذه الدور والانتقال الى نواحى عين شمس، وعين بنفسه المواضع التى ينزلون فيها، وأقر المال المطلوب للبناء. كما جعل لهم واليا وقاضيا، عهد اليهما بالنظر فى أحوالهم.

أما عن سياسة الخليفة المعز لدين الله الخارجية، فانه وجه سياسته بعد قدومه من المغرب الى مصر سنة ٣٦٢هـ الى القضاء على ما بقى للقرامطة من نفوذ ببلاد الشام، وتحقيقا لهذا الغرض رأى أن يستعين ببنى الجراح من بنى طيئ على استرداد هذه البلاد، كما قرب اليه ظالم بن موهوب العقيلى بعد انصرافه عن تأييد الحسن بن أحمد أمير القرامطة فى بلاد البحرين، وأسند اليه ولاية دمشق (رمضان سنة ٣٦٣هـ)، فقبض على وليها أبى المنجا القرمطى وعلى

ويقسم لحمه على هذا الجمع العظيم ويسقيهم من دمه. فقالو له: الله يوفقك يا سيدنا ما نرى نحن الا خبز وخمر. فزاد خوفه وتعجبه وبقو الشعب متعجبين لوقوفه باهت ولم يفعل بالقربان ما جرت به عادته، فلما فرغ الكاهن وخرجو الناس استدعى الكاهن وقال له ما راه، فقال له: يا سيدنا اعيذك بالله ما هو الا خبز وخمر. فلما علم ان هذا السر ما ظهر الا له فقط فقال له: اريد تعرفني سر هذا القربان وبدايته. فعرفه الكاهن كيف كان

كثير من أتباعه القرامطة، وبذلك تم استعادة سلطان الفاطميين على بلاد الشام، وواصل المعز طيلة خلافته العمل على القضاء على الصعوبات التى واجهت حكمه فى تلك البلاد.

كذلك عمل المعز على الاحتفاظ بنفوذ الفاطميين فى أفريقيا والمغرب، فلما عزم على الرحيل الى مصر، أسند ولاية هذه البلاد الى بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى، كما حرص على ابقاء السيادة الفاطمية على جزيرة صقيلة، غير انه لم جعل لوالى أفريقية والمغرب حكما على صقيلة، بل صار يلى أمورها وال مستقل من قبله، أجيز له الرجوع اليه فى تصريف شئون ولايته.

٢. خلافة العزيز بالله:

لما توفى المعز سنة ٣٦٥هـ خلفة ابنه العزيز. وقد عنى بنشر المذهب الشيعى، وحتم على القضاة أن يصدوا أحكامهم فق هذا المذهب، كما قصر المناصب الهامة على الشيعين، وحتم على القضاة أن يصدروا أحكامهم وفق هذا المذهب.

كذلك اتسم عهد العزيز بالتسامح مع النصارى لما كان بينه وبينهم من صلة النسب، اذ تزوج من نصرانية وعين أحد أخوايها بطريكا للملكانيين ببيت المقدس سنة ٣٧٥هـ، وعين الثانى مطران للقاهرة، ثم رقى فى عهد الحاكم بأمر الله بطريركا للملكانيين بالاسكندرية. وبلغ

السيد المسيح اخذ الخبز والشراب فقسم ذلك على تلاميذه وقال لهم خذو وكلو هذا هو جسدى واشربو هذا دمى اشربو منه كلكم غفرانا لخطايكم، وعلمونا التلاميذ صلاة نقولها على الخبز والخمر اذا جعلناهما على المذبح فيتحول الخبز يصير لحم ويصير الخمر دما سرا كما اراك الله اليوم وهما فى الظاهر خبز وخمرلانه ما يقدر احد فى العالم ياخذ لحما نيا ولا يشرب دما غبيطا وانما الله اظهر لك هذا السر الخفى الحقيقى المقدس

من عطف العزيز على المسيحيين أن أحتفل بعيد النيروز و خميس العهد وعيد الميلاد مشاركة لهم فى شعورهم.

وقد اتخذ العزيز يعقوب بن كلس وزيراً له. وكان هذا الوزير مشغوفا بالعلوم والآداب، وكان يعقد مجالسه العلمية تارة بالجامع الأزهر وطوراً بداره، يقرأ فيها مصنفاته على الناس، ويحضر هذه المجالس القضاة والفقهاء والقراء وغيرهم من وجوه الدولة. ولم يقف اهتمام يعقوب بن كلس بالنشاط العلمى عند هذا الحد، بل اشار على العزيز بتحويل الأزهر من مسجد تقام فيه الصلاة الى معهد للدراسة، ونقل اليه الكثير من الكتب والمصاحف. وقد خصص العزيز لأساتذة هذا الجامع أرزاقا شهرية ثابتة كما قدم لطلابه المأكل والمسكن وكل ما يوفر عليهم وسائل المعيشة وأسباب الراحة.

أما عن سياسة العزيز الخارجية، فانه لما تفاقم خطر القرامطة فى الشام، عهد الى جوهر بمحاربتهم سنة ٣٦٦هـ، فأحلوا به الهزائم، من ثم لم يجد العزيز بدا من الخروج بنفسه للقضاء عليهم، فسار الى بلاد الشام وانتصر على القرامطة وأختكين التركى، الذى انضم اليهم وجاء به أسيرا الى القاهرة، ثم عفا عنه وعامله معاملة قوامها العطف والرعاية.

كذلك أعد العزيز فى سنة ٣٧٧هـ، حملة بحرية لغزو بلاد الروم. وعلى الرغم من أن هذه الحملة لم تحقق أغراضه لاحتراق مراكبها، فان رسل امبرطور الروم قدمت الى مصر تحمل

خلاص لنفسك، ثم انه قرى عليه كتب الكنيسة وبين له سراير المذهب المسيحى حتى طاب قلبه بالدخول فيه، وعرف شرفه وحقيقته، وتحقق علومه وصحته، فامر اصحابه بالانصراف وبات هناك مع الكاهن وعمده بالليل وصار نصرانيا، فلما كان بالغداة اتاه اصحابه بالدابة طردهم ولم يكلمهم، فلما علمو الخبر مضو الى ابوه واعلموه فصار فى حزنا شديدا وانفذ احضره بغير اختياره وخاطبه باللين والصعب وتعب معه بكل فن واجتهد به

هدية للعزيز وتطلب عقد صلح بين الدولتين . واشتملت الهدية على ثمان وعشرين صينية من الذهب ، فأجاب الخليفة الفاطمي طلب هؤلاء السفراء واشترط للصلح عدة شروط منها:

١ـ أن يطلق البيزنطيون سراح من عندهم من الأسرى المسلمين.

٢ـ أن يدعى للخليفة العزيز بجامع القسطنطينية فى خطبة الجمعة.

٣ـ أن تضع الحرب أوزارها بين الفريقين مدة سبع سنوات .

لم يكن لهذه الهدنة أثر كبير في وقف تيار الحرب بين الفاطمين والبيزنطين فلما علم العزيز بتقدم البيزنطين فى شمال الشام ، استقر رأيه على أن يسير بنفسه لصد قواتهم، فجهز حملة برية، كما أمر بانشاء أسطول يسير بحرا الى طرابلس. ولم يكد يتم اعداد الأسطول حتى اشتعلت فيه النيران في ميناء المقس وأحترقت منه سته عشر مركبا، فثار المصريون بالروم الذين كانوا يقيمون على مقربة من دار الصناعة بالمقس وانهموا بتدبير مؤامره احراقه. وما لبث العزيز أن قضى على الاضطرابات التى حدثت بالقاهرة بسبب احراق الأسطول، وأمر بانشاء أسطول آخر . ولما تم بناؤه أبحر الى طرطوس[١] . غير أن معظم سفنه لم تلبث أن تحطمت فى البحر على اثر هبوب عاصفة عليها، وأسر الروم بعض رجال الأسطول المصرى. أما الحملة

(١) من أعمال اللاذقية بسوريا وتقع على ساحل البحر.

واكثر من السوال له فى وقت والتخويف فى وقت فلم يقدر منه على شى ولا رجع عن رايه، فعند ذلك اسلمه للعذاب فعذب عذابا شديدا فلم يرجع عن امانته، فقطعت راسه بالسيف على اسم السيد المسيح وتمت شهادته. بركاته تحل علينا وشفاعته تكون معنا، فاما جسده المقدس فاكرموه وعظموه النصارى ببغداد وبنو عليه بيعة وهى الان تعرف بكنيسة الهاشمى.

نقود الحاكم بأمر الله

ولما كمل القديس بولس ابن رجا عمارة

البرية ، فخرج على رأسها الخليفة العزيز الى بلبيس. ولكن المرض اشتد عليه فجأة، فتخلف بها وتوفى سنة ٣٨٦هـ (٩٩٦م).

٣. خلافة الحاكم بأمر الله:

خلف العزيز ابنه المنصور الذى لقب بالحاكم بأمر الله، وله من العمر احدى عشرة سنة ونصف سنة، فقام بالوصاية عليه مربيه برجوان الصقلى، وتقلد أبو الحسن بن عمار زعيم الكتاميين الوساطة، وهى دون الوزارة فى الرتبة.

على أن الحاكم، شعر رغم حداثته بخطورة منصب الخلافة الذى يتقلده، كما فطن الى حرص برجوان على الاستئثار بالسلطة واستهتاره به الى حد الاساءة اليه، فأضمر له الكراهة وعهد الى الحسين بن جوهر بقتله سنة ٣٩٠هـ.

بذل الحاكم جهودا كبيرة فى نشر الدعوة الفاطمية، واضطهد أهل الذمة والمسلمين غير الشيعيين ، غير أنه لم يستمر على هذه السياسة، فخفف من مظاهر تعصبه للمذهب الفاطمى، وأنشا مدرسة لتعليم المذهب السنى.

ولما اشتد تيار المجون فى عهد الحاكم، وأصبحت بعض نواحى القاهرة تغص بالملاهى وبخاصة شواطئ الخليج المصرى، فرض قوانين جديدة لمكافحة الانحلال الاجتماعى، ضيق فيها على حرية النساء، وحرم سماع المغنين والمغنيات، وفرض قيودا على بعض أنواع المآكل

الكنيسة التى لميكاييل فى راس الخليج عاد الى وادى هبيب واقام هناك سنتين، فلما رات الرهبان ما هو عليه من العبادة والعلم والمعرفة مسكوه قهرا وقسموه قسا فى اسكنا بنيامين المقدسة، فطالبوه تلاميذ البطرك بدنانير كعادتهم فصعب ذلك عليه جدا ولم يكن معه شى فراهم [فشاهدهم] بعض الاراخنة يطالبوه وقد ازعجوه بالطلب فدفع [الاراخنة] لهم عنه ما طلبوه.

نقود الحاكم بامر الله
ضربت فى اسكندرية

فلما بلغ خبره لابوه انه قد صار قسيسا لم يصبر

والمشرب، وأمر باتلاف أشجار الكروم المزروعة فى أنحاء الديار المصرية خشية استعمال العنب فى صنع الخمر.

حذا الحاكم حذو المعز والعزيز فى الاهتمام برصد النجوم ، ومعرفة ما وراءها من الأحداث. وفى الوقت الذى كثر فيه شغف الحاكم بالخروج لزيارة مرصده الذى أقامه بجبل المقطم لرصد النجوم، جاء الى مصر بعض دعاة الشيعة من بلاد الفرس. وكان أعظمهم تأثيرا فى السنوات الأخيرة من عصر الحاكم: حمزة بن على الزوزنى وحسن بن حيدرة الفرغانى المعروف بالأخرم، ومحمد ابن اسماعيل الدرزى. وكان من القائلين بألوهية الحاكم. وقد شرح دعوته وأصول مذهبه فى رسالة قدمها الى الحاكم ، فقربه اليه وارتفعت منزلته عنده.

وقد أثار اعلان محمد بن اسماعليل الدرزى أصول مذهبه فى الجامع الأزهر بعض رجال الدين فصاروا يتعقبونه حتى اضطر الى الرحيل عن مصر الى الشام حيث نزل ببعض قرى بانياس، وهناك . أخذ ينشر دعوة تأليه الحاكم، وتمكن أن يستميل الى جانبه كثيرا من الأنصار الذين أصبحوا يعرفون باسم الدرزية.

اكتنف الغموض نهاية حياة الحاكم، فقيل انه ركب فى ليلة الاثنين السابع والعشرين من شوال سنة ٤١١هـ(١٠٢١م) ، قاصدا جبل المقطم لرصد النجوم، ولم يعرف بعد ذلك مصيره. وبينما يروى بعض المؤرخين، أن أخته ست الملك، دبرت وقتذاك مؤامرة لقتله لأنه اتهمها فى أخلاقها، نرى فريقا آخر من المؤرخين يبرئ ست الملك من جريمة قتل أخيها

عليه قلبه بل انفذ دنانير الى عند بعض العربان الذين في تلك البرية ليقتلوه، فلما سمع [ذلك] بعض الرهبان اعلموه وقالو له: قد فعلت ما يجب واظهرت اسم المسيح في الموضع الذى لا يجب اظهاره، والان فلا تسلم نفسك للموت لكن امضى الى الريف فكن فيه مخفيا، فاطاعهم وخرج الى سندفا [جزء من المحلة الكبرى] فاقام فيها سنتين وصار قيم في كنيسة الشهيد تادرس ملازما لخدمتها ليلا ونهارا، فدخل الشيطان في

الحاكم، ومن بينهم يحيى بن سعيد الأنطاكي الذى بدأ في كتابة تاريخه سنة ٤٠٥هـ، اذ تحدث عن مصرع الحاكم دون أن يذكر شيئا عن صلة أخته بهذا الحادث ومن ذلك الفريق أيضا المقريزى الذى قال ان اتهام ست الملك بقتل أخيها جاءنا من كلام المشارقة.

ومما يذكر للحاكم، اهتمامه ببناء كثير من المنشآت، فأتم مسجد أبيه العزيز الذى يعرف الآن بجامع الحاكم ، كما شيد جامع المقس وزاد في بناء الجامع الأزهر ، ووقف عليه الأوقاف الكثيرة ونقل اليه كثيرا من الكتب ، وفضلا عن ذلك فقد أسس دار الحكمة سنة ٣٩٥هـ لدراسة فقه الشيعة وعلوم اللغة والفلك والطب والرياضة والفلسفة والمنطق والتنجيم كما زودها بمكتبة عرفت بدار العلم حوت الكثير من الكتب في سائر العلوم والآداب.

٤. خلافة الظاهر لاعزاز دين الله:

كان الخليفة الحاكم قد وقع اختياره سنة ٤٠٤هـ على ابن عمه الأمير أبي القاسم عبد الرحيم بن الياس بن أحمد بن المهدى، ليكون ولي عهده على الرغم من أن له ولدا يسمى أبا الحسن على في التاسعة من عمره. وكان يعيش مع أمه في قصر عمته ست الملك خوفا من قسوة أبيه عليه.

أفرد الحاكم لولي عهده عبد الرحيم مكانا في قصره، ودعى له على المنابر وضربت باسمه السكة. وكان في بعض الأحيان ينيبه في الاشراف على شئون الدولة أثناء طوافه بأنحاء القاهرة، وظل على هذه الحال الى أن عينه سنة ٤٠٩هـ واليا على دمشق.

قلب قوما منهم فاذاعو خبره في سندفا والمحلة [الكبرى] وتحدثو بقضية حاله، فكان ذلك قبل وفاته بيومين، واتفق حضور شماس من اهل منوف اسمه تيدر ابن مينا وكان يوميذا كاتب السنوديقا بكرسى مارى مرقس البشير وهو الذى اخذت انا الحقير ميخايل ناظم هذه السيرة خدمته بعد وفاته، فلما دخل البيعة المذكورة بسندفا فوجد القديس بولس ابن رجا وهو مريض بحما شديدة فقال له بولس المذكور مطانوه: لا تفارقنى حتى توارينى

على أن تعيين عبد الرحيم وليا لعهد الحاكم، لم يلق قبولا من أخته ست الملك وكبار رجال الدولة، فلما توفى هذا الخليفة سنة ٤١١هـ، بويع ولده أبو الحسن على بالخلافة في يوم عيد الأضحى من هذه السنة، ولقب بالظاهر لاعزاز دين الله، وهو فى السادسة عشرة من عمره.

وقد قامت ست الملك عمة الخليفة الظاهر بالوصاية عليه، فى الفترة الأولى من حكمه، فتولت تدبير شئون الدولة وتوطيد دعائمها، ببراعة وحزم نادرين، وبعثت فى طلب ولى العهد السابق الأمير عبد الرحيم بن الياس من دمشق، ثم لم تلبث بعد ذلك أن رأت فى بقائه خطرا على الخلافة، فدست عليه من قتله.

رأت ست الملك خلال فتره قيامها بالوصاية على ابن أخيها أن تعيد النظر فى جميع الاقطاعات والمنح التى قررها الحاكم والتى غدت عبئا ثقيلا على موارد الدولة، فألغت معظمها وردت ما أبطله الحاكم من المكوس.

لم يخل عهد وصاية ست الملك، من بعض أعمال العنف، فرأت أن تتخلص من الوزير الخطير رئيس الرؤساء أبو الحسن عمار بن محمد، خشية من نفوذه وتأثيره على الظاهر الذى كان مشغوفا بملازمته، وانتهى الأمر بقتله فى ربيع الأول سنة ٤١٢هـ، فخلفه بدر الدولة أبو الفتوح موسى بن الحسين فى المحرم سنة ٤١٣هـ، لكنه مالبث أن قبض عليه وقتله وولى الوزارة بعده الأمير شمس الملوك المكين مسعود بن طاهر.

التراب وتاخذ البركة فما بقى لى فى العالم الا يومين فاذا انا قبضت فبادر بدفنى قبل ان يعلمو المسلمين فياخذو جسدى فيحرقوه بالنار. وكان قوله روح نبوة تكلمت فيه، فلما كان بعد يومين تنيح كما قال فاذاع الشيطان خزاه الله خبره فى المحلة وسندفا، فعدو اهل المحلة الى سندفا واجتمعو اهل المدينتين فى اقل من ساعة وحاطو بالبيعة التى تنيح فيها، فتحير الشماس تيدر المقدم ذكره ولم يدرى ما يعمل بجسده، وفيما هو هو حاير يمشى

لما توفيت ست الملك سنة ٤١٥هـ، استقل الخليفة الظاهر بادارة شئون الدولة، فأبدى اعتدالا وروية فى الأعمال، وجنح الى الحلم والتواضع. وأعلن بعد مضى ثلاثة أعوام على وفاة الحاكم براءته من دعوى الألوهية التى قيلت فى أبيه وأسلافه. وكان متأثر فى ذلك برغبته الصادقة فى تطهير مصر من هذه الفتنة. ولا غرو فقد عرف هذا الخليفة بميله الى استعمال العنف فى مطاردة الخارجين على الدين، فأصدر الأوامر بتتبعهم فى سائر البلاد، كما جاهر بانكارما ادعاه بعض الناس من تأليه آبائه، وهدد كل من تحدثه نفسه بذلك فى رسالة أذاعها على المصريين.

أسند الخليفة الظاهر سنة ٤١٨هـ، منصب الوزارة الى نجيب الدولة على بن الجراجرانى. وكان هذا الوزير من جرجرايا ـ احدى قرى بلاد العراق، ثم انتقل الى القاهرة، فى عهد ابيه الخليفة الحاكم بادارة بعض الدواوين. ولما أساء التصرف فيها، أمر بقطع يديه من المرافق، وعينه واليا على ديوان النفقات سنة ٤٠٩هـ. وظل يتنقل فى بعض الوظائف الادارية ببلاد الصعيد الى أن اختاره الظاهر، وزيرا له، فاتخذ القاضى أبا عبد الله القضاعى كاتبا له، ونظم شئون الدولة، كما أظهر حرصا شديدا على أموالها.

وكان الظاهر على النقيض من أبيه فى سياسته تجاه أهل الذمة، فلم يكد يتولى الخلافة، حتى عمل على اكتساب عطفهم، بأن أصدر بيانا، أعلن فيه أنهم أحرار فى عقائدهم

فى البيعة نزلت رجله تحت العتبه فتامل الموضع فوجده مطمورة حسنة نظيفة مخفية، فانزل جسد القديس بولس فيها واردم التراب واعاد البلاطة كما كانت عليه واصلح الموضع كما يجب، ثم فتح الباب فدخل اوليك المجتمعين وطلبو جسده فلم يجدوه، فطافو البيعة كلها فلم يجدوه فخرجو مخزيين.

وهذا الشماس تيدر هو الذى شرح لى حال هذا القديس بولس ابن رجا من اوله الى اخره عن

وشعائرهم وأنه لا اكراه فى الدين، وأن من آثر منهم الدخول فى الاسلام اختياراً من قلبه وهداية من ربه، فليدخل فيه مقبولا مبرورا، ومن آثر بقاءه على دينه من غير ارتداد كان عليه ذمته وحياطته..

كذلك وجه الظاهر عنايته الى ترقية شئون البلاد، وتحسين حالة الزراعة، فأمر بمنع الناس من ذبح البقر و أباح ذبح الحيوانات التى لاتستخدم فى حرث الأرض وذلك على أثر الوباء الذى أصاب بعض الأنعام. وكتب الى الناس كتابا، جاء فيه:

«ان الله تعالى بتتابع نعمته وبالغ حكمته خلق ضروب الأنعام وعمل فيها منافع الأنام، فوجب أن تحمى البقر المخصوصة بعمارة الأرض المذللة لمصالح الخلق، فان فى ذبحها غاية الفساد وضرار للعباد والبلاد».

ولم يقم الخليفة الظاهر بناء كثير من المنشآت لانشغاله بضبط الأمور فى داخل البلاد المصرية. وقد تم فى عهده بناء قصر اللؤلؤة ويعد من أجمل القصور التى بنيت فى القاهرة فى عهد الفاطميين. وكان الظاهر يتنزه فى هذا القصر، كما كان بعض الخلفاء يختلفون اليه فى وقت فيضان النيل. وقد ظل حافظا لرونقه الى أن وقع الغلاء بمصر فى عهد المستنصر بالله الفاطمى، واضطربت الأمور فى البلاد من جراء النزاع بين الجند السودانيين والأتراك، فاصابه بعض التلف.

حكايته له من فمه الصادق فكتبت ما قاله، وحكى عنه انه قال كلما جرى علي من العذاب وما حل بي من الهوان لم يقلقني غير ثلثة اشيا وهي مجامعة اخي لسريتي قدامي، وتغريق ولدي منها قدامي وانا انظره، واعظم منهما البطرك يبصرني وتلاميذه يطالبوني بالدنانير على قسمته لي قسيسا وهو ساكت لا يمنعهم ولا يردعهم.

نقود المستنصر

وكان الاب فيلاتاوس البطرك مستمر على جمع

على أن الأمر الذي يسترعي النظر في خلافة الظاهر، هو ما كان من تقلص نفوذ الفاطميين في كل من بلاد الشام والحجاز بعد أن توطدت سلطتهم فيها أيام المعز والعزيز. ويرجع السبب في ذلك الى ميل الظاهر للتسلم، ومن ثم لم يركز اهتمامه على استعادة نفوذ مصر على هذه البلاد.

لم يستمر الظاهر طويلا في الخلافة، فقد توفي في منتصف شعبان سنة ٤٢٧هـ ببستان الدكة بالمقس، وأخذ الوزير الجرجرائي البيعة لابنه أبي تميم معد ـ وكان في السابعة من عمره ـ وتلقب بالمستنصر بالله.

٥. خلافة المستنصر بالله:

ازدادت في أوائل عهد المستنصر سلطة أبي سعيد ابراهيم بن سهل التستري اليهودي. ويرجع السبب في ذلك الى أن أم الخليفة كانت من قبل أمة في بيته، ثم أهداها الى الظاهر، فأنجبت منه ابنه تميم معد الذي ولي الخلافة بعده وتلقب بالمستنصر. وسرعان ما علا شأن التستري عند هذا الخليفة، وأخذ يتدخل في شئون الدولة.

وعندما توفي الجرجراني سنة ٤٣٦هـ، خلفه في الوزارة أبو منصور صدقة بن يوسف الفلاحي الذي عمل على التخلص من التستري لاستئثاره بالسلطة دونه، وحدث في هذه الأثناء بعض أحداث ساعدت الفلاحي على تحقيق غرضه، ذلك أن أهالي البحيرة قاموا بثورة،

المال والاكل والشرب، وقيل انه بنا حمام في داره وكان يدخلها كل يوم واذا خرج يبخر ببخور طايل جدا ثم يجلس يحكم ويامر وينهي الى اربعة ساعات من النهار ثم يقوم، واذا كانت سادس ساعة يهيا له من الطعام والشراب ما يحتاج اليه وفواكه ويقوم يدخل داره ويحضر عنده قوم عادتهم جارية ان يجالسوه وينادموه من اهل دمرو ومن اهله واقاربه فياكل معهم ويشرب ولا يصل اليه احدبقية يومه الى تاني يوم، ودفعات كثيرة

نقود المستنصر ضربت سنة ٤٢٨ هـ

فأنفذ اليهم المستنصر جيشا تحت قياده عزيز الدولة ريحان، ولما تمكن من اخماد ثورتهم وانتصر عليهم شمله الخليفة بعطفه ورعايته وقربه اليه. وقد عمل ريحان على اكتساب رضاء المغاربة، فزاد في أعطياتهم وقلل من أعطيات الأتراك، مما أثار التخاصم والنزاع بين الفريقين. ولما توفي ريحان، انتهز الوزير الفلاحي هذه الفرصة ونال من خصمه التسترى الذى كان يحقد عليه لاستبداده بالسلطة، فأذاع بين الجند أن التسترى دس السم لريحان، فانقض عليه ثلاث من الأتراك وقتلوه. غير أن ذلك لم يحمل المستنصر على صرف آل التسترى عن مناصب الدولة، فأسند الى أخيه أبي نصر ديوان خاصته، وقلد ابنه ادارة أحد الدواوين.

لم يكن قتل التسترى مكروها لدى المسلمين لانحيازه الى أبناءجلدته من اليهود، واسناده مناصب مناصب الدو لة اليهم. وقد عبر ابن البواب ـ أحد الشعراء المعاصرين ـ عن استئثار اليهود بالسلطة في هذه الأبيات:

يهود هذا الزمان قد بلغوا
غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهم
ومنهم المستشار والملك

يجلس للاكل والشرب من بكرة او ثالث ساعة من النهار ما خلا الايام التى يجب فيها الصوم.

فلما استمر على ذلك ادبه الله بضربه لامر صادفه، وذلك انه فى بعض الايام فى الحمام ومعه تلميذه يخدمه فخرج ياخذ دلوك [طعام، وهو الشريد] وعاد فوجده مطروحا لا يعى ولا يفيق، فحمله واخرجه منها واحضرو له الاطبا وتعبو فى مداواته فلم يقدرو له على حيلة لان يد الرب ضربته وبقى هكذى الى يوم وفاته.

نقود زجاجية مضروبة فى عهد الدولة الفاطمية.

يا أهل مصر انى قد نصحت لكم
تهودوا، فقد تهود الفلك

كانت مصر فى أوائل عهد المستنصر تتمتع بكثير من الطمأنينية والرخاء، ويتبين لنا ذلك مما ورد فى كتاب سفرنامه لنا صرى خسرو، الذى طاف فى كثير من بلاد العالم الاسلامى فى القرن الخامس الهجرى، ومن بينها مصر، فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ولاحظ أنها تتمتع بكثر من الرخاء.

وصف ناصرى خسرو مدينة القاهرة المعزية، فى الوقت الذى زارها فيه بين سنتى ٤٣٩، ٤٤١هـ، فقال انه كان بها مالا يقل عن عشرين ألف دكان، يؤجر كثير منها بعشرة دنانير فى الشهر، وليس بينها الا قليل، تبلغ أجرته دينارين فى الشهر. وكان فيها من الخانات والحمامات مالا يمكن حصره.

وكان قصر الخليفة فى وسط القاهرة، وبينه وبين الأبنية المحيطة به فضاء يفصله عنها، ويقوم بحراسته فى الليل خمسمائة فارس وخمسمائه حارس من الرجالة. وكانت أسواره عاليه، فلا يستطيع أحد رؤيته من داخل المدينة. وكان للقصر عشر بوابات فوق الأرض، وباب يقود لاى ممر تحت الأرض، يعبره الخليفة ليصل الى قصر آخر.

على أن هذا الرخاء الذى كانت تتمتع به مصر فى أوائل عهد المستنصر لم يدم طويلا،

وكان الملك العزيز لله ابن المعز لدين الله قد رزق ولدا من سرية له رومية وجلس فى الملك بعده ولقب بالحاكم بامر الله، وكان للسرية المذكورة التى هى ام الحاكم اخ اسمه ارسانى [يذكر باسم ارسطس Orestes] فجعلته بطركا للملكيه بعنايتها لان السلطان كان لها فقوى على بيعنا بفسطاط مصر، وكان لنا بقصر الشمع بيعتين على اسم الست السيدة الطاهره احدهما المعلقة والاخرى بزقاق ابو حصين، فاراد ان ياخذ المعلقة فجرت

جندیان من حراس الخليفة الفاطمى

فقد انخفض النيل سنة ٤٤٠هـ، وانتشرت المجاعة فى البلاد وحل بها الوباء، فاختل الأمن وعمت الفوضى.

وقد وجه الوزير أبو محمد الحسن اليازورى، الذى أسندت اليه الوزارة فى المحرم سنة ٤٤١هـ، اهتمامه الى معالجة خطر المجاعة التى كانت تهدد البلاد، فاستولى على مخازن الغلال وقام بتوزيع ما فيها على الأهلين، وظل هذا الوزير فى منصبه حتى أول المحرم سنة ٤٥٠هـ (١٠٥٨م) حيث قبض عليه المستنصر بتهمة مراسلته طغرلبك السلجوقى ودعوته لغزو مصر، ثم أبعده الى تنيس (١) فظل محبوسا بها الى أن قتل فى ٢٢ صفر سنة ٤٥٠هـ.

على أن الحالة لم تلبث أن رجعت بعد وفاة هذا الوزير الى ما كانت عليه من الفوضى، فتعاقب على الوزارة أربعون وزيرا فى تسع سنوات، كما قام نزاع بين عناصر الجيش، فاشتبك الأتراك مع الجنود السودانية الذين كانوا عماد الخليفة. ويرجع السبب المباشر فى قيام النزاع بين هاتين الطائفتين الى أن بعض الأتراك كان قد رفع سيفه على أحد السودانيين الذين كانوا فى ركاب المستنصر خارج القاهرة، فهجم عليه كثير من العبيد وقتلوه. وكان لهذا الحادث أسوأ الأثر فى نفوس الأتراك، فساروا الى المستنصر وقالوا له:«ان كان هذا عن رضاك، فالسمع

(١) كانت تقع هذه المدينة على جزيرة فى بحيرة المنزلة. ولم تزل عامرة الى سنة ٥٧٣هـ (١١٧٧م) انظر الهامش العلوى ص٢٠٤.

لمقدمينا معه خطوب كثيراة وخصايم الى ان اخذ كنيسة السيدة بزقاق ابو حصين وبقيت المعلقة لنا.

وفى ايامه انفذ ملك الحبشة(*) الى ملك النوبة كتابا واسمه جرجس وعرفه ما ادبه الرب به هو واهل كورته، وهو ان امراة ملكة على بنى الهموية ثارت عليه وعلى كورته وسبت منها خلق كثير واحرقت مدن كثير واخربت البيع وطردته من مكان الى مكان وان هذا الذى لحقه جزى [جزاء]

(*) ملك الحبشه يطلب من ملك النوبه أن يتوسط له لدى البطرك فيلاتاوس ليرسل له مطران.

والطاعة وإن كان من غير رضى أمير المؤمنين، فلا نرضى بذلك». فأظهر لهم المستنصر براءته مما حدث. لكن الأتراك سرعان ما عدوا على محاربة السودانيين والتقوا بهم بناحية كوم شريك[1]، حيث أقعوا بهم هزيمة منكرة فاستاءت من ذلك أم المستنصر لأنها كانت تتخذهم عونا لفرض ارادتها، فأمدت العبيد بالأموال والسلاح سرا، ولما وقف الأتراك على هذه المساعدة، عادوا ثانيا الى محاربة السودانيين، غير أن المستنصر سرعان ما ندب الوزير أبا الفرج ابن المغربى ليصلح بينهم، فاصطلحوا صلحا يسيرا. ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى اجتمع السودانيون بالجيزة، وخرج اليهم الأتراك تحت قيادة ناصر الدولة الحسين بن حمدان التغلبى، واشتبك الفريقان فى عدة معارك، انتهى الأمر فيها بهزيمة السودانيين، واستقرار خمسة عشر ألفا منهم بالصعيد، حيث عاثوا فى البلاد فسادا سنة ٤٥٩هـ.

كان من أثر الهزائم التى لحقت بالسودانيين، أن استفحل أمر الأتراك، وأخذوا يطالبون الخليفة بزيارة مرتباتهم سنة ٤٦٠هـ، فزاد فى أعطياتهم حتى بلغت أربعمائة ألف دينار فى كل شهر بعد أن كانت ثمانية وعشرين ألف دينار. غير أنهم لم يقنعوا بالمرتبات التى قررها لهم المستنصر، بل ألحوا فى زيادة مخصصاتهم. ولما أظهر لهم عجزه عن تلبية طلباتهم لقلة ايرادات الدولة، ألزموه ببيع ذخائره، فأخرج ما كان بقصره من الذخائر وأخذ الأتراك يقومونها

(١) احدى قرى مركز كوم حماده بمحافظة البحيرة.

عما كان الملك الذى قبله فعله مع المطران فى ايام الاب انبا قزما مما قد شرحناه اولا من تزويره وكذبه، وقال له فى الكتاب الذى انفذه له: احب ان تساعدنى وتشاركنى فى التعب منجل الله ومن اجل اتفاق الامانة، وتكتب كتاب من جهتك الى الاب البطرك بمصر تسله ان يحللنا ويحلل بلادنا ويصلى علينا ليزيل الله عنا وعن ارضنا هذا البلا، وينعم لنا بان يقسم لنا مطران كما جرت عادة ابابنا ويدعى لنا بان يزيل الله غضبه عنا، وذكرت

بأبخس الأثمان. ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل ارتكبوا أعمال العنف والشدة، ونهبوا قصر الخليفة وأخذوا ما كان فيه من الأسلحة والأوانى المصنوعة من الذهب والمرصعة، بالأحجار الكريمة. كما أغاروا على المكتبات ونهبوا ما فيها من الكتب، وباعوا كثير ا منها بثمن بخس.

كذلك عمد ناصر الدولة بن حمدان قائد الأتراك، بعد تغلبه على السودانيين الى الاستبداد بالأمور دونهم، كما استأثر بأموالهم.. وكان ذلك مما جعلهم يسعون الى الخلاصة منه، فرفعوا شكاياتهم من تصرفاته الى خطير الملك وزير المستنصر، فحسن لهم الخروج عليه ومناهضته، ثم توجهوا الى المستنصر وأظهروا له استياءهم من ناصر الدولة، فبعث اليه المستنصر يأمره بالرحيل عن مصر، فسار ناصر الدولة الى الجيزة، وما لبث الخليفة أن خرج على رأس فريق من جنده لمحاربته، وألحق به هزيمة ساحقة، فمضى منهزما فى نفر قليل من أصحابه الى اقليم البحيرة حيث انضم اليه فريق من الأعراب.

على الرغم من أن المستنصر، أظهر بعض الجرأة خلال هذه الاضطرابات وتمكن من هزيمة ناصر الدولة، الا أن سلطته لم تعد تتعدى فى الواقع حدود عاصمته، فبينما كان الجند السودانيون يثيرون الاضطرابات فى الوجه القبلى، كان نحو من أربعين ألف فارس من قبيلة لواته والأعراب تحت زعامة ناصر الدولة يغيرون على الوجه البحرى وينهبون بلاده، ويحطمون الجسور والقنوات مما ترتب عليه انقطاع المؤن والامدادات عن القاهرة والفسطاط. ولم يقف

لك ايها الاخ ذلك خوفا من ان ينقرض ويبطل دين النصرانية من عندنا لان هوذا ستة بطاركة قد جلسو ولم يلتفتو الى بلادنا بل هى سايبه بلا راعى، وقد ماتو اساقفتنا وكهنتنا، وقد خربت البيع وعلمنا انه بحكم حق نزل علينا هذا البلا عوضا مما فعلناه بالمطران. فلما وصلت الكتب الى جرجس ملك النوبه ووقف عليها انفذ من جهته كتبا ورسلا الى البطرك فيلاتاوس وشرح له فيها جميع ما ذكره ملك الحبشة وساله ان يترااف على

الأمر عند هذا الحد، بل ان ناصر الدولة، أرسل الى ألب ارسلان سلطان السلاجقة رسولا من قبله، يسأله أن يرسل اليه عسكرا ليقيم الدعوة العباسية، على أن تؤول اليه السيادة على مصر، فرحب ألب أرسلان بذلك، غير أنه مالبث أن شغل بمحاربة الروم، مما حال دون تحقيق أطماعه.

ولما بلغ المستنصر مراسلة ناصر الدولة ألب أرسلان، وطلبه ارسال عسكر اليه، جهز جندا من الأتراك لمحاربته، فأوقع بهم ناصر الدولة الهزيمة، وغنم منهم مغانم كثيرة، وأقام الخطبة للخليفة القائم بأمر الله العباسى فى الاسكندرية ودمياط، وجميع أنحاء الوجه البحرى، وحال دون وصول الأقوات الى القاهرة ومصر.

وكان مما زاد الحالة سوءا، تلك المجاعة التى بدأت بانخفاض النيل سنة ٤٥٧هـ، واستمرت سبع سنين، فقلت الأقوات بالقاهرة ومصر وغلت الأسعار. وقد عانى الأغنياء وكبار رجال الدولة من هذه المجاعة مثل ما عاناه الفقراء، واضطر بعض أصحاب النفوذ والأعيان الى مغادرة مصر والرحيل الى بلاد الشام والعراق.

رأى الجند الأتراك بعدما حل بهم وبالخليفة المستنصر من الشدائد بسبب المجاعة أن يصالحوا ابن حمدان على أن يظل مقيما واليأ بالبحيرة، ويحمل اليه مبلغ مقرر من المال ويكون القائد

شعبة، فاجاب سواله ورسم لهم راهبا من دير ابو مقار اسمه دانيال وانفذه لهم مطرانا فقبلوه بفرح وازال الله عنهم الغضب وابطل امر الامراة التى قامت عليهم.

وفي ايام هذا الاب ظهرت عجايب كثيرة شهد بها الثقات الصادقين، منها ان الشمس اظلمت من ثالث ساعة من النهار الى الساعة السادسة وكانت

تاج الملوك شاذى نائبا عنه، فرضى بذلك، وأرسل الغلال الى القاهرة ومصر، مما أدى إلى توفر القوت الضرورى للأهالى.

على أن تاج الملوك شاذى، سرعان ما نقض هذا الصلح، وصار لايرسل لابن حمدان الا القليل من المال، مما حمله على المسير فى جموع من العربان الى الجيزة حيث تمكن من القبض على تاج الملوك شاذى، كما أطلق لجنده العنان فى الفسطاط، فنهبوا دورها، وأشعلوا فيها النيران، فأنفذ اليهم المستنصر فريقا من الدولة وفرارهم الى البحيرة. لكن ناصر الدولة رغم ذلك واصل العمل على اضعاف شأن الخليفة الفاطمى والاستئثار بالحكم، فحذف فى سنة ٤٦٤هـ اسم المستنصر من الخطبة فى الوجه البحرى، وبعث الى الخليفة القائم بأمر الله العباسى ببغداد يلتمس الخلع، ثم قدم الى الفسطاط على رأس جيش كبير، وتولى الحكم فيها، وأرسل الى المستنصر، يطلب منه الأموال. وكان اذ ذلك قد امتنع بقصره.

كانت حالة المستنصر حين وفد اليه رسول ناصر الدولة تنبئ بزوال سلطان الخلافة عنه، فلما علم بذلك ناصر الدولة، أطلق للخليفة مائة دينار كل شهر، وبالغ فى اهانته، وأظهر ميله الى مذهب أهل السنة، واضطر كثير من أقارب المستنصر وأولاده الى الهروب للمغرب والعراق.

خشى الأتراك على أنفسهم من جراء استبداد ناصر الدولة بالأمور فى القاهرة، واقامته

الظلمة مثل الليل وظهرت النجوم فى السما وبكو الناس وحزنو وظنو انه امرا لا ينقضى، ومن بعد ذلك ترحم الله وظهرت الشمس.

وحكى سرور ابن جرجه ارشي دياقن اسكندرية انه حضر يوما فى بيعة مارى مرقس الانجيلى باسكندرية وفيها انبا فيلاتاوس البطرك ومعه جماعة من الاساقفة منهم انبا مرقس اسقف البهنسى وانبا سويرس اسقف ابو صير وان البطرك

الدعوة العباسية وعمله على ازالة خلافة الفاطميين، فاتفقوا على تدبير مؤامرة لقتله، وركب الى داره فريق منهم ذات ليلة، وانقضوا عليه بسيوفهم، ولم يكتفوا بذلك، بل تتبعوا كل أفراد أسرة بنى حمدان بمصر وتخلصوا منهم.

لم تنته الفوضى والاضطرابات التى تعرضت لها مصر بقتل ناصر الدولة بن حمدان، بل سرعان ما ازداد نفوذ قواد الأتراك واستبدوا بالأمور دون المستنصر، حتى ضاق بهم ذرعا، واضطر سنة ٤٦٦هـ أن يبعث الى بدر الجمالى والى عكا، يطلب منه القدوم ليتولى تدبير شئون دولته، واصلاح ما فسد من أمور مصر، فاشترط أن يحضر معه من يختاره من عساكر بلاد الشام، ليستعيض بهم عن الجند الأتراك والمغاربة والسودانيين الموجودين بمصر، فوافقه المستنصر على طلبه.

ولما أتم بدر الجمالى اعداد عدته للرحيل الى مصر، أبحر من عكا ومعه عدد كبير من جند الأرمن وغيرهم، ونزل بجنده دمياط حيث اقترض من تجارها بعض المال، ثم تابع سيره حتى وصل القاهرة على رأس جنده الأرمن، فاستقبله الجند الأترك استقبالا وديا لأنهم لا يعلمون شيئا عن نواياه نحوهم، ومالبث أن دبر مؤامرة للتخلص من قوادهم.

رحب الخليفة المستنصر بقدوم بدر الجمالى. وبلغ من تقديره لكفايته، أنه حين شرع فى العمل على توطيد الأمن واصلاح حال البلاد، خلع عليه بعقد من الأحجار الكريمة، وقلده

طلع الى هيكل مارى مرقس ووقف عل البلاطه السودا وقدس فلما رفع الضورون [القربان] اسكت فلم يقدر ينطق بكلمة فلقنوه الاسقفان المذكوران الكلام فلم يقدر ينطق بكلمة واحدة فجلس وطلع انبا مرقس اسقف البهنسى فكمل القداس والتفصيل وقرب الشعب وحمل البطرك الى دار ابو مليح ابن قوطين عامل اسكندرية وهو والد ابو الفرج وعبيد، ولم يزال الاب البطرك ساكتا الى تسع ساعات من النهار واسقوه طين

وزارة السيف والقلم. كما زاد في ألقابه السيد الأجل أمير ا لجيوش، كافل قضاة المسلمين وداعى دعاة المؤمنين.

كان يحيط ببدر الجمالى جنده الأرمن الذين عرفوا بالمشارقة، تمييزا لهم عن الأتراك والبربر والسودان، وتفانوا فى الاخلاص له، واحتفظ كثير منهم بديانتهم المسيحية، وكان يرافقهم بطرك خاص بهم ولم يظهر هؤلاء الأرمن تذمرا من البقاء فى مصر ، بل آثروا الاقامة بوطنهم الجديد، على العودة الى بلادهم، لتعذر حصولهم فيها على مقومات الحياة.

اتخذ بدر الجمالى مقرا لاقامته بحارة برجوان بالقاهرة. وعول على اعادة الأمن والاستقرار فى العاصمة، واستعادة كل ما يمكن أن تصل اليه يده من كنوز الخليفة التى نهبت من قصره. وعندما فرغ بدر الجمالى من اعادة الأمور الى نصابها فى العاصمة والفسطاط وجه اهتمامه الى بقية الأقاليم، فاتجه أولا نحو الوجه البحرى، فأخضع بنى لواته، كما توجه الى دمياط وقتل المفسدين ثم سار الى الصعيد سنة ٤٦٩هـ، حيث كان الجند السودانيون وجماعة من عرب جهينة والثعالبة والجعافرة، يثيرون الاضطرابات فهاجمهم وأخمد حركاتهم، وأعاد نفوذ الخليفة على جميع الوجه القبلى حتى أسوان.

ولم تكن الحالة بالاسكندرية، أحسن منها فى غيرها من المدن المصرية فقد ثار بها سنة ٤٧٧هـ، الأوحد على أبيه بدر الجمالى، والتف حوله جماعة من الأعراب، فسار اليه أبوه

ابيض وماورد [ماءورد]. فلما افاق سالوه الجماعة ان يعلمهم السبب فيما ناله فامتنع، فالحو عليه بالسوال، فقال: يا اولادى لما رفعت الضورون ومن قبل ان اصلب عليه رايت الشاق [الطاق] قد انشق وخرجت منه يد من راس الحنيه الى اسفل فصلبت اليد عل الضورون فانشق فى يدى واسكت للوقت. فلما قال هذا جف منه عضو وبقى جاف. وكانت مدة بطركيته اربعة وعشرين سنة وثمانية شهور، وتنيح فى اليوم الثانى عشر من هتور، وقيل

وقبض عليه، كما قتل فريقا من أتباعه، ثم صادر كثيرا من أموال أهالى الاسكندرية، وأنفق منها على بناء جامع العطارين الذى ظلت تقام به الخطبة الى أن استبد صلاح الدين بالأمور فى مصر سنة ٥٦٧هـ.

استطاع بدر الجمالى بعزمه ومهآرته، أن يعيد الى البلاد المصرية ما كانت تتمتع به من رخاء قبل الشدة العظمى التى حلت بها، واستمرت سبع سنوات(٤٨٧ـ ٤٦٤هـ، فعاد الفلاحون الى الأرض يزرعونها، وتحسنت أحوالهم، بعد أن رفع عن كاهلهم بعض الأعباء المالية.

كذلك عنى بدر الجمالى بتحصين مدينة القاهرة، لصد هجمات المغيرين عليها، فأعاد بناء السور المحيط بالقاهرة المعزية، واستخدم الحجارة فى تجديده سنة ٤٨٠هـ. كما بنى باب الفتوح أيضا فى هذه السنة، فى مكان آخر، غير الذى بنى فيه جوهر بابه.. وتفيدنا النقوش التى عثر عليها أخيرا بسور القاهرة، أن هذا الباب كان يعرف بباب الاقبال. كذلك نقل بدر الجمالى باب النصر الذى بناه جوهر الى المكان الذى يوجد به الآن. وبنى فى سنة ٤٨٤هـ باب زويلة الكبير. وقد استعان بدر الجمالى فى تجديد بناء هذه الأبواب بثلاثة اخوة من مدينة الرها، بنى كل منهم باب.

على أن الأمر الذى يسترعى النظر فى سياسة بدر الجمالى فى مصر، أنه انتهز فرصة

عن اهله انهم وجدو له مالا عظيما من جملة ما جمعه فى بطركيته وقسموه فيما بينهم وكانو اربعة اخوة ونفذ المال منهم. ورايت انا ميخاييل منهم انسان فى زمان غلا وهو يتسول.

وفى ايامه مات العزيز ملك مصر وجلس ولده الحاكم(*) وكان صغيرا جدا وكانت له امور عجيبة وسنذكر شيا منها بمعونة الله الذى له المجد والقدرة الى ابد الابدين امين.

(*) وفاة الملك العزيز وتولى الحاكم بأمر الله مكانه.

استبداده بالسلطة فى أواخر عهد المستنصربالله الفاطمى وعهد لابنه الأفضل الاستيلاء على مقاليد الأمور فى الدولة فجعله ولى عهده. ولما توفى بدر فى جمادى الأولى سنة ٤٨٧هـ، وهو فى الثمانين من عمره، خلفه ابنه الأفضل شاهنشاه فى الوزارة، وظل المستنصر فى عهد وزارته كالمحجور عليه الى أن توفى فى ١٧ ذى الحجة سنة ٤٨٧هـ.

***

أما عن سياسة الفاطميين الخارجية فى عهد المستنصر بالله، فقد تركزت فى العمل على الاحتفاظ بالسيادة الفاطمية فى بلاد الحجاز، والابقاء على نفوذهم فى بلاد اليمن، كما أن بلاد العراق كانت محط أنظار الفاطميين على اعتبار أنها مقر الخلافة العباسية، لذلك عهدوا الى دعاتهم بالرحيل الى العراق لنشر دعوتهم. وقد صادف هؤلاء الدعاة، كثيرا من النجاح فى هذا السبيل، كما لقيت صفوف جند بنى بويه، عدد غير قليل يميل الى الفاطميين. وكان ذلك مما مهد السبيل لنجاح أبى الحارث أرسلان البساسيرى فى اقامة الدعوة للخليفة المستنصر بالله الفاطمى من منابر بغداد منتصف القرن الخامس الهجرى. غير أن هذه الدعوة لم يكتب لها البقاء فترة طويلة، فسرعان ما دخل السلاجقة بغداد وأعادوا الخطبة للخليفة العباسى القائم بأمر الله.

السيرة الخامسة والعشرين من سير البيعة المقدسة
انبا زخارياس البطرك وهو من العدد
الرابع والستون [١٠٠٣/ ١٠٣٢م]

سفينه حربية خفيفة فاطمية
تحمل بعض الجنود المسلحين.

فلما كان فى مملكة الحاكم بامر الله المسمى الامام المنصور وكان كرسى اسكندرية خال اجتمع السنودس ليقدمو بطركا، وفيما هم يتشاورو كان باسكندرية رجلا موسرا اسمه ابراهيم ابن بشر وكان له كرامة عند الولاة وكلمن فى البلد يسمع

كذلك كان للفاطميين علاقات مع الدولة البيزنطية، اتسمت بالتوتر فى كثير من الأحيان، ويرجع السبب فى ذلك الى تهديد البيزنطيين الحدود الشمالية للشام، واستيلائهم على بعض المدن الشامية، وظل النزاع قائما بين الدولتين الفاطمية والبيزنطية حتى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله حيث عقدت معاهدة صداقة بين هاتين الدولتين. غير أن هذه المعاهدة لم تؤد الى استمرار الوئام بين الفاطميين والبزنطيين، وصارت العلاقات بين الدولة الفاطمية فى عهد المستنصر وبين الدولة البيزنطية لا تستقر على حال، فقد تحسنت فى أوائل عهده، بعد أن عقد هدنة مع الامبراطور ميخائيل الرابع فى سنة ٤٢٩هـ(١٠٣٧م)، واستغل المستنصر، فرصة صفاء العلاقات بينه وبين الدولة البيزنطية للعمل على انعاش الحالة الاقتصادية فى دولته، فأرسل على أثر المجاعة التى حلت بمصر سنة ٤٤٦هـ =١٠٥٤م إلى الامبراطور قسطنطين التاسع يطلب منه أن يمده بأربعة آلاف أردب من القمح، فأظهر الامبراطور استعداده لاجابة هذا الطلب، ولكنه لم يلبث أن توفى وخلفته الامبراطور تيودورا. فاشترطت لمعونه مصر، أن يمدها المستنصر بالجنود اذا ما اعتدى على بلادها أى معتد. غير أن المستنصر رفض هذا الشروط، فأجابته تيودرا على ذلك بأن حالت دون ارسال الغلال الى مصر، مما ترتب عليه توتر العلاقات بين الدولتين.

منه ويطيعه، وكان تاجر مكثر فى بلاد مصر، وكان يهادى ويكرم مقدمى مصر، وكانو لا يخالفوه فيما يريد، فسال وطلب البطركية الى ان كتب له [الولاه] سجل وانفذو صحبته الى اسكندرية استاذين يساعدوه فيما يريد ويلزمو الاسكندرانيين بتقدمته بطركا عوضا من فيلاتاوس البطرك المتنيح لان النوبة كانت للاسكندرانيين فى هذه الدفعة فى اقامة البطرك. وكان المجمع

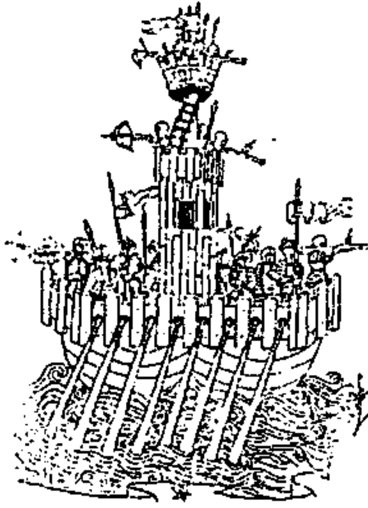
سفينة حربية صليبية

٦. خلافة المستعلى بالله:

أخذ نفوذ الوزراء فى الازدياد، منذ أواخر عهد المستنصر بالله، وبدأ ذلك باستئثار بدر الجمالى بالسلطة دون الخليفة، وتغالى ابنه الأفضل فى اغتصاب حقوق هذا الخليفة، بل أقدم بعد وفاته سنة ٤٨٧هـ، على اقصاء ابنه نزار ولى عهده وأكبر أبنائه عن الخلافة، وبايع أخاه الصغير أبا القاسم أحمد الذى لقب بالمستعلى بالله فى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة ٤٨٧هـ.

كانت أم المستعلى، ابنه بدر الجمالى وأخت الأفضل، لذلك فان بدر يحبذ تعيينه خليفة بعد أبيه، كما حرص ابنه الأفضل على تحقيق هذه الامنية حين أراد المستنصر قبل وفاته أخذ البيعة لأبنه نزار على رجال الدولة، فتقاعد الأفضل عن ذلك وماطله حتى مات.

وكان الأفضل يعتقد أن نزارا اذا ولى الخلافة حال بينه وبين مناصب الدولة، على حين كان أبو القاسم أحمد صغير السن، فاذا ولاه الخلافة، أصبح مطلق التصرف فى شئون الدولة.

ادى اقصاء نزار عن الخلافة رغم أحقيته لها الى اضطر ب الأمور فى بعض البلاد المصرية، فخرج أهل الاسكندرية على طاعة الخليفة الفاطمى الجديد وانحازوا الى نزار بعد أن قدم اليهم مع أخيه عبد الله وبايعوه بالخلافة، ولقبوه المصطفى لدين الله، كما رحب به واليها ناصر الدولة أفتكين.

استقر رأى الأفضل بن بدر الجمالى بعد أن بلغه نبأ هذه الفتنة التى أثارها نزار، على المسير

باسكندرية وقد طابت قلوب جماعة من اهلها ببطركيته وكتبو الى مصر بذلك، فلما علمو الاساقفه بذلك لم يوافقوهم على هذا الراى وصعب عليهم الامر لان القانون كما قالو لا يجوز لهم ذلك وعولو على ايقاف الامر ويمضى كل واحد منهم الى كرسيه، وبينما هم مجتمعين فى بيعة مارى مرقس الانجيلى القمحا، وكان باسكندرية فى بيعة ميكاييل ريس الملايكة قس شيخ اسمه زخاريا وكان قيم جميع بيع اسكندرية

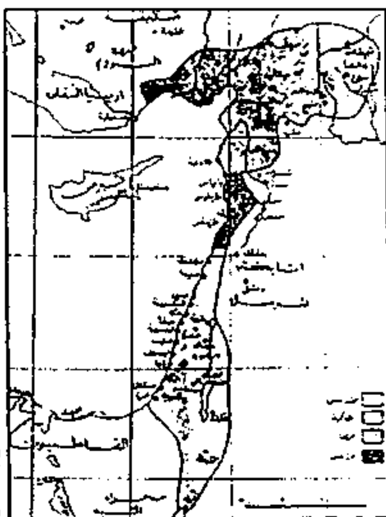
الإمارت الصليبية بالشام.

الى الاسكندرية، على رأس حملة لاخمادها، وهناك دارت بينه وبين واليها ناصر الدولة أفتكين الذى وعده نزار بالوزارة ان ظفر هو بالخلافة، معركة انتهت بهزيمة الأفضل وارتداده الى القاهرة، حيث أعد حملة جديدة فى أوائل سنة ٤٨٨هـ حاصر بها الاسكندرية مدة سبعة أشهر، ارتكب فى أثنائها كثيرا من ضروب القسوة والقتل. حتى اضطر كل من أفتكين ونزار الى طلب الأمان، فأمنهما الأفضل، ثم أمر بانفاذهما الى القاهرة حيث نكل بهما.

أما عن الحالة الداخلية فى مصر بعد القضاء على الفتنة التى أثارها نزار، فان الأفضل بن بدر الجمالى قبض على شئون الحكم فى البلاد واستبد بالسلطة دون المستعلى، ومن ثم دخلت مصر فى عهد نفوذ الوزراء، وصار وزير السيف كما يقول المقريزى:« هو سلطان مصر وصاحب الحل والعقد واليه الحكم فى الكافة من الأمراء والأجناد والقضاة والكتاب وسائر الرعية وهو الذى يولى المناصب الديوانية والدينية.

وقد اتخذ الأفضل مسكنه بدرا الملك التى بناها سنة ٥٠١هـ، ونقل اليها الدواوين، وجعل فيها محال خاصة، تقام فيها الأسمطة فى الأعياد، واتخذ فى أحد أبهائها مجلسا، يجلس فيه للعطاء، كما جلب لها كثير ا من الذخائر النفسية.

تعرضت مصر فى عهد الخليفة المستعلى بالله للأخطار الخارجية، فبدأ الصليبيون يغيرون على بلاد الشام، فسقطت أنطاكية فى يدهم سنة ٤٩١هـ(١٠٩٨م)، كما استولوا على بيت المقدس فى السنة التالية، وظل الأفضل بن بدر الجمالى فى حروب مستمرة معهم، انتهت

وكانو الاساقفة نازلين عنده في البيعة وكان يخدمهم مدة مقامهم باسكندرية، ولم يكن له في نفوسهم موقع ولا كان له قدر عند كهنة اسكندرية، وكان كل واحد يستخدمه فيما يعن له، لكن الله صانع العجايب وحده الذى اصطفا داوود من مرعى الغنم ليرعى اسراييل ميراثه، الذى يرفع الفقير من الارض والمسكين من المزبلة ويجلسه على كرسى المجد هو الذى اصطفا هذا الانسان المتواضع الغير معدود، وذلك انه صعد يوما الى

بتراجع القوات الفاطمية عن تلك البلاد تدريجيا حتى لم يق فى حوز ة الفاطميين سوى عسقلان.

ومما لاشك فيه، أن الخلافة الفاطمية في أواخر القرن الخامس الهجرى (٤٩٥م) لم تكن فى حالة تساعدها على استعادة مكانتها فى بلاد الشام، فقد أصبحت مصر من الضعف بسبب ما سادها من الاضطرابات، وما منيت به من منازعات بين طائفة النزارية التى تدعى أن المستنصر بالله أوصى لابنه الأكبر نزار بالخلافة من بعده، وطائفة المستعلية التى ادعت أن المستنصر إوصى بالخلافة لابنه أبى القاسم أحمد الذى لقب بالمستعلى بالله، مما ترتب عليه عجز الفاطميين عن الاحتفاظ بما تبقى لهم من سلطان على بلاد الشام. يزيد ذلك ما قاله المقريزى عن الخليفة المستعلى بالله(٤٨٧ـ ٤٩٥هـ): وفى أيامه اختلت الدولة وانقطعت الدعوة من أكثر مدن الشام، فأنها صارت بين الأترك والفرنج».

٧. خلافة الآمر لأحكام الله:

لما توفى الخليفة المستعلى بالله سنة ٤٩٥هـ، أحضر الوزير الأفضل ابن بدر الجمالى ابنه أبا على، وبايعه بالخلافة وأقامه مكان أبيه ولقبه الآمر بأحكام الله وعمره وقتذاك خمس سنين. وجاء فى سجل توليته الخلافة:«.. وقد كان الامام المستعلى ـ قدس الله روحه ـ عند نقلته جعل لى عقد الخلافة من بعده، وأودعنى ما حازه من أبيه عن جده، وعهد الى أن أخلفه فى

علو البيعة لينزل بجرة خل للطباخ الذى يعمل ما ياكلوه الاساقفة، وفيما هو نازل من السلم زلق [و] وقع والجرة معه لم تنكسر ولا انهرق منها شيا، فقالو الاساقفة وجميع الحاضرين لما ابصرو هذه الاعجوبة: هذا هو الذى يستحق هذا الامر الذى نحن مجتمعين بسببه. فعند ذلك قال جميعهم بفرح من فم واحد: هذا بالحقيقة رجل الله. ثم سالو عنه اهل اسكندرية وعن طريقته فقالو كلهم: ما سمعنا عنه قط كلمة سو بل هو فقير بايس وهو

العالم وأجرى الكافة فى العدل والاحسان على منهجه المتعالم، وأوصانى بالعطف على البرية والعمل فيهم بسيرتهم المرضية على عمله..».

استبد الوزير الأفضل بن بدر الجمالى بالسلطة دون الآمر الذى لم يبق له من الأمر سوى اسم الخلافة. وبلغ من ازدياد نفوذه، أنه لم يعن بالاحتفاظ برسوم الفاطميين الدينية، بل أخذ يميل ميل السنيين. وتجلت هذه الظاهرة فى الغائه الاحتفال بمولد النبى، ومولد ابنته فاطمة، وعلى ومولد الخليفة القائم بالأمر، ولا يخفى علينا أن عمله هذا يؤدى الى اضعاف نفوذ الفاطميين الذين كانوا يحرصون على الاحتفال بهذه الأعياد لتأييد انتسابهم الى على بن أبى طالب وفاطمة بنت النبى.

على أن الخليفة الآمر الذى ضعفت سلطته كثيرا بتداخل الأفضل لم يلبث بعد أن بلغ سن الرشد، أن شعر بالحاجة الى التخلص من وزيره، وقام عبد الله بن محمد البطائحى ـ أحد خواص الوزير ـ بتدبير مؤمراة لاغتياله، وخلفه فى الوزارة ولقب بالمأمون.

وكان الأفضل كما قال عنه ابن ميسر فى كتابه: تاريخ مصر: من العدل وحسن السيرة فى الرعية والتجار على صفة جميلة تجاوز ما سمع به قديما وشوهد أخيرا، ولم يعرف أحد صودر فى أيامه ولا ضبط عليه». وذكر النويرى فى كتابه «نهاية الأرب» أن الناس نالهم بعد قتل الأفضل من الظلم والجور والعسف مالا يعبر عنه، فجاء الناس الى باب الآمر واستغاثوا».

طاهر. فقالو: حسن وجيد ان يقدم هذا الذى هو هكذى اجود ممن يجينا بيد قوية وامر سلطانى ويكون زماننا كله عنده كالعبيد. فاتفقو مع الاسكندرانيين على قسمته واخذوه واقسموه بطركا وفى عشية ذلك اليوم الذى قسموه فيه وصل ابرهيم ابن بشر بالسجل والاستاذين صحبته، فلما صار فى ظاهر المدينة اجتمع به احد معارفه وقال له: قد قسم بطرك. فقال له: ومن هو؟ فقال:

أما عن الوزير المأمون ابن البطائحي الذى خلف الأفضل ، فكان من ذوى الآراء والمعرفة التامة بتدبير الدول، كريما، واسع الصدر، كثير التطلع الى أحوال الناس من الجند والعامة، فكثر الواشون والسعاة بالناس في أيامه.

لم يستمر هذا الوزير طويلا في الوزارة، فقبض عليه الخليفة سنة ٥١٩هـ بسبب ما وصله عن تآمره ضده: وانفراد الآمر بأمور الخلافة، وبقى بغير وزير، وعهد الى صاحبى ديوان الاستخراج وهما: جعفر بن عبد المنعم، وأبو يعقوب ابراهيم، وضم اليهما مستوف يعرف بابن أبي نجاح وكان راهبا ـ باستخراج الأموال من أربابها. ولما زادت سيطرة هذا الراهب على الدواوين، وكثرت مصادرته للكتاب والعمال والتجارب وأرباب الأموال، أمر الخليفة والى مصر بأخذه الى الشرطة وضربه بالنعال، ومازال يضرب حتى مات، كما عزل الآمر صاحبى ديوان الاستخراج واعتقلهما.

حرص الآمر على أن يخلفه أحد أولاده، فلما رزق طفلا في ربيع الأول سنة ٥٢٤هـ، سماه أبا القاسم الطيب، واحتفل باعلان البشرى بولادته وتوليته الامامة من بعده. ويصف ابن ميسر فى كتابه تاريخ مصر ذلك الاحتفال في قوله:«زينت مصر والقاهرة فى الأسواق وبأبواب القصور ولبست العساكر وزينت القصور. وأخرج الآمر من خزائنه وذخائره قماشا ومصاغا وآلات وصياغات وأواني ذهب وفضة فزين بها، وعلق الايوان جميعه بالستور والسلاح، فأقام الحال كذلك أربعة عشر يوماه.

زخريا [س] القس فى كنيسة ميكاييل النوبه. فلما سمع ذلك لحقته رعدة عظيمة فى عظامه ولم تفارقه بقية ايام حياته، ومضى الى بيته بكرب عظيم من شدة الرعدة واعتل لذلك، وبلغ الخبر الى الاساقفة فتعجبو، ثم انهم خافو من السلطان وقالو ما ندرى ما يجرى علينا فاشارو على الاب البطرك انبا زخارياس ان يطيب قلبه بالاسقفية ليامنو [ليأمنوا] غضب السلطان بسببه، وقالو لابرهيم ابن بشر هذا امر قد كان من الله سبحانه

كان لأمراء الصلحيين باليمن علاقات ودية مع الخلفاء الفاطميين فى مص، فلما تقلدت السيدة الحرة زمام الأمور فى اليمن بعد وفاة زوجها المكرم أحمد، ظلت تعمل جاهدة على شد أزر الدعوة الفاطمية في اليمن، وكانت على اتصال وثيق بالخليفة الآمر، فتبودلت بينهما الكتب والرسل، وأظهرت ولاءها لهذا الخليفة، فاعترفت بامامته، كما اعترفت من قبل بامامة أبيه المستعلى، وأقامت الدعوة لها مما ساعد على احتفاظ الفاطميين بسيادتهم على بلاد اليمن.

وكان الخليفة الآمر ينظر الى السيدة الحرة نظرة تقدير واجلال كذلك، حرص على أن تظل موالية لأبنائه من بعده، فلما رزق أبا القاسم الطيب، كتب الى السيدة الحرة يبشرها بمولدولده ويعرفها أنه ولى عهده، يطلب منها أن تذيع هذا الخبر بين أهالى بلاد اليمن.

وكان للمنشآت نصيب وافر من عناية الآمر، فأمر ببناء الهودج فى جزيرة الفسطاط التى تعرف بالروضة لمحبوبته البدوية. وكان يتردد اليه من حين لآخر، وظل متنزها للخلفاء من بعده. كذلك أنشأ الخليفة الآمر الجامع الأقمر سنة ٥١٩هـ، وبنى تحته دكاكين ومخازن من جهة باب الفتوح. ولاتزال الشعائر تقام فى هذا الجامع الذى يقع فى شارع المعز لدين الله بالقاهرة.

انتهت حياة الخليفة الآمر بقتله في اليوم الرابع عشر من شهر ذى القعدة سنة ٥٢٤هـ بتدبير فريق من النزارية ـ أتباع نزار ابن الخليفة المستنصرـ وكان لهم أعوان فى مصر، يرون أن الآمر وأباه المستعلى وليا الخلافة دون حق.

والان فاول كرسى يخلو من اسقفه فى هذا الاقليم وتعلم انه يصلح لك تصير عليه اسقفا، ثم قسموه اغومنس والبسوه السواد، فلما خلا كرسى منوف العليا جعلوه عليه، واقام انبا زخارياس بعد بطركيته سبع سنين والبيعة هادية تحت السلامة. ومن بعد ذلك لم يصبر الرب على افعال الرعاة [الاساقفة] الذين كانو فى ذلك الزمان وانزل الله غضبه على البيع بسببهم فابعدو منها لانهم كانو قد صارو مثل الولاة المسلطين على الكهنة ويختلقو حجج لجمع

نقود الحافظ لدين الله.

٨ـ خلافة الحافظ لدين الله:

لما قتل الخليفة الآمر، سارع بعض رجال الجيش الى القبض على زمام الأمور فى القاهرة، ووقع اختيارهم على الأمير أبى الميمون عبد المجيد ابن عم الآمر، ليلى أمور الخلافة، فأخفى أمر الامام الطيب وبايعه الناس بولاية العهد ولقب الحافظ لدين الله، وأقيم كفيلا لحمل منتظر، لأن لما مات ترك احدى زوجاته حاملا.

على أن الأمير عبد المجيد لم تتح له الفرصة للاحتفاظ بسلطته فى الدولة بسبب ثورة الجند عليه وتوليتهم قائدا يدعى أبو على أحمد ابن الأفضل الوزارة، فبدأ هذا الوزير عمله بمنع الحافظ من التصرف فى شئون الدولة، كما سجنه فى خزانة، صار لا يسمح لأحد بزيارته الا باذنه، وأمر الخطباء بحذف اسمه من الخطبة، واستولى الوزير على جميع ما فى قصر من الذخائر والأمور زاعما أن ذلك كان لأبيه، واستأثر منذ ذلك الوقت بالسلطة والنفوذ.

لم يكن الوزير أبو على أحمد بن الأفضل، اسماعيلى المذهب بل كان اماميا، لهذا شرع على اثر توليته الوزارة فى اتخاذ اجراءات، غايتها اظهار مذهب الامامية واضعاف مذهب الاسماعيلية، فأمر باسقاط اسم اسماعيل بن جعفر الصادق الذى تنتسب اليه الاسماعيلية من

المال بكل وجه ويتجرو في بيعة الله لمحبة الفضة والذهب، ويبيعو موهبة الله بالمال فيخسرو ولا يربحو. واذا زادهم انسان في [طلب] ديارية بيعة من البيع دينار واحد فسخو على القيم الاول المهتم بامور البيعة كما يجب، فيطردوه منها ويسلموها بسبب الدينار الزايد لمن لا يصلح لخدمتها ولا يقوم بامورها. ولقد شهد على قيم انه يشرب الخمر الصافي ويخلط المعكر بالما ويصفيه ويقدمه للكهنة يرفعه للهيكل وان الكهنة يرفعو على الهيكل قربانا

الخطبة والدعاء لمحمد المنتظر الامام الثاني عشر عند طائفة الاماميه، وضرب دراهم ودنانير جديدة باسم الامام المنتظر.

وعلى الرغم من أن الوزير أبا على أحمد بن الأفضل، قد استقل بحكم البلاد المصرية، فانه كان يرى أن بقاءه في منصبه مستأثرا بالسلطة، يتوقف الى حد كبير على من يلى أمر الخلافة، بعد أن أبعد الحافظ وشدد الرقابة عليه في سجنه. وكان أهم ما يشغله ذلك المولود الذى وضعته احدى نساء الآمر، وأثار بعض المؤرخين الى أنه كان ذكرا. وظل الوزير يضيق الخناق على أهل القصر الفاطمي، لعله يصل الى مكان وجوده. وكان يود أن يظفر بهذا المولود ليتخلص منه، انتقاما لمن قتلهم الخليفة الآمر من اخوته،، ورغبة في التخلص من وريث شرعى للخلافة، غير أنه لم يتمكن من العثور عليه.

لم يتمتع الوزير أبو على أحمد بن الأفضل طويلا بالحكم. اذ كان لسياسته التى تنطوى على مناهضة المذهب الاسماعيلى أسوأ الأثر في نفوس الاسماعيلية، فكونوا معارضة قوية له بزعامة الأمير يانس الأرمني، وتآمروا على اغتياله فكمن له جماعة منهم وقتلوه، بعد أن ظل مستأثرا بالسلطة سنة وشهرا، وأخرجوا الحافظ من سجنه، وبذلك قضى بالفشل على محاولة نشر مذهب الامامية في مصر، واستعاد المذهب الاسماعيلى مكانته. واعتبر اليوم الذى أطلق فيه سراح الحافظ وأعيد الى الحكم عيدا، عرف بعيد النصر. وظل الفاطميون، يحتفلون به الى أن زالت دولتهم.

يكفى طول الجمعة حتى يفضل منه شيا كثير غرضا في ان لا يتعبو فيقدسو ويقا القربان فى الكنايس الى ان يعفن لان الاساقفة كانو يوسمو للكهنوت من لا يصلح ولا يفهم.

وحدثنى إنسان مامون [مأمون] ان انبا مينا اسقف طانة الذى قد كنا بدينا بذكره فى هذه السيرة وقلنا ان فيلاتاوس البطرك سكن فى داره بدمروا بعد موته، كان عند وفاته اقسم ما جمعه من المال على اربعة اجزا ودفنه فى اربع مواضع،

لم يكن للحافظ حق شرعى فى الخلافة، ذلك أنه لم يكن ابنا للآمر، وانما هو ابن عمه، فلما أطلق سراحه بعد مقتل الوزير أبى على أحمد بن الأفضل، رأى رجال الدولة فى مصر أن يعيدوه وليا للعهد، وكفيلا للولد الذى لم يعرف مقره.

على أن الحافظ كان يطمع فى الاستقلال بالخلافة، ومن ثم أمعن فى البحث عن ولد الآمر، فلما اهتدى الى مكان اقامته بعد شهرين من عودته وليا للعهد، عمد الى التخلص منه، ثم أعلن نفسه خليفة، وقرئ سجل بامامته فى ٣ربيع الأول سنة ٥٢٦هـ.

اتخذ الحافظ بعد أن استقرت له الخلافة الأمير يانس الأرمنى، وزيرا له، غير أن وزارته لم يطل أمدها، فقد توفى بعد تسعة أشهر ، وتولى الحافظ أمور الدولة بنفسه، فلم يستوزر أحدا، وظل منصب الوزارة شاغرا حتى طمع فيه بهرام الأرمنى والى الغربية، فقدم الى القاهرة فى شهر جمادى الثانية سنة ٥٢٩هـ وحاصرها يوما، فاضطر الحافظ الى توليته الوزارة على الرغم من عدم دخوله فى الاسلام.

لم يكترث بهرام بما أظهره الناس من السخط عليه، بل تغالى فى التحيز لبنى جنسه من الأرمن، فبعث فى طلب كثير منهم الى مصر، حتى بلغ عددهم ثلاثين ألفا، بعد زمن قصير. وكانت سياستهم مع المسلمين لا تنطوى على شئ من الود، فاشتد جورهم وصادروهم فى أموالهم، وأكثروا من بناء الكنائس والأديرة حتى صار لكل رئيس منهم كنيسة بجوار داره مما

وكان له في الكرسي عدة سنين حتى شاخ، وكان له اخ اسمه مقاره اسقف منوف العليا كاتب السنودس فانفذ الى اخيه رسول ياتى اليه بسرعة، وكان مترقب وصوله وعينه ناظرة الى الطريق، فتاخر عنه يومين لم ياتيه وكتب اربع رقاع وذكر فيها الاربع مواضع التى فيها المال وجعلها في يده الى ساعة وصول اخيه اليه يدفعها له، فلما تاخر عنه ولحقه قلق الموت والنزاع قال لتلميذه انظر لعل اخى قد وصل، فخرج التلميذ وعاد اليه وقال

حمل المسلمين على متابعة الشكاية ضد بهرام وأقاربه، كما بعث أمراء الجيش وقواده الى رضوان بن ولخشى والى الغربية، يطلبون منه القدوم اليهم لينقذهم من سطوة الأرمن، فأجاب رضوان طلبهم، وقدم الى القاهرة على رأس جيش كبير وأنضم إليه الجنود المسلمون فى جيش بهرام، فازدادت بذلك قوته،واضطر بهرام الى الرحيل عن القاهرة والالتجاء الى أخيه الباساك والى قوص، فخلفه رضوان في الوزارة سنة ٥٣٠هـ، وتلقب بالسيد الأجل الملك الأفضل، وهو أول من لقب بالملك من وزراء مصر.

اشتد رضوان فى معاملة أعوان بهرام، فاستولى على أملاكهم وقتل الكثير منهم. وشرع فى خلع الحافظ بحجة أنه ليس اماما، بل هو كفيل لغيره، فاستاء منه الحافظ واضطر رضوان الى المسير الى بلاد الشام، ثم مالبث أن عاد الى مصر على رأس جيش كبير سنة ٥٣٤هـ، فتصدى له جند الخليفة وأرغم على المسير الى الوجه القبلي، حيث طارده الأمير أبو الفضائل بن مصال، الذى عرض عليه عهد الأمان، فاستجاب له وجاء الى القاهر ة. غير أن الحافظ لم يف بهذا العهد، فاعتقله بالقصر، ولم يزل فى معتقله حتى سنة ٥٤٢هـ، حيث تمكن من الفرار وجمع أنصاره حوله. ثم دارت بينه وبين جند الخليفة السودانيين عدة معارك، انتهى الأمر فيها بهزيمته وقتله.

لم يتخذ الخليفة الحافظ وزيرا له، بعد أن اشتد الخلاف بينه وبين رضوان بن ولخشى، فظل يحكم البلاد بلا وزير حتى توفى فى جمادى الآخرةسنة ٥٤٤هـ.

له لم يصل، فقلق ورمى احد الرقاع الاربعة فى فمه ومضغها ورماها ثم قال للتلميذ اترى جا اخى، فخرج ايضا وعاد وقال له ما وصل فمضغ الرقعة الثانية ورماها، وكذلك فعل بالثالثة وبقى فى يده واحدة، فقال للتلميذ انظر ان كان اخى وصل فخرج ليبصره فابطى عليه وحس بصعوبة الم الموت فرمى الرقعة الرابعة فى فمه ومن قبل ان يمضغها دخل اليه التلميذ مسرعا وقال له هو ذا اخوك قد وصل، فاخرج الرقعة من فمه فلما دخل

نقود الظافر بامر الله
ضربت في اسكندرية.

---

٩. خلافة الظافر بأمر الله:

خلف الحافظ بعهد منه، ابنه أبو المنصور اسماعيل. وكان فى السادسة عشرة من عمره، وبدأ حكمه بتولية الأمير نجم الدين ابن مصال الوزارة، ولقب بالسيد الأجل المفضل أمير الجيوش.

عاد التنافس فى عهد الخليفة الظافر بين رجال الدولة على تقلد منصب الوزارة، فثار الأمير المظفر على بن السلار والى الاسكندرية والبحرية وقصد القاهرة على رأس فرقة من أعوانه، فاضطر ابن مصال الى الفرار وحل ابن السلار محل منافسه فى الوزارة، وتلقب بالعادل، ثم جهز العساكر لمحاربة ابن مصال وأخذت قواته تتعقبه حتى أوقعت به الهزيمة فى الوجه القبلى وقضت عليه، وبذلك خلا الجو لابن السلار وقام بأعباء الوزارة.

كان ابن السلار من أصل كردى، يدين بالمذهب الشافعى. وقد أنشأ سنة ٥٣٦هـ بالاسكندرية مدرسة للشافعية، أسند ادارتها الى الفقيه الشافعى الحافظ السلفى، وبذلك هيأ السبيل لاستعادة المذهب السنى مكانته، وأدى تعصبه لهذا المذهب ورغبته فى احلاله بمصرمحل المذهب الاسماعيلى الى استياء الخليفة ورجال دولته منه، فقتل بايعاز منه سنة ٤٥٨هـ، وخلفه فى الوزارة أبو الفضل عباس بن أبى الفتوح، ويرقى الى بنى زيرى فى المغرب.

اخوه دفعها له وقال له الرب لا يواخذك ويغفر لك فقد ضيعت ما ثبت في تلت رقاع اخرى لا جل غيبتك عنى، ولما قال هذا خرجت روحه فكفنه ودفنه ثم قرى الرقعة فوجد في المكان عشرة الف دينار، وكان مقاره اخوه رجلا جيد فاخذ المال وبنا به اسكنا [هيكل] على اسم ابو مقار بوادى هبيب وهو الهيكل الحسن قبلى هيكل بنيامين فانفق عليه تلتة الف دينار وصدق بجملة كبيره وبنا بيع كتير في ريف مصر، ولما حضرت وفاته سالوه ان كان

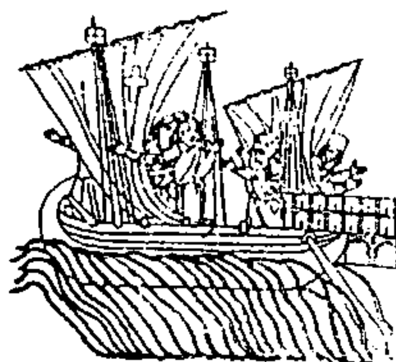

السفن الصليبية تهاجم عسقلان سنة ٥٤٨ هـ.

على أن الخليفة الظافر مالبث أن أغتيل سنة ٥٤٩ بتدبير من نصر بن الوزير أبى الفضل عباس. وقد أثار قتل الخليفة الظافر أهالى القاهرة ، فنشبت المعارك فى طرقات المدينة، وفر الوزير عباس وابنه نصر الى سورية، غير أنه لقى حتفه فى طريقة على يد جماعة من الفرنجة، أرسلتهم أخت الخليفة الظافرة فى أثره سنة ٥٤٩هـ. أما ابنه نصر، فقد باعه الفرنجة فى عسقلان وأرسل الى القاهر ة سنة ٥٥٠هـ. فى قفص حديد، وطيف به فى المدينة، ثم صلب حيا على باب زويلة، وأحرقت جثه فى المحرم سنة ٥٥١هـ/ ١١٥٦م.

كان لاضطراب الأحوال الداخلية فى مصر فى عهد الخليلفة الظافر، أثر بالغ فى زوال سيطرة الفاطميين على ما بقى لهم من المدن الساحلية بالشام، فانتهز الصليبيون فرصة الضعف الذى كانت تعانيه الدولة الفاطمية فى مصر، وعملوا على محاصره عسقلان سنة ٥٤٨هـ، فتصدى لهم أهلها، كما قويت نفوسهم بوصول الأسطول الفاطمي الى هذه المدينة، غير أن الصليبين ما لبثوا أن عمدوا الى تشديد الحصارة عليها ومهاجمتها.، مما اضطر أهلها الى طلب الأما ن، فأجيبوا الى طلبهم وخر ج منها من استطاع الرحيل عنها بطريق البر والبحر، وبذلك تيسر للصلبيين الاستيلاء على عسقلان، و فقدت الخلافة الفاطمية آخر مدن فلسطين التى كانت لاتزال تخضع لسيادتهم.

١٠. خلافة الفائز بنصر الله.

بويع بالخلافة بعد مقتل الظافر لابنه عيسى وهو فى الخامسة من عمره ولقب بالفائز بنصر

معه شي يوصى به بما يفعلوه فيه، فقال الرب
شاهد على انني وجدت لاخي عشرة الف دينار
وتحصل لي في الكرسي وفيما اخذته في كتابة
السنودس في كل سنة شيا كثير وقد انفقت جميع
ذلك والرب يشهد على انني لم يبق معي غير دينار
واحد ورباعي وهوذا انا منتقل من هذا العالم وانا
اقسم عليكم ان تدفعوه للكهنة الذين يقرون علي.
وهذا الاسقف مينا الذي خلف هذا المال الكثير لم

الله. وقد بدا عليه الفزع والاضطراب من مشاهدته القتلى في القصر، ولم يطب له عيش مدة خلافته كما ساد الفزع القصر الفاطمي اذ ذاك ، وبعثت عمة الفائز الى طلائع بن رزيك والى الأشمونين والبهنسا بالكتب وفي طيها شعور النساء تستصرخ به على الوزير عباس، وطلب منه نساء القصر القدوم لانقاذهن من الأخطار المحدقة بهن.فقدم طلائع القاهرة بعساكره من العربان والأجناد في يوم الأربعاء تاسع عشر ربيع الأول سنة ٥٤٩هـ، وكان يرتدى ثيابا سوداء، ومعه أعلام سود، وشعور النساء التي أرسلت اليه من القصر على رءوس الرماح. وقد علق المقريزى(اتعاظ الحنفا. جـ٣.ص٢١٧) على ذلك بقوله: فكان هذا من الفأل العجيب، فان الأعلام العباسية السوداء دخلت الى القاهر ة وأزلت الأعلام العلوية البيض بعد خمس عشرة سنة».

تقلد طلائع بن رزيك الوزارة بعد قضائه على الاضطرابات التي حدثت بالقاهر ة على أثر مقتل الخيفة الظافر، وتلقب بالملك الصالح، وأسند اليه الخليفة جميع أمور الدولة في سجل توليته الوزارة. وقد جاء فيه:« فقلدك من وزارته، وفوض اليك تدبير ممالكه وكفالته، وجعل لك امارة جيوشه الميامين وكفالة قضاة المسلمين وهداية دعاة المؤمنين، وترديد ما هو مر دود اليهم من الصلاة كخطابة وارشاد الأولياء المستجيبين، والنظر في كل ما أغدقه الله من أمور اوليائه أجمعين وجنوده وعساكره المؤدين وكافة رعاياه بالحضرة وجميع أعمال المملكة ، دانيها وقاصيها، وسائر أحوال الدولة باديها وخافيها..».

يقنعه ذلك حتى انه اعمر كوم [سندجرا](*) بين كرسيه وكرسي سمنود وصار فيه عشرة بيوت مسكونة، فبنوا هناك كنيسة صغيرة طولها خمسة اذرع او ستة طوب طين، وكان الكوم بين [بشبيش](*) وشبرادمابه، فلما سمع اسقف سمنود اتاها وبنا فيها مذبح لطيف وكرزه ومضى لان شبرادمابه(*) له وهي من حقوق كرسيه، فلما سمع انبا مينا الاسقف المقدم ذكره بذلك جا الى الكنيسة المذكورة وهدم المذبح الذى بناه اسقف

(*) سندجرا: من المدن المندرسة كانت تابعة للغربية.

(*) بشبيش: من المدن القديمة كانت تابعه للغربية ولكن في سنة ١٩٣٨ أصبحت تابعه لمركز بيلا محافظة كفر الشيخ.

(*) شبرا دما به: من المدن القديمة المندرسة، كانت تابعة للغربية.

أما فيما يتعلق بالوزير عباس فانه سار مع ابنه نصر وأتباعه يريد أيله، ليسير منها الى بلاد الشام، فأرسلت أخت الخليفة الظافر الى الفرنج بعسقلان، تطلب منهم التصدى لعباس وبذلت لهم الأموال، فقاتله الفرنج حتى قتل، وأسر ابنه نصر، وحمل في قفص من حديد الى القاهرة، في ربيع الأول سنة ٥٥٠هـ حيث طيف به في المدينة،ثم صلب على باب زويلة.

شرع الصالح طلائع بن رزيك، بعد قضائه على الاضطرابات الداخلية في الاستبداد بالسلطة، فتتبع أرباب البيوتات والنعم والأعيان فسلبهم أموالهم، وقبض على الآمراء، وضيق على أهل القصر مستغلا صغر سن الخليفة، وجعل له مجلسا يحضره الأدباء في الليل. وكان يعرض عليهم شعره، فهرع اليه الناس ودونوا ما ينظمه من الشعر. وبلغ من ميله للشعر والشعراء، أنه دعا الفقية الشاعر نجم الدين عمارة اليماني الى مجلسة، حين قدم الى القاهرة برسالة من أمير الحرمين قاسم بن فلستيه سنة ٥٥٠هـ.

١١. خلافة العاضد لدين الله:

لما توفى الفائز في السابع عشر من رجب سنة ٥٥٥هـ، دون أن يوصي لأحد بولاية العهد أو الخلافة من بعده، أقام الوزير الصالح طلائع بن رزيك. العاضد خليفة، وفي ذلك يقول المقريزي:(اتعاظ الحنفا جـ٣.ص ٢٤٣): « لما مات الخليفة الفائز، ركب الصالح بثياب الحزن واستدعى زمام القصر، وسأله عمن يصلح في القصر للخلافة: فقال: ههنا جماعة، فقال:

سمنود وبنا غيره، فلما سمع اسقف سمنود بذلك صعب عليه جدا وجا الى هناك ومعه جماعة وانبا مينا الاسقف هناك فاجتمعو وتخاصمو ووقع بينهم قتال ولم يفترقو حتى سفكت بينهم الدما، فانظرو الان الى ذلك الاسقف الذى جمع المال الكثير كيف قاتل على شى هذا مقداره حتى انزل الله غضبه على ذلك الكوم واخربها الى الان، واسم الكوم سندجرا.

وفى ايامهم اعنى الرعاة انقطع التعليم ايضا ولم يردع احدا احد ولا يقول له اخرج القذا من

عرفنى بأكبرهم، فسمى له واحدا، فأمر باحضاره، فتقدم اليه أمير، يقال له على بن مزيد، وقال له سرا: لايكن عباس أحزم منك رأيا، حيث اختار الصغير وترك الكبير، واستبد بالأمر، فمال (الصالح) الى قوله، وقال للزمام: أريد منك صغيرا، فقال :عندى ولد الأمير يوسف بن الحافظ واسمه عبد الله، وهو دون البلوغ، فقال (الصالح) على به، فأحضر اليه بعمامة لطيفة وثوب مفوط.. ، وكان عمره احدى عشرة سنة. ثم أمر صاحب خزانة الكسوة أن يحضر بدلة ساذجة خضراء ـ وهى لبس ولى العهد اذ حزن على من تقدمه ـ وقام فألبسه اياها. وبعد أن تم تجهيز الفائز وحمله الى تربته أخذ (الصالح) بيد عبدالله، وأجلسه إلى جانبه، وأمر أن يحمل إليه ثياب الخلافة، فألبسها وبايعه وتبعه سائر الناس فى مبايعته، ولقب بالعاضد لدين الله، فى يوم الجمعة الثامن عشرمن رجب سنة ٥٥٥هـ.

يتضح لنا مما تقدم الى أى حد زادت سلطة الوزراء فى العصر الفاطمى الأخير، حتى أصبحوا يتدخلون فى تولية الخلفاء، كما أن بعضهم انصرف عن تأييد مذهب الخليفة الفاطمى وأهل دولته، كما فعل كل من الوزير أبى على أحمد بن الأفضل وطلائع بن رزيك. وقد أظهرا مذهب الامامية وعملا على احلاله فى مصر محل مذهب الاسماعيلية. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد كان للوزير طلائع ابن رزيك مطامع خاصة تجلت فى حرصه على زواج ابنته من الخليفة العاضد. وكان يرجو من وراء هذه المصاهرة أن ترزق ابنته منه ولدا، فيجمع لبنى رزيك الخلافة مع الملك.

عينيك ليلا يقول له اخرج انت الخشبة اولا من عينك، وكانو رووسا البيعة فيما تقدم يطلبو امر [إمرء = أنسان] فيه علم ومعرفة ليجعلوه كاهنا اذا شهد له جماعة ثقات بالعفاف والعلم من صغره، وانقلبت الامور وصار الفهيم العالم غير معدود لا سيما ان كان فقيرا، والجاهل الغير فهيم مكرما عندهم مبجلا لا سيما ان كان موسرا ليقدموه للطقس العالى من طقوس الكهنة، فمنجل [فمن أجل] ذلك نزلت يد الرب عليهم وحل غضبه

على أن الوزير الصالح طلائع بن رزيك الذى انتقص من سلطة الخليفة العاضد، وكثرت مضايقته لأهل القصر، سرعان ما قتل بتدبير من خاصة الخليفة فى رمضان سنة ٥٥٦هـ، وخلفه فى الوزارة ابنه أبو شجاع رزيك بن الصالح ولقب بالملك العادل الناصر أمير الجيوش.

واجه العادل بن طلائع بن رزيك ـ بعد توليته الوزارة ـ خروج شاور بن مجير السعدى عليه، بسبب عزله عن ولاية قوص وتولية غيره، ثم دخل القاهرة بصحبه فريق كبير من أتباعه وتخلص من العادل، وخلفه فى الوزارة، فى المحرم سنة ٥٥٨هـ. وبدأ عمله بزيادة مرتبات الأجناد والعرب وحاشية القصر. لكنه لم يتمتع طويلا بالوزارة، فسرعان ما ثار عليه ضرغام ـ أحد أفراد الجيش ـ وتقلد الوزارة مما اضطر شاور الى المسير الى الشام والالتجاء بنور الدين محمود صاحب دمشق، ليمده بقوة يستعين بها على استعادة نفوذه، ووعد بأن ينزل له عن ثلث دخل مصر بعد اقطاعات العساكر اذا ما عاونه فى التغلب على ضرغام وانتزاع الوزارة منه، فتردد نور الدين بادئ الأمر فى اجابة طلبه، ثم مالبث أن قوى عزمه على تحقيق رغبته، فأعانه بحملة، أسند قيادتها الى أسد الدين شيركوه. فلما وصلت هذه الحملة الى القاهرة، تصدت لضرغام وتغلبت عليه، ، وبذلك خلا الجو لشاور، فأعيد الى منصبه فى الوزارة، فى رجب سنة ٥٥٩هـ.

على أن شاور، سرعان ما تخلى عن حليفه نور الدين، فلم يف بما عاهده عليه، وأرسل

على البيعة لعلمه باننا لا نستحق ندخل من بابها كالزمان الذى انزل فيه غضبه على يروشليم حتى خرجت وسبى اهلها وبنيهم وبناتهم.

وكان راهبا اسمه يونس قس فى اسكنا ابو مقار ساكن فى بيعة القديس ابو نفر فى الاسكنا الذى هو بحرى بيعة ابو مقار فراى جماعة يشترو الاسقفية بالمال فالقى الشيطان فى قلبه نار محبة الاسقفية ولم يكن معه شيا يدفعه عنها فحضر عند انبا زخارياس البطرك وقال: اريد تلبسنى ثياب

الى أسد الدين شيركوه، يطلب منه الرجوع الى الشام. ولم يكتف بذلك، بل بعث الى أملريك Amalric ملك بيت المقدس، يستمده ويخوفه من نور الدين إن ملك الديار المصرية، فسارع الى تلبية طلبه، وأرسل جيشا أرغم شيركوه على العودة بجنده الى الشام، وكان لهذه السياسة أثرها فى توجيه أنظار كل من نور الدين صاحب دمشق والفرنجه ببيت المقدس إلى غزو مصر، فانفذ نور الدين حملة ثانية الى مصر سنة ٥٦٢هـ بقيادة أسد الدين شيركوه، وذلك حين ثبت لديه غدر شاور به ونقضه الاتفاق معه، وسير بصحبته بعض الأمراء. وكان صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب من بين الذين اشتركوا فى هذه الحملة.

رأى شاور أن يستنجد مرة ثانية بالفرنجة، فاستقر رأيهم على تحقيق رغبته خشية أن يستولى جيش نور الدين على مصر، ويضمها الى بلاد الشام، فيصبح مركزهم فى بيت المقدس مهددا بالأخطار. ولما وصلت عساكر الفرنجة الى مصر، انضمت الى جيوش شاور والمصريين. وكان شيركوه قد تقدم بقواته الى الصعيد فتتبعه الفرنجة والمصريون، والتقى الفريقان فى مكان يعرف بالبابين[١]، فكان النصر حليف شيركوه، الذى رأى بعد ذلك ، أن يسير الى الاسكندرية عن طريق الفيوم، فدخلها من غير مقاومة، وعين ابن أخيه صلاح الدين واليا عليها وأبقى معه نصف الجيش.

(١) قرية جنوب المنيا.

الاسقفية فقط واجعلني على كرسي خراب مثل دبقو(*) وولو انه لا يكون فيه الا ثلث منا فاني لا اقدر اصبر عن ذلك مما قد غلب على من الفكر لمشاهدتي هولا الذى تقسمهم بالمال وليس هم مستحقين، وانا مدحوض لاجل اني فقير وليس معي شيا وانت تعرفني، وكان البطرك المذكور عفيف جدا مثل الخروف الوديع ولم يكن يفعل شيا مما ذكرناه برايه، حتى الخبز الذى ياكله اذا خلوه لا يطعموه لا يطلبه، وكذلك الما الذى

(*) دبيق: من المدن التي دمرها الملك الكامل عندما دمر مدينة تانيس سنة ١٢٢٧م. وكانت تقع بين تانيس ودمياط داخل بحيرة تانيس (المنزلة). انظر الهامش الثالث ص٤٠٢.

أما قوات الفرنجة والمصريين، فعادت الى القاهرة بعد واقعة البابين، ثم زحفت الى الاسكندرية حيث قامت بحصارها برا مدة ثلاث أشهر، بينما سار اليها أسطول الصليبيين وأخذ يحاصرها بحرا، حتى قلت بها الأقوات. ولم يكن لدى صلاح الدين من الجند ما يمكنه من رفع الحصار، فأسرع أسد الدين شيركوه الى نجدته، ولم يلبث المصريون والفرنجة، أن ارسلوا اليه يطلبون الصلح، فأجابهم الى ذلك، واشترط ألا يقيم الفرنجة فى البلاد المصرية.. وتسلم المصريون الاسكندرية فى منتصف شوال سنة ٥٦٢هـ، وعاد شيركوه الى دمشق.

على ان جميع قوات الفرنجة لم تغادر مصر، تنفيذا لهذا الصلح، بل عقد شاور مع الفرنج اتفاقا، كان من شروطه، أن يكون لهم بالقاهرة قلعة (شحنة) صليبية، وأن تكون أبوابها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين عن انفاذ عسكر اليها، كما اتفق الطرفان على أن يكون للفرنج من دخل ديار مصر فى كل سنة مائة ألف دينار. ومما يجدر ذكره، أن شاور قرر لهم ذلك من غير علم العاضد ولا مشاورته، وقد عقب أبو شامة فى كتاب(الروضتين فى أخبار الدولتين ص ١٤٢) على هذا الاتفاق بقوله:« هذا كله يجرى بين الفرنج وشاور، وأما العاضد صاحب مصر، فليس له من الأمر شئ ولا يعلم شيئا من ذلك قد حكم عليه شاور وحجبه». أما عن الفرنج، فقد عادوا الى بلادهم وتركوا بالقاهرة جماعة من مشاهير فرسانهم.

أدى دخول الفرنجة البلاد المصرية الى اطلاعهم على ما وصلت اليه حالة هذه البلاد من

يشـربه، وكـان كـالاخـرس وكـانو اهله وتلامـيـذه حـاكـمين عليـه وهـم يدبرونه وهـم الذين ياخـذون المال ممن يقدموه له ليجعله فيما يريدو، ولو اراد ان يطعم انسـان خـبـز فـمـا قـدر الا باحـسـانهـم، واذا التمس منه انسـان شيـا ارسله اليهم، ومن التـمس منه كـهنوت انفـذه اليـهم ليـفـصلو معـه والا فـمـا يمكنوه يقسمه، فلما اتاه هذا الراهب الذى ذكرناه انفذه اليهم كالعادة، فمضى اليهم وخاطبهم مثلما خاطب البطرك فشتمه احدهم وهو خايال اسقف

الضعف والاضطراب مما جعلهم يطمعون في الاستيلاء عليها ذلك أنهم تحكموا فى أهلها دون أن يقف في وجههم أحد، وبعثوا الى ملكهم أملريك يهونون عليه أمر امتلاك هذه البلاد، كما أن فئة من أعيان المسلمين بمصر ممن كانوا يعادون شاور، كاتبوا هذا الملك، يحببون اليه القدوم الى مصر. وكان قد وصل اليه من بعض أعوانه أسماء قراها وخراج كل منها، وبذلك تمهد السبيل لقوات الفرنجة، لغزو البلاد المصرية، فخرج أملريك على رأس الحملة التى جهزها فى أوائل سنة ٥٦٤هـ(١١٦٩م)، ونزل على بلبيس وكتب بعض أعيان المسلمين كتبا اليه، يعدونه بالمساعدة لكراهتهم شاور. ثم تقدم الفرنجة فى زحفهم صوب القاهرة، فاستقر رأى شاور على اخلاء الفسطاط، وأمر أهلها بالانتقال الى القاهرة، فحملوا معهم كل ما استطاعوا من متاع وطعام، وأشعل النار فيها حتى يكون ذلك حائلاً بينه وبين الفرنجة، واستمرت النار مشتعلة بها، أربعة وخمسين يوما.

ولما اشتد الفرنجة فى محاصرة القاهرة، وضيقوا على أهلها حتى ضعفت قواهم، رأى شاور بعد أن أيقن من عجزه عن مقاومتهم وضعفه عن ردهم على أعقابهم، أن يعمد الى اعمال الحيلة، فأرسل الى أملريك يذكره بما بينهما من صلة المودة، ويخوفه من نور الدين. ويطلب منه الصلح على أن يؤدى اليه أربعمائة ألف دينار ويعجل بدفع مائة ألف دينار، وبذلك تقرر الصلح.

سـخـا وهو ابن اخـو البطرك لما علم منه انه يريد الاسـقـفـيـة بلا شى وقـال له بعـد الشـتم: انك ان ذكرت من فـمك شى على هذه القـضـيـة جـعلت التلاميذ يهينوك. فاستحكم فيه الغضب ونهض ومـضى الى مـصـر وشكى حـاله للسلطان وكـتب عـدة رقـاع فى البطرك ليـرفع للملك الحـاكم بامر الله، فلمـا علمـو الاراخنة بمـصـر بذلك منعـوه ان يفعله وكـتبـو له كتب الى البـطرك وكـان يومـيذا بوادى هبيب، فلمـا وصلت اليه الكتب دفعها لابن

على أن سـياسـة شـاور تجاه الفر نجة، كانت تنطوى على المخادعة، فقد راسل نور الدين فى دمشق، يطلب منه النجدة، كما أن الخيفة الفاطمى العاضد، كتب فى هذه الأثناء الى نور الدين يستنجد به، ووضع فى رسالته خصلا من شعور النساء امعانا فى الضراعة.

لم تكد تصل هذه الرسائل الى نور الدين، حتى سارع الى تجهيز قو ة من حرسه الخاص، من التركمان بقيادة أسد الدين شيركوه ، وانضم اليه عدد كبير من الأمراء وبعض أقاربه، ومن بينهم صلاح الدين يو سف بن أيوب. ولم يكن راغبا فى المسير الى مصر لما لقيه من المصاعب فى حصار الاسكندرية، فأخرجه نور الدين كرها. وعلق المقريزى (اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ٢٩٥) على مسير صلاح الدين الى مصر بقوله: «فكان فى مسيره اليها تملكه اياها وغيرها من الأقاليم».

وبينما كان أملريك معسكرا بقواته أمام أسوار القاهرة، يستحث أهلها فى طلب المال، جاءت الأخبار بقدوم أسد الدين شيركوه بالعساكر، فأزعج ذلك الفرنج، واضطروا الى الرحيل عن القاهرة والعودة الى فلسطين ثم دخل أسد الدين شيركوه القاهرة فى شهر ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ، واستقبله الخليفة العاضد وخلع عليه، وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكبيرة.

اخيه المقدم ذكره، فلما وقف عليها فغمز على الراهب واحضر العرب الذى هم خفرا الديارة وسلم الراهب اليهم فاخذوه ورموه في بير ورجموه بالحجارة ليقتلوه، فوجد في البير موضع خرق فدخل فيه واختفى ولم يلحقه ولا حجر واحد، فلما سمع البطرك الخبر حمل التراب على راسه ونتف شعر لحيته واحرم ابن اخيه على مافعله بالراهب وانفذ تلاميذه الى البير فاصعدوه منه وعزوه وسالوه ان يتسلى، واوعده البطرك ان

أيقن شاور بعد وصول حملة شيركوه الثالثة الى القاهرة أن غايتها القضاء عليه والاستيلاء على مصر، فظل يوجس خيفة منه، وصار كل منهما يكيد لخصمه. ولما حاول شاور تدبير مؤامرة للقبض على شيركوه ومن معه من الأمراء، نهاه ابنه الكامل، فعدل شاور عن عزمه. غير أن أسد الدين مالبث أن اتفق مع أصحابه على التخلص منه، واضطلع بعضهم بتنفيذ هذه المؤمراة، فقبضوا عليه وقتلوه، ثم نهبت دوره. وهكذا انتهت حياة ذلك الوزير الذى استبد بالسلطة في أواخر العصر الفاطمي واستعان بالعناصر الأجنبية لتثبيت نفوذه ولم يعد للصليبيين بعد مقتله من يحفزهم على التطلع الى غزو مصر.

أصبح أسد الدين شيركوه صاحب السلطان الفعلى فى البلاد بعد أن انتهى عهد شاور، فاتخذه العاضد وزيرا له، ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش، وقلده جميع أمور الدولة. وجاء فى سجل تعيينه وزيرا:» وقلدك أمير المؤمنين أمر وزارته وتدبير مملكته وحياطة ما وراء سرير خلافته، وصيانة ما استخلف عليه دعوة امامته، وكفالة قضاة المسلمين وهداية رعاة المؤمنين..»، كما أوصاه بأن يحسن معاملة رعاياه، بقوله: والرعايا قد علمت مانالهم من اجحاف الجبايات واسراف الجنايات وتوالى عليهم من ضرر النكايات، فأعمر أوطانهم التى خربها الجور والأذى، وأنف من مواردهم الكدر والقذى، وأحسن حفظ وديعة الله منهم،

يجعله اسقف على كرسى مما يخلو فصبر حتى
خلى كرسين فلم يجعله فى واحد منهما بل كان
اهله وتلاميذه يخاطبوه بما يوجع قلبه فحينيذ
امتلا حنقا بمنعهم له من الاسقفية الذى دخل فى
قلبه محبتها، وهذا هو اول وجع لحق الشيطان
اعنى الكبريا لانه مكتوب اذا حبلت الشهوة ولدت
الخطية واذا نمت الخطية ولدت الموت، فمضى
يؤنس الراهب الى مصر ليشتكى.

وخفف الوطأة ما استطعت عنهم، وبدلهم من بعد خوفهم أمناء.

أقام أسد الدين شير كوه بدار الوزارة، التى كان ينزل فيها شاور ومن قبله من الوزارء، وسلك مع الخليفة العاضد مسلكا طيبا حتى أعجب به ومال اليه، وطلب الى أعيان الفسطاط وأهلها، الذين جلوا عنها خلال الفتنة، وقدموا الى القاهرة الرجوع اليها.

استطاع أسد الدين شيركوه خلال الفتره القصير ة التى قضاها فى الوزارة، أن يقبض على زمام الأمور فى البلاد، كما وزع الاقطاعات على عساكره، وقام بأعباء الدولة دون أن يحدث أى تغيير على أصحاب العاضد، ولم ينكر عليهم أمرا من أمورهم، بل أقر هم على عوائدهم. غير أنه لم يبق طويلا فى الوزارة، فقد توفى بعد أن ظل فى منصبه ما يقرب من ثلاثة أشهر.

اختلف خواص العاضد فيها يتولى الوزارة بعد وفاة شيركوه كما تنازل أمراء نور الدين الذين كانوا مع شيركوه فى طلب الرياسة والوزارة. لكن العاضد مال الى تولية صلاح الدين يوسف بن أيوب، وقال لأصحابه من الأستاذين وغيرهم« والله أنى لأستحى من تسريح صلاح الدين، وما بلغت غرضا فى حقه لقرب عهد مقام عمه» (المقريزى: اتعاظ الحناف.جـ٣.ص

ومن ها هنا نقطع الكلام لان فيما فعله الى ان نذكره فى موضعه.

فاما الملك الذى ذكرناه انفا [الحاكم بأمر الله](*) وانه تقلد امر المملكة وهو صبى صغير جدا وانه نشا وكبر وصار كالاسد يزير [يزأر] ويطلب فريسة وصار محب لسفك الدما اكثر من الاسد الضارى حتى ان جماعة احصو من قتل بامره فكان عدتهم ثمنية عشر الف انسان، اول ما

(*) القتل سياج الطغيان
الحاكم يقبض على السلطة ويتولى إدارة الشؤون. هيئته وروعة مظهرة. كيف تصوره لنا الرواية الإسلامية. فتكه بابن عمار. مصرع عدة من الكبراء. مقتل الرئيس فهد.

٣٠٨.)، ثم أرسل فى طلبه وخلع الوزارة، ولقبه الملك القاهر فى اليوم الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٦٤هـ. وجاء فى سجل تقليده الوزارة:

«ولما رأى الله تقلب وجه أمير المؤمنين فى سمائه ولاه من اختيارك قبله، وقامت حجته عند الله باستكفائك وزيرا له ووزيرا للملة، فناجته مراشد الألهام وأضاءت له مقاصد لا تعقلها كل الأفهام وعزم له على أن قلدك تدبير مملكته..» فتقلد وزارة أمير المؤمنين من رتبتها التى تناهت فى الأناقة، الا أن لا رتبة فوقها الا ما جعلها الله للخلافة..».

شرع صلاح الدين بعد أن ولى وزارة العاضد الفاطمى فى استمالة قلوب الناس اليه. وكان لبذله الأموال عليهم أثره فى اكتساب محبتهم مما ساعد على تقوية مركزه فى مصر. كما عمل على التقرب الى الخليفة العاضد بما يرضيه، مما جعله يكسب رضاه.

على أن صلاح الدين مالبث أن استغل توليته الوزارة فى العمل على ازدياد سلطته واضعاف شأن الخليفة العاضد، فأمر بذكر اسم نور الدين محمود فى الخطبة بعد الخليفة الفاطمى، وأقطع أصحابه البلاد، وأسند اليهم بعض المناصب، واستبد بجميع الأمور، ومنع العاضد من التصرف، وبذلك كشف القناع عن حقيقة نواياه ازاء الخلافة الفاطمية، وتجلى للناس حرصه على القضاء عليها.

تولية العداس ومقتله. مقتل ريدان الصقلبي. حوادث قتل أخرى. مصرع زعماء كتامة. فتنة في القضاء. النزاع بين القاضيين الحسين ابن النعمان وعبدالعزيز بن النعمان. تأيد الحاكم للحسين وخطابه له. تغيره عليه ومصرعه. مقاتل أخرى. ذعر رجال الدولة. استغاثة المتصرفين والعمال والخدم. صدور الأمانات لتطمينهم. ارتياع المجتمع القاهرى. الحسين بن جوهر وصهره عبدالعزيز بن النعمان. مطاردتهما ومصرعهما. مذبحة الغلمان والكتاب. مقتل القائد الفضل والوزير الروذبارى والوزير ابن عبدون وآخرين. مأساة القائد غبن وكاتبه الجرجرائي. موجة التقتيل والسفك. مقتل قاضي القضاة سعيد بن مالك. مقتل الوزير الوزان وغيره. عدد الضحايا. الإرهاب المنظم. القتل وسيلة للحكم. أقوال الرواية في ذلك. السفك ملاذ الطغاة في كل عصر.

* * *

كان الحاكم بأمر الله صبياً في نحو السادسة عشرة، حينما بدأ يضطلع بمهام الدولة على هذا النحو. بيد أن هذا الفتى القوى النفس، كان حاكما حقيقيا يقبض على السلطة بيديه القويتين، ويشرف بنفسه على مصاير هذه الدولة العظيمة، ويبدى في تدبير شؤونها نشاطاً مدهشاً، فيباشر الأمور في معظم الأحيان بنفسه، ويتولى النظر والتدبير مع وزرائه[1]؛ وهكذا كان الأمير اليافع يؤثر العمل المضنى، على مجالى اللهو واللعب، التي يغمر تيارها من كان في سنه، وفي مركزه وظروفه؛ وقد لزم الحاكم هذا النشاط المضنى طوال حياته. وكان الحاكم ذا بنية قوية متينة، وكان منذ حداثته يتمتع بمظهر الجبابرة، مبسوط الجسم، مهيب الطلعة، له عينان كبيرتان سوداوان تمازجهما زرقة، ونظرات حادة مروعة كنظرات الأسد، لايستطيع الإنسان صبراً عليها، وله صوت قوى مرعب يحمل الروع إلى سامعيه[2]؛ وتقول الرواية المعاصرة في وصفه: «كان منظره مثل الأسد، وعيناه واسعة شهل، وإذا نظر إلى الإنسان يرتعد لعظم هيبته، وكان صوته جهير مخوف». ويقول الأنطاكى: «ولقد كان جماعة يتعمدون للقائه في أمور تضطرهم إلى ذلك، فإذا أشرف عليهم سقطوا على الأرض وجلا منه، وفحموا على خطابه». ولقد كان الحاكم في الواقع سليل نسل من الجبابرة الصحراويين الأقوياء، الذين يذهبون في زهرة العمر والقوة[3]، وكان أبوه بالأخص عظيم القامة، عريض المنكبين، قوى التكوين[4]، فورث عنه ولده هذه الخواص الطبيعية البديعة، ولم يبددها في شهوات النفس التي ينغمس فيها أبناء القصور.

وهنا يبدأ عصر الحاكم بأمر الله حقاً، وهو أغرب عصر في تاريخ مصر الفاطمية، عصر يمازجه الخفاء والروع. وتطبعه ألوان من الإغراق والتناقض، مدهشة مثيرة معاً؛ ولكن هذه الألوان الخفية المغرقة، وهذه النواحي المتباينة، هي التي تسبغ على العصر أهميته وطرافته، وهي التي تحيط شخصية الحاكم بحجب كثيفة من الظلمات يصعب اختراقها. ويحسن قبل أن نعرض إلى درس هذه الشخصية العجيبة وقبل أن نحاول استجلاء غوامضها، واستقراء حقيقتها، أن نستعرض أولا أعمال الحاكم وتصرفاته، وحوادث العصر

(١) راجع ابن الصيرفى، الإشارة الى من نال الوزارة ص٢٦.
(٢) أخبار الدول المنقطعة للوزير جمال الدين المصرى (نسخة دار الكتب الفتوغرافية المحفوظة برقم ٨٩٠ تاريخ).
(٣) يلاحظ أن العزيز أبا الحاكم توفى في الثالثة والأربعين، وأن جده المعز توفى في السادسة والأربعين، وأن المنصور والد المعز توفى في الثانية والأربعين (راجع خطط المقريزى ج٢ ص١٦٣ و ١٦٧).
(٤) ابن الأثير ج٩ ص٤٠.

وظروفه، ثم نحاول على ضوئها أن نتفهم روح العصر، ونفسية تلك الشخصية الفريدة التي أفاضت عليه من خفاتها وروعتها، وملأته بنشاطها ونزعاتها وأهوائها، وتبوأت فيه المقام الأسمى.

* * *

تقدم الرواية الإسلامية إلينا، الحاكم في صور مروعة مثيرة، فتقدمه إلينا أولا في صورة جبار منتقم، وسفاك لا يخبو ظمؤه إلى الدماء، ثم تقدمه إلينا في صورة طاغية، مضطرم الأهواء والنزعات، متناقض الرأى والتصرفات، لا تكاد تلمس لأعماله باعثاً أو حكمة، شرساً جموحاً، ميالا الى الشر، خؤونا وافر الغدر، لا يستقر على ثقة أو صداقة؛ وتقدمه الينا على العموم في ثوب شخصية بغيضة خطرة، فاقدة الإتزان والرشد، يغلب عليها الجانب الأسود؛ ولكنها مع ذلك لا تنكر عليه بعض نواحي الخير والخلال الحسنة، فتصفه لنا بالجود والتقشف، والزهد في كثير من من متاع الحياة الدنيا.

«وكان الحاكم سيىء الاعتقاد، كثير التنقل من حال الى حال... وكان مؤاخذاً بيسير الذنب، حاداً، لا يملك نفسه عند الغضب، فأفنى أمماً وأجيالا وأقام هيبة، عظيمة وناموساً»[1]. «وكان ردىء السيرة، فاسد العقيدة، مضطرباً في جميع أموره، يأمر بالشيء ويبالغ فيه، ثم يرجع عنه ويبالغ في نقضه»[2]. «وكانت خلافته متضادة بن شجاعة وإقدام، وجبن وإحجام، ومحبة للعلم وانتقام من العلماء، وميل الى الصلاح، وقتل الصلحاء، وكان الغالب عليه الصلاح، وربما بخل بما لم يبخل به أحد قط»[3]. «وكان جواداً، سمحاً، خبيثاً ماكراً، ردىء الإعتقاد، سفاكا للدماء، قتل عدداً كبيراً من كبراء دولته صبراً، وكان عجيب السيرة، يخترع كل وقت أموراً وأحكاما يحمل الرعية عليها»[4]. «وكان حاله مضطرباً في الجور والعدل، والإخافة والأمن، والنسك والبدعة»[5]. في هذه الصور وأمثالها تقدم الرواية الإسلامية الينا الحاكم؛ ولا ريب أن في حياة الحاكم وفي أعماله وتصرفاته، ما يبرر كثيرا من هذه الأوصاف المثيرة، غير أنها ليست كل شيء في هذه الحياة العجيبة الغامضة، ومن الخطأ أن نقف عندها في تصوير الحاكم والحكم عليه، ومن الواجب أن نتقصى في حياة الحاكم جوانب أخرى، وأن نحاول تفهم شخصيته ونفسيته، على أضواء أخرى.

افتتح الحاكم عهد حكمه، بقتل برجوان وصيه ومدبر دولته، وكان للجريمة باعث سياسي قوى، فلم تكن يومئذ دليلا على حبه للسفك أو ظمئه الى الدم، وقد عنى الحاكم بأن يوضح لنا ظروفها ومبرراتها؛ غير أن الحاكم ما لبث أن أتبع ضربته بضربة دموية أخرى، هي مقتل الحسن بن عمار زعيم كتامة وأمين الدولة السابق؛ وكان الحاكم قد حماه من برجوان، وأطلق له رسومه وجراياته، وأذن له بالركوب الى القصر. ففي ذات مساء، حين انصرافه من القصر؛ انقض عليه جماعة من الغلمان الترك، كانت قد هيئت للفتك به، فقتلوه وحملوا رأسه الى الحاكم (١٤ شوال سنة ٣٩٠ - أكتوبر سنة ١٠٠٠م)[6]. ولم تكن للجريمة

---

(١) الوزير جمال الدين، أخبار الدول المنقطعة (النسخة الفتوغرافية المشار إليها).

(٢) المكين ابن العميد (تاريخ المسلمين) طبعة ليدن ص٢٥٩.

(٣) مرآة الزمان في تاريخ الأعيان لابن قزأوغلي المعروف بسبط ابن الجوزى ومنه عدة مجلدات فتوغرافية بدار الكتب (رقم ٥٥١ تاريخ) ومرجعنا منها هو المجلد الحادى عشر ج١٣ ص٤٠١ وما بعدها؛ (وأورده النجوم الزاهرة ج٤ ص١٧٦).

(٤) ابن خلكان ج٢ ص١٦٦. والذهبي في تاريخه (مخطوط بدار الكتب) مجلد ٢٢ في وفيات سنة ٤١١هـ (وأورده النجوم الزاهرج ج٤ ص١٧٨).

(٥) ابن خلدون - كتاب العبر - ج٤ ص ٦٠.

(٦) المقريزى في الخطط ج ٣ ص٥٨. وفي اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ١٥٦.

بواعث ظاهرة، ولكنا نستطيع أن نعللها برغبة الحاكم في سحق الزعماء ذوي البأس والعصبية، وهي رغبة يدلل عليها كما سنرى في مواطن كثيرة؛ وكانت كتامة أقوى القبائل المغربية كما قدمنا، وكان ابن عمار أقوى زعماء الدولة. ولكن سنرى من جهة أخرى أن الحاكم يسرف في القتل، فيقتل وزراءه وغلمانه تباعاً، دون حكمة ظاهرة إلا ما كان من نزعة مؤقتة أو سخط فجائي.

في أواخر سنة ٣٩١هـ، قتل الحاكم مؤدبه أبا التميم سعيد بن سعيد الفارقي، قتل وهو يسامره في مجلسه، وكان قد رتب مقتله مع الغلمان الترك. وكان الحاكم قد نقم عليه تدخله في شئون الدولة وقراءة الرقاع. وفي المحرم من العام التالي (٣٩٢هـ)، قتل الحاكم ابن أبي نجدة متولي الحسبة، وكان بقالا وابتسم له الحظ، فأساء معاملة الناس، وتدخل فيما لا يعنيه من الشئون، فاعتقل ثم قطعت يده ولسانه، وضربت عنقه.

وفي المحرم سنة ٣٩٣هـ، قتل أبو علي الحسن بن عسلوج وأحرق، وكان من أكابر المباشرين لشئون المال. وفي جمادى الأولى من نفس العام (مارس ١٠٠٤م)، قتل الحاكم وزيره فهد بن ابراهيم النصراني، بعد أن قضى في منصبه زهاء ستة أعوام. وتقول الرواية الكنسية المعاصرة، إن الحاكم أمر بقتله لأنه أبى أن يعتنق الإسلام، وتجعل منه شهيدا، وتزعم أن جثته ألقيت الى النيران فلم تحترق. ولما قتل فهد، حمل أخوه أبو غالب الى سقيفة القصر من مال أخيه، جرابات بها خمسمائة ألف دينار، فلما وقف الحاكم على أمرها، أعرض عنها، ثم أمر بردها، فردت الى أولاد فهد، وقال أنا لم أقتله على مال، ورد الى أولاد فهد أيضا حق استعمال السروج المحلاة؛ وأذن لهم بالركوب. ولكنه ما لث أن أمر بأبي غالب فقتل وأحرق بالنار لأقوال نقلت عنه. وأقام الحاكم مكان فهد في النظر والسفارة، أبا الحسن علي بن عمر العداس، وخلع عليه، وعلى ابنه محمد، وكذا على الحسين ابن طاهر الوزان. بيد أنه لم تمض سوى أشهر قلائل حتى سخط الحاكم على العداس، فقتل في شعبان وأحرق. وقبل ذلك في رجب قتل أبو طاهر محمود ابن النحوي متولي أعمال الشام لكثرة تجبره وعسفه. وفي أواخر ذي الحجة من نفس العام، قتل أبو الفضل ريدان الخادم الصقلبي صاحب المظلة، وكان الحاكم قد أعتقه، وأمر أن يكتب في مكاتباته «من ريدان مولى أمير المؤمنين». وبعد ذلك بأسابيع في المحرم من العام التالي (٣٩٤هـ) خلع الحاكم على مظفر الخادم الصقلبي، وندبه مكان ريدان لحمل المظلة[1].

وفي سنة ٣٩٤هـ (١٠٠٥م) قتل أكثر الأعيان ورجال الدولة. وقد ذكر لنا المقريزي ثبتا طويلا ممن قتلهم الحاكم في تلك السنة، فكان منهم العسكري منجمه، وأبو علي عسلوج الديباجي، وعلي بن المنذو في الشاعر الأعمى، واسماعيل بن سوار، وابن أبي خريطة، وقد كانا من أصحاب برجوان، وابن المغازلي المنجم، وسهل بن كلس أخو يعقوب الوزير، قتل لشدة طمعه وشراهته، وحاول أن يفتدى نفسه بثلاثمائة ألف دينار فلم يجب. وقتل القائد أبو عبدالله الحسين بن الحسن البازيار، لأنه كان إذا دخل المدينة من باب البحر يضع قدمه على عنق دابته، وكان الحاكم وهو في منظرته كثيراً ما يراه واضعاً قدمه قبالته. وقتل عدة من زعماء كتامة، منهم المقداد بن جعفر، وعلي بن سلمان وأخوه يحيى، وخلف بن عبدالله، وابن سمود الكتامي، ومحمد بن علي بن فلاح، وغيرهم، وقتل أيضاً عدد كبير من الغلمان والخاصة والجند والرعية لأسباب مختلفة. وخرج الكتاميون إلى باب الفتوح فترجلوا وكشفوا، رؤوسهم،

(١) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٥٦ ب و ١٥٧ و ب و ١٥٨.

واستغاثوا بعفو أمير المؤمنين، فاستدعى الحاكم جماعة منهم، ووعدهم خيراً، وكتب لهم سجل قرىء بالقصر والجوامع بإعلان الرضى عنهم، وإعادتهم إلى رسومهم ومكانتهم[1].

وفي شعبان من هذا العام صرف الحسين بن النعمان عن القضاء؛ وكان الحسين قد غدا موضع سخط الناس حتى اعتدى بعضهم عليه خلال جلوسه بالجامع، فندب الحاكم جماعة للركوب معه في كل مجلس؛ وكان الحسين يتمتع بعطف الحاكم وثقته، وله عنده منزلة خاصة حتى عظم شأنه، وتمكن سلطانه. وكان فضلا عن رياسته للقضاء، يشغل في نفس الوقت منصب داعي الدعاة. ثم بدأ أمر القضاء يضطرب، وظهرت في الأفق فتنة أشاعت الفوضى بين القضاة والمتقاضين. وكان أصل الفتنة يرجع إلى ما شجر من خلاف بين الحسين بن النعمان بصفته قاضياً للقضاة، وبين عبدالعزيز بن محمد بن النعمان متولي المظالم. وذلك أن عبدالعزيز اعتمد جماعة اختارهم للشهادة لديه، فكان من حاكم خصمه إلى الحسين، لجأ خصمه إلى المرافة لدى عبدالعزيز، والأمر بالعكس. وكان عبدالعزيز إذا جلس للنظر في المظالم، حضر شهوده عنده، وأشهدهم فيما يفعل ويمضي، ولا يحضر أحد منهم عند الحسين، وبقية الشهود القدماء يشهدون عنده؛ بينما يحضر غيرهم مجلس عبدالعزيز. وهكذا، حتى اضطربت الأوضاع، وأضحى المتقاضون في حيرة وبلاء، من جراء هذا الخلاف المستمر. ولما كثر النزاع بين القاضيين، وذاع أمره، كتب الحاكم بخطه كتابا الى النعمان يعرب عن استنكاره لما وقع، ويؤكد ثقته في الحسين، وحقه في الانفراد باختصاصه، ووجوب التجاء الخصوم إليه متى ترافع أحدهم لديه. ولكن الخلاف استمر بعد ذلك يتفاقم، وأخذ الحسين يفقد مكانته شيئاً فشيئاً، حتى انتهى الأمر بتغير الحاكم عليه وإقالته، وذلك لريبة علقت به في اختلاس بعض الودائع القضائية، وكان الحاكم قد شدد عليه في صونها. فلزم الحسين داره متوجسا خائفا؛ وندب عبدالعزيز ابن النعمان لتولي أعماله، مضافة الى ما بيده من ولاية المظالم، وخلع عليه، وأذن له بأخذ الفطرة والنجوى، وقراءة مجالس الدعوة بالقصر. بيد أنه لم تمض أشهر أخرى حتى أدركته نقمة الحاكم، فقتل في السادس من المحرم سنة ٣٩٥هـ، ثم أحرقت جثته بعد ذلك، وكان قد شغل منصب القضاء منذ سنة ٣٨٩هـ، ولبث فيه زهاء خمسة أعوام ونصف، وكان عالما أديبا، يلتف حوله العلماء والأدباء[2].

وتلا مصرع الحسين مقتلة أخرى زهق فيها عدد كبير من الخاصة والعامة، يربى عددهم على مائة، قتلوا أو أحرقوا[3]، وقتل جماعة من الأعيان صبرا[4]. وكان من أكابر القتلى يومئذ عبد الأعلى بن هاشم من قرابة الحاكم، أمر بقتله لما بلغه عنه من أنه يتحدث بأنه سوف يلي الخلافة، وأنه وعد قوماً من الملتفين حوله بولاية بعض الأعمال[5].

ولم يك ثمة ريب في أن هذه المذابح المتوالية، كانت عنوان نزعة خطيرة البطش والقتل،

....

(١) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٥٨ ب، والخطط ج ٤ ص٦٩.

(٢) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٥٦ ب و٥٧ أو ٥٨ ب و ٦٠.

(٣) الخطط ج ٣ ص ٣٢ و ج٤ ص٧٠.

(٤) النجوم الزاهرة ج ٤ ص٢١٢.

(٥) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٠.

واحتقار الحياة البشرية، وكان أشد الناس تعرضاً لهذه النزعات الخطرة، أقرب الناس إلى الحاكم، من الوزراء والكتاب والغلمان والخاصة؛ ولم يكن الكافة أيضاً بمنجاة منها، فكثيراً ما عرضوا للقتل الذريع لأقل الريب والذنوب، أو لاتهامهم بمخالفة المراسيم والأحكام الغريبة الصارمة، التي توالي صدورها في تلك الفترة، وكان رجال الدولة ورجال القصر، وسائر العمال والمتصرفين، يرتجفون رعباً وروعاً أمام تلك الفورات الدموية؛ وكان المجتمع القاهرى، ولاسيما التجار وذوى المصالح والمعاملات يشاطرونهم ذلك الروع. ويروى لنا المسبحى صديق الحاكم ومؤرخة فيما بعد، أن الحاكم أمر في سنة ٣٩٥ (١٠٠٥م) بعمل شونة كبيرة مما يلي الجبل ملئت بالسنط والبوص والحلفا، فارتاع الناس وظن كل من له صلة بخدمة الحاكم، من رجال القصر أو الدواوين، أنها أعدت لإعدامهم، وسرت في ذلك إشاعات مخيفة، فاجتمع سائر الكتاب وأصحاب الدواوين، والمتصرفين من المسلمين والنصارى، في أحد ميادين القاهرة، ومازالوا يقبلون الأرض حتى وصلوا إلى القصر، فوقفوا على بابه يضجون ويتضرعون، ويسألون العفو عنهم؛ ثم دخلوا القصر، ورفعوا إلى أمير المؤمنين، عن يد قائد القواد الحسين بن جوهر، رقعة يلتمسون فيها العفو والأمان، فأجابهم الحاكم على لسان الحسين إلى ما طلبوا؛ وأمروا بالانصراف والبكور لتلقى سجل العفو؛ وفي اليوم التالي صدر سجل كتبت منه نسخة للمسلمين، وأخرى للنصارى، وثالثة لليهود، بالأمان والعفو عنهم[١]. واشتد الذعر بالغلمان والخاصة على اختلاف طوائفهم، فضجوا واستغاثوا وطلبوا العفو والأمان فأجيبوا إلى ما طلبوا؛ وتبعهم في الاستغاثة التجار وأرباب المهن والحرف؛ وتوالى صدور الأمانات لمختلف الطوائف، فصدر أمان للغلمان الأتراك، وصبيان الخاص والغلمان والعرفاء، وصبيان الدار، وأصحاب الاقطاعات والمرتزقة، والغلمان الحاكمية، وصدر أمان لخدم القصر الموسومين بخدم الحضرة، بعد ما اجتمعوا وهرعوا إلى قبر العزيز وضجوا بالبكاء والاستغاثة، وكتبت عدة أمانات للديلم والغلمان الشرابية والغلمان المرتاحية والعلمان البشارية، والنقباء والروم المرتزقة؛ وصدرت أمانات لسكان الأحياء المختلفة، ولسائر الطوائف مثل العطوفية، والجوانية، والجودرية، والمظفرية، والصنهاجيين، والميمونية، وقرنت هذه الأمانات ووزعت على أهلها. وكذلك صدرت أمانات أخرى تربى على المائة لأهل الحرف والأسواق، قرنت كلها بالقصر وكلها من نص واحد. وقد أورد المسبحى إحدى هذه الوثائق ونصها: «هذا كتاب من عبدالله ووليه المنصور أبي على الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين لأهل مسجد عبدالله: إنكم من الآمنين بأمان الله الملك الحق المبين، وأمان جدنا محمد خاتم النبيين، وأبينا على خير الوصيين، وآبائنا الذرية النبوية المهديين، صلى الله على الرسول ووصية وعليهم أجمعين، وأمان أمير المؤمنين على النفس والأهل والدم والمال، لا خوف عليكم ولا تمد يد بسوء إليكم، إلا في حد يقام بواجبه، وحق يؤخذ لمستوجبه، فليوثق بذلك، وليعول عليه إن شاء الله تعالى، وكتب في جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلثمائة، والحمد لله وصلى الله على محمد سيد المرسلين وعلى خير الوصيين، وعلى الأئمة المهديين ذرية النبوة وسلم تسليما كثيرا»[٢].

وهكذا هبت على المجتمع القاهرى ريح من الرهبة والخشوع، وأصبح اسم هذا الخليفة الفتى، الذى لم يجاوز

(١) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٥٩ ب. وقد كانت الأوامر والقوانين والمراسيم، التي تصدر عن الخلافة الفاطمية، تسمى أولا «بالسجلات»، ثم سميت في أواخر الدولة «بالعهود» (راجع صبح الأعشى ج١٠ ص٣٠٨).

(٢) المقريزى في الخطط ج٣ ص ٣٢، ٣٣، وفي اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٠.

يومئذ العشرين من عمره، وأصبحت نزعاته وتصرفاته، مثار الرعب والروع. ولم يك ثمة ريب في أن القتل كان في نظر الحاكم خطة مقررة، ولم يكن فورة أهواء فقط. وقد لزم الحاكم هذه الخطة الدموية طول حياته. ووقعت في الأعوام التالية، حوادث ومناظر من القتل الذريع لا نهاية لها، وكانت تقترن أحيانا بضروب مروعة من القسوة. وقلما كان يغادر الحكم وزير أو كبير من كبراء الدولة إلا مسفوك الدم، وفي الأحوال النادرة التي ينجو فيها المعزول بحياته، كانت تلازمه نقمة الحاكم حتى يهلك.

وتقدم إلينا قصة الحاكم مع قائد القواد الحسين بن جوهر، وصهره القاضي عبدالعزيز بن النعمان متولي المظالم، مثلا من أروع أمثلة هذه المطاردات الدموية التي امتاز بها عهد الحاكم. ففي شعبان سنة ٣٩٨هـ (١٠٠٩م)، عزل قائد القواد الحسين بن جوهر، وعين مكانه أبو الفضل صالح بن علي الروذباري لينظر في سائر الأمور التي كان ينظر فيها، ولقب «بثقة ثقات السيف والقلم». ولم تمض أسابيع قلائل حتى أمر الحاكم الحسين وصهره عبدالعزيز بلزوم دارهما، ومنعا وسائر أولادهما من الركوب. ثم عفا عنهما، وأذن لهما في الركوب. وبعد ذلك بأشهر قلائل في جمادى الأولى سنة ٣٩٩ هـ، صدر الأمر بالقبض عليهما، فقبض على عبدالعزيز بن النعمان، وفر الحسين وأبناؤه وجماعة، واضطربت القاهرة لمكانة الحسين، وأغلقت الأسواق، فأفرج عن عبدالعزيز، وعاد الحسين مع أولاده، وعفا الحاكم عنهما، بعد أن ارتميا على أعتابه واستجارا به؛ ولكنهما لم يطمئنا طويلا إلى هذا العفو المريب؛ فعمدا إلى الفرار مع أولادهما وجماعة، وغادرا القاهرة تحت جنح الظلام، ومعهما أموال وسلاح (ذو القعدة ٣٩٩هـ)؛ وفي صباح اليوم التالي سير الحاكم الخيل في طلبهما، فلم تدركهما، فأمر بمصادرة أملاكهما، وأحيط بسائر مالهما من المال والمتاع، وأخذت إلى الديوان المفرد؛ وأنفذت لهما كتب الأمان في نفس الوقت. والتجأ الحسين وعبدالعزيز إلى البحيرة، واحتميا بعرب بني قرة، وتوالت عليهما كتب الحاكم بالأمان والعودة. ولكن الحسين اشترط لعودته أن يصرف الوزير ابن عبدون متولي السفارة، لتخوفه من نياته وغدره، فصرفه الحاكم نزولا على هذه الرغبة، وعاد الحسين وعبدالعزيز، بعد أن استوثقا من الخليفة بالأمان والعفو، ودخلا القاهرة في موكب حافل، ومثلا بحضرة الحاكم، فأصدر الحاكم عفوه عنهما، وقرىء سجل أمانهما علناً، وأشهد الحاكم قاضي القضاة على نفسه بالوفاء بنصه، وأذن للحسين في أن يلقب بقائد القواد. وكان ذلك في المحرم سنة ٤٠١هـ. واستمر الحسين وعبدالعزيز يركبان إلى القصر على رسمهما المعتاد بضعة أشهر. وفي ذات يوم استبقيا بالقصر «لأمر تريده الحضرة»، فجلسا وانصرف الناس. ثم قتلا فجأة وذلك في ١٢ جمادى الآخرة سنة ٤٠١هـ (أوائل ١٠١١م)؛ وأحيط في الحال بدورهما وأموالهما، وصودرت، وحملت إلى الديوان المفرد، وهو الديوان الذي أنشأه الحاكم برسم من يؤخذ ماله من المقتولين وغيرهم. وكذلك أخذت سائر الأمانات والسجلات التي كتبت لهما. وعاد الحاكم بعد ذلك فاستدعى أولاد القتيلين، ووعدهم بالجميل وخلع عليهم. وقيل إن ولد الحسين وهم ثلاثة فروا إلى الشام، واستغاثوا بحاكم أنطاكية البيزنطي، فسير الحاكم إلى والي الشام بوجوب القبض عليهم. فأخذوا بالحيلة، وقتلوا وأرسلت رؤوسهم إلى القاهرة (سنة ٤٠٣هـ)[(١)].

وكان لمقتل الحسين بن جوهر والقاضي عبدالعزيز، وقع عميق في البلاط وفي الشعب، فالحسين

(١) المقريزي في الخطط ج٣ ص ٢٣ و ٢٤، وفي اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٢ ب و ٦٣ ب؛ وتاريخ الأنطاكي ص١٩٩.

ولد فاتح مصر ومؤسس دولة الفاطميين فيها، وعبدالعزيز هو حفيد القاضي الكبير النعمان القيرواني وسليل تلك الأسرة الفقهية النابهة التي حملت زعامة الدولة الروحية منذ نشأتها، وكانت من أعظم أوليائها، وكانت المأساة خاتمة لنفوذ هاتين الأسرتين.

وإليك طائفة أخرى من حوادث القتل والسفك التي أمعن فيها الحاكم: في سنة ٣٩٩هـ (١٠٠٩م)، قبض الحاكم على جماعة كبيرة من الغلمان والكتاب والخدم الصقالبة بالقصر، وقطعت أيديهم من وسط الذراع ثم قتلوا، وقتل الفضل بن صالح من أعظم قواد الجيش، وهو الذي ظفر بالثائر أبي ركوة وأخمد ثورته كما سيجيء؛ وفي العام التالي وقعت مقتلة أخرى بين الغلمان والخدم، وقتل جماعة من العلماء السُّنية، وقتل أسامة بن محمد اللغوي والحسين بن سليمان الأنطاكي النحوي، وفر ثالثهم عبدالغني بن سعيد، وذلك بسبب اجتماعهم بدار العلم (دار الحكمة). وقتل رجاء بن أبي الحسين لأنه صلى صلاة التراويح في رمضان، وقتل الرواة أو أصحاب الأخبار عن آخرهم لكثرة أرجافهم، وابتزازهم أموال الناس بالأكاذيب[1].

وقتل في العامين التاليين عدة متعاقبة من الوزراء ورجال الخاص. وكان الحاكم قد أسند في المحرم سنة ٣٩٩هـ، نظر ديوان الخراج إلى أبي نصر بن عبدون الكاتب النصراني. ولم يمض على ذلك زهاء عام، حتى صرف صالح بن علي الروذباري «ثقة ثقات السيف والقلم» (صفر سنة ٤٠٠هـ)، وعين مكانه ابن عبدون لينظر فيما كان ينظر فيه من الأعمال، وخلع عليه ولقب بالكافي. وأذن لصالح بالركوب إلى القصر. ولم تمض أشهر قلائل على ذلك حتى قبض على صالح وقتل (شوال سنة ٤٠٠هـ)، وقتل في نفس الوقت غالب بن ملاك متولي الشرطتين والحسبة، وقتل عدة كبيرة من الكتاب والخدم وغيرهم. وصرف ابن عبدون عن النظر، بناء على رغبة الحسين بن جوهر كما تقدم (المحرم سنة ٤٠١هـ)، وعين مكانه أحمد بن محمد القشوري الكاتب ليتولى شؤون الوساطة والسفارة؛ وصدر لابن عبدون أمان كتبه الحاكم بخطه، وكان الحاكم يثني عليه، وعلى خدماته. بيد أنه لم تمض أشهر قلائل حتى اعتقل ابن عبدون وقتل، وأخذت أمواله. وأما ابن القشوري فإنه لم يمكث في منصبه سوى عشرة أيام، ثم قبض عليه فجأة وضربت عنقه، وذلك لما بلغ الحاكم عنه من أنه كان يبالغ في تعظيم الحسين ابن جوهر، والعناية بشؤونه. وعين مكانه للوساطة والسفارة، أبو الجيوش زرعة بن عيسى بن نسطورس (المحرم سنة ٤٠١هـ) ولقب بالشافي. واستمر ابن نسطورس في منصبه زهاء عامين ثم مرض وتوفي (ربيع الثاني سنة ٤٠٣هـ) فكان من الرجال القلائل الذين عصمهم الموت أو حسن الطالع من بطش الحاكم. ويقول لنا المقريزي، إن الحاكم تأسف على موته من غير قتل. وقال: «ما أسفت على شيء قط أسفي على خلاص ابن نسطورس من سيفي، وكنت أود لو ضربت عنقه لأنه أفسد دولتي، ونافق علي، وكتب إلى حسان بن الجراح في المداجاة علي، وأنه يبعث بمن يهرب إليه»[2].

وللحاكم قصة دموية مروعة مع خادمة غبن، وكاتبه أبي القاسم الجرجرائي. وكان غبن من الخدم السود الذين يؤثرهم الحاكم بعطفه وثقته، فعينه في ربيع الأول سنة ٤٠٢هـ، للشرطة والحسبة بمصر والقاهرة والجزيرة، والنظر في جميع الأموال والأحوال، ولقب في سجل تعيينه بقائد القواد، وأن يكاتب بذلك، وعهد اليه بنوع خاص بتنفيذ المراسيم الدينية والاجتماعية مثل مطاردة المسكرات، والمنع من بيع العسل والقفاع والملوخية وغيرها مما أمر

(١) المقريزي في الخطط ج٤ ص٨٨، وفي اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٣ب.
(٢) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٥ ب و ١٦٦.

بمنعه، ومنع الملاهي واجتماع الناس في المآتم، والسير خلف الجنائز وغيرها. وعهد غبن بالكتابة عنه إلى أبي القاسم أحمد ابن علي الجرجرائي؛ وسطع نجم غبن وعلت مكانته، حتى أنه لما مرض، ركب الحاكم لعيادته، وسير إليه خمسة آلاف دينار، وخمسة وعشرين فرسا. غير أن هذه المظاهر البراقة لم تحل دون نكبته. وكان الحاكم قد سخط عليه قبل ذلك ببضعة أعوام، وأمر بقطع يده فصار أقطع اليد. وفي صفر سنة ٤٠٤، صرف غبن عن الشرطتين والحسبة، وقلدت لمظفر الصقلبي حامل المظلة. ولم يمض سوى قليل حتى سخط عليه الحاكم كرة أخرى. وأمر بقطع يده الثانية (جمادى الأولى)، فقطعت وحملت الى الحاكم في طبق، فبعث اليه الأطباء للعناية به، ووصله بمال وتحف كثيرة. ولكن لم تمض أيام قلائل على ذلك، حتى أمر بقطع لسانه، فقطع، وحمل الى الحاكم أيضا، ومات غبن بعد قليل من جراحه (جمادى الأولى سنة ٤٠٤هـ).

وشملت النقمة أبا القاسم الجرجرائي كاتب غبن، فقد أمر الحاكم بقطع يديه عقب صرف غبن (ربيع الآخر سنة ٤٠٤هـ). وسبب ذلك أنه كان من قبل في خدمة ست الملك أخت الحاكم، وتركها دون رضاه ليلتحق بخدمة غبن؛ ثم بعث اليها برقعة يستعطفها فيها، فارتابت منه، وبعثت بها الى الحاكم فسخط عليه، وأمر بقطع يديه، ويقال بل إنه كان يفض أحيانا المرقاع المختومة المرفوعة الى الحاكم، ويطلع على محتوياتها، وأبقى الحاكم بعد ذلك على حياة الجرجرائي، فعاش أقطع اليدين[1].

وفي ربيع الآخر سنة ٤٠٥هـ (١٠١٤م) قتل قاضي القضاة مالك ابن سعيد الفارقي. وكان قد عين لقضاء القاهرة في سنة ٣٨٩هـ، كما تقدم. ثم ولي منصب قاضي القضاة في رجب سنة ٣٩٨هـ، وخلع عليه، وقرئ سجل تعيينه بالجامع العتيق كالعادة، وعهد إليه بكتب الدعوة التي تقرأ بالقصر على الأولياء. وجمعت له ولاية المظالم والأحباس والدعوة ودار الضرب ودار العيار وأمر الأضياف؛ فعلت منزلته، واجتمعت معظم الدواوين في يده، وتوثقت صلاته بالحاكم، وكان يركب معه ليلا ونهاراً ويشاوره في الأمور، وزادت إقطاعاته وأسلاكه من الدور والضياع وغيرها، وقصده أصحاب الحاجات من كل صوب. وكان جواداً فصيحاً، عف اللسان، كثير الصون. فحدث في ذات مساء من ربيع الأول (٤٠٥هـ)، أن ركب الحاكم ليلا كعادته إلى الجب، وفي ركبه عدد من الناس، ومنهم مالك بن سعيد، فلما سلم على الحاكم، أعرض عنه، فتأخر، فجاء غادى الصقلبي متولي الستر، وأخذه إلى القصور وقتله، وتركت جثته، حتى مر بها الحاكم عند عوده، وأمر بدفنها. ولم يعرف بالضبط سبب مصرعه على هذا النحو، بيد أنه ظن أنه كان يتهم بموالاة سيدة الملك أخت الحاكم ومراعاتها، وكان الحاكم يحقد عليها، كما سيجيء. ولما قتل استدعى الحاكم أولاده، وخاطبهم، ولم يتعرض لشيء من تركة أبيهم، وأقر ولده أبا الفتوح على رسمه وإقطاعه[2].

وفي أواخر شعبان من هذا العام، خلع على أبي العباس محمد بن عبدالله ابن العوام، وصدر سجل بتقليده منصب قاضي القضاة، فعين خلفاءه في مصر والقاهرة وغيرهما، ونقل ديوان الحكم من بيت مالك بن سعيد إلى بيت المال بالجامع العتيق، وكان أول من فعل ذلك من القضاة. وكانت دواوين القضاء تعقد في دورهم، فجعلها بالجامع العتيق، وجعل جلوسهم بالجامع، يومي الاثنين والخميس،

---

(١) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٥ أ و ب و ٦٧ أ و ب، والنجوم الزاهرة ج٤ ص٢٢٣.
(٢) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ١٦٢ و ب ولوحة ٦٨ ب.

وبالقاهرة يوم الثلاثاء، وخصص يوم السبت للحضور بالقصر. واستمر ابن العوام في منصبه حتى نهاية عهد الحاكم، ولم تمتد إليه يد الفتك، التي امتدت إلى أسلافه[1].

ولم يمض شهران على مقتل قاضي القضاة مالك بن سعيد، حتى قتل الحاكم وزيره الحسين بن طاهر الوزان، وكان هذا الوزير ملحقاً بخدمة القائد غبن، وعرضت عليه الوساطة، فأجاب بشرط أن يكون لكل طائفة من العسكر زمام يرجعون إليه، وأن يكون نظره هو على الأزمة مجتمعة، ويخصص يوم لشئون كل طائفة، فقبل اقتراحه، وخلع عليه وقرر للوساطة والتوقيع (ربيع الأول سنة ٤٠٣هـ)؛ ثم لقب «بأمين الأمناء». واستمر في منصبه زهاء عامين، وفي ذات يوم ركب الحاكم، ومعه أمين الأمناء، الحسين ابن طاهر على رسمه، فلما انتهى إلى حارة كتامة خارج القاهرة، أمر به فضربت عنقه، ودفن في مكان مصرعه (جمادى الآخرة سنة ٤٠٥هـ). وقتل الحاكم في نفس الوقت عبدالرحيم بن أبي السيد الكاتب متولي ديوان النفقات، وأخاه الحسين متولي الوساطة والسفارة، قتلا في القصر في منتصف شهر رمضان من نفس العام، ولما يمض على نظرهما أكثر من شهرين. وقلد الوساطة أبو العباس يفضل بن جعفر بن الفرات، ثم قتل لأيام قلائل من تعيينه[2].

وهكذا استمر الحاكم في الفتك بالزعماء، ورجال الدولة من الوزراء والكتاب، والموقعين، والعلماء، ورجال القصر من الأساتذة والخدم الصقالبة، ومن إليهم من الحشم حتى أباد معظمهم؛ هذا عدا من قتل من التجار والصناع والكافة، خلال هذه الأعوام الرهيبة، وهم ألوف عديدة[3]. وتقدر الرواية المعاصرة ضحايا الحاكم بثمانية عشر ألف شخص من مختلف الطبقات.

وأحياناً كان القتل يبدو في نظر الحاكم، ضرباً من ضروب اللهو أو الرياضة، إذا صدقنا ما تسوقه إلينا الرواية من حوادث تدل بذلك. فقد نقل إلينا المقريزي ما رواه ابن سعيد عن أحمد بني الحسين الروذباري، من أن الحاكم، قتل ذات يوم ركابيا بحربة في يده على باب جامع عمرو، وتولى شق بطنه بيده؛ ونقل إلينا عن أبي سعيد أيضاً، أن الحاكم كان يواصل أثناء طوافه الوقوف بحانوت ابن الأزرق الشواء ويحادثه، ويبدى عطفه عليه؛ وفي ذات يوم استدعى الحاكم أحد الركابية من السودان المصطنعة بحضرة حانوت ابن الشواء، فوقف بين اثنين من زملائه ورماه برمح، ثم أضجعه، واستدعى سكيناً فذبحه بيده، ثم استدعى ساطورا، فقذف به رأسه وجسده، ثم استدعى ماء فغسل يده. ثم أمر بعد ذلك بغسله ودفنه، وأن تعمل له جنازة حافلة، وصلى عليه قاضي القضاة[4].

وفي أحيان أخرى، كان الحاكم يطرب لمناظر المغامرات المميتة، فمثلا يروى لنا المقريزي في حوادث سنة ٣٩٧هـ، أن الحاكم في شهر صفر من هذه السنة، رسم لجماعة من الأحداث أن يتباروا في القفز من موضع عال بالقصر، ورسم لكل منهم بصلة، فحضر منهم جماعة، وتباروا في القفز، فمات منهم ثلاثين إنسانا، لسقوطهم خارجاً على صخر قريب، ودفع لمن نجا منهم مالا[5].

والآن ماذا نستطيع أن نقرأ في هذا الثبت الدموي الحافل من

---

(١) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٨ب.

(٢) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٦ أ و٦٨ب و١٦٩.

(٣) أخبار الدول المنقطعة (النسخة الفتوغرافية) ونهاية الأرب (النسخة الفتوغرافية) ج٢٦ ص ٥٢ و ٣٥، وتاريخ الأنطاكي ص٢٠١.

(٤) المقريزي في اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٧٠ ب و ١٧١.

(٥) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٥٩ب.

خواص الحاكم وصفاته؟ لقد كانت هذه الجرائم المثيرة بلا ريب عنوان اجتراء مروع على الشر، وشغف واضح بالسفك، واحتقار بين للحياة البشرية؛ ولكنها لم تكن نزعة دموية فقط، ولم تكن بالأخص دون غاية. كان الإرهاب فى نظر الحاكم وسيلة للحكم، وكان القتل المنظم دعامة هذا الإرهاب الشامل؛ فإذا زعيم أو رجل من رجال الدولة، أو رجال الخاص، وصل إلى مدى خطر من السلطان والنفوذ، فإن القتل أنجع وسيلة لسحقه وسحق نفوذه؛ وإذا وزير أو كاتب أو موقع بدرت منه بادرة انحراف أو خيانة أو تطلع أو تدخل فيما لا يعنيه، قضى عليه بأن يختفى من الميدان؛ وإذا بدرت من قاض نزعة ضعف فمال مع الهوى، وامتدت يده إلى مال حرام أو رشوة، فإن مقتله يغدو كفيلا بسحق الفساد والسلم، وعود الثقة إلى القضاء والعدالة؛ وإذا بدرت من فريق من الناس بادرة تذمر، أو تمرد على أمر من الأوامر أو قانون من القوانين، فإن إزهاق عدد منهم يكفل عودهم إلى السكينة والخشوع. وكانت هذه السياسة الدموية تحيط عرش الحاكم بسياج منيع من الرهبة، وتزيد حفظ النظام والأمن والسكينة، وتخمد الأطماع المتوثبة فى مهدها، وتنذر الزعماء ورجال الدولة بالخضوع المطلق لهذا الفتى الجرىء. ولقد كان القتل دائماً وسيلة الطغاة إلى تأييد سلطانهم، وكان الحاكم طاغية قوى النفس والشكيمة.

يقول الأنطاكى وهو مؤرخ معاصر: «وأقام له «أى الحاكم» من الهيبة فى نفوس الكافة، لشدة سطوته وتسرعه الى سفك الدماء، وأنه لا يبقى على من صغر ذنبه وقل، فضلا عمن عظم جرمه وجل»[1].

وإذن فلم يفت الرواية الإسلامية والنصرانية أيضاً، المعاصرة والمتأخرة، أن تلاحظ أن خطة القتل الذريع التى لجأ إليها الحاكم قد «أقامت له هيبة عظيمة وناموساً، وحملت «كافة الناس على غاية الهيبة له والخوف منه»، وعانت على توطيد سلطانه طوال مدة حكمه.

ونستطيع أن نلاحظ أن الالتجاء الى مثل هذه الوسائل الدموية لتأييد الحكم والسلطان، ليس خاصا بنظم العصور الوسطى، أو بسياسة الطغاة فى تلك العصور، ففى عصرنا وفى أرقى الأمم الغربية تعتمد النظم الطاغية (الدكتاتورية)، ويعتمد أقطاب الطغاة فى تأييد هذه النظم، الى مثل هذه الوسائل الذريعة، وترتكب هذه المذابح دائما باسم سلامة الدولة وسلامة النظم القائمة؛ والواقع أنها ليست دائما إلا شهوة من شهوات أولئك الذين يقبضون على زمام السلطة، ويحرصون على استبقائها بأى الوسائل، ويرتجفون دائما لشبح أية معارضة يهمس بها الخصوم الأقوياء.

هذا ويفسر لنا بعض الروايات، إسراف الحاكم فى القتل، بأنه كان تقرباً منه «لزحل وطالعه المريخ»، وقد كان الحاكم شغوفاً بالفلك ورصد النجوم كما سنرى[2].

المراسيم الاجتماعية والدينية

شغف الحاكم بالليل. الحياة والأنوار الليلية. العاصمة الساطعة المرحة. وقف الحياة الليلية. مدينة القاهرة فى هذا العصر. الطواف من خواص حياة الحاكم. عناصره الاجتماعية والشعبية. بعض نوادر عنه. موجة المراسيم المدهشة. المراسيم الاجتماعية. تحريم بعض البقول والأسماك والأبقار. حظر التبرج على النساء. مطاردة المسكرات. تحريم الزبيب والعنب واتلافهما. مطاردة البغاء ودور اللهو. قتل الكلاب. مراسيم أخرى. اضطراب الحياة الاجتماعية. المجاعة والوباء. قبض الحاكم على أموال أهله. تحريم الخوض فى الشؤون العامة. منع النساء من زيارة القبور والاجتماع والاستحمام. تحريم التنجيم

---

(١) الأنطاكى ص٢٢١.

(٢) مرآة الزمان (النسخة الفتوغرافية) المجلد ١١ ج٣ ص٤٠١ و ٤٠٧ و ٤٠٨، وأورده النجوم الزاهرة ج٤ ص١٧٧.

والغناء. الحجر المطلق على النساء. الصرامة في تنفيذ هذه القوانين. المراسيم الدينية. ملابس النصارى واليهود. هدم بعض الكنائس. مرسوم بهدم كنيسة القمامة. ملابسات هذا المرسوم. إلغاء الأعياد النصرانية. التشريع المرهق للذميين. اضطراب المجتمع النصراني. هدم الكنائس ونهبها ونزع أملاكها. اعتقال البطريرك القبطي. محنة الذميين. إطلاق الهجرة لهم. هدوء المطاردة. إلغاء القوانين المرهقة. إطلاق حرية الشعائر. إعادة بناء الكنائس. الأمان الذى صدر للنصارى. سجلات مختلفة للنصارى. بواعث المطاردة الدينية. تطوراتها في الدولة الفاطمية. أول تشريع للذميين فى الإسلام. السياسة المذهبية. سب السلف ومحوه. التوفيق بين الأحكام الدينية. الصلاة والأذان. الزكاة والنجوى. الحاكم وأصول الإسلام. أقوال الدعاة السريين فى ذلك. عقيدة الحاكم الدينية.

* * *

كان شغف الحاكم بالليل من أظهر خواص هذه المرحلة من حكمه. كان الحاكم يعقد مجالسه ليلا، ويواصل الركوب كل ليلة، ويتفق شطراً كبيراً من الليل، في جوب الشوارع والأزقة (سنة ٣٩١هـ)، وصدرت الأوامر بهذه المناسبة بتعليق المصابيح ليلا، على جميع الحوانيت وأبواب الدور والمحال المختلفة في جميع طرقات القاهرة والفسطاط، وتكرر هذا الأمر غير مرة في الأعوام التالية، وكان يقرن بأمر آخر هو وجوب كنس الشوارع والأزقة وأمام أبواب الدور في كل مكان، فكانت المدينة تبدو في هذه الفترات بالليل كأنها شعلة مضيئة، وتبدو في نفس الوقت في ثوب مشرق من النظافة والإناقة، ولازم الحاكم الركوب في المدينة المنيرة، وكان يزور كل ليلة حياً معيناً ويشق طائفة من الشوارع والدروب، ويقيم الحسبة بنفسه أحيانا، ويستطلع أحوال الشعب وأخباره أو على قول المقريزى: «فكان يركب إلى موضع موضع، وإلى شارع شارع، وإلى زقاق زقاق»؛ وأصبحت جميع الأعمال والمعاملات تجرى بالليل وتزدهر مواطن السمر، وتختلط حياة الجد بحياة اللهو والقصف، فتسطع الميادين بالوقود والشموع الكبيرة، وتزين الأسواق والقياسر بمختلف أنواع الزينة، وتغص بصنوف اللهو والمرح، وتنفق الأموال الوفيرة في المآكل والمشارب والسماع؛ وكان الشعب القاهرى يحتشد حول مليكه أينما وجد، في جموع غفيرة، وكان الحاكم يشق جموع الشعب المحتشدة في بساطة ورقة، ولا يمنع أحدا من الدنو منه أو من مخاطبته، واستمر الحال على ذلك أشهرا، وظهر النساء في المجتمعات بكثرة[1]، فلما خرج الناس في ذلك عن الحد، وبالغوا في اللهو والإسراف والزينة والمجون، منع الحاكم النساء من الخروج ليلا منذ العشاء لكى تخف عوامل الفتنة والغواية، وعوقب المخالفات بشدة؛ ثم منع الرجال من ارتياد الحوانيت والمقاهي، وأبطلت بعد ذلك جميع الأعمال والمعاملات ليلا، وعاد الظلام يخيم على القاهرة بالليل، (سنة ٣٩٣هـ). وشغف الحاكم بالليل وظلماته من غريب أطواره ونزعاته، حتى أنه كان يؤثر الجلوس في الظلام[2].

وإنه لمن الشائق أن نعرف ماذا كانت عليه مدينة القاهرة المعزية في هذا العصر المليء بالأحداث المدهشة. وقد رأينا كيف نشأت القاهرة على يد جوهر، مدينة ملوكية متواضعة لاتتجاوز مساحتها. ميلا في ميل، وتضم القصر الخليفي وحدائقه، ومساكن الحاشية. وخطط الجند، ويتوسطها الجامع الأزهر، ومن حولها السور اللبن الساذج الذى أنشأه جوهر لحمايتها من عدوان القرامطة. بيد أن المدينة الفاطمية

---

(١) خطط المقريزى ج٣ ص١٧٦؛ واتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٥٦ ب و ٥٧ أ.
(٢) مرآة الزمان الجزء المشار إليه ج ٣ ص١٠٤ (وأورده النجوم الزاهرة ٤ ص١٧٦).

أخذت تنمو بسرعة، ولم يمض جيل واحد، حتى اتسعت جنباتها، ونمت نمواً عظيماً، وقامت الأحياء والخطط الجديدة خارج الأسوار، واتصلت بمصر الفسطاط، وامتزجت المدينتان وتداخلتا، وصارتا تكونان معا، مدينة من أكبر وأعظم مدن الإسلام في العصور الوسطى.

وكان اسم القاهرة المعزية يطلق على مجموعة الخطط التي تقع داخل السور الذي أنشأه جوهر، ولكن هذا السور غير مراراً أثناء الدولة الفاطمية، وأنشئت فيما وراء الأسوار القديمة خطط وأحياء جديدة فخمة؛ وكان أعظم تغيير طرأ على الأسوار، هو مشروع السور العظيم الذي أنشأه أمير الجيوش بدر الجمالي في عهد المستنصر بالله في سنة ٤٨٦ هـ، وهو السور الذي مازال يقوم من أبوابه العظيمة إلى اليوم ثلاثة، وهي بابا النصر والفتوح في الشمال، وباب زويلة في الجنوب، وهي من أعظم الآثار الفاطمية الباقية.

وكانت القصور الفاطمية، قد نمت، وبلغت في عصر الحاكم منتهى الضخامة والبذخ. وكان القصر الخليفي الكبير أو القصر الشرقي، يقع في وسط المدينة، في منطقة خالية، وأمامه من الناحية الغربية يقع القصر الغربي أو القصر الصغير، وهو الذي أنشأه الخليفة العزيز بالله، وخصص فيما بعد لإقامة ابنته ست الملك، وبينهما ميدان شاسع هو ميدان بين القصرين الشهير، وهو الذي كانت تجتمع فيه الجيوش المسافرة، أو الحرس الخليفي، أو طوائف الشعب أيام الأعياد والأحداث العامة. وقد وصف لنا ناصري خسرو الذي زار القاهرة بعد عصر الحاكم بنحو ربع قرن فقط (سنة ٤٣٨ هـ)، هذا القصر الفاطمي الكبير بقوله: «انه قصر شاسع تراه من خارج المدينة كأنه جبل نظرا لضخامة مبانيه وارتفاعها. ولا يمكن أن تراه من داخل المدينة إذ تحيط به أسوار شاهقة الارتفاع. ويقال إن هذا القصر يضم من الحشم اثنى عشر ألف نفس. ومن ذا الذي يستطيع أن يقول كم يضم من النساء والبنات. وهم يؤكدون أنه يضم ثلاثين ألف شخص، ويتكون القصر من عشرة أجنحة، وله عشرة أبواب تفضي الى الحرم».

ثم يقول ناصري خسرو، إن القاهرة لها خمسة أبواب، وهي ليست محصورة في رقعة محصنة، ولكن المباني والمنازل مرتفعة جدا، حتى إنها تبدو أعلى من الحصن، وكل منزل، وكل قصر يمكن اعتباره قلعة، ومعظم المنازل يضم خمس أو ست طبقات.

وقد بنيت منازل القاهرة بمنتهى العناية والترف، حتى ليمكن أن يقال إنها قد بنيت من الأحجار الكريمة، وليس من الآجر والأحجار العادية. والمنازل كلها منعزلة بحيث أن الأشجار القائمة في أحدها لا تصل أغصانها الى المنزل الآخر، ويستطيع كل إنسان أن يهدم داراه وأن يبنيها دون أن يضار أحد.

وتضم القاهرة ما لا يقل عن عشرين ألف حانوت كلها من أملاك الخليفة، ومنها عدد عظيم يؤجر الحانوت منه بعشرة دنانير مغربية في الشهر، والقليل منها يؤجر بأقل من ذلك. كذلك يوجد منها عدد عظيم يصعب حصره من الخانات والحمامات وغيرها من الأبنية العامة. وهذه كلها أيضا من أملاك الخليفة، إذ لا يسمح لإنسان أن يمتلك منزلا أو عقارا إلا ما كان من أبنية الخليفة نفسه.

وأما عن مدينة مصر أو الفسطاط فيقول لنا ناصري خسرو، إنها كانت هي العاصمة، وانها تقوم على ربوة مرتفعة تظللها من الناحية الشرقية، سلسلة منخفضة من التلال، ويقوم جامع ابن طولون على

مرتفع يشرف على المدينة. وقد بنيت مصر على هذا المرتفع الصخرى لكى يحميها من مياه النيل، وأن من يتأملها عن بعد، يتوهم أنه يرى جبلا، ومن بين مبانيها دور من أربعةعشرة طابق أو سبعة، وبها سبعة جوامع كبيرة[(١)].

كانت القاهرة، فى عصر الحاكم إذن، سواء من حيث رقعتها ومبانيها وعمرانها، وأحيائها الداخلية والخارجية، مدينة عظيمة، تموج بسكانها الذين ربما بلغوا مع ضم الفسطاط إليها نحو نصف مليون من الأنفس. وكان الحاكم يجد فى طوافه الليلى بعاصمته الكبيرة الزاخرة، من ضروب الحركة والنشاط، ومن صور الحياة الإجتماعية المختلفة، ما يشغله ويذكي اهتمامه، ويملى عليه مختلف المشاريع والقرارات.

وشغف الحاكم بالطواف بمدينة القاهرة وضواحيها طول حياته؛ وقد كان طوافه على هذا النحو، سواء بالنهار أو الليل من أبرز مظاهر نشاطه، وحياته العامة، كما كان من أبرز ظواهر حكمه. وقد نقلت إلينا الرواية عنه صوراً ومناظر متنوعة، كلها تستحق الدرس والتأمل، والإعجاب أحياناً. فكان الحاكم فى مستهل حكمه، كثيراً ما يركب إلى ناحية سردوس، وإلى بركة الجب، وإلى عين شمس وحلوان، للصيد وغيره. ثم كان بعد ذلك يواصل الركوب إلى الصحراء، بحذاء فى رجله، وعلى رأسه فوطة، فيركب كل ليل بعد المغرب. وفى أواخر عهده (سنة ٤٠٤هـ)، كان الحاكم يواصل الركوب فى العشايا. وقد اتخذ له فى هذه الفترة خادماً ركابياً أسود، كناه بأبى الرضا سعد، وأغدق عليه الهبات والإقطاعات، فقصده الناس فى حوائجهم، وقصدوا بابه لمهماتهم، فكان يتوسط بينهم وبين الحاكم، وكان الحاكم يجيب سؤله فى أحيان كثيرة. وكانت هذه المواكب الخلافية البسيطة، تقترن فى معظم الأحيان، مثل ما كانت فى أوائل عهد الحاكم، باحتشاد طوائف الشعب من حوله، وأقبالهم عليه. ويصف لنا المقريزى هذا المنظر فى حوادث رمضان سنة ٤٠٤هـ، حينما ركب الحاكم لصلاة الجمعة بجامع القاهرة (الجامع الأزهر)، فيقول: «فازدحم الناس عليه بعد ركوبه من الجامع إلى القصر، فوقف لهم، وأخذ رقاعهم، وحادثهم وضاحكهم، فلم يرجع إلى القصر من كثرة وقوفه، ومحادثة العوام، إلى غروب الشمس؛ ودفع صلات كثيرة».

واستمر الحاكم فى العام التالى (٤٠٥هـ) على منواله فى الركوب والطواف، فكان يواصل الركوب، ويأخذ الرقاع، ويقف طويلا مع الناس. وفى جمادى الأول من هذا العام، كثر ركوبه، حتى كان يركب فى اليوم الواحد عدة مرار، وكثرت هباته وأعطيته. ثم أمر بابتياع الحمير، وصار يركبها من تحت السرداب إلى باب البستان إلى المقس، وتغلق الأبواب التى يتوصل منها إلى المقس وقت ركوبه، ومنع الناس من الخروج إلى هذا الموضع. وفى رمضان من نفس العام كثر ركوب الحاكم بشكل ظاهر، فركب فى يوم واحد ست مرات، تارة على فرس، وأخرى على حمار، ومرة فى محفة، تحمل على الأعناق، ومرة فى عشارى فى النيل، وهو يلف رأسه بشاشة لا عمامة عليها، وكثرت إقطاعاته للجند والعبيد، واستمر على الركوب إلى ليلة النحر[(٢)].

وقد نقلت الينا الرواية

---

(١) ناصرى خسرو. رحلته وتفكيره الدينى وفلسفته وشعره (بالفرنسية) للدكتور يحيى الخشاب ص١٠٢ و١٠٣ و١٠٩ - ١١١.

(٢) المقريزى فى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٥٥ ب و٦٧ أ و بو ٦٩ أ.

أحاديث ونوادر كثيرة عن المناظر التي كانت تقترن بهذا الطواف، وعما كان ينزع اليه الحاكم أحيانا من الأهواء العنيفة خلال طوافه؛ ومن ذلك أنه كان يأمر بإحراق الشون ليمتع بمرأى النيران، وأنه لقي ذات مساء عشرة من الناس سألوه الإحسان، فأمر أن ينقسموا الى فريقين يتقاتلان حتى يغلب أحدهما فينعم عليه، فتقاتلا حتى فني منهم تسعة وبقي واحد، فألقى اليه الدنانير، فلما انحنى ليأخذها عاجله الركابية بقتله، وأنه مر ذات ليلة على دكان شواء، فانتزع منه سكينا وقتل بها أحد الركابية المقربين لديه بغير ما سبب معروف، وتركت الجثة في موضعها، وفي اليوم التالي أنفذ الحاكم اليه كفناً جليلا، ودفن مع التكريم. وتزيد الرواية على ذلك أن الحاكم كان أحيانا يلهو أثناء طوافه برؤية بعض المناظر الخليعة المثيرة، بيد أن هذه روايات تحمل الطابع القصصي، ويحفها في نظرنا كثير من الريب[1].

وفي تلك الفترة الحافلة من عهد الحاكم، وهي التي تملأ نحو عشرة أعوام من سنة ٣٩٥هـ، إلى سنة ٤٠٥هـ، وهي التي تميزت بنزعاته الدموية وكثر فيها مقتل الزعماء ورجال الدولة وأفراد الرعية، كما تميزت بطوافه المستمر المضني، نرى الحاكم يصدر تباعا طائفة من الأوامر والقوانين (السجلات) المدهشة التي لم يسمع بمثلها من قبل في أي مجتمع إسلامي. وكانت هذه المراسيم دينية واجتماعية، وكان مما يزيد في غرابتها وغموض بواعثها، أنها كانت تصدر ثم تمحى بعد قليل وتستبدل بعكسها، ثم يعاد صدورها وهكذا. وقد اتخذ المؤرخون المسلمون على كر العصور، هذه المراسيم، حجة للحكم على الحاكم وعصره بأقسى الأحكام، واكتفوا في تعليلها بنظرية بسيطة، هي أن الحاكم كان ذهنا مضطرباً لا يصدر عن روية أو حكمة، ولم تكن هذه الأوامر والاجراءات الشاذة، سوى نزعات مخبول لا يستقيم له منطق أو غاية. ويحسن قبل أن نناقش هذا الرأي، أن نستعرض هذه المراسيم أولا وأن نحاول أن نتفهمها، وأن نستقصي بواعثها على ضوء الظروف التي كان يجوزها المجتمع يومئذ

- ١ -

ونبدأ بالمراسيم الاجتماعية. في المحرم سنة ٣٩٥هـ، صدرت أول طائفة من هذه الأوامر المدهشة، فصدر سجل يمنع الناس من أكل الملوخية والترمس والجرجير والمتوكلية والدلنيس[2]، وحرم ذبح الأبقار السليمة إلا في أيام النحر (عيد الأضحى وغيره). وفي غيرها، لا يذبح إلا ما كان ذو عاهة أو ما لا يصلح للحرث؛ وحرم بيع الفقاع وعمله بأي صورة، وكان الفقاع مسكراً ذائعاً في ذلك العصر؛ وحرم صيد السمك الذي لا قشر له وكذلك بيعه؛ وحرم دخول الحمام بلا مئزر، وهوجمت الحمامات تباعا وقبض على المخالفين فأدبوا وشهروا؛ وشدد على النخاسين، وتجار الرقيق في المنع من بيع العبيد والأماء لأهل الذمة، ثم أمر بعد ذلك ألا يدخل سوق الرقيق أحد إلا أن يكون بائعاً أو مشترياً؛ وأن يفرز الجواري من الغلمان، وأن يجعل لكل منهم يوم خاص؛ وحرم على النساء أن يكشفن وجوهن في الطريق، أو خلف الجنائز، وحرم عليهن التزين والتبرج كما حرم البكاء والعويل والصياح وراء الموتى؛ وشدد الحاكم في تنفيذ هذه الأوامر، وعوقب كثيرون من المخالفين بالجلد والتشهير والإعدام[3]. ثم حرم على الناس أن يخرجوا من منازلهم إلى الطرقات منذ الغروب الى الفجر، وأن يزاولوا البيع والشراء بالليل، فخلت الطرق من المارة، وأقفرت

(١) تاريخ الأنطاكي ص٢٠٩ و ٢١٧.
(٢) قال ابن البيطار في مفرداته، الدلنيس اسم بالديار المصرية لنوع من الصدف صغير بزكل نيئاً مملوحاً يتأدم به.
(٣) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٥٩ أ.

الشوارع والميادين بالليل، وغدت القاهرة كالمدينة المحصورة.

وفي ربيع الأول سنة ٣٩٩هـ، صدر سجل بالمنع من عمل النبيذ والمزر، وحذر من التظاهر بشيء من ذلك، أو من الفقاع والدلينس، والسمك الذى لا قشر له، والترمس المتعفن، وجاء هذا السجل مؤكداً لهذه المطاردة العنيفة المنظمة التى شهرت في عهد الحاكم على الخمر والمسكرات بأنواعها، والمواد التى تصنع منها؛ وفي العام التالى صدر سجل بالتشديد في حظر الخمور وبيعها، وبإراقة النبيذ وجميع أنواع المسكر، وكسرت أوانى الخمور، وأريقت في كل مكان، وشدد على الخمارين وبدد كل ما في دورهم ومحلاتهم واستمرت هذه الشدة، وتناهت في العام التالى (٤٠١هـ). وفي المحرم من سنة ٤٠٢هـ، قلدت الشرطتان لمحمد بن نزال، وصدرت إليه الأوامر، بمضاعفة الحزم في تتبع المسكرات ومنعها، وأن يحرم. بيع الزبيب إلا خمسة أرطال فما دونها، والا تباع الجرار. ولم تمض سوى أشهر قلائل، حتى حرم بيع الزبيب إطلاقاً، وأمر بمصادرته، وألقيت منه في النيل مقادير كبيرة، وأحرقت مقادير أخرى كانت في مخازن التجار، وتوالى هذا الإحراق أياماً بحضرة الشهود. وفي شهر ذى الحجة (٤٠٢هـ) عمل عيد الغدير على رسمه، ومنع مرة أخرى من بيع الزبيب إلا أن يكون أربعة أرطال فما دونها، ومنع من اعتصاره، ثم أمر بإتلافه ومنع بيعه البتة، وأغرق ما وجد منه في النيل. وطاف المأمورون بأنحاء الجيزة، وكانت يومئذ عامرة بحدائق الكروم فجمعت الأعناب، وطرحت تحت أرجل البقر لدوسه، وصدرت الأوامر بذلك إلى مختلف الجهات؛ وتتبع من يبيع العنب، وشدد في ذلك حتى اختفت آثاره. ثم ختم بعد ذلك على العسل، وصودرت منه آلاف من الجرار وأغرقت في النيل؛ وتكرر تحريم المسكرات والفقاع الزبيب في سجل جديد صدر في جمادى الآخرة سنة ٤٠٣هـ، وهكذا خصت الخمر ومصادرها طوال عهد الحاكم بأقسى المطاردات وأعنفها[١].

وفي سنة ٤٠١هـ، صدر سجل يمنع الغناء واللهو، وأمر أن لاتباع مغنية، وألا يجتمع الناس في الصحراء، ومنع النساء من الغناء والنشيد. وهوجمت أماكن البغاء والقصف بشدة وأزيلت دورهم وأوكارهم، وطهرت منهم أحياء المدينة، وكانوا ينبثون في معظم جنباتها[٢].

وفي سنة ٣٩٥هـ أمر بتتبع الكلاب وقتلها أينما وجدت إلا كلاب الصيد، فطوردت في كل مكان، وأعدمت حتى خلت منها جميع الطرق والدور[٣] وتكررت هذه الحملة ضد الكلاب بعد ذلك، في سنتى ٤٠٤هـ، ثم ٤٠٥هـ، وقتل منها في كل من عدد لا يحصى؛ وقيل في سبب قتلها إن الحاكم كان يسير في ركبه ذات يوم فاعترض مطيته كلب، فوثبت وكادت تلقيه على الأرض، وقيل إنها كانت تكثر النباح بالليل وتزعجه في طوافه فأمر بتطهير الطرقات منها[٤]؛ ولكن سنرى أن قتلها كانت تمليه بواعث صحية؛ وأمر أيضاً بقتل جميع الخنازير التى في كورة مصر فقتلت عن آخرها[٥]. وفي هذا العام أيضاً (٣٩٥هـ) حرم على كل من يركب مع المكاريين أن يدخل راكباً من باب القاهرة، وحرم ذلك على المكاريين أنفسهم، وحظر على التجار والباعة أن يجلسوا على باب

---

(١) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ١٩٣أ و ١٦٥أ و ب؛ والخطط ج٤ ص٧٢. وراجع ابن خلكان ج٢ ص١٦٦.

(٢) الأنطاكى ص١٨٦.

(٣) ابن خلكان ج٢ ص١٦٦، والمقريزى ج٤ ص٦٩ و ٧٠، والأنطاكى ص١٨٧.

(٤) في سير البيعة المقدسة (المخطوط الكنسى). والأنطاكى ص١٨٨.

(٥) سير البيعة المقدسة.

الزهومة (من أبواب القصر)، وألا يمشي أحد بحذاء القصر، ثم أعفي المكارية بعد ذلك من الأمر، وصدر لهم أمان خاص[(١)].

وهكذا اضطربت أوضاع الحياة الاجتماعية في مصر، واستمر تطبيق القوانين والأوامر الجديدة على أشده. وفي سنة ٣٩٨هـ صدرت عدة مراسيم (سجلات) جديدة تكراراً لما سبق الأمر به، فمنع الناس من التظاهر بالغناء، ومن ركوب البحر للتفرج، وذلك لمناسبة نقص النيل في هذا العام، وشدد في منع بيع الخمور؛ ثم صدر مرسوم بمنع الناس كافة من الخروج قبل الفجر وبعد العشاء، فزادت المعاملات اضطراباً واشتد الأمر على الكافة، وسرى إليهم الخوف والجزع؛ واشتد الغلاء من جراء قصور النيل وهلاك الزرع، واشتكى الناس خاصة من قلة الخبز وسواده، ومن غلاء الدقيق والأرز، وتفاقمت الحال بظهور الوباء، وعصف المرض والموت، وعز القوت والدواء والفواكه، واشتدت المحنة بالناس مدى أشهر، وحمل الوباء منهم ألوفاً كثيرة؛ واتخذ الحاكم بعض الإجراءات لمقاومة الغلاء فأمر بألا يخزن أحد من المون أكثر من حاجته، وحددت أسعار القمح والمواد الغذائية الأخرى، مثلما تعمل أرقى الحكومات في عصرنا عند الطوارئ، وعوقب المخالفون بالموت[(٢)]. وفي سنة أربعمائة منع ركوب المراكب في الخليج، وسدت أبواب القاهرة التي تلي الخليج وأبواب الدور والطاقات المطلة عليه[(٣)] وعوقب الكثيرون من أجل إحراز الفقاع والملوخية والسمك الذي لا قشر له ومن بيع النبيذ وإحرازه، وطورد السكارى والمخالفون بشدة، وكانت العقوبة تصل في أحيان كثيرة إلى الإعدام.

ومن غريب تصرفات الحاكم في تلك الفترة، أنه قبض على جميع أملاك زوجه وأمه وأخته وعماته وخواصه وجواريه وسائر أقطاعاتهن وأموالهن بمصر والقاهرة وكانت جملة عظيمة (سنة ٣٩٩هـ)، ولم تفهم حكمة هذا التصرف أو بواعثه، بيد أنها كانت فيما يظهر ثورة مؤقتة، وقد عاد فرد الأمور إلى نصابها فيما بعد[(٤)].

وفي صفر سنة ٣٩٩هـ، صدر سجل «بترك الخوض فيما لا يعني، والاشتغال بالصلوات في أوقاتها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وألا يخوض أحد في أحوال السلطان وأوامره، وأسرار الملك»؛ وفي ذي العقدة من العام التالي تكرر هذا الأمر بترك الخوض فيما لا يعني. وفي سنة ٤٠١، قرئ سجل جديد مماثل بالنهي عن معارضة الإمام فيما يفعله أو يصدر عنه من الأوامر والأحكام، وترك الخوض فيما لا يعني. وكانت النفوس قد اضطرمت من جراء هذه الأوامر المتتابعة، والقيود المضنية، واستطالت ألسنة الكافة وبدت عليهم أمارات التذمر والخوف؛ فصدر من أجل ذلك سجل قرئ في سائر الجوامع بتسكين قلوب الناس وتطمينهم، لكثرة ما داخلهم من التوجس والخوف من أوامر «الحضرة» (أي الخليفة). وفي أوائل سنة ٤٠٣هـ، بدت أعراض الخوف والذعر على كثير من الطوائف فكثر اقتناء الناس للسلاح، وحمله كثير من الكافة، وكثر الكلام في ذلك، فقرئ سجل جديد بالجوامع بتطمين الناس، وإعراضهم عن أقوال المرجفين[(٥)]. وأمر في نفس السجل بإعادة «حي على خير العمل» في الأذان، وإسقاط

---

(١) المسبحي في حوادث سنة ٣٩٥، ونقله المقريزي في الخطط ج٣ ص٤٤.

(٢) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٣أ و ٦٤أ، وتاريخ الأنطاكي ص١٩١.

(٣) المقريزي عن المسبحي ج٣ ص٣٨.

(٤) تاريخ الأنطاكي ص١٩٥.

(٥) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٥ ب.

«الصلاة خير من النوم» والنهى عن صلاة التراويح والضحى.

وفى سنة اثنتين وأربعمائة منع النساء من زيارة القبور، فلم تر فى الأعياد بالمقابر امرأة واحدة، ومنعن من الاجتماع فى المآتم، ومن السير وراء الجنائز، ومن الاستحمام فى الحمامات العامة؛ ومنع الاجتماع على شاطئ النيل للتفرج وركوب النساء مع الرجال، وخروجهن إلى مواضع الفرجة مع الرجال؛ وحرم لعب الشطرنج وجمع حيثما وجد وأحرق، وعوقب المخالفون بالحبس والجلد (٤٠٣هـ).

وفى نفس العام (٤٠٢هـ)، صدر مرسوم (سجل) بتحريم صناعة التنجيم والكلام فيها، وأن ينفى المنجمون من سائر المملكة، فاستغاث المنجمون بالقاضى الأكبر مالك بن سعيد الفارقي، فعقد لهم التوبة من هذه الصناعة وأعفوا من قرار النفى، وحدث مثل ذلك للمغنين والمطربين، فهجروا الغناء وأعفوا من المطاردة.

وللحاكم مع النساء قصة شهيرة؛ فقد رأينا فيما تقدم كيف صدرت أوامر الحاكم تباعا، بمنعهن من التبرج، وألا يكشفن عن وجوههن فى الطريق، أو يجتمعن فى المآتم أو يسرن خلف الجنائز، أو يزرن المقابر، أو يقمن بالغناء والنشيد، أو يجتمعن مع الرجال فى أماكن الفرجة، أو يخرجن من دورهن بعد العشاء الآخرة؛ وكان النساء يمتثلن لهذه القيود الجزئية المتابعة، ويقبلنها على مضض، فى انتظار إلغائها أو التخفيف منها. بيد أن الأمور بالعكس كانت تتجه الى التشدد فى معاملتهن، والقضاء التام على حريتهن، ومحو أثرهن من الحياة العامة. ففى شعبان من سنة ٤٠٤هـ (١٠١٤م) ذهب الحاكم فى معاملة النساء إلى ذروة القسوة والشدة؛ فأصدر مرسومه الشهير بمنعهن من مغادرة دورهن والخروج الى الطرقات بالليل والنهار، ويستوى فى ذلك أن تكون المرأة شابة أو عجوزا؛ فاحتبس النساء فى ظلام دورهن، ولم تر امرأة فى الطريق؛ ولم يستثن من ذلك سوى النساء فى ظلام دورهن، ولم تر امرأة فى الطريق؛ ولم يستثن من ذلك سوى النساء المتظلمات للشرع، والخارجات الى الحج، أو المسافرات اللاتى تضطرهن ظروف قاهرة إلى السفر، والأماء اللاتى برسم البيع، والقابلات، وغاسلات الموتى، والأرامل اللاتى يبعن الغزل، وأن يكون خروج هؤلاء لمزاولة شؤونهن برقاع خاصة ترفع الى القصر، وتصدر بها تصاريح يقوم بتنفيذها مدير الشرطة؛ ومنع النساء من دخول الحمامات العامة، ومنع الأساكفة من عمل أخفافهن؛ فاختفى النساء من المجتمع المصرى، وساده الانقباض والوحشة، وأغلقت المتاجر التى تبيع السلع النسوية؛ وساد الذعر بين النساء، يقول المقريزى مشيرا إلى عيد الفطر من سنة ٤٠٤هـ «ولا رؤيت امرأة، ولا أبيع شيء مما عادته يباع فى الأعياد من اللعب والتماثيل»؛ وحاول النساء التظلم من هذا القرار، وذهب الكثيرات منهن الى القصر داعيات متظلمات فلم يفزن بطائل؛ وعوقب كثير من النساء المخالفات بالضرب والحبس، وعوقب بعضهن بالموت. وفى العام التالى، أى فى سنة ٤٠٥هـ، كررت هذه الأوامر القاسية، وشدد فى تنفيذها. ولم يقتصر منع النساء على الخروج الى الطرقات بل نص أيضا على منعهن من التطلع من النوافذ والطيقان شبابهن وعجائزهن. واشتد الأمر بنساء الكافة اللاتى ليس لهن من يقوم بأمرهن، واستغثن بأولى الأمر، فأمر الباعة أن يحملوا السلع والأطعمة وكل ما يباع فى الأسواق الى الدروب، ويبيعونه للنساء فى منازلهن، وأن يحمل الباعة أداة كالمغرفة لها

ساعد طويل يمد الى المرأة وهى من وراء الباب وفيه ما تشتريه، فتتناوله وتضع مكانه الثمن، ولا يسمح مطلقاً أن تبدو من وراء الباب[1]. وعانى النساء هذه الشدة زهاء سبعة أعوام حتى وفاة الحاكم بأمر الله؛ وكان حادثاً مروعا منقطع النظير، ولم يحدث قط فى أى مجتمع إسلامى، بل لم يحدث فى أى عصر من عصور التاريخ، أن عانى النساء مثل هذه المحنة القاسية، وسلبن الحرية على هذا النحو الشامل.

وكان مما يزيد فى صرامة هذه القوانين الإستثنائية، الشدة فى تنفيذها، وروعة العقوبات التى سنت لمخالفيها؛ وكان السهر على تطبيقها من أهم واجبات مدبر الدولة أو قائد القواد، فنجد مثلا فى السجل الصادر بتعيين «غبن» قائداً للقواد ومديراً للشرطة والحسبة (سنة ٤٠٢هـ)، تنويهاً خاصاً بمراعاة تحريم النبيذ وغيره من الخمور وتتبع ذلك والتشديد فيه، وفى تحريم الفقاع وبيعه، وتحريم أكل الملوخيا والسمك الذى لا قشر له، والمنع من الفرجة والملاهى كلها، ومنع النساء من حضور الجنائز، ومنع بيع الزبيب والعنب والعسل إلا ثلاثة أرطال فما دونها أو لمن لا تتجه اليه مظنة اتخاذه مسكرا[2]، وكانت عقوبات المخالفين تختلف بين التشهير[3] والحبس والجلد، وتصل فى أحيان كثيرة إلى الإعدام.

هذا استعراض واف لما صدر فى عهد الحاكم بأمر الله من المراسيم والأوامر (السجلات) الاجتماعية الاستثنائية، ومعظمها يحمل طابع القسوة والشذوذ، ولكن سنرى أنها لم تكن دون غاية، ولكنها غاية المستبد الذى يظن نفسه عادلاً ملهماً ويخضع فى ذلك لثقافة وأواضع عصرة النابعة من ذهنية دينية تظن إن الاصلاح لا يأتى إلا عن طريق القسوة والعنف. ولم تصدر كما يبدو لأول وهلة، عن نزعة مخبول أو هائم، وأن كثيراً منها يحمل بالعكس طابع الطرافة والحكمة، ويرمى الى غايات بعيدة، قد فطن اليها هذا الذهن الجرىء، واتخذ منها مثلا.

ـ ٢ ـ

نعرض بعد ذلك إلى طائفة أخرى من مراسيم الحاكم بأمر الله هى المراسيم الدينية، وقد كانت كالمراسيم الإجتماعية تحمل فى كثير من الأحيان طابع الشدة والتناقض.

وبدأ الحاكم بهذه المراسيم (السجلات) الدينية لأول عهده بالحكم أيضاً. ففى السابع من المحرم سنة ٣٩٥هـ، قرىء سجل بالجوامع، يؤمر فيه النصارى واليهود بلبس الغيار وشد والزنار ولبس العمائم اسود، والسواد هو شعار العباسيين، وهم عصاة فى نظر الفاطميين.

وفى ليلة عيد الشعانين من سنة ٣٩٨هـ، منع النصارى من تزيين كنائسهم على جرى عادتهم، وقبض على جماعة منهم بسبب ذلك. وفى رجب من نفس العام صدر سجل بمصادرة الاوقاف المحبسة على الكنائس، وضمها إلى جانب الديوان السلطانى، وكتب إلى سائر الأعمال بذلك؛ وأحرقت صلبان كثيرة على أبواب الجوامع، وفى دار الشرطة[4].

وفى سنة ٣٩٩هـ أمر بهدم بعض كنائس القاهرة ونهب ما فيها، ومنها كنيسة اليعاقبة بحارة الروم؛ بعد أن أصدر أخطر سجل تطبيقاً لهذه السياسة هو المرسوم

---

(١) الأنطاكى ص٢٠٨، وابن خلكان ج٢ ص١٦٧، والمقريزى فى الخطط ج٣ ص٧٣، وفى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٥ و ٦٧ب؛ و٦٨أ، وابن الأثير ٩يص ١٠٩.

(٢) المقريزى فى الخطط ج ٤ص٨٨.

(٣) التشهير هو أن يطاف بالمذنب على حمار أو جمل وتعلق عليه كتابة بمضمون ذنبه، وقد يكون عقوبة أصلية، وقد يعقبه بعد ذلك جلد أو إعدام.

(٤) المقريزى فى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٢أ، وفى الخطط ج٤ ص٤١٨.

الخاص بهدم كنيسة القيامة (قمامة)[1] أو القبر المقدس ببيت المقدس؛ ويضع المقريزى تاريخ هذا المرسوم الشهير فى أواخر سنة ٣٩٨هـ، ولكن الرواية النصرانية تضع تاريخه فى سنة ٧٢٧ للشهداء[2]، وهى توافق سنة ٣٩٩هـ (١٠١٠م)، وكان حادثاً جللا فى تاريخ الكنيسة؛ وتقول الرواية الكنيسة المعاصرة إن هذا السجل الشهير صيغ فى تلك العبارة الموجزة: «خرج أمر الإمامة إليك بهدم قمامة. فاجعل سماءها أرضاً، وطولها عرضاً»، وتزيد على ذلك أن الذى كتبه كاتب نصرانى يسمى ابن شترين، وأنه توفى بعد كتابته بأيام قلائل ندماً وحزناً؛ وأنفذ السجل إلى يختكين والى الرملة (فلسطين)، فقام بتنفيذه فى الحال، وأحيط على ما بالكنيسة من الذخائر والتحف والآنية المقدسة، وهدمت سائر رحابها وقبابها، وأزيلت كنيسة مارى قسطنطين التى بداخلها، وأصبحت الكنيسة العظمى أثراً بعد عين، ولم يبق منها سوى أثر الصخرة التى شيد عليها القبر المقدس، وهدم الدير الملاصق لها، وكان غاصاً بالراهبات من مختلف الأمم النصرانية، وانتزعت سائر أحباسها وأملاكها وأموالها؛ وكان هدمها فى شهر صفر سنة ٤٠٠هـ (١٠١٠)[3].

ويروى فى هذا الصدد أن الحاكم أمر بهدمها لما بلغه مما يقع بها من الرسوم والشعائر الوثنية المثيرة، وما ينتظم إليها من المواكب الدينية الصاخبة التى يضج فيها النصارى بالصلوات والأدعية ويرفعون الصلبان الضخمة، ولاسيما فى أيام الفصح وفى عيد الشعانين[4]؛ ويروى لنا المقريزى فى حوادث سنة ٣٩٨هـ، أن الحاكم لفت نظره كثرة خروج النصارى من مصر إلى القدس لحضور عيد الفصح بقمامة، كما يخرج المسلمون إلى الحج، فسأل ختكين العضدى أحد قواده عن ذلك لمعرفته بأمر قمامة، فذكر له أن هذه بيعة يعظمها النصارى، ويحج إليها من جميع البلاد، ويأتيها الملوك، وتحمل إليها الأموال العظيمة، والثياب والستور والفرش والقناديل والصلبان المصنوعة من الذهب والفضة، وكذلك الأوانى الذهبية والفضية، وبها من ذلك شىء عظيم، فإذا كان يوم الفصح، واجتمع النصارى بقمامة، ورفعت الصلبان وعلقت القناديل فى المذبح، تحيلوا فى إيصال النار إليه بدهن البلسان مع دهن الزيبق، فيحدث له ضياء ساطع يظن من رآه أنها نار نزلت من السماء؛ فأنكر الحاكم ذلك، وتقدم إلى أبى منصور ابن سورين كاتب الإنشاء، فكتب إلى أحمد بن يعقوب الداعى أن يقصد القدس، ويهدم قمامه، وينهبها الناس حتى يعفى أثرها[5].

وتقول الرواية الكنسية المعاصرة أيضاً، إن راهباً قبطياً يدعى يونس نقم على البطريرك

---

(١) تطلق الرواية العربية اسم «القمامة» على كنيسة القبر المقدس. وأصل هذه التسمية تاريخى يرجع الى أن القبر المقدس قد بنى على الموضع الذى كانت توضع به القمامة خارج أسوار بيت المقدس أيام المسيح، وهو الموضع الذى يقول الإنجيل إن المسيح قد صلب فيه (راجع معجم البلدان لياقوت فى كلمة قمامة).

(٢) تاريخ الأنطاكى ص١٩٦. وتقول بعض الروايات الإسلامية بصدور هذا السجل فى سنة ٤٠٣هـ، أعنى حينما صدر السجل العام بهدم الكنائس (راجع أخبار الدول المنقطعة - المخطوط) وتاريخ الذهبى (المجلد الثانى والعشرون) وأورده النجوم الزاهرة (ج ٤ ص١٧٨). بيد أننا نؤثر الأخذ بالرواية النصرانية، أولا لأنها أقدم الروايات، بل هى معاصرة تقريبا، وثانيا لأنها أقرب الى الضبط والتحقيق فى مثل هذا الحادث الجلل فى تاريخ الكنيسة وتاريخ النصرانية كلها. وراجع أيضاً كتاب Jerusalem تأليف بالمر وبيزانت ص١١٣ وما بعدها.

(٣) تاريخ الأنطاكى ص١٩٦.

(٤) تاريخ الأنطاكى ص١٩٦.

(٥) المقريزى فى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٣أ.

زخاريا لأنه لم يرسمه أسقفاً، فتقدم إلى الحاكم ووصف له ما يتمتع به الأحبار النصارى من النفوذ والجاه ومظاهر السلطان والعظمة والثراء، وكونهم يبيعون المناصب الكنسية، وقال فى رقعته التى رفعها إليه: «أنت ملك الأرض، لكن للنصارى ملك لا يعبأ بك لكثرة ما قد اكتنز من الأموال الجزيلة، لأنه يبيع الأسقفية بالمال» وعدد فيها كثيراً من مثالهم، فكان معاه من العوامل التى أثارت سخط الحاكم وحفزته إلى هدم الكنائس ومطاردة النصارى.

وقد كان لهدم القبر المقدس وقع عميق فى الأمم النصرانية كلها، وكان له فيما بعد أثره فى إذكاء الدعوة الصليبية التى شهرتها البابوية «لإنقاذ فلسطين والقبر المقدس»، واستمر موقع الكنيسة بعد هدمها أعواماً طويلة مزاراً يحج إليه النصارى، حتى أعيد بناؤها فى عهد المستنصر بالله بعد ذلك بنحو ثلاثين عاماً.

وفى العام التالى صدر مرسوم جديد بالتشديد على اليهود والنصارى فى لبس الغيار وتقلد الزنار، وعوقب المخالفون بالضرب، وألغيت الأعياد النصرانية كعيد الصليب والغطاس وعيد الشهيد، وأبطلت رسومها واحتفالاتها فى جميع أنحاء المملكة؛ وكان النصارى يحتفلون بها فى بذخ طائل، ويتخذونها فرصة لإقامة المظاهرات الدينية العظيمة، فيشهرون الصلبان فى مواكبهم، ويضجون بالترتيل والصلوات؛ وتقترن هذه المظاهر الدينية، بإقامة الاحتفالات والمآدب والملاهى الباذخة، ولا سيما على ضفاف النيل والخليج، وتهرع الجموع الغفيرة لمشاهدتها من كل فج، فأبطل ذلك كله؛ وأبطلت أيضاً رسوم الشعانين فى بيت المقدس، وكانت تجرى فى ضجة عظيمة، وتزين جميع الكنائس لهذه المناسبة بأغصان الزيتون وسعف النخل، وألغيت جميع الأوقاف المرصودة على الكنائس والأديار بأعمال مصر، وضمت إلى الديوان السلطانى حسبما تقدم، وخربت كنائس مصر والمقس وأبيحت للنهب.

وفى رمضان سنة ٤٠٠هـ، صدر مرسوم الحاكم بهدم دير القصير بالمقطم وهو أعظم أديار الملكية، وكان يأوى إليه أرسانيوس بطريرك الإسكندرية، وأنشىء لليهود حى خاص بجوار باب زويلة حتى لا يختلطوا بالمسلمين[1]؛ وطبقت هذه الأوامر والقوانين بمنتهى الصرامة، ونزع سائر المتصرفين والكتاب الذميين من وظائفهم، وكانوا جمهرة كبيرة؛ فاشتد الأمر على اليهود والنصارى وطوردوا واضطهدوا، وأهينوا فى كل مكان، وساد بينهم الروع والرهبة، وأسلم كثير منهم اجتناباً لهذا الإرهاق وتظاهر البعض الآخر بالإسلام، وتوارى معظمهم من الطرقات، وكثر بينهم الفزع والارجاف، وهاجر البعض سراً إلى بلاد الروم والنوبة والحبشة، ونفى البعض الآخر إلى خارج الديار المصرية؛ وعمد كثير من النصارى إلى نزع الغيار والتشبه بالمسلمين اتقاء الرقابة والمطاردة؛ وتقول لنا الرواية الكنسية المعاصرة، إن النصارى كانوا خلال هذه المحنة يتعبدون سراً بين أطلال الكنائس المهدومة، ويخفون الآنية والذخائر المقدسة فى أعماق منازلهم، ويقيمون فيها الشعائر والقرابين سراً، وأقام بعضهم بيعاً سرية فى الريف[2].

---

(١) وهذا هو نظام الحى الخاص أو نظام «الجيتو» Ghetto الشهير حيث كانت لليهود أحياء خاصة، وقد بدىء بهذا النظام فى المدن الإيطالية منذ القرن السادس عشر، ثم طبق فى جميع أوربا، واستمر قائما حتى القرن التاسع عشر.

(٢) راجع فى تفاصيل هذه القوانين وآثارها: تاريخ الأنطاكى ص١٩٥ و ٢٠٢، والمقريزى فى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ١٦٥ا و ب و ١٦٦ا؛ وفى الخطط ج٤ ص ٧١ و ٧٢ و ٧٣ و ٣٩٩. وأخبار الدول المنقطعة (النسخة الفتوغرافية)، ونهاية الأرب (النسخة الفتوغرافية) ج ٢٦ ص٥٦ و ٥٧، وتاريخ أبى صالح الأرمنى ص٤٦ا، وابن خلكان ج٢ ص١٦٢، والنجوم الزاهرة ج٤ ص١٧٧ا و ١٧٨ا.

وفي ربيع الآخر سنة ٤٠٣هـ (١٠١٣م) صدر سجل جديد بهدم جميع الأديرة بالديار المصرية؛ فهدم كثير من الأديار والبيع ونهبت وقطعت أحباسها؛ وأقطع الكثير منها بجميع ما فيها، ومالها من رباع وأراضي؛ ووهب الحاكم تراث الكنائس وذخائرها من ذهب وفضة إلى جماعة من الخدم الصقالبة، وصدرت الأوامر إلى كل متصرف بأن يهدم ما في ولايته من الكنائس، وأن يمكن المسلمين من هدمها، فهدمت آلاف الكنائس والبيع بسائر أنحاء القطر، واقطع كثير من الكنائس والأديار بمصر والنواحي لمن التمسها، وأذن للصلاة في كنيسة أبي شنودة كبرى الكنائس القبطية بمصر، وأحيط بكنيسة المعلقة، ووضع المسلمون أيديهم على ما في الكنائس والأديار من المال والذخائر وآنية الذهب والفضة والديباج؛ وكانت جملة طائلة؛ واستمر الهدم في أنحاء المملكة زهاء ثلاثة أعوام؛ ويقال إنه هدم في هذه الفورة المضطرمة من الكنائس والأديار زهاء ثلاثين ألفاً، وكانت منها عدة من الكنائس والأديار الأثرية الفخمة[1].

وكان رأس الكنيسة القبطية يومئذ هو الأنبا زخاريا بطريركها الرابع والستون؛ وكانت أيامه كلها محن وأحداث للنصارى؛ فلما اشتدت فورة الإضطهاد قبض عليه (سنة ٤٠٠هـ)، واعتقل مدى أشهر؛ وتقدمه إلينا الرواية الكنسية المعاصرة في صورة القديس الشهيد، وتقول إن الحاكم بأمر الله أمر بتعذيبه وتقديمه للسباع، فألقى إليها مراراً، ولكنها كانت في كل مرة ترتد عنه وديعة هادئة[2].

وعاني النصارى واليهود هذه الشدائد والمحن مدى أعوام؛ وكانت أشد ما عانوا في ظل السلطات الإسلامية بمصر، وكان من ملطفات المحنة أن صدر بعد ذلك بقليل مرسوم بأطلاق الهجرة للذميين، وكان قد رفع إلى الحاكم أن الأمر قد اشتد على النصارى وأنهم يفرون سراً إلى بلاد الروم، ويبذلون الأموال الجمة لأصحاب المراكب والطرقات لإطلاقهم، فأصدر في سنة ٤٠٤هـ سجلا بإطلاق الحرية للنصارى واليهود بالهجرة إلى بلاد الروم أو الحبشة أو النوبة أو غيرها، وأن يحملوا أموالهم ويتصرفوا فيها آمنين مطمئنين. وكتب بذلك إلى سائر الأعمال، فهاجر كثير من النصارى واليهود بعد أن باعوا أملاكهم، ولجأ كثير منهم إلى أنطاكية والنوبة والحبشة[3].

ثم خفت وطأة المطاردة بعد ذلك تباعاً. وفي سنة ٤١١هـ قبيل اختفاء الحاكم بقليل، صدرت عدة سجلات جديدة بإلغاء هذه القوانين والفروض المرهقة، وإطلاق حرية الشعائر للنصارى واليهود، ورد ما أخذ من أحباس الكنائس والأديار، والسماح للنصارى بتجديد ما درس من الكنائس والبيع والأديار، ورد ما أخذ منها من الذخائر والتحف والأخشاب والعمد، وأطلقت الحرية للذميين الذين دخلوا في الإسلام كرها عنهم، أن يرتدوا إلى دينهم الأصلي، فارتد كثير منهم. وتضع الرواية النصرانية تاريخ هذه السجلات في سنة ٧٣٦ للشهداء وهي الموافقة لسنة ٤١١هـ بعد تسعة أعوام من الخطوب والمحن، وتعتبر صدورها من الحاكم معجزة نصرانية[4]، وتزيد على ذلك أن الفضل في كشف هذه الغمة المرهقة، وفي إعادة الكنائس، يرجع إلى راهب يدعى بمين كان قد أسلم أيام المحنة، ثم عاد إلى دينه واستأذن الحاكم في عمارة دير شهران في ضاحية مصر، وأن

(١) المقريزي في الخطط ج٤ ص٣٩٩، وفي اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٦أ.
(٢) المقريزي في الخطط ج٤ ص٣٩٨.
(٣) الأنطاكي ص٢٠٧.
(٤) تاريخ الأنطاكي ص٢٣٢.

الحاكم كان يزوره في الدير ويستمع إلى رغباته، وأنه كان واسطة التفاهم بين الحاكم وبين الأنبا زخاريا، وأن الحاكم كان في هذه الفترة يبدى إعجابه بالنصرانية ويعطف عليها وعلى بنيها[1].

وصدر يومئذ إلى النصارى سجل أمان شامل هذا نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من عبدالله ووليه المنصور أبى على الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ابن الإمام العزيز بالله أمير المؤمنين لجماعة النصارى بمصر؛ عندما أنهوا إليه الخوف الذى لحقهم، والجزع الذى هالهم فأقلقهم، واستذراءهم بظل الدولة، وتحرمهم بحضور الحضرة بما رآه وأمر به، من تكميل النعمة عليهم، بتوخيه لهم ذمة الإسلام وشرعه، من تصيرهم تحت كنفه، بحيث تصفو لهم موارد الطمأنينة، وتضفوا عليهم ملابس السكون والدعة، وإجابتهم إلى ما سألوا فيه من كتب أمان لهم يخلد حكمه على الأحقاب، ويتوارثه الأخلاف منهم والأعقاب؛ فأنتم جميعاً آمنون بأمان الله عز وجل، وأمان نبيه محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين ﷺ، وعلى آله الطاهرين، وأمان أمير المؤمنين على بن أبى طالب سلام الله عليه، وأمان الأئمة من آباء أمير المؤمنين سلام عليهم؛ هذا على نفوسكم ودمائكم وأولادكم وأموالكم، وأحوالكم وأملاككم، وما تحويه أيديكم، أماناً صريحاً ثابتاً، وعقداً صحيحاً باقياً، فثقوا به واسكنوا إليه، وتحققوا أن لكم جميل رأى أمير المؤمنين وعاطفته ونصرته تحميكم، وعصمته تقيكم، لا يقدم عليكم بسوء أحد، ولا تتطاول إليكم بمضرة يد، إلا كانت زواجر أمير المؤمنين مقصرة من باعه وعظم إنكاره، مضيقاً فيه من ذراعه، والله عون أمير المؤمنين على ما تعتقدون من صلاح وإصلاح، لسكان أقطار مملكته، ومن له وسيلة الثواء في كنف دولته، وإياه يستشهد على ما أمضاه من أمانة لكم، وعهده الذى يشرفه طرفكم، وكفى بالله شهيداً، وليقرر فى أيديهم حجة بما أسبغ من النعم عليهم إن شاء الله تعالى»[2].

وصدرت عدة سجلات أخرى بإطلاق الحرية للنصارى فى إقامة الشعائر وإعادة الكنائس، ومنها سجل الى نيقيفور بطريرك بيت المقدس يؤذن فيه بإقامة الصلاة فى عرصة كنيسة القيامة وأطلالها دون إعادة بنائها وسجل بإعادة بناء دير القصير؛ وثالث برد أوقاف دير طور سينا؛ وعدة أخرى. وقد أورد لنا الأنطاكى صور بعض هذه السجلات، التى تدلى روحها ونصوصها، بأهمية الإنقلاب الذى طرأ على سياسة الحاكم إزاء الذميين[3] ولكن حدث ذلك بعد أن تم التدمير وضاعت الأموال وقتل الناس دون رحمة أو رادع سواء من دين أو أخلاق أو عهود أو ضمير.

ولقد كانت هذه المطاردة للذميين من أهم ظواهر عصر الحاكم بأمر الله؛ وكانت بلاريب سياسة مقررة، ولم تحمل فى مجموعها طابع التناقض؛ بيد أنها كانت فى الوقت نفسه انقلاباً جوهرياً فى السياسة الفاطمية إزاء اليهود والنصارى؛ ذلك أن الدولة الفاطمية كانت منذ قيامها بمصر، تؤثر كما رأينا سياسة التسامح الدينى من أجل دعم قوتها واحتلالها للبلاد، وتذهب فى هذا التسامح إلى أبعد مدى، فتصطفى اليهود والنصارى وتوليهم مناصب الثقة والنفوذ؛ ومنذ أيام المعز نرى ثبتاً حافلا من الوزراء اليهود والنصارى يحتلون أرفع مناصب الدولة، ويستأثرون بمعظم السلطات والنفوذ؛ ولم يشذ الحاكم لأول عهده عن هذه السياسة، فقدم النصارى فى مناصب الوزارة والكتابة، وتولى

(١) سير البيعة المقدسة، وتاريخ أبى صالح ص١٤٦.
(٢) أورده الأنطاكى فى تاريخه ص٢٣٢.
(٣) راجع تاريخ الأنطاكى ص٢٢٨ و ٢٢٩ و ٢٣٠ و ٢٣١.

وزارته أربعة منهم هم الرئيس فهد بن إبراهيم، وابو نصر بن عبدون، وزرعة بن عيسى بن نسطورس ثم أخوه صاعد؛ وقد كان طبيب الحاكم الخاص لأول حكمه هو منصور بن مقشر النصراني فلما توفي في سنة ٣٩٤هـ، خلفه في هذا المنصب طبيب نصراني آخر، هو أبو يعقوب بن نسطاس[١]. وكان من أحب الناس الى الحاكم، فلما توفي غريقا في بركة ماء (٣٩٧هـ)، أقيمت له جنازة حافلة سار فيها سائر أهل الدولة؛ وخلفه في منصبه طبيب ذمي آخر هو صفير اليهودي خلع عليه، وأقطعه دارا فخمة.

وقد كان للخلافة الإسلامية منذ عصر عمر، سياسية خاصة لتنظيم مجتمع الذميين، وتحديد مركزهم إزاء المسلمين؛ وكان التشريع الذى أصدره عمر، وهو أول تشريع من نوعه، يحظر عليهم بناء الكناس والبيع الجديدة، أو أن يرفعوا الصلبان فوق الكنائس، أو يظهروا كتبهم المقدسة في الطرق العامة، أو يرفعوا أصواتهم بالترتيل في الكنائس، وألا يحاولوا تنصير مسلم أو يحولوا دون إسلام نصراني، وألا يحملوا السلاح أو يستعملوا السروج أو يسترقوا مسلما، وأن يتخذوا لأنفسهم أزياء خاصة[٢].

أما هذه السياسة المفرقة المثيرة التى جرى عليها الحاكم بأمر الله إزاء الذميين، وأما هذا الاضطهاد المنظم، فهو أبعد الأمور عن روح التسامح المستنير.

- ٣ -

ولم تقتصر سياسة الحاكم الدينية على هذه الناحية من اضطهاد النصارى واليهود، ولكنها كانت تتناول الناحية الإسلامية أيضاً، بكثير من الأحكام والأوامر الشاذة. وقد كانت الخلافة الفاطمية تحكم في مصر شعباً لا يتبعها من الوجهة المذهبية، وكان العمل على تدعيم هذه الصبغة المذهبية أهم عناصر سياستها الدينية؛ وقد حذا الحاكم في ذلك حذو أبيه العزيز وجده المعز، وعمل لبث الدعوة الفاطمية في قوة وجرأة، ولكن في نوع من التناقض أيضا؛ ففى ٣٩٥هـ، أمر بسب السلف (أبى بكر وعمر وعثمان وعائشة ومعاوية وغيرهم من الصحابة)، وكتب ذلك على أبواب الجوامع والمساجد ولا سيما جامع عمرو في ظاهره وباطنه، وعلى أبواب الحوانيت والمقابر والدور والقياسر ولون بالأصباغ والذهب، وارغم الناس على المجاهرة به ونقشه في سائر الأماكن. ثم لم يلبث أن، ألغى المرسوم (سنة ٣٩٧هـ) وأمر بمحو كل ما كتب على المساجد والدور وغيرها من ذلك، وطافت الشرطة بمختلف الأحياء والأماكن تنفذ الأمر الجديد.

وفي رمضان سنة ٣٩٨هـ صدر مرسوم يقرر بعض الأحكام ويفسرها، على أثر ما وقع بين الشيعة وأهل السنة من خلاف وشغب على فهم بعض الأحكام وتطبيقها، وهو مرسوم (سجل) يشف عن روح العصر، ويحمل طابع التوفيق بين المذهبين، واليك نصه بعد الديباجة:

«أما بعد فإن أمير المؤمنين يتلو عليكم آية من كتاب الله المبين، لا إكراه في الدين... مضى أمس بما فيه، وأتى اليوم بما يقتضيه؛ معاشر المسلمين: نحن الأئمة، وأنتم الأمة... من شهد الشهادتين... ولا يحل عروة بين اثنين، تجمعهما هذه الأخوة، عصم الله بها من عصم، وحرم عليها ما حرم، من كل محرم من دم ومال ومنكح، الصلاح والأصلح بين الناس أصلح؛ والفساد والإفساد من العباد يستقبح، يطوى ما كان فيما مضى فلا ينشر، ويعرض عما

(١) قال عنه المقريزى «وكان طبيب وقته عارفا بالطب، آية في الحفظ، ما تغنى له صوت قط إلا ضبطه، ولو غناء مائة مغن في مجلس واحد فقط سائر ما غنوه، وتكلم على الحانها وأشعارها، وكانت له يسفى الموسيقى، وانفرد بخدمة الحاكم في الطب فأثرى». راجع اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ١٦٢أ.

(٢) راجع هذه الأحكام والقوانين في فتوح مصر لابن عبدالحكم ص١٥١.

انقضى فلا يذكر، ولا يقبل على ما مر وأدبر من إجراء الأمور على ما كانت في الأيام الخالية أيام آبائنا الأئمة المهتدين، سلام الله عليهم أجمعين، مهديهم بالله، وقائمهم بأمر الله، ومنصورهم بالله، ومعزهم لدين الله، وهو إذ ذاك بالمهدية والمنصورية، وأحوال القيروان تجرى فيها ظاهرة غير خفية، ليست بمستورة عنهم ولا مطوية؛ يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون، ولا يعارض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون ومفطرون، صلاة الخميس للدين بها جاءهم فيها يصلون، وصلاة الضحى وصلاة التراويح لا مانع لهم منها ولا هم عنها يدفعون؛ يخمس في التكبير على الجنائز المخمسون، ولا يمنع من التكبير عليها المربعون؛ يؤذن بحى على خير العمل المؤذنون، ولا يؤذى من بها لا يؤذنون؛ لا يسب أحد من السلف، ولا يحتسب على الواصف فيهم بما وصف، والخالف فيهم بما خلف؛ لكل مسلم مجتهد في دينه اجتهاده، وإلى الله ربه ميعاده عنده كتابه وعليه حسابه؛ ليكن عباد الله على مثل هذا عملكم منذ اليوم؛ لا يستعلى مسلم على مسلم بما اعتقده، ولا يعترض معترض على صاحبه فيما اعتمده، من جميع ما نصه أمير المؤمنين في سجله هذا، وبعده قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، كتب في رمضان سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة»[(١)].

هذا هو نص المرسوم الفاطمى الشهير، الذى تجمع فيه بعض الأحكام المذهبية المتناقضة في صعيد واحد، ويسبغ عليها جميعاً لون الصحة؛ وهذه سياسة لا تخفى حكمتها وأثرها في تهدئة النزعات المذهبية المختلفة، وعقد الوئام بين الطوائف، وفى تغليب خطة التسامح المرن على خطة الجمود المذهبى؛ ويقول المستشرق ميللر تعليقاً على هذا المرسوم، إن الحاكم أراد أن يفهم الشعب على اختلاف طوائفه، أنه مع انتسابه للشيعة المغرقة، لا يرى بأساً من احتقار الأحكام الدينية المضنية سواء في المأكل أو الملبس أو غيرها، وأن الأديان كلها سواء في فروضها المرهقة وأنه لا بأس من التحرر منها[(٢)].

وصدرت فيما يتعلق بالصلاة والأذان عدة مراسيم متعارضة، فبدىء بالنهى عن صلاة الضحى والتراويح، وقبض بالفعل على بعض أناس وضربوا وشهروا لأنهم صلوا صلاة الضحى (رجب ٣٩٤هـ). وفى المحرم سنة ٣٩٥هـ، قرئ سجل بأن يؤذن لصلاة الظهر في الساعة السابعة، ويؤذن لصلاة العصر في الساعة التاسعة؛ وفى رمضان سنة ٣٩٨ أو ٣٩٩هـ أبيحت صلاة الضحى وصلاة التراويح ضمن ما أبيح في المرسوم الفاطمى الذى سبق ذكره؛ وعزز ذلك بسجل صدر في ذى القعدة سنة ٤٠٠هـ، وفيه أبيح في نفس الوقت العود إلى «التثويب في الآذان»، ثم جمع المؤذنون في سائر الجوامع، وقرئ عليهم سجل بأن يتركوا الأذان «بحى على خير العمل» وقد كانت شعار الأذان الفاطمى منذ الفتح، وأن تستبدل بقولهم في أذان الفجر بعبارة «الصلاة خير من النوم»، وأن يكون ذلك من مؤذنى القصر عند قولهم

(١) نقلنا نص المرسوم عن ابن خلدون ج٤ ص٦٠. وظاهر أن هناك خطأ ماديا في التاريخ وأن صحته هى «ثمان وتسعين» لأن الأمر بسب السلف صدر سنة ٩٥ أى قبل صدور المرسوم، وصدر الأمر بمحوه سنة ٩٧. راجع المقريزى في الخطط ج٤ ص٧١. ويذكر المقريزى في اتعاظ الحنفاء، أن صدور هذا المرسوم كان في رمضان سنة ٣٩٩هـ (المخطوط لوحة ٦٣ب).

(2) Müller: Der Islam, P.I.p. 631.

«السلام على أمير المؤمنين ورحمه الله»، بيد أنه لم تمض على ذلك بضعة أشهر حتى صدر سجل جديد بأن يترك من أذان الفجر «الصلاة خير من النوم»، وأن يؤذن «بحي على خير العمل»، وأن تمنع صلاة الضحى والتراويح (أواسط ٤٠١هـ).

وكانت مسألة الفطرة والنجوى، وهما من الإتاوات أو الرسوم التي يؤديها المؤمنون الداخلون في الدعوة، من المسائل التي تتصل بالشئون المالية، للخلافة الفاطمية؛ وكانتا تذكران بنوع خاص في سجل تعيين قاضي القضاة، ثم بعد ذلك في سجل تعيين داعي الدعاة، حينما أنشيء له منصب خاص؛ وكان يباح تحصيلهما أحياناً، ويمنع في أحيان أخرى. ففي سنة ٣٩٤هـ، صدر لقاضي القضاة عبدالعزيز بن محمد بن النعمان سجل بأخذ الفطرة والنجوى، وحضور المجلس بالقصر، وأخذ الدعوة على الناس؛ ثم ألغيت مجالس القصر حيناً؛ ولما أسندت رياسة القضاء إلى مالك بن سعيد في سنة ٤٠٠هـ، صدر سجل بإعادة مجالس الحكمة وأخذ النجوى؛ وكانت الزكاة والنجوى قد ألغيتا قبل ذلك. وكانت الخلافة الفاطمية تتردد في أحيان كثيرة، بالنسبة لهذه الإتاوات الإختيارية، بين التقرير والإلغاء. ومن ذلك ما حدث حينما افتتحت جامعة دار الحكمة، فقد كان من رسومها أن يؤدى «المؤمنون» مال النجوى، باعتباره رسماً اختيارياً ينفق من دخله على النقباء، وكانت تحصل أحياناً وتبطل أحياناً.

ومن الصعب أن نحدد موقف الحاكم إزاء الشؤون والأحكام الدينية تحديداً واضحاً، فقد نسبت إليه في هذا الشأن تصرفات كثيرة متناقضة؛ وفي بعض الروايات أنه حاول أن يعدل بعض الأحكام الجوهرية كالصلاة والصوم والحج، وقيل إنه شرع في إلغائها أو إنه ألغاها بالفعل؛ ومن ذلك أنه ألغى الزكاة، وألغى صلاة الجمعة الرسمية في رمضان، وفي العيدين، وألغى الحج وأبطل الكسوة النبوية غير مرة، ولكن لأسباب قاهرة كاستيلاء العرب على طريق الحاج واضطراب الأمن فيه، أو وقوع الوباء أو غيرها؛ وتحمل نفس الرواية هذه التصرفات على أنها انحراف من الحاكم عن الإسلام وجنوح إلى الدعوة الإلحادية، التي أذاعها الدعاة السريون وبشروا فيها بألوهيته كما سنرى[1]. والواقع أن أولئك الدعاة ينوهون في رسائلهم بإقدام الحاكم على إلغاء فرائض الإسلام الجوهرية كالصوم والحج والصلاة لحكم زعموها. بيد أنه ليس ثمة ما يدل على أن الحاكم قد ذهب فعلا إلى هذا الحد في تصرفاته الدينية، وإن لم يك ثمة شك في أنه عمل على تعديل بعض الأحكام والرسوم تعديلا يجعلها أقرب إلى الصيغة المذهبية. وأما عقيدة الحاكم الدينية فمن المجازفة أن نقطع فيها برأى حاسم، ومن المحقق أنها لم تثبت على وتيرة واحدة، وأنها حسبما تدل تصرفاته وأوامره الدينية، كانت تختلف باختلاف فترات حكمه؛ ونستطيع أن نصف الحاكم طوراً بعد آخر بالتعصب الديني والإغراق المذهبي. واليقين والتشكك، والإيمان والإلحاد؛ وسنرى عند الكلام عن الدعوة الفاطمية السرية أن الحاكم كان في أواخر عصره يذهب إلى أبعد مدى من الغلو والإغراق، فيؤيد الدعوة السرية إلى نسخ أحكام الرسلام، وإلى الدعوة بألوهيته وقيامه، أو على الأقل يغضى عنها؛ ويعترض ابن خلدون بشدة على القول بكفر الحاكم وإلحاده وإلغائه للصلاة، ويقول إنه زعم لا يقبله ذو عقل؛ ولو صدر من الحاكم شيء منه لقتل لوقته[2]. بيد أن هذا المنطق لا يتفق مع الأدلة والوثائق التي انتهت إلينا عن الفترة الأخيرة من عصر الحاكم وتصرفاته الدينية ومؤازرته للدعاة السريين كما سنبين بعد وهذا كله نابع من طبيعة الاستبداد التي

---

(١) تاريخ الأنطاكي ص٢٢٤.

(٢) ابن خلدون ج٤ ص٦٠.

سمحت بها ثقافة الحاكم الدينية، واحتياجها، كلما تمكنت منه، إلى دعمها بزيادة الاستبداد، فالاستبداد كالماء المالح كلما شُرب زاد طلبه.

شخصية الحاكم وخلاله

-١-

ولننتقل إلى ناحية أخرى من خلال الحاكم وتصرفاته. كان الحاكم بإجماع الرواية جواداً وافر البذل، وكان كثير الزهد في المال؛ وكانت الخلافة الفاطمية قد حققت في عهدها القصير، من الأموال والثروات الطائلة، من الجواهر والتحف الباذخة، ما يفيض في وصفه المؤرخون المعاصرون بما يدهش ويبهر، وتكدس لدى الحاكم من الأموال والتحف مايجل قدره ووصفه[١] ولكن الحاكم لم يغرق في تلك المظاهر الفخمة، التي كانت تنثرها الخلافة الفاطمية من حولها، وكان يؤثر بطبيعته مظاهر الانكماش والبساطة.

واشتهر الحاكم طوال عهده بالسخاء والبذل، وكان يسرف في العطاء أحياناً الى حدود تهدد مالية الخزينة.

وتقدم الينا الرواية في غير موضع أخبار الحاكم في العطاء والبذل والصلات، ولاسيما في الحقبة الثانية من حكمه؛ ومن ذلك ما كان يقع خلال طوافه المستمر، فتقول لنا مثلا في أخبار سنة ٤٠٣هـ ما يأتي: «وكثر ركوب الحاكم، وهو بدارعة صوف بيضاء، وعمامة فوطة، وفي رجله حذاء عربي، فأقبل الناس اليه بالرقاع ما بين متظلم أو مستسمح، فأجزل الصلات والعطايا ما بين دور ودراهم وثياب، فلم يرد أحدا خايبا، ورد ما كان في الديون من الضياع والأملاك المأخوذة لأربابها، وأقطع كثيراً من الناس عدة آدر»؛ وفي أخبار رمضان سنة ٤٠٥هـ «وخرج الحاكم عن المعهود في كثرة العطاء والإقطاعات حتى أقطع النواتية الذى يجدفون به في العشارى، وأقطع المشاعلية، وكثيراً من الوجوه والأقارب، وبنى قرة، فكان مما أقطع الإسكندرية والبحيرة ونواحيها»؛ وأيضاً «وفيه كثرت صلات الحاكم ومواهبه وإقطاعاته للناس حتى خرج في ذلك على الحد». وتقص علينا الكثير من نوادر جوده ومروءته؛ ومن ذلك أن بلغه أن أبا القاسم علي بن أحمد الزيبدى نقيب الطالبيين مدين في عشرين ألف دينار، فوقع له بها مما عليه من الخراج، وبعث له بثلاثة آلاف أخرى؛ وأنه وقف اليه أثناء طوافه ذات يوم رجل خراساني ذكر أنه أخذ منه متاع برسم الخزانة، ولم يدفع اليه ثمنه، فدفع اليه جميع ما كان له، وهو خمسة آلاف دينار، فكثر الدعاء له؛ ورد الحاكم على بني عمرو بن العاص حبس جدهم عمرو، ومبلغه في الشهر نحو مائتي دينار[٢].

ولم يخل عصر الحاكم على اضطرابه من الأعمال الإنشائية الخطيرة، ومن الأعمال والمآثر الخيرية الجليلة؛ فقد عنى الحاكم بتجديد الجامع الأزهر وإصلاحه، وأنشأ جامعة دار الحكمة أو دار العلم الشهيرة (سنة ٣٩٥هـ). وأنشأ جامعه الشهير المسمى باسمه جامع الحاكم أو الحاكمي أو الجامع الأنور أو بالخوى أتم بناءه[٣]، وكان أبوه العزيز بالله قد بدأ بإنشائه، وتوفي قبل إتمامه، فأمر الحاكم بإتمامه في

---

(١) راجع المقريزي فيما نله عن المسبحي وغيره من مؤرخي الدولة الفاطمية عن غنى هذه الدولة ووفرة بذخها وبهائها (الخطط ج٢ ص ٢٥١ ـ ٢٨١). وراجع النجوم الزاهرة فيما نقله عن ثروة الحاكم بأمر الله (ج٤ ص٩٢).

(٢) المقريزي في اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٧ أ و ب و ٦٨ب.

(٣) ذكر المقريزي في حديثه عن جامع الحاكم بأنه هو المسمى بالجامع الأنور (الخطط ج٤ ص٥٥)، وأشار في موضع آخر الى ركوب الخليفة لصلاة الجمعة بالجامع الأنور الكبير (ص٦١)، والمقصود به جامع الحاكم. والمقريزي حجة وثيقة في مسائل الخطط، ولذلك لم نتردد في الأخذ بقوله. ولكن القلقشندى صاحب «صبح الأعشى» يشير في غير موضع من كتابه خلال حديثه عن المواسم الفاطمية الى «الجامع الأنور الذى بباب البحر» (ج٣ ص٥٠٢ و٥٠٩)، وهي إشارة غامضة قد يفهم منها أن الجامع الأنور هو غير جامع الحاكم الذى يقع بجوار باب الفتوح (لاباب البحر). بيد أنه مهما كان من سبب هذا اللبس، فإن المعول عليه هنا هو قول المقريزي.

سنة ٣٩٣هـ، واستغرق بناؤه زهاء عشر سنين؛ ولما تم بناؤه عني الحاكم بفرشه وتأثيثه عناية كبيرة، وزين بالستور الفخمة، والتنانير الفضية، وأقيمت فيه الجمعة في رمضان سنة ٤٠٣هـ، وصلى فيه الحاكم بالناس وكان يوماً مشهوداً، وألفى الجامع الأزهر لأول مرة في جامع الحاكم، منافساً ينازعه الصفة الرسمية التي استأثر بها حتى ذلك الحين؛ وما زال هذا المسجد الشهير قائمة الى يومنا[١]. وأنشأ الحاكم أيضاً جامع راشده (سنة ٣٩٣هـ) وتم بناؤه سنة ٣٩٥، وأشرف الحاكم على تأثيثه وتزيينه، وأقام فيه الجمعة في رمضان سنة ٣٩٨ وخطب في الناس؛ وأنشأ أيضاً جامع المقس؛ وأنشأ جامعاً بالإسكندرية (٤٠٤هـ)؛ وعني بفرش المساجد وتجميلها وتزويدها بالخطباء والمؤذنين، وإجراء النفقة عليها؛ وأنشأ في سفح جبل المقطم مصلى فخماً يعرف بمصلى العيد، وكان يختلف إليه من وقت الى آخر[٢].

وفي سنة ٤٠٣هـ أمر الحاكم بإحصاء المساجد التي لا غلة لها، فوجدت ثمانمائة وثلاثين مسجداً، رصدت لها النفقة اللازمة.

وقد أغدق الحاكم المنح لأساتذة دار الحكمة عند افتتاحها، وحمل إليها الكتب من خزائن القصر، لينتفع بها سائر الباحثين والطلاب؛ ويذكر لنا المسبحي أن الحاكم في سنة ٤٠٣هـ، استدعى أساتذة دار الحكمة من الفقهاء والرياضيين والأطباء، وعقد لهم بالقصر مجلساً للمناظرة، فكانت كل طائفة تحضر بين يديه للمناظرة على انفراد، ثم خلع على الجميع، وأجزل لهم الصلات[٣].

وكان من أصدقاء الحاكم وخاصته عدة من أقطاب المفكرين والأدباء في هذا العصر، منهم عز الملك المسبحي الكاتب والمؤرخ الكبير، وكان يتولى النظر على ديوان الترتيب منذ سنة ٣٩٨هـ، وهو يومئذ من مناصب الوزارة الهامة؛ ونال المسبحي لدى الحاكم حظوة كبيرة، وكانت له مع الحاكم مجالس ومحاضرات شائقة[٤]؛ ومنهم أبو الحسن علي بن يونس الفلكي والمنجم المشهور، وكان أديباً وشاعراً أيضاً، وقد ألف للحاكم معجماً ضخماً في الفلك يعرف بالزيج الكبير[٥]، ومنصور بن مقشر الطبيب النصراني، وكان طبيب الحاكم الخاص، وطبيب والده العزيز بالله من قبل.

واستدعى الحاكم المهندس البصري الكبير أبا علي الحسن بن الحسن ابن الهيثم لما بلغه من براعته وتفننه، وعهد إليه بفحص أحوال النيل، وماذا عسى أن يعمل للانتقاع بمائه؛ ولكن ابن الهيثم رأى أنه لا يستطيع أن يزيد شيئاً على أعمال القدماء، فاعتذر للحاكم عن قصوره، وولاه الحاكم بعض الدواوين، ولكنه خشي بطشه فتظاهر حيناً بالجنون حتى توفي الحاكم[٦].

- ٢ -

إلى جانب هذا كان الحاكم يتمتع بخلة أخرى، هي زهده وتقشفه في مظاهره العامة وفي حياته الخاصة، ثم تواضعه المؤثر واحتقاره للرسوم والألقاب الفخمة، وكان لأول حكمه قد صدر في سنة ٣٩٠هـ، في ظل قائد القواد الحسين بن جوهر،

---

(١) يقع هذا المسجد الشهير بين باب الفتوح وباب النصر داخل السور، وكان موقعه في البداية خارج السور.

(٢) نهاية الأرب ج٢٦ ص٥٦.

(٣) المقريزي عن المسبحي، في الخطط ج٢ ص٣٣٤ و ٣٣٥.

(٤) ابن خلكان ج١ ص٦٥٣. وسنعود الى ذكر المسبحي فيما بعد.

(٥) هو علي بن عبدالرحمن بن يونس المصري، كان أبوه عبدالرحمن بن يونس من أكابر محدثي مصر ومؤرخيها، واشتغل ابن يونس بالرياضيات والفلك وبرع فيها براعة عظيمة، وقربه الحاكم إليه، وألف له الزيج الكبير، وكان فوق علمه أديبا شاعراً، وقد توفي سنة ٣٩٩هـ (راجع أخبار العلماء لابن القفطي - مصر - ص١٥٥).

(٦) تاريخ ابن العبري ص٢١٧ و ٢١٨.

سجل (مرسوم) إلى الناس أجمعين، ينوه فيه بأن الله «أوجب اختصاص الأئمة، بما لا يشركها فيه أحد من الأمة»، وأنه لا يسوغ أن يخاطب أو يكاتب أحد «بسيدنا ومولانا» غير «الحضرة المقدسة» ومن فعل فقد أحل أمير المؤمنين دمه[1]. بيد أن هذه النزعة إلى التعالى لم تلبث أن غاضت، ففى سجل صدر فى سنة ٣٩٤هـ، يبدى الحاكم إنكاره وسخطه على من ينعته فى المكاتيب «بمولى الخلق أجمعين».

وترك الحاكم ركوب العماريات والخيل والبغال المسومة؛ وترك معظم الرسوم الفخمة، التى امتازت بها مواكب الخلفاء الفاطميين؛ وكان يدفعه إلى ذلك شغف حقيقى بالبساطة؛ وكانت هذه النزعة إلى البساطة، تسود معظم المواكب والاستقبالات الرسمية. فيرتدى ثياباً بسيطة، أو أو يرتدى دارعة صوف بيضاء، ويتعمم بفوطة، وفى رجله حذاء عربى ساذج، وقد يركب فرساً بلا زينة أو حماراً؛ وفى أحيان قليلة يركب محفة يحملها الرجال، أو عشارية تشق به النيل؛ وكان أغلب طوافه بالقاهرة على الحمير دون موكب ولا ضجة، لا يصحبه من الخدم سوى بضعة من الركابية.

ومرض الحاكم فى سنة ٤٠٧هـ، فلم ينقطع عن الركوب والطواف، واتخذ له محفة يجلس فيها أو يضطجع، ويحملها أربعة من الركابية. وقيل أيضاً إن الحاكم كان يشغف بالنساء، وكان لديه سرب من الحظايا والجوارى؛ ولكنه حمل ذات يوم بنزعته الصوفية، فأخرج من قصره معظم هؤلاء الحظايا، بل قيل إنه أغرق بعضهن فى النيل فى صناديق وضعن فيها وسمرت عليهن. وجنح الحاكم فى أواخر عهده إلى النسك المطلق والزهد والورع، وأضرب عن جميع الملاذ الحسية والنفسية، واقتصر فى طعامه على أبسط ما تقتضيه الحياة من القوت المتواضع؛ ولبث أعواماً يرتدى الثياب الساذجة والصوف الخشن كما رأينا، بل قيل إنه أضرب عن دخول الحمام مبالغة فى الخشونة والتقشف[2]. وعلى الجملة فلم تذكر لنا الروايات المعاصرة أو المتأخرة أن الحاكم كان فى حياته الخاصة يتصف بشىء من تلك الرذائل الإجتماعية الشاملة، التى يتصف بها معظم الطغاة فى تلك العصور، بل تدل أقوالها جميعاً على أن هذا الطاغية الفيلسوف، كان أميل إلى النقاء فى حياته الخاصة، وإلى الزهد فى ذلك الترف الناعم، الذى يفت فى الأجسام والأرواح القوية.

وهكذا نجد أن هذه الشخصية العجيبة، التى تقدم إلينا من نواحيها العامة فى صور مثيرة مروعة.

ونجد الحاكم فى الأعوام الاخيرة ينيب عنه فى معظم المناسبات، فى الصلاة بالناس، ولى عهده عبدالرحيم بن الياس.

ويلاحظ أن هذه الأعوام الأخيرة، من عهد الحاكم بأمر الله، وهى الأعوام التى جنح فيها إلى البساطة، والزهد فى مظاهر الملك والخلافة، هى نفس الأعوام التى جنح فيها إلى الشذوذ، واشتد شغفه بالطواف الليلى، وغلب عليه حب الانكماش والانطواء على نفسه.

-٣-

وهنا نحاول، بعد أن استعرضنا أعمال الحاكم بأمر الله، ونواحى حياته العامة والخاصة، وغريب أحكامه وتصرفاته، أن نعرض إلى أدق وأصعب نقطة فى دراسة هذه الشخصية العجيبة.

ماذا كانت حقيقة هذه

....

(١) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٥٦أ.

(٢) راجع تاريخ الأنطاكى ص ١٩٢ و ٢٠٧. وابن قز أو غلى فى مرآة الزمان فى الجزء المشار إليه ص٤٠١، وأورده النجوم الزاهرة ج٤ ص١٧٦.

الشخصية، التى جمعت بين خلال وصفات يحمل أكثرها طابع العنف والشذوذ والتناقض؟ وبأى عين يجب أن ننظر إليها، وبأى معيار نستطيع أن نقدر صفاتها وأعمالها؟ وأى أحكام يسوغ لنا أن نصدرها لها أو عليها فتقرب علينا فهم حقيقتها؟

لدينا فى ذلك مادة منوعة؛ أقوال الرواية الإسلامية المعاصرة والمتأخرة، وحوادث العصر، وأعمال الحاكم وتصرفاته ذاتها. فأما الرواية الإسلامية فلا ترى فى أمر الحاكم لغزاً يصعب استجلاؤه؛ ولنلاحظ أولا أن ما انتهى إلينا من أقوال الرواية الإسلامية، إنما هو فى الغالب أقوال المؤرخين السنيين، خصوم الشيعة وخصوم الدولة الفاطمية، وأننا لم نتلق من تراث الشيعة الذى بددت معظمه الحوادث والدول الخصيمة، من الروايات والكتابات الرصينة، ما يلقى ضياء كافياً على ذلك الخفاء الذى يحيط بشخصية الحاكم وأعماله؛ ذلك أن كتب الأدب الشعبى، تعنى قبل كل شىء بشئون الدعوة المذهبية، وتنحرف فى معظم الأحيان، حين تقص التاريخ إلى جانب الخرافة والأسطورة. والحقيقة أن الرواية الإسلامية العامة تأخذ فى هذا الموطن بظواهر الحوادث المادية، وتكتفى بأن تقدم إلينا الحاكم، فى تلك الصور المروعة المثيرة التى أشرنا إليها؛ وقلما تحاول أن تلتمس فيما وراء ذلك، شيئاً من البواعث والأسباب، التى يمكن أن نعلل بها بعض نزعات الحاكم وتصرفاته العجيبة. وقد أوردنا بعض أقوال الرواية الإسلامية فى وصف الحاكم، فهى لا ترى فيه أكثر من أمير مضطرب العقل والتفكير، عنيف الأهواء والنزعات، كثير العبث والسفك، شديد التناقض، لا يصدر عن روية أو منطق متزن، ولا يتحرى غاية أو مثلا معقولة: تلك هى الصورة العامة التى تقدمها إلينا الرواية الإسلامية عن الحاكم؛ وهى صورة بسيطة ساذجة مستمدة من ظاهر الحوادث المادية؛ فقد كان الحاكم طاغية شديد البطش والسفك، ولكنه كان يتخذ السفك وسيلة لاغاية، وكان القتل فى نظره خطة سياسية؛ وكان عنيف الأهواء والنزعات، ولكنها لم تكن نزعات شهوة نفسية، وانما نزعات ذهن يرتفع عن الوسائل العادية، لتوجيه مجتمع يراه جديراً بالتغيير والتطور؛ وكان متناقضا فى كثير من تصرفاته، ولكن تناقض الذهن الذى يحاول مختلف الوسائل والتجارب، لتحقيق غايات معينة. ومع ذلك فإنه لم يفت بعض المؤرخين أن يلاحظ أن عقلية الحاكم، لم تكن بتلك البساطة التى تصور بها، فقد وصفه الذهبى بأنه كان «خبيثاً ماكراً، ردىء الاعتقاد»[١]، وهى صفات ليست من خواص الذهن المضطرب السقيم، الذى يفكر دون تدبر ويعمل دون غاية.

والى جانب هذه النظرية الساذجة، التى تكتفى من البحث والتعليل ببواعث الخفة والاضطراب العقلى، توجد نظرية أخرى فى تعليل هذه النزعات والأهواء العنفة التى كانت تضطرم بها هذه الشخصية العجيبة؛ تلك هى بالنظرية الباتولوجية[٢] إذا صح هذا التعبير، لأنها ترجع هذه النزعات إلى أسباب باتولوجية أى مرضية وصحية. وقد قال بهذه النظرية مؤرخ وطبيب نصرانى معاصر هو يحيى الأنطاكى؛ وهو يشرح لنا نظريته فيما يلى:

«وكان سبب بغيه (أى الحاكم)، فى جميع ما يقصده من هذه الفعال العجيبة المتضادة، التى تقوم فى نفسه ويفعلها شيئاً بعد شىء، صنف من سوء المزاج المرضى فى دماغه، أحدث له ضرباً من ضروب المالنخوليا، وفساد الفكر منه منذ حداثته، فإن من المتعارف فى صناعة الطب أنه

---

(١) الذهبى، النسخة المخطوطة ج٢٢ فى وفيات سنة ٤١١، وراجع النجوم الزاهرة ج٤ ص١٧٨.

(٢) الباتولوجيا هى علم الأمراض والأعراض الشاذة التى لا تعتبر عادة من الأمراض العادية.

قد يكون فيمن يعتريه هذا المرض، أنه يقوم في نفسه أوهام، ويتخيل أموراً وعجائب، ويكون كل واحد منهم لا يشك أنه على الصواب فيما يتصوره في جميع أفعاله، ولا يثنيه عن ذلك ثان ولا يرده راد، وأن قد يكون منهم من يظن بنفسه أنه نبي، ومنهم من يتوهم أنه الإله بنفسه تعالى كثيراً، ويكون بقوم من هؤلاء من اختلاط الكلام ظاهراً واختلاله، ما ينكشف حاله عند من يشاهده ويحادثه، وتزول الشبهة فيه في أول وهلة، وربما كان تخليط أحدهم في الكلام مستوراً، وتكون هذه التخيلات والخواطر الردية، تعرض له في أمور مستورة عن العوام، فيكون صورته عندهم صورة العقلاء، وحسن ظنهم به ونظرهم إليه كنظرهم إلى أفضل الناس، فإذا أطالوا اختبارهم بان لهم ما انطوى عنهم في نقصهم.

وهذه صورة الحاكم، فإن نقصه كان يتبين لمن تطول صحبته له؛ وأما من هو بعيد عنه فإن أفعاله كانت توضحه له؛ وقد يستدل على حقيقة هذا المرض المستحوذ عليه، أنه كان قد عرض له في حداثته تشنج، من سوء مزاج يابس في دماغه، وهو مزاج المرضى الذى يحدث في المالنخوليات، واحتاج في مداواته منه مع ما كان يعالج به، إلى جلوسه في دهن البنفسج وترطيبه به؛ وان كثرة سهره أيضاً وشغفه بمواصلة الركوب والهيمان الدائم، مما يقتضيه هذا السوء المقدم ذكره، وأن أبا يعقوب إسحق بن إبراهيم بن انسطاس، لما خدمه استماله إلى أن تسامح في شرب النبيذ وسماع الأغانى بعد هجره لها ومنع الكافة منها، فانصلحت أخلاقه وترطب مزاج دماغه، واستقام أمر جسمه، ولما مات أبو يعقوب، وعاد إلى الامتناع عن شرب النبيذ ومن سماع الغناء، رجع إلى ما كان فيه»[1].

وهذا شرح فطن طريف بلا ريب؛ بيد أنه لا يكفى في نظرنا لتعليل هذا المزيج القوى المدهش، من أعمال وتصرفات كانت رغم عنفها وتناقضها، ترجع في معظم الأحيان كما سنرى، إلى بواعث سياسية أو مذهبية أو اجتماعية؛ وتردد بعض الروايات الإسلامية المتأخرة هذه النظرية في تعليل نزعات الحاكم وأهوائه المغرقة، فيقول لنا النويرى مثلا، إن الحاكم أصيب في سنة ٣٩٣هـ أعنى وهو فتى في الثامنة عشرة، بضرب من المالنخوليا، فاخذ في قتل رجال الدولة؛ ويتحدث في غير موطن عن غلبة هذه «المالنخوليا» على الحاكم[2].

ويقول لنا المقريزى «ويقال إنه (أى الحاكم) كان يعتريه جفاف في دماغه، فلذلك كثر تناقضه؛ وما أحسن ما قال فيه بعضهم كانت أفعاله لا تعلل، وأحلام وساوسه لا تؤول»[3].

على أننا لا نستطيع أن نقف عند هذا الشرح والتصوير. والواقع أن الحاكم بأمر الله كان عقلية مدهشة، وكان لغزاً عسير الفهم؛ وإذا كان قد أشكل على المؤرخين المسلمين من معاصرين ومتأخرين فلم يحاولوا فهمه، فإنه مازال أيضاً في بعض نواحيه لغزاً على عصرنا، وان كنا نستطيع أن نحاول فهمه من بعض النواحى، وأن نعلل كثيراً من أعماله ومراسيمه. ويصفه العلامة الألمانى ميللر بأنه «من أعجب وأغمض الشخصيات التى عرفها التاريخ الاسلامى» ويقول: «إن من يقرأ ما أورده المؤرخون المتأخرون، من مختلف الأساطير والقصص، يخرج بأنهم لم يفهموه، وأنهم اعتبروه مجنوناً فقط، وقد جرى رأيهم فيه مجرى الحقيقة، ولكن توجد ثمة شواهد واضحة، على أن هذا الأمير الذى هو أعجب

---

(١) تاريخ الأنطاكى ص٢١٨ و ٢١٩.

(٢) نهاية الأرب (المخطوط) ج٢٦ ص٥٢ و ٥٦.

(٣) الخطط ج٤ ص٧٤.

من أنجبت أسرته، كان أشدهم إثارة للأساطير من حوله، وأن حجاباً كثيفاً قد أسبغ على صورته، فلا نستطيع أن نظفر منها إلا بلمحات»[1].

والآن ماذا نستطيع أن نقول في قوانين الحاكم وتصرفاته؟ وكيف ننظر إليها؟ هل كانت في مجموعها فورات مجنون، ونزعات مخبول، كما تصورها معظم الروايات الإسلامية؟ إن كثيراً من هذه القوانين والأحكام يحمل طابع القسوة والإغراق؛ ولكن من التحامل والظلم، أن نصفها بالسخف المطبق، وأن ننعت صاحبها بالجنون. ولقد ظلم التاريخ الحاكم، كما ظلم كثيراً من الطغاة المصلحين؛ وقد كان الحاكم طاغية، ولكن مصلحاً على طريقته؛ وكان يرمي بما يصدر من القوانين والأحكام إلى تحقيق غايات معينة، دينية وسياسية واجتماعية، ربما خفيت على الكافة، لأنها تتعلق بسياسة الدولة العليا، ومن ثم كان الريب في حكمتها، والسخط عليها، وكانت القسوة في تطبيقها.

فأما معاملة الذميين: أعني اليهود والنصارى، وما صدر في شأنها من الأوامر والأحكام المشددة، فلم تكن بدعة في ذاتها، ولم تكن حدثاً جديداً في الخلافة الإسلامية؛ ولم يكن فيها من الجديد سوى روحها ووسائلها الشديدة، التي جعلت منها نوعاً من الإضطهاد المنظم. فالذميين كانوا يلقون من الوجهة الاجتماعية دائماً نوعا من المعاملة الخاصة؛ ومنذ خلافة عمر فرضت عليهم بعض الأحكام والقيود، التي تجعلهم من الوجهة الاجتماعية أدنى من المسلمين حتى لو اسلموا، وكان منها كما قدمنا قيود تتعلق بالأزياء وركوب الخيل، وحمل السلاح، واقتناء العبيد؛ وكانت هذه الأحكام تتخذ في عصور العصبية الدينية، لوناً من الشدة يختلف باختلاف الظروف والأحوال. وقد رأينا أن الخلافة الفاطمية كانت تتبع سياسة التسامح الديني نحو اليهود والنصارى، وأن موقف الحاكم نحوهم، واشتداده في معاملتهم على هذا النحو، كان انقلاباً في السياسة الفاطمية. وقد نستطيع أن نفسر هذا التطرف من جانب الحاكم، بأنه نوع من الغلو الديني له بواعثه السياسية؛ ففي هذه المرحلة التي اشتد فيها الأمر على اليهود والنصارى، كان الحاكم يبدى كثيراً من التعصب والغلو، سواء من الناحية الدينية العامة، أو الناحية المذهبية الخاصة.

وإذا كان في هذا الإضطهاد المنظم لليهود والنصارى، وهذه النزعات العنيفة المغرقة في معاملة الأقليات الدينية، ما يؤخذ على الحاكم بأمر الله، فإن في روح العصور الوسطى، وهي روح تعصب ورجعية، ما يخفف هذه التبعة، ويقرب فهم هذه السياسة؛ بل ألم نشهد في عصرنا، وفي أرقى الأمم المتمدينة ألواناً شنيعة من اضطهاد الأقليات الدينية أو الجنسية، وهو اضطهاد يمتد إلى النفس والمال وجميع الحقوق العامة؟ وهذه النزعة لا تختلف في جوهرها عن نزعات العصور الوسطى[2].

وقوانين الحاكم الإجتماعية؟ هل كانت تشريعات جنونية، خالية من كل باعث وحكمة؟ إن الحكم على هذه القوانين يقتضى

(1) A. Müller: Der Islam, Im Morgen-und Abendland (Berlin 1885) B. I. P. 628.

(٢) يقدم لنا الدعاة السريون في رسائلهم، تعليلا لسياسة الإضطهاد الديني التي سنها الحاكم، ففي الرسالة التي عنوانها: «خبر اليهود والنصارى»، أن جماعة من اليهود والنصارى لقوا الحاكم ذات يوم بالقرافة، واستغاثوا به من سياسته، وبينوا له أنها تنافي قواعد الإسلام، وحدثت بينهم وبينه مناقشة أوضح لهم فيها الحاكم حكمة إصدار هذه القوانين، وهي أنه قد مضت منذ صاحب الشريعة (أعني محمداً) أربعمائة سنة، وظهر الإمام المنتظر في شخصه، وأضحى له عندئذ أن يدعوهم الى الدخول في شريعته، فإن أبوا، قاتلهم وعطل شرائعهم وكتبهم، وهذا ما فعله إزاءهم.

أن نفهم روح العصر، وخواص المجتمع المصرى يومئذ؛ كان الحاكم بأمر الله على رأس خلافة مذهبة، يقوم سلطانها السياسى على صفة الإمامة الدينية، وكانت هذه الخلافة تريد أن تحيط ملكها في مصر، بسياج منيع من الخلال القوية الصارمة الجافة التى أحاطت ملكها في المغرب؛ ولكنها ألفت في مصر مجتمعاً متحضراً يميل إلى الترف والحياة؛ ولم ترد أن تضيق على هذا المجتمع بادىء ذى بدء، لأنها كانت تخطب وده وتسعى إلى تأليفه، ولهذا كانت تسايره، وتغريه بذخها وبهائها، وتطلق له أعنة البهجة والمرح، وتغمره بالمواسم الفخمة والحفلات والمواكب الشائقة.

وقد صدمت هذه الحياة الحضارية العقلية الجافة للحاكم بأمر الله خاصة عندما سعى إلى ما كان يظنه إصلاح للمجتمع الإسلامى فواجهها بالعنف والكبت والبتر.

ومطاردة المرأة والحجر عليها؟ لاريب أن الحاكم كان يذهب فى ذلك إلى ذروة الغلو والإغراق؛ ذلك أن المرأة فى عقليته الجافة من أشد عوامل الفتنة والغواية، وقد رأى الحاكم في الحجر على المرأة والمباعدة بينها وبين الرجل فى الحياة، وسيلة لمكافحة الرذيلة وحماية الأخلاق الفاضلة. الموجودة في ذهنه وعقليته الدينية الجافة، أما الإغراق فى تطبيق التجربة، فهو بلا ريب أثر من إغراق هذا الذهن الهائم فى كل ما يعتقد ويبتكر؛ وإذا كنا نستطيع أن نعلل فكرة الحجر على المرأة وإبعادها عن مجتمعات المدينة، فمن الصعب علينا أن نعلل ذلك الإغراق فى تطبيقها إلى حدود من القسوة المبالغ فيها.

ابتدى قتل اكابر دولته وكتابه، وقطع ايادى قوما، واول من قتل الاستاذ برجوان الذى رباه لانه كان يسميه فى صغره الوزغة فانفذ اليه استاذ من يديه [من عنده] وقال له قول له الوزغة الصغيرة قد صار تينا عظيما وهو يدعوك، فمضى اليه الاستاذ وقال له ما امره به فجا اليه وهو يرتعد فامر به قطعت راسه، وكذلك امير كبير يسما القايد فضل(*) كان بينه وبينه جميل عظيم فدخل يوما الى القصر كعادته فوجد الملك المذكور جالسا وبين

(*) هو من أهم قواد الجيش، وهو الذى ظفر بالثائر أبى ركوه واخمد ثورته. قتله عام ١٠٠٩م/٣٩٩م الحاكم بأمر الله.

ودعوتهم الى مصر، فاذا ما خرج صلاح الدين الى لقائهم، قبضوا على من بقى أصحابه بالقاهرة، وانضموا الى الفرنجة فى محاربته والقضاء عليه.

على أن صلاح الدين مالبث أن وقف على ما دبره له أعداؤه، فشدد الرقابة على مؤتمن الخلافة جوهر، فى أواخر سنة ٥٦٤هـ، وأرسل اليه صلاح الدين جماعة من أصحابه، تمكنوا من اغتياله فى أواخر سنة ٥٦٤هـ، وأحل محله فى منصب زمام القصور بهاء الدين قراقوش الأسدى. وأدى قتله الى ثورة جند الخليفة وأكثرهم من السودانيين، فساروا فى جمع من الأمراء المصريين وعوام البلد، وكانوا يزيدون على الخمسين ألفا، ودار بينهم وبين قوات صلاح الدين قتال عنيف فى المكان المعروف بين القصرين بالقاهرة، أحرق فيه كثير من الدور. كما أحرق حيهم المعروف بالمنصورية، وحلت بهم الهزيمة ومضت فلولهم الى الجيزة، ومازال صلاح الدين يتبعهم فى الصعيد الى أن قضى على نفوذهم نهائيا سنة ٥٧٢هـ (١١٧٦م).

لم تكن الصعاب التى واجهت مصر فى الفتره التى قضاها صلاح الدين وزيرا للعاضد مقصورة على الفتن التى أثارها رجال القصر الفاطمى، وأتباعهم من الجند، بل كان الفرنجة فى بيت المقدس يرقبون اذ ذلك ازدياد نفوذ نور الدين المتواصل فى مصر، ويرون فيه خطرا يهدد كيانهم، ولذلك استقر رأى ملك بيت المقدس على الاستنجاد بملوك أوربا لاحباط أطماع نور الدين. لكن دعوته لم تلحق استجابة منهم لانشغال غالبيتهم بمسائل تتعلق بدولهم، فلجأ الى

يديه صبى مليح قد ابتاعه بماية دينار [و] فى يده سكين وقد ذبحه بها وقد اخرج كبده ومصارينه وهو يقطعهم، فخرج وهو خايف مرتعدا الى منزله واعلم اهله وكتب وصيته، وبعد ساعة انفذ اليه من قطع راسه. وكان اذا اراد ان يقتل انسان انعم عليه بالمال والخلع، وبعد هذا ينفذ من يقطع راسه وياتيه بها، ولم يزل يفعل هذا حتى افنا خواصه ومقدمى جيشه.

الصليبيون والامبراطور البيزنطى يتحدون لتحرير الشام.

ثم عاد الاراخنة والكتاب فاخذ منهم عشرة من

ما نويل امبراطور الدولة البيزنطية الذى رحب بمد يد المعونة إليه ومن ثم توجهت قواتهم الى دمياط، ويعاونهم أسطول بيزنطى، مزدود بالمؤن والعتاد الحربى، فوصلوا اليها فى صفر سنة ٥٥هـ (١١٦٩م). وكان الامبراطور البيزنطى، يرجو أن تحقق هذه الحملة أطماعه فى توسيع رقعة البلاد الداخلة فى دائرة نفوذه.

رأى صلاح الدين بعد أن بلغه خبر الحملة التى أنفذها الفرنجة الى دمياط، أنه لابد من النهوض لصدهم، فأرسل جنده عن طريق النيل بقيادة ابن أخيه تقى الدين عمر وخاله شهاب الدين محمود، وأمدهما بالسلاح والذخائر والمال، واضطر صلاح الدين للبقاء بالقاهرة، خشية أن يقوم رجال القصر الفاطمى وجند السودان الناقمون عليه بتدبير المؤامرات ضده، وبعث الى نور الدين يستنجده ويشكو اليه ما هو فيه من المخاوف، وأنه ان تخلف عن دمياط ملكها الفرنجة، وان سار اليها دبر له أعداؤه من المصريين المكائد، وبذلك يصبح الفرنجة أمامه والمصريون خلفه، فاستجاب نور الدين لدعوة صلاح الدين وبعث اليه الأمداد. وكان كلما جهز فرقة من الجند، أرسلها اليه، كما حرص الخليفة العاضد على إعانته بالمال طوال مدة حصار الفرنجة لدمياط. وقد نوه صلاح الدين بمعاونة العاضد له بقوله: ما رأيت أكرم من العاضد، أرسل الى مدة مقام الفرنج على دمياط ألف دينار، سوى ماأرسل الى من الثياب وغيرها».

مقدميهم ابو نجاح الكبير وكان نصرانيا ارتدكسيا فاحضره اليه وقال له اريد ان تتخلا عن دينك وتعود الى دينى واجعلك وزيرى وتدبر امور مملكتى، فقال له امهلنى الى غدا حتى اشاور روحى، فامهله وخلاه فمضى الى منزله واحضر اصدقاه وعرفهم ما جرى له معه، وقال لهم انا مستعد ان اموت على اسم السيد المسيح وما كان غرضى فى امهالى الى غدا مشورة روحى وانما قلت هذا حتى اجتمع بكم وباهلى واودعكم

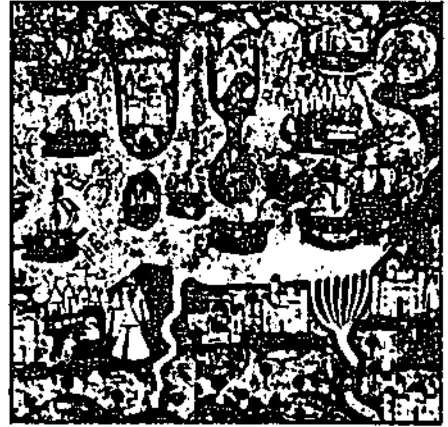

الاساطيل البيزنطية تهاجم سواحل مصر الشماليه ودمياط.

لم يتيسر للمغيرين على دمياط من الفرنجة وحلفائهم البيزنطيين تحقيق غرضهم، فقد تسرب القلق الى نفوسهم من جراء ما عانوه فى سبيل تموين قواتهم، كما وقع الخلف بين قوادهم على الخطة التى يتبعونها لمهاجمة هذه المدينة، وفضلا عن ذلك، فان ما بلغهم عن قيام نور الدين بمهاجمة حصن الكرك وغيره من النواحى التى فى أيديهم حملهم على الاسراع فى رفع الحصار عن المدينة والرجوع بجيوشهم الى بلادهم فى ربيع الآخر سنة ٥٦٥هـ. وبذلك فشلت هذه الحملة فى غزو دمياط والاستيلاء على مصر.

كان لاحباط خطة الفرنجة والبيزنطيين فى مهاجمة دمياط ورحليهم الى بلادهم منهزمين، أثره البالغ فى توطيد سلطة صلاح الدين فى مصر، فقد اعتبره المصريون حاميا لهم، واتفقوا معه على محاربة الفرنجة أعدائهم جميعا. كما أن صلاح الدين حرصا منه على تدعيم مركزه، رأى أن يحيط نفسه بأهل بيته، فطلب من نور الدين أن يرسل اليه أباه وأقاربه، فوصلوا الى القاهرة فى جمادى الآخرة سنة ٥٦٥هـ(١١٧٠م) وما لبث أن أسند اليهم بعض المناصب الهامة، فجعل أباه على بيت المال وأقطع أخوته بعض النواحى.

لما أيقن صلاح الدين أن سلطته قد استقرت، وجه اهتمامه الى القضاء على المذهب الشيعى فى مصر، فأنشأ سنة ٥٦٦هـ مدرسة لتدريس المذهب الشافعى وأخرى لتدريس المذهب المالكى بجوار جامع عمرو بن العاص، وعزل قضاة مصر من الشيعة، وعين صدر

واودعهم واوصيكم واوصيهم، والان يا اخوتى لا تطلبو هذا المجد الفانى فتضيعو مجد السيد المسيح الدايم الباقى فقد اشبع نفوسنا من خيرات الارض وهذا برحمته قد دعانا الى ملكوت السموات فقوو قلوبكم، وانه قوى قلوبهم اجمعين بكلامه وثبتهم على ان يموتو على اسم السيد المسيح وصنع لهم فى ذلك اليوم وليمة عظيمة واقامو عنده الى عشية ومضو الى منازلهم، فلما كان بالغداة مضى الى الحاكم بامر الله، فقال له: يا نجاح خبرنى هل

الدين عبد الملك بن درباس الشافعى قاضيا للقضاة فى جميع انحاء البلاد المصرية، فأناب عنه فى سائر البلاد قضاة شافعية، فاستعاد بذلك المذهب السنى قوته، وأخذ المذهب الاسماعيلى فى الاختفاء تدريجيا حتى لم يبق له أنصار فى مصر.

كان لسياسة صلاح الدين التى تنطوى على اضعاف المذهب الاسماعيلى أثرها فى زوال الخلافة الفاطمية، فقد انهارت منذ ذلك الوقت سلطة الخليفة العاضد، وكثر القول من صلاح الدين وأصحابه فى ذمه، كما تحدثوا بخلعه واقامة الدعوة العباسية. لكن صلاح الدين رغم استبداده بأمور مصر لم يسارع الى اقامه الخطبة للمستضئ بالله العباسى، بل أعرض فى بادئ الأمر عن تنفيذ رغبة نور الدين محمود الذى أرسل اليه يأمره باحلال اسم الخليفة العباسى فى الخطبة محل الخليفة الفاطمى، واعتذر بتخوفه من أن يثير هذا العمل غضب أهالى مصر. غير أن نور الدين أبى قبول هذا العذر، وبعث يشاور أصحابه فى ذكر اسم الخليفة العباسى فى الخطبة بدل الخليفة الفاطمى،فوافقه بعضهم وأظهروا استعدادهم لمعاونته على تحقيق هذه الرغبة وخشى آخرون من الاقدام على ذلك. وكان قد وفد الى القاهرة رجل فارسى يعرف بالأمير العام، فلما رأى ماهم فيه من الاحجام وأن أحدا لايتجاسر على اقامة الخطبة للمستضئ أبدى حرصه على القيام بنفسه بالدعاء لهذا الخليفة، فصعد المنبر قبل الخطيب بالجامع العتيق (جامع عمرو بن العاص) فى أول جمعة من أشهر المحرم سنة ٥٦٧هـ ودعا للمستضئ

طابت نفسك؟ قال له: نعم، قال على اى قضية. قال: بقاى على دينى. فاجتهد الحاكم بكل نوع من الترغيب والترهيب ان ينقله عن دينه فلم يفعل ولم قدر يميل نيته عن مذهبه، فامر ان تنزع ثيابه عنه وان يشد [إلى] الهنبازين [آلة التعذيب] ويضرب فضربوه خمس ماية سوط على ذلك الجسم الناعم حتى تقطع لحمه وسال دمه مثل الما، وكانت السياط من [جلود] البقر ما يحتمل الجبار منها سوط لا سيما ذلك الرجل الترف المنعم، ثم

العباسى. ولما لم يظهر أحد اعتراضه على ذلك، أمر صلاح الدين فى الجمعة التالية الخطباء بمصر والقاهرة باسقاط اسم العاضد من الخطبة وذكر اسم الخليفة العباسى بدلاً منه. وكان العاضد إذ ذاك مريضاً، فلم يعلمه أهله وأصحابه بذلك، ثم توفى فى العاشر من المحرم سنة ٥٦٧هـ. وقيل انه علم قبل وفاته بحذف اسمه من الخطبة، فاعتل وتوفى بعد خمسة أيام، فجلس صلاح الدين للعزاء، وأنفذ رسائل الى البلاد، تضمنت وفاة العاضد واقامة الخطبة للمستضئ بأمر الله العباسى.

وكان الناس فى مصر يتطلعون الى اقامة خليفة بعد العاضد من أهله. غير أن هذه الرغبة لم يرض عنها صلاح الدين، بل انه امتنع عن مبايعة داود بن العاضد عندما طلب منه ذلك، وبعث اليه يقول: «أنا نائب عن أبيك فى الخلافة ولم يوصى بأنك ولى عهده». وقبض عليه وعلى بقية أولاد العاضد. وأقاربه. وأمر بنقلهم من القصر فى رمضان سنة ٥٦٩هـ الى دار المظفر التى أنشأها بدر الجمالى لتكون سكنا له، ومقرا لوزرائه.

وهكذا زال سلطان الخلافة الفاطمية فى مصر، وظلت الخلافة العباسية قائمة على الرغم من تطرق الضعف اليها والانحلال.. ويرجع السبب فى ذلك، الى رغبة المسلمين فى الاحتفاظ بها، لاعتقادهم أنها نظام لابد منه لصلاح العالم الاسلامى.

امـر بان يضـرب تمام لالف سـوط فلمـا ضـرب ثلثماية اخرى قال انا عطشان فبطلو عنه الضرب واعلمو الحاكم بذلك، فقال اسقوه بعد ان تقولو له يرجع لديننا، فلما جاأو [جاءوا] اليه بالما وقالو له ما امرهم به الملك، قال لهم عيدو له ماه فانى غير محتاج اليه لان سيدى يسوع المسيح قد اسقانى. وشهد قوم من الاعوان وغيرهم ممن كان هناك انهم ابصرو الما سقط من لحيته ولما قال هذا

---

٢. الحضارة فى عصر الخلفاء الفاطميين

١. نظم الحكم والادارة:

(أ) الادارة

حرص الفاطميـون منذ قيام دولتهم على أن تنتقل الامامة من الأب الى الابن عن طريق التعين. لكن بعض الأحداث حملتهم على الخروج على هذا النظام، فحاول الخليفة الحاكم بأمر الله أن يحرم ابنه أبا الحسن على الذى ولى الخلافة من بعده وتلقب بالظاهر من ولاية العهد، ويعهد بها لابن عمه عبد الرحيم بن الياس، غير أن هذه المحاولة باءت بالفشل وخلفه ابنه الظاهر. كذلك بعده ابن عمه الحافظ، كما أنه بعد وفاة الفائز ولى الخلافة ابن عمه العاضد لدين الله.

وكان الخليفة الفاطمى يعين ولى عهده قبل وفاته. ولم يكن له الحق فى أن يعهد بالامامة من بعده لأكثر من واحد. و هذا ما يميز ولاية العهد عند الفاطميين عن ولاية العهد عند الأمويين والعباسيين: فكان الأمويون والعباسيون من بعدهم، يعهدون بالخلافة لأكثر من واحد.

وأحاط الخلفاء الفاطميون أنفسهم بهالة من التقديس، ويتجلى لنا ذلك من حديث الداعى هبة الله الشيرازى الذى وصف فيه مقابلته الخليفة المستنصر بالله الفاطمى فى مجلس الخلافة

اسلم نفسه فاعلمو الملك القاسى القلب بوفاته فامر ان يضرب تمام الالف سوط وهو ميت. وهكذى تمت شهادته بركاته تكون معا.

ومنهم اخر يعرف بالريس فهد ابن ابراهيم وكان قدمه على جميع الكتاب واصحاب الدواوين فاحضره بين يديه وقال له: انت تعلم انني اصطفيتك وقدمتك على كلمن فى دولتى

بالقاهرة، فقال: «فلم تقع عينى عليه الا وقد أخذتنى الروعة، وغلبتنى العبرة وتمثل فى نفسى أنى بين يدى رسول الله وأمير المؤمنين ماثل، وبوجهى الى وجهيهما مقابل، واجتهدت عند وقوعى الى الأرض ساجدا لولى السجود ومستحقه، أنْ يشفعه لسانى بشفاعة حسنة بنطقه، فوجدته بعجمة المهابة معقولا، وعن مزية الخلافة معزولا...، ومكثت بحضرته ساعة لا ينبعث لسانى بنطق ولا يهتدى لقول».

وكان الخلفاء الفاطميون، يرون فى تقديس الناس لهم اعلاء لشأنهم، واعتبروا أنفسهم هداة لهم. وكانوا يلقبون أنفسهم بألقاب كثيرة منها الخليفة الفاطمى أو العلوى أو أمير المؤمنين. وكان السنيون يطلقون عليهم العبيديين، نسبة إلى عبدالله المهدى أول الخلفاء الفاطميين ببلاد المغرب، كما أطلق عليهم الفاطميون نسبة الى السيدة فاطمة الزهراء بنت النبى.

أما عن الوزارة فى عهد الفاطميين، فان جوهر الصقلى لما فتح مصر أقر الوزير جعفر بن الفرات فى منصبه حتى لا يحدث عزله اضطرابا فى شئون ولاية مصر، ولم يقدم على عزل أحد من الموظفين السنيين واحلال المغاربة وغيرهم من أنصار الفاطميين محلهم لأنه لم يوجد من المغاربة فى أول الأمر خبير بالشئون الادارية فى مصر. وحرص جوهر الصقلى على أن يشرك مع كل موظف مصرى مغربى حتى اذا ما تدرب أنصار الفاطميين على الادارة، انفردوا

فاسمع منى وكن معى فى دينى فارفعك اكثر مما انت فيه وتكون لى مثل اخ. فلم يجيب الى قوله، فامر بضرب عنقه واحرق جسده بالنار، فاقام النار توقد ثلاثة ايام عليه ولم يحترق وبقيت يده اليمنى كان [كأن] النار لم تدن منها البته، وكانت هذه اية من الله سبحنه لانه كان رجل دين فيه رحمة عظيمة ولم يرد قط من يطلب منه شى حتى انه كان يجتاز فى الشوارع راكبا فيلقاه من يطلب منه الصدقة فيمد يده الى كمه ويظن ان ليس فيه

بالوظائف. كذلك عمل جوهر على اضعاف سلطة الوزير جعفر بن الفرات بأن عين له خادما يلازمه في داره ويسير فى ركابه ليكون عينا عليه. وساء الوزير ابن الفرات أن يرى نفسه فى هذه الحال، لذلك انتهز فرصة قدوم الخليفة المعز الى مصر واعتذر له عن البقاء فى منصب الوزارة، فاظهر له الخليفة رغبته فى ضرورة بقائه فى البلاد المصرية بعد اعتزاله منصبه ليستأنس برأيه فى مهام الأمور، فأجابه الى ذلك. ثم عهد الخليفة المعز الى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن المغربى فى ادارة شئون الدولة الفاطمية المدنية والحربية، وقلدهما أمور الدولة التى يضطلع بها الوزراء. على أن ابن كلس لم يسند اليه منصب الوزارة ويلقب بلقب وزير الا فى عهد الخليفة العزيز بالله.

كانت الوزارة فى العصر الفاطمى الأول (٣٥٨ـ ٤٦٥هـ) وزارة تنفيذ لأن الخلفاء كانوا على جانب كبير من القوة بحيث استأثروا بادارة شئون الدولة. وحرص الخلفاء الفاطميون على اختيار وزرائهم من المختصين بتدبير الأموال، كما كان لحكام الولايات وكبار موظفى الدولة على اختلاف درجاتهم الحق فى تقلد منصب الوزارة اذا توافرت عندهم الكفاية اللازمة لهذا المنصب. وبلغ من تسامح الفاطميين أن عهدوا الى بعض ذوى الشأن من أهل الذمة بتولية الوزارة.

لم تظهر تسمية الوزير وزيرا بوضوح الا فى أيام الخليفة العزيز، مع أن هذا المنصب كان

شي فيجد ما يدفعه للسايل، ولذلك ظهرت هذه الاية في يده اليمنى الذى كان يمدها للصدقة في كل وقت، فكان له في الله افعال جميلة جدا. رزقنا الله بركة صلواتهم اجمعين.

فاما بقية هولاى العشرة قضاة المقدمين لما طالبهم بترك دينهم والانتقال عنه فلم يفعلو ذلك ولا طاعوه فامر بعذابهم فضربو بالسياط، فلما تزايد عليهم الضرب اسلم منهم اربعة، اما احد

معروفا في عهد الطولونيين والاخشيديين. ومن وزرائه يعقوب بن كلس. وكان يجلس للمظالم كل يوم بعد صلاة الصبح، فيدخل عليه الناس بظلاماتهم. واتخذ في قصرة عدة دواوين، خص بعضها بالنظر في شئون الجيش والمالية والسجلات وما يتعلق بجباية الخراج، وعين لكل ديوان ما يحتاج اليه من الموظفين.

ضعف شأن الوزارة بعد وفاة يعقوب بن كلس، وتحولت الى ما يسمى الوساطة خشية ازياد نفوذ الوزراء، ففي أوائل عهد الخليفة الحاكم بأمر الله عزل عيسى بن نسطوراى لاسناده مناصب الدولة الى أهل ملته من المسيحيين، وتقلد الحسن بن عمار زعيم الكاميين الوساطة وتلقب بلقب أمين الدولة.

ومن أشهر رجال العصر الفاطمى الذين تقلدوا الوساطة والوزارة أبو الحسن على بن جعفر بن فلاح الذى لقب وزير الوزراء ذى الرياستين، وأبو القاسم على بن أحمد الجرجرائى الذى تقلد بعض المناصب العليا في عهد الحاكم، ثم أسندت اليه الوساطة في أوائل خلافة الظاهر الفاطمى، لكنه لم يل الوزارة الا في سنة ٤١٨ هـ، وظل شاغلا هذا المنصب الى أن توفى الخليفة الظاهر، فأقره الخليفة المستنصر في منصبه، فلما توفى سنة ٤٣٦ هـ خلفه في الوزارة أبو منصور صدقة بن يوسف الفلاحى. غير أن هذا الوزير لم يتمتع بما تمتع به غيره من نفوذ

هولاى الاربعة فانه مات فى ليلته بعينها، واما الثلثة الاخر فانه الى انقضا زمان الهيج [الهيجان] اعادو الى مذهب النصرانية. واما بقية العشرة ماتو تحت العذاب ونالو الحياة الدايمة. وفعل هذا الملك افعال لم يسمع بان احد من الملوك الذى قبله فعل مثلها، ولم يثبت على راى واحد ولا اعتقاد واحد، وكان منظره مثل الاسد وعيناه واسعة شهل، واذا نظر الى انسان يرتعد منه لعظم هيبته، وكان صوته جهر مخوف، وكان ينظر الى النجوم والحكمة

بسبب اتساع سلطة أبى سعد التسترى اليهودى الذى تقرب من الخليفة المستنصر بالله وعظم شأنه فى عهده.

أصبحت الوزارة منذ أواخر عهد المستنصر بالله الى نهاية العصر الفاطمى وزارة تفويض، تقلدها كثير من أرباب السيوف بعد أن كانت وزارة تنفيذ أو ساطة، يرجع من تقلدها الى أمر الخليفة ونهيه. ومن أشهر وزراء هذا العصر بدر الجمالى الذى كان واليا على عكا، ثم استدعاه المستنصر ليصلح الأمور فى مصر، فلما قدم الى القاهرة، فوض اليه جميع سلطاته، فقد جاء فى سجل توليته الوزارة «وقد قلدك أمير المؤمنين جميع جوامع تدبيره، وناط بك النظر فى كل ما وراء سريره». وبذلك أصبح بدر الجمالى صاحب الحل والعقد، له أن يولى كبار موظفى الدولة ويعزلهم.

ضعف نفوذ الخلفاء الفاطميين كثيرا فى العصر الفاطمى الثانى، بينما زادت سلطة الوزراء الذين استفحلت قوتهم وتضخمت ثروتهم، وأصبح فى أيديهم أمر تعيين الخلفاء وعزلهم. وكان بعضهم يؤثر اختيار أحد أمراء البيت الفاطمى الضعاف حتى يكون ألعوبة فى أيديهم. وقد تجلت هذه الظاهرة فى عهد الوزير الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالى الذى كان يتمتع بسلطة مطلقة، فأصبحت فى قبضة يده موارد الدولة الواسعة. وقد نقل الدواوين الى داره التى بناها سنة ٥٠١هـ كما جلب اليها كثيرا من الذخائر النفسية.

البرانية وكان يخدم النجم المسمى زحل على زعمه ويداوم التطواف فى الجبل الشرقى [جبل المقطم] بمصر ليلا ومعه ثلثة من الركابية ويتشبه له الشيطان بشبه ذلك النجم فيخاطبه بامور كثير ويذبح له قرابين وترك لباس الملوك لاجل هذا ولبس ثوب صوف اسود وربا شعره حتى نزل على اكتافه وترك ركب العماريات [الإبل] والخيل السبق المسومه والبغال المطرفة وركب حمار اسود، وكان يمشى وحده فى كل موضع وربما اخذ معه فرد

وكان من ألقاب وزراء التفويض: أمير الجيوش، وكافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين، ثم أضيف اليها لقب ملك بعد أن ولى الوزارة رضوان بن ولخشى فى عهد الخليفة الحافظ، وفى ذلك يقول المقريزى:« أول من لقب بالملك منهم مضافا الى بقية الألقاب رضوان بن ولخشى عندما وزر للحافظ لدين الله، فقيل له: السيد الأجل الملك الأفضل،وذلك فى سنة ثلاثين وخمسمائة، وفعل ذلك من بعده، فتلقب طلائع بن رزيك بالملك المنصور، كما تلقب صلاح الدين بالملك الناصر.

***

كانت مصر تنقسم فى العصر الفاطمى الى أربع ولايات أو أقاليم كبيرة، وهى:ولاية قوص ويحكم متوليها جميع بلاد الصعيد، ولاية الشرقية وتشمل على وجه التقريب الأراضى الواقعة شرقى فرع دمياط، وولاية الغربية وتشمل جميع البلاد الواقعة بين فرعى رشيد ودمياط من الشمال الى الجنوب. أما الولاية الرابعة، فهى ولاية الاسكندرية، ويضاف اليها البحيرة. وقد منحت الحكومة الفاطمية كل وال من ولاة هذه الأقاليم الأربعة الحرية فى تعيين العمال على المدن والنواحى والقرى الداخلة فى نطاق ولايته، كما أجازت له العناية بمرافق اقليمه دون الرجوع اليها.

وكان على القاهرة وال، كما تولى على الفسطاط وال آخر وتمتع كل منهما بمركز ممتاز

ركـابى(*)، وكـان يمشى بالليل فى الشـوارع ايضـا ويتـسـمع على النـاس فى بيـوتهم مـا يقـولوه عنه، وكان له جواسيس كثير ومخبرين يطوفون ليلا ونهارا ويرفعون له الاخبار ولا يخفى عنه شيا مما يجرى فى بلاد مصر جميعها ويظنو الناس ان قوة الله حالة عليه لاجل الملك الذى فوضه اليه، وكان له انسان يسمى الهادى(*) ومعه اثنى عشر رجلا يتلمذون له ويدعون الناس اليه ويسمعون، وكان يقول للذين يجتمعون اليه ان الحاكم هو المسيح

(*) عرف هذا الركابى النوبى باسم أبى الرضا سعد، كانت له إقطاعات وهبها له الحاكم ورفع مكانته حتى قصدته الناس لقضاء حاجاتهم عند الحاكم.

(*) حول الدعوات الدينية لدعاة الحاكم التى ذهبت إلى حد زعم أن الحاكم «إله» يجب أن يعبد وأن تحنو له الجباه. ←

عند الخليفة. غير أن مرتبة والى القاهرة كانت أعلى من مرتبة والى الفسطاط. كذلك كان لكل من تنيس وعيذاب وال يحكمها لأهميتها التجارية.

أما شئون الادارة فى العصر الفاطمى بمصر، فكان يشرف عليها عدة دواوين، نذكر من بينها: ديوان الانشاء، ودواوين الادارة المالية التى تقوم بجباية الأموال وانفاقها، ودواوين الادارة المحلية التى تحكم الولايات. وتنقسم الدواوين الرئيسية بدورها الى عدة دواوين يختص كل منهما بعمل معين.

كان الموظفون فى العهد الفاطمى يتقاضون الرواتب الكبيرة ويمنحون الملابس والهدايا الثمنية فى الأعياد والمواسم، وأصبحوا بفضل هذه الرواتب والمنح فى رغد من العيش مما سهل عليهم القيام بواجباتهم على أحسن وجه، فلم يألوا جهدا فى العمل على تقدم مرافق البلاد الاقتصادية ودفع اغارات الأعداء عنها.

وقد حرص الفاطميون على أن يكون موظفوا الادارة من بين ذوى الخبرة، كما اهتموا بتدريب كتاب الدواوين على جميع الأعمال الكتابية، وأحسن مثل لذلك ابن منجب الصيرفى الذى عمل قبل توليته ديوان الانشاء ـ فى عهد الخليفة الآمر ـ فى ديوان المكاتبات ودواوين الجيش والمالية. وكانت هذه الطريقة تهيئ لأرباب الوظائف قدرا كبيرا من الثقافة الادارية.

كان ديوان الانشاء من أهم دواوين الادارة فى عهد الفاطميين، وأطلق عليه ابن منجب

رهط الدعاة

وإلى ذلك الحين سلخ الحاكم زهاء خمسة عشر عاماً فى الحكم؛ وكانت فترة يطبعها الاضطراب والعنف والمفاجأة، بما تخللها من غريب الأحكام والتطورات التى أتينا على ذكرها. ولكن الحوادث تدخل من ذلك الحين فى طور آخر، ويميل العهد إلى نوع من الهدوء، ويتجه الحاكم وجهة أخرى. كان ذلك الذهن المضطرم الهائم معاً، لا يسكن إلى ركود الحياة العادية، وكان دائماً يؤثر التوغل فى عوالم الحياة الروحية؛ وكانت أعوام العصر الأخيرة مليئة بهذه التيارات الخفية، التى تحجب عنا أغوارها ريب وظلمات كثيفة؛ وكانت مصر فى هذه الأعوام مهداً خصباً لطائفة من الدعاة السريين، والدعوات المذهبية؛ وكان الحاكم، كما سنرى من وراء هذه الدعوات يرعاها ويرقب تطوراتها، حتى استحالت فى أواخر عهده إلى دعوة جريئة إلى «ألوهيته»، ونعت الحاكم عندئذ «بقائم الزمان وناطق النطقاء». وعندئذ تمخضت هذه التيارات الخفية، وهذا الهدوء المحموم، عن عاصفة دموية مروعة اختتم بها ذلك العهد، الحافل بصنوف المفاجآت والأحداث العجيبة. ثم كانت ذروة الخفاء، وكان ختام المأساة، فغاض الحاكم من هذا العالم فى ظروف كالأساطير، وأسبغ الخفاء على ذهابه حجباً كثيفة من الغموض والريب، كتلك التى أسبغها على حياته، وعلى شخصيته كلها.

وسوف نتناول فى هذا الفصل حوادث هذه المرحلة من عصر الحاكم بأمر الله، ونبسط ما انتهى إلينا من أعمال الدعاة وحركاتهم الظاهرة؛ ولكنا نرجئ شرح مبادئهم ودعواتهم إلى القسم الثانى من هذا الكتاب، حيث نعنى بشرح الدعوةالفاطمية السرية وكل نظمها وآثارها.

* * *

كان هذا العهد الغريب الحافل قد أخذ بعد هذه الفترة الطويلة المروعة، يستقر ويبدو طبيعياً لاغرابة فيه؛ وماذا عسى أن يخترع الحاكم بعد من صنوف الأحكام والقوانين المدهشة؟ وماذاعسى أن يستجد من الأحداث والخطوب والمحن، بعد أن تقلب الشعب المصرى فى هذه الغمار أعواماً، وروض نفسه على قبولها والرضوخ لأحكامها؟ لقد شهد الشعب المصرى فى هذه الأعوام الخمس عشرة من الحوادث والمفاجآت السياسية والدينية والاجتماعية، مالم يسمع به من قبل فى أى مجتمع؛ فرأى القتل الذريع يخمد كل صوت أو رأس يرتفع، والاضطهاد المنظم يحطم الطوائف والأقليات، والقوانين الصارمة تقلب أوضاع الحياة الإجتماعية، وتخمد كل الرغبات والأهواء؛ وقد احتمل كل شئ فى صبر وجلد، ودفع من حرياته وماله ودمه ثمن الاحتجاج والتذمر، ولم يبق إلا أن يشهد الحوادث تجرى فى طريقها المحتوم، حتى يأذن القدر بتحويلها وتبديلها.

بيد أن الحوادث لم تكن قد بلغت بعد ذروتها ونهايتها، وكانت ثمة مفاجآت مروعة أخرى.

وقد كان الحاكم خلال هذه الأعوام الحافلة، روح كل شئ فى الدولة وفى المجتمع، وكان هذا الذهن المضطرم الذى رماه التحامل والتسرع بالجنون، يسيطر على أقدار هذا الملك الشاسع بقوة مدهشة، ويقبض بيديه القويتين على كل صغيرة وكبيرة، فى حياة الشعب الداخلية والخارجية، بيد أنه كان الى جانب هذه الحياة العامة المضطربة المضنية، يحيا لنفسه حياة عقلية وروحية أخرى، قد يلمس الشعب أحياناً آثارها الماديا، ولكنه لا يلمس أصولها الحقيقية. وقد ظهرت آثار هذه الحياة الخفية بنوع خاص فى أواخر العهد، أعنى منذ سنة ٤٠٥ هـ؛ فمن ذلك الحين يزداد الحاكم شغفاً بالطواف، والتجول فى الخلاء، ورصد النجوم؛ وتحمله نزعة قوية من التقشف والتصوف، ويهيم فى عوالم جديدة من الفلسفة الروحية، لم تلبث أن ظهرت

٦٤: انبا زخارياس البطرك ١٠٠٣ / ١٠٣٢م

آثارها المادية في صورة دعوة جبرية، الى تقديس هذه الشخصية المدهشة والارتفاع بها الى ما فوق البشر، وإحاطتها بحجب كثيفة زادتها خفاء على خفائها.

وقد كانت الإمامة حسبما بينا من قبل عنوان الدولة الفاطمية وشعارها البارز، وكانت هذه الإمامة تصطبغ بصبغة مذهبية عميقة، ولم تحجم الخلافة الفاطمية في هذا السبيل، عن أن تعدل أحكاما بأحكام وشعائر بشعائر، وأن تستحدث كثيراً من النظم والتقاليد الدينية المذهبية؛ وكانت منذ قيامها بمصر تعمل بكل ما وسعت، لبث الدعوة الشيعية المغرقة، تارة في الجهر وتارة في الخفاء، كانت مجالس الحكمة الشهيرة، وهي مجالس الدعاية المذهبية تعقد كما سنرى تارة في القصر الفاطمي نفسه وتارة في الجامع الأزهر؛ ولكن الإمامة الفاطمية تتشح في عصر الحاكم بأمر الله، بنوع من القدسية الرهيبة، وتستحيل الدعوة المذهبية الى نوع من الفلسفة الحرة، تكتنفها نفس الحجب المظلمة؛ وكان الحاكم هو روح هذا التطور الخطير في توجيه الدعوة الفاطمية؛ وسنرى كيف ينشئ الحاكم جامعة خاصة هي دار الحكمة، تلقن فيها الدعوة المذهبية المغرقة في سلفيتها وسريتها، في نظم ومراتب مدهشة، كانت من أغرب النظم السرية التي عرفها التاريخ.

وفوق ذلك فقد كان الحاكم بأمر الله من أنشط وأقوى الخلفاء الفاطميين، في بث الدعوة المذهبية ونشرها في الخارج، وكان له رهط من الدعاة الأقوياء في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، ولاسيما في المشرق، يعملون لنشر الدعوة، واستمالة الناس إليها؛ ويبعث بالمال الوفير إلى مختلف الدعاة، للإنفاق على شئون الدعوة، وبذل الصلات للمستجيبين؛ وكان من بين أولئك الدعاة علماء من الطراز الأول، مثل حميد الدين الكرماني ـ داعية العراقين وفارس[1].

* * *

في سنة ٤٠٥ هـ ازداد الحاكم شغفاً بالطواف كما قدمنا، فكان يركب مراراً في اليوم، بالنهار وبالليل، وكان يقصد غالباً الى المقطم، وكان قد أنشأ له هناك منزلا منفرداً، يخلو فيه الى نفسه ويهيم في عوالمه وتصوراته، ومرصداً خاصاً يرصد منه النجوم ويستطلعها؛ وربما قصد إلى بعض الحدائق والمواقع المنعزلة، ثم يخرج منه إلى الجبل ويجوب الفضاء الشاسع[2]؛ كان يؤثر ركوب الحمير ولاسيما الشهباء منها ـ وكان أبوه العزيز أيضاً يؤثر ركوبها ـ ويخرج دون موكب ولا زينة، ومعه نفر قليل من الركابية، ويرتدي ثياباً بسيطة ساذجة؛ وكان يبدأ كعادته بالتجوال في شوارع القاهرة. ويحادث الكافة، ويستمع إلى ظلامات المتظلمين، ويفصل فيها لوقته أو يحيلها إلى جهة الاختصاص، وكانت تنهال عليه الرقاع والعرائض المختومة، ومنها ما يحتوي السب المثير له ولأسلافه، أو الطعن المر فيه وفي أسرته؛ وكان توجيه الرقاع القاذفة إلى الخليفة الفاطمي من الأمور المألوفة، وكان يتلقى الكثير منها في القصر أو المسجد أو الموكب ذاته، ففي ذات يوم صادف ركبه امرأة تمد يدها برقعة كأنها ظلامة، فتقدم الحاكم وتناولها بنفسه وقرأها، فإذا فيها أشنع السباب والقذف، فطلب اعتقال المرأة، فأجيب أنها تمثال من الورق المقوى قد ألبس ثياب امرأة، فثارت نفسه لذلك الاجتراء، وأضمر التنكيل بأهل مصر (الفسطاط). وتقول بعض الروايات إنه نفذ مشروعه فعلا، فأصدر أمره إلى العرفاء والمقدمين، بالمسير إلى مصر وحرقها ونهبها والفتك بأهلها، ووقع الاعتداء المروع بالفعل في مناظر بشعة من السفك والعبث؛

(١) المقريزي عن ابن أبي طي، في اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ١٧٠.
(٢) المقريزي في الخطط ج٤ ص ٧٣ و٧٤؛ والنجوم الزاهرة عن ابن الصابي ج٤ ص ١٨٠؛ وأبو صالح الأرمني ص ٤٧ب.

ولكن بعض الروايات الأخرى على اتفاقها في وقع هذه الجريمة الشنعاء، ترجعها إلى مناسبة أخرى، وإلى تاريخ متأخر عن ذلك بنحو خمسة أعوام أعنى إلى أوائل سنة ٤١١ هـ، ولما كنا نؤثر الأخذ بهذه الرواية الأخيرة، فإنا نرجئ استعراض هذه الحوادث إلى مكانها المناسب[١].

وهنا ينحدر عصر الحاكم بأمر الله إلى مرحلة جديدة من الخفاء. كانت تلك القوانين المدهشة والأحداث المروعة التي توالت في الأعوام الأخيرة، وما يحيط بكل بواعثها من غموض، ومايحيط بشخصية الخليفة نفسه، وبأهوائه وتصرفاته الغريبة، من ضروب الخفاء والروع، كلها قد بثت الى المجتمع المصرى نوعا من الرهبة والخشوع؛ ولكن الخفاء في هذه المرحلة يتجه وجهة أخرى؛ وبينا يغرب عن فهم الكافة، إذا به يثير التوجس والروع في نفوس الخاصة؛ ذلك لأن الدعوة السرية الفاطمية تذهب عندئذ إلى ذروة الغلو والاجتراء، فتزعم أن الحاكم «إله» يجب أن يعبد وأن تعنو له الجباه.

ولم تسجل الرواية الإسلامية، مثل هذا الزعم المنكر من قبل إلا في فرصة واحدة، هي ظهور المقنع الخراساني[٢]؛ وقد كان أقصى ما يطمح إليه الدعاة المغامرون، أن ينتسبوا إلى الإمامة وربما إلى نوع من الرسالة أو النبوة؛ وهذا ما ذهب إليه بعض الدعاة المغرقين مثل داعية القرامطة أشد الفرق الإسلامية الثورية غلواً وإغراقا؛ ولكن الارتفاع بالإنسان إلى قدس الألوهية، إجتراء لم يسمع به منذ ظهور المقنع أعنى منذ مائتين وخمسين عاماً، إلا في عصر الحاكم بأمر الله؛ وسنرى فيما يأتي أن هناك كثيراً من وجوه الشبه بين الحادثين وبين الدعويين.

* * *

في أوائل سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧م)، ظهر بمدينة القاهرة رجل يدعى حمزة بن علي بن أحمد الزوزني، ويعرف باللباد، ودعا إلى ألوهية الحاكم بأمر الله، وشرح دعواه في عدة كتب ورسائل غريبة. فمن هو هذا الداعية الجرئ الذى كان لمزاعمه كما سنرى أثر بعيد المدى؟ إن الروايات المعاصرة والمتأخرة لاتقدم إلينا سوى إشارات موجزة، وقد استقينا معظم التفاصيل المتعلقة به وبدعوته من رسائله ذاتها، التي وفقنا إلى قراءتها واستعراضها في بعض المجموعات الخطية القديمة. وكل ما نعرف عن شخصه أنه فارسى من مقاطعة «زوزن» وأنه كان في بدء أمره عاملا يشتغل بصنع اللباد، وأنه وفد إلى القاهرة حوالى سنة ٤٠٥هـ[٣]، وأنتظم بين الدعاة الذين كان تغص بهم العاصمة الفاطمية يومئذ، وخاض غمار الجدل الديني والدعوات السرية التي كانت تضطرم بها يومئذ. ومما تجدر ملاحظته أن معظم الدعاة والملاحدة، الذين خرجوا على الإسلام وحاربوه باسمه، ينتمون إلى أصل فارسى، ومنهم عبدالله بن ميمون القداح، الذى ترجع إليه بعض الروايات نسب الفاطميين أنفسهم. وفي رسائل حمزة ما يلقى بعض الضياء على شخصيته، وعلى طبيعة دعوته ومهمته؛ فهو بلاريب من أكابر الدعاة السريين الذين اتصلوا بالحاكم بأوثق الصلات، وتلقوا وحيه أو استوحوا دعوته واستظلوا في بثها برعايته، وكان لهم أكبر الأثر في التوجيه الخفى لكثير من مسائل العصر؛ وسنرى حين نعرض إلى مهمته الحقيقية وإلى رسائله الغريبة، أنه يقدم لنا

(١) يقول بهذه الرواية ابن الصابى (ويرويه النجوم الزاهرة ج٤ ص ١٨١)، ويتابعه في ذلك ابن الأثير (ج٩ ص ١٠٨). ويقول بالرواية الثانية الأنطاكي في تاريخه ص ٢٢٤ و ٢٢٥، والوزير جمال الدين المصرى في (أخبار الدول المنقطعة)، ويتابعه في ذلك النويرى في نهاية الأرب (ج ٢٦ ص ٦٠)، وهى أرجح في نظرنا لأنها أكثر اتفاقاً مع المنطق وأكثر دقة في شرح الأسباب والظروف وإيراد التواريخ.

(٢) ظهر «المقنع» في خراسان سنة ١٥٩هـ (٧٧٦م) في خلافة المهدى، وادعى الإمامة ثم الألوهية.

(٣) أخبار الدول المنقطعة (المخطوط).

نفسه أيضاً فى صفة النبوة، ويصف لنا بعض أعماله بالمعجزات.

والظاهر أن حمزة بن على عكف مدى حين على بث دعوته سراً، ولم يجاهر بها إلا فى أواخر سنة ٤٠٧ أو أوائل سنة ٤٠٨هـ؛ وعندئذ يبدو على مسرح الحوادث الظاهرة، ويلازم الجلوس فى مسجد ريدان (أو مسجد تبر) بظاهر باب النصر، ويدعو جهراً إلى عبادة الحاكم، وينادى بالتناسخ فى الأديان والشرائع وبالحلول، ويزعم أن الحاكم ليس بشراً، وإنما هو رمز حل فيه الإله؛ فاجتمع إليه طائفة كبيرة من غلاة الشيعة الإسماعيلية وتلقب بهادى المستجيبين، ولقب الحاكم «بقائم الزمان»، وبث دعاته فى أنحاء مصر والشام، ورخص فى أحكام الشريعة، فاستجاب له كثير من الكافة، وكثر جمعه وذاع أمره؛ وكان الحاكم حين يمر ركبه بالمسجد، يخرج إليه حمزة ويحادثه طويلا على انفراد؛ ولم يلبث أن أولاه الحاكم رعايته بصورة ظاهرة، وبعث إليه والى أتباعه بالسلاح؛ ثم تمادى حمزة فى مشروعه فاتخذ له بطانة قوية من الدعاة والرسل، ولقب أحدهم وهو إسماعيل بن محمد التميمى «بسفير القدرة»، وكان ينفذه لأخذ البيعة من الرؤساء والكبراء للحاكم فى صفته الجديدة التى أسبغها عليه حمزة وشيعته، أعنى باعتباره «قائم الزمان»، فكان الكثير منهم يضطر إلى التظاهر بالقبول خوفاً من البطش والانتقام[1].

وفى نفس الوقت الذى ظهر فيه حمزة بهذه الدعوة الجريئة، ظهر بها عدة من رسله وتلاميذه، وفى مقدمة هؤلاء حسن بن حيدرة الفرغانى المعروف بالأخرم، ومحمد بن إسماعيل الدرزى. وهذان تذكرهما بعض الروايات المعاصرة والمتأخرة، وإسماعيل بن محمد التميمى، وعبد الله بن محمد القرشى، وعلى بن أحمد السموقى، وعبد الله اللواتى، ومبارك بن على، وأبو منصور البردعى، وأبو جعفر الحبال، وهؤلاء يذكرهم حمزة فى رسائله إلى جانب الدرزى فى المبدأ حليف حمزة وداعيته، ولكنه انقلب فيما بعد إلى منافسته وخصومته، كما يقرر لنا حمزة ذلك فى بعض رسائله[2]. وقد اختلفت الرواية فى تواريخ ظهور هؤلاء الدعاة فيقول لنا الأنطاكى وهو مؤرخ معاصر، إن الدرزى أول من ظهر منهم فى سنة ٤٠٨هـ وأول من أذاع الدعوة بألوهية الحاكم، ثم ظهر حمزة بعد مقتل الدرزى فى نفس العام؛ ويتابعه فى ذلك ابن العميد؛ ويقول لنا الوزير جمال الدين فى «أخبار الدول المنقطعة»، إن الأخرم كان أول من ظهر بمصر من أولئك الدعاة، وذلك فى رجب سنة ٤٠٩هـ، وأن حمزة ظهر من بعده فى سنة ٤١٠هـ، ثم تبعه الدرزى فى بث الدعوة؛ ولكن رسائل حمزة التى وقفنا عليها، تدلى بالعكس بأن حمزة كان أول من ظهر من أولئك الدعاة، وأول من بث دعوة الألوهية، وأن ظهوره بالدعوة كان فى سنة ٤٠٨هـ، وهو ما يقرره لنا صراحة فى خاتمة رسالته الأولى المسماة «بالنقض الخفى»[3].

وظهر حسن بن حيدرة الفرغانى المسمى بالأخرم بمدينة القاهرة، عقب ظهور حمزة بقليل، ودعا إلى مثل ما دعا إليه حمزة من التناسخ والحلول، وألوهية الحاكم، وأرسل بمضمون نظريته رقاعا إلى العلماء والقضاء والأكابر، وذاعت دعوته بسرعة فى جماعة من المغامرين والمرتزقة، فاستدعاه الحاكم، وخلع عليه وأركبه فرساً مطهماً،

(١) راجع تاريخ الأنطاكى ص ٢٢٠ و٢٢٣، والملكين ابن العميد ص ٢٦٤ و٢٦٥؛ والمقريزى فى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ١٩٩أ، وراجع أخبار الدول المنقطعة (المخطوط) وأورده فستفلد فى «تاريخ الفاطميين» ص ٢٠٥ و ٢٠٦.

(٢) راجع المجموعة الخطية المحفوظة بدار الكتب رقم ١٣٢ عقائد النحل، وهى التى تضم رسائل حمزة بن على.

(٣) راجع المخطوط المشار إليه ص ٥١.

وسيره في مركبه، وأولاه عطفه ورعايته، بيد أنه لم تمض على ذلك أيام قلائل حتى قتل الأخرم؛ وذلك أنه كان يسير في ركبه بالقاهرة ذات يوم، فوثب به رجل من متعصبي السنة، وأرداه قتيلا، فتفرق في الحال صحبه وانهارت دعوته؛ ونهبت دار الأخرم وطورد أنصاره في كل مكان؛ وغضب الحاكم لذلك أيما غضب وأمر بإعدام القاتل في الحال؛ وكفن الأخرم بأكفان من القصر ودفن في حفل رسمي؛ وحمل أهل السنة صاحبهم ودفنوه مكرماً، وهرع الناس أياماً لزيارة قبره؛ ولكن القبرنبش بعد أيام واختفت جثته، وكان ذلك على ما يظهر من وحي الحاكم ورغبته[1] وقد انتهت إلينا وثيقة تلقى ضوءاً على مضمون نظرية الفرغاني الإلحادية، وهي عبارة عن رسالة كتبها كبير دعاة الحاكم حميد الدين الكرماني أثناء وجوده بالقاهرة، في أواخر سنة ٤٠٩هـ، تحت عنوان «الرسالة الواعظة»، وفيها يرد على الفرغاني، ويفند نظريته.

وهذا الرد منصب على ما ورد في رقعة من الرقاع، التي كان يذيعها الفرغاني في شرح مذهب «التأليه»، والتي تلقى الكرماني إحداها.

ويمهد الكرماني في رده بشرح سمو «الألوهية» ومهمة الإمام القائم في تلقي رسالتها، ثم يخاطب الأخرم بقوله: «فإن قبلت، وعن أباطيلك رجعت، فقد حماك جمال الإسلام، وتولاك عز الإمام، وحصلت من أهل الإيمان؛ وإن أبيت، وعن الاتعاظ امتنعت إصراراً على ضلالتك التي أنت فيها، تضل عباد الله، وتمنعهم من عبادة الله، وتنقض مراتب حدود الله تعالى وتزيد «ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون».

ثم يندد بما أقدم عليه الأخرم، في رقعته أورسالته من إغفال أسم الله، واسم النبي، واسم الأئمة الطاهرين، وأمير المؤمنين سلام الله عليهم «الذين هدم الله بهم أركان الضلال، وبين بمكانهم الحرام من الحلال، ولا يقبل الله إليه عملا من أعمال العباد إلا بولايتهم، ولا صلاة من الصلوات إلا بالصلاة عليهم».

ويشرح الكرماني بعد ذلك كون الله تعالى ليس «بجسم»، وهو ما يخصص له فصلا في كتابه «راحة العقل»[2]، وكونه ليس هو «المادة» ثم يقول: «وإذا كان الكلام قد أسفر عن الأمر في أن الله تعالى ليس بجسم، ولا في جسم، وهو متقدس من صفات الجسم على كونه تعالى متقدساً أيضاً عما يدرك بالعقول والأفهام، فقد ظهر أن العبادة ليست لشخص، وأن المعبود ليس بشخص، وظهر كفرك والحادك، نعوذ بالله من الكفر والإلحاد».

ثم يرد على الأخرم تساؤله عن معنى الإسلام وشرائطه؟ وعن الشريعة؟ وكونها محدثة أم قديمة مع الدهر؟ وكون الشريعة هي الدين أم طريق الدين؟ ثم سؤاله عن النفس، وعن العقل، وماهي غاية الإبداع الذى فوق الروحانيين والجسمانيين؟

يقول الكرماني: «فعلم ذلك شريف مثبت في صحف مكرمة، مرفوعة مطهرة، بأيدى سفرة، كرام بررة، وهو عندنا معشر الدعاة، وديعة من جهة أربابها: الرسول صلى الله عليه، الوصى عليه السلام، والقائم فينا عبد الله ووليه ابن نبيه، الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين، وآبائه الأئمة الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين.. علينا أن نؤديها إلى من استحق ممن أقر بفضلهم، ودان لله تعالى بطاعتهم. وأنت فقد قطعت الأسباب، وأنكرت الأرباب، وصرت في جحودك فضلهم ومنزلتهم مستمراً، وعلى كنودك لهم وكفرك مستقراً».

ويعطف بعد ذلك على عناصر دعوة الأخرم، ويرد عليها على النحو الآتي:

(١) مرآة الزمان (المخطوط) المجلد الحادى عشر ج٣ ص ٤٠٤، وأخبار الدول المنقطعة، وأورده فستفلد ص ٢٠٤ و٢٠٥.
(٢) كتاب راحة العقل ص ٤٢ ـ ٤٤.

«وأما قول أصحابك: إن المعبود تعالى هو أمير المؤمنين سلام الله عليه، فقول كفر، تكاد السموات يتفطرن منه، وتنشق الأرض، وتخر الجبال. هذا أن دعوا للإله المعبود غيرا، فبالجسارة على الله حين جعلوا إليه تعالى شريكاً ما أعظمها، وبالجرأة على الله تعالى حين جعلوا المعبود غيره تعالى ما أفظعها، ولقد قالوا عظيما، وافتروا إثما مبيناً،وإن ذلك إلا كفر محيض. فما أمير المؤمنين عليه السلام، إلا عبد خاضع وله طائع، ويسجد الوجهه الكريم، ويعظمه غاية التعظيم، وباسمه يستفتح، وعليه في أموره يتوكل، وأمره إليه يفوض، والله تعالى قد فضله على خلقه، وجعله من جهة رسوله محمد صلى الله عليه، خليفة له في أرضه، ووسيلة لعباده إلى جنته، وأوجب طاعته على عباده، وهو سلام الله عليه يتبرا إلى الله تعالى ممن يعتقد فيه ذلك.. وهو سلام الله عليه ينفي ما تنسبه أنت وأصحابك إليه عن نفسه...».

«وأما قولك وقول أصحابك إن الشريعة والتنزيل خرافات، قشور، وحشو، ولاتعلق بها نجاة... فهو شقاوة تدعو الى حر النيران، وكفر من عمل الشيطان، وارتداد عن الإسلام».

ثم يقول : «فلولا أسدل أمير المؤمنين عليه السلام ستر الأمن على المؤمن والمنافق، والمسلم والكافر، حتى استوت الأقدام فيه، لكان الجواب عن ذلك التنكيل بك، ثم قطع الوتين منك، وتجريد حد السيف عليك».

ويختتم بقوله: «وبعد فإني أنصحك، ومن نكال الدنيا والآخرة أحذرك، وإياك وهذه المقالات الشنيعة، فلا تعقبك الا البعد عن تعالى الله، وعن أوليائه عليهم السلام، ولا تكسبك إلا العاقبة السوء، ورد عنك من تبعك على ضلالتك، رد بالإقرار لهم ببطلان ما ارتكبته، وفساد ما ابتدعته، ولا يغرنك الإغفال عنك، وتب إلى الله تعالى، قبل أن تضيق عليك عرصة الإمهال...»[1].

ذلك هو ملخص الرسالة الواعظة، التي يتصدى فيها الكرماني لدحض دعوة الأخرم الإلحادية. ونحن نعرف أن الكرماني كان من أكبر دعاة الحاكم بأمر الله، والمدافعين عن سياسته وتصرفاته المذهبية؛ فإذا كان الحاكم قد أولى الفرغاني عطفه حسبما تقدم، فهل كان الكرماني يعمل في هذا الموطن بوحي من نفسه؟ أم هل كان يمثل دوراً ألقي إليه، حتى يمكن تغطية موقف الإمام، أي الحاكم، عند الحاجة؟ الواقع أن من الصعب علينا أن نعتبر دفاع الكرماني في هذا الموطن، معبرا عنه حقيقة موقف الحاكم، وقد كان فيما يبدو موقف عطف ورعاية لأولئك الدعاة الملاحدة.

وعلى أى حال فإن مقتل الفرغاني لم يضع حداً للدعوة الإلحادية، ولم ين الدعاة لهذا الاعتداء، ولم تفتر دعايتهم وكان محمد بن اسماعيل الدرزي، ويعرف «بأنوشتكين البخاري» وهو من أصل تركي، فيما يرجح[2]، أقوى رسل حمزة وأشدهم عزماً وجرأة؛ وكان يسير على طريقة حمزه في الدعوة إلى التناسخ والحلول؛ ويزعم أن روح آدم انتقلت إلى روح علي ابن أبي طالب، ثم انتقلت روح علي إلى الحاكم صفوة سلالته، وشرح الدرزي دعوته وأصول مذهبه في رسالة قدمها إلى الحاكم؛ فقربه الحاكم، وأغدق عليه عطفه ورعايته، وارتفعت لديه منزلته،

(١) نشرت هذه الرسالة وعنوانها «الرسالة الواعظة في الرد على الأخرم الفرغاني» من مجموعة خطية من رسائل حميد الدين الكرماني، وبعناية الدكتور محمد كامل حسين، بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة، بعدد مايو سنة ١٩٥٢ (ص ١١ ـ ٢٩).

(٢) ويقول الأنطاكي إنه يرجع إلى أصل أعجمي (ص ٢٢٠)؛ وكذلك المقريزي في اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٩].

واشتد نفوذه حتى غدا ملاذ الكبراء، وسفيرهم لديه في قضاء مطالبهم ورغباتهم[1]؛ وسمى الدرزى نفسه «بسند الهادى، وحياة المستجيبين». و«الهادى» هو حمزة كما رأينا، وفى ذلك ما يدل على أن حمزة كان السابق والدرزى هو اللاحق، وأن الرجلين كانا فى البداية على الأقل، حليفين يعملان لبث الدعوة معاً بمنتهى التعاون والوفاق[2].

ولم يكن لهذه المزاعم المغرقة أثر يذكر، وإن كان بعض الكافة من الجهلاء والمرتزقة، وبعض الذميين والمنافقين، قد تظاهروا بقبولها اجتناء للنفع أو اتقاء النقمة؛ وكان هؤلاء إذا لقوا الحاكم فى ركبه قالوا: السلام عليك يا أحد، يامحى، يا مميت؛ وأمثال ذلك من الهذر المنكر[3].

وكثرت الفتن والمناقشات الدينية، ولاسيما بين أنصار حمزة وأنصار ختكين داعي الدعاة، وهو المشرف على توجيه الدعوة الفاطمية الأصلية، وأخذ كل فريق يرمى صاحبه بالكفر والضلال[4].

وفى رواية عن نهاية الدرزى وهى رواية الأنطاكى، أن الدرزى قتل أثناء ركوبه فى موكب الحاكم ذاته؛ قتله مواطنوه الترك على أثر ما شملهم وشمل جميع رجال الدولة ومعظم طبقات الشعب من السخط لمزاعمه الإلحادية المثيرة، ويأخذ المقريزى بهذه الرواية[5] وفى رسائل الدروز السرية ما يشعر بأنه قتل فى سنة ٤١٠ هـ بتحريض حمزة، وقتل معه عدة من الدعاة الخوارج[6].

والحقيقة فيما يرجح، هى أن الدرزى لم يقتل فى هذا الظرف، ولكنه أختفى فى القصر أياماً حتى هدأت العاصفة وسكن الجند، ثم دبر الحاكم له سبيل الفرار، وعاونه بالمال، فسار إلى الشام ونزل ببعض قرى بانياس، وأذاع فى الناس دعوته فكانت أصل مذهب الدروز الشهير الذى سمى باسمه[7]؛ وأساسه القول بالتناسخ، وحلول الروح، وأن الروح المقدس انتقلت من آدم إلى على بن أبى طالب، ثم انتقلت روح على إلى الحاكم بأمر الله.

أما مصير حمزة فتحيطه معظم الروايات بالصمت، وينفرد الأنطاكى ببيان مصيره، فيقول لنا إنه فر بعد فقد الحاكم ثم قتل بعد ذلك، وطورد أنصاره ومزقوا كل ممزق[8]. بيد أن هنالك ما يدل على أنه لبث قائماً بدعوته حيناً آخر؛ ذلك أنه توجد لدينا مجموعة خطية أخرى من رسائل الحادية [9] نعتقد من روحها وأسلوبها أنها من تأليف حمزة بن على ذاته، ومنها رسائل كتبت فى سنة ٤٢٢هـ، أى بعد التاريخ الذى نتحدث عنه بنحو احدى عشر عاماً؛ وربما استتر حمزة بمصر حيناً يبث دعايته فى الخفاء، وربما انتقل إلى الشام فى أثر زميله الدرزى؛ بيد أنه لا توجد لدينا تفاصيل شافية عن حركة أولئك الدعاة، بعد أن انهارت دعوتهم بمصر على النحو الذى قدمنا.

* * *

ماذا كان موقف الحاكم بأمر الله من هذه الحركة الإلحادية المدهشة ؟ لقد كان فيما يرجح موقف تأييد ورعاية، وهذا ما تقوله معظم الروايات المعاصرة

---

(١) مرآة الزمان (المخطوط) الجزء المشار إليه ص ٤٠٥، وأورده النجوم الزاهرة ج٤ ص ١٨٤.
(٢) أخبار الدول المنقطعة.
(٣) ابن الصابى، وأورده النجوم الزاهرة ج٤ ص ١٨٣.
(٤) تاريخ الأنطاكى ص ٢٢٤.
(٥) تاريخ الأنطاكى ص ٢٢٣؛ واتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٩أ.
(٦) دائرة المعارف الإسلامية فى مقال الدرزى.
(٧) مرآة الزمان (المخطوط) الجزء المشار إليه ص ٤٠٥، وأورده النجوم الزاهرة ج٤ ص ١٨٤.
(٨) تاريخ الأنطاكى ص ٢٣٧.
(٩) تحفظ هذه المجموعة بدار الكتب رقم ٣٥ عقائد النحل.

والمتأخرة؛ وإذا كان من الصعب أن نحدد مدى هذا التأييد، ففي وسعنا أن نقول إن الحاكم كان من وراء الدعاة يشد أزرهم، ويمدهم بالمال والنصح، ويسهر على حمايتهم من الكافة؛ وإذا صدقنا ما يقدمه إلينا الدعاة في هذا الضد، فقد نستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إن الحاكم كان يشرف على توجيه الدعوة، ويشترك في تنظيمها وتغذيتها بطريقة فعلية؛ وهذا ما يذكره لنا حمزة في بعض رسائله[1]؛ وفي سياق الحوادث وتتابعها حسبما قدمنا، ما يدل على أن تحطيم الدعوة وتمزيق الدعاة على هذا النحو، كان ضربة شخصية للحاكم بأمر الله، وقد ثارت نفس الحاكم غضباً على الجند والكافة، لأنهم اجترأوا على مطاردة الدعاة.

وقد أشرنا فيما تقدم إلى حادث المرأة التي صنعت من الورق، ونصبها أهل مصر (الفسطاط) في طريق الحاكم وفي يدها رقعة كأنها ظلامة، وإلى ما أثارته محتويات هذه الرقعة القاذفة في نفس الحاكم من الحفيظة والغضب على أهل مصر.

اعتزم الحاكم إذن أن ينكل بمصر وأهلها؛ فاستدعى العرفاء والقادة ونظم معهم خطة العمل؛ وعهد إلى مقدمي العبيد وغيرهم من الطوائف بافتتاح الهجوم، فأخذوا يغيرون على أحياء مصر في هيئة العصابات، وينهبون الحوانيت والسابلة، ويخطفون النساء من الدور، والشرطة تغضى عن جرائمهم، والحاكم معرض عن كل شكاية وتضرع؛ وكان ذلك في جمادى الآخرة سنة ٤١١ هـ؛ ثم اتسع نطاق الاعتداء، فهاجمت قوى العبيد والترك والمغاربة مصر من كل صوب، وأضرموا النار في أطرافها؛ وهب أهل مصر للدفاع عن أنفسهم، واستمرت المعارك بين الفريقين ثلاثة أيام، وألسنة اللهب تنطلق من المدينة القديمة إلى عنان السماء؛ وفي اليوم الرابع اجتمع الأشراف والكبراء في المساجد ورفعوا المصاحف، وضجوا بالبكاء والدعاء، فكف الأتراك والمغاربة عن متابعة الاعتداء، واستمر العبيد في عدوانهم، وأهل مصر يدفعونهم بكل ما استطاعوا؛ وطلب الأتراك والمغاربة إلى الحاكم أن يأمر بوقف هذا الاعتداء الصارخ على أهل مصر وعلى أموالهم، خصوصاً وأن لهم بين المصريين كثيراً من الأصهار والأقارب، ولهم في مصر كثير من الأملاك، فتظاهر بإجابة مطلبهم، ولكنه أوعز إلى العبيد أن يستمروا في القتال، وأن يتأهبوا لمدافعة الترك والمغاربة، فاضطرمت المعارك بين الفريقين، ودافع الترك والمغاربة عن أهل مصر، ومزقوا جموع العبيد ونكلوا بهم؛ ثم هددوا الحاكم باقتحام القاهرة وحرقها، إذا لم يوضع حد لتلك الجرائم، فخشي الحاكم العاقبة، وأمر العبيد بالتفرق ولزوم السكينة؛ واعتذر لأشراف مصر وزعماء الترك والمغاربة عما وقع، وتنصل من كل تبعة فيه، وأصدر أماناً لأهل مصر قرئ على المنابر؛ وسكنت تلك الفتنة الشنعاء، بعد أن لبثت الفسطاط بضعة أسابيع، مسرحاً لمناظر مروعة من السفك والعيث والنهب، وأحرقت معظم شوارعها ومبانيها وخربت معظم أسواقها ونهبت، وسبى كثير من نسائها واعتدى عليه، وانتحر كثير منه خشية العار؛ وتتبع المصريون أزواجهم وبناتهم وأمهاتهم، وافتدوهن من الخاطفين.

وكان ما تلا ذلك من المناظر الدموية، وهو آخر الحوادث الهامة في ذلك العهد الحافل، وكانت بداية النهاية؛ وكانت الخاتمة تدنو مسرعة، وقد أشرف ذلك العام المليء بالحوادث ـ سنة ٤١١ هـ ـ على نهايته؛ وأشرف العهد نفسه على الخاتمة؛ وكانت الخاتمة ذروة الخفاء.

ذروة الخفاء

ـ ١ ـ

هانحن أولاء نقترب من

---

(١) راجع رسائل حمزة (المخطوط رقم ١٤٣ عقائد النحل) ص ٧٥.

الخاتمة، ونقترب من الذروة، خاتمة العهد الذى استعرضنا، وخاتمة تلك الشخصية العجيبة التى ملأت العهد عنفاً واضطراباً وروعة؛ وذروة ذلك الخفاء الذى كان يغمرها فى حياتها الخاصة والعامة، يسبغ على العهد كله لونا من الطرافة الممزوجة بالرهبة والخشوع.

كان المجتمع المصرى قد بلغ فى هذه الأعوام الخمسة والعشرين، غاية اليأس والسخط والروع؛ وكانت قد أضنته تلك الأحداث الهائلة التى توالت عليه، فقلبت أوضاعه، وقوضت نظمه من الأساس، ونكبته فى النفس والمال غير مرة، وعصفت بتراثه الروحى وتقاليده الإجتماعية وكل معتقد عزيز لديه؛ وكانت اليد الحديدية التى تقبض على مصايره، والنظم العنيفة التى تطوق أعناقه، تخمد لديه كل نزعة إلى الخروج والمقاومة. بيد أن ذلك الخضوع الذى فرضه عليه تتابع الحوادث وهولها ورعتها لم يكن نهائياً، واذا كانت القوة الطاغية قد استطاعت أن تخمد الثورة، وأن تنكل بالمجتمع الثائر، فإنها لم تخمد لديه كل نزعة إلى النضال والمقاومة، بل لقد سرت عوامل السخط إلى العسكرية ذاتها، فبدت أنها قد ضاقت ذرعاً بهذه الأهواء العنيفة، وأنها لا تريد أن تكون بعد أداة للطغيان الأعمى، والانتقام الذريع. كان الحاكم بأمر الله يجلس عندئذ فوق بركان مضطرم من الأحقاد والشهوات، وكان يتخبط بين مختلف النيات والمشاريع، ويرى أداة الطغيان وقد فسدت، وكادت تفلت من بين يديه القويتين؛ وبينا يضطرم الشعب سخطاً، ويرقب فرص الانتقاض والمقاومة، وبينا يرتجف الطاغية فى أعماق قصره رهبة من المستقبل.

وقعت المناظر الدموية التى أتينا على وصفها فى جمادى الآخرة سنة ٤١١ هـ واستمرت مدى أسابيع؛ وصدر فى نفس الوقت سجل (مرسوم) بإبطال المراسيم التى صدرت من قبل فى حق النصارى واليهود، ورفع الفروض التى ضربت عليهم، وإطلاق الحرية لهم فى إعادة كنائسهم، وارتداد من أسلم منهم إلى دينه[1] محاولة منه لاستجلاب عطف الجماهير ولكن دون جدوى.

ومضى على ذلك زهاء شهرين، وبينا كانت النفوس على اضطرامها، وجزعها وتوجسها، إذا بالحدث الأكبر يقع فجأة، واذا بالحاكم بأمر الله يغيض من هذه الحياة الدنيا فى ظروف كالأساطير.

كان مصرع الحاكم بأمر الله، أو بالأحرى كان اختفاؤه، من أعجب مآسى التاريخ وأشدها غموضاً.

ولقد كانت شخصية الحاكم مثال الخفاء ذاته؛ ولم تكن مظاهر الغموض والتناقض التى تنتاب هذه الشخصية الغريبة فى كثير من المواطن، لتحجب مظاهر القوة المادية والمعنوية، التى تتمتع بها فى أحيان كثيرة. بيد أن الخفاء المروع يصحب الحاكم فى حياته الخاصة، وفى تصرفاته العامة، فى أقواله وفى أفعاله. وأى خفاء أشد من ذلك الذى تنفثه حولها، شخصية ترتفع فى سماء التفكير، حتى لتزعم السمو فوق البشر وتهيم فى دعوى الألوهية، وتنحط مع ذلك فى كثير من نزعاتها وتصرفاتها، إلى نوع من الشذوذ بل الجنون الغامض؟

وكان ا ختفاء الحاكم كحياته لغزاً مدهشاً، بل كان ذروة الخفاء والروع، وما زالت قصة هذا الاختفاء وظروفه، وحقيقة عوامله، مثار الريب والجدل. ركب الحاكم ذات مساء فى بعض جولاته الليلية، وقصد إلى جبل المقطم، ثم لم ير بعد ذلك قط لاحياً ولاميتاً، ولم يعرف مصيره قط ولم يوجد جثمانه قط، ولم تقدم إلينا الروايات المعاصرة أو المتأخرة، أية رواية حاسمة عن مصرعه أو اختفائه.

* * *

هنالك فى سير الحوادث وأحوال العصر، ما يحمل رغم

---

(١) الأنطاكى ص ٢٣٠ ـ ٢٣٢، و أخبار الدول المنقطعة، وأبو صالح ص ٤٦أ.

خفاء المأساة، وغموض الظروف التى أحاطت بوقوعها، واضطراب الروايات بشأنها، على الاعتقاد بأن الحاكم بأمر الله ذهب ضحية المؤامرة، وأن مصرعه لم يكن سوى جريمة سياسية، ارتكبت لتحقيق غايات الملك والسياسة، وهذا ما تقرره بعض الروايات المعاصرة على اختلافها فى الشرح والتعليل؛ ولكن من دبر هذه المؤامرة؟ ومن قام بتنفيذها؟ وكيف نفذت؟ و أين ذهبت جثة الحاكم؟ هذه أمور يحيط بها الخفاء والريب، وإن كنا نجد الجواب عليها أيضاً فى بعض الروايات المعاصرة.

والحقيقة أن افتراض المؤامرة السياسية، وربما كان خير تعليل للمأساة. ذلك أن الحاكم بأمر الله كان طاغية خطر الأهواء والنزعات، سريع الانتقام، ذريع الفتك؛ وكانت تضطرم حوله بلا ريب شواظ من البغضاء والسخط، وقد شمل هذا السخط جميع الطوائف والطبقات؛ وكان رجال الدولة وأكابر الزعماء والقادة، يعيشون جميعاً فى جو من الخيانة والروع، ولا يأمنون على نفس أو مال. ومن المدهش حقاً أن هذه البغضاء المضطرمة، لم تصب الحاكم من قبل بنارها، ولم تسحق ملكه وسلطانه، بل استطاع أن يخمدها فى صدور ذويها، مدى هذه الأعوام الطويلة. ذلك لأن هذه الشخصية القوية كانت تثير دائما من الرهبة والروع، أكثر مما تثير من البغضاء والحفيظة والسخط.

كانت المؤامرة إذن ترقب الحاكم بأمر الله، ويرصده الموت. ولكن من دبر هذه المؤامرة، وأقدم على الاضطلاع بتلك المهمة الخطرة؟ لم يكن مدبرها الأول رجلا من رجال الدولة، أو زعيما ممن نزلت بهم نقمة الطاغية. ولكن كان مدبرها، على ما يرجح وتقرره معظم الروايات المعاصرة امرأة، هى ست الملك أو سيدة الملك، أخت الحاكم ذاته. وقد أشرنا إلى ست الملك فيما تقدم. كان مولدها بالمغرب فى سنة ٣٥٩هـ، وقد عرفت منذ فتوتها بالعقل والحزم وحسن التدبير، وتسميها الرواية أحياناً «ست الكل» وتنعتها بالسلطانة[(١)]؛ وكان أبوها العزيز يحبها ويستشيرها فى كثير من الأمور ويستمع إلى رأيها ونصحها. ولما توفى العزيز استمرت ست الملك على نفوذها فى القصر، وقامت بدور كبير فى تدبير الشئون وتوجيهها، فى بداية عهد الحاكم بأمر لله، فكانت تمده بحسن رأيها وتدبيرها فى كثير من الأمور، وتسهر على سلامته وسلامة ملكه. وهنالك ما يدل على أن العلائق بين ست الملك وأخيها الحاكم، كانت فى تلك الفترة الأولى من حكمه، تتسم بطابع المحبة والمودة الوثيقة، فقد ذكر لنا المقريزى فى أخبار سنة ٣٨٧هـ، أن ست الملك «أهدت إلى أخيها الحاكم بأمر الله ثلاثين فرساً مسرجة، أحدها مرصع، وستا وعشرين بغلة مسرجة ملجمة، وخمسين خادماً، منها عشرة صقالبة، وتاج مرصع، وشاشية مرصعة، وأسفاط كثيرة من طيب، وبستان من الفضة مزروع من أنواع الشجر». وفى حوادث سنة ٣٩٠هـ، أن ست الملك «أقطعت إقطاعاً مبلغه مائة ألف دينار، منها ضياع فى الصعيد، وأسفل الأرض، ودور وبساتين»[(٢)]. ولكن الأمور تغيرت مع كر الزمن. ذلك أنه لما استأثر الحاكم بالسلطة، واندفع فى تيار العنف والإغراق، وأسرف فى القتل، وإصدار القوانين والأحكام المتناقضة، كانت ست الملك تعترضه، وتسدى إليه النصح وتحذره من العواقب، فكان يغضب لتدخلها ويردها بغليظ القول واللوم، ويقصيها عن كل تدخل واشتراك فى الشئون[(٣)].

وكانت ست الملك ترقب

---

(١) المقريزى فى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٩ب.

(٢) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٥٢ ب و٥٦أ.

(٣) أخبار الدول المنقطعة (فى فستنفلد ص ٢١٥)؛ ومرآة الزمان (النسخة الفتوغرافية) فى الجزء المشار إليه ص ٤٠٥؛ والنجوم الزاهرة ج٤ ص ١٨٥ و ١٩٥؛ ونهاية الأرب ج٦ ٢٦ ص ٦١.

تطورات الحوادث في جزع وتوجس، وتخشى أن تنقض العاصفة وتضطرم الثورة، فتحمل عرش الحاكم ومستقبل الأسرة كله، ويختم عصرالمجد والسؤدد، في غمر الدماء والشقاء والذلة، وكان الحاكم من جانبه يحقد على ست الملك، وينقم عليها تدخلها وقارص لومها. وتضيف الرواية إلى ذلك، أن الحاكم كان يشدد عليها الحجر والراقبة، وينعى عليها سوء مسلكها وفضائحها الغرامية، ويتهمها بتناوب العشاق عليها، وأنه هددها بإنفاذ القوابل إليها لاستبرائها، فكانت لذلك تخشى بطشه وفتكه[1]. وفي اتهام ست الملك بهذه الفضائح ما يدعو إلى التأمل؛ ذلك أنها كانت يومئذ قد جاوزت عهد الشباب ببعيد، وأشرفت على الثانية والخمسين من عمرها؛ ولم تذكر الرواية عنها ما يشينها قط، بل نراها تجمع على امتداحها، والإشادة بحزمها وعقلها وكياستها [2]؛ وإذن فمن المشكوك فيه أن تنحدر هذه الأميرة الفطنة الحازمة، في كهولتها إلى مثل هذا المسلك المشين؛ وعندنا أن العوامل السياسية التي أشرنا إليها هي كل شئ في تلك الخصومة، التي ثارت بين الحاكم وأخته، وهي التي دفعت ست الملك الى طريق الجريمة.

وبحثت ست الملك حولها بين العناصر الناقمة، فوقع اختيارها على سيف الدولة الحسين بن دواس زعيم كتامة ليكون حليفها ومنفذ مشروعها. وكانت كتامة بين القبائل المغربية التي شدت بأزر الدولة الفاطمية، أقواها وأوفرها عصبية وبأساً؛ وكان زعيمها الحسين بن دواس يعيش بعيداً عن القصر. ويقاطع الحفلات والمواكب الرسمية خشية غدر الحاكم و فتكه، ويصارح الحاكم ويراجعه في ذلك وينعى عليه مسلكه، فيزداد إباء وتمسكا، ويصارح الحاكم بما يخالجه من ريب وجزع؛ فاتصلت ست الملك سراً بالحسين بن دواس، وعرضت إليه ما انتهت إليه الأمور من الاضطراب والفوضى، من جراء تصرفات أخيها، وتطرفه وإغراقه، وانتهاكه حرمات الشريعة والإيمان بادعاء الألوهية، وما يهدد الدولة والإسلام كله من خطر التمزق، إذا استمر الحاكم في غيه، ولم يوضع حد لشنيع تصرفاته وجرائمه، وأنه لا سبيل إلى تدارك الموقف ودفع الخطر، غير قتل الحاكم وتولية ولده. فلبى ابن دواس دعوة الجريمة وتعهد بالتنفيذ، وأخذت عليه الأميرة ميثاقاً بالوفاء والكتمان، وقطعت على نفسها مختلف المواثيق والعهود، ووعدته بأنه سيكون مدبر الدولة وصاحب الكلمة العليا في شؤونها . وعهد ابن دواس بالتنفيذ إلى عبدين من أخلص عبيده، فخلعت عليهما ست الملك، ووهبتهما مالا وخيلا وغيرها، وزودتهما بسكينين ماضيين؛ واتفق على أن يكون التنفيذ في مساء اليوم التالي، حينما يخرج الحاكم كعادته ليلا إلى المقطم، ويتوغل فيه منفرداً أو مع اثنين من الركابية فقط، فعندئذ يتم التنفيذ، ويحقق مشروع الجناة بأيسر أمر (٣).

ـ ٢ ـ

وقد أشرنا فيما تقدم إلى شغف الحاكم بالطواف بالليل، ولاسيما في جنبات المقطم؛ ولم يكن ذلك الطواف عبثاً فقد كان الحاكم كأبيه وأجداده يهيم باستقراء النجوم ورصدها. وكان يتوغل في الجبل، ويقصد الربى في مكان يسمى «صحراء الجب»، وهنالك في خلوته المنعزلة التي بناها خصيصاً لذلك، يتأمل النجوم ملياً ويحسب طالعها، ففي ليلة الاثنين ٢٧ شوال سنة ٤١١هـ ١٣٠ فبراير سنة ١٠٢١م) خرج الحاكم كعادته للطواف في الجبل. وتصف لنا الرواية منظراً مؤثراً وقع بينه وبين والدته قبيل

---

(١) ابن خلدون ـ في كتاب العبر ـ ج٤ ص ٦١، والمقريزي في اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٩ب.
(٢) النجوم الزاهرة ج٤ ص ١٨٥ و ٢٤٨.
(٣) مرآة الزمان النسخة الفتوغرافية في الجزء المشار إليه ص ٤٠٦.

ركوبه، فقد ذكر الحاكم لوالدته أنه يتوقع في الغد قطعاً في طالعه ينذر به ظهور نجم مسعين، وأنه يتوجس من ظهوره، ويخشى أن يصبها مكروه ولاسيما من أخته، وأعطى أمه مفاتيح خزانة مليئة بالمال بها خمسمائة ألف دينار، لتحولها إلى قصرها وتكون ذخيرة لها؛ فجزعت أمه وكانت تعبده ويعبدها حباً، وتضرعت إليه ألا يخرج، فوعدها بذلك. ولبث الحاكم أرقا والضجر يكاد يقتله، حتى مضى من الليل ثلثاه؛ وعندئذ قال لأمه لابد من ركوبى الليلة، وإلا خرجت روحى. ثم ركب فى الحال حماره الأشهب المدعو بالفخر، ورافقته بطانته المعتادة؛ وكان أبو عروس صاحب العسس (كبير الشرطة) يطوف كل ليلة بالقصر مع رجاله، وهم يضربون الطبول والبوقات الخفيفة، فإذا خرج الحاكم تبعه فى رجاله حتى أبواب المدينة. وخرج الركب إلى الجبل، من درب يقال له درب السباع[1]؛ ولما وصل إلى الجبل رد أبا عروس ورجاله، ونسيما صاحب الستر والسيف، ولم يصحبه سوى اثنين من الركابية[2]، ثم سار متوغلا فى شعب المقطم. وكانت أخته ست الملك ساهرة ترقب كل حركاته من قصرها، وهو القصر الصغير أو القصر الغربى المقابل للقصر الخلافى أو القصر الكبير، فما كادت تعلم بخروجه حتى اتخذت كل أهبتها؛ وسبق الجناة فريستهم إلى المكان المقصود. وهنا تقول الرواية نقلا عن أبى عروس صاحب الشرطة، إن الحاكم لما وصل إلى الجبل صعد إلى رابية مرتفعة، وتأمل النجوم قليلا ثم ضرب يداً على يد وقال: ظهرت يا مشئوم! ثم توغل قليلا فى شعب الجبل، فاعترضه فى الطريق عشرة من عرب بنى قرة، والتمسوا منه صلة وإحساناً. فأنفذ معهم أحد الركابيين إلى صاحب بيت المال ليحقق ملتمسهم؛ والظاهر أن اعتراضهم للحاكم على هذا النحو لم يكن عفواً[3]. واستمر الحاكم فى سيره مع الركابى الآخر، حتى المكان الذى يقصده، وهو فى شرقى حلوان وقد لاح الفجر. فخرج عبداً ابن دواس من مكمنهما، وانقضا عليه وطرحاه أرضاً وهو يصيح بهما «ويلكما ماذا تريدان»، فقتلاه وقطعا ذراعيه، وشقا جوفه، واستخرجا أمعاءه، وقتلا الصبى الركابى، وقطعا قوائم الحمار، وحملا أشلاء الحاكم إلى سيدهما فى كساء، فرافقهما ابن دواس فى الحال إلى ست الملك، وسلمها الجثة؛ فدفنتها فى نفس مجلسها، وأنعمت على ابن دواس وعبديه بمال وتحف كثيرة، ودعت فى الحال كبير الوزراء خطير الملك أبا الحسين عمار بن محمد وأخطرته بما وقع، واستحلفته على الكتمان والطاعة، وأمرته باستدعاء ولى العهد عبد الرحيم بن الياس من الشأم، فكتب إليه على لسان الحاكم أن يبادر بالعود، فعاد بطريق البحر، وبعثت ست الملك قائد الساحل فاستقبله فى مياه دمياط، وسار به إلى تنيس وقتله؛ وهناك روايات أخرى عن مصرعه نشير إليها فيما بعد[4]. وفرقت ست الملك زهاء ألف دينار بين مختلف الأولياء، لكى تطمئن الخواطر المضطربة، ولتقضى على الأقاويل، أن أخاها سيغيب سبعة أيام وأنه يمدها بأوامره، واتخذت كل أهبة لإخفاء الجريمة، وتدبير ما يجب لاختيار الخليفة الجديد.

وكان أول هم لست الملك أن تقضى على شركائها فى الجريمة، فيذهب سرها معهم إلى الأبد، فلما استكملت أهبتها، وأخذت البيعة للخليفة الطفل أبى الحسن على بن الحاكم بأمر الله بمعاونة ابن دواس، وأعلن

---

(١) سمى كذلك لأن دار السباع كانت تقع فيه، وكان موقعه فى طريق القرافة الموصل إلى مقبرة الشافعى.

(٢) هم الذين يصحبون الركب الخلافى، ويعنون بركوب الخليفة والدواب التى يركبها.

(٣) يقول النويرى إن العشرة الذين اعترضوا الحاكم، إنما هم عبيد ابن دواس أعدهم لتنفيذ الجريمة، وأنهم سبقوا الحاكم ليلة خروجه إلى الجبل، ثم انقضوا عليه وقتلوه (نهاية الأرب مجلد ٢٦ ص ٥٨).

(٤) المقريزى فى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٧٠ أ.

خليفة مكان أبيه في العاشر من ذى الحجة (٤١١هـ)، واستوثقت من طاعة كتامة، وباقى الطوائف والزعماء، استدعت ابن دواس وكان يعتقد أنه غدا أعظم رجل في الدولة؛ وبينا هو في بعض أبهاء القصر، صاح نسيم صاحب الستر في صبيان الخاص بإيعاز ست الملك، بأن هذا هو قاتل مولانا الحاكم فاقتلوه، فانقضوا على ابن دواس وقطعوه بسيوفهم إرباً، ثم قتلوا العبدين اللذين ارتكبا الجريمة؛ ثم دبرت ست الملك أيضاً مقتل الوزير خطير الملك بعد ذلك بأشهر قلائل، ولم يفر أحداً ممن وقفوا على السر؛ وتمت هذه الإجراءات الدموية بسرعة واحكام، وذهب السر الرهيب مع الجناة إلى الأبد[1].

- ٣ -

هذه خلاصة ضافية لما تعرضه الروايات التي انتهت إلينا عن مصرع الحاكم بأمر الله، وعن ظروف المأساة وبواعثها. ولكن القضاعي وهو مؤرخ معاصر تقريباً، كتب روايته بعد ذلك بنحو ثلاثين عاماً فقط، يضيف إلى هذه الرواية فصلا آخر، فيحدثنا عن خساتمة المأساة. وكيف اكتشفت آثار الجريمة؛ فيقول إن الحاكم لما سار في طريقه إلى المقطم، وبعث أحد الركابيين مع نفر بني قرة الذين اعترضوا طريقه، صرف الركابي الآخر عند قبر «الفقاعي» في وسط القرافة الكبرى. ولما لم يعد الحاكم كعادته في صباح اليوم التالي، خرج القضاة والأشراف والقواد الى الجبل، فبحثوا عن الحاكم حتى آخر النهار ولم يعثروا له على أثر، وكرروا الذهاب على هذا النحو ثلاثة أيام دون جدوى؛ وفي اليوم الرابع أعني يوم الخميس آخر شوال، خرج مظفر صاحب المظلة، ونسيم صاحب الستر، وابن مسكين صاحب الرمح، وعدة من زعماء الجند والقضاة ورجال الدولة، وتوغلوا في شعب المقطم حتى بلغوا دير القصير، على مقربة من حلوان؛ وعكفوا على البحث والتنقيب حتى عثروا بحمار الحاكم الأشهب، وقد قطعت ساقاه الأماميتان، وعليه سرجه ولجامه؛ فتتبعوا الأثر حتى وصلوا إلى البركة الواقعة شرقي حلوان؛ فنزلها البعض وعثروا فيها ثياب الحاكم، وهي سبع جباب منزرة لم تحل أزارها وفيها أثر الطعان، فعندئذ أيقن الناس بقتله[2].

ثم تقول الرواية إن ست الملك بعد أن استتب لها الأمر، وثبت مصرع الحاكم على هذا النحو، أبدت الحزن عليه، وأقامت عزاءه القصر ثلاثة أيام، ثم استدعت جماعة العرب الذين اعترضوا سبيل الحاكم ليلة الجريمة التماساً للعطاء، وطلبت اليهم أن يقولوا ما يعرفون من مقتل الحاكم، ووعدتهم بالعفو والإحسان إذا أجابوا وإلا أعدمو في الحال؛ فأقسموا جميعاً بأن لا علم لهم بشيء، فضربت أعناقهم؛ وتوسلت ست الملك لستر جريمتها بارتكاب جريمة أخرى.

على أن هنالك رواية في شأن هؤلاء الأعراب ينفرد بها الأنطاكي، وهو مؤرخ معاصر للمأساة[3]، فهو يقول إن الحاكم ليلة خروجه الى المقطم، ومعه

---

(١) أورد هذه التفاصيل عن مصرع الحاكم من المؤرخين وفي مقدمتهم أبو هلال الصابي وقد كتب روايته بعد الحادث بنحو ثلاثين عاما فقط (راجع هذه الرواية في النجوم الزاهرة ج٤ ص ١٨٥ ومابعدها) وكذلك أبو عبد الله القضاعي وكتب بعد الحادث بقليل أيضا (راجع عيون المعارف ـ مخطوط بدار الكتب ص ١٨١ و ١٨٢) والذهبي (راجع المخطوط بدار الكتب مجلد ٢٢ في وفيات سنة ٤١١) وهو ينقل رواية القضاعي؛ وابن قز أو غلي في مرآة الزمان (المخطوط الجزء المشار إليه ص ٤٠٥ ـ ٤٠٨) وابن خلكان (ج٢ ص ١٦٧ و ١٦٨) وابن الأثير (ج٨ ص ١٠٨ و ١٠٩) والمقريزي في اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٩ب و ٧٠أ؛ وراجع أيضاً أخبار الدول المنقطعة (المخطوط) وابن العميد (تاريخ المسلمين ص ٢٥٨) وابن العبري (مختصر تاريخ الدول طبع اليسوعيين ص ٣١٢ و ٣١٣) ونهاية الأرب (ج٢٦ ص ٥٨) وابن خلدون (ج٤ ص ٦١) وغيرها.

(٢) راجع رواية القضاعي في النجوم الزاهرة (ج٤ ص ١٩٠ و ١٩١).

(٣) بدأ الأنطاكي كتابة تاريخه حسبما يقرر في مقدمته سنة ٤٠٥هـ في أنطاكية، واستمر في كتابته حتى أوائل عهد الظاهر.

صبى ركابى فقط اعترضه سبعة من البدو أو سبعة فوارس من بنى قرة حسبما يروى لنا المقريزى، والتمسوا منه الصلة بجفاء وغلظة، فأجابهم بأنه لا يحمل مالا يدفعه لهم، ولكنه يرسلهم الى متولى بيت المال ابن بدوس ليدفع لهم خمسة آلاف درهم (أو عشرة آلاف على قول المقريزى)، فقالوا إنهم لا يمضون لأنه لا يدفع لهم شيئا، واشتد الجدل بينهم وبينه، فطلبوا اليه أن يرسل معهم الصبى الركابى لينجز لهم ما وعد من عطاء؛ وسار الركابى مع أربعة منهم صوب صوب المدينة، وتخلف الثلاثة الباقون؛ ثم عاد الركابى بعد أن أدى مهمته يبحث عن سيده، فى المكان الذى اعتاد انتظاره فيه، وطال بحثه دون جدوى حتى لقيه مساح راهب بالجبل، فسأله وذكر له صفة الحاكم وصفة حماره، فأخبره أنه رأى هذا الحمار فى طريقه معرقبا، وسار معه الى الموضع الذى شهده فيه.

وفى صباح اليوم التالى سارت الأميرة ست الملك وجميع الأمراء والقواد الى الجبل، يتتبعون أثر الحاكم حتى وصلوا إلى دير القصير[1]، وبحثوا فى الدير وجميع المواضع التى كان يرتادها فلم يقفوا له على خبر؛ ثم عثروا بعد ذلك بثيابه وفيها آثار الطعان والدماد، ولكنهم لم يجدوا جثته، فاستدلوا من ذلك على أن البدو الثلاثة الذين تخلفوا عن رفاقهم، هم الذين قتلوه ودفنوه فى الجبل وأخفوا أثره.

واتجهت مظنة التحريض الى ابن دواس، وكثرت فى حقه الأقاويل، فعملت ست الملك على استدعائه الى القصر، حيث قتل حسبما تقدم؛ ووجدت ست الملك فى بعض صناديقه، السكين التى كان يحملها الحاكم فى كمه، فثبت لدى الجميع حينئذ أنه هو مدبر الجريمة[2].

وربما كان لهذه الرواية التى ينفرد بها الأنطاكى قيمتها من حيث التفاصيل الجزئية؛ وليس بعيداً أن يكون هؤلاء الأعراب هم القتلة، وأن يكون وقوفهم فى طريق الحاكم أمرا مدبرا كما أشرنا إلى ذلك فيما تقدم؛ ومن جهة أخرى فهى تنفى تهمة تدبير الجريمة عن ست الملك، وان كانت تتفق فى اتهام ابن دواس وتخصه بتدبيرها.واذا كان من الصعب أن نقف عند هذه الرواية، وأن نؤثر الأخذ بها دون غيرها من الروايات المعاصرة، نظرا لانفرادها بهذا التفصيل، فإنه مما يدعو إلى التأمل أنها ليست هى الرواية الوحيدة التى تنفى تهمة الجريمة عن ست الملك، مع اتفاقها فى جوهر الموضوع، وهو أن الحاكم بأمر الله قد ذهب ضحية المؤامرة والجريمة.

ـ ٤ ـ

ذلك أن المقريزى أعظم مؤرخى مصر الإسلامية، بالرغم من كونه يقدم إلينا فى «اتعاظ الحنفاء» ملخص تفاصيل المؤامرة، منسوبة إلى ست الملك، وتفاصيل تنفيذها حسبما تقدم[3] متفقا بذلك مع معظم المؤرخين، يعود

---

(١) تحدث أبو صالح الأرمنى فى تاريخه عن دير القصير، وقد كان يومئذ من أعظم الأديار القبطية الملكية، فذكر لنا عنه ما يأتى: «الدير المعروف بالقصير على قرنة الجبل الشرقى. وهذا الدير يشرف منه على بحر النيل المبارك وطرا (وهى البلدة المعروفة القريبة من حلوان)، أنشأه ارغاديوس الكبير بن تدوس الكبير ملك الروم على قبر معلمه القديس أرسانيوس، وسماه باسمه. وكان أرسانيوس هذا قد هرب منه وتعبد فى برية القديس أبو مقار بوادى هبيب ثم انتقل الى هذا الجبل وتعبد فيه. وعرف هذا الدير بدير القصير، ويعيد له عيد عظيم، ويجتمع إليه خلق كثير، وتحت بيعته على الجبل بيعة أخرى نقرت فى الجبل بالأزميل فيها مذبح، وهو بيد الملكيين، وفيه جماعة من رهبانهم. وفى هذا الدير ثمانية كنائس وعليه حصن دائر. وفيه منظرة وفيه مدافن، وتحته مغائر كثيرة نقرت فى الجبل، وفيها ما يناهز ستة آلاف راهب» (تاريخ أبى صالح ص ٦٢ ـ ٦٦).

وقد صدر مرسوم الحاكم فى رمضان سنة ٤٠٠ هـ، بهدم هذا الدير حسبما تقدم فى موضعه.

(٢) تاريخ الأنطاكى ص ٢٣٣ و ٢٣٤ و ٢٣٨.

(٣) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٩ ب و ٧٠ أ.

بعد ذلك فيقدم إلينا رواية أخرى عن مصرع الحاكم بأمر الله ترمى إلى نفي الاتهام عن ست الملك، ينقله إلينا عن عز الملك المسبحى، مؤرخ الدولة الفاطمية ووزير الحاكم وصديقه. ونص هذه الرواية هو أنه «في المحرم سنة ٤١٥ هـ (١٠٢٤م) قبض على رجل من بنى حسين ثار بالصعيد الأعلى، فاقر بانه قتل الحاكم بأمر الله في جملة أربعة أنفس تفرقوا في البلاد، وأظهر قطعة من جلدة رأس الحاكم وقطعة من الفوطة التي كانت عليه، فقيل له لم قتلته، فقال غيرة لله وللإسلام؛ فقيل له كيف قتلته، فأخرج سكيناً ضرب بها فؤاده فقتل نفسه، وهو يقول هكذا قتلته؛ فقطع رأسه وأنفذ به إلى الحضرة مع ما وجد معه، وهذا هو الصحيح في خبر قتل الحاكم لا ما تحكيه المشارقة في كتبهم من أن أخته قتلته»[1].

وقد كان المسبحى مؤرخا كبيرا ثقة، وكان من عظماء الدولة، ومن معاصرى الحاكم وخاصة جلسائه. والمرجح أنه وقف بنفسه على كثير من التدابير، التي اتخذت عقب اختفاء الحاكم، وسمع من المصادر الوثيقة كثيراً من الأحاديث، التي ذاعت حول مصرعه؛ وليس ثمة شك في روايته للواقعة التي ينقلها إلينا عن ذلك الرجل المقبوض عليه. ولكن هل قال ذلك الرجل حقاً؟ وهل كان حقيقة من قتلة الحاكم بأمر الله؟ هذا ما نشك فيه؛ ومن الصعب أن نعتقد أن رجلا أو رجالا من الكافة، يستطيعون أن يدبروا وأن ينفذوا وحدهم مثل هذه الجريمة الهائلة، في مثل هذا الخفاء والإحكام، واللهم إلا إذا كانوا مأمورين، يعملون لحساب الرؤوس المدبرة ذات القسوة والحول؛ والظاهر أن الرجل المشار إليه كان من الفدائية أو الدعاة الهائمين، وأنه أراد أن يجعل من نفسه بهذه الدعوى بطلا وشهيداً.

والمهم في رواية المسبحى هو أنها تبرئ ست الملك من تبعة الجريمة. وإذن فالرواية تختلف في شأن ست الملك اختلافاً ظاهراً بين الاتهام والنفي، ولكن مما يلفت النظر أنها تتفق جميعاً في أن الحاكم بأمر الله ذهب ضحية الجريمة والمؤامرة، وأنه توفى قتيلا، ولم يسفر البحث عن أى أثر لجثته، ومن الصعب أن يقف المؤرخ عند أحد الرأيين بصورة حاسمة، بيد أننا نستطيع بتمحيص هذه الروايات، أن نستخلص منها ما يحملنا على ترجيح رأى بعينه في شأن المحرض على الجريمة ومرتكبها.

ذلك أن لدينا أربع روايات معاصرة؛ فأبو هلال الصابى والقضاعى يتفقان في اتهام ست الملك، وكونها دبرت المؤامرة وقامت على تنفيذ الجريمة، بمعاونة ابن دواس ورجاله؛ ويتفق المسبحى والأنطاكى في تبرئة ست الملك من تبعة هذه الجريمة، والصابى مؤرخ محقق ثقة؛ وإذا كان قد كتب روايته في المشرق بعيداً عن مصر، فالظاهر أنه تقلها عن نفس المصادر التي نقل عنها معاصره القضاعى؛ وكذلك الأنطاكى فإن روايته عن الحاكم وعن الحوادث المعاصرة من أدق الروايات، وأحفلها، فإذا كان يغفل الإشارة إلى ست الملك فربما كان في إشارته إلى اتهام ابن دواس قرينة غير مباشرة على اتهام ست الملك باعتبارها أقوى شخصية في القصر يومئذ. وأما المسبحى والقضاعى[2]، فقد كان كلاهما في مصر، واتصل كلاهما بشؤون الدولة وحوادث العصر اتصالا وثيقاً؛ وربما كانت رواية المسبحى أقرب إلى التحقيق، لأنه كان معاصراً للحوادث نفسها، وكان وثيق الصلة بالحاكم نفسه وكل شخصيات البلاط يومئذ. ولكن المسبحى كان شيعيا يدين

(١) راجع الخطط ج٤ ص ١٧٤؛ ولم يصل إلينا تاريخ المسبحى وهو تاريخ مصر الكبير، ولكن انتهت إلينا منه شذور كثيرة على يد المؤرخين المتأخرين. وتوجد منه قطعة صغيرة مخطوطة بمكتبة الاسكوريال حسبما نوضح فيما بعد في ترجمة المسبحى.

(٢) توفى المسبحى في سنة ٤٢٠ هـ، والصابى سنة ٤٤٨، والقضاعى سنة ٤٥٤ هـ، ويحيى الأنطاكى سنة ٤٥٨ هـ.

بالدعوة الفاطمية؛ أفلا تسبغ هذه الصفة بعض الريب على روايته؟ ثم ألا يمكن أن تكون هذه الرواية، رواية قصر بغذيها التحفظ والحرص على عدم المساس بشخصيات سامية، كانت ما تزال ذكراها مقرونة بالإجلال؟ والظاهر أن حرص المقريزى على نقل هذه الرواية يرجع أيضاً إلى انتمائه إلى الفاطميين، والعطف على ذكراهم، وميله إلى الأخذ بما يبرئهم. أما القضاعى فقد كتب بعد ذلك بنحو ثلاثين عاما، في عصر تضاءل فيه الحرص على الذكرى، ولم يكن يخشى المؤرخ أن يتمتع فيه بنوع من حرية الرأى والرواية؛ هذا إلى أن القضاعى لم يكن شيعيا بل كان سنياً، وكان فقيها شافعيا ثقة، وبذا كان أبعد عن التأثر بنفوذ القصر الفاطمي.

وعلى ذلك فربما كانت رواية القضاعى أقرب الروايات كلها إلى الصحة، خصوصاً وقد أيدتها رواية معاصرة أخرى، هي رواية الصابى، وأيدها بعد ذلك كثير من الروايات المتأخرة؛ وإذا كنا لا نستطيع أن نقف عند جميع شروحها وتفاصيلها، فقد نستطيع أن نقف عند حقيقة واحدة، هي أن الأميرة ست الملك كانت روح المؤامرة، وكانت هي الرأس المدبر للجريمة، وفي ظروف العصر، وفي تتابع الحوادث كما شرحناها، وفيما انتهت إليه سياسة الحاكم الدموية وفوراته المذهبية المفرقة، ومن إثارة الأحقاد والحفائظ، ودفع الدولة في طريق الدمار والانحلال، وما يزيد هذا الرأى.

\- ٥ -

ولما طويت صفحة الحاكم، واستقر في الأذهان مصرعه، وصفا جو الإرجاف الذى ثار حول اختفائه نوعاً، اتخذت الأهبة لتولية ولده أبى الحسن على؛ وكانت ست الملك قد غدت منذ مصرع أخيها مرجع السلطان والأمر كله في شئون القصر والدولة، وكانت تحرص كل الحرص على كسب الحسين بن دواس، حتى تكلل خطتها بالنجاح النهائي؛ فاستدعته إلى القصر، وأفهمته أنها تعتمد على ولائه وعونه في إقامة الخليفة الجديد، فوعدها بمنتهى الإخلاص والطاعة. ثم أخرجت على بن الحاكم، وألبسته تاج المعز جد أبيه، وهو تاج مرصع بالجواهر النادرة، ووضعت على رأسه مظلة مرصعة، وأركبته فرساً بمركب ذهب، فخرج وبين يديه رئيس الرؤساء الوزير خطير الملك أبو الحسين عمار، ونسيم صاحب السيف، وعدة من الأستاذين المحكنين. فلما برز في فناء القصر، تقدم الحسين ابن دواس فقبل الأرض بين يديه، وحذا حذوه سائر الزعماء والقادة، وضربت البوقات والطبول، وعلا التكبير والتهليل، والخليفة الفتى يسلم يميناً وشمالاً. ثم فتحت أبواب القصر، ودخل الناس جميعاً فسلموا وخدموا، وتمت البيعة. وكتب إلى بلاد الشام والمغرب بوفاة الحاكم، وقيام ولده الظاهر، وطلب إلى الأمراء والعمال، أخذ البيعة على من لديهم من سائر الطبقات[١]. وجلس الظاهر على كرسى الخلافة في يوم عيد النحر (عيد الأضحى) في العاشر من ذى الحجة سنة ٤١١هـ (مارس ١٠٢١م) أعنى بعد مصرع أبيه بستة أسابيع، ولقب بالظاهر لإعزاز دين الله. وكان مولده بالقصر الفاطمي في العاشر من رمضان سنة ٣٩٥هـ، ومن ثم فقد كان في مستهل عامه السابع عشر حينما ولى الملك. وأمه أم ولد تدعى رصد، وقيل بل حرة تدعى آمنة بنت الأمير عبد الله بن المعز، وان ست الملك كانت تبغض آمنة هذه[٢]. وكان الحاكم قد أنجب من الأولاد عدة. ويذكر لنا المقريزى في حوادث سنة ٣٩٤هـ، أنه في التاسع من

(١) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٧١ ب.

(٢) الأنطاكي ١ ص ٢٠٧.

صفر من هذه السنة، ولد للحاكم ولد، سمي بالحارث، وكني بأبي الأشبال، وكان سابع المولود، ثم يذكر لنا بعد ذلك في حوادث سنة٣٩٥هـ، بأنه في يوم الأربعاء العاشر من رمضان، ولد للحاكم ولد ذكر، سماه علياً، وهو الذى تولى الخلافة وتلقب بالظاهر. ومعنى ذلك بأنه إذا كان هذا الولد، وهو أبو الحسن علي، هو آخر من أنجب الحاكم، فيكون عدد أولاده ثمانية[1]، وربما ولد له بعد ذلك أولاد أخر لا تذكر لنا الرواية عنهم شيئاً؛ بيد أن المعروف الذى تذكره لنا الرواية من أولاده، هم أبو الحسن علي وهو الظاهر، وأبو الأشبال الحارث وقد توفى في حياته في ربيع الآخر سنة ٤٠٠هـ[2]، وابنة تسمى ست مصر (سيدة مصر)[3]، وكان أبو الحسن علي (الظاهر) قد حجب مذ ترعرع، مع أمه في قصر عمته ست الملك خوفاً من سطوة أبيه كما قدمنا؛ وكان لعمته عليه أعظم نفوذ وتأثير[4].

وافتتح الظاهر عهده بإقامة مأتم أبيه في يوم الخميس ٢٠ ذى الحجة سنة ٤١١هـ فجلل القصر بالسواد، واستمر البكاء والعويل طول الليل[5]، وأسبغت بذلك على المأساة صفتها الرسمية، واختتمت فترة طويلة من الهمس والإرجاف والريب.

مصر السفلى
(أو أسفل الأرض)
في القرن الرابع الهجري أو العاشر الميلادي

---

(١) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٥٩ ب و ٦٠.
(٢) نهاية الأرب (المخطوط) ج٢٦ ص ٦٠.
(٣) النجوم الزاهرة ج٤ ص ١٩٢.   (٤) الأنطاكى ص ٢٣٥.
(٥) نهاية الأرب (المخطوط) ج٢٦ ص ٦١.

واقوال كثير لا يجوز ذكرها، وكان الحاكم يخرج في اوقات كثيرة من قصره في الليل محمول في محفة على اكتاف اربعة من الفراشين. وامر ان لا تخرج امرأة من بيتها بالجملة لا الى حمام ولا الى غيرها واذا ظفر بامرأة قد خرجت في ليل ام نهار سلمها لمتولى الشرطة ادبها ادبا يقضى بهلاكها، وامر بان لا توكل ملوخيه، وكان يطاع في الظاهر لا في الباطن، وامر بان لا يشرب احد النبيذ وكتب بذلك سجلات الى ساير البلاد وكسرت الاوعية

الصيرفي«ديوان الرسائل». وازدادت أهمية ديوان الانشاء عما كان عليه في عهد الطولونيين والاخشيديين لأن مصر أصبحت مركزا للخلافة الفاطمية التي امتد نفوذها من بلاد المغرب الى بلاد الشام وجزيرة العرب، وصارت في حاجة للقيام بدعاية واسعة لخلفائها مما يتطلب من هذا الديوان جهودا كبيرا. وكان يتولى شئون هذا الديوان كاتب يقال له صاحب ديوان الانشاء، ومن واجباته تسلم المكاتبات الواردة ثم عرضها على الخليفة لبحثها واعتمادها. وكان صاحب الانشاء يتقاضى راتبا شهريا قدره مائة وخمسون دينارا، ويتقاضى كل كاتب من الكتاب الذين يعملو ن تحت ادارته ثلاثين دينارا.

ويلي صاحب الانشاء في الرتبة صاحب القلم الدقيق الذى كانت مهمته تسلم رقاع المظالم من صاحب القلم الدقيق وعرضها على صاحب القلم الجليل الذى يوقع على المظالم ويجالس الخليفة. وكان يتقاضى مائة دينار كل شهر.

وكان صاحب ديوان الانشاء يتولى بعض الاحيان ادارة البريد، فيذكر المقريز ى أن الخليفة الحاكم بأمر الله، قلد الحسين ابن جوهر البريد والانشاء في شوال ٣٨٦هـ، واهتم الفاطميون بالبريد اهتماما كبيرا، وصار أصحابه يعرفون في أيامهم بأصحاب الأخبار. وكانوا يوافونهم بكل ما يصل اليهم من الأحداث، وبذلك لم يعد يخفى عليهم شئ من أمور دولتهم.

وكان الشرطة من النظم الادارية الهامة التى عنى بها الفاطميون وتختص بحفظ النظام

التى فيها النبيذ فى كل مكان، ثم انه اجتاز يوما قفز قدامه كلب فجفل الحمار الذى تحته فامر بقتل كل كلب فى مصر. وذكر ان كلب صاح خارج المدينة صيحة عظيمة فاجتمع اليه كلاب كثير وصعدو الى الجبل الشرقى ومضو، وامر ايضا بقتل الخنازير الذى فى كورة مصر، فقتلوهم جميعهم، وكان فيها خنازير كثير لا سيما فى البشمور، ثم امر لا يضرب ناقوس فى بلاد مصر، وبعد قليل امر بان تقطع الصلبان الذى على قبب الكنايس وان

واستتباب الأمن، ويتولى رئيسها الذى يعرف بصاحب الشرطة تنفيذ أحكام القضاة. وكان حكام الولايات المصرية يقومون بأعمال صاحب الشرطة فى ولاياتهم ويعاونهم جماعة من الجند.

ومما تجدر ملاحظته، أن الشرطة قسمت فى العصر الفاطمى بمصر الى قسمين وهما: الشرطة العليا فى القاهرة، والشرطة السفلى فى مصر(الفسطاط والعسكر). وكان هذا التقسيم متبعا منذ العصر الطولونى، غير أن الشرطة العليا كانت فى مدينة العسكر، والشرطة السفلى كانت فى الفسطاط، فلما تأسست مدينة القاهرة وأصبحت العاصمة، اقتضى ذلك، نقل الشرطة العليا اليها وبقيت الشرطة السفلى فى الفسطاط.

***

(ب) التنظيم الحربى:

كذلك، كان للتنظيم الحربى، نصيب موفور من عناية الفاطميين، فقد رأوا أنهم بحاجة الى جيش قوى، يحمى دولتهم ويساعدهم على امتداد نفوذهم فى أراضى الدولة الاسلامية، كما اهتموا بانشاء أسطول لصد الأعداء الذين يغيرون على دولتهم من ناحية البحر وليكون عونا لقواتهم البرية.

وقد سار الفاطميون فى تحقيق هذه السياسة على ما كان سائدا فى ذلك الوقت، فكونوا

تمحى الصلبان على ايدى الناس، ثم امر ان تشد النصارى الزنار فى اوساطهم ويلبسو على روسهم عمايم سود ويركبو بركاب خشب ولا يركب احد منهم بركاب حديد وان يحملو صلبان طولها شبر، ورجع عمله ذراع ونصف، وان يصبغ اليهود اطراف عمايمهم ويلبسو الزنانير ويعملو كبة خشب شبه راس العجل الذى عبدوه فى البرية، ولا يدخل احد من الذمة حمام مع المسلمين، وافرد لهم حمامات، وجعل على باب حمام

جيوشهم من عدة عناصر، لم يكن بعضها معروفا فى مصر. وكان المعز منذ استقر له الأمر فى البلاد المصرية يعتمد على المغاربة ـ وهم يكونون معظم جيشه، ويشملون عدة طوائف من البربر، نذكر منها: الكتامية والباطلية والمصامدة والجودرية..

ولما ولى العزيز بالله الخلافة، استخدم الأترك والديلم، ثم ظهر عنصرالسودان فى الجيش فى عهد الحاكم بأمر الله، وتضاعف عدده فى خلافة المستنصر بالله حتى بلغ عدد السودانين فى الجيش خمسين ألفا. وظل هذا العنصر يكون فرقة كبير ة فى الجيش الفاطمى حتى زالت الدولة الفاطمية. وقد أدى تعدد العناصر فى الجيش الى قيام التنافس والتشاحن بين طوائف الجند، وليس أدل على ذلك مما حدث فى عهد المستنصر، حيث قام خلاف بين طائفتى الأترك والسودانيين كان له أسوأ الأثر فى حالة مصر الداخلية.

وكان فى الجيش الفاطمى أيضا عناصر أجنبية، وفدت الى مصر مع بعض الذين تقلدوا الوزارة، منها جند الأرمن. وقد أحضرهم بدر الجمالى من بلاد الشام، كما عمل بهرام الأرمنى أثناء توليه الوزارة على استجلاب عدد كبير منهم الى مصر. كذلك أتى الأكراد مع أسد الدين شيركوه وصلاح الدين يوسف بن أيوب فى عهد الخليفة العاضد.

ومن طوائف الجيش فرق من الجند، تنسب الى الخلفاء أو الوزراء، فمن طوائف الخلفاء: الآمرية والحافظية والظافرية والعاضدية.

النصارى صليب خشب، وعلى باب حمام اليهود قرمة خشب، ثم امر ان يحرق الزبيب فاحصى ما احرق منه فى مصر واعمالها والشام فكان ستماية الف ساطره، وكذلك الذى ظفر به بمصر، والعسل كسره وطرحه فى البحر، وان احد التجار خسر جملة مال ثمن عسل وزبيب وانه حاكم [اشتكى] مولانا الحاكم عند قاضى القضاة ابن النعمان وقال له انه وصل الى مصر ببضاعته وهى زبيب وعسل للاكل وعمل الحلاوة وانه اكسر وحرق ورماها

ومن طوائف الوزراء: الوزيرية وتنسب الى الوزير يعقوب بن كلس. وقد سمح له الخليفة العزيز بتكوين حرس خاص به. وهناك طوائف أخرى، ظهرت فى العصر الفاطمى الثانى، منها الجيوشية نسبة الى أمير الجيوش بدر الجمالى، والأفضلية نسبة الى ابنه الأفضل والبرقية وهم جماعة من أهل برقة. وقد أنشاء الوزير طلائع بن رزيك فرقة منهم وجعل ضرغاما مقدمهم.

لم يعمل الفاطميون على اشتراك المصرين فى جيشهم، فيما عدا الاسطول، غير أنه فى أواخر العصر الفاطمى حين أصبحت مصر مهددة من جانب الصليبين، اشترك المصريون فى الدفاع عن بلادهم، فأصبح يتكون الجيش الفاطمى من جند وأمراءمصر يين، فضلا عن الطوائف الفاطمية الأخرى.

اتخذ الفاطميون للجيش أحياء خاصة، فأنزل جوهر الصقلى عساكر المعز- وكانت تتكون من عدة عناصر- فى مواضع بالقاهرة عرفت بالحارات وخصص لكل طائفة حارة، يقيم فيها الجند وأسرهم، وبها دكاكين وأسواق. ويرجع السبب فى اتخاذ أماكن معينة لاقامة الجند الى الرغبة فى وجودهم بالقرب من قصور الخلافة وحمايتها..

ويتألف الجيش الفاطمى من الأمراء وهم القادة و طوائف الجند ويتميز الأمراء بعضهم من بعضهم بعلامات فى الأعياد والمواكب الرسمية بحسب مراتبهم، فالأمراء الكبار يحملون حول أعناقهم أطواق الذهب، ويقود كل منهم ألف جندى . وهناك فريق آخر من الأمراء، يعرفون

بالبحر، فساواهما القاضى فى الجلوس والمحاكمة فالتمس التاجر من الحاكم ماله وقيمة ثمن بضاعته الف دينار، فقال له الحاكم انت جلبت هذه البضاعة لعمل المنكر والا فاحلف انك جلبتها لعمل الحلاوة والاكل وخذ ثمنها، فالتمس التاجر احضار المال قبل ان يحلف فامر الحاكم باحضار المال، فحلف التاجر وتسلم ماله وكتب عليه انه قبضه واستوفاه والتمس ان يكتب له سجل برعايته وحفظه ففعل له ذلك، فلما انفصل الحكم فيما

بأصحاب القضب، يحملون فى أيديهم قضب الفضة وهى رماح فضية، ويقود كل منهم مائة جندى.

وكان الفاطميون لا يألون جهدا فى سبيل تجهيز جيشهم بكل ما يحتاج اليه من أسلحة، فأنشأوا خزانة السلاح. وكانت تحتوى على خوذات وسيوف ورماح وسهام ودروع وأقواس مختلفة الأشكال. وهناك خزائن أخرى تمد الجيش بمعداته منها خزانة الخيام وبها عدة أنواع من خيام الجند، وخزائن لصناعة السروج اللازمة للدواب فى الحرب. ويذكر المقريزى (خطط. جـ٣.ص٣) أن الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمى لما فكر فى الرحيل الى المشرق ومهاجمة بغداد، أعد فى هذه الخزائن سروجا مجوفة ومبطنة بصفائح من قصدير يوضع فيها الماء ليشرب منها الفارس. وكان كل سرج منها، يسع سبعة أرطال ماء.

وقد أظهر الجند الفاطمى مهارة فى استخدام أسلحة الحرب التى شاع استعمالها اذ ذلك كالحراب والسيوف وآلات الحرب الضخمة كالمجانيق التى ترمى الأسوار بالحجارة. كما زود الجيش بفرقة من النفاطين الذين يقومون باعداد القوارير المملوءة بالنفط ورميها على قوات الأعداد لتحول دون تقدمها.

كان هناك دواوين لاعداد الجيش وتجهيزه وتنظيم النفقة عليه، ويعمل فيها موظفون مدنيون وهى : ديوان الجيش وديوان الرواتب، وديوان الاقطاع، ويشرف ديوان الجيش على الجنود

بينهما وقف القاضي بين يدى الحاكم وحياة تحية الخلافة فازداد القاضى عنده جلالة وحمل اليه كرامات عظيمة، وكان يمشى فى الليل فيجد فى بعض الاوقات الشواين يحمو التنانير ليشوو فيها فيرمى بعضهم فى التنانير فيحترقو.

ووجد فى بعض الليالى انسان يقلى لحم فى طاجن فامر بان تقطع يديه وترمى فى الطاجن، فقال له ذلك الرجل: متى تعلم امير المومنين القلى فانما كنا نعرفه شوا [ء] متى صار قلا. فضحك

واعدادهم، ويختص ديوان الرواتب بتسجيل عطاءالجنود وجميع موظفي الدولة. وقد طرأ على العطاء عدة تغيرات فى عهد الدولة الفاطمية. فكان يبلغ عطاءالجندى عشرين دينارا فى كل شهر. أما ديوان الاقطاع، فكان مختصا بما هو مقطع للأجناد، ويتولى اثبات الاقطاعات والأموال التى يدفعها المقطعون لبيت المال. ولم تكن هذه الاقطاعات والأموال التى يدفعها المقطعون لبيت المال من الكثرة كما كانت فى عهد الأيوبين فى مصر.

أما فيما يتعلق بالقوات البحرية، فقد اتخذ الفاطميون مراكزهم لانشاء السفن الحربية فى مدينة مصر(الفسطاط والعسكر) وجزيرة الروضة التى عرفت فى العصر الفاطمى بدار الصناعة [السفن]، والاسكندرية ودمياط.

تنوعت السفن الحربية التي يتكون منها الأسطول فى العصر الفاطمى، فمنها الشوانى(جمع شينى أو شونى) التى تميزت بأبراج للدفاع والهجوم ، واحتوت على اهراء لخزن القمح وصهاريج لخزن الماء العذب. ومن سفن الأسطول أيضا الحراريق (جمع حراقة) وهى من المراكب الحربية الكبيرة المخصصة لمهاجمة سفن العدو بالنفط الذى يرمى بالمجانيق أو السهام. كذلك كان من سفن الأسطول الطرائد(جمع طريدة)، وتستخدم فى نقل الخيول، والشلنديات هى مراكب مسطحة يستعان بها فى حمل العتاد والجند، والحمالات وتستخدم فى حمل الذخيرة.

منه وامر بتخليته. واحضر اليه دفعة انسان صدر فضة خطفه في السوق من يد صاحبه، فلما اوقفوه بين يديه والصدر الفضة معه في يده قال له اريد ان تجرى قدامي وتوريني كيف جريت لما خطفته من يد صاحبه، ففعل ذلك ومضى يجرى ولم يجسر احد يتبعه.

واجتاز بعض الاوقات بشون فيها قرط [علف الحيوانات] وحطب وبوص فامر باحراقها فاحرقت

ويشرف على الأسطول عشرة قواد بحريين ،يختار من بينهم رئيس يعرف بأمير الأسطول. وتحمل كل سفينة حربية عددا من المقاتلة عدا البحارة. وهناك أشخاص معروفون عند ديوان الجهاد بالمقاتلة عدا البحارة. وهناك أشخاص معروفون عند ديوان الجهاد يسمون«لنقباء» ،يقومون بجمع المقاتلة من أنحاء البلاد اذا ما تأهب الأسطول للخروج.

وكان للأسطول ديوان، يعرف بديوان الجهاد، يقوم بالاشراف على بناء السفن وتجهيزها بالمعدات الحربية ودفع مرتبات الرجال العاملين منها. أما عن نفقات الأسطول، فقد خصصت له الحكومة الفاطمية ميزانية ضخمة من مستغلات الاقطاعات المحبوسة. ولم يزل الأسطول محل عناية الفاطميين حتى زال حكمهم من مصر سنة ٥٦٧هـ.

وكان من مظاهر اهتمام الفاطميين بقواتهم البرية والبحرية، الاحتفال بتوديعها عند تأهبها للرحيل لمحاربة الأعداء، فاذا ما خرج الجيش الفاطمى، جلس الخليفة بمنظرة باب الفتوح وعلى الأخص حين تكون الحملة متجهة الى بلاد الشام. وفى هذه المنظرة كان يؤذن لقائد الحملة بالمثول بين يدى الخليفة، فيخلع عليه خلعة مزركشة بالذهب، ثم يأمر الجيش بالمسير.

أما فى حالة خروج الأسطول، فيحضر الخليفة بصحبة الوزير والأعيان الى منظرة المقس، حيث يكون مقدم الأسطول فى انتظاره، وبعد أن يستعرض الخليفة المراكب الحربية، يأذن

وهو راكب ينظر اشتعال النار فيها الى ان احترقت جميعها وضاعت اثمانها على اربابها.

ولقيه في بعض الليالى عشرة رجال مستعدين بالسلاح فسالوه ان يعطيهم مال فقال لهم اقتسمو فرقين وتحاربو قدامى فمن غلب دفعت له المال لانه يستحق ان ياخذ الكرامة ففعلو ذلك وتحاربو حتى مات منهم تسعة وبقى واحد فقال له قد استحقيت الان ان تاخذ الكرامة ورمى له دنانير كتير من كمه فتطاطا لياخذها من الارض فاوم

للمقدم بالمثول بين يديه، فيخلع عليه، ثم يودعه ويبدأ الأسطول في المسير وعند عودة الأسطول مظفرا، يقام احتفال كالذى أقيم عند رحيله، فيحضر الخليفة بصحبه رجال الدولة ليشهد أسطوله الذى أحرز النصر.

٢. الحال الاقتصادية:

اهتم الفاطميون بالزراعة على اعتبار أنها من أهم مصادر الثروة فى مصر، وكانت زراعة القمح تشغل الجزء الأكبر من الأراضى المصرية الخصبة التربة ـ وعلى الأخص أنحاء الدلتا والوجه القبلى ـ لأنه الغذاء ا لرئيسى لأهل البلاد. أما الذرة فلم تكن معروفة فى مصر فى ذلك العهد.

وكان الكتان يزرع فى الأراضى المنخفضة التى تظل مغمورة بالمياة مدة طويلة، لذلك انتشرت زراعته فى الدلتا والفيوم. أما قصب السكر. فقد توسع المصريون فى زراعته فى العصر الفاطمى. ونستدل على ذلك من قول ناصر خسرو الذى زار مصر سنة ٤٤٠هـ «وتنتج مصر عسلا كثيرا وسكرا».

وكانت مصر تشتهر أيضا بانتاج أنواع مختلفة من الفواكه، من أهمها: الكروم، وتزرع فى نواحى مريوط والجيزة والفيوم وقليوب، وبعض جهات الوجهين القبلى والبحرى. وكذلك كان شجر النخيل مغروسا فى مختلف أنحاء القطر. وقد ذكر الأدفوى (كتاب الطالع السعيد) أنه

الى ركابية كانو معه فوثبو عليه وقتلوه وجمعو تلك الدنانير فعادها الى كمه.

وعمل له فى قصره بحر مرخم يستقا له الما بالساقية ويجرى اليه بقناة وعلى خارج البحر حصير رخام وجعل عليه ساير الاطيار وامر بان يجعل فى الحايط سهم [سقاله] خشب رقيق بارز ويكون طرفه خارج منها الى البحر، والرخام معتدل مع حافته وهو عال جدا فى اعلا الحايط، كما حكى من شاهده، ثم امر منادى ينادى ان من

كان يغرس بالصعيد أشجار النخيل على شاطئ النيل من ا لجانبين الشرقى والغربى، كما قال ان محصول اسنا من التمر، بلغ فى احدى السنوات أربعين ألف أردب. وكانت أسوان أكثر نخيلا من غيرها من جهات الصعيد. وبلغ مجموع محصولها من التمر فى سنة واحدة ستة وثلاثين ألف أردب.

كذلك اهتمت الحكومة الفاطمية بغرس أشجار الغابات حتى يتسنى لها الحصول على الأخشاب اللازمة لبناء أسطولها الحربى ومراكبها التجارية. ومن أشهر مناطق الغابات فى العصر الفاطمى: البهنسا والأشمونين وأسيوط وأخميم وقوص.

وعلى الرغم من اهتمام الفاطميين بالرى والزراعة، فلم يخل عهدهم من أحداث أثرت فى الانتاج الزراعى، فكثيرا ما نقص فيضان النيل عن المستوى العادى اللازم لرى الأراضى كما حدث سنة ٤٥٧هـ، فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى حيث حل بالبلاد المصرية الشدة العظمى التى استمرت سبع سنوات. وكان من مظاهرها اهمال الزراعة وأرتفاع أسعار الحبوب والمواد الغذائية وانتشار الوباء. وقد اقترنت هذه الشدة بقيام الفتن والحروب الأهلية. فلما ولى بدر الجمالى الوزارة سنة ٤٦٦هـ، قضى على المفسدين. ووجه اهتمامه الى اصلاح حال البلاد، فسادت الطأنينة وعاد الفلاحون الى زراعة الأرض. وعنيت الحكومة الفاطمية بالترع والجسور، فزاد خراج مصر فى أيامه الى أكثر من ثلاثة ملايين دينار.

مشى على هذا السهم وقفز فى البحر ووقع فى الما دفع له ستماية درهم، واطمع جماعة بذلك فمن محبة الدرهم مشى عليه جماعة من الناس وقفزو [ظناً منهم أنهم يسقطون فى الماء] فوقعو على البلاط فماتو.

ثم امر ان تكون صلبان النصارى الخشب وزن كل صليب خمسة ارطال مصرى مختوم بخاتم رصاص عليه اسم الملك ويعلقوه فى رقابهم بحبال ليف، وكذلك اليهود تكون عيار الكبه التى فى

- -

بلغ من عناية الفاطميين بالزراعة أن أنشأوا ادارة خاصة تشرف على أمورها، كما قاموا بمشروعات عظيمة الأهمية لتنظيم رى الأراضى، نخص بالذكر منها الخليج الذى أشرف على حفره أبو النجا متولى ديوان جهات الدلتا الشرقية فى عهد وزارة الأفضل ابن بدر الجمالى. وكان هذا الخليج يخرج من النيل لرى الأراضى الواقعة فى شرق فرع دمياط.

وكان الفاطميون يعاملون الفلاحين معاملة تنطوى على التسامح والرعاية، فلم يتركوا تقدير الخراج للمقطعين، بل حددوا مقداره، كما حرصوا منذ امتد نفوذهم الى مصر على عدم انتزاع الأراضى من أيدى أصحابها، فقد جاء فى عهد الأمان الذى أعطاه جوهر للمصريين:«ولكم على أمان الله التام العام، الدائم المتصل، الشامل الكامل، المتجدد المتأكد على الأيام وكرور الأعوام، فى أنفسكم وأموالكم وآهليكم ونعمكم وضياعكم..» أما الأراضى التى تمتلكها الدولة، فأخذوا فى توزيع أجزاء منها على بعض أعوانهم والمختصين بهم، ولكن اذا منحت الأرض لبعض الأفراد مقابل دفع مبلغ معين من المال تصبح اقطاع استغلال. وهذا النوع من الاقطاع كان يعطى للآجناد فى العصر الفاطمى.

وقد أدخل تعديل كبير على الاقطاعات فى عهد وزارة الأفضل ابن بدر الجمالى، ذلك أنه لماشكا صغار المقطعين من قلة دخل اقطاعاتهم على حين زاد المتحصل من اقطاعات الأمراء، أمر الوزير الأفضل بن بدر الجمالى بحل جميع الاقطاعات واعادة توزيعها، ولم يتعرض للأرض

رقابهم خمسة ارطال ومن يوجد منهم بغير ختم يهون به ويغرم الجنايه فحجز [سجن] كثير من النصارى واليهود من روسايهم وادناهم لاجل هذا ولم يصبرو على هذا الهوان والعذاب. وذكر ان النسا المصريات لما منعهم الحاكم الخروج بالنهار عملو مثالات [خيال مآته] نسا من قراطيس [ورق] وخبز فجل [جريد نخل] واوقفوهم له فى طريقه التى يسلكها خارج مصر فى ايديهم رقاع مكتوبة يشتموه فيها ويسبون اخته وكان يامر باخذ الرقاع

المملوكة، بل أبقاها فى أيدى ملاكها. ومن قوله فى هذا الشأن:« ان كل من كان له ملك فهو باق عليه لايدخل فى الاقطاع وهو محكم ان شاء باعه وان شاء أجره». وكان أكثر المقطعين فى ذلك الوقت من الأجناد. وقد سمح لهم الأفضل بن بدر الجمالى بأن يستغلوا اقطاعاتهم مدة ثلاثين سنة، لا يقبل عليها فيها زائد».

وكان المقطع فى أواخر العصر الفاطمى يدفع ضريبة منتظمة عن كل فدان مقدارها ديناران وخمسة قراريط، واذا انقضت مدة الاقطاع، عليه أن يرد الأرض المقطعة كما تسلمها، ولا ينقل شيئا من المنشآت التى أقيمت عليها.

(أ) الصناعة:

استحدثت فى العصر الفاطمى أساليب جديدة فى الصناعة المصرية. وكان مما ساعد على تقدمها استقرار الأمور فى البلاد، فضلا عن حياة الترف والبذخ التى سادت المجتمع فى بعض المدن المصرية وبخاصة القاهرة والفسطاط. وكان لهذه الحياة تأثير كبير فى الانتاج الصناعى، فأصبح عمل المصانع ليس مقصورا على امداد الجيش والأسطول الفاطمى بالسلاح والعتاد الحربى والملابس لطوائف الجند، بل تنوعت المنتجات لسد حاجة الخلفاء والوزراء ورجال الدولة وغيرهم.

وكان من الصناعات التى ازدهرت فى هذا العصر وتنوعت أصنافها: صناعة النسيج، اذ

منهم فيقراها فيجدها على هذه القضية، هذا فعلوه عدة دفعات ولاجل ذلك امر باحراق مصر ونهبها. ولم يكون يتنعم مثل الملوك لكنه كان سايح فى الجبال والبرارى ليلا ونهارا، وسفك فى ايامه دما كثير.

ونعود الان الى تمام ما فعله يونس [يؤنس] الراهب المقدم ذكره من القبايح فى ايام هذا الملك، وذاك انه لما تحقق انه لا يوسم اسقفا مضى

بلغت من الرقى فى مصر بحيث أصبح من اليسير صنع بعض الأقمشة الصوفية، فامتاز بلد القيس بعمل المنسوجات الصوفية الرفيعة كما اشتهرت طحا ـ احدى قرى الصعيد ـ بصناعة الصوف. ويذكر الرحالة ناصر خسرو، أن منسوجات الصعيد الصوفية، كانت تصدر الى بلاد الفرس حيث عرفت هناك باسم «المصرى».

وكانت القاهرة فى عهد الفاطميين مركزا هاما لصناعة المنسوجات الحريرية. وقد أقام المعز لدين الله فيها دار الكسوة، حيث كانت بهذه الدار أيضا كسوة الكعبة والخلع التى يمنحها الخلفاء للوزراء والأفراد والأشراف وكبار رجال الدولة فى عيد الفطر حتى سمى هذا العيد بعيد الحلل. كذلك عمل الفاطميون على النهوض بصناعة النسيج، فأنشأوا عدة مصانع لانتاج الأنواع الفاخرة.. وكانت دار الديباج منذ عهد الأفضل بدر الجمالى تنتج نوعاً من الحرير يعرف الحرير الديباج. كما أن خزانة البنود التى بناها الخليفة الظاهر الفاطمى كان بها ثلاثة آلاف صانع لصنع أفخر أنواع الثياب.

وكان لصناعة المنسوجات الكتانية شأن كبير فى مصر، فى العصر الفاطمى. ومن المراكز الرئيسية لهذه الصناعة: الفيوم وتنيس ودمياط وشطا ودبيق. وينسب الى هذه المدينة الأخير أجود أنواع الأقمشة وهو المسمى بالديقى.

كذلك تقدمت صناعة الزجاج والخزف فى العصر الفاطمى. وكانت الفسطاط من أكبر

الى مصر وكتب رقعة وذكر فيها البطرك بكل سو وخرج الى الجبل ووقف للحاكم [بامر الله] وقال له: انت خليفة الله فى ارضه فعيننى [فساعدنى] لوجه الله. وناوله الرقعة فاخذها منه وكان فيها مكتوب «انت ملك الارض لكن للنصارى ملك لا يرضا بك لكثرة ما قد كنز من الاموال الجزيلة لانه يبيع [وظيفة] الاسقفية بالمال ولا يفعل ما يرضى الله تعالى» وذكره فى الرقعة بقبايح كثيرة مثل هذا. فلما وقف الحاكم على الرقعة امر بان تغلق ابواب

مراكز صناعة الزجاج. ومن البلاد التى اشتهرت بهذه الصناعة أيضا الفيوم والأشمونين والاسكندرية. أما الخزف فقد أشار ناصر خسرو الى أن المصريين كانوا يصنعون أنواعا مختلفة منه وبلغ من انتشار استعماله فى مصر أن البقالين وغيرهم من التجار كانوا يضعون ما يبعونه فى أوان من الخزف بدلا من الورق.

التجارة:

ازداد النشاط التجارى فى الفسطاط والقاهرة حيث يقيم الأعيان وأصحاب الاقطاعات، ويكثر توافد الناس. وكانت الفسطاط من أهم مراكز مصر التجارية لموقعها على النيل وتوسطها بين الوجهين القبلى والبحرى واتصالها بكافة البلاد المصرية عن طريق النيل، وفضلا عن ذلك، فانه كان يخرج منها طرق برية تسير فيها القوافل متجهة نحو الحجاز وبلاد الشام والمغرب.

ولم يؤثر انشاءالقاهرة على مركز الفسطاط التجارى، لأن المدينة الجديدة ظلت أشبه بمعسكر يقيم فيه الجنود والموظفون، كما أن موقعها بالنسبة للنيل كان دون موقع الفسطاط، مما جعل الأسعار فى الفسطاط أقل منها فى حاضرة الخلافة الفاطمية.

وكانت الفسطاط تتمتع برخاء عظيم فى العصر الفاطمى فكثرت بها المتاجر والأسواق، كما كان يأتى اليها كثير من المراكب ويقول ناصر خسرو فى وصفه لها، انه كانت بها

البيع واحضار البطرك، وكان قد شاخ وطعن فى السن، فلما حضر اعتقله تلتة شهور وكان اعتقاله فى اليوم التانى عشر من هتور سنة سبع وعشرين وسبعماية للشهدا، ثم امر بان يطرح للسباع تاكله فلما رمى لها نقل الله طبعها له وحماه منها ومنعها منه وضبطها عنه فلم تاكله، فنقم الحاكم على سايسها وقال له انت تبرطلت من النصارى واطعمت السباع كثير واشبعتها ولم تجوعها، وامر بان تجوع السباع ثانية فاذا اشتد جوعها تذبح شاه

الأسواق التى تباع فيها جميع أنواع السلع كسوق القناديل الزاخر بالتحف النادرة، وبها الخانات ومالا يقل عن عشرين ألف دكان يتراوح ايجار الواحد منها بين دينارين وعشرة دنانير.

ومن مراكز التجارة الداخلية، مدينة دمياط التى تميزت عن غيرها من المدن بازدهار التجارة والصناعة فيها، وأصبحت الميناء المصر ى الوحيد فى الجزء الشرقى من البحر المتوسط.. كذلك كانت مدينة قوص من مراكز التجارة الداخلية، فكثرت بها الأسواق الكبيرة لوقوعها عند نهاية طريق القوافل بين البحر الأحمر والنيل. وكان لأسوان أيضا شأن كبير فى التجارة الداخلية بسبب ورود تجارة النوبة والسودن اليها.

أما عن التجارة، فقد اتسع نطاقها مع البلاد الآسيوية والأوربية، فكانت مصر تستورد الكثير من غلات الهند والصين، كما أن حاجتها من المواد الخام كالخشب والحديد، حملها على استيرادها من بعض الدول الأوربية. وصارت الاسكندر ية من المراكز الر ئيسية للتجارة، فتنتقل منها البضائع الآسيوية اللازمة للصناعة المصرية. ولم تكتف مصر بأن تكون طريقا لمرور الغلات الآسيوية. بل كان لديها ما تصدره الى البلاد الأوربية كالنطرون والشب والمنسوجات على اختلاف أنواعها.

وقد ارتبطت مصر بعلاقات تجارية مع المدن وبخاصة جنوه والبندقية، فأخذت سفن البندقية

ويعرا البطرك ثيابه ويلطخ جسمه بدمها وتطلق السباع عليه، ففعلو به ذلك فلم توذيه بالجملة.

وكان يونس الراهب المذكور يمضي في اكثر اوقاته الى البطرك وهو فى الاعتقال على سبيل الشماتة به، وكان تانى يوم اعتقاله قد امر الحاكم بكتب [بكتابة] سجل الى والي بيت المقدس بان تهدم القيامة، فكتب الكاتب الى الوالى كتاب هذه نسخته «خرج امر الامامة اليك بهدم قمامة،

تنتقل الخشب والحديد الى الموانى المصرية، كما أقدم تجار جنوه على التعامل مع الفاطميين فى النصف الأخير من القرن الحادى عشر، وصارت سفنهم تبحر الى الموانى المصرية. وقد استجاب الخلفاء الفاطميون لرغبة هؤلاء التجارب فى الحصول على أمان لهم ولسفنهم تشجيعا لهم على الاتجار مع بلادهم.

وعلى الرغم من المنازعات السياسية بين مصر والدولة البيزنطية، فان العلاقات التجارية بينهما لم تنقطع، فكان البيزنطيون يستوردون المنسوجات المصرية من مصانع تنيس ودمياط. كما أن مصر كانت تستورد بعض منتجات الدولة البيزنطية وبخاصة الغلال.

أذنت الحكومة الفاطمية فى مصر للتجار الايطاليين وغيرهم من الأوربيين، بانشاء الفنادق الخاصةبهم. وكان لكل جالية أجنبية بالاسكندرية فندق وهو عبارة عن بناء يقيم فيه التجار الأوربيون ويحفظون فيه بضائعهم اما فى داخل المدينة أو فى خارجها. كانوا عادة يختارون أحد أفراد الجالية للاشراف على تنظيم الاقامة فى الفندق.

كذلك أقيمت فى مصر فى ذلك العصر الوكالات، وهى كالفنادق وينزل بها التجار القادمون من بلاد الشرق الاسلامى، فيذكر ابن ميسر فى كتابه تاريخ مصر، أن الوزير المأمون البطائحى، أمر سنة ٥١٦هـ ببناء وكالة بالقاهرة لمن يصل من العراق والشام من التجار.

وكان هناك بجانب هذه المنشآت التى أعدت للتجار أبنية أخرى أطلق عليها اسم القياسر.

فاجعل سمايها ارضا وطولها عرضا». وكان كاتب السجل نصراني نسطورى يعرف بابن شيرين، فلما انفذ السجل الذى كتبه صار المذكور مثل السكران الذى صحا من سكره وفكر فى نفسه فيما قد فعله، وقال: كتبت بيدى بان تهدم القيامة فلماذا لم اصبر على الموت قبل ان افعل هذا، ولماذا لم اصبر عل قطع يدى اليمنى ولا اكتب بذلك، فلو امتعنت من كتبه ما الذى كان يفعله بى اكثر من ضرب العنق وما كنت اريد شهادة اعظم من هذه.

وكانت القيسارية مجموعة من المبانى العامة، وبها حوانيت ومصانع ومخازن ومساكن. وكان فى بعض القياسر مساجد لتجار المسلمين ويعلوها رباع، يقيم فيها الصناع والتجار بأجر. وقد انشئ بمصر فى العصر الفاطمى عدد غير قليل من هذه القياسر.

***

أما عن نظم المعاملات التجارية، فقد شاع فى مصر استعمال الدنانير الذهبية واستمرت الدنانير الذهبية واستمر الدينار فى مصر قاعدة التعامل حتى بعد الفتح الفاطمى، غير أن جوهر القائد، بادر الى سك دنانير جديدة، أطلق عليها المعزية، وأبقى التعامل بالدينار الراضى (نسبة الى الخليفة العباسى الراضى).

ولما عهد المعز لدين اله الفاطمى، فى أوائل سنة ٣٦٣هـ الى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن بالاشراف على الخراج، صار ابن كلس يجبى الخراج بالدينار المعزى، فانحطت بذلك قيمة الدينار الراضى. ومن ذلك يتضح لنا كيف حملت الحكومة الفاطمية أهالى البلاد المصرية على التعامل بنقودها.

ولم تكتف الحكومة الفاطمية بأن يكون الدينار المعزى وحدة للتعامل، فأصدرت دراهم جديدة فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله، وقررت أن يكون كل ثمانية عشر درهما بدينار أو من

وكان يقول هذا ومثله ويردد هذا على قلبه ليلا ونهارا فمن شدة حزنه اعتل ولزم فراش المرض، ويقول: يايدى اليمنى كيف جسرتى وفعلتى هذا الامر الفضيع [الفظيع] انا ايضا افعل بك ما تستحقيه ولا ازال اعذبك. وجعل يرفع يده ويضرب بها الارض ولم يزل كذلك طول ايام علته حتى تقطعت اصابعه ومات.

ومن بعد ايام انفذ الحاكم سجلات الى ساير

المرجح أن ضرب الدراهم الفضية فى ذلك العهد، انما أريد به تيسير التعامل فى السلع القليلة الثمن. وهكذا أصبحت مصر تتعامل بالدنانير الذهبية والدراهم الفضية.

***

٣. مظاهر الحياة الاجتماعية:

اتخذت الحياة بمصر فى العصر الفاطمى مظاهر خاصة، كما تقلبت بين ألوان من البذخ والترف، قل أن نجدها فى عصر آخر من عصر مصر الاسلامية. وقد تجلى بذخ الخلفاء فيما أورده المقريزى (خطط. جـ١ص٤١٦ـ ٤٢٥) عن خزائن الفرش والأمتعة والجوهر والخيم والشراب، كما نستدل أيضا على ترفهم من القصور التى بنوها ليتخذوها مساكن لهم ولأفراد أسرتهم، ومن أشهرها القصر الشرقى الكبير. وقد أسس الخليفة العزيز بالله الفاطمى بهذا القصر قاعة الذهب التى يجتمع فيها مجلس الملك. وكانت مؤثثة بأفخم الأثاث ومزينة بالستور والطنافس الحريرية.

وليس أدل على مظاهر العظمة وأبهة الحياة الاجتماعية عند الخلفاء فى آخر العصر الفاطمى من هذا الوصف الذى كتبه غليوم رئيس أساقفة صور عن زيارة رسولى أمريلك ملك بيت المقدس للقصر الفاطمى فى عهد الخليفة العاضد، ومما جاء فيه: «...وسار السفراء يقودهم

اعمال مملكته بان تهدم البيع وان يحمل ما فيها من الانية الذهب والفضة الى قصره وان يطالب الاساقفة فى كل الاماكن [بالأموال] وان لا يايعو النصارى ولا يشارو [يستشاروا] فى موضع من المواضع، فجحد جماعة منهم اديانهم [اى أسلمو] لاجل هذا، واكثر النصارى المصريين نزعو عنهم الغيار والصليب والزنار والركب الخشب وتشبهو بالمسلمين فلم يكشف [يتعرف] احد عليهم ويظن من يراهم انهم قد اسلمو.

الوزير شاور بنفسه الى قصر له رونق وبهجة، وفيه زخاف أنيقة. وكان هؤلاء المبعوثون متأثرين بما حولهم...، فوجدوا فى هذا القصر حراسا عديدين، وسار الحراس فى طليعة الموكب وسيوفهم مسلولة، وقادوا السفراء فى ممرات طويلة.. ثم وصل الموكب الى فناء مكشوف، تحيط به أروقة ذات أعمدة. وأرضية مرصوفة بأنواع من الرخام متعددة الألوان. وكان وسط الفناء نافورة، يجرى الماء الصافى منها فى أنابيب من الذهب والفضة الى أحواض وقنوات مرصوفة بالرخام.. وفى هذا المكان حل محل الحراس المرافقين للسفراء بعض العظماء من الأمراء المقربين إلى الخليفة.. وبعد أن عبر السفيران أبوابا عديدة، وصلا الى القصر الكبير حيث يقيم الخليفة . وقد فاق هذا القصر كل مارأوه قبل ذلك.. وأدخل المبعوثان فى قاعة واسعة تقسمها ستارة كبيرة من خيوط الذهب والحرير المختلف الألوان. ولم يكن فى هذه القاعة أحد.. ثم ارتفعت الحبال فجأة وانكشفت الستارة الحريرية الذهبية بسرعة البرق. وظهر (السلطان العاضد) لأعين السفراء.. وكان على وجهه نقاب يخفيه تماما، وهو جالس على عرش من الذهب مرصع بالجواهر والأحجار الثمينة.

وكان الوزراء الفاطميون يعيشون أيضا عيشة الترف، فأقام يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله الفاطمى فى قصره مطابخ خاصة له ولأضيافه وأخرى لغلمانه وحاشيته وأتباعه.

كذلك كان الوزير الأفضل بن بدر الجمالى مترفا فى حياته، فاتخذ مسكنه فى دار الملك

وكان شماس اسمه بقيره [الرشيدى] فترك الخدمة فى الديوان الذى كان له وحمل صليبه ومضى الى القصر وصاح على بابه: المسيح ابن الله. فلما سمع الحاكم صوته امر باحضاره واجتهد به ان ينكر دينه ويعترف بالاسلام فلم يفعل، وكان كالصخرة القوية التى لا تضطرب، وكان كلما خاطبه زاد صياحه وقال «المسيح ابن الله» فامر ان يطرح فى حلقه طوق وسلسلة حديد ويرمى فى حبس الدم. وشهد لى انسان ثقة مضى اليه

التى بناها سنة ٥٠١هـ، وجعل فيها محالا لاقامة الأسمطة فى الأعياد، واتخذ فى أحد ابهائها مجلسا، يجلس فيه للعطاء وقد و جد بهذه الدار بعد وفاته مالا يحصى من الأدوات والثياب والبسط والستور المصنوعة من خيوط السجاد.

***

اهتم الخلفاء الفاطميون فى مصربالاحتفال بالأعياد الدينية فى شئ كثير من الأبهة والعظمة، فمنها عيد الفطر وعيد الأضحى ورأس السنة الهجرية، ومولد النبى، ومولد أمير المؤمنين على بن أبى طالب ومولد ولديه الحسن والحسين ومولد السيدة فاطمة الزهراء، ويوم عاشوراء هذا الى مواسم أخرى وهى ليلة أول رجب وليلة نصفه وليلة أول شعبان وليلة نصفه.

وكان ينظم فى ليلة عيد الفطر بالايوان الكبير الذى يواجه مجلس الخليفة سماط ضخم، نثر عليه صنوف الفطائر والحلوى الشهية، فاذا ما انتهى الخليفة من أداء صلاة الفجر، عاد الى مجلسه، وفتحت أبواب القصر والايوان على مصاريعها وهرع الناس من جميع الطبقات الى السماط الخليفى، وتناولوا ما عليه من الطعام بمشهد من الخليفة ووزرائه. وحينما تبزغ الشمس يخرج الخليفة فى موكبه الى الصلاة.

أما عيد الأضحى، فيحتفل فى أول يوم منه بركوب الخليفة الى الصلاة على النحو الذى

ليفتقده في الاعتقال لمودة كانت بينه وبينه فوجده على تلك الحال وهو كانه مشدود الى وتد كبير مضروب في الارض وهو قايم يصلي وبيده دفتر صغير ووجهه الى الشرق يقرى ويصلى مع ثقل ذلك الحديد الذى هو مغلول به، فلما راه ابتهج به كانه في عرس وقال لى هذا الرجل لما افتقدته واردت الانفصال منه قلت له: ماذا توصينى لمنزلك واهلك. قال: امضى اليهم وقول لهم انا بقية اليوم عندكم قبل مغيب الشمس فلا تحزنو.

أتبع في عيد الفطر ، غير أنه يمتاز بخروج الخليفة الى المنحر ثلاث مرات متواليات في أيامه الثلاثة الأولى واشتراكه في اجراءات النحر. وكان الخليفة اذا انقضى اليوم الثالث خلع على وزيره ثوبه الأحمر الذى كان يرتديه يوم العيد.

وكانت تقدم الحلل الى الوزراء وبعض الأمراء والأشراف وغيرهم في عيد الفطر، كما كان هناك مناسبات أخرى، يجود فيها الخلفاء على كبار رجال الدولة بالخلع، كيوم أول رمضان والاحتفال بالجمع الثلاث الأخيرة منه، ووفاء النيل.

كذلك حرص الخلفاء الفاطميون على الاحتفال بليلة مولد النبى، احتفالا باهرا، يليق بمكانته في نفوس المسلمين، بعد أن كان ذلك بدعة في نظر المتمسكين بالعادات الاسلامية. لكن أهل الصلاح والورع من المسلمين رغبة منهم في تكريم النبى، رأوا منذ بداية القرن الرابع الهجرى أن يحتفلوا بمولده. ومن المظاهر الدينية المألوفة في هذا العيد قراءة السيرة النبوية في المساجد.

***

كذلك كثر الاهتمام بالغناء والموسيقى في العصر الفاطمى بمصر، فأقبل وجوه القوم في مجالسهم الخاصة ومآدبهم على سماع المغنين والمغنيات. وكان معظم المغنيات من الجوارى.

وكـان هذا الانســان الذى حـدثنى بهـذا مـهندس
ريس على النشـارين اسمـه مينا، وهو خالى اخو
والدتى، وبصنعته وجد السبيل الى افتقاده بقيره
المذكور، وهو الذى ربانى واقسم لى قايلا: اننى ما
وصلت الى منزلى وقمت متوجه الى منزل بقيره
[الرشيدى] كما قال لى حتى انفذ الحاكم واخرجه
من الاعتقال، وكتب له سجل بان لا يعترض احد
بقيره الرشيدى فى بيع ولا شرى ولا فى امر من
الامور. فلما اخذ السجل نزل الى مصر وطاف

وكانت مجالس الطرب والغناء واللهو تقام على شواطئ الخليج بالقاهرة، فى أوائل عهد الحاكم بأمر الله الفاطمى، ثم قام بتحريم ومنع هذه المجالس تحت دعوى أنها تمثل خطرا على الأخلاق العامة.

على أن هذه المجالس ما لبثت أن عادت الى الظهور بعد وفاة الحاكم، فقد أولع بعض من جاء بعده من الخلفاء بالغناء والموسيقى، فكان الخليفة المستنصر بالله الفاطمى، يميل الى سماع المغنيات. وقد ذكر بعض المؤرخين، أنه كان من مظاهر الاحتفال باستيلاء البساسيرى على بغداد واقامة الخطبة باسم المستنصر على منابرها أن وقفت احدى المغنيات تحت قصر الخليفة، تنشد بعض الأبيات، فأعجب المستنصر بغنائها وأجزل لها العطاء.

وكانت المجالس الاجتماعية، تعقد فى قصور الخلفاء والوزير والأعيان حيث يجتمع العلماء والأدباء للمناظرة والمناقشة، كما كانت المجالس الخاصة، تعقد فى داخل المنازل لسماع النوادر والأحاديث التى تجلى فيها اللباقة العقلية.

٤. الحياة الثقافية:

اهتم الفاطميون منذ استقر سلطانهم فى مصر بالعمل على نشر الثقافة العلمية والأدبية، فضلا عن الثقافة المذهبية التى تتصل بالدعوة الاسماعيلية كالفقه والتفسير. وكان للجامع

على النصـارى الخـايفين وطمنهم وحلف لهم ان بعد ثلثة ايام يزول عنهم كلما هم فيـه من الضر، وكان يبتاع لهم كلما يحتاجوه من خبز وما وطعام وينفذه اليهم مع غلمانه. ففعل هذا تلتة ايام وفى صبـاح اليـوم الرابع خـرج امر الحـاكم بان تبايع النصارى ويشارو كما جرت عادتهم، وكتب سجل بانه من اراد من النصارى يمضى الى بلاد الروم او بلاد الحبشة والنوبة وغيرهم لا يمنعهم احدا. وكانو قبل ذلك ممنوعين منه. ولما بطل بقيـره من الديوان

الأزهر أثر كبير فى النهوض بالحياة الثقافية فى مصر. وقد ظهرت فكرة الدراسة به فى أواخر عهد المعز لدين الله الفاطمى حين قام قاضى القضاة أبو الحسن على بن النعمان المغربى بشرح كتاب«الاقتصار» الذى وضعه أبوه، ويشتمل على مسائل فقهية، استمدها من أئمة أهل البيت، ثم توالت حلقات بنى النعمان فى الأزهر بعد ذلك.

وفى أوائل عهد العزيز بالله، جلس الوزير يعقوب بن كلس بالجامع الأزهر، وقرأ على الناس رسالة الوزيريه، تضمنت ماسمعه فى ذلك من المعز لدين الله وولده العزيز. وكان يفد الى سماعه الفقهاء والقضاة وأكابر رجال الدولة. وصار ابن كلس يعقد مجالسه العلمية تارة بالجامع الأزهر وطورا بداره، ويقرأ فيها مصنفاته على الناس.

على أن الجامع الأزهر مالبث أن فاقت شهرته جميع المساجد الجامعة فى مصر، منذ أن أشار الوزير يعقوب بن كلس ٣٧٨هـ على الخليفة العزيز بتحويله الى جامعة يتلقى فيها الطلاب العلوم النقلية والعقلية وظل الأزهر مركز الفقه الفاطمى الى أن بنى جامع الحاكم بأمر الله، فانتقل اليه الفقهاء لالقاء دروسهم.

كذلك اتخذ الفاطميون من قصورهم مراكز لنشر الثقافة، فألحقوا بها مكتبات وز ودوها بنادر المؤلفات فى مختلف العلوم والفنون حتى تميزت مكتبة القصر التى أنشئت بالقصر الشرقى الكبير على غيرها، من مكتبات العالم الاسلامى بما فى خزائنها من كتب قيمة.

الذى كان فيه افرغ نفسه لافتقاد المحبسين ويحمل ما يحتاجوه اليهم، ويفتقد حبوس الجوالى [القبط] ومن وجد مطلوبا بما لا يقدر عليه ضمنه واخرجه من الاعتقال، ويمضى الى الرورويسا والاغنيا فياخذ منهم ما يقوم به عنمن يضمنه ويخلصه، وتوكل على السيد المسيح بجهده من كل قلبه. وكذلك من عرف انه يعوزه القوت من الاخوة المومنين اعطاهم كفافهم في كل يوم، وفعل افعالا جميلة حسنة كثيرة جدا لم نذكرها

وكان بمكتبة القصر أربعون خزانة كتب فى سائر العلوم، وتحتوى كل خزانة على عدة رفوف، والرفوف مقطعة بحواجز، وفيها من أصناف الكتب ما يزيد على مائة ألف مجلد فى الفقه على سائر المذاهب، والنحو واللغة والحديث والتاريخ وسير الملوك والفلك والكيمياء.

ومن المراكز الثقافة بمصر دار الحكمة التى أسسها الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥هـ، وأطلق عليها هذه التسمية رمزا الى الدعوة الشيعية، لأن مجالس الدعوة كانت تسمى مجالس الحكمة. وقد زود الحاكم هذه الدار بمكتبه عرفت باسم دار العلم. وسمح لسائر الناس على طبقاتهم بالتردد عليها.

اختلفت مناهج التعليم فى دار الحكمة عن مناهج التعليم فى المساجد الفاطمية المعاصره، اذ كانت تغلب عليها الصبغة العلمية بينما كانت تغلب على مناهج المساجد الصبغة الدينية. وكان بين أساتذة دار الحكمة كثير من أساتذه الحساب والمنطق والطب والنجامة، من أمثال ابن يونس المنجم، وأبو على الحسن بن الهيثم، وعلى بن رضوان.

وقد استطاعت دار الحكمة بفضل هؤلاء الأساتذة، وما كان لها من مناهج منوعة جمعت بين الدراسات العلمية والفقهية أن تجتذب كثيرا من أعلام المشرق، من أمثال الرحالة الفارسى ناصر خسرو، والداعى الحسن بن الصباح اللذين وفدا الى مصر فى عهد المستنصر بالله الفاطمى.

واقتصرنا على اليسير منها. ومن اول ما جرى هذا الامر فى تلك الايام لم يفطر فيها نهارا والايام التى يتقرب فيها لا يفطر فيها الى الليل، وهذا كله عرفته منه لمودة كانت بينى وبينه، وفى اكثر الاوقات كنت انام عنده فيحضر لى بعض الكتب اقر فيها بعض الليل ثم انام يسيراً، واما هو فيقف الى الصباح فاذا اصبح مضى الى الشغل الذى يختاره لنفسه، وصار له مثل صنعة وتصرف. وكان

ظلت دار العلم مفتوحة، ينتفع الجمهور بما فيها من الكتب الى سنة ٥١٦هـ، حيث أمر الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى باغلاقها بسبب وصل اليه من أن رجلين يعتنقان عقائد الطائفة المعروفة بالبديعية التى يدين أشياعها بمذاهب السنة الثلاثة وهى الشافعى والحنفى والمالكى يترددان على دار العلم، وأن كثيرين من الناس أصغوا اليهما واعتنقوا هذا المذهب. على أن فترة اغلاق دار العلم لم يطل أمدها، فقد أعادها الخليفة الآمر الى ما كانت عليه بعد وفاة الأفضل.

فقدت مكتبة العصر الفاطمى عددا غير قليل من الكتب القيمة التى كانت بها فى غضون الشدة العظمى التى حلت بمصر فى عهد المستنصر بالله، فاستولى الجند والأمراء على الكثير مما فى خزانة الكتب. وعلى الرغم من ذلك كله، فقد بقى فى خزائن القصر بعض كتب لم تصل اليها يد العبث، واستطاع الفاطميون فيما بعد تعويض بعض ما فقدوه، فجلبوا الى مكتبة القصر كثير ا من الكتب الجديدة، حتى أصبح فى قصر العاضد آخر الخلفاء الفاطميين مكتبة كبيرة.

***

ازدهرت الحركة العلمية والأدبية فى العصر الفاطمى بمصر، بفضل تعضيد الخلفاء الفاطميين وبعض وزرائهم لها. وكان للبيئة العلمية التى شب فيها المعز أثرها فى تنمية مداركه

القمح وجميع الطعام ماسا [شحيحا]، فلما كان يوم من الايام اشترى الخبز وفرقه على عادته على المستورين والفقرا حتى انه لم يبق عنده الا رغيف واحد يفطر عليه، فجعله على المايده [المائدة] وصلى وجلس ليفطر فشكر ومد يده لياكل، فسمع الباب يدق فقال لغلامه ابصر الباب فخرج الغلام فوجد انسان مستور فقال له قل للشيخ بقيره نسيتنى اليوم وما عندى ما افطر عليه، فدخل

سعة اطلاعه وتضلعه فى العلوم الدينية حتى انه كان يحاضر العلماء من النحاة والفقهاء وغيرهم. وقد فتح أبواب قصره للعلماء والطلاب، وأباح لهم جميعا الاطلاع على الكتب المختلفة بمكتبة القصر، وحذا الخلفاء من بعده حذوه، فصاروا يعقدون المجالس تقل فى قيمتها التعليمية عن الدروس التى بالجامع الأزهر أو بدار الحكمة.

وقد أدى مجئ الفاطميين الى مصر بمذهب شيعى له أسس ودعائم تخالف ما كان عليه أهل السنة المسلمين فى مصر الى ظهور فريقين من العلماء، يعمل أولهما على تأييدهم، ويفند الفريق الآخر آراءهم، واستتبع ذلك نشاط علماء الدعوة الفاطمية فى تأليف الكتب. وكان لأبى حنيفة النعمان المغربى وأبنائه وهم جميعا من كبار رجال القضاء والأدب الفضل الأكبر فى نشر الثقافة المذهبية التى تتصل بالدعوة الاسماعيلية.

عاصر أبو حنيفة الفاطميين بالمغرب. وكان مالكى المذهب كسائر أفراد أسرته، ثم تحول الى المذهب الاسماعيلى وقدم الى مصر هو، وأبناؤه فى ركب المعز. ويعد النعمان من أهم دعائم الدعوة الاسماعيلية وله فى الفقه الاسماعيلى عدة مؤلفات منها«دعائم الاسلام فى ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام». ووقد استغل النعمان ميوله المذهبية فى تأليف هذا الكتاب حتى اننا نراه يضيف الى قواعد الاسلام ا لخمس الولاية وهى حب أهل البيت، والطهارة.

الغلام اليه واعلمه ما قاله الرجل فدفع له الرغيف وبات طاويا الى الليل تانى يوم. وكان [هناك] ايضا انسانا جليل القدر فى قومه غنيا جدا وافتقر ونفذ ماله حتى لم يبقا له شيا فاحتاج ولم تدعه الحشمة يبذل وجهه ويتسول لاحد فباع كلما فى بيته حتى لم يبق له الا الثياب التى عليه تستره ولو كان له غيرها يمضى بها الى البيعة لباعها، فما ادرى كيف علم به بقيره الخادم للسيد يسوع المسيح فاخذ عشرة تلاليس فيها عشر ارادب قمح انفذها

كان دعاة الاسماعيلية يرجعون الى كتاب دعائم الاسلام فى أحكامها، ومنهج الوزير يعقوب بن كلس فى كتابه «مصنف الوزير» منهج كتاب الدعائم، وأشاد بذكر هذا الكتاب حميد الدين الكرمانى، داعى الحاكم بأمر لله فى فارس، فى كتابه« راحة العقل»، حتى جعله فى المرتبة التى تلى القرآن والحديث.

وعلى الرغم من تعصب الفاطميين للمذهب الاسماعيلى وتشجيعهم فقهاءه، فقد ظهر فى عهدهم بعض الفقهاء الشافعية والمالكية والحنفية، نخص بالذكر منهم أبا بكرمحمد النعالى المالكى المتوفى سنة ٣٨٠هـ. وكانت حلقته بجامع عمرو بن العاص، تدور على سبعة عشر عمودا، لكثرة من يحضرها. وكان فقهاء المذهب السنى فى مصر يستنكرون تعاليم الفاطميين ولكنهم لا يستطيعون الجهر بذلك.

كان لتشجيع الفاطميين للعلماء والكتاب، أثر فى ظهور طائفة كبيرة منهم فى مصر، ونشاط الحركة الفكرية تبعا لذلك، فاشتهر من المؤرخين فى العصر الفاطمى: أبو الحسن على الشابشتى المتوفى سنة ٣٨٨هـ. وقد اتصل بخدمة الخليفة العزيز، فولاه خزانة كتبه واتخذه من جلسائه وندمائه وله كتاب الديارات، أورد فيه أخبار طريفة عن أديرة العراق والجزيرة والشام ومصر، وما قيل فى كل منها من الأشعار. كما نبغ من المؤرخين فى هذا العصر: الأمير المختار عز الملك. المعروف بالمسبحى الذى ولد بمصر ٣٦٦هـ وتوفى سنة ٤٢٠هـ. كان من جلساء الخليفة الحاكم بأمر الله وخاصته. وتولى فى عهده بعض المناصب الهامة، وشغف بكتابة

اليه مع غلامه فلم يجده فى ذلك الوقت فى منزله فافرغ القمح فى بيته عند زوجته وقال لها: عرفى صاحب البيت وقولى له ان فلان انفذ لك هذه البركة، ومضى الى صاحبه فعرفه ذلك، ولما جا الرجل الى منزله ابصر القمح سال زوجته عنه فاعلمته انها بركة انفذها الرب لنا لنعيش بها، فقال لها من الذى اتى بها، فقالت له من عند بقيره الرشيدى الكاتب، فلما سمع ذلك ضاق صدره وقال حى هو الرب اننى اجلس فى منزلى

التاريخ، وألف فيه عدة كتب منها تاريخه الكبير المسمى «أخبار مصر»، ولايوجد منه الا الجزء الرابع بمكتبة الاسكوريال باسبانيا. وقد نقل عن هذا الكتاب كل من المقريزى وأبى المحاسن.

ومن أعلام المؤرخين: أبو عبد الله القضاعى، الذى ولد بمصر فى أواخر القرن الرابع الهجرى، وتوفى بها سنة ٤٥٤هـ. وكان من أقطاب الحديث والفقه الشافعى. وقد ولى القضاء وغيره من مهام الدولة فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى، وأوفده هذا الخليفة سفيرا الى تيودورا امبراطورة الدولة البيزنطية سنة ٤٤٧هـ، ليحاول عقد صلح بينهما وبين مصر، وله عدة مصنفات فى الفقه والتاريخ، منها:

«مناقب الامام الشافعى وأخباره»، وكتاب فى خطط مصر، سماه:« المختار فى ذكر الخطط والآثار»، يتضمن تاريخ مصر والقاهرة حتى عصره. وكان هذا الكتاب عونا للمقريزى على كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار».

ومن الكتاب المؤرخين الذين ظهروا فى أواخر العصر الفاطمى: أبو القاسم على بن منجب الصيرفى. وقد اشتهر ذكره وعلا شأنه فى البلاغة والشعر، كما برع فى الخط ، وتدرج فى بعض الوظائف حتى ولى ديوان الانشاء للخليفة الآمر بأحكام الله، وظل فيه الى سنة ٤٣٦هـ ومن تصانيفه كتاب «قانون ديوان الرسائل»، والاشارة الى من نال الوزارة الدولة الفاطمية منذ عهد العزيز حتى أيامه. وتوفى ابن الصيرفى فى عهد الخليفة الحافظ.

الى ان يقبض الله روحى ولا اخذ صدقة من واحد ولا افضح نفسيي، وبدا يبكي ويلطم وجهه، فقالت له زوجته المومنه قد رزقنا الله قوتنا اليوم فقم الان اغسل وجهك ويديك ورجليك وصلي واسجد الرب واشكر رحمته لك وافطر واذا كان بالغداة رد القمح الى صاحبه، فتسلى بكلامها وطاب قلبه واكل طعامه وتنهد، فلما نام تلك الليلة راى في منامه كان السيد المسيح قايم امامه، فقال له لماذا انت وجع القلب، فقال له يا سيد كيف لا يوجعنى

كذلك نبغ فى العصر الفاطمى بعض العلماء من أمثال: أبى على محمد بن الحسن بن الهيثم. وأصله من البصرة، ثم قدم الى مصر بدعوة من الخليفة الحاكم بأمر الله لما بلغه أن له نظرية هامة فى توزيع مياه النيل. وكان ابن الهيثم مصدر حركة فلسفية كبيرة، وخاصة فى الطبيعيات والرياضيات. وقد ألف نحو مائتى كتاب من الرياضه والطبيعة والفلسفة. ولم يزل مكبا على التأليف حتى توفى سنة ٤٣٠هـ.

واشتهر من الأطباء والفلاسفة: أبو الحسن على بن رضوان وهو مصرى المولد من الجيزة. وقد نشأ فقيرا معدما، وأصبح بفضل جده واجتهاده رئيس الأطباء فى البلاط الفاطمى. وتدل الكتب التى ألفها فى الطب على سعة فكره واطلاعه، كما أن له كتبا فى الفلسفة والمنطق، وغيرهما من علوم الحكمة. وكان على بن رضوان مجددا فى صناعته، فلم يعمد فى مؤلفاته الى نقل وشرح كتب من كان قبله من الأطباء، بل كانت له ناحية خصبة من التفكير والابتكار، وظل طيلة حياته فى كفاح وعمل متصل الى أن توفى حوالى سنة ٤٦٠هـ فى خلافة المستنصر بالله الفاطمى.

وصفوة القول، أن الحركة العلمية فى العصر الفاطمى، سارت بخطى واسعة نحو التقدم والارتقاء، وتميزت بنشاطها، فكان بمصر طائفة من علماء الدعوة الفاطمية والمؤرخين والفلاسفة والأدباء، أسهموا ا فى النهضة الثقافية التى تجلت فى ذلك العصر.

قلبى وانا من بعد ذاك الغنى والرحمة التى كانت لى ولابالى [لآبائى] قد انتهى بى الامر الى هذا الفقر حتى صرت اتصدق، والاصلح لى ان اموت بالجوع افضل من هذا، فقال له لا تحزن فان هذا القمح ما هو لاحد بل هو لى وانا انفذته لك على يد وكيلى، قال له يا سيدى ما جانى لك وكيل بل بقيره الرشيدى انفذه الى، فقال له الرب كانك ما علمت الى الان ان بقيره وكيلى؛ فلما سمع هذا

خامسا: مصر فى عصر الأيوبيين والمماليك

١. مصر فى عصر الأيوبيين

تمهيد:

يستطيع المدقق فى تاريخ مصر فى العصور الوسطى الممتد فى الفترة الزمنية الواقعة بين الغزو العربى لمصر سنة ٢١هـ(٦٤١م)والغزو العثمانى لها سنة ٩٢٣هـ(١٥١٧م)أن يقسم هذا التاريخ الى ثلاث حلقات، لكل حلقة منها طابعها المميز، مع وجود صلات قوية تربط بينها جميعا، وفقا لمبدأ استمراية التاريخ.

أما هذه الحلقات فأولاها عصر الولاة والطولونيين والاخشيديين. ويتميزا هذا العصر بمحاولات تعريب مصر فضلا عن تبعية مصر فى صورة أو أخرى للخلافة الاسلامية فى المدينة المنورة أو فى دمشق أو فى بغداد. واذا كان عصر الولاة قد انتهى باستقلال بعضهم عن الخلافة، مما أدى الى تعاقب دولتين مستقلتين فى حكم مصر، هما دولتا الطولونيين ثم الاخشيديين ـ فان هاتين الدولتين ربطتهما فى صورة أخرى علاقات وروابط بالخلافة العباسية. كل ما فى الأمر هو أن هذه العلاقات والروابط ربما ظهرت على السطح حينا، أو اختفت وتحولت الى قطيعة وعداء أحيانا، ولكن الباحث المدقق يشعر دائما بأن هناك خيوطا ظلت

استيقظ واعلم زوجته بالمنام وطاب قلبهما بان لا يعيدا القمح بل يعيشان به.

واما انبا زخارياس فانه اقام معتقل تلتة شهور وهم يخوفوه فى كل يوم بحريق النار والرمى للسباع ان لم يدخل فى دين الاسلام، ويقولو له ان اجبت الى ذلك نلت مجدا عظيما ويجعلك الحاكم قاضى القضاة وهو لا يلتفت اليهم ولا يلوى عليهم، وكان معه فى الاعتقال انسان مسلم شرير فقال له: يا شيخ السو ما تسلم حتى يخلوك

تربط مصر بالخلافة العباسية فى زمن هاتين الدولتين، كالدعاء للخليفة فى خطبة الجمعة، وضرب السكة باسمه، وارسال مبالغ من المال سنويا الى حاضرة الخلافة. هذا الى أن مؤسسى الدولتين الطولونية والاخشيدية ـ وليا حكم مصر بوصفهما واليين عينهما الخليفة العباسى لينوبا عنه فى حكم البلاد. واذا كان كل منهما قد استقل عن سيده ليكون بيتا حاكما قصير العمر، فان صفة التبعية ـ ولو اسميا ـ ظلت تربط أصول كل بيت بالخلافة العباسية فى بغداد، فضلا عن أن هذا الاستقلال لم يكن تاما فى غالب الأحيان[١].

أما الحلقة الثانية فى تاريخ مصر فى العصور الوسطى، فتتمثل فى الدولة الفاطمية، وفيها يشعر المؤرخ بأن مصر غدت لأول مرة منذ الغزو العربى مستقلة تماما عن أية سلطة خارجية وأنها صارت مقرا لخلافة جديدة قائمة بذاتها، لها طابعها الخاص المميز، تدين بالمذهب الشيعى، وتتخذ من مصر بموقعها وثروتها قاعدة لنشر هذا المذهب شرقا وغربا. ومن أجل تنفيذ هذه السياسة أضفى الفاطميون على الحياة الاجتماعية فى البلاد ثوبا زاهيا براقا، يحبب الناس فى حكمهم ومذهبهم. وأقاموا مؤسسات عديدة ـ دينية وعلمية ـ لتدريب الدعاة

(١) انظر: ابن الداية: سيرة ابن طولون، ص٢١ ـ ٢٤، ٦٨ـ ٦٩ (برلين ١٨٩٤م) البلوى: سيرة ابن طولون، ص٣٠٤ ـ ٣٠٥ (دمشق ١٣٥٨هـ)، الكندى: كتاب الولاة والقضاة،ص ٢٤٨ وما بعدها (بيروت، ١٩٠٨). ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ص ٦ وما بعدها، ص ٢٣٦ وما بعدها.

وتنال منهم الكرامة الكبيرة، فقال له البطرك: اعتمادى على الله الذى له القدرة وهو يعيننى، فلما تم الخطاب دخل اليه احد الاتراك فضربه على فاه بدبوس فقال له البطرك: اما الجسد فلكم عليه السلطان تهلكوه كما تريدو واما النفس فانها بيد الرب، وكان رجلا من العرب مقدم القريتين اسمه ماض ابن مقرب وهو مقدم جماعته، وكان جليل عند الحاكم وكان قد استقر معه ان يقضى له كل يوم حاجة اى شى كانت، وكان له صديق نصرانى

الشيعة وتلقين الناس أصول مذهبهم. وجاء هذا النشاط على حساب المذهب السنى وعلمائه ومؤسساته. ومهما يقل من أن الأمان الذى كتبه القائد جوهر الصقلى لأهل مصر تضمن مبدأ الحرية المذهبية لأهل البلاد، ومن أن المذهب الشيعى لم يصادف قبولا من عامة أهل مصر، فان العبرة هنا بالطابع العام للحكومة وسياستها، والسلطة وطابعها. وقد أشار الأدفوى وابن حجر والعينى والمقريزى وغيرهم، الى أن بعض مظاهر التشيع ظلت باقية بمصر حتى القرنين الثامن والتاسع للهجرة ـ الرابع عشر والخامس عشر الميلادى ـ مما ترجع أصوله حتما الى العصر الفاطمى[1] ولا شك فى أن هذا كله يعطى انطباعا بأن ثمة تغييرا ـ ولو من النوع السطحى الباهت الخفيف ـ ألم بصورة مصر فى العصر الفاطمى.

وربما ازدادت صورة هذا التغيير وضوحا فى ضوء العداء الدفين الذى ظهر فى ذلك العصر بين خلافتى القاهرة وبغداد، وهو العداء الذى اتخذ شكل صدام مسلح بينهما على أرض الشام حينا، وشكل مؤامرات مستترة يديرها كل طرف للآخر أحيانا.

كذلك زاد من روح التغيير فى تلك المرحلة أن مصر فى العصر الفاطمى ارتبطت بالمغرب

(١) انظر: ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٣ص ١٣٠، ترجمة على بن المظفر الاسكندارنى، العينى: عقد الجمان: سنة ٦٥٩هـ، المقريزى: كتاب السلوك ج١ص ٤٤٠. وكذلك: الأدفوى:الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، ص ٣٤١ (القاهرة ١٩٦٦).

عامل قد انكسر عليه للديوان ثلثة الف دينار ولم يكن له حال يقوم بها فاعتقل عند الاب البطرك انبا زخارياس، فلما بلغ ماضى [مقدم] القرى خبره اتاه ليعلم خبره على الحقيقة، وقال: لماذا اعتقلوك؟ فقال: بقي للديوان عند ثلثة دينار وما معى شى اقوم به. فقال له: انا اجعل اليوم حاجتى عند الحاكم خلاصك. فقال له ذلك الرجل النصرانى الدين: ما اقدر اخرج واخلى هذا الاب الشيخ البطرك. قال له ماضى [ابن مقرب] ما جريرة هذا

أكثر من ارتباطها بالمشرق، وذلك بحكم أن الدولة الفاطمية ذاتها ولدت على أرض المغرب. ومن المغرب ـ وبمساعدة بعض قبائله مثل كتامة وزويلة ـ نجح الفاطميون فى فتح مصر وارساء قواعد حكمهم فيها، مما جعل الخيط متصلا بين مصر والمغرب، فى الوقت الذى ظهر العداء واضحا بين حكام مصر وخلافة المشرق الاسلامى، طوال العصر الفاطمى.

أما الحلقة الثالثة والأخيرة من تاريخ مصر فى العصور الوسطى الاسلامية فتشمل عصر الأيوبيين والمماليك. وتمتاز هذه الحلقة بصفات خاصة أكسبت تاريخ مصر فيها طابعا له ملامحه المميزة. ذلك: أن الأمر لايقتصر على استعادة مصر وجهها السنى بسقوط الدولة الفاطمية وقيام دولة بنى أيوب، وانما يتعدى ذلك الى أن ذلك التغيير جاء مصحوبا بتطور واضح فى مكانة مصر السياسة والحضارية فضلا عن وضعها فى العالم الاسلامى وغير الاسلامى. ونحب أن نؤكد هنا على أن هذه التغييرات التى بدأت مع قيام الدولة الأيوبية ظلت فى نمو حتى أواخر دولة سلاطين المماليك، مما يجعل من هاتين الدولتين وحدة متكاملة فى تاريخ مصر فى العصور الوسطى.

ذلك أن الأيوبيين يمثلون فى أصلهم قوة أو ظاهرة أرتبطت أساسا ببعض البيوت الحاكمة ـ أو الاتابكيات ـ التى تفرعت عن دولة سلاطين السلاجقة. وقد أحضر الأيوبيون معهم الى مصر كثيرا من النظم والأوضاع المألوفة عند السلاجقة، وطبقوها فى مصر لأول مرة منذ الغزو

البطرك حتى اعتقلوه؟ [فعرفه السبب] فخاف ماضى [ابنى مقرب] لا يكون الكلام فى امره شيا لا يوافق السلطان فلا يفرج عنه، فقال: انا ادبر فى امر هذا شى وهو ان اجعل حاجتى عنده اليوم السوال فى اطلاق كلمن فى هذه الخزانة [السجن]، فاذا امر بذلك تخلصت انت وهو من حملة المطلقين. ثم خرج ماضى واجتمع بالحاكم وساله فى الجميع فاطلقهم، ولما تخلص البطرك ونزل الى مصر فرحو جماعة النصارى فرحا

العربى لهذه البلاد. فلما انتهى حكم دولة بنى أيوب وقامت دولة سلاطين المماليك، أبقى المماليك على النظم والأوضاع التى طبقها الأيوبيون، مما جعل من حكم الأيوبيين والمماليك وحدة متكاملة ذات طابع خاص فى التاريخ المصرى. وفى ذلك يقول القلقشندى «أعلم أن الدولة الأيوبية لما طرأت على الدولة الفاطمية وخلفتها فى الديار المصرية، خالفتها فى كثير من ترتيب المملكة، وغيرت غالب معالمها، وجرت على ما كانت عليه الدولة الأتابكية فى عهد عماد زنكى بالموصل، ثم ولده الملك العادل نور الدين محمود بالشام»[١] وفى موضع آخر من موسوعته يقول القلقشندى «ذكر ما استقر عليه الحال من ابتداء الدولة التركية(دولة سلاطين المماليك) والى زماننا على رأس الثمانمائة (للهجرة)، مما أكثره مأخوذا من ترتيب الدولة الأيوبية التى هى أصل الدولة التركية»[٢] ويؤكد المؤرخ المقريزى نفس المعنى، فيقول «فلما انقرضوا (الأيوبيون) وقامت دولة الأتراك (المماليك) من بعدهم، أبقوا سائر شعائرهم، واقتدوا بهم فى جميع أحوالهم، وكانوا يفتخرون بالانتماء اليهم»[٣].

ثم ان صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية لم يرث عن سيده نور الدين محمود دولته فى

(١) القلقشندى: صبح الاعشى فى صناعة الانشا، ج٤ ص ٥.
(٢) المصدر السابق، ج٧ ص ١١٩.
(٣) المقريزى: النقود، ص ٦٠(تحقيق الأب انستاس الكرملى).

عظيما واشارو عليه بان يسير الى البرية الى وادى هبيب خوفا ان يكون اطلاقه سهو من الحاكم او يكون نسى انه فى ذلك المكان الذى اطلق [اطلقه] منه ماضى [ابن مقرب مقدم] القرى، فقبل مشورتهم وسار لوقته الى وادى هبيب فاقام فيه تسع سنين لان البيع التى هناك كانت سالمة من الهد، وذلك ان الحاكم كان انفذ امير من مصر وصحبته فعلة ومساحى وطور [حاملى الفؤوس] فى المراكب ليهدمو جميع البيع التى فى البريه،

مصر والشام فحسب، بل أهم من ذلك ورث عنه سياسته فى تجميع القوى الاسلامية فى الشرق الأدنى للنهوض بحركة جهاد كبرى ضد القوى المعادية للاسلام وهذه السياسة نفسها هى التى تمسك بها سلاطين المماليك حتى ان المؤرخ ابن واصل أطلق على المماليك اسم «داوية الاسلام» تشبيها لهم بجماعة الداوية وهم فئة من الفرسان الرهبان أبلوا بلاء حسنا فى الدفاع عن الكيان الصليبى ببلاد الشام، وهكذا ظهرت مصر طوال عصر الأيوبيين والمماليك فى صورة حصن الاسلام الحصين، وقلب المقاومة الاسلامية، وقلعة الصمود فى حركة الجهاد الاسلامى، والمخزن الكبير الذى استمد منه المجاهدون امداداتهم البشرية والمادية فى حروبهم الطويلة، وبخاصة ضد الصليبين والمغول.

ثم أن تحول جهاز الحكم من المذهب الشيعى الى المذهب السنى تيجة لسقوط الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية ، ترتب عليه نشاط واسع فى الحركة الدينية العلمية فأكثر سلاطين الأيوبيين من انشاء المدارس، واقتفى سلاطين المماليك أثرهم فى هذه السياسة. وأدى انتقال الخلافة العباسية الى القاهرة بعد سقوطها على أيدى المغول فى العراق الى أن غدت مصر «محل سكن العلماء ومحط رحال الفضلاء» على قول السيوطى[١]. ولاشك فى أن الحروب الصليبية أدت الى انفتاح الغرب المسيحى على الشرق الاسلامى، فنشطت العلاقات

(١) السيوطى: حسن المحاضرة، ج٢،ص ٩٤ (القاهرة، ١٩٦٨).

فلما وصلو الى ترنوط فقالوا: نحن نخاف من العرب الذين فى هذا الجبل لكثرتهم. وبهذا بطل الله موامرتهم، وبامر ظهر لهم من الله وحفظ جميع كنايس البريه، وذكر ان الشهيد جرجس ظهر لهم وردهم وخوفهم حتى عادو كما هو مكتوب فى رويا يوحنا ابن زبدى، ان الامراة التى ولدت الولد الذكر اسكب التنين خلفها. بحر ما [ماء] فاعطاها الرب النجاة منه الى الموضع الذى قامت فيه. كذلك البيع التى فى هذا الجبل وجدت راحة، كما

الاقتصادية بين جمهوريات ايطاليا التجارية من ناحية ومصر من ناحية أخرى، مما عاد على مصر بثروة طائلة.

وكان أن أدت هذه العوامل مجتمعة الى قيام نهضة كبيرة فى مصر، شملت الآداب والعلوم والفنون، وبلغت أوجها فى عصر سلاطين المماليك.

وثمة ميزة يمتاز بها عصر الأيوبيين والمماليك بين أواخر القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلاد)، وأوائل القرن العاشر الهجرى (السادس عشر للميلاد)، وهى أنه يمثل بالنسبة لمصر فى العصور الوسطى عصرا من عصور القوة والهيبة.

ففى ذلك العصر غدت القاهرة قبلة السفراء والمبعوثين من بلاد الشرق والغرب، من داخل العالم الاسلامى وخارجه. وهؤلاء وفدوا يخطبون ود سلاطين مصر ويطلبون مساعدتهم أو على الأقل مسالمتهم.

ولم يتوقف دور جيوش مصر وأساطيلها فى ذلك العصر عند حد الدفاع عن البلاد وحماية حدودها، وأنما تخطى ذلك الى القضاء على الخطر فى منابعه، فخرجت الحملات من مصر الى آسيا الصغرى واقليم الجزيرة شمالا والى دولة النوبة جنوبا، والى شبه الجزيرة العربية شرقا.. فى حين غزت الأساطيل المصرية قبرس ورودس ـ وقامت بدورها فى تأمين مياه البحرين المتوسط والأحمر.

ان الارض فتحت فاها وابتلعت الما، كذلك كان خلاص هذه البيع من الهيج.

وفي ذلك الزمان ظفر امير تركي براس الاب البشير مارى مرقص الانجيلى، فقيل له ان النصارى يدفعو لك فيها كلما تريده فحمله الى مصر فلما علم بقيره الرشيدى حامل الصليب بذلك اخذ منه الراس بثلثماية دينار، وحمله الى الاب البطرك وهو يوميذ بدير ابو مقار، وكان اكثر الاساقفة مقيم معه

ويشهد التاريخ منذ القدم على أنه ما من عصر من عصور القوة فى التاريخ المصرى الاوحرص حكام مصر على ضم بلاد الشام فى نطاق وحدة مع مصر، بوصف تلك البلاد تمثل الباب الشرقى والرئيسى الذى تسلكه الغزوات الرئيسية التى تهدد دلتا النيل، فبصرف النظر عن الهجمات المحدودة التى تعرضت لها مصر من ناحية الشمال ـ أعنى البحر المتوسط ـ مثل غزوات شعوب البحر والرومان وبعض الحملات الصليبية ثم الحملة الفرنسية فالغزو الانجليزى فى العصور الحديثة، فان طريق الشرق ظل دائما أنجح الطرق أمام الغزاة وأشدها خطرا على مصر وأهلها، وعن هذا الطريق تعرضت مصر لغزوات الهكسوس والفرس واليونانيين فى العصور القديمة، والغزو العربى ثم الصليبى فى العصور الوسطى والغزو العثمانى والانجليزى فى العصور الحديثة.

أما البوابة الغربية، فان طبيعة صحراء الغر ب، وطبيعة الشعوب التى جاورت مصر على حدودها الغربية، جعلت تلك البوابة غير ذات خطر جدى على مصر عبر عصور التار يخ. ولم تتعرض مصر من جانب حدودها الغربية الا لغزوة من جانب الليبيين فى العصور القديمة، وهؤلاء وصفهم قدماء المصريين بأنهم جموع من البدو والرعاة، عديمى المعرفة بشئون الحرب، حركتهم دوافع اقتصادية بحته، مما جعل غزوتهم ضئيلة الأثر والنتائج.

هناك لخوفهم من الاهانة والتعب، وكان اكثر النصارى ايضا يدخلو البرية دفعتين في السنة وهما عيد الغطاس وعيد القيامة الذى هو الفصح، وكانو يشتهو القربان كما يشتهي الطفل اللبن من ثديي امه، وكان على النصارى فى هذه التسع سنين ضيق عظيم وطرد وشتم ولعن من المسلمين ويصقو فى وجوههم، وكان أكثر ذلك بمدينة تنيس واعمالها، واذا جاز نصراني عليهم يشتموه ويقولو له اكسر هذا الصليب وادخل فى الدين

وربما كانت أنجح الغزوات التى تعرضت لها مصر عبر تاريخها الطويل والتى وفدت عن طريق الغرب، هي الغزوة الفاطمية فى العصور الوسطى، ولكن نجاح هذه الغزوة يرجع فى رأينا الى ظروف مصر القلقة واضطراب أحوالها الداخلية فى تلك المرحلة. أما فى العصور الحديثة، فان قوات المحور التى غزت مصر من البوابة الغربية أثناء الحرب العالمية لم تلبث أن تعرضت للكسرة عند العلمين غربي الاسكندرية.

وهكذا، فان احساس حكام مصر فى عصور القوة بأهمية الخطر الذى يمكن أن يهدد البلاد عن طريق الجبهة الشرقية هو الذى جعلهم يحرصون على ضم بلاد الشام، حيث جاءت هذه الظاهرة عبر التاريخ تعبيرا عن قوة مصر. ونستطيع أن نقرر أن وحدة مصر والشام لم تحدث طوال التاريخ المصرى أقوى وأكمل مما حدثت به فى عصر الأيوبيين والمماليك. حقيقة أن نفوذ مصر امتد الى أجزاء من بلاد الشام فى عصور الطولونيين والاخشيديين والفاطميين ولكن هذا الامتداد جاء مبتورا ناقصا بسبب العقبات التى اعترضته من جانب الخلافة العباسية والقوى التى هيمنت عليها فى مرحلة لاحقة كالسلاجقة من ناحية، أو من جانب القوى المستقلة التى ظهرت فى فترات معينة فى بلاد الشام كالحمدانيين والاتابكة من ناحية أخرى.

أما فى العصر الأيوبى المماليكى فقد كان على رأس الدولة سلطان مقره القاهرة، يعبر عن

الواسع، وان نسى نصرانى صليبه ومشى بلا صليب لقى هوان كثير.

واعلمكم عجوبه اخرى اعلمنى بها ابى الجسدانى، وكانت صناعته بنا وكان فيه دين ومحبة، لانى انا البايس ميخاييل [اسقف تنيس] كنت طفلا فى زمان هذا الضيق، فاخذنى معه يوما وهو متوجه الى ضيعة يبنى فيها، وكنت اتعلم منه صنعة النجارة لانه كان بنا ونجار، فوقف باهتا ودق

رأس السلطة فى الدولة، ودان له بالولاء والطاعة ملوك بنى أيوب الذين اقتسموا بلاد الشام تحت رئاسته من جهة، أو نواب السلطنة فى العصر المماليكى من جهة أخرى.

وفى غالب الأحوال كانت قبضة السلطان على أتباعه أو نوابه فى كافة انحاء بلاد الشام ـ من شمالها حتى جنوبها ـ قوية، بمعنى أنه كان سلطان مصر والشام، مما أعطى العصر الأيوبى المماليكى طابعا مميزا فى التاريخ المصرى.

ويمكننا أن نقف على كافة الاعتبارات التى كيفت تاريخ مصر فى عصر الأيوبيين والمماليك، وأكسبته طابعه الخاص المميز باستعراض المسيرة التاريخية لمصر فى ذلك العصر.

١. صلاح الدين وقيام الدولة الأيوبية:

تعرض الوطن الاسلامى فى الشرق الأدنى فى أواخر القرن الحادى عشر للميلاد (الخامس الهجرى) لهزة عنيفة نتيجة لوصول الحملة الصليبية الأولى الى الشام سنة ١٠٩٧(٤٩٠)، وما نجم عن ذلك من تغييرات ونتائج بعيدة المدى فى أوضاع المنطقة من النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ولعل أبرز النتائج السياسية فيما يتعلق بتاريخ مصر بالذات هو سقوط الخلافة الفاطمية وانتقال الحكم فى مصر الى دولة جديدة هى دولة الأيوبيين.

يد على يد، فقلت له: يا ابى عرفنى ما نالك.
فجلس وعيناه تهطل دموعا وقال لى: يا ولدى
اجلس اسمع ما جرى فان لى ثلثة شهور منذ
خرجت من مصر وانزل الله على سهو وعرقل
لسانى لكى لا اعلمكم بذلك الا فى هذه الساعة،
فان الله تعالى انار فهمى واطلق لسانى لا ذكر
ذلك، وهو اننى كنت اعمل بمصر فلحقنى مرض
فخفت ان يشتد بى الوجع وليس عندى من
يخدمنى فخرجت امشى قليلا قليلاً الى الساحل

ذلك أن انتصار الصليبين فى الحملة الصليبية الأولى، ونجاحهم فى تأسيس امارات فى الرها وانطاكية وطرابلس فضلا عن مملكة بيت المقدس الصليبية لم يكن مرده قوة الصليبين بقدر ما كان ضعف المسلمين عندئذ وانحلال أمرهم. فالصليبيون وصلوا الى الشرق الأدنى فى وقت كانت تتنازع الولاء الروحى للمسلمين فى المنطقة خلافتان متداعيتان دب فيهما العطب والوهن، وبدا واضحا ان كلا منهما تعانى آلام الموت التدريجى البطئ، الخلافة العباسية السنية فى بغداد والخلافة الفاطمية الشيعية فى القاهرة. وفى الوقت الذى اشتدت الخصومة المذهبية بين هاتين الخلافتين، كانت سلطنه السلاجقة الكبرى قد انقسمت الى عدة فروع أو سلطنات.

ورغم ان الخلافة العباسية نفسها كانت تحت حماية سلطنة سلاجقة فارس فان هذه السلطنة ـ شأنها شأن زميلاتها ـ أخذت تسير سريعا فى طريق الضعف والانحلال فى الوقت الذى دهم الصليبيون بلاد الشام. اما بلاد الشام نفسها فظلت يتجاذبها النفوذ الفاطمى حينا والنفوذ العباسى أحيانا، حتى امتد اليها سلطان السلاجقة، فصارت البلاد مقسمة الى عدد من الواحدات أو الاتابكيات الصغرى التى عبرت عن الأثر السلجوقى، فضلا عن البيوت العربية التى نجحت فى تكوين امارات مستقلة.

وهكذا غدت بلاد الشام نهبا وميدانا للصراع بين الخلافتين العباسية والفاطمية، وبين السنة

فوجدت مركبا منحدر الى المحلة [الكبرى] فركبت فيه وكان موفرا [موفورا] بالناس وهم فيه مزدحمين جدا وليس فيه نصراني الا اسقف وتلميذه فى مقدم المراكب فى فاره [غرفة] خشب وانا فى وسط الناس مطروح وجع، والناس يزاحموني ويلكموني ويقولون لى: يا كلب يا مرذول يا نصراني تنحا عنا. ويصقو على ويهينوني بكل فن من فنون العذاب وينسبو الى ما يفعلوه من القبيح كذبا، فلما زاد امرهم على رفعت عينى

والشيعة، وبين العرب والترك وبين صغار الأمراء والاتابكة بعضهم وبعض، مما سهل على الصليبين تحقيق مكاسب كبرى سريعة على حساب الجميع[١].

وإذا كانت الخلافة الفاطمية فى مصر قد خدعت فى البداية فى أمر الحركة الصليبية ولم تتبين حقيقة أهدافها ونواياها، الا أن الفاطميين أفاقوا عندما رأوا أن الصليبيين لم يكتفوا بالسيطرة على شمال الشام ـ مثلما كان يفعل الروم أو البيزنطيون فى غزواتهم القريبة السابقة ـ وانهم أوغلوا فى البلاد حتى استولوا على بيت المقدس حيث أحدثوا فى المسلمين مذبحتهم الشهيرة بالحرم الشريف سنة ١٠٩٩م. وعندئذ لم يستطع الفاطميون السكوت، فحشدوا امكانات مصر البشرية، والمادية لمقاومة هذا الخطر الذى بدا فى طبيعته من نوع جديد، غير الأخطار الخارجية التى اعتاد الفاطميون أو اعتاد المصريون أن يواجهوها فى الشام من قبل.

وكان ان خرجت عدة حملات برية من مصر فى نهاية القرن الحادى عشر وأوائل الثانى لميلاد لصد الخطر الصليبى[٢]. ولكن يبدو أن الدولة الفاطمية عندئذ ـ فى خريف عمرها صارت أضعف من أن تنهض بمهمه مواجهة الخطر الصليبى فحلت الهزيمة بالجيوش الفاطمية مرة بعد أخرى، الأمر الذى مكن بلدوين الأول ملك بيت المقدس الصليبى من السيطرة على

(1)Gibb:The Damascus Chronicle of the Grucudes (London.1932).

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، حوادث ٤٩٥ وما بعدها.

الى السما وقلت يا سيدى يسوع المسيح ان لم تظهر لى شى يطيب به قلبى واعلم ان لى فيما نالنى من هولا اجر والا انكرت دينك، الرب يشهد على انه لم يفرغ الفكر من قلبى ولا الكلام من فمى حتى صرت كاننى قد نقلت من هذا العالم وغاب عنى جميعه وكاننى فى عالم اخر وصرت فى موضع عال مضى [مضىء] لا اقدر اصف حسنه وبهجته بلسانى ولا فى هذا العالم شيا مثله ولا يشبهه، ورايت السيد المسيح له المجد فلم افهم

وادى عربة، حتى وصل الى أيلة على البحر الأحمر ثم اخترق شبه جزيرة سيناء وأوغل فى أرض مصر حتى تنيس جنوبى بحيرة المنزلة، حيث مات سنة ١١١٨م ـ (٥١٢هـ)، نتيجة لمرض مفاجئ فعاد أصحابه بجثته بعد أن حنطوها، وألقوا باحشائه فى مكان مازال ينسب اليه قرب مدينة بور سعيد الحالية، يعرف باسم سبخة البردويل وهو التحريف العامى لاسم بلدوين[١].

وعمت مصر فترة من الاضطرابات اشتد فيها التنافس بين الوزراء من ناحية وتلاعب الوزراء بالخلفاء أنفسهم من ناحية أخرى. وقامت حركة كبرى تدعوه الى جهاد الصليبيين. وتزعم هذه الحركة رضوان بن الولخشى الذى ولى منصب الوزارة سنة ١١٣٧م (٥٣١هـ) فأنشأ فى القاهرة ديوانا جديدا أسماه ديوان الجهاد[٢] غير أن هذه الحركة لم يلبث ان كسر شوكتها وأضعف من شأنها النزاع الداخلى حول منصب الوزارة، وهو النزاع الذى اشتد منذ سنة ١١٦٣م.(٥٥٨هـ) بين رجلين هما شاور وضرغام، حتى استعان كل منهما بقوة خارجية لتأييده ضد خصمه، فكان ذلك بدءا لمرحلة جديدة فى تاريخ مصر وتاريخ الشرق الأدنى.

---

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ج٥ص١٧١.
(٢) ابن ميسر: تاريخ مصر، ج٢،ص٨٢.

حقيقة صفته ولم اقدر اميزه من كثرة النور الذى عليه، فقال لى: لما [لماذا] صرت قليل الامانة، هذا هو موضع النصارى الذين يصبرون على التجارب من اجل اسمى فهل طاب قلبك. فمن شدة الوجع والفرح يا ابنى ميخاييل والبهجة التى رايتها صحت قايلا: اشكرك يا رب فقد طاب قلبى. فسمعنى كلمن فى المركب اذ قلت هذا وما كنت كاننى فى مركب، وبعد ذلك قمت من نومى ونظرت المركب والناس وانا بينهم على حالى

- -

ذلك أن تفاقم خطر الصليبيين يوما بعد آخر فى منطقة الشرق الأدنى واتساع نفوذهم من الجزيرة والفرات شمالا الى شبه جزيرة سيناء ومشارف دلتا النيل جنوبا، أحدث رد فعل عنيف فى العالم الاسلامى، الأمر الذى استثار بعض الزعماء ودفعهم الى القيام بحركة واسعة ضد الصليبيين وسرعان ما اكتشف المسلمون أن نجاح حركة الجهاد هذه لايتحقق الا فى ظل جبهة متحدة، توحد بين القوى المبعثرة بين النيل والفرات وتجعل من هذه القوى بنيانا مرصوصا يستطيع الصمود فى وجه الخطر الصليبى. وعلى رأس هذه الحركة برز عماد الدين زنكى أتابك الموصل الذى نجح فى ضم حلب وبذلك حقق جبهة امتدت من شمال العراق الى شمال الشام. وبعد عماد الدين زنكى خلفه ابنه نور الدين محمود الذى نجح فى ضم دمشق سنة ١١٥٤م (٥٤٩هـ) وبذلك صارت الخطوة التالية هى ضم مصر لتمتد الجبهة المتحدة من الفرات الى النيل وتقع مملكته شمالا فى دمشق وجنوبا فى مصر[١].

وكان ذلك فى الوقت الذى اشتد الصراع فى مصر بين شاور وضرغام، فاستعان أولهما

(١) ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق،ص ٣٢٨، ابن الأثير: الكامل، سنة ٥٤٩هـ، ابن واصل: مفرج الكروب فى أخبار بنى ايوب ج١ ص ١٢٨.

Schlumbrger (G) :campagnes du Rois Amaury de Jerusalem en Egypte,P.P.38 58, 101 _ 102, 116. (paris,1906).

وغاب عنى ما رايته، فقال لى الذين فى المركب والك [مالك] ما الذى اصابك انت مجنون بك روح شيطان؟ فقلت: ما بى روح شيطان لكن الله عارف بما نالنى. ثم انى رايت ذلك دفعه ثانية كهيته [كهيئته] والسيد المسيح يقول لى: هل قوى قلبك؟ فصرخت وقلت قولى الاول حتى تعجب كلمن فى المركب، ثم رايته ايضا تالت دفعه فحينيذ قوى قلبى فلما سمعنى الذى فى المركب اقول ذلك القول تلتة دفعات قالو بعضهم لبعض

بنور الدين محمود فى دمشق، واستعان الثانى بالملك عمورى الصليبى فى بيت المقدس. وكان الأخير لايفتأ يتطلع الى مصر وثروتها، بل لقد غزا عمورى مصر فعلا قبل أن يستعين به ضرغام، الأمر الذى نبه نور الدين الى ذلك الخطر وخاصة أن الخلافة الفاطمية باتت على درجة من الضعف لاتقوى معها على الحركة.

وهكذا غدت مصر بين سنتى ١١٦٤م (٥٥٩هـ)، ١١٦٩م (٥٦٤هـ) ميدانا لصراع مرير بين نور الدين والصليبيين. وفى تلك الفترة أرسل نور الدين ثلاث حملات الى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه يعاونه ابن أخيه صلاح الدين، فى حين غزا عمورى مصر على رأس جيوشه الصليبية ثلاث مرات ـ عدا المرة الأولى التى كان قد وصل فيها الى بلبيس سنة ١١٦٣م قبل أن يستنجد به ضرغام(١).

على أن شيركوه لم يلبث أن توفى بعد شهرين، فخلفه ابن أخيه صلاح الدين وزيرا للخليفة الفاطمى من ناحية، وقائدا لقوات نور الدين محمود من ناحية أخرى.ولاشك فى أن الازدواج الوظيفى كان مصدر حرج كبير لصلاح الدين، الذى كان سنيا شافعى المذهب يتبع سيده نور الدين محمود الذى كان بدوره يدين بالتبعية للخلافة العباسية السنية فى بغداد، وفى نفس الوقت كان على صلاح الدين أن يقوم بمهام الوزارة للخليفة الفاطمى الشيعى، رغم ما

(١) ابو شامة: كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين، ج١ص١٧١١، ابن الاثير : التاريخ الباهر،ص١٣٨.

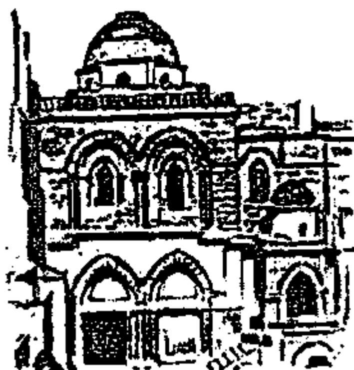
كنيسة القبر المقدس فى القدس

لعله راى مالا يجوز له ان يقوله لنا لكن نمضى به [إلى الاسقف] فمضو بى اليه واعلموه ما كان منى فقبلنى وقوى قلبى ولطف بى قبل ان اقول له ما رايت وما حل بى. وكان يكلمنى بالقبطى واوليك المسلمين لا يعرفو ما يقول لى، فلما فتحت فاى لا حدثه صرت، يشهد الرب على، مثل من ربط لسانه ولم اقدر اقول كلمة واحدة مما رايته فضربت له المطانوه وقلت له: اجعلنى فى حل فما اقدر اقول شيا، ولما وصلت الى البيت اردت ان

كان هناك من عداء دفين بين الطرفين.ويبدو ان أتباع الخلافة الفاطمية فى مصر لم يرضوا عن هذا الوضع فاشعلوا الثورات واحدة بعد أخرى ضد صلاح الدين ورجاله، ولكنه صمد لهم وتغلب على مؤامراتهم وأخمد حركاتهم.

وزاد من حرج موقف صلاح الدين فى تلك المرحلة أن عمورى الأول ملك بيت المقدس الصليبى لم يرض عن النتيجة التى انتهى اليها أمر الصراع حول مصر بينه وبين غريمه نور الدين، فاستعان بالروم أو الأمبراطورية البيزنطية فى القسطنطينية، وقام الطرفان بهجوم مشترك على دمياط سنة ١١٦٩م (٥٦٥هـ) فهاجمها الأسطول البيزنطى بحرا وحاصرها الصليبيون برا. ولكن صلاح الدين صمد لذلك الخطر واستطاعت دمياط أن تقاوم الهجوم والحصار، فى الوقت الذى نفذ تموين الأسطول البيزنطى واشتدت هجمات نور الدين محمود على ممتلكات الصليبيين بالشام، فاضطروا الى رفع الحصار عن دمياط والانسحاب عنها خائبين(١).

ولم تستطع الخلافة الفاطمية أن تعيش طويلا فى ظل الحماية السنية. وعندما أحس نور الدين محمود فى الشام بأن الأمور فى مصر غدت مهيأة للدعوة للخلافة العباسية، شدد على

(١) ابن الاثير: الكامل، حوادث سنة ٥٦٥هـ.

احدثكم انت واخوتك فارتبط لسانى ولم ينطق بذكره الا فى هذه الساعة وانا امشى معه. وقد ذكرت الان هذا العجب لمحبتكم لانه امر من الله وللمومنين بسماعه منفعة وقوة قلب في الامانه، ولست اشك فى قول ابى رحمه الله. وهذه التسع سنين التي كان فيها الادب من الرب منها تلتة سنين لم يقدر احد يعمل فيها ضورون فى بلاد مصر الا فى الديارات فقط، ولم تصبر المومنين الاخيار على البعد من السراير المقدسة وكانو يسالو

صلاح الدين فى القيام بهذا الانقلاب. ويقال ان صلاح الدين كان يخشى اتخاذ هذه الخطوة الخطيرة نظرا لما قد يترتب عليها من نتائج داخلية فضلا عن وضعه هو فى مصر. ولكنه اضطر الى ذلك تحت تأثير الحاح نور الدين محمود، فتم الدعاء فى أول جمعة من عام ٥٦٧هـ (١١٧١م) للخليفة العباسي المستضئ «أمير المؤمنين». يقال ان الخليفة العاضد الفاطمى كان عندئذ مريضا فمات بعد الانقلاب بثلاثة أيام دون أن يسمع خبر زوال دولته وسقوط خلافته. وبعد ذلك أخذ صلاح الدين يعمل بسرعة لمحو آثار الخلافة الفاطمية من مصر، مما يعتبر دون شك نقطة تحول فى تاريخ البلاد[1].

والواقع أن سقوط الخلافة الفاطمية لم يكن مجرد انقلاب عادى، وانما كان حدثا خطيرا فى تاريخ العالم الاسلامى بوجه عام وفى تاريخ مصر بوجه خاص. وفى تلك الأثناء دبت الوحشة بين صلاح الدين ونور الدين بسبب رغبة الأول فى الاستئثار بمصر وتخوفه عندئذ من نوايا سيده نور الدين بعد أن أشيع أنه سيأتى الى مصر بنفسه لاخراج صلاح الدين وأسرته منها. وفى ضوء هذه الحقيقة يفسر بعض المؤرخين الحملة التى أرسلها صلاح الدين بقيادة أخيه شمس الدولة توران شاه الى النوبة لفتحها حتى يأوى اليها بنو أيوب فى حالة اخراجها من مصر. فلما اتضح أن النوبة غير صالحة لاقامة دولة فيها وانها فقيرة «قليلة الجدوى» أرسل

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٥٦٩ (الطبعة الرابعة ١٩٦٨).

الولاة ويبرطلوهم [يرشونهم] بالدنانير الكثير والهدايا حتى يفسحو لهم ان يتقربو فى الليل سرا فى الكنايس المهدومة الشاسعة ويبيتو فيها فى ليالى الاعياد الكبار ليصلو ويتقربو فى الليل، وكانت الكسوه والالات الكنايسية مخبيه [مخبأة] [مخبأة] فى بيوتهم وكانت الكتب [المقدسة] قد احرقت، وبعدها بثلثة سنين اخر بدو يعمرو الكنايس فى البيوت ويكرزونها سرا ويصلون فيها ويتقربون؛ وكان صاحب الترتيب [الشرطة]

صلاح الدين أخاه توران شاه الى اليمن على رأس حملة سنة ١١٧٤م(٥٧٠هـ) فتمكن من فتحها لتصبح تابعة لصلاح الدين[١].

وكان ان ابتسم الحظ لصلاح الدين عندما توفى سيده نور الدين فجأة سنة ١١٧٤م وهو يستعد للقيام بحملته على مصر. وكان صلاح الدين عندئذ مشغولا بمواجهة مؤامرة كبرى، اشترك فى حبك أطرافها جميع العناصر الناقمة على الوضع الجديد فى مصر، سواء بقايا الخلافة الفاطمية وأتباعها، أو الصليبيون وحلفاؤهم النورمان فى جزيرة صقلية، أو الباطنية الاسماعيلية، وهم القوة الهدامة الكبرى بالشام. ورسمت خطة المؤامرة بدقة بالغة، بحيث يبعث الاسماعيلية بعض رجالهم لاغتيال صلاح الدين، وتقوم القوات الصليبية بغزو مصر برا من ناحية الشرق، ويخرج أسطول النورمان من صقيلة لمهاجمة الاسكندرية بحرا، فى الوقت الذى يشعل المتآمرون نار الثورة فى القاهرة والفسطاط.

ولكن شاء حسن حظ صلاح الدين أن يكشف المؤامرة قبيل الشروع فى تنفيذها. فقبض على زعمائها وصلبهم، وعلى رأسهم الشاعر الشيعى عمارة اليمنى[٢]. وتوفى الملك عمورى الأول ملك بيت المقدس الصليبى، فى حين لم ينجح الأسطول النورمانى الذى وصل الى

(١) ابن الاثير: الكامل، حوادث ٥٦٩هـ، ابو شامة: كتاب الروضتين، ج١ف٢ص٥٣٠، ٥٥١-٥٥٥.
(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج١، ص٢٤٤ وما بعدها.

يكتب للسلطان الذى هو الحاكم [بأمر الله] بان النصارى قد بنو بيع بمصر والريف سرا ويتقربو فيها، وهو يتغافل عنهم. وبعد ذلك وقف له جماعة من النصارى الذين اسلمو فقال لهم: ماذا تريدون، قالو له تعيدنا الى ديننا. فقال لكل واحد منهم: اين زنارك وصليبك وغيارك. فاخرجوهم له من تحت ثيابهم فامرهم بلباسهم بين يديه. وانفذ مع كل واحد ركابى يكتب له سجل

حصار الصليبين لطرابلس

الاسكندرية فى غزو المدينة، اذ صمد أهلها وأحرقوا بعض السفن المعادية وأغرقوا البعض الآخر، فاضطر النورمان الى الانسحاب فاشلين. وكان ذلك فى الوقت الذى نجح صلاح الدين فى اخماد ثورة أخرى أشعلها أحد قادة الفاطميين ـ واسمه كنز الدولة الذى جمع حوله بعض العناصر من الشيعة أوهمهم. أنه يملك البلاد ويعيد الدولة العبيدية (الفاطمية) المصرية»[١].

وهكذا جاءت وفاة نور الدين محمود من ناحية، ونجاح صلاح الدين فى التغلب على الأخطار الداخلية والخارجية التى واجهت دولته الناشئة فى مصر من ناحية أخرى، لتفتح صفحة جديدة ارتبطت بتاريخ الدولة الأيوبية فى مصر والشام. التى امتدت من الفرات الى النيل، خاصة أن سيده نور الدين محمود لم يترك الا ابنا صغيرا كان عند وفاة أبيه فى الحادية عشرة من عمره، مما أثار أطماع أمراء نور الدين فى الشام وهدد بانفصال حلب عن دمشق، فى الوقت الذى فرح سيف الدين غازى الثانى أتابك الموصل بوفاة عمه نور الدين محمود وأسرع الى الاحتلال بعض المواقع فى الجزيرة[٢].

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٧٩، المقريزى:كتاب السلوك، ج١، ص٥٧-٥٨.
(٢) ابن واصل: مفرج الكروب،ج٢، ص٩، ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٦٩هـ.

يكون بيده بان لا يعترض، فعادو كثير ممن اسلم الى دينهم.

وكان من جملة من اسلم راهب اسمه بمين [بنيامين] عاد الى دينه وسال الحاكم ان يمكنه من عمارة دير خارج مصر على اسم شهيد المسيح مارى مرقوريس(*)، وهو دير شهران، فبناه وسكنه مع اخوة له رهبان، وكان الحاكم [بأمر الله] يجى الى عندهم دفعات كثيرة ويقيم هناك وياكل من

(*) هناك كنيستان لمارى مرقوريوس حول القاهرة. الاولى وقد خربت عدة مرات ومازال باقيا من آثارها الكنيسة القائمة بين مصر عتيقة

وعندما رأى صلاح الدين فى مصر أن الصليبيين فى الشام هم وحدهم المستفيدون من تلك الفرقة التى دبت بين القوى الاسلامية فى الشرق الأدنى والذى كان هو احد اسباب تفرقها وقيام النزعات فيما بينهما، اعتبر نفسه الوريث الوحيد لسيده نور الدين، لا فى ممتلكاته فحسب، بل أيضا فى سياسته التى استهدفت توحيد قوى المسلمين من ناحية ثم ضرب الصليبين من ناحية أخرى.. وكان ان خرج صلاح الدين الى الشام فى أواخر سنة ١١٧٤، (٥٧٠هـ)حيث دخل فى صراع مرير ضد القوى الاسلامية، فضلا عن القوى الأخرى التى أيدتها مثل الصليبيين والاسماعيلية فى شمال الشام والجزيرة، حتى نجح أخيرا سنة ١١٨٦م (٥٨٢هـ) فى اعادة ضم الشام إلى نفوذه معتمداً فى المقام الأول على موارد مصر الضخمة فى تنفيذ سياسته.

على ان صلاح الدين أدرك أن دخوله فى حرب طويلة المدى ضد الصليبيين سيتطلب منه الاقامة بالشام مكتفيا بالاعتماد على ما تمده به مصر من طاقة بشرية ومادية. ولاشك فى ان اقامة صلاح الدين بالشام من شأنها ان تجعله يتخوف على مصر من أن تدهمها فى غيابه حملة صليبية كبرى. ولم يكن صلاح الدين مبالغا فى مخاوفه هذه، اذ تثبت الشواهد

طعامهم الحقير. وكان كلمن له حاجة عند الحاكم يمضى الى بمين [بنيامين] الراهب يخاطبه عليها وقت حضوره عنده فيقضيها له، فلما علم بمين انه قد صار له عنده قولا مقبول اذكره بحال انبا زخارياس البطرك وساله الاذن في بنا البيع فوعده بذلك، فانفذ احضر البطرك من دير ابو مقار واخفاه عنده في دير مرقوريس بشهران، فلما اتاه الحاكم [بأمر الله] كما جرت العادة اخرج له البطرك فسلم عليه بسلام الملوك وبارك عليه ودعا

والقاهرة وبداخلها كنيسة صغيرة على اسم القديسين يوحنا المعمدان ويعقوب. وفي عام ١٠٨٠م أقام القداس بهذه الكنيسة ٤٧ أسقفاً حضروا من جميع أنحاء مصر بناء على طلب أمير الجيوش لضبط القوانين التي يلزم السير بمقتضاها عند القبط. وفي عام ١١٣١م انتخب فيها البطرك غبريال الثاني (ابن تريك) البطرك رقم سبعين. والذى كان شماسا لهذه الكنيسة.

التاريخية أن الصليبين في بيت المقدس ظلوا يتطلعون الى مصر، وان ثمة اتصالات قوية دارت سنة ١١٧٧م (٥٧٣هـ) بين الصليبيين والبيزنطيين للقيام بمحاولة جديدة لغزو مصر(١). لذلك شرع صلاح الدين قبل الخروج الى بلاد الشام لجهاد الصليبين في القيام بسلسلة من التحصينات القوية لحماية مصر وعاصمتها وثغورها ومراكزها الحيوية ضد أى هجوم صليبى مباغت، وليس من المستبعد أن يكون صلاح الدين الذى نشأ وشب وقضى معظم سنى عمره في بلاد الشام، قد استرعى نظره الفارق الكبير بين الأوضاع الدفاعية للمدن والثغور في بلاد الشام وبين ما كان عليه الوضع في مصر. ففى الوقت الذى كان لكل مدينة كبرى في بلاد الشام قلعتها الحصينة التي تحميها، وأسوارها المنيعة التي تحيطها، اذ بصلاح الدين يجد القاهرة عاصمة البلاد بلا قلعة تذود عنها في حين كان سورها قد «تهتدم أكثره وصار طريقا لايرد داخلا ولاخارجا !!!»(٢).

واذ كان صلاح الدين قد قام بمحاولة لترميم سور القاهرة القديم سنة ١١٧١م (٥٦٧هـ) قبل سقوط الخلافة الفاطمية، الا أنها كانت محاولة محدودة، لأن صلاح الدين كان وزيرا للخليفة الفاطمي من ناحية وتابعا لسيده نور الدين محمود من ناحية أخرى، فلم

(1)Grousset,(R): Histoire des Criosades et du Royaume franc de Jerusalem. II,P.P. 644 _ 645 (Paris,1948 - 3 - 1946).

(٢) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج١ ص٩٢ (طبعة النيل).

له، فقال الحاكم لبمين الراهب: من هذا؟ قال: هو ابونا البطرك انفذت احضرته كما امرت. فاوما باصبعه اليه وسلم عليه، وكان معه جماعة من الاساقفة فقال: من هولا فقال له بمين الراهب: هولا خلفاه في البلاد وهم الاساقفة. فتامله الحاكم وتعجب منه لانه كان حقيرا في العين مهابا في النفس وكان قصير القامة كوسج(*) ذميم الخلقة، وراى الاساقفة الذين معه شيوخ ذوى مناظر حسنة وشخوص بهية وقامات تامة، فقال لهم: هذا

وفى عام ١١٦٨م، التهمتهما النيران أثناء حريق الفسطاط الذى حدث بسبب النزاع بين شاور وضرغام في عهد الخليفة الفاطمى العاضد. أما الكنيسة الثانية فتعرف باسم كنيسة ابن سيفين الصغيرة بحارة زويله. والمقصود هنا هو فى الغالب الكنيسة الاولى.

(*) كوسج: الذى لحيته على ذقنه لاعلى العارضين

يكن منتظرا أن يحمى القاهرة للخلافة الفاطمية التى كان يرمى إلى القضاء عليها. لكن الوضع تغير بعد ذلك عندما غدا صلاح الدين سيد البلاد ولاسلطان لأحد عليه، فقرر بناء سور ضخم من الحجارة يحيط بالقاهرة والفسطاط والعسكر والقطائع للحماية من أى هجوم خارجى، كما قرر بناء قلعة ضخمة على جبل المقطم تكون مركزا للحكم ولحماية القاهرة. وعهد صلاح الدين ببناء السور والقلعة الى الأمير أبى سعيد قراقوش عبد الله الأسدى الملقب ببهاء الدين، فجلبت الأحجار اللازمة للبناء من أهرام الجيزة مما أدى إلى تدمير بعضها، كما ساعدت فى البناء اعداد من أسرى الصليبيين(١).

وقد اكتشف أجزاء من هذا السور الذى بناه صلاح الدين، وهو فى الواقع ثالث الأسوار التى بنيت حول القاهرة، اذ بنى السور الأول جوهر الصقلى وبنى الثانى بدر الدين الجمالى. ولكن السورين الأولين كانا من اللبن، فى حين بنى سور صلاح الدين من الحجارة.

أما قلعة الجبل فتقع على أحد المرتفعات المتصلة بجبل المقطم، وهى فى الأصل كانت معبداً مصرياً قديماً وهى تتألف من مساحتين من الأرض مستقلتين، الشمالية تقترب من شكل المستطيل ولها أبراج بارزة، ويفصلها عن الجنوبية جدار سميك ذو أبراج. وفى وسط الجدار

(١) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام،ص٥١وما بعدها (القاهرة، ١٩٦٩)، نظير حسان سعداوى: التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين،ص٩٢،١٠٣ـ١٠٨.

مقدمكم كلكم؟ قالو له: نعم يا مولانا الرب يثبت ملكك فتعجب وقال لهم: الى اين ينتهى حكمه؟ فقالو له: ينفذ حكمه فى ديار مصر والحبشة والنوبة والخمس مدن الغربية افريقية وغيرها. فازداد تعجبه وقال: كيف يطيعونه هولا كلهم بلا عساكر ولا مال ينفقه فيهم؟ قالو له: بصليب واحد تطيعه هذه القبايل كلهم. قال لهم: وايش هو هذا الصليب؟ قالو له: مثال الذى صلب عليه المسيح فمهما اراد منهم كتب اليهم وجعله بين سطور

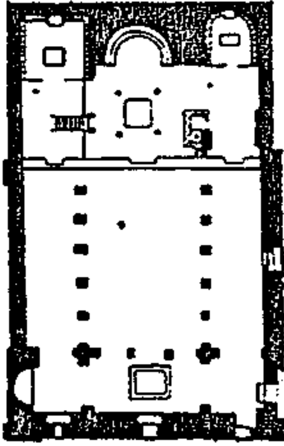

كنيسة القديس سرجيوس بمصر عتيقة.

باب القلعة الذى يعرف الآن باسم الباب الجوانى. والجزء الشمالى من القلعة كان الحصن نفسه، أما الجزء الجنوبى فكان يضم الملحقات والقصور السلطانية، وما يتبعها من اسطبلات وغيرها. ويغلب على الظن أن الجزء الشمالى تم تشييده على أيام صلاح الدين نفسه، فى حين أن الجزء الجنوبى الذى يشمل الملحقات استكمل على عهد السلطان الكامل الأيوبى. وقد سار العمل فى بناء القلعة بهمة كبيرة تشهد على قوة قراقوش وحزمة. وفى الجهة الجنوبية من القلعة كان يوجد البئر القديم للمعبد المصرى الذى أطلق عليه اسم بئر يوسف نسبة الى صلاح الدين يوسف. وعرف هذا البئر باسم الحلزون، ويتألف من طابقين عمق الأول نحو خمسين متراً والآخر نحو أربعين، ولكل طابق منهما ساقية لرفع المياه بواسطة الدواب.وقيل ان ماء البئر كان عذبا فى أول الأمر حتى أراد قراقوش توسيعها فاتصلت بعين مالحة أفسدت ماء البئر الأمر الذى جعل القلعة بعد ذلك تعتمد على النيل فى امدادها بالماء(١).

وثمة قلاع أخرى بناها صلاح الدين فى مختلف أنحاء البلاد أهمها قلعة سيناء قرب عين سدر، وقلعة فرعون فى جزيرة فرعون فى خليج العقبة، والغرض منهما منع الخطر الصليبى من الوصول الى البحر الأحمر. ويروى المؤرخ أبو شامة ان صلاح الدين خرج الى دمياط سنة ١١٧٧م (٥٧٢هـ) وبصحبته ولداه الأفضل على والعزيز عثمان فتفقد تحصينات الميناء، ثم

(١) القلشندى: صبح الأعشى، ج٣،ص٣٧٦ـ ٣٧٧ .

الكتاب موضع علامة الملك ويقول لهم افعلو كذا وكذا والا عليكم الصليب فيطيعو قوله ويفعلو ما يامرهم به بلا عساكر ولا حرب. فقال: بالحقيقة ليس فى العالم دين ثابت مثل دين النصارى هو ذا نحن نسفك الدما وننفق الاموال ونخرج الجيوش وما نطاع وهذا الرجل الشيخ الحقير المنظر الذميم الخلقة تطيعه اهل هذه البلاد كلها بكلمة لا غير. ثم قال له وللاساقفة: اقيمو هاهنا حتى اقضى لكم حوايجكم. وخرج من عندهم وهم مسرورين

نقود صلاح الدين ضربت عام ٥٨٣ هـ فى دمشق

رحل الى الاسكندرية حيث تفقد سورها الدائر حولها وفحص الزيادات التى أمر بانشائها غداة استيلائه على حكم البلاد. كذلك تفقد صلاح الدين الأسطول بالاسكندرية وأمر بعمارته وتجديد سفنه «وما انصرف حتى أمر باتمام الثغر وتعمير الأسطول». وقد حدث سنة ١١٨١م(٥٧٧هـ)ان أغار الصليبيون على تنيس ـ على بحيرة المنزلة ـ فخشى صلاح الدين أن يكون المقصود بتلك الغارة سبر غور المسلمين تمهيد لغزو مصر من ناحية البحر، لذلك أمر بمضاعفة العناية بتحصين دمياط وتنيس «ورتبت المقاتلة على البرجين بدمياط، وجهزت خمسمائة دينار لعمارة سورها والنظر فى السلسلة التى بين البرجين. وعمل تقرير باسم مايحتاج اليه سور تنيس واعادته كما كان فى القديم».

كذلك أمر صلاح الدين فى العام نفسه ببناء برج بالسويس «ورتبت فيه الفرسان»[(١)].

٢ . صلاح الدين والصراع ضد الصليبيين:

وبعد أن اطمأن صلاح الدين الى قوة تحصين مصر غادرها الى الشام فى مايو سنة ١١٨٢م (٥٧٨هـ) ليقوم بحركة جهاد شاملة ضد الصليبين. وكانت هذه آخر مرة يرى فيها صلاح الدين وجه القاهرة، اذ قدر له أن يظل بعد ذلك ببلاد الشام «ولم يعد بعدها الى مصر حتى أدركه الحمام»[(٢)].

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين،ج١، ص ٢٦٨ - ٢٦٩ ، المقريزى كتاب السلوك،ج١، ص ٧٢-٧٤.
(٢) أبو شامة: كتاب الروضتين،ج٢،ص٢٨، المقريزى: كتاب السلوك،ج١ص٧٧.

بما سمعوه منه، ثم ان يونس الراهب، الذى كان رفع على البطرك، عرف مكانهم فجا اليهم مسرعا كالطير، ولما يعلمو به حتى دخل وصار بينهم وقال للبطرك: هوذا قد اعاد الرب لك طقسك واريد ان تجعلنى اسقفا. فقال له البطرك: اذا اراد الرب فانا اجعلك. وكان ابن اخيه الذى هو خايل اسقف سخا حاضر هناك وهو خصم يونس الراهب فخاطبه ايضا بما اغاضه [اغاظه] حتى طلع فوق سور الدير وصاح: انا بالله وبالحاكم انا مظلوم انا

نقود صلاح الدين ضربت عام ٥٨٤ هـ.

ومع أن صلاح الدين اتخذ دمشق مركزاً لعملياته الحربية فى ذلك الدور، الا أنه اعتمد اعتمادا واضحا على موارد مصر واموالها وقوتها البحرية بالذات فى تنفيذ سياسته. ومن ذلك أنه حدث فى العالم السابق أن أرناط الصليبى صاحب الكرك اتجه من أيلة فى عدة سفن فى البحر الأحمر مستهدفا الاغارة على الحرمين الشريفين فى الحجاز وهدم مقام النبى محمد فى المدينة المنورة. وعندئذ أرسل صلاح الدين مسرعا الى أخيه العادل الذى ينوب عنه فى مصر يأمره بمطاردة الصليبيين فى البحر الأحمر والحيلولة بينهم وبين تنفيذ أهدافهم. وكان أن خرج الأسطول المصرى فى البحر الأحمر مطاردا السفن الصليبية، حتى لحق بها عند الحوراء على ساحل الحجاز فى مقابلة المدينة، فظفر المصريون بالصليبيين وأحرقوا سفنهم، ومن نجا منهم من القتل حملوه أسيرا الى مصر حيث تم استعراضهم فى شوارع مصر والقاهرة. هذا وان كان أرناط نفسه قد تمكن من الفرار فى قلة من رجاله(١).

وازاء تلك الاستفزازات من جانب أرناط الذى استغل موقع امارته ليقطع طريق الاتصال البرى بين مصر والشام، ويغير على القوافل الآمنة رغم ما كان بين المسلمين والصليبيين من هدنة، قرر صلاح الدين أن ينصرف بكليته إلى الفرنج. وقد بدأ صلاح الدين بعدة مناوشات

(١) ابن واصل: مفرج، ج٢،ص١٢٧وما بعدها، رحلة ابن جبير، ص ٢٩-٣٠(القاهرة، ١٩٥٥)، أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢،ص٣٥وما بعدها.

مظلوم خذ لى حقى. فخافت الاساقفة وجرى بينهم وبين خاييل الاسقف خصومة عظيمة وقالو له: أنت سبب هذا البلا كله وكلما نالنا من هدم البيع ولباس الغيار والهوان وغيره انت اصله وتريد ايضا تجدد شيا اخر حتى يكون الاخر اشر من الاول. ولم يزالو حتى سكن غضب يونس الراهب والزمو البطرك ان جعله اغومنس والبسه القلنسوة السودا ووعده بجميل. ثم ان الملك الحاكم [بأمر الله] جا اليهم ومعه سجل عظيم بفتح الكنايس

نقود صلاح الدين

ادرك بعدها الصليبيون نوايا صلاح الدين فعبئوا قواتهم ضده، ولكنه نجح فى أن ينزل بهم هزيمة كبرى فى موقعة حطين سنة ١١٨٦م (٥٨٢هـ)، وهى الموقعة التى انتهت بالقضاء على الجيش الصليبى بأكمله بين قتلى وأسرى. وكان من جملة الأسرى جاى لوزجنان ملك مملكة بيت المقدس الصليبية فضلا عن أرناط صاحب حصن الكرك، الذى عوقب على جرائمه ضد المسلمين بالقتل[1]، وسرعان ما تتابعت انتصارات صلاح الدين، فاتجه أولا للاستيلاء على الموانى الساحلية ليحرم الصليبيين من أيه معونة تأتيهم من غرب أوروبا عن طريق البحر. وكان ان استولى على عكا والناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية، فى حين زحف أخوه العادل على رأس الجيش المصرى واستولى على يافا. وفى الوقت الذى استولى الجيش المصرى على حصن تبنين وصرفند وصيدا، واصل صلاح الدين تحركاته على الساحل فاستولى على بيروت وجبيل وعسقلان. وبعد ذلك أدرك صلاح الدين أن دور بيت المقدس قد حل بعد أن حرمها من واجهتها البحرية، فنجح فى الاستيلاء عليها فى اكتوبر سنة ١١٨٧م (٥٨٣هـ).

ثم كان ان اتجه صلاح الدين بعد ذلك الى تقليم أظافر الصليبيين فى شمال الشام. واذا

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية،ص ١٢٥ (القاهرة، ١٩٦٢)، عماد الدين الأصفهانى:، ص ٢٣ (القاهرة، ١٣٢٢هـ).

كلها التى فى مملكته وعمارتها، وان تعاد اليهم الاخشاب والعمد والطوب الماخوذ منها والاراضى والبساتين التى كانت لها فى كل كورة مصر. وكان هدم الكنايس فى سنة سبع ماية سبعة وعشرين للشهدا وفتحت واطلق عمارتها فى سنة سبع ماية وستة وثلثين للشهدا، وفى هذا السجل اعفاهم من لباس الغيار وحمل الصليب وان يضربو النواقيس فى كل الكنايس بكل موضع كما جرت عادتهم، فياله من فرح كان فى ذلك اليوم

نقود الملك العادل وعليها اسم الخليفة العباسى الناصر

كانت مدينة صور قد استعصت عليه بعد أن تجمعت فيها البقايا الصليبية التى تركها صلاح الدين تخرج آمنة من المدن التى استولى عليها، فانه نجح فى الاستيلاء على كثير من المدن والقلاع والحصون التابعة لامارتى طرابلس وانطاكية الصليبيتين مثل هونين وصفد وكوكب وبانياس وجبلة واللاذقية والقصير وبغراس ودربساك حتى غدت امارتا طرابلس وانطاكية «مقصوصتى الجناح» على قول أحد المؤرخين المعاصرين[١].

على أن الانتصارات التى حققها صلاح الدين على الصليبيين استثارت الغرب الأوروبى، فخرجت الحملة الصليبية الثالثة الى الشام. ورغم ما أصاب جيوش المسلمين عندئذ من انهاك، فقد صمد صلاح الدين امام جيوش الصليبيين، ودارت بين الطرفين أحداث ووقائع مثيرة، وانتهت بفشل ريتشارد قلب الأسد فى استرداد مدينة بيت المقدس، فعقد صلح الرملة مع صلاح الدين سنة ١١٩٢م.(٥٨٨هـ)، وبمقتضاه صارت للصليبيين فى فلسطين المنطقة الساحلية من صور الى يافا، وما عدا ذلك بما فيه بيت المقدس ظل بأيدى صلاح الدين. وقد احتفظت دولة الصليبيين باسم مملكة بيت المقدس وان غدا مركزها فى عكا. إما صلاح الدين فلم يلبث أن توفى بعد مرض قصير فى دمشق فى مارس سنة ١١٩٣م(٥٨٩هـ)[٢].

(١) ابو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص١٣٢ـ ١٣٣ .

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٤١٠٠٠٠ .

لجميع النصارى الذى في كورة مصر.

وفي السنة التى كان فيها الخلاص واطلاق العماير فى الكنايس ظهر امرا عجيب وذلك ان الحاكم [بأمر الله] كان يطوف بالجبال [الشرقية = المقطم] التى بظاهر مصر فى الليل والنهار ومعه تلتة ركابية أو ركاب واحد، فلما كان في ليلة من الليالى بلغ الى حلوان ومعه ركابى واحد فنزل عن دابته وقال للركابى عرقب هذا الحمار ففعل ما امر

نقود الملك الكامل وعليها اسم الخليفة العباسي المستنصر

---

٣. مصر في عصر خلفاء صلاح الدين:

ترك صلاح الدين عند وفاته فراغا ضخما، لم يستطع أحد من أبنائه أو أهل بيته أن يملأه فى سهولة. وكان أن انقسمت الدولة الأيوبية الكبيرة فى مصر والشام وأطراف الجزيرة الى ممالك ووحدات سياسية بين أبناء البيت الأيوبي[1]. وعلى رأس هذه الوحدات السياسية التى انقسمت اليها الدولة الأيوبية ظلت مصر تتمتع بمكان الصدارة بحكم ما توافر لها من امكانات بشرية ومادية وحربية فضلا عن اتساع رقعتها. ويفسر هذه المكانة الخاصة التى انفردت بها مصر أن صاحبها اختص بلقب سلطان فى معظم الحالات، دون بقية الوحدات الأيوبية التى لم يحظ أصحابها الا بلقب«ملك». ومعنى ذلك أن صاحب مصر من بنى أيوب كانت له غالبا الزعامة العليا على بقية ملوك البيت الأيوبي. ومهما تكن هذه الزعامة اسمية فى بعض الحالات، فانها تشهد على الدور البارز الذى كان على مصر أن تنهض به فى تلك الفترة المضطربة، بسبب ما قام من منازعات وخلافات وحروب بين أبناء البيت الأيوبى بعضهم وبعض من ناحية، وما قام بينهم وبين الصليبيين الذين ما فتئوا يعملون من حصونهم وقواعدهم ضد المسلمين فى بلاد الشام من ناحية أخرى.

وقد تعاقب فى حكم مصر بعد وفاة صلاح الدين ستة حكام من البيت الأيوبى هم:

(١) ابن الاثر: الكامل، حوادث ٥٨٩هـ، عماد الدين الاصفهاني: الفتح القسي، ص ٣٥٨ وما بعدها.

به، فقال له امضى الى القصر ودعنى انا هاهنا فمضى كما امره، فلما اصبح اهل القصر ولم يجدوه فطلب فى كل موضع فلم يوجد ولا عرف له خبر، وكان له ولد صغير واخت [ست الملك] فضبطت الملك سنتين الى ان كبر ولده الطفل فاجلسوه ملكا واسموه الظاهر لا عزاز دين الله(*) واسمه الذى يعرف به على وكنيته ابو الحسن فلم يتعرض الى شيا من اعمال ابيه، وكان فى ايامه هدو وسلامة عظيمة واقام ستة عشر سنة ملكا،

(*) جلس الظاهر على كرسى الخلافة فى يوم عيد الأضحى فى العاشر من ذى الحجة سنة ٤١١هـ = مارس ١٠٢١م، أى بعد مصرع والده بستة أسابيع،

١ـ العزيز عثمان بن صلاح الدين
(١١٩٣ـ ١١٨٩م=٥٨٩-٥٩٥هـ)
٢ـ الأفضل نور الدين بن صلاح الدين
(١١٩٩ـ١٢٠٠م=٥٩٥-٥٩٦هـ)
٣ـ العادل سيف الدين أبو بكر أخو صلاح الدين
(١٢٠٠ـ١٢٤٨=٥٩٦-٦١٥هـ)
٤ـ الكامل بن العادل
(١٢١٨-١٢٣٨م=٦١٥-٦٣٥هـ)
٥ـ العادل الثانى (الصغير) ابن الكامل
(١٢٣٨-١٢٤٠م=٦٣٥-٦٣٧هـ)
٦ـ الصالح نجم الدين أيوب ابن الكامل
(١٢٤٠-١٢٤٩=٦٣٧-٦٤٧هـ)
٧ـ المعظم توران شاه ابن الصالح أيوب
(١٢٤٩-١٢٥٠م=٦٤٧-٦٤٨م)

الصليبيون يهاجمون القسطنطينية

وكان دين النصارى مستقيم واهله مكرمين، وبنيت البيع فى ايامه حتى اعيدت لما كانت عليه وافضل، ولم يزل البنا فيها والعمارة متصلة الى السنة التى كتبت فيها هذه السيرة وهى سنة سبع ماية سبعة وستين للشهدا، ولم تزل الناس منذ غيبة الحاكم والى انقضى مدة ولده يقولون انه بالحياة وكثير كانو يتزايو بزيه ويقول كل واحد منهم انا الحاكم، ويظهرو للناس فى الجبال حتى ياخذو منهم

وكان عمره وقتذاك سبعة عشر عاماً، وكان لعمته ست الملك نفوذ كبير عليه فجعلته يتبع سياسة متسامحة مع كل المصريين وأصلح من الشئون المالية للبلاد. وهكذا ظلت ست الملك تحكم من خلف ستار الظاهر مدة ثلاث سنوات حتى ماتت سنة ٤١٤هـ= ١٠٢٣م.

وطوال العصر الأيوبى الذى استمر بعد صلاح الدين أكثر من نصف قرن، استمرت مصر تنهض بدورها القيادى فى منطقة الشرق الأدنى، فرغم المنازعات التى دبت بين بنى أيوب بعضهم وبعض فقد بقيت مصر تمثل قلعة الصمود ضد الخطر الصليبى من ناحية، والقبلة التى يتجه اليها أهل الشام وحكامها للخلاص من الأخطار الداخلية والخارجية التى حاقت بهم فى ذلك الدور من ناحية أخرى.

وهكذا لم تتخل مصر عن دورها الرائد فى المنطقة، مع استمرار تفاعل عديد من التيارات الداخلية بين أرجائها. وقبل أن نتطرق الى دور مصر فى التصدى للحركة الصليبية بعد صلاح الدين، يصح أن نلقى نظرة عامة سريعة على أوضاعها فى العصر الأيوبى .

٤- نظم الحكم والادارة والمالية فى العصر الأيوبى:

لما كان صلاح الدين كثير التغيب عن مصر بسبب انشغاله بأمر الجهاد فى الشام فانه صار عليه أن يترك شخصا يعتمد عليه فى حكم مصر ورعاية شئونها أثناء غيابه. لذلك استحدث صلاح الدين فى مصر وظيفة النائب، وهو الذى ينوب عن الحاكم وقد أناب صلاح الدين عنه فى حكم مصر طوال تواجده فى بلاد الشام ـ أخاه العادل سيف الدين مما يعتبر البداية الحقيقية لنشأة وظيفة نائب السلطنة فى العصر الأيوبى[١] . ومن الواضح أن انشاء وظيفة نائب

(١) يلاحظ أن العادل سيف الدين لم يلقب أثناء نيابته عن أخيه صلاح الدين فى حكم مصر بلقب=

الدنانير، وكان انسان من شبرا كلسا(*) يسما شروط نصراني ثم اسلم وتعلم السحر وصار حاذقا به وكان قوم يشهدو انه كان يمشي معهم ولوقته يغيب عنهم، وكان يشبه الحاكم حتى كلامه لكنه اطول منه قليل وسمى نفسه ابو العرب وتبعه قوم يمشو معه ويتتلمذو له وكان ينفذهم الى الاغنيا بكتبه ياخذو له منهم المال ويقول لهم انا اعيد لكم العوض عند رجوعي الى مملكتي، ومن لقيه وقال له انت سيدنا الملك ضربه وقال له ما تحفظ

(*) شبرا كلسا: من المدن المندرسة كانت تابعة لكفر الشيخ وبالبحث عنها وجد أن زمامها أضيف فى تاريخ سنة ١٢٢٨هـ على أراضى ناحية سيدى غازى. وكانت قبلها تسمى دير شبرا كلسا. ويوجد محلها الآن عزبة سيدى محمد أبو شعيشع، وبذلك اختفى اسم شبرا كلسا.

السلطان فى العصر الأيوبى أضعف من أهمية الوزير. فالوزارة التى كان لها شأن كبير فى العصر الفاطمى، انحطت مكانتها فى العصرين الأيوبى ثم المماليكى، بعد أن استحوذ نائب السلطنة على ماكان للوزير من سلطات. وهكذا غدا الوزير فى العصر الأيوبى «وزير تنفيذ» لا غير، أى يقتصر عمله على مجرد تنفيذ ما يأمر به السلطان، حتى أن بعض خلفاء صلاح الدين استغنوا أحيانا عن وظيفة الوزير.

وبالاضافة الى وظيفة الوزارة وجدت وظائف أخرى سامية فى الدولة الأيوبية، بعضها يختص بالبلاط والبعض الآخر يختص بالدواوين. فمن وظائف البلاط وظيفة الحاجب الذى يقوم بادخال الناس على السلطان. ووظيفة الاستادار الذى ينظر فى ادارة البيوت السلطانية، ووظيفة الدوادار الذى يقوم بابلاغ الرسائل ورفع القصص والشكاوى الى السلطان، والحصول على توقيعة على المراسيم والمناشير السلطانية. بالوزارات ووظيفة ناظر الخاص، المكلف برعاية شئون السلطان المالية.

وقد وجد بمصر فى ذلك العصر عدد كبير من الدواوين ـ أشبه بالوزارات اليوم، قامت بتصريف مختلف شئون الدولة، مثل ديوان الانشاء وديوان بيت المال، وديوان الجيش. ولكل

=«نائب السلطان» لأن صلاح الدين نفسه لم يتخذ فى حياته لقب سلطان، وانما أضفى عليه المؤرخون والمعاصرون هذا اللقب تكريما له.

راسك، واقام بمصر هكذا عشرين سنة وهو متستر حتى ظن أكثر الناس بمصر انه الحاكم وانه يخفى نفسه لامر مكتوم لا يعرفه الا هو، ولم يزال كذلك الى ايام معد المستنصر بالله فخرج الى البحيرة ونزل عند رجل بدوى من بنى قرة يعرف بمفرج ابن تمام فضرب له البدوى خيمة واقام عنده سنتين وهو يتظاهر بافعال الانبيا كذبا وعليه ثياب زرية كالزهاد، وكان يدفع للبدوى ثيابا طايلة وسلاحا حسنا، فاذا قال له البدوى لماذا لا تلبس

من هذه الدواوين ناظر ـ أى رئيس ـ وميزانية خاصة، وعدد من الموظفين يتبعون الناظر وينفذون أوامره. وكان ابن مماتي المصرى المتوفى سنة ١٢٠٩هـ(٦٠٦هـ) ناظر لديوان بيت المال فى أوائل العصر الأيوبى وألف كتابا مستفيضا بعنوان «قوانين الدواوين» تكلم فيه باسهاب عن الدواوين والوظائف الادارية فى مصر فى العصر الأيوبى[١].

يضاف الى ذلك عدد من الوظائف فى الدولة بعضها ذو صبغة ادارية مثل والى القاهرة والبعض الآخر ذو صبغة دينية مثل قاضى القضاة والمحتسب.

وجدير بالذكر ان صلاح الدين كان شافعى المذهب، ولذا حرص على أن يكون قاضى القضاة شافعيا. وظل الشافعية يتمتعون بذلك التكريم حتى أوائل دولة المماليك عندما عين السلطان بيبرس قاضيا للقضاة من كل مذهب عددهم أربعة يمثلون المذاهب السنية[٢].

أما فيما يتعلق بالنظم المالية، فان العصر الأيوبى شهد تحولا من النظام النقدى الى النظام الاقطاعى. ومن الثابت فى تطور النظم الاقطاعية فى الشرق والغرب فى العصور الوسطى أن الاقطاع اتخذ طابعا حربيا فى بعض الدول التى خيم عليها الطابع الحربى. ذلك أن الحكام

(١) ابن مماتى : كتاب قوانين الدواوين(تحقيق عزيز سوريال عطية، القاهرة ١٩٤٣).
(٢) المقريزى: كتاب المواعظ والاعتبار، ج٢ ،ص ٣٤٤ (بولاق)

من هذا الثياب الفاخرة فيقول له حتى يجوز عنى القطع الذى اخافه، وبهذا الكلام كان يدخل عليهم ويلهو بهم، يعنى بمفرج ابن تمام القرى وبجماعته وغيرهم من النسا، وكانو يدخلو اليه ويصقعو له ويسلمو عليه كما يسلم الناس على الملوك الخلفا فنهاهم عن ذلك وتوهم انه يريد كتمان امره الى الوقت الذى يريد اظهاره فانتشر خبره فى ديار مصر كلها حتى ضجت المملكة واضطربت، فخاف شروط على نفسه وهرب من

والملوك كانوا يجدون أنفسهم فى حاجة الى محاربين وفرساناً مزودين بالسلاح والخيول، مما يتطلب أموالا ونفقات لاتتحملها مواردهم، فيعمدون إلى توزيع أراض فى صورة اقطاعات على الامراء والاجناد مقابل ما يؤدونه من خدمات عسكرية للحكام. ولم يكن هذا الاقطاع وراثيا، وانما صار للمقطع أن يتمتع بالأرض المقطعة له طالما يؤدى الخدمة العسكرية المتفق عليها فى شروط الإقطاع. وما كاد صلاح الدين يوطد أقدامه فى مصر حتى قام «باقطاع البلاد والتوقيع بها على الأجناد»[1]. وقد حرص خلفاء صلاح الدين من حكام بنى أيوب على ترسيخ قواعد النظام الإقطاعى فى مصر، فوزعوا الأرض اقطاعات على أمرائهم وأجنادهم ومماليكهم واختصوا أولادهم بالاقطاعات الكبرى.

ولا شك فى أن انتقال النظام المالى فى الدولة الأيوبية من الاقتصاد النقدى الى الاقطاعى أدى الى ضعف ثم زوال ديوان المال، ليحل محله ديوان جديد اختص بالنظر فى جميع شئون المالية من ايرادات ومصروفات، سمى ديوان النظر. وقد واجهت مصر فى بداية الدولة الأيوبية ضائقة مالية بسبب هروب الذهب منها نتيجة لعدم استقرا الأوضاع فى أواخر العصر الفاطمى.

ولكن صلاح الدين واجه الموقف فى حزم وسك عملة ذهبية جديدة كاملة العيار حازت

(١) ابو شامة: كتاب الروضتين فى اخبار الدولتين، ج٢، ص ١٦ (القاهرة ١٢٨٧هـ).

عند البدوى [مُفرج] واختفى فى موضع لم يعرفه احد واقام مختفى الى ايام الاب انبا شنوده البطرك فكتب اليه وتلاها به حتى انفذ اليه مالا.

فاما الاب انبا زخارياس البطرك فانه اقام بعد اجتماعه بالحاكم فى هدو وسلامة بقية ايامه وكانت مدة بطركيته ثمنية وعشرين سنة منها قبل زمان الاضطهاد سبع سنين وبعد بنا البيع اثنى عشر سنة وتنيح فى سنة سبع ماية وثمنية واربعين

ثقة المتعاملين. على أنه يبدو أن أعباء الحرب الطويلة التى شنها صلاح الدين ضد الصليبيين الجأته سنة ١١٨٨م (٥٨٣هـ) الى ضرب درهم نصفه من الفضة ونصفة من النحاس فضاق الناس بهذه الدراهم الرديئة، مما جعل السلطان الكامل الأيوبى يصدر فلوسا نحاسية. وبالجملة فان أحوال النقد ظلت مضطربة أيام الأيوبيين، بسبب العبء الكبير الذى تحملته مصر فى الدفاع عن الاملاك الايوبية فى منطقة الشرق الأدنى ضد الصلبيين، مما أثر تأثيرا واضحا فى النشاط الاقتصادى داخل البلاد[١].

٥. النشاط الاقتصادى فى العصر الأيوبى:

اعتمدت مصر فى حياتها الاقتصادية ـ طوال تاريخها ـ على الزراعة بوجه خاص. فبالزراعة اشتغل غالبية أهلها، وعلى الانتاج الزراعى عاش معظم سكانها. والمعروف ان مصر لم تستخدم الرى الدائم لأول مرة الا فى القرن التاسع عشر للميلاد، ولذلك اعتمدت الزراعة فى العصور الوسطى ـ ومن جملتها العصر الأيوبى ـ على رى الحياض، بمعنى تقسيم الأراضى الزراعية الى حياض كبيرة تغمر بمياه الفيضان مدة كافية حتى اذا ما انحسرت عنها مياه

(١) حسنين محمد ربيع: النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين، ص ٩٤ وما بعدها (القاهرة، ١٩٦٤).

للشهدا ودفن فى كنيسة السيدة بنى وايل المعروفه بكنيسة الدرج [بابليون الدرج].

ثم هاج على كنيسة السريان الموافقين لنا فى الامانة المستقيمة فى المشرق بلا عظيم حتى ان بطركهم نفى من كرسيه ومات فى النفى. وذلك انه كان على كرسى انطاكية السريان اليعاقبة اخوتنا ابا قديس يسمى يوحنا ابن عبدون حتى انه ضاها الابا القديسون الاولين وعمل ما سنذكره،

الفيضان تبذر فيها البذور. ولا شك فى أن اتباع هذه الطريقة أدى الى جعل البلاد والعباد تحت رحمة الفيضان. فاذا جاء مستوى الفيضان طبيعيا تمكن الناس من زراعة الأراضى فى أطمئنان، وظهر المحصول طبيعيا فى مقداره وأثمانه، أما اذا جاء الفيضان منخفضا فمعنى ذلك ضعف المحصول وارتفاع أسعار الغلال، مما يترتب عليه حدوث المجاعات وانتشار الأوبئة فى البلاد.

وفى ضوء هذه الحقيقة يمكن تفسير ما حدث بمصر فى تلك العصور من أزمات اقتصادية. ومن أمثلة ذلك ما حدث سنة ١٢٠١م (٥٩٧هـ) فى عهد السلطان العادل الأيوبى اذ يروى المؤرخ ابن تغرى بردى انه «كان هبوط النيل.. واشتد الغلاء والوباء بمصر، فهرب الناس الى المغرب والحجار واليمن والشام، وتفرقوا وتمزقوا كل ممزق...» ثم يروى المؤرخ كيف كان الناس خلال تلك الأزمة يأكلون لحوم أبنائهم بدافع الجوع، فيذبح الرجل ولده، وتساعده أمه فى طبخه وشيه!!. ومهما يكن فى هذه الأوصاف من مبالغات فانها تدل على سوء أحوال البلاد وأهلها، وما كانت تتعرض له من ظروف اقتصادية عصيبة عند انخفاض الفيضان[1].

ولاينتظر فى مثل هذه الأوضاع أن يحيا الفلاح حياة آمنة مستقرة، طالما كان تحت رحمة الطبيعة من ناحية وتحت رحمة الحكام والاقطاعيين من ناحية أخرى.

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج٦،ص١٧٣ .

وذلك ان ابانا [آباءنا] البطاركة السريان لم يكونو يتمكنو من السكن فى مدينة انطاكية منذ زمان الاب ساويرس خوفا من الروم ولا يدنو بالجملة من اعمالها، وكان هذا القديس ساكن فى دير قريب ملطيه، وكان بداية امره انه كان سايح فى الجبل الاسود وكان حسن السمعة عند كل احد كما هو مكتوب فى الانجيل المقدس ليس تخفى مدينة وهى مبنية على جبل»، وكان بجواره راهب يتعبد ايضا هناك اسمه يوحنا فلما تنيح اثناسيوس بطرك

واذا كانت الطبيعة تشدد قبضتها على الفلاح حينا وترحمه أحيانا، فان الحكام كانوا لا يرحمونه فى الغالب، فاثقلوا عليه الالتزامات والرسوم، ولم يتهاونوا فى جمع المفروض عليه من ضرائب وأموال.

وبالاضافة الى الزراعة أسهمت الصناعة والتجارة فى تدعيم النشاط الاقتصادى فى مصر فى العصر الأيوبى. فمن الصناعات التى ازدهرت فى ذلك العصر صناعة المنسوجات الكتانية والحريرية والقطنية والصوفية، وكانت أهم مراكز هذه الصناعة الفسطاط وتنيس (قبل أن يدمرها الملك الكامل الأيوبى سنة ١٢٢٧م = ٦٢٤هـ) ودمياط والبهنسا وأخميم. هذا فضلا عن صناعة الزجاج والتحف المعدنية وصناعة استخراج الزيوت من السمسم والكتان وغيرهما، وصناعة الصابون ـ وخاصة فى قفط ـ من الزيوت. أما السكر فكانت مصر تنتج منه كميات وفيرة يستهلك بعضها داخل البلاد ويصدر البعض الآخر[١].

أما من ناحية التجارة فان الحروب الصليبية أسهمت بشكل واضح فى تنشيط التبادل التجارى بين الشرق والغرب، وخاصة أن القوى البحرية الايطالية وعلى رأسها البندقية وجنوا وبيزا ـ رأت فى الانفتاح الذى أتاحته الحروب الصليبية على الشرق فرصة لتدعيم نشاطها

(١) المصدر السابق، ١ ج١،ص ١٠٢.

انطاكيه فى زمان انبا فيلا ثاوس بطريرك سكندرية وكانت افعاله مثل افعال سميه اثناسيوس الكبير بالحقيقة. وقال عند نياحته ان هذا القديس يوحنا ابن عبدون يجلس بعده على كرسى انطاكيه. فلما تنيح طافو عليه، ومن قبل وصولهم بيوم عرف صديقه الراهب الذى كان بجواره ما اظهره له الروح القدس وقال له: فى غد يجونا قوم ياخذو واحد منا يجعلوه بطرك الكرسى فترا ان نقوم نمضى من هاهنا ليلا [لئلا] يجدونا. قال له

التجارى مع بلدان الشرق الادنى. وهنا نلاحظ أن العداء لم يظل مستحكما بين المسلمين والصليبيين طوال عصر الحروب الصليبية وانما كانت جذوة الحروب تشتعل حينا وتخمد نارها أحيانا.

وفى الفترات التى كان يتوقف فيها القتال حدثت اتصالات حضارية ومعاملات اقتصادية على جانب خطير من الأهمية بين المسلمين والصليبيين. وقد عبر صلاح الدين عن هذه الحقيقة فى احدى رسائله التى جاء فيها «.. ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والبيازنه (من مدينة بيزا الايطالية) والجنوية، كل هؤلاء تارة يكونون غزاة لاتطاق ضراوة ضرهم ولا تطاق شرارة شرهم، وتارة يكونون سفارا يحتكمون على الاسلام فى الأموال المجلوبة عنهم يد الحكام المرهوبة..».

ولم تفلح المراسيم التى أصدرتها البابوية لمنع التجار الأوربيين من التعامل التجارى مع المسلمين فى الشرق الأدنى، اذ أدى حرص الجمهوريات التجارية الايطالية على مواصلة نشاطها التجارى الى سعيها لتجديد المعاهدات الاقتصادية مع السلطان العادل بعد وفاة صلاح الدين. كذلك أدت سياسة التودد التى اتبعها العادل والكامل الى اتجاه كثير من التجار الأوربيين بسفنهم نحو شواطئ مصر وكان ان شهدت الاسكندرية ودمياط ـ بصفة خاصة ـ نشاطا تجاريا واسعا نتيجة للامتيازات التى منحها سلاطين الأيوبيين لتجار المدن الايطالية حتى أنه وجد

الراهب يوحنا: لماذا نهرب ان كان الرب قد دعا احدنا لهذا الامر فالى اين نهرب من بين يديه. قال له ذلك الاب القديس: اما انا فما اطيق هذا الامر ولا اصلح له فان كنت انت تقدر عليه فابقا مكانك وامضى انا اختفى الى ان يجوز عنا هذا الغضب الذى قد جانا ليخرج احدنا من هذا الانفراد الطوباني الذى انا اوثره. ومضى هاربا من هناك وبقى يوحنا الراهب موضعه، فلما كان بالغداة وصل الى الدير من يطلب يوحنا القديس

بميناء الاسكندرية فى شتاء سنة ١١٨٧ ـ ١١٨٨م (٥٨٣هـ)[١] سبع وثلاثون سفينة ايطالية تجارية، وهو عدد ضخم بالنسبة لفصل الشتاء بالذات.

أما التجارة الداخلية فكانت لاتقل نشاطا فى العصر الأيوبى، حتى ان الرحالة ابن جبير الذى زار مصر فى ذلك العصر، وصف مدنها الداخلية ـ مثل منفلوط وأبى تيج وغيرها ـ فقال بأن «فيها الأسواق وسائر ما يحتاج اليه من المرافق»[٢]. وتشهد كتب الحسبة التى ألفت فى العصر الأيوبى مدى النشاط التجارى الداخلى فى ذلك العصر، وعلى ما كان هناك من اشراف دقيق على الأسواق والباعة[٣].

٦. الحياة الاجتماعية فى العصر الأيوبى:

جاءت الدولة الأيوبية فى مصر من الناحية الزمنية بين دولتين اتصفتا بالبذخ وامتازت الحياة الاجتماعية فيها بالاسراف والمبالغة فى احياء الحفلات، هما الدولة الفاطمية والدولة المماليكية. ولكن دولة الأيوبيين احاطت نشأتها ظروف غير الظروف التى احاطت بالدولة السابقة لها أو

(1) Heyd: Hist. du Commerce du Levant, Tome II, PP. 391 - 399.

(٢) رحلة ابن جبير،ص٣١ (تحقيق حسين نصار، القاهرة ١٩٥٥).

(٣) انظر على سبيل المثال كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة تأليف الشيزرى (تحقيق الباز العرينى ١٩٤٦).

فطافو عليه فى الجبل فما وجدوه، فلما انتهو الى الموضع الذى ذلك الراهب فيه مقيم وجدوه لانه كان مشتهى لذلك فاخذوه وفيما هم نازلين من الجبل ماضيين به الى حيث الجماعة راو فى طريقهم شجيرة فمالو اليها يستظلوا تحتها، فضرب عود من الشجرة عين يوحنا الراهب فقلعه فصار أعور من ساعته، فتعجبو واستعلمو منه قضية حاله فاعترف لهم بما جرى بينه وبين القديس يوحنا ابن عبدون وانه اشتهى هذا الامر وذاك زهد فيه، فلما عرفو

الدولة اللاحقة بها، اذ ولدت الدولة الأيوبية فى وقت كان الصليبيون بالشام أشد ما يكونون قوة وعنفاً، حتى هدد خطرهم بابتلاع الشرق الادنى، ليس فى الشام فحسب، بل أيضا فى مصر والحجاز. اذ غلبت فكرة الحروب على السلاطين، مما لم يترك مجالا للتوسع فى الاحتفالات وحياة الترف. واذا توافر الوقت أحيانا فى العصر الأيوبى لحياة الترف، فان المال لم يتوفر عندئذ، لأن حراسة القوافل وتحصين المدن والقلاع واعداد الجيوش وبناء السفن والأساطيل وصناعة العدد والآلات الحربية... كل ذلك كفيلا بأن يستنفذ كل درهم فى خزانة سلاطين بنى أيوب. وحسبنا أن أول ما فكر فيه الخليفة المعز لدين الله الفاطمى عند وصوله الى مصر كان العناية بقصوره وصلاح وتعمير القاهرة بالأسواق والمنشآت ورعاية الحفلات الدينية والمبالغة فى احيائها، فى حين كان أول ما اهتم به صلاح الدين هو تحصين البلاد وبناء القلعة وسور القاهرة وتقوية استحكمات الثغور.

وبينما نقرأ عن خلفاء الفاطميين وسلاطين المماليك فى مصر أن كلا منهم مات تاركا فى خزانته أكوام المال وعديد التحف، اذا بكتب التاريخ المعاصرة تروى أن صلاح الدين مات ولم يترك ديناراً..» لقد استنفذت الحروب كل دينار فى خزانة مصر[1].

---

(١) المقريزى: كتاب السلوك، ج١ص١١٣ ـ ١١٤ .

صفه الحال تركوه ومضو الى الجماعة واعلموهم بذلك فقوى عزمهم على طلب ذلك القديس اين ما كان، فلم يزالو يطوفو ويبحثوا عنه الى ان وجدوه بمشية الله بعد ان تعبو، فامتنع عن المضى معهم فاخذوه غصبا واوسموه بطركا واجلسوه على الكرسى فلم يتغير فى مدة بطركيته عن تواضعه وعبادته.

وكانت الاموال تحمل اليه برسم الصدقات ولا

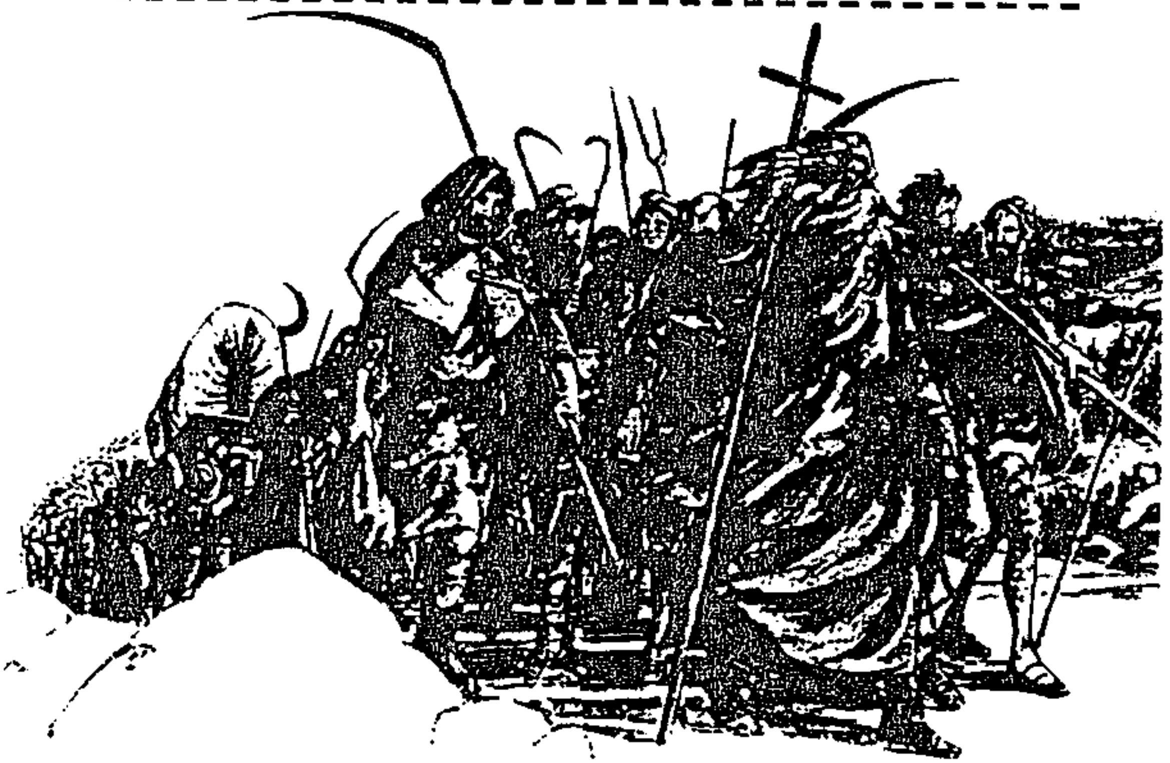

الحمله الصليبية الاولى كان معظمها من الفلاحين الباحثين عن حياة افضل من حياتهم فى اوربا

يبقى منها الا قوت يومه ويدفع الباقى للمستورين والفقرا، فاتت اليه امراة ذات يوم ومعها دنانير كثير فى صرة كبيرة فجعلتها عند قدميه وقالت له: يا ابى السيد هذه الدنانير بركة احضرتها فانعم على بقبولها وبارك على واصرفها فى لوازمك وللمستورين، فاجابها بصوت خفى وقال لها: الرب يقبل ذلك منك يا ابنتى. فوقفت منتظرة له ان يقول لها شيا اخر اكثر من هذا مما يدعوا لها من الدعا والكرامة كما جرت العادة لغيره ممن

٧- الحياة الدينية والعلمية فى العصر الأيوبى:

كان أهم ما اتصفت به الحياة الدينية فى العصر الأيوبى هو القضاء على آثار المذهب الشيعى وتدعيم المذهب السنى فى أنحاء مصر. واذا كانت بعض بقايا المذهب الشيعى قد ظلت قائمة فى البلاد حتى عصر المماليك، فان هذه البقايا غدت ضعيفة لا تقوى على الظهور حتى تختفى بعد قليل.

وثمة ظاهرة دينية أخذت تزداد وضوحا فى العصر الايوبى هى ظاهرة انتشار التصوف، وما تبعها من بناء منازل للصوفية غير المصرين عرفت باسم الخانقاوات التى بناها ودعمها صلاح الدين. ويفهم مما كتبه المقريزى ان صلاح الدين انشأ خانقاه سعيد السعداء سنة ١١٧٣هـ (٥٦٩هـ) ، وولى عليها شيخا عرف بشيخ الشيوخ، ووقف الأوقاف للانفاق على من فيها من الفقراء (الصوفية)، كما خصص لهم فى كل يوم طعاما ولحما وخبزا، وبنى لهم حماما بجوارهم[١]. وهو ما لم يكن يتمتع به المصرى الذى يكدّ ويكدح ليوفر هذا للصوفية. ولم تلبث ظاهرة التصوف أن أخذت تنتشر فى مصر حتى تركت أثرا خطيرا فى الحياتين الدينية والاجتماعية على عصر سلاطين المماليك.

وأما دور العلم فعلى رأسها تأتى المدارس التى توسع الأيوبيون فى انشائها فى مصر. قصد محاربة المذهب الشيعى. وقد بلغ عدد المدارس التى أنشاها صلاح الدين فى القاهرة خمس

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار، ج٢ص ٤١٥(بولاق).

يجـمع المال ويرغب فـيـه حـتى لو اتاهم انسـان بفلس واحـد يجلوه ويكرمـوه لاسـيـمـا هـذا المال الكثير، فلما طال وقوفها ولم تسمع غير ما قال لها، فـخرجت متقمـقـمـة [مغتاظة] فعاد التلميذ الذى خرج ليغلق الباب وقال للبطرك: يا ابى هذا مال كثير جا ات به هذه الامراة فما كانت تستحق ان تدعو لها دعا كثير وتطيب قلبها حتى مضت وهى متقمقمة علينا، وقالت لعل الاب ما علم ما جيت به. فـقـال له [البطرك]: امـضى ردها [أى

مدارس ووقف عليها الأوقاف لتنفق من ريعها وتتمكن من الاستمرار فى اداء رسالتها. واستمر سلاطين الأيوبيين فى سياسة بناء المدارس، من أهمها المدرسة الكاملية التى أنشاها السلطان الكامل١٢٢٤م (٥٢١هـ) والمدارس الصـالحـيـة التى بناها الصـالح نجم الدين أيوب سنة ١٢٤١م (٦٣٩هـ). وكانت هذه المدرسة الأخيرة أول مدرسة تجمع بين مذاهب السنة الأربعة.

ومن أشهر شعراء مصر فى ذلك العصر ابن سناء الملك المصرى المتوفى سنة ١٢١١م (٦٠٨هـ) وقد استكثر من الموشحات وأجاد فيها، وعمر بن الفارض المتوفى فى سنة ١٢٣٥م (٦٣٢هـ) وقد اتصف شعره بمسحة واضحة من التصوف، وبهاء الدين زهير المتوفى سنة ١٢٥٨م (٦٥٦هـ). أما النثر فى ذلك العصر فأتصف باتقان الصناعة اللفظية، والتفنن فى البديع والجناس والسجع والمبالغة فى التنميق، كما يبدو بوضوح فى كتابة عماد الدين الاصفهانى ورسائل القاضى الفاضل[١].

كذلك شهد العصر الأيوبى نشاطا كبيرا فى علوم اللغة، وخاصة النحو والصرف أما علم التاريخ فقد ألفت فيه كثير من الموسوعات وكتب التراجم، مع العناية بصفة خاصة بتسجيل

(١) ياقوت: معجم الأدباء، ج١٩، ص ٢٥٦، السيوطى: حسن المحاضرة، ج١، ص ٣٣٧، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج١ ص ١٩٤، ابو شامة: كتاب الروضتين، ج٢ص ٢٤٢.

أحضر الامرأة]. فمضى وردها اليه. وقال [البطرك] للتلميذ: اتينى بميزان. فاحضره له فاخذ قطعة رقعه وكتب فيها: «الرب يقبلهم منك» كمثل ما دعا لها بفمه اولا وجعل الرقعة فى كفة الميزان وجعل المال فى الكفة الاخرى، وقال للتلميذ: ارفع الميزان. فرفعه فرجحت الرقعة اكثر من المال وطلعت الكفة التى فيها المال ونزلت الكفة التى فيها الرقعة الى اسفل، فقال البطرك للامراة: يا ابنتى خذى منهما ما اردتى. فالقت نفسها بين يديه

أحداث الصراع بين المسلمين والصليبيين.

٨ـ الجيش والأسطول فى العصر الأيوبى:

وفى ختام كلامنا عن أحوال مصر فى العصر الأيوبى ينبغى أن ننوه بالرعاية الفائقة التى لقيها الجيش والأسطول فى ذلك العصر، ذلك ان الدولة الأيوبية جاءت وليدة أحداث الحروب الصليبية، وعاصرت أشد مراحل تلك الحروب ضراوة وعنفا، ولذلك كان لابد وأن يكون الاهتمام بالجيش أول ما استأثر بجهود حكامها.

ويبدو أن صلاح الدين أعاد تنظيم جيشه عدة مرات حتى جعل منه قوة ضاربة، يتألف من فرسان ومشاه، وينقسم الى أطلاب على رأس كل طلب أمير أى ضابط، وبالاضافة الى الجيش الدائم، ضم جيش صلاح الدين فرقا مساعدة من التركمان والأكراد والعرب، وهؤلاء كانوا بمثابة جند غير نظاميين.

أما الأسطول المصرى فكان فى حالة سيئة عند قيام الدولة الأيوبية لاهماله فى أواخر العصر الفاطمى، مما عرض شواطئ مصر، فضلا عن الثغور الاسلامية فى بلاد الشام، لهجمات خطيرة من جانب الصليبيين. لذلك اهتم صلاح الدين بأمر الأسطول، حتى غدا الأسطول المصرى قوة ضاربة منذ سنة ١١٧٩م (٥٧٥هـ) تضم أنواعا متباينة من القطع الحربية

وبكت وقالت: اغفر لى يا ابى فانك تعتقد ما عند الله وانا اعتقد ما عند الناس. ثم اخذت تلك الرقعة وجعلتها لها قوة.

وكان ايضا قد خرج الى البحر [النهر] لبنا [لبناء] قنطرة كانت الناس تعبر عليها فانهدمت فسالوه قوما اخيار ان يقف عليها عند الابتدا فى بناها حتى تنالها بركته فاذا راه الناس هناك اجتمعو وتساعدو على بنيانها، ففعل ذلك واجتمع جمعا كبير واقامو ثلثة ايام يبنو فيها ويعملو بفرح

وناقلات الجند والخيول[1]. وبفضل هذه القوى تمكن الأسطول المصرى من انزال ضربات قوية بالصليبيين فى البحرين المتوسط والأحمر، فضلا عن مساعدة صلاح الدين ـ بعد حطين ـ فى الاستيلاء على بعض الموانى والثغور الشامية.

وعلى الرغم من أن خلفاء صلاح الدين أهملوا أمر الأسطول وفترت همتهم عن العناية إلا أن تعرض مصر لحملتين صليبيتين بحريتين كبيرتين فى النصف الأول من القرن الثالث عشر للميلاد (السابع للهجرة)، جعل سلاطين بنى أيوب يفيقون الى رشدهم ويعاودون العناية بأمر الأسطول. وقد ظهر ذلك فى الوصية الشهيرة التى كتبها الصالح نجم الدين أيوب لابنه توران شاه والتى جاء فيها «فالأسطول أحد جناحى الاسلام، فينبغى أن يكونوا شباعا..»[2].

٩. مصر والحروب الصليبية:

يدل الاتجاه العام للحركة الصليبية منذ بداية القرن الثالث عشر للميلاد (السابع للهجرة) على أن مصر بالذات غدت موضع اهتمام دعاة الحروب الصليبية وزعمائها، بعد أن آمن الصليبيون بالشام وأنصارهم فى الغرب الأوروبى بأن مصر غدت مركز المقاومة الحقيقة فى

(١) ابن مماتى: قوانين الدواوين، ص ٣٣٩ـ ٣٤٠.
(٢) النويرى: نهاية الأرب، ج٢٨، ورقة ٩٢

لنظرهم للبطرك، فلما كملت فى اليوم الثالث تزاحم الجمع فى عبورهم عليها فسقط شاب فى البحر وقد كان عرض ذلك البحر تقدير عشرين ذراعا وكان تياره قوى جدا فتقدم الاب بان ينزل يشيله ممن له معرفة بالعوم، فنزع جماعة من الحاضرين ثيابهم ونزلو يطلبوه فلم يجدوه فلم يزالو يغطسو ويفتشو من الساعة السادسة من النهار الى الساعة التاسعة حتى تعبو وضجرو، وبلغ خبره الى امه فخرجت صارخة باكية مثل ارملة مدينة

الشرق الادنى ضد الحركة الصليبية، وأنه منذ نجح نور الدين فى توحيد مصر والشام فى اطار جبهة واحدة، والصليبيون شبه مطوقين بالمسلمين. هذا فضلا عما أثبتته التجارب فعلا من أن الأيوبيين كثيرا ما اعتمدوا على مصر ـ ذات الموارد البشرية والمالية الضخمة ـ فى الحصول على الامكانات التى مكنتهم من ضرب الصليبيين بالشام.

وبعبارة أخرى فان دعاة الحركة الصليبية والمتحمسين لها وصلوا فى نهاية القرن الثانى عشر وأوائل الثالث عشر الى نتيجة حاسمة لاشبهة فيها ولا جدال حولها، هى أن مفاتيح بيت المقدس توجد فى القاهرة، وأن عليهم البدء بمصر أولا اذا أرادوا تحقيق أهدافهم فى فلسطين والشام، حتى لقد نادوا بأن القاهرة هى الطريق الطبيعى ـ الذى لاطريق غيره ـ للوصول الى بيت المقدس. وظهرت هذه العقيدة بوضوح فى أقوال زعماء الحركة الصليبية ودعاتها، فهم حينا يشبهون مصر بأنها رأس الأفعى وأحيانا يشبهونها بالقلب فى الجسم.. الى غير ذلك من التشبيهات العديدة التى فاضت بها كتب دعاة الحروب الصليبية فى أواخر العصور الوسطى، والتى ان دلت على شيء فانما تدل على ان الصليبيين أدركوا أن الخطر الحقيقى الذى هدد بقاءهم واعترض وجودهم وعرقل مشاريعهم فى بلاد الشام انما نبع من مصر بالذات(1).

وأدى الايمان بهذه الفكرة والتمسك بها، الى تغيير هام خطير طرأ على اتجاه الحركة

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية ،ج٢ ، ص ٧٥٩ ـ ٧٦١(طبعة ١٩٦٨).

نايين، فوجدوه بعد عشرة ساعات واصعدوه وهو ميت، فحملوه الى خيمة الاب انبا يوحنا البطرك وتركوه قدامه ومضو، فقام القديس وصلى وسال الله فيه ففتح الشاب عينيه وقام وخرج من الخيمة حيا والجمع قيام برا، فبادرو اليه وازدحمو عليه لينظرو هذه الاية العجيبة، ولم يقدر يتخلص منهم ويمضى الى بيتـه الا بعد تعب وجـهـد عظيم. واشتهرت عنه هذه الاية العظيمة فى جميع بلاد

الصليبية، فغدت مصر منذ بداية القرن الثالث عشر للميلاد تستأثر بجهود الصليبين، ووضعت الخطط الخاصة بجميع الحملات الصليبية ماعدا النذر اليسير منها ـ منذ بداية القرن الثالث عشر ـ على أساس الاتجاه ضد مصر. ومن ذلك أن حملة صليبية كبرى تجمعت فى الغرب الأوروبى فى أوائل القرن الثالث عشر نحو آثار حروب صلاح الدين فى الشرق واغتصاب بيت المقدس مرة أخرى. وكان أن تقرر ان تكون مصر بالذات هدف هذه الحملة بغية انزال ضربة قاصمة بها بوصفها مركز المقاومة الحقيقى ضد الصليبيين بالشام والمخزن الكبير الذى استمد منه الأيوبيون مواردهم البشرية والمادية فى محاربة الصليبيين. وبعد أن تحددت وجهة الحملة نهائيا، اتصل الصليبيون بالبندقية لتقوم باعداد السفن اللازمة لنقل الصليبين الى شواطئ مصر. لكن البنادقة الذين كانوا يغلبون دائما مصالحهم الاقتصادية والتجارية على الصالح الصليبى انحرفوا بالحملة الصليبية سنة ١٢٠٤ نحو القسطنطينية، وهاجم الصليبيون تلك المدينة المسيحية، واستولوا عليها بحجة سياسة الدولة البيزنطية فى عرقلة المشاريع الصليبية بالشرق[١].

ولكن اذا كانت الحملة الصليبية قد خرجت عن طريقها الموضوع لمهاجمة مصر ، فان ذلك لم يصرف أصحاب المشاريع الصليبية فى الشرق والغرب عن سياستهم مما جعل مصر

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٧٣٣ وما بعدها (طبعة ١٩٨٦).

سورية وغيرها حتى وصل خبرها الى بلاد مصر وصار فخرا للارتدكسين وحزنا للمخالفين.

وكانت ملطيه قريبة من الدير الذى سكن فيه هذا الاب القديس، وليس كان فى كرسيه اعظم منها ولا اكثر نصارى، وكان فيها ستة وخمسين كنيسة عامرة بالكهنة والشعب الكثير السريان الارتدكسيين. وكان عددهم ستين الف نصرانى يحملو السلاح اذا ارادو واحتاجو الى ذلك سوى

تتعرض فى النصف الأول من القرن الثالث عشر للميلاد لحملتين صليبيتين كبيرتين، هما الحملة الصليبية الخامسة سنة ١٢١٨ والحملة الصليبية السابعة سنة ١٢٤٩م. وهنا نلاحظ التشابه الكبير بين الحملتين اللتين فصلت بينهما قرابة ثلاثين سنة، فكلاهما اتجه الى دمياط، وكلاهما وقع فى نفس الاخطاء سواء فى اختيار مكان الرسو والنزول أو فى تحديد طريق الزحف فى عمق البلاد، وانتهى الأمر بأن كليهما تعرضت لنفس المصير من الفشل والهزيمة(١).

أما الحملة الصليبية الخامسة فكان الهدف منها تقويم الانحراف الذى وقعت فيه الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤م باتجاها ضد القسطنطينية بدلا من مصر. وعندما اكتمل توافد الصليبيين من الغرب، خرجت الحملة الخامسة من عكا فى مايو ١٢١٨م (٦١٥هـ) متجهة الى دمياط، بزعامة جان دى برين ملك مملكة بيت المقدس الذى آمن ايمانا قويا بفكرة ضرب مصر بوصفها القلعة التى تعترض الوجود الصليبى بالشام. ولم يفت الصليبيون عندئذ أن يتصلوا بدولة الحبشة المسيحية لتحريض النجاشى على التعاون معهم فى محاربة المسلمين والقيام بغزو الحجاز وهدم الكعبة(٢).

(١) المقريزى: كتاب السلوك، ج١ص ١٩٥، ٣٣٤وما بعدها.

(2) Colbeaux: Hist. Politique et Relitiquse de L,Abyssinic,. ps. 556(paris, 1929).

النسا، ولما وصلت انا البايس ميخاييل [الدمراوى]
وابا غبريال اسقف صا الى هذا البطرك القديس
بالرسالة السنوديقا من جهة انبا اخرستودولس عند
جلوسه على كرسى اسكندرية واعمالها راينا منه
قدس عظيم، ولما انفصلنا عنه اكرمنا وانفذ ابن
اخيه معنا لننظر المدينة والخلق الذى فيها، فقال لنا:
ليس عندى مثلها، وراينا فيها نفرا من الملكية
الخلقدونيين ولهم مطران فيها، وكان اليعاقبة
الارتدكسيين الذين هم فى المدينة من كثرة

على انه يلاحظ أن حملة جان دى برين وقعت فى عدة أخطاء، أولها أنه حاول غزو مصر عن طريق دمياط والنيل بدلا من أن يستفيد من تجارب الملك عمورى الأول، وهى التجارب التى أثبتت أن الوصول الى القاهرة يكون أسهل عن طريق الصحراء الشرقية، وربما اختار الصليبيون طريق دمياط لأنها أقرب الموانى المصرية الى الصليبين بالشام، فضلا عن أنهم ظنوا أن فرع دمياط يمثل طريقا سهلا يؤدى بهم الى جوف البلاد والقاهرة، ويربطهم بقواعدهم بالشام. ولكنهم نسوا مايمكن أن يتعرضوا له فى غزوهم مصر عن طريق النيل من عقابات طبيعية تتمثل فى السدود والترع والقنوات العديدة، بالاضافة الى مياه الفيضان التى تغمر كافة الأراضى بلا استثناء فى وقت ارتفاع النيل، وذلك فى عصور لم تعرف مصر كلها سوى أسلوب رى الحياض(١).

أما الخطأ الثانى الذى وقع فيه الصليبيون فهو رسوهم على الضفة الغربية للنيل المواجهة لدمياط، بدلا من النزول على الضفة الشرقية حيث تقوم مدينة دمياط نفسها، مما آثار أمامهم مشكلة عبور النيل، فى وقت كان مدخل النيل محصنا تحصينا قويا، وتمتد بعرض مجراه عند مصبه مآصر، وهى سلاسل ضخمة من الحديد تحول دون عبور السفن المعادية مجرى النهر.

....

(1) King: The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 190.

محبتهم لهذا القديس البطرك يمضو اليه فى كل
وقت الى الدير ويسلوه الحضور عندهم فى الاعياد
الكبار وفى ايام الاحاد ليتباركو منه ويتقربو من
يده، وكان اذا اتاهم يلقوه بالاناجيل والصلبان
والمجامر والقراء بين يديه من باب المدينة الى
الكنيسة بفرح عظيم ومحبة، يفعلو ذلك كل دفعة
ياتى اليهم، ويذكرو فضايله لكل احد ويتحدثو
بالايات التى فعلها الله سبحنه على يده. فوجد
الشيطان له معين فى اذية البطرك المذكور اسقف

هذا بالاضافة الى برج السلسلة وهو بمثابة حصن بناه المصريون وسط مجرى النيل لحماية دمياط ودفع أى عدوان يقع عليها، واعتبر المعاصرون ذلك البرج«قفل الديار المصرية»[(١)].

وأخيرا فان الصليبيين أضاعوا كثيرا من الوقت عقب نزولهم على شاطئ مصر، بدلا من الاستفادة بشن هجوم سريع مفاجئ، مما أعطى المصريين فرصة طيبة للاستعداد، فأسرع الملك الكامل الأيوبى ـ الذى كان ينوب عن أبيه السلطان العادل فى مصر - ونصب معسكره جنوبى دمياط، فى الوقت الذى أمر العادل ابنه الملك الأشرف بمهاجمة الصليبيين وأراضيهم فى الشام ليجبرهم على رفع يدهم عن مصر.

وهكذا لم يستطيع الصليبيون الاستيلاء على برج السلسلة وتحطيم المآصر التى تحمى مدخل النيل الا بعد ثلاثة أشهر. ويقال ان السلطان العادل كان مريضا فلم يحتمل أثر تلك الاخبار السيئة ومات فى نهاية أغسطس سنة ١٢١٨م (٦١٥هـ) فخلفه ابنه الكامل فى حكم مصر. وقد حاول الكامل القيام باجراءات دفاعية سريعة فشيد جسرا بعرض النيل وأغرق عدة مراكب كبيرة فى مجرى النهر لمنع السفن المعادية من التقدم، ولكن الصليبيين تغلبوا على

(١)ابو شامة: ذيل الروضتين .(Rec. Hist. Cr. Or., 5.p.161) ابن الاثير: الكامل، حوادث سنة ٦١٤هـ، ابن أيبك: كنز الدرر، ج٧، ص ١٩٦.

مخالف ممن يقول بطبيعتين، فاقام عليه تجربة عظيمة، كما قال الرسول ان «ان كلمن يريد ان يحيى بالامانة المستقيمة فانه يضطهد من اناس اردياء مبغضين للحق»، فناصبه هذا الاسقف حسدا بغير حشمة لانه كان يرى اجلال الناس لهذا الاب القديس [يوحنا] وخدمتهم له لقوة امانتهم فيه وينظر الى دخوله الى مدينته باحسن زى واجمله، وكان الاسقف المذكور يدخل ويخرج ولا يلتفت احد اليه ولا يسال عنه فتفتت قلبه من الحسد

تلك العقبات. وكان ذلك فى الوقت الذى استمر اخوة الكامل ـ وهما المعظم عيسى والأشرف موسى ـ يشددون هجماتهم على الصليبيين بالشام[1].

وزاد موقف المسلمين حرجا وصول امدادات كبيرة للصليبيين من غرب أوربا، وعلى رأس هذه الامدادات الكاردينال بلاجيوس مندوبا عن البابا، فى الوقت الذى أخذ أحد قادة الكامل وهو ابن المشطوب يدبر مؤامرة ضده، مما جعل الكامل يستنجد بأخيه المعظم الذى جاء مسرعا من الشام. على ان ذلك لم يفلح فى انقاذ دمياط التى صمدت بفضل مقاومة اهلها فى شجاعة للحصار الصليبى المفروض عليها، وتصدت فى بسالة لصد الهجمات المعادية، حتى ساءت حالتها فاضطرت الى التسليم فى نوفمبر ١٢١٩م (٦١٦هـ)، وعندئذ بالغ الصليبيون فى أعمال السفك والعدوان داخل المدينة[2].

على أن الاستيلاء على دمياط لم يكن بالنسبة للصليبيين انتصارا سهلا رخيص الثمن، اذ الواقع أن الصليبيين دفعوا ثمنا باهظا فى الأرواح والمعدات نتيجة للمقاومة العنيدة التى أبداها المصريون.. وكان أن دب الخلاف بين قائدى الحملة الصليبية، جان دى برين ملك الصليبيين والكاردينال بلاجيوس المندوب البابوى، فانسحب الأول عائدا الى عكا فى أواخر مارس

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، ج٣، ص ١٨٠ (دمشق، ١٩٦٨).
(٢) المقريزى: كتاب السلوك، ج٣، ص ١٨٠ (دمشق، ١٩٦٨).

والغيرة المتولدة فيه والحنق عليه، فمضى الى القسطنطينية ورفع على هذا الاب القديس انبا يوحنا عند الملك وقال له: ان فى مملكتك رجل بطرك قد تطاول والناس يطيعوه اكثر منك، وهم يعاقبة ويتعبدو لهذا المخالف اليعقوبى، وهو ايضا يدعو للملوك غيرك اكثر منك، وقد صار له اسم كاذبا انه يقيم الموتا ولاجل هذا مالت اليه قلوب الجمع، فتطرده الان من ملكك وتحضره الى هاهنا ويحكم قدسك بينى وبينه. فارسل الملك ليحضره

١٢٢٠م (٦١٧هـ)، وعندئذ تجمد وضع بلاجيوس فأضاع بقية ذلك العام والنصف الأول من عام ١٢٢١م (٦١٧ ـ ٦١٨هـ ـ) فى حالة ركود تام. ولم يكن ذلك الا فى أواخر عام ١٢٢م (٦١٨هـ) عندما قرر بلاجيوس الزحف على القاهرة، فأرسل الى جاندى برين يرجوه العودة ومساعدته، وعندئذ خشى الملك الصليبى أن يتهم بعدم التعاون فعاد إلى دمياط فى أوائل يوليو، فى الوقت الذى شرع الصليبيون فى الزحف فعلا بمحاذاة مجرى النيل متجهين جنوبا[١].

أما الأيوبيون فلم يضيعوا ذلك الوقت، وانما حاولوا فتح باب المفاوضات مع الصليبيين، وعندما استنفدوا كافة وسائل الحل السلمى أمام عناد الصليبيين وغرروروهم، لم يبق الا السلاح والحرب، فأقام الكامل منزلة على الضفة الشرقية للنيل وأطلق عليها اسم المنصورة، واجتمع المصريون فى حماسة بالغة ليقيموا خطا دفاعيا قبالة طلخا. هذا فى الوقت الذى اتخذت السفن المصرية مكانها نهر النيل لتسد الطريق فى وجه السفن الصليبية[٢].

وفى أواخر يوليو سنة ١٢٢١م (٦١٨هـ) اجتمع الأخوة الثلاثة ـ الكامل والمعظم والأشرف ـ فى المنصورة استعداد للمعركة الفاصلة، فى الوقت الذى أخذ الصليبيون يواصلون

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص ٧٧٣ـ ٧٤٤(القاهرة ١٩٨٦).
(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٢٤١.

وجلس الاسقف فى مدينة البطرك عند بطركها وكانو مجتمعين يدبرو ما يفعلو بالقديس فوجدوه الرسل فى ملطيه، فلما علمو المومنين بالخبر اجتمعو كلهم وقالو: نحن نموت كلنا ولا يوخذ منا بل نبذل نفوسنا وكلما نملكه دونك. فمنعهم من ذلك وقال لهم كلاما لينا: ان من يقاوم الملك فهو يخطى وهو كالمقاوم لامر الله، ما عسا الملك يقدر ان يعمل غير قتل جسدى، فان فعل لى هذا فهو اكليل مستعد لى، وان كلمنى من اجل الامانة

زحفهم جنوبا بحذاء النيل. وهنا يلاحظ أن الصليبين ارتكبوا خطأ جديدا، اذ لم يكتفوا بأنهم اختاروا أسوأ الطرق وهو طريق النيل والمزارع والطمى للتوغل داخل البلاد، بل اختاروا أيضا أسوأ فصول السنة لاتمام زحفهم. فبعد أن أضاعوا بضعة أشهر فى الانتظار أو فى خلافاتهم الداخلية، قرروا الشروع فى زحفهم فى وقت فيضان النيل وهو وقت يمتلئ فيه مجرى النهر، فضلا عن الترع والقنوات العديدة بالماء. ونسى الصليبيون ـ أو ربما أدى بهم جهلهم بطبيعة البلاد ـ الى عدم ادراك حقيقة خطيرة هى أنهم أثناء زحفهم انما يسيرون وسط مثلث كبير تحيط به المياه من ثلاث جهات، وهى بحيرة المنزلة شرقا وفرع دمياط غربا والبحر الصغير جنوبا. وهكذا حتى وصل الصليبيون الى نقطة تفرع البحر الصغير (بحر أشموم) من فرع دمياط، وهى النقطة التى تمثل رأس المثلث الذى تحيط به المياه من ثلاث جهات، وعندئذ قطع المصريون السدود، فانطلقت مياه الفيضان فى قوة تغمر الأرض الواسعة، ولم يشعر الصليبيون بأنفسهم الا وقد غاصوا بخيولهم وآلاتهم فى الماء والوحل(١).

وعندما تنبه الصليبيون الى خطورة موقفهم حاولوا الارتداد بسرعة نحو دمياط، ولكن السلطان الكامل كان قد أنزل شمالهم ـ عند شر باص شمالى شربين ـ ألفى فارس ليقطعوا

(١) ابن الاثير: الكامل، حوادث سنة ٦١٤، المقريزى: السلوك، ج١، ص ٢٠٧.

فهو جهاد لي وكرامة، وكيف لي ان اتشبه بسيدى الذى شتم وقتل. وبهذا وما يشبهه كان يخاطبهم الى ان تركوه، فسار مع الرسل ومعه اربعة اساقفة وثلثة رهبان تلاميذا له الى ان وصلو به الى دار الملك بالقسطنطينية، فجعلوه فى الاعتقال ايام الى ان اعلمو الملك بوصوله، ثم ان بطرك الملكية جعل له يوم فرغه [فراغه] هو واساقفته واسقف ملطيه الذى رفع على البطرك يوحنا وتزينو بقساوة قلب ولبسوا ثياب ديباج وجلسو على كراسي مجملة، وامرو باحضار القديس يوحنا اليهم، فاتاهم بثياب

على الصليبين خط الرجعة.. وهكذا تجمد موقف الصليبين، وأحاطت بهم المياه من حولهم ومن تحت أرجلهم، فلاهم يستطيعون القتال فى الوحل ، ولا هم يستطيعون العودة الى قواعدهم، ولم يبق أمامهم الا الانسحاب من البلاد، ووافق السلطان الكامل الأيوبى على الصلح الذى عرضه الصليبيون، وتم جلاؤهم عن دمياط فى سبتمبر ١٢٢١م(٦١٨هـ)(١).

وعلى الرغم من الخلافات التى دبت بين الكامل الأيوبى فى مصر، وأخويه المعظم والأشرف فى الشام، الا أن مصر استمرت فى ذلك الدور ـ بعد جلاء الصليبين عن دمياط سنة ١٢٢١م ـ تنهض بدورها فى المنطقة وخاصة ضد الخطر الصليبى. وليست هناك أهمية خاصة للأحداث التى دارت فى الربع قرن الذى أعقب جلاء الصليبيين عن دمياط، سوى مجئ حملة صليبية صغيرة، هى الحملة السادسة بزعامة فردريك الثانى امبراطور الدولة الرومانية المقدسة فى الغرب، تمكنت من اعادة بيت المقدس ـ عن طريق المفاوضات مع الملك الكامل ـ الى حوزة الصليبيين سنة ١٢٢٩م (٦٢٦هـ)، وهو الأمر الذى لم يرض عنه الناس وأعلنوا سخطهم الشديد عليه(٢). وكان ان توفى السلطان الكامل سنة ١٢٣٨م (٦٣٥هـ)، فأدى

(١) ابن الاثير: الكامل، حوادث سنة ٦١٤هـ، ابو شامة: ذيل الروضتين ج٢، ص ٢٠٩.

(٢) ابو الفدا: المختصر، سنة ٦٢٢هـ، العينى: عقد سنة ١٢٤٤م ٦٢٦هـ.

زرية ووقف قدامهم هو والذين معه فلم يجلسوهم ولا سلمو عليهم وتشاغلو عنهم بالقراة وهم قيام حينا حتى ضاقت صدورهم، وعند ذلك تكلم يوحنا القديس بلسان عذب سرياني وقال: اى قانون من قوانين البيعة امركم ان تجلسو على كراسيكم وتوقفونا بين ايديكم مثل الاعوان [العبيد]. فقالو له: انت مخالف وجماعتك وما يجب ان تجلسو معنا كالاساقفة الارتدكسيين. فقال لهم: ان كنا مخالفين كما تقولو انتم فنجلس

ذلك الى فترة من عدم الاستقرار بسبب المنازعات بين أبناء البيت الأيوبى، انتهت بقيام الصالح نجم الدين أيوب - ابن الكامل - فى منصب السلطنه سنة ١٢٤٠م (٦٣٧هـ)، وفى عهد السلطان الصالح هذا استرد المسلمون بيت المقدس نهائيا - وتمت هذه العملية سنة ١٢٤٤م (٦٤٢هـ)[١]. وسرعان ما أدت هذه العملية الى تمكين الصالح نجم الدين أيوب من اعادة توحيد الدولة الأيوبية، وهذه الوحدة مكنته من الاستفادة من امكانات مصر مرة أخرى فى انزال عدة ضربات بالصليبيين في الشام سنة ١٢٤٧م (٦٤٥هـ) فانتزع منهم قلعة طبرية، كما استولى على عسقلان وبذلك انحسرت حدود الصليبيين وانكمشت الى أبواب يافا[٢].

على أن استيلاء المسلمين على بيت المقدس سنة ١٢٤٤م (٦٤٢هـ) من ناحية أخرى، كان له صدى عنيف فى الغرب الأوربى، فقامت البابوية كعادتها تدعو لحملة صليبية جديدة، وهى الدعوة التى صادفت قبولا فى نفس لويس التاسع ملك فرنسا. وبعد ان اكتملت استعدادات الملك لويس التاسع خرج على رأس حملته الى جزيرة قبرص سنة ١٢٤٨م

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٣٣..

(٢) ابو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٤٥هـ، العينى: عقد الجمان، حوداث٦٤٥هـ، ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥ ،ص٣٧٨.

معكم ونتكلم على الامانة والذى يعطيه الله الغلبة فهو يظفر ان وجدنا من يحكم بيننا بالحق لا بسلطان المملكة. وكان اسقف ملطية قد قرر مع بطرك الملكية واساقفته ان لا يجادلوه ولا اساقفته، وقال لهم: انهم علما جدا وان جادلتموهم افتضحتو قدامهم بل تسلطو عليهم بالكلام بعز المملكة. فحينيذ شتموهم وقالو لهم: أنتم هراطقة ما ينبغى لنا نخاطبكم. وقالو للخدام: خذوهم للغد. فلما كان بالغداة احضر الملك جميعهم

(٦٤٦هـ) حيث قضى الصليبيون بضعة أشهر، حتى استقر رأيهم أخيرا على مهاجمة مصر بوصفها قلب المقاومة[١].

وهكذا تكررت فصول الحملة الصليبية الخامسة قبل ذلك بثلاثين عاما، فخرج الملك الفرنسى على رأس حملته الصليبية من قبرص قاصدا دمياط فى مايو سنة ١٢٤٩م (٦٤٧هـ). والشئ الغريب الذى يسترعى الانتباه هو أن الحملة الصليبية السابعة بزعامة لويس التاسع لم تستفد مطلقا من الدروس التى تلقتها الحملة الخامسة بزعامة جاندى برين، وانما وقعت فى نفس الاخطاء سواء فى الرسو على الضفة الغربية للنيل المواجهة لدمياط بدلا من الضفة الشرقية التى تقع عليها دمياط ذاتها، أو فى اضاعة خمسة أشهر كاملة (يونيو ـ نوفمبر ١٢٤٩م = ٦٤٧هـ) عقب سقوط دمياط فى قبضة لويس التاسع، ثم اختيار أسوأ الطرق وهو طريق النيل الملئ بالترع والقنوات فى الزحف على القاهرة.

حقيقة ان السلطان الصالح نجم الدين أيوب توفى فى تلك الأثناء ـ فى نوفمبر ١٢٤٩م (٦٤٧هـ) ـ ولكن زوجته شجرة الدر قبضت على زمام الأمور فى حزم ومهارة، وأرسلت تستدعى على عجل ابنه توران شاه الذى كان خارج البلاد ينوب عن أبيه فى حصن كيفا بشمال العراق. ومرة أخرى وصل الصليبيون عند رأس المثلث المعروف باسم جزيرة دمياط، بعد

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج٢،ص ٨٣٥ (طبعة ١٩٨٦).

واوقفهم بين يديه وجعل ترجمانا بينه وبينهم وقال الملك للترجمان: قل للبطرك قد عرفوني انك قديس الله والان ما احب منك الا ان تعترف بمجمع خلقدونيه وتطيب نفسي فارفعك واكرمك واعطيك السلطان على جميع البلاد القريبة منك. فقال له: يا سيدنا الملك الرب يحفظ مملكتك وسلطانك وهو يعلم انني ما اترك الصلاة والدعا لمملكتك الضابطة كما امرتنا الكتب المقدسة حتى تكون حياتنا في دعة وسلامة، وليس يجوز

أن صادفوا مقاومة شديدة عنيفة من المصريين الحقت بهم خسائر لا حصر لها. وما كادت مقدمة الجيش الصليبي تدخل المنصورة حتى أطاحت بها فرقة المماليك البحرية، فاوسعوهم قتلا، وتحول التيار بسرعة ضد الصليبيين. وعلى الرغم من أن لويس التاسع تمالك شجاعته وحاول تنظيم صفوفه إلا أن جيشه تناقص بسبب كثرة من سقطوا قتلى في معركة المنصورة، وقلة المؤن، وانتشار الأمراض والحميات بين صفوف الصليبيين زادت من موقف الملك الفرنسي سواء[1].

وفي تلك المرحلة وصل المعظم توران شاه الى المنصورة في فبراير سنة ١٢٥٠م (٦٤٧هـ) بعد أن أعلن سلطانا في دمشق أثناء طريقه الى القاهرة. ولم يلبث توران شاه أن أمر ببناء عدة سفن حملت أجزاؤها على الجمال الى شمالي المعسكر الصليبي حيث ركبت وأنزلت في النيل وشحنت بالمقاتلين، فانقضت على المراكب الصليبية «وأخذتها أخذا وبيلا» وقطعت الطريق على السفن الصليبية لتحول دون اتصالهم بقاعدتهم في دمياط[2].

وكان أن شرع لويس التاسع ورجاله في عملية «هروب الى دمياط» كما اسماها المؤرخ المعاصر ابن واصل، ولكن المصريين لاحقوهم حتى تم انزال هزيمة كبرى بالصليبيين عند

(١) المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٥١، العيني: عقد الجمان، حوادث ٦٤٧هـ.
(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٦٦.

لسلطانك ان يلزم احد بان يترك دينه، كما ان لنا ملكين وهما ملك الحبشة وملك النوبة وما يلزمو احد من اهل ملتكم المقيمين عندهم ان ينتقلو عن امانتهم، والان فانا اسال السيد المسيح ان يثبت ملكك بلا اضطراب ويحفظ كل منا بما قد تبينه له. ففسر الترجمان جميع ما قاله له الا الملكين الحبشي والنوبي فانه زاد في ذلك وقال: لنا ملكين اعظم منك. وذلك ان اسقف ملطيه كان برطل الترجمان بمال وقرر معه ان يحرف القول عنه بما

فارسكور و «أحدق المسلون بهم يتخطفونهم طول الليل قتلا وأسرا». وكان من جملة الأسرى لويس التاسع نفسه الذى سيق مكبلا بالاغلال الى المنصورة حيث سجن فى دار القاضى ابن لقمان (١٢٥٠ـ ٦٤٧هـ)(١).

٢. قيام دولة سلاطين المماليك

١. نهاية الدولة الأيوبية:

يرجع الفضل الأول فى الانتصار على الصليبين فى المنصورة ثم فى فارسكور الى المماليك البحرية، الذين أخذ نفوذهم يزداد بشكل واضح منذ ذلك الوقت. ويطلق مصطلح «مماليك» فى التاريخ الاسلامى على جموع الرقيق الأبيض الذين ازداد الاقبال على شرائهم وتكوين فرق منهم ـ وخاصة فى مصر والشام ـ فى الفترة التى أعقبت وفاة صلاح الدين، والتى عمت فيها المنازعات بين حكام منطقة الشرق الأدنى وخاصة الأمراء المتنافسين من بنى أيوب، مما جعل كلا منهم يعمل على تكوين عصبية لنفسه يعتمد عليها فى تحقيق مآربه السياسية والحربية. وهكذا أقبل الملوك والأمراء على شراء أعداد كبيرة من المماليك، وعنوا بتدريبهم وتربيتهم

(١) ابن أيبك: كنز الدرر، ج٧،ص ٣٨١، المقريزى: كتاب السلوك، ج١، ص٣٥٦، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ، ج٦،ص٣٦٦.

يحنق الملك عليه ولو بكلمة واحدة، فلما سمع الملك اشتد غضبه وحنقه ولعنه ولعن مذهبه ومجمعه وقال: حقا انكم مخالفين. وامر ان يعاد الى الاعتقال. وكان احد تلاميذ القديس يوحنا يفهم اللغة وهو ترجمانه فلما خرجو اعلمه بما فعله الترجمان من تحريف القول عنه، فلما كان بالغداة احضر الملك بطركه ومجمعه واستشارهم فيما يفعله، فاشارو عليه بان ينفيه الى الجزاير القريبة منه هو ومن معه الى ان يعترفو بامانتهم

وتنشئتهم ليكونوا لهم عدة وسندا، ومن هؤلاء كان السلطان الصالح نجم الدين أيوب، الذى كون فرقة كبيرة من المماليك ـ وأسماها المماليك البحرية قدر لها أن تلعب دورا خطيرا فى التاريخ[1].

أما عن السبب فى تسمية هذه الفرقة بالبحرية فالمرجع أن ذلك يرجع الى اختيار الصالح نجم الدين أيوب جزيرة الروضة فى «بحر» النيل مركزا لهم. ومعظم هؤلاء المماليك البحرية من الأتراك، جلبوا من بلاد القفجاق ـ شمالى البحر الأسود ـ ومن بلاد القوقاز قرب بحر قزوين. والمعروف عن الأتراك القفجاق أنهم امتازوا عن طوائف الترك بحسن الطلعة وجمال الشكل وقوة البأس فضلا عن الشجاعة.

وكان أن حقق المماليك البحرية الغرض من انشاء فرقتهم وأثبتوا جدارتهم وكفايتهم عندما أحرزوا انتصاراتهم على لويس التاسع وحملته ـ بين المنصورة وفارسكور ـ سنة ١٢٥٠م (٦٤٧هـ). وصادف ذلك وصول السلطان الجديد توران شاه ـ ابن الصالح نجم الدين أيوب ـ الذى وصفته المصادر المعاصرة بالطيش والخفة والهوج، فلم يقدر حقيقة الدور الذى نهض به المماليك البحرية ولم يدرك أهمية تلك الفرقة، وانما حسدهم على ما صار لهم من نفوذ نتيجة للانتصارات التى حققوها، وأخذ يخطط للخلاص من زعمائهم وجاء ذلك فى الوقت الذى

(١) العينى: عقد الجمان، حوادث ٦٤٧هـ.

وحينئذ يطلق سبيلهم، وكان منهم شيخين مطرانين فلما علما بذلك اعترفا بمجمع خلقدونيه وظنا انهما يبقيا فى طقسهما الاول فلم يتركهما بطرك الملكيه فيه بل جعلهما ابو دياقنين، واما الاثنين الاخر فانهما تمسكا بامانتهما ولم يجيبها الى ما اراده الملك، واجتهد الملك فما قدر يصدهما عن امانتهما الارتدكسيه، فاحضر الملك ابا يوحنا البطرك ووعده بكرامة كثيرة وتقدمة، فقال له: هو ذا انا قايم بين يديك وتحت حكمك، وسلطانك

استثار توران شاه حفيظة زوج أبيه شجرة الدر بعد أن تنكر لها ونسى أنها حفظت له عرش أبيه بعد وفاته وأرسلت تستدعيه من حصن كيفا، فاتهمها بانها أخفت ثروة أبيه، وأخذ يكيد لها. ولم يلبث أن تم اتصال بين المماليك البحرية من ناحية وشجرة الدر من ناحية أخرى للتخلص من العدو المشترك، حتى انتهى الأمر بقتل توران شاه سنة ١٢٥٠م (٦٤٨هـ)، وبمقتله انقرضت دولة بنى أيوب من مصر بعد أن حكموها احدى وثمانين سنة[١].

ويبدو أن شجرة الدر كانت أبرز شخصية على مسرح الأحداث بعدمقتل توران شاه فاختيرت لمنصب السلطنة، نظرا لما اشتهرت به من أنها كانت «خيرة، دينة، رئيسة، عظيمة فى النفوس». وكانت شجرة الدر أول أمرها جارية للخليفة المستعصم العباسى، قبل أن يشتريها الصالح نجم الدين أيوب ويعتقها ويتزوجها، ولذا فانها من ناحية الأصل والنشأة أقرب الى المماليك، مما جعل المؤرخين يعتبرونها أولى سلاطين المماليك فى مصر، فقال عنها المقريزى أنها «أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك»[٢].

وبعبارة أخرى، فانه بقيام شجرة الدر فى الحكم سنة ١٢٥٠م (٦٤٨هـ) بدأت دولة

(١) ابو الفدا: المختصر فى اخبار البشر، ج٣،ص١٨١١،المقريزى: كتاب السلوك،ج١، ص٣٥٨ـ ٣٦٠، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج٦،ص ٣٧٢.
(٢) المقريزى: كتاب السلوك ،ج١،ص١٦٣ .

فهو على جسدى فافعل فيه ما ترى وكما تريد فاقتلنى فاننى لا اتخلا عن امانتى المستقيمة الى الابد، فامر بنفيه الى دير فى جزيرة قريبة من القسطنطينية بينه وبينها مسافة يوم واحد ولم يدع معه الا تلميذ واحد يخدمه، وكان به وجع النقرس فى رجليه فاقام هناك سنتين وكان فى تلك الجزيرة حبيس [راهب] من الملكية فامر الرهبان الذين معه ان يمضو كل يوم الى البطرك القديس يوحنا ويلعنوه ويصقو فى وجهه، وجعل عليهم حرم

سلاطين المماليك فى مصر، وهى الدولة التى استمرت فى حكم البلاد أكثر من قرنين ونصف من الزمان، أى حتى الغزو العثمانى سنة ١٥١٧م (٩٣٢هـ). وقد انقسمت هذه الدولة الى قسمين أو دولتين، الأولى دولة المماليك الترك أو البحرية الذين استمروا فى الحكم حتى سنة ١٣٨١م (٧٨٤هـ) والثانية دولة المماليك الجراكسة أو البرجية ـ نسبة الى أبراج القلعة التى نشأوا وربوا فيها ـ واستمرت حتى سقطت على يد السلطان سليم العثمانى سنة ١٥١٧م (٩٢٢هـ).

واذا كان معظم مماليك الدولة الأولى من عنصر الأتراك القفجاق، ومعظم مماليك الدولة الثانية من عنصر الجركس أو الشراكسة، فليس معنى ذلك ان عصر سلاطين المماليك فى مصر لم يعرف غير هذين العنصرين. ففى عصر دولة المماليك الأولى وصلت دفعات من المماليك من أصل مغولى، وهؤلاء ارتقوا بسرعة فى وظائف الدولة حتى أن السلطان كتبغا نفسه ١٢٩٤ـ ١٢٩٦هـ(٦٩٤ـ ٦٩٦هـ) كان مغولى الأصلى. وفى ضوء هذه الظاهرة يمكننا أن نفسر انتشار بعض عادات المغول فى مصر بين المماليك، مثل أكل لحوم الخيل فى الحفلات والمناسبات، وصناعة بعض أنواع الخمور من لبن الخيل بالذات[1].

وعندما وجد تجار الرقيق ان سلاطين المماليك وأمراءهم فى مصر يقدرون بضاعتهم

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، ص١٢.

[حرمان من الكنيسة] ان لم يفعلو ذلك كل يوم، وكانو يفعلو به هذا مدة مقامه هناك، وكان فى الدير صبى خادم وكان يزيد فى شتم البطرك وكان التلميذ اذا اصلح [ماء] حار لرجلى البطرك ليجد به راحه يرمى ذلك الصبى فيه الرماد، وكان التلميذ يبكى والبطرك يعزيه ويقول له يا ولدى الله ما ينسانا، وكان الصبى قد لج فى هذا الفعل فوثب عليه روح شيطان فخنقه وخبطه وعذبه فقدموه الى الشيخ انبا يوحنا وهو يزبد ويضرب

ويدفعون فيها الأموال الطائلة، نشطوا فى جلب المماليك، وأسهم فى هذه التجارة بعض التجار الأوروبيين ـ وخاصة من المدن التجارية الايطالية ـ الذين نافسوا التجار الشرقيين فى جلب المماليك الى مصر. وهكذا نجد أصول المماليك فى مصر قد أ خذت تتنوع تنوعا واضحا، فوجد منهم المغول والصقالية والروم والأسبان والألمان.. وغيرهم، فضلا عن الأتراك والشراكسة. وقد انتسب هؤلاء المماليك غالبا الى أساتذتهم، أى سادتهم الذين اشتروهم بالمال من التجار وأشرفوا على تربيتهم... فالمماليك الظاهرية نسبوا الى الظاهر بيبرس والمماليك الأشرفية نسبوا إلى السلطان الأشرف خليل... وهكذا.. وأحيانا نسب المملوك الى تاجره الذى جلبه اذا كان معروفا بحسن بضاعته وجودتها، كالمماليك العثمانية الذين نسبوا الى الخواجا عثمان أحد كبار تجار الرقيق فى ذلك العصر. وربما نسب المملوك الى قيمته التى اشترى بها اذا كانت كبيرة تستحق الفخر، لما لها من دلالة على عظم المواهب والصفات المتوفرة فى ذلك المملوك مثل قلاون الالفى الذى اشترى بألف دينار(١).

٢. نظام المماليك وحياتهم:

حكم المماليك مصر بوصفهم ارستقراطية عسكرية ممتازة. سيطرت على البلاد وأهلها.

(١) المقريزى: كتاب المواعظ والاعتبار، ج٢ ،ص٢٩١ (بولاق) ابن قاضى شهبة: الاعلام بتاريخ أهل الاسلام، ج٤ ،ص ٢٧٣ .

براسه ويصر باسنانه فاقام ثلثة ايام والشيطان يعذبه ثم مات موتا ردى. وكان بالقسطنطينية انسان يحب انبا يوحنا فجا الى هناك ليفتقده فلم يقدر يصل اليه، فكتب له رقعة ومضى الى قرية قريبة من الدير اجتمع فيها بانسان يعرفه وقال له انا اشتهى تاخذ هذه الرقعة توصلها للبطرك سرا من غير ان يعلم بك احد ودفع له دينار والرقعة ولم يكن فيها شيا الا السوال عنه والاعتذار اليه بانه لا يمكن من الوصول اليه ليفتقده والتمس منه بركة

وكان لهم فى أصلهم ونشأتهم وطريقة تربيتهم وأسلوبهم الخاص فى الحياة سياج اكسبهم واكسب دولتهم طابعا خاصا مميزا. وعلى الرغم من أن المماليك يرجعون الى أصول وعناصر أجنبية وفدت على البلاد من الشرق والغرب، الا أنه لايمكن أن نعتبر حكمهم حكما أجنبيا. ذلك انهم غدوا بعد جلبهم الى البلاد، جزءا من مصر وتاريخها، ونجحت مصر فى استيعابهم وهضمهم وتشكيلهم، وأحسوا بأحاسيس أهل البلاد، وانفعلوا بحضارتهم. وبذلك أمدوا ـ ليس فى مصر فقط بل الشام أيضا ـ بدماء جديدة حتى غدوا درع المنطقة الذائدين عنها، لايعرفون لهم وطنا الا مصر ولا أرضاً غير أرضها. ونسمع عن بعضهم عندما شب وكبر وأصاب قدر من حسن الحظ فى الحياة، واستدل على مسقط رأسه الأول، أنه أرسل يستدعى أبويه وأهله الى مصر، بوصفها وطنه الذى غدا لايعرف وطنا غيره. وبعبارة أخرى فان أصول المماليك الأجنبية لاتتعارض مطلقا مع ما صاروا اليه قطعة من مصر وتاريخها وحضارتها. وما أشبه المماليك فى ذلك العصر بالشعب الأمريكى الذى ترجع أصوله اليوم الى مختلف الجنسيات والأصول ولكنهم غدوا قطعة من أمريكا يشكلون تاريخها ولاينتسبون الا اليها ، ويعملون من أجلها، والتشبيه مع الفارق.

وكان السلطان اذا اشترى عددا من المماليك، فانه يرسلهم أولا الى الأطباء لفحصهم، ثم ينزلهم فى الطباق ـ وهى البيوت المخصصة لتربيتهم فى القلعة ـ وقد خصص لكل طبقة من

يجعلها فى منزله، فاخذ الرقعة ومضى بها الى المقدم [قائد الحرس] كما فعل يودس، فارسل قوما الى صاحب الرقعة فضربوه وحبسوه، فسمع الاب البطرك بكاه وكلامه بالسريانى، فصاح لتلميذه واستعلم منه الخبر فاعلمه بكلما جرى فتعجب البطرك واغتم وانفذ اليه يعزيه وقال له لا تضيق صدرك بعد ثلثة ايام يزيل الرب هذا كله، فاستقصى التلميذ عن معنى القول فقال له سرا:

هذه الطباق فقيه يحضر اليها لتعليم المماليك القرآن وأحكام الدين وآداب الشريعة(١). فاذا كبر المملوك وأدرك سن البلوغ بدأ تعليمه فنون الحرب من «الرمى بالنشاب واللعب بالرمح وركوب الخليل وأنواع الفروسية». وعندما ينتهى المملوك من هذه المرحلة التعليمية يظل يتقدم درجة بعد درجة، حتى يتحرر ويرتقى ليصير من الأمراء.

وعندما يتحرر المملوك ويصبح أميرا كان من حقة أن يقتنى بدوره عددا من المماليك يتناسب مع درجة امارته. وأرقى درجات الامارة كانت «أمير مائة مقدم ألف» ومن حق هذا الأمير الكبير أن يمتلك مائة مملوك ويقود أثناء الحرب ألفا من المماليك(٢).

والواقع أن المملوك اذا تحرر وصار من الأمراء فانه يصبح سلطاناً صغيرا، أو على قول القلقشندى «سلطاناً مختصرا»، تدق على بابه الطبول والزمور، ويكون له اسطبل خاص أى مجموعة من المبانى تضم مسكنه وبيوت مماليكه وموضع خيوله ومخازن مؤنتها وسروجها، وله ادارات خاصة ـ تعرف باسم البيوت الكريمة ـ تشرف على مصالحة مثل الطشت خاناه،

(١) المقريزى: كتاب السلوك، ج٢،ص٥١٤، سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، ص١٤.
(٢) القلقشندى: كتاب صبح الاعشى ،ج٤،ص١٤ ـ ١٥.

بعد ثلثة ايام ياخذني الله اليه فلا تدفني في مدفن الهراطقة بل اجعلني في موضع وحدى، لان اليوم الذى انام فيه ينفذ الملك ليخرجني فيجدني قد خرجت من هذا الجسد فيمضي بك وبالرجل الاخر الى الملك فيفرج عنكما، وانا اوصيك ان تقول للشعب لا يدع الذى ياتى بعدى يسكن في بلاد الروم بل يسكن في امد أو مدينه الرها. وكان تلميذه مفكر كيف يقدر يخلص جسده بعد موته من المخالفين ليلا يفعلو به ما يريدو، ثم قال في

والفراش خاناه وغيرها. ويعتمد في حياته على الاقطاع الذى يهبه السلطان اياه والذى كان يتراوح عادة بين زمام قرية وعشر قرى[1].

ولم تكن الرابطة الأسرية ـ أى ارتباط الزوج بزوجه وأولاده وأسرته ـ هى أقوى الروابط بين المماليك، وانما فاقتها رابطة الأستاذية أى الرابطة التى تربط المملوك بسيده، أى أستاذه الذى اشتراه رقا في صغره وتعهده بالتربية والرعاية حتى كبر واعتقه. وقد كرس السلاطين والأمراء الجزء الأكبر من عنايتهم لمماليكهم، ولم يضنوا عليهم بالأرزاق والأموال، وانما خصصوا لهم الأطعمة المختلفة من لحوم وحلوى وفواكه، كما عينوا لهم الكسوات الفاخرة، بل ان الأمير كان لايتناول طعاما مع زوجه وأولاده وانما يتناوله صحبة مماليكه «ولايمكن أن يأكل الا وجميع أجناده معه»[2].

ذلك أن السلطان أو الأمير كان يعرف جيدا أن هؤلاء المماليك عصبيته وحماته والملتفون حوله وقت الأزمات، ودرعه ضد خصومه، والمنتسبون اليه. ومن ناحية أخرى فان المملوك كان يشب وينشاء لا يعرف أباً إلا أستاذه الذى اشتراه صغيرا وسهر على تربيته، ولم يضن عليه بمال أو عطف، وهكذا بلغت رابطة الأستاذية ـ التى تربط المملوك بأستاذه ـ درجة من القوة

(١) المصدر السابق، ج٤ ص٦٠.
(٢) المقريزى: المواعظ والاعتبار، ج١، ص٨٧ ـ ٨٨.

نفسـه بل تكون مـشيـة الله، فعلم البطرك بالروح
فكره وقـال له: لماذا تشك لاجل جسـدى اومن ان
الله قـادر على كل شيء. ومن بعـد ثلثـة ايام تنيح
كـمـا قال، فلمـا علمـو الرهـبان بذلك اجـتـمـعـو
ليدفنوه، وكان ريس الدير برا [غير موجود] فارسل
الملك يطلب البطرك فوجده ميتا، فتخاصمو الرسل
مع الرهبـان الذين ارادو دفنه ومنعـوهم ان يدفنوه
هناك وقـالو: امـضـو بهـذا الهـراطيـقى من وسط

جعلت بعضهم يوصى فى الحجج الشرعية الخاصة بأوقافهم بصرف جزء من ريع الوقف«على تربة أستاذه»(١).

ويضـاف الى هذه الرابطة رابطة أخرى هي رابطة الخشـداشيـة ـ أى الزمـالة ـ بمعنى ان يحس المماليك المنتمون الى أستاذ واحد برابطة قوية تربط بينهم حتى وكأنهم اخوة ينتمون الى أب واحد. هذا فـضـلا عن رابطة الزمالة بين المماليك جمـيـعا وبين أفراد كل طائفة من طوائفهم(٢).

على أنه يبدو أن المماليك أحسوا من أول الأمر بأنهم لايمتلكون حقا شرعيـا فى الحكـم، اذ اغـتـصـبـوا الملك من سـادتهم بنى أيوب. هذا فـضـلا عـن احـساسـهـم بعـقـدة نفـسـه خطـيرة مصدرها أصلهم غير الحر، وأنهم كانوا رقيقا فى يوم من الأيام مما يضعف من مكانتهم فى نظر المحكومين. من ذلك مـا تعـرضـوا له من ثورات فى بداية حكمـهم من جـانـب بقـايـا

(١) عبد اللطيف ابراهيم: دراسات تاريخية وأثرية فى وثائق من عصر المماليك مجلد ١، ص٣٩ (رسالة لم تطبع).

(٢) محـمـد مـصطفى زيادة: بعض ملاحظات جديدة فى تاريخ دولة المماليك بمصر(بحث نشر فى مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة، المجلد الرابع، الجزءالأول، ١٩٣٦).

الارتدكسيين. فاخذوه ومضو به الى موضع صخره فحفرو ودفنوه بعيد عنهم. فاما رسل الملك فانهم اخذو التلميذ والرجل الذى جا من القسطنطينية لافتقاد البطرك وكتب اليه الرقعة وعادو الى الملك واخبروه بوفاته فاطلقهما لانه كان قد قاسا عذابا في منامه في تلك الليلة لاجل البطرك القديس.

وكانت نياحته في النفى في سنة سبع ماية سبعة واربعين للشهدا الابرار، وما كان الله جل ثناوه

البيت الأيوبى فى الشام من ناحية، ومن جانب الأعراب فى مصر من ناحية أخرى، وهم الذين أبو الخضوع لأناس «قد مسهم الرق»[1].

ولهذا وذاك من العوامل لجأ المماليك الى احياء الخلافة العباسية فى مصر بعد أن كانت قد سقطت على أيد التتار ـ أو المغول ـ فى سنة ١٢٥٨م (٦٥٦هـ). ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس استحضر أحد أبناء البيت العباسى الى مصر، وبعد أن شهد الشهود على صحة نسبه بويع بالخلافة فى القاهرة سنة ١٢٦١م (٦٥٩هـ)، فقام الخليفة العباسى بدوره بتقليد السلطان الظاهر بيبرس «البلاد الاسلامية» ، مما أضفى على سلطان المماليك وحكمه صبغة شرعية، بوصفه متمتعا ببيعة الخلافة العباسية[2].

على أنه يبدو أن هذه الخطوة لم تكن كافية للتغلب على مركب النقص الذى احس به المماليك من ناحية أصلهم غير الحر، ومن ثم دأبوا على الظهور فى صورة حماة الإسلام الذابين عنه ليتكسبوا حب المعاصرين وتقديرهم، ذلك أنهم لم يكتفوا برعاية المنشآت والمؤسسات

(١) المقريزى: البيان والاعراب عما بأرض مصر ص٩، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١، ص٣٨٦ ـ ٣٨٨.

(٢) النويرى: نهاية الأرب، ج٢٨، ص١٨ ـ ١٩ (مخطوط)، المقريزى: كتاب السلوك، ج١ ص٤٤٨ وما بعدها.

وتعالى يخفى عنه شيا مما يريد معرفته لقدسه وطهارته.

وكان من قبل اشخاصه [ارساله] الى بلاد الروم قد هرب اليه انبا افرهام اسقف دمياط لاجل ما جرى عليه من شعبه وما بلغه عن قدسه فمضى ودخل ديره وعليه لباس زرى بزى الرهبان وقلنسوة بيضا ليخفى امره، ووقف فى زاوية من البيعة فى وسط جماعة الرهبان وكان يوم الاحد والاب انبا

الدينية ورجالها، وانما قاموا بحركة جهاد واسعة أظهرتهم فعلا فى صورة القوى الكبرى التى حمت الاسلام فى الشرق الأدنى من الأخطار العديدة التى ألمت به، وعلى رأسها خطر الصليبيين من ناحية، وخطر التتار من ناحية أخرى.

٣. المماليك والتتار:

قامت دولة سلاطين المماليك فى مصر فى وقت دهم منطقة الشرق الأوسط خطر ضخم من نوع جديد هو خطر التتار أو المغول. فبعد أن نجح جنكيزخان فى توحيد قبائل التتار غدوا قوة رهيبة فى أوائل القرن الثالث عشر، وانطلقوا غربا نحو شرق أوروبا ووسطها من ناحية والشرق الأوسط من ناحية أخرى، فى صورة غزوات هدامة يسفكون الأرواح بالجملة ويفسدون الزرع والضرع ويخربون المدن والقرى، وينشرون الدمار والرعب فى كل مكان. ولم يكتفوا بالاستيلاء على بلاد فارس، وانما غزوا العراق واقتحموا بغداد ليسقطوا الخلافة العباسية ويقتلون ثمانمائة ألف من أهلها فى مذبحة رهيبة سنة ١٢٥٨م (٦٥٦هـ)، مما أثار موجة من الرعب فى بلاد الشام ومصر، وهما على التوالى الخطوتان التاليتان فى خط سير الزحف التترى[١].

(١) أبو الفدا: المختصر، حوادث ٦٥٦هـ، رشيد الدين الهمذانى: جامع التواريخ، ص٢٣٦ وما بعدها.

يوحنا داخل الاراديون [الهيكل أو المحراب] فقال لتلميذه: امضى الى الموضع الفلانى من البيعة تجد هناك اسقفا من ديار مصر قايما مع الرهبان بزى راهب فاتينى به. وهذا عجب يشبه ما جرى للقديس باسيليوس المعلم الكبير اسقف قيساريه قبادوقيه مع القديس مارى افرام السريانى، فمضى التلميذ الى هناك فلم يعرفه لاجل تغييره لباسه، فعاد الى الاب وقال له: ما وجدته. فقال له: بلا هو قايم هناك ومعه راهبين غريبين. فرجع التلميذ

واذا كان ملوك الأيوبيين فى بلاد الشام قد ضعفوا أمام ذلك الخطر، فاستسلم بعضهم وصانعوا العدو وأعلنوا خضوعهم له، فى حين فر البعض الآخر تاركا بلاده، تسقط فى قبضة التتار أتباع هولاكو، مما مكنهم من الاستيلاء على ميافارقين وحلب ودمشق.. فان المماليك فى مصر صمدوا ووقفوا موقفا كريما يذكره لهم التاريخ. ذلك أن السلطان قطز ما كاد يتسلم رسالة من هولاكو، يطلب منه فيها الاستسلام، وينذره بالويل والثبور اذا حدثته نفسه بالمقاومة، حتى هب قطز يدق طبول الحرب معتمدا على امكانات مصر الواسعة، فأمر بقتل رسل التتار الأربعة وتعليق رؤوسهم على باب زويلة، وشرع تعبئة قواته على أوسع نطاق[١].

ومرة أخرى خرج جيش كبير ضخم من مصر لينقذ بلاد الشام من موجة خطر جديد. وشاء حسن حظ المماليك عندئذ أن يضطر هولاكو نفسه الى العودة مسرعا الى جوف القارة الآسيوية عندما سمع بموت خاقان المغول العظيم، وان كان ذلك لم يوقف موجة الزحف المغولى التى أخذت تمتد الى جنوب فلسطين فى اتجاه حدود مصر. وفى ذلك الوقت كان جيش المماليك بزعامة سلطانهم قطز قد زحف عن طريق غزة والساحل متجها صوب بحيرة طبرية[٢].

---

(١) المقريزى: كتاب السلوك، ج١، ص٤٢٩.

(٢) ابو الفدا: المختصر، حوادث سنة ٦٥٨هـ.

الى الموضع وقال للثلثة: من منكم الاسقف؟.
فقال واحد من الراهبين: هو هذا. فقال له: الاب
يدعوك. فاتى معه اليه ولما دخل له سجد بين يديه
فاقامه البطرك وقال له: لماذا هربت من النعمة التى
دفعها لك السيد المسيح، فقال له ما انا هارب
وانما جيت لا شاهدك واخذ بركتك، فقال له: بلا
انت هارب من كثرة الكلام والتعب الذى نالك.
وخاطبه بكلام طيب قلبه، واقام عنده مدة واعادة
الى كرسيه مكرما.

وفى موقعة عين جالوت التى دارت بين المسلمين والمغول سنة ١٢٦٠م (٦٥٨هـ) تفوق المغول فى أول الأمر، وعندئذ أظهر قطز مزيدا من الثبات، وحمل على المغول حملة صادقة زعزعهم بها، فانهارت صفوفهم، وقتل كتبغا قائدهم وكثير من رجاله، وولى الباقون الادبار[١].

ولاشك فى أن موقعة عين جالوت كانت نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الشرق الأدنى. ومهما يقل من أن المغول كانوا بوصولهم الى عين جالوت قد بلغوا نهاية فى حركتهم التوسعية فى ذلك الاتجاه، فان موقف مصر وحكامها هو الذى أنقذها ـ فضلا عن الشام ـ من خطر المغول وجعل دولتهم فى فارس تقف عند حدود العراق. أما بالنسبة للمماليك أنفسهم فان انتصارهم فى عين جالوت أضفى عليهم وعلى دولتهم الناشئة هالة من المجد كانوا فى أشد الحاجة اليها. ويكفى أنهم تغلبوا على الخطر الكاسح الذى لم تستطيع قوة أخرى أن تصمد أمامه وبذلك أنقذوا الشام ومصر من خطر التتار. يضاف الى ذلك ان المماليك بعد عين جالوت بسطوا سيطرتهم على كل بلاد الشام، فطاردوا المغول وردوهم الى الجزيرة والعراق من

(١) ابن تغرى: النجوم الزاهدة، ج٧، ص٧٩.

وجلس على كرسى انطاكيه بعد هذا القديس يوحنا ابن اخيه واسموه يوحنا بطركا، رزقنا الله شفاعتهما وبركتهما جميعا.

وتلميذه اخبرنى انا ميخاييل [الدمراوى] كاتب هذه السيرة بذلك لما مضيت الى كرسى انطاكيه بعد ان صرت اسقفا على كرسى مدينة تنيس واعمالها ومعى انبا غبريال اسقف صا بالرسالة السنوديقا التى كتبها انبا اخر ستودلوس بطرك

ناحية، وانتزعوا ممتلكات البيت الأيوبى فى الشام من ناحية أخرى ولاشك فى ان تقاعس ملوك البيت الأيوبى عن صد التتار، ونفورهم من الجهاد، بل تواطأ بعض ملوك بنى أيوب بالشام مع التتار واشتراكوا معهم ضد اخوانهم المسلمين فى عين جالوت، أفقد الأيوبيين أى حق شرعى فى حكم البلاد(١).

. وفى ضوء هذه الحقيقة يمكننا أن نضيف الى أهمية عين جالوت أنها كانت بمثابة الحد الفاصل فى الصراع بين المماليك فى مصر والأيوبيين فى الشام، وانها جاءت ايذانا بغروب شمس دولة بنى أيوب وارتفاع نجم دولة المماليك فى مصر والشام جميعا.

على أن خطر مغول فارس لم يتوقف بعد عين جالوت، اذ استمروا يخرجون من العراق للاغارة على بلاد الشام. ولكن هذه الغزوات لم تتخذ شكلا كاسحا مثلما كان الحال من قبل، وانما اتخذت صفة متقطعة تنتهى بالانسحاب السريع عندما تخرج لهم الجيوش من مصر. وقد ظل سلاطين المماليك بعد قطز متيقظين لذلك الخطر، فانزلوا بالتتاركثيرا من

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليك فى مصر والشام، ص٣٦.

اسكندريه الى ابا يوحنا المقدم ذكره فى سنة سبع مابة خمسة وستون للشهدا، لانني سالت هذا التلميذ وقلت له: اقام الاب ابا يوحنا الميت احقا هو؟. فشرح لي جميع ما ذكرته في هذه السيرة. فاما خبره مع انبا افرهام اسقف دمياط فانني سمعته من فمه في السنة التي توفى فيها الاب انبا زخارياس بمصر. وهذين البطركين لقيا تعبا عظيما ومشقة واخذا اكليلا جليلا بصبرهما واعترافهما بالامانة الارتدكسيه قدام المخالفين، اما انبا يوحنا

الضربات عند أعالى الفرات وشرق آسيا الصغرى[1]. وظل الوضع على ذلك حتى أوائل القرن الرابع عشر للميلاد(القرن الثامن الهجرى).

ثم كان ان تجدد خطر التتار مرة أخرى فى أواخر ذلك القرن عندما ظهر تيمور لنك الذى ينتمى الى بيت من أشراف التتار، ولد فى مدينة سمر قند وتألق نجمه فيها، واتخذها قاعدة لاعماله التوسيعة فى بلاد الشرق الأوسط فضلا عن الهند. ولم يكتف تيمورلنك بالاستيلاء على بغداد سنة ١٣٩٣م (٧٩٥هـ) وتخريبها وقتل كثير من أهلها، وانما استولى على حلب ودخل دمشق، مما أحدث هزة عنيفة فى مصر. وكانت دولة المماليك عندئذ تعانى بعضا من مشاكلها الداخلية الأمر الذى جعل سلطانها فرج بن برقوق يعقد صلحا مع تيمور لنك سنة ١٤٠١م (٨٠٤هـ) ولم يلبث أن توفى تيمور لنك بعد ذلك بأربع سنوات، مما عرض دولته الواسعة للتمزق بسبب النزاع بين ورثته، وبذلك انكسرت حدة خطر التتار على دولة المماليك فى مصر والشام[2].

(١) انظر على سبيل المثال: المقريزى: كتاب السلوك ،ج١ص ٥٢٤، ٥٨٤، ٦٨٠.
(٢) ابراهيم طرخان: مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ص٧٢ وما بعدها.

فـقـدام ملك الروم وبطـركـهم وطايفـتـه، وامـا ابا زخـارياس فـقـدام الحـاكم ملك المسلمين واهل مملكته.

وقـال انبا افـرهام اسـقف دمـياط المقـدم ذكـره: شـاهدت من الاب القـديس يوحنا البطـرك عنـد كـونى عنده عـجايب عظـيمـة، فـمنهـا انـى رايت تلمـيـذ من تلاميذه قـيل لى انه كـان اعـمـا وان ابا يوحنا فـتح عـينيـه، فـسالت التلمـيـذ بمطانوه ان

هذا، ويلاحظ أنه فى الوقت الذى سادت العلاقات العدائية بين المماليك من ناحية وتتار فارس والعراق من ناحية أخرى، كانت هناك علاقات ودية ربطت بين المماليك وفرع آخر من التتار هم تتار القفجاق قرب بحر قزوين وشمالى البحر الأسود. وكان تتار القفجاق ـ أو القبيلة الذهبية وفقا للون مخيماتهم الذهبى ـ قد اعتنقوا الاسلام منذ وقت مبكرا مما أدى الى تقارب بينهم وبين القوى الاسلامية فى الشرق الأوسط وعلى رأسها دولة المماليك فى مصر والشام. وقد ظهر هذا التقارب فى صورة تبادل السفارات والهدايا، فضلاعن عقد اتفاقيات ضد العدو المشترك ممثلا فى تتار فارس والعراق(١).

٤. سلاطين المماليك البحرية(الدولة التركية)

١ـ شجرة الدر(٦٤٨هـ ١٢٥٠م).

٢ـ المعز الدين أيبك(٦٤٨هـ ١٢٥٠م).

٣ـ المنصور نور الدين على (٦٥٥هـ ـ ١٢٥٧م).

(١) العينى : عقد الجمان، ج٢، المجلد الثالث ورقة٤٩٤(مخطوط) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٢٠٤ ـ ٢٠٥القلقشندى: صبح الاعشى، ج٧، ص٢٩٥ـ ٢٩٦. النويرى: نهاية الأرب، ج٣٠، ورقة ١٣٧(مخطوط).

يشـرح لى خبـره. فـقـال لى: كنت اعـمـا وكنت اجلس فى البيعة عند حوض الما الذى تعطى الناس قـربانهم منه، وكنت اجـذب ثيـاب الذين اعـرف كلامهم ليصـدقو على بشى من مالهم، فـجذبت يوم ثوب واحـد من الاخوة فـمضى وشكانى للاب وكـان قـد فـرغ من تقـريب الشـعب واعطاهم السلامة وغسل يديه، فـخرج الى عندى وقال لى: يا ولدى مـا بالك توذى الناس وتخـزق ثيـابهم. فقلت: يا ابى انا اعمى وضعيف وهم يبصرو اطلب

٤ـ المظفر سيف الدين قطز(٦٠٧هـ ـ ١٢٥٩م).

٥ـ الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى (٦٥٨هـ ١٢٦٠م).

٦ـ السعيد ناصرالدين بركة خان (٦٧٦هـ – ١٢٧٧م).

٧ ـ العادل بدر الدين سلامش (٦٧٨هـ ١٢٧٩م).

٨ ـ المنصور سيف الدين قلاون الألفى (٦٧٨هـ ـ ١٢٧٩م).

٩ـ الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاون (٦٨٩هـ ١٢٩٠م).

١٠ ـ الناصر ناصر الدين محمد بن قلاون (للمرة الأولى)(٦٩٣هـ ١٢٩٢م).

١١ـ العادل زين الدين كتبغا(٦٩٤هـ ـ ١٢٩٤م).

١٢ـ المنصور حسام الدين لاجين المنصورى (٦٩٦هـ ـ ١٢٩٦م).

١٣ـ الناصر ناصر الدين محمد (للمرة الثانية) (٦٩٨هـ ـ ١٢٩٨م).

١٤ـ المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير(برجى) (٧٠٩هـ ـ ١٣٠٨م).

١٥ـ الناصر ناصر الدين محمد (للمرة الثالثة) (٧٠٩هـ ـ ١٣٠٩م).

١٦ـ المنصور سيف الدين أبو بكر بن الناصر محمد (٧٤١هـ ـ ١٢٤١م).

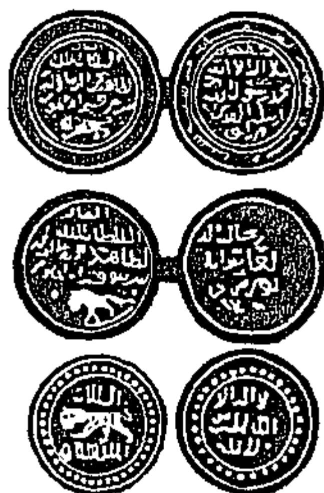
نقود الملك الظاهر بيبرس

منهم ان يعطونى شيا صدقة فما يفعلو. قال لى: فان فتح السيد المسيح عينيك فايش تعمل، فقلت: اخدمك الى يوم وفاتى. فاخذ بيده من ذلك الحوض ما وقال: السيد المسيح الذى جبل طينا بتفلته من الارض وطلى به عينى الاعما المطموس وقال له امضى اغسلهما فى عين سلوان ينفتحا هو يفتح عينيك هاتين. ورش الما على عينى فانفتحا كما ترى، فخدمته الى الان واخدمه ايضا الى ان اموت تحت رجليه. وعرفنى الثقات المامونين عن

١٧ـ الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمد(٧٤٢هـ ـ ١٣٤٢م).
١٨ـ الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد(٧٤٣هـ ـ ١٣٤٢م).
١٩ـ الصالح عماد الدين اسماعيل بن الناصر محمد(٧٤٣هـ ـ ١٣٤٣م).
٢٠ـ الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمد (٧٤٦هـ ـ ١٣٤٥م).
٢١ـ المظفر سيف الدين حلجى بن الناصر محمد(٧٤٧هـ ـ ١٣٤٦م).
٢٢ـ الناصر ناصر الدين الحسن بن الناصر محمد(للمرة الأولى) (٧٤٨هـ ـ ١٣٤٧م).
٢٣ـ الصالح صلاح الدين بن الناصر محمد(٧٥٢هـ ـ ١٣٥١م).
٢٤ـ الناصر ناصر الدين الحسن بن الناصر محمد (للمرة الثانية) ٧٥٥هـ ـ ١٣٥٤م.
٢٥ـ المنصور صلاح الدين محمد بن حاجى(٧٦٢هـ ـ ١٣١٦م).
٢٦ـ الأشرف ناصر الدين شعبان(٧٦٤هـ ـ ١٣١٦م).
٢٧ـ المنصور علاء الدين على بن شعبان(٧٧٨هـ ـ ١٣٧٦م).
٢٨ـ الصالح صلاح الدين حاجى بن شعبان(المرة الأولى) (٧٨٣هـ ـ ١٣٨١م).
٢٩ـ بريق (برجى) (٧٨٤هـ ١٣٨٢م).
٣٠ـ حاجى (للمرة الثانى، وفيها تلقب بالمنصور((٧٩١هـ ١٣٨٩م).

الاب انبا زخارياس عجايب كثيرة، منها ان انبا مرقوره اسقف تلبانه كان جسمه قد تلمع بالبرص وظهر عليه بياض فاحش فحضر عند الاب انبا زخارياس بدمرو(*) فى يوم احد فقال له الاب المذكور بتواضع وسكينة ووجع قلب: يا اخى ابا مرقوره انا مساهمك فيما انت فيه وانت تعرف ان الله قال لموسى لا تاخذ بوجه احد فى الحكم وما يصح كهنوت الا بعد ان يقلع السيد المسيح عنك هذا الوضح [البياض] لانه نجس كما سماه

(*) دمرو: من المدن المندرسة كانت تعرف بدمرو الكنايس لأنها كانت فترة مقراً للبطركية كما كان حالها وقت البطرك زخارياس. وكانت قرية من المحلة الكبرى.

---

٥. المماليك والصليبيون:

على أن خطر التتار لم يكن الخطر الوحيد الذى هدد منطقة الشرق الأدنى فى ذلك العصر، والذى كان على سلاطين المماليك ان يواجهوه معتمدين على قوة مصر وامكاناتها البشرية والمادية. وانما كان على المماليك ان يواجهوا خطر آخر هو الصليبيين.. وبينما كان خطر التتار من النوع الداهم المفاجئ الذى لايرتبط الا بالرغبة فى التوسع والنهب والسلب، ولا يتصف الابسفك الدماء والتدمير الحضارى الشامل، اذ باخطر الصليبى على الشرق الأدنى يرتبط وقت قيام دولة الماليك ـ بأصول قديمة وعوامل ربما يرجع بعضها الى بداية حركة الغزوات العربية الاسلامية فى اوروبا والاندلس بالذات فى القرن السابع الميلادى.

وقد رأينا أن دولة المماليك فى مصر جاءت وليدة الحر كة الصليبية اذ كان الدور الذى قام به المماليك البحرية فى المنصورة ثم فى فارسكور ضد حملة لويس التاسع هو البداية الحقيقة لظهورهم على سطح الأحداث والوصول الى النفوذ والسلطان. ثم ان دولة المماليك قامت والصليبيون على أرض مصر يحتلون دمياط رغم أن ملكهم لويس التاسع كان أسيراً فى المنصورة. وطالما كانت دمياط ـ وهى ميناء مصر الأول فى ذلك العصر ـ فى قبضة الصليبين فانه صار من الممكن اتخاذها رأس جسر لجلب مزيد من الجيوش والأساطيل الصليبية، من الشام أو من الغرب، لاعادة الكرة ضد مصر والمسلمين، وفى ذلك الخطر الجسيم. لذلك

الكتاب. فبكا وقال: عينى بصلاتك يا ابى القديس. وخرج من عنده ومضى الى كنيسة فى كرسيه على اسم السيدة الطاهرة مرتمريم العذرى والدة الاله الكلمة، وتلك البيعة فى ضيعة تسمى تمى(*)، فدخلها غداة يوم الاثنين وكان فيها شيخ قسيس اسمه فرح وقال لتلميذه: اذا كان نهار الاربعا عشية افتقدنى هاهنا فان وجدتنى توفيت ساعد هذا القس على دفنى هاهنا وان وجدتنى حى خاطبتك. فمضى عنه التلميذ ووقف هو بين

(*) تمى: وهو اسمها المصرى القديم كانت مركزاً إدارياً لكورة تاونمى. تتبع حالياً مركز السنبلاوين بمحافظة الدقهلية.

حرصت شجرة الدر أولى سلاطين المماليك ـ على ابرام الصلح مع الصليبيين وترتب على ذلك فك أسر لويس التاسع الذى اختار ان يتجه الى عكا حيث قضى أربع سنوات محاولا أن يعيد تنظيم صفوف الصليبيين بالشام ودعم جهودهم(١).

ثم كان ان انتصر المماليك على التتار فى عين جالوت، وبذلك تغلبوا على أول خطرين خارجين هددا دولتهم الناشئة وهما خطر التتار وخطر الأيوبيين بالشام. ومادام المماليك قد ورثوا الأيوبيين فى ملكهم فى مصر والشام، فانه كان من الطبيعى أن يرثوا عن الأيوبيين سياستهم فى جهاد الصليبيين وتقويض دعائم ملكهم بالشام، هذا الى أن المماليك ظلوا بعد عين جالوت فى حاجة الى مزيد من النشاط الذى يضفى عليهم قسطا من الأهمية ونوعا من الشرعية.

وكانت المعاقل الكبرى للصليبيين بالشام عند قيام دولة سلاطين المماليك هى أنطاكية وطرابلس، وكل منهما كانت مركزا لامارة صليبية يتبعها عدد غير قليل من الحصون والقلاع الداخلية، فضلا عن عكا التى كانت مركزا لمملكة بيت المقدس الصليبية، وهى المملكة التى غدت منذ أواخر عهد صلاح الدين تمتد فى صورة أو أخرى على شاطئ فلسطين من صور

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص ٨٥٧ـ ٨٥٩(١٩٨٦).

يدى صورة السيدة باكيا متضرعا يوم الاثنين وليلة الثلثا ويومه وليلة الاربعا ويومه وهو يتشفع بها ضارعا لها فى كشف ذلك الوضح وازالته عنه، فلما كانت الساعة التاسعة من نهار يوم الاربعا خدر من الصوم والتعب فاسند بالحايط الذى فيه الصورة وهو ناعس فراى يد الصورة كانها قد مسحت جسمه فاستيقظ وقد عوفى من مرضه، فاستدعى القس واعلمه بالخبر وساله ان ينظر جسمه كله فراه وقد صار نقيا سالما من الوضح

نقود الملك المنصور قلاون

الى يافا. ومن الواضح أنه كان من الصعب على المسلمين أن يقبلوا هذا الجسم الغريب ـ ممثلا فى جماعات أتت من الغرب واعتمدت فى بقائها وعدوانها على الغرب ـ داخل جسدهم. لذلك ماكاد الظاهر بيبرس يلى منصب سلطنة المماليك سنة ١٢٦٠م (٦٥٨هـ) حتى أراد أن يجعل من نفسه صلاح الدين الثانى، فوضع برنامجا ضخما أبرز أركانه الاعتماد على موارد مصر وامكاناتها الضخمة فى تأمين بلاد الشام من خطر التتار وتقويض البناء الصليبى. وكان أن قام بيبرس ـ الذى يعتبر المؤسس الحقيقى لدولة المماليك ـ بهجمات شاملة متعددة ضد الصليبيين، توجها بالاستيلاء على أنطاكية سنة ١٢٦٨م (٦٦٦هـ)[1]. وكان لسقوط انطاكية فى قبضة المسلمين دلالة بالغة الأهمية بوصفها أولى الامارات التى أسسها الصليبيون فى الشام، وثانى الامارات التى أسسوها بالشرق ـ بعد الرها ـ عند مجيئهم لأول مرة فى أواخر القرن الحادى عشر للميلاد. لذلك جاء استيلاء بيبرس عليها دليلا على بداية انهيار البناء الصليبى من أساسه.

وعندما اعتلى عرش سلطنة المماليك سنة ١٢٧٩م (٦٧٨هـ) السلطان المنصور قلاون،

(١) المقريزى: كتاب السلوك، ج١، ص ٥٦٨، النويرى: نهاية الارب، ج ٢٨ ورقة ٣٠٨(مخطوط)، مفضل ابن أبى الفضائل: كتاب النهج السديد، ص١٧١ ـ ١٧٢.

ففرح وشكر السيد المخلص وعظم بكاه، ثم جاه التلميذ اخر النهار فقال له: يا ولدى قد تفضل السيد المسيح بشفاعة السيدة الطاهرة والدته بالعافية ويجب ان اقيم فى هذا الموضع ثلثة ايام اخر شكرا للسيد على ما انعم على به واتينى بالدابة يوم السبت. ثم انه استعمل يسيرا من خبز وما [ماء] واقام هناك ثلثة ايام كما قال. واتاه التلميذ عشية يوم السبت فتوجه الى دمرو ودخل الى الاب زخارياس غداة يوم الاحد وهو فى البيعة

نقود الملك المنصور محمد

استأنف سياسة الجهاد ضد الصليبيين، فخرج من مصر الى الشام سنة ١٢٨٩م(٦٨٨هـ) على رأس جيش كبير مكنه من الاستيلاء على طرابلس في تلك السنة[١].

وبذلك لم يبق للصليبيين من ملكهم العريض ببلاد الشام سوى عكا عاصمة مملكتهم، فضلا عن بعض المعاقل الأخرى الأقل أهمية مثل صيدا وصور وعتليت. وقد عكف السلطان قلاون فى مصر بعد ذلك على تعبئة قواته استعداداً للاستيلاء على عكا، خاصة بعد أن وصلت اليها حملة صليبية صغيرة من الغرب اعتدت على الاهالى وقتلت عددا منهم رغم الصلح الذى كان معقودا بين الطرفين. ولكن حدث عندما هم السلطان قلاون بمغادرة القاهرة على رأس جيشه لمحاربة الصليبيين بالشام أن دهمه الموت سنة ١٢٩٠م (٦٨٩هـ) فخلفه ابنه الأشرف خليل الذى خرج الى الشام على رأس الجيوش التى أعدها أبوه، وتمكن بعد جهد كبير من الاستيلاء على عكا سنة ١٢٩١م (٦٩٠هـ)[٢].

ولاشك أن سقوط عكا ـ آخر البقايا الصليبية الكبرى بالشام ـ جعل بقية المعاقل الصليبية الصغيرة تتساقط فى أيدى المسلمين واحدة بعد أخرى، فاحتل المماليك صور وصيدا وحيفا، ثم طرطوس وعتليت.

(١) المقريزى: كتاب السلوك، ج١، ص ٧٤٧، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٣٢١.
(٢) ابو الفدا: المختصر، حوادث ٦٩٠هـ المقريزى: كتاب السلوك، ج١، ص٧٦٤ ـ ٧٦٥، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ج٨، ص٦ وما بعدها.

وعرفه بالخبر وقال: يا ابى هذا بصلواتك. فقال له: بل بامانتك وصلاتك. وجعله تصرف وقدس [يتصرف ويقدس] ذلك اليوم، وقال له: حقا انك احق منى بالقداس لناخذ بركتك عقيب هذه النعمة الجلية التى نالتك، ومجد جميع الحاضرين الله صانع العجايب.

نقود الملك الناصر بن قلاون

وكان انسان شماس من اهل منية مليج معروف مشهور فتخاصم مع زوجته وكانت طاهرة دينة فخرج من عندها وقد امتلا غيضا شيطانيا فمضى

وكانت الحروب الصليبية فى بلاد الشام قد تمخضت فى الجزء الأخير من القرن الثانى عشر الميلاد(القرن السادس الهجرى) عن مولد مملكتين صليبيتين فى الشرق الأدنى، أولاهما هى مملكة أرمينيا الصغرى فى اقليم قليقية فى الركن الجنوبى الشرقى من آسيا الصغرى، والثانية هى مملكة آل لوزجنان فى جزيرة قبرص. وقد اكتشف المماليك أثناء محاربتهم الصليبيين بالشام مدى ما تقدمه هاتان المملكتان المسيحيتان من دعم لهم، وهو أمر لم تستطيع أن تغفره سلطنة المماليك فى مصر. لذلك أرسل السلطان الظاهر بيبرس جيشا من مصر سنة ١٢٦٦م (٦٥٥هـ) لمهاجمة أرمينية الصغرى، أحرق عاصمتها سيس وخرب مدنها الكبرى أدنة والمصيصة وطرسوس، وأسر كثيرا من رجالها. وقد تكرر هجوم بيبرس على مملكة أرمينية الصغيرى بعد ذلك، فهاجمها سنة ١٢٧٥م (٦٧٣هـ) وخرب المصيصة ودخل سيس وخرب اياس. ويبدو أن بيبرس قام بهذه الضربة عقابا لمملكة أرمينية الصغرى لتحالفها مع تتار فارس[١].

ومع أن ملوك أرمينية الصغرى دأبوا بعد ذلك على شراء مسالمة دولة المماليك الا أن السلطان الأشرف خليل ما كاد يفرغ من الاستيلاء على عكا حتى أغار على أطراف تلك

(١) مفضل بن ابى الفضائل: كتاب النهج السديد، ص ١٥٢ـ ٢٢٦.

جامع رجل مونث ووقع معه فى الخطية، ثم عاد الى منزله فصالحته زوجته، فلما كان الليل جلس على فراشه وتعرى من ثيابه لينضجع فرات زوجته جسمه وقد وضح جميعه بالبرص، فقامت وقد امتلت خوفا وقالت له: ما الذى فعلت حتى تبرصت انظر الى جسمك، فتامل جسمه وبكا بحرقة وقال لها: يا اختى لما تخاصمت معك اليوم ولعب بى الشيطان ففعلت كذا وكذا ثم لطم وجهه ونتف شعر لحيته وزاد فى البكا، فقالت له

المملكة واستولى على قلعة الروم سنة ١٢٩٢م (٦٩٢هـ)، وفى عهد السلطان المنصور لاجين (١٢٦٩ – ١٢٩٨م = ٦٩٦هـ ـ ٦٩٨هـ) خرجت حملة أخرى أغارت على مدن أرمينية الصغرى. وهكذا توالت الضربات التى وجهتها سلطنة المماليك الى تلك المملكة المسيحية التى لم تفتأ تساعد الصليبيين فى الشام حينا، والتتار فى العراق وفارس أحيانا، حتى كانت سنة ١٣٠٤م فخرجت حملة كبرى من مصر فى سلطنة الناصر محمد الثانية ـ لتأديب مملكة أرمينية الصغرى، وأنزل المماليك بها كثيرا من الدمار[١].

ولم تلبث ان ساءت أحوال تلك المملكة ولم تعد تتحمل الضربات المتوالية، فاضطرت الى الاستسلام سنة ١٣٣٧م (٧٣٧هـ) وسلمت قلاعها للماليك. وبذلك غدت فى حالة تبعية لسلطنة المماليك فى القاهرة، وصار عليها أن تدفع جزية سنوية فاذا تأخرت عن دفع هذه الجزية، أغارت عليها جيوش المماليك مثلما حدث سنة ١٣٣٤م (٧٤٤هـ). ويبدو أن أحوال مملكة أرمينية الصغرى ساءت بدرجة أقعدتها عن دفع هذه الجزية مما جعل السلطان اشرف شعبان يرسل ضدها حملة سنة ١٣٧٥م (٧٧٦هـ) أسرت آخر ملوكها ليو السادس وأتت به الى القاهرة حيث ظل سجينا ثمان سنوات حتى جمعت البابوية المال اللازم لدفع فدائه فأطلق

(١) النويرى: نهاية الأرب، ج٣٠، ص٢٣ ـ ٢٤ (مخطوط)، المقريزى: كتاب السلوك، ج١، ص ٩٤٩، أبو الفدا: المختصر، أبو الفدا: المختصر، ج٤ ص٤٦.

زوجته الخيرة الدينة وهي باكية عليه: قد اخطات يا اخي وغلطت فبادر الى الاب انبا زخارياس القديس وامسك قدميه والزمهما حتى يسال الله فيك فتبرا. فنهض باكرا وركب دابته ومضى الى دمرو وطرح نفسه بين يدى البطرك واكثر البكا والتضرع وتعلق بقدميه واعترف له بما جرى عليه. فقال له: يا ولدى فيك [هل يمكنك] ان تثبت على التعب بين يدى السيد المسيح. فقال له: يا ابى احكم على بما شيت فانى فاعله بمعونة الله لى وبركة صلاتك.

سراحه ليعود الى أوربا.وبأسر ليو السادس سنة ١٣٧٥م سقطت مملكة أرمينيا الصغرى نهائيا، وصارت اقليما تابعا لنيابة حلب، احدى نيابات سلطنة المماليك بالشام[١].

وهكذا فان طرد آخر البقايا الصليبية من الشام في أواخر القرن الثالث عشر، لايعنى نهاية قصة الحروب الصليبية، اذ استمرت بقية فصول تلك القصة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، ونهضت دولة المماليك بدورها كاملا في حمل أعباء تلك الحركة.. واذا كانت مملكة أرمينيا الصغرى بحكم موقعها الجبلى المتطرف في الركن الجنوبى الشرقى من آسيا الصغرى، لم تستطيع أن تقوم الا بدور محدود في تنفيذ أركان السياسة الصليبية في الشرق، وخاصة أنها تتصل اتصالا بريا مباشرا بأرض الشام مما جعلها في متناول فرسان المماليك، فان مملكة آل لوزجنان الصليبية التى قامت في جزيرة قبرص في الركن الشمالى الشرقى من حوض البحر المتوسط كانت في موقع مكنها من أن تقوم بدور أضخم في تلك المرحلة الأخيرة من مراحل الحروب الصليبية.

---

(١) ابن دقماق: الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠.
سعيد عبد الفتاح عاشور: سلطنة المماليك ومملة ارمينية الصغرى. (بحث في كتاب: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى بيروت، ١٩٧٧).

فـدخل به الى بيت مظلم عنده وتركـه قـايم فى ساطرة [برميل] طرفا [نبات الحناء] يشبه البتيه بعد ان جعل فيها نصفها ملح وجعل وجهه الى الشرق وقال له: يا ولدى واصل الصلاة والتضرع والبكا وتوب ان لا تعود الى خطية، وكان بعد ثلثة ايام وثلثة ليال يطعمه خبز يسير بالميزان ويسقيه الما ايضا بميزان الى تمام خمسة عشر يوم، وجا اليه افتقده وصلى عليه، والى تمام ثلثة اسابيع افتقده ايضا وصلى عليه، والى تمام الشهر جا اليه

انسحاب بقايا الصليبيين من الشام

وفى تلك الأثناء لم يغفل سلاطين المماليك فى مصر عن الدور الذى قام به ملوك قبرص من آل لوزجنان فى مساندة القوى الصليبية بالشام من ناحية وفى الاعتداء على السفن والموانى الاسلامية فى شرق البحر المتوسط من ناحية أخرى. لذلك أرسل السلطان الظاهر بيبرس حملة بحرية سنة ١٢٧٠م (٦٦٨هـ) لغزو قبرص، ولكن هذه الحملة أصيبت بالفشل بسبب ريح عاصفة هبت على السفن الاسلامية قرب شواطئ الجزيرة، فتحطم بعضها، وعاد البعض الآخر دون أن يحقق نتيجة ما[١].

والمعروف ان الحروب الصليبية دخلت دورا جديدا منذ نهاية القرن الثالث عشر عندما تم طرد آخر البقايا الصليبية من بلاد الشام، مما أثار رد فعل عنيف فى الغرب الأوروبى، وجعل المتحمسين للحروب الصليبية ـ وعلى رأسهم البابوية ـ ينادون بأن دولة المماليك هى السبب فى الكارثة التى حلت بالصليبيين وانه لاسبيل لاستعادة بلاد الشام الا باضعاف دولة المماليك فى مصر. ولما كانت الدولة سلاطين المماليك تستمد ثروتها وقوتها من احتكار التجارة بين الشرق والغرب، فان أصحاب المشاريع الصليبية فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد نادوا بفرض حصار اقتصادى شديد على شواطئ دولة المماليك فى مصر والشام لمنع التجار الأوروبيين من الوصول اليها، مما يصيب تجارة المماليك بالكساد والبوار ويؤدى الى اضعاف

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص ٤٧ـ ٤٨.

وكشف جسمه فوجد الوضح قد تناقص عنه فطيب نفسه ثم بشره بذلك، ثم الى تمام اربعين يوما اتاه وتامله فوجده قد طهر ولم يبق في جسمه شيا من الوضح ففرح به وحمه بما حار ودهنه وصلى عليه وقال له: يا ولدى قد عوفيت فاعرف ما ندرته على نفسك ولا تعود الى خطية ولا تظن انني صومتك ثلثة ايام ثم بعدها ثلثة ايام وافطرت انا بل حى هو اسم المسيح ما تغذيت في هذه الاربعين يوما الا بمثل ما غذيتك به ولا كنت افطر

نقود الملك الاشرف

دولتهم. ولتنفيذ هذه السياسة تقرر اتخاذ جزيرة قبرص ـ لما لها من موقع ممتاز في شرق البحر المتوسط ـ مركزا لمراقبة شواطئ مصر والشام من ناحية وشن غارات مفاجئة على موانى سلطنة المماليك من ناحية أخرى(١).

وكان أن صادفت هذه السياسة هوى في نفوس ملوك قبرص من آل لوزجنان، وهم الذين عرفوا بحماستهم الصليبية الشديدة، فقام أحدهم ـ وهو الملك بطرس الأول لوزجنان ـ بحملة صليبية كبرى على مدينة الاسكندرية سنة ١٣٦٥م (٧٦٧هـ)، انتهت بنجاح الصليبيين في اقتحام المدينة حيث قضوا ستة أيام تعتبر من أحلك الأيام في تاريخ الثغر، اذ انتشر الصليبيون في شوارع الاسكندرية وأزقتها «فاستلموا الناس بالسيف، ونهبوا الحوانيت والدور، وأحرقوا الخانات والقصور، وخربوا المساجد والزوايا، واعتدوا على النساء والبنات». وبعد أن حمل الصليبيون في سفنهم ما خف حملة وغلا ثمنه ـ فضلا عن عدد كبير من الأسرى ـ هربوا في سفنهم عائدين الى قبرص عندما سمعوا باقتراب جيش المماليك الذى خرج مسرعا من القاهرة لانقاذ الثغر(٢).

ويبدو أن دولة المماليك البحرية في أواخر أيامها عندئذ كانت تعانى شيئا من الانحلال

(1) Heyd: Hist. du Commerce de Levant' I, Ps. 7,378&II, Ps. 56, 57, 436.

(٢) النويرى: الالمام بالاعلام فيما جرت به الاحكام، ج١، ص ١٧٤، ١٦٤ (طبعة حيدر اباد).

الا في الوقت الذى كنت افطرك فيه بمثل الخبز والما الذى كنت اغـذيك به سـوا. ثم بارك عليـه وامره بالانصراف الى منزله فعاد الى زوجته المباركة فرحا مسرورا.

وذكر الشيخ علم الكفاه ابو يحيى اصطفن ابن مينا التوريجى الكاتب انه مضى مع عم له اسمه زكير الى دمرو وسلمو على الاب انبا زخارياس، البطرك. رزقنا الله بركة صلاته فخرج الاب ماشيا بلا دابة الى طمباره(*) حتى سلم على انسان نوبى

(*) طمباره: هى طنباره الحالية تابعة لمركز بيلا محافظة كفر الشيخ.

وعدم الاستقرار ، فلم تتمكن من الثأر السريع من قبرص وملوكها. ولكن أهل مصر لم يستطيعوا أن ينسوا ما حل بالاسكندرية على أيدى القبارصة من خراب ودمار فى الحملة السابقة. لذلك ما كادت الأمور تستقر بقيام دولة المماليك الجراكسة أو البرجية سنة ١٣٨٢م (٧٨٤هـ) حتى بدأت الأنظار تتجه للثأر من جزيرة قبرص سنة ١٤٢٤، ١٤٢٥، ١٤٢٦م (٨٢٧هـ، ٨٢٨، ٨٢٩هـ)، نجحت الحملة الأخيرة فى انزال هزيمة كبرى بالقبارصة وأسر الملك جانوس واحضاره مع عدد كبير من الأسرى الى القاهرة حيث زفوا فى شوارعها. ومنذ ذلك الوقت وجزيرة قبرص تعتبر «من جملة بلاد السلطان»، أى تابعة لمصر وتدفع لها جزية سنوية، حتى سقوط سلطنة المماليك على أيدى العثمانيين سنة ١٥١٧م (٩٢٢هـ)(١).

على أن جزيرة قبرص لم تكن وحدها مصدر الخطر على مصر والشام فى ذلك الدور الأخير من أدوار الحركةالصليبية ، وانما شاركتها جزيرة رودس فى ذلك، وكانت رودس قد غدت منذ سنة ١٣١٠م (٧١٠هـ) مركزا للفرسان الاسبتارية، وهم فرقة من فرسان الصليبيين قاموا فى بلاد الشام بدور كبير فى خدمة الهدف الصليبى، حتى اذا ما دالت دولة الصليبيين بالشام، غادروها الى قبرص ومنها الى رودس ليواصلوا نشاطهم ضد مصر والشام.

(١) المقريزى: كتاب السلوك، ج٤، ص ٦٣١، ٧٢٤ ـ ٧٢٥ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج١٤، ص ٧٢ ـ ٧٣، ١٠٤ ـ ١٠٥ (حيدر أباد)

راهب اسمه ششيه واخذ بركته قبل ان يبارك عليه واكرمه كرامة كثيرة وخضع له وبجله، فلما خرج من عنده سالوه الذين كانو معه وقالو له: ما السبب فى تعظيمك لشان هذا وخضوعك له وتقديمه عليك فى البركة وانت بطرك الاقليم. فقال لهم هذا كان الحاكم طرحه معى للسباع بعد تجويعها فكانت السباع تخضع له وتلحس رجليه قبلى.

وعندما تأكد سلاطين المماليك فى مصر من حقيقة الدور الذى يقوم به فرسان رودس فى مهاجمة سفن المسلمين وشواطئ بلادهم، قام السلطان الظاهر جقمق بارسال ثلاث حملات من مصر لغزو رودس سنة ١٤٤٠، ١٤٤٣، ١٤٤٤م (٨٤٤، ٨٤٧، ٨٤٨هـ) انتهت بعقد صلح بين الطرفين، دون أن يفلح المماليك فى اخضاع رودس مثلما نجحوا فى اخضاع قبرص[١].

وأخيرا، فان نشاط المماليك الحربى لتأمين مصر والشام لم يقف عند حد ما قاموا به من حروب ضد التتار من جهة والصليبيين من ناحية أخرى وانما أنفذ سلاطين دولة المماليك الأولى أو البحرية عدة حملات الى البلاد الواقعة جنوبى مصر حيث قامت مملكة مسيحية كبيرة ـ عرفت باسم مملكة النوبة ـ دأبت على الاغارة على حدود مصر الجنوبية، اما بدافع العصبية الدينية أو رغبة فى السلب والنهب. وقد نجح سلاطين المماليك فى كسر شوكة تلك المملكة واضعافها. حتى كان أوائل القرن الرابع عشر فأخذت تخضع لمصر وينتشر فيها الاسلام، مما أحدث تغييرا جذريا فى العلاقات بين سلطنة المماليك فى مصر وتلك البلاد[٢].

وهكذا غدت مصر فى عصر سلاطين المماليك مركزا لدولة قوية، خافها الاعداء، ونجحت

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص٣٤١ ـ ٣٦٣.
(٢) المقريزى: نهاية الأرب، ج٢٨، ص ١٠٩، ج٢٩، ص٢٧٤، ج٣٠ ص٩٥ـ (مخطوط).=

سانوتيوس [شنوده] البطرك وهو
من العدد الخامس والستون
[١٠٣٢ / ١٠٤٦م]

فلما تنيح انبا زخارياس البطرك طلب قوم البطركية وطمعوا ان ينالوها بيد السلطان وان يلزموا الاساقفة بتقديمهم، فلما علم بذلك بقيره الكاتب الرشيدى، صاحب الصليب الذى فيه الغيرة لله تعالى، جمع قوما اخيار ومضى الى الوزير

فى أن تقوم بدورها كاملا فى حماية المنطقة وتأمينها ضد الأخطار التى هددتها. ولم يلبث أن امتد نفوذ المماليك على الحجاز وبلاد اليمن(١)، وغدت القاهرة فى عصرهم قبلة السفراء والمبعوثين من بلاد الشرق والغرب جميعا، يطلبون صلحا أو هدنة، أو عقد اتفاقية تجارية، أو تاييدا ضد خصومهم، بحيث حققت مصر لنفسها زعامة مرموقة فى البلدان المحيطة بها وسواحل البحر المتوسط.

ودعم هذه المكانة ما تمتعت به مصر فى ذلك العصر من رخاء اقتصادى مرموق انعكست صورته فى نظم الحكم والادارة من ناحية وفيما اتصفت به الحياة الاجتماعية والعلمية والدينية من نشاط من ناحية أخرى. وهى الجوانب التى تتضح بالقاء نظرات سريعة عليها.

٦. النشاط الاقتصادى فى عصر سلاطين المماليك:

كانت ثروة مصر فى عصر سلاطين المماليك هى الدعامة التى مكنتهم من القيام بذلك النشاط الواسع فى داخل البلاد وخارجها. وعند الكلام عن النشاط الاقتصادى فى ذلك

=ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، ج٧، ص٤٥ ـ ٤٦، ج٨ص ٨٢ ابن عبد الظاهر: تشريف الايام والعصور، ص١٥٣ـ ١٥٥ مصطفى مسعد: الاسلام والنوبة ص ١٥٣، ١٦٠، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٩ .

(١) المقريزى: كتاب السلوك، ج١، ص٤٤٥، ٥٦٠، ٥٧٩، ٥٦٣ ٥٩٥ ٦٢١، ج٢ ص٣٣ـ ٣٨، ١٩٧، ٢٣٩، ٢٥٩ـ ٢٦٠.

على بن احمد [الجرجرائى](*) وخاطبه فى ذلك، وكان رجل يفهم ويحب النصارى فقال لبقيره ومن معه: يجب لبيت المال المعمور على من يقسم [يعين] بطركا ثلثة الف دينار وقد تركناها كرامة لكم وما تفعلو بعد هذا ما يرضى الله سبحنه كما يفعل عندنا ببغداد. وذلك انهم اذا ارادو يقدمو انسان للبطركية اجتمعو فى البيعة واختارو ممن فى الديارات ماية رجل ومن الماية خمسين ومن الخمسين خمسة وعشرين ومن الخمسة وعشرين

(*) اسند الخليفة الظاهر سنة ١٠٢٧م = ٤١٨هـ، منصب الوزارة إلى نجيب الدولة على بن الجرجرائى بالعراق، ثم انتقل إلى القاهرة، وعهد إليه الخليفة الظاهر بإدارة بعض الدواوين. ولكنه غضب عليه وقطع يديه من المرافق. ثم عينه والياً على ديوان النفقات سنة ٤٠٩هـ. وظل يتنقل فى بعض الوظائف الادارية ببلاد الصعيد إلى أن اختاره وزيراً له: فاتخذ القاضى أبا عبدالله القضاعى كاتباً له.

العصر تحتل التجارة مكانة خاصة، بوصفها المصدر الأول لشراء المماليك وقوة دولتهم فى مصر، ذلك أن الظروف شاءت أن يكون قيام دولة المماليك فى مصر فى منتصف القرن الثالث عشر مصحوبا بازدهار طريق البحر الأحمر وموانى مصر، واضمحلال ماعداه من طرق التجارة الرئيسية الأخرى بين الشر ق والغرب. وقد رأينا أنه لم يكد يمضى على قيام دولة المماليك سنوات معدودة حتى استولى التتار على بغداد سنة ١٢٥٨م، وامتد نفوذهم الى الشام وآسيا الصغرى، فضلا عن بلاد فارس التى اتخذها هولاكو مركزا لدولته فى الشرق الأوسط، وبذلك لم يبق آمنا بعيدا عن سيطرة التتار وخطرهم من طرق التجارة بين الشرق والغرب سوى طريق مصر والبحر الأحمر.

وكان أن أفاد سلاطين المماليك فى مصر من ذلك الموقف فائدة ضخمة فعملوا على تأمين طرق التجارة داخل مصر بحيث تصل المتاجر الواردة من الشرق سليمة من موانى البحر الأحمر ـ خاصة عيذاب ـ الى موانى البحر المتوسط وخاصة دمياط والاسكندرية حيث يفد التجار الأوروبيون والايطاليون لشرائها وحملها. هذا بالاضافة الى تأمين الملاحة فى البحر الأحمر نفسه. ومن على جانب أخرى فان سلاطين المماليك عملوا على اغراء تجار الشرق على جلب بضاعتهم الى مصر ، ثم اغراء التجار الأوربين على التردد على مصر وموانيها لشراء تلك البضائع،وقد دأب السلاطين المماليك على اصدار التعليمات لنوابهم بالثغور بحسن

(*) تشـــــمع بنادق: أى تطوى كالبندق وتكسى بالشمع.

عشرة ومن العشرة ثلثة ويكتبوا اسماوهم الثلثة فى ثلثة رقاع والرابعة يكتبوا فيها اسم الرب وتشمع بنادق(*) ، وتجعل على الهيكل ويصلو ويقدسو وبعد الصلاة والقداس يجيبو طفل صغير من أولادهم ما عليه خطية فيمد يده وياخذ احدتهن [احداهن] فان كان فيها اسم من الثلثة أوسموه بطركا وان كان فيها اسم الرب علمو ان ما فى الثلثة من يصلح فيكتبو اسما ثلثة اخر ولم يزالو كذلك الى ان يصطفى الله سبحنه من يختاره

معاملة التجار وملاطفتهم والتودد اليهم وترغيبهم. بل ان السلطان قلاون كتب منشورا الى التجار «من الصين والهند والسند واليمن والعراق وبلاد الروم».. يرحب بقدومهم الى مصر ويصف لهم محاسنها.. «لأنها فى الدنيا جنة عدن لمن قطن، ومسلاة لمن تغرب عن الوطن..»[1]. وهكذا اكتظت المدن والثغور المصرية بمؤسسات التجارة مثل الفنادق التى كان ينزلها التجار الأوربيون، والوكالات والخانات التى كان ينزل بها التجار الشرقيون والمسلمون فيجدون فيها الراحة والمأوى ويعقدون صفقاتهم التجارية من بيع وشراء، ويحفظون أموالهم وبضائعهم[2].

وعلى رأس البضائع التى قامت عليها عظمة دولة المماليك وثروتها، كانت التوابل من فلفل وبهار وقرنفل ونحوها. وقد عرف تجار التوابل باسم الكارمية، واتخذوا مدينة قوص فى صعيد مصر سوقا تجاريا واسعا لمنتجات وسط أفريقيا والهند والحبشة واليمن وساعد على ذلك ان البضائع كانت تنتقل اليها من ميناء عيذاب على البحر الأحمر عبر الصحراء الشرقية، ومن قوص كانت تنقل فى النيل شمالا الى القاهرة ودمياط والاسكندرية[3]. على أنه يبدو أن

(١) القلقشندى: صبح الأعشى، ج١٣، ص ٣٤٠ـ ٣٤١.
(٢) المقريزى: المواعظ والاعتبار، جع، ص٨٦ ـ ١٠٧ (بولاق).
(٣) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢، ص ٣٨٢، المقريزى: كتاب السلوك، ج٢، ص ١٣٢، ١٠٣ .

فيطلع اسمه فيوسموه بطركا وهكذا يجب ان تفعلو انتم ها هنا، فتعجبو من حكمته وفهمه وشكروه ودعو له ومضو، فاجتمع الاساقفه ومعهم رويسا وادى هبيب فلم يفعلو كما قال لهم الوزير بل جلسو يفكرو فى قوم يختاروهم ليوسمو منهم واحد، فذكر انسان كان قد ترهب وعمره اربعة عشر سنه اسمه شنوده وقد صار قسيسا فى اسكنا ابو مقار عارفا بالكتب المقدسة وهو من اهل تلبسانة(*) عدى وترهب فى منشوبية تعرف

(*) تلبانه: من مدن مركز المنصورة محافظة الدقهلية.

الثروة الكبيرة التى حصلت عليها دولة المماليك من ذلك النشاط التجارى، دفع بعض سلاطين الدولة الجركسية أو البرجية الى تطبيق سياسة الاحتكار التجارى ـ وخاصة فيما يتعلق بالتوابل والبخور مما أدى الى ارتفاع أثمانها ارتفاعا فاحشا ، وأنزل الضرر بالتجار الأوروبين والمستهلك الأوروبى. ومازال الوضع يتأزم، حتى دفع الضيق القوى البحرية الايطالية فى أواخر العصور الوسطى الى البحث عن طريق آخر يوصلها الى الهند والشرق الأقصى عبر طريق رأس الرجاء الصالح، مما حرم مصر من الثروة الهائلة التى كانت تجنيها نتيجة لاحتكار تجارة الشرق، وأدى بالتالى الى اضعاف دولة المماليك وذبولها(١).

ومن الطبيعى أن تنتعش التجارة الداخلية فى مصر فى ظل نشاطا التجارة الخارجية. وقد اشتهرت المدن المصرية ـ وعلى رأسها القاهرة ـ بأسواقها العامرة بالبضائع. وأهم ما يلاحظ على هذه الأسواق ان كلا منها اختص بنوع معين من البضائع، فسوق الشماعين اختص ببيع الشمع، وسوق النحاسين اختص ببيع النحاس وهكذا. ومن محاسن هذا النظام ان التاجر لم يستطيع أن يشذ عن جيرانه أو أن يرفع أسعار السلعة التى يتجر فيها، لأن منافسيه على مقربة منه، كما أن المشترى ان لم يعجبه نوع السلعة أو ثمنها فانه يستطيع أن ينتقل فى سهولة من

(1)Weit: L,Egypte Arabe, p. 5 73.& Ronciere: La Decouverte de l, Afrique au Moyen Age, Tome 3, P. 31.

بدنجايه(*) وكان بعض الاساقفة يخيره [اختاروه] لعلمه، كان شيخ فبقيو حايرين في من يقسموه هو او غيره، فراى احد الاساقفة قايلا يقول له في منامه: «اول من يدخل اغدا [غداً] من باب البيعة ويقبل الاجساد خذوه فهو البطرك». فانتبه لوقته واعلم الاخوه. الاساقفة بذلك، فلما اصبحو دخل شنوده فاخذوه للوقت. وكان قبل هذا في ليلة اليوم المذكور قد راى في منامه بطرس الرسول ويوحنا الانجيلي وكانهما قد دفعا له مفاتيح، فلما

(*) دنجاية: من القرى القديمة وهي التي بمركز شربين قرب دمياط. ويعرفها العامة باسم دنجيه.

متجر لآخر دون أن يتحمل أدنى مشقة.أما عيوب هذا النظام فأهمها أن الفرد اذا أراد شراء عدة أصناف متباينة من البضائع، فعليه أن يقطع المدينة كلها طولا وعرضا حتى يقضي حاجاته لأنه لن يجد في السوق الواحد سوى نوع واحد من البضائع.

وبالاضافة الى التجارة، ظلت الزراعة تمثل ركنا أساسيا في حياة مصر الاقتصادية في تلك العصور، فأهتم سلاطين المماليك بالزراعة بوصفها الحرفة الأولى لغالبية السكان والمورد الأول الذي عاش عليه معظم الأهالي. وظهر هذا الاهتمام في العناية بالترع والجسور ومقاييس النيل ونحوها. واشتهرت مصر في ذلك العصر بانتاج القمح الذي كان محصوله يزيد عن حاجة البلاد، مما جعل السلاطين يمدون بلاد الشام والحجاز بمقادير وفيرة منه. هذا فضلا عن الكتان وقصب السكر والخضروات والفواكه وغيرها[١].

ويرتبط بالانتاج الزراعي الثروة التي عنى سلاطين المماليك بتنميتها وتنويعها ، فأكثروا من انتاج الأغنام وجلب الأنواع الممتازة منها لتربيتها. ويقال ان السلطان الناصر محمد بن قلاون قام بمشروع هام للعناية بالثروة الحيوانية، اذ بنى حظيرة كبيرة على قطعة أرض بجوار قلعة الجبل وأجرى اليها الماء من القلعة وأنشأ بها بيوتا للدواجن وأخرى للأغنام والمواشي ، ثم أودع

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج١، ص ١٠١(بولاق).

انتبه قال لراهب كان معه فقال: رايت فى منامى كذا وكذا. فقال له الراهب: البطركية تصير لك. وقيل ان شنوده هذا كان مشتهى لهذا وكان قد التمس اسقفية مصر ولم يكن معه شيا يدفعه عن ذلك فطردوه وجعلو فيلاتاوس اسقفا على كرسى مصر وانهم قبل ان يلبسوه ثوب البطركية استقر بينه وبين الاساقفة ان يقسم لهم يونس الراهب الذى سعى بالاب زخارياس الى الحاكم اسقفا للفرما لخوفهم من لسانه ومضو به الى قلايته

بها ألفى رأس من الضأن بعث فى طلبها من بلاد الصعيد وأربعة آلاف من الوجه البحرى، فضلا عن عدد كبير من البقر ، هذا وبعث فى طلب الأغنام الممتازة من بلاد النوبة واليمن[١].

أما الصناعة والفنون فقد ازدهرت فى عصر سلاطين المماليك نتيجة للثراء الذى اشتهرت به مصر. والمعروف عن الصانع أو الفنان أنه يحاول دائما أن يرقى بانتاجه اذ اطمأن الى أنه سيجنى فى النهاية ثمن أتعابه ويتقاضى أجرا يتناسب مع ما يبذله من جهد ووقت. ومن ناحية أخرى فان المستهلك اذا ارتفع مستواه المادى وعظمت ثروته وزادت عن مطالبه الأساسية، فانه يفكر فى اقتناء الكماليات ويتأنق فى اقتناء التحف والنفائس. وهذا وذاك كانا من العوامل التى أثرت فى ارتقاء الصناعة والفنون فى مصر فى عصر سلاطين المماليك[٢].

فبالاضافة الى الى الصناعات الحربية من أسلحة وسفن ونحوها، ارتقت صناعة المنسوجات وصناعة المعادن وصناعة الزجاج وصناعة الأخشاب وصناعة الجلود وغيرها. فعن المنسوجات اشتهرت مصر بانتاج الاقمشة الحريرية والقطنية والصوفية والكتانية التى امتازت جميعا بدقة

(١) المصدر السابق، ج٢، ص ٢٢٩.
(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكى فى مصر والشام. ص ٢٧٨.

وضــرب له مطانوه ان يســاعــده على كل شى
ويجــعله عنده مــثل اخ، فــقــال له: ان اردتنى
اساعـدك فاكـتب لى خطك تعطينى فى كل سنة
ثلثـون دينارا اعـيش بهـا لان كـرسى الفـرمـا الذى
تجعلنى عليه ما فيه شى، وتقسم اخى فى كرسى
اخر، فكتب خطه بذلك، واقامو الاساقفة بعد هذا
ايام مجتمعين ولم يتفق رايهم على قـسمته، وكان
كل واحد منهم يذكر واحد من قرايبه او صديق له
ليـصـير بطركا الى بعد اسبـوع، فقال لهم يونس

الصناعة وجمالها وجودة الخامة ومتانة النسيج، وهو الأمر الذى تشهد عليه قطع النسيج المتبقاة من ذلك العصر. وعن صناعة المعادن استخدم النحاس بصفة خاصة فى صناعة الثريات والأوانى المنزلية والأباريق والصحون والطسوت، فضلا عن تغطية بعض أبواب المساجد وقصور السلاطين والأمراء.

وانتشرت فى عصر سلاطين المماليك صناعة تكفيت ـ أى تطعيم ـ البرونز والنحاس بالذهب والفضة واشتهرت بهذه الصناعة سوق الكفتيين بالقاهرة. وعن صناعة الزجاج فى مصر كانت أهم مراكزها الفسطاط والفيوم والاشمونين والاسكندرية.

وتشهد المشكاوات الزجاجية المحفوظة فى مختلف دور الآثار فى العالم والتى صنعت فى مصر فى ذلك العصر على مدى تقدم هذه الصناعة وتقدمها. هذا فضلا عن الخزف الذى كانت مصر مركزا لصناعته فى العالم، والذى صنعت منه أنواع متعددة الاشكال والألوان، بعضها صناع خصيصا للسلاطين والأمراء وعليه الرنك أو الشعار الخاص بكل منهم. ومثل ذلك يقال عن المصنوعات الخشبية التى استخدم فى زخرفتها الخرط والتعطيم والحشوات. وكان تطعيم الخشب يتم عادة بالعاج أو الأبنوس لاسيما فى الكراسى والمناضد والأبواب وحوامل المصاحف. أما المصنوعات الجلدية ـ خاصة السروج ـ فكانت لاتقل جمالا وحسنا

الراهب المقدم ذكره: جلوسكم هذا الى متى وكل واحد منكم يطلب شهوة نفسه وما يصلح لكم غير شنوده رجل قديس عالم قد قرى الكتب وفهم. ووصفه واطنب فى وصفه وساعدوه الاساقفة. فانفذو احضرو شنوده وجعلوه اغومنس وسارو به الى اسكندريه، واجتمع اسكندرانيين ليقررو شيا يتعلق بهم فاخذو خطه بخمس ماية دينار فى كل سنة يصرفوها فى مصالح كنايسهم، واخذو خطه بان لا ياخذ من احد شرطونية ولا

عن أنواع المصنوعات السابقة[1].

وبالاضافة الى هذه الصناعات التى ترتبط فى معظمها بما يمكن تسميته الفنون الصغرى، ارتفعت الفنون الكبرى ـ وهى العمارة والتصوير والنحت ـ رقيا كبيرا فى مصر على عصر سلاطين المماليك. ومازالت العمائر ـ دينية ومدنية ـ القائمة فى القاهرة وغيرها من المدن من جوامع ومدارس وقصور وقباب وغيرها تشهد كلها على ما بلغته تلك الفنون من رقى فى مصر فى عصر سلاطين المماليك، ومن أجمل هذه العمائر الخالدة جامع ـ أو بمعنى أصح مدرسة ـ السلطان الناصر حسن وقبة ومدرسة وبيمارستان السلطان قلاون، ومدفن برقوق، وقصر الأمير بشتاك وغيرها[2].

وكثير من هذه العمائر كسيت بالرخام وزخرفت زخارف جميلة، من وحدات نباتية أو رسوم هندسية، فضلا عن بعض الآيات القرآنية المكتوبة بالخط الكوفى المزخرف الجميل مما يشهد على رقى فن الرسم والزخرفة فى ذلك العصر، وهو الفن الذى ظهر أيضا فى زخرفة الخزف والمنسوجات والتحف المعدنية والزجاج والبللور، فضلا عن أغلفة الكتب، أما فن النحت والحفر فارتقى بأنواعه المختلفة، سواء النحت أو الحجر والرخام أو الحفر فى الخشب، أو فى

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار، ج٢ص ٩٦ـ ٩٩، ١٠٢ـ ١٠٥ (بولاق).
(٢) زكى محمد حسن: فنون الاسلام ص ٧١، ص٧٧ ـ ٨٤.

يطلب عن موهبة [هبات وصدقات] المسيح دينار ولا درهم ولا اكثر من ذلك، والزموه قبل قسمته عن رسوم جرت عادتهم بها للوالى ماية دينار، فلما قسموه ولم يكن معه ما يدفعه للوالى ولا له ايضا فقال له قوم منهم: انت اخير من ابايك الذين كانو ياخذون الشرطونية ويدفعونها فى هذا وغيره؟ فوافقه ذلك، وكان كرسى بنا [مركز ميت غمر] خال وكان هناك انسان اسمه يستس وله ابن اخت اسمه رفاييل فقرر معه عن الكرسى ستماية دينار

العاج والعظم. وتوجد فى العمائر التى ترجع الى ذلك العصر فضلا عن التحف المحفوظة بدار الآثار العربية بالقاهرة ومختلف دور الآثار والمتاحف فى العالم، أمثلة ونماذج لتحف رائعة ترجع الى عصر المماليك وتشهد على ما بلغه فن النحت والحفر من رقى وجمال[1].

٧. نظم الحكم والادارة والقضاء فى عصر سلاطين المماليك:

على أن النشاط الاقتصادى الذى اتصف به التاريخ المصرى فى عصر سلاطين المماليك ليس وحده مصدر القوة الكامنة وراء تلك الطاقة الضخمة التى مكنت مصر فى ذلك الدور من اتمام تلك المنجزات العظيمة فى الداخل والخارج، وانما كانت تساند ذلك النشاط نظم محكمة عملت دولة المماليك فى ظلها، وظلت هذه الدولة محتفظة بمكانتها طالما بقيت النظم التى قامت على أسسها سليمة محترمة. فلما اختلت تلك النظم اختل توازن الدولة وتضعضعت أحوالها مما أدى الى سقوطها.

فعلى رأس دولة المماليك وجد سلطان لم يتول الحكم نتيجة لحق شرعى موروث، وانما رشحته قوته ومواهبه وكثرة مماليكه لتولى ذلك المنصب. فاذا توفى السلطان القائم اتيحت

(١) زكى محمد حسن: أطلس الفنون الزخرفة والتصاوير الاسلامية ص ٤٢٣ـ ٤٢٧ ديماند: الفنون الاسلامية، ترجمة أحمد محمد عيسى، ٨٧، ١١٠، ١٣٢ـ ١٣٣.
حسن الباشا: التصوير الاسلامى فى العصور الوسطى، ص١٦٥.

ولم يكن معه شي غير نصف وربع دينار، فمضى
الى قوم مسلمين واقترض ذلك منهم بالربا وكتب
على نفسه حجة بان يدفع لهم بذلك ثمار لوز من
سعر اردب وثلث بدينار، وحينيذ قسمه فاقام سنتين
على كـرسـيـه ومـات، ودفع البطرك المال
للاسكندرانيين، وفسخ ما كان استقر معه من انه لا
ياخذ شرطونية، واحب المال وجمع منه شي كثير
ووهبه لاهله، وكان محب لمجد هذا العالم.

ولما خـرج من اسكندريه واتو به الى مـصـر

- -

الفرصة لأقوى الأمراء أن يخلفه فى الحكم. فاذا رأى ذلك الأمير أن الظروف غير مواتية وأن هناك من زملائه الأمراء من ينافسه، فانه يلجأ في هذه الحالة الى تعيين ابن السلطان المتوفى مكان أبيه، لا اعتقادا من المماليك فى أحقية ذلك الابن، ولكن كحل مؤقت حتى يسهل على أقوى الأمراء عزله واحتلال عرش السلطنة. وبعبارة أخرى، فان المماليك لم يؤمنوا بمبدأ الوراثة فى الحكم.

ومع أن السلطان تمتع بنفوذ واسع، وخاصة فيما يتعلق تأمير الأمراء وملء المناصب الكبرى فى الدولة وتوزيع الاقطاعات، الا أنه لم يستغن فى أحوال كثيرة عن استشارة كبار رجال الدولة فى مهام الأمور، وبخاصة المسائل المتعلقة بشن الحرب أو عقد السلم. ولذلك وجد فى عصر المماليك مجلس المشورة الذى كان يعقد برئاسة السلطان أو من يقوم بالوصاية عليه، وعضوية أتابك العسكر والخليفة العباسي والوزير وقضاة المذاهب الأربعة وأمراء المئين وعددهم أربعة وعشرون أميرا. هذا مع ملاحظة أن السلطان لم يكن ملزما بدعوة مجلس المشورة أو الأخذ برأيه وانماترك ذلك لرغبة السلطان ومشيئته[١].

والى جانب السلطان وجد عدد من كبار المو ظفين، مهمتهم مساعدته فى شئون الحكم

(١) خليل بن شاهين: زبدة كشف المماليك ص ١٠٦، المقريزى: كتاب السلوك، ج٢، ص ٤٩٨.

ليكرزوه نزل فى كنيسة ميكاييل المختارة التى فى جزيرة مصر [جزيرة الروضة]، ومضى اليه جماعة الكهنة والاراخنة ليتباركو منه، وكان معهم الشماس بقيره الرشيدى صاحب الصليب، فلما سلمو عليه واخذو بركته وجلسو قال لبقيره: ملك الرب فلتزجر الشعوب، قال له بقيره: ما معنى هذا الكلام يا ابونا؟ فقال له: انا طلبت اسقفية مصر ما رضيت بى وطلبت فيلاتاوس وهو ذا الرب قد جعلنى ملك بغير اختيارك. فاغتاضو الاراخنة منه

والادارة، ومن هؤلاء الموظفين نواب السلطان، واحد بالقاهرة يعتبر ساعده الأيمن فى تصريف شئون الدولة، وستة فى الشام فى النيابات الكبرى على رأسهم نائب دمشق. واى جانب نواب السلطان وجد الأتابك، وهو القائد العام للجيش، والوزير الذى تضاءل نفوذه نتيجة لوجود نائب للسلطنة[1].

أما الادارة المحلية فى المدن والاقاليم فقد أشرف عليها عدد من الولاة اختيروا دنما من أمراء المماليك، فيما عدا مدينة الاسكندرية التى عين لها نائب سلطنة منذ سنة ١٣٦٥م (٧٦٧هـ)[2].

واعتمد هذا الجهاز الادارى الضخم على مجموعة من الدواوين الكبيرة، وهى أشبه بالوزرات اليوم، منها ديوان الجيش وديوان الانشاء، وديوان الاحباس أو الأوقات وديوان النظر الذى اختص بمراقبة حسابات الدولة.

واما شئون القضاء والعدالة فقد أولاها سلاطين المماليك جانبا كبيرا من اهتمامهم وعنايتهم. وكان أهم تطور فى النظام القضائى فى عصر المماليك هو ما قام به الظاهر بيبرس

(١) القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤، ص ١٦ـ ١٧، ص ١٨.
(٢) الخالدى: المقصد الرفيع، ص ١٢٦،
القلقشندى: صبح الاعشى، ج٣ ٤٠٤، ج٤ص ٢٤، ج١١ ص ٤٠٥ .

ونظر بعضهم الى بعض وهمو بالقيام، فقال له بقيره: هذا الكلام قاله داوود النبى فى المزمور عن السيد المسيح وحده لانه ملك على اليهود من غير ان يشتهوه ان يكون عليهم ملكا لانه جا لخلاص العالم، وهو ذا انت الان شبهت نفسك بالرب وشبهتنا باليهود. وقامو خرجو مغضبين قايلين ليس فى مملكتك خلاص، وبالحقيقة ليس كان فيها خلاص لانه اول من قسم اسقف بنا الذى تقدم ذكره واخذ منه ستماية دينار، واقسم بعده بدير

سنة ١٢٦٥م (٦٥٥هـ) من تعيين أربعة من قضاة القضاة يمثلون المذاهب الأربعة لأهل السنة بعد أن كان الوضع منذ أيام صلاح الدين هو وجود قاضى واحد يمثل المذهب الشافعى[١].

وقام القضاة فى ذلك العصر بدور هام فى المجتمع اذ امتدت اختصاصاتهم الى مختلف أنواع القضايا المدنية والجنائية. هذا فى حين اختص قضاة العسكر بالنظر فى القضايا التى يكون طرفاها أو أحدهما من الجند. أما محكمة المظالم فكانت تعقد برئاسة السلطان للنظر فى القضايا التى اختص السلطان بها مباشرة أو التى يستأنفها أصحابها أمام السلطان غير راضين عن الحكم الذى أصدره القضاء فيها، أو تلك التى تنشأ بين الحكام والمحكومين[٢].

٨ـ النظام الاقطاعى الشرقى والفلاح:

كانت دولة المماليك دولة اقطاعية بكل معانى الكلمة فقسمت أراضى مصر فى عصر سلاطين المماليك الى أربعة وعشرين قيراطا، اختص السلطان منها بأربعة قراريط، والأمراء بعشرة، والأجناد بعشرة. وكان الاقطاع أمرا شخصيا بحتا لادخل لحقوق الملكية أو لأحكام الوراثة فيه، بمعنى أنه كان مفروضا فى المقطع أن يحل محل السلطان فى التمتع بغلات

(١) المقريزى: كتاب السلوك ، ج١ ص ٥٣٨ ـ ٥٣٩ ، خليل بن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص ٩٢.
(٢) القلقشندى: صبح الأعشى، ج ١٠ ، ص ٢٤٣ ، ٣٣٤ - ٣٣٦ ، ابن قاضى شهبة: الاعلام ، ج١ ، ص ١٢.

ارشى بابا اسيوط اسقف واخذ منه مالا كثير، فمنعوه اهل اسيوط من الدخول اليهم ثلثة سنين لاجل المال الذى دفعه لانهم تمسكو بالقوانين وقالو: لا يجوز لمقدم ولا كاهن الذى ياهل نفسه لله ان يدفع على ذلك مال، ولا ياخذ ممن يقسمه لخدمة الله شيا، كقول المسيح من فاه المعظم لتلاميذه لما امرهم ان يعمدو الامم ويبشروهم بالانجيل لخلاصهم، قال لهم الوصية المشهورة فى الانجيل وقال لهم فى اخرها: «مجانا اخذتم مجانا

الاقطاع وايراده فحسب، فاذا أخل المقطع بشروط الاقطاع، جاز للسلطان أن يستولى على اقطاعه فورا.. وكذلك كان يستبعد غير القادرين على الخدمة العسكرية فتصادر اقطاعاتهم لتوزع على الاكفاء القادرين[1].

وقد حدث فى عصر سلاطين المماليك أن مسحت أراضى مصر مسحا شاملا أكثر من مرة، ليعاد قياسها وحصر ها فى سجلات مع تقدير قيمتها ومدى خصوبتها. وتشبه هذه العلمية فى عصرنا الحالى ما يعرف بفك الزمام، فى حين سميت فى عصر المماليك «الروك» وكان يتبعها اعادة توزيع الاقطاعات[2].

اما الأمراء والمماليك المسنون الذين لايقوون على تحمل تبعات الاقطاع، فاعتاد سلاطين المماليك أن يمنحوهم بدل الاقطاع رواتب نقدية تخصص لها جهات معينة يتناول المقطع نصيبه منها. ويذكر المقريزى انه جاء وقت أصبحت فيه معظم الضرائب والمكوس المفروضة فى مصر «عليها اقطاعات الأمراء والأجناد». فلما راك السلطان الناصر محمد بن قلاوون البلاد

(١) القلقشندى: صبح الأعشى، ج٣، ص ٤٥٨.
(٢) العينى: عقد الجمان، ج٢٣ ق١ ص ٥٤.
المقريزى: السلوك، ص ٨٥٤.
المقريزى: المواعظ والاعتبار، ج١ ص ٨٨.

اعطوا»، اى انكم قد اخذتم هذه النعمة بلا ثمن فلا تطلبو ممن تدفعوها له ثمن، ولم تزل بطاركة القبط وابهاتهم عاملين بهذه الوصية الى زمان الضغط من ولاة امور المسلمين من احمد ابن طولون الى ايام الحاكم وغير ذلك مما لو شرحناه لطال شرحه، ودعتهم الضرورات الى ما فعلوه من ذلك لاجل ما طلب منهم من المال وما كلفوه من الاثقال.

سنة ١٣١٥م (٧١٥هـ)، أبطل هذا النوع من الرواتب التى تحمل صفة الاقطاع، وقصر الاقطاعات كلها على الأراضى.

٩. سلاطين المماليك البرجية (دولة الجراكسة)

١ـ الظاهر سيف الدين برقوق(٧٨٤هـ ١٣٨٢م).

٢ـ المنصور حاجى (من البحرية) (٧٩١هـ ١٣٨٩م).

٣ـ الناصر ناصر الدين فرج بن برقوق (٨٠١هـ ١٣٩٩م).

٤ـ المنصور عز الدين عبد العزيز بن برقوق (٨٠٨ هـ ١٤٠٥م).

٥ـ الناصر فرج (للمرة الثانية) ٨٠٨هـ ١٤٠٥م).

٦ـ الخليفة العباسى العادل المستعين بالله (٨١٥هـ ١٤١٢م).

٧ـ المؤيد سيف الدين شيخ المحمودى (٨١٥هـ ١٤٢١م).

٨ـ المظفر شهاب الدين أحمد بن المؤيد شيخ) ٨٢٤هـ ١٤٢١م).

٩ـ الظاهر سيف الدين ططر (٨٢٤هـ ١٤٢١م).

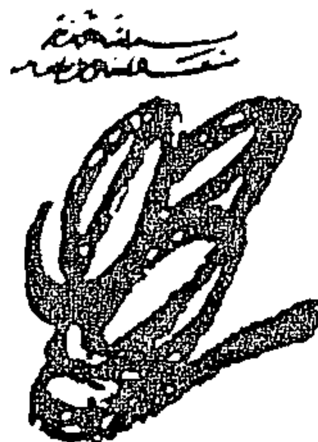

توقيع السلطان برقوق

فلنعود الان الى ذكر قضية اسقف اسيوط، انهم لما منعوه من الدخول اليهم عاد الى البطرك انبا شنوده وطلب منه المال او يثبت له الاسقفية، فلم يقدر يفعل له شيا ولا عاد له المال الذى اخذه منه. واقول انا البايس ميخاييل [الدمراوى]: يشهد الرب على لقد رايته يوما يخاطبه فى هذا الامر فلم يخاطبه بكلمة واحدة، فبكا ولطم خديه وقلع ثياب الاسقفية رماها ووقع مرتعدا كمثل الميت او كمن به شيطان، فاقمناه ورفقنا به الى ان اهتدا

١٠ـ الصالح ناصر الدين محمد بن ططر (٨٢٤هـ ١٤٢١م).

١١ـ الأشرف سيف الدين برسباى (٨٤١هـ ١٤٣٨م).

١٢ـ العزيز جمال الدين سيف بن برسباى (٨٤١هـ ١٤٣٨م).

١٣ـ الظافر سيف الدين جقمق (٨٤٢هـ ١٤٣٨م).

١٤ـ المنصور فخر الدين عثمان بن جقمق (٨٥٧ هـ ١٤٥٣م).

١٥ـ الأشرف سيف الدين اينال العلائى (٨٥٧هـ ١٤٥٣م).

١٦ـ المؤيد شهاب الدين أحمد بن اينال (٨٦٥هـ ١٤٦١م.

١٧ـ الظاهر سيف الدين خشقدم (٨٦٥هـ ١٤٦١م).

١٨ـ الظاهر سيف الدين يلباى (٨٧٢ هـ ١٤٦٧م).

١٩ـ الظاهر تمربغا (٨٧٢هـ ١٤٦٧م).

٢٠ـ الأشرف سيف الدين قايتباى (٨٧٢هـ ١٤٦٧م).

٢١ـ الناصر ناصر الدين محمد بن قايتباى (٩٠١ـ ١٤٩٦م).

٢٢ـ الظاهر قانصوه (٩٠٤هـ ١٤٩٨).

وعاد اليه عقله وكتبنا له كتاب الى اسقفين مجاورين كرسيه بان يكرزوه فى احد ضياع كرسيه. وتوفا اسقف اخر اسمه ايليا فى بلد تسما بشنانه [مركز السنبلاوين] فانفذ اخذ داره وكلما له، فحضر اخوه وساله وتضرع اليه ان يعطيه الدار خالية وياخذ كلما فيها فلم يلتفت له واحوجه الى ان اسلم واخذ الدار وجميع ما فيها، وكان من ضجره وافعاله مالا يجوز نسطرها.

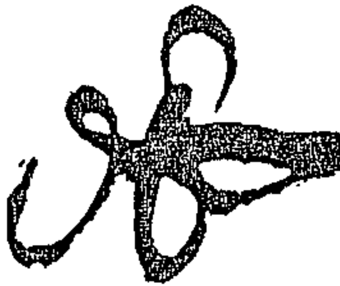

توقيع السلطان جقمق

٢٣ـ الأشرف جانبلاط (٩٠٥هـ ١٥٠٠م).

٢٤ – العادل سيف الدين طومان باى (٩٠٦هـ ١٥٠١م).

٢٥ـ الأشرف قانصوه الغورى (٩٠٦هـ ١٥٠١م).

٢٦ـ الأشرف طومان باى (٩٢٢هـ ١٥١٦م).

أصبح من القواعد المتبعة ألا يكون الاقطاع وحدة متماسكة من الأرض، بل اقطاع الفرد الواحد بين عدة جهات مختلفة مما جعل زمام القرية الواحدة مقسما بين عدة مقاطع(١).

وفى ظل هذا النظام عاش الفلاح المصرى فى عصر سلاطين المماليك مربوطا الى الأرض التى يفلحها ويفنى حياته فى خدمتها وليس له من خيراتها الا القليل ، لان أراضى مصر الزراعية ظلت نهبا موزعا بين السلطان وأمرائه ومماليكه، دون أن يبقى للفلاحين سوى العمل والسخرة ودفع الأموال وهم صاغرون. لذلك لم يكن عجبا اذا أجمعت المصادر على سوء حال الفلاح فى ذلك الوقت وأنه فى أفخر ماكوله لا ياكل إلا الشعير والجبن القريش والبصل. وقد أدرك المقريزى ريف مصر وأهله يشترون الكثير من حوائجهم ببعض الدجاج وبنخال

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج٩، ص٥٢،

ولما طالبوه اهل اسكندرية بالخمس ماية دينار ثانى سنة انكرهم، فمضو واشتكوه للوالى، فمضى هو وتطارح على قوم من الاراخنة حتى اخذو الخط الذى بالخمس ماية دينار من السكندرانيين وكتب لهم غيره بثلثماية وخمسون دينار، وحضر هذا التقرير بقيره الشماس صاحب الصليب وصالح البطرك وقال له: اسمع الان ما اقوله لك فهو يرضى الله تعالى والناس ويفرحو به. فقال له: مهما اشرت به فعلته ولا اخالفه. قال له: يجب ان تترك

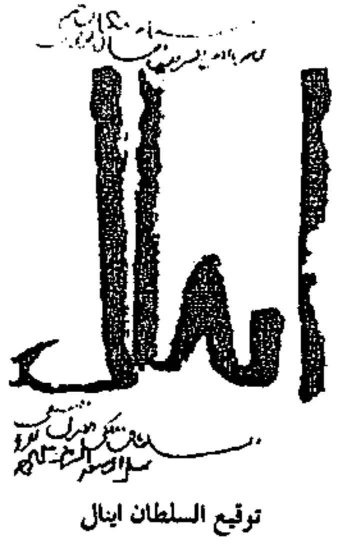

توقيع السلطان اينال

الدقيق، لأن «الغلال معظمها لأهل الدولة أولى الجاه وأرباب السيوف، الذين تزايدت فى اللذات رغباتهم، فخلت معظم القر ى لموت أكثر الفلاحين وتشردهم فى البلاد»[1].

ومما زاد حال الفلاحين في ذلك العصر سوءا، كثرة المغارم والمصادرات التى حلت بهم من الولاة والحكام، ليأخذوا منهم «غير العادة أضعافا». كذلك فرض الولاة على أهل القرية الواحدة نظام المسئولية المشتركة فيما يستحق عليهم من أموال، بمعنى أن يكون كل فلاح شريكا بالنسبة لزملائه في الوفاء بما هو مفروض على القرية من مال. وعند وصول المشد ـ أو الجابى ـ الى القرية توزع نفقات اقامته على الفلاحين من حيث الأكل والشرب وما تحتاج اليه دوابه من عليق، ويلتزم الفلاح بكل ذلك قسرا مهما يلغ فقرة.. وربما هر ب الفلاح لضيق ذات يده فتلتزم زوجته وأولاده بالمطلوب، وتضطر الى بيع مالديها لشرا ء مايلزم ذلك الحشد من دجاج ولحم[2].

أما القرية المصرية عندئذ، فكانت على ما هى عليه من بيوت ضيقة مشيدة من الطوب اللبن وتعلوها الأحطاب. وظلت حياة الفلاح تسير على وتيرة واحدة بين منزله وحقله فى حين

(١) المقريزى: اغاثة الأمة بكشف الغمة، ص ٣٦، ٤٦.

(٢) ابن اياس: بدائع الزهور، ج٢، ص ٣٠٢، الشربينى: هز القحوف فى شرح قصيد أبى شادوف، ص ١١٠ـ ١١١ (بولاق، ١٨٩٠).

هذه الشـرطونيـة التى تاخـذها ولا تبيـع مـوهبـة الله بالمال. فقـال له: من اين لى مـا انفـقه على نفسى وتلاميذى وما احتاجه من المون واللوازم وما اعطيه للسكندرانيين وما اقـوم به عن خـراج الاراضى التى على، قال له: نحن نحسب كلما عليك وجميع ما تحتـاجه ونحـسب كلمـا تاخـذه من الاسـاقفـة عن الديارية فى كل سنة فان عجزت شيا قسطناه علينا وحـملناه لك وتسـتـريح من هذا الاسم السـو الذى يكـرهه الله والناس، فـاظهـر انه قـد طاب قلبـه وهو

توقيع السلطان خوشقدم

تشاركه زوجته بنصيب كبير فى تحمل عبء الحياة. فعليها تقع مهام جلب مياه الشـرب من النهر أو الترعة، وغسـل الملابس فيها، ووقيد الفرن لخبز الخبز «وتدميس الفول وطبيخ البيسـار وتقمير البتاو»[1].

١٠. الحياة العامة فى المدن فى عصر سلاطين المماليك:

واذا كانت هذه حياة الفلاحين ـ وهم الغالبية العظمى من أهل البلاد ـ فى القرى ، فان الصـورة اختلفت تماما فى المدن المصرية فى عصـر سـلاطين المـماليك، وخاصـة المدن الكبر ى مثل القاهرة والاسكندر ية ودمياط ورشيد. وقد أشاد الرحالة الأجانب الذين زاروا مصـر فى ذلك العصر بعظمة المدن المصرية وكثرة سكانها، اذا قيست بغيرها من المدن الأوربية المعاصرة مثل روما وفلورنسا وباريس. وكان أهم ما استرعى انتباه أولئك الرحالة هو تلاصق منازل تلك وضيق حاراتها واكتظاظ طرقاتها بالمارة والسوقة والدواب، فضلاً عن كثرة البا ع الجائلين فى الطرقات[2]. فالخيول يركبها المماليك ويركضون بها وسط الدروب والأسواق المزدحمة، وهم

(١) الشربيني : هز القحوف، ص ٥٤.

(2) Dopp (p.H): Le Caire vu par les voyageurs Occident - aux du Moyen Age (Bulletin de S.R.G. d'Egypte - Tome 23, 195 & Tome 24, 1951 & Tome 26, 1953).

في الباطن لا يوثره، فقال له: اكتب خطك بالرضا. بهذا فكتب بذلك خطه فاخذه بقيره وانصرف. وكنت انا البايس ميخاييل، الغير مستحق ان ادعا اسقف تنيس، حاضرا وانا يوميذا شماس ففرحت بهذا الامر وساعدت عليه، وكان جعلني كاتبه لان قوما من اصحابه وصفوني له فاخذني اكتب له، ثم انه انفذ احضر الاساقفة ليطيب قلبهم بهذا، فدخل اليه انسان منهم وقال له: ما الحاجة الى ما دعوتنا اليه ولماذا تركت الشرطونية وزعمت انك لا

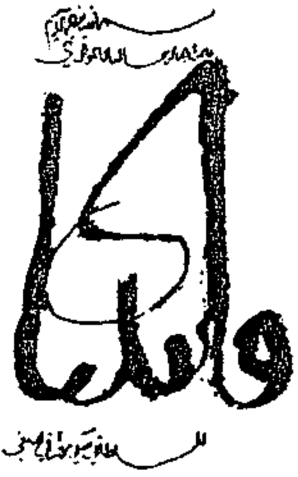

توقيع السلطان قايتباى

يضربون الناس يمنة ويسرة ليشقوا طريقهم، غير مبالين اذا سقط بعض المارة تحت حوافر الخيل، والجمال العديدة يطوف بها السقاؤون، وهي تحمل القرب لامداد المنازل والأسواق بحاجاتها من الماء. وقدر البلوى المغربي ـ الرحالة الذي زار مصر في عصر المماليك ـ عدد الجمال في القاهرة بما يتراوح بين خمسين ألفا ومائتي ألف جمل، وعدد السقائين بين خمسة آلاف وستين الف سقاء، سجلوا أنفسهم عند المحتسب وقاموا بدفع ضريبة معينة للحكومة مقابل ما يأخذونه من ماء النيل. اما الحمير التي قامت بدور سيارات الأجرة في أيامنا فقد بلغت عددا كبيرا، وعني أصحابها بتطهيرها ليستأجرها الناس في قضاء حاجاتهم وسفرياتهم[١].

وعندما زار التاجر الروسي باسل مصر في ذلك العصر وصف القاهرة بأن بها أربعة آلاف شارع ودرب، كل منها له بابان وحارسان وبكل شارع منها عدد كبير من المنازل فضلا عن سوق كبير لسد حاجات السكان اليومية. وفي الليل تضاء تلك الشوارع بالمصابيح بعد أن تغلق أبوابها وتشدد الحراسة عليها، فيرتب لها جماعة من الطوافين لكشف الأزقة وغلق الدروب، وتفقد أصحاب الأرباع، وتأديب المخالف، ومن سار في الليل لغير سبب قبض عليه. وعنيت السلطات بالقاهرة بنظافة الشوارع بالكنس والرش بالماء. وهي المهمة التي قام بها

(١) رحلة البلوى المغربي، ص ٥٥ (مخطوط)، رحلة ابن بطوطة، ص ٣٢ (بيروت، ١٩٦٨).

تاخذ شيا ممن تصيره اسقف، اى شى فعلت بنفسك اذ سمعت ممن لا يريد لك خير. فاقلب عقله من ساعته وثبت فى نفسه مخالفة بقيره وقال: ان لم اخذ الشرطونية فقد مضت منى البطركية، فلما سمع بقيره بان الاساقفة قد حضرو جا اليه واخذ بركته كالعادة وقال له: يا ابونا قد حضرو الاساقفة فاجعل عندهم ان هذا الامر انت فعلته من ذاتك من غير ان يشير احدا عليك به فيكون هذا حسنا قدام الله والجمع. فقال له:

شعار السلطان الملك الأشراف
ابو النصر قايتباى

الباعة وأصحاب الحوانيت. كذلك أمر أصحاب الحوانيت بأن يضعوا على أبواب حوانيتهم آنية مملوءة بالماء لتسهيل اطفاء ما يقع حرائق[١].

وزخرت المدن المصرية عامة والقاهرة خاصة فى عصر المماليك بكثير من المنشآت العامة من الوكالات المعدة لاستقبال التجار وبضائعهم، والمارستانات أو المستشفيات لعلاج المرضى، والأسبلة لتيسير حصول الناس والدواب على ماء الشرب، والحمامات التى اختص بعضها بالرجال والبعض الآخر بالنساء فضلاً عن العديد من القصور والسجون التى كانت على أنواع فمنها ما هو خاص بأرباب الجرائم من اللصوص وقطاع الطرق وغيرهم ومنها ما هو خاص بالنساء المذنبات ومنها ما هو خاص بالأمراء والمماليك والجند. ويفهم من المصادر المعاصرة أن السجون بلغت درجة مخيفة من الحطة والقذارة، وسوء معاملة السجناء داخلها، حتى أن الاعدام كان فى كثير من الحالات أخف وطأة من عقوبة السجن[٢].

وعلى الرغم من المتاعب والأزمات التى تعرض لها الناس أحيانا فى عصر سلاطين المماليك - بسبب انخفاض الفيضان وانتشار الأوبئة أو بسبب الفتن بين طوائف المماليك أو عسف

(١) المقريزى: كتاب السلوك، ج٣، ص١٩، ج٤، ص ٦٦٧.
(٢) المقريزى: المواعظ والاعتبار، ج٢، ص ١٨٧ وما بعدها، كتاب السلوك، ج٢، ص ٦٨٦ _ ٦٨٧، ٤٩١، ٥١٩.

هكذى افعل لكن احضر لى الخط الذى كتبته لك لا وقفهم عليه اذا اجتمعو. فدفعه له فلما صار فى يده مزقه قطعة قطعة، فتعجبو الحاضرين من فعله وقالو هذا بيت مبنى على غير اساس ولا صخرة، واتصل الخبر بالاساقفة فغضبو وقالو: كانه انما يتلاهى بنا واحضرنا لامر ورجع فسخه، نحن لا ننزل عن هذا بالجملة، وكانو مجتمعين فى [كنيسة] ابو مرقوره [ابو سيفين] بمصر وكان انبا شنوده البطرك فى كنيسة ميكاييل المختارة فانفذو

توقيع السلطان قانصوه

بعض الحكام فى جمع الأموال وأهمال الاعمال العامة التى تحفظ صلاحية وسائل الرى والصدق - فان روح المرح والرغبة فى التسلية والترويح عن النفس ظلت هى الغالبة على أهالى المدن المصرية. وقد اعتاد الناس فى ذلك العصر الخروج الى الحدائق المتنزهات مثل بركة الرطلى وبركة الحبش وجزيرة الروضة، أو الى شواطئ النيل - حيث الأشجار والزهور - طلبا للتسلية والترويح. وكثيرا ما كانوا يستأجرون القوارب فى النيل ويصطحبون معهم المغانى وآلات الطرب لقضاء وقت سعيد على صفحات النهر الخالد. كذلك اشتهر من وسائل التسلية فى عصر المماليك خيال الظل، فضلا عن ولع الناس بالتلهى بتطهير الحمام ونطاح الكباش ومناقرة الديوك والمصارعة وغيرها من الألعاب التى كانت تتم عن طريق الرهان(١).

واشتهرت الحياة فى المدن المصرية فى عصر المماليك بالحفلات الصاخبة التى كانت تقام بين حين وآخر لاحياء مختلف المناسبات العائلية والدينية والقومية. فمن أشهر الحفلات العائلية حفل الزواج، وفيه جرت العادة باقامة الولائم الحافلة واستحضار المغنيات وضاربات الدفوف، ويشارك الأهل والأحباب بتقديم الهدايا والنقوط.. ومثل ذلك يقال عن الحفلات الخاصة

(١) ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الامصار، ج ٥٤ ص ١١٠ (بولاق ١٨٩٣)، ابن اياس: بدائع الزهور، حوادث سنة ٨٦٦هـ ، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج٦ ص ١٣٦ .
Paul Kahle: The Arabic Shadow Play in Egypt (p.p. 31 _ 34) (J.R.A.S 1940).

اليه بعض الاراخنة قايلين: ما يمكنك تفسخ هذا الامر الذى جمعتنا بسببه فى معنى ترك الشرطونية الى ان يستقر ما يجب. فلما راى انهم لا ينزلو عن هذا الامر اجتمع معهم وجلسو يخاطبوه من باكر الى الليل وبقيره معهم فما قدرو على مقاومته، ثم دخل اليه احد تلاميذه برقعة من عند رجل من حزب ابليس خزاه الله، فلما وقف عليها قال للشماس بقيره، وانت ايش لك فى الكلام فى هذا المجمع. ثم اوما الى تلاميذه فوثبو اليه وضربوه

بالولادة ـ لاسيما اذا كان المولود ذكرا ـ وختان الطفل... وغير ذلك من المناسبات السعيدة(١). أما الاحتفالات القومية فى عصر سلاطين المماليك فكانت كثيرة ومتنوعة، منها ما ارتبط بالسلاطين مثل الاحتفال بتولية سلطان جديد أو ابلال السلطان من مرض أو عودته سالما من سفر أو ظافرا من حرب. وفى جميع هذه الحالات كانت القاهرة تزين بالزينات الفاخرة، ويخرج السلطان فى موكب حافل، فى حين يحتشد الناس للفرجة وسط قرع الطبول وزغاريد النساء. وثمة مناسبة سعيدة حرص المصريون على احيائها والاحتفال بها كل عام، هى عيد وفاء النيل، فكان يحتفل فى عصر المماليك بكسر الخليج فى موكب حافل تسير فيه السفن المزينة بالأعلام. وعند وصول السلطان أو نائبه الى مقياس الروضة يمد سماط كبير من الشواء والحلوى والفاكهة وسط ابتهاج الناس وفرحهم. أما المناسبات الدينية مثل عيد رأس السنة الهجرية والمولد النبوى ودوران المحمل وشهر رمضان وعيدى الفطر والأضحى، فكان يحتفل بها على نطاق واسع فتقام الزينات وتوزع الصدقات وتمد الأسمطة والولائم، وتضاء الأضواء فى الجوامع والمدارس وغيرها حيث يجتمع الناس لسماع المقرئين والمنشدين والوعاظ،

(١) السخاوى : التبر المسبوك، ص ٣٢ ، المقريزى : كتاب السلوك ص ٣٠٥ ، ٦٠١ ابن الحاج: المدخل، ج٣ ص ٢٨٣ ـ ٢٨٨، ٢٩٠ – ٢٩١ ، ابن دقماق : الجوهر ص ٢٧٦، وابن حجر: أنباء الغمر ، ج٢ ص ٣٧٦ .

ضـربا عظيمـا وقام البطرك خـرج وانفل [انفض] المجلس ومضى كل منهم الى موضعه.

واما يونس الراهب الذى صار اسقفا على الفرما فكتب له بان يعطيـه ثلثين دينار فى كل سنة ويجعل اخوه اسقفا، وانه لما طالبه بذلك لم يدفع له شيا، فخرج من عنده وهو يهدده ويتواعده بان يفعل به كما فعل بانبا زخارياس البطرك القديس، فلما علم منه ذلك اظهر كتاب حرم عجيب لم

قلعة الجبل

ويقيم الصوفية حلقات الذكر. وغير ذلك من مختلف الوسائل للتعبير عن مشاعرهم وأحاسيسهم[1].

وهكذا كانت الحياة العامة فى المدن المصرية ـ وخاصة القاهرة ـ فى عصر سلاطين المماليك حياة نشطة حافلة بالحركة مفعمة بالحيوية مما أضفى على المجتمع المصرى فى ذلك العصر طابعا خاصا مميزا. وبينما أهل القاهر ة يحيون هذه الحياة، كان سلطان المماليك يعيش على مرأى منهم فوق جبل المقطم فى مدينة صغيرة أطلق عليها اسم قلعة الجبل. ذلك أن هذه القلعة لم تكن فى عصر سلاطين المماليك مجرد مركز للحكم ودار اقامة للسلطان فحسب، وانما صارت بمثابة مدينة تضم طباق [مساكن] المماليك السلطانية، ودورا لخواص الأمراء ونسائهم وأولادهم ومماليكهم ودواوينهم، فضلا عن دار الوزارة التى اشتملت على قاعة الانشاء وديوان الجيش وبيت المال وخزانة الخاص.

وكانت قلعة الجبل موضع عناية سلاطين المماليك دائما، فأقاموا فيها العمائر الكثيرة والقصور والمساجد العديدة، مما جعلها مثار دهشة الرسل والسفراء الأجانب فى ذلك العصر.

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٥٧٥ ، ابن الحاج: المدخل، ج٢ ص ٢ ، ١١ ، ٢٥ .
المقريزى: كتاب السلوك ج٤ ص ٤٢٠ حوادث ٨٢٥ هـ.
السخاوى: التبر المسبوك، سنة ٨٤٥، ٨٤٩هـ.

يسمع بمثله كان كتبه عليه بيده من يوم جعله اسقف. فانفذه حينيذ الى كورة مصر ومقدمى النصارى والاساقفة بان لا يقبلوه ولا يطعموه خبز ولا يدفعو له شيا. وكانو فى اول سنة اقسم دفع له كل واحد من الاساقفة دينارين. فلما جرا هذا اظهر هذا الحرم، وفيه مكتوب من [الكتب] العتيقة الحروم المكتوبة فى الناموس الثانى والمكتوبة فى المزمور الماية وثمانية(*) لداوود النبى على يهوذا

(*) انظر المزمور ١٠٩.

وأشرف على أعمال الصيانة العامة بالقلعة ديوان الدولة الشريفة الذى تولى ناظره الانفاق على قصور السلاطين من عمائر وأسمطة وصدقات، وكل ما تحتاج اليه البيوت السلطانية. أما هذه البيوت فكانت عديدة لكل منها مباشر أى رئيس أو مشرف من الأمراء، له مساعدون عديدون، وأطلق عليها اسم البيوت الشريفة ومن هذه البيوت الشراب خاناه ـ أى بيت الشراب ـ ويحوى مختلف أنواع الأشربة والأدوية التى يحتاج اليها السلطان، والطشت خاناه، وفيه أنواع الأوانى والطشوت والأباريق اللازمة لغسل الأيدى والوضوء والاستحمام، والفراش خاناه، وفيه أنواع الفرش والبسط والخيام والتخوت والوسائد.. وغيرها[1].

وسارت الحياة فى قلعة الجبل حسب تقاليد خاصة فى عصر سلاطين المماليك، منها دق الكوسات عند أبوابها، وهى صنجات من نحاس يدق بها مع طبول وشبابة (آلة نفخ مثل الناى والمزمار) مرتين كل ليلة، ويدار بها فى جوانب القلعة مرة بعد العشاء ومرة فى الفجر قبل التسبيح على المآذن، وتسمى كل منها «الدورة». ومنها الزفة بالطبلخاناه وهى طبول متعددة

(١) القلقشندى: صبح الأعشى، ج٣، ص٣٧٦، ج٤، ص ٩ وما بعدها.
المقريزى: المواعظ والاعتبار، ج٢ ص ٢٠١ وما بعدها.
النويرى: نهاية الأرب، ج٨، ص ٢٢٤ وما بعدها.
خليل بن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص ٩٧ ـ ١٢٤.

الاسخريوطى، وكان البطرك المذكور يكتب الحرم بيده.

وفى هذه الايام كان الملك الظاهر لاعزاز دين الله واسمه ابو الحسن والوزير يوميذ على ابن احمد الجرجائى والناظر فى الريف على ابن حديد وكان له صيت عظيم وملا الحبوس من الناس رجال ونسا حتى ان النسا الحبالا ولدو فى الحبوس.

وظهر فى تلك الايام بارض فلسطين عجوبه

معها أبواق وزمر تختلف أصواتها على ايقاع مخصوص تدق كل يوم بالقلعة صباحا وبعد صلاة المغرب فيصير لها دوى عظيم يعرف به موعد فتح أبواب القلعة وغلقها من مسافة بعيدة.. وجرت العادة أن يحتفظ السلطان فى المساء بمفاتيح القلعة، فيحضرها اليه المتولون على الأبواب مساء ويتسلمونها صباحا[1].

أما حياة سلاطين المماليك ـ داخل القلعة وخارجها ـ فاتصفت بالثروة والبذخ. فالقصور السلطانية داخل القلعة استكملت كل أسباب الترف من أثاث ورياش، ونافورات، وصنابير للمياة الباردة أو الساخنة حسب الحاجة، بل ان الثلج كان يجلب لهم من جبال الشام لتبريد الماء صيفا، وذلك «لكمال الرفاهية والأبهة»، فقرروا له هجنا فى البر وسفنا تحمله فى البحر ـ فى برادات وبطريقة خاصة ـ حتى يصل الى القلعة حيث يحفظ بالشرابخاناه[2].

كذلك أمعن سلاطين المماليك فى لبس الفاخر من الثياب، فأبدلوا ملابسهم فى اليوم

(١) ابن تغرى بردى: حوادث الدهور، ج١، ص ١١٨، النجوم الزاهرة، ج٨ ص ١٧٠، القلشندى: صبح الأعشى ج٤ ص ٩.

(٢) خليل بن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص ١١٧ ـ ١١٨، القلقشندى: صبح الأعشى ج١٤، ص ٣٩٥.

(*) بانياس من موانى الساحل السورى جنوب اللاذقية. عرفت باسم قيصرية بانياس.

وهو ان جبلين فى اعمال بانياس التقيا(*) وخرج من بينهما نار عند التقايهما احرقت اشجار كثيرة ونشف من البحر قطعة كبيرة حتى كانوا الناس ياخذوا السمك من على الارض التى انكشفت، ووجدو فيها رصاص وحديد واشيا كثير، ثم ان البحر عاد لما كان عليه.

وفى سنة سبع ماية اربعة وخمسين للشهدا [١٠٣٧/١٠٣٨م] اشرق الريف ولم يزرع فيه الا

الواحد ثلاث مرات، ومع ذلك فان الرداء الذى يخلعه السلطان كان لايلبسه مرة أخرى مطلقا، وانما توضع الملابس المخلوعة فى خزانة خاصة حتى ينعم بها على بعض خاصته. وعند مبيت السلطان يظل حوله عدد من أمرائه ومماليكه للسهر على حراسته، فيقسمون الليل بينهم، كلما انقضت نوبة فنه أيقظوا أصحاب النوبة الذين يلونهم(١).

أما الحريم السلطانى، فاحتوى على عدة قاعات تحيط بها البساتين والأشجار والطيور والحيوانات الجميلة، وقدخصصت لكل واحدة من زوجات السلطان الأربع قاعة خاصة بها، وأحيطت كل واحدة منهن بعدد من الوصيفات، كما لكل واحدة منهن أربعة طواشية (خصيان) بمثابة حرس دائم لها، ولايفارقنها فى أى مكان تذهب اليه. فاذا رزق السلطان بولد ذكر من احدى زوجاته دقت البشائر بالقلعة وأنعم على الأمراء بالخلع(٢).

بالاضافة الى شغف كثير من سلاطين المماليك بالموسيقى والغناء فان معظمهم أظهر ولعا كبيرا بالألعاب الرياضية وخاصة الخروج لسرحات الصيد أو ميادين لعب والرمى بالبندق. هذا

(١) القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤، ص ٤٩، ج٥ ص ٤٥٩.
(٢) خليل بن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص ٢٦ ـ ٢٧.
المقريزى: السلوك، ج٢، ص ٧٦٤.

اليسير. وفى زمان الحصاد ظهر فار كثير مثل الجراد فى الريف واكل مزارع كثيرة وكروم، وكانو عند تدرية الاجران ياخذو بايديهم الزناجر [السلاسل الحديد] واليقطين(*) ينقرو به على الفيران ويحرسو الغلة منهم. وذكرو ان واحد من المزارعين اقلب جرن فيه ستة عشر أردب وقعد يحرسه من الفيران الى بكرة، فلما اصبح وجد فيه ستة ارادب، وكان لانسان كرم فدفع فيه ثلثة عشر دينار، فقال ما اخذ الا اربعة عشر دينار

(*) اليقطين: من أدوات الفلاح مثل المنجله والشرشرة.

فضلا عن الخروج للنزهة فى أماكن متفرقة ظاهر القاهرة، مثل خليج الزعفران أو الجيزة أو غيرها[١].

وفيما عاد ذلك فان الحياة الرسمية فى البلاط داخل القلعة اتصفت بالتعقيد وأحيطت بمختلف مظاهر التفخيم والبروتوكول. وكانت الاستقبالات والمجالس الرسمية تمثل جزءا هاما أساسيا فى حياة سلاطين المماليك، مما جرى العرف على تسميته المواكب.. وأشهر هذه المواكب التى كانت تجرى داخل القلعة موكب استقبال الرسل والسفراء الأجانب، عندما كان السلطان يرتدى أفخر ملابسه ويظهر حوله الأمراء فى أبهى صورة. ويجلس السلطان على سرير الملك وهو منبر من الرخام بصدر الايوان، مغطى بالمخمل. وفى أركان القاعة بعض المنشدين والموسيقيين يعزفون فى هدوء على مختلف الآلات الموسيقية من رباب وعود وغيرها. وقبل أن يتشرف السفير بالمثول بين يدى السلطان ينبهه رجال الحاشية الى قواعد البروتوكول السلطانى، من ضرورة تقبيل الأرض أمام السلطان وعدم البصق فى حضرته...[٢].

(١) السخاوى: التبر المسبوك ، حوادث ٨٤٩ هـ.
العينى: عقد الجمان، حوادث ٨٢١ هـ.
(٢) القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤ ، ص ٦ ـ ٧ .
Schefer : Voyage du Magnifique et tres illustré Chevalier Dominice Trevisan, P. 184. (Paris, 1864).

فاصبح ثاني يوم فلم يجد فيه شي يساوى درهما واحدا. ولم يقدر احد فى تلك السنة يخبز كعك خوفا ان تنعجن الفيران فيه، حتى انهم كانو يقرضو الفخار. وكان الشراقى والفيران تنحط من الله تعالى، وكانو الناس يبتهلو الى الله سبحانه ويضرعو اليه جل اسمه فى ازالة ذلك عنهم برافته وفضله فزال فى هتور، وذكر انسان ان قصريه نحاس كان فيها ما [ماء] الى مقدار نصفها نسوها مكشوفه بالليل فلما اصبحو وجدو فيها اربعين فار

المصريون المسلمون وأحوالهم الدينية فى العصر المملوكى

أولا: فى القرن السابع

* تلامذة ابن عربى من أعيان الصوفية المصريين فى القرن السابع وصراعهم مع الفقهاء:

١ـ يلفت النظر أن الشعرانى أو جزء فى ترجمته لابن عربى، فلم تصل فى الطبقات الكبرى إلا ثلثى صفحة، مع أن الشعرانى شغف بابن عربى إلى درجة تلخيص آرائه فى كتاب (اليواقيت والجواهر والكبريت الأحمر).. ويبدو أن تحرج الشعرانى من الإسهاب فى سيرة ابن عربى مرجعه إلى ما عاناه (الشيخ الأكبر) من إنكار فى حياته وبعد مماته.. حتى أن الترجمة القصيرة التى أوردها الشعرانى لم تخل من ذكر لبعض هذا الأذى وإن كان الشعرانى ـ على عادة الصوفية ـ يغلفه بالكرامات..

يقول مثلاً (وقد بنى عليه قبة عظيمة وتكية شريفة.. واحتاج إلى الحضور عنده من كان ينكر عليه من القاصرين بعد أن كانوا يبولون على قبره، وأخبرنى أخى الشيخ الصالح الحاج أحمد الحلبى أنه كان له بيت يشرف على ضريح الشيخ محيى الدين، فجاء شخص من المنكرين بعد صلاة العشاء بنار يريد أن يحرق تابوت الشيخ فخسف به دون القبر..)(١). ولولا

(١) الطبقات الكبرى جـ١/ ١٦٣ طـ صبيح.

غرقو فيها وماتو، وذكر اخر انه جلس في الظلام وبيده عصا يضرب بها الارض ليطرد الفيران عن قفة فيها قمح فلما اصبح وجد مائة وخمسين فار قد ماتوا بعصاته. وبعد هذا نزل على انبا شنوده ضربان في راسه، وتمسح نهاره وليله بدهن بنفسج فلا يجد له راحة من شدة الضربان والسعال، وكان يحس النار كانها تلهب في راسه، ولحقه ايضا وجع في اذنه واقام الوجع ثلثة سنين الى ان افتقده الرب جل اسمه فتنيح في يومين من هتور

حلقة ذكر ديني

هذه الأساطير لما رويت قصص الإنكار على ابن عربى.. ذلك الأنكار الذى استمر على ابن عربى حتى عصر الشعرانى فى القرن العاشر..

٢ـ ومعنى ذلك أن ابن عربى أصبح قضية دينية فى العصر المملوكى، احتدم حولها الصراع بين مؤيدين ومعارضين، وقد انضم إلى المعارضين بعض الصوفية.. وذلك إما عن جهل وحقد على شخصية ابن عربى الفيلسوف الذائع الصيت بين صوفية يفتقرون إلى مثل علمه وشهرته.. واما عن مكر وخداع حفاظاً على مذهب التصوف وحتى لايصل إنكار الفقهاء إلى حد يؤثر على دين التصوف وأساسه..

وطبيعى أن يكون المنكرون الحاقدون على ابن عربى من أهل عصره، وأبرزهم الصوفى ابراهيم بن معضاد الجعبرى(ت ٦٨٧) الذى اجتمع بابن عربى فقال عنه (رأيت شيخاً نجساً يكذب بكل كتاب أنزله الله وبكل نبى ارسله الله) وذكر عنه أنه (يقول بقدم العالم ـ أى ألوهية العالم ـ ولايحرم فرجا)[١].

٣ـ وحظى ابن عربى بنقمة عز الدين بن عبد السلام، فروى تلميذه ابن دقيق العيد أنه سأل ابن عبد السلام عن ابن عربى فقال(هو شيخ سوء كذاب، يقول بقدم العالم ولايحرم فرجا)[٢].

(١) ابن تيمية: مجموعة الرسائل والمسائل ج٤/٧٦، تنبيه الغبى للبقاعى ١٧٨.
(٢) البقاعى. تنبيه الغبى إلى تكفير ابن عربى ١٥١:١٥٢.

فى سنة سبع ماية ثلثة وثلثين للشهدا [١٠١٦م] وهو يشتهى الدنيا.

وكانت مدة بطركيته خمسة عشر سنة ونصف وتنيح وانا عنده جالس وغمضت عينيه بيدى، واجتمعنا للصلاة عليه ودفناه فى الكنيسة الكبرى بدمرو الذى كان بناها انبا زخارياس البطرك وكملها هذا الاب انبا شنوده رزقنا الله بركة صلواته وانفق فيها مالا كثيرا لانه كان انذر ذلك قبل ان يصير بطركا.

ويقول الشعرانى(وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام شيخ الإسلام يحط كثيراً عليه، فلما صحب الشيخ أبا الحسن الشاذلى وعرف أحوال القوم صار يترجمه بالولاية والعرفان..)[١] وهذا حقيقى فقد تناقض ابن عبد السلام مع تاريخه الطويل حين وفد إلى مصر، فاعتنق التصوف على يد الشاذلى وصار له مريداً، وسبحان الله رب العالمين..

وقد عاصر العسقلانى (ت٦٨٦) ابن سبعين، وكان ينكر عليه بمكة كثيراً من أحواله، وقد صنف فى الاتحادية كتاباً فى الإنكار عليهم، بدأ فيه بالحلاج وختم بالعفيف التلمسانى (وقد فوضت له مشيخة دار الحديث الكاملية بالقاهرة)[٢].

٤ـ وعرف القرن السابع تلاميذ متأخرين لابن عربى، تطرف بعضهم فى محبته مثل الشيخ التيمى ت ٧١٩[٣]، وقدم بعضهم إلى مصر ليدرس مذهب وحدة الوجود من كتب ابن عربى وحظى باعتقاد المصريين فى ولايته مثل الشيخ أبى ذر (ت: ٧٨٠)[٤]. وحظى أبو عبد الله الكركى (ت: ٨٠٠) بميل السلطان إليه، فاستغل ذلك فى الدعوة (إلى مقال ابن العربى الصوفى يناضل عنها ويناظر عليها، ووقع له مع السراج البلقينى مقاومات)[٥].

(١) الطبقات الكبرى جـ١٦٣/١ ط. صبيح.
(٢) شذرات الذهب جـ٣٩٧/٥ .
(٣) تحفة الأحباب ٣٢.
(٤) إنباء الغمر جـ١٨١/١ .
(٥) إنباء الغمر جـ٢٩/٢: ٣٠ .

وفى ذلك الزمان مات الظاهر لاعزاز دين الله وجلس بعده ولده [معد] ابو تميم المستنصر بالله امير المومنين.

وفى ذلك الزمان احرقت بيعة اليعاقبة السريان بانطاكيه لخصومة جرت بين الكهنة والاراخنة بسبب مال البيعة المذكورة، فمضى الارخن المقدم ذكره الى بطرك الملكية ودفع له مال حتى بعث ختم باب البيعة، واخذ الكهنة وطرحهم الاعتقال

٥ـ وقد شهد القرن السابع تكون أشهر الطرق الصوفية فى مصر وأشياخها: أحمد البدوى (٦٧٥) وإبراهيم الدسوقى (٦٧٦) وأبو الحسن الشاذلى (٦٥٦).. وتأثير ابن عربى فيهم واضح..

٦ـ وقد قيل فى الدسوقى«أنه يذهب إلى أكثر ما ذهب إليه الحلاج، فهو يقول أنه عين الله فى حين أن الحلاج قد سمى نفسه الحق[١]» وليس فى ذلك من تحامل على الدسوقى، فهو القائل فى تائيته[٢]:

تجلى المحبوب فى كل وجهة
فشهادته فى كل معنى وصورة
وخاطبنى منى بكشف سرائرى
فقال اتدرى من أنا قلت منيتى
فأنت منايا بل أنا أنت دائما
إذ كنت أنت اليوم عين حقيقتى

(١) دائرة المعارف الإسلامية جـ٢١٨/٩.
(٢) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ١٥٨/١ ط صبيح ونقلها عن جوهرة الدسوقى وقد طبعت «جوهرة الدسوقى» ونشرتها مكتبة الجمهورية ص ١١٢.

وعذبو منه ستة ايام الى ان انفذو اليه وبدلو انهم ينكرو امانتهم ويعترفو بامانته ويصيرو معه على ان يقيهم في طقسهم وياخذ لهم حقهم من ذلك الارخن الذى ظلمهم، فلما سمع الارخن بذلك سبقهم ومضى الى بطرك الملكية وصار ملكيا خوفا من ان يطالب بمال البيعة، وصارت الكهنة ايضا ملكية وخرجو من الاعتقال ومضو الى البيعة المذكورة ونهبوها وهدمو الهيكل واخذو قربان كان فيها فرموه فى البحر وهدمو البيعة وتسلطو على

فقال كذلك الأمر لكنه إذا
تعينت الأشياء كنت كنسختى
فأوصلت ذاتي باتحادى بذاته
بغير حلول بل بتحقيق نسبتى
فصرت فناء فى بقاء مؤبد
لذات بديمومة سرمدية
وغيبني عنى فأصبحت سائلا
لذاتى عن ذاتى لشغلي بغيبتى
وانظر فى مرآه ذاتى مشاهداً
لذاتى بذاتى وهى غاية بغيتى
أنا ذلك القطب المبارك أمره
فإن مدار الكل من حول ذروتى
أنا شمس اشراق العقول ولم أفل
ولاغبت إلا عن قلوب عمية

الشعب وعذبو اكثرهم حتى صارو ملكية، وحكى ان الذين صارو ملكية من السريان اليعاقبة فى تلك النوبة احدى عشر الف انسان، وهو الذى رايته وسمعته وكتبته لاخوتك انا البايس ميخاييل الدمراوى الذى قسمنى الاب انبا زخارياس شماساً وجعلنى انبا شنوده [سانوتيوس] قسا وصيرنى انبا اخرسطودلوس اسقفا على مدينة تنيس واعمالها بغير استحقاق منى لهذه الرتبة الجليلة. وكملت هذه السيرة فى اليوم الخامس والعشرين من بشنس

احد الدراويش

يرونى فى المرآة وهى صدية
وليس يرونى بالمرآة الصقيلة
وبى قامت الأنباء فى كل أمة
بمختلف الآراء والكل أمتى
ولاجامع إلا ولى فيه منبر
وفى حضرة المختار فزت ببغيتى
وما شهدت عينى سوى عين ذاتها
وإن سواها لايلم بفكرتى
بذاتى تقوم الذات فى كل ذروة
أجدد فيها حلة بعد حلة

أ)فالدسوقى يقرر وحدة الوجود فى البيت الأول وينسب لله أنه تجلى له فرآه فى كل الكائنات المعنوية والمادية.

ب) وعبر عن الحول فى البيت الثانى إذ جعل الله يحل فيه ويخاطبه من داخل ذاته..

سنة سبعماية سبعة وستين للشهدا الابرار [١٠٥١م] بقدر ما وصلت معرفتى اليه ليكون تذكار لى عند من يقراه، والمجد للاب والابن والروح القدس الان وكل اوان والى دهر الداهرين امين(*).

(*) إلى هنا ينتهى ما كتبه انبا ميخايل الدمراوى اسقف تنيس. وما يليه من سير كتبها وجمعها موهب ابن منصور مفرج الاسكندرانى الشماس.

ج) ثم أثبت الاتحاد التام بينه وبين الله فى البيتين الثالث والرابع، وساوى بينه وبين الله فيقول.: (بل أنا أنت دائما ـ أنت اليوم عين حقيقتى ـ إذا تعينت الأشياء كنت كنسختى).

د) ثم تطرف الدسوقى فأنكر حلول الله فيه، فجعل نفسه هو الذى يحل بالله ويتحد به، وان ذلك نسبه الحقيقى كما فى البيت الخامس و ما بعده إلى البيت الثامن..

هـ)ثم خاطب العالم بصفته الجديدة فأثبت وحدة الوجود لالله وانما لنفسه، فهو مدار الكل وشمس إشراق العلوم ولايراه المحجوبون(ولاغبت إلا عن قلوب عمية)، وان الأنبياء جاءت إلى الأمم من لدنه(وبى قامت الأنباء فى كل أمة..)والمصلون فى الحقيقة يتجهون إليه(ولاجامع إلاولى فيه منبر).. ثم إنه طبقاً لوحدة الوجود يظهر فى كل صورة.. وتعبر عنه كل ذات (بذاتى تقوم الذات فى كل ذروة أجدد فيها حلة بعد حلة)..

ولم يتوقف الدسوقى عن إعلان عقيدته نثراً فهو القائل(أنا كل ولى فى الأرض، خلعته بيدى، ألبس منهم من شئت، أنا فى السماء شاهدت ربى، وعلى الكرسى خاطبته، أنا بيدى أبواب النار غلقتها، وبيدى جنة الفردوس فتحتها ، من زارنى اسكنته جنة الفردوس..)(١).

٧ـ أما الشاذلى فقد أكتسب الشهرة بالاعتدال وأنه أقرب الطرق الصوفية إلى مذهب أهل

(١) الطبقات الكبرى: جـ١/١٥٧ وجوهرة الدسوقى٩٩.

قــال مــوهوب ابن منصــور ابن مــفــرج الأسكندرانى الشـمـاس انه لما كـان من تقـدم من السلف الاخيار ،رزقنا الله بركتـهم قد اهتم وكتب سـيرة البـيعـة ورتبـهـا وشرح امور البطاركة على كرسى البشير مارى مرقس الانجيلى باسكندرية وما جرى لهم، وما اظهره الله سبحنه على يديهم من العـجـايب، وايدهم به من الصـبـر والجـهـاد وقـوة الامـانة وارشـادهم لرعيـتـهم وهدايتـهم اياهم الى الامانة المستقيمة وتعليمهم الوصايا الانجيلية كما

السنة وأبعد عن مدرسة ابن عربى.. وفى ذلك يقول أبو الوفا التفتازانى (كان تصوف الشاذلى والمرسى وابن عطاء ـ وهم أركان المدرسة الشاذلية ـ مبتعداً تماماً عن مدرسة ابن عربى فى وحدة الوجود، فلم يكن واحد منهم قائلا بهذا المذهب، ولكن هذا لايعنى إنه لم تكن هناك صلات بين مدرسة ابن عربى والمدرسة الشاذلية.

وقد يكون من الأفضل أن نتعرف على عقيدة الشاذلى والمرسى من خلال ما كتبه تلميذهما ابن عطاء فى (لطائف المنن)لنرى إلى أى حد تأثرت الشاذلية بآراء ابن عربى وعبرت عن عقيدة الاتحاد ووحدة الوجود.. يقول الشاذلى(فى بعض كتب الله تعالى المنزلة على بعض أنبيائه: من أطاعنى فى كل شئ أطعته فى كل شئ)[(1)]. والشاذلى (وهو يفترى هذا الحديث الذى نسبه إلى بعض الكتب المنزلة ولم يعينها ـ على بعض الرسل ـ ولم يعرفنا بهم) بعد ذلك خلص إلى غرضه الأساسى، وهو شرح هذا القول فى ضوء فهمه لعقيدة الصوفية فى الاتحاد ووحدة الوجود.. (فقال الشيخ أبو الحسن: من أطاعنى فى كل شئ بهجرانه لكل شئ، أطعته فى كل شئ بأن اتجلى له دون كل شئ ، حتى يرانى أقرب إليه من كل شئ.

هذه طريقة أولى وهى طريقة السالكين، وطريقة كبرى: من أطاعنى فى كل شيء بإقباله على كل شيء، يحسن إرادة مولاه فى كل شيء، أطعته فى كل شيء، بأن أتجلى له فى كل

(١) لطائف المنن ٣٩: ٤٠ مكتبة القاهرة ١٩٧٩.

امرهم الرب جل اسمه، اشتهيت انا الخاطى البايس ان اجمع سيرهم واكتبهم ليكون ذلك ربحا لى ولمن يقراها بعدى، فاستعنت بالله تعالى ذكره، وصرت الى دير القديس ابو مقار بوادى هبيب المقدس، فوجدت الشماس ابا حبيب ميخاييل ابن بدير الدمنهورى، وكان هناك الاب انباكيرلس ومعه ثلثة اساقفة وهم انبا غبريال اسقف البحيرة وانبا ابرهام اسقف دبقوا [مركز كفر الزيات] وانبا خايال اسقف نوسا [مركز أجا] الذى من بوره

شىء، حتى يرانى فى كل شئ، وأذ قد عرفت هذا فاعلم أنهما ولايتان: ولى يغنى عن كل شئ فلايشهد مع الله شيئا، وولى يبقى فى كل شئ فيشهد الله تعالى فى كل شىء، وهذا أتم)(١)..

فعبر الشاذلى عن الاتحاد أو طريقة السالكين (بأن اتجلى له دون كل شىء حتى يرانى أقرب إليه من كل شيء) وهو صوفى (لا يشهد مع الله شيئا) أو بتعبير الغزالى (لا يرى إلا فاعلاً واحداً)، وعن وحدة الوجود قال (وطريقة كبرى.. أطعته فى كل شىء بأن اتجلى له فى كل شىء حتى يرانى فى كل شىء) والصوفى حينئذ (يشهد لله تعالى فى كل شىء، وهذا أتم)..

ويقول الشاذلى (الصوفى من يرى الخلق لاموجودين ولامعدومين..)وقال (إنا لانرى أحداً من الخلق، هل فى الوجود أحد سوى الملك الحق؟ وإن كان لابد فكالهباء فى الهواء إن فتشته لم تجد شيئا)(٢). وهو متأثر بقول ابن عربى (إن شئت قلت هو الخلق وإن شئت قلت هو الحق وإن شئت قلت هو الخلق الحق.. وإن شئت قلت بالحيرة فى ذلك)(٣) فقال الشاذلى (إن الخلق لاموجودين ولامعدومين).. واعتبر وجود الخلق (كالهباء فى الهواء)..

(١) لطائف المنن ٣٩: ٤٠ مكتبة القاهرة ١٩٧٩.
(٢) نفس المرجع ١٩٩ . (٣) الفصوص ١٣٤.

[كفر البطيخ/شربين]، وذلك في برمهات سنة ثمانماية واربعة للشهدا، الموافقة لسنة اربع ماية ستة وسبعين الخراجية، وهو المحرم من سنة ثمانين واربع ماية الهلالية، وهي السنة العاشرة من بطركيته. وفي البرية المذكورة يوميذ تقدير سبع ماية راهب، منها في دير ابو مقار اربع ماية، وفي دير أبو يحنس ماية خمسة وستين، وفي دير ابو كما خمسة وعشرين، وفي دير برموس عشرين، وفي دير ابو بشيه اربعين، وفي دير السريان ستين،

وقد سبق القول في أن ابن عربي ارتفع بمكانة الإنسان حتى جعله بالنسبة لله تعالى (بمنزلة انسان العين من العين الذي به يكون النظر).. وقد تأثر به الدسوقي فجعل من نفسه الأصل الذي تصدر عنه مظاهر الأشياء، كما عرضنا في شرح قصيدته السابقة، ثم ألمح الشاذلي إلى هذه النقطة حين جعل نفسه يتحد مع تلميذه المرسي فقال له(يا أبا العباس ما صحبتك إلا لتكون أنت أنا وأنا أنت)[(١)] وتأسيساً على ذلك فقد رويت اسطورة منامية بعد موت الشاذلي جعلته يحل في شخص المرسي، يقول ابن عطاء (واخبروني بعض أصحابنا قال: رأى انسان من أهل العلم والخير كأنه بالقرافة الصغرى والناس مجتمعون يتطلعون إلى السماء، وقائل يقول: الشيخ أبو الحسن الشاذلي ينزل من السماء والشيخ أبو العباس مترقب لنزوله متأهب له، فرأيت الشيخ أبا الحسن قد نزل من السماء وعليه ثياب بيض، فلما رآه الشيخ أبو العباس ثبت رجليه في الأرض وتهيأ لنزوله عليه فنزل الشيخ أبو الحسن عليه ودخل من رأسه حتى غاب فيه[(٢)].

أي أن الشاذلي ادعى انه الذي يتحد بخليفته، ثم جاء اتباعه فجعلوا من الشاذلي ـ بعد

(١) لطائف المنن المرجع السابق ٩٦.
(٢) لطائف المنن المرجع السابق ١١٢.

وفى مغارة ابو موسى راهبين سريانى وقبطى سوا [غير] السواح الذى لم نراهم ولم نعرفهم. وكان يوميذ ملك مصر الامام المستنصر بالله(*)، وجلس فى الملك احد وخمسين سنة خراجية، لانه ولد يوم الثلثا السادس عشر من جمادى الاخر سنة اربع ماية وعشرين الهلالية، وجلس فى المملكة وعمره سبع سنين فى يوم الاحد النصف من شعبان سنة اربع ماية سبعة وعشرين الهلالية، الموافق لبرموده سنة اربع ماية خمسة وعشرين الخراجية

(*) كانت أم المستنصر من السودان.

موته ـ ينزل من السماء ليحل فى شخص تلميذه المرسى.. والشاذلى يرى أن شأن الولى الحقيقى ـ ويقصد نفسه ـ هو أن يكون عين الاسم الأعظم لله تعالى [١].

وقد كان ابن مشيش هو الشيخ المباشر للشاذلى، ولازالت صلاة ابن مشيش هى الورد المفضل للشاذلية حتى اليوم.. وفيها يقول ابن مشيش(وزجنى فى بحار الأحدية، وانشلنى من أوحال التوحيد، واغرقنى فى بحر عين الوحدة، حتى لاأرى ولاأسمع ولاأجد ولاأحس إلابك)[٢]. فابن مشيش لايكتفى بإدعاء الوحدة وأن يكون فى عين ذات الله وأنما يعتبر التوحيد الإسلامى ـ دين الله ـ أوحالاً يترفع عن التدين به، وينبغى الفرار منه إلى الاتحاد بذات الله والغرق (فى بحر عين الوحدة)..

ويبدو تأثر الشاذلى بصلاة ابن مشيش.. فهو يقول فى دعائه (اجعلنى عندك دائماً وبك قائماً.. واسقط البين بينى وبينك حتى لايكون شئ أقرب إلى منك ولاتحجبنى بك عنك[٣]. ويقول (اللهم هب لى من النور الذى رأى به رسولك ما كان ومايكون، ليكون العبد بوصفى سيده لا بوصف نفسه[٤].

(١) لطائف المنن المرجع السابق٨٨.
(٢) شرح صلاة ابن مشيش٢٢٥ك٢٦٦ مخطوط..
(٣)، (٤) لطائف المنن ٢٤٧ .

[١٠٣٦م]، ومتسولى الامر والوزارة والنظر فى المملكة يوميذ السيد الاجل امير الجيوش سيف الاسلام بدر الجمالى، وهى السنة الرابعة عشر منذ دخوله الى مملكة ديار مصر من عكا، لانه كان واليها ومنها جا الى القاهرة فى العشر الاول من طوبه، وهى صخرة [حصن] امير الجيوش التى تعرف بديار مصر الى الان ولا تعرف بغيرها، وتحدث [تحدثتُ] مع الشماس ابو حبيب الدمنهورى المقدم ذكره فيما عولت عليه من جمع

ويقول الشاذلى فى حزبه (اللهم صلنى باسمك العظيم الذى لايضر معه شئ فى الأرض ولافى السماء، وهب لى منه سراً لاتضر معه الذنوب شيئاً.. وأدرج اسمائى تحت اسمائك وصفاتى تحت صفاتك وأفعالى تحت أفعالك.. وأغننى حتى تغنى بى وأحينى حتى تحيا بى)[١].

٨ـ ولم يتخلف ابو العباس المرسى عن ركب شيخه، يقول عن خاصة الأولياء واحسبه يقصد نفسه(إن لله تعالى عباداً محق أفعالهم بأفعاله وأوصافهم بأوصافه وذاتهم بذاته، وحملهم من أسراره ما يعجز عامة الأولياء عن سماعه، وهم الذين غرقوا فى بحر الذات وتيار الصفات، فهى إذن فنات ثلاث: أن يفنيك عن أفعالك بأفعاله وعن أوصافك بأوصافه وعن ذاتك بذاته.. فإذا افناك عنك ابقاك به..)[٢].

ويقول المرسى يصف ألوهية الصوفى المتحد بالله(لو كشف عن حقيقة الولى لعبد، لأن أوصافه من أوصافه ونعوته من نعوته)[٣] أى لو عرف المحجوبون من البشر حقيقة ألوهية الولى الصوفى لعبدوه، لأن صفاته من صفات الله.

ويقول التفتازانى (ولقد لاحظنا بعد استقراء طويل لأقوال ومذاهب صوفية مصر منذ القرن الثالث إلى القرن السابع، سواء منهم من كان مصرياً أو وافداً إلى مصر ومقيماً بها ما يلى:

(١) نفس المرجع ٢٦٥ :٢٦٦ . (٢) لطائف المنن٣٢ :٣٣.
(٣) لطائف المنن ٤٥ .

سير البطاركة، فاتفق راينا على البحث عنها وطلبها حيث ما كانت، فوجدنا في دير السيدة بنهيا [على النيل قرب امبابه] منها سيرة اثنين واربعين بطرك من مارى مرقس الانجيلى الى سيمون، ووجدنا فى دير الشهيد الجليل تادرس على المنهى بابلاج [بوادى النطرون] سيرة اربعة بطاركة من الاكسندروس الى خايال وهو تمام ستة واربعين بطرك، ووجدنا في دير نهيا ايضا سيرة تسعة بطاركة من انبا مينا الى شنوده وهو تمام خمسة

١ـ لم يقل واحد منهم بوحدة الوجود أو الحلول أو الاتحاد..

٢ـ بخلو تصوفهم من العناصر الأجنبية غير الأسلامية، وتصوفهم فى نظرنا يمثل التصوف الإسلامى الخالص)[١].

وهو قول مجاف للحق تماماً، فأين عمر بن الفارض والعفيف التلمسانى وغيرهما؟؟ وشهرتهم بالاتحاد والحلول لاينكرها أحد من معاصريهم، والتفتاز انى نفسه يقول(على أنه منذ القرن السادس الهجرى أيضاً نجد مجموعة أخرى من شيوخ التصوف الذين مزجوا تصوفهم بالفلسفة)، وذكر منهم (سلطان العاشقين الشاعر الصوفى المصرى عمر بن الفارض.. وواضح أنهم قد استفادوا من عديد من المصادر والآراء الأجنبية كالفلسفة اليونانية خصوصاً مذهب الأفلاطونية الحديثة.. وقد آثار متفلسفة الصوفية فقهاء المسلمين واشتدت الحملة عليهم لما ذهبوا إليه من القول بالوحدة الوجودية،وكان أبرز من حمل عليهم ابن تيمية)[٢] والمهم أن دعوة التفتازانى لتأكيد الاعتدال فى الطريقة الشاذلية التى ينتمى إليها جعلته يبالغ فيحسب ذلك الاعتدال على صوفية مصر جميعاً.. وذلك ما يأباه المنطق والتاريخ معاً..

٩ـ ويتمتع أشياخ الطرق ـ خاصة البدوى والدسوقى والشاذلى ـ بتقديس اضطرد مع

(١) التفتازانى: ابن عطاء وتصوفه ٥٣، وحوليات آداب القاهرة ص ٦٣مجلد ٢٥سنة ٦٣.
(٢) مدخل إلى التصوف الإسلامى: ٢٣ :٢٤.

وخمسون بطركا، ووجدنا فى دير ابو مقار سيرة عشرة بطاركة من خايال السادس والخمسون الى سانوتيوس الخامس والستون، كتبها انبا ميخاييل [الدمراوى] اسقف تنيس وهى بخط لقوط الراهب ولده، فلما كملت لى هذه السير ونسختها بخطى وصارت عندى بالاسكندريه، وجب الان ان ابتدى واشرح ما يتلوا ذلك، وهى سيرة الاب القديس ابا اخرسطودولس البطريك ومن جلس بعده، وجعلتها بمقتضى سياقة عدد السنين التى قبلها.

تتابع السنين.. بما كرسه الأتباع من تأليه وعبادة لهم طبقاً لعقيدة الصوفية.. إلا أن ذلك التقديس المضطرد لايحجب حقيقة هامة تتمثل فى وجود الإنكار عليهم فى حياتهم مع ما كان للتصوف من دولة زاهرة فى العصر المملوكى..

أ) فابن دقيق العيد انكر على أحمد البدوى، وجاء فى الجواهر السنية (إن مولانا قاضى القضاه شيخ الإسلام تقى الدين ابن دقيق العيد كان ينكر على الشيخ أحمد البدوى)[١]. وتنتهى قصة الإنكار بكرامة تجعل ابن دقيق العيد يعتقد ولاية البدوى، ويذكر الشعرانى أن الخطباء فى طنطا انتصروا لأحد المنكرين على البدوى وبنوا له مئذنة عظيمة (فرفسها سيدى عبد العال برجله فغارت إلى وقتنا هذا)[٢].

ب) ولاشك أن ادعاءات الدسوقى المتطرفة قد آثارت الإنكار عليه، فكان يقول (عليكم بتصديق القوم فى كل ما يدعون، فقد أفلح المصدقون وخاب المستهزئون، فإن الله تعالى قذف فى سر خواص عباده ما لايطلع عليه ملك مقرب ولانبى مرسل.. ما أنا قلت هذا من عندى إنما هو كلام أهل العلم بالله تعالى فما للعاقل إلا التسليم والاحرم فوائدهم وخسر الداريـن[٣]. أى أن الدسوقى يرد الإنكار بما يستوجب الإنكار، إذ فضل الولى الصوفى على

(١) الجواهر السنية ٤١.
(٢) الطبقات الكبرى جـ١/ ١٦٠، ١٦٢.
(٣) الطبقات الكبرى جـ١/ ١٥٠.

النبى والملائكة ولادليل له من كتاب أو منطق، وانما من كلام الصوفية وإحاديثهم أو على حد قوله (إنما هو كلام أهل العلم بالله تعالى)..

فهرس الجزء الخامس

الهيئة العامة لقصور الثقافة

تاريخ مصر

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس بن المقفع

6

إعداد و تحقيق:
عبد العزيز جمال الدين

لم يكن ابن المقفع آخر المؤرخين المصريين، لكنه ومخطوطته كانا الأشهر فى هذا السياق، وقد تعاقب من بعده من الآباء والرهبان المصريين من عكفوا على استكمال هذا التأريخ حتى بداية القرن العشرين. وبجهد الباحث المجد عكف المحقق المصرى عبد العزيز جمال الدين على جمع هذه المخطوطات وتحقيقها والتعليق عليها، موضحاً ما كتب فيها وما كتب فى التاريخ الرسمى الشهير، ليضع أمامنا عملاً قل أن نجده فى الثقافات الحديثة، لنقف أمام وجهتى نظر للتاريخ متأملين كيفية عمل الفعل البشرى فى تسجيل الأحداث حسب الانتماء الثقافى، وليفتح الباب على مصراعيه أمام العاملين فى مجال البحث التاريخى ليعيدوا التأمل فى آلية ومسار واحدة من أهم عمليات التدوين الذى حكم مخيلة البشر فى رؤيتهم لماضيهم التليد.

السعر: سبعة جنيهات

تصميم الغلاف: أحمد اللباد

تاريـخ مصــــر

من خلال مخطوطة

تاريـخ البطاركـة

لساويرس بن المقفع

الجزء السادس

وزارة الثقافة

مطبوعات

الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة

سعد عبد الرحمن

أمين عام النشر

محمد أبو المجد

الإشراف العام

صبحي موسى

الإشراف الفني

د. خالد سرور

المتابعة والتنفيذ

عادل سميح

• تاريخ مصر من خلال مخطوطة تاريخ البطاركة (الجزء السادس)

• إعداد وتحقيق:
عبد العزيز جمال الدين

• طبعة:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2012م
17×24 سم

• تصميم الغلاف: أحمد اللباد

• رقم الإيداع: ٢٦٤٢/ ٢٠١٢

• الترقيم الدولي: 978-977-704-939-9

• المراسلات:
باسم / المشرف العام
على العنوان التالي: 16أ شارع أمين سامي - القصر العيني
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947897

التجهيزات والطباعة:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.

• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابي من الهيئة العامة لقصور الثقافة، أو بالإشارة إلى المصدر.

تاريخ مصر

من بدايات القرن الأول الميلادى
حتى نهاية القرن العشرين

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس بن المقفع

إعداد وتحقيق

عبد العزيز جمال الدين

الجزء السادس

من أنبا أخرسطودلوس حتى الأب ميخائيل بن دنشترى البطرك ٧١ (١١٤٥ - ١١٤٦م)

السيرة السادسة والعشرون من سير البيعة المقدسة انبا اخر سطودلوس [عبدالمسيح] البطريرك(*) وهو من العدد السادس والستون [١٠٤٦ / ١٠٧٧م]

(*) فى أيامه نقلت البطركية إلى القاهرة. ومن هنا يبدأ ما كتبه موهب ابن منصور ابن مفرج الاسكندرانى الشماس من سير تاريخ البطاركة.

ولما تنيح الاب انبا شنوده وكانت النوبة [نوبة أختيار البطرك] للاسكندرانيين، اجتمع أهل اسكندريه والكهنة والأراخنة وتشاوروا فيمن يجلسوه على الكرسى الرسولى، وكان فيها عاملين: أحدهما المعروف بفهد ابن فلوتس

- -

والطريف أن الدسوقى قد أوسع مكاناً فى النار للمنكرين عليه وأحبط أعمالهم. وذلك فى معرض استعراض ألوهيته يوم القيامة يقول: (ومن كراماتنا .. أنى سددت أبواب جهنم السبع بفوطتى وفتحتها لأعدائى وأدخلتهم فيها، ومنها أنى فتحت أبواب الجنة الثمانية بيدى وأدخلت أمة محمد ﷺ فيها ومنها أن صنج الميزان بيدى أصير حسنات مريدى أثقل من سيئاته، ومسيت عليها بيدى فصارت سيئات المنكرين علىّ أثقل من حسناتهم ولو كانوا مطيعين[١]).

وقد لعب الإنكار على الشاذلى دوراً هاماً فى حياته، مع أنه اشتهر ظاهرياً بالاعتدال.. ومعلوم أن الإنكار دائماً من نصيب الصوفى المتطرف فى العصر المملوكى ويزداد الإنكار بازدياد تطرف الصوفى فى ادعاءاته.

ثانيا: فى القرن الثامن

أ) ابن تيمية ونصر المنبجى:

فتح هذا القرن عينيه ليشهد ثورة الفقهاء بزعامة ابن تيمية على نفوذ أتباع ابن عربى فى

(١) طبقات الشرنوبى ٣،٤. مخطوط بجامعة القاهرة تحت رقم ٢١٨٤٦ .

[فلتس]، والآخر يسمى علون [علوان] ابن زكريا من قبل على ابن حديد ناظر الريف، فحضرا المجمع وذكرا قمص دير القديس ساويرس الهانطون غربى اسكندرية، وكان فيه يوميذ نيف وأربعين راهب فضلا علما منهم شيخ قديس يسمى تيدر الخصى، رأيته أنا الخاطى واضع هذه السيرة وتقربت من يده دفعات واستعلمت قصته من الرهبان، فعرفوني أنه كان قد نزل بالدير جماعة من امرآ العرب القريبين وأن جارية من جوارهم

آواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن، ممثلاً فى نصر المنبجى الذى سيطر على السلطان المملوكى بيبرس الجاشنكير، وقد اغتصب العرش من الناصر محمد ابن قلاوون..

١.محاكمة ابن تيمية الأولى فى الشام..

ونتابع المؤرخ الأمير بيبرس الداودارى وهو معاصر لهذه الفترة، يقول أن مجلساً عقد لمحاكمة ابن تيمية فى رجب ٧٠٥هـ وسألوه فى مواضع خارجاً عن العقيدة، ثم رجعوا واتفقوا أن يحاققه ابن الزملكانى من غير مسامحة، وانفصل الأمر بينهم على أنه أشهد على نفسه الحاضرين أنه شافعى المذهب، وابتهج أصحاب الشيخ وقالوا: ظهر الحق مع شيخنا، فعزروا أحدهم، ثم حبس أحد أصحاب ابن تيمية لأنه قرأ فصلاً فى الرد على الجهمية من تصنيف البخارى ، فظنوا أنهم المقصودون بالتكفير ، فأخرجه ابن تيمية من الحبس، وتنازعوا، وكان نائب السلطان(فى الشام) غائباً فى الصيد، فلما جاء اعتقل من أكثر من الكلام من الطائفتين (الفقهاء والصوفية) ، وهدد من تكلم فى العقائد ليخمد الفتنة»..

٢.محاكمته الثانية فى مصر:

«وقد اجتمع القضاة للبحث فى العقيدة وانتهى الاجتماع بين ابن الوكيل وابن الزملكانى بأن جعل القاضى نجم الدين صيصرى قاضى القضاة يعزل نفسه رغم إلحاح الأمراء عليه، ثم ورد من مصر بعودته للحكم، ومضمون أحد الكتابين يقول: قد فرحنا بإجماع رأى العلماء

تعرضت به وألزمته نفسها. فأخذ سكين مضه [ماضية] وسنها على حجر المآ وقطع بها مذاكره فوقع كالميت حتى جا سرور الراهب قيم الدير فوجده مطروحاً على هذه الحال فشوا جبن خيشي(*) وجعله عليه حتى انقطع الدم وبرى وعاش إلى الان. فاما القمص الذى ذكروه للبطركيه فهو شيخ قديس اسمه يونس ابن تبروس من كهنة اسكندرية وكان له أخ أرشي دياقن اسمه تيدر، فلما عولو على تقدمته مضى قوم من كهنة

(*) الجبن الخيشي: هو الجبن الذى يتم تصفيته من الشرش بلفه فى لفائف الخيش ليفقد الماء الموجود به.

على عقيدة الشيخ تقى الدين(ابن تيمية)، فباشر القاضى نجم الدين مستهل شهر رمضان وسكنت الفتنة، ثم ورد مرسوم آخر فى (٥) رمضان بطلب نجم الدين بن صصرى وابن تيمية وابن الزملكانى، وفيه إنكار على ابن تيمية، ثم وصل مملوك ملك الأمراء (يقصد بيبرس الجاشنكير ولم يكن قد تولى السلطنة) على البريد، وأخبر إن الطلب عل ابن تيمية حثيث، وان القاضى المالكى ابن مخلوف قد قام فى الأمر قياماً عظيماً، وان بيبرس الجاشنكير معه فى الأمر، وأخبر بأشياء كثيرة وقعت فى مصر فى حق الحنابلة(أتباع ابن تيمية) وان بعضهم أهين، وان القاضى المالكى (المنحاز للصوفية) والحنبلى (المؤيد للفقهاء) جرى بينهما كلام كثير، فأمر ملك الأمراء بتجهيزهم فوصلوا فى رمضان، وعقد مجلس لابن تيمية فى دار النيابة (بمصر) بحضور سلار والعلماء والأئمة والقضاة الأربعة وبيبرس فادعى ابن عدلان القاضى الشافعى على ابن تيمية دعوى شرعية فى عقيدته، فأراد ابن تيمية أن يذكر عقيدته فى فصل طويل،فقالوا له: ياشيخ الذى بتقوله معلوم ولاحاجة للإطالة، وأنت قد ادعى عليك هذا القاضى بدعوى شرعية أجب عليها، فأعاد القول فى التحميد فلم يمكنوه فى تتمة تحاميده، فقال عند من هى هذه الدعوى؟ فقالوا: عند القاضى زين المالكى، فقال: عدوى وعدو مذهبى.. وطال الأمر، فحكم القاضى المالكى باعتقاله، فاعتقل، وسجن أخوته فى برج من أبراج القلعة.

اسكندرية إلى شيخ يسمى أبا يحى زكريا كان يصحب القايد الأجل المستنصر وكان قريباً من السلطان ومن الوزير على ابن أحمد الجرجانى [الجرجرائى](*) وكان لهذا أبو يحى تقدمة وجاه عريض وكان نايباً عن الاب البطرك المتنيح انبا شنوده، وقالو هذا الاغومنس يونس ابن تبروس الذى عولو على قسمته بطركاً هو اشبين علوان ابن زكريا العامل ومتى جلس على الكرسى الرسولى

(*) الجراجرائى: توفى ٤٣٦هـ = ١٠٤٥م. هو على ابن أحمد الجرجرائى، أبو القاسم، نجيب الدولة: وزير من الدهاة. ولد فى جرجرايا بسواد العراق. سكن مصر تنقل فى الأعمال السلطانية بالريف والصعيد. كثر التظلم منه

٣.سبب المحاكمات:

ويقول المؤرخ بيبرس الداودار تحت عنوان(ذكر السبب الموجب لهذه الفتن المذكورة) يعلل السبب الحقيقى فى اعتقاله: (أحضر بعض أصحاب ابن تيمية له (فصوص الحكم) لابن عربى، فرأى فيه الشيخ مسائل تخالف اعتقاده، فشرع فى لعن ابن العربى وسب أصحابه ممن يعتقد اعتقاده، ثم اعتكف الشيخ (ابن تيمية) فى شهر رمضان وصنف نقيضه وسماه(النصوص على الفصوص)، وبين فيه الخطأ الذى ذكره ابن عربى.. وبلغه أن شيخ الشيوخ كريم الدين شيخ خانقاه سعيد السعداء بالقاهرة له اشتغال بمصنفات ابن عربى وانه يعظمه تعظيماً كبيراً، وكذلك الشيخ نصر المنبجى(ت ٧١٩)، ثم أن الشيخ صنف كتابين فيهما إنكار كثير على تأليف ابن العربى ولعنه فيهما مصرحاً ولعن من يقول بقوله، وسير الكتاب الواحد للشيخ نصر المنبجى والشيخ كريم الدين، فلما وقف عليه الشيخ نصر تألم، وكانت له منزلته عند ركن الدين بيبرس (الجاشنكير المتحكم فى السلطنة) الذى لايقوم ولايقعد إلابه، وكان سائر الحكام من القضاة والأمراء وأرباب المناصب يترددون عند الشيخ نصر لأجل منزلته عند بيبرس الجاشنكير، فحضر عنده القاضى ابن مخلوف المالكى عقيب وقوف نصر على كتاب ابن تيمية، فأوقفه على الكتاب المذكور، فقال له القاضى: أوقف الأمير ركن الدين بيبرس عليه وقرر ما أحببت وأنا معك كيف شئت، وألزم الأمير ركن الدين بطلبه

كان مستحوذ عليه وتنفسد الأحوال، فعند ذلك بطل أمر الاغومنس ثم اجتمعو أيضا وبحثو حتى ذكر لهم انبا اخر سطودلوس وكان قسيسا من اهل بوره في مبدا حداثته في دير برموس بوادى هبيب، وكان له أخ في الرهبنة اسمه يعقوب صار قمص برموس وكان له عجايب كثيرة لأنه كان قديساً عظيما. فخرج اخرسطودلوس من البرية ومضى إلى صومعه على البحر المالح [بحيرة البرلس] في

في أيام الحاكم الفاطمي فقبض عليه واعتقل ثم صدر الأمر بقطع يديه. تولى ديوان النفقات سنة ٤٠٦هـ ولقب سنة ٤٠٧هـ بنجيب الدولة. استوزره الظاهر الفاطمي سنة ٤١٨ وأقره بعده المستنصر الذى حضر وفاته وصلى عليه سنة ٤٣٦هـ.

إلى الديار المصرية ونسأله عن عقيدته فقد بلغنى إنه أفسد عقول جماعة كبيرة، وهو يقول بالتجسيم، وعندنا من اعتقد هذا الاعتقاد كفر ووجب قتله. فلما حضر الأمير ركن الدين عند الشيخ نصر على عادته أجرى له ذكر ابن تيمية وأمر عقيدته، وأنه أفسد عقول جماعة كبيرة، ومن جملتهم نائب الشام وأكبر الأمراء الشاميين، والمصلحة تقتضى طلبه إلى الأبواب العالية، ويطلب منه عقيدته وتقرأ على العلماء بالديار المصرية من المذاهب الأربعة، فإن وافقوه وإلا يستتيبوه ويرجعوه ليرجع عن مذهبه واعتقاده وساير من لعب بعقله من الناس، ثم ذكر له ذنوبا آخر، حتى حرص بيبرس على طلبه)(١).

أى صار لعقيدة وحدة الوجود النفوذ والسيادة في مطلع القرن الثامن ممثلة في تسلط نصر المنبجي على عناصر السلطة المملوكية (بيبرس الجاشنكير)والقضاة، (وكان سائر الحكام من القضاة والأمراء وأرباب المناصب يترددون عند الشيخ نصر لأجل منزلته عند بيبرس الجاشنكير) وزين القاضى ابن مخلوف لنصر المنبجي استحضار ابن تيمية لمصر حيث يتمكن من قتله متهماً بالكفر..

واعتبرا معاً أن دعوة ابن تيمية ضد العقيدة الصوفية بمثابة (إفساد لعقول جماعة

(١) ابن أيبك الداودارى: سيرة الناصر١٤٣.

نستروه [مركز دسوق] وتعرف بنفره فحبس نفسه فيها فعلم اخوه يعقوب بالروح أنه يصير بطركاً فبكا لاجله وأعلمه بذلك. وكان عنده فى الصومعه جسد تكله الرسولة تلميذة بولس الرسول الذى شهد لوقا الإنجيلى فى الكتاب الذى وضعه لأجلها، وذكر فيه ما كان منها وأنها طرحت للسباع ورميت فى النار بمدينة إنطاكية ولم يصيبها من ذلك أذية بالجملة، وهى التى ذكرها

كبيرة).. وأثار نصر المنبجي خوف بيبرس الجاشنكير من ابن تيمية، منها أنه ضم إليه (نائب الشام) (وأكبر الأمراء)، وذكر له ذنوبا أخر حتى حرص بيبرس على طلبه..

واستمر تجاهل الصوفية فى مصر لموضوع العقيدة أثناء محاكمة ابن تيمية فاشتطوا فى منع ابن تيمية من شرح عقيدته (.. فأراد ابن تيمية أن يذكر عقيدته فى فصل طويل، فقالوا له: ياشيخ الذى بتقوله معلوم ولاحاجة للإطالة)، بل منعوه فى ذلك المجلس الذى عقد لمحاكمته ـ من مجرد تحميد الله والبدء فى الكلام.. وكان التحامل واضحاً على ابن تيمية تنفيذاً للمخطط الذى وضعه ابن مخلوف وباركه نصر المنبجي ووافق عليه بيبرس الجاشنكير.. وانتهى الأمر بحكم ابن مخلوف باعتقال ابن تيمية، ثم لم يكتف بذلك فسعى لدى بيبرس الجاشنكير حتى منع الامراء من الاتصال به، ومازال به حتى حبسه فى الجب، وهدد اتباعه من الحنابلة بالقتل إذا انكروا على عقائد الصوفية الاتحادية..

ولاريب أن جهل القضاة ـ مع تسليمهم للتصوف وخضوعهم للصوفية والحكام ـ أدى إلى تباعد بين ابن تيمية وبقية الفقهاء فى مصر، مع أنهم جميعاً من أشياخ الفقه أو يجب أن يكونوا كذلك..

وقد اعترف خصمه كمال الدين الزملكانى بأن ابن تيمية(اجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها)(١).

(١) تاريخ ابن الوردى جـ٢/٢٨٨، ٢٨٩.

القديس اغريغوريوس وقال القديسه العذرى تكله الذى [التى] فازت بالفضيلتين، فضيلة الثلثة فتية فى أتون النار وفضيلة دانيال النبى فى جب السباع، وكان جسدها فى تابوت تظهر منه العجايب كما حدثنى الاب انبا اخرسطودلوس بعد بطركيته، وجسدها اليوم مع جسد فيلاتاوس القايد الشهيد فى صومعة سنجار(*) التى فيها يوميذ ميخاييل الاغومنس الحبيس، وطلعت [أنا موهب

(*) سنجار: من المدن الدارسة، وكانت تعرف كذلك بشنشار، كانت فى فترة ما قبل الاسلام

٤.التآمر على ابن تيمية فى المعتقل وخارج المعتقل:

وقد مارس الصوفية الضغط على ابن تيمية وهو فى المعتقل حتى يسلم لهم بعقائدهم ويكف عن الإنكار عليهم فى نظير إخراجه، فكان نصر المنبجي يدعوه للصلح وبعد أن يحصل على موافقته يرفض الصلح معه إلا بعد أن يتنازل عن آرائه، يقول صاحب مخطوطه (تكسير الأحجار) التى فصلت حياة ابن تيمية فى المعتقل (لما كان الشيخ فى قاعة الترسيم جاءه شمس الدين الدباهى للصلح بينه وبين نصر المنبجى، فقال ابن تيمية: أنا أجيب إلى ذلك، فذهب إلى نصر وعنده المشايخ التدامرة، وعرض عليه الأمر ، فقال يا سيدى وكم كتبنا إلى الشيخ مثل هذا وما سمع منا .. فقال له اكتب إنك أجبت إلى ذلك، فقال: إن كتب الشيخ كتبت فاتفقا على ذلك، فسير ورقة للصلح إلى ابن تيمية فكتب : أجبت إلى ذلك ولاحول فاتفقا على ذلك، فسير ورقة للصلح ابن تيمية فكتب : أجبت إلى ذلك ولاحول ولاقوة إلابالله العلى العظيم وكتبه أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، فقال الدباهى لنصر: اكتب مع الشيخ مثل ما قلت وعاهدت الله عليه، فقال ما بقيت أكتب شئ، فقال له شمس الدين: عاديتك فى الله، وكشف رأسه وقال ثم نبتهل ثم نبتهل، وقام من عنده فسير الشيخ نصر لوالى المدينة أن يكبس بيت ابن تيمية ومسك (اعتقال) أصحابه، فسير الوالى نائبه فكبس البيت وقصدوا اعتقال شرف الدين أخى الشيخ، ولكنه هرب وأمسك أصحاب الشيخ واعتقلهم فى بيته ومنع الناس من الدخول على الشيخ.

ابن منصور] إلى عنده وتباركت منه ومن الجسدين المذكورين فى سنة ثمان ماية وثلثة للشهدا، وصار هذا ميخاييل بطركاً بعد انبا كيرلس القديس، وأما انبا اخرسطودلوس لما ذكر فى المجمع اتفق رايهم على تصييره [بطركا] فسار إليه عشرة من مقدمى اسكندرية وصحبتهم جماعة من جملتهم ابو المليح منصور عامل اسكندرية المعروف بابن العلمى [العليمى] وقس اسمه سيمون فى بيعة

كرسى اسقفية. ومحلها اليوم كوم سنجار فى جزيرة واقعة ببحيرة البرلس (بحيرة نستروه) على بعد ١٠ك.م من الجنوب الغربى لقرية البرج الواقعة على البحر المتوسط باقليم البرلس التابع لمركز بيلا. وهناك لحن مصرى قبطى قديم يعرف باللحن السنجارى ينسب إلى هذه المدينة.

ثم توسط الأمير حسام الدين مهنا وكلم السلطان من أجله، فأمر بإطلاق سراحه، وتوجه الأمير حسام الدين بنفسه للسجن وأخرجه(١)، ولم يسكت الصوفية عنه، خاصة وانه لم يسترح بعد خروج من المعتقل فأخذ فى مباحثة الفقهاء بحضرة الأمير سلار، وعقدت مجالس أخرى بالمدارس الصالحية(٢) فكان أن أثار الصوفية عليه الغوغاء فامتدت ايديهم للشيخ بالضرب والأذى، فتجمع أهالى الحسينية ليثأروا للشيخ، فألح عليهم ابن تيمية بالرجوع لأنه لاينتصر لنفسه، وفى نفس هذا الشهر رجب ٧١١ اعتدى عليه آخر بالقول المقذع، وأخيراً لجأ الصوفية للسلطان وتجمهروا حول القلعة. وتزعمهم فى هذا ابن يعقوب البكرى (ت٧٢٤) الذى (قام على ابن تيمية وانكر ما يقوله وآذاه حين دخل مصر)(٣) وابن عطاء الله السكندرى وكان (المتكلم على لسان الصوفية فى زمانه، قام على الشيخ ابن تيمية فبالغ فى ذلك)(٤).

ومع ذلك تزايد اتباع ابن تيمية وكان (الناس يجتمعون به ويهرعون إليه ولم يزل كذلك إلى أن سافر سنة ٧١٢)(٥).

(١) سيرة الناصر ١٥٠ . (٢) سيرة الناصر١٥١.
(٣) شذرات الذهب جـ٦/٦٤تاريخ ابن كثير جـ ١٤/٤٦: ٥٠.
(٤) شذرات الذهب جـ٦/١٩ .
(٥) سيرة الناصر ١٥١.

البشير مارى مرقس واستحق أن صار أسقفاً على مدينة تنيس وهو باق عليها إلى ذلك اليوم وهى سنة ثمان ماية للشهدا، وجماعة معهم ومضو إلى عنده والتمسو أن ينزل إليهم فامتنع إلى أن أحضرو له رجل كان قد تشبن له [أى كان اشبيناً له] يعرف بابن زكرى ابن مرقوره، فطلع إليه ولم يزل به إلى أن قرر معه الإجابة إلى مايريدوه، وقال لهم قد استقر أنه يصير [بطركاً] لكنه ما ينزل من

(ب) آثار حركة ابن تيمية على الفقهاء فى القرن الثامن

مدرسة ابن تيمية الفقهية المناوئة للصوفية:

١ـ أسفرت جهود ابن تيمية عن تكوين مدرسة فقهية ابتعدت عن خط القضاة وكبار الفقهاء الذين دانوا بالتصوف ودافعوا عنه.. وتحمل أولئك التلاميذ الكثير من عنت الفقهاء والصوفية أثناء محنة أستاذهم، وأبرزهم: ابن قيم الجوزيه(١) وابن مرى البعلبكى وابن شاس(٢). وعلى عبد الله الاسكندرى(٣).

٢ـ واستمرت مدرسة ابن تيمية بعد موته تنادى بمبادئه وتدافع عنه وعنها وتتحمل فى سبيل ذلك الكثير من الأذى ، ومنهم المؤرخ ابن كثير(٤) وابن البرهان المصرى(٥) وابن ماجد(٦) وأبو بكر الهاشمى(٧) وابراهيم الآمدى(٨) وابن المنصفى(٩) وابن عبد الله

---

(١) السلوك جـ١/٢٧٣.
(٢) السلوك جـ٢/٢٦٣، الدرر الكامنة جـ٢/٣٢٣.
(٣) تاريخ الجزرى. مخطوط جـ٢/١٧،٢٨.
(٤) ذيل ابن العراقى. مخطوط ١٤٦.
(٥) عقد الجمان. مخطوط وفيات ٨٠٨، إنباء الغمر جـ ٢/٣٣٢، ٣٣٣.
(٦) شذرات الذهب جـ٦ /٢٨٢ . (٧) إنباء الغمر جـ ٢/٥٢٦.
(٨) الدرر الكامنة جـ ١/٢٧ . (٩) إنباء الغمر جـ٢/١٨٦ .

صومعته إلا حتى يلبس الثياب ليلا يجرى امر فيصير هزواً، فألبسوه الثوب فوق وأقسم يوميذ، ولا يملك إلا درهمين ونصف وربع(*)، وسارو به إلى اسكندرية وكرزوه فى كيهك فى سنة سبع مابة ثلثة وستين للشهدا. وكانت بداية أمره حسنة وظهرت منه معجزات وكانت روح القدس قريبة منه، ثم سار إلى دير أبو مقار وكرز هناك، وكانت قسمته من الله، وسمعت أنا موهب [ابن منصور

(*) لاحظ هنا أنه كان حتى هذا العهد يصعب اكتشاف جمع الكسور فكان يجب أن يذكر «درهمين وثلاثة أرباع الدرهم».

الناسخ[1] وابن المحب الحافظ[2] وابن الأعمى المصرى[3] وصدر الدين اليوسفى[4] والغزل[5] والحمصى[6] وابن السكرى[7].

(ج) آثار حركة ابن تيمية على خصومه الصوفية:

هجوم بعضهم على ابن عربى

١ـ بعض دهاة الصوفية بادر بالهجوم على ابن عربى وابن تيمية فى نفس الوقت مخافة أن يتطرق الإنكار إلى هدم مبدأ التصوف.. ومن أولئك علاء الدين البخارى، وقد كان يبالغ فى الحط على ابن تيمية وتكفيره حتى ثارت فتنة بسبب ذلك فى الشام[8].. وقد صنف البخارى رسالة فى نقض مذهب الاتحاد سماها (فاضحة الملحدين وناصحة الموحدين)، قال فى آخرها (أنهم يسمون كفرة وملاحدة وزنادقة) ووصف ابن عربى بأنه (كان كذاباً حشاشاً كأوغاد الأوباش)، وقال عن الفصوص (أفتطمعون من مغربى يابس المزاج يأكل الحشيش شيئاً غير ذلك)[9].

(١) إنباء الغمر جـ٣/٤٢.
(٢) شذرات الذهب جـ٦/٣٠٤:٣٠٥.
(٣) إنباء الغمر جـ١/٤٦٤.
(٤) الدرر الكامنة جـ٢/٢٦٢.
(٥) إنباء الغمر جـ١/١٨٧.
(٦) إنباء الغمر جـ٣/٤٩١.
(٧) تاريخ قاضى شهبة: مخطوط جـ١/٢٢.
(٨) إنباء الغمر جـ٣/٤٧٧.
(٩) تنبيه الغبى ١٨٢:١٨٣.

٦٦ : انبا اخرسطودلوس ١٠٤٦ / ١٠٧٧م

الاسكندراني] الخاطى من فم هذا الاب أنه لما كان في الصومعة رأى في منامه القديسين بطرس ومرقس وقد سلما له ضبارة مفاتيح كبيرة مشدودة. ومن الوقت أتوه الاسكندرانيين ولبس الثوب الصوف وأنزلوه من الصومعة. ومن بعد قسمته كرز في اسكندرية ست بيع: بيعة على اسم يوحنا الإنجيلي، وسمعت من فاه يوم تكريزه لهذه البيعة أنه رأى في منامه يوحنا ابروطس اسكندرية وفي

وحاول البخارى أن يخرج ابن عربى وأصحابه من دائرة التصوف والأولياء، يقول (إن الملاحدة عبروا عن ضلالتهم بعبارات العارفين بالله يستترون بها في زندقتهم، فينبغى الحذر من ذلك، فأراد بالفناء نفى حقائق الأشياء .. وذلك غير ما أراده العار فون فإنهم أرادوا بها معانى يصدقها الشرع)(١). ووواضح خوفه من وصول الإنكار إلى ابن عربى إلى درجة اتهام التصوف نفسه..

٢ـ والطريف أن قاضياً للقضاه متعاوناً مع الصوفية ويدين بالتصوف ـ وهو البساطى ـ قد فوجئ بموقف علاء الدين البخارى، فقد قال في مجلس عقد في القرن التاسع ـ إن كلام ابن عربى يمكن تأويله ـ وقصد بذلك نفاق علاء الدين البخارى وكان حاضراً المجلس ومعه ابن حجر وعبد الرحمن التفهنى والعينى والسيرامى وابن نصر البغدادى وأبو بكر القمنى وابن الأمانة وابن تقى المالكى، فقال له البخارى على رءوس الاشهاد: كفرت.. وسلم له من في المجلس بتكفيره، وما خلص البساطى إلا بالبراءة من اعتقاده أمامهم(٢).. ثم تشجع البساطى فاعتبر الاتحاديين وابن عربى ضمن القائلين بقدم العالم مع ابن سينا والفارابى، وقال (واعلم أن هذه الضلالة المستحيلة في العقول سرت في جماعة من المسلمين، نشأوا في الابتداء على

(١) تنبيه الغبى ١٨٦ : ١٨٧.
(٢) إنباء الغمر جـ٣/٣.٤ حوادث ٨٣١ .

يده مجمرة من ذهب وهو يبخر الكنيسة من صدرها إلى بابها داخل خارج بعد أن فرشت كلها بورق كرم وزرجون أخضر [عيون الكروم] وكان الذى رأى المنام يقول فى نفسه هذا يوحنا المعمدانى قد حضر ليكرز بيعته لان هكذى جرت عادته يحضر فى صورة إنسان اسمه مثل اسمه، فاتفق نظر هذين الاثنين لهذا المنام فى ليلة واحدة. وكرز بيعة على اسم الشهيد أبو مرقوره، وبيعة

الزهد والخلوة والعبادة، فلما حصلوا من ذلك على شئ صفت أرواحهم وتجردت نفوسهم وتقدست أسرارهم، وانكشف لهم ما كانت الشواغل الشهوانية مانعة من انكشافه)[١].

أى أنه يسلم لابن عربى بصفاء الروح وقدسية السر وقيام الكشف أو العلم اللدنى، ويجعل ذلك كله مؤدياً للقول بالاتحاد والوحدة مع أنه وصفها بالضلالة المستحيلة فهو يقترب بذلك من رأى العلاء البخارى وإن كان أقل منه مهارة فى التلفيق..

وقد قام البساطى سالف الذكر بشرح تائية ابن الفارض بنفس المنهج الرامى إلى التوفيق بين عقيدة ابن الفارض فيها والإسلام، وذلك لصالح الاتحادية، وقد تكلم على الأبيات على وجه يظهر منها حملها على موافقة الشرع فإن عجز صرح بإعتذارات الصوفية[٢].

والبساطى معذور، فللبخارى نفوذ فى الدولة، وكان قد تعصب ضد البساطى فى المجلس وأقسم بالله وإن لم يعزل السلطان القاضى البساطى ليخرجن من مصر، وأمر السلطان بإحضار القضاة عنده فتبرأ البساطى من مقاله ابن عربى وكفر من يعتقدها (وذلك حتى لايعزل، واسترضى السلطان علاء الدين وسأله ألايسافر)[٣]. وفى ذلك يقول أبو المحاسن عن البخارى (أنه عزل قاضى القضاة المالكى محمد البساطى وتشاجر معه لأنه حاول أن يزول

(١) تنبيه الغبى ١٧٠.
(٢) تنبيه الغبى ١٧٤.
(٣) إنباء الغمر جـ٣/ ٤٠٤.

رفاييل الملاك، وبيعة الشهيد أبو مينا ، وبيعة لمارى جرجس، وتجديد بيعة مارى مرقس، واوسم يوم تكريز بيعة رفاييل الملاك قس واحد ونيف وستين وشرط على ابايهم أن ليس لهم حق فيما للبيعة، وسبب ذلك أن بعض الكهنة قال له إن هولا إنما يتزاحمو على الشماسية بسبب الحقوق التى للكهنة فى البيع والجوالى التى تدفع عنهم من مالها وتضيق على البيع فى عمارتها فلاجل هذا السبب

كلام ابن عربى ويدافع عنه)(١). وكان البخارى ينهى الناس عن مطالعة كتب ابن عربى، ومثله فى ذلك كان الصوفى الإتكاوى ٨٣٤فى القرن التاسع، مع اعتقاده بعرفان ابن عربى وكماله(٢).

٣ـ ومعنى ذلك أن تأثير ابن تيمية استمر إلى نحو منتصف القرن التاسع فى الصوفية الرامين لخدمة الطريق الصوفى وانقاذه من خطر ابن تيمية..

ومع ذلك فإن أولئك الصوفية المنكرين على ابن عربى كانوا تلاميذ لقطب الدين بن ميمون فى القرن التاسع، وقد اشتهر با نكاره على الاتحادية وكتب فيهم مبتدئاً بالحلاج، وختم بالعفيف التلمسانى.

٤ـ ولولا ابن تيمية ما وجد فى القرن التاسع من ينهج منهج ابن ميمون المعاصر لابن عربى، إذ أن المنطقى فى حكم التاريخ أن يزدهر طريق التصوف باضطراد، ويقل الإنكار عليه وتجتمع آراء الصوفية على عقيدة واحدة بلا نفاق.. إلا أن حركة ابن تيمية أجبرتهم على الهجوم على ابن عربى، ولكن بهجوم صوفى يثبت العقائد الصوفية ولا ينفيها..

*** أثر ابن تيمية العكسى فى ازدهار عقيدة الاتحاد الصوفية:**

(١) المنهل الصافى. مخطوط جـ٥/ ٢٤٩.
(٢) الطبقات الكبرى للمناوى مخطوط ٣٤٠.

شرط عليهم هذا الشرط، وفى اليوم المذكور وهو الثامن من مسرى سنة سبع ماية أربعة وستين للشهدا كتب قانونا وأمر فيه(*) أن لا يعمد ذكر وأنثى فى معمودية واحدة. ولا يدخل أحد إلى الكنيسة إلا حافى مكشوف الراس . ولا يغطى أحد من المومنين قربانه بخبز قبل التسريح. وأن تتحرز المومنين من الما الذى يعطوا منه قربانهم بثلثة جرع حتى لا يقع منه شيئاً على الأرض فانه مساوى

(*) قانون اخرسطودلوس ومواده تحدد العلاقات داخل الكنيسة.

إلا أن لابن تيمية أثراً غير مباشر فى ازدهار عقيدة الاتحاد الصوفية، على غير قصد منه طبعاً.. وترجع هذه المفارقة إلى أن ابن تيمية ـ مع استكمال أدوات الاجتهاد فيه ـ كان إبناً لعصره الذى دان بالتصوف، وحكم على حركته بالفشل وحكم عليه بأن يعيش بين سجن ونفى ومعاناه.. وحتى لا تتشابك عناصر هذه القضية فإننا نبسطها فى النقاط التالية ـ

أ) يرى ابن تيمية فى التصوف رأياً حسناً، ويقول عن الصوفية (إن الصوفية مجتهدون فى طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، ففيهم السابق بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذى هو من أهل اليمين.. وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم كالحلاج مثلاً، فإن أكثر مشايخ الطريق انكروه وأخرجوه عن الطريق مثل الجنيد سيد الطائفة وغيره)[١].

وواضح أن ابن تيمية مخدوع بالجنيد ومنافقى الصوفية الأوائل، ويرى أن أصحاب الوحدة والاتحاد ليسوا من الصوفية، وعلى ذلك تتضاءل المسافة بينه وبين خصمه الصوفى علاء الدين البخارى فكلاهما ينشد اصلاح الطريق الصوفى من شرور (أصحاب البدع والزندقة).. بل إن ابن تيمية يقول فى الجنيد مقالة الصوفية فيه: (.. فإن الجنيد قدس الله روحه وكان من أئمة الهدى، فسئل عن التوحيد فقال: التوحيد افراد الحدوث عن القدم)[٢].

(١) ابن تيمية: الصوفية والفقراء ١٦.
(٢) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: ١٠٠ طـ صبيح.

الجوهر. وأن يكون وقوفهم في البيع في أيام الحاد والاعياد بخوف ورعدة بين يدى الله جل اسمه بالابتهال والتضرع والسوال في مغفرة الخطايا والنجاة من مصايد العدو. ولا يتكلم أحد ولا يتحدثن في أوقات الصلاة والقداس إلا في هذين الأمرين وهما أمر الدين والقراة والعلم والتفاسير مما يكون فيه خلاص النفوس وينصتو لسماع وصايا الرب سبحنه [سبحانه] إلى أن يقف القداس.

ب) ويعتقد ابن تيمية بكرمات الصوفية حتى ممن يعتبرهم أولياء للشيطان، يقول عنهم (وهؤلاء يأتيهم أرواح تخاطبهم وتتمثل لهم وهى جن وشياطين فيظنونها ملائكة.. وهذه الأرواح الشيطانية هى الروح الذى يزعم صاحب الفتوحات (يعنى ابن عربى) أنه ألقى إليه ذلك الكتاب.. واعرف من هؤلاء عدداً، ومنهم من كان يحمل في الهواء إلى مكان بعيد ويعود، ومنهم من كان يؤتى بمال مسروق تسرقه الشياطين وتأتيه به، ومنهم من كانت تدله على السرقات بجعل يحصل له من الناس)(١).

(ومن هؤلاء من يأتيه الشيطان بأطعمة وفواكه وحلوى وغير ذلك مما لا يكون في ذلك الموضع، ومنهم من يطير به الجنى إلى مكة أو بيت المقدس أو غيرهما، ومنهم من يحمله عشية عرفه ثم يعيده في ليلته)(٢).

وذلك التصديق بادعاءات الصوفية وامكانية حدوثها فعلاً: هو اعتقاد العصر المملوكى الذى لم يستطع ابن تيمية الخروج عنه، وان رده إلى فعل شيطانى يناسب رأيه فيهم باعتبارهم كفرة..

ج) وابن تيمية حين ثار على صوفية عصره فإنما ثار على بيئته، وقد ترسبت معتقداتها في

(١) الفرقان بين أولياء ٩٩.
(٢) الفرقان بين أولياء ١٤١ : ١٤٢.

وكذلك النسا يقفون في مواضعهم بعفاف ولا ينطقوا بلفظة في أوقات الصلوات والقداسات. ولا النسا يختلطون بالرجال ولا يجلسو في طرقات الرجال لينظرو الداخلين والخارجين. ويكونو طايعات لأزواجهن مقبلات على بيوتهن ليتباركو بركة أمهن سارة ورفقا وراحيل. ويستعمل المومنين في صوم الاربعين النقية التي صام مثلها ربنا والاهنا ومخلصنا يسوع المسيح له المجد وهو النسك

داخل نفسيته. ويتضح ذلك في قراءتنا لهذا النص من مخطوطه (تكسير الأحجار) عن ابن تيمية وصحبه حين قام معهم لهدم ضريح صوفي يقصده الناس بالعبادة والتقديس (.. بلغه ما يفعله الناس عند العامود المخلق (له صورة) فشدّ عليه وقام واستخار الله في الخروج إلى كسره) وبعد أن وصف الكاتب اجتماع الناس معهم ثم تراجعهم رويداً رويداً مخافة التعرض للغضب المزعوم للولي المدفون قال:(وصحنا على الحجارين (أى من يهدمون الحجارة) دونكم وهذا الصنم، فما جسر أحد منهم يتقدم إليه)ثم قال (فأخذت أنا والشيخ المعاول منهم وضربنا فيه، وقلنا جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا، وقلنا إ ن أصاب أحداً منه شئ نكون نحن فداه، وتتابعنا الناس فيه بالضرب حتى كسرناه فوجدنا خلفه صنمين حجارة مجسدة مصورة كل صنم منها نحو شبر ونصف)(١).

فمع أن فقه ابن تيمية حمله على القيام لكسر ذلك العمود المقدس الذى كان فى الغالب تمثال من الآثار الفرعونية إلا أن رواسب التصوف التى ارضعتها له البيئة الصوفية لعصره قد جعلته (يستخير الله فى الخروج)، وعندما تقهقر الناس خوفاً استمر هو، إلا أن شجاعته فى الإقدام لم تخل من خوف زرعته فى قلبه عقائد التصوف المتحكمة فى البيئة والعصر، وأظهره

(١) تكسير الاحجار مخطوط ١٤٠: ١٤١.

والتواضع. ولا يكون تزويج البتة فيها. ولا يكون في الجمعة الكبيرة معمودية ولا تجنيز ويلزمو فيها البيعة النسك لأنها جمعة حزن وكاابه. وبعد فراغ القداس في يوم أحد الزيتونة يقرى إنجيل ترحيم الموتى بعد رسالة بولس المعروفة ويقرى بعد ذلك على جميع الشعب التحليل(*) وفي الجمعة الكبيرة لا يجوز فيها ترحيم ولا تحليل ولا تجنيز إلى انقضى يوم عيد الفصح. ويكون القداس يوم

(*)انظر في ذلك القداسات الثلاث، The three Anaphorae.Cairo, .1936, p. 82 sqq

---

له تراجع الناس من حوله، فقال(إن أصاب أحداً منه شئ نكون نحن فداه)، أي أنه يسلم بقدرة تلك الأصنام على الأضرار، وتشجع ليفدى الناس من ضررها بنفسه..

د) وإخلاص ابن تيمية لعصره وما ساده من تقديس للصوفية - جعله يفقد الطريق الصحيح في حربه لصوفيه عصره المغالين، فطاشت سهامه في حروب متفرقة ضد متطرفي الصوفية من أتباع ابن عربي أو من فقراء الأحمدية الذين كانوا يلعبون بالحيات ويمارسون الشعوذة.. فصرفه ذلك كله عن الهدف الأصلي المنتظر منه باعتباره مستكملاً لأدوات الاجتهاد يخرج باجتهاده عن إطار عصره ويسمو على تقليد المعاصرين .. فكان ينبغي على ابن تيمية أن يدرس باجتهاده عقائد الصوفية الأوائل بدءاً بالجنيد وانتهاءاً بالغزالي ويحكم عليهم بالقرآن، ويحارب مبدأ التصوف من أساسه يبتعد قدر الإمكان عن التعرض لأشياخ الصوفية في عصره حتى لايصطدم بنفوذهم، ويجعل من ذلك الاساس الذى تقوم عليه مدرسته في حرب التصوف باعتباره عقيدة التوحيد الإسلامي، ثم يعرض عقائد الفقهاء أيضاً على القرآن ليرى ما فيها من خلل.

إلا أن ابن تيمية أصر على أن يشارك بثورته في كل ميدان، وصمم على أن تصل سهامه إلى السياسة أيضاً.. فحكم على نفسه بمزيد من العنت والاضطهاد لأن مقاييس (السياسى) في عصره لم تتوافر فيه..

الخميس الكبير برهبة وخوف وسكوت بغير تقبيل [قبلة السلام](*) ولا مصافحة ولا يقال «ابرسفارين» بل يقال عوضه «مادافابوا» بغير تحليل لا في الأول ولا في الاخر. وفي يوم قداس السبت الكبير يقال الترحيم والتحليل بلا تقبيل ولا يعمل في أيام الخمسين لا معمودية ولا شرطونية. ولا يجوز في أيام الآحاد بكآ ولا نوح ولا قوالات ولا يجوز لنصراني يفعل ذلك ولا شيا منه على

(*) في هذا القداس يتلامس الحاضرين بايديهم.

فقد شهد ابن تيمية ـ أو شهدت محنته عصر سلطانين من المماليك .. السلطان المظفر بيبرس الجاشنكير. والناصر محمد بن قلاوون.. وقد كان بيبرس الجاشنكير مغتصباً لسلطة محمد بن قلاوون السلطان الصغير الشرعي .. ويؤيده في ذلك الصوفية بزعامة نصر المنبجي داعية ابن عربي، وأراد الجاشنكير أن يتسلطن رسمياً ويعزل محمد ابن قلاوون فوافقه علماء مصر من الصوفية والقضاة، ولم يكن للجاشنكير أن يتجاهل وجود ابن تيمية في مصر وهو في المعتقل، وظن أنه تحت ضغطه، فاستحضره من الحبس ليوافق على مبايعته بالسلطنة، فأبى ولم يعترف بتنازل محمد بن قلاوون عن السلطنة، وكذب الشهود الذين جاء بهم الجاشنكير وأعلن أن البيعة له باطلة(فاغتاظ الملك المظفر وقال ردوه إلى الموضع الذى كان فيه، فردوه إلى حبس الاسكندرية. ولم ينقطع ابن تيمية عن مهاجمة الجاشنكير في سلطنته، فكان ينال منه (ويقول: زالت أيامه، وأنتهت رياسته، وقرب انقضاء أجله، ويتكلم فيه)(١).

أى أن ابن تيمية ادخل نفسه في صراع الجاشنكير مع محمد بن قلاون بحيث بات الجاشنكير يعتقد أنه من أنصار محمد بن قلاون. ومن الطبيعي أن يستغل الصوفية الموقف فعقدوا لهم مجلساً بأشارة نصر المنبجي، قام بالإدعاء فيه عليه ابن عطاء السكندرى.. وفي هذا المجلس كان القضاة صوفية لحماً ودماً وليسوا مجرد قضاة يعملون لصالح التصوف..

(١) عقد الجمان: مخطوط حوادث ٧٠٨ تاريخ ابن كثير جـ١٤/ ٤٦.

ميت إلا الترحيم والقربان والصلاة على الميت والصدقة بمقدار الطاقة ليرحم الرب نفوس موتاكم ويبارك فى أعماركم وأرزاقكم ومنازلكم وأولادكم ويرد غيبة مسافريكم ويصلح لكم زمانكم. وليس لأحد من الأساقفة ولا القسس [القساوسه] ولا الشمامسه الغربا إذا دخلو مدينة اسكندرية أن يقدسو فى كنايسها ولا يتقدمو على مذابحها ولا لأحد أن يقدمهم فيها ولا خدمة البتة. ويجب على

ولم تستمر أيام الجاشنكير كثيراً إذ سقط وتفرق عنه اتباعه ـ والصوفية فى المقدمة ـ وتم الأمر للناصر محمد بن قلاوون.. وكان ابن تيمية معتقلاً بينما الصوفية يعدون العدة لاستقبال السلطان الجديد الذى تخلوا عنه سابقاً..

وبدأ الناصر محمد عهده بالنيل ممن تألب عليه من القضاة واخراج ابن تيمية من الحبس معززاً مكرماً إلى فترة من الزمن.. زاد فيها نفوذه السياسى حتى تم تعيين الأمير الأفرم فى نيابة طرابلس بإشارته، وعزل نائب دمشق لأنه شتم بعض فقهاء المدينة(١)، واستفحل خطر الشيعة فى الشام فقال ابن تيمية بقتالهم، وكتب إلى أطراف الشام يحث على قتالهم واستمر فى حصارهم حتى أجلاهم، وكتب بذلك للسلطان الناصر محمد فخشى السلطان نفوذه (لأن الناس اجتمعوا عليه ولو طلب الملك ما بعد عنه) وانتهز الصوفية الفرصة فكادوا له عند السلطان (وأشاعوا أنه يسعى فى الإمامة الكبرى وأنه كان يلهج بذكر ابن تومرت ويطريه)(٢). أى يريد أن يقيم دولة كما فعل الفقية ابن تومرت فى شمال افريقيا.

وكان الناصر محمد عائداً إلى سلطنته الثالثة وقد ذاق الأمرين من تجارب الحكم وتحكم كبار الأمراء فيه مذ كان صبياً، فحرص اشد الحرص على ألا يعلو رأس فى مملكته وأن يقضى فى الحكم مستبداً، والصوفية من ناحيتهم خير معين للحاكم المستبد ولايخشى منهم مناوئاً، ثم

(١) تاريخ ابن كثير جـ٥٣/١ : ٦٢.   (٢) الدرر الكامنة جـ١٦٦/١.

المومنين صيام الرسل الحواريين الذى هو بعد الخمسين شكرا لله على ما أنعم به علينا من موهبة الروح القدس صياما متصلا إلى اليوم الخامس من أبيب [٢٩ يونيو] ويعيدو فيه كما جرت العادة، وإن اتفق ذلك اليوم يوم الأربعا فيفطرو فيه قبل وقت الصوم، وإن كان يوم الجمعة فلا يفطرو فيه قبل وقت الصوم الجارى بها العادة. وكذلك صوم الميلاد المقدس يكون من عيد مارى مينا فى خمسة

جاءت تصرفات ابن تيمية فى الشام تأكيداً لمخاوف السلطان ومساعى الصوفية.. فتم التحالف بينهما وأقام السلطان خانقاه سريا قوس للصوفية من أهل جنسه واتباعه وافتتحها فى حفل جامع سنة ٧٢٥[١]. وفى السنة التالية ٧٢٦أمر باعتقال صديقة السابق بسبب فتوى سابقة عن زيارة القبور[٢]. وهى أمور تمس الصوفية وتعبر عنهم، وذكرت صريحة فى دعوى الاتهام، مما ينهض دليلاً على ازياد النفوذ الصوفى فى أقل من عام.. وحمل الاعتقال الأخير كل حقد الصوفية على ابن تيمية، وقد كان يفرح بالاعتقال حيث يتوفر على العبادة والتأليف[٣]. إلا أنهم منعوه فى حبسه الأخير من الكتابة ونشر آرائه مما أثر على نفسيته وهو فى مرحلة الشيخوخة، وقد أمضى حياته فى حرب خصومه من الشيعة والصوفية والمغول، فمات بعد عامين فى الحبس.

وهكذا .. خسر ابن تيمية فى السياسة وأضاف إلى رصيد أعدائه نصراً جديداً عليه حين كان يقابل من الإيذاء فى عصر صديقة السلطان الناصر محمد اضعاف ما لاقاه فى عصر عدوه الجاشنكير .. وتمت للصوفية دولة بجهده وأقيمت لهم أعظم الخوانق التى أنشئت فى العصر المملوكى وهى (خانقاه سرياقوس)على اشلاء ابن تيمية وجهاده..

(١) النجوم الزاهرة جـ٩/ ٨٣.   (٢) تاريخ ابن كثير جـ٤/ ١٢٣.
(٣) تاريخ ابن كثير جـ١٤/ ١٢٣: ١٢٤.

عشر يوماً من هتور [١١ نوفمبر] إلى تسعة وعشرين يوماً من كيهك [٢٥ ديسمبر] وإن وافقت يوم عيد الميلاد الشريف يوم الأربعا أو يوم الجمعة فيفطرو فيه ولا يصومو بالجملة. وكذلك عيد الغطاس المقدس فى الحادى عشر من طوبه، وإن اتفق يوم أربعا أو يوم جمعة فيفطرو فيه أيضا ولا يصومو. إن وافق العاشر من طوبه الذى فيه صوم الغطاس أن يكون يوم سبت أو يوم أحد فلا

ولاريب أن تنعكس انتصارات الصوفية على ابن تيمية إلى ازدهار مضطرد فى إعلان العقيدة الصوفية..

هـ ـ وتشجع كثير من الصوفية فاعلنوا عقائدهم بصراحة.. وأبرزهم فى القرن الثامن الوفائية من المدرسة الشاذلية، يقول عميدها محمد وفا(ت سنة ٧٦٥) (اللهم اجعلنى عيناً لذات الذوات ومشرقاً لأنوارها المشرقات ومستودعاً لأسرار ها المكتتمة، ويقول: قال لى الحق أيها المخصوص: لك عند كل شئ مقدار ومقدار لك عندى فإنه لايسعنى غيرك وليس مثلك شئ، أنت عين حقيقتى وكل شئ مجازك وانا موجود فى الحقيقة معدوم فى المجاز، ياعين مطلعى أنت الحد الجامع المانع لمصنوعاتى، إليك يرجع الأمر كله والى مرجعك، لأنك منتهى كل شئ ولاتنتهى إلى شئ، طويت لك الأراضين السبع ..إلخ)(١).

وقيل عن على محمد وفا(شعره ينعق بالاتحاد المفضى إلى الإلحاد، وكذا نظم والده)(٢). وقال على بن محمد وفا عن والده (سيدى ووالدى صاحب الختم الأعظم، فالشاذلى وجميع الأولياء من جنود مملكته، فهو يحكم ولايحكم عليه فى سائر الدوائر، فلايقال لنا لم لاتقررون

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/ ٢٠.
(٢) شذرات الذهب جـ٧/ ٧١.

يصام بالجملة بل يصومو يوم الجمعة الذى قبل ذلك عوض ليلة الغطاس. ولا يجوز لأحد من المومنين أن يصوم يوم سبت إلا سبت الواحد فى كل سنة، وهو السبت الكبير الذى هو آخر الصوم. ويوجب صوم الأربعا والجمعة دايما طول السنة إلا أيام الخمسين فقط. ولا يجوز لشماس أن يتأخر عن خدمة بيعته ولا يغيب عنها فى الأيام التى يقدس فيها إلا عن ضرورة أو وجع جسدانى أو أمر

حزب الشاذلى لأنكم من أتباعه)[1] . أى أنه سار فى طريق الاتحاد إلى درجة استصغر معها الشاذلى نفسه وجميع الأولياء. بل أنه استهان بابن عربى وابن سبعين فقال عنهما(أنهما سلكا الطريق معاً إلى فلك يقال الفلك المحدب ورجعا منه ولم ينفذا عنه)[2] . أى أنه وأباه فاقا ابن عربى وابن سبعين فى دعوى الاتحاد..

ومن اتباع الشاذلية الدعاة لابن عربى كان أبو المواهب الشاذلى ٨٨٢ ووصف بأنه (شديد المناضلة عنه والانتصار له)[3].. وقال الشاعر البشتكى أنه نسخ كثيراً من مصنفات ابن عربى للشيخ بهاء الدين الكازرونى ت ٧٧٤وهو من أتباع الشاذلية[4].

وخارج المدرسة الشاذلية كان سراج الدين الغزنوى الهندى ٧٣٣قاضى الحنفية متعصباً للصوفية الاتحادية وعزر ابن أبى حجلة لكلامه فى ابن الفارض[5].

وسلك شمس الدين شيخ الوضوء الشافعى ت٧٩٠ طريق التصوف(ومع كونه فقيهاً شافعياً فقد كان يعتقد ابن عربى)[6] . أى أن مذهب ابن عربى اجتذب إليه كثيراً من الفقهاء

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/ ٢٨.
(٢) مناقب الوفائية مخطوط ٩٩.
(٣) شذرات الذهب جـ٧/ ٣٣٦.
(٤) إنباء الغمر جـ١/ ٥٠.
(٥) شذرات الذهب جـ٦/ ٢٢٨: ٢٢٩.
(٦) شذرات الذهب جـ٦/ ٣١٤.

سلطاني. ولا يجوز لقس إذا لم يحضر القداس من أوله أن يتقدم يقسم الجسد ولا يمسكه بيده البتة. ولا يخرج قس مجمرة البخور بعد قراءة الإنجيل المقدس انجيل القداس في وسط الشعب، بل يبخر بها حول المذبح إلى الوقت المعلوم. وإذا عمد طفل فليصوم إلى أن يتقرب إن قدر، وإن هو شرب لبن أمه أو غيرها من المومنات فلا يجوز له قربان. ولا يجوز معمودية بلا قربان. ولا يجوز أن تبيت النسا

والقضاء حتى أن ابن خلدون اتهم الفقيه اكمل الدين البابرتى ٧٨٦باعتقاد مذهب وحدة الوجود[١]. وفي هذا الجو درست مبادئ ابن عربى لكثير من الصوفية مثل نجم الصوفي ت ٨٠١[٢]. وبالغ بعضهم في إظهار عقيدته شطحاً مثل ابن الصاحب ت ٧٨٨ (وكان يتعصب لابن عربى، وكان يكثر من الشطح ويتكلم بما لايليق بأهل العلم من الفحش، ويصرح بالاتحاد)[٣]. مما حدا باليافعي إلى المجئ لمصر بعد سنة ٧٣٤ لأنه كان (من جملة المعظمين لابن عربى، وله في ذلك مبالغة)[٤].

وانضم بعض المماليك إلى حظيرة الاتحاديين بعد أن اعتنقوا التصوف، ومنهم قجماس الصوفي (ت ٨٠٠)وكان من نقباء الدسوقية (وداعية إلى مقال ابن العربى)[٥]. ومقبل ابن عبد الله الرومى(ت٨٠٢) وهو عتيق الناصر محمد (طلب العلم واشتغل بالفقه وتعمق فى مقاله الصوفية الاتحادية)[٦].

مراحل العقيدة الدينية وتطورها فى مصر

ـ وحدة الوجود وصراع الصوفية مع الفقهاء. فى القرنين التاسع والعاشر الهجريين.

(١) الدر الكامنة جـ٤/ ٢٥٠.
(٢) إنباء الغمر جـ٣/ ٨٣.
(٣) شذرات الذهب جـ٦/ ٣٠١.
(٤) الشوكانى. البدر الطالع جـ١/ ٣٧٨.
(٥) إنباء الغمر جـ٢/ ٢٨.
(٦) إنباء الغمر جـ٢/ ١٢٩، شذرات الذهب جـ٧/ ٢٠.

في البيعة ليلة عيد ولا في ليالي الاحاد إلا أن تكون عجوز أو راهبة. ومن تزوج بامرأة ملكية [أى على مذهب الملكانية] فلا يمكن من ذلك إلا أن يتكللا عندنا [أى في الكنيسة القبطية] ولا يعمدو أولادهم إلا عندنا . وإن غاب الشمامسة الكبار عن كنايسهم ويحضرو في أيام الأعياد يريدو التقدمة فيها والخدمة فلا يمكنو من ذلك بل يتقدم الذين يلازمون الخدمة وإن كانو دونهم. وأى شماس أو

---

* في النصف الأول من القرن التاسع:

* في النصف الثاني من القرن التاسع:

ـ حركة البقاعي سنة ٨٧٥هـ.

ـ بعد موت البقاعي سنة ٨٨٥.

* في القرن العاشر: الشعراني ممثل الفقه والتصوف:

ـ طبيعة الشعراني: صوفي تسلح بالفقه ليخدم التصوف، هجومه على معاصريه من الصوفية، تأويل عبارات الاتحاد للصوفية السابقين.

ـ الشعراني يشيد بالاتحاديين.

ـ الشعراني يقول بالاتحاد الصوفي.

وحدة الوجود وصراع الصوفية والفقهاء في القرنين التاسع والعاشر الهجريين

أولاً: في النصف الأول من القرن التاسع..

١ـ في بداية القرن التاسع توافد إلى مصر جماعات من أوباش الاتحادية من أجناس الترك

علمانى اعترض قسا أو خاطبه أو جرى بينه وبينه غضب فلا يمضى إلى قسا آخر يتقرب منه، وان هو مضى إلى بيعة أخرى فلا يقرب، وان فعل ذلك فهو والذى يقرب يكونو ممنوعين. وأى شماس أو غيره تشارر [عمل شرا] على كاهن وخرج عن حكم البيعة واستعان بالسلطان أو بالقاضى وعدل عن الكهنة والبيعة إلى غيرهم، وطلب ما ليس له بحق إن كان كاهنا فليمنع طقسه، وان كان

لتعيش على جهد وعمل وانتاج المصريين بسبب انتمائهم للفئات الحاكمة واحترفوا التسول فى الطرقات والعيش فى الخنقاوات والتكايا التى اعدها الحكام الترك لأوباشهم ومن شابههم.. وكان صدى حركة ابن تيمية لايزال فى الأسماع فهب علاء الدين البخارى الصوفى يهاجم ابن عربى وابن الفارض والاتحاديين ويؤيده فى ذلك السلطان ومنافقوا القضاة الصوفية..

وهكذا فإن الثلث الأول من القرن التاسع شهد خفوتاً فى صوت الاتحادية مع كثرتهم العددية الوافدة إلى مصر، ووصل الأمر إلى حد اضطهاد البارزين من أوباش الاتحادية فقيل فى ترجمة اسماعيل الرومى(ت٨٣٤)وقد أقام بالخانقاه البيبرسية أنه (امتحن بمقاله ابن العربى ونهى مراراً عن اقرائها.. وكان يقرئ العربية والتصوف والحكمة)[١] فى الخانقاه المذكورة، وقيل نفس الكلام عن ابن الفنرى(ت ٨٣٤) أنه (قدم مصر وله عشرون سنة وكان يعاب بنحلة ابن العربى وبأنه يقرئ الفصوص ويقرره، وكان بعض من اعتنى به أوصاه ألايتكلم فى شئ من ذلك)[٢].

فكان من عادة الأعاجم القادمين إلى مصر أن يقرروا عقائدهم فى الخوانق كما كان يفعل نصر العجمى[٣] (ت٨٣٣) إلا أن أساطين الصوفية تحرجوا من شدة الإنكار عليهم من تلاميذ

(١) إنباء الغمر جـ٣/ ٤٦٥.
(٢) إنباء الغمر جـ٣/ ٤٦٥.
(٣) النجوم جـ١٥/ ١٦٥: ١٦٦.

علمانيا فليمنع القربان. ولا تخالف الشمامسة ولا من دونهم قساهم [قساوستهم] ولا يخرجو عما يرسموه لهم لأنهم الامنا في بيعة الله، ومن يكرم الله وكهنته وبيعته يكرمه الله ومن يهينهم يهينه الله. وقد أبحنا للمومنين يعملو القرابين في منازلهم ويحملوهم إلى البيعة على قدر طاقتهم فيكون لهم الأجر والثواب بقدر أمانتهم ويكون عمله مما جرت به العادة أو لا، فان ذلك رفقا بالبيعة ليلا تكثر عليها المون.

ابن تيمية من ناحية وعلاء الدين البخارى من ناحية أخرى، فطالبوا بعض الاتحادية بالتخفيف، خصوصاً دارسى عقائد الاتحاد من القادميين والعاملين فى الخوانق الصوفية حتى أن بعضهم رجع عن عقيدة الاتحاد مثل الشاعر البشتكى[1].

٢ـ واتفق فى هذا القرن ظهور كثير من أعلام العصر المملوكى ممن جمعوا بين الفقه والقضاء والتاريخ مع الانكار على الصوفية الاتحاديين، وقد تتلمذوا على مدرسة ابن تيمية ومصنفاته..

وأبرزهم المقريزى(ت٨٤٥)، وقد صنف رسالة فى دحض مذهب الاتحاد خلص فيها إلى أن اتباع ابن عربى ليسوا بمسلمين[2]، وهاجم صوفية عصره كلهم، فقال فيهم (ذهب والله ما هناك، وصارت الصوفية كما قال الشيخ فتح الدين محمد بن محمد بن سيد الناس العمرى:ـ

ما هى شروط الصوفى فى عصرنا اليوم
سوى ستة بغير زيادة
وهى (نيك) العلوق والسكر
والسطلة والرقص والغنا والقيادة

(١) إنباء الغمر جـ٣/ ٣٩٢: ٣٩٢.
(٢) ذكرها جورج قنواتى فى أبحاث الندوة الألفية للقاهرة جـ١/ ٣٥٩: ٣٦٠.

ومن بعد تكريز الاب انبا اخرسطودلوس فى دير أبو مقار بعد خروجه من اسكندرية أتى إلى مصر، وكانت عادة البطاركة الذين قبله جارية أن يكرزو فى كنيسة مارى سرجيوس[ابو سرجه] بقصر الشمع لأنها القاثوليكا [مقرالبابوية] بمصر، فلم وصل هذا الاب إلى فسطاط مصر اجتمع كهنة كنيسة السيدة بمصر بقصر الشمع المعروفة بالمعلقة وقالو كيف تدع كنيستك وتمضى إلى كنيسة أبو

وإذا مـــــا هذى وأبدى اتحـــــادا
وحلولاً من جـــــهلـه وأعــــاده
وأتى المنكرات عــــقــــلاً وشـــرعـــاً
فــهــو شــيخ الشــيــوخ ذو الســجــادة

ويعقب المقريزى بقوله (ثم تلاشى الآن حال الصوفية ومشايخها، حتى صاروا من سقط المتاع لاينسبون إلى علم ولاديانة، وإلى الله المشتكى)(١).

وكان ابن حجر (ت ٨٥٢) يعبر عن كراهيته لأتباع ابن عربى فى تراجمه، يقول عن على وفا (شعره ينعق بالاتحاد المفضى للإلحاد(٢). وذكر نضال أبى عبد الله الكركى عن الاتحاديين فقال عنه (اجتمعت به وسمعت كلامه، وكنت أبغضه فى الله تعالى)(٣).

وامتدت كراهيته للصوفية جميعاً: يقول فى ترجمة ابن مفلح (اشتغل قليلاً وسمع من جماعته، ثم انحرف وسلك طريق الصوفية)(٤).

(١) الخطط المقريزى جـ٣/ ٤٠١ طـ دار التحرير.
(٢)، (٣) إنباء الغمر جـ٢/ ٣٠٩، ٣٠، ٤٩٦ بالترتيب.
(٤) إنباء الغمر جـ٢/ ٣٠٩، ٣٠، ٤٩٦ بالترتيب.

(*) أزمة مقر تكريز البطرك.

سرجه التي هي للأسقف وتتكرز فيها(*)، وجرى بين كهنة هاتين الكنيستين منازعة وخصومة إلى أن مضو به إلى بيعة السيدة المعلقة وكرزوه فيها، وكان معه يوميذ أربعة وعشرين أسقف شيوخ قديسين مقدمين. وقدس معه في ذلك اليوم انبا فيلاتاوس أسقف مصر، وكان لكنيسة أبو سرجه أرشي دياقن يعرف بأبي الفرج الترس، فلما عدل البطرك عن كنيسته التي جرت العادة بتكريز

وقد شهد ابن حجر المتوفى (سنة ٨٥٢) ازدياد نفوذ بعض الاتحاديين، وكان أحدهم مقرباً عند الظاهر برقوق في عصر اشتد فيه المغارم، وتجادلا في ابن عربي فهدده الصوفي بالوقيعة فيه عند برقوق فخافه ابن حجر واقنعه بالمباهلة، فتباهلا، ومات الصوفي بعدها[(١)].

وعرضنا لدور فقهاء القرن الثامن في الرد على مصنفات ابن عربي والحكم بتكفيره، وقد تابعهم بعض الفقهاء في القرن التاسع، وأهمهم الشريف الجرجاني وأحمد بن الزين العراقي وابن الأهدل وابن الجزرى وابراهيم الرقي وتقي الدين الفاسي[(٢)].

وتغيرت الأحوال في النصف الثاني من القرن التاسع بموت أعلام الفقهاء وعلاء الدين البخاري.. فتحمس أصحاب الاتحاد، وقد ازدادوا كثرة وأصبحت لهم صلات بالسلاطين والأمراء وكانت صلة معظمهم بالدين ظاهرية ضعيفة، فقيل أن الأمير تمربغا (ت٨٧٩) «يحب شياطين الصوفية حتى وصل إلى اعتقاد أهل الاتحاد فكان يقول: وماذا على الإنسان إذا قال أنا الله»[(٣)]. أى أنهم أثروا عليه حتى جاراهم في قول الشطح..

وبعضهم أخذ في الدعوة لمذهبه يجمع الناس على الذكر مثل خلف المشالي (٨٧٤)

(١) تنبيه الغبي ١٥٠ للبقاعي.
(٢) تنبيه الغبي ٧٩: ٨٠، ١٣٥، ١٥١، ١٩٦، ١٥٢، ١٨٠، ١٥٧، ١٨٠، ١٩٠.
(٣) تاريخ البقاعي: مخطوط ورقة ١٥٣ ب.

البطاركة فيها قطع اسمه ولم يذكره على هيكله مدة أسبوع حتى جآ إليها بعد أسبوع وقدس فيها وأزال السجس [سوء الفهم] واعتذر أنه أنما مضى إلى كنيسة المعلقة قطعاً للخصومة التى جرت بين كهنة الكنيستين بسببه ليلا يتفاقم الأمر بينهم، وكانت روح القدس قريبة منه فظهرت منه معجزات وقوة نفس بالله تعالى، منها أنه منع إنسان يعرف بالحواجبى فانفلج وخرس ومات فى الحال،

«وكان ممن يميل إلى ابن عربى وينظر فى فتوحاته المكية، والغالب عليه الإكثار ممن نقل كلامه»[1].

بل كان من الاتحاديين زكريا الأنصارى شيخ الإسلام فى عهده - ويالها من سخرية ـ وقد قال عنه السخاوى (هو أحد من عظم ابن عربى واعتقده وسماه ولياً، وعذلته فى ذلك مرة بعد أخرى فما كف، بل تزايد إفصاحه بذلك بآخره، وأودعه فى شرحه للروض)[2].

لذا لم يكن مستغرباً أن يتعود أتباع ابن الفارض انشاد كلامه يوم الجمعة عند قبره[3] وصارت لهم صوله وجولة أستدعت أن يقوم البقاعى بحركته التى هزت التاريخ المملوكى فى الربع الأخير من القرن التاسع الهجرى.

فى النصف الثانى من القرن التاسع، حركة البقاعى ٨٧٥هـ..

والبقاعى (٨٠٩ ـ ٨٨٥) تلميذ متأخر لابن تيمية هب ينازع الصوفية الاتحادية بعد أن علا صوتهم فى النصف الثانى من القرن التاسع.. ولم يكتف ـ كغيره ـ بالتصنيف[4]، وانما

(١) الضوء اللامع جـ١/ ١٨٦. (٢) الضوء اللامع جـ٣/ ٢٣٤.
(٣) الطبقات الكبرى للمناوى ٩٩ ب.
(٤) ألف البقاعى: تنبيه الغبى فى تكفير ابن عربى وتحذير العباد من أهل العناد ببدعة الاتحاد، وقد حققها الشيخ عبدالرحمن الوكيل فى كتاب واحد حمل عنوان (مصرع التصوف).

ثم اجتمع إليهن رووسا مصر وسالوه أن يحلل ابن أخت الشيخ أبو زكرى يحيى ابن مقاره وهو متقدم يومسيذ عند المملكة ومتولى الديوان [الذى يسمى]«البرهجى» وديوان النفقات لأنه كان ممنوعاً لأجل جرم ارتكبه فلم يحلله، فلما الحو عليه بالسوال فيه قال لهم: الكلمة الواحدة تغنى الحكيم والكلام الكثير لا يغنى الجاهل شراً، فلما سمعوا منه هذا القول سكتو عن خطابه ولم يجسرو بعد هذا يخاطبوه في مثل ذلك.

قرن القول بالعمل فيما رددته المصادر المملوكية لهذه الفترة تحت عنوان (كائنة البقاعى وابن الفارض)..

وقد ظهر تحامل المؤرخين على البقاعى، لأنه جرؤ على تكفير ولى مقدس كابن الفارض فى وقت سيطر فيه الصوفية على العصر دعاية وسياسة. إلا أن البقاعى فى تاريخه عرض لتلك الحادثة بصورة يظهر فيها الصدق والترتيب المنطقي للحوادث، واتفق فى بعضها مع ما أورده المؤرخون الآخرون من خصومه الذين تجاهلوا سياق الحوادث وذكروا نهايتها مبتورة ومشفوعة بالتشنيع على البقاعى. وقد حدثت كائنة البقاعى سنة ٨٧٥في بداية حكم قايتباى، وكان الأمير يشبك ابن مهدى هو الداودار الكبير، وكان كاتب السر هو ابن مزهر الانصارى المتحالف مع الصوفية.

أ) ونلخص الوقائع فيما يلى حبسما أورد البقاعى نفسه فى تاريخه:

١ـ بعث البقاعى بخطاب مطول يثبت فيه كفر ابن الفارض بالأدلة.. وأرسله للقاضى ابن الديرى يطلب رأية حتى يلزمه بالوقوف معه فى الحق.

٢ـ لجأ الصوفية إلي المكر، حاولوا الحصول على كتاب البقاعى من ابن الديرى بحجة أن كاتب السر يطلبه، ففشلوا.. لكن البقاعى من ناحيته طلب منهم ـ وقد طالعوا الكتاب ـ أن يردوا عليه..

---

٦٦ : انبا اخرسطودلوس ١٠٤٦ / ١٠٧٧م

ثم جرت له نوبة مع قوم سريان وهو فى كنيسة الشهيد أبو مرقوره بمصر بسبب الزيت والملح الذى يعملوه فى قربانهم حتى أن إنسان منهم يعرف بالشيخ أبو البشر طبيب العظيمية [الأعظمية] خاطبه فأمر التلاميذ أن يقيموه من قدامه فأقاموه من بين يديه وأخرجوه إلى خارج مجرجراً إلى برا الكنيسة، وكان طبيب الملك وقريباً منه فمضى المذكور إلى الوزير وشكاه له، وكتب

٣ـ عجزوا عن الرد بالحجة فلجأوا إلى أساليبهم التى تفوقوا فيها ـ والتى يتحرج منها البقاعى وإصحابه الفقهاء ـ فنشروا الإشاعات واثاروا الجماهير وأصحاب الجاه، حتى صاروا يؤذونهم فى الطرقات.

٤ـ اقترح زعيم الصوفية الفارضية ـ اتباع ابن الفارض ـ أن يعقد مجلس ذكر تسبقه مظاهرة صوفية لإثارة الجماهير، وتمر المظاهرة على بيت البقاعى لتنهبه الغوغاء، وسقط الاقتراح خشية أن يتطور الأمر إلى غير صالحهم.

٥ـ لجأوا إلى طريقة أخرى، استكتبوا أعوانهم، وأذاعوا أن البقاعى قد كفّر المساعد لهم والساكت عنهم ليثيروا الفقهاء المحايدين على البقاعى، ونجحوا فى إثارة زين الدين الإقصرائى وحدثت بينهما مشادة كلامية نتجت عن سوء الفهم والوقيعة..

٦ـ ضاقت الحال بالبقاعى، فحاول الاتصال بالداودار الكبير ليشرح له حقيقة الحال، ثم أن البعض اجتمع بالداودار وافهمه حقيقة الاتحادية، فخفف ذلك عن البقاعى بعض الشئ إلا أن نفوذهم كان لايزال غالباً، وكاتب السر الصوفى يخيفه ويهدده، إلا أن البقاعى ظل على سكينته.. ثم أرسل كاتب السر للبقاعى بعض أصدقائه يشير عليه بالرجوع عن رأيه لأن السلطان فمن دونه كلهم ضده، ورفض البقاعى التراجع، وعرض من جانبه أن يقبلوا منه أحد حلول ثلاثة ـ المجادلة أو المباهلة أو المقاتلة بالسيف فى حضرة السلطان والعلماء.. وقرأ

إلى يوحنا بطرك أنطاكية يشكوه أيضاً فلم يهمه شيأ من ذلك. وفعل بمصر أفعال كثيرة معجزة يطول شرحها.

حلقة ذكر في احد التكايا

وكان من أولاد النصارى بمصر صبى يعرف ببفام ابن بقوره الصواف عمره يوميذ اثنى وعشرون سنة وهو ابن أخت انبا جرجه أسقف ميساره [مركز ديروط]، وكان قد غير دينه فرفضه أبوه

البقاعى على الرسولين اللذين جاءا من طرف كاتب السر بعض كلام ابن عربى فاستمالهما إليه ووافقوه على تكفيره..

٧ـ سأل الصوفية صاحبهم كاتب السر أن يكتب إليهم ضد البقاعى إلا أنه رفض متعللاً بوجوب أن يستمع إلى رأى البقاعى أولاً. فاشترط البقاعى أن يكون ذلك بخلوه، فسعوا فى عدم اجتماعهما خوفاً من أن يستميله البقاعى إلى صفه..

٨ـ عمل البقاعى ميعاداً فى الجامع الظاهرى واستمال الحاضرين فضجوا فى الدعاء على أعدائه ، وابتدأ الميزان يتحول لصالحه فقد حاول الصوفية استكتاب قاضى الحنابلة معهم ولكنه افتى بتكفير ابن الفارض وتابعه فى ذلك آخرون..

٩ـ لما رأت العامة أن أمر الصوفية ابتدأ فى التراجع وان البقاعى لايزال يقرر رأيه وأنهم عجزوا عن مقابلة حججه خف الهرج منهم، وبدأ بعضهم فى التعاطف معه.

١٠ـ حاول السلطان عقد مجلس فى مستهل سنة ٨٧٥ بسبب ابن الفارض فسأله كاتب السر الصوفى أن يترك ذلك، وبذل همته لدى العلماء وسعى لتأخير عقده.. إلا أن السلطان صمم فعقد المجلس وانتهى إلى لاشئ مع اقتناع البعض بأن البقاعى على حق(١).

(١) تاريخ البقاعى مخطوط ورقة ٨، ٩.

وأمــه وأبعــدوه عنهم فــمــضى [بعــد أن عــاد لنصرانيته] إلى كنيسة ميكاييل المختارة وأقام بها أيام وعـول على الدخـول إلى دير أبو مـقـار صـحبـة جماعة من الرهبان أشارو عليه بذلك، فلما أرادو المسير قال لهم: ما منفعتى إذا مضيت معكم إلى تلك البرية ولم أعترف بالمسيح فى الموضع الذى أنكرته فيه. ثم تركهم وشد زناره وخرج يمشى فى أسـواق مـصر، وكـان أبوه بقـوره الصـواف يعـامل

ب) آراء المؤرخين الآخرين،

١- يقول ابن الصير فى عن ذلك المجلس (فى محرم صعد قاضى القضاة ومشايخ الإسلام لتهنئة السلطان، ولم يتكلموا فى شئ من أمر ابن الفارض لابنفى ولاإثبات فالأمر لم يكن بيدهم ولكن بيد السلطان، واطلع البرهان البقاعى فى هذا اليوم قبل كل أحد، وجلس بالجامع وصحبته كتب كثيرة، وليس راجعاً عما قاله فى كلام ابن الفارض وتكفيره، وقد أوصى (أى ترك وصيته) وعنده أن هذا الأمر ليس التكلم فيه إلا فرية محضة، فإن قتل قتل شهيدا)(١).

وواضح أن البقاعى وإن ضم إليه بعض الفقهاء إلا أن الرأى العام يميل إلى تقديس ابن الفارض ويعتبر البقاعى معتدياً على حرمته، ويمثل هذا الرأى جمهرة من الصوفية والعلماء والمعبرين عنهم، ولاريب أن يأتى هذا على هوى السلطان خاصة وأن كاتب السر أقربهم إليه..

٢- يقول ابن أياس وهو قريب من هذه الفترة (كثر القيل والقال بين العلماء بالقاهرة فى أمر عمر ابن الفارض، وقد تعصب عليه جماعة من العلماء بسبب أبيات قالها فى قصيدته التائية، واعترضوا عليه فى ذلك، وصرحوا بفسقه، بل وتكفيره، ونسبوه إلى من يقول بالحول

(١) أبناء الهصر ١٧٦.

الاستاذ «عدة الدولة رفق» وهو يوميذ زمام الأتراك ومتولى القصر وقريب من الملك [معد المستنصر بالله]. فلما رأى المسلمين زناره فى وسطه بعد إسلامه أخذوه واجتمعو عليه ومضو به إلى الشرطة فاعتقله الوالى وضيق عليه، فمضى أبوه إلى صاحبه «عدة الدولة رفق» وأوعده بالجملة الكبيرة من المال على أن يخلصه، فقال له ما أقدر أفعل فى هذا شئ إلا أن يرضا ولدك بأن يظهر أنه

والاتحاد، وكان رأس المتعصبين عليه برهان الدين البقاعى وقاضى القضاة ابن الشحنة وولده عبد البر ونور الدين المحلى وقاضى القضاة عز الدين المحلى وتبعهم جماعة من العلماء يقولون بفسقه..)[1] أى أن البقاعى استطاع أن يضم إليه هذا الرعيل من الفقهاء.

ويقول ابن أياس (وأما من تعصب له ـ أى لابن الفارض ـ فهم الشيخ محى الدين الكافيجى الحنفى، والشيخ قاسم بن قطلوبغا الحنفى، وبدر الدين بن الغرس، وابن حجى، والجلال ابن الكمال السيوطى، وزكريا الأنصارى، وتاج الدين بن شرف، فلما زاد الرهج فى هذه المسأله كتبت الفتاوى فى أمر ابن الفارض التى ظاهرها الخروج عن قواعد الشريعة ـ أى أوولت عبارات ابن الفارض لتتمشى مع الإسلام ـ فكتب الشيخ الكافيجى على هذه السؤال، وألف الجلال السيوطى كتاباً سماه(قمع المعارض فى الرد عن ابن الفارض)، وألف البدر بن الغرس فى ذلك كتاباً شافياً وصنف بعضهم كتاباً سماه (ترياق الأفاعى فى الرد على البقاعى).. ووقع فى هذه المسألة مشاحنات بين العلماء يطول شرحها.

ثم إن بعض الأمراء تعصب لابن الفارض، وتعصب له السلطان أيضاً، فكتب سؤالاً وجهه للشيخ زكريا الأنصارى فيمن زعم فساد عقيد ابن الفارض، فامتنع الشيخ زكريا عن الكتابة

(١) تاريخ ابن أياس جـ٢/ ١١٩ طـ بولاق.

مـجنون وأنفـذ أنا الشـهـود إلى الحبس ينظروه ويسـمعو كلامه وأخلصـه وهو نصـراني، وكان معه في الحبس راهب سرياني فوعظه وأنار قلبه وأبان له طريق الشهادة وجعل القتل على اسم المسيح عنده أحلا من الشهد حتى صار يشتهيه ويوثره على الحياة، فلما دخل إليه الشهود كلمهم كلام العقلا فاعترف بالأمانة الحسنة كما يجب أنه نصراني مسيحى، فقالو له: إنما قيل لنا أنك فعلت هذا عن

غاية الامتناع، فألح عليه أياماً، حتى كتب بأنه يحمل كلام هذا العارف على اصطلاح أهل طريقته، وأن ما قاله صدر عنه حين استغراقه وغيبته، ولكن ينبغي كتم تلك العبارات عمن لم يدركها، فما كل قلب يصلح للسر، ولكل قوم مقال.. فلما كتب زكريا ذلك سكن الإضطراب الذى كان بين الناس بسبب ابن الفارض، وعقيب ذلك عزل ابن الشحنة عن قضاء الحنفية، وحصل له عقيب ذلك فالج وذهل وسلب منه العلم وحصلت نكبات لولده عبد البر، وأما البقاعى فكادت العوام أن تقتله، وحصل له من الأمراء مالا خير فيه، واختفى حتى توجه إلى مكة فمات هناك، وأما أمام المدرسة الكاملية فخرج وهو مريض إلى الحجاز فمات فى أثناء الطريق.. وقد جرى على من تعصب على ابن الفارض ما لاخير فيه، وظهرت بركته فى المتعصبين عليه شيئاً فشيئاً إلى الآن..)(١).

ج) دور زكريا الأنصارى (شيخ الإسلام)،

ولعب زكريا الأنصارى دوراً كبيراً فى إفشال حركة البقاعى.. وقد سبق أن رد على سؤال السلطان بشأن ابن الفارض وسوغ إيقاع الإضطهاد باتباع البقاعى..مع أن زكريا الأنصارى امتنع غاية الامتناع حسب قول ابن اياس. ثم بادر بالرد.. يقول الشعرانى (لما وقعت فتنة البقاعى فى إنكاره على ابن الفارض أرسل السلطان إلى العلماء فكتبوا له بحسب ما ظهر

(١) نفس المرجع جـ٢/ ١١٩ : ١٢٠ طـ بولاق.

جنون لحقك، فقال لهم: لو كنت مجنون ماحفظت دينى وأمانتى وأنا بحمد الله عاقل مومن بالسيد المسيح له المجد، فمضى بهم الوالى إلى الوزير حتى شرحو له ما كان بحضور عدة الدولة رفق فأمر الوزير بقتله، فنزل صاحب سير [حاجب] السلطان يعنى أمير جاندار مع الوالى إلى الشرطة وخاطبوه ولطفو به وأعلموه أنهم قد أمروا بقتله، فلم يرجع عن الاعتراف بالسيد يسوع المسيح،

لهم وامتنع الشيخ زكريا ثم اجتمع بالشيخ محمد الإصطمبولى فقال له: اكتب وانصر القوم وبين فى الجواب أنه لايجوز لمن لايعرف مصطلح القوم أن يتكلم فى حقهم بشر لأن دائرة الولاية تبتدئ من وراء طور العقل لبنائها على الكشف)[(١)].

ويدين زكريا الأنصارى بعقيدة ابن عربى ويدخلها فى شروحه ولم يلتفت لإنكار السخاوى عليه كما سبق.. وموقف السخاوى كمؤرخ يتسم بالغرابة بالنسبة للبقاعى وحركته.. فالسخاوى فقيه ينكر على الاتحاية وسبق أن أوردنا انكاره على زكريا الأنصارى لغضبه لابن عربى. بل أن السخاوى ألمح إلى الإنكار على التصوف أكثر من مرة.. وقال عن الفقيه ابن صديق (وقد كان من المشتغلين بالفقه.. وبلغنى فى هذه السنين أنه تحول عن طريقته فسلك التسليك والشياخة الصوفية، وكأنه لمناسبة الوقت[(٢)].

ثم أن للسخاوى خصماً شهيراً هو الجلال السيوطى الذى اتخذ جانب الدفاع عن ابن عربى وابن الفارض مع زكريا الأنصارى وغيره..

ومع ذلك فالسخاوى متحامل على البقاعى فى ترجمة له فى الضوء اللامع، وإن لم يمنعه ذلك من ذكر جهوده ضد الصوفية فيقول أن البقاعى لمح بالحط على الغزالى وقال (إن

(١) الطبقات الصغرى: ٣٨.
(٢) الضوء اللامع جـ١/ ١٧، ج٣/ ٨٧، ١٤٤: ١٤٥.

فأخرجوه من سجن الشرطة وتبعه خلق كثير من المصريين والعسكرية وغيرهم وبأيديهم العصى وآلات العذاب، فلم يمكن نايب والى المعونة أحد منهم يمد يده إليه حتى انتهى به إلى راس الجسر، فنزل [الوالى] هناك عن بغلته وكان عليها سرج ولجام بحلية ثقيلة وقلع سيفه الجلى وجعله على السرج وقال له: خذ هذه البغلة وما عليها وأنا أثبت اسمك فى ديوان السلطان [معد المستنصر

قوله «ليس فى الإمكان ابدع مما كان» كلام أهل الوحدة من الفلاسفة والصوفية)، وكذلك حط على ابن عطاء السكندرى[1].

واعترف بدور البقاعى فى إبطال المولد الأحمدى بطنطا وإن لم يسند له الفضل كاملاً يقول عنه (قام بإنكار المولد بطنتدا أو ساعد مع القائمين فى إبطاله)[2]. واعتبر إبطال المولد الأحمدى فتنة يقول (كان للبقاعى دور الفتنة التى انتهت بإبطال المولد الأحمدى[3].

ويمكن تفسير موقف السخاوى فى ضوء المنافسة التى تكون بين الفقهاء .. فلا نملك سوى هذا القول.. فالبقاعى خرج على تقاليد عصره وأنكر صراحة ما كان السخاوى يلمح به فى ثنايا كلامه.. فلم يبق للسخاوى إلا التحامل على منافسه ومحاولته للتشكيك والتقبيح حتى فيما يضطر إليه من ذكر أعماله الحسنة.. ثم أنه تجاهل صراعه الأساسى مع أتباع ابن الفارض..

د) والواقع أن البقاعى كان يناضل عصره بكل ما أوتى من عنف، ويكفى أنه حين ساءت به الأمور قال لمن عرض عليه المهادنة (إنى والله قد وضعت بين عينى القتل بالسيف والضرب

(١) الضوء اللامع جـ١/ ١٠٧.
(٢) الضوء اللامع جـ١/ ١٠٨.
(٣) التبر المسبوك ١٧٧، وورد ذلك فى الجواهر السنية فى مناقب البدوى: ٦٥.

بالله] وأجعل لك واجب شي تقبضه فى كل سنة وارجع عن هذا الرأى، فقال له: لو دفعت لى ملك مصر ما ألتفت إليه، فرفع يده ولطمه وكان فى أصبعه خاتم كبير ذهب حتى ورمت عينيه، ثم قال للسياف: جرد السيف. فجرده، فقال للصبى: أنظره فانه قاطع، فقال له: يا مولاى وجريدة [النخيل] أيضاً تقطع، والتمسو الرجاله حتى يعصبو به عينيه، فقال لهم: ما تحتاجو. وقطع من

إلى أن أموت منه فرأيته أهون عندى من أن يجهر بالكفر فى بلد أنا فيه، ويقال أن الصلاة حجاب، والصوم حجاب، والقرآن باطل أو شرك، ويراد خلع الشريعة المحمدية، ويظهر دين الكفر على دين محمد صلى الله عليه وسلم، فإما أن يعيننى الذين يريدون سكوتى بمال أقدر به على الانتقال من هذا البلد، فإنه والله لو كان معى مال اتجهز به هاجرت منها، وأما أن يختاروا منى واحدة من ثلاث بحضرة السلطان والقضاة الأربعة وساير العلماء وهى : المجادلة ثم المباهلة ثم المقاتلة، فيعطينى السلطان سيفاً وترساً ويعطى أشبهم (أكثرهم شبابا) سيفاً وترساً ويخلى بيننا قدامه فى حوش القلعة، وينظر ما يكون منى على شيخوختى، فإن قتلت كنت شهيداً وإن قتلت خصمى عجلت من اقتله فى النار)[١].

فالبقاعى أراد بإخلاص الطريق الصوفى وأن يربطه بالإسلام الذى أدعى منافقو الصوفية الأوائل أنهم ملتزمون به. وكان نصيبه هذا العنت مما اضطره فى نهاية الأمر إلى الرحيل عن مصر متمتعاً بكراهية حكامها ورجال دينها لمجرد دعوته للحق، بل اعتبر بعض من حاول الانصاف ـ أن تلك هى سيئته الوحيدة. فقول ابن إياس (فى رجب ٨٨٥ جاءت الأخبار بموت برهان الدين البقاعى فى دمشق، وكان عالماً فاضلاً محدثاً ماهراً فى الحديث ليس من مساويه سوى حطه على الشيخ عمر ابن الفارض)[٢].

(١) تاريخ البقاعى: ٥٤.

(٢) تاريخ ابن أياس جـ٢/ ١٩٧ طـ. بولاق.

كم غلالته خرقة عصب بها عينية بيده وبرك على الأرض وحول وجهه إلى الشرق وصلب على جبينه ومد عنقه فلكزه السياف بعقيبة السيف ليميل وجهه إلى القبلة [إلى الكعبة] فلم يفعل والتمس مآ فلم يسقا. وضربت عنقه فوقع بطنه على الأرض ورأسه ووجهه قايم منتصب إلى الشرق حتى تعجبو كل الحاضرين وجعلو أربعة يحرسوه في تلك الليلة فراو [فرأوا] بالليل نوراً عظيما

بعد موت البقاعي سنة ٨٨٥هـ

١ـ كانت حركة البقاعي هزة في المجتمع المصرى الراكد، وبموته عاد الهدوء وكثر تحول باقي الفقهاء إلى عقيدة الصوفية وشهدنا السخاوى (ت٩٠٢) يقول عن ابن صديق أنه انتحل الشياخة الصوفية(وكأنه لمناسبة الوقت).. واعترف زكريا الأنصارى للشعرانى باعتناقه للتصوف منذ بدايته واستمرت مكانته حتى القرن العاشر تتزايد ليصبح شيخ الإسلام.. وعرضنا لموقف السيوطى من كائنة البقاعى وكيف أنه صنف فى الرد عليه كتاباً يدافع فيه عن ابن الفارض، وكرر السيوطى مقالته فى(تأييد الحقيقة العليه)معتمداً على المبررات المعتاده من السكر الصوفى والتأويل إلخ[١].

وقال الشعرانى عن نور الدين المحلى الشافعى(كان لديه الاعتقاد الحسن فى الصوفية عكس البقاعى، وكان يعتقد حتى فى ابن عربى وابن الفارض، وكان يقول بأن الملاحدة قد دسوا كثيراً فى كلام الأئمة بغير علمهم)[٢]...

وقام الصوفية وأعوانهم بالقضاء على أى أثر لحركة البقاعى بعد رحيله باضطهاد تلاميذ وملاحقتهم بالمحاكمات المتعسفة.

(١) تأييد الحقيقة العلية ٧١، ٧٢، ٧٣.
(٢) الطبقات الصغرى ٦٤.

مـفـزع قـد نزل عليـه حـتى أن اثنين منهـم تجننوا والاثنين الاخـر خـرجـوا من مـصـر ولم يعرف لهم خـبـر إلى اليـوم، ولما بلغ هذا الخـبـر للملك مـعـد المسـتنصـر بالله أمـيـر المومنين أمـر باطلاقـه لأهله يدفنون حـيـث يريدوا فـحـمله أبوه إلى كنيـسـة مـيكاييل المختـارة [بجـزيرة الروضـة] ودفنه خـارج البـاب: وفي اليـوم الثـالث وصل الاب انبـا اخرسطودلوس من دير الشمع إلى البيعة المذكورة

يقـول ابن اياس في حـوادث ٨٨٨[١] (حـصـر شمس الدين الحلبي تركة يحيى بن حجي فرأى بين كتبه كتاب الفصوص لابن عربي: فقال هذا الكتاب ينبغي أن يحرق، وان ابن عربي كان كافراً أشد من كفر اليهود والنصارى وعبدة الأوثان. فمسكوا عليه ذلك وآرادوا تكفيره.. وآل أمره إلى أن عزروه وكشـفوا رأسـه ثم حكم باسلامه وحقن دمه، وقد قامت عليه الدائرة بسبب ذلك.

في القرن العاشر

الشعراني ممثل الفقه والتصوف

طبيعة الشعراني، صوفي تسلح بالفقه ليخدم التصوف..

والشعراني هو العلم الذى تميز في القرن العاشر وسيطر عليه وعلى ماتلاه من قرون في العصر العثماني. والشعراني صوفي تسلح بالفقه ليخدم التصوف كشأن الغزالي في القرن الخامس.. وقد عرف العصر المملوكي ـ وعصر الشعراني على الأخص ـ طائفة من الفقهاء المتصوفة.. أو بعض الفقهاء الذين تصوفوا وأصبحت لهم بعض الدراية بالتصوف .. وقد رأى الشعراني فيهم خطراً على التصوف إذ أنهم لدرايتهم بالتصوف ومعرفتهم باختلافه عن الشرع

(١) تاريخ ابن اياس جـ٢/ ٢١٩: طـ. بولاق.

فوجدهم قد دفنوه خارج البيعة فأنكر ذلك وقال: شهيد يدفن خارج البيعة؟ وأمر بهدم القبر ودخل به إلى الكنيسة وكشف عنه الكفن ليقبله ويتبارك منه وجد عليه دماً طرياً كأنه في تلك الساعة خرج منه فأخذ منه وصلب على لباسه وبنا مذبح هناك على اسمه وكرزه ودفنه مقابله على وجه الأرض وجسده باقي إلى الآن هناك في كنيسة ميكاييل المختارة، وبعد هذه الأيام قسم الاب انبا

الإسلامي يمكنهم أن يصيبوا التصوف في مقتل.. فالشعراني (كصوفي فقيه) تخوف من (الفقهاءالصوفية) خشية أن يكون منهم من يعمل لصالح الفقه كما يعمل الشعراني لصالح التصوف..

لذا نرى الشعراني يفضل الفقيه الصرف ـ رغم انكاره على الصوفية ـ على الفقيه الصوفي لاحتمال أن يكون منافقاً في تصوفه وخطراً على الطريق الصوفي، فيقول(إن الفقيه الصرف الذي لم يدخل طريق القوم مقدم على الفقيه المتفعل فيها من غير اتقان علومها والمشي على طريقها، لأن الفقيه الصرف سالم من النفاق الذي وقع فيه المتفعل مع زيادة عليه بالعلوم الشرعية)، بل تطرف الشعراني فاعتبر العامي المعتقد في الصوفية خيراً من ذلك الفقيه الصوفي (بل نقول العامي الذي يعبد الله تعالى ويسأل العلماء ـ يقصد الصوفية ـ عن كل شئ أشكل عليه في دينه، أحسن حالاً من هؤلاء المتفعلين في طريق القوم)[1].

* هجومه على معاصريه من الصوفية

١ـ فالشعراني يهاجم أوباش الاتحادية في عصره.. يقول فيهم(استحكم في غالبهم الضلال والفساد.. وبعضهم رأى أن كل شئ في الوجود هو الإله، وأن عين هذا الوجود

(١) لطائف المنن ٦٠٦ ـ مكتبة عالم الفكر.

(*) أنباء ميخايل: كاتب سير عشرة من البطاركة في هذا الكتاب بداية من خايال الثالث حتى شنوده.

اخرسطودلوس كاتب له يعرف بأنبا ميخاييل(*) على كرسي تنيس، وكان فاضل عالم وهو الذى كتب سيرة عشرة بطاركة أولهم خايال الثلثة وآخرهم شنوده، ولما عول البطرك على مكاتبة انبا يوحنا بطرك انطاكية تقدم إليه بذلك وكتب عنه السنوديقا وسار بها هو وأنبا غبريال القديس أسقف صا [مركز كفر الزيات]، وكان شيخ رأيته عند دخوله إلى اسكندرية في تكريز أنبا اخرسطودلوس.

الحادث هى عين الله من الجماد والنبات والعقارب والحيات والجان والإنسان والملك والشيطان، ويجعلون الخلق هو عين المخلوق من خسيس ونفيس ومرجوم وملعون ورانس ومرءوس حتى الأباليس، وهذا كلام لا يرضاه أهل الجنون ولا من كان فى حبه مجنون.. وقد نقلت هذا الكلام فى زماننا عن جماعة بالصعيد، فيعقدون هذه الأمور فيما بينهم وبين أصحابهم من الملاحدة، وينكرون ذلك فى الظاهر خوف القتل. بل الذى أقوله أن إبليس نفيسه ظهر ونسب إليه هذا المعتقد لتبرأ منه واستحيا من الله تعالى، وإن كان هو الذى يلقى إلى نفوسهم بذلك.

وقد حكيت لسيدى على الخواص بعض صفات هؤلاء فقال: هؤلاء زنادقة وهم انجس الطوائف لأنهم لايرون حساباً ولاعقاباً ولاجنة ولاناراً ولاحلالاً ولاحراماً ولا آخرة، ولالهم دين يرجعون إليه ولامعتقد يجتمعون عليه، وهم أخس من أن يذكروا لأنهم خالفوا المعقولات والمنقولات والمعانى وسائر الأديان التى جاءت بها الرسل عن الله تعالى، ولانعلم أ حداً من طوائف الكفار اعتقد اعتقاد هؤلاء).

٢ـ وقال عنهم (وكان أخى الشيخ أفضل الدين يقول: لوكنت حاكماً لضربت عنق كل من قال: لاموجود إلا الله ونحو ذلك من الألفاظ لأنه لم تأت بذلك شريعة)[١].. ويقول

(١) لطائف المنن ٤٨٦ : ٤٨٧ طـ. قديمة.

ومن بعد ذلك بمدة اجتمع جماعة الأساقفة وهم أنبا يوحنا أسقف سخا [مركز كفر الشيخ] المعروف بابن الظالم، الكاتب كان قبل أسقفيته، وأنبا خايال أسقف قطور [مركز طنطا] وأنبا إيليا أسقف طموية [مركز السنبلاوين] وأنبا جرجه أسقف الخندق [منطقة دير الملاك شمال القاهرة] وأنبا مرقس أسقف البلينا وأنبا ميخاييل أسقف تنيس كاتب السنوديقا المقدم ذكره وجماعة من

الشعراني أنه سمع بعض الاتحاديين يقول (ما ثم موجود إلا الله، فقلت له ايش أنت؟ فقال كلاماً والله ولو كان معى شاهد آخر يشهد لذهبت به إلى حكام الشريعة يضربون عنقه)[1].

وينصح الشعراني بعدم الاجتماع (بهؤلاء الجماعة الذين تظاهروا بطريق القوم فى النصف الثانى من القرن العاشر من غير إحكام قواعد الشريعة، فإنهم ضلوا وأضلوا بمطالعتهم كتب توحيد القوم من غير معرفة مرادهم، وقد دخل على منهم شخص وانا مريض ولم يكن عندى أحد من الناس فقلت له: من تكون؟ قال أنا الله فقلت كذبت فقال أنا محمد رسول الله فقلت له كذبت فقال: أنا الشيطان وأنا اليهودى فقلت له: صدقت. فوالله لو كان عندى أحد يشهد عليه لرفعته إلى العلماء فضربوا عنقه بالشرع الشريف..)[2]. فالشعرانى يستعدى السلطة عليهم، ولاشك أنهم يتمتعون بكراهية الشعرانى وحقده لذا لم يترجم لأحد منهم فى طبقاته الصغرى أو الكبرى..

النهى عن مطالعة كتب الاتحاد الصوفية:

١ـ ويقول الشعرانى عن أصحاب الاتحاد فى عصره (أنهم ضلوا وأضلوا بمطالعتهم كتب توحيد القوم من غير معرفة مرادهم) فهو بذلك يحقق غرضه بالهجوم على أوباش الاتحادية، وفى نفس الوقت يبرئ فيه ابن عربى وغيره من مقالة الاتحاد، وقد قال فى ترجمة ابن عربى

(١) لواقح الأنوار ٧٩.
(٢) لطائف المنن ٣٩٥.

الكهنة بالاسكندرية ودخلوا إلى مصر وتعاقدوا على خلع الاب البطرك أنبا اخرسطودلوس من البطركية وادعوا عليه في الظاهر بأنه عند تقدمته لم تقرا عليه الصلوات التي جرت بها العادة أن تقرى على البطاركة. وكان سبب ذلك في الباطن خصومة جرت بينه وبين انبا يوحنا أسقف سخا المذكور فشعت [شنَع] عليه هولا الأساقفة والكهنة المذكورين. وقال لهم: إن سكتم عن مساعدتي

(وما انكر عليه من انكر إلا لدقة كلامه، لاغير)، وقرر أن مذهب الصوفية أنهم ينكرون(على من يطالع كلامه من غير سلوك طريق الرياضة، خوفاً من حصول شبهة في معتقده يموت عليها ولايهتدى لتأويلها على مراد الشيخ)[1].

ويقول الشعراني (أخذ علينا العهود ألا نمكن أحداً من إخواننا يطالع في كتب الشيخ ابن عربي في التوحيد المطلق، ولافي كتب غيره من غلاة الصوفية، وذلك لعدم الفائدة وشدة الإنكار على من تفوه بما ذكروه فيها مما يخالف عقول الناس، وما كل ما يعلم يقال، وربما فهموا منها أموراً تخالف صريح السنة فيموتون على اعتقادها فيخسرون مع الخاسرين)[2].

فهو مع اعترافه بأن ابن عربي من غلاة الصوفية وأن كلامه يقابل بشدة الإنكار إلا أنه يوحي بأنها لاتخالف صريح السنة ويلجأ إلى التهديد بالخسران لمن يجرؤ على مطالعة كتبه..

٢ـ ثم يلجأ الشعراني إلى تعميم تحذيره لتشمل مواضع التصوف في المصنفات القديمة الشهيرة لمعتدلي الصوفية (وليحذر من العمل بمواضع من كتاب الأحياء، ومن كتاب النفح والتسوية له وغير ذلك من كتب الفقه فإنها إما مدسوسة عليه أو وضعها أوائل أمره ثم رجع عنها، وكذلك يحذر من مواضع في كتاب قوت القلوب لأبي طالب المكي نحو قوله(الله

(١) الطبقات الكبرى جـ١/ ١٦٣ طـ. صبيح.

(٢) البحر المورود ٢٧٤.

عليه فيفعل معكم أكثر مما فعل معي. فصغوا إليه وقامسوا على الأب البطرك فلم يلتفت لهم ولا اجتمع بأحد من الأراخنة بمصر إلى أن اتضع له انبا يوحنا أسقف سخا، وكان من أوفى مساعديه في ذلك، وغيره [أقنعه] الشيخ أبو زكرى يحيى ابن مقاره صاحب ديوان المملكة وأحضر له الأسقف المذكور إلى البيعة وقدس معه وانصلحت الحال بينهم وبطل ما كانوا معولين عليه. وسار في

تعالى قوت العالم)ومن مواضع في تفسير مكي ومن مواضع كثيرة في كلام ابن ميسرة الحنبلي، وقد صنف الناس في الرد عليه، وليحذر من مطالعة كلام منذر بن سعيد، وكذلك يحذر مطالعة كتاب خلع النعلين لابن قسي.. وكذلك تائية سيدي محمد وفاء.. وليحذر أيضاً من مطالعة كتب الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله عنه لعلو مراقيها ولما فيها من الكلام المدسوس على الشيخ لاسيما الفصوص والفتوحات المكية)[١].

(وأخذ علينا العهود ألا نمكن أحداً من إخواننا يشتغل قط بأسماء السهروردي ولا أسماء البوني ولاعلم الحرف الأعلى..[٢].

تأويل عبارات الاتحاد للصوفية السابقين:

١ـ وقرن الشعراني كلامه بالدفاع عن ابن عربي بدعوى أن ما كتب في مصنفاته مدسوس عليه أو أن ابن عربي قام بالرد على أهل الحول والاتحاد[٣]. ثم شمل شيوخ الاتحاد الباقين برعايته وأضفى عليهم حمايته بقول(ومما من الله تبارك وتعالى به علي: عدم إصغائي بأذني إلى وقتي، ولم أزل أؤول للقوم ما صح عنهم وأنفي مالم يصح)[٤]. أي أنه يؤول ما صح نقله من كفرهم ويخفي ما لم يصح ..

(١) لطائف المنن ٢٩٤. (٢) البحر المورود ٢٧٨.
(٣) لطائف المنن ٤٨٧. (٤) لطائف المنن ٤٧٩.

تلك الليلة إلى دمنهور وتوجه إلى دمرو بالغداة، وسار من هناك إلى دير أبو مقار بوادى هبيب. وكانو رهبان دير أبو مقار وكهنة اسكندرية يفضلو [يستبقوا] القربان ويخبوه من يوم الأحد الزيتونة إلى يوم الأربعا الكبير، وكان انبا ميخاييل كاتب السنوديقا أسقف تنيس هناك معه فأنكر الاب البطريرك عليهم ما يعتمدوه فى أمر القربان وذكر لهم ما يدخل عليه من العفن والتغيير والدبيب

٢ـ وقد وقع الشعرانى فى المحظور وهو يؤول احدى شطحات أبى يزيد البسطامى بقول ـ مسنداً الكلام لشيخه الخواص ـ فى تبرير قول البسطامى(سبحانى ما أعظم شانى) (إن أبا يزيد لما نزه الحق وقدسه قيل له فى سره: هل فينا عيب تنزهنا عنه قال : لايارب، قال له الحق: إذن نزه نفسك عن النقائص، فلما جاهد نفسه ونزهما عن الرذائل قال : سبحانى قولاً ذاتياً ضرورياً حقا لادعوى فيه.. قال الخواص ـ أو الشعرانى ـ وعجيب ممن يؤول أخبار الصفات كيف لم يؤول كلام العارفين مع كونهم أولى بالتأويل من الرسل لنقصهم فى الفصاحة عنهم[(١)].

فالشعرانى اسند لنفسه فى البداية علم الغيب حين علم بحديث البسطامى لنفسه، ثم اسند الوحى للبسطامى وجعله يحاور ربه، ثم بعد ذلك يتخل عن دعوى الاتحاد فاعتبر تنزيه نفس البسطامى عن النقائص والرذائل مبرراً لقوله (سبحانى).. وجاءت القاصمة حين طالب بتأويل كلام الصوفية قياساً على تأويل صفات الله تعالى التى قد تفيد مشابهة البشر كالوجه فى (ويقى وجه ربك) أو اليد (يد الله فوق أيديهم).. فاعترف ضمنيًا بألوهيتهم أو من الرسل بالرعاية.

---

(١) درر الغواص: ٩١.

[الدود] وغير ذلك مما لا يمكن شرحه وأمر بابطال ذلك واحرم من يفعله فيما بعد بمحضر من جماعة أساقفة في دير أبو مقار وحضور وكيل المسيح بقيره الرشيدى الكاتب صاحب الصليب، فقام الرهبان على الاب البطرك وجاوا إليه بالمفاتيح الحديد وقالوا له: ما أنت أفضل من الابا الذين من قبلك. فقام وهو مغضب وخرج إلى قلايته وجرى شعت [أضطراب] عظيم، فأخرج

٣ـ وفي موضع آخر يفتخر الشعراني بتأويله لكلام الصوفية (وحمل كلامهم على أحسن الوجوه، وكذلك كلام اتباعهم، فأحمله على محامل حسنة)(١).

٤ـ والشعراني كصوفي فقيه يتخذ علمه بالفقه سلاحاً للدفاع عن نحلة التصوف ـ إلا أنه ناقض نفسه بتأويله لأشياخه الصوفيه بما يتنافى مع فلسفة الفقه وأسلوب الإسلام.. ثم أنه تناقض مع نفسه ككاتب ومفكر حين هاجم صوفية عصره في الوقت الذى نهى فيه عن مطالعة كتب الصوفية السابقين وأول لهم كلامهم بعذر هو أقبح من الذنب.

* الشعراني يقول بالاتحاد الصوفي:

نفاق الشعراني:

بالغ الشعراني في التقية والنفاق متابعة لاشياخة أحمد الزاهد ومدين الأشموني والغمرى مع قيامه بالتوفيق بين الإسلام والتصوف..

١ـ وقد حاول الشعراني ـ على عادته ـ أن يسبغ الشروعية على كتمانه لعقيدة الاتحاد بشتى السبل، كالتعلق بأهداب السلف الصالح والخلط بين الفقه والتصوف والعلم والاتحاد، كقوله (ومما منّ الله تبارك وتعالى به على اقتدائي بالسلف الصالح في كتمان الأسرار التي

(١) لطائف المنن ١٨٥، ١٩٥.

الاب البطرك من خزانة الكتب بدير أبو مقار ميمر في هذا المعنى وقراه انبا ميخاييل كاتبه على الجمع وأعان السيد المسيح هذا الاب على قطع تلك العاده وإبطالها إلى الآن، ولم يعود أحد بعد ذلك يفضل [يُقى] قرباناً.

ولما صار جميع مقدمى المملكة والناظرين فى دواوينها وتدبير أمورها كلهم نصارى وهم الملاك

منحتها بفضل الله تعالى، فأعرف فى كل آيه أو حديث أو أثر من الأسرار ما لا يسطر فى كتاب)، ويقول مستشهداً بروايات سابقة كاذبة (وقد كان الأمام على رضى الله تعالى عنه يقول: آه، بعد أن يضرب على صدره ـ إن هنا لعلوماً جمة. لو وجدنا من يحملها؟ وكان رضى الله عنه يقول: علمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم علماً لو أفشيته لخضبت هذه من هذه، وأشار إلى لحيته وعنقه، وكان أبو هريرة يقول: أخذت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جرابين من علم فأما واحد فبثثته لكم، وأما الآخر فلو بثثته لقطع منى هذا البلعوم)(١).

ومعلوم أن الرسول عليه الصلاة والسلام يستحيل عليه اخفاء شئ من رسالته وعلمه، ومعلوم أن الإسلام قد تم واكتمل بانتهاء الوحى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾ [المائدة: ٣].

وتلك الروايات الكاذبة تتهم النبى باخفاء جزء من الرسالة، وعدم تبليغ الرسالة كلها، وذلك ما يرفضه المؤمن بالله ورسله. إلا أن الصوفية حين عجزوا عن إثبات أصل لعقيدتهم فى القرآن الكريم لجأوا إلى الإيهام بأن التصوف هو العلم الخفى الذى اختص به الرسول على الصوفية، واستشهدوا بأحاديث كاذبة.

٢ـ ثم يلجأ الشعرانى إلى القصص التى وجدت لها السوق الرائجة فى عصره ليثبت بها

(١) لطائف المنن ٤٨٨.

النافذ أمرهم طنخوا وعتوا وبذخوا هم وجميع النصارى بديار مصر وتكبروا وعزت نفوسهم، ووقع بينهم البغضة والحسد وبين مقدميهم، وصار أكثر اهتمامهم بالأمور الدنيانية والتجمل والتفاخر والكبريا على بعضهم بعض، فنزل الأدب من السما من عند السيد المسيح على جميع النصارى حتى لحق غيرهم من الأمم لينتقم منهم عن جميع ذنوبهم فى هذه الدنيا ويخلصهم فى الاخرة قبل أن يصيروا إليه كما قال داوود المغبوط فى المزمور:

مشروعية التقية.. يقول (ونقل الشيخ عبد الغفار القوصى عن الشريف الكليمى أنه أخبره أنه كان ذاهباً فى طريق العمرة ومعه فقير أعجمى، فتكلم بشئ من الأسرار، فقلعت رأسه من بين كتفيه فخفت أنهم يطالبوننى به فهرولت وتركته)[1]. (وقد حكى الشيخ عبد العزيز المنوفى وكان من أصحاب الشيخ إلى عبد الله القرشى أنهم قالوا للقرشى مرة ياسيدى : لم لاتحدثنا بشئ من الحقائق؟ فقال لهم: كم أصحاب اليوم؟ فقالوا : ستمائة رجل فقال: استخلصوا منهم مائة فاستخلصوا ثم قال. فاستخلصوا منهم عشرين، ثم قال استخلصوا منهم أربعة فاستخلصوا منهم أربعة فاستخلصوا له الشيخ قطب الدين العسقلانى والشيخ عماد الدين وابن الصابونى والقرطبى وكانوا أهل مكاشفات وخوارق فقال الشيخ: والله لو تكلمت بشئ من الأسرار والحقائق لكان أول من يفتى بقتلى هؤلاء الأربعة)[2].

ولاشك أن قصة الاضطهاد التى لازمت التصوف فى بدايته ترسبت فى عقل الصوفية اللاحقين، وظهرت فى أقاصيصهم وكراماتهم حتى فى عصر تمتعوا فيه بالحرية بل وسيطروا عليه..

٣ـ ثم وصل الشعرانى إلى غرضه وهو فلسفة الاخفاء وتقعيد التقية، واسباغها بالمشروعية الفقهية يقول(ووجه ذلك أن علم الحقائق والأسرار من علم القدرة والجبروت، وإفشاء ذلك

(١)، (٢) لطائف المنن ٤٨٨، ٤٨٩.

«طوبا للرجل الذى يوديه الرب ومن ناموسه يعلمه لينجيه من اليوم السوء» يعني يوم القيامة، وقال سليمان الحكيم: «يابنى لا تضجر من أدب الرب فان الذى يحبه الرب يودبه»، وقال بولس الرسول: «إنكم إن أهملتم وتركتم بغير أدب ولم تلدعوا عن ذلك بما تلدع به الصفوة من الناس صرتم غربا عند الله لا احباء»، وكما قال يوحنا الإنجيلي حبيب سيدنا يسوع المسيح في جليانه(*): «إن الذين أحبهم ابكتهم واودبهم»، فأول ما جرى

(*) الجليان: هى الأقوال والرؤى.

كفر بالله عز وجل، ويجب على العلماء أن يفتوا بكفره، لأن ذلك بما تعبدهم الله تعالى به ظاهراً صيانة للشريعة المطهرة.. وأيضاً فإن الأسرار الإلهية المودعة في قلوب العارفين هى من أمانة الله عندهم، وهى العهد والعقد وهم مطلوبون بالوفاء بالعهود والعقود وآداء الأمانات إلى أهلها دون غيرهم، فلو قطع صاحب الأسرار إرباً إرباً لما أظهرها، لكن إن أعطى الله تعالى عبداً قوة على التلويح دون الصريح كسيدى محمد البكرى حفظه الله تعالى من عيون الحاسدين.. فعلم أن كمل العارفين لا يقع منهم إفشاء لسر الربوبية، ثم لو تصور وقوع ذلك منهم فى حضور أو غيبة أو غلبة حال حصل القتل، إذ الغيرة الإلهية تقتضى ذلك كما مر فى أسرار الملوك وفى رمزه تعالى فواتح بعض سور القرآن العظيم مع قدرته على إظهار تلك..)[1].

أى أن الشعرانى وصل فى فقهه إلى اعتبار اسرار التصوف كإحدى معجزات القرآن الكريم فى فواتح السور.

٤ـ والشعرانى يعتبر نفسه من (كمل العارفين) الذين (لايقع منهم افشاء لسر الربوبية) مخافة (القتل).. فقد عد من منن الله تعالى عليه (عدم إفشائى الأسرار المتعلقة بالتوحيد ودقائق الشريعة الشريفة لأحد من الخلق إلا بعد طول امتحانه وكثرة التكرات ـ أى الاختبارات ـ والتغريات عليه، واغضابه المرة بعد المرة، وسبه بين من يستحى منهم عادة:

(١) لطائف المنن ٤٨٨، ٤٨٩.

على الاب البطرك أنه كتب فيه رقعة للوزير اليازورى أنه يمنع ملك النوبة من انفاذ الهدية. فانفذ الوزير الترسيم عليه بماية دينار جعل مع غلام تركى لعضد الدولة متولى الحرب والسيارة بالريف اسمه «درى» فسار إليه وقبض عليه وسار به إلى القاهرة وأوصله إلى [وزير] عصب [عضد] الدولة فأكرمه وأنزله فى داره ومضى إلى الوزير اعنى [عصب الدولة] ومعه ابو البشر طبيب العظمية المقدم ذكره وخاطباه فى معنى [شأن]

«المرة .. وقد جاءنى مرة شخص من دهاة فحول الرجال من معلمى دار الضرب بالقلعة يطلب منى أن اطلعه على شئ من أسرار الطريق وألح فى ذلك فتنكرت عليه وتغربت مدة وصرت أكلمه بالكلام المؤذن بنقص مرتبته.. فزهقت نفسه منى ونفرت.. وتقدم فى هذه المنن أن شخصاً دخل على أبى عبد الله القرشى فرآه يتكلم فى الاسرار فلما شعر به قطع الكلام فقال له الشخص: أنا من المعتقدين فى أهل الطريق لاتخافوا منى..»[1].

ففى عصر الشعرانى اكتملت سيطرة التصوف على الحياة الدينية عقيدة وسلوكاً وشريعة.. ومع ذلك أضحت (دقائق الشريعة) من الأمور الملحقة بالعقيدة الصوفية فى وجوب أخفائها عمن هم خارج الإطار الصوفى، ليس خشية من الفقهاء، ولكن لإظهار تميز الاشياخ الصوفية عن غيرهم من الاوباش، أو من الفقهاء الملتحقين بالتصوف، الذين يتمتعون بكراهية الشعرانى وعدم ثقته فيهم.

المرحلة الثالثة من

مراحل العقيدة الصوفية

*** مدخل..**

١ـ اسهبنا القول فى خصائص المرحلتين (الأولى والثانية) فى تاريخ العقيدة الصوفية..

(١) لطائف المنن ٥٤٥: ٥٤٦.

البطرك انبا اخرسطودلوس وأنه لا صحة لما حكى عنه، فأمر بالافراج عنه وعاد إلى دمرو. وذكر انبا غبريال أسقف صا وانبا ميخاييل أسقف تنيس أنهما لما وصلا بالسنوديقا إلى انبا يوحنا بطرك انطاكية تلقاهما بأحسن ملتقا هو وأساقفته وجميع كهنته وقراها في جميع كنايسه ونادى باسم ابونا انبا اخرسطودلوس على هياكل البيع بكرسي أنطاكية، وتحدث انبا ميخاييل أسقف تنيس بما شاهده وسمعه من عجايب ابونا انبا يوحنا ويغنينا

- -

وقلنا أن العقيدة الصوفية بدأت (بنفاق الجنيد) الذى حافظ على عقيدة التصوف من ضغط الفقهاء الذى كان في أبان قوته، وانتهت تلك المرحلة ـ وقد ضعف الفقهاء ـ بعد صلح بين الإسلام والتصوف ، وبه أضحى التصوف (إسلاميا) على يد «الغزالى» وتحول الإنكار على التصوف إلى إنكار على أشخاص الصوفية ، وأسهم في هذا الإنكار الغزالى نفسه لحماية الطريق الصوفى..

٢ـ ثم جاءت المرحلة الثانية قبيل العصر المملوكى على يد«ابن عربى» الذى أعلن صراحة ماكان الغزالى يرمز به، فأعلن عقيدة(وحدة الوجود) أو الوحدة الكاملة بين الله والعالم.

٣ـ ثم عرضنا للعقيدة الدينية للعصر المملوكى وكيف انها تبعت ابن عربى وسيطر عليها اتباعه، ومع ذلك فالصراع بينهم وبين الفقهاء لم يهدأ، بل ثار الفقهاء ثورتين فى القرن الثامن بزعامة ابن تيمية، وفى القرن التاسع بزعامة البقاعى.. وكل ما هدف إليه الفقهاء وهو مجرد التمسك بما كان يعلنه الجنيد قبلاً وهو الإلتزام بالكتاب والسنة.. (مع أن الجنيد كان يقول ذلك تقية وخوفاً من القتل)، ووضحا كيف اجهض التصوف المسيطر عى العصر حركتى الفقيهين.. ثم استسلم العصر المملوكى فى نهايته للشعرانى الذى سار على طريق الغزالى فى توثيق أواصر القربى بين الأسلام والتصوف أن الحفاظ على الثوب الإسلامى وتقرير العقيدة

عن ذكر ذلك ما شرحه انبا ميخايل فى السيره التى ذكرها.

ولما مات الوزير على ابن احمد الجرجرائى تولى بعده الوزارة أبو نصر صدقه ابن يوسف الفلاحى(*) وبعده أبو البركات ابن أخى الجرجرائى وبعده البازورى [اليازورى] المقدم ذكره، فحرك عدوا الخير المبغض للصلاح إبليس على

(*) أبو منصور صدقه: تولى الوزارة سنة ٤٣٦هـ = ١٠٤٤م، فعمل على التخلص من سلطة ابى سعيد إبراهيم ابن سهل التسترى

الصوفية من خلاله ، وبذلك خف الإنكار عليه بل عرف عصره منافقين من الفقهاء داهنوا التصوف لأنه الغالب، بمثل ما فعل الجنيد سابقاً حين أبطن التصوف وأظهر الأسلام..

٤ـ والمرحلة الثالثة بدأ بها بعض الصوفية بقصد التحلل الكامل من الإسلام شكلاً وموضوعاً واسماً.. وقد ظهرت هذه الحركة - فى العصر المملوكى ـ العصر الذهبى للتصوف.. إلا أنها ـ وقد حصرت همها فى رفض الإسلام ـ علناً فلم تعلن بديلاً محدداً بدين واضح وبرنامج معين، وكل ماهنا لك انهم اعلنوا رفضهم للإسلام واستهزءوا به وبالأنبياء والقرآن، وادعى بعضهم النبوة صراحة وادعى آخرون الألوهية، وأعلن بعضهم شرعاً جديداً ينفى الأسلام ويحقق لهم إنحلالهم العقائدى والخلقى..

٥ـ إلا أن هذه المرحلة لم يكتب لها الاستمرار ، فليست إلا فترة زمنية محددة أتت بعد مرحلة ابن عربى وانهتها. وذلك لأكثر من سبب:

أ) ففى التاريخ العقائدى للتصوف لاتبدأ بالإجهاز التام على سابقتها.. وانما تبقى بعض ملامح الفترة السابقة وتكون الملامح الجديدة أوضح وأصرح ..ذلك أن العقيدة الصوفية قاسم مشترك فى المراحل الثلاث، فالجنيد قال بوحدة الوجود وتابعه الغزالى ثم أعلنها ابن عربى فالذى اختلف بينهم هو الأسلوب، والفارق هو فى نفاق الجنيد والغزالى وصراحة ابن عربى..

البيعة نكداً، وذلك أن رأس القديس مرقس الإنجيلي كان في دار أبو يحيى زكريا الذى قدمنا ذكره، فلما مرض واشتد وجعه جا إلى والدى عشرة من النصارى وهم جبريل ابن قزمان وسيمون القس الذى صار أسقف تنيس وأخوه حسون الشماس وأبو الخير مطروح وسرور ابن مطروح ومن معهم، وقالوا له: الشيخ أبو يحيى زكريا قد اشتد وجعه وهو متعلق بخدمة القايد الاجل عز الدولة معضاد الأستاذ، ونخاف أن يموت فيقبض على داره وما

اليهودى التى امتدت من خلافة الظاهر لاعزاز دين الله حتى خلافة المستنصر بالله. ويرجع السبب في ذلك إلى أن ام الخليفة المستنصر كانت ملكاً للتسترى ثم أهداها للخليفة الظاهر فأنجبت منه ابنه أبا تميم معد الذى ولى الخلافة بعده وتلقب بالمستنصر. وقد ساعدت الاحداث ابو منصور صدقة على التخلص من التسترى عندما اشاع أن التسترى دس السم لعزيز الدولة ريحان القائد التركى مما أدى إلى قتله على يد

وقد يأتي في المرحلة التالية (مرحلة ابن عربي) من يتمسك بأسلوب الجنيد والغزالي كما فعل الشعراني الذى قال(بوحدة الوجود)مع تنزيهه لابن عربي ودفاعه عن الطريق الصوفي.. إلا أنه مع ذلك يبقى الصوت العالي لابن عربي وتلاميذه في مرحلته وبنفوذهم أخمدت حركات الفقهاء..

ب) عايشت هذه المرحلة (رفض الإسلام صراحة) العصر المملوكي وهو عصر التصوف الاتحادى واتباع ابن عربي.. ومع أن اتباع المرحلة الجديدة كانوا صوفية اتحاديين استفادوا بالتصوف وعقيدته إلا أنهم وجدوا الإنكار ليسَ من الفقهاء فقط ولكن من الصوفية العاديين أيضاً وبعض الحكام.. ويرجع السبب في ذلك إلى الأنكار على أسلوبهم الذى يهدف إلى التحلل المطلق من الإسلام شكلاً وموضوعاً.. وذلك الأسلوب لايقول به ابن عربي رغم التعارض التام بين وحدة الوجود والإسلام.. فان ابن عربي حرص على الشكل الإسلامي وحاول أن يجد لعقيدته أصلاً في القرن الكريم إلى درجة أنه قام بتفسير القرآن الكريم ليوافق عقيدته، وأكثر من الاستشهاد بالأحاديث الموضوعة لأنه رأى أن الأسلوب الأمثل لايكون بإعلان رفض الإسلام صراحة،وأنما باستخدام اسم الإسلام وهيكله لحماية عقيدة الصوفية والباسها الثوب الإسلامي، وتذويب الفوارق بينها بتأويل القرآن ووضع الأحاديث الباطلة.. وليس غريباً بعد هذا أن يكون العصر المملوكي عصر الأحاديث الزائفة الذائعة الصيت والمتداولة حتى الآن..

نأمن على راس القديس الذى هى عنده. فمضى معهم إلى الرجل فوجدوه ينازع فأخذوا الصندوق الذى فيه الراس وحملوه إلى دار جبريل ابن قزمان لأن داره كانت قريبة من دار أبو يحيى، فلما كان بالليل حملوه إلى دار والدى التى كنا نسكنها وقالوا له : خفنا أن نجعله بحيث نقلناه إليه لقربه من دار الشيخ أبو يحى زخريا لأنه قد مات الساعة فاجعله عندك، فوقف والدى فى الدهليز وحلف

بعض الجند الاتراك. ولكن أم الخليفة سعت إلى الانتقام من الفلاحى حتى أزالته من الوزارة ثم قتل فى اوائل سنة ٤٤٠هـ= ١٠٤٨م.

وهكذا رأى الصوفية فى العصر المملوكى الخطر كله فى أصحاب الحركة الصوفية الجديدة، فاضطهدوهم مع الفقهاء، كما فعل الشعرانى حين طالب برؤوس الاتحادية المعاصرين له حماية للطريق الصوفى.

جـ) إن المجتمع المملوكى استراح لفكرة المواءمة بين التصوف والاسلام التى قال بها الغزالى واستمرت بعده ليحافظ عليها ابن عربى مع صراحته فى إعلان عقيدته.. ومع دخول العصر المملوكى فى مرحلة التقديس للأشياخ الصوفية وسيطرة التصوف على الحياة العلمية ضعف المستوى العلمى والعقلى وآمن الناس بإشارات الصوفية فى (التفسير) وتخريجاتهم للأحاديث الموضوعة، وصار معلوماً لديهم من الدين بالضرورة أن مبدأ التصوف قرن للإسلام فالخروج على الأسلام خروج على التصوف .. فلاقى أصحابنا اضطهاد الفريقين (الصوفية والفقهاء) حين حاولوا نبذ الإسلام صراحة..

د) ثم إن ثورات الفقهاء وإنكارهم على اتباع ابن عربى ونحلته لم تنقطع.. رغم أنه لم يرفض الإسلام شكلاً واسماً.. حتى ظهر الشعرانى فى أواخر العصر يعيد سيرة الغزالى فى اصطناع الاعتدال والهجوم على أوباش الصوفية.. وطبيعى أن يتحرج الصوفية من ظهور الدعاة الجدد الرامين لنبذ الإسلام مطلقا خوفاً من أن يتعرض التصوف.. من اساسه لإنكار الفقهاء المتحمسين. ذلك أن الدعاة الجدد صوفية اتحاديون استفادوا بالحرية الدينية (الفوضى الدينية) ودعم السلطات التركية الحاكمة التى كانت فى غالبية أفرادها رقيق مجلوب من

٦٦: انبا اخرسطودلوس ١٠٤٦ / ١٠٧٧م

أنه لا يدخل داره خوفاً من السلطان لأنه كان قد لقى قبل ذلك مصادرة وغرامة وأمور صعبة، فأخذه سرور ابن مطروح ومضى به إلى داره وكانت مقابلة الدار المذكورة، فقال له القس سيمون الذى صار الآن أسقفاً على تنيس: أنا أنقله من عندك إلى عندى وأخدمه أنا وأخى.ومضوا وأخذوه. وكان باسكندرية رجل من مدينة برقه يسمى على ابن بشير فكتب للقايد الاجل معضاد الدولة بصفة

مراعى وسط آسيا لا يعرف سوى الديانات البدائية البسيطة ويحنّ إليها، وقالوا بالشطحات مثلهم فى ذلك مثل الصوفية الأخرين.. فبادر الصوفية للإنكار عليهم وإ علان البراءة منهم ليسحبوا البساط من تحت أقدام الفقهاء..

٦ـ وهكذا.. بدأت المرحلة الأخيرة وانتهت فى العصر المملوكى، لاكمرحلة زمنية وانما كمرحلة موضوعية منطقية فى تاريخ العقيدة الصوفية لم يكتب لها الاستمرار، لأن الظروف التاريخية لم تكن صالحة لاستمرارها.. وعلى ذلك يمكننا أن نعتبر العصر المملوكى – وهو العصر الذهبى للتصوف ـ قد حفل بجميع التيارات الصوفية المعبرة عن العقيدة الصوفية فى مراحلها الثلاث:

(فالجنيد) الذى نافق لينجو من الاضطهاد تابعة فى العصر المملوكى أحمد الزاهد ولقبه (جنيد القوم..) و(الغزالى) الذى وفق بين الأسلام والتصوف نهج طريقة (الشعرانى)..و(ابن عربى) الذى صرح وأعلن عقيدته سار على طريقة الكثيرون (كالتلمسانى والمنجى واليافعى وزكريا الأنصارى ومحمد الصوفى)ثم أشياخ الطرق الصوفية (البدوى والشاذلى والدسوقى..)..

والمتحللون من الإسلام فى العصر المملوكى أبرزهم الباجريقى والبقفى وابن اللبان وآخرون.. وكلهم بدءوا بالشطح الصوفى..

الحال فوصل الأمر بالقبض على والدى والجماعة الذين كانوا معه، وكان والى اسكندرية يوميذ كوكب الدولة البشالى [البشتالى] فأحضرهم وقال لهم: أريد رأس مرقس وعشرة ألف دينار كانت معها، وهذا كتاب السلطان قد وصلنى بمطالبتكم بذلك. وقدم حسون الشماس وقال له: تريد أضربك بالسياط حتى تحضر ذلك. فقال: لا ما أريد. فضحك منه وخلاه. وحمل والدى إلى

الشطح الصوفى فى العصر المملوكى

طريقة لنبذ الإسلام

١- أتاح الشطح الفرصة الكاملة لكل الصوفية - على اختلاف طرائقهم - فى أن يقولوا ما شاءوا.. وتاريخ الشطح هو تاريخ التصوف.. إذ بدأ التصوف بإعلان عقيدته فيما اعتبر شطحاً.. وقد أودى الشطح بحياة بعض الصوفية الأوائل وأشهرهم الحلاج، وبه اضطهد الآخرون بسبب (كلمات)لهم قيلت فتعرضوا للنفى والطرد والمحاكمات..

٢- وبتقرير تدين التصوف في العصر المملوكى لم يعد الشكل الإسلامى حائلاً للصوفية عن قول الشطحات المنافية للإسلام.. بل على العكس أصبح الشطح من سمات العقيدة الصوفية حتى لدى شيوخ التوفيق بين الإسلام والتصوف كالشعرانى، فيقول عن العارفين (منهم من تهب على قلبه نفحات إلهية لو نطقوا بها كفرهم المؤمن)[١]. فالشطح أصبح عند الشعرانى (نفحة الاهية).. وازدهرت طرائف المجاذيب فى العصر المملوكى ولهم مطلق الحرية فى القول والفعل، فالمجذوب (لا يطالب بأدب من الأداب .. مع وجود الكشف - (علم الغيب) - وبقائه عليه)[٢]. أى أن المجذوب لايسأل عما يفعل ومهما قال فهو متمتع بعلم الغيب مع أنه لايعلم الغيب إلا الله تعالى.

(١) الجواهر والدرر: ٢٧٥.

(٢) اليواقيت والجواهر ١٥٤.

مصر دون الجماعة، وطالبه معضاد الدولة بعشرة ألف دينار وقال: أريد راس مرقس لأن ابن بشير المذكور كتب إليه بأن الروم يدفعوا له فيه عشرة ألف دينار. فقال له والدى: ما رأيته ولا أخذته وهو ذا أنا بين يديك. فاعتقله. وعلم والدى والجماعة أن هذا ناله بسبب أنه لم يأخذه ورده من باب داره. فأقام معتقل سبعة وثلثين يوماً. وكان سجان الحبس رجل مسلم اسمه بركات [قال] لوالدى

٣- وأصبح الشطح من لوازم الولى الصوفى يحفظ عنه ويكتب فى ترجمتة وإذا حدث وشذ صوفى عن هذه القاعدة قيل عنه (لم يحفظ عنه شطح)كما فى ترجمة المرشدى ت ٧٣٧(١)..

ويزداد التقدير والتقديس للصوفى المجذوب إذ بالغ فى شطحه كما قال أبو المحاسن فى ترجمة السطوحى ت ٨٦٥ المجذوب (إذا بدأ فى الشطح يتغير كلامه كله بالسفه والإساءة المفرطة الفاحشة بغير سبب، رحمه الله ونفعنا ببركة أوليائه)(٢).

٤ـ وتوصف الشطحات بالكثرة كما ورد فى ترجمة الشعرانى لعبد القادر السبكى إذ قال عنه.. كثير الشطح)(٣). وأحمد الكعكى يقول عنه الشعرانى(وكان كثير الشطح تبعاً لشيخه محمد الكعكى.. حتى كان لا يقدر على صحبته كل أحد)(٤). وقد قال عن أبى السعود الجارحى (وكان رضى الله عنه له شطحات عظيمة..(٥) فوصف شطحه بالعظمة.. وقد كان أولئك معاصرين للشعرانى.

ويقول المناوى فى ترجمة الشيخ عبيد(كانت له خوارق مدهشة، وشطحات موحشة، وكان

(١) أعيان العصر مخطوط ٦، ١، ٤٧. (٢) حوادث الدهور ٥٦٥.
(٣)، (٤) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/ ١٦٦، ١٦٧، ١١٧ على الترتيب.
(٥) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/ ١٦٦، ١٦٧، ١١٧ على الترتيب.

صبيحة اليوم السابع والثلثين: يا شيخ أبو الفتح رأيت الساعة إنسان شاب بلحية سودا على جبينه ضربة وقف على هذا الباب وهو يقول: «ياأبوالفتح ابن مفرج أنا مرقس الإنجيلى فقد ربحت نفسك بصبرك وكلام آخر غير هذا ما فهمته «وخذ هذه تتخلص» ورمى لك من يده اليمنى حصاة لها ثلثة اروس [رؤوس] وقال إلى ثلثة أيام تتخلص . فقال له والدى: ايتنى بضو حتى أبصر ما قلت. فأتاه

مثقوب اللسان لكثرة ما ينطق به من الشطح الذى لايمكن تأويله)(١). فلم يمنع وصفه للشطحات من وصف صاحبها بالخوارق والكرامات..

٥- وفى إطار الشطحات انعدم الفارق بين الصوفى الاتحادى وأخيه الذى يعلن رفض الإسلام، طالما أن الاتحادى يدعى أنه فى حالة (وجد) أى (قوى عليه الحال) وحينئذ يباح له أن يقول ما يقول.. وقد أورد الشعرانى طائفة من الشطحات فى معرض فخره بأشياخه الصوفية لاتختلف عن أقاويل الرافضين للإسلام..

أ) منها ما استهدف الاستهزاء ببيوت الله بالقول والفعل، كما قال فى ترجمة الشيخ إبراهيم العريان(كان رضى الله عنه يطلع المنبر ويخطب عرياناً فيقول:«السلطان ودمياط وباب اللوق وبين القصرين وجامع طيلون الحمد لله رب العالمين»فيحصل للناس بسط عظيم)(وكان رضى الله إذ صحا يتكلم بكلام حلو)(٢).. فصاحبنا المجذوب يتمتع بتأييد الناس حتى أنه (يحصل للناس بسط عظيم).

ب) وبعضهم كان يجد مجال الاستهزاء فى القرآن الكريم كشعبان المجذوب، يقول فيه الشعرانى (كان يقرأ سوراً غير السور التى فى القرآن على كراسى المساجد يوم الجمعة وغيرها

(١) الطبقات الكبرى للمناوى مخطوط ورقة ٣٥٥ (ب).
(٢) الطبقات الكبرى جـ٢/ ١٢٩.

الضـو لأنه كـان سـجن مظلم فـوجـد الحـصـاة مطروحة قدامه فأخذها وتأملها وقبلها وشدها على ذراعه ورأيتـها أنا واخـوتى بعد أن تخلص وكـانت فى منديل كمه باقية إلى حين وفاته فلما توفى لم نجدها، وبعد نظر السجان لهذا المنام بثلثة أيام انفذ مـعـضـاد الدولة وأحـضـر والدى وقـرر حـاله على خمس ماية دينار سوى ماية دينار أخرى لأصحابه لتمام سـتماية دينار، وقام بها وأفرج عنه، ووصل

فلا ينكر عليه أحد. وكان العامى يظنها من القرآن الكريم لشبهها بالآيات فى الفواصل. وقد سمعته مرة يقرأ على بابا دار(على طريقة الفقهاء الذين يقرأون فى البيوت) فصغيت إلى ما يقول فسمعته يقول:«وما أنتم فى تصديق هود بصادقين.. ولقد أرسل الله لنا قوماً بالمؤتفكات يضربون ويأخذون أموالنا وما لنا من ناصر ين»ثم قال اللهم اجعل ثواب ما قرأناه من الكلام العزيز فى صحائف فلان وفلان إلى آخر ما قال.. وكانت الخلائق تعتقده اعتقاداً زائداً، لم اسمع قط أحداً ينكر عليه شيئاً من حاله، بل يعدون رؤيته عيداً عندهم)[1]. أى تنزه بجذبته عن الإنكار، حتى أن الشعرانى يقول عن تخريفاته أنه(كان يقرأ سوراً غير السور التى فى القرآن) فجعلها (سوراً قرآنية)..

ج) وبعضهم كان يسب الأنبياء كالشيخ محمد الخضرى، وقد ترجم له الشعرانى فقال(كان يتكلم بالغر ائب والعجائب من دقائق العلوم والمعار ف ما دام صاحياً، فإذا قوى عليه الحال تكلم بألفاظ لايطيق أحد سماعها فى حق الأنبياء وغيرهم..» وأخبرنى الشيخ أبو الفضل السرسى أنه جاءهم يوم الجمعة فسألوه الخطبة فقال بسم الله فطلع المنبر فحمد الله واثنى عليه مجده ثم قال: «واشهد أن لاإله لكم إلا إبليس عليه الصلاة والسلام» فقال الناس: كفر فسل السيف ونزل فهرب الناس كلهم من الجامع فجلس عند المنبر إلى أذان العصر وما

(١) الطبقات الكبرى جـ٢/ ١٦٧ : ١٦٨.

إلينا إلى اسكندرية وأخذ الراس وقبلها كانه لم يصيبه شي. وكان من جملة الشهود المعدلين [العدول] بمصر رجل مقدم فيهم يعرف بالقاضى أبو الحسين عبد الوهاب ابن على السيراقى [السيرافى] واصرف [عزل] من خدمة كان يتولاها بمصر واستخدم قاضياً ومشارفاً بمدينة اسكندرية واصرف منها واستخدم فى عدة خدم بالريف، وكان يبغض النصارى فمضى بعض الأيام إلى دمرو فلم يوفيه البطرك حقه فداخله إبليس خزاه

تجرأ أحد أن يدخل)(١). ويحس القارئ نبرة الفخر فى حديث الشعرانى عن ذلك الخضرى حين هدد المنكرين عليه بالسيف فهربوا.. ويعنينا أن نذكر أن الخضرى المتوفى ٨٩٧ كان من أصحاب الاتحاد العارفين بدقائق العلوم والمعارف ولم يجد لعقيدته مجالاً إلا فى ادعاء الجذب الوقتى أو بتعبير الشعرانى (فإذا قوى عليه الحال تكلم بالألفاظ لايطيق أحد سماعها فى حق الأنبياء وغيرهم..).

٦ـ ويذكر أن بداية العصر المملوكى ووسطه شهدا عقد المحاكمات لأصحاب الدعوات المتطرفة الذين وقعوا فى سب الأنبياء تبعاً لغرضهم فى التحلل من الإسلام والشرائع الإلهية..

ففى عام ٨١٣(رفع للقاضى الشافعى أن شخصا يقال له أبو بكر المغزو يدعى المشيخة ويتكلم على الناس ويقول: الأنبياء عر ايا عن العلم لقوله تعالى:«سبحانك لا علم لنا» ونحو ذلك من الأشياء الشنيعة، فمنعه القاضى عن الكلام بعد أن عزره بالقول)(٢).

وفى عام ٨٤٤(عقد مجلس حكم بإراقة دم على أخى قطلوبغا لأنه يثبت عليه أنه سب الآنبياء وأفحش وذلك بالتركية والعربية)(٣). وتأثر بعض القضاه بهذا الجو ففى نفس العام

(١) الطبقات الكبرى جـ٢/ ٩٧: ٩٨، ونقل ذلك فى أخبار القرن العاشر مخطوط: ٥٧.
(٢) إنباء الغمر لابن حجر جـ٣/ ٢٢٦.
(٣) إنباء الغمر مخطوط ١٢٨: ١١٣١، ١١٣٩ بالترتيب.

الله وحسن له أن كتب إلى الوزير اليازورى وقال له فى حق البطرك أقوال كثيرة وان هذه دمرو هى القسطنطينية الثانية وفيها سبعة عشر بيعة أكثرها مستجد وأنه قد استجد فى غيرها من النواحي بيع كثير. وإن هذا الموضع قد عمر فيه موضع لسكناه ونقش على بابه الكفر واهان الإسلام واهله. واشار عليه أن يغلق البيع كلها ويهدم ما استجد منها ويقطع عليها مالا. فأجابه الوزير إلى ذلك وكتب

الدوسة بمرور شيخ الطريقة السعدية على المريدين لينالوا البركة

٨٤٤(طلب قاضى دمشق الحنفي بالقاهرة بسبب ما نقل أنه سئل عن الحكمة فى طواف النبى (ص) على النساء فى ليلة واحدة، فأجاب بأنه فعل ذلك ليعفهن عن الزنا. فأغرمه السلطان مائتى دينار)(١).

وفى القرن التاسع ازداد التصوف وتكاثرت طبقة المجاذيب الصوفية، والمجذوب (لايطالب بأدب من الآداب) فلم يطالبوا بالآداب طالما فى حالة جذب.. بينما تعقد المحاكمات لغيرهم.. وهكذا أصبح ادعاء الجذب غطاء لأصحاب الدعوات المتطرفة يتخلصون به من المحاكمات..

ويلفت النظر إلى أنه فى القرن العاشر ـ عصر المجاذيب الذين ذكرهم الشعرانى ـ عقدت محاكمة سنة ٩١٣ لعمر بن علاء الدين الحنفى وكان خطيباً بأحد الجوامع لأنه (وقع فى حق سيدنا ابراهيم، فاستتابه أحد القضاة وحكم بحقن دمه، فتعصب السلطان الغورى للخليل ابراهيم، وصمم على ضرب عنق الخطيب، وجمع القضاة والعلماء وتباحثوا، وبعد تشاجر انفصل المجلس على سجنه حتى يتوب، والسلطان مصمم على قتله فسجن..) والغورى الذى صمم على قتل ذلك الخطيب الفقيه المتأثر بالتصوف هو نفسه الغورى الذى يعتقد فى الصوفية إلى درجة تقبيل أيديهم كما فعل بالصوفى المجذوب ابن عنان على مرأى من الشعرانى(٢).

(١) إنباء الغمر مخطوط ١٢٨ : ١١٣١، ١١٣٩ بالترتيب.
(٢) قواعد الصوفية جـ١/ ١٩ تحقيق طه سرور طـ١.

إليه بأن يكشف عما تضمنه كتابه بالشهود العدول فركب في جماعة من الشهود المستخدمين وجآ إلى دمـــــرو ودخل إلى منزل البطرك انبـــــا اخرسطودلوس فوجد عليه منقوش باسم الاب والابن والروح القدس الاله الواحد فكشطه من الباب، فقال له البطرك: إذا كشطته من على الباب تقدر تكشطه من قلبي. فتعجبو الحاضرين من قوة نفسه وجودة كلامه.

الدوسة أو الوطء بحوافر فرس أحد مشايخ الطريقة السعدية على بعض الأتباع، ويتحلمونه راضين تلمساً للبركة

فالفارق بين المجذوب والصوفي المتطرف أن الأول يدعى الجذب في قوله للشطح ويتمتع بالتقديس، إما الأخير فيقوله بصراحة وبلا ادعاء، ويتعرض للمحاكمة أحياناً.

٧ـ وهناك عامل آخر يذهب من الفوارق بين الصوفية العاديين وأصحاب الدعوات المتطرفة الرامين للتحلل من الإسلام وذلك فيما قاله أساطين الاتحاد من عبارات شطحية مقصودة تعبر عن عقيدة (وحدة الوجود) بكل وضوح وصراحة مستغلين جو الحرية الذى يتيح للصوفى أن يقول ما يشاء طبقاً لمبدأ الشطح..

فقد قيل فى ترجمة عفيف الدين التلمساني (٦٩٠) تلميذ ابن عربى أنه (نسبت إليه عظائم فى الأقوال والأفعال والاعتقاد فى الحلول والاتحاد والزندقة والكفر المحض، هذا مع أنه عمل أربعين خلوة كل خلوة أربعين يوماً متتالية)[١]. وأنه (لايحرم فرجاً وان عنده ما ثم (أى ليس هناك) غير ولاسوى (أى لايوجد غير الله ولاسواه فالله هو كل شئ) بوجه من الوجه، وان العبد إنما يشهد السوى(أى لايوحد غير الله من العالم) إذا كان محجوباً، فإذا انكشف حجابه ورأى أن ما ثم غيره (أى غير الله) تبين له الأمر، ولهذا كان يقول«نكاح الأم والبنت والأجنبيه واحد »«وأنما هؤلاء المحجوبون قالوا: حرام علينا فقلنا حرام عليك»[٢].. وقال عنه

(١) تاريخ ابن كثير جـ١٣/ ٣٢٦.

(٢) شذرات الذهب جـ٥/ ٤١٢.

وبعد هذا أمر الوزير اليازورى أن تغلق البيع فى جميع كورة مصر وكان المساعد على هذا عند الوزير اليازورى رجل يعرف بأبى الفرج البابلى من مقدمى الدولة أصحاب الدواوين وكان ناصر الدولة ابن حمدان والى السيارتين [المقاطعتين] بالريف الشرقية والغربية فأغلق البيع وأخذ البطرك والاساقفة فطالبهم بالمال وذلك فى سنة سبع مايه ثلثة وسبعين للشهد، وكان انبا اخرسطودلوس لما صار بطركاً يقول لمن صيره أسقفاً هذه الكراسى

ابن تيمية (هو من حذاق القائلين بالاتحاد علماً ومعرفة، وكان يظهر المذهب بالفعل فيشرب الخمر ويأتى المحرمات، وحدثنى الثقة إنه قرئ عليه فصوص الحكم لابن عربى وكان يظنه من كلام أولياء الله العارفين فلما قلت له: هذا الكلام يخالف القرآن فقال: القرآن كله شرك وإنما التوحيد في كلامنا. وكان يقول: ثبت عندنا في الكشف ما يخالف صريح المعقول، وحدثنى عن من كان معه آخر نظير له فمرا على كلب أجرب ميت بالطريق فقال له رفيقه: هذا إيضا هو ذات الله؟ فقال : وهل ثم (هناك) شئ خارج عنها؟ نعم الجميع فى ذاته)(١)..

فالتلمساني حلقة وصل ضرورية بين ابن عربى والصوفية الرافضين للإسلام.. ولم يعدم العصر المملوكى من وجود تلامذه للتلمسانى (قال أحدهم لرفيقه ـ وكان يمشى فى الاسكندرية ـ إن الله تعالى هو عين كل شئ، فمر بهما حمار فقال: وهذا الحمار؟ فقال: وهذا الحمار!! فروّث الحمار من دبره فقال له: وهذا الروث ؟ فقال : وهذا الروث!!)، وهذه قصة حقيقية وقعت فى القرن التاسع(٢)..

٨ـ وجدير بالذكر أن بعض عتاة الجاهلين استهزأ بيوم القيامة وأعلن أنه سيعطى فى الآخرة

(١) مجموعة الرسائل والمسائل جـ١/ ١٤٥.
(٢) تاريخ البقاعى مخطوط : ١٢٣.

هى لمرقـ[س الإنجيلى] وهذا الكرسى الذى أصيرك عليه أسقفاً يكون النصف منه لمارى مرقس البشير والنصف لك فـاقـرضنى عن النصف الذى لمارى مرقس البشير كذا وكذا و اجبى [أجمع] أنت إلى أن تستوفى قرضك، وبعد هذا مهما حصل فى الكرسى احمل النصف الذى فيه لمارى مرقس إلى القلايه. فحصل له من جماعة صيرهم أساقفة مالا كثيراً من جملتهم مرقس الكاتب المعروف بابن الظالم أخـذ منه ألف دينار قـرضـاً على نصف

كما أعطى فى الدنيا المال والولد، واعتبر القرآن مقالته إثماً بالغاً يستحق مزيد العذاب، مع أن ما قاله لا يقاس بأى حال بشطح أى صوفى مهما بلغ اعتداله.

والمشركون السابقون لم يقولوا كالصوفية(واشهد أن لا إله لكم إلا إبليس عليه الصلاة والسلام ـ إو أن النجاسة والكلاب الميتة والحمير والورث هى عين الله).. وكل ما هنالك أنهم قالوا بأن الله اتخذ ولداً واعتبره القرآن هذا القول كفراً ، ولكنه لايمكن أن يقارن بأقاويل الصوفية السابقة..

فأين هذا من ذلك القائل(طاعتك لى يارب اعظم من طاعتى لك ـ بطشى اشد من بشطك، لأن ترانى مرة خير لك من أن ترى الله ألف مرة..).

الصوفية رافضو الإسلام شيوخ

المرحلة الثالثة

• فى القرن الثامن:

شهد القرن الثامن حركة ابن تيمية الداعية لتمسك الصوفية بطريق الجنيد المعتدل الذى ظن ابن تيمية أنه ملتزم بالأسلام. وقد أحدثت حركة ابن تيمية رد فعل مضاد على الجانب الصوفى المتطرف الذى كان يتوق للتحرر من الشكل الرسمى الإسلامى، فظهرت حركات متفرقة تزعمها الباجريقى الصوفى فى القرن الثامن..

٦٦: انبا اخرسطودلوس ١٠٤٦ / ١٠٧٧م

الكرسي وصيره أسقفاً على كرسي سمنود، وكان يفعل هذا حتى لا يقال أنه ياخذ شرطونيه ويعتقد أنه مخلصاً من الله، فلما قبض عليه ناصر الدولة [الحمداني](*) كما قلنا بدياً وقرر عليه وعلى الأساقفة وجميع النصارى سبعين ألف دينار، فنال النصارى من ذلك ومن غلق كنايسهم ضيق شديد وصعوبة شديدة.

ثم بعد هذا خرج إنسان إلى الريف يعرف بابن

(*) ناصر الدوله الحمداني: ت ٤٦٥هـ = ١٠٧٤م
الحسن بن الحسين بن حمدان التغلبي، أبو محمد. ناصر الدوله. آخر امراء آل حمدان ملوك حلب. كان أمير دمشق وعزله عنها المستنصر بالله الفاطمي سنة ٤٤٠هـ وقبض عليه وأرسله الى مصر فجمع حوله الانصار

***الباجريقي:**

استحوذ الباجريقي(محمد بن جمال الدين) (ت ٧٢٤) على اهتمام المصادر التاريخية.. وقد كان في الأصل فقيهاً بالمدراس ثم تصوف وصحب الفقراء وصار له اتباع، غير أنه كان يتفوه بالعظائم مثل أن الأنبياء والرسل طولت على الأمم الطريق إلى الله، وأنه بإمكانه أن يوصلهم إلى الله بأسرع من الرسل (وقد حكم القاضي المالكي بضرب عنقه مرة بعد أخرى لثبوت أمور فظيعة وكلمات شيعة فتغيب عن دمشق وأقام بمصر بالجامع الأزهر وتردد إليه جماعة، وكان الشيخ صدر الدين يتردد إليه ويبهت في وجهه ويجلس بين يديه.. وكان له قوة تأثير، وشهد عليه أيضاً بما ابيح دمه منهم الشيخ مجد الدين التونسي فسافر إلى العراق ثم سعى أخوه بحماه حتى حكم الحنبلي بعصمة دمه فغضب المالكي وجدد الحكم بقتله)(١).

*** اتباع الباجريقي:**

وقد طوف الباجريقي بدعوته في مصر والشام والعراق واجتمع عليه الأشياع وكان نصيبهم مثله المحاكمات والاضطهاد ، يقول ابن الوردى وأبو الفدا في حوادث سنة ٧٤١ (وفيها ضربت

(١) النويرى: نهاية الأرب مخطوط جـ٣٠/ ٢٦ ، فتوح النصر مخطوط جـ٢/ ٢٠٩ ، أعيان العصر مخطوط جـ٦ ، ١ ، ٢ ، ٢٤ : ٢٧ دول الإسلام للذهبي جـ٢/ ١٧٧ ، السلوك جـ٢/ ١// ٤ ، الدرر الكامنة جـ٤/ ١٢ : ١٤ ، ١٣٠ : ١٣٢ ، شذرات الذهب جـ٦/ ٦٤ : ٦٥.

القايد الرحيم بسجل إلى ناصر الدولة ابن حمدان [الحمدانى] بأنه قد جعل له جباية الجوالى [الجزية وغيرها] بالريف، وكان رجل سو كثير الشر جداً مبغض للنصارى فأصابهم منه هوان عظيم وصعوبة، فلما كان فى بعض الأيام ركب مهرة محرومة [شرسه] وكانت له، فلما صارت رجله فى الركاب وثبت فوقع على الارض وبقيت رجله فى الركاب ولم تزل تجرى وترفصه إلى أن مات، ولما

وقاتل المستنصر فانهزم الحمدانى إلى اسكندرية. ثم عاد وحاصر القاهرة فصالحه المستنصر على أن يكون له تدبير الامور والعسكر فتمكن الحمدانى من المستنصر ورتب له مئة دينار فى اليوم وتلقب بأمير الجيوش ثم قتل على يد مماليكه بمنزله على النيل.

عنق عثمان الزنديق بدمشق على الإلحاد والباجريقية، سمع من الزندقة ما لم يسمع من غيره)[1]، ومعنى ذلك أن (الباجريقية) أصبحت طريقة صوفية تعنى التحلل الصريح من الأسلام وإعلان الزندقة.

ومن أتباعه كان ابن المرحل(ت٧١٦) يقول فيه المقريزى إنه درس فى الزاوية بجامع عمرو وكان ممن اتهم فى دينه كالباجريقى والطوفى ، وقد تعارضت آراؤه مع ابن تيمية[2]. وقيل فى ترجمة ناصر الدين أبى الفضل المقتول سنة ٧٢٦أنه (اجتمع بمحلولى العقيدة مثل ابن المعمار والباجريقى والنجم بن خلكان وغيرهم، فانحلت عقيدته وتزندق من غير علم، فشهد عليه فهرب إلى بلاد الروم، ثم قدم حلب واجتمع بابن الزملكانى فأكرمه واستتابه، ثم ظهر منه زندقة عظيمة فسيره إلى دمشق فضربت عنقه)[3].

والنجم ابن خلكان سالف الذكر كان(ابن أخى قاضى القضاة شمس الدين ابن خلكان، وقد ولى القضاء بعض البلاد الشامية، ونسب إلى انحلال فى العقيدة فانقطع رزقه ومقت، فسافر للديار المصرية؛ وقعد مع الشهود حتى مات ٧٦٢)، ومعنى ذلك أن مصر كانت ملجأ

(١) تاريخ أبو الفدا جـ٤/ ١٣٧، تاريخ ابن الوردى جـ٢/ ٣٣٠.
(٢) السلوك جـ٢/ ١/ ١٦٧، حاشية ١٦٧: ١٦٨.
(٣) شذرات الذهب جـ٦/ ٧٤: ٧٥.

دفن رجم قبره بالطوب عدة أيام حتى صار كوم.

ثم أن المستنصر بالله سخط على اليازورى وأمر بنفيه إلى تنيس ثم أمر بقتله هناك، وتسلط على جسده رجل مجنون يجر[ه] بكعبه [من رجليه] وينزله في خرارة الحمام، حمام دنشورة بتنيس، ويشيله في نهاره عدة دفعات ويطوف به الشوارع.

ثم ظهر في السيرافي أعجوبة في نفسه عبرسو عظيمة، ولحقه مرض تحته ودب فيه الدود فكانوا

لمتطرفي الصوفية فقد وفد إليها الباجربقي.. ثم ابن خلكان بعد طردهما من الشام.. ويذكر أن ابن خلكان خدع السلطان أوهمه بمقدرته على عمل الطلسمات والسحر فلما طولب بالبرهان عجز، ومع ذلك ظل مصراً على دعواه[1].

وفي سنة ٧١٥قتل أحمد الرويس الاقباعي (لاستحلاله المحارم وتعرضه للنبوة، وكان له كشف واخبار عن المغيبات فضل به الجهلة، وكان يقول: أتاني النبي صلى الله عليه وسلم وحدثني، وكان يأكل الحشيشة ويترك الصلاة)[2].

* **ابن البقفي (أحمد بن محمد المصري) قيل في ترجمه في الدرر الكامنة:**

ادعى عليه ابن مخلوف المالكي بما يقتضي الانحلال واستحلال المحرمات والاستهزاء بالدين، وقامت عليه البينة فحبس، واعيدت عليه الدعوى فاعترف وصار يتلفظ بالشهادتين فلم يلتفت إليه، وحكم بقتله، وقد استجار بابن دقيق العيد فلم يلتفت إليه .. ويقال أن الشيخ المحندار سمع كلامه فقال له: «كأني بك وقد ضربت عنقك بين القرصين وبقي رأسك معلقاً بجلدة» فكان كذلك وكان يشطح ويتفوه بعظائم عن النبوة والتنزيل وتحليل المحرمات.

---

(١) الوافي بالوفيات جـ٣/ ٢٤٩: ٢٥٠، الفلاكة والمفلوكون للدلجي ٧١.
(٢) شذرات الذهب جـ٦/ ٣٥، اليافعي: مرآة الجنان جـ٤/ ٢٥٤.

يجعلوا تحته في كل يوم عدة أرطال من اللحم الطرى فيأكله الدود ولا يطل الأكل من جسمه، وهذه مكافاة الدنيا العاجلة ولقى صعوبة شديدة إلى أن مات موت سو.

ثم أن البابلى بعد القبض على اليازورى بسبعين يوماً قبض عليه واعتقل فى خزانة [سجن] البنود وكان ناصر الدولة يقول:هذا من عجايب النصارى ما نال ابن القايد الرحيم أولا ثم اليازورى وموت

ومما ينسب لابن البققى قوله عن نفسه (لوكان لصاحب المقامات حظ لكانت مقالاته تتلى فى المحاريب) وأنه كان يفطر فى نهار رمضان بغير عذر، وأنه كان يضع الرابعة (المصحف) تحت رجليه ويصعد فوقها يتناول حاجة له من الرف، ويقال أنه كان يستخف بالقاضى المالكى ويسبه ويطعن فيه وكان ذلك يبلغه ولايهيجه إلى أن أظفر بالمحضر المكتتب عليه فطلبه طلباً عنيفاً وادعى عليه عنده فانكر، فقامت البينه فأمر به فسجن ، وحكم المالكى بزندقته واراقة دمه، ونقل المحضر للقاضى لابن دقيق العيد فرفض قتل من ينطق بالشهادتين، فبلغ ذلك والى القاهرة ناصر الدين ابن الشجى، وكان يميل إلى ابن البققى فانتصر له وسعى فى نقله من المالكى إلى الشافعى، فأشير عليه بأن يكتب محضراً بأنه مجنون، فكتب فيه جماعة، وأحضره لابن دقيق العيد فقال: معاذ الله ما أعرفه إلاعاقلاً.

فقال المالكى: قد ثبت عندى كفره وزندقته فحكمت بإراقة دمه ووجب على ذلك.. فلما رأى السلطان انزعاجه قال: إن كان ولابد فليكن بمحضر الحكام. فأرسل إلى الوالى والحاجب وحضر القضاة الأربعة فتكلم المالكى بما حكم فوافقه الحنفى وقال:اقتلوه ودمه فى عنقى، فقتل)[1].

(١) الدرر الكامنة جـ٩/ ٣٢٩، تاريخ مصر المملوكية نشر زيترستين: ١٠٤ : ١٠٥ .

السيرافي واعتقال البابلي وكل واحد منهم أصيب في يوم جمعه مثل اليوم الذى أغلق فيه الكنايس، كذلك كان سنان الدولة ابن كابر والى مصر يقول أيضاً لأنه كان رجلا كتامي يحب النصارى، وكذلك الأمير المؤيد حصن الدولة أبو تراب حيدره ابن ميروا الكتامى(*) والى اسكندرية رحمه الله وغفر له كان محب للنصارى ويراعى كنايسهم، حتى أنه لما أمر اليازورى بغلق البيع أحضرني أنا

(*) الأمير المؤيد حصن الدولة ابو تراب حيدره بن ميروا الكتامى: ت ٤٥٥هـ = ١٠٦٣م.
هو: حيدره بن الحسين بن مفلح، أبو المكرم، المعروف بالمؤيد. من رجال المستنصر الفاطمى. أرسله أميراً على دمشق سنة ٤٤١هـ، فاستمر إلى سنة ٤٥٠ وعزله ثم اعاده سنة ٤٥٣ وعزله سنة ٤٥٥هـ.

أى أن قتل البقى يرجع إلى خصومته مع القاضى المالكى.. ولولا ذلك ما قتل. كما حدث لابن اللبان..

• ابن اللبان (شمس الدين محمد أبن أحمد بن المؤمن) (ت٧٤٩)..

كان صوفيا من أصحاب ياقوت العرش الشاذلى ت٧٣٧ قال فيه المقريزى (نسبت إليه عظائم منها أنه قال فى ميعاده بجامع مصر أن السجود للصنم غير محرم، وأنه يفضل الشيخ ياقوت العرش شيخه على بعض الصحابة، واستؤذن السلطان فمكن منه، فترامى على الأمير جنكلى بن البابا والأمير الحاج آل ملك والأمير ايدمر الخطير حتى حكم بتوبته، ومنع من الوعظ هو والشيخ زكى الدين بن معضاد الجعبرى وجماعه من الوعاظ)(١).

وكان القاضى الذى يحاكمه هو جلال الدين القزوينى..(٢) ويذكر ابن كثير أن كبار الصوفيه حضروا مع ابن اللبان للدفاع عنه، وهم شيخ الشيوخ مجد الدين الإقصرائى، وشهاب الدين الأصبهانى، وأنه قد ادعى عليه (بأشياء منكره من الحلول والاتحاد والغلو فى القرمطة وغير ذلك، فأقر ببعضها فحكم عليه بحقن دمه)(٣). وكان المدعى عليه ابن المغربى.. ومنع أهم أصحابه من الوعظ كابن الجعبرى والزركشى وجماعة آخرين(٤).

(١) السلوك جـ٢/ ٢/ ٤٠٨.
(٢) شذرات الذهب جـ٦/ ١٦٤.
(٣) تاريخ ابن كثير جـ١٤/ ١٧٧.
(٤) فتوح النصر مخطوط جـ٢/ ٢٧١.

الخاطي وخالي صدقه ابن سرور لأنا كنا نخدمه في مهماته وقال لنا: هذا كتاب الوزير اليازورى قد وصل بغلق البيع والقبض على جميع مالها ومطالبة جميع النصارى باسكندرية بعشرة ألف دينار ويجب أن تمضو الساعة وتنقلو جميع مافي بيعكم من آلات وكساوى وغيرها حتى تنظرو بعد هذا ما أفعله في غد ويكون هذا أمر مخفي(*). ففعلنا ذلك، فلما كان بالغداة جلس وأحضر القاضي والشهود ومتولي الترتيب وأظهر الكتاب

(*) موقف حصن الدولة والي اسكندرية المدعم للقبط والنصارى.

• ادعاء النبوة:

وعرف في القرن الثامن أيضاً صوفية ادعوا النبوة. وذلك قريب من القول بالاتحاد ويرى ابن خلدون إن الخروج عن الصراط أدى بأصحاب نظريات (الحلول) (والاتحاد) (والامتزاج)(والاتصال)(ووحدة الوجود)(والقطبي) (والإنسان الكامل)ـ أدى بهم إلى القول بأن النبوة ذاتها يمكن للإنسان اكتسابها والوصول إليها عن طريق الرياضة وصفاء القلب(١)..

وتأسيساً على ذلك حدث في عام ٧٨١ أن ادعى صوفي أنه محمد بن عبد الله النبي الأمي، وأن حروف القرآن الكريم تنطق له، وأن الذى يأتيه بالوحي جبريل وميكائيل واسرافيل وعزارائيل ورضوان ومالك ودردياتيل.. وأنه أرسل بقتل الكفرة، وقد قبض عليه وسجن بالمارستان متهماً بالجنون، وأفرج عنه بعد أن رجع عن مقالته(٢)..

وقيل في ترجمة وضاح الخياط أنه كان يصاحب الصوفية ويحترف الخياطة فأزله الشيطان فادعى النبوة، فسجن أياماً ثم استيب، وعزر فى ذلك، وأطلق سنة ٧٥٣(٣).

واستمر ادعاء النبوة إلى القرن التاسع فقد ادعى سنة ٨٢٤(شخص من عرب الصعيد

(١) شفاء السائل ٨٤: ٨٦.
(٢) السلوك جـ٣/ ١/ ٣٦٨: ٣٦٩. تاريخ ابن اياس جـ١/ ٢/ ٢٤٩.
(٣) الدرر الكامنة جـ٤/ ٤٠٧.

وأمرهم أن يمضو إلى البيع ويثبتو مافيها ويحتاطو عليه فمضو وعادو إليه باثبات ما وجدوه وهو حصير ومصيدة للفار فى كنيسة السطير المعروفة بالمخلص فقال: إذا كان هذا موجود فى كنايسهم وبيعتهم الكبيرة فكيف يكون حال هولا النصارى ومن أين لهم هذا المال الملتمس منهم، وقد صح عندى أنهم قوم مستورين ضعفآ لامال لهم. فأمر أن تغلق بيعنا وبيع الملكيين وكتب إلى الوزير بذلك. ولم يزل يردد رسله إليه [إلى] إن استقر

يقال له عرام النبوة، وزعم أنه رأى فاطمة الزهراء فى اليقظة فأخبرته عن أبيها، وإنه سيبعث بعده، فأطاعه ناس وخرج فى ناحيته، فقام عليه نجم الدين البكرى وسعى إلى أن قبض عليه، فضربه تعزيراً وحبسه وأهانه فرجع عن دعواه وتاب..)[(١)]..

ووصل طوفان الإلحاد إلى المماليك، فقالوا عن طوغان الشمسى ت٧٤١بأنه (ينسب إليه استهتار زائد وكلمات مؤذنة بالزندقة والانحلال..)[(٢)].

• الصعود للسماء:

وعرف القرن الثامن بوادر لإدعاء بعض الصوفية الصعود للسماء وتكليم البارى تعالى، يقول ابن اياس (ظهر بالقاهرة سنة ٧١٧شخص يدعى أنه يصعد للسماء ويكلم البارى جل شأنه فى كل يو م مرة، فاعتقده جماعه كثيرة من عوام مسلمى مصر، فلما شاع أمره بين الناس رسم السلطان بأن يعقدوا له مجلساً بالصالحية، فاجتمع هناك القضاة الأربعة، فأراد القاضى المالكى أن يثبت عليه الكفر فشهد جماعة من أهل الطب بأن فى عقله خللاً فسجنوه، ولم يثبت عليه الكفر..)[(٣)].

(١) إنباء الغمر جـ٣/ ٢٤٣.
(٢) الدرر الكامنة جـ٢/ ٣٢٩.
(٣) تاريخ ابن اياس جـ٢/ ٤.

الحـال على ألفى دينار فـأحـضـرنا وأوقـفنا على الكتاب فشكرناه ودعونا له. ثم شكونا له حالنا فى غلق البيع وانقطاع الدعآ له فى أوقات الصلوات والقداسات، فدفع لنا مفتاح كنيسة مارى جرجس [بالاسكندرية] التى كـانت قـديماً بيت انيـانوس [الاسكافى] أول البطاركـة وهو البـيت الذى دخله مارى مرقس البشير فى أول يوم دخل اسكندرية لما ثقب الشفا كف انيانوس وهو يوميذ اسكاف وابراه مـارى مـرقس واسـتـضـاف به فى البـيت. وقـال لنا:

أى أ ن العصر المملوكى يحتفظ لأولئك المدعين ببعض التصديق بدليل استجوابهم وقيام البعض بنصرتهم وادعـاء الجنون للتـخلص من القتل.. أمـا العامـة من المسلمين فـهم أسـرع للإستجابة والنصرة.. إلا أن القرن التاسع حفل بحوادث كثيرة من هذا النوع..

• القرن التاسع:

ـ طوائف الأعاجم:

توافد على مـصـر جمـاعـات من الصـوفية الزنادقة الاتحادية وملأوا طرقات القاهرة، وقد وصـفهم المقريزى بأنهم(يتحلون مذاهب الإلحاد، ويصـرحـون بتعطيل الصـانع تعالى، وينكرون شرائع الأنبياء، ويجهرون بإباحة المحرمات)(١). وقد قتل السلطان أحدهم بدافع سياسى لادينى قال فيـه المقريزى أنه (من سـقاط العجم قد ثبتت عليه ـ بشـهادة جماعة ـ قـوادح وعظائم أوجبت اراقة دمه شرعاً، وكان من جملة اشياع الأمير قرقماس المقتول، وتكلم فى السلطان وفى الأنبياء وغيرهم بما تعجل العقوبة)(٢)..

• الحروفية أو النسيمية:

وكان أولئك الصـوفية الأعاجم يشكلون حركات الزندقة الصوفية المعلنة فى القرن التاسع

---

(١)، (٢) السلوك جـ٤/ ٣، ١٢٦.

امضـو وافتحـو هذه الكنيـسة وصلـو فيهـا سـراً وادعـو لى فـدعـونا له وأخـذنا المفتـاح ومـضـينا جماعة إلى البيعة ولم نزل نعافر الباب من ثالث ساعة من النهار إلى التاسعة فبكينا وتضرعنا وقلنا: يارب قد عـرفنا أنك غلقتـها لاجل خطايانا واثامنا فـارحـمنا واعف عنا. فـانفـتح لنا البـاب فـدخلنا وقـدسنا وتقـربنا وأقـمنا هكذى حـتى قـسط علينا ألف دينار وعلى الملكيـة ألف دينار وحـملناها إليـه. وبعـد أيام أحـضـرنى أنا وأخى وخـالى وصـديق له

فى مصر وغيرها من البلاد المحيطة بها، وكان قدومها عادة إلى مصر، كما سبق لغيرها، عائد إلى التكايا الهائلة بها والتى كان يمنع على المصريين دخولها فى الوقت التى يصرف عليها من كدهم واموالهم، فهى كانت مخصصة لرعاع الترك مدعى الصوفية، وأهمها طائفة «الحروفية» أو «النسيمية»..

وترجع هذه الطائفة إلى الشيخ فضل الله التبريزى. يقول ابن حجر(أحد المتقشفين من المبتدعة، وكان من الاتحادية ثم ابتدع النحلة التى عرفت بالحروفية، فزعم أن الحروف هى عين الآدميين إلى خرافات كثيرة لاأصل لها، ودعا اللنك (تيمور لنك)إلى بدعته فأراد قتله، فبلغ ذلك ولده أمير زاده لأنه فر مستجيراً به فضرب عنقه بيده، فبلغ اللنك فاستدعى برأسه وجثته فأحرقهما فى هذه السنة، ونشأ من اتباعه واحد يلقب«نسيم الدين» فقتل بعد ذلك وسلخ جلده فى الدولة المؤيدية سنة ٨٢١)[١]..

وكان قتل التبريزى سنة ٨٠٤يقول ابن اياس سنة ٨٠٤جاءت الأخبار بأن تيمور قتل التبريزى الذى كان قاضيه، وكان على مذهب النسيمى)[٢] وقد أخطأ ابن اياس حين اعتبر الأستاذ على مذهب تابعه.. والسبب فى ذلك الخلط هو الشهرة التى حققها النسيمى بعد استاذه التبريزى حتى سميت طريقته باسمه فأصبحت (النسيمية) بعد أن كانت (الحروفية).

(١) إنباء الغمر جـ٢/ ٢١٩ وفيات ٨٠٤.   (٢) تاريخ ابن اياس جـ١/ ٢، ٦٥٨.

اسمه أبو غالب ابن سليمان، كان يخدمه أيضاً في بضايع تصل إليه من الشام، وقال لنا: كم وزنتم عما يخصكم في القسط فقلنا له مايتى دينار. فدفع لنا من قمطرته مايتى دينار وقال هذه أخذتها لكم من نصارى رشيد واتكوا [أدكو، جنوب اسكندرية] والجديديه ومحلة الأمير فخذوها عوضاً مما قمتم به فدعونا له وشكرناه وقلنا له: يامولاى ما يجوز لنا هذا لأن المقسط قد وزن فيه المستور والأرملة وكل أحد وكيف نستعيد نحن ما

ويقول ابن اياس فى النسيمى (نزيل حلب صاحب الأشعار التركية، فأفسد عقائد الإتراك وبعث المؤيد شيخ بضرب عنقه وسلخه وصلبه على أحد أبواب حلب)[١].. وقد عرض ابن حجر لترجمته بالتفصيل فهو معاصر له، يقول فى حوادث ٨٢٠(قتل الشيخ نسيم الدين التبريزى نزيل حلب وهو شيخ الحروفية.. بعد شيخه فضل (ت٨٠٤)، وقد قرر نسيم الدين أن الشرائع أباطيل لاحقائق، وأنه لا إله، وقد وصل فى ضلاله إلى أن وطأ ابنته واتخذها كالزوجات إلى أن أولدها ولداً. وقد سكن حلب وكثر أتباعه وشاعت بدعته، فأمر السلطان بقتله وسلخ جلده وصلبه)[٢] ولعل السبب فى مقتله سياسى يرجع إلى التخوف من كثرة أتباعه واحتمال أن يؤسس له دولة فى حلب ـ وهى بعيدة عن مركز السلطة ـ تتخذ قاعدة لنشر دينه الجديد..

بيد أن دعودة النسيمية لم تمت بموت صاحبها.. يقول ابن حجر معقباً على مقتل النسيمى (وقد وقع لبعض اتباعه كائنة فى سلطنة الأشرف (برسباى) واحرقت كتباً كان معه فيه هذه الاعتقاد،فأطلق بعد أن تبرأ من الكتاب المذكور، وتشهد (نطق الشهادتين)، والتزم أحكام الإسلام، وكان سبب الوقوع فى ذلك أن شريفاً قدم من الشام، وذكر أنه لم يزل يسعى

---

(١) تاريخ ابن اياس جـ٢/ ٣٦تحقيق محمد مصطفى.
(٢) إنباء الغمر جـ٣/ ١٣٦.

قمنا به دونهم. فقال: هذه الدنانير لكم افعلوا فيها ما تريدوا. فدعونا له وشكرناه وأخذناها وابتعنا بها ثياب حلبى وقمح وفرقناه على الضعفا من النصارى فبلغه ذلك فوافقه وفرح به.

وكان رسم النصارى باسكندرية أن يخرجو الزيتونة يوم عيد الشعانين فى الليل ويشقو بها المحجه والسوق من بيعة القديس أبو سرجه إلى بيعة السطير بالدعا والقراه إلى أن جرى من

فى الإنكار على هؤلاء إلى أن عثر على هذا ، وكتب له مرسوم بالقيام عليهم فى بلاد الشام، ثم قدم علينا شخص من أهل انطاكية فذكر لنا عنهم أموراً كثيرة، وكتب له مراسيم بالقيام عليهم فى سنة (٨٤١)(١).

وابن حجر كان قاضياً للقضاه وقد شهد الواقعة بنفسه وقام بمحاكمة الرجل الذى ضبطت معه كتب الدعوة النسيمية ، ومهما يكن من أمر فأن سياق كلامه يدل على ما كانت عليه الحركة النسيمية، من نشاط فى الشام بدليل ما آثارته من فزع لدى الفقهاء فالتجأوا إلى مصر مركز الحكم المملوكى، ثم أن كتب النسيمى كانت ترد إلى القاهرة لأتباعه وضبط بعضها وحوكم من وجدت لديه..

وقد فصل ابن حجر القول فى حوادث سنة ٨٣٨ عن هذه الواقعة فقال (حضر للسلطان شريف من الشام بأوراق فيما يتعلق بالنسيمى وشيخه فضل الله، وإن بالشام ومصر جماعة على عقيدته، وأنه تصدى لتبعهم، وأنه وجد بالقاهرة شخصاً منهم فأحضره للسلطان وكتبه، وهذه هى الحروفية، وعقد السلطان مجلساً أحضرت فيه الكتب ، وهى بالفارسى فإذا هى مقاله مركّبة من قول المشبهة والاتحادية وفيه «إن شعر الإنسان فى رأسه ووجهه سبعة شعور، وشعر أجفانه الأربعة وحاجبه ورأسه سبعة ، وإن عقد أصابع اليدين أربعة عشر فلذلك عدد

(١) إنباء الغمر جـ٣/ ١٣٦ : ١٣٧.

المسلمين ما أوجب أن أقامو خمسة عشر سنة ما طافو بها، فلما ذكرنا ذلك للأمير حصن الدولة ابن ميروا أمر باخراجها على جارى العادة وأنفذ معنا أصحابه وأوصاهم بأن يفعلو ما يقوله لهم وأى دار رمى منها حجر يختم بابها ويعلم بها وأى إنسان تكلم من المسلمين يمضو به إلى الحبس ونادى مناديه بذلك في المدينة فأخرجناه تلك الليلة وطفنا بها المدينة بالقراه والتمجيد والصلبان والبخور كما جرت العادة قديماً وكانت لنا ليلة

حروف المعجم»ونحو هذا. وفيه أن الإلهية انتقلت من الله لأدم ومن آدم لآخر إلى أن انتقلت لفضل الله»(التبريزى). وكلام من هذا حاصله «أن الله هو الحروف». وانكر الرجل اعتقاده وكفر من يعتقد بهذا، وامتثل لأمر الشافعى (القاضى الشافعى) وأحرق الكتب بيده، نودى: من عرف من أهل هذا المذهب النسيمى ووجد عنده شئ من كتبه وأحضره للسلطان كان له مائة دينار، ثم أمر فنودى بأن يخرج جميع العجم من القاهرة والقلعة بأسرهم ولايتخلف منهم أحد إلى ثلاثة أيام، ثم لم يتم ذلك)[1].

والواقع أن وفود العجم الصوفية كانت بيئة انحلال عقيديه، وكان ينادى عليهم دائما بالخروج من القاهرة ثم لايتم من ذلك شئ.. وفى نهاية القرن التاسع ـ فى عصر قايتباى ـ وجد طائفة النموسية ـ وكانوا يربون أولاد النموس ـ جمع نمس ـ يقول فيهم المناوى الصوفى (كانوا أصحاب حسين أبى على.. وضرب قايتباى رقاب بعضهم لما شطحوا ونطقوا بما يخالف الشريعة)[2]. وتابع ضهم ـ من أعاجم الصوفية ـ ادعاء العروج للسماء..

(١) إنباء الغمر جـ٣/ ٥٤٨: ٥٤٩.
(٢) الطبقات الكبرى للمناوى: مخطوط ٣٤٩ أ، ب.

حسنة وذلك فى سنة أربع مايه وأربعه الخراجية. وكان فى تلك السنة غلا عظيم حتى ابيع القمح ليلة الزيتونة بدينار ونصف الويبه وكان لا يباع إلا بالدنانير النزارى وقيمته يوميذ خمسه وثلثون درهماً ونصف بدينار، وكان الدينار نقد البلد الذى تتعامل به الناس قيمته ستة وعشرون درهماً فصار الدينار النزارى بدينار وربع وثمن نقد البلد، فلما آخرجنا الزيتونة تلك الليلة اتفق وصول شعير جديد بالغداة من البحيرة فصار القمح ويبه ونصف بدينار وثانى

• ادعاء الصعود للسماء:

يقول ابن اياس فى حوادث ٨١٩ (ظهر بالقاهرة شخص أعجمى يدعى أنه يصعد إلى السماء ويكلم البارى عز وجل فى كل يوم مرة، وأنه صرفه فى الكون، فاعتقده جماعة كثيرة من أهل مصر، فلما شاع أمره بين الناس رسم السلطان (شيخ) أن يعقد له مجلس بالمدرسة الصالحية، فاجتمع بها القضاة الأربعة فأراد المالكى أن يضرب عنقه فشهد جماعة من الأطباء بأن فى عقله خللاً فسجنوه ولم يثبت عليه كفر وصار مع المجانين[(١)]. وتمتع ذلك المدعى ـ كسابقه ـ بتصديق العامة حتى اهتم السلطان بأمره وتطلب الأمر عقد جلسة للتحقيق فى صدق دعواه وانتهت قصته النهاية المعروفة وهى تخليصه من القتل بحجة الجنون. فكان الإدعاء سهلاً فى بدايته وعاقبته..

وقد حضر ابن حجر محاكمة ذلك الصوفى الأعجمى، يقول أنه فى مجلس سماع الحديث بالقلعة مع السلطان سئل عن الحكم فى شخص يزعم أنه يصعد إلى السماء ويشاهد الله تعالى ويتكلم معه فاستعظموا ذلك، فأمر السلطان بإحضاره ـ ووصف ابن حجر الرجل ـ وقال أن السلطان (سأله عن أمره فأعاد ذلك وزاد بأنه كان فى اليقظة وأن الذى رآه على هيئة السلطان فى الجلوس وأن رؤيته تتكرر مراراً كثيرة، فاستفسره عن أمور تتعلق بالأحكام الشرعية

(١) تاريخ ابن اياس جـ٢/ ٢٨ : ٢٩، ٢، جـ٢/ ٤.

يوم ويبتين بدينار وبعد عشرة أيام صار أكثر من أردب بدينار وتزايد الرخا وزال الله الغلا برحمته ورأفته وتحققو المسلمين باسكندرية أن ذلك ببركة خروج الزيتونة وتطوافها فى البلد وصارو يفرحو بخروجها فى كل سنة فى ليلة عيد الشعانين إلى الآن.

ثم أن إبليس باغض الخير طرح سجس آخر وألقى فى نفس راهب يسمى فلوطس أن طلب

فظهر أنه جاهل بأمور الديانة، ثم سئل عنه فقيل أنه يسكن خارج باب القرافة تربة خربة، وأن لبعض الناس فيه اعتقاداً كدأبهم فى أمثاله) فاستفتى السلطان العلماء (فاتفق رأيهم على أنه إن كان عاقلاً يستتاب فإن تاب وإلا قتل. فاستتيب فامتنع، فعلق المالكى الحكم بقتله على شاهدين يشهدان أن عقله حاضر، فشهد جماعة من أهل الطب بأنه مختل العقل، فأمر السلطان به بأن يقيد فى المارستان فاستمر به، ثم اطلق بعد موت السلطان)[1].

وحدث أن كان السلطان فى عام ٨٢١ يتفقد أحوال المجانين فى المارستان المنصورى، فقام إليه ذلك المدعى فكلم السلطان أن يفرج عنه فلم يجبه[2].

وسهولة الإدعاء والتهاون فى العقاب شجعت البعض على إعلان التحلل من التكاليف الشرعية بدعوى المنامات، كما حدث من الشيخ شمس الدين الميمونى حين قال «قد اباح لى سيدى اللواط والخمر والحشيش والفطر فى رمضان»، وشهد عليه جماعة وثبت ذلك عليه، فاعتقل وأحضر إلى مجلس السلطان وفيه ابن حجر فافتى بأن فى عقله خللاً، وأعلن الميمونى توبته من رؤيا المنامات[3].

(١) إنباء الغمر جـ٣/ ٩٩.
(٢) إنباء الغمر جـ٣/ ١٦٣.
(٣) إنباء الغمر جـ٣/ ٣٤٩.

الاسقفية من الاب اخرسطودلوس فلم يفعل فرفع فيه رقاع للسلطان فمنعوه قوم من الأراخنة بمصر وهم أبو اليمن ابن مكراوه ابن زنبور(*) وابو الطيب الزراوى وأبو السرور يوحنا ابن يوسف الابح وعدلوه واردعوه عن ذلك فارتدع زماناً ثم تجدد السجس بينه وبين البطرك وعاد إلى مواصلة الرفيعه [الوقيعة] فيه عند السلطان إلى أن قبض عليه فوجدو له في داره بدمرو حوض فيه ستة ألف

(*) ابن مكراوه: هو أبو سعد منصور ابن أبي اليمن ابن سورس ابن مكراوه ابن زنبور. كان أبوه ناظر الريف. تقلد الوزارة أياماً قليلة ولقب بلقب «الأجل الأوحد المكين السيد الأفضل الأمين عميد الخلافة محب أمير المؤمنين». هرب عام ٤٥٨هـ = ١٠٦٥م بسبب مطالبة الجند لرواتبهم ثم تمردهم على الخليفة

وامتد الأمر للمماليك فقيل فى ازدمر الطويل أنه (كان يخوض فيما لا يعنيه مع سوء عقيدة، واستخفاف بأمور الدينى، ويميل للمتصوفة)(١).

*فى الريف:

وإذا كان هذا الحال فى القاهرة ـ حيث السلطان والقضاة والعلماء.. فالحال فى الريف أشد، ومع الأسف فإن جل اهتمام المؤرخين انصب على تتبع أخبار القاهرة دون غيرها من المدن الهامة، ولا نقول الأرياف حيث الجهل أشد إظلاماً وسيطرة التصوف أعتى استحكاماً. على أن بعض حوادث الزندقة ـ حين زادت وفاضت ـ وصل أمرها إلى علم المسئولين بالقاهرة، يقول أبو المحاسن فى حوادث سنة ٨٦٦ (ورد الخبر من كاشف الغربية وغيره بأن فى قرية ططية بالوجه الغربى من أعمال القاهرة جماعة زنادقة، وفيهم من ادعى الألوهية، ومنهم من ادعى النبوة، وانضم عليهم جماعة كثيرة من أوباش الناس، ومالوا إلى معتقدهم، ووقعت منهم أمور شنيعة، وإن الكاشف أمسك منهم نحو أربعة عشر نفراً، فأرسل السلطان إليهم القاضى ابن الوارث أحد نواب الحكم المالكية والناصر محمد الخازندار لينظروا فى حقيقة أمرهم ويفعل فيهم مقتضى الشرع.. وأحضر الزنادقة فأنكروا أمام السلطان فحكم القاضى بتعزيرهم..)(٢).

(١) الضوء اللامع جـ٢/ ٢٧٣: ٢٧٤.

(٢) حوادث الدهور جـ٣/ ٤١٩: ٤٢٠.

دينار مشدودة فى ردآ أحمر فأخدوها وسارو بها معه إلى مصر، فاجتمعوالأراخنة وتسببو فى أمره إلى أن رفع عنه الترسيم وحمل المال المذكور إلى بيت المال وعاد البطرك إلى دمرو بعد أن لحقه مرض النقرس بمصر. وكان يوفى السكندرانيين ما يصرفون فى عمارة بيعهم وقرابينهم ثلثماية وخمسين دينار فى كل سنة عن الرسم المستقر لهم على البطاركة ويحملها لهم قبل أن يطلبوها منه، ولما عزل حصن الدولة ابن ميروا المذكور عن ولاية

المستنصر بالله سنة ٤٦٠هـ =١٠٦٧م.

فأولئك كثرة ادعى بعضهم الألوهية وآخرون النبوة.. وبعث بأمرهم (كاشف الغربية وغيره)، وذلك لأن أتباعهم كثروا (ووقعت منهم أمور شنيعة) ولعل مصادمات حدثت بينهم وبين الكاشف إذ أنه (أمسك منهم نحو أربعة عشرة نفرا) فقط.. أى لولا تجاوز حركة أولئك الزنادقة دور الدعوة القولية إلى الدور الحركى ومناوأة السلطة الحاكمة ـ لولا ذلك لما عرفت القاهرة بأمرهم ولما سجلت ذلك حوليات التاريخ.. ومعنى ذلك أن مدعى الألوهية والنبوة فى الريف فى مأمن من السلطان ومن الرصد التاريخى طالما اقتصروا على الدعوة لأنفسهم ثم إن الزندقة تحولت بعد القرن التاسع إلى شطحات يقولها المجذوب كيفما شاء وفى أى وقت بدعوى غيابه عن الوعى فتكاثر المجاذيب فى ذلك الوقت.. وأرخ لهم الشعرانى[1]. إلى ذلك الحد بلغ اضطراب العقيدة الدينية فى العصر المملوكى بأثر التصوف، ولنضرب بعض الأمثلة:

١ـ يارب سلم الحيطة بتتكلم سنة ٧٨١:

ففى هذا الجو المقفر من عقيدة صحيحة حيث الناس على استعداد للإعتقاد فى أى شىء ولو كان حجراً صلداً ـ أتيح لبعض الصوفية أن يعبث بعقول الناس ومعتقداتهم ويتجلى ذلك فى واقعة (الحائط الذى يتكلم)، وبطلها صوفى كان يتمتع بتقديس برقوق وهو الشيخ عمر ركن الدين (وقد كان الناس يتبركون به ويزورونه لمدة ثلاثين عاما)..

(١) ترجم الشعرانى للأكثرية منهم فى الطبقات الكبرى فى نهاية الجزء الثان، وهى (ظاهرة) أن يكون أكثر الصوفية المعتقدين المقدسين فى القرن العاشر من المجاذيب.

اسكندرية تولاها بعده المنحب [المنتخب] نصر الملك أبى على ملهم وكان رجلا عاقل وانما غلط على نفسه وفعل فعلا كان سبب ميتته وذلك انه بات في بيعة القديس مارى جرجس الشهيد [و] بلد [نام] داخل بيت المذبح الذى قبره تحته مع غلام له امرد فظهر له فارس وهو الشهيد مارى جرجس ولم يزل يضربه برمحه وهو يستغيث ويقول لغلمانه: يافعله أصيح ما تخلصونى من هذا

وموجز الحكاية أن امرأة اشتكت لذلك الصوفى سوء معاملة زوجها لها، فكان الصوفى يعظه ويوصيه بزوجته من خلف الحائط بحيث لا يدرى من المتكلم، واشتهرت الإشاعة بأن حائطاً يتكلم، وسار الصوفى فى الطريق إلى نهايته، فافتتن الناس بالحائط الذى يتكلم وتوافدوا عليه يسمعونه، يقول ابن حجر: (افتتن الناس به شهرين واعتقدوا أن المتكلم من الجن أو الملائكة، وقال قائلهم «يارب سلم الحيطة بتتكلم» وقال الشاعر ابن العطار:

يا ناطقاً من جدار وهو ليس يُرى

اظهر والا فهذا الفعل فتان

ويقول ابن اياس «اشتدت فتنة الناس بالحائط حتى كادوا أن يعبدوه من عظم ما افتتنوا به ويتخذوه معبداً لهم..» وكانوا يقدمون للحائط النذور والقرابين.. ثم اظهر المحتسب الحيلة وعوقب الفاعلون(١)..

٢ـ زندقة بعض الفقهاء:

وتأثر بعضهم بهذا الجو المنحل عقيدياً فاعتاد التلفظ بالكفر مع وصفه بالعلم والفضل، ولكن وقف لهم الصوفية بالمرصاد وكأنما عز عليهم أن ينافسهم أعداؤهم فى ميدان الزندقة

(١) إنباء الغمر جـ١/ ١٩٨ : ١٩٩، السلوك جـ٣/ ١/ ٣٦١ : ٣٦٤. النجوم الزاهرة جـ١١/ ١٧٢ : ١٧٣، ابن اياس جـ١/ ٢/ ٢٤٦ : ٢٤٧.

الفـارس ليـلا يقـتلنى هوذا هو مـواصل عـقـربتى برمـحـه. فـقـالو له: يا مـولاى يعيـذك الله الأبواب مغلقـة ومـا دخل إلينا أحـد. فـمـات لوقتـه. وكـان يظهر لنا من رأس القديس مرقص لما أخذته عندى عجايب عظيـمة منها أن أخى أبو العلا [فهد] نيح الله نفسه كان قد شك فى . فلما نمت تلك الليلة ظهرلى القديس مارى مرقس وقال لى : أخوك فهد قـد شك فى. فلمـا أصبـحت أعلمت أخى بذلك

والشطحات.. فقد ذكر العينى فى حوادث ٧٢٠ مقتل اسماعيل الزنديق.. وقد اشتهر بين الفقهاء بالعلم والفضيلة والأدب مع كثرة الهزل والتلفظ بالكفر حتى لقب بالزنديق، فوقع فى بعض الأيام فى حق النبى لوط عليه السلام، فشهد عليه جماعة وعقد له مجلس عند ابن الأخنائى المالكى فادعى اختلال عقله،، وهى الحيلة المأثورة فى هذا المجال ـ فتوقف المالكى فى أمره.. ولكن لم يسمح الصوفية له بالجنون والإفلات من القتل. فادعى صوفى أنه رأى النبى محمد ﷺ فى المنام يأمره أن يقول (قل للأخنائى يضرب عنقه فإنه سب أخى لوطا) فحكم القاضى بضرب عنقه، وفى صبيحة مقتله رأى صوفى آخر النبى ومعه لوط عليهما السلام فى منام يؤكد الدعوة لمقتل اسماعيل الزنديق فتم تنفيذ الحكم فى ذلك الفقيه بين القصرين(١).

٣ـ حوادث الردة بين العامة والمماليك:

كان بعض المسيحيين يدخل الإسلام طمعاً فى منصب أو تخلصاً من ورطة وقع فيها ثم اعتاد بعضهم الرجوع والارتداد إلى دينه، بل ارتد بعض العامة المسلمين عن الإسلام ولم يوافقوا على العودة إليه(٢).. وفى تجريده حربية إلى جزيرة رودس ارتدت طائفة من المماليك ورجعت إلى النصرانية(٣)..

---

(١) عقد الجمان مخطوط حوادث ٧٢٠ لوحات ٢٣٩ : ٢٤١. نهاية الأرب مخطوط جـ٣٠/ ١٣٥.
(٢) تاريخ ابن اياس جـ١/ ٢/ ٣٢٤.
(٣) تاريخ ابن اياس جـ٢/ ٢٣٨ تحقيق محمد مصطفى.

وكنا في بيعة أبو سرجه أنا وهو وخالي صدقه ابن سرور والراهب أبو يعقوب فلما سمع قولي تعجب وارتعب واعترف بما خامر قلبه وأعلمنا ما كان منه ومضى إلى حيث رأس القديس وصلا وبكا وسأله الصفح عنه. ولما كان في برموده سنة ثلثة وخمسين واربع ماية الخراجية ظهر نجمين عظيمين دوايبنه [لهـا اذناب] يسمى أحدهما سفود [سعود]والآخر فانوس، فالاول منها ظهر في آخر

إلا أن أهم أثر للإضطراب العقيدى الذى أحدثه التصوف في العصر المملوكي يتجلى في شيوع التكفير أو سهولة الإتهام بالكفر، على خُطورة ذلك الإتهام الذى يستوجب الحكم بالقتل عندهم.

شيوع التكفير:

١ـ شاع القول بالكفر بين الصوفية وغيرهم.. وتولى القضاة عقد المحاكمات لقائلي الكفريات، وفي جو يعمه الجهل والتعصب وحدّة العاطفة وكثرة الدسائس والحروب بين الصوفية والفقهاء وتدخلات السلطة المملوكية والنزاع المستمر بين القضاة ـ مع انعدام التقوى الذى لدى القضاة وتأثرهم بالتصوف وانحلاله .. وحرص الصوفية على النيل من أعدائهم الفقهاء..ـ في هذه الظروف، انتشر الاتهام بالكفر، وكثر عقد مجالس الحكم وكانت تصدر أحكام القتل أو التعزيز حسب الظروف السياسية أو مقتضيات الأحوال العادية من الميل أو النفور بين القاضى والمتهم وتدخلات الأطراف الخارجية من الصوفية والأمراء المملوكية، كما ظهر في حوادث سابقة عرضنا لها، وسنعرض الآن لشيوع التكفير في العصر المملوكي بين العامة وفي مجتمع الفقهاء.

٢ـ وقد كان أحدهم يقرأ في رياض الصالحين، فشك في البعث وكيفياته فشُهد عليه

٦٦: انبا اخرسطودلوس ١٠٤٦ / ١٠٧٧م

الليل مابين الشرق والقبلة، والآخر ظهر فى آخر النهار ما بين الغرب وبحرى من حيث تغيب الشمس في ذلك الشهر ، وكان نجم عظيم يشبه القمر ليلة تمامه، وظهر أيضاً ثانى يوم بحيث تكون الشمس فى ثامن ساعة من النهار وتوقدت دواييه [أذنابه] حتى صار كأنه الفانوس إذا وقد فيه الضو وظهر ثالث يوم وقد ارخا دوايب عظيمة رأيتها بعينى إلى الشرق والقبلة بحيث طلع [تبع]

وعُقد له مجلس فجدد إسلامه وحقن دمه[1].. وقال البرهان بن جماعة فى مجلس: قال الله تعالى في كتاب العزيز: ضعيفان يغلبان قوياً.. فعقد له مجلس، ولم يصبه بضرر[2] وقال آخر إن التوراه والإنجيل بحالهما لم يبدلا، فعزر[3]. واعتبر الشريف المكرانى الزاهد من قال أن الرؤيا خيال باطل فهو كافر[4].

تقديس الولى الصوفى فى مصر المملوكية

أولا أنواع الأولياء الصوفية ودرجاتهم:

* بين القطب وأعوانه، الخضر، المجاذيب، أرباب الأحوال، أصحاب النوبة.

ثانيا: مهام الأولياء: الحملات، النظرة واللحظ والبركة.

ثالثا: الاعتقاد فى كرامات الأولياء الصوفية:

- الكرامات في فكر الخاصة واعتقاد العامة فى العصر المملوكى.
- دراسه فى أساطير الكرامات فى العصر المملوكى.
- أصناف من أساطير الكرامات.

(١) حوادث الدهور ٣١.
(٢) تاريخ البقاعى ٣٧ مخطوط.
(٣) تاريخ الجزرى جـ١/ ١٧.
(٤) التبر المسبوك ٣٧٠.

النجم الأول لأن دوايب الأول كانت تتوقد وتفترش إلى حيث طلع الثانى، ودوايب الثانى كانت إلى حيث طلع الأول. ومن بعد ظهور هذين النجمين كثرت خطايانا وذنوبنا وتزايد طنخنا وبذخنا حتى أن جماعة ثقات من المسلمين والنصارى أبصروا بأعينهم الدموع تجرى من أعين بعض الصور التى فى الكنايس منها صورة مارى جرجس فى كنيسة قرية تسمى دمول من قرى

---

* مدخل: جعل الصوفية لأنفسهم مملكة وهمية وزعوا فيها الوظائف بين الأولياء، واختلفوا فى التوزيع وفى الألقاب فى تلك المملكة الوهمية.

كما جعلوا للأولياء وظائف ومهاما، كأن يقوم أحدهم بتحمل المصائب عن الأخرين، أو «الحملات» أو كأن يشمل الآخرين ببركته بالنظرة وبالبركة.. وينبع ذلك كله من اعتقاد العصر فى كرامات الأولياء وقدرتهم ـ المزعومة ـ على التصريف فى الكون وفى الناس.

وهو موضوع طويل، ذلك الذى يتحدث عن أنواع الأولياء الصوفية ومهامهم وكراماتهم، ونحاول هنا اختصاره، لتأكيد ما ساد فى العصر المملوكى من تقديس للولى الصوفى والاعتقاد فى مؤهلاته الإلاهية التى يتفوق بها على النبى، والتى لم يعرفها المسلمون فى عصر النبى.

أنواع الأولياء الصوفية ومهامهم وكراماتهم

أولا: أنواع الأولياء الصوفية ودرجاتهم:

*** بين القطب وأعوانه:**

القطب عند صوفية العصر المملوكى هو الذى عليه مدار الكون ولأجله وجد الكون وعليه مدار كونية الدارين، ولكل عصر قطب، وقطب الأقطاب هو الذى لم يكن قبله ولا بعده مثله،

٦٦: انبا اخرسطودلوس ١٠٤٦ / ١٠٧٧م

أبوان وصورة السيدة وصورة الملاك ميكاييل فى كنيسة تونه، أخبرنى بذلك مقاره الراهب تلميذ القديس بسوس بدير أبو كما المشهور قدسه وحسن سيرته، فضرب ديار مشر [وادى النطرون] باداب [بكوارث] عظيمة صعبة جداً، فأول ذلك حدوث زلزلة عظيمة ضحى نهار يوم الثلثا ثانى الفصح حتى أنها أقلبت عدة مواضع بالرمله وتنيس وغيرها، ولم يكن لها تأثير باسكندرية وكان بعدها وبا [وباء] كثير حتى لم يبق فى تنيس من الألوف

والأوتاد أربعة على أربع جهات العالم، والأبدال سبعة على حكم أيام الأسبوع، وللقطب رجلان عن يمين وشمال[1]، وأنكر ابن الحاج مغالاة الناس فى قولهم هذا قطب وهذا بدل لأنه يرى أن القطب واحد وقل من يعرفه[2]، وكان هناك دعاء مخصوص للأبدال[3]، وجعلوا الإمام الشافعى أحد الأوتاد الأربعة [4]، ونسب إلى على بن أبى طالب قوله «البدلاء بالشام، والنجباء فى مصر، والعصائب بالعراق، والنقباء بخراسان، والأوتاد بسائر الأرض، والخضر سيد القوم». ورووا أن الخضر قال ثلاثمائة هم الأولياء، وسبعون هم النجباء، وأربعون هم أوتاد الأرض، وعشرة هم النقباء، وسبعة هم العرفاء، وثلاثة هم المختارون، واحد منهم القطب الغوث»[5].

* القطب:

١ ـ اختلفت الصوفية فى صفاته فجعل له الشاذلية خمس عشرة علامة إلا هية[6]، و جعل الخواص من علامته كثرة تحمله للبلايا والإنكار عليه، فإن جميع بلاء أهل الأرض ينزل

(١) النويرى الإلمام ١ لوحة ١٧٨، الشعرانى: اليواقيت والجواهر ٢/ ٨٤، الكبريت الأحمر ٤/ ١١.
(٢) المدخل ٢/ ٢١٠ ـ ٢١١.
(٣) ذكر فى مناقب المنوفى ٣١.
(٤) لواقح الأنوار للشعرانى ٢٤٤.
(٥) روض الرياحين لليافعى ص ٨.
(٦) الشعرانى «اليوقيت والجواهر»، جـ٢ / ٧٩، ٨٢.

التى كانوا فيها إلا تقدير ماية نفر، وان الدار بها يوجد كلمن فيها رقود على فراشهم [موتى] ومالهم وكل شىء لهم فيها، فتحمل من دورهم الأسرة والقباب والدكك والفروش والمال . وخليت [مدينة] الرملة ولم يبقا فيها أحد، ثم تفاقمت الأمور إلى أن قام حرب بين المشارقة [بنى حمدان] والأتراك المتغلبين بمصر على ناصر الدولة ابن حمدان وحسنوا للسلطان [المستنصر بالله الفاطمى] أن أخرج [يخرج] خيمة

عليه أولاً ثم يتفرع منه (١)، أما الشعرانى فيرى أن غالب الأولياء لم يجتمع قط بالقطب لعدم طاقته أن ينظر إليه (٢). ومن شأن المريد أن يلزم الأدب مع القطب ولايقول نحن خارجون عن دائرة القطب(٣)، ومقام القطبية ثقيل لتحمل صاحبها أعباء الممالك الأرضية ملوكاً ورعايا (٤).

٢ ـ وعند الدسوقية لا يصير القطب قطباً إلا إذا شرب من نهر الحياة عند جبل قاف سبع مرات. ولا يكون غوثاً إلا إذا شرب منه ألف مرة. ومن هذا النهر شرب الدسوقى والرفاعى والبدوى والجيلى(٥). وقد رأى الشعرانى القطب بمعرفة أستاذه الخواص يبيع الفول الحار فى أحد حوارى القاهرة (٦)، وجعل من صفات القطب الغوث الإكثار من النكاح، ويقول إنه رأى شخصاً يدعى القطبية يدخل الحمام فى النهار ثلاث مرات فازداد فيه إعتقاداً وتعظيماً (٧)

٣ ـ ورأى آخر القطب الغوث بمكة على عجلة من ذهب تجرها الملائكة فى الهواء بسلاسل من ذهب، فسأله إلى أين؟ فقال إلى أخ من إخوانى اشتقت إليه (٨)، وقالوا (كان أبو العباس (ت ٨٦١) قطب وقته، وقد رؤى فى مكة على كرسى بين السماء والأرض)(٩).

(١) لطائف المنن للشعرانى ٥٣٢.
(٢) لطائف المنن ٤٩٢.
(٣) الشعرانى آدب العبودية ٣٣.
(٤) الشعرانى «اليواقيت والجواهر» جـ٢ / ٨٣.
(٥) طبقات الشرنوبى مخطوط ٤، ٥.
(٦) لطائف المنن ٣٨٣.
(٧) لطائف المنن ٢٦٨.
(٨) اليافعى روض الرياحين ١٨٧.
(٩) الطبقات الكبرى للمناوى مخطوط ٣٤١.

حمرا ضربت خارج باب القصر في [الموضع] المعروف بباب الذهب، وأظهر سخطه على بني حمدان ومن معهم، وكان بالقاهرة ومصر منهم طايفة الاكراد وتقديرهم خمسة ألف رجل فصاح فيهم وفى بني حمدان ومن معهم فى ذلك اليوم صايح حتى لم يبق منهم بمصر والقاهرة إلا يسير منهم قطعوا شعورهم واصداغهم واختفوا.

وقتل فى ذلك الوزير الخطير ابن الموفق المعروف بابن العجمي وجلال الدولة ابن

---

٤ ـ وأسرف كثير من الأولياء فى إدعاء القطبية، وأبرزهم المدرسة الشاذلية الذين اعتقدوا أن القطب منهم فى كل العصور[١]، واعترف بهذا الشعرانى [٢]، وزعموا أن الله تعالى قد جعل القطب الغوث من بيت الشاذلى إلى يوم القيامة[٣]، وزعموا أن الرسول قد بشر الشاذلى بالقطبية بعد موت أبى الحجاج الأقصرى[٤]، واشتهر فى الاسكندرية بأنه القطب الغوث[٥]، ومدحه البوصيرى فقال:

أفدى علياً في الوجود وكلنا

بوجوده من كل سوء نفتدى

قطب الزمان وغوثه وامامه

عين الوجود ولسان الموجد[٦].

أما خليفة الشاذلى أبو العباس المرسى فكان يرى أن القطب لا يلزم أن يكون شريفاً حسينياً، بل قد يكون من غير هذا القبيل، وقد قال «وما القطبانية بعيدة من بعض الأولياء

(١) دائرة المعارف١٣/٥٩.
(٢) آداب العبودية ٣٢.
(٣) تعطير الأنفاس ١٦.
(٤) تعطير الأنفاس ٤٦.
(٥) النويرى الإلمام بالإعلام جـ١ / ١٧٨.
(٦) ديوان البوصيرى ص ٧٣..

ملك بغداد وكان صديق بنى حمدان ووصل ناصر الدولة ابن حمدان ومن معه إلى اسكندرية منهزمين وحالف قيس ولواته وأظهر النفاق، وخرجت العساكر من مصر فى طلبه وكانو مقدميها أمين الأمنا أبو اليمن سورس ابن مكراوه ابن زنبور واخلع عليه وقلد [ه] سيف بحلية ذهب فوق ذراعيه ولقب بسيد روويسا السيف والقلم والأستاذ عزيز الدولة(*) زمام العبيد

(*) عزيز الدولة ت : ت٤١٣هـ ١٠٢٢م فاتك بن عبدالله

وأشار إلى نفسه»[١]، ذلك أنه ينتمي إلى الأنصار، وذكر ابن عطاء بعض الكرامات التى تؤكد قطبية المرسى[٢].

٥ ـ وبالغت المدرسة الدسوقية فى ادعاء القطبية، فادعت أن الله جعل الدسوقى قطباً قبل بناء البيت والحرم، وأنه اجتمع بالقطب الفرد وهو ابن سنه، وخدمه القطب وهو ابن عامين، وتقطب قطب المحبة وهو ابن عشر سنين، وقطب الفردانية العظمى وهو فى الرابعة عشرة، وسقى رجلاً من شرابه قدر درهم فتقطب، وأعطى تفاحة من غير واسطة، وناداه الله بألا يأكلها كلها حتى لا يحتكر القطبية لنفسه [٣]، وجعلوا الجيلى والرفاعى على مثال الدسوقى[٤]، وممن وصف بالقطبية من الأولياء «المنوفى [٥] وأبو القاسم المراغى [٦]، وأبو النجا الفوى شيخ الشعرانى، وقد شاع فى ليلة موته أنه القطب[٧]، وفتح على شمس الدين الحنفى بالقطبية بعد أن أخذ العهد على ابن الميلق، وقد قال الحنفى «إن القطبية مرت بنا ونحن شباب[٨]». وباختصار كان شيوخ الصوفية يتنافسون فى ادعاء القطبية ويتغنون فى توصيفها.

(١) تعطير الأنفاس ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٣١.
(٢) لطائف المنن لابن عطاء ٥٨، ٥٩.
(٣) طبقات الشرنوبى مخطوط ٤،١.
(٤) طبقات الشرنوبى ٨،٧.
(٥) مناقب المنوفى ١١.
(٦) ابن الزيات الكواكب السيارة ١٨١.
(٧) الطبقات الصغرى للشعرانى ٦٥.
(٨) مناقب الحنفى مخطوط ١٢٨، ١٢٩، ٢٧٩ ـ ٢٨٠.

الرومى. أبو شجاع: وال من رجال الحاكم بأمر الله. أرمنى الاصل. كان غلاماً لبنجوتكين مولى العزيز صاحب مصر. تولى حلب ولقب امير الامراء عزيز الدولة، وتاج الملك. فدخل حلب فى رمضان ٤٠٧. صنف له أبو العلاء المعرى «رسالة الصاهل والشاحج» فى أربعين كراسة. انقلب على الحاكم الفاطمى ودعا لنفسه، فأرسل له الحاكم الجيوش لاخضاعه سنة ٤١١. فأرسل عزيز الدولة إلى ملك الروم باسيل بالقسطنطينية يستنجده فأقبل ولكنى موت الحاكم أوقف زحف باسيل. ثم جاءته الخلع السلطانيه من «الظاهر» الذى خلف الحاكم ولكنه سرعان ما قتل على يد احد مماليك.

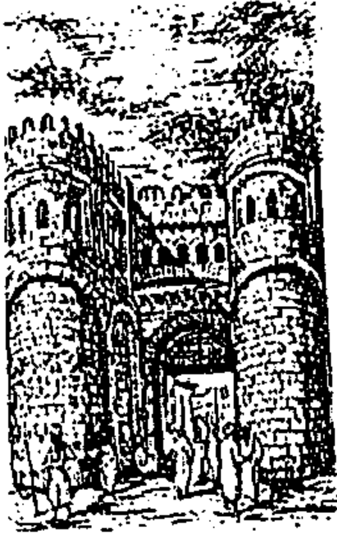

---

*الخضر:

١ ـ عده بعض الصوفية رتبة عليا فى مملكتهم: «فإذا مات القطب الغوث ولى الخضر من يكون (قطبا) بمكة (غوثا)، وجعل (بدل) مكة (قطبا)، وهكذا أبداً، فإن مات الخضر صلى الغوث فى حجر اسماعيل.. فتسقط عليه ورقة باسمة فيصير خضراً ويصير قطب مكة غوثاً»[1]. والصوفية ادعوا أن صاحب موسى المذكور فى سورة الكهف (٦٥ : ٨٢) هو الخضر، وهو يحيا حياة أزلية، وليس مجرد رتبة صوفية، ومع أن ملامح صاحب موسى تؤكد أنه كان نبياً، فالله تعالى لا يعطى العلم ببعض الغيب إلا للأنبياء (آل عمران ١٧٩، الجن ٧٦، ٢٧)، ولكن افتتن الصوفية بجعل صاحب موسى ولياً وليس نبياً حتى يحقق أمنيتهم فى أن يكون الولى خيراً من النبى ويقوم بتعليم النبى. ونأتى للعصر المملوكى لنجد ابن إمام الكاملية (ت ٨٧٤) قد وضع رسالة فى حياة الخضر[2]، ونجد اليافعى يحاول إثبات حياته الأزلية [3]، ونجد على وفا يؤكد أن لكل ولى (خضراً) يمثل روح ولاية ذلك الوالى [4]، ويقول العشرانى فى رسالته عن الخضر «أجمع أهل الكشف أى العلم اللدنى قاطبة على حياة الخضر وقت

(١) الدرر الكامنة جـ٢/ ٤٨٣، ٤٨٤.
(٢) البدر الطالع جـ٢/ ٢٤٤.
(٣) روض الرياحين ٢٧٣.
(٤) الشعرانى. الطبقات الكبرى جـ٢ /٢٨، الطبعة القديمة.

ونجاح الدولة بغرا(*) وناصر الجيوش ابن أسد الدولة بلدكوش ووصلو إلى محلة الأمير ولأجل كثرة هولآ المقدمين في هذا العسكر اختلفو ولم يتفق رأيهم وصار كل واحد منهم لايتبع رأى الآخر وإن كان فيه الصواب، فلم يفلحو ولا ظفرو بشئ لاختلافهم وتبددت الرجال عنهم لسو رأيهم وفساد تدبيرهم وقلة اتفاقهم، فقوى عليهم بنى حمدان والذين معه وهزموهم واستأسروهم

(*) هو جيش الكتامى ت ٣٩٠هـ = ١٠٠٠م [نجاح الدولة] بغرا. جيش بن محمد الكتامى المغربى، أبو الفتح: أمير، ولى نيابة دمشق لصاحب مصر ثلاث مرات فى أيام الفاطميين . وكان جبارا سفاكاً للدماء مات بالجذام.

إجتماعنا به، وقد اجتمع بعمر بن عبد العزيز، وأبى عبدالله البسرى، والشيخ عبد الرازق، وإبراهيم الخواص، وأبى يزيد البسطامى، وابن عربى، وأبى عبدالله القرشى، والشاذلى، والمرسى، وياقوت العرش» [1]، ويبدو أن الشعرانى قد استقى آراءه تلك من ابن عطاء [2]. إذ كان الكثيرون يدعون رؤية الخضر فى المنام، ولم نجد عالماً فى العصر المملوكى أنكر حياة الخضر بل اعتقدوا صدق بعض من ادعى رؤيته فى المنام، يقول ابن الحاج «ومنهم من يدعى رؤية الخضر ويؤكد ذلك باليمين.. وذلك كله تقول وافتعال.. مع أن هذا لا ينكر إذا وقع من أهله فى محله» [3]، وعلل ابن تيمية كثرة من يدعى رؤية الخضر حتى من اليهود والنصارى ـ «وهم كثيرون صادقون» ولكنهم يرون الجان ولا يرون الخضر [4]. والاعتقاد فى وجود الخضر مستمر حتى عصرنا الحالى كأثر من العصر المملوكى، يقول أحمد أمين (يعتقد بعضهم أنهم رأوا الخضر يقظة وخاطبوه وخاطبهم، ويزعمون أنه شرب من عين الحياة فلم يمت من عهد موسى إلى اليوم، وأن الأولياء الصالحين يرونه جهاراً ويخبرهم بالمغيبات، واذا ذكروه قالوا عليكم السلام إيهاماً بأنه مر عليهم وسلم عليهم [5]، أى نجح التصوف فى التأكيد على

(١) الميزان الخضرية للشعرانى ص ١.
(٢) لطائف المنن لابن عطاء، ٤٧ ـ ٤٩.
(٣) المدخل جـ٢/ ٢٠١، ٢٠٢.
(٤) ابن تيمية: مجموعة الرسائل والمسائل جـ١ / ٧٢.
(٥) قاموس العادات والتقاليد المصرية ١٩٣ ـ أحمد أمين.

وملكو بلاد الريف كلها الشرقية والغربية ونهبوها وأخربوها وقتلوا اهلها وهتكو الحرم وذبحو الأولاد على بطون أمهاتهم وعلى ظهور ابايهم ونهبو البيع واخربوها وكشطو وجوه الصور[الايقونات] التى بقيت فيها، وأخذو اللواتيين الاب البطرك انبا اخرسطودلوس من داره ونهبو جميع ما فيها وأخدو له مال كثير جدا. وكان يقول أنه لمارى مرقس الانجيلى والقديس أبو مقار ولم يقنعهم ذلك حتى

وجود الخضر حياً لا يموت، مع أن الله تعالى يقول للنبى (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد، أفإن مت فهم الخالدون؟ كل نفس ذائقة الموت.. الأنبياء ٢٤، ٢٥).

٢ ـ وقد وضع الشعرانى شرطاً لمن يريد الاجتماع بالخضر[١]، وقد تنافس الصوفية فى دعوى الاجتماع بالخضر واشتهر منهم على النبتيتى (ت ٩١٧) فى عصر الشعرانى [٢]، فنقل عنه الكثير من ادعاءاته[٣]، وسبق النبتيتى فى هذه الشهرة ابن الكبش بنحو قرن، فكان يجتمع بالخضر فى غالب الأوقات [٤]، وقبله أيضاً سليمان البسطامى (ت ٧٨٦) «وله فى ذلك أخبار كثيرة يستنكر بعضها» [٥]، وذكرت لقاءات للشاذلى مع الخضر [٦]، وكان الخضر يحضر مجلس شمس الدين الحنفى، ويشيعه للخلوة [٧]، وممن اجتمع بهم أيضاً عبد المحسن الواردى وأبو السعود بن أبى العشائر [٨]. وللخضر دور فى الحكايات الصوفية عن الأولياء

(١) الميزان الخضرية ١٦، ١٧.
(٢)، (٣) الطبقات الكبرى جـ٢ / ١٠٨ ـ ١٠٩، لواقح الأنوار : ٢١١.
(٤) الكواكب السيارة ٢٦١ : ٢٦٢ ابن الزيات.
(٥) ابن العماد الحنبلى شذرات الذهب ٦/ ٢٩٠.
(٦) تعطير الأنفاس : ٣، ٣١، ٢٣٣، ٢٣٤، الطبقات الكبرى للمناوى ٢٩٤.
(٧) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢ / ٨٩.
(٨) الكواكب السيارة ٢٤٦، ٣١٧.

عاقبوه وعلقوه بمذاكره حتى صارو تقدير الجره الكبيرة. ولم يزل ناصر الدولة ابن حمدان بسوال كاتبه أبو الطيب ابن يحنس الزراوى مع اللواتيين يلطف بهم إلى أن اشتراه منهم بثلثة ألف دينار، وزن أبو الطيب منها من عنده وعند غيره ألف دينار وانفذه إلى اسكندرية محتاطاً عليه إلى أن يقوم بألفى دينار الباقية، فلما وصل إليها نزل فى بيعة أبو سرجه وخاطب أولاده فيما هو فيه فاعتذر

المجهولين[1]. وكان الإيمان بالخضر عاماً فى هذا العصر من القضاة والعوام، فادعى شيخ الإسلام سراج الدين العبادى (ت ٨٧٧) أنه كان يجتمع بالخضر[2]، وكان قاضى القضاة البساطى يدعى ذلك[3]، وكانت جنازة ابن حجر هائلة حتى قيل إن الخضر حضرها[4]، وهكذا أرغم الخضر على المشاركة حتى فى الجنازات الهامة.

• المجاذيب

اعتبرهم ابن خلدون نوعاً من الأولياء مع سقوط التكاليف[5] عنهم، إلا أنه عاد فاعتبرهم دون مرتبة الإنسان فلا يلحقون بالأولياء[6]، وفضل ابن عطاء المجذوب على السالك لأن الأول طويت له الطريق ولم تطو عنه[7]، أى أن المجذوب اختاره الله واختصر عليه الطريق، أما السالك فقد تركه الله يقطع الطريق ويسلكها بنفسه. وعلل الشعرانى سبب ذهاب عقلهم بالتجلى الإلهى الذى أتاهم على غفلة فذهب بعقولهم، وجعلهم الشعرانى على ثلاثة

(١) روض الرياحين فى حكايات الصالحين ١٧٤ ، ١٧٥.
(٢) إنباء الهصر ٤٨٥.
(٣) ذيل بن العراقى مخطوط ٢٥.
(٤) التبر المسبوك للسخاوى ٢٣٣.
(٥) مقدمة ابن خلدون ١١٠، ١١١.
(٦) شفاء السائل فى تهذيب المسائل ٨٨ وفى هذا الكتاب ناقض ابن خلدون ما قاله عن التصوف فى المقدمة.
(٧) لطائف المنن ١١١.

بعضهم بالغلا وما الناس فيه فقام مغضباً وقال: إذا قعدتم عنى مضيت إلى القاضى صدقه والى النوبه والى بنى هريســة والمسلمين وأقــتــرض منهم وأتصدق. فمسكوه والتزم بعض أولاده أمره وقاموا عنه بالذى بقى عليه وهو ألفى دينار، ولما تخلص وخرج من خوف المطالبة وفاهم [أعاد اموالهم] ذلك لأنه فى مقامه باسكندرية أقسم عدة أساقفة وأخذ منهم ما أوفا به ما عليه، وكنت أنا موهوب [ابن منصــور] الخــاطى قــد قــمت عنه بالدنانيــر

أقسام تبعاً للورد الإلهى والعقل [١]. وتكون حالة المجذوب بحسب الحالة التى جذب فى أثنائها فإن جذب فى حال قبض (أى اكتئاب) فعمره كله قبض، وإن جذب فى حال بسط فعمره كل بسط وضــحك [٢]، وساد الإعتقاد بأنهم يعيشون فى عالم آخر يقول ابن عنان «إن من شأن المجاذيب أنك ترى أحدهم ماشياً وهو راكب، وتراه يأكل فى رمضـان وهو صائم لم يفطر، وتراه عارياً وهو مرتد لثيابه [٣]» وهذا تصريح للمجذوب بأن يفعل ما يريد. وافتخر الشعرانى بأدبه مع المجاذيب وأرباب الأحوال مذ كان صغيراً، وقال المتبولى سلموا على أرباب الأحوال بالقلب دون اللفظ فإنهم فى حضرة لا يقدرون على خطابى أحد باللفظ [٤]. وأوصى الشعرانى بعدم مخالطة المجاذيب لأنهم يعلمون السرائر والخواطر المذمومة [٥]، أى يعلمــون الغيب الذى لا يعلمه إلا الله تعالى ولما قتل العثمانيون بعض المجاذيب قال الخواص: طاب الرحيل من هذه الديار[٦]».

يقـول الدشطوطى يصف الجذبة «.. فحـصل لى جـاذب إلا هى وصرت أغيب اليـومين والثلاثة ثم أفيق أجد الناس حولى وهم متعجبون من أمرى، ثم صرت أغيب العشرة أيام

(١)، (٢) الشعرانى اليواقيت والجواهر ١٥٥ ـ ١٥٦ وقد ذكر أمثله لذلك فى الطبقات الكبرى جـ٢ / ١٢٠.

(٣) أخبار القرن العاشر ١٣٤. (٤) لطائف المنن ١٨٩ ـ ١٩٠.

(٥) البحر المورود ١٨٥. (٦) أخبار القرن العاشر ٢١٠.

المستقرة عليه للبيع بحكم ما ناله وحملت عنه همها.

وبعد هذا تصعبت الأمور وملكت اللواتيين البلاد وقتلوا صارم الدولة أخو الأمير سنان الدولة ابن جابر الكتامي الذى كان والى مصر فى طنتنا [طنطا] فسمع أبو الطيب الزواوى بذلك فصعب عليه لأنه كان قديماً كاتب لأخيه بمصر وجآ إلى طنتنا وشتم اللواتيين الذى قتلوه فوثب على موسى

والشهر ولا آكل ولا أشرب.. فخرجت سائحاً إلى وقتى هذا»[1]. ولسهولة هذا الإدعاء كثر مدعو الجذب والولاية، وكان المجذوب يوصف عادة بأنه معتقد أى يعتقد الناس فى ولايته وأحياناً بأنه مقصد للزيارة أى يقصده الناس بالتبرك[2]، وكانوا يفسرون هذيانهم على سبيل الكشف وعلم الغيب [3]، وكان المؤرخون يعللون اعتقاد الناس فى صوفى ما بأنه مجذوب ويقولون «لعوام الناس فيه اعتقاد لإندراجه عندهم فى المجاذيب [4]» و«.. حصل له نوع من الجذب فصار للناس فيه اعتقاد[5]» و«.. يذكر بين العوام بالجذب ويعتقد لذلك»[6].

٣ ـ وتمتع المجاذيب بتقديس المماليك لهم [7]، وكان السلطان برقوق يعتقد فى الزهورى

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/ ١٢٠ ، ١٢١.
(٢) من الصعب حصرهم فى سائر المراجع وعلى سبيل المثال : المنهل جـ٣/ ١٨٧، النجوم جـ١١/ ١٣٨، ١٦/ ١٧٧، ١٩٥، ١٣/ ١٨، ابن اياس جـ٢/ ٢١١ط بولاق، ٣٨٦/٤، الضوء اللامع جـ١/ ١٨٤، ٣/ ٥٠ السلوك ٣ قسم ٢/ ٥١١، إنباء الغمر ٣/ ٢٦١، ٣/ ١٥٣، ٥٩/١.
(٣) ابن حجر ذيل الدرر الكامنة مخطوط ٢٢.
(٤) التبر المسبوك للسخاوى ٢٣٧ ترجمة الشيخ بكير ـ وورد فى الضوء اللامع جـ٣/ ١٨.
(٥) تاريخ ابن اياس تحقيق محمد مصطفى جـ٢ / ٣٦٥ ترجمة الشيخ الطوخى.
(٦) الضوء اللامع جـ٢/ ٢٦٠ ترجمة ابن المؤمنى.
(٧) لطائف المنن الشعرانى ١٢٩.

ابن القرن أحدهم فضربه بسيفه وبادر إليه بقيتهم فقطعوه بسيوفهم ورموه فى حفير.

ثم تزايد الغلا والخوف وعدم القمح إلى أن أكلوا الناس الميتة ثم أكلوا بعضهم بعضاً ومنهم قوماً أكلوا أولادهم(*)، وفنى الناس بالوبا والغلا والسيف حتى لم يبق منهم إلا اليسير، ولقى الناس بمصر وأعمالها من الشدايد والمصاعب والبلايا ما تطول السيرة بشرح بعضه.

(*) الشدة المستصريه.

المجذوب حتى لقد كان الأخير يبصق في وجهه [1]. ولما افتتح برقوق مدرسته دخل عليه مجذوب وأعطاه (طوبة) وأمره أن يضعها فى المدرسة، فوضعها السلطان فى قنديل وعلقه فى المحراب، يقول ابن اياس «فهى باقية فى القنديل إلى الآن» [2].. ولا نجد أبلغ من وصف أبى المحاسن لإعتقاد الناس فى يحيى الصنافيرى يقول عنه «هو ممن سلم من الإنكار عليه واجمع الناس على إعتقاده، وهو لا يفيق من سكرته، وكان الناس يترددون إليه فوجاً فوجاً من بين عالم وقاضى وأمير ورئيس، ولايلتفت إليهم، ولما زاد تردد الناس عليه صار يرجمهم بالحجارة، فلم يردهم ذلك عنه رغبة فى إلتماس بركته، ففر منهم وساح فى الجبال مدة طويلة»[3]..

• أرباب الأحوال:

١ ـ شاع هذا المصطلح فى العصر المملوكى خصوصاً فى أواخره، ويقول الشعرانى إنهم (أعطوا فى الدنيا التقديم والتأخير والولاية والعزل والقهر بما لهم من دلال على الله) ويقول الدشطوطى «أرباب الأحوال مع الله كحالهم قبل خلق الخلق وانزال الشرائع»[4]. واحتج ابن

(١) إنباء الغمر جـ٢/ ٥٧، النجوم الزاهرة ١٣/ ١٠.
(٢) تاريخ ابن اياس تحقيق محمد مصطفى ١/٢ ـ ٣٧٣.
(٣) المنهل الصافى مخطوط ٤٨١/٥، النجوم الزاهرة ١١/ ١١٨ ـ ١١٩.
(٤) الشعرانى.. لواقح الأنوار ١٠١، ١٠٢.

ثم وصل إلى الاب انبـا اخـرسطودلوس وهو باسكندرية انسان من أهل البلينا صايغ اسمه بمون بكتـاب من الأمير عدة الدولة مقرب ابن ماضي صـاحب الواح [الواحـات] إليـه يسله أن يجـعله أسـقفـا وأشيع بوفاة انبا بسـيليـوس أسقف ارمنت فـجـعل الاب البطرك بمون المذكـور اسـقف على كـرسي ارمنت عـوضـه واوسم رجـلا اسـمـه بفـام اسقف على الواح وذلك في توت سنة سبع مـاية

الحاج على مدعي ذلك من الصوفية المنحرفين: «ثم أنهم يولون ويعزلون في تلك الأحوال ويخبرون بمنازل أصحابهم.. ولاشك أنها أحوال نفسانية أو شيطانية لأن الفتح من الله لا يكون مع ارتكاب المكروهات أو المحرمات»[1]، أما المرسي فيعلل تميزهم هذا بضعفهم عن كتم أحوالهم وضيقهم عن وسعها [2]، وبالغ بعضهم في إدعاءاته، يقول المتبولي: «وعزة ربى لتتوزع أحوالي بعدى على سبعين رجلاً ولايحملون» [3] أى لن يستطيعوا تحمل الحملات مثله.

٢ ـ وقد يكون الحال بمعنى الإنفعال الصوفى الحاد، فالشيخ أبو الحمايل «كان يغلب عليه الحال فيتكلم بالألسن العبرانية والسريانية والعجمية، وتارة يزغرت في الأفراح والأعراس مثلما تزغرت النساء، واذا اشتد عليه الحال في مجلس الذكر ينهض قائما ويأخذ الرجلين ويضرب بهما الحائط [4]»، وتمثل هذه الحالة إحدى درجات الجذب، وقد جمع بعض الأولياء بين المرتبتين مثل عبيد البلقيني الذى «كان من أرباب الأحوال والكشف، حصل له جذب في أول عمره..»[5].

(١) المدخل جـ٢ / ١٥١.
(٢) الشعراني . الطبقات الكبرى جـ٢ / ١٧.
(٣) الطبقات الكبرى. الشعراني جـ٢ / ٧٦.
(٤) الطبقات الكبرى ـ الشعراني جـ٢/ ١١٠، جـ٢ / ١١١.
(٥) الطبقات الكبرى ـ الشعراني جـ٢/ ١٢٧.

سبعه وثمنين للشهدا، وسيرهما صحبة انبا جرجه اسقف بطو ليكرسهما ويتوجه بكتابه إلى ملك النوبه يلتمس فيه شياً يسعفه به ليصرفه فيما تقرر عليه للواتيين ويعلمه بما جرى عليه. فلما وصلو إلى ارمنت وجدو اسقفها حياً لم يمت أعنى ابا باسيليوس وكان قديس روحانى، وحكى احد أولاده وهو الآن قس اسمه مينا أنه كان في زمان الغلا لا يدع في بيته خبز إلا ويتصدق به، وانه في

---

٣ ـ وكان من السهل تعليل ما يصيب الأولياء من أمراض بأنها «حال» وقد عد الشعرانى من المنن معرفته بطب أرباب الأحوال[١].

واستغل أرباب الأحوال شهرتهم في التسول واعتبروه حقاً لهم لأنهم يدفعون البلاء [٢].

* أصحاب النوبة:

١ ـ في أواخر العصر المملوكي برزت تقسيمات عدة للأولياء، بالإضافة لما سبق مثل الكمل والعارفين وأصحاب الحضرة وأصحاب الوقت، إلا أن أصحاب النوبة هم الأشهر وهم الذين يحفظون أدراكهم (أى الأماكن التى يحرسونها) في سائر الأرض وعليهم قضاء الحوائج[٣]. وحديث الشعرانى عنهم متناقض فهو يجعل نفسه أحياناً مساعداً لهم فيطوف بقلبه على جميع أقطار الأرض، وفي نفس الوقت يحرص على استئذانهم كلما خرج من بيته ليكون فى رعايتهم [٤]، فلا نعرف هل يعد نفسه منهم أم لا، ويذكر أن شيخه الخواص كان أحدهم ، ويتمتع بالتصريف في ثلاثة أرباع مصر وقراها، وكثيرا ما يرسل الحوائج إلى الشيخ محسن المجذوب الذى جعله من أصحاب التصريف في الربع الباقي، مع أنه «صاحب درك

(١) لطائف المنن ٣٥٥.. الشعرانى.
(٢) لطائف المنن.. الشعرانى: ٤٠.
(٣) لطائف المنن. الشعرانى ١٤٤، ١٥١.
(٤) لطائف المنن ١٤٤، البحر المورود ٨٩، ٩٠.

ليلة من الليالى طرقه رجل مستور فدق باب منزله فقال لولده هذا مينا اعطه خبز ولم يكن بقى عنده الا رغيفين فدفع له منهما رغيف، ثم قرع الباب اخر فدفع له بعض الرغيف الاخر وبقى بعضه فلما هم ان يفطر عليه قرع الباب اخر فضجر ولده المذكور كما قال عن نفسه فالزمه ان يدفع بقية الرغيف للذى قرع الباب فدفعه له وبقى بلا شى يفطر عليه، فلما كان بعد وقت من الليل قرع

بحـــر الهنده[1]، ثم يذكر أن أصحاب النوبة كانوا فى صراع مع الخواص، يعارضهم ويعارضونه، وانتهى الصراع بمقتل الخواص[2].

أما الشيخ محيسن فقد أعطبوا رجله[3]، ومن السهل تفسير هذا التنافس بالصراع المحتدم بين الأولياء فى نهاية العصر حول المريدين والنذور والنفوذ.

٢ ـ وقد احتج الشعرانى على منكرى أصحاب النوبة ووصفهم بأنهم لم يدخلوا دائرة الولاية قط فلو دخلوها لعرفوا أهلها[4]، ووصف الخواص وأبو الفضل الأحمدى بمعرفة أصحاب النوبة فى سائر أقطار الأرض ومعرفة من تولى منهم ومن عزل[5]. ولما دخل السلطان سليم العثمانى مصر أرسل الخواص فقيراً ينظركم معه من أصحاب النوبة [6] (أى من يساعده منهم).

٣ ـ وقد وصف أصحاب النوبة بالشدة والعنف كانعكاس للصراع بين الأولياء وقتها، يقول الشيخ حسن العراقى «لا يأذن أصحاب النوبة لفقير أن يسكن فى مصر إلا إن كان مراعياً

(١) لطائف المنن ١٤٦.
(٢) الطبقات الكبرى جـ٢/ ١٣٠.
(٣) الطبقات الكبرى جـ٢/ ١٢٤.
(٤) لطائف المنن ص ١٤٤.
(٥) الطبقات الكبرى جـ٢/ ١٣٠، جـ٢/ ١٥٠.
(٦) الطبقات الكبرى جـ١٣١/٢.

الباب فقال لولده اجب من يدق الباب فقال وهو ضجر مغضب: [ما] بقى عندنا شى ندفعه لمن يدق كيف اكلمه وليس عندنا شى نعطيه؟. فالزمه باجابته فنزل اليه وفتح الباب فدفع اليه شخص ما يعرفه ولا ابصر وجهه طعاما فى منديل ومضى ولم يرجع إلى الان ولا طلب المنديل.

فلما وجدوا الاسقف حى لم يمت سار بمون مع انبا جرجه اسقف بطو الى ملك النوبة، فلما

للأدب معهم، والا أخرجوه إلى القرى أو إلى خارج السور، وعد الشعرانى من المنن حفظه من تصريفهم فيه بمرض أو سلب حال(١)، وأوصى الخواص بالإستعانة عليهم بالله ورسوله(٢)، ولا شك أن المقصود بهذه الصفة هم الأولياء المنافسون، فالخواص هو نفسه القائل «قل من فقراء الزمان من يعرف أنه تحت حكم أصحاب النوبة.. ولو عرف لسألهم ... وأنتظر ما يقع منهم من تولية أو عدمها(٣). وهو يقصد نفسه.

*أصحاب الوقت:

لا اختلاف بينه فى المفهوم عن أصحاب النوبة، اللهم إلا إندراج العلماء بينهم ولهم تقريباً نفس حقوق أصحاب النوبة(٤)، وقد أكثر الشعرانى من الحديث المعاد عن أصحاب الحضرة الإلهية والكمل والعارفين(٥) عدا تصنيفات أخرى لم يجد الخواص لها أسماء(٦). مما يجعل القارئ يتخيل عدد الأولياء مساوياً لأعداد الناس فى نهاية العصر، وإن كانت الصفات منحوتة من بيئة العصر وتصوراته وهو اجسه وتخيلاته، بينما كان العقل غائباً فى أجازة مفتوحة.

(١) لطائف المنن ص ١٤٧.
(٢) الطبقات الكبرى جـ٢ / ١٤٤.
(٣) الشعرانى. ارشاد المغفلين ص ٢٧٣.
(٤) لطائف المنن ٢٥٦، ٢٧٧.
(٥) لطائف المنن ٣٦٥، ٣٩٢، ٢٩١.
(٦) لواقح الأنوار ٩٩.

وصلا اليه اكرمهما وكرز انبا جرجه للملك بيعة بناها جديدة فحلت الروح القدس على احد الاوعية التى فيها ما [ماء] التكريز فاخذه الملك بيده ومضى به الى منزله، وكرز فى هذه البيعة اربعة هياكل فى ذلك اليوم ودفع له الملك ما اوصله الى البطرك ابا اخرسطودلوس الى اسكندرية وبمون معه، ومن بعد هذا اعاد بمون الى اعمال ارمنت واقام فى [ضيعة تعرف..] الى أن تنيح

ثانياً: مهام الأولياء:

*الحملات:

١ ـ يقال أن الولى يتحمل الحملة أى ينوب عن المصاب فى تحمل مصيبته. وقد شاعت هذه الفكرة فى العصر المملوكى، وقد نصح الشعرانى بصحبة الفقراء لأنهم يحملون عن أصحابهم المصائب فى الدنيا [١]. وقد وضع لها القواعد فلا يحمل الشيخ إلا عن أبناء حارته وإلا فقد تعدى دائرته [٢]، وشرط الولى الذى يحمل الحملات الإتصاف بالذلة، والفقر، وكثرة الملازمة فى المراكب الإلاهية، وألا يأخذ عنها مقابلاً، وكف الجوارح عن المحرم والمكروه والشهوات المباحة، والصيام أيام التحمل والتخلق بالرحمة[٣].

ويستلزم التحمل جهداً من الولى فهو يحس بالأوجاع فى جسمه وقد يبقى دون طعام أو شراب أو نوم أو نظافة أو لباس جديد [٤]، وقد أخبر بعض أهل الكشف أن إحمرار الماء الذى تحت بيت الشعرانى فى الخليج إنما هو من كثرة الهموم النازلة علية!!، ويقول إن هذا الأمر قل

(١) صحبة الأخبار ٣٩.
(٢) تنبيه المغترين ١٣٦.
(٣) لطائف المنن للشعرانى ١٤٩: ١٥١، ١٧٢.
(٤) لطائف المنن فصل الشعرانى فيه ما يقاسيه بسبب التحمل ٣٢٢: ٣٢٣، ٥٥١.

الاسقف ابا بسيليوس فدخل [بمون] إلى ارمنت وكرز فيها في اليوم الثاني من توت سنة سبع مايه سبعه وتسعين للشهد، وبعد هذا جرى بينه وبين اسقف قوص ابا بدير خصومة فمضى ابا بدير الى ابا اندونه اسقف اسيوط وابا متاوس اسقف فاو واخذ خطهما بانه مقدماً على ابا بمون بحكم ان ابا بديركرز بعد نياحة ابا باسيليوس الذى كان قبله واحتجو بان الذى تكرز أكبر من المكرز، وكان

من يفعله في عصره من المتمشيخين، وغاية أمر أحدهم أن يتوجع باللسان فقط[1]!! وقد تحمل الشعراني عن رجل وامرأته حين ماتت ابنتهما فكاد لحمه وعظمه أن يذوبا!! ويطلب الشعراني من إخوانه ألا يغضبوا حين يرونه عابساً ضيق الصدر فربما كان مشاركاً في حملة لحاكم أو لإمرأة مات ولدها أو كانت في الطلق[2]، وكان إذا نزل بالمسلمين هم أوغم لا يقر قرار حتى يرتفع[3]، وهو يتحمل هم عدوه أكثر من إهتمامه بهم صديقه[4]، وأكثر حملاته عن المرضى[5]، وكان من وقعت له مصيبة يأتي للشعراني فيحملها عنه ولا يتخلف. والحملة تخف بحسب الإعتقاد وتثقل بعدمه[6]، أي إذا كنت تعتقد في الشيخ فعلاً فإنه يحمل عنك مصيبتك فيخف وقعها عنك، وإن لم تكن تعتقد فالويل لك!!.

٢ ـ والقارئ للشعراني يتصوره بطل الحملات الوحيد، إلا أن الأولياء السابقين قد ادعوا ذلك وإن كانوا أقل مقدرة من الشعراني في سبك إدعاءاتهم ، وعامة فإن الحديث عن الحملات في أقوال متصوفة المماليك البحرية فالمرسي يلوم العامة لأنهم ينفضون عن الولى الذى بين أظهرهم «مع أنه هو الذى يحمل أثقالهم ويدفع الأغيار عنهم[7]، ويقول ابن عطا

(١) لطائف المنن ٥٥١.
(٢) لطائف المنن ١٥١.
(٣) الطبقات الكبرى جـ٢ / ١٤٨.
(٤)، (٥) لطائف المنن ٥٧٢، ٣٥٢، ٣٥٣.
(٦) لطائف المنن ١٢٣، ١٢٤.
(٧) الطبقات الكبرى للشعراني جـ٢ /١٨.

ذلك بعد وفاة انبا اخرسطودلوس وجلوس انبا كيرلص القديس فانتهت حالتهما الى الاب المذكور فحكم بان التقدمه لابا بمون اسقف ارمنت بحكم ان الاب انبا اخرسطودلوس وضع يده عليه قبل ابا بدير وان اسمه ثبت في منظرة الاساقفة وان تأخير تكريزه في كرسيه لا يوخره عن طقسه في التاريخ الذى اوسم فيه ويقدمه على من اوسم بعده ولو بيوم واحد، واوجب الطقس لابا بامون اسقف

وفا «إذا حصل لى وارد من واردات الجلال إنما هو تحمل عن الخلق [١]، وفى حكاية للسبكى «تحمل شيخ ألم مريده حتى خرج عن الصلاة فبرئ المريد[٢]»، وفى مناقب الحنفى - فى القرن التاسع - أن بعضهم تحمل الرمد عن غيره فشفاه[٣]، حتى إذا أهل القرن العاشر فأضحت الحملات ميدان المزاعم الصوفية، فيدعى المتبول أنه يتحمل ما يعجز عنه سبعون رجلاً من الأولياء[٤]، وكان أبو الفضل الأحمدى يحمل هموم الناس «حتى صار ليس عليه أوقية لحم[٥]»، ويدعى أفضل الدين الشعرانى بأنه منذ عشر سنين يحس بأن جسمه فى طبق من نحاس على نار من غير ماء ولحمه ودهنه يطشطش وهو صابر، وذلك «من كثرة توجه الناس إليه فى شدائدهم، فيحملها عنهم ويعانى بدلاً منهم»[٦].

٣ - وكانت الحملات مجالاً للصراع بين الأولياء، فأثناء خلاف الشعرانى مع ثلاثة من أصحاب النوبة حصل له الفرج على يد الشيخ محمد البهوتى، الذى تحمل عنه بعد أن أبى الحملة ثلاثون من الأولياء، فبرئ الشعرانى بعد أن كان قد مكث تسعة أيام بلا أكل أو شرب أو نوم[٧].

---

(١) مناقب الوفائية مخطوط ٤٨.
(٢) طبقات الشافعية جـ٥ / ٢٣.
(٣) مناقب الحنفى ٣٤٠ مخطوط.
(٤) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢ / ١٠٥.
(٥) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/ ١٥٠.
(٦) لطائف المنن ١٤٣ - ١٤٤.
(٧) لطائف المنن ١٤٧.

ارمنت المذكور الموسوم اسقفاً قبله ولا يوجب لبدير
ان يتقدم عليه. واحتج عن ذلك بحجج صحيحة
منها ان يوحنا المعمدان وضع يده على راس سيدنا
يسوع المسيح له المجد الذى قال عنه انه لم يزل
قبله وانه اقدم منه، وايضاً فان الاساقفة يضعو
ايديهم على البطرك فى وقت قسمته فهل يقدرو
لاجل هذا يتقدمو عليه. واصلح بينهم وزال
السجس عنهما. وحكى لى لوقاس شماس كنيسة

---

٤ ـ وقد يتعاون الأولياء فى الحملات فيرسل المرصفى وغيره الحملات للشيخ بركات الخياط، فيضعون له الحجر على حانوته، فيعلم بالحاجة ويقضيها، ويقول «الإسم لطوبة والفعل لأمشيره»[١] ، مع أنه لو كان ولياً حقيقياً (عندهم) لعرف الغيب وما احتاج إلى حجر يوضع على باب دكانه، ولكن الأساطير تخلو من المنطق.

وكان سويدان المجذوب يحمل الحملات، وكل من حمله حملة وضع حبة من الحمص فى فمه ليتذكر قصته، فربما امتلأ فمه من الحمص، ويظل كذلك شهراً حتى تقضى الحوائج[٢]، وكان الخواص يرسل الحملات الثقال للشريف المجذوب فيقوم بها[٣]، وبدون حمص !!.

والواضح أن شيوع الاعتقاد فى الحملات كان لتبرير النذور والأموال التى كان يحصل عليها الشيوخ من الناس.

***النظرة:**

١ ـ واذا كانت الحملة فى الغالب يتحملها الولى عن الجميع فإن النظرة أو النفحة للمريدين والأتباع القريبين.

....

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢ /١٢٥، الغزى: الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة جـ١ / ١٦٧/.
(٢) الطبقات الكبرى جـ٢/١٣٥. الغزى: الكواكب جـ١/ ٢١٣.
(٣) الطبقات الكبرى جـ٢/ ١٣٠.

السيدة بارمنت انه ابصره وقد كرز مذبح فى البيعة المذكورة فى سنة ثمان ماية وواحد للشهد، فلما فرغ اخذ شقاف الاوعية التى فيها ما[ء] التكريز ورماها بيده فى البير التى فى هذه البيعة فصعد الما حتى انتهى الى نصف البير وعلامته إلى الان باقية. وحكى جماعة من اهل الصعيد ان كنيسة بطرس راس الحواريون بحرارة [بالحرازة] قريب ارمنت لما كرزت فاض الما من القدور حتى اندفق فى صحن البيعة.

دراويش من مختلف الأجناس

---

٢ ـ وقد كان الشاذلى يربى أولاده بالنظر من غير كلام [١]، ويقول المرسى «والله ما بينى وبين الرجل إلا أن أنظر إليه نظرة وقد أغنيته» [٢]، والمريدون من جانبهم يعترفون بأثر نظرة الشيخ فيهم، يقول أحدهم «فلما جلست نظر إلى الشيخ وأمدنى بما أمدنى، ثم قال لى إنصرف إلى بلدك فقد استغنيت» [٣]، ويقول الشعرانى عن أحد المجاذيب «كان يحبنى وكنت فى بركته وتحت نظره» [٤]، وينتظر المريدون خروج الشيخ من خلوته لتكون نظرته إليهم أوقع فى الأثر، وقد اختلى شمس الدين الحنفى أربعين يوماً فاستعد مريدوه للظهور بين يديه حين يخرج وقالوا «غداً يظهر سيدى من الخلوة فكل من وقع نظره عليه حصلت له السعادة.. فلما كان وقت السحر ظهر سيدى ووقع نظره على فقال لى محمد قلت نعم يا سيدى، قال : والله لقد حصلت لك السعادة الكلية» يقول الراوى فكل ما أنا فيه من ثمرات تلك النظرة». حتى أنه تقطب قبل موته (أى أصبح قطبا)، وقد وقع نظر الحنفى على كلب فأصبح الكلب ولياً بفضل تلك النظرة يقول الراوى : «فهذه نظرة رجل من الأولياء وقعت على كلب غير

(١) قواعد الصوفية جـ١/ ١٩٢ وقد أخذ عنهم الشعرانى التربية بالنظر ـ لطائف المنن ٣٩٢.
(٢) ابن عطاء لطائف المنن ٥٦.
(٣) الكواكب السيارة ١٥١، تحفة الأحباب ٢٩٠.
(٤) الطبقات الكبرى جـ٢/ ١٢٢ الشعرانى.

فأما الاب اخرسطودلوس فظهر فى أيامه ايات وعجايب كثيرة، وكان فى زمانه جماعة من الابا والرهبان القديسين (وهوذا اذكر يسير من ذلك ليلا تطول السيره بشرح جميعه)، كان قد وصل إلى ا سكندرية ابا ايليا اسقف طموه [مركز الجيزة] وهو شيخ كبير جداً فحدثنا بعجايب كثيرة، وقد كنت سمعتها من غيره ممن حضرها وشاهدها وهو الشماس ابو حبيب ميخاييل ابن بدير مساعدى

رقص الدراويش

مكلف، فكيف لو وقعت على آدمي؟ أو على أحد من جهة ذلك الولى مثل خادم أو ولده أو على واحد من تلاميذه ؟!!»[1]، وهو سؤال يستحق الإجابة فعلاً ؟

٣ ـ وقد يعبر عن النظرة باللحظ، خاصة فى المراجع غير الصوفية، فالسبكى يقول عن ابن الحسين الأنصارى» كان إذا ألحظ شخصاً انتفع بألحاظه» [2]، ووصل الشيخ محمد الحنفى إلى ما وصل إليه » بلحظ الشيخ أبو العباس السوسى» [3]، والسخاوى يكثر من استعمال هذا اللفظ فيقول عن الزين عبد القادر إنه «انتفع بلحظ أبجد المجنون»، وقال عن الكتانى أنه «انتفع بلحظ الشيخ عمر بن عيسى» [4]، ويقول عن نفسه «إنه انتفع بالشيخ الغمرى»، «وصليت بجانبه ولحظنى» [5].

وفى المراجع الصوفية إستغاثت فتاة بالشيخ فقالت: «لا حظنى يا شيخ أبى» [6]، ويقول الشعرانى عن شيخه على النبيتى «فحصل لى منه لحظ، وجدت بركته فى نفسى إلى وقتى هذا»[7]، وبهذا المفهوم تختلط النفحة باللحظ والنظرة.

(١)مناقب الحنفى مخطوط ٢٧٤ : ٢٨٣ .
(٢) طبقات الشافعية جـ٥/ ٢٢ .
(٣) شذرات الذهب جـ٧ / ٢٩٧ .
(٤) الضوء اللامع جـ١ / ٧، جـ١ / ٢٥١ .
(٥) التبر المسبوك ١٣٧ .
(٦) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢ /٩٠ .
(٧) الطبقات الكبرى جـ٢ / ١٠٩ .

على نسخ السير وتفسيرها من القبطي(*) الى العربي، منها انه قدس ، اعنى الاب الاسقف المذكور، يوم عيد مارى بقطر الشهيد الجليل بكنيسته التى بالجيزة فلما تنصف القداس راى نور عظيم على صورة الست السيدة مرتمريم العذرى الطاهرة التى فى شاق [أعلى] الهيكل وثبت النور عليها طويلا وشاهده جميع الشعب الحضور فى العيد وحدثنى القس يونس ريس دير نهيا انه كان

(*) أبو حبيب ميخاييل ابن بدير، وهو الذى كان يترجم سير البطاركة من القبطى إلى العربى.

يقول السخاوى عن أحدهم «وقد عادت علىّ نفحاته وبركاته ونفعنى دعاؤه» (١)، وقد صحب الشعرانى الشيخ الزفتاوى نحو خمس سنين وحصل له منه «نفحات»، وقال نحو ذلك عن شيخه صدر الدين البكرى (٢).

ثالثاً: الاعتقاد فى كرامات الأولياء الصوفية:

***الكرامات فى فكر الخاصة واعتقاد العامة فى العصر المملوكى:**

١ ـ استلزم الاعتقاد فى الأولياء الاعتقاد فى مقدرتهم على الإتيان بالخوارق، أو ما عرف فى العصر المملوكى بالكرامات، التى شاع الإيمان بها فى العصر المملوكى تبعاً لإزدهار التصرف، حتى لقد فرضت نفسها على تفكير الخاصة واعتقاد العامة كما لو كانت معلوماً من الدين بالضرورة.

ويمكن أن نجمل تفكير الخاصة أو العلماء فى العصر المملوكى فيما يخص الكرامات فى اتجاهين: اتجاه عملى هو ألصق بالمتحررين منهم ، واتجاه نظرى يعتقد فى حدوث الكرامة مطلقاً أو مع بعض تحفظات.

....

(١) الضوء اللامع جـ١ / ١٨٩ .

(٢) الطبقات الكبرى جـ٢/ ١٢٨ الشعرانى.

حاضر ذلك اليوم وابصر النور فمضيت انا الخاطى وتباركت من الصورة المقدسة.

* * *

قال يوحنا ابن صاعد ابن يحيى المعروف بابن القلزمى ناسخ هذه السيرة فى السيرة التى نسختها انا المسكين جرجه ابن مذكور من نسخة بخط المذكور انه مضى إلى البيعة المذكورة فى يوم عيد القديس مارى بقطر بالجيزه واسقفها فى ذلك الوقت ابا حذقيه القديس الفاضل وحدثه جماعة

---

٢ - وكبار الصوفية يعتقدون فى إمكانية حدوث الكرامات مطلقاً، فكتاب المناقب الصوفية يثبتون الكرامة فى مقدماتها ليؤمن القارئ بما حشدوه فيها من أساطير [١]. وقد أجهد اليافعى نفسه فى الاستدلال على جواز الكرامة عقلاً ونقلاً [٢]، وكعادة الصوفية لا يفرقون بينها وبين المعجزة إلا فى عدم التحدى كشرط لوقوع الكرامة [٣]، لتتاح الفرصة للتهرب من إثبات الكرامة عملياً. والقارىء لمناقب الحنفى تهوله كثرة الكرامات فيها مع أن المؤرخ أبا المحاسن كان معاصراً للحنفى وترجم له ترجمة عادية خالية من ذكر أى كرامة له [٤].

وقد دان علماء العصر المملوكى عامة بالتصوف باطراد يتناسب مع الأزدهار المستمر للتصوف من بدايته إلى نهايته، ففى أوائل العصر كان ابن خلدون يرى وقوع الكرامة أمراً صحيحاً غير منكر [٥]. ويقول السبكى إن من حق الصوفية إظهار الكرامات للبشارة أو الإنذار أو التربية [٦]، وبينما انصرف جهد السيوطى - فى نهاية العصر - إلى إثبات نواح من الكرامات لم تخطر على بال المتصوفة الأولين، فيصنع رسالة فى إثبات تطور الولى وتواجده

(١) فى مناقب المنوفى فصل فى المقدمة عن إثبات الكرامة.
(٢) اليافعى. فضل مشايخ الصوفية ص ١٧ وما بعدها.
(٣) اليافعى. روض الرياحين ٢٠٥. الشعرانى، فتح المنة فى التلبس بالسنة ٢٢.
(٤) حوادث الدهور جـ١ / ١٤٠. (٥) المقدمة ١١٠، ٤٧٤.
(٦) السبكى. معيد النعم ١٥٩..

من الشعب الذين حضرو فى ذلك اليوم بمثل ذلك من حلول النور على صورة السيدة الطاهرة المصورة فى شاق الهيكل، وانه تامل الصورة فراى الاصباغ التى عليها تقلعت واستعلم السبب فى ذلك فاعلمه بعض الكهنة انه لما حل عليها النور وفرغ القداس تزاحم الكهنة عليها بالشمع ليختموه على جسم الصورة ليكون معهم بركة فى بيوتهم فانقلعت الاصباغ فى الشمع التى طبع عليها.

فى مكانين مختلفين فى وقت واحد [١]، أو ما تعبر عنه كتب المناقب أحيانا بوجود أكثر من جثة للولى فى أماكن مختلفة.

٣ ـ وكانت لبعض العلماء فى أوائل العصر تحفظات على وقوع الكرامة، لا تنال من إمكانية وقوعها من حيث المبدأ، فابن تيمية يرد كرامات المتصوفة إلى فعل شيطانى ويسميهم أولياء الشيطان ويفرق بينهم وبين أولياء الرحمن. ويرى الأدفوى أنه لا مانع عقلى أو شرعى من وقوعها «.. ولكن اطرت العادة المستمرة بعدم وقوع ذلك والعوائد يقضى بها فى حكم الشرع باتفاق أئمةالإجتهاد.. والأمور البعيدة يتعجب من وقوعها ويتوقف فى قبولها إلا إذا علم صدق الخبر كما فى قصص القرآن عن زكريا ومريم وامرأة ابراهيم، ولا تثبت الكرامة لمجرد اشتهارها واستفاضتها عند الفقراء فإن الكذب فيها كثير، وكثير من الصوفية جاهل بصحة النقل أو مغفل يروى بحسن الظن، ثم إن أكثرها مرسلة وبعضها مبنى على التوهم..» ويرى أنها لوسلمت من ذلك ورويت على نسق الحديث المتواتر قبلت بشرط ألا تكون بعيدة فى العادة، وقد وقع مثلها[٢]. أى أن الأدفوى سلم بالمبدأ دون التطبيق، ومع جرأته الواضحة إلا أنه خلط ـ كمحدث ـ بين المعجزة والكرامة.

(١) رسالة السيوطى: القول الجلى فى تطور الولى.
(٢) الطالع السعيد ٣٧٠، ٣٧٣.

قال واضع هذه السيرة وحدثني القس يونس ريس دير نهيا المقدم ذكره ان صبيا يعرف بابن حالومه كان من جملة الحاضرين فى ذلك اليوم وابصر النور وانه صار بعد ذلك يتعاهد الموضع فنظر النور دفعة أخرى على تلك الصورة المقدسة. وكان بالقرب من البيعة مسجد وفيه موذنا يضر الامنوت [البواب] ويعاديه فعمد ولد الامنوت الى طوبه حك به صورة الشهيد مارى بقطر وقال له:

---

٤ ـ ولأن التصوف أصبح حرفة فى العصر المملوكى، والكرامات مؤهلها الأساسى، فقد كان للأولياء طرقهم الخاصة فى انتحال ما يخدعون به العامة. وقد فطن لذلك بعض العلماء ممن نعدهم ضمن أصحاب الإتجاه العملى المتحرر.

وأبرزهم الجوبرى الذى فضح أساليبهم ضمن ما سجله فى كتابه «المختار فى كشف الأسرار» فكان يذكر الكرامة ثم يتبعها بكشف سرها، ونذكر بعض الأمثلة: يقول عمن جعلهم فى الدرجة الثالثة من المشايخ «.. ومنهم من يتعاطى النزول فى التنور، وقد أوقد فيه قنطاراً من الحطب فينزل فيه ثم يغيب ساعة ويطلع» ثم يشرح الجوبرى تصميم التنور وكيف أن حرارته من أعلاه، وأسفله بارد فلا تضر الشيخ، وذكر طريقة أخرى وهى أن الشيخ يطلى جسده بمادة عازلة «.. التى يعملونها لمنع النار فمن ذلك يؤخذ الضفدع ويسلق حتى ينضج ويتفتت.. ثم يرفع عن النار حتى يبرد فإذا برد جمد الدهن على وجه الماء فيؤخذ الدهن ويضاف إليه الشئ من البارود الثلجى، ثم يلطخ به جسده ويدخل النار فلا تضره»[١]. وقد يلطخ الشيخ أصابعه بهذا الدواء، ويتقدم ويشعل أصابعه من الشمع «ولا يزال يرقص وأصابعه تشتعل حتى يضج الخلق، ثم يدنون الشمعة، فيشعلها ويطفى أصابعه» وفى هذه الحالة يضيف النفط إلى الدواء السابق[٢].

(١) الجوبرى. المختار فى كشف الأسرار ٢١، ٢٢.

(٢) نفس المرجع ٢٣.

مـا تقـدر تخلصنا من هذا الموذن. فلحـقتـه علة الارتعاش جميع ايام حياته وكان اكثر اوقاته يصيح قـايلا: هوذا قـد جـا يعاقبني. ثم انه استـعان بأبا حذقيه اسقف الجيزة وساله الى ان جا الى الصورة وصلى بين يديه وسـال الشـهـيد فـانصلحت حـاله قليل ومات.

وكـان في البـرية بوادى هبـيب بدير ابو كـمـا

وبعض المشايخ يوهم المريدين بنبع الماء من أصابعه، «وكشـف ذلك أنه يأخذ مصران غنم فيدبغه بعد غسله ثم ينقعه بماء الورد سبعة أيام، وبعد ذلك يأخذه فيربط طرفه الواحد ربطاً جيداً، ثم ينفخه في الهواء حتى يجف فإذا جف.. أخذه ثم ملأه ماء.. ثم جعله في قميصه، وقد عمل له حمالات من تحت القميص.. فإذا أراد أن يسقى الناس جعل رأس المصران في فم الوعـاء وهو دائر من حـيث لا يعلم به أحـد، ثم يفك رأس المصـران بظفـره، فـينزل الماء في الوعـاء» [١]. ومنهم من يبقى «أربعين يوماً لا يأكل ولا يشرب ويدعون أن طعامهم التسبيح وشرابهم التقديس»، وذكر عدة طرق لذلك يستعمل فيها بذرة الحبة القمحاء أو كبد الغزال العطشان حين يمتنع عن شرب الماء، أما من يمتنع عن الطعام فيستعين بمسحوق من أكباد الخرفان وذكر طريقة عمله.. وتابع الجوبرى هتك أسرارهم «كمن يظهر في ظلام الصحراء عامود نور إلى عنان السماء» «ومن يقف يصلى تحت الشجرة فتسجد له» «ومن يظهر الفواكه في غير أوانها» «ومن يأكل الحيات والنار، ومن ينبع له الماء في الصحراء» [٢]. ثم يقـرر أن هؤلاء المشايخ مجمعون على بطلان معجزات الأنبياء ويعتقدون أنها «مثل هذا النوع الذى سلكوه» [٣].

(١) نفس المرجع ٢٢، ٢٣ وذكر طريقة أخرى ص ٢٦.
(٢) نفس المرجع ٢٤: ١٤٢.
(٣) نفس المرجع ٢٨٠.

راهب قديس اسمه بسوس عليه نعمة عظيمة
وموهبة روح القدس كانت حالة عليه، وشاهدت
وسمعت منه عجايب كثيرة منها اننا لما سمعنا
خبره ونحن فى اسكندرية، من راهب قس يسمى
ابو يعقوب وهو رجل قد تصدق بمال عظيم
وترهب، فخرجنا جماعة الى الديارات فى طوبه
سنة سبع مايه وثمنية وسبعين للشهد،واخذنا بركة
راهب قديس أيضاً اسمه يعقوب قمص ديربرموس

---

٥ ـ وقد وردت إشارات تؤيد الجويرى فى مصادر أخرى.. فابن الحاج اعترض على من يدخل النار ولا يحترق[١]، وأكتشف ابن تيمية حيل الأحمدية فى دخولهم النار وواجههم بذلك[٢]، وقيل عن بعض الصوفية أنه كان صائم الدهر بخانقاه سعيد السعداء «يصوم الدهر ويفطر دائماً على حمص مصلوق بغير ادام»[٣].

وقد اشتهر محمد بن عبد الله المرشدى فى مصادر العصر المملوكى بأنه كان يطعم الضيوف ما يشتهونه فى خاطرهم، وقد أورد الصفدى السر فى ذلك «وحقيقة الأمر أن هذه الكرامات إنما كانت بصناعة مقررة بينه وبين قاضى فوه فإنهما كانا روحين فى جسد، وكان قد تحصن بالشيخ فلم يقدر قاضى القضاه ولا أحد على عزله... ولم يبق له دأب إلا تلقى من يصل من ذوى الأقدار قاصداً زيارة الشيخ لأن فوة طريق منيه مرشد، فإذا وصل الزاير أنزله وأضافه وشرع فى محادثته ومحادثة من معه حتى يقف على مافى خواطرهم وما يقترحونه، ثم أنه يبعث بذلك إلى الشيخ على دواب مركزه فى الطريق بينهما، وبمده من الأصناف ما لعله لا يكون عنده، ويعطيه حلية كل رجل من المذكورين واسمه»[٤].

(١) المدخل جـ٢/ ١٠٢.
(٢) تاريخ ابن كثير جـ١٤ / ٣٦.
(٣) تاريخ قاضى شهبه. مخطوط جـ١ / ٦ ترجمة ابن صديق التبريزى.
(٤) الصفدى . أعيان العصر مخطوط جـ٦ قسم١ ورقة ٤٨، ٤٩.

وهو اخـــو الاب ابا اخــرسطودلوس البطرك فى الرهبنة كان له أيضاً عجايب وامور كثيرة، ومضينا الى دير ابو كما وبتنا عند القديس بسوس فاكلنا مما احـضـره لنا وكنا احـد عـشـر رجلا واتانا بجـرة صغيرة وبارك عليها فشربنا منها كلنا الى ان قاربنا لنسكر ولم تنقص الجرة الا الى مقدار نصفها. ولما اصـبـحنا سـالنا ان لا ندع احـد من اراخنة مـصـر الذين يخـرجـون الى تلك البـرية للغطاس ياتوه

ومع ذلك فلم يتأثر اعتقاد العامة فى الأولياء، ويقول الفقيه البقاعى عن أحد المعتقدين «وكان للناس فيه اعتقاد كبير جداً وينسبون إليه مكاشفات ولم يظهر إلى أنا شئ من ذلك، فإنه بشر غير واحد من أصحابنا بأشياء لم تقع»[١]. ومن النص يتضح عمق اعتقاد العامة فى الصوفية حتى ولو أخطأ أحدهم فى دعاويه.

والواقع أن الناس فى العصر المملوكى كانوا على استعداد لتصديق الكرامات وتناقلها، فكان مجرد إشاعة كرامة ما كفيل بتوجه الناس جميعهم إلى صاحبها زائرين ومعتقدين ومتوسلين [٢]، واستجابة لتلك العاطفة الشعبية حاول علماء العصر المملوكى أن يجدوا أصلاً شرعياً للكرامات، فوضعت فيما بعد كرامات لصوفية القرنين الثالث والرابع الهجريين كما فعل الذهبى والسيوطى، ولم يعثر على أصولها التى نقلت عنها مما دفع بعض الباحثين للتأكيد بأنها وضعت لإرضاء عاطفة شعبية تريد إثبات صوفية أولئك الزاهدين، فالشعب لا يقبل الصوفي إلا بما يروى عن كراماته[٣].

(١) تاريخ البقاعى. مخطوط ٨٨، ٨٩.
(٢) السخاوى. التبر المسبوك ٣٣٨.
(٣) محمد كامل حسين. حوليات آداب القاهرة مجلد ١٦ سنة ١٩٥٤ ص ٤٩.

وقال: ان جانى احد مهم خرجت الى مغاير ابو موسى وتركت الدير. فودعناه ومضينا الى دير ابو مقار فوجدنا جماعة كبيرة من اراخنة مصرالمقدمين قد خرجو الى الديارات فى تلك السنة منهم الشيخ ابو البدر ابن مينا الزواوى صاحب الديوان الرهجى، والتمس المضى اليه فاعلمناه ما قاله لنا فقال لى لابد لى من الاجتماع به واشكو له ذنوبى ولولا رغبتى فى التبارك منه ما جيت الى هاهنا ،

وما كان لكتاب المناقب أن يحشدوها بكل ماهو مخالف للعقل والنقل لولا أن العامة فى العصر المملوكى على أتم استعدادلتصديقها بحيث يصح اعتبارها مقياساً لعقل العامة واعتقادهم فى كرامات الأولياء.. والعامة فى كل زمان ومكان قليلة العقل تميل لسماع الأقاصيص والأساطير، وتميل أكثر لتصديقها، ولهذا فإن التجارة بالدين سوق رائجة، خصوصاً إذا كان العقل غائباً.

دراسة فى أساطير الكرامات فى العصر المملوكى

وبعد فلنلق نظرة على كرامات العصر المملوكى:ـ

١ ـ نلاحظ نوعاً من التخصص فى الكرامات بين الأولياء، فالبدوى مثلاً جعلوه متخصصاً فى إحضار الأسرى من بلاد الفرنجة، وقد رفض المتبولى أن يعتدى على هذا التخصص وأرشد المرأة التى طالبته بإحضار ولدها الأسير أن تتوسل بالبدوى[١]. لأنه وحده الذى يأتى بالأسرى من عند الفرنجة.

وكان من السهل على مؤرخى العصر تناقل الكرامات بحذافيرها وترديدها كأمور مسلم

(١) عبد الصمد. الجواهر ٧٩.

وجرت في هذا خطوب كثيرة اوجبت ان سرت انا وابن عمه ثقة الثقات ابو الطيب بشوى ابن يحنس الى دير أبو يحنس بسبب نذر كان عليه مبلغه خمس ماية دينار، فخليته فى دير ابو يحنس ومضيت انا الى دير ابو كما واجتمعت بالقديس بسوس واعلمته ماجرى ولم ازل به الى أن استقر مسيره اليه الى دير ابو مقار فخرج من الدير بعد غروب الشمس بساعة ومضيت انا الى دير ابو

بها، بل قد تتكرر كرامة بعينها لأكثر من صوفى مع اختلاف الزمان والمكان [1]. وتنافس الصوفية فى المزايدة بالكرامات فرويت كرامة للشيخ خليل وهو يطير من بلده إلى جبال الزيتون، فقال له المرسى «ليس الشأن أن تذهب لجبال الزيتون وتعود من ليلتك، ولكن أنا الساعة لو أردت أن آخذك بيدى وأضعك على جبل قاف وأنا هنا لفعلت» [2]. وهو القائل «والله ما سار الأولياء والأبدال من قاف إلى قاف حتى يلقوا واحداً مثلنا، فإذا لقوه كان بغيتهم» [3]. ويقول «ما جلست حتى جعلت جميع الكرامات تحت سجادتى» [4].

ولقد أوتى الشعرانى مقدرة عجيبة على سبك الكرامات، وهو يوردها أحياناً كغطاء يخفى به الإنحلال الخلقى للأولياء فى عصره كما يبدو فى ترجمته للمتبولى والحنفى وغيرهم، والغريب أنه حين يذكر أحد الصالحين بصفات حسنة فلا نجد أثراً للكرامات [5].

---

(١) رويت كرامات لأبى العباس الملثم فيس ابن الفرات والطالع السعيد بدون تغيير فى الألفاظ ونفس الوضع فى ترجمة شرف الدين الصعيدى الذى امتحن الغورى امتناعه عن الطعام والشراب أربعين يوماً. الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/ ١٣٨، شذرات الذهب جـ٨ /٩١ وقد نسبت أيضاً لمعاصر للحجاج بن يوسف، اليواقيت والجواهر جـ٢ / ١٠٤ وغير ذلك كثير.

(٢) ابن عطاء لطائف المنن ٥٧.

(٣) ابن عطاء لطائف المنن ٥٦.

(٤) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢ / ١٨.

(٥) كما فى ترجمتها للمرحومى الطبقات الكبرى جـ٢ / ٩٥ والغمرى جـ٢ / ١٢٧.

يحنس وبت فيه مع الشيخ ابو الطيب، فلما أصبحت مضيت الى دير ابو كما لاسال عنه فقال لى الراهب البواب: نصف الليل جا وضرب الناقوس هاهنا حتى قام الرهبان للابصلمديه كالعادة. فظننت انه لم يمضى الى دير ابو مقار لان من دير ابو مقار الى دير ابو كما مسيرة اكثر من اربعة ساعات، فدخلت اليه مبتسما فعرف اننى قد ظننت انه لم يمضى الى دير ابو مقار. فلما سلمت

وكان الناس على استعداد لتصديق الكرامات وتناقلها. فكان مجرد إشاعة كرامة ما كفيلاً بتوجه الناس جميعهم إلى أصحابهم زائرين ومعتقدين ومتوسلين[١]، وبعض الكرامات صيغت لسد النقص أو جبر العجز لدى الأولياء، فالولى المقعد الشيخ أحمد السطيحة قيل فيه «إنه يلبس كل جمعة مركوباً جديداً يقطعه مع أنه سطيحة لا يتحرك» «وتسللت زوجته ليلة فرأته قائماً سليما من الكساح فلما شعر بها زجرها فخرست وتكسحت وعميت إلى أن ماتت، وحتى لا يوصف الشيخ أحمد السطيحة بالعجز الجنسى أيضاً فقد ذكروا أنه كان فى عصمته أربع نساء، وأنه خطب بنتاً بكراً فأبت وقالت: أنا ضاقت على الدنيا حتى اتزوج بسطيحة، فلحقها الفالج إلى أن ماتت. وطلبته بنت بنفسها فقيل لها يا امرأة المكتسح وعايروها فدخل بها الشيخ وازال بكارتها فملأ الدم ثيابها ورآه الناس.. إلخ[٢].

ونلمح بعض الإرتباط بين الكرامات والأحوال السياسية التى استغلها الصوفية لترويج كراماتهم، فعندما يتولى سلطان يقال أن مجذوباً بشره شفاهاً بالتملك[٣]، وحين يمرض السلطان يفسرمرضه بإنكاره على شيخ بعينه فجوزى بالمرضى[٤]، وكان من العادة شبه

(١) السخاوى : التبر المسبوك ٣٣٨.
(٢) الطبقات الكبرى للشعرانى . ط صبيح جـ٢ / ١٢٣ .
(٣) الضوء اللامع جـ٣ / ١٣٣ .
(٤) مناقب الحنفى (مع الناصر فرج).

عليه واخذت بركته قال لي: مضيت واجتمعت بالرجل. فسالته: متى وصل اليه ومتى عاد اذ كان لا يمكن احد يمضي الى دير ابو مقار ويعود في الليلة. فقال لي: مالك الى هذا حاجة، قد مضيت الى عنده كما استقر معك. فقلت له: ما صفته؟ قال: هو رجل قصير اشهل العينين ووجدت عنده اخوه ابو العلا فهد ودميان قريبك الاشهل العينين ايضا وتحدث معه بالقبطي. فلما قال لي هذا

الدائمة أن تنتهى حياة الأمراء وأرباب المناصب بالمصادرة والعزل والقتل والحبس، ومع ذلك كانت تفسر في ضوء غضب الأولياء ومعرفتهم الغيب [١]، وحين منع الناس من الحج بسبب حركة التتر أشيع أن الشاذلى قد حج بخطوة واحدة وعرض بعد مجيئه أن يخطو بالناس جميعاً إلى عرفات [٢]، ولم يتساءل أحد أما كان من الأجدى أن يوجه الشاذلى قدرته لدفع التتر الذين منعوا الناس من الحج.

فالملاحظ عامة أن إدعاء الكرامات قد استهلكه المتصوفة في نواح تافهة غير نبيلة تعكس حياتهم وتفكيرهم، فلم يحظ الجهاد مثلاً بأقل القليل من إدعاءاتهم الكثيرة بقلب الأشياء ذهباً، مما يفضح نفسية المتصرفة الغارقة في أحلام الوصول للنعيم الدنيوى بدون كد أو تعب. ولابد أن تنتهى تلك الكرامة بزهد الولى فيما قلبه ذهباً حتى لا يطالبه أحد بالدليل على إدعائه برجوع الذهب إلى حالته الأولى، وحتى يتأكد زهدهم وأنهم إنما تركوا الدنيا وزينتها مع قدرتهم على الثراء السريع، على أن تلك الكرامات بما صاحبها من دعايات حققت أهداف الصوفية ووطدت نفوذهم وأكدت الاعتقاد فيهم وفى تصريفهم.

(١) مناقب الحنفى ٣٨٤،النجوم جـ١١ / ١٨٧، المنهل الصافى جـ٥ / ٤٤١.
(٢) الإلمام بالإعلام للنويرى مخطوط مصور مجلد ٢ لوحة ٧٨.

خـرجت من عنده عند طلوع الشـمس وركـبت دابتى واسرعت السير فوصلت الى دير ابو مقار فى رابع سـاعـة من النهـار، لأنه كـان فى شـهر طوبه، فـدخلت مع الشيـخ ابو الطيب الى عندالشيـخ ابو البدر المقدم ذكـره فقـال لنا: ما عنـدكم خبـرنا مع القـديس بسوس، فـانه جـا الى عندنا. قلت له: اى وقت جـاكم؟. قال: جـا الينا العتـمه، قلت له: هو الوقت الذى خرج فيـه من دير ابو كما وفارقته انا

---

* مروجو الكرامات:

أبرزهم المتصلون بالشيوخ المنتفعون بهم كالخدم ومشايخ الزيارة والزوجة وغيرهم.

- الخدم: وقد أصبح بعضـهم شيـخاً بعد مـوت سيـده يدعى أنه اختص بأسـراره ونشر كراماته، فرويت كرامات عديدة عن الشاذلى عن طريق خادمه الشيخ ماضى أبو العزايم[١]، ويقـول خادم الحنفى «وكـان سيـدى يخبـر بما وقع له من الكرامـات على عـادة السلف من الأوليـاء المتمكنين[٢]»، وقد يحرص الشيخ على تسجيل كراماته، ثم يوصى خادمه بكتمانها فى حياته وإذاعتها بعد موته[٣]، كما يدعون، والواضح أن الخادم هو الذى يشيع ذلك ليتكسب به.

ولخادم الضريح دور كبير فى إشاعة كرامات صاحب الضريح طمعاً منه فى النذور، ولابأس بأن يحتال لذلك الأساليب المبتكرة، فعرف أحد القبور - وهو مجهول الصاحب - بقبر صاحب الشمعة، لأن بعض خدام القبور المجاورة أشاع أنه يرى على قبره شمعة مشتعلة فى

(١) تعطير الأنفاس مخطوط ٥١، ٥٥ مابعدها، ٧٧ وما بعدها.
(٢) مناقب الحنفى مخطوط ٤٧٣، ٤٧٤.
(٣) الطبقات الصغرى للشعرانى ترجمة السيوطى ص٣٠، ترجمة زكريا الأنصارى ص٤٠، ترجمة شمس الدين الدمياطى ص٥٣.

من هناك وتوجه الى عندك. فتعجب هو وجميع الحاضرين ثم قال لي: ولم يزل يتحدث معه وانا اذا خاطبته بماية كلمة اجابني عنها بكلمتين او ثلثة قاطعة في الجواب الى ان خرج اخوك ابو العلا الى برا ابصر الوقت وقال لنا قد جا نصف الليل فقال بسوس القديس اريد امضي الى الدير فضربنا له مطانيات ان يقيم عندنا بقية ليلته ويومه فلم يزل معنا الى ان طلب الانفراد للصلاة فحبسناه

الليالي المظلمة، فاشتهر صاحب القبر بهذه الكرامة [(١)].

ـ مشايخ الزيارة: وهم الذين يعرفون معالم القرافة وطرق الزيارة، وفي كتب المزارات تنقل عنهم الكرامات مشفوعة بكلمات «وهذه الحكاية مستفاضة بين مشايخ الزيارة» أو نحو ذلك.

كان للزوجة دورها في هذا المجال حتى ولو كانت بلاءً على زوجها، فكان الشيخ أبو الحمائل «مبتلى بزوجته» وقد حكت هذه للشعراني إن زوجها كان كثيراً ما يكون جالساً عندها فتمر عليه الفقراء الطائرون في الهواء ينادونه فيجيبهم ويطير معهم فلا تنتظره إلى الصباح [(٢)].

وكان الرأى العام يتوقع من الولي بعض الكرامات حين يغسل ـ بعد موته ـ وحين يلحد في القبر، وتكفل الغسالون واللحادون والحفارون بإرضاء نهم الناس، فالشيخ عبد الغني الغاسل غسل الشيخ أبا القاسم الأقطع وأورد من كراماته أنه غطى سوأته حين وقعت القطنة، وأنه كان يتقلب ذات اليمين وذات الشمال كلما قرأ الغاسل «ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال» [(٣)]. وتبسم آخر وهو يغسل لأن الحور العين قد غازلته، وأمر آخر مغسله بأن يغض

(١) تحفة الأحباب ٣٢٢.

(٢) الطبقات الكبرى للشعراني جـ٢ / ١١١.

(٣) الكواكب السيارة ٢٤٤، ٢٤٥.

في هذه الخزانة واغلقنا عليه وبتنا على بابها لنتبارك منه بقربه ونسمع حس صلاته ونصلى معه فلم نسمع له خبر، فلما اصبحنا فتحنا الخزانة ودخلت انا اخذ بركته فلم اجده فبقينا باهتين متعجبين الى الساعة ما ندرى ما كان منه. فقلت لهم: الوقت الذى دخل فيه الخزانة واغلقتم عليه بابها هو الوقت الذى دق فيه الناقوس لرهبان دير ابو كما واقام فيه رهبانه للابصلمديه وجيت اليه سحراً

بصره لأن الجان ستغسله[1]، ويبدو أن الغسالين بالغوا فى إدعاءاتهم إلى درجة أثارت تندر الناس، فأوصى الفقيه ابن الشيخ أن يغسله الشيخ شهاب الدين بن النقيب، فقال بهاء الدين بن السبكى ما قصد بذلك إلا بسط الناس بعد موته[2].

وفى أمثالنا الشعبية نلمح أثر ذلك «كرامات الميت تظهر عند غسله»، «مغسل وضامن جنة»[3]. ونافس اللحادون والحفارون الغسالين فى هذا المجال، فيشيع أحدهم أنه و جد القبر قد اتسع بحيث لا يدرى هل هو فى بيت أم فى قبر، ووجد معه من يساعده فى اللحد وذلك لأن الميت كان يدعو «اللهم وسع على فى قبرى واجعلنى ممن تعولاه الملائكة[4]»، ولحد آخر بنتاً للشاذلى فضحكت، وعرفته بأنه يلحقها بعد ثلاثة أيام[5].

وحين حمل أبو مدين فى النعش وكان المؤذن يصيح بالآدان ثقل على حامليه حتى وضعوا النعش لأنه كان متعوداً على القيام حين يؤذن المؤذن[6]، ويبدو أن ذلك أصل لما يشيعونه فى الريف الآن من طيران الشيخ بنعشه أحياناً أو توقفه حيناً.

(١) الكواكب السيارة ٢٤٧، ٢٤٨. (٢) ذيل ابن العراقى مخطوط ٦٥.
(٣) أحمد تيمور الأمثال الشعبية ٣١٥، ٣٧٨ الطبعة الأولى.
(٤) الكواكب السيارة، ٢٥٠، ٢٥١. (٥) تعطير الأنفاس مخطوط ٨٠.
(٦) المناوى. الطبقات الكبرى مخطوط ورقة ٢٨٣.

فاعلمنى البواب بذلك ومن عنده جيت اليكم فزاد تعجبنا وعلمنا ان عجايب الله فى قديسيه.
وايضاً كان اخى ابو العلا [فهد] نيح الله نفسه قد عاقبه امير الجيوش فى نصف كيهك من السنة المذكورة حتى كتب خطه بستة الف دينار.

وفى الشهر المذكور عرقت اعمدة دير القديس ابو موسى. وعرقت ايضاً عدة صور فى كنيسة

تهرب المتصوفة من الإتيان بكرامة:

كان المتصوفة ينسبون الكرامات للأولياء بعد الموت، أما فى الحياة فقد حاولوا تبرير تقاعسهم عن إثبات الكرامة عملياً ـ بشتى الوسائل. ووضع عبء ذلك على الشعرانى ـ بطل سبك الكرامات ـ بطبيعة الحال، فهو يميز الكرامة عن معجزة النبى بأنه لا يجب على الولى إظهارها لأنه لا يحتاج إلى دليل على صحة طريقه، بل يجب إخفاؤها، ويجوز للولى أن يتحدى بالكرامة إذا رأى فى ذلك مصلحة، ومع ذلك يجوز أن تقع الكرامة مع كلام الولى ومع سكوته[1].

ويبالغ الشعرانى فيرى أن من الأولياء من لا يستره حجاب ومع ذلك لا يعرف ما فى جيبه[2]. وأن الولى قد يعاقب بأن يحبب إليه إظهار الكرامات كنوع من الاستدراج[3]، وأن أكثر الأولياء كرامة من كثر تكذيب قومه له، وأقلهم كرامة من كثر تصديق قومه له[4]، وعد من المنن كراهيته لوقوع الخوارق على يده فى الدنيا لأنها عرض فان، ومع ذلك يقول أن وقع

(١) اليواقيت والجواهر جـ١ / ١٦٣.
(٢) الجواهر والدرر ١٧٥.
(٣) الجواهر والدرر ١٧١.
(٤) كشف الران ص ٨٠.

القديس تادرس الشهيد الجليل بمصر ببنى وايل [كفر العلاقمه/ ههيا] حتى كان عرقها يجرى كالمآ، وهوذا اثره وسيلانه باق الى اليوم على حيطانها. فحدث فى تلك السنة جدرى مات منه بمصر احد وعشرين الف صبى فى دون شهر فكتبت الى القديس بسوس المذكور والى الاب مقاره الامنوت بدير ابو مقار، الذى لما طلب للبطركيه بعد الاب اخرسطودلوس هرب واختفا

الخارق لابد منه للفقير ولو مرة واحدة، ثم يفتخر بكثرة اعتقاد أهل عصره فيه من غير مطالبة بدليل [1]، ومع ذلك كان الناس ينتظرون من الأولياء أن يخبروهم بما أوتوا من علم الغيب ووجد الشعرانى الوسيلة للتهرب من ذلك أيضاً. فهناك اللوح المحفوظ حيث لا تغيير فى المكتوب وهناك ألواح المحو والإثبات حيث التغيير والتبديل. فحذر الأولياء من الكشف عن الغيب إلا إذا كان مطمح أنظارهم اللوح المحفوظ محل الغيب النهائى، أما إذا كان ألواح المحو والإثبات الثلاثمائة والستين لوحاً فيمنع إظهار ما يعرفون من الغيب لأن الحق تعالى كل يوم هو فى شأن، «فربما غير ما تكلمنا به وأظهرناه للناس.. فيسئ الناس ظنهم بأمثالنا»، واستشهد بأن الخواص كان مشهده اللوح المحفوظ، ومشهد أبى الحمائل ألواح المحو والإثبات، فكان الخواص لا يخطئ فى كشفه عكس أبى الحمائل [2]. وانفرد الشعرانى بهذا القول، وان كان المتبولى قد أشار إلى نحو ذلك حين حذر من إفشاء الولى للغيب لأن الله يحول بين المرء وقلبه [3]. فلم يرد فى قوله ما ذكره الشعرانى عن اللوح المحفوظ والمحو والإثبات.

(١) لطائف المنن ص ٣١٦، ص ٧، ٩٠، ٢٣٥.
(٢) البحر المورود ٢٧٣، ٢٧٤.
(٣) لطائف المنن ٩٣.

في بعض البلاد، الى ان جعل انبا كيرلص كتابا وسالتهما فيه الدعا بالخلاص مما لنا وسوال جماعة الابآ الرهبان ان يهبو لنا ليلة واحدة يصلو فيها عنا. وكان في الديارات سبع ماية راهب. وسيرت الكتاب مع راهب من دير نهيا يسمى ابو العلا، وهو اخو القس يونس المعروف بزكير ريس الدير المذكور، وكان هذا الشماس ابو العلا الراهب قديس ايضاً، وكان الاب بسوس يشتهي ان يكون

ويرى الشعراني أن الأولياء يعطون التصرف بحرف (كن)، أى يقولون للشيء كن فيكون، مع أن ترك التصرف بها مرتبة الأكابر منهم[١]، وقد أعطى أحدهم هذا المقام فتركه وقال «نحن قوم تركنا الحق تعالى يتصرف لنا»[٢]، وما أشد تواضع ذلك الولى!!

والأولياء «أسرار الوجود» كما يقول الحنفى[٣]، وقد تكلم فقير ببعض الأسرار فقُتل، وقيل أن من أفشى أسرار الله فجزاؤه القتل بالسيف على عوائد الملوك في قتل من يفشى أسرارهم[٤]، وذلك تعليل ظريف لعدم إتيان الولى بكرامة على عيون الأشهاد، وقد عبر الشعرانى عن ضيقه من الفقهاء سلفاً وخلفاً لأنهم يطلبون الكرامة كدليل على الولاية[٥]، وعلل الخواص ذلك الخلق من الفقهاء مع عدم وجوده لدى الفقراء بكثرة اعتقاد الأخرين الاعتقاد الصحيح في شيوخهم عكس الفقهاء[٦]. على أن هناك أقوالاً للمتصوفة السابقين في التهرب من الإتيان بكرامة تنقصها براعة الشعرانى، فعبد القادر الجيلى كان لا يشأ أن يُرى

(١) الجواهر والدر ١٢٣.
(٢) اليواقيت والجواهر جـ٢/١٠٦.
(٣) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/٨٨.
(٤) لطائف المنن. الشعرانى ٤٨ ـ ٤٩، وذكر قصة ص٤٠٩ عن عجز المريدين عن تحمل الأسرار من الشيخى.
(٥) لطائف المنن ٩٠.
(٦) درر الغواص ٦٧.

عنده فى ديره لانه قال رايت افعاله توافقنى، فلما اوصل إليه كتابى انفذ الى رهبان جميع الديارات وسالهم فيما سالته فيه، وما راى ان يجمعهم فى موضع واحد خوفاً من السمعة والشناعة وتحريف القول عن الرهبان مع حدة امير الجيوش وشدة بطشه وقوة سلطته، ثم اخذ جمراً يتقد فوقف عليه ودعا لنا، واصبح يوم الميلاد الاول وهو الثامن والعشرين من كيهك وكان يوم سبت فقال له ابو

أحداً منه كرامة إلا بإرادته هو، «وكانت الخارقة تظهر أحياناً منه وأحياناً فيه» حسب تعبير مؤلف مناقبه[1].

أما الشاذلى فيقول «أى كرامة أظهر وأعظم من كرامة الإيمان ومتابعة السُنة»[2]، مع أن أقواله فى عقيدة الاتحاد الصوفية أبعد ما تكون عن ذلك.

وفى مناقب المنوفى أن ظهور الكرامة لا يدل على أفضلية صاحبها، وأنها تصدر عن الوالى بلا قصد ويجب عليه سترها، ويرى المرسى فى طىّ الأرض وهو انتقال الولى إلى أى مكان بخطوة واحدة لصغار الطائفة، أما الطى الأكبر فهو طىّ أوصاف النفوس[3]، وطُلبت كرامة من عبدالعزيز الدرينى، قالوا له «مرادنا شىء يقوى يقيننا واعتقادنا فيك حتى نأخذ عنك الطريق، فقال يا أولادى وهل ثَمّ كرامة من الله لعبدالعزيز أعظم من أن يمسك به الأرض ولم يخسفها به، وقد استحق الخسف من سنين»[4]، واضطُر على وفا للإخبار بالكشف عن مصير غُلام محبوس فقال «لابد له من الخلاص إما فى أول الأمر أو آخره وإن فاته ذلك جميعه

(١) الشطنوفى ـ بهجة الأسرار. مخطوط ١ ـ ٢٩ إلى ٣٠.
(٢) تعطير الأنفاس ـ مخطوط ص٢٠٤.
(٣) مناقب المنوفى، مخطوط من ٥ إلى ٧.
(٤) لواقح الأنوار. ص ٢٤١، ص٣٧١، لطائف المنن ٥٩٢.

العـلا الراهب: اعطنى الجـواب ودعنى اعـود الى ديرى بسـبب العيـد. فـقـال له القـديس بسـوس: الجـواب انهـم قـد تخلصـو وانعم عليـهـم السـيـد المسيـح. فـقـال له ابو العـلا الراهـب: اريد الدليل على هذا. فقال له : امضى الى مقاره الامنوت فهو يعرفك. فـجا اليه واعلمـه ما قاله بسوس فـقال له مقاره: الذى قاله لك صحيح فامضى ولا تشك فى قوله. فـقـال لهـمـا: مـا امـضـى الا بالجـواب منكمـا.

فيـتـخلص ولو على المغتسـل، يقـول الراوى بسـذاجـة رأيت مـا يؤيد ذلك ويصـحـح هذه المقـولة[1] ، وفى أسطورة عن زكريا الأنصارى أن ضريراً من الشام قصده ليرد عليه بصره فأمره بالرجوع إلى غزة، وهناك يرد عليه البصر بشرط ألا يرجع مصر فيكف بصره ثانياً بحجة الخوف من ذيوع الخبر، وتقول الأسطورة إن الضرير قد أبصر هناك[2] . والغرض من ذلك هو إشاعة الكرامة دون المطالبة بدليل على صحتها بالإضافة للتخلص من إثباتها أمام الناس.

وكان نصر المجذوب المصرى «يتظاهر بالخطأ فى الكشف حتى لا يعتقده أحد»[3] بنحـو ذلك برروا خطأهم فيما يدّعون من إطلاع على الغيب.

أصناف من أساطير الكرامات

*** علم الغيب:**

١ – ويسـمـيه الصـوفـية كـشـفاً، وهـو أبرز مـا ادّعاه الصـوفـيـة من كـرامـات، ويرجع سـبب شهرتهم بالكشف إلى أن الصوفى ينتظر أو يحس بالإنكار القلبى عليه فيـسبق المنكر محتجاً على إنكاره قبل إعلان المنكر له، فيشتهر الصوفى بقراءة الخاطر، وبالغ الصوفية فى هذا فادّعوا علم الغيب.

(١) مناقب الوفائية. مخطوط ٧٢.
(٢) الطبقات الكبرى ـ الشعرانى جـ١٠٨/٢.
(٣) أخبار القرن العاشر ١٨٥.

فقال بسوس لراهب اسمه قسما كان كاتب
ديوان: اكتب عنا كتاب بان السيد المسيح قد
خلصهم في هذا اليوم. وتقدم الى قرابة لنا يسمى
هبة الله ابن منصور كان مختفى هناك ان يكتب لنا
كتاب عنهما بذلك. فاخذ ابو العلا الكتابين
بالخطوط التي يعرفها وهو مورخين بغداة يوم
السبت الذى كان فيه خطاب بسوس له فى
الديارات وفيه كان خلالصنا. وذلك اننى قدست

٢ـ ويتواضع بعضهم فيتحاشى الدعوة في شيء من الخمس التي في آخر سورة لقمان «لأنها من خصائص الحق تعالى» ولكنهم في الوقت نفسه يزولون دعوى بعض الأولياء في علمها[١]، مع أن الغيب كلٌ لا يتجزأ وهو مما اختص الله تعالى به ذاته، ولم يعط الله تعالى العلم ببعض الغيب إلا بعض الرسل مثل يوسف (يوسف٣٧)، وعيسى (آل عمران ٤٩) وأكد القرآن أن خاتم النبيين لا يعلم الغيب.

٣ـ وادّعاءات الصوفية في هذا المجال يضيق عنها الحصر، فأبو السعود بن أبي العشائر حدّث بإيضاح أحوال الملكوت والآخرة والمنازل والدرجات ومراتب الرجال من آدم إلى يوم القيامة.. إلخ[٢]، ويقول على وفا: ما من نطفة توضع في رحم.. إلا وقد أطلعني الله عليها[٣] وادّعى المتبولي بأنه «لاتنزل قطرة من السماء ولا يطلع نبت من الأرض إلا علمت به.. وهذا أمر أعطيته وأنا طفل[٤]»، والعارف يعلم أحوال أهل الجنة علماً لاشك فيه لخروجه عن حجاب بشريته[٥]»، والصوفية يعلمون السرائر لذا نصحوا المريدين بحفظ قلوبهم معهم[٦]..

(١) لطائف المنن للشعراني ٩، ٤، ٤٣٠.
(٢) الكواكب السيارة ٣١٦، ٣١٧.
(٣) مناقب الوفائية ٤٣.
(٤) الطبقات الكبرى للمناوى مخطوط ٣٣٧.
(٥) درر الغواص ١١.
(٦) درر الغواص ٨١، قواعد الصوفية جـ١/ ١٥٨، الطبقات الكبرى جـ٢/ ٩٤، ١٥٠.

يوم السبت المذكور سحر فى كنيسة السيدة المعلقة بقصر الشمع ولزونا الاتراك المرسمين علينا فى المسير نحمل قماشنا وقماش المترسمين الى المركب، وعولنا على الانحدار فى ذلك اليوم الى الريف لنستمنح [نأخذ المنح من] الناس فيما نقوم به مما الزمنا به تحت العقوبة. ونزلنا من الكنيسة المذكورة ونحن متوجهين الى المركب، فقبل خروجنا من بابها جانا رسول الامير جمال الملك

وفى قصة البدوى تتردد معرفته بالغيب حتى أن هلال مأذنته بعد موته ينبأ بالغيب[1] وإذا ولد ولى يبشر آخر أباه بما سيكون من أمره وفتوحه[2]، وعرف الشاذلى بموته فى حميثرة واستعد لذلك[3]، وكان ابن ماخلاً شرطياً يتنبأ للوالى بسريرة المتهم[4]، وفى لطائف المنن ومناقب المنوفى وغيرها من كتب الصوفية أخبار لا تنقطع عن الكشف، «ولولا لسان الشريعة» كما يقول الفرغل «لأخبرتكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم»[5]، وكان شعبان المجذوب «يطلع على ما يقع فى كل سنة من رؤيته لهلالها» وأعطى مجذوب آخر «التمييز بين الأشقياء والسعداء فى الدنيا»[6]، واطلع الخواص على فتوح قلوب الفقراء وكان يخبر بذلك[7]، بل إنهم ادّعوا علم ما فى اللوح المحفوظ وتردد هذا فى كتبهم عن الدسوقى والرفاعى والجيلانى[8] وعبدالرحيم القنائى[9]. ويقول الحنفى لوسألتنى شيئاً لم يكن عندى أجبتك من اللوح المحفوظ[10].

(١) عبدالصمد: الجواهر ٧٦.
(٢) شذرات الذهب جـ٨/ ٣٠، ٣١.
(٣) الإلمام مخطوط مجلد ٢ ـ ٧٩.
(٤) طبقات الشاذلية ١١١، ١١٢.
(٥) مناقب الفرغل ١ مخطوط.
(٦) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/ ١٥٩، ١٣٠.
(٧) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/١٣٠.
(٨) طبقات الشرنوبى ٧، ٨.
(٩) مناقب عبدالرحيم ١٥.
(١٠) الطبقات الكبرى.

صاحب الباب وقال لنا: الأمير جمال الملك يخصكم بالسلام ويهنيكم بالخلاص وقال لكم فى هذه الساعة دخل مولاه الاوحد الى والده امير الجيوش واستوهبكم منه وامرنى بالإفراج عنكم فامضو اليه واشكروه. ثم قال الرسول لا وليك المترسمين: ارتفعو عنهم ولا تعترضوهم. فمضو عنا، ولما وصل الينا الكتابين وعرفنا الراهب ابو العلا بما كان، علمنا ان تلك الساعة التي تخلصنا

وكان محل كشف الخواص اللوح المحفوظ[١]. خاصة وأن نهاية كشف الولى أن يطلع على ما كتب فى اللوح المحفوظ كما يدعى الشعرانى[٢].

والشيخ يعلم الخاطر ويمد مريده به، بل يتفاهمان على أساس الخاطر[٣]، وكان الحنفى يقيم ميعاداً سكوتياً فيلقى بخواطره فى قلوب أصحابه كل حسب «مشروبه»[٤]، «ويتحلى الشيخ الصادق بعلم يكشف به الحقائق والدقائق، والقاء الملك، ونفث الشيطان، والنفث فى الروع، والإلهام، وخطرات المريد، ونزعاته وأمراض القلوب وأسرار النفوس»، ويلاحظ مريده من حين كان فى عالم النور قبل وروده وهبوطه إلى أصلاب الآباء وبطون الأمهات، كما يقول الشعرانى[٥].

٤ـ وكانت كتب التاريخ كثيراً ما تصف الصوفية بالكشف والعلم بما سيكون[٦]، ويروى أبو المحاسن أن أحدهم فى نزاع مع السلطان «جقمق» أعلن فى الملأ أن غريمه السلطان سيموت فى حادى عشر جمادى الأولى، وانتظرت العامة النتيجة، ولكن الشيخ مات قبل ذلك

(١) الطبقات الكبرى. (٢) الجواهر والدرر ١٩٥.

(٣) السبكى معيد النعم ١٥٨، ١٥٩.

(٤) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/ ٨٢.

(٥) لطائف المنن للشعرانى ٣٨٨.

(٦) ذيل الدرر الكامنة لابن حجر مخطوط ورقة عشرة، ١٦٥.

فيها هي التى قال فيها القديس بسوس قد تخلصو، فتعجبنا من ذلك ومجدنا الله جل اسمه وشكرناه. وسار الاوحد الى مدينة اسكندرية واصطنعنا واخذنا معه لانها كانت اقطعت له جرياً وخراجاً وخدمناه فيها.

وحكى لى الشماس ابو حبيب ميخاييل ابن بدير الدمنهورى انه كان مختفيا عنده فى الدير فى

اليوم بعشرة أيام ولم يظهر لكلامه صحة، وحاول أبو المحاسن مع ذلك تأويل كلام الشيخ، وأنه كان يقصد نفسه بالموت وأن الجماهير أخطأت فى النقل عنه(١)، مما يتعارض والقصة التى رواها بنفسه الأمر الذى يظهر مدى الإعتقاد فى علم الأولياء للغيب، وفى الأمثال الشعبية ما يعزز هذا كقولهم «إنت شيخ ولأحد قلك»(٢).

* التصريف:

١ـ يقولون إن الولى خرق العادة حين يعطى حرف كن(٣)، أى يقول للشىء كن فيكون، ويقول الجيلى عن نفسه «وأعطيت حرف كن»(٤). بل إن الخواص جعل فى باطن كل إنسان قوة كن(٥). وفى قصة البدوى مع ركين أنه جعل الشعير قمحاً بكلمة كن(٦)، وكان الشربينى يقول للعصا التى كانت معه كونى إنساناً فتكون إنساناً، ويرسلها تقضى الحوائج ثم تعود كما كانت(٧).

٢ـ بل إدعوا أن الولى يتصرف فى الموت والحياة، فالحسن أخو البدوى يميت من تعرض

(١) حوادث الدهور ١٠٧ : ١٠٨ سنة ٨٥٥.
(٢) الأمثال الشعبية لتيمور ٩٩، الشعب المصرى فى أمثاله. شعلان ص١٧٩.
(٣) الجواهر والدرر ١٦١.
(٤) لطائف المنن ١٨٨.
(٥) الجواهر والدرر ١٢٢.
(٦) عبدالصمد: الجواهر ٣٧، ٣٨.
(٧) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/ ١١٨.

بعض الاوقات ومعه جماعة من الاخوة النصارى مختفين وانه رآه وقد جعل زيت في مسرجة وبارك عليه واوقدها لهم، وانه اقام خمسة عشر ليلة بنسخ الكتب ويقرى مع المذكورين كل ليلة الى نصف الليل، اعنى ميخاييل، وهو محتاطاً على المسرجة يرصدها فما فرغت ولا نقصت عن حدها. وحكى ايضا حضور راهبين من دير ابو بشوى متخاصمين فاجتهد في ان يصطلحا فرضى

لهما من الأكراد ثم يعيدهم للحياة، والبدوى يميت جمال فاطمة بنت برى السبعة آلاف[1]، وأحيا على وفا غريقاً عند شاطىء الإسكندرية[2]، وحين مات الجمل أحياه على وفا إلى ما بعد الحج والرجوع إلى مصر «فمن وصوله إلى باب النصر وقع ميتاً فعلمت أن محيى الموتى أبقاه للخدمة»[3]، وأحيا المتبولى والد مريده فأخرجه «من القبر» ينفض التراب عن رأسه حين ناداه الشيخ»[4]، وانتهت كراماتهم مع الأسد ـ أحياناً ـ بإحياء من افترسه الأسد[5].

* إنتحال صفات الله: (من عدم الأكل والشرب والنوم والجماع) وغيرها.

فالبدوى حين نظر عبدالمجيد إلى وجهه صعق[6]، وكان يظل أربعين يوماً بلا طعام ولا شراب شاخصاً ببصره إلى السماء[7]، ورفض الزواج ولم تفلح معه إغراءات فاطمة بنت برى، وقال له الرفاعى فى المنام «فإن جميع الرجال والأبطال قد نظروا فى تاريخ الرجال فما

(١) عبدالصمد. الجواهر ٤٧، ٥١، وكان يصف البدوى فى نهاية كتابه بالمحيى المميت.
(٢) مناقب الوفائية ١٥، ١٦.
(٣) مناقب الوفائية ٧٧، ٤٨.
(٤) الطبقات الكبرى جـ٢/٧٦.
(٥) الإلمام مجلد ٢ لوحة ٧٤، بهجة الأسرار مخطوط جـ٢/١٩: ٢٠.
(٦) عبدالصمد ١١، ٢٤.
(٧) عبدالصمد ٦، ٧، ١٠، ٣٦، النصيحة العلوية للحلبى ٢٣.

احدهما وامتنع الاخر ومضى ولم يطيعه، ثم عاد اليه بعد ثلثة ايام وقد تبرص وساله وتضرع اليه حتى قلع تراج كان عليه فالبسه اياه ومضى واعاده ثاني يوم وقد تنقا. وحكى لي الشماس يونس الراهب أحد أولاد القديس بسوس انه كان حاضر في بعض الايام وهو فوق الجوسق يصلي، فدخل الي الدير ثمنية عشر رجلا من السودان فملكوه واخذو رجلا من الرهبان فعذبوه، فنزل

وجدوا من لا تهيج له روحانية ولا ينظر إلى النساء بشهوة إلا أنت يا فحل الرجال»[١]، وكان الشيخ خلف ـ أحد أصحاب البدوى ـ لا يضع جنبه على الأرض ليلاً ولا نهاراً[٢]، وقد سأل الشعرانى الخواص عن قوله تعالى «لا تأخذه سنة ولا نوم» هل خلع الله هذه الصفة على أحد من الأولياء فأجاب نعم ومثّل بعيسى بن نجم الذى ظل بلا نوم سبعة عشر عاماً[٣]، ومكث بعضهم نحو الخمسة شهور[٤]، وآخر سبعة وثلاثين سنة[٥]، وآخر مكث أربعين سنة[٦]، على أن علياً العياشي مكث فترة قياسية حطمت الأرقام السابقة فظل بلا نوم نحو نيّف وسبعين سنة[٧]، وقال اليافعى عن أحد أصحابه «وله إلى تاريخ تأليف هذا الكتاب خمس عشرة سنة لم يضع جنبه الأرض ويمكث أياماً عديدة لا يأكل فيها شيئاً[٨].

ونلمح مثل ذلك فى مدة إمتناع الولى عن الطعام والشراب فتراوحت بين أشهر لا تكمل سنة كما فى حالة ابن عمر التباعى (ت ٧٠٢)[٩]، أو يمكث سنين قد تمتد إلى عشرين

(١) عبدالصمد ١٧، ٤٩.
(٢) عبدالصمد: ٢٨.
(٣) الجواهر والدرر ١٤٠: ١٤٢.
(٤) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ١٥٥/٢.
(٥) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ١٦١/٢
(٦) صحبة الأخبار للشعرانى ١٣٦.
(٧) الطبقات الكبرى جـ١٦٢/٢.
(٨) روض الرياحين ١٧٩.
(٩) النبهانى جامع كرامات الأولياء جـ١٣٧/١.

الاب بسوس من الجوسق اليهم ومسك رقبة مقدمهم بيده فاخرجه من باب الدير ولم يزل ياخذهم واحد بعد واحد برقبته الى أن أخرجهم الجميع واغلقو الباب، فحلفو اوليك السودان ان ابصارهم عميت وان يده كانت على رقابهم مثل الحجر الثقيل. وحكى لى الشماس يونس المذكور ان في السنة الصعبه كان الدير مقصود اكثر من العربان وغيرهم، وكان يدفع الكعك والقمح

سنة[١]، وقد تصل أكثر من عشرين[٢]، بل إلى أربعين سنة[٣]، وقد يجتمع عدم الأكل والشرب مع عدم النوم كما فى حالة عيسى بن نجم[٤]، السالف الذكر، وربما يطلق على احدهم صائم الدهر[٥].

ويخرج الولى بعد تلك الخلوة وذلك الحرمان يظهر الكرامات والخوارق[٦]. ومع ذلك فهم ابطال المآدب، ولهم فى الشراهة كرامات.

هذا وقد عدّ السخاوى من جملة كرامات الأولياء «إنقلاب الأعيان، وكذا المشى على الماء، والكشف عن حال الموتى، وسماع كلامهم، واحيازهم بإذن الله تعالى، وطى الأرض لهم، والكلام على المستقبل والماضى واخبارهم بالمغيبات، وانفاقهم من الغيب، وإيثارهم على أنفسهم، وانطلاق البحر لهم، وغير ذلك من الكرامات التى شوهدت من كثير منهم»، ونحو ذلك ما قاله ابن عطاء فى لطائف المنن[٧].

(١) السبكى طبقات الشافعية جـ٥/ ٣: ٧.
(٢) الضوء اللامع جـ١/ ٢٠١ ترجمة ابن عرب.
(٣) شذرات الذهب جـ٧/ ٣٥٠.
(٤) تنبيه المغترين ١٣٠ وقد ظل على وضوء واحد.
(٥) ابن إياس تحقيق محمد مصطفى ٢/١ ـ ٣٥١، ٣٥٧ ترجمة شمس الدين التبريزى.
(٦) شذرات الذهب جـ٧/ ٣٥٠.
(٧) تحفة الأحباب ٣٤٩. لطائف المنن ٣٥.

لكلمن يطرقه حتى لم يبق عند الرهبان الا قوت يوما واحداً فقط وكانو معولين ان ياكلو ويصبحو يخرجو من الدير هايمين على وجوههم، فطرقهم قوماً يطلبو ما ياكلو فقال لهم: اعطوهم الذى عندكم . فتذمرو الرهبان واغتاضو من ذلك فقال لهم بسكينة وهدو: فى اخر النهار يصل اليكم من عند المسيح ما يكفاكم ايام فلا تضيقو صدوركم. فدفعو للقوم القمح الذى كان عندهم فقالو له:

---

*كرامات ما بعد الموت:

١ـ يمكن أن يدخل تحت هذا الإطار الكرامات السابقة واللاحقة لسهولة إدّعاء المتصوفة لكرامة أشياخهم المتوفين دون تقديم إثبات، هذا بالإضافة إلى الدافع المالى فيبالغ المنتفعون فى أكاذيبهم عن كرامات صاحب الضريح طمعاً فى النذور، وحتى لا تفتر حماسة الناس للولى بعد موته[١]، وخشية أن يسرق الأضواء منه ولى آخر على قيد الحياة. وفى كتاب عبدالصمد عن البدوى نلمح إتجاهاً واضحاً لإسناد أكثر الكرامات للأولياء المتوفين. فعبد العال فى ضريحه سمّر شخصاً، والشيخ وهيب يهدد اللصوص إذا حاولوا نهب الودائع التى يضعها أهالى قريته عند ضريحه، والشيخ عمر الشناوى الأشعث يخرج من قبره راكباً فرساً ليغيث زائريه من قطاع الطرق، ومثله الشيخ يوسف البرلسى، وخلف الحبيشى والشيخ عماد الدين وغيرهم[٢]. والهدف من هذا طمأنة القادمين لزيارة الأضرحة وإخافة قُطّاع الطرق. بل إن بعض الأولياء كان يذهب إلى ضريح البدوى يجاذبه أطراف الحديث حتى إن البدوى كان يخرج رأسه من الضريح يسأل عن الشعرانى إذا تخلف عن حضور مولده[٣]، وقال ابن

(١) عاشور البدوى ١٦٣.
(٢) عبدالصمد الجواهر ٢٥: ٣٥: ٧٠، ٧١.
(٣) عبدالصمد ٣٣، ٦٧، ٦٨.

ياراهب مــا لنا طاحــون. ولم يكن فى الدير الا
طاحونة فدفعها لهم فتذمرو الرهبان وقالو له: قلت
ان القمح يجينا عشية واخذت الطاحونة التى ليس
عندنا غيرها ودفعتها لهولا القوم فهل اذا جا القمح
نقرقشه او نصلقه؟ فقال لهم لا تقنطو فان الرب
ياتينا بما نحتاجه فانه جل اسمه لا يعوزه علم شى
فطيبو نفوسكم. حلف هذا يونس انه طلع الجوسق
فى الوقت الذى قال له فراى جملين موسقين قمح

الصائغ «من لم تظهر كرامته بعد وفاته.. فليس بصادق[1]. وكان أبو السعود بن أبى العشائر «كرامته ظاهرة فى حياته ثم بعد وفاته»[2].

ومثله عبدالرحيم القنائى وقد ذكرها رواة مناقبة[3]، ذلك أن الصوفية يعتقدون إعتقاداً جازماً بحياة الولى فى قبره متمتعاً بكراماته متحرراً من قيود الدار الأولى. وقد عد الشعرانى من المنن معرفته بأوقات تواجد الولى المتوفى فى قبره[4].

* الطى:

١ـ ويقصد به إنتقال الولى من مكان لآخر فى لمح البصر أو نحوه، يقول ابن عطاء عنه «أن تطوى لهم الأرض من مشرقها إلى مغربها فى نفس واحد»[5]، وعليه فقد كان المرسى يحضر يوما من الإسكندرية إلى المقسم حتى يسمع الميعاد ويعود فى نفس الوقت للإسكندرية مع شيخه الشاذلى[6]، ونقل البدوى ابن أخيه من جبل أبى قبيس إلى طنطا فى غمضة عين ثم رده إلى مكانه فى غمضة عين أيضاً[7]، وفى مناقب المنوفى باب عن طى الأرض له مع

(١) الكواكب السيارة ٢٨٧.
(٢) تحفة الأحباب ٤٧٤.
(٣) مناقب عبدالرحيم مخطوط ٢٢ وما بعدها.
(٤) لطائف المنن ١٩٤.
(٥) لطائف المنن ٣٥.
(٦) تعطير الأنفاس ٢٤٦.
(٧) عبدالصمد الجواهر ٥٨، ٦١.

وصلو اليه من بحرى برسالة، وعلى ظهر احد الجملين طاحون فارسي صحيحة جديدة اكبر من تلك التي دفعها، فسبحنا الله ومجدناه الذى أطلع هذا القديس على ما هو مكتوم عن غيره وما ظهر لنا من قدسه وعجايبه. وحكى ايضاً انه صعد مرة الى جوسق دير ابو كما ليصلى واصعدو معهم قفة مملوة كعك فلما صعدو طرقهم قوماً يطلبو ما ياكلوه فقال له القديس

عدم تحركه[1]، وكان السيوطي يصلي العصر في مكة ثم يرجع، وقد يصطحب معه خادمه بشرط أن يغمض عينيه، وكان صوفي من أهل الخطوة يقول في كل يوم زرت سيدى عبدالقادر الجيلاني البارحة، وزرت النبي عليه السلام البارحة، وزرت أبا الحجاج الأقصرى» فقال شيخ الإسلام زكريا الأنصارى «يحتمل أن يكون صادقاً، فإن الأمر ممكن فإن الدنيا خطوة مؤمن»[2].

٢ـ على أن هناك طيًا آخر للزمان، فقد اشتاق بعضهم لأهله في حصن كيفا، فشاور المتبولي وكان ذلك بعد العصر فأدخله الخلوة، فرأى نفسه داخل بلده والتقى بأهله، ومكث عندهم يخطب في الجامع ويقرىء الأطفال مدة تسعة أشهر، ثم اشتاق للشيخ فأذن له أبواه فخرج إلى موضع خارج البلد، فإذا هو في خلوة الشيخ وفي نفس الزمان[3]. وأقام جمال الدين الكردى يخطب في بلاد الأكراد مدة ستة أشهر ثم رجع إلى مصر، وكل ذلك بعد صلاة العصر[4].

(١) مناقب المنوفي مخطوط ٤١ : ٤٦.
(٢) شذرات الذهب جـ٨/ ٥٤، الطبقات الصغرى للشعراني ٣٠، ٣١، ٤٤.
(٣) الطبقات الكبرى للشعراني جـ ٢/٧٥.
(٤) الجواهر والدرر ١٦٤.

بسوس: اعطهم الكعك. فانزل لهم جميع ما فى القفة وبقيت القفة مرمية فارغة فى اخر القلاية، فلما فرغ من الصلاة طرقهم قوم اخر مستطعمين فادار وجهه اليه وقال له: اعطى هولآ الذى يصيحو من ذلك الكعك . قال يونس المذكور فقلت له: ما دفعته [ألم أدفعه] لا وليك الذين جااو من قبلهم ؟ فقال لى : ما رجعت انا مليتها؟ فقلت له: ما انت منذ صعدت الى هاهنا قايم

---

* التطور:

وهو على أنواع، فقد يتطور الولى لتصير له سبع عيون أو يتربع فى الهواء[1]، أو يتشكل فى صورة أسد أو فيل أو فقير أو أمير أو فلاح أو جندى ويوصف حينئذ بأن «التطور دأبه ليلاً ونهاراً»[2]، وقد يكون للولى أكثر من جسد فيرى فى أكثر من بلد فى وقت واحد[3]، وربما يحلف شخص بالطلاق أنه رآه فى عرفات مراراً وهو لم يذهب للحج[4]، وقد ذهب المرسى إلى خمسة ولائم فى وقت واحد[5]، وصلى محمد الحضرى الجمعة فى ثلاثين بلداً فى وقت واحد، يبيت فى الليلة الواحدة فى عدة بلاد[6].

* فى قراءة القرآن:

اتخذت الكرامات هنا وسيلة للهروب من تلاوة القرآن خاصة وأنها ظهرت فى أواخر العصر، فكان أبو السعود الجارحى يصلى بالقرآن فى ركعة أو ركعتين[7].

(١) الغزى الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة جـ١/١٩٨ ترجمة الشيخ الغمرى.
(٢) الغزى نفس المرجع جـ١/ ٢١٣ ترجمة سويدان المجذوب، شذرات الذهب جـ٧/٣٥٠ ترجمة حسين الصوفى.
(٣) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/٩٤ ترجمة محمد الحضر.
(٤) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/١٤٩ ترجمة نور الدين الشوفى.
(٥) الطبقات الكبرى للمناوى مخطوط ٢٦٢.
(٦) أخبار القرن العاشر مخطوط ورقة ٥٧.
(٧) شذرات الذهب جـ٨/١٦٦، ١٦٧.

تصـلى مكانك ما برحت، متى مليتها؟ فقال لى: بلا قـد مليـتهـا وهوذا هى مملوة كـعك فـادفـع لهم منه. فـمـضـيـت اليـهـا بامره فـوجـدتهـا مملوة كـعك فـانزلت بعـضـه لاوليك. وحلف يونس واشـهـد الله على نفسه ان القديس بسوس لم يمسكها بيده مذ فرغتها وجعلتها قدامى فارغة مطروحة على الارض الى ان صلا وصليت معه الثالثة وهو فى مكانه ما برح منه.

وذكر الشعرانى أن أبا العباس الحريشى ذكر أنه قرأ بين المغرب والعشاء خمس ختمات فقال نور الدين المرصفى «الفقير «يعنى نفسه» وقع له أنه قرأ فى يوم وليلة ثلاثمائة وستين ألف ختمة كل درجة ألف ختمة[1]» فقال له الشعرانى بالحروف يا سيدى؟ فقال نعم لأن الروح إذا تجردت عن الجسم الكثيف فعلت ذلك، ويقول «ويقع ذلك للأولياء لشرف قدرهم عند الله فإن أعمار هذه الأمة قصيرة، فأقدر الله خواص هذه الأمة على ذلك، ليرجح أحدهم فى الأعمال على عُبّاد الأمم السابقة الذين عاشوا نحو الخمسمائة سنة[2].

ويحكي الشعرانى عن نفسه أنه أحرم بصلاة الصبح خلف الإمام الذى افتتح سورة المزمل فسبَق لسانُ الشعرانى للقرآن، فقرأه من أول سورة البقرة ولحقه فى قراءة الركعة الأولى قبل أن يركع[3].

* رؤية الله سبحانه والملائكة والعرش:

إدّعى الصوفية رؤية الله فيقول المرسى إن له أربعين عاماً ما حجب فيها عن الله طرفة عين[4]، وكان تاج الدين النخال يتجلى عليه الحق فى الخلوة[5]، وجعل الشعرانى من المنن

---

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/١١٢.
(٢) البحر المورود ٢٦٧، ٢٦٨.
(٣) لطائف المنن ٢٩٤.
(٤) تعطير الأنفاس ٢٢٠، ٢٢١.
(٥) طبقات الشاذلية ١٨ـ١.

ومعلوم مشهور ان يسطس الراهب عميت عينيه فاقام القديس بسوس شهر كامل يصلي عليه حتى انفتحت عينيه، وحكى لى الشماس سنهوت الراهب بدير ابو بشيه عن هذا القديس بسوس عجايب كثيرة يطول شرحها، منها انه تنبى على مرقس ابنه في الرهبنه وهو اخو بقطر انه يغمضه بيده في تلك البرية، وكان مقيم في قرية تسمى ازرى [كفر الزيات]، فحضر اليه وقت وفاته وغمض عينيه.

تشريفه برؤية الله تعالى في النوم خمس مرات، ويقول إن شخصاً ادعى أنه اجتمع به في سوق الوراقين فأنكر عليه بعض العلماء، ويرى الشعراني أن ذلك الإنكار غير صحيح[1]، وقد أطلع الله الشعراني على عدد أصحابه وعرّفه بأنسابهم[2]، وأطلعه على السعداء من البشر والأشقياء منهم.

٢ـ وتوثقت علاقة الأولياء بجبريل، فكان عبدالرحيم القنائي يستشيره فيما يعن من مشكلات مريديه[3]، خاصة وأن مخاطبة جبريل لا يمنع منه لدى الصوفية عقل ولانقل على حد قول الدسوقي[4]، والكلام مع جبريل وغيره من الملائكة من كرامات الأولياء، وليست بمستحيلة ولا منكرة، وكتب الرقائق مشحونة بحديث الأولياء معهم، وقد ذكر بهاء الدين الأخميمي أن ملك الموت أخبره بعمره، واجتمع آخرون بعزرائيل وأوصى بعضهم ـ على ميت ـ منكراً ونكيراً[5]، وكان بعضهم يكلم «الملكيْن الكرام الكاتبين»[6].

(١) لطائف المنن ٣٨٢.
(٢) لطائف المنن ٣٩٣، ٣٥٢.
(٣) مناقب عبدالرحيم، مخطوط، ورقة ١٠، ١١.
(٤) حسن شمه، مسرة العينين، مخطوط، ورقة ٨.
(٥) لطائف المنن ٤٠٣ : ٤٠٤.
(٦) لواقح الأنوار ٣٣٥، والطبقات الكبرى للمناوى. مخطوط ورقة ١٠٦.

وحكى لى القديس مقاره الامنوت والقس زكير ريس دير نهيا والشماس ابو حبيب الدمنهورى ان القديس بسوس، رزقنا الله بركته، قال لهم ولجماعة من الرهبان قبل مضى امير الجيوش الى اسكندرية لمحاربة ولده الاوحد، ان فهد اخى يصير شهيداً باسكندرية وقد سرت له بذلك. وكان الأمر كما قال بعد مدة، وحكى لى جماعة من اولاده الرهبان بديرابو كما منهم مقاره النوبى انه اعلمهم

٣ـ واتخذ الصوفية من العرش مجالاً لكراماتهم حتى أن الدسوقى يقول «أنا العرش أنا الكرسى أنا اللوح أنا القلم»(١)، وتواضع باقى الأولياء. فادّعوا أن أبصارهم تطمح حتى تحيط بالعرش»(٢)، وكان الخضرى يقول «لايكمل الرجل عندنا حتى يكون مقامه تحت قوائم العرش»(٣)، واطلع أحدهم على مقام الشاذلى فوجده عند العرش(٤). وسُمى ياقوت بالعرشى لأنه كان دائماً ينظر للعرش وليس فى الأرض سوى جسده(٥)، ويقول المرسى «والله إنى لأعرف العرش كما أعرف كفّى هذه(٦)»، وادعى كثير من الأولياء بأنه يعلم أزقة السموات أكثر من علمه بأزقة الأرض(٧).

* الأسد:

إستغله الصوفية فى كراماتهم خاصة وأن السباع كانت تهدد الحجاج(٨).

(١) حسن شمه مسرة العينين مخطوط ورقة ١٠.
(٢) الجواهر والدرر ١٦٦.
(٣) أخبار القرن العاشر ٦٣.
(٤) لطائف المنن ابن عطاء ٤٤.
(٥) عيون الأخبار جـ٢/٤٤٢، الطبقات الكبرى للمناوى مخطوط ٣٣٣.
(٦) تعطير الأنفاس مخطوط ٢٧٣.
(٧) طبقات الشاذلية ١١٨ ترجمة تاج الدين النخال، أخبار القرن العاشر ١٧٥ ترجمة ابن عنان.
(٨) السلوك ٨٨٨/٢/٣.

بقتل اخى فهد قبل وصول الخبر اليه بقتله بيومين وانهم تقصو عن الوقت الذى قتل فيه فوجدوه الذى اخبرهم فيه بقتله.

وكان فى ايام الاب انبا اخرسطودلوس حبيس فى صومعة سنجار اسمه بطرس له عجايب كثيرة منها ان اصبعه انصبغ [بالاحمر] من الكاس المقدس، واقام خمسة عشر سنة مربوط بخرقة، وحدثنى يسطس السنجارى القس ببيعة ابو مرقوره

والأسد يتصاغر فى الكرامات الصوفية حين يفترس من ينقذه الولى، وربما يحمل عليه الولى الحطب أو يركبه، أو يلجأ الأسد لبيت الصوفى مستجيراً من جرح(١).

* الذهب:

أدى فقر الصوفية إلى إتخاذهم قلب الأعيان ذهباً جانباً هاماً من كراماتهم تفننوا فى حبكها، مع الحرص على انتهاء الكرامة بأن يعود الذهب إلى حالته الأصلية. وربما يعلن الولى مقدرته على قلب الشيء ذهباً ـ بدون قصد ـ فيتحول ما يشير إليه إشارة عابرة إلى ذهب، ومن الأشياء التى حولت ذهباً الطوب والحطب والهواء والحجر والماء وحتى الباذنجان(٢).

وتفرد الشاذلى بأن الله أوحى إليه ـ فيما يزعم ـ أن يجعل فى بوله ما يشاء يكن ذهباً، ويبدو أنه كان يتحرج من ذلك فيأمر خادمه أن يبول على الحجر فيحوله ذهباً(٣)، وكان آخر كلما استنجى بحجر تحول ذهباً(٤).

(١) الكواكب السيارة ٢٠٦ : ٢٠٨، بهجة الأسرار ١٩/٢، حياة الحيوان للدميرى ١٥/٢ : ١٦.
(٢) روض الرياحين ١٩٧، الكواكب السيارة ٣١٨. مناقب الحنفى ١٧ : ٢٢١، المدخل لابن الحاج جـ٢/١٧٤، ١٧٥.
(٣) تعطير الأنفاس ٣١، ٤٩.
(٤) المدخل لابن الحاج جـ٢/١٧٥.

الشهيد الجليل بمصر، عن الذى طلع بعده إلى الصومعة المذكورة انه راه واصبعه مشدوداً صبغه، ولم يكن يحله ولا يريه لاحد، وانه كان عنده لما مرض قبل وفاته بثلثة ايام وانه ساله ان يريه[أصبعه]، ولم يزل يلطف به ويضرب له مطانوات الى ان كشفه له فراه احمر كانه في تلك الساعة غطسه في دم. وحكى لى القس كيل السنجارى في بيعة السيدة الطاهره، التي في قرية

---

* الطعام:

كان كسابقة مجالاً للكرامات، واحتوت كتب المناقب على الكثير منها، وهى على أنواع منها إحضار ما لذ وطاب من الطعام من حيث لا يدرى أحد[1]، أو أن الولى يميز الطعام الحلال والحرام حين يكون مدعواً، واشتهروا بهذا التخصص لأن حياتهم قامت على الأكل من طعام الناس حراماً أو حلالاً، حتى أن مباراة عقدت بين وليين حضرها الظاهر بيبرس فيما يرويه الصوفية[2] فى هذا الشأن.

وحكيت كرامات على مثال ما روى فى السيرة النبوية من أن الطعام القليل يكفى جمعاً عظيماً من الناس، وبولغ فى ذلك على عادة الصوفية[3].

ولم يتحرج الصوفية عن وصف تهالكهم فى حب الطعام، فكان من كرامات ابن عبدربه الصوفى أنه أكل طعام مولد بأكمله، وأكل مرة لحم بقرة كاملة[4]، وكان الشيخ دمرداش إذا غلب عليه الحال يأكل الأردب من الفول، وعمل له الأمير أقبردى الدودار سماطاً فلم يدعُ أحداً من أصحابه، وأكله بنفسه، وكان يكفى خمسمائة نفس، ولم يبق شيئاً، فقال لم أشبع

(١) تعطير الأنفاس ٥٥، ٥٦، ٢٣٣، ٢٢٤، ٢٦٣، ٢٦٤.
(٢) الكواكب السيارة ١٠٦، ١٠٧، ١٣١، تحفة الأحباب ٢٤٧، تعطير الأنفاس ٢٣٠.
(٣) لطائف المنن ١٩٠، ٤٩٠.
(٤) شذرات الذهب جـ٧/٣٢٣.

تسمى الجديديه[مركز رشيد]، انه كان يقدس فى الصومعة المذكورة بسنجار لهذا القديس بطرس الحبيس فيه في ايام الاعياد وغيرها، وانه قال له: يا ابى القديس انا ما اشبه اقل تلاميذك؟ فلماذا لا تستدعينى حتى اقدس لك ولا تقدس انت لنفسك. قال له: فلا تستقصى على. قال لى كيل المذكور: فقلت له ان لم تعرفنى السبب والا مضيت عنك ولا ارجع اقدس لك؟. وضربت له

فآتوه بكسر يابسة، وقيل له كيف أكلت ذلك كله؟ فقال: رأيت شبهات فأحضرت طائفة من الجن فأكلوه وحميت الفقراء منه[1].

* كرامات تافهة:

١- أصبح إدّعاء الكرامات ميداناً مباحاً أمام كل من هب ودب من مدّعى الصوفية، هذا بالإضافة إلى أن الكرامات فى حد ذاتها تعتبر إنعكاساً لحياة المتصوفة أنفسهم، فعدّ من كرامات الحنفى أنه «إذا وضع يده على الفرس الحرون لم يعد إلى حرونته»[2]، على أن هذا التفكير إنعكس بدوره على نظرة العصر لكرامات المتصوفة أنفسهم، فنجد أبا المحاسن يعد من كرامات يحيى الصنافيرى المجذوب أنه كان يغطس فى الماء البارد فى الشتاء وفى شدة الحر يجلس فى الشمس عريان مكشوف الرأس، ومن كراماته أيضاً أن امرأة أتته وقالت يا سيدى إن لى بقرتين سُرِقتا فقال لها «حُطى الفول فى المدود وهما يأكلان الفول، فمضت عنه، وجعلت الفول فى المدود حتى كان الليل أقبلت البقرتان إلى المدود وأكلتا الفول»[3]. وكان الولى إذا مات فى خانقاه مثلاً تشترى ثيابه بأغلى الأثمان ويعلن أن ثمنها قدر ما أخذه من معلوم أى مرتب الخانقاه[4].

(١) الغزى الكواكب السائرة جـ١٩٣/١.
(٢) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٨٨/٢.
(٣) المنهل الصافى جـ٤٨١/٥.
(٤) أنباء الغمر جـ٣٨٤/٣ ـ ٣٨٥.

مطانوه فقال لى: ولا بد لك؟. قلت له : نعم. فقال لى : قدست دفعة فى كنيسة دمرو [الخمارة(*) قبل طلوعى الى هاذى الصومعة فلما جعلت اصبعى على حافت الكاس وقلت هذا يصير دم المسيح فاض الكاس حتى امتلا الى شفتيه وانصبغ اصبعى] وغشى على ولحقنى رعب عظيم، ومن ذلك اليوم شددت اصبعى حتى لا يراه احد وما قدست الى يومى هذا ولا اقدس ابدا.

(*) دمروا الخمارة: هى احدى ثلاث قرى فى دمروا.

٣ـ لذا كان من المقبول أن يتقبل الرأى العام إدّعاءات الصوفية بالغاً ما بلغت تفاهتها. فكان حسن إبريق العابد إذا وقع الدلو منه فى البئر يأمر الماء. أن يرتفع بالدلو وقد أعطى انساب جميع الحيوانات، وكان حسن الطراوى إذا فقد ماء الوضوء ينزل عليه ولى من السماء فى عنقه قربة مملوءة من ماء النيل(١)، ويدعى الشعرانى أنه كشف عنه الحجاب فى عام ٩٢٣ حتى سمع تسبيح الجمادات والحيوانات من البهائم وغيرها، ويسمع من تكلم فى أطراف مصر وقراها إلى سائر أقاليم الأرض ثم إلى البحر المحيط حتى صار يسمع تسبيح السمك(٢)، ووحلت سفينة فقال أحد الأولياء «إربطوها فى يضى بحبل وأنا أنزل وأسحبها، ففعلوا فسحبها ببيضه حتى تخلصت من الوحل إلى البحر»(٣)، وكان أحدهم يقسم الأرزاق بين الحيوانات والطيور زمن القحط(٤)، وكان آخر يضرب الأرض برجله فينبع الماء ثم يضربها ثانية فيخرج منها قدحاً يضع فيه الماء(٥)، وكان الشيخ محمد الكناس من أصحاب البدوى يكنس مقام البدوى والجيلى والرفاعى وعدة مقامات فى بلاد المغرب وغيرها ويرجع إلى طنطا فى ساعة(٦). وخرج الشيخ البلتاجى من قبره ليعيد حمارة ضائعة ليوسف العجمى(٧)، وكان

(١) الطبقات الكبرى للمناوى ٣٨٦.
(٢) لطائف المنن. ٢٣.
(٣) الطبقات الكبرى للشعرانى جـ٢/٧٨.
(٤) بهجة الأسرار للشطنوفى جـ٢/٢٨.
(٥) الإلمام مجلد ٢/٧٦.
(٦) الطبقات الصغرى للمناوى مخطوط ورقة ٢٦٥.
(٧) الطبقات الكبرى للمناوى ٣٨٤.

وكان بنوسا [مركز أجا] شيخ اطروش قديس حبيس في صومعة اسمه شنوده فانفذت له اساله ان يدعو لي ولاخي فهد بالخلاص وكنا يوميذ في يد امير الجيوش في القبض، فعاد الى الجواب منه غداة يوم الجمعة قايلا: قد خلصكم السيد المسيح اليوم. فلما كان ثاني يوم وصل الى كتاب من اخى من مصر يذكر فيه وصوله اليها، وانه دخل الى امير الجيوش غداة يوم الجمعة بمال باع به الرباع

أبو العباس الحرار حين يستنجى تستحلفه الأحجار بالله ألا يستنجي بها، وأخيراً يجد حجراً يقول له إن الله أمرني أن أتطهر بك(١)!!

٤ـ واخترعت الكرامات الصوفية نوعاً من الأولياء يطيرون في الهواء، وقد أولم الشيخ البسطامي وليمة فاخرة لهم فتساقطوا من الهواء وأتوا عليها(٢)، وقد طار المرسى في الهواء ليستوثق من أن خادمه يكذب عليه حين قال له أنه سقى الفرس(٣).

وعكست الكرامات الصراع بين الأولياء، فقيل عن حبيب المجذوب أنه كان كثير العطب ليست له كرامة إلا في أذى الناس(٤). ومد أبو عبدالله المكي يده من المغرب فهدم الخلوة على زروق الفاسي في بولاق، فنجاه الله ببركة أبى العباس الحضرمي(٥)(*).

(١) الطبقات الكبرى للمناوى ٢٦٤.
(٢) مناقب الحنفي ٣٨٩.
(٣) تعطير الأنفاس ٢٤١.
(٤) الطبقات الكبرى للمناوى ٣٨٥.
(٥) طبقات الشاذلية ١٢٠.
(*) انظر: العقائد الدينية فى مصر المملوكية. د. أحمد صبحى منصور سلسلة تاريخ المصريين. رقم ١٨٦. الهيئة العامة للكتاب القاهرة. عام ٢٠٠٠.

التى كانت لى باسكندرية، وانه اخذه منه وسامحه بالباقى من خط كنت الزمت به حتى كتبته بخمسة الف دينار وهو الفى دينار ورفع عنه الترسيم، ويقول فيه: وقد احسن الله خلاصنا فى هذه الساعة. وهى الساعة التى ذكرها شنوده القديس الحبيس. وحكى لى خالى صدقه ابن سرور نيح الله نفسه عن حكاية مرقوره الشماس ابن القس وزير الفوى، انه كان بدير ابو يحنس راهب

---

١٢. نهاية دولة سلاطين المماليك:

شهد القرن التاسع الهجرى ـ الخامس عشر للميلاد ـ تدهورا سريعا فى أوضاع دولة المماليك، وهو تدهور يرجع فى المقام الأول الى اختلال نظامهم الاجتماعى والحربى من ناحية، وسوء سياسة السلاطين الداخلية من ناحية أخرى. فبعد أن كان المماليك يجلبون صغارا وينشئون نشأة قويمة أساسها الطاعة والنظام، صاروا يجلبون الى مصر كبارا. بل أن بعضهم جاء بعدبلوغ سن الرشد[(١)]. ثم ان السلاطين عدلوا عن تسليمهم للفقيه«ليربيهم بالآداب والحشمة والحرمة»[(٢)]، وتركوهم وشأنهم، كما سمحوا لهم بالنزول من طباقهم وتهاونوا معهم فى أخطائهم. وترتب على ذلك أن فقد المماليك روح النظام والطاعة،وهى الروح التى ميزت أسلافهم الأوائل، وحلت محلها روح التمرد والعصيان. فاذا وزع السلطان دراهم الكسوة على مماليكه امتنعوا عن أخذها وطلبوا المزيد، بل بلغ الأمر ببعضهم أن قتل أستاذه من أجل تحقيق أطماعه الخاصة[(٣)]. وساعد على هذه الفوضى انقسام المماليك شيعا وأحزابا متطاحنة فى عهد سلطان واحد، فنسمع فى عهد السلطان المؤيد شيخ عن المماليك الأشرفية والظاهرية والمؤيدية. ولم يقتصر الأمر على الصرع فى شوارع القاهرة بين طوائف المماليك، مما أثار نوعا من الفوضى وترك أثرا سيئا فى أوضاع البلاد وخاصة الاقتصادية وانما أخذت كل

(١) سعيد عبدالفتاح عاشور: العصر المماليكى فى مصر والشام ص ١٧٣ .
(٢) المقريزى: كتاب السلوك ، ج٢ ، ص ٥٢٤ ، حوادث سنة ٧٤١ هـ .
(٣) ابن تغرى بردى: حوادث الدهور ، ج١ ص ١١٣ ، السخاوى: التبر المسبوك ، ص ٣٥٢ .

قديس يسمى كييل ابن الجندى، وانه مضى اليه برسالة من ابى البدر ابن صقيل الرشيدى اخو تادرس اسقف رشيد، وهذين هما خالين لخالى صدقه ابن سرور المذكور، وكان صحبة هذا مرقوره الفوى رجلا نصرانى من اهل فوه(*)، قال مرقوره: كلما قرعنا على كييل ابن الجندى باب منشوبيته خرج وفتح لنا الباب وقال لذلك الرجل يافلان وسماه باسمه ما خفت من السيد المسيح ربنا لما

(*) فوه: تقع على فرع النيل قرب رشيد بينها وبين البحر ستة أميال. وهى مدينة تجارية وميناء هام. والفوه هى العروق التى تصبغ بها الثياب الحمر. اسمها القبطى «بوى» وقد قلبت الباء فاء كما

طائفة تتجسس على الأخرى. فاذا مرض مملوك من غير طائفته، أسرع مملوك آخر الى أخذ اقطاعه حيا كان أو ميتا. كذلك أدى عدم انضباط المماليك الى تعرضهم لحريم الأهالى وأولادهم، حتى أمسوا رمزا للسلب والنهب والإجرام وعنوانا للفوضى وعدم الاستقرار فى البلاد(١). وهذا ما صار اليه المماليك على أيام المقريزى المتوفى سنة ١٤٤١م (٨٤٥هـ)، الذى وصف المماليك على أيامه بأنهم «ليس فيهم الا من من هو أزنى من قرد وألص من فأرة وأفسد من ذئب». أما المؤرخ أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الذى ينحدر من أصل مماليكى والذى توفى سنة ١٤٦٩م (٨٧٤هـ) فقد قال عن المماليك فى أيامه بأنهم «ليس لهم صناعة الا نهب البضاعة، يتقوون على الضعيف ويشرهون حتى فى الرغيف، جهادهم الاخراق بالرئيس، وغزوهم فى التبن والدريس!!»(٢).

هذا الى أن فساد النظام الاقطاعى فى أواخر عصر المماليك أدى اختلال نظام الجيش نفسه، لأن الجيش قام على أسس اقطاعية بحتة. وكانت أبرز مظاهر ذلك الخلل تصرف الأمراء والأجناد فى اقطاعهم عن طريق البيع والتنازل والمقايضة فمن أراد النزول عن اقطاعه حمل مالاً الى بيت المال بحسب ما يقرر عليه، الأمر الذى أدى إلى دخول كثير من الكتاب وأرباب الوظائف الدينية وأرباب الصنائع والحرف ضمن أجناد الجيش(٣).

(١) ابن تغرى بردى: حوادث الدهور، ج٢، ص ٣٣٤.
ابن قاضى شهبة: الإعلام، ج٤، ص ١٨٦.
(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٣٢٩.
(٣) المقريزى: المواعظ والاعتبار، ج٢، ص ٢١٩.

فسقت بالصبى ليلة الاحد فى الطاحون بفوة. فسقط الرجل على الارض وتعلق برجلى كيل وبكا، وساله ان يستغفر له فضمنه وقال له: ان انت تبت فانا اضمن لك الغفران. فتاب لوقته فقال له: طب نفساً فان الرب قد غفر لك. ثم قال لى: اهلا بالشماس مرقوره ابن وزير القس جيتنى برسالة من ابى البدر ابن صقيل [الرشيدى] قول له عنى انت رجل جيد غير انك اذا صليت تصيح

قلبت فى فاو والفيوم وادفو وأطفيح وغيرها. وهى الآن مركز هام تابع لمحافظة كفر الشيخ.

ومن ناحية أخرى، فان سلاطين المماليك فى القرن التاسع الهجرى اتبعوا سياسة اقتصادية قاسية، فتطرفوا فى الاحتكار - مثلما فعل برسباى وقايتباى بوجه خاص - وأمعنوا فى جمع الضرائب مقدما دفعة واحدة، فضلا عن التلاعب فى العملة لتستفيد الخزانة من الفارق بين العملة الجيدة والعملة الرديئة، ومضاعفة المكوس والرسوم، مما سبب ضائقة اقتصادية خطيرة فى البلاد سنة ١٤٩٢م (٨٩٧هـ)(١).

وزاد الطين بلة أن جمهورية جنوة أخذت تبحث عن طريق جديد الى الشرق بدلا من طريق مصر، بعد أن أدت سياسة المماليك الاحتكارية الى ارتفاع أثمان التوابل ارتفاعا غير محتمل، حتى انها صارت تباع للتجار الأوربين فى الاسكندرية ودمياط بثمن يفوق أربعين مرة أثمانها المستوردة بها الى مصر، وكان أن نجح البرتغاليون فى نهاية القرن الخامس عشر للميلاد (أوائل القرن العاشر للهجرة) فى الوصول الى الهند عن طريق الطواف حول أفريقيا، وبذلك حققوا نصرا عالميا جديدا واستطاعوا أن يوفروا للسوق الأوروبية التوابل وغيرها من حاصلات الشرق الأقصى، بثمن يبلغ ربع الثمن الذى كانت تباع به فى الاسكندرية ودمياط. وسرعان ما اهتزت سلطنة المماليك لذلك الانقلاب المفاجئ فى طرق التجارة، مما حرم المماليك من المورد الأول الذى استمدوا منه أسباب قوتهم وعظمتهم. وعبثا حاول السلطان الغورى أن يعيد عقارب الساعة الى الوراء اذا انتصر البرتغاليون فى النهاية على الأسطول المماليكى فى موقعة

(١) ابن اياس: بدائع الزهور، ج٣، ص ٢٨٧ (تحقيق محمد مصطفى).

كثير فاخفط [فأخفض] صوتك قليلا اذا صليت.
ثم قال لى جواب الرسالة من غير ان اقول له شيأ، فتعجبنا من قدسه وعدنا نسبح الله. وكان والد هذا كيـيل الراهب جندى يخـدم السلطان وهو على دينه وخدمته بالقاهرة فسال كيبل السيد المسيح فيه ان ياتى به اليه ويهديه ان يتعمد، فبينما هو ذات يوم فى منشوبيته قرع عليه ابوه الباب فخرج اليه فوجده راكب فرسه بقوسه ونشابه وجعبته

ديو البحرية سنة ١٥٠٩م (٩١٥هـ[١]). وهكذا ذبلت تجارة مصر مع الشرق الأقصى والغرب الأوروبى جميعا. وبذبول تلك التجارة ذبلت الدولة نفسها. كان ذلك فى الوقت الذى لاح على مسرح الشر ق الأدنى خطر جسيم قدر له أن يجهز على سلطنة المماليك فى مصر والشام، وهو خطر الأتراك العثمانيين.

اما هؤلاء العثمانيون فهم من الأتراك اضطروا فى بداية القرن الثالث عشر للميلاد ـ السابع الهجرى ـ الى أن يتحركوا تحت ضغط التتار من اقليم خراسان حتى استقر بهم المقام فى آسيا الصغرى. ولم يلبث أن أدى انهيار سلطنة سلاجقة الروم فى أوائل القرى التالى الى اتاحة فرصة للعثمانيين فأخذوا يتوسعون بسرعة فى آسيا الصغرى والبلقان حتى سقطت القسطنطينية فى أيديهم سنة ١٤٥٣م (٨٥٧هـ)، وبذلك قاربت الدولة العثمانية فى تاريخها نقطة مفترق الطريق، فهل تواصل توسعها فى وسط أوروبا أم تتجه الى التوسع فى الشرق؟ وعندما اختار العثمانيون الطريق الأخير صار الصدام بينهم وبين المماليك أمرا لامندوحة عنه،اذ كان لابد لاحدى هاتين القوتين اللتين تتزعمان العالم الاسلامى فى الشرق الأدنى من أن تسحق منافستها لتستأثر بزعامة المسلمين فى المنطقة[٢].

(١) المصدر السابق، ج٤ ، ص ٨٢ ، ٢٨٦ ، ٤٥٨ ، ٤٦٦ .
(٢) محمد مصطفى زيادة: نهاية السلاطين المماليك فى مصر ص ٢٠٠ ـ ٢٠٢ (بحث نشر فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ١٩٥١).

وسلاحه فتلقاه بفرح وادخله المنشوبية وساله عن سبب مجيه فقال له: شخص ما اعرفه ساقنى من القاهره الى هاهنا بغير اختيارى. ففرح به ووعظه وعرفه شرف دين المسيح وفضايله ودعاه اليه فاجابه وتعمد واقام عنده زمان وكانت عدته معلقه فى المنشوبيه مدة طويلة والرهبان وغيرهم يشاهدوها. واعلمنى ابو يعقوب الراهب ان كييل المذكور وقف يصلى ليلة الاحد بين يدى صورة الست السيدة مرتمريم العذرى الى بالغداة، فكلمه

وفى الصراع الذى قام بين المماليك والعثمانيين كان من الصعب أن يصمد المماليك بعد أن اختل نظامهم فى الداخل، وفقدت دولتهم المورد الأول لثروتها وقوتها. وهكذا حلت الهزيمة بالسلطان الغورى عند مرج دابق ـ قرب حلب سنة ١٥١٦م (٩٢٢هـ)(١). ورغم الشجاعة الكبيرة التى أبدها طومان باى آخر سلاطين المماليك ـ فان السلطان سليم العثمانى استطاع الانتصار عليه، والسيطرة على مصر. وتروى المصادر أنه عندما وقع طومان باى فى قبضة غريمه السلطان سليم، فانه واجهه فى شجاعة، وقال له «الأنفس التى تربت فى العز لاتقبل الذل. وهل سمعت أن الأسد يخضع للذئب؟ لاأنتم أفرس منا، ولاأشجع منا، وليس فى عسكرك من يقايسنى فى حومة القتال!!». وكان أن سيق طومان باى الى باب زويلة حيث شنق سنة ١٥١٧م (٩٢٣هـ).

وهكذا انتهت دولة سلاطين المماليك، وهى الدولة التى كانت فيها مصر قوة مستقلة ذات نفوذ عريض فى الشرق والغرب جميعا، ونشاط واسع فى ميادين الحر ب والسلم. وبنهاية هذه الدولة، دخلت مصر مرحلة أخرى من مراحل تاريخها الحافل الطويل(*).

---

(١) ابن زنبل: آخرة المماليك، ص ١٢٢ ـ ١٣٦.

(*) انظر: تاريخ مصر الإسلامية: أ.د. سيدة إسماعيل كاشف، أ.د. جمال الدين سرور، أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور. أعدها للنشر: أ.د. عبدالعظيم رمضان. سلسلة تاريخ المصريين رقم ٦٣. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ١٩٩٣.

ابليس خزاه الله من خلف الصورة وقال له: قد تعبت ياكييل يكفى. فزجره كيل كعادته معه وقال له: جيت ايضا؟. وصلب عليه فصار زوبعة سودا ومضى عنه يدوى. وبعد هذا قال لجماعة من الرهبان اذا كان يوم الجمعة وقت الساعة التاسعة احضرو عندى لاودعكم فانى راحل عنكم فى ذلك اليوم، فلما كان يوم الجمعة حضرو عنده فوقف يخدمهم داخل وخارج فى جملة

المجاعات فى العصر الفاطمى وأسبابها(*)

لما كان من المتعارف عليه لدى المؤرخين أن حالة فيضان النيل نقصاً أو زيادة، تؤثر على حياة المصريين أن رخاء أو قحطا ، فإنه من البديهى إن نحاول أولاً التعرف على حدود الفيضان النافعة والضارة إبان فترة الدراسة ، وقبل التعرض لأحداث المجاعات وتحليل أسبابها.

ورغم وجود المقاييس على النيل، والمناداة اليومية على مقدار زيادة النيل، مما يتيح لعامة الناس معرفة حد الوفاء، إلا أننا ندهش أمام حجم التناقض الملحوظ فى كتابات المؤرخين بهذا الشأن.

فإذا كان من المتفق عليه بين معظم المؤرخين أن حد الوفاء عند غزو العرب كان الستة عشر ذراعاً، والتى كانت تكفى لزراعة أرض مصر، ويفيض من الغلات مايكفى لسنتين كما يذكر المقريزى نقلاً عن القضاعى[1] (ت ٤٥٤هـ)، فإنه ومنذ منتصف القرن الرابع الهجرى تقريباً، نجد اختلافاً واضحاً فى ذكر حدود الوفاء، وما يتطرق إليه الحديث عند سرد أحداث المجاعات ومستوى الفيضان وقتها.

فعلى حين يذكر المسعودى أن ١٦ ذراعاً تكفى لزراعة ثلاثة أرباع أرض مصر، وان ١٧ ذراعاً

(*) انظر: مجاعات مصر الفاطمية. د. أحمد السيد الصاوى. دار التضامن. بيروت ١٩٨٨.
(١) المقريزى: الخطط - ج١ص٥٩. القلقشندى: صبح الأعشى - ج٣ص ٢٩٤.

السلامة ويتحدث معهم، فى الساعة السادسة فقام الى المحم[الحمام= المغطس] فافاض عليه ما[ء] حار ولبس ثياب نظاف قد اعدها لنفسه وانضجع قدامهم وقال اقرو على المزامير، وكان يتحدث معى الى الساعة التاسعة ثم ودعهم وتنيح.

كان وصل من الاندلس الى اسكندرية انسان من مقدمى الاندلس يعرف بابى يونس وهو قرابة

فيها كامل النفع، وأن ١٨ ذراعاً تؤدى إلى الإستبحار وتلف مراعى الماشية(١)، نجد أن المقريزى عند تعرضه للمجاعة التى حدثت عام ٣٥٤هـ /٩٦٥م بسبب نقص الفيضان، يشير إلى أن مبلغ الزيادة كان سته عشر ذراعاً وأصابع(٢). وفى هذا الصدد فإن د. المناوى رجح ما ذكره المسعودى بحكم قربه من هذا التاريخ إذ انتهى من وضع كتابه حوالى عام ٣٣٢هـ /٩٤٤م(٣). غير أن الأمر فى حاجة إلى أكثر من ترجيح رأى على آخر استناداً إلى عامل الزمن فقط، ونود أن نلفت النظر هنا إلى أمور مهمة:

١ - أن حد الوفاء كان يتغير بتقادم الزمن بسبب ترسبات الطمى الذى يجلبه الفيضان، مما يؤدى إلى ارتفاع منسوب التربة، وان كان هذا التغير الطبيعى يتسم بالبطء، نظراً لوجود ترسبات طينية أيضا فى مجرى النهر، الأمر الذى يعنى إرتفاع منسوب النهر بالتالى.

٢ـ أن هذا الحد كان شديد التأثر بحالة الجسور والترع، ومدى إهتمام الحكومات بمشروعات الرى، فإذا ما وضعنا فى الحسبان حالة الاضطراب التى سادت مصر منذ سقوط الدولة الطولونية سنة ٢٩٢هـ/٩٠٤ـ٩٠٥م ودوام نزاعات الجند، وتوالى الأزمات الاقتصادية،

(١) المسعودى: مروج الذهب ـ ج١ص ٢١١ـ ٢١٢.
(٢) المقريزى: إغاثة الأمة ص ١٢
(٣) د. محمد حمدى المناوى: نهر النيل فى المكتبة العربية. القاهرة ١٩٦٦ ص ١٦٨هامش (٤).

لصاحب المرية(*) المدينة وكان بيني وبينه مودة لنزوله في دار الوكالة الذى لى، وكنت قد سمعت من جماعة تجار من الاندلس شيوخ ان بالاندلس عند بيعة السيدة الطاهرة مرتمريم شجرة زيتون تورق وتثمر فى ليلة عيد تلك الكنيسة كل سنة، ووقع اجتماعهم على صحة هذا الامر(*)، فلما وصل الاندلسى المذكور سالته عن صحة ذلك فاستدعا غلاماً له اسمه رشيد، وكان غلاماً عاقلا

(*) المرية: ميناء وعاصمة اقليم المرية فى الجنوب الشرقى لأسبانيا. كانت فى هذه الفترة تحت حكم بنو صمادح من ملوك الطوائف.

(*) يورد الدكتور عبد العزيز الأهوانى فى كتاب «نصوص عن الاندلس» نشره معهد الدراسات الاسلامية. مدريد ١٩٦٥م النص التالى عن ابن الدلائى، أحمد

فى مدة حكم الأخشيديين، لأمكننا القول بأن تدهوراً قد طرأ على حد الوفاء نتيجة لإهمال مشروعات الرى، إلا أن هذا التدهور لم يكن ليعنى أن ١٦ ذراعاً هو حد المجاعة خاصة وأن النيل كان يصل إلى هذا الحد فى سنوات لاحقة ولم تحدث مجاعات.

٣ـ أن ثمة ملاحظة جديرة بالإلتفات ، إبداها المقريزى فى معرض حديثه عن المجاعة التى روعت البلاد عام ٧٩٦هـ/١٣٩٣ـ١٣٩٤م إذ ذكر أن عادة بلاد مصر منذ الزمن القديم، إذا تأخر جرى النيل بها أن يمتد الغلاء سنتين(١). وفسر ذلك بأن السنة الأولى تقل الغلال فيها، ويزداد الطلب عليها، فاذا ما وفى النيل العام التالى، كانت الحاجة ماسة إلى الحبوب لبذرها، فيزداد إرتفاع أسعارها. وعلى ضوء ذلك يمكن فهم سبب هذه المجاعة التى وقعت عام ٣٥٤هـ/٩٦٥م- رغم بلوغ النيل ١٦ ذراعاً حسب المقريزى و١٦ ذراعاً و١٥ أصبعاً حسب «أبو المحاسن» ـ على أنها استمرار للمجاعة التى شملت البلاد منذ ٣٥٢هـ /٩٦٣م، حيث بلغت الزيادة فى سنة ٣٥٣هـ خمسة عشر ذراعاً وأربع أصابع(٢). أما إذا صح ما ذكره بن أيبك الدوادارى عن إرتفاع الفيضان (١٦ ذراعاً و١٥ أصبعاً عام ٣٥٣هـ و١٤ ذراعاً و١٩ أصبعاً عام ٣٥٤هـ) فإن مجاعة عام ٣٥٤هـ يكون سببها هو نقص الفيضان، بينما ينطبق التفسير الذى أورده المقريزى على مجاعة سنة ٣٥٣هـ/ ٩٦٤م.

(١) المقريزى: إغاثة الأمة ـ ص ٤١ ـ ٤٢.
(٢) المصدر السابق ص ١١.

يتولى جميع ماله، فقال له: يا رشيد هذا الشيخ قد استعلم منى حال الشجرة الزيتون التى عند البيعة وانت كنت معى عند مضى اليها فاجلس حتى احدثه ليلا يغيب شى عنى فتذكرنى به. ثم التفت وقال : انا كشفت حال هذه الشجرة الزيتون لاننى كنت اكذب من يحكى عنها فسرت الى موضع هذه الشجرة وهى عند كنيسة تعرف بمريم، بينها وبين المرية المدينة ثلثة ايام، وهو موضع يسمى

بن عمر بن أنس العذرى (ت ٤٧٨هـ): «... ومن الغرائب زيتونة فى كنيسة فى حومة بجبل على مقربة من مدينة لورقة وبقرب حصن هناك يعرف بميريط (سرنيط)، إذ كان أوان صلاة العصر من اليوم الذى يستقبل أول ليلة من شهر مايو نوّرت الزيتونة فلا يأتى الليل إلا وقد عقدت فتصبح من تلك الليلة والزيتونة كلها قد أسود ثمرها من الزيتون وطاب. وقد عرف الناس ذلك ووقفوا عليها، وأرسل الأمراء قديماً إليها. وقد

ومهما يكن من أمر، فقد أصبح واضحاً أن ١٦ ذراعاً لم تعد كافية لزراعة جميع أراضى مصر، حسبما ذكر المسعودى وحسبما تؤكد الروايات التاريخية، وذلك قبيل العصر الفاطمى وإن كانت لاتعنى القحط.

أما فى العصر الفاطمى فإن التوصل إلى معرفة يقينية لحد الوفاء يعد أمراً مشوباً بالمخاطر، فعلى حين يؤكد المقريزى أن زيادة النيل النافعة هى ١٦ ذراعاً إلى ما بعد سنة ٥٠٠هـ، وأن زيادة ١٧ ذراعاً تزيد خراج مصر ١٠٠,٠٠٠ دينار لما يروى من الأراضى العالية[١]، يشير هو نفسه إلى إستمرار الغلاء أعوام ٣٥٨هـ ، ٣٥٩هـ ٣٦٠هـ، والتى بلغ النيل خلالها ١٦ ذراعاً و٢٠ إصبعاً، ١٧ ذرعاً ٢١ إصبعاً، ١٧ ذراعاً، و٢١ إصبعاً، على التوالى، وأن الأسعار إنخفضت وأخصبت الأرض وحصل الرخاء عام ٣٦١هـ/١٧١ - ٩٧٢م، على الرغم من أن النيل بلغ ١٧ ذراعاً وأربعة أصابع[٢]. وإذا أمكن القول بأن سبب هذه المجاعات يعود إلى اضطراب البلاد عند الفتح الفاطمى، فإن المقريزى يقرر صراحة أن المجاعة التى وقعت عام ٣٨٧هـ/٩٩٧م سببها نقص الفيضان الذى بلغ ١٦ ذراعاً وأصابع[٣]. ثم يزيد ناصر خسرو،

(١) المقريزى: الخطط - ج١ص٦٠- ٦١.
(٢) المقريزى: إغاثة الأمة ص ١٣.
(٣) المصدر نفسه.

«انظر واعجب» فنصبت خيمتى تحت الشجرة وهى على باب الكنيسة وليس عليها يوميذ ورقة خضر، وكان معى اربعين فارساً من اصحابى، وكان ليلة عيد تلك الكنيسة وقد حج لها الناس من كل موضع، فبتنا هناك الى بكره، فلما طلعت الشمس يوم العيد اخضرت الشجرة والناس كلهم ينظروها وتفتحت اغصانها واينع ورقها ثم تكاثر الورق وظهر الثمر وتكون الزيتون وتزايد وتكاثر الى

قطعها أهل تلك الناحية لكثرة الوارد عليهم بسببها فبقيت مقطوعة زماناً، ثم لقح الأصل بعد ذلك، وهى باقية إلى اليوم على حالها الموصوف.
وقد رأيت من قدم خبرها أن إبراهيم ابن يعقوب الاسرائيلى الطرطوشي أخبر أن ملك الروم بروميه سنة خمسين وثلثمائه من الهجرة (٩٦١م) قال له إنى أريد أن أرسل إلى أمـــيـرا المؤمنين بالاندلس قوماً (قسيس) حاذقاً بهدية، وان من أعظم حوائجى عنده، وأجل مطالبى قبله، وذلك

الذى زار مصر خلال أعوام ٤٣٩ ـ ٤٤٢، الأمر تعقيداً، فيذكر أن الزيادة المعهودة هى ١٨ذرعاً وأنه كلما قلت الزيادة عن ذلك قيل إن النيل ناقص[(١)] وعلى النقيض من ذلك تماماً، وقعت المجاعة عام ٥٣٢هـ/١١٣٧ـ ١١٣٨م بسبب توقف النيل[(٢)] الذى بلغ فى هذه السنة ١٨ذراعاً و١٢إصبعاً[(٣)]، أو ١٧ذراعاً و٣أصابع طبقاً لابن أبيك. أما أنه «حصل غرق نجم عنه تلف» عام ٥٥٩هـ[(٤)]، وزيادة النيل ١٨ذراعاً و١٠أصابع (أو ٨أصابع) وسنلحظ خلال هذا البحث أن بعض المجاعات، وقعت والزيادة تخطت الذراع السادسة عشر بأصابع بل والذراع السابعة عشر، فى حين أن زيادة النيل قلت عن ذلك فى سنوات كثيرة ولم تحدث المجاعة. ومن استقراء بيانات الفيضانات يمكن الجزم بأن حد القحط خلال العصر الفاطمى كان ما دون الذراع الخامسة عشر، وكان هذا الحد عند الفتح العربى ١٢ذرعاً. فزيادة النيل لم

(١) ناصر خسرو : سفر نامه ـ ترجمة وتعليق د. يحيى الخشاب ـ لجنة التأليف والترجمة ـ القاهرة ١٩٤٥ ـ ص ٤٢.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ـ تحقيق د. محمد حلمى محمد - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ القاهرة ١٩٧٣ ـ ج٣ ص١٦٥ ـ ١٦٦.
(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ـ ج٥ ص ٢٦٣.
(٤) د. راشد الراوى: حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ـ النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٤٨ص ـ ٣٧٠

نصف النهار فصار فيها من الزيتون مالا يحصى، فعند ذلك خرج قيم البيعة واخذ من الزيتون ما عصره واوقدمنه قناديل البيعة وصلو وكملو قداسهم وتقربو ثم انصرفو عايدين الى مواطنهم، وعرفت ان القيم وخدام البيعة بعد انقضى العيد يجمعو ذلك الزيتون فيكفاهم لوقيد القناديل وسرج البيعة وما يحتاجو للاكل طول السنة، واخذت انا من ذلك الزيتون وجماعة من الناس

أنه صحّ عندى أن في القاعة الكريمة كنيسة وفي الدار منها زيتونة إذا كان ليلة الميلاد نوّرت وعقدت وأطعمت من نهارها، فأعلم أن لشهيدها محلاً عظيماً عند الله عزّ وجلّ فاضرع إلى معاليه في تسليل أهل تلك الكنيسة ومداراتهم حتى يسمحوا بعظام ذلك الشهيد، فإن حصل لى هذا فهو كان أجلّ عندى من كل نعمة في الأرض.« ص ٨/٧.

كما يذكر أبو حامد الغرناطى (ت ٥٦٥/ ١١٦٩) في كتابه

تصل إلى ما دون ١٥ ذرعاً إلا ثلاث مرات إبان حكم الفاطميين لمصر، في سنوات ٣٩٧هـ/١٠٠٦ - ١٠٠٧م، ٣٩٨هـ - ١٠٠٧ - ١٠٠٨م، و٤١٤هـ/١٠٢٣ - ١٠٢٤م، وجميعها كانت سنوات مجاعة. وفيما عدا ذلك فإن زيادة ما بعد ١٥ ذرعاً لم يكن ولو بإصبع واحد كافية لعدم قحط البلاد (٥٥٤هـ)، كما أنه من الوارد حدوث المجاعات حتى لو وصلت الزيادة إلى قريب من ١٨ ذرعاً. ومغزى ذلك أنه بعد ١٥ ذرعاً لم يكن هناك حد قاطع ومحدد لفيضان النيل تحدث معه المجاعة، وأن هذا الحد كان متذبذباً، متأثراً في ذلك بحالة الدولة المركزية، التي كان بإمكانها - إن استطاعت - أن تعبر بالبلاد الأزمة رغم الإنخفاض النسبى للفيضان، أو تعجز عن منع الأمور من الانحدار مع شمول الرى لمعظم الأراضى.

إلا أن ذلك لايعفى من محاولة الوصول إلى حد موضوعى لوفاء النيل يمكن معه الفصل فيما إذا كان سبب المجاعة هو النيل أم عامل آخر.ويبدو أن الحد الذى اعتبرته الحكومة كافياً لتحصيل الخراج هو ١٦ ذراعاً، حيث كان يتم الإحتفال بوفاء النيل عنده حسبما نقل المقريزى[1] عن ابن الطوير.

إلا أنه من الملاحظ أن الاحتفال بوفاء النيل ظل يتم عند بلوغ الذراع السادسة عشر حتى

(١) المقريزى: الخطط - ج١ص ٤٧٦ وقد أورد القلقشندى سجلاً من إنشاء ابن الصير في يؤكد أن ١٦ ذراعاً هى حد الوفاء، القلقشندى: صبح الأعشى - ج٨ص ٣٢٩- ٣٣٠.

الحاضرين على سبيل التبارك به وعدت الى المريه. ثم قال لغلامه: يا رشيد ما كذا كان. قال: نعم يا مولاى هكذى كان وأنت اجل من ان تستشهد بعبدك.

وكان يظهرفى ايام الاب انبا اخرسطودلوس عجايب كثيرة منها ان صورة مارى مينا الشهيد التى فى فى اسكنا ابو مقار سال منها دم، وهوذا علامته باقيه الى الان، وشهد بهذا جماعة من الآبا

«المغرب عن بعض عجايب المغرب» تقديم وترجمة وتحقيق إينغرد بيخارانو، مدريد ١٩٩١م، «وبقرب غرناطه جبل عليه الثلج لايفارقه أبداً صيفاً ولا شتاءً لا يقدر أحد من بني آدم يصعد إليه، وبالقرب من هذا الجبل آثار كنيسة عندها عين من الماء وشجرة زيتون، ويخرج الناس ويقصدون تلك الشجرة الزيتونة زمان الربيع في يوم معروف فإذا طلعت الشمس من ذلك اليوم فاضت تلك العين بماء كثير فظهر على الزيتونة زهر الزيتون، ثم ينعقد زيتوناً ويكبر ويسودّ من

العصر المملوكى، رغم إن ذلك الحد لم يعد كافياً لزراعة الأرض وقتها، وكان يحتفل بالوفاء، فقط لكون ذلك «قانون الرى فى القديم»[1] ولذا فليس بالإمكان الإعتداد بهذا الحد، طالما أصبح الاحتفال بوفاء النيل عنده مسألة تراثية لا علاقة لها بالواقع.

وفي ضوء روايات المؤرخين يمكن ترتيب حدود الوفاء على النحو التالي:

١ـ الستة عشر ذرعاً كانت تكفى لزراعة جميع الأراضى ودرء خطر المجاعة عن البلاد، وليس هناك خطر محقق إذا بلغت الزيادة ١٥ ذراعاً.

٢ – السبعة عشر ذراعاً، أصبحت كافية فقط لزراعة معظم الأراضى وليس كلها.

٣ـ أن حد الوفاء الذى يكفى لزراعة جميع الأراضى ويمكن معه الوفاء بالخراج دون عنت كان ١٨ ذراعاً ، وذلك منذ منتصف القرن ٥هـ/١١م على الأقل .

ومعنى ذلك أن حدود فيضان النيل عند الغزو العربى زادت بمقدار ذراعين تقريباً خلال العصر الفاطمى . وقبل الدخول فى سرد أحداث المجاعات التى مرت بمصر الفاطمية نشير إلى أنه برغم من مرور البلاد بفترات من الفوضى والاضطراب وخاصة فى خلافة المستنصر بالله. فإن مصر شهدت إهتماماً لابأس به بمشروعات الرى والزراعة ، فتدل وثائق الجنيزة اليهودية

(١) المقريزى: الخطط ـ ج١ ص٥٥.

الرهبان القديسين منهم القديس مقاره الامنوت الذى هرب من البطركيه، فا نه قال لى من فاه الطاهر: أن [أنه] كان فى الاسكنا امنوت قديس اسمه بهور ظهرت له عجايب كثيرة وهو ابو بسوس ابن الامنوت، وان صورة الشهيد الجليل مارى مينا التى فى الاسكنا انقلع من القونه [الايقونه] مسمار فطلع سمره فخرج الدم من تحت المسمار من أعلا الصورة الى اسفل، وقال لى

يومه ويأخذ من قدر على أخذه ويحملون من تلك العين للتداوى». ص ١١.
أما محمد أبن عبد المنعم الحميرى (توفى فى القرن الثامن الهجرى) فيذكر فى كتابه «الروض المعطار فى خبر الأقطار»، حققه الدكتور احسان عباس، بيروت ١٩٩٨٤م، فى مادة لورقة: «... ومن أغرب الغرائب الزيتونة التى على مقربة من حصن «سرنبط» وهو حصن من حصون لورقة البرانية منها، وهى زيتونة فى حومة الجبل.» ص ٥١٢.

Geniza على وجود إدارة خاصة تشرف على أمور الزراعة بالبلاد(١). كما وأن الكتابات التاريخية تفيد بأن ثلث خراج البلاد كان يرصد لعمارة جسور أراضى مصر(٢) والجسور المعنية هنا هى الجسور السلطانية التى توجد فى شرق وغرب الدلتا ، أ ما الجسور البلدية وهى التى تنتفع بها جهات محلية دون أخرى، فكان يتولى صيانتها الملاك والمتقبلون على أن يخصم تكاليف ذلك من الخراج الذى يؤدونه للدولة(٣). وشهدت عهودا إستقرار الحكم المركزى إهتماماً بمشروعات الرى، مثل تطهير خليج الإسكندرية بعد أن طم تقريباً وخاصة فى قسمه الأول عند خروجه من فرع رشيد وبلغت تكاليف ذلك فى سنة ٤٠٤هـ/ ١٠١٣ـ ١٠١٤م، ١٥ألف دينار، واستفادت منه القرى الواقعة فى غرب الدلتا فضلاً عن تسهيل الملاحة (٤). وحفر فى عهد الأفضل بن أمير الجيوش عام ٥٠٦هـ/ ١١١٢ـ١١١٣م الخليج المعروف بخليج أبى المنجا لضمان رى أراضى البلاد الشرقية فى كل الأحوال(٥).

(١) د. راشد البراوى: حالة مصر الاقتصادية ـ ص ١٠٥.
(٢) المقريزى: الخطط - ج١ص٦١.
(٣) د. راشد البراوى: المرجع السابق ص ٦٥.
(٤) المرجع نفسه ص ١٠٣.
(٥) المقريزى: الخطط ـ ج١ ص ٧١ ـ ٧٢، د. راشد البروى: المرجع السابق ـ ص ١٠٤وهامش (٤) ويبدو أن هذا الخليج كان قديماً طمّ ثم أعيد حفره إذ يرجع القلقشندى هذا الخليج إلى أحد ملوك مصر بعد الطوفان. القلقشندى: صبح الأعشى ـ ج٣ ص ٣٠٥.

مـقـاره أنه شك في الدم الذى خـرج من هذه الصورة بحكم صباه في ذلك الوقت قال: وطلعت لاعـمل غـشـا الاراديون وكـان هناك جـمـاعـة من الرهبان القبط والسريان فاستحلفني احد السريان ان اتقدم الى الصورة لانظر الدم فتقدمت اليها وانا شاك فيها وقال لى قلبى ان الناس يكذبو على فلما رايته فاذا هو دم بالحقيقة لا شك فيه، وعند ذلك رايت الارض قد صعدت فوقى والحمال الخشب

- -

مجاعات العصر الفاطمى:

قام الفاطميون منذ استقرارهم فى إفريقية وتأسيس دولتهم بتوجيه خمس حملات للاستيلاء على مصر، حققت أربع منها نجاحات محدودة فى فرض سيطرتهم على بعض النواحى الواقعة فى غرب مصر مثل الإسكندرية والفيوم والجيزة(١). ولم يكتب النجاح إلا للحملة الخامسة التى أرسلت عام ٣٥٨هـ/٩٦٩م بقيادة جوهر الصقلى(٢)، وكانت مصر وقتها تعانى من قحط ووباء بدأ عام ٣٥١هـ/٩٦٢م مما أدى وفاة الكثيرين حتى عجز الناس عن تكفين الموتى فألقوا بجثثهم فى النيل وترتب على ذلك اشتداد الغلاء وندرة القمح وانتشار أعمال السلب والنهب(٣)، ولم يصبح فى البلاد قوة مادية أو معنوية من جانب شعبها الذى

(١) د. عبد المنعم ماجد: ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر- دار المعارف الإسكندرية ١٩٦٨ ـ ص ٩٦ ـ ١٠٠.

(٢) أبو الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى: شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ـ مكتبة القدس ـ القاهرة ١٣٥٠هـ ـ ج٣ ص ٢٦.

(٣) د. حسن إبراهيم حسن: الفاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والدينية المطبعة الأميرية ـ القاهرة ١٩٣٢م ـ ص ٩٥ـ ٩٦، وكان فى بغداد غلاء ذريع حتى بيع الكر من الدقيق بتسعين ديناراً . انظر: ابن الجوزى : المنتظم ـ ج٧ ص ٤٧.

[في السقف] قد نزلت الى الارض والحيطان قد التقوا والناس الذى كانوا قيام تحتى قد صاروا فوقى وسقطت مغشياً على وصرت كأن ثقل البيعة كله على، فقلت: ياسيدى خلصنى فان الله قادر ان يظهر عجايبه فى قديسيه وان انا تخلصت علقت على وجهه [اعنى القديس مارى مينا] خرقة مليحة. حينيذ فتحت عينى فرايت نفسى قد استقرت والحيطان قد رجعو كما كانو وسمعت الرهبان يصيحو مات الصبى فاوميت اليهم بيدى

- -

أنهكه الجوع والمرض[1]، وكان وصول أخبار هذه الأحداث المؤسفة ـ التى زادها سوءاً موت كافور الإخشيدى وتفرق جنده - كافياً لشحذ همة المعز لدين الله لينتهز هذه الفرصة ويستولى على مصر[2]، خاصة بعد أن كاتبه أعيان مصر يدعونه لدخولها بسبب طمع الجند فى أهل القرى[3]. ويبدو أن المصريين وجدوا فى الفاطميين منقذهم من الحالة التى تردت إليها البلاد فدخل الجيش الفاطمى الذى بلغ مائه ألف مقاتل مصر «فى يوم الثلاثاء السابع عشر من شعبان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة (٩٦٩م)، فهرب أصحاب كافور وأخذ جوهر مصر بلا ضربة ولاطعنة ولا ممانعة»[4].

ومن الواضح الجلى أن إنخفاض النيل لم يكن مبرراً لحالة القحط التى سادت البلاد فى عام الفتح الفاطمى، فالفيضان كان قد وصل فى أقل التقديرات إلى ١٦ ذراعاً و٢٠ إصبعاً،

(١) د. أحمد مختار العبادى: فى التاريخ العباسى والفاطمى ـ مطبعة شباب الجامعة - الإسكندرية ١٩٨٢ ـ ص ٢٤٨.

(٢) أبو الفدا، إسماعيل بن عمر بن كثير : البداية والنهاية ـ مطبعة السعادة بمصر ١٩٣٨ ـ ج١١ص٢٢٦، ابن الأثير على بن أبى سعيد الأندلسى: المغرب فى حلى المغرب: تحقيق د. زكى حسن (وآخرون): مطبعة جامعة فؤاد الأول ـ ١٩٣٥ ـ ج١ ص ٢٠١

(٣) عبد الله الشرقاوى: تحفه الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين، مصر ١٩٢٢ـ ص٣٣.

(٤) السيوطى: حسن المحاضرة ـ ج٢ص١١، شمس الدين الذهبى: تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والإعلام ـ مخطوط مصور بدار الكتب المصرية برقم ٤٢، تاريخ، مجلد ١٦ص ٩٩ حوادث عام ٣٥٨هـ.

اسكتو ولم استطيع الكلام وجلست ساعة حتى رجعت لى روحى وانتعشت نفسى واعلمتهم ما كان منى واننى رأيت الدم وهو بالحقيقة دم لا شك فيه.

وبلغنى عن انسان نصرانى كان دايماً يستشفع بالقديس مرقوريوس الشهيد وكان يقضى حوايجه ويقوم هو ايضا بخدمته، وانه فى زمان ادب [غضب] من اداب الرب لخلقه، استشفع كعادته

وهو حد لا يعنى القحط كما أسفلنا، ولذا فإنه على وجه الترجيح، يمكن إرجاع المجاعة والغلاء إلى اضطراب الأحوال الاقتصادية واهمال مشاريع الرى والزراعة، ومنازعات فرق الجند ، مما أفضى إلى أرتفاع الأسعار حتى بلغ سعر القمح تسعة أقداح بدينار[1]. بل إن ضعف الإدارة المركزية، أدى إلى سوء عيار السكة الإخشيدية وانتشار الغش فيها كما يتضح من خطاب الأمان الذى أعطاه جوهر الصقلى للمصريين عند دخوله مصر[2].

والذى وعد فيه بإرخاص الأسعار، وإقرار الأمن وتجويد عيار السكة. ولكن إقرار النظام، وضمان زراعة الأرض، وإكمال إستعادة الإدارة المركزية لكافة صلاحياتها. لم يكن ليتم بين ليلة وضحاها، إذ استغرق ذلك ثلاث سنوات تقريبا حاول خلالها جوهر الضرب بشدة على أيدى التجار والطحانين الذين استغلوا حالة الفوضى فى محاولة الإ ثراء من ورائها. ففى ذى القعدة عام ٣٥٩هـ/ ٩٧٠م قام سليمان بن عزه المغربى، الذى تولى الحسبة[3] عوضاً عن أبى

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ـ تحقيق د. جمال الدين الشيال - القاهرة ١٩٤٨ ـ ق١ ص ١٦٨.

(٢) د. حسن إبراهيم حسن: الفاطميون فى مصر ـ ص ١٠٨.

(٣) يقصد بالحسبة والإحتساب ـ شرعاً ـ الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه والنهى عن المنكر إذا ظهر فعله ، أى محاولة جعل الحياة السائدة موافقة لأحكام الشريعة، وفى مصطلح التاريخ يقصد بالحسبة الوظيفة التى تراقب تنفيذ أحكام الشريعة فيما هو حادث فعلاً فى المجتمع الإسلامى على اختلاف طبقاته ـ انظر: د.السيد الباز العرينى: الحسبة والمحتسبون فى مصر ـ مقال بالمجلة التاريخية المصرية. القاهرة ١٩٥٣ ـ =

فلم يقضى له حاجة فشك فيه فظهر له في تلك الليلة واخرجه الى موضع واسع واوقفه على جب فيه خيل وسلاح وقال له: تعرفنى انا ابو مرقوره فلا تشك في واعلم انى انا واخوتى الشهدا وغيرنا قد امرناban لا نشفع فى احد فى هذا الزمان لانه زمان ادب. وهذه خيلنا وسلاحنا قد تركناه ها هنا.

وكان غلق الكنايس فى زمان الوزير اليازورى فى يوم الجمعة الخامس من بوونه سنة ست واربعين

جعفر الذى توفى فى ربيع الآخر، باتخاذ بعض الإجراءات لمواجهة إرتفاع الأسعار، فضبط ساحل بولاق حيث ترد الغلة فى المراكب، وجمع تجار القمح وسماسرة الغلال فى موضع واحد، وسد الطرق إلا طريقاً واحداً يتم منه خروج القمح تحت إشرافه وبحضوره[١]، ثم قام بضرب أحد عشر طحاناً وشهرهم[٢]، ويبدو أنهم حالوا تخزين بعض الدقيق لبيعه بثمن مرتفع، ويمكن أن نضيف إلى جانب عامل الإحتكار الذى يتسبب فى إرتفاع الأسعار، اختلال الأمن وانتشار السلب والنهب الذى كان متفشياً فى بداية خلافة المعز بمصر[٣].

وبلغت الضائقة الاقتصادية ذورتها عام ٣٦٠هـ/ ٩٧٠-٩٧١م[٤] ويرجع ذلك إلى

= مجلد٣العدد ٢ ص ١٥٧ .والحسبة عند الشيعة تدخل فى عموم واجبات الإمام الحاكم بسبب كونها خدمة دينية. وكان الإمام يستخلف فيها من يراه أهلاً لها. انظر: د. عبد المنعم ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر . الإنجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٧٣ـ ج١ ص ١٦١ـ ١٦٢ . وقد كان للمحتسب منزلة رفيعة فى العصر الفاطمى فكان يقوم بتعيين نوابه بالقاهرة وجميع الأعمال ولايحال بينه وبين مصلحة أرادها وكانت تضاف الحسبة بمصر والقاهرة إلى صاحب الشرطة بهما أحياناً. انظر : القلقشندى: صبح الأعشى ـ ج٣ص ٤٨٦ .

(١) د. أحمد مختار العبادى: فى التاريخ العباسى والفاطمى ـ ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧ .

(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج١ص ٧٢ ـ ١٦٩ .

(٣) أبو صالح الارمنى: كنائس واديرة مصر ـ المطبعة المدرسية باكسفورد ١٨٩٥ ـ ص ٨٤.

(٤) المقريزى: إغاثة الأمة ـ ص ١٣ .

واربع مـايه الخـراجـيـة. وقـبض على الاب اخرسطودلوس والاساقفه وطولبو بالمال وعوقب ثلثة اساقفة منهم وماتو، احدهم ابا اسحق اسقف مصيل(*)، وتاودرس اسقف سمنود ابن اخت الاب انبـا شنوده البطرك المتنيح، وابا جـرجـه اسـقف الخندق.

(*) مدينة مندرسة، خربت في الفترة العثمانية، ولاتزال أطلالها تعرف اليوم باسم كوم المدينة ناحية بسنتاواى بمركز أبو حمص غربى مدينة المحمودية محافظة البحيرة.

وكذلك كان اخوتنا السريان والمومنين بمدينة انطاكيـة فى جـهـد وبلا عظيم، لان الملكيـه وثبـو

استمرار تفشى الأمراض والأوبئة، التى اشتدت بالقاهرة من المحرم، مما دفع جوهراً إلى منع بيع الشواء مسموطا، وأمر بأن يسلخ من جلده كإجراء وقائى[1]. ويلاحظ إرتباط المجاعات بانتشار الأوبئة وخاصة وباء الطاعون الذى يودى بحياة الكثيرين، فيلحق بذلك الضرر بالأيدى العاملة فى الزراعة، إما لموت البعض، أو لهجرة آخرين لمواطن الداء، فتصبح الأرض ولاتجد من يزرعها[2]. ومن العوامل التى تساعد على تفشى الأوبئة ازدحام البيوت بالسكان، وخاصة فى الفسطاط، والتى تتكون بعض الدور فيها من سبع طبقات ، «وربما يسكن فى الدار المائتان من الناس»[3] فإذا أضيف إلى ذلك العادات غير الصحية التى كان يتبعها السكان من أن يرموا بما يموت من القطط والكلاب فى الشوارع والنيل ومصادر مياه الشرب فيشربون هذه العفونة، المختلطة بالماء ، فضلاً عن تعذر دفن الموتى فى حالة تفشى الأوبئة والمجاعات مما يؤدى إلى انتشار الميكروب وبقائه لفترة طويلة بالبلاد لتأخر وسائل الطب الوقائى[4]، لعرفنا مدى فداحة الخسائر التى كانت تقع بين صفوف السكان، حتى إن المقريزى يذكر أنه لما سقطت

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج١ ص ١٧٩.
(٢) د. راشد البداوى: حالة مصر الاقتصادية ـ ص ٨٠ ـ ٨٢.
(٣) المقريزى: الخطط ـ ج١ ص ٣٤١.
(٤) المقريزى: الخطط ـ ج١ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠، د. راشد البراوى: المرجع السابق ـ ص ٨٠.

على بيعهم واحرقوها بالنار وجميع كتبها، وبحكم
ان الملك لهم، وكـان عليـهم منهم طرد عظيم،
وذلك سنة سبع مايه ثلثة وثمانين للشهدا، وكثر
تنهدهم وضجيجهم وبكاهم، وصار منهم جماعة
على راى الملكيـة بانطكيـة. وفى سنة ست الف
وخمس مـاية اربعة وستين للعـالم وهى سنة سـبع
مـاية ثمـانيـة وثمـانين للشـهـد وصل الملك العـادل
البارسلان [عضد الدولة محمد ابو شجاع ت

الدولة الإخشيدية واختل حال مصر بتوالى الغلاء وتواتر الأوبئة والفناء حدثت مدينة القاهرة عند قدوم جيوش المعز بسبب تدهور حالة الفسطاط وموت معظم سكانها[١].

ولايمكن إغفال دور التهديد بالغزو الخارجى فى إرتفاع الأسعار إذ قام القرامطة بغزو الشام ونجحوا فى هزيمة الجيش الفاطمى بدمشق عام ٣٦٠هـ/٧٠ـ ٩٧١م، بل وحاصروا القاهرة حتى عام ٣٦١هـ/٩٧٢م[٢].

ومهما يكن من أمر فقد وضعت هذه المجاعة أوزارها عام ٣٦١هـ ، التى انخفضت فيها الأسعار واخصبت الأرض وحصل الرخاء[٣]. وذلك كنتيجة طبيعية لاستقرار أمور الحكومة الجديدة، ونجاحها فى القضاء على الأخطار الخارجية، ونشر الأمن فى ربوع البلاد، مما ضمن زراعة معظم الأراضى، ولا يعتقد أن هناك ثمة علاقة بين هذا الرخاء وحالة الفيضان، الذى كان فى هذا العام ١٧ ذراعاً و٤ أصابع، أى أقل من فيضان العام السابق بأصابع.

وبانتهاء هذه المجاعة كان الخليفة المعز لدين الله قد وعى وبشكل عملى، الدرس ألا وهو الإرتباط بين الإحتكار التجارى واستشعار الناس انخفاض زيادة النيل ، من خلال المناداة على

(١) المقريزى: المصدر السابق ـ ج١ص ٣٥٩.
(٢) د. عبد المنعم ماجد: ظهور خلافة الفاطميين ـ ص ١١٥.
(٣) المقريزى: إغاثة الأمة ـ ص ١٣.

١٠٧٢م] من المشرق في عساكر عظيمة عددها ستماية الف فارس مقاتلين سوى اتباعهم، فاضطربت البلاد وقلقت المملكة بمصر وفتح في الشام الفوقاني بلاد كثيرة وفي بلاد الروم الى ان حسن له اصحابه فتح المدينة الجليلة الرها، وكان فيها يوميذ دوقس[دوق] يسمي بسيل ابن اسار ابن ملك الغز من قبل ديوجانس الملك. وكان بالرها يوميذ ثمانية الف ارمني وعشرين الف سرياني

زيادة النيل، وبأ ن لا يكتب بذلك إلا إليه، وإلى القائد جوهر، وأن يباح النداء عند بلوغ النيل حد الوفاء الرسمي ـ وهو الستة عشر ذراعا[١].

بيد أن ذلك الإجراء فيما يظهر، لم يستمر طويلاً، إذ يشير ناصر خسرو إلى استمرار نظام المناداة اليومية على زيادة النيل خلال زيارته لمصر[٢].

شهدت خلافة الحاكم بأمر الله(٣٨٦ - ٤١١هـ/ ٩٩٦ـ ١٠٢٠م) سلسلة من المجاعات، استغرقت نحو نصف سنى حكمه التى قاربت الربع قرن . ولاشك أن هذه الكوارث قد وضعته في موقف لايحسد عليه إذا أصبح لزاماً عليه أن يحارب فى أكثر من جبهة، فقد اعتلى الحاكم كرسى الخلافة وهو فى الحادية عشر، و٥ أشهر وستة أيام[٣]، طفل تسعى أكثر من قوة

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج١ص ١٩١، الخطط ـ ج١ ص ٦١، ويذكر القلقشندى أنه كان يؤخذ المقياس وتكتب له رقعة للخليفة وللوزير لم ينزل بديوان الرسائل فى مسير معدله فى الديوان ويستمر الحال على ذلك فى كل يوم ترفع رقعة إلى ديوان الإنشاء بالزيادة لايطلع عليها غير الخليفة والوزير وأمره مكتوم إلى أن يبقى من ذراع الوفاء(١٦ذراعا) اصبع أو أصبعان ـ صبح الأعشى ـ ج٣ ص ٥١٦.

(٢) ناصر خسرو: سفر نامه ـ ص ٤٢.

(3) Wustenfeld (f) Geschichte Fatimiden cholifen. Aus dem 26und 27 Bande der Abhandungen der Koniglichen Geseilschaft der wissenschaften zu Gottnigen _ Gottingen 881 _ p165.

وستة الف رومى [يونانى] والف افرنجى [لاتينى] فنزل عليهم فى ستماية الف مقاتل وضرب خيمته وانفذ الى اهلها يخدعهم قايلا: ما غرضى فتح بلدكم بل تقطعو لى عليكم مال وارحل عنكم، فلما سمعو هذا اهتمو بجمع المال، وهو ينقب تحت حصن المدينة. ومن بعد سبعة ايام كان فى عسكره صبى سريانى فكتب رقعة يقول فيها لاهل الرها هو يخادعكم وقد نقب تحت البرج الفلانى

للسيطرة عليه وعلى مقاليد الأمور بالبلاد، فنشبت المنازعات بين البربر والأتراك[1]، وقد نجح الحاكم بعد أربع سنوات من وصاية برجوان عليه أن يمتلك زمام الأمور فى البلاد كخليفة قوى[2]. وبعد ذلك كان عليه أن يواجه غزواً خارجياً جاءه من الغرب بقيادة الثائر أبى ركوه[3]، وخطر الأوبئة الفتاكة والمجاعات، وقبل ذلك وبعده المنازعات التى دارت داخل البيت الخليفى للحد من نفوذه المطلق، تلك المنازعات والمؤمرات التى أودت فى النهاية بحياته بتدبير أخته ست الملك[4]. فضلاً عن بعض المشاكل المتعلقة بالدعوة الفاطمية، ومحاولات البعض إلصاق الألوهية به[5]. ورغم أن التاريخ حافل بشخصيات كثيرة أهضمها المؤرخون حقها وأساءوا فهمها ـ عمداً فى معظم الأحوال ـ إلا أن شخصية الحاكم فاقت كل هذه الشخصيات فى مقدار الظلم الفادح الذى وقع بحقها.

(١) د. عبد المنعم ماجد: ظهور خلافة الفاطميين ـ ص ٣٧١ ـ ٣٧٢.
(٢) ستانلى لينبول: سيرة القاهرة ـ ترجمة د. حسين إبراهيم حسن ـ النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٥٠ـ ص ١٣٤.
(٣) الذهبى: تاريخ الإسلام ـ مجلد ١٦ ص ١٣٢ ـ ١٣٣.
(٤) أبو الفدا: البداية والنهاية ـ ج١٢ص ١٠.
(٥) د. عبد المنعم ماجد: الحاكم بأمر الله المفترى عليه ـ مكتبة الإنجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٥٩ـ ص ١١٥.

والموضع الفلانى حتى وصف لهم احد عشر موضعاً فيها النقابين ينقبو وقد بلغو تحت الحصن وتجاوزوه، وجعل الرقعة في نشابه ورماها المدينة، فاخذوها ووقفو عليها، ونقبو قبالة تلك المواضع. وكان الوالى المذكور ياخذ البوق ويجعل راسه فيما يلى خارج البلد على الأرض وطرفه عند اذنه فيسمع حس النقب. فالتقو النقابين بغتة فى النقوب فقتل من نقابين الرها ثلثة ومن نقابين

فكتابات بعض المؤرخين غير واقعية لأنها رمته بالشذوذ والجنون إلى حد وصفه بأنه كان شر خليفة، بل لم يل مصر فرعون شر منه[1]، ولم يسلم الحاكم من كتابات كثيرة معاصرة، حتى من قبل الكتاب الأجانب الذين دخلوا حلبة إدانته اعتماداً على المصادر التاريخية دون تمحيص أو نقد[2].

ولما لم يكن مجالنا هنا تبرئة ساحة الحاكم[3]، فإننا سنقتصر على سرد ما يخص موضوع المجاعات في عهده، حيث أثبت بتصرفاته وإجراءته مع كل ما واجه من صعاب، أنه كان أنضج وعياً، وأكثر عبقرية من غيره من الخلفاء. الذين لم يتهموا بالجنون.

فعندما توقف النيل عن الزيادة في عهده، وقيل له إن هذا من فعل الأحباش الذين غيروا مجرى النيل، أمر بطرك النصارى أن يتوجه إلى الحبشة، فذهب وعرض على النجاشي ما وقع بالبلاد مع ضرر، «فأمر ملك الحبشة بفتح سد عندهم يجرى منه إلى

(١) السيوطى: حسن المحاضرة ـ ج٢ص ١٣، ابن العبرى: مختصر تاريخ الدول ـ بيروت ١٩٨٠ ـ ص ٣١٣.

(٢) لينبول: سيرة القاهرة ـ ص ١٤٣ـ ١٣٥،

Brocklmann (Carl): History of the Islamic peoples. London and Henley 1980 - p 160.

(٣) انظر: د. عبد المنعم ماجد: الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه.

البارسلان ابن داوود المنعوت بالعادل عشرون رجلا واستاسرو تسعة فقتلوهم ورمو رووسهم اليه فى المنجنيقات والغرادات وكان عندهم تسعين منجنيق وغراد وشتموه وصاحو عليه يا غدار يا مكار يا نكاث واكثرو من شتمه بكل قبيح ، فنصب عليهم القتال الشديد ثمنية وثلثين يوماً،وكان يقاتلهم بالافيله وعليهم الرجال لابسين الحديد فاذا دنو لينقوبو الحصن طرحو عليهم الصخور العظيمة فيقتلو منهم، واستظهرو عليه

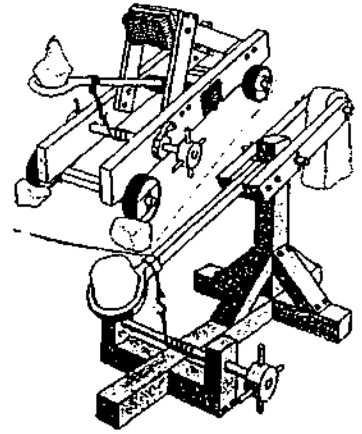

(*) أعلى : منجنيف متحرك.
واسفله منجنيق ثابت.

مصر ماء النيل لأجل أن البطرك قدم عليه، فزاد النيل فى تلك السنة زيادة قوية حتى أوفى»[1].

لم يقنع الحاكم بهذا الحل، الذى يضعه تحت رحمة ملك الحبشة، وأظنه لم يصدق ما ذكر عن وجود سد عندهم يحجب الماء عن مصر، ولا يستبعد أن تكون هذه الرواية التى يكثر تكرارها فى سنوات مختلفة، محاولة لتدعيم مركز القبط فى مصر، خاصة مع ما عرف عن الحاكم من تشدد مع أهل الذمة، وظلت ظاهرة انخفاض الفيضان تستحوذ على إهتمام الحاكم حتى سمع عن أبى على بن الحسين بن الهيثم[2]، الذى نبغ فى الهندسة، فأرسل فى طلبه من العراق، وأكرم وفادته وسير معه جماعة من الصناع فى طول مصر حتى وصل إلى أسوان، لكنه اعتذر عن عجزه القيام بشئ بسبب طبيعة أرض أسوان الجرانيتية، فأبقاه الحاكم معززاً مكرماً[3].

(١) أيمن فؤاد سيد: نصوص ضائعة من أخبار مصر للمسبحى ـ مستخرج من حوليات إسلامية ـ المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ـ القاهرة ١٩٨١ـ مجلد ١٧ـ ص ٣٢.

(٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ـ شرح وتحقيق د. رضا نزار رضا ـ مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٦٥ ـ ترجمة ابن الهيثم ص ٥٥٠ ـ ٥٦٠، وأنظر : أحمد تيمور: المهندسون فى العصر الإسلامى القاهرة ١٩٧٩ ـ ص ٢٨ ـ ٣٠.

(٣) د. ماجد : الحاكم بأمر الله، ص ٦٤ ـ ٦٥، امرأة مصرية تتزعم مظاهرة فى عهد الخليفة المستنصر بالله ـ المجلة التاريخية المصرية ـ القاهرة ١٩٧٧ ـ المجلد ٢٤ ـ ص ٣٤ ـ ٣٥.

بقوة السيد المسيح لانها المدينه التى دعا لها تدا التلميذ ولملكها، ثم انه زحف اليها بسبع دبابات(*) عظيم، فعملو عليها صوارى عظيمة وشحم وزفت ونفط، وطرحو عليها من الحصن صخور ونار واحرقوها وقتلو كلمن كان فيها، ثم امر الملك العادل بقطع الاشجار والاخشاب ورميها في الخندق الذى على الحصن حتى يمشى الخيل والرجال عليهم الى الحصن، فتوصلو اليها من

(*) دبابات: هى ابراج كبيرة من الخشب القوى سقفه من عروق الاشجار، يدفع إلى اسوار الحصون وبداخله عدد كبير من الجنود، و عند التصاق البرج بسور الحصن يقوم الجنود بنقبه وينفذون منه لداخل الحصن أو يتسلقون سطحها ويقفزون إلي اسوار المدينة المعاصرة.

وفى هذا الصدد، يذكر ابن أبى أصيبعة أن همته انكسرت لما رأى آثار قدماء المصريين وعظمتها ، فأيقن عجزه، وأنه خشى على نفسه من الحاكم فادعى الجنون حتى توفى الخليفة، فعاد للحياة الطبيعية، كناسخ لبعض الكتب الطبية ليقتات منها(١).

وربما لوكان النجاح قد صادف ابن الهيثم والحاكم، لتغيرت كثيراً معالم وجه تاريخ مصر.

لم يفت فى عضد الحاكم فشل ابن الهيثم فى معالجة أمر الفيضان، فلجأ إلى الإجراءات الوقائية إ عتماداً على قوة السلطة المركزية وهيته كرأس لهذه السلطة.

ولما كان إحتكار التجار للغلال، وتلاعبهم بالأسعار سبباً رئيسياً وراء المجاعات ، فقد عمد إلى أقامة سعر لكل شئ ، لاسيما الحبوب والمبيعات، واستخدام وسائله الخاصة فى منع تخزين الأقوات، «فضرب جماعة بالسوط، وشهرهم، وأمر ألا يباع القمح إلا للطحانين» للقضاء على الوسطاء، كما كان يفاجئ مخازن الغلال والبيوت للبحث عن القمح ويفرقه على الطحانين بالسعر الرسمى.

ولأهمية الحسبة ومراقبة الأسواق، كان الحاكم يقوم بنفسه بمهام المحتسب، فيدور فى

(١) ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء ـ ص ٥٥١، ابن العبرى: مختصر تاريخ الدول ـ ص ٣١٦ ـ ٣١٨.

داخل المدينة من النقوب واطلقوا فيها النيران فتاجج النار حتى صار الخندق نيران تلتهب، ووقع الصياح عليه وعلى عساكره من فوق الحصن بالافترا والشتيمة، فانفذ اليه رسول يقول لهم: ما يحسن بى ان ارحل عنكم بعد قتالكم وقد اطاعتنى جميع البلاد الا بعد ان يستقر لى عليكم مال يسير وانا ارحل عنكم ليلا [لئلا] يصير على فضيحة، فا نزل الوالى رسوله فى دار واكرمه،

رسم طائر على طبق صينى انتجه الفنان المصرى فى العصر الفاطمى وعرف كطبق من اطباق غبن متولى الحسبة

الأسواق ممتطياً حماره، وتذكر المصادر السابقة نفسها أن من وجده قد غش فى معيشة، أمر عبداً أسود معه يقال له مسعود أن يفعل به الفاحشة العظمى[1]. ويرجع إهتمام الخليفة بالحسبة إلى أنه اعتبرها فى عموم واجبات الأمام، ولذا نجده عندما ولى حسبة القاهرة ومصر والجيزة لقائد القواد ومتولى الشرطتين (القاهرة ومصر) المعروف بغبن[2] عام ٤٠٢هـ/١٠١٢م يشدد فى سجل التعين على ضرورة مراعاة واجبات وظيفته[3]. ويبدو أن الحاكم اعتبر غبناً مسؤولاً عن إرتفاع الأسعار وتكالب الناس على الخبز عام ٤٠٣هـ/١٠١٣م[4]، طالما كان ذلك يدخل ضمن واجبات المحتسب فعزله من منصبه فى نفس العام وأمر بقطع إحدى يديه، وأعقبها بالأخرى ثم بلسانه حتى توفى. وعلل ذلك بأن غبن كان متورطاً فى خصومة مع أخته ست الملك، أو بأنه أخفى عن الحاكم بعض الشكاوى

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ـ ج٢ص ٢١٣. أبو الفدا: البداية والنهاية ـ ج١٢ص ٩.
(٢) عرف غبن أيضا بلقب استاذ انظر: د. حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية – القاهرة ١٩٦٥ – ج١ ص ٦٣.
(٣) د. حسن الباشا(وآخرون): القاهرة: تاريخها فنونها ـ آثارها ـ مؤسسة الأهرام ـ القاهرة ١٩٧٠ـ ص ٥١٢.
(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ـ تحقيق د. محمد حلمى محمد أحمد ـ مجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ القاهرة ١٩٧٠ـ ج٢ ص ٩٣، الخطط ـ ج٢ ص ٨٧.

فلما كان بالغداة تخير عشرة الف رجل احداث
مقاتلين من المدينة والبس جميعه من الحديد حتى
لم يبق منهم الا جفون عينيهم واوقفهم صفين فى
الموضع الذى يعبر فيه الرسول الى باب الرها،
وقال للرسول اركب عايد الى صاحبك فركب ولم
يزل ساير فيما بين اوليك الاحداث وهم يزعقو
ويصيحو الى ان انتهى الى باب المدينة، فقال له
بسيل الوالى: قل لهذا الكلب الغدار الذى ارسلك

الموجهة بحق غبن[1]. ويبدو الإحتمال الثانى أكثر ترجيحاً، حيث تم عزل غبن وعقابه أثناء ارتفاع الأسعار، ويحتمل أن تكون الشكاوى قد مست واجباته كمحتسب.

ولم يخل سجل الحاكم بأمر الله من جهود حثيثة لتفادى أخطار الأوبئة، التى كانت عادة ما تصحب المجاعات، فلأجل الحفاظ على الثروة الحيوانية، التى كانت تجتاحها الأوبئة أيضاً، أمر بمنع ذبح الأبقار السليمة من العاهة إلا فى أيام الأعياد حتى لاتنقرض وهو إجراء لجأ إليه ابنه الظاهر فيما بعد[2]. كما كان يصدر أوامره بمنع أكل أو بيع بعض المأكولات، التى ربما يترتب على أكلها مضار صحية وأمراض فى عصره، مثل الملوخيا والجرجير والقرع والمتوكلية، وهى نبات للحساء، ومنع عجين الدقيق بالأقدام وكان يغرم المخالفين لذلك[3].

أما مجاعات عهد الحاكم، فقد بدأت بمجاعة فى العام التالى لتوليه الخلافة عام ٣٨٦هـ/٩٩٦م وكأنما كان على موعد مع الأقدار، وكان الذى يتولى تدبير الدولة فى هذه السنة (٣٨٧هـ/٩٩٧م)، أمين الدولة أبى محمد الحسن بن عمار. وسبب هذا المجاعة قصور النيل، حسب رأى المقريزى، الذى بلغ زيادته ١٦ ذراعاً وأصابع، فارتفعت الأسعار، واختفى

(١) د. حسن الباشا: المرجع السابق ص ٥٢٢.
(٢) د. ماجد : الحاكم بأمر الله ـ ص ٦٤.
(٣) المرجع نفسه ص ٩١.

كنا نظن ان لك قولا صادقا واذ انت غدار كذوبا نكاثا، وما عندنا السيف لان كذبك وغدرك قد عرفناه وما تحتاج الى نقب ولا دبابات هو ذا باب المدينة مفتوح، ووحق سيدى يسوع المسيح لا اغلق باب هذه المدينة فى هذا النهار الا بعد مغيب الشمس فان اردت القتال فتقدم . ولم يزل باب المدينة مفتوح واوليك الاحداث قيام والحصن معمر بالرجال الى بعد الغروب، واغلقو الباب وصاحو

القمح، واضطرب حبل الأمن، وخطفت النساء من الطرق، ووصل سعر الخبز إلى أربعة أرطال بدرهم ، ثم انخفضت الأسعار بعد ذلك[1].

وإذا ما وضعنا فى الإعتبار حدود وفاء النيل فى العصر الفاطمى فإننا نلحظ أن هذا الحد من الزيادة (١٦ذراعاً و٧أصابع)لم يكن يعنى القحط ، وربما تكون زيادة النيل قد تأخرت بعض الوقت، فأدى ذلك إلى ارتفاع الأسعار واحتكار الغلال، خاصة وأن حالة من الفوضى والاضطراب كانت تعم البلاد لتصارع المشارقة والمغاربة على السلطة فى بداية خلافة الحاكم.

وفى عام ٣٩٥هـ/١٠٠٤ـ ١٠٠٥م، انتشر الوباء فى البلاد، وحتى بين الماشية التى أمر الحاكم بمنع ذبح السليم منها إلا فى عيد الأضحى كما حث على قتل جميع الكلاب حتى خلت منها الطرق[2]، ويبدو أنها كانت تنقل العدوى، وفى إطار مقاومة الوباء منع أكل

(١) المقريزى: إغاثة الأمة ـ ص ١٣ - ويذكر ابن إياس ـ ج١ص ٥٥) أن الناس اجتمعوا تحت قصر الزمرد واستغاثوا بالحاكم فقال إنه متوجه إلى جامع راشد وفى طريق عودته يريد أن تملأ الغلال الأرض وإلا ضرب عنق من يجد منها شيئاً عنده. إلخ. وهذه الحوادث يذكرها فى عام ٣٩٩هـ، وهذا أقرب للصحة حيث أن الحاكم فى عام ٣٨٧هـ كان فى الثانية عشر من العمر، ولم يكن له شأن فى تسيير أمور الدولة.

(٢) د. حسن إبراهيم حسن: الفاطميون فى مصر- ص ٢٢٨. ويبدو أنه كانت هناك حالة من الجفاف تعم منطقة حوض المتوسط. فقد شهدت أفريقيا فى نفس هذا السنة غلاء شديداً ووباء أودى بحياة الكثيرين. أبو الفدا: البداية والنهاية ـ ج١١ص ٣٣٥، ابن الأثير: الكامل ـ ج٧ص٢٢٧.

عليـه من فـوق السـور. وفى تلك الليلة رحل عنهم بعد ان اقام خمسـة واربعين يوماً ومضى الى مدينة سروج والى حلب وحاصرها فكانو يعيروه بما لقيه من اهل الرها، وبعـد هذا خرج اليه محـمـود بن صـالح ليـلا في زى الغـز حتى وصل الى خيـمتـه فتطارح عليه فقبله واحسن اليه واخلع عليه واعاده الى مدينته، ثم عاد [الب ارسلان] ايضاً الى الرها في شهر بشنس واقام اربعة ايام بلا قتال وكتب اليه

الدلينس (الدنيس) ومنع السماكين من صيده وهدد من يخالف ذلك بالقتل[1].

ويظهر أن الحاكم تخوف من حدوث مجاعة في ظل إنتشار الوباء، خاصة وأن النيل وصل فى زيادته فى هذا العام إلى ١٦ ذراعاً و٣أصابع مما يعنى عدم زراعة بعض الأراضى، فأشاع جوا من الرهبة بين الناس، وخاصـة بين الكتـاب، وأصـحـاب الدواوين، عندمـا عـمل شـونة ملئت بالبـوص والسنط والحلفا، حتى قويت الشائعات بأن الحاكم أعدها لحرق الكتاب وأصحاب الدواوين، فاجتمعوا متفزعين منه فأعطاهم أماناً، وتلى ذلك أمانات لطوائف الجند والعبيد، ثم التمس أهل الأسواق على طبقاتهم كتب أمان فكتبت لهم[2]. ورغم ذلك فإن الحاكم قتل جماعة من الأعيان[3].

وينبغي أن يضاف إلى الحسبان، أن ثورة أبى ركوة التى بدأت فى برقة، بالاستيلاء على بعض أملاكها فى جمادى الآخرسنة ٣٩٥هـ/١٠٠٥[4]، أى فى نفس الوقت الذى أعطيت فيه هذه الأمانات تقريباً، فكان لابد من إتخاذ هذه الإجراءات حتى لاتسول لأحد نفسه أن

(١) د. حسن إبراهيم حسن: الفاطميون فى مصر ـ ص ٢٢١.
(٢) أيمن فؤاد سيد: نصوص ضائعة من أخبار مصر ـ ص ٢٠ ـ ٢١.
(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ـ ج٤ ص ٢١٢، الذهبى: تاريخ الإسلام ـ مجلدا ١٦ ـ ص ١٣٠.
(٤) د. ماجد: ظهور خلافة الفاطميين ـ ص ٢٤٧. ويذكر ابن الجوزى أن ثورة أبى ركوة كانت فى عام ٣٩٧هـ ـ المنتظم ـ ج٧ص ٢٣٣. وكذلك ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب ـ ج٣ ص ١٤٨.

نصر ابن نصر الدولة يقول له: انت نازل على الرها وما تقدر تفتحها وديوجانس [رومانوس] ملك الروم قد اهلك بلد الاسلام الى ان قارب بلاد خراسان. فرحل ليلا وسار الى ان وصل الى خلاط مجاور مازكرد بلد الارمن وبين المدينتين نهر عظيم ، وكان ديوجانس ملك الروم نازل على نهر مازكرد بعسكره وهو أيضاً في ستماية الف فارس مقاتلة، فالتقا الملكان في ايام من بوونه، فعمل

يستغل هذه الملابسات مجتمعة، ومع ذلك فقد ارتفعت الأسعار عندما تحرك أبور كوة نحو مصر، وهدد الإسكندرية ثم أعمل السلب والنهب في ريف مصر، متعاوناً في ذلك مع الأعراب الذين دأبوا على الإغارة على سكان الدلتا، متمردين بذلك على السلطة المركزية التي أبوا أن ينضووا تحت لوائها بشكل مطلق(١).

وبغض النظر عن بعض الإنتصارات الجزئية التي حققها أبو ركوة فقد نجح الحاكم في نهاية الجولة في أن يقضي على أبي ركوة ويأسره ويشهر به في القاهرة، وان كان قد اضطر خلال الاعداد للحرب إلى التخلي عن تشدده في أعمال الحسبة، فأقبل المصريون على الإنضمام لجيشه، خاصة بعد أن عاينوا التخريب الذي أحدثته جيوش أبي ركوة، ووضعوا أموالهم كلها تحت تصرف الخليفة بل وتوقفت الأسعار عن الزيادة كدليل على صدق معاونة المصريين للحاكم(٢).

بيد أن تصاريف القدر شاءت أن ينخفض النيل في العام التالي ٣٩٧هـ/١٠٠٦-١٠٠٧م، لتشهد البلاد مجاعة خطيرة، وطويلة نسبياً. وإذا كانت المصادر التاريخية ترجع سبب هذه المجاعة إلى انخفاض الفيضان، فإن الاضطراب يسود تحديد مقدار هذا الإنخفاض.

(١) د. راشد البراوي: حالة مصر الاقتصادية ـ ص ٨٣.
(٢) د. ماجد : الحاكم بأمر الله ـ ص ١٦.

مقدمين عساكر ديوجانس الرومى عليه منصوبة [خديعة] بدسيسة من ميخاييل ابن مريه الذى كان ملك قبله بعد عمه قيصر ، فلما حمل الملك ديوجانس على عسكر الغز وصار فى وسطهم وهو يظن ان اصحابه وعساكره يحملو معه وهم طايعين له ومناصحين ، فلما خذلوه وتخلو عنه قتل بيده جماعة من الغز ولم يزل يقتل ويدفع عن نفسه الى ان قبضوه اسير وتفرقت عساكره بعد ان قبض

البداية كانت بتوقف زيادة النيل فصلى الناس صلاة الاستقاء مرتين، ويبدوا أن ذلك كان والنيل عند الذراع الثالثة عشر وأصابع[١]، ثم كسر الخليج بعد ذلك والنيل عند الذراع الخامسة عشر[٢] وبعدها زاد النيل حتى وصل إلى ستة عشر إصبعاً من ١٧ ذراعاً ثم نقص بعد ذلك[٣]. ليصل إلى ١٤ ذراعاً و١٦إصبعاً لأبى المحاسن وابن أيبك، وهو حد فى زيادة النيل يعنى المجاعة، كما سبق التنوية آنفاً، وقد صاحب هذه المجاعة وباء أودى بحياة الكثير من السكان[٤].

وكان من الطبيعى أن ترتفع الأسعار، فأصدرت الأوامر لمسعود الصقلى متولى الستر بالنظر فى أمر الأسعار، فجمع خزنة الغلال والطحانين والخبازين، وقبض على ما بالساحل من غلال وأمر أن لاتباع إلاللطحانين لمنع الوسطاء والسماسرة، وتم تسعير القمح، كل تليس بدينار إلا قيراطاً والشعير عشر ويبات بدينار، وللحطب عشر حملات بدينار، وسعر سائر الحبوب والمبيعات، وهاجم عدة مخازن وفرق مابها على الطحانين وضرب جماعة بالسوط وشهرهم، فتوافر الخبز فى الأسواق وهدأت الناس[٥].

(١) المقريزى: أغاثة الأمة ـ ص ١٥ . (٢) المصدر نفسه ـ ص ١٦.
(٣) المقريزى: الخطط ـ ج٢ ص ٢٨٦.
(٤) ابن الأثير: الكامل ـ ج٧ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠.
(٥) المقريزى: إغاثة الأمة ـ ص ١٥ - ١٦.

منهم جماعة ودخل بعضهم الى [قلعة] مازكرد(*). فاحضره الملك العادل بين يديه وقال له: اتريد ان ابيعك او اقتلك او اعتقك. فقال له ديوجانس: ما ملكتني بقتال وانما اجنادى خذلوني وتخلو عني ولم ينصحوني، والان فان كنت جزاراً فاقتلني وان كنت صيرفيا فبيعني وان كنت ملكا فاعف عن، فقام إليه فاعتنقه واجلسه معه في مرتبته وخلى به ثلثة ايام ياكل ويشرب ويتحدث.

(*) كانت معركة مازكرد سنة ١٠٧١م هى المعركة التى انكسر فيها البيرنطيين بقيادة رومانس الرابع أمام السلاجقة بقيادة الب ارسلان. ومنذ هذه المعركة أخذت الدولة البيزنطية فى التقهقر.

إلا أن استمرار إنخفاض النيل أدى إلى ارتفاع الأسعار مرة أخرى فبلغ القمح كل تليس أربعة دنانير، والأرز كل وية بدينار، ولحم البقر رطل ونصف بدرهم ولحم الضأن رطل بدرهم، وزيت الوقود رطل بدرهم وبيع الخبز كل ثلاثة أرطال بدرهم(١). فأعيد على أثر ذلك تسعير الكثير من السلع، فسعر الخبز كل اثنى عشر رطلاً بدرهم، واللحم رطلين بدرهم، وتمت معاقبة من يخالف ذلك بالجلد، فسكنت الأحوال(٢). حيث إن العقاب لم يكن ينزل فقط بمن يخالف الأسعار، فقد ضرب عدة من الطحانين والخبازين وشهروا لأجل ازدحام الناس على الخبز، مما يشير إلى شبهة التباطوء فى أداء العمل، فأصبح الخبز لايباع إلا مبلولاً (عجينا).

وزاد فى الطنبور نغمة، استمرار الزيادة فى فيضان النيل عام ٣٩٨هـ/١٠٠٧ـ ١٠٠٨م، حتى إن الناس استقوا مرتين، وفتح الخليج والماء على خمسة عشر ذراعاً فاشتد الغلاء(٣). ثم بدأ نقص النيل بعد فتح الخليج بأيام، فاشتدت المسغبة، وبيع الخبز مبلولاً، وضرب جماعة من الخبازين وشهروا لتعذر وجود الخبز بالعشايا، وبلغ الغلاء ذروته فى ربيع الآخر(٤). وعندما

(١) المصدر نفسه ص ١٦.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٦٩.
(٣) المقريزى: الخطط ـ ج٢ ص ٢٨٦ـ ٢٨٧.
(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٧١.

معه ويوادده وقرر معه عهود وهدية وسير معه ثلثة الف فارس حتى اوصلوه المصيصه وعادو، فلما وصل اليها بلغه ان ميخاييل قد جلس ملكا فى القسطنطينيه وذلك فى سنة سبع مايه اربعه وثمانين للشهدا، واستعد ميخاييل بالعساكر وحشد ديوجانس وهو بالمصيصه(*) عساكر كثيرة وطلب المملكة وصارو مقدمى الروم قسمين: فرق مع ديوجانس وفرق مع ميخاييل، فسير ميخاييل

(*) المصيصة هى فى وادى ادنه شمال الاسكندرونه.

توقفت زيادة النيل عند ١٤ ذراعاً وأصابع اشتدت الأزمة ولحق بالناس كل الضرر(١). وزادت الكارثة بانتشار الأوبئة، فاختفت الأدوية. وضمن إجراءات الوقاية الطبية، «شهر جماعة من الناس وجد عندهم فقاع وملوخيه ودلينس وضربوا»(٢). ولأجل مواجهة السيل المنهمر من إرتفاع الأسعار، وزيادة الإحتكار، أمر الحاكم بألا يخزن أحد من المؤن أكثر من حاجته، وحدد أسعار القمح والمواد الغذائية، وجعل عقوبة من يخالف ذلك القتل(٣).

ولاعتقاد الحاكم، وكذلك بقية المسلمين، أن سبب توقف النيل هو ما يقوم به العباد من إظهار المنكرات التى نهى الله عنها مثل السكر واللهو، فقد منع الحاكم الناس من التظاهر بالغناء، ومن ركوب النيل للتفرج، ومنع بيع المسكرات، وفرض ما يشبه حظر التجول من العشاء وحتى الفجر(٤) وإن كان الأمر لا يخلو من رغبة الحاكم فى تقييد حركة السكان وعدم التمرد.

(١) المقريزى: إغاثة الأمة ـ ص ١٦.
(٢) المقريزى: الخطط ج٢ص ٢٨٧.
(٣) د. محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية فى مصر ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ١٩٧٠ـ ص ٩٣.
(٤) المقريزى: الخطط ـ ج٢ص ٨٧، د. حسن إبراهيم: الفاطميون فى مصر ـ ٢٨٨، الذهبى (شمس الدين). تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ـ مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٤٢، تاريخ، مجلد ١٦ـ ص ١٤٧.

الدمستق ابن عمه الى ديوجانس بعسكر كبير ولقيه على [نهر] ادنه فظفر [به] ديوجانس وكسره، فعاد منهزماً الى القسطنطينيه، ثم اجتهد ديوجانس بالانطاكيين ان يفتحو له انطاكية فما فعلو، وبقى هو مقيم بعسكره فى المصيصه وادنه الى طرسوس، ثم جرد ميخاييل عسكر اخر مع الدمستق ابن عمه حتى لقى ديوجانس فى ادنه فكسره الدمستق وظفر به فدخل منهزماً الى

جزء من عتب باب علوى من الخشب عليه بالحفر مشهد يمثل دخول المسيح أورشليم على أتان تستقبله الجماهير (القرن الخامس الميلادى الميلادى. كنيسة المعلقة).

وحل موعد إحتفال الأقباط بعيد الشعانين(١)، والغلاء على أشده، فمنع النصارى من تزيين كنائسهم، كما جرت عادتهم، وقبض على جماعة منهم فى شهر رجب يبدو أنهم حاولوا مخالفة نواهيه، وأمر باحضار ما هو معلق على الكنائس واثباته فى ديوان الخليفة، وكتب بذلك إلى كل الولاة، وأحرقت صلبان كثيرة على باب الجامع فى الشرطة(٢). (لعلها شرطة الفسطاط).

رقد أتت الإجراءات السابقة ثمارها فخفت حدة إرتفاع الأسعار بعض الشئ فى شهر رجب(٣). ويبدو أن عدد الوفيات كان كبيراً خلال الأعوام ٣٩٥هـ ٣٩٨هـ، سواء من مات منهم بالوباء. أو قتل لمخالفة أوامر الحاكم، الأمر الذى دفعه إلى إستحداث ديوان جديد يقال له الديوان المفرد، ومهمته «الإستحواذ على من يقبض ماله من المقتولين وغيرهم من المصادرين(٤).

(١) وهو عيد الزيتونة ويعرف بعيد الشعانين ومعناه التسبيح، ويكون فى سابع أحد من صوم المسيحيين، وجرت العادة بأن يخرجوا سعف النخيل من الكنيسة يومها للأحتفال بهذا اليوم ويرون أنه يوم ركوب المسيح الحمار فى القدس ودخوله إلى صهيون وهو راكب والناس بين يديه يسبحون وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ـ المقريزى: الخطط ـ ج١ ص ٢٦٤.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٧١.
(٣) المقريزى: الخطط ـ ج٢ ص ٢٨٧.
(٤) المقريزى: الخطط ـ ج٢ ص ٢٨٧.

[حصن] ادنه واخذ [الدمستقي] البخت يسيراً [أسيراً]، وهو الذى كان يشد من [أزر] ديوجانس.
وبقي ديوجانس ومن معه محاصرين فى حصن ادنه عدة ايام، فقال لمقدمى المدينة الى متى هذا الامر الذى نحن فيه وقد افنينا النصـ[ـارى] فيما بيننا، لا حاجة لى بالملك على هذه القضية. ثم ارسل الى الدمستق يقول له انا فى هذه الليلة اقصى شعرى واترهب والبس الـ[صوف] وبارك

وعندما كسر الخليج فى العام التالى وكان مقدار الماء فيه، ١٥ذراعا[١]، تخوف الناس من إستمرار الحالة التى يكابدونها منذ عامين، فتظاهروا فى شارع بين القصرين، واستغاثوا بالحاكم بالحاكم ألا يهمل أمرهم.

وكان الخليفة عند حسن ظنهم به، فركب حماره وخرج من باب البحر ووقف وقال:«أنا ماض إلى جامع راشدة. فأقسم بالله إن عدت فوجدت فى الطريق وموضعاً يطأه حمارى، مكشوفاً من الغلة لأضربن رقبة كل من يقال لى إن عنده شيئاً منها ولأحرقن داره وأهبن ماله» وتوجه إلى الجهة التى حددها، وتأخر حتى آخر النهار، ليعطى فرصة كافية يحمل الناس خلالها غلالها إلى الطريق. ولشدة حركة النقل بلغت أجرة الحمار فى حمل النقلة الواحدة ديناراً. فلما امتلأت الطرقات بالغلال، امتلأت عيون الناس. وساعد ذلك الحاكم على أن يصدر أوامره بتقدير ما يحتاج إليه فى كل يوم وفرضه على تجار الغلات بالنسيئة وخيرهم بين أن يبيعوا بالسعر الذى يقرره، بما فى ذلك من فائدة محتملة، وبين أن يمتنعوا فيختم على غلاتهم، ولايمكنهم من بيع شئ منها إلى دخول الغلة الجديدة، فاستجابوا له وانخفضت الأسعار[٢].

(١) ذكر المقريزى أنه اشيع بلوغ الذراع السادسة عشر وخلع على ابن الرداد ثم نقص منذ ١٩توت (اتعاظ ـ ج٢ ص ٧٦).
(٢) المقريزى : إغاثة الأمة ـ ص ١٦ـ ١٧.

الله لكم فى ملككم والموعد بينى وبينك انى فى
غدا اخرج اليك وعلى ثياب صوف اسود وشعرى
محمول قدامى فى صينية، فلما كان بالغداة ركب
الدمستق ليتلقاه فخرج اليه بثياب الرهبنة وشعره
مقصوص بين يديه، فلما راه الدمستق وجميع
جيوشه ترجلو عن خيلهم وسجدو له وبكو وعانقه
الدمستق وبكا وسارو جميعاً الى حرصا مولى
[على] ساحل القسطنطينية وطلع الى دير هناك،

من هذه الرواية يستفاد أنه رغم نقص النيل فى العام السابق، إلا أن بعض الأراضى كانت قد زرعت وأنه لولا الاحتكار التجارى والتخوف من استمرار المجاعة، لكانت الغلال تكفى حاجات السكان، وتدل عبارة «الغلة الجديدة» على أن زيادة النيل قد سمحت برى بعض الاراضى، وإلا لما كان هناك مجال للحديث عن «الغلة الجديدة».

وقد وضعت هذه المجاعة أوزارها فى شهر شعبان ٣٣٩هـ/١٠٠٩م حينما «تراخت الأسعار» على حد تعبير المقريزى(١).

وشهدت خلافة الحاكم بعد ذلك أحداثاً شبيهة بما حدث وإن كانت أقل شأناً وخطورة، ففى سنة ٤٠٣هـ/١١ - ١٠١٢م ارتفعت الأسعار، مما اضطر الحاكم فى رجب من هذه السنة إلى «قطع الرسم الجارى من الخبز والحلوى الذى كان يقام فى شهور رجب وشعبان ورمضان، لمن يبيت بجامع القاهرة من ليلة النصف من رجب»(٢)، ولعل سبب ذلك عدم زراعة بعض الأراضى حيث بلغ النيل ١٦ ذراعاً و١٠ أصابع.

وفى عام ٤٠٣هـ/١٢- ١٠١٣م، إرتفعت الأسعار وازدحم الناس على الخبز ففر ق الحاكم

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا - ج٢ ص ٧٨.
(٢) أيمن فؤاد سيد: نصوص ضائعة - ص ٣.

وبعث الدمستق الى ميخاييل الملك والى عمه قيصر فاعلمهما بذلك.

ولما مضى البارسلان ملك الغز الخرسانى الى اصبهان وجد ابن عمه فارود قد نافق عليه، فاندفع قدامه الى ما ورا النهر وبقى غلام له ديلمى فى قلعة حصينة، فنزل عليه البارسلان وحاصره فلما رأى الغلبة طلب منه الامان فامنه ونزل اليه، فلما كان بعد نزوله اليه بثلثة ايام وهو مقبوض عليه

مالاً على الفقراء[1]. وربما كان ذلك من جراء إنخفاض النيل فى العام السابق لأنه بلغ فى هذا العام ١٧ذرعاً و١٢إ صبعاً.

ويذكر المقريزى أن مجاعة قد وقعت عام ٤٠٦هـ/١٥ـ١٠١٦م، وإن كانت قد جاءت بعكس سابقاتها إذا ارتفع الفيضان فى هذه السنة إ لى ثلاثة أصباع من إحدى وعشرين ذراعاً، «فغرق المقياس وامتلأ كل مكان من المدينة وبلغ الماء إلى نصف النخل مما يلى بركة الحبش، ولم يبق طريق يسلك إلى القاهرة إلا من الشارع والصحراء، وأدى ذلك إلى غرق الضياع والبساتين»[2].

إلا أن قوائم النيل تخلو من ذكر لهذه الزيادة التى اتفقت المصادر التاريخية على أنها كانت ١٦زراعاً وأصابع فإن كان هناك ثمة مجاعة فى هذه السنة فيكون سببها القصور النسبى لماء الفيضان.

أما ختام هذه السلسلة من مجاعات عهد الحاكم بأمر الله فكان، فى سنة ٤١٠هـ/١٩ـ١٠٢٠م، حيث اشتد إرتفاع الأسعار حتى وصل سعر رطل الدقيق درهماً، وبيع اللحم أربع

(١) المقريزى: اتعاظ ـ ج٢ ص ٩٣، الخططة٢ص٢٨٧.
(٢) المقريزى: اتعاظ ـ ج٢ص١١٢.

في خيمة وبعث اليه البارسلان ملك الغز يقول له: لابد من قتلك فاختار اى مو[ته] تموت . فقال لرسول البارسلان: مولاى وانا كنت في هذه القلعة من قبل ابن عمه واذا كان يريد قتلي فالمال الذى كان لابن عمه جميعه عندى في هذه القلعة مخبي واريد احضر بين يديه واعلمه موضع المال ومبلغه ويفعل بى بعد هذا ما يريد. فمضى الرسول الى البارسلان واعلمه بذلك فامر باحضاره فلما حضر قبل الارض وتقدم حتى دنا من سرير الملك

أواق بدرهم ومات الكثير من الناس بالجوع وبلغ عدد من مات في شهور رمضان وشوال وذى القعدة «مائتى ألف وسبعين ألفاً سوى الغرباء وهم أكثر من ذلك»(١).

ومن خلال استقراء قوائم الفيضان يمكن القول بأن سبب هذه المجاعة الأخيرة، هو إرتفاع فيضان النيل إلى حد إغراق الأراضى الزراعية (١٩ ذراعاً و٨أصابع)، ويكون ما أورده المقريزى بشأن المجاعة التى حدثت عام ٤٠٦هـ منطبقاً على هذه السنة، ويرجح أن يكون المقريزى قد خلط بين أحداث السنتين، ويؤكد ترجيحنا لهذا الاحتمال أن سنة ٤٠٦هـ بلغ النيل فيها حسب أبي المحاسن ١٦ ذرعاً وأصبعين وحسب ابن أبيك ١٦ذرعاً و٩إصابع ، وهو حد يعنى عدم زراعة بعض الأراضى، وذلك في ضوء أن المقريزى الذى انفرد بذكر مجاعة ٤١٠هـ، لم يوضح سببها.

أما الظاهر لإعزاز دين الله بن الحاكم، فعلى الرغم من قصر مدة خلافته(٤١١ـ٤٢٧هـ/١٠٢٠ـ١٠٣٥م) فإن البلاد شهدت في عهده مجاعة مخيفة إمتدت عامى (٤١٤ـ٤١٥هـ/١٠٢٣ـ١٠٢٥م)(٢).

وجملة الأحداث والملابسات التى وقعت خلال هذين العامين تثبت بشكل قاطع أهمية

(١) المقريزى: اتعاظ ـ ج٢ ص ١١٥.

(2) Lewis (B) and others: The Cambridg Hisstory Of Islam. London 1970 - Vol . I . P. 1880.

البارسلان فقالو له قل للملك موضع المال، فقال:
الملك مولاى وانا عبده ما اقول شي الا بيني وبينه،
فـامـر ان يدنو منه فـانحنا كـانه يقـبل الارض
فاستخرج سكين كانت معه بين الرانات والخف
ورمى نفسه على الملك وضربه بالسكين فى صدره
اوله وثانيه فوثب اليه الغلمان بالدبابيس فضربوه
حتى قتلوه وجروه بكعبه، وعاش البارسلان بعده
ساعة واوصا وزيره وخواصه وقال لهم ولدى
الوسطانى هو الملك الذى يستحق ان يكون بعدى.

الدور الذى تلعبه الإدارة المركزية، فى الحد من مخاطر نقص الفيضان، خاصة إذا ما قورنت بما وقع أيام الحاكم بأمر الله.

فلقد كان الظاهر، خلافاً لأبيه، ضعيف الشخصية، مسلوب الإرادة مع رجال الدولة الذين تركزت فى أيديهم سلطات إدارة البلاد حتى أصبح لايدخل عليه سوى ثلاثة (الشيخ نجيب الدولة الجرجرائى، والشيخ العميد محسن بن بدوس، والقائد معضاد)ويخرجون ليسيروا أمور الدولة بينما انهمك الظاهر فى لذاته[1]. فقد اشتهر بشغفه باللهو وحب الغناء، وشراء المجوهرات، وأصبح الترف سمة لعصره، إذ حاكاه رجال الدولة ومياسير القوم، الذين تأنقوا واتخذوا المغنيات والراقصات[2].

ويبدو الأمر كما لو كان الظاهر قد أتى ليجنى فقط ثمار جهاد أسلافه فى إقامة أول خلافة شيعية، غير مدفوع بهذه الروح الدينية التى أشبع بها الخلفاء الأول.

وبداية، فإنه يمكن إجمال أسباب هذه المجاعة فى:

١ـ ضعف سلطة الخليفة، رأس الدولة المركزية، وبداية ظهور رجال الدولة الأقوياء كأنداد للخليفة، يشاركونه سلطته الزمنية.

(١) المقريزى: الخطط ج١ص ٣٥٤.
(٢) المصدر نفسه ـ ج١ص ٣٥٥.

فلما مات اجلسو ولده المذكور فسير اخوه يانس الى الشام ومعه رجال كثير فملكه واقام فيه وسكن في دمشق.

وكان الاب [انبا اخرسطودلوس البطرك] قد جرت له خطوب كثير مع القس ابو يعقوب الراهب الذى ذكرته انفاً حتى انه طمع بالبطركيه وحدثته نفسه بانه ياخذها بيد ناصر الدولة ابن حمدان صاحبه، وسار الى عند المذكور وقرر معه

كما أن الظاهر أهمل واجباته، كممثل للسلطة المركزية، فلم يهتم بتوفير الغذاء للناس، بل وفى أوج الأزمة، قام بالاستيلاء على ماورد إلى ساحل مصر من مراكب مملوءة قمحاً، ورسم بتسليمها لقصر الخلافة وأدى ذلك إلى أرتفاع الأسعار[1]. ومن المفارقات التاريخية أن الظاهر نزل إلى القاهرة فى نصف ذى القعدة ٤١٥هـ/١٠٢٥م، والغلاء على أشده «وشق البلد بدلالين وخلفه الخدم المقودون والمصطنعة وبين يديه الرقاصون»[2]، وفى حين أن الحاكم أبطل مظاهر اللهو والاحتفال بوازع دينى كما أسلفنا. ولم يترك أفراد الشعب المصرى هذه المناسبة دون أن ينددوا بسلوك الخليفة، مذكرين إياه بما فعله أبوه، فاعترضوا مسيرة الخليفة فى تظاهرة وهم يهتفون«الجوع يا أمير المؤمنين. الجوع، لم يصنع بنا هكذا أبوك ولاجدك فالله الله فى أمرنا»[3].

٢ـ أدى ضعف الخليفة إلى تضخم دور رجال الدولة الذين مارسوا تجارة الغلال بغية الربح، ثم تمادوا فى ذلك إلى حد إحتكار الغلال والتحكم فى أسعار البيع. ويدل على ذلك نصان، وردا لدى المسبحى، أولهما فى حوادث رجب ٤١٤هـ/١٠٢٣م ويتعلق«بفتح مخازن لجماعة

(١) المسبحى، الأمير المختار عز الملك محمد بن عبد الله بن أحمد: أخبار مصر ـ تحقيق أيمن فؤاد السيد، وتيارى بيانكى ـ المعهد العلمى الفرنسى للأثار الشرقية ـ القاهرة ١٩٧٧ـ ج٤ص ٣٩.
(٢) المصدر نفسه ـ ص ٧٣.
(٣) المقريزى: الخطط ج١ص ٣٥٤ .

ذلك وعـاد [إلى] اسكندرية ينتظر وصـول ابن حمدان اليها ليفعل له ما وعده به، فمرض ابو يعقوب الراهب ومات ودفناه في بيعة ابو مينا الشهيد الجليل الذى خارج الحصن، وعند وفاته قال لنا قس راهب كان قد جعله ولده فى الرهبنه اسمه سليمان، وكان اطروش[بطروش] وكان قديس عاقل، اعلمو ان السيد المسيح قد ستر هذا القس ابو يعقوب وستر على الشريعة بموته وما اقول لكم اكثر من هذا. ومن بعد هذا وصل ابن

من رجال الدولة» لتفرق غلاتها على الناس بسعر منخفض(١). والثانى فى حوادث ذى القعدة ٤١٥هـ/١٠٢٥م ويشير إلى فتح مخزن لرجل يدعى مسعود، غلام الشيخ نجيب الدولة أبى القاسم الجرجرائى، وبيع القمح الذى فيه بثلاثة دنانير التليس فتزاحم الناس عليه(٢). رغم أن هذا السعر لايبعد كثيراً عن سعر البيع فى ذى الحجة (أربعة دنانير وثلث للتليس) وهو سعر أصاب الناس بمسغبة على حد تعبير المسبحى نفسه(٣). ولقد لعب الإحتكار دوراً بارزاً فى اشتداد هذه المجاعة وخاصة فى عام ٤١٥هـ بعد أن بلغ النيل حداً يمكن معه زراعة بعض الأراضى ودرء خطر الجوع، ولم تقتصر الممارسات الإحتكارية والتلاعب بالأسعار، على رجال الدولة وغلمانهم، فقد كان هناك أيضاً مخالفات من جانب الخبازين والطحانين وتجار الغلال الذين عذروا (عوقبوا) من قبل المحتسب.

٣- خطر الغزو الخارجي، الذى لاح على حدود مصر الشرقية من قبل حسان بن مفرج بن جراح الطائى عام ٤١٥هـ/٢٤ـ١٠٢٥م، مما أدى إلى زيادة الأسعار بعد انخفاضها.

٤- نقص زيادة النيل عام ٤١٤هـ إلى ١٤ذراعاً و ١٤إصبعاً، وهو حد يعنى المجاعة، وان كان النيل فى العام التالى قد وصل إلى ١٦ذراعاً و٨ أصابع.

(١) المسبحى: أخبار مصر ج٤٠ص ١٥، المقريزى: إتعاظ الحنفا ج٢ص ١٣٥.
(٢) المسبحى: أخبار مصرج٤٠ص ٧٤.
(٣) المصدر نفسه ص ٨٦.

حمدان الى اسكندرية وكان قد عظم امره وصار يخاطب بمولانا الناصر، فلما علم بوفاة ابو يعقوب صعب عليه ذلك لانه كان يؤثره وقال: والله لو بقى الى ان اصل لبلغته مراده وجعلته بطركاً. فعلمنا من قوله ومن قول سليمان الاطروش ان ابو يعقوب اراد ان يغتصب البطركيه لنفسه بيد حمدان صاحبه وشكرنا الله اذ قصر عمره ولم يبلغ غرضه في الاخراق بالمذهب المسيحى والشرع الشريف الحوارى. وكنت في حال وجعه افتقده

وتبدأ أحداث هذه المجاعة فى الثلاثة أيام الأخيرة من جمادى الآخر عام ٤١٤هـ/١٠٢٣م بنقصان ماء النيل بعد أن أوفى، فلم ترو لذلك الضياع، وكثير من الأراضى، «فكثر ضجيج الناس واستغاثتهم إلى الله، وخرج أكثر السكان من الرجال والأطفال ومعهم المصاحف إلى جبل المقطم يستغيثون بالله تعالى فلم يغاثوا»[١].

وكان أول رد فعل ـ هو إحجام التجار عن بيع الغلال فوصل سعر تليس القمح إلى دينار ثم اختفى القمح كلية وأصبح يباع سراً بدينارين للتليس، ووصل سعر حملة الدقيق إلى دينارين وربع، والخبز أربعة أرطال بدرهم وثمن، مع ندرة وجوده فى الأسواق ، وبيع التبن بعشرين درهماً الحمل[٢].

(١) المسبحى:أخبار مصر ج٤٠ص١٢، المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٢ص ١٣٤ـ ١٣٥.

(٢) المسبحى: المصدر السابق ص ١٢ـ ١٣ذكر المقريزى فى إتعاظ الحنفا(ج٢ـص ١٣) الأسعار نفسها عدا أنه ذكر أن «ثمن الحمل الدقيق بعشرين درهما»، وهو ما أثار استغراب المحقق (هامش (١) نفس الصفحة، حيث إنه بذلك، يكون تليس القمح وهو ما يوازى نصف حملة الدقيق وزناً بدينارين وربع دينار حيث إن الرطل المصرى يساوى مائة وأربعة وأربعين درهما والتليس مائه وخمسون رطلاً وخمسون رطلاً مصرياً حسب ابن مماتى. والراضح أن النسخة المحققة كان بها خطأ من الناسخ أو يكون المقريزى ـ وهو أمر مستبعد ـ قد أخطأ عند نقله عن المسبحى ـ الذى ورد فيه أن الحمل الذى بعشرين درهماً كان من التبن، وكلمة ثمن فهى تعنى درهم فى «الخبز أربعة أرطال بدرهم وثمن» ولاتعنى الثمن أى السعر.

لانه كان اخذ ولدى يوحنا فى المعمودية فسمعته يقول: يارب قد اخطات فامهلنى سنة واحدة حتى اتوب وابكى على خطيتى، ثم قال فامهلنى ستة شهور ثم قال فشهر واحد الى ان تعقد لسانه ومات. وظهر بعد موته من فعله فى طلب اغتصاب البطركيه ما تقدم ذكره، وتمت فيه المجازاة الدنيانية العاجلة وكفى البطرك امره.

ولما ملكو اللواتيين (*) جميع اسفل الارض

(*) اللواتيون: قبائل بدوية انتشرت

وفى محاولة للقضاء على إرتفاع الأسعار عزل ابن عزة متولى الحسبة، وعرضت الحسبة فى رجب ٤١٤هـ/١٠٢٣م على العميدى الذى كان قد عزل من تولى الترتيب، فأبى أن يصير محتسباً بعد أن كان جليس أمير المؤمنين وصاحب خريطة، فتم تعيين دواس بن يعقوب الكتامى، محتسباً على الأسواق والسواحل، وخلع عليه بثوب مثقل وعمامة، ونزل إلى القاهرة فى موكب عظيم، حتى انتهى إلى مجلس الحسبة، فأحضر هناك الخبازين وتجار الدقيق وضرب بعضهم وشهرهم فارتدع الناس، وانخفضت الأسعار وظهرت الغلال فى الأسواق[1]، ولأن هذه الإجراءات لم تمس إحتكارات وغلال رجال الدولة، الذين مارسوا رفع الاسعار ولاشك، فإن الأمور ما لبث أن عادت إلى سيرتها الأولى، فبعد أيام قليلة أفتقد الخبز، وكثر الأزدحام على دكاكين الخبز، وكان غاية ما فعله المحتسب أن أمر بيل الخبز فى الماء فى القصارى على أن يباع بسعر ثلاثة أرطال بدرهم. وبصرف النظر عن أن هذه أول مرة يرد فيها هذا الإجراء، فإن ذلك كا يعنى عملياً إقرار سعر أكثر إرتفاعاً من الذى كان يباع به الخبز جافاً (أربعة أرطال بدرهم وثمن) طالما كان بل الخبز يعنى زيادة وزنه، أى أنه نوع من الغش التجارى المستتر والمقنن.

(١) المسبحى: المصدر السابق ص ١٣ـ ١٤، المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٢ص١٣٥.

في الصحراء الغربية المصرية، هاجموا الاراضي الزراعية والقرى خاصة في الدلتا وغربها واشاعوا الفساد والنهب والسلب والقتل.

وصارو في اربعين الف فارس سوى اتباعهم، وصارت بلاد مصر بحكمهم يزرعو كما يريدو بلا خراج بلا مساحة الى ان افكرو وتشاورو مشورة ردية ان لا يعملو جسور في الريف ولا يحفرو تراع حتى لا يطلع الما على الاراضى ولا يزرع احد شي فيبيعو غلاتهم التى حصلوها بما يريدو ويهلكو من بقي من الناس، فارسل الله في تلك السنة وهى سنة اربع ماية اثنين وستين الخراجية جا نيل عال

وهو أيضا تحيز للتجار على بيع الخبز نظراً لارتفاع أرباحهم وبحماية المحتسب - فظهرت الأخباز في الأسواق بعد ذلك.

ولضمان إستمرار وجود الخبز، فتحت مخازن لجماعة من رجال الدولة، وأطلق للناس من السواحل غلة كثيرة، وقام المحتسب بضرب جماعة من الخبازين وشهرهم بسبب رفعهم الأسعار، وضيق على الطحانين، الذين كانوا فيما يبدو، يقومون ببيع الدقيق للناس بسعر مرتفع بدلاً من بيعه للمخابز التى تشترى الدقيق وتبيع الخبز بأسعار محددة، حتى إنه الزمهم بترك عملهم في طحن الغلال وختم على مخازنهم وفلست طواحينهم وجعلهم خبازين[١].

أهلت سنة ٤١٥هـ والأزمة لازالت قائمة، وتضاربت الأقوال بشأن زيادة النيل في هذه السنة. فالمقريزى يذكر أن زيادة النيل جاءت ناقصة، «ولم يرُ النيل فيما تقدم من السنين أقل نقصاناً منه في هذه السنة»[٢]. ثم يعود فيذكر أن ماء النيل بلغ ١٦ ذراعاً و٨أصابع[٣]. ويورد

(١) المسبحى: المصدر السابق ص ١٥- ١٦، المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٢ص١٣٥.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا ٢ص ١٤٢، الخطط ١ص ٣٥٤.
(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٢ص ١٧٢، ويذكر المسبحى أن النيل قد أوفى هذه السنة وهو الأصح. انظر المسبحى - المصدر السابق ج٤٠ص ٤٧.

جدا بغتة حتى غطا جميع الارض وزرعو الناس جميع البلاد.

واما الاب اخرسطودلوس فانه توجه بعد موت ابو يعقوب الراهب الى مصر واقام بها مدة طويلة الى ان وصل الاجل [الأفضل] امير الجيوش من عكا الى مصر وقتل من كان فيها من المنافقين وذلك في سنة ثلاث وستين واربع مايه الخراجية وهى سنة سبع ماية وتسعين للشهد الابرار

ابن أيبك وأبو المحاسن أن الزيادة كانت ١٦ ذراعاً. وهذه الحدود كما أسلفنا لاتعنى المجاعة، إلا أنها مع وجود مجاعة فى العام السابق والعوامل السابق الأشارة إليها ، من الممكن أن تزداد الأمور سوءاء، وهذا ما كان. فبدأ إرتفاع الأسعار من شهر ربيع الأخر، وخاصة سعر القمح الذى بلغ التليس منه ثلاثة دنانير، «والشعير بيع أربع ويبات بدينار، وبيع الخبز رطلين ونصف بدرهم، وبلغ سعر حمل تبن الدواب ديناراً إن وجد ، وارتفعت أسعار كل ما يؤكل»(١).

وفى الشهر التالى، واصلت الأسعار إرتفاعها ، لاستيلاء الدولة على ما ورد إلى المقس من غلال لصالح مخازن القصر الفاطمى(٢).

ويظهر أن الأحوال بلغت حداً لايصح السكوت عليه، تشكك معه الخليفة فى كفاءة، وربما أمانه، المحتسب، دواس بن يعقوب، فتم عزله فى ٤رجب ٤١٥هـ ، ليحل بقى الخادم الأسود غلام بدر الدولة مكانه، إضافة إلى توليه الشرطتين (القاهرة والفسطاط)، ونظر فى

---

(١) المسبحى: أخبار مصرج٤٠ص ٣٢، المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٢ص١٤٢.
(٢) المسبحى: المصدر السابق ص ٣٩، المقريزى: نفس المصدر ج٢ص١٤٤.

وصلحت البلاد على يده، وخرج الى اللواتيين وكسرهم وقتل جميعهم واباده‍م من اعمال الريف وملكها، وسار الى الصعيد ايضاً ففتحه واباد من كان فيه من المارقين وملكه، وعاد الى مصر واقام بها ورتب الامور على نظامها القديم واعادها الى كيانها بحمد الله ومنه.

وكان اللواتيين منذ امتدت ايديهم الى الديارات بوادى هبيب فنهبوها وقتلو رهبانها وهرب من بقى

الحسبة وأمر أن يباع الخبز الخشكار خمسة أرطال بدرهم والحوارى أربعة أرطال بدرهم[1].

على أن أصحاب الطواحين وحوانيت الخبز، الذين استساغوا تساهل ابن يعقوب ، لم يرتضوا هذه الأسعار، وامتنعوا عن فتح الطواحين والحوانيت طوال اليوم التالى (٥رجب)فلم يجد الناس خبزاً ولا دقيقاً. ومن ثم اضطر الخليفة إلى عزل بقى من الحسبة يوم ٦ رجب وأعادة دواس إليها. فأمر المحتسب العائد بأن يباع الخبز الذى يباع فى الأفران خمسة أرطال بدرهم، ولعله يقصد بذلك الخبز الخشكار وهو نفس السعر الذى قرره المحتسب المعزول، على أن تباع بقية الأنواع الأخرى من الخبز بدون تسعير، وهو كما نرى «حل وسط» يضمن توفر ما يسد به رمق الناس من الخبز الردئ، وفى نفس الوقت يضمن زيادة مكاسب التجار فيما سواه من الأنواع الجيدة، وبالفعل ظهر الخبز فى الأسواق وبيع الخبز السميذ رطلين ونصف بدرهم، وما دون هذا النوع ثلاثة أرطال بدرهم[2].

(١) المسبحى: المصدر السابق ح ٤ص ٤٧ ـ٤٨ .والخشكار هو الدقيق الذى لم يستقص طحنه، ولانخله والخبز الخشكار هو المصنوع بدقيق القمح والردة ، والحوارى هو الدقيق الأبيض، والخبز الحوارى هو المصنوع من الدقيق الأبيض ـ(انظرـ المسبحى هامش ٣،٤ص ٨٤).

(٢) المسبحى: أخبار مصر ج٤٠ ص٤٨ ـ ويذكر المحققان (هامش ٥) أن السميذ هو الحوارى وربما يكون السميذ نوع أفضل من الحوارى.

منهم الى الريف وغيره واخربوها، ونال الشعب باسكندرية ومصر حزن عظيم معما نالهم من الشدة العظيمة في ايام ابن حمدان واصحابه، وانه تسلط اللواتيين على الريف فملكوه ولم يقدر احد يزرع فيه غلة غيرهم فحرثو الغلات وامتنعو من بيعها الى ان عدمت من ارض مصر وبلغ التليس [جوال] القمح تمانين(*) دينار وعدم حتى لم يوجد، واكلوا الناس البغال والحمير الميتة وغيرها

(*) هذا الرقم يعني في الغالب ثمانية وليس (٨٠) ثمانين، قارنه بالملحق اسفل نفس الصفحة.

- -

ولذلك، فقد كان من الطبيعي أن لايدوم وجود الخبز في الأسواق إلا أياماً معدودات، إذ عادت الأسعار إلى الأرتفاع وخاصة ثمن القمح والدقيق والخبز،واضطر بت الأحوال لذلك في نفس هذا الشهر(١). وساعد على ذلك أنه سرت في البلاد شائعة مؤداها أن حسان بن جراح الذى خرج على الخلافة في الشام بعث بخمسمائة فارس إلى العريش ولم يعرف مقصدهم، فخاف الناس أن يدخلوا عن طريق القرافة فانتقل سكانها إلى الفسطاط وكذلك فعل أهالى بلبيس، وازاء إرتفاع الأسعار واضطراب الأحوال اضطرت السلطات إلى أعادة السيطرة على القرافة حتى تسكن الحالة(٢).

إستمر إرتفاع الأسعار حتى شهر شوال فبلغ سر تليس القمح دينارين ثم ثلاثة غير ثمن التليس (العبوة)، وتليس الشعير ديناراً واحداً ثم الست وبيات بدينار، والخبز رطلين بدرهم، والدقيق رطلين بدرهم واللحم الرطل بثلاثة دراهم مع تعذر وجود اللحوم سواء من الدواجن أو الحيوانات(٣). ويظهر أن وباءً قد أصاب الحيوانات والدواجن مما أدى إلى إرتفاع أسعارها حتى

(١) المسبحي: المصدر السابق ص٥٢.

(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٢ ص١٥٤.

(٣) المسبحي: أخبار مصر ج٤٠ ص٦٧ ـ ٦٩، المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٢ ص١٦١ ـ ١٦٢.

حتى فنيت، ثم اكل بعضهم بعضا، وجماعة منه اكلو اولادهم، وجماعة كانو ياكلون الكندر، وهو نخالة خشب النخل، ولم يزل الناس فى هذا البلا الى ان اهلك الله ناصر الدولة ابن حمدان واخوته واصحابه فقتل فى منازل الغز بمصر بيد بلدكور صهره ومن كان معه من الملحية [البحرية] الاتراك وذلك فى سنة خمس وستين واربع ماية الهلالية الموافقة لسنة ا ثنين وستين واربع ماية الخراجية، وبعد قتله بسنة واحدة وصل امير الجيوش الى مصر

وصل ثمن رأس البقر إلى خمسين دينارا[١]، الأمر الذى اضطر الظاهر إلى إصدار أوامره بعدم ذبح شئ من الأبقار السليمة وهدد من يفعل ذلك بالقتل وذلك بغرض الحفاظ على الحيوانات التى تساعد فى أعمال الزراعة من حرث ورى ونحو ذلك[٢].

وقد أثر تناقص أعداد الحيوانات على أسعار مياه الشرب التى كانت تقوم بنقلها، فبلغت راوية الماء البغل درهمين والرواية الجمل ثلاثة دراهم[٣].

ولم يكن الوباء متفشياً فقط بين الحيوانات، بل انتشر بين الناس وازدادت حدته فى شهر شوال فيما يبدو، وذلك ما يفسر إرتفاع أسعار ما يحتاج إليه المرضى، حيث بلغ سعر الرمانة الواحدة ثلاثة دراهم، والبطيخة البرلسى ثلاثين درهماً، والأوقية الشراب درهما[٤].

وكان انتشار الأوبئة من الكثافة، حتى إن الناس تشاغلوا بها عن شراء ماكانوا اعتادوا عليه من الفواكه والحلوى فى ليلة ميلاد المسيح، التى حلت يوم الخامس والعشرين من شوال،

(١) المقريزى: الخطط ج١ ص٣٥٤.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٢ ص١٤٩.
(٣) المسبحى: المصدر السابق ص٦٩ ـ ٧٣. المقريزى: الخطط ج١ص٣٥٤.
(٤) المسبحى: نفسه ص ٦٩ـ المقريزى:اتعاظ الحنفا ٢ص١٦٢.

وفرج الله عن الناس بفتح الريف والصعيد وكل البلاد، وتراخت [هبطت] الاسعار ورخصت فى ايامه حتى صار القمح يباع بربع دينار التليس ولله الشكر دايما ابد.

وكان امير الجيوش عند مسيره الى الصعيد حتى فتحه قد سعى اليه رجلا اسمه على القفطى بالبطرك وقال له: ان مطران اسمه بقطر من قبل اخرسطودلوس البطرك اهدم مسجد فى بلاد النوبة

«حتى إنه لم يخل منزل أحد من المرضى وأوجاع الدم والحلوق»[1].

وفيما عدا المأكولات والمشروبات على اختلاف أنواعها، فقد انخفضت قيمة ما يملكه الناس من متاع، فطرحت الثياب والأمتعة فى الأسواق، ولم تجد من يشتريها بدرهم[2]. بل وانخفضت القوة الشرائية للعملة «فيكون مع الرجل جملة من الدنانير فيطلب من يشبعه خبزاً فلا يجده»[3].

ووسط هذا الخضم من المآسى لم يجد الظاهر لإعزاز دين الله أى غضاضة فى أن يحتفل مع الناس بعيد الغطاس فى رابع ذى القعدة وكان منتهى إهتمامه أن أمر بعدم إختلاط النصارى بالمسلمين[4].

وخلال شهر ذى القعدة، ازداد تعقد الموقف، بعد أن نما إلى علم الناس إرسال حسان بن جراح ألف فارس إلى الفرما ، ففر الناس منها إلى تنيس بالمراكب، وأخذ الناس بمصر فى

(١) المسبحى: المصدر السابق ص ٦٩.
(٢) المسبحى: المصدر المصدر السابق ص ٦٩، المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٢ص ١٦٢.
(٣) المقريزى: المصدر السابق ص ١٧١ ـ ١٧٢.
(٤) المقريزى: الخطط ج١ص ٢٦٦.

وان في بلاد الحبشة مطران اسمه قوريل[عبدون] وانه يراعى المسلمين ويحبهم ويكرمهم، فانفذ امير الجيوش من الصعيد كتابا لولده الاوحد يامره فيه ان يقبض على البطرك فقبض عليه واعتقله عنده الى ان وصل رسول كان امير الجيوش قد انفذه الى ملك النوبة يعرف بحسام الدولة جوامرد فعرفه ضد ما حكاه على القفطى، فلما عاد الى القاهرة احضر الاب انبا اخرسطودلوس البطرك الى مجلسه مكرما مبجلا واحضر حسام الدولة

التحفظ على أموالهم «وفقد القمح والدقيق والخبز»[1]. وقام المحتسب بمعاقبة جماعة من الخبازين لأنه وجد موازينهم للأرطال ناقصة، وصنجهم التى يزنون بها الدراهم زائدة[2].

واشتد الغلاء يوم الجمعة ١٣ذى القعدة فبيع الخبز السميذرطلين بدرهم وربع والخبز الخشكار رطلين بدرهم، والحملة الدقيق بأربعة دنانير ونصف وقيراطين، والتليس القمح بثلاثة دنانير ، وبيع اللحم أربع أواق بدرهم[3].

فازدادات مسغبة الناس الذين كثر الموت بينهم لتفشي الوباء وخاصة بين الفقراء والمساكين، وبلغ الأمر بالناس أن جزارا طرح عظمة لكلب فرآه رجل شاب مستور متعفف فطرد الكلب وأخذ العظم منه ولم يزل يمتصه نيأ إلى أن نال من مصه بلغه فرماه من يده وذهب. ولم يجد الفقراء ما يأكلونه، فأطعموا أولادهم قضبان القنبيط (وهو أغلظ أجزاءه) التى كان البقالون ينتزعونها من رؤوس الكرنب ويرمونها، فيجمعها الفقراء ليقتاتوا بها وباليسير من كسب اللوز والسمسم، وارتفعت أيضاً أسعار البقول[4].

(١) المصدر نفسه ج١ص ٣٥٤، اتعاظ الحنفا: ج١ص ١٦٦.
(٢) المسبحي: المصدر السابق ج٤٠ص ٧٢.
(٣) المسبحي: المصدر السابق ج٤٠ص ٧٢.
(٤) المصدر نفسه ص ٧٢ ـ ٧٣.

جوامرد وعلى المذكور وكذبه حسام الدولة فيما حكاه فاقر واعترف بكذبه، فاحضر امير الجيوش القضاة والشهود والفقها وقال لهم: ما يجب ان يفعل بهذا القفطي الكذوب الذى كذب بين ملكين؟. فافتوا الفقها بقتله، فقال امير الجيوش للبطرك: فما تقول أنت فيه؟ فقال له: ما عندنا فى مذهبنا قتل ولا مجازاة على الشر بشر وأنت السلطان والامر لله ولك. وامر بقتله فقتل وكفا الله البطرك امره. وكان وصول حسام الدولة

وأخيراً، شمر المحتسب دواس ساعد الجد، فأحضر جمالى القمح وضربهم حتى أقروا بمخازن التجار وسماسرة الغلال، التى يحملون إليها الغلال، وكتبوا له ١٥٠ مخزناً للقمح، «فوضع الطوابع عليها وهدد بقطع يد من تسول له نفسه أخذ حبة قمح منها»(١).

وتقتضى مجريات الأمور أن يقوم المحتسب بالبيع من هذه المخازن فى اليوم التالى ـ السبت ١٣ ذى القعدة ـ إلا أن ذلك لم يحدث لسبب لم تذكره المصادر التاريخية. ولعله أن المحتسب أراد أن يعطى الفرصة كاملة لكبار رجال الدولة الذين يتجرون فى الغلال، كى يبيعوا مخزونهم بأعلى سعر ممكن. وهذا ما حدث بالفعل، فقد قام مسعود غلام الشيخ نجيب الدولة أبى القاسم الجرجرائى، بفتح مخزن قمح له وباع منه بسعر ثلاثة دنانير التليس، فتزاحم الناس عليه(٢).

المهم أن الخبز الدقيق لم يظهر بالأسواق منذ يوم الجمعة وحتى يوم الاثنين ١٦ ذى القعدة، ووصل سعر الدقيق، إن وجد، رطلاً ونصف بدرهم والخبز الأسود رطلين بدرهم وربع(٣).

(١) المصدر نفسه ص ٧٤ـ المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٢ص ١٦٥.
(٢) المسبحى: المصدر السابق ص ١٧٤.
(٣) نفسه،المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٢ص ١٦٥.

جـوامـرد فى ذلك الوقت من الآيات العـجـيـبـة، وجـرى لامـيـر الجـيـوش مع الاب البطرك انبـا اخرسطودلو[س] فى هذا المجلس كلام كثير ابان فيه الاب البطريرك عن فضل وعقل ورياسة حتى عظم قـدره فى اعين الحـاضـرين. ثم قـال لأمـيـر الجيوش ان قوريل المسمى عبدون مدعى الكهنوة ومغتصب المطرنه لانى ما وسمته ولا صليت عليه ولا جعلت له ما ادعاه لنفسه ولا كتبت له كتاباً بالجـملة ، وكـان قـبل ذلك قد استـقـر مسـيـر ابا

فثارت الرعية وخرجوا إلى الشوارع فى مظاهرات ضخمة واعترضوا ركب الخليفة الذى تقدمة الرقاصون والخدم فى النصف من ذى القعدة وهم يصيحون «الجوع ـ الجوع» ومطالبين الخليفة أن يهتم بأمرهم[1]. بل وقام أحد المغاربة وهو أبو عبد الله محمد بن جيش بن الصمصامى الكتامى ويقال إنه كان مجنوناً، بالوقوف تحت القصر، وأخذ يسب الخليفة على أقبح وجه وبالغ فى ذلك فضربه الرقاصون حتى سقط وجروه برجله وسحبوه إلى السجن، حيث ضربه متولى الشرطة ثلاثين درة واعتقله[2].

ولم تنقطع مظاهرات الناس فى الشوارع، وظل هتافهم «الجوع» يشق الهواء ولاوجود لخبز أو دقيق فى الأسواق، فتم استدعاء المحتسب دواس بن يعقوب إلى القصر فى سادس عشر ذى القعدة، وعنف وهدد، واتهم بأنه فتن البلاد على الخليفة، وتم تذكيره بأنه كتب بخطه تعهداً بتوفير القمح والخبز حتى إدراك الغلة الجديدة (وهذا دليل جديد على وفاء النيل) فتعهد المحتسب مجدداً، بتدراك الأمر وقام من فوره بتوزيع القمح على الطحانين وسعره عليهم بدينار ونصف التليس، وأمرهم بان يباع الدقيق بأربعة دنانير ونصف التليس، وأمرهم بأن يباع

(١) المسبحى: المصدر نفسه ص ٧٣٣، المقريزى: الخطط ج١ص٣٥٤.

(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا ٢ص ١٦٤- ١٦٥.

مرقوره اسقف وسيم الى بلاد الحبشة بكتاب البطرك وثوب من ثيابه ليلبسه لقوريل المذكور ويجعله مطراناً، وكان الاب البطرك يبكى لما الزم بذلك، فلما بان كذب القفطى وقتل وتكلم البطرك فى مجلس [الأجل الافضل] امير الجيوش بما قدمنا ذكره بطل امر قوريل واستقر مسير مرقوره الاسقف المذكور ويعرف بالوعواع الى بلاد النوبة رسولا الى الملك من قبل البطرك، ومعه رسول من قبل امير الجيوش اليه وهو رجلا شريف

الدقيق بأربعة دنانير الحملة، والخبز رطلاً ونصف بدرهم، فسكن الناس لذلك قليلاً[1]. وهذه الأسعار ليست بعيدة عن الإرتفاع.

إلا أن المحتسب كان له رأى آخر، فقبيل انتهاء هذا اليوم نزل من القاهرة ومعه سجل بإلغاء جميع المكوس المقررة على الغلات الورادة إلى السواحل، وهذا يعنى تخفيض أسعارهم، ثم أضاف أمراً غاية فى الغرابة حيث ألغى التسعير الذى قرره قبل ساعات. فظهر الخبز والدقيق فى الأسواق وبأسعار قريبة من تلك التى ضج الناس بالشكوى منها، إذ وصل سعر تليس القمح إلى ثلاثة دنانير إلا ربعاً (وكان ثلاثة دنانير) والخبز السميذ رطلين بدرهم وربع، والخبز الحوارى رطلين بدرهم[2].

وبعد هذه الحوادث يصبح إحتمال تواطؤ المحتسب مع تجار الغلال من كبار رجال الدولة، أمراً أبعد من مجرد التشكك، إذ أنه كرس إرتفاع الأسعار، رغم الغاء مكوس الغلة.

وأطمعت سياسة المحتسب غير العادلة، الجشعين من التجار والباعة، الذين لم يقنعوا بأرباحهم العالية، فلجأوا إلى رفع الأسعار والغش، ففى ٢٤ من ذى القعدة، ضرب المحتسب

(١) المسبحى: المصدر السابق ص ٧٤ـ٧٥، المقريزى: اتعاظ ج٢ص ١٦٥ ويلاحظ ان سعر التليس القمح يوم ختم على المخازن ١٣ ذى القعدة) كان ثلاثة دنانير أى أن الفارق هو نصف دينار فقط.

(٢) المسبحى: المصدر نفسه ص ٧٥، المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٢ص ١٦٦.

لقبه سيف الدولة ويعرف بالشريف الرضيع، فى طلب امير يعرف بكنز الدولة(*) كان قد نافق فى بلاد الصعيد الاعلا وافسد فيه ونهبه وملكه قبل وصول أمير الجيوش الى مصر، فلما علم [كنز الدولة] بمسيره [امير الجيوش] الى الصعيد كما قلنا بدياً هرب منه الى بلد النوبة. فلما سار الاسقف المذكور والرسول الذى معه الى بلاد النوبة بكتاب البطرك سلمه لهم الملك ووصلو به إلى مصر فقتله امير الجيوش وصلبه عند باب

(*) ملك النوبه يعتقل «كنز الدولة» الهارب إلى بلاده ويسلمه لرسول امير الجيوش.

بعض بائعي الدقيق وشهرهم على الجمال فى شوارع مصر وكانوا إثنين وعشرين رجلاً وفيهم مقدمهم ويعرف بابن البورى، وذلك لمغالاتهم فى الأسعار وسواد الأخباز وفساد الدقيق وخلطه بالمسحوق، وأعادهم إلى السجن بعد ذلك[١].

ولم يكن الغش فقط فى الدقيق والخبز، بل امتد إلى الموازين. ففى ٧ذى الحجة ضرب المحتسب بالفسطاط رجلاً حلاوياً يسكن على باب زقاق القناديل وشهره على جمل لأنه وجد أرطاله التى يبيع بها ينقص كل رطل منها أوقيتين وكل صنجة يزن بها الدراهم تزيد ثمن ($\frac{١}{٨}$) درهم[٢].

ويعد هذا الحدث تأكيداً جديداً على دور الإحتكار التجارى وممارسات التجار الجشعة، وما وصل إليه الحال من إستخفاف بالسلطة المركزية من قبل التجار.

وكان من المنطقى ألا تفلح محاولات الرد التى قام بها المحتسب، فعاودت الأسعار إرتفاع من جديد خلال شهر ذى الحجة، فبيع القمح بأربعة دنانير وثلث للتليس، والحملة الدقيق بستة دنانير، والخبز رطل بدرهم، «فأصاب الناس لذلك مسبغة شديدة»[٣].

(١) المسبحى: المصدر السابق ص ٧٦، المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٢ص ١٦٦.
(٢) المسبحى: نفس المصدر ص ٧٨.
(٣) المسبحى: المصدر السابق ص ٨٦.

الحـــديد(*) فيما بين القاهرة ومصر. وزاد امير الجيوش فى اكرام الاب انبا اخرسطودلوس البطرك ومراعاته. وتواتر الرخا فى أيام امير الجيوش، واستقامت الطرقات واتصل وصول القوافل الى مصر من المشرق والمغرب وكل البلاد.

(*) يذكر فى مؤلفات هذا العصر أن باب الحديد كان فى ميناء المقس بالقاهرة على النيل. اما ما يذكر هنا فهو غالبًا باب الحديد الذى كان على ميناء مصر عتيقة (الفسطاط) جنوب القاهرة.

وكان فى اخر ايام انبا اخرسطودلو [س] البطرك قد صار يوحنا بطرك على انطاكيه وهو ابن اخت انبا يوحنا بطركها المعروف بابن عبدون الذى ذكرت عجايبه، ولما تنيح جعل هذا الاب عوضاً

ولم يكن ذلك بأخر تصاريف القدر، إذ سرعان ما قام العبيد بمهاجمة سواحل الغلة ونهبوا وأحرقوا، فاختفت الأخباز والدقيق، رغم إرتفاع أسعارها حتى وصل الخبز إلى رطل واحد بدرهم(١).

وفى عام ٤٤٢هـ/١٠٣١م، كادت مأساة ٤١٤ـ٤١٥هـ أن تكرر نفسها، حينما تأخرت زيادة النيل عن أوانها أربعة أشهر ولولا أن أتخذت الدولة تدابيرها باستيراد الغلال من الشام، ثم جاءت زيادة النيل فاستقامت الأحوال(٢).

وفى سنة ٤٢٦هـ/٣٤ـ١٠٣٥م حدثت بالبلاد مجاعة بسبب تكاثر الفئران حتى أكلت الزرع وانتشر الوباء بين السكان تبعاً لذلك(٣).

تعد فترة خلافة المستنصر بالله (٤٢٧ـ ٤٨٧هـ/١٠٣٥ـ١٠٩٤م) حداً فاصلاً بين عهد الخلفاء الأقوياء وعصر الوزراء العظام وكأى فترة تحول تاريخى، حفلت خلافته بأحداث جسام،

(١) المصدر نفسه ص ٨٨، المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٢ص ١٧٠.
(٢) اتعاظ الحنفا ٢ص ١٨٠، الخطط ج١ص٣٥٥. يذكر أبو الفدا أنه حدثت زلازل بمصر والشام فهدمت شيئاً كثيراً ومات تحت الأنقاض الكثير من الناس سنة ٤٢٥هـ البداية ج١٢ص ٣٦.
(٣) المقريزى: اتعاظ ج٢ص ١٨٠.

عنه واسموه كاسمه [كأسمه] يوحنا وكان قديس، وكتب اليه الاب انبا اخرسطودلوس كتابا يشكو اليه ماجرى عليه من النهب والاسر والعقوبة وانه خرج من نعمته كما تخرج الشعرة من العجين، وأخذ له زايد عن ماية الف دينار وغير ذلك مما شرحه في كتابه، فكتب اليه الجواب على يد انسان قس سرياني يسمى صمويل من اهل القدس وصار حبيساً قديساً في صومعة بالريف تسمى اررى رزقنا الله بركة صلواته، يذكر فيه كلاماً حسناً

يحار الدارس أمام تشابك أحداثها، وتناقض معلوماتها، ناهيك عن صعوبة الفصل بين الأسباب والنتائج، حيث توالي الأحداث عملها تأثيرا وتأثرا.

وبديهي أن ما وقع من أحداث في خلافة المستنصر بالله، تكمن بذوره في فترات سابقة، طالما كان كل جديد نابتاً من القديم ويحمل بعضاً من صفاته، وجاءت ولادة عصر المستنصر من رحم خلافة أبيه الظاهر لإعزاز دين الله، والذي يعد فترة إنتقال بين عهدين، عهد سيطرة الخلفاء وعهد سيادة الوزراء.

وقبل الدخول إلى سرد وقائع المجاعات التي عاشها الناس في عهد المستنصر بالله يحسن أن أعراض للأسباب العامة التي كانت وراء هذه الأحداث.

١. ضعف السلطة المركزية:

يرجع سبب هذه المجاعات قبل أي شئ إلى ضعف شخصية المستنصر بالله، الذي ولي الخلافة وعمره سبع سنوات[1] وإذا كان أبوه قد حافظ بعض الشئ على سلطاته الزمانية، رغم تفرد رجال دولته بإدارة معظم شؤون البلاد، فإن المستنصر لم يستطيع بعد أن شب عن

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ـ طبعة النهضة المصرية ١٩٤٨ ـ ج٤ ص ٣١٧ ويذكر لين بول أن عمره كان ٨ أشهر فقط ـ انظر سيرة القاهرة ص ١٣٨.

ويتشوقه ويشرح له الامانة والمحبة والاتحاد المسيحى الذى لبطاركة هذين الكرسيين، ثم قال له فيه: فاما ما ذكره الاخ القديس شريكنا فى الخدمة من خروجه من نعمته كخروج الشعرة من العجين وما ناله مما شرحه فى كتابه فانى انا الخاطى اجل قدره ورياسته وقدسه عن هذا القول واى مال لنا نحن الذين صرنا فى هذه الرياسة الجليلة التى لا نستحقها الا غنا السيد المسيح الهنا الذى كان على الارض ياكلو تلاميذه بين يديه خبز الصدقة

الطوق أن يستخلص صلاحياته من براثن الوزراء ورجال الإدارة والجند، مثلما فعل جده الحاكم بأمر الله. إن ظاهرة ضعف سلطة الخليفة التى أطلت برأسها على استحياء فى عهد الظاهر، ظهرت هنا مكتملة الأبعاد، ويوردها المقريزى على رأس العوامل التى أفضت إلى الشدة المستنصرية[1].

وحال ضعف الخليفة دون سيطرته على طموح القواد ورجال البلاط والخصيان الذين أخذوا يحيكون الدسائس، وساعد على ذلك إنسياق المستنصر لما يسمعه من وشايات وشكايات، فأكثر من تغيير الوزراء حتى إن الوزارة وليها خلال تسع سنوات أربعون وزيراً بعضهم قضى فى منصبه يوماً واحداً[2].

وبدأ ذلك الاضطراب فى تغيير الوزراء فيما يبدو عام ٤٥٠هـ/٥٨ـ١٠٥٩م(٤)، واشتدت سرعة تغيير الوزراء وكذلك القضاة فى سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م[3].

ولاشك أن سرعة إجراء التغييرات الوزارية والقضائية، أضعف من قوة الوزراء وأعجزهم عن تدبير الأمور، وأوقع الإختلاف بين فئات الجند، نتيجة لإختلاف سياسات الوزراء الذين

(١) المقريزى: إغاثة الأمة ص ٢٣.
(٢) د. راشد البراوى: حالة مصر الاقتصادية ص ٨٨.
(٣) المقريزى: الخطط ج١ص ٣٥٦.

وهو القادر الذى اشبع الالوف من خمسة ارغفة شعير ورفع من الفضلات اضعاف ذلك، وكذلك بطرس ريس الحواريون وجميع التلاميذ القديسين الذين نحن خلفاهم لم يكنز احد منهم كنزاً ولا كان لاحد منهم سوى ثوب واحد لا غير حتى ان القديس العظيم حبيب السيد المسيح يوحنا ابن زبدى الانجيلى كان يخدم فى زبل الحمام بمدينة افسس عند انسان رومى وياكل الخبز بتعبه فى مستوقد الحمام، فكيف يكون لنا نحن الحقيرين

حاول كل واحد منهم أن يتبع سياسة ترضى الطرف الذى فى مكنته الإيعاز بعزله من منصبة[(١)].

واضاف إلى ذلك فإن المستنصر كان لايشارك وزراءه المسؤلية كما كان يفعل الخلفاء من قبله، وترك هذه المهمة إلى أمه التى كانت تتحكم فى تغيير الوزراء، وتتلقب بالسيدة الملكة، ويخاطبها الرجال فى حضرة ابنها بمولاتهم ويشار إليها بالجهة الجليلة والستر الرفيع[(٢)].

٢. تزايد نفوذ العسكريين:

نشأ عن ضعف الخليفة، وتدهور نفوذ وزرائه فراغ سياسى لم يملأه سوى العسكر، فقد كانوا بحكم تنظيمهم العسكرى، هم القوة الوحيدة فى البلاد التى يمكن أن يكون لها صدى فى تقرير أمور البلاد، سواء لاعتبارات تملك السلاح والقوة، أو سهولة التحرك بأوامر قادتهم، ووجد العسكريون ـ على إختلاف طوائفهم ـ فى ضعف وتردد إدارة البلاد فرصتهم المواتية لتوسيع رقعة نفوذهم وزيادة نصيبهم من ثروات البلاد، فطالبوا بزيادة رواتبهم، وألحوا فى ذلك حتى خلت خزائن الدولة، فأقضوا مضاجع الخليفة والوزراء، وألجأوا الخليفة إلى بيع محتويات خزائنه لهم لأجل تسديد رواتبهم، فأخذوها بأبخس الأثمان، ثم تمادى بهم الحال فاقتسموا ريع الأراضى المزروعة.

(١) المقريزى: إغاثة الأمة ص ٢١، اتعاظ الحنفا ج٢ص ٢٦٢ـ ٢٦٣.
(٢) د. عبد المنعم ماجد: ظهور خلافة الفاطميين ـ ص ٣٧٥.

مال. وذكر له من هذا فى كتابه شيأ كثير وهو
تعزية وتوبيخ وتسلية.

وبعد هذا تنيح الاب المذكور انبا يوحنا ، وجلس
بعده ابا باسيل البطرك واقام سنة واحد ونصف
وتنيح، ولم تصل منه سنوديقا ولا ذكر اسمه فى
كنايس بلاد مصر لا فى قداس ولا فى صلاة،
وبقى اسم القديس يوحنا يذكر على جارى العادة.
واقام كرسى انطاكيه خالياً مدة كبيرة لاستحواذ

وقد بدأ صعود العسكرين السياسى منذ عام ٤٥٠هـ[١]، وهو نفس العام الذى كثر فيه تغير الوزراء.

٢. الفتن والمنازعات:

تميز الجيش الفاطمى منذ فتح مصر بتباين العناصر العرقية المكونة له، فكان يضم إلى جانب المغاربة الذين شكلوا العمود الفقرى لجيش الغزو، عناصر موجودة فى الشرق من الديلم والأتراك، وعناصر سوداء من الزنوج ومن العبيد الذين يشترون من تجار الرقيق، وضم أيضاً البدو والمصريين[٢].

ورأينا كيف أن النزاعات التى ثارت بين بعض الطوائف فى عصرى الحاكم والظاهر، قد زادت من اضطراب البلاد وزيادة الأسعار، إلا أنها كانت نزاعات محدودة يمكن لسلطة الدولة تطويقها، فلما ضعفت السلطة المركزية، برزت نزاعات الجند لتصبح ملمحاً رئيساً من ملامح الحياة فى عصر المستنصر، الذى ترك الأمر إلى وزارائه فحاولوا السيطرة على أمور البلاد عن طريق الإستعانة ببعض طوائف الجيش.

ففى محاولة من الوزير الفلاحى للتفرد بشؤون الحكم دون الملكة أم المستنصر، سعى إلى

(١) المقريزى: إغاثة الأمة ص ٢٢-٢٣، اتعاظ الحنفا ج٢ص ٢٦٢- ٢٦٣.
(٢) د. ماجد : المرجع السابق ص ٣٦٩- ٣٧٤.

الغز [الترك] على تللك البلاد وما جرى فيها من الفتن والسبى والقتل الى ان اجتمع اربعة وثلثين رجلا مطارنة واساقفة في دير برصوما واقامو بطركاً على كرسي انطاكية كان اسمه العازر وسموه ديوناسيوس وكتب رسالة سنوديقا على يد قس سرياني اسمه توما قد صار الان اسقفا على بغداد، وكان وصوله بها في ايام القديس كيرلص بطرك اسكندرية رزقنا الله بركة صلاته وسنذكر ذلك في

تأليب الأتراك على السودان للقضاء عليهم، وهم، أى السودان، كانوا من نفس جنس الملكة، التى اعتمدت عليهم، ولجأ أثناء ذلك إلى زيادة رواتب السودان والمغاربة، وانقاص عطاء الأتراك واوهم أن التسترى هو المسؤل عن ذلك فقتل الاتراك التسترى وما لبثت الملكة أن نجحت فى قتل الفلاحى، وأحلت فى منصبه الوزير أبا البركات الذى اختلف مع سياسة الملكة فى إضعاف الأتراك، فعزلته وولت رئيس ديوانها الخاص الجديد المعروف باليازورى، الذى نجح بقوة شخصيته فى وقف النزاع بين طوائف الجند إلى حد ما(١).

ومع ذلك، فقد ظلت أم المستنصر على سياستها فى تقريب بنى جنسها من السودان وبدا واضحاً للأتراك أن الجيش الذى تم تكوينه من ٥٠ألف جندى سوادنى يشكلون حرس الخليفة وأمه، ليس إلا مقدمة للقضاء عليهم، لهذا أصبحت البلاد وكأنها مخزن بارود، تكفى شرارة صغيرة لإحداث إنفجاره الهائل(٢).

(١) ابن ميسر، محمد بن على بن يوسف بن جلب: أخبار مصر ـ تصحيح هنرى ماسيه ـ المعهد العلمى الفرنسى القاهرة ١٩١٩ـج٢ص ١٤ ، د. ماجد: ظهور خلافة الفاطميين: ص ٣٧٥ـ٣٧٦. والتسترى هو أبو سعد بن سهل التسترى، يهودى كان يقوم هو وأخوه أبو نصر هارون بالإتجار فى عهد الحاكم، وتقرب أبو سعد إلى الظاهر وباع له جارية سوداء أولدها المستنصر بالله، فرعت لأبى سعد ذلك، فعينته فى ديوانها، وقد عمل أبو سعد على عزل الأنبارى من الوزارة وتولية الفلاحى .انظر ابن مسير: أخبار مصر ج٢ ص ١٣ـ١٤، المقريزى: الخطط ج١ص٤٢٤.
(٢) د. راشد البراوى: المرجع السابق ص ٨٩.

سيرته. وتنيح الاب القديس انبا اخرسطودولس البطرك يوم السبت الرابع عشر من كيهك سنة سبع ماية اربعة وتسعين للشهد الابرار ودفن فى كنيسة السيدة الطاهرة المعروفة بالمعلقة بقصر الشمع[بمصر عتيقة]، وكان مدة مقامه على الكرسى الانجيلى ثلثون سنة، وبعد مدة حمل جسده المقدس الى دير ابو مقار بوادى هبيب رزقنا الله بركة صلواته امين.

وبمقتل اليازورى قويت إحتمالات تفجر الصراع، إذ تولى الوزارة البابلى، الذى عمل بمشورة أم المستنصر فأغرى السودان بالأتراك، فتغيرت نياتهم«وصار فى قلب كل طائفة من الأخرى إحن»(١).

وجاءت شرارة الانفجار فى جمادى الآخر عام ٤٥٤هـ/١٠٦٢م، عندما خرج المستنصر كعادته فى كل سنة إلى جب عميرة وهو موضع نزهة بهيئة أنه خارج للحج ومعه الخمر فى الروايا ليسقيه للناس عوضاً عن الماء، فجرد أثناء ذلك أحد الأتراك سيفاً على بعض السودان، فقتله السوادن(٢).

إحتج الأتراك على هذا الحادث لدى المستنصر، الذى استنكره ونفى رضاه عن ذلك، فحمل بعض الأتراك على جماعة من السودان عند كوم شريك فانهزم السودان وقتل منهم عدد كبير. بعد هذه الهزيمة سارعت إم المستنصر إلى إمداد السودان بالمال والسلاح، فلما ضبط الأتراك بعضاً مما كانت ترسله، دخلوا على الخليفة ثائرين وأغلظوا له فى القول فأنكر أى صلة له بتأييد السوادن ، وثار النزاع المسلح ثانية، حتى تمكن أبو الفرج محمد بن جعفر

(١) ابن ميسر: المصدر السابق ص ١٤.
(٢) المصدر نفسه ص ١٣، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٥ص ١٧ـ١٨، د. راشد البراوى: المرجع السابق ص ٨٩ـ ٩٠.

الاب كيرلس البطرك وهو
من العدد السابع والستون
[١٠٧٨، ١٠٩٢م]

ولما تنيح الاب انبا اخرسطودلوس البطرك فى السنة الحادية والاربعين من مملكة المستنصر بالله امير المومنين فى ايام امير الجيوش [الأجل الافضل] المقدم ذكره، كانت النوبة فى اقامة البطرك للكهنة والاراخنة المصريين ورهبان دير ابو مقار، فسار

المغربى الوزير من الإصلاح بين السودان والأتراك، وخرج السودان على أثر ذلك إلى شبرا دمنهور(١).

لم تستمر الهدنة بين الأتراك والسودان طويلاً، وتجددت الإشتباكات المسلحة بينهما عام ٤٥٦هـ/١٠٦٤م، واستطاع الأترك بقيادة ناصر الدولة بن حمدان أن يهزموا السودان بالإسكندرية فى موضع يعرف بالكرم، وقتل نحو ألف من السودان وهرب من بقى حياً، ثم تم الصلح بينهما بعد ذلك(٢).

وهذه أول مرة يرد فيها اسم ابن حمدان مقترناً بقيادة الأتراك، وهو الحسن بن حمدان أبو محمد التغلبى الأمير ناصر الدولة ذو المجدين(٣). وهو من أسرة الحمدانيين التى قضى الفاطميون على حكمها فى حلب، ومع ذلك فقد ولى بعض الحمدانيين مناصب فى ولايات الشام، وعين ابن حمدان هذا فى ولاية دمشق سنة ٤٣٣هـ/١٠٤١م، إلا أنه عاد إلى مصر سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م، وتولى فى وزارة اليازورى حكم الريف بشرقيه وغربيه فكان يجبى

(١) ابن ميسر: أخبار مصر ج١٢ص ١٣، أبو المحاسن : المصدر السابق ج٥ ص ١٨ـ ١٩، د. ماجد: ظهور خلافة الفاطميين ص ٣٧٦.
(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٥ص ٧٤.
(٣) المصدر نفسه ج٥ص ٢٠.

جماعة من الاساقفة وهم انبا قزمان اسقف نوسا [مركز أجا]، وابا يوحنا اسقف سخا [مركز كفر الشيخ] المعروف بابن الظالم، وابا مرقس اسقف ابو صير، وابا مرقوره اسقف مصيل، وانبا غبريل اسقف بسطه وهو كرسى الخندق، وانبا خايال اسقف قطور[مركز طنطا]، وابا تادرس اسقف خربتا [كوم حماده بالبحيرة]، واباانا جرجه اسقف ابطوا(*)، وابا يوحنا اسقف اتريب [مركز بنها]، وابا مرقس اسقف البلينا وابا بطرس اسقف

(*) ابطوا: كانت عاصمة لمملكة الوجه البحرى قبل عهد مينا. تقع الآن ضمن مركز دسوق محافظة كفر الشيخ.

الجوالى[١]. ويبدوا أنه أعيد مرة أخرى إلى ولاية دمشق فى رجب سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م ومنها خرج فى ٦ربيع الأول سنة ٤٥٢هـ/١٠٦٠م، بناء على أوامر الخليفة، على رأس جيش كثيف جاءه من مصر، لأجل إعادة خطبة المستنصر إلى حلب، التى سيطر عليها معز الدولة ابن مرداس، ولكنه انهزم عنها فى مستهل شعبان واصيب بضربة شُلت منها يده. وبقيت المدينة تحت سيطرة المرادسيين[٢]. ويعود ابن حمدان إلى مصر ، كأنه على موعد مع القدر، ليقود الأتراك فى فترة حاسمة من تاريخ دولة الفاطميين، وكانت أسرته تتولى زمام الأتراك وأمراءهم منذ عهد الحاكم بأمر الله[٣].

ويعد عام ٤٥٩هـ/١٠٦٧م، نقطة تحول هامة على طريق تزايد نفوذ الترك، الذين تقووا بهزيمتهم للسودان مرتين، فقد استغلوا عدم مقدرة الدولة على سداد رواتبهم بسبب نقص النيل عام ٤٥٧هـ/١٠٦٥م. وهو بدء ما عرف بالشدة المستنصرية، وطالبوا بزيادة وجباتهم، ومنعوا السوادن من أرزاقهم، فتفاقم الوضع من تزايد أعداد السودان الذين بلغوا ٥٠ألف رجل ما بين فارس وراجل[٤].

(١) د. ماجد: ظهور خلافة الفاطميين ص ٣٨٣-٣٨٤.
(٢) ابن ميسر : المصدر السابق ص ١٠-١٢ . ويذكر د. ماجد أن ابن حمدان توجه إلى حلب عام ٤٥٠هـ، وعاد منهزماً عنها عام ٤٥٢هـ. انظر : ظهور خلافة الفاطميين ص ٣٨٤.
(٣) د. ماجد : المرجع السابق - ص ,٣٨٥.
(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا - ج٢ ص ٢٧٣، د. ماجد: المرجع السابق - ص ٣٧٧.

البهنسي [البهنسا] وابا مقاره اسقف القيس [مركز بني ضرار]، وابا مينا اسقف البنوانين [مركز المحلة الكبرى]، وغيرهم من الاساقفة والكهنة، وبعض كهنة الاسكندرية وجماعة من المصريين ومضو الى دير ابو مقار واقامو مقدار شهرين يرتادو من يصلح للبطركية، فلم يتفق لهم. فنهض بعض الاساقفة ومعهم شروط الراهب الارشي دياقن بدير ابو مقار ومضو الى دير ابو كما لياخذو قديس الله بسوس الراهب بالحقيقة الذى تقدم ذكر فضايله وعجايبه،

عندئذ لم يكن السودان بحاجة إلى أوامر المستنصر التى بعثت لتغريهم بالأتراك، فأجتمعوا وحضروا من شبرا دمنهور إلى الجيزة، وانتهت الحروب التى دارت بين الطائفتين بهزيمة السودان وفرارهم إلى الصعيد(١).

كان فرار السودان إلى الصعيد، إنسحاباً تكتيكياً، لإعادة ترتيب الصفوف، وتأهباً لجولة أخرى من الصراع، وبالفعل تجمع السودان هناك وبلغ عددهم نحو ١٥ ألفاً ما بين فارس وراجل فقلق من ذلك الأتراك ودخلوا يشكون إلى المستنصر بالله فاغتنمت أم الخليفة الفرصة وأمرت بعض عبيدها السودان فهاجموا الأتراك وقتلوا منهم. على أثر ذلك بدأت حملة تصفية جسدية للسودان الذين بقوا فى القاهرة والفسطاط، ولم يبق إلا السودان الذين فروا إلى الصعيد، وفريق آخر كان فى الإسكندرية، التى حاصرها ابن حمدان فطلبوا الأمان، ورتب ابن حمدان عليها من يثق به(٢).

أعطت إنتصارات الأتراك الجديدة ، زخماً لابن حمدان الطامح إلى السلطة، فاستهان بالخليفة الذى أضحى بلاحماية بعد هزيمة السودان، وبدأ استعداءه للخليفة فى عام ٤٦٠هـ/٦٧ـ١٠٦٨م، عندما طلب زيادة رواتب الأتراك من ٢٨٠٠٠ دينار شهرياً إلى

(١) ابن ميسر: المصدر السابق ـ ج٢ص ١٧ ، المقريزى: اتعاظ الحنفا ـج٢ص ٢٧٣.
(٢) ابن ميسر : المصدر السابق ـ ج٢ص١٧ ،المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٢٧٣- ٢٧٤، د. راشد البراوى: حالة مصر الاقتصادية ـ ص ٩٠.

فلما هموان يمسكوه صاح عليهم واخذ حجارة يدق بها صدره حتى كاد ان يقتل نفسه ثم قال: انا ابن مملوك تجعلونى بطرك لا تطلبونى انا ولا مقاره الامنوت الذى قد هرب منكم واختفا ولا تتعبو فان بطركــهم هوذا هو عندهم فى الاسكنا بدير ابو مقار. وكان انبا اخرسطودلو نيح الله نفسه قد تحــدث مع قس عندنا باسكندرية مكفــوف [معكوف] فى كنيسة السيدة اسمه رجا فقال القس المذكور للاب انبا اخرسطودلوس: حسره

٤٠٠,٠٠٠ دينار، مع علمه بخواء خزينة الدولة بسبب اضطراب الأحوال وعدم زراعة الأرض[١]. وألح الأتراك فى طلب رواتبهم، وحاصروا المستنصر وأخذوا جميع الأموال ثم اقتسموا الأعمال، وساروا بعد ذلك إلى دار الوزير أبى كدينة مطالبين بالأموال فاعتذر بخروج البلاد عن سلطة الخلافة، وافلاس الخزينة، فأمروه بإعلام الخليفة بمطالبهم، فخرجت الرقعة بخط المستنصر مكتوب بها:

أصبحت لا أرجو ولا أتقى ... إلا إلهى وله الفضل

جدى نبى وإمامى أبى ... وقولى التوحيد والعدل

المال مال الله ـ والعبد عبد الله. والإعطاء خير من المنع. وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون.

واعتذر الخليفة بأنه لم يبق عنده شئ، فاضطره الأتراك إلى إخراج ذخائر الخلافة وبيعها، فأخذ يخرجها تدريجياً وهم يأخذون التحف والذخائر «لأنفسهم بأيديهم ويثمنونها بأقل القيم، وأبخس الأثمان»[٢].

(١) ابن ميسر: نفس المصدر – ص ١٧، ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ـ ج٨ص ١١٦.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

عليك يا ابونا القديس الفاضل كيف يعدمك هذا الشعب ومن اين يجدو مثلك. فقال له: يجلس بعدى على هذا الكرسى راهب جيد اسمه جرجه وهو جران فى ضيعة من اعمال البحيره تسمى افلاقه [مركز دمنهور]. وحدثنى انا الخاطى ابو البركات ابن زوين (ناقل هذه السيره(*) من القلاية البطركية لنفسه ولولده ابو اليمن ابن بنوب وهو يوميذ كاتب القلاية المذكورة في بطركية الاب القديس ابا يوحنا [يوأنس]

(*) كاتب هذه السيرة أبو البركات ابن زوين.

لم يقف السودان خلال هذه الفترة مكتوفى الأيدى، فتغلبوا على الصعيد وأكثروا السلب والنهب والقتل حتى ضج الناس بالشكوى منهم، عندئذ سار الأتراك إليهم فى شهر رمضان سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٨م وبلغت نفقتهم من ديوان الخليفة مليون دينار أيضاً، إلا أنهم هذه المرة هزموا أمام السودان، فعادوا إلى الجيزة[١].

إتهم الأتراك المستنصر بمساندة السودان بالأموال، وجهروا له بالسوء من القول، فنفى تقديمه يد العون للسودان، ثم أجبروه على أن ينفق فيهم مليون دينار أخرى عوضاً عما ضاع من أموالهم.

وبذلك تمكنوا من إعادة تنظيم صفوفهم، وعادوا إلى محاربة السودان، ونجحوا فى استئصال شأفتهم نهائياً، وتفرد الأترك وابن حمدان بالأمور وتحكموا فى الدولة حتى عام ٤٦١هـ/٦٨ـ١٠٦٩م[٢].

ولم تفلح محاولات التخلص من ابن حمدان، فقد هاجمه صيرفى ولم يتمكن إلا من جرحه ، فقبض عليه وشنق[٣]، وكان ذلك بتدبير المستنصر وأمه.

(١) ابن ميسر: المصدر السابق ـ ص ١٧.
(٢) ابن ميسر: المصدر السابق ـ ج٢ص ١٨. المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٢٧٦، د. راشد البراوى: حالة مصر ـ ص ,٩١
(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ـ ج٢ ص٨٣.

البطرك [رقم ٧٢] فى سنة ست وستين وستماية للشهد عن [ابيه بنوب] وكان كاتب القلاية قديماً عن ابا كيرلس البطرك)، انه كان الاب انبا اخرسطودلوس البطرك جعل ابهامه على فم القرابة(*)، وكان القس المصلح [المُعيّن] بطركاً وهو ابا كيرلس الى جانبه لانه من قسا [قساوسة] الاسكنا، فصلب به على جبينه وقال له: ايتهسك. وتفسيره دهنتك. وعجايب الله فى قديسيه الذى يظهر لهم الخفيات. فلما توفا انبا اخرسطودلوس

(*) القرابه : قارورة زيت للتعميد غالباً. وكانت فى الغالب على شكل قارب.

سعى ابن حمدان، لإسقاط الخلافة نهائياً، لأنه اتفق مع رجل من الأشراف هو أبو طاهر حيدرة بن الحسن الحسينى الذى نفاه والى دمشق بدر الجمالى، وكان هذا الرجل محبباً للناس وتلقبه العامة المسلمين بأمير المؤمنين، على أن يوليه الخلافة لنسبه الصحيح، وتحالفا لأجل ذلك مع بعض العرب واستقل ابن حمدان بقسم من الجيش وخاصة طائفة الأكراد التى ربما كان تاج الملوك شادى زعيمها(١).

وبصورة واضحة تحول ابن حمدان منذ عام ٤٦١هـ من متمرد تحت دعوى حماية حقوق الأتراك، إلى متمرد على الخليفة الفا طمى وحتى الأتراك. فقد أعمته أطماعه الخاصة عن الحفاظ على قوة الأتراك عناصره الفاعلة فى إرباك أمور الخلافة، واستأثر لنفسه واتباعه المقربين من الاكراد بما كان يخرج من أموال وذخائر المستنصر، وبدأ يتصرف فى الأمور بمفرده كسيد مطلق السلطان، وخاصة أنه قام بتقسيم دور المكوس والجبايات على قواده ءحتى لم يبق للدولة دخل يعول عليه ولامال فى القياصر يرجع إليه(٢).

رأى الأتراك أنه لو زالت دولة الفاطميين، أنهم سيفقدون نفوذهم فتحركوا باتجاه تدعيم

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ـ ج٥ص ١٣، د. ماجد : ظهور خلافة - ص ٣٨٦.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٢٧٨.

شنع [اشيع] في اسكندرية بان راى الجماعة قد اتفق على ان يجعلوا مقاره الامنوت [بطركا] وانهم قد سارو كلهم الى الدير لياخذوه، فقال رجا القس المذكور لى : ما هكذى قال لى ابى أبا اخرسطودلوس. فلما لم يجدوه ووصل اليهم الخبر الصحيح بالذى قد جعل قال: حقاً هكذى قال لى. واما الاساقفة والارشى دياقن الذين مضو الى دير ابو كما فانهم عادو من يومهم الى ديرهم واخبرو الجمع بما جرى لهم مع القديس بسوس

الخليفة، بهدف التخلص من ابن حمدان، ورفعوا الأمر إلى الوزير وقالوا إن كل ما يخرج من الخليفة يقصره ابن حمدان على أتباعه ولايعلمهم منه شئ ، فطلب الوزير منهم التخلى عن مساندته والعمل على إخراجه من مصر فوافقوه على ذلك، وشرع المستنصر فى تنفيذ الاتفاق، فطلب من ابن حمدان الخروج من القاهرة، وامتثل ابن حمدان للأمر لما أيقن إنحياز الأتراك للخليفةو، وخرج إلى الجيزة فانتهبت دوره ودور أصحابه وحاشيته[1].

ولكن ابن حمدان لم تعيه الحيل، فتحالف مع القائد تاج الملوك شادى على قتل الوزير خطير الملك، والدكز الذى قاد الأتراك ضد ناصر الدولة، حتى تتاح لهما فرصة التفرد بالسلطة واتفقا على أن يقوم شادى ورجاله بقتل الوزير والدكز عند مرورهما بشارع بين القصرين فى الطريق لقصر الخليفة، ونما إلى علم الدكز تفاصيل الإتفاق فالتجأ إلى القصور واستجار بالمستنصر فى الليل. بينما أقدم الوزير فى موكبه صباحاً فبادره تاج الملوك وجنوده فقتلوه، وأرسل إلى ناصر الدولة فحضر إلى القاهرة[2]. آنذاك لم يكن للحرب بد، فلبس المستنصر عدة الحرب عملاً بمشورة الدكز وقاد الجند وعامة الشعب أيضاً، واستطاع أن يهزم ابن حمدان ويقتل الكثير من أتباعه، ففر ابن حمدان إلى البحيرة واستجار ببنى سنبس من قبائل

(١) ابن ميسر: المصدر السابق ـ ص ١٨ ، د. البراوى: المرجع السابق ـ ص ٩١.

(٢) ابن ميسر المصدر السابق ـ ص ١٨ ـ ١٩ ، المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٢٧٩.

ومـا قـال لهم، فـصلو واكـثـرو الابتـهـال الى الله سبحنه في ان يرشدهم الى الذى قد اصطفاه لهذا الامر، فذكرو جماعة ولم يتفقو على واحد منهم الى ان دخل لهم راهب قس فى دير ابو مقار كهل اسـمـه جـرجـه، فلمـا راوه القـا الله جل اسـمـه في قلوبهم اجـمعين الاتفاق على تـصـييره، فقـامو اليه كلهم واخـذوه كـرهاً والبـسـوه الثـوب واسـمـوه كيرلس وهو يبكي ويقول : انا ابن ثانية ما اصلح لهذا الامر. فلم ينثنو عنه وكـان ذلك في يوم احـد

العـرب وتزوج منهـم[١]، فتقوى بهم وبقبائل قيس ولواتة، وانضم إليه بعض المشارقة، وبدأ يستعد لجولة جديدة من الصراع[٢].

ووجد ناصر الدولة نفسـه بعـد انفـضـاض الأتراك من حـوله فى طور جـديد من النزاع مع الخلافة يصعب خلاله الأستيلاء على الحكم بمجرد التحالف مع بعض القبائل العربية فلجأ إلى الاستعانة بقوة كبيرة يسعدها إسقاط خلافة الفاطميين، وهى السلاجقة، فبعث الفقيه أبا جعفر محمد بن أحمد بن النجارى رسولاً منه إلى السلطان ألب أرسلان بالعراق فى عام ٤٦٢هـ/٦٩ـ١٠٧٠م، طالباً منه مدداً عسكريا ليقيم الدعوة للخلافة العباسية بمصر[٣].

هنا شمر المستنصر بالله عن ساعد الجد، إنقاذاً لخلافته من السقوط، فجهز جيشاً كبيراً من

---

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى ـ شباب الجامعة الإسكندرية ١٩٨٢ ـ ص ١٨٦ ـ ١٨٧.
والسنابسة بطن كان يقيم بالبحيرة من أعمال مصر وينتسب إلى لبيد بن سنبس بن معاوية بن ثعل بن عمرو بن الغوث طئ بن أملان من القحطانية . انظر عمرو رضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ـ المطبعة الهاشمية ـ دمشق ١٩٤٩ـ ج٢ ص ٥٥٦.
(٢) ابن ميسر: المصدر السابق ـ ص ١٨ـ١٩، المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ ص ٢٧٩، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ـ ج٥ص ١٤ـ ١٥، د. ماجد: ظهور خلافة الفاطميين ـ ص ٣٨٧.
(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٣٠٢.

الرفاع وسارو به الى اسكندرية وكرز بها فى الثانى والعشرين من برمهات سنة سبعماية اربعة وتسعين للشهد، ثم سار الى مصر فانفذ انبا يعقوب اسقف مصر الى شيخ ابو الفضل يحيى ابن ابرهيم، وهو يوميذ متولى ديوان الابواب بمصر ومتولى ديوان الصناعة [الاسطول]، واعلمه بوصوله الى كنيسة ميكاييل المختارة بجزيرة مصر [الروضه]، فانفذ له عشارى [قارب] موكبى سلطانى فركب فيه هو ومن معه وعدا الى مصر فاجتمع على الشط

الأتراك وقسمه إلى ثلاثة فرق، لكل منها مقدم، والأرجح أن هذا التقسيم كان تقسيما بحكم الأمر الواقع،إذا أنه راعى فيما يبدو وجود ثلاثة قواد رئيسيين بين الأتراك، فجعل كلاً منهم على رأس فرقة.

ويفسر ذلك أن كل مقدم عمل بمفرده على هزيمة ابن حمدان طمعاً فى أن يعود إليه الفضل فى هذا العمل مما يدعم موقفه فى السيطرة على الدولة. ولم يدخل الجيش الحرب مدججاً بروح «المركزية»، فهزمت أول فرقة أمام ابن حمدان وأعراب البحيرة وقتل أفرادها واستولى على أسلحتها، وتلى ذلك إنهزام الفرقة الثانية لم تكن على علم بما حدث ثم تقدم ابن حمدان فأجهز على بقية الجيش[١].

بعد هذه الإنتصارات الباهرة أخذ ناصر الدولة فى تدعيم قواته بفضل ما غنمه من الأترك، وعاث فى البلاد فساداً وأعمل السلب والنهب والقتل، فأثار الذعر فى الوجه البحرى، الذى أصبح تحت سيطرته الكاملة ، وكون لنفسه دولة داخل الدولة، غير خاضعة لنفوذ الخليفة، بل وخطب فيها للخليفة العباسى القائم بأمر الله[٢].

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا ــ ج٢ ص ٣٠٢ــ ٣٠٣، ابن ميسر: أخبار مصر ــ ج٢ص ٢٠.
(٢) ابن ميسر: المصدر السابق ــ ص ٢٠ ، المقريزى: المصدر السابق ــ ص ٣٠٣، د. السيد عبد العزيز سالم:تاريخ الإسكندرية ــ ص ١٨٧.

[الشاطئ] من العامة خلق كثير، وطلع الى القاهرة وبين يديه القراة حتى وصل الى القصر ودخل هو ومن معه من باب البحر حتى وصلو الى باب القاعة، فخرج اليه مامون الدولة عنبر الحرانى الاستاذ، وهو يوميذ صاحب الرسالة، وقال له: امير المومنين يرد عليك السلام. فصقع [فركع] الى قرب الارض ثم اخذه ودخل به وحده الى مولانا المستنصر بالله امير المومنين وعنده امه واخته جالسين وبين ايديهم طيب كثير فضحموه

ولم يكن ذلك آخر ما في جعبة ابن حمدان، فقد أعقب سيطرته على الوجه البحرى بممارسة ضغط اقتصادى شديد على مركز الخلافة، القاهرة ، بقطع الميرة عنها، إضافة إلى أن استمرار الحروب أدى إلى عجز الفلاحين عن زراعة الأرض فاشتدت الحالة على الناس(١).

وأتى الحصار الاقتصادى ثماره سريعاً، إذ ارتفعت الأسعار وثار الشعب، فخاف المستنصر من ثورته وخشي أن يسلمه إلى ابن حمدان، ووافق الأتراك على الإذعان لشروط ابن حمدان، وأصبح هو في قصره كالمحجور عليه(٢). وعقد الأتراك المصالحة مع ابن حمدان فى عام ٤٦٣هـ ٧٠ ـ ١٠٧١م بسبب نقص الغذاء وعدم زراعة الأرض وانتشار الأوبئة(٣).

وتم الاتفاق على أن يظل ابن حمدان بالبحيرة، وترسل له الأموال التى تقرر له، وأن يكون تاج الملوك شادى نائبه فى القاهرة ، وهو الذى يضمن نفاذ الأموال اليه.

وبفضل هذا الاتفاق دخلت الغلال إلى القاهرة والفسطاط، فطابت قلوب الناس، ودام الأمر على ذلك لمدة شهر واحد ، إختلف من بعده الأتراك مع ابن حمدان، فجاء من البحيرة

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا ــ ج٢ص ٣٠٣.
(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ــ ج٥ص ١٥.
(٣) د. راشد البراوى: المرجع السابق ــ ص ٩١.

[فضمخوه] من ذلك الطيب وقالو بارك علينا وعلى قصرنا فبارك عليهم ودعا لهم ففرحو به وقالو له جعلك الله مبارك علينا وعلى دولتنا، ثم خرج ووقف على باب القاعة وامر بطرس اسقف دقميره ان يقر الدعا فقراه وبارك هو ايضاً ودعا، وخرج والقراة بين يديه الى دار الاجل [الأفضل] امير الجيوش فلقى منه اجمل ملقا واجلسه وادناه واكرمه وطيب نفسه فدعا له دعا كثير، وامر بطرس الاسقف المذكور فقرى الدعا هناك ايضاً

بعساكره إلى مصر وحاصرها في ذى القعدة وأحرق وخطف النساء من الطرق، ثم عاد إلى البحيرة[1] بعد أن وعده الأتراك فيما يبدو بتطبيق نفس شروط الصلح السابقة.

إلا أن تاج الملوك شادى أخل بالتزاماته المالية تجاه ناصر الدولة، فزحف الأخير بالعربان إلى الجيزة، واستدعى شادياً وبعض المقدمين فخرجوا إليه مطمئنين، فقبض عليهم، وألقى العربان النار في الفسطاط ونهبوا وسلبوا[2]. وفي هذه المرة نجح الجيش الذى جهزه المستنصر في هزيمة ابن حمدان ومطاردته هو وأتباعه، فعاد إلى البحيرة مرة أخرى[3].

كان ذلك يعنى إنهياراً لاتفاق ٤٦٣هـ، الذى نص ولاشك على إعادة الخطبة للمستنصر، فقام ناصر الدولة بقطع خطبة المستنصر من الوجه البحرى وخطب مرة أخرى للقائم العباسى وراسله في بغداد، يطلب منه أن يجهز له الخلع والألوية السوداء (شعار العباسيين)، «فاضمحل أمر المستنصر وتلاشى قدره»[4].

(١) ابن ميسر: أخبار مصر ـ ج٢ ص ٢١، المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ ص ٣٠٥.
(٢) ابن ميسر: أخبار مصر ـ ج٢ص ٢١.
(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٣٠٦.
(٤) ابن ميسر: المصدر السابق ـ ص ٢١، المقريزى: المصدر السابق ـ ص ٣١٦.

على باب المجلس، وكان والى مصر قايم بين يدى
مولاه امير الجيوش فامره ان يخرج ويركب معه
حتى ينزل الى مصر والى حيث يريد وان يراعيه
ويخدمه ويقضى حوايجه ما دام بمصر، فخرج
مكرماً مبجلا ونزل الى كنيسة السيدة المعلقة
بمصر بقصر الشمع وكرز فيها، ثم طلع بعد ايام
الى كنيسة السيدة بالقاهرة بحارة الروم وكرز فيها،
ولما خرج فى الصوم الكبير الى دير ابو مقار حكا
لى من كان معه هناك من الاساقفة انه لما رفع

ثم حدثت معارك بين المشارقة (الاتراك) والمغاربة عند كوم الريش بالقرب من القاهرة عام ٤٦٤هـ/ ٤٦٤هـ/١٠٧٢م وقتل فى هذه المعارك ١٢ألفاً من الفريقين(١).

وساعدت هذه الفتن وضعف شخصية الخليفة، ابن حمدان على تفكيك الجبهة الموالية للخليفة، فاستمال كثيراً من الأتراك، وأيقن عندئذ عجز المستنصر عن مقاومته فى ظل تدهور الأحوال الاقتصادية وتفشى الأوبئة، فدخل مصر بعساكره فى شعبان ٤٦٤هـ/١٠٧٢م(٢).

ومن الفسطاط، أرسل ابن حمدان إلى القاهرة ليطلب الأموال من الخليفة، فوجد رسوله الخليفة جالساً على حصير بغير فرش ولاأبهة، وليس عنده غير ثلاثة من الخدم، فلما أدى الرسالة قال له المستنصر، أما يكفى ناصر الدولة أن أجلس على هذه الحال؟ فبكى رسول ناصر الدولة ونقل إلى موفده ما رأى، فرق له وقرر للخليفة نفقة شهرية مائة دينار، «ومارس الحكم بنفسه، وأصبح الخليفة مجرد مسمى بلا معنى»(٣).

وكانت أول خطوة لناصر الدولة تصفية حساباته مع أم المستنصر فقبض عليها وعاقبها غير

(١) د. ماجد: ظهور خلافة الفاطميين ـ ص ٣٧٧.
(٢) ابن ميسر: المصدر السابق ص ٢١، المقريزى: المصدر السابق ـ ص ٣١٦.
(٣) ابن ميسر: أخبار مصر ـ ج٢ص ٢١.

قليلة [إناء] الميرون المقدس في اسكنا ابو مقار يوم الخميس الكبير فاضت القليلة على يديه وعلى المذبح حتى تعجب الحاضرين ومجدو الله جل اسمه، وبعد هذا وصل توما القس المقدم ذكره في هتور سنة سبع ماية خمسة وتسعين للشهدا ومعه الرسالة السنوديقا باسمه واوصلها اليه وقريت في كنايس مصر وذكر اسمه على هياكلها ودعى له فيها في اوقات الصلوات والقداسات كما جرت العادة، وكتب له رسالة سنوديقا جواباً عن رسالته

مرة حتى استصفى أموالها ويقال إنها فرت إلى بغداد مع بعض أهل المستنصر[1]، وإن كان ذلك أمر ا مستبعداً بحكم العدواة التقليدية مع الدول العباسية.

وتمهيداً لإزالة الخلافة الفاطمية من مصر عمل على إخلاء القاهرة من أعوان المستنصر الأقوياء والذين يمكن أن يقفوا حجر عثرة في سبيل ذلك، فكان يوليهم الأعمال ثم يعزلهم منها بمجرد وصولهم إليها ولايمكنهم من العودة مرة أخرى إلى القاهرة[2].

وأخذ ابن حمدان يعد العدة لإقامة الدعوة العباسية بالقاهرة وإسقاط اسم المستنصر من الخطبة، الأمر الذى أ ثار مخاوف الأتراك من ضيا ع مكانتهم التى تمتعوا بها فى الدولة الفاطمية، إذا ما أقيمت الدعوة لبنى العباس وصارت ولاية تابعة لخلافة بغداد والسلاجقة الأقوياء، فعملوا على قتل ابن حمدان، وتزعم هذا الأتجاه صهر ناصر الدولة «الدكز» التركى الذى كان متزوجاً من ابنه ناصر الدولة، وتشارك مع الأمير يلدكوز أو يلدكوشى ، ونجحا فى جمع رأى الأتر اك على ذلك[3].

وتولى الدكز هذه المهمة، لأن ناصر الدولة يأمن له لكونه صهره فاصطحب معه غلام له

(١) المصدر نفسه المكان نفسه.
(٢) ابن الأثير: الكامل ـ ج١٠ ص ٢٧ ـ ٣٠.
(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا – ج٢ ص ٣٠٩.

وكان ابا كيرلس البطركى فى اكثر اوقاته فى كنيسة ميكاييل بجزيرة مصر فى الموضع المعروف بالمختارة مقيما فى الجوسق الذى فيها، وكان يشتهى ان يكون مقامه فى الريف فلا يقدر لكثرة الرسل الواردين من بلاد الحبشة والنوبة والعايدين اليها وحاجة السلطان الى حضوره عنده فى كل وقت، وكان سلمون(*) ملك النوبة قد ترك المملكة وعزل نفسه عنها وسلمها لجرجه ابن اخته وانفرد هو للعَبادة والنسك. فلما كان فى السنة الثانية من

(*) سلمون ملك النوبة يترهب سراً في أحد اديرة الصعيد.

«أبو منصور كمشتكين» ويلقب بحسام الدولة بعد أن أطلعه على جلية الأمر ودخلا على ناصر الدولة، فى مستهل شهر رمضان سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٣م.

والفراشون ينفضون البسط ليقعد عليها، وهو يمشى فى صحن الدار، فمشى الدكز معه ثم تأخر عنه وضربه فى خاصرته «بيافروت» وهو سكين مغربى، فعاجله كمشتكين بضربة قطعت رجليه ثم حزت رأسه(١). وبذلك وضعت نهاية لحياة ناصر الدولة الذى لم يكن قط ناصراً لدولة الفاطميين. ثم قام الأتراك بتتبع أقارب ناصر الدولة ورجاله حتى أبادو هم وقطع ابن حمدان قطعاً، وأنفذت كل قطعة إلى بلد(٢).

إلا أن الستار لم يسدل مع مقتل ابن حمدان، إلا لينفرج عن فصل جديد، أخذ فيه الأتراك دور ابن حمدان، فقد أرادوا أن يجنوا ثمار انتصارهم على عدو الخلافة، فدخلوا على المستنصر ومعهم رؤوس اعدائه وطلبوا الاموال، فرد المستنصر بأن الأموال أخذها ابن حمدان وأن الخلاف كان بينه وبين الأتراك، وأنهم هم الذين نقضوا العهد معه، ولكن الأمر استقر على ما جرت عليه العادة، إذ أخرج المستنصر من خزائنه قطعاً من المرجان وعروضاً أخرى حمل ثمنها إلى الدكز ورفقته(٣).

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ـ ج٥ص ٢١.
(٢) المصدر نفسه ـ ج٥ ص ٢١ ـ٢٢، ابن المصدر السابق - ص٢٢، المقريزى: المصدر السابق ـ ص ٣٠٩ـ٣١٠.
(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ـ ج٥ص ٢٢.

بطركية انبا كيرلس مضى سلمون المذكور الى وادى يعرف بالقديس ابو نفر ليتعبد هناك في بيعة على اسمه، بينها وبين اطراف النوبة مسيرة ثلثة ايام وبينها وبين اسوان مسيرة عشرة ايام، وكان والى اسوان يوميذ اسعد الدولة شاردكين القواسى، فاتاه احد اخوة كنز الدولة وقال له: يا مولاى تريد امضى اخذ سلمون الذى كان ملك النوبة واتيك به. قال له: نعم، فاخذ معه عشرون رجلا وركبو النجب وسارو فى خفية حتى وصلو الى البيعة

ومارس الأتراك منذ بداية عام ٤٤٦هـ/١٠٧٣م، الضغط على الخليفة، وكان على رأسهم سلطان الجيوش يلدكوز التركى والأمير الدكز ومعهم الوزير أبى كدينة. وخاب ظن المستنصر فى أن يكون فى مقتل ابن حمدان راحة له.(١) وبلغت سيطرة الدكز حداً مكنه من فرض حظر الدخول إلى القاهرة أو الخروج منها، ولعله سعى إلى الملك(٢).

أيقن المستنصر أن مصير خلافته أصبح فى مهب الريح، فقد تحالف عليه الأتراك بعد فناء معظم السودان والمغاربة، واستبد به اليأس فلم يجد مخرجاً إلا باستدعاء بدر الجمالى من عكا بفلسطين عله يستطيع إنقاذه من تسلط الدكز والأتراك(٣).

قبل بدر المهمه بشريطة أن يقدم بعسكر من الارمن وأن لايبقى أحداً من عساكر مصر ولاوزرائها، فأجابه المستنصر إلى ذلك(٤).

---

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٣١١.
(٢) د. ماجد: ظهور خلافة الفاطميين ـ ص ٣٩٢.
(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ـ ج٥ص ٢٢، د. راشد البراوى: المرجع السابق ـ ص ٦٩. وبدر الجمالى هو بدر بن عبد الله، وكان مملوكاً لجمال الدولة بن عمار أحد ولاة طرابلس الشام، فعرف بالجمالى نسبة إليه وبدر من أصل أرمنى تمكن بجده وحزمه من التنقل فى المناصب حتى ولى دمشق وصور عام ٤٤٥هـ/١٠٦٣ وحارب بامر الخلافة المتمردين فى حلب ودمشق ثم تولى ولاية عكا فى سنة ٤٦٢هـ/٦٩ـ١٠٧٠ وبقى بها حتى طلب المستنصر نجدته .د. ماجد: المرجع السابق ـ ص ٣٩٣.
(٤) ابن ميسر: المصدر السابق ـ ص ٢٢.

بوادى ابو نفر وكبسوها بغتة فاخذو سلمون المذكور واحضروه الى اسعد الدولة فسيره الى القاهرة، فلما وصل اليها تلقاه كلمن فيها من الامرا والمقدمين بالطبول والبنود والبوقات، ولما دخل الى القاهرة اكرمه امير الجيوش وانزله في دار حسنة وحمل اليه الكسوة والفرش والانية، واقام على هذه القضية مقدار سنة ثم تنيح ودفن في دير القديس مارى جرجس بالخندق.

وقسم الاب انبا كيرلس مطراناً للحبشة وهو

سار بدر إلى مصر عام ٤٦٦هـ (ديسمبر ١٠٧٣م) في مائة مركب ومعه جنوده وعبد الله ابن المستنصر الذى فر إليه أثناء الأحداث وذلك رغم تحذيره من حالة البحر في الشتاء، ولكن الظروف الجوية واتته ودامت كذلك أربعين يوماً وصل بعدها إلى دمياط[١]. وأقام مدة بدمياط، اقترض خلالها مالاً من تجار تنيس ويقال افترضه عليهم، ثم قدم عليه سليمان اللواتي[٢] وهو يومئذ كبير أهل البحيرة وأوسعهم حالاً، حاملاً معه الغلال، وأمن له الطريق حتى وصل إلى قليوب على مقربة من القاهرة.

ومن هناك طلب من المستنصر القبض على يلدكوز حتى يتمكن من دخول القاهرة، فبادر المستنصر إلى القبض عليه[٣].

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا - ج٢ص ٣١١، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ـج٥ص ٢٠.

(٢) اللواتيون من أعراب غرب مصر وفروعهم بنو هانى وبنو سليمان وبنو متكنيت. انظر : عمر رضا كحالة معجم قبائل العرب - ج٣ص ١٠١٧.

(٣) ابن ميسر: المصدر السابق ـ ص ٢٣، المقريزى: المصدر السابق ـ ج٢ص ٣١٢، ويذكر د. ماجد أن لواته قاومت بدراً عند نزوله إلى دمياط وأنه قتل منهم الألوف وعلى رأسهم سليمان اللواتي (ظهور خلافة الفاطميين ص ٣٩٣) والواقع أن بدر الجمالي قاتلهم بعد ذلك كما يستفاد من ابن ميسر ـج٢ص ٢٤) ومن سياق ماورد في سجل من المستنصر إلى حاكم اليمن على بن الصليحى بتاريخ المحرم سنة ٤٦٣ هـ ـ انظر د. ماجد : السجلات المستنصرية ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ١٩٥٤ ـ ص ١٨٤. ويمكن إرجاع تعاون لواته مع بدر الجمالى عند نزوله إلى أن اللواتين كانوا حلفاء ابن حمدان الذى قتله الأتراك.

شاب عالم اسمه سويرس ابن اخت بقطر المطران المتوفا، وكان قد تربا هناك مع خاله المذكور، وكان اوعد امير الجيوش بمواعيد[وعود] كثيرة حتى تقدم لابا كيرلس بتقدمته وقسمته، وقال انه يواصله بالهدايا من هناك ويدع الملوك تطيعه. فلما سار ووصل الى بلاد الحبشة قاومه قوريل الذى ذكرناه آنفا، وان الاب اخرسطودلوس قال لامير الجيوش انه لم يقسمه وانه مغتصب الكهنوت وخاصمه وناصبه. ثم جمع هذا قوريل ماله وسار

بعدها دخل بدر القاهرة يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الأولى، وأرسل كل أمير من أمرائه إلى قائد من قواد الدولة ليلاً، وأمره أن يأتيه برأسه، فأصبح وقد أحضر من رؤوس أمراء الدولة شئ كثير فقبض على بقية الأتراك وتتبع المفسدين حتى قضى عليهم وفر ابن يلدكوز إلى الشام[١].

وبعد القضاء على الأتراك بات واضحاً أن خطة بدر تقضى أولاً باسترداد السلطة المركزية لهيبتها فى العاصمة، القاهرة، وتخليصها من إسار السيطرة التركية ثم التوجه بعد ذلك إلى أقاليم الدولة، للسيطرة عليها. فقتل جماعة من أماثل حكامهم ووزرائهم واتجه إلى الدلتا فحارب فى شرقها وغربها اللواتيين والعرب حتى قضى على كل من سولت له نفسه الأنتقاص من سيطرة الحكومة الكاملة[٢].

٤. نقص فيضان النيل:

لم يصل النيل خلال المجاعات التى وقعت فى عصر المستنصر، إلى حد القحط، كما وأنه لم يقل عن ١٦ ذراعاً إلا فى مرتين (٤٤٦، ٤٦٠هـ) وتعدى خلالها ١٥ ذراعاً، ولذا فليس بإمكاننا أن نحمل الفيضان وزر هذه المجاعات، وتعد مسؤوليته عنها مسؤولية محدودة وجزئية،

(١) ابن ميسر: المصدر السابق ـ ص ٢٣.
(٢) ابن ميسر: المصدر السابق ـ ج٢ص ٢٤، المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٣١٤ ـ ٣١٦.

الى[مملكة] دهلك(*) وكان معه مال كثير فقبض عليه صاحب دهلك واخذ جميع ماله وسيره الى [الأجل الافضل] امير الجيوش ، فلما وصل الى القاهرة احضره الى مجلسه ثم استقصا عنه فعلم صحة ما قيل فيه فاعتقله في خزانة [سجن] البنود مدة ثم ضرب عنقه في سنة ثمان ماية وستين للشهد، ثم وصلت كتب من سويرس المطران يعلمه ان بلاد الحبشه قد تمهدت وزال ما كان فيها من الفساد، وان الملك ووزراه واهل مملكته

(*) دهلك: من ممالك النوبة فى ذلك الوقت.

ولعل ذلك هو الذى حدا بالمقريزى أن يورده فى آخر قائمة أسباب الشدة المستنصرية، بل إنه يزيد الأمر تفصيلاً فيقول إن من أسبابها«عدم من يزرع ما شمله الرى»(١) أى موت الكثير من الفلاحين. هذا إلى جانب ما كان يقوم به عرب لواته من نهب وسلب منطقة الدلتا.

تبدأ سلسلة مجاعات عصر المستنصر بواحدة وقعت عام ٤٤٤هـ/٥٢ـ ١٠٥٣م، ولايمكن أن يكون سببها قصور النيل(٢)، كما يقول المقريزى إذ بلغت زيادة النيل فى هذه السنة ١٧ ذراعاً و٥ أصابع وهو حد لايمكن القول معه بأن النيل ناقص رغم تسليمنا بأن ذلك غير كاف لزراعة جميع الأراضى.

ولذا وجب البحث عن عامل آخر كان له التأثير الأقوى فى نشأة هذه المجاعة، ويشد الإنتباه

(١) المقريزى: إغاثة الأمة – ص ٢٣. ويذكرBroklmannأن سبب الشدة المستنصرية هو الإنخفاض فى فيضان النيل، انظر. Brokimann. op. cit.p. 162 ويذهب د. ماجد نفس المذهب مستشهداً فى ذلك بقوائم النيل التى أوردها أبو المحاسن فى الجزء الخامس من النجوم الزاهرة.
وتؤكد رواية القلقشندى أن مسؤولية الفيضان عن المجاعة كانت محدودة حيث يذكر أن الفيضان لم يوف خلال العامين الأولين، ثم وفى النيل فى السنة الثالثة وقام إلى الخامسة ثم نزل فى وقته فلم يوجد من يزرع لقلة الناس، وأنه وفى فى السنة السادسة وأقام حتى فرغت السابعة. القلشندى ـ ج٣ص ٢٩٦.
(٢) المقريزى: إغاثة الأمة ـ ص ٢١٧، الخطط ـ ج١ص ٣٥٦.

واصحابه وجميع رعيته كان لهم عدة نسا [نساء] لكل واحد منهم وانه لم يزل مع الملك يردعه عن هذا ويلاطفه ويعضه [يعظه] الى ان ابعد عنه جميع نساه ولم يبق له سوى زوجة واحدة مع ام اولاده، وانه اجتهد في ان يخلى الزوجة ويبقى مع ام اولاده فقط فلم يقدر فقال له قد خليت نساى كلهم واما هذه فما اقدر اخليها ولا لى عنها صبر لشدة محبتى لها، وانه فسح له فى ذلك وتغافل عنه خوفاً من ان ينحرف الامر معه، وانه فعل

أن المخازن السلطانية لم يكن فيها شئ من الغلال، فاشتدت لذلك المسغبة[1]. وأن سبب ذلك هو تغيير الوزير اليازورى عندما كان قاضياً لبضائع المتجرد أو المخازن السلطانية.

والمتجرد عبارة عما يباع للديوان من بضائع يحتاج إليها وتدر الربح أيضا[2]، وكانت الدولة تشترى فى كل عام بمائة ألف دينار غلالاً، وكان هذا الأحتياطى يوزع وقت الحاجة على الطحانين والخبازين[3] وكان وجود هذا المخزون كفيلاً بمنع التجار من التفكير فى التلاعب بالأسعار[4].

ويعنى ذلك أن هذا المتجرد لم يكن هدفه الرئيسى الربح بل كان التخفيف عن كاهل الشعب وخاصة وقت الأزمات، ولكن اليازورى لم يفهم ذلك، ونظر إليه نظرة التاجر الذى يروم الربح، لا نظرة رجل الدولة المسؤول، فذكر للخليفة أن المتجر الذى يقام بالغلة فيه أوفى مضرة على المسلمين ولربما انحط السعر عن مشتراها فلا يمكن بيعها فتتعفن فى المخازن.

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ١٢٤، الخطط ـج١ص ١٠٩.
(٢) المقريزى: الخطط ـج١ص ١٠٩.
(٣) د. عبد المنعم ماجد: امرأة مصرية تتزعم مظاهرة فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى – مقال بالمجلة التاريخية المصرية – القاهرة ١٩٧٧ ـ مجلد ٢٤ـ ص ٣٥.
(٤) د. راشد البراوى: حالة مصر الاقتصادية ـ ص ٢٧٤ـ٢٧٥.

كذلك مع اهل مملكته ومقدمين دولته وساير رعيته وتركو كلهم ما كانو يعتمدو عليه من اتخاذ كثرة النسا، وسال في كتابه ان يكتب البطرك كتاباً الى الملك واهل مملكته ووزراه ورجال دولته يعظهم فيه ويعلمـــهم ان هذا هو الصـــواب ويمنعـــهم من التمسك بعادات العتيقة ويذكر لهم التعاليم الروحانية من الكتب المقدسة العتيقة والحديثة ويشرح فيه ما يصح قوله عندهم ويقوى امره في نفوسهم وينتفعو به في دنياهم واخرتهم، فاجاب

وزين للخليفة أن يقيم متجراً لاكلفة فيه على الناس ويفيد أضعاف فائدة الغلة، ولايخشى عليه من التغير في المخازن لانحطاط سعره، فأمضى المستنصر ما رآه اليازورى واشترى للمتجر الخشب والصابون والحديد والرصاص والعسل وما إلى ذلك(١).

و لقد وجد اليازورى في حادثة عابرة مبرراً لمشورته تلك ، إذ قام أحد باعة الخبز ببيع خبزه بسعر أقل من السعر السائد في السوق وذلك خوفاً من كساده إذا برد، فعاقبه عريف الخبازين بمعرفة عونين من الحسبة أغراماه عشر ة دراهم. فشكا البائع ذلك إلى القاضى (اليازورى) الذى عزل العريف وكافأ البائع الذى ذهبت بعقله المكافأة، فأخذ يرخص في سعر خبزه والباعة يتبعونه خوفاً من الكساد، فنزل سعر الخبز من أربعه أرطال بدرهم ، فخيل لليازورى أن ذلك قانون سوف يدوم(٢).

إلا أن الإختيار الحقيقى لهذه السياسة التى انتخبها اليازورى تجاه المخزن كان في عام ٤٤٦هـ/٥٤ـ١٠٥٥م، عندما وقعت مجاعة كان سببها إنخفاض النيل(١٥ ذاعاً و١٤إصبعاً حسب الدوادارى) وصحب هذه المجاعة إنتشار للوباء بين السكان، ولم يكن في المخازن إلا

(١) المقريزى: اتعاظ ـ ب ج٢ص ٢٢٥.

(٢) المقريزى: إغاثة الأمة ـ ص ١٧ـ١٩.

سواله وكتب كتاباً كما يجب على اوفا مما راد وانفذه اليه مع الرسل الذى وصلو اليه بكتبه. ولما خلت عدة كراسى من اساقفتهم اقسم لهم اساقفة جدد ولم ياخذ شرطونية بالجملة وقطعها اصلا واشترط على كلمن يقسمه ان يكون نصف ما يتحصل فى الكرسى للاسقف والنصف لقلاية مارى مرقص الانجيلى عن الرسم القديم، واوقف ما يتحصل من بعض الكراسى على دير القديس ابو مقار وهى دميره وابو صير بنا ودمنهور والاهناسيه،

جرايات من فى القصور ومطبخ السلطان وحواشيه فقط.[١] نتيجة لتخلى الدولة عن دورها فى شراء الغلال.

حاول اليازورى أن يوقف الكارثة، ولم يكن الرجل الذى تنقصه الفطنة والحصافة، فاتجه إلى مخازن التجار فختم عليها واستولى على ما بها من الغلال، إذ كان التجار يقومون بشراء الغلال قبل حصادها من عمال النواحى مقابل ضمان التجار لسداد خراج الدولة دون أن يجهد العمال أنفسهم فى مطالبة الفلاحين ومطالبتهم بالتعجيل فى الدفع، ثم يحمل التجار الغلال إلى مخازنهم بعد الحصاد[٢].

وقامت الدولة بشراء الغلال المصادرة، وأربحت التجار فى ثمنها $\frac{١}{٨}$ دينار، ونقلت الغلال بالمركب إلى مصر وأودعت المخازن السلطانية، وسعر القمح كل تليس بثلاثة دنانير بعد أن كان ثمانية دنانير، وحدد اليازورى تموينا لمصر والقاهرة مقداره يوميا سبعمائة تليس لمصر وثلثمائة للقاهرة، فاستقرت الأحوال لمدة عشرين شهراً حتى دخلت الغلة الجديدة فزال الغلاء[٣].

(١) المقريزى: اتعاظ ـ ج٢ص ٢٢٦، وإن كان المقريزى فى الخطط(ج١ص ٣٥٦) يذكر ذلك فى حوادث ٤٤٧هـ، والأصح أن ذلك حدث فى سنة ٤٤٦هـ حسبما ذكر فى إغاثة الأمة ـ ص ١٩ـ٢٠.
(٢) المقريزى: إغاثة الأمة ص ١٩ـ٢٠، اتعاظ الحنفا ـ ج٢ ص ٢٢٦.
(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٢٢٦.

وكتب كتبها وشرط فيها شروط يقويها، وسلمها للرهبان قومة الدير المذكور. واوقف ايضا نصف كرسي رشيد ونصف كرسي مصيل على بيعة القديس مارى مرقس الانجيلي وانفذ المال الذى حصل من نصف الكرس[ين]وصرفه على بناء كنيسة القديسين] باسكندرية المعروفة بالقمحا على يد «بمين» القمص لانه كان رجلا فيه خير وهو من اقرباه، واعمر كنايس كثيرة. فلما كان في سنة ثمان ماية واثنين للشهدا اجتمع اساقفة من بحرى

وتحسباً لاحتمال إستمرار نقصان النيل، طلبت الدولة الفاطمية من الامبراطور البيزنطى قسطنطين التاسع Constntine IX Nonamochos إمداد مصر بالقمح لمواجهة المجاعة التى استمرت حتى وفاة الامبراطور عام ٤٤٧ هـ / ٥٥ ـ ١٠٥٦م، فلما خلفته ابنته تيودورا Theodora اشترطت إشتراك مصر فى معاهدة دفاعية هجومية مع بيزنطة، فرفض اليازورى، لأن حاجة مصر للغلال مسألة مؤقتة رهن بفيضان النيل[1].

وحاول المستنصر أن يؤدب تيودورا لمنعها الغلال، فجهز عسكراً بقيادة مكين الدولة الحسن بن على بن ملهم وتبعهم بعسكر ثان وثالث، ونودى فى سائر الشام بالغزو إلى بلاد الروم[2]. ونزل ابن ملهم قريباً من فاميّه فحاصرها وجال فى أعمال إنطاكية وسبى ونهب، فأخرج البيزنطيون ثمانين قطعة بحرية حاربت ابن ملهم وهزمته وأسر هو وجماعة كثيرة[3].

سعى المستنصر بعد ذلك إلى إصلاح العلاقات مع دولة بيزنطة فبعث فى سنة ٤٤٧ هـ/ ٥٥ ـ ١٠٥٦م ، أبا عبد الله القضاعى برسالة إلى القسطنطينية، فوجد بها رسول طغرل بك

(١) د. راشد البراوى: المرجع السابق ـ ص ١٠١.
(٢) ابن ميسر: أخبار مصر ـ ج٢ص ٧.
(٣) المقريزى: الخطط ـ ج١ص ٣٣٥.

واراخنه من مصر وقالو للاب القديس انبا كيرلس: انت ياابونا القديس روحانى لكن هوذا يصحبك من يفسد احوال الشعب وليس يصلح لمثل هولآ ان يصحبوك لانهم يشينوك. قال لهم: ومن هولآ الذين تكرهو صحبتهم لى، قالو له: جرجه اسقف ابطوا وابرهام اسقف دبقو ويستس الذى كان راهب وقلع الاسكيم وتزوج بامراة، وبنوب الكاتب وابو الكرم الراهب، هولآ الخمسة لا ينبغى ان يكونو لك اتباعاً. وجرى لهم معه خطوب فى هذا

السلجوقي، وقد أتى من العراق وسمح له بالصلاة فى مسجد القسطنطينية والدعاء للخليفة العباسي، فما كان من الخليفة الفاطمى إلا أن قبض على جميع ما بكنيسة القيامة ببيت المقدس، فازدادت العلاقات المصرية ـ البيزنطية سوءاً[١].

وصحب هذه المجاعة وباء شديد أودى بحياة الكثيرين وخاصة فى عام ٤٤٧هـ ٤٤٨هـ[٢] حتى إن عطاراً باع فى يوم واحد ألف قارورة شراب[٣]. وقدر من مات فى مصر فى سنة ٤٤٨هـ / ٥٦ ـ ١٠٥٧م بألف إنسان كل يوم[٤]. ويذكر أن ثلاثة من اللصوص نقبوا بعض الدور فوجدوا عند الصباح موتى أحدهم على باب النقبة والثانى على رأس الدرجة، والثالث على الثياب التى كورها[٥].

وساعد على تفاقم الأزمة عام ٤٤٨هـ أن الأموال فى القصر خلت نتيجة للإنفاق لأجل

(١) المقريزى: الخطط ـ ج١ص ٣٣٥.
(٢) ابن ميسر: المصدر السابق ـ ص ٧، المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٢٣٠، وشمل الوباء والقحط بغداد والشام أيضاً. ابن الجوزى ـ المنتظم ـ حيدر آباد وسمى عام ٤٤٨هـ. فيها بعام الجوع الكبير. انظر: الذهبى ـ تاريخ الإسلام ـ مجلد ١٦ـ ص ٢٠٠.
(٣) ابن المحاسن: النجوم الزاهرة ـ ج٥ص ٥٩.
(٤) ابن الأثير: الكامل ـ ج٨ص ٧٩.
(٥) أبو الفدا: البداية والنهاية ـ ج١٢ ص ٦٨.

الى ان كتبو مدرج [وثيقة] وثبتو فيه ابعاد هولآء عنه، واخذو خطه فيه بالرضا بما تضمنه، فلما مضو عنه لم يرى اعتماد برايهم على ذلك والا صار كأنه من تحت امرهم وكأنهم الحاكمين عليه، واحتشم ايضاً من ابعاد المذكورين وقد خدموه وصحبوه وصار لهم عليه خدمة فابقاهم على حالهم، الا ابو الكرم الراهب فانه ابعده لذميم طريقته.

وكان بعض الاساقفة البحريين عند قسمة هذا الاب كيرلس يعتقدو ا نه يكون مدبر برايهم ويكونو

تجهيز المؤيد فى الدين الذى أرسل لدعم ثورة البساسيرى الذى أقام الدعوة للفاطميين فى بغداد(١).

وقد خلط المقريزى بين هذه المجاعة والشدة المستنصرية، حيث ذكر أنها امتدت سبع سنواءت بدءاً من عام ٤٤٧هـ(٢).

ولم تكن مصر وحدها هى التى تعانى من المجاعة والوباء. فقد حدث بمكة سنة ٤٤٧هـ مجاعة. بسبب اعتمادها على ما ترسله مصر من الطعام والغلال وعدم إرسال الطعام إليها فى هذه السنة وبلغ سعر الخبز عشرة أرطال بدينار، ثم اختفى الخبز، فأشرف الناس والحجاج على الهلاك، ولم ينقذهم إلا الجراد الذى ملأ الأرض فأكلوه ثم خفت وطأة الأزمة برحيل الحجاج عن مكة(٣).

وفى عام ٤٤٨هـ عمّ الوباء والغلاء مكة والحجاز وديار بكر والموصل وخراسان والجبال وسائر بلاد الشام وأكل الناس الميتة فى العراق(٤).

(١) ابن ميسر: المصدر السابق ـ ص ٨، عن ثورة أبى الحارث أرسلان بن عبدالله البساسيرى. انظر: ابن خلكان : وفيات الأعيان ـ ج١ص ١٧٢ـ ١٧٣.
(٢) المقريزى: الخطط ـ ج١ص ٣٣٥.
(٣) ابن الأثير: كامل ـج٨ص ٧٣.
(٤) المصدر السابق ـ ص ٧٩، أبو الفدا: المصدر السابق ـ ج١٢ص ٦٨.

مستحوذين على كل الامور لانه كان في بداية امره قليل العلم مثل ديمتريوس الاب الآول بل كان كاهناً جيد لانه كان قساً في اسكنا دير ابو مقار، فلما صار بطركاً لم يتم لهم ما ظنوه، ولازم قراة الكتب وتفسيرها، حتى اني دخلت اليه انا الخاطى فوجدت تفسير الاناجيل الاربعة بين يديه، فسالته عن كلام كثير من الاناجيل المقدسة ففسره احسن تفسير مالا تصل معرفة أكثر الاساقفة والكهنة اليه، ومن جملة بركاته وفضله وقدسه وما

واستمر الغلاء والوباء في عام ٤٤٩هـ / ٥٧ ـ ١٠٥٨م في العراق وبخارى وأذربيجان والأهواز، وخلت أكثر دور بغداد وسدت على أهلها أبوابها بما فيها وأهلها موتى وأكل الناس الجيف والكلاب بل والآدميين[١]. وكان سبب هذا الوباء قلة الأغذية والجوع فنبشت الأموات وأكلتها الناس[٢].

وتعرضت مصر عام ٤٤٥هـ / ١٠٦٣م لانتشار وباء الطاعون، فمات في عشرة أشهر كل يوم ألف إنسان[٣]. ويبدو أن سبب هذا الوباء كان الإرتفاع الكبير لفيضان النيل (١٩ ذراعاً، و١٢ إصبعا).

إلا أن كل هذه الوقائع المريرة، تتضاءل أمام جسامة أحداث المجاعة التي اجتاحت مصر لمدة سبع سنوات بدأت في عام ٤٥٧ هـ واشتهرت هذه المجاعة باسم الشدة المستنصرية التي يقال إنه لم يحدث مثلها منذ زمان يوسف عليه السلام[٤].

وسبب بداية هذه المجاعة هو قصور ماء الفيضان ـ إلى حد ما ـ فارتفعت الأسعار وأعقب

(١) أبو الفدا: المصدر السابق - ج١٢ ص ٧٠- ٧١.
(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا - ج٢ص ٢٣٥.
(٣) أبو المحاسن: المصدر السابق - ج٥ ص ٧٤.
(٤) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب - ج٣ص ٣٨٢.

تفضل الله تعالى به على خلقه من اجابة دعاه
فيهم ان مآ النيل المبارك منذ صار بطركاً والى الآن
يزيد عن حد الوفا، والرخا يتزايد والأمن شامل
لجميع هذه البلاد وساير طرقاتها وبراريها نهار
وليل، فشوش الشيطان خزاه الله بعض اساقفة
بحرى وهم بنى الظالم وغيرهم، فاجتمعوا بيسيب
[بنامين] خولي بساتين الاجل امير الجيوش وكان
خصيصاً به [مقرباً]، ووقعو بالاب البطرك عنده

ذلك الوباء حتى تعطلت الأراضى عن الزراعة[1]. وظل النيل بعد هذه السنة يمدّ وينزل فلا يجد من يزرع[2].

ولا شك أن نزاعات الجند التى شلت يد الحكومة، وأخلّت بالأمن، هى التى جعلت من هذه الأحداث كارثة حقيقية طال أمدها إلى سبع سنوات، وبلغت أقصاها فى عام ٤٦٢هـ / ٦٩ ـ ١٠٧٠م، فعظم الجوع واشتد الوباء وانتشر السلب والنهب[3]. ولعل مرجع ذلك الحصار الاقتصادى الذى فرضه ابن حمدان على القاهرة والفسطاط.

وخلال هذه السنوات، إنهارت القوة الشرائية للنقود، وارتفعت أسعار السلع الغذائية بشدة، حتى إن حارة بالفسطاط بيعت بطبق خبز، كل رغيف فيه بمنزل فعرفت لذلك بحارة الطبق[4]. ومثل أحد الأغنياء أمام المستنصر ليشكو من أنه اشترى أردباً من القمح بسبعين ديناراً، فنهبه منه العامة حتى لم يبق منه سوى سبعين حبة قمح، أى كل حبة بدينار واحد [5]. وهناك قصة أخرى مشابهة مفادها أن امرأة اشترت تليس دقيق بعقد جواهر قيمته ألف دينار،

(١) المقريزى: أغاثة الأمة ـ ص ٢٣.
(٢) المقريزى: الخطط ـ ج١ص ٣٣٧.
(٣) ابن ميسر: المصدر السابق ـ ج٢ص ٢٠، أبو المحاسن: المصدر السابق ج٥ص ٨٤.
(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٢٩٧.
(٥) المصدر نفسه ـ ج٢ص ٢٩٩.

لاجل انه فسخ ما كانو قرروه معه، ورفعو رقاع على يده لاميـر الجيـوش [الأجل الافضل] في البطرك على قضايا قرروها فيما بينهم وبين يسيب [بنيامين] بحكم معرفته الاشياء التي تتفق على امير الجيوش ويميل الى قبولها، وكان الاب البطرك قد سار الى دميره بعد استيذان السلطان وكرز كنايس في الريف واقام بها عدة شهور، فلما رفع المذكورين فيه الى امير الجيوش انفذ اليه يامره

وعندما تحركت به من الفسطاط فى طريقها إلى القاهرة، وسط الحراسة المشددة التى كانت معها، هجم الناس عليها فنهبوه فلم يتبق لها سوى حفنة من الدقيق فعجنتها وشوتها فصارت قرصة حملتها وتوصلت إلى أحد أبواب قصر الخليفة ووقفت على مكان مرتفع وبيدها القرصة وصاحت: يا أهل القاهرة أدعوا لمولانا المستنصر الذى أسعد الله الناس بأيامه وأعاد عليهم بركات حسن نظره حتى تقومت على هذه القرصة بألف دينار[١].

وحركت الحادثة الأخيرة، مشاعر المستنصر بالله، وربما يكون قد خشى ثورة العامة عليه مع تزايد تمرد الجند وعصيان ابن حمدان، فأحضر الوالى وتهدده وتوعده إذا لم يظهر الخبز فى الأسواق بالقتل والنهب. فخرج الوالى من بين يديه وأحضر من الحبس قوماً من المحكوم عليهم بالإعدام وألبسهم ثياب التجار، ثم جمع تجار الغلة والخبازين والطحانين، وعقد مجلساً عظيماً وأحضر أحد المجرمين فقال له «ويلك ما كفاك أنك خنت السلطان واستوليت على مال الديوان إلى أن خربت الأعمال ومحق الغلا، فأدى ذلك إلى اختلال الدولة وهلاك الرعية؟ أضرب رقبته» فضربت رقبة الرجل وفعل نفس الشيء مع رجل ثانٍ فخاف التجار والطحانون والخبازون ووعدوا الوالى بإظهار الغلة وإدارة الطواحين وعمارة الأسواق بالخبز مع تخفيض

(١) المقريزى: إغاثة الأمة ـ ص ٢٥، أنظر: د. ماجد : امرأة مصرية تتزعم مظاهرة (مرجع سابق).

بالدخول [عليه] وان يكون صحبته جميع اساقفته يدخل الى مصر، واستدعى من تيسر حضوره من الاساقفة، فاجتمع عنده منهم بمصر سبعة واربعين اسقفاً، منهم اساقفة بحرى اثنين وعشرين اسقف، واسقف مصر، واسقف الجيزه، واسقف الخندق، واثنين وعشرين من اساقفة الصعيد وهذه اسماوهم: ابا يعقوب اسقف مصر، وابا غبريال اسقف الخندق، وابا حزقيه اسقف وسيم والجيزه،

الأسعار ليباع الخبز رطلاً بدرهم، فرفض الوالى ذلك السعر، فقالوا : رطلين بدرهم، فأجابهم إلى ذلك، فوفوا بعهدهم[1].

ويدل ذلك على مدى خطورة الدور الذى لعبه الإحتكار التجارى أثناء المجاعة وأهمية دور الحكومة المركزية فى معالجة الأمر.

ونظراً لسوء العلاقات مع بيزنطة منذ عام ٤٤٧هـ ، فإن أنظار الخلافة إتجهت إلى أماكن أخرى من بلاد الخلافة لاستيراد الطعام، الذى فقد فى مصر سنة ٤٦٤هـ / ٧١ ـ ١٠٧٢م ، فجاء الطعام بالمراكب من صقلية والمهدية[2] (تونس).

ولاشتداد المسبغة وطول أمدها لجأ الناس إلى أكل نحاتة النخل، بل طبخوا جلود البقر وباعوها رطلاً بدرهمين[3]. ثم أكل الناس الحيوانات الأليفة، فبيع الكلب ليؤكل بخمسة دنانير[4]. والقط بثلاثة دنانير[5]. ولم تسلم دواب الخليفة، حتى لم يبق له سوى ثلاثة أفراس

(١) المقريزى: إغاثة الأمة - ص ٢٥ـ٢٦.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٣٠٧.
(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٢٩٧ـ٣٠٧.
(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـج٢ص ٢٩٧، المقريزى: إغاثة الأمة ـ ص ٢٣ـ٢٤، الخطط: ج١ص ٣٣٧.
(٥) أبو المحاسن: المصدر السابق ـ ج٥ص ١٦.

اساقفة بحرى يوحنا اسقف دمياط، تاودرس اسقف سمنود، صمويل اسقف تنيس، ميصاييل اسقف دمياط، تاودرس اسقف تلبانه، يونس اسقف دميره، خاييل اسقف ابو صير، يسطس اسقف صهرجت، خاييل اسقف منوف، يونس اسقف طندتا، خاييل اسقف نوسا، خاييل اسقف البرلس، غبريال اسقف نستروه، مقاره اسقف صا، مقاره اسقف بنا، تاودرس اسقف خربتا، غبريال اسقف دمنهور،

بعد أن كانت عشرة آلاف ما بين فرس وجمل ودابة، وحدث أن وزير المستنصر ترك على باب القصر بغلته وليس معها إلا غلام واحد، فجاء ثلاثة وأخذوا البغلة منه، فلم يقدر على دفعهم لضعفه من الجوع، وذبحوها وأكلوها، فأخذوا وصلبوا فأصبح الناس فلم يروا إلا عظامهم، إذ أكل الناس فى تلك الليلة لحومهم(١).

وتعدى الأمر إلى أكل الجيف والميتات ثم لحوم الآدميين. فقد اعتادت طوائف من أهل الفساد أن تسكن بيوتاً قصيرة السقوف، قريبة من المارة، تمكنها من خطف المارة بواسطة خطاطيف وحبال أعدوها لذلك، ليقوموا بعد خطف الضحية بضربة بالأخشاب حتى يتمكنوا من تشريح لحمه وأكله(٢).

ويبدو أن قصص أكل لحوم البشر ليست من نسج خيال الكتاب، إذ أورد لنا ابن دقمان

(١) أبو المحاسن : ج٥ص ١٥-١٦، المقريزى: إغاثة الأمة ـ ص ٢٤.

(٢) ابن ميسر : أخبار مصر ـ ج٢ص ١٩ـ٢٠، المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٢٩٦. وظاهرة أكل لحوم البشر لم تكن قاصرة على مصر مثلما رأينا فى الوباء والمجاعة التى اجتاحت بغداد عام ٤٤٩هـ، وكان الحصار الاقتصادى والعسكرى يدفع بالسكان إلى أكل الميتة، مثلما حدث لطرسوس التى حاصرها البيزنطيون حتى سقطت فى أيديهم عام ٣٥٤هـ/٩٦٥م. انظر: آدم متز: الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ترجمة محمد أبو ريدة ـ القاهرة ١٩٤٠ـ ج١ص ٨، ابن الجوزى: المنتظم ـ ج٨ص ١٧٩.

مرقوره اسقف مصيل، رفاييل اسقف سرسنى، يسطس اسقف رشيد، تاودرس اسقف اتريب، مينا اسقف البنوانين، وبقى منهم من لم يحضر لوجعه، خاييل اسقف قطور، تاودرس اسقف سنجار، بطرس اسقف دقميره، بفام وقزمان اسقفا الواحات. واساقفة الصعيد وما يليه: يعقوب اسقف اطفيح، دانيال اسقف طموه، صمويل اسقف اهناس، متاوس اسقف الفيوم، بفام اسقف القيس،

- -

اسمين لزقاقين بالفسطاط لهما صلة بهذه القصص، أولهما زقاق البواقيل الذى يعرف أيضاً بزقاق الندافين حيث كان جماعة يقفون أيام الشدة المستنصرية «تحت القبو هناك فمن مربهم ندفوه ونزعوا ما عليه ورموه فى بئر هناك»، والآخر هو زقاق العكامين حيث كان «أناس يعكمون الناس باكر فى أفواههم ثم يحملونهم إلى زقاق القتلى ليقتلونهم فيه فسمى بذلك»[1]. وصارت لحوم الآدميين سلعة رائجة يقوم الطباخون ببيعها مطبوخة بعد أن يذبحوا ضحاياهم من الصبيان والنساء[2].

وربما كان أكل الجيف والميتات ولحوم البشر، هو الذى ساعد على انتشار الوباء الذى كثرت ضحاياه حتى عجز الناس عن تكفين موتاهم فألقوهم فى الحفر جماعات وهالوا التراب عليهم، أو قذفوا بهم فى النيل دون أكفان[3].

ويقدر البعض أن هذا الوباء أفنى ثلثى أهل مصر، خاصة وأن الجدرى إنتشر بين الأطفال حتى أفنى منهم ٢١,٠٠٠ طفل فى شهر واحد[4].

(١) ابن دقماق، إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى: الانتصار لواسطة عقد الأمصار ـ مطبعة بولاق ١٣٠٩هـ ـ ج٤ص ١٦ـ ١٨.
(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ـ ج٥ص ١٥.
(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٣٠٣ـ٣٠٧.
(٤) د. راشد البراوى: حالة مصر الاقتصادية ـ ص ٩٥.

بطرس اسقف البهنسى، بينوده اسقف طحا، خايل اسقف الاشمونين، اسحق اسقف انصنا، مرقوره اسقف قوص قام [قزقام]، اندونه اسقف اسيوط، افرهام اسقف شطب، متاوس اسقف فاو [فاو]، كليدس اسقف اخميم، مرقس اسقف البلينا، قلته اسقف هو، مرقوره اسقف الاقصرين، بمون اسقف ارمنت، تاودرس اسقف اسنا، بفام اسقف اسوان، يوحنا اسقف دندرا، بدير اسقف قوص. فلما علم

وإزاء هذه الكوارث، اضطر الأثرياء إلى الهرب الشام والعراق هرباً من الجوع والفتن، وعلى رأس هؤلاء التجار من ابتاعوا ثياب المستنصر وذخائره وآلاته التى باعها الأتراك من خزانته، وتركزت حركة الهجرة فى عامى ٤٦٢هـ، ٤٦٣هـ، (١٠٦٩-١٠٧١م)[١].

ويستفاد من المصادر التى ذكرت تاريخ ٤٦٤هـ/٧١-١٠٧٢م كنهاية لهذه المجاعة أن الأزمة الاقتصادية إنفرجت بعض الشئ بمقتل ابن حمدان عام ٤٦٥هـ، وإن ظلت حالة البلاد فى اضطراب حتى وضع بدر الجمالى حداً لذلك بقدومه إلى مصر سنة ٤٦٦هـ.

وفى أواخر عهد المستنصر تأخرت زيادة النيل فى سنة ٤٨٢هـ/ ٨٩-١٠٩٠م فأرسل الخليفة بطرك الأقباط ميخائيل بهدية إلى الحبشة، التى أمر ملكها بفتح سد يجرى منه الماء إلى مصر، ففتح وزاد النيل فى ليلة واحدة ثلاث أذرع. وخلع المستنصر على البطريرك عند عودته[٢].

وفى خلافة المستعلى بالله (٤٥٧-٤٩٥هـ/١٠٩٤-١١٠١م) عانت البلاد من مجاعتين خطيرتين، أولهما كانت فى عام ٤٩٠هـ/٩٦-١٠٩٧م وانتشر معها الوباء[٣]. ولم تذكر

---

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا - ج٢ص ٣٠٣، الخطط - ج١ص ٣٣٧، ابن الأثير: الكامل - ج٨ص ١٠٨.
(٢) د. راشد البراوى: حالة مصر الاقتصادية - ص ٢٣٧.
(٣) ابن ميسر : المصدر السابق - ج٢ص ٣٧، المقريزى: اتعاظ الحنفا - ج٣ص ١٩.

امير الجيوش باجتماعهم احضرهم الى بستانه الكبير بظاهر القاهرة في يوم السبت الثالث والعشرين من مسرى سنة ثمان ماية واثنين للشهد الموافق لسنة خمس وسبعين واربع مماية الخراجية، فخاطبهم بكلام شديد انطقه الله به وامرهم ينظمو له مجموع قوانين الدين ويعرضوه عليه(*)، وعطف على البطرك فاكرمه وبجله وعظم قدره وامره قدامهم وتقدم له بالانصراف الى بيعته، فلما

(*) امير الجيوش يطلب من رؤساء القبط أن يكتبوا له قوانين الكنيسة والاديرة.

المصادر التاريخية سبباً لهذه المجاعة ، ولكن من خلال إستقراء مقياس النيل نستطيع أن نرجع هذه المجاعة إلى النقص النسبى في ماء الفيضان الذى بلغت زيادته ١٦ ذراعاً و٢١ إصبعاً حسب الدوادارى، وهذا أقرب للمنطق من الزيادة التى أوردها أبو المحاسن (١٧ ذراعاً واصبعاً واحدا).

والثانية وقعت في سنة ٤٩٣هـ/١٠٩٩ ـ ١١٠٠م، مع إشتداد الوباء الذى أودى بحياة كثير من السكان [١]. والسبب أيضاً هو نقص زيادة النيل (١٥ ذراعاً و١٥ إصبعاً حسب الدوادارى وهذا أكثر قبولاً من ١٨ ذراعاً و١٥ إصبعاً التى أوردها أبو المحاسن).

وعاشت البلاد مجاعتين أيضاً في عهد الخليفة الآمر بأحكام الله (٤٩٥ ـ ٥٢٤هـ/١١٠١ـ ١١٣٠م) وقعت أولى هذه المجاعات في وزارة الأفضل بن بدر الجمالى، ووصل سعر القمح فيها إلى كل مائة أردب بمائة وثلاثين دينارا[٢].

وربما يرجع سبب هذه المجاعة إلى نقص فيضان النيل، حيث بلغ ١٥ ذراعاً واصبعاً ثم هبط

(١) المقريزى: المصدر السابق ـ ج٣ ص ٢٥ ، الخطط ـ ج١ص ٣٥٦ .
(٢) المقريزى: إغاثة الأمة ـ ص ٢٦ـ ويذكر ابن إياس أن ثمن الأردب كان ٣٠ ديناراً (ج١ص ٦٣).

خرجو من بين يديه انفرد منهم اولك الذين كتبو الرقاع الى امير الجيوش فى البطرك وهم خمسة نفر: يوحنا، ومرقس اولاد الظالم، ويونس اسقف دميره، وخاييل اسقف ابو صير، ومقاره اسقف القيس. واجتمعو بالشماس ابى غالب بمين ابن تيادر ابن مرقوره السنجارى على عمل قوانين اخترعوها اكثرها من العتيقة واطالو فيها واكثرو منها، وعمل الاب انبا كيرلس والاساقفة الذين معه

الفيضان بعد ذلك فشرقت البلاد[1]. وإن كانت قوائم النيل لاتحوى فيضاناً بهذا الأنخفاض في عهد الأمر بأحكام الله ولايوجد بالمصادر التاريخية تحديد واضح لسنة هذه المجاعة، التى وقعت في وزارة الأفضل بن بدر الجمالى الذى قتل عام ٥١٥هـ/٢١ـ١١٢٢م[2]. أللهم إلا إذا كانت تلك السنة التي ذكر عنها السيوطى أن القمح «عز بها ثم هان»، وهى سنة ٤٩٧هـ/٠٣ـ١١٠٤م [3]، تكون هى نفس السنة التى قال عنها ابن إياس إن الغلاء دام فيها نحو ستة أشهر، إنخفضت الأسعار بعدها وكثرت الغلال [4]. (فيضان النيل فى هذه السنة كان ١٧ ذراعاً و١٣ إصبعا).

ويرجع الفضل فى تفادى هذه الأزمة إلى السياسة الحكيمة التى اتبعها القائد أبو عبد الله ابن فاتك، الذى لقب فيما بد بالمأمون البطائحى فقد قام بالختم على مخازن الغلات، وخير أصحابها بين البيع منها بسعر ثلاثين ديناراً لكل مائة أردب، أو الختم عليها حتى الدخول الغلة الجديدة ، فأجابه بعض التجار إلى ماطلب ، ثم قام بعد ذلك بتقدير ما

(١) ابن إياس : بدائع الزهور – ج١ص ٦٣.
(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ـ ج٥ص ٢٢٢.
(٣) السيوطى: حسن المحاضرة ـ ج٢ص ١٥٤.
(٤) ابن إياس: بدائع الزهور ـ ج١ص ٦٣.

قوانين مختصرة وكان «يسيب» [بنيامين] الخولى لبساتين السلطان المقدم ذكره قد تعصب لخصوم البطرك فى يوم حضورهم البستان عند [الأجل الافضل] امير الجيوش واظهر العناية بهم بحكم قربه من السلطان وهو الذى كان يرفع رقاعهم اليه، فعتبه بطرس احد تلاميذ البطرك على ذلك وخوفه من الاثم فيه، فجرى على التلميذ من يسيب [بنيامين] ما يكره وخاطبه بالقبيح ، وقال

تحتاجه البلاد يومياً من الغلال ليصرف من المخازن بالسعر الذى حدده، فانخفضت الأسعار(١).

وفى هذه السنة أرسل البطرك للحبشة بسبب نقص الفيضان إلا أن توجهه لم يفد شيئا(٢).

وفى عام ٥١٠هـ/١٦-١١١٧م هبت على مصر رياح مترية دامت ثلاثة أيام، فأهلكت كثيراً من الناس والحيوانات (٣).

وفى آواخر عهد الآمر، وبعد القبض على المأمون البطائحى ومصادرته عام ٥١٩هـ/٢٢-١١٢٣م ثم قتله عام ٥٢٢هـ/١١٢٨م (٤). إرتفعت الأسعار حتى وصل سعر أردب القمح إلى دينار واحد (٥).

(١) المقريزى: إغاثة الأمة - ص ٢٦-٢٧، اتعاظ الحنفا - ج٣(هامش٤) ص ٦٦- ٧٦. جاء في بدائع الزهور أن الوزير وقت هذه المجاعة كان المأمون البطائحى، إلا أن المقريزى ذكر أن الوزير كان الأفضل، وقال أن القائد أبا عبد الله بن فاتك، عرف بعد ذلك بالمأمون البطائحى عندما صار وزيراً . انظر: ابن إياس: المصدر السابق - ج١ص ٦٣.

(٢) ابن إياس: المصدر السابق - ج١ص ٦٣.

(٣) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ - ج٨ص ٣٠٥.

(٤) أبو المحاسن: النصدر السابق - ج٥ص ١٧٠.

(٥) المقريزى: اتعاظ الحنفا - ج٣ص ١٣٣، ويستفاد ذلك من عبارة المقريزى «وكان الناس قد ألفوا الرخاء أيام الأفضل والمأمون».

لى ابا سيمون اسقف تنيس انه لطف بيسيب ليهد
غضبه فما فعل، وتفاقم الامر بينه وبين التلميذ الى
ان خرج ابونا البطرك من البستان يسمع ماجرى
فكلم يسيب بكلام لين فلم يرعوى [يرتدع]
وجرى بينه وبين البطرك خطاب الى ان قال له
البطرك: يايسيب اذا كان لك سلطان الارض
فالمسيح سلطان السما والارض معى. ونزل عن
دابته وضرب مطانوه «ليسيب» فى دهليز البستان ،

ومثل المجاعة السابقة، لايوجد تاريخ محدد لها، سوى أنها حدثت فى أواخر أيام الآمر بأحكام الله [(١)].

ويرجح أن هذه المجاعة حدثت عام ٥٢١هـ/١١٢٧، حيث سجلت زيادة النيل أدنى مستوى لها بعد عام ٥١٩هـ، وهو ١٦ ذراعاً و١٥ إصبعاً طبقاً لابن أيبك الدوادارى.

أما أول مجاعات خلافة الحافظ لدين الله (٥٢٤ـ٥٤٤هـ/١١٣٠ـ١١٤٩م) فقد كانت فى سنة ٥٣٢هـ/٣٧ـ١١٣٨م، فى وزارة الأفضل رضوان بن ولخشى[(٢)]. ويحيط الشك بما ذكر عن سبب نقص الفيضان [(٣)] فى هذه المجاعة، إذ أن النيل بلغت زيادته ١٧ ذراعاً و٣أصابع (ابن أيبك) أو ١٨ ذراعاً و١٢ إصابعاً (أبو المحاسن) وربما كان السبب هو تأخر الزيادة فقط أو عدم زراعة بعض الأراضى.

ولايستبعد أن يكون وراءها الوزير ابن ولخشى، الذى كان يحاول النيل من مركز الخليفة وتأليب الرعية عليه، فحينما أمر الخليفة الحافظ لدين الله بفتح الأهراء، والبيع منها للناس بسعر منخفض، لم يمتثل الوزير لهذا الأمر مما جعل الحافظ يسعى لقتله فيما بعد [(٤)].

(١) المقريزى: الخطط ـ ج٢ص ٢٩١.
(٢) المقريزى: إغاثة الأمة ـ ص ٢٧.
(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٣ص ١٦٥ ـ ١٦٦.
(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٣ص ١٦٥ ـ ١٦٦.

فبكا جماعة من النصارى الذين كانو هناك لما ابصرو البطرك القديس يضرب المطانوه «ليسيب» الخولى، ولم يمتغص [يمتعض] من ذلك ولا استقال [قلل] منه. ونزل الاب كيرلس ومن معه من الاساقفه الى كنيسة الشهيد الجليل ابو مرقوره بمصر، فلما كان يوم السبت اخر مسرى مثل الذى ضرب فيه الاب البطرك المطانوه «ليسيب» الخولى انتهى الى امير الجيوش عن يسيب الخولى

وان كان الوزير قد حاول علاج هذه المجاعة عن طريق تأديب محتكرى الغلال الذين يرفعون الأسعار وأمرهم بتوريد ما يحتاج إليه كل يوم من الغلال ، وأشرف على نفاذ ذلك بنفسه حتى إنخفضت الأسعار (١). ويبدو أن ذلك الإجراء كان فى العام التالى ٥٣٣هـ/٣٨-١١٣٩م، حينما تزايد إرتفاع الأسعار حتى بلغ أردب القمح ثلاثة دنانير، واضطر الوزير كذلك إلى إخراج الغلال التى سبق أن رفض إخراجها بأمر الخليفة وإن كان ذلك بعد أن فسدت وأرادوا رميها فى النيل، فكانت تقطع بالفؤوس وتباع بأربعين ديناراً كل مائة أردب، كذلك الأرز الذى بيع بعشرة دنانير المائة أردب، فوجد الناس بذلك الطعام الفاسد ما يسد رمقهم (٢).

وآخر المجاعات التى وقعت فى عهد الحافظ، كانت طويلة نسبياً، إذ استمرت ثلاث سنوات من ٥٣٦إلى ٥٣٨هـ، وصحب المجاعة وباء فى العامين الأولين وإن بلغ مداه فى عام ٥٣٧هـ/٤٢ـ١١٣٤م.

وكان ابتداء ذلك فى شهر شعبان سنة ٥٣٦هـ/١١٤٢م، فبلغ سعر القمح تسعين درهماً للأردب، والدقيق مائة وخمسين درهماً للحملة، والخبز ثلاثة أرطال بدرهم، والشعير سبعة

(١) المقريزى: اغاثة ،الأمة ـ ص ٢٧.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا - ج٣ص ١٦٨.

ما انكره واغضبه واسخطه عليه، فركب لوقته الى البستان وامر بيسيب الخولى فضربت رقبته فى الموضع الذى ضرب له الاب القديس فيه المطانوه فى مثل تلك الساعة بعينها، فتعجب جميع الناس من ذلك وازداد الاب كيرلص عندهم جلالة وعظمة، وانتهى الخبر الى الاجل امير الجيوش فقال: حقا قد كان يترب [يدس] على البطرك وجماعته عندى ويعين خصومة عليه

دراهم الوبية، والزيت الطيب الرطل بثلاثة دراهم، والجبن كل رطل بدرهم، ولم يقدر أحد على شراء الدجاج لارتفاع ثمنه [1].

ويبدو أن سبب هذه المجاعة هو الإنخفاض النسبى لماء الفيضان(١٦ ذراعاً و١١ إصبعاً) وهو حد وإن كان لايعنى القحط، إلا أنه يمكن أن يكون كذلك مع حكومة مركزية منهارة، وهوما كان واقعاً بالفعل، فبعد الأزمة التى أثارها رضوان بن ولخشى وانتهت بقتله، لم يستوزر الحافظ أحداً حتى عام ٥٣٦هـ/حينما بدأت المجاعة المصحوبة بالوباء[2]. واستمرت لعامين حسبما ذكرنا سابقاً.

أما سبب إرتفاع الأسعار فى العام الثالث ٥٣٨هـ/٤٣-١١٤٤م فيرجع إلى خروج محمد ابن رافع اللواتى بالبحيرة على سلطة الخلافة، وإن كان قد قتل بعد عدة مواقع على يد والى البحيرة طلائع بن رزيك، وأدى هذا الاضطراب ولاشك إلى إرتفاع الأسعار[3].

(١) بن ميسر: المصدر السابق - ج٢ص ٨٥، المقريزى: اتعاظ الحنفا - ج٣ص ١٧٦.
(٢) المقريزى: الخطط - ج١ص ٣٥٧.
(٣) ابن ميسر: أخبار مصر - ج٢ص ٨٦، المقريزى: اتعاظ الحنفا - ج٣ص ١٧٨.

ولم يميل قلبى الى قبول قوله. واشتهر هذا الامر
حتـى ان الاجـــل الافضل ابن امير الجيوش كان
له شي عـلى معاملين له فى ضيعة تعرف بالبيهو
[مركـز سمالوط] فانكروه ولم يقومو به، فقال:
امـــضـــو بهم الى البطـــرك يمسكو طرف ثوبه
وصليبه ويحلفو ويروحو ما اريد منهم شي غير هذا
لانه بالامس احرم يسيب الخولى فسخط مولاى
عليــه وقـتله . ثم ان الاجل امـيـراجـيــوش امـر

ووقع الغلاء فى خلافة الفائز بنصر الله (٥٤٩ ـ ٥٥٥هـ/ ١١٥٤ ـ ١١٦٠م ووزارة الصالح طلائع بن رزيك عام ٥٥١هـ/٥٦ـ١٠٥٧م، ولايمكن القول بأن سبب هذه المجاعة إنحفاض فيضان النيل (١). الذى وصلت زيادته إلى ١٧ ذراعاً و٨إصابع . ولعل مرد ذلك إلى إحتكار الغلال، فارتفعت أسعارها (٢).

ولجأت الحكومة إلى إخراج الغلال من الأهراء بكميات كبيرة، وفرقتها على الطحانين مع تخفيض الأسعار، ومنعت الإحتكار، كما تصدق الصالح طلائع نفسه وغيره من الأمراء ، بما نفس عن الناس، ولم يستمر الحال على ذلك سوى مدة يسيرة، حتى «فرج الله وهجم الرخاء» (٣).

وكان من أثر إتجاه الصالح طلائع إلى ممارسة الإحتكار والاتجار فى الغلال أن وقع الغلاء وارتفعت الأسعار فى عام ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م فى خلافة العاضد لدين الله (٤).

---

(١) المقريزى: إغاثة الأمة ـ ص ٢٧ ، اتعاظ ـ ج٣ص ٢٢٩.
(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ـ ج٥ص ٣٣٩.
(٣) المقريزى: إغاثة الأمة ـ ص ٢٧ـ ٢٨.
(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٣٢٤٤. والغريب أن ابن تغرى بردى يذكر أنه لما توفى الصالح طلائع مقتولاً سنة ٥٥٦هـ حزن الناس عليه لحسن سيرته ـ النجوم الزاهرة ـ ج٥ص ٣٤٥.

باحضار البطرك وجماعة الاساقفة الى مجلسه بعد ان اقامو بمصر انيف وعشرين يوم، فلما صارو بين يديه خاطبهم بكلام جميل واكرمهم وقال لهم: كونو كلكم شرع واحد ولا تختلفو وطيعو مقدمكم وكونو مثله ولا تكنزو فضة ولا ذهب وصدقو بكلما يحصل لكم كما اوصاكم المسيح، وهذه القوانين التى عملتوها ما احتاج اليها وانما طلبتها منكم ليتجدد عندكم انتم علمها لما بلغنى

أهل الذمة المصريين فى العصر الفاطمى الاول(*)

سبق احتلال الفاطميون لمصر ارسال الدعاة الشيعة لها لكى يستميلوا مسلميها من السنة إلى جانبهم، وقد نجحوا فى ذلك بشكل ساعد على سهولة غزوهم لمصر. ولكن هذا لم يمنع أن يكون هناك جيوب سنية كبيرة داخل مصر خاصة بين القبائل البدوية من العرب واصحاب المصالح والعصبيات القديمة، مما دفع السلطة الفاطمية بعد استقرارها بمصر إلى التودد لأهل مصر من القبط حتى يديروا لهم دولاب الدولة.

ولقد وضح ذلك عند الخليفة المعز لدين الله الفاطمى وكذلك عند الخليفة العزيز بالله (٣٦٥ /٣٨٦هـ = ٩٧٥ / ٩٩٦م) الذى كان متزوجاً من نصرانية ملكانية تمكنت من رفع مكانة أخوين لها حتى صار أحدهما بطركاً على الاسكندرية فى سنة ٣٩٠هـ = ١٠٠٠م. والثانى بطركاً على القدس سنة ٣٧٥هـ = ٩٨٥م.

أما فى خلافة الحاكم بأمر الله (٣٨٦ /٤١١هـ = ٩٩٦ / ١٠٢٠م) فقد بدأت الأمور فى أول عهده كما لو أنها أستمراراً لحكم العزيز بالله ثم أخذت تتراوح بين الأضطهاد والرضى لأهل مصر من القبط. ومن الامثلة على ذلك أن الحاكم بأمر الله أعطى ثقته لفهد ابن ابراهيم

(*) انظر: أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الاول والثانى. تأليف: د. سلامه شافعى محمود. سلسلة تاريخ المصريين. الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٩٥.

من بعد عهدكم بها وبقراتها. وكان يخاطبهم الهاماً من الله تعالى لانه سبحانه كان ينطقه بحكم انه ملك كما قال سليمان الحكيم: ان يد الله على قلب الملك. ثم قال امضو وصلو على. وامر احد اصحاب دواوينه وهو ابو الفضايل ابن العبيدى وقال له: اخرج معهم واكتب ثبات [كشف] بما يحتاجه كل واحد منهم ليكتب لهم المناشير بكلما يحتاجوه. فخرجو من عنده مسرورين ونزلوكلهم الى بيعة القديس ابو مرقوره

النصراني وقدمه على سائر الكتاب فى دولته وأمرهم بطاعته، غير أنه لم يلبث أن قتله فى سنة ٣٩٣ هـ = ٩٨٣م تحت دعوى ميله للنصارى واسناده مناصب الدولة اليهم، واختلاسه لأموال الدولة.

وهناك من الأدلة ما يؤكد أن الحاكم بأمر الله كان حازما فى سياسته الادارية، حرصا على انتظام العمل بالدواوين، وليس بدافع التعصب. فالحاكم لم يقتل فهد ابن ابراهيم لكونه نصرانيا، ولكن قتله بسبب الأخطاء التى ارتكبها. كما أمر بقتل أبى غالب ـ أخ فهد ـ متولى ديوان النفقات لظلمه وسوء تصرفه، ومع ذلك فان الحاكم بأمر الله أرسل فى طلب أولاد فهد وخلع عليهم، وكتب لهم سجل أمان بحمايتهم وعدم التعرض لقصورهم وأموالهم (١).

واذا كان الحاكم بأمر الله قد قبض على كتاب الدواوين من النصارى واعتقلهم عقب مقتل فهد ـ فان أبا الفتح منصور بن مقشر الطبيب ـ وهو من المقربين إلى الحاكم ـ قد توسط للافراج عنهم، فأطلق سراحهم بعد اسبوع من القبض عليهم، وعاد كل واحد منهم إلى وظيفته (٢).

(١) ابن القلانس: المصدر السابق، ص ٥٩.
(٢) الانطاكى: المصدر السابق، ص ١٨٥، ص ١٨٦.
ـ ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة. مخطوط بدار الكتب بالقاهرة رقم ٨٩٠ تاريخ، ورقة ٦٦.

المذكورة وقدسو فى ذلك اليوم السبت والاحد غده وكان لهم يومين عظيمين لم يسمع بمثلهما، وسارو الى كراسيهم بعد ذلك وهم مسرورين. ومن بعد هذا كتب راهب يسمي فرج رقعة الى امير الجيوش يقول فيها: ان لابى السرور ابن الابح عند اسقف الخندق مال اودعه اياه فى حياته وان جميع الاساقفة ما منهم الا ومن عنده وديعة لواحد من المنافقين فان امرت بالشد مني استخلصت ذلك

وهذا الحادث يدل على أن ما فعله الحاكم بأمر الله لا يعدو أن يكون اجراء وقائيا، كثيرا ما كان يتخذ أثناء الأزمات من هذا القبيل، خشية وقوع اضطرابات لا يحمد عقباها وحفاظا على أموال الدولة من الضياع أو النهب. ولقد اتخذ الحاكم بأمر الله مثل هذا الاجراء بعد مقتل أبي عبد الله الحسين بن طاهر ابن الوزان (ت جمادى الأخرى سنة ٤٠٥هـ) ، اذ أحضر الكتاب ورؤساء الدواوين، وسألهم عما يتولاه كل منهم، ثم أمرهم بالعودة إلى وظائفهم والتفانى فى عملهم (١).

ويعلق ستانلى لين بول على تعرض بعض كبار موظفى الدولة من أهل الذمة للرقابة الصارمة، وقسوة الحاكم بأمر الله فى توقيع العقوبات عليهم. بقوله: «ان المسلمين فى الوقت نفسه لم يكن حالهم بأحسن من حال هؤلاء، فقد كان الوزراء سواء منهم المسلمون والمسيحيون يقتلون ويعدمون بلا تفرقة أو تمييز»(٢).

وإن كان البعض يقول ان الحاكم بأمر الله قبل اختفائه قد قضى على نفوذ النصارى فى مصر، وأنهم أصبحوا فى ذلك الوقت مهملين فى الدولة (٣).

(١) المقريزى: خطط، جـ٢، ص ٤١٠.
(٢) لين بول: سيرة القاهرة، ترجمة د. حسن ابراهيم، طبع بالقاهرة ١٩٥٠، ص ١٣٥.
(٣) جاك تاجر : أقباط ومسلمون منذ الفتح العربى إلى سنة ١٩٢٢م القاهرة سنة ١٩٥١م . ص ١٣٥.

منهم وحملته اليك. فامر بالشاد منه وعلى يده في احضار الاساقفة فخرج واخذ من وجده منهم ولم يزل الخطاب يتردد معهم الى ان استقر على جميع الاساقفة بالاعمال القبلية والبحرية اربعة الف دينار، من إساقفة بحرى الفى دينار، من اساقفة قبلى الفى دينار. وكتب امير الجيوش منشور لفرج الراهب وجعل له فيه على كل واحد من الاساقفة بحرى في كل سنة خمسة دنانير واخذها منهم في

وما أن اختفى الحاكم بأمر الله سنة ٤١١هـ / ١٠٢٠م حتى بويع ولده الظاهر لاعزاز دين الله بالخلافة، وكان صبيا في السابعة عشر من عمره، لذلك أخذ نفوذ عمته ست الملك سند النصارى القوين في مصر يظهر من جديد ويتزايد بصورة واضحة، اذ كانت هي المدبرة لشئون الدولة وسياستها في تلك الفترة[١].

واستطاع الظاهر لاعزاز دين الله أن يكتسب عطف أهل الذمة ومحبتهم له، فلقد أصدر مرسوما يوضح حسن رأيه ورضاه وثقته في جميع موظفى الدولة ويطمئنهم على بقاء كل واحد منهم في وظيفته، غير أنه في نفس الوقت ناشد رجال الدواوين وموظفى الدولة توخى العدل والسهر على خدمة الرعية، والقضاء على الفساد. غير أنه جد في اصلاح الجهاز الادارى للدولة، فأجرى عملية تطهير في كل فروع الادارة الحكومية، وأقصى العناصر الانتهازية وأصحاب المصالح الشخصية، وأبعد كل من شك في اخلاصه وولائه للخلافة[٢].

(١) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٦١.
(٢) الانطاكى: المصدر السابق، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦.
ـ ابن القلانس : المصدر السابق ، ص ٨٣.

تلك السنة، وقامو بالمال اولا فاولا، ولزم الاساقفة بالوجه القبلى خسارة فى الجعل خمس مااية وخمسين دينار وتخلصو اجمعين بعد [أن] نالهم صعوبة عظيمة ، وكان الاوحد بن امير الجيوش مقيم باسكندرية كما قلنا بدياً وكان من جملة من يصحبه رجل من الجند يعرف بجمال الدولة طعان صهر تاج العرب واخوه علم الدولة ولدى [بدر] الجمالي [الارمنى] الذين قتلهما امير الجيوش، فافسد هذا الرجل راى

كما كان كبار موظفى الدولة ووزرائه وبخاصة المسلمين منهم على علاقة حسنة بأهل الذمة. فقد كان الوزير على بن أحمد محبا للنصارى، متسامحا معهم، وحسنت العلاقة بأهل الذمة بوجه عام. وموجز القول فان خلافة الظاهر لاعزاز دين الله اتسمت بالهدوء بسبب سياسة التسامح مع أهل الذمة، وهذا ما عبر عنه مؤلف سير البيعة المقدسة بقوله: «وكان فى أيامه هدوء وسلامة عظيمة... وكان دين النصارى مستقيم وأهله مكرمين» (١).

وفى خلافة ابنه المستنصر بالله ازداد نفوذ أهل الذمة. فقد سيطر النصارى على دواوين الدولة، وقد عبر عن ذلك المؤلف السابق ذكره بقوله ان «جميع مقدمى المملكة والناظرين فى دواوينه وتدبير أمورها كلهم نصارى، وهم الملاك النافذ أمرهم» (٢). كما ازداد نفوذ اليهود فى قصر الخلافة، وقد تمثل ذلك فى أبى سعيد التسترى ـ متولى ديوان أم الخليفة المستنصر ـ وفى الدور الخطير الذى قام به فى عزل الوزير الأنبارى وتعيين الوزير الفلاحى . كما استبد التسترى بأمور الدولة وسياستها فى وزارة الفلاحى، مما دعا الفلاحى إلى تدبير مؤامرة لاغتياله سنة ٤٣٩هـ = ١٠٤٧م، ولم ينج الفلاحى من غضب أم المستنصر، فأوعزت إلى ابنها

(١) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٦١، ٦٣.
(٢) الأنبا ميخائيل: نفس المصدر، ورقة ٧٥.

الاوحد في ابيه وحسن له ان يعصيه وينافق عليه ففعل ذلك واظهر النفاق وجاهر به، فارسل اليه ابو الفرج ابن المعزى ليردعه عن هذا فلم يلتفت اليه، ثم سار أيضاً اخوه الافضل(*) وخاطبه ولاطفه وقبح عليه فعله وعرفه ما فيه من سو السمعةعنه فلم ينفع فيه الخطاب، فعاد الى القاهرة من غير ان يبلغ منه غرض، فسار اليه امير الجيوش [بدر الجمالي] بعساكر عظيمة ونزل على اسكندرية

(*) الأفضل: تولى الوزارة وامور البلاد بعد وفاة ابيه بدر الجمالي واستبد بالناس والملك وجمع في يده كل السلطان دون الخليفة المستعلي بالله الفاطمي.وهو يمثل في تاريخ هذه الفترة علامة تحول في السلطة من الخليفة إلى الوزراء وفي عهده سقطت انطاكية في=

بعزله، ثم بقتله بعد مدة قصيرة سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م. كما كان لأبى نصر هارون التسترى ـ أخ أبى سعيد ـ نفوذ كبير داخل قصر الخلافة، فقد تدخل بصورة سافرة فى شئون الدولة، الأمر الذى أدى إلى اتهامه بالانحياز إلى جانب أعداء الدولة من المرداسيين، والى مصادرة أمواله ومعاقبته، ثم بموته سنة ٤٤١هـ / ١٠٤٩م (١).

ولم يكن هذا آخر عهد أهل الذمة بالوزارة وتولى المناصب الكبرى، فقد تولى أبو سعد ابراهيم بن سهل التسترى الوزارة سنة ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٣م، ولكن ما لبث أن صرفه المستنصر عنها فى السنة التالية (٢).

ولقد تعاطف بعض ولاة الأقاليم فى خلافة المستنصر مع أهل الذمة، فوالى القاهرة سنان بن كابر كان يحب النصارى ويعطف عليهم، كما كان الأمير المؤيد حصن الدولة والى الاسكندرية صديقا لأقباط مصر، محبا لهم ومهتما بأمورهم (٣).

ومجمل القول أن أهل الذمة تمتعوا بنفوذ كبير فى خلافة المستنصر، واذا كان قد أصابهم

(١) ابن ميسر: أخبار مصر، تحقيق هنرى ماسيه ـ القاهرة ١٩١٩م. الجزء الثانى ، ص ١ ـ ٣.
(٢) ابن ميسر: نفس المصدر، جـ٢، ص ١٥.
(٣) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٧٧.

وحاصرها واقام الحرب بينهما قريب من شهرين، ثم استقر بينهما الصلح وخرج الاوحد الى ولده [والده] ودخلا جميعاً الى اسكندرية، ثم سار الاوحد عنها ونزل على [بلتاج] وبقى امير الجيوش فى اسكندرية، فاستدعى شهود المدينة ومقدميها وقال لهم: انتم ساعدتم ولدى على مخالفة السلطان وحسنتم له ذلك وقتلتم رجال السلطان وجنوده وخسرتموه الاموال. وجرت بينهم خطوب

= يد الصليبيين سنة ١٠٩٨م = ٤٩١هـ، كما استولوا على القدس في السنة التالية، و ظلت الحروب قائمة بين الصليبيين والأفضل حتى سقطت كل الشام ماعدا عسقلان التى ظلت فى ايدى الفاطميين. وعندما توفى الخليفة المستعلى بالله سنة ٤٩٥هـ، أحضر الوزير الأفضل طفل للمستعلى يدعى علياً وجعله خليفة ولقبه الأمر بأحكام الله. ومنذ هذا الوقت حارب المذهب الفاطمي مما ادى إلى قتله على يد عبدالله البطائحى الذى تولى الوزارة بدلاً منه.

مكروه أو تعرضوا لأذى، فقد كان ذلك فى فترة الاضطرابات التى عمت البلاد فى النصف الثانى من عهده [١].

والسطور التالية تلقى الضوء ساطعا على بعض من تولى من أهل الذمة المناصب الكبرى فى الدولة ـ وعلى رأسها منصبى الوزارة والوساطة ـ كما توضح لنا أثر ذلك على سياسة الدولة، ونتائجها بالنسبة للمجتمع المصرى بوجه عام خلال تلك الفترة من تاريخ مصر.

الوزراء والوسطاء من أهل الذمة

يعقوب بن كلس:

يعتبر ابن كلس أبرز الوزراء الذين تقلدوا منصب الوزارة فى مصر فى العصر الفاطمى الأول. وهو من أهل الذمة الذين أسلموا، ومن أعظمهم شأنا، ولذلك أهتم بالحديث عنه والترجمة له كثير من المؤرخين.

فهو يعقوب بن يوسف بن ابراهيم بن هارون بن داود ابن كلس، الوزير الكامل المكنى

---

(١) الأنبا ميخائيل: نفس المصدر، جـ٣، ورقة ٧٩.
ـ جاك تاجر: المرجع السابق ، ص ١٤٠.

كثيـرة فخافو على نفوسهم، ولم يزالو يتلافو
امـرهم مـعـه الى ان استـقـر على جـمـيع اهل
اسكنـدرية مـاية وعشرين الف دينار، حمـلت اليه
سوى ما صار اليه من جهة اخرى، وسار عنـها فى
شـهـر ابيب وعـاد هو وولده الاوحـد الى القـاهرة،
واقام بهـا وهو كـالمسـتـوحش من ابيـه الى شـهـر
برمهات سنة ثمان ماية واثنين للشهـدا، فسـعى به
الى ابيه امير الجيوش وقيل له: قد قرر مع جمـاعة
من الامـرا ان يقتلوك، منهم شجاع الدولة صـاف

«بأبى الفرج» ولد ببغداد ونشأ بها، وتعلم الكتابة ومبادئ الحساب، ثم انتقل مع أبيه من بغداد إلى الشام ليعمل بالتجارة (١)، ولما نزل الرملة سنة ٣٣١ هـ / ٩٤٢م عمل وكيلا للتجارة بهـا (٢) وعندما تراكمت عليه الديون وعجز عن سدادها هرب من الشام ، وسافر إلى مصر سنة ٣٣١هـ / ٩٤٢م وفى مصر اتصل بكافور الأخشيدى، حيث كان يبيعه ما يطلبه من البضائع والأمتعة، ويحال بثمنها على ضياع مصر (٣).

ولكثرة تردد ابن كلس على الريف اكتسب معرفة وخبرة بكل ما يتصل بحيـاة أهله، وساعده على ذلك ما اشتهر به من دهاء وذكاء مفرط ومهارة فى معرفة الضيـاع، لذلك اتسعت تجارته وذاع صيته، وما لبث أن التحق بخدمة كافور وأصبح من المقربين اليه، فعينه في ديوان الخاص، ثم أسند إليه مهمة الاشراف على النواحي المالية في دواوين الحكومة ومراجعة

(١) العينى: عقد الجمـان فى تاريخ أهل الزمـان، الجزء ١٩ مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية برقم ١٥٨٤ تاريخ، ورقة ٤١٨.
ـ ابن العمـاد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ـ طبعة القاهرة سنة ١٣٥٠هـ، الجزء الثالث، ص ٩٧.

(2)Mann : The Jews in Egypt and Palestine Under Fatimid Caliphs, Vol. I. p. 17.

(٣) النويرى: نهاية الارب فى فنون الأدب ، مخطوطة مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ٥٤٩ معارف عامة، الجزء ٣٦، ورقة ٤٩.

المكين صاحب بابل[مركز تلا]، ومرهف الدولة سور الملحي، وحصن الدوله صاف الحصني، وجماعة غيرهم، فقبض امير الجيوش على جميعهم وقتلهم، وقبض على ولده الاوحد واعتقله في خزانة [سجن] عنده في داره وجعل في رجليه طوبة حديد، وكان ذلك في يوم الجمعة العاشر من برمهات المذكور.

وفي هذه السنة توفى الوزير ابو الفرج محمد

مستنداتها قبل عرضها عليه. وأظهر ابن كلس مقدرة فائقة في الادارة، فأعجب به كافور لمهارته وحسن سياسته وقال: «لو كان هذا مسلما لصلح أن يكون وزيرا» (١).

بلغ ابن كلس ما قاله كافور عنه وتقديره له، والتصريح بصلاحيته للوزارة لو كان مسلما، فأحضر من علمه شرائع الإسلام سرا، وفي يوم الاثنين الثامن عشر من شعبان سنة ٣٥٦هـ / ٩٦٦م أشهر اسلامه، ولزم الصلاة، وواصل دراسته للدين الاسلامي والفقه والتشريع (٢).

ويرى بعض المؤرخين أن ابن كلس أعلن اسلامه طمعا في الوزارة وحبا في المنصب واشتياقا إلى الولاية (٣).

وفي عهد كافور أصبح ابن كلس منافسا خطيرا للوزير أبي الفضل جعفر بن الفرات وزير كافور ـ المعروف بابن حنزابة ـ وما أن توفى كافور سنة ٣٥٧هـ / ٩٦٨م حتى أصدر ابن حنزابة أوامره بعزل ابن كلس ومصادرة أمواله والقبض عليه. غير أن ابن كلس استطاع

(١) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ٣٢.
(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ ٢٦، جـ٦، ص ٢٦.
ـ المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٤.
(٣) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ٣٢.
ـ سبط بن الجوزي : المصدر السابق ، جـ١١، ورقة ١٥٢.

ابن جعفر المعزى قبل اعتقال الاوحد بشهور، واقام الاوحد فى الاعتقال سنة ونصف الى ان انتهى الى امير الجيوش والده عنه وهو معتقل امر لم نعرفه فى اخر مسرى سنة ثمان ماية وثلثة للشهدا، فقطع الطعام والما عنه خمسة ايام النسى(*)، ثم امر من دخل اليه فى الموضع الذى هو معتقل فيه فخنقه حتى مات وذلك فى ليلة النيروز.

وكان الاب انبا كيرلس قد كتب قوانين وانفذها

(*) أيام النسي: هي الشهر الأخير في السنة القبطية والمكون في الغالب من خمسة أيام تقع بين يومي ٢٤، ٢٨ أغسطس سميت بأيام النسئ. أما ليلة عيد النيروز فتتوافق ٢٩ أغسطس عام ١٠٨٧م.

بالرشوة وبمساعدة أعوانه أن يحصل على أمر بالأفراج عنه، فخرج من مصر قاصدا بلاد المغرب (١).

وسواء دخل ابن كلس المغرب واتصل بالمعز لدين الله الفاطمى قبل غزو مصر عن طريق بعض اليهود المقربين إليه والذين يخدمون بالبلاط الفاطمى، وعاونه فى تدبير فتح مصر، ثم جاء معه عند قدومه إلى مصر (٢). أم أنه التقى بالقائد جوهر الصقلى أثناء سير الحملة من المغرب لفتح مصر فعاد معه (٣). فالحقيقة الثابتة أن ابن كلس منذ اتصاله بالمعز لدين الله كان على علاقة حسنة بدار الخلافة، ويتمتع بثقته لكفاءته ولمبالغته فى طاعته (٤).

ويرى بعض المؤرخين أن يعقوب بن كلس تقلد الوزارة فى عهد المعز لدين الله (٥)، بينما ترى

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٤، ص ٥٥.
- العينى: المصدر السابق، جـ١٩، ورقة ٤١٩.
(٢) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٤١.
(٣) النويرى: المصدر السابق، جـ٢٦، ورقة ٤٩.
- العينى: المصدر السابق، ورقة ٤٩.
(٤) ابن ظافر: المصدر السابق، ورقة ٤٩.
(٥) نفس المصدر والصفحة.
- ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٤، ص ٥٥.
- القلقشندى : صبح الأعشى في صناعة الانشا، جـ٣، ص ٣٥٧.

الى الصعيد وقريت في الكنايس بمصر وساير الاعمال ، فلم تقبلها اهل الصعيد ولا تخلو عن قوانينهم، فقالو له اصحابه: انت قد انذرتهم وتخلصت من الخطية فتغافل عنهم. وفى سنة ثمان ماية واثنين للشهدا كتب سجل وقرى فى الايوان الكبير بالقصر بان تشد جميع النصارى زنانير سود، وكذلك اليهود وتكون اطرافها صفر ليتميزو عن النصارى، وان تكمل الجزية على

الغالبية الكبرى منهم أن ابن كلس قد تقلد الوزارة فى عهد العزيز بالله [١]، الا انهم اختلفوا في تاريخ تقلده هذا المنصب وانقسموا إلى فريقين:

فريق يرى انه تقلد الوزارة للعزيز بالله سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٥م [٢]، وفريق آخر يرى انه تقلدها في يوم الجمعة ثامن عشر رمضان سنة ٣٦٨هـ [٣].

هذا بينما يحدد المقريزى اليوم الأول من المحرم سنة ٣٦٧هـ تاريخا لتقلده الوزارة[٤].

---

(١) ابن القلانسى: (الذيل، ص ٣٢)، سبط بن الجوزى (مرآة الزمان، جـ١١، ورقة ١٥٢) النويرى (نهاية الارب، جـ٢٦، ورقة ٤٩)، المقريزى (الخطط، جـ٢، ص٩٥، العينى (عقد الجمان، جـ١٩، ورقة ٤١٩)، أبو المحاسن (النجوم جـ٤، ص ١٥٨)، ابن ايبك (كنز الدرر جـ٦، ورقة ١١٤)، وابن العماد (شذرات الذهب جـ٣، ص ٩٧).

(٢) ابن القلانسى: (الذيل، ص ٣٢)، سبط بن الجوزى (مرآة الزمان، جـ١١ ورقة ١٥٢) أبو المحاسن (النجوم، جـ٤، ص ١٥٨)، ابن أيبك كنز الدرر، جـ٦، ورقة ١١٤).

(٣) ابن خلكان: المصدر السابق، جـ٦، ص ٢٧.

ـ النويرى: المصدر السابق جـ٢٦، ورقة ٤٩.

ـ العينى: المصدر السابق جـ١٩، ورقة ٤١٩.

(٤) المقريزى: خطط جـ٢، ص ٥.

ـ المقريزى: نفس المصدر، جـ٢، ص ٢٦٨.

الجميع دينار وثلث وربع دينار(*)، وكان السبب فى ذلك قاضى يعرف بابن الكحال وهو يومئذ مستخرج الجوالى.

(*) أي حوالى دينار و$\frac{7}{12}$ من الدينار = ١,٥٨ دينار.
وهكذا كان علم الحساب فى ذلك الوقت لا يرقى إلى جمع الكسور فيفصلها كما فى النص.

وكان امير الجيوش مويد فى الحروب حتى ان الغز(*) فى سنة ست وستين واربع ماية الخراجية وصلو الى صهرجت [مركز ميت غمر] فى الفى فارس مقاتلة وملكو الشرقية وعدى بعضهم الى المحله ونهبوها وقتلو اكثر اهلها، وملكو الغربية حتى

(*) هجوم الأتراك الغز على مصر.

والواقع ان ابن كلس منذ اتصاله بالخليفة المعز قد تفانى فى خدمته وطاعته، وفى رابع عشر المحرم سنة ٣٦٣هـ «قلد المعز الخراج، ووجوه الأعمال جميعها، والحسبة، والسواحل، والأعشار والجوالى، والأحباس، والمواريث والشرطتين، وجميع ما ينضاف إلى ذلك، وما يطرأ فى مصر وسائر الأعمال أبا الفرج يعقوب بن يوسف الوزير وعسلوج بن الحسن، وكتب لهما بذلك سجلا قرئ يوم الجمعة على منبر جامع أحمد ابن طولون» (١).

ولكن سيطرة ابن كلس على ادارة الدواوين، وعظم منزلته فى قصر الخلافة، واقبال الناس عليه، لم يترك مجالا للمؤرخين لابراز الدور الذى قام به عسلوج بن الحسن الذى شارك ابن كلس مسئولية الاشرف على الدواوين مدة خلافة المعز. كما أن استمرار ابن كلس على قمة الجهاز الحكومى فى الدولة بعد وفاة المعز كان من الأسباب التى جعلت بعض المؤرخين يعتقدون أن ابن كلس قد تقلد الوزارة فى عهد المعز.

ومن هنا يتضح لنا ان ابن كلس لم يتقلد الوزارة فى عهد المعز، اذ لم يقلد المعز الوزارة لأحد مدة خلافته، وبذلك يكون ابن كلس أول من وزر للعزيز بالله فى أول المحرم سنة ٣٦٧

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا الجزء الأول تحقيق جمال الدين الشيال ، ص ١٤٤، ١٤٥٠.

انتهو الى برما [مركز طنطا]، وكان مقدمهم سلار
اسمه اطسز ويعرف بالافشيش، ومعه اخوته
والمامول [العتاد] ومعهم ناصر الجيوش ابن
بلدكوش، فخرج اليهم امير الجيوش فظفر بهم
وقتلهم وانهزم الافشيش فى نفر يسير الى الشام
وقتل اخوته المذكورين وناصر الجيوش، وعاد امير
الجيوش الى القاهرة وعسكره مويد منصور فرحا
مسرور، وكان معظم عسكر امير الجيوش ارمن.

هـ/ تاسع عشر أغسطس ٩٧٧م وأول من خوطب بالوزارة فى عهد الفاطميين. ثم منحه العزيز بالله فى رمضان سنة ٣٦٨ هـ لقب «الوزير الأجل»، وأمر ألا يخاطبه أحد ولا يكاتبه إلا به[١].

واشتهر ابن كلس بنجاح سياسته المالية، اذ كان أول عمل قام به صبيحة تقلده الادارة المالية فى المحرم سنة ٣٦٣هـ / أكتوبر ٩٧٣م، هو اعلان المزاد عن الضياع والأراضى وسائر وجوه الأعمال التى تريد الحكومة الفاطمية أخذ خراجها عن طريق نظام التضمين أو الالتزام. وقد حررت العقود بالمبالغ المطلوبة على ا لأراضى التى شملها نظام التضمين وأسماء الضمان أو الملتزمين الذين رسا عليهم المزاد [٢].

كما أخذ ابن كلس فى اعتباره عدة أمور فى وضع سياته المالية، وهذه الأمور هى:

أولا: العمل على زيادة ايرادات الدولة عن طريق المزاد لكل ما تريد الحكومة تضمينه، ليتمكن من الحصول على أعلى حصيلة للخراج متبعا نظام القبالات[٣] أو الالتزامات. وهو النظام المعمول به فى أنحاء الدولة [٤].

(١) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٥. (٢) النويرى: المصدر السابق، جـ٢٦، ورقة ٤٩.
(٣) خلاصة هذا النظام أن يتعهد شخص بجباية الضرائب فى قرية أو عدة قرى أو كور، ويتم هذا العمل بطريق المزايدة وذلك لمدة أربع سنين، البراوى حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين، ٣٢.
(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ١، ص ١٤٦.

فلما كان فى ابيب سنة ثمانماية وثلثة للشهد وصل من القسطنطينية الى اسكندرية مركب فيه رجل شاب له تجمل واصحاب وغلمان قيل عنه انه بطرك الارمن(*) واسمه اغريغوريس وانه ابن اخت بطركهم القديم وانه من بنى سنحاريب الملك، وان خاله فوض اليه البطركية وانفذه الى ديار مصر واعطاه اعضا جليلة من اعضا القديسين وصلبان ذهب وغير ذلك، وكان قد وصل الى هذه الديار قبله راهب ارمنى قديس يعرف بالمناكيس ودخل

(*) وصول بطرك للأرمن إلى مصر بسبب اعدادهم الكبيرة فى جيش بدر الجمالى.

ثانيا: زيادة عدد الضياع المطروحة للالتزام والقبالات فى المزاد العلنى (١).

ثالثـا: تحديد وتقديرالضرائب للمتقبلين والملتزمين والضمان، وكذلك ما يصرف على الأراضى وتطهير وحفر الترع واصلاح الجسور حتى لا يتعرض أحد للتعسف والظلم، وتأكيدا لذلك كان ينظر فيما يقدم من شكاوى (٢).

رابعا: التشدد فى مطالبة المالكين والمتقبلين والعمال لتسوية التزاماتهم وتحصيل ما لديهم من مبالغ متأخرة وهى ماتسمى بالبواقى (٣) ونتيجة لهذه السياسة المالية زادت ايرادات الدولة زيادة كبيرة، وبلغ جملة خراجها فى سنة ٣٦٣هـ / ٩٧٣م أربعة ملايين دينار (٤) وتحدثنا بعض المصادر أن ما تم تحصيله من أموال الخراج فى يوم واحد من تنيس ودمياط والأشمونين أكثر من مائتى ألف دينار وعشرين ألف دينار، ورغم أن هذا المبلغ مبالغ فى تقديره، الا أن المقريزى سيستنكر هذه السياسة المتشددة فى تحصيل الخراج بقوله «وهذا شئ لم يسمع قط بمثله فى بلد» (٥).

(١) المقريزى: نفس المصدر، ونفس الصفحة، ص ١٤٧.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٨١ ـ ٨٢، جـ٢، ص ٥.
(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ١، ص ١٤٥.
(٤) البراوى: حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين، ص ٢٣٤.
(٥) المقريزى: الخطط. جـ٢، ص ٥.
ـ : اتعاظ الحنفا، جـ١، ص ١٤٧.

الى برية ابو مقار واجتمع ببسوس الراهب القديس وفرح بما رآه من قدسه، ثم وصل الى اسكندرية وجادلناه في الدين فعرفنا صحة امانته الارتدكسية واستقامة ديانته المسيحية، وكان لابس حديد على جسمه وفوقه مسح شعر، ورايته يوماً وقد اتوه بشاب يعذب من شيطان كل يوم فاحضر قسيسين ارمنيين فقرو عليه كتب وانجيل يوحنا على قصرية [وعاء] فيها مآ واقلبها عليه فخرج الشيطان منه وبرى، ورايته بعد ذلك عنده بالقاهرة وهو يتعلم

على أن أهم أعمال ابن كلس المالية هو أنه اتخذ من الدينار المعزى العملة النقدية الجديدة - عملة رسمية بدلا من الدينار الراضى [1]، وهو العملة التى كانت متداولة قبل مجئ الفاطميين إلى مصر. اذ امتنع ابن كلس وعسلوج ابن الحسن أن يأخذا ضريبة الخراج بالدينار الراضى، وارغما الناس على التعامل بالدينار المعزى، فانحط الدينار الراضى، ونقصت قيمته بمقدار الربع وأكثر[2].

وهنا لابد أن نلقى الضوء على أبعاد هذا الاصلاح المالى الجديد ومغزى هذا الاصلاح الذى يعد فى الوقت نفسه أساسا لسياسة ابن كلس المالية.

ذلك أنه منذ استيلاء جوهر الصقلى على مصر سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩م حتى قدوم سيده المعز سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٣م، ظل الدينار الراضى هو العملة السائدة فى مصر رغم أن جوهر سك الدنانير الذهبية التى تحمل اسم الخليفة المعز ولقبه[3]، اذ كان الدينار الراضى آنذاك أكثر وزنا وأشد نقاء من الدينار المعزى [4]. وعندما تولى ابن كلس الاشراف على الادارة المالية

---

(١) نسبة إلى الخليفة الراضى العباسى.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ١، ص ١٤٦.
(٣) عبد الرحمن فهمى: موسوعة النقود العربية وعلم النميات، الجزء الأول (فجر السكة العربية)، ص ١٩٨.
(٤) البراوى: المصدر السابق، ص ٣٠٣.

ويكتب فى لوح عـاقـلا سليـمـا. ثم وصل بطرك
الارمن الى مصر ولقى من امير الجيوش ملقا حسن
ونزل فى كنيسـة السيـدة مـرتامريم الذى للملكيه
بارض الزهرى بجانب كنيسـة ابو قزمان الشـهيـد
الجليل التى لليعاقبه عند القنطرة التى بين القاهرة
ومصر وصار ساكناً بها ومقيما فيها الى الان، ثم
اجتمع بالاب انبا كيرلص البطرك فاكرمه وفرح به
واعترف له بالامانة الارتدكسية الصحيحة التى هى
امانتنا معشر اليعاقبه بحضرة الجمع الكبير الذى

امتنع عن أخذ الدينار الراضى ورفض الا أن تكون جباية الخراج بالدينار المعزى، وقدرت قيمة الدينار الراضى بخمسة عشر درهما، بينما صرف الدينار المعزى بخمسة عشر درهما ونصف، فاضطر الناس إلى بيع الدينار الراضى بأقل من قيمته [١]، كما دخلت الحكومة الفاطمية نفسها فى هذه المضاربة مشترية بالسعر الذى حددته[٢].

وكان هـذا الاجراء المالى يرمى إلى زيادة مـاليـة الدولة عن طريق الربح الناتج من فـرق الوزن بين الدينارين، وذلك بسحب الدنانير الراضية ـ الأكثر وزنا والأشد نقاوة ـ واجبار الناس عـلى بيعها واستبدالها بالدينار المعزى ـ الأقل وزنا ـ فخسر الناس من أموالهم الشئ الكثير[٣].

ولقد هيأ ابن كلس كل فرص النجاح لادارة الدولة فبمجرد توليه الوزارة، أحكم سيطرته على الدواوين، ونقل مقرها من قصر الخليفة، واتخذ من داره مقرا لها، ثم أنشأ ديوان «العزيزية» يختص بشئون الخليفة العزيز، وعين بهذه الدواوين خيرة الكتاب والموظفين

(١) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٥.
(٢) عبد الرحمن فهمى: المرجع السابق، جـ١، ص ٢٠٢.
(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ١، ص ١٤٦.
ـ البراوى: المرجع السابق، ص ٣٠٤.

كان فى قلاية ابونا انبا كيرلس البطرك فى ذلك اليوم، واشتهر عند جميع الناس صحة اجتماع القبط والارمن والسريان والحبشة والنوبة على الامانة المستقيمة الصحيحة التى اتفق عليها الابا القديسين الفضلا وخالفها نسطور ولاون ومجمع خلقدونيه.

وفى خامس النسى سنة ثمان ماية واربعة للشهد توفى انبا يعقوب اسقف مصر وكان مدة مقامه

والجهابذة لادارتها والحق بها خزانة للكسوة، وخزانة للمال، وخزانة للدفاتر، وخزانة للأدوية وعين على رأس كل منها «ناظر» للاشراف عليها[١].

ورتب ابن كلس فى داره الحجاب، وحصن داره بالحرس الخاص، وزودها بالكتاب والأطباء والصيادلة، وأفرد لكل طائفة من العلماء، والأدباء والشعراء، والفقهاء، والمتكلمين، وأرباب الصنائع الأماكن الخاصة بهم، وأجرى على كل واحد منهم الأرزاق والمرتبات ـ كما أنشأ مجلسا للنظر فيما يعرض عليه من شكاوى وتظلمات للفصل فيها، وكان يبت فيها بنفسه، ويعمل على فض المنازعات بين الخصوم[٢].

وبذلك أصبح قصر ابن كلس مقرا لادارة أقاليم الدولة فى مصر والشام والحرمين وبلاد المغرب[٣]، وأناب عنه فى تلك الأقاليم عمالا، وعيونا له يكتبون إليه بأخبار الولاة[٤]، ليكون على دراية تامة بكل ما يدور فى هذه الأقاليم من أحداث، كما استفاد من صداقته ومصاهرته للوزير ابن الفرات (ت ٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م) فعول عليه فى محاسبة العمال[٥].

(١) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٥.
(٢) ـــــ: نفس المصدر، ص ٦.
(٣) ـــــ: نفس المصدر والجزء، ص ٥.
(٤) ابن القلانسى: المصدر السابق، ص ٢٩.
(٥) على ابراهيم: تاريخ جوهر الصقلى، ص ٧٨.

على الكرسى اربعة وعشرين سنة، وكان قبل اسقفيته ارشى دياقن فى دير ابو يحنس بوادى هبيب ودفن فى [بركة] الحبش بمصر، واجتمع مقدمى الشعب على اختيار جماعة من الرهبان بالديارات الى ان وقع اختيارهم على اثنين [إما] سنهوت الشماس بدير ابو بيشيه او بمين الارشى دياقن بدير ابو يحنس، فسيرو رجل يعرف بابى سهل الصهرجتى اليهما، فاختفى سنهوت عنه،

لذا يرى بعض المؤرخين أن العزيز بالله فوض أمور الدولة إلى ابن كلس (١)، وانه كان «متمكنا من صاحبه (٢)، وأنه «غلب على العزيز» (٣) وأنه «لم يبق لأحد معه كلام» (٤).

فما هى حقيقة الأمر؟، هل كانت وزارة ابن كلس وزارة تفويض أم وزارة تنفيذ؟

قبل الاجابة على هذا السؤال لابد من القاء مزيد من الضوء على مكانة ابن كلس فى دولة الفاطميين.

لقد تقلد ابن كلس الوزارة ـ كما سبق الاشارة ـ من أول المحرم سنة ٣٦٧هـ، ولقبه العزيز فى رمضان سنة ٣٦٨هـ/ ابريل ٩٧٨م بلقب «الوزير الأجل» وخلع عليه، ثم أصدر مرسوما فى المحرم سنة ٣٧٣هـ/ يونية ٩٨٣م أن يبدأ فى مخاطبته ومكاتبته باسمه على المكاتبات

(١) أبو شجاع: المصدر السابق، ص ١٨٥، ابن القلانسى (الذيل، ص ٣٢).
سبط بن الجوزى (مرآة الزمان، جـ١١، ورقة ١٥٢)، ابن ظافر (أخبار الدول المنقطعة، ورقة ٥٤)، النويرى (نهاية الارب، جـ٢٦، ورقة ٤٩).

(٢) بيبرس الدودار: زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة، الجزء السادس. مخطوطة مصور بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٢٧، ورقة ٢٧٣.

(٣) سبط بن الجوزى: المصدر السابق، جـ١١، ورقة ١٥٢.

(٤) العينى: المصدر السابق، جـ ١٩، ورقة ٤١٩.

ومضى الى دير ابو يحنس لياخذ «بمين» فوجد سنهوت مختفياً هناك، فاخذه هو والذين سيرو معه لاخذه ووصلو به الى كنيسة ميكاييل المختارة التى بجزيرة مصر [جزيرة الروضه] وانبا كيرلص يوميذ مقيم به، واجتمع الكهنة والاراخنة والشعب فقسموه في يوم الاحد الثانى عشر من بابه سنة ثمان ماية واربعة للشهد وهي سنة سبع وسبعين واربع مايه الخراجية، وكرز فى كنيسة القديس

النافذة عنه [١]، فكان يكتب عليها: «من يعقوب بن يوسف وزير أمير المؤمنين إلى فلان» [٢]. بل ان العزيز بالله رفع إلى وزيره رفعة سنة ٣٧٧هـ/ ٩٨٧م يقول فى أولها: «سلم الله الوزير وأبقى نعمته عليه» ولم يكن ذلك الا تقديرا للرجل ومكانته. وفضلا عن ذلك فقد أقطعه الاقطاعات والضياع بمصر والشام، وأذن بكتابة اسمه على الطراز تكريما له [٣]. كما خطب وده الشعراء والأدباء ومنهم أبو الرقعمق (ت ٣٩٩هـ) صاحب المجون والنوادر[٤]، كما مدحه كبار رجال الدولة وقوادها، فهذا جعفر بن فلاح ـ القائد المغربى ـ يكتب إلى ابن كلس قائلا:

ولى صديق ما مسنى عدم   مذ نظرت عينه الى عدمى
أعطى وأقنى ولم يكلفنى   تقبيل كف له ولا قدم [٥]

ومع تزايد نفوذه وعلو مكانته فقد اتخذ ابن كلس سنة ٣٧٠ هـ / ٩٨٠م موقفا عدائيا

(١) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٥.
(٢) ابن ظافر: المصدر السابق، ورقة ٥٤.
(٣) النويرى: المصدر السابق، جـ٢٦، ورقة ٤٩.
(٤) الثعالبى: يتيمة الدهر، جـ١، ص ٣٢٦، ٤٢٧.
ـ ابن العماد: المصدر السابق، جـ٣، ١٥٥.
(٥) ابو المحاسن: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، جـ٤ ص ٥٩.

سرجيوس بقصر الشمع يوم الاحد التاسع عشر من بابه المذكور وكان جيد الامانة عالم طاهر فاضل متواضع مليح الكهنوة.

ولما كان في سنة ثمان وسبعين واربع ماية الخراجية وصل اخو مطران الحبشة بهدية لم يحسن موقعها عند امير الجيوش ولا اعجبته، فلما كان يوم الجمعة الثاني والعشرين منه استدعى ابا كيرلس البطرك فحضر ومعه عشرة اساقفة وابو

من الكتاميين ـ وهم الدعامة التي قامت عليها دولة الفاطميين ـ وربما كان ذلك بسبب حقدهم عليه لاستئثاره بالسلطة والنفوذ، كما أنه عزل جوهر القائد من منصبه، مما أدى إلى مواجهة عنيفة بينه وبين الكتاميين الذين حاولوا اغتياله سنة ٣٧٣ هـ / ٩٨٣م مما اضطره بعد ذلك بثلاث سنوات إلى أن يسقط المغاربة ويستخدم الأتراك والأخشيدية[١].

ومع ما كان يتمتع به ابن كلس من قوة ونفوذ ومكانة سياسية ومهارة ادارية فإن الخليفة العزيز بالله كان يمتلك من القوة والارادة مايستطيع به في الوقت المناسب وفي اللحظة الحاسمة أن يكبح جماح وزيره، ليصحح خطأ أرتكبه وليعيد الأمور إلى نصابها، بل ويجرده من جميع مناصبه وسلطاته وألقابه وثروته ويعتقله إذا لزم الأمر.

وقد ذكر لنا المؤرخون ان العزيز بالله اتخذ موقفا حازما من ابن كلس وهو في أوج عظمته. ففي سنة ٣٧٣هـ /٩٨٣م توفي القائد التركي أفتكين، وكان مقربا من الخليفة العزيز بالله، ومن أخص خدمه وحجابه، مما دفعه إلى الترفع على الوزير ابن كلس ومقاطعته، فصارت بينهما العداوة والكراهية، وثارت شكوك العزيز بالله حول ابن كلس ظناً منه أنه قد دسّ السم لأفتكين فأتهمه بذلك وأمر باعتقاله، وعزله من منصبه في

(١) بيبرس الدوادار: المصدر السابق، جـ٦، ورقة ٢٥٦.
ـ النويري : المصدر السابق، جـ٢٦، ورقة ٤٩.

مليح مينا ابن زكريا صاحب ديوان الابواب بمصر وكان لقبه الشيخ الاثير نجيب الدولة ومكينها، فلما دخلو الى الاجل امير الجيوش وجدو اخو مطران الحبشة قايم هناك ، فلما جلسو قال لهم امير الجيوش: انتم جعلتم اخو هذا مطران الحبشة ولنا عنده مال وقد كان بذل ان يبنى مساجد فى بلاد الحبشة ويحمل الهدايا وقرر اشيا كثير فما فعل وانفذ شي يشبهه. وكان من جملة الاساقفة

شوال سنة ٣٧٣هـ [١]، ونقل الدواوين من دار الوزير إلى قصر الخلافة [٢]، ورد النظر فى أمور الدولة إلى خير بن القاسم [٣]. ولم يكتف العزيز بكل ذلك، بل صادر أموال ابن كلس وجرده من ألقابه ومحا اسمه من الطراز [٤].

ولبث ابن كلس فى الاعتقال عدة شهور، فارتبكت أمور الدولة، وساءت أحوالها، مما اضطر العزيز بالله إلى اطلاق سراحه سنة ٣٧٤هـ / ٩٨٤م. واعادته إلى الوزارة والخلعة عليه، كما أصدر مرسوما برد ما أخذ من أمواله وزاد عليها، واعادة اسمه إلى الطراز، وأن يتقدم الوزير موكب من عدة خيول تكريما له [٥].

ولا يعنى هذا الحادث الا التأكيد على أن الخلفاء الفاطمين الأوائل كانوا يمسكون بالسلطة

---

(١) بيبرس الدوادار: المصدر السابق، جـ٦، ورقة ٢٢٨.
ـ النويرى : المصدر السابق، جـ٢٦، ورقة ٤٨، ٤٩.
(٢) الانطاكى: المصدر السابق، ص ١٦٤.
(٣) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٥.
(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ١، ٢٦٢.
ـ النويرى: المصدر السابق، جـ١٩، ورقة ٤٨، ٤٩.
(٥) الانطاكى : المصدر السابق، ص ١٦٤.
ـ المقريزى: أتعاظ الحنفا، جـ١، ص ٢٦٢.

الحاضرين افرهام اسقف دبقو المعروف بالصعيدى
الذى هو اصل كل صداع، اذ كان البطرك اقسمه
على دبقو ولم يدخله كرسى ولا ابصره ولا كرز
فيه ولا قدس على هيكل منه قط كما يجب فى
القانون، وصار كاتبه وبهذا الحكم صار مبغضاً
لرياسة الكهنوت، وهو الذى كانو الاساقفة قامو
عليه وامتعضو منه وكتبو مدرج بانه لا يصلح لهذا
وانه واثنين اخر لا يجب مقامهم فى صحبة البطرك

العليا فى أيديهم، وان الوزراء مهما كانت منزلتهم كانت لهم المكانة الثانية فى الدولة، كما يؤكد أيضا ـ رغم ما يذكره مؤرخو مصر الاسلامية من تعاظم نفوذ ابن كلس ـ ان الوزير كان يأتمر بأمر الخليفة، وينفذ سياسته وان وزارة ابن كلس كانت وزارة تنفيذ، ولم تكن وزارة تفويض. ولقد حرص ابن كلس على تنفيذ أوامر العزيز بالله وتقديم فروض الطاعة والولاء له، كما حرص دائما على أن يثبت له أنه عند حسن الظن به عندما كان يحاول أعداؤه الوشاية به والطعن فيه [(١)].

ويعتبر ابن كلس أبرز رجال الدولة الفاطمية الذين قادوا الحركة العلمية فى العصر الفاطمى الأول ، ومن القلائل الذين نافسوا أسرة النعمان ـ التى أخذ رجالها على عاتقهم نشر المذهب الشيعى ـ فى تدريس وارساء مبادئ الفقه الشيعى [(٢)]. فقد ألف ابن كلس وصنف «الرسالة الوزيرية»، وهى كتاب فى الفقه الشيعى على المذهب الاسماعيل، روى فيه عن الأئمة الفاطميين خاصة ما سمعه من الخليفتين المعز والعزيز، وكان هذا الكتاب من المراجع التى

(١) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٦.
(٢) ابن حجر العسقلانى: رفع الأصر عن قضاة مصر، القسم الثانى. تحقيق د. حامد عبد المجيد (القاهرة ١٩٦١)، ص ٤٠٩.

لما ظهر من طريقتهم الردية، واخذو خطه كما قلنا فيما تقدم . فاقلب هذا افرهام رايه وقال له كيف ترضى ان تحكم عليك الاساقفة حتى وقعت الخصومة بين البطرك وبين الاساقفة؟. وكتبو فيه الرقاع، وهو كان السبب في جميع الاساقفة وما جرى عليهم، وهو الى الان معكس جميع امور الاب البطرك لانه راهب قديس، وكلما نالهم من شقاق وخلف. فقال افرهام المذكور للاجل امير

يعتمد عليها العلماء فيما يصدرونه من الفتاوى والأحكام كما كان هذا المؤلف من المؤلفات الهامة التي كان يدرسها الفقهاء[١].

ولم يقتصر ابن كلس على مصنفه السابق الذكر، اذ يذكر المقريزى أن من مؤلفاته كتاب فى القراءآت، وكتاب في الأديان، وكتاب فى آداب الرسول صلى الله عليه وسلم، وكتاب فى علم الأبدان وصلاحها وهو مؤلف يقع فى ألف ورقة [٢].

كما عقد ابن كلس الندوات الخاصة في كل يوم ثلاثاء، وكان يحضرها بنفسه مع الفقهاء والعلماء وأهل الرأى، يتناظرون بين يديه، وكان إذا جلس يقرأ كتابه فى الفقه الذى سمعه من الخليفتين المعز والعزيز التف حول مجلسه الخاصة والعامة يستمعون اليه[٣].

وبذل ابن كلس قصارى جهده لنشر أفكاره ومؤلفاته. فكان يجلس في يوم الجمعة، ويقرأ بنفسه مصنفاته على الناس ليعطيها اهتماما خاصا، وكان يحضر هذه المجالس القضاة والفقهاء والقراء وأصحاب الحديث والنحاة والشهود فاذا فرغ من قراءته قام الشعراء يمدحونه [٤].

(١) الانطاكي : المصدر السابق، ص ١٧٣.
ـ المقريزى: الخطط ، جـ٢ ، ص ٦,٥ .
(٢) المقريزى: الخطط ، جـ٢ ، ص.
(٣) ــــــ: نفس المصدر، جـ٢ .
(٤) ــــــ: نفس المصدر.

الجيوش يا مولاى هذا المطران ما اصلح الا بامرك، فقال له تكذب انت وهذا الشيخ. يعنى البطرك فسكت الجمع، ثم قال امير الجيوش: يجب ان تسيرو اسقفين حتى تبنا المساجد فى بلاد الحبشة وتقام الدعوة وتحمل الهدية وتقرر الهدية على هذا خمسون سنة ولا يقررو هدية هم بالخيار، وقد صارو يقطعو فى تلك البلاد على المسلمين التجار وغيرهم الطريق فيمنعهم البطرك من ذلك والا فانا

وقد شجع العزيز بالله هذه المجالس العلمية، فأجرى لجماعة الفقهاء الذين يحضرون مجالس الوزير أرزاقا فى كل شهر تكفيهم (١).

واتخذ ابن كلس من الجوامع مراكز لنشر الدعوة الفاطمية، ولذلك امتدت اليها يد الاصلاح والتعمير، وتحت اشرافه ادخل كثيرا من التحسينات على جامع عمرو بالفسطاط. وفى هذا الجامع تناول الفقهاء والعلماء مؤلفات ابن كلس فى الفقه والقراءات بالدراسة والشرح (٢). كما اتخذ من جامع الحاكم، وهو الجامع الذى وضع ابن كلس أساسه سنة ٣٨٠هـ / ٩٩٠م مركزا آخر لنشر تعاليم المذهب الاسماعيلى، واجتمع فى ساحته الفقهاء للدراسة على غرار ما كان يجرى بالجامع الأزهر (٣).

وفى العصر الفاطمى الاول اشتهر الجامع الازهر كأعظم جامعة علمية اسلامية، ويرجع الفضل فى ذلك إلى الوزير العالم يعقوب ابن كلس. ففى سنة ٣٧٨هـ = ٩٨٨م وافق العزيز باله ـ بناء على اقتراح ابن كلس ـ على تحويل الجامع الأزهر الى جامعة علمية ومركز للدراسات

(١) ـــــــ: نفس المصدر.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٦ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩.
ـ خطاب عطية: التعليم فى العصر الفاطمى الأول (القاهرة ١٩٤٧م) ص ١٠٠ ، ١٠١).
(٣) المقريزى: المصدر السابق، ص ٢٧٦.

اعرف ما افعله، فقال الاب البطرك: يا مولاى ايش لى انا فى قطع الطريق انا [لست] خفير، فامر ان يقام [يطرد] هو والاساقفة فاقيمو من المجلس على اقبح صفة، وامر باخو المطران يحبسوه فاعتقلوه فى خزانة البنود، وامر ان تكتب اسما الاساقفة الذين حضرو فلما كتبت اسمايهم خرج اليهم حاجبين موكلين عليهم بدينارين كل يوم حتى يكتبو الى ملك الحبش ويقررو مسير اسقفين منهم،

الفقهية لكل ما يتعلق بالمذهب الاسماعيل، وعين بالأزهر خمسة وثلاثين من كبار الفقهاء، وخصص لهم الرواتب الشهرية الجزية، وأنشأ لهم دارا ملحقة بالجامع الأزهر لسكناهم، وكانوا يعقدون به ندوتهم العلمية الاسبوعية عقب انتهاء صلاة الجمعة وحتى صلاة العصر، وبالغ العزيز فى تكريم هؤلاء العلماء، فبذل لهم العطايا، ومنحهم الخلع وأمر أن يركبوان البغال تقديرا لهم، ومع كل ما ناله هؤلاء العلماء من تكريم لم ينس ابن كلس أن يقدم لهم الصلات والمنح كل عام مكافأة وتشجيعا لهم (١).

وجالس ابن كلس أهل العلم والأدب، وجمع بداره العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء والمتكلمين والنساخ والمشتغلين بتجليد الكتب والدفاتر، وخصص لهم الرواتب الشهرية، واهتم بزيادة اعداد الكتب والمؤلفات، فعين كتابا لنسخ الكتب ومراجعين لمقابلتها وضبطها خشية التحريف وحفاظا على التراث (٢). كما زود ابن كلس هؤلاء العلماء بكل ما يحتاجون اليه، فأسس مسجدا بداره وعين له القراء والأئمة للصلاة ، وأنشأ عدة مطابخ

(١) ـــــ: نفس المصدر، ص ٢٧١.
(٢) الانطاكى: المصدر السابق، ص ١٦٤.
ـ المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٥.

فنزلو والترسيم معهم الى كنيسة السيدة المعلقة بمصر، وكان الاب البطريرك يعطيهم كل يوم الجعل يدفعوه للمترسمين ولم يدعهم يخسرو شي. وكتبو الكتب وقررو مسير مرقس اسقف وسيم والجيزه وتادرس اسقف سنجار، وكان قد نال بني المعمودية خوفا عظيم لشدة هيبة امير الجيوش وما جرى منه على الاساقفة الى ان لطف الله سبحنه بوصول هدية حسنة من عند باسل [باسيل] ملك

لخدمتهم، ودعا إلى مائدته أهل العلم ووجوه الكتاب، وأقام مثل هذه المآدب في شهر رمضان للفقهاء ووجوه الناس فاذا فرغوا من تناول الطعام كان يطاف عليهم بالطيب(١).

ونافس الوزير ابن كلس قاضي القضاة على بن النعمان القيرواني في نشر عقائد الفاطميين وفرض القيود على تصرفات القاضي وأحكامه الفقهية بالدرجة التي جعلت القاضي ابن النعمان يطل الجلوس بالجامع لمبالغة الوزير في التقليل من شأنه وأهميته (٢). كما وقف ابن كلس بالمرصاد وتصدى للعلماء والمؤلفات التي لا تنحو نحوا شيعيا، وكان نصيب المؤلفين المعارضين لسياسته الموت أو الاعدام، ونصيب مؤلفاتهم الحرق أو الاهمال(٣).

وبوفاة ابن كلس سنة ٣٨٠هـ / ٩٩٠م فقدت الدولة الفاطمية واحدا من أخلص وزرائها البارزين الذين أسهموا بجهد وافر في رسم وتنفيذ سياستها الداخلية والخارجية.

(١) المقريزى: نفس المصدر والصفحة.
(٢) ابن حجر: المصدر السابق، ص ٤٠٩.
(٣) القفطي : المصدر السابق ، ص ٢٨٥.
ـ خطاب عطية: المصدر السابق ، ص ٩٦.

النوبة ومعها ولد الملك الذى كان قبله وتوفا ليجعله البطرك اسقفاً، لان عادتهم اذا مات الملك لا يجعل ولده ملكاً عوضه بل يجعل ابن اخته(*)، فاستدعى الاجل امير الجيوش الاب البطرك ابا كيرلص القديس والعشرة الاساقفة المذكورين فى يوم الاربعا السابع والعشرين من امشير، فدخلو اليه وهم خايفين فامرهم بالجلوس واكرمهم . واكرم البطرك وادناه وطيب قلبه وخاطبه بجميل، واحضر

(*) حول نظام وراثة سلطة الملك فى مملكة النوبة.

عيسى بن نسطورس:

لم يستوزر العزيز بالله الفاطمى أحدا الوزارة بعد ابن كلس، وانما أنشأ منصبا جديداً هو منصب «الوساطة» (١).

ويأتى عيسى بن نسطورس فى مقدمة الذين تولوا منصب الوساطة فى مصر فى العصر الفاطمى الأول، وعلى الرغم من أن المصادر التاريخية قد اختلفت فى تاريخ تقليده الوساطة(٢) ، الا أنه من المرجح أن العزيز بالله قسم أعمال الوزير ابن كلس المتوفى فى سنة ٣٨٠هـ / ٩٩٠م بين كبار رجال دولته، وعهد بادارة الشئون المالية للبلاد إلى عيسى بن نسطورس وهو نصرانى من أقباط مصر (٣)، ثم ما لبث أن رفعه الى منصب الوساطة سنة ٣٨٤هـ / ٩٩٤م، فأشرف على كل دواوين الدولة وأحكم سيطرته عليها، «وخاطب سائر

(١) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٤٣٨.
- أبى السرور البكرى: عيون الأخبار ونزهة الأبصار، مخطوط بدار الكتب بالقاهرة برقم ٧٢، تاريخ بمكتبة مصطفى باشا، ورقة ١٤٧.
(٢) القلقشندى: المصدر السابق، جـ٣، ص ٤٩٠.
- العينى : المصدر السابق، جـ١٩، ورقة ٤٢١.
(٣) ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٤، ص ٥٥.

اخو المطران، واتفق للوقت ان رفع اليه تاجر من المسلمين رقعة يشكو فيها انه قطع عليه الطريق فى بلاد الحبشة واخذ ماله، فاحضره بحضورهم واستفهم منه قضية حاله فانطقه الله تعالى بان قال اخذ مالى فى بلاد الحبشة وقبض الملك على سورس المطران قبل ان يوصلنى الى حقى، فقال له امير الجيوش: اذا كان المطران قد قبض عليه فكيف يقدر يوصلك الى حقك ومع هذا فالملك

الكتاب عن العزيز، وخاطبه سائر الأولياء وكافة الناس فى مهماتهم وتوقيعاتهم» [١]. كما عين العزيز بالله منشابن القزاز اليهودى نائبا له على الشام [٢].

واشتهر عيسى بن نسطورس بسياسته الحازمة، وكفاءته الادارية، وقدرته على ضبط وتحصيل الخراج [٣]. ويرى الانطاكى أن ابن نسطورس «رسم أيام نظره رسوما جائرة، وأحدث مكوسا زائدة على ما جرى الرسم بأخذه» [٤] بينما يقول Mann «وكان عيسى قاسى القلب مرابيا، خص نفسه بكل الأعمال المربحة، وزاد كثيرا من الضرائب» [٥].

فهد بن ابراهيم:

ويأتى أبو العلاء فهد بن ابراهيم النصرانى ـ وهو من أبناء ريف مصر ـ كواحد من كبار موظفى الدولة الذين علا شأنهم كشخصية سياسية لها وزنها وتأثيرها فى سياسة الدولة الفاطمية ابان الفترة التى تولى فيها أبو الفتوح برجوان منصب الوساطة سنة ٣٨٧هـ/

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ١، ص ٢٨٣.

(2) Lane-Poale : AHistory of Egypt in the Middle Ages, p. 119.

(٣) أبو شجاع: المصدر السابق، ص ١٨٦.

(٤) الانطاكى: المصدر السابق، ص ١٨٠.

(٥) ابن القلانسى: المصدر السابق، ص ٥٠.

مقنصل ببلاده. ثم إلتفت الى اخو المطران وقال له: كان اخوك قد شرط لنا على نفسه أن يبنى فى بلاد الحبشة اربع مساجد وما فعل. فقال له: يا مولاى قد بنا [المطران] فى المواضع التى استطاع البنا فيها سبعة مساجد وامرها مشهور والحبشة هدموها وارادو يقتلوه وان الملك لما بلغه هذا قبض على المطران واعتقله، فقال الاجل امير الجيوش: مبارك. ثم قال للبطرك والاساقفة: ايش

٩٩٧م[1] إذ عول برجوان على كاتبه أبى العلاء فهد بن ابراهيم فى النيابة عنه ولقبه بالرئيس، فقام بتدبير أمور الدولة وأحكم سيطرته عليها[2].

وأبدى فهد نشاطا كبيرا فى خدمة برجوان، فكان يجلس فى الدهليز الأول بقصر الخلافة فى عهد الحاكم بأمر الله ينظر فى الشكاوى والتظلمات للبت فيها [3]، ثم يعرض على برجوان ما يحتاج الى العرض على الخليفة، «فيخرج الأمر بما يكون العمل به»[4].

وقد استقامت أمور الدولة بمصر والشام أثناء وساطة برجوان بفضل جهود كاتبه أبى العلاء فهد[5]. ولما ازداد نفوذ برجوان، واستبد بمقاليد الأمور وأصبح خطرا على الخلافة، قتله الحاكم فى السادس والعشرين من ربيع الآخر سنة ٣٩٠هـ [6].

وبعد قتل برجوان استدعى الحاكم بأمر الله أبا العلاء فهد ابن ابراهيم وأمنه، وقال له:

(1) Mann: Op. cit., Vol I, p. 19.

(٢) الانطاكى : المصدر السابق، ص ١٨١.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق، جـ٤، ص ٥٩.

(٤) المقريزى : الخطط، جـ٢، ص٣.

(٥) ابن القلانسى: المصدر السابق ، ص ٥٤.

(٦) الانطاكى: المصدر السابق، ص ١٨٥.

ـ المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٣.

فعلتم. فقالو: قد كتبنا الكتب قبطى وعربى فامر من شيت يقراها ويفسرها بين يديك. فقال: انتم عندى ثقات وانا اراعيكم واوثركم اكثر من جميع النصارى فمن يسير منكم بهذه الكتب مع كتابى ورسولى. فقالو: هذين الاسقفين. واشارو اليهما فنظرهما وقال: مبارك. وامر لهما بنفقة، وامر الحاجبين الذين كانا مترسمين على الاساقفة ان يرتفعا عنهما ولا يعترضا لهم وطيب نفوسهم

«أنت كاتبى، وصاحبك عبدى، وهو كان الواسطة بينى وبينك، وجرت منه أشياء أنكرتها عليه، فجازيته عليها بما استوجبه، فكن أنت على رسمك فى كتابتك، آمنا على نفسك ومالك[1]. ثم عقد الحاكم بأمر الله اجتماعا لكبار رجال دولته وكتابه ومعهم فهد وقال لهم: «أن هذا فهدا، كان أمس كاتب برجوان عبدى، و هو اليوم وزيرى، فاسمعوا له وأطيعوا، ووفوه شروطه فى التقدم عليكم، وتوفروا على مراعاة الأعمال، وحراسة الأموال»، فقبل فهد والحاضرون الأرض بين يدى الحاكم، وأجابوا بالسمع والطاعة [2].

وعلى الرغم من أن قتل برجوان يعتبر بداية مرحلة جديدة فى خلافة الحاكم بأمر الله، اذ بعد مقتله انتقلت اليه السلطة الفعلية فى الدولة، الا أن حديثه الذى وجهه إلى كبار موظفى الدولة كان أمراً صريحا بالتزام الطاعة لفهد والتعاون معه فى تنفيذ سياسته الجديدة.

لكن الحاكم بأمر الله لم ينس أن ينصب مع فهد رجل الدولة البارز الحسين بن جوهر، ولقبه بقائد القواد، يتقاسم السلطة والنفوذ مع فهد حتى لا ينفرد بأمور الدولة وسياستها، أو خشية ازدياد نفوذه فيصبح خطرا على الخلافة. فكان فهد وابن جوهر يجلسان بقصر الخلافة

---

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا، الجزء الثانى، تحقيق د. محمد حلمى أحمد، القاهرة ١٩٧١، ص ٢٦.
(٢) ابن القلانسى: المصدر السابق، ص ٥٦.

واكرمهم وخرجو من بين يديه مسرورين شاكرين لله تعالى، وحكى لى بعض الثقات الخيرين ان الاجل امير الجيوش قال فى كتابه الى ملك الحبشة «ان لم تفعل كذا وكذا والا هدمت البيع التى بارض مصر»، فكتب اليه الجواب يقول: «اذا هدمت من البيع حجر واحد حملت اليك طوب مكة وحجارتها جميعها واوصلته اليك كله ومتى ضاع منه طوبة واحدة انفذت اليك وزنها ذهب».

وينظران فى الأمور، ثم يدخلان وينهيان الحال الى الخليفة. غير أن فهد لقى حتفه فى ثامن جمادى الآخر سنة ٣٩٣هـ عندما أمر الحاكم بأمر الله بقتله[١].

وتتضارب الروايات فى أسباب مقتل فهد. فيرى مؤلف «سير البيعة المقدسة» أن الحاكم بأمر الله ضرب عنق فهد، وحرق جسده لأنه لم يجبه إلى اعتناق الإسلام بعد أن وعده بالمنزلة السامية والمنصب الرفيع [٢]. وبينما يرى ابن القلانسى أن الحاكم بأمر الله قتل فهد نتيجة مؤامرة أحكم تدبيرها ابن العداس (والى ديوان الخراج) بالاتفاق مع أبى طاهر النحوى (والى ديوان الحجاز) اللذان وشيا به عند الحاكم، وأشارا إلى الثروة التى جمعها، وما اقتطعه لنفسه من اقطاعات عديدة. ووعد الرجلان الحاكم بأمر الله بالعمل بدلا منه أن تخلص منه، على أن يقوما بتوفيرمبلغ ستة آلاف دينار كان فهد يأخذها لنفسه[٣].

منصود بن عبدون:

هو واحد من كبار رجال أهل الذمة الذين تولوا أرقى وظائف الدولة، وتولى ديوان الشام

(١) الانطاكى: المصدر السابق، ص ١٨٥.
- المقريزى: الخطط جـ٢، ص ١٣، ١٤، ٣٠.
(٢) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٥٥.
(٣) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ٥٩.

وكان من امر ابو الطيب سهلون ابن كيل الظالم وظلمه للناس ومصادرته لهم واعتقالهم فى خزانة البنود وتسليط ابو الحارث كاتب الخزانة عليهم وحثه على عقوبتهم بانواع العقوبة ما هو مشهور معلوم، وكان يوميذ يتولى ديوان المجلس ويجلس فى قبة الخراج بالقصر السعيد، فاخرجنى ابو الحرث يوماً من الاعتقال واوقفنى بين يديه، وقال لى: قد ضجرت مما يقول لى الشيخ ابو الطيب ابن

قبل توليه منصب الوساطة فى مصر، ووصف بانه «كان رجلا نصرانيا خبيثا جلدا» [1]. وقد اشتهر بمقدرته الادارية والمالية، ولمع نجمه فى دواوين الحكومة وأصبح مقربا من قصر الخلافة[2] فى الحادى عشر من صفر سنة ٤٠٠هـ، عقد الحاكم بأمر الله مجلسا بدار الخلافة حضره كبار رجال الدولة وأصحاب الدواوين وقرر تعيين منصور بن عبدون النصرانى فى منصب الوساطة وقرئ سجله على الحاضرين [3] ثم منحه بعد فترة قصيرة من وساطته لقب «الكافى» [4]، و كتب له سجلا بذلك... وحمل على بغلتين تكريما له [5]. كما سمح له بالتوقيع عنه والنظر فى أمور الدولة [6] فجد ابن عبدون فى جمع أموال الدولة ومواردها مماجعل الحاكم بأمر الله يمتدحه بقوله:

«ما خدمنى أحد ولا بلغ فى خدمته ما بلغه ابن عبدون، ولقد جمع لى من الأموال ما هو

---

(١) ابن القلانسى: المصدر السابق، ص ٦١.
(٢) الانطاكى: المصدر السابق، ص ١٩٤.
(٣) النويرى: المصدر السابق، جـ٢، ورقة ٥٥.
ـ المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٢٨٦.
(٤) الانطاكى: المصدر السابق، ص ١٦٩.
(٥) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٨١.
(٦) ـــــ: الخطط، جـ٢، ص ٢٨٦.

الظالم، عاقب موهوب ابن مفرج السكندرى
وولده وزوجته وابو الخير ولد ابو السرور ابن الابح
الى ان يقومو للسلطان بماله الذى كتبو خطوطهم
به. وحلف لى على هذا ايمان عظيمة ان المذكور
حثه على هذا دفعات كثيرة، ثم حلف ابو الحارث
قايلا لى: ان لم تحضر الى عشية هذا النهار كذا
وكذا وذكر دنانير كثيرة لا قدرة لى عليها لاعاقبن
والدك قدامك فى هذه العشية. فقلت له : يا

خارج فى أموال الدواوين ثلثمائة ألف دينار [١]. وقد أنشأ ابن عبدون أثناء توليه الوساطة ديوانا سماه «ديوان المفرد» تودع فيه الأموال المصادرة لمن يغضب عليه الخليفة أو يقتله أو يقبض عليه من كبار رجال الدولة، أو أية أملاك وأموال يرى الحاكم بأمر الله مصادرتها[٢].

غير أن الحاكم بأمر الله ما لبث أن عزل ابن عبدون فى رابع المحرم سنة ٤٠١هـ / ثامن عشر أغسطس سنة ١٠١٠م لكيد أعدائه له بسبب ما كان بينه وبينهم من شحناء، هذا بجانب نجاح الحسين بن جوهر فى تحريض الحاكم بأمر الله عليه، بالدرجة التى جعلته لا يكتفى بعزله، بل ويأمر باعتقاله ومراجعة أعماله وحساباته، ثم اعدامه فى الشهر التالى، ومصادرة أمواله [٣].

زرعة بن عيسى بن نسطورس:

بعد أن عزل الحاكم بأمر الله ابن عبدون، عين أحمد بن محمد القشورى الكاتب فى

(١) ـــــــ: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٨٤.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٨١.
ـ البراوى: المرجع السابق، ص ٣٥٢.
(٣) الانطاكى: المصدر السابق، ص ١٩٨.
ـ ابن القلانسى: المصدر السابق، ص ٦٢.
ـــــــ: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٨٤، ص ٨٥.

مولاى هو مطروح وقد قارب الموت لشدة ما ناله منك من العقوبة فان أنت استدعيت به مات. فاعاد القسم وكان اذا اقسم يفعل ما يقسم عليه، وعلمت ان الذى قاله عن ابن الظالم صحيح للمشهور من سو افعاله معي ومع غيرى، وكان هذا الخطاب غداة يوم الاثنين التاسع والعشرين من برمهات سنة اربعماية وثمنين الخراجية. ثم اخرج معي رجلين لاطوف واحصل الدنانير التى التمسها،

منصب الوساطة. الا أنه فى اليوم الرابع عشر من المحرم من نفس السنة قرر عزله، وعين مكانه الكاتب النصراني زرعة بن عيسى بن نسطورس، وأنعم عليه فى سابع ربيع الآخر من تلك السنة بلقب «الشافي»[1].

وظل زرعة فى منصبه حتى وفاته فى ثانى عشر ربيع الأول سنة ٤٠٣هـ. وكان قد استطاع بحسن ادارته ومهارته السياسية أن يحوز على ثقة قصر الخلافة، كما كانت علاقته وطيدة برجال الجيش وكتاب الدولة[2].

صاعد بن عيسى بن نسطورس:

يعتبر صاعد بن عيسى بن نسطورس ثالث فرد فى هذه الأسرة يلى الوساطة، اذ سبق أن تولاها أبوه عيسى، ثم أخوه زرعة من قبل. وقد تولى صاعد الوساطة فى آخر شوال سنة ٤٠٩هـ، وظل فى منصبه حتى قتل فى رابع ذى الحجة من تلك السنة [3]. وعندما أسندت اليه الوساطه لقب «بالأمير الظهير شرف الملك تاج المعالى ذواليدين»[4].

(١) القلقشندى: المصدر السابق، ص ٣، ص ٤٩٠.
ـ المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٨٦.
(٢) الانطاكي : المصدر السابق، ص ٢٠٢.
(٣) ـــــ : نفس المصدر، جـ٢، ص ١١٤.
(٤) المناوى: الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى، القاهرة ١٩٧٠، ص ٥٠.

فنزلت الى مصر وقصدت كنيسة الست السيدة المعلقه بقصر الشمع وطلعت الى حيث صورتها، فوجدت هناك ابو الفتح ابن رفاييل الكاتب وكان هو ايضاً مطالب مثلى، فبكينا بين يديها وقلنا: مثل هذا اليوم بشرك الملاك غبريال بخلاص بنى البشر، وفى مثل هذا اليوم نحن نسالك لا تغفلى عنا. وكان كثير على هذا ابن الظالم بمصر والقاهرة والريف وكل موضع لاجل ما فعله مع

ابو نصر (أبو منصور) صدقة بن يوسف الفلاحى:

تولى الوزارة فى عهد المستنصر بالله الفاطمى، وكان يهوديا غير أنه اعتنق الإسلام وخلع عليه في الحادى عشر من رمضان سنة ٤٣٦هـ خلفا للوزير الحسين بن على الانبارى. وقد ساعدته الأحداث الداخلية والظروف المحيطة بقصر الخلافة على أن يتبوأ هذا المنصب، ذلك أنه فى أيام الحاكم بأمر الله كان يوجد اخوان من أصل يهودى أحدهما أبو نصر بن سهل التسترى وكان يحترف الصيرفة، والثانى أبو سعيد (أبو سعد) ابراهيم وكان يشتغل بالتجارة، وكانت أم المستنصر بالله جارية سوداء، اشتراها الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله من أبى سعيد ابراهيم، وأنجب منها ابنه المستنصر [1] ولما صارت الخلافة إلى ولدها قدمت أبا سعيد، وما لبث أن أصبح ناظرا لديوان أم الخليفة ومن المقربين إلى المستنصر، وعلى صلة وثيقة بأمه التى كانت ذا نفوذ عظيم فى أوائل حكم ابنها[2].

(١) ابن ميسر: المصدر السابق، جـ٢ ص ١.
ـ المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ١٩٠ ـ ١٩١.
(٢) ناصرى خسرو: سفرنامة د. يحيى الخشاب، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٤٥، ص ٦٤.
ـ ابن ميسر: المصدر السابق، جـ٢، ص١.
ـ المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ١٩٥.
ـ على حسن الخربوطلى: مصر العربية الاسلامية، ص ١٦٢.

بنى المعمودية وغيرهم، وكذلك ابو الحارث ايضاً فاظهر الله فيهما اعجوبة للوقت، وبينما نحن فى الكنيسة المذكورة تواصلت الاخبار من القاهرة بالقبض على ابن الظالم وابو الحارث واعتقالهما فى دار شمس الدولة كمش، فنالنا وجميع الناس سرور عظيم، ولما كان غداة يوم الاربعا اخرجا على جملين إلى خارج باب النصر وصلبا على صاريين ورميا بالنشاب حتى ماتا، وقبضا على اخوته

وحدث أن تولى الانبارى الوزارة، وساءت علاقته بأبى نصر وأخيه أبى سعيد التسترى الذى شكا إلى أم الخليفة فحرضت ابنها المستنصر ضد ابن الأنبارى لعزله من الوزارة، وتعيين أبى صدقة ابن يوسف الفلاحى مكانه (١).

وما أن تولى الفلاحى الوزارة حتى ظهرت أطماع أبى سعيد التسترى ونفوذه بصورة رهيبة، اذ أشرف على الفلاحى الوزير، ووقع تحت سيطرته بحيث لم يبق له معه أمر ولا نهى سوى الاسم وبعض التنفيذ (٢).

وبايعاز من أبى سعيد التسترى، وبتحريض منه، استطاع الفلاحى أن يكيد للأنبارى الوزير السابق، ويتهمه بالاختلاسات المالية، وينتقد سياسته السابقة، حتى تمكن منه، فقبض عليه وصودرت أمواله، ثم قتل (٣).

غير أن الوزير صدقة بن يوسف الفلاحى استطاع أن يتخلص من أبى سعيد فحرض الجند الأتراك عليه، فاتهموه بدس السم لقائدهم ريحان، وقتلوه ثم مثلوا بجثته، وذلك فى الثالث

---

(١) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٤٢٣.
(٢) ابن ميسر: المصدر السابق، جـ٢، ص ١.
ـ السيوطى: حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، القاهرة ١٣٢٧هـ. جـ٢، ص ١١٦.
(٣) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٣٥٤، ٤٢٣.

الاسقفين يوحنا ومرقس وشددوهما للعقوبة حتى كتبا خطوطهما بالفي دينار، وخرجا ومعهما مترسمين في كل يوم بخمسة دنانير، واقاما مدة لم يحملا الى امير الجيوش الا خمس ماية دينار بعد ان اخذو منها المترسمين ستماية دينار جعل[اتاوة]، ولما وقف امرهما ودخلا الى مصر امر الاجل امير الجيوش باعتقالهما في حبس الشرطه بالقاهرة، ولم

من جمادى الأولى سنة ٤٣٩هـ/السادس والعشرين من أكتوبرسنة ١٠٤٧م، وبهذا انفرد الفلاحى كلية بأمور الدولة. الا أن المستنصر بالله لم يرض عن هذا التصرف، فأمر بتعيين أبى نصر التسترى ـ أخ أبى سعد ـ خزانة الخاصة، وعين ولد أبى سعد فى أحد الدواوين [١].
كما أن أم المستنصر حقدت على الوزير الفلاحى وثارت عليه، لاعتقادها أنه هو الذى دبر مؤامرة قتل أبى سعد، ولم تزل تدبر له الدسائس وتكيد له، حتى قبض عليه، واعتقل فى خزانة البنود، وانتهى أمره بقتله فى الخامس من المحرم سنة ٤٤٠هـ/العشرين من يونيه سنة ١٠٤٨م [٢].

ابو على الحسن بن أبى سعد ابراهيم بن سهل التسترى:

تولى الوزارة فى الرابع من ذى الحجة سنة ٤٥٦هـ. وكان الرجل يهوديا، ثم اعتنق الاسلام وحفظ القرآن [٣] وأسند اليه الأشراف على بيت المال قبل أن يلى الوزارة. وعندما تقلد منصب الوزارة لقب «بعلم الكفاة» وقد ظل فى منصبه حتى منتصف المحرم سنة ٤٥٧هـ [٤].

(١) ابن ميسر: المصدر السابق ، جـ٢، ص ٢.
(٢) ابن القلانسى: المصدر السابق، ص ٨٤.
(٣) ابن ميسر: المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٢.
(٤) السيوطى: المصدر السابق، جـ٢، ص ١١٧.
ـ مشرفة: المرجع السابق، ص ١٤٢.

يزالا فيه مدة طويلة الى ان سيل فيهما فافرج عنهما وخرجا الى كراسيهما على عادتهما.

وبلغنى عما جرى قديماً ما يجب ان اذكره وهو ان كتاباً وصل من الخليفة ببغداد الى الاستاذ كافور الاخشيد، وهو يوميذ والى مصر جرياً وخراجاً، امره ان يعمل تقدير بارتفاع [عوايد] مصر وما معها وجميع نفقاتها لسنة واحدة، فعمل فاشتمل على جملة مبلغها ثلثة الف الف ومايتى الف

أبو سعد منصور بن أبى اليمن بن سورس بن مكرواه بن زنبور:

كان أبو سعد منصور واحدا من كبار رجال الدولة الذين تقلدوا أرفع مناصب الدولة. وقد كان أبوه ناظر الريف وهو على دين النصرانية، وظل ولده هذا على دينه، فلما تقلد الوزارة اعتنق الإسلام، وخلع عليه[1]، غير أن النصارى ينكرون اسلامه [2]. وقد تولى الوزارة أياما قليلة، ولقب بلقب «الأجل الأوحد المكين السيد الأفضل الأمين شرف عميد الخلافة محب أمير المؤمنين». غير أن الجند ما لبثوا أن طالبوه برواتبهم فوعدهم وطمأنهم، ثم ما لبث أن هرب سنة ٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م تاركا منصب الوزارة بعد أن عجز عن تدبير الأموال اللازمة لرواتب الجند[3].

إزدهار الصناعات والفنون على يد المصريين فى الفترة الفاطمية

مما ساعد على تقدم صناعة النسيج تلك العلاقات التجارية النشطة بين مصر والبلاد

(١) المناوى: المرجع السابق، ص ٢٦٦.
(٢) ابن ميسر: جـ٢، ص ٣٣.
(٣) المناوى: المرجع السابق، ص ٢٦٦، ٢٦٧.
ـ مشرفة: المرجع السابق، ص ١٤٢.

ونيف وسبعين الف دينار، وعمل النفقات والكساوى فكانت ازيد من الارتفاع بمايتى الف دينار، فاحضر كافور وزيره الذى هو ابن كلا [يعقوب بن كلس][*] وقال له: ما الذى يجب ان نفعل فى هذا العجز، فاشار عليه ان يحطه من واجبات ارباب الرواتبماية الف دينار ويزيد فى ضرايب المكوس ماية الف دينار ليصير ارتفاع السنة سوى بسوى. فلما خرج من عنده احضر كافور

(*) يعقوب ابن كلس ٣١٨ - ٣٨٠هـ= ٩٣٠ - ٩٩٠م.
يعقوب ابن يوسف ابن ابراهيم ابن هارون ابن كلس، أبو الفرج: وزير، من الكتاب الحساب. ولد فى بغداد. سافر به أبو ه إلى الشام ثم انفذه إلى مصر فاتصل بكافور الاخشيدى، فولاه ديوانه بالشام ومصر. كان يهوديا فأسلم فى =

الأجنبية، وكثرة الطلب على مختلف أنواع النسيج المصرى [١]، هذا فضلا عن اهتمام الدولة بالاشراف الدقيق على هذه المصانع [٢] واهتمامها بتوفير الخبرة المدربة، وتوفير الظروف الملائمة للصناع الذين كانوا يعملون بها [٣]، كما كان الخلفاء الفاطميون يشجعون عمال النسيج المهرة بمنحهم المكافآت التشجيعية. ويذكر ناصرى خسرو على سبيل المثال: «أن عاملا نسج عمامة السلطان فأمر له بخمسائة دينار ذهب مغربى»، مكافأة له لدقة صنعتها وجمال منظرها [٤]، كما اهتم كبار رجال الدولة بتشجيع هؤلاء الصناع مما أدى فى النهاية إلى زيادة الانتاج وحسن الصنعة[٥].

ولقد اهتمت الدولة بهذه الصناعة نظرا لأهميتها للاقتصاد المصرى ولبيت مال الدولة نظرا لما يجبى عليها من ضرائب[٦].

(١) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٣٨، ٣٩، ٤٠.
(٢) البراوى: المرجع السابق، ص ١٣١.
ـ سميكة: دليل المتحف القبطى، جـ١، ص ١١٨.
(٣) المقريزى: المصدر السابق، جـ٤، ص ٤٤٣.
(٤) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٣٨.
(٥) زكى محمد حسن: المصدر السابق، ص ٨٠.
(٦) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٤٠.

الشيخ ابو اليمن قزمان ابن مينا المومن النصرانى الناظر فى اعمال مصر، وهو الذى تقدم ذكره فى سيرة الاب افرهام البطرك، وقال له: قف على هذا العمل وشير على بما افعله من الصواب والعدل من السلطان للخلق. فقال: سمعت بخبره وفهمته وما يجوز لى كلام فيه. فالزمه واقسم عليه بان يقول ما عنده واعلمه بما اشار به الوزير ابن كلا[س]، فقال: اما انا فقد الزمتنى واستحلفتنى

= ايامه سنة ٣٥٦. ثم هرب إلى المغرب فخدم «المعز» الفاطمى سنة ٣٦٣. وفى سنة ٣٦٨ لقبه المعز بالوزير الاجل. ثم جاء مصر فى خدمة العزيز ابن المعز فولى وزارته. كان يعقد المجالس فى الجامع العتيق ويشرح المسائل الفقهية على حسب المذهب الفاطمى. توفى فى ايام العزيز.

وقد ساعد توفر خامات النسيج فى مصر على ازدهار هذه الصناعة، فالكتان تتوفر زراعته فى ريف مصر، والصوف المصرى يتوفر فى مناطق الفيوم وأخميم، وأسيوط لكثرة تربية الأغنام فى تلك المناطق(١).

لكل هذه العوامل ازدهرت صناعة النسيج، وأنتج النساجون الاقباط أفخر أنواع المنسوجات الكتانية والصوفية والحريرية والقطنية التى ليس فى «جميع الأرض ما يدانيها فى القيمة والحسن والنعمة والترف والرقة والدقة» (٢)، وبلغت تلك المنسوجات درجة من الرقى أذهلت المؤرخين والرحالة الذين زاروا مصر فى هذه الفترة (٣)، وقد حملت هذه المنسوجات الكثير من أسماء المدن المصرية التى صنعت بها، فهناك الثياب التنيسية، والشطوبة، والدمياطى، والدبيقى (٤) والشرب الاسكندرى (٥)، والقماش القيسى والبهنساوى(٦).

(١) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٧٠.
ـ البراوى: المرجع السابق، ص ١٣٥.
(٢) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ١٤٣.
(٣) المقدسى: المصدر السابق ص ٢٠٢، ٢٠٣.
ـ ناصر خسرو: المصدر السابق، ص ٧٠، ٧١.
(٤) ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، جـ٥، ص ٧٩.
(٥) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ١٦٢.
(٦) البراوى: المرجع السابق، ص ١٣٢، ١٣٤.

ان اذكر ما عندى فانا اقول بحسب ما يلزمنى من نصحك ان الذى اشار عليك بان تحصر ارزاق ارباب الرواتب الذين هم فى عول الله سبحنه وفى عولك فقد اغرى بك واراد قبح السمعة عنك لان الله اجرى ارزاقهم على يديك فمتى فعلت بهم هذا قطع بك، واما ما اشار به عليك من الزيادة فى ضرايب المكوس المستقرة فالذى اسس اصل هذا وفرعه قد عرف مقعده فى جهنم لان احداث

اناء من صنع اسيوط.

فقد اكتسبت مدينة تنيس على سبيل المثال شهرة عالمية بفضل مهارة عمال النسيج الأقباط الذين عرفوا «بحسن زيهم ولطافة صناعتهم [1]، فقد أضفوا على مدينتهم مكانة مرموقة بين المدن الصناعية الكبرى فى ذلك العصر. ولا يبالغ ناصرى خسرو عندما يذكر «أن السلطان الروم كان أوفد رسولا ليعرض على سلطان مصر أن يعطيه مائة مدينة على ان يأخذ تنيس فلم يقبل السلطان، وكان عقده من هذه المدينة القصب والبوقلمون»[2]، وهما من أهم وأفخر منسوجات تنيس.

واذا كانت هذه مكانة مدينة تنيس التى كانت تضم حوالى الخمسين ألف نسمة من السكان [3] وآلاف المناسج، فماذا عن دمياط التى كانت «أحذق صناعا وأرفع بزا، وأنظف عملا» [4].

وأما أسيوط فكان يصنع بها «عمائم من صوف الخراف لا مثيل لها فى العالم [5]، هذا بينما كانت تصدرمنسوجات أخميم إلى أقصى البلاد» [6].

(١) أبن دقماق: المصدر السابق، جـ٥، ص ٧٨.
(٢) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٣٨.
(٣) ناصرى خسرو:ن المصدر السابق، ص ٣٨.
(٤) المقدسى: المصدر السابق، ص ٢٠٢.
(٥) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٧٠.
(٦) ابن ظهيره: المصدر السابق، ص ٦٣.

الرسوم يبعد من الله. فاعجبه قوله وعرف نصحه له وكان خصيصاً به، فلما اتاه الوزير ابن كلا[س] ثاني يوم امر حاجب الحجاب بالقبض عليه وان يعاقبه الى ان يقوم بالعجز من ماله، وقال له: اردت ان تسى سمعة المقصوص [اى المحكى عنه] وتقبح سيرته فى خدمة مولاه. ثم وقع توقيع بان يوضع من اصول الضرايب الثلث من المكوس، وامر الشيخ ابو اليمن قزمان ابن مينا ان يذيع ذلك

نسيج مصرى من العصر الفاطمى.

ولا يسعنا أمام مهارة هؤلاء النساجين وجودة صناعتهم الا أن نذكر أهم أنواع تلك المنسوجات التى أنتجتها آلاف المصانع التى عمل بها الصناع الأقباط ومنها:

الدبيقى:

وهو ذلك النسيج الحريرى الذى ينسب إلى قرية دبيق، التى اشتهرت بالثياب المثقلة والعمائم الشرب الملونة التى كان يبلغ طول العمامة منها ذراع وتبلغ قيمتها خمسمائة دينار سوى الحرير والغزل(١)، كما كانت الثياب الدبيقية من أهم منسوجات مدينة أسيوط التى غلب على سكانها الأقباط (٢).

ولشهرة الثياب الدبيقية (الدبيقى) أطلق هذا الاسم على منسوجات أخرى مثل الدمقس والنسيج الحرير المشجر والثياب الكتانية، ولجودة الثياب الدبيقية أطلق هذا الاسم على احدى قرى بغداد اسم دبيقية، وكانت منسوجاتها تباع على أنها من انتاج مصانع دبيق المصرية ليقبل الناس على شرائها (٣).

(١) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٢٢٥.
(٢) ياقوت: المصدر السابق، جـ١، ص ٢٥١.
(٣) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٢٢٥.
ـ البراوى: المرجع السابق، ص ١٣٢.

فىساير ديار مصر، ففعل ذلك وكتب به الكتب وانفذها الى جميع البلاد، فزاد الارتفاع فى تلك السنة اربع مااية الف دينار. ودعى على الوزير ابن كلا فى مكة ودعى فيها للشيخ ابو اليمن قزمان ابن مينا، وكتب لعنة الوزير المذكور على الحيطان.

سجادة مصرية من الفترة الفاطمية.

وكان بالقاهرة رجل سريانى يعرف بابن الطويل فسكن هو وجماعة من السريان معه فى الحسينية التى بظاهر القاهرة المرسومة بسكن الارمن

القصب:

وهو نسيج من الكتان يمتاز بالنعومة الفائقة، وكان ينسج بتنيس القصب الملون من عمامات ودوقايات ومما يلبس النساء، ولا ينسج مثل هذا القصب فى جهة ما غير تنيس(١)، أما القصب الأبيض فقد اشتهرت بصناعته مدينة دمياط، ويبلغ قيمة الثوب الأبيض وليس فيه ذهبا ثلاثمائة دينار(٢).

الشرب:

ويطلق على هذا النسيج اسم الشرابى، وهو نوع من الحرير أو الكتان النقى الفاخر، واشتهرت مدينتا دمياط وتنيس بصناعة أجود أنواع الشروب الفاخرة(٣).

كما كان الصناع الأقباط يصنعون بدبيق العمائم الشرب المذهبة وفيها رقمات (رسومات) منسوجة بالذهب. وقد استحدثت هذه العمائم لأول مرة فى خلافة العزيز بالله الفاطمى سنة

(١) المقريزى: الخطط ، جـ١، ص ٢٢٥.
(٢) ابن ظهيرة: المصدر السابق، ص ٥٣، ٥٤.
(٣) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ١٤٣.
ـ كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار، تحقيق د. سعد زغلول ، ص ٨٧.

العسكرية، فامر امير الجيوش بان لا يسكن في الحسينية الا الارمن فقط، فاخرج منها ابن الطويل السرياني والسريان الذين معه، فوقف لامير الجيوش برقعة يساله فيها ان ينعم عليه بكنيسة ياوى فيها في دير الخندق من الكنايس الخالية التى هناك هو والسريان الذين معه، فاجاب سواله وامر انبا غبريال اسقف الخندق باجابته الى ما طلبه، فدفع له كنيسة هناك على اسم بولا ابن يسطس الشهيد

٣٦٥هـ/ ٩٧٥م [١]، وكان في «ثياب الاسكندرية ما يباع الكتان منه اذا عمل ثيابا يقال لها الشرب، كل زنة درهم فضة، وما يدخل في الطرز فيباع بنظير وزنه مرات عديدة» [٢].

البدنة:

وهو اسم ذلك الثوب الثمين الذى كان يصنع للخلفاء، ويقوم بصناعته نساج مهرة تخصصوا في صنع ملابس الخلفاء، ولا يدخل في هذا الثوب من الغزل ـ سداء ولحمة ـ غير أو قيتين، وفيه من الذهب أربعمائة دينار، قد أحكمه صانعه باتقان بالغ بدون حاجة إلى تفصيل أو خياطة غير الجيب والنبائق، ويبلغ قيمة الثوب الألف دينار [٣].

وكان ثياب البدنة ينسج في مصانع الحكومة، ولا يصرح ببيعه، ولقد حاول أحد ملوك فارس أن يشترى بدنة فأرسل أعوانه إلى تنيس بعشرين ألف دينار لكي يحصل على ثوب من البدنة، فمكثوا بتنيس عدة سنوات، ولكنهم فشلوا في الحصول على بدنة واحدة من كسوة الخلفاء [٤].

(١) المقريزى: الخطط، جـ١ ، ص ٢٢٦
(٢) ـــــ: نفس المصدر، جـ١ ، ص ١٦٢.
(٣) كتاب الاستبصار: ص ٨٧.
(٤) ناصرى خسرو: المصدر السابق ، ص ٣٨.

وجسده فيها، وكان فى هذا الدير كنيسة على اسم ابو مقار فجعل فيها الاسقف المذكور قرط [برسيم] لدابته، فمضوا جماعة من الارمن ووقفو للاجل امير الجيوش برقعة وقالو فيها ليس لنا بيعة نصلى فيها وفى دير الخندق عدة كنايس لاصحابنا اليعاقبة وهى مغلقة لا يحتاجو لها ولا يصلو فيها وقد جعل اسقفها احدتهن مخزناً للقرط، فانفذ امير الجيوش وكشف عن ذلك فوجده حقاً كما قالو، فامر

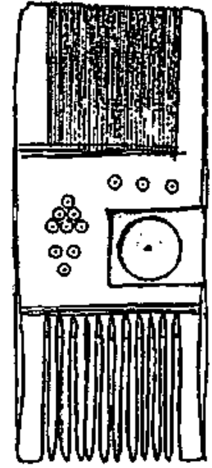

مشط من الخشب لنسج الصوف.

القباطى:

وهو نسيج من الكتان أو التيل، وكان العرب يطلقون على المنسوجات اسم القباطى، ويرى بعض المؤرخين أن هذه التسمية نسبة إلى قبط مصر الذين اشتهروا بمهارتهم فى صناعة النسيج [١]، ومن القباطى البيض كان ينسج أجزاء من كسوة الكعبة[٢].

البوقلمون:

أحد أنواع المنسوجات التى ا شتهرت بها مصر وبخاصة مصانع النسيج فى تنيس، ويذكر ناصرى خسرو أن البوقلمون لم يكن ينسج فى مكان آخر فى ذلك العصر آلا فى مدينة تنيس. وهذا القماش يمتاز بألوانه البراقة، ويظهر فى ألوان مختلفة حسب تعرضه لضوء الشمس والوضع الذى يكون فيه واختلاف ساعات النهار، وكان يصدر إلى جميع بلدان الشرق والغرب لشدة الطلب عليه[٣].

(١) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام، ص ٣٤٩.
(٢) بيبرس الدوادار: المصدر السابق، جـ٦، ورقة ٢٩٠.
(٣) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٣٨.

الاسقف ان ينقل القرط ويدفعها لهم ليعمروها ويصلو فيها فاخذوها. وهى الان باقية بايدى الارمن يخدموها ويصلو فيها، واظهر الله فيها عجايب كثيرة على يد شهيده مارى جرجس وفى غيرها من الكنايس التى على اسمه. منها انه قيل عن رجل بدوى من بنى خلاف دخل كنيسته بدملو [مركز قوسنا] ووقف يحارب صورته فقتله للوق[ـت ومات]. وفى كنيسته بديرابو يحنس

امشاط خشبية للشعر.

العتابى:

وهو أحد أنواع المنسوجات الحريرية، وكان هذا النوع ينسج بمدينة بغدادحيث كانت تنسج العتابية، ثم استحدث هذا النسيج فى مصر وصنع فى عصر الفاطمين (١).

وكان للاتصال التجارى مع البلاد المجاورة وسفر بعض المصريين إلى تلك الدول، ومجئ التجار الأجانب إلى مصر أثره الكبير فى تشجيع الصناع على اقتباس أنواع ممتازة وتقليد أجود أنواع الأقمشة التى كانت ترد إلى البلاد المصرية مما يتفق وميول الفاطميين والشعب المصرى. ولذلك عرفت مصر فى العصر الفاطمى أنواعا جديدة من المنسوجات، مثل الخسروانى، والطميم، والأرمنى، والكردوانى والسندسى، والتى تدل بعض أسمائها على أصلها الأجنبى(٢).

وقد اشتهرت تنيس بعمل قماش الخيام (٣)، كما اشتهرت الفيوم بصناعة الخيش، وسمالوط بعمل المنسوجات من شعر الماعز والاسكندرية بالحرير السكندرى (٤).

وكان الرهبان بالأديرة ينسجون الأقمشة ويحيكونها وفقا لاحتياجاتهم من أنواع الصوف

(١) البراوى: المرجع السابق، ص١٣٣، ١٣٤.
(٢) البراوى: المرجع السابق، ص ١٣٤.
(٣) المقريزى: الخطط ، جـ١ ، ص ٤١٨.
(٤) البراوى: المرجع السابق، ص ١٣٦.

بوادى هبيب غابت صورته عنها بسبب غلام باعه يوحنا الراهب بعشرة دنانير حتى اعادها الشماس على الراهب واخذ الغلام فعادت الى كيانها. [وفى] بيعته بدير العسل [مركز المينا] ظهر فيها عجايب كثيرة حدثنى بها بنى خصيب يطول شرحها، وظهر فيها نور فى اليوم الثانى من هتور عند عبورى بها، وبيعته التى فى برنبال من اعمال ابوان عجايبها كثيرة مشهورة، وبيعته بقطور [مركز

الفارس المصرى. نسيج صوف

والكتان اللازمين لعمل الملابس الخاصة بهم، كما أن الراهبات اشتغلن بتطريز الملابس الكهنوتية، وكذلك أفخر الملابس اللازمة لدفن الموتى كما جرت به عادة الأقباط عند دفن موتاهم (١).

وإذا كان الخلفاء الفاطميون قد أنشأوا دور الطراز «مصانع النسيج» فى كثير من المدن المصرية، وأنهم استخدموا الصناع الأقباط فى هذه الدور، فقد قامت الى جانب دور الطراز الحكومية مصانع أخرى خاصة لنسج الأقمشة التى يستعملها القبط(٢).

واهتم الصناع الأقباط بالزخرفة المنسوجة على الأقمشة فى العصر الفاطمى الأول، وكانت أهم الألوان المستعملة وبالذات على الأقمشة الحريرية الأزرق والأسود والأحمر والأصفر والبنى والأخضر. وكانت الوحدات الزخرفية هى بعينها تلك الوحدات التى كان يستعملها النساج قبل العصر الفاطمى، وكل ما هنالك من فرق هى أنها صارت ترسم بدقة ومهارة تدل على رقى الذوق وتقدم الفن (٣).

واشتملت هذه الوحدات الزخرفية على رسوم حيوانات أو طيور أو أشكال آدمية (٤)، على

(١) سميكة: المرجع السابق، جـ١، ص ١١٨.
(٢) ديماند : الفنون الاسلامية ، ص ٢٨.
(٣) مرزوق: المرجع السابق، ص ١١٦.
(٤) البراوى: المرجع السابق ، ص ١٣٨.

طنطا] الكثيرة العجايب، وحكى لى عبد المسيح القس الدهتورى [الدهشورى] انه مضى اليها وطلع الى صورة مارى جرجس وقطع راس فتيلة القنديل ووقف ينتظر القيم يأتيه بسراج ليقدها وانه نزل على البيعة نوراً ابيض فى ثلثة مواضع ووقد الفتيلة. وعجايبه كثيرة جداً لا تحصى ولا يقدر احد يشرحها على كيانها لكثرتها رزقنا الله شفاعته وبركات صلاته فانها جليلة مقبولة.

سجادة من الصوف.

نساجي هذا العصر كانوا أميل إلى استخدام صور الحمامة فى زخرفة المنسوجات فأكثروا من رسمها وتفننوا فى وضعها، وترجع أسباب تفضيل هذا الطائر على غيره إلى أن معظم عمال النسيج كانوا من الأقباط، وأن هذا الطائر كان محببا اليهم، ويرمزون به إلى الروح القدس(١).

وكان الاتجاه العام فى زخرفة المنسوجات فى بداية العصر الفاطمى الأول يرمى إلى العناية بالزخارف الخطية التى كانت تمتاز بجمالها وتنوعها، بحيث يكون للزخرفة الخطية مكان الصدارة على الأقمشة، ثم تأتى زخرفة الرسوم فى المحل الثانى، الا أنه فى خلافة الحاكم بأمر الله وزعت العناية بين الخط والزخرفة فكانا متساويين تقريبا فى الإتساع، على أن ذلك الحال لم يستمر طويلا. فقد زاد الاهتمام مرة أخرى بالزخرفة، فرسمت الزخارف أكبر فى الحجم من الكتابة، فوضع النساج الكتابة أسفل الزخرفة ولم يجعلها تمتد امتدادها كما كان الحال عليه من قبل(٢).

واستمر التأثير القبطى فى الزخرفة على المنسوجات قائما، وظل أثره واضحا حتى القرنين الخامس والسادس الهجرى / الحادى عشر والثانى عشر الميلادى إلى أن كانت السيادة للخط

(١) مرزوق: المرجع السابق، ص ١١٨.
(٢) ـــــ : نفس المرجع، ص ١٢٢.

وانا اذكر ما رايته في بيت المقدس وغيره وهو المقبرة والاقرانيون بالقدس المحروس، وراس القديس الجليل مارى مرقس الانجيلي باسكندرية، وجسد القديس ساويرس بدير الزجاج، وجسد القديس مارى جرجس في كنيسته التي [في] بلد من اعمال فلسطين تحت المذبح. وفي الديارات بوادى هبيب الثلثة ابو مقارات(*). وبهما ابسيت وزينون الملك وولده وبويحنس وبوبيشا، وابو كما وابو

(*) الثلاثة بو مقارات هم: ابو مقار الكبير، ابو مقار القس، أبو مقار الراهب.

النسخ، وفقدت رسوم الحيوانات والطيور خواصها، وصارت أشكالا تقليدية لا تمت إلى الطبيعة بصلة كبيرة [١].

وكانت أسماء الخلفاء تنسج في الأقمشة الثمينة بخيوط الذهب والفضة أو الخيوط المتعددة الألوان تمجيدا لهم ودليلا على أنها صنعت في عهدهم، وشارة من شارات الملك، ووثيقة لمن خلعت عليه للدلالة على درجته ووظيفته واشارة إلى رضاء الخليفة عنه [٢].

كما كان الخليفة يسمح بكتابة اسم وزيره في الطراز تكريما له [٣]، وأحيانا كانوا يكتبون اسم المشرف على العمل في دار الطراز، ولكن قلما كانوا يذكرون اسم الصانع نفسه[٤].

(ب) الصناعات الخشبية:

بلغت الدقة في الحفر على الخشب والصناعات الخشبية مرحلة ممتازة على يد الصناع الأقباط في عصر الفاطميين، اذ كانت الريادة في هذا الميدان لأهل البلاد من القبط[٥].

(١) ديماند: المرجع السابق، ص ٢٨.
(٢) زكي محمد حسن: كنوز الفاطميين، ص ١١٧، ١١٨.
(٣) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٢٨٤.
(٤) البراوي: المرجع السابق، ص١٣٩.
(٥) سميكة: المرجع السابق، جـ١، ص ١٤٥.
ـ علي حسني الخربوطلي: مصر العربية الاسلامية، ص ٢٢٩.

موسى ويعقوب الفارسى المقطع وقبر الأريا وابو بولا وطلما(*). وفى دير برماوس اصبع مارى سويرس. وباسكندرية ايضاً قبور اليشع النبى وارميا النبى وبطرس المعترف ودم بطرك اسكندرية بطرس الشهيد واثار مارى مرقس الانجيلى وقبور جماعة من الشهدا، وفى دير سنجار جسد تكلة الرسوله العذرى وجسد فيلاتاوس الشهيد. وفى مصر جسد القديس اباهور [باهور] واخته مهراييل. وجسد ابو

(*) طلما : هى طمويه حيث تسمى كنيسة القديس بولى باسم بولى الطمولى.

ونظرا لعدم صلابة الأخشاب المحلية كالجميز والسنط والنبق والسرو فقد استوردت مصر الأخشاب الصالحة لهذه الصناعة من أوربا (١)، وذلك عن طريق تجار أمالفى وجنوة والبندقية(٢)، كما استوردت خشب الأرز والصنوبر من الشام وآسيا الصغرى، آما خشب الأبنوس فكان مصدره السودان، كما استوردت مصر خشب التك من الهند وشبه جزيرة الملايو (٣) فمصر بالرغم من ندرة الاخشاب بها إلا أنها قدمت أروع الاعمال الفنية الخشبية عبر التاريخ ويكفى أن نذكر هنا تمثال شيخ البلد المشهور. ويمكننا أن نسحب نفس القول على الذهب وما صنع منه فى مصر.

وبرع الصناع المصريون فى استخدام الأخشاب وبخاصة فى عمل السقوف والأبواب والنوافذ والمحاريب والقباب وما بها من حشوات جميلة (٤)، بجانب تصنيع كافة الأثاثات الفاخرة والتحف الخشبية الرائعة.

ونقش الصناع الأقباط نفس الزخارف التى نراها على خشب الجوامع والأثاث. ففى

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام، جـ٤، ص ٣٩٤.
(٢) عطية القوصى: تجارة مصر فى البحر الأحمر منذ فجر الاسلام حتى سقوط الدولة العباسية سنة ٦٥٦هـ، رسالة دكتوراة من جامعة القاهرة سنة ١٩٧٣م، غير مطبوعة ، ص ١١٠.
(٣) حسنين ابراهيم : تاريخ الاسلام ، جـ٤، ص ٣٩٤.
(٤) البراوى: المرجع السابق، ص ١٧٠.

يحنس بسنهوت الشهيد وبرباره القديسة، وفي دير الخندق جسد ابو بوله ابن يسطس، وفي دير ابو شنوده اخميم اجساد التلميذين برتلوماوس وسمعان القاناني من جملة الرسل الاثنى عشر وابو شنوده الاب القديس، وفي دير الشمع جسد بنوده الشهيد الجليل، وفي اسيوط جسد اكلوده الشهيد في كنيسة مارى بقطر وقبر ابو يحنس فولوبس وجسد بفام، وفي دير ابو السرى الذى في شطب

المتحف القبطى قبة مذبح أصلها من كنيسة المعلقة، وعلى جزئها السفلى عقود وصلبان فى فروع نباتية محفورة حفرا دقيقا تذكر بالزخارف الجصية فى الجامع الأزهر، مما يدل على ازدهار صناعة الحفر على الخشب ابان عصر الفاطميين على يد الصناع والفنانين من المصريين.

وازدهر هذا الفن ازدهارا يثير الاعجاب فى عصرى الظاهر والمستنصر وانتجت أيدى الصناع المصريين نماذج لصناعة النقش على الخشب تدل على أن هذا الفن بلغ أقصى درجات الفن والرقى فى عصر الفاطميين[1].

وكان للصناع والفنانين الأقباط أربع طرق لزخرفة الأخشاب منها: النقوش البارزة، والنقوش بطريقة التفريغ، وثالثة بتعشيق الخشب وتطعيمه بالعاج، ورابعة بالخرط، كما كانوا أيضا مهرة فى التطعيم بالعاج والصدف، وطريقتهم فى ذلك أن ينقشوا قطعة العاج أولا على انفراد، ثم يثبتونها فى اطار من الخشب قبل تركيبها فى الموضع المعد لها[2].

ومن أبدع الأمثلة الباقية للتحف الخشبية ـ الحفر على الخشب ـ فى بداية العصر الفاطمى حجاب الهيكل فى كنيسة الست بربارة بمصر القديمة ـ وهو معروض الآن بالمتحف القبطى

(١) ـــــ: نفس المصدر، ص ٢٠٧.
(٢) سميكة: المرجع السابق، جـ١، ص ١٤٥.

جسد الشهيد تادرس الامير قاتل الثعبان وهروفس الاسقف معه على دكة في بيت المذبح، وفي طمبدى جسد الشهيد ابا بيما في ديره، وفي دير ابا نوب انيف وستين راهب شهدا، واثارات سيدنا المسيح ووالدته القديسة [مريم] بديار مصر في عدة مواضع منها كنيسة المعلقة بمصر وكنيستها المعروفة بالدرج بمصر بنى وايل، وفي بسطه ومَنية طانا وسموسه وجبل الكف ودير بسوس

قطعة من النسيج مصور عليها الشهيد تادرس قاتل الثعبان.

بالقاهرة وهو يتألف من خمس وأربعين حشوة خلاف دائرة القبة العليا، والزخارف المحفورة متنوعة الموضوعات لطيور وحيوانات مفترسة وغزلان وأشخاص ومناظر للصيد والقنص، يتخلل تلك الزخارف صلبان، بجانب تفريعات نباتية تشكل مع غيرها من الرسوم وحدات زخرفية كاملة، وتعتبر حشوات هذا الحجاب أجمل ما بقى من صناعة خشبية في العصر الفاطمي، وأصدق مثال على ازدهار صناعة الحفر في الخشب على يد الصناع من القبط في عصر الفاطميين[1].

ولقد بقيت الرسوم الحيوانية والموضوعات الآدمية التى شاعت في الحفر على الخشب في بداية العصر الفاطمي مستمرة خلال القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى، وفي مجموعة الألواح الخشبية والأبواب التى عثر عليها في مارستان وقبة قلاوون وابنه الناصر محمد والتى يرجع تاريخ تصنيعها الى العصر الفاطمي الأول، نرى زخرفة حافلة بالرسوم

(١) ـــــــ: نفس المرجع، ص ١٤٧.
ـ ديماند : المرجع السابق، ص ١١٩.
ـ زكي محمد حسن : فنون الاسلام، ص ٤٥٢.
ـ ـــــــ: كنوز الفاطميين، ص ٢٠٤.

والاشمونين وفيلس وقوصقام [قوزقام] وجبل اشنين [مركز مغاغه] والمحرقه[مركز منفلوط] ومنها عاد الى مصر، وفى قفط ابو امسا، وفى الخصوص دير مارى بقطر الشهيد، وفى انصنا جسد القديس ابو قلته وشهدا كثير، وفى سمسطا ابو هروده الشهيد وفى قبلى ابو تيج جسد ابو بيشه الشهيد، فى كنيسته ومعه جسد يسه الشهيد وهما تابوتين، وفى اهناس ابو هليا الشهيد، وفى «قوص قام» ابو

حفر على الخشب يمثل ميلاد المسيح. كنيسة أبو سرجه ـ القاهرة ـ

المختلفة، لكن الحفر والرسوم فى تلك المجموعة أقرب الى الطبيعة، وأكثر اتقانا من مثيلها فى أوائل العصر الفاطمى وأقرب الى الواقعية، ونرى تأثير الأسلوب القبطى فى الفن واضحا كما هو فى استخدام الرسوم الآدمية والحيوانات والطيور [١].

واذا كان الكثير من الصناع الأقباط برعوا فى الصناعات الخشبية، فانه مما يجدر ذكره أن الرهبان بالأديرة قد اشتغلوا بالنجارة لسد احتياجات الدير من الصناعات الخشبية[٢].

فاذا ما انتقلنا الى الريف فاننا نجد أن المهيمنين على الصناعات الخشبية بالقرى هم النجارون من القبط، فقد ورث هؤلاء الأقباط عن أجدادهم سر هذه الصناعة مدة طويلة تصل الى القرن الثامن عشر الميلادى/ الثانى عشر الهجرى [٣]، وكانوا يستخدمون أخشاب الأشجار المحلية فى صناعة ما يلزم الأهالى والنوارج والمعاصر والأنوال والمغازل وغيرها من الآلات الريفية [٤]، والى عهد قريب كاد أن يكون كل نجارى القرى المصرية من الأقباط [٥].

(١) ديماند: المرجع السابق، ص ١١٩، ١٢٠.
(٢) سيدة كاشف: مصر فى فجر الاسلام ، ص ٢٥٩.
(٣) سمكة : المرجع السابق، جـ١، ص ١٤٥.
(٤) البراوى: المرجع السابق، ص ١٧١.
(٥) سميكة : المرجع السابق، جـ١، ص ١٤٥.

حفر على الخشب يمثل العشاء الأخير. كنيسة أبو سرجه ـ القاهرة ـ

هليتس الشهيد [أبو هلياس] وفى دير غربى قوص ابو بسنده، وغربى الدير عين ما، وفى دفرى [مركز طنطا] ابو اسحق الشهيد، وفى البنوانين ابكرجون. هذا ما رايته وتباركت به انا الخاطى واضع هذه السيرة سو مالم اراه مما يطول ذكره.

وحكى لى ابو البدر بطرس ابن مقاره ان صبى راهب لحقه عارض فى البهلس ببرية ابو مقار افلجه واخرسه، فحملوه الى القديس بسوس بدير ابو

(ح) صناعة المعادن والعاج:

برع المصريون فى صناعة المعادن وسبكها وزخرفتها اذ كانت هذه الصناعة من الصناعات التى عرف دقائقها وأسرارها قبط مصر منذ عهد الفراعنة، هذه الصناعة التى بلغت أرقى درجات الفن والجمال فى القرنين الرابع والخامس الهجريين. فقد عثر على كثير من التحف والأدوات المعدنية ذات الأغراض المختلفة والتى ترجع إلى عصر الفاطميين.

وعرف عن الصناع من المصريين وبخاصة الأقباط مهاراتهم الفائقة فى استخدام الذهب والفضة فى صنع أدوات الترف والحلي والسروج والسيوف والمصاحف المذهبة والملابس الموشاة وكثير من التحف التى رصعت بالأحجار الكريمة ونقشت عليها زخارف جميلة، وكلها تنم عن دقة الصنعة وجمال الفن، ورواج صناعة الذهب والفضة وتقدمها ورقيها فى ذلك العصر(١)، والدليل على ذلك ما وجد بخزائن القصور الفاطمية، وخزائن كبار رجال الدولة من تحف وذخائر من الذهب والفضة.

وكثر استخدام النحاس فى صناعة الأوانى والأدوات المنزلية، فقد اكتشفت مجموعة من المصنوعات النحاسية فى خرائب الفيوم ترجع الى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى

(١) سميكة: المرجع السابق، جـ١، ص ٨٩، ٩٠، ٩١.
ـ حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام، جـ٤، ص ٣٩٥.

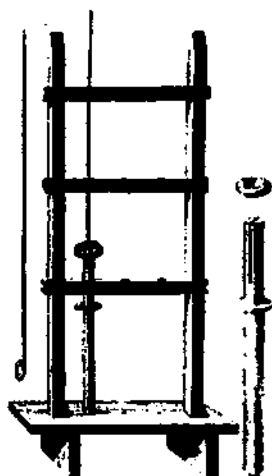
مغزل لعمل العبايات (الدفيات).

كما فجعله في كنيسة السيدة التى فى الجوسق واقام عنده ثلثة ايام ، فذكر الصبى انه ابصر ثلثة شخوص خارجين من باب الهيكل فقالو اثنين منهم للاخر وهو مقدمهم اقضى حاجة بسوس فى هذا الصبى، فدفعه برجله وقال له قم فقام الصبى صحيحاً مسوياً متكلماً، وللوقت ناداه بسوس من اسفل قبل ان يراه قايلا يا فلان انزل فنزل الصبى يسعى اليه وقد برى وسجد على رجله وتحدث بما

تشتمل على أدوات نحاسية للمائدة من صينية وأطباق نحاسية ووعاء للفاكهة (عليها رسوم أسماك ونصوص قبطية نقش عليها اسم صاحبها وتاريخ صناعتها)، كما عثر على دست من النحاس (عليه رسوم طيور بارزة وعلى غطائه صورة السيد المسيح مصلوبا)، وعلى ابريقين من نحاس نقش على واحد منهما رسم صليب، وعلى الآخر أشكال نباتية وعلى الغطاء رسمت حروف قبطية، هذان بجانب قدرتين من النحاس أيضا على واحدة منها نصوص قبطية وعلى الأخرى نصوص قبطية وتركية، وكذلك وجدت عدة مسارج نحاسية. ومن بين هذه المجموعة قبة مذبح من نحاس ترتكز على أربعة أعمدة على كل منها صليب مفرغ، وعلى القبة والصلبان نصوص قبطية باسم الصانع والتاريخ، كما وجدت بعض الأبواب وقد استخدام الصانع معدن النحاس فى عمل النقوش عليها، وكل هذه الأدوات النحاسية والنقوش التى عليها تعطينا دلالة واضحة على مهارة الصناع من الاقباط الذين برعوا فى هذه الصناعة[1].

كما استخدم هؤلاء الصناع البرونز فى صناعة المباخر وصنابير الأوانى وغير ذلك من الأشياء الدقيقة التى عملت بعضها على هيئة الحيوان أو الطير[2].

---

(١) سميكة: المرجع السابق جـ١، ص ٩٠، ٩٣، ٩٦، ٩٧، ١٠٣، ١١١.
(٢) زكى محمد حسنى : كنوز الفاطميين، ص ٢٣٤.
ـ البراوى: المرجع السابق، ص ١٧٣.

راه وسمعه. وحكى لى داوود ابن عبيد ان انسان وجد فى محله ابو على رجلا نصرانى اخرس مفلوج فحمله على دابة الى القديس بسوس بدير ابو كما وانه صلى عليه ثلثة ايام بلياليها فخرج من عنده ماشياً على رجليه متكلماً وعاد الى محلة ابو على يمجد الله وشاهدوه الناس صحيحاً ناطقاً.

مغزل لصناعة احزمة الوسط (المنطقة).

وفى يوم الاحد الثامن من بابه سنة ثمان ماية وثمانية للشهد حدثت زلزلة عظيمة بانطاكية وهى

وفى خرائب الفيوم عثر على عدة أبواب من الخشب صنعت اطاراتها من البرونز وعلى بعضها رسوم بارزة من البرونز لصور الملائكة والقديسين، ورسوم صلبان وعليها نقوش بارزة باللغة القبطية واليونانية، وعليها اسم الصانع، ومعظمها يرجع إلى القرنين الرابع والخامس الهجريين(١).

وعرف عن الصناع المصريين دقتهم ومهارتهم فى التكفيت اذ وجدت فى القاهرة عدة حوانيت لعمل الكفت وهو ما تطعم أو تطلى به أوانى النحاس من الذهب والفضة نظرا لاقبال الناس فى مصر على هذا الصنف من المصنوعات (٢).

واستخدم الحديد فيما يلزم صناعة البناء وبعض الصناعات والآلات البسيطة (٣)، واشتهرت بعض المدن الصناعية الكبرى فى ذلك الوقت بصناعة الآلات الحديدية، ففى مدينة الفسطاط عرفت صناعة الحديد المستورد من أوربا وصقلية وبلاد المغرب (٤)، ويتحدث المقريزى عن «المناخ السعيد» وهو الذى كان مركزا لصناعة الحديد وآلات الأساطيل من

(١) زكى محمد حسن: كنوز الفاطميين، ص ٢٤٢.
(٢) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام، جـ٤، ص ٣٩٥.
(٣) البراوى: المرجع السابق، ص ١٧٢.
(٤) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام، جـ٤، ص ٣٩٤.

يوميذ فى ملك الغز فسقط منها اثنين وثلثين برجاً من باب البحر الى باب فارس وانخسف بعضها ودخل النهر العظيم المعروف بالعاصى اليها وشق وسطها، وتحدثوا الناس بان رجلا وضع علماً فى كتاب وقراه جماعة من الناس يذكر فيه بان سنة خمس وثمانين واربع ماية الهلالية تحدث امور عظيمة وينقص الما وتخرب البلاد، فابطل الله حكمته وما قاله واتى بخلافه وصعد الما وفاض

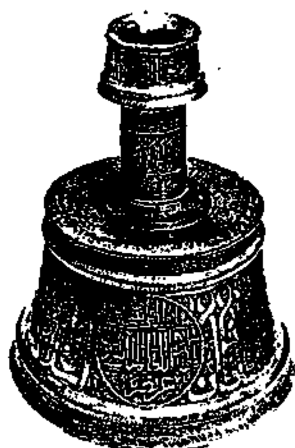

شمعدان من النحاس للسلطان الأشرف أبو النصر قايتباى.

الأسلحة [1]. ويذكر ناصرى خسرو ان الصناع فى مدينة تنيس كانوا «يصنعون بها آلات الحديد كالمقراض والسكين» وأنه رأى مقراضا صنع بتنيس بلغ خمسة دنانير مغربية [2] ولا ننسى أن أغلب سكان تلك المدينة كانوا من الاقباط، كما استخدم الحديد فى صنع بعض الأشياء البسيطة، فقد وجد فى كنيسة أبى سيفين كرسى من الحديد يرجع الى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى [3].

وقد استخدم العاج فى صناعة أشياء كثيرة كقطع الشطرنج والنرد والعلب الصغيرة الثمينة المطعمة بالعاج[4].

وفى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى يتحدث ناصرى خسرو عن «أنياب الفيل» المستورد من زنجبار والتى شاهدها فى أسواق مدينة الفسطاط، كما رأى الأمشاط ومقابض السكاكين والتى عدها ناصرى خسرو من طرائف ما شاهده بأسواق مصر [5].

(١) المقريزى: الخطط ، جـ١ ، ص ٤٤٣.
(٢) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٤٠.
(٣) سميكة: المرجع السابق، جـ١ ، ص ١٠٠.
(٤) البراوى: المرجع السابق ، ص ١٧٤.
(٥) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٥٩.

على الارض وزاد عن الحد حتى غطا اراضى لم يصعد عليها الما من سنين، وزرعت البلاد وتزايد الرخا حتى ابيع القمح بالريف عشرة ارادب بدينار بالكيل الدوار، واكثر من ذلك بالنواحى البعيدة من البحر ولله الشكر دايما.

كان الغز قد ملكو مدينة القدس المحروس وقد كذبو نزول النور فى كنيسة القيامة المقدسة على المقبرة الشريفة، فلما علمو صحة نزوله فى كل

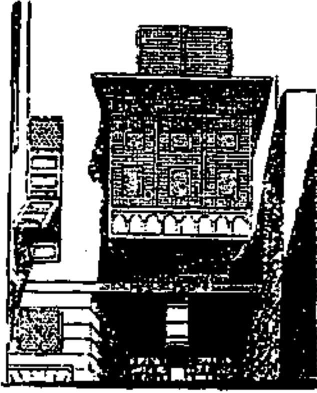
صناعة الشبابيك والمشربيات الخشبية.

وكان التطعيم أكثرن المجالات التى استخدم فيها العاج على يد الصناع من القبط، إذ أن صناعة النقش على العاج التى برع فيها الصناع الأقباط تمركزت فى الأقاليم التى يكثر فيها السكان الأقباط [1].

(د) صناعة الورق والتجليد:

اشتهرت مصر بصناعة ورق البردى وظلت تحتكر هذه الصناعة طوال عصر الولاة، وكان معظم الصناع المشتغلين بصناعة ورق البردى من القبط، غير ان صناعة اعداد ورق البردى للكتابة انتهت فى مصر حوالى القرن الرابع الهجرى، وحل الكاغد الذى كان يصنع فى سمرقند والصين محل البردى فى الكتابة[2].

ومع مجئ الفاطميين إلى مصر اهتمت الدولة بالحركة العلمية، وجمعت نوادر الكتب والمخطوطات لتضم الى خزانة الكتب الفاطمية لتصبح منافسا عملاقا لمكتبات بغداد وقرطبة، كما شجع الخلفاء الباحثين والدارسين وطلاب العلم، وكان الجامع الأزهر أعظم جامعة

(١) زكى محمد حسن: كنوزا لفاطمين، ص ٢٢٥.
(٢) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام، جـ٣، ص ٣٢٥.
- متز : الحضارة الاسلامية فى ق ٤هـ، جـ٢، ص ٣٠٨، ٣٠٩.

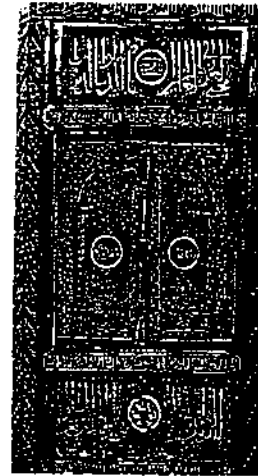

قائمة من اربعة ضلف يوضع عليها صينيه بالصفحة المقابلة.

سنة راعو النصارى المقيمين فيها واستخدمو فى عمالة البلد رجلا نصرانى يعقوبى محب للمسيح يعرف بمنصور البلباتي وله زوجة مثله وهو معونة [معاون] لكلمن يصل الى القدس من النصارى من مصر وغيرها من الافاق، واجتهد الى ان أعمر كنيسة اليعاقبه الارتدكسين فى القدس وكتب الى الاب البطرك يساله انفاذ من يكرزها، واستقر «مصير» احد الاساقفه لتكريزها فتوجه فى برمهات

اسلامية فى ذلك العصر (١)، وأصبحت «دار الحكمة» مفخرة العصر بما ضمته من كتب ومؤلفات وكل ما يمت الى الحركة العلمية بصلة(٢).

وكان لكبار رجال الدولة من أهل الذمة سواء من اعتنق منهم الاسلام حديثا أو ظل على دينه دور بارز فى هذا المجال، فكان للوزير ابن كلس دوره الهام فى خلق نواة الجامعة الأزهرية التى كانت مركز اشعاع فى مصر الفاطمية (٣)، كما أنشأ ابن كلس فى قصره خزانة للدفاتر، وجعل على رأسها ناظرا للاشراف عليها، ووفر لها جماعة من النساخ والمشتغلين بتجليد الكتب والدفاتر (٤).

وقد ضمت المكتبات الخاصة بأهل الذمة وبخاصة الأطباء منهم الكثير من الكتب العلمية

---

(١) البراوى : المرجع السابق، ص ١٦٠، ١٦١.
ـ ماجد: ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر، ص٣٣٢.
ـ سرور : مصر فى عصر الدولة الفاطمية، ص ٢١٨، ٢١٩.
(٢) عنان: تاريخ الجامع الآزهر، ص ٥٠.
ـ ماجد: ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر ، ص ٣٣٢.
(٣) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين، ص ٣١، ٣٢.
(٤) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٥.

سنة ثمان ماية وثمانية للشهد، وفى هذه السنة تنيح مرقس اسقف البلينا وهو مقدم جميع الاساقفة، وكان الاب البطرك انبا كيرلص قد تأخر عن الدخول الى برية ابو مقار فى هذه السنة، وكان ينتقل من دير الشمع غربى طموه الى جوسق كنيسة ميكاييل المختارة بجزيرة مصر الى كنيسة المعلقة بقصر الشمع، وكان لا يفتر من قراة الكتب المقدسة وكان اكثر قراته فى تفسير

والصينية مصنوعة من النحاس المكفت بالفضة. وهي تخص الملك الناصر قلاون بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة.

والمخطوطات النادرة، أو الكتب العلمية التى قاموا بتأليفها بتكليف من الخلفاء أو تقربا اليهم(١).

كذلك امتلأت كنائس وأديرة الأقباط بنفائس الكتب والمصنفات الدينية والمؤلفات والكتب المترجمة إلى العربية، هذا بجانب اقتناء البعض من القبط العديد من الكتب. وعلى الرغم من أن ا لكثير من الكتب والمخطوطات التى كانت فى حوزة الكنائس والأديرة والأفراد قد أهملت أو تبدد الكثير منها، الا أنه قد بقيت بعض الكتب والمجلدات كاملة ، فقد عثر على بقايا كتب وقطع من البردى والرقوق محفوظة الآن بمتاحف أوروبا وأمريكا والمتحف القبطى بالقاهرة ودار البطريركية القبطية بمصر (٢).

وقد استعمل الأقباط البردى في الكتابة حتى القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى، ثم استبدل الأقباط البردى بالرقوق التى استمر استعمالها الى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى، ويوجد من هذه الرقوق عدة مجلدات كاملة. ومن أحدث الكتب المخطوطة على الرق كتاب تكريز الكنائس الجدد بمكتبة دير السريان، وتاريخه يرجع إلى سنة ١١٨١م،

(١) ابن أبى أصيبعة: المصدر السابق، ص ٥٤٥، ٥٤٨، ٥٤٩.
(٢) سميكة: المرجع السابق، جـ١، ص ٣٨، ٣٩.

الاناجيل المقدسة الاربعة بالقبطى حتى فهم منها شيأ كثير وتكلم عليه، انا المسكين يوحنا ابن صاعد القلزمى ناسخ هذه السيرة(*) اعرف حقيقة ما تضمنه هذا الفصل، وذلك انى مضيت اليه فى كنيسة ميكاييل المختارة يوم الاحد لاتبارك [لأتبارك] منه واتقرب فيها فوجدته قد نزل من الجوسق وهو جالس فى الكنيسة فسلمت عليه واخذت بركته ففرح بى وبارك على واكرمنى، وكان رزقنى الله

(*) ناسخ هذه السيرة هو يوحنا ابن صاعد القلزمى.

ثم استعملوا أخيرا الورق الكتان [١]، وهو نوع من الورق المطبوخ من الكتان والقطن. وكانت الفسطاط من أعظم مراكز انتاج الورق [٢].

وكانت عملية التجليد تشمل الجلدة الخارجية والبطانة والحرير، كما استعمل الورق فى البطانة، واستعمل الصناع جلود العجول واستخدموا الحرير والديباج والأطلس فى التجليد وبخاصة تجليد المصاحف [٣].

وقد عثر على بعض الجلود التى ترجع الى القرن الرابع الهجرى، وهى عظيمة الشأن، لأن تأثير الصناعة والفن القبطى ظاهر فيها، ففى بعض الجلود زخارف مجدولة ووريقات شجر مهذبة تقليدية تتخذ أحيانا شكل القلب وفى بطانة جلدة منه نرى آثار رسوم هندسية ونباتات ورسم طائر صغير ووريدات جميلة. ويرى علماء الآثار الاسلامية أنه من الصعب التميز بين جلود العصر الفاطمى والجلود التى صنعت فى القرن الذى سبق قدوم الفاطميين الى مصر، لأن التطور كان بطيئا، غير أن أساليب الصناعة قد استقرت فى هذا العصر، وازدهر الفن طبقا لناموس العرض والطلب[٤].

(١) ــــــ: نفس المرجع السابق، ص ٣٩.
(٢) البراوى: المرجع السابق، ص ١٦٢.
(٣) ــــــ: نفس المرجع والصفحة.
(٤) زكى محمد حسن: كنوز الفاطميين، ص ١٠٧، ١٠٨.

بركة صلواته، وهو راهب قديس روحانى متواضع وديع زاهد جداً باغض للقنية [لتملك المال] يصدق [يتصدق] بجميع ما يحمل اليه من الكراسى على الضعفا، ومنه ما يصرفه فى عمارة الكنايس والديارات، ومنه ما يصوغ به انية فضة رسم الهياكل المقدسة، ومنه ما يعين به النصارى المصادرين ويفكهم من العقوبة حتى انه لما تنيح لم يوجد له دينار ولا درهم، وكان افعاله كلها حسنة

حفر على الخشب. متحف الفن الإسلامى بالقاهرة.

(هـ) صناعة الزجاج والبلورا لصخرى والخزف:

بلغت صناعة الزجاج أرقى درجات الفن فى عصر الفاطميين. وكثر الطلب عليها نظرا لضخامة النهضة العمرانية التى عمت البلاد، وتعدد الأغراض التى استخدم فيها الزجاج، فقد اشتهرت بعض المدن بصناعة الزجاج ومن أهمها الفساط ، والفيوم، والأشمونيين، والشيخ عبادة (بكورة البهنسا، المنيا الآن)، والاسكندرية (١)، كما راجت تجارة الصناعات الزجاجية، فقد عثر على بقايا تحف ونماذج زجاجية فى كثير من المدن مثل مدينة حابو، وكوم بلال، وقوص، وأبيدوس، وأخميم، وأسيوط ، والمنيا، والبهنسا، واهناسيا المدينة، وهوارة، وأطفيح، وسقارة وميت رهينة، وكوم الأتريب (٢).

وكانت أرقى المصنوعات الزجاجية هى الزجاج المذهب المزين بزخارف لها بريق معدنى، التى حاول فيه الصناع تقليد البلور الصخرى (٣).

أما عن صناعة البلور الصخرى، فقد تحدث عن تلك الصناعة ناصرى خسرو أثناء جولته «بسوق القناديل» بالفسطاط، فقد رأى معلمين مهرة ينحتون بلورا غاية فى الجمال «وكان

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام، جـ٤، ص ٣٩٧.
(٢) البراوى: المرجع السابق، ص ١٥٦، و كذلك الحاشية رقم ٢ بنفس الصفحة.
(٣) ـــــــ: المرجع السابق، ص١٦٩.

جميلة، وكان حلو المنطق مقبول الصورة صايم الدهر كثير الصلاة، لا ياكل مما يعمل فى قلايته لتلاميذه شياً من الالوان الا لون واحد يقدم له في زبدية، اما من الحبوب او من البقول يستعمل منه اليسير من العشا الى العشا، فجلست بين يديه وتحدثت معه الى ان اجتمعو الكهنة فسالوه وسالته بمطانوات حتى قدس وتقربنا كلنا من يده الطاهرة وهو يدعو لكلمن يتقدم الى القربان بالقبطى

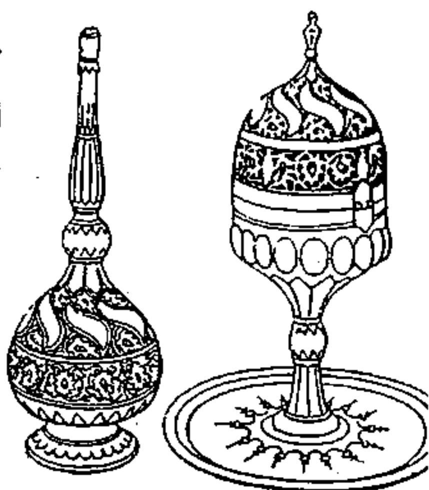

قمقم ومبخرة من النحاس.

يستورد من بلاد المغرب كما كان يستخرج بالقرب من ساحل البحر الأحمر [١]، وكان وجود البلور الصخرى في مصر سببافى انخفاض ثمنه ووفرة انتاج التحف البلورية، وفى خزائن القصور الفاطمية شاهد أحد المستخدمين فى بيت المال صندوقا من الصناديق التى نهبت من قصور المستنصر ذات يوم، وهو مملوء بأباريق من البلور النفيس بعضها منقوش ويبدو أنها كانت لشراب الفقاع [٢].

وتركت الرسوم والزخارف القبطية أثرها على الخزف ذى البريق المعدنى الذى كان فخر صناعة الفخار فى مصر الفاطمية، وقد تفوقت صناعة الخزف ذى البريق المعدنى على أيدى الصناع المصريين، فصنعوا منه الأزيار الكبار والأوانى المستعملة فى حفظ العطور والبخور وكثيرا من الأشياء التى يستخدمها الناس، كما امتلأت الخزائن فى قصور الخلفاء الفاطميين وكبار رجال الدولة بروائع التحف الخزفية[٣].

وكان لتوفر الطين الأصفر بمصر الذى يصنع منه الخزف [٤]، أن توافر انتاج الأوانى

(١) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٥٩.
(٢) زكى محمد حسن: كنوز الفاطميين، ص ٤٤.
(٣) ـــــ: نفس المرجع، ص ١٥٧.
ـ ديماند: المرجع السابق، ص ٢١٦.
(٤) أبو صالح الأرمنى: المصدر السابق: ص ٥٣.

ويبارك عليهم، فلما سرح[صرف] الشعب وخرجو هممت بالخروج فخرج الى بطرس مقدم تلاميذه وقال لى : ابونا يقول لك بمطانوه اجلس حتى اخرج من المذبح، فجلست الى ان خرج فقال لى بمطانوه: اطلع عندى اتحدث معك اليوم وانس بك. فقلت: السمع والطاعة. فطلعت معه الى الجوسق وابا افرهام كاتبه، وكان بعد الظهر وقدمو التلاميذ المايده فاكلت انا وابا افرهام، وجااو بالنبيذ

إناء من الزجاج الأزرق صنع بالفسطاط وهو النموذج الوحيد المعروف من هذا الطراز.

الخزفية الممتازة، وقد شاهد ناصرى خسرو فى أسواق الفسطاط الأقداح والصحاف التى بلغ من جودتها أنه رأى يده بوضوح بظهر الاناء، وكان التجار يضعون ما يبيعونه فى أوانى من الخزف بدلا من الورق(١).

وكان أشهر صانعى الخزف فى مصر الفاطمية مسلم وسعد، وقد اشتهرت مدرسة مسلم وتلاميذه بالزخارف الحيوانية والآدمية والنباتية فى زخرفة الأوانى الخزفية فضلا عن الحروف الكوفية (٢).

وتبدو الصلة بين ما أنتجه سعد ومدرسته وبين الخزف ذى البريق المعدنى قبل العصر الفاطمى، ولا سيما فى رسوم الحيوانات(٣).

ولا غرو فقد كانت رسوم الحيوان والرسوم الآدمية العنصر الأساسى فى زخارف العصر الفاطمى، بجانب رسوم الطيور والفروع النباتية والأوراق، ذلك أن الفن القبطى ترك أثرا واضحا فى زخرفة الخزف، وهناك قطعة من الخزف ذى البريق المعدنى عليها رسم السيد

(١) البراوى: المرجع السابق، ص ١٦٧.
(٢) زكى محمد حسن: كنوز الفاطميين، ص ١٥٧.
(٣) ديماند: المرجع السابق، ص٢١٦.

فامتنعت من شربه لانه كان زمان الصيف وانا اكره استعماله في الصيف، ثم جلست بين يديه لاتحدث معه فاعلمه انبا افرهام اني ما شربت شي فعتبني على ذلك، فاعلمته اني اتاذى بشربه في الصيف، فقال لي : ثلثة اقداح ما تضرك، فقلت: يا مولاى اذا كان من يدك المقدسة ما يضرني بل ينفعني غاية المنفعة، فاشار الى التلميذ فناوله قدح فبارك عليه وناولني اياه فقمت وقبلت يديه واخذته منه

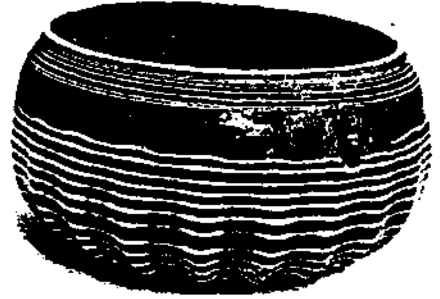

سلطانية من الزجاج الصخرى
من العصر الفاطمى والأيوبى.

المسيح، وحولها اكليل النور المعروف، وهذه القطعة من انتاج مدرسة سعد، ونظن ذلك لوجود صورة السيد المسيح على أنه من المحتمل أن سعدا كان من سلالة الأقباط [(١)].

أما عن صناعة الفخار الذى كان يصنع من الطين، فكانت صناعته واسعة الانتشار فى بلاد الصعيد الأعلى حيث يوجد أجود أنواع الطمى، ومنه كانوا يصنعون الأزيار والقلل وأوعية الخل والنبيذ والسمن وجرار العسل وكثيرا من الأشياء التى كان يستخدمها العامة [(٢)].

(و) صناعة الخمور:

ان ما ساد الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى العصر الفاطمي الأول من ازدهار وانتعاش، ومن انتشار روح اللهو والمرح وبخاصة فى الاحتفالات والمواسم والأعياد المختلفة التى كثرت فى ذلك العصر، وما شاب هذه الاحتفالات من مظاهر الفرح قد أدى إلى انتشار عادة شرب المسكرات بمختلف أنواعها بين كثير من الناس.

لذلك انتشرت صناعة الخمور انتشارا كبيرا لكثرة الطلب عليها، وازدهرت تلك الصناعة

(١) زكى محمد حسن: كنوز الفاطميين، ص ١٥١، ١٥٣، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣.
(٢) البراوى: المرجع السابق: ص ١٦٧.

وشـربتـه وكـذلك الثـانى والثـالث، ثم اخـذنا فى الحديث فى العلوم الشرعية وشرف مذهبنا وجلالته وحسن اوصافه وقوانينه وما فيه من فنون التواضع والتفضل والمحبة، وانساق حديثنا فيما هذا سبله الى ان ذكـرنا مـا انعم الله تعـالى ومـا ظهـر من عظم محبته لجنس البشر حتى انه جل اسمه ارسل ابنه الوحيد الازلى معه الكلمة الخالقة فاتحد بطبيعتنا واخذ منها جسداً صيره معه واحداً وبرز من امراة

طبق من الخزف الصينى صنع بالفسطاط .

فى المراكز الصناعية والتجارية الكبرى فى مصر، فكانت الفسطاط والقاهرة من مراكز صناعة الخمور، وكانت الاسكندرية والفيوم بوجه خاص من أهم مراكز تلك الصناعة[١].

كما وجدت معاصر الخمور فى المدن الصناعية الكبرى كتنيس حيث تكثر حولها مزارع الكروم ويغلب على سكانها الصناع من القبط[٢]

وفى ريف مصر كانت الخمور تعصر بكثرة وبخاصة فى موسم نضج محصول العنب، «ففى شهر مسرى يكون وفاء النيل، وفيه يعصر قبط مصر الخمر» [٣] وكان معظم الانتاج من النبيذ فى الريف يستهلك محليا ولا يصل منه المدن الكبرى الا كميات قليلة، ولذلك ارتفعت أسعار النبيذ فى المدن لكثرة الاقبال عليها [٤].

واشتهرت منطقة شبرا ونواحيها بأنها كانت واحدة من أكبر مراكز عصر الخمور فى مصر، وكان فلاحو شبرا يعتمدون دائما فى وفاء الخراج على ما ينتجونه من الخمر وما يبيعونه منه فى عيد الشهيد[٥].

(١) البراوى: المرجع السابق، ص ١٨٣، ١٨٤.
(٢) ابن دقماق: المصدر السابق، جـ٥، ص ٧٨.
(٣) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٢٧٢.
(٤) ـــــ: نفس المصدر، ص ١٢٩، ٣٦٧.
(٥) ـــــ: نفس المصدر، ص ٦٧، ٦٨.

طبق من الخزف الصيني صنع بالفسطاط.

عذرى طاهرة من غير زريعة بشر، وولد منها الاه تام وانسان تام ولم تفك خواتيم عذرتها المطهرة بل بقيت عذرى بتول كما لم تزل، وكانت ولادته المقدسة فى زمان محدود وشهر معروف ويوم معلوم، وكان [هذا اليوم] مشهور مفهوم، وارتضع منها اللبن بانسانيته وهو مطعم كل الخليقة بلاهوته، وكان ينشو فى القامة والحكمة، كما قال لوقا الإنجيلى انه قبل الالام بناسوته وهو منشى

وفى الأديرة كانت تزرع الأعناب ومنها يعصر الرهبان النبيذ، ويصنعون الزبيب لاستعمالهم داخل الدير [١]، كما أن بعض هذه الأديرة كان مقصد الناس للنزهة والتسلية [٢].

ويعتبر النبيذ المستخرج من الكروم من أجود أنواع الخمور، وكان استعماله يكاد يكون قاصرا على الأثرياء وأفراد الطبقة العليا فى المجتمع لارتفاع ثمنه [٣]، أما الغالبية العظمى من المستهلكين للمسكرات فكانوا يحتسون الفقاع، وهو نوع من البيرة كان شائعا فى القاهرة ابان عصر الفاطميين [٤]، كما كانوا يشربون المزر والنيدة، وكانا يصنعان من القمح والشعير[٥]، هذا بجانب أنهم كانوا يتخذون من العسل شرابا مسكرا [٦].

والواقع أن صناعة عصر الخمور كانت منتشرة فى أنحاء مصر وكان الانتاج وفيرا، وليس أدل على كثرة الخمور وانتشارها فى البلاد من تلك الكميات التى كانت تباع فى ناحية شبرا

(١) أبو صالح الأرمنى: المصدر السابق، ص ٩٦.
ـ ابن فضل الله العمرى: المصدر السابق، جـ١، ص ٣٣٧.
(٢) ــــــ: نفس المصدر، جـ١، ص ٣٧٣.
(٣) البراوى: المرجع السابق، ص١٨٤.
(٤) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٤٩.
(٥) البراوى: المرجع السابق، ص ١٨٤.
(٦) سبط بن الجوزى: المصدر السابق، جـ١١، ورقة ٤٠٢.

الخلايق ما يرى منها ومالا يرى بلاهوته، ثم ذكر عظيم فضله علينا بما احتمله عنا فى جسده الماخوذ منا وصبره على ما ناله فيه من اليهود والمخالفين من الهوان والالام والصلب والتسمير على الخشبة وغير ذلك مما الاناجيل المقدسة تشهد به حتى الى الموت والدفن فى المقبرة المقدسة، وان الله الكلمة احتمل هذه الاوصاف والنقايص كلها فى جسده الذى اخذه من طبيعتنا وهو متحداً به

جزء من طبق خزف صينى عليه رسم المسيح.

وحدها والتى بلغت قيمة ما بيع منها فى أحد أيام عيد الشهيد بما ينيف على مائة ألف درهم فضة منها خمسة آلاف دينار ذهبا (١).

وعلى الرغم من انتعاش صناعة عصر الخمور فى بداية العصر الفاطمى، فان صناعة المسكرات لم تتعرض للحد من انتاجها والتضييق عليها الا فى القليل النادر أيام خلافة المعز لدين الله وابنه العزيز بالله الفاطمى، عندما كانت تصدر الأوامر بالغاء بعض الأعياد أو تقييدها، ثم العودة اليها مرة ثانية.

وفى سنة ٣٩٧هـ/ ١٠٠٦م منع الحاكم بأمر الله من التظاهر بالغناء ومن ركوب البحر (لا نخفاض النيل)، وبيع المسكرات ومنع الفقاع، وفى شهر صفر من العام نفسه قبض على بعض المشتغلين بالفقاع وضربهم وشهر بهم لمخالفتهم أوامره (٢). وفى سجل أصدره فى ربيع الآخر سنة ٣٩٩هـ أمر بألا يحمل شئ من النبيذ والمزر ولا يتظاهر بشئ منه ولا بشئ من الفقاع والترمس المخمر، وأمر بقتل من يضبط سكرانا (٣)، وفى صفر من العام التالى شهر بجماعة بعدها ضربوا بسبب الفقاع والترمس(٤).

(١) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٦٩.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٢٨٦.
(٣) ابن أيبك: المصدر السابق، جـ٦، ورقة ١٧٠.
(٤) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٣٤١.

اطباق من الخزف الفاطمي والأيوبي.

لم يفارقه طرفة عين منذ حلوله في الاحشا البتولية والى حين صعوده الى السما والى ابد الابدين. فقلت: يا ابونا القديس ادام الله تعميرك، هذا الجسد الماخوذ من جبلتنا من لحم ودم مرتمريم العذرى القديسة الذى حملته في احشاها تسعة شهور والله الكلمة متحداً به وصيره ومعه واحداً ولم يفارقه ولا يفارقه ابد، ولدته في بيت لحم في زمان اوغسطس ملك الروم وولاية هيرودس على

ولقد وصلت الينا صورة من سجل أصدره الحاكم في شهر ذى القعدة سنة ٤٠٠هـ، نهى فيه الكافة عن الالمام بالمسكر، أو شربه، على اختلاف أصنافه وأسمائه وألوانه وطعومه، قليلة وكثيرة، كما نهى عن اقتنائه أو عمله واعتصاره، وطالب رجال دولته المسئولين بتعقب المخالفين لأوامره (١).

وحظر على النصارى تقديم شراب النبيذ أثناء اقامتهم للشعائر الدينية في الأعياد، على أن الناس لم يلتزموا بذلك، ففي موسم العنب من هذا العام أخذ الناس في اعتصاره سرا مما دعا الحاكم بأمر الله الى تغريق العنب في النيل (٢).

واذا كانت أنواع المسكرات كالنبيذ والفقاع والمزر والنيدة والزبيب والعسل ـ حيث يصنع من الأخيرين المسكر ـ قد تدهورت صناعتها في خلافة الحاكم بأمر الله الذى أصدر القوانين الصارمة بمنعها وتعقبها وانزال أقصى العقوبات بالمشتغلين في مجالها، فان هذه الصناعة قد انتعشت من جديد في خلافة الظاهر لاعزاز دين الله عندما أغفل ما سبق صدوره من القوانين المحرمة لشرب المسكرات، فأقبل الناس على احتسائها وارتياد الملاهى، بل ان الخليفة الظاهر

(١) رسائل الدعاة: مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٣٧ عقائد ونحل، ورقة ١٠، ١١.
(٢) الانطاكي: المصدر السابق، ص ٢٠٠ ـ ٢٠٢.

ابريق من الخزف.

ارض الشام بعد خليقة ابونا ادم بخمسة الف وخمس ماية سنة ورواه الناس ولمسته ايدى البشر ونالته الالام والضرب والهوان والصلب والتسمير على الخشبة والموت والدفن فى القبر وكل النقايص التى تشهد بها الاناجيل المقدسة، كيف ينساغ لمن له فهم وعقل ان يقول عنه ما يوجب افتراقاً او يحدث شكوكا. قال: لا، ففرحت بما سمعته منه وعرفت انه قد قرى الكتب الالهية

- -

نفسه أقبل على شرب الخمر، و مجالس الطرب والغناء، فازداد حب الناس لحياة اللهو والمغانى وشرب المسكرات[1].

وشهد عصر المستنصر بالله الفاطمى مزيدا من اقبال الناس على شرب الخمور، وبالتالى ازداد الطلب عليها وراجت صناعتها.

فكان الخليفة المستنصر بالله يشرب الخمر، ويسقيها الناس، وكان يخرج فى كل سنة مع النساء والحشم الى جب عميرة بهيئة أنه خارج للحج على سبيل الهزؤ والمجانة ومعه الخمر فى الروايا عوضا عن الماء ويسقيه الناس[2].

هذا مع ما صاحب عصر المستنصر بالله فى أيام الرخاء من اقبال الناس على الحفلات والأعياد والمناسبات والمتنزهات، وطلب الناس شرب المسكرات مما أدى إلى ازدهار وانتعاش صناعة النبيذ والزبيب والفقاع والمزر والنيدة وكل ما يتخذ منه مسكرا.

(ز) صناعة السكر والعسل:

شهدت مصر فى العصر الفاطمى الأول انطلاقة كبيرة فى صناعة السكر والعسل، فقد

(١) المقريزى الحنفا، جـ٣، ص ١٢٩.
ـــــــــــ: الخطط ، جـ١ ، ص ٣٥٣ ، ٣٥٤.
(٢) ـــــــــ: الخطط ، جـ٢، ص ١٦٢.

وتفاسيرها وفهمها، وانما اوردت هذا فى هذه السيرة تصديقاً لما قاله واضعها عن الاب انبا كيرلص المذكور انه قرى التفاسير وفهمها وتكلم عنها، قال واضع هذه السيرة، وتنيح الاب القديس انبا كيرلص المذكور نيح الله نفسه الطاهرة ورزقنا بركة صلاته فى يوم الاحد الثانى عشر من بوونه سنة ثمانماية وثمانية للشهد وهى سنة احدى

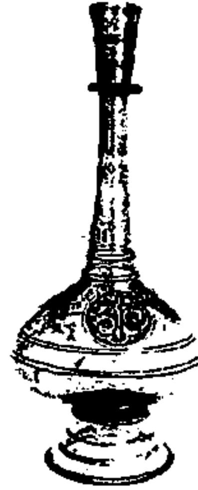

زجاجة للعطور صنعت فى العصر الفاطمى.

عرفت البلاد فى هذا العصر العديد من الأعياد والمناسبات والمواسم والاحتفالات التى شدت اهتمام الناس على اختلاف طبقاتهم، بجانب ما أدخله الفاطميون من تقاليد وما جرت به العادة فى شتى المناسبات على عمل الاسمطة التى زخرت بألوان الطعام والشراب وأنواع الحلوى، كما كانت الولائم تعتبر من وسائل التسلية فى هذا العصر، وتطلب ذلك الاهتمام بصناعة السكر والعسل والحلوى والفطائر والكعك (١).

وحيث توجد مناطق زراعة القصب تكثر مراكز صناعه السكر ومعاصر القصب ومعامل العسل، ومن أشهر مراكز صناعة السكر والعسل فى العصر الفاطمى الأول مدينة الفسطاط(٢)، والفيوم (٣)، وقفط (٤)وسمهود (٥)، وأسيوط (٦)، وترنوط(٧)، وفى بعض هذه المراكز كالفيوم وأسيوط وترنوط يغلب عليها السكان من القبط.

(١) البراوى: المرجع السابق، ص ١٧٦.
(٢) ابن دقماق: المصدر السابق، جـ٤، ص ٤١، ٤٢.
(٣) أبو عثمان الصفدى : المصدر السابق، ص ٢٩، ٤٠.
(٤) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٢٣١.
(٥) ابن ظهيره: المصدر السابق، ص ٦٤.
(٦) ياقوت: المصدر ا لسابق، جـ١، ص ١٩٣.
(٧) البراوى: المرجع السابق، ص ١٧٨، حاشية ١.

وثمانون واربعماية الهلالية بعد ان تناول القربان المقدس، وكانت مدة بطركيته منذ وضع اليد عليه فى دير ابو مقار اربعة عشر سنة وثلثة شهور ونصف، ودفن فى كنيسة ميكاييل المختارة بجزيرة مصر صلواته معنا امين، وحمل جسده بعد ذلك الى دير ابو مقار بوادى هبيب المقدس والمجد لله دايماً ابداً.

طبق من الصينى عليه رسم لحيوان برأس إنسان.

* * *

وكثرت مطابخ السكر ومعامل العسل فى مدينة الفسطاط، وكانت بعض تلك المطابخ والمعامل فى حوزة عدد من اليهود القطنين فى تلك المدينة الصناعية الكبرى [١]، واشتهرت مدينة قفط بكثرة ما بها من مسابك السكر ومعاصره [٢]، كما كانت أسيوط تنتج سائر أنواع السكر [٣] ويتضح مما ذكره أبو عثمان الصفدى أن معاصر القصب كانت منتشرة فى بلاد الفيوم وأن العديد من تلك المعاصر الملحقة ببعض النواحى كان أصحابها من الأقباط، وأن تلك المعاصر كانت تتكون من حجرتين وتدور بالأبقار [٤].

وعرف عن سمهود أنها كانت «كثيرة المعاصر لقصب السكر»[٥]، وكان لكثرة مطابخ السكر ومعامل العسل ومعاصر القصب ووفرة الانتاج أن رخصت أسعار الحلوى وكثرت أسواقها.

غير أن صناعة العسل تعرضت للتدهور عدة سنوات ابان خلافة الحاكم بأمر الله، وانخفض انتاج العسل بسبب قراراته بشأن تحريم المسكرات، اذ كان يتخذ من العسل مسكرا،

(١) ابن دقماق: المصدر السابق، جـ٤، ص ٤١، ٤٢.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٢٣١.
(٣) ياقوت: المصدر السابق، جـ١، ص ٢٥١.
(٤) الصفدى: المصدر السابق، ص ٢٩، ٤٠.
(٥) ابن ظهيره: المصدر السابق، ص ٦٤.

باسمك يارحمن ابتدى(*)

قال يوحنا ابن صاعد بن يحيى ابن مينا المعروف بابن القلزمى الكاتب انى لما كملت نسخ جميع ما وضعه الابا القديسين المتقدمين من سير البيعة المقدسة وهى ستة وعشرون سيرة وما جرى فيها للابا البطاركة باسكندرية وهم سبعة وستين بطركا اولهم مرقس الانجيلى واخرهم ابا كيرلص الثانى القديس الروحانى، وجعلت ذلك فى ثلثة

(*) نبذة هامة حول البطاركة السابقين واللاحقين وكتاب ونساخ سيرهم.

طبق شفاف عليه كتابه بالبنى والأسود. صنع الفسطاط.

مما دفع الحاكم بأمر الله الى أن يأمر باراقة كميات ضخمة من العسل وكسر جراره أينما وجدت، وحددت الكمية للمستهلك عند الشراء، بل قل وجوده فى الأسواق، وارتفع ثمنه لكثرة الطلب عليه، بالدرجة التى كان يعادل ثمن أوقية بدينار فلم توجد(١).

وبانتهاء عصر الحاكم بأمر الله زاد الاقبال على الاحتفال بالمناسبات والأعياد وأقبل الناس على مظاهر الترف واللهو، وزاد الطلب على السكر والعسل، مما أدى الى انتعاش تلك الصناعة، وانتاج كميات كبيرة منها، ويؤكد هذه الحقيقة فى عصر المستنصر بالله الرحالة ناصرى خسرو بقوله «وتنتج مصر عسلا وسكرا كثيرا» (٢).

النشاط التجارى للمصريين من أهل الذمة

كان لاهتمام الخلفاء الفاطميين بالتجارة أثره فى ازدهار الحركة التجارية فى مصر فى العصر الفاطمى الاول، ففى هذا العصر كثرت الحاصلات الزراعية نتيجة للاهتمام بالزراعة، وازدهر الكثير من الصناعات، وزاد الطلب عليها، كما توفر عنصر الامن وشمل الجميع العدل والطمأنينة، وأحكمت الرقابة على الأسواق، ومنح الخلفاء الفاطميون التجار الاجانب الذين يفدون الى مصر العديد من الامتيازات، كما منحوهم حق الاقامة فى فنادق خاصة بهم، بل

(١) ابن أيبك: المصدر السابق، جـ٦، ورقة ١٧٢.
(٢) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٦٠.

اجزاء الجزو الاول سبعة عشر سيرة لستة واربعين بطرك اولهم مرقس الانجيلى واخرهم انبا خايال الاول، والجزء الثانى خمسة سير اولها السيرة الثامنة عشر واخرها الثانية والعشرين واخبار تسعة بطاركة اولهم انبا مينا واخرهم اثناسيوس، والجزء الثالث الذى فيه هذه الكراسة من جملة اثنى وعشرين كراس وما قبلها الى اخر الكراريس اربعة سير واخبار اثنى عشر بطركا اولهم سبعة وستين

طبق شفاف عليه كتابة بالأسود صنع بمصر.

والسكن فى أحياء خاصة (١)، وكذلك شجعت الحكومة بناء الوكالات والقياسر والخانات، هذا بجانب انشاء أسطول تجارى مصرى ساعد على تنشيط الحركة التجارية (٢)، ومما ساعد على ذلك أيضا نشاط أهل الذمة من التجار الذين استخدموا رؤوس أموالهم الضخمة وسفنهم التجارية فى خدمة الحركة التجارية المحلية والعالمية (٣).

وكان التجار من أهل الذمة فى مصر على درجة كبيرة من المهارة فى الأعمال التجارية، كما وجدوا فى سياسة التسامح الدينى واهتمام الدولة بالتجارة ما يشجعهم على القيام بهذا الدور الهام فى هذا المجال.

ففى مجال التجارة الداخلية زخرت القرى التى يغلب عليها السكان الأقباط بالأسواق العامرة بما يسد حاجة سكانها، فكانت «منية الأمراء» على مقربة من شبرا يعمل بها سوق كل يوم أحد يباع فيه البقر والغنم والغلال والبضائع وكان سوقها من أسواق مصر المشهورة(٤).

(١) سرور: مصر فى عصر الدولة الفاطمية، ص ٢٠١ ـ ٢٠٣.
(٢) البراوى: المرجع السابق، ٢٠٩ ـ ٢١٤.
(٣) القوصى: تجارة مصر فى البحر الأحمر، ص ٩٠.
(٤) المقريزى: الخطط، جـ٢، ١٢٩.

بطركا منهم من رايته وسمعت كلامه وحضرت قداساته، وتحدثت مع بطركين وهم انبا اخرسطودلوس وانبا كيرلص نيح الله نفوسهما ورزقني بركة صلواتها، شكرت الله تعالى على ما نعم به على من وجود هذه السير ومعونته لى جل اسمه على نسخها بكمالها، ووجب على ان اكتب واشرح سير من رايته بعد انبا كيرلص البطرك نيح الله نفسه الطاهرة الى حين كتب هذا المسطور وهو

كما كان سوق بلدة «بموية» بالفيوم يقام يوم الخميس من كل أسبوع، وكانت تلك البلدة زاخرة بالعطارين ودكاكين البزازين [1].

ويذكر ناصرى خسرو أن مدينة تنيس ـ تلك المدينة الصناعية الكبرى التى يغلب على أهلها السكان الأقباط ـ كان بها ما يزيد على عشرة آلاف دكان منها مائة دكان عطار، ويرابط في مينائها حوالى ألف سفينة [2]، أما في المدن الكبرى فقد كان فى بعض الأحياء الخاصة التى سكنها أهل الذمة سوق لسد حاجة القاطنين بها [3].

واشتغل كبار التجار من أهل الذمة بتجارة الغلال. ويذكر ناصرى خسرو أن الخليفة المستنصر بالله أرسل الى أحد التجار النصارى الأثرياء أثناء احدى المجاعات التى انتشرت بالبلاد، يطلب منه امداد المخازن الحكومية بالغلال «أما نقدا، وأما قرضا» فرد هذا النصرانى على الخليفة بقوله: «أن لدى من الغلة ما يمكننى من أطعام أهل مصر بالخبز ست سنوات»، ويتعجب ناصرى خسرو من مقدار ثروة هذا التاجر النصرانى بقوله: «أن كل من يستطيع الحكم يدرك كم ينبغى أن يكون لهذا الثرى لتبلغ غلته هذا المقدار [4]،

(١) الصفدى: المصدر السابق، ص ٦٩.
(٢) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٣٨، ٣٩.
(٣) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٢٠.
(٤) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٦٣.

انبا مقاره، والتجيت الى رحمته تعالى ومعونته وتوفيقه كما الفت من احسانه وجعلتها على مقتضى السير التى قبلها ومن الله نستمد المعونة.

السيرة السابعة والعشرون من سير البيعة المقدسة انبا ميخاييل البطرك وهو من العدد الثامن والستون(*)

[١٠٩٢ / ١١٠٢م]

(*)جلس هذا الاب على كرسى البطركية فى مملكة المستنصر، وبعد جلوسه بسبعة اشهر مات المستنصر وملك بعده ولده المستعلى، وكان وزيره الأفضل أبن امير الجيوش بدر الجمالى الارمنى.

ولما تنيح الاب القديس الروحانى انبا كيرلص

ويذكر أبو صالح الأرمنى أن المعلم اسحق كان من كبار التجار الأثرياء بمدينة قفط[١].

ولما كان بيع الخمور محرما على المسلمين بحكم الشريعة الاسلامية فان أهل الذمة اشتغلوا بتجارة وبيع المسكرات، كما كان فلاحو شبرا يعتمدون فى سداد ما عليهم من الخراج والجزية على ما يبيعونه من خمر وخاصة فى يوم الاحتفال بعيد الشهيد، فكان يباع فى هذا اليوم ما ينيف على مائة ألف درهم فضة منها خمسة آلاف دينار ذهبا، ويذكر المقريزى أن أحد التجار النصارى باع من الخمر فى يوم واحد باثنى عشر ألف درهم فضة [٢].

ولكن نتيجة لقرارات الحاكم بأمر الله السابق ذكرها سنة ٤٠٢هـ = ١٠١١م أضير التجار من أهل الذمة المصريين المشتغلين بتجارة المسكرات وما يصنع منها، بل ان الحاكم تشدد فى تلك الفترة مع أهل الذمة المصريين فمنع من التعامل معهم بالبيع أو الشراء، مما أثار استياء التجار والباعة من أهل الذمة، ولكن بعد مدة خرج أمر الحاكم بأمر الله بالتعامل مع أهل الذمة المصريين بالبيع والشراء كما جرت به العادة [٣].

---

(١) أبو صالح الأرمنى: المصدر السابق، ص ١٣١.

(٢) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٦٨، ١٢٩.

(٣) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٥٧.

الشاني، قدس الله روحه الطاهرة ورزقنا بركة صلواته، كانت النوبة للاسكندرانيين في تخيير من يقيموه على الكرسي الرسولي عوضاً منه، فاجتمع اراخنتهم ومقدمي كهنتهم للنظر في ذلك وتخير من يصلح لهذه الرياسة الجليلة، ومكثو اياماً فلم يتفق رايهم على شي، فخرجو الى الريف واجتمعو بالاساقفة وفا وضوهم في ذلك ولم يزل الخطاب يتردد بينهم مدة طويلة فلم يستقر لهم راى فيمن

واشتغل أهل الذمة اليهود بتجارة الرقيق، الا أنه في سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م أصدر الحاكم بأمر الله سجلا حرم بمقتضاه على أهل الذمة تجارة الرقيق وأباحها للمسلمين. وشدد على النخاسين وتجار الرقيق في المنع من بيع العبيد والاماء لأهل الذمة [١]، ثم كرر هذا الأمر في السجل الذى أصدره في عام ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م، وأمر بتتبع آثار المخالفين لأوامره [٢].

وبوفاة الحاكم بأمر الله سنة ٤١١هـ/ ١٠٢٠م ألغيت جميع القيود التى تحد من حرية التعامل التجارى مع أهل الذمة، فمارسوا نشاطهم التجارى في حرية مطلقة، وكان بعضهم مقربا من دار الخلافة، ويذكر ناصرى خسرو الذى زار مصر في خلافة المستنصر أن أبا سعيد التسترى التاجر اليهودى «كان مقربا من السلطان» الذى كان يعتمد عليه في شراء ما يريد من الجواهر الكريمة [٣].

وكانت أعمال الصيرفة وتجارة الذهب والجواهر من الأعمال التجارية التى نجح فيها أهل الذمة، وخاصة اليهود.

فقد نبغ في أيام الحاكم بأمر الله الأخوان اليهوديان أبو سعيد ابراهيم وأبو نصر هارون ابنا

(١) المقريزى/ اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٥٣.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٢٨٦.
(٣) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٦٤، ٦٥.

يقـدمـوه عليـهم، فـدخلو الاراخنـة وجـمـاعـة من الاساقفة الى مصر ونزلو فى كنيسة الشهيد ابو مرقوره واجتمعو بجماعة من الاساقفة الصعيدين الذين وصلو الى مصر لهذا السبب وسمو جماعة من الرهبان وغيرهم فلم يستقر فى نفوسهم اقامة واحـد منهم وتقـرر رايهم ان يسـيـرو الى الديارات المقدسة بوادى هبيب ويجتمعو بالابا الرهبان على الصـلاة والتـخيـر لمن يصلح للكرسى الرسـولى،

- -

سهل التسترى، اذ نبغ أبو سعيد فى الأعمال التجارية، وكان واحدا من كبار التجار الاثرياء الذين اشتغلوا بتجارة الجواهر والآثار والتحف الثمينة وتجارة الرقيق، وكثيرا ما استخدم الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله أبا سعيد هذا فى ابتياع ما يحتاج اليه من صنوف الأمتعة. أما أبو النصر هارون فقد برع فى أعمال الصيرفة واستيراد البضائع من العراق. وقد اكتسب هذا الأخوان ثقة التجار فى الداخل والخارج لأمانتهما، واظهار ما يكون عندهما من الودائع لمن يفقد من التجار [1].

وقد تمتع تجار الجواهر والصيارفة بالأمن والطمانينة فى عصر الفاطميين، وكانوا «لا يغلقون أبواب دكاكينهم بل يسدلون عليها الستائر، ولم يكن أحد يجرؤ على مد يده الى شئ منها[2]، ولم يكن يتأتى ذلك الا باستقرار الأمن وقوة الحكومة المركزية [3].

وصاحب انتعاش الحركة التجارية بالأسواق نشاطا ملحوظا للأسطول التجارى. ولقد تعجب المقدسى من كثرة المراكب التى تجوب نهر النيل، كما تعجب من كثرة المراكب الراسية أمام ساحل الفسطاط. أما ناصرى خسرو فانه كان يقدر عدد السفن الراسية حول

(١) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٤٢٣.
(٢) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٦٤.
(٣) المقدسى: المصدر السابق، ص ٢١٢.

فسارو الى هناك واجتمعو فى بيعة القديس ابو مقار وذكرو اسما [أسماء] جماعة من الرهبان الذين في تلك الديارات المقدسة، واقامو اياما يتناظرو فى ذلك ويرجح ارايهم فلم يتفقو على من يقيموه ريسا عليهم الى ان ذكر بعض الاساقفة صمويل الحبيس الذى فى قلاية ازرى(*) وكان سريانى، فاذعنو الى ان يصيروه بطركا واتفق رايهم على الرضا به، ثم سارو الاساقفة وفيهم ابا سنهوت

(*) أزرى: من الاماكن المندرسة. وبالبحث تبين أنها كانت واقعه بأراضى ناحية كفر الباجة ضمن أعمال جزيرة بنى نصر مركز كفر الزيات وخربت وهرب من بقى=

مدينة تنيس بألف سفينة منها «ماهو ملك للتجار وكثير منها للسلطان»[١]، كما يذكر أنه رأى فى الفسطاط نصرانيا من كبار أثرياء مصر امتلك اعدادا من السفن، وقيل ان مراكبه وأمواله، وأملاكه لا يمكن أن تعد، وأن سفنه كانت تسير فى النيل حاملة الحاصلات الزراعية والسلع والبضائع الى كثير من الموانى والمراكز التجارية الواقعة على النيل [٢].

دور أهل الذمة المصريين فى التجارة الخارجية

من الجدير بالذكر أن مصر فى العصر الفاطمى الأول احتلت مركزا ممتازا فى مجال التجارة الأولى فى العالم [٣]. ولذلك أصبحت موانيها على البحرين الأحمر والمتوسط ملتقى التجار من الشرق والغرب نتيجة ظروف وعوامل داخلية ودولية[٤].

ولما كان المصريون لا ينزحون عن مصر للتجارة مع العالم الخارجى إلا فى القليل النادر،

(١) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٣٩.
(٢) ــــــ: نفس المصدر، ص ٦٢.
(٣) زكي محمد حسن: كنوز الفاطميين، ص ١٣ .
(٤) البراوى: المرجع السابق، ص ٢٠٩ ـ ٢١٤.
ماجد : ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها، ص ٢٩٩ ـ ٣٠١ .

اسـقف مـصـر الطاهر الفـاضل واسكندرانيين والشـمـاس الفـاضل ابو غـالب بيـمن ابن تيـدر ابن مرقوره السنجارى، وتوجهو من دير ابو مقار الى ازرى فقبل وصولهم اليها حضر عندهم من ذكر لهم صـمويل الحبيس السرياني المقدم ذكره ان امانته مفسودة وانه يعتقد في جسد سيدنا المسيح الماخوذ من الطاهرة العذرى القديسة مريم الذى اخذه من لحمها ودمها وصيره واحد معه واحتمل

= من مكانها، إلا أن اسمها ظل باقيا فى جداول المساحة المالية باسم أزرى، كما ورد في دليل سنة ١٢٢٤هـ = ١٨٠٩م وفى سنة ١٢٢٨ هـ = ١٨١٣م أختفى اسم أزرى بعد ضم زمامها إلى قرية الباجية ومن سنة ١٢٧٤ هـ = ١٨٥٧م وردت باسم الباجية ثم في سنة ١٨٧٠م وردت باسم كفر الباجة.

فإن أهل الذمة وخاصة يهود مصر قاموا بنشاط ملحوظ في هذا الميدان(١)، وذلك أن التجارة كانت من أهم الأعمال التي في أيدى اليهود، وحرصوا على الاشتغال بها(٢)، وكان ليهود مصر صلات تجارية وثيقة مع يهود الشرق والغرب، فأسهموا برؤوس أموالهم في تجارة أبناء عمومتهم اليهود الراذانية(٣)، وهؤلاء هم تجار البحر الذين كانوا يسافرون بين الشرق والغرب، ويحملون معهم من الغرب إلى مصر وبلاد الشرق السلع والبضائع القيمة كالديباج وجلود الخز والفراء والسمور، كما كانوا يستأثرون بأهم ما تصدره أوروبا وهو الغلمان والجوارى البيض، وعند عودة هؤلاء التجار من الشرق الأقصى كانوا يحملون معهم المسك والعود والكافور والبهار والدراصيني وغيرها من السلع(٤).

(١) سيدة كاشف وحسن محمود: مصر في عصر الطولونيين والاخشيديين ـ القاهرة ١٣٧٩ هـ/ ١٩٦٠م، ص ٢٣٠ .
ـ سيدة كاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ، ص ٢٩٣ .
(٢) بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٢٢ .
ـ سعيد عاشور: المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، الطبعة الأولى، ص ٤١ .
(٣) القوصى: المرجع السابق، ص ٣٢ .
(٤) متز: المصدر السابق، جـ ٣ ، ص ٣١٣ .
ـ حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام، جـ ٣ ، ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

فيه الالام المحيية والصلب والموت والدفن وغير ذلك من الامور البشرية اللايقة ناسوته وصنع فيه الايات الباهرة والعجايب المعجزة الالهية اللايقة بلاهوته وجميعها لهذا المسيح الواحد، اعنى غيرمخلوق اعنى الجسد، ويقول انه مساو للاهوته الخالقة، وان سيدنا المسيح فى يوم الخميس الفصح الكبير لم يفصح مع تلاميذه على خروف ولا اكله وغير ذلك مما قيل عنه. فلما سمعو هذا امتنعو عن

وكان يهود مصر من أنشط تجار العالم فى هذه الحركة التجارية بين الشرق والغرب، إذ كشفت وثائق الجنيزة من امتلاكهم للسفن التجارية[1]، كما وفد إلى مصر كثير من يهود الشرق المشتغلين بالتجارة لممارسة نشاطهم بها[2]. واتخذ بعضهم من مصر مستقرا له. وعلى سبيل المثال، فإن يعقوب بن كلس اليهودى عمل وكيلا للتجار بمدينة الرملة بفلسطين قبل مقدمه إلى مصر، ثم رحل إليها فى عهد كافور الاخشيد، وواصل احترافه للتجارة، فاشتهر أمره، حتى أصبح أول من تولى منصب الوزارة فى مصر فى عهد الفاطميين [3]. كما أن الأخوين اليهوديين أبا سعيد إبراهيم وأبا نصر هارون ابنا سهل التسترى كانا من أشهر وأنبغ تجار الشرق الذين استوطنوا مصر، ويرجع أصلهما إلى مدينة تستر بخوزستان تلك المدينة التى كان معظم تجارها من اليهود، واشتغل الاخوان فى تجارة الشرق وبخاصة فى تجارة الرقيق والتحف والجواهر، وعرف عن الخليفة الظاهر أنه استخدم أبا سعيد فى ابتياع ما يحتاج إليه قصر الخلافة من سلع الشرق[4]، كما أنه كان يمد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى بما يلزم

(1) Goite in: Jewish Arabe New York, 1955 , p. 107.

(٢) بنيامين التطيلى: المصدر السابق، ص ١٦٩ .
ـ متز: المرجع السابق، جـ ٢ ، ص ٣١٣ ، ٣١٥ .
(٣) النويرى: المصدر السابق، جـ ٢٦ ، ورقة ٤٩ .
(٤) المقريزى: الخطط، جـ ١ ، ص ٤٢٣ .

المضى اليه وانثنى رايهم عن تصييره وضجرو
الاسكندرانيين من طول مقامهم وغيبتهم عن
اهلهم واولادهم وتشتيتهم عن منازلهم واوطانهم
وان الشتا هجم عليهم فعولو على الرجوع الى
اسكندرية بلا بطرك وان يوخرو ذلك الى وقت
اخر، فمنعوهم الاساقفة من ذلك، واشارو عليهم
بالصبر والمقام معهم ولو اسبوع اخر، فلعل يتوجه
لهم ما يعتمدو عليه، فلم تطيب نفوسهم بالمقام

قصر الخلافة من صنوف الأمتعة والسلع. ولقد ربح أبو سعيد من تجارته ثروة طائلة. وقيل أنه لم يكن يعرف مدى غناه إلا الله»(١).

ويبدو أن ثروة مصر واتساع تجارتها اجتذبت كثيرا من يهود الشرق والغرب(٢)، فقد قام يهود الشرق برحلات تجارية إلى مصر، كما كانت السفن التجارية من «الممالك النصرانية كافة» تفد إلى الموانى المصرية وبخاصة الأسكندرية، ولقد شاهد بنيامين التطيلى فى ميناء الاسكندرية تجارا من جميع المدن التجارية والدول الأوروبية المعروفة فى ذلك الوقت، كما شاهد التجار الوافدين إلى مصر من شمال أفريقية، وجزيرة العرب ، وبلاد الهند، والحبشة، واليمن ، والعراق، والشام، وبيزنطة، مع تكالب التجار النصارى على شراء التوابل والعطور وجميع السلع التى يحملها تجار الشرق إلى مصر(٣). كما وجد أثناء زيارته لمصر أعدادا ضخمة من اليهود الذين يقطنون فى الموانى المصرية والمراكز التجارية والصناعية وأن بينهم عددا من كبار الأغنياء(٤).

....

(١) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٦٥ .
(٢) سعيد عاشور: المرجع السابق ، ص ٤١ .
(٣) بنيامين التطيلى: المصدر السابق ، ص ١٧٨ ، ١٧٩ .
(٤) بنيامين التطيلى: نفس المصدر، ص ١٧٣ .

وعولو على المسير الى مدينتهم، فقال لهم انبا سنهوت اسقف مصر ايها الاخوة المباركين قد علمتم اجتماعنا معكم منذ وصلتم الى مدينتنا والى الآن على ما توثروه واننا لم نفعل شيأ الا باتفاق معكم عليه من المسيرالى دير ابو مقار ومن التوجه الى ها هنا ومن الرضا بتصيير هذا الحبيس بطركا عليكم وعلينا وكل هذا كان باتفاقنا اجمعين، والآن فقد سمعتم من [كا]ن وانتم بقوله

ويذكر ابن ميسر أن بدر الجمالى عند قدومه إلى مصر سنة ٤٦٦هـ / ١٠٧٣م نزل دمياط وتنيس، واقترض من تجار تنيس ـ وكان معظمهم من القبط ـ أموالا كان فى حاجة إليها[(١)].

وإذا كان أهل الذمة قد امتلكوا رؤوس الأموال، فإنهم قد امتلكوا ـ أيضاً ـ القياسر، وأن بعض هذه القياسر قد أوقفت على الأديرة. ويستدل على ذلك من عبارة وردت فى مرسوم أصدره الخليفة الحاكم بأمر الله فى سنة ٤١١هـ / ١٠٢٠م بتجديد عمارة دير القصير ورد الأوقاف التى كانت محبسة على الدير من ضياع وقياسر[(٢)].

كذلك وجد من التجار النصارى من اشتغل فى مجال التجارة الخارجية فقد كان الانبا إبرهام السوريانى ـ قبل أن يصبح البطريك الثانى والستين (٩٧٤/ ٩٧٨م) للكنيسة القبطية ـ من كبار التجار الأثرياء، وتردد إلى مصر عدة مرات للتجارة ثم استقر بها. وكان يمد الخليفة المعز لدين الله وكبار رجال الدولة بما يحتاجون إليه من بضائع وأمتعة، ومن ثم نشأت صداقات وثيقة بين الأنبا إبرهام والخليفة المعز ورجال دولته[(٣)].

ويرى المؤرخون أن التجار من اليهود فى مصر قد أسهموا بنصيب كبير فى تجارة الكارم

(١) ابن ميسر: المصدر السابق، جـ ٢ ، ص ٢٢ .
(٢) الانطاكى: المصدر السابق ، ص ١٣٠ .
(٣) ساويرس: تاريخ البطاركة. انظر ص ٤٢٦ وما بعدها من هذا الجزء (الثالث).

فساد امانة هذا الرجل الذى وقع الرضا منا ومنكم به، وانه لا علم له ولا فهم ولا قرا شيأ من كتب الله، ولو كان قرا الكتب المقدسة لعلم منها فساد ما يعتقده، فان فاتحة انجيل يوحنا يقول: في البدء كان الكلمة والكلمة لم يزل عند الله والاه هو الكلمة، فاتضح بهذا القول انه اله بالحقيقة. ثم قول المسيح من فاه الطاهر في انجيل يوحنا مخاطباً لليهود: انسان يقول لكم الحق الذى سمعه من

طوال عهد الفاطميين، جنبا إلى جنب مع التجار المسلمين، إذ كانت روح التعاون سائدة بين كل من احترف هذه المهنة من كل الأديان. كما كان لهؤلاء اليهود نشاط تجارى واسع بين مصر والهند واليمن والمغرب والأندلس(١). وكانت سفنهم تجوب الموانى التجارية الكبرى التى تقع على سواحل البحر الأحمر والمحيط الهندى والبحر المتوسط. فكان يهود الشرق يفدون الى مصر لأعمال تجارية (٢). كما كان تجار مصر يبحرون بسفنهم الى موانى البحر المتوسط التجارية (٣)، مما أدى الى قيام صلات تجارية وثيقة بين مصر والجاليات اليهودية التى وجدت بتلك الموانى، وارتبط كثير من يهود مصر برباط المصاهرة مع يهود تلك الجاليات، وقامت علاقات تجارية نشطة بين مشايخ التجار اليهود بالقاهرة وغيرهم من تجار يهود الشرق المشتغلين بتجارة الكارم، بل كانت هناك مشاركة فى الأعمال التجارية ورؤوس الأموال اللازمة للتجارة بين يهود مصر ويهود تلك البلاد فى كثير من الأحيان (٤). وحقق هؤلاء التجار أرباحا كبيرة وأموالا طائلة من اشتغالهم بتجارة الكارم. وكان الفلفل والبهار من أهم سلع تجار الكارم. بجانب السلع الأخرى مثل الحاصلات الزراعية والملبوسات والحرير الخام فضلا عن الرقيق

(١) القوصى: المرجع السابق، ص ٧٩، ٨٢، ٨٤.
(٢) بنيامين التطيلى: المصدر السابق، ص١٦٩.
(٣) ———— : نفس المصدر، ص ٥٠، ٧٧، ٩٠.
(٤) القوصى المرجع السابق، ص ٢١٥.

الله، فاوضح بقوله هذا انه انسان، فصح لنا من قوله انه الاه وانسان معاً مسيح واحد لا اثنين، فاما قوله عن جسد مخلصنا الذى اخذه من العذرى مريم ابنة داوود وابرهيم المخلوقين انه غير مخلوق فهذا اعتقاد من يقول بالفنطسه(*) والخيال والشبح، وليس هذا اعتقاد احد ممن يدين الله بدين النصرانية، وكتب الله المقدسة تشهد بأن الكلمة الله خلق له جسد في بطن العذرى مرتمريم

(*) الفنطسة: هى كلمة غير عربية ولعلها لاتينية دخلت اللغة المصرية كأحد المؤثرات الناتجة عن الحروب الصليبية ونحن تنطقها الآن «فنتازيا».

الذى كان يصدر الى أوربا حيث يباع بأسعار مضاعفة [1]. كما كانت مصر من أعظم أسواق الرقيق الافريقى فى ذلك الوقت [2]. فقد اشتغل فى تلك التجارة يهود مصر [3].

ولقد عمرت أسواق مصر بسلع الشرق، ولم تكن تلك السع تستهلك جميعها محليا، بل احتفظ التجار المصريون بكميات كبيرة منها لبيعها للتجار الفرنج وتجار الروم بأسعار عالية، وبذلك كان تجار مصر يقومون بدور الوسيط التجارى بين الشرق والغرب. كما كان التجار الفرنج يقومون بشراء الحاصلات الزراعية والصناعات المصرية التى اكتسبت شهرة فى الأسواق العالمية [4].

ويرى المؤرخون ـ من واقع وثائق الجنيزة ـ أن غالبية اليهود الرازانية الذين انخرطوا فى تجارة الشرق قد قل دورهم فى مجال التجارة الخارجية مع بداية القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى. وأن دورهم أخذ فى الاضمحلال بعد أن دخلت الحكومة الفاطمية فى علاقات ومعاهدات تجارية مع المدن والدول الأوروبية [5]. وفضلا عن ذلك فقد

(١) ـــــــ نفس المرجع ، ص ٩٤، ٢١٣.
(٢) سيدة كاشف وحسن محمود: المرجع السابق ، ص ٢١٤.
(٣) القوصى: المرجع السابق، ص ٢١٣.
(٤) ـــــــ : المرجع السابق ، ص ١٩٧، ١٩٨.
(5) Goitein : Op. cit., p. 107.

من غير زريعة بشر وصيره معه واحد ورآوه الناس جسوه ولمسوه واكل معهم بالحقيقة وشرب ومشى بينهم وتعب وجاع وعطش وسهر وتالم وصلب ومات وقبر، وفعل كل الافعال البشرية التى تشهد بها الاناجيل المقدسة ما خلا الخطية، وقام من الموتا وظهر لتلاميذه واوراهم اثار المسامير فى يديه ورجليه وطعنه بالحربة فى جنبه، وجسو جسده ولمسوه كما قال لهم: جسو والمسو فان الروح ليس

وشم يمثل صلب المسيح.

استقرت أعداد من هؤلاء التجار اليهود زمن الفاطميين في مصر والهند واليمن[١]. ويبدو أن اليهود الذين استقروا فى مصر قصروا نشاطهم على التجارة الداخلية والنشاط المصرفى والأعمال المالية [٢]. كما اعتنق بعضهم الاسلام حفاظا على مكاسبهم المالية التى كانوا يحققونها من الاشتغال فى هذه الأعمال، واحتماء بالاسلام مما قد يتعرضون له من وقت لآخر من اضطهاد[٣] ونهب.

وهكذا يتضح مما سبق أن أهل الذمة فى مصر قد شاركوا فى الحياة الاقتصادية، وأسهموا بنصيب وافر ودور له أهميته فى مجالات الزراعة والصناعة والتجارة فى العصر الفاطمى الأول..

الحياة الاجتماعية والدينية للمصريين من أهل الذمة

(أ) الحياة الاجتماعية لأهل الذمة

- القبط واليهود فى مصر فى العصر الفاطمى الأول:

عندما احتل العرب مصر كان معظم أهلها فى ذلك الوقت من الأقباط، والى جانبهم أقلية

(١) متز : المصدر السابق، جـ ٢، ص ٣١٣.
- القوصى: المرجع السابق ، ص ٩٠، ١٦٤.
(٢) عاشور : المرجع السابق . ص ٤١.
(٣) القوصى: المرجع السابق.ص ١٦٤.

له عظم ولا لحم كما ترون لى ، واكل معهم
وشرب بعد القيامة ليثبت فى نفوسهم صحة قيامته
وحقيقة انسانيته وانها بعد القيامة باقية بحالها لم
يستحيل الى اللاهوتية. والشهادات على صحة
هذا كثير جداً، فمنها انجيل متى البشير ان الملاك
قال ليوسف لا تخف يا يوسف ان تقبل خطيبتك
مريم فان الذى تلده هو من روح القدس، وفسره
القديس يوحنا فم الذهب وقال: ان روح القدس

من اليهود. كما كان يعيش فيها بعض الطوائف التي تنتسب الى شعوب أخرى كانت أهمها طائفة الروم الملكانيين(١).

وفي السنوات الأولى من الغزو سكن العرب المدن الكبرى وظل سائر قرى مصر بأيدى القبط، ثم بدأوا يزحفون الى الريف، وينتشرون فى ريف مصر رويدا رويدا. وعلى الأخص ابتداء من القرن الثاني للهجرة حيث كثر انتشارهم بقرى مصر ونواحيها، ومشاركتهم الأقباط سكنى الريف والمدن الصغيرة.

وقد قام الأقباط فى ريف مصر بعدة ثورات فى سنوات ١٠٧هـ، ١٢١هـ، ١٣٢هـ، ١٥٠هـ، ١٥٦هـ، وكان الدافع الى قيامهم بتلك الثورات، عدم رضاهم عن سياسة الولاة المالية (٢). وعادة ما كان يتبع اخماد تلك الثورات تحول عدد كبير من الأقباط الى الدين الاسلامي، كما كان لقرارات الخلفاء والولاة ـ فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة ـ من تعريب الدواوين، واحلال المسلمين محل الموظفين من أهل الذمة فى الوظائف(٣).

(١) سيدة كاشف: مصر فى فجر الاسلام ، ص ١٦٤.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ ٢، ص ٢٥٩ـ ٢٦١.
ـ البراوى: المرجع السابق، ص ٣٦.
(٣) سيدة كاشف: المرجع السابق، ص ١٧٩، ١٨٠.

هو الذى خلق الجسد فى بطن مريم، جسد الكلمة هو من فعل الروح القدس. وقال القديس ساورس بطريرك انطاكية فى تفسير انجيل يوحنا ايضاً: لاجل الثوب الغير مخيط من فوق هكذى ان الثوب المنسوج من فوق الغير مخيط يدل على جسد يسوع المسيح، انه مخلوق من روح القدس من فوق من غير زريعة بشر. وقال بولس الرسول فى رسالته الى افسس: وتتجددو بروح قلوبكم

واسقاط الجزية عن كل من يعتنق الاسلام أثر كبير فى تحول كثير من القبط الى الاسلام(١).

ثم كانت ثورة ٢١٦ هـ ـ فى عهد الخليفة المأمون ـ التى قام بها الفلاحون الأقباط فى الوجه البحرى ـ وخاصة أهالى البشمور ـ بسبب سوء سيرة العمال وفداحة الأعباء المالية الملقاة على عاتقهم. ولما استفحل أمر هذه الثورة، جاء الخليفة المأمون الى مصر للعمل على قمع الثورة واخمادها وسار بنفسه على رأس قواته التى نجحت فى اخماد الثورة فى صفر سنة سنة ٢١٧هـ (٢).

وبانتهاء تلك الثورة التى كانت أكبر وآخر الثورات التى قام بها الفلاحون الأقباط، دخل كثير منهم فى الاسلام (٣).

ثم جاء قرار الخليفة المعتصم سنة ٢١٨هـ باسقاط العرب من ديوان العطاء، وقطع أعطيات من فى الديوان منهم، فأصبح العرب لايتميزون عن أهل البلاد الامن الناحيتين الدينية واللغوية، وفقدوا مركزهم السامى فى الدولة الاسلامية، مما اضطرهم الى الانتشار فى الريف

(١) ــــــ: نفس المرجع، ص ٢١١ـ٢١٢.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٧٩، ٨٠.
ـ سيدة كاشف: مصر فى فجر الاسلام، ص ٢٠٩ـ٢١١.
(٣) المقريزى: المرجع السابق، ص ٨١.

وتلبسو الانسان الجديد الذى خلق من الله ببر وحق وطهارة. وقال فى رسالته الى قولاسايس : اخلعو الانسان العتيق مع جميع افعاله والبسو الانسان الجديد الذى يتجدد بالعلم شبه خالقه. وقال اغريغوريس صانع العجايب اللاحق بالرسل فى الحرم الثانى عشر: من قال ان جسد المسيح غير مخلوق ولا يقر ويعترف ان الله الكلمة الغير مخلوقاً قبل الناسوت المخلوق وتجسد واتحد كما هو

بصورة أكثر مما كان عليه الأمر فى القرنين الأول والثانى الهجريين واشتغالهم بالزراعة والصناعة والتجارة، وغيرها من الأعمال التى كانوا يترفعون عن الاشتغال بها وزاحموا أهل البلاد فيما بقى لهم من أرزاق.

غير أنه ـ فى القرن الرابع الهجرى ـ يذكر ابن حوقل أن «معظم رساتيق مصر وقراها فى الحوف والريف. وأهلها نصارى قبط ولهم البيع الكثيرة العزيزة الواسعة»، وأنهم أهل يسار وذخائر وأموال (١). كما يذكر أبو الصلت أن:«سكان أرض مصر أخلاط من الناس مختلفوا الأصناف والاجناس من قبط، وروم، وعرب، وأكراد، وديلم، وحبشان، وغير ذلك من الأصناف، الا ان جمهورهم قبط» (٢). أما المقدسى الذى زار اقليم مصر فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى فيقول أن «عامه ذمته نصارى يقال لهم القبط، ويهود قليل»(٣).

(١) ابن حوقل: صورة الأرض، مطبعة دار الحياة ببيروت، ص ١٥٠.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ ، ص ٤٧.
وأبو الصلت هو أميه بن عبد العزيز أبى الصلت العلامة الأندلسى الذى زار مصر فى أيام وزارة الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى فى خلافة الآمر بأحكام الله، وتوفى سنة ٥٢٨هـ(عنان: تاريخ الجامع الأزهر، ص ٥٧).
(٣) المقدسى: المصدر السابق، ص ٢٠١، ٢٠٢.

مكتوب فليكن محروماً. وتفسيره من قوله: كيف يقولون ان جسد المسيح غير مخلوق لا يتالم ولا يطعن جسده بحربة ولا يلمس، والمسيح لما قام من الموت أورى تلاميذه اثار المسامير وشاهدو الطعنة والجسد الذى لمسوه، دخل اليهم والابواب مغلقة ليظهر لهم قوة لاهوته وحقيقة ناسوته. وقال القديس بوليدس بطرك رومية في رسالته الى ديونوسيوس : نعترف بالمخلوق لاتحاد الخالق به لما

كما كان النصارى يشكلون غالبيه سكان القرى مثل «أبنوب» و«طنبدى» من قرى الصعيد(١)، فضلا عن كثير من قرى الفيوم التى غلبوا على سكانها(٢). وفي الوجه البحرى وجدت أيضا بعض القرى التى كان النصارى أكثر سكانها(٣).

فاذا انتقلنا الى المراكز الصناعية والتجارية، نجد أن أهل مصر القبط كانوا غالبية. فمدينه تنيس التى يقدر ناصرى خسرو سكانها بخمسين ألف نسمة كان القبط يشكلون أكثر سكانها (٤). كما كانت مدينة دمياط يسكنها الكثير من القبط الذين كانت تقع أكثر دورهم على شاطئ البحر (٥). أما شطا تلك القرية الصناعية الكبرى ـ والتى تقع بين تنيس ودمياط ـ فقد كان أكثر سكانها من الاقباط (٦).

كما أن مدن الصعيد الكبرى كاسيوط وأخميم ـ على على سبيل المثال ـ كانت غالبية

(١) قاسم عبده: المرجع السابق، ص ١٥٥.
(٢) أبو عثمان الصفدى: المصدر السابق، ص ١٣، ٦٣، ١٠٥، ١٠٧.
(٣) المقريزى: المصدر السابق، ص ٢٩.
(٤) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٣٩.
(٥) المقدسى: المصدر السابق، ص ٢٠١، ٢٠٢.
(٦) المقدسى: المصدر السابق، ص ٢٠٢.

اجتمع بالمخلوق طبيعة واحدة ثابتة قايمة من الجهتين لما نعلمه من خلقتنا نحن البشر، وان من الجهتين من النفس والجسد طبيعة واحدة ثم شخص واحد يدعى انسان. وقال ايضاً في رسالته الي برسطوليس: ليكن محروم كل الذين يقولون ان جسد مخلصنا ليس هو من مريم ويقولون انه من السما وانه غير كاين. وقال يوحنا فم الذهب في (الميمر) الذى قاله علي الميلاد الذى اوله: سرا

سكانها من المصريين القبط نظرا لما كانت تتمتع به هذه المدن من أهمية صناعية وتجارية في مصر الفاطمية (١).

هذا بينما نجد بنيامين التطيلي الذى زار مصر حوالى سنة ٥٦١هـ/١١٦٥م، أى في أواخر العصر الفاطمي يقدر تعداد اليهود في مصر ببضعة آلاف. فحسب تقديره كان في المحلة حوالى خمسمائة يهودى، وفي بلبيس ثلاثة آلاف، وفي أبي تيج مائتان، وفي دمياط مائتان، وفي حلوان ثلاثمائة، وفي قوص ثلاثمائة، كما قدر عدد يهود القاهرة والفسطاط بألفي يهودى كان من بينهم عدد كبير من الأثرياء وكبار العلما (٢). ولابد أن عدد يهود مصر في العصر الفاطمي الأول كان أكبر بكثير مما قدره بنيامين، اذ يذكر ابن اياس أن عدد من ارتد من اليهود ـ بعد أن تظاهروا بالاسلام ـ في يوم واحد في عهد الحاكم بأمر الله كان أكثر من سبعة آلاف يهودى(٣).

كما كشفت وثائق الجنيزة عن حقيقة هامة، وهي أن اليهود لم يعيشوا في الموانى والمدن

(١) زكي محمد حسن: كنوز الفاطميين، ص ١١٦.
(٢) بنيامين التطيلي: المصدر السابق، ص ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٥، ١٧٦.
(٣) ابن اياس: المصدر السابق، جـ١، ص ٥١.

عجيب مثل صانع حاذق اذا وجد شياً جيد يصنع
منه انا[ء] جيد هكذى سيدنا لما وجد جسد
العذرى المقدس ونفسها المقدسة خلق له منها
هيكلا له نفس، كما شا جسد ناسوتى من البتول
لبسه وظهر اليوم ولم يانف من نقيصة الطبيعة ولم
يحدث له رزيه لما اتحد بلباس طبيعتنا والمخلوق ربح
مجد عظيم لما صار هيكلا للخالق وكما (انه)
غيرممكن في البدى يقام الانسان قبل ان ياخذ

الرئيسية السالفة الذكر فقط، بل عاشوا في الريف المصرى أيضا، ولعبوا دورا هاما في التجارة والأعمال المالية (١).

أما في الواحات، فقد كان الغالب على الفرفرون (الفرافرة) السكان من القبط، ولم يكن يوجد بالواحات من اليهود أحد (٢).

ولم تمدنا المصادر التاريخية التي وصلت الينا من العصر الاخشيدى بما يشير الى وجود أحياء مخصصة لأهل الذمة في مدينة الفسطاط، وان كان طبيعيا أن يفضل أهل كل دين أن يعيشوا متقاربين (٣).

أما في القاهرة الفاطمية فقد وجدت أحياء خاصة بأهل الذمة. فعندما اختطت القاهرة في جمادى الآخرة سنة ٣٥٩هـ، اختطت كل قبيلة خطة عرفت بها، وأختط الروم الواصلون صحبة جوهر القائد حارة عرفت بهم ونسبت اليهم (٤). ويذكر الأنطاكي أنه كان للروم

(١) قاسم عبده: المرجع السابق، ص ٦٤.
(٢) ابن حوقيل: المصدر السابق، ص ١٤٥.
(٣) سيدة كاشف وحسن محمود : مصر في عصر الطولونيين والاخشيديين، ص ٢١٤.
(٤) القلقشندى: المصدر السابق، جـ٣، ص ٣٥٧.

التــراب بيــده، هكذى الانا[ء] الذى هلك ليس يمكن ان يخلق دفـعـة اخـرى الا ان يصـيـر لباسـا لخـالقـه، فـلاجل هـذا لم يخلق له هيكلا من شـيـا اخر ولم يخلق جسدا اخر ليلبسه حتى لا يظن انه يجـعل نقـيـصـة للخلق الذى لادم. وقـال القـديس اغـريغوريس التاولوغس اسقف انيزينزو فى الميـمـر الذى قاله على الميـلاد المقـدس الذى اوله: المسيح ولد لنا اليـوم يالهـذا التـدبيـر الجـديد الذى لله، يا

الملكانيه حارة بالقاهرة يسكنون بها فأخرجوا منها، وهدمت مبانيها، وجلوا منها الى الموضع المعروف بالحمراء، فعملوا لهم بها حارة، واتخذوا منها موضعا لسكناهم (١).

أما اليهود فقد سكنوا حارة الجودرية – نسبة الى احدى طوائف العسكر فى أيام الحاكم بأمر الله ــ، وظلوا مقـيمين بهـا، الى أن بلغ الحاكم بأمر الله أنهم يجتمعون بها أوقات خلواتهم، ويهزءون بالمسلمين، ويسخـرون منهم، ويخوضـون فى الديانة الاسـلامية، ويتعـرضون الى ما لاينبـغى سمـاعه، فسد الحاكم بأمر الله أبواب الحارة عليهم ليلا وأحرقهـا، ثم أفرد لهم حارة زويلــة (٢). وأمرهم فى سنة ٣٨٩هـ/٩٩٩م بأن يلزمـوا حارتهم، وألا يخالطوا المسلمين فى حاراتهم(٣).

وكـان الصنا ع الأجـانب يسكنون فى المناخ السـعـيـد بالقـاهرة، ويظهـر أن هؤلاء الصـنا ع اجتذبهم الفاطميون بالرواتب المغرية والمعاملة السـمحة ، أو أنهم كانوا من الرقيق أو الأسـرى الذين علموهم مختلف الصنائع والحرف المصرية (٤).

---

(١) الانطاكي: المصدر السابق، ص ١٨٦.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٤.
(٣) ابن اياس: المصدر السابق، جـ١، ص ٥١.
(٤) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٤٤٣.

لهذه الوحدانية الغير ممتزجة العجيبة، الازلى فى كل مكان تكون والغير مخلوق خلق كما هو مكتوب ان اعترفو لرسولى وكاهنى الذى يعترف به يسوع الموتمن عند من خلقه. وقال ايضاً فى ميمره على الامانة: من قال انه خرج من العذرى مثل جواز [الماء] يجرى فقط ولا يعترف انه خلق جسده ووحده منها بلاهوته لانه خلق بلا ذكر بناموس الخليقة فهو محروم.، وقال ابوقلس اسقف

أما مدينة الاسكندرية فكان يسكن بها كثير من الأجانب المشتغلين بالتجارة والذين ينتمون الى جاليات إجنبية مختلفة، وكان لكل جالية فندق خاص بها (١).

وكان الغزو العربى لمصر عاملا مساعدا على احياء اللغة القبطية على حساب اللغة اليونانية التى كانت منتشرة فى مصر ذلك الوقت، فأصبحت الدروس تقرأ فى الكنيسة باللغة القبطية بعد أن كانت تقرأ باليونانية وتشرح بالقبطية، وبعد أقل من نصف قرن من الغزو تقريبا بدأ العرب يتجهون الى تعريب الدواوين لعدم معرفتهم باللغة القبطية، وقد بدئ فى تعريب الدواوين فى مصر سنة ٨٨هـ ٧٠٦م فى ولاية عبد الله بن عبد الملك، مما اضطر المصريين العاملين فى دواوين الحكومة الى تعلم اللغة العربية حفاظا على الوظائف التى كانت بأيديهم(٢).

وعلى الرغم من أن اللغة العربية أخذت فى الانتشار، وأن المصريين أقبلوا على تعلمها، الا أن عامة أهل مصر يتحدثون القبطية» (٣).

وكان القبط يتكلمون القبطية بلهجات متعددة، فاللهجة البحرية كانت تستعمل فى

(١) سرور: مصر فى عصر الدولة الفاطمية، القاهرة ١٩٦٠م، ص ٢٠٣.
(٢) سيدة كاشف: مصر فى فجر الاسلام ، ص ١٧٩.
(٣) المقدسى: المصدر السابق، ص ٢٠٣.

كسلس فى ميمره على الميلاد بمحضر من نسطور فى القسطنطينية: يا ايها الاحشا الذى خلق فيه السلاح المقاوم للموت لاجلنا . وقال ايفانيوس اسقف قبرص فى كتابه الكبير المسما المرسا: اخذ جسده من مريم العذرى بلا زريعة بشر وخلق هذا الجسد المقدس، كما قال واتى من امراة واخذ الذى لنا. وقال القديس كيرلس بطرك اسكندرية الاول فى رسالته الى سرجس [سرجيوس] : ليس

الاسكندرية وما جاورها والدلتا ووادى النطرون ، ثم أصبحت اللهجة الرسمية للكنيسة القبطية منذ أن نقل البابا خريستودولوس البطريركية الى القاهرة فى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى /الخامس الهجرى (١).

ويذكر المقريزى أن نصارى قرى الصعيد الأعلى كانوا يتكلمون « القبطى الصعيدى» ـ اللهجة الصعيدية ـ وأن نساء نصارى الصعيد وأولادهم لايكادون يتكلمون الا القبطية الصعيدية، وأن لهم أيضا معرفة باللغة الرومية«اليونانية» (٢).

وكان من عادة نصارى مدينة أسنا أنهم كانوا يحضرون أفراح المسلمين ويطوفون فى أسواق المدينة وشوارعها أمام العرائس وهم يهللون ويغنون قبطية صعيدية (٣).

وفى الصعيد كانت هناك أيضا لهجات قبطية فرعية مثل اللهجة الاخميمية التى كانت تستعمل فى أخميم واللهجة الأسيوطية ، واللهجة الفيومية التى كانت تستعمل فى الفيوم. وأما فى شرق الدلتا فقد كان القبط يتحدثون باللهجة البشمورية (٤).

(١) زكى شنودة: المرجع السابق، ص ١٠.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٥٠٥ ـ ٥٥٦.
(٣) جاك تاجر: المرجع السابق، ص ٣٠٥.
(٤) زكى شنودة: المرجع السابق، جـ١، ص ١١.

هـو مستقيم ان يقال ان الجسد انتقل الى
طبيعة اللاهوت أو أن الكلمة انتقل الى
طبيعة الناسوت وكما ان هذا غير ممكن وهو
غير منتقل ولا متبدل هكذى الاخر ليس هو
ممكن ان ينتقل شى المخلوق الى جوهر طبيعة
اللاهوت لان الجسد مخلوق جسد المسيح، نقول
عنه انه صار جسد الله، وقال ساويرس المجاهد

وفى القرن الرابع الهجرى /العاشر الميلادى أخذ بعض علماء الأقباط يكتبون مؤلفاتهم باللغة العربية . فقد كتب البطريك الملكانى سعيد بن بطريق (ت ٣٢٨هـ/٩٤٠م) كتابه فى التاريخ باللغة العربية، كما أن كاتبنا ساويرس بن المقفع أواخر القرن الرابع الهجرى /أواخر القرن العاشر الميلادى) أسقف الأشمونين كتب مؤلفه الذى بين ايدينا هنا «سير الآباء البطاركة» باللغة العربية أيضا، هذا بجانب القيام بجمع الوثائق اليونانية والقطبية وترجمتها الى العربية (١).

غير أن اللغتين القبطية واليونانية ظلتا مستعملين فى المعاملات الخاصة الى أن بطل استعمالهما فى القرن السابع الهجر ى /الثالث عشر الميلادى . ففى هذا القرن أصبحت اللغة العربية لغة التخاطب السائدة وان ظلت اللغة القبطية مستعملة حتى القرن الثامن عشر(٢).

(١) سيدة كاشف: مصر ى فجر الاسلام، ص ١٨٠.

(٢) زكى شنودة: المرجع السابق، جـ١، ص ١٣.

ويذكر المؤلف أن اللغة القبطية ظلت لغة التخاطب فى القرى البعيدة فى الصعيد الأعلى حتى القرن السابع عشر الميلادى (القرن الحادى عشر الهجرى)، وفى القرن الثامن عشر الميلادى بدأ الأقباط يكتبون اللغة القبطية بحروف عربية، وفى القرن التاسع عشر انتهى الكلام والتخاطب باللغة القبطية وان =

(*) حكم بين عامى ٤٩١ /٥١٨م.

بطريرك انطاكية فى المكاتبة التى كتبها لنسطس(*) الملك البار ملك القسطنطينية لما احرم مقدونيوس: لما كثرت الخطية على الارض نزل الله الكلمة من السما وحل فى بطن مريم العذرى وبنا له فيها جسد بشر غير مدرك ولا تحويه العقول ومكث فى احشاها تسعة اشهر واخذ الجسد منها وخلق له جسد، ليس الاب كان فى احشاها ليلا [لئلا] يقول انسان ان الاب ينتقل الى البنوة بل هو الابن

- -

ـ المكانة الاجتماعية لكبار أهل الذمة:

كان لسياسة التسامح الدينى التى اتبعها الفاطميون ازاء أهل الذمة أثر ها الكبير عليهم، اذ كان منهم الوزراء والوسطاء وكبار رجال الدواوين، والكتاب والأطباء والمتقبلين، والصناع المهرة، والتجار الأثرياء والملاك أصحاب الضياع فى مصر ، ووصل الكثيرون منهم الى مكانة اجتماعية سامية، فكانوا من الطبقة العليا فى المجتمع ذات الصلة الوثيقة بالخلفاء الفاطميين الذين أجزلوا لهم الإقطاعات والضياع والمنح والأموال والعطايا فى شتى المناسبات.

ففى سنة ٣٦٩ هـ / ٩٧٩م ولد للوزير ابن كلس ولد، فأرسل اليه العزيز بالله مهدا من صندل مرصع وثلاثمائة ثوب، وعشرة ألاف دينار، وخمسة عشر فرسا بسروجها ولجمها، كم اشتملت الهدية على كثير من الطيب، وقد بلغت قيمة هذه الهدية مائة ألف دينار (١).

....

=كانت قد ظلت فى بعض القرى والكنيسة حتى القرن العشرين (زكى شنودة نفس المرجع، ونفس الصفحة).

(١) المقريزى اتعاظ الحنفا، جـ١، ص ٢٥٢.

بارادة الاب ومشيئة الروح واحده الثالوث المقدس حتى لا يقول احد ان غيره خلقه ولا يقال انه غيرها من اللاهوت بل هو وحده الذى تجسد وصبر على كلما ناله، ليس يرى شبح ولانزل الجسد معه من السما بل هو خلقه من البتول من غير زريعة واتحد به بلا افتراق ولا اختلاط ولا امتزاج. وقال القديس يعقوب اسقف مدينة سروج في ميمره على الالام المحييه التى اوله: يا ابن الله

وقد أغدق الخلفاء الفاطميون على كثير من الأطباء من أهل الذمة ـ الذين سبقت الاشارة اليهم ـ بالأموال والهدايا تشجيعا وتكريما لهم (١)، وكان لبعضهم المكانة المرموقة من أصحاب القصر، وكما شمل الخلفاء أولاد أطبائهم بالرعاية فأطلقوا لهم الأموال الوفيرة والهبات فعاشوا فى رغد من العيش (٢).

وضم مجلس الخليفة المعز كبار رجال الدولة من اليهود والنصارى، اذ كانوا هم الطبقة التى اعتمد عليها فى ادارة دواوين الحكومة، ففى عهده بلغ ابن كلس منزلة رفيعة فى بلاط الخلافة وتولى الاشراف على الادارة المالية فى الدولة، وليس هناك أدل على علو المنزلة الاجتماعية لرجال الدولة منهم، من تلك العلاقة والصداقة التى وجدت بين العزيز بالله ووزيره ابن كلس، وفى كلمات العزيز له وقت احتضاره، ما يؤكد حب الخليفة له، ومكانته الاجتماعية (٣)، وفى رسالة العزيز إلى طبيبه ابن مقشر ما يشير إلى علو منزلة الطبيب عند الخليفة وتقديره له. كما

(١) ابن العبرى: المصدر السابق، ص ٣١٦.
(٢) القفطى: المصدر السابق، ص ٤٣٨.
ـ ابن أبى أصيعة: المصدر السابق، ص ٥٤٨.
(٣) أبو شجاع: المصدر السابق، ص ١٨٦.

الذى صار ذبيحة عنا، خلق له ساعدين ليمدهما على الصليب وخلق له صدر ليحتمل الشوك. وقال في ميمره على الميلاد المقدس بشرح ما قاله الملاك للعذرى : والذى يصور الاطفال الصغار هو يصور له مثل جسد ويلبسه ورب الابناء يكون فى احشاك وتحبلى ولبس لباساً فى بطنك الطاهرة ويعد له لباس توشيح جسد من منسج احشاك. وقال فيه ايضاً: وكان خالق الاطفال الصغار ينمو

أن الحاكم بأمر الله زار ابن مقشر عندما مرض، وأنعم على أولاده بالأموال والهبات بعد وفاته[1].

وجالس ابن نسطاس الطبيب النصرانى الخليفة الحاكم بأمر الله، وشرب معه عندما أشار عليه بذلك ، وكان من خواصه وندمائه. وواحد من القلائل الذين يفضى اليهم بأسراره، كما جالس ابن نسطاس كبار رجال الدولة الفاطمية أمثال قائد القواد الحسين ابن جوهر، وأبو الحسن الرسى، والمسبحى، والقاضى عبد العزيز ابن محمد بن النعمان، وكان يخالطهم، ويحضر مجالسهم الخاصة [2].

وامتلك كثير من أهل الذمة الأموال الطائلة والقصور الفخمة التى امتلأت بالخدم والعبيد، واكتظت بأثمن ما عرف في هذا العصر من موجودات وتحف وذخائر ومقتنيات.

فقد بلغت ثروة قزمان بن مينا عامل الخراج بفلسطين في عهد الخليفة المعز ما يزيد على تسعين ألف دينار [3]، كما امتلك الوزير يعقوب بن كلس الاقطاعات والضياع والأموال،

(١) القفطى: المصدر السابق، ص ٤٣٨.
ـ ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق، ص ٥٥٠
(٢) ابن حجر العسقلانى: رفع الاصر عن قضاة مصر، القسم الثانى، ص ٣٦٢، ص ٣٦٣.
(٣) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٤٤.

فى الحشا ويخلق اقانيم تامة فى النسا. ولما كمل ملو اكليل جسده وتم تاج اعضا عظمته ولما جمع الجسد حواسه بعلمه وكمل طبايع الخاتم الذى لملو جسده بجمع اقنومه معا. ولما خلق اقنومه فى حواسها وصنع الصورة التى للانسان الكامل منا وكمل جسده. وقال ابوليديس بطرك رومية فى رسالته الى القديس ساويريانوس اسقف عابلا : ولكن هو الذى بنا جسده فى بطن العذرى ولم

وكان قصره واحدا من أعظم قصور القاهرة الفاطمية ووجد فى تركته بعد وفاته (ت ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م) من الجواهر أربعمائة ألف دينار، ومن الملبوس والمركوب ما قيمته خمسمائة ألف دينار، ووجد له من العبيد والمماليك أربعة آلاف غلام، سكنوا فى المكان المعروف بالحارة الوزيرية التى اتخذها سكنا لحاشيته وعبيده ومماليكه و حشمه، ولما مات ابن كلس كفن بما قيمته عشرة آلاف دينار [١].

كذلك عرف عن عيسى بن نسطورس أنه كان محبا لجمع المال فالكل قد اتخذ من الوزارة أو الوساطة وسيلة للثراء [٢]، وليس أدل على ثرائه الفاحش غير المشروع من تلك الغرامة التى بلغت ثلاثمائة ألف دينار، والتى دفعها الى خزينة الدولة عندما غضب عليه العزيز بالله[٣].

أما منشا بن ابراهيم القزاز اليهودى الذى كان عاملا على الشام، فقد جمع ثروة بالابتزاز، مما اضطر الخليفة العزيز الى مصادرته [٤]. كما استحوذ فهد بن ابراهيم

(١) العينى: المصدر السابق، جـ١٩، ورقة ٤٢٠.
(٢) المناوى: المرجع السابق، ص ٨٦.
(٣) النويرى: المصدر السابق، جـ٢٦، ورقة ٤٩.
(٤) أبو شجاع: المصدر السابق، ص ١٨٦.

يشاركه احد فى خلقة جسده، فلو كان هذا الحبيس يا اخوتى قرا هذه الكتب او شى منها لم يعتقد اعتقاده الفاسد، ومن لم يقرى فلا علم له، ومن لا علم له فلا نرضاه ان يكون بطركا لنا ولا مقدم علينا لان القوانين المقدسة تمنع من لاعلم له ان يصير في شئ من درجات الكهنوت، ولذلك قالو انه يجب انه يكون الاغنسطس عالماً بالكتب ويوافق ما بين العتيقة والحديثة . قال واضع هذه

النصراني على كثير من الاقطاعات والضياع والأموال وبلغ راتبه السنوى ستة آلاف دينار[1].

وكان سهل بن يوسف أخ يعقوب بن كلس الوزير واسع الثراء، وعندما أمر الحاكم بأمر الله بقتله في سنة ٣٩٤هـ/ ١٠٠٣م بسبب طمعه وجشعه عرض أن يدفع ثلاثمائة ألف دينار عينا يفدى به نفسه فلم يجب إلى ذلك [2].

ويحدثنا ناصرى خسرو عن ثروة أبى سعيد التسترى بقوله أنه «يهودى وافر الثراء... وقيل أنه لا يعرف مدى غناه الا الله، فقد كان على سقف داره ثلاثمائة جرة من الفضة، زرع فى كل منها شجرة، كأنها حديقة، وكلها أشجار مثمرة» [3]. وعندما قتل أبو سعيد كتب أخوه لما ملكه الفزع رسالة للخليفة المستنصر بأن يقدم فورا لخزانة الدولة مائتى ألف دينار، غير أن المستنصر بالله أمر بعرض الرسالة على الناس، وتمزيقها على الملأ، وخاطب الجميع قائلا «كونوا آمنين، وعودوا إلى بيوتكم، فليس لأحد شأن بكم، ولسنا بحاجة لمال أحد» [4].

كما يذكر ناصرى خسرو أنه رأى بمدينة الفسطاط نصرانيا من كبار أغنياء مصر، قيل أن

(١) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ٥٩.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢ ، ص ٥١.
(٣) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٦٤، ٦٥.
(٤) ـــــــ: المصدر السابق، ص ٦٥.

السيرة فقالو الاساقفة والاسكندرانيين ما نقدم علينا الا من نعرف غزارة علمه ونزاهة نفسه وطهارته ونسكه واستقامة امانته، ومن يدخل تحت الشروط التي نشرطها عليه وناخذ خطه بها. ومكثو اياما يحثو ويستقصو عنمن يصلح للبطركية، فحضر من ذكر لهم ان في قلاية سنجار حبيس راهب قسيس اسمه ميخاييل وانه عالم فاضل قد قرا وفهم، وامانته مستقيمة وهو كهل في الرجال

مراكبه وأمواله وأملاكه لا يمكن أن تعد، وأن لدى هذا النصراني من الغلال ما يمكنه من اطعام أهل مصر «الفسطاط» ست سنوات [١]. وعلى الرغم من أن ناصري خسرو كان مبالغا فيما رواه، الا أن في روايته الدليل القوى على ثراء الكثير من أهل الذمة في مصرالفاطمية.

وكان أبي المليح الملقب بمماتي واحدا من نصارى أسيوط الأثرياء، وأنه كان يمتلك أيام الغلام والشدة العظمى في عصر المستنصر بالله قمحا كثيرا، وكان يوزعه على فقراء المسلمين الذين أحبوه وشكروه لحسن صنيعه [٢].

ويذكر أبو صالح الأرمني أن واحدا من نصارى مصر ويدعى المعلم سرور الجلال كان ذا مال وجاه، وكانت علاقته وثيقة بالخليفة المستنصر وكان يقدم للخليفة وحاشيته أثناء الاحتفال بكسر سد الخليج أنواع الأطعمة والأشربة والحلوى فيقبلها منه، ويخلع عليه ويقضي حوائجه[٣]. أما المعلم اسحق الذى كان واحدا من كبار أثرياء التجار بمدينة قفط، فقد امتلك من الأراضي والأموال والماشية الشئ الكثير [٤].

(١) ـــــــ: نفس المصدر، ص ٦٢.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ١٥٩.
(٣) أبو صالح الأرمني المصدر السابق، ص ٣٢.
(٤) نفس المصدر ، ص ١٣٠.

ويصلح لهذه الرياسة، فسارو باجمعهم الى سنجار واجتمعو بجماعة من اهلها وسالوهم عن قضية امره فما من احد ممن يسالوه عنه الا ويصفه بالاوصاف الجميلة، فلما تحققو ذلك اجتمع رايهم على تصييره بطركاً، فسارو الى قلايته وطلع اليه انبا سنهوت اسقف مصر وبعض الاساقفة والشماس ابو غالب ابن مرقوره السنجارى وتحدثو معه وفاوضوه فى الامانة وعلوم الشريعة، فاجابهم

وقد امتلك أهل الذمة ـ وبخاصة الأثرياء ـ الرقيق، ليعملوا خدما فى القصور. فقد وجد فى تركه ابن كلس أربعة آلاف عبد ومملوك (١)، كما امتلأت قصورهم بالجوارى والقينات، وكان اليهود المشتغلون فى تجارة الشرق يشترون الجوارى لاتخاذهم خدما لهم (٢)، ومن الجدير بالذكر أن زوجة العزيز بالله أم ست الملك كانت جارية رومية (٣)، كما كانت أم المستنصر بالله جارية سودانية لأبى سعيد التسترى أهداها للخليفة الظاهر لاعزاز دين الله (٤)، وكان من نتيجة اختلاط أقباط مصر بغيرهم من الطوائف الاجنبية أن تهافت الأقباط ـ وخاصة الموظفين منهم ـ على تعدد السرارى فى بيوتهم بدون عقد شرعى، مما يتنافى مع روح الديانة المسيحية(٥).

ونتيجة لهذا الثراء وتلك المكانة الاجتماعية، كان أهل الذمة يلبسون الملابس الجليلة، وكان عمال النصارى يلبسون أثوابا كأثواب عظماء المسلمين، ويركبون البغال ويمتطون الخيول (٦).

(١) العينى: المصدر السابق، جـ١٩، ورقة ٤٢٠.
(٢) القوصى: المرجع السابق، ص ٢١٣.
(٣) الأنبا ميخايل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٥١.
(٤) ابن ميسر: المصدر السابق، جـ٢، ص ١ ـ٣.
(٥) بتشر: تاريخ الأمة القبطية وكنيستها، جـ٣، ص ١٦.
(٦) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٣٦٦.
ـ بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر، ص ٢٤.

بما استدلو منه على علمه وقوة امانته، فعند ذلك اطلعوه على ما في نفوسهم من تقدمته ريسا عليهم، وقالو له: انت رجلا عالم عاقل ما يتغطا عليك قدر ما دعوناك اليه وانها رتبة جليلة ورياسة منيفة وخدمة عالية شريفة، وانت تقدر عليها بعلمك وكهنوتك وزهدك وسياستك وما هي من الامور التي ياباها مثلك ويمتنع منها، ونسلك قبول سعينا اليك واجابتنا الى ما عولنا فيه عليك على

وقد أنعم الخلفاء الفاطميون على كبار رجال دولتهم من أهل الذمة بالألقاب تكريما لهم، ودلالة على مكانتهم في الدولة . فابن كلس الوزير لقب «بالوزير الأجل» (١)، ولقب عيسى بن نسطورس «بسيدنا الأجل» (٢)، أما ابن عبدون فقد منحه الخليفة الحاكم بأمر الله لقب «الكافي» (٣)، كما انعم على زرعة بن عيسى ابن نسطورس بلقب «الشافي» (٤)، ولقب أخوه صاعد بن عيسى ابن نسطورس «بالأمير الظهير شرف الملك تاج المعالي ذو الجدين» (٥). أما المستنصر بالله الفاطمي فقد منح أبو نصر صدقة بن يوسف الفلاحي اليهودي الأصل لقب «الوزير الأجل تاج الرياسة فخر الملك مصطفى أمير المؤمنين» (٦)، كما منح أبو علي الحسن بن أبي سعد ابن ابراهيم بن سهل التستري لقب «العميد علم الكفاة» ، وخوطب أبو سعد منصور بن زنبور الوزير النصراني الأصل - في خلافة المستنصر - بلقب «الأجل الأوحد المكين السيد الأفضل الأمين شرف الكناة عميد الخلافة محب أمير المؤمنين» (٧).

(١) المقريزي: المرجع السابق، جـ٢، ص ٥.
(٢) المناوي: المرجع السابق، ص ٢٤٤.
(٣) الانطاكي: المصدر السابق، ص ١٩٦.
(٤) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ٦٤.
(٥) المناوي: المرجع السابق، ص ٢٥٠.
(٦) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ١٩١.
(٧) المناوي: المرجع السابق، ص ٢٦٣، ٢٦٦.

الشــروط التى نذكرها لك ونعـرف وجـوبهـا على قـدسك . ثم ضـربو له المطانوه وقـالو له: نريد ان تقبل منا هذه المطانوه وتجيبنا الى ما سالناك فيه بطيبة قلبك بلا عنف ولا تحوجنا ان ناخذك غصباً ولا كرهاً فان ذلك مما لا يليق بك . فاجابهم الى ما ارادو وقـال لهم: مـاهى الشـروط التى تشـترطوها؟. قالو : تكتب لنا بخطك قبل كل شي بامانتك على القـضيـة التي اتفقنا عليـها وسـمـعناها منك، قـال:

- -

. القيود الاجتماعية التى فرضت على المصريين من أهل الذمة:

التزم أهل الذمة في الدولة الاسلامية من الناحية الشرعية بعدة قيود تتعلق بالمظهر الاجتماعي، وتشكل جانبا مما اصطلح على تسـميته «بالعهد العمرى» أبو «الشروط العمرية» المنسوبة إلى الخليفة عمر بن الخطاب.

وتمثلت تلك القيود الاجتماعية في الزام أهل الذمة بلبس الغيار فان كان يهوديا وضع على كتفه خيطا أحمر أو أصفر، وان كان نصرانيا شد في وسطه زنارا وعلق في عنقه صليبا، وان كانت امرأة لبست خفين أحدهما أبيض والآخر أسود، واذا دخل الذمي الحمام ينبغى أن يكون في عنقه طوق من حديد أو نحاس أو رصاص تميزا له من المسلم [(١)].

(١) الشيزرى: نهاية الرتبة فى طلب الحسبة، ص ١٠٦.
وروى أن نصارى الشام شرطوا على أنفسهم فى كتابهم الى عمربن الخطاب أن لا يتشبهوا بالمسلمين فى شئ من ملابسهم من قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا ينقشوا على خواتمهم بالعربية، وأن يلزموا زيهم حيثما كانوا. وأن يشدوا الزنار على أوساطهم. ويرى أصحاب الامام الشافعي أن أهل الذمة يلزمهم أن يتميزوا فى اللباس عن المسلمين ، وأن يلبسوا قلانس تميزهم عن قلانس المسلمين بالحمرة ويشدوا الزنار على أوساطهم. ويكون فى رقابهم خاتم من نحاس أو رصاص أو جرس يدخلون به الحمام، وليس لهم أن يلبسوا العمائم أو الطيلسانات. وأما المرأة فانها تشد الزنار تحت الأزار. وقيل فوق الازار، وهو الأولى، ويكون فى عنقها خاتم تدخل به الحمام، ويكون أحد خفيها أسود والآخر أبيض (الابشيهى : المستطرف فى كل فن مستطرف، جـ١، ص ١١٠ ـ ١١٢).

نعم. قالو له : وتذكر فيه التزامك بالقيام بما لكهنة اسكندرية ما جرت به عادة من تقدمك فى هذا الكرسي بالقيام لهم به فى كل سنة ليصرفوه فى عمارة البيع التى بها. وفى القرابين المرفوعة على هياكلها وفيما يلزم ضعفاهم من جالية وغيرها، قال: نعم، وان قدرت على اكثر مما جرت به عادة من كان قبلى قمت لهم به فان الحظ والجمال لى فى ذلك. قالو له : وتذكر فيه انك لا تاخذ

كما اشترط على أهل الذمة ألا تعلو أصوات نواقيسهم وتلاوة كتبهم، وألا تعلو أبنيتهم فوق أبنية المسلمين، وألا يتجاهروا بشرب الخمر واظهار الصلبان والخنازير، وأن يخفوا دفن موتاهم وألا يجاهروا بالندب عليهم ولا نياحة وان يمنعوا من ركوب الخيل[١].

تلك هى بعض الشروط التى وردت «بالعهد العمرى» أو «الشروط العمرية» التى تنظم تصرفات أهل ا لذمة فى المجتمع الاسلامي. ويرى البعض أن تلك الشروط المشار اليها والتى عرفت باسم «الشروط المستحبة» انما هى من وضع الفقهاء فى مرحلة متأخرة، مغالاة منهم فى فرض القيود على أهل الذمة الذين لم تفرض عليهم هذه الشروط فى عهد النبى[٢].

وفى بداية العصر الفاطمى الأول لم يلجأ الخليفتان المعز لدين الله وولده العزيز بالله الى فرض أية قيود على أهل الذمة وبخاصة فيما يتعلق بالملابس، الركوبات، والحمامات، واستخدام المسلمين لدى أهل الذمة، فالتسامح كان أساسا لسياستهما تجاه أهل الذمة...

....

(١) قاسم عبده: المرجع السابق، ص ٢٠، ٢١ (نقلا عن ابن قيم الجوزية أحكام أهل الذمة. جـ١، ص ٢٣٦).

(٢) قاسم عبده : المرجع السابق، ص ٢١.

شرطونية من احد ممن تصيره فى درجة الاسقفية ولا غيرها من ساير طقوس الكهنوت لان القوانين المقدسة تمنع ذلك وتامر بقطع من ياخذه، فان الذى ياخذ والذى يدفع كلاهما محرومين مقطوعين، وترد ايضاً على اساقفة الكراسى ما اغتصبه من كان قبلك من كنايسهم ودياراتهم وشاركهم فى كراسيهم، لانك تعلم ان البطرك انما هو اسقف اسكندرية وله التقدمة على اساقفة

لكن الخليفة الحاكم بأمر الله بعد عدة سنوات من توليه الخلافة أصدر عددا من المراسيم والسجلات التى نصت على فرض قيود اجتماعية على أهل الذمة ـ باستثناء الخيابرة ـ (١)، وتلزمهم بالتميز عن المسلمين بعلامات عرفت بالغيار، وذلك تنفيذا لما اصطلح على تسميته «بالشروط العمرية» ولكن الحاكم بأمر الله بالغ فى هذه الشروط وزاد عليها، لذا اعتبر أهل الذمة عودة الحاكم إلى تطبيق هذه الشروط وزيادته عليها امتحانا لهم من قبل الله يذكرهم بما عانوه فى عهود الاضطهاد السابقة (٢). ذلك أن الحاكم بأمر الله قد أخذهم بالشدة فى تطبيقها بالدرجة التى فاقت احتمال الكثيرين منهم (٣).

ففى النصف الأول من شهر المحرم سنة ٣٩٥هـ أصدر الحاكم بأمر الله سجلا ألزم النصارى. واليهود ـ دون الخيابرة ـ بشدة الزنانير فى أوساطهم، ووضع العمائم السود على

(١) وهم يهود يرجع اصلهم إلى خيبر وما جاورها ، الذين أمر عمر بن الخطاب بنقلهم من شبه الجزيرة العربية الى مصر، وذلك جريا على السنة الأولى منذ أيام النبى (ماجد: الحاكم بأمر الله، ص ٩٦).

(٢) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر، ص ٣٥٤.

(٣) الأنبا ميخايل : المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٥٩.

كراسى مصر لا مشاركتهم في كراسيهم، وكما انه لا يجوز لمن له زوجة ان يشاركه اخر فى زوجته كذلك لا يجوز لا سقف ان يشارك اسقف اخر فى كرسيه الذى هو عروسته، وترد عليهم ما كان من تقدملك اخذه من كراسيهم واغتصبه على سبيل الشره وطلب المجد الفارغ والزخرفة الدنيانية التى لا يرضاها الله ولا الناس ولا تليق برويسا الاساقفة.

قال لهم: وما هى البيع والديارات التى اخذها

رؤوسهم ـ اذ كان السواد هو شعار العباسيين وهم العصاة فى نظر الفاطميين ـ وأعلن هذا السجل فى جوامع مصر، فامتثل لأمر الخليفة سائر أهل الذمة فى انحاء الدولة(١).

وفى سنة ٣٩٧هـ / ١٠٠٦م اشتدت القيود صرامة، ففى هذا العام أمر النصارى، واليهود ـ دون الخيابرة ـ بلبس السواد، وأن يحمل النصارى الصلبان فى أعناقهم ، وأن يحمل اليهود فى أعناقهم قرامى الخشب والجلاجل (٢).

وفى العام التالى أخذ الحاكم بأمر الله أهل الذمة بالشدة فيما يتعلق بالغيار، واشترط على من يقيم فى دولته منهم فى مصر أن يلتزم بما شرط عليهم من الشروط التى زاد فيها على الشروط العمرية، فشرط على النصارى تعليق الصلبان ظاهرة، وعلى اليهود قرامى الخشب على هيئة رأس العجل. فاتخذ النصارى صلبان الذهب والفضة، فأنكر الخليفة ذلك، وأمر المحتسبين أن يأخذوا النصارى بتعليق صلبان الخشب واليهود بتعليق القرامى، كما أمر بالنداء فى أهل الذمة بأنه من أراد الدخول فى الاسلام فله ذلك، ومن أراد الانتقال إلى بلاد الروم

(١) الانطاكى : المصدر السابق، ص ١٨٧.
ـ المقريزى: انعاظ الحنفا، جـ٢ ، ص ٥٣ .
(٢) النويرى: المصدر السابق، جـ٢٦ ، ورقة ٥٣.

البطاركة من كراسي الاساقفة؟، قالو: الماخوذ من كرسي مصر كنيسة السيدة المعلقة بقصر الشمع وكنيسة ابو مرقوره بساحل الشعير(*) وكنيسة السيدة ايضاً بحارة الروم وهاتين الكنيستين اعنى ابو مرقوره والسيدة بالقاهرة اخذهما اخر سطودلوس بعد وفاة فيلاثاوس اسقف مصر وجعل لابا غبريال الذى صار بعده اسقفاً رسوماً ياخذها منها فى كل سنة، وقداسات معلومة يقدسها فيها

(*) كنيسة ابو مرقوره: كانت على شاطئ النيل قبل ان يغير مجراه الحالي. وهي الأن على بعد ٦٠٠م تقريباً من شاطئ النيل في مصر عتيقة قرب الكنيسة المعلقة. أما ساحل الشعير فهو ميناء القاهرة الجنوبي قرب مصر عتيقة حيث كان يستقبل الحبوب والغلال القادمة للعاصمة من الصعيد.

كان آمنا إلى ان يخرج، ومن أراد المقام بمصر فعليه بلبس الغيار والالتزام بما شرط عليه، فاضطر كثير من أهل الذمة تحت وطأة تلك القيود الصارمة الى الدخول فى الاسلام (١).

كما نودى فى سنة ٣٩٩هـ/ ١٠٠٨م بأن لا يمشى اليهود والنصارى الا بالغيار والاضربوا على ذلك. ويذكر المقريزى أنه فى سنة ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م اشتد الأمر على أهل الذمة فى الزامهم لبس الغيار (٢). وفى العام التالى أمر الحاكم بأمر الله أن تؤخذ الذمة الزامهم لبس الغيار (٢). وفى العام التالى أمر الحاكم بأمر الله أن تؤخذ الذمة من النصارى واليهود بتغيير الزنانير الملونة التى يلبسونها والاقتصار على لبس الزنانير السود فقط دون غيرها من الألوان مع وضع العمائم السود على رؤوسهم (٣).

وفى سنة ٤٠٢هـ / ١٠١١م أمر النصارى واليهود ـ دون الخيابرة ـ بلبس العمائم السود، وأن تحمل النصارى فى أعناقهم الصلبان ما يكون طوله ذراعا ووزنه خمسة أرطال،

(١) ابن العبرى : المصدر السابق، ص ٢١٣.
ـ ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٧، ص ٢٣٩، ٢٤٠.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٧٦، ٨١.
(٣) الانطاكى : المصدر السابق، ص ٢٠٠.
ـ المقريزى : اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٨٥.

فى كل وقت وهى ثابتة فى منظرة كرسى مصر، ومن كرسى وسيم والجيزة كنيسة ميكاييل بجزيرة مصر المعروفة بالمختاره، ومن كرسى طموه دير الشمع ودير الفخار وهو ايضاً على اسم الشهيد ابو مرقوره وغير ذلك مما المنظرة المخلدة فى القلاية البطركية شاهد به وتاريخ اخذه من الكراسى الذى هو من حقوقهم. فاجابهم الى جميع ذلك وقال لهم: كلما التمستوه وشرطوه واجب وهو حق

وأن تحمل اليهود فى أعناقهم عند خروجهم الى الأسواق قرامى الخشب على وزن صلبان النصارى (١).

ويذكر ابن اياس أن الخليفة الحاكم بأمر الله ألزم النصارى أن تكون الصلبان من حديد بطول ذراع وأن يلبسوا المآزر الفسيحة، فأقاموا على ذلك مدة ثم أعادهم الى ما كانوا عليه(٢).

وجدد الحاكم بأمر الله هذا المرسوم في سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م، فأمر أن تلبس النصارى واليهود ـ دون الخيابرة ـ طيالسة سود، وعمائم شديدة السواد وأن يعلق النصارى فى أعناقهم صلبان الخشب مضافا إلى الزنار فى أوساطهم، فلبسوا صلبانا طولها فتر، ثم أمر بعد شهر وجعلها قدر شبر فى شبر. فلما كان يوم الأحد النصف من شهر ربيع الآخر من نفس العام أمر النصارى بتعظيم الصلبان التى فى رقابهم، وأن يكون طولها ذراع فى عرض مثله، وفتحها

(١) القضاعى : المصدر السابق، ورقة ١٨٠.
ـ ابن خلكان : المصدر السابق، جـ٤، ص ٣٨٠.
ـ العينى : المصدر السابق، جـ١٩، ورقة ٦٧٨.
(٢) ابن اياس: المصدر السابق، جـ١، ص ٥٢، ٥٣.

وصدق . وكتب لهم خطه بجميعه واحرم فيه من الاساقفة. وكهنة اسكندرانيين الذين طلعو الى صومعته والذين كانو اسفل والتمسو ان ينزل معهم، فقال لهم: ما انزل الا بعد ان تلبسونى الثوب وتصلو على ان كان هذا الامر قد اتفقتو عليه كلكم . فالبسوه الثوب واوسموه بطركاً ونزل معهم وسارو به الى اسكندرية وكرزوه فى اليوم الثانى عشر من بابه سنة ثمان ماية وتسعة للشهد

ثلثى شبر وسمكها أصبع [١]، غير أن الأنبا ميخائيل ذكر أن طول الصليب كان ذراعا ونصفا على أن يكون وزن كل صليب خمسة أرطال مختوم بخاتم رصاص عليه اسم الخليفة، وأن يعلقوه في رقابهم بحبال من ليف [٢]. كما نودى على اليهود بأن يعلقوا فى رقابهم قرامى الخشب على هيئة رأس عجل زنة كل منها خمسة أرطال تعلق فى رقابهم بحبال من ليف وتختم بخاتم من رصاص عليه اسم الخليفة الحاكم[٣]، وعلى أن تكون هذه الصلبان والقرامى ظاهرة فوق ثياب أهل الذمة عند خروجهم إلى الأسواق بحيث يراها الناس[٤] وأذن للناس فى البحث عن المخالفين وتتبع آثارهم [٥]، مما أثار الفزع بين النصارى وكثرت مخاوفهم، وخلت الطرقات أياما لم ير فيها نصرانى [٦]، واذا وجد واحد من أهل الذمة عليه صليب أو قرمة بغير ختم كان يتعرض للاهانة والغرامة، مما أدى الى أن ضاق أهل الذمة ذرعا بتلك

(١) الانطاكي: المصدر السابق، ص ٢٠٢، ٢٠٣.
(٢) الأنبا ميخائيل، المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٥٦.
(٣) ـــــ : نفس المصدر، ص ٥٦.
ـ الانطاكى : المصدر السابق، ص ٢٠٣.
(٤) المقريزى: الخطط: جـ٢، ص ٢٨٧.
(٥) عنان : المرجع السابق، ص ١٣٩.
(٦) الانطاكى :المصدر السابق، ص ٢٠٤.

وهى سنة اثنين وثمانين واربع مابة الخراجية، وسار منها الى دير ابو مقار بوادى هبيب وكرزوه فى كنيسة المعلقة بمصر، فلما اقام بها ايام التمس منه انبا سنهوت ان يفى له ما كتب به خطه من اعادة كنايسه المقدم ذكرها اليه فلم يفعل، وجرى بينه وبينه من الخصايم ما يطول شرحه، وانكر الخط وقال: ان ما هو خطه. واحرم من يشهد عليه بما فيه ولم يرد على احد من الاساقفة كنيسة ولادير،

القيود التى فرضت على الملابس. ويروى الأنبا ميخائيل أن نصارى مدينة تنيس ذاقوا الأمرين من تلك القيود، ومن مضايقات المسلمين لهم، فاذا نسى نصرانى منهم صليبه ومشى فى طرقات المدينة بلا صليب تعرض للأذى ولقى كثيرا من الاهانة والسخرية (١).

غير أنه قد زاد من تلك القيود تصريح الحاكم بأمر الله لرعاياه من أهل الذمة فى صفر سنة ٤٠٤هـ بالانتقال إلى بلاد الروم أو النوبة أو الحبشة، أو التزام الغيار اذا رغبوا فى البقاء (٢)، كما لجأ الكثير من النصارى تحت وطأة تلك القيود وصرامتها الى نزع الغيار والصليب والزنار والتشبه بالمسلمين، والتظاهر بالاسلام ليظن من يراهم أنهم قد اعتنقوا الاسلام (٣).

كما شملت سجلات الخليفة الحاكم بأمر الله التى أصدرها بشأن أهل الذمة عدة قيود فرضت عليهم عند دخولهم الحمامات..

ففى سنة ٣٩٨هـ و٣٩٩هـ/١٠٠٧م و١٠٠٨م، أمر الحاكم بأمر الله أن يتميز أهل الذمة

(١) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٥٧ ـ ٥٩.
(٢) الانطاكى: المصدر السابق، ص ٢٠٧.
(٣) الأنبا مخائيل: المصدر السابق، جـ٣، و رقة ٥٧.
ـ المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٩٤، ويذكر المقريزى تاريخ هذا المرسوم فى ربيع الأول سنة ٤٠٣هـ.

وكان الخط الذى قيل انه كتبه على عدة نسخ منها ما كان بيده، ومنها ما كان بيد كهنة اسكندرية، ومنها ما كان عند انبا يوحنا اسقف سخا لانه اكبر الاساقفة، ومنها ما كان عند انبا سنهوت اسقف مصر، فلما جرى منه ما تقدم ذكره انفذ الى كهنة اسكندرية خطه بما يلزمه لهم خاصة من الرسم الذى يقبضوه فى كل سنة، وطالبهم باعادة النسخة التى فيها تلك الشروط،

عند دخولهم الحمامات بعلامات تميزهم عن المسلمين وذلك بأن يتميز النصارى بصليب يعلقونه فى رقابهم، وأن يتميز اليهود بجلجل مكان الصليب، كما نودى ألا يدخل أحد الحمام الابمئزر، وأخذوا بالشدة والضرب فى تنفيذ تلك الأوامر، كما كبست الحمامات للتأكد من مراعاة ما جاء بتلك السجلات . غير أنه لم تلبث تلك الأوامر أن زالت بعد مدة، ولم يعد أهل الذمة يكترثون بتنفيذ (١).

وفى المرسوم الذى أصدره الحاكم سنة ٤٠٢هـ / ١٠١١م أكد ما سبق أن أصدره من أوامر بشأن الحمامات، ثم أفرد حمامات اليهود وحمامات النصارى من حمامات المسلمين. وأمر ألا يدخل أحد من أهل الذمة حماما مع المسلمين وأصبحت لهم حمامات خاصة ـ كذلك الحمام الذى أنشأه ابن أبى الدم اليهودى كاتب الانشاء فى عهد الحاكم ـ ووضع على حمامات النصارى الصلبان الخشب وعلى باب حمامات اليهود القرامى الخشب، كعلامات مميزة تعرف بها، مع التزامهم بتعليق الصلبان والقرامى الخشب فى رقابهم عند دخولهم

(١) الانطاكى : المصدر السابق، ص ١٩٥.
ـ ابن الجوزى: المنتظم، جـ٧، ص ٢٣٩، ٢٤٠.
ـ المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٧٦.

وتواعـدهم الحـروم والمنع ان لم يعـيـدوها اليـه، فانفذوها له. واوعد اسقف سخا بمثل ذلك فاعاد اليه النسـخة التي كانت مودعة عنده خوفاً منه، لانه لما تمكن من الامـر واسـتـقـرت اقـدامـه في البطركية ظهر من سطوته وهيبته وسلطته ما صار له في قلوب الاساقفة وغيرهم من الخوف والرهبة مثلما كان للاب اخر سطودلوس نيح الله نفسه، ولم يكن احـد من الاسـاقـفـة ولا الاراخنة يقـدر

الحمامات [1]. وتأكد ذلك مرة أخرى في المرسوم الذى أصدره في سنة ٤٠٣هـ / ١٠١٢م، كما تكررت تلك القيود في المرسوم الصادر من دار الخلافة في شهر المحرم من السنة التالية[2].

أما فيما يتعلق بالركوبات، فانه طوال خلافة المعز لدين الله وابنه العزيز لم تفرض على أهل الذمة أية قيود تتعلق بذلك، كما نعموا بحرية استعمالها في بداية خلافة الحاكم بأمر الله، فقد كانوا يركبون الخيل وخاصة أثناء الاحتفال بأعيادهم [3]، واهتم الأثرياء وكبار رجال الدولة من أهل الذمة باقتناء الخيول والبغال، وكانت لهم الاصطبلات المعدة لتربيتها. ويذكر المقريزى أن فهد ابن ابراهيم النصرانى كان يمتلك العشرات من الخيول والبغال، وأنه حمل الى الخليفة الحاكم بأمر الله هدية منها ثلاثون بغلة ملونة الأجلال، وعشرون فرسا منها عشرة مطهمة باللجم والسروج المحلاة، وعشرة خيول تكسوها أجلال ملونة فاخرة. كما أن الحاكم بأمر الله صرح لأولاد فهد في شعبان سنة ٣٩٢هـ باسترداد ما أخذ منهم من سروجهم المحلاة

(١) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٥٥.
ـ ابن خلكان: المصدر السابق، جـ٤، ص ٣٨٠.
ـ النويرى : المصدر السابق، جـ٢٦، ورقة ٥٦.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٩٤، ١٠٠.
(٣) ـــــ الخطط، جـ١، ص ٦٨.

يقـاومـه فى خطاب ولا يراده، واذل الاسـاقـفـة واهانهم حتى صارو له مثل ارض يطاها، والتمس من انبا سنهوت ان يعيد له الخط الذى عنده فلم يفعل وقال: انت قد انكرته وقلت ان ما هو خطك فما حاجتك به حتى تطلبه. فوعده وتواعده ولطف به وتهدده فلم يصغى اليه ولا دفعه له، فمنعه من التصرف فى كنايسه ومن القداس فلم يهمه ذلك، فانفذ الى كهنة جميع الكنايس بالقاهرة ومصر

بالذهب، وأمرهم بالركوب (١)، وعندما خلع الحاكم بأمر الله فى ربيع الأول سنة ٣٩٤هـ على أبي يعقوب ابن نسطاس الطبيب، حمله على بغلين ومعه الثياب الفاخرة، ولما توفى ابن نسطاس استطب الحاكم بأمر الله صقر اليهودى (ت ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م) وخلع عليه فى سنة ٣٩٨هـ / ١٠٠٧م، وحمله على بغلة محلاوة بالسرج واللجام الفخمة، وأهداه ثلاث بغلات بسروج ولجم ثقال (٢).

غير أن سجلات الحاكم بأمر الله التى أصدرها لفرض القيود على أهل الذمة شملت أيضا قيودا على الركوبات ففى سجلاته الصادرة فى سنتى ٤٠٢هـ و٤٠٣هـ / ١٠١١م و١٠١٢م منع أهل الذمة من ركوب الخيل، وأمر أن تكون ركوبهم البغال والحمير وبسروج ولجم غير محلاة بالذهب والفضة، وأن تكون من جلود سود، وألا يركب أحد منهم بركب حديد بل تكون ركب سروجهم من خشب الجميز، وامر أيضا أن يضرب فى الكنايس بالجرس فى القاهرة ومصر (الفسطاط) وألا يركب أحد من المكارية المسلمين ذميا، كما منع الملاحين وأصحاب السفن المسلمين أن يحملوا على سفنهم أحدا من أهل الذمة (٣).

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٤٤.
(٢) ـــــ: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٧٣.
(٣) الأنبا مخائيل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٥٥، ٥٦.
ـ الانطاكى: المصدر السابق، ص ٢٠٢، ٢٠٣.=

وامرهم ان لا يذكرو اسمه في قداس ولاصلاة فلم ينفعه ذلك فيه. ثم بلغ الاسقف المذكور انه يريد يشخص تلاميذه اليه فيشق عليه ويقطعه بالكلية ولا يجعل في الكرسى اسقف غيره بالجملة مدة حياته، فلما علم ذلك اختفا منه ومضى الى دير القلمون من اعمال الفيوم،واختفى فيه وبقى كرسى مصر شايل [خالى] واسقفه غايب عنه وكنايسه خاليه منه واحكام اهله واقفة الى ان

كما أن الحاكم بأمر الله أمر فى السجل الذى أصدره فى سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م بمنع بيع العبيد والاماء لأهل الذمة، ثم جاء فى المرسوم الذى أصدره فى سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م ألا يستخدم الذميون مسلما وألا يقتنوا عبدا مسلما أو جارية مسلمة، وقد تتبع آثار المخالفين لأوامره(١).

وأمام اقبال نصارى مصر على تربية الخنازير وأكل لحومها، أمر الحاكم بأمر الله بقتل الخنازير التى فى اقليم مصر، فقتلت جميعها، وكانت خنازير كثيرة لاسيما التى كانت فى منطقة البشمور (٢).

ولكن ازاء صرامة القيود التى فرضها الحاكم على أهل الذمة، وتشدده فى تنفيذها، فقد جأروا بالشكوى، بل بلغ بهم الأمر أن تشبهوا بالمسلمين وتظاهروا بالاسلام فرارا من قسوة القيود المفروضة عليهم. ثم كان قرار الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٤هـ ١٠١٣م بالتصريح لهم

= ـ المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٤٩٤.
ـ ــــ: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٩٤.
(١) النويرى: المصدر السابق، جـ٢٦، ورقة ٥٦.
ـ المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٥٣، ٩٤.
(٢) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ٢، ورقة ٥٥.

اجتمع الاراخنه ومضو الى انبا ميخاييل البطرك وهو يوميذ مقيم في جوسق كنيسة ميكاييل المختارة بجزيرة مصر وقالو له: امورنا واقفة وبيعنا شايله لغيبة اسقفنا وما نعرف السبب الموجب في القوانين لما فعلته مع الاسقف من المنع،وهو الان غايب ونحن حاضرين ونريد ان تعرفنا السبب في منعه، فان ثبت عليه انه قد جنا جناية توجب القوانين عليه فيها ما فعلته معه سلونا عنه وعرفنا انه جنا

المضى الى بلاد الروم أو الحبشة والنوبة دون التعرض لهم [١]، وبهذا القرار وضع أهل الذمة موضع الخيار: أما الالتزام بما فرض عليهم من قيود. أو الاسلام. أو الهجرة [٢] مخالفاً بذلك شريعته الاسلامية و عهود المسلمين الغزاه التى اعطوها للمصريين من قبل وطوال عهود الاحتلال.

وفى خلافة الظاهرة لاعزاز دين الله نعم أهل الذمة بقدر كبير من التسامح فخففوا من الغيار الذى عليهم، واقتصر الأكثرون منهم على لباس الزنار وعمامة سوداء [٣]. كما أن كبار أهل الذمة لم يلتزموا بتلك القيود فى خلافة المستنصر بالله الفاطمى، اذ يذكر أبو صالح الأرمنى أن المعلم سرور الجلال كان يخرج للقاء الخليفة المستنصر للسلام عليه، وعليه الثياب الفخمة «وعمامة صقلى مشدود الوسط بشملة دبيقى مذهبة» [٤].

(١) ـــــ: نفس المصدر، جـ٣، ورقة ٥٧.
ـ الانطاكى: المصدر السابق، ص ٢٠٧.
(٢) ماجد: الحاكم بأمر الله ، ص ١٠١.
(٣) الانطاكى : المصدر السابق، ص ٢٣٨.
(٤) أبو صالح الأرمنى: المصدر السابق، ص ٣٢.

علـى نفـسـه مـا اوجـب منعه ان كـان جـرمـه
مـا له مـغـفـرة ولا اقـاله لجنايتـه، وان لم يثبت
عليـه شـي ولا جنـا جناية توجـب القـوانين
عـليه فيها ما فعلته معه، فما يجوز لك ان تهيننا
وتظلـم اسقـفنا وتبعـده عـنا معمـا [مما] تعلمـه
مـن طـهارته وحـميد طريقـتـه وصـحـة امانتـه،
ولا نصـبـرعلى هـذا ولا ندخل تحته، وهو ذا نحن
قد جينا اليك فمطانوه لا تحـوجنا نتظلم فيك الى
غيرك. فتمرمر وتنكد وجرت بينهم خطوب يطول

(ب) سياسة الفاطميين الدينية ازاء المصريين من أهل الذمة

. موقف الخلفاء الفاطميين ازاء رجال الكنيسة المسيحية.

تمتع أهل الذمة في مصر بسياسة التسامح الديني التي سار عليها الخلفاء الفاطميون في العصر الفاطمي الأول ـ باستثناء فترة من عصر الحاكم بأمر الله ـ ونعموا بحرية ممارسة شعائرهم الدينية انطلاقا من مبدأ حرية العقائد الدينية لأهل الذمة.

فالخليفة المعز لدين الله الفاطمي ـ باجماع المصادر النصرانية كان متسامحا في سياسته الدينية بوجه عام ازاء أهل الذمة، ومع النصارى بوجه خاص، اذ لم يتدخل في الشئون الداخلية الخاصة بالكنيسة، علاوة على أنه أقام علاقات وطيدة مع رجالها.

فعندما توفى الأنبا مينا البطريرك الحادى والستين للكنيسة القبطية، اجتمع أساقفة الكنيسة وأعيان القبط سنة ٣٦٦هـ / ٩٦٨م لانتخاب خلف له من بينهم. ووقع أختيارهم على تاجر سورى اسمه ابراهيم بن زرعة ـ الذى اشتهر بتقواه وعلمه ـ ورسموه بطريركا باسم الأنبا ابراهام السوريانى، ليكون البطريرك الثانى والستين للكنيسة القبطية. ولم يعترض الخليفة المعز لدين الله على هذا الاختيار. بل نشأت بينه وبين البطريرك الجديد صداقات طيبة وكان يستدعيه الى مجلسه بقصر الخلاف، ويستقبله باكرام واحترام بالغين، كما كان البطريرك

---

٦٨ : انبا ميخايل البطرك ١٠٩٢ / ١١٠٢م

شرحها الى ان حلله واطلق له التصرف فى كرسيه وكهنوته وانفذ الى كهنة الكنايس ان يذكرو اسمه ويجروه على رسمه، وكتب الاراخنة اليه بذلك مع رسول قاصد وسالوه ان يحضر، فوصل الى مصر وفرحو به الكهنة والاراخنة والشعب ومضو معه الى البطرك انبا ميخاييل حتى سلم عليه وشكروه على اعادة اسقفهم اليهم.

وفى السنة الثانية من جلوس البطرك المذكور

ابرهام محل تقدير واحترام كبار رجال الدولة الفاطمية، مما كان له الأثر الطيب فى العلاقة بين الدولة والكنيسة، كما أثار حقد رجال الدولة من اليهود الذين كانت لهم صلة وثيقة بقصر الخلافة [١].

وكان الخليفة المعز لدين الله يستدعى إلى مجلسه بعض كبار الدين المسيحى واليهودى حيث كانت تجرى بينهم وبين بقية الجالسين من المسلمين مناقشات دينية، وفى هذه المجالس التى كان يعقدها فى قصره تدعمت العلاقات الطيبة بينه وبين رؤساء الطوائف الدينية من أهل الذمة، ونشأت صداقات بينه وبينهم دعمتها روح التسامح الدينى التى تحلى بها [٢].

أما العزيز بالله الفاطمى فقد شمل أهل الذمة جميعا برعايته وعطفه [٣] فضلا عن أنه قلد المناصب العليا فى الدولة لكبار رجال أهل الذمة من اليهود والنصارى دون أن يكره أن يشترط على أحد منهم اعتناق الاسلام، كما كانت علاقته برؤساء الطوائف الدينية لأهل الذمة، وخاصة المسيحية، فى أحسن حالاتها، اذ كان للعزيز بالله ـ وكما سبق أن أوضحنا ـ زوجة

(١) ابن الراهب: تاريخ ابن الراهب ، بيروت ١٩٠٣، ص ١٣٣.
(٢) الانبا ميخائيل (أسقف أتريب): السنكسارى، جـ١، ص ١٣٧.
(٣) الخربوطلي: مصر العربية الاسلامية ، ص ١٦٠.

مرض السيد الاجل امير الجيوش وانفلج لكبره سنه وتولى الامر قبل وفاته السيد الاجل الافضل ولده فى العشر الاخير من شهر ربيع الاول سنة سبع وثمانين واربع ماية الموافق لبرموده سنة ثلث وثمانين واربع ماية الخراجى(*)، وكتب له الامام المستنصر بالله امير المومنين سجل بتقليده امور المملكة والنظر فى ساير امور الدولة وقضاياها وشرايعها واحكامها، واخلع عليه وقرى سجله فى

(*) سنة ٤٨٧هـ = ٤٨٣ خراجية = ٨١٠ قبطية = ١٠٩٤م.

نصرانية على المذهب الملكانى، أنجب منها ابنته المعروفة بست الملك، وكان لهذه الزوجة النصرانية وابنتها نفوذ كبير فى قصر الخلافة، فقد كان العزيز بالله يعمل بمشورتهما مما أدى إلى استفحال نفوذ رجال الكنيسة الملكانية واتباع المذهب الملكانية، وأصدر قرارا فى رمضان سنة ٣٧٥هـ بتعيين صهره أريستيس خال ابنته ست الملك بطريركا على بيت المقدس، كما عين صهره الثانى أرسانيوس (أرسانيس) بطريركا للملكانية على القاهرة ومصر. وطبيعى أنه كان للرجلين نفوذهما المؤثر فى دار الخلافة وادارة الدولة، فازدهر حال الكنيسة الملكانية فى عهده،واستبد أهل تلك الطائفة بشئون البلاد، كما عانى النصارى اليعاقبة والكنيسة القبطية من استفحال هذا النفوذ، فقد حاول أرسانيوس مستغلا قرابته للعزيز بالله الاستيلاء على كنيستى المعلقة والسيدة العذراء بقصر الشمع بالفسطاط، وحدث نزاع خطير بين رؤساء الكنيستين، أنهاه الخليفة العزيز بالله لصالح الملكانيين، بأن أخذت الملكانية كنيسة السيدة العذراء وتسلمها أرسانيوس، بينما بقيت كنيسة المعلقة للأقباط اليعاقبة [١]، غير أن الأقباط استطاعوا استرداد كنيسة السيدة العذراء من الملكانية بعد وفاة العزيز بالله [٢].

(١) الأنبا ميخايل: سير البيعة المقدسة، جـ٣، ورقة ٥١.
ـ الانطاكى : المصدر السابق، ص ١٦٤، ١٦٥.
ـ المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٤٩٤.
(٢) رؤوف حبيب: كنائس القاهرة القبطية القديمة، ص ٤٤.

اليوم المذكور فى الايوان الكبير بالقصر، وفرح به الخاص والعام واحسن السيرة فى كل الايام فى كل الخواص والعوام، وتنزه عن الظلم وسد ابوابه وعفا اثاره، ولم يرغب فى الاموال الجمة الذى يرى فيها ادنى شبه، ورد على المتظلمين ظلامتهم وانصفهم من خصومهم، وافرج عن رباع كثيرة مثمنة جليلة لاربابها ونصب نفسه لافاضة العدل والجود والفضل، وسلك فى جميع الافعال المرضية

ولم يتعرض الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله لرجال الدين من أهل الذمة بما يسئ اليهم، كما لم يتدخل فى الاجراءات الخاصة بانتخاب البطاركة فعندما خلا كرسى بطريركية الروم الملكانية بالاسكندرية بوفاة أرسانيوس سنة ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م وظل المنصب شاغرا الى أن اجتمع قساوسة وأساقفة الكنيسة الملكانية بمصر ورسموا فى ذى الحجة سنة ٤١١هـ الأنبا جورجيوس ـ أحد رهبان دير طور سيناء ـ بطريركا لهم، وباركت ست الملك ـ ذات النفوذ القوى فى قصر الخلافة ـ هذا الاختيار، وأرسلت الى البطريرك الجديد هدايا قيمة من الثياب الديباج والمصاحف والتحف الفضية الثمينة التى كانت عندها لخالها أرسانيوس البطريرك السابق [١].

كما أنه بعد وفاة الأنبا زخاريا البطريرك الرابع والستين للكنيسة القبطية، طمع بعض كبار رجال الكنيسة فى اعتلاء كرسى البطريركية، وحاولوا أن يتولوا هذا المنصب الدينى الرفيع عن طريق تدخل الدولة ومساعدتها، الا أن الوزير على بن أحمد الجرجرائى (ت ٤٣٦هـ/ ١٠٤٤م)، الذى كان يسيطر على أمور الدولة، والذى كان يحب النصارى ويعطف عليهم، رفض التدخل فى اختيار بطريرك اليعاقبة الجديد ـ كما قرر أن تتنازل الدولة عن مبلغ الثلاثة

(١) الانطاكى: مصدر سابق ص ٢٣٧.

والطرايق الحميدة الجميلة ما لم يسبقه اليه من كان قبله من الملوك السالفة ولا الاكاسرة الماضيين.

ومن بعد تسعة شهور من جلوسه للنظر فى المملكة توفى الخليفة معد ابو تميم المستنصر بالله امير المومنين فى ليلة الخميس الثامن عشر من ذى الحجة سنة سبع وثمانين واربع ماية الهلالية وهو الثانى من طوبه سنة اربع وثمانين واربع ماية

آلاف دينار التى كان يدفعها البطريرك الجديد رسما الى بيت المال - كرامة للنصارى -، غير أنه اشترط على أساقفة الكنيسة القبطية وأعيان القبط أن تسير اجراءات انتخاب البطريرك الجديد فى نزاهة وحيدة تامتين وفقا لما هو متبع فى هذا الشأن. ولقد تم اختيار الأنبا شنوده البطريرك الخامس والستين للكنيسة القبطية سنة ٤٢١هـ، بدون أدنى تدخل من دار الخلافة[١].

كما كانت العلاقات الطيبة بين قصر الخلافة والكنيسة القبطية هى السمة الغالبة فى السنوات الأولى من عهد المستنصر باله، الى أن كانت وزارة اليازورى.

ففى أثناء وزارته ساءت العلاقات بينهما، حينما اتهم البطريرك خريستودولوس البطريرك السادس والستين بتحريض ملك النوبة على عدم الوفاء بالتزاماته نحو الخليفة المستنصر بالله، فألقى القبض على البطريرك ورحل الى القاهرة مع الزامه بدفع غرامة مالية كبيرة. غير أن «عبد الدولة» متولى منطقة مصر السفلى توسط لدى اليازورى للافراج عن البطريرك، وأخذ منه تصريحا باطلاق سراحه فى الحال [٢].

(١) الأنبا ميخايل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٦٣.
(٢) جاك تاجر: المرجع السابق، ص ١٣٨.

الخراجية وعمره يوميذ سبعة وستين سنة واربعة اشهر ويومين.

وكان فى حال مرضه قد أوصا اخته السيدة الشريفة والسيد الاجل الافضل فى تلك الليلة بان يكون ابنه الصغير ابو القسم احمد يجلس فى المملكة عوضه، فلما توفى ركب السيد الاجل

ومرة أخرى تعكر صفو العلاقة بين الدولة والكنيسة القبطية، عندما ترامى الى مسامع اليازورى ـ عن طريق دسائس أبى الحسين الصيرفى الذى كان قاضيا بالاسكندرية ـ أن الأنبا خريستودولوس قد اتخذ من بلدة «دمرو» مقرا له، وأن تلك البلدة أصبحت بمثابة قسطنطينية ثانية، وأن البطريرك شيد فيها قصرا رائعا لنفسه، وأحاط نفسه بمظاهر العظمة والأبهة، وبجانب كثرة الكنائس التى استحدثها وجدد عمارتها فى القرى المحيطة بها، وأنه كتب على أبواب تلك الكنائس عبارات سب للاسلام والمسلمين. فما كان من اليازورى الا أن أرسل من رجاله من يتقصى الحقيقة، ثم فرض على البطريرك والأساقفة غرامات مالية فادحة، طولبوا بسرعة سدادها، فاضطر البطريرك الى طلب المساعدة المالية من ملك النوبة الذى استجاب لمساعدته[1].

القيود التى فرضت على دور العبادة لأهل الذمة

الكنائس المسيحية:

يرى السير توماس أرنولد فى كتابه «الدعوة الى الاسلام» فى معرض حديثه عن سياسة التسامح الدينى التى نعم بها أهل الذمة فى مصر فى عصر الفاطميين أن «السلطة المدينة

(١) الأنبا مخائيل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٧٩، ٨٠.

الافضل فى تلك الليلة من ساعته إلى القصر والبس الولد المذكور ثياب الخلافة والجوهر بين عينيه وجلس فى مقعد ابوه ولقب بالمستعلى بالله امير المومنين وعمره يوميذ سبعة عشر سنة، وانفذت السيدة الشريفة عمته الى اولاد اخوها الكبار وهم نزار وعبد الله واسمعيل واعلمتهم بوفاة ابوهم، فلما حضرو وابصرو اخوهم الصغير جالس بزى الخلافة امتغصو [امتعضوا] وتنكرو من

- -

أباحت للقبط أن يبنوا كنائس في القاهرة ـ العاصمة الجديدة ـ كما سمح للمسيحين أن يؤسسوا في بعض المدن الأخرى كنائس وأديرة جديدة»[1]. هذا فضلا عن السماح لهم بتجديد عمارة الكنائس القديمة.

فتحت مظلة التسامح الدينى، انتهز البطريرك ابرهام السوريانى ـ البطريرك الثانى والستون للكنيسة القبطية ـ صداقته الوطيدة بالخليفة المعز لدين الله، والتمس منه تجديده عمارة كنيسة القديس مرقوريوس المعروف بأبى سيفين بالفسطاط، وكذلك الكنيسة المعلقة بقصر الشمع، فأذن له المعز ببناء الكنيستين، كما قام البطريرك المذكور ببناء وترميم كثير من الكنائس بالاسكندرية وسائر أنحاء مصر. ولما اعترض بعض مشايخ المسلمين وعامتهم المتعصبين على قيام النصارى ببناء الكنائس الجديدة وترميم غيرهم بحجة أن هذا مخالف للإسلام، أمر الخليفة المعز بتوفير الحراس لحماية وحراسة العمال والبنائين الذين يعملون فى البناء حتى يستكملوا ما بدأوه.

غير أن بعض الكنائس تعرضت فى سنة ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م للتدمير على يد عامة المسلمين

(١) أرنولد: الدعوة الى الاسلام، ترجمة حسن ابراهيم وعبد المجيد عابدين، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٥٧م، ص ٨٤.

ذلك، فقال لهم السيد الافضل: قبلو الارض لمولانا المستعلى بالله امير المومنين وبايعوه فهو الذى اوصا مولانا المستنصر بالله به قبل وفاته انه الخليفة من بعده. فامتنعو من مبايعته وقال كل واحد منهم: ان والده اوعده بانه الخليفة من بعده، ثم قال نزار، وهو الاكبر: والله لو قطعت راسى ما بايعت بالخلافة لمن هو اصغر منى ولا رضيت تقدمته على لان مولانا قال لى دفعات كثيرة انى الخليفة من

بتحريض اصحاب النفوذ من المسلمين وكذلك المشايخ المتمسحين بالدين، بعاصمة الخلافة، ففى هذا العام قرر الخليفة العزيز الخروج لجهاد الروم، وبينما الجيش على أهبة الاستعداد للتحرك، اذا بقطع الاسطول الفاطمى الراسية فى ميناء المقس تتعرض لحريق مدمر، أتى على معظمها، فاتهمت الرعية المتعصبة تجار الروم الواردين بالبضائع الى مصر، فقتلوا منهم حوالى مائة وستين، ثم انتهزت هذه الفوضى المغاربة الفاطمين بمصر وبعض العامة المسلمين تحت التحريض الدينى وهاجمت كنيسة القديس ميخائيل التى للملكانية بقصر الشمع كما نهبت كنيسة النسطورية. الا أن العزيز أنزل العقاب الصارم بالمسلمين الذين اشتركوا فى قتل الروم ونهب الكنائس، وأمر برد ما أخذ من ممتلكات الكنائس اليها [(١)].

وهكذا يتضح مما سبق أن الخليفتين المعز والعزيز قد صرحا بترميم الكنائس، وهذا ما يتفق مع ما يسمى بالشروط العمرية فيما يتعلق بالكنائس، الا أنهما صرحا أيضا باقامة وبناء الكنائس الجديدة بالقاهرة وبالأقاليم، وهذا ما لا يتفق مع الشروط العمرية التى حرمت بناء الكنائس الجديدة لأهل الذمة، فخالفا بذلك ما اتفق عليه المسلمين.

لكن الخليفة الحاكم بأمر الله كان صارما فى تنفيذ ما جاء بالشروط العمرية فيما يتعلق

(١) الانطاكي: المصدر السابق، ص ١٧٨، ١٧٩.

بعده وان معى خطه بهذا وهو ذا انا احضره اليكم الساعة، وخرج مسرعا على انه ياتيهم باالخط. فلما صار فى داره ركب فى ساعته واخذ معه من حضر فى تلك الساعة من غلمانه وسار فى الليل، فبلغ السيد الافضل الخبر فانفذ ليث الدولة صاحب الباب ومعه جماعة كبيرة من الفرسان ليقبضو عليه ويعيدوه، فسارو فى اثره فلم يلحقوه ولا عرفو اى طريق اخذ، ولما عرف السيد الاجل الافضل

بدور العبادة الخاصة بأهل الذمة، بل زاد عليها، فأمر بهدم الكثير من الكنائس فى فترة سياسته المتشددة ازاء أهل الذمة.

ففى سنة ٣٩٣هـ/ ١٠٠٢م كان الاحتكاك الأول بين الخليفة الحاكم بأمر الله وبين النصارى فيما يتعلق بتجديد الكنائس. ففى تلك السنة شرع أبو منصور الزيات الكاتب النصرانى ـ اليعقوبى المذهب ـ فى تجديد كنيسة قديمة مندرسة بظاهر الفسطاط، فى الموضع الذى عرف بعد ذلك براشدة، مما أثار غضب عامة المسلمين. ولما علم الحاكم بأمر الله بذلك أمر بهدم الكنيسة فهدم عامة المسلمين ما بنى منها، وأمر الحاكم بأمر الله بأن ينشأ مكانها مسجد جامع عرف بجامع راشدة، وبدئ فى عمارته فى ربيع الآخر سنة ٣٩٣هـ، ولما رأى توسعة الجامع أزيلت مقابر اليهود والنصارى التى كانت ملاصقة له لاستكمال بنائه (١). كما هدمت فى سنة ٣٩٤هـ /١٠٠٣م كنيستان كانتا بجوار الجامع (٢) احداهما لليعاقبة والأخرى للنسطورية، وبنى الحاكم بأمر الله فى موضعهما مسجدين للمسلمين. وشمل الهدم أيضا كنيستان للملكانية كانتا بحارة الروم بالقاهرة (٣).

(١) النويرى: المصدر السابق، جـ٢٦، ورقة ٥٣.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٤٨.
Stern : Op. cit., p. 15 - 17.
(٣) الانطاكى: المصدر السابق، ص ١٨٦.

بخروج نزار قبض على اخوته عبد الله واسمعيل وجعل مع كل واحد منهم عشرة يحفظوه، فلما اصبحو بالغداة جلس مولانا المستعلي بالله على سرير الملك في الايوان الكبير والسيد الافضل بين يديه وحضر القاضي على ابن رافع ابن الكحال، الملقب بالمويد ثقة الامام فخر الحكام، وشهود القاهرة ومصر واخذو البيعة له على مقدمي الدولة وريسايها، ومضى صاحب الرسالة الى عبد الله

وفي رجب سنة ٣٩٧هـ، أمر الحاكم بأمر الله بمصادرة كل ماهو محبس على الكنائس من أملاك وعقارات وجعله في الديوان، وكتب الى سائر الأعمال بذلك ، كما أحرق العديد، من الصلبان على باب الجامع العتيق بالفسطاط [١] ثم تلاه مرسوم آخر في رجب سنة ٣٩٨هـ بمصادرة أوقاف الكنائس الحديثة والعتيقة بمصر خاصة دون غيرها من أقاليم الدولة وجعلها باسمه في الديوان [٢].

ثم كان أخطر مرسوم أصدره الحاكم بأمر الله، وهو الخاص بهدم كنيسة القيامة ببيت المقدس، وعلى الرغم من أن بعض المصادر العربية ترجع تاريخ هدم كنيسة القيامة الى أواخر عام ٣٩٨هـ/ ١٠٠٨م [٣]، الا أن الرواية النصرانية المعاصرة تحدد سنة ٧٢٧ للشهداء وهي توافق سنة ٣٩٩هـ / ١٠٠٩م تاريخا لهذا السجل الخطير [٤].

(١) المقريزي: الخطط ، جـ١، ص ٢٦٣، ٢٨٦.
(٢) الأنطاكي: المصدر السابق، ص ١٩٤.
(٣) القلانسي: (الذيل، ص ٦٦)، ابن الجوزي (المنتظم، جـ٧، ص ٢٣٩). سبط بن الجوزي (مرآة الزمان، جـ١١، ورقة ٣٠٤)، المقريزي (اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٧٥) العيني (عقد الجمان جـ١٩، ورقة٥٤٤). عنان : الحاكم بأمر الله ، ص ١٣٦).
(٤) الأنبا ميخايل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٦٠.
ـ الانطاكي : المصدر السابق، ص ١٩٦.

واسمعيل وهما في المسجد الذى في القصر ومعهما المترسمين وقال لهما: قد حضر القاضى والشهود واخذو البيعة على جميع رجال الدولة ومولانا يرد عليكما السلام ويقول لكما انتما تحضر تبايعانى ام لا. فقالا: السمع والطاعة نبايعه لان الله اختاره دوننا لهذا الامر وما نعاند نحن امر الله. ثم نهضا معه فلما صارا بين يدى مولانا المستعلى بالله

ولقد ألقت تلك الرواية النصرانية المعاصرة الضوء على ظروف الحادث والأسباب التى دفعت الخليفة الحاكم بأمر الله الى اتخاذ هذا القرار، ويروى الأنبا ميخائيل أنه عندما غضب الحاكم بأمر الله على الأنبا زخاريا بطريرك اليعاقبة أمر باغلاق الكنائس أولا، ثم القبض على البطريرك واعتقاله وحبسه، كما سبق أن أوضحنا.. وفى ثانى يوم لاعتقاله أمر الخليفة كاتب السجل النصرانى النسطورى المعروف بابن شترين، بأن يكتب الى الشام بهدم كنيسة القيامة بالقدس، وجاء فى السجل «خرج أمر الامامة اليك، فاهدم قمامة، فاجعل سمائها أرضا، وطولها عرضا» (١)، فقام والى الرملة (فلسطين) بارسال رجاله وأمرهم بمصادرة كل ما فى الكنيسة من الذخائر والتحف والآنية المقدسة، واحتاطوا على كل محتوياتها، كما هدمت مبانى الكنيسة الا ما تعذر هدمه، وأزيلت كنيسة مارى قسطنطين وكل ملحقاتها، ولم يبق من الآثار المقدسة بكنيسة القيامة سوى أثر الصخرة التى شيد عليها القبر المقدس، وقد أصيبت بالتلف من جراء ضربها بالمعاول، كما هدم دير السرى وكان خاصا بالراهبات، وصودرت جميع أملاك الكنيسة وأوقافها وأموالها، وأخذت جميع محتوياتها من تحف وذخائر، ويؤرخ الأنطاكى الخامس من صفر سنة ٤٠٠هـ تاريخا لابتداء هدم الكنيسة (٢).

(١) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٥٦.
(٢) الانطاكى: المصدر السابق، ص ١٩٦.

قبلا الارض وسلما عليه بالخلافة وبايعاه واستوفا القاضى عليهما ايمان البيع.

ثم اخرج التابوت من باب الملك وفيه المستنصر بالله، واولاده جميعهم يمشو حوله حفاة وصلى عليه ابنه المستعلى بالله ودفن فى التربه بالقصر..

وبعد ايام ظهر ان نزار مضى الى مدينة اسكندرية واجتمع بواليها نصرالدولة افيكين احد

أما معظم المصادر الاسلامية، فقد تعرضت هى الأخرى لهذا الحادث الخطير، وأسباب حدوثه. وتؤرخ له بعام ٣٩٨هـ، وتذكر أنه فى هذا العام خرج النصارى على عادتهم فى كل عام الى بيت المقدس لحضور احتفالات عيد الفصح، فاستدعى الخليفة الحاكم بأمر الله ختكين الضيف العضدى أحد قواده، وسأله عن أمر كنيسة القيامة لمعرفته بها، وما يحدث فى هذا العيد هناك، فأخبره بأنها بيعة تعظمها النصارى، ويحج اليها من جميع البلاد، ويأتى اليها الملوك وحكام الدول المسيحية حاملين اليها النذور والأموال الكثيرة والثياب الديباج والستور والفروش والقناديل والشموع والصلبان، وأوانى الذهب والفضة والتحف النادرة، فاذا كان يوم الفصح زينت الكنيسة بالأضواء الباهرة، وعلقت القناديل المضيئة والمملوءة بدهن البلسان فى المذبح، وقد اجتمع النصارى لاقامة الصلوات والشعائر الدينية، فى مواكب دينية صاخبة، ورفعوا أصواتهم يرددون الأدعية والابتهالات، حاملين المباخر والصلبان الضخمة، وقد علق خدم الكنيسة بها القناديل المملوءة بدهن البلسان مع دهن الزيبق، فتنبعث منها الأضواء الساطعة التى تخطف البصر، وبطريقة تخيل للناظرين اليها أنها نزلت من السماء، فيكثر تهليلهم وتكبيرهم. فأنكر الحاكم بأمر الله ذلك، وتقدم الى أبى المنصور بشر بن سورى كاتب الانشاء بأن يكتب رسالة الى الداعى أحمد بن يعقوب بأن يقصد بيت المقدس ، ومعه والى

غلمان امير الجيوش وقرر معه ان يقوم فى نصرته وحلف له انه يجعله مدبر المملكة والناظر فيها عوض السيد الاجل الافضل، فاجابه الى ذلك وتحالفا وتعاقدا.

فلما كان فى اول المحرم سنة ثمان وثمانين واربع ماية ركب مولانا المستعلى فى القاهرة بالمظلة والزى الحسن والتجمل الكثير الذى ما ربى مثله، وركب نزار فى اسكندرية بالمظلة ايضاً ولقب

الرملة، فيهدم كنيسة القيامة، ويأخذ محتوياتها، ويبيح لعامة المسلمين نهبها ومحو أثرها [١]. فقام والى الرملة ومعه الأشراف والقضاء والشهود ووجوه المسلمين، وقصدوا كنيسة القيامة. الا أن نصارى مصر عندما علموا بصدور مرسوم الخليفة الحاكم بأمر الله بهدم الكنيسة سارعوا باحاطة بطريرك بيت المقدس علما بمضمون السجل، فأخفى البطريرك كثيرا مما كان فيها من الفضة والذهب والجواهر والثياب والتحف قبل وصول أصحاب الحاكم بأمر الله الذين أحاطوا على ما تبقى فيها من موجودات وكان شيئا عظيما، فتمت مصادرته، كما هدموا مبانى الكنيسة، و«قلعت حجرا حجرا» . وتعرضت للنهب والتخريب [٢].

ونتيجة لهذا الحادث اهتز العالم المسيحى، وارتفعت الأصوات فى أنحائه تطالب بحماية القبر المقدس، وأخذت البابوية على عاتقها الترويج لهذه الدعوة [٣] فكان هذا من الاسباب التى قوت من دوافع الحروب الصليبية بعد ذلك وما تعرضت له شعوب بلاد الشام ومصر من دمار بسبب هذه الحروب.

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٧٥.
(٢) ابن القلانسى : المصدر السابق، ص ٦٧.
ـ على أن المقريزى يذكر أنه فى صفر سنة ٤٠٠هـ كتب من انشاء ابن سورى لهدم قمامة المقدس (اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٨١).
(٣) عنان: الحاكم بأمر الله ص ١٣٨.

بالمصطفى لدين الله، فلما علم السيد الأفضل بذلك جمع الجيوش والعساكر وسار إلى اسكندرية وحاصرها ونصب عليها القتال وجاهد فى قتال من فيها بنفسه وماله ولقى فى ذلك مشقة عظيمة ومصاعب شديدة واخرج من خزانته اموال كثيرة وكساوى وخلع وسلاح كثير وعدة والات [آلات]، ولم يزال القتال بينهم متصل من صفر سنة ثمان وثمانين واربع ماية الى ذو القعدة منها،

ولقد اتبع الحاكم بأمر الله قراره بهدم كنيسة القيامة بقرار آخر يقضى بهدم جميع الكنائس والبيع فى جميع أقاليم الدولة، الا انه أمسك عن هدم كثير منها خوفا من أن تقوم شعوب العالم المسيحى بهدم ما فى بلادها من مساجد المسلمين [1].

الا أنه فى تاسع عشر ذى الحجة سنة ٣٩٩هـ أمر الحاكم بهدم كنائس القنطرة التى فى طريق المقس، وكذلك كنائس حارة الروم، ونهب جميع ما فيها [2] وفى السنة التالية أمر بهدم كنيسة العجوز بدمياط، وكانت واحدة من أعظم كنائس الملكانية بمصر، فشرع فى هدمها يوم الجمعة فى الثانى عشر من شهر رمضان سنة ٤٠٠هـ. كما نبشت مدافن بالكنيسة كانت لنصارى دمياط من الملكانية وأزيلت معالمها، وأخذت محتوياتها وما بها من آنية الذهب والفضة، وصودرت أملاك الكنيسة وعقاراتها وكل ما حبس عليها، وبنى فى موضعها مسجد للمسلمين [3].

وفى صفر سنة ٤٠٢هـ أمر الحاكم بأمر الله، بألا يضرب بناقوس، والا يظهر صليب بأية

---

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٧٥.

(٢) النويرى : المصدر السابق ، جـ٢٦، ورقة ٥٥.

(٣) الانطاكى: المصدر السابق، ص ١٩٧.

فلما فرغت الغلات والاحطاب والمواكيل وراى اهل اسكندرية ومن فيها انهم مغلوبين طلب نصر الدولة افيكين من مولاه السيد الاجل الافضل الامان له ولنزار ولاهل البلد فامنهم وفتحو المدينة له وخرج اليه نزار وافيكين، فامر بمسيرهم الى القاهرة وامر ان يقيمو بظاهرها الى ان يصل اليها ويسال مولانا المستعلى بالله فى العفو عنهم، ثم انه دخل المدينة ورتب احوالها واقام لها والى وقاضى

كنيسة ولا تقع عليه عين، فنزعت الصلبان من الكنائس ومحيت معالمها من ظاهر البيع والكنائس (١).

وفى ربيع الأول سنة ٤٠٣هـ وقع الأمر بهدم جميع الكنائس فى الديار المصرية (٢). وأقطع الحاكم ما للكنائس من رباع وأملاك لجماعة من الخدم الصقلبة، ووهب لهم مافى الكنائس من التحف والذخائر وأوانى الذهب والفضة وغيرها من الحواصل والمآكل ، كما أقطع كثيرا من الكنائس لكل من التمسها، ولم يرد من سأله شيئا منها (٣) فيما عدا أهل البلاد من المصريين بالطبع. ثم أصدر أوامره الى ولاته بالأقاليم وسائر أعمال الدولة بأن يهدم كل وال ما فى ولايته من كنائس (٤)، فهدم كثير منها، ومحيت معالمها وأزيلت أثارها، وقلعت أساساتها من الأرض، وأخذت أنقاضها، وأنشئ مكان البعض منها عدد من المساجد (٥). كما

(١) ـــــ: نفس المصدر ، ص ٢٠٣.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٩٤.
(٣) النويرى: المصدر السابق، جـ٢٦، ورقة ٥٧.
(٤) ـــــ: نفس المصدر ، ونفس الورقة.
ـ المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٩٤.
(٥) الانطاكى: المصدر السابق، ص ٢٠٤.

وقبض على رجل من اهل المدينة كان فى وقت القتال يشتمه فى كل يوم من فوق الحصن، فلما صار قايماً بين يديه امر ان توقع العقوبة عليه الى ان يموت، فلما هيوه للعقوبة قال بعض الحاضرين للسيد الاجل الافضل: يا سيدى احتاط على ماله قبل ان تقتله فان له موجود اكثر من عشرين الف دينار. فلما سمع السيد الاجل الافضل هذا القول امر باطلاقه والافراج عنه وقال له: امضى فقد

تحول بعض هذه الكنائس الى مساجد للمسلمين [١]، ويروى الأنطاكى أنه قد أخرجت عظام الموتى من الكنائس فى عدة بلدان، وأحرقت الكتب الموجودة بها، كما ألزم الحاكم بأمر الله نصارى كل بلدة بأن يدفعوا أجور العمال الذين قاموا بهدم ونقض ما بها من كنائس [٢] وذلك زيادة فى النكاية بهم، ويذكر المقريزى أن كنيسة أبى شنودة ـ كبرى الكنائس القبطية بمصر ـ وكنيسة المعلقة بالفسطاط قد تعرضتا لنهب ما فيهما من الأموال والمصاغ وثياب الديباج وغير ذلك من التحف والذخائر وكان شيئا كثيرا [٣]. هذا بجانب ما نهب من أموال الكنائس والديارات فى سائر أنحاء الدولة، فباع الناس بأسواق مصر كل ما وصلت اليه أيديهم من تلك الثروات والتحف وتصرفوا فى أحباس وأملاك وعقارات الكنائس بالبيع والشراء [٤].

ولقد تتابع هدم الكنائس فى جميع أنحاء الدولة، وطبقت القرارات الخاصة بهدمها فى منتهى الحزم والصرامة لمدة ما يقرب من ثلاث سنوات من ربيع الآخر سنة ٤٠٣هـ إلى أواخر

---

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٩٤.

Goitein : Jews and Arabs, p. 84.

(٢) الانطاكى : المصدر السنق، ص ٢٠٤.

(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٩٤، ٩٥.

(٤) ـــــ : الخطط ، جـ٢، ص ٢٨٧، ٤٩٤، ٤٩٥.

وهبتك لمالك ليلا يظنو الناس انى قتلتك رغبة منى
في اخذ مالك، ومثل هذا كثير من افعاله الجميلة
التى لا استطيع احصاها ولا شرحها، ثم انه سار
من اسكندرية الى مصر وركب مولانا المستعلى
للقايه، فلما كان بالغداة جلس فى باب الملك
ودخل اليه السيد الافضل ونزار وافيكين، وفلما
راى مولانا المستعلى بالله نزار اخوه وهو داخل عليه
صاح عليه وانتهره وقال خذوه فوثب اليه صاحب

سنة ٤٠٥هـ. وهدم فى تلك الفترة من الكنائس والأديرة التى بناها الروم حوالى ثلاثين ألف ـ حسب قول المقريزى ـ، ونهب من أموالها وذخائرها ما يصعب حصره، وأخذ من أوقافها وأملاكها الشئ الكثير (١).

وفى بداية خلافة الظاهر لاعزاز دين الله، سمح للنصارى الملكانيين الذين تؤازرهم ست الملك ـ ببناء الكنائس، الا أن ست الملك ـ التى كان لها نفوذ كبير فى الدولة ـ أخذت الخراج والرسوم التى سبق للحاكم بأمر الله اعفاء أوقاف وأملاك الكنائس منها (٢).

وفى عهد الظاهر أيضا أعيد تجديد عمارة كنيسة القيامة ببيت المقدس كما استمر النصارى فى تعمير تجديد كنائسهم فى سائر أقاليم الدولة(٣)، «حتى أعيدت لما كانت عليه وأفضل»(٤)، وردت أوقاف للكنائس لم تكن قد ردت اليها فى خلافة الحاكم (٥).

وفى عهد وزارة اليازورى فى الخلافة المستنصرية تعرضت الكنائس لبعض القيود، بسبب الخلاف الذى نشب بين اليازورى والبطريرك خريستودولوس لأنه أنشأ كثيرا من الكنائس

(١) ـــــ: نفس المصدر، جـ٢، ص ٤٩٥.
(٢) ـــــ: نفس المصدر، ٢٣٨.
(٣) ـــــ: نفس المصدر، ص ٣٤٣.
(٤) الأنبا ميخايل : سر البيعة المقدسة، جـ٣، ورقة ٦١.
(٥) الانطاكى : المصدر السابق، ص ٢٣٨.

الباب وصاحب الرسالة وجماعة من الاستاذين الصقالبة فقبضو عليه وعلى افيكين، واعتقل نزار في موضع في القصر واعتقل افيكين في موضع في دار مولاه الافضل وضيق عليهما كلاهما الى ان ماتا جميعاً.

وكانت وفاة السيد الاجل امير الجيوش في المحرم سنة ثمان وثمانين واربع ماية قبل مسير ولده السيد الاجل الافضل الى أسكندرية، واستقامت الامور

المستحدثة مما أدى إلى اغلاق الكنائس وهدم ما استجد منها وفرض غرامات مالية على ما استحدث من تلك الكنائس وهكذا أعيد الخراب والدمار مرة أخرى.

على أن حصن الدولة والى الاسكندرية فى ذلك الوقت والذى كان يعطف على النصارى، أتى سلوكاً خاصاً به ومنفرداً عن السياق العام للإضطهاد وأرسل خفية الى بعض خواصه من رجال الكنائس بالاسكندرية ليجردوا كنائسهم سرا من الأوانى والحلى وكل ثمين من محتوياتها، قبل أن تصل اليها يد المكلفين بالاستيلاء عليها من قبل السلطة (١).

ولما رفض الروم سنة ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م أن يخطب للخليفة المستنصر بالله بجامع القسطنطينية، أمر الخليفة المستنصر بمصادرة أملاك كنيسة القيامة بالقدس مع مصادرة أموالها ونفائسها (٢).

ومع هذا قام النصارى فى خلافة المستنصر بترميم وبناء بعض الكنائس اذ يذكر أبو صالح الأرمنى فى تاريخه أن كنيسة القديس جرجيوس بالحمراء ـ والتى كانت قد تصدعت ـ قد أصلحت وجددت على يد المعلم سرور الجلال الذى كان من أغنياء النصارى (٣)، كما كان

(١) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة.
ـ جاك تاجر: المرجع السابق، ص ١٤٠.
(٢) العينى: المصدر السابق، جـ٢٠، ورقة ١١٢.
(٣) أبو صالح الأرمنى: المصدر السابق، ص ٣١.

لمولانا المستعلى بالله بعد ظفره باخيه نزار، وكان ذو هيبة وبطش إلى ان مرض فى السنة العاشرة من جلوس انبا ميخايل البطرك، وتوفا فى يوم الثلثا السابع عشر من صفر سنة خمس وتسعين واربع مية الهلالية، الموافق للحادى عشر من كيهك سنة احدى وتسعين واربع ماية الخراجية، وهى سنة ثمان ماية وثمنية عشر للشهد الابرار، وكانت مدة خلافته سبع سنين وشهرين، وجلس ابنه المنصور ابو على وعمره يوميذ ست سنين.

هناك كثير من رجال الدولة ـ فى خلافة المستنصر ـ ممن شملوا برعايتهم وتسامحهم كنائس النصارى ودور عبادتهم (١).

الأديرة:

وكانت أديرة النصارى منتشرة فى أنحاء مصر والشام ونعم رهبان تلك الأديرة بسياسة التسامح الدينى ازاء أهل الذمة لفترة، باستثناء فترة من عهد الخليفة الحاكم بأمر الله.

فعندما أقدم جوهر الصقلى على بناء مدينة القاهرة لتكون عاصمة للفاطميين قام بتعمير دير الخندق بظاهر القاهرة من شمالها، عوضا عن دير هدمه كان موضعه بالقرب من الجامع الأقمر، وكان يعرف بدير العظام. كما نقل رفات موتى النصارى الى دير الخندق (٢).

ولما قدم الخليفة المعز لدين الله الى مصر واستقر بها، شمل برعايته وعطفه ديارات النصارى ورهبانها، وصرح للبطريرك ابراهام السوريانى رأس الكنيسة القبطية آنذاك بترميم الأديرة القديمة وبناء ما التمسه من الأديرة الجديدة فى سائر أقاليم الدولة (٣).

وفى خلافة العزيز بالله كانت ديارات النصارى فى حمايته، ونعم الرهبان بالأمن والطمأنينة

(١) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٧٧.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٥٠٦.
(٣) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٤١، ٤٤.

وفى هذه السنة وصل رسول من ملك الحبشة الى السيد الاجل الافضل يلتمس ان يقام لهم مطران لبلاده وان يسيره اليه مع رسوله، فاحضر انبا ميخاييل البطرك وتقدم اليه ان يقيم مطراناً للحبشة ويعجل به ليسير مع الرسول، فخرج البطرك من بين يديه وتطلب من يصلح لهذا الامر فلم يجد، فلما اضطهد [أضطر] فى ذلك انفذ الى دير ابو مقار واخذ راهب اسمه جرجس وقسمه

طوال عهده، كما قام النصارى الملكانيين ببناء بعض الأديرة دون الاستئذان منه[1]، وعلى سبيل المثال فان أرسانيوس البطريرك الملكانى صهر العزيز بالله وبسبب قرابته له أحاط دير القصير بالمقطم بسور عظيم، وعمر الدير وجدده، وأنشأ فيه أبنية كثيرة[2].

وعندما هبت العاصفة ضد أهل الذمة فى خلافة الحاكم، وصل ذراها الى الأديرة والرهبان، فهدم الكثير من الأديرة، ولم يبق منها الا القليل[3].

ففى العاشر من رجب سنة ٣٩٨هـ، أمر بوضع اليد على أوقاف الديارات الحديثة والعتيقة بمصر دون غيرها من البلدان، وجعلها باسمه فى الديوان[4]، وفى مرسومه الصادر فى ذى الحجة سنة ٣٩٩هـ، كان هدم كنيسة القيامة بالقدس وشمل الهدم والتخريب دير للراهبات بجوارها يعرف بدير السرى، ونهب ما فيه من تحف وذخائر[5]. كما صودرت أملاك الأديرة وأوقافها فى أنحاء الدولة وامتدت اليها معاول الهدم لنقضها[6].

---

(١) جاك تاجر: المرجع السابق، ص ١٢٥.
(٢) الانطاكى: المصدر السابق، ص ١٩٧.
(٣) المقريزى: نفس المصدر، ص ٥٠٦.
(٤) الانطاكى: المصدر السابق، ص ١٩٤.
(٥) ______: نفس المصدر، ص ١٩٦.
(٦) المقريزى: الخطط جـ٢ ص ٤٩٥.

مطرانا للحبشة وسيره اليهم، فاقام عندهم مدة يسيرة فلم يفلح ولا عرف يسوس امره معهم، وقيل عنه انه تعد هناك الى امور قبيحة وافعال سمجة لا تليق برتبته، فقبض عليه الملك واخذ جميع ما كان تحصل له هناك واعاده الى مصر، وكتب الى السيد الاجل الافضل يشكو ما فعله في تلك البلاد، فامر بالقبض عليه واعتقاله في حبس الشرطة بمصر فاقام فيه معتقل عدة سنين مع فرج

وفي يوم الثلاثاء ثامن شهر رمضان سنة ٤٠٠هـ، أصدر الحاكم بأمر الله مرسوما بهدم دير القصير بجبل المقطم، ونهب جميع ما فيه، وكان أرسانيوس بطريرك الملكانية يومئذ مقيما فيه مع الرهبان، فأخرجوا جميعا من الدير، وأخذت تنقضه معاول الهدم، واستمر الهدم فيه عدة أيام. وكان للنصارى الملكانية خارج الدير مقابر ومدافن لموتاهم، ففتح الرعاع من المسلمين والعبيد جميعها، ونبشوها ، وأخذوا توابيت الموتى.

وفي تلك السنة الغيت جميع الأحباس والاوقاف المرصودة على الأديرة بمصر وضمت للديوان[1]. وفي صفر سنة ٤٠٢هـ نزعت الصلبان وطمست آثارها من ظاهر الأديرة، وفي جمادى الأخرى سنة ٤٠٣هـ أقطع الحاكم بأمر الله معظم الأديرة العتيقة والحديثة بمصر وسائر أقاليم الدولة لكل من التمسها [2].

وأحرق بعضها [3]، ووهب لهم أملاكها وماهو موقوف عليها، وسمح لهم بنهب محتوياتها، وكتب الى عماله في سائر أعمال الدوله بهدم الأديرة ونقضها ومحو أثارها، فاتى على أكثر الأديرة بالأقاليم، الا الدير الكبير المعروف بدير أبي مقار- في ترنوط من أعمال الاسكندرية -

(١) عنان: الحاكم بأمر الله ، ص ١٣٨.
(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٨١.
(٣) أبو صالح الأرمني، ص ٧٧.

الراهب الذى كان فى ايام امير الجيوش يصادر الاساقفة والرهبان، وقد تقدم ذكره فى سيرة الاب القديس انبا كيرلس نيح الله نفسه.

فاما انبا سنهوت اسقف مصر فانه اقام مدة بطركية انبا ميخاييل فى عيش كدر، وكان كل وقت يمنعه بذنوب يختلقها له ويشرده عن كرسيه ويبعده عن كنايسه، فلما كان فى بشنس فى السنة العاشرة لجلوسه بطركا عقد مجلس على انبا

وما حوله من الأديرة القريبة منه، اذ بلغ الحاكم بأمر الله أن هذا الدير فى حماية قبيلتى بنى قرة وبنى كلاب العربيتين، وأن عرب هاتين القبيلتين لا يمكنون أحدا من الوصول اليه والتعرض له، وذلك لأن رهبان هذا الدير كانوا يقدمون للقبيلتين الكثير من الأمدادات الغذائية والأموال فأمسك الحاكم عن هدمه أو الحاق الضرر به (١)، مما أتاح للرهبان المقيمين فيه اقامة الشعائر الدينية فى الفترة التى ضيق فيها الحاكم بأمر الله الخناق على الكنائس والأديرة بمصر(٢).

هذا بينما أقطع الحاكم بأمر الله دير راية، ودير طور سيناء، لرجل عربى يعرف بابن غياث، فهدم احدى كنيستى دير راية وأخذ جميع ما فيه من تحف وذخائر ومحتويات. ويذكر الأنطاكى أن الخليفة الحاكم أو عز الى ابن غياث المسير الى دير ابراهيم أحد الكتاب النصارى الذين اتخذوا من الرهبانية طريقا لهم ، وكان على قدر كبير من الذكاء والسياسة، أحسن استقبال ابن غياث هذا، وأكد له أن أسقف الدير ورهبانه على استعداد تام للمساعدة فى هدم الدير لساعته وغير ما نعين له منه، وسلم اليه جميع محتويات الدير من التحف والذخائر وما

(١) الانطاكى : المصدر السابق، ص ٢٠٤.
(٢) ابن الراهب: المصدر السابق، ص ١٢٥.

سنهوت المذكور اجتمع فيه من الاساقفة جماعة وادعى عليه بانه كان فى ايام كيرلس البطرك نيح الله نفسه قدس فى يوم واحد قداسين فى المعلقة وفى ابو سرجه، وان انبا كيرلس احرمه وتنيح ولم يحلله، وانه بهذا الحكم قد بطلت اسقفيته ولم يبق له كهنوة، وكتب ذلك فى ورقة والزمهم ان يكتبو خطوطهم فيها بغير اختيارهم لخوفهم من سطوته عليهم، ولما صارت خطوطهم معه انفذ

به من الذهب والفضة، وقال له قولا لينا. وأوضح الأنبا سلمون لابن غياث صعوبة هدم الدير لحصانة مبانيه وضخامة جدرانه وأسواره، وكثرة ما يلزم لهدمه.

أما عن الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله، فقد أعلن أنه سيتوخى العدل فى سياسته مع كافة الناس على اختلاف وظائفهم ودياناتهم. ولقد انعكست تلك السياسة على أهل الذمة، اذ استمرت سياسة اعادة بناء الأديرة، وبذل رؤساء الكنيسة جهودا كبيرة لتعمير ما خرب منها[١]، هذا فضلا عن أن الخليفة الظاهر أصدر مرسوما عاما يؤكد استمرار سياسته فى اطلاق الحرية الدينية لأهل الذمة، وبأنه لا اكراه فى الدين. فمن آثر منهم البقاء على يهوديته أو نصرانيته فله ذلك، ولهم جميعا الحماية والأمان والطمأنينة «على نفوسهم ودمائهم، وأولادهم، وأموالهم، وأحوالهم، ماسلكوا الطريق المستقيمة ولم يقصدوا المقاصد الذميمة» [٢].

كما أصدر الخليفة الظاهر فى المحرم سنة ٤١٥هـ مرسوما للرهبان اليعاقبة بتجديد ما سبق أن أقره الخلفاء الفاطميون الأوائل من توفير الحماية لهم، وصيانة ممتلكات أديرتهم ، وعدم المساس بأوقافها [٣].

(١) الأنبا مخايل: سر البيعة المقدسة، جـ٣، ورقة ٦١.
(٢) الانطاكى: المصدر السابق، ص ٢٣٦.

(3) Stern : Op. Cit., p. 15 - 17.

بعض تلاميذ الى انبا سنهوت الاسقف ليحضره في ذلك المقام ويقطعه كما قام في نفسه، فسبق الخبر اليه فخرج هارباً من قلايته ومضى الى القاهرة واختفا عند بعض اولاده الكهنة وسار في الليل الى دير القديس ساويرس في جبل اسيوط واقام فيه اياماً، وكان البطرك مقيما في كنيسة السيدة المعلقة بقصر الشمع في البيت الذى امر بانشاه في علوها، ومكث عدة ايام يتطلب

بل أن الظاهر لاعزاز دين الله سمح بعودة جماعة من النصارى سبق لهم الهجرة الى بلاد الروم، الا أنه أخذ منهم الجزية من السنة التى انتهى استخراجها منهم الى السنة التى عاد فيها كل واحد منهم [(١)].

وفي خلافة المستنصر بالله الفاطمى نعم الرهبان بحرية ممارسة شعائرهم الدينية فى الفترة الأولى من خلافته (٤٢٧هـ ـ ٤٤٧هـ) أى حتى منتصف القرن الخامس الهجرى / منتصف القرن الحادى عشر الميلادى. ولم تتعرض الأديرة لما يسئ اليها أو الى رهبانها، اذ سار المستنصر بالله على سياسة أسلافه التى تميزت بالتسامح الدينى وحرية العبادة لأهل الذمة. والرحالة ناصرى خسرو الذى زار مصر وفلسطين في خلافته، يذكر أن كنيسة القيامة «يقيم بها كثير من القسس والرهبان، يقرأون الانجيل، ويصلون، ويشتغلون بالعبادة ليل نهار» [(٢)].

على أن أديرة النصارى فى الوجه البحرى امتدت اليها يد السلب والنهب، أثناء تلك الحروب التى قامت بين قوات المستنصر، وبين القائد التركى نصر الدولة الذى شق عصا الطاعة، كما شوهت زخارف ورسوم تلك الأديرة ومبانيها، وتعرض رهبانها

(١) الانطاكى: المصدر السابق، ص ٢٣٩.
(٢) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٣٧.

الاسقف فلم يقدر عليه ولا وجده. فلما كان في يوم الجمعة الثامن والعشرين من بشنس المذكور عرفني قيم كنيسة الشهيد الجليل سرجيوس بقصر الشمع ان انبا ميخاييل دفع له دقيق كثير وامره ان يعمله ضارن على صباح يوم الاحد، وان يعلم الكهنة بانه يقدس فيها في ذلك اليوم، وذكر انه معول على انه يجعلها بطركية ويقول للآراخنة والشعب: انا اسقفكم وما ابرح من عندكم بحكم

للأذى والقتل والتشريد، مما أدى الى هروب من نجا منهم إلى الأرياف فرارا من البطش والموت (١).

ومع انتشار المجاعة، وازدياد الفتن، واضطراب الأمن وعجز الخليفة المستنصر عن استرجاع هيبته وسلطانه، وتدهور الأوضاع بوجه عام في جميع أنحاء الدولة، اضطر المستنصر الى استدعاء بدر الجمالي الى مصر، لعله يعيد الأمور الى حالتها الطبيعية (٢).

الكنائس اليهودية:

واذا ما انتقلنا الى الحديث عن كنائس اليهود في مصر، فان المقريزي يذكر أنه كان لليهود عدة كنائس منتشرة في الديار المصرية ويتناول في حديثه احدى عشرة كنيسة منها: كنيسة دموه بالجيزة، وكنيسة جوجر بالقرى الغربية (٣)، وفي مدينة الفسطاط كان لليهود ثلاث كنائس هي : كنيسة المصاصة (٤)، وكنيسة الشامين (٥)، وكنيسة الربانيين (٦).

(١) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٧٩، ٨٧.
(٢) ماجد: ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر، ص ٣٨٣، ٣٩٢ ـ ٣٩٣.
(٣) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٤٦٣.
(٤) ـــــ: نفس المصدر، جـ٢، ص ٤٧٠.
(٥) بنيامين التطيلي: المصدر السابق، ص ١٧٠، ١٧١.
(٦) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٤٧١.

ما حدثته نفسه به. فقلت: هذا ما لايتم علينا ولا نقبله ولا صبر لنا عن اسقفنا الا بجرم واضح توجب القوانين عليه فيه الحكم. فلما كان غداة يوم السبت ركب انبا ميخايل المذكور دابته وخرج هو وجميع الناس المتميزين ليلقو الافضل عند رجوعه من تنيس فلقيه عند دمنهور [شبرا] فسلم عليه وعاد، فلحقه طاعون فى طريقه فقال لتلاميذه: طعنت. وكاد يقع من على الدابة وخرج

كما كان لليهود عدة كنائس في مدينة القاهرة. فكان بحارة الجودرية كنيسة عرفت بها، ويروى المقريزى أنها خراب منذ أن أحرق الخليفة الحاكم بأمر الله تلك الحارة على اليهود[١]. أما حارة زويلة وحدها فقد وجد بها خمس كنائس [٢] هي: كنيسة القرائين، وكنيسة دار الحدرة، وكنيسة الربانيين، وكنيسة السامرة. وجميع تلك الكنائس المذكورة ـ على حسب قول المقريزى ـ محدثة في الاسلام [٣].

وكان لمعظم هذه الكنائس مكانة خاصة عند اليهود، فهم يعتقدون أن كنيسة دموه ـ أعظم المعابد اليهودية بمصر ـ كانت الموضع الذى لجأ اليه موسى عليه السلام، حينما كان يبلغ رسالة الله عز وجل الى فرعون، مدة اقامته بمصر، منذ أن قدم من مدين الى مصر، الى ان خرج بنى اسرائيل منها وكان بتلك الكنيسة شجرة زنزلخت في غاية الضخامة، لا يشكون من أنها ترجع الى زمن موسى عليه السلام. كما كان لهذه الكنيسة عيد يرحل اليهود بأهاليهم اليها، في عيد الخطاب، وهو في شهر سيوان، ويجعلون ذلك بدل حجهم الى القدس [٤].

(١) ـــــ: نفس المصدر، جـ٢، ص ٤٧٠.
(٢) ـــــ: نفس المصدر، جـ٢، ص ٤٦٣.
(٣) المقريزى: نفس المصدر، جـ٢، ص ٤٧١.
(٤) المقريزى: المصدر السابق، جـ٢، ص ٤٦٤ والشهور العبرية هي الشهور التى استخدمها العرب قبل الاسلام وهي: تشرى، مدحشون، كسليو، طنث، شفط، آذار، نيسن، أير، سيوان، تمز، أوب، أيلل. انظر: جدول السنين الهجرية، وضعه وستنفلد وترجمه: د. عبد المنعم ماجد، عبد المحسن رمضان. مكتبة الانجلو.

لسانه من ساعته فضبطوه تلاميذه على دابته حتى
اوصلوه الى كنيسة المعلقة فاقام بقية يومه وليلته لم
يسمع منه كلمه، وتوفى غداة يوم الاحد اخر
بشنس سنة ثمان ماية وثمنية عشر للشهد الابرار،
وهو يوم الخمسين المقدس. وكانت مدة بطركيته
تسع سنين وثمانية شهور. وعاد انبا سنهوت الى
كرسيه وفرح الشعب به ومجدو الله سبحنه.

أما كنيسة جوجر، فيزعمون أنها الموضع الذى ولد به نبى الله الياس (١)، كما يزعمون أن كنيسة المصاصة كانت مجلسا له (٢). كذلك يعتقد اليهود أن فى كنيسة الشاميين نسخة من التوراة لا يشكون فى أنها بخط عزرا أحد أنبيائهم (٣).

لكن علينا أن نتساءل: هل تعرضت معابد وكنائس اليهود لأية أضرار أو قيود فى العصر الفاطمى الأول؟ ثم لماذا تركزت معظم الكنائس اليهودية فى حارة زويلة بالقاهرة؟.

والواقع أن يهود مصر كغيرهم من أهل الذمة ، قد نعموا بسياسة التسامح الدينى التى سار عليها الخلفاء الفاطميون فى العصر الفاطمى الأول اذ تولوا أرقى مناصب الدولة، وكانوا على صلة وثيقة بقصر الخلافة (٤)، فتمتعوا بحرية ممارسة شعائرهم الدينية فى أمن وطمأنينة. كما أن كنائسهم لم تتعرض طوال خلافة المعز لدين الله وابنه العزيز باله، لما ينال منها أو يلحق الضرر بها.

(١) ـــــ: المصدر السابق، جـ٢، ص ٤٦٩.
(٢) ـــــ: نفس المصدر، جـ٢، ص ٤٧٠.
(٣) ـــــ: نفس المصدر، جـ٢، ص ٤٧٠.
(4) Goitein : AMediterranean Society. The Jews Communitie: of The Arab World as Porteayeé in the Documents of the Cairo Geniza, Voi I, P. 33-34.

وفى أيام انبا ميخاييل المذكور كان بمصر بخليج بنى وايل المودى الى بركة الحبش على حافة بركة ابى قدامه كنيسة تعرف بابى قدامه. وكان فيها ثلثة مذابح احدهم على اسم القديس انبا بخوم ، والثانى على اسم القديسة مهراييل الشهيدة العذرى، والثالث على اسم القديس ساويرس البطرك. فوهت حيطانها وكادت تسقط فهدها الشيخ ابو اليمن وزير ابن عبد المسيح متولى

وفى بداية خلافة الحاكم بأمر الله مارس اليهود شعائرهم الدينية فى حرية تامة، بل أن بعض الوثائق تمتدحه بسبب «اصلاحاته العظيمة»، كما أن كنائس اليهود فى أوائل خلافة الحاكم لم تتعرض لأية أضرار، فكان اليهود يجتمعون بها لاقامة الاحتفالات الدينية الخاصة بهم [1].

الا أن اليهود الذين كانوا يسكنون حارة الجودرية ثار سخط الحاكم عليهم، فصب عليهم جام غضبه.

فسد عليهم حارتهم ليلا وأحرقها. فامتد الحريق الى كنيستهم بتلك الحارة فدمرها وأصبحت خرابا [2] ، ثم منعهم من السكن بحارة الجودرية أو المبيت فيها، وأفرد لهم حارة زويلة للاقامة بها [3]، وأمرهم بعدم مغادرتها والا يخالطوا المسلمين فى حاراتهم [4]، مما أدى

(١) قاسم عبده: المرجع السابق، ص ٥٩.

(٢) المقريزى: نفس المصدر ونفس الصفحة.

Goitein : op, Cit., p. 84.

(٣) المقريزى : الخطط، جـ٢، ص ٤.

ـــــــ: نفس المصدر، جـ٢، ص ٤٧٠.

(٤) ابن أياس: المصدر السابق، جـ١، ص ٥١.

ديوان اسفل الارض وجدد بناها بغير توقيع من السلطان ولا استيذان، فسعى به بعض اعدايه الى السيد الافضل وقال انه هدم الكنيسة وبناها بغير امرك وانه كان بجانبها عرصة لديوان احباس الجوامع وانه اخذها وجعلها بستان وقال فيه اشيا كثيرة قذفه بها، فحنق السلطان وقبض عليه ووكل به بالجعل [بالمال] الثقيل وركب في جيشه ومعه القاضي والشهود الى الكنيسة وحضرو شيوخ

الى تمركزهم في حارة زويلة، وبالتالي الى اهتمامهم بانشاء معظم كنائسهم المحدثة في تلك الحارة.

ولقد تعرض اليهود في مصر لصرامة القيود التي فرضها الحاكم بأمر الله على أهل الذمة، وتشدده في تطبيق الشروط العمرية التي زاد عليها، مما اضطر كثير من اليهود في هذه الفترة الى الهجرة الى بلاد اليمن، والى تظاهر بعضهم بالاسلام (١) وذلك اما حفاظا على وظائفهم في الدولة، واما هروبا من قسوة القيود الصارمة التي ضيقت الخناق على أهل الذمة بوجه عام.

واذا كانت بعض كنائس اليهود قد تعرضت للنهب والتخريب في هذه الفترة من خلافة الحاكم فانه قد عاد وصرح لهم باعادة بنائها (٢)، كما أنه لم يكره أحدا على اعتناق الاسلام، والدليل على ذلك أنه عندما انتهج سياسة متسامحة مع أهل الذمة قبيل اختفائه سنة ٤١١هـ / ١٠٢٠م، وسمح لهم بالعودة الى دينهم، ارتد أكثر أهل الذمة ممن كانوا قد تظاهروا بالاسلام (٣)، وفي يوم واحد ارتد سبعة آلاف يهودى الى اليهودية (٤).

(1) Goitein : Jews and Arabs, p. 84.

(2) Goitein : The Mediterrean Society. Vol. I, p. 34.

___: Jews and Arabs, p. 84.

(٣) العيني : المصدر السابق، جـ١٩، ورقة ٥٤٨.

(٤) ابن أياس : المصدر السابق، جـ١، ص ٥٨.

مسلمين شهدو بذلك فلم يزل التوكيل به حتى بناها مسجد في بشنس سنة تسعين واربع ماية.

وفى ايام انبا ميخاييل البطرك المذكور وصلت عساكر الروم والفرنج(*) من رومية ومن بلاد افرنجية الى الشام فى خلق كثير وملكو انطاكية وما يليها واكثر الشام الفوقاني وكان يوميذ بايدى الغز الخرسانيين ولم يبق منه بايدى الغز الا دمشق وما

(*) الحروب الصليبية فى فترة الفاطميين.

أهل الذمة فى مصر فى العصرين الفاطمى الثانى والأيوبى

سياسة الفاطميين والايوبيين الدينية ازاء أهل الذمة

- موقف الفاطميين والأيوبيين ازاء رجال الكنيسة ورؤساء اليهود

نعم رؤساء طوائف أهل الذمة فى مصر، وبخاصة كبار رجال الكنيسة القبطية بحسن معاملة السلطات الحاكمة فى العصرين الفاطمى الثانى والأيوبى، ففى عهد المستنصر بالله الفاطمى ووزارة بدر الجمالى تمتع الانبا خريستود ولوس البطريرك السادس والستين للكنيسة القبطية بالمكانة السامية والمنزلة الرفيعة فى قصر الخلافة ودار الوزارة وان كان هذا البطريرك قد تعرض للقبض عليه سنة ٤٦٧هـ عندما ترامى الى مسامع بدر الجمالى أن مطران النوبة هدم مسجدا للمسلمين هناك، ثم أخلى سبيله عندما تأكد بدر الجمالى عن طريق مبعوثه الى ملك النوبة ـ كذب الادعاء، بل أمر باحضاره الى مجلسه «مكرما مبجلا» بينما أمر بأعدام من وشى به .

ولما كان بدر الجمالى يميل الى المسيحين [١]، ويحترم البطريرك ويجله [٢] فضلا عما اتسمت به العلاقة بين البطريرك والخليفة من ود وتقدير، فقد قوبل انتخاب خلفه الأنبا كيرلس

(١) بتشر: المصدر السابق، جـ٣، ص ٦٢.
(٢) بتشر: نفس المرجع، جـ٣، ص ٦٢.

يليها، ثم ملكو مدينة القدس الشريف (*) وما يليها فى شهر رمضان سنة اثنين وتسعين واربع ماية الهلالية، وصرنا معشر النصارى اليعاقبه القبط لا نصل الى الحج اليها(*) ولا نتمكن من الدنو من ذلك لاجل ما هو من بغضهم لنا وهو اعتقادهم فينا وتكفيرهم ايانا. وملكو بعد ذلك جميع الحصون الشامية ما خلا صور وعسقلان(*) فان هذين الحصنين باقيين فى ايدى ولاة السيد الاجل

(*) احتلت القدس في ١٥ يونيو ١٠٩٩م.

(*) الحملات الصليبية تستولى على انطاكية والقدس ويمنعوا القبط المصريين من الحج إلى القدس.

(*) احتل الصليبيون عسقلان فيما بعد عام ١١٥٤م.

الثانى سنة ١٠٧٧م بطركا لكنيسة الاسكندرية بالاستحسان فى جميع دوائر الحكومة [١]، ويروى مؤرخ سيرة هذا البطريرك أن متولى دار الصناعة بناء على أمر السلطات الحاكمة أرسل المراكب وعشارى خاص من مراكب الخليفة، لينقل البطريرك من الاسكندرية الى عاصمة الخلافة، وما أن وصل الى الفسطاط حتى وجد فى انتظاره موكب سلطانى، وعامة أهل مصر، وأقباطها ورجال كنيستها، وتقدم الموكب الشمامسة حاملين الشموع والمباخر الى قصر الخلافة، وما أن وصلوا الى باب القصر حتى خف مأمون الدولة عنبر صاحب الرسالة[٢] لاستقبالهم، ثم أخذ البطريرك ودخل به وحده الى حيث يجلس الخليفة المستنصر وعنده أمه وأخته جالستان فى الانتظار، ومعهما طيب كثير فضمختاه منه[٣]، ثم قالتا له: «بارك علينا، وعلى قصرنا»، وما أن استجاب البطريك ودعا لهما حتى بادلتاه الدعاء بقولهما «جعلك الله مبارك علينا وعلى دولتنا»، ثم وقف البطريرك على باب القاعه، وأمر أحد الأساقفة فقرأ دعاء خاصا، وما أن انتهى من الدعاء حتى خرج البطريرك فى موكبه الى دار أمير الجيوش بدر

(١) بتشر: المرجع السابق، جـ٣، ص ٦٦.
(٢) صاحب الرسالة : وهو الذى يخرج برسالة الخليفة الى رجال دولته من وزير وغيره ليبلغهم رسالة الخليفة، وكان من كبار موظفى قصر الخلافة.
(٣) ابن الراهب: المصدر السابق، ص ١٣٧.

الافضل، وقد حاصروهم عدة دفعات، وخرج السيد الاجل الافضل اليهم وجاهد وبالغ وانفق المال. ولم تندفع أحكام الله وهو جل اسمه يكفينا ويحمينا برحمته.

ابا مقاره البطرك وهو من العدد التاسع والستون [١١٠٢/١١٢٨م]

جلس هذا الاب الجليل على كرسي البطركية

«فلقى منه أجمل لقاء وأجلسه وأدناه واكرمه، وطيب نفسه، كما حياه كل أفراد اسرة الوزير[١]، مما دفع البطريرك الى أن يفيض فى دعائه لبدر، ويأمر بقراءة الدعاء الخاص اياه على باب المجلس، فبالغ بدر فى اكرامه واحترامه، وأمر والى مصر أن يكون فى ركابه حتى مقر البطريركية بكنيسة المعلقة بالفسطاط، وأن يكون فى خدمته ويعمل على راحته[٢].

وقد توثقت العلاقة بين قصر الخلافة والأنبا كيرلس الثانى، وكان المستنصر يدعوه الى قصره ويتحدث اليه، ويأنسه[٣]، كما أن وزيره بدر الجمالى لم يتدخل فى الشئون الخاصة بالكنيسة القبطية، بما يعكر صفو العلاقات بينه وبين رجالها، وظلت علاقته طيبة بالأقباط وبطريركهم، وكان يستقبله ويكرمه، ويلبى مطالبه، وعندما اختلف الاساقفة ابان وزارته فيما بينهم لم يكن أذنا لاحدهم، ووقف يساند البطريرك، وأحضر الأساقفة الى اجتماع عقده فى بستان له خارج القاهرة (سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م) وطالبهم فى حزم بوضع القوانين المنظمة لشئون الكنيسة، وأظهر احترامه وتعاطفه ازاء البطريرك، وأوصاهم به قائلا لهم: «لاتختلفوا

(١) اريس حبيب: المرجع السابق، جـ٣، ص ١١٢.
(٢) الانبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٨٨، ٨٩.
(٣) اريس حبيب: المرجع السابق، جـ٣، ص ١١٢.

فى ايام مملكة الامير ووزارة الافضل ابن امير
الجيوش ثم بعد موته وزر المامون، ولما تنيح انبا
ميخاييل البطرك كانت النوبه فى تخير من يقام
عوضا منه للمصريين ورهبان دير ابو مقار وكتبو
للاساقفه المقيمين باعمال الصعيدين الاعلا والادنا
واسفل الارضى [الدلتا] يعلموهم بوفاته ويعزوهم
فيه ويسالوهم الحضور ليجتمعو ويقع الاتفاق على
من يرتضوه للبطركية الجليلة، وكتبو ايضا

وأطيعوا مقدمكم»، كما أكد لهم أنه لم يقصد التدخل فى شئون الكنيسة، وقال أن «هذه القوانين التى عملتموها ما احتاج اليها، وانما طلبتها منكم ليتجدد عندكم أنتم علمها، لما بلغنى من بعد عهدكم بها وبقراءتها...» ثم دعا أحد موظفى ديوانه وأمره بكتابة قائمة بما يحتاجه كل واحد منهم، لتخرج المناشير بقضاء حوائجهم[١] وانفض الاجتماع وقد عاد الصفا الى رجال الكنيسة[٢]، وانصرف البطريرك ليعمل فى اصلاح الكنائس[٣].

وفى وزارة بدر الجمالى كثر عدد المهاجرين من الأرمن الى مصر، وسكنوا بها، وازداد عددهم ونفوذهم، وفى عهده تأسس لهم كنيسة كبيرة بالزهرى من القاهرة[٤] وتم انتخاب أول بطريرك للأرمن فى مصر، باسم غريغوريوس الثانى، الذى حظى بمكانة مرموقة عند أمير الجيوش، وكان بدر قد استقبله لدى وصوله الى مصر من بلاد الأرمن باحترام وتقدير بالغين، كما نجح بدر فى أن يوطد أو اصر العلاقات بين البطريرك الأرمنى الذى خلف غريغوريوس الثانى وبين بطريرك الكنيسة المرقسية حيث أعلنا فى بيان لهما اتفاق القبط

(١) : نفس المصدر ، ونفس الصفحة.
(٢) بتشر : المرجع السابق، جـ٣، ص ٧٠.
(٣) بتشر: نفس المرجع، ص ٧٣.
(٤) بتشر: المرجع السابق، جـ٣، ص ٧١.

للاسكندرانيين بمثل ذلك، وكان زمان الصيف وادراك الغلات والثمار والكروم والاساقفة مشغولين بتحصيل ما يحتاجو اليه برسم الكنايس المقدسه من الغلات والخمر وغيره، فلم يتفق لهم اجتماع الا بعد [عيد] الصليب(*) فوصل بعضهم الى مصر وبعضهم الى الديارات المباركة، واتفق راى الذين وصلو الى مصر على المسير الى دير ابو مقار القديس للاجتماع مع بقية الاساقفه الذين هناك

(*) يحتفل عادة بهذا العيد في ١٧ توت من كل عام وهو يعادل ١٤ سبتمبر بحسب التقويم الجولياني.

والارمن والاحباش والنوبيين فيما يتعلق بالعقيدة الأرثوذكسية[١] ويذكر لبدر الجمالى أنه نظم أحوال القبط [٢] وحدد الجزية بدينار وثلث وربع ولم تكن سياسة بدر المتسامحه ازاء رؤساء طوائف أهل الذمة وبخاصة القبط والأرمن الا فى اطار الخطة الشاملة الخاصة باعادة تنظيم دولة الفاطميين بعد أن كادت تطيح بها الاضطرابات والفتن [٣].

وانتهج الوزير الافضل ـ الذى ألهجت ألسنة القبط بالثناء عليه ـ سياسة أبيه الرامية الى توطيد علاقة الدولة بالكنيسة ورؤساء الطوائف من أهل الذمة، وعندما انتخب الانبا مقارة الثانى سنة ٤٩٤/ ١١٠٢م بطركا للكنيسة القبطية أمر الافضل باستدعائه الى دار الوزارة، فخرج البطريرك فى موكب حافل ارتفعت فيه الاناجيل والصلبان والشموع الموقدة وأصوات المنشدين ودخان المباخر، فاستقبله الأفضل وهنأه، «وأدناه، وأجلسه وأكرمه اكراما كثيرا، وخاطبه خطابا جميلا»، ثم أمر بكتابة منشور الى ولاة الاقاليم بالوجه البحرى ليخفوا الى أستقبال البطريرك عند مروره عليهم كما كتب الى والى الاسكندرية بأن يقدم كل التسهيلات

(١) منير شكرى: المرجع السابق، ص ٢٥٧، ٢٦٧.
ـ بتشر: المرجع السابق، جـ٣، ص ٧١.
(٢) ماجد: المستنصر بالله، ص ١٨٨.
(٣) ماجد: المستنصر بالله، ص ١٨٩.

والرهبان على الصلاة والتضرع الى الرب سبحنه
في ارشادهم الى من يرتضيه ويختاره لرعايتهم
والرياسة عليهم. فساروا الى هناك فى شهر بابه
واجتمعو فى بيعة القديس ابو مقار ومكثو اياما
يصلو ويتذاكرو [مع] من فى تلك البريه من
السواح والقديسين ومن فى الصوامع من الحبيسين
ويرجحو الراى فيمن يصلح لهذه الرياسة والرتبة
الشريفة الكهنوتية والخلافة الرسولية المرقصية، فلم

للبطريرك الجديد، وأن يتجاوز عن الرسوم التى جرت العادة بتحصيلها فى مثل تلك الظروف، لذا ابتهجت قلوب الأقباط جميعا لما أغدقه الوزير الأفضل من الاكرام والمودة لرأس الكنيسة[1].

وفى عهد الخليفة الآمر، ووزارة الأفضل شاهنشاه حرصت السلطات الحاكمة على احترام رجال الكنيسة، وقام ولاة القاهرة ومصر بحراسة المواكب الدينية التى كانت تطوف شوارع القاهرة والفسطاط بمناسبة تقلد أساقفة مصر لمناصبهم، خشية أن يتعرض لها عامة المسلمين بالأذى «فيقع فى ذلك ما يشغل القلب».

وفى المقابل حرص رؤساء الطوائف من أهل الذمة على توثيق علاقتهم بالسلطات الحاكمة، فيذكر المقريزى، أن البطريرك القبطى ورجال الكنيسة والكتاب اليهود كانوا من بين كبار رجال الدولة الفاطمية الذين حضروا للتهنئة أثناء الاحتفال بدخول المأمون البطائحى مجلس الوزارة فى تاسع ذى الحجة سنة ٥١٥هـ [2] كما كان البطريرك القبطى ورئيس

(١) اريس حبيب: المرجع السابق، جـ٣، ص ١٣١، ١٣٢.
ـ بتشر: المرجع السابق، جـ٣، ص ٨٦.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٤٤٢.

يتفق رايهم على من يصلح لذلك ولا استقر فى نفوسهم من يقدموه واقامو على هذه القضية الى اخر بابه، واتفق رايهم على تقدمة احد رجلين احدهما القديس مقاره القس بدير ابو مقار المعروف بالمصور، او الشماس يونس ابن سنهوت. واختلفو فيمن يقدموه منهما، فاستقر بينهم ان كتبو الى الاراخنه بمصر يذكرو فيه طول مقامهم بوادى هبيب وانهم كشفو عن كلمن فى الديارات التى

اليهود وأبناء ملتهما من بين الذين دخلوا على الخليفة الآمر بأحكام الله بقاعة الذهب بقصر الخلافة يوم عيد النحر سنة ٥١٥هـ للتهنئة بالعيد كما جرت به العادة [١]. ولم ينسوا أيضا أن يقدموا الى دار الوزارة لتهنئة الوزير المأمون البطائحي بعيد الأضحى [٢].

وفى بداية عهد الخليفة الحافظ لدين الله أظهر أبو على أحمد بن الأفضل (ت ٥١٦هـ ١١٣٢م) اعتدالا وتسامحا ازاء المسيحيين كما كان صديقا لرجال الكنيسة[٣]، غير أن كتابنا (تاريخ البطاركة) يذكر أن الامير حسن بن الخليفة الحافظ الذى استبد بالسلطة دون أبيه قبض على الأنبا غبريال الثانى (ابن تريك) البطريرك السبعون للكنيسة القبطية، وصادره وسجنه فى خزانة البنود وفرض عليه غرامة مالية كبيرة، ولم يخل سبيله الابعد أن دفع مبلغ الف دينار جمعها له التجار والكتاب من أبناء طائفته[٤].

وتشير المصادر التاريخية الى تلك الاحداث التى حدت بالخليفة الحافظ فى سنة ٥٢٩هـ الى الانتقام من طبيبه النصرانى ابن قرقة [٥] بينما أنعم على رفيقه أبو منصور اليهودى وجعله

(١) ابن ميسر: المصدر السابق، جـ٢، ص ٦١.
(٢) النويرى: المصدر السابق، جـ٢٦، ورقة ٨٦.
(٣) لين بول: المرجع السابق، ص ١٤٥.
(٤) ساويرس: انظر ص ١١٢٦ من هذا الجزء.
(5) Mann : op, cit, p. 229.

هناك والسواح والحبسا فلم يجدو من يصلح للتقدمه الا احد المذكورين، وقد استقر بيننا رد الامر اليكم فيهما فمن اخترتموه منهما ورضيتم به قدمناه. فلما وصل الكتاب اجتمع الاراخنه بكنيسة القديس ابو سرجه بقصر الشمع وقرو الكتاب، فمنهم من كان يعرف الراهبين المذكورين، ومنهم من كان يعرف احدهما دون الاخر، ومنهم من لا يعرف احد منهم بالجمله. والذين كانو يعرفوهما

رئيس اليهود [1]، ومنحه ما كان لابن قرقة من أملاك وأموال، ثم جعله رئيسا للأطباء بقصر الخلافة [2]، وأجزل له العطاء، وصارت له نعم جليلة [3].

وفى خلافة الحافظ ووزارة بهرام الأرمنى، ازداد نفوذ النصارى الأرمن بوجه خاص فى مصر، وقد تظاهروا بدين النصرانية، وأكثروا من بناء الكنائس والديارات، وصار كل رئيس منهم يبنى له كنيسة بجوار داره، وتفاقم الأمر، فخاف الناس منهم أن يغيروا الملة الاسلامية ويغلبوا على البلاد فيردوها دار كفره[4].

وكانت الثورة على بهرام وخلعه، وتولية رضوان بن ولخش الوزارة فى جمادى الأولى سنة ٥٣١هـ، فنهب العامة بعض كنائس القاهرة والخندق وأحرقوا دير الأرمن المعروف بالزهرى، وقتلوا بطريرك الأرمن كما نبشوا قبر البطريرك أخو بهرام [5] ثم ان رضوان فرض عدة قيود صارمة على أهل الذمة، وضاعف الجزية على النصارى وعلى اليهود.

(١) أبو المحاسن : المصدر السابق، جـ٥، ص ٢٤٤.
(٢) المقريزى: الخطط ، جـ١ ، ص ١٨.
(٣) أبو المحاسن : المصدر السابق، جـ٥، ص ٢٤٤.
 ــ المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ١٥٥.
(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص١٥٩.
(٥) ابن ميسر : المصدر السابق، جـ٢ ، ص ٧٩.

زكوهما جميعها، ثم قالو: ان مقاره كهل محجاج جيد الكلام ضابط لقوانين الرهبنه، وان يونس الراهب شاب جيد الكهنوة صبيح الوجه فصيح المنطق. فرغبو جميعهم في مقاره لاجل شيخوخته وحنكته ونادو باسمه كفم واحد وكتبو الجواب بذلك، فلما وصل الكتاب الى الابا الاساقفة والكهنة المقيمين بالدير اجتمعو كلهم لقراته واتفقو اجمعين علي الرضا بما تضمنه وقام بعض الاساقفة

ولما توترت العلاقة بين الحافظ ورضوان سنة ٥٣٣هـ، وكثر سعي الوشاة بين الخليفة والوزير، وتخوف كل منهم من الآخر، قبض رضوان على بعض خواص الخليفة وقتل رئيس اليهود[(١)].

غير أن الحافظ الذى أسكن بهرام الأرمنى النصرانى فى قصره، وطرد رضوان من الوزارة سنة ٥٣٣هـ بعد أن استفحل أمره[(٢)]، أمر بحسن معاملة النصارى الارمن فشهدوا فى مصر سنوات من التسامح واللين، فيروى لنا أبو صالح أن البطريرك الأرمنى الذى ولى منصبه بعد الأحداث الأخيرة نشأت بينه وبين الخليفة الحافظ صداقة وطيدة فكان يحضر بمجلس الخليفة الحافظ بقصر الزمرد في يومي الاثنين والخميس من كل اسبوع ليحكي للخليفة ما قرأه في «السير والملاحم والتواريخ وأخبار الملوك المتقدمين» [(٣)] كما صرح لهذا البطريرك بالدخول عليه في أيام الأعياد والمناسبات مع الأمراء ووجوه الدولة. ويذكر أبو صالح أيضا أن تلك العلاقة استمرت وثيقة ين البطريك الارمني والخليفة حتى توفى الحافظ في جمادى الآخرة سنة ٥٤٤هـ [(٤)].

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ١، ص ١٦٨.
(٢) المقريزى: نفس المصدر، جـ٣،، ص ١٦٦، ١٨٩.
(٣) أبو صالح الأرمنى: المصدر السابق، ص ٤.
(٤) أبو صالح الأرمنى: نفس المصدر والصفحة.

والكهنة والرهبان حيث مقاره المذكور وقبضوه واتو به الى المجمع فتضور [فتضرر] من ذلك وامتنع واستحلفهم ان يعفوه وقال لهم: انا ابن ثانيه(*) لا علم لى ولا كهنوت ولا اصلح لما تريدوه مني. فلم يلتفتو الى قوله وقيدوه والبسوه الثوب ووسموه، وذلك في يوم الاحد الثالث عشر من هتور سنه ثمان مايه وتسعه عشر للشهدا، وهي سنة اثنين وتسعين واربع مايه الخراجيه، وسارو الى

(*) بحسب قوانين الكنيسة القبطية فإن اولاد الزواج الثاني يمنعون من تولى وظيفة البطركية.

أما بطريك الأقباط اليعاقبة ميخائيل الخامس (ابن دنشترى)، البطريرك الحادى والسبعين للكنيسة المرقسية (١١٤٥ / ١١٤٦م)، فقد نشأت بينه وبين الخليفة الحافظ علاقة أساسها الثقة المتبادلة مما أدى الى نشاط حركة بناء الكنائس، وازدحامها بالمصلين، وازدهار الأديرة وتضاعف عدد الرهبان[١]، وعندما خلا كرسى البطريركية بوفاته سنة ٥٤٠هـ/ ١١٤٦م لم يتدخل الخليفة الحافظ في الاجراءات الخاصة بانتخاب البطاركة، ورفض الاستجابة لمحاولة أحد الرهبان الرامية الى الوصول الى كرسى البطريركية عن طريق قصر الخلافة بل ومنح الحافظ أساقفة الكنيسة، وأعيان القبط كل الحرية وجميع التسهيلات لينتخبوا بمحض ارادتهم يوحنا الخامس البطريرك الثاني والسبعين رأسا لكنيسة الاسكندرية[٢].

غير أن الملك العادل بن السلار وزير الخليفة الظافر قبض على البطريرك يوحنا الخامس، وزج به في سجن دار الوزارة سنة ٥٤٧هـ، لأنه رفض أن يعزل المطران القبطى في الحبشة بناء على التماس تقدم به ملكها الى الوزير[٣]، لأن ليس في شريعة النصارى (القبط) أن

(١) اريس حبيب: المرجع السابق، جـ٣، ص ١٥٦، ١٥٧.
(٢) ساويرس. تاريخ البطاركة: انظر في هذا الجزء الثالث ص١٣١٨ وما بعدها.
(٣) اريس حبيب: المرجع السابق، ص ١٦٤.

مصر وكان وصوله الى كنيسة ابو قزمان التى عند القنطرة بجوار البستان المعروف بالزهرى فى يوم الخميس السابع عشر من هتور المذكور، فمضى الشيخ ابو الفضل ابن الاسقف الى دار السيد الاجل الافضل، وكان يوميذ كاتبه وهو الموقع عنه فى الاموال والرجال ومتولى ديوان المجلس والنظر فى جميع دواوين الاستيفا على جميع اعمال المملكة، واعلمه بوصول الاب البطرك انبا مقاره

يولوا أنسانا رتبة الكهنوتية ثم يعزلوه، وأن من شريعتهم أن يولوا غيره اذا مات «مما أغضب الوزير، فلبث البطريرك فى السجن مدة حتى أفرج عنه بعد مقتل ابن السلار فى ٦ محرم سنة ٥٤٨هـ[١]، ليعود الى السجن مرة أخرى فى خلافة العاضد لدين الله عندما وشى به جماعة من الرهبان عند الوزير الملك الصالح طلائع بن رزيك، الذى اساء الى البطريك، وحرض الرهبان على ضربه، ولما لم يتمكنوا، طرده من مجلسه، وسجنه، كما كتب الى ولاة الأعمال بفرض ضرائب على كراسى الأساقفة بالوجه البحرى، ومن ثم تعرض رجال الكنيسة والأساقفة لقسوة ولاة الأعمال، ولم يطلق سراح البطريرك الا بعد أن مات الملك الصالح طلائع بن رزيك فى تاسع عشر رمضان سنة ٥٥٦هـ، فانفذ ولده الملك العادل رزيك الذى ولى الوزارة بعد أبيه من أخلى سبيل البطريرك، وأطلق سراح كل من معه.

ولقد أضيرت الكنيسة ابان فترة الاضطرابات التى عمت مصر بسبب النزاع على الوزارة بين شاور وضرغام بسبب أطماع الصليبيين ونور الدين فى مصر، كما ساءت حالة الكنيسة بسبب القيود الصارمة التى فرضها شيركوه على أهل الذمة ابان وزارته[٢]، فضلا عما

(١) ايريس حبيب: المرجع السابق، جـ٣، ص ١٦٣، ١٦٤.
(٢) ايسيذورس : المرجع السابق، جـ٢، ص ٣٧٥.

وانه يحتاج الى المسير الى الاسكندريه ليصلى عليه فى كنايسها لانها كرسى البطركيه، وان الوالى والمستخدمين هناك يطلبو منه رسوم جرت عادة من تقدمه بها، وهذا رجلا راهب ضعيف الحال ليس معه شي ولا اقتنا قط دينار ولا درهم، وساله اعفاه من ذلك واحضاره بين يديه لتطيب نفسه ويقوى امره كما جرت عاده من تقدمه. فاجابه الى ذلك وامر باحضاره مكرما مبجلا، فركب من الكنيسة

تعرضت له بعض الكنائس والأديرة لحوادث النهب والتخريب فى جو الاضطرابات وفوضى الحرب (١).

وفى اثناء وزارة صلاح الدين، وكذا فى بداية سلطنته، أصاب البطريرك القبطى ورجال الكنيسة كثيرا من المعاناة والحزن والأسى، لما أصاب الكنيسة ورجالها على يد صلاح الدين الذى اتخذ موقفا متشددا من أهل الذمة، وبالغ فى فرض القيود عليهم بسبب موالاة بعض النصارى واليهود للفاطميين (٢).

أما بطريرك الأرمن فى القاهرة، فقد حمله صلاح الدين على اغلاق مقر بطركيته بالزهرى سنة ٥٦٤هـ، والانتقال الى كنيسة يوحنا المعمدان بحارة زويلة (٣)، وكان الأرمن قد قاتلوا قوات صلاح الدين بشراسة عند تصديه لمؤامرة مؤتمن الخلافة فى تلك السنه(٤). ولما ضيق صلاح الدين الخناق على النصارى الأرمن لاشتراكهم فى المؤامرة ضدة سنة ٥٦٨هـ، خرج بطريرك الارمن بمحض ارادته من القاهرة قاصدا بيت القدس فى الثالث والعشرين من ربيع

(١) ابو صالح الارمنى : المصدر السابق، ص ٤٠.
(٢) انظر ماقبل ص ٣٢ ـ ٣٧.
(٣) ابو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ٤.
(٤) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٢، ٣.

المقدم ذكرها والكهنة بين يديه يقرو وهم حاملين الاناجيل المقدسه ومجامر البخور والشمع الموقود، والشعب حوله والاساقفه والاراخنه ركاب دوابهم خلفه، ومتولى المعونة بالقاهره معه ورجالته بين ايديهم حتى وصلو الى دار السيد الاجل الافضل، فلما دخل اليه دعا له دعا كثير، فراه وديع عفيف حسن الوجه جيد الكلام ورزقه الله منه حظ وقبول فادناه واجلسه واكرمه اكراما كثيرا وخاطبه خطابا

الاول من نفس السنة ليقيم هناك، «بسبب تلف طائفته بيد الغز و الاكراد»[1]. وقد سمح له صلاح الدين بأن يأخذ معه كل ماحمله من الكتب الدينية، وجميع ماتحت يده من أوانى الكنائس ودنانير الذهب، وقد ترك هذا البطريرك قسيسا نائبا عنه لقيم الصلوات والقداسات فى كنيسة يوحنا المعمدان بحارة زويلة [2].

لم يقف صلاح الدين عن حد تدعيم علاقة الدولة بالكنيسة القبطية ورجالها، بل وطد علاقته بكبار رجال الطائفة اليهودية فى مصر، وان لم يتدخل فى شئونها. وكان قد وصل الى كرسى رئاسة اليهود فى بداية حكمه حبر يهودى يدعى يحيى، سبق أن اغتصب هذا المنصب أثناء وزارة شاور لقاء ألف دينار كل عام، وكان أن أساء معاملة أبناء ملته حتى ضاق صدرهم به، وأطلقوا عليه اسم (الشرير)، وثاروا فى وجهه، ولما تنبه صلاح الدين الى أمره بعد أربع سنوات من رياسته أمر بعزله، وطرده مع أسرته من الفسطاط ولما اختار اليهود الحبر نيثانيل لرياسة الطائفة اليهودية خلفا له، احترم صلاح الدين رغبة أبناء الطائفة فى اختياره[3]. كما يرجع الفضل الى صلاح الدين ووزيره القاضى الفاضل فى تولى موسى بن ميمون العالم

(١) ابو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ٤.
(٢) ابو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ٥.
(٣) ولفنسون: المرجع السابق، ص ١٩.

جـــمـــيـــلا، وامــر ان يكتب له منشــور الى والى الاسكندريه وغيره من الولاه الذين يعبر عليهم فى طريقه باعزازه واكرامه واعفاه من طلب رسم ولا غيره ومساعدته ومعاضدته فى جميع ما يحتاج إليه. وقام خرج من مجلسه على اجمل قضية، ففرح الشعب بذلك فرحا عظيما واخذو المنشور وسارو الى اسكندريه فخرج كل الشعب للقايه وكان دخولهم اليها على اجمل قضية واوفاها،

والطبيب والحبر الكبير رئاسة الطائفة اليهودية فى مصر سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م. كما تشير المصادر الى أن صلاح الدين كان ينتفع بما لابن ميمون ـ حبر الطائفة اليهودية الكبير ـ من لطف التدبير، ومن المكانة والقبول عند يهود اليمن فى تهدئة الثورات التى كانت تنزو بها تلك البلاد [١]، كما استجاب صلاح الدين، لرجاء هذا الحبر اليهودى الذائع الصيت، وفتح أبواب القدس بعد طرد الصليبيين منها سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧م، أمام يهود بلدان غرب أوربا [٢]، كما شجع اليهود على الاستقرار بالمدينة التى أضحت خالية بعد رحيل الفرنج، فتمكنوا من شراء قدر لابأس به من الاملاك والامتعة التى أضطر الصليبين عند رحيلهم الى بيعها بثمن بخس[٣].

واستمر لهذا الحبر اليهودى الكبير مكانته المرموقة فى بلاط الايوبيين ففى ايام رئاسته للطائفه اليهودية ازدهرت المعابد اليهودية فى مصر، ونشطت المدرسة التى أسسها يهود الجالية الاندلسية بالفسطاط، لتعليم الديانة اليهودية والفلسفة والرياضة والطب، وكان موسى بن

(١) ولفنسون: المرجع السابق، مقدمه الكتاب، بقلم الشيخ مصطفى عبد الرازق، ص (ط).
(٢) الخربوطلى: العرب واليهود، ص ٧١.
ـ الخربوطلى: الاسلام وأهل الذمة، ص ٢١٩.
(٣) رنسيمان : المرجع السابق، جـ٢، ص ٧٥٥.

ولقى من الوالى ملقا حسن واكرمه وبجله ومنع المستخدمين من تكليفه درهما واحد فضلا عما سواه. وكان تكريزه فى كنيسة مارى مرقس الانجيلي باسكندرية في يوم الاحد الثانى عشر من كيهك سنة ثمان مايه وتسعه عشر للشهدا، بعد ان جرى له مع الاسكندرانيين خطوب كثيرة بسبب الرسم المستقر لهم على من يجلس فى البطركية، فامتنع من كتب الخط لهم بذلك، وقال لهم: انا

ميمون رئيس اليهود فى الديار المصرية، من أشهر أساتذتها المبرزين. كما أن صلاح الدين بعد صلح الرملة سنة ٥٨٨هـ استقبل بكل الترحاب هيوبرت أسقف سالسبورى، وأنعم عليه، ومنحه الهدايا، وقبل رجاءه فى تعيين اثنين من القسس اللاتين، واثنين من الشمامسة اللاتين فى كل من كنائس القيامة وبيت لحم، والناصرة، ليمارسوا الشعائر الدينية وفق المذهب الكاثوليكى[١].

وفى عهد خلفاء صلاح الدين فى مصر استمرت العلاقة وطيدة بين الدولة ورؤساء الطوائف الدينية من أهل الذمة، وكان موسى بن ميمون رئيس يهود مصر من أقرب رؤساء أهل الذمة الى رجال البيت الأيوبى وكبار رجال دولتهم[٢] ولما توفى سنة ٦٠٥هـ/ ١٢٠٤م تقلد ولده ابراهيم بن موسى بن ميمون منصب رئيس الطائفة وعمره آنذاك ثمانية عشر عاما، وكان اليهود قد اختاروه فى حياة أبيه ليخلفه فى رئاسة طائفتهم [٣]. وقد أيد السلطان الملك العادل هذا الاختيار وعندما ظهر بعض المعارضين والمناوئين لابراهيم بن موسى، ندد بهم الملك العادل وتمسك به رئيسا للطائفة اليهودية [٤]، ولما احترف الطب وأصبح من الأطباء المبرزين

(١) رنسيمان : المرجع السابق، جـ٣، ص ١٤١.
(٢) القفطى: المصدر السابق، ص ٢٠٩، ٢١٠.
(٣) ولفنسون : المرجع السابق، ص ٢١، حاشيه ٢.
(4) Goitein : the cairo Geniza, p. 87.

رجل راهب مـا لي شي ولا اكـتب خطي بشي
ومهما قدرت عليه دفعته لهم في كل سنه فان
رضيتم على هذه القضيه والا اتركوني ارجع الى
حـيث كنت فـهـو اصلح لي واحب اليّ مما
دعوتموني اليه. ولم يزل الخطاب يترد بينهم عدة
ايام الى كتب خطه بمايتي دينار عدداً في كل سنه.
ووصل الى مصر يوم السبت الرابع والعشرين من
كيهك المذكور واجتمع الاراخنه والشعب في يوم

اختاره السلطان الملك الكامل طبيبا خاصا، الى جانب رئاسته لبني ملته (١). كما يذكر ميخائيل مكسى أن السلطان الملك العادل استقبل في القدس ثلاثة من كبار أحبار اليهود والذين فروا من انجلترا سنة ١٢١١م استقبالا حسنا (٢).

وفي عهد خلفاء صلاح الدين أيضا نعم رجال الكنيسة القبطية بسياسة التسامح الديني، ولم يتدخلوا في شئونها الداخلية على الرغم من تفشي بيع المناصب الكنيسة الى القسيسين الذين اتسموا بالجهل والفساد آنذاك (٣)، كما أن الملوك الايوبيين لم يفرضوا على الكنيسة شخصا بعينه دون موافقة جمهور القبط. ففي سنة ٦١٢هـ = ١٢١٦م توفي البطريرك القبطي يوحنا السادس، وسأل نشو الخلافة أبو الفتوح بن الميقاط، كاتب الجيوش العادلية، السلطان الملك العادل أن يولي صديقه الحميم القس داود بن يوحنا ـ المعروف بابن لقلق ـ البطركية، فأجابه الملك العادل وكتب له توقيعا بذلك، فلم يعجب النصارى ولاية داود (٤)، وقام الأسعد ابن صدقة كاتب دار التفاح وجمع كثيرا من نصارى مصر، واستغاثوا بالملك

(١) ابن أبي أصيبعه: المصدر السابق، ص ٥٨٣.
(٢) الأنبا ميخائيل: المرجع السابق، ص ٦٢.
(٣) أرنولد : المرجع السابق، ص ٩٧.
(٤) المقريزي : السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص ١٨٤.

الاحد غدوة في كنيسة السيدة المعلقه وظنو انه يقدس ويكرز، فاجتمع جماعة من رهبان دير ابو مقار وقالو: ما يقدس بعد قداسه في اسكندريه الا في دير ابو مقار كما جرت عادة من تقدمك فان انت نقضت هذا الرسم وقدست اليوم في هذه الكنيسه بمصر قبل ان تقدس في اسكنا ابو مقار ما يكون بيننا وبينك معاملة فيما بعد ولا نرفع اسمك على هيكلنا ولا ندعك تدخله ولا تقدس فيه ابدا

الكامل، الذى حمل الى والده معارضة جمهور القبط [١] وعرفه أن النصارى لم يتفقوا على بطركية داود، وأنه لا يجوز عندهم تقدمته الا باتفاق جمهورهم» [٢]، وكان أن تراجع الملك العادل وعدل عن تعيين ابن لقلق فى منصب البطريركية غير أن النزاع استمر عشرين عاما بين الجماعات المتعادية المتناحرة على من يختارونه لكرسى البطريركية الامر الذى أدى الى خلوه[٣].

وعندما تقلد داود بن لقلق فى تاسع عشرى رمضان سنة ٦٣٣هـ (= ١٢٣٦م)، كرسى البطريركية التى سعى اليها طوال العشرين عاما الماضية [٤]، اضطر أساقفة الكنيسة وأعيان القبط قبوله على مضض، لانه على حد تعبير البعض «استعان بالسلطان الزمنى، ودفع رشاو طائله حتى وصل أخيرا الى بغيته [٥]، ولما كان داود بن لقلق «محبا للرياسة، وجمع المال، وأخذ الرشاوى وتوسع فيها، فى شغل المناصب الكنسية فقد ثار عليه الرهبان، وبعض الأساقفة، وأعيان القبط، وعزموا على خلعه فى أيام السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب،

(١) ابن العميد: أخبار الايوبين ، ص ١٤٢.
(٢) المقريزى: السلوك ، جـ١ ق١، ص ١٨٤.
(٣) منير شكرى: المرجع السابق، ص ٢٨٤، ٢٨٨.
(٤) المقريزى: السلوك، جـ١، ق١، ص ٢٥٢.
(٥) الانبا ايساك: موكب الباباوات فى تاريخ الأقباط، (تحت الطبع)، ص ٢٨.

ولو قتلنا كلنا. وشعثو وجلبو واكثرو الكلام والصياح، فلم يقدس فى ذلك اليوم واقام بمصر لم يقدس الى بعد الغطاس. وسار الى دير ابو مقار فى النصف من طوبه وقدس فى الاسكينا بكنيسه ابو مقار فى يوم الاحد الثالث والعشرين منه، وعاد الى مصر وقدس فى كنيسة السيده المعلقه بمصر فى يوم الاحد اخر طوبه من السنة المذكورة، وكرز فيها وكان يوم حسن. وقرى تقليده على الانبل

غير أن الكتاب الأقباط العاملين بالحكومة توسطوا فى صلحه مع خصومه[١]، بعد أن عقدوا له عدة مجالس بحضور نائب السلطان، والعدول والوزير معين الدين حسن بن شيخ الشيوخ، وغرموه زهاء اثنى عشر ألف دينار[٢]، حمل معظمها الى السلطان حتى استمر فى رئاسته للبطريركية[٣]، وعندما توفى كيرلس الثالث البطريرك الخامس والسبعين للكنيسة المرقسية فى سابع عشر شهر رمضان سنة ٦٤٠هـ = ١٢٤٢م، أتفق أساقفة الكنيسة وأعيان القبط فيما بينهم على أن يرجئوا التشاور فى موضوع انتخاب بطريرك جديد الى أن تهدأ النفوس مما أصابها على يد البطريرك المتوفى، فظل كرسى البطريركية شاغرا حتى نهاية العصر الأيوبى[٤].

سياسة الفاطميين والأيوبيين ازاء دور العبادة لأهل الذمة

الكنائس المسيحية:

اشترط ما اصطلح على تسميته «بالعهد العمرى» أو «الشروط العمرية» المنسوبه الى الخليفة

(١) ابن العميد : أخبار الأيوبيين، ص ١٤٢.
(٢) ابن الراهب : المصدر السابق، ص ١٤٢.
(٣) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٤٩٧.
(٤) ايريس حبيب: المرجع السابق، جـ٣، ص ٢٥٩.

يونانى وقبطى وعربى، وكمل القداس كما يجب وقرب جميع الشعب وكان خلق كثير قد اجتمع في ذلك اليوم حتى ضاقت بهم الكنيسه وفرح الشعب وشكرو الله تعالى على رحمته وتعاهده لشعبه فى كل وقت كما وعد فى انجيله المقدس اذ قال: انا معكم الى انقضى الدهر.

وفى السنه الخامسه لابا مقاره البطرك المذكور قرى سجل فى الايوان الكبير بالقصر فى يوم

عمر بن الخطاب، على النصارى ألا يستحدثوا من الكنائس شيئا، ولا أن يجددوا ماخرب وماهدم واندثر منها، أويعيدوا بناء البيع القائمة فى نواحى من المدن الآهلة بالسكان، ويرى أبو يوسف أن الشروط العمرية نصت فى فتح المدن «على ألا تهدم بيع الذميين ولاكنائسهم داخل المدينة، ولا خارجها.. وألا يحدثوا بناء بيعة ولا كنيسة» وبالتالى فان كل ما أحدث من بناء بيعة أو كنيسة فأنه يهدم [١].

ويتفق الأئمة الأربعة على عدم استحداث بيع أو كنائس فى دار الاسلام[٢]، كما أن عمر ابن الخطاب أمر بهدم كل كنيسة استجدت بعد الهجرة... «وصانع القبط على كنائسهم وهدم بعضها، لم يبق من الكنائس الا ما كان قبل البعثة النبوية، أما اذا استهدم منها شيئا فلا يمنعون من أعادته، وقيل يمنعون لأنه نسبة للاستحداث[٣]. كما اشترط على أهل الذمة ألا تعلو أصوات نواقيسهم وتلاوة كتبهم[٤].

ومع هذا فان السلطات الحاكمة فى مصر فى العصرين الفاطمى والأيوبى، أبدت قدرا كبيرا

(١) ترتون : المرجع السابق، ص ٣٩، نقلا عن أبى يوسف وكتابه الخراج ص ٧٢، ٨٧.
(٢) ترتون: المرجع نفسه، ص ٤٠.
ـ الخربوطلى: الاسلام وأهل الذمة، ص ١٣٨.
(٣) ابن الاخوة: المصدر السابق، ص ٩٧.
(٤) ابن القيم: احكام أهل الذمة، جـ١، ص ٢٣٦.

الاحد التاسع عشر من المحرم سنة احدى وخمس مايه الهلاليه، الموافق للعاشر من توت سنه تسع وتسعين واربع مايه الخراجيه، يتضمن نقل هذه السنه الخراجيه الى هذه السنه الهلاليه نقلا لا يتجاوز التسميه وان يورخ فى ساير الاعمال لسنيه احدى وخمس مايه الهلاليه الخراجيه ويلغى ذكر ما سواها ويبطل فى ساير الدواوين من الحسابات والمعاملات.

من الواقعية ازاء تطبيق هذه الشروط، ولم تلتفت الى تطبيق البعض الآخر الا عند حدوث الأزمات، ويرى لين بول فى كتابه سيرة القاهرة، فى معرض كلامه عن أهل الذمة فى مصر أنه «بوصول الخلفاء الفاطميين بدأت فترة من التسامح واللين لاعهد لهم بهما فقد كان الحكام الجدد... يرعون على الدوام رعاياهم المسيحيين، وكثيرا ما بنيت أو أصلحت كنائس فى عهدهم[1] أما السير توماس أرنولد فقد أشاد بسياسة الفاطميين أزاء الكنائس فى مصر ويرى أن السلطة المدنية أباحت للقبط أن يبنوا كنائس فى القاهرة العاصمة الجديدة ـ كما سمحت للمسيحيين أن يؤسسوا فى بعض المدن الأخرى كنائس وأديرة جديدة» [2]. كما سمحت لهم بتجديد عمارة الكنائس القديمة وترميمها [3].

لقد انتهج الفاطميون فى عصرهم الثانى سياسة خلفاء العصر الفاطمى الاول فيما يتعلق بسياستهم المتسامحة ازاء الكنائس، كما أن سيطرة الوزراء الأرمنيين على مقاليد السلطة فى مصر اعتبارا من الثلث الاخير من القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى قد تمخض عن شعور طيب أزاء النصارى بوجه عام،[4] فقد كان بدر الجمالى يميل الى المسيحيين على

(١) لين بول: المرجع السابق، ص ١١٨.
(٢) أرنولد: المرجع السابق، ص ٨٤.
(٣) ابو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ٢٤١، ٤٢، ٤٨.
(٤) لين بول : المرجع السابق، ص ١٢٠.

وفى السنه الثامنه من بطركيته في يوم الاحد السابع عشر من شوال سنه اربع وخمس مايه الهلاليه، وهو الخامس من بشنس سنه خمس مايه الخراجيه، ثارت ريح عظيمه سودا وغبار فى الساعة التاسعة من يوم الاحد المذكور وصار فى الجو حمره عظيمه منتشره على الارض مثل النار ثم صارت ظلمه عظيمه شديدة حتى لم يبصر احد من الناس الاخر، واعتقد جميع الناس ان القيامه قد

أنه لم يظهر ذلك لهم [١]، ففى عهده أقيمت الشعائر الدينية المسيحية فى جميع الكنائس فى حرية تامة [٢] وأنشئت بعض الكنائس المستحدثة، وجدد البعض الآخر، كما رمم غيرها، كما ابتنى بدرالجمالى للأرمن الوافدين معه كنيسة كبيرة بجهة دير البساتين فى الفسطاط حيث خصص لهم بقعة لسكناهم[٣]. وفى عهده استقبلت السلطات فى مصر البطريرك غريغوريوس الارمنى استقبالا حافلا، وأعطوا له كنيسة اقطعت للأرمن[٤]، فهدموها وجددوا عوضها كنيسة كبيرة متسعة بعدة قباب باسم مارى جرجس، وبنوا لها جوسقا بابه من داخل البيعة، وبنوا عليها حصنا دائرا وحفروا لها بئر ماء وركبوا عليها ساقية، وزرعوا أنواع الشجر وأصناف الفاكهة والنخيل المثمر[٥].

واذا كان بدر الجمالى قد شمل أساقفة الكنائس برعايته، وخرجت المنشورات فى عهده لولاة الأقاليم ليستجيبوا لاحتياجات الاساقفة، فقد أمر البطريرك القبطى كيرلس الثانى بأن

(١) بتشر: المرجع السابق، جـ٣، ص ٦٢.
(٢) ايريس حبيب: المرجع السابق، جـ٣، ص ١١٢.
(٣) بتشر: المرجع السابق، جـ٣، ص ٧٠، ٧١.
(٤) ابو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ٦١.
ـ جاك تاجر: المرجع السابق، ص ١٤١.
(٥) ابو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ٦١.

حـضـرت(*) فخرجو من دورهم ومساكنها وخلو ابوابها مفتوحة معتقدين انهم هلكا لا رجوع لهم اليـهـا، وصارو هايمين على وجـوههـم فى الجـوامع والكنايس والازقه. والباعه تركو حوانيتهم وما فيها من ذهب وفضه وقطانى وتجارة وبر ومتاع وغيـره وسـاحـو فى الظلمـه حـايرين يطلبـو المواضع المنفسـحـة المكشـوفـة خـوفـا ان تسـقط عليـهم السقوف او الحيطان، وكانت ساعة مهولة لم يرى

(*) إشاعة يوم القيامه بسبب رياح الخماسين.

يتنازل لكل طائفة من السريان عن كنيسـة، فتنازل القبط لهما عن كنيستين في دير الخندق المعروف الأن بدير الأنبا رويس [1].

وعلى الرغم من أن بعض المصادر النصرانية بالغت فى الثناء على الوزير الأفضل، لرعايته أهل الذمة، الا أنها أشارت بأصابع الاتهام الى أنه أمر فى سنة ٥٠١هـ بهدم كنيسة القديس ميخائيل (المختارة) بجزيرة الروضة[2]، لأنها كانت وسط بستان اشتراه [3].

كما يذكر مؤرخ سير البيعة المقدسة أن الوزير الأفضل هدم كنيسة أبى قدامة بالفسطاط، وبنى موضعها مسجدا للمسلمين، لان المدعو أبو اليمن بن عبد المسيح متولى ديوان أسفل الارض استغل نفوذه ومكانته في الدولة، وخرق ما هو متعارف عليه من أحكام فقهية، عندما هدم الكنيسة المذكورة، وكانت قد آلت للسقوط، ثم «جدد بناءها بغير توقيع السلطان ولا أستئذان» فسعى أحد أعدائه وأبلغ الوزير الأفضل أن أبا اليمن «هدم الكنيسة وبناها بغير أمرك»، كما استولى على عرصة كانت بجانبها لديوان أحباس الجوامع، وجعلها بستانا ألحقه

(١) ايسيذورس: المرجع السابق، جـ٢، ص ٣١٧.
(٢) ابن الراهب: المصدر السابق، ص ١٣٨.
(٣) القلقشندى: المصدر السابق، جـ٥، ص ٣١٩.
ـ المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٤٩٦.

مثلها. وذكر جماعة من الشيوخ انهم لم يرو مثله ولا سمعو به من ايام موسى النبى. وبعد ساعه جاات المطر وانقشعت الغبره وسكنت الرياح وزالت وظهر النور فعاد الناس الى بيوتهم والى حوانيتهم وشكرو الله تعالى ومجدوه الذى اوراهم يسير من قدرته، فلما كادو يهلكو ادركهم بعفوه ورحمته.

بالكنيسة ، فغضب الأفضل «وركب فى جيشه، ومعه القاضى والشهود الى الكنيسة ، وحضر شيوخ مسلمين شهدوا بذلك» فهدم الكنيسة وسواها بالأرض وأقام مكانها مسجدا للمسلمين رغم أن المكان وأرضه يخص الكنيسة.

ومع هذا فان مؤرخ «كنائس وأديرة مصر» يذكر أن الشيخ أبا الفضل المعروف بابن الأسقف (ت ٥٠١هـ) متولى ديوان المجلس بذل الأموال فى تعمير الكنائس وعلى الأخص كنيسة مارى جرجس بالفسطاط، حيث كان دائم التردد عليها للصلاة [(١)]، كما تمت فى عهد الخليفة الآمر بأحكام الله (ت ٥٢٤هـ) عمليات ترميم وتعمير لكثير من الكنائس على أيدى كبار موظفى الدولة من النصارى، وأعيان القبط ورجال الدين المسيحى[(٢)].

ولكن بعض رجال الدين الاسلامى استغاثوا برضوان بن الوخشى الذى جمع جيشا «واستعلا بكلمة الاسلام فأطاح ببهرام، ودخل القاهرة واخلع عليه بالوزارة فى سنة ٥٣١هـ. وارضاء للرأى العام الاسلامى نهب كنائس القاهرة والخندق، كما نهب عامة المسلمين كنيسة

(١) أبو صالح الارمنى : المصدر السابق، ص ٤٤.
(٢) أبو صالح الارمنى: المصدر نفسه ، ص ٤١، ٦٥.

وفي يوم الجمعة الثالث من توت سنة احدى وخمس مايه الخراجيه، الموافقه لسنه ثمان مايه وثمنيه عشر للشهدا الابرار في الساعه الثالثه من النهار، كانت زلزلة عظيمه، فلما كان الليل هدمت كنيسة ميكاييل المختاره بجزيره مصر(*) وقيل انها سقطت من الزلزلة، وكان السبب في ذلك ما حكاه جميل ابن يحنس الصعيدى قس الكنيسه المذكوره ومعاني الاحول قيمها ان يوسف

(*) قصة هدم كنيسة ميكاييل المختارة بجزيرة الروضة وكانت مقرًا للبطركية

الزهرى التى للأرمن (١)، كما كانت كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة بين الكنائس القبطية التى هدمت ابان هذه الأحداث (٢).

وفى خلافة الفائز بنصر الله (ت ٥٥٥هـ) وزارة الصالح طلائع بن رزيك (ت١٩ رمضان سنة ٥٥٦هـ) نعمت الكنائس بكثرة المترددين عليها من أبناء النصرانية لاقامة الصلوات والطقوس الدينية (٣)، و اهتم النصارى بتحديد وتعمير وترميم كنائسهم، وعلى سبيل المثال فان الشيخ المكين أبو البركات بن كتامة الكاتب النصرانى بنى كنيسة باسم مارجرجس بأرض الحبش من القاهرة، وجدد كنيسة باسم مارمينا على مقربة من الكنيسة السابقة، ثم جدد أيضا كنيسة الأربعة حيوانات غير المتجسدين على مقربة من دير نهيا من الجيزة (٤) كما أن خاصة الدولة أبا الفضائل المعروف بابن دخان أشهر كتاب النصارى فى وزارة طلائع بن رزيك عمر كنيسة أبو يحنس بالفسطاط، وأنشا قبالتها جوسقا من ثلاث طبقات(٥).

(١) ابن ميسر: المصدر السابق، جـ٢، ص ٧٩.
(٢) رؤوف حبيب: المرجع السابق، ص ١٠٠.
(٣) بتشر: المرجع السابق، جـ٣، ص ٩٦.
(٤) أبو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ٥٣.
- أريس حبيب : المرجع السابق، جـ٣، ص ١٤٤.
(٥) أبو صالح الارمنى : المصدر السابق، ص ٤١.

المستحب المسلماني ابن مرقوره النصراني البنا، صار مقيما في الجزيرة اكثر وقته لعمارة المواضع المستنزهات المستجدة بجوار هذه الكنيسة وهي البساتين والادر المسماه بالروضه الذى امره السيد الاجل الافضل بانشايها هناك، فلما كملت دار عليها كلها حصن فانتهى الى طاحون الكنيسة وهي قبالة بابها فذكرو ان يوسف المستحب قال لهم اعطوني شي حتى اوارب الحصن عن

الا أن المؤرخ الأرمني النصراني يطالعنا بأن الوزير الصالح طلائع تقدم بأخذ بعض عمد احدى كنائس الفسطاط لعمارة المسجد الذى أنشأة بقرافة مصر [١]، والذى وصفة المقريزى بأنه كان في أعلاه مناظر، وعمارته متقنة الزى» [٢]، كما أن حسن الكردى صهر الصالح بن رزيك أتي على كنيسة وجعل موضعها مسجدا [٣] للمسلمين وذلك أثناء وزارة الصالح بن رزيك للخليفة العاضد لدين الله.

هذا ويذكر مؤرخ «سير البيعة المقدسة» أن النصارى قد عمروا كنيسة بالمطرية التي فيها بئر البلسم الذى يستخرج منه دهن البلسان على أثر الكنيسة القديمة وكرزوها على اسم القديس مار جرجس وقدسوا فيها قبل أن يكملوا سورها فهدمها المسلمون وبنوا مكانها مسجدا.

كما أن كثيرا من كنائس النصارى في مصر وبخاصة تلك الكنائس الواقعة في منطقة الفسطاط لحق بها التدمير وتعرضت للنهب والتخريب في جو الفوضى التي عمت مصر أثناء الصراع بين شاور وضرغام من أجل الوزارة.

(١) أبو صالح الأرمني: المصدر السابق، ص ٥٣.
(٢) المقريزى: المصدر السابق، ص ٥٣.
(٣) أبو صالح الأرمني: المصدر السابق، ص ٩.

الطاحون والا هدمتها واجزته فى وسطها، وانهم
اوعدوه بدنانير ثم رجع يذلهم ولم يعطوه شى
وقالو له: ان انت انتهيت عن اذيتنا والا استغثنا
فيك للسلطان وعرفناه ما قد عرفناه من ذميم
طريقتك فى خدمته التى لم نرضاها، وقد نزه الله
ايامه عما تفعله فيها ونحن قوم ضعفا تريد تقطع
مصانعتنا وتريد منا ما لا نقدر عليه. وجرت بينهم
خصايم كثير، فلما حدثت الزلزلة فى اليوم المقدم

ويذكر مؤرخ سير البيعة المقدسة أن عساكر شيركوه فى سنة ٥٥٩هـ = ١١٦٣م. هدموا كنيسة الزهرى التى للأرمن، كما يقرر المؤرخ القبطى المعاصر أنهم نهبوا كل كنيسة هدموها[١].

وكثيرا ما يشير مؤرخ «كنائس وأديرة مصر»، الى تحطيم البيع ونشوب الحرائق فيها ونهب نفائسها وذخائرها وأموالها سواء على أيدى قوات شيركوه أوعلى أيدى عوام المسلمين [٢]. كما نذكر على سبيل المثال أن كنيسة مارمينا بالحمراء أحرقت وسويت بالأرض مع غيرها من الكنائس فى جمادى الاخر سنة ٥٥٩هـ، وعندما أعيد بناؤها فى السنة التالية تذمر عامة المسلمين وانثالوا عليها تخريبا وهدما ونهبا [٣].

على أن حريق الفسطاط فى صفر سنة ٥٦٤هـ الذى أمر به الوزير شاور، أصاب القبط بضربة قاصمة وبخاصة فيما يتعلق بكنائسهم فى الفسطاط، فقد التهم الحريق عدة كنائس

(١) ساويرس:، انظر ص ١٣٩٧ من هذا الجزء الثالث.
(٢) أبو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ٤٠، ٤٣.
(٣) أبو صالح الارمنى: نفس ارصدر، ص ٣٣.
ـ ترتون: المرجع السابق، ص ٥٧.

ذكره بات هو والفعله معه فى الروضه فى العماره كما جرت عادته، فلما جن الليل امر الفعله بهدها فما اصبح الصبح الا وهى مهدومة واوصى الفعله بكتمان ذلك فلم يجسر احد منهم ينطق به لخوفهم منه، فلما كان بالغداة اذاع هو والفعله ان الزلزلة التى كانت بالنهار شققت حيطانها فلما جن الليل وقويت عليها الرياح سقطت لانها حيطان قديمه، وان هذا بوانى اهلها وقيّمها وانهم

منها كنيسة أبو نفر [١] بالحمرا الوسطى[٢] وكنيسة الملاك غبريال بخط الحمراء أيضا، ويتهم أبو صالح الأرمنى «الغز وعوام المسلمين» بأنهم نهبوها وكسروا أعمدتها وأحرقوا قبة فى علوها[٣]، كما أن كثيرا من الكنائس هدمت أسوارها وسويت بالأرض «واختلطت بغيرها من الطريق» فتعرضت الكنائس لنهب الغوغاء والعامة [٤]، أما كنيسة القديس مارى مرقوريوس المعروف بأبى السيفين فقد أحرقت [٥]، ويتهم ابو صالح «عوام المسلمين» بأنهم هم الذين أضرموا النار فيها، منتهزين فرصة اشعال الحريق فى الفسطاط، وأنهم اندفعوا فى جمع غفير يدفعهم التعصب الى داخلها وتمكنوا من نهب ما كان فيها من الأوانى والأمتعة الثمينة[٦].

كذلك تعرضت كنائس الملكيين بقصر الروم من الفسطاط [٧] للنهب والتخريب على

(١) ابو صالح الارمنى : المصدر السابق، ص ٤٢، ٤٣.
(٢) ابن دقماق: المصدر السابق، جـ٤، ص ١٠٨.
(٣) أبو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ٣٥.
(٤) أبو صالح الارمنى: نفس المصدر، ص٣٧.
(٥) ابن الراهب: المصدر السابق، ص ١٤٠.
ـ المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٤٩٦.
(٦) أبو صالح الأرمنى: المصدر السابق، ص ٤٧.
(٧) ابن دقماق: المصدر السابق، جـ٤، ص ١٠٨.

لو كانو حضرو فى ذلك اليوم حتى يبادرو بادعامها ما اصابها شى. واذاع ذلك عند كل الناس فنال النصارى من ذلك غم عظيم وحزنو عليها حزنا عظيما، وبلغ الاب البطرك هذا الخبر فحزن حزينا كثير وقال: انما كان هذا فى ايامى لكثرة ذنوبى. ولما وصل بعد ذلك الى مصر تقدم الى وكيل احباس الكنايس المغلقه وغيرها ان يمضى الى كنيسة ميكاييل المختاره يحمل اخشابها والاتها الى

يدى قوات شيركوه التى استولت على أربعة كنائس للملكين ونهبوا أخشابها وهدموا جدرانها وسويت بالأرض ولم يبق لهم سوى كنيسة واحدة ولم يكن ذلك الا بسبب «ضعف الملكية وقلة عددهم» (١). كذلك هدم الغز الأكراد بيعة بسقط رشين من الفيوم على اسم الشهيد تادرس وبنوا موضعها مسجدا للمسلمين (٢). أما كنائس الأرمن فى القاهرة والفسطاط، فقدى أغلقت بعد أن أوقع بهم صلاح الدين سنة ٥٦٤هـ وصارت خالية «لا يجسر أحد أن يسلك اليها» ثم أفرد لهم صلاح الدين كنيسة يوحنا المعمدان بحارة زويلة، وصارت مقر للبطريرك الأرمنى (٣).

لكن المصريون الاقباط نشطوا فى ترميم وتعمير كنائسهم فى السنوات الأخيرة من خلافة العاضد بالله، الذى «كان يعنى بأمر الكنائس» (٤)، كما يذكر أبو صالح الأرمنى أن كنيسة «الموتوتى» حظيت برعايته وحظى رجالها بعطفه (٥). ومن ثم جد رجال الكنيسة القبطية

(١) ابو صالح الارمنى : المصدر السابق، ص ٣٧.
(٢) ابو صالح الارمنى : نفس المصدر، ص ٩٥.
(٣) ابو صالح الارمنى: نفس المصدر ، ص ٤,٣.
(٤) لين بول: المرجع السابق، ص ١٢٠.
(٥) ابو صالح الارمنى: المصدر السبقبق، ص ٥٩.
ـ ترتون: المرجع السباق، ص ٥٧.

حيث امره وبقيت مهدومه الى حيث [حين] نظمت هذه السيرة.

وفى يوم السبت السابع عشر من بشنس سنة ست وخمس مايه الخراجيه، الموافقه لسنه ثمان مايه ثلثه وثلثين للشهدا على ان اول السنه ـ توت ـ تنيح الاب القديس انبا سنهوت اسقف مصر قدس الله روحه، فلقد كان فاضل مليح الكهنوة غزير العلم قنوع متواضع سليم الصدر ساذج النية

وأعيان المصريين القبط فى ترميم وتعمير الكنائس وبخاصة تلك التى أصابها حريق مصر فى صفر سنة ٥٦٤هـ، ويذكر لنا أبو صالح الأرمنى فى تاريخه الحافل بأحداث هذه الفترة أسماء كثيرة لمن قاموا بعمارة الكنائس المسيحية ومن كانوا يترددون عليها ويهتمون بأمرها من رجالات النصارى فى السنوات الأخيرة للدولة الفاطمية [١].

على أن الكنائس فى مصر تعرضت لأقوى عاصفة مدمرة ألمت بها فى العصر الأيوبى وذلك ايام صلاح الدين الايوبى عندما خرج أمره على حد رواية المؤرخ القبطى المعاصر «بأن تنزع الصلبان الخشب التى كانت على كل قبة عالية فى كل كنيسة من جميع الكنائس التى بأرض ديار مصر، وأى كنيسة كان ظاهرها مبيض تليس بالطين الأسود من فوق البياض، وأن لايدق ناقوس فى جميع ديار مصر.... وأن يخفضوا أصواتهم فى صلواتهم» [٢]، وأن لا يزفوا الصليب فى مدينة ولا قرية يوم الشعانين فى الشوارع[٣].

وكان أن تجرأ عوام المسلمين «ورتبوا على بعض الكنائس فى المدن والقرى فهدموها كما

(١) ابو صالح الارمنى : المصدر السابق، ص ٣٤، ٣٩، ٣٩، ٤٣.

(٢) ساويرس:، ص ١٥٩٧ وما بعدها من هذا الجزء الثالث.

(٣) ساويرس: المرجع السابق، نفس الصفحة.

صبور طاهر جميل الافعال، وحمل الى كنيسه القديس ابو سرجه واجتمع الشعب كله وجميع الكهنه المصريين والقاهريين اليها فى تلك الليلة. وفى غدها، وكان يوم عيد الخمسين المقدس واتفق ايضا انه كان يوم عاشورا، وحضر الاب اغريغوريس بطرك الارمن لتنجيزه والصلاة عليه، واخرج منها الى التربه التى كان بناها فى [بركة] الحبش عند وفاة اخيه القس الراهب سويرس ـ نيح

تعرضت كنيسة العذراء مريم ببلدة أبريم عند غزو النوبة سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م، للهدم والتخريب على يد قوات توران شاه، الذى أمر بحرق الصليب الكبير الذى فوق قبتها، ثم حول الكنيسة مسجدا للمسلمين (١).

وشهدت مصر فى الفترة من عام ٥٧٠هـ الى عام ٥٧٥هـ على وجه الخصوص والأعوام التى بعدها، أكبر حركة تعمير وترميم وتجديد للكنائس، وتذكر المصادر والمراجع النصرانية اسماء العديد من الشخصيات المرموقة من أعيان القبط وكبار الموظفين منهم الذين أسهموا بنصيب كبير وجهد وافر وأموال طائله فى تعمير الكنائس، ومن هؤلاء أمين الدولة ابن المصوف أحد كتاب الادارة المالية من النصارى فى عهد صلاح الدين الذى بذل من امواله الشئ الكثير فى تجديد بعض كنائس الفسطاط (٢). والشيخ شرف الرياسة سعيد بن هيلان الكاتب النصرانى الذى أسهم فى تجديد كنيسة أبى السيفين بالفسطاط وجعلها من أورع العمائر الدينية المسيحية فى عصره (٣)، وأبو الفتح بن الأقمص المعروف بالخوفى المصور القبطى اللامع الذى زين كنيسة الزهرى التى كانت للأرمن وآلت الى الأقباط ـ بأيقونات

(١) ابو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ١٢١، ١٢٢.
(٢) ابو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ٥٠.
(٣) اريس حبيب: المرجع السابق، ص ٢٣٦.

الله نفسـه ـ والكهنه والشعب حول تابوته يمشـو ويبكو ويقـرو ومـعـهم الشـمع الموقـود والبطرك والاراخنه ومن حضـر من الاساقفه ركاب خلفه. وحزن عليه جميعهم حزن شديد لمعرفتهم انهم لا يجدو مثله ولا من اجتـمع فيـه الفضـايل والعلم والطهاره والكهنوة مثلما ما اجتمع فيه. وكان الاب القديس ابا مقاره البطرك غايب في قلايته التى في ازرى بجزيرة بنى نصر فكتبت اليه(*)، انا الخاطى

(*) الخطابات المتبادلة بخصوص=

لمختلف القديسين[١] والفضل بن فروج أحد الأعيان النصارى الذى اهتم بعمارة وترميم عدد من الكنائس وتزينها حتى لقد جعل كنيسة أبى جرج[٢] ـ (مارى جرجس) ـ بقصر الروم من الفسطاط[٣] رائعة البنيان وعامرة بالمصلين،كما اهتم الشيخ الأسعد بن ميخائيل بعمارة كنيسة الزهرى[٤]، كما أعمر كنيسة مارمينا بالحمراء من الفسطاط، غيرها من الكنائس، «وكان يتعهدهم ويتفقدهم بالقداسات فيهم، ويهتم بأقمنة الجير حتى كملت العمارة»، وشاركه أعيان القبط فصنعوا لكنيسة مارمينا المشار اليها، الأوانى الفضية الثمينة اللازمة للطقوس الدينية، وضموا اليها بستانا، وأقاموا عليه السواقى[٥]، كما أن الشيخ السديد أبا الفضايل المعروف بابن ستمائة، كاتب الامير على بن أحمد الكردى، جدد فى عهد صلاح الدين كنيسة الملاك ميخائيل[٦].

ومن الجدير بالذكر أن عامة المسلمين بتحريض من بعض المشايخ اصحاب المصالح أبدوا

(١) ابو صالح الارمنى : المصدر السابق، ص ٧.
(٢) اريس حبيب : المرجع السابق، ص ٢٣٦.
(٣) ابن دقماق: المصدر السابق، جـ٤، ص ١٠٨.
(٤) سميكة : المرجع السابق، جـ٢، ص ٢٨.
(٥) رزوف حبيب: المرجع السابق، ص ٨٧.
(٦) ابو صالح الارمنى : المصدر السابق، ص ٤٨.

يوحنا ابن صاعد كاتب هذه السيره كتاب اعزيه فيه، هذه نسخته: بسم الله الرحمن الرحيم(*)، قد صدرت كتبى الى الحضره الساميه القديسه النفيسه البطركيه الفاضله الرييسه، فخر الله اليعقوبيه وضيا البيعه الارتدكسيه، سيد الابا ورييس الرووسا، المخصوص بالفضايل الروحانيه، والمواهب العلويه، والافعال المرضيه، خليفة مارى مرقس الانجيلى ثالث عشر الجمع الرسولى، حرس الله مجدها

= تعيين اسقف لمصر بن يوحنا ابن صاعد والبطرك مقاره.

(*) لاحظ هنا البسملة فى صدر خطاب قبطى.

استياءهم لقيام النصارى ببناء الكنائس ويروى المؤرخ النصرانى الأرمنى أنه لما جددت كنيسة مارمينا بالحمراء، «غاروا لاقامتها الحسدة والمعاندين واستعانوا بعوام القوم، فنهبوها وهدمت أيضا (١).

كما جرت خطوب كثير من المسلمون، عندما قام الأسعد صليب بن ميخائيل بهدم بيت العجين بكنيسة مارمينا السابق الاشارة اليها، وأفرده كنيسة على اسم القديس مارجرجس، بباب مفرد مجاور للكنيسة الكبيرة، وثار الغوغاء من المسلمين، ولم يمكنوا المصريين النصارى من بنائها، مع أنهم قدموا مايثبت أنها جزء من الكنيسة الكبيرة ولم تكن مستجدة.. وشهد من المسلمين من يعرف أنها كانت بيتا داخل الكنيسة ممن يقبل شهادته من جيران البيعة (٢)، بل ان هؤلاء الغوغاء المسلمين» هدموا احدى بيعتين على اسم الملاك غبريال بطمبدى سنة ٥٨٠هـ(٣).

وأحيانا ما اضطرت السلطات الحاكمة الى الخروج عما انتهجته من سياسة تجاه الكنائس تغليبا للرأى العام الاسلامى المتعصب ضد المصريين القبط، فقد أمر صلاح الدين بسحب

(١) ابو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ٣٣.
(٢) ابو صالح الارمنى: نفس المصدر، ص ٤٠.
(٣) ابو صالح الارمنى: نفس المصدر، ص ١١٥.

وثبت سعدها واهلك ضدها، متضمنه ما عندى من الشوق المسيحى، والارتياح الروحانى، والتلهف الى قربها، والتبارك من قدسها، والرب جل اسمه يسرنى بمشاهدتها والنظر الى رياستها، ولا يعدمنى بركة صلاتها بجوده وعميم رحمته. غير خاف عن علمها ما كان من نياحة الاب السعيد الفاضل انبا سنهوت اسقف مصر، ولدها الروحانى ومحبها الحقانى نيح الله نفسه وارضاه بنظر وجهه، وكرم

أصدره سنة ٥٦٤هـ والذى تملك القبط بمقتضاه كنيسة الزهرى، ورسم بأن يغلق باب الكنيسة.

وازاء نشاط النصارى فى عمران وتجديد كنائسهم فى عهد السلطان الملك الصالح أيوب، نجد رجلا مسئولا هو أبو عثمان النابلسى الصفدى (ت ٦٤١هـ) الذى أشرف على اقليم الفيوم، يسجل فى كتابة «تاريخ الفيوم وبلاده» قائمة بكنائس وأديرة الفيوم البالغ عددها خمسة وعشرون كنيسة وثلاثة عشر ديرا [١] لئلا تطول المدد فى مستقبل الزمان، ويستغفل ولاة الأمور لتنائى هذا القطر عن الفسطاط، وانزوائه عن مرور السالكين اليه وعنه، فيبنى أحد من النصارى الأقباط الجبابرة الجهال الذين لاينظرون فى العواقب كنيسة أو ديرا، ويدعى قدمه اذا تنبه اليه أحد فى مستقبل الزمان... فيكون ذكر الديرة والكنائس مانعا من دعوى الزيادة عليها» [٢].

---

(١) أبو عثمان النابلسى: تاريخ الفيوم وبلاده ، ص ٢٢.
(٢) أبو عثمان النابلسى: نفس المصدر ، ص٤.

مشواه وانشى اجلها واحسن عزاها وطول عمرها، وجعل الكافة فداها، وهى تعلم ان هذا الكرسى لا يجرى مجرى غيره من الكراسى القبليه والبحريه لان فيه اراخنه مصر ومقدميها ووجوه اقباطها ورويساها، وهم كتاب الدوله وخدام المملكه، واسقفهم فى كل اوان يحضر بحضرة ملك الزمان. ويجب ان يكون الذى يقام لرعايتهم وينتصب لسياستهم والنظر فى احكامهم وامورهم

(علاقات الفاطميين والأيوبيين بالدول المسيحية) وأثر ذلك على المصريين من أهل الذمة

- علاقات الفاطميين والأيوبيين بالدولة البيزنطية.
- علاقات الفاطميين والأيوبيين بالصليبيين.
- علاقات الفاطميين والأيوبيين ببلاد الحبشة.
- علاقات الفاطميين والأيوبيين ببلاد النوبة.

علاقات الفاطميين والأيوبيين بالدولة البيزنطية

شهد النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى/ النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى توترا واضطرابا فى العلاقات بين مصر وبيزنطة.

ذلك أن الخليفة المستنصر بالله الفاطمى أرسل الى الامبراطور قسطنطين التاسع ـ وكانت العلاقات اذ ذاك طيبة ـ يطلب منه امداد مصر بأربعمائة ألف أردب من القمح على أثر المجاعة التى حلت بمصر ابتداء من عام ٤٤٥هـ/ ١٠٥٣م. ولم يتردد الامبراطور فى الموافقة على ارسال ما طلبه المستنصر من الغلال ، غير أنه ما لبث أن توفى فجأة سنة ٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م، واشترطت الامبراطورة تيودروا التى خلفته على العرش عقد معاهدة دفاع مشترك، تتعهد فيها

قد بلغ الكهوليه وعرف بلزوم طرايق الرهبنه، وقراة الكتب الشرعيه، وخدمة الهياكل المسيحيه، وحفظ الطقوس الكهنوتية، والنظر فى القوانين الرسوليه، واشتهرت حسن عبادته، وعلمه وطهارته، ونسكه وجميل سيرته، وعفافه وتواضعه، وجميل طريقته اذ كانت، ثبت الله سعدها، عارفه بما جرت به عاده المصريين مع اساقفتهم قديما وحديثا، وان نساهم وبناتهم واخوتهم واهاليهم يتضورو

مصر بمساعدة البيزنطيين ضد أى اعتداء مقابل حصول مصر على الغلال من بيزنطة، غير أن المستنصر بالله رفض الموافقة على مطلب الامبراطورة، فأضطرت بدورها الى الغاء صفقة القمح مع مصر، (١).

وقد أثارت سياسة الامبراطورة غضب المستنصر بالله، وعول على محاربتها (٢)، فأرسل حملة بقيادة مكين الدولة الحسن بن ملهم، حاصرت اللاذقية، وعاثت فى أعمال انطاكية (٣). غير أن الامبراطورة أنفذت حملة بحرية أوقعت الهزيمة بالجند الفاطمى فى سنة ٤٤٧هـ(٤)، مماحمل المستنصر بالله على أن يعهد الى القاضى أبو عبد الله القضاعى بالذهاب الى القسطنطينية لتسوية الخلاف بين الدولتين، ولكن الامبراطورة لم تحفل بوجوده (٥)، ومنعته من اقامة الخطبة باسم الخليفة الفاطمى فى جامع القسطنطينية (٦) بينما سعت الى التقرب من

(١) ابن ميسر: المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٦، ٧.=
=ـ المقريزى: اتعاظ الحنفا ، جـ٢، ص ٢٣٠.
ـــــ: الخطط ، جـ١، ص ٢٣٥.
(٢) سرور: سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٦.
(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٢٣٠، ٢٣١.
(٤) سرور: سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٦.
(٥) ـــــ: نفس المرجع، ونفس الصفحة.
(٦) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢،ص ٢٣٠.

[يتضرعوا] الى اسقفهم فى مهماتهم، ويخلو به فى ملماتهم، ويشكو اليه ضرهم وما يجرى عليهم من ازواجهم واهلهم، ويكشفو له اسرارهم، ويحتكمو اليه فى امورهم سرا وعلانيه، ويستشيروه فى نوايبهم الظاهره والباطنه، فيكتم ما يسمعه منهم ويشير عليهم بما يعود بمصالحهم، ويصبرهم ويعزيهم ويتلطف بهم، ويبذل جهده فى صلاح ما بينهم وبين رجالهم، خفيا بحسن سياسته كما كان

الترك السلاجقة الذين كانوا راغبين فى ذلك وأرسلوا سفارة الى القسطنطينية [١]، لقيت الترحاب من الامبراطورة، وصرحت لرسول طغرليك السلجوقى بأن أقام الخطبة فى جامع القسطنطينية للخليفة القائم بأمر الله العباسى [٢].

ورد المستنصر ـ ازاء هذا المسلك العدائى من قبل بيزنطة نحو الفاطميين ـ بأن أرسل الى كنيسة القيامة بالقدس من أخذ كل ما فيها من تحف وذخائر وأثاث، و أخرج البطريرك منها الى دار مفردة، وأغلق أبواب الكنائس فى مصر والشام، وطالب الرهبان بالجزية لأربع سنين، كما زاد على النصارى الجزية [٣]، ومنع وصول الحجاج المسيحيين الى بيت المقدس [٤]. وقد أدت كل هذه الاجراءات الى تقييد الحرية الدينية للمسيحيين فى مصر والشام، والى توتر العلاقات بين الدولتين.

وظلت العلاقات عدائية بين الفاطميين والبيزنطيين الى أن وجه الصليبيون حملاتهم على الشام، فوقفت الدولة البيزنطية موقفا محالفا للصليبيين فى الدور الاول من هذه الحروب الأمر

(١) ماجد: الامام المستنصر بالله الفاطمى، ص ٧٦.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٣٣٥.
(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٢٣١.
(٤) أسد رستم: المرجع السابق، جـ٢، ص ٧٨.

يفـعل الاب المتنيح ومن كـان قـبله قـدس الله ارواحـهم. فلهـذا وغـيـره من احكام هذا الكرسى ينبغى ان يكون اسقفه قد بلغ حد الكهوليه، او قد تعداها، وعرفت حـميـد طريقـتـه فى زمان شبيبته ولزومه نواميس الرهبنة، واشتهر بالعفاف والصيانه والتواضع والديانه والصبر والطهارة وصحة الامانه، والمعرفه بالعلوم الالهيه والسياسه الكلية، والاداب البيعيه والاحكام الشرعيه، والامانه الارتدكسيه

الذى ترتب عليه تأيدهم للحملات الصليبية ضد المسلمين لا فى الشام فحسب بل فى مصر أيضا [1].

ولما نجح الصليبيون فى تأسيس الامارات الصليبية فى الشام كان الامبراطور البيزنطى يحرص على أن يبدو وبمظهر السيد الأعلى الحقيقى على الممتلكات الصليبية فى بلاد الشام، بل أن الامبراطور البيزنطى حنا الثانى كومنين أجبر ريموند أمير انطاكية على تقديم الولاء لـه[2] عندما قاد حملة ضد المسلمين سنة ١١٣٨م، واضطر ملوك مملكة بيت المقدس للخضوع للنفوذ البيزنطى وتوثيق علاقاتهم بالأباطرة البيزنطيين[3].

ولما أخذت الأخطار تواجه الفرنجة ببيت المقدس من جراء ازدياد نفوذ نور الدين محمود ـ أمير حلب، وطموحه الى بسط نفوذه على مصر. أدرك عمورى ملك بيت المقدس الذى طمع فى مصر أيضا أنه فى حاجة الى قوة كبرى تمكنه من تحقيق حلمه الكبير فى مصر. وفكر فى تقوية الرابطة مع الامبراطورية البيزنطية، فتزوج بمارى كومنين أبنة أخى الامبراطور البيزنطى

(١) عبد الرحمن الرافعى، سعيد عاشور: مصر فى العصور الوسطى الطبعة الاولى ، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٢٤٦.

(٢) أسد رستم: الروم ، جـ٢، ص ١٥٢.

(٣) كمال توفيق عمر: تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، القاهرة ١٩٦٧م، ص ١٤٨.

والخدمه الكهنوتيه، والقوانين الحقيقية، ويتعين على قدسها وحنوها على شعبها ان يصلى عنهم ويفرغ نفسه النفيسة للفكر فيمن يتخيره لهم ويستصلحه للتقدم عليهم، ويحمل عن قلبها ثقلهم اذ كانت حرس الله عزها عارفة بالاباء والحبسا والمتوحدين فى البرارى والقلالى. وما يخلو ان يكون فيهم من هذه صفته فيرشدها الرب اليه ويدلها بجميل نيتها عليه ببركة صلواتها وحسن طويتها وقدسها

مانويل كومنين [1]، كما تزوج امبراطور بيزنطة بمارى أبنة أمير انطاكية، مما قوى الصلة بين البيزنطيين والفرنجة [2] وكانت النتيجة أن أبدى البيزنطيون استعدادا للاشتراك مع الصليبيين فى حملات عسكرية ضد مصر [3] وبخاصة أن أباطرة القسطنطينية لم يكونوا فى غفلة عما جرى فى مصر طوال السنوات الأخيرة من انحلال الخلافة الفاطمية وتنافس نور الدين محمود وعمورى الأول على الفوز بديار مصر [4].

وما أن أرسل عمورى ملك بيت المقدس مبعوثا سنة ١١٦٨م الى القسطنطينية يحمل اقتراحا يقضى بفتح مصر، حتى سارع الامبراطور ما نويل بارسال سفارة الى بيت المقدس حملت الى عمورى شروط مانويل التى انطوت فيما يبدو على أن يكون له نصيب من غنائم مصر، وأن يكون له التصرف التام فى أمر انطاكية فضلا عن التنازل عن بعض ممتلكات الفرنجة فى الشام.

ولما كانت هذه الشروط بالغة التطرف من وجهة نظر عمورى الأول فقد أرسل الى القسطنطينية المؤرخ الشهير وليم الصورى كبير شماسة صور، لاستئناف المفاوضات مع

---

(١) عاشور : الحركة الصليبية، جـ٢، ص ٦٩٤.
(٢) ماجد: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٦٢.
(٣) كمال توفيق عمر: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص ١٤٩.
(٤) عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢: ص ٦٩٤.

وطهارتها ومحبتها وفكرتها، فاذا كان هذا هكذا فانا اومن ان الله تعالى يجمع قلوب الكافه على طاعته وقبوله ومحبته والرضا بتقدمته عليهم ورعايته لهم بمعونة الروح القدس السابغ نعمه ومواهبه على مستحقيها، ورأيها الموفق فى الوقوف على هذه الخدمة والنظر فيما تضمنته بصويب [بصواب] رايها السعيد والصفح عما لعله فيها من ذلل، وكتابها [جوابها] الكريم. فانا اتشرف به واسر

الامبراطور مانويل، وفى شهر سبتمبر سنة ١١٦٨م تم ابرام المعاهدة التى تقضى بأن يقتسم الامبراطور والملك كل ما يجرى من الفتوح فى مصر (١). لكن هذه المعاهدة لم تنفذ اذ لم يشأ عمورى الأول أن ينتظر فراغ الامبراطور البيزنطى من مشاغله فى البلقان وانفرد دون شركائه البيزنطيين بالهجوم على مصر، اذ وجد عمورى نفسه مضطرا للاسراع فى العمل نتيجة انقلاب سياسة الوزير شاور ضد الصليبيين (٢)، كما أن فرسان مملكته وذوى الرأى فيها أشاوروا عليه بقصد مصر لفتحها لحساب مملكتهم والتقوى بها فى نزاعهم مع نور الدين اذ كان اعتقادهم أن فتحها ميسورا وسهلا بسبب وجود حامية لهم عند أبواب القاهرة (٣)، غير أن نور الدين سارع بارسال شيركوه فى حملته الثالثة على مصر، واستطاع شيركوه أن يخلص مصر من خطر الفرنجة وأن يتولى الوزارة الخليفة العاضد الفاطمى فى جمادى الآخرة سنة ٥٦٤هـ/ مارس ١١٦٩م (٤).

(١) ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٦٣.
ـ عاشور: الايوبيون والمماليك، ص ٢٦، ٢٧، ٢٨.
(٢) عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص ٩٦٥.
ـ عاشور : الايوبيون والمماليك، ص ٢٠.
(٣) ماجد: ظهور خلافة الفاطميين وسقوطهم فى مصر، ص ٤٦٨.
ـ ـــــ: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٦٣.
(٤) ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٦٤.

بوروده واتبارك بوفوده واسعد بنظره سعودى بالنظر الى قدسها، وارغب فى مواصلتى به متضمنا اوامرها ومهماتها وان تذكرنى عقيب صلواتها على معهود عاداتها ان شاء الله تعالى.

فوصل الجواب بما نسخته: بسم الله الرحمن الرحيم(*)، وصل كتاب الولد الحبيب الموفق السعيد المخصوص بالمحبه الروحانيه والعلوم الدينيه اطال الله بقاه وادام تاييده وعلاه وتمكينه وكبت

(*) لاحظ البسملة في مفتتح رد الخطاب كذلك.

أصاب الفزع الصليبيين فى الشام لنجاح قوات نور الدين فى السيطرة على مصر بقيادة شيركوه، «وأيقنوا الهلاك»، كما ثارت مخاوفهم وازداد قلقهم «على بيت المقدس من المسلمين» [١] وأرسلوا جماعة من الرهبان والقسوس الى مسيحى أوروبا لنجدتهم [٢]، كما قرر عمورى من جديد الاستعانة بالبيزنطيين بقصد احتلال مصر [٣].

ولم يكن الامبراطور البيزنطى أقل انزعاجا لاتحاد مصر والشام تحت زعامة نور الدين محمود، لذا رحب فورا بتجديد اتفاقية سنة ١١٦٨م بينه وبين الصليبيين حول الاشترك فى مهاجمة مصر واقتسامها. وأعد الامبراطور البيزنطى أسطولا كبيرا غادر مياه الدردنيل فى ١٠ يوليو سنة ١١٦٩م قاصدا قبرص ومنها الى صور ثم عكا [٤]، وهناك «اجتمع الفرنج والروم جميعا وحدثوا نفوسهم بقصد الديار المصرية، والاستيلاء عليها وملكها ورأوا التوجه إلى دمياط لتمكن القاصد لها من البر والبحر، ولعلمهم أنها ان حصلت لهم حصل لهم مغرس قدم يأوون اليه» [٥] ـ وشدد الأسطول البيزنطى الصليبى حصاره لدمياط فى صفر سنة

(١) أبو شامة : الروضتين، جـ١، ق ٢، ص ٤٥٦.
(٢) أبو شامة : الروضتين ، جـ١، ق٢، ص ٤٥٨.
(٣) ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٦٤.
(٤) عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص ٧١٤.
(٥) أبو شامة: الروضتين، جـ١،

اعداه وبارك عليه، وحفظه بيمينه الحصين، ونجاه من مصايد العدو وفخاخ الاشرار، واستجاب من مسكنتي فيه صالح الدعا بشفاعة القديسين، ووقفنا عليه وسررنا بمعرفة خبره اطابه الله، ولم يذكر شيا من الشوق والوحشه الا وعندنا اضعافه، ونسال الله قرب الاجتماع على الايثار بمنه وجوده. فاما ما شرحه من وفاة اسقف مصر قدس الله روحه وجعلها مع انفس الابرار فقد علم الله ما نالنا لفقده

٥٦٥هـ/ ١١٦٩م، كما احاط بها الفرسان والمشاة برا، اذ كان الامبراطور البيزنطي يرجو أن تحقق هذه الحملة اطماعه في التوسع فتصبح مصر من الاقطار الداخلة في دائرة نفوذه[١].

غير أن الاسطول البيزنطي منى بخسائر فادحة، اذ تشير المصادر الصليبية الى أن أهل دمياط استغلوا ظاهرة جريان تيار النيل من الجنوب الى الشمال وأطلقوا على سطح الماء أواني فخارية بها مواد مشتعلة أنزلت بالأسطول البيزنطي أبلغ الضرر واجبرته على الابتعاد عن شاطئ المدينة، ولم تلبث القوات البيزنطية أن أحست بالجوع لنفاذ تموينها، فاقترح القائد البيزنطي على عموري قائد الحملة القيام بهجوم شامل على دمياط، ولكن الملك الصليبي عارض الفكرة، بعد أن أحس بازدياد قوات صلاح الدين وزير العاضد، داخل المدينة، واستبسالهم في الدفاع عنها [٢]، وارسال صلاح الدين المدد بعد المدد.. وتواصل الأنصار[٣] الى دمياط، كما حشر فيها كل من عنده وأمدهم بالأموال والسلاح والذخائر [٤] وانتهى

(١) سرور: سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٧.
ـــــ: الدولة الفاطمية في مصر ، ص ١٣٣.
(٢) عاشور : الحركة الصليبية، جـ٢ ، ص ٧١٣.
(٣) أبو شامة: الروضتين، حـ١ ، ق٢ ، ص ٤٥٩.
(٤) ابن الأثير: الكامل ، ح١١، ص ١٣١.

من الحزن والكآبه ما لا نقدر نصفه، فاما ارشادنا
الى ما نعتمده فيمن نقدمه بعده مما يقع التراضى
عليه فالامر لله يقدم من يراه وراى من يجرى
مجراه من الاراخنه الصايب فيه، ولو وجدنا من
كملت فيه الاوصاف التى تضمنها كتابه ما عجلنا
تقدمته براينا ولا كنا نجهل الى هذا الحد الممنوع
منه. نسال الله ان يقضى بما فيه الخيره وحميد
العاقبه وكتابه المسرور لا يخلينا منه متضمنا ذكر

الأمر باخفاق الحملة[1]. وانسحاب السفن البيزنطية من المياه المصرية في الحادى والعشرين من ربيع الأول، بعد أن عجز بحارتها من السيطرة عليها والتحكم فيها بسبب ما كانوا يعانونه من جوع وارهاق وغرق كثير من السفن، وظلت الامواج تقذف بجثث بحارتها على الشاطئ مدة أيام [2].

وقد أسفرت الحملة عن اثارة المهاترات بين الصليبين والبيزنطين، لذا وجه الصليبيون اللوم الى البيزنطيين لتقاصر المؤن، وتوافر عند البيزنطيين من الداعى ماجعلهم ينكرون على الصليبين تأخرهم فى الهجوم على دمياط. على أن كلا من الجانبين عمورى والامبراطور ادرك أنه لابد من بقاء التحالف قائما ، خاصة وأن الحملة أسفرت أيضا عن تدعيم مركز صلاح الدين فى مصر، وأضحى سيد مصر بلا منازع.

واستمرارا للتحالف البيزنطى الصليبى ضد مصر سافر عمورى ملك المقدس فى ١٠ مارس سنة ١١٧١م الى القسطنطينية، وانعقدت بين الامبراطور البيزنطى والملك الصليبى معاهدة تم التوقيع عليها غير أن شروطها لم يتم تسجيلها، ويبدو أن الملك الصليبى اعترف فى صورة غامضة بسيادة الامبراطور البيزنطى على المسيحين الوطنيين ، كما وعد الامبراطور مانول

(١) ا لسيد الباز العرينى: المرجع السابق، ص ٣٦.
(٢) عاشور: الحركة الصليبية، حـ٢، ص ٧١٤.

اخباره واحواله وسلام الرب يكون معه ورحمته تحل عليه.

فكتب في سلخ شهر بشنس سنه اربع وثلثين وثمان مايه [للشهداء] هذا التاريخ على ان اول السنة برموده(*) وتاريخ كتابي اليه اول السنه توت بمقتضى حساب الابقطى. ولما وصلنى الجواب المذكور عن كتابي الصادر عني خاصة، اصدرت اليه كتابا اخر عنى وعن جميع الشعب، هذه

(*) برموده = مارس / ابريل. يلاحظ هنا ان السنة الهجرية ٥١٢ تبدأ في ٢٩ برموده عام ٨٣٤ للشهداء.

مساعدة بحرية ومالية متى تقرر وضع خطة لتوجيه حملة أخرى ضد مصر، كما قام الامبراطور بعمل عدة أصلاحات في كنيسة القيامة بالقدس (١).

وبعد هزيمة الامبراطور مانويل في معركة «اسكي شهر» في سبتمبر سنة ١١٧٦م على يد السلاجقة في سبتمبر سنة ١١٧٧م أرسل سفارة الى بيت المقدس لتعرض على بلدوين الرابع احياء فكرة القيام بحملة مشتركة لغزو مصر، ليعوض ما لقيه من هزيمة أمام السلاجقة، وأرسل الى عكا أسطولا من سبعين سفينة تحمل قوة كبيرة من المحاربين استعدادا لغزو مصر، غير أن مرض بلدوين الرابع وطول الأخذ والرد حول مشروع غزو مصر، أدى الى يأس المبعوثين البيزنطيين من جدية تفكير الصليبيين في غزو مصر، فانسحبوا ومعهم سفنهم الى البسفور (٢).

وبموت مانويل كومنين سنة ١١٨٠م خسر الصليبيون حليفا قويا مناهضا للمسلمين، بل أن حلفاءه نظروا الى الصليبيين على أنهم أعداء لاحلفاء (٣) كما بدأت صفحة جديدة في العلاقات الطيبة بين البيزنطيين وصلاح الدين سلطان مصر، اذ أرسل الامبراطور الكسيوس

(١) رنسمان : المرجع السابق، حـ٢، ص ٦٣١، ٦٣٢.
(٢) عاشور: الحركة الصليبية، حـ٧، ص ٧٥٤.
(٣) عاشور: نفس المرجع، ونفس الصفحة.

نسخته: بسم الله الرحمن الرحيم، لما كانت التعزيه، اطال الله بقا الحضره الساميه النفيسه الريسه الاجليه البطركيه القديسه سيدة الابا، وريسه الرووسا، المتوجة بالنعمة السماييه، المكللة بالفضايل الروحانية، فخر الارتدكسيه وضيا البيعه المسيحيه، وعماد الملة اليعقوبيه تاج بنى المعموديه، ثالث عشر الحواريين الاطهار، خامس الانجيليين الابرار خليفة مارى مرقس الانجيلى، حرس الله

الثانى كومنين مبعوثا من قبله وصل الى القاهرة فى صفر سنة ٥٧٧هـ وقع صلحا مع صلاح الدين، وتم بموجبه فى جمادى الآخرة اطلاق سراح مائة وثمانين من أسرى المسلمين ممن وقعوا فى أيدى الصليبين (١).

وفى سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٥م تعرض البيزنطيون لغارات النورمان وتهديدهم كما واجه صلاح الدين الامارات الصليبية فى الشام والتى فصلت بين شطرى ممتلكاته. ومن ثم أرسل الامبراطور البيزنطى أندرونيكوس الاول كومنين فى سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٥م سفارة الى صلاح الدين يعرض قيام تحالف بينهما ، يقدم بمقتضاه صلاح الدين المساعدة للبيزنطيين ضد النورمان، على أن يقدم البيزنطيون المساعدة لصلاح الدين ضد الصليبيين فى الشام وفى حالة الاستيلاء على فلسطين يتم اقتسامها بينهما على أن ينال البيزنطيون بيت المقدس والمدن الساحلية ماعدا عسقلان، لاضافتها الى الامبراطورية البيزنطية، وليس معروفا مدى استجابة صلاح الدين لهذه المقترحات، غير أنها فيما يبدو حازت القبول (٢).

وعندما تولى اسحق الثانى انجيلوس عرش الامبراطور (١١٨٥٠ ـ ١٩٥م) فتح باب المفاوضات مع صلاح الدين، وقد شجعه على ذلك قبول صلاح الدين لفكرة التحالف مع

(١) المقريزى: الملوك، حـ١، ق١، ص ٧٢.
(٢) زبيدة عطا: الشرق الاسلامى والدولة البيزنطية زمن الأيوبيين، ص ١١٤ ـ ١١٦.

عـزها، وادام تمكينـهـا، وانفـذ احكامـهـا، واسـعـد
ايامـهـا سنه بعـد التأجيل بها مـقـصـرا فيـمـا وجب
عليـه، والنـازل لهـا متـاخـرا عـمـا لزمـه البـدار اليه،
وكـانت بما مـيـزها الله تعـالى به من القـدس الجليل
والفـضل الجـزيل، والعلم ان هذه الدار الدنيا دار ممر
والاخـره دار مقر، وبما استرعاها اياه من امر شعبه
واستخلصـها له من هداية المومنين به، يرشد الناس
الى الهدى ويوضح لهم مناهج التقوى، وبتعاليمه

بيزنطة، كما سره أن يجد حليفا قويا فى صلاح الدين وبخاصة بعد أن تعرضت عاصمته القسطنطينية لتهديد النورمان فأقر معاهدة التحالف بين مصر وبيزنطة (بعد أن راجعها وعدلها صلاح الدين) وما أن وصل الى الامارات الصليبية نبأ التحالف البيزنطى الاسلامى حتى أصابهم الفزع، وقبضوا فى سنة ١١٨٦ على الكسيوس انجيلوس أخ أسحق الذى كان ضيفا على صلاح الدين أثناء اجتيازه عكا اذ أمسك به كونت طرابلس وأمر بحبسه ردا على التحالف البيزنطى الاسلامى. وكان أن كتب الامبراطور اسحق الثانى انجيلوس الى صلاح الدين يحثه على مهاجمة الامارات الصليبية لكى يتم اطلاق سراح أخيه الكسيوس [١].

على أن الصليبيين فسروا تحرك الاسطول البيزنطى بالهجوم على قبرص فى هذه الأثناء على أنه مساعدة بحرية كى يقوم صلاح الدين بهجومه على الامارات الصليبية ، كما فسروا أن هجوم صلاح الدين على مدينة بيت المقدس واستيلاءه عليها فى رجب سنة ٥٨٣هـ / ديسمبر ١١٨٧م لم يكن ليتم الا بتشجيع من الامبراطور البيزنطى ومساعدته.

وحقيقة الأمر أن أسحق الثانى انجيلوس لم يشترك فى حرب صلاح الدين مع الصليبيين فى حطين، ووقف موقف المحايد [٢]، غير أنه بعد فتح صلاح الدين القدس، بادر السلطان

(١) زبيدة عطا: المرجع نفسه، ص ١١٨ ـ ١١٩.
(٢) ماجد: العلاقات بين الشرق و الغرب، ص ١٧٦.

الروحانيه يخلص من حبايل الغرور وينجون من كل محذور ويرجون الفوز يوم النشور، اقتصرو منها على ما يقيمون به رسم خدمتها واغناهم العلم بحمله في التسليم لما قدره الله تعالى وقضاه، والرضا بما حكم به وامضاه عن الاكثار فى هذا الباب، وحبب اليهم الاقتصار على الموجز من الخطاب. وقد كان من امر الله تعالى وحكمه العدل فى نقل الاب القديس الرييس الطاهر انبا

الأيوبى بارسال سفارة الى الامبراطور البيزنطى أسحق الثانى ليخبره بما أحرزه من انتصارات على الصليبين ، وبما حققه من فتح [١]، وليسلم اليه مائة وتسعين من الرعاية البيزنطيين كانوا قد وقعوا في يده أثناء حروبه ضد الصليبين [٢] كما حملت سفارة صلاح الدين وفقا لتقاليد الدبلوماسية الشرقية الى الامبراطور البيزنطى هدايا فاخرة ، وقد استقبل اسحق الثانى سفراء صلاح الدين استقبالا حافلا ، وأظهر سرورا بالغا بما حملته من أنباء طيبة ومن هدايا ثمينة ، كما بالغ فى استضافة مبعوثى صلاح الدين وأنزلهم فى قصر منيف بالقسطنطينية وجدد المحالفة مع صلاح الدين، ثم رد الامبراطور اسحق الثانى بأن أرسل سفارة الى صلاح الدين، ومعها من الهدايا القيمة الشئ الكثير، وتاجا مرصعا بالذهب [٣]، لتهنئته بفتح القدس [٤] ولتبلغه بمطالب الامبراطور التى تتخلص فى وضع كنيسة القيامة، وسائر كنائس القدس تحت اشراف رجال الدين الأرثوذكس الذين يعينهم الامبراطور البيزنطى ، وأن يرسل اليه صليب الصلبوت، كما طلب اسحق الثانى من صلاح الدين عقد تحالف

---

(١) زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ١٢٢.
(٢) عاشور : الحركة الصليبية، جـ٢ ، ص ٨٢٧.
(٣) زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ١٢١.
(٤) المقريزى: السلوك، جـ١ ، ق ١ ، ص ٩٨.

سنهوت اسقف مصر، نيح الله نفسه، الى حيث اختار الله له دارا واعد لامثاله قرارا استحقه باعماله التى قضى بين يديه واستوجبه بافعاله التى قربته منه سبحانه، و ازلفته ماقت [مافت] فى الاعضاد ونكا القلوب والاكباد. وعند الله يحتسب ذلك الاب السيد الذى عمل فينا بمرضاته ولم يعدل بنا عن مفترضاته، واليه نرغب خاضعين لعظمته واياه نسال ضارعين الى رحمته ان يبقى على اولاد

بين الدولتين ـ مصر وبيزنطة ـ ضد الصليبيين «على أن يكون عدو من عاداه وصديق من صادقه» (١).

ووصلت السفارة البيزنطية الى عكا فى ٦ يناير سنة ١١٨٨م ، فاستقبل صلاح الدين رسل الامبراطور البيزنطى استقبالا رائعا، وأكرم وفادتهم (٢) لكن جميع مطالب الامبراطور اسحق الثانى انجيلوس قوبلت بالرفض (٣)، وعلى تعبير ابن شداد فان الامبراطور البيزنطى «أجيب بالمنع عن جميع مقترحاته» (٤).

ومع هذا فاننا نميل الى الأخذ بما أورده البعض من أن صلاح الدين استجاب لمطالب الامبراطور اسحق بعد أن تمهل قليلا (٥). وهذا لا يتنافى مع ما ذكره ابن شداد آنفا، لأن أهم خبر حمله رسل الامبراطور البيزنطى الى صلاح الدين هو ما حدث فى الغرب من الدعوة الى حملة صليبية جديدة لتخليص بيت المقدس من يد المسلمين (٦) ووعد الامبراطور

(١) ابن شداد: المصدر السابق، ص ٣٤٠.
(٢) ابن واصل: المصدر السابق، حـ٢، ص ٢٤٧.
ـ زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ١٢١.
(٣) عاشور: الحركة الصليبية، حـ٢، ص ٨٢٧.
(٤) ابن شداد : المصدر السابق، ص ٣٤٠.
(٥) رنسيمان : المرجع السابق، حـ٢، ص ٧٥٦.
(٦) زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ١٢٢.

المعموديه الجمال برياستها، ويعمر البيع الارتدكسيه بدوام جلالتها ونفاستها، فان النعمه فى ذلك تكثر ان تخطها الاقلام وتعظم ان يفى بها المسهب فيه من الكلام. ولقد اتصل بتلاميذها ان وجع يسير الم بها وعرض حقير عرض لها، فكانو فى صورة الواله الحيران ارتياعا، وفى صورة الفاقد الثكلان انزعاجا، الى ان تواترت الاخبار باقلاع الاذى عنها واحسان الله تعالى الى الكافه فيها، فاخذ تلاميذها

اسحق لصلاح الدين بألا يمكن الالمان المشتركين فى الحملة الصليبية الجديدة من عبور بلاده [1].

وكان فتح القدس فى صالح المسيحيين الأرثوذكس وبخاصة رعايا الدولة البيزنطية، الذين أظهروا عواطفهم الى المسلمين أثناء حصارهم لبيت المقدس. ففى الوقت الذى اشتد هجوم صلاح الدين على القدس، اتسعت رقعة الخلاف داخل المدينة بين طوائف المسيحيين من أرثوذكس وكاثوليك، وأعلن الفريق الاول أنه يفضل الحكم الاسلامى على سيطرة الكاثوليك الغربيين [2] كما شاع أثناء حصار المسلمين للمدينة أن اليونانيين الارثوذكس المقيمين بالقدس والمعروفين بالملكانية كانوا مستعدين لتسليم المدينة، وأنه ثمة اتصالات سرية تمت بين الطرفين عن طريق يوسف بطيط وهو ملكانى، ولد ونشأ فى القدس ـ وتعهد يوسف بطيط أثناء الاتصالات بتدبير فتح أبواب المدينة على يد بنى جلدته وديانته [3] والراجح أن الملكانيين فى بيت المقدس قد اتخذوا هذا الموقف نظرا لما بذله صلاح الدين لهم من وعود فضلا عن أنهم لم يكنوا المحبة لجيرانهم الصليبيين من سكان المدينة، وكان لوقوف زعماء الصليبيين بالقدس

(1) ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٧٦.
(2) عاشور: الحركة الصليبية، حـ٢، ص ٨٢٠.
(3) ابن واصل : المصدر السابق، حـ٢، ص ٢٠٣.

من المسره الحظ الاسنى وجازو من الجذل بهذه المنحه النصيب الاوفى، وسالو الله تعالى ان يجعل لباس التقا سابغا عليها، وسبوغ النعما رهنا لديها وغير خاف عن علمها ادام الله علايها. ان كرسى مصر مميزا عن غيره فى كل الاوقات، محفوف بمراعاة امره على عدد الساعات، مستوجب لملاحظة شانه مع اللحظات، لكونه دار الخلافه ومقر سرير المملكه. وان الحاجه داعية الى قسمة

على كراهية الملكانين، وتأمرهم عليهم، أحد أسباب مبادرتهم بتسليم المدينة [١].

وعلى الرغم من أنه ليس ثمة علاقة بين صداقة أسحق الثانى انجيلوس لصلاح الدين وبين موقف الارثوذكس اليونانين فى القدس [٢] فقد استفادت الكنيسة الارثوذكس ورجالها من طرد الصليبيين الكاثوليك من بيت المقدس [٣]، اذ فقدت الكنيسة اللاتينية نفوذها على الاماكن المقدس، كما فقدت ما كان لها من وضع يميزها على المسيحية الشرقية. وفى ظل الوضع السياسى الجديد فى القدس بعد فتحها وقوعها تحت الحكم الاسلامى، وفى عهد صلاح الدين لم يتعرض المسيحيون اليونانيون أتباع بيزنطة لأية مضايقات [٤]، فقد ظلوا مقيمين فى بيت المقدس، والتزم كل منهم بأن يؤدى الجزية فضلا عن الفدية المقررة عليه، كما أبتاع أغنياؤهم قدرا كبيرا من الأمتعة والاملاك التى أصبحت خالية بعد رحيل الفرنج [٥] كما أدى تحالف البيزنطين مع صلاح الدين الى تحويل الكنائس اللاتينية القائمة بالأراضى

(١) عاشور: المرجع السابق، حـ٢، ص ٨٢٠.
(٢) عاشور: المرجع السابق، جـ٢، ص ٨٢٠.
(٣) عاشور: المرجع السابق، حـ٢، ص ٨٢٦.
(٤) العرينى: المرجع السابق، ص ٩٠.
(٥) رنسيمان: المرجع السابق، حـ٢، ص ٧٥٥.

اسقف يرسمه ترتضيه حضرته، ويرضى تلاميذه طريقته، ويحمد جميعهم سيرته وسريرته، عالما بدينه وامانته، موثوق بحكمته وحنكته وتجربته، وقد بان عنه غرة الشباب وحدته، وتميز بسن الكبر وخبرته، فيسير فيهم وفى حرمهم كسيرة من تقدمت رياسته عليهم، ممن اشترى الاخره بالدنيا، وارضى السيد المسيح بافعاله الحسنى، واتفقت الكلمة على استحقاقه الرياسة واستقلاله باثقال

المقدسة الى الشعائر الارثوذكسية اليونانية (١).

وقد رحبت الكنيسة الارثوذكسية اليونانية بالأراضى المقدسة بعودة الحكم الاسلامى، لما هو معروف من العداء التقليدى بين القسطنطينية وروما، فضلا عن عداء الامبراطورية البيزنطية للصليبيين لاسيما بعد وفاة الامبراطور مانويل كومنين (٢).

ولاشك أن الكنيسة الارثوذكسية ورجالها هم الذين استفادوا من طرد الصليبيين الكاثوليك من بيت المقدس، اذ أتاحت عودة القدس الى حكم المسلمين الفرصة من جديد لاستعادة نفوذهم على المقدسات المسيحية (٣).

وما أن تأكد صلاح الدين من احتشاد الحملة الصليبية الثالثة التى حملت أخبارها سفارة اسحق الى صلاح الدين، حتى عقد العزم على أن يزيد من توثيق علاقته بالامبراطور البيزنطى كى يضمن مساعدته ازاء ما صح أن يمر بأراضيه رجال الحملة، لذا أنفذ مع السفارة البيزنطية عند عودتها سفارة من قبله ، عهد اليها بالقيام بمفاوضات من هذا القبيل. وفاقت هداياه فى هذه المرة كل ماسبق أن أرسله من هدايا ، كما أرسل صلاح الدين منبرا أعده ليكون بجامع

(١) زبيدة عطاك المرجع السابق، ص ١٢٠.
(٢) العرينى: المرجع السابق، ص ٩٠.
(٣) عاشور: الحركة الصليبية، حـ٢، ص ٨٢٦.

السياسه ورضيته الجماعه مقدما عليها ومدبرا لها، حسب ما اقتضاه قانون البيعه واحكامها، وقرره قضا الشريعة وحكامها، الذين شد الله بها ما بنو، وثبت بقدسها ما قضو وامضو واحلها في منصبهم، واقضى اليها بمنزلتهم، وجماعه رعيتها يضربون لها المطانوه امام قدسها الطاهر، واسكيمها الفاضل، في شداد ازرهم والاهتمام بصلاح امرهم ومساعدتهم في تخيير من يرضاه

القسطنطينية، وكان لابد للامبراطور أن ينصبه ، تكريما للمسلمين ، وفقا لما بذله من وعد سابق أثناء المفاوضات الثالثة بين اسحق وصلاح الدين، ففى هذه المفاوضات أهتم صلاح الدين بالمحافظة على اقامة الشعائر الدينية الاسلامية والدعوة للخليفة العباسي، بجامع القسطنطينية وبعمارته كما أبدى اسحق رغبته فى اقامة الشعائر الارثوذكسية اليونانية فى كنائس الأرض المقدسة [1].

غير أن هذا المنبر لم يصل الى القسطنطينية اذ استولى الجنويون على السفينة التى كانت تحمله الى العاصمة البيزنطية، وحملوه الى صور حيث أذاع كونراد مونتفران حاكم صور وقتذاك نبأ الاستيلاء على المنبر فى سائر انحاء أوروبا واعتبر الصليبيون ارسال المنبر الى القسطنطينية دليلا ملموسا على التحالف بين الامبراطور اسحق الثانى انجيلوس وصلاح الدين[2]، واذا كان امبراطور المانيا وملك فرنسا قد ارسلا الى ملك بيزنطة بعزمهما على القيام بحملة الى الاراضى المقدسة فى فلسطين، ويطلبان منه تقديم التسهيلات اللازمة

(١) أبو شامة : الروضتين، حـ٢، ص ١٥٩.
ـ زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ٢٣، ١٢٤.
(٢) أبو شامة: الروضتين، حـ٢، ص ١٥٩.
ـ زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ١٢٤.

ويرتضوه، ويراه مستحقا لكشف من وراهم ويروه، وعلمهم بما توجبه على نفسها فى هذا الحال اغناهم عن بسط المثال ورايها فى اجابتهم عن هذا الكتاب، بما يغنيهم عن تكرار الخطاب وذكرهم فى صلواتها المقدسه وادعيتها المقبوله المستجابه الموفق الاعلا ان شاء الله تعالى.

واوقفت الجماعه من الكهنه وبعض الشعب على هذا الكتاب فاستصوبوه واتفقت كلمتهم

لقواتهما أثناء مرورها بالاراضى البيزنطية، فان الامبراطور البيزنطى كان قد عقد العزم على تجديد تحالفه مع صلاح الدين (١).

وفى الرسالة التى بعث بها كونراد مونتفران حاكم صور الى أسقف كونتربرى فى ٢٠ سبتمبر سنة ١١٨٨م ألقى الضوء على أهم ما ورد فى المحالفة بين صلاح الدين والبيزنطين من شروطه وما قرره صلاح الدين من أن تسير كل الكنائس فى فلسطين التى استولى عليها وفقا لمذهب بيزنطة (الأرثوذكس) كما ألقى الضوء على التزام اسحق بأن تجرى الشعائر فى مسجد القسطنطينية على المذهب السنى (٢).

وقد أثارت أنباء تحالف اسحق الثانى مع صلاح الدين ثائرة الغرب الاوروبى وزعمائه ضد الامبراطورية البيزنطية مما أدى الى ازدياد مخاوف الامبراطور على بلاده، وبخاصة عندما تحركت حملة فردريك بربروسا - وهى طلائع الحملة الصليبية الثالثة فى مايو سنة ١١٨٩م، وقد شقت طريقها عبر هنغاريا فى اتجاه القسطنطينية(٣)، ومن ثم سارع الامبراطور البيزنطى بايفاد مبعوث من قبله ومعه رسالة الى صلاح الدين، وصلته وهو فى مرج عيون بالشام فى رجب

(١) عاشور: الحركة الصليبية ، حـ٢، ص ٨٤٥.
(٢) زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ١٢٥.
(٣) عاشور: الحركة الصليبية، حـ٢، ص ٨٤٥.

على الرضا به وتسييره الى الاب القديس ابا مقاره البطرك، وكتبوا عنوانه تلاميذها جماعة النصارى اليعاقبه المصريين، وسيرته اليه مع رسول قاصد، فعاد الجواب بما هذه نسخته:

وصل كتاب الاولاد الاحبا المختارون، والاخوه الشيوخ المكرمين الموفقين الاراخنه التقيين وكافة الشعب الارتدكسيين، اطال الله بقاهم وادام عزهم ونعماهم، وبارك عليهم وعلى منازلهم واولادهم

سنة ٥٨٥هـ، يخبره فيها بتحركات الحملة الالمانية ويعده بألا يمكن العاهل الالماني وقواته من العبور فى بلاده[١].

وفى المقابل بادر صلاح الدين بأن بعث رسالة الى اسحق الثانى تعهد فيها للامبراطور البيزنطى بوضع الاماكن المقدسة فى فلسطين تحت رعاية رجال الدين الارثوذكس واذا كان صلاح الدين قد وافق على تسليم كنيسة القيامة لرجال الكنيسة الارثوذكسية أتباع بيزنطة، فان الامبراطور البيزنطى وافق هو الآخر على أن يجعل لصلاح الدين نوعا من الوصاية على الجالية الاسلامية فى القسطنطينية [٢]، وكان صلاح الدين قد انفذ مع مبعوثه الى القسطنطينية سنة ٥٨٥هـ، حيث لقى باحترام عظيم، وكرم زائد، خطيبا لجامع القسطنطينية، ومنبرا، وجمعا من المؤذنين، «وكان يوم دخولهم الى القسطنطينية يوما مشهودا عظيما من أيام الاسلام» [٣].

ثم عاد رسول صلاح الدين فى سنة ٥٨٦هـ ومعه رسول من قبل اسحق الثانى وبيده

---

(١) ابن شداد: المصدر السابق، حـ٢، ١٣٢.
ـ أبو شامة : المصدر السابق، حـ٢، ص ١٦٠.
ـ ابن واصل : المصدر السابق، حـ٢، ص ٣٢٨.
(٢) عاشور: الحركة الصليبية، حـ٢، ص ٨٤٦.
(٣) ابن شداد : المصدر السابق، ص ١٣٢.
ـ أبو شامة : الروضتين، حـ٢، ص ١٥٩ ـ ١٦٠.

وكافة حوزتهم باتم البركات، وافضل السعادات.
وحفظهم بيمينه الحصين ونجاهم من مناصب العدو
وفخاخ الاشرار، واستجاب من مسكنتى فيهم
صالح الادعيه بشفاعة القديسين والابرار امين.
مقصورا على احد امرين اما توبيخ، او عتب بحمد
عاقبته موعظة، مما لا حاجه الى تكريره ولا اقامه
الحجه فيه من تعزيه وغيرها، فما نزل منهم فيه
الاسهاب والمباشرة فى ذلك الباب والاقتصار

كتاب من الامبراطور مختوم بالذهب[1] يتضمن اعلام السلطان «بخبر وصول المنبر من عند السلطان وكذلك الخطيب، والمؤذنين والقراء، وأن الخطبة أقيمت بالجامع القديم بالقسطنطينية للخليفة الناصر لدين الله العباسى[2].

واذا كان اسحق الثانى قد حرص فى رسالته الى صلاح الدين على «استعطاف السلطان واظهار مودته ومحبته» فقد اعتذر له الامبراطور «من عبور ملك الالمان ببلده» وأخبره أن العاهل الألمانى أثناء مرور قواته فى اراضى البيزنطية، «قد نال من الشدة ونقص العدة ما أضعفه وأرهاه، وأنه لا يصل الى بلادكم فينتفع بنفسه أو ينفع، ويكون مصرعه هناك ولا يرجع»[3].

وهكذا شهدا هذا الدور من العلاقات المصرية البيزنطية تكرار تبادل السفارات والمكاتبات بين صلاح الدين والامبراطور البيزنطى اسحق الثانى انجيلوس [4]، الذى وقف موقفا عدائيا متشددا من الحملة الالمانية ووضع أمامها العقبات والعراقيل أثناء مرورها بالاراضى البيزنطية[5]،كما أخذ اسحق الثانى انجيلوس يرسل الرسالة تلو الأخرى الى صلاح الدين

(١) ابن واصل : المصدر السابق، حـ٢، ص ١٢٨، ١٢٩.
(٢) المقريزى: السلوك ، حـ١ ، ق١ ص ١٠٤.
(٣) ابن واصل : المصدر السابق، حـ٢، ص ٣٧٩.
(٤) عاشور: الحركة الصليبية، حـ٢ ، ص ٨٤٦.
(٥) العماد الاصفهانى: الفتح القسى فى الفتح القدسى، ص ٣٩١، ٣٩٢.

والتحبب اليهم على الموجز من الخطاب ونعم، فاما ما شرحوه من انتقال الاخ (القديس الحبيب الروحانى) الاسقف انبا سنهوت اسقفهم قدس الله نفسه وخروجه من هذا العالم الفانى ومصيره الى الله سبحنه فنالنا عليه من الحزن الشديد والغم الوكيد وكثرة البكا وغزير العبرات ما يزيد على ما نصوره فى كتابهم مما نالهم عليه والعزا فيه واحد. وانا اتحقق ان الله جل اسمه قد اسكنه مع الابرار

ليحيطه علما بأخبار الصليبيين الالمان وتحركاتهم، وعلى حد قول ابى شامة فى حوادث سنة ٥٨٥هـ «وكان ملك الروم يكتب الينا بأخبارهم ونبأ خروجهم ، ويقول أنا لا أمكنهم من العبور»[١]، وعندما عجز عن منع العاهل الالمانى من العبور فى الاراضى البيزنطية «لكثرة جموعه .. منع عنهم الميرة، ولم يمكن أحد من رعيته من حمل ما يريدونه اليهم، فضاقت بهم الازواد والاقوات»[٢] مما جعل العلاقة بين الالمان والبيزنطيين تنقلب الى حرب سافرة انتهت بأن رضخ الامبراطور البيزنطى لمطالب الالمان وأخذوا منه «من الذهب خمسين قنطارا، ومن الفضة خمسين، ومن الثياب الطلسى المعدنية ما بلغ الألوف... وأمد على سبيل الرهائن أربعين من خلصائه ومعروفى كبرائه»[٣].

واذا كان اسحاق الثانى انجليوس قد وقف هذا الموقف العدائى من الحملة الالمانية لعدائه للصليبيين اللاتين فان هذا الموقف أيضا يعبر عن صدق تحالفه ومساعدته لصلاح الدين.

واذا كانت تلك الحملة الالمانية، قد فشلت فى تحقيق أغراضها[٤]، كما فشأت بعدها

(١) أبو شامة : الروضتين، حـ٢، ص ١٥١.
(٢) ابن الأثير: الكامل، حـ١٢، ص ١٩.
(٣) العماد الاصفهانى: المصدر السابق، ص ٣٩٢.
(٤) ماجد: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٨٠.

والصالحين في حياة النعيم معدن [بعون] رحمته، ودار كرامته، وسمع الصوت البهج الفرح ادخل الى فرح سيدك، واما ما ذكروه من تقدمه غيره وارشادنا الى معرفة القانون فيه لما علموه من عجزي وتقصير معرفتي فلا ضرر عليهم فيه، لان التذكار يقدح فوايد العلم، وان كان عجز او تقصير فليس ذلك مني بل هو منهم لتاخيرهم عن تقدمه غيره الى هذه الغايه حسب ما تضمنه

الحملة الفرنسية التي قادها فيليب أغسطس الى الشام (١)، فان الحملة الانجليزية بقيادة ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا قد استطاعت أن تلتحم مع صلاح الدين في عدة معارك حربية في بلاد الشام، تخللها العديد من المفاوضات، وأنتهت بتوقيع صلح الرملة في شعبان سنة ٥٨٨هـ/ سبتمبر سنة ١١٩٢م، وقد سمح بمقتضى هذا الصلح للحجاج النصارى بحرية التوجه الى القدس لزيارة الاماكن المقدسة بالمدينة دون مطالبتهم بأية ضريبة أو رسوم مقابل ذلك (٢).

غير أن ما لقيه هيوبرت والتر أسقف سالسبورى من مظاهر الترحيب والتشريف بالمدينة المقدسة عند زيارته لها، واستقبال صلاح الدين له، ومنحه الاسقف هدية عند وداعه، وموافقته بناء على طلب الاسقف تعيين اثنين من القسس اللاتين واثنين من الشمامسة اللاتين أيضا في كل من كنيسة القيامة، وكنيسة بيت لحم، وكنيسة الناصرة، قد أقلق بال الامبراطور البيزنطي، وبخاصة أن الشائعات التي بلغت القسطنطينية، ووصلت الى مسامع الامبراطور، رددت أن ريتشارد يلح على صلاح الدين في أن تتخذ الاماكن المقدسة في فلسطين صبغة مذهبية لاتينية.

....

(١) ماجد: المرجع نفسه، ص ١٨٢، ١٨٣.
(٢) ابن واصل: المصدر السابق، جـ٢، ص ٣٩١.

القانون الذى عرفونى به، ولا خروج لى عنه ولا اعلم السبب فى تاخيره، فانه يقول ان يكون الاسقف مختارا من شعبه ويقع التراضى من جميعهم عليه، ويكون معروف بالاوصاف التى تضمنها كتابهم، ليس قال القانون ان يكون مختارا من شعب غريب ولا من بطرك. والان فالسمع والطاعه لهم فيما امر به القانون تختارو من يقع عليه رضاكم به وتسكنون اليه ويكون

لذا وبينما صلاح الدين فى بيت المقدس قدمت اليه سفارة من قبل الامبراطور اسحق الثانى انجيلوس تطلب أن يعود للمسيحيين الارثوذكس السيطرة الكاملة على الاماكن المقدسة بالمدينة، غير أن صلاح الدين رفض الطلب اذا لم يقبل أن يكون لمذهب من المذاهب السيادة على هذه المواضع وأنه سوف يكون الفيصل والحاكم بينها جميعا (١).

لقد تركت العلاقات الوثيقة بين صلاح الدين والامبراطور اسحق الثانى انجيلوس أثرا طيبا فيما لقيه رعايا الدولة البيزنطية من معاملة طيبة ورعاية واهتمام من جانب صلاح الدين وخلفائه، بل أن صلاح الدين حول بعض الكنائس التى استولى عليها فى الشام الى المذهب الارثوذكسى (٢)، واذا كان صلاح الدين وخلفاءه قد اهتموا بعمارة جامع القسطنطينية، وارسال المقرئين اليه، كماحظى المسلمون هناك برعاية وعناية السلطات البيزنطية (٣)، فان الامبراطور اسحق الثانى انجيلوس قد اهتم بأمر الكنائس اليونانية فى أراضى الدولة الايوبية فى مصر والشام، وحرص على عمارتها واصلاحها وزخرفتها بالرسوم والزخارف والفسيفساء اليونانية، كما اهتم باقامة الشعائر الدينية والسماح للمسيحيين بتأديتها (٤)، ودأب هذا

(١) رنسيمان: المرجع السابق، حـ٣، ص ١٤١.
(٢) زبيدة عطا: لمرجع السابق، ص ٢٠٨، ٢٠٩.
(٣) المقريزى: السلوك، حـ١، ق١، ص ١٢٩.
(٤) زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ٢٠٩.

مستصلح لكم، اقدمه عليهم ولا اخرج عن رايكم فيه، لانكم مقاسيه ومباشريه، ونحن شاكرين لما خصهم الله به من محبة من يسوس امرهم وينظر في احكامهم، وهكذا تكون الرووسا والمقدمين الذين بهم قيام منار الدين، وترتيب احوال الضعفا والمساكين، اعنى الشيوخ الاراخنه المسيحيين ادام الله علوهم ويلزمهم مراعاتنا والدب [الذب] عنا عوضا من الملوك الارتدكسيين السالفين لمقامهم فى

الامبراطور حتى أواخر أيام حكمه (ت ١١٩٥م)، على توثيق وتدعيم علاقته بخلفاء صلاح الدين، مع التقرب اليهم [١]، فقد تضمنت رسالته الى السلطان الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين فى مصر سنة ٥٩١هـ حسن معاملته ورعايته ـ للمسلمين فى بلاده، وتمتعهم باقامة شعائر الاسلام فى دولته، وبخاصة الصلاة والخطبة فى جامع القسطنطينية من المسلمين من اقامة الجمعة والجماعة بها»، والتمس الامبراطور فى رسالته من الملك العزيز عثمان الاهتمام «بالبطرك والنصارى، وأن يمكنوا من اخراج موتاهم بالشمع الموقد، واظهار شعائرهم بكنائسهم، وأن يفرج عن أسارى الروم بمصر»[٢]، ولم ينس اسحق الثانى انجيلوس أن يخبر السلطان العزيز عثمان الأيوبى، فى صدر رسالته بنوايا الفرنج ضد مصر، وأن هناك حملة صليبية جديدة يجرى الاعداد لها فى الغرب الاوروبى [٣].

ومن الجدير بالذكر أن الرعايا البيزنطيين فى مصر نعموا بسياسة التسامح الدينى فى عهد السلطان الملك العادل. وقد أبدى بعض الارثوذكس من رعايا الدولة البيزنطية سرورهم

---

(١) المقريزى: السلوك ، حـ١ ، ق ١ ، ص ١٢٩ ، حاشية ١٣.

(٢) المقريزى: المصدر نفسه، حـ١ ، ق ١ ، ص ١٢٩.

(٣) المقريزى: نفس المصدر، والصفحة.

المجالس العاليه والدواوين المعموره، ومباشرتهم
السلاطين والمقدمين مما افاضه الله علينا اجمعين من
مراحم الحضره العاليه المعظمه المالكه رقنا، خلد
الله ايامها، ونصر عساكرها، وفتح لها مشارق
الارض ومغاربها بشفاعة الصالحين من خلقه،
واستجاب منا ومن الكافة صالح الدعا في معاليها
التي بحسن رافتها واحسانها اعادة الامور الى
كيانها، وحمل نظامها الملكي والذمي ونعم جزيله.

بوجودهم في مصر، لأن العادل أحسن معاملتهم دون الكاثوليك على خلاف ما كان يفعله الصليبيون، كما كان عدد كنائسهم يربو على المائة كنيسة (١).

علاقات الفاطميين والأيوبيين بالصليبيين

شهدت مصر والعالم الاسلامي منذ أواخر القرن الخامس الهجري / أواخر القرن الحادي عشر الميلادي مقدم الحملات الصليبية الى الشرق وقد ترتب على الحروب الصليبية نتائج بعيدة المدى في تاريخ الشرق والغرب، واذا كان الدافع اليها العديد من العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية في الغرب الاوروبي (٢) فضلا عن أطماع البابوية (٣)، فإنها قد أخفت وجهها السافر وأطماعها وراء صليب المسيح ودعاوى انقاذ الاماكن المقدسة بفلسطين من أيدي المسلمين، وتأمين سبل الحجاج المسيحين الى بيت المقدس.

ولما كان تاريخ العلاقات بين الفاطميين والأيوبيين من جهة والصليبين من جهة أخرى، يتصل بتاريخ الحروب الصليبية ـ وهي المعروف والمكتوب مفصلا، فأن الذي يهمنا من هذه

(١) زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ٢٠٩.
(٢) عاشور: الحركة الصليبية، حـ١، ص ٢٧ ـ ٤٣.
ـ حسن محمود (وأخرون): مصر في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٧٢م، ص ٦١.
(٣) حسن حبشي: الحرب الصليبية الاولى، الطبعة الاولى، القاهرة ١٩٧م ص ٣١.

نسـال الله ان يوزعنا شكرها، وجـملة الامـر يطيـبو
نفـوسـهم ويشـرحـو صـدورهم. فـانني يعلـم الله لو
جـاتني مـلايكة السـمـا مـا قدمت واحـدا منهم الا
الذى يقـدمـوه من ذاتهـم ويضـربو عنه المطانوه
حسب ما تضمنه القانون والتقدمه منهم والتاخير
منهم، وانا برى من الاثم الواقع فى هذا الباب ليلا
يظنوا انني وخرت [أخترت] هذا الكرسى لفايدة
دنيانية من جملة ما نحن مهتمين به فى غير ذلك

الدراسة هو أثر هذه العلاقات على أهل الذمة فى مصر، وعلى سبيل التجاوز وأثرها على نصارى القدس وعلى المقدسات المسيحية فيها.

ففى عهد الخليفة المستعلى بالله الفاطمى ووزارة الأفضل بن بدر الجمالى، تمكنت تجموع الحملة الصليبية الأولى من دخول بيت المقدس بعد أن تغلبت على حاميتها، من الجند الفاطمى فى الثانى والعشرين من شعبان سنة ٤٩٢هـ/ ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩م وقد انطلقوا فى شوارع المدينة وطرقاتها ومسالكها، والى الدور والمساجد، ليذبحوا كل من يقع فى أيديهم من المسلمين، من الشيوخ والنساء والاطفال دون تمييز[(١)]. كما احدثوا مذبحة مروعة بالمسجد الأقصى، عندما قتلوا ما يزيد على سبعين ألف من المسلمين[(٢)]. كانوا قد فروا للاحتماء فيه والدفاع عنه، «منهم جماعة من أئمة المسلمين. وعلمائهم، وعبادهم، وزهادهم، ممن فارقوا الاوطان وجاوروا بذلك الموضع الشريف»[(٣)]، وكما ذكر ابن العبرى فقد «لبث

(١) حسن حبشى: المارجع السابق، ص ٨١، ٨٢.
ـ عاشور : الحركة الصليبية ، حـ١ ، ص ٢٤١.
ـ ملر: مختصر تاريخ الكنيسة من البداية الى القرن العشرين، الجزء الاول، القاهرة ١٩٧١م، ص ٤٨٧.
ـ رنسيمان : المرجع السابق، حـ١، ص ٤٠٤.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، حـ٣، ص ٢٣.
(٣) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ، حـ١٠، ص ١٠٥.

لعدم من يصلح، ولله الامر من قبل ومن بعد، سلام الرب سبحنه يكون معهم ويحل عليهم وعندهم. كتب في العشر الثاني(*) من بوونه سنه اربع وثلثين وثمان مايه للشهدا، والشكر لله دايما. هذه السنه ثلث وثلثين وثمن مايه على ان اول السنه توت وهو التاريخ الصحيح الذى وضع عليه الابا حساب الابقطى الشمس والقمر.

(*) العشر الثاني: كانت عادة المصريين منذ القدم يقسمون الشهر إلى ثلاثة عشرات بدلاً من أربعة اسابيع.

فلما وصل هذا الجواب وقريناه وجدناه جواب

الفرنج في البلد أسبوعا يقتلون فيه المسلمين، وقتل بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفا»[1]. وسالت دماء المسلمين على أيدى الحجاج المسيحيين المسلحين، وخاضوا فى دمائهم حتى سيقانهم [2]، كما تعقبوا من فر من المسلمين على مسيرة أسبوع يقتلون من أدركوه منهم، ولم يفلت من القتل الا القليل [3].

كما حول الصليبيون جميع مساجد القدس الى كنائس، وبخاصة مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى، فالمسجد الذى على الصخرة جولوه الى كنيسة لاتينية سموها «معبد السيد» templum Domini وأقاموا على قبتها صليبا من ذهب. أما المسجد الأقصى فأستخدموه لمصالحهم. وأطلقوا عليه اسم «معبد سليمان» Templum Solomonis وقسموه الى ثلاثة أقسام فجعلوا القسم الاول كنيسة، والقسم الثانى سكنا للفرسان الداوية، والقسم الثالث مستودعا لذخائرهم كما اتخذوا السراديب التى تحت المسجد اسطبلا لحيواناتهم [4].

(١) ابن العبرى: المصدر السابق، ص ٣٤٢.
(٢) عاشور: الحركة الصليبية، حـ١، ص ٢٤٣.
ـ حسن حبشى: المرجع السابق، ص ٨٣.
ـ ملر: المرجع السابق، ص ٤٨٧.
(٣) ابن ميسر: المصدر السابق، حـ٢، ص ٣٩.
ـ المقريزى: اتعاظ الحنفا، حـ٣، ص ٢٣.
(٤) عارف العارف: تاريخ القدس، ص ٧٤.
ـ جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين، ص ٢٦٣.

من هو محرج وكتابا لا يقتضى ان يكون هذا جوابه، وكشفنا عن السبب فيه فعرفنا ان الاب البطرك لا يشتهى ان يجعل فى كرسى مصر اسقف، وانه قد قام فى نفسه ان يكون هو الحاكم فيه اذا حضر واذا غاب استناب عنه نايب، فلم يرضينا ذلك وقلقنا منه، وقلنا: كما انه لا يجوز ان يكون لنصرانى زوجتين كذلك لا يجوز ان يكون لاسقف كرسيين، وهذا الاب انبا مقاره البطرك هو

واذا كان هذا هو موقف الصليبيين من مقدسات الاسلام والمسلمين فى القدس فما هو موقفهم من اليهود والنصارى الشرقيين، وبخاصة المصريين الاقباط الارثوذكس فى المدينة المقدسة؟.

لقد فر اليهود القاطنين فى القدس الى معبدهم الكبير بالمدينة للاحتماء به عقب اقتحام الصليبيين لها، غير أن الصليبيين قرروا القبض عليهم، وبحجة أنهم ساعدوا المسلمين فى الدفاع عن المدينة، فحاصروهم فى معبدهم الكبير، وأشعلوا النار فى المعبد على من فيه، فلقى جميع اليهود الذين التجأوا بداخله مصرعهم(١). وعلى حد قول ابن القلانسى وهو المصدر الأساسى لهذه الرواية ـ فان الصليبيين «جمعوا اليهود فى الكنيسة واحرقوها عليهم»(٢)، ولم تكن هذه المذبحة التى ارتكبها الصليبيون ضد اليهود الا استمرار للعديد من المذابح التى أقامها الصليبيون لليهود فى القرى والمدن الاوروبية أثناء زحفهم الى الاراضى المقدسة (٣).

(١) ملر: المرجع السابق، ص ٤٨٧.
ـ رنسيمان: المرجع السابق، حـ١، ص ٤٠٥.
ـ حسن حبشى: المرجع السابق، ص ٧٧.
(٢) ابن القلانسى: المصدر السابق، ص ١٣٧.
ـ ابو المحاسن: المصدر السابق، حـ٥، ص ١٥٠.
(٣) عاشور: الحركة الصليبية، حـ١، ص ١٤١ ـ ١٤٣.

اسقف مدينه الاسكندريه فكيف يمكن ان يكون له اسقفية مصر. فاستقر الراى على تعجيل الاهتمام بمن نتخيره للاسقفيه، فاجتمع الكهنة والشعب في بيعة الشهيد الجليل سرجيوس بقصر الشمع وتذاكرو من في الديارات من الرهبان الكهنة وغيرهم ممن يصلح للاسقفية بمصر ومن في الصوامع، فذكرو اثنى عشر رجلا وهذه اسماوهم: كييل الابسلمدس [المُنشد أو المرتّل]

أما عن موقف الصليبيين اللاتين من الأماكن المقدسة بالقدس، ومن النصارى الشرقيين وبخاصة المصريين الاقباط الارثوذكس، فان القاء الضوء عليه يصبح من الأهمية بمكان. وذلك أن الصليبيين اللاتين سيطروا على جميع الأماكن المسيحية المقدسة عقب دخولهم بيت المقدس ووضعت تحت اشراف البطريرك اللاتيني الجديد للقدس، وأقيمت فيها الشعائر وفق مذهب كنيسة روما [1]، كما اضطهد الصليبيون في القدس اليونانيين ـ اتباع بيزنطة بصفتهم منشقين عن كنيسة روما [2]، بل أن البطريرك الجديد (أرنولف) الذى سيطر على الشئون الروحية للمسيحيين في القدس، أبعد القسس الذين يأدون الشعائر الشرقية، والذين كانوا يقيمون الصلاة في كنيسة القيامة [3]، واستخدم وسائل التعذيب ازاء القسس ورجال الدين الارثوذكس بالمدينة حتى حصل منهم على الشطر الأكبر من صليب الصلبوت ـ هذا ولم يستطيع رجال الكنيسة الارثوذكس في ظل سيطرة اللاتين على القدس أن يعينوا لأنفسهم أساقفة أو بطريركا نظرا لشعور اللاتين العدائي نحوهم[4].

(١) حسن حبشي: المرجع السابق، ص ٩٤.
ـ رنسيمان: المرجع السابق، حـ١، ص ٤١٥.
(٢) ملر: المرجع السابق، ص ٤٨٨.
(٣) عاشور: الحركة الصليبية، حـ١، ص ٢٥٢.
(٤) رنسيمان: المرجع السابق، حـ١، ص ٥١٥، ٥١٦.

بدير ابو مقار، مينا القس باسكنا ابو مقار، غبريال القس الاسكندرانى، حبيب القس الناسخ، يعقوب القس بدير ابو يحنس، مرقوره الحبيس بابيار، تيدر القس بدير ابو مقار، يونس السنهورى تلميذ مقاره الامنوت، يونس [الشماس] ابن سنهوت بدير القس في الاسكنا، يسيب الراهب بدير ابو مقار، اولاكه الراهب. ثم تخيروا من هذه العده اربعة نفر وهم: مرقوره الحبيس بابيار، تيدر القس بدير ابو

كذلك أساء الصليبيون فى القدس الى رعاة الكنائس ودور العبادة التابعة للكنيسة القبطية، مثال ذلك أن سيدة قبطية كسيحة ـ وهى أبنة كاهن اسمه جرجس بن الفضائل اضطرت تحت تهديداتهم أن تعطيهم كل ما تملك لتنقذ الكنيسة التى كانت ترعاها(٢). كما منع الصليبيون أقباط مصر من الحج الى المدينة المقدسة بدعوى أنهم ملحدون، وفى هذا الصدد يقول مؤرخنا ساويرس ابن المقفع «وصرنا نحن معشر النصارى اليعاقبة القبط لا نصل الى الحج اليها، ولا نتمكن من الدنو من ذلك، لأجل ما هو مشهور من بغضهم لنا، وسوء اعتقادهم فين، وتكفيرهم ايانا».

ويتساءل جاك تاجر عن سر موقف الصليبين من أقباط مصر قائلا: «لماذا أظهروا هذا التعصب نحو المصريين وحدهم؟» ان السبب فى ذلك ـ يرجع فى رأيه الى أن اليعاقبة فى مصر لم يرتاحوا للصليبين بسبب الخلاف المذهبى بين كنيستى روما والاسكندرية (٣). ويوافقه فى هذا الرأى اريس حبيب التى تقرر أن الصليبين «كانوا يعتبرون القبط وغيرهم من مسيحى

---

(١) اريس حبيب: المرجع السابق، حـ٣، ص ١٣٦.

(٢) وليم سليمان : الكنيسة المصرية تواجه الاستعمار والصهيونية، القاهرة ١٩٦٨م، ص ١٥.

(٣) جاك تاجر: نفس المرجع، ص ١٦٣.

مقار، يونس [السنهورى] الراهب تلميذ مقاره الامنوت، يونس الشماس ابن سنهوت. وكتبت اسما هولآ الاربعه فى اربع رقاع بخطى وشمعتهم وجعلتهم على الهيكل وقدسنا عليه. ولما فرغ القداس وتقرب الشعب تقدم صبى من الشمامسه اخذ من الرقاع واحده بحيث ينظرها الشعب جميعه، واذا فيها اسم يونس ابن سنهوت، فرضى الجميع بذلك، وكتبو به مسطور وكتبو فيه الاراخنه

الشرق مبتدعين منبوذين خارجين عن حظيرة كنيستهم الرومانية» [١]. وكذلك يرى وليم سليمان ان السبب فى كراهية الصليبين لاقباط مصر ا نما يرجع الى أنهم أعرضوا تماما عن النظر الى الغزاة الصليبين على أنهم مسيحيون تربطهم بهم عقيدة واحدة، وأنه عندما اقتحم الصليبيون القدس «لم يكن حزن الاقباط بأقل من حزن المسلمين» [٢]، وقد حنق الصليبيون على الاقباط لعدم مساعدتهم لهم أو تعاطفهم معهم، ذلك أن الاقباط كانوا يرون فى استيلاء الصليبين على بيت المقدس والاراضى الشامية التابعة لمصر ما يعتبر عدوانا على مصرهم وقد عبر رأس الكنيسة القبطية عن وقفة أقباط مصر بجانب السلطات الحاكمة، عندما خرج البطريرك ميخائيل الرابع لتهنئة الأفضل شاهنشاه ابن بدر الجمالى بسلامة الوصول بعد عودته من قتال الصليبين فى عسقلان فى سنة ٤٩٢هـ [٣]، وهو القتال الذى كاد يلقى فيه حتفه [٤].

على أن الاحداث السياسية فى السنوات الاخيرة للدولة الفاطمية تركت أثارا هامة بالنسبة

(١) اريس حبيب: المرجع السابق، حـ٣، ص ١٣٦.
(٢) وليم سليمان: المرجع السابق، ص ١٥.
(٣) بتشر: المرجع السابق، حـ١، ص ٨٢.
(٤) المناوى : المرجع السابق، ص ٢٢٧.

والكهنه وكبار الشعب خطوطهم بالرضى به.
وامتنعت انا الخاطي ان اكتب خطي فيه وقلت اذا
حضر الرجل ورايته وتحدثت معه وعلمت انه عالم
مستقيم الامانه حينيذ اكتب خطي بالرضا به.فلما
كملت خطوط الكهنة والشعب المصريين
والقاهرين في المحضر اصدرته الى الاب انبا مقاره
البطرك طي كتاب عن الجماعه اليه نسخته
[نصه]:

لأهل الذمة في مصر، اذ تطور النزاع بين شاور وضرغام من أجل الوزارة الى تدخل الصليبيين ونور الدين محمود أمير دمشق ـ بهدف السيطرة عليه.واذا كانت القوات النورية بقيادة أسد الدين شيركوه قد استطاعت اعادة شاور الى الوزارة في رجب سنة ٥٥٩هـ فان شاور غدر بشيركوه وطالبه بالخروج من مصر [١]، فأغلق أبواب القاهرة أمام القوات النورية [٢]، وجرت عدة وقائع بين شاور وشيركوه واحترق وجه الخليج خارج القاهرة بأسره وجزء من حارة زويلة[٣]، ويرى مؤرخنا ساويرس أن النكبات قد حلت بنصارى مصر على أيدى شيركوه، اثناء قتاله شاور، «اذا امتدت أيدى الغز الى سكان مصر من النصارى.. والأرمن.. وكانوا يقتلون منهم ويبيعوهم، فان وجدوا من يشترى منهم والا قتلوا ذلك الشخص، ونهبوا أموالهم وأخذوا نساءهم، وكانوا ينادوا على النصراني: من يشترى كافران. وعلى التركى المصرى، من يشترى تركى خليع بات في الصقيع، وعلى الاسود، من يشترى سويدان. وكانوا يبيعوهم بثمن بخس، بعشرين درهم للنصرانى وعشرة دراهم التركى، وخمس دراهم للاسود» ، كما يذكر المؤرخ نفسه أن قوات شيركوه أرغمت بعض النصارى على اعتناق الاسلام، وأنهم قتلوا أحد

(١) المقريزى: الخط، حـ١، ص ٣٣٨.
(٢) ساويرس: انظر هذا الجزء ٣ ص ١٣٩٥ وما بعدها.
(٣) المقريزى: الخطط، حـ١، ص ٣٣٨.

وصل كتاب الحضرة السامية الاجلية، القديسه الفاضلة الرييسة النفيسة، تاج الملة الارتدكسية، وضيا البيعه المسيحيه، وجمال بنى المعموديه، سيد الآبا ورييس الرووسا التابعة لاثار الآبا[ء]، الحواريون الاطهار، وخليفة مارى مرقص احد الرسل الابرار اطال الله بقاها وحرس عزها وعلاها، بعد ارتقاب لقدومه وتطلع لوصوله، فتلقاه رعيته بحقه من الاعظام وما يقتضيه محله من الاكرام، واكثرو

رهبان دير أبى مقار، لأنه امتنع عن الدخول فى الاسلام،كما هاجمت قوات شيركوه الكنائس التى بضواحى القاهرة، وبخاصة كنائس الملكية، وهدموا كنيسة الحمراء بحارة الروم الجوانية، ودمروا كنيسة الزهرى التى للارمن وسلبوها أمتعتها، كما نهبوا كل كنيسة هدموها[1] وعبثوا ببعض أديرة النصارى وأحرقوا أحداها ونهبوه[2].

وفى أوائل سنة ٥٦٤هـ = ١١٦٨م زحف عمورى ملك بيت المقدس للمرة الثالثة على مصر بهدف الاستيلاء عليها [3]، مما اضطر الوزير شاور الى أن يشعل النار فى مدينة الفسطاط فى تاسع صفر من نفس السنة «خوفا عليها من الفرنج» [4]، فظلت النار مشتعلة بها أربعة وخمسين يوما وألحق الحريق بها أفدح الخسائر [5]، كما كان ذلك الحريق ضربة قاسمة

(١) ساويرس: أنظر : ص١٣٩٧ ومابعدها فى هذا المجلد.
- ايسيذورس: المرجع السابق، حـ٢، ص ٣٧٥.
- بتشر: المرجع السابق، حـ٣، ص ١٠٨.
- منير شكرى: المرجع السابق، ص ٢٨٢.
(٢) أبو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ٤٠.
(٣) أبو شامة : الروضتين، حـ١، ص ١٦٩.
(٤) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ١٣٨.
(٥) المقريزى: الخطط، حـ١، ص ٣٣٩.
- ماجد: ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر، ص ٤٦٩، ٤٧٠.

شكر الله تعالى على ما اسفر عنه من انبا سلامتها التي يعتدو بها من اجل المواهب لله عليهم، واوفا الطافه الخفيه فيهم، فاغتبطو بذلك اغتباط المتمسكين بطاعتها، المتقربين الى الله سبحنه بالعمل بمرضاتها، المسترشدين فى جميع امورهم بما يهديهم الله اليه بتعاليمها الروحانيه واحكامها العادلة المرضية، والله يحفظ بقدسها نظام الدين من الشتات، ويحرس ببركات دعاها جميع

للاقباط القاطنيين فيها وهم بها كثير [١]، فقد كان حوالى نصف سكان القسم الشمالى من الفسطاط قبط، أما النصف الثانى، وهو جنوب الفسطاط وبابليون ، فكان كل ساكنيه تقريبا من الاقباط[٢]، كما أن حصن بابليون يضم أهم كنائسهم وأعظمها فنا وجمالا، وعلى الرغم من أنه قد سلمت ست كنائس من الحريق تماما [٣]، الا أنه قد دمرت بقية كنائسهم علاوة على ممتلكاتهم وبيوتهم التى كانوا يقطنونها فى المدينة [٤].

وفى أعقاب تولى شيركوه للوزارة فى ربيع الثانى سنة ٥٦٤هـ، وفى جو الاضطرابات وفوضى الحرب [٥] والنهب السلب سواء من عامة المسلمين أو الجنود المرتزقة عبثت قوات شيركوه بأوامر منه بالكنائس والأديرة، وألحقت ببعضها التدمير [٦]، كما انتزعت أراض زراعية وبساتين كانت موقوفة، أو ملحقة ببعض البيع والاديرة، واستولت عليها [٧]،

(١) اريس حبيب: المرجع السابق، حـ٣، ص ١٧٦.
(٢) بتشر : المرجع السابق،حـ٣، ص ١١٤.
(٣) اريس حبيب: المرجع السابق، حـ٣، ص ١٧٦.
(٤) أبو صالح الأرمنى: المصدر السابق، ص ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٤٢، ٤٣.
ـ عبد الرحمن زكى: الفسطاط، ص ٨١.
(٥) لين بول:المرجع السابق، ص ١٨٧.
(٦) ترتون: المرجع السابق، ص ٥٤.
(٧) أبو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ٣، ٨، ٧٨، ٧٩.

الشعب من الافات، ويصون بصلواتها المرفوعه اليه سبحانه بغير حجاب، ودعاها المقبول المستجاب الكلمة الارتذكسية من الافتراق، ويويد البيع المسيحيه بمزية الاتفاق، ويقرب اوبتها ومثول شعبها بين يديها، وتبركهم من قدسها على افضل الاحوال الماثوره، والقضايا المختاره بصلواتها المقدسه. فاما ما رسمته ادام الله علاها من تخير من يرتضونه للتقدمه عليهم، والنظر فى امورهم

كما أمر شيركوه بالمناداة في القاهرة بالاعلان عما فرضه من قيود على غيار النصارى(١).

كما أن صلاح الدين فى سنوات ٥٦٤، ٥٦٨، ٥٦٩هـ أوقع بالمصريين القبط، عقوبات صارمة بلغت حد الصلب والاعدام (٢). بالرغم من أن أقباط مصر عامة كان احساسهم ضد الصليبين (٣).

وإذا كان هدف صلاح الدين من حروبه ضد الصليبيين تخليص فلسطين وفتح بيت المقدس، فقد خاض في سبيل هذا الهدف معارك طاحنة ضد الصليبين، الى أن حقق انتصاره عليهم فى حطين سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، وأعقب هذا الانتصار استيلاؤه على العديد من القرى والمدن الشامية (٤)، ثم حاصر ا لقدس حصارا شديدا، حتى اضطر الصليبيون الى

(١) ساويرس: المصدر السابق، مجلد ٣.
(٢) أبو شامة: المصدر السابق، حـ١، ص ١٧٨، ٢٢٠، ٢٢١.
ـ ابن واصل كالمصدر السابق، حـ٢، ص ٤٧٩.
(٣)ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٦٨.
(٤) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ، حـ٢١، ص ٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٣ ـ ٢٠٧.
ـ أبو شامة : المصدر السابق، حـ٣، ص ٧٥، ٩٢.

حسبما توجيه قوانين البيعة، فقد قابلوه بالسمع والطاعه بعد المعرفه بقدر المنّه عليهم به والانعام بموجبه، واجتمعو في بيعة الشهيد الجليل سرجيوس بعد ان قدمو استخاره الله امامهم، ورغبو اليه عن ضماير سلميه من الهوى، صادقه في النجوا في توفيقهم لارتضا من يوافقهم قولا وفعلا، ويسير فيهم احسن سيره ونبلا واثبتو اسما اثنى عشر رجلا ممن اتفقت الكلمة على العلم بدينه

طلب الصلح والأمان (١) وأجابهم صلاح الدين على أن يخرجوا بأموالهم سوى الخيل الحربية والسلاح (٢)، وأن تكون الغلات والأسلحة والدور للمسلمين وأن يتحولوا منها الى مأمنهم وهو مدينة صور (٣)، واستقر الأمر على أن يؤخذ منهم الفدية، من الرجل عشرة دنانير، والطفل من الذكور والاناث دينارين والمرأة خمسة دنانير، فمن أدى ذلك الى أربعين يوما فقد نجا، ومن انقضت الأربعون يوما عنه ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكا (٤). أما الفقراء والمعدمون من الصليبيين فقد وافق صلاح الدين على أن يدفع باليان أحد امراء الصليبيين في القدس لسبعة آلاف منهم مبلغا اجماليا قدره ثلاثة ألف دينار(٥)، وبهذا اعتبر الصليبيون أسرى حرب وعليهم دفع الفدية الحربية (٦).

(١) ابن واصل :المصدر السابق، حـ٢، ص ٢١٤.
(٢) الحنبلي: شفاء القلوب، ورقة ٣٥.
(٣) مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، حـ١ ص ٣٣١.
ـ العيني : المصدر السابق، حوادث سنة ٥٨٣هـ، (ورقة ٤٢).
(٤) ابن الاثير: المصدر السابق، حـ١١، ص ٢٠٨.
ـ أبو شامة : المصدر السابق، حـ٢، ص ٩٥.
(٥) ابن واصل: المصدر السابق، حـ٢، ص ٢١٤.
ـ عاشور : الحركة الصليبية، حـ٢، ص ٨٢٢.
(٦) جاك تاجر: المرجع السابق، ص ١٦٤.

والمعرفه بصحة يقينه، ثم تخيرو من هذه العده اربعه نفر، وهم: مرقوره الحبيس بابيار، وتيدر القس بدير ابو مقار، ويونس السنهورى، والشماس يونس ابن سنهوت. واودعت اسمايهم اربعة رقاع وشمعت وحملت على الهيكل المقدس بالبيعه المذكورة وقدس عليها ثلثة ايام اخرها يوم الاحد الرابع عشر من ابيب، واجتمع الكهنه واحاطو بالهيكل والشعب عند بابه قيام، وارتفع من

وما أن دخل صلاح الدين بيت المقدس فى ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ / ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧م، واحتل قعلتها، حتى حافظ على وعده لمن فيها من الصليبين. فسمح لهم بالخروج بعد دفع الفدية المتفق عليها، وأظهر تسامحا كبيرا تجاه الذين عجزوا عن دفعها [١]، كما وفر الأمان لمن كان فى المدينة من نساء ملوك وأمراء الفرنجة المترهبات، ولمن معهم من الحشم والعبيد والجوارى، وما بحوزتهن من الاموال، بل أن صلاح الدين سير معهم من يقوم بحراستهم حتى بلغن مامنهن [٢]. هذه المعاملة التى لم يحصل على مثلها المصريون القبط من صلاح الدين.

واذا كان الصليبيون قد انصرفوا لبيع ما لم يستطيعوا حمله بأبخس الأثمان قبل أن يغادروا المدينة فان البطريرك اللاتينى وأتباعه من رجال الكنيسة جمعوا ما فى كنائسهم ودور عبادتهم من أوانى الذهب والفضة [٣]، وعلى حد تعبير العماد الكاتب فاتهم «كنسوا كنائسهم، وأخذوا نفائسهم، ونقلوا منها الذهبيات والفضيات من الاوانى والقناديل والحريريات والمذهبات من

(١) عاشور: الحركة الصليبية ، حـ٢ ، ص ٨٢٢، ٨٢٣.
(٢) ابن واصل : المصدر السابق، حـ٢ ، ص ٢١٦.
(٣) رنسيمان: المرجع السابق، حـ٢، ص ٢١٦.

جميعهم الضجيج والابتهال والتضرع الى السيد المسيح والسوال فى ان يختار لسياسة شعبه وتدبير بيعته من يراه عاملا بفروضه، سايرا فيهم سيرة القديسين الاطهار، والصالحين الابرار، الذين انتخبهم لرعى خرافه واصطفاهم لرياسه المومنين به.

وتقدم الشماس الطفل ولد الشيخ ابو الفخر،

الستور والمناديل، ونقضوا من الكنائس الكنائن واستخرجوا من الخزائن الدفائن» [١]. ووقف المسلمون فى القدس ـ وهم الذين وصفوا بالاستقامة والانسانية ـ ينظرون بعين الدهشة الى هرقل بطريرك بيت المقدس وهو يدفع لنفسه الدنانير العشرة، ويغادر المدينة، وقد انحنى جسمه لكثرة ما ينوء به من أثقال [٢] هى «كل ما كان فى القبر المقدس من صفائح الذهب والفضة وجميع ما كان فى القمامة [٣] كما تبعته العربات وفيها «من أموال البيع ـ منها الصخرة والأقصى وقمامة ـ ما لا يعلمه الا الله وكان له من المال مثل ذلك» [٤] دون أن يبالى بفقراء الصليبين الذين لم يجدوا ثمن فدائهم [٥] والسلطان لم يعرض لهذه الاموال الطائلة، ولما استكثرها من حوله، وسأله العماد الكاتب أن لا يترك للبطريرك هذه الاموال لأن الامان على أموالهم لا على أموال الكنائس والأديار [٦] ، يقوى بها المسلمون، رفض وقال لا أغدر به».

(١) العماد الكاتب: المصدر السابق، ص ١٣٥.
(٢) رنسيمان: المرجع السابق، حـ٢، ص ٧٥٣.
(٣) مجير الدين الحنبلى: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، حـ١ ص ٣٣٠.
(٤) ابن واصل : المصدر السابق، حـ٢، ص ٢١٦.
(٥) عاشور: الحركة الصليبية، حـ٢، ص ٨٢٣.
(٦) العماد الكاتب: المصدر السابق، ص ١٣٥.
ويقدر العماد الكاتب الاموال التى أخذها البطريرك بحوالى ماتى ألف دينار (نفس المصدر والصفحة).

ادام الله تاييده، واخذ بحضور الجماعة واحدة من الرقاع المذكورة وفتحت فوجدت باسم يونس ابن سنهوت، فشكرو الله تعالى على ما هداهم اليه واستبشرو بما دلهم عليه ورضو بما رضيه واختاره مقدما عليهم. وقد ضمن تلاميذها بجميع ذلك مسطوراً [وثيقة] اثبت فيه خطوط جماعتهم، وتلاميذها يقبلون اسكيمها، ويضربون المطانوات بين ايديها، استدعى الشماس المذكور كما جرت

ولم يأخذ منه غير العشرة دنانير [١]. بل ان صلاح الدين اطلق سراح سبعمائة أسير من الصليبيين هبة منه للبطريرك المذكور، وأمر رجال الشرطة بالمدينة أن يطوفوا بالشوراع والابواب ليمنعوا كل اعتداء يقع على المسيحين فيها، وأعلن أنه سوف يطلق سراح كل شيخ وكل أمرأة عجوز، ولما أقبل نساء الفرنج اللائى افتدين أنفسهن، وقد امتلأت عيونهن بالدموع، وسألن صلاح الدين ماذا يكون مصيرهن بعد أن لقى أزواجهن أو آباؤهن مصرعهم أو وقعوا فى الأسر أجاب بأنه وعد باطلاق سراح كل ما فى الأسر من أزواجهن، وبذل للارامل واليتامى من خزانته العطايا كل بحسب حالته [٢]، وفى هذا الجو من الأمن والأمان والتسامح غادر الصليبيون بيت المقدس وقد أخذوا ما خف حمله وتركوا ما ثقل[٣]، وسير صلاح الدين الجميع ومعهم من يحميهم الى مدينة صور [٤]. والواقع أن رحمته وعطفه كان على نقيض ما فعله مع المصريين القبط.

(١) ابن واصل : المصدر السابق، حـ٢، ص ٢١٦.
(٢) رنسيمان: المرجع السابق، حـ٢، ص ٧٥٣.
(٣) مجير الدين الحنبلى: المصدر السابق، حـ١، ص ٣٣١.
(٤) ابن واصل : المصدر السابق، حـ٢، ص ٢١٦.

العادة بان يستدعى مثله، وتقدمته اسقفا عليهم ليقوم بعماره البيع وتدبير امور الشعب وينعم باجرايهم على جميل عاداتها الكريمة يذكرهم فى صلواتها المقدسة، وادعيتها المستجابه، ورايها الموفق انشا الله تعالى.

فوصل الجواب بما نسخته [نصه]: وصلت مكاتبة الاخوة المختارين الاحبا السعد الكهنه الاخيار

على أن عددا كبيرا من الصليبيين قبل مغادرتهم للقدس، شاهدوا الاجراءات العملية التى اتخذها صلاح الدين بشأن ازالة كل أثر للصليبيين فى المدينة المقدسة [1] ففى اليوم الاول لدخوله القدس أمر صلاح الدين بخلع الصليب الكبير الذهبى الذى اقامه الصليبيون فى أعلاقبة الصخرة وقد صرخ فرنجة القدس توجعا وفجيعة لحظة أن خلعه المسلمون وأسقطوه وأفجعهم تهليل المسلمون وتكبيرهم عندما وضعوا الهلال مكانه [2]، كما أمر صلاح الدين بازالة ما بداخل مسجد القبة من التماثيل والصور والايقونات والمذبح ومواضع الرهبان، وكل رموز العبادة المسيحية، وأمر باظهار الصخرة المقدسة، وغسلها بماء الورد، وأزال مقابر الفرنج ومقدميهم المجاورة للصخرة [3]، ومحا كل آثار احتلال الداوية له، وما استحدثوه من مبان وما

(١) رنسيمان : المرجع السابق، حـ٢، ص ٧٥٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل، حـ١١، ص ٢٠٨، ٢٠٩.

- ابن واصل : المصدر السابق، حـ٢، ص ٢١٧.

- ابن سعيد: المصدر السابق، ص ١٥٤.

- المقريزى: السلوك، حـ١، ق١، ص ١٠١ - ١٠٢.

(٣) ابن واصل : المصدر السابق، حـ٢، ص ٢١٧، ٢٢٩، ٢٣٠.

- أبو شامة: الروضتين، حـ٢، ص ١١٣.

والشيوخ المكرمين المحبوبين الموفقين التقيين الفايزين بكل فضيلة مسيحية، المخصوصين بجميع التحيات الروحانيه الاراخنه الارتدكسيين وكافت الشعب المسيحيين اطال الله بقاهم وادام نعماهم وعلاهم ورفعهم وكبت اعداهم وبارك عليهم وعلى منازلهم واولادهم ومعايشهم ببركات يعلو بها شانهم ويزيد منها رفعتهم ويعظم منها مكانهم ويوفر حظوظهم ويثبت عليهم النعمه الدايمه والغبطه الحاله

أدخلوه من الأقصى فى أبنيتهم(١)، وكانوا قد بنوا فى القبة دارا وسيعة وكنيسة (٢) وأمر صلاح الدين بازالة كل ما أحدثوه من البنيان واعادة الأبنية الى حالها القديم (٣)، وجد فى عمارة المسجد الأقصى (٤).

كما أمر صلاح الدين بتحويل كنيسة سانت حنه (كنيسة القديسة حنا أوسانت أن) الى مدرسة للفقهاء الشافعية وهى التى عرفت بالمدرسة الصلاحية، ووقف عليها وقوفا جليلة(٥)، كما جعل دار البطريرك المجاورة لكنيسة القيامة رباطا للفقراء ووقف عليها أوقافا حسنة(٦)،

(١) ابن الأثير: الكامل، حـ١، ص ٢٠٩.
ـ ابن واصل : المصدر السابق، حـ٢، ص ٢١٧.
(٢) مجير الدين الحنبلى: المصدر السابق، حـ١، ص ٣٣١.
(٣) ابن الأثير: الكامل ، حـ١١، ص ٢٠٩.
(٤) ابن واصل :الصمدر السابق، حـ٢، ص ٢١٧.
(٥) ابو شامة : الروضتين، حـ٢، ص ١١٤.
ـ العينى: المصدر السابق، حوادث سنة ٥٨٣هـ، (ورقة ٤٤).
(٦) ابن واصل : المصدر السابق، حـ٢، ص ٢٣٠.
ـ مجير الدين الحنبلى: المصدر السابق، حـ١، ص ٣٤١.

وحفظهم بعينه التى لا تنام وكنفه الذى لا يظلم ويكفيهم [شر] كل المناصب الشيطانيه والفخاخ الرديه ويستجيب من مسكنتى فيهم صالح الادعيه بشفاعه ذات الشفاعات مريم البتول وصلوات البشير مارى مرقس مكمل الشهادات ومحقق الدين والامانات وكافه القديسين والابرار اجمعين، يتضمن معانيهم السنية والفاظهم العذبة الروحانية كالشهد والمن المذكورين فى سفر الزبور، ولما

وجعل كنيسة تقع فى شارع كنيسة القيامة بيمارستانا للمرضى ونقل اليه ووفر له جميع ما يحتاج اليه من الاطباء والمستلزمات[1]، كما نزل اخوه الملك العادل فى كنيسة صهيون[2].

أما كنيسة القيامة، فقد أشار البعض على صلاح الدين بهدمها، ونبش القبر المقدس بها، وحرث أرضها، ومحو معالمها، حتى ينقطع عنها امداد الزوار المسيحيين غير أنه انحاز الى رأى الأغلبية، وأعرض عن هدمها ـ لأن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) قد أبقى عليها لما تسلم بيت المقدس[3] ـ الا أنه أمر باغلاق أبوابها ومنع النصارى من زياراتها [4] لمدة ثلاثة أيام [5] ريثما يزول التوتر وتهدأ الاحوال[6]، وعاد بعدها وفتح أبوابها ، وترك المسيحيين حرية التعبد

(١) ابن واصل : المصدر السابق، جـ٢، ص٤٠٨.
(٢) العماد الكاتب: المصدر السابق، ص ١٤٥.
(٣) ابن واصل : المصدر السابق، حـ٢، ص ٢٣١.
(٤) العماد الكاتب : المصدر السابق، ص ١٤٥.
ـ المقريزى : السلوك ، حـ١ ، ق١ ، ص ٩٧.
(٥) رنسيمان : المرجع السابق، حـ٢، ص ٧٥٦.
(٦) عارف باشا العارف: المرجع السابق، ص ٧٩.

تاملت معادن فضلهم ودار اكرامهم وجدتها
مقصوره على امتداحهم لفقرى الذى لست انا
باهله منسوبا اليه ولا حقيق به لمعرفتى بذاتى واننى
غير صالحا لما اهلتمونى شكرة خلوصى محبتهم
وصفو اعتقادهم وبراعة فهمهم ولجة علمهم
وبراعتهم وحسن ادابهم كما قيل عن موسى النبى
فى التوراه: «وتعلم موسى من حكمة المصريين».
فيهم الفخر والكمال وبقية ما سمعت به الامال

فيها الا أنه «قرر على من يرد اليها من الفرنج قطيعة يؤديها»[١].

أما النصارى من أهالى القدس الذين ليسوا من الفرنج، فانهم طلبوا من صلاح الدين ان يمكنهم من المقام فى مساكنهم على أن يأخذ منهم الجزية [٢]، فأجابهم صلاح الدين الى ما طلبوا.

واذا كانت الطقوس والشعائر المسيحية قد أوقفت بكنيسة القيامة «وبطلت نغمات القسس والرهبان ... وخرس الناقوس..» [٣] فلم يكن ذلك ألا لمدة قصيرة [٤] عاد بعدها المسيحيون يباشرون طقوس عبادتهم فى حرية تامة. غير أنه مما لاشك فيه ان الكنيسة الارثوذكسية ورجالها هم الذين استفادوا من خروج الصليبين الكاثوليك من بيت المقدس، فقد أتاح لهم فتح صلاح الدين للقدس الفرصة لاستعادة نفوذهم وهيمنتهم على الاماكن المسيحية المقدسة[٥]، فما أن بلغت القسطنطينية أنباء انتصارات صلاح الدين وفتح بيت المقدس حتى

(١) المقريزى: السلوك، حـ٢١، ق١، ص ٩٧.
(٢) العماد الكاتب: المصدر السابق، ص ١٣٦.
(٣) العماد الكاتب: المصدر السابق، ص
(٤) المقريزى: السلوك ، حـ١، ق ١، ص ٩٧.
(٥) عاشور : الحركة الصليبية، حـ٢، ص ٨٢٦.

والزيادة فى العمر والاجال، والله تعالى ذكره يقيم بهم منار الدين ويشيد بحياتهم عضد الاخوة المسيحيين ويديم تعميرهم ويقدس نفوس اسلافهم ويرزقنا جميعا رحمة ورافة امام منبره المرهوب وموقفه المرعوب امين. فاما ما ذكروه من الشوق الروحاني فعندى منه ما يجوز حد الوصف ويعلو كل اسهاب واطناب، اسال البارى سبحانه قرب الاويه [الأوبة] وتكميل الاجتماع على اتم القضايا

سارع الامبراطور اسحق الثانى انجيلوس بارسال سفارة الى صلاح الدين لتهنئته، ولتطلب منه ضرورة اعادة كنيسة القيامة وغيرها من الكنائس والاماكن المسيحية المقدسة الى الكنيسة الارثوذكسية (١)، وقد استجاب صلاح الدين لطلبه بعد أن تمهل قليلا (٢) اذ أدى حسن علاقاته بالبيزنطيين الى تحويل الكنائس اللاتينية القائمة بالأراضى المقدسة الى الشعائر اليونانية، كما أنه من الراجح أن ما بذله صلاح الدين من وعود للروم الارثوذكس فى بيت المقدس كان فى صالح الكنيسة الارثوذكسية البيزنطية(٣).

وكان موقف صلاح ازا اليهود غاية فى التسامح والسخاء، فعلى الرغم من أنه لم تصل الينا أية شروط تتعلق باليهود بعد فتح القدس على يد صلاح الدين (٤)، فالواقع أن انتصار

(1) - Setton : Ahistory of the crusades, Vol. , p. 620.

(٢) رنسيمان : المرجع السابق، حـ٢، ص ٧٥٦.

(٣) زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ١٢٠.

(٤) ربما لأن الصليبين الذين أبادوا جميع اليهود فى المدينة المقدسة سنة ٤٩٣هـ ١٠٩٩م وأحرقوا ديارهم ومقدساتهم، وحرموا عليهم دخولها (حسن ظاظا: القدس مدينة الله أم مدينة داود، الاسكندرية ١٩٧٠م، ص ٠٣١)، لم يسمحوا لهم ببقائهم معهم فى المدينة، أو تقليدا لماحدث أيام عمر بن الخطاب الذى منح عهد الأمان للنصارى دون اليهود (ماجد: الناصر الدين، ص ١١٨٠) أو لأن عددهم بالمدينة كان قليلا=

السـارة والاحـوال الماثوره، والذى اشـارو فـهـو ممن يجب فيـه شكرهـم والثنا عليـهم لمحبـتـهم لابايهم الروحـانيين ورغبـتـهم فـيمن يسـوس احوالهم ويرم شـعب بيـعتـهم، وانهم قـدمـو الله تعـالى فى بداية طلبهم ورغبو اليه في ان يظهر لهم من هو مستحق لما طلبوه وارادوه، فنعم ما فعلو لان الكتب المقدسه تقـول: «اجـعل الله بدو امـرك» . وبكرمـه ينجح مـسـعـاهـم ويقـضى لنا ولهم بما فـيـه الخـيـره

- -

صـلاح وعودة القدس الى السيادة العربية كان فى صالح اليهود، الذين كانوا أول من هلل لطرد الصليبين من بيت المقدس [١]؛ وتمكنوا من شراء قدر لابأس به من الأمتعة والاملاك التى اضطر الصليبيون عند رحيلهم منها الى بيعها بأثمان زهيدة، كما شجعهم صلاح الدين على الاستقرار فى المدينة التى أصبحت خالية برحيل الفرنج [٢]، كما أن أعدادا كبيرة من مختلف الطوائف اليهودية تدفقت على فلسطين من بلدان أوروبا بعد أن سمح صلاح الدين بهجرة اليهود الى الأراضى المقدسة، استجابة لواسطة قام بها طبيبه الخاص موسى بن ميمون رئيس الطائفة اليهودية فى مصر [٣]، ويذكر الرحالة اليهودى والشاعر الاندلسى يهودا الحريزى

=(بنيامين التطيلي المصدر السابق، ص ٩٩) أو لأن هذا العدد الذى كان يشتغل بالصياغة وبتصريح من الحاكم الصليبى لقاء مال يدفعونه له (حسن ظاظا: المرجع السابق، ص ٣١) ، غير أنه لم يكن لهم نفوذ سياسى، أو تاثير على مجريات الأحداث فى القدس، كما لم تكن لهم أملاك بالمدينة حيث حرم الصليبيون عليهم امتلاك الاراضى (عمر كمال توفيق: مملكة بيت المقدس، ص ١٣٣).

(١) عاشور: الحركة الصليبية، حـ٢، ص ٨٢٧.

(٢) رنسيمان : المرجع السابق، حـ٢، ص ٧٧٥.

(٣) الخربوطلى: العرب واليهود فى العصر الاسلامى، ص ٧١.

ـــــــ: الاسلام وأهل الذمة ، ص ٢١٩

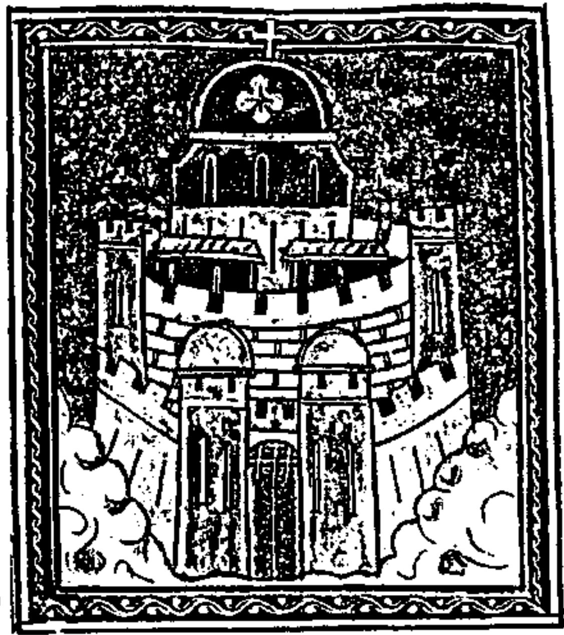

القدس فى العصور الوسطى

الذى زار القدس سنة ٦١٣ ـ ٦١٤هـ/ ١٢١٦ ـ ١٢١٧م، أن فتح صلاح الدين القدس أعقبته هجرة أعداد كبيرة من اليهود الى الاراضى المقدسة [١]، وأن صلاح الدين أكرم اليهود وأحسن معاملتهم وكان يشجعهم على الاقامة فيها [٢].

وعلى الرغم من أن صلاح الدين بالغ فى تسامحه مع الصليبيين عند خروجهم من القدس، الا أن سقوط المدينة المقدسة فى يده أثار مشاعر الصليبيين في أوروبا من جديد لتشهد الاراضى المقدسة بفلسطين حملة صليبية جديدة، هى ما اصطلح على تسميتها بالحملة الصليبية الثالثة، التى تزعمها فردريك الاول بربروسا امبراطور المانيا، وفيليب أغسطس ملك فرنسا، وريتشارد الاول ملك انجلترا، الملقب بقلب الأسد [٣].

واذا كان الصليبيون قد استولوا على عكا فى جمادى الآخرة سنة ٥٨٧هـ/ يوليو ١١٩١م[٤] وهزم الملك الانجليزى خصمه صلاح الدين فى أرسوف فى شعبان من نفس

(1) -Setton: op, cit vol. 1, p. 621.

(٢) حسن ظاظا: المرجع السابق، ص ٣١.
(٣) ماجد: الناصر صلاح الدين، ص ١٢٥.
(٤) ابن الأثير: المصدر السابق، حـ١٢، ص ٣٤.

حملة بطرس الناسك

العـام[1] كما استولى على يافا، الا أن جميع محاولاته لاسترداد بيت المقدس باءت بالفشل، مما اضطر، الى جانب مايعانيه من مشاكل في بلاده فضلا عن مشاكل الصليبين في الشام، الى طلب الصلح وفتح باب المفاوضات للوصول الى هدنة مع صلاح الدين، انتهت بعقد الصلح والمهادنة بينهما في يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من شعبان سنة ٥٨٨هـ/ ٢ سبتمبر سنة ١١٩٢م، وهو ما عرف بصلح الرملة الذى نص على أن يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور الى يافا بما فيها قيسارية وحيفا وأرسوف، أما عسقلان فتكون للمسلمين بعد تخريبها، في حين تكون الرملة واللد مناصفة بين المسلمين والصليبين، وماعدا ذلك بما فيه القدس يظل بأيدى المسلمين على أن يسمح للمسيحيين بالحج الى بيت المقدس في أمن وأمان [2]، كما أعفى صلاح الدين الحجاج الصليبيين من رسوم زيارة الاماكن المقدسة، «وان لم تكن قد نصت عليه معاهدة الصلح [3].

(١) ابن شداد: المصدر السابق، ص ١٨٣، ١٨٤.
(٢) ابن شداد: المصدر السابق، ص ٢٣٤، ٢٣٥.
ـ أبو شا مة: الروضتين، حـ٢، ص ٢٠٣.
ـ مجير الدين الحنبلي: المصدر السابق، حـ١، ص ٣٩٠.
(٣) أحمد دراج: وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، ص ٧٣.

وحـميـد العـاقبـه، والذى اضح الله اسـمـه لهم
واخرجه الوجود لديهم وتراضى جميعهم عليه فهو
نعم الانســان، والقلب طيب على مـا تطيب به
نفوسـهم وتستـقيم به امـورهم وتكمـيل لسيـاسة
احوالهم، فيتقدمو بمشية الله جل اسمه بتحصيله
عندهم والاستيثاق منه وحفظه. وحينيذ احضر ان
اعـان الله بالحياه ونتمم محـبوبهم ونبلغ ايثارهم.
فغير خاف عنهم ان المذكور يسوم نفسه مقام غير

وبمـجب هذا الصلح انتـهت الحملة الصليبيـة الثالثة، كـما كان اقرار شروط الصلـح بداية لصـلات المـودة بين الصليبـيين والمسلمين، اذ لم يكد يفـرغ صـلاح الدين من اعـداد مايلزم من التدابير لحراسة الحجاج وايوانهم، حتى فتحت المدينة المقدسة أبوابها على مصراعها أمام جماعات من الجيش الصليبى التى وفدت اليها بعد أن تجردوا من ســلاحهم، وغصت القـدس بأعداد كبيرة من الزوار المسيحيين، الذين زاروا كنيسـة القيـامة والاماكن المسيحية المقدسة، وطافوا انحاء المدينـة فى حرية وأمن وسلام، بل نفذ معهم صلاح الدين الخفراء لحراستـهم فى طريق عـودتهم الى يافـا [١]. وكـان هـدفه من تقديم كـافة التـسهيـلات للحـجاج الصليـبيين «أن يقـضـوا وطرهم من الزيارة ويرجعـوا الى بلادهم، فيـأمن المسلمين شرهم» [٢].

ولما علم ريتشـارد كثـرة من يزور القدس من الصليبيين، ساءه ذلك «وسيـر الى السلطان يسأله منع الزوار، واقترح أن لايأذن لأحد الا بعد حضـورة علامة من جانبه، أو بكتابة» [٣] أو

(١) أحمد دراج: المصدر السابق، ص ٧٢.
(٢) ابن واصل: المصدر السابق، جـ٢، ص ٤٠٦.
(٣) ابن شداد: المصدر السابق، ص ٢٣٦.

مقام الاسقفيه، حتى انه مضى الى الحضرة الاجيلية [الانجيلية] القدسية الطاهرة النقية الابوية البطركية الأرمن ادام الله قدسها، وقصدها وتطارح عليها الى ان الزمتنى بان كتبت له حجة من القلاية انى لا اجعله فى شى من درجات الكهنوت بشهادة ذلك القديس بطرك الارمن علىّ ومخاطبته اياى عليه وذالك فى السنة التى سير فيها الرسول الى بلاد الحبشه، فاستفهمو هذا الامر منه واستعينو به فى

مع رسول من قبله [1] الا أن صلاح الدين رفض مطلب الملك [2] حتى لا يجعل له أى سيطرة ولو معنوية على بيت المقدس، وخشية أن ترجع تلك الجموع الى بلادها غاضبة مستثارة لصدها عن زيادة كنيسة القيامة فينفروا أممهم ضده، وكتب الى ريتشارد «أنت أولى بمنعهم وردهم بردعهم، فانهم الينا وافدين ولزيارة الكنيسة قاصدين، وما يقتضى كرمنا أن نرد الوفود، ولا نبلغ من يقصدنا المقصود» [3].

بل أن صلاح الدين بالغ فى اكرامهم، ومد الطعام لهم ، وعرفهم برسالة الملك، ورفضه لمطلبه وعزمه على تقديم كافة التسهيلات [4]، كما قبل صلاح الدين ما طلبه منه هيوبرت والتر أسقف سالسبورى من تعيين اثنين من القسس اللاتين واثنين من الشمامسة اللاتين فى كنيسة القيامة، وكذا فى كنيستى بيت لحم والناصرة [5]، وذلك الى جانب ما كان فى تلك

---

(١) مجير الدين: الحنبلى: المصدر السابق، حـ١، ص ٣٩٠.
(٢) ابو شامة: الروضتين ، حـ٢ ، ص ٢٠٤.
(٣) العماد الكاتب: المصدر السابق، ص ٦١٠.
(٤) ابن شداد: المصدر السابق، ص ٢٣٦.
(٥) رنسيمان: المرجع السابق، حـ٢ ، ص ١٤١.

احضـار الشـخص المذكور اليكم وتحصيله عندكم لتـعلمـو برات [براءة] سـاحـتى وان الامـر منكم والسوال له فيه والرغبه اليه، ولا ينظرنى بانى قلت له قـول ونقـضـتـه، وعلى الجـمله فـتـحـرصـو فى تحصيله، واننى لا اتاخر عن تقدمته لهم حسب ما اقـترحـوه وارتضـوه، والى حين ذالك لا يخلونا من مكاتبتهم متضـمنه ذكر احوالهم واخبارهم، سـلام الرب سبحنه يكون معهم ويحل عليهم وعندهم.

الكنائس من رجال الدين الارثوذكس والسـريان واليـعاقبة [1]، واذا كـان الامـبـراطور اسـحق الثانى انجيلوس قد بلغته الشائعات أن ريتشارد فى مفاوضاته مع صلاح الدين يلح فى أن تتخذ الاماكن المسيحية المقدسة صبغة لاتينية [2]، فقد وصل رسول من قبل الامبراطور مثل أمام صلاح الدين في القدس فى ثالث جماى الاولى سنة ٥٨٨هـ، وسلمه رسالة اشتملت على مطالب منها: صليب الصلبوت، وأن تكون كنيسة القيامة بيد قسس من جانبه وكذلك سائر كنائس القدس [3] وأن يعود للمسيحيين الارثوذكس وللكنيسة الارثوذكس السيطرة التامة على الامـاكن المسـيحـيـة المقـدسـة، الا أن صلاح الدين رفض الطلب، ولم يقبل أن يكون لمذهب السيادة التامة على هذه المواضع وفضل أن يكون هو الفيصل والحكم بينهما جميعا[4]، كـمـا قيل لرسول الامبراطور بان عليه شراء صليب الصلبوت مقابل مائتى ألف دينار[5].

واذا بات واضـحـا لدى الصليـبـيـين الدور الكبـيـر الذى تقوم به مـصـر في التـصـدى للغـزو

(١) عاشور: الحركة الصليبية، حـ٢، ص ٨٩٩.
(٢) رنسيمان: المرجع السـابق، حـ٣، ص ١٤١.
(٣) ابن شداد: المصدر السـابق، ص ٢٠٩.
(٤) رنسيمان : المرجع السابق، حـ٣، ص ١٤١.
(٥) ابن شداد: المصدر السـابق، ص ٢٠٩.

وكتب في الرابع والعشرون من شهر مسرى سنه اربع وثلثين وثمان مايه للشهدا الابرار والحمد لله دايما ابديا.

ولما وصل الكتاب من الاب مقاره البطرك ووقفنا عليه اجتمعنا ومضينا الى بطرك الارمن، وهو يوميذ فى كنيسة السيدة بارض الزهرى التى ما بين القاهره ومصر [عتيقه]، وقريناه عليه فقال:

الصليبى فقد أعدوا فيما يعرف بالحملة الصليبية الرابعة لغزوها، غير أن تلك الحملة انحرفت وولت وجهها شطر القسطنطينية وقطعت أوصالها سنة ١٢٠٤م [١]، الا أن الديار المصرية شهدت هجوما صليبيا مفاجئا فى نفس العام، ومن جهة رشيد، وتقدم الصليبيون الى فوه، وكان فيها أقباط كثيرون، ولها أسقف مخصوص، فقتلوا كثيرين منهم وطردوا غيرهم، وسبوا البعض، والبعض الآخر لم يسعه الا الهرب [٢].

على أن مدينة دمياط ـ وكان يسكنها كثير من الاقباط ـ تعرضت لجموع الحملة الصليبية الخامسة التى تزعمها حنادى برين والتى اقتحمت المدينة فى شعبان سنة ٦١٦هـ، بعد حصار دام حوالى سبعة عشر شهرا وبنفس المشاعر التى دخلوا بها بيت المقدس من قبل، اذ ذبحوا الكثير ممن وجدوه من الاهالى فى المدينة [٣]. واسترقوا البعض الآخر [٤]، وحولوا الجامع

(١) ابن الأثير : الكامل ، حـ١٢ ، ص ٧٤.
ـ عاشور : الحركة الصليبية، حـ٢ ، ص ٩٣٥.
(٢) وليم سليمان : المرجع السابق، ص ١٦.
(٣) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب، ص ٣٣١.
(٤) ابن و اصل: المصدر السابق، حـ٤ ، ص ٣٣.

صدق الاب البطرك فيما تضمنه كتابه. وسالناه فى مساعدته لنا فى احضار يونس الراهب ابن سنهوت المقدم ذكره، فكتب كتابا للاب مقاره البطرك ان يسير اليه من تلاميذه من يحضره. فسير اليه تلميذان فاحضروه وانزلوه فى دار الشيخ ابو الفضل التى فيما بين بجيب ودار العدل بمصر. فلما كان فى اليوم الثانى استدعاه بطرك الارمن الى قلايته واقام عنده ايام، وذالك براى انبا مقاره

الكبير الى كنيسة [1]، باسم السيدة العذراء [2]، وأخذوا منبر الجامع وكسروه، وأهدوا كل قطعة منه الى ملك من ملوكهم [3] كما احتلت فرقة صليبية منهم مدينة تنيس[4]، التى كان يسكنها ودمياط فضلا عن القرى المحيطة بهما آلاف من السكان الاقباط، الذين فروا أمام السيوف الصليبية المسلطة على رقابهم.

وقد انتهت أحداث هذ الحملة، بأن وافق الملك الكامل على عقد صلح بينه وبين الصليبين فى رجب سنة ٦١٨هـ، على أساس جلاء الصليبيين عن دمياط، وعقد هدنة لمدة ثمانى سنوات (٦١٨ ـ ٦٢٦هـ = ١٢٢١ ـ ١٢٢٩م) ، واطلاق سراح الأسرى من كلا

(١) أبو شامة: الذيل على الروضتين، حـ١١٧.
ـ مجير الدين الحنبلى، المصدر السابق، حـ١، ص ٤٠٢.
ـ الحنبلى: شفاء القلوب ، ورقة ٨٣.
(٢) زيادة : المرجع السابق، ص ٥٧.
(٣) أبو شامة : الذيل على الروضتين، ص ١١٧.
ـ ابن واصل : المصدر السابق، حـ٤، ص ١٠٠.
(٤) زيادة: المرجع السابق،ن ص ٥٧.

بطركنا، اراد بذالك يمتحنه بطرك الارمن ويختبر حاله وعلمه وامانته، فوجده كما يجب في كلما يحتاج اليه منه، فاخذه الشيخ ابو الفضل سعيد ابن ابراهيم ابن المصطنع، المنسـوب الى بنى الاسكاف بحكم مصاهرتهم وليس هو منهم، واعاده الى داره فيما بين بجيب ودار العدل واقام فيها منذ خروجه من قلاية بطرك الارمن. فلما كان اليوم السابع عشر من بابه المذكور اجتمع الكهنة

الجانبين(١)، كما وافق السلطان الكامل على أن يعيد اليهم صليب الصلبوت(٢)، وان يمنح الحجاج المسيحيين بعض الامتيازات(٣).

وفى عهد الملك الكامل أمر بتدمير مدينة تنيس عن آخرها وتركها كل اهلها وتشردوا فى البلاد بعد أن فقدوا اموالهم وممتلكاتهم، كما تم التوصل أيضا الى عقد معاهدة بينه وبين الامبراطور فردريك الثانى امبراطور ألمانيا، فى سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م استجاب الكامل بمقتضاها الى تسليم بيت المقدس الى الامبراطور، وأن يأخذ الصليبيون الى جانب ما فى حوزتهم من المدن الساحلية: الناصرة وبيت لحم، وأن يكون للصليبين ممر من الارض يصل بين عكا وبيت المقدس(٤)، كما اشترط عقد الصلح أن تبقى مدينة القدس على ماهى عليه من الخراب، ولا يجدد سورها، وأن يكون سائر قرى القدس للمسلمين لاحكم فيها للفرنج، وأن

(١) ابن الاثير: المصدر السابق، حـ١٢، ص ١٢٦، ١٢٧.
- ابن العميد: المصدر السابق، ص ٤١٣.
- المقريزى: الخطط، حـ١، ص ٢١٨.
(٢) العرينى: المرجع السابق، ص ٣٣١.
(٣) سيد أمير علي: المرجع السابق، ص ٣٣١.
(٤) عاشور: الحركة الصليبية، حـ٢، ص ١٠١١.

والاراخنه والشعب الى دار الشيخ ابو الفضل المذكور، وانفذو الى متولى المعونه بمصر واعلموه ان قد اقيم لهم اسقف جديد عوضا من المتوفى، وانهم يريدو يزفوه من حيث هو الى كنيسه ابو سرجه بقصر الشمع بالذى جرت به العاده، وهم يخشو من عوام الناس ان يتعرض لهم منهم سفه فى الطريق فيقع فى ذالك ما يشغل القلب. فانفذ الوالى اليهم خليفته وجماعه من رجالته وركب الاسقف بغلة عالية من دواب بعض اصحاب

الحرم بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى يكون بأيدى المسلمين لايدخله الفرنج الا للزيارة فقط، ويتولاه قوام المسلمين ويقيمون فيه شعائر الاسلام من الأذان والصلاة [١] كما اتفق الطرفان على أن تكون مدة هذه الهدنة عشر سنوات وأن يتعهد الامبراطور طوال هذه المدة بمنع أية حملة صليبية عن السواحل المصرية والشامية [٢].

واذ «قامت القيامة في جميع بلاد الاسلام» [٣]، لتسليم القدس الى الصليبين، فان الملك الكامل واجه العاصفة بقوله: «انا لم نسمح لهم الا بكنائس وادر خراب، والحرم وما فيه من الصخرة وسائر المزارات بأيدى المسلمين على حاله، وشعار الاسلام قائم على ما كان عليه، ووالى المسلمين متحكم على رساتيقه وأعماله» [٤].

على أن عودة القدس الى الصليبيين بموجب هذا الصلح بين الملك الكامل والامبراطور فردريك، قد مكن رجال الدين اللاتين من تحسين مركزهم في الاماكن المسيحية المقدسة[٥]

(١) المقريزى: السلوك، حـ١، ق١، ص ٢٣٠.
(٢) زيادة: المرجع السابق، ص ٦٣.
(٣) العينى: المصدر السابق، حوادث سنة ٦٢٦هـ.
(٤) ابن واصل: المصدر السابق، حـ٤، ص ٣٤٣، ٣٤٤.
(٥) ديمترى رزق: المرجع السابق، ص ٤٧.

م١٨ -تاريخ مصر جـ٥ (الهيئة العامة لقصور الثقافة)

الدواوين في الساعة الثالثه من النهار، وزفوه بالقراه وبين يديه الشمع والاناجيل ومجامر البخور من الدار المذكورة الى كنيسة ابو سرجه المذكورة، وقدس وقرى تقليده فيها انبا مينا اسقف مليج، وانبا ميخاييل اسقف اطفيح وانبا يوحنا اسقف الخندق وهو كرسي بسطه وكان يوم عظيم. وكان له مثل ذالك في يوم الاحد الذى بعده في القاهرة في كنيسة السيدة بحارة زويله، وكرز فيها بعد ان زفوه بالقراة والشمع والاناجيل والمجامر من باب

كما أن طائفة الرهبان الفرنسسكان، أخذوا تصريحا منه سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م، يسمح لجماعتهم بالاقامة في فلسطين [١]، وقد تمكنوا في ظل هذا الصلح، ومنذ عام ٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م من الاستقرار في بيت المقدس[٢]، وبخاصة بعد أن اعترفت الكنيسة الكاثوليكية سنة ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م بهذه الطائفة[٣].

وفي جو العلاقات الطيبة بين الملك الكامل والامبراطور فردريك، تمكن الانبا كيرلس الثالث البطريرك الخامس والسبعين للكنيسة القبطية من أن يعين مطرانا قبطيا في بيت المقدس ليترأس احتفالات الاقباط في الاعياد، بعدما كان المتبع أن يذهب مطران دمياط إلى القدس لهذا الغرض في أعياد الميلاد والقيامة والعنصرة، ويعود بعدها الى مصر. كما أصبح من مهام المطران القبطي مباشرة مصالح الاقباط وزوارهم ورهبانهم في الأراضى المقدسة. وكان طبيعيا أن يكثر عدد الاقباط المقيمين في القدس، ويزداد عدد الحجاج الذين يؤمونها للزيارة ، بعد أن صار للقبط مطران قبطي في المدينة. وبعد أن انفردوا بادارة كنائسهم وأديرتهم في الاراضى المقدسة [٤].

(١) أحمد دراج: وثاذق دير صهيون بالقدس الشريف، ص ٢٢.
(٢) ديمترى رزق: المرجع السابق، ص ٤٧،
(٣) أحمد دراج : وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، ص ٢٢.
(٤) ديمترى رزق: المرجع السابق، ص ٢٥ ــ ٣٢.

خوخت [خوخة] ميمون التى على الخليج الى هذه الكنيسه، ومعه خليفة متولى المعونة بالقاهرة ورجالته. وحدثنى الشيخ ابو الفضل المقدم ذكره لما حضر ليفتقدنى انه ما دفع لتلاميذ البطرك ولا لكاتبه درهما واحدا لا عن رسم ولا عن غيره ولا جسرو يطلبو منه شيأ خوفا من الاراخنه. وكذالك جرت حال سنهوت نيح الله نفسه عند تقدمته اسقفا، وكذلك انبا يعقوب الذى كان اسقفا قبله،

غير أن الصليبيين فقدوا نهائيا مدينة القدس سنة ٦٤٣هـ/ ١٢٤٤م بعد أن انتزعتها منهم القوات المصرية والقوات الخوارزمية المتحالفة معها، لينزل الخوارزمية بالاتين فى المدينة المقدسة شتى ألوان الاضطهاد والتعذيب [١]، فقد أعملوا السيف فى رقاب من كان فيها من النصارى وسبوا ذراريهم ونسائهم ، كما استهدفوا الكنائس والمعابد، ودخلوا كنيسة القيامة، فهدموا المقبرة التى يعتقد النصارى أنها قبر المسيح [٢] وأشعلوا النار فيها [٣]، ونبشوا قبور النصارى وقبور ملوك الفرنج التى بالكنيسة، وحرقوا عظام الموتى [٤].

على أن الملك الصالح أيوب طرد الخوارزمية من القدس، ودخلها سنة ٦٤٤هـ/ ١٢٤٥م[٥] ورحب به أهالى المدينة وبخاصة المسيحيين، الذين أحسن اليهم [٦]، كما أظهر قدرا كبيرا من التسامح ازاء طوائف الرهبان [٧] وبخاصة الرهبان الفرنسسكان الذين

(١) جوزيف نسيم: العدوان الصليبى، ص ٤٧، ٤٨.
(٢) ابن واصل: المصدر السابق، حـ٥، ص ٣٣٧.
ـ عارف العارف: المرجع السابق، ص ٨٦.
(٣) جوزيف نسيم: المرجع السابق، ص ٤٨.
(٤) ابن واصل : المصدر السابق، حـ٥، ص ٣٣٧.
(٥) سبط بن الجوزى: المصدر السابق، حـ٨، ص ٥٠٦.
(٦) الخربوطلى: الاسلام وأهل الذمة، ص ٢٠٤.
(٧) لين بول : المرجع السابق، ص ١٨٧).

بل لما صير البطريرك المذكور هذا الاب انبا يونس اغومنس امتنع من تكميله اسقف حتى اخذ خطه بانه يحمل نصف ارتفاع [عوايد] الكرسى فى كل سنة للقلاية البطركية عن الدياريه. وكان ما يوخذ من انبا سنهوت الاسقف نيح الله نفسه فى كل سنه للقلايه خمسة عشر دينار، والكتاب والتلاميذ دينارين اذا حملو اليه الارتسطتيكا، الجميع فى السنة سبعة عشر دينار.

استطاعوا ان يحصلوا من السلطات الأيوبية فى هذه السنة على حق توليهم رعاية الاماكن المقدسة فى القدس[1]، وبذلك أصبحوا الممثلين الرسميين للكنيسة الكاثوليكية، واتخذوا لقب «حراس الاماكن المقدسة»[2].

على أن الحملة الصليبية السابعة التى قادها لويس التاسع ملك فرنسا على مصر قد الحقت أبلغ الضرر بمدينة دمياط التى كان يسكنها كثير من النصارى عندما دخلتها فى الثانى والعشرين من صفر سنة ٦٤٧هـ/ يونية سنة ١٢٤٩م [3]، كما حولها الصليبيون الى مدينة صليبية [4]، اذ شرعوا فى تثبيت رسومهم وشعائرهم فى المدينة [5]، فحولوا جامع دمياط

(١) أحمد دراج: وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، ص ٢٥.
(٢) ديمترى رزق: المرجع السابق، ص ٤٧.
(٣) جوانفيل: مذكرات جوانفيل، القديس لويس، حياته، وحملاته على مصر والشام، ترجمة د. حسن حبشى، الطبعة الاولى، القاهرة ١٩٦٨م. ص ، ٩٦.
ـ محمد محمد أمين: المرجع السابق، ص ١٢٦.
(٤) رنسيمان : المصدر السابق، حـ٣، ص ٤٥٣..
ـ محمد محمد أمين : المرجع السابق، ص ١٢٦.
(٥) حسن حبشى: الشرق العربى بين شقى الرحى، وحملة القديس لويس على مصر والشام، ص ٤٨.
ـ جوزيف نسيم: لويس التاسع فى الشرق الاوسط ، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٥٩م، ص ٤٢.

وفى ابيب سنه ثمان مايه اربعه وتلتين للشهدا، وهى السنه الخامسه عشر لبطركية الاب القديس انبا مقاره البطرك، وصل بردويل(*) [بلدوين] مقدم الفرنج فى عسكر عظيم الى الفرما فنهبها واحرقها، وعول على الهجوم الى مصر بغته فمرض، وفى ثالث يوم اشتد مرضه فامر اصحابه ان يحملوه ويعودو الى الشام فحملوه وعادو، فلما وصلو الى العريش مات هناك فشقو بطنه وملحوه

(*) حدثت حملة بردويل على مصر فى عهد الخليفة الأمر لأحكام الله سنة ١١١٧م = ٥١١هـ. وقد أطلق اسمة على بحيرة توجد فى شمال سيناء على البحر المتوسط.

الكبير الى كنيسة كتدرائية كاثوليكية [١]، دشنها القاصد الرسولى فى الحملة باسم كنيسة نوتردام (السيدة العذراء)، وعينوا لها أسقفا لاتينيا يدعى جيل [٢]، وحولوا قبة فاتح الأسمر المقابلة للجامع الى مكان للمعمودية [٣]، كما جعلوا جميع مساجد المدينة كنائس، ووهبوها لشتى القديسين والقديسات [٤]. كما خصصت بعض أحياء المدينة لسكنى الجاليات الايطالية التى اشتركت فى الحملة [٥].

ويذكر البعض أن لويس التاسع عامل المسيحيين الوطنين من الاقباط اليعاقبة معاملة طيبة كما يدعوا أنهم رحبوا بحكمه[٦]، استنادا الى نص التقرير الذى وضعه الكونت دى شامبانى عن الحملة، حيث يقول فيه «وعلمنا أنه بينما كان لويس يستعد لمحاصرة دمياط قام المسلمون بقتل النصارى القاطنين بالمدينة بلا شفقة ولا رحمة، وفى اليوم التالى وجد الصليبيون مدينة

(١) زيادة: المرجع السابق، ص ١١٩.
- جوزيف نسيم: المرجع السابق، ص ٤٢.
(٢) جوانفيل: المصدر السابق، ص٩٨.
(٣) زيادة : المرجع السابق، ص ١١٩.
(٤) حسن حبشى: المرجع السابق، ص ٤٨.
(٥) زيادة : المرجع السابق، ص ١٦٩.
(٦) رنسيمان : المرجع السابق، حـ٣، ص ٤٥٣.
- جاك تاجر: المرجع السابق، ص ١٦٩.

[حنطوه] كما اوصاهم، وعادو به الى القدس. وكان السيد الاجل الافضل [ابن بدر الجمالى] لما بلغه وصولهم الى الفرما جرد اليهم عسكر عظيم، فلما مات بردويل مقدمهم وعادو تبعهم العسكر الى الشام وعاد. وقد كفانا الله امرهم، نساله جل اسمه دوام رحمته ونعمته ويلهمنا شكره ولا ينسيلنا [ينسينا] ذكره بجوده ومجده.

ولما كان يوم الاحد النصف من كيهك سنة

دمياط خاوية ، أما النصارى الذين فروا من المدينة ونجوا من القتل فقد عادوا اليها، واعملوا سيوفهم فى رقاب المسلمين الذين لم يلحقوا بالجيش الاسلامى المتقهقر، فان هؤلاء النصارى خفوا الى استقبال الصليبيين الذين اعتبروهم كأخوانهم وأشركوهم فى موكب انتصارهم» (١).

الا أنه ينبغى علينا أن نأخذ ما جاء فى هذا التقرير الذى وضعه الكونت دى شامبانى أحد قادة الحملة ـ بكثير من الحذر، فيما يتعلق بأقباط دمياط، لأن التقرير صادر من جانب واحد، وهو الجانب الصليبى المعتدى والمتعصب، الذى يهمه أن يضفى على الاحداث ما يتوهم أنه فى صالحه. ومن الجدير بالذكر أن المصادر التاريخية الشرقية اسلامية كانت أم نصرانية، وبعضها معاصر للاحداث وقريب منها، لم تعطنا أية معلومات عن موقف أقباط دمياط من هذه الحملة. ولو حدث أنهم انحازوا الى الجانب الصليبى، لأفاضت المصادر فى القاء الضوء على موقفهم هذا، وكان لهذا الموقف من جانب نصارى دمياط ردود فعل من جانب المسلمين كان لابد من أن تشير اليها المصادر المعاصرة.

واذا كان الصليبيون قد خرجوا من مصر بعد هزيمتهم فى المنصورة وفارسكور بمقتضى

(١) جاك تاجر: المرجع السابق، ص ١٦٩، ١٧٠
ـ محمد محمد أمين: المرجع السابق، ص ١٢٦.

احدى عشر وخمسمايه الخراجيه، وهى سنة ثمان مايه ثمانيه وتلتين للشهدا، وهو سلخ شهر رمضان سنه خمس عشر وخمس مايه الهلاليه الذى فى غده يكون الفطر، ركب السيد الاجل الافضل من داره بمصر التى تسمى دار الملك وطلع الى القاهرة المحروسه ودخل الى القصر الشريف وجلس بين يدى مولانا الامر باحكام الله وعرضة [عرضت] عليه المضال [المظلات] والدواب والسروج وغير

الاتفاق الذى أبرم فى سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م [١]. فانهم خلفوا وراءهم عددا من الصليبيين الذين اعتنقوا الاسلام [٢]، كما عادت المساجد التى كانوا قد حولوها الى كنائس الى حالتها الاولى [٣].

علاقات الفاطميين والايوبيين ببلاد الحبشة

من الأمور الجديرة بالبحث موضوع العلاقات بين مصر والحبشة فى العصرين الفاطمى الثانى والأيوبى، تلك العلاقات التى كان لكنيسة الاسكندرية الدور الأكبر فى استمرارها وتدعيمها، فكنيسة الحبشة تعتبر «كبرى بنات الكنيسة القبطية» [٤]، ويرسم لها أساقفة مصريون بناء على طلب ملوكها، وكانوا دائما أبدا من القبط اليعاقبة، وتتم قداستهم فى الكنيسة المرقسية فى مصر [٥]، ولا يخرج هؤلاء الاساقفة من الديار المصرية الى الحبشة الا

(١) جوانفيل:المرجع السابق، ص ١٩٦.
ـ العرينى: المرجع السابق، ص ١٤٨، ١٤٩.
(٢) جاك تاجر: المرجع السابق، ص ١٧١.
(٣) زيادة : المرجع السابق، ص ٢٢٣.
(٤) سميكة : المرجع السابق، حـ٢، ص ١٤٧.
(٥) القلقشندى: المصدر السابق، حـ٥، ص ٣٢٢، ٣٢٣.

ذالك، وتخير منه ما يكون برسم الركوب فى غد ذالك اليوم، على جرى العادة فى مثله. وخرج من القصر وعاد الى مصر، فلما تجاوز سوق السيوفيين وراس الجسر خرج عليه ثلثة رجال لم يعرفوا، وقيل انهم من بلاد الشرق، فاستقبله اثنين منهم وبايديهم سكينتين، فلما راهم الغلمان بادروا اليهم بالسيوف فقتلوهم، وفى اشتغال الغلمان بقتلهما خرج اليه الثالث من زقاق دار الكتابه وضربه

بناء على أوامر السلطات الحاكمة للبطريرك القبطى بارسال مطران اليهم وبعد أن يرسل ملك الحبشة هداياه[1].

اذا جرت العادة حينما يريد ملك الحبشة أن يطلب مطرانا لبلاده، أن يرسل الى مصر رسالتين احداهما الى صاحب الأمر فى مصر والاخرى الى بطريرك الاسكندرية، ومع الاولى هداياه من العبيد والجوارى والمسك والعاج [2]، وبعض الحيوانات [3]، ومع رسالة البطريرك مبلغ كبير من المال يقدمه الاحباش لرأس الكنيسة القبطية، حينئذ يلتمس البطريرك الأذن من الخليفة أو السلطان أو من بيده الأمر فى مصر، ليقوم برسامة أحد الرهبان ممن يتوسم فيهم الصلاحية مطرانا للحبشة.

ويتضح من مصادر الفترة موضوع البحث أن ركنا أساسيا مما تضمنته الاتصالات بين مصر والحبشة دارت معظمها حول موضوع واحد هو ترسيم مطران جديد للحبشة عندما يخلو

---

(١) عاشور: بعض اضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى، ص ٩١.
(٢) ساويرس: المصدر السابق.
ـ عبد المجيد عابدين: المرجع السابق، ص ١٦٦.
(٣) الانبا ميخائيل: المصدر السابق، حـ٣، ورقة ١٥٠.

بسكين فقتله، وبادرو الغلمان اليه فقطعوه بسيوفهم وحملو السيد الاجل الافضل(*) الى دار الملك وهم يظنو انه حى، فلما صار فى الدار وجدوه قد مات، فلما بلغ خبره لمولانا الامر باحكام الله نزل من ساعته الى دار الملك واحتاط على جميع ما فيها من الاموال، وامر بكتمان وفاته فى تلك الليله عن الناس، وفى غد اظهر امره للوجود، وفى غداة يوم الثلثا اخرج تابوته فى السحر وجميع الناس

(*) قتل الأفضل ابن بدر الجمالى على يد عبد الله ابن محمد البطايحى بايعاز من الخليفة الآمر باحكام الله وتولى الوزارة مكافأة له. ولكن الآمر قبض عليه سنة ٥١٩هـ = ١١٢٥م وسجنه ولم يصبح من بعده وزير فى مصر حتى وفاة الخليفة الآمر مقتولاً سنة ٥٢٤هـ= ١١٣٠م.

الكرسى الأسقفى فيها (١). وفى المقابل كان الاحباش فى العصور الوسطى على حد قول القلقشندى «يدعون أنهم يحفظون مجارى النيل المنحدر الى مصر، ويساعدون على اصلاح سلوكه تقربا الى صاحب مصر (٢)».

ومن ثم يتضح لنا أن الأسقف المصرى الذى تعينه الكنيسة المصرية مطرانا على الحبشة كان له مكانته الموموقة والمقدسة فى بلاد الاحباش. كما كان له نفوذه وسيطرته الروحية ليس فقط بالنسبة للاحباش المسيحيين بل لدى ملك الحبشة وبلاط المملكة، فالى جانب رئاسة الأسقف المصرى للكنيسة الحبشية وترسيمه للقسس والشمامسة من أهل البلاد، ورئاسة الاحتفالات الدينية الكبرى فى الحبشة (٣)، فقد صار لهذا للاسقف المصرى مهام سياسية. فمطران الحبشة هو الذى يقوم بتتويج كل ملك جديد يعتلى عرش مملكة الحبشة، ويرأس الاحتفال الكبير الذى يقام فى تلك المناسبة، ويمسح بيده على رأس الملك الجديد ليباركه(٤).

(١) عاشور: بعض اضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى، ص ١٣.
(٢) القلقشندى: المصدر السابق، حـ٥، ص ٣٢٣.
(٣) أبو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ١٣٢، ١٣٣.
(٤) القلقشندى: المصدر السابق، حـ٥، ص ٣٠٨.
- عاشور: بعض اضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة، ص ١٣ نقلا عن ابى صالح الارمنى، ص ٢٨٦، ٢٨٧.

يمشو حوله حفاه، وخرج مولانا الامر خلد الله ملكه راكب خلفه بثياب غسيل وعمامه حمدانيه بذوابه حتى وصل الى تربة والده بظاهر القاهره خارج باب النصر فصلى عليه ودفن فيها. وعاد مولانا الى دار الملك بمصر واقام فيها سبعة عشر يوم(*) حتى حمل جميع ما فيها من الاموال والجواهر والذهب والفضة والملابيس والفرش والاثاث والالات الى القصر. ويقال ان المال الذى

(*) في بعض مصادر هذه الفترة قبل أن الآمر بأحكام الله استمر اربعين يوماً بلياليها بنقل الأموال.

ومطران الحبشة هو الذى يصحب ملكها في حروبه وغزواته ليبارك تحركاته ويضمن له النصر، ومطران الحبشة هو الذى يضفى على القوانين الملكية صيغتها القانونية، وعن طريقة يصدر قرار الحرمان ضد أى شخص يغضب عليه فيصير ذلك الفرد محروما من الكنيسة مطرودا من رحمتها [(١)].

ومن ثم فان أهل الحبشة على اختلاف طبقاتهم كانوا يخفون الى الترحيب بكل مطران جديد موفد اليهم من مصر، فيخرجون في موكب هائل لاستقباله، وعلى رأسهم الملك وكبار رجال الدولة [(٢)]، وينتظرونه على مسيرة ثلاثة أيام من العاصمة ، فاذا رأوه خروا ركعا أمامه، ونثروا فوق هامته الذهب، وأحرقوا حوله البخور، ونشروا فوق رأسه مظلة من القماش الثمين الموشى بالذهب ومشوا خلفه حتى يصل الى الكنيسة ليصلى بهم[(٣)].

واذا كانت هذه مكانة الأسقف المصرى المرسم على الحبشة فما بالك بمكانة بطريرك الاسكندرية خليفة مار مرقس عند ملوك الحبشة وشعبها.

ومن ثم فان أهل الحبشة على اختلاف طبقاتهم كانوا يخفون الى الترحيب بكل مطران

(١) عاشور: المرجع السابق، ص ١٤.
(٢) اريس حبيب: المرجع السابق، حـ٣، ص ١٢٦، ١٢٧.
(٣) اريس حبيب: نفس المرجع، حـ٣، ص ١٢٦.

وجد عيناً فى الاكياس اربعه الف الف دينار، وما سوى ذلك مما تقدم ذكره مع السلاح والدواب، ما [لا] يعرف قيمته. وصار مولانا عليه السلام(*) يجلس كل يوم فى قاعة الذهب بالقصر السعيد للنظر فى امور المملكة، ورجال الدوله والقايد الاجل ابو عبدالله واخوته بين يديه لتنفيذ الامور، والركوب معه فى كل يوم سبت ويوم الثلثا الى البساتين والمناظر بضواحى القاهرة وظاهر مصر.

(*) لاحظ هنا عبارة «عليه السلام» وقيمتها ومعناها فى المعتقد الفاطمى.

جديد فلا عجب أن تركزت غالب الاتصالات بين مصر والحبشة فى العصرين الفاطمى الثانى والأيوبى حول موضوع رئيسى واحد هو ترسيم مطران جديد للحبشة عندما يخلوا الكرسى الأسقفى فيها. كما تناولت بعض الاتصالات أوضاع المسلمين فى الحبشة(١)، وأهمية رابطة النيل بين البلدين(٢).

وفى العصر الفاطمى الثانى، وأثناء وزارة بدر الجمالى كثرت المراسلات بين مصر والحبشة، وكثر الوافدون من الحبشة على دار البطريركية فى القاهرة. وقد استخدم البطريرك نفوذه لدى الاحباش لتدعيم العلاقات بين البلدين (٣)، كما وقف بدر الجمالى منذ عهد خريستودولوس يساند البطريركية عندما قررت عزل من يدعى قوريل الذى اغتصب كرسى المطرانية فى الحبشة، بعد وفاة الانبا بقطر مطرانها المعتمد لدى كنيسة الاسكندرية، بل ان بدر الجمالى اعتقل قوريل هذا فى خزانة البنود، عندما قبض عليه وأرسل الى مصر، ضرب عنقه، ثم صرح بدر الجمالى للبطريرك كيرلس الثانى برسامة راهب قبطى يدعى ساويرس السابق الاشارة اليه، مطرانا على الحبشة، بعد أن وعد أمير الجيوش «بمواصلة الهدايا من هناك وبدء

(١) ساويرس: المصدر السابق.
(٢) المقريزى: الخطط، حـ٢، ص ٤٩٦.
(٣) ساويرس: المصدر السابق.

واستمر على ذالك بقية شهور سنه خمس عشر وخمسمايه الهلاليه.

ولما كان في سنه ستة عشر وخمس مايه [الهلالية] اخلع مولانا، خلد الله ملكه، على القايد الاجل عبدالله [البطايحى] وقلده الوزاره وتدبير مملكته والنظر في امور رجال دولته وكتب له بذالك سجل معظم وذكر فيه القابه ونعوقه [نعوته] ومن جملتها السيد الاجل المامون، الى ان عول على قتله اذا خلا به في قصره، فاتضح له

الملوك تطيعه»، وأن يتعهد المسلمين فى الحبشة برعايته، ويوصى بهم، وأن يبنى بالحبشة أربع مساجد للمسلمين[1].

على أن ساويرس المطران الجديدة للحبشة لم يستطع أن يفى بالتعهدات التى قطعها على نفسه أمام بدر الجمالى فيما يخص حسن معاملة المسلمين، ولم يتمكن من بناء مساجد للمسلمين. كما أن هذا المطران أوفد أخاه بهدية «لم يحسن موقعها عند أمير الجيوش ولا أعجبته» [2] وزاد من غضب بدر الجمالى أن الاحباش ضايقوا التجار المسلمين فى تلك البلاد وفرضوا عليهم ضرائب ثقيلة أضرت بهم [3] مما أدى الى توتر العلاقات بين السلطات الحاكمة فى مصر وبلاد الحبشة كما توترت العلاقات بين الدولة فى مصر والكنيسة القبطية اذ احضر بدر الجمالى البطريرك كيرلس الثانى الى مجلس ، ومعه عشرة من الأساقفة، ووبخهم، وهددهم، لأن شيئا مما تعهد به المطران لم يحدث، ثم طرد البطريرك من مجلسه، وأمر بأخ مطران الحبشة فقبض عليه، واعتقله فى خزانة البنود، وفرض غرامة يومية مقدارها ديناران على كل أسقف حضرهذا اللقاء العاصف، وأساء معاملة النصارى، حتى قرر البطريرك ورجال

(١) ساويرس: المصدر السابق.

(٢) ______ : نفس المصدر.

(٣) يذكر أبو صالح الارمنى فى تاريخه انه كان فى بلاد الحبشة عدة كبيرة مسلمين ويقوموا بالجزية (أبو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص١٣٤).

ذالك بدلايل عرف صحتها وحقيقتها [فـ] سبق اليه وبادر بالقبض عليه وعلى اخوته واولاده ووالده في عشية يوم الجمعة الثالث من رمضان سنة تسعة عشر وخمس مايه، واعتقلهم في خزانه بالقصر السعيد موثوقين بالحديد والقيود. وبعد مدة مات حيدوه [حيدره] وبقي محمد ابن فاتك الملقب بالمامون.

وانتهى الى الخليفة ان محمد ابن فاتك المذكور

الكنيسة ارسال وفد من الاساقفة الاقباط الى ملك الحبشة، مع رسول من قبل أمير الجيوش[1]، حمل رسالة شديدة اللهجة الى ملك الحبشة تتطالبه بتنفيذ مطالب بدر، والا على حد قول بدر «هدمت البيع بأرض مصر» وقبل ملك الحبشة التحدى وأرسل الى بدر الجمالى يقول: «اذا هدمت من البيع حجر واحد حملت اليك طوب مكة وحجارتها جميعا وأوصلته اليك كله»[2].

ومات الانبا كيرلس الثاني سنة ٤٨١هـ، وخلفه على عرش البطريركية الانبا ميخائيل البطرك الثامن والستين والعلاقات بين مصر والحبشة على حالتها من التوتر. حتى اذا نقص النيل وهدد انخفاض الفيضان بمجاعة، أرسل الخليفة المستنصر بالله الفاطمى البطريرك ميخائيل بهديه سنية وتحف جليلة الى بلاد الحبشة ، فتلقاه ملكها[3]، على رأس موكب حافل ضمن كبار رجال دولته وشعبه، وسجد بين يديه[4]. وحين علم بالسبب الذى حدا بضيفه الكبير أن يحضر الى بلاده، أمر رجاله في الحال بتطهير مجرى النيل[5] وفتح السد

(١) ساويرس: المصدر السابق.
(٢) ساويرس: المصدر السابق.
(٣) المقريزى: الخطط، حـ٢، ص ٤٩٦.
(٤) سمبكة: المرجع السابق، حـ٢، ص ١٤٩.
(٥) القلقشندى: المصدر السابق،حـ٥، ص ٣٢٣.
ـ اريس حبيب: المرجع السابق، حـ٣، ص ١٢٦.

كان في ايام وزارته سير الى بلاد اليمن رجل من خواصه يعرف بابى الحسن نجيب الدولة على انه رسوله الى الحره (*) ملكة اليمن فى الظاهر، وقرر معه في الباطن ان يذيع عنه انه ولد ابن نزار ابن مولانا المنتصر بالله، وانه احق بالخلافه، وهو الان مقيما بها، وان يقيم له الدعوة هناك ويضرب له السكه باسمه هناك، فسير اليها الامام الامر باحكام الله احد الامرا وينعت باسد الدولة ومعه كتب الى

(*) الحرة ملكة اليمن: كان لأمراء الصليحيين باليمن علاقات ودية مع الخلفاء الفاطميين فى مصر، فلما تقلدت السيدة الحرة زمار الأمور فى اليمن بعد وفاة زوجها المكرم أحمد، ظلت تعمل جاهدة على شد أزر الدعوة الفاطمية فى اليمن، وكانت على اتصال وثيق بالخليفة الآمر، =

الذى يجرى منه الماء الى أرض مصر [١] تكريما وتقديرا لرأس الكنيسة المصرية [٢]، فزاد النيل فى ليلة واحدة ثلاثة أذرع، واستمرت الزيادة حتى رويت البلاد وزرعت» [٣].

كما نجح هذا البطريرك ميخائيل فى أن يقيم علاقات ودية بين ملك الحبشة والسلطات الحاكمة فى مصر، ومن ثم توثقت العلاقات بين الدولتين [٤]، وعندما عاد البطريرك الى مصر ـ بعد أن مكث فى الحبشة عدة أسابيع ـ خلع عليه المستنصر بالله وأحسن اليه [٥].

ومن الجدير بالذكر أن الانبا ميخائيل البطريرك الثامن والستين فى سلسلة بطاركة الاسكندرية كان أول من سافر الى بلاد الحبشة من بطاركة الكنيسة المصرية [٦].

ولم تمض فترة وجيزة على عودة الانبا ميخائيل الى مصر، حتى وفد رسول من ملك الحبشة الى الافضل بن بدر الجمالى وزير الخليفة المستعلى بالله، يلتمس تعيين مطران جديد لبلاده، وأن يسيره اليه مع رسوله ، ولما كان الأمر عاجلا، فقد بادر البطريرك القبطى على

(١) المقريزى: الخطط، حـ٣، ص ٤٩٦.
(٢) سميكة: المرجع السابق، حـ٢، ص ١٤٩.
(٣) المقريزى: الخطط، حـ٢، ص ٤٩٦.
(٤) اريس حبيب: المرجع السابق، حـ٣، ص ١٢٧.
(٥) المقريزى: الخطط، حـ٢، ص ٤٩٦.
(٦) اريس حبيب: المرجع السابق، حـ٣، ص١٢٧.

الحره، فلما وقفت عليها وعرفت قضيت [قضية] حال ابوا الحسن المذكور لم تزل تتحيل بسياستها الى ان قبضت عليه وسيرته الى مصر، فلما وصل يوم الثلثا العاشر من محرم سنه احدى عشر وخمسمايه استشهد [شهّر] فى القاهره ومصر وهو راكب على جمل وتحته دكه وعلى راسه طرطور رصاص مزوق، وعلى كتفه قرد، وفى يده مراه تريه وجهه، وخلف ظهره رجال [رجل من] العوام وفى

= فتبودلت بينهما الكتب والرسايل، وأظهرت ولاءها لهذا الخليفة فاعترفت بامامته، كما اعترفت من قبل بامامة أبيه المستعلى، وأقامت الدعوة لهما مما ساعد على احتفاظ الفاطميين بسيادتهم على بلاد اليمن. وكان الخليفة الآمر حريصاً على أن تظل موالية لأبنائه من بعده، فلما رزق أبنه ابا قاسم الطيب، كتب إلى السيدة الحرة بأمرها أن تذيع هذا الخبر بين أهالى بلاد اليمن .

عجل برسامة راهب يدعى جرجس مطرانا للحبشة، غير أن هذا المطران أساء السيرة، وتعداها الى أمور قبيحة، فقبض عليه ملك الحبشة، وأعاده الى مصر وكتب الى الوزير الأفضل يشكو ما فعله المطران، فاعتقل الأفضل المطران، كما بادر البطريرك بخلعه، وقام برسامة مطران جديد وسيره الى الحبشة (١).

وفى عهد الخليفة الحافظ لدين الله توترت العلاقات بين الكنيسة المصرية والحبشة واصطدم ملك الحبشة بالبطريرك غبريال بن تريك الذى رفض الاذعان لرغبة الملك برسامة أسقف أكثر من العدد المتفق عليه بين كنيستى الاسكندرية والحبشة، وأرسل ملك الحبشة يطلب تدخل السلطات الحاكمة فى مصر، وسأل الخليفة الحافظ لدين الله أن يأمر البطريرك بترسيم أكثر من سبعة أساقفة للحبشة، غير أن البطريرك اعتذر للخليفة، وأوضح له أن تعيين أكثر من سبعة أساقفة فى الحبشة، سيمكن الأحباش من ترسيم مطران لكنيستهم دون الرجوع الى الكنيسة المصرية مما يعنى استقلال كنيسة الحبشة وانفصالها عن أمها كنيسة الاسكندرية، وخروج الاحباش عن طاعة بطاركة مصر، وبالتالى أضعاف العلاقات بين البلدين، فضلا عن أن

(١) ساويرس: المصدر السابق.
ـ سميكة : المرجع السابق، حـ٢، ص ١٤٩.
ـ اريس حبيب: المرجع السابق، حـ٣، ص ١٢٨.
ـ منير شكرى: المرجع السابق، ص ٢٧١.

يده نعال وهو يبطش به [يضربه على قفاه] طول الطريق الى ان وصل الى القصر الشريف، واعتقل عند صاحبه محمد ابن فاتك.

اسال الله جلت قدرته وتعالى ذكره ان يرزقك ايها الاب الراهب ابن يوحنا النفيس الشماس الابصلمدى النعمه والامن والكفايه بشفاعه السيده البتول الطاهره مرتمريم والدة الخلاص [الخلصاء] وكافة الشهدا والقديسين.

الاحباش سيقومون بمحاربة المسلمين المتاخمين لبلادهم، ومن ثم اقتنع الخليفة ووافق على رأى البطريرك فى عدم رسامة أساقفة جدد لمملكة الحبشة (١).

وفى عهد الخليفة الظافر بالله، وأثناء وزارة الوزير على بن اسحق ابن السلار، اغتصب عرشى الحبشة مغتصب فوبخه الانبا ميخائيل مطران الحبشة على سوء فعلته ، فغضب مغتصب العرش لذلك (٢) ، وأرسل الى الوزير ابن السلار يطلب مطرانا جديدا للحبشة بدل المطران الموجود بها والمسمى أنبا ميخائيل، الا أن الانبا يوحنا الخامس البطريرك الثانى والسبعين للكنيسة القبطية امتنع، واعتذر لوزير العادل بن السلار، بأن الشريعة المسيحية تحرم عزل رجال الكهنوت من مناصبهم بغير سبب جوهرى، فغضب العادل، وأمر باعتقال البطريرك فى سجن دار الوزارة، ولم يفرج عنه الا بعد مقتل ابن السلار فى شهر المحرم سنة ٥٤٨هـ (٣).

واستمرت العلاقات ودية وطيبة بين مصر والحبشة حتى نهاية العصر الفاطمى، حتى اذا انتقلت السلطة الى صلاح الدين، بادر ملك الحبشة باجراء اتصالات مع نظام الحكم الجديد

(١) ساويرس: المصدر السابق.
ـ سميكة : المرجع السابق، حـ٢، ص ١٤٩.
(٢) اريس حبيب: المرجع السابق، حـ٣، ص ١٦٣.
(٣) ساويرس: المصدر السابق.

الاب غبريال ابن تريك البطرك
وهو من عدد الابا السبعون
[١١٣١/١١٤٥م]

هذا الاب الجليل غبريال ابن تريك كان من اهل مصر من نسل شريف من اعيان الكتاب، جلس على كرسى البطركيه اربعه عشر سنه وسته شهور، وتنيح فى العاشر(*) من برموده سنه اثنين وستين وثمان مايه للشهدا، الموافقه للحادى عشر

(*) ١٠ برموده ٨٦٢ = ١١ شوال ٥٣٩هـ = ١١٤٥م.

فى مصر، فالمقريزى يذكر أنه فى ذى الحجة سنة ٥٦٧هـ «وصل رسول متملك الحبشة بهدية وكتاب الى الخليفة فقرئ كتابه وأخذت هديته» [١].

ومن ثم بادل صلاح الدين الاحباش ودا بود، وحافظ على العلاقات الوثيقة بين مصر والحبشة، وحرص على تدعيمها، فعندما فتح البيت المقدس سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م. وطرد الصليبين من المدينة المقدسة، رد الى الاحباش أماكنهم التى اغتصبها الصليبيون منهم، وأبدى كثيرا من التعاطف ازاء الرهبان الاحباش وديرهم بالقدس [٢]، وشمل الحجاج الاحباش برعايته، وأمر باعفائهم من أية ضرائب مقابل زيارتهم للاماكن المسيحية المقدسة فى بيت المقدس ووفر كل الرعاية للاحباش لأنهم«من جيرانه» [٣]، وقد تمسك الاحباش بهذا الحق منذ صلاح الدين وطوال العصر الايوبى، وطالبوا خلفاءه من سلاطين الأيوبيين من بعده

(١) المقريزى: السلوك، حـ١، ق١، ث ٤٨.
(٢) دير الحبش بالقدس: ملاصق لكنيسة القيامة فوق مغارة الصليب، وقيل أنه جزء من دير السلطان للاقباط، ذلك الديرالذى لم ينقطع الخلاف حوله بين الاقباط والاحباش منذ سنين (عارف العارف: المرجع السابق، ص ٢٥٤).
(٣) ديمترى رزق: المرجع السابق، ص ٢٢.
- المرجع السابق، ص ٨٠.
- اريس حبيب : المرجع السابق، حـ٣، ص ١٩٣.

من شوال سنه تسع وثلثون وخمس مايه الهلاليه.
وكان اسمه وهو علمانى ابو العلا، شماسا فى
كنيسه القديس ابو مرقوره [أبو سيفين] بمصر،
رجل كهل عاقل صالح عالم خبير ذات [ذا] سيره
جميله وصدقه كثيره وبر ومعروف، محبا
للصلوات والقداسات، وخدمة الكنايس والغربا
والمرضى، مفتقد الارامل والايتام ومن فى السجون
والضيق، ومجتهد فى قراه الكتب وتفسير معانيها

باعفائهم من أى رسم مقابل السماح لهم بالتردد على الاماكن المقدسة فى فلسطين[١]. كما دأب ملوك الحبشة على ارسال الاموال والهدايا الى دير الاحباش بالقدس طالبين من رهبانه الدعاء والبركة [٢].

كذلك يتحدث بعض الباحثين الاقباط عن وجود دير للاحباش فى وادى النطرون فى مصر، قبل نهاية القرن الثانى عشر الميلادى (قبل نهاية القرن السادس الهجرى أى فى العصر الأيوبى) وأن الاقباط وهبوا لهم هذا الدير. كما يرى هؤلاء البعض أن الرهبان الاحباش خلال هذا القرن كانوا يشاركون الرهبان النوبيين دير ايليا، وكان دير الاحباش هذا يجاور دير القديس يوحنا بوادى النطرون، وأنه قد نشأ بين الرهبان الاحباش والرهبان المصريين فى هذا الوادى رباط من الألفة والمحبة [٣]. كما سافر الى الحبشة كثير من الرهبان المصريين، وحملوا معهم بعض كتب الصلوات والطقوس الدينية، فضلا عن سير الآباء والقديسين، وقد ترجمت هذه الكتب الى لغة الاحباش وصارت لاتخلوا منها كنيسة أو دير، كما صادفت رواجا كبيرا بين

(١) عاشور: أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى، ص ٢٢.
(٢) عاشور: المرجع نفسه، ص ٢٤.
(٣) منير شكرى: المرجع السابق، ص ٢٦٩، ٢٧٠.

والبحث عنها، ناسخ جيد قبطي وعربي، ينسخ لنفسه كتب كثيره ومجلدات اشتراها من كتب العتيقه والحديثه مما يصلح للبيعه المقدسه والدين المسيحي، وكان يخدم في ديوان المكاتبات وقت، وفي بيت المال وقت. ومن كتابة بيت المال اخدوه لما وقع عليه الاتفاق وكرزوه بطركا، وكان عمره في ذلك الوقت سبعه واربعين سنه. وكان المساعد في قسمته مع الاراخنه الشيخ ابى البركات ابن ابى

الاحباش، الأمر الذى أدى الى تقوية الروابط الروحية بين مصر والحبشة بالاضافة الى تدعيم الصلات بين الكنيستين المصرية والحبشية في ظل المذهب الارثوذكسي (١).

وفي عهد السلطان الملك العادل أبو بكر بن أيوب، أرسل ملك الحبشة مبعوثا يحمل هدية جليلة لسلطان مصر وكتابا اليه بأن يتقدم للبطريرك برسامة مطران جديد للحبشة لوفاة المطران الذى عندهم. فاختار البطريرك يوحنا السادس الانبا كائيل بن الملبس ورسمه مطرانا للحبشة، غير أن هذا المطران،عاد الى مصر بعد أربع سنوات هربا من الاحباش الذين أرادوا قتله. ولما أرسل البطريرك رسولا من قبله الى الحبشة ليقف على حقيقة الأمر، أخبره الاحباش أن المطران الهارب قتل واحدا من القسس بالحبشة، وأساء السيرة، وبنى قصرا منيفا أحاطه ببستان كبير غرس فيه الاشجار وحفر له جداول الماء، ومهد داخله الطرقات والدهاليز، واحتجب عن الناس، وصار لا يخرج الا يوم الأحد في غاية الابهة في موكب عظيم، على بغلة عالية، وعلى رأسه مظلة، وحوله غير الخدم نحو خمسمائة من الحراس (٢).

وأرسل ملك الحبشة آنذاك المسمى «لاليبلا بن شنوده» رسولا الى السلطان الملك العادل،

(١) عاشور: اضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة في العصور الوسطى، ص ١٠.
(٢) ساويرس: المصدر السابق.
ـ سميكة: المرجع السابق، حـ٢، ص ١٥٠.

الليث الملكى صاحب ديوان التحقيق ومن حضر من الاسكندرانيين بمصر، لان النوبه كانت لهم، وطلع به الى كنيسه المعلقه في يوم الثلثا التاسع من امشير من سنه سبع واربعين وثمان مايه للشهدا، فدهنوه ومضو به في عشارى موكبى الى اسكندريه واوسموه بطركا، وذلك في ايام احمد ابن الافضل ابن امير الجيوش ويسمى شاهنشاه.

وذكر مولف هذه السيره وهو الاب مرقس ابن

وصل الى مصر سنة ٦٠٦هـ، ومعه هدايا جليلة من جملتها: فيل، وسبع ، وزرافات، وحمار وحشى، وتاج مرصع بالذهب، هذا الى جانب كتاب منه يلتمس ترميم مطران جديد، بدل المطران الذى عزلته الكنيسة وجردته من ألقابه، ولما كان السلطان الملك العادل فى الشام، فقد أمر ابنه الملك الكامل ـ نائب السلطنة فى مصر ـ البطريرك بسرعة ترسيم مطران للحبشة، وألا يؤخر الرسل الاحباش فى القاهرة، وعليه أن يرسلهم على وجه السرعة الى ملكهم ومعهم المطران الجديدة [١].

ولقد تركت مثل هذه العلاقات الطيبة أثرها الطيب فيما يتعلق بموقف الحبشة من أقباط مصر، اذ لجأ عدد كبير من الاقباط الى بلاد الحبشة، طلبا لحماية ملكها «لاليبلا»، على أثر إضطهاد الملك العادل أبو بكر للقبط وتدميره للمدن الساحلية المصرية مثل تانيس ودمياط وغيرهما سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م [٢]، وهرب سكانها وكثير منهم من الأقباط فرارا من الحصار الطويل والشديد الذى تعرضت له المدينة، وفرارا من المذابح التى ارتكبها الصليبيون ازاء أهل

(١) ساويرس: المصدر السابق.
ـ سميكة: المرجع السابق السابق، حـ٢، ص ١٥٠.
(٢) عاشور : بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة ، ص ٢٥.
ـ عبد المجيد عابدين: المرجع السابق، ص ١٦٦.

زرعـــــه(*) انه لـم يكن لاحـد من الاسـاقـفـه علم بقسمته ولا الرهبان ولا مشوره في امره لان كرسي البطركيه اقام خاليا سنين كثيره بعد وفاة انبا مقاره. واخبـر من يوثق به ان الجماعه التي اجتمعت من الاراخنه لطلب بطرك مـضـو الى دير ابو مـقـار فـاخـذوهم اولاد ابو مـقـار ومـضـو مـعـهم الى ابا يوسف القـديس السـرياني في دير السـريان لكي يشاوروه وياخذو بركته، وكانت نعمة الله حاله عليه

(*)مـؤلف هذه السـيـرة هو الاب مرقس ابن زرعه.

دمياط، وقد وفر الملك «لا ليبلا» الحماية لهؤلاء اللاجئين المصريين من بني ملته (١)، ورحـب بهم واكـرمـهم (٢)، على اعتبار أن بلاده من وجهة نظر الاحباش مركز الامبراطورية المسيحية المنيع والدرع الواقي لكل مسيحي يلوذ بها ويطلب حمايتها (٣).

واذا كان الصليبيون قبل قيامهم بحملة حنا دى برين، لم يفتهم أن يتصلوا بملك الحبشة ليتعاون معهم على حرب الاسلام والمسلمين عن طريق غزو الحجاز وهدم الكعبة وهو ما هدد به ملك الحبشة، الوزير الفاطمي بدر الجمالي من قبل(٤)، الا أن ظهور فكرة قيام تحالف أوروبي حبشي نشأت سنة ٦١٩ هـ = ١٢٢٢م بعد أن منيت حملة حنادى برين على دمياط بالفشل إذ أرسل جاك دى فترى. أسقف عكا رسالة الى ملك الحبشة، يدعوه الى تكوين تحالف أوروبي حبشي من أجل انقاذ الاماكن المقدسة من يد المسلمين، والقيام بحملة صليبية مزدوجة ضد مصر من الشمال والجنوب في وقت واحد تشترك فيها الحبشة.

الا أن هذا المشروع المقترح لم يكتب له الخروج الى حيز التنفيذ ولم يقدر له أن يتم، على الرغم من أن ملوك الفرنج حاولوا عدة مرات بحث تنفيذه.

(٣) عبد المجيد عابدين:المرجع السابق، ص ١، ١٧١.
(٤) عاشور: بعض أضواء على العلاقات بين مصر والحبشة، ص ٢٥
(٥) عبد المجيد عابدين : المرجع السابق، ص ١٧١.
(١) ساويرس : المصدر السابق.

ورروح القدس ساكنه فيه، وكان يخبر بالغيب، فلما تحدثو معه في امر البطركيه ومن يصلح لها، لان قوم منهم كانو تطاولو لها، فقال لهم ابا يوسف: ارجعو الى منازلكم فقد تعبتم في مجيكم الى هاهنا فان بطركم في مصر. واشار اليه واسماه لهم وقال لهم: هو فلان ابن تريك. فرجعو وفعلو كما قال لهم. وكذلك يقال عن البطرك انبا مقاره الذى كان قبله ان ابا يوسف هذا قال عنه مثل ذلك،

على أنه من الجدير بالذكر أن ظهور فكرة تحالف أوروبى صليبى مع الحبشة لم تغب عن ذهن الأيوبيين في مصر، مما دفعهم الى الحرص على استمرار قيام علاقات طيبة وودية للغاية مع الحبشة، وللحيلولة دون تنفيذ المشروع الصليبى، واقتضت هذه السياسة منهم معاملة المسيحيين من الحجاج الاحباش على وجه الخصوص معاملة طيبة، ومنحهم الامتيازات أثناء تواجدهم في الاراضى المقدسة بفلسطين، واعفائهم من الرسوم المفروض على الحجاج المسيحين عن زيارتهم للاماكن المسيحية المقدسة ورعاية دير الاحباش في بيت المقدس والاهتمام بأمر رهبانه والعطف عليهم (١) الى جانب ما يصلهم من الاموال والهبات من ملوك الحبشة (٢)، فضلا عن ذلك فقد حرص سلاطين الأيوبيين على الاهتمام بأمر الرهبان الاحباش في مصر ورعاية ديرهم ـ الذى وهبه الاقباط لهم بوادى النطرون (٣).

علاقة الفاطميين والأيوبيين ببلاد النوبة

يتسم كل من العصر الفاطمى الثانى والعصر الأيوبى في مصر بقيام علاقات دالة على

(١) عاشور: بعض اضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة، ص ٢٢.
ـ ديمترى رزق: المرجع السابق، ص ٢٢.
(٢) عاشور : بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة، ص ٢٤.
(٣) منير شكرى: المرجع السابق، ص ٢٦٩، ٢٨٥، ٢٨٦.

وكذلك الحبيس بابيار انه اخبر بذلك. وذكر من كان يعاشره من صباه ويخالطه من اترابه انه كان يعمل موضع من دار ابوه مثل كنيسه، وكان يقرا فيها كانه يقدس ثم يبارك على اهل دار ابوه، ويلعب وهو طفل ويقول لهم انا بطركم ويلبس مزره حرير كانت له مثل القصله. ولما كبر اقسم شماساً. ولله في خلقه اسرار لا يعلمها الا هو ومن يطلعه عليها من قديسيه ومحبى اسمه، وقد قال

حسن الجوار والمسالمة بين مصر الاسلامية والنوبة المسيحية اذ حرصت السلطات الحاكمة فى مصر على استمرار العلاقات الطيبة بين البلدين وتوثيقها لاعتبارات سياسية واقتصادية، كما حرص ملوك النوبة المسيحية على تقوية هذه العلاقات وتعميقها حفاظا على العلاقات والروابط القوية بين الكنيستين المصرية والنوبية، وتدعيما لمركز البطريرك القبطى والأقباط فى مصر [١].

على أن علاقات مصر بالنوبة شابها بعض التوتر فى بداية عهد بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر بالله الفاطمى، اذ يذكر مؤرخ «سير البيعة المقدسة» أن أحد الوشاة أبلغ بدر الجمالى ـ أثناء مسيره على رأس حملته الى الصعيد سنة ٤٦٩هـ للقضاء على ثورة كنز الدولة محمد فى أسوان ـ أن المدعو بقطر مطران كنيسة النوبة من قبل البطريرك خريستودولوس هدم مسجدا للمسلمين هناك، ولم يحرك ملك النوبة ساكنا بايعاز من البطريرك، فأسرع بدر الجمالى وأرسل من الصعيد كتابا لولده الاوحد فقبض على البطريرك، وزج به في السجن، وألقى عليه تبعة ذلك العمل، كما أنفذ بدر الجمالى الامير حسام الدولة رسولا الى ملك النوبة ليتحقق من صحة النبأ، وبعد حين عاد الرسول وقد اتضح أن الأمر لا يعدو أن يكون أكذوبة

(١) مصطفى سعد: المرجع السابق، ص ١٠٠، ١٤٢.

الرسـول: انه لا ياخـذ احـد كـرامـه من ذاته الا ان يعطاها من السمـا من عند الله، لان الله قال لارميا النبي: قـد جـعلتك نبـيـا وانت في بطن امك اصطفيتك للنبوة. وقال لحزقيال النبي: قد جعلتك مثل ناطور لهذا الشعب. وقال لموسى: قد جعلتك الاه فرعون. وقال لداوود النبي: اني امسحه ملكا وارفـعـه على جـمـيع ملوك الارض. ونظاير هذه الاقوال كثيره في الشريعه.

فحكم على صاحبها بالاعدام، وبرئ البطريرك، وأخلى سبيله[١]، وأغلب الظن أن ملك النوبة قد استخدم نفوذه في قصر الخليفة في مصر للافراج عن البطريرك[٢].

وحرصا من جانب مملكة النوبة على كسب مودة أمير الجيوش، أبدى ملك النوبة استعداده للتعاون مع مصر في الجهود الرامية لاعادة الأمن الى البلاد، فعندما ثار الزعيم العربي كنز الدولة في أسوان، وأعلن في سنة ٤٦٦هـ/ ١٠٧٣م استقلال امارته التام عن الدولة الفاطمية[٣]، وسيطر على اقليم الصعيد وأفسد فيه ونهبة[٤] ثم هرب الى بلاد النوبة ومعه أهله بعد آبادة معظم قواته على يد امير الجيوش[٥]، بادر بدر الجمالي بارسال الشريف سيف الدولة ومعه الأسقف «مرقورة» المعروف «بالوعواع» يحمل رسالة توصية من البطريرك القبطي خريستو دو لوس الى ملك النوبة، يطلبان منه باسم الخليفة الفاطمي تسليم كنز الدولة محمد

(١) الانبا ميخائيل: المصدر السابق، ورقة ٨٧.
ـ ساويرس: المصدر السابق.
ـ القوصي: بنو الكنز، ص ٥٥، ٥٦، ٥٨.
(٢) مصطفى سعد: المرجع السابق، ص ٩٩.
(٣) القوصي: بنو الكنز، ص ٥٦.
(٤) ساويرس: المصدر السابق.
(٥) القوصي: المرجع السابق، ص ٥٦.

ولما عاد هذا البطرك الى الجيزه بعد مجيه من اسكندريه طلع الى دير القديس ابو مقار ليكرزوه هناك على جارى العاده لمن تقدمه من البطاركه، جرى الحديث فى معنى الاعتراف[و] القول على القربان قبل تناوله وهو: اومن واعترف ان هذا جسد ربنا ومخلصنا يسوع المسيح الذى اخذه من والدة الاله مرتمريم العذرى وصار واحد مع لاهوته. فانكر قوم من الرهبان بالدير المذكور قول هذه

الى السلطات المصرية، وكان أن استجاب ملك النوبة ـ لاعتبارات سياسية ودينية ـ لمطلب الحكومة المصرية، وسلمها كنز الدولة [١] فى سنة ٤٧٤هـ تقريبا [٢] حيث أعدم بالقاهرة[٣] بل أننا نجد اثنين من أخوة كنز الدولة يلتمسا من ملك النوبة سالمون أن يتوسط لهما عند بدر الجمالى فى الصفح عنهما، والعفو عن بنى الكنز، وتقديرا لموقف ملك النوبة الطيب مع بدر الجمالى، قبل أمير الجيوش وساطته وعفا عن بنى الكنز، ورضى بعودة نفوذهم على منطقة امارتهم عند اسوان[٤]، وزاد أمير الجيوش فى اكرام الأب الانبا خرستودلوس البطرك ومراعاته»[٥]، وكان أن تدعمت علاقات مصر والنوبة فى جميع المجالات [٦].

وحرص بدر الجمالى على استمرار سياسة حسن الجوار والمسالمة مع مملكة النوبة وتدعيم علاقة مصر بالنوبيين فعندما علم أن والى قوص قبض على ملك النوبة سلمون سنة ٤٧٢هـ

(١) الانبا ميخائيل: المصدر السابق، ص ٨٧، ٨٨.
(٢) القوصى: المرجع السابق، ص ٥٨.
(٣) ساويرس: المصدر السابق.
(٤) القوصى: بنو الكنز، ص٥٩.
(٥) ساويرس: المصدر السابق.
(٦) ـــــ: نفس المصدر.

اللفظه الذى هي: «وصـــار واحـــد مع لاهوته»، لكونها مضافه. وذكرو انهم لم تجرى عادتهم يقولوها، فاعتذر بانه قالها في يوم تقدمته كما لقنوه الاساقفه الذين قدموه ولا يسوغ له تركها ولا النزول عنها لكونها لفظه صحيحه. وجرى في ذلك خطوب ومفاوضات استقر[في] اخرها اضافة الكلمات الاخر التى تقرر الحاقها بها وهى: «وصار واحد مع لاهوته بغير امتزاج ولا اختلاط»،

أثناء زيارته لبعض كنائس أسوان هرع بدر الجمالي وأمر بارسال ملك النوبة الى القاهرة معززا مكرما[1] حيث تلقاه كل من فيها من الامراء والمقدمين بالطبول والبنود والبوقات، ولما دخل القاهرة استقبله أمير الجيوش وأنزله فى دار حسنة، وحمل اليه الكسوة والفرش والآنية[2]، وبالغ فى اكرامه واتحفه بالهدايا الجليلة[3]، وكان يزوره فى كل وقت ويتحدث اليه[4]، أقام ملك النوبة مقدار سنة فى ضيافة بدر الجمالة [5] الى أن ادركته الوفاة فى مصر قبل أن يعود الى بلاده[6]، فدفن بالقاهرة فى دير القديس مار جرجس بالخندق[7].

وفى جو العلاقات الودية بين البلدين، كثيرا ما كان يلجأ ملوك النوبة الى السلطات

(١) ابن ميسر: المصدر السابق، حـ١، ص ٣٥.
(٢) ساويرس: المصدر السابق.
ـ أبو صالح الارمني: المصدر السابق، ص ١٢٤.
(٣) ابن ميسر: المصدر السابق، حـ٢، ص ٣٥.
(٤) أبو صالح الارمني: المصدر السابق،، ص ١٢٤.
(٥) أبو صالح الارمني: المصدر السابق، ص ١٢٤.
ـ بتشر: المرجع السابق، حـ٣، ص ٦٧.
(٦) ابن ميسر : المصدر السابق، حـ٢، ص ٣٥.
(٧) ساويرس: المصدر السابق.
ـ أبو صالح الارمني: المصدر السابق، ص ١٢٤.

فوافقهم على ذلك وقاله واستعملها الى الان. واتفق اكثر الناس على القول بها الا قوم من اهل الصعيد فانهم استمرو على عادتهم المعروفه فلم يعارضهم فى ذلك ولا جبرهم عليه.

وفى بدايه قسمته توفى انبا يونس اسقف مصر فى ربيع الاخر سنه ثمان وعشرين وخمس مايه الهلالية، وصلى عليه مع جماعه من الكهنه ودفنه فى [بركة] الحبش ولم يقسم احد بعده على مصر

المصرية يلتمسون وساطتها فى ما ينشب من خلاف بينهم وبين بطاركة الكنيسة المرقسية فى المسائل الدينية. مثال ذلك ما حدث عندما أرسل ملك النوبة باسيل سنة ١٠٨٩م وفدا فيه ابنه الى بدر الجمالى، يلتمس فيه و ساطته ومساعدته لتعين كنيسة الاسكندرية هذا الابن رئيسا دينيا للنوبة(١).

ولكن العلاقات مع النوبة ساءت فى عهد الأفضل بن بدر الجمالى، وينفرد المقريزى بالقاء الضوء على مظاهر التوتر والقطيعة بين البلدين فى حوادث سنة ٥٠١هـ دون أن يذكر السبب الذى أدى الى هذه القطيعة فقد حملت الاخبار الى القاهرة سنة ٥٠١هـ أن ملك النوبة قد حشد قواته على حدود مصر الجنوبية، «وتجهز برا وبحرا وعول على مهاجمة الصعيد، فسير الأفضل عسكرا الى قوص وأمر والى قوص بأن يسير بنفسه الى أطراف النوبة، للتصدى للقوات الغازية، غير أن الأخبار وردت القاهرة، بمقتل ملك النوبة بيد أخيه واضطرام الفتنة بين أبناء الاسرة الحاكمة حتى باد أهل بيت المملكة، وأجلس صبى فى الملك بادرت أمه فارسلت تستنجد بعفو الأفضل ، وتسأله الايسير اليهم من يغزوهم، فكتب الأفضل لوالى قوص «بأن يسير عسكرا الى أطراف بلاد النوبة ويبعث اليه رسولا يجدد عليهم القطيعة الجارى بها العادة

---

(١) ساويرس: المصدر السابق.
ـ البراوى: المرجع السابق، ص ٢٣٦ .
ـ المناوى: المرجع السابق، ص ٢٣٦ .

مده بطركيته، ومنع دفن الموتى فى الكنايس. ولما اتصل به تعدى قوم ومخالفتهم امره في ذلك وانهم دفنو بسوس القمص في كنيسه حاره الروم بالقاهره فانفد اغلق الكنيسه، واقامت مده مغلوقه ثم امر بفتحها بعد زمان بسوال [بتوسل] الاراخنه، وحمل جسد الاب انبا مقاره البطرك الذى كان قبله، وكان مدفون في كنيسه المعلقه بمصر بعد ان جدد عليه الصلاة ولفه فى عفاره حرير، وحمله

(يعنى البقط) وهى كل سنة ثلثمائة وستون رأسا رقيقا بعد أن يستخلص منهم ما يجب عليهم فى السنين المتقدمة، ويستطرد المقريزى قائلا: «فلما دخلت العساكر دخلوا تحت الطاعة، وكتبوا المواضعات، وسألوا فى الاعفاء عما يخص السنين الماضية ، وحملوا ما يتسر لهم، وعادت العساكر كاسبة[1] وان كان الملاحظ أن البيت الحاكم فى النوبة قد أصيب بالضعف، ولم تعد للنوبة ـ لفترة ليست بالقصيرة ـ القدرة على مناوأة الفاطميين أو الخروج على طاعتهم ـ ومن ثم عادت العلاقات الى الصفاء، ولم نعد نسمع أى احتكاك بين البلدين [2]، حتى نهاية الدولة الفاطمية وربما صارت أكثر عمقا عندما سيطر الأرمن والنصارى على مقاليد الأمور فى مصر أثناء وزارة بهرام الارمنى النصرانى. لدرجة أن الوزير بهرام عندما فر أمام رضوان بن وخشى سنة ٥٣١هـ الى الصعيد، حاول ومعه قواته ان يسيروا الى أسوان «فيملكونها ويتقوون بالنوبة أهل دينهم»[3]، ولكنهم لم يجدوا أية مساعدة من النوبيين[4] حتى لا تغضب السلطة الحاكمة فى مصر «بل حرص ملوك النوبة على استمرار العلاقات الودية مع الفاطميين، فكان ملك النوبة يرسل البقط والهدايا حتى لا يذهب جيش مصر الى النوبة ليؤذى

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا، حـ٣، ص ٤١.
(٢) المناوى: المرجع السابق، ص ٢٣٧.
(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا، حـ٣، ص ١٦٠.
(٤) المناوى: المرجع السابق، ص ٢٣٧.

الى دير القديس ابو مقار فى ثانى سنه من تقدمته، وجعله فى غشا ادم من فوق وكفنه، وامر ان يوخذ الغشا الادم بعد وصوله الدير ودفنه مع اجساد البطاركه، [و] يجعل فيه [أى الادم] جسد القديس ابو مقار الكبير، ويوخذ ما عليه يكفن به البطرك وفى أيام هذا البطرك بعد قتل احمد ابن الافضل الذى كان يسمى «كتيفات»، جلس الامام الحافظ فى الخلافه، وكان وزيره يانس[الارمنى]. ولما ملك

أهلها، وتوتر العلاقات(١) وحفاظا على الصلات القوية بين الكنيستين المصرية والنوبية وتدعيما لمركز البطريرك القبطى والاقباط فى مصر، الى جانب حرص السلطات الفاطمية فى مصر على استخدام نفوذ البطريرك ومكانته لدى ملك النوبة لتنظر بعين العطف والرعاية الى رعاياه من المسلمين (٢).

على أنه فى أعقاب زوال الدولة الفاطمية وفى بداية فترة انتقال السلطة الى صلاح الدين، وما صاحب ذلك من عدم الاستقرار فى مصر، واهمال ثغر أسوان، سار ملك النوبة فى ذى الحجة سنة ٥٦٧هـ الى القرى المتاخمة لثغر أسوان، على رأس عشرة آلاف من جنده، ونزل بعض النواحى وأسر من كان فيها من المسلمين (٣). ثم حاصر أسوان ونهب قراها سنة ٥٦٨هـ، ومع أن كنز الدولة فى أسوان تصدى للغزو النوبى الا أنه استنجد بصلاح الدين الذى بادر بارسال الامير الشجاع البعلبكى على رأس قوة لمؤازرة كنز الدولة، مما اضطر النوبيين الى العودة الى بلادهم، غير أن الشجاع البعلبكى تسانده قوات كنز الدولة،

(١) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقطها فى مصر، ص ٢٣٧.
(٢) مصطفى مسعد: المرجع السابق، ص ٩٩، ١٠٠.
(٣) المقريزى: الخطط، حـ١، ص ١٩٨.
ـــــ: السلوك، حـ١، ق١، ص ٤٨.

قتل صبيان الخاص الذى كانو اجناد الامام الامر [الآمر باحكام الله] لما قامت نفسه منهم لاجل انهم كانو قتلو من تقدمه. ولم يقيم فى الملك سوى سنه واحده وسموه فى ما[ء] عملوه له فى ابريق المرحاض، فلما استعمله تهرى تحته ووقع جوفه فمات.

فقام من اولاده رجل يسمى الامير حسن(*) وادعى الخلافه وبايعه قوم اسماهم صبيان الزرد،

(*) لما مات الوزير يانس الارمنى تولى الخليفة الحافظ الأمور بنفسه و لم يستوزر أحد فلما كان فى=

طارد النوبيين داخل اراضيهم، واشتبك معهم فى معركة وقتل كثيرا منهم وعاد الى القاهرة[1].

على أن صلاح الدين عاد فأرسل أخاه توران شاه فى جمادى الاولى سنة ٥٦٨هـ لغزو النوبة[2] ليس فقط بهدف القضاء على النصارى الأرمن الفارين الى النوبة[3]، ولكن ليتخذ من النوبة أيضا موئلا له ولأسرته اذا ما قرر نور الدين المسير الى مصر وطرد بنى ايوب[4]، وما لبث توران شاه ان توغل بقواته فى النوبة حتى وصل بلدة أبريم، على مقربة من وادى حلفا، فا ستولى على قلعتها، وأسر عددا كبيرا من النوبيين، وخرب كنيسة العذراء مريم التى هناك، وأمر بحرق الصليب الكبير الذى على قبة الكنيسة ثم حولها الى مسجد للمسلمين، وقبض على أسقف الكنيسة واعتقله فى قلعة مهجورة، وأساء معاملة من بها من رجال الدين كما ذبح سبعمائة خنزير، ونهب ابريم[5] ثم عاد

....

(١) العينى: المصدر السابق، حـ٢١، ورقة ٥٠٦.
(٢) ابن واصل : المصدر السابق، حـ١، ص ٢٢٩.
(٣) القلقشندى: المصدر السابق، حـ٦، ص ٥١٠.
(٤) ـــــ: لمصدر نفسه ، حـ٥، ص ٢٧٦.
(٥) أبو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ١٢١، ١٢٢.

وكانو من خلط الاجناد ومن جميع الطوايف، فقوى بهم وساعدوه فانعم عليهم وقدمهم واقطعهم البلاد وولاهم الولايات وجعلهم امرا دولته واجناده فقوى امره، وقبض على جماعه كبيره من امرا دوله ابوه وكان يحضرهم بين يديه بالليل ويضرب رقابهم ويدفع دورهم واموالهم لصبيان الزرد، واهلك عالم وخلق بالسيف من جميع الناس الامرا وغيرهم، وكان فى كل يوم

= سنة ٥٢٨هـ = ١١٣٣م عهد إلى ولده سليمان ـ وكان أسن اولاده وأحبهم إليه ـ و أقامه مقام الوزير، فمات بعد شهرين من ولاية العهد، فجعل مكانه حيدره فى ولاية العهد، فشق ذلك على أخيه الأمير حسن، وكان كثير المال وله عدة بلاد وحاشية وديوان مفرد، فسعى إلى نقض ذلك واوقع الفتنة بين الطائفة الجيوشية والطائفة الريحانية، وكانت الريحانيه قوية الشوكة فاشتعلت

الى أسوان بعد أن أقطع ابريم لرجل كان فى صحبته يعرف بالأمير ابراهيم الكردى(١).

وظل ابراهيم الكردى هذا ورجاله يواصلون شن الغارات على بلاد النوبة «حتى برحوا بهم واكتسبوا أموالا عظيمة وكثرت مواشيهم (٢)، الى أن مات ابراهيم الكردى غرقا سنة ٥٧٠هـ، أثناء احدى غاراته على النوبة، فرجع من بقى من رجاله الى ابريم وأخذوا جميع ما كان فيها وأخلوها، ومن ثم عاد النوبيون اليها وملكوها، وأنفذ ملك النوبة رسولا الى توران شاه ومعه الهدايا وكتابا فيه طلب الصلح، لكن توران شاه أعاد الرسول ومعه رسالة شديدة اللهجة الى ملك النوبة، كما أوفد معه رسولا من قبله يعرف بمسعود الحلبى، «وأوصاه أن يكشف له خبر البلاد ليدخلها» (٣)، وعاد مسعود بعد أن تجول فى دنقلة حيث سرير الملك، والكنائس الكثيرة (٤)، وتعرف على أحوال النوبة وبخاصة احوالها الاقتصادية فوجدها «بلاد

(١) أبو شامة: الروضتين، حـ١، ص ٢٠٨.
(٢) العينى: المصدر السابق، حـ١، ورقة ٥٠٦.
(٣) أبو شامة : الروضتين، حـ١، ص ٢٠٩.
ـ العينى: المصدر السابق، حـ٢١، و رقة ٥٠٦.
(٤) أبو صالح الأرمنى: المصدر السابق، ص ١٢١.

تصبح جماعه مقتولين بين القصرين اجساد بلا رووس حتى لا يعرفو. ولما تمكن وقوى خلع الحافظ ابوه من الخلافه وقبض عليه وقيده وسجنه.

وجرى فى ايامه بين العبيد السودان وبين الاجناد حرب عظيم فى موضع يسمى كوم الدرب قبلى مصر فى بلاد اطفيح، وقتل من السودان خلق كثير، وقبض الامير حسن على الاب البطرك انبا غبريال وصادره وسجنه فى خزانه البنود الى ان

نيران الحرب بين الفريقين فقتل بينهما ما يزيد على خمسة آلاف نفس وانهزمت الريحانية، واستظهر الأمير حسن وقام بالأمر وجنّد طائفة من العامة ووزع عليهم الزرد، وسماهم صبيان الزرد وجعلهم خاصته، وشرع فى تتبع الأكابر فقبض على أبن العساف وقتله، وقصد أباه الخليفة الحافظ وأخاه حيدره وحاربهما فقبل الحافظ أن يعينه وليا للعهد ولكن حسن استمر فى استبداده. وقتل قاضى القضاه

ضيقة ليس لهم الا الذرة وعندهم نخل صغار»[١] الا أن ملك النوبة أمر بمسعود الحلبى فكويت على يده هيئة صليب قبل أن يسمح له بمغادرة النوبة[٢].

والى هناك التزمت جميع المصادر الاسلامية والنصرانية الصمت التام فيما يتعلق بالعلاقات بين مصر والنوبة.

على أننا نرى أن ثمة علاقة ما بين ما حدث من غزو متبادل لاراضى البلدين سنة ٥٦٨هـ، وأسر لمواطنين مسلمين ومسيحيين من كلا الجانبين، وتخريب لكنيسة السيدة العذراء بابريم وتحويلها الى مسجد واعتقال أسقفها على يد توران شاه، وبين تلك السياسة المتشددة التى انتهجها صلاح الدين نحو أهل الذمة وبخاصة النصارى فى بداية مملكته فضلا عما فرضه من قيود صارمة على الكنائس ودور العبادة المسيحية بوجه خاص.

هذا ولم نعد نسمع عن أى احتكاكات بين النوبة ومصر طوال العصر الأيوبى، بما يفسر على أنه عودة الى العلاقات الطبيعية الطيبة بين البلدين، وأنه لم يحدث ما يعكر صفوها.

(١) المقريزى: السلوك، حـ١، ق١، ص ٥١.
(٢) أبو شامة : المصدر السابق، حـ١، ص ٢٠٩.
ـ العينى: المصدر السابق، حـ٢١، ورقة ٥٠٦.
ـ المقريزى: السلوك ، حـ١، ق١ ص ٥١.

قسطو له الكتاب من جواريهم [عوائدهم] وساعدوه التجار من اموالهم حتى حمل له الف دينار وخلصه الله من يديه. ولما اطلع الله على ظلمه وشره وقتله للنفوس وغصبه اموال الناس بغير حق اثار عليه جماعه من اجناد دولته فمضو الى الغربيه الى واليها، وكان رجل نصراني ارمني يسمى بهرام وينعت تاج الدولة، وكان مقدم الارمن لكونه ارمني من جنس ملوكها، ثم وصل الى ديار مصر

أبا الثريا نجم لأنه كان من خواص ابيه ورد القضاء لأبن ميسر. وقتل غيرهم من اكابر الدولة، فضج منه الجند واجتمعوا بين القصرين وهم عشرة آلاف وسيروا إلى الحافظ طالبين منه عزل ابنه حسن من ولاية العهد، فخاف حسن سطوتهم وعجز عن مقاومتهم فهرب إلى قصر ابيه الذى نجح فى اعتقاله وبعث إلى قواد الجند يخبرهم بذلك فأجمعوا على قتله فرفض الحافظ فأصروا على

نشوب الحروب الصليبية

استمرت الحروب الصليبية فى الشرق مائتى سنة تقريبا،من اواخر القرن الحادى عشر الى الثلث الاخير من القرن الثالث عشر. وقد كانت بصورة رئيسية حروب الفرسان . اسميت بهذا الاسم لان الذين اشتركوا فيها كانوا، حين يتجهزون لمحاربة المسلمين، يخيطون على ألبستهم ـ الصدر أو على الكتف ـ علامة الصليب من قماش احمر، رمزا للدوافع والاهداف والنوايا الدينية، وقوامها تحرير فلسطين، اى الارض المقدسة فى تصورات المسيحين، من سلطة الكفار،

ذلك واشتد طلبهم إياه حتى أحضروا الأحطاب والنيران ليحرقوا القصر وبالغوا فى التجرى على الخليفة، فلم يجد بدأ من اجابتهم إلى قتله، فطلب طبيه وهما:
أبو منصور اليهودى، وابن قرفة النصرانى، وبدأ بأبى منصور وفاوضه فى عمل سقية قاتله، فامتنع من ذلك، وحلف بالتواره أنه لا يعرف عمل شئ من ذلك، فتركه، وأحضر ابن قرفه وكلمه فى هذا، فقال: «الساعة، ولاينقطع منها جسده، بل تفيض النفس لاغير». فأحضر السقية

مع امير الجيوش بدر الجمالى عند مجيه من عكا فى ايام المستنصر بالله، واستمر فى خدمه الدوله فقدموه وولوه الولايات وهو باق على دينه، وكان عندهم جليلا موقرا لهم فيه راى جميل ومحبه فولوه الغربيه. فمضو اليه الاجناد واستصرخو به ورغبو فيه وسالوه ان يكون وزير وسلطان عليهم، فدخل معهم الى القاهره فاخذوه وملكوه بغير اختياره، فهرب الامير حسن واختفا وعاد ابوه الى

لان يسوع المسيح، مؤسس الدين المسيحى، كما تقول الاناجيل، قد ولد هناك، وعاش وصلب وسمر على الصليب.

ولكن المعاصرين كانوا يجهلون تماما مفهوم «الحرب الصليبية». ففى القرون الوسطى كان يشار الى الى هذه الحرب بمصطلحات اخرى ـ peregrinatio (الترحل، التطوف، التجوب) expeditio (الحملة) iter in Trram sanctam (الطريق الى الارض المقدسة)، «التجوب ما وراء البحار» «السير على درب الرب». اما مصطلح «الحرب الصليبية» («الحملة الصليبية»)، فقد ظهر على تخوم الازمنة الحديثة. ففى فرنسا، حسبما يبدو، كان المؤرخ فى بلاط لويس الرابع عشر، لويس ممبور، اول من استعمله، مسميا مباشرة بحثه فى هذا الموضوع «تاريخ الحروب الصليبية» (سنة ١٦٧٥)؛ وفى المانيا، كما يفترض، يعود تعبير «الحروب الصليبية» الى المفكر الشهير ليسينج.

ولكن هل من الصحيح الظن ان الحروب الصليبية لم تكن تنطوى دائما وبالنسبة للجميع إلا على الاهداف المعلنة فيها وعنها؟ واذا لم يكن من الصحيح، فما هى اذا الاسباب الحقيقة لذلك النزاع الذى لاسابق له ـ من حيث الابعاد والمدة ـ بين الغرب والشرق فى القرون الوسطى؟ وعم نجمت تطلعات اقطاعيى اوروبا الغربية فى اواخر القرن الحادى عشر

مـا كـان عليـه واسـتـوزر هذا الامـيـر وهو نصـرانيا. وجلس الحافظ يوم عودته الى خلافته في شـهور من سنه تسع وعشرين وخمس مايه الهلالية، وكان اخو تاج الدوله بهرام الوزير رجل قديس لا يرغب في الدنيا فقسموه بطركا للارمن في بلاده، ثم وصل الى مصـر وهو بطركـا لهم وكـان مشهور بالدين والعفاف والقدس والكرم والصدقه والرحمه وسموه انبا اغريغوريس، فلما

من يومه، فبعثها إلى ابنه حسن مع عدة من الصقالبة، ومازالوا يكرهونه على شربها حتى فعل ومات في العشرين من جمادى الأخرة سنة تسع وعشرين وخمسمائة = ٩ إبريل ١١٣٥م، فبعث الحافظ إلى قواد الجند يخبرهم بذلك، فأصروا على ان يشاهده واحد منهم، وندبوا منهم أميراً معروفاً بالجراءة والشر يقال له «المعظم جلال الدين محمد ـ ويعرف بجلب راغب الأمرى ـ» فدخل إلى القصر وصار جنب حسن فكشف عن وجهه، وأخرج من وسطة خنجر صار

- -

ومطامحهم العدوانية؟ واى دور لعبه في الوضع آنذاك الدين المسيحى الذى كان يسيطر على العقول والارواح في اوروبا الغربية، ولعبته الكنيسة الكاثوليكية التى كانت مركزا عالميا للنظام الاقطاعي؟ كيف تكونت العلاقات المتبادلة بين الغرب الكاثوليكى من جهة، والشرق الارثوذكسى والمسلم من جهة اخرى؟ ان دراسة هذه المسائل تتيح لنا ان نفهم المقدمات التاريخية والمنابع العميقة«للحروب المقدسة» التى خاضها الفرسان الاوروبيون فى الشرق.

ازمان الفتن

في القرن الحادى عشر، توطد نظام الاقطاعية والقنانة نهائيا في بلدان اوروبا الغربية. وفى الوقت ذاته اخذت المدن تظهر وتتنامى، ومعها بدأت العلاقات التجارية تتطور وتترسخ تدريجيا، لابين المدينة واقرب القرى الريفية اليها وحسب، بل ايضا على نطاق اوسع، اى بين تجار اوروبا الغربية (ولاسيما منهم الفرنسيون الجنويون والايطاليون) وتجار بلدان البحر المتوسط ومنها بيزنطية ومصر وسوريا ولبنان. ثم ان الاقتصاد الطبيعى، اخذ يتراجع شيئا فشيئا. وطفقت النقود تقتحم حياة المجتمع الاقطاعى ـ حياة الفلاحين الاقنان، وحياة الفرسان العائشين من ثمار عمل هؤلاء الفلاحين ـ بقدر اكبر فاكبر من التسلط والتحكم. ونظرا لذلك، تغير مستوى

يفرزه في عدة مواضع من جسده إلي أن تيقن من موته. وعندما سكنت الأمور قتل الحافظ ابن قرفة الطبيب النصراني وأنعم بجميع ما كان له على أبي منصور اليهودي، وجعله رئيس الأطباء. انظر: اتعاظ الحنفا، للمقريزى. ص ٣١٨. تحقيق د. جمال الدين الشيال، ١٩٤٨. القاهرة.

تنيح اقامو اخر عوضا منه بطركا في ديار مصر واسموه نانياس.

ثم لما تمكن الحافظ من خلافته دس بعض الامرا والاجناد ان يطلبو ولده الامير حسن ويقتلوه، وقرر ذلك مع كبار العسكر ومقدمين الدوله واوعدهم عليه بالانعام والاقطاعات، فاجتمع جميع الامرا والاجناد الى القصر ورمو فيه النشاب واحضرو حطب كثير، وقالو جميعهم صيحه

حاجات الطبقتين الطبيعية وتغيرت بنيتها. فمن قبل كان الاقطاعيون يكتفون بالجزية العينية والسخرة من الاقنان. ومع ظهور المدن، وتطور التجارة، تعاظمت شهوات الاسياد الاقطاعيين ومطامعهم، فصاروا اشد تطلبا، وطفقوا يزيدون سنة بعد سنة من ابتزاز الاموال، وإدخلوا هنا وهناك فريضة المدفوعات النقدية عوضا عن المدفوعات العينية، الامر الذى كان مرهقا اقصى بالنسبة للفلاحين. وعند جباية العوائد كان الاقطاعيون يتحكمون ويستبدون بملء هواهم. ومن جراء ذلك، كاد الفلاحون، فوق ما هم عليه من فقر، يتجاوزون باغلبيتهم حد البؤس المدقع، وينزلقون الى مهاوية.

وكانت الحروب الداخلية المتواصلة التى نشبت فى كل مكان فى القرنين العاشر والحادى عشر فى الغرب عاملا لايستهان به من عوامل املاق الريف. وفى ذلك الزمن، كانت بلدان اوروبا تعانى من سوء المواسم الزراعية، ومن شتى ضروب الكوارث الطبيعية. كما كانت المجاعة تسود فى كل المناطق. وبلغت الامور حتى اكل لحم البشر. فان الراهب المؤرخ رادولف جلابر، مثلا، يذكر حالات كانوا يأكلون فيها اجسام الموتى. وامسى الجوع يحل اكثر فاكثر فى الريف فى اواخر القرن الحادى عشر، اى فى ذلك الزمن العصيب الذى سماه المؤرخون «بالسنوات العجاف». وفى هذه السنوات التى سبقت الحروب الصليبية مباشرة. ومن سنة الى سنة،

الصليبيون يهاجمون ليلاً أحد حصون الشام

واحده: نريد الامير حسن تسلموه لنا والا احرقنا القصر وكلمن فيه. فطلبه ابوه الحافظ من اهل القصر وقال لهم: ان تاخر ساعه لا يظهر حرقونا واحرقو جميع قصورنا وهم اجنادنا واعواننا على من يناوينا وقد قامو علينا فاين لنا غيرهم يعيننا عليهم. فطلبوه سكان القصر من بعضهم بعضا الى ان ظفرو به واحضروه بين يدى والده الحافظ فلما راه بكا وقال له: يا ولدى قد غلبت عنك

اخذت المدونات والحوليات التاريخية تذكر بضن وشح، المعلومات ذاتها تقريبا. وقد نعت الراهب سيجبرت جامبلو سنة ١٠٨٩ بسنة «الطاعون»؛ فان وباء «الطاعون النارى» الذى ينشب عادة فى سنوات قحط الموسم الزراعى قد حمل الموت المؤلم الى العديدين من سكان اللورين، وحول كثيرين آخرين الى مشوهين ومقعدين. وفى السنة ذاتها ، وقعت هزات ارضية فى المانيا الشمالية وفى برابان؛ وفاضت الانهر فى بعض الانحاء ، الأمر الذى اشارت اليه حوليات دير القديس يعقوب وغيرها من المدونات التاريخية. وتذمر سيجبرت جامبلو من ازدياد جدب التربة فى سنة ١٠٩٠ واعرب عن المخاوف بصدد «الجوع الزاحف تدريجيا». وكتب المؤرخ الالمانى ايكهارد عن مرض رهيب اصاب الناس والمواشى معها فى سنة ١٠٩٢ ، ونجم الجوع عن نقص المنتجات الغذائية والاعلاف بسبب القحط الناشئ بدوره من برد الربيع. وفى اول ابريل تساقط الثلج. وكان صقيع وجليد سنة ١٠٩٣ . كما تميزت انجلترا بالعواصف وسوء الطقس: ففى الربيع كانت الفيضانات، وفى الشتاء جاء الصقيع القارص؛ وقد تجمدت وهلكت جميع المحاصيل. وفى السنة ذاتها كانت الغلة فى المانيا ضئيلة، وجاع الالمان.

وفى معرض الكلام عن الاحداث المشهورة فى سنة ١٠٩٤ ، اشار المؤرخون الى الوفيات

وعن روحى فعرفنى الحيله فى سلامتك فان دفعتك
لهم عاقبوك واهانوك ثم بعد ما يفعلوه بك يقتلوك
وكـانى ارى من وجـه صـلاح حـالى وحـالك ان
تمص هذا الخاتم فتموت فى سبيل الله بلا عقوبه
منهم. ثم رمى له بخـاتم مـسـمـوم يعـدوه الملوك
عندهم لمثل هذا الامـور الغـالبـه علـيـهم فـيـرون
الموت لهم اخـيـر من الحـيــاة فى يد اعــدايهم
وتحكمهم فيهم، فاخـذ الخـاتم فـمـصـه فـمـات

بالجملة من جراء الوباء الشامل الذى شمل بلدانا مختلفة. ففى ريجنسبورج، مات فى ١٢اسبوعا ٨,٥ آلاف نسمة؛ وفى احدى القرى مات فى ٦اسابيع ١٥٠٠ شخص، وفى قرية اخرى ٤٠٠ شخص . وانتقل الوباء من المانيا الى فرنسا وبورجانيا وايطاليا. ومن جديد تسببت الامطار الغزيرة للموسم الزراعى بضرر فادح. وفى اراضى هولندا استمرت الفيضانات من اكتوبر ١٠٩٤ الى ابريل ١٠٩٥. وفى فرنسا الجنوبية ، وجزئيا فى المانيا، كان الجوع قدخف، ولكنه انفجر بقوة جديدة فى فرنسا الشمالية وفى انجلترا. ويفيد الراهب والمؤرخ النورمندى، اورديريك فيتالى (الذى كتب فى القرن الثانى عشر، كتاباً اعتمد فيه عـلى شهادات شهود العيان، وعلى وثائق كثيرة. ان «الجفاف الرهيب حرق العشب فى المروج واباد السنابل والخضروات وتسبب بالتالى بجوع فظيع». وفى سنة ١٠٩٥ ، «كانت نورمنديا وفرنسا مرهقتين بنسبة عظيمة مـن الوفيات افرغت الكثير مـن البيوت، ودفع الجوع الناس إلى أقصى البلايا.

ويتحدث المؤرخون جميعهم تقريبا عن العوز الشديد الذى ساد فى الغرب بسبب قحط المواسم الزراعية والكوارث الطبيعية والاوبئة الفتاكة وموت المواشى.

ولكن النير الاقطاعى كان يشتد اكثر فاكثر، ويثير استياء الفلاحين المشروع. واحيانا كان

وصول حملة الملك لويس التاسع إلى الشواطىء المصرية، ونزولها على البر قبالة دمياط القديمة، فيما يعرف باسم الحملة الصليبية الخامسة.

رسم من العصور الوسطى بالمتحف الوطني بباريس.

فاخرجه الى وسط القصر ووضع جسده على دكه خشب وفتح ابواب القصر وامرهم ان يدخلو وينظروه فدخلو ورواه ميت فكشفو الغطا عن وجهه ليلا يكون نايم ونغزوه في جميع جسده بالسكاكين ونصول النشاب فلما تحققو موته تركوه وخرجو. وكان اشدهم في الكلام والطلب له واحد يسمى رضوان ابن ولخشي من امرا الدوله فانعته الحافظ بفحل الامرا ووِلاه الغربيه.

الزراع الذين عذبهم العوز والجوع يحرقون الضياع ويخربونها وينكلون بالاسياد الاشد مدعاة للكره. ولكن احتجاج الفلاحين الاقنان العفوى كان في معظم الاحوال يتخذ اشكالا سلبية، واحيانا كان الفلاحون ينزحون قرى بكاملها من الاماكن المألوفة إلى حيث تقودهم الصدف. كان فرار الفلاحين ظاهرة جماهيرية في القرن الحادى عشر. وعنها تروى الشهادات ومدونات الاخبار، وسير القديسين، وغير ذلك من الآثار الادبية. كان الفلاحون يفتشون في الفرار عن الخلاص من الابتزاز والبلص بالعنف، ومن غارات العصابات الاقطاعية اللصوصية، ومن الجوع الضارى والاوبئة الفتاكة، وفي الوقت ذاته، كانت تشتد مختلف مظاهر التقشف والزهد الدينى، ويشتد الميل الى دخول الاديرة، والنسك، ولاسيما على امتداد «السنوات العجاف»، حين انتشرت في بلدان اوروبا «روح النسك والزهد». الحقيقة ان هذه السمة من سمات النفسية الاجتماعية السائدة في الفئات السفلى من المجتمع مهمة جدا لفهم اسباب الحروب الصليبية؛ فهي تفسر في كثير من النواحي قابلية الجماهير الواسعة لفكرة المأثرة الدينية.

ان تعاظم الميول الدينية في الريف قد نجم عن ظروف حياة الفلاحين الاقنان التى لاتطاق. فان الاقنان كان يسحقهم العوز، وتضغط عليهم التبعية الشخصية حيال السيد، وكانوا مهانين

٧٠: الاب غبريال ابن تريك ١١٣١/ ١١٤٥م

واستمر تاج الدوله بهرام فى الوزاره لاستقبال جمادى الاول سنه تسع وعشرين وخمس مايه الهلاليه الى اخر ربيع الاخر سنه احدى وثلثين وخمس مايه، فكثر كلام المسلمين فيه لاجل مذهبه وحسدوه لاجل محبه الخلفه له وكونه علا كلمته عليهم، وكان للنصارى فى ايام دولته نفاد كلمه وعزه انفس وكل تصرف جليل من الدواوين الكبار الذى للخليفه والوزرا فى ايديهم، وكان

واذلاء بسبب جهلهم. وهذا الجهل كان رجال الدين الكاثوليك يحافظون عليه ويطالبون الفلاحين بالصبر الطويل والاستكانة للاسياد، ويشون الخوف من نيران جهنم، وبموجب التعاليم المسيحية كانت عذابات جهنم تنتظر فى «العالم الآخر» العصاة والمتمردين على السلطات. كان الفلاح الجاهل والامى الذى اعتاد على العوز والذى لم ير شيئا ابعد من كوخه، يتقبل ويدرك البلايا الاجتماعية والطبيعية من خلال المفاهيم الدينية. فحط الموسم الزراعى، الجوع، «الطاعون النارى» الذى يسوق زوجته واولاده الى القبر ـ كل هذا كان يتصوره بصورة عقاب من السماء نزل عليه من اعلى بسبب خطايا مجهولة. ومن هنا نشأت عفو الخاطر فكره، والاصح القول، شعور غامض بانه لايمكن التخلص ، اغلب الظن، من العذابات اليومية الدائمة الا بطلب الرحمة من الرب الغاضب. ولكن بأى نحو؟ قبل كل شئ، بعمل مأثرة ما، خارجة عن المألوف ، بطولية ـ ولكن بالمعنى الدينى على وجه الدقة، ـ لاجل «التكفير عن الذنوب»، لاجل «غفران الخطايا»، من نوع الاستشهاد باسم الايمان!

وهكذا انعكس التحرق الى الخلاص من اضطهاد الاسياد، والسعى الى خلع سلاسل القنانة والتفلت من براثن العوز فى دماغ الفلاح المرهق بمشقات العيش انعكاسا فاسدا، مشوها، وتحولا الى رغبة عارمة فى اجتراح مأثرة دينية.

منهم النظار والمشارفين فى جميع ارض مصر قبليها وبحريها وثغورها، فلما ضعفت كلمه المسلمين وعزت كلمتهم الجتهم الضروره الى عمل الحيله فى قطع هذا المرض من اصله فقصدو الراحه منهم بزوال الوزاره عن تاج الدوله بهرام، فتعصبو منهم جماعه امرا واجناد وخلط الناس ومضو الى الغربيه واستصرخو برضوان ابن ولخشى واليها قالوا له: الخليفة سماك فحل الامرا وما للمسلمين من ينقذهم من اهانة الارمن غيرك، فإن قويو أكثر من

وكانت التطورات الاقتصادية، كما سبق ان قلنا، قد مست الطبقة السائدة ايضا. وكانت امكانيات تلبية الحاجات الجديدة على حساب الاقنان محدودة للغاية، فسلك الاقطاعيون سبيل الاستيلاء على الاراضى. وكانوا، بدافع اية ذريعة، مهما كانت تافهة، يشنون الحروب الدامية المتواصلة فيما بينهم. ولاجل شن الحروب بنجاح كان يتعين على الاسياد ان يمولوا عددا عديدا من الاتباع للفرسان (تابع ، منقطع ـ vassal) الملزمين باداء الخدمة العسكرية له. ولقاء الخدمة كان ينبغى المكافأة بعقار. ولكن الاراضى الحرة فى الغرب لم يبق لها وجود. ولهذا دخل كثيرون من الاسياد الميالين الى القتال طريقا مسدودا: فمن اين يأخذون الاموال التى لم يبق بمقدور الاقنان ان يؤمنوها، رغم جميع حيل الاسياد على اختلافها؟

ثم ان الوضع ازداد تعقدا لكون عقارات المالكين الصغار والمتوسطين اخذت تصبح اكثر فاكثر غنيمة للأقطاعيين الذين كانوا يستولون على هذه العقارات. وفى الحاصل تشكلت فى الغرب شريحة واسعة من الفرسان الذين لايملكون ارضا. وهذا ما أسهم به كذلك نظام وراثة الاقطاعات ـ نظام البكورة(او حق البكورة) ـ ومفاده انه لايجوز تقسيم ممتلكات السيد بعد وفاته على ابنائه، بل يجب ان تعود بكليتها الى الأبن الاكبر (البكر) بينهم. أما الباقون، فلم يكونوا يرثون سوى الاموال المنقولة ـ الخيل، والدروع والخوذ، والاسلحة، والالبسة. وظهر فى

هذا تنصر كثير من المسلمين. واستنهضوه فنهض معهم وحشد العربان ومقطعين البلاد ونادى: يا مجاهدين في الكفار. وعلق مصاحف القران على اسنه الرماح قدام العسكر وسار وقد اجتمع له من المسلمين جيش عرموم لا يحصى عدده من كثرته واستعلا بكلمه الاسلام، فلما وصل الى مسجد الخضر(*) وأمر العسكر ان يعدى البحر الى الجانب الاخر، تواصلت اخباره لبهرام بذلك فخفق [حقن] دما[ء] الناس وقال لاصحابه: لابد ان

(*) مسجد الخضر: من القرى القديمة تقع على الضفة الغربية لفرع النيل الشرقي (فرع دمياط) وهي تابعة للمنوفية. كانت تسمى قديماً «أتنو» و«أنتوهى» و«أنتوهه».

عائلات الاقطاعيين عدد لايتهان به من الابناء الاصغر سنا المحرومين من الارض ـ وكانوا احيانا يلقبونهم القابا سخرية ولكنها تتطابق تماما مع وضعهم الحقيقي، وتصبح فيما بعد القابا عائلية. وغدا اقتناء العقارات حلم اخلاف الاعيان هؤلاء. وكان الفرسان يعتبرون،بالطبع، العنف المسلح اسهل وسيلة لاصلاح امورهم . فعمدوا افرادا وعصابات الى التجوب في الاراضي المجاورة والبعيدة، واخذوا يهاجمون القرى، وينتزعون من الفلاحين كل ما تقع عليه ايديهم. بل انهم كانوا لا يترددون عن قطع الطرق وسلب المسافرين. وقد امست بعض القصور اوكارا لصوصية حقيقية ومأوى لعصابات الفرسان. واحيانا كانت هذه العصابات تتجاسر على شن الغزوات على العقارات الكبيرة ايضا. وقد كانت الممتلكات الغنية لدى الكنائس والاديرة الطعم الاكثر اغراء.

ان اعمال العنف التي كان يقترفها الفرسان المنحطون كانت تستكمل خراب الفلاحين ولكنها كانت تتسبب بالضرر لعقارات الكنائس والاديرة التي لم تكن تتوفر لها الحماية المسلحة الكافية. وفي قلب الطبقة السائدة نشب الصراع، الامر الذي بث القلق في اوساط الفئات العليا الحاكمة من المجتمع الاقطاعي في الغرب ، واجبرها على البحث عن مخرج ما من المصاعب الناشئة. الانتفاضات الفلاحية، المجاعات، الاوبئة، فرار الفلاحين بالجملة، ناهيك عن لصوصية الفرسان «المعدمين» وتعسفهم، والنزاعات بين الاقطاعين والتكتلات الاقطاعية...

امـوت فـيطالبنى الله بدم من قـتل منكم ومنهم، ومملكه هذه الديار قد جعلهـا الله للمسلمين، فـمـا يجـوز ولا يحل لى من الله ان اقـاتل القـوم على مملكتهم وانتزع منهم حقهـم، ولو لم يستعين بى الخليفه على ما جرى عليه من ولده ورضى بى بما فعلته من خدمته وطاعته ما ابتدعت شيـأ من نفسى، قـومـو خـذو مـا قـدرتم عليـه من امـوالكم واولادكم وامضـو بنا الى قوص اخذ اخى ـ وكان

وقد نشأ فى اوربا وضع مقلق؛ فان الحياة الاجتماعية اخذت تكتسب طابعا اقل فاقل استقرار. وبعد فترة من الوقت، كتب اورديريك فيتالى عن هذه العقود من السنين: «الفتن والهموم الحربية شغلت بال المعمورة كلها تقريبا. وكان الناس ينزلون بعضهم ببعض بلا شفقة افدح المصائب بعمليات القتل والنهب. وبلغ الشر بجميع صوره اقصى الحدود وتسبب لمن قام به ببلايا لاعد لها».

ان مصالح الاقطاعيين الملحة والحيوية قد طرحت امامهم مهمة عاجلة قوامها البحث عن اسلوب لحل القضايا الناشئة يتيح لهم تلبية حاجاتهم المتعاظمة الى الاراضى والايدى العاملة الاجبارية والنقود والثروات من كل نوع، ويخلص كبار الاسياد من مآتم صغار الفرسان، والفرسان من مصير ونصيب المعدمين و«الذين لاارض عندهم»، ويثبت ويوطد فى الوقت نفسه دعائم النظام القائم. وهذه المهمة لم يدركها بالطبع شخص ما بمثل هذه الصورة المحللة والمفهومة بدقة ووضوح، بل ظهرت كضرورة عملية، ناجمة فى هذا الصدد او ذاك، ولكنها كانت على العموم تصبح اكثر فاكثر الحاحا.

وقد كانت الكنيسة الكاثوليكية الأبعد نظرا فى المجتمع الاقطاعى، فأخذت على عاتقها ان تنتشل وتخلص الطبقة السائدة من البلايا الزاحفة عليها.

قد ولى اخوه باساك قوص ـ ثم نمضى الى بلادنا ونترك للقوم مملكتهم فمالنا بقتالهم حاجه. فقالو له الشجعان من الارمن: كيف نفعل ما قلت ونحن الف قوس نقدر نفتح الدنيا الى باب روميه ونحن نلقاهم ونكسرهم بمعونه الله لنا. فلم يوافقهم وسار من وقته الى قوص فى طلب اخوه باساك، فلما وصل اليها وجد الخبر بوزاره رضوان ابن ولخشى قد سبقه وقد قتلو اهل قوص

«كلونى» وعدوان الفرسان

فى تلك الازمات كانت الكنيسة مالكة غنية للحقول والمروج والبساتين، وكانت تستثمر الفلاحين الاقنان الذين يخصونها استثمارا وحشيا. وعدا ذلك ، كان رجال الدين يجبون بانتظام من جميع الزراع ، سواء كانوا من اتباعهم ام من الغرباء، اتاوة عامة اخرى هى ضريبة العشر. وبما ان الكنيسة كانت اكبر مالك عقارى اقطاعى، فقد كانت حصنا روحيا لعموم طبقة الاقطاعيين؛ وفى ذلك كانت تخلص وظيفتها الاجتماعية وكان رجال الدين يساعدون الاقطاعيين فى السيطرة على الفلاحين والحرفيين، وذلك بالوعظ بالتعاليم المسيحية التى تقول ان النظم الارضية هى من صنع الرب وانه لايصح ولايمكن بالتالى تغييرها، وبمطالبة الكادحين الخضوع التام لاسيادهم، وبوعد الودعاء بالنعيم فى الجنة بعد الموت، وبتهديد المتمردين والعصاة بالعذابات الابدية فى الجحيم. وكانت الكنيسة تدافع دائما وفى كل شئ عن مصالح الاقطاعيين ـ سواء فى ميدان الايديولوجية أو فى ميدان السياسة.

وعندما اخذ الاقنان فى القرنين العاشر والحادى عشر يهبون فى كل مكان ضد الاقطاعيين او يلوذون بالفرار، وعندما اخذت مآثم وموبقات الفرسان «المعدمين» تتسبب بضرر افدح

اخـــيـــه ودفنوه فى الزبل فى اصطبل دوابه بدار الولايه، فنزل عليها فغلقو ابواب حصنها فى وجهه فحاصرهم ثم عفا عنها وفرق العسكر عنه وطلع الى الديارات البيض [الدير الابيض](*) وحـــده واقام فى احدها. واما رضوان ابن ولخشى فدخل الى القاهرة واخلع الخليفه عليه للوزاره فى سنه احدى وثلثين وخمس مايه ونهب كنايس القاهره والخندق، واحرقو المسلمين دير الارمن المعـروف

(*) الدير الابيض: يقع غـــرب سـوهاج والدير اقدم الأديرة وبه عدة كنايس. اهمها كنيسة الأنبا شنوده. وبهذا الدير عدة أماكن بنيت بحجارة عليها زخارف ونقوش فرعونيه قديمة مما يوحى بان الدير بنى على معبد فرعونى قديم أو بالقرب منه.

فأفدح للرهبان والاكليريكيين، قلقت الكنيسة جديا، وقبل كل شئ على ممتلكاتها بالذات. ولوقايتها من الخطر المزدوج (من جانب الرعاع ومن جانب الفرسان)، عمدت الاديرة حتى في القرن العاشر ـ وكانت اقوى المؤسسات الكنيسة من الناحية الاقتصادية ـ الى اجراء مختلف التحويلات. وكان مغزى هذه التحويلات العام توطيد مواقع الكنيسة، المادية منها والمعنوية، وتحسين تنظيمها، وزيادة قواها،ورفع مكانتها.

ان الحركة الكنسية الاصلاحية فى ذلك الزمن قد دخلت التاريخ تحت اسم الحركة الكلونية، اذا ان دير كلونى فى بوجونيا كان المبادر اليها. وقد حاول رجال كلونى ان ينشئوا بيئة كنسية مركزية ولذا اسهمو فى رفع مكانة السلطة البابوية التى عانت الانحطاط زمنا طويلا. وفي عداد الاصلاحات التى قاموا بها، يبرز منع العمليات الحربية ـ سواء لآجال طويلة («السلام الربانى») أم لآجال قصيرة («الهدنة الربانية»)، مثلا، من مساء السبت حتى صباح الاثنين. ان هذه الاجراء الموجه ضد عمليات النهب والسلب والتى يقوم بها صغار الفرسان وضد النزاعات المسلحة الاقطاعية، لم يكن له مفعول بين. واذ ذاك طفقت الكنيسة تتلمس سبلا اخرى من شأنها، برأى قادة الكنيسة، ان تصون الفئات العليا من الاقطاعيين من غضب «الذين لا ارض عندهم»و«المعدمين»، وان تحسن فى الوقت ذاته الى الاقطاعيين الفقراء، وتروى

بالزهرى وقتلو بطركهم وكلمن وجدوه معه من الرهبان في الدير. ورضوان ابن ولخشى اول وزير امر ان لا يستخدمو النصارى فى الدواوين الكبار ولا نظار ولا مشارفين، وان يشدو زنانيرهم فى اوساطهم، ولا يركبوا الخيل، وضاعف عليهم وعلى اليهود الجزيه وجعلها ثلث طبقات قوم من الاغنيا اربعه دنانير وسدس وقوما دونهم دينارين وقيراطين فاما بقيه عامتهم فدينار واحد وثلث وربع وعليه

عطشهم الى العقارات والثروات. ويقينا ان «البحوث» ذاتها كانت عبارة عن عملية عفوية كان يشترك فيها الاقطاعيون الاعيان والفرسان البسطاء. وفى كل حالة بمفردها كانوا يستهدفون اهدافهم القريبة، المباشرة، دون التفكير اطلاقا فى القضايا الكبيرة الابعاد ذات الطابع الاجتماعى والسياسى. ومع ذلك، كانت اعمالهم التى تمليه اعتبارات آنية كأنما تشق طريقا يؤدى فى المستقبل الى ايجاد حل القضية التى تهم جميع الاقطاعيين. وهنا عاد دور كبير الى البابارية التى كانت تعزز مواقعها تدريجيا.

ان شعار الاحداث التى اطلق نداء البابا «الى الشرق!» اشارتها فيما بعد كانت معقدة ومتعددة الابعاد. وهنا يشغل مكانا خاصا الحج من بلدان الغرب الى فلسطين ومركزها المقدس، القدس. ان هذا الطقس المسيحى القديم الذى ظهر فى القرن الرابع،والذى قلما كان ملحوظا على العموم فى القرون التالية، قد انتشر بقوة هائلة فى القرن الحادى عشر. فقد اخذ يشترك فى الحج الى القدس عدد اكبر فاكبر من الناس. واخذت عمليات الحج تتكاثر وتكتسب طابعا جماهيريا. ويقول رادولف جلابر الذى تلاقى مع كثيرين من الحجاج وسمع عن غيرهم ان «جموعا لا تحصى كانت تمضى من جميع انحاء الدنيا» الى القدس. واضاف هذا المؤرخ قائلا:«من قبل لم يكن من الممكن ان يصدق احد ان هذا المكان سيجتذب مثل هذا التجمع المدهش من الناس».

ورقا [فضة] درهم. واستخدم في ديوان الجوالى رجل من شهود مصر يعرف بالقاضى المهذب ابن ابى البقا، وكان سبب ذلك ما كان من استخدام الخليفه للشيخ صنيعة الخلافه ابو زكرى ابن يحيى ابن بولس الكاتب النصرانى فى ديوان التحقيق واخلع عليه بالدراعه واجلسه داخل قصره فى قاعه باب الذهب فى موضع افرده له منها، واستخدم معه اثنى عشر كاتبا من النصارى الاعيان

ان عمليات الحج، او زيارات الاماكن المقدسة، اى اسفار التقى والورع قد انتشر على درجة من السعة بحيث ان هذا قد انعكس على كل قيم المجتمع الاقطاعى الروحية وفي المقام الاول على التصورات عن القداسة، التى كانت لها اهمية كبيرة فى الايديولوجيا الاقطاعية، واصبحت عمليات الحج بمثابة قسم الزامى من الزهد والنسك، والمشى الى القدس سمة لاغنى عنها في سيرة اى من ابطال الادب المقدس(سيرة القديسين). كان من يريد ان يخلق ويثبت لنفسه سمعة الطاهر «الفقير بالمسيح» كان يذهب الى القدس للهدف التالى ـ وذلك كان على كل حال الفهم العادى لهذا العمل ـ وهو تكريم المقدسات المسيحية المتواجدة هناك من قديم الزمان، والصلاة فى كنيسة قبر السيد المسيح، والتمتع باجلال ومهابة بمشاهدة جميع الاماكن التى وطأتها ذات يوم قدم المسيح. وقد ترابطت عادة الحج فى مفاهيم العهد بممارسة سلوك النساك المقدسين الى حد انه كان لايندر لسير القديسين ان تنسب السفر الى القدس حتى الى الذين كانوا «يكرمونهم» باذاعة صيتهم كقديسين مع انهم لم يكونوا يوما فى فلسطين . واحيانا كانت سير القديسين تشير بكل بساطة اى نية قديس ما فى الذهاب الى القدس،.وكأن النية كانت بحد ذاتها تصف الاستعداد لمأثرة التقى والورع العليا.

في ايام وزاره بهـرام في اواخـر سنه ثلثين وخـمس مايه، وكان معه ايضا كاتبان من المسلمين يعرف احـدهـمـا بالقـاضي الخطيـر ابن البـواب، والاخـر بالقاضي المتضي ابن الطرابلسي الذى كان رضوان ابن ولخشي استـخـدمهـمـا في ديوان المجلس عـوضـا منه، ثم حـرفـه بعـد ذلك وابعـده الى بلاد اسـيـوط لانها بلده وموطن اسلافه. وبقيا الكاتبان المذكوران مـسـتـمـرين كل واحـد منهم انفـرد بديوانه وبقي

خلاصة القول ان السـفـر (الحج) الى الارض المقـدسـة قد صـار اهم عـلامة على واقع ان الانسـان قد. قطع صلـتـه بالعالم الباطل،وغدا رمزاً على العـصـمة عن الخطيئة و«الطاهرة» اللتين تؤمنان بالتـأكـد الخلاص السـماوى. ان الاسفار الى القطر الذى اجترح فيه فيـما مضى يسوع المسيح العجائب، والذى يحفظ الكثير من ذخائر حياته وموته، انما كانت الكنيسة تعتبرها مأثرة كبيرة امام الله. وكان ينسب الى الصلاة فى الارض المقدسة مفعول خاص. وكل هذا كان يضفى على القدس جاذبية كبيرة.

كانت اسفار التقى الورع الى هناك عاملا جوهريا من عـوامل نشوب الحروب الصليبية. وبفضل الحج، قام فى اوروبا الغربية جو مفعم بامزجة الزهد فى خيرات الدنيا والندم والتفكير عن الذنوب، جو من الزهد الدينى نبع اصلا، كما رأينا، من اضطراب كل الوضع الاجتماعى فى الغرب، الذى اسفر (فى المقام الاول بين الفئات الدنيا، وجزئيا بين ممثلى الطبقة السائدة) عن ظهور الاحسـاس بالاضطراب والاعتلال وعن السعى الى التفلت من المصائب الحياتية، ان على الاقل، فى السبل التى يفتحها الدين. وكانت عمليات الحج تسهل كثيرا على البابـاوية اختـيار وتعيين اتجاه عدوان (جهـاد) الفرسـان، الاتجاه الذى كان من الممكن ان تتلاقى فيه الرغائب المتناقضة لمختلف فئات الاقطاعيين.

يطبق الجــوالى على الذمــه الى ان سطرت هذه السيره.

وحدث فى ايام وزارة رضوان ابن ولخشى غلا شديد الى ان عدم اكثر الناس القوت، وابا ع رضوان المذكور قمح وغيره من الارز الاحمر والفول المسود والحبوب المسوسه والقمح الذى صار من قدمه وطول مكثه فى الشون والمخازن والمطامير والاهرا السلطانيه من ايام امير الجيوش

كانت عمليات الحج من حيث التركيب الاجتماعى للمشتركين فيها حركة مبرقشة جدا. فقد كتب رادولف جلابر يقول: «فى البدء مضى الى هناك (الى القدس) الشعب البسيط ثم الناس الميسورون». وينبى مدون الاخبار عن حالات الحج الذى قام به «الملوك العظام» والكونتات والمركيزات والاحبار. كذلك كانت اهداف الحجاج الفعلية مختلفة، رغم ان الحج كان يبدو لهم انفسهم مشروعا دينيا صرفا. وكانت روح الحج عند المتحدرين من الفئات الدنيا فى القرى والمدن تعبيرا، مغلفا بغلاف الدين، عن امانى التحرر. وفى عيون الاسياد، كان، للاعتبارات الدينية كذلك وزن معين، ولكن اكثر ما استحثهم على السفر ما وراء البحار انما هو البواعث الدنيوية، اى الرغبة فى اكتساب سلع البذخ فى الشرق، ورؤية اماكن جديدة، والتخلص، ولو موقتا من رتابة الحياة القروية مع همومها اليومية ـ الصيدوالولائم الصغيرة، والشؤون الاقتصادية. وليس عبثا يؤكد مدون الاخبار فى معرض حديثة عن حاج وجيه من هذا الطراز هو البورجندى ليبولد دى اوتن الذى سافر برفقة عدد كبير من الناس. ان هذا الحاج «قد قام بسفرته الى القدس، بسبب الغرور مثل كثيرين غيره الذين يذهبون لكى يتباهوا بذلك بعد عودتهم».

وبالفعل، كانت اسباب المكانة حافزا مهما بالنسبة لافراد الوسط المذكور. وهذا ما يصح

لضروره عدم القوت شيا كثير بثمن كثير، حتى ان المصريين اسموه «القمح الدنوكى» [اى المعفن].
وكان سعر الخبز فى تلك الايام رطل مصرى بدرهم، ثم ادرك الله الخلق وارخص اسعارهم.
وكان قد جرى مثل ذلك فى سنه اربع وتلتين وخمس مايه هلاليه، لم يبلغ النيل فيها الا دون اربعه عشر ذراعا، فغليت الاسعار لما شرقت

بالقدر نفسه على ذوى المراتب الكنسية العليا ـ الاساقفة ورؤساء الاديرة ـ ام على الاسياد الدنيويين. فان اودالريك، اسقف اورليان، قد اشترى، اثناء وجوده فى القدس، قنديلا نفيسا من بطريرك القدس مقابل رطل من الذهب. وقد كتب رادولف جلابر يقول أن الاسقف «حمله الى اورليان، لاجل تجميل كنيسته حيث عاد على المرضى بكثير من النفع». وهذا يعنى ان الاسقف استخدام الثروة لاجل رفع مكانة كنيسته. والدوق روبير الاول النورمندى الذى انطلق الى الشرق فى سنة ١٠٣٥ اجبر اتباعه الكبار، قبل بداية الحج، على حلف اليمين والاعتراف بابنه غير الشرعى، غليوم ابن الزنى (Guillaume le Batard) (الفاتح فيما بعد) ووريثا له. وهكذا كان الحج فى هذه الحالة ذريعة مناسبة لاجل بلوغ هدف سياسى معين. واثناء السفر كان الحجاج من الاعيان يوزعون شتى المجوهرات التى اخذوها معهم لهذه الغاية. وكان الاعيان يعتبرون هذه التوزيعات وسيلة موثوقة لتوطيد نفوذهم فى اوساط الشعب البسيط وكانت الكنيسة تشجع هذه التوزيعات بوصفها فعلا يرضى الله.

وعادة كانت جموع الفرسان تنضم الى كبار الاقتطاعيين. ففى سنة ١٠٦٥ انطلق من المانيا الى الحج زهاء سبعة آلاف شخص (او ١٢ الفا). كان «الذين لا ارض عندهم» و«المعدمون»

البلاد فاصاب الناس ضر شديد بسبب تشريق البلاد.

وكان ميخاييل اسقف صهرجت [مركز ميت غمر] قد اهتم بتجديد كنيسه منيه زفتى وكرزها وقدس بها واكملها على اسم القديس مارى جرجس، فوثبو المسلمين بمنيه زفتى عليها وهدوها لبغضهم فى النصارى وجعلوها مسجدا، فوقف ميخاييل الاسقف للوزير رضوان ابن ولخشى

يفتشون فيما وراء البحار عن الفرص لاصلاح اوضاعهم ، وكان بعض منهم يرغبون فى غفران الجرائم التى اقترفوها فى بلدهم . وواقع ان الفرسان نهبوا فى بلدهم الكنائس والاديرة لم يمنعهم من ان يكونوا اناسا متدينين. فقد تقبلوا العقائد المسيحية على طريقتهم، كما فهموها، وكيفوها للمفاهيم المألوفة على الاقطاعيين. وكانوا يتصورون الرب بصورة المولى الاعلى الذى يكافئ اتباعه الارضيين بسخاء على خدمتهم الامينة، ويغفر الخطايا، ويمنح الغبطة الابدية فى الجنة. ان خلاص الروح كان مسألة تهم الفرسان الجهلة بقدر لايقل عما تهم الفلاحين الاقنان. وكان الفرسان على العموم يتقيدون بكل دقة بالطقوس الكنسية، حتى وان «كانت قواعد الاخلاق المسيحية»، كما لاحظ احد المؤرخين بدقة وصواب، «تمارس فيهم تأثيرا ضعيفا جدا».

كل هذا يفسر اشتراك الفرسان فى عمليات الحج. وفى هذه العمليات كانت تلتقى التحبيذ التام من جانب رجال كلونى. وكانت اخوية دير كلونى تشجعها فى الواقع بجميع الوسائل؛ فقد بنى رجالها على جوانب الطرق الفنادق لاجل الحجاج، وكانوا يجمعون بانفسهم الحجاج، فى فصائل،ويساعدون فى تجهيز الناس المقيمين فى جوار اديرة كلونى وفى ارسالهم الى الحج، وبهذه الطريقة كانوا يستبعدون العناصر التى تشكل خطرا على ممتلكات الكنيسة.

واستصرخ به واوضح له انها بيعه قديمه، فوقع له بخطه بعمارتها واعادتها الى ما كانت عليه من حدودها علوا وسفلا، فاعمرها وكملها وكرزها بعد ان قاسا عليها شده عظيمه وغرامه كثيره.

واستمر رضوان في الوزاره الى ان قامو عليه الاجناد وامرا الدوله فخرج من دار الوزاره بالقاهره هاربا وليس يلبس لرجليه سوى خفاً واحدا ولم

وبالنسبة للقتلة، كان الحج غالبا ما يصبح، بفضل خفة يد رجال كلونى، اسلوبا مطبقا عمليا، تقليديا تقريبا، «للتطهير من الخطيئة المميتة».

ان حركة الحج قد هيأت الحروب الصليبية فكريا وعمليا؛ فقد اسهمت فى تعاظم الامزجة والميول الدينية الزهدية، وعرفت الاوروبيين على الطرق الى الشرق، وعلى الوضع فى البلدان الشرقية ، كما وانها هيجت تعطش الاقطاعيين الذى لايرتوى الى امتلاك الاراضى فيما وراء البحار.

وفضلا عن الحج، هيأت الحروب التى نشبت فى القرن الحادى عشر فى الغرب بالذات والتى جرت احيانا هى ايضا تحت رايات دينية التربة من اجل (الجهاد) والتوسع الاقطاعى الواسع الى الشرق. فان الفرسان الفرنسيين، مثلا ، قد انخرطوا فى الصراع من اجل استعادة الاراضى التى سبق ان احتلها العرب فى اسبانيا ـ الريكونكيتو (Reconquisto). ففى سنتى ١٠٦٣و١٠٦٤ انطلق الى ما وراء جبال البرانس فرسان دوقية كيتين ودوقية تولوز، وهزموا العدو فى المعركة بجوار برباسترو. ثم قام الجديد تلو الجديد من الحملات على اسبانيا. وفى اوائل السبعينيات تحركت الى اسبانيا وحدات من الفرسان برئاسة الكونت ايبولى دى روسى. وعندما انتزع ملك كاستيليا الفونس السادس الجرئ مدينة طليطلة من العرب فى سنة

يمهلوه حتى يلبس الاخر، ونزل عند العرب الدرماويين(*) فمضو به الى الشام. فافسد نفر من الغز وانضاف معهم العرب الذين اجازوه وجا الى القاهره ونزل فوق الجبل عند موضع الرصد على جبل المقطم، وخرج اليه عسكر المصريين فقاتلوه فكسرهم ثم صدقوه القتال فانتصرو عليه وغلبوه، فلما راى انه مغلوب عاد الى بلاد الشام دفعه تانيه، فكتب اليه الامام الحافظ وامنه وطيب قلبه

(*) من القبائل العربية البدوية التي كانت تحيط بالقاهرة من جهة الشرق.

١٠٨٥، لم يشترك في هذه العملية الفرسان الفرنسيون وحسب، بل اشترك فيها ايضا الفرسان الالمان. وبعد ان سحق العرب المرابطون القوات المسيحية في المعركة بجوار الزلاقة عام ١٠٨٦، تشكلت في فرنسا عام ١٠٨٧ وحدات اقطاعية قوية ترأسها هوج (Hugues) الاول،دوق بورجونيا وريمون دى سانجيل، كونت تولوز، القائد المقبل للفصائل من بروفانس في الحملة الصليبية الاولى. وقد اشترك في اعمال هذه الوحدات سيد آخر مضى بعد بضع سنوات يحارب من اجل القدس هو غليوم شاربانتيه، فيكونت ميلون.

وليست اسبانيا وحدها هي التي اجتذبت الضوارى الاقطاعيين، الصغار منهم والكبار. فمنذ سنة ١٠١٦، اخذ اخلاف الفيكينج السكانديناقيين الذين سبق ان احتلوا نورمنديا (ولذا يسمونهم كذلك بالنورمنديين)في اوائل القرن العاشر يندفعون الى الاستيلاء على المناطق الخصبة في ايطاليا الجنوبية. وبعد صراع ضار ضد العرب وبيزنطية، اسسوا هنا جملة من الامارات الاقطاعية. ومن سنة ١٠٦١ الى سنة ١٠٧٢ استولى النورمنديون على صقلية ايضا. ومن سنة ١٠٦٦، تعرضت انجلترا ايضا لغزو كاسح قامت به فصائلهم القتالية. وفي سنة ١٠٧٣، استقر المغامر النورمندى روسل دى بايل، العامل في خدمة بيزنطية قبل ذاك، في وسط آسيا الصغرى بالذات مع مقاتليه. وهنا نشات امارة نورمندية، كانت النموذج المسبق

وسير اليه من اصحابه من وثق به وعلى يده مال يتسفر به للحضور هو ومن معه من اصحابه واتباعه، فعاد صحبه من ندب لاحضاره من امرا الدوله، فانزله الامام الحافظ عنده في قصر واخلا له قاعه عظيمه ومحالها ومرافقها وجميع بنيه وبنين عياله وكان فيها مكروما متصرفا في نفسه منطلقا.

فاما بهرام الارمني الذى كان وزير قبله لما

للامارة التى اسسها نورمانيو (*) ايطاليا الجنوبية فى سوريا بعد مرور ٢٥ سنة. الا ان امارة روسل دى بايل (Roussel de Bayle) لم تصمد، والحق يقال، سوى سنة واحدة؛ فان هذا الامير قد وقع، من جراء خيانة احد ابناء قبيلته، فى يد القائد العسكرى البيزنطى الكسيوس كومنينوس (الامبراطور فيما بعد)، وزالت الدولة النورمانية فى آسيا الصغرى بعد حياة قصيرة، ولكن محاولة تأسيسها واسعة الدلالة بحد ذاتها.

حفل القرن الحادى عشر كله بمغامرات جماعات الفرسان وحملاتهم الجهادية اللصوصية. فحيثما كانت تنشب الحرب، كان دائما يتواجد عدد كبير من الراغبين فى اشهار السيوف املا فى غنيمة سهلة المنال. وهذه الحملات العدوانية الاغتصابية استرعت هى ايضا انتباه الكنيسة. فقد استحث رجال كلونى الاسياد والفرسان بجميع الوسائل على الاشتراك فى استعادة اسبانيا(الريكونكيستو). وحبذت البابوية بدورها هذه الحملات. فقد رأى البابوات فى الريكونكيستو وسيلة يمكن بها رفع مكانه الكرسى الرسولى، وارسال الفرسان الى طرف اوروبا الغربية ، بدل محبى القتال المزعجين الى ميدان جديد للقتال؛ فبفضل ذلك، كانت عقارات

(*) فيما يلى، اذ نستعرض تاريخ الحملات الصليبية التى اشترك فيها سواء النورمنديون من ايطاليا الجنوبية وصقلية، أم النورمانيون من البلدان السكاندينافية، سنشير الى هؤلاء واولئك بالمفهوم التقليدى «النورمانيين» تحاشيا لضرورة التدقيقات المتكررة فى المصطلحات.

احضره رضوان من الديارات البيض جعله عنده فى داره، فلما جرى على رضوان ما جرى انفذ مولانا الحافظ نقله الى قصره وطلبه ان يعود الى وزارته، فلم يفعل وقال: انا راهب ما انا جندى واستقر مقامه في القصر الى ان توفى مخدوما واخرج تابوته من باب الساباط الى كنيسه الزهرى ودفنوه فيها.

وكان فى اطفيح اسقف للارمن يسبب [يدفع

الاعيان ورجال الدين تتخلص، وان جزئيا، من خطر غزوات الفرسان «المعدمين» اللصوصية!

ولزيادة حدة نيران حمية الفرسان القتالية الدينية الجهادية فى فرنسا، حاولت الكورية الرومانية (البابارية) ان تحيط المشتركين فى الحملات الاسبانية بهالة الاستشهاد من اجل الدين والايمان . ثم ان رجال كلونى الذين افلحوا فى التسرب الى شبه جزيرة أيبيريه وفى بناء اديرة لهم هناك، اعلنوا الحروب ضد المسلمين فى اسبانيا حروبا مقدسة. واعلن البابا الكسندر الثانى، الذى بارك حملة ١٠٦٣ـ١٠٦٤ ، ان الكنيسة تغفر خطايا كل من يذهب الى أسبانيا للقتال والجهاد من اجل قضية الصليب، بل انه ارسل نائبا (قاصدا رسوليا) الى فرسان فرنسا الجنوبية الذين اعتزموا الذهاب الى اسبانيا. ان نشاط الكرسى الرسولى فى الريكونكيستو لم يغب عن نظر المعاصرين: ومن الطريف ان المؤرخ العربى ابن حيان، فى معرض حديثه عن معركة برباسترو، ينعت قائد القوات المسيحية بانه «رئيس فرسان روماه. ولاجل حث الفرنسيين على القيام بمثل هذه الحملة، سمح لهم البابا جريجوريوس السابع فى سنة ١٠٧٣ بامتلاك الاراضى التى ينتزعها المسيحيون من «الكفاره، ولكن، والحق يقال، بشرط واحد هو اعتراف الفرسان الفرنسيين بالسلطة العليا لكاهن روما الاول على الاراضى المنتزعة ، ذلك ان اسبانيا، كما قال جريجوريوس السابع، كانت تخضع، بزعمه، منذ قديم الازمنة للقديس بطرس.

الرشاوى] حتى صار بطركا وعند قسمته طلب حضور انبا غبريال ابن تريك اليه لكى يضع يده عليه، فلم يحضر اليه وقت قسمته الى ان تقرب فى كنيسته وافطر ليلا [لئلا] يلزموه ان يضع يده عليه، وكان انبا غبريال قد منع اخذ شرطونيه على الكهنوت ولا ياخذ شى على قسمه اسقف ولا غيره ولا يستحسن ذلك لغيره، وسلك فيه ما قاله الانجيل المقدس: مجانا اخذتم مجانا اعطو. لان

وهذا البابا غفر ايضا مقدما خطايا الذين يقتلون فى المعارك من اجل الدين والايمان.

كانت حروب الفرسان الفرنسيين فى اسبانيا بمثابة حروب صليبية قبل الحروب الصليبية ـ من حيث الشعارات ، ومن حيث الالبسة والرايات، ومن حيث المضمون.

كذلك دعمت البابوية، وان لم يكن فى الحال،مشاريع النورمنديين الاغتصابية العدوانية فى ايطاليا الجنوبية وصقيلة، واستغلتها فى اهدافها السياسية. وان قائد الفاتحين النورمنديين روبر جيسكار (Robert Guiscard) الذى صار دوق أبوليا وكالابريا، قد اعترف فى سنة ١٠٥٩ ببابا روما سيدا له، وتعهد بان يدفع له ضريبة سنوية ويقدم العون العسكرى ويدافع عن حرمة كرسيه، الكرسى الرسولى، ضد تطاولات الاباطرة الالمان. وقد صادقت البابوية على هجوم الدوق فى سنة ١٠٦١على صقلية التى انتزعها النورمنديين التابعين لغليوم الفاتح الذين استولوا فى سنة ١٠٦٦على انجلترا . وفى كل هذا، يتبدى بكل جلاء خط سياسى واحد قوامه تنظيم عدوان الفرسان فى اطراف اوروبا الغربية ، وبخاصة فى حوض البحر المتوسط وتشجيعه الى اقصى حد. وفضلا عن ذلك كانت روما لاتبارك فتوحات الفرسان وحسب، بل ان اسطول مدينة بيزا التجارية فى ايطاليا الشمالية الذى شن فى سنة ١٠٦٣غارة على باليرمو قد اشترك كذلك فى حروب النورمنديين من اجل صقلية. وفيما بعد، انخرط التجار فى المدن الساحلية

نعمه الله وعطيته ورياسة الكهنوت لا تباع بالمال. وكان متشددا في هذا الحال وكتب مسطورا بذلك ومنع من ياخذه ومن يدفعه. وذكر عنه من كان خبيرا به انه قد اقسم ثلثه وخمسين اسقفا، وكان قد حضر اليه رجل قسيس يسمى بقيره وطلب منه ان يقسمه اسقف على بلاد اخميم وبذل له مال فلم يفعل، فلما رده مضى يسبب [اى يدفع الرشاوى] الى ان استعان بولد الخليفه ابن الامام

الاخرى في ايطاليا في النضال من اجل اقصاء المسلمين من حوض البحر المتوسط. وقد ساندت البابوية مبادرات سكان المدن هذه كل المساندة. وفي عام ١٠٨٧، عندما اقتحم الاسطول المتحد لمدن بيزا وأمالفي وجنوه ميناء المهدية في افريقيا الشمالية واحتل المقاتلون الكاثوليكيون المهدية هذه، كرس البابا فكتور الثالث نهبها. ودليلا على عطفه الشديد، ارسل الى القراصنة راية القديس بطرس وغفر لهم خطاياهم. وقد شكر اهالي بيزا الكرسي الرسولي، بالتبرع بالاموال التي استحصلوها من نهب المهدية لاجل بناء كنيسة أخرى في مدينتهم سموها تكريما للنصر المحرز بكنيسة القديس سيكست (وقد تطابق يوم الاستيلاء على المهدية مع يوم عيد هذا القديس). وقد كان المشروع البحرى في افريقيا الشمالية وثيق الارتباط بحرب الفرسان الدائرة رحاها آنذاك ضد المرابطين في اسبانيا (وفيما بعد ايضا، في سنة ١٠٩٢، ساعد اهالي بيزا ملك كاستيليا الفونس السادس في محاربة المغاربة في فالنسيا).

وهكذا كانت الاصلاحات الكنيسة في القرن الحادى عشر احدى المقدمات المباشرة للحروب الصليبية في الشرق؛ فقد ضمنت للبابوية مكانة ارسخة لاجدال فيها واجبرت العالم الاقطاعي على الاصغاء بانتباه الى صوت الحبر الاول في روما.

ولكنه صار من الواضح نحو اواخر القرن الحادى عشر ان الطرائق التي لجأت اليها الكنيسة ولجأ اليها الاقطاعيون الدنيويون لاجل تأمين مصالحهم كانت قليلة الفعالية. فقد منى

الحافظ وكان يسمي ولى العهد، وحمل له مال جزيل له مقدار وساله ان يشفع فيه عند البطرك حتى يقسمه اسقفا، فانفد اليه ولى العهد وتقل عليه بسببه فلم يقبل واعتذر له وكتب رقعه للخليفه اعلمه فيها قصه حال الاسقف وانه طلب الرياسه والكهنوت بالرشوه، وان ذلك لا يجوز فى مذهب النصرانيه. فلما عرضت رقعته على الحافظ شكره وعظم منزلته ووقع له بان لا يعترض فى

الفرنسيون فى اسبانيا بالاخفاقات، لان الاقطاعيين المسيحين الاسبان كانوا لايرغبون في ان يسلموا حلفاءهم حتى أنهم اتفقوا احيانا مع الامراء العرب (*) ـ قد حكمت بالفشل سواء على خطط الاعيان الفرنسين ام على خطط البابوية المتعلقة باسبانيا، ناهيك بان العرب قاوموا هناك بصلابة وثبات. ولكن فى ذلك الزمن بالذات، بدأ يرتسم هدف جديد سيوجه اليه رئيس الكنيسة عما قريب افكار ومقاصد الاقطاعيين الميالين الى القتال.

في الثلث الاخير من القرن الحادى عشر، اخذت خيوط السياسة الاوروبية تمتد اكثر فاكثر الى بابوية روما . وقد غدت هذه البابوية المركز الذى يستطيع وحده دون غيره ان يوحد قوى الغرب الاقطاعى المتفرقة، ذلك ان السلطة الملكية كانت لاتزال هناك ضعيفة جدا. ومنذ عهد حكم البابا غريغوريوس السابع (١٠٧٣ـ١٠٨٥)، سعت البابوية لتوطيد الوضع النهائى بصورة رئيسية بفضل نجاحات حركة كلونى، ولذا طفقت تفصح بالحاف عن ادعاءاتها بالزعامة، لافي الكنيسة المسيحية وحسب. بل ايضا على الحكام الزمنيين. فان البابا السابع قد اعلن على المكشوف فى رسالته الشهيرة «امر البابا» انه يحق للكرسى الرسولى ان يتصرف

(*) يستفاد من اقوال المؤرخ الالمانى اردمان ان الفونس السادس لم يكن مناضلا طليعيا من اجل الدين المسيحى؛ فحين دعا الفرسان الفرنسيين الى مساعدته (بعد هزيمته فى جوار الزلاقة) بلغ به الامر ان هدد باعتناق الاسلام اذا ما رفضوا مساعدته.

مذهبه ولا يلزمه احد بما لا يجوز في شرعه. ثم بلغه بعد ذلك ان له مال جزيل وخاف ان يمنع القس بقيره من الاسقفيه فيخرج من دينه ويتلف المال فقسمه اسقفا على كرسى اخر غير الذى طلبه وقصد بذلك ربح نفسه ولا يتلف ماله، فحمل بقيره اليه المال فلم يراه بعينه بل امر ان يسلم لوكيل رباع الكنايس، وتقدم له ان يصرفه في عماره جوسق دير الشمع وغيره.

بالتيجان ويعين ويعزل الاساقفة والدوقات والملوك والاباطرة؛ كل سلطة، ايا كانت، لن تكون فعلية وحقيقة الا بقدر ما تكز وتدعم من رئيس الكنيسة ، ممثل الإله الاعلى في الارض. وقد رسم جريجوريوس السابع خطة لاخضاع جميع الدول المسيحية للكورية الرومانية التيوقراطى (من الكلمة اليونانية التى تعنى «حكم الرب») - وهو برنامج يرمى الى انشاء ملكية اوروبية عامة، او، حسب مصطلحات ذلك الزمن، كلية ، اى عالمية، على رأسها البابوية، واجبار جميع الملوك المسيحيين على حلف اليمن الأقطاعى للكرسى الرسولى. ولكن هذه السياسة قوبلت بالصد من جانب كثيرين من الملوك،وبخاصة من جانب الاباطرة الالمان، الذين استمر النضال ضدهم، بنجاح متقطع في صالح روما، في عهد اخلاف جريجوريوس السابع.

ان سعى باباوات روما الى انشاء تيوقراطية كلية في اوروبا دليل ساطع على الاهمية التى اكتسبتها هناك في القرن الحادى عشر الكنيسة (الكاثوليكية الرومانية الغربية) ومركزها القيادى ـ البابوية. وبما ان الكنيسة كانت اغنى المؤسسات الاقطاعية ، فقد كانت لها مصلحة حيوية في توطيد النظام الاقطاعى. ولهذا اعتزمت البابوية ان ترص تحت سلطتها العليا قوى الاقطاعيين المتفرقة لكى تعزز بالتالى مواقع الملكية العقارية الاقطاعية حيال الفتن التى تتهددها.

وكانت فكرة القضاء على استقلالية الكنيسة الشرقية الارثوذكسية، التى انفصلت نهائيا

وكان رجلا من اولاد الكتاب المميزين ممن له
تقدمه في قومه ورياسته يسمى ابو اليمن ابن
العميد فترك الخدم [في الدواوين] والتصرف ولزم
خدمه كنيسه القديس ابو جرج بدير الطين، فنقلو
الناس السو للبطرك انبا غبريال عنه كلاما زسجا
[سجس] قصدو به فساد حاله عنده، وان يخرجوه
من البيعه المذكوره، او يكونو ابصرو عليه شي
منكر فانكروه. فلما اعلمو البطرك بذلك لم يمكنه

عن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في سنة ١٠٥٤ جزاء لايتجزأ من برنامج البابوية التيوقراطي. ولمناسبة هذه المحاولات على وجه الضبط، ظهرت الخطوط الاولى من مشروع حملة الجهاد ضد الشرق الاسلامي.

بيزنطية والغرب والسلجوقيون

كانت بيزنطة، وريثة الامبراطورية الرومانية، قد فقدت من زمان بعيد الكثير من ممتلكاتها السابقة في الشرق. وغدت مواقع القسطنطينية في آسيا الصغرى اقل فاقل صلابة. وكان زحف البدو الاتراك ـ السلجوقيين (او السلاجقة نسبة الى القائد سلجوق شبه الاسطورى الذى وحد في النصف الثانى من القرن العاشر قبائل اوغوز في آسيا الوسطى) الاشد خطرا على الدولة البيزنطية. وفي عهد السلطان ألب ارسلان (١٠٦٣ـ١٠٧٢) اقتحم السلجوقيون مقاطعة ارمينيا البيزنطية واشتبكوا في حروب ضد جورجيا، وتغلغوا اوسع فأوسع في اقليمى بيزنطية في آسيا الصغرى ـ قبدوقية وفريجيا.

وقد حاول الامبراطور رومانوس الرابع ديوجين (١٠٦٨ـ١٠٧١) ان يضع حدا لتقدم السلجوقين. فشنت القوات المسلحة البيزنطية ضدهم حملتين ناجحتين. وامكن عقد هدنة مع ألب ارسلان ولكن رومانوس الرابع دفع فجأة فيما بعد ضد العدو جيشا آخر، من ٣٠٠الف رجل، اى اقوى جيش بين الجيوش التى جهزها قبل ذاك. كانت قواته المختلفة

الصبر عن النظر فيما قالوه والبحث عنه، فصعب ذلك على ابو اليمن ابن العميد وخرج من مذهبه، فعظم امره على الاب البطرك وندم عليه غاية الندم ولم يرجع بعده يتشدد على احد خوفا ان يفعل مثله.

واجـــــرى الله على ايدى هذا البطرك ايات وعجايب واعمال حسنه، وانا اذكر بعضها وهو ما حدث في بلاد الحبشه، وذلك ان ملك الحبشه

القوميات تتألف اساسا من المرتزقة وكانت داخليا هشة، ضعيفة، غير موثوقة. وعشية الاشتباك العام، انتقلت الفصائل التركية من قوات رومانوس الى جانب اخوانها الاتراك. كذلك كانت الخيانة تعشعش بين القادة العسكريين البيزنطيين انفسهم.

في ١٩ آب (اغسطس) ١٠٧١ دارت رحى معركة هائلة بمقاييس ذلك الزمن شمالي بحيرة فان (ارمينيا)، غير بعيد عن المدينة ـ القلعة ما نزكرت (باليونانية ما نتسيكرت). وقد منيت عساكر الامبراطورية البيزنطية بهزيمة ما حقة انزلها بهم السلجوقيون الذين لجأوا الى الحيلة التكتيكية التي سبق لهم ان خبروها مرارا: فقد تراجعوا في الظاهر لكي يغروا البيزنطين ثم ارتدوا فجأة عليهم وشنوا حملة عاصفة بالخيل على العدو. وقد ابيد جيش رومانوس الرابع كليا تقريبا، ووقع الامبراطور نفسه في الاسر ـ الامر الذى لم يحدث يوما قبل ذاك في تاريخ بيزنطية، وطرح ارضا عند قدمي السلطان الظافر. وسرعان ما اخلى السلطان سبيل الاسير النبيل، ولكن نتيجة الكارثة في معركة مانزكرت كانت وبالا على الامبراطورية، اذ فقدت ممتلكاتها الغنية في آسيا الصغرى. وبين سنة ١٠٧٨ وسنة ١٠٨١، رسخ السلجوقيون اقدامهم في مناطقها الغربية ايضا؛ وبالكاد استطاعت بيزنطية ان تحتفظ لنفسها بعدد قليل من المدن على ساحل بروبونتيدا(بحر مرمره). ومن نوافذ القصر الامبراطورى في القسطنطينية، اخذت تبدو الآن الجبال في الشرق التي لم تبق ملكا للفاسيلفس الجبار في الماضى (الامبراطور البيزنطى).

طلب ابا ميخاييل، واسمه قبل قسمته مطران على الحبشه حبيب، وطلب منه ان يكرز له اساقفه زايد عن العده الجارى بها العاده المعروفه المقرره من قديم الزمان، فامتنع من ذلك وقال: ما اقدر اعمل شى الا براى البطرك. فانفذ الملك الى البطرك كتابا يساله في ذلك وكتابا اخر صحبه رسوله الى ملك مصر، فخرج امر الخليفه الى البطرك باجابته الى ما طلبه، فاعتذر عن ذلك وقال للخليفه: يا مولاى

كانت بيزنطية تعانى من الفوضى فى اكمل مظاهرها. فقد كانت مختلف تكتلات الاعيان الاقطاعيين، فى العاصمة والارياف على السواء، تتخاصم وتتهاتر بلا نهاية بعضها مع بعض، وتحاول بشتى المكائد والدسائس ان تزيد امتيازاتها وسلطتها. وكان من المستحيل تقريبا الاعتماد على الجيش المؤلف على الاغلب من المرتزقة. وكانت الخزينة تشكو على الدوام نقصا فى الاموال؛ فمنذ ان تحول الفلاحون الاحرار الى اقنان نضب المصدر الرئيسى للضرائب. ومع مرور الزمن، صارت بيزنطية تتعرض بمزيد من الشدة للتقسيم الى ممتلكات اقطاعية شبه مستقلة فى الميدان السياسى. ومذ ذاك ، بدأت قوة الامبراطورية تتوقف على الفصائل العسكرية التابعة لملاكى الاراضى الجبابرة فى الارياف! بل ان الهزيمة فى معركة مانزكرت كانت قبل كل شئ ثمرة الاقتتال بين الارستقراطيين، فان بعضا منهم كانوا على استعداد (وهذا ما حدث بالضبط فى سنة ١٠١٧ !) للخيانة السافرة شرط أن يحتفظوا ويزيدوا من امتيازاتهم، وعندما أفرج السلطان السلجوقى عن رومانوس ، انفجرت فى الامبراطورية حرب حقيقة بين الزمر الاقطاعية. واضطر الامبرطور السابق الى الاستسلام للاقطاعيين ووضع نفسه تحت رحمتهم، ولكنهم اسروه وسملوا عينيه ونفوه.

ولم يلبث البابا جريجوريوس السابع ان استغل مصاعب بيزنطة التى اضعفتها وانهكتها الحروب ضد السلجوقيين والاضطربات الداخلية ، وذلك لكى يجعل الكنيسة الارثوكسية

اذا صارت الاساقفه عند الحبشه اكثر من هذه العده تجاسرو على قسمه مطران وطغو نفوسهم من طاعه بطاركه مصر، واستغنو عنهم وصارو يقيمو لنفوسهم، وما يقا لهم ببطاركه مصر حاجه، ولا يودو لهم طاعه، ويخرجهم ذلك الى العداوه والمحاربه لمن هو متاخم بلادهم من المسلمين، فيخل منهم النظام وتكثر فيهم الحروب، كما كانو يفعلون فى قديم الزمان فى ايام فرعون وموسى

الشرقية تابعة للكرسي الرسولي، الامر الذى كان من شأنه ان يوسع الموارد المادية لدى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ويسهل على البابوية تحقيق برنامجها التيوقراطي الكلي في الغرب.

في البدء لجأ جريجوريوس السابع الى التدابير الديلوماسية: ففي صيف ١٠٧٣ بدأ يتفاوض مع الامبرطور البيزنطى ميخائيل السابع دوكا. وقد قال البابا فى رسالة الى الامبراطور انه ينبغي تجديد الوفاق القديم بين كنيسة روما وكنيسة القسطنطينية. ولكن البابا دفع فكرة التوصل الى الاهداف المنشودة بقوة السلاح وذلك بتنظيم حملة حربية يشنها الفرسان على الشرق بحجة حماية الدين المسيحي وتقديم العون للارثوذكس ضد المسلمين السلجوقيين. وبما ان العساكر الغربية ستكون كثيرة، فمن المؤكد ان الامبراطور البيزنطي سيكون اكثر تساهلا وتنازلا، وبعد ذلك، من ذا الذى يعلم كيف ستتطور هذه المبادرة؛ وخاصة إذا تكللت بالنجاح. والقدس ليست بعيدة جدا عن القسطنطينية!

في سنة ١٠٧٤ وجه البابا رسالة إلى الكونت غليوم الأول البورجوني والى الامبراطور الألماني هنريخ الرابع الذى أمسى فيما بعد عدوه اللدود، والى ماتيلدا مارك كونتيسة توسكانا، وأخيراه إلى جميع الأوفياء للقديس بطرس» ، دعاهم فيها إلى تخليص الكنيسة الشرقية من البلية والى الاشتراك لهذا الغرض فى الحرب فى الشرق. ولم يضن جريجوريوس السابع بالوعود بالمكافآت السماوية على الذين يوافقون على محاربة «الكفار». وقد نصح البابا

ومن تقدمه من ملوك الفراعنه، فانهم كانو يغزوهم في البر والبحر، والاخبار بذلك مدونه في سير الاوايل. ثم كتب البطرك كتابا يردعه ويامره ان يرجع عما طلبه وسير الكتاب اليه. ولما عادو رسل البطرك من الحبشه اخبرو ان نار نزلت من السماء على قصر الملك فاحرقت بعضه ثم اصاب بلاد الحبشه غلا عظيم في تلك السنه، ووبا عظيم، ولم يمطر فيها مطرا، وقاسو لاجل ذلك صعوبه

الكاثوليك فى رسائله: «قاتلوا بجرأة، لكى تنالوا فى السماء مجداً يتجاوز جميع توقعاتنا. تسنح لكم الفرصة لاكتساب الغبطة الابدية بعمل طفيف».

وعلق جريجوريوس السابع أهمية جدّية على المشروع الذى حاكه. فقد ردد غير مرة فى رسائله أنه ينوى أن يسير شخصيا فى طليعة قوات المسيحيين الغربيين ويمضى إلى ما وراء البحار. وكان لابدّ لهذا المشروع ان يستتبع صدى ملائما عند «المعدمين» و«الذين لا أرض عندهم» الذين سبق لهم أن حاربوا المسلمين تحت الراية الدينية وبموافقة البابارية. كتب البابا إلى ماتيلدا دى توسكانا: «اؤمن فى أن كثيرين من الفرسان سيساعدوننا فى هذه القضية».

وبديهى أن شعار حماية الدين المسيحى لم يكن غير قناع؛ فإن نوايا روما لم تكن تمت باى صلة إلى انقاذ المسيحية. الأمر الذى لم يطلب أحد من البابا فعله. ثم أن المصالح الدينية التى أبرزها جريجوريوس السابع بمثل هذا الاصرار فى المرتبة الأولى فى رسائله لم تلعب يوما على الاطلاق دورا اوليا بنظر هذا السياسى الكنسى. وكان البابا لا يرى من الضرورى الاصرار على أية خلافات مبدئية بين المسيحيين والإسلام إذا كانت مصالح روما السياسية تتطلب ذلك؛ ففى سنة ١٠٧٦ بلغ الأمر بالبابا جريجوريوس ان صرح فى رسالة إلى أمير مدينة بجاية الجزائرية الناصر: «اننا نحن وانتم نؤمن فى اله واحد وأن يكن بأساليب مختلفة».

عظيمه. فقبل الملك كتاب البطرك ورجع الى الله وكتب الى خليفه مصر يساله ان يسال البطرك يحلله ويكتب له كتاب بركه عليه وعلى بلاده. فكتب له بذلك وسيره اليه، فرفع الله فى ساعه وصول الكتاب اليهم بخطه عنهم وادركتهم رحمته، فمطرت المطر وزرعت بلادهم ورخصت اسعارهم وزال وارتفع عنهم الغلا والوبا برحمه الله ورضا هذا الاب عنهم.

أما الجوهر الحقيقى لمشروع الحرب ضد السلجوقيين، فقد كان مغايرا، وقوامه إعادة الكنيسة البيزنطية الارثوذكسية إلى حضن الكنيسة الرومانية، وتوسيع منطقة نفوذ الكاثوليكية، بادراج بيزنطية بالعنف فى فلك التأثير البابوى، وامتلاك ثروات الكنيسة الارثوذكسية.

ان نداءات البابا التقية الورعة قد سبقت من حيث الجوهر شعارات الحرب الصليبية المقبلة. أغلب الظن أن هذه النداءات قد لقيت التفهم من جانب الفرسان. على كل حال أكد البابا نفسه فى أواخر ١٠٧٤ للأمبراطور الألمانى هنريخ الرابع انه تسنى له هو البابا أن يجمع جيشا من ٥٠ألف إيطالي وفرنسى لأجل المشروع فيما وراء البحار ضد الوثنيين. وقد لقى البابا الدعم، مثلا، من بعض الاقطاعيين فى فرنسا الجنوبية مثل غليوم البورجونى وريمون دى تولوز.

ولكن جريجوريوس السابع لم يستطع أن يحقق مقاصده. فان الصراع الذى بدأ ضد الامبراطورية الالمانية قد صرف انتباهه عن بيزنطية لزمن طويل. ومع ذلك عاد فيما بعد غير مرة إلى فكرة إعادة الكنيسة الارثوذكسية إلى «حضن الأم». وعندما هاجم روبر جيسكار ممتلكات بيزنطية فى ايطاليا سنة ١٠٨٠ باركه البابا جريجوريوس السابع على هذه الحرب. وطلب البابا أن يدعو رجال الدين فى ايطاليا الجنوبية الفرسان المحليين إلى الاشترك فى حملة الزعيم النورمندى واعدا لقاء ذلك بغفران الخطايا. وبعد أن اقتحم النورمنديون شبه جزيرة

وكان البطرك المذكور قد مرض مرضا شديد اشرف منه على التلف، فراى فى منامه كان جماعه كهنه ورهبان ومعهم اناجيل وصلبان ومجامر وقالو له: جينا نفتقدك اليوم وانت تبرا من مرضك هذا، ولكن نحن نعود اليك فى العام القابل فى مثل هذا الزمان وناخذك معنا. فعوفى من مرضه فى تلك الدفعه ومن بعد سنه مرض وتنيح فى التاريخ الذى قدمنا ذكره فى اول هذه السيره.

البلقان فى سنة ١٠٨١ واستولوا على قلعة دراتش البحرية فى ابيروس وتغلغلوا فى أعماق البلاد، هنأ جريجوريوس السابع روبر جيسكار بالنصر دون ان ينسى تذكيره بأنه مدين بنصره إلى حماية القديس بطرس. صحيح أن جريجوريوس السابع كان فى السنوات التالية مستغرقا كليا فى الصراع ضد هنريخ الرابع، لكن ثمة أمر لا ريب فيه هو أن الاستعدادات التى قام بها البابا فى السبعينيات لشن حرب فرسانية كبيرة «لحماية بيزنطية» قد كانت نقطة انطلاق مهمة للخطة التى نضجت فيما بعد لأجل تنظيم حملة فتوحات واغتصابات فى الشرق.

ان القضية التى دبرها جريجوريوس السابع قد طورها فيما بعد أقرب خلفائه من الباباوات. وكان الوضع الذى نشأ فى العقود الأخيرة من القرن الحادى عشر فى بلدان القسم الشرقى من حوض البحر المتوسط يناسب تحقيق مقاصد البابوية. وفى ذلك الوقت احتل السلجوقين آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين. وفى سنة ١٠٧٠ احتلوا دمشق وحلب وغيرهما من المدن السورية وفى سنة ١٠٧١ احتلوا مركز الاديان الثلاثة بما فيها الدين المسيحى، مدينة القدس، التى كانت حتى ذاك خاضعة لسلطة خلافة الفاطميين فى مصر وفى سنة ١٠٨٤، انتزع السلجوقيون انطاكية من بيزنطية واستولوا عليها. وفى عهد ملكشاه (١٠٧٢ـ١٠٩٢)، شملت ممتلكات السلجوقيين قسما كبيرا من اراضى سوريا ولبنان والاردن وفلسطين.

وهكذا شملت فتوحات السلجوقيين رقعا شاسعة من الاراضى. ولكنهم لم يؤسسوا دولة

وكان فى ايام هذا البطرك واحد من رهبان دير ابو كما اسمه حلوش من اولاد بنات بسطيه، الذى كان امينا على استخراج دهن البلسان اعنى الميرون، رفع [اكاذيب] فى الرهبان وسعى بهم عند الامام الحافظ ان عندهم ملاحم وعلوم يعرفو منها ما يجرى على الملوك، وكيف يكون تغلب الدول، ويجمعو الدنانير وغيرها من قنايا الذهب والفضه والمصاغ ويخالفو بهذا مذهبهم وكلام

مركزية. ولم تكن دولة السجلوقيين قائمة الا بالاسم. اما فى الواقع، فقد كانت عبارة عن اتحاد ضعيف العرى بين كثرة من الاقطاعات شبه المستقلة. واهمها كانت السلطنة الرومية (سلطنة سلاجقة الروم او دولة السلاجقة) التى تشكلت سنة ١٠٧٧ فى آسيا الصغرى، وكان مركزها فى البدء نيقية، ثم قونية، وكان السلاطين يطمحون الى وارثة الامبراطورية البيزنطية ولذا سموا دولتهم بالدولة الرومية، لأن البيزنطيين كانوا يسمون انفسهم بالروم (بالرومانيين). واخذ السلاطين هذا الاسم كما اخذوا الادعاءات المناسبة. وبعد سنة ١٠٩٢ تداعت الدولة السلجوقية كليا. وتفجرت الخلافات والخاصمات بين الحكام الكبار والصغار وصارت آسيا الصغرى مسرحا لحروب لاانقطاع فيها.

وبعد حقبة طويلة من الزمن، اى بعد ان تعاظمت الحركة الصليبية، اختلق مدونو الاخبار الغربيون لتبريرها مختلف الاساطير عن الملاحقات والمطارادت التى قام بها، بزعمهم، السلجوقيون ضد المسيحيين فى البلدان الشرقية وعن اهانة وتدنيس الوثنيين للمقدسات المسيحية ، وبخاصة عن مطاردات الحجاج المتجهين الى القدس. وقد تلقف المؤرخون الاوروبيون فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ولاسيما منهم الكاثوليكيون، هذه الاساطير وزينوها بشتى التفاصيل . وقد وصف مؤلف «تواريخ الحروب الصليبية» ــ وهى تواريخ عديدة ــ الوضح بسمات متماثلة تقريبا :كان السلجوقيون يشكلون خطرا على المسيحية ، ولذا كان

انجيلهم ووصيه المسيح لهم، وان عندهم صوره ساقيه بلور لا يوجد عند احد من ملوك الدنيا مثلها. فندب معه حجاب واجناد فاخذهم وطلع الى الديارات بوادى هبيب [النطرون] وسلطهم على الرهبان فاهانوهم واخرقو بهم وغرموهم ونهبوهم وقطعو مصانعتهم وحل بهم منه شده عظيمه، واخذ منهم قوم من شيوخهم ودخل بهم القاهرة، فلم يصح شى مما حكاه عنهم وخلصهم

صد هذا الخطر يتطلب تدخل الكاثوليك المسلح. واخذ بابا روما على نفسه قيادة الكاثوليك. ومن هنا جاءت الحروب الصليبية. وهذا يعنى ان هؤلاء المؤرخين، رغبة منهم فى تفسير منشأ حروب المسيحيين الغربيين، نقلوا مركز ثقل الاحداث التى استتبعت الحروب الصليبية الى الشرق؛ فمن وجهة نظرهم، كان كل شئ يعتمد على فتوحات السلجوقيين، وبينها فى المقام الاول القدس، مهد المسيحية.

وهذا الضرب من التصورات عن اقرب اسباب الحروب لايزال واسع الانتشار الآن فى الغرب، واليوم يصدر هناك عدد لايستهان به من الكتب التى تبدأ ابدا ودائما بوصف العقبات التى اقامها السلجوقيون، كما يزعم المؤرخون الصليبيون، فى طريق الحجاج الاتقياء، وبوصف المصاعب التى واجهها الحجاج فى الارض المقدسة. ان هذا التفسير للاحداث لايتطابق البتة مع الوقائع التى قررها المؤرخون المسيحيون فى العصور الوسطى.

فان السلجوقيين لم يكونوا يتصفون اطلاقا بالتعصب الدينى الاعمى. يقينا ان فتوحاتهم قد رافقها هلاك الناس وآلامهم، ورافقها الدمار، اى رافقها كل ما يرافق ايه حرب كانت، ولكن هذا لم يكن له البتة اية علاقة بالدين المسيحى.

ثم ان السكان انفسهم فى بلدان القسم الشرقى من حوض البحر المتوسط، المنتمين الى مختلف التيارات والطوائف المسيحية، لم يفتشوا يوما، لا فى بيزنطية، عن الحماية من

الله منه واحسن الخليفه اليهم واعادهم الى دياراتهم بسلامه. وكان هذا حلوش لما دخل بالمترسمين معه الى دير ابو مقار احرق حشمة الهيكل المقدس، اعنى هيكل بنيامين، وهجم عليه ودخل اليه هو ومن معه وفتشوا الاسكنا جميعه. وقيل عنه انه رفص الهيكل برجله عجبا وتكبرا فضربه الله فى رجله بحيه رديه اكاله ولم تزل تاكل رجله حتى مات منها بعد شدايد عظيمه، وكان الدود والنتن والضربان لا يفتر منها لا ليل ولا نهار، وكان

- -

الملاحقات الدينية المنسوبة الى السلجوقيين. وكان بوسع الحجاج ان يزوروا القدس كما فى السابق. اما مشاعرهم الدينية فلم تكن تتعرض للاهانة من قبل الحكام السلجوقيين. بديهى انه كان يتعين على الحجاج ان يكونوا على يقظة: ففى فلسطين كانوا على أى حال فى ارض العدو. وليس عبثا أن تتخذ عمليات الحج شيئا فشيئا طابعا مسلحا. ولكن السلجوقيين. لم يهتموا البتة بمصالح الحجاج الدينية وعبادتهم للمقدسات المسيحية فى القدس وبيت لحم وغير ذلك من الاماكن المقدسة. وكان المسلمون يتقاضون من الحجاج رسوم معينة لقاء زيارة المدينة المقدسة.

ان الاقاويل عن آلام المسيحيين الشرقيين فى ظل حكم السلجوقيين وعن العقبات التى اقاموها فى وجه الحجاج هى، بقدر كبير ، اختلاقات باطلة تفتق عنها خيال كتاب كنسيين احدث عهدا الينا ـ هم جزئيا بيزنطيون، ولكنهم غربيون وشرقيون ـ من امثال وليم الصورى (١١٣٠ـ١١٨٦). فاحينا كثيرة كانوا قصدا وعمدا ينشرون الاشاعات عن مآثم السلجوقيين ضد المسيحية ، قائمين بذلك، كما قد نقول اليوم، لاغراض دعائية بحتة،ـ لكى تسهم الاشاعة عن الخطر الذى يشكله «الكفار» على الاماكن المقدسة فى تدفق قوات مسلحة جديدة من الغرب. وهذا الضرب من الاشاعات كان ينطلق وينشر من

يعترف بما فعل ويقول: هذه مكافاه الرجل الذى تعديت ودخلت الى ذلك المكان المقدس بغير وقار. ولم يزل كــذلك الى ان مــات. ونســال الله ان يرحمنا صدقه منه علينا.

ميخائيل ابن دنشترى(*) البطرك
وهو من العدد الحادى والسبعون
[١١٤٥/١١٤٦م]

(*) دنشترى: هى احدى قلايات دير ابو مقار بوادى النطرون. ومعنى اسمها القلاية الكبرى. وكان هذا البطرك تربطه صداقة قوية بالخليفة الفاطمى الحافظ.

هذا الاب الجليل كان راهبا من قلايه تعرف

روما البابارية. وقد استغل الباباوات ضعف اطلاع اوروبا الغربية على ما كان يجرى فعلا فى الشرق لتضليل العالم الكاثوليكى. ويلاحظ المؤرخ المستشرق الفرنسى المعاصر كاين ان روما قد صورت الكارثة التى حلت ببيزنطية بصورة كارثة حلت، بزعمها ، بالمسيحية الشرقية على العموم.

اما فى الواقع، فان الفتح السلجوقى، اذا كان قد شكل حجة لاعداد حرب الغرب ضد الشرق لاجل اهداف دينية كما يزعم ، فليس ذلك الا بقدر ما سدد ضربة الى بيزنطية التى كانت من زمان بعيد موضع مطامع الكنيسة الرومانية. ثم ان انتشار الفتوحات السلجوقية لاحقا فى السبعينات والثمانينات فى آسيا الصغرى، وتقسيم دولة ملكشاه الذى جرى فى الوقت نفسه، لم يوفرا للباباوية فرصة التوصل الى تحقيق خططها القديمة الموجهة ضد بيزنطية وحسب، بل اتاح كذلك توسيع تطلعاتها، باشاعة كذبة بينة عن الخطر الذى يتهدد المسيحية اجمالا، والذى يزحف، حسب زعمها، من الشرق.

ومشاريع جريجوريوس السابع بعثها بكليتها واكملها بصورة جوهرية خلفه البابا اوربان الثانى (١٠٨٨ـ١٠٩٩)، الفرنسى الاصل. ووفقا لارشاداته كان ينبغى ان يخضع كل القسم الشرقى من حوض البحر المتوسط لحكم وسيطرة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية وخدمها

بدنشترى بدير القديس ابو مقار شيخ حسن الوجه والهيه [الهيئة] ذات وقار وعفه، قديس طاهر الا انه لم يكن عالما ولا راض نفسه فى قراه الكتب. لان ابويه لم يهتمو بذلك، فلم يتعرض لطلب كهنوت ولا طقس بل انه لزم قانون الرهبنه من غير قراه قبطى ولا عربى، فلما تنيح الاب البطرك انبا غبريال وبقى الكرسى خاليا ممن يدبره اربعه شهور وايام تعرض لطلب البطركيه راهب من دير ابو

الامناء، الفرسان الغربيين. ولكن اوربان الثانى احاط مشاريعه بالمبررات الدينية بقدر اكبر بكثير من التفصيل. وفى اداء هذه المهمة ساعده كذلك الوضع العصيب الذى واجهته بيزنطية فى الثمانينات واوائل التسعينات من القرن الحادى عشر.

فان النورمنديين الذين كان يقودهم روبر جيسكار، واصلوا الفتوحات فى الاقاليم الاوروبية من الامبراطورية البيزنطية ذارعين الذعر فى القسطنطينية . وكان بمقدور الكسيوس كومنينوس، (١٠٨١ـ ١١١٨) ان يقضى على الخطر النورمندى باللجوء الى قوة السلاح والى وسائل الديبلوماسية البيزنطية الماكرة الداهية، ولكن السحب اخذت تتلبد فى ذلك الوقت فى شمال وشرق بيزنطية، فقد ثار عليها السلاف القاطنون على ضفاف نهر الدانوب فى بلغاريا، بسبب ماكانوا يعانونه من بلايا من جراء ابتزازت الموظفين الامبراطوريين. فاستنجدوا بالبدو البتشينيج. ووفى سنة ١٠٨٨ انزل البتشينيج بالامبراطور الكسيوس كومنينوس هزيمة شنعاء فى جوار سيليسترا؛ ودمر هؤلاء البدو ادريانوبول وفيليبوبول ، ووصلوا حتى اسوار العاصمة بالذات. وجهز الامير السلجوقى تشاها الذى استقر فى غرب آسيا الصغرى وفى بعض جزر بحر ايجه، اسطولا ضد العاصمة البيزنطية. واجرى تشاها مفاوضات مع البتشينيج بشأن العمليات المشتركة. ووضعت خطة مشتركة لهجوم البتشينيج والسلجوقيين على القسطنطينية.

مقار يسمى ونس [يونس] ابن كدران وتعصب معه قوم من اخوته الرهبان. واجتمعو قوم من الاساقفه وتساعدو جميعا، وهم يعقوب القارى اسقف لقانه من اعمال البحيره، واخرسطودلوس اسقف فوه، وميخاييل اسقف طندتا. واجتهد يونس ابن كدران في طلب البطركيه وساعدوه المذكورين فلم يرضى فعله الرب، ولاجل ذلك لم يرغب فيه ولا رجلا واحد من الشعب باسره. وقد كان قبل حضوره

في سنتي ١٠٩٠ـ١٠٩١، عندما كانت شؤون الامبراطورية في البحر والبر في وضع شاق جدا، على قول المؤرخة البيزنطية حنة كومنينة (ابنه الكسيوس الاول) ارسل الامبراطور البيزنطي الرسائل الى ملوك وامراء الغرب مفادها ان بيزنطية تطلب معونة عسكرية . كذلك بعث الامبراطور كومنينوس بالرسل الى بابا روما. وكان يعلق عليه هو ايضا الآمال. كان ينبغى مد عساكر الامبراطورية مهما كلف الامر. وقبل ذاك، كان الغرب قد قدم لجيش الروم عددا لايستهان به من المرتزقة، فقد كان يخدم فيه النورمنديين والسكاندينافيون والانجلو-ساكسونيون. والآن احتاجت القسطنطينية إلى المرتزقة ، وكان بوسع روما ان تقدم لبيزنطية مساعدة مهمة من المرتزقة. وهذا يفسر تنازل الحكومة البيزنطية الظاهرى في المفاوضات مع البابوية بصدد الاتحاد، بين الكنيسة الشرقية (بيزنطه) والكنيسة الغربية (روما) ومع ذلك يعتزم الفاسيلفس الاعتماد كليا على الكنيسة الرومانية؛ فان ادعاءاتها بالزعامة كانت معروفة جيدا من زمان في القسطنطينية.

ومع اجراء المفاوضات مع البابا بشأن اتحاد الكنيستين، ومع اغراء الاسياد الغربيين بامكان نهب البلدان الشرقية، اتخذت الحكومة البيزنطية تدابير اخرى اكثر وثوقا لاجل شق طوق السلجوقيين والبتسينيج. فوجهت ضد البتشينيج حلفاء الامبراطورية الجدد ـ البولوف

الى مصر قسموه قمصا فى دير ابو مقار، وكان رجلا طويل القامه جميل الوجه حسن الهيه [الهيئة] طيب الخلق حلو الكلام، عالم باللغه القبطيه وكتب البيعه، ماهرا فى العتيقه والحديثه، الا ان الشيطان، نجانا الله واياكم من تجاربه وحيله ومصايده وكفا جميع بنى المعموديه شر ضرباته، ضربه بهذه الضربه الرديه التي هى طلب الرياسه للكبريا الذى اسقطه الله بها، فهو حريص ان

(البولوفسيين). ففى ٢٩ (ابريل)، نزلت هزيمة ماحقة بجحافل البتشينيج. الضخمة فى المعركة على ضفة نهير ماوروبوتام (رافد نهر ماريستا)؛ اذ ان اسطول الامير تشاها لم يفلح فى الوصول إلى نجدتهم. وبعد حقبة وجيزة استطاعت بيزنطية أن تتخلص من الامير تشاها أيضاً، فإن الامبراطور قد حرض على تشاها سلطان نيقية قلج (او اقليج) ارسلان الاول (١٠٩٢ـ١١٠٧) فقتل تشاها اثناء وليمة. وهكذا، باللجوء تارة الى القوة المسلحة، وطورا الى الدسائس والرشوة، تخلص الكسيوس الاول فى آخر المطاف من المخاطر التى تتهدد القسطنطينية. واعادت بيزنطية الى ما تحت سلطتها عددا من المدن الساحلية في بروبونتيد، وجزر هيوس وساموس ولسبوس. وازيح السلجوقيون. وفى هذه الحال لم يبق ثمة داع الى مغازلة روما. ودخلت المفاوضات بصدد الاتحاد طريقا مسدودا. ولم تقبل بيزنطية عمليا مقترحات اوربان الثانى، والمجمع المرسوم لم ينعقد هو ايضا، وبقيت الخلافات الدينية معلقة.

ولكن النداء الموجه الى الغرب بطلب العون فى لحظة حرجة بالنسبة لبيزنطية لم يمر دون ان يترك اثرا. فان الشرق مع مدنه التجارية الكبيرة، والمتطور فى الميدان الاقتصادى اكثر من الغرب، القروى اساسا، كان يبدو للفرسان الاقطاعيين الطموحين مصدرا لكنوز عظيمة .

يسقط من قدر عليه منا بها ليكون معه فى الجحيم، فحسن له طلب الرتبه والتقدمه على شعب الله بغير رايهم ولا رضاهم. وكان الشيخ ابو يوسف ابن سويرس الفيلسوف مشارف [المشرف على] البحيره في ذلك الزمان، فكتب الى الاراخنه بمصر يعرفهم ما صح عنده من قبح اخبار يونس ابن كدران، وكونه تعدى فى انه طلب ولم يوفق حتى يكون مطلوب، وان تهجمه وطلبه مما يدل

وكانت اقاصيص الحجاج العائدين من القدس والقسطنطينية تصور بالخيال المعابد والقصور الرائعة فى المدن الشرقية وعجائب البذخ التى تغمر الاغنياء البيزنطين والعرب. وعن هذه العجائب نشأت اساطير كان ينقلها المغنون القاصون المتجولون الى قصور الفرسان .وها هى الغنيمة اللذيذة تقع فى ايدى السلجوقيين!

وهذا ما اقلق على الاخص النورمنديين الذين استقروا فى ايطاليا الجنوبية وفى جزر البحر المتوسط. وخلال عشرات السنين كانوا مرتبطين مباشرة ببيزنطية ـ بصفة قراصنة تجار ، وبصفة محار بين مرتزقة. ومن ذا الذى كان بوسعه خيرا منهم ان يقدر ثروات القسطنطينية؟

وكان مصير بيزنطية يثير القلق كذلك فى نفوس الكثيرين من الامراء والفرسان الآخرين فى الغرب، الذين كانوا ينتظرون الفرصة لكى ينقضوا على ثروات الامبراطورية البيزنطية (او امبراطورية الروم). ذلك ان الشرق كله كان يبدو ارض الامبراطور البيزنطى بنظر البارونات المارك ـ كونتات والدوقات والفيكونتات القليلى الاطلاع على الجغرافيا . ولم يكن من الجائز ان تصبح هذا الارض فى حوزة السلجوقيين!

ان البابوية التى كانت تسعى إلى اهدافها كانت تأخذ بالحسبان، عن وعى او بلا وعى، مصالح الاقطاعيين الغربيين المشتركة؛ فلم تغب عن بالها الميول العدوانية المشتدة اكثر فاكثر

على نقص عقله وعما [عمي] قلبه، وكيف يقدر يدبر شعب الله من لا يعرف يدبر نفسه ويعلمهم ما انطلقت به الالسن في عرضه من الاحاديث السمجه لاجل تعرضه للطلب على هذا الوجه. فاقتضى الحال اجتماع من حضر من الشيوخ الاراخنه المصريين ومن حضر من الاساقفه استقر اخرها ايقاف امر يونس المذكور وان يطلب غيره ممن يصلح لهذه الرياسه، ويقع اتفاق الشعب

ين الفرسان الى الفتوحات. وكان الوضع الذى نشأ نحو أوائل العقد العاشر من القرن الحادى عشر صالحا للغاية لتحريك تلك النوابض التى جربت الكورية الرومانية تحريكها منذ عشرين سنة.

وكان الجو فى الغرب يزداد توترا باستمرار. فان مشقات الفلاحين فى غضون «السنوات العجاف» قد بلغت الذورة، وكان الفرسان «المعدمون» ينهبون ويسلبون بجموح مشتد ابدا. وكان عدم الثقة بالغد يستحوذ بصورة اقوى فأقوى على الاسياد، سواء منهم الكنسيون إم الدنيويون. وفى مثل هذا الوضع جاء نداء بيزنطية بطلب العون فى الوقت المناسب تماماً. وكان الحجاج قد شقوا الطريق الى الشرق. وكانوا فى القصور الاقطاعية يظنون انه سيكون من السهل الاستيلاء على بلدان الشرق. والامل فى هذا خلقته الفوضى السائدة فى الدولة السلجوقية المقسمة الى اقطاعات شبه مستقلة. وكان الحكام السلجوقيون لايضايقون بعضهم بعضا وحسب، بل كانوا يتنافسون كذلك مع الملوك والامراء المسلمين، وعدا ذلك، قامت فى مدن سوريا ولبنان فى العقود الاخيرة من القرن الحادى عشر حركة من اجل الاستقلال الذاتى، وضد سيادة الخلفاء المصريين الفاطميين؛ وهذه الحركة شملت، فيما شملت، صور وطرابلس، اللتين طلبتا حتى المساندة من السلجوقيين. واستغل السلجوقيون بدورهم الذريعة المناسبة لكى

والاراخنه عليه، وعمل بذلك مسطورا واخذ فيه خط من حضره. قال الاب الجليل انبا مرقس ابن زرعه البطرك مولف هذه السيره(*) وناظمها نيح الله نفسه مع القديسين، انه لما وقع الاتفاق على طلب من يختاره الله لتدبير شعبه كتبت رقاع فيها هذه الاسمآ وهم: يونس [يوحنا](*) ابن ابو الفتح راهب من اولاد بويحنس، سليمان ابن الدحيادى من دير برموس، وانا الحقير مرقس ناقل هذه السيره

(*)مرقس ابن زرعه مؤلف هذه السيرة. وهو نفسه البطرك رقم ٧٣. انظر ص١٤٢٢ وما بعدها.

(*) سوف يتولى البطركيه بعد وفاة ميخائيل تحت رقم البطرك ٧٢ في المدة من ١١٤٧/١١٦٦م. انظر ص١٣٣٧.

يستولوا على صيدا. وفى سنة ١٠٨٩ فقط، استطاع الخليفة المصرى ان يستعيد السلطة على صور وسائر المدن التى انفصلت عنه. ولكن اضطربات جديدة نشبت فى صورة . وفى سنة ١٠٩٤ حاصرت القوات الفاطمية التى انطلقت باتجاه الشمال هذه المدينة الكبيرة واستولت عليها بعد مرور ثلاث سنوات بانقضاض عاصف، واعملت فيها نهبا وسلبا.

ومن المؤكد ان الكثير من تفاصيل الوضع المضطرب سياسيا فى بلدان القسم الشر قى من حوض البحر المتوسط لم يكن معروفا فى الغرب، ولكن فكرة عامة عن سوء الاحوال فى هذه المناطق كانت تكونها الانباء التى يحملها الحجاج واخبار التجار العائدين من الشرق، والتقارير الديبلوماسية التى كانت تتوافد الى الكورية الرومانية. ولهذا ، عندما طلبت بيزنطية من امراء الغرب ومن البابا العون، لم يعمد الفرسان الى المماطلة فى الرد على هذه الطلبات. فقد فهموها وتقبلوها كدعوة الى شن حملة على الشرق لانقاذ بيزنطية.

ولكن الاقطاعيين انفسهم كانوا فى حالة من التشتت المفرط فلم يكن بمقدورهم بالتالى ان يقوموا باعمال منظمة على مثل هذه الابعاد الكبيرة من حيث الجوهر. فكان لابد من تدخل قوة كانت، كما رأينا، المعبرة الرئيسية عن مصالح الاقطاعيين الغربيين الطبقية ـ عنينا

كنت حاضر، وميخايل الذى اختاره الله من دنشترى كان حاضرا، وطلبو منه ان يكتب خطه في المسطور على ابن كدران فلم يفعل، فتوهم قوم من الحاضرين انه حضر معه لمساعدته وانما كان امتناعه كونه لا يعرف قبطى ولا عربى، فعرفتهم به وانه ممن يصلح لهذه الرياسه، وكانت اراده الله فيه فكتبوه وكتب الرقاع باسما تلته منهم كما تقدم القول على جارى العاده، وكتبت رقعه باسم السيد

بهذه القوة الكنيسة الكاثوليكية ورئيسها، وما لبث هذا التدخل ان ظهر. فان البابا اوربان الثانى، وقد اقتنع بعقم المحاولات لتحقيق الاتحاد بالوسائل الديلوماسية، سلك سبيل جريجوريوس السابع. فقد عزز خططه بالضغط المسلح على بيزنطية بحجة تقديم العون لها ضد «الكفار» . واخذ البابا بالحسبان الميول العدوانية للحكام الاقطاعيين فى الغرب وحاول ان يستخلص من كل هذا اقصى النفع لاجل الكنيسة الكاثوليكية. فقد وفر تجمع الظروف وتطورها فرصة مناسبة لتحقيق المقاصد التوسيعة القديمة للكورية الرومانية بمساندة الفرسان، والقيام بخطوة مهمة لاجل تأسيس درلة تيوقراطية عالمية. وقررت البابارية ان تستغل الوضع الناشئ فى العلاقات الدولية وتبلغ اهدافها السياسة الخاصة مع تلبية حاجات الاقطاعيين الغربيين الناضجة على حساب الغير.

واخذ البابا اوربان الثانى على نفسه زمام المبادرة الى تنظيم حملة جماهيرية على الشرق كانت فكرتها قد انتشرت فى الاوساط الاقطاعية فى اوروبا الغربية. وفى سنة ١٠٩٥ طرح برنامجا واسعا لتوحيد الفرسان لاجل فتح البلدان الشرقية تحت شعار مساعدة الروم من الاخوة فى الدين وتحرير قبر السيد المسيح.

هكذا نضجت فكرة الحرب الصليبية . وقد وقعت فى تربة مهيأة تماما.

المسيح الراى الصالح ورفعو على الهيكل، واقام القداس عليهم ثلثه ايام متواليه، واحضر طفلا فاخذ واحده منهم فطلعت الرقعه التي باسم ميخاييل وذكر من حضر من شيوخ الرهبان التقات ان ابو الخير الابسلمدس [المرتل] بدير القديس ابو مقار وكان قديسا طاهرا يندر [يتنبىء] بالغيب قال لما سمع ما جرى لابن كدران ان البطرك يكون من قلايه دنشترى هذه التي ميخاييل

الحملة الصليبية الاولى

الدعوة الى الحرب واصداؤها. تكوين ايديولوجية الحرب الصليبية

في نوفمبر ١٠٩٥، عقد بابا روما اوربان الثاني مجمعا لرجال الدين في مدينة كليرمون فران الفرنسية. ان البابا لم يأت إلى فرنسا لكي يضبط شؤون الكنيسة فيها وحسب. فعندما

منها. وذكر عنه انه ليله توفا انبا غبريال البطرك راى روحه بين الملايكه صاعدين بها الى السمآ فاعلم من كان عنده من الاخوه حاضر بذلك فى ساعته، وقال لهم: قد تنيح البطرك فى هذه الساعه وبعد ثلثه ايام من قوله لهم وصلو قوم من الرهبان الى الدير واخبرو بوفاه البطرك فى ذلك الوقت الذى قاله. وذكر عن راهب اخر ان هذا انبا ميخاييل البطرك كان قد مرض قبل بطركيته

وطأت قدماه الاراضى الفرنسية، انبأ كذلك انه ينوى ان يساعد الاخوان المسيحيين الشرقيين. اغلب الظن ان البابا كان قد رسم فى الوقت المناسب خطة ما للعمل، قد لاتكون بعد كاملة الخطوط، ولكنها واضحة الى هذا الحد او ذاك من حيث اهدافها ومغزاها العام. الا انه كان لابد من بضعة اشهر لكى تكتسب هذه الخطة ملامحها الدقيقة..

بعد ان وصل اوروبان الثانى الى فرنسا، اخذ يطوف على الاديرة الكلونية فى جنوب البلد واحداً بعد آخر (فقد سبق له فى حينه ان كان رئيس دير كلونى). وهناك جرت مفاوضات اولية بصدد الحرب المقبلة التى كان لابد لها، من حيث ابعادها، ان تتجاوز كثيرا حملات الفرسان الفرنسيين منذ امد قريب الى ما وراء جبال البرانس. ومع من كان بمقدور البابا ان يتشاور بشأن مشروعه وسبل تحقيقه ان لم يكن مع الرهبان الكلونيين؟. كان الكلونيون لايدركون فحسب، ضرورة التدابير الجذرية التى من شأنها ان تقضى على الفتن الخطيرة التى تهدد الملكية العقارية الكبيرة فى الغرب، بل كانوا كذلك يدركون بصورة اوضح من اى وقت آخر تلك الوسائل العملية التى يمكن استعمالها لاجل بلوغ هذا الهدف. وقد تكدست عندهم تجربة لايستهان بها فى الدعوة المقدسة والحج . وكان بمقدورهم ان يوحوا للبابا اوربان الثانى بامور وافكار كثيرة، وما هو اهم، ان يكونوا ذوى نفع فعال له فى تحقيق المشروع.

مرضه صعبه شديده اشرف فيها على الموت انه قال لقوم من الرهبان سالوه عن مرضه: انه لا يموت في هذه المرضه ولا يموت الا بعد ان يصير بطركا. ولما اتفقت الجماعه على الرضا به كرزوه شماسا ثم قساً، وفى ثالث يوم كرزوه قمصاً فى كنيسه المعلقه بمصر بعد استيدان[استأذان] الخليفه يوميذ وخروج امره بتقدمته، وكتب له سجل بذلك. فسار مع من حضر من الاساقفه والكهنه

لم يكتف اوربان الثانى بزيارة ديور الرهبنة الكلونية. فان الحرب المقدسة التى كان يهيئ لها الكرسى الرسولى كانت تحتاج فى المقام الاول الى مقاتلين يملكون السيوف والرماح، وكذلك الى قادة ذوى مكانة. وفيما بعد فقط، اعلن اوربان الثانى ان الاحداث التى وقعت بعد مجمع كليرمون هى «قضية السيد الاله». هذه الكلمات وضعها مدون الاخبار فولير دى شارتر(فرنسا) على لسان البابا. من الممكن ان يكون البابا قد نطق فعلا بهذه الكلمات، ومن المحتمل انه حتى آمن فى صحتها. ولكن تلميذ جريجوريوس السابع كان سياسيا ثاقب النظر لكى يفهم هذه الحقيقة البسيطة وهى انه ليس من مصلحة البابوية، بل ليس من المعقول القيام بمشروع قبل التأكد سلفا من ان هذا المشروع سيحظى منذ بادئ بدء بمساندة اوسع الاسياد الاقطاعيين والكنسيين نفوذا على الاقل. ولقد اجتهد البابا لنيل مساندتهم سلفا.

ففى الطريق الى كليرمون قام بزيارتين مهمتين. فى اغسطس ١٠٩٥ قابل اوربان الثانى فى مدينة بوى مع صاحب المقام الرفيع الكنسى البارز، الاسقف اديمار دى مونتيل (Ademar de Monteil). ويبدو ان البابا استطاع ان يتفق معه على ان يأخذ هذا الحبر الجليل على نفسه مهمة رئيس الصليبيين الدينى. كذلك زار اوربان الثانى ريمون الرابع كونت تورلوز فى مقره الرئيسى ـ قصر سان جيل. وبنتيجة المفاوضات ، وافق هذا السيد، ـ وكان من اكبر

والشـــعب الى المدينه العظمى الاسكندريه فى
عشارى موكبى جرده الخليفه، واجلسوه على
كرسي مارى مرقص واكملو تكريزه فى يوم الاحد
الخامس من مسرى سنه ست وسبعين وثمان مايه
للشهدا القديسين، وبكلفه[بمشقة] عظيمه حتى
حفظوه قداس باسيليوس خاصه الى ان قدس به
وعاد الى مصر. وكان يوم دخوله اليها مشهور تلقاه
من وجوه المسلمين وكبارهم اكثر ممن تلقاه من

الاقطاعيين فى اوروبا الجنوبية، على الاشتراك فى الحملة. وقد تجاوب الكونت ريمون الرابع بكل طيبة خاطر مع رغائب البابا؛ فان الحرب التى كانت تهيئ لها روما كانت تتطابق تماما مع مصالحه بالذات.

ولئن كان اديمار دى بوى وريمون دى سان جيل مطلعين على مقاصد البابا، فان الاقطاعيين الأخرين، كما يجب الظن، كانوا يخمنون ان اوربان الثانى جاء الى فرنسا لاهداف اكبر من حل قضايا الكنيسة الداخلية . كذلك كان شعور مسبق غامض باحداث جدية ما ترتبط بوصول الرسول الاعظم (هكذا يسمى المؤرخون البابا احيانا).

فلاغرابة اذا كان قد توافد الى كلير مون آلاف الفرسان وعدد كبير من ذوى الالقاب الدينية، واذا كان قد تجمعت جموع لاتحصى من بسطاء الناس. وكل هذا الجمهور من الناس لم يكن من الممكن ان تتسع له المدينة حيث انعقد المجمع بحث فى سياق اسبوع (١٨ـ٢٥ نوفمبر ١٠٩٥) مواضيع عادية ومألوفة بالنسبة لمثل هذا الضرب من المداولات، وفى المقام الاول مسألة «السلام الر بانى»، الا انه ضم عددا استثنائيا من الناس. يستفاد من بعض المعلومات انه ضم اكثر من ٢٠٠ (وحسب معلومات اخرى اكثر من ٣٠٠) من الاساقفة و٤٠٠ من رؤساء الاديرة. ان عدد المشتركين فيه غير معروف بدقة؛ فان الارقام التى

النصارى، وكان فرح عظيم ومسره عند النصارى بمدينتى مصر والقاهره واحبوه كثيرا واطاعوه، وكان يفرح اذا راى الشعب كثير فى البيعه والكهنه كثير فى الاسكنا ويكثر من الدعا لهم، وكانت ايام بطركيته طيبه جدا وبعد ايام يسيره من جلوسه اقسم خمسه اساقفه احدهم كان من اولاد الاراخنه بمصر يقال له ابن نفرا كان قد ترهب فى دير ابو مقار فى قلايه دنشترى الذى هذا البطرك

ساقها فى هذا الصدد فولير دى شارتر وجيبرت دى نوجان وغيرهما من مدونى الاخبار تختلف بعضها عن بعض، على كل حال، تميز مجمع كليرمون بالفخامة وسعة التمثيل.

وبعد انتهاء جلسات المجمع الرسمية، وبعد ان «وعد جميع الحاضرين، سواء منهم رجال الدين او المؤمنون، بمراعاة قرارات المجمع بأمانة» ، كما كتب احد مدونى الاخبار، القى البابا اوربان الثانى فى ٢٦ نوفمبر ١٠٩٥ خطابا احتفاليا فى الهواء الطلق مباشرة امام حشد الذين تجمعوا فى السهل بجوار المدينة، وهذا الخطاب سبق ان فكر فيه البابا عميقا وجيدا، و لم يكن البتة خطابا مرتجلا «من وحى الرب». فقد دعا البابا الكاثوليك الى حمل السلاح والجهاد لاجل الحرب ضد «قبيلة الاتراك الفارسية... الذين وصلوا الى البحر المتوسط... ذبحوا واسروا كثيرين من المسيحيين، ودمروا الكنائس واجتاحوا الامبرطورية البيزنطية)».

وهذا يعنى انه اطلق فى كليرمون النداء الذى دعا الغرب الى الحرب الصليبية فى الشرق.

وقد حاول اوربان الثانى ان يصور الحرب التى استحث «المؤمنين» على شنها بصورة

منها، وكان معه مقيم فيها فقسمه اسقف علي...(*) وهو صبي حدث السن كان شماسا في الاسكنا في ايام انبا غبريال، فلما وصل الى مصر وخرج الى دير الشمع كرزه في يوم الخميس، والعاده الجاريه ان لا يكرز اسقف الا يوم الاحد، وانما خصه بذلك لاجل انه من اولاد قلايته، وكان عمره يومئذ نحو من ثلثين سنه، فجا منه من القدس والطهاره والعلم ما لم يلحقه كثير من

(*) كلمة غير موجودة في المخطوطات ولعلها دير الشمع.

مشروع يجب القيام به لتحرير قبر السيد المسيح في القدس ولانقاذ «الاخوة العائشين في الشرق»، اى المسيحيين الشرقيين. ودعا البابا المستمعين باسم الرب العلي:«انا اقول هذا للحاضرين واكلف بابلاغ الغائبين ـ هكذا امر يسوع المسيح».

وفي وقت كان فيه الفرسان لايفكررون نهارا وليلا الا في ايجاد مجال لميلهم الى القتال، فقد وجدت خطبة البابا صدى من التعاطف في الجمهور الواسع الذى استمع اليها. ناهيك بان اوربان الثاني وعد المشتر كين في الحرب، الصليبية، «المجاهدين في سبيل الايمان»، باسم الرب العلي مرة اخرى، بغفران الخطايا، كما وعد المقاتلين الذين يستشهدون في المعارك ضد «الكفار» بالثواب الابدى في الجنة السماوية. وهذا الوعد اضفى على اقوال البابا وزنا خاصا في عيون ذلك الجمهور اللجب من الاسياد ومن حملة اسلحتهم الذى تجمع من جميع انحاء البلاد في سهل اوفيرن، كما قال مدون الاخبار من بريتانيا، وشاهد عيان مجمع كلير مون، بودرى دول. وكثيرون من هؤلاء الاسياد سبق ان حجوا للتكفير عن ذنوبهم وقاتلوا المسلمين في حروب مقدسة. ان تحرير قبر السيد المسيح، الذى صوره البابا بصورة هدف الحرب، قد امن بالتأكيد غفران جميع الجرائم التي اقترفوها من قبل؛ فقد كان ذلك أمرا مفرطا في الاغراء بحيث تركت فيهم ملامات البابا الذى ضرب على وتر مشاعرهم الدينية وبسالتهم القتالية

الشيوخ المتقدمين. ثم اقسم الشيخ ابو المكارم ابن يوسف الارخن، ثم اقسم الشماس ابن جارود، وكان من كهنه بيعه القديس ابو سرجه، وكان من اعيان الكتاب وتولى دواوين كبار كبير البيت في المصريين، اقسمه اسقفا على كرسى شبرا الخيمه واسماه مرقس. وكان كرسى شبرا دمنهور(*) خال من اسقف جميع ايام بطركيه انبا غبريال ابن تريك لان العاده جاريه له ان لا يكون عليه الا

(*) شبرا دمنهور: يتم الخلط أحيانا بين هذه القرية وأخرى أقرب لشمال القاهرة هى دمنهور شبرا، وهى شبرا الحالية التى عرفت = =فى وقت من الاوقات باسم دمنهور الشهيد لمجاورتها لشبرا الشهيد (شبرا الخيمة) أو شبرا دمنهور. واسمها القديم هو شبرو وهو محرّف عن كلمة «جبرو»

فعلها وان الراهب روبر من مدينة ريمس الذى اشترك فى مجمع كليرمون قد نسب الى اوربان الثانى انه وجه الى الفرسان كلمات التملق والتزلف.

ولكن بواعث ودوافع اخرى انداحت من خطاب البابا. فان الذين يقطعون على انفسهم عهدا ونذرا بالذهاب الى الارض المقدسة لاينتظرهم الخلاص فى الجنة السماوية وحسب؛ فان النصر على «الكفار» سيعود عليهم كذلك بمنافع ارضية محسوسة. الارض هنا، فى الغرب.ـ كما قال البابا اوربان الثانى ـ لاتفيض بالثروات. اما هناك، فى الشرق، فانها تسيل عسلا ولبنا. «والقدس انما هى محور الكون، منطقة فائقة الخصب بالمقارنة مع المناطق الاخرى... جنة ثانية». ومن المؤكد ان الوعود كانت اقوى حجة فى خطاب البابا. «ان من لهم الحزن والفقر هنا، فى الارض سيكون لهم الفرح والغنى هناك، فى السماء». هكذا يعطى فولهير من شارتر هذا الفقرة من خطابا البابا. محورا احكام الانجيل. ويروى روبير دى ريمس ان هتافات مدوية قاطعت هذه الفقرة من خطاب اوربان الثانى:«هذه هى ارادة الرب! هذه هى ارادة الرب!» لربما كانت هذه الهتافات مقررة سلفا، ولكنه ليس من المستبعد انها كانت رد فعل عفويا من المستمعين المتكيفين لهذا الجو.

وخاطب البابا اوربان الثانى فى المقام الاول الفرسان المعدمين الذين تكاثروا!: «اجل،

بتول وهذا الاسقف كان قد تزوج وماتت امراته. وكان انبا غبريال قد منع من يرجع يخرج جسد القديس ابو يحنس سنهوت من بيعته لما كان يجرى عليه عند طرح جسده فى البحر [النيل] من نجاسه المصريين، ولما لم يرجعو كهنته يطرحو جسده في البحر نشف البحر قدام بيعته، فلما رجع هذا الاسقف امرهم ان يطرحوه في البحر فرجع البحر زاد الى ان طف قدام بيعته، فحملو له

القبطية وتعنى الكوم أو التل. كانت مشهورة بصناعة شراب العسل ومعاصر زيت السيرج و طواحين الغلال، كما عرفت باسم شبرا رحمة وشبرا المكاسة لأن خيمة المكس (الجمارك النيلية) كانت تضرب فيها، وفى الخطط المقريزية: شبرى الخيام ويقال لها شبرا الشهيد لأنه كان يوجد بهذه القرية صندوق صغير من الخشب في داخله إصبع شهيد من شهداء النصارى محفوظ بها دائماً، فإذا كان ثامن

لايجتذبكم ملك ما اليه، ولاتقلقكم شؤون عائلية ما لان هذه الارض التى تسكنونها انما يضغط عليها من كل جانب البحر وسلاسل الجبال، ...ومن هنا ينجم انكم تلتهمون بعضكم لبعض بكثرة من الجراح المميتة». وقد دعا البابا الفرسان الى وقف الحروب والمذابح، والتحرك الى فتح البلدان الشرقية: «روحوا فى الدرب المؤدى الى القبر المقدس (هكذا كانوا يسمون آنذاك طريق الحجاج الى القدس)، انتزعوا هذه الأرض من الشعب الكافر، افتحوها لانفسكم!». صحيح ان صراحة البابا اوربان الثانى تبدو من النظرة الاولى غريبة نوعا ما على لسان الراعى المسيحى الاعلى الذى كأنما نسى وعظ الانجيل بحب القريب، بحب الغير، ولكن هذه الصراحة ليست مدهشة اطلاقا، اذا اخذنا بالحسبان ان البابا كان يعرف جيدا من يخاطبهم ومن يتعامل معهم.

لم يكن للكنيسة ان تتوقع اى خير من قطاع الطرق النبلاء، الامر الذى اقتنع به أوربان الثانى مرة اخرى اثناء اقامته فى فرنسا. فعشية انعقاد مجمع كليرمون تقريبا، اضطر الى الاهتمام بقضية واحد من هؤلاء الفرسان الذين يعيشون فسادا، هو المدعو جارنيه دى ترنيل، الذى اسر الاسقف فى جوار مدينة بروفن بصورة لم تكن متوقعة من فارس كان يهدف إلى أن يتقاضى فدية كبيرة عن اسيره الثمين، ولكن تدخل البابا الذى حرم

المصريين نذور كثيره. فرجع هذا الاسقف طالب الكهنه بالرسم الذى كان ياخذه من تقدمه فاخذه منهم. واقسم ايضا راهباً اسمه سنون [زنون] صعيدى على كرسي منيه بني خصيب اسقفاً، واخر صعيدى من بلاد اسنا كان تاجرا اسمه تاونا اقسمه اسقفاً على كرسي اخميم، وقس من اهل البلينا [محافظة قنا] اسمه ابو البدر خصيب اقسمه اسقفا على كرسي البلينا. وكان البطرك انبا

شهر بشنس يخرجون ذلك الإصبع من الصندوق ويغسلونه في بحر النيل لزعمهم أن النيل لا يزيد في كل سنة حتى يغسلونه فيه. ويسمون احتفالهم بذلك عيد الشهيد فاشتهرت بهذا الاسم، قال ونعرف بشبرا الخيمة أو الخيم أو الخيام لأن الناس كانوا يحتفلون سنويا بذكرى عيد الشهيد في خيام ينصبونها على شاطئ النيل بشبرا هذه للإقامة فيها مدة أيام عيد الشهيد فاشتهرت بشبرا الخيمة

الفارس من الكنيسة هو وحده الذى اجبر جارنيه على التخلى عن غنيمته «بخفى حنين»، «لوجه الله».

وامثال هؤلاء الفرسان الذين كانوا من قبل مرتزقة لقاء جزاء زهيد هم الذين قصدهم البابا اوربان الثاني في المقام الاول في خطابه في كليرمون وبالطبع، كانت الحياة الابدية في الجنة السماوية لاتكفيهم ؛ فقد كانوا يتحرقون الى الدور والعقارات ، والى القطع النقدية الرنانة، وغير ذلك من خيرات الارض ونعمها. والشئ نفسه يصح على الاسياد المالكين الذين اخذوا يشعرون بالضيق في ممتلكاتهم والذين كانوا يسعون الى توسيعها بأى شكل كان. وقد توجه اوربان الثاني في خطابه الى هؤلاء الاقطاعيين ايضا ناعتا اياهم بتملق وتزلف«بالمقاتلين الجبابرة وباخلاف الاجداد الغزاة».

يزعم بعض المؤرخين الغربيين المعاصرين ان البابوية كانت تهتم، اكثر ما تهتم، بتنظيمها الحملة الى الشرق، بالسلام في اوربا ، وانها حملت ورفعت فكرة مجردة ما، مسيحية من حيث جوهرها واصلها، هي فكرة. اما في الواقع، فان مطالب الاقطاعيين الاجتماعية والسياسية المحددة تماما قد قامت في اساس الفكر البابوى بالحرب الصليبية. لقد ارادت الكنيسة الكاثوليكية أن تلبي تحرقهم الى الاراضي والنهب والسلب ولكن خارج حدود اوروبا.

وهو اسمها الحالي.

ميخايل عظيم السطوه على الرهبان والمتكبرين، وكان يادب من اخطا منهم ليس بالكلام فقط بل والضرب والسجن. ولم يقال عنه قطان [قطّ أن] احد خرج من دينه في ايامه. وكان مدة مقامه على الكرسى ثمانيه شهور واربعه ايام منها ثلثه شهور فى عافيه ثم مرض، فلما طال مرضه توجه الى دير القديس ابو مقار واقام فيه مقاسي المرض خمسه شهور الى ان انتفخ وتنيح فى يوم الجمعه

ولذا كان من شأن الحرب الصليبية ان توطد وتوسع سلطلة الكنيسة الكاثوليكية بالذات ايضا، ليس فى الغرب فقط،بل ايضا، فى بلدان الشرق.

لن نبسط التاريخ؛ فان الفرسان لم يبقوا عديمى الاكتراث بشعارات الزحف الدينية التى صاغها البابا. فان الاقطاعيين كانوا باغلبيتهم يتصورون الاهداف الفعلية من الحرب، اى اهداف النهب والسلب ،ملفوفة بغطاء دينى. ان انقاذ المقدسات المسيحية كان يرمز فى المخيلة الصليبية إلى امتزاج الاهداف السامية، الدينية، مع التطلعات الدنيوية، العدوانية والاغتصابية المحضة. لم يكن ثمة اى تناقض بالفعل فى امتزاج مبادئ متنافرة على ما يبدو. ان الحرب الصليبية كانت تبدو للفرسان مواصلة للحج، اى بتعبير آخر، ضربا من حج مسلح. وفى هذه الحرب كان يتجسد انكار الذات من اجل الاهداف العليا، لاجل انقاذ الروح بنحو اكيد للغاية، وفعل الندم والتوبة، التكفير عن الذنوب، علما بان الفرسان انفسهم كانوا يتوهمون انفسهم «فقراء بالمسيح» يزدرون، «حبا للمسيح»، المصالح العملية الدنيئة. وفى الوقت نفسه كانت الحرب الصليبية تجسد مأثرة المشتركين فيها امام الرب العلى الذى يجازى ابناءه المخلصين له بالنصر ، وبالغنيمة والثروة والاراضى.

منذ اواخر القرن الحادى عشر، وبخاصة منذ زمن خطاب البابا اوربان الثانى، اخذ ينشأ

مـن جمعه الفصـــح، وهـو الـيوم الثالث مـــن برموده سنه ثلث وستين وثمان مايه للشهدا. وذكرو ان رهبـان من قلايه كـدران اسقوه سـما حتى كان سببا لموته والله يعلم ان كان كما قالو عنهم ام لا، وهو المجازى كل احد باعمـاله. فكفنوه ودفنوه مع ابايه البطاركـه، رزقنا الله واياكم بركـه صلواتهم. وكانت البـيعه فى ايامه فى هدو وسـلامه ولله المجد دايماً.

ايمان صليبى اصيل امتلأ به الفرسـان، ايمان كـان يجـمع نكران الذات الدينى (الجهاد) مع الافكار عن المكافأة الارضيـه السخية، التى يجازى بها الرب جهود ابنائه المحبوبين القتالية. بهذا البـاعث المزدوج جـاء خطاب اوربان الثـانى، فى كليـرمـون، وهذا البـاعث يتبـدى فى جـميع الاخبار التاريخية وفى سائر النصـوص المحفوظة منذ زمن الحرب (او الحملة) الصليبية الاولى. «ليكلل الثواب المزدوج اولئك الذين كانوا (من قبل)لايرحـموا انفسـهم لما فيه ضـرر اجـسادهم واراحهم». هكذا قال البابا داعـيا الفرسان النهابين وقاطعى الطرق فى الامس، الى الاستـيلاء على ثروات الاعداء وارض القدس التى يسيل فـيها العسل واللبن انهارا، مانحا غفران الخطايا، وضامناً الغبطة السـماوية للمقاتلين الصليبـين المقبلين.

هذه الايديولوجية كانت منذ بادئ عاملا جبار جدا اسبل رداء دينيا على تطلعات الفرسان الفعلية، الارضية تماما. واحاطت دوافع الفتح والاغتصـاب بهالة من القداسة فى عيون الفرسـان انفسـهم، وصورت الحرب الصليبية بصورة مشروع لخلاص النفس وللفتح والاغتصـاب فى آن واحد.

فهرس الجزء السادس

• رقم الإيداع: ٢٦٤٣/ ٢٠١٢
• الترقيم الدولي: 978-977-704-939-9

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقاً)
ت: 23904096 - 23952496

الهيئة العامة لقصور الثقافة

تاريخ مصر

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس بن المقفع

7

إعداد و تحقيق:
عبد العزيز جمال الدين

لم يكن ابن المقفع آخر المؤرخين المصريين، لكنه ومخطوطته كانا الأشهر فى هذا السياق، وقد تعاقب من بعده من الآباء والرهبان المصريين من عكفوا على استكمال هذا التأريخ حتى بداية القرن العشرين. وبجهد الباحث المجد عكف المحقق المصرى عبد العزيز جمال الدين على جمع هذه المخطوطات وتحقيقها والتعليق عليها، موضحاً ما كتب فيها وما كتب فى التاريخ الرسمى الشهير، ليضع أمامنا عملاً قل أن نجده فى الثقافات الحديثة، لنقف أمام وجهتى نظر للتاريخ متأملين كيفية عمل الفعل البشرى فى تسجيل الأحداث حسب الانتماء الثقافى، وليفتح الباب على مصراعيه أمام العاملين فى مجال البحث التاريخى ليعيدوا التأمل فى آلية ومسار واحدة من أهم عمليات التدوين الذى حكم مخيلة البشر فى رؤيتهم لماضيهم التليد.

تصميم الغلاف: أحمد اللباد

وزارة الثقافة

السعر: سبعة جنيهات

تاريخ مصر

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس بن المقفع

الجزء السابع

وزارة الثقافة

مطبوعات

الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة

سعد عبد الرحمن

أمين عام النشر

محمد أبو المجد

الإشراف العام

صبحي موسى

الإشراف الفني

د. خالد سرور

المتابعة والتنفيذ

عادل سميح

• تاريخ مصر
من خلال مخطوطة
تاريخ البطاركة (الجزء السابع)
• إعداد وتحقيق:
عبد العزيز جمال الدين
• طبعة:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2012م
17× 24 سم
• تصميم الغلاف: أحمد اللباد
• رقم الإيداع: ٢٩٤٢/ ٢٠١٢
• الترقيم الدولي: 978-977-704-939-9
• المراسلات:
باسم / المشرف العام
على العنوان التالي: 16 أ شارع
أمين سامي - القصر العيني
القاهرة - رقم بريدي 11561
ت: 27947897

التجهيزات والطباعة:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابي من الهيئة العامة لقصور الثقافة، أو بالإشارة إلى المصدر.

تاريخ مصر

من بدايات القرن الأول الميلادى
حتى نهاية القرن العشرين

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس بن المقفع

إعداد وتحقيق

عبد العزيز جمال الدين

الجزء السابع

من الأب يوحنا حتى أنبا يوانس البطرك ٧٤ (١١٨٩-١٢١٦م)

الاب يوحنا البطرك
وهو من العدد الثانى والسبعون
[١١٤٧/١١٦٦م]

جلس هذا الاب فى مملكه الحافظ(*) والظافر ولده والفايز ولد الظافر ومده مقامه على الكرسى تسعه عشر سنه وثمانيه شهور وتنيح فى الرابع من بشنس سنه ثلث وثمانين وثمان مايه للشهدآ. هذا كان راهباً قديسا قسم شماساً عفيفا صالحاً مذكورا

(*) ولد الحافظ في المحرم سنة ٤٦٧هـ = ١٠٧٤م وتوفى فى ٥ جماد الاخر سنة ٥٤٤هـ = ١١٤٩م.
(*) الظافر: ولد ١٥ ربيع الثانى سنة ٥٢٧ هـ = ١١٣٣م. وأغتيل فى ٣٠ المحرم سنة ٥٤٩ هـ = ١١٥٤م.

ولكن خطاب اوربان الثانى النارى لم يستمع اليه الفرسان والاقطاعيون وحدهم. فقد استمع اليه كذلك اهل الريف المتضوررون جوعا والمعذبون فى العبودية القنية، وكان الفلاحون الفقر اء يرغبون ، اشد ما يرغبون، فى التخلص من نير الاقطاعيين، ولهذا السبب بالذات كانوا يحلمون بالمأثرة التكفيرية. وان البابا،سواء شاء ام ابى، قد اوضح لهم الآن من حيث الجوهر، مباشرة وصراحة ما يجب ان يكون عليه قوام هذه المأثرة، اوليس الى عذاباتهم قد ألمح حين قال ان هذه الارض بالكاد تطعم الذين يحرثونها؟ وبالوعد بخلاص «الشهداء» الابدى، بخلاص المجاهدين من اجل القضية المقدسة، واكثر من ذلك بالشقشقات عن بلد الحكايات حيث يسيل العسل واللبن انهارا، اهاج البابا الفلاحين الفقراء ايضا. الأرض والحرية. هذا ما كان يتراءى فى خطابه للزراع المغبونين والمحرومين. وهذه وتلك ـ الارض والحرية ـ كانتا تبدوان لهم ممكنتى البلوغ تماما؛ ذلك ان البابا، سعيا منه الى التعجيل فى حملة الفرسان الذين كانت مآثرهم اللصوصية تهدد رفاهية كبار المالكين الاقطاعيين وطمأنينتهم، قد اكد للصليبيين المقبلين ان السبيل الى القدس ليس طويلا وان بلوغ المدينة المقدسة لايتطلب جهودا جدية ما. ولربما كان هكذا يفكر ايضا بالفعل ؛ ذلك ان التصورات عن البلدان الآسيوية فى اوروبا كانت لاتزال فى ذلك الزمن غامضة جدا ومتغيرة على العموم؛ ولكن لربما استصغر البابا قصدا وعمدا اعباء الحملة المقبلة امام المستمعين الذين كانوا يعرفون حقيقة الامر اقل من البابا نفسه، لادراكه ان الهلاك المحتم يتهدد الالآف «ممن لاارض عندهم» ومن الفلاحين الفقراء الذين يدفعونهم الآن فى درب الرب العلى.

في الرهبان من دير ابو يحنس، وكان قد حضر تقدمه انبا ميخاييل المتنيح وذكر اسمه في الرقاع الثلثه التي كتبوها ورفعوها على الهياكل كما شرحنا فيما تقدم فاتفق الراى على تقدمته وسيرو اليه من الكهنه من يحضره الى مصر فاحضروه، واقسم قساً ثم قمصاً بكنيسه المعلقه بمصر، وحضر يونس ابن كدران الذى تقدم شرحه في سيره انبا ميخاييل المتنيح وجدد الطلب من

(*) الفائز: ولد في ٢١ المحرم سنة ٥٤٤هـ = ١١٤٩م، توفي في ١٧ رجب سنة ٥٥٥هـ = ١١٦٠م.

ومهما يكن من امر، فقد سرى مفعول خطاب البابا اوربان الثاني في كليرمون، متجاوزا كثيراً توقعات البابا بالذات، وحتى غير متطابق بقدر ما، مع مصالح المبادرين الاقطاعيين الى الحرب الصليبية. اغلب الظن ان البابا اوربان حزر احتمال مثل هذا الصدى، والا لما طفق ينصح الناس الضعفاء ممن لا يحسنون استعمال السلاح بالبقاء في مطارحهم؛ فان هؤلاء الناس، كما قال البابا، هم عقبة كبيرة اكثر منهم عون، وهم بالاحرى عبء، ولن يعودوا بالنفع . ولكنه كان من المستحيل ايقاف الفقراء وردعهم.

اما الفرسان والاسياد، فان النداء الى تحرير الارض المقدسة قد وقع بينهم في تربة صالحة تماما.

حملة الفقراء

نشرت الشائعة على آلاف الالسن بسرعة في عموم الغرب بما فيه الجزر البحرية الانباء عن مجمع كليرمون وعن الحملة العتيدة الى القدس. وقد بدأت الاستعدادات في فرنسا قبل كل شئ لانه كان يسود فيها بالذات جو مفعم كليا بالانفعال الديني. وقد ساعد نشاط رجال الكنيسة الوعظي بقسط كبير في كنائسهم من اجل الحرب الصليبية. وبعد فترة قصيرة، كلف بمثل هذه المهمة بعضا من اوسع الاساقفة ورؤساء الاديرة نفوذا؛ بعضهم كلفوا بالوعظ في وادي اللوار وبعضهم الآخر في نورمنديا، والخ..

السلطان الحاضر على يد من توسط حاله عنده، وخرج امره بعقد مجلس له ولمن طلب غيره، فحضرو الاساقفه بحضور خواص الدوله وصاحب الباب وقاضى القضاه وصاحب ديوان الانشا وغيرهم من صدور الدوله وكبارها والمميزين، وجرى فى ذلك خطوب ومفاوضات، فقال من حضر من الاساقفه والكهنه ليس لهم بطرك الا من طلبوه ورغبو فيه ولا يكون هو طالب ولا راغب

والبابا اوربان الثانى نفسه بقي فى فرنسا، وذلك لمدة ثمانية اشهر بكاملها. وفى هذه الحقبة، راح الي ليموج وانجيه، والقى خطابات فى مجمعى تور ونيم، ودعا الى الحرب الصليبية . كتب مؤرخ فرنسي: «حيثما كان، كان يأمر فى كل مكان باعداد الصلبان وبالتوجه الى القدس لاجل تحريرها من السلجوقيين . كذلك ارسل البابا رسائل بمثل هذه الدعوات الى الفلاندر والى مدينتى بولونيا وجنوه الايطاليتين.

وفضلا عن ذوى المقامات الرفيعة في الكنيسة ، اخذ يدعو الى الحرب الصليبية وعاظ متعصبون من عداد الاخوة الرهبان ظهروا فى مختلف الاماكن، وكذلك مجرد معتوهين شرعوا يدعون المستمعين الى القتال من اجل المقدسات المسيحية. فان الحرب الصليبية ، كما كانوا يقولون ، عمل ربانى وليست عملا انسانيا؛ وللبرهان على ذلك كانوا يروون شتى الخرافات ـ عن الرؤى النبوئية، وعن ظهور المسيح ومريم العذراء والرسل والقديسين، وعن العلامات السماوية التى تنبئ بمعركة المسيحيين المقبلة ضد اتباع الاسلام.

ان رئيس الدير والمؤرخ الالمانى ايكيهارد من آورر، الذين كتب فى اوائل القرن الثانى عشر، اى بعد الحرب الصليبية الاولى، والذى كان مقتنعا حقا وفعلا بان حرب القدس لم يقررها الناس بقدر ما قررتها الافضال الربانية، وبانها قامت وفقا للتنبؤات الانجيلية، يورد فى الفصل

وهذه سنه القــوم من اول مــا عـبـــدو الله بدين النصـرانيـه والى هذا الوقت، وقد سبق داوود النبى بالنبوه على ما يكون لكونهم ما يقيمو الا من رغبو فيه لا من رغب فيهم فقال فى المزمور ١٤٩ : يوثقو ملوكـهم بالقـيـود واشرافـهـم بسلاسل من حـديد. فهم اذا صح عندهم ان الرجل الذى يريدو يقدموه عليهم كامل اوصاف شريعتهم من القدس والدين والعلم والصــلاح والعـفـاف والرحـمـه وبقـيـه ما

العاشر من مؤلفه («عن اضطهاد وتحرير وبعث كنيسة القدس المقدسة»)قائمة طويلة بالعجائب التى وقعت سنة ١٠٩٦عشية الحملة. وفى هذه القائمة الفريدة نجد سحبا حمراء دموية تسبح من الشرق الى الغرب ثم تتصادم فيما بينها، وبقع تظهر على الشمس، ومذنبات متطايرة بسرعة خاطفة. وانبأ احد الكهنة رعيته انه رأى فى السماء فارسين يتقاتلان. وقد انتصر ذاك الذى قاتل حاملا بيده صليبا كبيرا. وكانوا يتحدثون عن هدير المعارك المنداح فى السماء وعن مدينة سماوية تراءت لاحدهم ولم تكن بالطبع سوى القدس.

وانتشرت على نطاق واسع شهادات زُعم انها سقطت من السماء واعلن فيها الرب عن عزمه على حماية فرسان الرب، المقاتلين من اجل الرب. ويؤكد ايكيهارد من آورر انه امسك فى يديه نسخة عن هذه الرسالة السماوية(اما الاصل، فيزعم انه كان محفوظا فى كنيسة القبر المقدس فى القدس).

وكتب رئيس الدير المؤرخ ان بعض الناس«كانوا يعرضون علامة الصليب منطبعة من تلقاء ذاتها، بطريقة ربانية، على جباههم او على ألبستهم او على جزء ما من اجسامهم»، وانها كانت حسب رأى الجميع، اشارة من الاله العلى بانه يجب بدء الحرب ضد الهراطقة. والظاهرات غير العادية فى الطبيعية وفى الحياة البشرية، ايا كانت، ومنها، مثلا، وضع المرأة قبل الموعد، كانوا يعتبرونها دليلا على اقتراب احداث رهيبة.

٧٢: الاب يوحنا البطرك ١١٤٧/ ١١٦٦م

يحتاجوه ان يكون فيه على حكم مذهبهم اخذوه كرها من غير اختياره وقيدوه بالقيد الحديد ليلا يهرب منهم الى البريه الجوانيه فلا يقدرو عليه، لان قليل هم اهل هذه الصفه، وان كانو الكل اباينا واخوتنا فاهل هذه الطبقه لا يوجد منهم الا من الالف واحد يكون قد توحد وقد تفرد وترك العالم وهرب منهم وجعل حياته مع وحش الجبال وسباع البريه فنقل الله طبع السباع الكاسره والوحوش

ولكن كانت مواعظ الاساقفة ورؤساء الاديرة معدة لاجل الفرسان ولاجل الاعيان الاقطاعيين، فان الرهبان والمعتوهين كانو ا يخاطبون الناس البسطاء. ولهذا اكتسب آنذاك اكبر قدر من الشعبية بين الجماهير الراهب روبر دابريسل ولاسيما الراهب بطرس الناسك من بيكاردى، الواعظان المتعصبان للحرب المقدسة، اللذان خطبا فى شتاء ١٠٩٥-١٠٩٦ بصورة رئيسية فى القسم الشمالى الشرقى من فرنسا وفى اللورين، علما بان بطرس الناسك وعظ كذلك(بعد فترة من الوقت) فى مدن منطقة الرين فى المانيا، وهذا وذاك عملا، بموجب تكليف من اوربان الثانى.

يصور مدونو الاخبار ومن بعدهم كثيرون من المؤرخين من القرن التاسع عشر والقرن العشرين بطرس الناسك بصورة متعصب متحمس مهووس. وهو ايضا عرض رسالة تلقاها، حسب زعمه، من الرب يطالب فيها الكلى القدرة بتحرير القدس. وكان بطرس الناسك يروى للجموع المحتشدة حوله انه، اثناء الحج فى القدس. رأى فى نومه الرب بذاته، وان الرب امره، هو الراهب الوضيع بان يوجه اقدامه الى بطريرك القدس، وبان يعرف منه بلايا الارض المقدسة تحت نير الكفار، وبان يعود الى الغرب ويوقظ فيه «قلوب المؤمنين لاجل تطهير الاماكن المقدسة». وها هو ذا الآن ، بطرس، الذى اجتاز البحر بمصاعب كبيرة ونقل ارادة الرب الى بابا روما، يدعو مستمعيه الى امتشاق السلاح.

الضاريه الى مسالمته. وان الاسوده اذا راته تاتى اليه وتسجد عند رجليه فيبارك عليها ويستانس بها ولا تضره. لمثل ذلك الشخص يطلبو النصارى ان يكون مقدم عليهم، فان لم يجدوه قدمو غيره من اهل الاتضاع والعلم والدين ومن يشهد له بالعفاف والطهر ولا يجوز لهم ان يقدمو عليهم من رغب فيهم ولا من طلب بالسلطان. فلما قالو هذا الكلام تقرر ان يكتب سجلا ويسير الحاجب معهم

من قديم الزمان اثبت الباحثون بطلان هذه الخرافات. ولكنه من المعلوم كذلك ان بطرس الناسك(او بطرس من اميان، كما يسمونه احيانا نسبة الى مسقط رأسه) كان يتحلى بموهبة خطابية ممتازة؛ فان خطابات هذا الراهب لم تكن تؤثر في الشعب وحسب، بل ايضا في الفرسان. ان نمط حياة بطرس الناسك، وتقشفه وزهده، ونزاهته (كان يمضي مرتديا اسمالا صوفية على جسم عار، ولم يكن يأكل لا الخبز ولااللحم، وكان يتغذى بالسمك فقط، وكان ملكه الوحيد بغلا)، كان يكسبه شهرة كبيرة بين الفلاحين؛ فكانوا يرون فيه رجل الرب وكانت الجموع تسير وراءه كأنما وراء قديس او نبي. كان يستهويهم فقره وسمعته كراهب براء من كل بذخ، ويعرف كيف يصالح بين المتجادلين والمتنازعين. ويروى جيبرت من نوجان:«كان كثيرون ينتفون الشعر من جلد بغله لكي يحفظوه كذخيرة... انا لا اتذكر شخصا حظى ذات يوم بمثل هذا التشريف».

وقد فهمت الجماهير الشعبية على طريقتها الاهداف التي نادت بها البابوية من الحملة الصليبية؛ فان برنامج الكنيسة الكاثوليكية كان يتحول في وعى الفلاحين وفقا لمصالحهم، المعادية من حيث الجوهر لمصالح منظمي وملهمي الحملة الصليبية الكنسيين والاقطاعيين. ومع ان بطرس الناسك، مثله مثل الواعظين الآخرين من امثاله، كان يطبق خطط البابا فعلا

الى مدينه الاسكندريه ليعقد لهم فيها مجلس ويحضره اكابر النصارى واراختنتها وكهنتها واى من رغبو فيه، اما يوحنا واما يونس ابن كدران فيقدموه لوقته. فسارو الى مدينه الاسكندريه وعقد لهم مجلس في دار الاماره بحضور الوالى والقاضى وكبار اراختنتها والنصارى المستخدمين والتجار والاساقفه السايرين اليها من كراسيهم والمصريين والقاهريين ومن كان معهم. وسال الوالى والقاضى

ورسميا ، الا انه كان يعبر في الوقت نفسه على طريقته، والى حد ما، عن امانى الفئات السفلى. على كل حال، من المشكوك فيه ان يكون البابا اوربان الثانى قد فكر في انتزاع الكادحين من اماكنهم، والاسهام في فرار الاقنان من أسيادهم؛ وفي افضل الاحوال، كان يريد، اغلب الظن، ان يحمل الشعب على تقديم الدعم المادى للفرسان. وحين رأى رجال الكنيسة بعد فترة وجيزة اى غليان واسع استثارته في الفئات الدنيا، وفي المقام الاول بين الفلاحين، النداءات الى الحرب الصليبية، قاموا بمحاولات لحجز الاقنان، ولكن عبثا.

في شتاء ١٠٩٥ـ ١٠٩٦اجتمعت في فرنسا قوات مدنية غفيرة من الفقراء المستعدين للذهاب الى المناطق البعيدة.

ان افعال جماهير الفلاحين قد اشترطها العوز المدقع والرهيب الذى كانت تعانيه القرى آنذاك واشتراطها اقوى بكثير مما اشترطتها المواعظ التقية. كان الجوع يجبر الفلاحين على التسرع، ولذا كانت تجمعاتهم تجرى في تسرع محموم. كان كل امرئ، كما يقول مدونوا الاخبار، «يبيع افضل قسم من امواله بسعر زهيد، كأنما كان في عبودية قاسية او كان معتقلا في السجن ».

والفقها الحاضرين عقد المجلس النصارى قايلين قد امر مولانا سلام الله عليه ان الذى ترغبو فيه من هذين الرجلين قدموه عليكم فاتفقو على من ترتضو به منهما. فصاحو جميعهم بكلمه واحده يونس [يوحنا] ابن ابو الفتح بطركنا وهو مستحق لهذه الرتبه. وكان ذلك في ايام خلافه الحافظ وذكر من حضر عقد هذا المجلس من المسلمين ان رجلا منهم قال ليونس [يوحنا] ابن ابو

يقينا انه لم يكن بمقدور جيبرت دى نوجان ان يفهم الى النهاية دوافع الفلاحين الحقيقية. وقد نشأ عنده انطباع كأن الفلاحين الفقراء كانوا يخربون قصدا وعمدا انفسهم :«كانوا يشترون كل شئ باسعار غالية ويبعون باسعار بخسة... كانوا يشترون كل ما كانوا بحاجة الى استعماله في الطريق ويبيعون باسعار بخسة ما يجب به تغطية التكاليف». ويؤكد دقة مزاج الجماهير الفلاحية. وعن التسرع الاعظم الذى كان يحاول الفلاحون الفقراء النزوح به يكتب آخرون من مدوني الاخبار. كان يخيل ـ وكان ذلك بالفعل ـ ان الفلاحين يتحرقون بفارغ الصبر للذهاب الى ملاقاة الخطر.

وبديهى ان كثيرين منهم كانوا منتشين بالحماسة الدينية المفرطة؛ كان الذاهبون يصلون بفائق الحرارة، وكان بعضهم يوسم بالنار صليبا على جسمه؛ وكان ذلك مطابقا تماما لروح الزمن . ولكن فقراء الريف كانوا يسرعون لانهم كانوا لايريدون انتظار الاسياد. كان الاقنان يسرعون بالاحرى للخلاص من مضايقات الاسياد، وهذا السعى كان يخنق جميع دوافع التقى في جماهير الفلاحين.

في مارس ١٠٩٦ نهضت اول جموع الفلاحين الفقراء من فرنسا الشمالية والوسطى ومن الفلاندر ولورين والمانيا(من الرين الاسفل) ثم من بلدان اخرى في اوربا الغربية (مثلا، من

الفـتح فى المجلس مـا تقـول انت فى هذا الرجل اعنى يونس ابن كـدران اهو مسـتحق لهذه الرتبه دونك. فقال: نعم هو اصلح منى واعلم بالشريعه. فاستحسنو ذلك منه وعظم قدره فى اعينهم منجل [من اجل] هذا الكلام، وللوقت قدموه بطركا فى يوم الاحد ثانى النسى سنه ثلث وستين وثمان مايه للشهـدا الابرار، وكـمل تكريزه بالاسكندريه وعـاد الى مصر، وتلقاه النصارى بالقاهره ومصر باحسن

انجلترا) الى «الحج المقدس». كـان الفـلاحـون يمضـون بلا سـلاح تقـريبـا. كـانت الهـراوات والمناجل والفؤوس والمذارى تقوم عندهم مقام الرماح والسيوف، ناهيك بان ليس الجميع كانوا يملكون ادوات العمل الزراعى هذه.«الجموع العزلاء من السلاح». هكذا ستسميهم فيما بعد الكاتبة المؤرخة اليونانية حنة كومنينة. ولم يكن معهم اى حصان او اية احتياطيات تقريبا. كانوا يتحركون مثل حشود غير منتظمة من النازحين، بعضهم مشيا على الاقدام، وآخرون على عربات من عجلتين تجرها ثيران ، مع نسائهم واولادهم وامتعتهم البيتية الحقيرة. كان الاقنان يبتعدون عن الاسر الاقطاعى ، عن المضايقات والمجاعة ، آملين سرا فى تدبير امورهم بنحو افضل فى اماكن جديدة، فى «ارض الميعاد». وعلى الطرقات التى سبق ان طرقها الحجاج بمحاذاة نهر الراين ونهر الدانوب إلى القسطنطينية، كانت تمتد ارتال العربات. كان ثمة طريقان كبيرتان تجتازان شبه جزيرة البلقان وتؤديان الى عاصمة بيزنطية. لم يكن الحال هادئا فى هذه الطرق بسبب من غارات قبائل البتشينيغ، وكان الحجاج يمضون عادة على طريق اغناطيوس. ولكن فصائل الفلاحين الفقراء كانت تندفع بالضبط عبر بلغراد ـ نيش ، الى الجنوب الشرقى، الى القسطنطينية.

كان يمضى عشرات الآلاف من الفقراء المساكين. وكانت فصيلة الفلاحين من فرنسا

ملقا وسارو بين يديه الى كنيسه ابو مرقوره مستقر سكنه، وفرحو به فرحاً عظيما. وقصد ان يطيب قلب يونس ابن كدران واخوته الرهبان بان يقسمه اسقفا على سمنود فامتنع ولم يطيعه ولم يزل وقت مقيم بالدير ووقت مقيم بالريف حتى مات.

وفى ايام الحافظ نقب رضوان ابن ولخشى الموضع الذى كان فيه بالقصر وخرج من النقب

الشمالية الذين كان يقودهم الفارس جوتيه المعدم (Gautier Sans Avoir)تضم زهاء ١٥ الفا (كان ٥آلاف منهم فقط مسلحين كيفما اتفق)؛ وكانت الفصيلة برئاسة بطرس الناسك تضم زهاء ١٤ الفا. وكان ٦ آلاف فلاح يسيرون بامرة الفارس الفرنسى فولهير دى اورليان. والعدد نفسه تقريبا من الفلاحين سار وراء الكاهن جوتشالك الذى ليس عبثا نعته ايكيهارد دى آوورا «بالخادم الكذاب للرب»؛ وكانت الفصيلة الانجليزية اللوينية تتألف من زهاء الفين. وجمع فئات الصليبيين هذه كانت تتصرف متشتتة، دون تناسق. وكانت محرومة من كل انضباطا وطاعة.

وآنذاك ، حاول اشد الفرسان نزعة الى القتال استغلال الحركة الفلاحية فى اهدافهم. ومن هؤلاء كان الفرسان الفرنسيون جوتيه المعدم واخوته الثلاثة وعمه (واسمه جوتيه ايضا)، وفولهير دى اورليان، وغليون النجار، وفيكونت ميلان وغاتينه (قد نال لقبه بسبب قوة قبضته؛ ومع الفلاحين الذين انطلقوا من المانيا، توجهت كذلك جملة من الفرسان المغامرين ــ من مقاطعات الرين وفرنكونيا وشوابيا وبافاريا. وكان منهم المدعو فولكمار، والكونت اميخ دى لينينجن، الذى لم يكن من فئة الفقراء (فان ممتلكاته كانت تقع بن ترير ومايتس وكان على قرابة من رئيس اساقفة ما ينس)، ولكنه كان يتميز ببخل لايصدق وباخلاق اللصوص وقطاع الطرق، وهوج توبينجن ، والكونت هارتمان فون ديللينجن.

وعـدى الى الجيـزه(*) وحـشـد جـماعـه من الاجناد والعـربان والمغـاربه ودخل الى القـاهره وامـر ونهى، وفي بقيه يوم دخوله اليها قتل داخل الجامع الاقـمر الذى عند الركـن المخلق بيـد السـودان ومن اتفق معهم من الاجناد. واستمر الامام الحافظ بغير وزير الى ان مـات. وبعـد ان قـتل رضـوان ابن ولخـشى الوزير اعاد مولانا الحافظ الشيخ صنيعه الخلافه ابن يونس الى ديوانه بالقـصـر واثبـات خطه فـيـه

(*) هروب رضـوان ابن ولخـشى وجمعه للعربان والمغاربه واحتلال القـاهرة ورغم ذلك قـتله الجند السودان في جامع الأقمر.

اراد الفرسان ان يستولوا على قيادة الشعب البسيط ، وقد افلحوا جزئيا في ذلك. فان الفرسان القادة من طراز غليوم النجار واميخ دى لينينجن كانوا يبدون اثناء الزحف اكبر قدر من الوقاحة والقساوة. وللمناسبة نقول ان هذين الاثنين قد نهبا قبل سفرهما الكنائس في ممتلكاتهما لكي يؤمنا لنفسهما النقود للطريق.

صحيح ان فصائل الفلاحين كانت تتخللها عناصر اقطاعية، ولكن طابع الحركة بمجملها لم يتغير ، بل انها احتفظت حتى بسيمائها الخارجية. ان حركة الفلاحين، العفوية منذ نشأتها، قد جرت بدون أى تنظيم صحيح، بدون خطة عامة. كان الفلاحون الفقراء الصليبيون يتصورون تصـورا غامضا الغاية مكان الهدف النهائي من حملتهم . ويستفاد من أقوال جيبرت دى نوجان ان الاولاد الصغار الذين كانوا مع كبار في عربات والذين كنوا يستمعون الى احاديثهم عن مدينة المقدسة المجهولة، كانوا كلما رأوا في الطريق قصرا او مدينة ما ، يسألون ما اذا لم تكن هذه القدس التي يمضون اليها.

في مقدمة فصيلة بطرس الناسك، كانت تسير.....وزة وعنزة. كانتا تعتبران مفعمتين بالهناءة الربانية وتتمتعان باحترام كبير بين الفلاحين؛ يقول ألبر دى آخن انهم كانوا«يبدون» ازاءهما «علائم الاحترام التقي فوق الحد، وكانت العساكر العظيمة ، مثل الماشية، تسير اثرهما مؤمنة في ذلك من صميم الروح». كان الفلاحون يرون في الحيوانين زعيمين لهم.

بامضايه، واستخدم الشيخ صنيعه الخلافه من قبله صاحبى ديوان احدهما ديوان المجلس، والاخر لديوان التحقيق، وصار منه الى الخليفه ومنهما اليه وهو الواسطه بين الخليفه وبين كافه الناس من الكبار وغيرهم. وكان يستخدم ولاة الحروب في الولايات كبارها وصغارها، ونكته [عزله] الحافظ واخذ منه مالا كثير ثم اعاده واستخدمه، واستمر معه هكذى نكته وخدمه دفعه بعد اخرى الى ان

صحيح ان الفرسان انضموا الى جموع الفلاحين، ولكن الاقنان انفسهم كانوا يحاولون ان يتخلصوا قدر الامكان من رفاق الطريق النبلاء. وعندما وصلت فصيلة بطرس الناسك إلى كولونيا (١٢ إبريل ١٠٩٦) تابعت جماهير الفلاحين مسيرتها بينما تخلف عنها زهاء ٣٠٠فارس فرنسى لم يغادروا المدينة الا بعد مرور اسبوع على الاقامة فيها. وكان من الجلى ان الاقنان لا تطيب لهم رفقة الفرسان فى الطريق. كان يتعين عليهم احيانا ان يقبلوا المغامرين الاقطاعيين بصفة آمرين عسكريين؛ ولكن تطلعات الفلاحين الفقراء وتطلعات الفرسان كانت من حيث جوهرها متضادة تماما.

فى الطريق سلك الصليبيون سلوك النهابين. فاثناء مرورهم فى اراضى المجر والبلغار، كانوا ينتزعون المأكولات بالعنف من السكان، ويسوقون الاحصنة والبقر والغنم ويقتلون ويغتصبون. كان النهب والسلب بالنسبة للفقراء الاسلوب الوحيد لتحصيل ما يأكلونه. وكان الفرسان يواصلون النهب والسلب بعد دخلولهم اراضى بيزنطية. لم يكن لدى الفلاحين نقود لكى يدفعوا ثمن المؤونة المقدمة لهم بامر الامبراطور الكسيوس كومنينوس. ناهيك بان عددا لايستهان به من العناصر الإجرامية الذين كانوا يرون فى المشروع الصليبى مجرد وسيلة ملائمة لاجل النهب والسلب، ـ.«ان كثيرين من شتى الأوباش قد التحقوا بالعسكر الصليبى، لاكى

تممو عليه الكتاب الذى استخدمهم المستمرين
اصطفاهم وقربهم اليه ومال اليهم وانكشف عليهم
واطلعهم على سره فرافعو ووافقوه واثبتو فى جهته
مال كثير فامر الحافظ باعتقاله فى خزانه البنود،
ولم يزالو يفسدو قلب الحافظ عليه الى ان قتله
بالسيف هو واخ له صغير يسمى ابو المحاسن، لان
اعداه حملو [سجنوا] زهر الدوله الصقلابى الى
خزانه البنود الى ان نقل عنهما انهما شتما الخليفه

يكفروا عن الخطايا، بل لكى يقترفوا خطايا جديدة». هكذا يصف احد مدونى الاخبار هؤلاء الصليبين.

ويقع قسط كبير من المسؤولية عن النهب والسلب فى اراضى المجريين والبلغار على عاتق عصابات الفرسان التى انضمت الى جموع الفلاحين.

رد المجريون والبلغار واليونانيون ردا حازما على محررى قبر السيد المسيح غير المنتظرين. فقد كانوا يبيدون الصليبيين بلا رحمة، وينتزعون منهم الغنيمة التى استولوا عليها، ويطاردون الباقين. وفى الاشتباكات كان الصليبيون يكابدون خسائر كبيرة. ويستفاد من شهادة البرت دى آخن ان فصيلة بطرس الناسك التى اضطرت الى مقاتلة عساكر بيزنطيين فى جوار مدينة نيش قد غادرت المنطقة بعد ان خسرت ربع اعضائها.

اتجه الفلاحون الفقراء الصليبيون نحو عاصمة الروم متجنبين فيليبوبول وادريانوبول. وشرعت جموع الفلاحين تصل الى العاصمة منذ اواسط يوليو ١٠٩٦ وكانت قد نقصت كثيرا: ذلك انه كان قد مضى اكثر من ثلاثة اشهر منذ بداية الحملة. كانت فصيلة جوتيه المعدم اول فصيلة تقترب من القسطنطينية، ثم بعد اسبوعين، فى اول أغسطس، انضمت اليها فصيلة بطرس الناسك. ان كثيرين من الفلاحين الذين كانوا يأملون فى نيل الحرية فى اراضى

فامر للوقت بقتلهما فضربت اعناقهما بالسيف ظلما، فلما يهمل الله امرهما ولا غفل عن دماهما فابتلا زهر الدوله الصقلابى بمرض الاستسقا فاقام به اياما يسيره حتى شاهدو الناس فيه قدره الله وعرفو انه عاقبه بسببهما وانهما بريان وتعجبو من سرعه المكافاه له والمقاصصه ومجدو الله على ذلك. وكانو قوم سحره مستخدمين مع صنيعة الخلافه وهم الذين[حسدوه و] حملو عليه زهر

العسل واللبن، لم يتسن لهم حتى ان يصلوا الى القسطنطينية؛ فان الصليبيين قد خسروا فى اوروبا زهاء ٣٠الف رجل. وكادت تهلك كليا فصائل فولكمار وجوتشالك واميخ لينين، رغم ان قادتها انفسهم سلموا ووصلوا الى القسطنطينية.

ان الصليبيين الذين فسدت معنوياتهم باعمال السلب والنهب السابقة قد سلكوا فى عاصمة الامبراطورية البيزنطية ايضا سلوكا منفلتا لاضابط له. فقد كانوا يدمرون ويحرقون القصور فى ضواحى المدينة، ويتخاطفون صفائح الرصاص التى كانت سطوح الكنائس مصنوعة منها.

فى البدء حاولت الحكومة البيزنطية ان تبدى الصبر حيال القادمين ذوى الثياب الرثة. حتى ان الامبراطور الكسيوس كومنينوس استقبل فى قصره بطرس الناسك وفولكمار. ويروى البر دى آخن فى مؤلفه «تاريخ القدس» عن هذا اللقاء كما يلى«كان بطرس، على صغر قامته، يتحلى بعقل عظيم ويتميز بالبلاغة. وقد ساقة رسل الامبراطور مع فولكمار الى الامبراطور، لكى يتأكد من صحة الشائعة التى بلغته عن بطرس ووقف بطرس بثقة امام الامبراطور وحياه باسم السيد يسوع المسيح وحدثه بجميع التفاصيل عن مغادرته لوطنه بدافع حبه للمسيح ورغبته فى زيارة قبرة المقدس. كذلك ذكر البلايا التى اضطر الى تحملها فى وقت قصير وقال

الدوله الصقلابى حتى فعل به ما تقدم شرحه لعداوه بينه وبينه فلقاهم الله فعلهم ومشيهم على الدمآ فقتلهم مولانا الحافظ بالسيف الذى قتله به فى الموضع الذى قتل فيه صنيعه الخلافه واخيه ووقعت دما السحره على دماهما، وصدق كلام الله القايل: «من اهرق دم فى العالم يهرق دمه».

وكانت مكافاه السحره بذلك بعد ان قتل صنيعه الخلافه بدو السنه.

للامبراطور ان الاسياد الجبابرة، والكونتات، والدوقات اللامعين سيظهرون عما قريب على اثره. ونصح الامبراطور الكسيوس الاول بدوره زعيم الصليبيين (بطرس) ذوى الثياب الرثة بانتظار الصليبيين الفرسان. وقال:«لاتعبروا البوسفور قبل وصول القوات الرئيسية من العساكر الصليبية، فأنتم قليلون للغاية حتى تقهروا الاتراك». بل ان الفاسيلفس زود الفقراء ببعض الاموال لكى يمكنهم من البقاء بعض الوقت فى العاصمة. ولكن عبثا!

كان الفلاحون يندفعون الى «ارض الميعاد» ؛ وبما ان الامبراطور الكسيوس الاول قد اقتنع بان لاجدوى من محاولات الاقناع، فقد رأى من الافضل التخلص بأسرع وقت من الحلفاء غير المدعوين. وبعد مرور اقل من اسبوع على وصول بطرس الناسك الى القسطنطينية، بدأ الامبراطور ينقل الصليبيين الى الساحل الآسيوى من البوسفور. وقد جمعوا جموع القادمين واسكنوهم مخيما على الساحل الجنوبى من خليج نيقوميديا، على بعد زهاء ٣٥ك م الى الشمال الغربى من مدينة نيقية، ومن هنا، اخذت بعض الفصائل تقوم على عهدتها ومسؤليتها بغارات بعيدة الى هذا الحد او ذاك وتقاتل السلجوقيين. واخذ بطرس الناسك على نفسه مهمة القيادة العامة، ولكنه لم يكن يصلح لها البتة، وقد حاول ان يوقف عساكره، ولكن عبثا. فعاد الى القسطنطينية.

٧٢: الاب يوحنا البطرك ١١٤٧/ ١١٦٦م

ثم مات الحافظ فى الرابع من جمادى الاخره سنه اربع واربعين وخمس مايه الهلاليه(*)، وجلس بعده ولده ابو منصور ابن اسمعيل وبويع له اهله واخوته ورجال دولته وانعتوه بالامام الظافر، ووزر له من امرا دولته امير نعته نجم الدين ابن مصال لانه كان من خواص الحافظ ابوه ومن كبار دولته، وكان يرجع الى رايه ومشورته. فنافق عليه امير يسمى على ابن السلار كان واليا بثغر الاسكندريه

(*) من الملاحظ شيوع استخدام التأريخ الهجرى فى هذا الجزء من السير وما بعدها. ولذلك سوف ارصد إلى جانبه التأريخ القبطى حتى يتصل بسلسال التواريخ السابقة. اما سنة ٥٤٤هـ فتعادل سنة ٨٦٥ قبطيه و سنة ١١٤٩م.

وبعد فترة وجيزة سرت فى المخيم الرئيسى اشاعة مفادها ان النورمانيين احتلوا نيقية. فهيج هذا الخبز سائر الصليبيين الذين كانوا يخافون من تفويت نصيبهم من الغنيمة. واندفعوا فى الحال الى نيقية. وقبل ان يصلوا اليها، قابلتهم العساكر السلجوقية التى استعدت فى الوقت المناسب للاشتباك مع عساكر المسيح (هكذا يسميهم فى المعتاد مدونو الاخبار الاثينيون). وفى ٢١اكتوبر ١٠٩٦ سحق السلجوقيون من فصائل الصليبيين ٢٥الف رجل. وفى عداد من سقطوا، كان بعض القادة وبينهم جوتيه المعدم. ووقع كثيرون من الفلاحين الفقراء الاسر وبيعوا عبيدا. واستطاع زهاء ٣آلاف رجل تحاشى القتل والاسر بالفرار العاصف الى القسطنطينية. وحاول بعضهم بعد بيع امتعته هنا ان يعود الى الوطن، وبقى الآخرون ينتظرون وصول الكونتات والدوقات اللامعين.

هكذا كانت النهاية الفاجعة لمحاولات الاقنان الفرار من سلطة الاسياد. ان حملة الفقراء الصليبية لم تكن فى اساسها سوى عمل اصيل، مزين برداء الدين، اعرب به الاقنان عن احتجاجهم الاجتماعى على الاوضاع الاقطاعية. وكانت نوعا ما مواصلة لنضالات الريف القنى السابقة، الطائشة، ضد الاقطاعية. وتأتى لجماهير الاقنان ان تدفع ثمنها غالبا لمحاولتها تحقيق حلمها فى التحرر بانجاز مأثرة دينية. ان الاوهام الساذجة التى غذتها الكنيسة فى جماهير

فحشد الاجناد وعدى الى الغربيه فاجتمع معه اجنادها وعربانها وصار معه عسكر كبير، وكان امير من جنس ملوك الملمين [المسلمين] بالغرب يسمى عباس من اولاد الامير تميم ابن باديس واليا بالغربيه، وكانت امه اسمها بلوره زوجه هذا على ابن السلار، فلما بدى [ذهب] الى الغربيه اخذ عباس واليها معه وسار الى القاهره فدخلها على ابن السلار وملكها في شعبان سنه اربع واربعين

- -

الاقنان المسحوقة تحت وطأة الفقر الفكرى قد تبددت لدن اول اصطدام بالواقع الفعلى. ان الفلاحين لم يكسبوا في الشرق الارض والحرية، بل كسبوا هلاكهم وحسب..

بداية حرب الفرسان

بينما كان الاقنان الذين اندفعوا نحو الشرق اما قد لقوا مصرعهم واما فى الطريق الى هذه النهاية، بدأت حرب الفرسان الصليبية، والاصح القول، الحرب التى كانت يعود فيها الدور الحاسم اليهم، اذ ان جماهير الفلاحين الفقراء التى كانت تابعة للكونتات والدوقات قد اشتركت فيها.

في اغسطس ١٠٩٦، تحركت طوابير كبيرة من اللورين ومن على الضفة اليمنى من نهر الرين وكان يرأسها دوق اللورين السفلى جودفرى دى بوين الرابع Godefroy IV de Boulone dit Bouillan (بويون قصر في جبال الاردين). الا ان اللقب الدوقى والاصل النبيل الاريستقراطى لم يؤمنا له ثبات ممتلكاته؛ فلم يكن سيدا مطلق السيادة الا فى دوقية انفرس وفى قصر بويون، بينما القسم الباقى من اللورين السفلى كان الامبراطور الالمانى قد انعم به عليه كاقطاع. وبفتح الاراضى فى البلدان الشرقية كان جودفروا الر ابع يأمل فى شغل مواقع اشد رسوخا وثباتا فى العالم الاقطاعى.

وخمس مايه، واخذ الوزاره وانعتوه بالسيد الاجل العادل امير الجيوش، فهرب نجم الدين ابن مصال وعدى الى الجيزه، فتحرك معه السودان فتجردت لهم العساكر فكسروهم، وقتل من السودان خلق كثير. واخذت راس ابن مصال وطيف بها القاهره على رمح.

وقصد [وأمر] النصارى بالقاهره ومصر فى ايام العادل ابن السلار ان يشدو الزنار ويقلعو

والى جودفروا دى بويون انضم اخوه الاكبر الكونت يفستافى دى بولون واخوه الاصغر بودان (Baudouin)، من بولون ايضا. وهذا الاخير كان من قبل من رجال الدين، ولم يكن يملك فى وطنه أية ممتلكات، من هنا كان حافزه للاشتراك فى الحروب المقدسة. والى دوق بوين انضم كثيرون من اتباعه، بمن فيهم بودوان دى بورج، ابن عم جودفروا الرابع، والكونت بودوان دى اينو، والكونت رينو دى تول. وكان كل منهم يقود فصائله المسلحة. وجميع هذه القوات اتجهت نحو نقطة تجمع الصليبيين ـ القسطنطينية ـ على طريق الرين ـ الدانوب التى سارت عليها قبل ذاك بقليل فصائل الفلاحين الفقراء.

ان الملك المجرى كولومان – الذى مرت للتو فصائل الفلاحين فى اراضيه قائمة بالنهب والسلب ـ لم يوافق على منح حرية عبور اراضيه الا شرط أن يعطوه ضمانات كان على جودفروا الرابع ان يبقى له رهائن. تقابل كولومان والدوق على جسر فوق نهر ليتا، ثم مرة اخرى فى القصر الملكى؛ وبعد مهاترات طويلة، عقدا اتفاقية.وقد تركوا بودان دى بلون مع اقرب الناس اليه رهائن فى يد كولومان. وعندما وصلت قوات جودفروا الى بلغاريا وعبرت نهر سافا، اعاد المجريون الرهائن. وكان ذلك فى نوفمبر ١٠٩٦ وواصل الصليبيون من اللورين سبيلهم الى الممتلكات البيزنطية. وبدون حوادث تذكر، وصلوا قبيل عيد الميلاد الى ضواحى القسطنطينية.

طيالسهم فلم يستمر ذلك سوى ثلثه ايام، وكان السبب فى ذلك قوم فقها من المبغضين للنصارى اجتمعو بناصر الدين نصر ابن عباس وكان قد ولاه العادل مصر فحملوه على ذلك وقالو له: انك اذا فعلت هذا بالنصارى صانعوك بمال كثير حتى تزيله عنهم. فلما فعل ذلك بهم واقام ثلثه ايام ينتظر ان احد منهم يحضر اليه او يتحدث معه بسبب مصانعه او غيرها فلم يحضر اليه احد علم

ان الاساطير من زمن اقرب الينا قد جعلت من جودفروا الرابع البطل الرئيسى فى الحرب الصليبية. وقد نسبوا اليه غيرة دينية خاصة، وشجاعة شخصية مدهشة وكفاءات عسكرية بارزة وان البرت دى آخن، الذى يشكل مؤلفه «تاريخ القدس» مديحا لدوق اللورين، يعتبر ان هذا السيد كان يستهدى بدوافع سامية. وعندما اعتزم السير فى درب الرب، «كان غالبا من يطلق الزفرات، لان زيارة مدينة القدس المقدسة ورؤية قبر السيد يسوع قبل كل شئ كانتا اكبر رغائبه، وغالبا ما كان يكشف مكنون قلبه لاقربائه». كان تدخل غودفروا الرابع تدخلا جريئا فى المعركة العامل الحاسم فى انتصار الصليبيين. حسبه ان يظهر على صهوة حصان حتى «يطلق» السلجوقيون «الاعنة لخيولهم ويولوا الادبار بسرعة عاصفة، بعد تأكدهم من صلابة روح الدوق ومقاتليه». ويستمع لصوته ونصائحه. ويشبه مدون اخبار آخر غودفروا دى بوين - من حيث القوة، والضرواة فى القتال، والالهام - بالبطل هكتور من ملحمة هوميروس.

ان جميع هذه المدائح لاتتفق مع الواقع. فمعلوم ان هذا السيد التقى كان فى موطنه يقوم بدأب وانتظام بنهب الاديرة فى جوار بويرن. ولكى يعزز جودفروا الر ابع سمعته ومكانته، عمد بنصيحة امه، قبل انطلاقه فى الحملة، حتى الى تقديم بعض الهدايا والتبرعات الى الاديرة التى نهبها. اما المواهب العسكرية، فلم يتميز بها. وعلى العموم، لعب جودفروا الرابع فى المشروع

ان الفقها غروه فنادى فى اليوم الرابع ان يجرو على عادتهم.

واستمر العادل ابن السلار فى الوزاره الى ان دخل عليه نصر ابن عباس من باب سردار الوزاره(*) فقتله واخذ راسه واخرجها واشهرها بين القصرين. وكان عباس ابوه والى الشرقيه مقيم فى بلبيس فانفذ اليه نصر يعرفه بما فعل فدخل عباس

(*) سردار الوزارة: سردار كلمة فارسية دخلت اللغة المصرية فى هذه الفترة واستمرت طوال الحكم المملوكى والاحتلال العثمانى، وهى تعنى صاحب أو القائد، وبهذا فهى تعنى هنا فى الغالب صاحب باب الوزير.

كله دورا متواضعا جدا؛ واغلب الظن ان كفاءاته المتوسطة تماما، وميله الى الحلول الوسط فى الجدالات الحادة، ـ خلاصة القول، انتماءه الى انصار الوسط الذهبى، ـ كل هذا بالذات هو الذى بدأ بنجاح بعد نهاية الحملة الصليبية، ولكن الذى سرعان ما قطع الموت المفاجئ حبله.

وكان قائدا فصائل الفرسان من ايطاليا الجنوبية وفرنسا الجنوبية الامير بوهيموند دى تارنتو Bohemond de Tarente، وريمون دى سانجيل، كونت تولوز، شخصيتين ابرز من غيرهما فى الحرب الصليبية.

فقد ترأس الاول الفرسان النورمانيين الايطاليين. وكان ماضى هذا الامير مرتبطا بحروب النورمانيين ضد بيزنطية. وفى اوائل الثمانينيات اشترك فى حملة والده روبر جيسكار، وسعى الى اقتطاع ارض لنفسه فى البلقان. الا ان الروم هزموه فى سنة ١٠٨٣ فى جوار لاريسا. والآن سنحت لهذا الامير فرصة ملائمة لتحقيق نواياه المزمنة، كانت ممتلكات بوهيموند فى ايطاليا الجنوبية تافهة؛ فلم يرث غير امارة تارنتو الصغيرة؛ اما جميع اراضى جيسكار الاخرى، فقد ورثها ابنه من زواجه الثانى، روجه بورسا. وتلاحظ حنة كومنينة التى تحدثت فيما بعد عن عساكر بوهيموند انها لم تكن كثيرة لان هذا القائد كانت تنقصه النقود. ان الحملة الى الشرق التى دعا اليها البابا جاءت توفر لامير تارنتو امكانيات واسعة؛ وكان قد سمع الكثير عن

من بلبيس الى القاهره واخلع عليه الوزاره وانعتوه بالسيد الافضل.

وفي ايامه فتحو الفرنج عسقلان(*) ولم يكن بقي بيد المسلمين من الشام سواها وكان فتوحها بيد الافرنج في مده سنه في جمادى الاخر سنه ثمان واربعين وخمس مايه [٨٦٩ قبطية = ١١٥٣م].

(*) سقوط عسقلان آخر مدن الفاطميين بالشام في يد الصليبين.

وكانو النصارى قد اعمرو كنيسه بالمطريه التي

ثروات البلدان الشرقية وعن الخلافات بين حكامها؛ فقد كان يحمل الانباء عن كل هذا تجار باري واما لفي، بعد عودتهم من سوريا وفلسطين. وقد اصبح تأسيس امارة مستقلة في الشر ق حلم بوهيموند الحميم. وخلافا لجودفروا دى بويون، كان يتحلى بكفاءات عسكرية وديلوماسية غير عادية، وبخبرة الآمر العسكرى طوال سنوات عديدة؛ ومنذ بادئ بدء اخذ يطبق برنامجه بصورة منهاجية وبعد تفكير عميق.

ان صاحب الاخبار «افعال الفرنجة»، الفارس النورماني من محيط بوهيموند، يصور ظروف انطلاق بوهيموند في الحملة من باب الصدفة. فاثناء حصار اما لفى المنتفضة، رأى بوهيموند قوات الفرسان الفرنسيين تمر على غير بعد كبير عنه، وحين علم انها تمضي للقتال من اجل القبر المقدس، اعلن في الحال انه هو ايضا يأخذ الصليب (اى يأخذ النذر باشتراكه في الحملة الصليبية). وتواجد من الراغبين عدد كاف لانه كان في ايطاليا، كما يقول مدون آخر للاخبار هو جوفريد مالاتير، كثيرون من الفرسان الشبان المحترقين الى المغامرات، الامر الطبيعي جدا في عمرهم.

اما في الواقع، فان بوهيموند، كما بينت الاحداث اللاحقة، كان يعرف من زمان عن المشروع البابوى وقد بنى في هذا الصدد خططا بعيدة المدى. هناك امر صحيح واحد فقط، هو ان كثيرين من الاسياد الصغار من ايطاليا الجنوبية وصقلية قد اقتدوا به بالفعل في الحال؛

فيها بير البلسم(*) التى يستخرج منه دهن الميرون على [خرائب] الكنيسه القديمه وكرزوها على اسم القديس مارى جرجس وقدسو فيها قبل ان يكملو صورها، فهدموها المسلمين وبنو مكانها مسجد.

(*) يعتقد اقباط مصر انها بير من الماء العذب تفجر حيث سقطت بعض المياه من ثياب المسيح وهو طفل بعد غسلها ونبت بجوارها شجرة البلسان التى يستخرج منها دهن (زيت) الميرون.

وكان ناصر الدين ابن عباس قد صار له خلطه بالامام الظافر ويدخل اليه بالليل الى قصره ياكل

فانها لمعروفة اسماء ابنى عمه ريتشار دى سالرنو ورواينولوف وابنه ريشا ومحاربين نورمانيين آخرين.واخذ الصليب ابن اخى بوهيموند، المقرب منه، تنكريد (Tancrede)، البالغ من العمر عشرين سنة، والذى لم تكن له حصة من الارض، ولذا كان فارسا يتميز بنزعة حادة ، خاصة، الى القتال، وكان بلا ريب جريئا وباسلا، لكنه كان مغامرا جشعا، انانيا، شقيا، متغطرسا، مكارا، وخاليا تماما من صفات القائد العسكرى.

وهكذا رفع الحصار عن امالفى ١٠٩٦ ، ركب مقاتلو بوهيموند دى تارنتو السفن فى بارى. ومن هناك، تحركوا عبر مقدونيا وتراقيا الى عاصمة بيزنطية. ولاريب فى ان قائد هذا الجحفل بوهيموند دى تارنتو كان من بين جميع زعماء الصليبيين اوفرهم موهبة وذكاء وفكرا سليما، كما كان فى الوقت نفسه، اكثرهم وقاحة وصفاقة فى وسائل بلوغ الاهداف المنشودة.

وكما عند جوفروا دى بويون، ظهر كذلك عند بوهيموند، متملقون فى عداد مدونى الاخبار. فان النورمانى راوول من كايان يصوره بصورة زعيم سانده شعب بلاد الغال بأسرها، وشعب ايطاليا بأسرها، وفضلا عن ذلك، شعوب اوروبا بأسرها. «ليس ثمة بلد من ذلك الجانب من جبال الالب، من ايليريا الى المحيط، يمتنع عن تقديم المساندة المسلحة لبوهيموند». هذه، بالطبع ، مبالغة شديدة. ولكن بوهيموند لعب بالفعل دورا بارزا فى احداث الحرب الصليبية.

عنده ويشرب ويبات ويصبح، وكان الخليفه يخرج معـه بالليل الى داره فـيقـعـد عنده بعض الليل ويسمع الغنا ثم يودعه حتى يدخل به الى قصره، فصعب ذلك على عباس ابوه وخاف ان يقتله كما قتل على ابن السلار، وحكى من كان معاشرهم ان عباس ابوه بلغه ان الخليفه قال لنصر الدوله اقتل ابوك وكن انت الوزير فانك اجمل من ابوك لها، فدبر عباس الحيله في السلامه فكان فيها

- -

آنذاك، في اكتوبر١٠٩٦، انطلق جيش كبير من فرنسا الجنوبية. وكان ريمون دى سانجيل، كونت تولوز، على رأسه. ولقد سبق ان دفعه التحرق الى الفتوحات فى الثمانينيات الى الاشتراك في الريكونكيستو الاسبانية، ولكنه منى هناك بالاخفاق (مثلما بوهيموند دى تارنتو لم يبلغ شيئا في بيزنطية). غير ان هذا الفشل اسعر حمية الكونت كثيرا. ورغم تقدمه فى السن (وكان قد تجاوز الخمسين كثيرا)، كان اول من استجاب لخطاب البابا اوربان الثانى فى كليرمون.

يصف مدون الاخبار بودرى دى دول وصفا معبرا المشهد الذى جرى في كليرمون بعد خطاب البابا. فقد ظهر هناك رسل ريمون دى تولوز،واعلنوا امام الملأ عن رغبة الكونت فى الدفاع عن قضية الايمان المسيحى استجابة لنداء الكرسى الرسولي. ولكن ما قام به رسل الكونت الفرسان فى كليرمون لم يكن سوى مشهدية مؤثرة ظاهرية. فان الكونت ريمون دى سانجيل، كما يسميه فى المعتاد مدونو الاخبار، كان قد تجند فى عداد المشتركين فى الحرب الصليبية قبل زمن طويل من اعلانها رسميا. وكان ريمون الرابع يقوم بكل اعماله وتصرفاته بالاتفاق مع البابا اوربان الثاني؛ وقد تلاقى معه، كما نعلم، فى كاتدرائية كليرمون. وفى البدء، كان البابا قد اعتزم حتى تعيين الكونت رئيسا للقوات الصليبية، ولكن التخوف من

العطب والهلكه، وذلك انه حمل نصر الدوله على قتل الخليفه بقوله له: ان الناس قد استباحو عرضك وصار لهم فيك حديث قبيح بما سمعوه من خلطتك بالظافر فباى شي يكون منك مما يقولون. وضحك عباس، فقال له نصر الدوله: انت تضحك اني اخاف عليك ان لا ترجع تضحك. فتوهم منه انه يعنى قتله ولم يخطر بباله الداهيه التى عملها من قبل الخليفه، ولما كان ليله ذلك

اثارة استياء الاسياد الآخرين، المفعمين بالطموح، المشتركين في الحملة، حال دونه ودون تحقيق عزمه.

استعد ريمون الرابع سنة بكاملها للحملة. فقد كان يسعى إلى ان يثبت قدميه، ويستقر في الشرق، بانشاء امارة له هناك.

سار تحت راية ريمون دى سانجيل، كونت تولوز المئات ولربما الآلاف من الاقطاعيين المتوسطين والصغار من فرنسا الجنوبية ـ من بورجونيا وجاسكونيا واوفرنيه. وبروفانس وغيرها من المقاطعات، بمن فيهم بضعة اساقفة. ومن بين كبار الاحبار، برز نائب البابا (القاصدالرسولي) اسقف مدينة بوى، اديمار. فقد عهد اليه بالسهر على مصالح البابوية السياسية اثناء الحملة. ولكن خادم الرب هذا كان في الوقت ذاته محاربا محنكا يروى مدون الاخبار ان اسقف بوى كان يرتدى خوذة الفارس ودرعه ويتسلح باسلحته ويقاتل الاسياد المجاورين الذين يعتدون على املاك الكنيسة. وكان يجيد استعمال السلاح، وكان، كما يقول يجيد ركوب الخيل. ولكنه لم يكن بمقدوره ان يأخذ على عاتقه واجبات القائد العسكرى للمقاتلين الصليبيين. فان اديمار، اسقف بوى مثله مثل ممثلين آخرين ارسلهما البابا اوربان الثانى ايضا الى الصليبيين، لم يقم الا بدور الرئيس الروحي للصليبيين، وكان يؤدى بعض الوظائف التنظيمية.

٧٢: الاب يوحنا البطرك ١١٤٧/ ١١٦٦م

اليوم دخل قصر الخليفه على جارى عادته وقعد عنده ساعه ثم ساله المشى معه والفرجه على العوام متنكرين فخرج معه من باب الزهومه ووقفا عند دكان الفقاعى الذى مقابله وشربا منه فقاع ومشيا، فساله ان يمضى معه الى داره الذى فى السيوفيين يقعد ساعه ويعود، فمضى معه وكان الخليفه متنكر ببرده ملتف بها وكان معه استاذين، فلما حصل معه فى مجلسه وقعد عنده ساعه امر

تحركت قوات فرنسا الجنوبية عبر جبال الالب وبمحاذاة بحر الادرياتيك، وتجنبت استريا ودلماسية، ثم واصلت سيرها على طريق اغناطيوس نحو العاصمة البيزنطية.

وفى الوقت نفسه تقريبا ركب فرسان فرنسا الشمالية والوسطى خيولهم. وقبل الجميع، انطلق هوج فرمندو (Vermandois) الشقيق الاصغر لملك فرنسا. فيليب الاول، الفارس المغرور، الذى لم يكن يملك سوى كونتية صغيرة جدا، كانت دوطة (صداق) زوجته ،ولذا كان يسعى بمثابرة وعناد وراء السلطة والثروة. وقد جمع فصيلة غير كبيرة من اتباعه واتباع الملك، وانطلق فى اغسطس ١٠٩٦ الى ايطاليا. وفى الطريق، عرج على روما، حيث سلمه البابا راية القديس بطرس؛ هذه الراية كان القصد منها ان ترمز الى تطلعات الكونت الدينية. ومن بارى سافر بحرا الى سواحل بيزنطية، الا ان هذا المغامر المنحوس لم يحالفه الحظ منذ الخطوات الاولى بالذات؛ فان العاصفة قد حطمت مراكبه عند سواحل الادرياتيك الشرقية، وهلك كثيرون من الفرسان والمجدفين؛ وهوج ذاته، كما تقول حنة كومنينة، قذفته الامواج الى ساحل بجوار دراتش.

بعد فترة وجيزة، انطلقت الجموع المسلحة للفرسان الفرنسيين اللجبة بقيادة روبرت، دوق نورمنديا، وايتيان كونت بلواوشارتر، المتزوج من اخت الدوق اديل، وروبرت كونت الفلاندر (ابن الحاج المذكور سابقا، روبرت الاول من فريزيا).

واحد من اصحابه خنقه بمنديله حتى مات، ثم قتل الاستاذين ورماه في بير معين، ورما الاستاذين فوقه ثم اردم البير وبلطها حتى لم تصير تعرف. وكان ذلك بتاريخ التاسع والعشرين من المحرم سنه تسع واربعين وخمس مايه[٨٧٠ قبطية= ١١٥٤م]، واخفى امرهم عن الناس فاظهره الله وانتقم لهم، وذلك انه مضى لابوه عباس واعلمه بما فعله، فخاف ان يقومو عليه العوام ويخرجوه

كان روبرت النورمندى، الملقب«بالسراويل القصيرة»، والابن البكر لغليوم الفاتح، في احوال حرجة جدا. كان يقاتل على الدوام ضد اخيه ملك انجلترا، غليوم الاشقر، وكان ينازعه عبثا على حقوقه في العرش. وكاد«السروايل القصيرة» يخسر نورمنديا ذاتها. وجاءت الحملة الصليبية تخلصه من جميع المشاكل والمخاصمات، وتعده بفتح البلدان المقدسة.

وكانت دوافع مختلفة، دنيوية وعادية تماما، تدفع الى الاشتراك في الحملة الصليبية، ايتيان، كونت بلوا دى شارتر، الميسور جدا، ولكن الطامح الى اكثر، وان يكن صغير النفس للغاية،وكونت الفلاندر روبرت الثاني. ولم ينضم الى دوق نورمنديا اتباعه الفرنسيون وحسب، بل انضم اليه بارونات وفرسان من انجلترا واسكتلنده. كذلك التحق عدد لا يستهان به من الصليبين بقائدين آخرين. فعند كونت الفلاندر، مثلا، كان زهاء الف تابع؛ وقد اشترك كثيرون منهم في الحملة الصليبية.

جميع هذه الجحافل الفرنسية الانجليزية عبرت جبال الالب ووصلت في نوفمبر ١٠٩٦الى ايطاليا حيث بقي معظمها لقضاء الشتاء. وفي لوكا، تقابل روبرت النورمندى وروبرت الثانى من الفلاندر، وايتيان دى بلوا «وغيرهم من جماعتنا ممن ارادوا مواصلة طريق الحرب المقدسة ثم انطلقوا بحرا الى دراتش، ومن هناك على طريق اغناطيوس الى القسطنطينية».

من الملك، والذى خاف منه وقع فيه وكان تدميره فى تدبيره، وذلك انه اصبح ركب الى القصر واحضر زمام [قائد حرس] القصر وطلب ان يستاذن الخليفه عليه، ولم يكن عند زمام القصر ولا غيره علم من خروج الخليفه ولا ما جرى عليه، فدخل يطلبه فلم يقدر عليه فاخذ عباس زمام القصر وطالبه به فحلف وكثر الايمان انه لم يعرف له مكان، فقال له: احضر لى اخوته ليلا [لئلا]

وهكذا، بسبل مختلفة، ولكن بدوافع واحدة تقريبا، انطلقت فى الحملة الصليبية فصائل الفرسان والامر اء، ومعها جموع ضخمة جديدة من الفقراء الذين كانوا يأملون فى مصير افضل فى البلدان البعيدة.

كان الفرسان مهيئين للحملة افضل بما لاقياس له من جموع النازحين من الفلاحين التى سبقتهم. فقد تزودوا للطريق. وكثيرون رهنوا أو باعوا عقاراتهم واملاكهم الأخرى. وعقد جودفروادى بوين صفقات مع اسقف ليبج واسقف فردان، فقد باعهما مقابل ٣آلاف مارك فضى بعضا من ضيعه، بل انه رهن عند اسقف ليبج قصر بويون السلالى، المتوارث أباً عن جد. والشيء، نفسه فعله ريمون دى تولوز وعدد من انصاره المقبلين من لانجيدوك ببعض ممتلكاتهم. كذلك روبر، دوق نورمنديا، اختطف ١٠آلاف مارك فضى من اخيه المتوج؛ وبحثا عن هذا المبلغ، فرض هذا الملك بدوره ضريبة استثنائية على رعاياه بالذات بمن فيهم رجال الدين، فاعر ب هؤلاء عن تذمرهم. ثم ان الاقطاعيين من مرتبة ادنى باعوا هم ايضا حقوقهم (الحقوق القضائية، حقوق الصيد) ورهنوا الاموال غير المنقولة.

ان رهبان كلونى الذين كانوا يذمون ببلاغة وبالاقوال الجشع والطمع، لم يكونوا ضد اكثار ثروات اديرتهم على حساب الصليبيين. كذلك حاول الاساقفة ورؤساء الاديرة فى اللورين

يكونو قتلوه. فدخل القصر واحضر له يوسف
وجبريل اخوته وصلح [صالح] ابن حسن اخوه،
فطلبه منهم وادعى عليهم انهم قتلوه، وامر اجناده
يقتلوهم فقتلوهم وقتلو زمام القصر ونهب مجلس
القصر الملك بيد اصحابه وقتلهم جميعهم فى قاعه
باب الذهب، واخذ ولد الخليفه وهو طفل صغير
وكان اسمه عيسى فاجلسه خليفه فى سلخ المحرم

وفرنسا الجنوبية وغير ذلك من المقاطعات، ان لايفوتوا الفرص السانحة؛ فقد كان الصليبيون بحاجة الى النقود، بينما هبطت اسعار الاموال غير المنقولة. فاشترى احبار الكنيسة بالرخص ضيع الاسياد والفرسان الذين اعتزموا الذهاب الى الحرب الصليبية. وهكذا، كما قال المؤرخ الاميركي دانكلف، قامت الكنيسة ببزنس جيد فى المشتريات وفى رهن ممتلكات الصليبيين لقاء النقود.

تزود الفرسان بالنقود الرنانة، واهتموا فى الوقت نفسه بالسلاح. كانت اسلحة القوات الاقطاعية عتادها ارقى بكثير مما لدى الفلاحين. كان لكل فارس سيف قاطع من الفولاذ ذو حدين. واحيانا كانوا يستعملون السيف من هذا النوع للاغراض الدينية. فان العارضة التى تفصل القبضة عن الشفرة كانت تضفى على السيف شكل الصليب وكان بوسع الفارس، بغرز السيف فى الارض، ان يصلى امامه. كذلك كان للفارس رمح خشبى ذو سنان معدنية، شكله فى المعتاد بشكل المعين. وكان الرمح علاوة على الغاية المباشرة منه ـ طعن العدو ـ يؤدى وظيفة معاونة؛ فتحت السنان كان الفارس يعلق راية ذات اشرطة طويلة تخيف حصان العدو اذ ترف وتخفق اثناء ركض الحصان. كذلك كان الدرع (المستدير او المستطيل) الخشبى الملبس بصفائح معدنية من ضروريات سلاح الفارس. وكان الفارس يمسكه أثناء القتال بيده

سنه تسع واربعين وخمس مايه الهلاليه، وانعتوه بالامام الفايز.

ولم يزل عباس مستمر فى الوزاره الى ان نافق عليه امير يسمى طلايع ابن رزيك، كان والى البهنسى والاشمونين من اعمال الصعيد، انفدو له نسا من القصر شعورهم فاخذها وجعلها على رماح، وعمل رايات سود وحشد حشود كثير من راجل وفارس ووصل الى القاهره فى اليوم الرابع

اليسرى. وكان الفارس يغطى رأسه بخوذة، وجسمه بصدرة مزرده (مزدوجة احيانا) او بدرع. وكان يغطى كلا من ركبتيه بواقية جلدية أو يحتذى حذاء مزودا بصفائح معدنية. وكان الفارس يبدو بكامل اسلحته اشبه بقلعة متحركة على حصان. وعلاوة على الاسلحة والاعتدة كان الفرسان يأخذون معهم كلاب الصيد والاقفاص مع الصقور (لأجل الصيد فى الطريق).

كذلك كانت البنية التنظيمية لقوات الفرسان اصح نسبيا (بالقياس الى ما كانت عليه عند الفلاحين). ومع ذلك لم تكن البتة، منذ بداية الحملة حتى نهايتها، عبارة عن قوات موحدة. فلم يكن ثمة قادة، لا كبار ولاصغار، معينون رسميا من قبل احدما، ولم تكن ثمة قيادة واحدة، مشتركة للجميع. ولم يكن يخطر فى بال احد ان يرسم خطة عامة، مشتركة ما للحملة، او ان يقرر على الاقل مسيرة دقيقة لاجل الفصائل. وكان قوام مختلف الواحدات المتجمعة عفويا حول اشهر الاسياد يتغير لان الفرسان كانوا غاليا ما ينتقلون من قائد الى آخر بأمل الحصول منه على هذه الفوائد او تلك.

وهذه العساكر اللصوصية المزينة بالصلبان على صدورها بدأت تنهب وتغتصب قبل ان تصل الى القسطنطينية. فان الفرسان اللورينيين قد امضوا ثمانية ايام بكاملها فى اعمال النهب

عـشـر من ربيع الاول سنه تسع واربعين وخـمس مايه. وعند وصوله الى القاهره خرج عباس ونصر ابنه وجماعه اصحابه وقد اوسق كلما له وكلما نهبه من القصر على البغال والجمال والخيل وخرج من القاهره طالب الشام، فاجتمع عليه الافرنج والعربان فاخذوكلما معه ولم يزل يحمل فيهم هو وولده ويقتل حتى قتل واسر ولده. واما طلايع ابن

والسلب في تراقيا السفلي؛ وكانت الذريعة لمقاتلي جودفروا دى بويون النبأ القائل ان هوج فرمندوا اسير عند الامبراطور الكسيوس. ونكل الفرسان النورمانيون التابعون لبوهيموند من تارنتو تنكيلا قاسيا بسكان ابيروس ومقدو نيا وتراقيا. ويعترف فارس مجهول دون الاخبار وكان في هذه الفصيلة بانهم كانوا ينتزعون من السكان كل ما يجدونه . وبين مدينة كاستوريا ونهر فاردار، دمر النورمانيون مدينة بكاملها فقد كان يسكنها الهراطقة في ايام بولس الرسول وكان ذلك كافيا لابادتهم عن بكرة ابيهم.

كذلك تميز مرور صليبيي كونت تولوز عبر دلماسية باعمال لصوصية لاتقل وحشية. فان مدون اخباره كابيالانه دى اجيل، يروى في مؤلفه«تاريخ الفرنجة الذين استلوا على القدس» كيف ان سكان دلماسية (سلافونيا)، «البلد الصحراوى والجبلي والخالي من الطرق، الذى لم نر فيه طوال ثلاثة اسابيع لاوحوشا ولاطيورا»، قد رفضوا ان يبيعوا الفرسان شيئا ما وان يعطوهم الادلة، وانهم كانوا يفرون من القرى لدن اقتراب الفرسان، وكانوا يتخفون، في المغاور الجبلية والغابات الكثيفة، حيث «لم يكن من السهل على فرسننا المسلحين ان يطاردوا قطاع الطرق هؤلاء غير المسلحين» – هكذا ينعت مدون الاخبار من بروفانس (فرنسا الجنوبية) سكان دلماسية المسالمين.

٧٢: الاب يوحنا البطرك ١١٤٧/ ١١٦٦م

رزيك فاخلع عليه للوزاره فركب الى القصر وعقدو له عقد الوزاره وطوقوه به وكتب ووقع ونفد امره، فركب الى دار ابن عباس ومعه جماعه من الامرا والاستاذين وقاضي القضاه وداعى الدعاه وقدامه صدور ذهب وفضه فيها مباخر مملوه عود وعنبر، واستاذ صغير كان لابن عباس كان حاضر قتل الخليفه والاستاذين ورميهم البير، فحدثهم بخبرهم ودلهم على موضعهم، فحفروه وطلعو بهم منه

اما في الواقع، فان الصليبين انفسهم كانوا بالطبع قطاع الطرق. فقد كسب ريمون دى تولوز لنفسه سمعة مؤسفة، مخزية في دلماسية بوحشياته: فذات مرة (وكابيللانه يروى الحادثة بدون اطراء ومديح) امر بسمل عيون ستة من الدلماسيين اسرهم الفرسان وبتر انوفهم ، وقطع ايديهم وارجلهم. وفي مدينتى روسا وريدستو في تراقيا، استحصل فرسان الكونت ريمون دى سانجيل، كما يقول مدون الاخبار ذاته ريمون دى اجيل، على غنيمة هائلة. فقد هاجموا مدينة روسا مطلقين الصيحة القتالية «تولوز! تولوز!» واقتحموها واعملوا بسكانها قتلا وذبحا.

ان تقدم الصليبيين في شبه جزيرة البلقان قد رافقته اعمال النهب والسلب بلاحسيب ولارقيب. ولكن هذا لم يكن سوى البداية . فان الصليبيين سيظهرون فيما بعد بكل قباحتهم وسفالتهم ووحشيتهم.

الصليبيون في بيزنطة

قلق الامبراطور الكسيوس الاول وحاشيته اقصى القلق من الانباء القائلة ان الغرب كله، وجميع قبائل البرابرة، وجحافل الفرنجة التي لاعد لها تتجه الى القسطنطينية. ان زحف هؤلاء «المخلصين» المندفعين صوب الشرق بنوايا الفتح، كان من الممكن ان يكون فادح الخطر على بيزنطة؛ ذلك ان عدد الصليبيين لم يكن يقل عن ١٠٠ الف. ناهيك بانه كان بينهم قادة

٧٢: الاب يوحنا البطرك ١١٤٧/ ١١٦٦م

وحــملوهم الى القــصــر غــسلوهم وكــفنوهم ودفنوهم.

واستــقــر طلايع ابن رزيك فى الوزاره وانعــتــوه بالملك الصـالح وكـان مـحـبـا لجـمع المال واهلك نفـوس كـثيـره فى المطالبه بالمال وجـمع منه شى كـثيـر من غيـر وجـوهه، وكـان يقـرب الرفـاعين [المنجمين] ويحسن اليهم ويسمع اقوالهم، مبغضا للنصــارى وبعض مـذاهب المسلمين، لان مـذهبـه

معادون من قـديم الزمان لبيـزنطة، من امثـال بوهيـموند وانصـاره، وكانوا، كمـا قالت حنة المذكورة اعلاه، يتحرقون من قديم الزمان للاستيلاء على امبراطورية الروم. ان الكاتبة البيزنطية حنه تتخـذ مـوقـفـا احادى الجانب، اذ افتـرضت ـ وغنى عن البيـان ان هذا الرأى كـان واسع الانتشار فى الاوساط الحكومية البيزنطية ايضا ـ أن «الكونتات وبخاصة بوهيـموند كانوا يكنون عداوة قديمة للامبراطور وكانوا يترصـدون الفرصـة السـانحة للانتقام منه لذلك النصر الباهر الذى احرزه على بوهيموند الذى تقاتل معه فى جوار لاريسا» (سنة ١٠٨٣).

قابل الامبراطور الكسيوس الاول الصليبيين بالحذر وعدم الثقة. واتخذ التدابير لاجل تجنيب الممتلكات البيزنطيـة التى تمر بها الجمـوع المسلحة للفرسان انفلات اللاتينيين قدر الامكان. فصدر الامر الى فصائل قبائل البتشينيغ العاملة فى خدمة الامبراطورية، كما تفيد حنة كومنينة ، بان «تتبع وتراقب البرابرة ، وتطلق النار على فصائلهم وتطردها اذا ما شرعت تهاجم وتنهب الاراضى المجاورة». وهذا الامر جرى تنفيـذه بكل دقـة، الامر الذى يحكى عنه مـدونو الاخبـار اللاتين بامتعاض.

الا ان الامبراطور الكسيوس الاول، رغم خوفه من المقاتلين الصليبيين ورغم اقامته مختلف العراقيل فى طريقهم، ولم يكن الامبراطور ضد استغلال قوات القادمين من الغرب فى مصلحة بيزنطة. فقرر ان يستميل زعماءهم الى حلف يمين التبعية الاقطاعية له عن جميع الاراضى التى

كان امامي [شيعي]. و أمر ان لا يكون لعمايم النصارى ولا اليهود دوايب(*). وكان الغلا في اول سنه من وزارته وابيع القمح فيها بخمسه دنانير الاردب مده اربع شهور لا غير، ثم تراخت الاسعار في طول مده وزارته، وكان سعر الغله لا يثبت على حال بل يزيد وينقص من اردبين بدينار الى الى اردب الى نصف اردب بدينار، فظهر في ايامه موت البقر بالريه [طاعون الماشية](*) ولم يكن عرف

(*) كانت العمامة ذات الذوائب خاصة بالفاطميين فقط.

(*) ظهور طاعون الماشية بمصر لأول مرة.

سيستولي عليها الصليبيون والتى خسرتها بيزنطة من قبل نتيجة لنجاحات السلجوقيين وسائر الشعوب الشر قية: اى آسيا الصغرى وسوريا ولبنان وفلسطين. ولكى يجعل الامبراطور زعماء الفرسان اسهل للانقياد، بدأ (حتى عندما كان الصليبيون لايزلون يعيثون فسادا فى البلقان) يسدد اليهم ضربات محسوسة بوساطة خيالة البتشينيغ. وقد هزم البيزنطيون فى جوار ريدستو بضعا من فصائل ريمون دى تولوز؛ وقد فر الصليبيون من ساحة الوغى رامين السلاح والحمولة.

وفى الوقت نفسه، بدأت الديبلوماسية البيزنطية تعمل بكل مهارتها وفنها؛ وكان البيزنطيون اساطينها الذين لايضاهيهم احد. فقد ارسل الامبراطور الى لقاء فصائل الصليبيين موظفيه، وامرهم، كما كتبت حنة كومنينة، بان «يقابلوا بمودة الذين عبروا البحر (بحر الادرياتيك) ويضعوا فى طريقهم وفرة من احتياطات المؤن». وعندما قذفت العاصفة البحرية فى نوفمبر ١٠٩٦ الى الساحل هوج فرمندوا ونقلوه إلى القسطنطينية، استقبله الكسيوس الاول، كما تروى ابنته. «باجلال واعرب له بجميع الوسائل عن عطفه، واعطاه الكثير من المال، واقنعه فى الحال بان يصبح تابعا له، ويقسم له اليمين العادية عند اللاتين».

ولكن فرض علاقات التبعية على سائر قادة الصليبيين كان من ذلك اصعب. فعندما اقتربت فصائل جودفروا دى بويون من اللورين ومن المانيا فى ٢٣ (ديسمبر)١٠٩٦ من

قبل ايامه بمصر، وتردد ذلك وقت بعد وقت فى سنين مختلفه حتى صار الناس يحرثو على الخيل والجمال والحمير.

وبعد هذه الامور مات الامام الفايز فى ايام وزارته في شهر رجب سنه خمس وخمسين وخمس مايه الهلاليه [٨٧٦ قبطية = ١١٦٠م] وجلس بعده عبدالله ابن يوسف ابن الحافظ وانعتوه بالامام العاضد، ثم ان الصالح ازوجه ابنته على

القسطنطينية، واقامت معسكرا لها في جوار مدخل خليج القرن الذهبي، نشأ وضع نزاعي حاد. فقد تهرب الكونت من حلف اليمين التبعية الاقطاعية للامبراطور البيزنطي رغم ان هوج فرمندوا نفسه استماله الى ذلك باسم الامبراطور. آنذاك، طرح الكسيوس الاول الملابسات الديبلوماسية جانبا، وطوق معسكر جودفروا بخيالة البتشينيغ.

فى ٢ (ابريل) ١٠٩٧، وقع اشتباك بين فصائل الامبراطور وفرسان اللورين؛ فقد انهال عليهم قواسو الكسيوس الاول من اسوار القسطنطينية بوابل من الاسهم. صحيح ان الامبراطور، كما تزعم حنة كومنينة، امر «بالتصريب الصورى أى من أجل تخويف اللاتين وحسب، ولكن معركة حقيقية نشبت، كما يتبين من وصف حنة كومنينة نفسها للاحداث: «درات رحى معركة ضارية ورهيبة؛ فبعناد قاتل الفرسان خارج المدينة وقاتل الذين وقفوا على الاسوار. وزج الامبراطور فى المعركة بقواته الخاصة وحمل كتائب اللاتين على الفرار».

منى الصليبيون بهزيمة شنعاء، فاضطر جودفروا دى بويون الى التراجع والتنازل، وحلف اليمين التى طلبها منه. ويستفاد من شهادة البرت من آخن ان الكسيوس مضى حتى الى تبنى تابعه الاقطاعى الجديد، وفقا للعادات البيزنطية، وخصصوا له الكثير من الاموال، وأقاموا على شرفه المآدب الفاخرة ثم نقلوه بتسرع عبر البسفور. و من جديد صدر الامر بتأمين الوفرة من

كره منه واستمر الصالح فى الوزاره الى يوم الاثنين الثامن عشر من شهر رمضان سنه ست وخمسين وخمس مايه الهلاليه [٨٧٧ قبطية = ١١٦١م]، ركب الى القصر على جارى العاده فعرض له فى دهليز العمود وهو خارج من عند الخليفه رجل من صغار الاجناد واحقرهم يعرف بابن الراعى ومعه رجلين من السودان احدهما يسمى مقبل، فنخسه ابن الراعى بسيف فى بطنه اخرج امعاه ثم ضرباه

شتى المؤن للصليبيين الذين انطلقوا من خلقيدون فى الطريق الى نيقوميديا ونصبوا مخيمهم فيما بعد فى يليكان.

كان للتسرع فى عبور البوسفور اسبابه؛ فان الكسيوس لم يشأ ان يسلم باقامة جميع فصائل الصليبيين فى آن واحد بجوار القسطنطينية ، اى باقامة تجمعات المقاتلين البرابرة الذين كانوا يهددون باحباط مشاريعه.وقد تخوف الامبراطور على الاخص من قوات عدو بيزنطة المزمن، قائد النورمانيين الايطاليين الصقليين بوهيموند بالذات، فى الآونة الاولى على الاقل، هو الذى تسبب للامبرطور باقل عدد من المشاكل والهموم. فقد وصلت فصائله الى القسطنطينية فى ٩ (ابريل) ١٠٩٧ ، وبما انه «فهم وضعه»،كما تقول حنة كومنينة، فقد وافق بدون تردد ودون مماطلة على ان يصبح من اتباع الكسيوس الاول.

وبديهى ان الامبرطور اضطر كذلك الى التنازل عن شئ ما؛ فمع عدو غدار من طراز بوهيموند كان ينبغى التصرف باحتراس وبعد النظر. ان مدون الاخبار النورمانى الذى اطرى مآثر بوهيموند فى الحملة الصليبية، قد كتب فيما بعد ان بطله اخذ الصليب بدوافع الروح الدينية لاعتبار الحملة على الشرق «حربا مقدسة». اما الامبراطور الكسيوس كومنينوس ، وهو ابعد نظرا، فقد حكم على نوايا القائد النورمانى حكما اصح من حكم مداحية الغربيين؛ فاثناء المفاوضات بشأن يمين التبعية الاقطاعية، وعد، كما يعترف مدون الاخبار نفسه، بان يمنح

الرجلين بسيوفهما فجرحوه في عده مواضع في جسده، وكان قد اصبح متخوم فحمل الى داره قتيلا، ومات في النصف من الليل.

وجلس بعده ولده رزيك وانعتوه بالاجل مجد الاسلام. وكان الصالح قد ولى امير ينعت بالمكرم واسمه شاور ولاه مدينه قوص واعمالها. وكان [للصالح] ابن اخت اسمه حسام ونعته عز الدين. هذا كانت اراده الله ان تزول دولتهم على يديه

بوهيموند ارضا على مقربة من انطاكية «طولها ١٥ يوما مشيا وعرضها ٨ ايام». ان هذا الوعد قد طاب بقدر ما للقائد النورماني، الذى كان، كما يكتب ريمون دى اجيل، «يتحرق بدافع الغرور والطموح الى ان يصبح امير مدينة انطاكية»، رغم انه كان يطمع في اكثر من ذلك. وسعى بوهيموند الى نيل لقب «دومستيك الشرق الاعظم»اى لقب قائد جميع القوات المسلحة البيزنطية في آسيا ولكن طلبه قوبل بالرفض.

ومهما يكن من امر، فقد عقدت الصفقة. ولكن الباحث النورمانى عن الغنائم لم يعلق اية اهمية على يمينه، رغم انه اغدق بالتأكيدات الودية («جئت اليك كصديق لجلالتك»). الا ان الكسيوس الاول، مع اغداقه الوعود وانعامه على بوهيموند بالجواهر، احتفظ باليقظة والريبة حيال التابع الجديد،ولم يعتزم ـ كما بينت الاحداث اللاحقة ـ ان يأخذ على محمل الجد تعهدات القائد النورماني بوهيموند.

في اوخر ابريل انتقلت قوات امير تارنتو ايضا الى آسيا الصغرى.

في هذه الاثناء، ظهرت في جوار يدستو فصائل مهيبة بقيادة ريمون دى تولوز. كذلك اخذت تقترب من القسطنطينية فصائل اخرى من الفرسان. واحتشدت عند اسوار العاصمة قوات كبيرة جدا من الحجاج المسلحين. وعاشت المدينة اياما حافله بالقلق. إلا أن الكسيوس الاول لم يسمح لهم بدخول المدينة الا زمرا صغيرة. ولكن تدابير الاحتراز

فجعل في قلبه بغضه شاور المكرم وعداوته، وكان خاله الصالح قد ولاه منيه بني خصيب فكان يمسك اصحاب شاور ورسله وغلمانه في البر والبحر يضربهم ويهينهم ويعتقلهم ويجرى عليهم منه كل صعوبه والى امره مع شاور في كل قبيح، فكتب شاور اليه دفوع كثيره يستعطفه ويطلب مسالمته ويقول له: انك مملوك دولة خاله وصنيعته. فجاوبه عن ذلك بان اخذ صندوق لطيف وعمل

- -

هذه كانت قليلة الفعالية. فلم يكن من النادر ان تقع في الشوراع مصادمات بين الروم والصليبيين. وقد بدا الفرسان النورمان للاريستقراطية البيزنطية متوحشين، وكأن القادمين حاولوا بسلوكهم ان يؤكدوا هذه السمعة؛ كانوا يتصرفون تصرفا فظا، متحديا، صلفا. فاثناء حفل استقبال في القصر الامبراطوري، مثلا، جلس احد اصحاب الالقاب الجهلاء الغربيين على عرش الامبرطور. وكان الصليبيون ينهبون ضواحي القسطنطينية، وينتزعون من الروم المؤن. وما كانت تقدمه السلطات كان قليلا لسد نهم حشود الصليبيين الذين كانوا لايميلون إلى الانهماك في الركوع والصلوات في الكنائس وحسب، بل كانوا ايضا يتحرقون الى جميع ثروات المدينة العظيمة. لقد احدثت هذه المدينة في نفوسهم انطباعا قويا؛ وليس من قبيل الصدفة ترك مدون الاخبار فولهير من شارتر الذى اشترك في الحملة وزار القسطنطينية وصفا عنها حافلا بالتفاصيل الواقعية. وهذا الراعي التقى لايكل من الاعجاب من تعداد الهبات التي نالها الفرسان من الملك البيزنطى الذى اعطاهم «وفرة من كنوزه ـ الالبسة الحريرية والخيول والنقوده.

كان الامبراطور، مع اخفائه مخاوفه بمهارة، يسير بثبات على خطة؛ فقد طلب من رؤسا الصليبيين ان يقسموا اليمين بان يعيدوا الى بيزنطية جميع المدن والاراضي التي يفلحون في استراجاعها من السلجوقيين. وافق الكثيرون على الاستجابة لهذا الطلب. ورفض ريمون دى

فيه درتين جلود بقر مطبقه وانفدهم لشاور، فلما راهم قام وقعد وكان [كاد] يقتل نفسه. وكان شيخ داهيه خبير بالحروب والخداع والحيل والمكايد فشمر على ساق الاجتهاد ووطد نفسه على الحروب والجهاد وهيا العدد والاستعداد وانفق الاموال وحشد وجمع عسكرا يثق به، لان بنى رزيك كانو قد تملكو سنين كثير تقارب عشره، فكثرة اموالهم ورجالهم وقويت احوالهم. فلما علم

تولوز ان يحلف يمين التبعية الاقطاعية . معلنا انه اخذ الصليب لا لكى يصبح هو نفسه سيدا ولالكى يحارب من اجل احد غير الرب وحده؛ فمن اجل الرب، ترك اراضيه وثرواته. واضطر بوهيموند من تارنتو الى اقناع البروفنسى العاصى الذى لم يكن يتحلى بالمرونة النورمانية. ومع محاولة اقناع ريمون الرابع، ومع استشفافه فيه منافسا (ذلك ان كونت تولوز كان يجهد لكى يصبح القائد الاعلى لعموم القوات الصليبية)، كان بوهيموند نفسه يأمل فى كسب ثقة الامبراطور . ولكن محاولات الاقناع اخفقت.

واذ ذاك حاول الكسيوس الاول ان يلقن ريمون درسا بالقوة، باللجوء الى الاسلوب الذى عاد عليه بالثمار المنشودة اثناء المفاوضات مع غودفروا دى بويون. ولكن عبثا! فان كونت تولوز - كان، حسب تعبير احد المؤرخين ، تقيا ورعا مثل الراهب، وطماعا وبخيلا مثل النورمانى، - يتخوف من ان يحرمه يمينه للامبراطور الاراضى التى كان الاستيلاء عليها هدفه الحميم.

وفى آخر الامر، وافق ريمون الرابع فى ٢٦ابريل ١٠٩٧ على تعهد مانع فقط، قوامه ان لايتسبب بضرر للامبراطور وحياته وشرفه. كان هذا اشبه بيمين التبعية الاقطاعية، لااكثر. ومع ذلك ارضت هذه اليمين المصطنعة الامبراطور الكسيوس الاول. وسرعان ما تقارب الامبراطور وكونت تولوز بوثوق؛ فان عدواتها المشتركة لبوهيموند من تارنتو كانت التربة لهذا التقارب.

انه لا يطيق قتالهم جمع اصحابه ومن كان معه
من ثقات اهله واقاربه من اهل النصيحه والراى
فشاورهم فى ان يندفع من قدام عسكرهم الى برية
الواح ويجول فيها طولا وعرضاً بحيث لا يستقر به
مكان، فاذا طال على من يطلبه عدم وجوده
تفللت العساكر لفروغ الزاد ومشقه البلاد وحر
الجبال ونكد الحال، ثم لا يقدر يتبعه الى برية الواح
عسكر كبير لقلت الما وحر الهوى وقلت العشب

وفى آلاونة الاولى ابدى تنكريد، ابن اخى بوهيموند العناد والتشبث. ولكى يتجنب حلف يمين التبعية الاقطاعية، غير لباسه، وغادر القسطنطينية ليلا مع فريق من الفرسان وعجل فى عبور المضيق . ويقول راوول من كايان ان هذا الفارس المغامر تأسف اقصى الاسف لكون بوهيموند قد اقسم يمين التبعية والولاء للامبراطور البيزنطى ؛ لان الامير «مضى لكى يحكم فوجد نيران، راح لكى يرتفع ولكنه ساعد فى رفع غيره بينما انحط هو نفسه». وكان تنكريد يعتقد ان ممتلكات الروم السابقة فى الشرق، المتواجدة حاليا تحت حكم السلجوقيين، يجب ان تنتقل الى الصليبيين. وبما ان الروم فقدوا هذه الممتلكات بتسليمها للسلجوقبين، فلا داعى، بعد تثبيت الدين المسيحى هناك الى اعادة هذه الاراضى الى حماة بمثل هذا الضعف. ان اعادة المدن والقلاع الى الروم تعنى اعادتها الى الاتراك. تلك كانت وجهة نظر تنكريد.

وفى آخر المطاف كانت الغلبة لاحابيل البيزنطيين الديبلوماسية على عناد القادة الصليبيين وجشعهم. فقد غدوا جميعهم تقريبا اتباعا للامبراطور الكسيوس الاول. وفى هذا المجال لعبت بالطبع دورها حيل الديبلوماسى المحنك. فان ايتيان دى بلوا كتب باعجاب غير متصنع بسخائه ولباقته الى زوجته اديل عن اقامة الفرسان فى القسطنطينية: ان الامبراطور «يهدى امراءنا بفائق السخاء، ويخفف وضع الفرسان بالعطايا، يطعم الفقراء بالتوزيعات. ان ولدك ، ياحبيبتى

٧٢: الاب يوحنا البطرك ١١٤٧/ ١١٦٦م

للدواب، ولكونها رمال وتلال لا شجره تظل ولا ثميره. فاشارو عليه بذالك فسار مع الحشود الى مغارة الواح فاقتصر من اصحابه على عشرين فارساً بخيلهم وجمالهم وزادهم وعدتهم، واخذ لنفسه جمال وخيل وبغال وزاد كثير وذهب ومال كثير لنفقته، وقماش يدفعه للعربان وسار. وكان الامر كما قال لما تبعته العساكر ثلثة شهور وهو يزوغ منها من مكان الى مكان لا يقع له على خبر

(غليوم الفاتح) قد وزع الكثير وعلى الكثيرين، ولكن من المشكوك فيه ان يكون وزع بالقدر ذاته» . ولكن امرا آخر كان يتسم باهمية كبيرة،، فقد اضطر الفرسان الى الاقدام على مساومة، لانه كان واضحا لابعد قادتهم نظرا ان نجاح الحرب ضد السلجوقيين يتوقف بقدر لايستهان به على العلاقات بين الصليبيين وبين بيزنطة الباقية في مؤخرتهم. وغنى عن البيان ان اتباع الامبراطور الجدد كانوا يتذكرون الاوضاع السائدة في اوطانهم ، قد فهموا باغلبيتهم امرا آخر هو ان النسبة الفعلية بين القوى، وليس الشكليات الحقوقية، هى العامل الحاسم الذى يقرر مصير الفتوحات المقبلة.

معركة نيقية

في ابريل ومايو ١٠٩٧ ، نقلت فصائل الفرسان الى آسيا الصغرى.

دارت رحى المعركة الاولى ضد السلجوقين من اجل نيقية، عاصمة السلطان الرومى قلج ارسلان ابن سليمان. وكان الاستيلاء عليها شرطا ضروريا لتقدم الصليبيين لاحقا بنجاح عبر منطقة الاناضول، التى كانت الطريق العسكرية اليها تمر بهذه المدينة. كذلك كان الاستيلاء على نيقية مهما بالنسبة لبيزنطة ايضا؛ فان الاسوار الجبارة فى نيقية مع ابراجها ال ٣٠٠ كان عبارة عن استحكام قوى كان من الممكن ان يشكل، فيما اذا خسره السلجوقين، حماية مأمونة للقسطنطينية من اية اعتداءات من جانبهم.

تفللت العساكر ورجعت الى القاهره ولم تبلغ
مراد. وقالو عنه انه توجه الى الغرب عند امير
المومنين ملك الغرب [المغرب]، فلما غيب الظن
عنه مقدار شهرين اخرين هبط من برية الواح الى
بحيرة اسكندريه [مريوط] ومعه اصحابه، ومعهم
جمال عليها افراد خواص وعدى من محلة
عبدالرحمن الى الغربيه ونزل بظاهر بلقينه، وهي
قريه مجاوره للمحله مقدار ميل، في يوم الاحد

غادرت جحافل الفرسان بيليكان ونيقوميديا، واقتربت الواحد تلو الآخر فى ٦ مايو ١٠٩٧ من نيقية وشرعت تحاصرها. سدت فصائل جو دفروا دى بويون منافذ المدينة من الشمال، وسد نورمانيو تنكريد (وسرعان ما انضم اليه بوهيموند مسرعا من القسطنطينية)، منافذ المدينة من الشرق، وسد كونت تولوز الذى وصل فى ١٦ مايو مع رجاله من بروفانس منافذ المدينة من الجنوب. لم يكن تطويق المدينة كاملا؛ فقد بقى قسمها الجنوبى الغربى حرا؛ ومن هنا كانت تمتد بحيرة الى نيقية؛ وعلى الماء لم يكن ثمة شئ يقطع الطريق الى المدينة.

آنذاك، كما يروى المؤرخ الارمنى متى الرهاوى، كان السلطان قلج ارسلان ابن سليمان يحارب امير قبدوقية حسن دانشمند من اجل مدينة ملطية. وقد بوغت السلطان بنبأ محاصرة الصليبيين لمدينة نيقية؛ فى وقت قصير. ومع ذلك، وقع قلج ارسلان الصلح بسرعة مع حسن دانشمند واسرع الى الغرب.

فى ٢١ مايو وصل السلجوقيين الى مشارف المدينة من الجنوب؛ ودون ان يتوقفوا، انقضوا على مواقع البروفانسيين القتالية هناك. فهبت فصائل اللورين الى نجدة البروفانسيين. استمر القتال يوما بكامله. ولحقت خسائر كبيرة بالصليبيين (نحو ثلاثة آلاف رجل!) وخسائر اكبر بالسلجوقيين؛ وقد اضطر هؤلاء الى التراجع. وادرك قلج ارسلان انه لا جدوى من مواصلة

الثامن من المحرم سنة ثمان وخمسين وخمسمايه هلاليه[٨٧٩ قبطية = ١١٦٢م]، واجتمع اليه اجناد الغربيه وعربها من بني شيس. فلم يقيم ثلثة ايام حتى صار عنده عساكر واجناد وعربان يقارب عشرة الف فارس، فوقع [فأمر] للاجناد باقطاعات وامرا العربان ينهبو ما لبنى رزيك في بلاد اقطاعهم من حواصل الغله والمعاصر والمواشى، وانعم على كل قوم بشى طيب قلوبهم. وسار حتى نزل على

بذل المجهود، فسحب قواته الى الجبال وترك المدينة للقدر. وابلغ حماة نيقية بان يتصرفوا مستقبلا كما يرون مناسبا.

هلل الصليبيون رغم ان اسوارا رهيبة كانت لاتزال تنتصب امامهم ورغم ان حامية نيقية كانت تصمد بصلابة. وقد تلقت الحامية مددا عبر البحيرة. ومع ذلك، كان النصر يبدو قريبا. وتروى حنة كومنينة ان السلت (هكذا تسمي اللاتين احيانا) ، «كانو ا يعودون (من ساحة الوغى) غارزين رؤوس الاعداء بالرماح وحاملينها مثل الرايات لكي يراها الاعداء من بعيد ويخافوا من هذه البداية ويقلعوا عن العناد في القتال». ولكن هذه المظاهر المرعبة لم تسفر عن اية نتيجة. واذ ذاك حاول ريمون تولوز ان يحفر نفقا تحت احد الابراج بواسطة اساطين شؤون الحصار، محطمى الاسوارا وغيرهم ممن يستطيعون ان يصدعوا الابراج من اسسها بواسطة الادوات الحديدية. وهذه المحاولة ايضا لم تكلل بالنجاح.

واخيرا في ١٩ يونيو ١٠٩٧ ، شن الصليبيون هجمة مشتركة عامة. وكانت قد انضمت الى الفرسان قوات بيزنطية بقيادة الدوق مانوئيل فوتوميت؛ فقد ارسل الامبراطور الكسيوس الاول بضع سفن (نقلوها على العربات من نيقوميديا وانزلوها في البحيرة) لاجل قطع حامية نيقية من الجنوب الغربي. كذلك ارسل قوات برية. وقد فعل الامبواطور ذلك بالحاح من الصليبيين انفسهم، وكذلك، على الاغلب، سعيا منه الى بلوغ اهدافه بالذات، مع تقديم المساعدة لهم.

مسجد الخضر فعدى منه الى برا القاهره. فلما اتصل بمجد الاسلام ابن الصالح الوزير فى ذلك الوقت خبر تعديته وانه قد قارب القاهره خرج هو وجماعه بنى رزيك نصف الليل من القاهره هاربين، وذكر جماعه من اصحابهم انهم كانو يسمعو صوت جلبه وصياح خلفهم من كل جانب [يقول] «اخرجو اخرجو»، ثم يطلبو من يصيح فلا يجدو احد فعلمو انهم الملايكه بامر الله اخرجوهم.

انتهت المعركة بصورة لم يكن يتوقعها الصليبيون انفسهم. ففى اوج الهجوم، عندما اخذ الفرسان، كما تروى حنة كومنينة، يتسلقون الاسوار، سمح لوحدات الروم، بدخول المدينة؛ وفى الحال سدت الابواب امام الصليبيين. وعلى ابراج نيقية، خفقت الرايات البيزنطية. ولم يكن الصليبيون على علم باللعبة المزدوجة التى لعبها الامبرطور الكسيوس كومنينوس. فقد كان الامبراطور يدرك جيدا قيمة تعهدات زعمائهم التبعية، وكان يعتقد ان الصليبيين، ما ان يستولوا على المدينة، حتى يمتنعوا عن تنفيذ شروط المعاهدة مع بيزنطية، فاجرى مفاوضات من وراء ظهورهم مع قيادة الحامية السلجوقية. وقد وافق السلجوقيون على تسليم المدينة للبيزنطيين . ناهيك بانهم كانوا قدتلقوا تعليمات مناسبة من قلج ارسلان.

وهكذا استولى الروم ـ من وجهة نظر الفرسان ـ على نيقية بالغدر. وقد تبددت توقعات الصليبيين؛ فقد كانوا يأملون فى غنيمة كبيرة وكذلك فى فدية عن السلجوقيين المأسورين. وعوضا عن ذلك تفضل فوتوميت وسمح لهم بدخول المدينة (لكى يصلوا فى الكنائس) جماعات كل جماعة من عشرة اشخاص. فقد كان، على حد قول حنة كومنينة، يعرف جيدا اخلاق السلت. وكانت قوات الروم تحمى المدينة. واشد ما اهان الصليبيين واغضبهم، ان عائلة قلج ارسلان والاعيان السلجوقيين سيقوا الى القسطنطينية، وانه سرعان ما اطلق سراحهم للالتحاق بالسلطان قلج ارسلان.

فخرجو من ابواب القاهره كل واحد منهم بنفسه فتركو اموالهم ومنازلهم وعيالهم فنهبوها السودان وذابو كالملح.

واما مجد الاسلام رزيك وزيرهم فانه اخذ خُرج صغير عمل في ناحيه منه جواهر وياقوت وزمرد وشي كثير من هذه الاصناف وما يكون قيمته خراج ديار مصر سنه، وملا الناحيه الاخرى اكياس دنانير وجعله على حصان يسوى الف دينار من

وقد توقع الامبراطور الكسيوس كومنينوس استياء اتباعه الغر بيين وتذمرهم، فاتخذ التدابير اللازمة لتهدئتهم؛ فتعو يضا عن الخسائر التي لحقت بهم، اعطاهم الكمية الزهيدة من الفضة والذهب التي استولى عليها الروم في خزينة السلطان. ان الاستيلاء على نيقية كان يساوى تقاسم شئ ما مع البرابرة اللاتين. كتب كونت دى بلوا الى زوجته:« جميع الاشياء النفسة مثل الذهب والالماس والفضة والالبسة والخيول وما شابه كانت من نصيب الفرسان؛ اما المأكولات فمن نصيب المشاة. ان شهامة الكسيوس كومنينيوس ازاء السلجوقين، وازدواجية ساسته قوضتا ثقة الصليبين في حليفهم. ومذ ذاك طفقوا يعتبرونه خائنا للقضية المسيحية.

ان معركة نيقية قد كانت في تاريخ الحرو ب الصليبية المعركة الوحيدة التي انتهت وفقا لخطط بيزنطية. واستغلالا للنصر في نيقية حاول الامبراطور الكسيوس الاول ان يعزز سلطته قبل كل شئ في الاراضي المجاورة للقسطنطينية. وبقدر ما كان الصليبيون يتوغلون في الشرق وبقدر ماكانت الاوساط الحاكمة في الامبراطورية تفكر اقل فأقل في تقديم العون للصليبين، بقدر ما كانت تتقلص امكانيات تحقيق خطط الامبراطور الواسعة المر تبطة بالحملة الصليبية. وبعد الاستيلاء على نيقية، سحب قسم كبير من قوات الروم المسلحة الى العاصمة؛ ووراء ستار الصليبين المندفعين الى الامام، شرع الكسيوس الاول يستعيد الاراضي البيزنطية على

٧٢: الاب يوحنا البطرك ١١٤٧/ ١١٦٦م

خيله وركبه وخرج من القاهرة من باب زويله وحده ولم يصحبه احد، فلم يعرف اين يروح وسار متوجه الى قبلى مصر فوقع فى فريق عرب لرجل مقدم منهم يسمى يعقوب ابن البيض فاخذوه عبيده وعروه واخذو الحصان وكلما عليه ومضو عنه وتركوه، فبقى وحده فى البريه عريان حاير وكان شتى [شتاء] وبرد شديد فى شهر طوبه، فراى نار من بعيد فتبعها فلما قرب منها

الساحل الغربى والساحل الشمالى الغربى من آسيا الصغرى ومن بينها فى المقام الاول مقاطعة امارة ازمير(سميرنا). ولم يبق من الصليبيين سوى فصيلة مسلحة صغيرة من الروم بقيادة البريميكير (لقب عسكرى بيزنطى) الاعظم تتيكيوس.

عبور آسيا الصغرى

فى ٢٦ يونيو ١٠٩٧، اتجه الصليبيون من نيقية فى جيشين (احدهما اثر الآخر على مسافة يوم واحد تقريبا من السير) نحو الجنوب الشرقى. وبدأ زحف بالمشقات والمصائب والحرمانات عبر المناطق الداخلية من آسيا الصغرى. ناهيك بان الخطر المشترك حمل قلج ارسلان على التصالح وحتى على الاتحاد مع الذين كانو ا اعداءه منذ وقت غير بعيد ـ امراء قبدوقية. وفى ٣٠ يونيو رابطت القوات السلجوقية فى وادى نهر غير بعيد عن ضورليوم (دوريله)، بانتظار العدو.

وفى اول يوليو اشتبكت قوات السلجوقيين المتحدة التى شغلت ليلا مواقع على التلال المجاورة للصليبيين. فقد هاجمت مخيمهم فى الصباح الباكر، منقضة على الوحدات الامامية التى يقودها بوهيموند دى تارنتو وروبرت السراويل القصيرة. وانهال السلجوقيون على الصليبيين بوابل من الاسهم من جميع الجوانب. صد بوهيموند الهجوم. واخذت المعركة

جرت عليه كلاب الفريق [القبيلة] فقعد على الارض وحبى على يديه ورجليه حتى دخل طرف الفريق، فوجد كلب راقد في الرماد فرقد بجنبه وضمه اليه حتى وجد سخونته، فسبحان الله مزيل النعم وعظيمة قدرته واعوذ به من سخطه، هذا رزيك كان اول الليل عزيز مصر وسلطانها جالس في مجلسه يامر وينهي الى العتمه، سلب من ملكه وبان من نعمته وخرج هاج على وجهه لقيه من

تكتسب طابعا اقسى فاقسى. ونحو منتصف النهار، وصلت طليعة القسم الثاني من جيش الفرسان، السائر في الاثر؛ وكان برئاسة ريمون دى تولوز، الذى ارسلوا اليه منذ الصباح رسولا ينبئه بالخطر والكونت هوج فرمندوا يأمران الطليعة التى اسرعت الى النجدة. وفي الحال،دخلت المعركة. وبعد فترة وجيزة وصلت بقية القوات؛ والى مقاتلى بوهيموند انضم البروفانسيون. وهكذا صار التفوق في العدد الى جانب الصليبيين. واستطاعوا ان يزحزوا العدو كثيرا. وتبين ان السلجوقين الواثقين في الهجوم لم يكونوا مستعدين للدفاع.

وقد اثرت الاعمال التى قامت بمبادرة من اديمار دى بوى، نائب البابا، تأثيرا لايستهان به في مآل المعركة. فقد تسلح هذا الاسقف بدبوس وانقض بصورة مفاجئة على السلجوقين من المؤخرة. واذا السلجوقيون، وقد اشتد عليهم الضغط من جانبين، يولون الادبار بخوف وذعر، بل انهم تركوا كل المعدات وحتى خيام السلطان والامراء مع الاشياء النفيسة المتواجدة فيها. وفيما بعد كتب مؤلف «افعال الفرنجة» بشعور من الرضى والسرور:«واخذنا غنيمة كبيرة ـ الذهب والفضة والخيول والحمير والجمال والغنم والثيران واشياء كثيرة اخرى».

وهكذا منى السلجوقيون في جوار ضورليوم بهزيمة ماحقة، قررت من حيث جوهر الامر سير الحرب لاحقا في آسيا الصغرى. واما الصليبيين فقد انفتح الطريق الى سوريا

٧٢: الاب يوحنا البطرك ١١٤٧/ ١١٦٦م

اهانه واخذ ماله، كل هذا الى نصف الليل صار راقد مع كلب في رماد. سبحان الله يوتى الملك من يشا وينزع الملك ممن يشا ويعز من يشا ويذل من يشا بيده الملك وهو على كل شياً قدير. فلما اصبح الصبح وهو على تلك الحال ابصرته جاريه فانكرة [فانكرت] حاله وسالته: من انت؟ فقال لها: قولي لمولاك يجى الى عندى فهو يعرفني. فمضيت ليعقوب واخبرته به فحضر اليه وعرفه

أمامهم. وللمناسبة نقول ان هزيمة السلجوقيين قد ضمنت سلامة بيزنطية وامنها لزمن طويل.

وبعد ان استراح الصليبيون يومين، انطلقوا في ٣يوليو، دون ان يعثروا قواتهم، الى نحو قونية ثم اتجهوا جنوبا نحو هرقلة. وبصعوبة كبرى، تم عبور الانحاء الجبلية، الصحراوية، الفارغة، غير الآهلة احيانا، في قيظ يوليو اللهاب. وقد اضنى القيظ الصليبيين. وكان السلجوقيون يعيقون بجميع الوسائل تقدمهم؛ كانوا يدمرون الجسور فوق الانهر ، ويجعلون الآبار غير صالحة، ويكتسحون الحقول، ويسوقون سكان المدن والقرى الواقعة في طريق الصليبين. ونقصت الفرسان والفقراء المرافقين لهم والمأكولات، وكان نقص الماء يعذبهم بنحو خاص. وبسبب نقص الماء كانت تهلك الخيول. واضطر بعض الفرسان الى الترجل رغم ثقل دروعهم وتجهيزاتهم، واضطر بعضهم الآخر الى ركوب الثيران، وشحن المعدات والذخائر على عربات قرنوا بها رؤوس الماعز والغنم وحتى الكلاب.

ووصفت العذابات القاسية التى كابدها الرجال والنساء بسبب العطش. «وفي وسط السهل، تراكم الرضع الموتى وشبه الاحياء... والرجال، الذين انهكهم العرق الغزير والقيظ الخارق، كانوا بالكد يمشون بافواه مفتوحة يتلقفون الهواء النقى للغاية، لكى يخففوا العطش». ومن العطش كان يموت الناس، كما كانت تموت «الصقور وسائر الطيور الكاسرة التى تشكل

وعانقه وبكا، ثم اخذه وخلا به واخلا له بيت شعر
واكساه، واقام عنده الى ان تمكن شاور فى مملكته
واخلع عليه خلع الوزاره وانعتوه باميـر الجيـوش،
وطلب مجد الاسلام فعرف مكانه واحضر يعقوب
ابن البيض وطلبه منه فاحضره له من فريقه النازل
شرقى اطفيح، فتلقاه اميـر الجيـوش شاور باحسن
ملقا واكرمه وبجله واخلا له قاعه فى دار الوزاره
وجعله فيها، واحضـر له سريته وولده واستاذ

سلوى الاعيان والنبلاء فى ايدى الذين يحملونها مباشرة؛ وحتى الكلاب المروضة لفن الصيد الرائع كانت تموت بالنحو نفسه بسبب العطش فى ايدى اصحابها».

وفى هذا الوضع لم يكن حال الادلة الروم سهلا؛ فقد اخذوا اكثر فاكثر يرتابون فى خيانتهم.

فى ١٥اغسطس ١٠٩٧ وصل الصليبيون الى قونية وهنا توقف الصليبيون لمدة اسبوع، اذ اخذت الامراض تحصدهم. ثم واصل الجيش سيره. وقرب هر قلة، انزل بوهيموند هزيمة اخرى بالامراء السلجوقيين الذين كانت عساكرهم تنتظر الصليبيين هنا من جديد، وذلك اغلب الظن، بأمل ان تفلح فى اجبارهم على العودة الى جبال طروس فتبقى ممتلكات السلجوقيين انفسهم بعيدة عن مجال زحف الفرنجة. الا ان حملة بوهيموند الجريئة بددت هذه الامال. واضطر السلجوقيون مرة اخرى الى التراجع. وبعد احزار النصر فى جوار هرقلة، سمح القادة العسكريون لانفسهم بفترة استراحة قصيرة وقرروا الصيد.

فى سبتمبر اتجهت جحافل الصليبيين الرئيسية من هرقلة نحو الشمال الشرقى من آسيا الصغرى، عبر قيصرية وكومانا، لكى تطل على مرعش، متجنبة سلسلة جبال طوروس. وهذا الطريق اوص به آمر الفصيلة البيزنطية تتيكيوس، وكان يبتغى اهدافا تمليها مصالح الامبراطور

خدمته. وكان يفتقده في كل وقت بنفسه ويسال عنه ويحضر صحبته فاكهه وياكل معه حتى يطيب قلبه، فنقل له عنه اخوه جلال الاسلام انه يريد يهرب ويخرج يفسد الامرآ ويطلب الوزاره، فصعب عليه ذالك وامر به ان يقيد بالحديد فقيدوه. ثم صبر جلال الاسلام ايضا مده واشاع عنه ان عنده مبرد وقد برد بعض القيد، فكشفو عن ذالك فوجدوه صحيح، فسمع طى ابن شاور المنعوت

السياسية؛ وهي ان يحاول اعادة الامراء الارمن الى الخضوع لسلطته، لانهم كانوا اسميا فقط يعتبرون تابعين للقسطنطينية البعيدة عنهم. وعمل قادة الصليبيين بنصيحة تتيكوس لان الطريق التي دلهم عليها كانت مع ذلك اقل خطرا من طريق اخرى.

لم تطب نصيحة الآمر البيزنطي لبعض الصليبيين؛ فقد تذكروا غدر الامبراطور الكسيوس كومنينوس عند الاستيلاء على نيقية، وكانوا دائما يرتابون بالروم وبتدبيرهم لخيانات جديدة، فعمدوا الى التصرف كما يرتاون. ونحو العاشر من سبتمبر انفصل تنكريد مع مئة من الفرسان النورمانيين ومائتين من المشاة عن الجيش الرئيسي قرب هرقلة، وغادر معسكر الجيش، وامتدار بحدة صوب الجنوب، صوب بوابات قيليقيا. وبعد بضعة ايام عمل على غراره بودوان دى بريون وغيرهما من فرسان اللورين، وزهاء ٥٠٠ فارس، كما انطلق معهم ايضا زهاء الفين من المشاة.

وفي قيليقيا الارمنية نشب خصام ضار بين تنكريد وبود وان دى بوين بسبب مدينة طرطوس. في البدء عرض الكونت بودوان بما يكفي من الوقاحة على تنكريد ان يهاجما معا هذه المدينة المسيحية، رغم وقوعها في حوزة السلجوقيين وتحت سيادتهم، وان ينهباها ويتقاسما الغنيمة ولكن هذه الاهداف لم تتحقق، فبعد ان فتح سكان المدينة المسيحيون البوابات امام تنكريد ورجاله النورمانيين، رأى بودوان على الابراج رايات خصمه، فطالب

بالعادل فيذالك الوقت بخبر مجد الاسلام رزيك وانه برد القيد فاخد سيفه ولم يشاور ابوه ولا علم به احد ودخل اليه وضرب رقبته وكان ذالك ليلة جمعه في العشر الاخير من شهر رمضان سنه ثمان وخمسين وخمس مايه. فلما بلغ امير الجيوش ابوه الخبر صعب عليه فلم يقدر يرد ما فات.

ولما كانت ليلت الجمعه القابله وصبيحتها التاسع والعشرين من شهر رمضان المذكور نافق

بتسليمه المدينة. واضطر المغامر النورماني، رغم حنقه وسخطه، الى التراجع، فان عدد فرسانه كان يقل كثيرا عن فصيلة في طرسوس؛ وبعد فترة وجيزة حظي بمساندة اسطول القرصان البحرى جينيمر دى بولون الذى وصل الى مرفأ لونجياد؛ فان طاقم السفن كان يتألف من دانماركيين وفلمنكيين وفريزيين. واقسم جينيمر يمنين التبعية الاقطاعية لبودوان، فعينه هذا حاكما على طرسوس. وصار اسطول القرصنة اول اسطول عند الصليبيين.

وفي هذه الاثناء اغار تنكريد على مدينتين اخريين في قيليقيا هما ادنة ومميسترا. وتعين تسليم ادنة للفارس البورغوني فلف الذى احتل قلعة المدينة. وفي جوار مميسترا اشتبك تنكريد وبودوان على المكشوف . ولم يحالف التوفيق تنكريد في المعركة. ففي سياق القتال سقط عن حصانه ووقع في اسر ريشار دى ساليرنو.

وفي آخر المطاف سوى المتخاصمان خلافاتهما؛ فقد عقدا صلحا ابقى على وضع الامور على ما هى عليه. وبعد ذلك، استولى تنكريد، وهذه المرة بمساعدة جينيمر من بولون واسطوله على مرفأ الاسكندرونه ، وابقى فيه فصيلة من فرسانه. كان للاستيلاء على الاسكندرونة اهمية كبيرة بالنسبة لاعمال الصليبيين اللاحقة. واجمالا لم يبق اقتحام قيليقيا بدون عواقب على مصائر المشروع الصليبي. فان حاميات الافرنج المتروكة في المدن الارمنية قد حالت لاحقا دون

على امير الجيوش شاور امير من الامرا اسمه ضرغام، ونعته سيف المجاهدين، وله اخوه احدهم يسمى ملهم والاخر نصر، وكان شاور قد احسن الى ضرغام وقربه وادناه وجعله صاحب بابه وحلف ضرغام لشاور اربعين يمين انه لا ينافق عليه، وكذب وخرج من عنده ليله الجمعه كما قلنا فنافق وحالف الامرا في الليل وجيش [جمع] عسكر وفتح باب البرقيه(*) من ابواب القاهره

(*) عن باب البرقية والابواب التالية

- -

السلجوقيين ودون الاعتماد على هذه الاراضي بوصفها قاعدة للاحتفاظ بانطاكية. ومن جهة اخر ى، كان التنافس بين القائدين الصليبيين بمثابة درس مرئي محسوس للسكان المحليين، من مسيحيين ومسلمين، اذا ادركوا ان علاقات الفرنجة فيما بينهم أبعد من ان تكون على خير ما يرام، وان من الممكن عند الاقتصاد استغلال هذا الظروف.

لم يكن الخصام بين تنكريد وبودوان في قيليقيا غير نزا ع من اولى النزاعات بين الصليبيين.

وقد تفجرت النزاعات بملء قوتها فيما بعد، وهذه المرة في صفوف جيش الصليبيين الرئيسي.

اجتاز الصليبيون قيصر ية التي اكتسحها السلجوقيون كليا، واستداروا نحو مدينة كومانا الارمنية. ومنها اندفعت فصائل بوهيموند تطارد بقايا جيش دانشمند المهزوم. وبعد ثلاثة ايام دخل الصليبيون كوكيسوس. وبما ان كونت دى تولوز سمع ان الاتراك السلاجقة غادرروا انطاكية، فقد ارسل الى الامام على جناح السرعة فصيلة من ٥٠٠بروفانسي بقيادة بيار دى كاستيون لكي يسبق الآخرين ويستولى على المدينة طالما كان بوهيموند مشغولا بالعمليات الحربية في مكان آخر ما . الا ان الاخبار عن رحيل السلجوقيين عن انطاكية لم تثبت صحتها. من فضيلة ومع ذلك، استولت وحدة من فصيلة ريمون دى تولوز، برئاسة الفارس دى روى، على بضع قلاع في طريقها. وعندما علم بوهيموند بغدر ريمون تولوز، لم يكن لغضبه

٧٢: الاب يوحنا البطرك ١١٤٧/ ١١٦٦م

وخرج منه ثم فتحو له باب زويله دخل منه وصاح عسكره وقصدو دار الوزاره فخرج شاور وهو يتعمم ولم يمهلوه حتى يكمل عمامته بل اخذ باقيتها فى كمه وركب حصانه وتقلد بسيفه وجا الى باب الفتوح وجده مغلق والسودان محتفظين به فصاح: يا ريحان. فلبو نداه وفتحو له باب الفتوح فوقف فى وسطهم وشكرهم واثنا عليهم ووعدهم ان اعاده الله الى ملكه كافاهم باحسن مكافآه، ولما

فى هذا النص تذكر ما يلى نقلاً عن جومار احد علماء الحملة الفرنسية الذى وضع كتابه عن القاهرة ضمن كتاب وصف مصر وترجمه، أيمن فؤاد السيد: وعدد أبواب القاهرة واحد وسبعون باباً، بما فيها الأبواب التى تغير الغرض منها بتوسع المدينة، والتى اصبحت بالتالى فى وسط المدينة. ومن الناحية المعمارية فإن أهم هذه الأبواب: باب النصر وباب الفتوح الموجودان فى السور القديم الذى بناه الوزير بدر الجمالي واللذين يقعان اليوم داخل المدينة ويبدوان كما لو كان متصلين بجامع الحاكم

حدود. وهذه الحادثة ارست بداية العداء السافر بين امير تارنتر والكونت ريمون دى سانجيل ـ أى بين اثنين من ابرز زعماء الصليبيين ـ وهذا العداء لم تهدأ ناره على امتداد الزحف اللاحق كله.

كذلك اندفع الفرسان من مرتبة ادنى فى السباق الى كسب الممتلكات من الاراضى. فان الفارس البروفانسى بيار دى اون تقدم من القادة، بعد خروج القوات المسلحة من قيصرية، بطلب منحه السلطة على كومانا (بلاستينيتسا)، «المدينة الجميلة والفائقة الغنى» التى تعهد بالدفاع عنها «خادم الرب والقبر المقدس بأمانة، وكذلك الاسياد والامبراطور». استجاب زعماء الصليبيين بطيبة خاطر لطلب الفارس؛ فقد تنازلوا له عن كومانا، رغم ان وعوده بالدفاع بامانة عن القبر المقدس لم تكن بالطبع سوى ستار لائق لادعاءات اغتصابية بحتة.

وتحركت قوات الصليبيين الرئيسية، متجنبة مدينة كوكيسوس، نحو مرعش، عبر جبال عالية وانهمرت الامطار؛ وجرفت المياه الدروب الجبلية الضيقة. وسار عليها الصيبيون، تارة صاعدين وطوار منزليقين على الجروف الساقطة.

واحيانا كان الناس والخيول على السواء يتدهورون ويسقطون فى المهاوى العميقة. والمصير ذاته كان من نصيب مواشى الجر. جربوا ربطها بعضها ببعض، ولكنها كانت بين الفينة تسقط فى المهاوى جارة بعضها بعضا.

عاد وظفر اوفا بهم، ثم خرج من باب الفتوح وسار تحت ليله حتى وصل الى بيوت عشيرته بنى سعد فنزل عندهم. وملك ضرغام واخوانه وظفرو بطى ابن شاور المنعوت بالعادل فقتلوه، وكان ذلك مكافاه من الله لكونه قتل مجد الاسلام رزيك وهو برى. واستمر ضرغام فى الوزاره تسعه شهور اولها شوال سنه تمان وخمسين وخمسمايه واخرها جمادى الاخر سنه تسعه وخمسين وخمس مايه

القديم، أكبر وأقدم جوامع القاهرة بعد جامع ابن طولون. والباب الأول بناء ضخم حسن الطراز، وبرجاه مربعا الشكل. ويرجع تاريخه إلى عصر الخليفة الفاطمى المستنصر بالله، أى إلى القرن الحادى عشر الميلادى. ومن الخطأ أن نقدم باب الفتوح على هذا البناء، فأبراج باب الفتوح دائرية (ليست مستديرة ولكن بيضاوية الشكل) ومفرطة البروز حتى بالنسبة لأغراض الدفاع، وهو فى مجموعة أكثر ضخامة، ومع ذلك فإن بناء هذا الباب، مثل بناء الباب الأول، يتميز كثيرا على المبانى التى بنيت فى

إمارة الصليبين الاولى

فى اكتوبر ١٠٩٧ وصلت جحافل الصليبين الى مرعش. واليها جاء ايضا بودوان دى بولون مع الفوارس المائة الباقين لدية. ان الخصام مع تنكر يد قد قوض سمعة الكونت بين الصليبين، ففضل مغادرة قيليقيا ليبحث عن السعادة فى مكان آخر. وبالفعل لم يقض الفاتح الذى لايكل فى مرعش سوى يومين؛ ثم اتجه، بناء على نصيحة اخيه، دوق د بويون، باتجاه الجنوب الشرقى، نحو الفرات. ولم تفارقه فكرة تأسيس امارة خاصة به. ولا وفاة زوجته، ولاية اعتبارات اخرى استطاعت ان توقفه. وبالاعتماد على دعم بعض الحكام الارمن، استولى كونت دى بولون، دون ان يلقى مقاومة الا من جانب بلدوخ، امير سميساط، ناهيك بانها مقاومة ضعيفة، على قلعتين مهمتين بين تاب والفرات ـ هما قلعتا رواندان وتل بشير (ومدونو الاخبار اللاتين يسمونهما على الطريقة الفرنسية رافندل وتوربيسل)، وفى ٦ فبراير من السنة التالية، سنة ١٠٩٨ دخل مدينة الرها الارمنية الغنية التى احتلها السلجوقيون قبل ذاك باحدى عشرة سنة (سنة ١٠٨٧).

وهذا المركزالكبير وتجارة القوافل، الرها اورفا، الواقعة على طريق من بلاد ما بين النهر ين الى سوريا، كان يحكمه (فى البدء باسم حاكم سوريا السلجوقى تتش، ثم بصورة مستقلة) الامير الارمنى طوروس الذى سبق ان منحته بيزنطية اللقب الرفيع ـ «كوروبالات». وقد جاء

القاهرة فى القرون التالية. وارتفاع كل من البابين يبلغ حوالى ٢٢ متراً. وقد بنى الباب الثانى كذلك أمير الجيوش بدر الجمالى فى المحرم سنة ٤٨٠هـ = ١٠٨٧م.

ويشير المقريزى، الذى خصص ضمن وصفه للقاهرة فى كتابه «الخطط» فصلاً لأبوب المدينة، إلى أن الأبواب الرئيسية كانت العشرة أبواب الاتية: فقد كان لها «من جهتها القبلية بابان متلاصقان يقال لهما بابا زويلة/ ومن جهتها البحرية بابان متباعدان أحدهما باب الفتوح والآخر باب النصر، ومن جهتها الشرقية ثلاثة

وانعتوه بالملك الافضل، واخوه ملهم بالعادل، واخوه نصر ناصر المسلمين.

فاما شاور فانه توجه الى دمشق واجتمع بنور الدين ابن قسم الدوله واسمه محمود ابن زنكى، واقام عنده مده فجهز معه عسكر مقدمه اسد الدين شريكوه ثم عاد الى ديار مصر ونزل ببلبيس، وخرج اليه ناصر المسلمين اخو ضرغام بعسكر كبير، فلما راى شيركوه ذالك خاف وقال لشاور

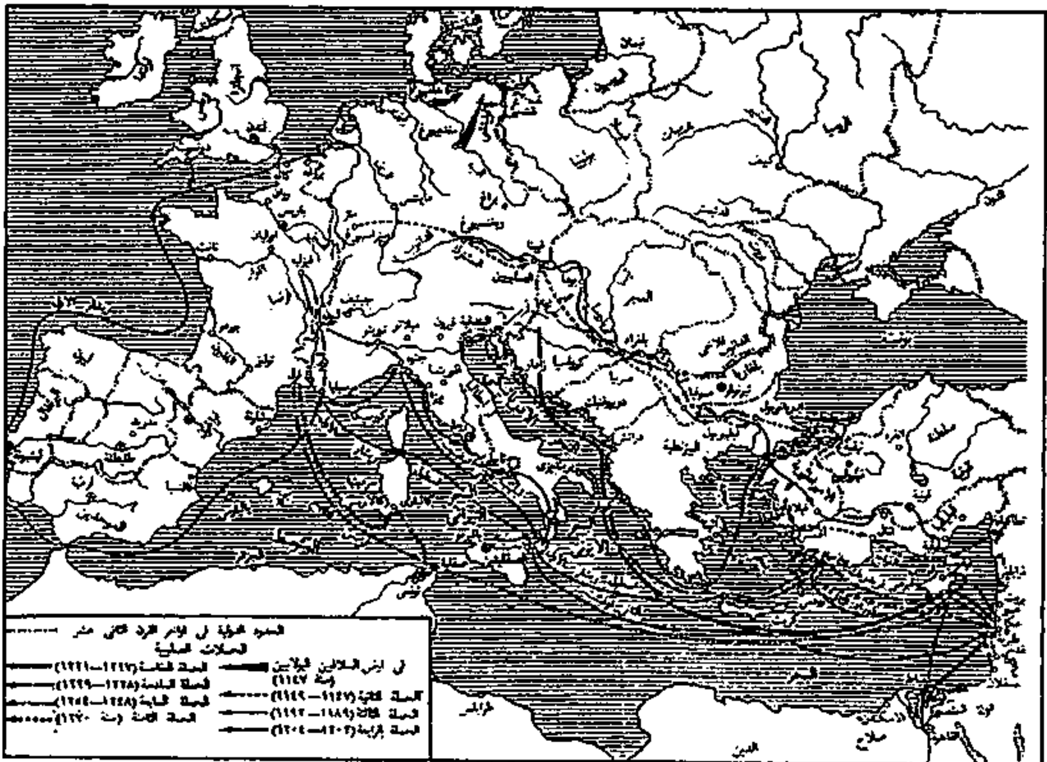

كيف فعلت هذا الفعل بنا وبنفسك انما جبتنا الى مصر لتهلكنا، لعل نكون نحنا واصحابك في الفى فارس، في هذا العسكر عشرين الف فارس مقاتله، ويتبعه مثلها خدام واصحاب. فقال له شاور: لا يهولك الامر فكلهم معي وما منهم احد يقاتلني. وكان على ظاهر بلبيس كوم عظيم فقال شاور لشيركوه: اصعد بنا الى الكوم وطول روحك لا تقاتلهم حتى تحمى الشمس جيد. ولم يقول شاور

أبواب متفرقة أحداهما يعرف باب البرقية والآخر بالباب الجديد والثالث بالباب المحروق، ومن جهتها الغربية ثلاثة أبواب: باب القنطرة وباب الفرج وباب سعادة، وباب آخر يعرف باب الخوخة. ولم تكن هذه الأبواب في زمن المقريزى في المكان نفسه الذى بناها فيه جوهر. ثم بنى بدر الجمالي بابى النصر والفتوح على مبعدة من الأبواب القديمة. ولا ننسى هنا ذكر أن الباب الجديد بناه الحاكم بامر الله.

بودوان، مع ٨٠فارسا فقط، بوصفه محررا للارمن من سيطرة الكفار، فكسب بالدهاء والحيلة ثقة أمير طوروس، بل انه افلح في حمل أمير طوروس وزوجته على تبنيه.

اصبح بودوان شريكا في الحكم لامير طوروس، فثبت اقدامه في الرها وطفق يتقرب من قسم الاعيان الارمن المعادى لامير طوروس، وبدأ يضطهد بجميع الوسائل سكان المدينة وزراع الضواحي، وبعد فترة وجيزة، حاكت جماعة من الاريستقراطية المحلية مؤامرة ضد أمير طوروس، واثارة ضده سكان المدينة. وقد اشترك ابن أمير بالتبني وشريكه في الحكم، بودان، في المؤامرة سراً وبالنتيجة نكل المتأمرون المجرمون كما يسميهم مدون الاخبار الارمني متي الرهاوى، بالامير. واذا الامير الذى «تحاشت الرها بفضل ذكائه وحكمته وشجاعته ودهائه وحذاقته وضع دافع الجزية والخادم» للسلجوقيين يسقط ضحية للمتآمرين. وحين حاول ان يهرب من القلعة، «ثقبت آلاف السهام جسده في لحظة واحدة، فلقى مصرعه».

وجعل بودوان من نفسه حاكما وسيدا لمدينة الرها. واستجابة لدعوته جاء الى الرها بعض من الاسياد الافرنج الآخرين؛ فان الرها القريبة قد اغرتهم اكثر بكثير من القدس البعيدة آنذاك.

في ديسمبر ١٠٩٨، تمرد الشعب البسيط الذى اضطهده واذله «المحرر ون» ـ الصليبيون. بل ان الارمن استغاثوا بالسلجوقيين. فأمر بودوان بأعتقال المبادرين الى التمرد واعدموهم،

هذا الا لعلمه ان الشمس اذا قويت تفللو يطلبو الظل تحت الشجر والجدران، فلما حميت الشمس وقت الظهر وهم قد تفللو وطلب كل واحد منهم مكان يستظل فيه فنزل شاور وشيركوه من على الكوم وحملو بعسكرهم عليهم فكسروهم واسروهم وعروهم واخذو خيلهم واموالهم ولم يقتلو منهم ولا واحد، وهرب بقيتهم الى القاهره، فسار شاور وشيركوه خلفهم بالعسكر الى القاهره

واحالوا اموالهم الى الفرسان الافرنج. وزجوا في السجون بالكثيرين ممن اشتركوا في الفتنة. وافلح بعض من الموسرين في الافلات من السجن بدفع فدية تتراوح بين ٢٠ الف بيزانط و٦٠ الف بيزانط ومذ ذلك، لم تعد تستند سلطة بودوان في الرها الا على الارهاب ضد الارمن «المحررين» . وقد كتب متى الرهاوي عن ثبوت اقدام الافرنج في الرها:«وقد اقترفوا مثل هذه الأعمال التي لاعد لها ولاسابق لها لاجل نهب الكنوز، وانزلوا بالبلد الخراب الشامل، وبالناس العذابات القاسية، ولم يكونوا يفكرون الا بالشر، وكانوا يفضلون درب المآثم والموبقات».

وقد بذل بودوان جهده، بعد ان اصبح سيد المدينة، لكي يوسع قدر الامكان حدود ممتلكاته. ففي الجنوب الغربي احتل مدينة سروج وحولها الى حصن لممتلكاته الجديدة. ثم استولى الفرسان على مناطق تقع غربي وشر قي المجرى الاعلى لنهر الفرات.

وهكذا ارسيت بالقوة والعنف بداية اول إمارة للصليبيين في الشرق ، ـ كونتية الرها. وقد اصبحت هذه الكونتية مخفرا اماميا مهما للإمارات الصليبية الاخرى التي تشكلت فيما بعد.

احتلال انطاكية

في ٢١ اكتوبر ١٠٩٧ وصلت قوات الصليبين الرئيسية الى مشار ف انطاكية. كانت انطاكية الواقعة على بعد ١٢ ميلا عن البحر، على الضفة الشر قية من نهر العاصي، من اهم

٧٢: الاب يوحنا البطرك ١١٤٧/ ١١٦٦م

ونزلو فى ارض الطباله واللوق ودير [داير: حول] القاهره وحاصروها. ولم يزل القتال والحرب مستمر وضرغام واخوته مباشرين الحرب متفرقين على ابوابها الى ان كتب الامام العاضد الخليفه فى ذالك الوقت رقعه لضرغام الوزير يقول له فيها: بسم الله الرحمن الرحيم نحن نعرفك ايها الملك انه لم يبق فى فيك ظل الا الى صلاة العصر، فانج بنفسك ان قدرت والسلام. وكان ضرغام فى ذالك

مدن القسم الشرقى من البحر المتوسط(من الناحية الاقتصادية والعسكرية والسياسية). وكان تاريخ انطاكية يرقى الى زمن الامبراطورية الرومانية. ومنها انتقلت الى بيزنطة، ثم احتلها العرب فيما بعد. وفى الثلث الاخير من القرن العاشر ، احتلها البيزنطيون من جديد، ولكن لزمن قصير؛ ففى ١٠٨٤ـ١٠٨٥احتلها السلجوقيون. ومنذ سنة ١٠٨٧حكمها الامير ياغى سيان الذى استغل العداوة بين دقاق صاحب دمشق ورضوان بن تتش صاحب حلب، وتوصل فعلا الى الاستقلال السياسى.

كانت انطاكية عبارة عن قلعة من صنع الطبيعة، ففى الجنوب الغربى كانت تحميها الجبال، وفى الشمال الغربى كان يحميها النهر والمستنقعات، وفى الغرب كان يحميها البحر. وفى عهد االامبر اطور يوستينيان (القرن السادس) بنوا حول المدينة ـ فى الانحاء المستنقعية وفى السفوح الجبلية اسوار منيعة. وبعد استرجاع المدينة من العرب، عززوا الاسوار اكثر من ذى قبل، فقد بلغت من سمكها انه كان من الممكن، كما قال المعاصررون، ان يتسع اعلاها لاربعة احصنة وبنى فى الاسوار ٤٥٠برجا. وفى القسم الجنوبى الشرقى من المدينة، فى اعلى منطقة فيها، ـ على سفح جبل سيلبيوس، كانت تقع قلعة داخلية عززها السلجوقيون باتقان ومتانة.

كانت انطاكية الموصولة بالبحر، عبر خليج القديس سمعان، بمدن الساحل الاخرى،

اليوم قد جا الى القصر ووقف مقابل باب الذهب في امر عرض له ياخذ راى الخليفه فيه فوجد ابواب القصر مغلقه فرميت له هذه الرقعه، فلما وقف عليها لم يرجع الى ورايه بل خرج من باب زويله فادركته خيل الغز عند [قلعة] الكبش، تحت جبل المقطم بين القاهره ومصر، فقتلوه ولم يعرفوه انه ضرغام، فلما جابو راسه الخيم عرفه شاور وركب للوقت وجا الى القاهره ففتحت له الابواب

تضطلع من قديم الزمان بدور كبير في تجارة المشرق. ولهذا كان الاستيلاء عليها بالنسبة للصليبيين امرا مغريا جدا. ولكن كان الدفاع عن المدينة ـ القلعة من الداخل اسهل من اخذها من الخارج؛ فان العوائق الطبيعية وكذلك الاسوار والابراج كانت تجعلها عسيرة المنال رغم ان حامية ياغي سيان لم تكن كبيرة.

ان النبأ القائل ان بودوان صار كونت الراها قد اجج شهوات الامراء الباقين، وفي المقام الاول بينهم بوهيموند دى تانتو وريمون دى تولوز. وقد اقترح هذا الاخير مهاجمة انطاكية في الحال. الا ان هذا الاقتراح المحفوف بالمخاطر لم يلق الدعم من جانب القادة الآخرين. فقد كانوا يخشون الخسائر في الارواح، وفضلوا انتظار المدد؛ اذ سرت شائعات عن قرب وصول تنكريد من الاسكندرونه، وفصائل جديدة من الصليبيين من الغرب.

كان منظر اسوار المدينة وابراجها يخيف الصليبيين. وكان جليا للاغلبية انه لايمكن الاستيلاء على المدينة بدون تطويقها باكثف ما يمكن، وبدون ضرب حصار دائب.

ولكنهم تصرفوا بدون اية معرفة وحذاقة. وبما انهم كانوا يجهلون طرائق حرب الحصار، فقد اقترفوا الكثير من الهفوات والاخطاء. فمن الجنوب لم يسدوا البتة المدينة ومخارجها. وبالنتيجة كانوا يمنون بالاخفاق تلو الاخفاق. وكان بوسع المحاصرين ان يخرجوا من المدينة ويقلقوا المحاصرين ويثبطوا معنوياتهم بغاراتهم. ولكي يحمي الصليبيون انفسهم من هذه

ودخل، فلم يستقر به القرار حتى بلغه ان اسد الدين يريد يغدر به فاحترز واغلق ابواب القاهره فتقدم اليه وقاتله وحاصره، وامتدة ايدى الغز فى سكان مصر من النصارى [و] السودان والارمن والاتراك والمصريين، وكانوا يقتلو منهم ويبيعوهم، فان وجدو من يشترى منهم والا قتلو ذالك الشخص، ونهبو اموالهم واخذو نساهم، وكانو ينادو على النصرانى من يشترى كافران، وعلى

الطلعات والغارات، بنوا على مقربة من باب الحديد برجا هو برج ما لريغار؛ وقد بنوه على سفح جبل سيلبيوس، غير بعيد عن سور القلعة. وفى الشهر الثالث من الحصار، حين اقترب الشتاء انهمرت الامطار الباردة اللامتناهية، وتبين ان المأكولات عند الصليبين توشك ان تنتهى؛ وحتى ذاك، كانوا يؤمنون لانفسهم الطعام ناهبين الضواحى الغنية لانطاكية ودون ان يحرموا انفسهم من اى شئ. وبدأ الجوع فى المعسكر. ويستفاد من مدون للاخبار ان واحدا من كل سبعة من الصليبيين قد مات جوعا، ولم يستفد المقاتلون من اللحوم والفواكه والخمورالتى ارسلها لهم من قبرص، بناء على طلب من اديمار، نائب البابا، البطريرك سمعان، بطريرك الروم للقدس، الموجود آنذاك فى قبرص. فان هدايا البطر يرك لم تكف الا لمدة قصيرة. اما سكان المناطق المجاورة، من ارمن ويونانيين وسوريين (وهؤلاء مسيحيون من شتى الطوائف والتيارات) فقد كانوا يبيعون المنتوجات الغذائية باسعار مفرطة الغلاء. ويورد فارس نورمانى اشترك فى حصار انطاكية قائمة كاملة باسعار الخبز والدجاج والبيض والجوز والخمور ولحوم الحمير، الخ.، ويعتبر هذه الاسعار غالية جدا. ويقول:«بل ان كثيرين منا ماتوا هناك لانه لم تكن معهم اموال يستطيعون بها ان يشتروا بمثل هذه الاسعار الغالية». ان اولئك الذين كانوا ينهبون ويخربون ضواحى انطاكية بوحشية وهمجية غير آبهين بالعواقب، شرعوا الآن يجنون ثمار لصوصياتهم.

التركى من يشترى تركى خليع بات فى الصقيع، وعلى الاسود من يشترى سويدان. وكانو يبيعوهم بثمن خسيس: بعشرين درهم النصرانى، وعشره دراهم التركى، وخمس دراهم الاسود. واستشهد على يدهم راهب اسميه شنوفه من دير ابو مقار مسكوه واعرضو عليه الاسلام فامتنع منه فقتلوه، ورامو ان يحرقو جسده فلم يحترق، فاخذوه النصاره ودفنوه فى كنيسه ابو سرجه بمصر فى

انطاكية (سنة ١٠٩٨)

اليوم الرابع والعشرين من بشنس. وهدمو كنايس كثير للشهدا فى ذالك الوقت فى ضواحى القاهره، وهدمو كنيسه الحمرا بحارة الروم البرانيه، وكنيسة الزهرى، ونهبو كل كنيسه هدموها.

وبعد ما ان اهتدت [هدأت] الامور اهتم الشيخ الاسعد صليب صاحب الديوان بعمارة كنيسة الحمرا والزهرى وما قدر عليه من الكنايس، وكان يتعاهدهم ويفتقدهم بالقداسات فيهم ويهتم

وهبطت معنويات الفرسان والفقراء بسرعة كبيرة. وطفق اصغرهم نفسا يفارقون العساكر. وفى صباح من شهر يناير ١٠٩٨ اختفى من المعكسر بطرس الناسك (وكان قد انضم الى الفرسان فى القسطنطينية) ومعه صديقه الحميم الفيكونت غليوم النجار وغيره. فجهز تنكريد فرقة لمطاردة الفارين، واعادتهم.

الا ان الامدادات بدأت تصل، والحق يقال، من الغرب. فمن سواحل الاطلسى والقسم الغربى من البحر المتوسط، اندفع التجار والقراصنة الى انطاكية على سفنهم كأنما احسوا بالنفع المقبل وفى نوفمبر ١٠٩٧ رمت ١٤ سفينة من جنوه مراسيها فى خليج القديس سمعان. وفى مارس١٠٩٨ ، ارسلت ٤ سفن انجليزية بقيادة ادجار ايتلينج. وقد عرجت هذه السفن فى طريقها على القسطنطينية وشحنت ادوات ومعدات للحصار ومواد لاجل تركيبها. وعلى متن هذه السفن وصلت كذلك فصيلة المقاتلين من ايطاليا. كذلك هرع جينيمر دى بولون (من الاسكندرونة) الى مساعدة الصليبيين واخذ الصليبيون انفسهم يطوقون انطاكية بابراج الحصار.

ولكن ياغى سيان استنجد بالحكام السلجوقيين الآخرين. وارسل على الاخص ابنه شمس الدين الى دقاق، صاحب دمشق، فارسل هذا الى انطاكية قوات كبيرة. وفى الاشتباك السافر

باقمنت [قمينة] الجير حتى كملت العماره. ولم يزل اسد الدين مقيم على القاهره يحاصر شاور الى ان انفد شاور للملك مرّى ملك الافرنج بمال عظيم حتى جا بعسكره(*)، فلم اخبر اسد الدين شيركوه العربان بقرب الافرنج من البلاد رحل بعسكره الى الصعيد، ولما وصل الملك مرّى بعسكره الى بلبيس حمل اليه من الخليفه والوزير من المال والهدايا شى كثير. واستراح على بلبيس

(*) شاور يستعين بالملك مرى ملك الفرنج لمحاربة ضرغام.

برهن الفرسان الصليبيون ذوو الاسلحة الثقيلة عن تفوقهم على العدو؛ ولم يستطع السلجوقيون تحريك الخيالة الخفيفة. وفي اواخر ديسمبر ١٠٩٧، منيت قوات دقاق في جوار البارة بهزيمة انزلتها بها فصيلة متحدة تضم عشرين الف عنصر من قوات بوهيموند دى تانتو وروبرت دى فلاندر. نهب الصليبيون قريتين وعادوا الى المعسكر في جوار انطاكية بدون نجاحات خاصة فيما يتعلق باحتياطات المؤن. وبعد فترة وجيزة، في فبراير ١٠٩٨، استطاع الصليبيون ان يصدوا قرب جسر الحديد ضغط القوات التى دفعها الامير رضوان صاحب حلب الذى وقع معه ياغي سيان الصلح بعد ان كان معادياً له قبل ذاك، واكره الصليبيون السلجوقيين على التراجع. وقد لعب بوهيموند الدور الرئيسى فى هذه الانتصارات الجزئية على السلجوقيين فقد ابدى كل همته وكفاءته كقائد عسكرى؛ ذلك ان امير تارنتو كان يأمل بكل رسوخ بان انطاكية ستكون له وحده دون غيره!

ومع ذلك، ضعفت بكل جلاء مواقع الصليبيين المتجمدين بردا. وكانت تنقصهم الاعلاف. ولم يبق فى المعسكر غير ٧٠٠حصان، بينما ماتت الاحصنة الاخرى.

حاول البارونات ان يستغلوا في مصلحة الحرب الصليبية التناقضات بين السلجوقيين والفاطميين فى مصر.. ففى اوائل مارس ١٠٩٨ وصل من مصر الى جوار انطاكية رسل الوزير الافضل. ولكن الخليفة الفاطمى المصرى عرض على زعماء الصليبيين شروطا غير مقبولة ابدا

شهرا واحدا، ثم جا الى القاهره ونزل بعسكره حول القاهره، ثم سار عسكر الفرنج ومرّى ملكهم وعسكر المسلمين وشاور سلطانهم في طلب اسد الدين شيركوه وعسكره. فلما تبعوه عدى الى البر الغربى وسار الى الصعيد الاعلا فادركوه على بقعه تسمي البابين [على بعد ١٠ أميال جنوب المنيا](*) والتقو معه فقتل من عسكره خلق كثير، وقتل ايضا من الفرنج والمصريين جماعه كبيره، واسر

(*) القوات الصليبية تحت قيادة مرى تصل إلى جنوب المنيا بصعيد مصر لمساندة شاور ضد شيركوه.

بنظرهم: تقاسم سوريا وفلسطين على ان تبقى القدس لمصر. رفض البارونات هذه العروض. ولكنهم قرروا ان يواصلوا المفاوضات مع المصريين فى القاهرة. والى القاهرة راح مع رسل الافضل مفوضو الصليبين. وكان قادة الصليبين يأملون فى عقد معاهدة تحالف مع مصر ضد السلجوقيين.

ويتبين من هذه الوقائع ان الاعتبارات الدينية لم تمنع الصليبيين من الدخول فى علاقات ديبلوماسية من الجلى انها غير جائزة، على ما يبدو، بالنسبة لاخصام الاسلام عن اقتناع . ولكن... الايمان هو الايمان، والدين هو الدين، بينما المنافع السياسية الفعلية تعلو من ذلك على كل شئ! ومن الطريف ان ريمون من اجيل، الذى افاد عن هذه المفاوضات ، يزعم، رغبة منه فى تبريرها كيفما اتفق، ان السلطان المصرى اتخذ تدابير فى صالح المسيحيين وان رسله ابلغوا الصليبين بذلك.

واستغل بوهيموند من تارنتو فى الحال مصاعب فصائل الفرسان، وكان من زمان يحلم فى تنصيب نفسه اميرا على انطاكية. فوجه جميع افكاره الى امتلاك هذه المدينة. قبل كل شئ حاول ان يتملص بالحيلة والدهاء من وصاية الامبراطور . كانت قوات الروم المسلحة بقيادة البريميركير الاعظم تتيكيوس المرابطة فى معسكر بجوار انطاكية اداة سياسة حيال الصليبيين. وكان بوسع تتيكيوس ان يحول دون تحقيق مشاريع الامير النورمانى؛ ذلك ان هدف اقامة الروم

كل منهم من الاخر اسارى. ثم عاد اسد الدين الى اسكندريه وتحصن فيها وتبعه الملك مرّى وعسكر الفرنج وعسكر المصريين ونزلو عليها وحاصروه(*)، فلما طال به الحصار خرج منها ليلا وعاد الى القاهره لياخذها، فلما علم به الملك مرّى وشاور تبعوه، وجرت خطوب كثيره تقرر اخرها ان قطعو له مال اخذه وعاد الى بلاده. واوفا شاور بما عاهد عليه الفرنج من سلامتهم لانه لو اراد ان يغدرهم

(*) القوات الصليبية بقيادة مرى تحاصر الاسكندرية دعمًا لشاور ضد شيركوه.

هناك مع الصليبين لم يكن بالأساس مساعدتهم، كما كانت تفترض الاتفاقيات الرسمية. فان فصائل الروم المسلحة كانت مفرطة فى القلة لاجل تقديم مساندة جدية. وكانت مهمة تتيكيوس الرئيسية تتخلص فى صيانة مصالح الامبراطورية البيزنطية: ففى كل حالة بمفردها، لدى كل نجاح يحرزه الصليبيون، كان على تتيكيوس ان يطالب زعماء الصليبيين بان يعيدوا الى الامبراطور البيزنطى المدن التى «يعيدها الرب»، حسب تعبير حنة كومنينة.

على كل حال، غادر القائد العسكرى الرومي المعسكر وراح الى قبرص فى فبراير ١٠٩٨ منسقا موقفه بالتأكيد مع رغبة الامبراطور الكسيوس الاول، ووجدا حجة مناسبة: تجلب للفرسان مساعدة قوية.

وقبل السفر، انعم تتيكيوس، باسم الامبراطور، على بوهيموند بقيليقيا كلها تقريبا،مضيفاً بالتالى الصفة الشرعية على فتوحات تنكر يد، وملمحا فى الوقت نفسه للنورمانيين ان العاهل البيزنطى هو الذى يتصرف بقيليقيا على كل حال.

وبعد ذلك، اجرى امير تارنتو الداهية مفاوضات سرية مع الآمر السلجوقى فيروز الذى كان مكلفا بحراسة ثلاثة ابراج فى الجانب الغربى من اسوار انطاكية، واستطاع ان يستميل فيروز إلى الخيانة: فلقاء رشوة معينة ولقاء الوعد بمكافأة وافق فيروز على السماح للفرسان الصليبيين بدخول الابراج التى يحرسها.

ويتفق مع عسكره الغربا عليهم ما رجع منهم مخبر. وقد كان الملك مرّى عرف انه اخطا لكونه حصل بعسكره في وسط بلاد الاسلام من حلق بحرين الشرقي والغربي وسلمه الله لعدله وحسن تدبيره. واستمر شاور في الوزاره الى اخر يوم السبت الثامن من ربيع الاول سنه اربع وستين وخمسمايه [٨٨٥ قبطية = ١١٦٩م]، وجرت له خطوب ياتى ذكرها فيما بعد.

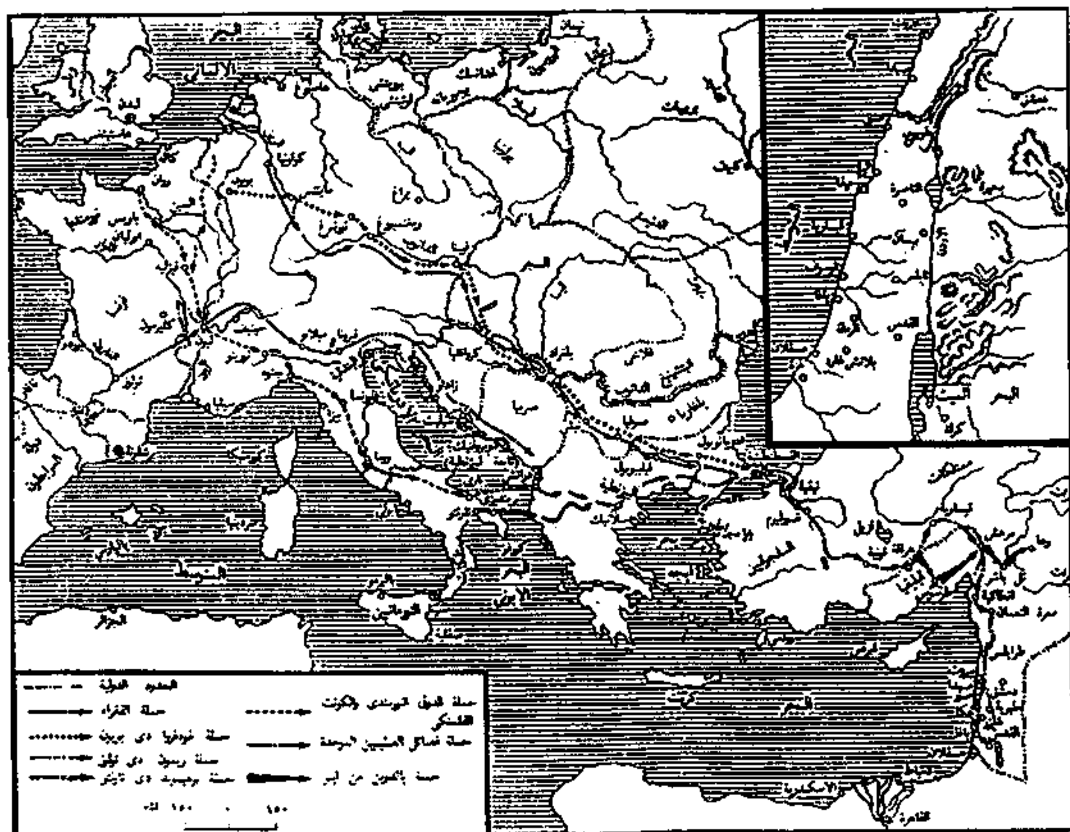

وفى ايام هذا البطرك تنصـر رجل من اليـهـود بمصر من كبار قومه خبيرا عالما من اعيان طايفته يسمى ابو الفخر ابن ازهر وقرى مذهب النصرانيه وتكلم باللغه القبطيه فى اسرع وقت، وكان يجادل اليهود باللغه العبرانيه ويفسر للنصاره باللغه القبطيه، وتمهر فى مذهب النصرانيه حتى صار اعلم من اهله ومات على دين النصرانيه مومن بالمسيح بعد ان قاسآ من المسلمين واليهود شدايد،

فى اواخر مايو ١٠٩٨، عندما يئس الصليبيون تماما وقد عذبتهم آلام الجوع وتملكهم الخوف من المستقبل، ابلغ بوهيموند فى مجلس القادة انه يعر ف وسيلة للاستيلاء بسرعة على انطاكية ولكنه اشترط وضع المدينة تحت سلطته بعد فتحها. فى البدء قابل زعماء الصليبيين بالرفض القاطع عرض بوهيموند وشرطه. وذلك ان بعضا منهم، مثل ريمون دى تولوز، كانوا يرغبون هم ايضا فى ان يصبحوا امراء انطاكية. فانهم ، كما يروى الفارس مدون الاخبار القريب من بوهيموند، «قد عارضوا قطعا وردوا هذه المقترحات واعلنوا :«هذه المدينة لن تكون من نصيب احد بمفرده، بل سنملكها جميعا بانصبة متساوية؛ وبما اننا بذلنا بالقدر نفسه فى هذه القضية جهودنا القتالية، فينبغى ان نحصل على تشر يفات واحدة». ولكن امير تارنتو لم يعتزم التراجع عن مساعية. وحين اصطدم بمعارضة قادة الصليبيين، تظاهر بانه يتخلى عن هذا المشروع، وحتى صرح علنا وجهارا انه ينوى العودة فى الحال الى الوطن، اذ ان الشؤون البيتية تتطلب، بزعمه، وجوده فى تارنتو. ويقينا ان ذلك كان مجرد مناورة وابتزاز. ولكن مفعولهما سريا لسبب بسيط، هو ان نبأ رهيبا اذهل آنذاك بالضبط الفرسان مثل البرق هو ان الاعداء سيلقون عونا من الشرق. وبالفعل، كان جيش اسلامى لجب يقترب من انطاكية بقيادة اتابك الموصل كربقا.

ذلك ان زحف الافرنج اقلق الاعيان السلجوقيين. فارسل كثيرون من حكام السلجوقيين

وكانو اليهود يبذلو للسلاطين المال على قتله فيخلصه المسيح منهم فلا يصلو لمضرته، واقام نصراني يمشي في بطون اليهود نحو من اربعين سنه بمصر.

وفي ايام هذا البطرك وصل كتاب من ملك الحبشه الى العادل ابن السلار يلتمس قسمت مطران، وكان عنده مطران يقال له انبا ميخاييل، وكان اسمه حبيب الاطفيحي، فلما كبر وشاخ

قواتهم الى كربقا، ومنهم امراء القسمين الاوسط والشمالي من بلاد ما بين النهرين، ودقاق صاحب دمشق، وامراء المقاطعات الفارسية. في البدء تحرك هذا الجيش من آلاف المقاتلين نحو الرها، فقد اراد كربقا قبل كل شئ ان يقضي على المخفر الامامي للسيادة الفرنجية التي اخذت ترتسم بجلاء في الشرق. وكان يتخوف من وجود كونتية الرها. فقد اراد كربقا قبل كل شئ ان يقضي على المخفر الامامي للسيادة الفرنجية التي كان بمقدورها ان تقطع مواصلات السلجوقيين. ولكن جيش اتابك الموصل لم يتوقف في جوار الرها سوى ثلاثة اسابيع، واستدار في اتجاه انطاكية دون ان يبلغ هدفه (فقد تبين ان اسوار المدينة منيعة لاتؤخذ).

ان الشائعة التي انتشرت بين الصليبيين عن هذه الاحداث قد بذرت الرعب في صفوفهم. ويروى مدون الاخبار البروفانسي شاهد العيان ريمون دى اجيل مندداً بصغار النفوس ان كثيرين من الجبناء شرعوا يهربون من جوار المدينة، وبينهم الكونت ايتيان دى بلوا، السيد الكبير الذى كانوا يقولون عنه في فرنسا ان عنده من القصور بعدد ايام السنة. واثناء الحملة، اكثر من املاكه. وقد كتب ايتيان دى بلوا الى زوجته من جوار انطاكية: «صدقيني، ياعزيزتي، ان عندى الآن من الذهب والفضة ضعفي ما كان عندما فارقتك». ان هذا الصليبي الرفيع المقام الذى اغتنى لم يرغب في ان يعرض للخطر الغنائم التي نهبها في الشرق، من اجل قضية معلقة

انفذ الملك يطلب مطران غيره، وهذا حبيب كان قسمه انبا مقاره البطرك، فلما جرى بينه وبين الملك كلام تغير عليه وكتب يطلب غيره. وسبب ذلك ان الملك كان تغلب على المملكه بغير حق فوبخه المطران وانفد كتاب للسلطان، وكان فى ذالك الوقت العادل ابن السلار وزير، وكتاب ايضا للبطرك يطلب مطران غيره وهو بالحياه لم يموت، فامتنع ابونا البطرك من ذالك وقال للوزير العادل:

وموضع شك، قضية تحرير قبر السيد المسيح؛ فركب سفينة مع الفرسان الذين التحقوا به، وراح الى الاسكندرونه، ومنها عاد الى بيته عبر آسيا الصغرى.

اضطر زعماء الصليبيين، وقد اقلقهم اقتراب كربقا، الى التنازل لادعاءات بوهيموند الوقحة. فقد اتفقوا «بقلب مفتوح» ، اذا صدقنا مدون الاخبار، ولكن قسرا بالفعل ، على منحه المدينة، اذ كان يستطيع ان يستولى عليها وحده او بمساعدة احد ما فى القريب العاجل الا انه تم الاتفاق ، والحق يقال، بصدد تحفظ مفاده أنه سيتعين لاحقا على كل حال، بموجب المعاهدة مع الامبراطور البيزنطى، احترام حقوقه فى انطاكية، التى كانت فيما مضى تخص ملوك القسطينطينية. بيد ان التحفظ كان غامضا: «اذا وصل الامبرطوار الى نجدتنا فى الوقت المناسب».

على كل حال شرع بوهيموند، وقد نال من القادة الموافقة المطلوبة على امارة انطاكية، ينفذ فورا ما فكر فيه. ففى ليلة الثانى إلى الثالث من يونيو ١٠٩٨ قادل فصيلته عبر الابراج التى فتحها له الآمر فيروز، واقترب الفرسان النورمانيون من السلم التى كان قد سبق نقلها وتثبيتها بكل رسوخ إلى سور المدينة وصعد ٦٠ منهم عليها وتوزعوا على الابراج التى يحرسها فيروز، وفى الوقت نفسه هاجم الصليبيون المدينة من أماكن أخرى.

ما فى شريعتنا ان نولى انسانين رتبة الكهنوت [ولا] نرجع نعزله منها حتى يموت فاذا مات ولينا غيره لان رتبة الكهنوت سمايه [سمائية] ما هى ارضيه. فضجر عليه العادل الوزير وامر باعتقاله فى سجن دار الوزاره، كان العادل يعتقل فيه من يسخط عليه من امرا دولتـه، فـقـاسـا البطرك من ضـيـق هذا السجن ونتن رايحته شده عظيمه، واستمر اعتقاله فيه الى ان فرج الله عنه بقتل العادل.

أخذ السجلوقيون على حين غرة، وانتقلت المدينة النائمة إلى ايدى الصليبيين. وقد كتب المؤرخ العربى ابن القلانسي: لقد تحصنوا هناك «وسلِم مَنْ كَتَب الله سلامته». ويقول مؤرخ عربى آخر، هو ابن الأثير ان الأمير ياغى سيان قد لقى مصرعه اثناء الاستيلاء على انطاكية. وعن هذا تفيد المراجع اللاتينية أيضا. ولكن ظروف مصرعه توصف بصور مختلفة. وحسب جميع الدلائل، حاول أن يهرب، ولكن حراسه فارقوه وقتله السكان المحليون. وفى رسالة إلى البابا اوربان الثاني، مكتوبة بعد فترة من الزمن، تباهى قادة الصليبيين بانتصارهم ونسبوا مصرع الامير ياغى سيان إلى بسالتهم بالذات.

ومهما يكن من أمر، فقد استولى الصليبيون على مدينة انطاكية. ولم يضيع بوهيموند الوقت، كما يقول مدون الأخبار: فما كاد المحاصرون يقتحمون المدينة حتى «امره الأمير النورمانى «الفرسان بنصب رايته على المرتفع ، المقابل مباشرة للقلعة»

واضعافا مضاعفة كافأ المنتصرون انفسهم على الحرمانات التى عانوها فى اشهر الحصار. فقد نهب الصليبيون المدينة كليا وتماما. ويوضح ريمون دى ساجيل خبره عن أعمال النهب التى قام بها الصليبيون بعد الاستيلاء على المدينة: «ليس بمقدورنا أن نقول كم من الغنائم أخذت اجمالا فى انطاكية؛ فإذا تصورتم باقصى ما يسمح خيالكم، فاحسبوا أكثر من ذلك». وأقام الصليبيون حفلات ومآدب تهتكية، واكلوا جميع الاحتياطيات التى كانت لا تزال فى

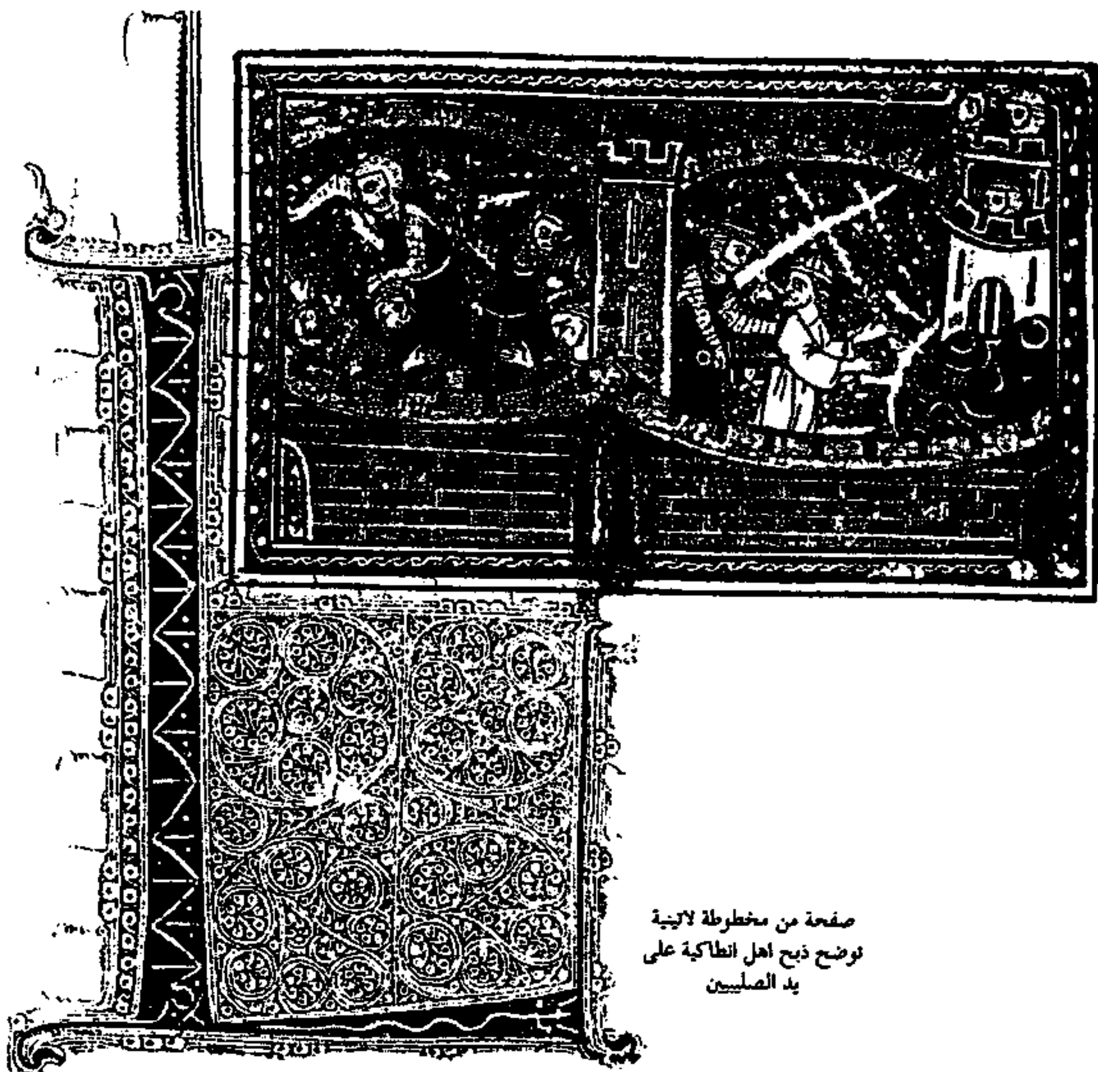

صفحة من مخطوطة لاتينية
توضح ذبح اهل انطاكية على
يد الصليبين

وكذالك جرت له قضيه اخره في ايام الصالح ابن رزيك الوزير في اخـر ايامـه، وذالك انه كـان بسـمنود قوم رهبان من قلاية بشبيش[مركـز بيلا محافظة كفر الشيخ] من دير ابو مقار ابوهم يسمى سلمـون، وان هذا البطرك اقـسم على كـرسى سمنود اسقفا ذكروانه ابن اخته واسماه انبا مقاره وهو اخوه في الرهبنه ومعه في القلايه التي كان فيها، ولاجل منافسات الدنيا والمجد الفارغ يجد

انطاكية بعد حصار دام سبعة أشهر. وقتلوا المئات من سكان المدينة. وانتشوا بسيول الدماء التى سفكوها، لم يفرقوا بين مسيحى ومسلم. وأفاد ريمون دى ساجيلك «لم يأسروا أيا ممن التقوا بهم في الطريق». وقد امتلأت جميع الساحات، كما يشهد شاهد عيان آخر، بجثث القتلى، «بحيث أن احدا لم يكن بوسعه ان يتواجد هناك بسبب الرائحة الكريهة القوية؛ ولم يكن بوسع أحد أن يمر فى الشوارع إلا (بالسير) على الجثث». وينعت مدون الاخبار الارمنى متى الرهاوى المذابح التى اقترفها الفرسان الصليبيون فى انطاكية بالمجزرة الرهيبة. ويقول ابن القلانسى ان عددا لا يحصى من سكان المدينة من رجال ونساء وأولاد قد قتلهم الصليبيون أو اعتقلوهم وساقوهم إلى الاسر.

* * *

معجزة الحربة المقدسة

فى ٥ أو ٦ يونيو ١٠٩٨، أى بعد مرور ٣ أو ٤ أيام على احتلال الصليبيين لمدينة انطاكية، اقترب من المدينة جيش كربقا الموصلي ـ كما يقول مدون للاخبار ـ «كثرة لا نهاية لها من الاتراك السلاجقة توزعت فى الحقول». طوق الاتراك المدينة من جميع الجوانب، وإذا الصليبيون الذين كانوا امس يحاصرونها يصبحون هم أنفسهم محاصرين. وفيما بعد ابلغ

الشيطان السبيل الى هلاك النفوس بضرباته لاجل التحاسد، وان قوما سو حسنو لهذا الاسقف ان كتب للبطرك يقول له عن انبا سلمون واخوته الرهبان اولاد بشبيش انهم اضافو فى الاعتراف عند كمال القداس لفظه مستجده ابتدعوها من نفوسهم لم تقولها الاوايل وهى بلفظة القبطى ṄPEϤTANϨO الذى تفسيرها المحيى، وهى لفظه مستعمله فى مواضع كثيره من القداس وجا

الصليبيون بابا روما ان السلجوقيين «طوقونا من كل مكان بدرجة من الاحكام بحيث ان احدا منا لم يكن بوسعه ان يخرج وان احدا لم يكن بوسعه ان يتسرب إلينا». وفى الحال شعر المحاصرون بمشقات الوضع. لم يكن ثمة مأكولات. كان الفرسان يموتون جوعا ويهلكون من شتى البلايا الأخرى. وكانوا يذبحون خيولهم وحميرهم الهزيلة وياكلون لحومها. هكذا ابلغ الصليبيون روما فيما بعد. وقد اجبر العوز الكثيرين على استهلاك العشب ولحاء الشجر والحبال وطقوم الخيل الجلدية، بعد غليها. بل انهم لم يأنفوا عن أكل الكلاب والقطط والفئران الميتة وشتى الجيف.

واستحوذ اليأس على المحاصرين. واخذ الفرسان البواسل يفرون من انطاكية بالعشران والمئات، أفرادا وجماعات. وعادة كان الفارون ينزلون ليلا على الحبال المتدلية من الأسوار ويحاولون تحت ستار الليل ان يصلوا إلى السفن الراسية قرب ارصفة خليج القديس سمعان؛ ولهذانعتوهم فى صفوف العساكر بالفارين الحبليين. وكان قريب بوهيموند، غليوم دى غرانمينيل، أول الفارين من انطاكية؛ وفيما بعد انضم إلى ايتيان دى بلوا. وسار على منواله بعض المقاتلين الاقطاعيين الآخرين الذين خافوا من احتمال الوقوع فى الاسر وفقدان ما نهبوه.

حين بلغ الصليبيون المحاصرون فى المدينة حد اليأس وطفقت هلوسات الجوع تعكر صفو

الحربة المقدسة تلهب حماس الجند

بها كلام الامانه اخر القداس على هذه القضيه، وهو قولهم: «او من واعترف الى النفس الاخير ان هذا الجسد المحيى الذى اخذه الابن الوحيد ربنا ومخلصنا يسوع المسيح من مريم العذرى وصار واحد مع لاهوته بغير اختلاط ولا امتزاج ولا افتراق». فلما وقف البطرك على كتاب انبا مقاره اسقف سمنود تغير على انبا سلمون واخوته واستوحش منهم وكثر الحديث فى ذالك، فانفد

عقول الكثيرين منهم، اعتبر ريمون دى تولوز، المدعى بانطاكية، ان الفرصة قد سنحت لكى يرفع مكانته وسمعته بالذات فى عيون المقاتلين الصليبين ـ على حساب منافسه بوهيموند دى تارنتو. ولهذا الغرض قرر ان يستفيد من خدمات كابيللانه ، الرجل التقى الورع، الذى يعرف كيف يسهر على مصالح سيده. ان تأجج عواطف الصليبين الدينية قد خلق وضعا ملائما جدا لأجل تنفيذ العملية الدينية السياسية المخططة فى محيط الكونت والهادفة إلى زيادة حظ ريمون دى سانجيل، كونت تولوز، فى الصراع ضد بوهيموند من أجل امتلاك انطاكية. لقد هبطت معنويات الصليبيين، ولذا يجب القيام بامر خارق لكى ينتعشوا ويتشجعوا، علما بان مصدر الهامهم (الربانى الاصل بالطبع) يجب أن يكون على مقربة من الكونت ريمون دى سانجيل، والافضل ان يقودهم إلى هذا المصدر رجل صادق يعيش بخوف الله.

حاول كابيللانه الكونت ان ينفذ بكل مهارة وحذاقة نوايا سيده، التى كان يفهم جيدا مغزاها على ما يدو. فقد وجد فى صفوف الجحفل البروفانسية فقيرا اسمه بيار بارتيليمى (Barthélemy) وإذا بهذا الرجل يعلن ذات مرة لرفاقه فى السلاح انه رأى فى المنام ـ وليس مرة واحدة بل خمس مرات !ـ الرسول اندراوس وان الرسول اسر إليه بما يلى: فى كنيسة القديس بطرس بمدينة انطاكية توجد حربة مطمورة هى الحربة التى طعن بها، كما جاء فى

٧٢: الاب يوحنا البطرك ١١٤٧/ ١١٦٦م

وجمع جماعه كثير من الاساقفه ونظرو فى ذالك فوجدوه حق وليس فيه شيا يكره لانه الجسد المحيى بالحقيقه ومودى من يومن به الى الحياه الدايمه، فكتب البطرك بذالك الى ساير الاعمال، فقبلوه اهل الوجه البحرى ومصر والاسكندريه وجميع رهبان الديارات ما خلا القسآ باسكنا ابو مقار فانهم امتنعو من اضافتها واعتذرو عن ذالك بانها مضافه مستجده لم يجرى بها عادة من تقدمهم، وانها ما

الانجيل، المحارب الرومانى فخذ يسوع المسيح المصلوب على الصليب. فإذا وجد الصليبيون هذه الحربة المقدسة المغمسة بدم ابن الاله، فقد خلصوا!. تلك كانت الإرادة السماوية التى نقلها إلى بيار بارتيليمى، الرسول اندرواس فى حلم الليل.

وعلى الفور، حسبما روى ريمون دى اجيل، راح الرجل البروفانسى الذى استحق رسالة السماء يروى لريمون دى سانجيل، عن هذه الرسالة. وبالطبع استقبل الكونت استقبالا حارا النبأ المشجع الذى حمله له مواطنه صاحب الرؤيا والنبوءة. يقينا ان بيار بارتيليمى قروى بسيط والبسته ممزقة، ولكن هذا أفضل بكثير مما لو ظهر الرسول اندراوس للفارس. فان الصليبيين الذين يحلمون نهارا وليلا بالخلاص سيصدقون هذا الرجل البسيط بصورة اسرع!. عهد الكونت ببيار بارتيليمى إلى الكابيللان ريمون من اجيل، وامر فى الحال بالتنقيب فى الكنيسة.

ارسلوا إلى الكنيسة فصيلة من ١٢ رجلا، من فرسان وكهنة، فضلا عن بيار بارتيليمى نفسه، واخرجوا جميع الناس الآخرين من الكنيسة. رفعوا بلاطه وطفقوا يحفرون الأرض تحتها. حفروا زمنا طويلا جدا، يوما كاملا (١٤ يونيو ١٠٩٨) واخيرا ـ يا للعجيبة!ـ ظهرت فى الغسق، فى قاع الحفرة، قطعة من حديد صدىء. وكما كتب ريمون من اجيل، «تعطف الرب

اضـيـفت الا لمعنى اخـر منجلهم [من أجلهم]، فانتصب قـوما منهم لمرافعت هذا الاب البطريرك والاساقفه وتحدثو فيهم باشياً كثير، واطمعو الصالح الوزير انهم يحصلو له منهم مال لعلمهم بظلمه ومحبته للمال، فانفذ احضر هذا الاب البطرك مع الرهبان الى بين يديه وعقد لهم مجلس قدامه وجرى الحديث في معنى عقيده النصارى ومقالتهم، وكان قصده ما يحصله منهم لا النظر

على شعبه التقي واظهر لنا الحربة. وانا الذى كتبت هذا قبلتها حين ظهر بالكاد طرف الحربة من الأرض».

وهكذا تحققت إشارة الرسول اندراوس «النبوية»، وعثر على الحربة المقدسة التى أخبر عنها فى الحلم بيار بارتيليمى، ومع هتافات التهليل، وبمصاحبة إنشاد النشيد الكاثوليكى «الحمد لك، يا الله»، وضعوا الذخيرة على مذبح كنيسة القديس بطرس. وسرعان ما انتشر نبأ اللقية فى معسكر الصليبين. فارتفع فى الحال مزاج الصليبين. كتب الفارس انسلم دى ريمونته إلى الاسقف منسّى فى ريمس (فرنسا): «ان لقية الحربة المقدسة قد انعشت قلوبنا من جديد». ويقول مدون اخبار فرنسي: «فرحت جميع العساكر واى فرح، وكان كل يستحث الآخر على الشجاعة، ولم يكن من الممكن ان يشبعوا من التحدث عن العون الربانى الذى جاءهم». ويردد مدون أخبار آخر: «الشعب كله، ما ان سمع بذلك، حتى حمد الرب».

ان الصليبين الذين كانوا يتحرقون رغبة فى شق الحصار، والذين احسوا بنهوض العواطف الدينية ، قد امتلأوا بالحماسة القتالية. فمن المؤكد ان الحربة العجيبة ستنشلهم من المصيبة!

وبالفعل ، بعد اسبوعين ،ـ فى ٢٨ يونيو ١٠٩٨ ،ـ تحقق الفصل الثانى من المعجزة التى انبأ بها الرسول اندراس «بصورة نبوئية» فى الحلم. فان الصليبين الواثقين بان الرمح المقدس

فى الديارات، لان النصرانيه حاله معروفه ليس هى دين جديد يحتاج الى البحث عنه واختباره، ولما جرت المخاطبه فى المجلس قال البطرك للصالح الوزير: موسى ايش هو عندك؟ قال: نبى. قال: فى المسيح ما هو عندكم؟ قال: روح الله وكلمته. قال: اتقدر ان تقول ان روح الله وكلمته نبى. قال: لا. قال البطرك: فروح الله وكلمته اعظم واشرف من الانبيا لانه خالق الخلايق كلها بكلمته الذى بها

سيؤمن لهم النصر على عدوهم كربقا، قد اندفعوا إلى القتال بالبلط والسيوف والرماح، مستعدين للاقدام على أية مجازفة وتهور لاجل قهر الوثنين. قاتل الصليبيون بضراوة وعنف. كذلك اشترك الكابيللان ريمون دى سانجيل فى المعركة: فقد حمل فى يديه ، ساندا اثناء سيره رداءه الكهنوتى، حربة السيد المسيح، فكان لابد لمنظره ان يبعث القوى فى المهاجمين. وفى ذلك اليوم، هزم الصليبيون، وقد شجعتهم لقية الذخيرة النفسية، جيش كربقا فى معركة فاصلة.. وقد فر جيش كربقا؛ ومذ ذاك انتقلت انطاكية نهائيا إلى ايدى الغزاة الغربيين.

إلا أن المقاصد السياسية التى رسمها ريمون دى سانجيل، كونت تولوز، والتى اخرجت من اجلها المسرحية الدينية قبل المعركة، لم يكتب لها النجاح. فان بوهيموند دى تارنتو، منافس ريمون دى سانجيل، هو الذى كان عمليا، هذه المرة أيضا، منظم النصر على كربقا، وعهد الأسياد إلى النورمانى، رغم عدم رغبتهم، بالقيادة العليا؛ وله بالذات كان الصليبيون مدينين من جديد بالنصر على السلجوقين. وعجزت الحربة المقدسة عن توفير كسب سياسى للكونت ريمون.

أما الدور الرئيسى فى نجاحات الصليبين، فلم تلعبه بسالتهم الحربية بقدر ما لعبته الخلافات

قال لكل الخلايق كوني فكانت كلمح البصر، فهي خالقة الخلايق والاشيآ كلها. فسكت الوزير وجرى بينه وبين الرهبان مرافعات كثير فزجرهم البطرك بالكلام واشار بعكازه الحديد الذى بيده ليضرب بعضهم فصرخو وشكو ذالك للوزير وقالو له: يحرق [يخوفنا] بنا قدامك في مجلسك فقال لهم: مدو ايضا انتم ايديكم اليه. فقالو: ما نقدر. فامر باخراج البطرك فخرج من قدامه وهو يدعى

التي نشبت بين الامراء السلجوقيين عشية المعركة. فقد تأزمت العلاقات بين كثيرين منهم وبين الموصل. وفارق دقاق، صاحب دمشق، كربقا، عندما ابلغوه ان الفاطميين يستعدون لمهاجمة فلسطين من الجنوب، كذلك فارقه بعض القادة العسكريين السلجوقيين الذين استاؤوا، كما يفيد المؤرخ العربى ابن الأثير، من غطرسة القائد العام الأعلى فى معاملتهم. وانخفض كثيرا عدد افراد قوات المسلمين. وللمناسبة نقول ان الصليبيين لم يعرفوا شيئا عن هذه الخلافات؛ ففى ٢٧ يونيو اجروا مع كربقا مفاوضات بشأن رفع الحصار عن انطاكية (وكان بطرس الناسك أحد المفوضين المرسلين إلى السلجوقيين لاجراء المفاوضات). اخفقت المفاوضات، وفي اليوم التالى قسم بوهيموند جيش الصليبيين إلى ست فصائل، وساق هذه الفصائل إلى الهجوم، وتكلل الهجوم بالنجاح فعند رؤية الصليبيين يخرجون صفوفا منتظمة من باب انطاكية، استحوذ الذعر على السلجوقيين الذين كانوا قد قل عددهم كثيرا. وسرعان ما ولوا الأدبار.

فيما بعد كتب الصليبيون إلى البابا : «ما أن أحرزنا النصر حتى طاردنا العدو طوال اليوم بكامله، وقتلنا كثيرين من مقاتلى العدو، ثم تحركنا إلى المدينة بفرح وابتهاج». وهذه المرة استولوا كذلك على قلعة المدينة، فقد حاصرتها فصيلة كونت تولوز، ولكن آمر القلعة احمد

عليه ويقول: كما رفعت اصاغرنا علينا الرب يرفع اصاغر قومك عليك. فوكل به الصالح رجلين ثم امر باعتقاله، وكتب مناشير وسيره مع المترسمين بالاجعال الى كراسى الاساقفه بالوجه البحرى، ونالهم صعوبه عظيمه من المترسمين ومن ولاة الاعمال الى ان ظهر الله اعجوبه مشهوره تحدث بها المسلمين الذين كانو معه معتقلين اكثرى مما تحدث بها النصاره، وذالك انه كان ملازم الصوم

ابن مروان استسلم مع المحاربين الألف الموجودين في القلعة لبوهيموند عند وصوله إلى القلعة؛ أغلب الظن انه كان قد تم الاتفاق معه بشأن شروط الاستسلام.

ان واقعة العثور على الحرب المقدسة بفضل بيار بارتيليمي هى بنظر المؤرخ والفارس النورماني راوول دى كايان مجرد خداع من اعداد ريمون دى تولوز ومقربيه. والفلاح بيار بارتيليمى الذى زعم أن الرسول اندراوس كشف له في رؤى عديدة مكان الذخيرة وتنبأ له بالنصر على الكفار في حال العثور على هذه الذخيرة المقدسة «بهذه العلامة تنتصر!» كان مجرد «مخترع داه للكذب». ولقية الحربة المقدسة في الكنيسة هى نفسها من صنع هذا الكذاب. وقد كتب راوول من كايان بسخرية عن البحث الذى استمر يوما كاملا عن الذخيرة تحت بلاط الكنيسة والذى لم يتكلل بالنجاح في الآونة الأولى. وغير ذلك لم يكن من الممكن توقعه، «لأن الأرض الرطبة لم يكن بوسعها أن تعيد ما لم يعهد إليها به يوما».

ويستطرد راوول دى كايان: أما إذا كانوا قد عثروا في آخر المطاف على الحربة في كنيسة القديس بطرس، فليس ذلك إلا لأن بيار بارتيليمى قام واخفاها عنده، قصد استعماله للخداع. وكان هذا البروفانسى يحسب على الأخص استغلال قطعة الحديد هذه لأنها لم تكن تشبه من

والصلاة والطلبه الى الله كجرى عادته، وانه ليله من الليالى غفى ونام ثم قال لمن حوله من الناس: تقوو بالله وافرحو فانه بعد ايام يسيره يفرج الله عنى وعنكم. وكان لانه بعد اربعه عشر يوما من روياه وهو فى الاعتقال ركب الصالح من داره فى عزه وموكبه ومملكته الى القصر للسلام على جارى العاده، فلعبو عليه فى دهليز العمود وهو خارج من عند الخليفه بيد رجل من اصاغر الناس يعرف بابن

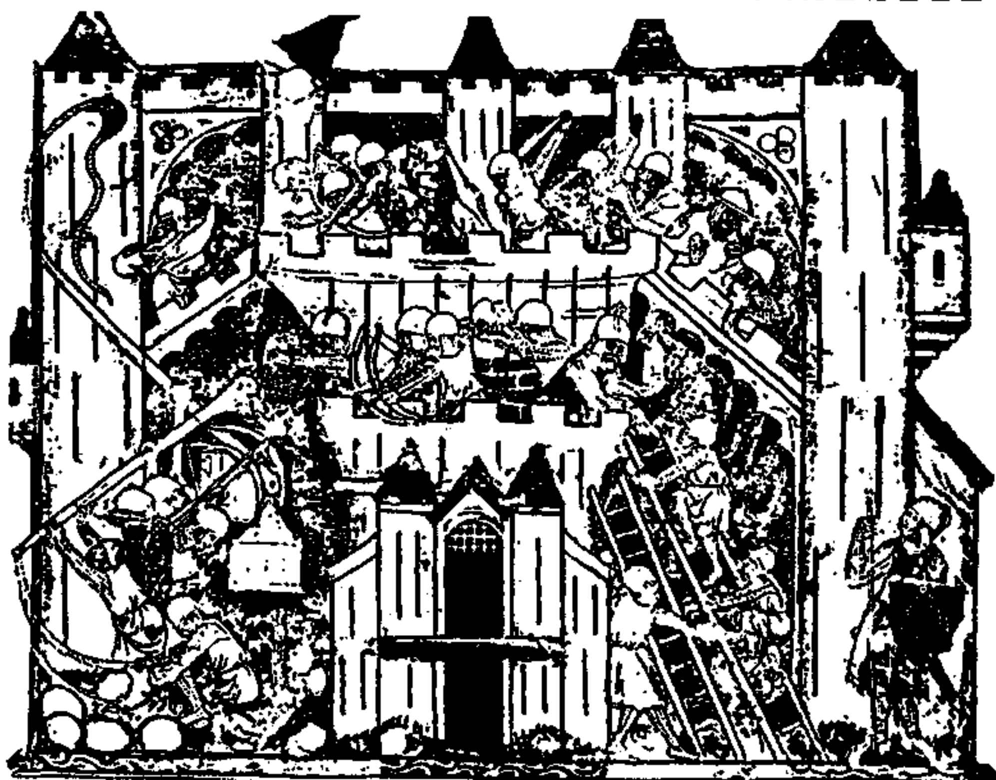

القتال حول قلعة انطاكية.

الراعي، كما دعى عليه الاب البطريرك كذالك كان، وحمل الى داره مجروح، فمات وانفذ ابنه مجد الاسلام اطلق البطرك وكلمن معه في السجن، وفرج الله عنهم بصلاته وقدسه، وكذالك الاساقفه فرج الله عنهم بعدما قاسو من الضر في النكال وغرامه الاجعال ما اضر بهم. وصدق قول مخلصنا في الانجيل: «اني معكم الى انقضا العالم». فله الشكر على ذلك.

حيث شكل الحربة وقياسها الحربة العادية. ثم يورد المؤرخ راوول من كايّان التفسير الذى شاع، أغلب الظن، في أوساط المرتابين والذى كان، كما ينبغي الظن، غير بعيد عن الحقيقة. «كان (بيار بارتيليمى) مسلحا بمعول؛ وقد اختار اللحظة المناسبة لأجل خداعه، وقفز إلى الحفرة ((المحفورة تحت بلاطة في الكنيسة) مع المعول واقترب من حافة (الهوة)، وقال «هنا يجب الحفر». وضرب بيار الأرض مرارا عديدة بالمعول وبلغ أخيرا الهدف المنشود: فإن الحربة التي دفنها بنفسه بالخداع قد ظهرت في التربة». «العتمة تجمع الناس». بمثل هذه التعابير يكشف راوول من كايّان سر المعجزة، مجلببا بالخزى والعار بيار بارتيليمى وكذلك ـ وهذا مهم جدا ـ الذين كانوا يقفون وراءه».

وهناك واقع آخر واسع الدلالة. ان اللوحة التي رسمها الكاثوليكى راوول من كايّان تتطابق في الرئيسى والجوهرى مع اللوحة التي رسمها المؤرخ العربى من القرن الثانى عشر والقرن الثالث عشر ابن الأثير، الرجل من عالم مغاير تماما، عالم الشرق وعالم الإسلام، ففى معرض الحديث في مؤلفه «الكامل في التاريخ» عن المصائب التي عاناها الفرنجة في انطاكية التي احتلوها، كتب يقول: «وكان معهم راهب مطاع فيهم.. قال: ان المسيح عليه السلام كان له حربة مدفونة بالقسيان الذى بانطاكية... فان وجدتموها فإنكم تظفرون وان لم تجدوها فالهلاك متحقق وكان قد دفن قبل ذلك حربة في مكان فيه وعفا أثرها وامرهم بالصوم والتوبة ففعلوا ذلك ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع ادخلهم الموضع جميعهم ومعهم عامتهم

وفى ايام شاور الوزير تنيح البطرك انبا يوانس فى اليـوم الرابع من بشنس سنة ثلث وثمـانين وثمـان مـايه للشـهـدا [١١٦٧م] فى كنيسـة القـديس ابو مـرقـوره وكـان له مناحـه عظيـمـه وليله حـسنه بالصلوات والقـراه، وفى صـبيـحـة تلك الليلة دفنو جـسده فى الكنيسـه المذكوره مع جسـد الاب انبـا غبـريال البطرك الذى كان قبله، وقيل عنه ان قوم تحدثو معه فى نقل جسد انبا غبـريال البطرك الى

والصناع منهم وحفروا فى جميع الأماكن فوجدوها كما ذكر فقال لهم ابشروا بالظفر» . ثم يتحدث المؤلف عن هزيمة السلجوقيين فى جوار انطاكية ويفسرها بالخلافات بين الأمراء وكربقا.

أما أن قصة لقية الحربة المقدسة كانت حيلة بداية بنظر المؤرخ المسلم، والمشترك فى حروب السلطان المصرى صلاح الدين الأيوبى ضد مملكة القدس، فلا داعى إلى استغراب ذلك. ولكن من اين تنبع هذه النظرة السليمة الصائبة عند راوول دى كايّان، الرجل الذين يقف عموما فى تربة العقيدة المسيحية القائلة بالعناية الإلهية ؟ ان موقفه العقلانى إلى هذا الحد من المعجزة ينبع بقدر كبير من عامل سياسى بحت. فان راوول دى كايّان قد أعرب قبل كل شيء وبصورة رئيسية عن نظرات القادة النورمانيين فى الحملة، بوهيموند دى تارنتو واتباعه وحلفائه. فان أمير الايطاليين ـ النورمانيين بوهيموند، الطامع بمدينة انطاكية ، قد استقبل، طبعا ، بعدم الثقة وحتى بالعداء قصة الوحى الربانى بلقية الحربة المقدسة، إذ أنها صدرت من بيئة الصليبيين البروفانسيين، من وسط أفراد قريبين من منافسه فى الإدعاءات بمدينة انطاكية ريمون دى سانجيل. وكان هذا كافيا لكى ينظر النورمانيون بحذر واحتراس إلى قصة الحربة المقدسة.

دير ابو مقار فقال لهم: سيجى من ينقل جسدى وجسده جميعا. فكان كما قال لانهما نقلا الى دير ابو مقار فى ايام الاب الجليل انبا مرقس ابن زرعه البطرك بعده فى الصوم المقدس سنة سته وثمانين وثمان مايه للشهدا [٨٨٦ ش = ١١٧٠م] الابرار، وكان لاخراجهما ليله مشهوره من كثرت الجمع والناس الحاضرين لذالك ومداومة القراه والصلوات من اول الليل الى اخره، وحملو

فى تلك الأزمنة التى نتحدث عنها، كان المبدآن العقلى والاسطورى يتعايشان فى إطار عقيدة دينية مشتركة تسود على العقل والمشاعر. ولكن لا المتعصبون الدينيون، ولا العقلانيون الذين حملوا إلى إيمانهم هذه القيود أو تلك، التى يمليها العقل، كانوا يملكون على الصعيد الاخلاقى والمعنوى أية من مزايا يتفوقون بها بعضهم على بعض؛ فان الناس الاتقياء بغيرة وحماسة من طراز ريمون دى سانجيل، والفرسان الميالين إلى القتال وذوى التفكير المعيشى الأرضى من طراز تنكريد، كانوا فى آخر التحليل يعتنقون ايمانا واحدا، ودينا واحدا، ونظرات واحدة وكانوا يتمسكون باخلاق واحدة، فى ذلك الزمن كان فجر العقل لا يزال فى مطلعه(*).

إمارة انطاكية. مواصلة الحملة

بقى الصليبيون فى منطقة انطاكية نصف سنة. وأسباب ذلك مختلفة: التعب العام، والرغبة فى تجنب قيظ الصيف المضنى الذى لا يطاق، ونقص المأكولات، والسعى إلى الخروج من المدينة، وان مؤقتا، نظرا للوباء الذى نشب هناك (أغلب الظن ، وباء التيفوس؛ وفى أول

(*) تجدر الاشارة الى ان الكردينال بروسبيرو لامبرتينى، الذى صار فيما بعد البابا بنديكتوس الرابع عشر (١٧٤٠ ـ ١٧٥٨) قد انكر رسميا فى القرن الثامن عشر صحة قصة الحربة المقدسة الانطاكية.

اجـــسـادهم من طريق دير نهـيـا ودفنا فى تربة البطاركه مع اابيهما بسلام من الله نيح نفوسهم اجمعين، رزقنا الله بركة صلواتهم المقدسه امين.

اذكر يارب عبدك الحقير الذليل المسكين شنوده بالاسم قـمص(*) خادم دير القديس العظيم البار انبا بولا الكبير اول السواح الذى رمم هذه السير يرجو بذالك العفو والمسامحه بغفران خطاياه بشفاعه من ذكر اسمايهم فيها، وكان ترميم ذالك

(*) اسم مُرمّم هذه السيرة شنوده، وكان ذلك فى ايام البطرك ١٠٩ بطرس السـابع ١٨٠٩ / ١٨٥٢م، فى عهد محمد على باشا.

اغسطس ، كما سبق ان قلنا، توفي الاسقف اديمار دى بوى. ولذا صارت الإقامة فى انطاكية محفوفة بالمخاطر. أما السبب الرئيسى، فقد تلخص فى تحرق الدوقات والفيكونتات إلى تثبيت الأراضى المجاورة للمدينة لأنفسهم. والى هذه الأراضى راحوا مع فرسانهم وحملة سلاحهم. اتجه بوهيموند إلى قيليقيا ـ لأجل تعزيز الحاميات المتروكة هناك ـ وغودفروا دى بويّون إلى تل بشر ورافندان، وروبرت النورمندى إلى اللاذقية، من حيث سرعان ما طرده السكان المحليون مفضلين على فرسان الدوق الحامية البيزنطية التى قدمت من قبرص.

ولم يرجع رؤساء المقاتلين الصليبيين مع فصائلهم إلى انطاكية إلا فى سبتمبر ، ولكن الوقفة فى الحملة استمرت بعد ذلك. وتورط الصليبيون هنا بضعة أشهر أخرى. وفى ١١ سبتمبر ١٠٩٨ وضع القادة، تبريرا لموقفهم، رسالة طويلة إلى البابا اوربان الثانى، فتحدثوا بالتفصيل عن حصار انطاكية وفتحها وعن قصة الحربة المقدسة وظروف هزيمة كربغا. وختاما ، خاطب «قديسو يسوع المسيح»، كما سمى أصحاب الرسالة أنفسهم، البابا داعينه إلى أن ينجز بشخصه بالذات المشروع الذى قاموا به استجابة لندائه «تعال إلينا، واقنع جميع من تستطيع اقناعهم بالمجيء معك». وآنذاك ، كما وعد الصليبيون البابا، «سيخضع العالم كله لك». وبانتظار الجواب، ولم يستعجل الأمراء التحرك من مكانهم. ولكن هذا أيضا لم يكن سوى ذريعة لأجل التأخر. من ذا الذى سيملك انطاكية؟ ذلك هو السؤال الذى واجه الزعماء على

يوميذ بالقلايه العامره بالمحروسه فى ايام رياسة
السيد الاب الجليل المغبوط الطوبانى ريس الرووسا
وسيد السادات الاب المكرم بكل نوع انبا بطرس
البطريرك التاسع والمايه من عدد الابا البطاركه،
ادام الله تعالى علينا رياسته سنينا عديده وازمنه
متصله سالمه هاديه مديده بالعمر الطويل والحياة
السعيدة امين.

المكشوف وأثار خلافات عميقة بينهم. وهذا بالذات هو ما حال دون الصليبيين ومواصلة الزحف.

كان بوهيموند دى تارنتو وريمون دى تولوز المدعيين الرئيسيين بانطاكية. وكان فرسان الأول يشغلون قلعة المدينة وقسما كبيرا من المدينة؛ وكان فرسان الثانى يشغلون قصر ياغى سيّان والبرج قرب الباب، وقرب جسر نهر العاصى. وفى كنيسة القديس بطرس بانطاكية كانت تجرى مداولات لا نهاية لها لرؤساء الصليبيين؛ كانوا يتناقشون حتى البحاح فى الحل العادل لأهم قضية بالنسبة لهم فى اللحظة المعنية، قضية تسليم السلطة فى انطاكية. وكان كل من المتنافسين يحاول أن يثبت، والزبد على شفتيه ، مقدار أهمية القسط الذى اسهم به فى فتح المدينة، وبالتالى حقوقه المفضلة بالذات فى امتلاك المدينة. حظى بوهيموند بدعم الفرسان النورمانين والفرسان الفرنسيين الشماليين، والكونت ريمون دى سانجيل بدعم الفرسان البروفانسيين. كتب راوول دى كايّان: «الناربونيون، والافرنيون والجاسكونيون ـ جميع هذه القبائل التحقت بالبروفانسيين؛ أما إلى الابوليين (اى النورمانيين)، فقد مالت كل بقية بلاد الغال فى المؤامرات».

لم تكن أغلبية الاسياد ترغب فى مشاطرة وجهة نظر ريمون دى تولوز، الذى كان يؤكد بعناد غير مفهوم انه يجب تسليم انطاكية ـ بموجب التزامات التبعية ـ الى الامبراطور

٧٢: الاب يوحنا البطرك ١١٤٧/ ١١٦٦م

بسم الاب والابن والروح القدس اله واحد امين

أنبا مرقس ابن زرعه

وهو من العدد الثالث والسبعون

[١١٦٦ / ١١٨٩ م]

نبتدى بتاييد القدرة العالية بنسخ السيرة الاوله من سير الابا البطاركة الارتدكسيين من الدور التانى، وهى سيرة الاب الجليل الفايز بنعمة الروح

البيزنطى. ذلك انه هو بالذات، الكونت ريمون دى سانجيل، رفض قطعا منذ وقت قريب حلف يمين التبعية للامبراطور الكسيوس الأول! وها هو الآن يفضل بكل وضوح زعامة بيزنطية الاسمية على انتقال السلطة فعلا إلى بوهيموند من تارنتو.

ان موقف كونت تولوز بدا لجودفروا دى بويّون، وروبرت من الفلاندر، وروبرت من نورمنديا وغيرهم من الأسياد والاساقفة البارزين غير مقبول خصوصا وانه أصبح من الجلى فى ذلك الوقت انه لا يمكن توقع أية مساعدة فعالة نوعا ما من بيزنطة. وبالفعل، عندما ارسلوا هوغ فرمندوا (وكان يرغب فى العودة نهائيا إلى فرنسا) ـ إلى الامبراطور الكسيوس كومنينوس لاستيضاح نواياه (وكان ذلك فى يوليو ١٠٩٨) تبين ان الامبراطور لا يفكر البتة فى مساعدة الصليبيين. وبينما كان الصليبيون يقاتلون فى سوريا، استغل الامبراطور الداهية وضع السلجوقيين الصعب، وانتزع منهم ازمير وافسس وبعض المدن والمناطق الأخرى سواء فى الغرب أم فى المقاطعات الداخلية من آسيا الصغرى. واخذ يعتبر الآن انه لا أمل فى احتمالات نجاح الحملة الصليبية؛ فان الفارين الذين غادروا انطاكية أثناء حصارها من قبل كربقا وفى المقام الأول الكونت ايتيان دى بلوا، كانوا ينقلون الواحد تلو الآخر إلى الكسيوس الأول اخبارا سيئة عندما كان مع قواته فى اعماق آسيا الصغرى، قرب فيليوميل. لم يبق من الممكن انقاذ

القدس انبا مرقس ابن زرعه، وهو من العدد الثالث والسبعون صلواته تحفظنا امين.

لما اكملنا بمعونة الله لنا ما نقلناه عن اسلافنا واباونا الاولون خلف بعد سلف من السادة الصالحين والاوليا المخلصين والصفوة المحقين كما قال في المزمور [٤٣] اللهم انا قد سمعنا باذاننا حين اباونا اخبرونا بالاعمال التى عملت في ايامهم الاولى. عدنا بالبحث عن سيرة النجبآ المختارين

الصليبين! وان بيار من اولن ذلك الفارس الذى سعى إلى الحصول على كومانا ونالها قد ابلغ الامبراطور ان الروم، إذا ما مضوا إلى انطاكية، قد يتعرضون قبل الوصول إليها لهجوم جيش سلجوقى آخر يتجه إلى إبادة الصليبيين. كذلك اوصى مستشارو الامبراطور بالاجماع أن يتخلى عن الصليبيين.

فى هذه الحالة اقترف الامبرطور البيزنطى خطأ سياسيا؛ فقد ترك الصليبيين وشأنهم، لحكم القدر، وبذلك قوض الثقة فيه، فوق ما هى من ضعف وتقلقل. ثم ان رفض الامبراطور مساعدة الصليبيين زاد من حظ بوهيموند فى خلافه مع ريمون دى سانجيل؛ فان قادة الصليبيين وقفوا بمعظهم إلى جانب امير تارنتو. وبعد مهاترات طويلة فى المجلس فى ٥ نوفمبر ١٠٩٨ تقرر تسليم بوهيموند انطاكية. إلا أن ريمون دى سانجيل، ظل حتى رغم مرضه الشديد الوطأة، يحتفظ بعناد فى المدينة بالمواقع التى يشغلها. وكان الجميع يكرهون الكونت ريمون دى سانجيل،بسبب جشعه الذى لا حد له! ومهما يكن من امر، كانت ثلاثة أرباع انطاكية تقع فعلا تحت رقابة الخصم النورمانى. صحيح ان بوهيموند اقسم اليمين أمام الملأ ــ كما طالب

للرياسة المسيحية والديانة الالهية والرعاية الفاضلة والامور الكاملة فابتدانا بما شاهدنا في عصرنا وراينا في زماننا وهو ما نخبركم به في هذه السيرة، وما حدث في ايام هذا الاب الجليل من الامور الصعبة والشدايد المرهقة والدما المهرقة وزوال الدولة الاوله الثابت اصلنا بها، لكثير عساكرها واصحابها المعتصمة، بل المنيعة بكثرة اموالها واسبابها المحتجبة عن العيون في قصورها بكثرة

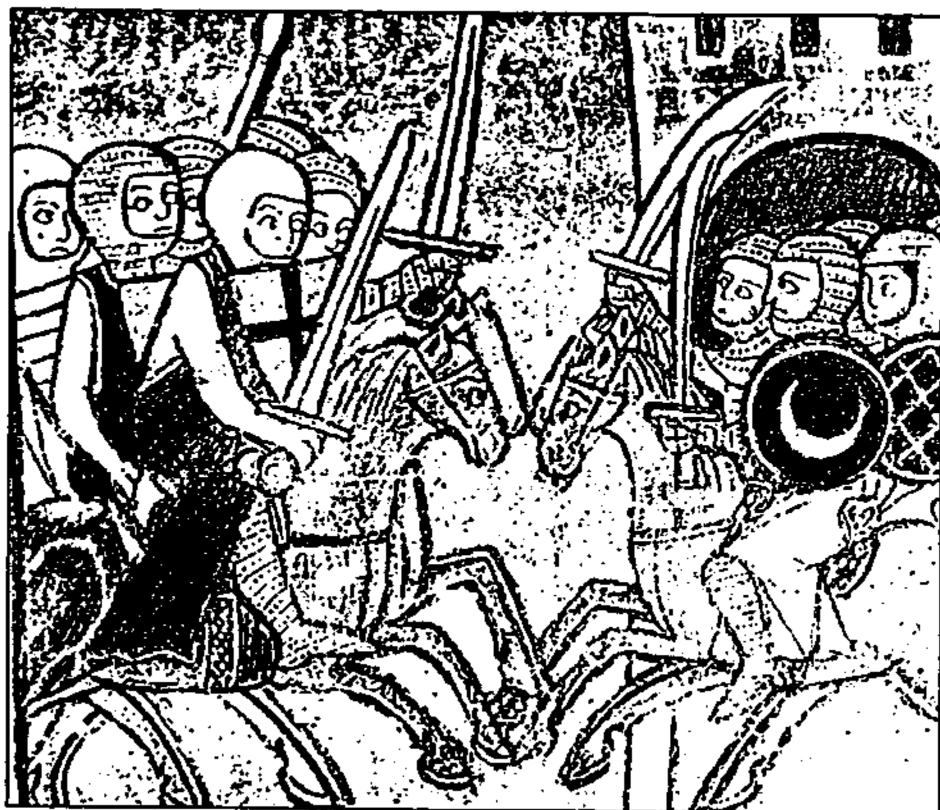

المعارك بين السلاجقة والصليبين

اجنادها وحجابها التى تنبا عليها دانيال السعيد وقال: يملك من بنى اسماعيل تسعة عشر ملكا على ارض مصر. ولما كمل من البيت العلوى الفاطمى اربعة عشر خليفة منهم ثلثة ملكوا بسجلماسه(*) والمهديه وافريقيه وغيرهم من بلاد الغرب [المغرب]، وهذا اسماوهم: المهدى، القايم، المنصور. وملك منهم على مصر الى اخر انقضا دولتهم، وملك دولة الفرس الذى هم الغز احدى

(*) سجلماسه تقع جنوب المغرب على طريق قوافل السودان الغربى. والمهدية على بعد ٢٢ كيلو متر جنوب شرق القيروان بتونس.

ريمون دى تولوز- بان يشترك فى الحملة حتى القدس بالذات، ولكن كان من الواضح للكثيرين انه قد بلغ هدفه فى سوريا.

وهكذا، فى أواخر سنة ١٠٩٨، تأسس كيان كبير ثان للصليبيين فى الشرق، عنينا به إمارة انطاكية.

إلا أن سائر زعماء الصليبيين لم يستعجلوا هم أيضا فى مواصلة الزحف؛ فقد انصرفوا كليا إلى عمليات الاغتصاب والنهب والسلب فى المناطق المجاورة لانطاكية، فان سلوك بودوان من الرها وبوهيموند من انطاكية كان معديا. وقد خيل ان الفرسان نسوا تمام الأرض المقدسة، وبقدر ما كان يمر الزمن، بقدر ما كان يتجلى طابع الحملة الصليبية العدوانى الاغتصابى. واكثر فاكثر كانت تنشب الخلافات والخصومات بين الغزاة. كتب أحد مدونى الأخبار: «كل مكان اعطانا ايه الرب كان يثير الجدال».

وقد شق نزاع حاد صفوف قوات الصليبيين فى قلعة معرة النعمان السورية (جنوب شرقى انطاكية) إلى حيث راحت فى أواخر نوفمبر فصائل البروفانسيين التابعة لكونت تولوز. فان بوهيموند لم يشأ أن يتنازل لخصمه عن هذه القلعة المهمة وأسرع فى اثره. استمر حصار القلعة اسبوعين. وتم فتح المدينة فى وقت واحد تقريبا - من جوانب مختلفة - من قبل

عشـر خليفـة وهم: المعز الذى بنا القاهرة، العزيز ولده، الحـاكم ولد العـزيز، الظاهر ولد الحـاكم، المسـتنصـر ولد الظاهر، المسـتعلى ولد المسـتنصـر، الامـر ولد المسـتعلى. ثم بعـد ذالك من بنوا العم والقـرابا: الحـافظ، الظافر، ولده الفايز ولد الظافر، ثم قتل الظافر بيد نصر ابن عباس وقد قدمنا شرح قصته، ثم ملك بعده العاضد وهو اخر من ملك منهم. وكانة [كانت] مدة ملكهم بالغرب وبارض

النورمانيين والبروفانسيين (١١ ديسمبر ١٠٩٨) . نهبوا المدينة بلا رحمة وابادوا السكان بلا شفقة. قال فارس من حاشية بوهيموند: «كان الافرنج يقتلون كل مسلم، سواء كان رجلا أم امرأة، حيثما يجدونه». وقد تميز بوهيموند فى معرة النعمان ببالغ القساوة والجشع والغدر. فعند احتلال المدينة، امر بواسطة المترجمين بان «يجتمع» سكان المدينة «مع نسائهم وأولادهم وأموالهم في القصر القائم أعلى من البوابة واعدا شخصيا بانقاذهم من الموت». وعندما اجتمع السكان هناك، «قبض عليهم الأمير وانتزع منهم كل ما معهم أى الذهب والفضة ومختلف الجوهرات.. أمر بقتل بعضهم، وبسوق البعض الآخر إلى انطاكية لأجل البيع». كذلك برهن خصمه ريمون دى سانجيل عن القساوة ذاتها. بل أن البروفانسيين تفوقا على النورمانيين فى نهب المدينة؛ فقد قرروا اجبار السكان الذين اختبأوا فى الاقبية على الخروج منها بفعل النار والدخان. ويعرب مدون اخبار ريمون سانجيل عن الاسف لكونهم «وجدوا القليل من الغنائم» هناك.

بعد مرور فترة وجيزة على فتح معرة النعمان التى بقى فيها الغزاة اكثر من شهر، نشبت الخلافات من جديد بين النورمانيين وبين الفرسان من بروفانس. وقد بدأت هذه الخلافات، كما يروى مدون أخبار بروفانسى، لان فرسان بوهيموند استولوا على معظم الابراج والبيوت والاسرى مع انهم لم يقاتلوا بما يكفى من الضراوة فى المعركة.

مصر الى يوم زوال الملك من يد العاضد فى اخر المحرم سنة سبعة وستين وخمس ماية [آخر محرم ٥٦٧هـ ١١٧١م] [الهلالية]. وذالك ان المهدى ابو محمد عبدالله ظهر بسلجانه [سجلماسه] وملكها يوم الاحد السابع من ذى الحجة سنة تسعين ومايتى للهجرة [٢٩٠هـ = ٢-٩/٣/٩٠٣م] والى حين انقضايها على ايام دولة العاضد ابو محمد عبدالله وهو الرابع عشر منهم مايتى

احتلال القدس

اسرع الصليبيون جموعا الى الهدف محاولين ان يسبقوا بعضهم بعضا، وكانت الوحدة الداخلية مفقودة بين حكام سوريا وفلسطين السلجوقيين، كما كان من قبل، وكان الامراء السلجوقيون فى خلافات دائمة . ثم ان هزيمة كربقا فى انطاكية قوضت تنظيم قوات السلجوقيين، ناهيك بان الحروب بين الاقطاعيين السلجوقيين لم تهدأ نيرانها امام العدو المهاجم من الشمال. وكان الخصام بالغ الحدة بين رضوان ابن تتش صاحب حلب ودقاق صاحب دمشق.

كان الامراء العرب في المدن الساحلية يتخوفون من السلجوقيين؛ وكانوا لا يرون فى الصليبيين اعداء بقدر ما كانوا يرون فيهم حلفاء في الصراع ضد الاعداء من ذوى الدين نفسه. ومع ان الفاطميين لم تكن تنوى البتة تسليم فلسطين للصليبيين، الا ان الفشل الذى منى به السلجوقيون فى انطاكية كان يناسبها تماما. واستغل الفاطميون هزيمة كربقا، فارسلوا قواتها الى فلسطين وسوريا؛ وفى ١٠٩٨ استولى الفاطميون على القدس، ووصلت قواتهم المسلحة الى بيروت. وادرك الوزير الافضل حتمية الصدام مع الصليبيين ولكنه بذل جهده لتجنبه؛ فاثناء المفاوضات مع زعمائهم حاول ان يعرض عليهم شرطا مناسبا تماما من وجهة نظره، وهو حرية الدخول الى القدس. ولكن هذا العرض قوبل بالرفض؛ اذ ان القادة الافرنج

وخمسة وسبعون سنة وشهر واحد وسبعة وعشرون يوما. من ذالك ملكو بالمغرب اربعة وسبعون سنة، وملكو بمصر مايتى سنة وسنة واحدة. فأما وزراهم فلم ندرك الا عصر بعضهم ولا ظفرنا لهم بسير ولا شي يدلنا على مـــدت ولاية كل منهم الوزارة ولا كم عـدتهم، وانما اخبـرنا القـريب من اسـلافنا باسمـاء بعضـهم ممن شاهدوه وينعتونهم على ما رتبـوه فيـمـا بينهم مما زعمـو انه تفـخيم لامرهم

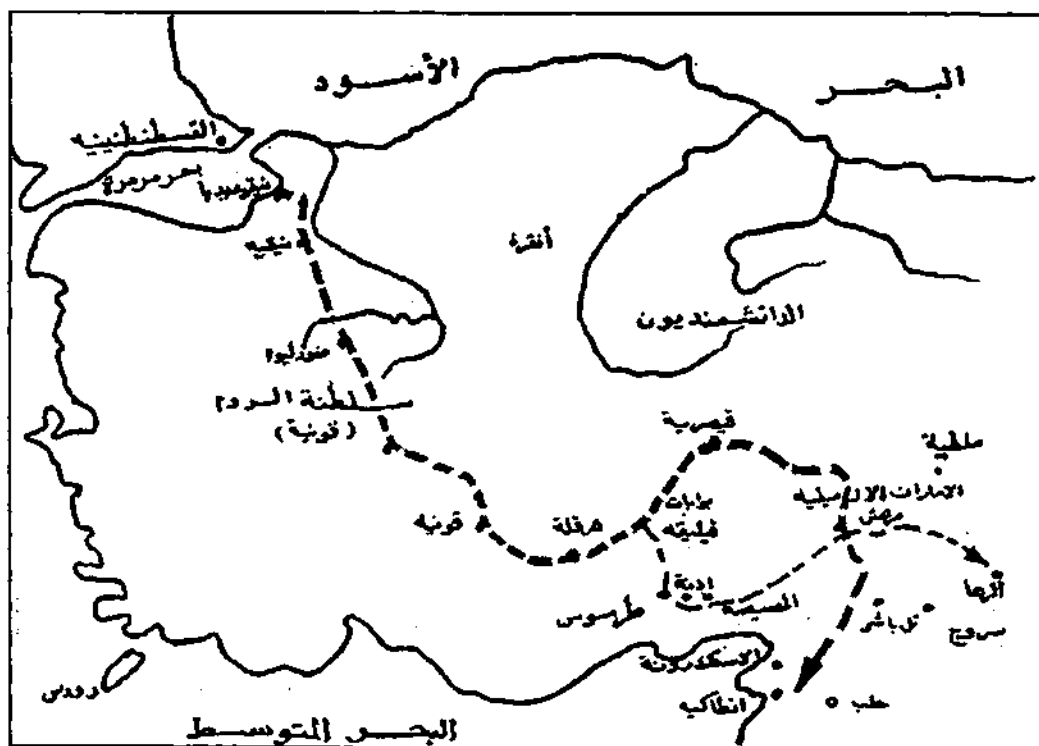

تقدم الحملة الصليبية الاولى فى آسيا الصغرى

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

وتعظيم لقدرهم، فقالو انه وزر للمستنصر رجل نعته امير الجيوش واسمه بدر الجمالى، للمستعلى سيف الاسلام يانس، والامر والحافظ المامون ويانس وتاج الدولة بهرام ورضوان ابن الوخشى، وللظافر نجم الدين ابن مضال والعادل ابن السلار، والعباس والفايز والعاضد والصالح طلايع ابن رزيك ومجد الاسلام ولده، واميـر الجيوش شاور السعدى، والمنصور ضرغام. والملك الناصر صلاح الدين

كانوا لا يعتزمون البتة الاكتفاء بمدينة الرها ومدينة انطاكية ؛ اذ ان هدفهم كان امتلاك فلسطين ومنها القدس فى المقام الاول.

كان الصليبيون يتقدمون باتجاه الجنوب فى طابورين كبيرين. كانت الجموع السائرة بقيادة ريمون، كونت تولوز تسير شرقى جبال النصيرة، والجحافل السائرة بقيادة غودفروا دى بويون وروبر الفلمنكى بمحاذاة الساحل . ولصرف هذه الفصائل عن القيام بعمليات عدائية، ارسل حكام طرابلس وبيروت وصيدا وصور العرب اليها شتى الهدايا ـ النقود، والمنتوجات الغذائى، وبراميل ماء الشرب ـ وبعثوا الرسل؛ وعرض هؤلاء على الصليبيين حرية العبور بلا عائق فى ممتلكات امرائهم الراغبين فى وقاية مدنهم وضواحيها والكروم الغنية وبساتين الخضراوات والفواكه من ضراوة القطعان الافرنجية وجشعها. وهكذا لم يلق الصليبيون اية مقاومة تقريبا. ولم تحدث اشتباكات كبيرة مع السلجوقيين الا من اجل طرطوس وجبلة وعكا؛ وعبثا حاول كونت تولوز امتلاك هذه القلعة الاخيرة، الا ان الزعماء الآخرين لم يدعموا مقصده.

فى أواخر مايو، ١٠٩٩، دخلت جحافل الفرسان الارض اللبنانية ثم الارض الفلسطينية. من الجلى ان النجاحات اضاعت صواب بعض القادة؛ فبعد فتح الرملة التى صارت اسقفية، أخذت ترتفع بينهم اصوات تطالب بالتوجه الى مصر بابليون (القاهرة). «اذا تغلبنا برحمة الله على ملك مصر، فاننا لن نتمكن من فتح القدس وحسب، بل ايضا الاسكندرية وبابليون وكثير من الممالك».

يوسف ابن نجم الدين ايوب وهو ثانى ملوك الترك بارض مصر واخر وزرآ دولت المصريين، لان اسد الدين شيركوه كان قد وزر [ه] العاضد من قبله وملك ستين يوما معدودة لم تزيد ساعة ولا نقصت ساعة ومات، وملك هذا صلاح الدين بعد [بعده]، وسنذكر ونشرح اخبار المملكة [الأيوبية] وكيف كان زوال الدولة الاوله [الفاطمية]، وفتوح البيت المقدس ومدن الساحل، وما فعله الله له وما

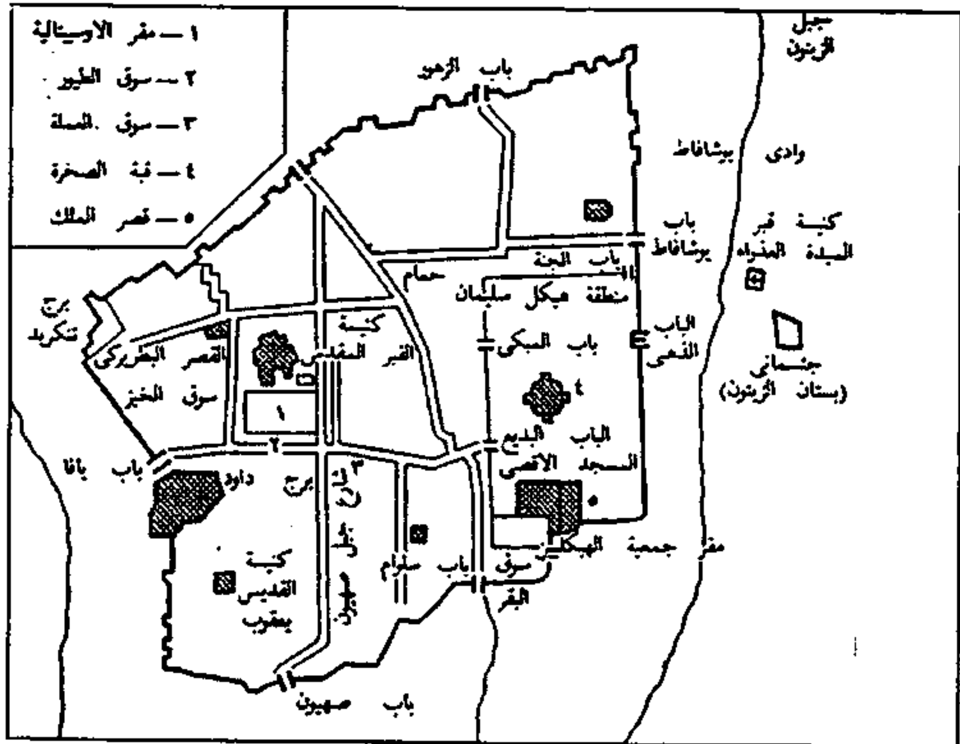

القدس تحت حكم الصليبين

ملكه الله اياه. ونصف طيب ايام مملكتــه وعــدله ورخص الاسعار بجميل نيته وعدله فى رعيته، وما سامح به من المكوس وازالة المظالم مبينا مشروحا انشا الله.

كان هذا البطرك الجليل الفاضل الطاهر النبيل من نسل شريف يسمى قبل بطركيته ابو الفرج ابن ابو اسعد يعرف بابن زرعه ينسب بهذا الاسم الى جده ابو ابو جده، وقد وجدنا فيما تقدم من الابا

- -

تحاشي الصليبيون المدن الساحلية الكبيرة (طرابلس، بيروت، صيدا، صور، عكا، حيفا، قيسارية)، واتجهوا من ارسوف الى القدس. وفى الطريق استولت فصائل تنكريد وبودوان دى بورج على بلدة بيت لحم حيث ولد يسوع المسيح كما جاء فى الانجيل. وسرعان ما اعلن تنكريد ادعاءاته بالبلدة واثبت رايته على مسلة كنيسة أم الاله فى البلدة، ولكن نشب نزاع بينه وبين بودوان دى بورج فى الحال من جراء ذلك . الا ان الظروف لم تسمح للنزاع بالتفاقم، اذ كان ينبغي الاسراع الى ابعد.

فى فجر ٧ يونيو ١٠٩٩، اقترب الصليبيون من القدس. تكشف منظر المدينة المقدسة امامهم من الجبل العالى الذى سموه مذ ذاك مونجوا «جبل الفرح». حاصر الصليبيون المدينة التي كانت تعتبر مقدسة بنظر الشعوب التي تعتنق المسيحية والاسلام واليهودية. وقد جعل الموقع الجغرافى من القدس عسيرة المنال على العدو. كانت تقع على سهل مرتفع عال ولم تكن مفتوحة إلا من الجهة الشمالية، وكانت تحميها من الجهات الاخرى جبال ناهيك بان حاكم القدس الفاطمى افتخار الدولة كان قد اتخذ التدابير الضرورية لحماية المدينة بوثوق، نظرا لاقتراب الافرنج. فقد طرد من المدينة جميع السكان المسيحين وسيج مزاغل الابراج بحزم من القطن والتبن، وملأ خزانات المدينة بكمية كافية من المياه، وامر، على العكس، بتخريب جميع الآبار حول المدينة. وسيقت قطعان المواشي بعيدا فى الجبال. بل ان افتخار

البطاركة بطركا يسمى بابن زرعه(*)، وكـان الاب ساويرس ابن المقفع اسقف الاشمونين كاتبه، فان يكون من نسله فالله اعلم. وقـد كنت انا المسكين ناظم هذه السيـرة تحدثت مع ابن عم هذا البطرك وقلت له: اين مرباكم واصولكم؟ فقال: من اهل الشام. فتحققت انه من نسل ذلك البطرك لانه كان سريانيا من اهل الشام. وانا المسكين ناظم هذه السيرة رايت هذا الاب قبل تقدمته، وكنت ساكنا

(*) هو الانبا أفـرهام السـرياني البطرك رقم ٦٢ وكان ساويرس ابن المقفع كاتبه.

الدولة رم الاستحكامات الدفاعية الرومانية القديمة. صحيح ان حامية القدس لم تكن كبيرة؛ فلم تكن تضم اكثر من الف مقاتل، ولكن جيشا كبيرا هب من مصر الى مساعدتهم بقيادة الوزير الافضل.

كان الصليبيون الذين تملكهم الانتعاش والالهام الديني يأملون سرا في ان تسقط استحكامات القدس من تلقاء نفسها ما ان يقتربوا منها. وبدءا من ١٢ يونيو حاول الفرسان مرارا ان يستولوا على المدينة انقضاضا، ولكن عبثا. فكان لابد من الشروع في الحصار. وقد امتد الحصار خمسة اسابيع. ولم يكن الصليبيون يملكون ما يكفي من القوى لاجل الاستيلاء على القدس المحصنة عنوة؛ فلم يكن عندهم من الرجال الصالحين للقتال، كما حسبوا انفسهم، اكثر من ١٢ الفا، «وناهيك بانه كان عندنا ـ كما كتب ريمون سانجيل ـ جمهور ضخم من المقعدين والفقراء. اما الفرسان في صفوف قواتنا، فكان عددهم ١٢٠٠ او ١٣٠٠، لا اكثر كما اعتقد». وفي الآونة الاولى تبدى كذلك بصورة ملحوظة النقص الى السلالم وسائر معدات الحصار، ولا سيما منها ادوات الرماية.

والى نجدة الفرسان جاء الجنويون والانجليز؛ فقد رست بضع سفن في يافا، فغادرها المصريون على الفور تجنبا للقتال. وقد حمل التجار على السفن الى الصليبيين الحبوب والخمور وكذلك الحبال والمسامير والفؤوس وغير ذلك من الادوات ومن مواد البناء الضرورية لصنع

بجـواره بمدينة مـصــر، وكـان كـثـيــر من الناس المسلمين والنصـاره بمصـر يشـهـدون له بالعـفـة والديانة والصوم والصلاة والصدقة وفعل الخير مع كل الناس، وانه بتولا لم يتزوج قط ولا شـهـد له صبوة ولا زلة. وكان عـالما في دينه خبيرا بامـور الكهنوت عاني بنفسه من صباه. وقد كان بلغنى ان ابونا الطاهر يوحنا البطرك من قــبله نيح الله نفسه اخبر عنه بالغيب انه البطرك بعده، وذالك ان

ابراج حـصـارية، وادوات لهدم الاسوار ـ اى الكبوش والسلالم ـ ولكن سرعان ما حاصر الاسطول الفاطمي ميناء يافا. وبما ان القوات البحرية المصرية كانت متفرقة بكل جلاء، فقد كان من الميؤوس فيه خوض القتال ضدها. وفلك الصليبيون سفن جنوه والسفن الانجليزية واستعملوا اقسامها لاجل المنشآت الحصارية.

في ١٣ ـ ١٤ يوليو ، قامت القوات الصليبية بمحاولات جديدة للهجوم. دفعوا الى السور برجين حـصـاريين هائلين برئاسة جودفروا دى بويون وريمون دى سانجيل. وكانوا قد صنعوا البرجين من جذوع قصيرة وكسوها بالجلود الخام. ولكن عبثا ! فما كاد الصليبيون يبدأون دفع البرجين نحو الاسوار، حتى تطايرت من جميع الجوانب الاحجار المطلقة من ادوات الرماية، والسهام ا لتى لا عد لها كالبرد. دارت رحى المعركة دون اية علائم على النصر.

بلغ الانقضاض ذروة الضراوة في ١٥ يوليو. فنحو الظهر، اقتحم المهاجمون القدس وسرعان ما سقطت المدينة. تكبد الغزاة خسائر فادحة، اثناء الحصار وفي ايام الانقضاض بالذات، تحت وابل الحجارة والسهام والقذائف المحشوة بالمواد السريعة الالتهاب التي انهال بها المقاتلون المصريون على رؤوس الصليبيين المحاصرين.

وقد ابدى المصريون الذين كانوا يدافعون عن المسجد الاقصى او «هيكل سليمان» كما

ابونا يوحنا البطرك قبله مرض فزاره جماعة من اراخنة مصر وكبارها، وكان [ابن زرعه] قد حضر معهم فقال للبطريرك: يا ابونا لو استعملت من الدوا كذا وكذا لوجدت الصحة. فقال له البطرك يوحنا: وحق اسكيمك يا ابونا قد استعملت. فدهشو القوم الحاضرين ونظرو الى بعضهم بعض يزعمو ان فيهم احد فى حلقه اسكيم فلم يرو احد غيره فعلمو ان كلام البطريرك له واشارته عنه.

- -

١٥ يوليو ١٠٩٩ سقطت القدس بعد حصار طويل وتدفق الصليبيون على المدينة

فلما تنيح الاب يوحنا بعد سنين كثيرة ذكروا ما تنبا به عنه. وكانت النوبة للرهبان فاخذوه المصريين وقدموه فلم يختلف في امره مخالف. وكان تقدمته بطركا في سنة ثمانين وثمان ماية للشهدا الموافقة لسنة ستين وخمس ماية الهلاية [= ١١٦٤م]، واقام على الكرسى خمسة وعشرين سنة، وتنيح في السادس من طوبه سنة تسع ماية وخمسة للشهدا الموافقة لسنة خمس ماية وخمس وثمانين الهلاية [= ١١٨٩م].

يسميه مدونوا الاخبار اللاتين، الذين استحكموا في برج داود الواقع في القسم الغربى من المدينة، مقاومة بالغة الشجاعة والجرأة في وجه الغزاة. وفي آخر المطاف، سلم افتخار الدولة الصليبيين القلعة وفتح باب يافا بعد ان ضمن لنفسه الحق في مغادرة المدينة بحرية.

ان «مخلصى قبر السيد المسيح» الذين تملكهم التعصب الاعمى وتحرقوا الى الانتقام من الكفار الذين تسببوا لهم بمثل هذا القلق والاضطراب بصلابتهم وبسالتهم وكبدوهم مثل هذه الخسائر، قد انقضوا بقساوة وحشية وضراوة همجية على سكان المدينة المفتوحة وثرواتها. ان حمامات الدم وعمليات النهب الشاملة المقترفة في القدس قد حجبت المآثم والوحشيات المقترفة في انطاكية. يقول مدون اخبار ايطالى نورمانى: «عندما دخل حجاجنا المدينة، سا قوا وقتلوا المسلمين حتى هيكل سليمان بالذات ؛ وقد تجمع المسلمون فيه وخاضوا ضدنا معركة في منتهى القساوة طوال اليوم كله، ولذا سال الدم في الهيكل كله. واخيرا، تغلب رجالنا على الوثنيين واعتقلوا عديدا من الرجال والنساء في الهيكل ، وقتلوا منهم قدر ما ارادوا، وابقوا منهم قيد الحياة قدر ما ارادوا». وفي المسجد الاقصى ذبح الصليبيون ما لا يقل عن ١٠ آلاف شخص؛ هذا العدد يذكره على كل حال شهود العيان اللاتين.

بعد المجزرة العظيمة، ـ كما يقول البروفانسى فولهير دى شارتر ـ تفرق الصليبيون على

(*) سيرة صلاح الدين الأيوبي.

بدو[بداية]سيرت صلاح الدين(*) بشـرح امـر الملك الناصر صلاح الدين فى ملك مصر والخليفة يوميذ العاضـد باق على ما هو عليه، والاجناد المصـريين والسـودان عبيـد دولته مقرين على خدمتـه. فلمـا كان يوم الثلثـا الثالث من صفـر سنة اربع وستين وخمس مـاية للهـجرة [٨٨٥ قبطيـة = ١١٦٨م]، والخليفـة يوميـذ العاضـد ابو مـحمـد عبـدالله وهو الرابع عشر من خلفا الدولة الفاطمية عليهم افضل

بيوت سكان المدينة ونهبوا كل ما وجدوه فيها. وفي هذه الحال قامت عادة مفادها ان كل من يكون اول الداخلين الى البيت، سواء كان غنيا ام فقيرا، يتلقى ويملك البيت او القصر وكل ما فيه، بوصفه مالكا.

وفضلا عن المسلمين ، سقط يهود القدس ضحية لجنون الصليبيين وبربريتهم . فقد اجتمعوا في كنيس كبير، وفيه ابادهم الصليبيون عن بكرة ابيهم: فقد احرق الصليبيون مبنى الكنيس بمن بحث عن ملجأ فيه.

ولقد اشير الى فتح المدينة المقدسة فى ١٥ يوليو ١٠٩٩ فى جميع المؤلفات التاريخية من اوائل القرن الثاني عشر بما فى ذلك المؤلف الروسى «قصة السنوات المنصرمة». ان مدونى الاخبار ومؤرخى الاحداث سنة بعد سنة الغربيين يصفون هذا الحدث بقدر متفاوت من الاسهاب والتفصيل، ويتحدثون بتفاصيل طبيعية عن ا عمال «جنود الرب» التى تبدو لهم جديرة بالمديح والثناء. اما مدونو الاخبار والمؤرخون الشرقيون (ابن القلانسى، ابن الاثير، وغيرهما)، فانهم ينوهون بفتح القدس من قبل «اعداء الله» بايجاز، ولا يشيرون الا الى انفلات الغزاة وجنونهم ووحشياتهم الهمجية، والى انهم، كما يقول ابن القلانسى، قتلوا كثيرين من سكان القدس.

السلام، ووزيره يوميذ امير الجيوش شاور السعدى، نزل مرى ملك الافرنج(*) بجنوده على بلبيس ففتحها وقتل كلمن وجده فيها من الكيانية والاتراك والسودان ظاهرها، وقتل جماعة كبيرة من عوام الناس مسلمين ونصارى قتلهم داخلها واباح لعسكره القتل والسبى والنهب ثلثة ايام ليل ونهار اطلق لهم السيف فيها، واسر من بقي من اهلها وحملهم معه الى الشام ونهبها واحرقها ومضى

(*) حملة الملك مرى على مصر واحتلاله لبلبيس من مدن الشرقية ونهبها واسر وقتل سكانها.

لمن السيادة ؟ حملات المؤخرة

مع فتح القدس تحقق الهدف الرسمى من الحملة الصليبية. ولكن سرعان ما برزت المصالح الفعلية للمشتركين فيها؛ ونظرا لذلك نشبت احتكاكات خطيرة بين زعماء الصليبيين ، وكذلك على الاخص بين قادتهم العسكرين ورعاتهم الدينيين.

لم يترك البابا اوربان الثانى (توفى فى ٢٩ يوليو ١٠٩٩ قبل ان يتلقى نبأ «تحرير» القدس) اية اوامر بصدد نظام الارضى المقدسة المقبل. ومع ذلك حاول رجال الدين أن يؤمنوا فى المقام الاول مصالحهم بالذات وان يشغلوا مكان الصدارة فى ممتلكات الغرب الجديدة. وقد الحت الاوساط العليا من رجال الدين على تحويل القدس الى دولة كنسية. ولهذا الغرض كان ينبغى فى المقام الاول، كما كانوا يعتقدون، انتخاب بطريرك جديد من اللاتين وتسليمه السلطة بكليتها. ولكن منذ وفاة اديمار دى بوى، لم يبق عند الصليبين قائد كنسى يتمتع بما يكفى من النفوذ والمكانة، وبمقدوره ان يأخذ على عاتقه اداء مثل هذه الرسالة. وقد عينوا رئيس الاساقفة دايمبرت دى بيزا خلفا للاسقف اديمار فى وظيفة القاصد الرسولى (نائب البابا)، وقد وصل الى القدس بالاعتماد على مساندة اسطول بيزا، وبدأ يعمل بخارق الجهد لكى يصبح البطريرك على وجه الدقة، وليس اميرا دنيويا، صاحب السلطة فى القدس. ثم ان البابا الجديد، باسكال الثانى (١٠٩٩ ـ ١١١٨)، الح من جهته الى الاسياد الصليبيين بانه يجب مكافاة

باموالها واسراها. اقتضى الحال ان الخليفة كتب كتاب لنور الدين محمود ابن زنكى ملك الغز بمدينة دمشق واقليمها، وكان ينعت بالملك العادل نور الدين ويعرف بابن قسيم الدولة، يعرفه فى كتابه ما جرى على المسلمين بديار مصر ويطلب منه ان يعضده بجيش يستدفع به الفرنج، فادركه بانفاذ اسد الدين شيركوه فوصل ومعه عسكر كثير من الغز الى البلاد، والملك مرى نازل بالفرنج على

بلبيس، ونضال مقدم مراكب الاسطول على بحر النيل قد وصل الى عطف منية الفيران قريب منية زفتي بعشرة شواني وعشرين حراقه [لدعم الملك مرى] فلما تواصلت اخبار وصول شيركوه الى قرب البلاد رحل الملك مرى من على بلبيس رجع الى بلاده وقوى المسلمين على نضال [مقدم مراكب الاسطول] فكسروه فرجع بالمراكب هارب. ونزل اسد الدين شيركوه بعساكره على

الكنيسة الكاثوليكية بصورة مناسبة لانها هى التى كانت صاحبة المبادرة الى الحملة الصليبية.

اما الامراء، فكانوا يعتقدون بالعكس انه يجب تسليم واحد منهم السلطة على القدس. من بالذات؟ التهبت المشاعر وبخاصة اثناء انعقاد مجلس أعلى للقادة الدنيويين والكنسيين، وذلك فى ٢٢ يوليو ١٠٩٩ وقد بلغت الخلافات درجة من الحدة بحيث ان الصليبيين كادوا يصلون الى عتبة الحرب فيما بينهم. كان هناك، من حيث الجوهر، طامحان جديا اثنان الى منصب رئيس الدولة الجديدة هما ريمون دى تولوز، والدوق جودفروا دى بويون. وقد افلح زعماء الصليبيين فى التوصل الى حل وسط للمسالة، خصوصا وان ريمون، كونت دى تولوز، الذى لم يكن يتمتع بعطف القادة الكبار، وحتى استثار شكوكهم بسبب عواطفه الموالية لبيزنطة، قد سحب بنفسه ترشيحه.

ان الحل الوسط الذى توصل اليه زعماء الصليبيين كان يتألف مما يلى: احيلت القدس شكلا ورسميا الى حكم البطريرك (وبعد فترة من الوقت صار دايمبرت دى بيزا بطريرك القدس)، ولكن انتخبوا من عداد الامراء الحاكم الفعلى للمدينة المقدسة، ـ جودفروا دى بويون ، ومنحوه لقب حامى قبر السيد المسيح. يبدو ان جودفروا دى بويون، رفض التاج الملكى بايعاز من ريمون دى تولوز. وقد رفض ان يرتدى تاجا من الذهب فى المكان الذى ارتدى فيه المسيح تاجا من الشوك. وبدافع من روح التنازل والتساهل، وافق الدوق دى بويون

مدينة بلبيس ورحلو الفرنج وارتجعو من قدامه في البر والبحر، واستراح ايام يسيره ثم رحل عن بلبيس [إلى] نزل اللوق والمقسم وارض الطباله واحاط بالقاهرة مستديرا [من حولها]، وحمل اليه الخليفة ضيافة وخلع سيفه له ولمن وصل معه من الامرا المشهورين ولمقدمين العسكر، واموال كثير برسم النفقة، وخيم وعدد واشيا كثير لا يقدر على وصف فنونها واصنافها بعيونها. واقام في ضيافة

على اعطاء البطريرك دايمبرت ربع القدس ويافا وحتى على اعتبار نفسه تابعا للبطريرك. فهل كان يصح الخلاف مع الكنيسة بسبب هذه الشكليات ؟ فان تفوق القوى بقي على كل حال الى جانب الفرسان. ان ادعاءات الكرسى الرسولى بالسلطة الدنيوية على مدينة تبعد آلاف الاميال عن روما كانت تبدو في عيون الفرسان ورؤسائهم غير مقنعة. ناهيك بان جودفروا دى بويون، اذ اقدم على تنازلات في صالح دايمبرت المحب للسلطة، كان يسعى في الوقت نفسه (وليس عبثا) الى نيل الدعم العسكرى من جانب منافسة بيزا، ـ البندقية. فان اسطول البندقية الذى هزم في طريقه اسطول بيزا، كان قد وصل الى يافا. الا ان البندقيين، والحق يقال، طالبوا بدورهم جودفروا دى بويون، مقابل هذا الدعم، ببدل لا يستهان به هو منحهم في كل مدينة ساحة سوقية ، والاعفاء من شتى الضرائب والمكوس، وثلث الغنيمة ، وما الى ذلك.

ولكن بينما كان الاسياد يحاكمون ويساومون، ويبنون الخطط ويحيكون المؤامرات، اضطر الصليبيون الى امتشاق السلاح من جديد. فمن الجنوب اقتربت العساكر المصرية ، بامرة الوزير الافضل. ورغم جميع الخلافات، اضطر الفرسان وقادتهم ـ للمرة الاخيرة ـ الى العمل معا من جديد؛ فضدهم كان يقف عدو بالغ الخطر. نشبت المعركة ضد المصريين في صباح ١٢ في واد الى الشمال من مدينة عسقلان. احرز الصليبيون الغلبة في القتال. ويروى ابن القلانسي : «وتمكنت سيوف الافرنج من المسلمين»... «وانهزم العسكر المصرى الى ناحية

الخليفة لم يدخل القاهرة الى [إلا] يوم الجمعة اول يوم من شهر ربيع الاول سنة اربع وستين وخمس ماية الهلالية، انفذ اليه الخليفة سيف الدم مع موتمن الخلافة جوهر الاستاذ، وامره ان يضرب به رقبة شاور وزيره فقتله ذبحا بسكين يوم السبت الثاني من ربيع الاول من السنة المذكورة، واقام بقية يومه ويوم الاحد نازل مكانه، وفي نهار يوم الاثنين الرابع من ربيع الاول من السنة المذكورة

عسقلان ودخل الافضل اليها». وبعد ان نهب المنتصرون المعسكر المصرى ، عاد الوزير مع مقربيه الى مصر . ومذ ذاك توطد وضع الصليبيين في فلسطين نسبيا. لذا قلت دوافع الفرسان للسير في ركاب الساسة الكنسيين وتلبية ادعاءاتهم.

في ١٨ يوليو ١١٠٠ توفي جودفروا دى بويون. ولم يعتزم الفرسان من فرنسا الشمالية واللورين احناء الرأس امام ابناء بيزا وبطريركهم. فأبلغوا في الحال عما حدث بودوان، كونت الرها، (اخا جودفروا) ودعوه الى القدس. ومنيت بالاخفاق محاولات دايمبرت اخذ المبادرة بيده والحيلولة، بمساعدة بوهيموند، امير انطاكية، دون وصول بودوان الى القدس؛ فقد اوقفوا سفراء البطريرك في اللاذقية. ناهيك بان بوهيموند نفسه وقع آنذاك في أسر السلجوقيين. وهكذا ورث بودوان، امير الرها، عرش القدس. ولم يبق لدايمبرت الذى لم يلق اى سند من اى كان غير امر واحد هو وضع التاج على رأس بودوان، وهذا ما فعله في ديسمبر ١١٠٠ في كنيسة ميلاد المسيح في بيت لحم.

وبعد ان اصبح بودوان ملكا، رفض رفضا قاطعا ادعاءات رجال الدين السياسية. وقد لقب نفسه رسميا في وثائقه: «انا، بودوان، الذى نال مملكة القدس بمشيئة الله».

كانت هذه المملكة تشغل في البدء رقعة صغيرة من الارض ـ القدس وبيت لحم ومرفأ يافا مع دوائرها. وكانت القوات المسلحة لدى دولة الصليبيين الجديدة تافهة . فقد كان لدى

دخل القـاهرة واخلع عليـه الخليـفـة خلع الوزارة، وهي ثيـاب بيض مـذهبـة واسعـة الاكـمـام ومنديل كبير مشدود مثال الدرقه مرخية العذبة الى كفل الفـرس، وطوق ذهب فى عنقـه مـرصع بالجـواهر ولالى يربط ويحل بشـرابه حـرير مظفـورة بلولو حـمـصى كبـار، فـركب بخلف الخليـفـة من داخل قاعة الذهب بالقصر وخرج وجميع الاجناد والامرا يمشـون في ركابه بالسيـوف المجبـودة [مـشـهـرة]،

جودفروا دى بويون من العساكر نحو الفين من المشاة و٣٠٠ من الفرسان ـ من اولئك الذين أرادوا ان يستقروا جديا وزمنا طويلا فى الارض المقدسة . واعتبر كثيرون من كبار القواد ومنـهم روبرت النورمندى، وروبرت الفلمنكى، وريمـون دى تولوز، وبودوان دى بورغ، ان رسـالتهم قد تحققت وانتهت. وعادوا مع اتباعهم الى الوطن؛ وغادر آخرون القدس وراحوا الى سوريا الشمالية حيث عكفوا على اغتصاب الاراضى. واحتاج بودوان الاول (١١٠٠ـ ١١١٨) الى العساكر. فى البدء علق آماله على تدفق مجموعات جديدة من الصليبيين من الغرب.

ذلك ان موجة جديدة من الحركة الصليبية نهضت فى اوروبا في سنة ١١٠٠ واعتبرت صدى مباشرا ومواصلة لحملة القدس التى كانت قد انتهت للتو.

فقد احدث نبأ فتح المدينة المقدسة انطباعا قويا فى الغرب. وان اقاصيص العائدين من سوريا وفلسطين عن الغنائم الخارقة الغنى المحققة في الشرق قد هيجت كثيرين ممن بقوا فى معزل عن الاحداث. وبامر من البابا باسكال الثانى، شن رجال الدين حملة نشيطة من المواعظ. وعقد ممثلو الكرسى الرسولى الذين وصلوا الى فرنسا مجمعا كنسيا فى فالنس اولا، ثم في بواتيه. وقد لعب هذا المجمع دورا كبيرا جدا فى ظهور وانتشار قوات الصليبيين الجديدة.

وكان له يوم مشهور لم يرى فى ايام الدنيا مثله ووزر وملك. ولما كمل له شهر فى الملك نادى بالقاهرة ان يرفعوا النصاره عذب عمايمهم ويشدوا زنانيرهم، واليهود خرقة صفرة فى عمايمهم. واقام فيها ستين يوما ومات فى اليوم الخامس من جمادى الاول من السنة المذكورة ووزر الخليفة بعده فى حياة الخليفة الملك الناصر صلاح الدين وانعت بالملك الناصر صلاح الدنيا والدين سلطان الاسلام

جنازة الملك بودوان الذى كان يعبر نفسه كما كتب فى وثائقه: «أنا بدوان، الذى نال مملكة القدس بمشيئة الله».

والمسلمين جامع الايمان قامع عبدة الصلبان محيى
دولة امير المومنين. وكان صلاح الدين اسمه
يوسف ابن نجم الدين ايوب اخو اسد الدين
شيركوه فوقع يوم جلوسه بين يدى الخليفة توقيعاً
بخط القاضى الفاضل ولفظه، وكان اسم القاضى
الفاضل عبدالرحيم ابن علي ويعرف بالبيسانى،
كان ابوه قاضى بيسان وكان عالم فاضل يفعل
الخير مع كل احد مشكور محبوب كل احد

افتتح المجمع فى ١٨ نوفمبر ١١٠٠، فى يوم الذكرى السنوية الخامسة لمجمع كليرمون. وببلاغة اقنع مفوضو البابا الكاثوليك الغربيين «بتقديم العون للمؤمنين فى حرب الرب».

وبالنتيجة، تحركت باتجاه الشرق فى سنة ١١٠٠ جماهير جديدة، كبيرة جدا من الناس. وقد انطلقت بصورة رئيسية من المناطق التى كانت حتى ذاك قد تأثرت بصورة ضعيفة نسبيا بالنهضة الصليبية التى شملت اوروبا فى سنة ١٠٩٦.

اجتمع اكبر عدد من العساكر فى لومبارديا، بامرة رئيس الاساقفة انسلم من ميلانو. وكانت العساكر تتألف اساسا من فقراء الارياف والمدن اشبه بجموع بطرس الناسك. وفى ربيع سنة ١١٠١، بلغ اللومبارديون القسطنطينية. ورغم فشل التجربة مع الحملة الصليبية الاولى، قرر الامبراطور الكسيوس الاول ان يجرب هذه المرة ايضا استغلال عساكر الغرب فى مصلحة بيزنطة، ضد سلجوقيي آسيا الصغرى. بل انه حاول اقناع ريمون دى تولوز، الموجود آنذاك فى القسطنطينية، بترؤس العساكر اللومباردية. وامد الامبراطور اللومبارديين بفصيلة من الروم تضم ٥٠٠ فرد. وبعد فترة وجيزة انضمت الى الصليبيين الجدد جموع من بورجونيا وشامبانيا، بامرة ايتيان، كونت دى بلوا، الذى سبق له ان فر من جوار انطاكية. والآن انطلق من جديد فى البحر لكى لا يسيئ الى سمعة عائلته ومكانتها. وفى القسطنطينية ظهر كذلك فرسان المان ونقلوهم الى آسيا الصغرى؛ وكانوا بامرة المدعو كونراد الذى كان فى خدمة الملك الالمانى هنريخ الرابع والذى كان يسمى فى المصادر والمراجع التاريخية بالكونيتابل.

يشكره ويدعوا له ويثنى عليه بل انه [لكنه] من طبع الادمى ان [لا] يكون كاملا لكون الكمال لله وحده لانه لم يوجد فيه قول يشوبه لقايل سوى انه اشار ان لا يستخدموا النصاره نظار على اموال الدولة ولا مشارفين فقبل قوله وعمل برايه ولم يرجع احد من النصاره يتسخدم فى نظر ولا مشارفة فى ايام دولة صلاح الدين ولا من ملك بعده من اولاده وذريته. فوقع ما مثاله، ومثال

ولكن الاحداث تطورت بنحو مغاير تماما لما حسب الامبراطور. فان اللومبارديين الذين كانوا يؤلفون السواد الاعظم من العساكر كانت تتملكهم فكرة تحرير مواطنهم فى المقام الاول ـ اى امير انطاكية الذى وقع فى صيف سنة ١١٠٠ فى اسر الامير السلجوقى غازى ابن دانيشمند السيواسى. وكان الاسير فى نيكسار غير بعيد عن ساحل البحر الاسود. واخفقت جميع جهود الامبراطور الكسيوس الاول وريمون دى تولوز، وايتيان دى بلوا فى صرف اللومبارديين عن هذه الفكرة السخيفة. وفى ٢٣. يونيو ١١٠١ فتح الصليبيون انقره وسلموها لبيزنطية، وفقا لقسم التبعية الذى سبق ان حلفه رؤساء جحفلهم للامبراطور.

فى ذلك الوقت، تشكل تحالف قوى من الحكام السلجوقيين لمواجهة زحف الافرنج الجديد؛ فضد الصليبيين هب سلطان قونية قلج ارسلان الاول والاميران غازى المالك السيواسى ورضوان صاحب حلب. وفى اواسط يوليو ١١٠١، منى الصليبيون بهزيمة ماحقة فى جوار مارسيوان (مرزفون)، على بعد نحو ٢٥٠ ميلا من نيكسار. كذلك لم تنفع هذه المرة الحربة المقدسة التى اخذها ريمون دى تولوز معه. ولم ينج من الموت سوى القادة الذين ولوا الادبار «فى الوقت المناسب» علما بان حامل الذخيرة النفيسة كان بالذات اول من فارق ساحة الوغى. وسقط عشرات الآلاف من اللومبارديين والفرنسيين والالمان تحت ضربات السيوف والرماح السلجوقية، واما وقعوا فى الاسر وبيعوا عبيدا.

العلامه: الحمد لله وبه توفيقى، خرج الامر العالى الناصرى زاد الله تعالى امضايه، بمسامحة الامرآ والشادين والحماه والمتصرفين والعمال والمستخدمين والضمنا والبادلين والمستوفيين والموفيين وكافت الناس اجمعين، بالبقايا الداثره والاخلاف المخرجة، والخطوط المخلدة والنفقات المردوده، والحواصل المساقة بالقلم وليست

والمصير الفاجع ذاته كان من نصيب طابورين آخرين من المؤخر الصليبى انطلقا من فرنسا والمانيا. كان احد الطابورين بامرة فيكونت نيفر، غليوم الثانى والدوق اودو البورجوندى، الذى اشترك قبل ذاك بقليل فى الحرب ضد العرب فى اسبانيا، والذى حرمه البابا من الكنيسة لنهبه ضياع دير كلونى. وكان الطابور الثانى الذى انضم اليه الصليبيون من فرنسا الجنوبية والمانيان الجنوبية بامرة غليوم التاسع دوق اكيتين، الذى اشتهر كشاعر ومغن جوال، وفلف الرابع ، دوق بافاريا، الذى كان فى سنوات الصراع من اجل العرش خصما للملك الالمانى هنريخ الرابع. و بين هؤلاء الصليبيين، برز هوج فرمندوا الذى سبق ان عرفناه، والماركجرافينيا ايدا النمساوية، وتيمو، رئيس اساقفة سالزبورج.

سار الطابوران وتصرفا كلا منهما بمعزل عن الآخر . وبعد محاولة فاشلة باقتحام قونية فى ١١٠١ ، منى غليوم، فيكونت نيفر، بهزيمة ماحقة على يد السلجوقيين الى الشرق من قونية، قرب هرقلة ؛ الا أن بقايا قواته استطاعت ان تهرب، ووصلت فى آخر المطاف الى انطاكية. ثم ان صليبيى غليوم، دوق اكيتين، الذين قاموا بمسيرة عسيرة فى ربوع آسيا الصغرى، وانهكهم الجوع والعطش، وتكبدواخسائر كبيرة فى الارواح، لقوا المصير الفاجع نفسه بعد بضعة اسابيع: ففى جوار هرقلة، وقعوا فى كمين نصبه قلج ارسلان.

وهكذا اخفقت كليا الحملة الصليبية فى سنتى ١١٠٠ – ١١٠١ مما دفع بمدون الاخبار

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

بموجودة، والاوقات الحكميه وسفاتج(*) المراكب الديوانيه، وزايد المساحات، وفواصل الاقطاعات، وما تشهد به الدواوين من المعاملات على اختلاف اسبابها وتباين ابوابها واسبابها، وما يتبع ذالك من المواريث الحشرية والاوقاف الشرعية، وسفاتج المراكب المحمية. جميع ذالك الى اخر سنة ثلث وستين وخمس ماية [٨٨٤ قبطية = ١١٦٧م] مسامحة تشمل: الامير المامور والغيب والحضور

(*) سفاتج: مفردها سفتج وتعني دفع الأجر بالآجل. وهي كلمة فارسية دخلت في اللغة المصرية في العصور الوسطى.

فولهير من شارتر ان سمى هذه الحملة الصليبية بالحملة الثانية). وقد هلكت اغلبية عناصرها في آسيا الصغرى، الا ان بضع مئات من الصليبين استطاعت الوصول الى القدس.

نحو ذلك الزمن، كانت قوات الصليبيين الذين استولوا على القدس في سنة ١٠٩٩ قد انخفضت بصورة ملحوظة؛ فان كثيرين منهم قد عادوا الى الوطن. ومع ذلك، واصل الباقون شن الغارات الاغتصابية في اراضي سوريا ولبنان وفلسطين. وقد استرعت المدن الساحلية الغنية التي كانت مركز تجارة المشرق انتباه الصليبيين. ولكن فتحها لم يكن سهلا؛ فقد لقيت المدن العون من مصر. ذلك ان حكام المدن المينائية كانوا يعرضون على زعماء الصليبيين فدية كان هؤلاء يقبلونها احيانا كثيرة. ومع ذلك، استطاع الصليبيون، بمساندة اسطول البندقية واسطول جنوه اللذين قطعا المواصلات بين موانئ القسم الشرقي من البحر المتوسط وبين السفن المصرية، ان يرسخوا اقدامهم، خلال السنوات التي اعقبت فتح القدس، في عموم ساحل سوريا ولبنان وفلسطين. وقد فتحوا المدن واحدة تلو اخرى: في سنة ١١٠١ حيفا، ارسوف، قيسارية؛ في سنة ١١٠٤ عكا؛ في سنة ١١٠٩ طرابلس (بعد حصار دام زهاء سبع سنوات)، صيدا، بيروت؛ وأخيرا في سنة ١١٢٤ صور.

وعلاوة على الدول الثلاث التي انشئت من قبل، تأسست في الاراضي المفتوحة دولة

والاغنيا والفقرآ والاقويآ والضعفآ لا يستثنا فيها بالحواصل المشخصة، والذخاير المخصصة والنفقات التي هي من التبعات مخلصة، فانها عدة الجهاد وماوونة [مؤنه] الاسعاد، ابتغآ للثواب وطلباً للزلفى وحسن الما آب، فليكتب بذالك مساطير [منشورات] تقرى فى ساير اعمال الدولة بعد ثبوته بحيث يثبت مثله ان شا الله تعالى. واستقر الملك الناصر في الوزارة ونفذ قوله وفعله، وكان يعضده

اخرى، هى كونتية (او امارة كما تسمى فى بعض المراجع العربية) طرابلس (الى الشمال من مملكة القدس).

اخذت اراضى دولة الصليبيين تتسع تدريجيا؛ فقد اشتملت على مناطق فى المجرى الاعلى من نهر الفرات، ثم على رقعة ضيقة فى سوريا الغربية، ثم على عموم فلسطين وكذلك على قسم فيما وراء الاردن ومن شبه جزيرة سيناء. وجميع هذه الدول (اى مملكة القدس وكونتية الرها وكونتية طرابلس وامارة انطاكية) يجمعونها عادة فى الادب تحت اسم واحد ـ مملكة القدس اللاتينية. وفى هذه الإمارات، اصبح ابرز زعماء الصليبيين حكاما: فى الرها ـ بودوان ثم ورثته بعد ان صار ملك القدس؛ فى انطاكية ـ بوهيموند الذى حاول بجميع الوسائل فيما بعد ان يوسع ممتلكاته؛ فى طرابلس، ورثة منافسه ريمون دى تولوز (فان ريمون نفسه قد مات فى سنة ١١٠٥ اثناء حصار هذه المدينة)؛ وقد احتفظ بتاج ملوك القدس اخلاف جودفروا دى بويون، ملوك سلالة الاردن ـ انجو (ومرد الاسم المزدوج الى ان عرش القدس قد شغله فى سنة ١١٣١ صهر بودوان الثانى (١١١٨ ـ ١١٣١)، الفرنسى فولك دانجو (Foulgues)، الذى اخذ ورثته مذ ذاك يحكمون فى القدس).

ان الصليبيين الاوائل كانوا مدينين بانتصاراتهم الى تلاحمهم ووحدتهم اللتين يتحدث عنهما مدونون الاخبار اللاتين باسهاب اقل مما الى انقسامات العالم الاسلامى فى المقام الاول.

في ذالك الوقت اخـــوه العـــادل ابو بكر، وتاج الملوك، والاجل المعظم شمس الدولة. ومات شمس الدولة في ايام دولته في مدينة الاسكندرية بعد ان عمل مع المصريين من الخير ما يقصر اللسان عن وصـفـه رحـمـه الله ورضي عنه، ومـات تاج الملوك اخـيـه على ظاهر مـدينة حلب عندمـا حـاصـرها صـلاح [الدين] بسـهم خـرج رمى بها من قلعتها فاصابه في ركبته فمات، وكان كريما لبيباً فاضلا

ففى الشرق لم يواجهوا كتلة متكاملة، واحد موحدة من الاعداء، بل واجهوا خليطا متنافرا و مبرقشا من كيانات السلجوقيين والمصريين، ومن امرائهم الكبار والصغار الذين لا لحمة بينهم. كان العالم الاسلامى منقسما على نفسه. وكان تمزقه السياسى يرافقه التبعثر الدينى؛ فان السلجوقيين السنين لم يجدوا لغة مشتركة مع الشيعيين المصريين، ناهيك بان الصراع كان محتدما بدوره في صفوف الشيعيين بين مختلف التيارات والملل. وبالنتيجة لم يلق الفاتحون الرد اللازم في الشرق، واستطاعوا، وان بثمن خسائر كبيرة، ان يوطدوا سيطرتهم لعشرات السنين في الاراضى الغنية في سوريا ولبنان وفلسطين.

لبى امتلاك القسم الشرقى من البحر المتوسط المطامع المغرضة لبضع مئات من الاقطاعيين المدنيين والكنسيين فى اوروبا الغربية. وضحى بالجماهير الشعبية لاجل هذه المطامع؛ فان المشتركين في الحملة الصليبية الاولى ـ وكذلك في الحملات التالية التى منيت بالهزائم الماحقة ـ لم يكونوا بنصفهم او حتى باغلبيتهم من عداد الاقطاعيين، بل كانوا من الفقراء، وبصورة رئيسية من الفلاحين، ممن انطلقوا الى اقطار يجهلونها بحثا عن نصيب افضل، ولكنهم لم يجدوا هناك غير الموت. لقد كانت الحملة الصليبية الاولى مذبحة هائلة كانت شعوب الغرب ضحيتها، قدمتها ومثلت مسرحيتها البابوية والكنيسة الكاثوليكية والاوساط العليا من الطبقة الاقطاعية خدمة لاهدافها الاغتصابية المستورة بالرايات الدينية.

عـالما يقـول الشـعـر وله منه ديوان. وكـان مـقـدم عـسكر الملك ومشيره الاجل تقي الدين عمر ابن شاهنشاه وكان ذوى راى صايب وتدبير جيد وكان له على الاجناد هيبـة ينصف المظلوم من الظالم وكان اذا حكم بين اثنين يقعدهما بين يديه جلوس معه ولا يحابى للغنى ولا يهضم جانب الفقير وياخـذ الحق من الظالم ولو كـان ولده. وبعـد مـا جرى من فتح الساحل الذى نشرحه فيما بعد

الحروب الصليبية فى القرن الثانى عشر

انتقام السلجوقيين. موعظة برنار من كليرفو

بينما كان صليبيو الاجيال الاولى يستقرون فى ممتلكاتهم فيما وراء البحار ويجهدون لتوطيد سيادتهم، بدأت الامارات الاسلامية تتراص وتتلاحم تدريجيا . ففى الشرق، تأسست اتحادات للسلجوقيين متفاوتة الكبر. واخذ الدخلاء الغربيون يواجهون من جانبها ردا مشتدا اكثر فاكثر . وسنة بعد سنة، كانت تتفاقم العلاقات بين الصليبيين وبيزنطة. وفى بيزنطة كانوا يرمقون

مـضى الى اقليـم اخـلاط من بلاد العـجم وكـانه [وكان] في يد نكتم [نكتـمـر] من ملوك العـجم، فقـاتله وكسره واخذ منه البـلاد ومـات هناك ومـا بعده [ومن بعده] ولده. ولما كان فى جمادى الاخر سـنة خـمس وستين وخـمـس مـاية ٨٨٦ قـبطيـة= ١١٦٩/١١٧٠م] بلغ الملك الناصر صـلاح الدين عن موتمن الخلافة جوهر استاذ العاضد انه خرج من القـاهرة الى الحـزانيـه [شـمـال شبـرا] وكـانة

- -

بعين الحذر مملكة القدس التى كانت اراضيها تخص الامبراطورية فيما مضى. وكانت الامارة النورمانية فى انطاكية تثير امتعاضا قويا جدا فى اوساطها الحاكمة. وكان اسطول الروم وقواتهم البرية تعتدى بين الفينة والفينة على حدود هذه الدولة التى اسسها بوهيموند اى امارة انطاكية. وقد توتر الوضع بالغ التوتر عندما استولى الامبراطور البيزنطى يوحنا الثانى كومنينوس (١١٨ ـ ١١٤٣) على قيليقيا الارمنية واقترب مع قواته من انطاكية فى ١١٣٧ واكره اميرها ريمون دى بواتيه على ان يصبح من اتباع القسطنطينية. صحيح ان يوحنا نفسه تعهد بان ينتزع لاجل انطاكية بضع مدن من السلجوقيين (حلب، شيزر، حماه، حمص)، ولكنه لم يف بوعده. وفى سبتمبر قام بمحاولة للاستيلاء على انطاكية، الا ان اقتراب الشتاء اجبره على التراجع. وفى سنة ١١٤٣، قتل سهم سام يوحنا الثانى اثناء الصيد. ولكن الخطر البيزنطى على القدس ظل مخيما.

فى اغسطس و سبتمبر ١١٤٤ شن خلفاء يوحنا الثانى، الامبراطور ما نويل (عمانوئيل) كومنينوس (١١٤٣ ـ ١١٨٠) حملة على انطاكية على درجة من الشدة بحيث هزم الامير ريمون واجبره على المجئ الى القسطنطينية وتجديد يمين التبعية.

وفى هذه الاثناء، سدد السلجوقيون إلى الصليبيين اول ضربة جدية. وبداية انتقامهم سنة ١١٣٧، حين اقتحم قائد قوات دمشق كونتية طرابلس وسحق الفرسان هناك. ووقع بونتى

[وكانت] اقطاعه، ونزل في المنظرة التي لها المظلة على البستان، وقد عزم على انه يقيم فيها الى نصف الليل ويسرى مع العرب [ثم] يمضى الى الفرنج يستنجد بهم ويحضرهم الى القاهرة لمحاربة الملك الناصر واخراجه منها، لانه لما تمكن في المملكة خاف منه الخليفة والاستاذين فجهزو موتمن الخلافة للرواح [للذهاب] للافرنج يجيبهم لكونه من خواص الخليفة، وكان يقبل قوله ويعمل

كونت طرابلس اسيرا وقتل. وفي صيف ١١٣٧ دخلت قوات اتابك الموصل عماد الدين زنكي طرابلس. وهذه المرة اسر السلجوقيون الكونت ريمون الثاني مع عدد كبير من الفرسان. وفي السنوات التالية اخضع عماد الدين زنكي لسلطته عددا من الامارات السلجوقية في بلاد ما بين النهرين (العراق حاليا) وسوريا الشمالية. ومن الطريف ان مملكة القدس ساندت دمشق في سنة ١١٣٩ اثناء حروب عماد الدين زنكي ضد دمشق؛ وآنذاك كان الملك فولك هو الذى اجبر قوات الموصل على التراجع. ومع ذلك، احرز عماد الدين زنكي الهيمنة في سوريا فيما بعد، لا جئا حينا الى القوة المسلحة وحينا الى الديبلوماسية وعقود الزواج. وكل هذا اتاح له دفع قواته في اكتوبر ١١٤٤ الى اراضي كونتية الرها ومحاصرتها في ٢٨ نوفمبر. فهرعت الى نجدة المدينة فصائل الفرسان من مملكة القدس، وقد ارسلتها الوصية على العرش ميليساندا التي كانت تحكم اثناء حداثة بودوان الثالث، ولكن هذه الفصائل وصلت متأخرة جدا. ففي ٢٤ ديسمبر ١١٤٤ استولى عماد الدين زنكي على المدينة ودمر قسما كبيرا منها، ثم استولى على كثير من مناطق الكونتية. ان عملية طرد الافرنج من ممتلكاتهم، التي بدأها عماد الدين زنكي في كونتية الرها قد واصلها ابنه نور الدين محمود ابن زنكي [١١٤٦ — ١١٧٤] الذى وسع كثيرا أراضي السيادة الاسلامية. وحرر وادى الفرات من سيطرة الافرنج.

برايه لانه اكبر من فى قصره من الاستاذين، فندب السلطان الطواشى قراقوش وكان ايضا خصياً وكان به خصيصاً، وجرد معه ماية فارس فادرك موتمن الخلافة في المنظرة فاستدعاه ينزل له فلم يفعل بل اغلق باب المنظرة عليه وامر اصحابه ان يقاتلوه، فحاصره قراقوش وقاتله وقتله واخذ راسه بعد ان احرق المنظرة بالنار وعاد الى القاهرة. فاجتمعو السودان وزحفو لقتال السلطان داخل

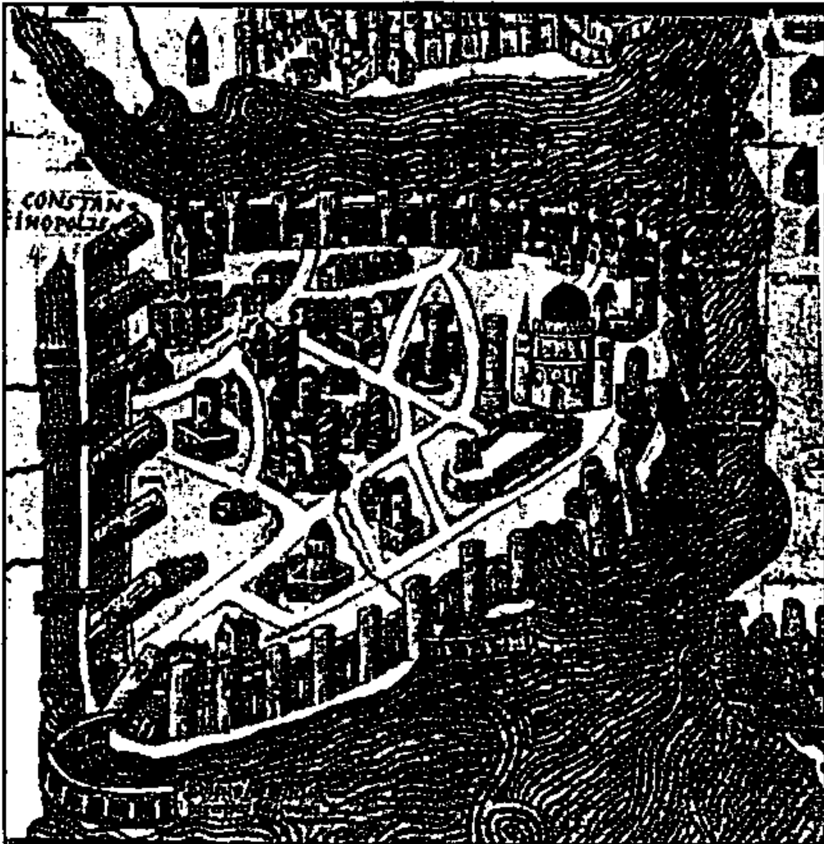

القسطنطينية (*)

القاهرة لما سمعو بقتل موتمن الخلافة جوهر، فنصر الله السلطان عليهم وظفره بهم، فلم يقتل واحد منهم بل قال: لا لوم عليهم لانهم قاتلو عن سيدهم وخليفتهم، فابقى عليهم وتقدم لهم ان لا يقيمو معه فى القاهرة ويسكنو باى ما ارادو من الريف والصعيد وغير ذلك من البلاد، بل القاهرة لا يقيمو معه فيها فخرجو منها الى الارياف

خلق سقوط الرها خطرا جديا على جميع دول الصليبيين الاخرى فى الشرق الادنى، وفى المقام الاول على انطاكية. وفى نوفمبر ١١٤٥ أرسلت رسل من القدس وانطاكية الى بابا روما اوجينوس الثالث. ووصل الى مدينة فيتربو (ايطاليا) اسقف جبلة بطلب اتخاذ التدابير لكى تحمى «بسالة الافرنج المظفرة»، ممتلكات الكونتات والفيكونتات الشرقية من الاعتداءات الجديدة.

في ذلك الوقت كان الوضع السياسى الداخلى فى اوروبا يتطور فى غير صالح البابوية؛ فمن جديد تأزم ما يسمى بالصراع من اجل تعيين الاساقفة Investiture وتعقدت العلاقات مع مملكة صقلية، وفى روما نفسها وقفت ضد البابا الفئات الدنيا من ذات المزاج الجمهورى من سكان المدينة (وهذه الحركة ترتبط باسم ارنولد دى بريشيا ـ Arnold de Brescia ـ الواسع الشهرة)؛ وكان يخيل ان البابا لا يمكن ان يفكر فى مغامرات جديدة فى الشرق. ومع ذلك، وقع فى اول ديسمبر ١١٤٥ بولا (مرسوما) يدعو الى الحرب الصليبية. وكان ذلك اول مرسوم صليبى فى التاريخ تتخذه البابوية. وقد وجه البابا اوجينوس الثالث هذا المرسوم الى فرنسا داعيا الملك لويس السابع الى النهوض للدفاع عن الدين والايمان. وطالبه البابا بتجهيز القوات لاجل الانتقام من المسلمين، ووعد المشتركين فى الحملة بحماية الكرسى الرسولى التامة، وغفران الخطايا، والاعفاء من الاتاوى. وللحصول على الاموال للاشتراك فى

والصعيد وتفرقو فى جميع ديار مصر من برج دمياط الى برج اسوان.

وكان نازل فى اعمال الغربية فرقان [قبائل] عرب كثير منهم قبيلة واحدة تسمى بنى شلش تزيد عن عشرة الف فارس نافقو واخافو السبيل، فخرج اليهم الاجل تقى الدين بعسكره فطحنهم وسباهم واخذ نساهم واولادهم واموالهم ومواشيهم ولم يبق منهم رجل فى بيت شعر يوجد.

الحرب، سمح للفرسان برهن عقاراتهم وضياعهم. ومن جديد، كما منذ ٥٠ سنة، قامت فى الغرب حملة واسعة فى صالح الحملة الصليبية: قبر السيد المسيح فى خطر!

كان برنار، رئيس جمعية الرهبان السيسترسين البورجونى الواسع النفوذ، رئيس دير كليرفو (١٠٩١ ـ ١١٥٣) من اكبر ملهمى الحملة الجديدة الى الشرق همة وعزيمة، ومنظمها المباشر. فاليه بالذات عهد اوجينوس الثالث بالدعوة الى الحرب المقدسة. اما البابا نفسه، المستغرق فى شؤونه الايطالية والاوروبية العامة، فلم يكن بمقدوره ان يهتم مباشرة باعداد هذا المشروع. اما برنار، رئيس دير كليرفو، المتعصب تعصبا قتاليا اعمى، والذى لقبه معاصروه بالذات «غول زماننا»، والذى رفعته الكنيسة فيما بعد الى مصاف القديسين، فقد كان يبدى من زمان بعيد اهتماما كبيرا. بمصائر دول الصليبيين. وقد اسهم، فى تأسيس جمعية الهيكليين. وقد دعاهم برنار الى ابادة المسلمين بلا شفقة ولا هوادة، والى الاستيلاء على اراضى «اعداء المسيح» لما فيه مجد الكنيسة، والى نشر سلطة الكرسى الرسولى هناك. وقد كتب برنار فى مؤلفه «كلمة ثناء على قوات فرسان الهيكل الجديدة»: «قد لا يصح قتل الوثنيين لو كان من الممكن منعهم بوسيلة ما اخرى عن ضمر عداوة مفرطة للمؤمنين اوعن اضطهاد المؤمنين. اما الآن فمن الافضل ابادتهم». وكان ذلك احد البنود الاساسية فى برنامج الكاثوليكية

ودانت له البــلاد وكــثــر الامن والرخص فى ايام دولته، واظهر من العدل ما لم يسبقه احد اليه.

واخبر صفى الدوله استاذ الجهة الظافر به [أن] ابن شـمس الدولة اخـو صـلاح الدين دخل الى القصر ليلا وطلب الخليفة، فلما اعلمو الخليفة بانه يطلبـه مص الخـاتم المسـمـوم الذى يعـملوه الملوك للموت عند الغلبـة ليـلا يقعـو فى ايدى اعـدايهم فيهينونهم ويعذبوهم فيرون الموت اخيـر لهم من

المقاتلة؛ وهذه البنود تقدم بها هذا الحبر الذى اخذ على عاتقه دور الواعظ الرئيسى بالحملة الصليبية الجديدة.

وفى القـرن الثانى عشـر، كـما فى عشـيـة الحملة الصليـبيـة الاولى، تأجج جـو الصـراع الاجتماعى فى الغرب من جديد. فقد استاء الاقنان من الاتاوى التى لا تطاق ومن استبداد الاسياد. ونهض فى وجه الاقطاعيين الدنيويين والكنسيين خصم جدى جديد هو المدن التى ابدت فى القرن الحادى عشر اولى علائم الحياة، وذلك فى ايطاليا الشمالية وفرنسا بصورة رئيسية. ونحو ذلك الزمن كانت قد نمت نموا عاصفا فى المانيا وانجلترا. وكان الفلاحون الاقنان الساعون الى نيل الحرية يهربون الى المدن للاحتماء داخل اسوارها. وكان ثمة مثل شعبى يقول: «هواء المدينة يجعل الناس احرارا». وهؤلاء الفلاحون الهاربون الذين اخذوا يمارسون الحرف هم الذين هبوا ضد نير الاسياد؛ واحيانا كانوا ينالون الاعتراف بحرياتهم فى غمرة الكفاح المسلح السافر ضد الكونتات والاساقفة.

كانت روح الفتنة والعصيان تنتشر بصورة اوسع فاوسع. كانت حركات الهراطقة التى تفصح عن احتجاج الفئات الدنيا من سكان الارياف والمدن على النظم والاوضاع الاقطاعية تنشب تارة هنا وطورا هناك. كان ذلك زمنا ولدت فيه «الف هرطقة» كما قال المفكر ابيلار (Abélard). وقد نشأت الهرطقات وتنامت فى فرنسا والفلاندر وانجلترا ومناطق المانيا على

الاهانة والعذاب، فلما مصه مات. وقال غير صفي الدولة انه اخذ حيا وساله موضع كنوزه وامواله. فلم يعرفه اياهم فاخذ عمامته من على راسه وخنقه بها حتى مات. واخبر ايضا رجل من اهل قصره انه كان قبل ان يقتلوه قد شرب الخمر مع صلاح الدين وشمس الدولة وسمع الغنا بحضرتهم عنده في مجلسه فلما انقضى المجلس

ضفاف نهر الراين. وعكفت الكنيسة الكاثوليكية بكل حزم وعزم على استئصال الهرطقات؛ وكان برنار، رئيس دير كليرفو، على وجه التحديد، قد خلق لنفسه قبل الحملة الصليبية شهرة خانق شرير وحقود لحرية الفكر. فانقض بجميع العقوبات على ابيلار «الكافر» الذى تجاسر على تمجيد قوة العقل خلافا لمكانة العقائد الكنسية، وعلى اتباعه العديدين . وفي القرن الثاني عشر كانت تتأجج المواقد التي كانت الكنيسة تحرق فيها الهراطقة. ولكن روح التمرد والعصيان استعصت على النار.

وفي هذا الوضع، جاءت الهزيمة التي انزلها السلجوقيون باحدى الدول الصليبية في الشرق مناسبة تماما للكنيسة، فقد قررت الاوساط العليا الكنسية ان تؤجج من جديد نيران التعصب الديني القتالي، حاسبة ان تتمكن بواسطته من وضع حد لا مزجة التمرد والعصيان في الغرب: فلتغرق موجة الحماسة الصليبية التي تثيرها الكنيسة حريق الاستياء الشعبي المتوهج.

وقد تم استغلال سقوط الرها لاجل اطلاق النداء من جديد الى حرب الخلاص ضد «الكفار». وكما في اواخر القرن الحادى عشر، جعلت الاوساط العليا في الكنيسة الكاثوليكية مهمتها الاساسية تأمين ازدهار وسيادة الطبقة الحاكمة في الغرب؛ وكما في ذلك الوقت،

وقـام من كـان عنده من اخـوة السلطان خلى
بسريته وطلبها على نفسها فاجابته الى ما طلب
وكـان في وسطه سـراويل ديبـقى ذهب مكلل
بجواهر من جانبيه، ونكلته مكللة مثلة بجواهر
يساوى جمال[جملة] مال استوهبته منه فوهبه
لها، فجابته لصلاح الدين يفتخر [تفتخر] به
عليه، فاخذه واحضر القاضي والشهود والفقها
ونظم بذالك مسطور وسيره الى العراق وبغداد

حاولت في الوقت ذاته ان تلبى مصالح الاقطاعيين الدنيويين والكنسيين الانانية الجشعة وان تعزز مكانتها وسلطاتها.

في ٣١ مارس ١١٤٦وصل برنار من كليرفو الى مداولة لبارونات الفرنسيين وكبار رجال الكنيسة والفرسان الاعيان في فيزليه (بورجونيا). ومن على مرتفع اقيم في حقل مفتوح، تكلم امام جمع الناس، وتلا البول (المرسوم) الصليبي الذى اقره البابا، والقى خطابا ناريا بصدد ضرورة حرب مقدسة جديدة. كذلك اخذ برنار يوزع في الحال هناك شارات الصليب، المعدة سلفا. وحين لم تكف الشارات، مزق برنار لباسه الرهباني وصنعوا منه كذلك صلبانا.

استجاب كثيرون من الفقراء ولاسيما من تلك الانحاء التي اصابها القحط والجوع مؤخرا لدعوات برنار من كليرفو والوعاظ الكنسيين الذين وزعهم في جميع الاتجاهات. ومع ذلك، لم تلاحظ على العموم في امزجة الريف آنذاك تلك الحماسة الدينية التحررية العفوية والجماهيرية التي رافق نهوضها بداية احداث سنة ١٠٩٦ . بل ان اخبار المعاصرين تعكس حتى اصداء الاستياء الشعبي الذى تبدى هنا وهناك لمناسبة تحضير الحملة الصليبية. وكان فرض اتاوة على جميع سكان المملكة الفرنسية لسد حاجات الحملة الصليبية سببا جوهريا من اسباب هذا الاستياء. وهكذا بدأت الحرب المقدسة، كما قال احد مدوني الاخبار، بخزى وعار، اى بنهب الفقراء.

وطلب الفتيا: هل يجوز للخليفة يشرب الخمر ويفسق . فافتوه الفقها انه اذا ثبت ذلك عليه يخلع من الخلافة. فلما وقف على الفتيا تقدم الى اخيه شمس الدولة بالركوب الى القصر ليلا والتلطف فى قتل الخليفة على ما قدمنا ذكره. وكان وفاة العاضد لدين الله وهو تمام اربعه عشر خليفة لبيت الفاطميين فى سنة سبع وستين وخمس مايه هلالية [٨٨٨ قبطية = ١١٧١/ ١١٧٢م] وتسلم الملك

وهذه المرة ايضا التحقت بالفرسان جموع من الفلاحين الاقنان. وعن دوافعهم كتب مدون الاخبار غرخو من رايخسبرج بصورة معبرة: «اما الفلاحون، والاقنان التابعون للسادة، فقد طرحوا جانبا محاريثهم وتناسوا الفرائض.. فقد قام سوادهم الاعظم بصورة غير معقولة بهذه الحملة البالغة المشقة، أملا فى ان يأكل فى هذا المشروع المقدس للغاية مأكلا مثل الذى نزل من السماء على شعب اسرائيل» (يقصد مدون الاخبار حكاية التوراة عن خروج اليهود من مصر؛ ففى الصحراء انعم الرب عليهم «بخبز من السماء» او «بالمن»). ولكن ، كما يستخلص مدون الاخبار بصورة قاطعة، «حصل تماما غير ما كانوا يأملون فيه».

فى هذا المقطع يتبدى بكل وضوح السبب الذى ظل يدفع الاقنان الى درب الرب، وهو السعى الى قطع علاقات التبعية حيال الاسياد، «تناسى» الفرائض.

فى الحملة الصليبية الثانية، اشترك الملوك للمرة الاولى: الملك الفرنسى الشاب لويس السابع الذى استجاب فى الحال لبول البابا اوجينوس الثالث، والملك الالمانى. كونراد الثالث هو هنشتاوفن الذى اقنعه بالاشتراك فى الحملة برنار من كليرفو الذى تجوب فى المانيا والقى هناك الكثير من الخطابات النارية حول اهمية الحملة الصليبية لاجل خير المسيحية، فأخذ الملك الالمانى الصليب رغم انه كان مشغولا بالحرب الداخلية ضد كتلة ال فلف الاقطاعية المعادية لآل هو هنشتاوفن. وقد حدث ذلك فى ٢٧ كانون الاول (ديسمبر) ١١٤٦ فى ريخستاغ

الناصر القصر وما فيه واما التركة والاثاث فتقدم ان يحـمل منهـا الى داره مـا يصلح له ولنسـايه من الملابس والجـواهر والالى والمصـــا غ من الذهب والفضة ونحو ذالك وان ياع مالا حاجة له به من الكتب والاوانى ونحـو ذالك واقـام امينا على بيع ذالك القاضى الامير محمد ابن محمد ابن ذو الرياستين ابن بنان، فاما النفوس فانه جعل حظايا الخليفة واولاده فى دار المظفر برجوان فى حارة

شبيير حيث القى برنار خطابا صادقا مؤثرا. ونعت برنار، رئيس دير كليرفو، بجاحه «معجزة المعجزات».

وبدءا من اواسط القرن الثانى عشر، اخذت القوى المنظمة للدول الاقطاعية فى اوروبا الغربية تنضم تدريجيا، وان بصورة غير منتظمة، الى قوام المشتركين فى الحملات الصليبية؛ ومنذ ذاك اخذت تتوطد السلطة الملكية فى هذه الدول، وتنشب اشتباكات كبيرة بين هذه السلطة وبين كبار الاقطاعيين، ويتكون الجهاز الملكى للادارة والحكم، وتتشكل القوات المسلحة الدائمة، النظامية. وعلى هذه القوات فى المقام الاول يعتمد الملوك فى سعيهم الى قطع اجنحة الانفصالية الاقطاعية. هكذا كانت الحال فى مملكة الكابيتين (Capetiens) فى فرنسا وفى مملكة سلالة هوهنشتاوفن فى المانيا وفى المملكة النورمانية الصقلية، وفى انجلترا حيث كانت تحكم سلالة بلانتاجينه.

واخذت السلطة الملكية تحتاج اكثر فاكثر الى الوسائل المادية لاجل تطبيق سياستها المركزية بنجاح، الامر الذى كان يدفع الملوك الى سبيل الفتوحات. وغدا التوسع الاقليمى الواسع السمة المميزة لسياسة دول اوروبا الغربية. ومنذ اواسط القرن الثانى عشر صار البحر المتوسط اهم اتجاه فى هذا التوسع. ونحو سواحل افريقيا الشمالية، ونحو بيزنطية وممتلكات الاقطاعيين الاوروبيين الغربيين فى سوريا ولبنان وفلسطين التى كان يتهددها خطر انتقام السلجوقيين،

جـوان [بـرجـوان] بالقـاهرة، واقـام عليـهم اجناد حـراس يحـرسـون ابوابها ليـلا ونـهار ولا يمكنو من يدخل اليـهم ولا يخـرج منهـم، واطلق لهم من القوت مـا يكفـيهم برهة فلمـا صـارو اهل القـاهرة ومصـر من شيـعتـهم يحملو اليـهم شى من جراهم [مـأكلهم] قطع ذالك عنهم. وامـا الاهل والاقـارب وكلمن انتمى اليـهم من الرجـال فانه جـمع منهم مايتى رجل واكثر وجعلهم فى مـجلس المنافقين فى

صوب حكام اهم الملكيات الاوروبية انظارهم . وصار اخضاع هذه المناطق هدفا من الاهداف المركزية الملكية لسياستهم العدوانية.

ان اهتمام الملوك بقضـية الحملات الصليبية انما مرده جزئيا، بالطبع، الى اعتبارات المكانة ، ولكنه نبع بصورة رئيسية من بواعث عادية تماما ذات طابع اقتصادى.

فان البحر المتوسط غدا طريقا رئيـسيا للتجارة المنتعشة. و كان السعى الى فرض الرقابة على المناطق التى تضطلع فيه بدور جوهرى الى هذا الحد او ذاك السـبب الذى حمل ملكيات اوروبا الغربية الى صفوف المشتركين النشطاء فى الحملات الصليبية. وقد كان لكل من لويس السابع وكونراد الثالث مصلحة مباشرة فى صيانة سيادة مواطنيهم فى سوريا ولبنان وفلسطين وحتى فى توسيع حدودها. وبفضل زواج لويس السابع من ايليونور، وريثة دوقية اكيتين (Eleonera d'Aquitaine) ضمت الى التاج الفرنسى مقاطعة شاسعة فى جنوب فرنسا؛ وكانت مدن الكيتين تشترك بنشاط فى تجارة المشرق. وبهذه التجارة كانت ترتبط كذلك، بواسطة ايطاليا الشـمالية، المدن الالمانية فى ممتلكات آل شتاوفن. وهكذا بدأت تجارة البـحر المتوسط تعود بمنافع محسوسة على السلطة الملكية سواء فى فرنسا ام فى المانيا.

وكانت الاوسـاط العليا من الكنيسـة الكاثوليكية تعتبر بدورها من الجوهرى تأمين اشتراك

الايوان بالقصر وجعل فى ارجلهم قيود حديد يمنعهم من التصرف، ووكل بهم من الرجال من يحفظهم واطلق لهم من القوت مايكفيهم فلما صارو القاهرين والمصريين يدخلون لهم بالصدقات قطع ذلك [ايضا] عنهم، فصارو يعيشو من الصدقات. فسبحان الله العظيم يعز من يشآ ويذل من يشا. ومات كثير منهم فى قيوده على ماهو عليه ودفنوه به فسبحان الحى الذى لا يموت يضع

هذين الملكين فى الحملة الصليبية. ان التنافس بينهما كان من شأنه، على الارجح، ان يقلل من حظ الحملة فى النجاح، ولكن كان من شأنه ان يزيد احتمالات رفع مكانة البابوية كقوة سياسية اوروبية.

الحملة الصليبية الثانية وتصادم مصالح الدول الاوروبية فى البحر المتوسط

القرار النهائى بصدد بداية الحملة وموعدها ـ ١٥ يونيو ١١٤٧، وكذلك القرار بخط سير الصليبيين ، اتخذهما اجتماع الاعيان الفرنسيين الذى انعقد فى ١٦ فبراير ١١٤٧ فى مدينة ايتامب (فرنسا). وقد حضر رسل المانيا هذا الاجتماع. اشرف على الاجتماع برنار من كليرفو، وانبأ الحاضرين بنجاحات المواعظ الصليبية فى اسبانيا وايطاليا وانجلترا. وفى ١٥ مارس ١١٤٧ عقد الريخستاغ الالمانى جلسة فى فرانكفورت وقرر موعد السير بالحملة فى اواسط مايو ١١٤٧.

ونحو الصيف كان قد تشكل فى فرنسا والمانيا جحفلان كبيران من الصليبيين. وكان كل منهما يضم حوالى ٧٠ الف فارس، التحقت بهم جموع ضخمة من الفلاحين الفقراء، بمن فيهم النساء والشيوخ والاولاد.

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

من يشآ ويرفع من يشآ. واما جوار الخدمة وعبيد الخدمة فباعهم مع بقية التركة.

وهذه نسخة كتاب كتبه القاضى الفاضل ابن البيسانى واسمه عبد الرحيم ابن على الى امر دولة الغز فى ذلك الزمان بوفاة الامام العاضد(*) وهو اخر خلفا الدولة الفاطميين بديار مصر وهو تمام اربعة عشر خليفة وفى ايامه زال ملكهم وملك

(*) خطاب بوفاة العاضد آخر خلفاء الفاطميين.

انطلق الصليبيون الفرنسيون من مدينة متز، وعلى رأسهم الملك لويس السابع، وقد أرسل البابا إليه نائبا عنه الكاردينال الشماس جويد والفلورنسى. و مع الملك لويس السابع راحت الملكة ايليونور داكيتين. وعلى رأس الجحفل الالمانى الذى انطلق من نور نبرج وريغنسبورج، سار الملك كونراد الثالث؛ تحرك الالمان اولا، وبعد شهر سار الفرنسيون.

فى البدء اجتاز الفرسان الالمان المجر بعد ان اعطى الملك غيزا الثانى موافقته الرسمية على مرور الصليبين فى بلده. ثم ساروا فى ممتلكات الروم علما بان الصليبيين الالمان نهبوا السكان بلا رحمة ولا هوادة، رغم علاقات التحالف بين الامبراطورية الالمانية وبيزنطة.

قام التحالف بين الامبراطوريتين ـ الالمانية والبيزنطية ـ على اساس وحدة مصالحهما السياسية، وبصورة رئيسية بسبب التناقضات مع مملكة روجه الثانى النورمانية الصقلية. فقد ضم هذا الملك صقلية الى ايطاليا الجنوبية وواصل انتهاج سياسة الاقطاعيين النورمانيين الايطاليين القديمة المعادية لبيزنطة. وفى الوقت نفسه اقام شتى العقبات فى وجه سلالة هوهنشتاوفن فى محاولاتها لتوطيد سيادتها فى ايطاليا. وان التناقضات مع مملكة صقلية فى مضمار التوسع فى البحر المتوسط هى التى ادت الى التقارب بين المانيا آل شتاوفن وبيزنطة. وفى سنة ١١٤٦، ترسخ التحالف بين الامبراطوريتين بزواج مانويل كومنينوس من سلفة (اخت زوجة) كونراد الثالث، الكونتيس برتازولسباخ.

صـلاح الدين يوسف ابن نجم الدين ايوب الثـانى من ملوك دولة الاتراك:

كتـابنا هذا وارد عليك ايهـا الامـيـر الفـلانى، عندما كان من نزول قضا الله السابق، وقدره الذى انبا عنه الخبر الصادق، فيمن كان منتصباً بالقصر وموسـوما بالامر، وذالك لمرض اقتربت فـيـه ايامه واشـتـدت فـيـه الامـه الى ان انقـضـت مـعـه عـزاه وانحلت مـعـه قـواه واتاه من امـر الله مـا اتاه وتلك

ومع ذلك عـانت بيـزنطة من المزعـجات من حليـفتـهـا الالمانية. وقـد تضـررت تراقـيـا على الاخص من تهـور الفـرسـان الالمان، فـاضطر الامـبـراطور مـانويل كـومنينوس حـتى الى تهـدئة الصليبيين بالسلاح. كذلك انتقم السكان المحليون انفسهم على طريقتهم من النهابين؛ فلم يكن من النادر ان يقتل البلغار واليونانيون المقاتلين الالمان السكارى حتى الغيبوبة والمتخلفين فى الطريق؛ ولذا حين و صل الفرسان الفرنسيون الى هناك،كما يشهد شاهد عيان ، «كان كل شئ مسـمـما بنتانة جثثهم (اى جثث الالمان) غير المدفونة». وفى جوار فيليبوبول، حدثت اشتباكات ضارية بين القوات الالمانية والقوات البيزنطية. وعرض مانويل على كونراد الثالث توجيه القوات الصليبية بمعزل عن القسطنطينية، عبر هيليسبونت (الدردنيل) لاجل تجنيب العاصمة مآثم الفرسان وموبقاتهم، ولكن الحليف رفض هذا الاقتراح. وساق قواته فى الطريق القديم الذى سبق ان سار عليه الصليبيون الاوائل.

احتفل الفرسان الالمان بوصولهم الى القسطنطينية (١٠ سبتمبر ١١٤٧) باعمال النهب والسلب، واجتياح القصر الامبراطورى الواقع غير بعيد عن العاصمة، وولائم العربدة والسكر. ويروى مدون الاخبار الفرنسى اودو من ديل ، الذى اشترك فى حملة لويس السابع الصليبية بوصفه كابيللانه، ان الالمان احرقوا بضعا من ضواحى المدينة. ولكن مانويل استطاع بالتملق والقوة ان يقنع حليفه الالمانى بعبور البوسفور الى الساحل الآخر، الشرقى. ثم ان كونراد الثالث

سبيل عليها درج الاول والاخر وقضية استوى فيها الضعيف والقادر، واوجبنا له من حفظ الذمام ورفع المقام والوفا على اختلاف احكام الايام ان حضرنا الى ابوابه ونقلنا انتقاله من اسرار الامر الى اعلانه ليعلم ان الله قد استاثر بوفاته واثرنا بحسن العهد بموافاته وبلغنا الغاية فى الاجمال فى امره والتوديع له الى قبره، وطابت نفوس مخلفيه بقرارهم فى قصره وانكفينا الى مستقرنا والدهما ساكنه والدنيا

لم يكن يتحرق كذلك، من جانبه، الى اللقاء مع الصليبيين الفرنسيين ؛ فقد كان يخشى الانسياق فى دوامة سياسة العداء للقسطنطينية.

وفى اواخر اكتوبر ١١٤٧، منى الصليبيون الالمان، غير المنضبطين وغير المنظمين، والذين لم يتحلوا لا بالاحتراس ولا ببعد النظر (فلم يأخذوا من احتياطى المأكولات الا لمدة ٨ ايام) بهزيمة نكراء فى القتال ضد فصائل الخيالة التابعة لسلطان قونية فى جوار ضورليوم. وجاءت المجاعة والامراض التى قضت على افراد الجموع المسلحة الالمانية تستكمل هزيمة الصليبيين. وقد اضطر كونراد الثالث الى ان يطلب بمذلة ومهانة من لويس السابع الذى تلاقى معه فى نيقية الاذن بضم هذه البقايا السالمة من جيشه الى الجموع المسلحة الفرنسية. ولم يقرر مواصلة الحملة الصليبية غير جماعة صغيرة من الصليبيين الالمان، بينهم كونراد الثالث وابن اخيه فريدريك، دوق شوابيا (فيما بعد، امبراطور المانيا فريدريك بربروسا). والباقون، ممن سلموا، عادوا الى الوطن بخزى وعار.

منذ بادئ بدء، تعقد الوضع الدولى الذى جرت فيه الحملة الصليبية الثانية. فقد انتهج روجه الثانى سياسة اغتصابية واسعة فى منطقة البحرالمتوسط. واستأنف الهجوم على بيزنطة، مجددا تقاليد روبر غيسكار وبوهيموند دى تارنتو. وعندما سار الاستعداد للحملة الصليبية على قدم وساق فى فرنسا، وصل رسل من صقلية الى بلاط لويس السابع؛ وقد حملوا معهم،

بنظرنا امنه وقلوب الاوليا موتلفة والنية عن العراه غير منحرفة ويجب على الامير ان يوعز الى الخاطب [الخطيب] في يوم الجمعة بالدعا لمن الكلمة في الاقطار له مسموعة(*) والافاق على خلافته مجموعة الامام ابو محمد بنور الله امير المومنين مصرحا باسمه ولقبه وثبتا بما اطبق عليه المسلمين من منصبه وتوالى ذالك في كل جمعة وجماعة، ومن تعرض بيده او لسانه في امر

(*) الدعاء للخليفة العباسي في مصر بعد انقطاع دام طوال حكم الخلافة الفاطمية.

مقترحات مغرية لاجل الصليبيين ـ فقد تعهد روجه الثاني بتأمين المأكولات ووسائط النقل لهم، ومن جهة اخرى، حاولوا اقناع لويس السابع بان يختار الطريق الى الشرق عبر ابوليا وصقلية. فان روجه الثاني، «حامي المسيحية»، كما لقب نفسه رسميا، كان يريد سرا ان يجتذب الى جانبه الاعيان الفرنسيين وعلى رأسهم الملك، لاجل فتح القسطنطينية. الا ان جهود رسل صقلية لم تتكلل بالنجاح . فان الملك الفرنسي وباروناته فضلوا الانطلاق على نفس الطريق الذى انطلقت عليه القوات الالمانية، اذ ان الطريق عبر ممتلكات الامبراطور البيزنطي، حليف كونراد الثالث، كان يبدو لهم اكثر أمانة. ناهيك بانه كان معلوما ان روجه الثاني يطمع بامارة انطاكية، في حين ان سيد هذه الامارة، ريمون دى بواتيه، كان عم الملكة ايليونور وكان من اتباع الامبراطور البيزنطي. ولذا كان من شأن التقارب مع روجه الثاني ان يعقد علاقات فرنسا سواء مع الامبراطورية البيزنطية والعائلة الملكية في صقلية. ولذا قوبلت مقترحات ملك صقلية بالرفض.

واذ ذاك عمد روجه الثاني الى العمل على عهدته ومسؤليته. فعندما كان الصليبيون الالمان يتقدمون في اراضي بيزنطيا، شن ضدها عمليات عدائية. وفي صيف ١١٤٧، استولى اسطول صقلية على جزيرتي كورفو وسيفالونيا، وهدم كورنتس وثيبة ولربما أثينا، واجتاح الجزر الايونية. وتحالف «حامي المسيحية» مع مصر لكي يضمن لنفسه مؤخرة مأمونة. وكان الحاصل ظاهرة

الذاهب امس او القايم اليوم بما يحيف به حلفا وبما يصدر عن هوا يشبهه حقا فليامر الامير باذنه وليدم اليه نوسه واولى ما الزم الناس العافية فانها اسبغ عطا واسبل غطا وفي تقلب الاحوال عبرة لمن كان له قلب يسمع وهو شهيد، فليعلم الامير ذالك ويعمل به انشآ الله تعالى. كتب في العشر الاول من المحرم سنة سبع وستين وخمسماية للهجره. [١١٧١م]. وهذه السنة نهاية دولتهم

طريفة جدا : راح الفرسان الغربيون يشنون حربا مقدسة ضد الاسلام، في ذات الوقت الذى تتفق فيه دولة من الدول المسيحية الكبيرة مع سلطان مسلم، لكى تستغل بصورة غير مباشرة الحملة الصليبية في مصلحتها اى ضد بيزنطيا المسيحية. وهكذا تجلت بالفعل ، في بادئ بدء هذا المشروع، الوحدة الموهومة بين مصالح المسيحيين الغربيين.

ان افعال روجه الثانى قد وضعت الصليبيين الفرنسيين، المتجهين الى القسطنطينية، والقائمين باعمال السلب والنهب في اليونان، في وضع مبهم جدا حيال بيزنطة. وقد تفاقم الارتياب في بيزنطيا بصدد نوايا الصليبيين الحقيقية. فمن كان يعرف على ما اتفق رسل روجه الثاني ولويس السابع؟. وفي القسطنطينية كانوا لا يزالون يتذكرون كيف حاول بوهيموند منذ ٤٠ سنة ان ينظم حملة صليبية ضد الامبراطورية البيزنطية. ولكن مانويل كومنينوس حاول ان يتظاهر بالرضى. وقد وعد رسله الذين مضوا الى لويس السابع بانه سيسمح للصليبيين بشراء احتياطيات المأكولات بحرية في اراضي الامبراطورية. وكانت رسائله الى الملك الفرنسي مكتوبة بلهجة حسن النية وحتى بلهجة الصداقة. ولكن الحكومة البيزنطية اتخذت تدابيرها. ويروى اودو دى ديل ان الفرنسيين واجهوا المصاعب عند شراء المأكولات؛ فان اليونانيين «لم يسمحوا لهم بدخول مدنهم وبلداتهم، وما كانوا يبيعونه كانوا ينزلونه بالحبال على الاسوار». وقد مضى

وهى تمام مايتى سنه وسنه واحده، وملكلو قبل هذه السنة بالمغرب منهم ثلثة: المهدى ، والقايم، والمنصور اربعة وسبعين سنة. فجميع دولتهم لاربعة عشر خليفة مايتى وخمسة وسبعين سنة. وقد نقش المعــز تاريخ اول ملكهم فى بلاطــه وبناها فى قنطرة باب القنطرة اسفل فمن اراد قراتها فيقرا هناك والسلام.

الفرنسيون الى العاصمة البيزنطية كأنما فى الصحراء، «رغم انهم دخلوا ارضا غنية للغاية، مليئة بالوفرة تمتد حتى القسطنطينية بالذات».

ردا على هجوم رئيس القراصنة النورمانيين الصقليين روجه الثانى، حشدت بيزنطة قواتها. وفى الغرب تحالفت مع البندقية مانحة اياها امتيازات تجارية جديدة؛ فالى عداد المناطق التى كان لتجار البندقية الحق فى المتاجرة فيها بدون دفع رسوم جمركية، اضيفت كريت وقبرص. كذلك عمد الامبراطور مانويل كومنينوس، الحليف «الامين» للصليبيين بقدر ماهم حلفاء «امناء» للامبراطورية البيزنطية، سعيا منه لاطلاق يديه فى الشرق، الى عقد الصلح مع سلطنة قونية التى بدأت الفرسان الالمان النضال معها والتى كان عليها مستقبلا ان تقتل الصليبيين الفرنسيين.

وهكذا رأى الصليبيون انفسهم بين نارين. فمن جهة ، سدد اليهم ضربة فى الظهر ملك صقلية الذى يعتنق مثلهم الدين نفسه؛ فهو لم يوقع اتفاقية مع مصر وحسب، بل هاجم بيزنطية كذلك، الامر الذى كان أشد وقعا عليهم، اذ انه اثار فى بيرنطية عميق الحذر والريبة حيال الفرسان الصليبيين وقادتهم. بل أن روجه الثانى استطاع بمختلف الحيل الديلوماسية ان يقنع الحكومة البيزنطية بان لويس السابع يتعاطف مع سياسته. ومن جهة اخرى، تعرضت

ولما كان فى شهر ربيع الاخر سنة ثلاثة وسبعين وخمس ماية خرج امر الملك الناصر صلاح الدين بابطال جميع المكوس من الديار المصرية، صعيدها وبحريها شرقيها وغربيها وبرها وبحرها، عن كلمن فيها من المسلمين والنصارى والغنى والفقير والقوى والضعيف والامير والمامور، وامر ان يستادى الزكاة على الوجه الشرعي المامور به من الله عز وجل، فصارو الاجناد المقطعين يقوو على سكان

خطط الصليبين للخطر لأن بيزنطيا نفسها عقدت الصلح مع السلجوقيين. وكان هذا يعنى ان «الحجاج» لن يتمكنوا من دعم بيزنطية فى الحرب ضد سلطنة قونية.

فى هذا الوضع، اخذت اهمية الدوافع الدينية عند الصليبيين تقل اكثر فاكثر بينما اخذت الاعتبارات السياسية تشغل المرتبة الاولى. وعندما اقتربت القوات الفرنسية فى سبتمبر ١١٤٧ من القسطنطينية، اغلق الامبراطور امام الفرسان ابواب المدينة، «لأن الفرنسيين، ـ كما يعترف اودو دى ديل ـ احرقوا لهم (اى للروم) الكثير من البيوت ومزارع الزيتون. تعالت بين الصليبين اصوات تدعو الى الاستيلاء على عاصمة امبراطورية الروم (اى بيزنطة) والى القضاء بالتالى على هذه العقبة فى الطريق الى بلوغ الهدف من الحملة.

وفى محيط الملك لويس السابع، كما يفيد مدون الاخبار المذكور، اخذوا يعربون اكثر فاكثر عن الفكرة القائلة انه ينبغى الاتصال بروجه الثانى الذى يخوض الحرب ضد بيزنطية، وانتظار وصول اسطول صقلية، وفتح القسطنطينية مع النورمانيين. وهذا المشروع طرحه ودافع عنه بالحاح كبير الاسقف جودفروا دى لانجر. وقد لفت انتباه الفرسان الى ان تحصينات العاصمة البيزنطية متداعية، وان قوات الروم للدفاع عن المدينة قليلة؛ فاذا حاصر الصليبيون القسطنطينية، فانها سرعان ما تسقط فى ايديهم. ان هذا الاسقف التقى الورع لم يأبه البتة لكون بيزنطيا دولة مسيحية. أن اسقف لانجر، رجل «الاخلاق المقدسة» و«البالغ الحكمة»،

بلادهم وياخذو منهم المكوس، فبلغ ذالك الملك الناصر صلاح الدين وهو بالشام فى الغزاه، وكان اخوه الملك العادل ابو بكر نايبا عنه، فكتب له كتابا بخطه هذه نسخته:

المجلس العالى الملكى العادلى اعز الله نصره. يعلم انه لم يقطع احد من المقطعين ناحية من النواحى انه يستادى فيها مكسا ولا يستبيح للرعية مالا ولا يضيق فيها على مستور مشاعا [معاشا]

كما يقول مدون الاخبار، قد تفنن الى اقصى حد فى اختلاق الادلة على ان فتح العاصمة البيزنطية لن يلحق اى ضرر بقضية الصليبيين وان فتح القسطنطينية ليس الا فى الظاهر عملا يناقض المسيحية ، ولكنه لا يناقضها البتة في الواقع: ذلك ان الامبراطور البيزنطى دعم المسلمين غير مرة وحارب الصليبيين المستقرين فى سوريا محاولا ان يحتل امارة انطاكية. وهاهو الآن قد تواطأ مع عدو الصليبيين ، سلطان قونية!

صحيح ان جودفروا دى لانجر وجد عددا لا يستهان به من الانصار، الا ان البارونات القادة الفرنسيين صدوا خطط الكتلة المعادية لبيزنطيا؛ فقد كانت مفرطة فى المجازفة...

اشاع الامبراطور مانويل كومنينوس ان الصليبيين الالمان احرزوا نصرا كبيرا فى آسيا الصغرى وحتى استولوا على عاصمة سلطنة قونية، وبذلك حمل الصليبيين الفرنسيين الذين اهاجهم الحسد على الاسراع فى عبور البوسفور مع ملكهم. وفى الحال طلب من رؤسائهم حلف يمين التبعية الاقطاعية والوعد بتسليم بيزنطة المناطق التى تخصها ما ان يستولى عليها الصليبيون. وهذا المطلب عزز، اكثر من ذى قبل، التوتر فى العلاقات بين بيزنطية والفرسان الفرنسيين. ثم ان الكونت روبر البرشى انفصل عن الباقين دون ان ينسق اعماله معهم واندفع نحو نيقوميديا فى الحال. ورغم ان البارونات اقسموا، باغلبيتهم، يمين التبعية للامبراطور

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

فليكشف جـمـيع بلاد المقطعين ويحظ [يحظر] عنها جميع المظالم والمكوس فانها غير داخلة فى اقطاع المقطعين ومن رضى باقطاعـه بعـد وضع مكوسها والا فليرتجع عنه ان شاء الله تعالى.

وفى المحرم سنة ثمان وسبعين وخمسماية [٨٩٨ قبطيـة = ١١٨٢م] جمع صلاح الدين العسكر ومضى الى دمشق(*) بعد موت نور الدين محمد ابن قسيم الدولة، ففتحها وتسلمها بالامان وملكها

(*) غزوات صلاح الدين فى بلاد الشام ضد الصليبين.

مانويل، الا انه لم يقدم لاحقا اية مساندة فعلية للصليبيين، بل حاول على العكس ان يعرقلهم، لان نجاحاتهم كانت تهدد بانتهاك السلام مع السلجوقيين.

فى اوائل نوفمبر ١١٤٧ التقى الصليبيون الفرنسيون فى نيقية ببقايا الجموع المسلحة الالمانية الحقيرة التى كانت برئاسة فريدريك دى شوابيا ثم مع الفصائل الباقية القليلة التابعة لكونراد الثالث (وقد جرح هو نفسه فى القتال ضد السلاجقة الاتراك). وسارت القوات الصليبية الالمانية والفرنسية الى الامام، ولكن لا نحو اعماق البلاد، بل بسبيل غير مباشر فى ا لمقاطات الغربية والجنوبية من آسيا الصغرى. ان الخوف هو الذى اجبر الصليبيين على اختيار هذا السبيل؛ فقد تخوفوا من التعرض للمصير الفاجع الذى حل بالقوات الالمانية التى هزمها السلجوقيون. صحيح ان الطريق كانت تمر فى المدن البيزنطية (ازمير، برغام، افسس) ولكن عبور الجبال العالية والسهول العاصفة رافقته خسائر كبيرة.

فشل المغامرة الصليبية

فى اوائل سنة ١١٤٨، تحركت الجموع الفرنسية التى انهكتها المسيرة من لاودقية (اللاذقية) على الدروب الصخرية الى ابعد باتجاه الجنوب. وكانت المسيرة صعبة. ويروى اودو دى ديل ان فصائل الفرسان السلجوقيين «كانت تتخفى بمهارة وخفة، مثيرة قلقنا». وكان الادلة الروم يدلون الصليبيين قصدا وعمدا الى دروب كان فيها خطر التعرض لهجوم

وجـمـيع قـراها واعـمـالهـا، وتوجـه الى حلب حاصـرها فلم يقدر ياخذها فى تلك الايام، ففتح حمص وبعلبك، ثم عدى نهر الفرات ففتح سنجار ومنبيج وحران ونصيبين ومدن كثير فى ارض الموصل، ونزل على مدينة الموصل وحاصرها واقام عليها خمسة شهور، ثم تركها ومضى الى امد وميافارقين وفتحها ودفعها لرسلان ابن قليج، وعاد منها عدى الفراة [الفرات] رجع الى حلب فنزل

القواسين السلجوقيين على اشده. وفى يناير ١١٤٨ منيت القوات الفرنسية بهزيمة خطيرة بجوار خونة.

وانهك السلجوقيون بغاراتهم المتواصلة الصليبيين الذين خسروا عددا من الارواح وفقدوا احتياطيات المآكل والاعلاف، اذ انتزع العدو منهم العربات. واضطروا الى ترك مواشي الجر لأنه لم يكن لديهم ما يعلفونها به. وكابد الفلاحون الفقراء المرافقون للحملة وضعا فى منتهى المشقة واضطروا الى تحمل افدح البلايا اثناء هذه المسيرة.

فى ١٩ مارس ١١٤٨ ، وصلت قوات الصليبيين الفرنسيين الى انطاكية بعد ان نقصت الى النصف. وبعد فترة وجيزة، وصل بحرا من القسطنطينية الى عكا فصيل صغير من الاقطاعيين الالمان بقيادة كونراد الثالث؛ ومن عكا انطلق الصليبيون الى القدس. استثارت اعمال كونراد الثالث الحذر والارتياب فى نفس لويس السابع؛ ولهذا السبب بالذات لم يقم هذا الاخير باية محاولة، رغم وصول مدد فى شخص الفرسان البروفانسيين برئاسة الكونت الفرنسي ـ جوردان، لكى يستعيد من السلجوقيين المناطق التى استولوا عليها بين انطاكية واعالى الفرات . مضى هو ايضا الى القدس بحجة الايفاء بالنذر الدينى الذى اعطاه.

فى ٢٤ يونيو ١١٤٧ ، تلاقى لويس السابع وكونراد الثالث مع وصية العرش ميليساندا واعيان القدس. وعن هذا اللقاء تغيب ـ لاسباب مختلفة ـ كبار قيادات الصليبيين فى سوريا

عليها وحاصرها، فقتل عليها تاج الملوك اخوه، ووقع الصلح بينه وبين صاحب حلب، فدفع له المدن الذى يفتحها فى ارض الموصل وسنجار وحران ومنبيج ونصيبين واعمالهم كلها، وسلم حلب للسلطان، فتسلمها ولم يفرح بها منجل [من اجل] موت اخوه تاج الملوك عليها. ودخل قلعتها ليلا وملكها واعمالها وجميع قراها فى سنة تسع وسبعين وخمس ماية . ولما فتح حلب عاد

الشمالية ـ ريمون من انطاكية، ريمون من طرابلس، جوسلين من الرها. تناول البحث خططا مختلفة للعمليات الحربية. واخيرا تخلى قادة الصليبيين عن اقرب اهدافهم وهو استعادة الرها، ـ ونسوا الحرب ضد الموصل ومضوا، مع القوات التى تشكلت فى مملكة القدس، يحاصرون مدينة دمشق المحصنة تحصينا منيعا، لأن فتحها كان يبشر بغنيمة وافرة! دام الحصار خمسة ايام (٢٣ ـ ٢٧ يوليو) ولكن عبثا.

ويروى المؤرخان الشرقيان ابو الفرج الاصبهانى وميخايل السريانى أنه أرسلت من المدينة الى معسكر المحاصرين، الى ملك القدس بودوان الثالث، بعثة سرية. وكان مغزى نصائح المبعوثين يتلخص فيما يلى: على بودوان ان لا يأمل فى البقاء فى القدس اذا «ثبت كونراد العظيم (كونراد الثالث) قدميه فى دمشق». وعرض المبعوثون على الملك ٢٠٠ ألف دينار، وعلى بارون طبرية ١٠٠ الف دينار لكى يقنعا الملك الالمانى بالانسحاب. وفى اواخر يوليو ١١٤٨ تخلى فرسان الصليب عن مشروعهم ، دون ان يحصلوا على شئ، بناء على اصرار هؤلاء البارونات الذين رشاهم واشتراهم الوزير الدمشقى معين الدين بالذهب (الذى كان مزيفا، كما اتضح فيما بعد). وقد اضطروا الى ذلك، خصوصا وان معين الدين قد دعا ، من جهته، قوات الموصل الى نجدته. ومن الشمال اخذت تقترب من المدينة المحاصرة قوات سيف الدين الموصلى واخيه نور الدين من حلب. وبما ان الصليبيين كانوا قد خسروا عددا كبيرا من

الى دمشق فاستراح مدة يسيرة وخرج للغزاة ونزل على [حصن] الكرك وحاصره مده فلم يقدر عليه، فعاد الى دمشق واقام بها، ثم عاد الى الكرك في سنة ثمانين وخمس ماية [٩٠٠ قبطية = ١١٨٤م] وحاصره مدة ايضا فلم يقدر عليه، فرجع الى دمشق، وفي رجوعه [نزل] على نابلس فهدمها واخذ منها مال وسبى، ثم عاد الى مصر في احدى وثمانين وخمس ماية هلالية [١١٨٤م]

الناس، فقد تراجعوا الى حدود مملكة القدس . وبما ان كونراد الثالث قد اقتنع بان الوضع ميؤوس منه، فقد عاد الى المانيا مع اتباعه القلائل في ربيع ١١٤٩ عبر القسطنطينية وسلانيك . وبعد بضعة اشهر عاد لويس السابع الى بلاده.

لم تعط الحملة الصليبية الثانية اية نتائج عملية. فان هذه المغامرة التى كانت سيئة التظيم والتي جرت بصورة أسوأ لم تسفر الا عن ضحايا بشرية وخسائر مادية جديدة، اكبر من ذى قبل. والاموال الطائلة التى جمعت بالضغط الفائق القساوة على الجماهير الشعبية انفقت عبثا. كذلك تسببت الحملة بضرر سياسى مباشر للسلطة المركزية، سواء في فرنسا ام في المانيا. واجتاحت فرنسا موجة من الحروب الاهلية الاقطاعية، واستدان لويس السابع الاموال، ولاسيما من الهيكليين الذين اخذ منهم مبلغا كبيرا لتلبية الحملة، ولحق ضرر لا يستهان به بمواقع السلطاة الملكية في المانيا، فوق ماهى عليه من تزعزع.

وقد قدمت الحملة الصليبية الثانية، مثلها مثل الاولى، البرهان الجلى على غياب الوحدة بين الغزاة الاقطاعيين الغربيين. واخذت الاعتبارات الدينية، كما بينت ذلك بالغ الوضوح مشاريع احتلال القسطنطينية، تفقد اهميتها اكثر فاكثر. وقد تذمر مدونو الاخبار في القرن

. وعمل مع الرعية بديار مصر الخير ما يعجز الواصف عن وصفه، واعدل عليهم واحسن اليهم وازال مظالم كثيرة، وامر بابطال ضمان الملاهى فى جميع ديار مصر، وانكر كل منكر واقام الحدود الشرعية. وكان يجلس للعدل يومين فى كل جمعة وهما يوم الاثنين ويوم الخميس وصدور [صدر] الدين قاضى القضاه جالس بين يديه، ويدخل الى داره ويحضر بين يديه جميع الناس فينصف

الثانى عشر من ضعف الحماسة الدينية ابان الحملة الصليبية الثانية. ولم تحمل هذه الحملة اكاليل الغار الى الكنيسة الكاثوليكية. ثم ان التناقضات التى تفاقمت بين دول اوروبا الغربية بسبب التطلعات والمطامع التوسعية فى منطقة البحر المتوسط، اخذت تعارض هذه الدول بعضها ببعض. وفى الوقت نفسه اشتدت المصادمات مع بيزنطة. وابان الحملة الصليبية الثانية تحطمت المشاريع الكونية الكلية التى واصلت البابوية حبكها لاجل بسط سيطرتها على العالم كله، اذ اصطدمت بتعاظم ميول التفرقة والتقسيم والتفتيت. كذلك اسهم بقسط كبير فى فشل الحملة انعدام الوفاق والوئام بين زعماء الجموع الصليبية، وخلافاتهم مع بارونات سوريا وفلسطين.

وعندما قام برنار دى كليرفو فى سنة ١١٥٠ بمحاولة اخرى لتنظيم حملة صليبية، لم يلق التأييد حتى من البابا، رغم ان بعض البارونات الفرنسيين وبعض كبار رجال الكنيسة (ولاسيما بطرس المكرم ـ Pierre le Vénérable رئيس ومصلح دير كلونى) اقترحوا ان يترأس برنار نفسه الحرب المقدسة الجديدة. وبموجب مجمع شارتر مايو ١١٥٠)، صادق البابا اوجينيوس الثالث ببولا (مرسوم) بتاريخ ١٩ يونيو على تعيين برنار، رئيس ومصلح ديركليرفو، قائدا للصليبيين. ولكن لم يذهب الامر الى ابعد من الاحاديث.

المظلوم من الظالم. ويكون فى مجلسه جماعة من الفقها واكابر دولته للنظر فى الحكومات بين الناس والعمل بما توجبه احكام الشريعه الحق والعدل.

ولما اقام بمصر سنة كاملة عاد الى دمشق فى سنة اثنين وثمانين وخمس ماية واقام بها ايضا سنة كاملة، وجمع العسكر وخرج من دمشق فى سنة ثلاثة وثمانين وخمس ماية هلالية [٩٠٣ قبطية = ١١٨٧م] يريد الغزو والنزول على الكرك، وقد

اخفقت الحملة الصليبية على الشرق اخفاقا تاما؛ وبعد وفاة برنار، دفنت لزمن طويل شتى الخطط للقيام بمشاريع من هذا النوع.

كان النجاح فى الريكونكيستو فى شبه جزيرة ايبرية النجاح الوحيد وغير المباشر الذى احرزه رجال حملة سنة ١١٤٧. فان قسما من الصليبين الذين ابحروا فى مايو ١١٤٧ على السفن من مرفأ دار تموث الانجليزى - وكانوا من الفلمنكين والفريسلانديين والانجليز والاسكتلنديين - قد استرجعوا لشبونة من العرب. وتوقف الصليبيون فى بورتو، واستجابوا لنداء اسقف بورتو بتقديم العون لملك البرتغال، الفونس، الذى كان يحاصر ليشبونة منذ ثلاثة اشهر. وبما ان الصليبين قد نالوا موافقته على نهب المدينة فى حال فتحها، فقد قرروا ان يتوقفوا برهة. وفى ٢٦ سبتمبر ١١٤٧ استولوا على لشبونة وغنموا فيها بالفعل غنيمة وفيرة. ومذ ذاك، صارت هذه المدينة التى ظلت اكثر من ٤٠٠ سنة تحت حكم العرب، جزءا من المملكة البرتغالية.

المرحلة الجديدة فى هجوم السلجوقيين المضاد.

صلاح الدين واستعادة المسلمين للقدس

اخفقت الحملة الصليبية ١١٤٧ - ١١٤٨. وفى غضون ذلك، كانت ميول التلاحم والتوطد تتعاظم وتشتد فى الشرق الاسلامى رغم التناقضات. وفى السبعينيات من القرن الثانى

كـانو الافـرنج فى تلك السنة ملكو عليـهـا رجل غريب جا [جاء] من خلف البحر وكان قد تزوج بالكندوسه [الكونتيسه] ابنة الملك مرى، فسلمت له الملك، لان الملك كـان لهـا بعد ابوها فـدفـعتـه لزوجها، فلم يوافق ذالك قومص طرابلس، وحمله الغـيض [الغـيظ] والشـيطان الى ان راسل صـلاح الدين وصادقه ووافقه على الفرنج، وحلف له انه لا يحـاربه ولا يضـرب في وجـهـه بسـيف. وكـانة

عشر، تشكلت هناك دولة كبيرة جمعت قسما كبيرا من آسيا الغربية. وقد لعب دورا بارزا فى تأسيسها القائد العسكرى يوسف صلاح الدين (١١٣٨ ـ ١١٩٣). كان صلاح الدين كردى الاصل.وقد سبق له ان ترقى وبرز عندما كان والده ايوب وعمه اسد الدين شيركوه يشغلان مناصب رفيعة فى بلاط عماد الدين زنكى. كان ايوب فى البدء عامل بعلبك، ثم انتقل الى خدمة اتابك دمشق وساعد كثيرا شيركوه فى احتلال دمشق فى سنة ١١٥٤ بتكليف من نور الدين زنكى.

كان الشاب صلاح الدين من افراد حاشية شيركوه؛ وبعد فترة وجيزة اظهركفاءات عسكرية ممتازة. ففى اواخر الستينيات تميز صلاح الدين، كآمر عسكرى، فى حروب شيركوه ضد مصر الفاطميين وضد الافرنج الذين حاولوا فى عهد الملك آمورى الاول ان يستولوا على مصر. وفى سنة ١١٦٩ صار شيركوه وزيرا فى مصر، ولكنه توفى فى السنة ذاتها. وكان صلاح الدين ابن اخيه، قد صار بالفعل الشخصية الاولى فى بلاط الخليفة الضعيف العادل . وعندما توفى العادل فى سنة ١١٧١ ، استولى صلاح الدين على زمام السلطة العليا مباشرة. وقد قضى الوزير الجديد على انصار الخليفة الاخير، ونظم الشؤون المالية، واعاد تنظيم القوات المسلحة، ومذ ذاك صار المقاتلون من الاكراد والسلجوقيين (الذين حلوا محل السودانيين والبربر والارمن) عماده. وفى سنة ١١٧٥ منح خليفة بغداد صلاح الدين لقب السلطان.

[كانت] طبرية للقومص فارسل لصلاح الدين يقول له: انزل على طبريه هى لى وانا ادفعها لك تقوى بها وتضعف قلوب الافرنج. فجا السلطان ونزل قريب من طبرية فسلمها له القومص. فلما سمع ملك الافرنج الذى ملكوه بعد مرى، وكان اسمه الكند جفرى [الكونت جودفرى] حشد عوام البلاد مع عسكر الساحل وجا اليه فى عسكر كبير فسبقه صلاح الدين الى الما [الماء] ونزل

فى حقبة قصيرة، وحد صلاح الدين مصر وقسما كبيرا من سوريا وبلاد ما بين النهرين؛ ففى سنة ١١٧٤ استولى على دمشق وحماه وحمص وغيرها من المدن؛ وفى سنة ١١٨٢ فتح حلب، وفى سنة ١١٨٦، اعتبر حاكم الموصل زنكى الثانى نفسه تابعا للسلطان صلاح الدين الذى صار اقوى حاكم فى العالم الاسلامى. ومن حيث الجوهر، وقع الشرق الافرنجى فى طوق دولة صلاح الدين. وقد وجه صلاح الدين، الذى اسس سلالة الايوبيين، جميع موارد الدولة الى النضال ضد الافرنج، وبما انه استهدف فى المقام الاول القضاء على مملكة القدس، فقد تعهد بشن الجهاد على اعداء الاسلام.

فى البدء كانت رحى النضال ضدهم تحتدم حسب الصدف، بين الفينة والفينة. فعندما كان صلاح الدين وزيرا، شن فى ديسمبر١١٧٠، غارة على غزة، الحصن الواقع على حدود مملكة القدس. وبعد ذاك، استولى المصريون على ايلة، المرفأ الواقع فى خليج العقبة على ساحل البحر الاحمر. وفى سنة ١١٧٩، انزل فاروق الشاه، القائد العسكرى العامل فى خدمة صلاح الدين، خسارة جسيمة بقوات ملك القدس بودوان الرابع فى معركة بلفور. وبلغت بعض فصائل المسلمين صيدا وبيروت. وفى سنة ١١٨٠ انتزع اسطول السلطان صلاح الدين الذى اقلع من الاسكندرية، جزيرة ارواد من الصليبيين.

واخذت الغيوم تتلبد اكثر فوق مملكة القدس. ودخل الانتقام الاسلامى المرحلة الحاسمة.

عليه، فساق سوق كثير يطلب بسبق صلاح الدين الى الما فوجده قد سبقه ونزل عليه، فطلع هو ومن معه من الفرسان الى كوم عالى هناك يسمى كوم حيطين [حطين] فنزلو عليه وهم قد هلكو من العطش حتى صارو يشربو الخمر عوضا من الما، والتقو مع السلطان وقتل بينهم خلق كثير واكسرو عسكر المسلمين اول النهار ثم قوى صلاح الدين اخر النهار. و اما قومص طرابلس،

ادرك البارونات الصليبيون ما يمكن ان تؤدى اليه حملة صلاح الدين لاحقا. ففى سنة ١١٨٣ قررت الكورية الملكية في القدس فرض ضريبة استثنائية عامة؛ وكان ينبغي انفاق الاموال المحصلة جميعها تقريبا على تعزيز الدفاع ضد «الكفار» الذين اشتد نشاطهم. كان مقدار الضريبة يتوقف على حجم الاموال، وكان الجميع ملزمين بدفعها بصرف النظر عن الجنس والانتماء الديني والاثني. وقد عهد الى الاسياد بتحصيل النقود من ا قنانهم. وفى ١١٨٤ ـ ١١٨٥ مضى بطريرك القدس والاستاذان الاكبران للجمعيتين العسكريتين الرهبانيتين الى اوروبا للقيام بجولة للدعاية والتجنيد؛ لقد سافروا لطلب المعونة ضد «الكفار».

بدأ ضغط المصريين المنتظم والدائب على ممتلكات الافرنج منذ النصف الثاني من الثمانينيات في القرن الثاني عشر. ان غياب التلاحم بين الاقطاعيين الصليبيين المستغرقين كليا في الهموم الدنيوية، وفى المخاصمات بسبب الاراضى والالقاب، وفى الحيل والمؤامرات الديبلوماسية، قد اتاح لصلاح الدين في سنة ١١٨٧ ان يقتحم بقواته المقاطعات الداخلية من مملكة القدس.

كانت الغارة اللصوصية التى شنها احد بارونات الافرنج البارزين، رينو دى شاتيون (De Châtillon) الذريعة المباشرة لاجل هجوم صلاح الدين. فان رينو هذا كان مغامرا وقحا، كسب شهرة مخزية «بمآثره» اللصوصية. وقد سبق له ان اجتاح قبرص البيزنطية في سنة

الردى المنافق الذى باع قومه كما باع يودسى ربه، فكان يتبعه اربع مايت [مائة] فارس، فحمل بها كانة يقاتل فاوسعو له المسلمين الطريق فجاز بهم فى وسط عسكر المسلمين، وتم على حاله لم يرجع يرد وجهه وسار على فوره منهزما الى صور فدخلها واستقر بها . فلما علمو الفرنج ذالك ظنو انه انكسر الى ان انكشف لهم خبثه وفساد نيته، فلم يزالو يقاتلو حتى نصر الله صلاح الدين عليهم

١١٥٥ واعمل فيها النهب والسلب. ثم تزوج هذا السيد زواج مصلحة من وريثة امارة انطاكية، واكتسب بهذه الطريقة بعضا من الممتلكات على نهر العاصى. واخيرا وقع ذات مرة فى اسر نور الدين وامضى فى الاسر ١٦ سنة . وبعد اخلاء سبيله، لم تخف البتة ميوله الى المغامرة، فاستقر فى حصن الكرك، شرقى البحر الميت، وعكف على نهب وسلب قوافل التجار المارة فى الجوار، لأن الحصن كان يقطع الطريق من سوريا الى مصر والى الحجاز. وفى اواخر سنة ١١٨٦ ولربما فى اوائل سنة ١١٨٧ ، شن رينو دى شاتيون، خلافا لشروط الهدنة السارية المفعول آنذاك بين مصر ومملكة القدس (وقد سبق ان عقدت الهدنة فى سنة ١١٨٠) غارة على قافلة متجهة من القاهرة الى دمشق بتجارة كبيرة. ونهب كليا القافلة التى كانت فيها اخت صلاح الدين. واذا السلطان صلاح الدين، الذى اصيب بنكبة مزدوجة، يطالب فى الحال ملك القدس آنذاك جى دى لوزينيان (١١٨٦ ـ ١١٩٠) بالتعويض عن الضرر والافراج عن الاسرى ومعاقبة الناهب. ولكن الملك لم يجازف بمس واذلال تابعه القوى. فاستغل صلاح الدين رفض مطالبه وشن عمليات جبهوية حاسمة ضد «اعداء الله». فى البدء اجتاحت قواته فى الربيع الباكر من سنة ١١٨٧ مناطق قلعتى الكرك وكراك دى مونريال؛ وبعد شهرين بدأ الجهاد ضد الافرنج. واحتشدت قوات المسلمين الموحدة ـ من دمشق وحلب والموصل ومقاطعات ما بين النهرين ـ فى رأس الماء وباشرت العمليات الحربية.

فكسـرهم واسر من اسر وقتل من قتل، وقد تهلل اهل الخير لما يعلمه الله في ذالك من صلاحهم، ولما ظفر بهم صلاح الدين وحل في جملتهم الابرنس [البرنس] ارناط [رينو دى شاتيون] صاحب الكرك فاحضره بين يديه وخاطبه بكلام غليظ، ومسكوه له الاعوان وقربوه منه فذبحه بيده وغسل يديه بدمه. ثم ظفر بالكند جفرى [بالكونت جودفرى] ملك الافرنج بالشكل الذى قدمنا ذكره واحضروه بين يديه، وكان حاضر ذبح

انقضت الضربات المؤلمة على مملكة القدس الواحدة تلو الاخرى. وفى مايو ١١٨٧ ابيدت الى الشمال الشرقى من الناصرة فصيلة كبيرة مؤلفة اساسا من الفرسان الرهبان؛ وقد لقى الاستاذ الاكبر لجمعيات الاوسبيتاليين روجه دى مولان مصرعه. وفى الثانى من يوليو استولى جيش صلاح الدين على طبرية ثم ضرب طوقا مكثفا حول قوات كبيرة من الصليبيين قرب قرية حطين، بين الناصرة وبحيرة طبرية.

فى القتال الدامى الذى دارت رحاه فى ٤ يوليو ١١٨٧ فى حطين، انتصر المسلمون. وقد جرت المعركة فى وضع غير ملائم للصليبين، فى قيظ رهيب. وكان ينقص ماء الشرب. وفى كل مكان احرق المسلمون الاعشاب والشجيرات، واذا الفرسان الصليبيون الذين انتظموا على المرتفع فى ثلاثة طوابير قتالية تلفهم سحب الدخان المتصاعد الى اعلى... دامت المعركة نحو ٧ ساعات على التوالى. وسقط مئات الفرسان وآلاف المقاتلين المشاة فى ساحة الوغى. ووقع فى اسر صلاح الدين الملك جى دى لوزينيان، والاستاذ الاكبر لجمعية الهيكليين جيرار دى ريدفور، وقائد الجيش الفرنسى امورى دى لوزينيان، وكثيرون من البارونات ـ غليوم دى مونفيرات، وغيره. ولم ينج سوى بضع مئات من الاشخاص فروا الى صور واحتموا وراء اسوارها.

الابرنس ارناط [صاحب] الكرك فلما راه متخبط يخور في دمه خاف واصفر لونه، فقال له صلاح الدين: لا تخاف ياملك فما تموت اليوم بل تحيا ولو بقي لقومك بقية كنت املكك عليهم واساعدك بمالي ورجالي طول ايام حياتك، وانا احدثك حديث الابرنس [ارناط] وسبب ما فعلته به، وذالك ان طريق التجار واكثر المسافرين على الكرك فكان يمسك القوافل بظلم وعنف، وكان

حفظ السلطان صلاح الدين حياة اغلبية الاسرى بمن فيهم الملك والاستاذ الاكبر (بأمل فدية كبيرة)، ولكن زهاء ٢٠٠ من الفرسان الهيكليين والاوسبيتاليين اعدموا بامر منه. اما البارون المتغطرس رينو دى شاتيون، فقد قطع صلاح الدين بسيفه رأسه.

كان انتصار حطين مقدمة للنجاحات التى احرزها المسلمون فيما بعد. فسرعان ما احتل صلاح الدين المدن الساحلية كلها تقريبا جنوبي طرابلس: عكا، بيروت، صيد، يافا، قيسارية، عسقلان. وقطع اتصالات القدس مع اوروبا. كذلك استولى المسلمون على اهم قلاع الصليبيين جنوبي طبرية، ماعدا الكرك وكراك دى مونريال. وفى النصف الثانى من سبتمبر ١١٨٧ حاصرت قوات السلطان صلاح الدين القدس. ولم يكن بمقدور حاميتها الصغيرة ان تحميها من ضغط جيش مؤلف من ٦٠ آلف رجل. وحين رأى السكان عقم مواصلة المقاومة، قرروا بعد ستة ايام من النضال ان يستسلموا لرحمة الظافر. وفى الثانى من اكتوبر ١١٨٧ فتحت الابواب، واحتل المسلمون المدين. وفوقها اخذت تخفق راية السلطان الصفراء باعتزاز.

الحملة الصليبية ا لثالثة

ان نبأ سقوط مملكة القدس الذى وصل إلى اوروبا الغربية كان بمثابة صاعقة في سماء

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

نور الدين وغيره من ملوك المسلمين يرغبون في الصلح معه ليخفف ضرره عن المسلمين، فدفعة يفعل والف دفعة لا يفعل، فلما كان في ايامي ارسلت اليه وهاديته وحملت اليه مال ومتاع وخلع وحلف لرسولي انه لا ياذى احد من المسلمين ويحسن للتجار ويطيب لهم الطريق ولا يمكن احدا من اصحابه من مضرة مسلم ولا تاجر ولا عابر طريق وبعد ان حلف بثلث ايام عبرت قافلة

صافية. فان البابا اوربان الثامن، ما ان عرف بما حدث، حتى توفى من وقع الصدمة. ودعا خليفته، البابا غريغوريوس الثامن، بمنشور بابوى بتاريخ ٢٩ اكتوبر ١١٨٧ وزعه من فيرارا، الكاثوليك الى حملة صليبية جديدة، وا مرهم بالصيام كل اسبوع في يوم الجمعة على امتداد خمس سنوات كما امرهم بالامتناع كليا فى هذه الحقبة من الزمن عن اكل اللحم مرتين فى الاسبوع. والدعوة الى الحرب الصليبية ـ وقد قام بها ببالغ الهمة ا لكاردينال انريكو من البانو ـ تلقفها البابا التالى كليمنت الثالث، الذى حل بعد شهرين محل البابا جريجوريوس الثامن.

قامت الحملة الصليبية الثالثة من سنة ١١٨٩ الى سنة ١١٩٢. واشترك فيها بوجه الحصر تقريبا الاقطاعيون الكبار والفرسان من بلدان اوروبا الغربية. ونحو اواخر القرن الثانى عشر صار الفرسان القوة الجماهيرية الاساسية فى الحركة الصليبية. كذلك اضطلعت بدور فعال ونشيط في الحملة الصليبية الثالثة الدول الاقطاعية التى كانت مصالحها التجارية في الشرق قد اكتسبت مكانا مهما فى سياستها.

اخذت الاهداف الدينية من الحملات الصليبية تتراجع اكثر فاكثر الى المؤخرة. وعلى العكس اخذت مطامع الفتح عند المشتركين فيها تبرز اكثر فاكثر من خلال الغلاف الصوفى الذى حاولت الكنيسة الكاثوليكية، من قبل، ان تموه به الحركة.

طالبة دمشق فساقها بجمالها ورجالها واموالها طالع بها الكرك فاسر رجالها واخذ اموالها، فبلغني خبرها فعظم ذالك عندى وانذرت لله انني متى ظفرة به فعلت به ما رايت فلا تلومني يا ملك. ثم استدعا قدح شراب فجا به اليه الشربدار فاخذه من يده شرب منه وناوله للملك فشربه، واخلى له ولاصحابه نوبة خيم، ووكل به من الرجال من يحفظه. ولم يزل عنده حتى سلم له عسقلان،

ولكن اذا كانت دوافع الفرسان الدينية قد اخذت تتضاءل، فان سعى دول اوروبا الغربية الى السيادة فى منطقة البحر المتوسط اصبح من أهم الحوافز الداخلية الدائمة للحملات الصليبية منذ اواخر القرن الثانى عشر. وهذا السعى جمع فى الظاهر، وبقدر معين، صفوف فرسان الغرب، وعارض بلدان اوروبا بالشرق.

وكل هذا ظهر بوضوح فى زمن الحملة الصليبية الثالثة.

فقد استقبلت الجماهير الشعبية دعوات باباوات روما بقدر من التعاطف اقل بكثير من ذى قبل. وعندما فرضت فى اوائل سنة ١١٨٩ فى انجلترا ثم فى فرنسا اتاوة عامة قدرها عشر جميع المداخيل، لاجل تغطية حاجات الحملة استثار ذلك الاستياء والغضب بين سواد الناس. وطفق الناس يستقبلون الجباة بالحجارة، ولذا كان لا بد من الغائها كليا فى فرنسا. كذلك تفاقم التذمر من الضريبة بين رجال الدين اذ رأوا فى فرض مثل هذه الضريبة تطاولا على امتيازاتهم. وكان رجل الكنيسة والكاتب الفرنسى البارز بيار دى بلوا يعتبر : «اذا فرض الامراء بحجة حج جديد... دمغة العبودية على كنيسة المسيح، مطالبينها بالضريبة، فانه يجب على ابن الكنيسة البار ان يموت ولا يخضع». وهنا وهناك اثار جباية عشر المداخيل بعض الاستياء حتى فى اوساط الفرسان. وان الفارس والشاعر كونون دى بيتون الذى اشترك فيما بعد فى الحملة على الشرق، أتهم اصحاب الحول والطول فى هذا العالم اتهاما حادا بانهم «اخذوا

لانها كانت له، وبعد ان تسلمها اخلع عليه واوهبه
واطلقه فسار الى جزيرة قبرص فملكها ولم يزل
فيها الى ان مات [سنة ١١٩٤م] ولما كسر
السلطان عسكر الافرنج وابتدى فى فتح مدن
الساحل كتب لولده الملك العزيز، الذى سلطنه
على ديار مصر واقره فيها، كتابا يعرفه فيه قضية
الحال وكيف كانة [كانت]، فكتب الملك العزيز
الى ولات الحروب كتبا يعرفهم بذالك وهذه نسخة

الصليب لقاء نقود وانهم يفرضون العشر على رجال الدين وسكان المدن والاقنان. ان دافعهم ليس الايمان بل الطمع». اما دافع هذه الاقوال، فهو الموقف السلبى من مشروع الحملة الصليبية ذاته، وزوال الايمان السابق، العام كليا تقريبا، فى نزاهتها وقدرتها على الانقاذ.

لقى نداء روما الصليبى الدعم بصورة رئيسية فى الاوساط الاقطاعية، ـ جزئيا بين الفرسان الصغار والمتوسطين، وفى الاوساط الحاكمة فى الممالك الاقطاعية الغربية، وكذلك فى اوساط الاشراف فى مدن ايطاليا الشمالية. وفى سنة ١١٨٨ انطلق الى سوريا اسطول صقلية النورمانى التابع للاميرال القرصان مرجويتون، كما انطلقت بضع عشرات من السفن من بيزا وجنوه.

وفى انجلترا وفرنسا والمانيا، طفقوا يؤلفون قوات برية. وقرر ملوك هذه البلدان ـ هنرى الثانى بلانتاجينه وفيليب الثانى، الذى لقب فيما بعد اوغست، والامبراطور فريدريك الاول بربروسا اخذ الصليب. وكان لكل منهم اسبابه الخاصة للاشتراك فى الحملة.

سعى هنرى الثانى (١١٥٤ ـ ١١٨٩) على امتداد كل عهده الى كسب مواقع ثابتة فى منطقة البحر المتوسط لدولة انجو. وبعد الحملة الصليبية الثانية بوقت قصير، تزوج فى سنة ١١٥٢ من ايليونور داكيتين التى طلقت زوجها لويس السابع وضم على هذا النحو الى

كـتـاب منهم ورد على والى تنيس بفـتح عكا وطبـرية(*) ويصف فيه هذه القضية وهذه نسخة الكتاب.

(*) خطاب صـلاح الدين الايوبى إلى ابنه الملك العزيز بمصر يعلنه بفتح عكا وطبرية.

بسم الله الرحـمن الرحـيم الحـمـد لله الذى اذهب عننا [عنا] الحزن ان ربنا لغفور شكور، كتابنا هذا وارد على الامير الاجل الاسفهسلار الاخص حسام الدين سيف المجاهدين عمده الملوك والسلاطين خاصة امير المومنين ادام الله رفعته

ممتلكات سلالة بلانتاجينه في فرنسا ـ كونتية انجو وكونتية بين ـ دوقية اكيتين التى كانت مدينة مرسيليا ضمن حدودها. وهذه الدوقية كانت تضطلع بدور كبير فى التجارة مع المشرق، التى مارستها انجلترا ذاتها ايضا. وكانت السفن الانجليزية تبحر في المعتاد فى البحر المتوسط، اما بمحاذاة سواحل فرنسا واسبانيا، ـ نحو جبل طارق ، واما فى عرض البحر حتى بوردو؛ وهناك كانوا ينقلون مشحوناتها الى المراكب النهرية، المنطلقة على نهر جارون الى تولوز. وهنا كانوا يشحنون البضائع الانجليزية على مواشي الجر الى ناربون، حيث كانت تستقبلها السفن المتجهة الى الاسكندرونة والموانى السورية واللبنانية. وهذا الطريق هو الذى كان يمر عبر أراضى دوقية اكيتين.

فلا غرابة اذا كان هنرى الثاني قد حاول تأمين نفوذ انجلترا فى جميع البلدان الواقعة على البحر المتوسط. وكانت الزواجات السلالية وسيلة مهمة فى سياسته فى منطقة البحر المتوسط والى هذه «الديبلوماسية الزواجية» جر اولاده جميعهم تقريبا، فقد زوج احدى بناته ايليونرو، من ملك قشتاله، الفونسي الثامن وزوج بنتا اخرى، هى حنة، من ملك صقلية، غليوم الثانى (لم يسفر الزواج عن اولاد، ولذا لم يكن فى صقلية وريث انجليزى لعرشها)؛ وابنه البكر، ريشار، خطب له ابنة سانتشو السادس، ملك نافار، الاميرة بيرنجيز.

كذلك لم يكن هنرى الثانى يأنف من الأمل فى الاستيلاء على مملكة القدس. فاليها ايضا

وحرس بهجته وكتب حدثه، ناطقاً بما جا من نصر
الله العزيز وفتحه المبين، وما انتج من الظفر الذى
عفا اثار المشركين وشفا صدور المومنين، واستنطق
بشكر الله من سبح بحمد ربه واستغفره وعظمه
فذكره ووسع ذكر طوله ويسره، واوضح الى الله
عز وجل اطلع على النية السلطانية فى نصره دينه
فنصره، وعرف صدق عزمه فى قصد عدوه فاقدره
وعضده واظفره وايده بجنوده على من جحد

كانت تمتد خيوط قرابة بيت انجو من سلالة بلانتاجينه؛ ذلك ان ملك القدس فولك (١١٣١ ـ ١١٤٣) كان ايضا كونت دانجو، وكان ابنه جوفروا بلانتاجينه قد تزوج فى حينه من ماتيلدا ابنة ملك انجلترا هنرى الاول، فكان فولك بالتالى جد هنرى الثانى. وليس عبثا كان ملك انجلترا الذى فعل الكثير لتوطيد التمركز السياسى فى بلده، يهتم دائما بممتلكات اقاربه فيما وراء البحار. وغير مرة دفع مبالغ نقدية كبيرة لاجل حماية الارض المقدسة من «الكفار»، كما كان قد اتفق، قبل سقوط القدس، تارة مع لويس السابع، وطورا فيما بعد، مع صهره غليوم الثانى ملك صقلية، بشأن الحملة الصليبية.

ان هنرى الثانى، الذى كان يدغدغ من زمان بعيد فكرة بسط سيطرة دولة آل بلانتاجينه الانجليزية الفرنسية على العالم اجمع، قد وافق فى الحال على الاشتراك فى الحملة الصليبية التى اطلقت روما الدعوة اليها، لأن حربا ناجحة فى الشرق كانت تبشر بتوسيع منطقة نفوذ دولة انجو فى البحر المتوسط توسيعا كبيرا.

كذلك اثرت جهود البابوية فى ملك آخر فى ذلك الزمان كان يحبك خطط السيطرة العالمية هو الامبراطور الالمانى فريدريك الاول بربروسا (١١٥٢ ـ ١١٩٠)، ذلك الذى اشترك فى الحملة الصليبية الثانية، حين كان لا يزال دوق شوابيا. الا ان هذا الحاكم ذا المزاج العدوانى المتطرف والمحب للقتال لم يتعلم شيئا من التجربة المرة والمخزية.

تفرده بالوحدانيه وكفره، وامات بسيفه سلطان الشرك فاقبره. ومقرب عن ورود الكتاب السلطانى فى يوم الاثنين الرابع من جمادى الاول مورخا بيوم الجمعة متهله [مستهلة] مقصور على البشرى بما فتح الله على يديه، وذكر النصرة الرادة لعدو الله على عقيبه. وان من جملت ما انعم الله به فى يوم الخميس الثالث والعشرون من ربيع الاخر الى يوم الخميس سلخه [آخره] ما يوضح فى تاريخه يوم

وكان اشتراك فريدريك الاول فى الحملة الصليبية الثالثة ينبع بصورة منطقية من كل السياسة العدوانية الاغتصابية التى سلكها آل شتاوفن فى جنوب اوروبا. ولقد امضى فريدريك الاول بربروسا زهاء نصف زمن حكمه فى حروب من اجل بسط السيادة على مدن لومبارديا. وقد منى هناك بالهزيمة. وحين هزمه اتحاد المدن فى معركة لنيانو سنة ١١٧٦، اضطر الى الاستسلام فيما بعد امام الكرسى الرسولى ايضا ووقع فى سنة ١١٧٧ صلح البندقية المذل له. وحين ملك روعه بعد الهزيمة، وجه انظاره الى ايطاليا الجنوبية وصقلية. فقد كان يدرك بوضوح اهمية صقلية فى تجارة المشرق، وتلك المنافع التى يشر بها امتلاك هذه الجزيرة. وعبرها كانت تمر اقصر طريق من اوروبا الى افريقيا الشمالية. وفى ثغور صقلية المناسبة ـ مسين، باليرمو، كاتانيا ـ كانت تتوقف جميع سفن البلدان الغربية، الى المشرق ذهابا وايابا. وكانت السيادة على صقلية تؤمن لحكامها مصادر ضخمة لواردات الخزينة؛ وكانت دول كثيرة معنية تقع فى تبعية حكام صقلية.

ولاجل امتلاك صقلية وايطاليا الجنوبية، لجأ فريدويك الاول، مثل هنرى الثانى، الى ديلوماسية الزواجات السلالية؛ ففى سنة ١١٨٦، اقيمت فى ميلان احتفالات زواج ابنه ووريثه، الامبراطور هنريخ السادس فيما بعد، من وريثة عرش صقلية، كونستانسيا. وبذلك ضمن فريدريك الاول بربروسا انتقال صقلية الى سلالة شتاوفن.

الخميس الاول فتحت طبرية، ويوم الجمعة والسبت نوزلت جموع الافرنجية وكسرو الكسرة التى تركت البلاد منهم على عروشها خاوية، والمعاقل المنتزعة من ايديهم باعلا اعلام الاسلام عليها حاله، وجمعت من طواغيت الكفر وبين امهم الهاويه، واذاقتهم النار الحامية. وفى يوم الاحد تسلمت طبرية وقتل الابرنس ارناط باليد العالية السلطانية، وحصل الملك [جودفرى] اسير واخوه

واخيرا كانت بيزنطة تشغل مكانا مهما فى مشاريع الامبراطور الالمانى المغامرة؛ وكان يسمي بقايا الامبراطورية الرومانية الشرقية باحتقار وازدراء « اليونان الصغيرة». ويذكر مؤرخه البلاطي الاسقف اوتون من فريز ينجن فى سيرة حياة فريدريك الاول الذى كان ابن اخيه، فيما يذكر، ان الامبراطور قد نعت نفسه غير مرة «سلطان العالم» واعلن على المكشوف عن عزمه الراسخ على توسيع حدود الامبراطورية الالمانية حتي حدود الامبراطورية الرومانية القديمة.

صحيح ان مبادرة الحملة الصليبية قد انطلقت من خصم سلالة شتاوفن السياسي فى الماضى غير البعيد، البابا، ولكن الحملة على الشرق كانت توفر ـ على الاقل كما كان من الممكن ان يبدو ـ فرصة مناسبة لاجل تحقيق مشاريع بربروسا الكلية الكونية. وقد نظر فريدريك الاول بربروسا الى المبادرة البابوية نظرة ايجابية؛ فان الاوساط الاقطاعية فى المانيا الجنوبية على الاغلب، التى كانت تطلعاتها تحدد سياسته فى كثير من النواحى، كانت لها مصلحة مباشرة فى الفتوحات فى الشرق. ولهذا السبب أخذ فريدريك الاول الصليب فى اواخر آذار (مارس) ١١٨٨ فى غوفتات ما ينتس، وذلك بصرف النظر عن عمره (كان يناهز الستين).

ومقدم الديويه [فرسان القديس يوحنا] والهنفرى ابن الهنفرى صاحب الكرك، وصاحب عتيل [عتاليت] وصاحب تل الصافية. وفي يوم الاثنين قتل من فرسان الديويه والاستباريه على باب السرادق السلطاني ما عديه [عدده] مايتا فارس . وفي يوم الثلثا انتقل الركاب السلطانى الى مدينة عكا لينازلها، وفي يوم الاربع وصلها وفيه جرد العرم الذى حصلها [حاصرها] وفي يوم الخميس

وكان الملك الفرنسي فيليب الثاني (١١٨٠ ـ ١٢٢٣) الملك الثالث الذى اعرب عن رغبته في السفر الى ما وراء البحار.

الا ان هذا المشروع شغل فرنسا، بالطبع، اقل بكثير مما شغل انجلترا والمانيا. فان ملكية الكابيتين كان يعود لها في ذلك الزمان مكان متواضع جدا في لعبات الغرب السياسية. وفيليب الثاني الذى ورث العرش من لويس السابع لم يكن سوى سيد اسمي لتابعه الاقوى منه بكثير وعدوه اللدود هنرى الثاني بلانتاجينه.

كانت اراضي المملكة الفرنسية تقتصر فعلا على ممتلكات التاج، ولذا لم يكن فيليب الثاني في ذلك الوقت بعد، عمليا، ملكا حتى لنصف فرنسا. فان مقاطعاتها الغربية، المطلة على المحيط الاطلسي كان يملكها الملوك الانجليز؛ وعليهم كان تتوقف كذلك الاراضي الجنوبية من فرنسا (كونتية تولوز)؛ وكان قسم آخر من الاراضي الفرنسية ـ مملكة بورغونيا ـ خاضعا للامبراطورية الالمانية.

وكانت الواردات من ممتلكات التاج المفصولة عن البحر من جميع الجهات، زهيدة جدا، وهذا ما حمل فيليب الثاني على الاشتراك في الحملة الصليبية. وكان هذا الملك منذ شبابه سياسيا مراوغا وداهية وحاذقا، يعرف كيف يستغل الظروف. وكانت الحملة على الشرق تبدو له وسيلة مناسبة لاصلاح شؤون السلطة الملكية، اى رفع مكانتها وسمعتها في داخل البلد

فتحت صلحا ورفع العلم المنصور على قلعتها المحروسة صبحاً، واستقر الاسلام فيها بوطنه وعاد الى سكنه ورجع جوهره فيها الى معدنه. وفى يوم الجمعة مستهل جمادى الاول أقيمت خطبة الاسلام فى مسجدها بشعارة. وقام الموذن مكان النواقيس معلنا بكلمة التوحيد التى كان قايلها معقول اللسان. وفى تضاعف هذه المدة فتحت الناصره وصفوريا وحيفا والغولة [الخولة] ومعليا

وفى المسرح الدولى، وتكديس القوى والموارد الضرورية لاجل تسديد ضربة ماحقة الى العدو الرئيسى ـ سلالة بلا نتاجينه ـ والشروع فى حل المهمة الاساسية التى تواجه سلالة الكابيتيين ـ اى جمع الاراضى الفرنسية وتوحيدها.

كذلك مفاهيم الشرف الاقطاعى لم تسمح للملك فيليب الثانى بان يواجه مبادرة البابا بعدم الاكتراث، خصوصا وانه توضح فيها على الفور الدور البارز لتابع التاج الفرنسى هنرى الثانى. وهكذا استرشد الملك الفرنسى فى المقام الاول بدوافع المكانة والدوافع الكاثوليكية.

فى يناير ١١٨٩ ، تلاقى عدوا الامس القريب فى جوار جيزور وتبادلا قبلات السلام؛ فقد كان ينبغى تأمين الطمأنينة والهدوء فى دولتيهما اثناء الحملة. واتفق الملكان على السفر فى آن واحد ومعا. وبمثال الملكين اقتدى اتباعهما من على كلا جانبى المانش. واتخذ قرار بان يخيط الفرنسيون على اثوابهم صلبانا حمراء، والانجليز صلبانا بيضاء والفلمنيون صلبانا خضراء. وكانت قد بدأت التجمعات لاجل الحملة، واذا الحرب تنشب فجأة بين الملكين. اما الذريعة للحرب، فهى ان الابن البكر للملك هنرى الثانى، وريشار، كونت بواتو ودوق اكيتين، رفض ان يتزوج من اخت الملك فيليب، اليس، بحجة ان الملك الانجليزى قد اغراها. الا ان فيليب الثانى ، الفنان فى المؤامرات السياسية، استطاع ان يستحث الابن على الاب، واذا كل من الجانبين يمتشق السيف، وتتوقف الحملة الصليبية. وفى ٦ يوليو ١١٨٩ توفى هنرى الثانى.

والطور، والتمست اسكندرية [اسكندرونه] ونابلس بالامان، وسنين خلت من حرب الشيطان. وتضمن الكتاب الكريم ان عدة القتلا استوعبت عدة من حضر المصاف من الفرنج، الا القومص فانه نجا نجات من جز الحبل عنقه فضغطه الرعب وخنقه ولجا الى صور فى عدد يسير واستقر بها استقرار الاسير. واشير فى الكتاب المذكور ان عدة من قتل واسر يزيد عن عشرين الفا ادمى، وهذه والله

صلاح الدين يفاوض الصليبين
فى تسليم عكا صلحا

وحل محله على العرش ريشار الذى لقب فيما بعد «قلب الاسد» وصار البطل الرئيسى فى الحملة الصليبية الثالثة.

وهكذا لم تكن تتسم الاعتبارات الدينية بالنسبة لزعماء هذا المشروع الرئيسين الثلاثة جميعهم باهمية جوهرية نوعا ما. فقد كانت الحملة الصليبية ١١٨٩ ـ ١١٩٢ منذ بادئ بدء مجرد حملة فتوحات ، وكان الدور القيادى فيها يعود بمعظمه الى سلطة الدولة. وهناك سمة مميزة طريفة: ان فريدريك الاول قد امر بان يدفع كل من الفقراء الذين اعربوا عن الرغبة فى الاشتراك فى الحملة ٣ ماركات؛ اما الذين لم يكونوا يملكون هذا المبلغ، كما كتب مدون الاخبار، فقد «منعهم تحت طائلة الحرم من السفر، لعدم رغبته فى ان يشكل العامة التى قلما تصلح للحرب عبئا على العساكر».

الوضع فى البلقان والنزاع مع بيزنطية.

مصرع فريدريك بربروسا واخفاق الفرسان الالمان

لم يهتم زعماء الفرسان الصليبين برسم خطة مشتركة للحملة الحربية، وتصرفوا منذ البداية بصورة منفردة.

فى ١١ مايو ١١٨٩ تحركت القوات الالمانية برئاسة الامبراطور من ريغنسبورج قبل غيرها.

٧٣: أبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

المحمود نوبة [حادثة] ما يعرف عارف فى الاسلام مثلها، ولا يشهد تاريخ بما يشبه فعلها ولا يشبها قبلها. ومن فضايل هذا الفتح وبشاير هذا المنح تيسره، ولم يعدم من المسلمين سوى نفر دون العشره، وجراح من جرح والله المشكور سليمه، والنعمة عظيمة، ووجوه ولاة الامر بما يسره الله لهم من النصرة اصبحت وهى كريمة، وقد استخرنا الله وصممنا عزمنا على المضى الى المخيم

وكانت تتألف من قرابة ٣٠ الفا من الفرسان والمشاة. وقبل بداية الحملة كان فريدريك الاول قد اجرى مفاوضات ديلوماسية مع المجر وبيزنطية؛ فقد اراد ان يضمن عبور قواته فى اراضيهما بأمان. وكانت نتائج المفاوضات، على ما بدا، مؤملة. فان الملك المجرى بيلا الثالث (١١٧٣ ـ ١١٩٦) قد وافق على مرور الصليبيين عبر بلاده وحتى سمح لهم بشراء المأكولات. وبالفعل عبر الالمان المجر بسلامة، دون تجاوزات كبيرة. كذلك امكن الاتفاق مع الرسل البيزنطيين الذين وصلوا الى ريخستاج نورمبرج فى ديسمبر ١١٨٨ (برئاسة موظف كبير هو اللوجوفت دروم يوحنا دوقاس)؛ فقد اكد الروم ان بوسع الجيش الالمانى ان يعبر الممتلكات البيزنطية بلا عائق، وان يتلقى المأكولات والاعلاف لقاء ثمن مناسب. كذلك فريدريك الاول اكد بدوره للسفراء بالقسم. انه ليس لبيزنطية ان تخشى شيئا من المقاتلين الالمان . ولكن رغم ان الاوساط الحاكمة فى امبراطورية القسطنطينية اقدمت على الاتفاق مع فريدريك الاول، الا ان الامبراطور اسحق الثانى انجيلوس (١١٨٥ ـ ١١٩٥) سرعان ما شرع يقيم امام الصليبيين شتى الحوائل والعوائق. ففى القسطنطينية كانوا يعرفون عن نزعة بربروسا الى القتال ولم يكونوا يثقون كثيرا فى وعوده.

وكانت تتوفر لحكومة اسحق الثانى انجيلوس جميع المبررات والدوافع للقلق. فان علاقات فريدريك الاول الوثيقة مع عدو بيزنطية المباشر فى الشرق قلج ارسلان الثانى، سلطان قونية

[الخيم] المنصور السلطاني سلمه الله تعالى بعكا حرسها الله تعالى. اعلمنا الامير ذالك لياخذ حظه من هذه البشر ى التى عمت فضايلها الاسلام والنعمة التى شملت الخاص والعام ان شا الله تعالى. ولما كان بعد كسرة عسكر الافرنج وفتح البلاد المقدم ذكرها نزل الملك العادل (ابو بكر) على يافا وقاتل من فيها يومين وفي اليوم الثالث طلبو منه الامان فامنهم، ثم بعد ذالك قتل من ظفر

السلجوقي (١١٥٥ ـ ١١٩٢) قد اثارت الشبهات. فقد تبادل الامبراطور الالماني السفراء، وحتى اخذ منه وعودا تتيح الأمل في ان يتمكن الفرسان الالمان من عبور آسيا الصغرى بلاعائق: ذلك ان قلج ارسلان الثاني كان يعادى صلاح الدين الذى كان الصليبيون يعتزمون قهره.

وارتسمت اخطار جدية على بيزنطة من صوب الغرب ايضا، من اوروبا الجنوبية الشرقية. فقبل بداية الحملة الصليبية بزمن وجيز، في ١١٨٥ ـ ١١٨٧، ثار البلغار بنجاح، بقيادة البوليارين (النبيلين) آسن وبيوتر، على الاستبداد البيزنطي. والى الشمال من جبال البلقان، تشكلت دولة مستقلة، اسميت بالمملكة البلغارية الثانية. كذلك كانت صربيا تسير نحو بلوغ الاستقلال.

ان تقدم الفرسان الالمان في اراضي البلقان قد رافقته اعمال العنف والاجتياح والنهب من جانب الصليبيين، ولذا كانت الحملة بالنسبة للسكان المحليين بمثابة عدوان واقتحام معاد. والحال، بقي الفرسان في الارض البلغارية اكثر من ستة اشهر (من صيف ١١٨٩ الى الربيع الباكر من سنة ١١٩٠). وفيما بعد افاد الكاهن الالماني ابرهارد، المرسل الى المجر بمهمة ديلوماسية، في تقريره الى الامبراطور، انه رأى، اثناء مروره في بلغاريا، جميع قبور الصليبيين الذين ماتوا في الطريق، منبوشة؛ وكانت جثثهم مرمية من التوابيت ومبعثرة على الارض.

به منهم واسر من اراد، وكان فتحها يوم الثلثا الثالث من جمادى الاخر سنة ثلث وثمانين وخمسماية [١١٨٧م] الهلالية.

قصة بادويل الملك(*) [بلدوين الاول ١١٠ - ١١٨٦م] فاخبرنا من تقدم من السلف ان البيت المقدس كان في يد نفر من المسلمين يسمون الزدلفية من ملوك الترك، ثم ملك بعدهم قوم

(*)سيرة الملك بلدوين ملك القدس.

وبالطبع، كان تحقيق التحالف مع قائد الصليبيين الالمان في هذه الظروف امرا عسيرا جدا على البوليارين البلغاريين، ولكنهما اتصلا غير مرة مع ذلك بالامبراطور فريدريك الاول؛ فقد كان بيوتر وآسن يحسبان ان بلغاريا ستتمكن، في حال نشوب حرب بين الامبراطورية الالمانية والامبراطورية البيزنطية من توطيد استقلالها الذى نالته للتو.

ولكى نفهم كليا موقف بيزنطة من الصليبيين الالمان، يجب ان نأخذ كذلك بالحسبان ان الاوساط الحاكمة في الامبراطورية المستضعفة لم تكن تعتزم، رغم وضع الامبراطورية الداخلي والخارجي الشاق جدا، ان تستبعد القسم الشرقي من البحر المتوسط من مجال بصرها. ورغم ان نفوذ بيزنطة في هذه المنطقة قد تقوض كثيرا في اواخر القرن الثاني عشر بفعل مدن ايطاليا الشمالية التي توغلت في مرافئ سوريا ولبنان وفلسطين، وبفعل نورمانيي صقلية الذين تسربوا حتى الى اليونان وحتى استولوا في سنة ١١٨٥ (لفترة من الوقت) على اكبر مدينة بيزنطية بعد القسطنطينية، هي مدينة سلانيك، بقيت القسطنطينية مع ذلك مركزا مهما لتجارة المشرق. ولم يكن بوسع بيزنطة ان تبقى عديمة الاكتراث بنضال الدول الغربية من اجل الهيمنة على البحر المتوسط. وكانوا في القسطنطينية يعتبرون ان الصليبيين قد انتهكوا حقوق الامبراطورية البيزنطية في منطقة سوريا ولبنان وفلسطين، هذه الحقوق التي كرسها واثبتها التاريخ نفسه.

منهم يسمون الباروقية، ومنهم ملكه بادويل ملك الفرنج، وسبب ذالك ان الله لما شا ان ينقله منهم الى غيرهم جعل فى قلوب ملوكهم ان رغبهم فيما يحصل لهم من مكس من يحج اليه من جميع الافرنج، فحج بادويل واخفا نفسه وغير زيه ولم يعلم به احد، ووصل الى يافا ستة بطس [مراكب] في كل بطسة الف رجل وكانو البرطيقية [الباروقية] ياخذو المكس ممن يحج الى

ولجميع هذه الاسباب انتهجت الحكومة البيزنطية نهجا معاديا للصليبيين. فقد اقاموا في وجههم شتى العوائق والموانع؛ ولم يقدموا لهم المؤن التى وعد بها اسحق الثانى انجيلوس. الطرق التي سار عليها الصليبيون كانت شبه مدمرة؛ فان خيول الفرسان المدرعين كانت تنزلق وتسقط ارضا، وتتكسر قوائمها. وكانت فصائل الروم المسلحة تغلق المعابر الجبلية. وكان الامبراطور يستبقى في عاصمته افراد البعثات التى كان يرسلها فريدريك الاول اليها من الطريق. بل انه زج في السجن بافراد البعثة الاولى. وكان مزاج العداء يتبدى فى لهجة رسل الامبراطور البيزنطي الى امبراطور «الرومانية المقدسة»؛ فقد كان يتجنب كليا تلقيبه «بالامبراطور» وكان يخاطبه بوصفه «ملك المانيا».

ثم ان الفرسان الالمان اثاروا بدورهم كره السكان المحليين بما اقترفوا من اعمال السرقة والنهب والعنف. ففي تراقيا احرق الصليبيون في البدء ضواحي فيليبوبول (بلوفديف حاليا)، واحتلوا المدينة عمليا في اواخر اغسطس ١١٨٩ وكانوا يهاجمون المدن والقرى البلغارية على المكشوف ويقتلون السكان، ويمحون المساكن من على وجه الارض، ويحرقون الكنائس. ويتباهى مدونو الاخبار الالمان بالغنائم الوفيرة التى نهبها الفرسان الالمان فى فيرويا (حاليا ستارا زاجورا)، وسكر ينسيون (اسينوفجراد) وبرميس (بيروشتيتسا).

وحين عاد رسل فريدريك الاول فى اواخر اكتوبر ١١٨٩ الى فيليبوبول، بلغوا عاهلهم ان

البيت المقدس من الفرنج وغيرهم، فكتب والي يافا الى صاحب البيت المقدس يعلمه ان قد وصل الى يافا ستة الف رجل يريدو الحج، فكتب اليه الجواب يقول له: اقسمهم نصفين سير منهم ثلاثة الف فاذا حجو وعادو اطلق النصف الثاني يحجو. ففعل والي يافا كما امره واقسمهم، وسار بادويل مع من سار الى القدس مخفيا، فدخل اليه وكشفه وطاف المدينه وكشف الصور واماكن القتال، وسير

بطريرك القسطنطينية نعت المقاتلين الالمان في مواعظه في الكنائس بكلاب المسيح، وانه كان يعد الروم بان المجرم، مهما كان معتقا في الاجرام، و حتى اذا كان قد اقترف عشرات من جرائم القتل، سينال الغفران من ذنوبه اذا قتل مائة من الصليبيين. وبدأ فريدويك الاول من جانبه يوجه التهديدات الى اسحق الثاني انجيلوس. وفضلا عن ذلك، وقع اسحق الثاني في صيف ١١٨٩، حين كان «جنود الرب» يعبرون المجر، اتفاقية تحالفه مع عدو الصليبيين الاكبر ـ صلاح الدين، ووعده بالدعم ضد قلج ارسلان الثاني. وهكذا كان كل من الامبراطورين المسيحيين ـ الالماني والبيزنطي ـ في سنة ١١٨٩ متحالفا مع قوى اسلامية.

في تراقيا، دارت رحى الحرب، من حيث جوهر الامر، بين الصليبيين الالمان وبيزنطية. ولقد كانت، والحق يقال، حربا غير معلنة، حربا بين حليفين. ولكن الاحداث تطورت بجلاء في اتجاه اضفاء الصفة الشرعية عليها وتحويلها الى نزاع مسلح سافر. وفي اواخر خريف ١١٨٩ ارسل فريدريك الاول إلى ابنه هنريخ (السادس) رسالة تتضمن ضربا من مشروع هجوم على بيزنطة. فقد طلب من هنريخ ان يجمع المقاتلين، ثم ان يتفق مع جنوه والبندقية وبيزا وانكون، وان يجهز هناك اسطولا لاجل الشروع في ربيع السنة القادمة بمحاصرة القسطنطينية سواء من البر ام من البحر.وفي الوقت ذاته كان على هنريخ ان يحمل البابا على تنظيم حملة صليبية ضد الروم الذين يعرقلون حرب الكاثوليك ضد «الكفار».

رسول ثانى يوم دخوله القدس الى من بقى فى يافا يقول لهم: ضعو السيف فى اهل يافا اذا عيدنا يوم الاحد فان صبحية يوم الاثنين اضع السيف فى بيت المقدس واقتل كلمن فيها من الاجناد وغيرهم من المسلمين، فاذا فعلتم ذالك تقوو باموال اهل يافا وخيلهم والحقونى وخلو فى المراكب من يحفظها فى كل مركب عشرين رجل: فلما فعلو

(*) حاصر الصليبيون بيت المقدس فى يوم الثلاثاء ٧ يونيو ١٠٩٩م

- -

اقيمت خطط اخضاع بيزنطة لامبراطورية سلالة شتاوفن. ولكن بابا روما لم يشأ اقامة سيادة الكنيسة الكاثوليكية على الكنيسة الارثوذكسية بسلاح عدو الكورية البابابوية فى الأمس القريب، فريدريك بربروسا. ففى روما لم يصدقوا فريدريك بربروسا. ولم تقم حملة صليبية ضد بيزنطة فى سنة ١١٨٩ . وتجنبت امبراطورية القسطنطينية ضربات القوات الصليبية ، رغم ان البعثة التى وصلت الى جاليبولى من بيزا عرضت السفن على فريدريك الاول بصورة سافرة لاجل فتح العاصمة البيزنطية. الا ان التأجيل، كما سنرى، كان قصير الامد.

بعد ان نهبت الجموع الالمانية المقاطعات البلغارية من بيزنطة، انطلقت فى اواخر مارس ١١٩٠ من اندريانوبول وعبر الدردنيل الى آسيا الصغرى. لم يقدم الروم لا المأكولات ولا الاعلاف. وكانت فصائل الخيالة من السلجوقيين تشن يوميا الغارات على الفرسان الالمان. فان وريث قلج ارسلان الثانى الذى تنازل عن السلطة لم يكن يميل الى التحالف مع الصليبيون خوفاً من حرب مع صلاح الدين. وفضلاً عن ذلك كله، كابد الصليبيين عذابات القيظ العطش والجوع. واضطروا الى اكل لحوم خيولهم.

فى ١٨ مايو ١١٩٠، استولى الصليبيون على سلطنة قونية. ووقعت فى ايديهم غنيمة وفيرة. وفى ٢٣ مايو عقدوا هدنة مع السلطان. وغادر الصليبيون سلطنة قونية ونصبوا معسكرا وراء البساتين التى تحيط بها.

ذالك فتحو البيت المقدس(*) ويافا فى يوم واحد وهو يوم الثلثا، ثم فتحوها المسلمين منهم فى يوم الثلثا. كما عملو كذالك عمل بهم. فسبحان الله المكافى كل احد باعماله. ولما كان بعد فتح عكا بايام يسيرة خرج الملك الناصر منها يوم الخميس الثالث عشر من جمادى الاخر [سنة ٥٨٣هـ= ٩٠٣ قبطية = ١١٨٧م] من السنة المذكورة نزل على عسقلان(*) يوم الاحد سادس عشرة بعد ان

= ٨١٥ قبطية وبعد حوالى ٣٨ يوما فى يوم الجمعة ١٥ يوليو ١٠٩٩م سقطت فى ايديهم، ونصبوا جودفرى ملكا عليها. وفى يوم الثلاثاء ٢٤ رجب ٥٨٣ = ١١٨٧م سقطت فى يد صلاح الدين واستلمها فى يوم الجمعة ٢٧ رجب = ٢ أكتوبر ١١٨٧م.

(*) سقطت عسقلان فى يد صلاح الدين قبل سقوط بيت المقدس. والمؤرخ هنا يسبق الحدث حيث=

ومن هنا نزلت القوات الالمانية على دروب وعرة فى جبال طوروس الى قيليقيا، حيث حدث امر غير متوقع. ففى ١٠ يونيو ١١٩٠، غرق فريدريك بربروسا اثناء عبور نهر اللامس الجبلى العاصف، غير بعيد عن سلوقية. بعد ذلك، عاد قسم من الفرسان بحرا من سلوقية وطرسوس الى الوطن؛ ومضى قسم آخر، عابرا المناطق الارمنية بالنهب والسلب، الى انطاكية؛ مات كثيرون بالطاعون فى صيف سنة ١١٩٠. واقترب الباقون فى الخريف من عكا التى سرعان ما حاصرتها قوات دول الصليبيين التى سلمت حتى ذاك وفصائل الفرسان التى قدمت الى هنا بصورة تلقائية بعد ان احتلها صلاح الدين. وبعد فترة من الوقت هرعت الى عكا فصيلة المانية اخرى، بقيادة الدوق ليوبولد النمساوى. واخذ الدوق فى يده زمام قيادة جميع الصليبيين الالمان حين مات فريدريك، دوق شوابيا، ابن فريدريك بربروسا (فى سنة ١١٩١).

التناقضات الانجلو / فرنسية والمخاصمات
فى مملكة القدس. فتح عكا. نتائج الحملة

فى ذلك الحين، كان الاعيان والفرسان فى انجلترا وفرنسا قد بدأوا يستعدون للحملة؛ فان الاستعداد لها لم ينته فى هذين البلدين الا نحو صيف ١١٩٠.

= انه سيذكر فيما يلى احداث سقوط عسقلان ثم احداث سقوط بيت المقدس.

صلى بالمسلمين يوم الجمعة فى يافا واحاط العسكر بمدينة عسقلان وكان الكند [الكونت] جعفرى [جودفرى] الملك اسير معه فاحضره وقال له تسلم لى عسقلان بلا قتال والا ستقتل على بابها وانا بعد شنقك اخذها بالسيف فخاف الملك من الموت.وكانة [كانت] عسقلان له واجناده فيها فلما طلبها السلطان منه وخاف على نفسه من الموت لم يكن [له] حيله الا تسليمها فانفد

وقد وجد الملك الانجليزى ريتشارد الاول الاموال لاجل الحرب المقدسة بسفالة نادرة ودون التورع عن اللجؤ الى احقر الوسائل. ولم يكتف بابتزاز ضريبة «عشر صلاح الدين» من جميع من كان يتعين عليهم دفعها. فان هذا العاهل الذى تميز بجشع لاحد له، قد عمد الى بيع كل ما يمكن بيعه: الوظائف، بما فيها الوظائف الاسقفية، والحقوق، والقصور والقرى. وسمح البابا كليمنت الثالث للملك باعفاء الناس الضروريين لاجل الخدمة فى انجلترا ذاتها من الاشتراك فى الحملة. وقد استغل ريتشارد هذا السماح كما يطيب له؛ فلم يكن يمنح الاعفاء الا لقاء مبلغ كبير. وقد استطاع الاثرياء ان يفتدوا انفسهم من الحملة. اما الفقراء الذين لم تترك ابتزازات جباة الملك لهم شيئا، فقد استخدمهم ريتشارد بالنقود. ان قائد الصليبيين هذا، الذى مدحه مدونو الاخبار والشعراء اللاتين. على نبله وشهامته وحكمته قد صرح ذات مرة انه يبيع لندن ذاتها اذا ما وجد شاريا مناسبا!

فى ٤ يوليو ١١٩٠ ، عبر ريتشارد الاول مع حاشيته ومعظم فرسانه مضيق المانش. واجتمعت الفصائل الانجليزية والفرنسية فى مدينة فيزليه البورجونية، ومنها انطلقت فى الحملة.وهكذا لم تبدأ حملة الانجليز والفرنسيين الصليبية الا بعد مرور سنتين ونصف السنة على سقوط القدس وبعد مرور سنة على تحرك فريدريك الاول. ومن الجلى ان الملكين الانجليزى والفرنسى لم يكونا يتسرعان.

لاصحابه وقال لهم لا تقاتلو وسلموها لهم بالامان فهو اصلح لكم، بعد ان قاتلو ثلاث ايام ولم يقدرو عليهم المسلمين، فسلموها اصحاب الملك بالامان يوم السبت التاسع والعشرون من جمادى الاخر من سنة تاريخه [٥٨٣هـ = ٩٠٣ قبطية = ١١٨٧م]. وفي ذالك اليوم بعينه كسفت الشمس نصف النهار ولما فتحها السلطان كتب الكتب بذالك الى ولاة الاعمال المصرية، وهذه نسخة

(*) نص كتاب صلاح الدين إلى

في البدء سار الصليبيون معا، ولكن تأتي لهم فيما بعد ان ينقسموا؛ فقد تبين ان من الصعب اطعام مثل هذا العدد الضخم من المقاتلين. قاد فيليب الثاني فرسانه الى جنوه التي تعهدت بان تقدم لهم ثلاثة سفن لنقلهم الى الشام. وراح الانجليز الى مرسيليا. وهنا كان اسطول ريتشارد بانتظاره، اى اكثر من ٢٠ سفينة تسنى لها ان تدور حول اسبانيا وترسو في سواحل فرنسا الجنوبية. وفي سبتمبر ١١٩٠ وصل الفيلقان الواحد تلو الآخر.، الى صقلية، وتوقفا غير بعيد من مسينا. وهنا تقرر قضاء الشتاء لاجتناب المخاطر التي يتعرض لها البحارة في هذا الفصل من السنة.

مضى الفرنسيون بحرا الى صور. اما ريتشارد الذى اراد ان يعوض عن اخفاقه في صقلية، فقد احتل في طريقه الى الشرق جزيرة قبرص التي كانت من قبل خاضعة لسلطة بيزنطيا ثم انفصلت عنها، وغنم في قبرص غنائم لا تحصى. كما تزوج هناك بيرنجير دى نافار.

وبالاستيلاء على قبرص، أمن ريشار قلب الاسد، دون ان يدرك ذلك بنفسه، اهم نجاح لعموم الحملة الصليبية. فان مملكة آل لوزيان التي نشأت بعد وقت قصير في قبرص قد تحولت فيما بعد الى حصن بالغ الاهمية لممتلكات الصليبيين في القسم الشرقي من البحر المتوسط التي لم تستطع الا بفضل الدعم العسكرى من قبرص ان تدوم في الشرق زهاء مائة سنة اخرى.

الامير ناصر الدين خضر ابن بهرام بخصوص سقوط عسقلان.

الكتاب(*)الى الامير ناصر الدين [خضر] ابن بهرام والى الاعمال الغربية نسخة الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم ربى اودعنى ان اشكر نعمتك الذى انعمت به على وعلى والدى وان اعمل صالحا ترضاه،كتابنا هذا صادر الى الامير المفضل الامين نصر الدين وعمدة المجاهدين عز الخواص مملوك اميرالمومنين اطال الله بقاه، وقد من الله علينا وفتح على يدينا مدينة عسقلان التى هى

وقد تبدت «وحدة» الصليبيين الانجلو ـ فرنسيين بقوة جديدة عندما نزلوا فى لبنان وانضموا الى الفرسان الذين يحاصرون عكا. وبين هؤلاء، وقد استمر حصار هذه القلعة المنيعة اشهرا عديدة. واستعمل المحاصرون الاكباش، ومدافع اطلاق الحجارة، وابراج الحصار على العجلات.

ومن أهم اسباب استطالة الحصار نشوب الخلافات بين قادة العساكر التى طوقت المدينة، اى بين البارونات الصليبيين المحليين والاسياد القادمين من الغرب. ومرد الخلافات الى الادعاءات بعرش القدس (والاصح القول بلقب ملك القدس)، من جهة، من قبل جى دى لوزينيان الذى اخلى سبيله من اسر المسلمين، ومن جهة اخرى، من قبل المركيز كونراد مونفيرات. وهذا المركيز الذى كان قد اصبح آنذاك فعلا سيد صور، رفض ان يسمح لسيدها الاسمى جى دى لوزينيان بدخولها. ورغم ان الخلاف دار حول لقب فارغ هو ملك بيت المقدس (اذ ان مملكة القدس لم يكن له وجود بالفعل)، خاض قادة الصليبيين غمار هذا الجدال بكل حماسة الفرسان. وبالنتيجة، بدت قوات جنود المسيح دون أى عمليات من حيث الجوهر.

ثم أن الخلاف بين الطامعين بعرش القدس جاء يعمق العداوة بين الانجليز والفرنسيين فوق ماهى من عمق . فان ريتشارد قلب الاسد الذى لم يصل الى عكا الا فى ٧ يونيو ١١٩١ قد دعم ادعاءات قريبه جى دى لوزينيان، بينما دعم فيليب الثانى ادعاءات المركيز مونفيرات.

افضل عروستى [عروسة فى] الدنيا وانقذها من
يد الكفر، نرجو بمشية الله النور فى الدار الاخرى،
وقد نصبت اعلام المسلمين على ابراجها واسوارها
وعمر [عمرت] بموحديها، ونبت بمشركيها
وكفارها ، وكثر الموذنون فى اقطارها وارجايها،
وزالت سمت [سمة] الصلبان من جهاتها
وانحايها، واعلن الخطيب بلا اله الا الله على
منبرها. ومن قصص الفتح انها لما واجهتها جيوش

وعندما كان ملك يقترح فى المجلس الحربى اقتحام القلعة، كان الملك الآخر يعارض؛ فان النصر المحرز بمبادرة من ريتشارد الاول لم يكن يناسب فرنسا. والعكس بالعكس. ومع ذلك كانت الغلبة لرأى ريتشارد؛ ففى ١١ يوليو ١١٩١ ، بدأ هجوم عام؛ وفى اليوم التالى استسلمت المدينة التى انهكها الحصار المديد. ولانقاذ حامية المدينة، وافق صلاح الدين على دفع فدية كبيرة وعلى عدد من التنازلات الاخرى؛ فقد اطلق من الاسر الافرنج المأسورين سابقا واعاد الى الكاثوليك ذخيرة دينية يكرمونها هى ما يسمى يالصليب المقدس او الصليب المحيى (عود الصليب).

بعد مرور اقل من شهر على فتح عكا، اعلن فيليب الثانى انه مريض، فذهب الى صور ومنها سافر فى اوائل اغسطس ١١٩١ الى فرنسا عبر ايطاليا. وبينما كان الملك الانجليزى يقاتل «الكفار» فى الارض المقدسة، كان حليفه الفرنسى يسرع فى توطيد مواقع سلالة الكابيتيين فى بيته؛ فقد انقض فيليب الثانى على ممتلكات سلالة بلانتاجينه فى القارة. وسلفا عقد حلفا ضد ريتشارد مع اخيه الاصغر ، الكونت جان (فيما بعد الملك جان بلا ارض) الذى كان يحكم انجلترا فى غياب اخيه. وفضلا عن ذلك، تقابل فيليب الثانى فى ديسمبر ١١٩١ فى ميلانو مع الامبراطور هنريخ السادس واتفق معه بشأن الاعمال المشتركة ضد ريتشارد. ويقول مدون الاخبار الانجليزى رودجر أوف هوفدن ان الملك الفرنسى حصل من الامبراطور

الاســلام الناصــرية وانصــار المومنين التــوحــيــد الصلاحية، واحاط بكفارها سخط الله وحقو ان ينجــز لهم وعــده وان يتــمكن منهم اوليــآ الله وجنده، لجــا المشــركين الى الفــرار واخــذو فى الانحصار فى الجدار، فنصبنا عليهم الات القتال واذقناهم من طعم الطعن شــديد الوبال واخــذنا بقوة فى باشورتها(*) الكبيرى [الكبرى] فهدمناها، ولما لحناها مع شــدة باسـها فـمـحـوناها، وصلت

(*) الباشورة: هى البرج فوق بوابة الحـصـن وأصلهـا فى اللغـات الاوربيـة Bastion، وهى مـــن =

الروماني على وعد بان يأسر الملك الانجليزى اذا عاد من فلسطين عن طريق الاراضى الخاضعة للامبراطور.

وهكذا اذا كان قائدا الحملة الصليبية قد صفيا حسابات احدهما الآخر بضراوة، حارصا احدهما على مكانته وسمعته كفارس صليبى، والثانى على توسيع وتعزيز مملكته، فان كونراد مونفيرات كان مستعدا على العموم لخيانة الصليبيين، وللانتقال الى صف صلاح الدين والحصول منه على الحق فى حكم المدن الفلسطينية. بل ا ن كونراد كان يعتزم خوض النضال معه ضد حلفاء الامس اخوانه فى الدين. وكان ذلك، من وجهة نظر مصالحه السياسية على كل حال عمليا اكثر من انتظار نجاح جدى نوعا ما يحرزه الصليبيون الذين كان يقودهم قائد عسكرى غير موهوب مثل ريتشارد قلب الأسد. وقد لاحظ مدون الاخبار امبرواز بامتعاض فى قصيدته الاخبارية أن كونراد مونفيرات لم يساند القوات التى حاصرت عكا، فقد فضل ان يحفظ الاحتياطيات فى صور، ولم يكن يحرص الا على ابقاء المدينة فى قبضته. الا ان وفاة كونراد مونفيرات الذى قتله فى صور فى اواخر ابريل ١١٩٢ اثنان من المسلمين من شيعة الحشاشين (وهم فريق من الاسماعيليين) حالت دون تحقيق مقاصده السرية.

حاول ريتشارد الاول ثلاث مرات ان يقترب من القدس. وكان الصليبيون يركزون جل انتباههم على انتزاع المدن الساحلية من مصر. ولكن محاولات فتح يافا وعسقلان باءت

منجيقاتنا [مجانيقنا] فى قبلة اسوارها فما زالت سهامها [اسماها = اعاليها] تركع وحجارتها تسجد ونجومها برجومها لشياطين الكفر تقذف وتطرد، حتى هدمنا باشورة صغرى تحت سورها ودمرناها، واخربنا ابراج السور وابدانه ودمرناها، واستبحنا المعقل وان كان منيعا حصنه رفيعا تله جديد حده، وطال ما اعجز الايام والانام فله..فلما خشو باسنا جنحو للسلم فعملنا بظاهر الاية فى

= الألفاظ التى دخلت اللغة المصرية فى عهود الحروب الصليبية.

بالفشل ايضا. وعندما خيم الخطر على هاتين المدينتين، امر صلاح الدين بهدمهما كما كانت عادته في هذه الحرب غير مكترث بسكانها العزل، ولذا لم يبق للصليبيين منهما غير ركام من الانقاض وبقايا سكانها الفقراء الذين لم يستطيعوا الفرار.

وفى آخر المطاف، حين منيت قوات الصليبيين العسكرية بخسائر فادحة فى الحروب ضد صلاح الدين، وحين بدأ ريتشارد الاول يقلق جديا على شؤونه فى الوطن، دخل فى مفاوضات مع عدوه وعقد معه الصلح في سبتمبر ١١٩٢ . وبموجب شروط الصلح، احتفظ الاسياد الصليبيون بشريط ساحلي ضيق يمتد من صور الى يافا، وبقيت القدس خاضعة لمصر . ولم يوافق صلاح الدين الا على السماح للحجاج والتجار بزيارة القدس فى غضون ثلاث سنوات. ويقينا ان الاراضى الساحلية بما فيها صور وصيدا وطرطوس وغيرها من الموانئ كانت بالنسبة للبلدان الغربية اهم بكثير من القدس او من الناصرة الواقعتين بعيدا عن الساحل. ان امتلاك الشريط الساحلى كان يخدم فى المقام الاول صالح التجارة المشرقية. وبهذا المعنى احرز ريتشارد الاول حتى بعض النجاح. ولكن هذا النجاح الذى كان يطيب بقدر معين لتجار ايطاليا الشمالية لم يكن من الممكن اعتباره كافيا من وجهة نظر روما، إذ ان خسارة القدس كانت اخفاقا جديا الى حد انه كان يبدو للباباوية من المستحيل التسليم به.

فى اكتوبر ١١٩٢ هرع ريتشارد قلب الاسد الى بلده بعد ان تلقى من اوروبا انباء غير

الجنوح لها وتطارحو مبالغين فى المسلم [المزلة] فى الامان فراينا تقبلها فامناهم ثقة انهم انما يسلمون من الحمام [إلى الحمام]، وانهم يستاصلون بشية الله بسيوف الاسلام، واشفاقاً من معرة الجيش على من فيها من كتايب المسلمين، وصيانة الذمة عن نهب تخريب الناهبين، وجملت الامر ان النزول عليها كان يوم الاحد سادس عشر جمادى الاخر [٢٣ أغسطس ١١٨٧م] [و] نصبت الالات يوم

مستطابة. ولكن لم يتسن له الوصول الى انجلترا فى وقت قصير . فقد اكتسب لنفسه عدوا، لا فى شخص فيليب الثانى وحسب، وبل ايضا فى شخص قائد الصليبيين الالمان عند اسوار عكا، الدوق ليوبولد النمساوى. فقد استعجل الدوق فى رفع العلم الالمانى فى المدينة بينما كان الصليبيون يحتلونها. فأمر ريتشارد بنزق وحمية بنزع العلم ورميه فى الوحل. لم ينس ليوبولد الاهانة. وفى جوار فيينا عرف ليوبولد أن الملك الانجليزى ريتشارد متسترا بلباس التجار، واسره؛ ثم سلم ليوبولد اسيره الى الامبراطور هنريخ السادس. وقد رأى هذ الحاكم البالغ من العمر ٢٥ سنة فى الفاتح الانجليزى عدوا له فى تطلعاته الى منطقة البحر المتوسط، فابقاه فى السجن سنتين.

وهكذا نرى ان الحملة الصليبية الثالثة قد اختلفت فى كثير من النواحي عن سابقتيها. فبين المشتركين كانت تغيب الحماسة الدينية السابقة، كما انها لم تكن تنطوى على اى من عناصر العفوية والجماهيرية. ولقد كانت حملة فتوحات قام بها فرسان وامراء ثلاث دول اقطاعية ونظمتها وحققتها السلطة الملكية ـ واثناء الحملة، تكشف بجلاء ووضوح سعى الملكيات الاقطاعية الغربية الى فتح مختلف مناطق البحر المتوسط. وفى هذه التربة نشبت مضاعفات وتعقيدات ونزاعات دولية بين الدول المسيحية (المانيا وبيزنطيا، انجلترا والمانيا ـ فى صقلية، فرنسا وانجلترا فى صقلية وفلسطين، انجلترا وبيزنطيا فى قبرص، والخ.)، وهى التى قررت المصير المخزى الذى آلت اليه الحملة بمجملها.

الثلثآ ثامن عشر ووقع نقوب الباشورة الكبرى يوم الاربع تاسع عشر، وتسلمت المدينة ونصبت اعلام الاسلام عليها يوم السبت التاسع والعشرين منه [٤ سبتمبر ١١٨٧م]. هذا من فضل ربى ليبلونى الشكر ام اكفر، ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربى لغنى كريم. اعلمنا الامير المفضل ناصر الدين ذالك لياخذ حظه من المسار [السرور] ويشارك من هو قبله من المسلمين بحسن المنار

ومذ ذاك، صارت حدود مملكة القدس اضيق من ذى قبل، كما نقلت عاصمتها ذاتها الى عكا. فكانت ما يسمى بمملكة القدس الثانية.

كانت حملة ١١٨٩ ـ ١١٩٢ نقطة انطلاق لاجل تفاقم التناقضات الناجمة بين الدول عن توسع الغرب فى منطقة البحر المتوسط. وقد حاول هنريخ السادس (١١٩٠ ـ ١١٩٧) تحقيق مشاريع فريدريك الاول بربروسا غير المحققة. ففى سنة ١١٩٤ استولى على صقلية ونكل بسكانها الذين ثاروا عليه. وضم تركة النورمانيين (صقلية) الى المانيا وبذلك تحقق هدف سلالة هو هنشتاوفن القديم.

ان هنريخ السادس الذى كان بمقدوره اقل من ابيه ان يوازن بين نواياه التوسعية والاغتصابية وبين الامكانيات السياسية الفعلية، بدأ يفكر جديا فى تأسيس ملكية عالمية بعد ان وطد قدميه في صقلية. فأطلق سراح ريتشارد قلب الاسد من الاسر بعد أن اخذ منه قسم التابعية وفدية ضخمة جدا. وبذلك اراد هنريخ السادس ان يضع حدا للادعاءات الانجليزية فى البحر المتوسط. ثم اعتزم ان يخضع فرنسا بمساعدة ريتشارد.

إلا ان الامبراطور الالمانى جعل من فتح بلدان الشرق الادنى، وفى المقام الاول بيزنطيا، مهمته الاساسية. وبجميع الوسائل استثار الحرب ضد بيزنطيا. فقد طلب من الامبراطور

والاســلام [والســلام]. واقــام السلطان نازل على عسقلان بعد فتحها حتى دبر حالها وسلمها لعلم الدين قــيــصــر من مماليكه الخــاص الكبــار ولاية واقطاع، ورحل منهــا وتوجــه منهــا إلى البــيــت المقـدس(*) في يوم الاربعا الحادى عشر من رجب من السنة المقدم ذكرها، ونزل على البيت المقدس يوم الخميس من ناحيت عين سلوان ليجد العسكر الماء قريبا منه، ورتب العسكر مستدير [محاصر]

(*) حصار وسقوط بيت المقدس في يد صلاح الدين.

البيزنطى اسحق الثانى ان يتنازل لالمانيا عن نصف الاراضى البيزنطية (اراضى البلقان) وان يعوض عن الضرر الذى لحق بالصليبيين الالمان التابعين لفريدريك الاول. وفيما بعد، في سنة ١١٩٥، حين اطيح بالامبراطور اسحق الثانى بنتيجة انقلاب فى القصر، وحل محله على العرش في القسطنطينية اخوه الكسيوس الثالث، شرع هنريخ السادس في تنظيم حملة صليبية جديدة كان من المرسوم ان تكون بيزنطيا ضحيتها الاولى. وللحصول على حجة رسمية لاجل الادعاء بالتاج البيزنطى، زوج هنريخ السادس في ٢٥ مايو ١١٩٧ اخاه فيليب، دوق شوابيا، من الاميرة اليونانية ايرينا التى وقعت فى يده فى باليرمو، ابنة اسحق الثانى انجيلوس وارملة روجية، العاهل النورمانى الاخير فى مملكة صقلية (ابن تنكريد دى ليتشه). وهكذا تناول الكلام ضم بيزنطية مباشرة الى قوام «الامبراطورية الرومانية المقدسة».

واعدت المدن الايطالية السفن. وفى المانيا تشكلت جموع جديدة؛ وفى فورمس قبل هنريخ السادس فى مارس ١١٩٦، مع القاصد الرسولى، خلال اربع ساعات، فى الكاتدرائية، النذور الصليبية من الفرسان.

اثار خطر حملة صليبية جديدة الذعر فى بيزنطيا. فوافق المغتصب الكسيوس الثالث على شراء السلام باى ثمن كان. كان مستعدا لدفع مبلغ هائل ذهبا لهنريخ السادس. ولتحصيل

على المدينة من جميع جهاتها، وصلى المسلمين على الجبل الذى حولها يوم الجمعة، وزحفو للقتال بعد الصلاة وكان باليان ابن بارزان فارس كبير محتشم من فرسان الافرنج يسكن فى مدينة بيت المقدس واقطاعه مدينة الرملة كان دخل مدينة القدس فى ذالك اليوم وهو الذى كان يدير الحرب ومسك القتال مع السلطان قتال جيد والسلطان يرسل اليه ان يسلم البلد بالامان فلم يفعل.

وجمع الاموال اللازمة فى البلد الفقير البائس. فرضت ضريبة استثنائية اسميت بالضريبة الالمانية (الامانيكون).

فى مارس ١١٩٧؛ تحركت نحو الشرق اولى الفصائل برئاسة رئيس اساقفة ما ينتس. كونراد فيتلسباخ، والمارشال هنريخ من كالدن، ومستشار الامبراطورية كونراد من كفيرفورت. ويقدر مدون الاخبار ارنولد من بولك عدد افرادها بـ ٦٠ الفا. وفى ٢٢ سبتمبر نقلهم الاسطول الى عكا. وتوقف قسم من الصليبيين فى قبرص. واعتبر ملك قبرص آمورى دى لوزينيان نفسه تابعا للامبراطور الالمانى وسرعان ما انتخب ملكا على القدس رسميا بضغط من القوات المسلحة الالمانية. ثم بدأ الصليبيون العمليات الحربية فى لبنان وسوريا، بل انهم استولوا على صيدا وبيروت.

الا ان كل هذا المشروع انهار فجأة بوفاة هنريخ السادس فى مسينا فى ٢٨ سبتمبر ١١٩٧ .فقدى فتكت بهذا الامبراطور نوبة دورية من الملاريا؛ واذا صليبيوه الذين بقوا فى لبنان وسوريا حتى صيف ١١٩٨ وعقدوا الصلح مع العادل (خليفة صلاح الدين)، يسرعون فى العودة الى المانيا لكى يؤمنوا مصالحهم فى الحرب الاقطاعية التى نشبت هناك.

وبعد حقبة قصيرة، تعالت فى الغرب من جديد صيحة باباوية: «الى الشرق!». فان نتائج الحملة الصليبية الثالثة لم تتجاوب مع ابسط توقعات الكرسى الرسولى.

وكان رجل نصراني من الملكية يسمي يوسف البطيط من اهل القدس كان وانتقل إلى دمشق وسكن فيها، وعرف صلاح الدين واخوته قبل ان يكون سلطان وقبل هذه الامور، وعرف ابوه وعمه اسد الدين شيركوه وهم بدمشق في خدمة نور الدين محمود ابن زنكى قبل ان يملكو مصر، فلما ملك السلطان ديار مصر جا اليهم يخفظوه [يراعوه]، فاخذه الملك العادل ابو ابكر اخو

الصليبيون فى القسطنطينية

تاريخ الحملة الصليبية الرابعة ومؤرخوها

تشغل الحملة الصليبية الرابعة (١١٩٩ ـ ١٢٠٤) مكانا خاصاً فى تاريخ الحروب الشرقية التى شنها الفرسان الغربيون. فان بعض العلماء الغربيين يعتبرونها ضربا من صدفة تاريخية، ضربا من مفارقة تاريخية، ضربا من تناقض، ولهذا الاعتبار اسس شكلية معينة، ذلك ان هذه الحملة التى استهدفت تحرير «الاماكن المقدسة» من السيادة الاسلامية، قد انقلبت فى آخر المطاف الى هزيمة منيت بها بيزنطية والى تشكيل امبراطورية لاتينية مكانها هى دولة الصليبين، اى دولة اخرى فى عداد دول الصليبين التى سبق ان تشكلت فى الشرق.

صـلاح الدين الى عنده وانعم عليـه واسكنه فى قصر الخليفة فى قاعت [قاعة] باب الذهب فى القصـر الشـرقى بالقـاهرة. وكـان صـلاح الدين يترسل به الى ملوك الافرنج قبل هذه الامور فـصار يدرى احوال بلادهم ويعرف كبار فرسانهم، فلما رأى السلطان الحرب شـديد ولم يقـدر على المدينة المقدسة احضر يوسف البطيط واتفق معه ان انفذ الى النصاره الملكيـة يوعدهم بكل خيـر ويفتـدهم

الصليبيون يهاجمون القسطنطينية.

فكيف حدث ان مضى الاقطاعيون المسيحيون الذين تجمعوا من مختلف بلدان اوروبا (وبصـورة رئيسية من فـرنسـا والمانيا وايطاليا)، «الى ما وراء البحـر»، حسب تعبيـر مدونى الاخبار، بحجة انقاذ الايمان المسيحى من نجس ودنس «الكفار» ولكنهم فتحوا ونهبوا عاصمة بيزنطية، عاصمة دولة اخوانهم فى الدين المسيحين؟ وهل كان هذا الانعطاف نتيجة لتجمع من باب الصـدفة، لتجمع غير متوقع لظروف مشؤومة، غيـر متوقفة على نوايا الصليبيين الاولية؟ او لربما تحولت الحملة الصليبية المعادية لمصر الى مشروع فتوحات ضد بيزنطية بفعل افعال متعمدة قام بها المشتركون فى هذه الحملة؟ واذا كانت هذه الفرضية صحيحة، فمن هم المسؤولون مباشـرة عن «انحـراف الصليـبين عن السبيل» أو لربما يقع الذنب الرئيـسى عن «الانحراف عن السبيل» على قادة الحملة انفسهم، ومنهم، مثلا، الماركجراف الايطالى بونيفا سيوس دى مونفيرات؟

ان مسألة الاسباب التى اتخذت الحملة الصليبية الرابعة بفعلها اتجاها جديدا وانتهت كذلك نهاية مدهشة هى مسـألة مشوشة جدا، وليس فقط من جراء تضارب اخبار المؤرخين. فان معاصرى استيلاء الصليبين على القسطنطينية الذين وصفوا نهب العاصمة البيزنطية (واحدى المدونات اللاتينية تسمى بالضبط : «اجتياح القسطنطينية») وكذلك المؤرخين اللاحقين الذين حاولوا بعناد ومثابرة ان يحزروا لغز سنة ١٢٠٤، لم يكونوا براء من عدم التحيز. ان تأثير

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

عن مساعدة الافرنج فى القتال وان يسلمو المدينة لصلاح الدين من ناحيتهم وقرر عليهم [لهم] مال كثير. فلما اتصل الخبر بباليان ابن بارزان، وكانو الملكية فى المدينة اكثر من الفرنج خاف [أن] يسلموها [الملكية] فيهلكو الافرنج جميعهم بالسيف، اذعن [فاذعن بباليان] الى الصالح [الصلح] وقرر القطيعة [الفدية] على جميع من فى المدينة من الفرنج وغيرهم، وذالك غيظ على

• نقود صلاح الدين

نزعات العلماء الدينية الطائفية واتجاهاتهم السياسية قد انعكس كذلك بصورة مباشرة وغير مباشرة فى نتائج دراساتهم فى القرنين التاسع عشر والعشرين لقضية الحملة الصليبية الرابعة الامر الذى صعب حل القضية حلا صحيحا، مناسبا، حسب مصطلحات الاختصاصيين.

هناك كثرة من الكتب والمقالات والمنشورات الوثائقية المشروحة بالتفصيل التى تتناول استيلاء الفرسان الصليبيين على بيزنطة. وهذه الاعمال تعرض شتى التفسيرات بصدد العوامل التى غيرت اتجاه الحملة الصليبية. وغير مرة كانت الحملة الصليبية فى اوائل القرن الثالث عشر ومختلف وقائعها، ولا تزال الى الآن، موضع مناظرات حارة ومغرضة بين المؤرخين. بل انه من الصعب ان نتصور مقدار الجهود التى بذلها الباحثون فى السنوات المائة ونيف الاخيرة (ان تاريخ الحملة الصليبية الرابعة قد اصبح موضع دراسة معمقة منذ الستينيات تقريبا من القرن الماضى) لتفسير وتوضيح ظروف تغير اتجاه الصليبيين، ومقدار الحبر الذى انفقوه، ومقدار العمل الدقيق الذى قاموا به لتفهم تطورات هذه الحملة.

لقد جمع العلماء وحللوا عددا ضخما جدا من المصادر باللغات اللاتينية، واليونانية، والفرنسية القديمة، الارمنية، والروسية، وغيرها من اللغات، ودققوا طائفة من التفاصيل المتعلقة باحداث ملموسة من الحملة الصليبية. وقد تسنى لهم سد الكثير من نقاط الفراغ والغموض

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

الملكية، لانه لولم يسبقهم ويقرر القطيعة كانو قد سلموها واهلكو الفرنج جميعهم الذين فيها. والقطيعة الذى قررها مع السلطان عشرة دنانير من كل رجل وخمسة دنانير من كل امرآه ودينار واحد من كل صبى اوصبية لم يبلغ الحكم [الحلم]. ولما تسلمها السلطان كتب الى ولاة الديار المصرية يعرفهم بذالك، وكتب الى الامير نصر الدين خضر ابن بهرام والى الاعمال الغربية، وقد كان المذكور

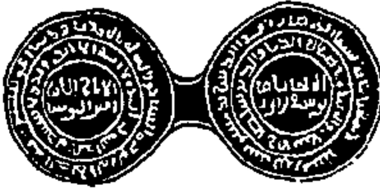

نقود صلاح الدين ضربت في دمشق سنة ٥٨٣.

فى تاريخ هذه الحملة. ومع ذلك، لم يتم بعد حتى الآن الاتفاق التام بشأن المسائل المختلف عليها، ولا تزال المناقشات قائمة.

ولكن رغم الغموض المتبقى بصدد بعض وقائع الحملة ورغم قابلية بعض المسائل للنقاش، بلغت معارفنا اليوم درجة من الدقة والصحة بحيث نستطيع كليا ان نعيد بناء كل تاريخ احداث سنوات ١١٩٩ ـ ١٢٠٤ بخطوطه الكبرى.

شمولية سياسة البابوية واعداد الحملة على الشرق

كان البابا اينوسنتيوس الثالث (١١٩٨ ـ ١٢١٦) المبادر الى الحملة الصليبية الرابعة وروحها، وفى عهده البابوى بلغت البابوية قدرا كبيرا من الجبروت. وفى ذلك اسهمت بقسط كبير شخصية البابا ذاته، الرجل ذو المواهب الممتازة والطاقة النادرة. تحدر اينوسنتيوس الثالث من العائلة الاقطاعية الكبيرة دى سينيى، وشغل الكرسى الرسولى فى السابعة والثلاثين من عمره. ولكن رغم انه كان الاصغر سنا فى هيئة الكاردينالات التى انتخبته، كان لاختياره من قبل الشيوخ الكاردينالات اسس جديدة. ولا ريب ان اينوسنتيوس الثالث كان سياسيا بارزا فى زمنه لما تميز به الارادة الراسخة، والمثابرة فى بلوغ الاهداف المنشودة، والقدرة على استغلال جوانب الضعف فى اخصامه بعد دراستها جيدا، واخضاع نواياهم لمقاصده، والتنبؤ

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

ولى هذه الاعمال فى شوال سنة احدى وثمانين وخمس ماية [٩٠١ قبطية = ١١٨٥م] وهو مستمر فيها الى يوم تسطير هذه السيرة فى شوال سنة ثلث وستماية الهلالية، ثلثة وعشرين سنة وهو مستمر، وكان رجلا جيد عادل [عادلاً] دين [ديناً] كثير الصدقات، مكفوف اليد عن اموال رعيته. وهذه نسخة كتاب السلطان اليه بفتوح البيت المقدس(*):

(*) نسخة كتاب صلاح الدين بسقوط بيت المقدس إلى الأمير نصر الدين خضر ابن بهرام والى الاعمال الغربية.

بالاحداث وتوجيهها ـ هذه المواهب وحدها كانت تكفى لاستمالة اصوات الكاردينالات الى جانبه.

كان الهدف الرئيسى الذى استهدفه اينوسنتيوس الثالث اقامة سياده (زعامة) الكنيسة الرومانية بصورة تامة على عموم العالم الاقطاعى فى الغرب والشرق. وهذا الهدف بالذات هو الذى حدد الجهود العملية التى بذلها الحبر الاعظم الرومانى الذى لا يعرف الكلل. وليس عبثا أن اتهم ولا يزال يتهم حتى انصار الكاثوليكية البابا اينوسنتيوس الثالث بانه اخضع الاعتبارات الدينية للمصالح السياسية، وخالف المبادئ التى نادى بها بذاته. اما المؤرخون الكاثوليك فى ايامنا، فانهم يبدون رأيهم فى هذا الصدد لاجئين الى صيغ اكثر مرونة؛ فان البابا، كما يزعمون، لم يكن دائما يسترشد بالدوافع الدينية، اذ انه لم يستطع ان يتغلب بنفسه على «التناقضات بين نائب المسيح ورجل الدولة». ولكن الواقع يبقى واقعا وهو ان البابا اينوسنتيوس الثالث كان قبل كل شئ رجل دولة وضع فى المقام الاول المصالح السياسية لروما البابابوية.

كانت الحملة الصليبية منذ البداية جزءا مكونا فى غاية الاهمية من اجزاء البرنامج الشمولى للحبر الاعظم. وكانت الفكرة الاولى والاخيرة عند البابا اينوسنتيوس الثالث. وفى كل مدة حكمه البابابوى بذل جهودا كبيرة لاجل بعث روح الحملات الصليبية القديمة. وما

بسم الله الرحمن الرحيم، كتابنا الى الامير الاجل الاسفهسلار الكبير نصير الدين فخر الاسلام عمدة المجاهدين خاصة امير المومنين، ادام نعمته واعلا رتبته واجزل من الخيرات موهبته وارهف عزمته، وقد طلعت على اسوار البيت المقدس (حرسه الله) اعلامنا، ونفذة [نفذت] فيه احكامنا، وذهب [ذهبت] ايام العدو الكافر واستقبلته ايامنا، وثبت بتايبد الله واقدامها اقدامنا.

الهجوم الصليبي على قلعة انطاكية

كاد الكاردينالات الذين تجمعوا في دير القديس اندراوس ينتخبونه للكرسي الرسولي حتى وجه الى الغرب نداء مدويا دعا فيه الى القيام بحرب مقدسة جديدة ضد المسلمين لاجل تحرير القدس.

وفي الحال اتخذت تدابير ملموسة دينية عملية، ومالية وديبلوماسية ـ لاجل اعداد الحملة الصليبية.

ولإعداد للحملة الصليبية، توجه البابا اينوسنتيوس الثالث الى الامبراطور البيزنطي الكسيوس الثالث. فقد كان على القسطنطينية، برأى البابا، ان تحرك عساكرها لاجل تحرير القدس. هذا المطلب تلقاه الامبراطور البيزنطي في رسالة باباوية لام فيها اينوسنتيوس الثالث الامبراطور على انه من زمان لايساعد الارض المقدسة. هذه الملامات لم تكن سوى ورقة ديبلوماسية . فان اينوسنتيوس الثالث كان يحيك الخطط لسحب سيادة الكنيسة الرومانية على بيزنطة. وكان يهمه اشتراك بيزنطة في الحملة الصليبية (مع ان البابا كان يريد بالتأكيد ان يستغل مواردها المادية والعسكرية لاجل فرض سيادة الكرسي الرسولي في الشرق) اقل مما كان يهمه في المقام الاول امر آخر هو اخضاع الكنيسة ا لارثوذكسية الشرقية للكنيسة الرومانية الغربية (اللاتينية). وقد طرح البابا في رسالته الى الامبراطور البيزنطي، اول ما طرح، مسألة اتحاد الكنيسة. وقد كان اتحاد الكنيستين صيغة قديمة لباباوات روما تتستر وراءها نوايا

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

وكان مدة المنازلة له ثلثة عشر يوما، وايام المقاتلة سبعة ايام جسوما رمى بالمناجيق حتى خربت الاسوار وحطمتها وحدرت الجدران وهدمتها، واقامت كلمة التوحيد وقومتها واظهرت شعاير الدين الحنيف وعظمتها، وكيف يقا يعوى [يقوى] الحجر الصغير على مصادمت الجبل الكبير، بل كيف يدوم مع الحق الضلالة ويقاتل بدوات الحجال [النساء البدويات ذات الحجال اى النساء

الهجوم الصليبي على قلاع السلاجقة

القضاء على استقلالية الكنيسة الارثوذكسية، واستملاك ثرواتها ومداخيلها، واخضاع بطريرك القسطنطينية، رئيس الكنيسة الارثوذكسية، ومن بعده الامبراطور نفسه.

وهكذا ظهر مشروع الحملة الصليبية واتحاد الكنيسة وثيقى الارتباط فى سياسة البابا اينوسنتيوس الثالث. وقد حدث ذلك لان البابا رأى في الحملة الصليبية وسيلة مناسبة لاحراز نجاح مزدوج فى آن واحد: جعل القدس والقسطنطينية معا تابعتين لروما. ومن المؤكد ان اينوسنتيوس الثالث لم يكن يرى آنذاك فى الحملة الصليبية اكثر من وسيلة لتخويف الاوساط الحاكمة فى الامبراطورية البيزنطية بمختلف المضاعفات والتعقيدات المحتمة بالنسبة لها بالارتباط مع مشروع الفرسان الصليبيين. وببساطة نقول ان البابا هول على الامبراطور البيزنطى لاجباره على اجراء تنازلات تتعلق بالوحدة الكنسية. اما فى الواقع، فان البابا لم يقتصر فى رسالته الى الكسيوس الثالث على النصائح «الابوية» وعلى الاستشهادات بالانجيل. بل المح بما يكفى من الوضوح الى ان بعض قوى اوربا ستعمل، اغلب الظن، ضد بيزنطة اذ رفضت القسطنطينية مطلب الكرسى الرسولى. وهذا التهديد الغامض كان مجلببا بجلباب ديلوماسى.

ولكن القسطنطينية رفضت قطعا مطامع البابا اينوسنتيوس الثالث، وفى فبراير ١١٩٩ وجه الكسيوس الثالث اتهامات مقابلة الى البابابوية بسبب سياستها حيال بيزنطة. وكل هذا لم يفعل

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

الهجوم الصليبي على قلعة انطاكية

الضعيفات] عزايم ابطال الرجال. وما زالت الكفار في شقا وبلا وخذلان وعنا [عناء] منذ يوم المنازلة الى يوم التسليم، لا يخلو يوم من ا سارى وجرحآ بل قتلا وصرعا فنظرو، واذا حميت حماتهم قد خمدت، وعزايم كاتهم قد همدت، وطرف بلدهم قد فض، وجناح باشورتهم قد خض، وطور قلعتهم قد ذل، وثقل الابراج بكفات المناجنيق واصابع سهامها قد فل، وان لا مخلص لهم من براثين

غير ان اثار غضب البابا. وبقدر ما كانت تتطور الاحداث، كان يحاول ان ينفذ تهديداته لبيزنطة: في ١١٩٨ ـ ١١٩٩ كانت سبل تنفيذ هذه التهديدات لاتزال، الحق يقال، غير واضحة، ولكن البابا اعرب بكل وضوح عن جوهرها.

وهكذا بدأت تنعقد في سنة ١١٩٨ تلك العقدة التي امتدت في سنة ١٢٠٤ انشوطة مشدودة حول القسطنطينية.

ان تناحر البابوية وبيزنطة الذي كانت سياسة الباباوات الشمولية اساسه قد كان السبب الاول (من حيث زمن ظهوره)، وان لم يكن السبب الرئيسي، لتغير اتجاه الحملة الصليبية الرابعة. وسرعان ما انضمت اليه اسباب اخرى، اهم.

الاستعدادات للحملة. دوافع الفرسان

لقي نداء البابا صدى، ولكن ليس في الحال، وبصورة محدودة جدا، وعلى الاغلب في الوسط الاقطاعي، وقبل كل شئ في فرنسا. ففي فرنسا استجاب لنداء البابا زهاء مائة من كبار الاقطاعيين ومعهم اتباعهم الفرسان. اما الملوك، فقد رفضوا هذه المرة الاستجابة لدعوة البابوية. ان ملك فرنسا فيليب الثاني اوجست، الذي مر منذ عشر سنوات بتجربة فاشلة كان يتمسك برأي مفاده ان الحياة البشرية تكفيها حملة صليبية واحدة. ولم يأبه فيليب الثاني اوجست لنداء القاصد الرسولي بيار من كابوا الذي وصل الى فرنسا، واستأنف الحرب، بعد

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

الاسد، وان الضلال قد اخفاه الحق ودفعه الرشد، وان مدة ولايتهم قد تصرمت، وجرت على مرادها الاقدار. وكان البلدان يدخل عليهم فيه من جميع الاقطار، وانهم اسارى فى قيدى الجوع والحصار، وتوهمو بل تيقنو ان البلد سيلقيهم الى اوليا الله فيمضو فيهم حكمى السيف والنار، وان المسجد الاقصى قد لبس حلتى الفرح والاستبشار، واخلع الذل والصغار. هذا وامداد الاسلام متوافيه، والعدد

مصرع ريتشارد قلب الاسد، ضد اعدائه، آل بلانتاجينه، اذ انقض على الممتلكات الفرنسية لخليفة ريتشارد، الملك الانجليزى الجديد جان بلا ارض (Jean sans Terre) (١١٩٩ ـ ١٢١٦). اما ريشار قلب الاسد ذو التأدب ـ وقد كان لايزال حيا عندما بدأ فولك دى نويى مواعظه ـ فقد سخر على المكشوف من خطابات هذا الكاهن النارية. ان بطل الحملة الصليبية الثالثة، كما كتب مدون الاخبار الانجليزى جيرالد من كمبريدج، قد قال لفولك، ردا على دعواته، ما يلى تقريبا: «انت تنصحنى بجحد ابنائى الثلاثة ـ التكبر والبخل والفجور. لا بأس. فانى اتنازل عنهم لمن هم اجدر منى، تكبرى للهيكليين، بخلى للسيسترسيين، فجورى للكهنة».

مر مارس ١١٩٩ ـ الموعد الذى عينه البابا اينوسنتيوس الثالث لانجاز الاستعدادات للحملة ـ ولكن لم تكن هناك القوات الصليبية.

لم تقم الاستعدادت المباشرة للحملة الا منذ اواخر سنة ١١٩٩. ففى نوفمبر اقيمت جولة بين الفرسان فى قصر اكرى بمقاطعة شامبانيا (على نهر الاين، منطقة الاردين). وهنا تعهد كثيرون من المشتركين والحاضرين بالاشتراك فى الحملة الصليبية. وقد انتشرت فى الادب اسطورة تزعم ان فولك دى نويى قد خطب فى الجولة، وسحر الفرسان باقواله. ولكن مصدرنا الرئيسى الذى يروى بالتفصيل مجرى الاحداث، وهو جوفروا فيللاردوان، لا يذكر شيئا عن

وافيه، ونعم الله على وجوه احوال المسلمين ظاهرة غيرخافية، والخيرات بالعسكر ا لمنصورة وافرة كافية. ولما كان يوم الخميس سادس يوم المقاتلة، وهو السادس والعشرين من شهر رجب، جا لهم الموت من كل مكان، وادركهم الصغار والخذلان، وزحف المومنون وتقدم الموحدون وتعلقو بشرافات الاسوار وعليهم الزحف الموصون، وبايديهم كووس الحتف والمنون، الا ان الجبال سايرة والبحار مايرة

موعظة فولك، ولو كان هذا الكاهن من نويى حضر الجولة فعلا، لما كان تردد جوفروا فيللاردوان عن الاشارة الى ذلك. على كل حال، استحوذت الحمى الصليبية على الفرسان والاسياد منذ جولة نوفمبر. وبين الذين اخذوا الصليب، كان طواغيت اقطاعيون بارزون، اغلبهم من الشبان (لم يكن احد منهم تقريبا يتجاوز الثلاثين من العمر).

المفاوضات فى البندقية. التجارة المشرقية وعلاقات جمهورية القديس مرقس مع بيزنطية

نحو صيف سنة ١٢٠٠ اجتمع في فرنسا عدد ضخم بقياس ذلك الزمن من العساكر المستعدة للسفر بحرا. وقد انقسم الصليبيون الى زهاء ١٥٠ فصيلة بارونية (ترد فى مدونات الاخبار والوثائق اسماء زهاء ١٥٠ بارونا قائدا)، تضم كل منها ٨٠ ـ ١٠٠ فارس. وعن اولى خطوات القادة العملية يحكي في يومياته بالتفصيل جوفروا فيللاردوان الذى يحاول قصارى جهده فى كل سرده ان يبيض صفحة المشتركين فى الحملة وقادتهم.

اجتمع كبار البارونات بادئ ذى بدء في سواسون ثم فى كومبيان (الى الشمال من باريس) ـ وقد حضر فيللاردوان بنفسه هذين الاجتماعين ـ وانتخبوا تيبو الثالث، كونت دى شامبانيا، البالغ من العمر ٢٢ سنة، قائدا عسكريا اعلى للجحافل الاقطاعية. ثم اختاروا فى كومبيان

ورحى الموت على نفـوسـهم دايرة، فـعندها لاذو بالامـان وعـادو باخـذلان وارسلو واردهم وبعـثـو ورايدهم يسال فى تقرير القطيعة، ويقرع فى قبول ما قبلته انفسهم الابية مذعنة مطيعة، وما سمحت به من ذخاير كانة [كانت] على ايام ممتنعة منيعة. واختارو حكم الميزان القايم سلاقهم [بتلافيهم] السيف وعذابه فيهم، وتقررت امور قرت بها عينى النبى صلوات الله عليـه فى ضـريحـه، ونطق به

- -

ستة فرسان من الاعيان وارسلوهم رسلا الى البندقية. وكان على هؤلاء ان تفقوا مع حكومة البندقية بشأن نقل القوات الصليبية بحرا. وفى عداد الرسل كان فيللاردوان نفسه، كما كان الفارس الشاعر الشهير ببلاغته وفصاحته كونون دى بيتون، الذى نظم قصيدتين عن الحملة الصليبية الثالثة. وصل الرسل الى البندقية فى اوائل فبراير ١٢٠١. وليس من المعلوم بدقة طول الوقت الذى اجروا فيه المفاوضات هنا: لربما ثمانية ايام ولربما زهاء شهرين (تختلف معلومات مصادرنا). وعلى كل حال، تم التوقيع فى اوائل ابريل ١٢٠١، بعد بضعة لقاءات مع دوق البندقية الطاعن فى السن انريكو دندولو (١١٩٢ ـ ١٢٠٥)، على معاهدة وافقت بموجبها البندقية، بشروط معينة ، على تقديم السفن للصليبيين.

كان توقيع هذه المعاهدة واقعة هامة جدا فى تاريخ الحملة الصليبية. فآنذاك تم، فى البندقية، اعداد اكبر عوامل هذا المشروع، العامل الذى دفع الصليبيين فيما بعد ، حين ا ستقام واستطال، بعيدا عن تحرير الارض المقدسة. ولفهم دور «عروس الادرياتيك» (هكذا كانوا يسمون البندقية احيانا) فى الاحداث اللاحقة وانحراف الحملة عن الارض المقدسة، ينبغى ان نتصور مكانها فى علاقات الغرب التجارية مع الشرق، وعلى الاخص فى العلاقات بين البندقية وبيزنطية.

لسان الراى الصحيح مع صريحه، مستحقاً الخاشر [الخاسر] هذا وقربا لمربحه وهو : عشرة دنانير على الرجل، وخمسة على الامرآه، ودينار واحد على الصبى الذى لم يبلغ الحكم [الحلم] والصبية التى لم تبلغ. وعدة من فى البلد تقاربماية الف او يزيدون. وقطعو ضعفا لا يقدرون على شى سبعت الف رجل ثلثين الف دينار يقدموها صدقة بين يدى كبارهم وجزية معجلة عن اجرة سكانهم. والحمد

معاهدة النقل. مقاصد البندقية

بموجب الاحداث اللاحقة، كانت خطة زعماء الصليبيين الاولية تتلخص فى دفع قوات الصليبيين الى مصر، وسحق قلعة العالم الاسلامى الرئيسية، ثم شن الحرب من هناك فى سبيل القدس. وعلى كل حال، حين تجمع الصليبيون فى البندقية بعد سنة، «اتفق» رؤساؤهم «بالاجماع على التحرك رأسا صوب الاسكندرية، ومحاصرتها، وقد عرفت هذه المقاصد من على لسان المشترك فى الحملة رئيس الدير المذكور، مارتين.

ولكن الحرب ضد مصر لم تكن تطيب البتة للبندقية. فقد كانت لها علاقات تجارية منظمة جيدة مع مصر. ان تجار البندقية محبى النقود، الذين كانوا يكسبون الارباح الطائلة من نقل الحجاج الى سوريا ولبنان وفلسطين ومن نقل الامدادات والحبوب من الغرب الى الافرنج فى الشرق، كانوا فى الوقت نفسه يبيعون الاسلحة من السلطان المصرى بكسب ونفع. وكانوا كل سنة يكسبون الملايين من التجارة مع مصر، عدا ذلك، الخشب والحديد، ومن شراء العبيد فى مصر. صحيح ان السلطان المصرى كان يجبى مختلف الرسوم والضرائب عن البضائع التى يستوردها ويصدرها البندقيون، ولكن التجار البندقيين كانوا بالمقابل يستطيعون ان يتاجروا فى عموم مصر وبدون اى قيد او عائق. ولكى تنمو التجارة وتتطور، تعهد السلطان ـ كما جاء فى صك امان منحه السلطان ـ بعدم اخذ اى شئ نافل منهم. وفى الاسكندرية والقاهرة كان

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

لله الذى اخفت دعوتهم واخفا دعواهم، واستاصل
بالسيوف الناصرية غيهم ومن اغواهم. وشكر لله
على استنقاذ المسجد الاقصى الذى اسرى اليه
بعبده وانجاز ما سبق به صادق وعده. والامير ياخذ
حظه من هذه البشرى بالمسرة التى غمرة [غمرت]
القلوب وملأت الايدى والخزاين، وبشرت بفتح
ماطلعت عليه الشمس من الامصار والمداين،
وطرزت سيرة ايامنا بغرر الميامن والمحاسن. ويامر

للبندقيين حوش (خان) تجارى حيث كان بوسعهم ان يعيشوا، كما جاء فى صك الامان المذكور، بحرية وتقوى، وان يكونوا حتى بحماية جنودهم بالذات.

وهكذا لم يكن التجار من البندقية ضد ابتزاز ارباح كبيرة من المسيحيين والمسلمين على السواء اذ كانوا يهتمون بالنقود فقط. اما من وجهة نظر البابوية ودول الصليبيين، فان هذه كانت تجارة مع العدو. وفى الشرق الافرنجى كانوا يقولون ان الارباح التجارية بالنسبة للبندقية اهم بما لا قياس له من انتصار قضية الصليب (وليس من قبيل الصدفة أنه نشأ عند احد مدونى الاخبار هو أرنول، تفسير بصدد الحملة الصليبية انتشر فيما بعد واسع الانتشار، ومفاده ان انحراف الحملة عن هدفها الاولى حدث لان السلطان المصرى اشترى من البندقية واجب توجيه الصليبيين فى اتجاه آخر !).

وقد اضطر البابا اينوسنتيوس الثالث الى التنديد بالبندقيين تنديدا حادا بسبب لامبدئيتهم، وقد سبق له ان منعهم فى سنة ١١٩٨ من بيع الاسلحة للمسلمين. وقد اعلن بشكل عام دون ان يسمى البندقية صراحة باسمها بل بالتلميح اليها بجلاء : «اننا نحرم من الكنيسة ونلعن اولئك المسيحيين الدجالين وعديمى التقوى الذين يحملون الى المسلمين ضد المسيح نفسه وضد الشعب المسيحى السلاح والحديد وخشب السفن، وكذلك السفن، او يخدمون ربابنة على سفن المسلمين القرصانية، ويديرون آلاتهم الحربية، او يقدمون لهم نصيحة ما او

باشاعتها ويتقدم بطرب البشارة واذاعتها، وتزيين البلد وحضور [صلاة] جمعة هذه المسرة وجماعتها موفقا انشا الله:.

ولما تسلم الملك الناصر صلاح الدين البيت المقدس بالامان والقطيعة المقدم ذكرها في شهر رجب سنة ثلاث وثمانين وخمس ماية الهلالية [٩٠٣ قبطية = ١١٨٧م] اقام فيه الى ان صام شهر رمضان من السنة المذكورة وصلى فيه صلاة

مساعدة ما لما فيه ضرر الارض المقدسة» . وامر البابا اينوسنتيوس الثالث بان يذكر الكهنة بهذا الحرم في جميع المدن الساحلية البحرية في ايام الاحاد والاعياد وبان يضيفوا قائلين ان الكنيسة لن تفتح ذراعيها للمسيحيين عديمي التقوى «اذا لم يمتنعوا عن الطمع غير المشروع بالمال». ان البابا قد وجه هذه التهديدات، بالطبع، الى البندقية . ولكن البندقية تجاهلت موانع البابا كما تجاهلت قرارات المجامع الكنسية التي ابرق ووعد فيها الاساقفة ورؤساء الاديرة ضد اولئك الكاثوليكيين الذين لا يأنفون، في سبيل الربح، من تقديم السلاح لاعداء الدين المسيحي.

وهكذا لم يكن ثمة بالنسبة للبندقية اى معنى من تقديم الدعم للصليبيين في حربهم المفترضة العتيدة ضد مصر، فقد كان المسلمين شريكا تجاريا موثوقا، في حين ان الاعتبارات الدينية كانت بخسة الثمن بنظر التجار واصحاب السفن من البندقية. ولهذا حرصت جمهورية القديس مرقس حين تعهدت بنقل الصليبيين على ان تبقى لساستها حرية التصرف عند تحديد اتجاه الحملة.

بموجب المعاهدة، تعهدت البندقية بان تقدم السفن لنقل ٤٫٥ الاف فارس و٤٫٥ آلاف حصان، و٩ آلاف سلاحدار و٢٠ الفا من المشاة، وتؤمن لهم الغذاء طوال تسعة اشهر. وفضلا عن ذلك، تعهدت البندقية، «حبا بالله»، ان تجهز بنفسها (اى على حسابها) ٥٠ مركبا مسلحا آخر. اما الصليبيون، فقد تعهدوا، من جهتهم، ان يدفعوا لجمهورية القديس مرقس، عن

العيد بمن حضر معه من المسلمين، وخرج حاصر الكرك فاخذه، وقلعة كوكب فاخذها، وتوجه الى صيدا وبيروت وجبيله وعتيل وسار فى طول الساحل وعرضه والسهل والجبال ففتح مدن وقلاع وقرى هى الى يوم نظم هذه السيرة فى يد المسلمين، وفتح وملك بالامان اكثر مما فتح بالسيف واوفا بعهوده ولم ينكث بكلمه من قوله ولا غدر وكانو فرسان الفرنج وامراهم وكبارهم

خدماتها، ٨٥ الف مارك فضة («عن كل حصان اربعة ماركات، وعن كل انسان ماركين»). وكان ينبغى دفع المبلغ بالتقسيط، على اربعة اقساط على ان يدفع القسط الاخير فى موعد لايعدو ابريل ١٢٠٢. كذلك احتفظت البندقية لنفسها بنصف كل ما يستولى عليه الصليبيون بمساعدة اسطولها وقواتها المسلحة فى البر او فى البحر: «النصف نحصل عليه نحن والنصف الاخر انتم».

فهل يفى الصليبيون بتعهداتهم؟ من الممكن تماما ان يكون الدوج انريكو دندولو لم ينطلق الا من مقدار المبلغ الذى عينه، فأخذ سلفا بالحسبان ان الصليبيين لا يستطيعون ان يدفعوا المبلغ المطلوب، رغم انه من المشكوك فيه، من جهة اخرى، ان كان هذا المسن الذى كانت له خبرة جيدة فى العمليات التجارية الكبيرة النطاق، يميل الى بناء الاوهام الباطلة. فان حكمة رجل الدولة البارزة كانت تجتمع عنده بنحو رائع مع بعد نظر التاجر المحنك فى الاعمال. ان المصيدة التى نصبها للصليبيين حاكم البندقية «الحكيم والمجيد جدا» كانت تتلخص قبل كل شئ فى امر آخر، ومعاهدة النقل لم تكن صفقة تجارية عادية، كما يظن بعض العلماء، بل كانت تنطوى على كل غدر الديلوماسية البندقية التى تخدم نهج الجمهورية السياسى التوسعى فى البحر المتوسط.

يخرجو من حصونهم وقلاعهم باموالهم ومواشيهم ونساهم واولادهم وجميع ما يملكوه من المال والخيل والبغال والجمال والجوار والمماليك حتى الاسارى من المسلمين(*) ومن رضى يبيعه اسير منهم دفع له فيه قيمته وزايد ومن لا يرضى قال له خذ اسيرك ولكن افعل معه الخير كما فعلت معك وكان كثير من الفرسان يدفعو له اساراهم ويحلفو ما ياخذو ثمن فيحسن اليهم وينعم عليهم باكثر

*) كان الفرسان الصليبيون يخرجون من قلاعهم بعد سقوطها فى يد صلاح الدين بما ملكوه من أموال ومواشى ومن اسروهم من المسلمين دون أى اعتراض من المسلمين أو صلاح الدين، بل وفى حراسة جنود من المسلمين.

فلا النقود بحد ذاتها، ولا نصف الغنيمة المقبلة، كانت العنصر الاساسى، الاول، فى مقاصد دندولو. فبموجب المعاهدة، كان على الصليبيين ان يدفعوا مبلغ ٨٥ الف مارك، وفى هذا المجال يبدو كأن كل شئ واضح ولكن نص المعاهدة لم يكن ينبس ببنت شفة لا بصدد هدف الحملة الصليبية المباشر، ولا ـ وهذا هو الاهم ـ بصدد كيفية العمل والتصرف فيما اذا لم يصل الى البندقية فى الموعد المعين ـ نحو ابريل ١٢٠٢ ـ عدد من الجنود يتطابق مع العدد المعين. فهل تتعدل التزامات الصليبيين اذا وصل اقل من ٤٥٠٠ فارس، واقل من ٩٠٠٠ من السلاحدار واقل من ٢٠ الفا من المقاتلين المشاة؟ لم ترد ا ية كلمة عن هذا فى المعاهدة. وفيها كان يغيب، قصدا وعمدا، الشرط الذى من شأنه ان يضبط بنحو ما مقدار المدفوعات عن النقل تبعا لعدد الصليبيين الفعلى. ومن هنا كان يتحتم عليهم، مهما بلغ عدد الواصلين منهم الى البندقية فى الموعد المعين، أن يدفعوا ٨٥ الف مارك عدا وتماما. وهنا بالذات كان يكمن المقلب، وفى هذا البند بالذات خدع الدوق الرسل الفرنسيين، الذين وقعوا المعاهدة، ونصب الشباك لاصطياد جنود المسيح.

ان الديبلوماسى والتاجر البندقى قد حزر مالم يمعن فيه الفكر، والحق يقال، فيللاردوان ورفاقه، فان الدوق قد اخذ بالحسبان انه من المشكوك فيه ان يجتمع فى البندقية جميع الصليبيين اذ ان الحماسة الدينية السابقة قد خفت نارها كثيرا، وانه كان من الصعب جمع

مما تركوه وكانو يخرجون من حصونهم لباس الزرد والدروع والخوذ كما كانو يخرجو للحرب فاذا رآهم تبسم ثم تدمع عينيه ولم يعترض لاحد منهم شي قيمته حبه بل يسير معهم الاجناد يحفظوهم ويخفروهم حتي يدخلو بمن اراد صور اليها، ومن اراد انطاكيه اليها. وهذه نسخة الخطبة التي خطب بها الخطيب في البيت المقدس يوم صلاة عيد شهر رمضان بحضرة الملك الناصر صلاح الدين ومن

زهاء ٣٥ الف رجل تحت راية المسيح. ولكن اذا لم يجتمع ٣٥ الف رجل، بل اجتمع عدد اقل، فان الحاضرين سيواجهون حتما مصاعب نقدية جدية في حال تصفية الحسابات مع البندقية. واذ ذاك، سيتوقف مصير الصليبين اللاحق على حكومة البندقية، عليه، هو الدوق دندولو، اذ سيكون بمقدوره ان يملى ارادة البندقية، واذ أن الصليبين سيجدون انفسهم كليا، بوصفهم مديونين عاجزين، غير مقتدرين، في ايدى البندقيين، وسيضطرون بالتالي الى فعل ما يطلبه منهم الدوق. وعلى الدوق سيتوقف الاتجاه الذى ستتحول نحوه قوات الفرسان بحيث يعود ذلك باقصى النفع على البندقية.

من المشكوك فيه ان يكون الرسل الفرنسيون قد خاطرهم الشك فى هذه المقاصد الماكرة والغدارة التى حاكها الشيخ المسن الشايب والاجعد الوجه الذى تعاملوا معه والذى اقسم اليمين، واضعا يده على الانجيل، انه سيتقيد بالمعاهدة حرفا وروحا دون اى انحراف. ان الرسل لم يأخذوا بالحسبان تلك الملابسات والمضاعفات التى سيصطدم الصليبيون بها فيما بعد، ولم يأخذوا بعين الاعتبار ان حماسة مواطنيهم وحميتهم قد تبردان. بل بالعكس. فان الرسل قد فرحوا، عند توقيع المعاهدة، لكونهم ادوا بمثل هذا النجاح المهمة التى عهد بها اليهم.

البابا اينوسنتيوس الثالث وحده استشف نوايا البندقين الخفية، ومع ذلك، صادق البابا فى ٨ مايو ١٢٠١ على معاهدة الصليبيين مع البندقية. «قد فعل ذلك بكل طيبة خاطر» كما

كان معه من المسلمين وهى اول خطبة خطبو بها بعد فتح المدينة واخذها من يد الافرنج(*).

(*) نص أول خطبة فى بيت المقدس للمسلمين امام الملك صلاح الدين بعد الاستيلاء عليها من الصليبين.

الحمد لله، الله اكبر على [ما] سهل ويسر، وفتح ونصر، وخذل الاعدا وقهر، ومن[مَنّ] علينا بالمسجد الاقصى المطهر، و اخرج منه الكفر والاعلاج بنو الاصفر، وشتتهم وبددهم ودمر [هم] ورد الى الملة الاسلامية الارض المقدسة ارض المحشر والمنشر الذى بارك فيها وحولها واكثر، ان فى ذالك

كتب فيللاردوان. هنا يخطئ هذا المؤرخ الفرنسى بعض الشئ، او لربما يصور قصدا وعمدا موقف رئيس الكنيسة الكاثوليكية بهذه الصورة. يقينا انه لم يكن بوسع البابا ان يرفض المعاهدة، اذ انه بدون اسطول البندقية كان يستحيل على الصليبيين ان يمضوا فيما وراء البحر، وفضلا عن ذلك، ارسل البابا اينوسنتيوس الثالث، اثر المصادقة على المعاهدة رسالة الى رجال الدين فى البندقية اعرب فيها عن ارتياحه لكون «اولاده المحبوبين، الدوق انريكو وشعب البندقية قرروا ان يقدموا للارض المقدسة مثل هذه المساعدة الجبارة». بل ان البابا المنافق والمرائى مضى الى حد التظاهر بان كل شئ يسير حسب نواياه، وبان كل شئ يتحقق تنفيذا لارادته، فقد خاطب، مثلا، رجال الكنيسة فى انجلترا وفرنسا طالبا منهم ان يراقبوا بدقة وعناية امر ارسال الفرسان فى الحملة فى الوقت المناسب، لاجل التقيد بالموعد «الذى عينه ابناؤنا المحبوبون كونتات الفلاندر وشامبانيا وبلواه.

ومهما يكن من امر، فان ربيع سنة ١٢٠١ قد اعد التربة لاجل تحويل الحملة الصليبية ضد مصر الى حملة لصوصية ضد بيزنطية.

الامبرطورية الالمانية وفرنسا ضد بيزنطة

فى الوقت ذاته تقريبا ، فعلت فعلها فئة اخرى من الاسباب التى حرفت الصليبيين فيما بعد عن الهدف الاولى وغيرت اتجاه الحملة الجديد، تلك هى التناقضات السياسية بين

عبره لمن تذكر، وحسره في قلب من ألحد وتجبر. احمده على تغيير البيع والصوامع بالمساجد والجوامع، وتبديل النواقيس بالتاذين والتقديس، وتحويل تعظيم صليب المصلوب بتمجيد الحى الذى لا يموت. لم تزل عوايده جميلة، وعطاياه للمومنين جزيلة والسلام.

اعلمنا من يقف على هذه السيرة بصفة هذه الخطبة لان هذا موضع ذكرها ليلا [لئلا] يمتد بنا

الامبراطوريتين الالمانية والبيزنطية. اما اساس هذه التناقضات التى تطورت فى القرن الثانى عشر فهو بصورة رئيسية تطلعات الاغتصاب والفتح الى البحر المتوسط من جانب تلك العناصر الاقطاعية فى المانيا (وعلى الاغلب فى اراضيها الجنوبية) التى تلاحمت حول سلالة هوهشتاوفن.

فان سياسة هنريخ السادس المعادية لبيزنطة قد واصلها اخوه الاصغر وخلفه فيليب دى شوابيا (١١٩٨ ـ ١٢٠٨). وتطبيق هذه السياسة كان يلائمه تقلقل الحياة السياسية فى بيزنطة، الذى كان يعكس ضعفها الداخلى فى عهد ينتهى فيه فى الامبراطورية نشوء الاوضاع الاقطاعية. ففى سنة ١١٩٥، حدث انقلاب قصرى جديد فى القسطنطينية وبنتيجته حرم الامبراطور اسحق الثانى انجيلوس من السلطة واعتلى اخوه الكسيوس الثالث العرش (١١٩٥ ـ ١٢٠٣).

الحملات إلى مصر والسياسة الدولية

ان النشاط الشديد الذى بذله الحبر الاعظم لأجل دعم روح الحملات الصليبية ونشره عمقا وسعة، وارساء اساس متين لتنظيم الحروب المقدسة، وتأمين الدور القيادى فيها للباباوية، لم يسفر عن النتائج التى كان يأمل فيها البابا اينوسنتيوس الثالث.

الكلام فنوردها في غير موضعها او نتركها ومرادنا بذالك ان تقفو على صورة الحال وتفهمو من اين دخل على دولة الافرنج الاختلال ليعتبر بذالك اولو الالباب ويتذاكرو على ممر الدهور والاحقاب.

ثم نعود الى شرح ما كنا فيه مما ايد الله به صلاح الدين، وما مكنه له من النصر والظفر والتمكين، وما صنع مع اعدا دينه ودولته، كقول التوراه: اذا عبر عليك حمار عدوك وانت جالس

في معرض اتخاذ الخطوات الأولى لتنظيم حملة صليبية جديدة، اصدر اينوسنتيوس الثالث بولاً (مرسوما) خاصا، اعاد فيه الى الاذهان ما يعانيه آلاف المسيحيين في سجون المسلمين. وفي هذه الوثيقة تحدث البابا عن القلعة الإسلامية الرهيبة التي بناها المسلمون قصدا وعمدا على جبل طابور بفلسطين، في المكان الذى حدث فيه (كما جاء في الانجيل) ما يسمى بقيامة يسوع المسيح. هذه القلعة تهيمن على عكا وتتيح للمسلمين الظن انهم من هنا «سيتمكنون من ان يقتحموا بلا عائق الأرض المتبقية عن مملكة القدس». كذلك كان يتضح من الرسالة التى دعا فيها البابا الى الحملة الصليبية انه لم يكن يعتزم الاكتفاء بالأعمال الدعائية المحضة، بل كان ينوى كذلك ان يحضر بشخصه عملية صعود الصليبيين إلى السفن. وكان من المرتأى تكليف نائب البابا (القاصد الرسولي) بالاشراف على عملية انشاء القوات البرية وارسالها. وقد ضحى البابا اينوسنتيوس الثالث على حاجات الحملة بـ ٣٠ ألف مارك؛ وبعد فترة من الوقت اعتمد ايضا ٣ آلاف مارك. وتعينت سنة ١٢١٧ موعد بداية الحملة.

لم يشر المرسوم البابوى باية كلمة الى من يوصى به البابا او يقترحه لمنصب قائد القوات الصليبية. اغلب الظن ان انسب مرشح لهذا المنصب المسؤول كان الملك الالماني الشاب

ووسقه مايل فقم اليه واعدل وسقه عليه. وقول الانجيل يوكد بما هو اعظم من هذا مما قد علمتم من قوله: حبو اعداكم وباركو لاعنيكم وصلو على من يشتمكم واحسنو الى من اساء اليكم. مع بقية الوصايا ليلا [لئلا] يطول الكلام، فعمل صلاح الدين بامر هذين الشريعتين من غير معرفة ولا قراه بل الهام من الله، ولاجل ذالك مات على فراشه وكانة [كانت] عاقبته حميدة في نفسه وذريته.

والهمام، وملك صقلية فى آن واحد، فريدريك الثانى هوهنشتاوفن. وفى ١٥ يوليو ١٢١٥، اعلن فريدريك الثانى، حين كان فى آخن حيث جرت حفلة تتويجه «ملكا رومانيا» انه يأخذ الصليب. ولكن هذا الاعلان كان من جهته اجراء ديلوماسيا صرفا. فقد كان براء تماما من التعصب الاعمى الصليبى؛ وما هو أهم بكثير، هو ان الملك الالمانى، المستغرق فى الهموم السياسية الداخلية فى ممتلكاته الاوروبية الجديدة، قد شغل، من حيث الجوهر، منذ بادىء بدء، موقف الانتظار والتربص حيال الحملة الصليبية التى نادى بها البابا. ومع ان فريدريك الثانى كان خاضعا لوصاية البابا اينوسنتيوس الثالث الذى وافق على الاعتراف به ملكا المانيا مقابل تنازلات سياسية معينة للكرسى الرسولى، الا انه لم يكن بوسع البابا، بالطبع، ان يرشح هذا الملك لقيادة المشروع الذى حاكته روما.

وفى عداد الملوك، اخذ النذر الصليبى، عدا فريدريك الثانى، ملكان آخران هما اندراش (اندره) الثانى (المجر) ويوحنا بلا ارض (انجلترا)، تابع البابا اينوسنتيوس الثالث. وهذان الاخيران، ماتا أحدهما تلو الآخر، الاول فى ١٦ يوليو والثانى فى ١٦ اكتوبر عام ١٢١٦.

انتقلت قيادة تنظيم الحملة الصليبية الى خلف اينوسنتيوس الثالث، البابا اونوريوس الثالث (Honorius) (١٢١٦ ـ ١٢٢٧). وقد واصل اونوريوس الثالث سياسة سلفه وسعى الى تحقيق نواياه، متمسكا ببرنامج المجمع اللاتراني الرابع. واول خطوة اتخذها البابا الجديد كانت

وقد كنا ذكرنا ان صور وانطاكية كانا قد بقيا في يد الافرنج لما اراد الله من اسراره الخفية، فاما صور فان الله ساق اليها ملك من ملوك الافرنج من خلف البحر من ناحية الغرب يسمى مركيس(*)، وقال قوم انه رومي ابن اخت ملك القسطنطينية، لانه لم يكن بقي في الساحل مكان لم يفتحه صلاح الدين سو [سوى] صور وقلعة صفد، فاما صفد فانه نزل عليها وحاصرها سبعة شهور

(*) هو ماركيز كونارد دى مونتفرا. وكان أمضى بعض الوقت فى قسطنطينية ووصل إلى إلى قرب عكا سنة ١١٨٧م.

تعيين القاصد الرسولى فى قوات الصليبين التى كانت تستعد للسفر بحرا. وهذا المنصب شغله الكردينال بيلاجيوس من البانو، الاسبانى الاصل.

أخّر موت اينوسنتيوس الثالث الحملة الصليبية بعض الشيء. وفى سنة ١٢١٧ لم ينطلق الى الشرق غير اندراش المجرى، والاسياد الذين التحقوا به واغلبهم من اراضى المانيا الجنوبية، والدوق ليو بولد النمساوى. وبواسطة رئيس الاوسبيتالين المجريين، تسنى الاتفاق مع البندقية على تقديم عشر سفن كبيرة بسعر مقبول ـ ٥٥٠ ماركا فضيا لكل سفينة ـ وقد تعين دفعه على ثلاثة اقساط ـ لجأ الملك المجرى الى الطرائق التى ألفها قادة الصليبين وهى ـ تزييف العملة، بيع بعض الضياع الملكية، نهب الكنائس والاديرة. ويستفاد من معطيات مدونى الاخبار، المبالغ فيها على ما يبدو، ان نحو ١٠ آلاف فارس خيال وكثيرين من المقاتلين المشاة قد انضموا تحت لوائه. على كل حال، لم تكف السفن التى وصلت فى ٢٥ يوليو ١٢١٧ إلى سبليت، ولذا عاد قسم من الصليبين إلى بيوتهم وقد وطدوا العزم على السفر فى ربيع السنة القادمة. ووصل الملك اندراش الثانى نفسه الى سبليت فى ٢٣ اغسطس، ولكنه اضطر الى الانتظار بعض الوقت هناك حتى يبحر الصليبيون اخيرا الى عكا.

بدأت الحملة الصليبية الخامسة (١٢١٧ ـ ١٢٢١). ففى سبتمبر ١٢١٧ اجتمعت فى

واخذها لما جاعو الذين فيها سلموها له لانهم لم يكونو اعدو شياً للحصار. ولما سلموها له وراحو الى صور، وصار كلمن سلم قلعة او حصن او مدينة بالامان يمضو الى صور او الى انطاكيه. وفعل مع الافرنج لما قدر عليهم كل معروف.

فاما صور فانه نزل عليها ثلاثة دفوع وحاصرها وضيق عليها واقام عليها الى ان ضجر مقدار سنة يتردد اليها معسكر فى البر ومراكب الاسطول فى

عكا فصائل اندراش الثانى المجرى، وليو بولد النمساوى، والدوق اوتو من ميرانو، كما وصلت الى عكا فصائل ملك قبرص، جى دى لوزينيان، وفصائل الفرسان التابعة للاسياد اللاتين فى سوريا ولبنان وفلسطين ـ ملك القدس يوحنا دى بريان، وامير انطاكية بوهيموند الرابع، والاوسبيتاليين بامرة الاستاذ الأكبر جارن دى مونتيجيو، والهيكليين بامرة الاستاذ الاكبر غيوم من شارتر، والفرسان التوتونيين بامرة جرمن فون زالتس. وكان المعاصرون يعتبرون ان عدد المشتركين فى الحملة الصليبية الخامسة الذين توزعوا ورابطوا فى جوار عكا وفى المدينة، بلغ ٢٠ الف فارس و٢٠٠ الف من المشاة، وهذا ايضا من باب المبالغة الشديدة.

استقبل الاسياد اللاتين المحليون الصليبيين القادمين من الغرب الى عكا بدرجة كبيرة من البرودة، ان لم يكن بعداوة سافرة. فقد كانت البلاد الخاضعة لهم تعانى المجاعة؛ ففى السنة السابقة ساد الجفاف. بل ان كثيرين من الصليبين ماتوا جوعا، ـ وحسب معطيات لمدونى الاخبار مبالغ فيها جدا، مات نحو ١٠٠ ألف. أما الاهم، فهو ان الافرنج فى سوريا ولبنان وفلسطين لم يكونوا البتة بحاجة الى حملة صليبية. فقد كانوا منذ زهاء ٢٠ سنة يعيشون بسلام مع مصر، ويتاجرون معها، بينما الحرب لم يكن بوسعها غير ان تخل بالوضع القائم وتضر بمصالح الطرفين الاقتصادية.

البحر فلا يقدر منها على شي، ولم يزل مركيس فيها يحفظها ويدبرها بمشية الله تعالى لسلامتها حتى وصلو اليها الملوك ونزلو على عكا ظاهر البلد على تل المشنقة. ولما كان فى محرم سنة اربع وثمانين وخمسماية [١١٨٨م] توجه الملك الناصر صلاح الدين الى دمشق بعد ان اقام مجاهد مرابط فى ساحل الافرنج سنة اثنين وثمانين وخمس ماية وسنة ثلاثة [١١٨٦م] وثمانين وخمس ماية

امضى الصليبيون المجريون والالمان سنة بكاملها فى عكا بلا جدوى. وقد حاولوا ان يشنوا غارات على دمشق ونابلس وبيسان؛ وكان الافرنج، كما يقول المؤرخ العربى ابن الاثير، يعرفون ان عساكر السلطان العادل كانت آنذاك موزعة فى مختلف انحاء دولته المترامية الاطراف. كذلك حاول الصليبيون الاستيلاء على قلعة طابور مع ابراجها الـ ٧٧ وقهر حاميتها المؤلفة من الفى رجل. ولكن جميع هذه المحاولات باءت بالفشل من جراء الخلافات بين الزعماء العسكريين للصليبيين. فان بوهيموند الرابع، امير انطاكية، مثلا، كان يعارض قطعا اقتحام قلعة جبل طابور بينما كان يوحنا دى بريان يصر من جهته على ذلك.

حاول الصليبيون ثلاث مرات اقتحام القلعة، ولكنهم ردوا على اعقابهم فى كل مرة. وفى آخر المطاف تراجعوا وعادوا الى عكا. وكان الملك المجرى اندراش الثانى يفضل التخفى والاحتماء فى المدينة، وطفق فى اواخر سنة ١٢١٧ يستعد للعودة الى اوروبا؛ فقد اقتنع بعقم المشروع كله ناهيك بانه مرض. وفى يناير ١٢١٨، ابحر اندراش الثانى مع فصيلته الى الوطن رغم تهديدات بطريرك القدس باصدار حرم بحقه. واضطر الباقون الى ارجاء العمليات الحربية ضد المسلمين والى انتظار وصول فصائل جديدة من الصليبيين من اوروبا، والانصراف حتى ذاك الى تحصين القلاع الباقية للبارونات والفرسان الافرنج. وكان قسم من جنود الرب ــ الفرسان من فريزيا (هولندا) برئاسة الكونت غليوم، والفرسان الالمان ــ قد تأخر فى الطريق؛

هلالية، الى ان فتح الساحل جميعه وهدت اموره ووهب [اعطى الهبات] اجناده واصحابه ومن عاونوه من ملوك المسلمين وساعده من امراهم من الاموال والمواشى والاسارى والخلع مالا يحصى عدده، ولقد بلغنى عن غلام من غلمان الاجناد انه اسر رجل من الافرنج فاباعه لفقاعى(*) بكوز فقاع فظهربعد ذالك انه فارس كبير، فاعوذ بالله من زوال النعم وحلول النقم . ثم ان السلطان اقطع

(*) الفقاع: شراب يتخذ من الشعير يخمر حتى تعلوه فقاعاته.

فان هؤلاء الصليبيين قد توقفوا فى ليشبونة واشتبكوا فى حرب ضد المسلمين. ولم يصلوا الى عكا الا فى ٢٦ ابريل ١٢١٨.

لم يكن لصليبى الحملة الخامسة قائد عسكرى يتمتع باية مكانة ومعترف به عموما. فان ملك القدس يوحنا دى بريان لم يكن يتميز لا بالمواهب العسكرية ولا بالمواهب السياسية، ولم يكن يملك سلطة فعلية على سائر البارونات البارزين ناهيك بان معارضة قوية كانت قائمة ضده. وبعد مهاترات طويلة قرر قادة فصائل الفرسان ارسال العساكر الى مصر، قلعة العالم الاسلامى الرئيسية التى كان من المزمع الاستيلاء عليها اثناء الحملة الصليبية الرابعة. اختار الصليبيون المدينة ـ القلعة الكبيرة، ومنافسة الاسكندرية فى التجارة، دمياط، الواقعة على احد فرعى دلتا النيل هدفا مباشرا لاجل الهجوم. وكانت دمياط بمثابة مفتاح مصر. وكانت تطوقها ثلاثة احزمة من الاسوار، وكان يحميها برج جبار قائم فى جزيرة صغيرة وسط نهر النيل. ومن هذا البرج الموصول بجسر بالمدينة كانت تمتد عبر النهر سلاسل حديدية تسد الطريق الى المدينة من جهة النهر.

استمر حصار دمياط التى وصلت اليها اولى فصائل الصليبيين فى ٢٧ مايو ١٢١٨ زهاء سنة ونصف سنة. فى البدء استطاع الفرسان، بتحويل سفنهم الى ضرب من آليات حصارية عائمة وباستعمال السلالم الاقتحامية الطويلة، ان يستولوا على برج القلعة، ولكن القوات

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

مـدن السـاحل والقـرى والقلع [القـلاع] للاجناد، واقـام بدمـشق مـدة يسيرة حتى اسـتراح العـسكر، وخرج نزل على حصن الاكراد واقام يحاصره نحو شـهرين فلم يقـدر عليـه، وتوجـه منه الى اعـمـال انطاكيه ففتح اللاذقيه وبغراس وقرى وقلع [قلاع] وابراج. وجا [جاء] الى حصن برزيه(*) ونزل عليه وحاصره واقام عليه مده يسيره فيسر الله له فتحه فـفـتـحـه وملكه، وكـتـب الكتب بذالك الى ولاة

(*) برزيه: من حـصـون السـاحل الشـامي في شـمال سوريا وقـرب حمص.

المصرية في دمياط التي انضم اليها ضغط عناصر الطبيعة ـ فيضـان النيل ـ وكذلك الوباء الذى انتشر بين الصليبيين المحاصرين، ـ اوقفت نجاحهم وتقدمهم. وخلال بضعة اشهر لم يحرز لا هذا الجانب ولا ذاك قصب التفوق. وقد يئس كثيرون من الفرسان من النصر، فتركوا العسـاكر في ربيع وصيف ١٢١٩ وعادوا الى اوروبا. ولكن الآخرين ظلوا يحاصرون دمياط بعناد.

عـانت المدينة المقطوعـة الاوصـال من جـمـيع الجـوانب الجـوع، بل ان الجـوع هدد بهـلاك الحامية بالذات. وآنذاك كان السلطان العادل في دمشق، وحين تلقى نبأ استيلاء الصليبيين على برج دمياط، مات. واخذ ابنه الاكبر الكامل زمام الحكم. ولانقاذ دمياط، اقترح السلطان الجديد على الصليبيين ـ وكانت تهدده فضلا عن ذلك مؤامرة رجال البلاط، ـ رفع الحصـار عن دمـيـاط على ان يسلمـهم بالمقـابل مملكة القـدس في حـدود سنة ١١٨٧ (بدون الكرك وكراك دى مونريال) ويعقد الصلح معهم لمدة ٣٠ سنة.

كان يوحنا دى بريان واغلبية البارونات الافرنج يميلون الى قبول هذه الشروط المفيدة جدا ولكن نائب البابا بيلاجيوس الذى كان قد وصل الى دمياط في ١٢١٨ تدخل في الاحداث. وقد تسنى له ان يحمل الى حد ما على الوفاق كتل زعماء الصليبيين المتعادية حتى ذاك، وآنذاك اضطلع بدور لا يناسب البتة رجل الدين، هو دور القـائد الاعلى للقـوات المسلحـة.

الديار المصرية كل منهم باسمه، وهذه نسخة كتابه الى الامير نصر الدين خضر ابن بهرام والى الاعمال الغربية(*): بسم الله الرحمن الرحيم، صدرة [صدرت] هذه البشرى الى الامير الاجل الاسفهسلار الاخص نصير الدين عز الاسلام ادام الله عزه، مما جدده الله من الفتح العظيم والنصر الكريم والعز المقيم، وهو فتح حصن برزية الذى ابتهجت به الالسنة ولهجت بشكر الله به السنه،

(*) كتاب صلاح الدين بفتح عدد من مدن وقرى الشام.

وكانت «استراتيجيته» تنحصر فيما يلى لا صلح مع «الكفار». وقد حظى نائب البابا بمساندة الاساتذة الكبار الثلاثة لجمعيات رهبان الفرسان وبعض القادة الآخرين. فقد بدا لهم التنازل عن القدس غير كاف. وكان بيلاجيوس يعتقد انه ينبغي فتح دمياط باى ثمن كان ثم فتح سائر مصر. وقوبلت مقترحات السلطان السلمية بالرفض. وحتى الاقتراح بايجاد واعادة قطع «الصليب المقدس» الذى استولى عليه صلاح الدين اعتبره القائد الاعلى غير مقبول.

فى ليلة الرابع الى الخامس من شهر نوفمبر ١٢١٩ احتل الصليبيون دمياط بانقضاض خاطف ونهبوها وغنموا غنائم بلغت، بتقدير جاك دى فيترى، ٤٠٠ الف بيزانط. واثناء الحصار انقرض سكان المدينة عمليا؛ فمن اصل ٨٠ ألف نسمة لم يسلم، كما حسب اوليفر السكولاستى، سوى ٣ آلاف. وفى ٢٤ فبراير هنأ البابا اونوريوس الثالث الصليبيين بالنصر، ولكن الفرح، كما تبين بعد فترة وجيزة، كان قصير الامد.

فبين المنتصرين نشبت الخلافات والمخاصمات. فان يوحنا دى بريان، ملك القدس الرسمى، طالب بضم دمياط الى ممتلكاته. الا ان الكردينال بيلاجيوس، المتغطرس والطموح عارض هذا المطلب. فقد كان يرى انه يجب ان يبقى المكتسب للكورية الرومانية. كذلك لم يكن ثمة اجماع بصدد خطط خوض الحرب لاحقا. فان نائب البابا قد اصر بعناد على نقل العمليات الحربية فى الحال الى اعماق وادى النيل. الا ان هذا الاقتراح الباطل بكل جلاء لم يلق

وسمحت به مع ظن الايام والدهر الاقدار المحسنة، وتنبهت عيون الانام لانارته وزالت السنه، ومكنت من تحصيل المتعذر منه فرصته الممكنة، وهذا هو الحصن الذى اتخذه الدهر له معتصما واليسر الواقع له محتما فلم تثبت دعوة خاطب ولم ينفذ ناره لحاطب، فلما حالوناه [حاولناه] وجدناه لا تعمل فيه الحيل ولا يدور حوله الامل لكن فتحه الله من حيث نحتسب وجعله كسبا لسيوفنا

التعاطف من جانب السواد الاعظم من الفرسان. وقد ادرك اكثر القادة العسكريين رشدا وتبصرا ان القوى لا تكفى الصليبين لاجل هذا المشروع.

شرع بيلاجيوس يفتش بتسرع عن الحلفاء لاجل فتح مصر. بل انه بدأ مفاوضات... مع جنكيز خان التى كانت جحافله قد اقتحمت آنذاك بلاد فارس، مهددة العالم الإسلامى كله، كما كتب ابن الاثير. الا ان الخطر الناجم عن الصليبيين بدا الآن للمصريين اشد بكثير من الخطر الناجم عن الجحافل المغولية الزاحفة. وعندما تلقى الاشرف، حاكم ارمينيا العظمى، فى آن واحد، طلبا بالعون من الخليفة الناصر، ضد المغول، ومن اخيه، سلطان مصر، الكامل، ضد الصليبين، قرر الاشرف انه يجب ان يرسل جيشه ضد الصليبين بالذات.

فى ربيع سنة ١٢٢١، اخذت تصل الى مصر فصائل الحجاج الصليبيين الجديدة، وعلى الاغلب من المانيا الجنوبية ـ لويس، دوق بافاريا، وغيره من الامراء مع فرسانهم. وفى هذه الاثناء استطاع الكامل ان يبنى مواقع محصنة تحصينا منيعا جنوبى دمياط بعض الشيء، قرب مدينة المنصورة. ومع ذلك كرر مقترحاته السابقة للصليبيين بصدد الصلح. فارتفعت بين صفوف العساكر اصوات تشير على القادة بقبول هذه الشروط ولكن نائب البابا ابدى ايضا هذه المرة التشدد. وتلقى السلطان جوابا سلبيا. وعندما عرف الملك الفرنسى فيليب الثانى اوغست الذى كان يتميز عادة بسلامة الفكر فى تقدير هذا الوضع السياسى او ذاك، انه

وفتحناه بالسيف عنوة وذالك يوم الثلثا السابع
والعشرين من جمادى الاخر سنة اربع وثمانين
وخمس ماية ضحوة [١١٨٨م] فيالها من ضحوة
اظلمت على العدو افاقها وانكشف بليل العجاج
اشراقها، فيالها من ضحوة انالت حظوة وجليت
بالحب والحيا للاسلام حبوه ولا شك انه عرف ما
سبقه من الفتوحات وتقدمه والخيرات، وقد بقيت
انطاكيه مقصوصة الجناح ملقاة السلاح ونحن

سنحت الفرصة للصليبيين لكى ينالوا «مملكة مقابل مدينة» وانهم حرموا انفسهم هذه الفرصة، فلم يستطيع تمالكا عن نعتهم «بالاغبياء والسذج».

فى اواسط يوليو ١٢٢١، هاجم الصليبيون المنصورة. وقد حاول الملك يوحنا دى بريان ان يقنع بيلاجيوس مرة اخرى بان تصرفه مجازفة وبانه يجب اعادة النظر فى القرار المتخذ بالهجوم. ولكن كان قد فات الاوان. فان سواد الفرسان المتعطشين الى الغنائم اندفعت الى الامام. وامام انظارهم كانت تتراءى «بابليون» اى القاهرة. ويلاحظ مؤرخ مصرى من ذلك الزمن كتب «تاريخ بطاركة الاسكندرية» هو مؤرخنا ساويرس: «لو ان الملك يوحنا لم يوافق على مواصلة الهجوم، لكان الافرنج قتلوه». ويرى مدون الاخبار الكاثوليكى اوليفر السكولاستى بدوره ان «نصائح الفكر السليم غريبة عن قوادنا».

استمر الهجوم. وفى ذلك الوقت بالذات بدأ فيضان النيل فيضانا عاصفا، واغرق معسكر الصليبيين. وكان المصريون قد استعدوا لمقابلة الفيضان، فقطعوا طريق التراجع على الصليبيين. وسرعان ما هبطت معنويات عساكر نائب البابا، فولت الادبار بلا انتظام، ولكن القوات المصرية حاصرت العدو من جميع الجهات وامطرته وابلا من السهام نهارا وليلا. وقد اتحدت ضد الصليبيين فى منطقة المنصورة قوات السلطان الكامل وقوات اخويه اللذين قدما

نرجو من الله تيسير فتحها والله تعالى يسعد الامال بنجحها فليعلم هذ البشرى ويشكر على هذه النعمة ان شآ الله.

وهذا الحصن كان كمال فتوح صلاح الدين وبعده لم يفتح شيا اخر من بلاد الافرنج فى ذالك الوقت الذى فتح فيه مدن الساحل، وكان السلطان قد اخذ بيت جبرايل بالامان وكان فيه صاحبه رجلا جليل القدر فى قومه كثير المال واسع

من سوريا، ـ الاشرف، حاكم ارمينيا العظمى، والمعظم، حاكم دمشق. فمن الخيالة مثلا، كان لدى المسلمين ٤٠ الفا.

طلب الصليبيون الصلح. وقد وافق الكامل بكل طيبة خاطر على مقترحات الصلح المعروضة عليه، خلافا لمقاومة اخويه اللذين كانا لا يريدان قبول الصلح قبل انزال الهزيمة التامة بالعدو، وادراكا منه ان خطرا جديا جديدا يخيم ويقترب هو الزحف المغولى. وفى ٣٠ اغسطس ١٢٢١ تم التوقيع على الصلح لمدة ثمانى سنوات. وكان على الغزاة ان يغادروا دمياط. وبسرور نفذ الصليبيون هذا المطلب فى أوائل سبتمبر ١٢٢١ متنهدين الصعداء.

ضاعت دمياط على الصليبين. وفارق الصليبيون مصر. ومنيت الحملة الصليبية الخامسة بالفشل التام، ومعه تبددت جميع الآمال فى استعادة الأرض المقدسة. ان الرب، كما كتب المؤرخ العربى ابن الاثير، لم يحفظ دمياط للمسلمين وحسب، بل ابقى فى حوزتهم ايضا المدن السورية والفلسطينية واللبنانية. وقد كلفت الحملة الغرب غاليا، وانزل اخفاق هذا المشروع ضربة جديدة بمكانة البابوية.

بعد مرور أقل من عشر سنوات على هذا، بدأت الحملة الصليبية السادسة (١٢٢٨ ـ ١٢٢٩). وقد ترأسها الامبراطور فريدريك الثانى هوهنشتاوفن الذى تزوج فى صيف ١٢٢٥ من ابنة ملك القدس يوحنا دى بريان واخذ يطالب بعرش مملكة زالت من الوجود من زمان فى

الحال وكان يسما القسطلان واظن ان تفسير هذه الكلمة الوالى وكان له فى بيت جبريل نعم عظيمة واموال كثيرة وجباب كبيرة مملوه زيت طيب وخمر، فلما طلب الامان قطع السلطان عليه قطيعة مال كثير فقومهم على السلطان بمال كثير ودفعهم له فوفا به السلطان منه الجباب الزيت والمال فى بقية القطيعة، وخرج بعد ذالك من البلد بمال كثير ونعم ومواشى ونفوس مماليك وجوار

فلسطين. وقد اراد فريدريك الثانى ان يحقق مقاصده دون ان يسحب السيف من جرابه. فاستغل الحرب بين مصر ودمشق ودخل فى مفاوضات مع السلطان الكامل (١٢١٨ ـ ١٢٣٨)، الامر الذى اثار غضب روما؛ فآنذاك بالضبط، فى اواسط العشرينيات من القرن الثالث عشر، احتدم الصراع بين البابوية والامبراطورية الالمانية بقوة جديدة حول الزعامة فى العالم الاقطاعى. واذا البابا اونوريوس الثالث الذى كان حتى ذاك ينظر بعدم الرضى، ولكن بتساهل مع ذلك، الى التأجيلات العديدة، المتكررة سنة بعد سنة تقريبا، لايفاء فريدريك الثانى بالنذر الصليبى، قد قيّم هذه المرة مسلك هذا الامبراطور بكل قساوة. وفى سياق مواصلة المفاوضات مع فريدريك الثانى بصدد الحملة الصليبية (جرت المفاوضات فى سان دجرمانو بواسطة الكردينال جوجولينو من اوستى الذى صار فيما بعد البابا جريجوريوس التاسع) اتهم البابا المسنّ الامبراطور باهمال «قضية الرب». بل ان اونوريوس الثالث هدد الامبراطور بالحرم وبفرض غرامة قدرها ١٠٠ ألف اوقية من الذهب اذا لم تقم الحملة الصليبية فى آخر المطاف؛ وقد ارجىء البدء بها الى اغسطس ١٢٢٧.

بامر من فريدريك الثانى شرعوا فى ثغور صقلية وايطاليا ببناء السفن. واستأنفت روما الدعوة الى الحرب المقدسة، ولكن دعوتها قوبلت فى كل مكان بما يكفى من اللامبالاة. ولو شاء فريدريك الثانى لما كان استطاع ان يجمع فى الوقت المعين ما يكفى من الناس لاجل

ونساء وحشم فسيره السلطان الى ديار مصر الى مدينة اسكندرية وكتب الى واليها ياوصية عليه وحفظه وضيافته مدة مقامه بالبلد وان ينفق عليه من مال الديوان ويستاجر له المراكب ويزوده هو ومن معه من مال السلطان الى ان يسير شاكر. ففعل الوالى والمستخدمين معه كلما امرو به وسار الى حيث اراد من بلاد الروم. وكان فخر الدين قراجآ والى اسكندرية يركب اليه كل يوم ويقضى

«البعثة فيما وراء البحار». وفى هذه الاثناء توفى اونوريوس الثالث قبل الموعد المعين بخمسة اشهر.

نحو صيف ١٢٢٧، تجمع بضع عشرات الآلاف من الناس، المجندين بصورة رئيسية فى المانيا، وجزئيا فى فرنسا وانجلترا وايطاليا، فى معسكر بجوار بريندیزی، وابحر بعضهم الى صقلية. ولكن الامراض بدأت بالجملة فى صفوف العساكر الصليبية التى كانت تعانى من قلة المؤن ومن الحرارة الشديدة. ومرض فريدريك الثانى ايضا. وارجئت الحملة من جديد.

الا ان البابا الجديد، جريجوريوس التاسع، البالغ من العمر ٨٠ سنة (١٢٢٧ ـ ١٢٤١)، وابن عم البابا اينوسنتيوس الثالث، والمتمسك عن قناعة بمثل التيوقراطية الباباوية، حرم فريدريك الثانى من الكنيسة بوصفه عدوا غادرا للايمان المسيحى. وتشفيا من البابا، ابحر الامبراطور المحروم فى صيف ١٢٢٨ مع فصيلة كبيرة من بريندیزی الى سوريا. وآنذاك منع جريجوريوس التاسع الحملة الصليبية كليا. واعلن ان فريدريك الثانى ليس صليبيا بل قرصان، «خادم محمد»، وانه راح الى الشرق، لا لاجل الحرب ضد الاسلام بل لاجل «سرقة المملكة فى الارض المقدسة». وكان ذلك، اذا تكلمنا بلطف، موقفا لايدل على الذكاء، اذ انه لم يفعل غير ان قلل من حظ البعثة الصليبية فى النجاح واساء الى فكرة الحملة الصليبية، هذه الفكرة التى كانت قد فقدت فى الغرب جاذبيتها السابقة. ولم تصبح الحملة الصليبية فى يد البابوية

حـوايجه وكـان مع القـسطلان نحـو خـمس مـاية نفس كـان الوالي يقـوم بهم وينفق عليـهم من مـال السلطان مدة مقامهم في البلد الى ان استـاجر له المراكب وسيـرهم. فلم يقـعـد هذا القـسطـلان في بلاده سـوى سـتـة شـهـور ومـضى الى البنادقـة والجنويين والبيـسانيين واعـمر ماية شيني من مـاله وانفق في رجالها واخذها وجآ الى صور اجتمع هو ومـركـيس وباليـان ابن بارزان وابن الابرنس ارناط

سوى ورقة في لعبتها السياسية ـ اى في النضال ضد الامبراطورية الالمانية. اما فريدريك الثاني الذى كان يبتغي على العموم اهدافا سياسية محضة، فانه لم يكن يرى من جهته في الحملة الصليبية سوى وسيلة لبناء دولة آل شتاوفن «العالمية» (ولذا كان يتطلع الى ملوك القدس). وكان الامبراطور يبدى على الدوام اللامبالاة بالمسائل الدينية.

وحين وصل فـريدريك الثـاني الى عكا (وفي الطريق اسـتـولى على جـزيرة قـبـرص)، بدأ المفاوضـات من جـديد مع السلطان. وآنذاك كـان السلطان في وضع صـعب، لأنه كـان يحارب ضد اميرى دمشق (اولا ضـد اخيه، ثم ضد ابن اخيه). وعمليا لم يقم الصليبيون اثناء وجودهم في فلسطين باية عمليات حربية تقريبا، واكتفوا ببعض الغارات. وانتقل مركز الثقل في النضـال ضـد «الكفـار» الى مـيـدان الديبلومـاسـية. وفي فـبـراير ١٢٢٩ تسنى لفريدريك الثـاني بعـد مناقـشـات طويلة ان يعـقـد في يافـا صلحـا مع السـلطان الكامل لمدة ١٠ سنوات. بموجب معاهدة الصلح، تنازل السـلطان عن القدس (باستثناء الحي الذى كان فيه الجامعان الرئيسـيان) وبيت لحم والناصـرة وجـمـيع القـرى الواقـعـة على الطرق المؤدية الى القـدس، وقـسـم من دائرة صيـدا، وطورون (تبنين حـاليـا) للامبـراطور الذى كـان من حـقـه كـذلك، حـسب اقـواله (وهي معـروفـة من رسـائله الى الملك الانجليـزى) ان يعـزز بعض الحـصـون والقـلاع ويعـيـد تنظيـمـهـا. كذلك تم التوقيع مع مصر على اتفاقيات تجارية مفيدة. وتعهد فريدريك الثاني بدوره بمسـاعدة

صاحب الكرك ومن حضر من فرسان الساحل وخرجو بالخيل فى البر والمراكب فى البحر وسارو حتى نزلو على تل المشنقة قبالة عكا فى الليل وما اصبح الصبح حتى حفرو عليها ثلثة خنادق واطلقو فيها الماء من النهر الذى هناك فصار ماها يخرج الى البحر المالح وحاطو [أحاطو] بعكا فى رجب سنة خمس وثمانون وخمس ماية[١١٨٩م] وكان والى عكا خادم من استاذين السلطان يسمى

الكامل ضد اعدائه، ايا كانوا، سواء من المسلمين ام من المسيحيين، وضمن للسلطان بان القلاع السورية الباقية فى ايدى الصليبيين ـ كراك دى شيفاليه (قلعة الاوسبيتاليين)، وشاتل بلان، وقلعة طرطوس (وكانت فى ايدى الهيكليين) لن تتلقى اية مساعدة من اى مكان.

بعد شهر، فى ١٨ مارس ١٢٢٩، دخل فريدريك الثانى القدس، ووضع بنفسه على رأسه التاج الملكى فى كنيسة قبر السيد (فقد رفض رجال الدين تتويج الملك المحروم من الكنيسة).

اغتاظ البابا من سياسة خصمه فى الشرق شديد الغيظ (وما فائدة الكنيسة الرومانية من انتزاع قبر السيد من ايدى «الكفار»؟)، فاتهم فريدريك الثانى بخيانة المسيحية. وباشارة من بطريريك القدس، فرض على المدينة المنع (Interdit ـ قرار يمنع ممارسة الطقوس فى مكان معين). ففى جميع الكنائس منعوا ممارسة الشعائر الدينية، ذلك ان امبراطور محروما يقيم فى المدينة المقدسة!

وفى الوقت نفسه، دفع البابا جريجوريوس التاسع فصائله من الفرسان نحو ممتلكات فريدريك الثانى فى ايطاليا الجنوبية. فاسرع هذا فى مغادرة سواحل فلسطين واندفع الى ايطاليا حيث نشب صراع مسلح ضد الحبر الاعظم. منيت قوات البابا جريجوريوس التاسع بالهزيمة؛ وفى سنة ١٢٣٠، الغى البابا، بموجب شروط صلح سان دجرمانو الحرم عن فريدريك الثانى،

جـرديك فلم يطيق ان يدفعـهم عنهـا فكتب الى السلطان الى دمـشق يعلمـه بذالك فـجـا السلطان وتواصلت العسـاكـر فنزلو الافرنج وتواصلو من كل مكان كانو فيه واجتمعو جميعهم وصارو عسكر عظيم ولما وصل السلطان الى عكا ومـعـه الملك المظفـر تقى الدين نزل على صـفـوريه وبعـد ايام يسيـره وصل مظفـر الدين ابن زين الدين صـاحب سنجـار الى السلطان وكـان السلطان كل يوم

«خادم محـمد» منذ زمن قريب، وصادق في السنة التالية على معاهداته مع المسلمين، وامر جميع الاحبار وبخاصة الهيكليين والاوسبيتاليين بمراعاة الصلح مع السلطان الكامل.

ولكن النتيجة العملية من الحملة الصليبية السادسة ـ استعادة القدس سلميا ـ لم تدم طويلا. فبعـد رحل فـريدريك الثاني الى اوروبا، نشبت المخاصـمات بين الاسـياد فى ممتلكاته الجديدة، الشرقية. وكثيرون منهم استاؤوا من زعامة الامبراطور فريدريك الثانى هوهنشتاوفن، وكانوا لا يريدون الانصياع للسلطات التي اقامها. وبعد فترة وجيزة، دخل الامبراطور من جديد في نزاع مستطيل مع الكورية الرومانية؛ وصدر حرم باباوى آخر. واستأنف جريجوريوس التاسع الدعوة الى الحرب المقدسة. وهذه المرة كان القصد من الحملة الصليبية ان تكون اداة لنضال البـاباوية ضـد فـريدريك الثـانى، وكـذلك وسـيلة لامـلاء الخزينة البـاباوية. فـقـد طالب البـابا الكاثوليك بتبرعات نقدية كبيرة. ثم ان الوعاظ الباباويين الذين كان يهمهم، اكثر ما يهمهم، الجانب المالي من رسالتهم، كانوا يغفرون خطايا المتبرعين بالذهب والفضة، الذين كانوا يفدون انفسهم بهذا السبيل من الاشتراك الشخصى فى المشروع الصليبى الجديد.

عارض فريدريك الثاني البابا فى تنظيم الحملة الصليبية. وعندما تجـمعت مع ذلك، عند انقضاء صلح السنوات العشر مع مصر، فصائل قليلة من الصليبيين فى ليون بقيادة الملك تيبو دى نافار والدوق هوغ الرابع البورغونى وغيـرهما من الاسياد، اعلن البابا جـريجوريوس التاسع

يركب يجي الخندق في عسكر كبير يقاتل الافرنج ثم يعود الى الخيم الى صفوريه بعد ان جعل على الفرنج ستت الف فارس لا ينزلو عن ظهور خيلهم لا ليل ولا نهار منهم ثلاثة الف النهار جميعه ترمى عليهم النشاب وثلاثت الف الليل جميعه ترمى عليهم النشاب ولم يمر عليهم شهر من الزمان حتى عملو على حافة الخندق من ناحيت عسكر السلطان صور طوب لبن ورتبو الرماه تقعد من

ان القدس لم تبق هدف الحملة، وان على الصليبيين ان يساعدوا الامبراطورية اللاتينية. وهكذا زحزحت الاعتبارات السياسية، من حيث الجوهر، الاعتبارات الدينية زحزحة كلية فى اعمال الكورية الرومانية المتعلقة بشن الحملات الصليبية.

وخلافا لنوايا البابا، ابحر القسم الاكبر من الصليبيين فى خريف ١٢٣٩ الى سوريا بدون حماسة كبيرة. ان هذه الحملة الصليبية ـ وفى عداد قادتها كان كذلك الايرل (لقب انجليزى ادنى من مركيز وارفع من فيكونت) الانجليزى ريشار بلانتاجينيه من كورنويل ـ لا يدرجها المؤرخون عادة فى سلسلة المشاريع الصليبية الرئيسية (مثلا، «تاريخ الحملات الصليبية» من عدة مجلدات، الصادر فى الولايات المتحدة الاميركية، اولاها اكثر من ٢٠ صفحة بقليل فقط)، لأنها لم تسفر فعلا عن اية عواقب. فان قادة الصليبيين الذين كان يحدوهم التعطش الى الغنائم فقط والذين منوا بعدد من الاخفاقات، قد دخلوا، باصرار من الفرسان الهيكليين، فى حلف مع دمشق ضد مصر، ولكن المصريين هزموهم فى جوار عسقلان (نوفمبر ١٢٣٩) مع قوات حليفهم الذى وعدهم بجملة من التنازلات الاقليمية فى فلسطين. وبعد ذلك احتدمت الخاصمات بين الصليبيين، وبخاصة بين الاوسبيتاليين والهيكليين، بضراوة مزدوجة. فقد عاد ملك نافار وغيره من قادة الحملة الى ديارهم بخفى حنين. وقد استغلت حكومة مصر جميع هذه الظروف بافضل نحو. ففى سبتمبر ١٢٤٤ اشرف الملك الصالح نجم الدين ايوب

خلفه بقسي الزنبورك يرمو بسهم غلظ ابهام رجل الانسان طوله ذراع وزن نصله خمسون درهما مضروب مكبب له اربعة اركان مهما وقع فيه اخرقه وربما نفذ من الشخص الى الذى وراه فقتلهما جميعاً ونفذ من طواريهما ودرعوهما وزردهما او غيره وغاص في الارض، ولقد اخبر عنه من رآه انه نفذ في حجر من حجارة السور الى رشيته فلما علمو ذالك ما بقي احد من عسكر

(١٢٤٠ ـ ١٢٤٩) مع ١٠ آلاف من الفرسان الخوارزميين على القدس واحتلها، وذبح السكان المسيحيين عن بكرية ابيهم. وهذه المرة انتقلت المدينة برسوخ الى المسلمين.

ومن جديد قلقت البابوية وارتعبت. وبناء على اقتراح من اينوسنتيوس الرابع (١٢٤٣ ـ ١٢٥٤) اصدر مجمع ليون في سنة ١٢٤٥ قرارا بحملة صليبية جديدة. ولكن البابا، مثل اقرب سابقيه، كانت تشغله، اكثر ما يشغله، شؤون الكورية الزمنية اى الحرص على نشر وتوسيع ممتلكات الكرسي الرسولي. وواصل البابا اينوسنتيوس الرابع الصراع ضد فريدريك الثاني. وفي مجمع ليون لعن البابا وحرم من الكنيسة الامبراطور، ونادى بحملة صليبية ضده وضد كل آل هوهنشتاوفن. واستبدل مفوضو البابا المطلقو الصلاحية واجب شن حملة على الامبراطور العديم التقوى بنذر القتال من اجل قبر السيد المسيح. ان الاستغلال السافر لشعار الحملة الصليبية لاجل تحقيق هدف البابوية المباشر لفرض الزعامة والهيمنة في اوروبا، قد رافقه، كما من قبل، ابتزاز الاموال الى ما لا نهاية، علما بان قسما كبيرا من المبالغ المجموعة كان ينصب مباشرة في جيوب الوعاظ انفسهم. كذلك استعمل البابا اينوسنتيوس الرابع التبرعات لاجل تنشيط النضال ضد فريدريك الثاني. واذا اخذنا بالحسبان ان الحركة الصليبية كانت بسبيل الانحسار بصرف النظر عن كل ذلك، اتضح لنا لماذا لم تحرز الدعوة الى الحملة الصليبية نجاحا كبيرا.

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

السلطان يدنو من الخندق وقوى امرهم، وبنو كنيسة لصلواتهم ومواضع اصطبلات لخيلهم. ولما رتبو اشغالهم اجتمعو ليلة من الليالى واتفقو الصبح يسفروهم قد كبسو عسكر السلطان فقتلو جماعة وقتل منهم جماعة. وهذه نسخة كتاب السلطان لاخيه الملك العادل(*) وهو نازل على حماه بعسكره يعرفه قضية ما جرى بينه وبينهم وكتبه بيده: بسم الله الرحمن الرحيم ان تنصرو

(*) نسخة كتاب السلطان صلاح الدين الى اخيه الملك العادل يعلمه بحصار عكا.

ومن زمان كان الفلاحون قد انصرفوا عن الحركة الصليبية. فان الحوافز السابقة للفرار الى البلدان البعيدة زالت عند الاقنان. الا ان النير الاقطاعى، والحق يقال، لم يصبح أخف. ولكن تأثير الكوارث الطبيعية الفتاك خف مع ذلك نظرا لتحسين المعدات الزراعية، ونشر الدورة الزراعية الثلاثية، واستعمال الاسمدة على نطاق اوسع. وفى اوروبا نشأت المدن وكبرت، وعند الاقتضاء، كان يمكن الاحتماء وراء اسوارها. واستطاعت السلطة الملكية المتوطدة ان تكبح الى هذا الحد أو ذاك جماح تصرفات الاقطاعيين الاعتباطية التى كان سكان الريف يعانون منها فيما مضى. ولم يعد يرى الاقنان اية ضرورة ملحة للبحث عن الخلاص «فيما وراء البحر». واكثر فاكثر اخذ الفلاحون ينخرطون فى طريق آخر هو طريق النضال من اجل الحرية والارض فى ديارهم بالذات.

كذلك لم يعد الفرسان، من جهتهم، يرون اى مغزى فى الحملات المضنية الى الشرق. ومع توطد السلطة الملكية، تواجدت فى بلاطات الملوك اتجاهات ضد سفك الدم فى مشاريع محفوفة بالمخاطر فيما وراء البحار، خصوصا وانها فى خدمة البابوية واهدافها السياسية؟

ان البارونات الانجليز الذين حضروا مجمع ليون رفضوا قطعا الموافقة على الاشتراك فى الحملة الجديدة؛ فان الكورية الرومانية تتلقى من انجلترا قدرا مفرطا من الاموال بصورة «المال

الله ينصـركم ويثـبت اقـدامكم والذين كـفـرو فيشغالهم وابطل اعمالهم، الذى اعرف به المجلس العـالى الملكى العادلى ادام الله دولتـه انه لما كـان بكرة يوم الاربعآ الحادى والعشرين من شعبان سنة خـمس وثمـانون وخـمس مـاية خـرجت جـمـيع الفرنجيه رجالهم وفرسانهم وساقو من قريب البحر الى القـضـيب والنهـر وكـان جـمـيع سيـوفـهم الى صـوب الولد تقى الدين، والميـمنه اخـذت اربعـة

الصليبى» ـ كل سنة كانت الخزينة البابوية تجبى ٦٠ الف مارك اى اكثر من كل دخل التاج الانجليزى. ومن حيث الجوهر احتج البارونات الانجليز مباشرة على الحملات الصليبية الجديدة التى تنظمها البابوية. واجاب الملك الانجليزى هنرى الثالث مبعوثى البابا بكل صراحة ان وعاظ الحملات الصليبية كانوا فى احيان كثيرة اكثر من اللزوم يخدعون رعايا التاج الانجليزى وان هؤلاء الرعايا لن يسمحوا بعد الآن بخداعهم!

وحتى بين رجال الكنيسـة الانجليز، ارتفعت اصوات الشك فى صواب الحروب الجديدة فى الشرق. فان اللاهوتى رادولف نيجر قد اعتبر من باب الجنون التدخل فى الشؤون الفلسطينية حين تتعرض المسيـحية فى الغرب بالذات للخطر من جراء انتشار الهـرطقة. اليكم اين كان يكمن بنظره الخطر الرئيسى، وهو خطر افدح بكثيـر بالمقارنة مع ما يجرى فى الشـرق. «فى الوقت الذى يداس فيه الايمان هنا، فى الغرب وضاعت اورشليم السماوية، وتعشش الهرطقة فى كل مقاطعة تقريبا علنا او سرا، لأى سبب يجب على الغرب المنشق ان يساعد الشـرق (المسيـحى)؟». ويستطرد اللاهوتى الانجليزى قائلا: اى ثمار من شأن الجهود الرامية الى بعث اورشليم الارضيـة ان تعود بها ما دامت امنا ـ صهيون قد هلكت (ومن جديد يستعمل المؤلف صورة من التوراة للاشارة الى الايمان المسيحى)؟ وكتب رادولف نيجر ايضا: «اى معنى لتحرير

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

اطلاب الفقيه بطلب ومحمد ابن الامير حسين
بطلب والمماليك بطلب وشقة لحقتهم ولزت
[هجمت] الشالاشات والعسكرين، فلما لزيناهم
رجعت جميع الافرنجيه علينا الفارس والراجل
وحملو علينا والتقو اصحابنا الفرنج ردوهم وحمل
الراجل جميعه دفعنا وما برحنا نرد الخيل الى
الراجل والراجل يدفعنا حتى بعدت الخيل عن
الراجل دخل قيمان والحشام ما قصر اكسرو لراجل

فلسطين من المسلمين حين يتجذر الكفر في الوطن؟ لنفترض حتى ان الكفار سيُقهَرون (من جانبنا)، ولكن الإيمان الحقيقي في ديارنا بالذات يتعرض للاهانات!».

ان الحملة الصليبية تبدو حتى في عيني اللاهوتي خراقة تامة.

وهذا الموقف من الشعارات الصليبية التي كانت تنادي بها البابابوية لم يظهر في انجلترا وحدها. فان تجنيد الصليبيين، وبخاصة ابتزاز الاموال بلا نهاية لاجل حاجات الحملة الصليبية كما كان يزعم، قد استثار التذمر والاستياء. فيما مضى، في الازمنة الغابرة، كان الشعراء المغنون الجوالون ينشدون الحروب المقدسة، وفيما مضى، كانوا يذمّون اولئك الذين يتذبذبون (أيمضون الى القدس ام يبقون في ديارهم؟).

وقد أثر تأثيرا قويا جدا من مزاج الفرسان وحالتهم الفكرية والنفسية واقع ان الحملات الصليبية قد فقدت بكل جلاء مضمونها السابق، «المثالي»، الذي كان كثيرون لا يزالون يؤمنون بحكم التقاليد في وجوده، علما بان هذا الواقع اخذ يتضح اكثر فاكثر. فان هذه المشاريع قد انحطت امام الابصار، اذ ان البابابوية كانت تستغلها بمثابة سلاح سياسي في يدها، لاهدافها السياسية، لاجل اقامة وتوطيد سيادة الكرسي الرسولي، ـ واحيانا في النضال ضد الاعداء الشخصيين، الامر الذي كان يثير الاستياء والغضب واللوم في اوساط الفرسان.

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

وكذالك الراجل قتل اكثره وعاد الملك المظفر وكسرهم كسرة جيدة، وكذالك ياركوج وكمشيا ورسلان نوعا وابار البرلو والاسديه والشهابيه(*) كانو فى فرد طلب ما قصرو قتلو من الفرنج مقتلة عظيمة وصارة الفرنج ترجع من خلفنا يتلقوهم يقتلوهم ما انفلت منهم احد ولله المنة والحمد فما كان يوم قليل. وما اعرف احد فقد الامجلي رحمه الله استشهد الى رحمة الله وحسين الكردى رايته

(*) الأسدية هم جند اسد الدين شيركوه، والشهابية هم جند صلاح الدين.

واحيانا كانوا ينادون من اجل الصليبيين بمواضيع لا تمت باى صلة الى اهداف الحركة المباشرة، مثلا، صقلية التى حاول البابا كليمنت الرابع انتزاعها من آل هوهنشتاوفن. وكان هذا البابا يعتبر الحرب ضد اخلاف فريدريك الثانى موازية او يكاد للحملة الصليبية لاستعادة القدس. وفي الثمانينيات من القرن الثالث عشر، اعلن الباب مارتين الرابع حملة صليبية ضد الملك بدرو الثالث من اراغون؛ وبعد فترة من الوقت، اعلن البابا بونيفاسيوس الثامن حملة صليبية ضد عائلة كولونا الاريستقراطية الرومانية محولا نزاعا داخليا عاديا الى حملة صليبية.

وبالنتيجة نشأ وتعمق ضرب من تنافر، او توتر، حسب تعبير برسل، بين التصورات المنشورة فى اوساط الفرسان عن الحملة الصليبية بوصفها حربا مقدسة لانقاذ الرب وانقاذ النفس، من جهة وبين تحقيق هذه الفكرة عمليا من جهة اخرى.. ففي الازمنة السابقة كان مفهوم وواقع الحملات الصليبية يتواجدان، على الاقل شكليا، فى تناسق بينهما؛ اما فى القرن الثالث عشر، فقد زال هذا التناسق. فان البابوية، كما كتب برسل، اساءت الى الفكرة التى سبق لها ان تقدمت بها فيما مضى.

انتشرت الشكوك في شرعية الحملات الصليبية انتشارا واسعا جدا فى اوساط الفرسان. فان الافكار التى بنت البابوية على الوعظ بها فى غضون اكثر من مائة سنة دعواتها الصليبية وقامت بافعالها الصليبية، قد تعرضت مذ ذاك لنقد ماحق، بل ان بعض الفرسان ذهب الى

مجرح مثخن واسماعيل المكلبس مجروح وسلار ابن حسك هولاء جميع من عرفت ولعل عشرين غلاما، ولكن قماش الناس نهبه بعضهم بعض وما قصر اسد الدين اخو عز الدين والمشكور الحسام وقيماز من الميمنه ومظفر الدين وياركوج والحمله ما كانة [كانت] الا على وحدى والله اعلم والسلام. ولما كبسو الفرنج عسكر السلطان على صفوريه وجرت هذه الامور التى تقدم ذكرها رحل

حد الاعراب عن فكرة مفادها انه من المشكوك فيه على العموم ان يكون من العدل قتل ذوى الاديان الاخرى لمجرد انهم وثنيون؛ وهذا الضرب من الشكوك اعرب عنه صراحة الشاعر المغنى الجوال الالمانى فولفرام فون ايشينباخ فى احدى قصائده.

ونظرا لتدفق «موجة النقد» اضطرت البابوية الى اخذ جانب الدفاع عن المقدمات اللاهوتية لممارستها الصليبية؛ ففى اواسط القرن الثالث عشر كتب الكاردينال اومبرتو دى رومانو، بتكليف من الكرسى الرسولى، مؤلفا ضخما بثلاثة اجزاء خصيصا لاجل دحض جميع الحجج الموجهة ضد فكرة الحملات الصليبية. ولكن اومبرتو دى رومانو وغيره من اصوب اللاهوتيين فى القرن الثالث عشر من طراز غليوم الطرابلسى، كانوا يعتبرون ان الحركة الصليبية فقدت كمالها الداخلى، ولذا رأوا من الضرورى واقترحوا اصلاح قضية تنظيم الحملات الصليبية بحيث لا تستغل شعاراتها فى اهداف «غريبة».

وفى هذه الاحوال، امسى اصعب فأصعب على روما ان تنظم حملات صليبية جديدة. فعندما بلغ البابا اينوسنتيوس الرابع هدفه فى سنة ١٢٤٨ واستطاع ان يستنهض الفرسان للحرب المقدسة، وينظم الحملة الصليبية السابعة، اشترك عدد قليل نسبيا من الاسياد واتباعهم، وكانوا اساسا من فرنسا وجزئيا من انجلترا. ناهيك بان الفرنسيين انخرطوا فى الحملة، بمقدار كبير، تحت ضغط ملكهم لويس التاسع (١٢٢٦ ـ ١٢٧٠)، الذى سار على رأس الصليبين.

السلطان من صفوريه نزل وادى الخروبه وكان البرك [الترك] يتردد اليهم نهار وليلا ستة الف فارس يرمى فيهم النشاب ولم يكونو يالو بهم. ولم يزل الحرب قايم بينهم الى ان حشد ملك الالمان(*) ستة ماية الف رمح وجا الى الدروندان وهى الدروب التى يدخل منها الى قونيه وغيرها بلاد الملك مسعود من ملوك الترك واكثر بلاده ورعيته روم رغبو فى سكناهم عنده لعدله وحسن

(*)ملك الالمان هو فردريك بربااروسا. يقود الحملة الصليبية الثالثة الألمانيه ضد صلاح الدين بالرغم من العلاقات الطيبة التى كانت بينهما من قبل. وعن هذه الحملة وسيرها من اوروبا إلى الاناضول و الشام فيذكر بعض المعاصرين اللاتين أن العداء بين الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية

بعد مرور ٥٠ سنة، ادرجت الكنيسة الكاثوليكية لويس التاسع فى قائمة القديسين. وبلقب القديس دخل لويس التاسع التاريخ؛ والى الآن لا تزال عبادة لويس التاسع مرعية الاجراء فى الاوساط الاكليريكية فى الغرب. والى الآن لا يزالون ينسبون اليه تقوى خاصة والتعلق بالافكار الدينية الخالصة، ولا يزالون يكرمونه ويبجلونه كملك واصل التقاليد الحقيقية للحملات الصليبية فى مظهرها الاولىّ. وفى سنة ١٩٧٠، احتفلوا فى باريس وروما (فى آن واحد) على نطاق واسع بذكرى مرور ٧٠٠ سنة على وفاة الملك الصليبى الفاجعة (فقد لقى مصرعه أثناء الحملة الصليبية الثامنة، التى سنتحدث عنها ادناه)؛ فقد جرت مؤتمرات علمية، واقيمت حفلات موسيقية تذكارية؛ ومعارض للذخائر التاريخية وعقد المعهد الفرنسى الكاثوليكى فى رواياموں مداولة لمناسبة اليوبيل.

فى ٤ يونيو١٩٧٠، عقدت جمعية العلماء التى تهتم بقضايا تاريخ آسيا، جلسة احتفالية فى كوليج دى فرانس لمناسبة اليوبيل؛ وكان موضوع الجلسة «القديس لويس والشرق». وقد اعلنت الوزارة الفرنسية لشؤون الثقافة سنة ١٩٧٠ «سنة القديس لويس» ودعمت كليا مبادرة الجمعية الآسيوية. خلاصة القول انه بذلت جهود متنوعة لاجل تذكير الفرنسيين من الاجيال الحالية بصورة الملك المثالى «النقى»، «التقى»، «الصادق» الجدير باحترام اخلافه، مثال الصليبى من الطراز الباكر، الاولى، الذى لا يسترشد، الا بالدوافع الدينية ـ بافكار تحرير القدس وحمل

سيرته معهم فشق بلاد الملك مسعود وبلاد ابن لاون ملك الار من وعبر على ملوك كثير بالسيف وكثرت الرجال والاموال، وكان يحمل ثقله وزاد العسكر على العجل تجرها الخيل والبغال والبقر وغير ذالك واقام فى بلاده الى ان وصل الى انطاكيه يمشى سنة كاملة. واخبرنا بعض من حضر عسكره انه لما اراد ان يعدى البحر الى قسطنطينيه حشد ملك الروم ومنعه يعدى وانه

الرومانية المقدسة التى كان ينزعمها فردريك. قد زاد العداء بينهما عندما أتفق مع السلطان قلج ارسلان فى «قونية» على مساندته عسكرياً فى حملته على الشام حيث قيل انه أمد فردريك بألف جندى و مائة فارس. ولا شك أن ذلك احنق الامبراطور البيزنطى اسحاق الثانى انجيلوس (١١٨٥ - ١١٩٥م) باعتبار أن السلطان قلج ارسلان من أعداء الامبراطورية البيزنطية. ولذلك أرسل الامبراطور البيزنطى فى ٢٥ اغسطس ١١٨٩م رسالة إلى فردريك يرفض عبور قواته الدردنيل حتى يرسل له

«الكفار» على اعتناق المسيحية. وقد كتب البروفسور سترايز من جامعة برينستون: «كان الغرور والسعي وراء النفع غريبين بالقدر نفسه عن طبيعته». ولكن هل يتطابق هذا التصوير مع الواقع التاريخي؟

ان الحملة الصليبية السابعة قد سارت في اتجاه الحملة الخامسة؛ فقد كانت مصر هدفها المباشر. ففي الغرب ادركوا منذ زمن نجاحات صلاح الدين ان مفتاح القدس موجود في مصر على وجه الدقة. والملك لويس التاسع لم يكن البتة حالما يسبح بالفكر في عالم الاوهام. وحملته الصليبية، كما يجمع الباحثون على القول، كانت منظمة افضل من الحملات السابقة. ففي الوقت المناسب، عني الملك بالاسطول (فقد استأجر ٦٠ سفينة في جنوه و٢٠ سفينة في مرسيليا). واستطاع ان يجد ما يكفي من النقود. فبموجب قرار من مجمع ليون، دفع رجال الدين الفرنسيون مبالغ ضخمة ـ على امتداد بضع سنوات (وقد اضطروا الى دفع زهاء مليون ليرة). وفي سياق الحديث عن الحملة الصليبية السابعة، اعرب المؤلفون المسلمون عن الدهشة من ضخامة كمية النقود الذهبية التي جلبها «الفرنسيس» (اى «ملك الافرنج») معه في الحملة. كذلك فكر لويس التاسع في ضمان المؤن للصليبيين؛ فقد جمعت في قبرص احتياطيات من الحبوب والخمور وغير ذلك من المؤن. وبلغ عدد الصليبيين الاجمالى زهاء ١٥ـ٢٥ الفا، وبينهم زهاء ٣ آلاف فارس.

وجد فى البر الذى هو عليه مدينة خراب ذكرو انها كانة [كانت] فى اول الدهر تسمى قسطنطينيه وان هذه الجديدة لما عمرت خربت تلك فنزل عليها واعمرها واقام فيها سنة كاملة يقاتل ملك الروم [اسحاق الثانى انجيلوس] حتى قهره وعدى اليه وحاصره فى مدينة قسطنطينيه وجبى خراجها وخراج جميع مدنها وقراها، واخذ مستغلها فى تلك السنة وتقوى به و سار يطلب الجهاد على

رهائن من قواده وأن يتعهد باعطاء بيزنطة نصف ما يفتحه فى بلاد الشام. ولكن الامبراطور فردريك رفض ذلك واحتل مدينة فيليبولس ومدينة ادريانوبولس، وهنا اسرع السلطان قلج ارسلان وارسل رسالة للامبراطور فردريك يعلمه بانه سيساعده ضد الأعداء وبامداده بالمؤن الوافرة مما اثلج صدر الامبراطور فردريك وشد من عزمه، فاندفع يستولى على العديد من المدن البيزنطية حتى صار قرب أسوار مدينة بيزنطة. وهنا توطدت الصداقة بين صلاح الدين والامبراطور البيزنطى اسحاق الثانى الذى ارسل إليه يشجعه

لقد حدد لويس التاسع ومحيطه اتجاه الحملة اثناء الاقامة المديدة فى قبرص الى حيث اوصلت سفن جنوه ومرسيليا رجال الحملة الصليبية (فقد نزلوا هناك فى ١٧ ايلول - سبتمبر ١٢٤٨ وبقوا حتى ٣٠ مايو ١٢٤٩).

كان لويس التاسع يرفع الصلوات الى الرب العلى بكل حمية واجتهاد وكان يعمد الى جلد نفسه بنفسه من باب التوبة والندم (ولهذا الغرض كان للملك سوط خاص!)، ولكن الاهتمامات الزمنية لم تكن تغيب البتة عن باله. فقد كان سياسيا واقعيا جدا، اعاد تنظيم الادارة بحذق ومهارة فى المملكة الفرنسية بسبيل النمو والرسوخ، ورجلا لا يعرف الكلل، وحافلا بالهمة. وقد حمل البارونات والفرسان على ارتداء البسة الحجاج، وترأس شخصيا الصليبيين لكى يؤمن لفرنسا، عن طريق الفتوحات الجديدة فى الشرق، مواقع اصلب واثبت فى منطقة البحر المتوسط، التى كانت ترتبط بها مدن مقاطعة لانغيدوك التى انضمت مؤخرا، فى سنة ١٢٢٩، الى املاك الملك. ولكن حسابات لويس التاسع ظهرت فى هذه الحالة خاطئة، اذ ان الوضع فى الغرب فى اواسط القرن الثالث عشر لم يكن ملائما للحملات الصليبية الجديدة. وكان الخصام بين الامبراطورية والباباوية يمزق ايطاليا والمانيا، ولذا لم يكن البابا اينوسنتيوس الرابع، ولا فريدريك الثانى، يفكران فى اى دعم جدى لحملة صليبية الى الشرق.

البيت المقدس وجاز على جميع بلدان ملوك الروم والارمن والمسلمين والفرنج بالسيف ولم يقف احد قدامه مع جميع ملوك الدنيا فلما قرب من انطاكيه سار الملك المظفر تقى الدين ومظفر الدين ابن زين الدين سارو من مخيم السلطان الى حلب لكشف اخبار ملك الامان [الالمان] فلما صح عندهم انه نزل على انطاكيه قطعو نهر ما[ء] الطريق الذى يريد يسلكها الى حلب ودمشق وغيرها، يسمى نهر الكلب فغرق جميع الطريق

على احتلال بقية المدن الصليبية بالشام ويخبره بأحوال الحملة الالمانية بقيادة فردريك. ولكن فردريك مارس ضغوطاً عسكرية على الامبراطور البيزنطى وهدده بأحتلال القسطنطينية مما اجبره على عقد اتفاق مهين يعتبر انتصاراً لفردريك وتمكن من عبور الدردينل بجيوشه فى يوم الأحد الخامس والعشرين من مارس ١١٩٠م. ومنذ نزل أراضى الاناضول ناوشته صعوبات كثيرة وتعرض جيشة للبرد والجوع فماتت منه اعداد كبيرة من الجنود وبالرغم من ذلك تمكن من الاستيلاء على مدينة قونية فى

زد على ذلك، كما افاد مؤلف مسلم، ان الامبراطور فريدريك الثانى الذى علم بنوايا القديس لويس وحتى تعاطف معه، حذر الملك الصالح نجم الدين ايوب بالحملة الجارى اعدادها ضد مصر. وبديهى ان الكنيسة الكاثوليكية اتهمت الامبراطور بخيانة القضية المسيحية. ولكن هذه الاتهامات لم تكن ترتكز على اى اساس؛ ذلك انه لم يكن ثمة ما يحمل فريدريك الثانى على فتح عيون المصريين ليروا «سر» اعداد الحملة الصليبية، اذ ان مئات التجار والبحارة من الاسكندرية ممن كانوا يمضون سنويا الى جنوه قد رأوا بام عيونهم ان الاستعدادات تجرى هناك على قدم وساق.

ان الخبر الذى ارسله الامبراطور الى الملك المصرى (اذا كانت معطيات المؤرخ فى هذا الصدد ثابتة) كان بمثابة خطوة ديبلوماسية. كتب فريدريك الثانى الى الملك الصالح: «احترس! اعلم ان الفرنسيين ـ وعددهم ٦٠ الفا ـ ينوون ان يفتحوا القدس، وان يستولوا اولا على مصره. وبابلاغ هذا، كان الامبراطور يقصد (على كل حال)، اغلب الظن، ضمان حقوقه فى الشرق، فسعى الى وقاية نفسه من اية تطاولات قد تحدث من جراء الحملة الصليبية. والاكثر احتمالا كذلك، ان فريدريك الثانى اراد ان يحمل لويس التاسع، بصورة غير مباشرة، على الاحتراس: ينبغى عدم الاقتحام والتهور، وعدم اللجوء الى القوة الفظة، بل يجب الاستفادة بدقة من الظروف لاجل التوصل بالوسائل الديبلوماسية الى الاهداف المنشودة. وهذا

فلما وصل اليه الخبر بذالك ركب في المراكب من انطاكيه ومضى فى البحر الى عكا ونزل عند عسكر الفرنج فى تل المشنقة فلما سمع صلاح الدين انه جا فى المراكب هان قدره عنده وطمع فيه وزحف الى الخنادق وقاتل الفرنج وبعد زمان يسير مات ملك الامان [الالمان] ومات ولده [فردريك سوابى] بعده ومات اكثر اصحابه من تغيير الماء والهوى وبقى من اصحابه بعضهم

مايو ١١٩٠ لم عبر جبال طوروس ووصل إلى نهر سالف فنزل فيه للاستحمام فاصابته رعشة مات بعدها بعدة أيام، فتولى ابنه فردريك السوابى قيادة من بقي من جنود الحملة وهم حوالي خمسة آلاف جندى هم من بقى من الجيش الألماني والمتحالفين معه والذى كان يبلغ حوالي مائتى الف جندى، حتى وصل إلى انطاكية حيث استقبله اميرها بوهيمند الثالث (١١٦٣ - ١٢٠١م) بالترحاب واعلن ولائه له. وقد اقنع كنراد مونتفران فردريك السوابى بالهجوم على عكا بقواته الباقية ففعل ذلك

يعني ان الامبراطور حاول ان يدفع الملك الفرنسي على السير في الدرب الذى سبق ان بنى عليه فريدريك الثاني نفسه علاقاته مع الكامل والد الملك الصالح، وبلغ عليه الكثير. ومهما يكن من امر، يعكس هذا الواقع بنحو معبّر الوضع الدولي في الغرب عشية الحملة الصليبية.

كذلك لم يلاحظ ميل خاص، شديد، في البلدان الاخرى الى الاشتراك في هذه الحملة. وقد سبق ان اشرنا الى الموقف السلبي الذى وقفه الملك الانجليزى هنرى الثالث. ثم ان العداوة بين البارونات والملك حالت بدورها دون تضافر الجهود في انجلترا الاقطاعية. وبقيت اسبانيا في معزل عن الشؤون الشرقية، اذ كانت، كما من قبل، تواجه مشاكلها الخاصة. واكتفى ملك النروج هوكن الخامس بالوعود الفارغة.

وهكذا لم يكن لويس التاسع مع حملته الصليبية بالفعل سوى اداة في يد الكرسي الرسولي الذى كان لا يزال يحوك مشاريعه التيوقراطية الكلية ويجددها ويحاول تحقيقها. وان العالم الفرنسي المعروف في الشوون البيزنطية ليمرل الذى قدر على العموم نشاط لويس التاسع كرئيس دولة رفيع التقدير، قد كتب في تقييم سياسته الشرقية: «انا لست واثقا من ان لويس التاسع ابدى في هذا الصعيد ايضا صفات ابرز ملك في الغرب الاقطاعي».

ولهذه الشكوك تتوفر بالفعل مبررات جدية. فان الحساسية الواقعية قد غابت عن لويس التاسع في مشاريعه الصليبية. فان الملك ومستشاريه كانوا يجهلون ما يجرى في الشرق، بل

اختلطو بعسكر الفرنج وخمد ذكره وبطل امره وكاانه لم يكن فسبحان الله الدايم الحياه بعدان كانو ملوك الدنيا قد لاذو من خوفهم منه، امنو وفرحو بوفاته، وكان وصوله الى تل عكا فى شهر رمضان سنة ست وخمسين وخمس ماية وكانو الافرنج فى تلك السنة قد عملو ثلثة ابراج خشب وزحفوها للقتال وكملوها بجميع ما يعمل فيها وقدموها حتى الصقوها بصور عكا وكان صلاح

بعد أن انضم إلى قوات صليبية أخرى ولكنه توفى فى ٢٠ يناير ١١٩١م = ٢٢ ذى الحجة هـ وتفرقت البقية الباقية من الجنود وكان هذا نهاية للحملة الألمانية على الشام.

انهم كانوا لا يعرفون البتة اى شىء عنه. فان اسم «بيزنطية» لم يرد ولو مرة فى سيرة حياة لويس التاسع التى وضعها فيما بعد جان دى جوانفيل، الذى كان قريبا منه!

اما فيما يخص المغول الذين كانوا فى ذلك الزمن بالضبط يوسعون فتوحاتهم فى آسيا، فان معلومات طفيفة جدا كانت تصل عنهم سواء الى باريس ام الى عموم اوروبا الغربية. وكانت آسيا تتراءى للاوروبيين الغربيين بصورة مائعة، وكانت تصوراتهم عنها شبه خيالية. وحتى الراهب الرحالة الفرنسيسكانى جوفانى دل بلانو كاربينى الذى توغل فى اعماق آسيا بتكليف من البابا اينوسنتيوس الرابع (فقد مضى الى هناك قبل مجمع ليون بزمن قليل وعاد الى ليون فى نوفمبر ١٢٤٧)، قد اسهب فى الحديث فى يوميات سفره عن مملكة اناس ذوى رؤوس كرؤوس الكلاب، خلاصة القول انه ملأ اوصافه باختلافات باطلة. ومن الممكن ان يكون لويس التاسع ايضا قد اطلع على حكايات دل بلانو كاربينى.

ومهما يكن من امر، لم يحاول الملك الفرنسى، هذا الصليبى «النقى» «التقى»، ان يحمل المسلمين على مقاتلة المسلمين (المماليك فى مصر على مقاتلة الايوبيين فى سوريا) وحسب، بل حاول ايضا ان يعقد ضدهم احلافا... مع المغول. فقد كان يأمل، على الارجح، فى توطيد اركان الممتلكات الصليبية بهذا السبيل.

الدين قد اخرج جرديك الاستاذ من عكا وسلمها لخادم اخر يسمى قراقوش(*) ونعته بها [ء] الدين وكان خبير فى عمارة الاسوار وهو الذى اعمر سور القاهره واداره عليها ومده الى المقسم [المقس] الى ان جعل بحر النيل من داخل السور ثم مده الى الجبل المقطم طالع الى مصر الى ان جازها داخل السور وبنا قلعه على القاهره فوق راس الجبل خارج المدينه من قبليها ونقر فيها جب للما بالازميل

(*) قراقوش: الخصى التركى نشأ فى خدمة صلاح الدين الأيوبى. ينسب إليه مسؤلية متابعة بناء سور القاهرة الايوبى وقلعة الجبل (قلعة صلاح الدين). ولاه صلاح الدين على عكا عندما اخذها من الفرنج، ثم لما عادوا و احتلوها اسروه فافتكه صلاح الدين بعشرة آلاف دينار. تنسب إليه أحكام غريبه نظم بعضها أبن مماتى (الكاتب المصرى مسؤل ديوان الجيش والمال فى عهد صلاح = = الدين) فى كتابه المشهور

فى اواسط القرن الثالث عشر، عندما تقرر مصير الشرق فى سياق الفتوحات المغولية، عوّل حكام عدد من الدول المسيحية فى القسم الشرقى من البحر المتوسط، بما فيها دول الصليبيين المتبقية، على المغول بالفعل؛ فقد عقدت كل من مملكة ارمينيا الصغرى (قيليقيا) وامارة انطاكية اتفاقية مع المغول. وقرر لويس التاسع ايضا ان يسير على منوالهما. وعملا بنصيحة ملك قبرص هنرى دى لوزينيان (١٢١٨ ـ ١٢٥٣) الذى عرف بهاتين الاتفاقيتين، قرر لويس التاسع هو ايضا الاتصال مع الغزاة المغول. الا انه سار فى طريق مطروق؛ واول من سار فى هذا الطريق من الغرب لم يكن غير البابا اينوسنتيوس الرابع الذى سبق له ان سعى وراء التحالف مع المغول. ولهذا الغرض أرسل الى الخان الاعظم للقبيلة الذهبية (مملكة اسسها المغول. وكانت تشمل سيبيريا الجنوبية وجنوب روسيا. زالت فى القرن الخامس عشر) جوفانى دلا بلانو كاربينى. وفى سنة ١٢٤٧ ارسل البابا الى آسيا، لاجل عقد حلف مع المغول، بعثة اخرى برئاسة الراهب الدومينيكانى انسلم اسيلين، ـ وهذه المرة الى القائد العسكرى المغولى بيدو. وكانت الذريعة الرسمية لارسال هاتين البعثتين «اطلاع الوثنيين على الدين المسيحى». اما من حيث الجوهر، فقد كان المقصود التقارب مع الحكام المغول لاجل انقاذ بقايا السيادة الافرنجية فى الشرق ـ اى الامبراطورية اللاتينية التى كان يهددها اليونانيون والاتراك. كذلك كان البابا يعلق الآمال على ان يكتسب فى شخص «الانجاس» حليفا ضد الامبراطور الالمانى

الحديد من فوق الجبل الى اسفله حتى وصل الى الما تقدير مايتى ذراع وعمل فيها صهريج يملاه من مصانع [سواقى]عملها خارج من القلعه وفى مده يسيره ادار على القلعة سور وابراج واعمال يفنى الزمان ولا يكاد ان يفنا، ولاجل خبرت صلاح الدين به سلم له عكا وكان مديرها قبالة الفرنج، فلما وصلو الابراج قريبا من السور وطلعو الفرسان عليها وشدو الحروب عليها وكشفوها

«الفاشوش في حكم قراقوش». و يقول ابن مماتى في سبب تأليفه لهذا الكتاب انه قصد به السلطان صلاح الدين، عسى أن يريح منه (أى قراقوش) المسلمين.

فريدريك الثانى، وان يتمكن ايضا من اقامة وتوطيد سيادة الكورية الرومانية فى الاراضى الروسية التى وقعت مؤخرا تحت النير المغولى.

ان لويس التاسع الذى انطلق فى حملة صليبية واقام اتصالات مع المغول قد تصرف، اغلب الظن، بالاتفاق مع البابا. ففى ٢٠ ديسمبر ١٢٤٨، استقبل فى قبرص الرسل المغول. وقد طرح الملك، بحضور اعضاء مجلسه، الكثير من الاسئلة على القادمين المجهولين، دون ان يخطر فى باله، اغلب الظن، ان بعثتهم كانت تتسم بطابع استكشافى صرف، رغم انهم انحنوا حتى الارض امام ملك فرنسا. ان واحدا من اقرب كبار رجال الكنيسة الى الملك ــ هو اودو دى شاتورو ــ قد نصح الملك، بدوره، بالجواب عن رسالة الخان الديغاى. وقبل الملك النصيحة؛ ففى اواخر يناير ١٢٤٩، راحت بعثة فرنسية مؤلفة من ثلاثة رهبان دومينيكيين (برئاسة اندرى لونجومو)، واكليريكيين وفارسين الى مقر قيادة الخان الاعظم. وفضلا عن رسالة الملك المتضمنة اقتراحا باعتناق الدين المسيحى، حمل الرسل الفرنسيون الى المغول الهدايا، ومن بينها «كنيسة صغيرة» ــ اى خيمة كبيرة طرزوا عليها بحذاقة وتفنن مشاهد من حياة يسوع المسيح.

ومع اجراء المفاوضات بصدد اعتناق المغول للدين المسيحى، حاول لويس التاسع، مثل البابا، ان يوجه قوى المغول ضد المسلمين وضد امبراطورية نيقية.

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

بالنشاب وكاد المسلمين ان يسلمو لهم عكا حضر رجل يعرف بابن النحاس من اهل بغداد الى عند بها [ء] الدين قراقوش وقال له انا بسعادة المولى صلاح الدين احرق هذه الابراج فقال له بها الدين ايش تعمل قال اصنع نفط كما اعرف واضرب به الابراج احرقها ولو ضربت به جبل حديد احرقته فقال له اعمل ما تريد ثم دفع له مايتى دينار فمضى وعمل ثلثة قدور نفط وضرب بها الثلثة

وغنى عن البيان ان آمال لويس التاسع انقلبت الى وهم باطل تماما. فعندما وصل لونجومو ورفاقه الى المكان المقصود خلال سنة أو يكاد، بعد ان عبروا كل آسيا الوسطى (هكذا يروى جان دى جوانفيل عن ذلك)، اتضح ان ديبلوماسية ملكهم الحكيم مبنية على الرمال؛ فان المغول لم يكونوا يعتزمون اعتناق الدين المسيحى، وليس هذا وحسب، بل طالبوا كذلك من جهتهم لويس التاسع... بالخضوع. ولكن الملك لم يعرف بهذا المطلب الا بعد مرور وقت طويل، اذ انه لم يتقابل مع اندرى لونجومو الا فى سنة ١٢٥١. ونحو ذلك الزمن، كانت الحملة الصليبية قد جرت وانتهت بالفشل التام.

وقد تطورت الاحداث كما يلى.

فى اوائل يونيو ١٢٤٩ نزل الصليبيون فى مصب نهر النيل، واشاعوا الذعر بين سكان دمياط واحتلوا المدينة عنوة وعمليا بدون اى قتال جدى، وغنموا غنائم وفيرة. ولكن الغزاة لم يستغلوا الوضع الملائم، وتوقفوا خمسة اشهر ونصف شهر فى دمياط. وكان حكام مصر يعتقدون انه سيتأتى للصليبيين ان يحاصروا المدينة زمنا طويلا، ولذا قوى سقوطها السريع حالة الذعر فى بلاط الملك المحتضر الصالح. وبعد مناقشات مديدة ناجمة عن كون قسم من القادة العسكريين الصليبيين قد اقترح الزحف على الاسكندرية، حاصر الفرسان قلعة المنصورة،

ابراج فاحرقها واحرق فيها ما تقديره ست مایة لابس [جندی] کانو فوقها من كبار ابطال الفرنج وكان يوم صعب على عسكر الفرنج وفرح وسرور عند ملة المسلمين الحاضر منهم والغايب والقريب والبعيد لان الفرنج قد اشرفو على اخذ البلاد. ثم بعد حرق الابراج عملو الافرنج منجنيق على بسطة كبيرة جدا وطلع فيها رجال كثير مقاتله وسارو بها حتى الصقوها الى سور عكا من ناحيت البحر

واستولوا عليها فی اوائل فبراير ١٢٥٠. وساعدتهم الخيانة. واستشهد الآمر المصری فخر الدين.

ولكن سرعان ما افلح المسلمون فی حصر الغزاة فی المدينة؛ فقد رأى الغزاة امامهم جيشا لجبا على رأسه الملك المعظم طوران ـ شاه (١٢٤٩ ـ ١٢٥٠) الملك الاخير من سلالة الايوبيين. وقد لقی كثيرون من الفرسان الصليبيين ممن لم يتسنّ لهم اللجوء الى القلعة مصرعهم. وسقط بضع مئات من المقاتلين الصليبيين اثناء القتال، وبينهم اخو الملك، الكونت روبردارتوا.

ان الصليبيين، كما اتضح الآن، قد احرزوا نصرا على طريقة بيروس (ای نصرا كلّف غاليا جدا)، باحتلالهم المنصورة. فان هذا النصر قد اضعفهم غاية الضعف. وبعد فترة من الوقت اغرق المصريون الاسطول الصليبی الذی كان يرسو قرب المنصورة، وقطعوا طريق الفرسان مع دمياط التی كانت قاعدة لتموينهم. وتحت طائلة الموت جوعا اسرع الصليبيون فی الجلاء عن المنصورة؛ فقد فروا منها برا وبحرا ونهرا وكان العدو يطاردهم ويفتك بهم. وقد زال جيشهم من الوجود كقوة مقاتلة. ووقع فی الاسر آلاف الفرسان وحملة سلاحهم. وفی عداد الاسرى كان لويس التاسع ذاته مع اخويه. وسرعان ما صار المقاتلون الصليبيون الاسرى ضحية الامراض ـ الملاريا والزحار (الدوسنطاريا) والاسقربوط (الحفر). وقد ضعف الملك، كما تشهد

وكشفو الرماه من فوق السور بالنشاب منها وصار المنجنيق الذى فيها يضرب فى البلد فخرج ايضا ذالك النفطى ابن النحاس واحرق البسطة فاحترق كثير ممن كان فيها من مقاتلة الفرنج. ثم عملو الفرنج بعد حرق البسطة كبش حديد مركب على خشب عظيم جدا وصفحوه والبسوه حديد وعملو له راس لدكس [لدك] السور تقدير عشرين قنطار من حديد(*) ودكسو به السور فرمو منه بدن كبير

(*) القنطار = ٤٤,٩٢٨ كيلو جرام اى حوالى ٤٥ كيلو × ٢٠ = ٩٠٠ك. جرام.

المصادر، الى حد ان اسنانه اخذت تسقط، بل انه تعين حمل الملك على حمالة، كما يفيد مدون سيرة حياته غليوم دى ناجى، لاجل قضاء حاجته. وفى مايو ١٢٥٠، اخلى سبيل لويس التاسع لقاء فدية ضخمة (٨٠٠ الف بيزنط او ٢٠٠ الف ليرة) وشرط ان يغادر الصليبيون دمياط. ووصلت بقايا العساكر الصليبية الى عكا كيفما اتفق.

خلافا لرأى البارونات الذين نصحوا بالعودة الى الوطن (وهكذا فعلوا باغلبيتهم)، قرر لويس التاسع ان يواصل الحملة الصليبية، وبقى فى فلسطين اربع سنوات. وارسل الى فرنسا رسائل تحمل دعوات الى التحرك فى ربيع ١٢٥١ من اجل مساعدة الملك ضد «الكفار». ولكن الكونتات والدوقات والبارونات والفرسان تجاهلوا هذه الدعوات. فقد كفاهم الدرس الذى تلقوه فى مصر.

ترددت دعوة الملك فى صفوف الشعب الفرنسى، ولكن هذا الصدى لم يكن ذاك الذى كان يأمل فيه لويس التاسع. فان الوعظ بالحملة الصليبية اعطى ذريعة لانتفاضة قوية ضد الاقطاعية قام بها الفلاحون وعامّة المدن. وقد كان للخطابات التعصبية التى القاها واعظ مسنّ سمّاه مدونو الاخبار «المعلم من المجر» تأثير كبير جدا فى بسطاء الناس. ومع الدعوة الى الحرب ضد «الكفار»، طور الفكرة القائلة ان الرب امر بعدم الشفقة على الفرسان المغرورين،

فخرجو اليهم المسلمين من عكآ قاتلوهم فاشتد
الحرب بينهم وقتل من الفريقين جماعة كبيرة
فخرج ايضا ذالك النفطى واحرق الكبش الحديد.
ولواخذت ان اشرح ماجرى بين المسلمين وبين
الفرنج على عكا وغيرها فى كل يوم وكل ساعة
وكل شهر وكل سنة فى ذالك الوقت الذى فتح
فيه صلاح الدين البيت المقدس وما هلك عليه من
الامم وتفانى عليه من الخلايق وافنى عليه من

اى ان انقاذ القدس هو شأن الفقراء. ونحن نعرف ان شعارات مماثلة قد انتشرت ذات مرة بين فقراء الريف؛ وكان ذلك فى سنة ١٢١٢.

تقبل الجمهور على طريقته مواعظ «المعلم من المجر» وغيره من الوعاظ الشعبيين. ذلك انهم كانوا يؤكدون على ان الرب العلى لا يميل الى الاعيان ولا يحسن اليهم، ويشهّرون ببخل رجال الكنيسة وجشعهم. ولهذا اتجه غضب الفلاحين وفقراء المدن، لا ضد «اعداء الايمان المسيحى» البعيدين، بل ضد اسيادهم وحماتهم من رجال الدين. ومن مقاطعات فرنسا الشمالية حيث وعظ فيما مضى بطرس من مدينة ايمان، تحرك نحو باريس ومنها الى اورليان عشرات الآلاف من الصليبين الفقراء. لم يتحركوا لانقاذ قبر السيد المسيح، بل انتقلوا الى الجنوب جموعا كبيرة، فاتكين فى الطريق بالناس الميسورين، والكهنة والرهبان. وقد اشترك فى الانتفاضة الفلاحين (الجاكرى) فى مقاطعة ايل دى فرانس عام ١٣٥٨. وقد بينت هذه الانتفاضة ان الدعاية للحملات الصليبية لم تصبح عقيمة بالنسبة للاقطاعيين وحسب، بل امست كذلك خطرة اجتماعيا لأنها تستتبع امكانية نشوب تمردات «الرعاع».

عبثا انتظر لويس التاسع فى فلسطين الامدادات، فغادر عكا فى ابريل ١٢٥٤ وعاد الى فرنسا.

منذ الخمسينيات من القرن الثالث عشرى، اخذت مستعمرات الصليبين فى سوريا ولبنان

الاموال وذهب بسببه من النفوس لطال الشرح وعظم الوصف والانتظار واقع لما يتجدد بسببه في كل زمان. وقد تقدم في السير الاولين فيه ماهو اعظم من هذه السيرة وتفانت [قتل] عليه من الامم ما هو اكثر من هذه الرقم، ولم تزال هذه صفته ما دامت ايام الدنيا، كل امه ترتكب فيه الفساد وتعمل بضد شروطه يرسل الله عليها امة غليظه لا ترحم ولا تشفق تخرجها منه بالسيف والسبى

وفلسطين، التى كان يمزقها الصراع الاجتماعى والسياسى الداخلى المتوتر، تبدى المزيد والمزيد من العجز امام اعدائها في الشرق ـ السلجوقيين والعرب والمغول. وفى اواخر الخمسينات انزل المغول هزيمة شنعاء بالخليفة البغدادى، وامتلكوا ـ لزمن غير طويل، المقاطعات الداخلية من سوريا. اما الخطر الرئيسى على الصليبيين، فقد كانت ترتسم معالمه من جهة مصر، حيث وصلت الى الحكم في سنة ١٢٥٠، بعد اغتيال المعظم طوران ـ شاه، سلالة جديدة هى سلالة المماليك. وكانوا يسمون بالمماليك المقاتلين الذين كان يتألف منهم منذ زمن الملك الصالح نجم الدين ايوب (١٢٠٧ ـ١٢٤٩) معظم الجيش المصرى. وكانوا من حيث انتماؤهم الاثنى من البولوف. وكانوا يترحلون فى السهوب المشرفة على البحر الاسود؛ وقد وقع عدد كبير منهم فى اسر المغول، فباعهم هؤلاء عبيدا من التجار الايطاليين، ثم باعهم هؤلاء من جديد فى مصر. وتدريجيا ارتفع الآمرون المماليك الى وضع الشريحة السائدة فى صفوف الاريستقراطية الاقطاعية. وممثلوها هم الذين قاموا فى سنة ١٢٥٠ بانقلاب فى البلاط، حملوا به الى الحكم ملكهم المعزّ ايبك (١٢٥٠ ـ ١٢٥٧) الذى بدأ منه بالفعل حكم سلالة المماليك.

استطاع المماليك ان يستبعدوا الخطر المغولى عن البلاد. فقد اوقفوا طليعة الجحافل المغولية فى سبتمبر ١٢٦٠ فى معركة عين جالوت. وكان بطل المعركة رئيس الحرس الملكى الذى

والجوع والحصار ونهب الاموال وبيع الاولاد والحريم لان الله قال عنه في التوراه: اني اخترت هذا البيت ليذكر فيه اسمي من جميع الدنيا واخترت داوود ملكا من جميع ملوك الارض. وعلى هذا الحكم يريد الملك الذى يكون البيت تحت سلطانه ان يكون فيه من الطهاره والعدل وصلاح السريره وملازمة الصلوات والصدقات مثلما كان في داوود ولاجل ذالك اقام ملكا عليه وساكنا فيه اربعون

ترقى في البلاط، العبد السابق، الظاهر ركن الدين بيبرس بندقدارى. وفى سنة ١٢٦٠ صار ملكا. وفي عهده قويت مصر كثيرا. وكان بيبرس (١٢٦٠ ـ ١٢٧٧) يعتبر نفسه باعتزاز صلاح الدين الثاني. وقد وحد الملك الجبار، الذى سار على خطوات سلفه الشهير، مصر وسوريا. واعاد بناء الحصون، وملأ مستودعات الاسلحة، وبنى اسطولا كبيرا، وضبط المواصلات البريدية المنتظمة. وبعد ذاك، وجه بيبرس همته ضد الافرنج. وكان قد تقرر وضع حد لبقايا ممتلكاتهم في سوريا ولبنان وفلسطين. وفى سنة ١٢٦٥ استولى على قيساوية وارسوف، وفى سنة ١٢٦٨ على يافا، وبعد شهرين ـ في مايو على انطاكية، اغنى مدن الصليبين. كانت سيادة الافرنج فى القسم الشرقى من البحر المتوسط تقترب بكل جلاء من نهايتها.

«انتزاع تونس من المسلمين»

في صيف ١٢٧٠ قامت حملة صليبية اخرى، كانت الحملة الاخيرة. وقد قام بها البارونات والفرسان الفرنسيون. وكان عددهم قليلا جدا؛ اذ قل من كانوا يفكرون آنذاك في استئناف الحروب في الشرق التى منيت بالفشل بكل جلاء والتى انحطت سمعتها كليا.

وهذه المرة ايضا كان الملك الفرنسي لويس التاسع، او القديس لويس، حليف البابوية القديم، والذى سبق له ان احرق اصابعه مرة فى مغامرة صليبية، صاحب المبادرة الى الحرب

سنة ولم يكن فى هذه المدة غلا ولا حرب ولا وبآ الا من قضيت امراه [قضية أمرأة] اوريآ يوم واحد ثم تاب داوود فقبله الله ورفع الموت عن الامه وعاش داوود بقية عمره مرتعش اليدين لما راى ملاك الله وبيده السيف وهو يقتل. وهذه القضية مشروحة في كتاب اسفار الملوك، ونحن لما نقصده من الاختصار ونذكر ما تيسر ونترك ما سواه وقد يكون غيرنا اهتم بذالك وعلم من الاخبار وشاهد

- -

المقدسة وقائد هذه الحرب. كان هذا الملك عنيدا ومثابرا فى بلوغ اهدافه السياسية، تقيا بنحو تعصبى اعمى، وكان يحيط نفسه بمستشارين من الرهبان الدومينيكان؛ وقد اعلن للبارونات عن عزمه، الذى كان يضمره من زمان، فى ٢٥ مارس ١٢٦٧، فى كنيسة سان شابيل فى باريس. وقد رأى الاسياد فى الكنيسة ذخائر من «الآلام الربانية» وسمعوا من فم الملك بالذات انه سيأخذ الصليب. وان جان دى جوانفيل، مؤرخ سيرة حياة لويس التاسع، الذى كان من رجال البلاط، والذى عاش مع الملك جميع تطورات حملته المصرية، يروى ان نبأ الحملة الصليبية الجديدة كان مفاجئا للغاية بالنسبة له شخصيا وبالنسبة للاشخاص الآخرين المقربين من الملك، وانه اذهل البارونات.

لماذا اختاروا تونس بالذات هدفا؟ عن هذا يفيد بالتفصيل شخص اشترك فى الاحداث هو معرّف الملك، الدومينيكانى جوفروا دى بوليه، الذى رافق الملك فى الحملة. فهو يورد اساسا دوافع دينية محضة ألهمت، على حد زعمه، الملك الفرنسى. فقبل بداية الحملة الصليبية، تبادل لويس التاسع، حسب رواية دى بوليه، الرسل مع «ملك تونس» المستنصر، الذى كان على استعداد، كما اوحى الرهبان الدومينيكان، «الجديرين بالثقة»، للويس التاسع، لاعتناق الدين المسيحى بكل طيبة خاطر اذا كان فى وسعه ان يفعل ذلك دون ان يتعرض لنقمة مواطنيه المسلمين. وحسب رواية جوفروا دى بوليه كان لويس التاسع يفترض هو ايضا ان

من الامور مالم نشاهده ولا علمنا وانما اعلمنا اخوتنا بما وصل الينا علمه على قدر ما يسره الله لنا ومنّ به علينا. ولم يزل الحرب بين الفرنج والمسلمين الذى فى عكا متصل الليل والنهار وكل منهم لاياخذه عن الحرب قرار منذ نزولهم عليها فى شهر رجب سنة خمس وثمانون وخمس ماية الى جمادى الاخر سنة سبع وثمانون وخمسماية[١١٨٩ إلى ١١٩١م٩٠٦ إلى ٩٠٧

يجمد قوات المسلمين بهجومه المفاجيء على تونس، ويؤمن لامير تونس ومقربيه امكانية اعتناق الدين المسيحى بلا عائق، وبدون التعرض لاى خطر.

بعد مرور مئات السنين تلقف بعض الباحثين الفرنسيين من ذوى الميول المحافظة رواية جوفروا دى بوليه الذى اكد بكل الوسائل على الاعتبارات الدينية التى قامت، حسب زعمه، فى اساس الاختيار الستراتيجى. وبعض منهم لا يزالون يدافعون الى اليوم عن هذه الرواية، مفتشين عن الجديد تلو الجديد من الذرائع فى صالحها. فان المؤرخ الفرنسى المعاصر لونيون، مثلا، الذى يتبنى رواية جوفروا دى بوليه بكل حماسة، يصور لويس التاسع بصورة ملك ـ مرسل، يتحرق، اكثر ما يتحرق، الى استمالة المستنصر الى الدين المسيحى، والى تأمين انبعاث الدين المسيحى وانتصاره فى بلد عاش فيه ووعظ فيما مضى احد آباء الكنيسة، القديس اوغسطينوس (٣٥٤ ـ ٤٣٠).

اما فى الواقع، فان مدونات جوفروا دى بوليه تتضمن اوصافا اكثر واقعية بكثير لتلك الدوافع التى دفعت الملك لويس التاسع او القديس لويس الى تحريك اسطوله نحو تونس؛ فان الرهبان الدومينيكان الذين كانت لهم ارسالياتهم هناك قد اقنعوا الملك بانه من السهل الاستيلاء على تونس، وابلغوا لويس التاسع كذلك عن الثروات الطائلة فى مدينة تونس، وقالوا له انه يمكن استعمالها لاجل استعادة الارض المقدسة، وان ملك مصر ذاته يغرف من تونس مقادير كبيرة من الاموال؛ فمنها يرسلون الى القاهرة الخيالة والاسلحة.

قبطية] وصل ملك فرنتسيس [فرنسا](*) بجنوده في تقدير ماية بطسة وشيني(*) الى عكا ونزل مع عسكر الافرنج واتفق معهم وتجدد القتال عليها وكان صلاح الدين قد اخرج العسكر القديم منها ودخل لها بعسكر جديد فيه جماعة من الامرآ الكبار المعروفين منهم سيف الدين على ابن احمد مقدم الاكراد، وعلم الدين ارسل، مقدم المماليك الصلاحية والاسدية، وابن سيف الدين الجاولي

(*) ملك فرنسا في هذا الوقت هو فيليب.

(*) بطسة وشيني: نوعين من السفن التجارية تستخدم وقت الحرب في نقل الجنود والتموين والدواب. والبطسة كانت معروفه للصليبين و المسلمين، وكانت تستخدم كذلك في شحن آلات الحرب، وتحمل حوالى ثلثمائة مقاتل.

اغلب الظن ان هذه الذرائع بالذات هي التي كانت في المقام الاول السبب الذى حمل الملك على توجيه السفن من كالابرى الى سواحل تونس. ويجب الظن ان زعماء الحملة استخلصوا الدروس من اخفاقات الصليبيين السابقة؛ فان الهجوم المباشر على مصر مشروع لا امل في نجاحه، فلم لا يحاولون العمل بطريق غير مباشر، ببدء النضال في سبيل القدس من اخضاع تونس حيث سيكون من الممكن انشاء رأس جسر لاجل بلوغ الهدف الرئيسي؟

يتبين من الوثائق المحفوظة ان لويس التاسع اعلم شارل الاول بمقصده. وقد فعل ذلك قبل المجلس في كالابرى؛ وفي ١٣ يوليو، امر شارل الاول، اثناء وجوده في باليرمو، بشراء الفي قالب من الجبنة في ابولى ونقلها الى مرفأ ترابانى في صقلية «لاجل سفرنا البحرى الموفق من صقلية الى تونس». وفي اوامر اقدم عهدا مؤرخة في مايو ـ يونيو ١٢٧٠، ومرسلة الى نابولى، طالب شارل الاول بشراء الفي رأس من الخنازير و٦٠٠ بقرة وخروف في كالابرى وشراء الخبز في ابولى لاجل تأمين كل هذا بوفرة للملك لويس التاسع. الا ان تونس لم ترد في هذه الوثائق بوصفها هدف الحملة: فقد تناول فيها الكلام ببساطة عن بعثة «فيما وراء البحر». وفي ٢١ يوليو، منح شارل الاول تجار مملكته الحق في تصدير احتياطيات المآكل بدون رسوم الى «ملك فرنسا الذى سيمضي بحرا الى تونس لعزمه على انتزاع هذه الارض من المسلمين».

ولكن ملك نابولى نفسه لم يتسرع الى الانضمام الى قوات اخيه. فقد كان شارل الاول

وعـز الدين يعـقـوب الامـرى مـقـدم التـرجـمـان [التـركـمـان] ولما شـدد عليـهم افـرنيـسس [ملك فرنسا] القتال شهر جمادى الاخر ورجب واحاط بالمدينة جميعها وما صار احد يقدر يدخل لها بميره و لا نجده فتحها الظهر يوم الجمعة النصف من شعبان سنة تسع وثمانين وخمس ماية الهلالية [١١٩٣م= ٥٩٠ قبطية] فجميع ما اقام الحرب على عكا سنتين وشهر واحد وخمسة عشر يوم.

يفكر قبل كل شيء في مشاريع يونانية لم تسفر عن اية نتيجة. فان نحو عشرين سفينة ـ لم يفلح في جمع اكثر منها ـ لم تكن كافية لاجل الحرب ضد «المنشقين»؛ ورفض دوق البندقية لورنسو تيوبولو التحالف مع المغامر من الجو ضد الامبراطور البيزنطى ميخايل باليولوج. واستطاعت البندقية، حتى بدون حرب، ان تستعيد امتيازاتها السابقة في امبراطورية الروم. ولم تكن عند شارل الاول اية نقود ـ فان حياته الزواجية كانت تتطلب نفقات كبيرة ـ فغرق ملك نابولي في الديون.

وحتى عندما انطلق اسطول لويس التاسع في ١٥ يوليو ١٢٧٠ باتجاه تونس، وعندما نزل الصليبيون هناك في ١٨ يوليو دون ان يلقوا مصاعب جدية نوعا ما ودون ان يتكبدوا اية خسارة تقريبا، لم يتسرع شارل الاول في الالتحاق بهم. ولم يبحر الى تونس مع فصيلته الا في ٢٤ يوليو، ولكن افكاره ظلت مشغولة حتى في ذلك الوقت ايضا بالقسطنطينية واليونان. ولم يكن شارل الاول يرغب في حرب ضد تونس، وقد ارجأ الى الحد الاقصى اشتراكه في الحملة، رغم ان لويس التاسع كان ينتظر منه العون بفارغ الصبر. وفضلا عن ذلك، يتبين من رسالة لكابيللان لويس التاسع، بيار دى كونده، مؤرخة في تاريخ لاحق، ان «ملك صقلية طالب باروناتنا في بداية الحرب بعدم التفكير في الاشتباك في حرب ضد ملك تونس». لماذا؟

كان شارل الاول يفضل على العموم ان يقيم علاقات حسن الجوار مع البلدان الاسلامية

واخبرني رجل كان حاضر في عكا لما فتحوها
المسلمين انهم وجدو جامعها قد جعلوه الفرنج
كنيسة لما اخذوها من المسلمين اول دفعة وصورو
فيه صور فلما فتحها صلاح الدين من الفرنج
جمعو المسلمين الاسارى الذى عندهم من الفرنج
وجاآو بهم الى الجامع ملو الما وغسلو حيطانه
وابوابه وكشطو منه الصور وجابو الجير بيضوه حتى
ما بقي للصور اثر ولا خبر وصلو فيه بقية الجمعة

فى افريقيا الشمالية. وكانت التجارة مع المشرق تعود على خزينته بارباح لا يستهان بها. كان دوق بروفانس صاحب السيادة على مدن ايطاليا الجنوبية ومدن صقلية. له تجارة قوية مع تونس فهى تستورد الحبوب من صقلية بانتظام. وكانت الحرب تهدد بالاخلال بهذه العلاقات التجارية القائمة من زمان بعيد.

وعدا ذلك، كانت للملك شارل الاول نظرات خاصة تماما الى تونس؛ فقد سبق له ان اجرى خلال زمن طويل مفاوضات مفعمة بروح الصبر مع المستنصر لكى يدفع له المستنصر جزية كانت تونس تدفعها فيما مضى للامبراطور فريدريك الثانى. وكان الطرفان يتبادلان الرسل بين الفينة والفينة. وشيئا فشيئا سارت المفاوضات اشواطا الى الامام. الامر الذى حمل ملك نابولى الى المماطلة فى الجواب عن عروض لويس التاسع للاشتراك فى الحملة الصليبية.

ولكن سرعان ما تعقدت العلاقات بين شارل الاول وامير تونس. فان ملك الصقليتين، المستغرق فى الديون، قد طلب من امير تونس، علاوة على الجزية العادية، دفع متأخرات عنها متراكمة منذ اواسط القرن الثالث عشر. وحين نزل صليبيو لويس التاسع فى تونس، دخلت المفاوضات مع المستنصر طريقا مسدودا. وآنذاك فقط التحق شارل الاول بالصليبيين لفهمه انه ليس له ما يخسره.

بعد ان نزل الصليبيون الفرنسيون فى تونس، استولوا على قلعة قرطاجا القديمة. وهب

التى فتحو عكا فيها. ولم يزل ذالك الرجل فى عكا مقيم الى ان فتحها ملك افرنس فاخذو الافرنج اسارى المسلمين جاآو بهم الى الجامع ملو الماء غسلوه وجددو بياضه وصوره كما كان. فسبحان الله الذى بيده ملكوت كل شي يعز من يشا ويذل من يشا ويجازى كل احد باعماله. ولما فتح الافرنس عكا اسر كلمن كان فيها من العسكر واهل البلد، وانفذ صلاح الدين يقرر معه

(*) القوات الصليبية تأسر بعض الأمراء الكبار فى عكا بعد سقوطها فى ايديهم ومنهم سيف الدين على ابن احمد مقدم القوات الكردية وبهاء الدين

بيبرس، ملك مصر، الى مساعدة المستنصر. وكانت الشمس الافريقية اللاهبة تضنى الفرسان. وفى اواخر يوليو، دب فى صفوف قواتهم وباء ـ إمّا وباء الطاعون، واما وباء الكوليرا. وفى ٣ اغسطس، لزم لويس التاسع الفراش. وفى الوقت نفسه تقريبا شملت العدوى ابنيه اللذين كانا معه (فيليب الذى خلفه فيما بعد ولقب بالجرىء، وجان دى نيفر) وابنته ايزابيل وزوجها، ملك نافار، واخا هذا الاخير، والفونس دى بواتيه وزوجته جانّ، ـ خلاصة القول ـ كل العائلة الملكية. ولم يعودوا الى فرنسا، باستثناء ابن الملك البكر فيليب، الذى شفى.

فى ٢٥ اغسطس ١٩٧٠، توفى لويس التاسع؛ فان جسمه الذى اضعفته الامراض السابقة، لم يصمد للمحنة الجديدة. وفى اليوم ذاته، وصل اسطول شارل الاول الى سواحل تونس. فوجد ملك نابولى جثمان اخيه البارد. وقد فسدت معنويات العساكر كليا بسبب وفاة قائدهم المفاجئة. وكادت الحملة الصليبية تنهار وتفشل.

بعد وصول فصيلة شارل الاول الى تونس، خاضت مع الصليبيين الذين ترأسهم خليفة لويس التاسع، ابنه فيليب، بضع معارك ناجحة ضد قوات امير تونس؛ وانتهى الامر. فقد اعتبر شارل الاول من غير المعقول مواصلة الحرب فى تونس. وفى اول نوفمبر ١٢٧٠، تم التوقيع على معاهدة صلح مع المستنصر، الزمته باستئناف دفع الجزية لملك الصقليين، ودفعها بمقدار الضعفين، وبالتعويض على الملكين المسيحيين عن النفقات الحربية، علما بان ثلث المبلغ

قطيعة فيهم فلم يتفق بينهم فيهم شى فاخذو الامر الكبار(*) مثل احمد وبهاء الدين قراقوش ويعقوب الامرى وغيرهم من الكبار افردهم وقيدهم، واما علم الدين ارسل [و] ابن سيف الدين الجاولى فهربو عندما فتحت عكا وخرجو بنفوسهم لا غير الى عسكر المسلمين وتركو اموالهم وما كان معهم من مماليكهم واجنادهم. واما باقى الناس فان افرنس [ملك افرنس] اعزل الكتانية وحدهم

قراقوش وعز الدين يعقوب الامرى مقدم القوات التركمانية، وهروب علم الدين ارسل قائد القوات الصالحية و الاسدية، و ابن سيف الدين الجاولى.

الاجمالى ـ ٧٠ الف اوقية من الذهب ـ يعود الى شارل الاول. اما اهم شرط تضمنته المعاهدة، فهو انها أمنت الحصانة فى تونس للتجار من رعايا مملكة صقلية؛ فانهم «سيكونون بحماية السيد اى هم بالذات واموالهم، سواء عند دخولهم البلد ام فى زمن تصريف امورهم». واخذ الطرف الثانى ايضا على عاتقه التزامات مماثلة. وهكذا انشأت هذه المعاهدة ضمانات حقوقية معينة لاجل تطور التجارة بين تونس وصقلية تطورا طبيعيا، عاديا. وبعد ١٧ يوما على توقيع المعاهدة، ركب الصليبيون السفن وغادروا تونس.

الا ان باباوات روما واصلوا دعوة الغرب الى تحرير القدس حتى بعد اخفاق حملة سنة ١٢٧٠. وفى سنة ١٢٧٤ طالب البابا جريجوريوس العاشر فى مجمع ليون (فرنسا) بتنظيم حملة صليبية جديدة. ولكن نداءاته ظلت معلقة فى الهواء: فلم يتواجد راغبون فى القتال من اجل قبر السيد المسيح. ان الموقف السلبى من الحملات الصليبية قد تجذر وترسخ الى حد ان مدون الاخبار الايطالى التقى ساليمبينه فسر وفاة البابا بأن الرب لم تطيب له سياسة البابا فعجل بوفاته: «ان الرب لم يشأ استعادة القبر المقدس من جديد، ولذا دعا البابا اليه».

واستمرت زمر الفرسان غير المنظمة تشن حملات منفردة حتى اواخر القرن الثالث عشر، ولكن هذه الحملات لم تسفر عن اية نتائج جدية نوعا ما. وتوقفت الحركة الصليبية. وقد سحق مماليك مصر وابادوا آخر ممتلكات الافرنج فى الشرق الواحدة تلو الاخرى. وفى ٢٦

والسودان وحدهم والاكراد وحدهم والغز وحدهم ولم يخلط جنس مع غيره وقتلهم، والعسكر مع صلاح الدين ينظروهم واخذ ملك افرنس من وقع في نصيبه من الاسارى معه وعاد في البحر الى بلاده وكان في الايام التي فتحة فيها عكا وصل اليها ملك الانكتار [الانجليز](*) سمر نميد [ريتشارد الاول] وكان بطل شجاع لا يخاف، خبير عارفا بالحروب لا يخاف الموت ولا يهاب كثرت العساكر حتى انه

(*) ريتشارد الاول: سمر نميد، وصل بجنوده في اعقاب الحملة الصليبية الثالثة إلى عكا وحاول مع بقية الجيوش الصليبية استرداد بيت المقدس من يد صلاح الدين= ابريل ١٢٨٩ استولت قوات الملك الاشرف خليل ابن قلاوون على طرابلس. وفي ١٨ مايو ١٢٩١، اى في ١٦ جمادى الثاني ٦٩٠ هجرية سقطت عكا، وحولها فيما بعد الى انقاض. وزالت مملكة القدس الثانية من الوجود.

ان مؤلف «البكاء على سقوط عكا»، الراهب الدومينيكاني ريكولدو دى مونتى كروتشه، قد فسّر في اواخر القرن الثالث عشر فشل الحملات الصليبية بكون الغرب رفض ان يقدم للارض المقدسة دعما فعالا، لأن فكرة الاستشهاد من اجل القدس لم تعد، برأى هذا الراهب، تحمل الارتياح المعنوى. اما في الواقع، فان الحروب الصليبية قد توقفت لأنها قدمت البرهان الجلي الساطع على عقمها، كما ان الحوافز الاجتماعية التي استثارتها فيما مضى، في القرن الحادى عشر، قد فقدت قوتها في غضون ٢٠٠ سنة.

وغير مرة، قامت، في القرون التالية، محاولات مصطنعة لاستئناف الحروب من اجل الارض المقدسة، مثال ذلك ولكنها اخفقت جميعها؛ فان عهد الحملات الصليبية قد انتهى وإن كان ذلك لم يمنع حملة غزو الاسكندرية في (٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م) في عهد السلطان الطفل الاشرف شعبان الذى لم يكن يتجاوز الحادية عشرة من عمره، وكان وصياً عليه الأمير يلبغا العمرى الخاصكي. وكان والى اسكندرية في هذا الوقت الامير صلاح الدين خليل ابن عرام والذى كان متغيباً بالحجاز.

لو كان قدامه الوف وهو وحده حمل فيهم، ولم يكن في من وصل ملوك الافرنج مثله وكان اذا حمل لا يقف احد قدامه فسلم له ملك افرنس خمس ماية فارس من عسكره خلاها عنده وجعله مقدم العسكر مكانه وسلم له العساكر واوصاه وسار. وبعد أيام يسيرة من مسيره دبر ملك الانكتار رجال عكا ورتب فيها من يحفظها وخرج منها نزل حيفا وقام من حيفا نزل ارسوف وكان صلاح

= ولكنه فشل في ذلك وانتهى الامر بعقد اتفاقية بينه وبين صلاح الدين سنة ١١٩٢م = ٥٨٨هـ وبمقتضاها صارت للصليبين في فلسطين المنطقة الساحلية من صور إلى يافا بما فيها من مدن مثل عكا.

جاء هذا الغزو من ملك قبرص (بطرس الاول) في اكتوبر ١٣٦٥م: وهو الذى وضع خطة الغزو التي بدأت بنزول جنوده في اسكندرية يوم الثلاثاء الموافق ٩ أكتوبر.

العلاقات المصرية الحبشية فى ظل حكم المماليك

يبدو لنا من الوثائق المعاصرة أن ركناً أساسياً من الاتصالات التى كانت تدور بين بطارقة مصر من ناحية وملوك الحبشة من ناحية أخرى ـ طوال العصور الوسطى ـ دارت حول موضوع رئيسى واحد هو ترسيم مطران جديد للحبشة عندما يخلو الكرسى الأسقفى فيها. والواقع إن الحبشة بعد انتشار المسيحية فيها صارت لا تستغنى أبداً عن وجود مطران فيها، لا من أجل النهوض بالشعائر الدينية والإشراف على كنيستها فحسب؛ بل بعد أن صارت للمطران المصرى فى الحبشة مهام أساسية، اجتماعية وسياسية. فمطران الحبشة هو الذى يقوم بتتويج كل ملك جديد، ويرأس الحفل الكبير الذى يقام فى تلك المناسبة، ويمسح بيده على رأس الملك الجديد ليباركه[1]. ومطران الحبشة هو الذى يصحب ملكها فى حروبه وغزواته ليبارك تحركاته ويضمن له النصر، بالضبط مثلما كان يفعل سلاطين المماليك فى مصر من اصطحاب الخليفة العباسى معهم فى حروبهم الكبرى، طلباً للبركة وأملاً فى النصر. ومطران الحبشة هو الذى يضفى على القوانين الملكية صبغتها القانونية، وعن طريقه كان يصدر قرار

(١) أبو صالح الأرمنى: كنائس وأديرة مصر، ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧.

الدين نازل على برج الديويه ويسمى سفر عام، فسار لحقه وكان من تدبير ملك الانكتار انه رتب الرماة بالزنبورك على العجل وعمل عليهم ساير وكانه العجل سايرة بالرماة من جانبى العسكر ميمنة ومسيرة والعسكر فى القلب ولم يكن يقدر يدنو من العجل الا ويهلك، فلما لحقه صلاح الدين [فى] ارسوف قاتله فلم يبلغ منه مراد [و] خاف ان يتم الى عسقلان فيملكها فسبقه صلاح

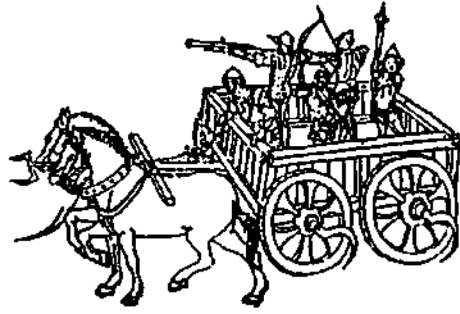

عربة صليبية مدرعة عليها جنود بالزنبرك ومحصنة عند عجلاتها بالنصال حتى لا يقترب منها فارس أو جندى من المشاة.

الحرمان ضد أى فرد يغضب عليه ملك الحبشة، فيصير ذلك الفرد محروماً من الكنيسة مطروداً من رحمتها. والى المطارنة المصريين فى بلاد الحبشة يرجع الفضل فى إصلاح كثير من الأوضاع والعادات الذميمة التى سادت المجتمع الحبشى، مثل عادة تعدد الزوجات دون حساب، وهى العادة التى حاربها فى غير هوادة المطران ساويرس تنفيذاً لتعليمات البطريرك كيرلس فى القرن الثالث عشر. هذا كله بالإضافة إلى أثر المطارنة المصريين - لافى رسوم الكنيسة الحبشية وطقوسها فحسب - بل أيضاً فى بعض المظاهر المتعلقة باستخدام الأجراس وتعليق بيض النعام فى الكنائس الحبشية، على نحو ما عرف فى الكنائس المصرية. ويؤكد بعض الباحثين أن كثيراً من الكنائس التى شيدت بالحبشة فى العصور الوسطى، إنما تشبه فى تصميمها وطرازها وهندستها وزخارفها وأسلوب بنائها الكنائس المصرية المعاصرة لها مما يشير إلى قيام مهندسين وعمال مصريين بإنشائها.

وبناء على هذا الدور الكبير الذى نهض به المطارنة المصريون فى بلاد الحبشة فى العصور الوسطى، ازداد حرص ملوك الحبشة فى تلك العصور على استحضار مطران جديد من مصر كلما تعرض منصب المطرانية فى بلادهم للشغور، لأنه كان فى حقيقة الأمر ضرورة عاجلة لسد فراغ دينى وسياسى واجتماعى فى البلاد. وهنا نشير إلى أن الأحباش فى تلك العصور ألفوا المطارنة المصريين واعتادوا أساليبهم وارتاحوا إلى سلوكهم ومنهجهم، فلم يرضوا عنهم

الدين اليها فاخربها واحرقها ولم يبقا فيها جدار قايم ثم توجه صلاح الدين نزل الرملة فلما بلغ ملك الانكتار انه اخرب عسقلان واحرقها بالنار صعب عليه واقام على ارصوف اياما يسيرة ودبر تدبير اخر يريد يكبس عسكر السلطان صلاح الدين فمضى الجاسوس اعلم صلاح ادين بذالك فرحل صلاح الدين من الرملة طلع الجبل ونزل على النطرون وهو جبل شامخ عال لا يمكنه

بديلاً. حقيقة إنه حدث في بعض الفترات، عندما تعذر عليهم جلب مطارنة من مصر لظروف معينة، أن استحضر الأحباش مطارنة سوريين أو كاثوليك غربيين؛ ولكن هذا كان يحدث لفترة محدودة جداً لا يلبث الأحباش بعدها أن يظهروا نفورهم من أولئك المطارنة غير المصريين ويكررون محاولاتهم لاستحضار مطارنة من مصر. ولا يخفى علينا أن وحدة الكنيسة بين مصر والحبشة جاءت مصحوبة بوحدة المذهب اليعقوبي في البلدين. ويؤكد هذه المعاني ما يرويه المقريزي من أن بعض الكاثوليك الذين كانوا يريدون دخول الحبشة حرصوا على إخفاء حقيقة مذهبهم، والتظاهر بأنهم يعاقبة حتى لا يتعرضون للأذى أو القتل.

ويفهم من المصادر المعاصرة أن السلطان الظاهر بيبرس أرسل سفارة إلى الحبشة، وأن هذه السفارة تأخرت في العودة إلى مصر، مما جعل الظاهر بيبرس يغضب على ملك الحبشة.

ومهما يكن من أمر، فإن بيبرس غضب لتعويق سفارته، وربما لعدم تمكينها من مقابلة «الحطي»، وهو ملك الحبشة المسيحي. وأحس ملك الحبشة بغضب السلطان بيبرس عليه، فلم يجرؤ على الاتصال به مباشرة عندما احتاج إلى مطران جديد لبلاده، فأرسل كتابه إلى مصر عن طريق صاحب اليمني، وكان ذلك سنة ١٢٧٣ (٦٧٢هـ)، راجياً من السلطان أن يطلب من بطريرك الاسكندرية ـ غبريال الثالث ـ أن يبعث إلى الحبشة «مطراناً رجلاً جيداً عالماً لا يحب ذهباً ولا فضة»؛ ويدعو للسلطان بيبرس، فيقول «وهذه الخلق كلهم يقولون آمين بطول

الطلوع اليه الا صعوبة ولا يكون فيه موضع للحملات فرحل ملك الانكتار نزل الرملة فلما نزل الرمله رحل السلطان من النطرون طلب مدينة القدس فرحل ملك الانكتار نزل النطرون وتم السلطان على حاله دخل مدينة القدس واهتم بحفر الخنادق وعمارة الابراج واقام ملك الانكتار على النطرون مدة ثم عاد الى عسقلان نزل عليها واعمرها وحصنها وانتقل منها الى غزه اعمرها

بقاء عمر سلطاننا مالك مصر، ويهلك عدوه..» ثم إن ملك الحبشة يحرص في رسالته على أن يوضح للسلطان الظاهر بيبرس أنه يحسن معاملة المسلمين في بلاده، وأن منهم في جيشه مائة ألف فارس مسلم، «وكل من يصل من المسلمين إلى بلادنا نحفظهم ونسفرهم كما يحبون».

ولكن السلطان بيبرس امتنع عن تلبية رغبة ملك الحبشة في إرسال مطران إليه، ورد على رسالة الحطى الطويلة، برسالة قصيرة مقتضبة، يفهم منها استياء السلطان بيبرس لأن ملك الحبشة تغاضى عن قواعد البروتوكول، ولم يتصل بسلطان مصر مباشرة، وانما أرسل رسوله إلى صاحب اليمن حيث أقام الرسول حتى يأتي الرد من مصر. ويضيف جاستون فييت أنه لا يستبعد أن يكون سبب استياء بيبرس هو أن ملك الحبشة لم يشفع طلبه الخاص بالمطران بالهدايا الثمينة من الذهب والرقيق، وهي الهدايا التي جرى العرف على إرسالها عند طلب مطران جديد للحبشة.

وهنا نجد أنفسنا على خلاف في الرأى مع المقريزى الذى يقرر أن الحطى متملك الحبشة طلب من السلطان بيبرس «أن يجهز له مطران من عند البطريك، فأجيب» ذلك أن تطور الأحداث التاريخية فيما بعد يتعارض مع رواية المقريزى، لأن ملك الحبشة لم يلبث أن كرر طلبه في عهد السلطان منصور قلاون، واعتذر عما حدث من والده، وأشار إلى أن الأحباش لم يرتاحوا إلى المطران السرياني الذى جلبوه من سوريا. ومعنى هذا كله واضح، وهو أن الظاهر

وحصنها وانتقل من غزه [إلى] ديررناس وهى قلعة الدراون وكانة [كانت] باقية في يد المسلمين الى اخر جمادى الاول سنة ثمان وثمانين وخمسماية [١١٩٢م] ففتحها واخذها وقتل واسر كلمن وجده فيها ثم مضى الى بيروت يقاتلها فخرج اليه صلاح الدين من القدس ونزل بالعسكر على يافاً وقاتلها يومين ففتحها وقتل كلمن وجده فيها فى الريض فاما الفرسان والمقاتلة من الفرنج فانهم

بيبرس لم يجب ملك الحبشة إلى طلبه، الأمر الذى اضطر الملك إلى جلب مطران من السريان. ويضيف بعض الباحثين إلى ذلك أن ملك الحبشة ـ يكونو أملاك ـ عندما يئس من رد بيبرس اتجه إلى سوريا، فاستحضر منها مطراناً سريانياً اسمه يوب Youb ؛ كما نزح إلى الحبشة فى ذلك الدور جماعة من الرهبان الدومينكان.

وقد ذكر محيى الدين بن عبدالظاهر نص الرسالتين اللتين أرسلهما الملك يجبأ صيون (صهيون) ملك الحبشة إلى السلطان المنصور قلاون. من ناحية وإلى يؤانس السابع بطريرك الأقباط فى مصر (١٢٧١ ـ ١٢٩٣) من ناحية أخرى. ففى الرسالة الأولى يذكر ملك الحبشة لسلطان مصر: أنه يحفظ المسلمين فى مملكته، وأن المطران السيريانى الذى اضطروا إلى استحضاره «أتلف البلاد فى زمان والدى». ثم يختتم ملك الحبشة رسالته بالإلحاح فى إرسال مطران من مصر؛ ويتعهد بإرسال العوائد ـ من هدايا وأحوال ـ «التى جرت العادة بها عند طلب المطران». وثمة عبارة لطيفة جاءت فى رسالة ملك الحبشة إلى السلطان قلاون هى «السلام يا منصور. اسمع يا سلطان مصر ـ نصرك الله ـ اعطى البطرك الدستيور يبعث لى أسقفاً؛ فنحن وهم أمتنا واحدة من زمن مرقص وإلى اليوم. والرسم الذى لك والتقدمة أنا أعطيك إن سيرت لى أسقفاً. وإذا سيرته أنا أتقصى منه عن رسمك، ومهما قلت فعلته...».

أما رسالة ملك الحبشة إلى بطريرك الأقباط فى مصر، فهى تكشف لنا الكثير عن العلاقة

دخلو القلعة وتحصنو فيها الى ان ادركهم ملك الانكتار فرحل صلاح الدين عنها وعاد نزل النطرون وذالك فى شهر رجب سنة ثمان وثمانون وخمسماية ولما عاد ملك الانكتار من بيروت الى يافا وخلص البلد ورحل صلاح الدين عنها نزل على يافا وكان الملك العادل ابو بكر قد سار الى بلاد العجم وديار بكر وغيرهم فجمع عساكر وكان الملك المظفر تقى الدين قد فتح مدينة

بين الكنيسة الحبشية والكنيسة القبطية، وعن نظرة الأحباش إلى كنيسة مارمرقس وحرصهم على دوام الارتباط بها وإلحاحهم فى التبعية لها، ورفضهم مطراناً من غير المصريين. ونص هذه الرسالة الخطيرة ـ كما أوردها ابن الظاهر ـ هى: ـ

«أتوسل للبطرك ـ البطرك ٧٨ ـ أبو يحنس (يؤانس السابع) ونسلم عليه بالسلام الذى سلم به على مرقص، وأنذر يانون يكون عليك: اسمع كلامى، واقض حاجتى، وابعث لى مطراناً جيد صالح، يعلمنى كل شى جيد، ويكون ما ضرب داود عليه السلام المثل فى الزبور من شأننا. وقال خلوا رجلا جياداً من قبط مصر يحضرون إلى بلاد الحبشة يعلمونكم العبادة والزهد. وقال فى وصيته: لا تخلى يا بنى خروفك يأكله الذئب. وهؤلاء السريان المطارنة الذين عندنا من غير مصر بغضناهم وما حببناهم. ولأجل محبتنا فى بطركية مصر ما خليناهم عندنا أساقفة وطردناهم. وما كانوا قعدوا عندنا إلا بوالدنا لأنه ما كان عنده أحد من جهتك. والساعة لا تخرب مدينتك، وتسير إلينا مطراناً حتى يشكرك الرب المسيح. واذكر مرقص لاتخلينا بخطيتنا. إن كنت وحدك تقدر تسير إلينا مطراناً فسيره، وإن كنت ما تقدر فبمرسوم مولانا السلطان. وبعد هذا مهما اشتهيت نسيره إليك. ونخلى هؤلاء السريان فى بلادنا، ونخرجهم إذا قلت: اطردوهم. وإن قلت: خليهم، خليناهم. وأنت أنكرت علينا بسببهم، فاغفر

(*) خلاط: شمال غرب بحيرة فان، فأما بكتم فهو سيف الدين بكتمر ملك أرمينيا فى ذلك الوقت.

خلاط(*) واخذها من بكتم ومات واخذها ولده بعده نصير الدين وبقى فيها بعسكر ابوه فلما مضى الملك العادل يجمع عساكر الشرق مضى اليه فاخذ عسكر ابوه وجامع[جمع] الملك العادل هو ومظفر الدين صاحب اربيل ومدينة الموصل وغيرهم من عساكر الشرق خلق كثير لا يحصى عدده. ولم تجى الفرنج فى تلك السنة نجدة ولا رجل واحد وكانو العساكر يريدو المصاف وصلاح

لنا هذا الذنب، حتى لاتبقى علينا خطية. واغفر لكل من عندنا وتكون بركتك علينا فى الحياة والموت...».

وكان أن أرسل السلطان منصور قلاون مطران إليه، وعندئذ طردت الحبشة المطران السريانى ومن معه من الرهبان الدومينكان، وتمت مصادرة جميع ممتلكاتهم. وقد أدى ذلك إلى تحسن العلاقات بين مصر والحبشة، فيذكر أبو المحاسن أن ملك الحبشة أرسل هداياه إلى السلطان الناصر محمد بن قلاون سنة ١٣١٠م (٧١٠هـ) ويؤكد هذه الحقيقة المقريزى فى ترجمته للسلطان الناصر محمد بن قلاون. أما ابن إياس فيذكر أن الهدية التى أرسلها ملك الحبشة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاون سنة ٧١٢هـ (١٣١٢م) بلغت قيمتها مائة ألف دينار أو أكثر، «حتى عدت من النوادر» ولا شك فى أن هذه الإشارات فى مختلف المراجع المعاصرة تدل على حسن العلاقة بين مصر والحبشة طوال عصر الناصر محمد بن قلاون، الذى حكم أكثر من اثنتين وثلاثين سنة. ثم إن هذه العلاقات الطيبة بين الطرفين استمرت حتى قيام سلطنة المماليك البرجية، فقدمت رسل ملك الحبشة إلى مصر فى عهد السلطان الظاهر برقوق سنة ١٣٨٢م (٧٨٤هـ) «ومعهم هدية على أحد وعشرون جملاً، فيها من طرائف بلادهم من جملتها قدور ملئت حمصاً صنع من ذهب، إذا رآه الشخص يظنه حمصاً؛ وغير ذلك». كما ذكر ابن تغرى بردى فى نجومه الزاهرة والمقريزى فى خططه.

الدين يروض الحال معهم ومع الفرنج ولم يزل
يدبر والله يعضده بالتوفيق الى ان تصوب رايه فى
الهدنة والصلح وحقن الدما وصيانة الاموال
والنفوس من التلف للفريقين المسلمين والافرنج
فمال الى الصلح وتقررت الهدنة مع الفرنج اربعون
شهر اولها شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسماية مع
ملك الانكتار وعسكر الساحل، على انه اى من
وصل من ملوك الافرنج من خلف البحر وكان فى

وهكذا استمر رسل الحبشة يفدون على القاهرة، وخاصة عندما كان يخلو منصب المطرانية بالحبشة. وهناك إشارات فى المراجع المعاصرة إلى أن رسل ملوك الحبشة وفدوا على مصر فى سلطنة كل من برسباى وجقمق وقايتباى، وكانوا يحضرون معهم هدايا ضخمة للسلاطين. وفى الوقت نفسه كان سلاطين المماليك يكرمون رسل الحبشة طالما أنه لا يوجد ما يعكر صفو العلاقات الطيبة بين البلدين. وفى الوقت نفسه حرص سلاطين المماليك على أن لا يسمحوا لأولئك الرسل بتجاوز قدرهم فى حضرة السلاطين. من ذلك ما يرويه ابن إياس من وصول قاصد ملك الحبشة إلى السلطان الأشرف قايتباى سنة ١٤٨١م (٨٨٦هـ) «فأوكب له السلطان بالحوش موكباً حافلاً، من غير شاش ولا قماش. فجلس السلطان على الدكة وحوله الأمراء. فلما دخل قاصد ملك الحبشة على السلطان كان بصحبته جماعة من الحبشة ومعهم كراسي يجلسون عليها بحضرة السلطان، فمنعوهم الرءوس النوبة من ذلك. ثم إن السلطان أكرم القاصد وأخلع عليه، وأنزله فى مكان عُد له، ورتب له ما يكفيه فى كل يوم إلى أن عاد إلى بلاده. وحضر صحبته تقدمه (هدية) حافلة للسلطان، فأكرم ذلك القاصد جداً. وسبب حضوره أنه جاء يسأل البطرك بأن يولى شخصاً يكون نائباً عنه ببلادهم».

على أنه ثمة سبب آخر أوجب تردد الأحباش على مصر فى العصور الوسطى، هو اتجاههم لزيارة الأماكن المقدسة فى فلسطين والقيام بالحج وكانوا فى طريقهم من بلادهم إلى القدس

قوة يقدر على فسخ الهدنة كانو عسكر الحال ابريا من العهود والايمان، وعلى ان الذى فتحوه المسلمين بسيوفهم من المدن والقرى والقلاع والحصون يكون لهم والذى هو باق بيد الفرنج لم يفتحوه المسلمين هو باق للافرنج. وذكر من حضر عقد الهدنة ان بيروت وصيد وجباله وجبيل وبلاد وقلاع لم اعرف اسماها فاذكرها يكون بينهم مناصفة فاما البيت المقدس فانه كان بيد المسلمين

يفضلون اجتياز الطريق البرى عبر مصر بحذاء ساحل البحر الاحمر، وذلك خوفاً عن البحر وغائلته. وقد ذكر بعض الكتاب فى أوائل القرن السادس عشر أنه شاهد بنفسه قافلة كبيرة من الحجاج الأحباش تتألف من نحو ثلثمائة حبشى يخترقون الطريق البرى السابق الذكر فى طريقهم الى القدس. وكان المفروض أن يدفع هؤلاء الحجاج ضريبة الخفر، وهى الضريبة التى يدفعها الحجاج المسيحيون أثناء مرورهم في البلاد الإسلامية، مقابل حراسة أرواحهم وأموالهم. وهناك نص على جانب خطير من الأهمية، اكتشف مكتوباً على باب من أبواب كنيسة القيامة في بيت المقدس، ويرجع إلى سنة ٩١٩هـ (١٥١٣م)؛ وهو عبارة عن مرسوم أصدره السلطان الأشرف الغورى بإعفاء الرهبان والراهبات من أى رسم يدفعونه مقابل السماح لهم بزيارة الأماكن المقدسة في القدس. وقد ورد في هذا المرسوم بالأمر الشريف العالى، المولوى، السلطانى، الملكى، الأشرفى، السيفى... أن لا يكرهوا جماعة الرهبان النصارى والرهبانيات، والملكانيين واليعاقبة، بموجب ولا بخفر ولا بظلم، عند دخولهم قمامة القدس الشريف [كنيسة القيامة]، أسوة برهبان الكرج والحبوش... الوارد من الرهبان والرهبانيات المذكورين فى البر والبحر وكل ناحية لزيارة بيت المقدس؛ مستمر حكم ذلك من تقادم السنين، من غير إحداث حادث ولا تجديد مظلمة، ومنع من يتعرض إليهم بسبب ذلك.».

والواقع إن أعداد الحجاج الأحباش الذين دأبوا على المرور بمصر فى طريقهم إلى الأراضى

فى ذالك الوقت فبقى لهم على حاله وقرر صلاح الدين ان يحجو اليه بحيث لا يدخلو معهم سيف ولا شيا من السلاح وشرط لهم امان لا يوخذ منهم مسكن. وجعل صلاح الدين سيف الدين يازكوج والى البيت المقدس وذكر [وضع] معه فيه ثلاثة الف فارس ممن [من] المماليك الاسديه وصام صلاح الدين هو والقاضى الفاضل عبد الرحيم ابن على البينانى شهر رمضان فى البيت المقدس وانفذ

المقدسة كانت كبيرة. وهؤلاء كان يحرص السلاطين دائماً على حمايتهم من أذى العامة وتعرضهم لهم؛ وبخاصة فى عصور اشتهرت بالحروب الصليبية وطفحت بروح العداء الدينى. ونستطيع أن نخرج بصورة واضحة عن أعداد الحجاج الأحباش من ناحية ، وما كانوا يصادفونه فى طريقهم عبر مصر من ناحية ثانية، ثم حرص الحكام على حمايتهم من العامة من ناحية ثالثة... من الوصف الذى أورده المؤرخ إياس فى حوادث سنة ٩٢٢هـ (١٥١٦م) ـ أى زمن السلطان الغورى ـ قال ابن إياس ما نصه:

«وفى يوم الخميس خامس عشرينه، حضر قاصد من عند ملك الحبشة... فلما حضر هذا القاصد عمل له السلطان موكباً بالحوش من غير شاش ولاقماش ـ كما تقدم للأشرف قايتباى . فجلس السلطان على المصطبة الى أنشأها بالحوش، ونصب على رأسه السحابة الزركش، واصطفت الأمراء عن يمينه وعن شماله وكل واحد منهم فى منزلته. ثم طلع القاصد من الصلية، وصحبته الأمير أزدمر المهمندار وجماعة من الرءوس النوب والمماليك السلطانية وغير ذلك . وكان القاصد معه من أعيان أمراء الحبشة نحو خمسة أنفار والبقية لبط [من العامة] وفيهم من هو عريان مكشوف الرأس وعلى رأسه شوشة بشعر، ومنهم من فى أذنه حلق ذهب قدر القرصة وفى أيديهم أساور ذهب. وأما القاصد الكبير... فكان على رأس خوذه مخمل أحمر وفيها صفائح ذهب ومنهم بعض فصوص، وعلى رأس الخوذة درة كبيرة مثمنة، وعليه

الرجال والاجناد وهدم صور عسقلان مستدير وتركها قرية بغير سور وكان الاتفاق على هدمها في عقد الهدنة. وكانو الفرنج والمسلمين بعد الصلح حتى صارو مثل الاخوة وكذالك الملوك مع صلاح الدين وحمل اليهم اموال وهدايا وحملو له هدايا وخيل وطوارق [دروع] وسيوف المانية مدارة في علب خشب وقنطاريات [رماح] مدهونة. فسبحان الله المولف بين القلوب المتباعدة والطباع

شاياه حرير ملون ، وعلى بقية أعيان آمراء الحبشة شايات حرير ملون، وعلى رءوسهم شدود حرير... فكان مجموع ذلك الحبشة الذين حضروا إلى مصر نحو ستمائة إنسان، وأوساطهم مشدودة بحوايص كهيئة الزنانير. وكان معهم لما شقوا من الصليبة طبلين على جمل يضربون عليها. وكان صحبتهم البترك الكبير، وعليه برنس حرير أزرق وخلفه طراز ذهب . واصطفت جميع النصارى الذين في مصر للفرجة عليهم، وكان أعيانهم راكبة على خيول والبقية مشاة. فطلعوا إلى القلعة من سلم المدرج ، والبترك ماش قدامهم.. فلما وصل هذا القاصد إلى باب الحوش قبل الأرض، فلما وصل إلى أوائل البساط قبل الأرض ومن معه من أعيان الحبشة. ولم يدخل قدام السلطان غير سبعة أنفس، والبقية لم يدخلوا. فلما قربوا من السلطان قبلوا الأرض بين يديه ثالث مرة. ثم قدموا كتاب ملك الحبشة، قيل إنه في ضمن غلاف من الفضة، وقيل من الذهب. فلما قرئ على السلطان وجد فيه ألفاظاً حسنة ونعتاً عظيماً للسلطان، وأن قصادنا أتوا إلى مصر ليزوروا (كنيسة) القيامة التي بالقدس، فلا تمنعوهم من ذلك فاستمروا على أقدامهم واقفين نحو خمس درج حتى قرأوا كتابهم، ثم انصرفوا ونزلوا من القلعة. فرسم لهم السلطان بأن يقيموا في ميدان المهارة الذى بالقرب من قناطر السباع إلى أن يسافروا. وأرسل لهم خياماً ضربت لهم من داخل الميدان. ووكل بباب الميدان جماعة من المماليك يمنعون من يدخل إليهم من العوام. فلما نزلوا من القلعة نزل معهم الوالي والمهمندار وجماعة

المتضادة فهو سبحانه خالق الخلايق ومدبرها وباريها ومصورها لا اله الا هو ولا معبود سواه، فاما اسارى المسلمين الذى مع الفرنج واسارى الفرنج الذى مع المسلمين فلم يتقرر فى امرهم شيا(*) بل بقى كل منهم مع صاحبه على حاله يقوم بقطيعة ويتخلص. وبعد الصلح بايام يسيرة ركب ملك الانكتار المراكب فى البحر وعاد الى بلاده بماكسبه وغنمه ومعه جماعة واصحابه واجناده وتوجه

(*) بالرغم من الود والأخوة التى ظهرت بين صلاح الدين وقواد الحملة الصليبية إلا أنه لم يفكر أى منهما فى اطلاق اسراه من الفقراء والمدنيين، ولا وضع شروط لذلك فى معاهدات الود والصداقة التى كانت بينهما.

من الرءوس والنواب، فوصلوهم إلى الميدان خوفاً عليهم من العوام أن يرجموهم ، فكان لهم يوم مشهود...».

وإذا كان جموع الأحباش القاصدة للحج وزيارة الأماكن المقدسة على هذه الدرجة من الكثرة ووفرة العدد؛ فإنه كان لابد للأحباش من مقر فى بيت المقدس يكون بمثابة مركز لهم، ونقطة تجمع يلتفون حولها فى تلك البلاد البعيدة عن أرضهم . وكان ذلك المقر للحجاج الأحباش هو دير فى بيت المقدس نسب إليهم، وله مقدم يعينه ملك الحبشة. وقد دأب ملوك الحبشة على إرسال الأموال والهدايا إلى ذلك الدير، طالبين من رهبانه الدعاء لهم. من ذلك الرسالة التى أرسلها ملك الحبشة يجباصيون (صهيون) على عصر السلطان الناصر محمد بن قلاون إلى رهبان دير الأحباش فى القدس الشريف، ونصها: «السلام عليكم يارهبان الحبوش، الذين صبروا على العبادة والزهد الى هذه الأيام، وصبرتم على الحر والبرد. وقد سيرت لكم ثوب أحمر ديباج ومائة شمعة؛ وثيابى وهو زنارى الذى تلبسه السلاطين حتى تلبسونه وقت القربان: ماهو كل يوم ، إلا من يوم العيد إلى يوم العيد ولا يلبسه إلا القسيس الذى يعمل القربان. فعرفونى بوصول هذا، واكتبوا أسماءهم، واذكرونى فى صلواتكم ، واقبلوا ما سيرته فهو فى سرير سلطانى وزنارى. ولا تنسونى كل يوم..» وعلى الرغم من أن مقدم دير الأحباش

صلاح الدين من البيت المقدس الى دمشق فى شوال سنة ثمان وثمانين وخمسماية بعد ان صام فيه هو وجميع من معه من المسلمين شهر رمضان، ومضى الى دمشق طاهر[ختن] اولاده وكان له يوميذ اولاد كثير ذكور يركبون الخيل خلفة عددهم خمسة عشر ولد وهذه اسمايهم ونعتوهم(*) الملك العزيز عثمان سلطنه على مملكة ديار مصر والبيت المقدس واعمالها واقام ملكا عليها بعد ابوه صلاح

(*) اسماء ونعوت اولاد صلاح الدين الذكور الذين كانوا معه في دمشق.

بالقدس لم تربطة رابطة التبعية، بسلاطين مصر، إلا أنه لابد ـ فى نظرنا ـ وأن هذا الدير كان محوراً لاتصالات ودية بين ملوك الحبشة وحكام مصر فى العصور الوسطى، بحكم سيطرة هؤلاء الحكام السياسية على بيت المقدس طوال شطر كبير من تلك العصور، وخاصة فى عصر سلاطين المماليك

على أنه لا ينبغي بأى حال أن نعتقد في استمرار العلاقات الطيبة بين سلاطين مصر وملوك الحبشة، وخاصة فى عصر الحروب الصليبية عندما تحكم العداء بين المسلمين والمسيحيين، وهو العداء الذى كثيراً ما انعكست صورته واضحة فى العلاقات بين سلطنة المماليك في مصر بوصفها أكبر قوة إسلامية في الشرق الأوسط حتى أواخر القرن الخامس عشر، وبين غيرها من الدولة المسيحية، المجاورة وغير المجاورة. وثمة حقيقة لا نستطيع أن ننكرها، هي أن المسيحين فى مصر تعرضوا في العصور الوسطى لشئ من الإضطهاد، وخاصة فى عصر الحروب الصليبية. وكان سبب هذان الإضطهاد رغبة حكام مصر ـ وبصفة خاصة الفاطمين وسلاطين المماليك ـ فى الظهور بمظهر حماة الدين لتدعيم مركزهم فى نظر المسلمين. وهنا نجد ملوك الحبشة يفتحون أبواب بلادهم للأقباط النازحين من مصر فراراً من الإضطهاد. وقد حدث أن هاجر كثير من القبط من مصر إلى الحبشة فى عصر الخليفة الحاكم

الدين خمسة سنين ونصف، الملك الاعز يعقوب، الملك المويد مسعود، الملك فتح الدين اسحق، الملك الجواد ايوب، الملك الظاهر غازى وسلطنه على حلب واعمالها، الملك الافضل على وسلطنه على دمشق واعمالها، الملك المستمر خضر، الملك الزاهر داوود. وبقية الصغار نورشاه، شاهنشاه، ملك شاه احمد ابو ابكر. وهذه العده ليس من امرآه. واحدة بل عدة نسا. وكان فى يد صلاح الدين من

بأمر الله، ثم في عهد السلطان الكامل الأيوبى عندما حاصر الصليبيون دمياط سنة ١٢١٩ وكذلك سنة ١٢٢٧ عندما أمر الملك الكامل بتدمير مدينة تنيس واغراقها. فرحب بأهلها الفارين ملوك الحبشة وأكرموهم.

على أنه كان من العسير على ملوك الدول المسيحية أن يسكتوا عن ذلك الوضع، فنسمع عن ملوك الحبشة أنهم تدخلوا أكثرمن مرة عند سلاطين مصر وحكامها لتخفيف حدة المتاعب التى كان يعانيها الأقباط بين فينة وأخرى. ولم يحجم ملوك الحبشة عن تهديد سلاطين المماليك بالإنتقام من المسلمين فى بلادهم إذا استمرت الأمور على أوضاعها. من ذلك ما يرويه النويرى فى حوادث سنة ٧٢٦هـ (١٣٢٦م) من أن ملك الحبشة أرسل رسلا إلى السلطان الناصر محمد بن قلاون يطلب منه «إعادة ما خرب من كنائس النصارى، ومعاملتهم بالإكرام والإحترام ، ويهدد بأنه يخرب ما عنده من مساجد المسلمين، ويسد النيل حتى لا يعبر إلى مصر. فسخر السلطان منه ورد رسله!» ويكرر المقريزى خبر وصول رسول ملك الحبشة بعد ذلك سنة ٧٣٧هـ (١٣٣٦م) لنفس السبب السابق.

ويبدو أن عدم استجابة سلاطين مصر لرجاء ملوك الحبشة وسخريتهم منهم ـ كما أشار المقريزى فى النص السابق ـ جعل ملوك الحبشة ينفذون تهديداتهم على نطاق واسع. من ذلك

ممكات الدنيا في حال حيايه[حياته] يوميذ اقليم ديار مصر وجميع اعمالها واليمن الى هنعا [صنعاء] وعدن وزبيد فتحه بيد سيف الاسلام اخوه وفي مدينة النوبة الى مدينة ابريم وبلاد صاحب الجبل، والبيت المقدس والساحل وجميع ما قدمنا ذكره من مدنه وقراه وحصون وقلعة. ومافتحه في بلاد انطاكيه حصن برزيه واللاذقيه وبغراس وغيرهم مما لم نعلم اسمه فنذكره

أن ملك الحبشة جبرة مصقل ـ واسمه الأصلى عمدة صيون (صهيون) ـ الذى امتد حكمه من سنة ١٣١٢ حتى سنة ١٣٤٢م (٧١٢ ـ ٧٤٣هـ) تطرف فى اضطهاد المسلمين الذين حاولون الاستقرار في بلاده.، وشن ضدهم حروباً كثيرة. على أن المسلمين فى الحبشة خاضوا حرباً بأسم الدين ضد ملوك الحبشة. ومن ذلك ما يرويه المقريزى من أنه حدث سنة ٦٩٩هـ (١٢٩٩) أن قام رجل بالحبشة يدعى أبو عبد الله محمد يدعو إلى الاسلام «فاجتمع عليه نحو المائتى ألف رجل وحارب الأمحرى (ملك الحبشة) فى هذه السنة حروباً كثيرة».

وعندما اشتدت وطأة المعارك بين ملك الحبشة والعرب الغزاة لبلاده سعي الفقيه عبد الله الزيلعي رئيس وفد أوفات لدى السلطان الناصر محمد بن قلاون ليتدخل لمساعدة العرب فى الحبشة، فوسط السلطان بطريرك الأرثوذكس بالأسكندرية في ذلك الأمر. ويقال إن بطريرك الإسكندرية أرسل رسالة إلى ملك الحبشة يطلب منه ترك محاربة العرب فى بلاده، ولكن تلك الجهود لم تثمر، فاستمرت الحروب طويلاً بين العرب فى الحبشة وملكها عمد صيون . وقد فسر القلقشندى هذه الوساطة فى ضوء الرغبة فى التخفيف عن عرب الحبشة، فقال إن الفقيه عبد الله الزيلعى انتهز فرصة وصول رسول ملك الحبشة إلى مصر ليسعى لدى السلطان أن يطلب من البطريرك الكتابة إلى ملك الحبشة «بكف أذيته عمن فى بلاده من المسلمين وعن

ومدينة دمشق التى هى شهوة ملك الدنيا المشبهة بالفردوس فى انهارها الحلوة الطيبة واشجارها واثمارها وطيب هواها، ومدينة حلب وقلعتها دار ابراهيم الخليل عليه السلام، جسرة ملوك العرب والعجم واعمالها ورستاقها، ومن خلف نهر الفرات حران ونصيبين وسنجار ومنبيج والرها وامد وميافارقين وغيرهم من قراهم ورستاقهم مما لم نعلمه فنسميه. وكان امره ينفذ فى جميع ممالك

أخذ حريمهم. وبرزت المراسيم السلطانية للبطريرك بكتابة ذلك، فكتب إليه عن نفسه كتاباً بليغاً شافياً، فيه معنى الإنكار لهذه الأفعال، وأنه حرم هذا على من يفعله».

أما سلطنة المماليك فى مصر، فقد قامت باضطهاد المسيحين فى مصر ، وفصل من كان يعمل منهم فى الديوان السلطانى أو يشغل وظيفة رسمية فى الدولة؛ ففر بعضهم إلى بلاد الحبشة، وعلى رأسهم فخر الدولة الكاتب ـ وهو كاتب قبطى ـ فرحب به اسحق ملك الحبشة وأدخله فى خدمته . ولم يلبث فخر الدولة أن قام بتنظيم ديوان لملك الحبشة على نمط الديوان السلطانى بالقاهرة، ووضع قواعد جديدة لجباية الأموال والضرائب. وبفضل هذه النظم التى انتقلت من مصر، صار ملك الحبشة ـ على حد قول المقريزى ـ «ملكاً له سلطان وديوان».

وجدير بالذكر أن الأمر لم يقتصر فى ذلك الدور على فرار بعض الأقباط من مصر إلى الحبشة، بل لجأ بعض أمراء المماليك المسلمين أيضا إلى بلاد الحبشة، ربما لخلافات داخلية بينهم وبين السلطان، وخوفهم على أنفسهم من غائلته. وعلى رأس هؤلاء تذكر المراجع الأمير ألطنبغا حاكم قوص فى عهد السلطان المؤيد شيخ (١٤١٢ ـ ١٤٢١). وقد قام هذا الأمير بتدريب الأحباش على استخدام النار الإغريقية والرمى بالنشاب واللعب بالرمح والضرب بالسيف، بعد أن كان الأحباش لا يعرفون غير استخدام الحراب. كذلك يشير المقريزى إلى أحد

العرب والعجم والروم ولم يملك احد ممن عاصرناه ورايناه مثله. وطاعته امم وملوك، وكان امره ينفذ في بلاد الحبشه والنوبه والبجاه واليمن والحجاز وجميع اعمال القبلة [الجنوب]. وفى الشرق بيت المقدس والساحل ومدنه وقراه ودمشق واعمالها وحلب واعملها ومن خلف نهر الفراة [الفرات] مدن كبار وقراها وقد قدمنا ذكرها. وقد كان تردد الى مدينة الموصل وقاتلها وحاصرها زمان فلم

المماليك الزردكاشية ـ ولم يذكر اسمه ـ فر من مصر فى ذلك الدور، فعهد إليه اسحق ملك الحبشة بعمل «زردخانات (خزائن للسلاح) عظيمة، وكانوا من قديم إنما سلاحهم الحراب يرمون بها.. ويوضح هروب المسلمين إلى الحبشة أن الصراع مع الحبشة كان بين ملوكها وغزاتها من العرب وليس حرباً بين مسلمين واقباط.

وهكذا استفادت الحبشة فى الربع الأول من القرن الخامس عشر من خبرة المصريين وتقدمهم الحضارى ـ وخاصة فى النواحي الحربية والإدارية ـ مما ساعد مملكة الحبشة على التطور والتقدم. ويتردد في المراجع ـ فى ذلك الدور ـ اسم تاجر مسلم، هو نور الدين علي بن محمد بن يوسف التبريزى ـ نزح إلى بلاد الحبشة ، واستقر فيها حيث ازدهرت تجارته وصار موضع ثقة اسحق ملك الحبشة. ويقول أبو المحاسن أن علي التبريزى قام بشراء كل ما احتاج إلى بلاط ملك الحبشة من نفائس مصر، فضلاً عن أنه اشترى لملك الحبشة ما يحتاج إلى جيشه من أسلحة وخيول وفى احدى رحلاته التجاريه عاد التبريزى إلى الحبشة عن طريق مصر، فوشي به أحد رفاقه فقبض عليه ، ولم يقبل منه مال مقابل إطلاق سراحه، وبادر السلطان بتشهيره ثم تسميره.

وهكذا دخلت العلاقات بين مصر والحبشة فى القرن الخامس عشر دوراً عنيفاً، يتصف

يدفعها الله له ولا ظفره بها. كان ديار مصر في جميع ايام دولته من اولها الى اخرها راخية الاسعار كثيرة الخيرات القمح الطيب عشرة ارادب بدينار والشعير عشرين اردب بدينار والفول مثله والعدس والجلبان والبرسيم والترمس جميع ذالك سعر واحد عشرين اردب بدينار واما العسل الدفن المتبن الطيب بدينار القنطار بالمحلى، والقطاره بدينار وقيراطين [و] القنطار بالمحلى والعسل النحل بدينار

بالتحدى والإستثارة من كلان الجانبين ، فأبطل اسحق بن داود ملك الحبشة إرسال الأموال والهدايا المعتادة إلى بطريرك الإسكندرية وسلطان مصر جميعاً. على أن سلاطين المماليك فى مصر عملوا بغباء شديد على قطع الصلة بين الكنيستين المصرية والحبشية، الأمر الذى جعل ملك الحبشة يولى وجهه شطر روما. وقد أدركت كنيسة مار مرقس بالإسكندرية أنه خير للكنيسة الحبشية أن ترتبط بكنيسة روما من أن تضيع وتبقى وحيدة معلقة دون كنيسة أم تشرف عليها وتوجهها مما يعرض مصير العقيدة المسيحية نفسها فى الحبشة للضياع. وهكذا أقر بطريرك الإسكندرية مشروع ربط الكنيسة الحبشية بكنيسة القديس بطرس فى روما، وخرجت من مصر إلى روماسفارتان سنة ١٤٤٠، إحداهما برآسة الراهب أندراوس الأنطوانى والأخرى برئاس بطرس الشماس. وفى نفس الوقت حرص زرء يعقوب ملك الحبشة (١٤٣٤ ـ ١٤٦٨) على تكليف مقدم دير الأحباش بالقدس إرسال بعثة من الرهبان الأحباش للإشتراك فى مجمع فلورنسا الدينى (١٤٣٨ ـ ١٤٣٩). وليس أدل على التقارب بين ملك الحبشة والبابوية فى ذلك الدور من سماح البابا إيو جنيوس الرابع للأحباش بإقامة دير لهم فى روما.

ونستطيع أن نستكشف الكثير عن طبيعة العلاقات بين مصر والحبشة أواسط القرن الخامس عشر من الرسالة التى أرسلها ملك الحبشة زرء يعقوب إلى السلطان الظاهر جقمق (١٤٣٨ ـ

واحـد ونـصف وربع القنطار بالمصـرى. والكشـاطه بنصف دينار القنطار بالمصـرى. والقند الاحـمـر [عسل القصب المجمد] كانت اسعاره مختلفة على حـسب تربه بلد خـلاف بلد والنقى من الوسخ فوقت يباع الطيب بدينار القنطار بالمصرى واذا قل ابتاع بدينار وربع والبياض الذى مثل السكر بدينار ونصف القنطار بالمصرى، والقطر بعشرة الدراهم القنطار بالمصرى المحبوب، الكتان بخمسين درهم

١٤٥٣)، وقد وصلت هذه الرسالة مصر سنة ١٤٤٣م (٨٤٧هـ)، وذكر السخاوى نصها بالكامل، وفيما يلى بعض فقرات منها:

«المحب الصادق زرء يعقوب المكنى قسطنطين، من نسل أرعد، من بنى سليمان بن داود عليه السلام. ملك سلاطين الحبشة، وصاحب النواب بالمملكة النجاشية، إلى الإمام الشريف العالى الأوحدى السلطان الملكى الظاهر جقمق، سلطان المسلمين والإسلام بمصر والشام، سيد الأنام... قصدنا تجديد ما سبق من العهود من الملوك المتقدمين من بلادنا وبلادكم... ليكون ذلك العهد مستمراً بلا انحراف، والإتفاق بيننا وبينكم بلا خلاف... وأنتم حفظكم الله عارفون ما يلزم الراعى من النظر فى حال رعيته،وأن الله يطالبه بذلك. وأبرنا البطريرك وإخوتنا النصارى الذين هم تحت عز سلطانكم ومملكتكم الشريفة نفر قليل جداً، ضعفاء الحال مساكين فى كل الجهات، ولا يمكن أن يكونوا قدر قيراط من المسلمين القاطنين بإقليم واحد من بلادنا. وأنتم حفظكم الله ليس يخفى عليكم ما فى بلادنا الواسعة من المسلمين تحت حكمنا، ونحن لهم ولملوكهم مالكون، ولم نزل نحسن إليهم فى كل وقت وحين... وملوكهم عندنا بالتيجان الذهب راكبون الخيل المسومة.. وليس يخفى عليكم ولا على سلطانكم أن بحر النيل ينجر إليكم من بلادنا، ولنا الإستطاعة على أن نمنع للزيادة التى تروى بلادكم... ولا يمنعنا من ذلك إلا تقوى الله والمشقة على عباد الله. وقد عرضنا على مسامعكم ما ينبغى

القنطار بالليتى الطيب ودونه بتلتين درهم الشمع الكافورى بتلت دراهم الرطل بالمصرى والمشاع الشرب كثير، والقماش والصوف والادم كثير جد والتجار يبيعون ويشترون ويربحون والبركة حالة فى كل شى. وكانة ايام دولته كلها حسنة طيبة واحوال الرعية مستقيمة ولم يصادر احد من رعيته ولا ظلم احد كعادة من تقدمه والطرق امنه والامور صالحة. ومات(*) فى مدينة دمشق يوم الاربعا

(*) وفاة صلاح الدين فى دمشق.

إعلامه، فاعلموا أنتم يلزمكم، وبما يلقى الله فى قلوبكم،ولم يبق لكم عذر تبدونه...(١)».

هذه هى رسالة ملك الحبشة إلى السلطان جقمق سنة ١٤٤٣، ومنها نستطيع أن نخرج بالمعانى الآتية: أولاً حرص ملوك الحبشة على عدم قطع علاقاتهم مع مصر قطعاً تاماً. ثانياً تعمد ملك الحبشة إظهار قوته وقدرته على إلحاق الأذى بالمسلمين فى بلادهم، وأنه إذا كان ممتنعاً عن ذلك، فليس خوفاً من سلطان مصر، وانما رغبة فى الاحتفاظ بحسن العلاقات معه . ثالثاً جمع ملك الحبشة فى ر سالته بين أسلوب التهديد وأسلوب الترغيب، فلوح بقدرته على تحويل جرى نهر النيل، وذكر أن السلطان لم يبق له عذر بعد ذلك، فإذا لم يحسن معاملة المسيحيين فى بلاده فعليه أن يتحمل النتائج... وفى الوقت نفسه أرفق ملك الحبشة برسالته السابقة هدية للسلطان جقمق عبارة عن سبعين جارية وطشت وابريق من ذهب وسيف مسقط من ذهب وحياصه وبناد ومهماز، وربما كانت هذه الهدية فى حد ذاتها عاملاً مخففاً من عنف بعض عبارات الرسالة، فاكتفى السلطان جقمق برفض طلبات ملك الحبشة، وإن كان قد رد على هديته بهدية طيبة، فيها سرجان من ذهب وشقق مذهبة، وطائر مجوف مصنوع من

(١) السخاوى: التبر المسبوك فى ذيل السلوك ص ٦٧ ـ ٧١.

السادس والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمس ماية للهجرة [١١٩٣م] فى قلعة دمشق ودفن في المدرسة التى بناها فيها وكان عدد عسكره يوم وفاته عشرة الف فارس، منه طواشه اربعة الف، ومنه قرا غلاميه ستة الف، وكان قد كمل له من العمر سبعون سنه وملك مصر وعزها مما قدمنا ذكره اربعه وعشرين سنه وتسعة اشهر ونصف لانه ملك بعد وفات اسد الدين شيركوه

البللور، وقطع من الجوخ والصوف الملون، وكمية من الزيت الطيب... وحمل رسالة جقمق وهديته مبعوث خاص إلى ملك الحبشة هو يحى بن أحمد[1].

ويبدو أن ملك الحبشة استاء من رد جقمق، فحجز رسوله عنده، وأمر بقتل سلطان عدل الإسلامية ـ وهو شهاب الدين أحمدفى حضرة رسول السلطان، ولما بلغ السلطان جقمق ذلك، استحضر بطريرك الأقباط فضربه وهدده بالقتل، فأسرع البطريرك إلى كتابة رسالة إلى ملك الحبشة يحكى ما حل به من هوان، ويطلب منه الإفراج فوراً عن رسول السلطان. فاستجاب ملك الحبشة أخيراً لذلك .

ومن الواضح أن دولة المماليك كانت في ذلك الوقت ـ قرب منتصف القرن الخامس عشر للميلاد ـ تعانى كثيراً من المتاعب التى تعانيها كل دولة فى خريف عمرها؛ فانتاب الخلل جهاز الحكم، وكثرت ثورات المماليك الجلبان، واضطربت أطراف الدولة بالحركات الانفصالية، وازداد خطر الإمارات التركمانية على حدودها الشمالية... كل ذلك فى الوقت الذى ما فتئت القوى الأوربية المسيحية تفكر فى الثأر لنفسها. لذلك وقف السلطان جقمق موقفاً سلبياً من ملك الحبشة، وخاصة لأن موقع الحبشة الجغرافى كان يجعل الخطى بعيداً عن متناول يد السلطان. وإذا كان المسلمون بالحبشة لم يكفوا عن طلب النجدة من سلطان المماليك فى

(١) المرجع السابق، ص ٧١.

في جمادى الاول سنة اربع وستين وخمسماية
هلالية وخراجية [١١٦٨ / ١١٦٩م] ومات
بدمشق في التاريخ المذكور وذكر بعض اهل العلم
انه ملك ديار مصر يوم الاربعآ ومات بدمشق يوم
الاربع ومن حسن سيرته وفضل دولته ان بعد موته
لم تركض فرس لا بالشام ولا بمصر ولا [......]
ولم تختلف اولاده ولا ذريته ولا طلب منهم احد
الملك لنفسه ولا خالف اولاده أحد من اصحابه بل

مصر، فإن الظاهر جقمق اكتفى بأن أرسل رسولاً ـ هو مثقال الحبشي ـ إلى سلطان عدل ينصحه بمصانعة ملك الحبشة والبعد عن التطرف في سياسته معه، حرصاً على سلامة مملكته.

وهكذا دأب سلاطين المماليك في مصر في أواخر أيام دولتهم على غض النظر عما كان يأتيه ملوك الحبشة من أعمال استفزازية. من ذلك أنه حدث سنة ١٤٤٩م (٨٥٣هـ) أن حضر إلى مصر قاضي سواكن وأخبر السلطان جقمق أن زرء بن يعقوب أعد أسطولاً ضخماً من مائتي سفينة لغزو الحرمين والسيطرة على شواطئ الحجاز، فضلاً عن تصميم ذلك الملك على قطع ماء النيل عن مصر. ومع ذلك استمر سلاطين المماليك في ذلك الدور يحسنون استقبال سفراء ملوك الحبشة وحجاجهم،وهي السفارات التي تكرر وصولها، و التي أشرنا إلى بعضها في عهد السلطان الأشرف قايتباي والسلطان قانصوه الغوري.

على أن الفتح العثماني لمصر، وسقوط دولة البرين والبحرين ـ وهي دولة المماليك التي ملكت بر مصر وبر الشام وأطلت على البحرين المتوسط والأحمر ـ في قبضة السلطان سليم العثماني سنة ١٥١٧؛ جاء إيذاناً بمرحلة جديدة في التاريخ. ولعدة قرون تالية، لم تعد لمصر سياسة خارجية مستقلة، تتصرف بوحيها تجاه الحبشة أو غير الحبشة من القوى الخارجية، وانما كان عليها أن تسير في فلك السياسة العامة للدولة العثمانية.

اتفقوا جميعهم على الذى ملكوه من اولاده: الملك العزيز مصر والبيت المقدس، والملك الظاهر حلب، والملك الافضل دمشق الى [أن] دبر اخوه الملك العادل ابو بكر ما دبر اخذ الملك بمصر ودمشق منهم وسنشرحه فيما بعد وهذا ما انتها الينا علمه والسلام.

نقود الملك العادل

وبعد تقدم ما شرحناه من ايام بطركية هذا الاب السعيد القديس الطاهر انبا مرقس وما قاساه من

الأمير برقوق اليلبغاوى
ونهاية دولة المماليك الأولى

جلب برقوق الى القاهرة سنة ١٣٦٣م ـ دخول برقوق فرقة اليلبغاوية ـ اشتراك برقوق في ثورة اليلبغاوية على السلطان شعبان ونفيه الى الكرك سنة ١٣٦٨م ـ عودته الى العمل بالقاهرة سنة ١٣٧٣م في خدمة أمير على وأمير حاجى ابنى السلطان شعبان ـ قتل السلطان شعبان سنة ١٣٧٦م وتولية ابنه أميراً على السلطنة ـ الصراع بين اليلبغاوية على الوظائف الهامة ـ تعيين برقوق فى منصب الامرة المملوكية في خدمة الأمير اينبك البدرى اليلبغاوى ـ استغلال برقوق للشحناء بين زعماء اليلبغاويه ـ تولية البدرى الاتابكية سنة ١٣٧٧م ـ ترقية برقوق الى أمير طبلخاناة ـ طمع اينبك في السلطنة سنة ١٣٧٧م وفشله ازاء معارضة الخليفة ـ تحريض برقوق المماليك الترك على اينبك البدرى ـ المنافسة الخافية بين برقوق واينبك البدرى والتخلص منه ـ الاتفاق بين اليلبغاوية بزعامة برقوق على الانفراد بشئون الدولة ـ تعين برقوق في منصب أمير سلاح ـ استبداد برقوق وبركة بالأمور دون يلبغا الناصرى ـ وصول برقوق الى منصب الاتابكية سنة ١٣٧٧م ـ سعيه الى تعيين أقاربه فى وظائف الدولة ـ التنافس بين برقوق وبركة واشتداد النزاع بين الترك والجركس ـ مؤامرة فى صفوف الجراكسة سنة ١٣٧٩م لهدم نفوذ الجراكسة ـ اثارة برقوق للعامة على بركة ـ انتصار الجراكسة بزعامة برقوق وسجن بركة

المصاعب وشاهده من الشدايد فى بداية مملكة صلاح الدين من خروج امره بان تنزع الصلبان الخشب الذى كانو على كل قبه عالية فى كل كنيسة من جميع الكنايس التى بارض بديار مصر [وكل من] راى كنيسة كان ظاهرها مبيض تليس بالطين الاسود من فوق البياض، وان لا يدق ناقوس فى جميع ديار مصر ولا يدور النصارى بالزيتونة فى مدينة ولا قرية كالعادة الاولى وان

ـ ثورة العرب ضد الجراكسة ـ اقتناء برقوق لأعداد جديدة من الجراكسة ـ وفاة السلطان على بن شعبان أواخر سنة ١٣٨١م ـ تولية حاجى بن شعبان بموافقة برقوق سنة ١٣٨١م ـ اتجاه برقوق نحو العامة ـ تولية برقوق السلطنة سنة ١٣٨٢م.

* * *

ظلت فكرة القضاء على بيت قلاون واغتصاب السلطنة عالقة بأذهان اليلبغاوية الذين عادوا إلى القاهرة، غير أن الذى يثير الدهشة حقا أن يفكر فى هذا الأمر مملوك من أجناد اليلبغاوية العائدين من الكرك وهو برقوق بن أنس الجركسى.

وأصل هذ المملوك من قبيلة «كسا» الجركسية [(١)]، ولد حوالى سنة ٧٤١هـ (١٣٤٠م) [(٢)] وحين بلغ العشرين من عمره بيع فى أحد أسواق الرقيق ببلاد القرم إلى عثمان مسافر أحد مشاهير تجار الرقيق الخوارزمية [(٣)]، ومن هناك جلبه إلى القاهرة سنة ٧٦٤هـ (١٣٦٣م)[(٣)] وباعه إلى الأمير الكبير يلبغا العمرى الناصرى الخاصكى وهو وقتذاك أتابك

(١) أبن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ١١ ص ١٨٢، ٢٢٣.
(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٤٠٦.
(٢) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٥٦ ب.

(3) Huart : Hist. Des Arabes T11p. 59.

يغيرو النصاره زيهم ليعرفو من المسلمين بان يشدو
زنانيرهم في اوساطهم ولا يتردون [يسيروا] بعرضي
ولا طيلسان ويرفعون عدب عمايمهم ولا يركبون
الخيل ولا البغال بل يركبون الحمير ولا يتظاهرون
بشرب الخمر وان يخفضو اصواتهم في صلواتهم.
وطمع او باش المسلمين فيهم في ذالك الوقت
واهانوهم ورتبو علي بعض الكنايس في المدن
والقرى فهدموها ونال القوم من ذالك مشقة

السلطان محمد بن حاجي. ومر برقوق فيما مر به غيره من مماليك يلبغا الأجلاب من خطوات الإعداد في مناظر الكبش، التي جعلها يلبغا العمرى تنافس قلعة الجبل في مظاهر القوة والسيادة، وعمل بها على إضعاف المركز السياسى لأسرة قلاون تمهيداً لتحويل العرش عنه[1].

ونظراً لما لمسه الأمير يلبغا العمر الخاصكي في مملوكه برقوق من الذكاء الخارق لم تزد المدة السابقة على عتقه على أربع سنوات، وأصبح برقوق من جملة مماليكه الكتابية المقربين إليه[2] واقترن اسم برقوق بالعثماني نسبة إلى التاجر الذى جلبه؛ ومع هذا دأب يلبغا على تلقيبه بالشيخ لما أظهره من السبق في ميدان الفقة وسائر العلوم الدينية. وسرعان ما جعل له مكانة مرموقة لما امتاز به من جمال الخلقة[3] والتفوق في فنون الحرب والفروسية[4].

(١) راجع ابن الطولوني: النزهة السنية ص ٢٢١.
(٢) العسقلاني: إنباء الغمر جـ١ ص ٤٧٥.

Iorga : Notes & Extraits T11p. 532.

(٣) الإسحاق: لطايف أخبار الدول ص ١٤٠. ينفى ابن تغرى بردى ماذكرته بعض المراجع أن اسم برقوق كان الطنبغا وأن يلبغا العمرى سماه برقوقا لنتوء فى عينيه ويؤيد رأيه بأن أقاربه واخوته حين حضروا نادوه «برقوق» راجع النجوم جـ١١ ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥، المنهل جـ١ ورقة ٣١٦ أ، ب، انظر السيوطى كتاب تاريخ الخلفاء ثم ملوك مصر إلى الأشرف قايتباى ص ٩.
(٤) العينى: السيف المهند ص ٣٩.

عظيمة حتى خرج جماعة من كتاب المصريين والقاهريين من اديانهم وجحدو مسيحهم. ولم تزل الامور تتوطا بصلات هذا القديس مرقس البطرك وهو يجاهد على شعبه ورعيته الى ان اصلح الله لهم قلب سلطانهم ببركة صلواته فقربهم وادناهم واستخدمهم في ديوانه في اموال دولته وانعم عليهم فعادو الى ارفع مما كانو عليه وركبو الخيل والبغال ولبسو الخفاف والثياب المفرحة وسارو معه

وأخلص برقوق لسيده أشد الإخلاص حتى ثار معه على السلطان شعبان بن حسن سنة ٧٦٨هـ ـ سنة ١٣٦٦م [١]. ورغم فشل ثورة يلبغا العمرى وقتله فإن ثورات اليلبغاوية تكررت بعده واشترك برقوق مع الفريق الثائر من اليلبغاوية. وحين ازداد خطر هؤلاء الثوار من اليلبغاوية أشار المماليك الترك السلطانية على السلطان شعبان «بحسم دائهم» ونفى العناصر الثورية منهم، فنفى السلطان شعبان برقوقاً مع عدد منهم إلى الكرك [٢] سنة ٧٦٩هـ ـ ١٣٦٨م، غير أن اليلبغاوية الذين انضموا إلى السلطان وبقوا بالقاهرة أمثال الأمير منكلى بغا، والأمير طشتمر الدوادار ما زالوا يسعون لدى السلطان للإفراج عن زملائهم حتى كللت مساعيهم بالنجاح، فأفرج السلطان شعبان عنهم فى سنة ٧٧٣هـ ـ سنة ١٣٧١م ولكنه لم يسمح لهم بالعودة للقاهرة فخرج برقوق مع مملوك تركى من اليلبغاوية هو بركة الجوبانى ليعملا فى خدمة الأمير منجك اليوسفى نائب دمشق [٣]. بيد أن إقامة برقوق عند منجك اليوسفى لم تشبع طموحه إلى السلطنة بعد أن أصبحت ميداناً لتنافس الأمراء. وبدأ برقوق يتلمس الأحوال التى تمهد لعودته إلى القاهرة ولاسيما بعد أن تقابل مع أحد الرهبان السوريان

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢٢٣.
(٢) ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٦١ ـ ٤٦٢، راجع بداية حياة برقوق فى العسقلانى: تاريخ المائة التاسعة ورقة ٣.
(٣) المقريزى: المقفى الكبير جـ١ ورقة ١٨.

في الغزوات كتاب ديوانه وكتاب اهله واقاربه وكتاب اجناده وتعلق كل نصراني بكتاب امير من امرآ دولته ومن اهله واقاربه وحفظ كل منهم حرمة كاتبه فصار لكلمتهم جمال ومال وجاه ونفاذ كلمة وعز، ونقل الله بصبرهم وصلوات بطركهم ورجوعهم الى الله وطاعتهم لريسهم ذلهم الى عز واهانتهم الى كرامة وبغضهم الى محبة وضعفهم الى قوه واكثرو من الصدقات ولازمو الصلوات

وتنبأ له بأن خيرات كثيرة تنتظر الجراكسة [1]، وأنهم سيحكمون سورية. وتذكر الوثائق أن هذه الكلمات أثرت تأثيراً بالغاً في نفس برقوق، مما يبين أن طمع برقوق في عرش مصر بدأ منذ أن كان مملوكاً عادياً. والخلاصة أنه ما كاد اليلبغاوية الموجودون بالقاهرة يظهرون للسلطان شعبان خطورة اعتماده على مماليكه دون وجود منافس لهم حتى استدعى اليلبغاوية من سورية، فعاد برقوق وزميله بركة في سنة ٧٧٥هـ (سنة ١٣٧٣م) مع عدد كبير من اليلبغاوية الجراكسة والترك إلى القاهرة [2]، وقاد الحظ الأمير برقوق وزميله إلى العمل في القصر السلطاني في خدمة ولدى السلطان أمير علي وأمير حاجي وشغل كل منهما منصب أمير عشرة [3].

على أن الأمير برقوق لم يكن مملوكاً عادياً ولكنه امتاز حقاً عن أمراء المماليك بذكاء فائق ودهاء خارق، وعندئذ بدأ برقوق يستخدم ذكاءه ودهاءه في التدبير على السلطنة المملوكية الأولى، ورسم خطة محكمة لهذا الأمر [4]. ولم لا؟ فالسلاطين يقضون أوقاتهم في اللهو والصيد وينصرفون عن شئون الحكم إلى ملذاتهم وأهوائهم.

(1) Iorga : op cit, p. 532.

(٢) ابن قاضي شهبة: ذيل تاريخ الإسلام مجلة ٣ ورقة ١٤٦.
(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار جـ١ ص ٢٤١.
(٤) الجبرتي: عجايب الآثار في التراجم والأخبار جـ١ ص ١١٣ وما بعدها.

وتشبهو ببعضهم بعض فى المسارعه الى فعل الخيرات فنمت ارزاقهم وصحت اجسامهم وكثرة بنوهم وبناتهم وخزاينهم من خيراتهم وصلحت امورهم وطابت قلوبهم وانشرحت صدورهم وعلت كلمتهم عند سلطانهم فتنجزو التواقيع منه والكتب عنه الى ولات الاعمال بمرمة بيعهم وما تشعث من كنايسهم وفتحها لاقامت صلواتهم والدعا لله بسلامة سلطانهم فرمو ما كان وهى

واشتملت خطة برقوق على ناحيتين هامتين: أولاهما، أن يعمل ـ وهو أمير عشرة ـ من وراء ستار على القضاء على كبار الأمراء حتى تتاح له الفرصة للترقى واحتلال منصب يمكنه من الهيمنة على الجيش، فإذا نجح استطاع أن يزيد أعداد الجراكسة فى الدوائر المملوكية، وثانيهما أنه رغم ما عرف عن الجراكسة من تعصبهم لعنصرهم فإنه أصبح من ألزم الأمور أن يخفى الأمير برقوق اتجاهه العنصرى وقتذاك، وأن يوطد عزمه على الاستفادة من النعرة الحزبية فى إثارة المماليك اليلبغاوية جميعها بما فيهم من ترك وجركس على المماليك السلطانية أنصار بيت قلاون، حتى إذا نجح فى إضعاف شأن المماليك السلطانية استعان بالمماليك الجراكسة فى داخل فرقة اليلبغاوية وخارجها للقضاء على المماليك الترك فى فرقة اليلبغاوية نفسها.

بدأ برقوق عمله بمراقبة مؤامرات كبار الأمراء اليلبغاوية ضد السلطان شعبان. وتذكر المصادر المعاصرة أنه رغم ضآلة وظيفة برقوق فإنه شجع هذه المؤامرات بل أخذ ينسج خيوطها حتى إذا ما قارب موسم الحج سنة ٧٧٨هـ (١٣٧٦م) دفع برقوق صهره الأمير طشتمر العلائى الدوادار ـ وهو أكبرالأمراء اليلبغاوية آنئذ ـ دفعة إلى أن يأتمر بالسلطان شعبان لتكون له السلطنة، رتب برقوق لصهره الخطة وخلاصتها أن يخرج طشتمر للحج شكراً لله الذى

[ضعف ووهن] وبنو ما كان هدم ورمو ما كان تشعت وعادت الامور الى اوفا ما كانة من السلامة ورخص الاسعار وطيب الثمار وجرى النيل ونزول الامطار. وتنيح هذا القديس انبا مرقس وقد رضى الله عن شعبه بصلواته وهم محفوظين ولم يهلك منهم الا ابن الهلاك، لا زلنا يا اخوة نحن واياكم بصلواته محفوظين وبعين السلامه والكفاية من الله ملحوظين بصلوات القديس امين.

شفاه من الطاعون (١) وبعيداً عن القاهرة يمكنه أن ينفذ خطته. ثم تعدلت الخطة فجأة حين قرر السلطان شعبان أن يحج مع الأمير طشتمر الدوادار، وذلك بسبب اعتماد السلطان شعبان اعتماداً كبيراً على إخلاص طشتمر، وخشيته أن ينتهز اليلبغاوية الموجودون بالقاهرة فرصة غياب كبيرهم فيثورون عليه، ومن ثم كان قرار السلطان شعبان بالخروج للحج مع الأمير طشتمر الدوادار والخليفة المتوكل. وصحب السلطان معه عدداً كبيراً من أمرائه ومماليكه الأشرفية وبعض كبار الأمراء اليلبغاوية الذين اعتقد في إخلاصهم له، ومنهم الأمير يلبغا الناصرى الصغير. (٢)

وحسب السلطان أن وجود هؤلاء اليلبغاوية معه سيدرأ عنه شر المؤامرات بيد أن هؤلاء اليلبغاوية الذين سافروا مع السلطان تواعدوا على إثارة الفتنة ضد السلطان شعبان في العقبة في الوقت الذى يثور فيه أصحابهم من اليلبغاوية الذى بقوا بالقاهرة ويعلنون موت السلطان شعبان وسلطنة ابنه الطفل. وصارت مهمة الأمير طشتمر الدوادار إشعال نار الثورة بالعقبة

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢٢٣، انظر كذلك.
Muir: the Mamluk Dynasty p. p. 101 ` 201.

(٢) أصله من مماليك الأمير يلبغا العمرى الناصرى الكبير فنسب إليه وقد أصبح مقدما فى دولة الصالح حاجى ـ راجع العسقلانى الدرر الكامنة جـ٤ ص ٤٤٠.

الاب القديس انبا يوانس [يوحنا] البطرك الثانى
من الدور الثانى من عدد الابآ
البطاركه الرابع والسبعون
[١١٨٩ / ١٢١٦م]

ولما تنيح الاب انبا مرقس ابن زرعه البطريرك رزقنا الله بركة صلواته فى اليوم السادس من طوبه سنة تسع ماية وخمسة للشهدا الموافقة لسنة خمس وثمانين وخمسماية للهجرة اتفق الشعب

بتحريض المماليك السلطانية على مطالبة سلطانهم بمستحقاتهم فى وقت لم يكن يملك فى يده شيئا [١]. ونجحت الخطة حين ضيق المماليك الأشرفية على سلطانهم الخناق وحاولوا قتله، حتى إنه لم يجد من يستنجد به سوى طشتمر ليحاول إقناعهم بالعدول عن الثورة. ولكن طشتمر تخلى عن السلطان شعبان [٢] الذى أسرع وهرب تحت جنح الظلام إلى القاهرة.ومن العجيب أن المماليك الأشرفية لم يفطنوا إلى أهداف مدبرى هذه المؤامرة. وحين وجدوا أنفسهم بدون سلطان حاولوا علاج الموقف بسلطنة الخليفة المتوكل، ولكن الخليفة رفض موافقتهم [٣]؛ فأسقط فى أيديهم وقرروا العودة إلى القاهرة.

وعلى حين جرت الحوادث على هذا النحو فى العقبة نفذ باقى اليلبغاوية فى القاهرة ما تواعدوا عليه مع إخوانهم فثاروا بزعامة بعض أمرائهم الترك وهم طشتمر اللفاف وقرطاى الطازى واينبك البدرى وقطلقتمر العلانى. وادعوا أن السلطان شعبان مات وأنهم يريدون سلطنة أبنه. ولعب برقوق دورا هاما فى ترتيب ثورة القاهرة [٤] التى تمكن فيها الثوار من كسر

(١) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان: ورقة ١ب.
(٢) ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ٢ ورقة ١٧٠.
(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٧٩.
(٤) راجع ابن تغرى بردى: المنهل الصافى جـ١ ورقة ٣١٦.

الارتدكسي المسيحي والشيوخ الاراخنة بمدينة مصر والقاهرة ومن حضر من الابا الاساقفة على قسمة الاب العالم البتول الفاضل الطاهر القديس الدين المسيحي انبا يوحنا [يوانس] وكان اسمه قبل تقدمته ابو المجد ابن ابو غالب ابن سورس فاخذوه قهر في يوم الاحد الحادى عشر من امشير سنة تسع ماية وخمسة للشهد وهي الموافقة لسنة خمس وثمانين وخمس ماية للهجرة وهي السنة

شباك الزمام المطل على باب الساعات بالقلعة ونهبوا بيته وأنزلوا أمير على الذى لم يجاوز الثامنة من عمره إلى الاصطبل السلطاني وسلطنوه ولقبوه المنصور وذلك في ٨ من ذى القعدة سنة ٧٧٨هـ سنة ١٣٧٦ (١).

وسمع ثوار القاهرة بنجاح ثورة العقبة، ولكنهم فوجئوا بفرار السلطان شعبان إلى القاهرة ووجدوا أنفسهم أمام مشكلتين : أولهما مواجهة المماليك السلطانية العائدين من العقبة ليكشفوا حقيقة المؤامرة في الوقت الذى يبقى فيه سلطانهم مختفياً بالقاهرة ، وثانيهما أن عودة طشتمر الدوادار وغيره من اليلبغارية قد يحدث انقساماً في صفوف ثوار القاهرة بسبب الاختلاف على من سيكون بيده الحل والعقد.

أما مشكلة المماليك السلطانية فإنها انتهت حين كشفت امرأة عن مكان السلطان شعبان وقبض عليه وهو لابس زى النساء، ثم أحضر إلى القلعة بعد أن ألبس عدة الحرب وعذب ليظهر أمواله ثم خنق (٢)، وقضى اليلبغاوية بذلك على آمال مماليكه الأشرفية العائدين من العقبة. وسرعان ما سلموا بما جرى من التغيرات بعد أول هزيمة لهم أمام اليلبغاوية في ذى

(١) ابن تغرى بردى: مورد اللطافة ص ٨٩.
(٢) العينى: عقد الجمان جـ ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٠٦ ـ ٢٠٧ ـ راجع كذلك السيوطى تاريخ الأشراف قايتباى ورقة ٢٥ب.

التى تنيح فيها انبا مرقس البطرك بعد نياحته بشهر واحد وخمسة ايام وقسموه بطركا وكان المساعد لهم فى تقدمته عند السلطان القاضيان المرضى والرضى اخاه ابنا الجباب [الجابى] وكان هذا الاب كما قلنا بتولا عالما لما قد قرى من [الكتب] العتيقة والحديثة، كاملا فى جسده وقامته، باشوش الوجه حسن الخلق لين الكلام طيب المحاضرة ملازم اوقات الصلوات كثير الصدقات ذو مال وايسار

الحجة سنة ٧٧٨هـ (سنة ١٣٧٦م) . وتبع هذا حرمان بعضهم من إقطاعاتهم التى انتقلت إلى اليلبغاوية. وما لبث أن تدعم مركز اليلبغاوية حين حضر الخليفة والقضاة من العقبة وأقروا شرعية إجرائهم وجددوا البيعة للسلطان على.

ويمكن القول إن الأمير برقوق نجح فى تهيئة الفرصة لليلبغاوية للسيطرة على أمور الدولة منذ نهاية هذا العام حتى أصبح اليلبغاوية سادة الجيشي المملوكى [١]. ثم إن هذه الحادثة مكنتهم من السيطرة على الوظائف الكبيرة فى الدولة فصار طشتمر اللفاف قائد ثورة القاهرة أتابك العساكر بمصر وتولى اينبك البدرى أمير آخور كبير وقرطاى الطازى رأس نوبة.

وأما طشتمر الدوادار الذى حرض على ثورة العقبة فإن كبار الأمراء اليلبغاوية اتفقوا على إبعاده خشية تجدد إثارته للمماليك الأشرفية، فعينوه بنيابة دمشق وأمروه بالسفر فوراً إلى مقر نيابته [٢]، وانتقل برقوق بعد هذه الحركة مع جماعة من الجراكسة إلى العمل فى خدمة اينبك البدرى [٣].

(١) أنظر ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٦٢.
(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٨٠.
(٣) السخاوى: الضوء اللامع جـ٣ ص ١١.

من صباه صار ذالك اليه من ابوه واجداده وكان له دار وكالة بمدينة مصر يتجر فيها ويبيع ويشترى اصناف البضايع وله سكرية لعمل السكر وطواحين واملاك وكان كاملا فى دينه ودنياه وغير محتاج الى شى من امور الدنيا يصدق صدقات كثير، ومع اشتغاله بامور الدنيا ما كان يغفل عن صلوات السواعى الليلية والنهارية محبا ومجتهد فى ضيافة الغربا وافتقاد المرضى والمحبوسين ويدفع

والنتيجة الطبيعية لسيادة فرقة اليلبغاوية على المماليك السلطانية (الأشرفية) هى بداية التطاحن بين الأمراء اليلبغاوية الترك فيها على الزعامة. أما برقوق فإنه استغل الشحناء بينهم ورسم لهؤلاء الزعماء الخطة ليباغت الواحد منهم الآخر. وتفصيل هذا أنه ما إن تولى قرطاى الطازى منصب الأتابكية خلفاً لطشتمر اللفاف الذى مات سنة ٧٧٩هـ (سنة ١٣٧٧م) حتى صاهر الأمير أينبك البدرى أمير آخور الأتابك قرطاى الطازى ولكن هذه المصاهرة اتخذها أينبك البدرى وسيلة للغدر بصهره وقتله وتولى وظيفته [١]. وبدأ الأمير أينبك البدرى مؤامرته بالقبض على عدد كبير من أتباع صهره وسجنهم بالإسكندرية فى المحرم سنة ٧٧٩هـ (سنة ١٣٧٧م) [٢]. ثم أنزل السلطان إلى الاصطبل، وأعد الأمراء والمماليك لقتال قرطاى وأتباعه. غير أن قرطاى سرعان ما اكتشف الأمر وهرب إلى سرياقوس، ومن هناك أرسل يطلب نيابة حلب فأجيب إلى طلبه، حتى إذا اطمأن إلى أينبك وحضر إليه قبض عليه أينبك ونفاه مع عدد من أتباعه إلى غزة [٣].

وتشير المصادر المعاصرة إلى أن برقوقا دبر هذه المؤامرة كذلك ومكن أينبك من الوصول إلى الأتابكية [٤]، فانتقل أينبك بمماليكه إلى مدرسة السلطان حسن والسلطان شعبان، ثم

(١) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٢٢.
(٢) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٣٠٧.
(٣) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٢٣.
(٤) راجع ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٦٦.

الجوالى عن الفقر من اهله والمحتاجين من قومه وكان كثير المودة لكل احد ويفعل الخير مع كل احد حتى ظهر امره واشتهر ذكره، فلما تنيح انبا مرقس ابن زرعه البطرك الذى كان قبله لم يحتاجو الاراخنة ان يطلعو دير ابو مقار ولا غيره من الديارات كما جرت العادة يطلبو ويحثو عنمن يصلح لهذه الرياسة المسيحية والمملكة العلوية والخدمة الروحانية والدرجة الفاضلة السليحية لما

أخذ الأمير أينبك يعد العدة للقضاء على سلطنة بيت قلاون وإعلان نفسه سلطاناً، فأخذ يرقى أبناءه ومماليكه [١]. وحظى برقوق بالترقى من إمرة عشرة إلى إمرة طبلخاناه دفعة واحدة [٢]. ومع هذا بدت خطوة إعلان أينبك سلطاناً ظاهرة خطيرة لدرجة أنه لم يجسر على القيام بها دفعة واحدة بل اتخذ جسراً يعبر به إلى هذا المنصب الجديد، فأعلن رغبته فى سلطنة ابن زوجته الأمير أحمد بن يلبغا العمرى الكبير، إذ فضلاً عن أنه ابن أستاذه ويرضى عنه سائر اليلبغاوية فإنه يسهل عليه خلعه متى أراد لضعف شخصيته. غير أن الخليفة المتوكل على الله رفض موافقته على هذه الخطوة الجريئة لأن أحمد بن يلبغا العمرى «ليس من بيت السلطان»[٣]، فلم يسع أينبك سوى عزل الخليفة المتوكل ونفيه إلى قوص وتقرير زكريا بن الواثق فى الخلافة مكانه [٤] فى ٤ من ربيع الأول سنة ٧٧٩هـ.

وحسب الأمير أينبك البدرى أنه يمكن إعلان نفسه سلطاناً بالاستعانة بالخليفة الجديد

(١) ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ١ ورقة ١٧٣أ.
(٢) ابن تغرى بردى: المنهل الصافى جـ١ ورقة ٣١٦ ب : يلاحظ أن الترقى إلى أعلى المناصب دون النظر إلى الاعتبارات المملوكية المعروفة فى التراتب الوظيفى المملوكى أصبح بيد كبار الأمراء إرضاء لأتباعهم من أهل الثقة ليكونوا عوناً لهم على تحقيق مآربهم.
(٣) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٣٠٩.
(٤) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام ورقة ٢٤٥ (مصورة).

صح عندهم وعلموه وتحققوه مما قدمنا ذكره من صفاته لم يحتاجو الى شهادة ولا التمسو على ما وصفناه زيادة فقدموه بتشديد الله لهم والهام روح القدس الذى اختاره ورضيه لرعاية قطيعه كما قال الرب لبطرس ان كنت تحبنى فارع خرافى، وكذلك لما علم السيد المسيح ان هذا الاب يحبه سلم له خرافه ليرعاهم كما قال فى المزمور [٧٩] فرعاهم بطهارة قلبه وبرفق يديه ساسهم واهداهم

وبتأييد عدد كبير من خشداشينه بعد ترقيتهم السريعة. ولكن الخطوة الجريئة التى أقدم عليها حين عزل الخليفة المتوكل سرعان ما ظهر صداها لدى كبار الأمراء اليلبغاوية فى سورية، إذ خشى هؤلاء الأمراء على مراكزهم من أن يحتلها أتباع اينبك البدرى. فثاروا فى ربيع الأول سنة ٧٧٩هـ (١٣٧٧م) على أينبك بزعامة الأمير طشتمر الدوادار نائب دمشق الذى سبق لليلبغاوية إبعاده إليها. وحين أحس الأمير أينبك بالثورة استشار برقوقاً فى أمرها، فأشار عليه بأن يجهز حملة للتوجه سريعاً إلى سورية لإقماع الثائرين.

وقبل أن تغادر الحملة القلعة عمل أينبك على استجلاب رضا الشعب، فأعاد الخليفة المتوكل وقرر أن يستصحبه إلى سورية، كما صحب الحملة السلطان على، ومن الأمراء اليلبغاوية الترك اختار أينبك يلبغا الناصرى وبركة الجوبانى ضمن الأمراء المتوجهين مع الحملة(١). ووجد الأمير برقوق فى هذه الحملة فرصة ذهبية للتخلص من أينبك، فوضع خطة لقتل أينبك أوعزله، عهد بتنفيذها إلى يلبغا الناصرى وبركة الجوبانى . وهنا يوضح المقريزى بدقة سياسة الأمير برقوق نحو الترك ومدى إخفائه لاتجاهه وأطماعه فى السلطنة فى قوله «غير أنه لدهائه لم يظهر ذلك لأصحابه حتى يخلو له الجو تماماً» (٢).

(١) المرجع السابق والجزء ص ٣١٠.
(٢) المقريزى: السلوك جـ٣ ص٣١٢.

واهتـدت البـيعـة فى ايامـه وصلح حـال الشـعب ودامت السلامة. وقد كان اتصال الكلام وشرح مـا جـرى فى ايام دولة صـلاح الدين قـادتنا فيـه الضرورة الى كمال سيرته فى ايام بطركية القديس الطاهر انبا مرقس وقد كـان هذا الاب تنيح قبل وفات صـلاح الدين باربع سنين لانه توفا فى سنة خمس وثمانين وخمس مايه وصلاح الدين توفا فى سنة تسع وثمانين و خمس مايه، وكان ينبغى ان

والخلاصة هى أن يلبغا الناصرى وبركة الجوبانى قادا الثورة على أينبك بتحريضهما العسكر المتوجه إلى سورية فى ٢٩ من ربيع الأول سنة ٧٧٩هـ سنة ١٣٧٧م واضطر أينبك إلى الفرار ونجحت خطة الأمير برقوق [١]، وهدأت الأحوال مؤقتاً فى سورية وعاد الأمراء الثلاثة بالعسكر والسلطان إلى القلعة فى ٣ من ربيع الآخر سنة ٧٧٩ هـ [٢].

وأصبح واضحاً أن الأمر كله صار وقتذاك بيد هؤلاء الأمراء اليلبغاوية الثلاثة وهم يلبغا الناصرى وبركة الجوبانى وبرقوق العثمانى. على أن الأمير برقوق احتال على بركة حتى وافقه على اختيار الأمير يلبغا الناصرى أتابكاً ومقدماً لليلبغاوية، لا احتراماً لأقدميته فى الإمارة ولكن رغبة فى التخلص منه هو الآخر. ومع أن الأمير برقوق ارتقى بعد هذه الحركة إلى وظيفة أمير اخور، وصار بركة أمير مجلس غير أنهما كانا أبرز شخصية من يلبغا الناصرى لأنهما أصبحا على قول ابن خلدون «أبصر القوم بالسياسة وطرق التدبير» [٣] ثم إن يلبغا الناصرى لم يكن يوماً مع الفريق الثائر على سلطنة بيت قلاوون ولهذا لم تكن أوامره محل طاعة اليلبغاوية.

(١) مع أن يلبغا الناصرى اشترك فى الثورة على أينبك إلا أنه كان من أنصار بيت قلاون بدليل أنه صحب السلطان شعبان حين فر من العقبة إلى القاهرة. راجع ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ٢ ورقة ١٧٠.
(٢) العينى عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٢٥ ـ ٢٢٦.
(٣) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٦٧.

يكون مـا جـرى في هذه الاربع سنين الزايدة في
هذه السيـرة وانما قـادة الضـرورة لا يرادها هناك
لاجل فتوحه واموره وحروبه كانت متصله ببعضها
بعض الى ان انفصلت بالهدنة والصلح لان بعدها
توجـه الى دمـشق من مـصـر بعـد ترتيب الأمـور
وتهديتـهـا واحكامـهـا فـمات في دمـشق على مـا
وصفنا من السلامة له ولرعايته ودفن في المدرسة
التي بناها بدمشق الملك العزيز، وتوفا كما تقدم

واضطر الناصرى إلى التسليم لبرقوق وبركة في كثير من الأمور حتى أقنعاه آخر الأمر بالقضاء على بعض الأمراء اليلبغاوية الذين نافسوهم بزعامة الأميرين دمرداش وتمر باى الحسنى، وأتبع برقوق وبركة هذا العمل بتعيين أتباعهما في الوظائف التي خلت [1].

ثم بدت أمام برقوق ناحيـة في غاية الأهمية وهي أنه وجد أن الأتابك أصبح يسكن الاصطبل بعد هدم مناظر الكبش، وأن الأتابك نتيجة لهذا يسيطر على الخيل والسلاح، فما زال حتى أقنع الامير يلبغا الناصرى بترك الاصطبل والخروج من القلعة ليسكن في بيت شيخون وانتقل برقوق مكانه وسكن بالاصطبل.

بيد أن استئثار هؤلاء الأمراء اليلبغاوية بالنفوذ تبعه اضطراب الأحوال الداخلية في البلاد وظهور عدة محاولات من جانب بعض الأمراء الترك لإنقاذ سلطنة بيت قلاوون وذلك بمناداتهم بضرورة تولية سلطان كبير من هذه الأسرة [2]. وأدرك برقوق خطورة هذه المحاولات واجتهد أن يصيد عصفورين بحجر واحد، فاتفق مع يلبغا الناصرى وبركة الجوبانى على دعوة طشتمر الدوادار لتولى الأتابكية في مصر [3]. وأراد بهذا أن يتخلص من طشتمر الدوادار

(١) ابن دقماق : الجوهر الثمين جـ٢ ورقة ١٧٤.
(٢) ابن دقماق : الجوهر الثمين جـ٢ ورقة ١٧٤.
(٣) السخاوى: الضوء اللامع جـ٣ ص ١١.

شرحه، وملك بعده ولده الملك العزيز عثمان ديار مصر واعمالها والبيت المقدس واعماله فى شهر ربيع الاول سنة تسع وثمانون وخمس ماية الهلالية [١١٩٣م] وقد كان صلاح الدين هادن الفرنج قبل وفاته فلم يغدرو به بعد موته ولا فسخو الهدنة ولا تحرك منهم احد من مكانه ولما عادو ملوك الفرنج الانكتار والامان [الألمان] والافرنس وغيرهم الى بلادهم ملكو الكندهر [الكونت هنرى دى

نائب دمشق وهو أكبر أمير يلبغاوى وقتذاك، كما أن فى هذا التعيين ما يرضى الترك ويؤجل مسألة تولية سلطان كبير من أسرة قلاوون. ومهما يكن من أمر فإن طشتمر الدوادار رحب بهذا التعيين، وحين وصل القاهرة فى ٢٩ من ربيع الآخر سنة ٧٧٩هـ ١٣٧٧م استقبله برقوق وبركة أحسن استقبال كما أشركا السلطان فى استقباله [١]، ثم وزعت الوظائف فتقرر أن يترك الأمير يلبغا الناصرى لطشتمر الأتابكية، وأن يعمل بدلاً منها فى إمرة السلاح.

وبدا لطشتمر الدوادار كأنما صار له الحل والعقد فى الدولة، ولكن الحقيقة أن الاجتماعات بين برقوق وبركة توالت بالاصطبل للتدبير عليه، وخاصة بعد أن أبعدا يلبغا الناصرى إلى نيابة طرابلس [٢]. غير أن هذه الاجتماعات لم تمنع وجود المنافسة الخافية بين هذين الأميرين. واتخذت هذه المنافسة صورة عنصرية، إذ تسابق الأميران فى شراء المماليك من جنسيهما «استغلاظاً لشوكتهما واكتنافاً لعصبيتهما أن يمتد الأمر إلى مراتبهما».. كما أخذا «يبذلان الجاه لتابعيهما ويوفران الإقطاع لمن يستخدم لهما، ويخصان بالإمرة من يجنح من أهل الدولة لهما، وإلى أبوابهما حتى انصرفت الوجوه عن سواهما» [٣]، وخطا برقوق خطوات

(١) ابن دقماق : الجوهر الثمين جـ٢ ورقة ١٤أ (نسخة خطية)
(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٦٨.
(٣) نفس المرجع والجزء ص ٤٦٧.

كامبنى} على الساحل وكان رجل بطل شجاع قد جا من جملت المجاهدين لله من المغرب من خلف البحر ولاجل ذلك كانة [كانت] هدنة صلاح الدين معه ومع فرسان الساحل. ولما ملك الملك العزيز وكانة الهدنة بين المسلمين والفرنج ولم يكن الاجناد مكار ولا سفر مدة سنين الهدنة مسكو ايديهم عن بيع الغلة فبلغ القمحماية وسبعون دينار الماية اردب وكان السعر لا يثبت على حال

واسعة فى هذا الشأن حين أفرج عن عدد من الجراكسة الذين سجنهم من قبل نواب السلطنة الترك، وجعل بعض هؤلاء نوابا فى البلاد [١].

ونتيجة لهذه السياسة بدأت الشكوك تساور الأمير طشتمر، غير أنه لم يتحرك لإنقاذ موقفه بسبب صلة الرحم بينه وبين برقوق [٢]. ولكن حقيقة موقف الأميرين سرعان ماظهرت واضحة فى غرة ذى الحجة سنة ٧٧٩هـ (سنة ١٣٧٧م) إذ دب الخلاف بين الأميرين وبين طشتمر بسبب عودة برقوق وبركة إلى العمل على إضعاف شأن طشتمر بمطالبهما المتكرره فى نقل أنصار طشتمر إلى وظائف النيابة فى سورية، أومطالبته بعزلهم وتولية أصحابهما مكانهم، ثم طالباه آخر الأمر بنفى الأمير كتبغا رأس نوبته أو تسليمه لهما، مما أدى إلى ثورة مماليك طشتمر الدوادار الذين اجتمعوا به فى ٩ من ذى الحجة سنة ٧٧٩هـ (سنة ١٣٧٧م) وهددوه بالقتل إن لم يخرج معهم لقتال برقوق وبركة [٣]. ولكن طشتمر جبن حين أغلق بابه وترك مماليكه يقاتلون الأميرين بزعامة تقطاى طواشية. ولم تجد شجاعة تقطاى حين قاتل بمائتين من العساكر فريقاً كبيرا من أتباع الأميرين [٤]. وانتهى الصراع بين الفريقين بمقتل كمشبغا

(١) نفس المرجع والجزء والصفحة.
(٢) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٢٠ ورقة ٢٢٨ ـ ٢٢٩.
(٣) المقريزى : السلوك جـ٢ ص ٣٢٣.
(٤) العسقلانى : إنباء الغمر جـ١ ص ٩٢.

واحد بل يزيد عن هذه الجملة مدة اسبوع ثم رجع ينقص وكذلك ساير الحبوب اردب بدينار ودونه وجميع القطانى(*) يتضاعف اثمانها واقامو الناس بديار مصر مكابدين الضر ثلث سنين. ثم ان الملك العزيز جمع العسكر وسار من مصر الى دمشق فى الدفعة الاولة فى الخامس والعشرون من جمادى الاول سنة تسعين وخمس ماية الهلالية [١١٩٣/١١٩٤م] يريد ياخذها [من اخيه

(*) القطانى: هى الحبوب التى تطبخ كالعدس والفول. سميت بذلك لأنها تُدخر حيث يقطن الانسان أى فى منزله لمدد طويله بسبب قابليتها للتخزين.

وتسليم الأمير طشتمر نفسه إلى الأمير برقوق الذى قبض عليه وعلى جماعة كبيرة من أتباعة وحبسهم بالإسكندرية ثم نفى باقى اليلبغاوية من أنصار طشتمر إلى قوص فى ١٣ من ذى الحجة سنة ٧٧٩هـ (سنة ١٣٧٧م) (١).

وعلى أثر نجاح هذه الثورة تولى برقوق منصب الأتابكية (٢)، كما عين أحد أقربائه من الجراكسة وهو الأمير أيتمش البجاسى أمير أخور (٣). وحرص برقوق على استمرار سكنه بالاصطبل بل عين أخاه قرادمرداش أمير أخور، وأسكنه معه فى جانب الاصطبل. وبدا كأنما الحظ يساعد الأتابك الجديد إذ ازداد الرخاء فى هذه السنة بمصر واستبشر الناس بعهد أتابكية برقوق حتى قال ابن الصاحب يمدح الأتابك برقوق:

إن برقـوق الغصـن كعـ   به فى النـاس أخـضر (٤).

ومن الواضح أن الأمور أخذت تتطور فى سرعة عجيبة فى وقت لم يعد للسلطان على أحد أى نفوذ. وبدا كأنما الدولة المملوكية الأولى توشك على السقوط، إذ زالت هيبتها من نفوس

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١ص ١٦٢ ـ ١٦٣.
(٢) ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ٢ ورقة ٤ب (مخطوط).
(3) Sauvaget: Noms Et Surnoms Des Mam, pp. 39-40.
(٤) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ص ٩٤.

الأفضل] فلم يقدر عليها فعاد الى القاهرة فتبعه الملك العادل فاغلق الملك العزيز ابواب القاهرة في وجهه فحاصره الملك العادل فيها شهور ثم مشى القاضى الفاضل بينهما فاصطلحا ودخل الملك العادل الى القاهره واقام فيها اربعة اشهر ثم عاد الى دمشق ومعه الملك العزيز فحاصروها واخذوها من الملك الافضل على فتسلمها الملك العزيز. ولما كان في محرم سنة اربع وتسعين وخمس ماية

الناس، وانصرف الناس عن السلطان، وأخذوا يقصدون أبواب الأمير ابن برقوق وبركة اللذين أصبحا أصحاب الحل والعقد في الدولة . وعبر الناس عن هذا الموقف الغريب بقولهم: «برقوق وبركة نصبا على الدنيا شبكة» (١).

ومع أن الخطوة التالية تركزت في ضرورة تخلص الأمير برقوق من زميله ابن بركة، إلا أنه وجد أن الوقت غير مناسب، وأصبح لزاماً عليه أن يبذل أقصى جهده لجمع شمل المماليك الجراكسة وتوحيد جهودهم. بيد أنه على حين أخذ يعد عدته لهذا الأمر إذ به يفاجأ بثورة أحد أقربائه، وهو الأمير إينال اليوسفي الجركسي.و كادت هذه الثورة تصيب صفوف الجراكسة بالانقسام . وخلاصتها أن الأمير إينال اليوسفي كان شديد الكراهية لبركة، وطالما حرض الأمير برقوق للثورة عليه وقتله، ولكن برقوقا لم يجبه إلى رغبته ولهذا يبدو أن طول أناة برقوق لم تعجب إينال، فانتهز فرصة سفر بركة إلى إقطاعه بالبحيرة في شعبان سنة ٧٨١هـ (سنة ١٣٧٩م) (٢)، وخروج بركة في نفس الوقت للصيد خارج القاهرة، وهاجم إينال الاصطبل بمعاونة عدد كبير من المماليك السلطانية. وبعد أن استولى إينال على الاصطبل أخذ في نهب

---

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ١٦٣.
(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٦٨.

[١١٩٧/١١٩٨] تواصلت مراكب الفرنج الى
عكا وفسخو الهدنة فبادر اليهم الملك [العادل] في
اول امرهم قبل ان يكثرو ويدخلو الحصون فنزل
على يافا وقاتلها ثلثة ايام ففتحها وقتل فيها خلق
كثير وسبى اكثر مما قتل، ثم تواصلت مراكب
الفرنج وطلع منهم الى الساحل خلق كثير فمضى
منهم عسكر كثير[إلى مصر و] نزلوا على حصن
المسلمين يسمى تبنين فكتب الملك العادل كتاب

بيت برقوق وما في خزائنه (١)، ثم خدع صغار مماليك برقوق وألبسهم آلات الحرب ووعدهم بالمال والإقطاعات إن هم عاونوه في خطته (٢)، وتمكن الأمير إينال من القبض على الأمير جركس الخليلي، أكثر الأمراء إخلاصاً لبرقوق ، وحاول أن يضم السلطان عليا إلى جانبه، ليحصل على تأييد العامة ولكن الزمام رفض إجابة طلبه (٣).

وكادت هذه الثورة تفسد على برقوق خطته لولا أن عاد برقوق مدرعاً إلى القاهرة، ونهض لإنقاذه قريبه ايتمش البجاسي أمير أخور، فأنزله أيتمش في اصطبله وجعل مماليكه في خدمته. وقصد برقوق القلعة بمماليك ايتمش، وفاجأ أصحاب إينال الذين شغلوا بنهب بيت برقوق. وبعد أن أحرق برقوق باب السر ـ أحد أبواب القلعة ـ استطاع دخول القلعة ومعه عدد كبير من العامة الذين ساعدوه بضرب أتباع إينال بالعصى، والحجارة (٤). ورغم ما أظهره إينال من رباطة الجأش فإن مماليك برقوق حين رأوا أستاذهم انقلبوا على إينال ورموه بالسهام واضطروه إلى الفرار وفي جسمه نشابة (٥). ولكن برقوقاً تمكن من القبض عليه وحاول أن

(١) السلامي: مختصر التواريخ ورقة ٨١ب.
(٢) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣.
(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ١٦٧ ـ ١٦٨.
(٤) ابن دقماق : الجوهر الثمين جـ٢ ٠ شمسية) ورقة ١٧٦.
(٥) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٦٨.

للملك العزيز يعرفه بذالك ويطلب منه ان يسير اليه [يرسل إليه] عسكر مصر فسار الملك العزيز الى الشام بالعسكر في شهر ربيع الاول سنة اربع وتسعين وخمسماية [٩١٤ قبطية = ١١٩٧م] نازل الافرنج وضيق عليهم وجا عليهم مطر وسيل كثير من الجبل وحجاره برد فرحلو من تبنين بعد ان هلك منهم ومن دوابهم وقماشهم شي كثير جره السيل في الماء فرحلو ونزلو حوالى مدينة صور

يستدل منه على شركائه في المؤامرة دون جدوى، إذ حلف له إينال أنه أراد بثورته هذه القضاء على بركة فاكتفى برقوق بسجنه ريثما ترتب أموره [(١)].

ويبدو أن قيام أحد الجراكسة في هذه المرة بالثورة على برقوق دفعة إلى الشك في مدى إخلاص عنصره له مما جعله ينقلب على الجراكسة، وقبض علي من اشتركوا مع إينال فى الفتنة، ثم استدعي يلبغا الناصرى الذى أبعده من وقت قريب إلى نيابة طرابلس، ليتولى إمرة السلاح بدلاً من إينال [(٢)] وحين حضر بركة اجتمع ببرقوق وبحث الاثنان الموقف واتفقا على التعاون فى توزيع الوظائف التي خلت وشغلها بالمقربين من أتباعهما.

ويدلنا سلوك برقوق نحو بركة في هذه الظروف على أن برقوقاً لم يكن مستعداً لمواجهة بركة، بل لعله وجد أن إخفاء اتجاهه العنصرى في هذه الظروف ذو قيمة كبيرة فى كسب الجولة المقبلة. ولذا بدأ برقوق يعد عدته لهذه الجولة بالاستفادة مما جد من عوامل.

وأول هذه العوامل ما ظهرمن كراهية الناس لبركة بسبب قسوته، حتى إن العلماء تذمروا

(١) ابن إياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٢٤٣ ـ ٢٤٥ ـ مما قاله ابن العطار الشاعر فى هذه الحادثة :

قد ألبس الله برقوقاً مهابته ... نهار الاثنين فى عز وتمكين
وراح إينال مع سودون وانكسرا ... وكان يوماً عسيراً يوم الاثنين

(٢) المرجع السابق جـ١ ص ٤٦٨.

وعكا وغيرها من مدن الفرنج وبقى الملك العادل والملك العزيز [فى] منازلهم بالعسكر فلما كان فى العشرة الاخيرة من جمادى الاخر سنة اربعة وتسعين وخمسماية عاد الملك العزيز ومعه بعض العسكر الى مصر وبقى الملك العادل منازلهم [منازلتهم] واقام يقاتلهم شهرين ثم هادنهم على البر دون البحر مدة ستة سنين. ثم تركهم وتوجه الى دمشق لان الملك العزيز اوهبها له فدخلها

حين انتزع منهم جميع الأوقاف الشافعية وأوقاف جامع ابن طولون بعد أن استقر ناظر الأوقاف الحكومية والأهلية جميعها سنة ٧٨٠هـ (١)، ورغم معارضة شيخ الإسلام سراج الدين البلقينى فإن بركة انتزع هذه الأوقاف ووزعها إقطاعات على أتباعه الذين زاد عددهم (٢). واستغل برقوق سيرة بركة السيئة، وكراهية العلماء له وشهر به، كما ملأ الأسماع عن قبول بركة الرشوة من الراغبين فى الوصول إلى مناصب القضاء (٣)، وتقرب إلى العامة حين أفرج عن عدد منهم سبق أن حبسهم بركة (٤).

ثم رأى برقوق أن يعدل عن سياسته الأخيرة نحو الجراكسة وحاول الاستفادة منهم، وذلك بعد أن ظهرت مؤامرات لقتل برقوق، دبرها المماليك السلطانية الترك، بعد أن أثاروا الدعايات السيئة ضده (٥). ولا شك أن الدعاية أصبحت ذات أثر فعال فى المحيط السياسى بعد أن تلاشت شخصيات السلاطين من هذا المحيط وبدأت شخصيات الأمراء تحتل من أهتمام الناس الجانب الأكبر.

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٢٣٦.

(2) Ziadeh. N: Urban life In Syria: p. 42.

(٣) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام قسم ١ ورقة ٢٥٢.

(٤) العسقلانى : إنباء الغمر جـ١ ص ١٠٩، ص ١٢٦.

(٥) ا بن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ١٦٦.

وملكها واقام فيها بقية سنة اربع وتسعين وخمسماية [١١٩٧م] ولما عاد الملك العزيز الى مصر اعدل على الرعية بديار مصر واحسن اليهم واستقام امره وانحلت الاسعار وابيع القمح الطيب اربعة ارادب بدينار والشعير والفول وساير الحبوب عشرة ارادب بدينار. ولما كان المحرم سنة خمس وتسعين وخمسماية [١١٩٨م] خرج الملك العزيز إلى برية الفيوم يتصيد فوجد غزالة فتبعها وكان

على أنه لم يكن هناك بد من وقوع صراع شديد بين الأميرين؛ إذ على حين سعى أصحاب بركة من الترك للاستبداد بأموال الدولة امتاز برقوق بالتثبت في الأمور وميله إلى تغليب المصلحة العامة على مصلحته الخاصة . وكثيرا ما عارض برقوق أصحاب بركة في استبدادهم بالأموال وضرب على أيدى الكثيرين منهم، فلا عجب أن عمل مماليك بركة على التخلص من الأمير برقوق بتحريضهم الأمير بركة على الاستقلال بأمور الدولة دونه والغدر به(١).

وثمة ناحية توجب الالتفات في هذا الصراع الوشيك الوقوع بين الجراكسة والترك وتبين جانباً هاماً من سياسة برقوق، وهى أن برقوق وجد نفسه يواجه بمن معه من الجراكسة ـ وهم قلة ـ فرقتين من الترك، أولاهما فرقة الأشرفية مماليك السلطان الأشرف شعبان الذين أرادوا إرجاع مجدهم السابق، وثانيهما فرقة مماليك بركة، وهم الذين عملوا على إزالة شخصية برقوق ليتسى لهم تحقيق مآربهم. ولم يشأ برقوق أن يحارب في ميدانين بل أخذ يتودد إلى الأشرفية ويقابلهم فى طباقهم يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع (٢)؛ على حين أخذ يضايق الترك من أتباع بركة بما أحدثه من تغيير في الوظائف لتأييد مركزه. وأهم هذه التغيرات إبعاده بعض المماليك الترك إلى نيابات الشام (٣)، غير أن هذا الإجراء أغضب بركة،

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٦٩.
(٢) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٢٤٢.
(٣) راجع العسقلاني: إنباء الغمر جـ١ ص ١٠٧.

معه كلب من كلاب الصيد فلحق الحصان الذى
تحته كلب الصيد وقد اكسر الغزالة فوطى الحصان
بيده على ذنب الكلب فدار الكلب من تحت بطن
الحصان وعض خصاه فنفر منه ورماه بنفسه الى
الارض فوقع الملك العزيز من فوقه صار تحته وجا
الحصان فوقه وانقلب عليه بالسرج فدخل
القربوس في صدره مع فواده فعاد الى القاهرة
محمول وكان الاطبآ يداووه فلم ينفع فيه دوا

كما أدى إلى وضوح الاتجاه العنصرى. وبدأ كل من برقوق وبركة يعارض فى تعيين مماليك منافسه ويحل فى الوظائف الرئيسية المماليك من بنى جنسه. واستغل أعداء الأميرين الخلاف العنصرى بينهما في إشعال نار الثورة بين الفريقين حتى أضمر بركة الغدر ببرقوق، ثم تأزم الموقف بينهما حين طالب الأمير بركة الأمير برقوق بتسليم الأمير ايتمش البجاسى، أمير أخوره واحد الأمراء الجراكسة المقربين إليه، ورفض برقوق بطبيعة الحال، ولكنه أظهر نفسه أمام الشعب أنه ينشد السلام وأعلن أنه يرغب فى التنحى عن وظيفته بشرط ترشيد السلطان، وفى نفس الوقت أوحى إلى القضاة لإصلاح ذات البين بينه وبين بركة. وبذل القضاة الأربعة وشيخ الإسلام البلقينى جهوداً كبيرة فى الضغط على الأمير بركة لقبول الصلح حتى أذعن ووعد ألا يتحدث فى أمر من أمور الدولة. وسر برقوق لهذه النتيجة، وخلع على من سعى فى الصلح وجمع الأمراء للعب فى الميدان ابتهاجاً بعودة الوئام (١).

والواقع أن هذا الصلح لم يكن سوى صلح مؤقت لجأ إليه برقوق وقتذاك حيث إنه لم يكن مستعداً للدخول فى معركة فاصلة بينه وبين الأمير بركة، وأراد أن يكسب الوقت ريثما تتم استعداداته؛ حتى إذا تمت هذه الاستعدادات فى أول ربيع الأول سنة ٧٨٢هـ(سنة ١٣٨٠م) بدأ برقوق مناوشاته لإثارة بركة فأقام وليمة بمناسبة ختان ابنه محمد وقبض فيها

(١) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦.

ومات ليلة الاحد ثانى وعشرين من المحرم سنة خمس وتسعين وخمسماية [١١٩٨م] وقد كمل له فى ملكه خمسة سنين وعشرة شهور وعشرين يوما فسبحان الله الذى لافنا لملكه ولا راد لحكمه وبه المستعان.

الملك الناصر يوسف(*). وملك بعده ولده يوسف وانعتوه نعت جده الملك الناصر وهو الملك الثالث من ذرية صلاح الدين وهو يوسف ابن عثمان ابن

(*) سيرة الملك الناصر يوسف: وهو الملك الأيوبى الثالث.

على أميرين من أتباع بركة [١]. وكانت هذه هى الشرارة الأولى فى هذا الصراع الذى عزم فيه برقوق على أن يكسر شوكة العنصر التركى بالقاهرة [٢]. وأوضح المقريزى صورة هذا الصراع العنصرى السافر فى قوله. «وصار العسكر فرقتين فرقة جراكسة وهم أصحاب الأمير الكبير برقوق، وفرقة ترك وهم أصحاب الأمير بركة، فلما أصبح نهار الأربعاء تاسعة أنزل الأمير برقوق السلطان إلى عنده بالحراقة من الاصطبل، ودقت الكوسات جميعا بالطبلخاناه من القلعة [٣]».

ورغم أن عدد الترك جاوز عدد الجراكسة وقتذاك إلا أن إقامة الأمير برقوق بالاصطبل مكنته من السيطرة على السلاح، كما زاد من قوته انضمام الأجناد البطالة وأجناد الحلقة إليه، وخاصة بعد أن ظهر الأمير برقوق أمامهم بمظهر المدافع عن السلطان على ضد طغيان الأمير بركة.

وبدأ برقوق تحصين القلعة فأمر بباب القلعة من جهة القرافة فسد بالحجارة ثم قسم أجناد الحلق والأجناد البطالة طوائف، وركز كل طائفة منهم على تربة من الترب فيما بين القلعة وقبة

(١) السخاوى: الضوء اللامع جـ٣ ص ١١، السيوطى: تاريخ الأشرف قايتباى ورقة ٢٦ ب.
(٢) راجع العينى: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٢٥.
(٣) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٦١٠ ـ ٦١١.

يوسف ابن ايوب ملك ديار مصر والساحل والبيت المقدس وما كان بيد اخوه غير ما كان بيد الافرنج من عكا وصور وغيرهما وكان جلوسه في الملك يوم الاحد الثاني والعشرون من الحرم سنة خمس وتسعين وخمسماية وكانة بين الفرنج والمسلمين باقية فلم يتحرك احد منهم من مكانه ولا تحرك احد ايضا من ديار مصر ولا ضاع لاحد في القاهرة ومصر شياً قيمته حبه وكان يوسف ابن الملك

النصر [1]، وعزل برقوق والى القاهرة الموالى لبركة وأعاد حسين ابن الكورانى المعروف بشدته وصرامته التى سرعان ما ظهر أثرها حين أمر بفتح حوانيت أصحاب السلاح وأخذ ما فيها، وأمد بهذه الأسلحة أتباع برقوق، كما أمر أعوانه بمنع من يخرج لمعاونة بركة وأصحابه بالسلاح أو الطعام أو الشراب. وعلى حين جعل برقوق مركز قيادته عند باب القلعة من ناحية الاصطبل، ملأ كذلك مدرسة السلطان حسن المواجهة للقلعة ودار الضيافة وصهريج منجك بالفرسان والرماة وجعل القيادة فى هذه المنطقة للأمير بزلار العمرى [2].

وأعطى برقوق إشارة البدء بقتال بركة للأمير ايتمش البجاسى الذى نادى فى العامة بأن «من قبض مملوكاً من مماليك بركة فلة بركة ولنا الرمح» [3]. كما حرض ايتمش على نهب بيت بركة. ووجد العامة والزعر فى هذا كله فرصة طيبة للحصول على غنائم فى وقت ساءت فيه الحالة الاقتصادية فضلاً عن تخلصهم من ظلم بركة وطغيانه. وتوجه العامة إلى باب بيت بركة وبعد أن نهبوه سرقوا رخامه وشبابيكه، ثم أشعلوا فيه النيران. وهرب بركة من باب آخر من جهة الشارع المؤدى إلى باب الفتوح وتوجه إلى باب النصر حيث انتظره أتباعه. وعلى

(1) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام، المجلد الأول ورقة ٢٦١.
(2) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ١٤١.
(3) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام ، المجلد الأول ورقة ٢٦١.

العزيز صغيرا لا يكمل لتدبير المملكة فجعلو الملك المستمر حضر وانعتوه بالملك الظاهر نايبا عنه في السلطنة فلم يكمل له شهرا واحدا فيها حتى وصل الملك الافضل نور الدين على عمه من قلعة سلخد الى القاهرة ودخل لها يوم الخميس السابع من ربيع الاول سنة خمس وتسعين وخمسماية.

(*) سيرة الملك الأفضل على.

الملك الافضل على(*): فملك وامر ونهى ورفع وتصرف واقام الى سلخ رجب من السنة المذكورة

الرغم من أن برقوقا استدعى يلبغا الناصرى ليتولى إمرة السلاح بعد ثورة إينال فإنه حين أصبح العداء سافراً بين العنصرين التركي والجركسى أسرع يلبغا الناصرى وانضم بمماليكه إلى جانب مماليك بركة الترك [١]، ولهذا رجحت كفة بركة في المناوشات الأولى التي اشتبك فيها عسكره مع عسكر آيتمش [٢].

واذ وجد بركة نفسه مضطراً للقتال في أكثر من ميدان قسم عسكره ثلاث فرق؛ سارت الأولى إلى ناحية الجبل الأحمر، والثانية إلى ناحية دار الضيافة، والثالثة إلى بين العروستين[٣]؛ وأظهر الترك من الشجاعة والجرأة ما جعلهم يتغلبون على الجراكسة أكثر من عشرين مرة كانت آخرها عند العروستين، حتى إن الأمير برقوق حين أحس بحرج موقفه أرسل إلى بركة الأمير سودون الشيخونى بخلعة بنيابة الشام، غير أن بركة الذى أحرز كل تلك الانتصارات على الجراكسة استشاط غضباً على رسول برقوق رفض قبول عرضه.

وبعد أن فشلت جهود الأمير برقوق في هزيمة بركة أو إبعاده لم يجد بدأ من الاستماتة في

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٦٩.
(٢) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦.
(٣) السلامي: مختصر التواريخ ورقة ١٨٢أ.

ثم جمع العسكر وسار الى دمشق يطلب ياخذها
من عمه فى مستهل شعبان من السنة المذكورة
فوجد عمه الملك العادل قد سبقه ودخل اليها قبل
وصوله بيومين وقد حصنها بالرجال والعدد فلم
يقدر يدخلها فانفذ الى اخوه الملك الظاهر صاحب
حلب وابن تقى الدين ومظفر الدين ابن زين الدين
وجمع عساكر الشام وعسكر مصر واقام محاصر
عمه الملك العادل فى دمشق من مستهل شعبان

القتال رغم الخسارة التى لحقته [١]. والواقع أن وجود السلطان المنصور على مع فريق برقوق زاد من تحمس العامة لمعاونة هذا الفريق، إذ لولا انضمام العامة إلى برقوق ورميهم أصحاب بركة بالحجارة والنشاب لسقطت القلعة فى أيدى أصحاب بركة [٢].

والخلاصة أن الأمير برقوق حمل حملة قوية على بركة حتى هزمه فى ١٠ من ربيع الأول سنة ٧٨٢هـ (١٣٨٠م). وتفرقت عساكر بركة فى هذا اليوم الذى قيل إنه إشتدت فيه الحرارة. وهرب بركة إلى جامع المقس وظل مختفياً هناك حتى قبض عليه برقوق وحبسه بالإسكندرية مع عدد من مماليكه [٣]. واستحوذ برقوق على ذخائر بركة التى قيل إن من بينها سبعين قنطار ذهب جمعها فى أثناء توليه وظيفته الأخيرة. وأثرت هذه الفتنة فى أحوال القاهرة إذ ظلت أبوابها مقفلة وأسواقها معطلة مدة ثلاثة أيام حتى تمكن الأمير برقوق من القبض على عدد كبير من الترك وملأ بهم سجون الإسكندرية ودمياط وقوص [٤]، وأحل برقوق محل هؤلاء عدداً من الأمراء الجراكسة الموالين له، وعزل يلبغا الناصرى وسجنه وقبض على مماليكه

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٦١٣.
(٢) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام، المجلد الأول ورقة ٢٦١.
(٣) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ١٤٣.
(٤) ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ٢ ورقة ١٧٨.

سنة خمس وتسعين وخمسماية الى سلخ صفر سنة ست وتسعين وخمسماية {١١٩٩م} الى سلخ صفر سنة ستة وتسعين وخمسماية اختفا الملك العادل في دمشق مدة خمس عشر يوما لم يبصره احداً من الناس وشاع الخبر عنه بانه خرج يدبر ديار مصر فاجتمع الملك الافضل نور الدين على واخيه الملك الظاهر غازى صاحب حلب وتقى الدين ومظفر الدين ابن زين الدين وتشاورو فيما

ووزع إقطاعاتهم واقطاع بركة على المماليك الجراكسة [١]. ولم يكتف الأمير برقوق بإقرار الأحوال في مصر، بل أجرى حركة تطهير في الوظائف السورية من أتباع بركة وملأها بأتباعه[٢].

والواقع أن انتصار برقوق على بركة بهذه الصورة أدى إلى ارتفاع شأن الجراكسة في هذه السنة[٣]، كما وجه جميع الأنظار إلى الأتابك برقوق، وبدأ الشعراء يمدحونه ويقدمون اسمه على اسم السلطان[٤]، كما شجع هذا الانتصار الأمير برقوق كذلك على التخلص من الأمير بركة ليضعف الروح المعنوية للعنصر التركي وليقضى على ما لديهم من آمال لاستعادة نفوذهم، ولكن الأمير برقوق تفادى أن يعلن نهاية بركة على يديه إذ ما زال أتباعه من الترك

(١) السلامي: مختصر التواريخ ورقة ٨٢ أ، ابن إياس بدائع الزهور جـ١ ص ٢٤٨.
(٢) ابن أياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٢٤٨ في ذلك يقول ابن حبيب الحلبي:

ياويحها من حالة   وشؤمها من حركة
وقبحها من فتنة   فيها أزالت بركة

(٣) ابن قاضى شهبة: الذيل على تاريخ الإسلام ، المجلد ٣ ورقة ١٤٦.
(٤) من هؤلاء الشعراء القيم خلف الغبارى ومن قوله:

مصر صارت بعد انقباض في انشراح   وقلعها مزخرف والقصور
يا إلهى احفظ لنا برقوق   واحرس الجند وانصر المنصور

ابن إياس جـ١ ص ٢٤٨.

يعملوه فتقرر الراى منهم ان يعود الملك الافضل
نور الدين الى ديار مصر يحفظها وان حضر العادل
اليه لحقوه بقيتهم بالعساكر من خلفه ويكون هو
بالعسكر من قدامه فيحصل فى الوسط، فعاد
الملك الافضل الى ديار مصر ودخل مدينة بلبيس
فى اليوم العشرين من ربيع الاول سنة ستة وتسعين
وخمسماية واخلاها من النساء والقوام ولم يبقا
فيها سوى الباعة والتجار وخرج اليه سيف الدين

متفرقين وربما أدى قتله إلى تجمعهم وثورتهم للانتقام منه. وفضلاً عن هذا يبدو أن الأمير برقوق أراد أن يظهر بسياسته على عكس سياسة الأتابكة السابقين؛ تلك السياسة التى قامت على سفك الدماء والقسوة الظاهرة. ولهذا أمر برقوق صلاح بن عرام نائب الاسكندرية سرا بقتل بركة فى السجن (١)، وبعد أن تم له ما أراد أظهر غضبه على ابن عرام، واتهمه بقتل بركة دون إذن منه. وأمر به فأحضر مقيداً من الإسكندرية وسلمه إلى مماليك بركة الذين بعد أن شهروه على جمل قطعوا جسمه أجزاء متناثرة (٢).

ويعلق المقريزى على النتائج التى ترتبت على مقتل بركة ويشير إلى طمع الجراكسة فى السلطة فى قوله «فانقرضت دولة الأتراك بأسرها وتتبعوا بالأخذ فقتلوا ونفوا وسجنوا . ولقد كانت الجراكسة قبل ذلك تتحدث فيما بينها بأن تكون فتنه كبيرة ثم تخمد ويثور بعدها فتنة بينهم وبين الترك فينتصرون فيها على الأتراك.. فلما كانت حركة إينال جهروا بذلك وقالوا من غيراحتشام وأذاعوه حتى تحدث كبيرهم وصغيرهم» (٣).

غير أن هذه المدة التى تعرضت فيها البلاد للثورات الداخلية وما تبع هذا من فوضى

(١) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣.
(٢) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ١٤٥.
(٣) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٦١٣.

ازكج النايب عنه كان بمصر ومعه جماعة من الاجناد وبعد ايام يسيرة تواصلت الاخبار بان الملك العادل قد وصل الى قطيه فاتفق رايه وراى سيف الدين ازكج على قتاله ومحاربته ورد جميع الثقل الى القاهرة وتوجه اليه بعسكر وخيل مجردة بغير ثقل وتحاربوا فى موضع يسمى الشامخ والعرابى وهما منزلان بظاهر بلبيس من منازل العرب فى يوم الثلثا الظهر الثامن من ربيع الاخر سنة ستة

واضطراب الأحوال الداخلية والاقتصادية مكن لقبائل العرب في مصر من الثورة رغبة في إعادة الحكم إليها. وكانت هذه فرصة مواتيه لقبائل العرب في مصر إذ طالما نادت طوال السلطنة المملوكية الأولى بأنها أحق بالملك من المماليك [١]، وأتبعوا هذا بالامتناع عن دفع الضرائب وقطع الطرق براً وبحراً وتعطيل التجارة والسفر [٢]. و لعل أهم هذه التمردات التى أقلقت بال الأمير برقوق منذ أن تولى الأتابكية فى سنة ٧٧٩هـ (سنة ١٣٧٧م) هى تمرد بدر بن سلام كبير عربان الهوارة فى غرب الدلتا. وامتنع بدر بن سلام عن التزاماته وأهمها جباية الخراج، ووجد بدر بن سلام الفرصة مواتية لإعادة النفوذ العربى إلى مصر، وهاجم دمنهور فى خمسة آلاف رجل نهبوا أسواقها وبيوتها وخربوا ما صادفوه من قرى وضياع. وظل برقوق عاجزاً عن قمع بدر بن سلام لانشغاله فى مقاومة المماليك الترك [٣]، ولهذا ما إن انتهى من القضاء على ثورة بركة حتى عين فى ربيع الآخر سنة ٧٨٢ هـ ثمانية أمراء مقدمين على رأس تجريده ضخمة من الأمراء والمماليك، وتوجه العسكر من الجيزة إلى ضواحي البحيرة حيث ضربوا خيامهم. وخدم الحظ الأمير برقوق فى هذه المرة، إذ استطاع الأمراء أن يحصلوا من

(١) راجع عن هذه الثورات المقريزى: السلوك جـ١ ص ٣٨٦ ـ ٣٨٧.
(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر رقم ٥ ص ٤٧٠ ـ ٤٧١.
(٣) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠.

وتسعين وخمسماية فاكسر عسكر الملك العادل
عسكر الملك الافضل واعطاه الله النصر فى ذلك
اليوم فغنم اموالهم وامسك عن قتلهم ونجا الملك
الافضل بنفسه ودخل الى القاهرة ولحقه من
اصحابه من كان فرسه سابق فلما دخل الى
القاهرة حصنها بالرجال والعدد فتبعه الملك العادل
ونزل بعسكره على المطرية وارسل خيله الى معادى
البحر [النيل] ضبطوها حتى لا يعدى احد الاجناد

أحد كبار العرب على خطتهم فى هجوم معسكر المماليك وهم فى خيامهم فى أثناء الليل، فأخذوا حذرهم وخرجوا من الخيام وكمنوا بالقرب منها. فلما انتصف الليل هجم العرب على الخيام فوجدوها خالية؛ وهنا فاجأهم العسكر وأحاطوا بهم وأعملوا فيهم السيف فقتلوا منهم نحو ألف عربى وأسروا منهم أكثر من ذلك. وكان هذا الصراع بين الجراكسة والعرب حاسماً، إذ فضلاً عن أن الجراكسة غنموا من العرب جمالهم وأغنامهم وخيولهم وعادوا بها إلى مصر (١) ، فإن عرب البحيرة خسروا زعامتهم حين هرب بدر بن سلام إلى برقة (٢)، وكما نفى برقوق باقى عرب هوارة إلى الصعيد ليأمن شرهم (٣).

وعلى حين عمل الأمير برقوق على التغلب على الصعوبات التى واجهته فإنه اهتم بزيادة عدد الجراكسة ليمكنه الإقدام على هذه الخطوة الجريئة التى اعتزم القيام بها وهى نقل السلطنة من الأتراك الى الجراكسة، فبذل لتجار الرقيق أموالاً كثيرة لإحضار والده وأقاربه وأولادهم من بلاد الجراكسة إلى مصر (٤)، وجعل عثمان بن مسافر تاجره الخاص وخصه بالكثير من

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٣٦٦ ـ ٣٦٨.
(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة.
(٣) المقريزى: البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ص ٦٠.
(٤) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام المجلد الأول ورقة ٢٦٤.

اليه ينجده او يدخل القاهرة ثم احاط الملك العادل القاهرة بالعسكر فى نصف ربيع الاخر سنة تاريخه وارسل الى كبار الامرآ الذى دخل القاهرة من الاسدية والصلاحية ومن جملتهم ما عرفناه فاسميناه وكثير منهم لم نعرفه والمشهور منهم سيف الدين ازكج وعلم الدين كرجى وغرس الدين يمن وسيف الدين سنقر الدوادار وناصر الدين خضر ابن بهرام وبقية العسكر الذى داخل

العطايا، حتى بذل جهوداً كبيرة في جمعهم واحضارهم لمصر (١). ولما حضر أنس والد الأمير برقوق في ذى الحجة سنة ٧٨٢هـ (سنة ١٣٧٩م) في عدد كبير من أقاربه وأولادهم صحبتهم إلى مصر بعثة من قضاة حلب ودمشق (٢).واحتفل بهم برقوق احتفالاً رائعا، فأركب العساكر وسائر الناس «على طبقاتهم» لا ستقبالهم وأقيمت لهم الخيام ومدت الأسمطة بسرياقوس . ودخل «الخواجه» عثمان وعليه خلعه بطرز زركش، وركب عن يمينه نائب دمشق، وركب أنس عن يساره. وحين التقى برقوق بوالده مد له والده يده فأخذها برقوق وقبلها ووضعها على رأسه إجلالاً له أمام الناس ثم أخذ في تقديم كبار أمراء مصر إليه (٣)، وبعد أن خلع على أنس بإمارة الف (٤) أجلسه في صدر المجلس وجلس بجواره القضاة والأمراء. وما أن انتهت مراسيم الاحتفال حتى ركب الجميع إلى القاهرة التى زينت شوارعها وأسواقها وأوقدت بها الشموع وماجت طرقاتها بالنظارة (٥). وبعد أن وصل الركب إلى القلعة أنزل برقوق والده

(١) نفس المرجع والجزء ورقة ٢٦٤، و رقة ٢٧٣.
(٢) العسقلاني : إنباء الغمر جـ١ ص ١٤٨.
(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ١٨٣.
(٤) العسقلاني: إنباء الغمر جـ١ ص ١٤٨.
(٥) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ ص ٢٥٤.

القاهرة مع الملك الافضل فاصلح قلوبهم فمالو
اليه ومسكو نفوسهم عن قتاله وتركو الملك
الافضل وحده فى القاهرة فى نفر يسير من
اصحابه وخرجو جميعهم للملك العادل
واصطلحو معه وفتحو له ابواب القاهرة فدخل
اليها يوم الجمعة السادس عشر من ربيع الاخر سنة
ست وتسعين وخمسماية وحضر فيها صلاة الجمعة
بجامعها. فلما صح عند الملك الافضل صدر

بالاصطبل كما أنزل أقاربه وبنى عمومته بالقلعة وفرض لهم الأرزاق وعينهم فى وظائف مختلفة (١).

ووضح من هذا كله أن الأمير برقوق خطا خطوة أخرى أخذ فيها يعد الأذهان لاستقبال عصر جديد هو عصر الولاء للأمراء الجركس، حتى إذا آمن الناس بهم ونسوا سلاطينهم أمكنه أن ينقل السلطنة إليه «دون أن ينتطح فى هذا عنزان » على قول العسقلانى (٢).

وفى يوم الأحد ٢٣ من صفر سنة ٧٨٣هـ (سنة ١٣٨١م) توفى السلطان على بن شعبان بعد أن حكم خمس سنوات وثلاثة أشهر ونصف شهر، ولم تكن له فى هذه المدة من السلطنة إلا اسمها(٣). ورغم أن الأمير برقوق بلغ من القوة والعظمة ما جعل الناس يتحدثون بسلطنته عقب وفاة السلطان على، فإنه لم يجرؤ أن يتسلطن، إذ أنه فضلاً عن أن فترة التمهيد لإعلان السلطنة لم تكن كافية، فإن كبار الأمراء أظهروا امتعاضهم من سلطنة «مملوك يلبغا» (٤) حين ردد الناس هذا الخبر. ولهذا وجد برقوق أن الحكمة تقتضى التريث فى الأمر، وأن هذه الحركة

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٧٣.
(٢) العسقلانى : إنباء الغمر جـ١ ص ١٨٤.
(٣) الطيب: قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر جـ٣ ورقة ١٠٩٦.
(٤) ابن تغرى بردى: لانجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢٠٧.

عسكره وامرآ دولته خرج من القاهرة باكر يوم السبت السابع عشر من ربيع الاخر سنة تاريخه ومعه ثمانين جمل اموال واثاث. وذكر من شهد خروجه انه لم يصحبه من عسكره واصحابه وامرآ دولته سوى ضيا الدين اخو الفقيه عيسى ومماليكه نحو خمسة عشر فارساً، ومع الافضل من مماليكه نحو من خمسة عشر فارساً يكون الجميع ثلاثين فارساً وتوجه الى قلعة سلخد وهو مقيم بها الى

لم يحن أوانها. ثم جمع برقوق كبار الأمراء والخليفة والقضاة بباب السر بقلعة الجبل، وتحدث بنفسه معهم في سلطنة واحد من أبناء السلطان شعبان، وفي هذا الاجتماع انكشفت أمام برقوق اتجاهات الأمراء نحوه، إذ أعلن الجميع أن مصلحة البلاد تقضي بالاحتفاظ بالعرش لبيت قلاوون [1] وإذ لم يكن هناك بين أبناء السلطان شعبان من هوأكبر من أمير حاجي الذي لم يجاوز التاسعة من عمره أحضروه وسلطنوه في ٢٤ من صفر سنة ٧٨٣هـ (١٣٨١م) وبايعه الخليفة ملقباً إياه بالملك الصالح، وأكد الخليفة في تقليده للأمير حاجي بالسلطنة أن يشترك معه في تدبير أمور الدولة الأمير برقوق «لتشد الناس إلى عقدة محكمة»[2]. وبعد أن حلف له الأمراء وقبلوا الأرض بين يديه خلع على رجال الدولة على العادة.

ومن الطبيعي أن تولية أمير حاجي السلطنة على هذا النحو المشروط بإشراك الأمير برقوق تبين مدى ما وصل إليه برقوق من نفوذ [3] أوضحه ابن تغرى بردى في قوله «بعد أن انفض الموكب أخذ برقوق في التكلم في الدولة على عادته من غير معاند وفي خدمته بقية الأمراء،

(١) المقريزي: السلوك جـ٣ ص ٣٧٥.
(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٧٣ ـ ٤٧٤.
(٣) راجع Ency of Islam Art. Barkuk.

يوم نظم هذه السيرة في سنة ثلث وستماية
الهلالية ومضى وقد انتزع منه الملك بديار مصر
والبيت المقدس والساحل وغيرهم فيما بين الظهر
والعصر يوم الجمعة السادس عشر من ربيع الاخر
سنة ستة وتسعين وخمسماية وهذا اليوم بعينه
يكون اخر ايام ملك الملك الافضل واول يوم من
ملك الملك العادل ديار مصر من السنة المذكورة.
فسبحان الله الدايم الملك دايم البقا يزيل ملوكا

يركبون في خدمته وينزلون عنده ويأكلون السماط» [١]. وبهذا النفوذ تمكن برقوق من أن يخطو خطوة جديدة حين عين عدداً كبيراً من اليلبغاوية في الوظائف الرئيسية [٢]. كما اهتم بترتيب الأمور في الداخل حين اعتمد على تأييد العامة ليستفيد من كثرتهم العددية، واتبع سياسة شعبية أساسها العمل من أجل مصلحة الشعب، ومن ذلك ما قام به حين أخرج الأمير جركس الخليلي فلوساً جديدة بدلاً من الفلوس القديمة رغبة في الشراء عن هذا الطريق السهل. ومن هذه الفلوس التي أخرجها الأمير جركس فلس زنته أوقية بربع درهم، وفلس زنته نصف أوقية وفلس بفلسين. وحين فعل هذا ساءت الأحوال الاقتصادية وغلت أسعار الحاجات وتأثرت التجارة الخارجية واستاء الناس لهذا الإجراء أشد الاستياء. فأمر برقوق فوراً بإبطال التعامل بهذه الفلوس، وكان لهذا أكبر الأثر في إنعاش الحالة الاقتصادية [٣]. ومن مظاهر هذه السياسة الشعبية ما أقدم عليه برقوق من إبطال ضمان المغاني [٤] بحماة والكرك والشوبك

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢٠٨.
(٢) أوضح ابن تغرى بردى أن طريقة الوصول إلى الوظائف في وقت سيطرة الأمراء هي «الوثوب وإقامة الفتنة» راجع ابن تغرى بردى : النجوم ـ جـ١١ ص ٢١٤.
(٣) العيني: عقد الجمان جـ ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٦٨.
(٤) قال المقريزى عن ضمان المغاني (الغواني) أنه كان بلاء عظيما وهو عبارة من أخذ مال من النساء البغايا، فلو خرجت أجل امرأة في مصر تريد البغاء حتى نزل اسمها عند الضامنة وقامت بما يلزمها، لما قدر أكبر أهل مصر على منعها من عمل الفاحشة وكان على النساء إذا تنفسن أو عرسن امرأة أو =

ويقيم ملوكا ويهب الحكمة للطفل الصغير، الذى ليس لملكه فنآ ولا لقدرته انتها جلا وعلا سبحانه تعالى.

(*) سيرة الملك العادل ابو بكر.

الملك العادل ابو بكر(*): وكان دخوله القاهرة كما قلنا يوم الجمعة سادس عشر ربيع الاخر سنة ستة وتسعين وخمس ماية [١٢٠٠م] وزعم قوم انه لم يدخل الى يوم الاثنين التاسع عشر منه ونزل فى الدار الوزارة واهتدى الحرب واطمانة الرعية وامنت

والمنيا، وضمان الملح بعينتاب وضمان الدقيق بالبيرة وضمان القمح [١] بدمياط وفارسكور وإبطال المقرر على أهل البرلس ونستوارة وشورى وبلطيم [٢]، كما أبطل مكوسا أخرى على غرارها، وقابل الشعب هذا الإجراء بالتأييد الكامل للأمير برقوق [٣].

أما فى الخارج فإن الأمير برقوق انتهز الفرصة لإظهار قوته، وجاء هجوم التركمان سنة ٧٨٣هـ على حلب مواتيا إذ استطاع برقوق هزيمتهم وردهم على أعقابهم [٤].

ومن الواضح بعد هذا أن شخصية الأمير برقوق أصبحت قوية ومخيفة، حتى إن أعداءه خشوا على أنفسهم منه فدبروا مؤامرة لقتله. غير أن برقوقاً نصب لنفسه عيوناً تنبعه بما يدور من وراء الستار وكشف خبر هذه المؤامرة، فجمع أتباعه واستشارهم فيما يفعله. واتفق فى هذا الاجتماع على القبض على متزعمى هذه الحركة ونفيهم أو سجنهم فى سجون القلعة [٥].

= خضبت امرأة يدها بحناء أو أراد أحد أن يعمل فرحا لابد من مال بتقرير تأخذه الضامنة ومن فعل فرحا بأغان أو نفس امرأة من غير إذن الضامنة حل به بلاء لا يوصف» المواعظ والاعتبار جـ١ ص ١٠٦.

(١) ضمان القمح كان عبارة عن مكس يؤخذ من الفقراء ممن يبتاع من أردبين فما دونهما. راجع المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ١ ص ١٠٦.

(٢) كان مقرراً على أهل هذه البلاد ستين ألف درهم سنويا (راجع نفس المرجع والجزء والصفحة).

(٣) العينى: عقد الجمان جـ١٤ قسم ٢ ورقة ٢٦١.

(٤) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٤٠٤.

(٥) ابن إياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٢٥٧.

الطرق وخرج الملك المستمر خضر مع اخوه الملك على واقطع الملك العادل الملك المستمر خضر بلاد السواد من اعمال دمشق واستقر الملك العادل فى الملك بعد ان تقرر بينه وبين الاسدية والصلاحية وجميع العسكر ان يكون ولد الملك العزيز سلطان مصر وغيرها من ملك ابوه وجده، ويكون الملك العادل مدبر الدولة حتى يبلغ اشده لان الملك العزيز استحلف الامرآ والاجناد قبل وفاته ان ولده

وكانت هذه المؤامرة آخر حلقة في سلسلة المؤامرات التي دبرت للوقوف أمام العنصر الجركسي وتعطيله عن الوصول إلى السلطنة . فلما نفي برقوق إيتمش الخاصكي وبطا الأشرفي متزعمي هذه المؤامرة التركية وقبض على أتباعهما خلا له الجو « فلم يبق له معاند، وصار له من المماليك الجراكسة عدد كثير جلبوا إليه من البلاد فرقاهم إلى مالم يخطر لهم ببال» [1].

ومع كل هذا؛ ظل الأمير برقوق حريصاً على إخفاء اتجاهه، بل إنه حين شعر بأن الرعية «أنست بحسن سياسته وجميل سيرته»[2]، تظاهر برقوق بحرصه على حياة السلطان حاجى فقبض على بعض الأمراء وادعى عليهم بأنهم دبروا مؤامرة لقتل السلطان. وكان لكشف هذه المؤامرة صدى في موقف الأمراء المناصرين لبرقوق، إذ بدءوا يشفقون على أنفسهم من تدبير أعدائهم عليهم، واجتمعوا للتفاوض فى إسقاط «سلطنة الصغار» واقامة برقوق سلطاناً على البلاد [3] وتوالت الاجتماعات التى أظهر فيها أتباع برقوق خطورة موقف البلاد فى وقت تولى أمرها سلطان صغير. كما أوضحوا للناس أن إهمال تولية سلطان كبير سيؤدى إلى طمع

---

(١) المرجع السابق والجزء ص ٤٠٥.

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٧٤.

(٣) ابن خلدون: نفس المرجع والجزء والصفحة.

يكون سلطان على مصر من بعده وكان اسمه يوسف وانعتوه بالملك الناصر فابقاه الملك العادل على هذه الحالة شهر رجب من السنة المذكورة ثم سير عسكر الى دمشق مقدمه عز الدين اسامة. واسد الدين سنقر ومعهما جماعة كبيرة من الاجناد واحضرو ولده الكامل منها الى ديار مصر فسلطنه عليها وحمل الفاشية [الغاشية](*) قدامه وهذه هي سنة الملوك الفرس القديمة من ايام

(*) الغاشية: السيف أو الصولجان أو فروة الاسد توضع فوق حصان يقوده أحد جنود الملك.

الأعداء في البلاد (١). ثم عرض الأمراء الجراكسة: إيتمش البجاسي وجركس الخليلي وقردم الحسنى على برقوق أن يتسلطن ويحتجب عن الناس حتى يريح أعداءه وأصدقاءه (٢)، ولكن برقوقا أبدى رغبته في أن تأتي هذه الخطوة من جانب جميع كبار الأمراء في مصر وسورية، ولهذا ركب الأمير سودون الفخرى حاجب الحجاب ومر على الأمراء بمصر سراً حتى استرضاهم ومازال بهم حتى حدثوا الأمير برقوق في أمر سلطنته «وهونوا عليه الأمر» وضمنوا له أصحابهم من أعيان النواب والأمراء في سورية. وإذ زالت كل العقبات التي اعترضت الأمير برقوق، وآخرها موت اثنين من كبار الأمراء اليلبغاوية أقدم من برقوق هجرة وإمارة، وهما: الأميرأقطمر عبد الغني والأمير ايدمر الشمسي، قبل برقوق ما عرضه عليه كبار الأمراء في أمر سلطنته (٣).

وبدأت مراسم إعلان السلطنة الجديدة بأن طلب برقوق الخليفة المتوكل على الله في ١٩ من رمضان سنة ٧٨٤ (٢٦ من نوفمبر سنة ١٣٨٢)، إلى الاجتماع به مع القضاة الأربعة وسائر الأمراء في باب السلسة. وقام القاضي بدر الدين بن فضل الله كاتب السر في وسط

(١) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١١.
(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢١٤.
(٣) نفس المرجع والجزء ص ٢١٤ ـ ٢١٥.

كسرى وسابور واردشير الملوك الاكاسرة. وضرب اسمه على سكة الذهب والفضة المتعامل بها فى ديار مصر وامر الخطبا بالديار المصرية ان لا يرجع احد منها يذكر صلاح الدين ولا احد من اولاده على منبر بل يذكرو الخليفه اول [أولاً] والملك العادل ثانى وولده ولى عهده الملك الكامل ثالث(*). ولا يذكر بعد ذالك سوى تمام الخطبة والدعا ثم الصلاة ووهب لخطباء الثغور [الاقاليم]

(*) الملك العادل يتسلطن على مصر ويعين ابنه الملك الكامل وليا لعهده.

المجلس وقال: «يا أمير المؤمنين، ويا سادات القضاة إن أحوال المملكة قد فسدت وزاد فساد العربان فى البلاد، وخامر غالب النواب فى البلاد الشامية وخرجوا عن الطاعة والأحوال غير مستقيمة ، وإن الوقت قد ضاق ومحتاجون إلى إقامة سلطان كبير تجتمع فيه الكلمة ويسكن الاضطراب» (١). وأيد الخليفة قول كاتب السر حين أعلن فى المجلس «أن الأمور مضطربة، وأن الوقت محتاج إلى سلطان كبير يفهم الخطاب ويرد الجواب ويكون صاحب لسان وحسام وفهم وافهام» (٢) ولم يكن هناك بطبيعة الحال من يجرؤ على التقدم لمنافسة برقوق فى السلطنة، ولهذا اتفق الجميع على خلع السلطان الصالح حاجى بعد أن حكم سنة وستة أشهر ونصف وأعلنوا سلطنة الأتابك برقوق (٣)، لما علموا فيه من «حسن سيرته واحكام سيرته واحكام سريرته، وكمال شجاعته ووفور عقله ومروءته، وحسن تدبيره فى سياسته ، وانقياده سنن النبى عليه السلام وشريعته ، ولما فيه من المصلحة التامة للخاصة والعامة» (٤). وبعد أن بايعه الجميع توجه أميران إلى السلطان أمير حاجى وأخذاه من قلعة الدهيشة وأدخلاه

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٤٠٥.
(٢) ا بن أبى السرور: الروضة الزهية ورقة ٤٠.
(٣) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٧٩.
(٤) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٧٩.

والغربية والشرقية وقوص والمدن الكبار لكل خطيب خمسين دينار ثمن خلعه. واستوزر رجلا من اهل دميرة القبليه(*) يسمى عبدالله ابن على قاضياً عدلا من صباه حسن الوجه تام القامة فقيها عالم بحفظ القران ذو معرفة بصناعة الكتابة وجمع الاموال من وجوهها والحديث على الحسبانات [الحسابات] والنظر فى ترجيه الارتفاعات [اصحاب الرتب العالية] فانعته

(*) دميره القبليه: مركز طلخا. على الضفة الغربية المقابلة لمدينة المنصورة.

إلى أهله بالدور السلطانية، ثم أخذا منه النمجاه (١) وأحضراها إلى السلطان برقوق، ثم خطب الخليفة المتوكل خطبته التى دعا فيها السلطان إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كما أوصاه «بالعدل فى الرعية والنظر فى أحوالهم والإحسان إليهم ودفع الضرر عنهم والقيام بحفظهم وحفظ ما تحت ولايته شرقاً وغرباً، براً وبحراً (٢)».

جلس برقوق على تخت السلطنة فى وقت الظهر يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر رمضان سنة ٧٨٤هـ وأفيضت عليه خلعة السلطنة وهى خلعة سوداء، وأشار شيخ الإسلام سراج الدين البلقينى أن يلقب «بالملك الظاهر» فإنه تسلطن وقت «الظهيرة ومن الظهور لأن هذا الأمر ظهر بعد أن كان خافيا» (٣).

وهكذا أصبح مملوك الأمس سلطاناً بفضل دهائه وسياسته وإحكام تنفيذ خطته التى رسمها لهذا الغرض. واعترف به فى الحال سلطاناً أمراء مصر ونواب سورية مع أن أكثرهم كان ذا رتبة عالية ونفوذ عظيم فى الوقت الذى كان فيه برقوق مملوكاً عادياً فى صفوف الجيش (٤).

(١) النمجاه هى شارة السلطنة، وهى كلمة فارسية معربة ومعناه السيف الصغير أو السكين المنحنية. انظر ابن تغرى بردى النجوم جـ١٠ حاشيه ٢ ص ٢٣١.
(٢) الخطيب : نزهه النفوس والأبدان ورقه ١ب.
(٣) نفس المرجع والجزء والصفة.
(4) Muir: The Mamluk Dynasty p. 106.

بالقاضي صفي الدين واسماه الصاحب وسلم له الدولتين المصرية والشامية فنهض فيهما واستقل بهما حتى صار يستخدم ويصرف ويامر وينهى ولا ينعمل شيآ في صغيرة ولا كبيرة الا بعلمه وبثبوت خطه حتى صار الملك العادل لا ينفرد عنه بشي ولا يطلق ولا يمنع ولا يوقع في شي الا برايه وقلمه وبلغ منه ما لم يبلغه الصاحب ابن عباد وزير الخليفة ببغداد الذى سمى هذا باسمه. وكان من قوم يعرفو ببني شكر وله اثار واخبار قد تداولتها

ثم أكمل برقوق مراسم السلطنة، فركب فرس النوبة من الاصطبل السلطاني، والقبة والطير على رأسه، وطلع من باب السر، وعند ركوبه «بأبهه السلطنة» أمطرت السماء فتفاءل الناس بيمن السلطنة الجديدة. ومشى الأمراء والأعيان بين يديه إلى أن نزل بالقصر الأبلق. وعند ركوبه دقت البشائر بقلعة الجبل، كما زينت القاهرة وأنحاء البلاد سبعة أيام، ونودى بالقاهرة بالدعاء للسلطان الملك الظاهر برقوق [١] وأقبل الشعراء على مدحه والإشادة بفضله [٢]. وأقام السلطان برقوق بالقصر الأبلق بالقلعة ثلاثة أيام، وصارت هذه سنة جديدة سار عليها من تسلطن بعده [٣].

والواقع أن نجاح السلطان برقوق في الترقي من صفوف الجندية إلى السلطنة مرجعه

(١) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١ ب.

(٢) مما قاله فيه الشيخ شهاب الدين أحمد بن العطار:

ظهور يوم الأربعاء ابتدأ بالقاهرة المعتز بالقاهر
والبشر قد تم وكل امرئ منشرح الباطن بالظاهر

و مما قاله الشيخ شهاب الدين الأعوج السعدى:

تولى الملك برقوق المفدى بسعد الجد والأقدار حتم
نهار الأربعاء بعد الظهر وللتربيع في الأفلاك حكم

راجع ابن تغرى بردى النجوم جـ١١ ص ٢٢١ ـ ٢٢٢.

(٣) نفس المرجع ولاجزء ص ٢٢٦.

الالسن وشاهدتها الاعين ولو تكلفنا شرحها حتى ندرك بعض ما كان منها بالديار الشاميه لفرغت الصحف ولم تفرغ وكلت الالسن والايدى ولم تغني - واقر بها واعجبها ما جرى بديار مصر فى سنة سبع وتسعين وخمس ماية [١٢٠٠/١٢٠١م]، للهجرة فانه فيما كان خلفا الدولة المصرية وملوكها قد اطلقوه ووقعو به من الصدقات لاهل الفاقات والرواتب للاقارب

حكمته ودهاؤه، وإحكام خطته التى رسمها وقصد بها سيطرة فرقة اليلبغاوية أولاً على شئون الحكم، حتى إذا تم له هذا الأمر مكنته شخصيته من الفوز على غيره من الأمراء اليلبغاوية واعتلاء السلطنة. ورغم أن السلطان برقوق اعتلى السلطنة بفضل تأييد الجراكسة إلا أنه لم يفاجئ الترك بتعصبه العنصرى ما دام أكثر اليلبغاوية من الترك، ولذا حرص فى بداية سلطنته على إرضاء الأمراء اليلبغاوية من الترك والجركس على السواء، بدليل أنه جعل الأمير جركس الخليلي الجركسي مشيراً للدولة، وفي الوقت نفسه، جعل الأمير سودون الفخرى التركي نائب السلطنة بمصر ثم عفا عن يلبغا الناصرى وأقره في نيابة حلب بعد أن حضر يلبغا وقبل الأرض بين يديه [١]. على أنه مما يثير الالتفات أن السلطان برقوق ركز كل السلطات في يده حين جعل مرجع هؤلاء جميعا إليه ، كما أنه قيد سلطة الوزير ورسم له ألا يتكلم في شئ إلا بعد مراجعته.

وهكذا أيضا أنهي برقوق سلطنة الترك فى مصر بعد حكم دام نحو مائة وثلاثين سنة وقضى على سلطنة بيت قلاوون، بعد أن حكمت هذه الأسرة من هذه الفترة نحو مائة سنة. وأقام برقوق دولة جديدة هى الدولة المملوكية الثانية التى أطلق عليها المؤرخون المعاصرون

(١) نفس المرجع والجزء ص ٢٣١.

والاجانب مما تساوى فيه فى ايام دولتهم الفقرا
والاقويا والاغنيا والضعفا لان معروفهم وخيرهم
كان واصل الى كافة الناس اعداهم واولياهم،
فاشار هذا الوزير بقطع ذالك جميعه فقطع فمنع
الله النيل فى تلك السنة ان يصعد على ارض مصر
فشرقت جميعها من برج اسوان الى برج دمياط
وكان مبلغ ما حصل منه فى المقايس فى تلك
السنة ثلثة عشر ذراعا وثمانية اصابع فشرقت البلاد

«دولة الجراكسة»[1]، وذلك لأن الجراكسة أصبحوا عماد السلطنة المملوكية الثانية بفضل دأب برقوق على جلبهم وتشجيع التجار على الإكثار منهم، وحرص برقوق على ملء الوظائف بالجراكسة بعد إقصاء عناصر الترك بصفة مستمرة عن هذه الوظائف. وعبر المؤرخون المعاصرون عن هذا الانتقال بعبارات الرضا عن الأحوال الجديدة للبلاد وانتقال الحكم إلى سلطان كبير أمسك بزمام الأمور، وأخذ يوجه سياسة الدولة فى الداخل والخارج، وقبض على نفوذ أكثر الأمراء الترك، ذلك النفوذ الذى أضعف السلطنة المملوكية الأولى، ومن هذه العبارات ما قاله ابن خلدون: «وانتظمت الدولة أحسن انتظام وسر الناس بدخولهم فى إيالة سلطان يقدر للأمور قدرها ويحكم أواخيها» [2].

حكم السلطان برقوق

مشاكل سلطنة برقوق ـ ثورة الطنبغا السلطانى التركى نائب الابلستين ١٣٨٢م ـ طمع الخليفة المتوكل سنة ١٣٨٣م فى السلطنة وسجن المتوكل ـ كشف مؤامرة أحمد بن البرهان سنة ١٣٨٦م ـ ثورة المماليك الترك بزعامة منطاش نائب ملطية سنة ١٣٨٨م ـ اعلان

(١) راجع المقريزى: الخطط جـ٢ ص ٢٤١.
أبن تغرى بردى النجوم الزاهرة جـ١١ ، جـ١٢.
(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٧٤.

وخربت وهلكت الرعية وتفرقت وتشتت الخلايق
وتمزقت ومضى خلق كثير من ديار مصر الى
الشام باموالهم واولادهم فهلكو واخذوهم العربان
فى الطريق وماتو بالبرد والجوع والقتل من العربان
واخذ النفوس والاموال حتى كان الرجل منهم
يموت ولده او اخوه او اعز الناس عنده فيتركه
مطروحاً ويروح ولا يقدر يقف حتى يدفنه فى
الرمل بل ينجا بنفسه مع الناس ولا يلتفت الى وراه

السلطان برقوق عداءه للترك ومحاولته قتل يلبغا الناصرى ـ توحيد صفوف الترك لمقاومة الجركس ـ اعلان الصراع بين الترك والجراكسة ـ معركة دمشق أو معركة الخمسمائة بين جيش برقوق والمماليك الترك سنة ١٣٨٩م ـ عودة جيش برقوق منهزما الى القاهرة ـ استيلاء المماليك الترك على القاهرة سنة ١٣٨٩م خلع برقوق واعادة السلطان حاجى الى الحكم ـ عوامل انقسام الترك على أنفسهم ـ النزاع بين منطاش ويلبغا الناصرى ـ خروج السلطان برقوق من الكرك الى دمشق فى أواخر سنة ١٣٨٩م انتصار السلطان برقوق على منطاش بدمشق ـ عودة السلطان برقوق الى القاهرة وخلع السلطان حاجى.

* * *

وصل الأمير برقوق إلى السلطنة بفضل خطة أحسن تدبيرها وتنفيذها، غير أن الطريق أمامه لم يكن مفروشاً بالورود، بل اتصف حكمه بالكفاح المستمر لإحباط المؤامرات التى دبرها المماليك الترك ضد سلطنته. ذلك أن السلطان برقوق حين أخذ فى إرساء قواعد دولته وجد نفسه يواجه فرقتين من المماليك الترك، فرقة اليلبغاوية الترك وفرقة الأشرفية مماليك السلطان شعبان. ولما كان لليلبغاوية الترك فضل الموافقة على سلطنته فإنه بدأ حكمه بإشراك أمرائهم فى الحكم إشراكاً شكلياً، حتى يمكنه أن ينصرف إلى التخلص أولاً من المماليك الأشرفية الترك. وتحقيقاً لهذه السياسة حرم أكثر الأشرفية من إقطاعاتهم وتركهم بطالين وبرر السلطان

ولا ينقطع من رفيقه فيهلك. واخبرني من شاهد الخلق موتا رمم من باب بلبيس الى باب غزه هم ودوابهم ومواشيهم الواحد الى جانب الاخر وكانة [كانت] ثلثة ضربات ضرب الله بها المصريين الغلا والجلا والوبا (*) وذالك بنية سلطانهم ووزيره [حتى] بلغ القمح بدينار الويبة مغربلة، والخبز بنصف وربع درهم الرطل المصرى وبدرهمين وربع ورقا [فضة]الرطل بالحلى والشعير بخمسة

(*) اجتماع الغلاء والجلاء والوباء على أهل مصر حتى اكل الناس اولادهم.

برقوق إجراءه هذا بقوله : «إن هؤلاء. خانوا أستاذهم بعد أن عاشوا فى نعمته مدة طويلة، وانه لهذا «لم يعد يأمن لهم» (١). وأتبع السلطان هذا العمل بإحلال مماليكه الجراكسة تدريجياً مكان هؤلاء المماليك الأشرفية الترك. ولذا أدت هذه السياسة إلى الكثير من المؤامرات والفتن التى أثارها الأمراء الترك الذين أدركوا خطورة سياسة السلطان برقوق فى جركسة الدولة كلها وما تبع هذا من اضطهاد مستمر للعناصر المملوكية التركية.

وأولى هذه الثورات التركية ثورة الطنبغا السلطانى الأشرفى نائب أبلستين (٢). ذلك أن هذا الأمير هاجم فى ذى القعدة سنة ٧٨٤هـ (سنة ١٣٨٢م) قلعة دارنده (٣) المضافة إلى نيابته وقبض على بعض أمرائها من الجراكسة الذين عينهم برقوق أخيراً. غير أن مماليك هؤلاء الأمراء تمكنوا من القبض على مماليك الطنبغا السلطانى وضيقوا عليه الحصار حتى طلب الأمان؛ بيد أنهم بعد أن أمنوه تمكن من الفرار من القلعة إلى مقر نيابته. ومما هو ملحوظ أن هذه الثورة لم تكن مؤيدة من الترك اليلبغاوية فى سورية بدليل أن الأمير يلبغا الناصرى نائب حلب لم ينضم

(١) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٥أ.

(٢) أبلستين مدينة مشهورة ببلاد الروم قريبة من أبسس وكانت ضمن بلاد السلطنة المملوكية الثانية ـ راجع ياقوت: معجم البلدان جـ١ ص ٨٦.

(٣) قلعة دارندة كانت من بلاد الثغور والعواصم الخارجية عن حدود البلاد الشامية ولها نائب أمير عشرة وربما طبلخانه ـ انظر القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص ٢٢٨.

وعشرين درهم الويبة والفول بعشرين درهم الويبة واما الحمص والعدس والجلبان فكانو قليل والذى يجد منهم شيأ يشتريه بدرهمين وربع القدح، وكان الترمس والبرسيم بدينارين الاردب ثم بلغ الترمس درهم القدح مبلول. فباعو الناس من الاثاث والقنايا والدور والجوار والعبيد مما قيمته دينار بدرهم وناس كثير باعو بنيهم وبناتهم كالمماليك للخدمة واحتجو بقولهم نبيعهم لمن يطعمهم الخبز

إلى الطنبغا السلطانى فى حركته هذه، بل على العكس كتب إلى الطنبغا يهدده بالزحف على نيابته وعزله إن لم يرجع عن عصيانه.

والواقع أن هذه الثورة إن دلت على ما كان فى نفوس الأشرفية الترك من الحقد ورغبتهم فى الثورة على حكم الجراكسة، فإنها تدل على مدى تفكك المماليك الترك آنئذ، حتى إن الطنبغا السلطانى حين شعر بضعف مركزه لعدم مؤازرة نواب سوريا من اليلبغاوية الترك فر هارباً إلى بلاد التتار بعد أن أعلن رأيه صراحة فى قوله. «لا أكون فى دولة حاكمها جركسى»[(١)].

على أن الأشرفية جربوا حظهم مرة أخرى فى أول رجب سنة ٧٨٥هـ (سنة ١٣٨٣م)؛ وكانت هذه المرة بالاتفاق مع الخليفة المتوكل على الله، وخلاصة الاتفاق أن يقوم قرط ابن عمر الكاشف وإبراهيم قطلقتمر العلائى أمير جندار ومعهما نحو ثمانمائة فارس من الترك[(٢)] باغتيال السلطان برقوق إذا نزل للعب الكرة بالميدان، وإعلان الخليفة المتوكل سلطاناً على البلاد[(٣)]. وحين كشفت هذه المؤامرة وجئ بالمتآمرين إلى حضرة السلطان برقوق هددهم

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢٢٩.
(٢) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٢٨.
(٣) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٢٠٠ ـ ٢٠١.

فيعيشو به اصلح من ان يموتو بالجوع وكان الولد يخطف الخبز وغيره من يد ابوه ليحيى به نفسه والاب يخطف من ولده حتى يحيى نفسه واكلو لحوم الميتة من الحمير والبغال والخيل والكلاب والقطط وجميع الهوام والوحوش والطير الحى والميت. وكانو نساء مرضعات يعجزو من الجوع عن الرضاعه فيرمو اولادهم فى جامع المحلة وغيرها من المدن فى جميع ديار مصر فيرمو الاطفال اولاد

بالويل والثبور،حتى اعترفوا بأن الخليفة استدعاهم وقال لهم «هؤلاء ظلمة وقد استولوا على هذا الأمر كرهاً منى فى الباطن، ولم أقلد برقوقاً إلا غصباً» (١). وظهر من اعترافاتهم أن الخليفة كتب إلى عرب البحيرة وطلب معاونتهم (٢). وعندئذ غضب السلطان برقوق وهجم على الخليفة يريد قتله بسيفه ولكنه تراجع ثم حكم عليه بالموت، ووافقه البعض على هذا الحكم، على حين اختلف القضاة فيما بينهم فى أمر هذا الحكم لأن للخليفة حق تعيين وخلع السلاطين؛ وهذا تخلص عجيب فى بابه من ورطة هذا اليوم (٣). وازاء هذا قنع برقوق بخلعه وسجنه بالقلعة وتعيين عمر بن إبراهيم خليفة وتلقيبه بـ « الواثق بالله» وبالحكم على قرط بن عمر بالموت(٤).

على أن هذه المؤامرة التى وضح فيها استعانة الخليفة بالترك والعربان لقلب نظام الحكم الجديد جعلت السلطان برقوق يبدأ حكم الإرهاب ضد مثيرى الفتن من الترك الأشرفية وعزل عدداً كبيراً منهم عن وظائفهم، كما نفى عدداً آخر إلى سورية بطالين.

(١) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٧أ.
(٢) المرجع نفسه والجزء والصفحة.
(٣) السيوطى: حسن المحاضرة جـ٢ ص ٦٠.
(٤) ابن العماد: شذرات الذهب جـ٦ ص ٢٨٦.

شـهـر وشـهـرين وثلثـة وفـوق ذالك فى الجـوامع والمساجد والطرقات والاسواق بالليل فياتو نسا اخر ورجال فـياخـذوهم فى اقمطتـهم انهم يربوهم لله فياكلوهم وقوم يربوهم وكان كل يوم يصبح فى جامع المحلة منهم جماعة كبيرة فلا يجى المسا حتى ياخـذوهم وكـان الشـرط [الشـرطة] يمسكو نسا كثير ومعهم قدور يجدو فيها لحوم الناس صغار وكبـار مطبـوخين ومـسلوقين ومـشـويين فـيـودوهم

غير أن هؤلاء المنفيين صاروا عاملاً من عوامل إثارة حكام سورية الذين توجسوا خيفة من أن يتهموا أو يعزلوا وأحس السلطان برقوق بهذه المخاوف حتى بدأت الشكوك تساوره من ناحية اليلبغاوية كذلك، ومما خلق عنده هذه الشكوك أن الأمير يلبغا الناصرى نائب حلب سلك مسلكاً شاذاً فى سنة ٧٨٧هـ (سنة ١٣٨٥م) من سولى بن دلغادر التركمانى عدو السلطنة المملوكية الثانية، ذلك أن سولى بن دلغادر حضر إلى حلب طائعاً، فأنزله يلبغا الناصرى عنده، وكاتب السلطان برقوق فى أمره، فأرسل برقوق إلى يلبغا بالقبض عليه وإرساله إلى القاهرة مقيداً. غير أن يلبغا الناصرى وجد فى القضاء على سولى بن دلغادر هدوءاً لأحوال سورية وبالتالى توطيداً لنفوذ السلطان برقوق مما يعين السلطان على تحقيق سياسته الخطيرة نحو الترك ـ فتظاهر يلبغا بطاعة السلطان وقيد سولى وحبسه بالقلعة ولكنه عاد فأطلقه بعد أن زيف مكاتبة من السلطان بإطلاقه. وحين كشف زيفه حاول أن يدلل على براءته بخروجه بالعسكر فى طلب سولى، ولكنه سار يوماً فى غير الطريق الذى سار فيه سولى بن دلغادر، وعاد معلناً عدم إمكانه العثور عليه [٢]. وغضب السلطان برقوق من تصرف يلبغا، وخشى تكرار مؤامرته بعد أن ظهرت نياته واضحة، فأرسل بعزله عن نيابة حلب، وعين مكانه الأمير سودون المظفرى

(١) العينى: عقد الجمان جـ ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٨٩.
(٢) العسقلانى : إنباء الغمر جـ١ ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

للولاة فيضربوهم وبعضهم يجدوه قد ذبح او قتل فيقتلوه، وكانو جماعة من الناس صبيان شباب يقفو في الاسواق الليل والنهار ويخطفو ما يشتروه الناس. وجملة الامر انهم اكلو بعضهم بعض وكان القوى يقوى على الضعيف فياكله ولم يبق احد يوارى احد التراب وهان الموت حتى صارو مطروحين في الشوارع والازقة والطرقات والكيمان ولا احد يبكى على احد ولا امراه تندب ولا تنوح

صاحب حلب الذى طالما دس على يلبغا الناصرى عند السلطان. وحين جاء يلبغا الناصرى إلى القاهرة فى رجب سنة ٧٨٧هـ عنف وقيد ثم أرسل إلى سجن الإسكندرية [١].

وما كاد السلطان برقوق يأمن شر يلبغا الناصرى وينصرف إلى أحواله الداخلية حتى واجهته فى السنة التالية مؤامرة جديدة اشترك فيها مع الترك أربعة من الفقهاء فى دمشق. وفى ٢٤ من ذى الحجة سنة ٧٨٨هـ (سنة ١٣٨٦م) أحضر هؤلاء الفقهاء الأربعة من دمشق مقيدين ليقفوا بين يدى السلطان برقوق. وحين واجههم السلطان بتهمة «السعى فى نقص المملكة والدعاء لإمام قرشى» [٢] تقدم كبيرهم أحمد بن البرهان فى جرأة عجيبة وأنكر على السلطان برقوق قيامه بحكم البلاد وأظهر له أنه «غير أهل للقيام بأمر المسلمين إلا إمام قرشى» [٣]. وكانت هذه الحركة غريبة فى بابها وقتذاك، ولذا اعتقد السلطان برقوق أن للترك ضلع فى هذه المؤامرة وأمر أصحابه أن يعاقبوهم حتى يعترفوا على من اشترك معهم من الترك؛ غير أن هؤلاء لم يعترفوا برغم عقابهم فسجنهم بخزانة شمايل [٤]. واضطر برقوق بعد هذا إلى انتهاج سياسة الإرهاب للقضاء على الترك سواء أكانوا من فريق الأشرفية أو اليلبغاوية،

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥، ص ٤٧٦.
(٢) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٤٧٠.
(٣) نفس المصدر والجزء والصفحة.
(٤) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقة ١٦.

وانقلعت الحنه [الحنيّة من] قلوب الناس وانقطع من الحياة الرجا وحصل الاياس وهلكت الناس وخربت المدن وخلت القرى لان اهل القرى انضوو الى المدن لطلب المعاش لانه لم يبق احد يعمل صنعة ولا يعمر عمارة، وضعفت قوة الخلق من الجوع والموت وما بقى احد اذا طلب يقول لله كسره ولا لقمة بل يقول لله لبابه هذا كان قول من يطلب. وكانو كبار الناس بمصر والقاهرة من

فتتبعهم بالقتل والنفى كما ترك عدداً كبيراً منهم بطالين. وزيادة فى الحيطة أمر بوقوق ألا يدخل عليه أحد من الأمراءالقصر إلا بمملوك واحد ويترك بقية الأتباع خارج القصر فامتثل الأمراء لهذا الأمر (١).

وحين ازداد اضطهاد السلطان برقوق للترك الأشرفية عز الأمر على تمربغا الأفضلى الأشرفى المعروف بمنطاش نائب ملطية. (٢) وأخذ فى جمع الترك الذين نفاهم السلطان برقوق استعداداً لمقاومة السلطان وإعلان العصيان. وعلى حين أخذ منطاش يعد العدة لهذه الثورة منتظراً انتهاء فصل الشتاء ليصبح الطريق إلى مصر مفتوحاً ، أرسل استاداره إلى برقوق يخبره ببقائه على طاعته. ولكن السلطان برقوق كان أكثر دهاء، وأرسل دواداره ملكتمر بعشرة آلاف دينار لينفقها فى أمراء حلب مقابل قيامهم بمراقبة حركات منطاش (٣). وأثبتت المعلومات التى جمعها ملكتمر سوء نية منطاش وعجز الأمير سودون المظفرى نائب حلب عن

(١) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٢٢٣.
(٢) أصله من مماليك السلطان الأشراف شعبان الترك ابقى عليه الظاهر برقوق وعينه فى نيابة ملطية بشفاعة قجماس ابن عم السلطان برقوق لأنه حين مر عليه وهو مع التاجر الذى جلبه بالغ فى الإحسان إليه - راجع العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٢٨٣ ، الدرر الكامنة جـ٤ ص ٢٦٤.
(٣) ابن الفرات : تايخ الدولة والملوك جـ٩ ص ٢٣.

الاجناد والكتــاب واهل الخـيـــر من المسلمين
والنصارى يصدقو على الفقر ويعمل كل احد على
قدر طاقته. ولم تزل هذه الامور مستمرة سنة سبع
وسنة ثمان ولما كان فى شهر ربيع الاول سنة تسع
وتسـعين وخـمس مـاية [١٢٠٢م] نظر الله جلت
قدرته تلاف الخلق ورحمهم وانجلت الاسعار وابيع
الخبز ثلثة ارطال بدرهم بالمصرى وبرطل المحله رطل
بدرهم وفى ربيع الاخر ابيع برطل المصـرى سـتـة

محاربته[1]. وحين وصلت هذه المعلومات الخطيرة إلى السلطان برقوق لم يكن فى وسعه إطلاق سراح يلبغا الناصرى واعادته إلى نيابة حلب بدلاً من سودون المظفرى [2] وذلك فى ربيع الأول سنة ٧٩٠هـ (ديسمبر سنة ١٣٨٨م) ظناً منه أن يحصل بهذا على تأييد اليلبغاوية ويثيرهم على الأشرفية وبذا يستفيد من الانقسام فى صفوف الترك.

بيد أن الحوادث أثبتت عكس ما توقعه برقوق إذ أنه ما كادت تمضى ثلاثة أيام على مغادرة الأمير يلبغا الناصرى للقاهرة حتى وصل إلى علم السلطان برقوق نبأ إعلان منطاش عصيانه فى ٣ من ديسمبر سنة ١٣٨٨م بعد أن اجتمع لديه عدد كبير من الأشرفية الترك [3]. وهنا أحس برقوق بخطأ كبير لإطلاقه سراح يلبغا الناصرى وتوقع أن ينضم يلبغا إلى بنى جنسه كما فعل من قبل حين انضم إلى الأمير بركة.

على أن يلبغا الناصرى لم يجرؤ على الانضمام علناً لمنطاش، مع أن جانب منطاش كان قوياً بعد أن أنضم إليه برهان الدين أحمد صاحب سيواس، وفرار محمد التركمانى، ونائب البيرة. أما يلبغا الناصرى، فإنه نفذ أمر السلطان برقوق وتقدم لإخضاع أعدائه. ولكنه بدلاً من

(١) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٢٢٥.
(٢) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٤٨٠.
(٣) راجع العسقلانى: الدرر الكامنة جـ٤ ص ٣٦٤.

بدرهم وبرطل المحلة رطلين بدرهم فتراجعت الناس قليلا قليل وبدو يعمرو، والقزازين والحيكه وارباب الصنايع بدو يعملو وفى سنة تسع ابيع الخبز بالمصرى احد عشر رطل بدرهم وبالمحلى اربعة ارطال بدرهم وتراخت الاسعار وامنت الطرقات وسافرو الناس فى البر والبحر بعد ان كانت الطرقات انقطعت وما كان احد يقدر يسافر وحده الا ياكلوه الغيلان الذى تغولو من بنى ادم فاعوذ

أن يتجه إلى منطاش فى ملطية اتجه أولاً إلى مدينة سيواس وأحكم الحصار حولها [١]. ويبدو أن صاحب سيواس خشي أن يقع بين هجومين: أحدهما هجوم تيمور لنك الذى أخذ يزحف غرباً، والثانى هجوم جيوش السلطان، فبادر إلى إعلان الطاعة [٢] واكتفى يلبغا الناصرى بقبول طاعة برهان الدين مع أنه كان فى وسعه الاستيلاء على سيواس وطرد صاحبها [٣]. والواقع أن هذا الموقف المائع الذى وقفه يلبغا الناصرى سبب للسلطان برقوق متاعب كثيرة، إذ أنه لم يشتبك بمنطاش وأتاح له الفرصة لتجتمع حوله المماليك الترك ليتمكن من الثورة مرة أخرى على السلطنة المملوكية الثانية بعد أن يوحد صفوف المماليك الترك.

وفى ربيع الآخر سنة ٧٩٠هـ (سنة ١٣٨٨م) عاد السلطان برقوق إلى الوقوع فى خطأ جديد، وذلك حين قبض على الأمير الطنبغا الجوبانى نائب دمشق وأكثر الأمراء الترك إخلاصاً له لمجرد انتشار الأخبار عن إكثار الأمير الطنبغا الجوبانى من شراء المماليك[٤]. وفسر الترك مسلك برقوق من الجوبانى بأنه حمل كل معانى الغدر. ذلك أنه حين حضر الطنبغا الجوبانى

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٤٨٨ ـ ٤٨٩.
(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٨٣.
(٣) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٢ ورقة ٣٢٨.
(٤) أصل الطنبغا الجوبانى من اليلبغاوية ـ وثق به برقوق وجعله أمير مجلس ومعناه صاحب الشورى فى الدولة ـ راجع ابن خلدون جـ٥ ص ٤٧٧.

بالله من سخط الله. وهذا ما انتهى الينا علمه
وسطرنا هذه السيرة والاب البطرك رزقنا الله بركة
صلاته حى فى شوال سنة ثلاثة وستماية الهلالية
الموافقة للنصف من بشنس سنة ثلث وعشرين
وتسعماية للشهدا الابرار [١٢٠٦م] صلواتهم
تحفظنا واياكم. وكتب معاى [معى] ابن ابو المكارم
ابن بركات ابن ابو العلا بخطه لنفسه فمن ادرك
نياحت الاب يوحنا [يوانس] وعرف شى تجدد فى

إلى مصر ليدلل على براءته قبض عليه السلطان برقوق وسجنه بالإسكندرية وأقر منافسه طرنطاى فى نيابة دمشق[١].

ثم عادت مخاوف برقوق من الترك تدفعه إلى القبض على الكثيرين منهم، وخاصة مثيرى الفتن من المماليك البطالين. وأدى هذا إلى فقدان أمرائه ونوابه الترك ثقتهم فيه [٢]. وتكتل نواب سورية الترك ممن ينتمون إلى الرقتين وقبضوا على عدد كبير من الجراكسة [٣]، أما يلبغا الناصرى فإنه لم ينضم إلى هذا التكتل وآثر الحياد واحتجب فى بيته خشية اصطدامه بإينال اليوسفي الجركسي. غير أنه فى الوقت نفسه اتصل بمنطاش سراً وشجعه على الاحتماء بحماه، حيث وجد فى أهلها من يناصره من أعداء السلطنة المملوكية الثانية [٤].

أثارت هذه الأخبار السلطان برقوق، ولكنه كظم غيظه ريثما تتم استعداداته للانتقام من يلبغا الناصرى، حيث إنه لم يكن يستهان بقوة يلبغا الناصرى بعد أن ازداد نفوذه فى حلب بسبب تمكنه من أسر حوالى ألف من التتار واستيلائه على عشرة آلاف فرس منهم [٥].

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٤٩٤.
(٢) راجع ابن دقماق: الجوهر الثمين مجلد ٢ ورقة ١٨٣ (النسخة المصورة).
(٣) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقة ٣٩.
(٤) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقة ٣٩.
(٥) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٤٩٠.

ايامه فليذكره ويتم به سيرته والمجد للاب والابن والروح القدس الاله الواحد.

وفى ايام هذا الاب انتهى اليه ان قسيس من اهل البشمور سكن مدينة الاسكندرية وكانو كهنتها يحلفو عليه يقدس فى كنايسها واقام على ذالك حيناً وزماناً فحضر رجل يعرفه من اهل بلده الى الاب البطرك انبا يوحنا [يوانس] واعلمه ان القسيس المذكور توفت زوجته وتزوج ثانية وانه

وحتى تتم استعدادات السلطان برقوق عمد إلى علاج الموقف بالحيلة والدهاء، ذلك أنه حين بدا الموقف خطيراً بسبب قلة أعداد الجراكسة بالنسبة للترك فى سورية أخذ يتودد إلى يلبغا الناصرى وبعث إلى بهدية من جملتها «خيول عربية وكنابيش وأطرزة زركش، وبعث مع الهدية كتاباً استدعاه فيه للحضور إلى مصر للتشاور فى أمر منطاش [1]. غير أن يلبغا حين وصله رسول السلطان أبلغه شكره على هديته، ولكنه خشية أن يفعل به ما فعله بالأمراء الترك من قبل، كتب إلى السلطان يعتذر عن الحضور بحجة انشغاله فى مقاومة حركتى التركمانى ومنطاش، وخوفه على حلب منهما [2]، وبعث يلبغا الناصرى برده على يد رسول من عنده، ولكن رغبته فى الانتقام من السلطان برقوق دفعته إلى الكتابة سراً إلى أمراء مصر يحضهم على الثورة على السلطان برقوق، كما طلب من رسوله أن يكشف له فى أثناء وجوده بالقاهرة عما دبره ا لسلطان له ولإخوانه الترك من المكائد [3].

وبرغم أن السلطان برقوق اظهر قبولاً لكتاب يلبغا الناصرى إلا أن خوفه من مكائد يلبغا الناصرى وتوقع انضمامه إلى منطاش دفعاه إلى التدبير عليه مع خاصكيته، الذين كسب ودهم

(١) راجع العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٢٥٠.
(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٨٤.
(٣) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك جـ٩ قسم ١ ص ٥٢.

تعدى قانون الكهنوت فصعب ذالك عليه جدا ومنع القس المذكور واغلق الكنايس بالاسكندرية وكتب الى الكهنة كتابا صعب، وطلعو له الى مصر فاغلظ عليهم وعظم ذالك عندهم جدا فسالوه وثقلواعليه باراخنة مصر حتى صفح عنهم وتقدم لهم ان لا يرجع غريب يتصرف عندهم واخذ خطوطهم بذالك واستمر ذالك في جميع ايامه. ولما فسح الله جلت قدرته وعظمته لاخوكم

بشربه القمز بالميدان معهم يومى الأحد والإربعاء من كل أسبوع [١]؛ حتى اقتضى رأى الجميع إرسال الأمير ملكتمر الدوادار مرة أخرى إلى حلب بحيلة دبروها؛ ظاهرها مطالبة يلبغا الناصرى بصلح سودون المظفرى بحضور ملكتمر والأمرا والقضاة والأعيان وأن يلبسا خلعتى السلطان بعد الصلح . ولكن وراء هذا الصلح كانت خيوط المؤامرة التى دبرها السلطان مع خاصكيته، وذلك أن السلطان أدرك صعوبة الصلح بين يلبغا الناصرى وبين سودون المظفرى، لما بينهما من عداء مستحكم. فكتب السلطان إلى سودون المظفرى وبعض أمراء حلب بالقبض على الناصرى وقتله فى أثناء اجتماع الصلح[٢] وتعمد السلطان أن يؤخر رسول الناصرى عنده حتى يسبقه دوداره ملكتمر إلى حلب، بيد أن يقظة رسول الناصرى مكنته من أن يلم بتفاصيل مؤامرة السلطان. وحين أزمع رسول يلبغا السفر جد في السير إلى حلب حتى سبق ملكتمر وأطلع أستاذه على تفاصيل المؤامرة، فاحتاط الناصرى للأمر [٣].

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٤٩٩.

(٢) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٣ ورقة ٣٣٤ ـ روى ابن الفرات أنه رأى بخط بعض المؤرخين أن الأمير ملكتمر الدوادار كانت بينه وبين الشيخ حسن رأس نوبة الأمير يلبغا الناصرى مصاهرة، فلما بعثه السلطان برقوق بالكتب أخبر الشيخ حسن بما أبطنه. راجع ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك جـ٩ قسم ١ ص ٥٢.

(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧.

المهتم بهذه السيرة المقدسة الذى اجهد نفسه فى طلبها من كل مكان وجمعها وكتبها بخطه لنفسه فى الحياة ادرك فى ايام هذا الاب الجليل قضية جرت فى ايامه وقد ذكر بعض ابهاتنا من الشيوخ انه كان جرى مثلها فى ايام من تقدمه من البطاركة رزقنا الله واياكم صلواتهم المقبولة مصطفيين من الله مويدين بروح القدس الساكن فى قلوبهم.كان رسل ملك الحبشة والنوبة قد وردو

وحين وصل مندوب السلطان إلى حلب أول صفر سنة ٧٩١هـ ـ سنة ١٣٨٩م خرج الأمير يلبغا الناصرى واستقبله مظهراً الطاعة للسلطان، وبعد أن أخذ منه هدايا السلطان عاد به إلى دار السعادة بحلب [١]، حيث اجتمع الأمراء والفقهاء وغيرهم من أمراء حلب لسماع كتاب السلطان. وبعد أن قرئ الكتاب أرسل الناصرى إلى سودون المظفرى يطلب منه الحضور للصلح ، ولكن سودون تلكأ بسبب قلة مماليكه عن أتباع الناصرى. وإزاء إلحاح الناصرى عليه بالحضور ، حضر سودون لابساً عدة الحرب تحت ملابسه خشية غدر الناصرى، ثم دخل سودون إلى دهليز دار السعادة حيث وقف قازان البرقشى أمير آخور الناصرى، وتقدم قازان ولمس كتف سودون، فوجد السلاح تحت ملابسه، وعندئذ انبرى قازان يؤنب سودون بقوله: «يا أميرا الذى يجئ للصلح يدخل دار السعادة وعليه السلاح وآلة الحرب؟» [٢] فسبه سودون حتى سل قازان سيفه وضربه. ثم أخذت سودون المظفرى السيوف من كل جانب من مماليك الناصرى الذين رتبهم لهذا الأمر. وتبع هذا معركة بين مماليك سودون ومماليك الناصرى انتهت بهزيمة مماليك سودون[٣].

---

(١) دار السعادة هى دار الحكومة التى يقيم فيها الوالى والحاكم ومنها يدير شئون الحكم.
(٢) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١١٩.
(٣) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٥٠١.

عليه بكتاب الملك يلتمسو منه ان يقسم لهم
مطران لكون المطران الذى كان عندهم قد تنيح
ومن عادة الملك انه اذا ارسل رسل الى البطرك
يسير معهم هدية جليلة لسلطان مصر وكتاب اليه
بان يتقدم للبطرك بقسمة المطران فلما وردت
الرسل الى البطرك اقامو عنده نحو من ثلثة اشهر
وهو يرسل تلاميذه الى الديارات بوادى هبيب
وغيره ويتامل هل عنده بمصر والقاهرة من يصلح

وهكذا كشف يلبغا الناصرى عن موقف السلطان برقوق ونواياه إزاءه وإزاء المماليك الترك. وبدأ يلبغا الناصرى منذئذ يواجه السلطان علناً، فاجتمع بالأمراء الترك وقرروا خلع السلطان برقوق (١). كما قبض يلبغا على عدد كبير من الأمراء الجراكسة، ثم تمكن من الاستيلاء على قلعة حلب بعد صراع طويل مع نائبها(٢). ودخل فى طاعته أهل حلب وأمراؤها وعسكره وبعض التركمان والعرب (٣)، ثم عمل يلبغا على توحيد جبهة الترك، فكتب إلى منطاش يدعوه إلى محالفته، وصادفت هذه الدعوى هوى فى نفس منطاش فقدم عليه بعد أيام قليلة ودخل فى طاعته (٤) وهكذا أدت الحادثة إلى اتحاد المماليك الترك فى فرقة الأشرفية مع المماليك الترك اليلبغاوية وأنذرت بالتالى بسوء مصير سلطنة برقوق.

ولم يكن فى وسع السلطان برقوق حين وصلته هذه الأخبار السيئة سوى الاعتماد على الجراكسة وجمع شملهم لمواجهة الترك، كما كتب إلى الأمير اينال اليوسفى الجركسى أتابك دمشق تقليداً بنيابة حلب، وأمره بالقبض على الناصرى (٥). غير أن اينال تغلبت عليه الأثرة، فتذكر موقف برقوق منه حين اعتقله من قبل ولم يسارع إلى تنفيذ أوامره.

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٨٥.
(٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ٩ قسم ١ ص ٥٣.
(٣) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦.
(٤) العسقلانى : الدرر الكامنة جـ٤ ص ٤٤١.
(٥) المرجع السابق والجزء ص ٢٧٦.

للمطرنة فلم يجد احد وضجرو الرسل من طول مقامهم عنده وعزمو على ان يعرفو السطان قصة حالهم وكان ملك ديار مصر لملوك الغز والملك في ذالك الوقت العادل ابو بكر ابن ايوب(*) وكان في ذالك الزمان قد احتوى على ملك مصر والبيت المقدس وجميع الساحل ما خلا عكا وصور وبعض القلاع والقوى التى كانة باقية للفرنج وكان في ملكه ايضا دمشق واعمالها ومن خلف نهر الفرات

(*) هو العادل سيف الدين ابوبكر أخو صلاح الدين (١٢٠٠/ ١٢١٨م = ٥٩٦ / ٦١٥هـ).

وفى التاسع من صفر سنة ٧٩١هـ (سنة ١٣٨٩م) تحرج موقف برقوق، فاستدعى قضاة القضاة وأعيان الدولة وأمراءها وشاورهم فى أمر عصيان الناصرى، وعرض عليهم أن يخرج لقتاله، ولكنهم أجمعوا على أن يجهز السلطان العسكر ويرسل لقتال الناصرى من يقوم على رأسه مقامه من الأمراء الذين يثق بهم (١). وتردد السلطان كثيراً فى قبول ما أشار به الأمراء. ويبدو أن هذه النصيحة لم تكن خالصة كما أن السلطان لم يرغب فى أن يرسل غالبية العسكر إلى سورية ويبقى فى القاهرة بعدد قليل، ولهذا تودد إلى الأمراء كثيراً، واجتمع بهم عدة مرات بالقصر الأبلق وحلفهم على طاعته (٢).

وظل الموقف مائعاً حتى بدا السلطان برقوق فى مركز لايحسد عليه حين جاءت الأخبار من دمشق بأن الأمير قرابغا فرج الله، والأمير نزلار العمرى الناصرى، والأمير دمرداش اليوسفى، والأمير كتبغا الخاصكى الأشرفى اجتمعوا بعدد كبير من المماليك الأشرفية الترك فى سورية (٣) وهاجموا طرابلس، وبعد أن قتلوا نائبها الأمير استدمر المحمدى، دخلوا المدينة وقبضوا على عدد كبير من أمرائها الموالين للسلطان برقوق(٤). وفضلاً عن هذا أعلن يلبغا الناصرى فى حلب نبأ

(١) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١١٩أ.
(٢) ابن إياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٢٧٠.
(٣) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٢٧٦.
(٤) ابن تغرى بردى: النجوم جـ١١ ص ٢٥٩.

وحران ومنبج ونصيبين والرها وعدة اماكن وقرى لم تعرف اسمايا وكان ملكا عادلا حريزاً قوياً كثير الغزاة في الفرنجة والمسلمين وفتح مدناً وقرى وكان له نحو من خمسة عشر ولد ويكون عدة عسكره عشرة الف طواشي وقرا غلام ومماليك نزل اشتراهم بماله [العادل ابو بكر بن ايوب]، فلما ورد اليه الكتاب من ملك الحبشة كما قلنا بدياً بان يتقدم للبطرك بقسمة مطران ويسيره مع رسل الملك تقدم مراده فاتفق رايه مع من بحضرته من

خلع السلطان برقوق وسلطنة الخليفة المتوكل على الله، وبعث يلبغا الناصرى بهذا الإعلان إلى نواب القلاع الشمالية الذين أسرعوا بإعلان تأييدهم له [(١)].

وأصبح لهذه الخطوة أسوأ الأثر على السلطان برقوق إذ جعلته يتخبط فى سياسته، فلم تكد تمضى عدة أيام على صلحه مع الخليفة المتوكل وإعادته إلى الخلافة فى ٥ من ربيع الأول سنة ٧٩١هـ [(٢)] حتى عاد فسجنه بالبرج بالقلعة وضيق عليه ومنع غلمانه وأصحابه من الدخول إليه. ودفع برقوق إلى هذا الإجراء الخاطئ أنه خشى أن يرسل الناصرى إلى الخليفة من يستميله ويسير به إليه فترجح كفته [(٣)]. ويبدو أن السلطان برقوق عاد فاقتنع برأى بعض خلصائه فى خطورة هذا الإجراء وخاصة بعد أن انتهز الناصرى فرصة حبس الخليفة واتخذ ذلك وسيلة يثير بها خواطر الناس على السلطان [(٤)]، فاضطر برقوق إلى إطلاق سراح الخليفة المتوكل مرة أخرى. ومع أن السلطان برقوق استرضاه بعشرة آلاف درهم ومنحه أكياساً مملوءة بقماش من الصوف [(٥)]، إلا أنه حدد إقامته بالقلعة وراقب حركاته وسكناته[(٦)].

---

(١) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٢ ورقة ٣٣٦.
(٢) الهيثمى: إتحاف إخوان الصفا ورقة ١٣١ب.
(٣) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٩أ.
(٤) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٢٧٦.
(٥) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٩ب.
(٦) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٢١٠ ـ ٢١١.

الاصـحـاب والاراخنة والكهنة على رجل يسـمى
كـيل ابن الملبس من اهل طوخ مـوثرا[غنى] من
اعمال الغربية كان قد اقسمه اسقفاً على مدينة
فوه وكان بتولا عالما [بالكتب] العتيقة والحديثة
بشوش الوجه طويل القامة اكحل العينين اسمر
اللون بحمرة حسن المنظر جدا، في فاه لدغه،
كاملا فى اعضايه وعلمه فاخذه وقسمه مطرانا
وسيره مع رسل الملك، واخبر من كان سار معه

وفي العاشر من ربيع الأول سنة ٧٩١هـ يونيو سنة ١٣٨٩م تواترت الأنباء بدخول سائر المدن السورية ـ فيما عدا قلعة دمشق وبعلبك والكرك ـ في طاعة يلبغا الناصرى. وزاد الطين بلة أن انضم إلى الترك سولى بن دلغادر التركمانى ونعير بن حيار أمير عرب آل فضل وشاركا يلبغا الناصرى ومنطاش فى الدعوة إلى نصر الخليفة [1]، ولم يجد السلطان برقوق بدأ من تجريد عدد من أمرائه، سا روا فى خمسمائة من مماليكه لقتال الناصرى [2]. غير أن هذا العدد لم يكن كافياً لقتال أعداء السلطان فى سورية، ولكن حرص السلطان برقوق على ضبط الأمور فى العاصمة جعله يحتفظ بأكبر عدد من الجراكسة بالقاهرة. وفى ١٤ من ربيع الأول سنة ٧٩١ [3] رسم بخروج التجريدة بقيادة ايتمش البجاسي، وأغدق السلطان برقوق عليهم الكثير من النفقات. وبرغم أن العساكر خرجت فى تجمل زائد واحتفال عظيم فإن القاهرة المضطربة وقتذاك لم تتأثر لذهابهم كما كانت العادة عند خروج العساكر للقتال مما دفع السلطان برقوق إلى استجلاب خواطر الناس فأبطل الرمايات والسلف على البرسيم والشعير كما أبطل مكوس البصل والقلقاس.

(١) العسقلاني: إنباء الغمر جـ١ ص ٢٧٦ ـ آل فضل قبيلة عربية على مقربة من دمشق.
(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢٦١ ـ ٢٦٢.
(٣) ابن إياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٢٧١.

وعاد ان الملك لقيه من سيرة [مسيرة] ثلثة ايام من المدينة بالخلع والكرامات ومعه كهنة واساقفة وعسكر عظيم وخلق كثير، ولما وصل الى مدينة الملك خرج كلمن فيها تلقوه وعملو على راسه مظلة منسوجة بالذهب مكللة بالجواهر واحرقو عود وعنبر في مجمرة الكنيسة كثيرا جدا وانزلوه في دار المطرنة واقامو له عشرت قسوس لخدمته وحفظ ما يكون من جراية المطرنة من الذهب

وحين وصل عسكر السلطان برقوق إلى غزة قبض الأمير جركس الخليلي أمير آخور السلطان على نائبها الأمير ابغا الصفوى التركى وسجنه بالكرك، وأقر في نيابة غزة الأمير حسام الدين بن باكيش [١]. ثم تشجع جركس وتقدم شمالاً، وهناك أعلن قرا محمد التركماني رغبته في الانضمام إلى جانب السلطان كما أرسل مجد الدين عيسى صاحب ماردين إلى السلطان برقوق يستأذنه في محاربة الناصرى. وحين وصلت هذه الأنباء إلى السلطان برقوق لم يرغب في تدخل التركمان أو صاحب ماردين في هذا الأمر خشية أن يزداد نفوذهم في سورية، ولهذا اكتفى بإجابتهم بالشكر والثناء، وأنه «ادخرهم لما هو أهم من ذلك»[٢]. ثم دخلت عساكر السلطان دمشق فتلقاهم نائبها حسام الدين طرنطاى، غير أنهم بدلاً من أن يستعدوا لمواجهة العدو حسبوا أنهم في نزهة عسكرية فاقبلوا على الفساد بدمشق وشغلوا باللهو والمجون فيها حتى «سئمهم الناس، وانطلقت الألسنة بالوقيعة فيهم وفي مرسلهم» [٣].

وانتهز يلبغا الناصرى ومنطاش فرصة انشغال عساكر السلطان بمجونهم في دمشق وتقدما

(١) العسقلاني : إنباء الغمر جـ١ ص ٢٧٧.
(٢) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام المجلد الثاني ورقة ٣٧.
(٣) ابن إياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٢٧١.

والفضة والثياب وكتب الكنيسة وخزاين اخر
ومخازن يكون فيهم حاجات المطبخ للطعام
والقمح والحبوب وحمل اليه الملك والامرا معه
خيل كثير وبغال لركوبه وخدمته عبيد وجوار
وكانت البلاد قد انقطع عنها المطر فازداد به
فرحهم وخافو منه ووقروه وصار الملك يركب في
كل وقت الى داره وعظم قدره عندهم واقام
عندهم على هذه القضية اربع سنين ولما كان في

بالمماليك الترك في ٢١ من ربيع الآخر سنة ٧٩١ يوليو سنة ١٣٨٩م لحصار دمشق. فخرج عسكر السلطان من دمشق إلى برزة [١]، وحين التقى عسكر برقوق بالترك عند خان لاجين نشب قتال شديد ثبت فيه كل من الفريقين مكانه. ثم حمل عسكر السلطان مرة أخرى على الترك واضطروهم للتراجع، واعتقد الجراكسة أنهم هزموا الترك، بيد أن يلبغا الناصرى عاد فجأة وانقض على الجراكسة وتمكن أحد مماليكه وهو يلبغا الزينى الأعور من قتل الأمير جركس الخليلى أهم قائد في جيش السلطان برقوق [٢].

ولا شك أن هزيمة جيش برقوق تعزى إلى قلة عدده إذ أنه على حين بلغ عدد أفراده نحو الخمسمائة، كان الترك يعدون بالألاف فضلاً عمن انضم إليهم من التركمان والعرب [٣]. واستطاع يلبغا الناصرى بمعاونتهم تمزيق جيش الجراكسة حتى تفرق قواده وتمكن يلبغا الناصرى من دخول دمشق والاستيلاء على قلعتها والقبض على الأمير ايتمش البجاسى وسجنه مع عدد كبير من الأمراء الجراكسة في قلعة دمشق [٤].

(١) برزة: قرية من غوطة دمشق. انظر ياقوت، معجم البلدان جـ٢ ص ١٢٤.
(٢) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام جـ٢ ورقة ٣٧.
(٣) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٨٥.
(٤) السيوطى: تاريخ الأشرف قايتباى ورقة ١٢٧أ.

السنة الخامسة تواصل خبره الى الاب البطرك انبا يوانس انه فارق مدينة الملك وخرج منها متوجه الى مصر الى القلاية البطركية فصعب ذالك على الاب البطرك ولم يزل منقسم الفكر مشغول القلب بسببه الى ان وصل الى مصر وحضربين يديه فساله عن السبب الموجب لعودته فذكر ان للملكة زوجة الملك اخ اسمه خيرون وانها لم تزل تلح عليه وتثقل عليه وتتشفع عنده بالملك الى ان

ولواقعة دمشق هذه نتيجتان سيئتان بالنسبة لبلاد السلطنة المملوكية الثانية، أولاهما أنها تركت الفرصة أمام التركمان والعرب لنهب دمشق، وثانيتهما اضطراب الأحوال الداخلية فى مصر حين وصل خبر هزيمة العسكر السلطانى على هذا نحو، إذ طغى أهل الفساد وأغلقت الأسواق فى وقت انتشر فيه الطاعون (١) وساء مركز السلطان برقوق فأسرع وجمع الأمراء لمنافشة أسباب الهزيمة وعزا الأمراء أسبابها إلى قلة عدد العساكر فى التجريدة السابقة عن عساكر منطاش والناصرى، واتفقوا على ضرورة خروج تجريدة أخرى لا تقل عن ألف وأربعمائة مملوك (٢).

وعلى حين أخذ السلطان برقوق يعد لهذه التجريدة الجديدة وصله نبأ يفيد أن الناصرى قبض على اينال اليوسفى الجركسى أتابك دمشق، وأن اينال اليوسفى اضطر لينجو بحياته إلى العمل مع جيش الناصرى. وتقدم الترك ومعهم اينال والناصرى للاستيلاء على مدينتى غزة والرملة (٣). ولم تكن لدى السلطان فى هذه الظروف السيئة من حيلة إلا أن يجتمع مرة أخرى بالخليفة والقضاة والأمراء والأعيان ويحلفهم على الموالاة وإسداء النصح، كما أظهر

(١) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٠أ.
(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢٦٦.
(٣) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٠أ.

اقسمه اسقف على مدينة الملك فلما اقسمه صار يركب بالمظلة مثل المطران ولايسلمو عليه ولايطيعوه في شي. وكان الملك قد خرج من مدينته بعسكره لمحاربة اعداه فعمل خيرون في الحيلة على قتل المطران وتعب عليه قوم من عنده تسلقو إلى دار المطران بالليل ليقتلوه فهرب منهم فتبعه نحو من خمس مائة نفس اصحاب المطران وعبيد كان اشتراهم ووكلا وغيرهم لبلاد قلاية

احترامه الزائد للخليفة، واسترضاه بما خلعه عليه وما أعاد له من إقطاعاته ورواتبه التى قطعت من قبل[1].

وبرغم هذا كله فإن خسارة السلطان فى معركة دمشق - التى عرفت بمعركة الخمسمائة -[2] كانت فادحة إذ فقد شخصيتين من أخلص الشخصيات الجركسية هما جركس الخليلى، ويونس الدوادار [3]؛ وتحرج مركزه وخشى انتقام العامة؛ ولهذا أمر بإبطال سائر المكوس من ديار مصر وأعمالها، كما طلب من الخليفة المتوكل أن يركب في شوارع القاهرة ومعه الأمير سودون الشيخونى النائب والقضاة وشيخ الإسلام وأن ينادى فى الناس «أن السلطان قد أزال المكوس والمظالم وهو يأمر الناس بتقوى الله وطاعته وانا قد سألنا العدوالباغى فى الصلح فأبى وقد قوى أمره، فأغلقوا دوركم، وأقيموا الدروب على الحارات، وقاتلوا عن أنفسكم وحريمكم [4]». غير أنه لم يكن لهذا النداء أية قيمة فى اجتذاب العامة إلى جانب السلطان برقوق، لأن السلطان عاد فعدل عن قراره وألزم مباشرى جهات المكس

---

(١) نفس المرجع ورقة ٢٠ب، المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٥٠٤.

(٢) عرفت بمعركة الخمسمائة لأن السلطان قاتل فيها بخمسمائة من العساكر - راجع ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢٦٩.

(٣) انظر السيوطي: تاريخ الأشرف قايتباى ورقة ٢٧أ.

(٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ٢٦٩ - ٢٧٠.

المطران وعدتها على ماذكر اربعين قرية فلما خرج
من مدينة الملك وسار عنها راجعاً الى مصر مدة
ثلثة ايام امر الكهنة والقوم الذين ودعو بالرجوع
فرجعو وصحبه جماعة منهم نحو ماية رجل فهلكو
فى الطريق بالجوع والعطش لانهم لما خرجو من
بلاد الملك وقعو فى بلاد غيره من الملوك الكفار
فقاسو منهم شدة عظيمة وكانو يمنعوهم العبور
على بلادهم الى ان ياخذو منهم الذهب وغيره

بمطالبة الباعة بمكس مابيع [1]، مما أضعف ثقة الناس بسلطانهم وما يصدر عنه من قرارات[2]. والظاهر أن السلطان برقوق عدل عن قراره هذا بسبب حاجته الشديدة إلى المال، فوقع هذا العبء على الناس وقعاً سيئاً حتى أخذوا فى الهروب من القاهرة والانضمام لجيش الناصرى والعمل على التخلص من حكم برقوق . أما من بقى من الناس بالقاهرة فلم تكن لديهم من حيلة آنئذ سوى «عمل الدروب وجمع الأقوات والاستعداد للقتال والحصار [3]» فى وقت تجمع فيه الزعر ينتظرون قيام الفتنة لنهب الناس الذين يئسوا من قدرة عساكر السلطان على حمايتهم.

وإزاء هذا الشعور الذى لمسه السلطان برقوق من العامة رأى أن يستعين فى كفاحه مع الترك بعرب هوارة وعرب الوجه البحرى [4]، واعتمد على مماليكه فى حفر خندق حول القلعة، وتوعير طريق باب القلعة المعروف بباب القرافة وباب الحرس وباب الدرفيل، كما نقل إلى القلعة الكثير من الأقوات والمجانيق والمكاحل وغيرها من عدد الحرب وآلات الحصار، ثم

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٥١٢.
(٢) العسقلانى : إنباء الغمر جـ١ ص ٢٧٧.
(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢٧٠.
(٤) العسقلانى : إنباء الغمر جـ١ ص ٢٧٧.

فلم يصل المطران الى مصر الافقيرا وقد هلك ماكان معه من مال ونفوس ووصل معه من الجميع عبدين وجارية وقط زبدة(*) وهلك الباقى فلما اخبر البطرك بما قدمنا ذكره ان يقيم ببعض كنايس القاهره حتى يكتب للملك كتابا يستفهم صحة ما ذكره المطران فمضى المطران الى القاهرة واقام فى كنيسة حارة زويلة عند قوم من الاراخنة يقال لهم اولاد جمال الكفاه وكتب الاب البطرك

(*) قط زبدة: هو نوع من السنانير يسمى سنور الزباد.

أمر سكان القاهرة بأن يدخروا قوتهم لشهرين استعداداً للحصار. وبعد أن تمت استعدادته أمر بالعمل على سد أبواب القاهرة [١].

على أن سوء الحظ لازم السلطان برقوق فى هذه الآونة إذ تبع هذه الاستعدادات سوء الحالة الاقتصادية فارتفعت الأثمان، لحاجة السلطان المستمرة إلى أدوات الحرب حتى إنه أمر فنودى «بأن من له فرس من أجناد الحلقة يركب للحرب ويخرج مع العسكر [٢]». أما باقى آلات الحرب من الخوذ والقراقلات والسيوف فطلبها بثمن مرتفع جداً [٣]. وبرغم ما أنفقه السلطان برقوق على مماليكه من المال والخيول الكثيرة واضطراره إلى توزيع خيله الخاص على الأمراء والأجناد فإن اليأس أحاط به، حتى أخذ يحرض مماليكه على القتال معه تارة بالمال وتارة بالبكاء، ثم استعان بالخليفة والقضاة للدعاية له بالنصر بمسجد أثر النبى، كما أعطى الأمير اقبغا الماردينى حاجب الحجاب مبلغاً كبيراً من المال ليوزعه على الزعر الذين عظم أمرهم حتى صارت الشوارع على قول ابن تغرى بردى: «مشحونة بالخيول والفرسان شاهرين آلات الحرب، ثم بطل الحكم فى القاهرة وانعدمت سلطة الدولة وصار الأمر فيها لمن غلب وتعطلت الأسواق

(١) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقة ٣٩.
(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢٧٣.
(٣) نفس المرجع والجزء والصفحة.

الى الملك كتابا وسيره على يد القس موسى ومعه تلميذ من تلاميذه فغاب عنه رواح ومجى [اى اخذ فى ذهابه وإيابه] مدة سنه ثم عاد الجواب من الملك وهو يقول عن المطران انه قتل قسيس كبير فى طقسه مقدم العشرة قسا الذى برسم حفظ خزانة المطرنة وسبب ذلك انه اتهمه انه قد اخذ قضيب ذهب من خزانة المطرنة فبطحه وامر عبيده بضربه فضربوه قدامه بغير رحمة وهو يامرهم

وارتفعت الأسعار وأكثر الناس من شراء البقسماط والدقيق والدهن ونحو ذلك خشية الحصار»[١]، والخلاصة أن الأحوال ساءت فى داخل القاهرة ولم ينقذ برقوق من ثورة العامة عليه سوى آنتشار الطاعون حتى قيل إن الناس لم يستطيعوا دفن موتاهم[٢].

أما يلبغا الناصرى فإنه سار من غزة إلى قطية[٣] فى ٢٨ من جمادى الأولى سنة ٧٩١هـ (أغسطس سنة ١٣٨٩م) وانضم إلى جيشه جماعة كبيرة من المماليك الجراكسة الذين هددهم الناصرى بسحب إقطاعاتهم وقتلهم إن تأخروا عن الانضمام إليه[٤]. وفى قطية وجد الناصرى بعض جواسيس برقوق فعاقبهم[٥]، ثم ما كاد خبر وصول الناصرى إلى قطية يصل إلى القاهرة حتى فر من أمراء مصر جماعة كبيرة لتنضم إليه، وتدلنا هذه الأحداث على ما وصل إليه بعض الأمراء الجراكسة آنئذ من الجبن وعدم الإخلاص حتى إن هؤلاء الأمراء أطلعوا يلبغا الناصرى على موقف السلطان برقوق السئ مما شجع الناصرى ودفعه إلى التقدم بسرعة

(١) نفس المرجع والجزء والصفحة.
(٢) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٢١أ.
(٣) قطية قرية فى الطريق بين مصر والشام قرب الفرما وكان بها مكان أخذ المكس من الوافدين على مصر. راجع رمزى: القاموس الجغرافى ص ٤٢.
(٤) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٢١أ.
(٥) ابن إياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٢٧٣.

بضربه حتى اسلم روحه وسالوه جماعة من الكهنة فيه فلم يقبل فيه سوال وان اهل القسيس الذى قتله هم الذين كانو يتسلقون عليه ليقتلوه عوض قتله صاحبهم، واما خيرون الذى اقسمه المطران اسقفا ذكرو الرسل انه مات بعد خروج المطران من البلاد بشهرين ولم يمطر مطراً فى تلك السنة فى بلادهم ولذالك انفذو الرسل بطلب مطران غيره وانه بنا فى المدينة التى للملك دار وغرس

نحو القاهرة. وحين وصل يلبغا الصالحية، قدم له محمد بن عيسى أمير عرب العايد كل معونة سواء من المال أو الرجال، وسار يلبغا الناصرى بمن اجتمع لديه قاصداً القاهرة (١).

أما السلطان برقوق، فإنه بعد أن نصب السناجق السلطانية على أبراج القلعة.، أمر فدقت الكوسات الحربية، ثم ركب مع الخليفة فى مقدمة العساكر، واجتمع حول السلطان عدد كبير من العامة استطاع السلطان برقوق اجتذابهم إليه ببكائه حتى إنهم بكوا إشفاقاً لحاله (٢).

وعندما أشرف الناصرى على المرج أسرع برقوق وأغلق أبواب القاهرة كلها ماعدا باب زويلة، غير أنه لم يستطع السيطرة على الأمن داخل المدينة؛ بسبب فرار واليها حسام الدين بن الكورانى واختفائه خوفاً من انتقام الزعر، الذين انتشروا ينهبون فى أنحاء المدينة.

والواقع، أن تردد السلطان برقوق وانتظاره مجئ عدوه ووقوفه موقفاً دفاعياً فقط أضاع عليه الفرصة، حتى إن من بقى معه من مماليكه بدءوا يتسللون للانضمام إلى يلبغا الناصرى برغم ما أنفقه السلطان عليهم (٣). ويبدو أن تسللهم عن طريق باب زويلة هو الذى دفع السلطان إلى إغلاقه، وبذا أصبح محصوراً فى داخل القاهرة. وزاد فى ضعف مركز السلطان

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢٧٧.
(٢) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٥١٣.
(٣) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان(مخطوطة) ورقة ١٢١أ.

فيها اشجار واجرى فيها مياه تتخرق فى مجالها
وانفق فيها مال كثير وبيضها وعمل لها دهاليز
طوال يتعب الذى يدخلها قبل ان يصل الى قاعها
وعلاها، وحصنها وسماها القصر وكان يحتجب
فيها عن الناس لا يخرج الا من يوم الاحد الى يوم
الاحد يركب الى الكنيسة بغلة عالية والمظلة على
راسه وحوله وخلفه فرسان ورجاله نحو خمسماية
رجل غير الكهنة والشعب الذى يتبعوه الى الكنيسة

برقوق أن أعداء دولته من المماليك الترك المسجونين بخزانة شمائل وحبس الديلم والرحبة قطعوا قيودهم، وكسروا أبواب الحبس، وخرجوا ليعيثوا في القاهرة فساداً. ولم تفلح جهود المماليك الجراكسة الذين بقوا على إخلاصهم لبرقوق في منع العامة من التوجه إلى الناصرى بل إن العامة رجموهم بالحجارة، واضطر الجراكسة إلى الدفاع عن أنفسهم برمى العامة بالنشاب حتى اضطربت القاهرة بصراع داخلى مرير [١].

وفى يوم السبت ٣ من جمادى الآخرة سنة ٧٠٩١هـ ـ سنة ١٣٨٩م أقبلت طليعة الناصرى «كأنها الموت الأحمر» [٢] مع عدة من أعيان الأمراء ومن أصحابه، فبرز إليهم الأمير قجماس ابن عم السلطان في جماعة كبيرة، وأخذ فى قتالهم وعاونه المماليك الذين فى القلعة بالهجوم على الترك بالمدافع والحجارة والمكاحل والسهام والنفط والمقاليع وهم يكرون ويفرون. والواقع أن باقى الجراكسة ثبتوا ثباتاً راسخاً، غير أنهم حين أدركوا قوة الناصرى وخطورة موقفهم بدءوا فى التسلل للانضمام إليه [٣]، حتى إن السلطان برقوق يئس وعرض على من بقى معه من الأمراء أن يسلم نفسه [٤]، ولكنهم أعلنوا أنهم لا يسلمون أرواحهم

(١) نفس المرجع ورقة ٢١ب، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢١٣
(٢) الخطيب: نزهة النفوس والأبدانن ورقة ١١ب.
(٣) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٥٢٠ ـ ٥٢١.
(٤) السلامى : مختصر التواريخ ورقة ٨٤ب.

ويـدل اذا طلع الهـيكل ثيـاب منسـوجـة بالذهب مكللة تساوى مال كثير وذكر عنه كلام كثير لم اقف عليـه، هذا بعض مـا سـمعتـه من جـملت الكتاب الواصل الى البطرك ووصل صحبة القس مـوسى رسل الملك وصـحبـتـهم هدية جليلة وتاج ذهب للبطرك وهدية جليلة للسلطان ومن جملتها وحوش وهم فيل وسبع وزراف وحمار وحش وكان يوم وصـولهم فرح عظيم عند البطرك وكان الملك

- -

ولايموتون إلا على ظهور خيولهم [١]، غير أنه لما لم تفلح جهود الأمير بطا الظاهرى أحد كبار الأمراء الجراكسة المتحمسين، وأيقن السلطان برقوق قرب نهايته، أرسل النمجاه إلى الناصرى وعرض عليه الصلح مع تنازله عن السلطنة بشرط الإبقاء على حياته،فكتب له الناصرى أماناً.

والظاهر أن الناصرى حرص على احترام هذا الأمان والإبقاء على السلطان برقوق لعاملين، أولهما أن السلطان نفسه لم يحاول قتل يلبغا الناصرى من قبل مع كثرة أخطائه، وثانيهما أنه لم يكن من السهل القضاء على السلطان برقوق دون أن يتعرض الناصرى لانتقام الجراكسة . ولهذا أوصى يلبغا الناصرى حاملى الأمان أن يستتر السلطان مدة أسبوع حتى تخمد الفتنة ويدبر له أمرا [٢].

وهكذا اختفى السلطان برقوق، ودخل الناصرى وصحبه منطاش القاهرة فاستقبلهما الخليفة المتوكل على الله فى قبة النصر [٣]، وأخذوا فى الاتفاق على تدبير أمور الدولة فيما بينهم. وعلى أن هذه الفتنة جعلت القاهرة تعانى أشد أنواع الاضطراب؛ إذ عاد الزعر إلى النهب واشترك معهم التركمان من أصحاب يلبغا الناصرى فى الهجوم عى بيوت الأمراء

(١) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٣ ورقة ٣٤٣.
(٢) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ ص ٢٧٣.
(٣) ابن تغرى بردى: النجوم جـ١١ ص ٢٨٦.

العادل سلطان ديار مصر فى تلك السنة وهى سنة ست وستماية الهلالية الموافقة لسنة ست وعشرون وتسعماية للشهدا الابرار غايباً فى الغزاة على مدينة سنجار ومحاصرها بجنوده وولده الملك الكامل(*) نايبه فى ديار مصر فاخذ البطرك الرسل والهدايا الواصلة معهم له وللسلطان حمل الجميع له فاستحسن التاج وقال ما كنت اظن ان عندهم من يعمل هذا فقال له الرسول يا مولاى الملك

(*) الكامل ابن العادل صار ملكاً على مصر فى الفترة ١٢١٨ / ١٢٣٨م = ٦١٥ / ٦٣٥ هـ.

وحواصلهم ونهبها وتخريبها. ولم تسلم منازل الناس خارج القاهرة ـ مع ما بذلوه فى المقاومة والدفاع ـ من النهب والسلب. ونهب الترك والتركمان الاصطبل السلطانى؛ فأخذوا ما فيه من الخيول والشعير حتى قيل: إنهم نهبوا ألفين ومائتى إردب شعيرا، ونهبوا من الدراهم مائتى ألف درهم(١)، ونهبوا من الميدان ألف رأس غنم. وظلت أحوال القاهرة مضطربة مع أن الناصرى عين الأمير محمد بن الحسام استادار أرغون والى البهنسا واليا على القاهرة (٢)، فركب ابن الحسام فرسه من باب الفتوح، ودخل جامع الحاكم، واجتمع بعدد كبير من عسكر الناصرى، وطلب مهم أن يمتنعوا عن النهب، غير أن نداءه لم يكن مجديا إذ استمر الترك فى النهب وقتال العامة حتى اضطر الناصرى إلى الاستعانة باثنين من رجاله هما سيد بن أبى بكر أمير حاجب، وتنكزبغا رأس نوبه لحفظ الأمن بالقاهرة ومصر، فأمر فنودى بالأمان والاطمئنان وأن «من نهب شيئا فلا يلومن إلا نفسه، حتى كف أذى المفسدين وسكن الحال»(٣).

والواقع أن هذه الحركة تمثل رد الفعل الذى حدث نتيجة اعتلاء واحد من الجراكسة عرش السلطنة واتجاهه إلى جركسة الدولة فى وقت لم يكن تجمع لديه عدد كبير من الجراكسة

(١) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٢أ.
(٢) ابن تغرى بردى: النجوم جـ١١ ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧.
(٣) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٢ب.

نعرف اتضاع البطرك وانه ما يلبسه ولو علم انه يلبسه ويجلس به كان يكلله بجواهر يكون قيمتها خراج ديار مصر جميعها، فتعجب الملك الكامل من كلامه وساله عن الملك وعسكره وحروبه فاخرج اليه الرسول كتابا من الملك للسلطان وقال له اذا قرات كتابه عرفت كيف هو وكيف عسكره فلما قرى كتاب الملك وجد من جملته يقول للسلطان تتقدم الى الاب البطرك الكبير العظيم

يمكنه بواسطتهم مواجهة الترك بإعدادهم الكثيرة. ولهذا فلا عجب أن اتجه يلبغا الناصرى ومنطاش الأشرفى إلى إعادة السلطنة إلى بيت قلاوون والعمل على إعادة الترك إلى مراكزهم التى أقصاهم عنها برقوق، فاجتمع الناصرى بأمرائه والأعيان والخليفة والقضاة، ونصب للخليفة خيمة عظيمة، وللقضاة أخرى، وأخذ رأى كل منهم على حدة فيمن ينصب سلطانا بعد الظاهر برقوق. ورغم أنهم أجمعوا على سلطنة الناصرى باعتباره صاحب أكبر نفوذ آنذاك، فإن الناصرى امتنع عن ذلك أشد الامتناع، ذلك أنه أدرك أن سلطنته ستواجه حملات المماليك الأشرفية الترك فضلاً عن معارضة المماليك الجراكسة. ولهذا استقر الرأى على إعادة الملك الصالح أمير حاجى ابن الأشرف شعبان إلى السلطنة. فاستدعوه وأركبوه بشعار السلطنة إلى الإيوان وأجلسوه على تخت الملك (١) فى يوم ١٠ من جمادى الآخر سنة ٧٩١هـ.

وهكذا خلع السلطان الظاهر برقوق الذى استطاع أن يرتقى من صفوف الجند إلى وظيفة أمير آخور دفعة واحدة، وأخذ يتطلع إلى الأتابكية حتى نالها، وظل يشغلها حوالى خمس سنوات رسم خلالها خطة القضاء على سلطنة بيت قلاوون وأكثر من شراء المماليك من

(١) ابن تغرى بردى: مورد اللطافة ص ٩٦.

الجليل ويقـول للسلطان ومملكتك ايهـا الملك محفوظين بصلواته فاحفظه واكرمه وتقدم له بان يقسم لنا مطران غير المطران الذى كان عندنا ولا يعيده لنا البتـة. فلمـا وقف الملك الكامل على كتاب الملك تقدم للبطرك بان يقسم لهم مطران غيره سرعة ولا يعوقهم عنده ثم التفت الى الرسول وقال له قد قرات كتاب ملكك وهو رجلا عاقل هات عرفني قولك لى اذا قرات كتابه عرفت

العنصر الجركسى حتى بلغ ما اشتراه فى هذه الفترة منهم نحو ألفى مملوك [١]، قدمهم على الترك والروم [٢]، مما أدى إلى ثورة الترك عليه وإعادة السلطنة إلى بيت قلاوون.

وامتاز برقوق فى سلطنته الأولى التى استمرت ست سنوات وثمانية أشهر بالحزم والهيبة وحبه لأهل الخير والعلم، حتى قيل إنه إذا أتاه واحد من العلماء قام اليه، على حين لم يعرف أحد قبله من سلاطين الدولة الأولى يقوم لفقيه، وقلما كان يمكن أحداً منهم من تقبيل يده، كما يذكر له بالفضل اتجاهه نحو نشر العلم وبنائه المدرسة الظاهرية [٣] بين القصرين. غير أنه يؤخذ على سياسته فى هذه الفترة انصرافه إلى جمع المال دون اهتمامه بأحوال الرعية فى وقت انتشرت فيه الرشوة دون أن يتمكن من مقاومتها، حتى أصبح لايصل الواحد إلى وظيفة أو عمل إلا بمال يبذله مما أفسد الأحوال. ورغم دهائه الخارق فإنه يؤخذ عليه اعتماده على «أسافل الناس وحط ذوى البيوتات» [٤] مما عجل بنهاية حكمه.

دعى أمير حاجي فى سلطنته الثانية بالسلطان المنصور وتقدم الأمراء على عادتهم وقبلوا

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٥٢٣.
(٢) ابن تغرى بردى: مورد اللطافة ص ٩٨.
(٣) ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ٢ ورقة ١٨٦.
(٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢٩١.

من هو قال له الرسول لو اخذة [لو أخذت] اصف لك فضايله وعساكره وحروبه وتاييد الله له ونصره اياه على اعداه لطال الوصف ولكن اختصر لك على اليسير لتعلم منه الكثير انى قبل صفرى [سفرى] بيوم واحد اعرض الملك عسكر امير واحد من الامرآ وانا واقف فى ركابه فكانة عدته ستين الف فارس غير من يتبعهم من غلمانهم وحواشيهم. فتبسم الملك الكامل من قوله وامر

الأرض بين يديه، ودقت الكوسات وهو فى طريقة إلى القصر وسائر أعيان الدولة بين يديه [1]. ومن الطبيعى ألا تكون له من السلطنة سوى اسمها بعد أن عاد عصر الأمراء وتولى الناصرى منصب الأتابكية، وسكن الاصطبل السلطانى، وشغل منطاش وظيفة أمير مجلس.

وبدأ الأمير يلبغا الناصرى فى تنظيم الأمور الداخلية، فأمر بمنع التركمان وغيرهم من الدخول إلى السلطان. وعين من يطمئن إليه من الأمراء فى خدمته [2]، وكتب مرسوما على لسان السلطان والخليفة بالإفراج عن الأمراء الترك المسجونين بها، وعلى رأسهم الأمير الطنبغا الجوبانى أمير مجلس، ثم عين الناصرى من الترك نوابا فى الشام، وأمرهم بالتوجه فوراً إلى نياباتهم [3]. غير أن الأمير يلبغا الناصرى لم يعد يأمن على نفسه من المماليك الجراكسة، فأخذ فى تتبعهم وأمر بأن ينادى فى القاهرة بأن «من ظهر من المماليك الظاهرية فهو باق على إقطاعه ومن اختفى منهم بعد النداء حل ماله ودمه للسلطان» [4] ولم يكن هذا النداء سوى وسيلة للقبض على عدد كبير من الأمراء الجراكسة ونفيهم، أو سجنهم، أو توزيعهم على أمراء سوريا [5].

(١) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٢٣أ.
(٢) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ ص ٢٧٥.
(٣) نفس المرجع والجزء والصحفة.
(٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٣٢٠.
(٥) راجع العينى: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٣ ورقة ٣٤٨.

بتسليم الهدية، وقال للبطرك: خذ هديتك كيف يكون الملك يخصك بشي تحمله الينا فحلف ما ياخذها واقسم عليه بحياة والده الملك العادل ان يقبلها فقبلها وامر بنجا [بعودة] رجال الرسل وان يقسم لهم مطران ولا يعوقهم فخرج من حضرة الملك الكامل وعاد الى مصر واحضر كهنة مصر والقاهرة واراخنتها وجمع مجمع عظيم وتسامعو المسلمين بالقاهرة ما جرى للبطرك مع الملك

غير أن الأيام القليلة التى حكمها الناصرى أثبتت سوء سياسته وفساد تدبيره، وحملت سياسة الناصرى فى ثناياها العوامل التى عجلت بحكم الترك، وأول هذه العوامل أن الناصرى أبقى على عدد من الجراكسة الذين اطمأن إليهم، مما خلف له عنصراً ثورياً يظهر نشاطه عندما تسنح الفرص، وثانيها أن عدم استقرار الأمراء الترك على سياسة واضحة أدى إلى ارتباك أمورهم، ذلك أن الأشرفية اختلفوا مع اليلبغاوية وقامت بينهم الشحناء بسبب النزاع على توزيع الإقطاعات التى انتقلت إليهم نتيجة نفى عدد كبير من الجراكسة أو وفاتهم[1]، ثم إن حالة العنف والتهديد التى دأب عليها الناصرى مع العامة وعجزه عن مقاومة أصحابه من التركمان الذين أخذوا النساء من الحمامات والطرقات دون أن يجرؤ أحد على منعهم، أدى هذا كله إلى كراهية العامة لحكم الناصرى، فإذا أضفنا إلى هذا أنه أعاد المكوس التى أبطلها الظاهر برقوق، أدركنا سبب ترديد العامة لهذا القول «راح برقوق وغزلانه وجاء الناصرى وتيرانه» [2].

وثمة مظهر آخر لسوء سياسة الناصرى أنه عاد يخشى أن يؤدى اختفاء السلطان برقوق إلى ثورة داخلية، ولهذا أمر بأن ينادى بالقاهرة بالبحث عنه، وخصص مكافأة لمن يعثر عليه، وهدد

(١) ابن تغرى بردى: النجوم جـ١١ ص ٣٢٦.
(٢) نفس المرجع والجزء ص ٣٢٣.

الكامل وانه طلع الى مصر يقسم مطران، فاستاجرو كل دابة من باب زويلة وغيره من الابواب وطلعو الى مصر وبلغ اجرة الحمار من القاهرة الى مصر [مصر عتيقه] ثلثة دراهم حتى طلعو يتفرجو فلما امتلت كنيسة المعلقة من الخلق نصارى ومسلمين وقفها [المتفرجين] واخلا الناس من الفريقين احضر البطرك كيل ابن الملبس المطران القديم وخلعه من المطرنة وضجر عليه

من يخفيه بالقتل حتى أبلغت زوجة مملوك ـ كان والى القاهرة السابق قد عاقبها ـ أنه فى بيت رجل خياط يدعى أبا يزيد الخازن، فأرسل إليه الطنبغا الجوبانى لاعتقاله. والواقع أن شخصية برقوق كانت جديرة باحترام أعدائه حتى فى هذه الظروف بدليل أن السلطان برقوق حين رأى الطنبغا الجوبانى أراد تقبيل يده فاستنكر الطنبغا الجوبانى هذا العمل ومنعه (١)، بل إنه ألبس السلطان برقوق ملابسه وعمم رأسه وطيلس وجهه وأركبه فرسا شق الصليبة فى وسط النهار، والواقع أيضا أن سياسة الناصرى غيرت شعور الناس سريعاً نحو السلطان برقوق فانقلبوا على الناصرى، ومالوا إلى برقوق، وبدا ندمهم على زوال حكمه واضحا، فأخذوا يبكون ويدعون له بالنصر على طول الطريق، حتى صعد السلطان إلى الناصرى فى الاصطبل، فأمر الناصرى باعتقاله فى قاعة الفضة بالقلعة، وهناك صفد بقيد ثقيل وأجريت عليه كفايته من الطعام والشراب(٢).

ثم عقد الناصرى فى ١٦ من جمادى الأخرى سنة ٧٩١هـ (سبتمبر سنة ١٣٨٩م) جلسة لمشاورة فى شأن السلطان المعزول فانقسم الأمراء حياله فريقين، نادى الفريق الأول بقتله، وتزعم هذا الفريق الأمير منطاش (٣)، على حين نادى الفريق الثانى بحبسه، وصاحب هذه

(١) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ ص ٢٧٧.
(٢) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٢٤أ.
(٣) السخاوى: الضوء اللامع جـ٣ ص ١١.

وابعـده وكـان لما وصل رسـول الملك قـد حـصل
اخوين رهبان من دير انبا اندونه وسلمهما للتلاميذ
وكانا على غاية من الصـلاح والنسك والزهد فى
الدنيا والوحـدة والانفـراد عن الرهبـان فى ديرهم
وملازمة الصـلاة الليل والنهـار والاتضـاع وخـدمة
اخوتهم بلا ضجر ولا ملل احدهما اعلم من الاخر
يشهد بصلاحهما جميع من يعرفهما وأسماهما

الفكرة هو الناصرى الذى أخذ بها فيما يبدو لعاملين؛ أولهما خوفه من ثورة مماليك برقوق الذين أبقى عليهم وضمهم إليه، وثانيهما أن بقاء برقوق فى الحبس يجعله شجا فى حلق منطاش إذا فكر منطاش فى الثورة على يلبغا [1]. ولهذا أرسله الناصرى إلى الكرك فى ١٩ من جمادى الآخر سنة ٧٩١هـ ـ سنة ١٣٨٩م [2] بعد أن عين الأمير حسن الكجكنى نائبا للكرك وأوصاه يلبغا الناصرى بالعناية بالسلطان برقوق والحافظة عليه، واتفق معه كذلك على أنه إذا ثار منطاش على يلبغا يفرج عن السلطان برقوق [3].

وسافر مع السلطان برقوق إلى الكرك الأمير الطنبغا الجوبانى وثلاثة من صغار مماليكه. وأنزل حسن الكجكنى السلطان برقوق بقاعة النحاس فى قلعة الكرك، وجعل فى خدمته ابنة أستاذه يلبغا العمرى الكبير، وهى زوجة مأمور القلمطاوى المعزول عن نيابة الكرك «فصارت تخدمه وتطبخ له الأطعمة الملونة» [4].

وبلغ من سوء تدبير الناصرى أنه اعتقد أن حبس السلطان برقوق يمكن أن يضعف شأن

(1) Muir: the Mamluk Dynasty p 107.

(٢) العسقلانى: الدرر الكامنه جـ٤ ص ٤٤١.
(٣) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٥٣٧.
(٤) السلامى: مختصر التواريخ ورقة ١٨٥أ.

(*) البشطمير: هي من ضمن النواحي التي تشكلت منها مدينة المنصورة.

اسحق ويوسف من اهل البشطمير(*) فقسم اسحق وهو الصغير مطرانا وقسم يوسف وهو الكبير قسا وسيره معه وذالك في يوم الاحد الثانى من الصوم الكبير المقدس حادى عشر من برمهات سنة ستة وعشرين وتسعماية للشهدا الابرار الموافق للتاسع من شهر رمضان المبارك سنة ستة وستماية الهلالية [١٢١١م] فاما كييل ابن الملبس المطران المقطوع فانه نزل من كنيسة المعلقة بخجل عظيم

الجراكسة، وبالتالى يمكنه من إعادة نفوذ الترك. فأقدم على خطوة خبيثه إذ أمر الجراكسة الذين أبقاهم معه بالقاهرة بالتوجه فوراً إلى سوريا للخدمة عند نوابها وهدد من بقى منهم بمصر بسفك دمه [١]. وأدت هذه الحركة إلى الحط من شأن عدد كبير من الجراكسة الذين شغلوا مناصب الإمارة وقتذاك ولاسيما أن يلبغا الناصرى طرد معظم المماليك الجراكسة الذين عملوا فى خدمة السلطان حاجى، ولم يبق للسلطان منهم سوى مائة[٢]

على أن سوء تدبير الناصرى لم يكن فى مظهر هذه الخطوة ولكن فيما نتج عنها من آثار إذ أن تشتيت الجراكسة فى سورية مع حرمانهم مما كانوا فيه من رغد العيش، خدم السلطان برقوق الذى بدأ يتطلع من منفاه إلى مماليكه فى سوريا لمعاونته على إعادة سلطنته. وفضلاً عن هذا فإن الناصرى فقد عدداً كبيراً من أنصاره التركمان الذين طردهم ليخلص مصر من مساوئهم وعبثهم [٣].

وثمة عامل هام ـ يتعلق بسياسة الناصرى ـ أدت إلى انقسام صفوف الترك وقيام النزاع الحزبى بينهم وهو أن الناصرى بحكم إقامته فى القلعة استأثر بكافة النفوذ دون منطاش الذى

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٥٣٨.
(٢) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٢٥أ، ب.
(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٣٢٩.

وهو يصرخ ويحتو [يحثوا] التراب على راسه
ومضى الى حال سبيله وقد عدم المطرنة والاسقفية
بسو تدبيره واما المطران الجديد واخوه القس
فاخذوهم رسل الملك وتوجهو بهم بكرامة وسلام
الى مدينة عرفه مدينة الملك الذى اقسم المطران
عليها وعلى جميع الحبشة ويوسف اخو المطران
قسيسا، وكان اسم الملك في ذالك الزمان لا لبله
ابن شنوده وتفسيره الاسد واسم امراته مسقل

أقام في جامع السلطان حسن (١)، كما رفع يلبغا الناصرى شأن أمرائه دون غيرهم حين وزع المثالات (٢) عليهم وجعل وظائف مقدمى الألوف الأربعة وعشرين مقصورة عليهم، وسعى لتحويل أنظار الشعب إليه حين جلس للنظر فى المظالم وأمر بأن ينادى بالقاهرة: بأن من ظلم من مدة عشرين سنة فعليه بباب الأمير الكبير يلبغا الناصرى ليأخذ حقه (٣). وانعكس أثر هذه السياسة في نفس منطاش وفى نفوس أتباعه الذى بدءوا يحسون بأن الأمر كله أصبح بيد الناصرى وأمرائه، كما شعر منطاش كذلك بتطفله على الجوبانى وحضوره مائدته بعد أن أفرج الناصرى عن الجوبانى وأصبح أمير مجلس(٤). ولذا عزم منطاش على الانتقام من يلبغا فقرر يلبغا التخلص منه.

وبدأت بوادر النزاع بين يلبغا الناصرى وبين منطاش فى ١٦ من شعبان سنة ٧٩١هـ ـ (سنة ١٣٨٩م) حين انقطع منطاش عن الخدمة وتمارض. وفطن الناصرى إلى مكيدة منطاش

....

(1) Ency. OF Islam, Art Barkuk.

(٢) المثالات جمع مثال وهو عبارة عن ورقة أو وثيقة رسمية تصدر من ديوان الخراج إلى كل جندى أو مملوك مبين فيها مقدار ما خصه بالفدان من الأرض الزراعية التى يستغلها وحدودها واسم الإقليم والقرية والقبالة أى الحوض الكائنة فيه الأرض التى خصصت له. راجع المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ١ ص ٨٧.

(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٣٣٠.

(٤) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٨٧.

كبرى(*) الذى تفسيره عظيم هو الصليب وجنس الملك قبيلة يقال لها النكبة وسكنه مدينة عرفة وله ولدين اسم الكبير يارك والصغير ابنا(*).

(*) ربما يكون اسمها سقل كبدى حيث معناه بالأمهرى «صليب عظيم».

(*) ابنا ومعناها بالأمهرى زهرة وهو اسم علم لكثيرين.

ولما كان نهار يوم الاثنين الرابع عشر من بشنس سنة سبع وعشرين وتسع ماية للشهدآ الاطهار الموافق للرابع والعشرون من ذو القعدة سنة سبع وست ماية وصل الى دمياط(*) ثمانية عشر مركبا من الافرنج حربية فنزلو على دير ارميآ الذى

(*) حملة جوتير دى مونتبلان الصليبية سنة ١٢١٠م على دمياط.

فلم يتوجه لعيادته، بل بعث إليه بالأمير الطنبغا الجوبانى. ولكن منطاش بدا غبيا حين أسرع بالقبض على الأمير الطنبغا الجوبانى وعشرين من مماليكه حين هموا بالانصراف.

وهكذا بدأ كأنما الأحوال تخدم السلطان برقوق وتمهد لعودته لعرشه نتيجة هذا الانقسام بين الترك، إذ ركب منطاش فى أصحابه ومن انضم إليه من مماليك برقوق الجراكسة الذين نقموا على الناصرى، لأنه لم يف بوعده لهم بل إنه شرد إخوانهم (١).

واتجه منطاش فى ٢٢ من شعبان سنة ٧٩١هـ أكتوبر سنة ١٣٨٩م إلى باب السلسلة بعد أن نهب مافى الأصطبل من الخيول. غير أنه تعذر عليه اقتحام الباب ومباغتة الناصرى بسبب إغلاق مماليك الناصرى الأبواب ورميهم الأشرفية من أعلى السور بالنشاب والحجارة، فعاد منطاش ومعه الخيول إلى مركز قيادته فى مدرسة السلطان حسن (٢). وبدأ يهاجم القلعة بالنشاب والحجارة من أعلى المئذنتين ومن حول القبة. والواقع أن فريق منطاش كان أقوى من فريق الناصرى بسبب انضمام العامة إليه، لما أغدقه عليهم منطاش من الذهب ولما شعروا به من وطأة حكم الناصرى وأصحابه عليهم (٣).

---

(١) ابن دقماق: الجوهر الثمين (النسخة الخطية) جـ٢ ورقة ١٣أ.

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٣٣٢.

(٣) السلامى : مختصر التواريخ ورقة ٨٥أ.

للملكيين قريب من دمياط مقدار فرسخ من ناحيت الشط الغربي شط بورة(*) والحيرة [بوره والجيزه](*) وكان من جملة المراكب بسطة كبيرة عمارتها الف رجل بحرية ،ومقاتلة وطريدتين لحمل الخيل في كل طريدة خمسون فارساً، وسبع شواني وثمان حراقات عمرو من عكا وخرجو منها نزلو على الدير المذكور وكان مقدمهم ومدبرهم رجل

(*) بورة: اشتهرت بوره بصناعة المنسوجات الراقية. وهي تقع بين دمياط وفارسكور.
(*) الجيزة قبلي دمياط وتسمى احياناً جيزة دمياط. دمرت في فترة الحروب الصليبية.

ولم تجد جهود حسام الدين بن الكوراني الذى أعيد والياً على القاهرة فى القضاء على أتباع منطاش من الترك الأشرفية. وبرغم ندائه فى الناس بنهب مماليك منطاش والقبض عليهم وبرغم إغلاقه أبواب القاهرة لحصدهم، فإنه اضطر إلى الاختفاء حين شعر بضعف جانب الناصرى. وفشلت كذلك محاولة أخرى للناصرى فى نقب بيت منطاش لمهاجمته من الخلف، إذ أرسل منطاش جماع قاتلوا من حضر لهذا العمل [1].وعاون منطاش فى السيطرة على القاهرة ناصر الدين نائب حسين بن الكورانى الذى عينه منطاش والياً على القاهرة وألزمه بجمع النشاب، فحمل إليه منه شيئاً كثيراً، ثم نادى فى القاهرة بالأمان والدعاء للأمير الكبير منطاش بالنصر، كما نادى بأن الأمير منطاش أبطل المكوس[2].

وعندما رأى الناصرى ضعف مركزه بعث الخليفة المتوكل على الله إلى منطاش يسأله فى الصلح حتى تخمد الفتنة [3]. غير أن منطاش أظهر احترامه للخليفة، كما أكد طاعته للسلطان حاجى، ولكنه أعلن للخليفة تصميمه على مقاومة الناصرى.وأظهر منطاش ما بينه وبين الناصرى من الخلافات الشخصية بسبب التنازع على النفوذ، ثم ذكر أن الناصرى حلف

(١) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٢٦أ.
(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٣٣٤.
(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٣٣٥.

يقـال له الكنـدافلنك(*) وطلـع من المراكـب المـاية فارس والف رجل اقتسمو نصفين خمسون فارسا وخمس ماية رجل مضو الى الجيزة قتلو واسرو من اهلهـا الرجـال والنسـاء ونهبـوها واحـرقـوها بالنار، وخمسـون فارسا وخمس ماية مضـو الى بورة قتلو واسرو منها الرجال والنساء ونهبو منها متاع كثير [فيه] شرب(*) قطع مثمنة من جملتها للسلطان بخـمسـة الف دينار ولرجل قـاضى يقـال له على

(*) الكونت افلنك: تعـرف الحـملة المذكـورة هنا بانهـا كـانت تحت قيادة جوتير مونتبلان Gautier de Montbé Liand وهى ليست حملة جـــان دى برين الذى هـاجم دمـياط فى ٢٩ مـايو ١٢١٨م. وحـتى هذا التـاريخ لم تكن دمـيـاط قـد سـقطت فى يد الصليبين.

(*) شرب: قماش مطرز غالى الثمن كـان يصنع فى دمـيـاط وتنيس وشطا ودبيق للقـصـور السلطانية ودار الخلافة.

له بسيواس وحلب ودمشق على أن يكونا معا فى كل أمر، ولكنه نقض عهده فاستبد بالأمر دونه، وقرب خشداشيته اليلبغاوية وأبعده وخشدا شيته الأشرفية، وتمادى فى إهماله لشأنه والحط من شخصيته حين بعثه لقتال عرب الشرقية واستولى هو على الأموال وقتر على منطاش وأصحابه (١)، بدليل أنه لم يعطه أكثر من مائة ألف درهم، على حين أخذ هو ما لا يحصى من الأموال، وأعطى الناصرى لنفسه ولأصحابه أحسن الإقطاعات، ولمنطاش أصغرها وأضعفها. ثم جعل منطاش ذلك كله فى عنق السلطان الصغير (٢).

ولم تجد محاولات الخليفة فى إقناع منطاش بالعدول عن محاربة الناصرى والرضوخ للصلح، كأن مصالح البلاد لم تكن مهمة بالنسبة لهؤلاء المتنازعين. وعاد الفريقان إلى الاشتباك تجاه باب السلسلة. ولعبت الخيانة دورها بين الترك اليلبغاوية، إذ خرج على الناصرى عدد كبير من مماليكه كما خرج عليه عدد كبير من المماليك الجراكسة الذين خدعهم، وانضموا إلى منطاش مما أنذر بهزيمة الناصرى. وفضلاً عن هذا ظهر تأييد العامة الكامل لمنطاش، وزاد حماسهم فى الدفاع عنه حين دأب منطاش على الترفق بهم والتقرب إليهم بقوله: «أنا واحد منكم»(٣)، ولهذا أخذ العامة يتسابقون فى جمع النشاب والحجارة من على

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٥٤٨.
(٢) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان جـ ورقة ٢٦أ.
(٣) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام المجلد الثانى ورقة ٤٠.

ذكرو انه له سنتين مقيم فيها يستعمل ويشد شدات
قالو بعشرة الف دينار وقالو اكثر منها. واما اهل
البلد فما عرف مقدار ماخدوه لهم من شدات
متاع واكياس مملوه دنانير على اوساط نساهم ومن
جملتهم زوجت القاضى على قاضى بورة كان
على وسطها كيس الف دينار ولما نهبو البلد وقتلو
واسرو من قدرو عليه. احرقو بعضها بالنار. كل
ذالك يوم الاثنين، واخرجو من المراكب خيام

الأرض وحملها إلى منطاش. وأرسل منطاش من أحضر إليه ناصر الدين محمد بن الطرابلسى أستاذ الرماية بمدافع النفط وأمر بتوسيطه لتأخره عن الحضور لمعاونته، فاعتذر ابن الطرابلسى له حتى عفاعنه، وبادر ومعه طائفة من الفرسان فأحضر الات النفط والمدافع وصعد على المدرسة الظاهريه وصار يرمى على حيث جلس الناصرى، حتى أحرق جانباً كبيراً من الخيمة، ففر السلطان حاجي من الخيمة إلى مكان آخر، وظلت الحرب مستمرة حتى انضم أكثر أمراء الناصرى إلى منطاش [1].

وهكذا فشل الناصرى فى سياسته، وفشلت معها خطة إعادة السلطنة إلى الترك، حيث ظهر الانقسام بين صفوف الترك واضحاً نتيجة للمطامع الشخصية، وبدا جانب الناصرى ضعيفاً بعد أن استولى منطاش على الاصطبل السلطاني، واقتحم القلعة ونهب بيوت الناصرى وخزائنه [2] ثم توجه منطاش إلى السلطان حاجي وأعلمه أنه في طاعته وأنه أحق بخدمته لكونه من مماليك أبيه الأشرف شعبان. وخدع السلطان بهذا القول وأعلن ابتهاجه لهذه النتيجة، خاصة بسبب تضييق أتباع يلبغا عليه [3]، ثم أقر السلطان حاجي الأمير منطاش أتابكا للعساكر في رمضان سنة ٧٩١هـ سنة ١٣٨٩م.

(١) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقه ١٢٦أ
(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٨٨.
(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٣٤٠.

ضربوها قدام مراكبهم على البر منهم خيمة حمرة للملك الذى معهم واقامو ينهبو ويقتلو وياسرو كلمن وجدوه يوم الاثنين ويوم الثلثا والاربعا وفى هذه المدة لم يخرج اليهم عسكر ولا قاتلهم أحد لأن عسكر مصر كان بالشام مع الملك العادل ولم يجسر جلدك والى دمياط يعدى اليهم يقاتلهم لقلة اجناده بل اغلق ابواب دمياط وعمر السور باهل البلد واجناده، وكان على دمياط ثمنية شوانى

وتتبع منطاش يلبغا الناصرى حتى تمكن من القبض عليه بسر ياقوس ثم أمر به فقيد وحبس بالإسكندرية مع عدد من أصحابه.

ولعل من أهم أسباب هزيمة يلبغا الناصرى أمام منطاش أنه لم يتمكن من إطلاق السلطان برقوق فى الوقت المناسب، وبهذا أصبح يواجه عدوين فى وقت واحد، هما المماليك الأشرفية الترك والمماليك الظاهرية الجراكسة.

على أنه يبدو أنه لم يكن ينتظر لمنطاش أن يكون أسعد حظا من يلبغا الناصرى؛ ذلك أنه انفق جهده فى تتبع أصحاب الناصرى والقبض عليهم، وتحريض أتباعه على الانتقام منهم ثم إنه لم يجده أن تزوج من أخت السلطان المنصور حاجى [1] رغبة فى تأيد مركزه، إذ سرعان ما شعر بحرج موقفه أمام الجراكسة الذين حنث بعهده معهم فى إطلاق سراح أستاذهم إن هو انتصر على الناصرى، وحين وزع الإقطاعات على مماليكه وأخذ يقرب خشد اشيته ومماليكه وأولاد الناس، لم ينعم على واحد من الجراكسة الذين اتفق معهم ـ بإمرة أو إقطاع، مما أوغر صدورهم عليه [2]. وإذ أراد منطاش أن ينقذ نفسه مما عساه أن يحدث دبر للجراكسة مكيدة

(١) ذكرت المراجع المعاصرة أنها جهزت جهازا لا مثيل له لعظم مافيه من الجواهر والفصوص والذهب والقماش المختلفة الألوان، وحمل جهازها على خمسمائة جمل ـ راجع إنباء الغمر جـ١ ص ٢٨٨.
(٢) ابن إياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٢٨٠.

اصطول [اسطول] مع الريس منصور فلم يخرج اليهم ولاقاتلهم. ولما لم يرو احد يقاتلهم طمعو وعلمو ان ما في البلد من يمنعهم عدو بعضهم في الحراقات الى بر دمياط فقاتلوها فلم يقدرو منها على شي فعادو الى مراكبهم وطاب لهم الريح فعادو الى بلادهم بكسبهم. وقد كان العدو ايضا طرق ديار مصر في ايام هذا الاب دفعة اخرى من ناحيت فم رشيد وفعل فيها وفي فوه في الجيزة

فطلبهم إلى القلعة لينفق عليهم ويترضاهم، ثم أغلق عليهم الباب وقبض على نحو المائتين منهم، [1] وبعد أن أخذ خيولهم قيدهم وسجنهم بأحد أبراج قلعة الجبل [2].

وجاءت هذه الحادثة ضغثاً على إبالة بالنسبة للسلطنة التركية؛ إذ بدأ الجراكسة يتكتلون لحماية أنفسهم من منطاش الذى نادى فى الناس بالقبض عليهم وقطع أيديهم وتشهيرهم.

ثم شغل منطاش فى تتبع الجراكسة ولهذا لم يوفق فى إعادة الأمن إلى نصابه داخل القاهرة برغم أنه أعاد حسين بن الكوراني والياً على القاهرة إجابة لرغبات الشعب الذين خشوا من الزعر [3].

أمام هذا التكتل الجركسى أرسل منطاش يستدعى المماليك الأشرفية من سوريا وأنعم على من وصل منهم بالإقطاعات[4] غير أن هذا لم يؤد إلى توطيد نفوذه أو هدوء الأحوال فى القاهرة وبرغم وجود الخفر فى شوارعها للقبض على الزعر فإن الحال زاد سوءا. بل إن حوادث أخرى أنذرت بقرب عودة السلطان الظاهر برقوق إلى عرشه، وأهم هذه الحوادث اضطراب

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٥٥٠ ـ ٥٥١.
(٢) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٢٧أ.
(٣) نفس المرجع ورقة ٢٧ ، ٢٨ب.
(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٣٤٣.

وبورة هذه دفعتين ينجح العدو فيها ويكسب من
اطراف البلاد ويعود سالما والامر لله سبحانه ما شا
فعل. وبعد هذه الامور عاد السلطان الى ديار مصر
في سنة ثمان وستماية واقام بها ولما كان في شهر
رجب سنة تسع وستماية خرج يتصيد في الجيزه
ومعه ولده الملك الكامل وسار في الحاجر الى
الاسكندرية ودخل اليها وكشف اسوارها وقلاعها
وابراجها واخلع على البنايين والمهندسين. ومضى

أحوال سورية بسبب اتفاق أمير العرب نعير ابن مهنا مع سولي بن الغادر الأمير التركماني ونهبهما حلب، كما ثار على منطاش الأمير نزار العمرى الناصرى نائب دمشق، وحرض نواب سورية على مؤازرته في ثورته غضباً لما فعله منطاش بيلبغا الناصرى (١).

وحين أحس منطاش بالثورة تندلع ضده من الجراكسة والترك في سورية دبر مقتل السلطان برقوق سراً، فأرسل على يد شخص من أهل الكرك يدعى الشهاب البريدى إلى حسن الكجكني نائب الكرك، يأمره مشافهة بقتل السلطان الظاهر برقوق، ولكن حسن الكجكني لم يسارع بتنفيذ كتاب منطاش، وكاتبه يعتذر عن قتل السلطان برقوق دون أذن كتابي من السلطان والخليفة. وبرغم أن منطاش استكتب السلطان والخليفة إذناً بقتل برقوق فإن حسن الكجكني ماطل الشهاب البريدى وأنزله في قاعة أخرى بالقلعة على حين أعلم برقوق بحضور رسول منطاش حاملاً أمر قتله، وحلف حسن الكجكني لبرقوق بالأيمان المغلظة ألا يفعل به شيئاً (٢). وحين أيقن الشهاب البريدى بأن الكجكني يماطل في قتل برقوق، عزم على العودة، ولكنه كان سيئ الطالع بسبب كراهية أهل الكرك له منذ طلاقه لابنة قاضي الكرك الجميلة(٣)، فضلاً عن حب أهل الكرك للسلطان برقوق. ولهذا فإنهم حين عرفوا بمهمة

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٨٨.
(٢) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقه ٢٧ب.
(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩.

الى اشمـون نزل عليـهـا فـجـا اليـه ولده المعظم واعلمـه انه طلب ياخذ قلعة كوكب [بالشام] من عز الدين اسامة(*) لانه اشتراها من المملوك الذى فيها لاسامة بعشرة الف دينار وتقرر ان يسلمها له فطلع [فأطلع] مملوك اسامة الذى فى القلعة زوجته على القضية وقال لها ناخذ هذا المال الكثير نعيش فـيـه ونشـتـرى به ضـيـاع واملاك وقـد حلف لى المعظم انه مـا يخـرجنى منهـا وان يكون حكمى

(*) عـز الدين اسـامـه: هو والى بيروت الذى أمد القوات المسلمة المحاصرة فى عكا بالاغذية والعتاد بواسطة سفينة دخلت سراً إلى ميناء عكا.

الشهاب، فاجئوه بالقلعة وقتلوه أشنع قتلة وجروه إلى باب السلطان الظاهر برقوق، ثم حملوا السلطان إلى الباب وهم يدعون له بالنصر هاتفين: «دس برجلك على عدوك»(١).

ويروى بعض المؤرخين المعاصرين أن حسن الكجكنى عزم على إطلاق سراح السلطان برقوق حسب اتفاقه مع الناصرى، ولكنه ظل ينتظر وصول كتاب الناصرى ولما لم يكن متحققاً من سير الأمور بالقاهرة فإنه ماطل فى تنفيذ كتاب الناصرى وكتاب منطاش حتى لا يتكرر معه ما حدث لابن عرام حين قتل بركة(٢).

ومهما يكن فقد تطورت الأمور بسرعة، إذ أن أهل الكرك بايعوا السلطان برقوق فى ٩ من رمضان سنة ٧٩١هـ ـ سنة ١٣٨٩م وبدأ السلطان برقوق حكمه بتحصين الكرك(٣)، وسمع الجراكسة بحكم سلطانهم فى الكرك فأسرعوا إليه حتى اجتمع له نحو ألف فارس منهم من سوريا ومصر، وأقاموا خارج الكرك، كما أيده فى حركته عرب بنى عقبة القاطنون حول الكرك وعلى رأسهم أمير آل فضل الذى قدم له الخيل والمال. هكذا أصبح لبرقوق جيش فى فترة وجيزة، فعزم على الخروج من الكرك والتوجه إلى دمشق. ويبدو أن بعض

(١) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقه ١٢٨أ.
(٢) راجع ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام المجلد ٢ ورقه ٤١، الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقه ١٢٨أ.
(٣) ابن دقماق : الجوهر الثمين جـ٢ ورقه ١٨٨.

عليها وعلى غيرها من قلاعه ويدفع لى بوق وعلم واكون عنده مثل استاذى. فقالت له زوجته جيد افعل ما تريد. وكانة [كانت] تعرف تكتب فقامت من ساعتها وكتبت لابن اسامة وكان مقيم فى قلعة صفد تعرفه القضية وتقول له اسرع واسبق الى القلعة والا المعظم يسبقك اليها. فقام عند وقوفه على كتابها وسبق طلع الى القلعة واخذ المملوك قيده ورماه فى الجب الذى فيها، وفى

أعيان الكرك خشوا انتقام منطاش فاجتمعوا عند العماد أحمد بن عيسى المقيرى قاضى الكرك، واتفقوا على القبض على السلطان برقوق وإبلاغ القاهرة أنه لم يخرج إلا بإجماع السفهاء، وبعثوا ناصر الدين أحمد أخا القاضي فأغلق باب المدينة (١). ولكن السلطان الظاهر برقوق تمكن بمساعدة علاء الدين، أحد إخوة القاضى المخلصين له من الخروج والاتصال بمماليكه والعرب الذين حضرورا لنصرته خارج الكرك (٢). وهناك أقام يوماً زحف بعده على دمشق . وفى شقحب إحدى قرى دمشق ـ تمكن الظاهر برقوق من هزيمة جنتمر أخى طاز نائب دمشق كما هزم معاونه ابن باكيش نائب غزة واستولى على ما معهما من الخيل والسلاح والقماش. وبرغم أن ما أستولى عليه برقوق شئ كثير فإنه شعر بعدم قدرته على حصار دمشق لقلة من معه من الرجال، ولذا تذرع بالصبر حتى وصل إليه من صفد الأمير إينال اليوسفي الجركسى والأمير قجماس ابن عمه ومعهما نحو مائتى مملوك (٣) من الجراكسة مستعدين بالسلاح، كما وصل إليه مملوكه كمشبغا الحموى بجنده من حلب ، وقدم له خيلا وإبلا وكثيراً من آلات الحصار، وهكذا أعانه كل هؤلاء فى التقدم لحصار دمشق (٤).

(١) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ١٨٤ ـ رفع الإصر عن قضاة مصر: ص ٩٢.
(٢) ا بن تغرى بردى: النجوم الزاهرة: جـ١١ ص ٣٥٢.
(٣) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٩١.
(٤) ابن إياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٢٨١، صالح بنى يحيى: تاريخ بيروت ص ٢٤٧.

صبيحة اليوم الثانى جاء المعظم اليها فسلم عليه ابن اسامة من فوقها وقال له ارى مولانا شرفنا بعبوره فى ارضنا فقال له المعظم اريد الصيد قال له ابن سامة قد فاتك فضحك منه ثلثة وتم على فوره إلى مصر حتى اجتمع بابوه واعلمه القضية، ولما بلغ عز الدين اسامه ماجرا من المعظم اخذ عسكره، وذكروا العوام انه سار معه امرا اخر و انه سار فى نحو الفى فارس الى الشام، وقال قوم انه

وعمد الظاهر برقوق إلى الاستفادة من الحيل الحربية والزمن للاستعداد لقتال منطاش، فأرسل إلى منطاش على لسان أحد البدو أن برقوقاً حين خرج هارباً من الكرك وقع فى قبضة العرب [1]. فسر منطاش وأمر بإبطال سفر تجريدة أعدها من أربعة الأف فارس لقتال برقوق ونجحت الحيلة إذ أخذ منطاش فى إنفاق جهده فى الانتقام من الجراكسة بالقاهرة وقبض على عدد كبير منهم ونفاهم إلى قوص، غير أن هؤلاء قاموا بالثورة هناك وقبضوا على والى قوص وحبسوه واستولوا على المدينة. وازداد موقف منطاش حرجاً حين انضم إلى هذه الثورة الجركسية فى قوص الأمير مبارك شاه، نائب الوجه القبلى، الذى استطاع أن يستميل إليه جماعة كبيرة من عرب الوجه القبلى عاونوه فى تشتيت التجريدة التى أرسلها منطاش لمحاربة الجراكسة الفارين.. وهكذا لعب الزمن أيضاً دوره فى شغل منطاش بإخماد الثورات الداخلية التى اندلعت فى الصعيد كله، على حين ازداد عدد المماليك الجراكسة الفارين لسورية للانضمام إلى برقوق [2].

وإذ تواترت الأنباء الحقيقية عن موقف برقوق ووجوده خارج دمشق، وجد منطاش نفسه فى موقف لا يحسد عليه ، فعزم على الزحف إلى سورية مع السلطان حاجى. غير أن المال شكل

(١) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٣ ورقه ٣٦٤.
(٢) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٢٩أ.

يمضى الى قلاعه وقال قوم انه يمضى الى حلب للملك الظاهر وذالك في شهر شعبان سنة تسع وستماية وذكرو ان الملك الكامل سار في تبعه بعسكر ومنجنيقات لمحاسرته في قلاعه ولما تحقق الملك العادل سفره سار من اشموم ونزل العباسية ونادى على الاجناد ان يجهزو بركهم [معسكرهم وقواتهم] لسفر الشام وسار اسامه مع العرب فغدور به وسلموه للملك المعظم فسلمه لابوه الملك

عقبة جديدة أمامه إذ كانت الخزائن خاوية لانه كان على قول العسقلاني «نهابا وهابا»[١]. ولم تكن أمامه وسيلة لتدبير المال سوى الاستيلاء على الأموال الموقوفة على الأيتام، ثم استطاع الحصول على مبلغ كبير من المال من رئيس اليهود بعد أن قبض عليه وعذبه. وطلب البابا متاوس الأول سنة ١٣٧٨ ـ ١٤٠٨م البطريرك السابع والثمانين فى عداد بطاركة الإسكندرية ليأخذ منه أموالاً قيل له إن برقوقاً أودعها عنده قبل خروجه وبعد أن عذبه أفرج عنه إذ لم يجد مصداقاً لهذا القول [٢]. ودفع سوء الأحوال المالية منطاش إلى جمع الخيل والمال بشتى الطرق، فقرر على المماليك البحرية المقيمين بالقاهرة وعلى موقعي الإنشاء عدة خيول «بحسب مقامهم» مما أدى إلى ثورتهم عليه [٣]. وبلغت به الضائقة المالية أن منع الكتاب والفقهاء من ركوب الخيل للانتفاع بها في الحرب وأمرهم أن يركبوا البغال بدلاً منها ورسم كذلك بأخذ خيول الطواحين لاستخدامها [٤].

وبهذه السياسة الخرقاء فقد منطاش عطف طبقات الشعب جميعاً إذ فضلاً عما فرضه على الكتاب والفقهاء وموقعي الإنشاء والمماليك البحرية، فإنه عاد وجلب على نفسه نقمة أعيان

(١) العسقلاني : الدرر الكامنه جـ٤ ص ٣٦٦.
(٢) يوساب : كتاب تاريخ البطاركة ورقة ١٧٣أ.
(٣) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ٣٠ب.
(٤) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٥٧٣.

العادل وقد كان الملك العادل فى طلبه كما تقدم
قولنا فلما اظفره الله به مضى الى قلعة كوكب
ونزل عليها وحاصرها فسلمها مملوك اسامة الذى
فيها فتسلمها وحمل جميع ما فيها من المال
والغلال والسلاح الى غير ها وهدمها وحمل
حجارتها الى غيرها وهى قلعة جبل اسامة وتسلم
بقية قلاعه وهم قلعة صفد وقلعة عجلون وغيرها
مما لانعرفه وقد اختلف القول فى امر اسامة فقوم

البلد حين قبض على عدد كبير منهم وألزمهم بدفع أموال كثيرة ليمكنه سد نفقات الحرب[1]. والخلاصة أن البلاد تعرضت لحال سيئة من التوتر بسبب هذه الأمور ولتوارد الأخبار المختلفة من انتصار الظاهر برقوق أو انهزامه.

وقبل أن يغادر منطاش القاهرة استدعى الخليفة المتوكل على الله والقضاة وأعيان الفقهاء حيث أعدوا صورة فتيا فى أمر السلطان الظاهر برقوق خلاصتها أن الظاهر برقوق خلع الخليفة والسلطان، وقتل شريفاً من أهل بيت رسول الله فى الشهر الحرام، واستباح أموال المساكين وقتل النفوس التى حرم الله قتلها، ولذا وجب قتاله [2].

وعبأ منطاش كل جهوده لحرب السلطان الظاهر برقوق، ثم قسم قواته، وجعل قوة لحراسة لقلعة، وقوة لحراسة القاهرة، وجماعة أخرى لحراسة مصر (مصر القديمة) هذه إلى جانب التجريدة الضخمة المتجهة إلى سورية. ولكن منطاش وقع فى خطأ جسيم حين قبض على عدد كبير من مماليك يلبغا وسجنهم. كما أنه وزع جهوده توزيعاً أضعف من قوته. وفى ٢٢ من ذى الحجة سنة ٧٩١هـ (ديسمبر سنة ١٣٨٩م) سار منطاش بالجيش وأخذ معه السلطان

(١) الخطيب نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٣٠أ.
(٢) نفس المرجع ورقه ٢٩ أ. ب.

يقولون قتله وقوم يقولو اعتقله فى الكرك. وبعد هذه الخطوب اسلم راهب من دير ابو مقار من قلاية البتريرخس اسمه يوحنا على يد الملك الكامل فدفع له حسبة منية غمر واقام فيها ثلثة سنين محتسب ويصلي مع المسلمين فى الجامع بها والمساجد وبعد ذلك ذكر دينه ورهبانيته فندم فاشترى شقة خام(*) ومنديل واخذهم ومضى ووقف للملك الكامل وقال له هؤلاء كفنى اما

(*) شقة خام: هو ما يستخدم فى تكفين الموتى، وهو هنا غالباً مقطع قماش من الكتان.

والخليفة والقضاة وترك الأميرتكا الأشرفى نائباً للغيبة بالقاهرة فى أسوأ الظروف، بعد أن أمره بتتبع الجراكسة فى كل مكان،حتى فى المدارس والمساجد (١).

وعلى حين علم السلطان الظاهر برقوق بسرعة زحف منطاش خشى أنه يهاجمه من الخلف . وإذ اطمأن من ناحية الشمال بسبب انضمام كمشبغا الحموى نائب حلب له (٢)، فإنه ترك حصار دمشق وأقبل بعساكره ومن انضم إليه من التركمان لملاقاة منطاش فى شقحب ورسم السلطان برقوق خطة محكمة لمواجهة جيش منطاش البالغ عدده ثلاثين ألفا بأربعة آلاف فارس فقط (٣). واعتمدت هذه الخطة على عاملين، أولهما: تنسيق العمل بين قواد جيشه من الجراكسة، وثانيهما : العمل على الاستحواذ على السلطان حاجى ليظهر كمدافع عنه من بطش منطاش، وبذا يمكنه جذب أكبر عدد من الترك الأشرفية، وفى الوقت نفسه أراد أن يضم الخليفة إلى جانبه لأن بيده إعلان شرعية السلطنة (٤). ولتنفيذ هذه الخطة قسم الظاهر برقوق عساكره إلى ميمنة وميسرة وقلب وجناحين، وتولى هو قيادة الميمنة. وحين التقى الفريقان فى

(١) الخطيب : نزهه النفوس والأبدان ورقه ٣١ب.
(٢) العيني: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٣ ورقة ٣٧٠.
(3) Iorga : Notes & Extraits T11. p. 534.
(4) Iorga. Op. Cit. T11 p. 534.

تقتلنى او ترد لى دينى فوقع له توقيع حسن الى
كافة الولاة بان يرد له دينه ولبس ثياب الر هبنة
وتظاهر بدين النصرانية واقام على ذالك زمانا الى
ان اتفق ان رجلا نصرانى اسلم من اهل الصعيد
ثم ذكر دينه فندم فاخذ كفنه ووقف للملك
العادل قبل سفره الى دمشق وقال له ترد على
دينى كما رد ابنك الملك الكامل على الراهب دينه
ووقع له ان يعرضه احد، فلما سمع الملك العادل
فجدد اسلامه على يده واعاده الى حسبة منية غمر

---

١٤ من المحرم سنة ٧٩٢هـ ـ سنة ١٣٩٠م هزمت ميسرة الظاهر، وانسحب كمشبغا الحموى نائب حلب عائداً إلى بلاده، وعاد حسن الكجكنى إلى الكرك. غير أن السلطان برقوق ثبت ثباتاً عجيباً بمن أخلص له من حاشيته ومماليكه الجراكسة (١) حتى تمكن من اعتقال السلطان حاجى والخليفة المتوكل والقضاة، واستحوذ على ما معهم من الخزائن والذخيرة التى وصفتها المراجع المعاصرة بأنها كانت شيئاً يخرج عن الحد فى الكثرة (٢). وعمد الظاهر برقوق إلى دهائه المعروف ليجذب إلى جانبه أكبر عدد من عساكر منطاش، إذ تلطف بالسلطان حاجى والخليفة والقضاة وأوقفهم إلى جواره. وحين رأى عسكر منطاش انضمام السلطان والخليفة والقضاة إلى برقوق بدءوا يتركون منطاش وينضمون إلى السلطان برقوق، حتى أصبح جيش برقوق نحو سبعة آلاف مملوك.

وبهذا العدد الضخم تقدم برقوق فى اليوم التالى نحو دمشق التى فتحت أبوابها لمنطاش الذى تقهقر إليها ليحتمى بها. واقتتل الفريقان بظاهر دمشق من شروق الشمس إلى غروبها قتالاً مستمراً أظهر فيه برقوق ومماليكه رباطة جأش وصلابة عود حتى تابعوا القتال طيلة الليل،

(١) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام المجلد ٢ ورقة ٥٠.
(٢) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٦١٣، ابن تغرى بردى النجوم جـ١١ ص ٣٦٧ ـ ٣٦٨.

واقام فيها بعد سفرة السلطان زمانا ثم حضر الى الملك الكامل وقال ان الرهبان حفرو بير فى ديرا بومقار فوجدو فيها مطلب واوانى ومصاغ كثير وكانو الرهبان جابو بنآ مسلم بنا لهم البير وهو الذى حفره وكان قصد الراهب يوحنا ان ياخذ الملك الكامل جميع اوانى الديارات اذا تم اخذ اواني دير ابو مقار فاظهر السيد المسيح فضايل القديس ابو مقار ودر[ء] هذا الفاجر عن محبيه

ثم تغير الموقف فجأة وهبت رياح عاصفة مصحوبة بكتل من الثلج على معسكر منطاش حتى اضطر إلى إغلاق دمشق والتحصن بها (١).

وكاد برقوق يدخل دمشق بعد أن عاد لمعاونته كمشبغا الحموى نائب حلب، وبعد أن استولى إينال اليوسفى على قلعة صفد، غير أن أهل دمشق اضطروا عساكره الذين تمكنوا من التسلل إلى داخل المدينة إلى الهرب خارجها بعد أن اكتشفوهم وهم ينهبون البضائع من بعض السوقة (٢)، فإذا أضفنا إلى هذا أنه لم يكن لدى الظاهر برقوق من المعدات ما يكفى لحصار دمشق فإنه تقهقر إلى شقحب منتظراً جلاء الموقف.

وبعد أن أقام الظاهر برقوق سبعة أيام فى شقحب اجتمع بأمرائه والخليفة والقضاه وعرض كتاباً من السلطان حاجى ذكر فيه رغبته فى التخلى عن السلطنة لعجزه عنها (٣). وشهد الخليفة على السلطان المنصور حاجى بخلع نفسه من السلطنة، وحكم بذلك القضاة ثم نهض الخليفة وبايع السلطان الظاهر برقوق بالسلطنة (٤). وبعد هذه البيعة التى

(١) السلامى: مختصر التواريخ ورقه ٨٥ب.
(٢) كرد على : خطط الشام جـ٢ ص ١٦٦.
(٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥، ص ٤٩٢ ـ ٤٩٣.
(٤) ابن أبى السرور: النزهة الزهية ورقه ١٦أ.

وقديسيه حقيرا مهانا لم يظفر بمقصوده وذالك انه
قال للملك الكامل انه مطلب من عهد الروم
وكان قوله ذالك تدبير من الله لتكذيبه وسبب
السلامة فندب الملك الكامل معه ثلثة من المماليك
ومعهم شهود وسارو الى الدير في جماعة كبيرة
ولم يكن الفاجر يعرف موضع الاواني لانها مخفية
تحت الارض لايعرف موضعها الامقدم الدير او
رجل اخر من ثقات الشيوخ فمسك يوحنا جماعة

عرفت ببيعة شقحب[١]. خلع السلطان برقوق على الخليفة والقضاة، ونودى بذلك فى العسكر.

ورغم مرور هذه الأيام السبعة فإن الموقف لم ينجل، ولهذا رأى السلطان برقوق أنه من الحكمة أن يترك حصار دمشق التى أحكم منطاش إغلاقها ويعود إلى القاهرة وذلك لعدة عوامل: أولها: أن منطاش تأيد مركزه بانضمام عدد كبير من العرب إليه بعد أن تزوج ابنة أمير العرب نعير [٢]، وثانيهما أن الأحوال الاقتصادية فى سوريا ساءت حتى عدمت الأقوات وغلا ثمنها حتى بيعت البقسماطة بخمسة دراهم، وعلى العكس رخصت الأمتعة من كثرة مناهب[٣] وثمة عامل هام عجل بزحف برقوق على القاهرة، وهو أن الطريق إليها أصبح مفتوحاً بعد أن ثار مماليك الظاهر برقوق الجراكسة الموجودون بالقاهرة بزعامة مملوكة الأمير بطا الظاهرى وعددهم نحن ألف وخمسمائة من الجراكسة وانضم إليهم مماليك يلبغا الناصرى رغبة فى الأنتقام لأستاذهم. واتجه الثوار إلى سجون القاهرة التى أودع فيها منطاش عدداً كبيراً

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٣٦٩.

(2) Iorga: Op. Cit. T11, p. 535.

(٣) ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ٢ ورقة ١٨٩.
العينى: عقد الجمان : جـ٢٤ قسم ٢ ورقه ٣٨٥.

من الرهبان كان فى قلبه منهم حسد فعاقبهم فلما
علم مقدم الدير ان توانا [توانى] فى اظهار الاوانى
تسلط على الرهبان بالعقوبة واخرجهم من اديانهم
بادر وحضر بين يدى الشهود قال لهم وللاجناد
الذى معهم ان هذا الرجل نقل للسلطان الكذب
وغير الحق ظنا منه ان يوافقه على ظلمه وليس
عندنا من الاوانى الا كاس فضة و صنية فضة وستر
حرير نكسى به الهيكل وقت القربان وجميعهم

من الجراكسة فأخرجوا من فيها، ثم سار الثوار إلى بيوت الأمراء المنطاشية ونهبوها [١]. وتأيد مركز الثوار حين استولوا على الاصطبل السلطانى، وعلى بيت منطاش بمدرسة السلطان حسن بمساعدة العامة الذين انقلبوا على منطاش بسبب سوء تدبيره وقسوته [٢].

وبعد أن أرسل السلطان برقوق إلى نائب قطيه أن يحفظ الطرقات، تقدم بمن معه من المماليك والسلطان المعزول والخليفة والقضاة إلى القاهرة التى فشلت فيها الدعايات السيئة التى بثها ضده ابن الكورانى والى القاهرة، إذ نشر أخباراً تفيد هزيمة السلطان برقوق، ودق البشائر لهذه المناسبة عدة أيام، ومع هذا فإن الناس لم يصدقوا بل اشتركوا مع الثوار الجراكسة فى مقاومة أنصار منطاش ووالى القاهرة حتى اضطروه إلى الاختفاء [٣]. ويعجب ابن تغرى بردى من أنه مع قيام هذه الثورة ظلت القاهرة فى أمن من الزعر وفسادهم [٤]. ويفسر الخطيب سبب هذا الأمن بأن الأمير بطا الظاهرى بعد أن قبض على ابن الكورانى، وصفده بقيد من حديد، ورسم بنهب داره أمر بتولية محمد بن العادلى والياً على القاهرة. وأسرع

(١) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقه ٥٢.
(٢) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٣٠١.
(٣) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقه ٣٢ب.
(٤) ابن تغرى بردى : النجوم جـ١١ ص ٣٧٥.

برسم القربان اهتمو بهم النصارى وانقذوهم وكل واحد منهم اسمه مكتوب على ما عمله. فقالو له الشهود اذا صح ما قتله فان الملك الكامل عادل خلد الله ملكه ومن عدله ان لاياخذ منها شيا فطيب قلبك وقلوب اصحابك واحضرها حتى نرها ونعرف ان خصمك كذب فيما حكاه عنكم اذا قر ى ما عليها من المكتوب. وكان هذا بتدبير الله جرى فقام مقدم الدير بين يدى الشهود وفتح

الوالي الجديد إلى الطواف بشوارع القاهرة منادياً بالأمان والدعاء للظاهر برقوق [1]. وأدى هذا دون شك إلى سهولة مهمة السلطان برقوق، إذ فضلاً عن سرور الناس واطمئنانهم لانتصار السلطان برقوق وتمنى عودته، فإن بطا قضى على ما بقى من مقاومة الترك الأشرفية، ثم قبض على زعمائهم بالقاهرة، وسقطت القلعة فى يده فتمكن بطا من إعادة مقررات المماليك الجراكسة من الحكم وغيره مما كان مقرراً للمماليك الترك [2]. وبدأ بطا فى إقامة الكثير من الاستحكامات حتى بلغ من قوتها أن ظن البعض أن بطا أراد فى نفسه بهذه الاستحكامات الكثيرة أن يمنع الظاهر برقوق من دخول القاهرة [3].

وكيفما كان الأمر انتشرت الأخبار برحيل الظاهر برقوق من غزة إلى مصر فى العاشر من صفر سنة ٧٩٢هـ ـ يناير سنة ١٣٩٠م فأمر بطا الظاهرى بدق البشائر وأرسل إلى السلطان برقوق ينبئه بأنه استولى على القاهرة وأقام الخطبة فيها باسمه [4]. فرد عليه السلطان برقوق يشكره ويأمره بتجهيز الإقامات له ولمن معه [5].

(١) المرجع السابق ورقه ١٣٣أ، ب.
(٢) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقه ٥٢.
(٣) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٦٣١.
(٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٩٤.
(٤) ابن تغرى بردى: النجوم جـ١١ ص ٣٧٨ ـ ٣٧٩.

الموضع واخرج الاوانى فاثبتوها الشهود جميعا فى الاوراق وحملوها الى القاهرة واحضروها بين يدى الملك الكامل فقراها جميعها وكان جملتها ساقية لطيفة بلور صنعة عجيبة وشبكة لولو فاحضر الملك عرفا الصاغة والبرازين وقومو المصاغ والستور الحرير وجميع الانية فذكر من حضرانها قومت بثلثة الف دينار على حكم الاختصار وربما تميز بازيد من ذالك فاحضر الملك الكامل البطرك انبا

وما كاد ركب السلطان برقوق يصل إلى الصالحية حتى نودى بزينة القاهرة وبلغ سرور الناس أشدة حتى تنافسوا فى إقامة الزينات، ثم خرجوا من القاهرة أفواجاً للقائه فرحين «مقدرين فيه عقله وتثبته» (١). وليس من شك فى أن الشعب قارن بين سياسة كل من برقوق ويلبغا الناصرى ومنطاش. وظهر واضحاً انهم قاسوا الكثير من سوء تدبير الآخيرين، على حين فضلوا حكم السلطان برقوق نظراً لسياسته الشعبية.

ويصور لنا المقريزى استقبال القاهرة للسلطان الظاهر برقوق وشعور الناس تصويراً حياً وذلك حين دخلها ومعه السلطان المنصور فيقول: «فى ٢٤ من صفر سنة ٧٩٢هـ ـ يناير سنة ١٣٩٠م خرج الأشراف وطوائف الفقراء بصناجقها، والعساكر بلبوسها الحربية، واليهود بالتوراة، والنصارى بالإنجيل، ومعهم شموع كثيرة مشعلة (٢)، وخرج من عامة الناس رجالهم ونساؤهم مالا يحصيهم إلا الله وعندهم من الفرح والسرور شئ زائد وهم يصيحون بالدعاء للسلطان حتى لقوه وأحاطوا به. وقد فرشت الشقق بالحرير من الترب إلى باب السلسلة، فلما وصل إليها تنحى بفرسه عنها، ومشى بجانبه فصار كأن الموكب للمنصور، فوقع هذا من الناس موقعاً عظيماً، ورفعوا أصواتهم بالدعاء والابتهال لتواضعه مع المنصور فى حالة غلبته

(١) العسقلانى: الدرر الكامنه جـ٤ ص ٣٦٥.
(٢) راجع كذلك يوساب : تاريخ البطاركة ورقة ٣٩.

يوانس [يوحنا] فسلم له جميع الاوانى بعد ان قال: ابصرو رجلا نصرانى واسلم واخذ دين الاسلام بقبول وهو مشهور فيه بثقة وديانة وامانة يقرا لنا ما هو مكتوب على هذه الاوانى. فاحضرو رجلا من اهل الاسكندرية اسمه بطرس ابن يوحنا كان شماسا ببيعة السيدة بها واسلم فقرى للملك الكامل القبطى الذى على الكاسات والصوانى والصلبان والملاعق اسم كل من عمل شيأ عليه

وقهره له، وأنه معه أسير، وعد هذا من فضائله. وصارت القبة والطير أيضاً على رأس المنصور والخليفة راكب بين أيديهما، وقضاة القضاة بين يدى الخليفة، فإذا تقدم الفرس من شقة إلى أخرى تناهبها العامة من غير أن يمنعهم أحد، وكانت العادة أن الشقق لجمدارية السلطان، ولكنه قصد بذلك التحبب للعامة، فإنه صاحب كيد ودهاء، وكذلك لما نثر عليه الذهب والفضة تناهبه العامة، وعندما وصل إلى باب القلعة نزل عن فرسه ومشى راجلاً تجاه فرس السلطان المنصور، وهو راكب ، حتى نزل فأخذ بعضده وأنزله. فحسن هذا منه إلى الغاية. وأخذ في المبالغة في تعظيمه ومعاملته بما يعامل به الأمراء سلطانهم، إلى أن أدخله إلى داره بالقلعة ثم تفرغ لشأنه [1]».

ومما ذكره المقريزى يمكننا أن ندرك مدى ثبات السلطان برقوق على سياسته ودهائه، إذ فضلاً عن إظهار حبه للشعب وعدم ترفعه عن الناس ، فإنه عمد إلى المبالغة فى إكرام السلطان حاجى ليتظاهر بمدى زهده فى السلطنة، ولتنكشف أمامه اتجاهات الناس نحو سلطنته، حتى إذ تأكد من ميل الناس جميعاً له استدعى الخليفة وشيخ الإسلام وقضاة القضاة وأهل الدولة واجتمع بهم فى الاصطبل حيث جددوا له البيعة بالسلطنة.

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٦٣٨ ـ ٦٣٥.

فعجب الملك الكامل من ذالك وامر ان يستحلف
بثلثة شيوخ من الرهبان ان هذه الانية لم توجد فى
بير فحملو واحضرو البنآ الذى حفر لهم البير
وبناها وكان رجلا مسلم فشهد بين يدى السلطان
انه الذى حفر البير وبناها ولم يكن فيها شيا.
فصدقة السلطان، فعند ذالك قال الحكيم ابو
شاكر للملك الكامل يامولانا قد كان رفع للملك
الناصر صلاح الدين رحمه الله فى هذه الانية

وهكذا فشلت محاولة الترك لإعادة السلطنة إلى بيت قلاوون وبدأ الناس يؤمنون بالسلطنة الجديدة ـ ومع هذا ظل السلطان برقوق يأخذ حذره من الترك، فأسكن السلطان حاجى بالحوش السلطانى، ووكل بالباب حفظة من الخاصكية الأبطال (١). ثم أخذ السلطان برقوق فى تدبير أمور دولته والعمل على إعادة الجراكسة إلى الوظائف الرئيسية فى الدولة وبدأ بتعيين مملوكه الأمير بطا الظاهرى دويدار كبيراً وإينال اليوسفى أتابكا للعساكر (٢).

استقرار دولة المماليك الثانية

سياسة برقوق نحو الترك ـ الصلح بين برقوق ويلبغا الناصرى ـ بقاء قوة الترك فى دمشق واستعانتهم بالعربان ـ قضاء يلبغا على معظم المماليك الترك. عودة الخصام بين يلبغا الناصرى وبرقوق ـ محاولة يلبغا الناصرى انقاذ منطاش ـ ذهاب السلطان برقوق الى دمشق سنة ١٣٩١م ـ القبض على يلبغا الناصرى وقتله ـ فرار منطاش ـ عودة برقوق الى القاهرة ـ تطهير القاهرة من الترك ـ القبض على منطاش وقتله ـ مطالبة العربان بالحكم دون الجراكسة ـ محاولة العربان اقامة الشريف العنابى سلطانا سنة ١٣٩٤م ـ موقف السلطان برقوق من

(١) الخطيب : نزهه النفوس والأبدان ورقه ٣٣ب.
(٢) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٣٠٣.

واحضـرها وعلم كـذب الرافع واعـادها الى ديرها.
فعند ذالك اعـادها الملك الكامل وامـر بتـسليـمـهـا
للبطرك فـاخـذها وجـعلهـا فى اطبـاق على رووس
الحمالين واشترى شمع كثير ودار بها جميع شوارع
القـاهرة واسـواقـهـا والنصـارى تصـرخ بالدعـا
للسلطان وكـان يوم مـشـهـور عظيـم جدا وصـعب
على الشـامتين بمصـر دوران الصـلبان فى اسـواقهـا
وشوارعها ولكن لم يجسر احد يتكلم ولايمد يده

باقى التمردات العربية ـ فشل مبدأ وراثة العرش فى دولة المماليك الثانية ـ الصبغة الجديدة ـ التغيرات فى نظم الحكم والادارة.

لم تغير المؤامرات المستمرة من سياسة السلطان برقوق بعد أن عاد إلى عرشه فى ١٤ من صفر سنة ٧٩٢هـ ـ يناير ١٣٩٠م، وبدا على عادته سياسياً عاقلاً، متوخيا الحرص والتأنى فى كثير من أموره السياسية ولاسيما فى علاقاته مع أعدائه، فهو أراد بناء دولة جديدة معتمداً على العصبية الجركسية. ولم يكن هذا الأساس سهلاً لأن العصبية التركية التى حكمت البلاد نحو مائة وثلاثين عاماً مازالت تناصبه العداء، كما أن العصبية العربية التى انتشرت فى طول البلاد وعرضها ممثلة فى عدد كبير من القبائل العربية التى اشتغلت بالزراعة والتجارة طالما ثارت على السلطان، واعتبرت العناصر المملوكية مغتصبة للحكم. وتحمست هذه القبائل أكثر حين انتقل الحكم إلى الجراكسة، ولذا عمل السلطان برقوق منذ عودته إلى السلطنة على تصفية حسابه مع هاتين العصبيتين، وذلك حتى يضمن الاستقرار لدولته.

ولتحقيق ذلك بدأ السلطان برقوق سلطنته الثانية بإعادة الهدوء إلى القلعة ومحاربة الإشاعات المسببة للفرقة والانقسام فى صفوف مماليكه، فلم يتورع أن يسمر أحد مماليكه لأنه أشاع كذبا أن الأمير بطا الدوادار عزم على الثورة على السلطان (١)، على حين أمر بالعفو عن

(١) العسقلانى : إنباء الغمر جـ١ ص ٣٠٦.

من هيبة الملك الكامل خلد الله ايامه. وبعد ذالك جا راهب آخرمن دير ابو مقار من قلاية سقيط وقف للملك الكامل وكان اسمه عبد المسيح المصور كتب له رقعة فى حق البطرك يقول فيها ان البطرك فى كل سنه يحمل اليه مال كثير من الاساقفة وقد كانو البطاركة الذى قبله جرت عادتهم ان ينفقو فى مراكب الاصطول من اموالهم فاخذ القاضى الاعز صاحب الديوان الرقعة منه

الأمراء اليلبغاوية الذين سجنهم منطاش، مع تحديد أماكن إقامتهم [1]. ولم يكن يدفع السلطان برقوق إلى هذه السياسة العطف أو الشفقة، بل إن الأحوال الداخلية اضطرته إليها، إذ بدت أحوال سورية غير مطمئنة منذ ٢٠ من صفر سنة ٧٩٢هـ يناير سنة ١٣٩٠م ـ وذلك بسبب بقاء منطاش مستقلاً بدمشق، وتحريضه لقطلوبغا الصفوى نائب صفد على الانضمام إليه ـ ولذا استدعى السلطان برقوق الأمير يلبغا الناصرى وصالحه، ثم عينه أمير سلاح والطنبغا الجوباني اليلبغاوى وعينه رأس نوبة الأمراء [2]. وجعل السلطان برقوق تعيين هؤلاء اليلبغاوية في مناصبهم كسباً لودهم، حتى إذا انتظمت أموره فى العاصمة استغل عداءهم لمنطاش فى القضاء عليه وعلى أتباعه من المماليك الأشرفية الترك.

وبدأ السلطان برقوق الاستعدادات السريعة فى القلعة لإعداد التجريدة المتجهة لحرب منطاش ولكنه قرر أن يحتفظ لديه بالقاهرة بأكبر عدد من الجراكسة، على حين جهز أغلب التجريدة من الترك اليلبغاوية، حتى يضمن التخلص من عدد كبير منهم في القتال فى سورية مع أعدائهم من المماليك الأشرفية. ولذا خلع على عدد من الأمراء اليلبغاوية بإقطاعات فى

(١) السلامي: مختصر التواريخ ورقه ٨٥ب.
(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٦.

اعرضها على ا لملك الكامل فقال للقاضى الاعز
ياقاضى اذا كان غيرنا ظالما ما نكون نحن مثله دع
هذا الراهب يمضى الى ديره حتى نطلبه فخرج
اليه القاضى الاعز وقال له ما قاله الملك الكامل
فمضى بوجه مخزى وحرس الله الاب البطرك من
كيده. وجرى فى ايام حياة هذا الاب من الامور
الصعبة الحروب والغلا والجلا ما قدمنا ذكره ولو
ذكرنا ما جرى فى ايام رياسته بجميع الديارات

سورية [١]، ثم جعل الطنبغا الجوبانى نائباً لدمشق، والأمير قرادمرداش الأحمدى اليلبغاوى نائبا لطرابلس [٢]، وبعثهما على رأس التجريدة، على حين عين الأمير يلبغا الناصرى مقدماً للعسكر جميعاً، وجعل مرجع الأمور كلها إليه، وحثه على أخذ ثأره من منطاش بقوله «هوغريمك، اعرف كيف تقاتله» [٣].

وقبل أن يتحرك العسكر إلى سورية فى ١٧ من جمادى الآخرة سنة ٧٩٢هـ ـ أبريل سنة ١٣٩٠م ـ بدأ الحظ فى جانب السلطان برقوق؛ إذ خرج على منطاش حليفه قطلوبغا الصفوى، وحضر إلى مصر طائعاً، وجعل هذا العمل منطاش يشك فى نيات أتباعه، فقبض على عدد منهم وسجنهم، مما دفع بعض المماليك الأشرفية إلى تركه والهروب إلى مصر للانضام إلى جانب السلطان [٤]. وبدا جانب منطاش ضعيفاً حتى إنه لم يبق معه أكثر من ستمائة فارس، فاضطر أن يخرج بهم من دمشق ومعه كل ما أمكنه جمعه من الأموال التى قومت بنحو سبعين حملاً من الذهب والفضة والقماش [٥]، وتوجه إلى بلدة النبك ـ بين

(١) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقه ٣٤ب.
(٢) ابن دقماق: الجوهر الثمين، المجلد الثانى ورقه ١٥أ.
(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٩.
(٤) العسقلانى : إنباء الغمر جـ١ ص ٣٠٦.
(٥) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام المجلد الثانى ورقة ٥٥.

المصرية لم نبلغ ذالك ولاوصلنا اليه وانما ضمنا هذه السيرة ما نقلناه ممن تقدمنا من ا سلافنا وما وصل الى علمنا بسماع الاخبار من ثقات شيوخنا الى مدينة المحلة بحكم سكننا فيها ومقامنا بها وقد نشر غيرنا من اخوتنا المومنين المقيمين بالقاهرة ومصر مما شاهده حقا وعلموه يقينا. ثم تنيح الاب المغبوط انبا يوانس المذكور يوم الجمعة السادس عشر من شهر رمضان سنة اثنى عشر وستماية

دمشق وحمص [1] ـ فتمكن الأمير إيتمش البجاسي من الخروج من سجنه بقلعة دمشق وأخرج المحبوسين بها من الجراكسة. ثم استطاع إيتمش السيطرة على المدينة، وسهل هذا مهمة النواب المتجهين لحرب منطاش، إذ دخلوا دمشق دون قتال في آخر جمادى الآخرة سنة ٧٩٢هـ ـ أبريل سنة ١٣٩٠.

وأحدث إعلان هذا الخبر المفاجي صدى كبيراً في القاهرة حيث أمر السلطان بدق البشائر، وأنفق أموالاً كثيرة في الناس، الذين شغلوا بالتسابق في إقامة الزينات [2].

ثم نجحت عساكر السلطان برقوق في كسب جولة أخرى في سورية وذلك حين انتصر الأمير كمشبغا الحموي اليلبغاوي نائب حلب على الأمير تمان تمر الأشرفي الذي استعان بأهل بانقوسا [3]، وحاصر كمشبغا في قلعة حلب فأسرع كمشبغا ونقب القلعة وقاتل الأشرفية بالمكاحل من الثقب حتى ضعف أمرهم، وقبض كمشبغا على ثمانمائة من الترك ومن أهل بانقوسا، وانتقم منهم بتخريب بلدهم حتى صار دكا [4].

(١) راجع : معجم البلدان جـ٨ ص ٢٤٧.
(٢) المقريزي: السلوك جـ٣ ص ٦٤٤.
(٣) كرد علي: خطط الشام جـ٢ ص ١٦٧.
(٤) العيني: عقد الجمان جـ٢٤ ص ٣٩٨.

الموافق للتانى عشر من طوبة سنة اتنين وتلتين وتسع مايــة للشهداء الاطهار صلواته تحفظنا امين. وكان هذا الاب البطرك قد سمع وهو حى ان انبا زخارياس البطرك لما تنيح أمــر أن يدفن جسده المقدس فى الحبس تحت قبر زخارياس البطرك [البطرك ٦٤] فدفن فى مقبرة الحبس بمصر وهما فيها الى يوم تسطير هذه السيرة والسلام والمجد لله دايما ابديا سرمديا امين.

***

أما منطاش فإنه عاد ليتفق مع الأمير العربى نعير بن حيار أميرا آل فضل، واتجه الاثنان نحو دمشق لقتال يلبغا الناصرى. فخرج يلبغا الناصرى والطنبغا الجوبانى من دمشق إلى سلمية، وترك بدمشق الأمير إيتمش البجاسى مع الحامية الجركسية وعدد من المماليك الترك اليلبغاوية. غير أن المماليك الترك اليلبغاوية الذين بقوا بدمشق انتهزوا فرصة قلة عدد أفراد الحامية الجركسية وثاروا على إيتمش بالاتفاق مع العامة، وحاولوا الاستيلاء على الحكم بدمشق. ولما كان يلبغا الناصرى حريصا على إظهار إخلاصه للسلطان برقوق خشية انتقامه، فإنه ما كاد يتلقى نبأ هذه الثورة حتى أسرع فى طائفة من عسكره إلى دمشق ومعه الأمير الابغا العثمانى، حاجب حجاب دمشق، وقاتل الثائرين قتالاً شديداً وأفنى عدداً كبيراً من الترك والعامة المعادين للسلطان برقوق (١).

وبعد أن أعاد الأمير يلبغا الناصرى الأمن إلى نصابه فى دمشق عاد إلى سلمية (٢). فى رجب سنة ٧٩٢هـ ـ مايو سنة ١٣٩٠م ـ، واجتمع بباقى النواب لرسم خطة قتال منطاش وحليفه نعير. واتفق فى هذا الاجتماع على تقسيم العسكر ثلاث فرق يتولى يلبغا الناصرى

(١) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقه ٣٥ب.
(٢) سلمية بليدة من أعمال حماه. راجع ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ حاشية ١ ص ١٥.

نبتدى بمعونته وحسن تاييده بشرح ما جرى على اقليم مصر(*) وما اصاب الشعوب المومنين بالمسيح المقيمين فيه من برج دمياط الى برج اسوان بعد وفات الاب المغبوط البكر الطاهر انبا يوانس البطرك نيح الله نفسه مع الابرار

(*) الاحداث التاريخية فى الفترة من عام ١٢١٦م، وهى سنة وفاة البطرك ٧٤ يوانس (يوحنا)، وفترة من حكم الملك الكامل الأيوبى ومن أتى بعده، حتى عام ١٢٣٥م وهى السنة التى تولى فيها البطرك ٧٥ كيرلس (ابن لقلق) وهى حوالى ١٩ سنة ونصف، تمثل نهاية الحكم الأيوبى بمصر.

انا اذكر ما وصل الى علمى فى المواضع الذى انتهى اليها فى هذه السيرة ومدة مقام الكرسى بغير بطرك كما تنبا بذالك يوانس. ولما طال الزمن خفت ان اموت ولم اشرح ذالك وقد امهلنى الله

قيادة الفرقة الأولى المتجهة لقتال نعير بن حيار، وأن يقوم الأميران قرادمرداش الأحمدى نائب طرابلس ، والطنبغا الجوبانى نائب دمشق، بقيادة الفرقتين الثانية والثالثة المخصصتين لقتال منطاش.

وحين بدأ القتال فى شعبان سنة ٧٩٢هـ ـ يونيه سنة ١٣٩٠م ـ استطاع يلبغا الناصرى أن يقتل عدداً من عرب آل فضل وأن يلحق الهزيمة بنعيربن حيار، أما قرادمرداش فإنه اشتبك مع منطاش دون أن يتمكن منه، على حين نشبت معركة حامية خارج دمشق بين مماليك منطاش وبين الفرقة التى قادها الجوبانى. ورغم انتصار الجوبانى فى بادى الأمر، فإن المعركة أسفرت عن قتل عدد كبير من الفريقين وقتل الجوبانى نفسه. وتأثر جيش السلطان برقوق بنهب العرب والتركمان حتى اضطر الناصرى إلى التقهقر بجيش السلطان إلى دمشق ليصلح أمره (١).

وبقدر ما تظاهر السلطان برقوق بأسفه الشديد لفقد عدد كبير من اليلبغاوية بقدر ما تحمس فى نفسه لنجاح فكرته، وتمنى المزيد من الصراع ليتخلص من عدد آخر من الأجناد الترك. فاستدعى عدداً كبيراً من الأجناد الترك البطالين للخدمة وأرسلهم إلى يلبغا الناصرى. واستطاع

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٦٤٩.

حتى سمعته وعلمت وابصرة فاكون كانى قد منعت [منحت] نفسى تذكار رحمة الله وبخلت على غيرى بها فقدمت خيرة الله وسالته المعونة لى على ذالك متكل على عفوه واثق بلطفه انه على كل شي قادر. وقد كنت ذكرة [ذكرت] فى اخر سيرة انبا يوانس [يوحنا] البطرك [رقم ٧٤] انه تنيح يوم الجمعة الثانى عشر من طوبه سنة تسع ماية اثنين وثلثين للشهدا الاطهار الموافق للسادس

يلبغا أن يخرج بهم من دمشق فى نهاية شعبان سنة ٧٩٢هـ - يونيه سنة ١٣٩٠م - وأن يهاجم عرب آل علي - على مقربة من دمشق - وقتل نحو مائتين منهم، ونهب بيوتهم وجمالهم، ثم عاد سريعا إلي دمشق لانتظار ماعسى أن يقوم به منطاش (١).

وأدى هذا الانتصار مع توالي الإمدادات من القاهرة إلى إعلان نعير طاعته للسلطان وبعث للسلطان يسأله الصفح والأمان، ولم يتأخر السلطان برقوق فى إجابته إلى ما طلب، وأرسل إليه تقليداً جديداً بإمرة آل فضل على عادته (٢).

ولا شك أن منطاش فقد بخروج نعير جانباً كبيراً طالما اعتمد عليه، إذ أصبح لا يخشى عساكر السلطان وحسب بل وعرب آل فضل كذلك، ولذا اضطر منطاش إلى الارتماء فى أحضان سولى بن دلغادر التركمانى وطلب معاونته (٣).

وفى ١٦ من المحرم سنة ٧٩٣هـ - يناير سنة ١٣٩١م - لجأ يلبغا الناصرى إلى حيلة للقبض على عدد كبير من المماليك الترك الأشرفية. إذ لبس عدة الحرب وتظاهر بعدائه للأمير

---

(١) نفس المرجع والجزء ص ٦٥٠.
(٢) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقه ١٢٦أ.
(٣) العيني: عقد الجمانن جـ٢٤ و رقه ٤٠٦.

عـــشـــر من رمـــضـــان سنة اثنى عـــشـــر وسـتـمـاية[١٢١٥م] وابتـديت انا في كـتـابة هذه الـسـيـرة يوم الاثنين السـابع عـشـر من برموده سنة سبع وثلثين وتسع ماية الموافق للشامن عـشـر من صـفـر سنة ثمان عشر وستماية [١٢٢١م] يكون مـقـام الكرسى خـال بغـيـر بطرك الى هذا التـاريخ خمس سنين وثلثة اشهر وما زاد على ذالك يضاف اليه عند قسمة البطرك. كان والدى بلغنى ممن كان

إيتمش البجاسي وللحامية الجركسية، ونادى بدمشق «من كان من جهة منطاش فليحضر» وجازت الحيلة على أتباع منطاش من الأشرفية والتركمان، فانضم إليه نحو ألف ومائتى فارس منهم، فقبض عليهم يلبغا وسجنهم [١]، ثم خلع عدة الحرب وكتب بذلك إلى السلطان الذى أجابه بالشكر والثناء [٢].

على أن منطاش لم ييئس لخروج هذا العدد الكبير من أتباعه ، بل استعان بعدد كبير من عامة دمشق فى مناوءة يلبغا الناصرى، ولكنه اضطر إلى التقهقر سريعا إلى عينتاب. ولما لم يستطع دخولها بسبب ملاحقة عساكر يلبغا اضطر إلى الفرار إلى مرعش [٣]. ونتج عن هذه الهزائم المتلاحقة خروج جماعة أخرى من أتباع منطاش وحضورهم إلى مصر طائعين [٤]. وسلك السلطان برقوق على عادته سبيل العفو عن هؤلاء، بل إنه خلع على استدمر رأس نوبة منطاش الذى حضر إليه مع هؤلاء المماليك الأشرفية [٥].

(١) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك جـ٩ ص ٢٤٦.
(٢) ا بن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٩٧.
(٣) مرعش مدينة كبيرة على ست مراحل من حلب فيها أسواق:
راجع المقريزى: جنى الأزهار من الروض المعطار فى عجائب الأقطار ورقة ٤٤ب.
(٤) ا بن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ٩ ص ٢٤٧.
(٥) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٦٥٤.

حاضر عند انبا يوانس يوم نياحه من شيوخ مصر قبل موته بيوم واحد انه غشى عليه نحو ثلثة ساعات ثم فتح عيناه وتحدث مع الحاضرين عنده وسالهم عن منصور تلميذه وكان مريضا فقالو له مات فقال: كفنوه وادفنوه فانا اغدا اكون عنده. ثم غشى عليه دفعة ثانية ثم فتح عينيه وقال للحاضرين عنده: يكون بينكم بعدى خلاف عظيم فيمن تقيموه ويكون الكرسى بلا بطرك زمانا

ويمكن القول إن السلطان برقوق نجح حتى هذا الوقت فى القضاء على أكثر المماليك الترك الأشرفية بواسطة المماليك الترك اليلبغاوية، كما أن اليلبغاوية مات عدد كبير منهم فى هذه المعارك المتصلة، ومع أنه كان من الممكن أن ينتظر السلطان برقوق حتى يقبض يلبغا على منطاش وينتهى أمر الأشرفية، ثم يتخلص من باقى اليلبغاوية، إلا أنه انقلب فجأة على المماليك الترك جميعاً إذ قبض على المماليك الأشرفية الذين التجئوا إليه، وعفا عنهم من وقت قصير، فى الوقت نفسه الذى قبض فيه على مماليك الطنبغا الجوبانى الذين عادوا إليه بعد قتل أستاذهم فى المعركة التى دارت خارج دمشق فى شعبان سنة ٧٩٢هـ (١) وجعل هذا الانقلاب المفاجى الأمير يلبغا الناصرى يفهم نيات السلطان، إذ كيف يقبض السلطان على أعدائه وأتباعه على السواء !!؟ وأدرك يلبغا أن السلطان برقوق لم يغير من سياسته العدائية للعنصر التركي وأنه لاشك عازم على التخلص من باقى اليلبغاوية بعد قضائه على الأشرفية. ولذا انقلب يلبغا الناصرى بدوره مرة أخرى على السلطان برقوق، ولكنه لم يجرؤ على إعلان ثورته على السلطان برقوق بسبب قلة عدد اليلبغاوية فى سورية، ولذا بدأ يتقرب من منطاش بأن تعمد عدم مقابلته فى معركة حاسمة، وإذا سار منطاش لقتاله من طريق سار يلبغا من طريق آخر (٢).

(١) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٣١٦ ـ ٣١٧.
(٢) نفس المرجع والجزء ص ٣١٧ ـ ١٨.

طويلا حتى يقيم لكم المسيح رجل ياتى به من حيث لاتعرفون وتكون ايامه هادية وروح الله تكون فيه. ثم تنيح ثانى يوم ودفن فى الحبس بمصر الى جانب قبر زخارياس البطرك. وبقى الكرسى خال بغير بطرك من يوم نياحته الى يوم تسطير هذه السيرة كما تقدم القول وكان ذالك بامر الله كما تنبا به عليه الاب انبا يوانس بروح القدس المتكلم من فاه الطاهر. ونشرح ها هنا

ثم أثبتت الحوادث أن يلبغا الناصرى اتفق فعلاً مع منطاش، وأنه كاتب منطاش أن يتقدم إلى دمشق، وأنه لن يقف فى طريقه على أن يظل هذا الأمر سراً بينهما؛ فعاد منطاش من مرعش فى أول رجب سنة ٧٩٣هـ ـ يوليو سنة ١٣٩١م ـ وهاجم حماة واضطر نائبها إلى الفرار إلى طرابلس[١]. ثم تقدم منطاش إلى حمص وبعلبك واستولى عليهما، وفر نائب بعلبك إلى دمشق حيث أخبر الناصرى بزحف منطاش على دمشق[٢]. وبدلاً من أن يخرج يلبغا الناصرى للقاء منطاش من الطريق الذى سلكه منطاش خرج يلبغا من طريق الزبدانى[٣]. وبذا ترك دمشق لقمة سائغة لمنطاش الذى تقدم إليها بمعاونة بعض من عامة دمشق الذين فتحوا له باباً من وراء الجبل، ومكنوا أتباعه من المماليك الأشرفية والتركمان من دخول اصطبلات أمراء دمشق، وأخذ نحو ثمانمائة فرس منها[٤]. ثم تمكن منطاش فى النهاية من احتلال القصر الأبلق بدمشق، ونزل أمراؤه فى البيوت المجاورة للقصر الأبلق،واحتل باقى أتباعه جوامع المدينة.

وهكذا مكن يلبغا الناصرى منطاش من الاستيلاء على دمشق كلها ونهبها حتى يمكنه

(١) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك جـ٩ ص ٢٥٥.
(٢) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام المجلد الثانى ورقة ٦٦.
(٣) الزبدانى قرية بين دمشق وبعلبك راجع ياقوت: معجم البلدان جـ٤ ص ٣٧٤.
(٤) كرد على : خطط الشام جـ٢ ص ١٦٨.

ماجرى من الخلف بين المصريين فى من يقيموه بطركا ممن يصلح كامل الاوصاف والشروط الذى يشهد عليه بها قانون البطركيه اولها أن يكون بتولا لايعرف له صبوة ولا يشهد عليه بخلطة، مشهودا له بالعفة والديانة وكثرة الامانة والعلم والاتضاع، قد قرى [الكتب] العتيقة والحديثة. وكانو مجتهدين في طلب من هذه صفته وكانة ديار مصر فى مملكة الغز والملك عليها الملك العادل ابو

الصمود طويلاً أمام السلطان برقوق. ولكى يدارى يلبغا الناصرى موقفه أسرع بالعودة إلى دمشق. ورغم أنه حاصر القصر الأباق وأحرق عدة أماكن بالمدينة فإنه مكن منطاش من الفرار[١]، وأكثر من هذا فإنه رغم أن بعض الفلاحين اعتقلوا منطاش وأرسلوا للناصرى للحضور واستلامه، ورغم أن القاهرة سمعت بهذا النبأ، وزينت له فإن يلبغا الناصرى لم يبادر باعتقاله بل سهل أمر فراره، وسرعان ما كذب هذه الأنباء وأعلن أن منطاش هرب ولم يتمكن واحد من القبض عليه[٢].

وحين أخذت إشاعات الجراكسة حول موقف يلبغا الناصرى الأخير تملأ القلعة كاتب يلبغا الناصرى السلطان برقوق يستحثه للحضور إلى دمشق، ليدرك عن كثب مدى ما يبذله من جهود فى حرب منطاش، وليشترك بنفسه فى الصراع الدائر[٣].

وهكذا قرر السلطان برقوق أن يخرج بنفسه على رأس تجريدة جديدة، بعد أن أطمأنت نفسه لتطهير القاهرة فى هذه الفترة من عدد كبير من المماليك الترك. ويبدو أن الحروب والفتن المستمرة جعلت هناك أزمة فى الخيل، حتى أمر السلطان برقوق أن «ينادى فى القاهرة ومصر

---

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٦٦٦ ـ ٦٦٧.
(٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ٩ ص ٢٦٢ ـ ٢٦٤.
(٣) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٣١٨.

بكر ابن ايوب وكان فى ملكه ديار مصر واعمالها والبيت المقدس واعماله ومن خلف نهر الفراة [الفرات] حران والرها ونصيبين ومنبج وآمد وميا فارقين وكل اعمالهم، وكان اولاده كثير، فدفع ملك ارض مصر لولده الكامل واسمه محمد، ودفع دمشق والبيت المقدس لولده المعظم واسمه عيسى الكريدى، ودفع خلاط لولده الاشرف موسى، وفرق المدن التى تضاف اليهم على بقية

ألا يركب أحد من المتعممين فرساً سوى الوزير وكاتب السر وناظر الخاص فقط، ومن عداهم يركب البغال، وأن طحانا لا يترك عنده فرساً صحيحاً ومن وجد عنده فرس أخذت منه (١)».

وإذ انكشفت أوراق يلبغا الناصرى، ووضح أمام السلطان برقوق خطر بقاء بعض اليلبغاوية ممن اعتمد عليهم فى وظائفهم فى مصر أثناء غيابه عن القاهرة عزل أكثرهم عن هذه الوظائف فى ١٢ من شعبان سنة ٧٩٣ هـ ـ أغسطس سنة ١٣٩١م ، وولى بدلاً منهم من مقدمى الحلقة الجراكسة (٢). ثم عاد وقبض على عدد آخر من المماليك الترك البطالين بالقاهرة، وأمر بضرب أعناقهم بالصحراء (٣) وفى ٢٦ من شعبان سنة ٧٩٣هـ ـ أغسطس سنة ١٣٩١م ـ أعلن السلطان برقوق أنه خارج لمعاونة الناصرى على منطاش (٤). وعهد السلطان إلى الأمير كمشبغا الحموى بنيابة الغيبة لما عرفه فيه من دقة وبعد نظر . وما كاد السلطان برقوق يرحل على القاهرة حتى سادتها أحكام قاسية (٥)، وشدة متناهية قصد بها

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٦٥٧ ـ ٦٥٩.
(٢) نفس المرجع والجزء ص ٦٥٨.
(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٢٦ ـ ٢٧.
(٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٢٥.
(٥) من هذه الأحكام القاسية أن كمشبغا أمر فى ٢١ من رمضان سنة ٧٩٣هـ بمنع النساء فى يوم العيد من الذهاب إلى المقابر، وأن من خرجت وسطت هى والمكارى، كما أمر ألا يركب أحد فى موكب، =

اولاده. وقيل عنه ان له عشرين ولد. ودفع اليمن لاقسيس ولد ولده الملك الكامل ثم مات بعد ان رتب الامور وسنذكر ذالك في موضعه ان بلغنا الانتها[ء] اليه. وكان الملك الكامل ملك مصر قد خرج من القاهرة يريد الفرجة والصيد فعدى الى الغربية وسار فيها يريد الاسكندرية فعدى بحر ابيار فراى صومعة الحبيس الذى هناك فوقف تحتها وصاح له فكلمه من فوقها ودعا له، فشكا له وجع

إنزال الرعب في نفوس العناصر الناقمة على الحكم حتى لا تحدث نفسها بالثورة. وبلغت شدة الأمير كمشبغا درجة لم يجسر معها أحد في مدة حكمه أن يحمل سلاحاً.

أما السلطان برقوق فإنه وصل دمشق في ٢٢ من رمضان سنة ٧٩٣هـ سبتمبر سنة ١٣٩١م ورغم أنه حضر ليتحقق بنفسه من سوء نية يلبغا الناصرى فإنه أخفى مافي نفسه على من معه، بل إنه أعلن في دمشق العفو عن كل الناس مهما كانت ذنوبهم، وصار لهذا العفو أكبر الأثر في كسب عدد كبير من عامة دمشق [١].

وفي الثاني من شوال من السنة نفسها توجه السلطان برقوق إلى مدينة حلب بعد أن أقام بحمص وحماه أياماً كثيرة دون أن يتمكن من العثور على منطاش [٢]، الذى فر إلى سالم الدوكارى التركماني. ولاشك أن وجود السلطان برقوق في حلب كان له أكبر الأثر في إضعاف شأن منطاش إذ أرسل صاحب ماردين إلى السلطان برقوق يخبره أنه قبض على

= وألا تلبس امرأة قميصاً واسع الأكمام، ولا يزيد قماش القميص على أكثر من أربعة عشر ذراعاً بسبب مبالغة النساء في سعة القمصان حتى عملن القميص من ٧٢ ذراعاً. ولم يجسر أحد على مخالفة كمشبغا. راجع العسقلاني : إنباء الغمر جـ١ ص ٣٢٣.

(١) المقريزى : السلوك جـ٣ ص ٦٧٢.

(2) Ioga: Notes & Extraits T 11 p. 535.

في فواده فصلى له على زيت طيب ودفعه له وقال له اذا دهنت موضع الوجع والله الشافى. فدهن به الوجع فبرى لوقته فوهبه شى من يده وصار له فى قلبه مودة. ثم عاد إلى القاهرة فوجد رجل من اولاد القبط اسمه ابو الفتوح ونعته نشو الخلافة يعرف بابن المقياظ قداستخدمه الملك العادل فى ديوان الجيوش فقربه منه وكان يصدق بكلما يملكه ولايدخر شيا ويعمل خيرا مع كلمن يقصده

جماعة من المماليك الترك الأشرفية، فبعث إليه السلطان من تسلمهم وشكره على معاونته(١). كما أرسل إليه سالم الدوكارى بخبره أن الأمير منطاش فى قبضته وأنه ينتظر من يسلمه. واعتقد السلطان برقوق أن سالماً مخلص فى قوله، فأرسل إليه الأمير قرادمرداش مع عدد من العسكر لإحضار منطاش. غير أن سالماً الدوكارى عاد واتفق مع يلبغا الناصرى على الإبقاء على منطاش فماطل قرادمرداش عدة أيام (٢)، حتى أن قرادمرداش حين تحقق أن سالما الدوكارى لن يسلم له منطاش هاجم بيوته ونهبها وقتل عدداً من أتباعه، واضطر سالم إلى الفرار بمنطاش إلى سنجار (٣). وإذ عرف السلطان برقوق بمماطلة سالم الدوكارى، أرسل إلى يلبغا الناصرى يطلب حضوره ليكشف بذلك عن اتجاهات يلبغا المعادية له. ثم إن بعض الأخبار التى نقلت إلى السلطان برقوق أفادت أن يلبغا حين وصل عند سالم وعرف ما فعله قرادمرداش بسالم الدوكارى سل سيفه وأراد قتل قرادمرداش لولا تدخل الأمراء (٤).

ودفعت هذه الأخبار السلطان برقوق إلى أن يتحقق مما أشيع عن اتفاق الناصرى مع

(١) العسقلانى : إنباء الغمر جـ١ ص ٣١٩.
(٢) السلامى: مختصر التواريخ ورقة ١٨٦أ.
(٣) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ٩ ص ٢٧٠ ـ سنجار مدينة مشهورة من نواحى الجزيرة الفراتية بينها وبين الموصل ثلاثة أيام ـ راجع ياقوت: معجم البلدان ص ١٤٤.
(٤) العسقلانى : إنباء الغمر جـ١ ص ٣١٩.

من النصاره والمسلمين وجميع الناس ولم يكن متزوج قط وهو كامل بكل عمل حسن فأوى اليه رجل قس اسمه داوود ويعرف بابن لقلق(*) من اهل الفيوم وهو خيرا عالما قد قرى [الكتب] العتيقة والحديث وجادل مخالفى دينه وظهر عليهم فصار لنشو الخلافة ابو الفتوح كالمعلم. وكان يقول بالاعتراف فمال ابو الفتوح اليه فاتصل خبره بالاب انبا يوانس فى حياته وكان يكره القس داوود

(*) ابن لقلق: اصبح فيما بعد البطرك رقم ٧٥ للكنيسة القبطية سنة ٩٥١ للشهداء = ١٢٣٥م. واقام بطركا مدة سبع سنوات وتسعة شهور. وتوفى يوم الثلاثاء ١٤ برمهات ٩٥٩ للشهدا ١٢٤٣م.

منطاش، وغلب على ظنه صحة ما نقل عن يلبغا الناصرى من أن قصده مطاولة الأمر بين السلطان برقوق وبين منطاش، كما تحقق السلطان مما نقل إليه عن أن منطاش لم يحضر إلى دمشق إلا بمكاتبة يلبغا، وأن يلبغا تخاذل فى القبض عليه حين احتل منطاش القصر الأبلق بدمشق (١). كما عرف السلطان برقوق أنهما اجتمعا فى هذه الفترة ثلاث مرات بدمشق لتدبير الخطط (٢). وأن رسل الناصرى كانت ترد على منطاش فى كل ليلة بما يأمر به، وأن سالما الدوكارى لم يهرب بمنطاش إلى سنجار إلا بمكاتبة يلبغا الناصرى (٣). وأكثر من هذا فإن قرادمرداش عثر عند سالم الدوكارى على خطاب من يلبغا الناصرى جاء فيه «خذ منطاش واهرب إلى بلاد الروم فإن منطاش مادام موجوداً فنحن موجودين» (٤) وتحركت عند السلطان برقوق الكمائن القديمة من خروج يلبغا عليه وخلعه من السلطنة وحبسه بالكرك، وما تسبب فيه من الفتن. ولم يجد السلطان برقوق مجالا للشك فى نيات يلبغا حتى سأل إيتمش الذى أرسله لتتبع الأشرفية عن سبب عودته فجأة، فأبلغه أن يلبغا الناصرى هو الذى أرسل إليه كتاباً

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٢٣.
(٢) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك جـ٩ ص ٢٧١.
(٣) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ٣٩أ.
(٤) ابن اياس: بدائع الزهور جـ١ ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦.

وكره ابو الفتوح من اجل انه مقيم عنده ومات وهو غير راضى عليهما وكان لما مات مطران الحبشة فى حياة انبا يو انس وجا رسولهم يطلب قسمة مطران فسمع القس داوود بذلك فحمل للملك العادل مايتى دينار على انه يأمر البطرك ان يقسمه مطران للحبشة فسير السلطان رسول للبطرك يامره ان يقسمه للحبشة فقال البطرك لرسول السلطان قول لمولانا السلطان ان هذا ما

ليعود سريعاً إلى دمشق (١). ولهذا انتظر السلطان برقوق فى حلب حتى عاد إليه يلبغا الناصرى يعلن فشله فى مهمته فقبض عليه وعلى أمير أخورة ورأس نوبته، كما قبض على نائب حماه وسجن الجميع بقلعة حلب ثم أمر بهم فقتلوا فى ذى القعدة سنة ٧٩٣ (نوفمبر سنة ١٣٩١م) (٢).

والواقع أن قضاء السلطان برقوق على يلبغا الناصرى يمثل خطوة كبيرة نحو تأمين السلطنة الجديدة من العناصر المناوئة، ولو لم يكن أكثر اليلبغاوية قتلوا فى هذه المعارك، لما أقدم السلطان برقوق على هذا العمل وقتذاك، والحقيقة أن السلطان برقوق صبر كثيراً على يلبغا الناصرى مع أنه تسبب فى كثير من الفتن منذ أن وصل إلى منصب الإمارة (٣) ثم أنه لما لم يعد لمنطاش أو للبقية الباقية من الترك الأشرفية قيمة تذكر بعد أن قتل أكثرهم فى هذه الحروب، قرر السلطان برقوق العودة إلى القاهرة ريثما تتاح له الظروف للقبض على منطاش.

وفى ١٧ من المحرم سنة ٧٩٤هـ - يناير سنة ١٣٩٢م وصل السلطان برقوق إلى القاهرة التى استقبلته استقبالا رائعاً إذ «تلقاه المسلمون بالختمات الشريفة واليهود بالتوراة والنصارى

(١) ابن دقماق : الجوهر الثمين المجلد الثانى ورقة ١٦ب.
(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٣٢ - ٣٣.
(٣) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ ورقة ٤٣٦.

يصلح لان امانته بالله فاسدة لانه يقول فى الله ما تقوله الروم فان مضى الى بلاد الحبشة افسدهم جعلهم روم ويخرجو عن طاعتي وطاعة السلطان وربما حملهم على محاربة المسلمين الذين هم مجاوريهم(*) فى البلاد ويسفك بينهم دما كثير ويكون ذالك فى ذمة السلطان وانا وشعبى براآمنه. فعاد الرسول الى السلطان واعلمه بما قاله البطرك فلم يكلفه ولاجبره على قسمته. وابطل الله امره

(*) هذا سبب من اسباب تمسك الحكام المسلمين في مصر بالكنيسة المصرية، باعتبارها أحد مصادر قوتهم فى الحكم. ولعل تبعية الكنيسة الحبشية للكنيسة المصرية كان من أهم اسباب استقرار احوال مصر الجنوبية. ولقد سعت بيزنطه وروما والبرتغال وانجلترا للوقيعة بين الكنيسة المصرية واقباط الحبشة حتى يمكنهم الإنفراد بنفوذ خاص لدى ملوك الحبشة. وهذا

بالأناجيل والشموع الموقدة. وفرش له الطريق بشقق الحرير الأطلس [١] واصطف الناس لرؤيته إلى أن طلع القلعة فى موكب جليل إلى الغاية [٢]».

واعتقد السلطان برقوق أن أول واجباته بعد التخلص من الناصرى هو تطهير البلاد من بقايا المماليك الترك أو ممن يميلون إليهم، فخلع الأمير استدمر الأشرفي من ولايته في نقابة الجيش لأنه تزوج من بنت السلطان حسن بن الناصر محمد وولى مكانه واحداً من مماليكه[٣]. ثم قام بموجة من الإرهاب قبض فيها على عدد آخر من الترك وقتلهم، وشغل مناصبهم بمماليكه من الجراكسة [٤]، وخصهم بالإقطاعات الكثيرة. ومن هؤلاء الذين ارتقوا في هذه الحركة ايتمش البجاسي الذى أصبح رأس نوبة الأمراء. ثم إن السلطان برقوق لم يطمئن على أحوال سورية حتى عين مملوكة الأمير تنبك الحسنى الظاهرى المعروف بتنم نائباً لدمشق، بعد أن توالى عليها نواب من الترك اليلبغاوية [٥]

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ٩ ص ٢٩٥.
(٢) ا بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٣٥.
(٣) المرجع السابق والجزء ص ٣٠٩.
(٤) المرجع السابق والجزء ص ٢٧٠ ـ ٢٧١.
(٥) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٣٨.

ما جعل الحكام المسلمين فى مصر يخطبون ودّ الاقباط المصريين فى بعض الاحيان.

وشاع عليه ما حمله. وقالو قوم ان السلطان رده عليه بسوال نشو الخلافة ومساعدة فخر الدين عثمان، وللوقت اقسم البطرك مطران غيره للحبشة وسيره مع رسول الملك اليهم فلما تنيح الاب البطرك انبا يوانس اراد نشو الخلافة ابو الفتوح ابن ميقاظ ان يساعد القس داوود عند السلطان والشعب وان يقسمه بطركا وشرع فى ذالك واجتمع بجماعة من الكتاب المصريين

غير أن الأحوال فى سورية عادت إلى الاضطراب فى شعبان سنة ٧٩٤هـ ـ أغسطس سنة ١٣٩٢م ـ بسبب عودة منطاش إلى مزاولة نشاطه المعادى للسلطنة المملوكية الثانية وتمثل نشاطه ـ بعد أن اتفق مع نعير بن حيار الذى حنث بعهده الأخير مع السلطان، مع ابن بزدغان التركمانى وهاجم الجميع سلمية. غير أن الأمير العربى محمد بن قاراً ـ الذى عين أميراً على آل فضل بدلا من نعير ـ استطاع بمعاونة التركمان الموالين للسلطنة المملوكية الثانية رد منطاش وإلحاق الأذى به، كما قتل ابن بزدغان واستحق ابن قارا خلعة السلطان وشكره وثناءه على جهوده فى خدمة السلطنة المملوكية الثانية (١). وكما فشل هجوم منطاش على سلمية فى شعبان سنة ٧٩٤هـ ـ أغسطس سنة ١٣٩٢م، فشل هجومه بالاشتراك مع نعير على حماة فى الشهر التالى بسبب مقاومة نائبها الأمير اقبغا الصغير. وحين تحول منطاش لمهاجمة حلب لقنه أهلها درساً قاسياً، فاضطر إلى الفرار إلى العراق (٢).

على أن خاتمة هذا الصراع جاءت فى ٣ من رمضان سنة ٧٩٥هـ ـ سبتمبر سنة ١٣٩٣م على يد الأمير جليان الكمشبغاوى الجركسى نائب حلب (٣) الذى استطاع الاتفاق

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ٩ ص ٣٣٢.
(٢) الخطيب : نزهه النفوس والأبدان ورقة ٤٠ب.
(3) Sauvaget, J: Noms et Surnoms Des Mamlouks, J. R. A. S. p. 47. Pais 1950.

وغيرهم في ان يقيمو القس داوود عليهم بطركا فوافقه منهم اليسير وخالفه الكثير ولم يقدر ان يجمعهم الكل على الرضا به ولاعلى راى واحد فيه، فانفذ رسله الى كراسى الابا الاساقفة بالوجه البحرى والى اسقف طمبدى [مركز مغاغه] بالوجه القبلى وكان خيرا عالما فاجتمع منهم سبعة اساقفة فاضافهم واكرمهم واوهبهم وطلب منهم ان يكتبو خطوطهم في مسطور عمله له بانه يصلح بطركا وكان فيهم اسقفين احدهم اسمه

مع نعير بن حيار على أن يسلم له منطاش الذى عاد من العراق واحتمى بنعير، وذلك مقابل إعادة اعتراف السلطان بإمرته على آل فضل. وأرسل الأمير جلبان شاد شربخانه في خمسة عشر مملوكاً، وندب نعير أحد عبيده إلى منطاش الذى ركب فرسه وحاول الهرب غير أن العبد قبض على عنان فرسه وأنزله بمعاونة عبد آخر وحاول منطاش الانتحار بسكين كانت معه لولا أن منعه العبد، وأودع منطاش سجن حلب انتظاراً لأمر السلطان [(١)].

وحين بلغ السلطان النبأ سر له سروراً عظيماً، وأنعم على جلبان بخمسة آلاف درهم وخلع عليه «فوقانيا بطرز ذهب مزركش» ورسم السلطان إلى سائر الأمراء أن يوافوا الأمير جلبان بالخلع، ودقت البشائر لهذا الخبر بمصر وزينت القاهرة في اليوم التالى زينة عظيمة، ثم أرسل السلطان إلى حلب لإحضار منطاش ، وأوصى رسوله أن يعذبه حتى يحضر أمواله، غير أن منطاش لم يعترف بشئ، فذبحه الرسول وحمل رأسه على رمح وطاف به مدينة حلب، ثم أخذه وعاد به إلى القاهر، وبعد أن طاف به شوارعها علق الرأس على باب القلعة، ثم نقل ليعلق أياما أخرى على باب زويلة [(٢)].

وهكذا استطاع السلطان برقوق بفضل حرب الإبادة التى أثارها على الترك إزالة أهم عقبة

(١) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام ورقة ٩١.
(٢) ابن دقماق: الجوهر الثمين المجلد الثانى ورقة ١١٨أ.

هديه اسقف دميره والبرمون والآخر اسمه اصطفن اسقف البنوان (مركز ميت غمر). دفع القس داوود له شي فكانا يقفا للسلطان اذا ركب يطلبوا منه ان يقسم لهم داوود بطرك، ويقولوا للسلطان قدكتبو له الاساقفة خطوطهم وجماعة الشعب انه يصلح بطركا وكان من سابق تدبير الله ما قدمت ذكره من امر حبيس ابيار مع الملك الكامل فلما سمعهم الملك الكامل يطلبو لهم بطركا قال لهم

* نقود الملك الكامل

اعترضته في سبيل توطيد دعائم دولته حتى إنه لم يعد يسمع بعد هذا عن محاولات الترك إثارة الفتن ضد السلطنة المملوكية الثانية [1].

غير أنه ينبغي أن يكون مفهوماً أن كل هذه الفتن لم تكن موجهة ضد شخص السلطان برقوق فحسب، بل ضد الجراكسة كذلك، بدليل أنه حين وقع مملوك جركسي من جيش برقوق في أيدي الترك فإنهم جردوه من ملابسه، ألقوه في السجن، والعكس حين وقع في أيديهم مملوك تركي من جيش برقوق فإنهم اكتفوا بأخذ مامعه وأطلقوا سراحه [2].

ومن المشكلات الداخلية التي واجهها السلطان برقوق ما هو معروف باسم ثورات العربان[3]، فمع أن البدو اشتغلوا بأعمال شبه زراعية وشابهوا الفلاحين إلى حد ما فإن مركزهم الاجتماعي كان أعلى مستوى من مركز الفلاحين، نظراً لأنهم كانوا يشتركون في الجيش المملوكي بكتائب احتياطية، كما كان أمراؤهم مسئولين عن حفظ النظام والأمن في البلاد والقرى مقابل حصولهم على إقطاعات وإعفاءات معينة [4]. وكانت العادة المملوكية

(١) راجع ابن قاضي شهبة: ذيل تاريخ الإسلام المجلد الثاني ورقة ١٠٤ وما بعدها.
(٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ٩ ص ٦٤.
(3) Piloti : I' Egypte An Commencement Du XV siecle, pp. 18 ` 19.
(4) Poliak : Les Revoltes Populaires PP. 256 ` 257.

انا آمر ان يكون حبيس ابيار بطرككم وانا ارضاه
لكم وكتب للوقت كتاب الى شمس الدين.....
ولوالي الغربية بان يمضى الى ابيار وينزل بالحبيس
من صومعته ويسيره الى القاهرة فانزله من
صومعته وسيره الى القاهرة فلما سمع نشو الخلافة
ابو الفتوح ذالك اتفق مع الامير فخر الدين عثمان
وزير الملك الكامل ان يقولو عنه للسلطان انه يسال
مولانا السلطان ان لايزعجوه ولاينزلوه من صو

القديمة أن يعين السلطان على كل قبيلة من قبائل العربان أميراً منهم ويكتب له تقليداً سلطانيا بذلك، ويلبس الأمير المعين «تشريفا أطلس» أسوة بأقرانه فى الترتيب الإقطاعى [(١)].

وفى سلطنة برقوق الثانية اتخذت تمردات العربان فى مصر صورة عصيان وامتناع عن الإسهام فى جباية الخراج. أما عربان الشام فإنهم شاركوا أعداء السلطان فى صراعهم ضده. ورغم أن السلطان برقوق قام منذ أوائل سلطنته بنقل عرب هوارة من البحيرة إلى بعض بلاد الصعيد [(٢)]، فإنهم لم يكفوا عن العصيان، بل انتشروا فى أرجاء الوجه القبلى وامتد عصيانهم حتى نواحى أسوان وأذعنت لهم سائر العربان وصاروا طوع قيادهم [(٣)]، وأدى ذلك بالسلطان برقوق إلى تعيين نائب قوى للوجه القبلى لمراقبة حركاتهم وقمعها وهو الأمير قطلوبغا الطشتمرى.

على أن أهم تمردات العربان التى هددت دولة المماليك الثانية هى تمرد الشريف جمال الدين محمود العنابى [(٤)] سنة ٧٩٦هـ - ١٣٩٤م - أى فى السنة الثانية عشرة لحكم

(١) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص ٢٠٥.
(٢) المقريزى: البيان والإعراب ص ٦٠.
(٣) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص ٦٩.
(٤) حضر الشريف جمال الدين محمود العنابى مع السلطان برقوق من الشام بعد فراره من سجنه=

معته فانفذو رسل ردوه بعد ان وصل الى قليوب ففرحو اهل ابيار برجوعه لهم وطلعو به الى صومعته فسمع بخبره رجل نصراني يعقوبي من اهل القاهرة يعرف بالاسعد ابن صدقة ضامن دار التفاح فغار لله كما غار فنحاس واخذ معه جماعة من الناس ووقف للسلطان وعاند نشو الخلافة ابو الفتوح في قسمة داوود وجعل عمدته [وجهته] الملك الكامل وقال له عن داوود انه يصانع بالمال

السلطان برقوق بالاشتراك مع موسى بن محمد بن عيسى شيخ عرب العايد الضاربين حول الكرك بجنوب فلسطين (١).

وسبب هذا التمرد أن الشريف جمال الدين محمود العنابى أرسل كتاباً إلى موسى ابن محمد المشار إليه يطلب منه أن يسمح لعربانه بالنزول قريباً من القاهرة، ليتمكن بوساطتهم من الاستيلاء على عرش الدولة المملوكية الثانية بعد خروج السلطان برقوق إلى دمشق لحرب تيمورلنك، وجاء فى الكتاب أن الشريف العنابى اتفق من أجل ذلك مع عربان البحيرة والصعيد على الثورة ضد نواب السلطان برقوق وكشافه فى أنحاء البلاد المصرية وقتلهم ونهب البلاد، فإذا نجحت الخطة تولى الشريف العنابى الخلافة على أن يعهد بالسلطنة بعد نجاح هذه المؤامرة إلى شخصية يجمع عليها المشتركون فى الخطة.

غير أن كتاب الشريف جمال الدين محمود العنابى وقع فى يد على بن الطبلاوى والى

=بالكرك، وأفضى هذا الشريف إلى السلطان بأسرار صحت عنده فيما بعد حتى قدمه على كثير من رجال دولته، ورتب له فى كل شهر ألف درهم.
راجع ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ٩ ص ٣٧٦.

(١) كان الأمير موسى بن محمد بن عيسى شيخ عرب العايد مسجوناً قبل ذلك بخزانة شمايل بالقاهرة هو وأقاربه واخوته لأمور نقمها عليه السلطان برقوق ثم أفرج عنه.
راجع نفس المصدر والجزء والصفحة.

حـتى يتـقـدم علينا ومـا نرضـاه وقـد دفع للملك العـادل مـالا كـثيـر حـتى يامـر البـطرك ان يجـعله مطران[و] مـا صـلح يحل الله لك تجـعله علينا بطرك يفسـد ديانتنا ويجـعل قـبط ديار مـصـركلهم روم ويخـرجـهـا من ايدى المسلمين. فـانفـذ الملك الكامل الى والى مصـر يقول له ان انت مكنت ابو الفـتـوح واصـحـابه يقيـمو لهم بطرك بغيـر امـرى شنقـتك. وبعـد ايام قليل خـرج الملك العـادل الى

القاهرة وقتذاك، فأبلغ المؤامرة إلى السلطان برقوق (١) وأسرع برقوق بالقبض على الشريف جمال الدين العنابى وشريكه وعذبهما ليقرا على من اشترك معهما فى المؤامرة، فلم يعترفا بشئ سوى أنهما استعانا بطائفة من مماليك بركة الترك.

واخلاصة أن السلطان برقـوق تخلص من هذه المؤامـرة بأن ترك الشـريف جمـال الدين محمود العنابى وشريكه يقضيان نحبهما فى العذاب الأليم (٢).

غير أن السلطان برقوق لم يطمئن على أحواله الداخلية فقبض على خمسمائة من العربان بنواحى ببا، واستولى على نحو خمسين من جيادهم، كما قبل فى نفس الوقت عقد الصلح مع نعير بن حيار أمير آل فضل بالشام بعد أن جاء نعير إلى القاهرة سنة ٧٩٧هـ ودخل عند السلطان وفى رقبته منديل، فخلع عليه السلطان برقوق وأبقاه فى إمرته (٣).

ثم عـاد عرب هواره يهـددون السـلطان برقـوق فى ربيع الآخر سـنة ٧٨٩هـ ـ مـارس سنة ١٣٩٦م ـ حين أرسل إليـه على بن غريب أمير عرب هواره بمنع القود السنوى من العربان والخيل، وأرسل إليه السلطان برقوق الأمير نوروز الحافظى رأس نوبة، فقبض نوروز على على

(١) العسقلانى : إنباء الغمر جـ١ ص ٣٦٦.
(٢) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام جـ٢ ورقة ١٠٠.
(٣) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٣٨٤.

اسكندرية فاستاذنه ابو الفتوح في قسمة داوود فقال له اجعله بطرك والحقني الى الاسكندرية ولاتبطي فلما سمع القس داوود بذالك عمل عكازين احدهما عليه صليب وموشى بذهب والاخر موشا بخيوط فضة، وفصل ثياب وغفافير حرير وهيآ ما يحتاجه لقسمته واخذه ابو الفتوح مع الاساقفة وطلع الى مصر الى [كنيسة] المعلقة يقسمه بطركا فاتصل خبره بوالي مصر فركب

بن غريب وأولاده واخوته وأقاربه ونحو أربعة وثلاثين من أكابر عربانه، فأمر السلطان بسجنهم [١]. بيد أن عرب هواره حين سمعوا بهذا ثاروا وقتلوا الأمير قطلوبغا الطشتمرى نائب الوجه القبلى، ثم اتجهوا إلى أسوان واضطروا واليها إلى الفرار إلى بلاد النوبة بعد أن نهبوا بيته والمدينة، وإزاء هذا ولى السلطان برقوق عمر بن إلياس النيابة بالوجه القبلى بالإضافة إلى وظيفته في ولاية منفلوط، وأمره بالتوجه إلى أسوان، ولكن عمر لم يتمكن من القبض على الشوار [٢]. وظل العربان يناصبون السلطان برقوق العداء حتى استطاع إقماعهم سنة ٨٠١هـ ـ سنة ١٣٩٩م بعد أن جرد لهم تجريدة بقيادة ستة مقدمين [٣].

ويبدو أن خوف السلطان برقوق من قيام سلطان عربي دفعه إلى استخدام العرب بالجيش [٤]. ودليل هذا ماذكر عن استعانة برقوق بعرب هواره سنة ٧٩١هـ ـ سنة ١٣٨٩م [٥]، وما قدمه العرب من معونة للسلطنة المملوكية الثانية في صد غارات تيمورلنك،

(١) ابن دقماق: الجوهر الثمين ، المجلد الثاني ورقه ١٢٣أ.
(٢) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ٤٩ب.
(٣) المقريزى : السلوك جـ٣ (النسخة المصورة بالجامعة العربية) راجع حوادث سنة ٨٠١هـ.
(4)Paliak ; op . cit. p. 260.
(٥) راجع ماسبق بالفصل الثالث ص ٩٢ ـ ٩٣.

ومعه جماعة من اجناده واعوانه وجا الى كنيسة المعلقة ونزل بهم انجس نزول واخرق بهم و هرب داوود وخرجو الاساقفة من الكنيسة هاجين على رووسهم من مصر الى كراسيهم وبطل امر داوود الى يوم تسطيرة هذه السيرة على ما تقدم من التاريخ وكهنة كل مكان يدبروه ولم يرجع نشو الخلافة يتحدث فى امر داوود ولاغيره. ونعود الى تمام سيرة الملك العادل ابو بكر ابن ايوب ملك

حيث أسهم عرب البحيرة بستة آلاف فارس، وعرب الشرقية بألفين وخمسمائة، وأسهمت باقى القبائل بنحو ألف وخمسمائة فارس [١].

وليس من شك فى أن قوة السلطان برقوق وتتبعه لكل حركة من حركات العربان وضع حدا لهذه الثورات حتى تكاد تخلو السنوات الأخيرة من حكمه من الثورة أو العصيان.

ويمكن القول إن السلطان برقوق تمكن من تثبيت دعائم دولة المماليك الثانية بعد أن قضى على العصبية التركية، وحد من نفوذ العرب وواجه كل هذه الحروب والفتن فى شجاعة وقوة.

على أن هذه الحروب والفتن لم تشغل السلطان برقوق من القيام بكثير من الإصلاحات الداخلية التى صار لها أكبر الأثر فى تدعيم كيان دولته، ومن هذه الإصلاحات إبطال الكثير من المكوس التى كانت عبئاً كبيراً على الناس [٢]. ثم إنه أقام جسراً على النيل بين جزيرة أروى (الزمالك) وجزيرة الروضة من طرفها البحرى، هذا الجسر الذى عجز عن إقامته كثير من السلاطين السابقين. وسبب إقامة هذا الجسر أن ماء النيل ابتعد عن الضفة الشرقية من تجاه القاهرة نتيجة الجسور الضعيفة التى أقامها السلاطين السابقون على الضفة الشرقية، وحتى

(١) ابن تغرى بردى: النجوم جـ١٢ ص ٢٥١ ـ ٢٥٢.
(٢) راجع ما سبق بالفصل الثانى ص ٥٦.

ديار مصر وما معها، ولما كان يو م الاثنين النصف من جمادى الاخر سنة اربع عشر وستماية تواصلت له االاخبار ان ملك من ملوك الفرنج يقال له الهنكر (*) من جزيرت برشيلية وصل الى عكا فى ماية وستين بطسةو طريدة وانه نزل فى مرج عكا واعرض عسكره وكان عدته اربعة الف فارس وتسعين الف راجل فجمع الملك العادل عساكره وسار فى مصر ونزل على نابلس ونزل قريب من

(*) الهنكر: لعله الملك اندرو الثانى ملك المجر الذى وصل عكا فى سبتمبر ١٢١٧م.

تقترب مياه النيل من هذه الضفة بدلا من ابتعادها ناحية الضفة الغربية، أى ناحية الجيزة ، مما سبب متاعب كثيرة للناس فى حصولهم على الماء أو ركوبهم المراكب. وعهد السلطان برقوق بإقامة هذا الجسر إلى الأمير جهاركس (جركس) الخليلى، أحد قواده المخلصين [١]. وأنشأ السلطان برقوق جسراً على ضفة نهر الأردن بالغور طوله مائة وعشرون ذراعاً فى عرض عشرين، وأصلح خزائن السلاح بثغر الاسكندرية، وسور مدينة دمنهور ليقيها من هجمات البدو. وعمر الجبال الشرقية بالفيوم بالناس ليقيها من هجمات البدو، كما عمر زاوية البرزخ بدمياط [٢]، وقناة العروب بالقدس، وبنى بركة بطريق الحجاز إلى الحج. وجدد السلطان برقوق القناة التى تحمل ماء النيل إلى قلعة الجبل، وأصلح الميدان تحت القلعة، وزرع به بعض النباتات، وبنى صهريجاً للماء، ومكتباً يقرأ فيه أيتام المسلمين القرآن الكريم بقلعة الجبل، وجعل عليه وقفاً، كما أقام طاحونة بالقلعة وسبيلا تجاه باب بيت الضيافة وأمام القلعة [٣]، ثم إنه اهتم بإصلاح قلاع سورية وخاصة قلعة دمشق التى أهملها السلاطين طوال القرن الثامن الهجرى، وصار لهذا الإصلاح أكبر الأثر فى مقاومة هجمات الأعداء من التتار فيما

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار ص ٢٦٩ جـ٢ ـ المقصود بالجسور هنا الطرق المرتفعة على جانبى النهر وفروعه لحفظ البلاد من أخطار الفيضان ـ راجع كذلك ابن مماتى: قوانين الدواوين ص ١٦ ـ ١٧.
(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ١١٣ ـ ١١٤.
(٣) نفس المصدر والجزء ص ١١٥.

الافرنج، واقام ايام فى نابلس حتى كمل عسكره وسار الى عكا ونزل على الطور [طابور] فى مستهل رجب سنة تاريخة ثم وصلت الى عكا بطس وطرايد اخر من ملوك اخر حتى امتلأ مرج عكا ونزلو فيه بالخيم حتى ضاق بهم المرج وسمع الملك العادل انهم يريدو يكبسوه فى الليل فرحل من الطور ونزل على انهار بيسان عند عين جالوت لكثرت الما هناك وكان عسكره نازل نابلس الى

بعد[1].ثم إن السلطان برقوق اهتم بالصوفية من أهل جنسه إذ افتتح مدرسته التى بناها بين القصرين فى أثناء سلطنته الأولى فى احتفال عظيم، وأوقف عليها الاوقاف الجليلة واستقدم لها عدداً من العلماء من كثير من أنحاء العالم الإسلامى (٢)، ورتب لها صوفية بعد العصر كل يوم، وجعل بها سبعة دروس قام بتدريسها علماء على المذاهب الأربعة، ثم جعل بها درساً للتفسير، ودرساً للحديث، وآخر للقراءات وأجرى على جميع مدرسيها وطلابها، الذين جمعهم من بنى جنسه، فى كل يوم الخبز واللحم، ورتب لهم مخصصات شهرية من الحلوى والزيت والصابون والدراهم والملابس والخدم، ووقف على ذلك الأوقاف الجليلة من الأراضى والدور ونحوها (٣).

وفى شوال سنه ٨٠١هـ - يونية سنة ١٣٩٩م - مرض السلطان برقوق مرض الموت. وحين شعر بدنو أجله فى ١٤ من شوال، وخشى أن ينهار هذا البناء الذى كافح من أجله طويلا، فكر فى أن يعهد إلى أولاده بالحكم من بعده، ولذا استدعى الخليفة المتوكل، والأمير ايتمش، وقاضى القضاة، وسائر الأمراء، وأجلس الخليفة عند رأسه، والقضاة الأربعة بين يديه،

(1) Ziadeh : Urban life, p. 85.

(٢) راجع السيوطى: حسن المحاضرة جـ٢ ص ٢٣٥ - ٢٣٦.

(٣) ا بن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ١١٣.

قصر معين الدين عند قنطرة اسامة. وانفذ ملك الهنكر يطلب من السلطان المصاف وقال الملك لرسوله قول له اذا خرج من عكا الى برآ عنها فانا اصافيه فاعاد ر سوله عليه ما قاله السلطان فسار من يومه فلما قرب من عسكر المسلمين راى السلطان ما هاله من كثرت الفرسان والرجاله لان ملك الهنكر وملك عكا وصاحب جبلة وطرابلس ومن كان قد بقى فى الساحل من الملوك اتفقو

وأوعز إلى الخليفة والقضاة أن يحلفوا الأمراء على عهده بالسلطنة لأولاده من بعده، وهم فرج وعبدالعزيز وابراهيم على التوالى، وأن من يتولى السلطنة منهم لا يخالفه أحد، وأن يستمر جميع الأمراء فى وظائفهم حسب ترتيبه، وأن يكون ايتمش أتابكاً لصغر سن فرج. وفى ليلة الجمعة ١٥ من شوال سنة ٨٠١ هـ ـ ٢٠ من يونيه سنة ١٣٩٩م توفى السلطان برقوق بعد أن جاوز من العمر ستين سنة (١).

ومن الإنصاف أن نذكر طرفاً عن شخصية السلطان برقوق. ذلك الرجل الذى امتاز بهذه العقلية الفذة فى وسط مملوكى طغى عليه الضعف والجهل فى آن واحد. تحدث عنه العينى بأنه «كان حسن القامة، عريض الكتفين، فصيح اللسان، ذكى الفهم، عالماً بألوان الفروسية، ذا أدب وحشمة ووقار ومعرفة وتدبير حسن، وكان على درجة كبيرة من العقل والرزانة والصبر والتحمل...... لم يشتهر بشرب الخمر إلا أنه كان يشرب القمز ومشروباً يسمونه التمر بغاوى فى يومى الأحد والأربعاء مع الأمراء (٢)». وامتدحه الخطيب بأنه «كان كثير الإحسان للمحتاجين محبا لأهل العلم والخير والدين، متواضعاً معهم، ولم يعرف لأحد من السلاطين

(١) ابن تغرى النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ١٠٤.
(٢) العينى: عقد الجمان جـ٢٥ ورقة ٦٢، ٦٣ ـ القمز عبارة عن لبن مصنوع محمض وكان القمز يسكر راجع ابن إياس جـ١ ص ٢٦٩ ـ أما التمر بغاوى : فهو شراب صنعه الأمير تمربغا سنة ٧٩٧هـ من الزبيب أعجب به السلطان برقوق وسمى التمربغاوى: راجع الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٤٦.

وحلفو لبعضهم بعض كلمة واحدة ان لايخون احد منهم صاحبه وصارو بقلب واحد لحرب المسلمين فلما علم الملك العادل ذالك رحل من على بيسان نزل عقبة فيق فكلمن لحقه من عسكره مسلم فوقعو الافرنج على سوق [مخيمات] العسكر ومن لحقوه فنهبوه وقتلو خلق كثير واخذو الخيم والدواب وكلما كان في المنزلة ونزلو تحت عقبة فيق في منزلة السلطان ـ وذكر

قبله هذه الصفات» [1]. والخلاصة أن السلطان برقوق لم يشتغل باللهو والطرب كما فعل السلاطين الأواخر في دولة المماليك الأولى، ولكن يؤخذ عليه كثرة مصادراته للدواوين والولاة والكشاف والوزراء وأرباب الوظائف من أجل تدبير أمور مملكته [2]، ومع أنه حاول وقف تيار الرشوة. في بداية سلطنته في الوظائف المختلفة فإنه فشل [3] كما فشل في إيقاف تيار غش النقود [4]، مما كان له أكبر الأثر في الأحوال الاقتصادية وقتذاك.

وإذ حاول السلطان برقوق أن يؤكد مبدأ وراثة العرش الذى عرف في بيت قلاون، فإن هذا المبدأ لم يعترف به الأمراء الجراكسة فيما بعد [5]. حقيقة لم يكن في وسع أحد من مماليك السلطان برقوق أن يعارض في تنفيذ وصيته لفضله عليهم، فسلطنوا ابنه فرج في ١٥ من شوال سنة ٨٠١هـ ـ ٢٠ من يونيه سنة ١٣٩٩م ولقبوه بالناصر، وجعلوا أيتمش أتابكاً له، ولكن سرعان ما ناصب الخاصكية ـ بزعامة الأمير يشبك الخازندار ـ الأمراء الناصرين لأيتمش من التنافس على النفوذ ما دام السلطان طفلاً. وما زال الخاصكية بالسلطان حتى طلب من

(١) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٢ب.
(٢) العينى: عقد الجمان جـ٢٥ ورقة ٦٤.
(٣) المقريزى: المقفى الكبير جـ٣ ورقة ٢٨.
(٤) الأسدى: كتاب التيسير والاعتبار ورقة ٤٣.

(5) Devonshire: I' Egypte Musulmane p. 93.

من اخبر ان الملك العادل انفذ رسل الى اولاد اخوه صلاح الدين وغيرهم من ملوك المسلمين ان يجو اليه بعساكرهم ويساعدوه على الافرنج فلم يجيه واحد فتوجه الى دمشق ونزل فى مرج السعار [الصفر] وخلا مع ابنه الملك المعظم الفى فارس مع جماعة من الامرآ نازلين على القدس يحفظوه وفى يوم السبت النصف من شهر رمضان وصل كتاب جلدك والى دمياط كان يخبر فيه ان ملوك الافرنج قالو للميبازنه(*) والجنويين انتم الطور [جبل

(*) الميبازنه: يقصد هنا أهل مدينة بيزا بالساحل الغربى لإيطاليا، أما الجنويين فهم أهل مدينة جنوة.

أيتمش أن يرشده. كما نجحوا فى طرد أيتمش من القلعة فسكن خارجها. غير أن نجاح الخاصكية فى إبعاد أيتمش تبعه قيام صراع بين حزب أيتمش الذى لم يرض أفراده بهذا التشريد، وبين حزب يشبك الخازندار الذى استحوذ على النفوذ [١]. وانتهى الصراع بانتصار حزب يشبك الخازندار سنة ٨٠٢ هـ سنة ١٤٠٠م [٢].

وما لبث أن انضم حزب يشبك إلى الحزب الثائر على فرج فى سورية. واجتمعت فى سورية الفئات المملوكية الثائرة على فرج بزعامة الأمير جكم نائب دمشق، وشيخ المحمودى نائب طرابلس،ويشبك الخازندار، ومع أن جميعهم من مشتروات السلطان برقوق الجراكسة، اتفق الثلاثة على الاستقلال بحكم سورية، ومنع الدعاء للسلطان فرج على منابر دمشق والاكتفاء بذكر اسم الخليفة، والتقدم إلى القاهرة لخلع فرج [٣]. وظل فرج عاجزاً عن إقماعهم حتى تقدم هؤلاء الثوار فى ذى الحجة سنة ٨٠٧ هـ لحصار القلعة. ولم ينقذ فرج سوى انقسام الثوار على أنفسهم، فتمكن جيشه من هزيمتهم، ففروا إلى سورية ولكنهم عادوا فى ربيع الأول سنة ٨٠٨هـ فبراير سنة ١٤٠٥م، واشتركوا فى خلع فرج الذى اختفى فى

(١) المقريزى: السلوك (النسخة المصورة) جـ٣ ورقة ١٣.
(٢) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٦١ ، ١٦٦.
(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٣١٨ ـ ٣١٩.

طابور] لكم امضو وقاتلوه وخذوه فخرجو من عند
الافرنج اربعة الف رجل لانه حصن على جبل عال
لايقدر فارس يصل اليه وكان معهم عرب من بنى
عقبة المخالفين مع الفرنج وكانو يقاتلو معهم
المسلمين فجا اليهم الملك المعظم ومعه الفى فارس
وكانو قد صعدو الى الطور ونقبو القلعة واشرفو
على اخذها فادركهم الليل فانفذ الملك المعظم الى
العرب بنى عقبة فافسدهم على الفرنج وحلف لهم

بيت صديق له أذاع للناس أنه قضى عليه.. ولم تكن هناك أمام الثوار فرصة لترشيح أحدهم للسلطنة دون أن يحدث بينهم صراع دموى عنيف، ولذا اكتفوا مؤقتاً بسلطنة أخيه عبدالعزيز[1]. غير أن عبدالعزيز لم يستمر فى السلطنة طويلا، إذ ظهر فرج فجأة ودخل بحزبه القلعة من باب خلفى وخلع أخاه وسجنه ، وأعاد نفسه إلى السلطنة بعد أن بقى مختفيا تسعة وستين يوماً، وذلك فى جمادى الآخرة سنة ٨٠٨هـ ـ أبريل سنة ١٤٠٥م. واستمر فرج في السلطنة حتى ١٥ من المحرم سنة ٨١٥هـ ـ يناير سنة ١٤١٢م [2]. ولم يكن معنى هذا أن الأمراء أجمعوا على بقاء فرج طول هذه المدة فى السلطنة ، أو اعترفوا بضرورة بقاء السلطنة في بيت برقوق، ولكنهم ظلوا طوال هذه المدة ينازعون السلطان فرج . وشغلهم عن خلعه عاملان: أولهما إعداد الجيوش لصد هجوم التتر وغيرهم من أعداء دولة المماليك الثانية، وثانيهما أن شخصية السلطان برقوق كمؤسس لدولة جديدة قوامها عنصرهم ظلت مدة طويلة ذات أثر فى أذهان مماليكه فلم يفكر أحد منهم فى خلع السلطان فرج دون أن يعرض نفسه لمنافس خطير من حزب آخر، حتى إذا انمحت شخصية السلطان برقوق من نفوس مماليكه خلع شيخ المحمودى نائب دمشق السلطان فرج وقتله، وسلطن الخليفة المستعين

(١) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٦٨٨.
(٢) نفس المرجع والجزء ص ٦٩٠.

انه يدفع لهم مالا قرره معهم ويقطعهم بلاد وحلف لهم على ذالك وقال لهم ما يحل لكم من الله سفك دما المسلمين بيد الكفار في شهر رمضان فاطاعوه وحلفو لرسوله انهم لايقاتلو مع الفرنج ولايكونو معهم على المسلمين. وقالو له الفرنج ينامو بالليل [فكبسهم] نصف الليل، فتخلو عنهم العرب فانتصر عليهم وقتل اكثرهم وسلم ونزل على الطور وقواه بالعدد والمال

فى ٢٠ من المحرم سنة ٨١٥هـ (١). وجعل الأمير شيخ المحمودى هذه الخطوة وسيلة لاغتصاب السلطنة لنفسه (٢). ولكن محاولته سنة ٨٢٣هـ لإبقاء السلطنة فى بيته فشلت بدورها كما فشلت محاولات السلاطين ططر سنة ٨٢٤ هـ سنة ١٤٢١م. وبرسباى سنة ٨٢٥هـ - ٨٤١هـ وجقمق سنة ٨٤٢هـ - سنة ٨٥٧هـ وإينال سنة ٨٥٧هـ - سنة ٨٦٥ هـ فى تولية ابن كل منهم السلطنة بعده، ولم يستمر حكم الواحد منهم أكثر من شهور أو أيام، ومرجع هذا كثرة أحزاب المماليك بسبب توالى السلاطين فى دست الحكم وإفساح السلطان الجديد لمشترواته للظفر بالقوة والسلطة، فضلا عن الإكثار عن عددهم مما أوجد نوعاً من الصراع المستمر بين هؤلاء المشتروات والقرانيص وأصبح من العسير على المماليك أن ينقلوا و لاءهم من سلطان إلى آخر (٣)، وصارت السلطنة مجالاً للصراع بين أكثر الأمراء هيبة أو أبرزهم شخصية.

وهكذا صار المماليك فى دولة المماليك الثانية ينتخبون للسلطنة أوفرهم حظا من الكفاية

(١) العينى: السيف المهند ص ١٩٢.
(٢) الهيثمى : إتحاف إخوان الصفا ورقة ٣٢أ.
Demombynes : La Syrie Al'Epoque Des Mamlouks; intr. p XXV.
(٣) راجع العرينى: الفارس المملوكى ص ٦٧ ب.

والرجال. وفى مستهل جمادى الاول سنة تاريخه ماتو الانفار فى جميع ديار مصر بامر الله وكانو مطروحين موتا حول بلادهم الى [أن]. جافت البلاد من روايحهم، وذكر قوما من العربان والمسافرين ان ابقار الوحوش فى البرية ماتو وماتو ابقار الجيش، وانا كاتب هذه السيره رايت موت الابقار فى ديار مصر فى سنة اربع وخمسين وخمسماية للهجرة [١١٥٩م] قبل هذه الدفعة

والقوة والعنف والمقدرة، أو أكبرهم سنا فى بعض الأحيان، ولم يكن هؤلاء فى غالب الأحيان سوى الأوصياء أو أكثر الأمراء نفوذاً فى مصر أو سورية. ومنذ ذلك الحين تقلصت سلطات السلطان المطلقة، وانتهت شيئا بعد شئ إلى العدم وأصبح السلطان هو الأول بين أقرانه(١). Primus Inter pares ، ذلك أن أحكامه وقراراته أمست خاضعة لتصديق مجلس للدولة قوامه الأوليجاركية العسكرية ممثلة فى زعماء المماليك المقدمين، وكان هؤلاء شديدى الغيرة على طبقتهم يبتغون أن يحتفظوا بها نقية صافية، فعهدوا فى تعزيز طبقتهم هذه بالعناصر الجديدة إلى عمال مخصوصين لإحضار المماليك من بلادهم الأصلية (٢). والجراكسة على وجه الخصوص.

ومعنى هذا أن دولة المماليك الثانية أصطبغت بصبغة جديدة هى الصبغة الجركسية، وهى التى أصبحت أهم الصفات التى ميزت دولة المماليك الثانية عن دول المماليك الأولى، وكان السلطان برقوق هو البادئ بهذا الاتجاه، ذلك أنه منذ أن جلب والده وأقاربه سنة ى٧٨٢هـ ـ سنة ١٣٨٠م، وهو يوالى جلب الجراكسة من بلادهم وتشجيع التجار على جلبهم. من تجار

(1) Hitti : Hist. of the Arabs : P. 694.

(2) Brockelmann,C: Hist. of Islamic Peoples: P. 236.

وبعد تلك السنة بعشر ة سنين زالت دولة الخلفاء الفاطميين وملكو الغز [الاكراد] ارض مصر في سنة اربع وستين وخمسماية للهجرة [١١٦٩م] وعشت حتى رايتها في هذه الاخرى بعد ستين سنة. وتواصلت الاخبار ان ملك الافرنج لما رجع من الطور الى عكآ عبر على قرية من قرى الغور تسمى رحر النصار ة فيها خلق كثر نصارى ملكية وسريان ومسلمين كثير فخرجو للملك ولقيوه

السلطان برقوق الذين عاونوه في هذه المهمة عثمان بن مسافر ومحمود شاه اليزدى (١). وعلى حين بلغ عدد الجراكسة في بداية سلطنة برقوق نحو ألفى مملوك، ارتفع هذا العدد في نهاية حكمه إلى خمسة آلاف مملوك جركسى (٢)، من بين عدد مماليكه الذين قدرهم العينى بنحو عشرة آلاف مملوك (٣).

ويعتبر السلطان برقوق أول سلطان مملوكى اتجه هذا الاتجاه العنصرى. ووضح هذا التمييز العنصرى في تقديم مماليكه الجراكسة على الترك والروم وما تبع هذا من إقطاعهم الإقطاعات الكبيرة وتوظيف شبابهم في الوظائف الكبرى، حتى إنه كثيراً ما أعلن رأية صراحة في قوله «هم أولاد عمى وعشيرتى» (٤) ولم تأت سنة ٨٠١هـ ١٣٩٩م حتى كان كل نواب سورية وأصحاب الوظائف بمصر من مماليك السلطان برقوق ومشترواته من الجراكسة (٥).

وبلغت حرب الإبادة التي شنها السلطان برقوق على العناصر التركية أن القلقشندى الذى

(١) ابن تغرى بردى: المنهل الصافى جـ٢ ورقة ١٨٩ب.
(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ١٠٧.
(٣) العينى: عقد الجمان جـ٢٥ ورقة ٦٣.
(٤) كتاب قهر الوجوه العابسة ص ١٢ ـ ١٣.
(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٩١.

بالانجيل والصلبان والمباخر ووقفو بين يديه
فشكرهم وقال لهم بقى فى العسكر اربع فرسان
مرضى خذوهم عندكم وداووهم فاذا فاقو سيروهم
الى عكا مع من يوصلهم الى وتركهم عندهم
ومضى فقامو مسلمين القرية على النصاره
واخذوهم منهم وقتلوهم ولم يقدرو النصاره
يمنعوهم عنهم من خوف السلطان،و وصل خبرهم
الى الملك بعكا فسير عسكر قتل كلمن فى رحر

أنهى موسوعته: «صبح الأعشى فى صناعة الإنشا» سنة ١٤١٢م ، ذكر أنه فى وقته «قلت المماليك الترك من الديار المصرية حتى لم يبق منهم إلا القليل من بقايا أولادهم» (١) فضلا عن أن حروب تيمور لنك فى وسط آسيا أوقفت جلب العناصر التركية، وأدى هذا إلى تغير واضح لا فى العناصر التى كونت الجيش المملوكى فحسب، بل فى حياة المماليك الاجتماعية واتجاهاتهم السياسية كذلك، إذ أصبح الجراكسة الطبقة الأرستقراطية بين باقى العناصر المملوكية ـ وكما كونت العناصر التركية رأس النظام الإقطاعى فى دولة المماليك الأولى كون الجراكسة رأس هذا النظام فى دولة المماليك الثانية (٢).

ويبدو أن السلطان برقوق أراد بهذه الصبغة الجديدة أن يستغل الميل العنصرى فى ضمان بقاءى السلطنة فى بيته، ولكن قدر للسلطان برقوق أن يرى نتيجة هذا الاتجاه العنصرى فى أواخر أيامه إذ رغم اعتزازه بالجركسة فإنهم لم يبقوا على إخلاصهم له، وذلك أنه فى ١٩ من ذى القعدة سنة ٨٠٠هـ ـ سنة ١٣٩٨م دبر الأمير على باى ـ رأس نوبة الأمراء وأحد الأمراء الجراكسة الذين اعتز بهم برقوق ـ مؤامرة لخلع السلطان برقوق وهو فى طريقه إلى حفل فتح

(١) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص ٤٥٨.

(2) Poliak: le Caractére Colonial p. p. 212. 244.

النصاره والمسلمين الرجال والنساء والأطفال لانه كان قال للنصاره عندكم مسلمين قالو له لا فلما رجعو اعتذرو ان المسلمين قتلوهم فلم يقبل عذرهم وقتلو قسيس كنيسة رحر وشقو بطنه وعملو فيها كلب ميت لانه كان حلف لهم ان ما في القرية مسلما. وبعد هذه القضية عاد ملك الفرنج الى بيسان وحمل ما كان فيها من القمح الى عكا على رووس اهل الغور، فحمل الصبى

الخليج . ولكن أخبار هذه المؤامرة تواترت إلى السلطان فأخذ حذره، وعمل حتى فشلت خطة على باى ثم قبض عليه وخنقه (١).

وأثرت خيانة هذا الأمير الجركسي في نفس برقوق تأثيرا كبيرا جعلته يندم على اعتماده على بني جنسه، وبدت كأنما آماله تذهب بها الرياح لاسيما وأن الأمير على باى من مشترواته الذين رباهم، وعامله السلطان كأحد أبنائه ثم جعله دواداره، وأقطعه إقطاعاً وافرا. ولم تمضى مدة طويلة حتى جعله مقدم ألف ورأس نوبة كبير ثم قدمه على كثير ممن سبقوه (٢). وبلغت منزلته عند السلطان برقوق أنه «لم يرد له كلام ولم يأخذ منه حساب الخزانة الشريفة» (٣). والخلاصة أن السلطان أمن له في كل الأمور، ولم يتصور أن يقدم على باى على الخيانة، ولهذا لا نعجب أن تؤدى هذه الحادثة إلى حالة من الرعب سادت القلعة بعد اعتقال الأمير على باى وتعذيبه، إذ خشى مماليكه الجراكسة أن يكون على باى ذكر واحداً منهم من قسوة العقوبة. ثم إن السلطان برقوق ندم أواخر أيامه على أنه لم ينتصح بنصيحة زوجته التركية «خوند الكبرى

---

(١) العسقلاني : إنباء الغمر جـ١ ص ٤٣٨.
(٢) العيني: عقد الجمان جـ٥ ، ورقة ٣٦.
(٣) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٥٤أ.

القــوى نـصف اردب، ومـــا دونه ثلث اردب من بيسان إلى عكا، إلى أن حملو كلما في بيسان من القـمح وكـانو اذا تعب صـبى وحط حـمله حـتى يسـتريح قـتلوه وحـملوه لغيـره من الاسـارى. ولما حـملو القـمح الى عكا اخـذ ملك عكا النصف وملك الهنكر النصف وكان عدد الجميع ثلثة الف وستماية نفس. فاما ملك عكا فقيد الذى اسرهم ولم يقـتلهم واما ملك الهنكر [المجر] فـقـتل منهم

شيرين» التي طالما حذرته من اقتناء المماليك الجراكسة ومن خطر اعتماده على عنصر واحد بقولها: «اجعل عسكرك أبلق من أربعة أجناس: تتر، وجركس ، وروم، وتركمان، تستريح أنت وذريتك» [1]. وبالطبع لم تنصحه بأن يتخذ عسكراً من المصريين ولا قام هو بالتفكير فى ذلك خشـية أن ينشـاء منهم من يعتمـد على القـوة لتحـقيق مكانة فى توازنات الحكم. ويبدو أن السلطان برقوق اقتنع بهذه النصحية بعد حادثة على باى حتى إنه قال لزوجته «الذى كنت أشـرت به على هو الصـواب ولكن هذا كـان مـقـدراً، ونرجـو الله تعـالى إصـلاح الأمـر من اليوم[2]».

وبرغم أن السلطان برقوق وعد زوجته بأن يغير من سياسته نحو مشترواته الجراكسة، وأخذ فى ترقية بعض العناصر الأخرى [3]، فإن هذه العناصر لم يقدر لها الغلبة فى دولة المماليك الثانية لعاملين : أولهـمـا أن عدول السلطان عن تماديه فى الاتجاه العنصرى جاء فى أواخر أيامه، وثانيهما أن الدولة امتلأت بالجراكسة من مشترواته الذين شغلوا الوظائف الكبرى فى

---

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٨٨.
(٢) نفس المرجع والجزء والصفحة.
(٣) راجع نفس المرجع والجزء ص ٩٧.

جماعة وقطع من كل مسلم كف يده اليمنى وسير بقية الاحيا مع اكف القتلى الى بلاده فى بطس الى بابا روميه وكتب اليه ويقول له انى قد فتحت بلاد المسلمين وقد سيرة اليك قليلا من الاحيا واكف القتلا حتى تراهم واما ملكهم فانه ما يقف لى واذا طلبت المصاف يهرب من موضع الى موضع ولايقف قدامى وانا افتح ما بقى من القلاع والحصون واطلبه اين ما كان الى ان اخذه،

الجيش المملوكى حتى صار أكثر الأمراء والجند من الجراكسة، وهؤلاء بدورهم شجعوا الهجرة من بلادهم الأصلية إلى بلاد السلطنة المملوكية الثانية ومصر بالذات حيث الوفرة والنعيم والخانقاوات والتكايا التى يعيشون فيها دون عمل أو جهد، فهذا متروك للمصريين.

على أن تعصب برقوق لكل ماهو جركسى، وما نتج عن هذا التعصب من آثار بعيدة وقريبة، تعرض لنقد شديد من بعض المؤرخين المعاصرين الذين تشدقوا بمدح أيام دولة المماليك الترك، ولم يستطيعوا كبت كراهيتهم للجراكسة. ومن هؤلاء المؤرخين ابن تغرى بردى الذى امتدح حكم طشتمر العلائى التركى (سنة ٧٧٩هـ)، ووصفه بالازدهار على حين بين أن هذا الازدهار اختفى بعزله وقيام برقوق فى الحكم وتغييره لسياسة الدولة وتفضيله عنصره على غيره من العناصر المملوكية وإعطاء الجراكسة الإقطاعات الكبيرة والوظائف العالية مع صغر سنهم. وبين ابن تغرى بردى المرارة التى سادت الأوساط المملوكية غير الجركسية فى قوله : « أى أمر أعظم من تقديم الأصاغر على الأكابر، وهذا بخلاف المتقدمين (سلاطين الدولة الأولى) فإنهم حينما وجدوا فى شخص نجابة أو شجاعة قدموه وقربوه وأدنوه ، فكان لايلى وظيفة إلا من يستحقها» (١).

(١) ابن تغرى بردى: المنهل الصافى جـ٢ ورقة ٢٢٨ب.

واما البيت المقدس فقد حصنوها بالرجال والاسوار
وانت قلت لايرمى فيه احدا من ملوك النصرانية
سهما ولاحجر منجنيق وكيف اخذه من المسلمين
بغير قتال عليه ولازحف اليه وهم ما اخذوه الا
بالقتال الشديد والمنجنيقات فان كنت تحضر الينا
فقدم حضورك لعل الله يدفعه لنا فنعيد فيه جميعا
ان شا الله. وهذا اخر ما وصل الينا عن ملك
الهنكر وكانو المسلمين يقولو انه قتل في الحرب

على أن سياسة الجركسة التي بدأها السلطان برقوق جلبت لابنه السلطان فرج متاعب كثيرة سببها الجراكسة أنفسهم . ويرجع هذا إلى مخالفة السلطان فرج لاتجاه أبيه، حيث مال إلى المماليك الروم لأن أمه « خوند شيرين» كانت رومية [١]. وحين مال فرج إلى الروم وزاد في إكرامهم حقد عليه الجراكسة وأرادوا تولية الأمير لاجين الجركسي أكبر الجراكسة سنا لولا أن قبض عليه سنة ٨٠٣هـ [٢] ـ سنة ١٤٠١م ـ ثم عاد الجراكسة يتحينون الفرص لقتل فرج، وعلى حين أخذ فرج يلهو مع مماليكه في حمام في ربيع الأول سنة ٨٠٨هـ ـ سنة ١٤٠٥م، أمسك به أحدهم مدة طويلة تحت الماء حتى كاد يموت غرقاً لولا مساعدة مملوك رومي [٣] . وكان سبب اختفاء فرج في هذه السنة إحساسه بكراهية الجراكسة له، وأنهم لم يهتموا بشكواه في موضوع اعتداء بعض المماليك الجراكسة عليه في الحمام [٤]. واعتقد الجراكسة أن سلطنة أخيه عبد العزيز ربما تبعد النفوذ الرومي الذى بدأ فرج في تشجيعه. غير أن عودة فرج إلى عرشة في جمادى الآخر سنة ٨٠٨هـ قضى على حلمهم، إذ تعقب

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ١٦٨ .
(٢) العينى عقد الجمان جـ٢٥ ورقة ١٥٨ .
(٣) المرجع السابق و الجزء ص ٣٢٩.
(٤) المرجع السابق والجزء والصفحة.

ريتشارد يدخل عكا بعد سقوطها في عام ١١٨٩م.

وقالو انه اسر ولم اتحقق عنه شى انه قتل او اسر او عاد الى بلاده والله اعلم بما كان من امره وهو حسبى وبه استعين. ولما كان يوم الاثنين الثالث من ربيع الاول سنة خمسة عشر وستماية عشية النهار ضرب الراقوبى [المراقب] بدمياط على مراكب كثيرة فى اللجة [البحر]، فلما اصبح الصبح يوم الثلاثآ الرابع منه ضرب الراقوبى ذالك اليوم جميعه والمراكب تتواصل بعضها ببعض وترسى فى

السلطان فرج الجراكسة فى سلطنته الثانية حتى إنه قتل منهم فى يوم واحد مائة جركسى [١] ثم عاد وقتل ستمائة وثلاثين جركسيا فى سنة ٨١٤ هـ سنة ١٤١١م[٢]، ولما كان الجراكسة هم عماد هذه الدولة فإن السلطان فرج بانقسامه على نفسه جلب على سلطنته الخراب، ولم يكن عجيبا أن يتمكن واحد منهم من قتله فى ١٧ من صفر سنتة ٨١٥هـ [٣].

أما شيخ المحمودى الذى تسلطن بعد خلع الخليفة المستعين سنة ٨١٥هـ فإنه يبدو أن هذه الروح العنصرية لم تعجبه، وتردد فى سياسته نحو الجراكسة برغم أنه جركسى مثلهم، فلم يظهر ميلا نحوهم ، كما أنه لم يظهر ميله للروم كما فعل السلطان فرج، وأوضح ابن تغرى بردى سياسة شيخ فى قوله : «كان يقدم الشجاع ويبعد الجبان من كل جنس من المماليك ، لا يميل إلى جنسه ويترك غيره، بل حيثما ظهرت له النجابة من الشخص قربه ولا يلتفت إلى جنسه كغيره من الملوك [٤]». على أن ابن تغرى بردى عاد فذكر أن شيخ اعتمد على بعض

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة (كاليفورنيا) جـ٦ ص ٢٥١.
(٢) العسقلانى : إنباء الغمر جـ٢ ورقة ٣٠ب.
(٣) راجع المرجع السابق والجزء ص ٢٦٩، انظر ماسبق.
(٤) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ٢ ورقة ٢٠٦.

اللجة مقابل البروج ولم تزل المراكب تتواصل مدة اسبوع حتى صار فى ربيع الاول عشرة ايام فلما كملو صعدو على البر(*). وضربو جميعهم من المسجد الذى على شط البروج ويعرف بمسجد ابن الخيار الى فوق من بوره وحفرو عليهم خندق عرضه ثلثون ذراعا وعمقه خمسون ذراعا وطوله من البحر الحلو [النيل] الى البحر المالح واطلقو فيه الماء من البحر الحلو فامتلأ مآ حلو وصار لهم

(*) حملة جان دبرين على دمياط سنة ١٢١٨ = ٩٣٤ للشهدا.

الترك لأن أكثر أمرائه كانوا منهم [١]. وكيفما كان الأمر فإن النكسة التى منى بها الجراكسة مهدت لتكتلهم لاستعادة قوتهم حتى ظهر أثر هذا واضحاً فى عهد برسباى.

ومهما يكن من شئ فإن هذه الصبغة المملوكية الجديدة جعلت تولى غير الجراكسة السلطنة أمراً غير مقبول لديهم [٢]، وأصبح هذا الاتجاه حقيقة آمن بها الجميع وليس أدل على هذا من أن السلطان شيخ حين عهد إلى ابنه أحمد بالسلطنة عين الطنبغا القرمشى أتابكاً له، وهو يعلم جيداً أن الطنبغا القرمشى ما دام تركيا فليس هناك من أمل لطمعه فى السلطنة، لأنه على قول ابن تغرى بردى «كان من جنس غير جنس القوم لاغير [٣]».

ولعل من أهم مظاهر هذه الدولة اتباع السلاطين والأمراء سياسة السلطان برقوق. فى

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة (كاليفورنيا) جـ٦ ص ٤٣٠.

(٢) بلغ تمادى سلاطين الدولة المملوكية الثانية فى سياسة الجركسة أن برسباى أطلق من بقى من ذرية سلاطين الدولة الأولى من القلعة سنة ٨٢٥هـ حتى تهتكوا فى المتنزهات وفسد حالهم وباع بعضهم ارزاقهم وصاروا يعيشون على الغناء مع الجوارى فى الأسواق (راجع ابن تغرى بردى: المنهل الصافى جـ١ ورقة ٢٦٥).

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (كاليفورنيا) جـ٦ ص ٥٤٧ ـ وثمة أدلة أخرى على أن عنصراً غير الجراكسة لم يتمكن من الوصول إلى السلطنة طيلة الدولة المملوكية الثانية، حالة الخليفة المستعين الذى جعل ألعوبة فى عملية التنافس السياسى حين انتخب سلطانا قبل سلطنة شيخ لمدة لم تزد على ستة =

(*) ريتشارد قلب الاسد

حصنا وشرباً ونصبو من عندهم منجنيق كبير على كوم الحيرة مقابل دمياط فكانت حجارة تصل داخل دمياط الى دار الريس واى شى وقع عليه اهلكه ان كان انسان قتله او دار او حايط هدها او على شقف خسفه وقتل من تحته وغاص فى الارض فهدم دور كثير فيها واهلك خلقا عظيمة، فعملو المسلمين من داخل دمياط منجنيق وضربو به على منجنيق الافرنج اكسره فصاحو بالافرنج

جلب أقاربهم من بلادهم الأصلية فى أعداد كبيرة [1]. ومع أنه لاينقصنا الدليل على هذا

= شهور فى سنة ٨١٥هـ ـ سنة ١٤١٢م (راجع .Arnold the Caliphate (p.p 100. 101) ثم فى الحالتين اللتين اعتلى فيهما السلطنة اثان من الروم وهما خشقدم وتمربغا (راجع ا بن تغرى بردى: النجوم الزاهرة «كاليفورنيا» جـ٧ ص ٦٦٧، ٧٤٢ السيوطى: نظم العقيان ص ١٠٩) وفى سلطنة خشقدم فى ١٩ من رمضان سنة ٨٦٥هـ حين كانت المؤامرات تدبر لخلع السلطان أحمد بن إينال دارت الاتصالات بين بعض الأمراء لسلطنة الأمير جانم نائب الشام لأنه «رجل عظيم ومن الجنس» (نفس المرجع والجزء ص ٦٦٧) .وإذا انقسم المماليك فرقاً وتمسكت كل فرقة باسم سلطانها برغم أنهم أصبحوا من القرانيص فإن أهم ما كان يعنيهم أن يتولى السلطنة واحد من فرقتهم ليمكنهم تحقيق مآربهم فى السيطرة على شئون الدولة. ولذا عرض الأمير جانبك المشد على الأمراء حسماً للموقف سلطنة الأمير خشقدم المؤيدى «فإنه من غير الجنس، يعنى كونه رومى الجنس، وأيضا إنه رجل غريب ليس له شوكة ومتى أردتم خلعه أمكنكم ذلك وحصل لكم ما تقصدونه من غير تعب فأعجب الجميع هذا الكلام». (راجع نفس المرجع والجزء والصفحة) .ولعلنا نتساءل إنه ما دام الأمر كذلك فما سبب طول مدة خشقدم؟ أما الإجابه فتتضح فى أن كثرة الفرق المملوكية جعلت هناك صعوبة فى سرعة إجماعها على خلع خشقدم (راجع Lane- poole Hist'of Egypt. p. 325) أما تمربغا الذى وصل إلى السلطنة فى ١٠ من جمادى الاولى سنة ٨٧٢هـ سنة ١٤٦٧م. فإنه لم يرشح للسلطنة إلا بسبب عمله أتابكا للسلطان يلباى سنة ٨٧٢هـ كما أنه كان بحكم أقدميته فى الإمارة مقدماً للمماليك الظاهرية الجراكسة وذلك منذ عهد خشقدم (راجع ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٧ «كاليفورنيا» ص ٧٥٧ ـ ٧٥٨) وتوهم تمربغا أن السلطنة لن تخرج عن الروم حتى إنه اختار قايتباى الجركسى والرجل الثانى فى فرقة الظاهرية الجراكسة أتابكا للعساكر. غير أن قايتباى أمكنه أن يجمع شمل الجراكسة ويخلع تمربغا دون كبير عناء وذلك فى ٦ من رجب من السنة نفسها (نفس المرجع والجزء ص ٨٥٨).

(١) راجع السخاوى : التبر المسبوك ص ٢٦٩، ٣٠٧.

صيحة عظيمة سقطت منها الجبال. وعملو [الصليبيين] منجنيق اكبر من الاول ومعه اربعة منجنيقات اخر وكانو يضربو بالكبير على دمياط والصغار على برج السلسلة فلما لم يبلغو مرادهم بالمنجنيقات فاوسعو الخندق الذى تقدم ذكره انهم حفروه فاتسع حتى صار بحرا كبيرا فدخلو منه إلى بحر النيل تسعين مركب شوانى وحراريق فلما صارو فى بحر النيل عمرو مراكبهم بالرجال وقاتلو

الاتجاه في عهد دولة المماليك الأولى فإنه لم يكن بهذا الشكل الملحوظ. وبلغ هذا الجلب أكثره في منتصف القرن الخامس عشر الميلادى برغم مغالاة التجار فى أثمان المماليك الجراكسة لتهافت السلاطين على شرائهم [١]. وإذ شمل الجلبان نسبة كبيرة من البالغين، فإنه أصبح من الصعب أن يتدربوا تدريباً عسكرياً دقيقاً كما كانوا فى سن مبكرة عن هذا . وتولى هؤلاء الوظائف الكبيرة دون أن يتدرجوا في الوظائف الصغيرة أو ينالوا ألوان التربية المخصصة لهم سواء من الناحية الدينية أو العسكرية مع أهمية هذه التربية فى إعداد المملوك خلقياً وعسكرياً . ثم ساد فى دولة المماليك الثانية محاباة السلاطين وكبار رجال الدولة لأقاربهم والإنعام عليهم بالرتب والإقطاعات فى غير نظام [٢]. وتبع هذا كثرة المصادرات وانتزاع الأوقاف وتوزيعها إقطاعات[٣] وسرعة انتقال الأمراء من إقطاع إلى إقطاع مما أدى إلى ضعف الإقطاعيات [٤].

(١) البغدادى : عيون أخبار الأعيان: ورقه ٤٨١.
(٢) ابن تغرى بردى: المنهل الصافى جـ١ ص ٢٤٣ب، ٤٥٦أ، جـ٢ ورقة ٦٢أ، جـ٣ ورقة ٢٥ب.
(٣) المقدسى : نزهة الناظرين ص ٢٥٧.
(٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ٦ «كاليفورنيا» ص ١٩٥ ـ ذكر ابن تغرى بردى فى نفس المرجع والجزء ص ٣٨٦، ٣٨٧ كيفية فساد الإقطاعات وأوضح أن مملوك الأمير حصل على ثلاثة رواتب من الإقطاع ومن الجوامك ومن راتب سيده، كما أوضح فساد الإقطاعات بسبب كثرة المغارم والظلم المستمر للمصريين وقلة نظر الحكام فى إحكام البلاد.

اهل دمياط يوم الجمعة الحادى والعشرون من ربيع الاول سنة تاريخه [١٢١٨م] وكان بينهم قتال شديد وقتل من المسلمين ومنهم وجرح من الفريقين كثير وافترقو عند دخول الليل عليهم ولما يظفرو بمرادهم لان المسلمين كانو يرموهم من البرج بالنشاب ولعبه عليه يرمو بها مراكبهم بالحجارة. وقد ذكر قوم ان الملك الذى كان

ويمكن القول بأن الفترة الأخيرة لحكم الجراكسة كانت فترة حكم أصهارهم وأقاربهم ومن هؤلاء إينال وقايتباى [١]. ولم يكن غريبا بعد هذا الاتجاه أن يأتى الجلبان من الجراكسة إلى مصر، وخيال السلطنة فى رأس كل واحد منهم حتى إن واحداً من الجلبان جلب وهو حقير فاحش القرع والعرج سأل دلاله عن إمكان تولية السلطنة [٢].

ولا شك، أن سرعة تخريج المماليك دون أن يحفل السلاطين بالمدة الكافية لتعليمهم صار عاملاً من عوامل ضعف نظام الفروسية فى دولة المماليك الثانية، ذلك النظام الذى كان ميزة امتازت بها دولة المماليك الأولى. وأنحى المقريزى باللائمة على السلطان برقوق لأنه كان البادئ بإفساد نظام الفروسية بسبب أنه «رخص للمماليك فى سكنى القاهرة وفى التزوج، فنزلوا من الطباق من القلعة، ونكحوا نساء أهل المدينة وأخلدوا إلى البطالة ونسوا تلك العوائد[٣]». ويضيف أيالون Ayalon إلى العوامل التى سببت ضعف نظام الفروسية منذ أول دولة المماليك الثانية عاملاً آخر هو إهمال تدريبات الفروسية والتمرينات الحربية، التى كانت من ألزم الأمور لتربية الفارس المملوكى فى الدولة الأولى، تلك التمرينات التى اعتمدت على

(١) راجع ابن إياس : بدائع الزهور جـ٢ ص ٦٤، ٢١٠.
(٢) البغدادى : عيون أخبار الأعيان ورقة ٤٨١.
(٣) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص ٢١٤.

يدبرهم وحروبهم اسمه كند [كونت][*] الريش لانه كان على راسه اكليل ذهب مر صع بجواهر يخرج من جوانبه شبه الريش من ذهب مركب فيه فاسموه كندالريش. وقال قوم اخر ان مراكبهم الذى وصلو فيها ثلثماية بسطة وطريدة وقالو انها اكثر من ذالك ولم يتحقق عددهم. وذكر قوم ان فيهم سبعة ملوك مع كل ملك الف فارس وعشرة راجل، يكون الجملة سبعة الف راجل ولم يتحرر

(*) كونت : هوجان دى برين.

السيف والنشاب والقوس، واستبعد أيالون Ayalon أن يكون سبب الضعف طريقة استخدام الأسلحة النارية فى الجيش المملوكى وقتذاك [١]. والواقع أنها ترجع إلى العوامل الداخلية التى أدت إلى فساد عام فى المجتمع الحربى المملوكى، ومن أهم هذه العوامل ـ إلى جانب ما ذكرنا ـ إبطال السلطان برقوق عادة الركوب إلى الميدان، وكانت تعتبر من محاسن دولة المماليك الأولى إذ كانت عادة السلاطين أن يصلوا صلاة العيدين فى الميدان بالقلعة ، ثم يشاهدون تمرينات الفروسية ولعب الأمراء بالكرة بعد الصلاة، غير أنه حين حدثت حادثة الأمير على إى سنة ٨٠٠هـ ـ سنة ١٣٨٩م ـ صلى السلطان برقوق صلاة عيد النحر بجامع القلعة، خوفه من المؤامرات وهجر الميدان [٢]، وهجره من جاء بعده من السلاطين، واقتصرت التدريبات بشكل محدود على الحوش السلطانى [٣]. ثم ازداد ضعف نظام الفروسية أيام

(1) Ayalon : Gunpowder & Firearms. P. P. 52.54.

(٢) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص ٢٢٩.

(٣) راجع ابن تغرى بردى: منتخبات من حوادث الدهور ص ١١٨ : ظلت هجرة الميدان فى عهود باقى السلاطين حتى عهد الغورى حين بدأ فى صفر سنة ٩٠٩هـ يوليه ١٥٠٣م بإنشاء ميدان كبير رغبة فى عرض قوة مصر وفرسانها أمام رسل الصفوى وابن عثمان مع استمرار استخدام الأسلحة النارية راجع.
Ayalon : op. Cit . p. p. 57. 58.

ذالك عن يقين بل نقل سماع لانه لم يقدر احد يمضى اليهم ولا يجى من عندهم، واما المنجنيق الذى نصبوه على كوم الحيرة فعملو فى راسه صندوق رصاص وزنه قنطارين شامى واسموه المعرى وكان تحته يجره ستماية رجل وكان يرمى الى وسط دمياط حتى هد دار الريس واخلا ما حواليها وكان وزن الحجر الذى يخرج منه قنطار

(*) فردريك بربا روسا من مخطوط بمكتبة الفاتيكان

السلطان فرج بن برقوق لتفضيل المماليك الراتب النقدى، وانقطاع الرواتب من اللحوم وغيرها حتى عن مماليك الطباق مع قلة عددهم حتى صار غذاؤهم فى الغالب الفول المسلوق عجزاً عن شراء اللحم وغيره [1]. وأضاف المقريزى عوامل أخرى أسهمت فى ضعف هذا النظام فى قوله : «وبقى الجلب من المماليك من الرجال الذين كانوا فى بلادهم ما بين ملاح سفينة ووقاد فى تنور خباز ومحول ماء فى غيط أشجار وغير ذلك. واستقر رأى الناصر فرج على أن تسليم المماليك للفقيه يتلفهم بل يتركون وشئونهم، فبدلت الأرض غير الأرض، وصارت المماليك أرذل الناس وأدناهم وأخسهم قدرا ، وأشحهم نفسا، وأجهلهم بأمر الدنيا، وأكثرهم إعراضاً عن الدين، مافيهم إلا من هو أزنى من قرد، وألص من فأرة، وأفسد من ذئب. لاجرم أن خربت أرض مصر والشام من حيث يصب النيل إلى مجرى الفرات بسوء إيالة الحكام ، وشدة عبث الولاة وسوء تصرف أولى الأمر حتى إنه ما من شهر إلا ويظهر من الخلل العام مالا يتدارك فرطه [2]».

واقتضت أحوال الدولة الجديدة من السلطان برقوق عدة تغيرات فى نظم الحكم والإدراة .

(١) المرجع السابق والجزء ص ٢١٤.
(٢) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص ٢١٤.

شامي وقتلو به خلق كثير في مدة مقامهم على دمياط وفي عسكر الفرنج نسا كثيرا مسلمات من اهل الغور وأفرنجيات من اهل الساحل يطحنو لهم القمح ويخدموهم وكان معهم صغار كثير وبقر وخنازير ودجاج وكان في البحر مراكب كثير صيادين سمك يبيعوه في عسكر الفرنج فلما قالو للملك كندالريش عنهم مسكهم وضمنهم السمك بخمسين دينار في يوم. وقد كنا قلنا انهم فتحو

وأول هذه التغيرات ما أدى إلى ضعف منصب الوزارة حتى كادت تتلاشى، ومع أن هذه الوظيفة كانت أجل الوظائف وأرفعها رتبة في أوائل دولة المماليك الأولى [١] لكن استحداث نظام نيابة السلطنة قلل من قيمتها، واقتصر متوليها في دولة المماليك الأولى على التحدث في الأمور المالية، ووزعت باقي اختصاصات الوزير على ثلاثة: هم «ناظر المال، واختص بتحصيل المال وصرف النفقات، وناظر الخاص وعهد إليه بتدبير الأمور العامة وتعيين المباشرين، والثالث هو كاتب السر واختص بالتوقيع في دار العدل مما كان يوقع فيه الوزير مشاورة واستقلالا» [٢]. أما السلطان برقوق فإنه ركز السلطة في يده، وعمل على إضعاف شأن الوزارة بإنشاء الديوان المفرد الذى أقام فيه ناظراً وشادين وكتابا، وجعل مرجع هذا الديوان إلى الاستادار وقرر أن يصرف مايتحصل منه في جوامك مماليكه المشتروات، ثم أضاف إلى هذا الديوان كثيراً من أعمال مصر وبذلك قوى جانب الاستادار وضعفت الوزارة [٣]، حتى اقتصر اختصاص الوزير

(١) كان أول مملوك تولى الوزارة في الدولة المملوكية الأولى هو سنجر الشجاعي (٦٩٣هـ ١٢٩٤م) وقد ساد اعتقاد في هذا العصر مؤداه «أن الوزارة إن لم يتقلدها مملوك فسد الحال» ولذا فإن السلاطين اكتفوا بإضعاف شأن الوزارة دون إلغائها . راجع.

Ayalon: Studies, 111 p. 61.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٨ ٢٩ .

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار ج٢ ص ٢٢٢ ٢٢٣ ، راجع كذلك

Poliak : Feudalism: p. 4 .Ayalon: Studies, 111 p. 61.

(*) حصار الصليبين لدمياط

بحر من خلف البرج ودخلو فيه بالشوانى والحراقات لقتال المسلمين وكانو فى كل يوم يقاتلو اهل دمياط فيقتل بينهم قتلا كثير ثم يفرقو عند الليل فاقامو على ذالك ربيع الاول وربيع الاخر ثم اخذو مركبين كبار من مراكبهم وسمرو عليهم اخشاب جافيه وعملو فى وسطهم اربع صوارى وضمو الواحدة الى الاخرى بحكمتهم حتى صارو واحدة واسموها المرمة

على التحدث فى أمر المكوس، فيحصلها من جهاتها ويصرفها فى شراء اللحم وحاجات المطبخ وغير ذلك من حاجات إنفاق القصر السلطانى. وبلغ من ضعف شأن الوزارة آنئذ أن سعد الدين نصر الله بن البقرى وصفها بقوله «الوزارة اليوم عبارة عن حوايج كاش عفش، يشترى (الوزير) اللحم والحطب وحوايج الطعام، وناظر الخاص غلام صلف يشترى الحرير والصوف والنصافى والسنجاب وأما ما كان للوزراء ونظار الخاص فى القديم فقد بطل[1]».

والخلاصة أن منصب الوزارة كاد يتلاشى منذ عهد السلطان برقوق إذ وزعت اختصاصات الوزير بين أربعة، وهم كاتب السر والاستادار وناظر الخاص والوزير، فأخذ كاتب السر من الوزارة التوقيع على القصص بالولايات والعزل ونحو ذلك فى دارالعدل وفى داره، وأخذ الاستادار التصرف فى نواحى أرض مصر والتحدث فى أمور الدواوين السلطانية وفى كشف الأقاليم وولاية النواحى وفى كثير من أمور الوظائف، وأخذ ناظر الخاص جانباً كبيراً من الأموال الديوانية السلطانية ليصرفها فى متعلقات الخزانة السلطانية، وبقى للوزير شىء يسير جداً مما

(١) نفس المرجع والجزء والصفحة.

واسمروها بكل مسمار طوله ثلثة اذرع وذراعين
وذراع ونصف وشبر، كل شى منهم فى موضعه
وعملو على الاربعة صوارى سقف سفلى يحمل
ماية وخمسون رجل وسقف فوقه يحمل ماية
وخمسين رجل فيكون ثلثماية رجل مقاتله فقدموها
الى البرج الذى فى البحر فلم تلصق به لان زلاقة
من كل ناحية خارجية منه فلما يقدرو يلصقوها
للبرج [ثم] قوى عليها التيار فردها بامر الله الى

كان يتحدث فيه، فاقتصر على النظر فى المكوس وبعض الدواوين وناظر بيت المال وناظر الاهراء ومستوفى الدولة، وناظر الجهات. أما ناظر البيوت وناظر الاسطبلات فإن أمرهما يرجع إلى غيره[(١)].

وثمة تغير آخر فى نظم الحكم والإدارة أحدثه السلطان برقوق وهو الإكثار من عدد الحجاب حتى بلغ عددهم ستة بعد أن تراوح عددهم فى دولة المماليك الأولى بين ثلاثة أو أربعة حجاب[(٢)]. وكانت رتبة الحاجب فى دولة المماليك الأولى رتبة جليلة. وتأتى فى الترتيب الوظيفى بعد نيابة السلطنة وأطلق على أكبر الحجبة حاجب الحجاب. والحجبة وظيفة من وظائف أرباب السيوف يجلس صاحبها بدار العدل لينظر فى مخاصمات الأمراء والأجناد واختلافهم فى أمور الإقطاعات، ونحو ذلك تارة بنفسه، وتارة بمشاورة السلطان، وتارة بمشاورة النائب. وكان إليه تقديم من يعرض ومن يرد وعرض الجند. وكثيراً ما قام الحاجب مقام النائب فى غيبته أو اعتقاله[(٣)]. ويبدو أن السلطان برقوق زاد من عدد الحجاب بسبب كثرة مؤامرات

(١) نفس المرجع والجزء ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ .
(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ ص ١٩٧ .
(٣) المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢١٩ .

خلف وانكسرت الصوارى من ثقل الرجال بالسلاح ووقع منهم فى البحر جماعة كبيرة غرقو بلا حرب ولاقتال. وبعد هذه المرمة لم يرجعو يقدمو مرمة اخرى. ولما جرى عليهم ذالك فى المرمة نصبو منجنيقين اخرى على البرج [برج السلسلة] الذى فى وسط البحر وكانو يقاتلو بها وبالزنبورك، وكان له من دمياط [جسر] خشب معمول بالمراكب والاخشاب مسمورة عليها ولم

الأمراء وكثرة الخلافات بينهم وذلك حتى يمكنه الاستعانة بهم فى القبض على المتآمرين منهم بمجرد صدور أمر السلطان.

ولم يكن أحد من الحجاب فى دولة المماليك الأولى يتعرض للحكم فى شىء من الأمور الشرعية، غير أن ازدياد عدد الحجاب منذ عهد برقوق تبعه اتساع سلطته حتى صار للحاجب الحكم بين الناس مع بقاء سلطة مكاتبة الولاة فى مختلف الأعمال والأقاليم(١).

وفى عهد السلطان فرج ازداد عدد الحجاب حتى بلغوا ثمانية. ولكن الحجاب تبعاً لهذه الكثرة العددية لم ينلهم على الإمرة إقطاع، وانما ارتزقوا من النظر فى مظالم الناس، وصار الحاجب يحكم فى الناس جميعاً حتى فى الأحكام الشرعية، مما أدى إلى تنافس بين الحجاب والقضاة على النظر فى قضايا الناس، حتى صار الحاجب يأخذ الغريم من باب القاضى ويتحكم فيه بضربه أو أخذ ماله دون أن يلومه أحد على ذلك(٢).

واستحدث السلطان برقوق نيابة الوجه البحرى ونيابة الوجه القبلى. ولم تكن هناك بالوجه البحرى سوى نيابة الإسكندرية التى رتبها السلطان شعبان بن حسين سنة ٧٦٨ هـ بسبب

(١) المقريزى: نفس المرجع والجزء ص ٢٠٩، ٢١٩ ـ ٢٢٠ .
(٢) نفس المرجع والجزء ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ .

يزالو يضربو الخشب حتى كسرو مراكبه واخشابه وقطعو حباله فلما كان يوم الجمعة الثامن من جمادى الاخر تكاثرو الافرنج على البرج بالمراكب والرجال فاخذوه وكان فيه ماية وخمسون من المسلمين قتل منهم وغرق منهم وهرب منهم من عام الى دمياط فسلم واسر منهم ستين رجل سيروهم الافرنج الى عكا وغيرها من بلادهم. ولم يرجعو من يوم اخذو البرج يقدمو مرمة. وذكر من

كثرة عدوان الفرنج على الإسكندرية. وفي عهد السلطان برقوق أصبحت دمنهور مقر نائب الوجه البحرى. وسبب إنشاء هذه الوظيفة هو كثرة ثورات العربان فى البحيرة، بل إن السلطان برقوق جعل لنائبها أهمية كبيرة. ويؤيد هذا الرأى ما ذكره القلقشندى أن نيابة دمنهور «ليست على قاعدة النيابات بل هى فى الحقيقة ولاية حرب كبيرة[1]».

وترتب على هذا التغيير الإدارى أن جعل للوجه البحرى كاشفاً من أمراء الطبلخاناة يحكم سائر بلاد الوجه البحرى فيما عدا البحيرة، ومقره ميت غمر ولكنه صار يرجع فى كل أموره إلى نائب الوجه البحرى[2]. وإلى جانب هذا أبقى السلطان برقوق على وظائف الولاة التى عرفت فى دولة المماليك الأولى فى الوجه البحرى فى بلبيس وفى منوف والمحلة؛ ولكن جعل مرجعهم جميعاً إلى نائب الوجه البحرى[3].

ثم إن ثورات العربان بالصعيد إلى جانب الأخطار التى هددت البلاد من الجنوب جعلت السلطان برقوق ينشىء نيابة أخرى بالوجه القبلى صار مقرها أسيوط وأصبح نائبها فى رتبة نائب الوجه البحرى بل لعله أعظم شأناً منه، وحكمه على جميع بلاد الوجه القبلى

(١) القلشندى: صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٤ ـ ٢٥ .
(٢) نفس المرجع والجزء ص ٢٥ ، ٦٥ .
(٣) نفس المرجع والجزء ص ٢٧ .

اخبر ان الملك العادل مات بدمشق يوم الجمعة الثامن من جمادى الاخر سنة تاريخه وهو يوم اخذو الافرنج فيه برج دمياط وذكر من اخبر ان جاسوس السلطان اعلمه ان مراكب كثير من الفرنج تفللت [تسللت] وراحت الشام فعدى اليهم بالعسكر فاخذهم فلما كان يوم الثلثا الحادى عشر من رجب سنة خمسة عشر وستماية[١٢١٨م] امر الملك الكامل العسكر ان يعدى فاسرع نحو ثلثة

بأسرها[١] على أن هذه الوظيفة قبل عهد السلطان برقوق لم تكن لها هذه الأهمية بسبب هدوء الصعيد ولذا تولاها وقتذاك كاشف أطلق عليه والى الولاة. وحين ازدادت الأخطار التى هددت البلاد من النوبة والحبشة استحدث برقوق وظيفة والى أسوان، وكانت قبل ذلك مضافة إلى رالى قوص. والخلاصة أن الوجه القبلى صار فيه خمسة ولاة فى البهنسا والأشمونين وأخميم وقوص وأسوان، وجميعهم تابعون لنائب الوجه القبلى[٢].

ثم إنه نظراً للأخطار الخارجية التى أحدقت بالسلطنة المملوكية فى بدايتها، جعل السلطان برقوق نواب الثغور والبلادالواقعة على الحدود من مقدمى الألوف بعد أن كانوا فى الدولة الأولى فى رتبة أقل. ومن هذه النيابات عينتاب ودندره وشيزر والأبلستين واياس وطرسوس والبيرة [٣].

دولة المماليك الثانية وجيرانهما
حتى سنة ١٤١٢ م

ظهور تيمور لنك فى الشرق الأوسط ـ علاقته بدولة المماليك الثانية ـ موقف السلطنة

(١) نفس المرجع والجزء ص ٢٤ ، ٢٥ .
(٢) نفس المرجع والجزء ص ٢٦ .
(٣) نفس المرجع والجزء ص ٢٢٦ ، ٢٢٨ .

الف راجل وعدو الى بر الافرنج قبل ان يعدى العسكر وكان السلطان الملك الكامل قد اوصا جميع العسكر الفارس والراجل [المشاة] ان لايتقدمو للقتال حتى يرفع لهم العلم الذى له على البرج الذى هو فيه من دمياط فنهض من الراجل جماعة طلبو بجهلهم الكسب من قبل ان يكمل العسكر فهجمو خيم الفرنج وقتلو وكسبو وتمادى بهم الطمع وتطلعوا الفرنج لم يرو خلفهم عسكر

المملوكية الثانية من الدولة العثمانية ـ دولة المماليك الثانية والبنادقة والجنوية والروادس حتى سنة ١٤١٢م ـ سياسة السلطان برقوق إزاء بلاد المغرب ـ برقوق وإمارة مكة ـ اليمن والسلطنة المملوكية الثانية ـ علاقة السلطان برقوق بالحبشة والنوبة وآثارها.

* * *

اقترن قيام الدولة المملوكية الثانية على يد السلطان برقوق بظهور نفوذ هذه الدولة بين الدول التى تاخمت حدودها الشرقية، فأخذت هذه الدول تخطب ود السلطان برقوق رغبة فى التمتع بحمايته وطلب معونته، لاسيما حين بدأ التتار يكتسحون وسط آسيا وغربيها. ولم يتأخر السلطان برقوق فى أن يجعل من دولته حصناً وملاذاً لجيرانه، حتى إن أصحاب سنجار وقيصرية وتكريت حين كتبوا سنة ٧٨٥ هـ ـ سنة ١٣٨٣م إلى السلطان برقوق برغبتهم فى إعلان تبعيتهم له وخطبوا خطبة الجمعة باسم السلطان برقوق سار السلطان برقوق إلى إعلان موافقته على مطالبهم وكتب لكل منهم تقليداً بنيابة السلطنة فى بلده[١].

والواقع أن خطر التتار فى الشرق الأوسط وَضَحَ فى هذه السنة حيث ظهر تيمور لنك[٢]،

---

(١) راجع العسقلانى: إنباء الغمر جـ ١ ص ٢٠١.
المقريزى: اسلوك جـ ٣ ص ٤١٦، ٤٦٢.
(٢) أصله من قبيلة كوركان إحدى فروع قبيلة برلاس التترية وهو حفيد قراشور نويان وزير جقطاى الابن=

فـرجعـو عليـهم فـقـتلوهم فى الخيم ورمـو البـحـر بسـلاحـهـم ولبـاسـهـم فـشـالوهـم الفـرنج بالمراكـب واخـذو مـا عليهم وهـم موتا(*) وحــزن السـلطان عليـهم وامـر ان يرجع العـسكر واعـرض الرجـالة فوجد الذى قتل منهم ثلثة الف رجل قتلا وغرقا. وفيما هو حزين عليهم تواصلت الاخبار بموت ابوه الملك العادل في دمشق من تخمة اصابته فى مرج الصـغـار وحـمل الى دمـشق فـمـات فـيـهـا ودفنوه

(*) كـــان چان دى برين هو الذى عــاود الهــجــوم على الاكــراد وهزمهم.

واستولى فى سرعة مدهشة على بلاد ما وراء النهر، وجعل سمرقند عاصمة لدولة اسلامية كبرى ناطحت الإمارات والممالك الاسلامية فى غرب آسيا، وما لبث أن احتل خراسان وهرات وطبرستان وجرجان[1]. ثم زحف إلى مدينة تبريز واستولى عليها سنة ٧٨٨هـ ـ ١٣٨٦م وطرد حاكمها قرا محمد التركمانى. ومن هناك أرسل تيمور لنك إلى مجد الدين عيسى حاكم ماردين يستدعيه. غير أن حاكم ماردين الذى احتمى بالسلطنة المملوكية الثانية، أرسل إلى تيمور لنك يعتذر عن الحضور قبل أخذ رأى السلطان المملوكى فى هذه الزيارة[2]. وغـضـب تيمور لنك لهذا الرد. ورغبة منه فى إثارة روح العداء بين مجد الدين عيسى والسلطان برقوق عاود تيمور لنك الكتابة إليه بقوله: «ليس لصاحب مصر يملكك حكم»[3]، كما أوضح له أنه لا يهدف من وراء هذا سوى إقامة علاقات الود معه. وبرهن لصاحب ماردين على صدق

= الثانى لجنكيز خان، أطلق عليه تيمور كور كان ومعناه صهر الملوك؛ وأصل اسمه «تمره ثم أضيف إليه «لنك» ومعناه الأعرج لإصابته فى فخذه حين كوّن عصابة لسرقة الأغنام وصار يعرج ـ وما لبث أن اتجه إلى قتل الملوك وامتلاك أرضهم حتى وصل إلى الملك ـ راجع ابن عربشاه: فاكهة الخلفا ص ٢٩١ ، دائرة المعارف الإسلامية.

(1) Sykes: A History Of Persia: VII P.P. 281 _ 202.

(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٤٣ .

(٣) المرجع نفسه والجزء والصفحة؛ الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ٤١ أ .

بجانب صلاح الدين اخوه فى المقبرة يوم الجمعة الثامن من جمادى الاخر سنة خمسة عشر وستماية وهو يوميذ ملك مصر والشام وبيت المقدس والساحل والقلاع ودمشق واليمن. [وكان] دفع دمشق وما معها من الشام وبيت المقدس والساحل والقلاع وما فتحه صلاح الدين من بلاد الفرنج لولده الملك المعظم يسمى عيسى ويعرف بالكريدى، ودفع مصر واعمالها لولده الكامل

نواياه بإرساله خلعة وسكة ينقش بها الذهب والدنانير(١). ولم ينتظر تيمور لنك رد صاحب ماردين إذ رحل فجأة فى سنة ٧٩٠هـ ـ ١٣٨٨م عن تبريز واتجه إلى بعض بلاد الشرق الأوسط ليفتحها فى غزوات سريعة مفاجئة ، ويبدو أن تيمور لنك لم يكن يهدف إلا إلى أن تدين له كل ملوك الأرض بالطاعة، وأن تظهر شخصيته المخيفة بين شعوب العالم المعروف وقتذاك كفاتح يقود جيشاً جراراً، وبكلمة منه تتحول مدينة عظيمة إلى رماد وينحسر سكانها أمامه(٢). ولاشك أن قيام دولة مملوكية جديدة اعترفت لها الدول المجاورة بالطاعة، أو ارتبطت معها بأواصر الصداقة والتحالف فى الوقت الذى قام فيه تيمور لنك بالتوسع رغبة فى إذلال حكام البلاد المفتوحة وإظهار قوته فى العالم المعروف وقتذاك، جعل وجود هذه الدولة شجاً فى حلقه. على أن اتساع رقعة البلاد التى فتحها جعل من الصعب أن تبقى كل هذه الدول ضمن أملاكه فى وقت واحد، ولم يكن أمام هذه الدول سوى أن تستجير بالسلطان برقوق بدليل أن تيمور لنك حين ترك تبريز أواخر سنة ٧٩٠هـ ـ ١٣٨٨م أسرع قرامحمد التركمانى واستعاد بلاده، ثم أرسل إلى السلطان برقوق يخبره بعودته إلى عرشه وأنه ضرب فى تبريز السكة باسم السلطان، ودعا له فيها على منابره، وسأله أن يكون نائباً عنه(٣).

(١) المقريزى: السلوك جـ ٣ (الخطية) ص ٧٠٦ .

(2) Malcom : Hist. Of Persia pp 482 _ 483 .

(٣) المقريزى: السلوك جـ ٣ ص ٤٩٥ .

محمد، ودفع حران ومنبج واخلاط وكلما خلف نهر الفراة لولده الاشرف. وكان مدة ملكه تسعة عشر سنة وثلثه وخمسون يوما منذ دخل الى مصر ومات وعسكره عشرة الف طواشي. وملك ولده الملك الكامل محمد ديار مصر واليمن وسير ولده اقسيس الى اليمن فملكه واستقر هو في مملكة مصر ونفذ امره وحده بعد موت ابوه لاستقال [لاستهلال] شهر رجب خمسة عشر وستماية للهجرة.

وعلى حين استعد مجد الدين عيسى صاحب ماردين ليبعث برسله إلى برقوق ينبئه بما جرى بينه وبين تيتمور لنك، عاد تيمور لنك، سنة ٧٩٥هـ ـ ١٣٩٣م فجأة وهاجم بغداد، فازداد خوف مجد الدين عيسى، وأسرع فى إرسال الرسل إلى السلطان برقوق طلباً لعونه السريع[١]. وبيّن مجد الدين عيسى فى رسالة إلى السلطان برقوق كيف أن تيمور لنك خدع السلطان أحمد بن أويس الجلايرى حاكم بغداد[٢]، بعد أن اكتسح فارس وقتل حاكمها شاه منصور فى مايو سنة ١٣٩٣م، ثم بعث برأسه إلى بغداد كما بعث بالخلع والسكة إلى أحمد بن أويس وطمأنه بأنه لن يغير على بلاده، وأنه لا يطلب سوى ضرب السكة فى بغداد باسمه. فلبس أحمد بن أويس الخلعة وطاف بها شوارع بغداد ونفذ مطالب تيمور لنك. ولم يشعر أحمد بن أويس إلا وتيمور لنك يقترب من بغداد ومن غربيها، وهى الناحية التى لم يكن ينتظر أن يقوم تيمورك لنك بهجومه منها. فأسرع السلطان أحمد بن أويس بقطع الجسر عن هذه الناحية، ورحل من بغداد بأمواله وأولاده وقت السحر[٣]. فتقدم تيمور لنك بجحافله لحصار

(١) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ٤١ .

(٢) هو السلطان أحمد ابن أويس بن حسن بن حسين بن اقبغا أيلكان الجلايرى تولى الحكم فى بغداد سنة ٧٨٤ هـ بعد موت أخيه الشيخ حسين بن أويس وهو من سلالة المغول الذين اجتاحوا العراق راجع العينى: السيف المهند ص ١٨ ـ ١٩ .

(3) Yazdi: Zafarnama VI, p. 434 .

سيرة الملك الكامل محمد (*) ابن الملك العادل ابو بكر ابو ايوب: وكان كتاب الملك العادل قبل موته وصل الملك الكامل ان العدو توجه من عكآ الى مصر مراكب كثيرة فاحترز على الثغور وما تقابله واخلى البلاد قدامه مسيرة ثلثة ايام فانه اذا غار يقطع مسافة اربعة ايام في يوم واحد يقتل ويسبى وينهب ويعود الى خيمه في بقية يومه. فاخلى الملك الكامل قدامه من الغربية مسيرة اربعة ايام

(*) سيرة الملك الكامل محمد.

بغداد سنة ٧٩٥هـ ـ يولية سنة ١٣٩٣م. وبرغم هذا فإن تيمور لنك لم يستطع دخول بغداد إلا بعد أن استمر حصاره لها مدة شهرين، قتل فى أثنائها أكثر سكانها وخرب أسوارها وجوامعها وأسواقها[١]. ومن بغداد أرسل تيمور لنك ابنه ميران شاه فى أثر ابن أويس فأدركه بالحلة[٢]. ونهب ماله، وسبى بعض حريمه وأسر وقتل كثيراً من أصحابه [٣]، وتمكن أحمد بن أويس من النجاة بنفسه فى نحو ثلاثمائة فارس وهم شبه عراه، واتجه غرباً لائذاً بالسلطان برقوق[٤].

ويبدو أن السلطان برقوق لم يفزع لهذه الأخبار التى أنبأه بها صاحب ماردين، إذ دأب السلطان برقوق على تأمين الحدود الشرقية لبلاده بإرساله العسكر إليها منذ سنة ٧٨٩ هـ ـ ١٣٨٧م حين سمع بتحركات التتار على هذه الأطراف الشرقية[٥]، كما أن السلطان برقوق

(١) البغدادى: عيون أخبار الأعيان ورقة ٤٨٧ ـ ٤٨٨ .

(٢) مدينة بين الكوفة وبغداد ـ راجع ياقوت معجم البلدان جـ ٢ ص ٣٢٢ .

(3) Grousset : L'Empire Des Steppes . p. 512

(٤) ابن تغرى بردى: المنهل الصافى جـ ١ ص ٢٢٣ ـ بدأت علاقة السلطان أحمد ابن أويس بالسلطان برقوق منذ سنة ٧٨٥هـ ـ حين بعث إلى السلطان برقوق هدية بمناسبة توليه السلطنة واشتملت الهدية على فهد وصقر وقماش. ثم حرص ابن أويس على استمرار علاقات الود بالدولة المملوكية الثانية حتى سنة ٧٨٨هـ ـ راجع المقريزى : السلوك جـ ص ٤١٦ ، وما بعدها.

(٥) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقة ٢٤ .

واخلى المحلة وكلما حواليها وسنجار وسنهور وفوه وكانو هذه المدن خالية وابوابهم مغلقة ولم يقدر احد يخرج باكثر من ثيابه الذى عليه وما ينام فيه وتركو كلما فى دورهم من القمح و الحبوب والنبيذ وجميع القطانى فيها، فمنها من سالم [سلم] ومنها ما نقص بعضه ومنها ما اخذ كله. ومضو الناس الى القاهرة وقوم الى مصر [الفسطاط] والى الشام ودمشق وتفرقو فى جميع

عرف أن تيمورلنك يعمل ألف حساب له، فضلاً عن أن تيمور لنك لم يكن قد نظم أحوال بلاده الداخلية(١). على أن السلطان برقوق سرعان ما تقدم لحماية أحمد بن أويس ومعاونته؛ حين أرسل إليه ابن أويس من حلب يطلب عونه على إعادة ملكه والانتقام من عدوه، فكتب السلطان برقوق إلى نعير أميرا آل فضل بإكرامه، والقيام له بما يليق به. ثم جمع السلطان برقوق مجلساً من كبار الأمراء لبحث أمر ابن أويس. واتفق الجميع على السماح لابن أويس بالحضور إلى القاهرة ريثما تتم الاستعدادات لمعاونته على إعادة ملكه. وأنفق السلطان برقوق على سفر ابن أويس من حلب إلى القاهرة نحو ثلاثمائة ألف درهم فضة وألف دينار، فضلاً عن بعثة سلطانية رافقت ابن أويس(٢). واستقبل السلطان برقوق أحمد ابن أويس استقبالاً رائعاً إذ خرج الأمراء للقائه فى ٢١ من ربيع الأول سنة ٧٩٦هـ (١٣٩٤م)، ونزل معهم ومع العسكر إلى الريدانية. وحين قرب أحمد بن أويس من مسطبة السلطان بوقوق نزل عن فرسه، ومشى عدة خطوات، فتقدم إليه حاجب الحجاب وقدم له الأمراء حيث قبل صغارهم يده واحداً بعد واحد، على حين عانقه كبار الأمراء (٣)، ثم بكيا وسارا متشابكى الذراعين

(١) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك جـ ٩ ص ٢٤ .
(٢) ابن تغرى بردى: النجوم جـ ١٢ ص ٤٥ ـ ٤٦ .
(٣) السلامى: مختصر التواريخ ورقة ٨٧ أ.

الدنيا ومنهم من رجع ومنهم من لم يرجع واما سمنود فما خليت وبقيت عامرة وسكنوها ناس كثير من اهل البلاد وكان واليها نعته نور الدين على وكان حازم طول ليله يدور حوالها والناس تنام في المراكب وعلى البحر ما يروعهم مروع ولاخرج منها واحد ولما كان يوم الثلثا السابع عشر من ذو القعدة حمل عماد الدين ابن المشطوب بين الملك الكامل وبين اخوه الملك الفايز كلام افسد

نحو المصطبة السلطانية، حيث دارت المناقشات في طريقة إعادته عرشه. وخلع السلطان على ابن أويس بالخلع ثم عاد إلى القلعة حيث امتلأت صحراء الريدانية والشوارع المؤدية إلى القلعة بالناس، الذين خرجوا لاستقبال ابن أويس. وبعد انتهاء الموكب اتجه ابن أويس إلى قصر الضيافة في بركة الفيل حيث أرسل له السلطان مائتي ألف درهم فضة، ومائتي قطعة قماش وثلاثة أفراس وعشرين مملوكاً وعشرين جارية[(١)].

وكأنما أراد تيمور لنك أن يحدد طريق فتوحاته المقبلة فأرسل من بغداد سنة ٧٩٥ هـ ـ ١٣٩٣م إلى القاضي أبي العباسي أحمد صاحب قيصرية وتوقات وسيواس، رسالة سبّه فيها وهدده «بقوته التي لا تقام»، وبشره «بالمستقبل المظلم» إن لم يعلن طاعته له. غير أن أبا العباس أحمد الذي تحالف مع السلطان برقوق منذ ٧٨٥هـ قطع رءوس كبار رسل تيمور لنك وعلقها في أعناق باقي الرسل، ثم أرسل نصف الرسل إلى السلطان برقوق والباقين إلى السلطان العثماني بايزيد مع كتابين تعجل فيهما مساعدة كل منهما. وسرّ كل من السلطانين برقوق وبايزيد برسالة أبي العباس وما قام به، ورد كل منهما على رسالته باستعداده لتقديم كل عون لصاحب قيصرية لمقاومة تيمور لنك[(٢)].

(١) ابن تغرى بردى: النجوم جـ ١٢ ص ٤٦ ـ ٤٧ .

(2) Ibn Arab Shah: Tamerlane, pp. 89 - 91.

قلوبهما بعضها ببعض وذكر عنه انه حالف الملك الفايز على قتل الملك الكامل ويملك الملك للفايز، وكان جنديا من اجناد الملك الكامل حاضر معهم فمضى اليه واعلمه بكلما جرى وقال له انج بنفسك فقام من خيمته وركب فى الليل وساق مع اصحابه وخواصه ومماليكه ولم يشعر به احد الى اشمون(*) ونزل فيها. ولما اصبحو الاسرا طلبوه فلم يجدوه اضطرب العسكر فلما سمعو انه نزل

(*) اشمون: هى من أقدم المدن المصرية فتاريخها يمتد إلى الممالك الفرعونية وكان اسمها=

ثم إن تيمور لنك أرسل من بغداد فى نفس السنة «أكتوبر سنة ١٣٩٣م» بعثة إلى السلطان برقوق رأسها رجل ذو مواهب وقدرات خاصة هو الشيخ السواح، وزوده بهدايا عديدة وقيمة، وكتاباً إلى السلطان برقوق[١]، وحين وصلت بعثة تيمور لنك إلى الرحبة على الحدود الشرقية للدولة المملوكية الثانية[٢]. أرسل متولى تلك الناحية إلى السلطان برقوق يستأذنه فى تمكينهم من الدخول إلى البلاد، وأعلمه أن معهم هدية من ضمنها مماليك وجوار وغير ذلك. فأمر السلطان برقوق بالقبض عليهم بمكانهم وارسال ما معهم من الهدايا وكتاب تيمور لنك. وحين وصلت الهدايا إلى السلطان برقوق وجد فيها نفس الأسلوب الذى تعامل به مع ملوك الدول التى قهرها، إذا اشتملت الهدية على أسرى من أعيان بغداد وقضاتها[٣]. كما أن كتاب تيمور لنك إلى السلطان برقوق أشتمل على نوع من التهديد، إذ طالب تيمور لنك رسوله أن يناقش السلطان المملوكى فى أسباب الأضرار الجسيمة التى لحقت ممتلكات المغول من حكام مصر السابقين، وأن يلفت نظر السلطان برقوق إلى الاضطرابات التى قامت بها الدولة المملوكية الأولى عقب موت ايلخان بن سعيد سنة ٧٣٦هـ ـ ١٣٣٥م[٤]، وطالب

(١) مير خواند : كتاب روضة الصفا جـ ٦ ص ٢٠٩ .

(2) Bouvet: L'Empire Mongol, p. 49 .

(٣) السلوك جـ ٣ خطية ص ٧١٤ .

(٤) انظر Browne: Litrary Hist. of Persia, VII, p. 159.

على اشمون لحقوه وكان فى العسكر ضجة حتى تركو خيمهم واموالهم ومواشيهم فلما اصبح الصبح يوم الثلثا سابع عشر ذو القعدة عدت حراقة من الفرنج للقتال فلما يخرج لها احد فدخلت البر فلم يرو فى الخيم احد والخيم كلها منصوبة والبسط فيها مفروشة والخيل والبغال والجمال حولها مربوطة وليس فيها انسان، عادة [عادت] الحراقة واخبرة الفرنج فقالو هذه مكيدة

= الفرعوني «شمون» أى «ثمانية» و ذلك لأنه كان بها ثامون مقدس ـ ومنه جاء الاسم القبطي: Chemoun Erman الذى عُرف فى العربية باسم أشمون الرمان، ثم بأشمون طناح لأنها كانت مدينة أعمال الدقهلية والمرتاحية. و تنسب أشمون إلى طناح لأنها كانت معها في كورة واحدة. وفى فترة الاحتلال العثمانى أعيد إليها اسمها القبطى وهو شمون أرمان محرفاً إلى أشمون الرمان. وكانت من هذه الفترة من أزهى

كذلك بطرد أحمد الجلايرى[١]. ثم بين تيمور لنك فى كتابه أن حدود بلاده أصبحت تمتد من سمر قند إلى حدود العراق العربى الملاصقة لحدود بلاد الدولة المملوكية الثانية. وأن أهالى هذه المنطقة يتمتعون بحمايته، وعلى السلطان المملوكى أن يرعى الحدود الجوار وأن يقوى أواصر الصداقة معه بتبادل الرسل، وأن يمكن تجاره من ممارسة عملهم والانتقال من مكان لآخر آمنين[٢].

غير أن الكلام المسعول الذى ورد فى نهاية هذه الرسالة لم يعجب السلطان برقوق. وبرغم أن السلطان خالف القواعد المرعية بين الدول وقتذاك، فأمر نائبه بقتل رسل تيمور لنك[٣]، وأعلن عداءه الصريح له، فإنه كان على حق فى مسلكه مع هذا الداهية الذى لم يكن يؤمن جانبه مطلقاً.

ووضح أن ثمة تعاوناً فعلياً بدأ فى هذه السنة (٧٩٥هـ) بين السلطنة المملوكية الثانية وجيرانها من الدول الإسلامية فى الشرق الأوسط من أجل صد خطر التتار الذى هددهم جميعا. يضاف إلى هذا دليل آخر وهو أن قرا يوسف التركمانى زعيم قبيلة قرة قويونلو «الشاة

(1) Bouvet: op. cit. p 49 .

(2) Price: Memoirs, VIII. p 160' Yazdi: Op. Cit. pp. 440 _ 441.

(٣) ميرخواند : كتاب روضة الصفا جـ ٦ ص ٢٠٩ .

عملوها علينا المسلمين فطلعو منهم قوم الى منارة جامع الحيرة لينظرو ان كان تم كمنا [كمينا] فلم يرو احد فنزلو اعلمو الملك فامر ان يعمر شنى [مركب] برجال ابطال يعدى الى الخيم بكشف الخبر فعدو وكشفو الخيم من اولها الى اخرها فلم يجدو فيها احد فعادو واعلموهم فسير المراكب والرجال فحملو الخيم وكلما فيها من الاموال والاواني والدواب وشون القمح و الشعير والحبوب

=واشهر المدن المصرية. وفى الدول الناصرى سنة ٧١٥هـ ضم إقليما الدقهلية والمرتاحية إلى بعضهما وجعلت أشمون هذه قاعدة لهما لتوسطها بينهما بعد أن كانت دقهله قاعدة لإقليم الدقهلية و فى أوائل الاحتلال العثمانى أى فى سنة ٩٣٣هـ جعلت المنصورة قاعدة لولاية الدقهلية ومن ذلك الوقت أضمحلت أشمون الرمان وأصبحت قرية عادية من قرى مركز دكرنس.

السوداء»(١). اشتبك رتحذاك مع «أطلمش توجين» قائد «قلعة أزنيك(٢)» وقريب تيموز لنك. وبعد أن اعتقله أرسله إلى السلطان برقوق الذين سجنه بنوره(٣). وبرغم غضب تيمور لنك من هذا العمل الجرىء ومن رد كل من السلطان المملوكي وصاحب قيصرية، وتحدى كل منهما له، فضلاً عن تحدى السلطان العثماني له كذلك، فإن تيمور لنك لم يتحرك نحو واحد منهم خشية أن يتقدم لمعاونته الآخران(٤).

بيد أن تيمور لنك وجد أن بقاءه في بغداد يعرض قواته لخسارة كبيرة بسبب قلة المئونة بهـا(٥) ولذا اتجه نحو الشمال الغربي ليهاجم أعداءه على انفراد قبل أن تتوحد جهودهم. فاستولى في ربيع الأول سنة ٧٩٦هـ ـ مارس ١٣٩٣م على ماردين بعد حصار قاس، ثم اكتسح أرمينيا الكبرى، ثم عرج على بلاد قرا يوسف التركماني، واكتسح بعدها بلاد الجراكسة في شمال شرق البحر الأسود. ولم تقف السلطنة المملوكية الثانية مكتوفة الأيدى إزاء تحركات تيمور لنك ، بل اصطدمت جيوش نائب حلب، ونائب ملطية، بطلائع جيوش

(١) تقع على حدود جورجيا ـ راجع Grousset: Op. Cit. p 512
(٢) تقع هذه القلعة فى كورة باسين فى ارزروم ـ راجع مراصد الاطلاع جـ ١ ص ١٠٤.
(٣) خواند امير: حبيب السير جـ ٣ ص ٥٦ .

(4) Ibn Arab Shah: Op. Cit. p 94.
(5)Yazdi: op. Cit.p 442.

وكلمـا للسلطان والامـرا والتـجـار وملكو امـوال
لاتحصى بلاسيف ولاقتال بامر الله ومشيته واخذو
من النعم والامـوال والدواب والزاد والسـلاح مـالا
يدرك له قـيـمـة ولايحـصـى له عـدد واتو به الى
خيمهم واخذو اساره [أسرى] كثير من المسلمين
غلمان وغيرهم خلاف ما قتلوه خلق كثير. وفى
بقية يومهم قدمو البطس والمراكب الكبار وعدو
بالخيل والفرسان الى بر دمياط ونزلو الفرنج فى

تيمور لنك عندالرها. وتمكن جيشا النائبين من هزيمتها وأسرا من اللنكية عدداً كبيراً على حين هرب باقى التتار(١).

وحين وصلت هذه الأخبار إلى القاهرة أسرع السلطان برقوق بإعداد جيش ضخم لمحاربة تيمور لنك ، كما قرر التوجه بنفسه على رأس هذا الجيش. وعلى حين كنت الاستعدادات لتعبئته على قدم وساق ورد على السلطان برقوق كتاب آخر من تيمور لنك. وبدأ تيمور لنك كتابه بتهديد السلطان برقوق بالويل والثبور إن لم يعلن تبعيته له، كما اتهمه بظلمه لرعيته وقبوله الرشوة من الحكام وغير ذلك من عناصر الإثارة، ثم عنفه على قتله لرسله السابقين، وأنكر عليه إيواءه لأحمد بن أويس، وطالبه بإرساله ورد جوابه(٢).

أما السلطان برقوق فإنه كتب رده مبدوءاً بالبسلمة، ثم أخذ فى نقد ما جاء فى كتاب تيمور لنك من العبارات الشديدة اللهجة واتهم تيمور لنك بالكفر والإلحاد وأعلن نفسه حامياً للإسلام ضد أى اعتداء، وأنه لن يعلن طاعته إلا «لأمير المؤمنين وخليفة رب العالمين»(٣).

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ ١٢ص ٤٨ ـ ٤٩ .
(٢) راجع المقريزى: السلوك جـ ٣ الخطية ص ٧٢٠ ، ابن عربشاه: عجائب المقدور ص ٦٥ ـ ٦٦ .
(٣) ابن عربشاه: عجائب المقدور ص ٦٦ ـ ٦٧.

وصول كونت أرتوا أخي الملك لويس التاسع إلى القصر السلطاني بالمنصورة.

خيم المسلمين على العادليه وتقدمو الى دمياط ونزلو عليها واختلطو بها، فقطعو اهل دمياط قنطرة باب الريس وكانو يقاتلو الفرنج الى ان وصل الملك المعظم عيسى الى اشمون يوم الاثنين الثالث والعشرون من ذو القعدة سنة تاريخه فوجد الفرنج محيطين بدمياط فسال اخوه الملك الكامل عن القضية فاعلمه ان عماد الدين ابن المشطوب افسد عليه العسكر واستحلف الاكراد ان يقتلوه

وتعطينا المصادر المعاصرة صورة واضحة عن مدى استعدادات السلطان برقوق لمواجهة تيمور لنك إذ تذكر أنه جند كل القوى للسفر معه إلى الشام[1]. ونظراً لأن منطاش ترك خزائن الدولة خاوية فإن السلطان اضطر لاقتراض مبالغ طائلة من تجار القاهرة لتغطية النفقات[2]، ثم قبض على ثلاثمائة من الأجناد البطالين وسجنهم بخزانة شمائل[3]، وأشرف السلطان برقوق بنفسه على ترتيب الجيش الذى سار «في أبهج زى وأفخر هيئة وأحسن ملبس، كما كانت آلات الحرب مذهبة ومفضضة ومزركشة[4]. وسار السلطان فى ربيع الثانى سنة ٧٩٦هـ ـ أبريل سنة ١٣٩٤م على رأس هذا الجيش الضخم، وصحب معه أحمد بن أويس وأتباعه.

ويبدو أن تيمور لنك وجد أن الظروف غير ملائمة للدخول فى معركة مكشوفة مع السلطان برقوق لاسيما وأن طقتمش ايلخان بلاد الدشت والسراى وما جاورها هاجم بلاده، فاضطر إلى الاشتباك معه، ثم زحف شرقاً نحو الهند تاركاً بغداد تحت حكم ابنه ميران شاه[5].

(١) المقريزى: السالوك جـ ٣ ص ٧٢٤ .
(٢) العينى: عقد الجمان جـ ٢٤ ورقة ٣٦٢ ـ ٣٦٣ .
(٣) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك جـ ٩ ص ٣٧٨ .
(٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٥٤ ـ ٥٥ .
(٥) العزاوى: تاريخ العراق جـ ٢ ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ .

ويملكو الفايز ، وانه هرب منهم في الليل وترك كل شي له خوفا على نفسه، فلما سمع كلامه جهز ثلثون فارس وثلثين هجين بثلثين راجل (مشاة) من العرب و احضر عماد الدين ابن المشطوب فلما حضر بين يديه قال له: ما هذه الاعمال التى فعلتها[؟] طلبت تقتل السلطان وتكون سلطان ولو علمت قدر نعمة الله عليك علمت انك اروح سر من السلطان واهنى عيشا

مندوبى الصليبيين يطلبون اسراهم من مندوبى توران شاه بعد هزيمتهم فى المنصورة.

أما السلطان برقوق فإنه برغم علمه برحيل تيمور لنك فإنه استمر يتقدم بالجيش حتى وصل إلى دمشق فى ٢٠ من جمادى الأولى سنة ٧٩٦هـ ـ مايو ١٣٩٤م ومن هناك أرسل عسكره إلى الحدود الشرقية والشمالية لمواجهة أى هجوم مفاجئ قد يقوم به تيمور لنك[١]. وفى دمشق لمس السلطان برقوق موقف الدول المجاورة مرة أخرى، إذ أن رسل طقتمش ، الذى تقهقر أمام تيمور لنك إلى حدود بلاده، قدموا يعرضون معاونة طقمش للسلطان ورغبتهم فى عقد معاهدة دفاعية مع السلطان ضد تيمور لنك[٢]. كما أرسل السلطان العثمانى بايزيد رسله يعرض رغبته فى محالفة السلطان برقوق فى حربه مع تيمور لنك[٣]. ورد السلطان برقوق على كل منهما بالشكر فقط على هذا العون ضد الخطر التتارى[٤]، غير أنه لم يرتبط مع واحد منهما بارتباط معين، بل جعل همه أن يكون شرف استعادة بغداد من نصيب الدولة المملوكية الثانية فقط.

وكتب السلطان برقوق لأحمد بن أويس تقليداً بنيابة السلطنة[٥] ببغداد، وزوده «بالأمراء

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٥٦ .
(٢) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك جـ ٩ ص ٣٨١ .
(٣) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ٢ ص ٣٠٢ .
(٤) العسقلانى: إنباء الغمر جـ ٢ ص ٣٠٢ .
(٥) المقريزى: السلوك جـ ٣ ص ٣٧١ .

منه فاى شى طلبت تكون. وامر الاجناد القيام قدامه فرموه. [هذا] اخر ما وجد من اخبار الابا البطاركة بالكرسي المرقصي رزقا الله تعالى قبول دعاهم الصالح(*).

(*) هذا آخر الجزء الثالث ويليه الجزء الرابع والأخير من المخطوط.

والمماليك والخيل والجمال والسلاح والنقد بما أدهشه»(١). ثم بعث أحمد بن أويس على رأس هذا الجيش إلى بغداد فى أواخر جمادى الثانى سنة ٧٩٦هـ - يونية سنة ١٣٩٤م فتمكن أحمد بن أويس بهذ الجيش المملوكى وبمعاونة قرا يوسف التركمانى من هزيمة ميران شاه واستعادة بغداد. وأخذ فى بناء سورها وتعميرها(٢).

والواقع أن دولة المماليك الثانية أثبتت وجودها، وبرهنت على قوتها بين دول الشرق كله إذا أصبحت بغداد تابعة لها، ولو على هذه الصورة الشكلية التى أصبح بمقتضاها أحمد بن أويس نائباً من قِبَل السلطان برقوق فيها، وضربت سكتها باسم السلطان برقوق. ثم إنه حين شاعت أخبار هذا النصر أرسل السلطان العثمانى بايزيد إلى السلطان برقوق يخبره بأنه وضع تحت طلبه مائتى ألف مقاتل لعونه على حرب تيمور لنك، كما قدم حكام الأمارات التركمانية المحيطة بدولة المماليك الثانية يعلنون طاعتهم للسلطان برقوق(٣).

غير أن السلطان برقوق الذى أحرز هذا النصر رأى أن يقف عند هذا الحد، دون أن يهمل

(١) العسقلانى: إنباء الغمر جـ ١ ص ٣٧١.
(٢) البغدادى: عيون أخبار الأعيان ورقة ٤٨، ذكر العسقلانى فى إنباء الغمر أن الأمير العربى نعير أرسل إلى السلطان برقوق أنه استولى على بغداد وخطب له فيها، غير أن باقى المصادر اجمعت على أن أحمد بن أويس، بمعاونة الجيش المملوكى، طرد ابن تيمور لنك من بغداد واستولى عليها.
(٣) المقريزى: السلوك جـ ٣ (خطية) ص ٧٣٣، ص ٧٤٧.

مراقبة حركات تيمور لنك، ثم إنه حين بدا للسلطان برقوق ابتعاد الخطر التيمورى عاد إلى القاهرة بعد أن جدد قلاع سوريه وترك عدداً من العساكر كافياً للمحافظة على سلامتها[١].

بيد أن تيمور لنك رغم انشغاله في غزواته لقلعة تكريت في ربيع الأول سنة ٧٩٧هـ فبراير ١٣٩٥م، وروسيا في ربيع الثاني من السنة نفسها، والهند سنة ٧٩٩هـ وسنة ٨٠٠هـ ـ سنة ١٣٩٨م [٢] واكتساحه لعدد كبير من بلاد الشرق الأوسط، لم يكف عن مناوأة السلطنة المملوكية الثانية، إذ أرسل في ديسمبر سنة ١٣٩٨م رسله إلى السلطان برقوق يطلب منه مرة أخرى أن يطلق سراح قريبه أطلمش. وحين وصلت الرسل إلى حدود سورية أمر السلطان برقوق بإبقائهم وإرساله الكتب التي معهم إلى مصر؛ ثم أمر السلطان برقوق أطلمش أن يكتب إلى تيمور لنك كتاباً يعرفه فيه ما هو عليه «من الخير والإحسان بالديار المصرية [٣]». وأرسل السلطان برقوق كتاب أطلمش مع كتابه الذى تضمن أنه لن يطلق من عنده من جهة تيمور لنك إلا إذا أطلق تيمور لنك من هم عنده من جهة السلطان برقوق[٤].

ومهما يكن من شيء فقد بلغت قوة السلطان برقوق درجة أفزعت تيمور لنك حتى إنه لم يجرؤ على التقدم غرباً نحو بلاد الدولة المملوكية الثانية إلا بعد أن وصلته أنباء وفاة السلطان برقوق والقاضى أبى العباس أحمد صاحب قيصرية، وما تبع وفاتهما من اضطراب بلادهما.

وأظهر تيمور لنك سروره لهذه الأنباء[٥]. واتخذ من مسألة أطلمش ذريعة للاشتباك بالسلطان فرج، وبدأ تيمور لنك يجهز للزحف على الدولة المملوكية الثانية قبل أن يتمكن السلطان المملوكي الجديد من ترتيب أموره، أو محاولة الاتصال بالدولة المجاورة، وعلى الأخص الدولة العثمانية التي حمل تيمور لنك لها أشد الكراهية؛ لأن السلطان بايزيد استولى على بلاد كثيرة من أملاك السلاجقة من بنى قليج أرسلان، الذين سبق أن احتموا بتيمور لنك [٦].

(١) المقريزى: السلوك جـ ٤ (خطية) ص ٣٣ .

(2) Browne: op. Cit. p 193 .

(٣) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك جـ ٩ ص ٤٥٢ .

(٤) العينى: عقد الجمان جـ ٢٥ ورقة ١٤ .

(5) Ibn Arab Shah : tamerlane p. 100.

(٦) دحلان: الفتوحات الإسلامية جـ ٢ ص ٥٥

وفي صفر سنة ٨٠٢هـ ـ يوليه سنة ١٣٩٩م غادر تيمور لنك الهند، وبعد أن وصل أذربيجان اتخذ من تبريز مركزاً له لإرسال الحملات إلى الجهات التى أزمع غزوها[١]. ومن هناك كذلك أرسل كتبه إلى هذه الجهات، ومنها كتاب بايزيد يطلب منه برقة ألا يساعد قرايوسف التركماني أو أحمد بن أويس، وأن يقف محايداً فى هذه الحرب القادمة معهما، كما وقف هو محايداً فى حرب بايزيد مع الفرنج سنة ١٣٩٦[٢]، غير أنه لم يكن من الميسور أن يتخلى السلطان بايزيد عن هذه الدول التى طلبت أن تكون فى حمايته، فضلاً عن أن بايزيد أدرك تماماً نوايا تيمور لنك، فرد على كتابه بكتاب شديد اللهجة جاء فيه: «ليس من عادة الأتراك أن يتركوا رجلاً طلب مساعدتهم». ثم أعلن أنه سيزحف عليه بجيش قوى يتبعه أينما ذهب[٣].

وأدرك تيمور لنك أنه لا فائدة من محاولة الاتفاق مع بايزيد أو غيره، وتصادف وقتذاك أن اضطربت الأحوال فى بغداد بسبب ثورة أمرائها على أحمد بن أويس وطرده فتقدم تيمور لنك فى ٢٦ ذى القعدة سنة ٨٠٢هـ ـ ديسمبر سنة ١٣٩٩م، واستولى على بغداد للمرة الثانية. أما السلطان أحمد بن أويس وحليفه قرا يوسف التركماني فإنهما اتجها غرباً لا ئذين بالسلطان المملوكى حتى أشرفا على حلب، وبعثا يسألان الأمير دمرداش نائب حلب فى نزولهما لديه. غير أن دمرداش لم يكن مستعداً لتحمل نتيجة وجودهما فى حلب في نحو سبعة الاف من فرسانهما[٤]. فقاتلهما بمعاونة عسار دقماق نائب حماة. ولكن دمرداش هزم وفر إلى حلب ولحقه دقماق بعد أن فدى نفسه من الأسر مائة ألف درهم[٥]، وكتب ابن أويس وقرا يوسف إلى السلطان فرج يعتذران بأنهما إنما اضطرا إلى الاصطدام بجيوش نائب حلب وحماة دفاعاً عن أنفسهما، وأنهما جاءا إلى بلاد الدولة المملوكية مستجيرين على عادتهما، غير أن سوء سياسة الناصر فرج ومجلس المشورة من كبار أمرائه دفعتهم إلى إهمال كتب أحمد بن أويس

(1) Lamb: La VieDe Tamerlane p. 204.

(٢) حرب نيقوبوليس، أنظر Yazdi : Zafarnama VII pp. 149 - 150.

(3) Ibid p. 150 .

(٤) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٦٢ .

(٥) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٢١٥ .

وقرا يوسف التركماني، ومناصبتهما العداء. وبدلاً من الاستعانة بقواتهما في هذه الظروف الحرجة، وبدلاً من ظهوره بمظهر والده في سياسة الحرص على تزعم العالم الإسلامي والحرص على وحدته، كتب السلطان فرج إلى نائب دمشق بمسيره لقتالهما، فاضطرا إلى الالتجاء إلى السلطان بايزيد الذى أكرمهما، وعقد معهما محالفة مما أثار حفيظة تيمور لنك على بايزيد وجعله يتقدم نحو حدود بلاد السلطنة العثمانية(١).

وبدأ تيمورلنك عملياته الحربية بالإغارة على سيواس ونائبها أمير مصطفى التابع لابن عثمان(٢). وهنا تقدمت الجيوش العثمانية بقيادة سليمان بن بايزيد في سنة ٨٠٣هـ - يوليه سنة ١٤٠٠م وحمل تيمور لنك على الجيوش العثمانية وهزمها؛ وفر سليمان إلى أبيه في مدينة بروصا ومعه حليفه قرا يوسف التركماني، وأخذ تيمور لنك مدينة سيواس، «وقتل من أهلها مقتلة عظيمة وهدم أسوارها وأزال بهجتها»(٣).

غير أن ثمة خطأ آخر وقع فيه السلطان فرج وأمراء الدولة المملوكية الثانية في هذا الوقت بالذات، ولو لم يحدث لغيّر مجرى الحوادث، ذلك أن السلطان العثماني بايزيد طلب محالفة السلطان المملوكي فرج لإمكان الوقوف في وجه الخطر التيموري، غير أن الذين بيدهم أمور الدولة رفضوا محالفة السلطان العثماني بسبب تحركات الجيوش العثمانية عقب وفاة السلطان برقوق واستيلائها على ملطية سنة ٨٠١ هـ. ويبين ابن تغرى بردى خطر موقف أمراء دولة المماليك الثانية من هذه المحالفة، وأوضح أهميتها آنذاك في قله الدراية الحربية التي كانت تنقص الجيش المملوكي والتي كان يمكن تعويضها من ناحية الجيش العثماني في فنون الحرب، في حين أن قلة عدد عساكر «ابن عثمان» يمكن أن يعوضها كثرة العساكر المملوكية(٤).

وكيفما كان الأمر، فقد تقدم تيمور لنك وزحف على ملطية في ٢٥ المحرم سنة ٨٣هـ -

(١) البغدادى : عيون أخبار الأعيان ورقة ٤٩٠ .
(٢) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ٦٣ أ.
(٣) نفس المرجع والجزء ورقة ٦٣ ب.
(٤) بن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٢١٧ .

أكتوبر سنة ١٤٠٠م وأبادها على عادته[1]. ومن هناك أرسل تيمور لنك كتابه الأول إلى السلطان فرج. وفي هذا الكتاب فند تيمور لنك للسلطان فرج أخطاء أبيه، من قتله لرسله واعتقاله لأطلمش وغير ذلك، وتوعده بالانتقام المريع إن لم يسارع بإطلاق سراحه، وأنه سيصب انتقامه على الشعبين السورى والمصرى إن لم يجبه إلى مطالبه[2]. وحين وصل رسل تيمور لنك إلى حلب بهذا الكتاب قبض عليهم نائبها ـ كالعادة ـ ليخبر السلطان أولا بمجيئهم . غير أن فرج، جرياً على تقاليد والده، أرسل يأمره بربط الرسل وإلقائهم فى السجن.وأضاف هذا التصرف الشائن من جانب فرج دليلا آخر على جهله وأمرائه بأمور السياسة فى هذا الوقت الذى تحرج فيه الموقف على حدود سورية. وحين عرف تيمور لنك هذا الأمر تحركت فيه مكامن الغيظ والرغبة فى الانتقام مما فعله برقوق وابنه فرج فى رسله؛ وقرر فوراً ترك الانتقام من السلطان العثمانى والزحف أولا على بلاد السلطنة المملوكية الثانية ليبيد كل ما فيها بالنار والسلاح[3].

زحف تيمور لنك فى رجب سنة ٨٠٣هـ ـ نوفمبر سنة ١٤٠٠م على البهسنا[4]. التى أعد نائبها «الأمير مقبل» عدته للدفاع عنها، غير أنه حين وجد ضخامة جيش تيمور لنك تملكه الذعر، وأرسل إلى تيمور لنك يعرض رغبته فى التسليم مع الاعتراف بعجزه وحاجته لمعونة تيمور لنك، فأجابه لما أراد وأحسن استقباله، وفى الحال سكت نقود جديدة باسم تيمور لنك، ودُعى له فى خطبة الجمعة بهذه المدينة[5]. وبعد أن استولى تيمور لنك على البهسنا بهذه الصورة السهلة، زحف إلى عينتاب شمال حلب. وعلى الرغم من أن عينتاب امتازت بأسوارها الضخمة ومناعتها فإن مفاتيحها سُلمت إليه، وفتحت أبوابها، فعين تيمور لنك عليها نائباً من قبله، وفر نائب عينتاب إلى حلب[6].

(1) Ibn Arab Shah: Tamerlene p. 116

(٢) Yazdi: Op. Cit VII p. 159 .

(3) Ibid: p. 160

(٤) البهسنا قلعة بغرب مرعش وسميساط وهى من أعمال حلب. انظر مراصد الاطلاع جـ ١ ص ٨٣ .

(5) Ibid: p.p. 163 _ 164.

(6) Ibid: p.p. 164 _ 165 .

والعجيب أنه حين تحدق الأخطار بدولة المماليك الثانية ويزداد الرعب في سورية من زحف تيمور لنك يزداد تنافس الأمراء في مصر على النفوذ، ويدبرون الفتن من أجل ذلك[1]. وتحت الظروف الاقتصادية والسياسية السيئة التى أحاطت بالدولة، اجتمع السلطان فرج والأمراء بالخليفة والقضاة وأعيان الدولة لطلب المال من التجار للمعاونة في نفقة العساكر. ولم يكن في وسع القضاة الامتناع عن الفتوى في أخذ نصف الأوقاف لإقطاعها للأجناد البطالين لإمكان تعبئتهم لقتال تيمور لنك[2].

وتحايل تيمور لنك لصرف أمراء سورية عن القتال فكاتب سودون نائب دمشق أنه إنما زحف على سيواس لتأديب السلطان العثماني، وأنه بقدومه إلى مصر أراد أن تُضرب السكة باسمه، وأن يذكر اسمه في الخطبة، ثم يرجع بعد أن يقر في مصر سلطاناً يرضى عنه، وأنه ليس له من قصد سوى طلب أطلمش قريبه المقبوض عليه[3]. غير أن سودون نائب دمشق فوت عليه حيلته وأمر برسول تيمور فوسّط[4].

وإزاء هذا التحدى الصارخ من نائب دمشق، زحف تيمور لنك على حلب التي اجتمع فيها نواب سورية بجيوشهم ، فنزل في أول ربيع الأول سنة ٨٠٣هـ ـ نوفمبر سنة ١٤٠٠ م على بزاعة (إحدى قرى حلب)[5]، فتصدى له الأمير شيخ المحمودى نائب طرابلس، وحدثت بينهما مناوشات جعلت تيمور لنك يتوقف قليلاً عن الزحف. وتؤكد المصادر الفارسية أن جيش السوريين كان ضخماً، وتكون من أحسن المحاربين، وزود بأسلحة كافية لصد أى هجوم[6]. غير أن فقدان التعاون بين الأمراء أضاع الكثيرمن الفرص وعرّض سورية للضياع، وليس أدل على هذا من أن الأمير شيخ جمع نواب دمشق وطربلس وحماه وصفد وغزة في حلب، وعرض عليهم خطورة الموقف، وقوة تيمور لنك ودهاءه ونصحهم بضرورة التعاون

(1) Grousset: Op, Cit. p. 527

(٢) المقريزى: السلوك (شمسية) مجلد ١ ورقة ٢٣ .

(٣)ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ ورقة ١٧٢ .

(٤) العينى: عقد الجمان جـ ٢٥ ورقة ١٢٤ .

(٥) راجع الأنصارى: نخبة الدهر ص ٢٠٥ .

(6) Yazdi: Op. Cit. VII p. 161

بينهم جميعاً، وبين الأعراب والأكراد والتركمان لمواجهة هذا الخطر ، كما أشار شيخ فى هذا الاجتماع بغلق المدينة وضرورة خروجهم جميعاً إلى خارجها للقاء تيمور لنك ، ووضع خطة ملخصها أن يتقدم العرب والأكراد والتركمان لمناوشة تيمور لنك حتى يمكن للفرسان والمشاة من الجند السورى أن يهاجموه من جميع النواحي[1]. غير أن هذه الخطة لم تحظ بقبول أكثر الأمراء. ومع أن نواب سورية فى عهد برقوق أسهموا بقسط كبير فى صد الإغارات الآسيوية عن دولة المماليك الثانية، فإنه من المخجل أن يختلف الأمراء وقتذاك فى سورية على الزعامة فى هذا الوقت الحرج الذى تأخر فيه السلطان فرج عن الحضور بسبب انصراف امراء مصر كذلك إلى التنافس على النفوذ والسلطة[2].

وكيفما كان الأمر، فقد عمد تيمور لنك مرة أخرى إلى سياسة التفرقة بين الأمراء، فأرسل إلى دمرداش المحمدى نائب حلب يعده باستمراره على نيابته لو قبض على سودون نائب دمشق، وجاء فى كتاب تيمور لنك إلى دمرداش نائب حلب «إنا لما وصلنا فى العام الماضى إلى البلاد الحلبية لأخذ القصاص ممن قتل رسلنا بالرحبة.. فلما وصلنا العراق بلغنا موت برقوق ، فبلغنا أمر الهند وما هم عليه من الفساد، فتوجهنا إليهم، فأظفرنا الله بهم، ثم رجعنا إلى الكرج، فأظفرنا الله بهم، ثم بلغنا قلة أدب الصبى ابن عثمان فأردنا عرك أذنه ، فشغلنا بسيواس، وغيرها من بلاد ما بلغكم ثم قصدنا بلاد مصر لنضرب بها السكة ويذكر اسمنا فى الخطبة ثم نرجع بعد أن نقر سلطان مصر بها،... ونحن نرسل الكتب إلى مصر فلا يعود جوابها فنعلمكم أن ترسلوا قريبنا أطلمش، وإن لم تفعلوا، فدماء المسلمين فى أعناقكم والسلام[3]».

ونشر تيمور لنك بوساطة رسله جواسيسه الذين انتشروا بين العساكر بأن دمرداش كاتبه لاحتلال حلب[4]. غير أن هذه السياسة لم تفلح لإدراك الجميع مكر تيمور لنك ودهاءه، بل

(١) ابن عربشاه: عجائب المقدور ص ٨٦ .
(٢) نفس المرجع ص ٨٧ .
(٣) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلامن مجلد ٢ ورقة ١٧٣ .
(٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٢٢١ .

على العكس زادتهم تمسكاً وعزماً على القتال دون انتظار وصول السلطان. على أنه مما يؤسف له أنه لم تكن لهم خطة واضحة يرضى عنها الجميع، بدليل أن دمرداش حين رأى مطاولة تيمور لنك ومهادنته ريثما ترتب الأمور، اتهمه الأمراء بالعمل مع العدو، وغضب دمرداش وبرأ جانبه بقتل رسول تيمور لنك، واحتفظ برأيه لنفسه(١).

وعلى حين أخذ النواب في الإعداد لمواجهة القتال داخل حلب استولى تيمور لنك على قرية جيلان، خارج حلب في ٩ ربيع الأول سنة ٨٠٣ هـ (نوفمبر سنة ١٤٠٠م). ثم تقدم لحصار حلب. وبرغم هذا الانقسام الذى ساد الأمراء، فإن أهل حلب استماتوا فى الدفاع عن مدينتهم، وركبوا أسوار المدينة، وقاتلوا تيمور لنك أشد قتال، مما أخجل النواب وجعلهم يخرجون الجند خارج المدينة، ورتبوا عساكرهم فوقف سودون نائب دمشق فى الميمنة، ووقف دمرداش نائب حلب في الميسرة وكوّن عساكر النواب الآخرين قلب الجيش. غير أن سوء التعبئة والجهل بالنظم الحربية ظهرحين وضع الأمراء المشاة من جند حلب وأهلها ونساءها، وصبيانها، فى مقدمة الجيش مما سهل على تيمور لنك اكتساحهم(٢). ولم تجد مقاومة عساكر سورية بسبب مفاجأة تيمور لنك لهم بجيوشه وفيلته، ففرزا قاصدين داخل حلب رغبة فى الاحتماء بأسوارها(٣). فتتبعهم جيش تيمور لنك وهاجم المدينة بكل قواته التى قدّمت بنحو ثمانمائة ألف جندى(٤)، فهلك تحت حوافز الخيل من البشر ما لا يدخل تحت حصر. وتناقل المعاصرون هول الواقعة وازدحام الناس عند دخولهم من أبواب المدينة وكيف داس بعضهم بعضا «حتى صارت الرمم طول قامة»(٥). ولجأ تيمور لنك إلى إشعال النار بالمدينة حتى هرب سائر نساء البلد والأطفال إلى مساجد حلب، فهجم أصحاب تيمورلنك عليهم وربطوهم بالحبال وأعملوا فيهم السيف. ثم «صارت الأبكار تفتض من غير تسر والمخدرات يفسق فيهن

(1) Yazdi; Op. Cit. II p. 168.

(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٢٢٣.

(3) Price : Memoirs VIII. p. 330.

(4)Thoumin: Hist. De Sryie p. 245.

(٥) ابن عربشاه: عجائب المقدور ص ٩١.

من غير احتشام» وبذل عساكر تيمورلنك السيف في عامة حلب وأجنادها، حى امتلأت الجوامع والطرقات بالقتلى [(١)].

ومع أن القتال استمر أربعة أيام، فإن تيمورلنك لم يستطع ـ الاستيلاء على قلعة حلب[(٢)]. التي نقل إليها الناس أموالهم، والتي كافح فيها سودون ودمرادش كفاحا مريرا، حتى أعلن تيمورلنك تأمينهم ومن معهم من الأعيان والقضاة. ولكنهم بعد أن اطمأنوا إليهم أمر بحبسهم، ثم سيق إليه من بقي من نساء حلب سبايا، وبعد أن أخذ الأموال والجواهر والآلات الفاخرة ووزعها على أمرائه وأخصائه، أباح النهب والسلب والقتل فيمن بقى من أهل حلب، ثم أمر بقطع الأشجار، وهدم البيوت، وإحراق المساجد حتى «جافت حلب ظواهرها من القتلى بحيث صارت الأرض منهم فراشاً لايجد الشخص مكانا يمشي عليه إلا وتحت رجليه رمـــة»[(٣)]. وتسلى تيمورلنك برءوس القتلى «فجعل منها منائر عدة مرتفعة عن الأرض نحو عشرة أذرع في دور عشرين ذراعا»[(٤)]. وقبض تيمورلنك على سودون ودمرادش، وأرسل كتاباً إلى السلطان فرج يكرر فيه طلب الإفراج عن أطلمش حتى يمكنه الإفراج عن نائبيه وباقي الأسرى. ولكن السلطان فرج وأمراءه كانوا في واد آخر.

وينعى ابن عربشاه على حكام حلب سبب هذه الهزيمة ويعز وها إلى سوء تدبيرهم مع قلة عدد عساكرهم في وقت أخذ بعضهم يتهم الآخر بأنهم من عملاء العدو حتى فقدت بقيتهم الثقة في قدرتهم على الدفاع عن المدينة. أما العسقلاني فيرى أن غباء دمرداش من أسباب هزيمة العسكر المملوكي خارج حلب، إذ أن دمرداش أثار الفتنة. بين التركمان والعرب حين أعان بعض التركمان على نهب أموال نعير أمير آل فضل، فغضب نعير من ذلك وانسحب بعربة قبل حضور تيمورلنك، وفقد دمرداش بذلك معونة العرب التي لم يكن يستهان بها في مثل هذا الظروف[(٥)].

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٢٢٣.
(٢) تسمى هذه القلعة الشهباء لبياض حجرها ـ راجع الأنصاري: نخبة الدهر ص ٢٠٢.
(٣) القرماني: أخبار الدول ص ٢٠٨.
(4)Yazdi: Op. Cit. VIII p. 176.
(٥) العسقلاني: إنباء الغمر جـ١ ص ٥٣١.

وبعد أن أقام تيمورلنك في حلب مدة شهر تركها خاوية على عروشها خالية «من سكانها وأنيسها» مظلمة بآثار الحريق، وسار قاصداً دمشق، ومر ابنه ميران شاه بمدينتي حماه وحمص واستولى عليهما، وقام بنفس الدور الذى قام به والده في حلب (١). ثم احتل تيمورلنك بعلبك التي دهش جنده من جمال أسوارها وعظمتها(٢).

وأما أهل دمشق فإنه حين قدم عليهم نبأ استيلاء تيمورلنك على حلب وما فعله فيها، وأنه في طريقه إليهم، ازداد رعبهم وتردد البعض بين البقاء فيها أو الفرار منها(٣). وتحمس المخلصون منهم في الدفاع عن مدينتهم ونادوا في الناس بأن«من سافر نهب (٤). وأن عليهم الرحيل من ظاهر المدينة إلى داخلها والاستعداد لقتال العدو، وهكذا بدأ الناس في تحصين المدينة ونصبوا المجانيق على قلعتها، والمكاحل على أسوارها.

وكما قاوم أهل حلب أثبت أهل دمشق تصميما رائعا وإيمانا قوياً بقدرتهم على الدفاع عن المدينة، حتى ولو لم يحضر السلطان. وحين حاول تيمورلنك الاستيلاء على المدينة بخداع نائبها الجديد وهم النائب بالفرار ، رده العامة رداً قبيحاً (٥).

والواقع أن تأخر السلطان فرج عن الحضور أضاع الكثير من الفرص لإبعاد الخطر التيمورى، فضلاً عن أنه فقد احترام العالم الإسلامي لتقاعسه عن مواجهة تيمورلنك .

وعلى الرغم من وصول السطان فرج إلى دمشق في ٦ جمادى الأول سنة ٨٠٣هـ يناير ١٤٠١م فإن الأمراء بها ظلوا منقسمين، وأخذوا يكيلون الاتهامات بعضهم لبعض. وعاد الجراكسة يتهمون دمرداش نائب حلب، الذى تمكن من الفرار من الأسر، بالتواطؤ على هزيمة الجيش في حلب، لأنه من الأتراك، وأنه فعل ذلك بغضاً في الجراكسة، وأنه لوثبت بعسكره لاستطاع هزيمة تيمورلنك (٦).

---

(١) السلامي: مختصر التواريخ ورقة ٩٠ ب.

(2)Yazdi: Zafarnama II p. 180.

(٣) ابن عربشاه : عجائب المقدور ص ٩٥.

(٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٢٢٧.

(٥) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ ورقة ١٧٤.

(٦) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ ورقة ١٧٤ ـ ١٧٥.

بيد أن وصول السلطان فرج إلى دمشق أعاد الثقة والطمأنينة إلى نفوس أهل دمشق الذين أخذوا يتهلون إلى الله بنصرته. وعسكر فرج بجيشه في سهل يلبغا على بعد ميلين من الأسوار القبلية لدمشق؛ أما تيمورلنك فإنه زحف بسرعة من بعلبك إلى قطنة - إحدى قرى دمشق - ثم عسكر على المرتفعات المشرفة على قبة يلبغا في نقطة يشرف منها على تحركات الجيش المملوكي. وظل على هذه الحال مدة شهر اشتبك فيه الجيشان ثلاث مرات دون نتيجة حاسمة[١] . وفي المرة الأخيرة حمل تيمورلنك بنفسه على الجيش المملوكي، فدفعته ميمنة السلطان وردته إلى موقفه بعد أن كبدته خسائر فادحة حتى اضطر تيمورلنك إلى أن يبعث إلى السطان فرج مرة أخرى في طلب الصلح على أساس إطلاق أطلمش، وسك النقود باسمه، وذكر اسمه في الخطبة [٢]. واستقبل السلطان فرج رسول تيمورلنك هذه المرة على غير العادة بالحفاوة والإكرام اللائقين. وبعد عرض عسكرى كبير أمام رسول تيمرولنك الثانى، الذى وعد فيه السلطان فرج تيمورلنك بإطلاق أطلمش فى ظرف خمسة أيام، وأنه على استعداد لإعادة علاقات الود معه بعد هذا [٣].

ولم يكد تيمورلنك يقرأ خطاب السلطان فرج حتى لمس من عباراته علامات الضعف - فزحف على غوطة دمشق [٤] بعد ذلك بعشرة أيام، فسلمت له دون قتال. وعقد مجلس الأمراء للمشاورة فى أمر التقدم للهجوم على تيمورلنك بدلاً من انتظار وقوع الكارثة، وأبدى معظم الأمراء فشل التقدم بسبب خسائر الجيش المملوكى، وما لحق الناس من الضرر وأن ما بقى من قوات من أجل الدفاع فقط [٥]. وعاود الأمير تغرى بردى النصح فى ضرورة قبول الصلح في هذه الظروف الحرجة، وبسبب ما عليه العسكر من اختلاف الكلمة. فكتب

---

(١) ابن خلدون: التعريف ص ٣٦٧.

(٢) Yazdi : Op. Cit VIII p. 184.

(٣) شرف الدين على يزدى: ظفر نامة جـ٢ ص ٣١٧ .

(٤) غوطة دمشق سهل يحيط بدمشق طوله نحو ١٨ ميلاً وفى أطرافه جبال عالية وترويه عدة أنهار راجع Le Strange : Palesline p. 33.

(٥) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٢٣٥.

السلطان فرج إلى تيمورلنك مرة أخرى بموافقه على الصلح مع الاعتذار عن الهجوم الذى قام به بعض الأمراء فى الليلة السابقة ١٩ من جمادى الأولى سنة ٨٠٣هـ ـ سنة ١٤٠١م، وأنه سيطلق الاسرى من عنده فى اليوم التالى. غير أن هذا الخطاب زاد موقف فرج ضعفاً، ولاسيما أن عيون تيمور لنك أوقفوه على حقيقة الحال فى داخل دمشق مما جعله يرفض موافقة السلطان فرج، وتقدم لإحكام الحصار على المدينة.

وحقيقة الحال أن السلطان فرج فقد كل أمل فى النصر بعد أن فوجئ باختفاء جماعة من أمرائه، ومن المماليك السلطانية، وتبعتهم جماعة أخرى، وهرب الجميع إلى القاهرة ليسلطنوا الشيخ لاجين الجركسى؛ فاضطر بعض الأمراء إلى أخذ السلطان فرج ، وتبعهم لمواجهة هذه الفتنة، تاركين دمشق وأهلها وعساكرهم لقمة سائغة لتيمور، وذلك فى ليلة الجمعة ٢١ من جمادى الأولى سنة ٨٠٣هـ (١).

وعرف تيمور لنك هذه الحقيقة فنشر الذعر فى صفوف الجيش المملوكى حين قبض على ثلاثة من الجند وشوى اثنين منهم وأطلق الثالث ليذيع هذا النبأ، كما أضرم ناراً فى أماكن متعددة ليبين للجيش المملوكى أن عساكره ملئوا جميع نواحى المدينة بقدر أماكن النار (٢).

على أن خروج السلطان فرج على هذا النحو فى ٢٠ من جمادى الأولى سنة ٨٠٣هـ ـ يناير سنة ١٤٠١م ـ أدى إلى تسلل بقية أمراء مصر وأعيانها من القضاة وغيرهم، وألقوا بأسلحتهم ليخف ذلك عن خيولهم وخوفاً من تتبع تيمورلنك لهم (٣). وتتابع دخول الفارين من المماليك السلطانية وغيرهم إلى القاهرة، وهم فى أسوأ حال بسبب ما تعرضوا له فى الطريق من الجوع والعرى (٤).

أما العساكر الذين بقوا فى داخل دمشق فإنهم على الرغم من فقدان سلطانهم وهروب أمرائهم، فإنهم أغلقوا أبواب دمشق وركبوا أسوارها، ونادوا بالجهاد وتهيأ أهل دمشق للقتال

(1) Ibn Arab Shah: Op. Cit p. 141.

(٢) دحلان: الفتوحات الإسلامية جـ٢ ص ٥٩.

(٣) ابن يحيى: تاريخ بيروت ص ٢٥٢.

(٤) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٥٣٣.

دون أن يعلموا برحيل السلطان [1]. ولكن تيمور لنك زحف عليهم بعساكره بعد أن اشتد عزمه حين علم برحيل السلطان. غير أن الدمشقيين قاتلوه من أعلى السور أشد قتال، حتى ردوه بعيداً عن السور والخندق وأسروا عدداً كبيراً من جنده ، ثم أخذوا من خيولهم عدداً كبيراً وقتلوا منهم نحو الألف [2]. وإزاء تصميم أهل دمشق على القتال اضطر تيمور لنك إلى معاودة التحايل فطلب الصلح، ونجح في هذه المرة إذ أرسل إليه الأمراء قاضي القضاة إبراهيم بن مفلح الحنبلي للمفاوضة على رأس بعثة من القضاة كان ابن خلدون واحداً منهم [3].

وحين اجتمعت البعثة بتيمور لنك عرض عليهم تيمور لنك أنه لايريد سوى أن يخرج إليه أهل دمشق «الطرقزات» [4]. ثم يعود، وخدع ابن مفلح بكلام تيمور لنك وعاد ليثني عزائم الناس عن القتال مما أدى إلى انقسام الصفوف حيث مالت طائفة إلى كلامه على حين صممت الأخرى على مواصلة القتال [5]. وعلى الرغم من أن بعض الأمراء في قلعة دمشق حاولوا جاهدين منع ابن مفلح من نشر رأيه، فإن رأى ابن مفلح سرعان ما غلب بسبب مناداته بأن من خالفه قتل . فضلاً على أن أكثر الأهالي حين لاحظوا احتراق خيمة السلطان وعرفوا أنه رحل إلى القاهرة كفوا عن القتال وسلموا بالأمر الواقع.

وإذ اتجه ابن مفلح ومعه بعض القضاة لإخراج «الطقزات» من باب النصر منعه. نائب القلعة، وهدد بإحراق المدينة. فأخرجوا الطقزات من السور، واتجهوا إلى معسكر تيمور لنك الذى رحب بهم وعينهم في وظائف عدة وردهم بأمان إلى أهل دمشق [6]. وحين قرى الأمان بالجامع الأموى فتح الباب الصغير (باب المدينة القبلى)، ثم طمأن تيمور لنك الناس حين بعث

---

(1) Ibn Arab Shah: Op. Cit. p. 141.

(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٢٣٨.

(3) Fischel : Op. Cit. p. p. 33 - 34.

(٤) كانت عادة تيمورلنك عند أخذ مدينة صلحاً أن يخرج إليه أهلها من كل نوع من الأكل والشراب والدواب والملابس والتحف «تسعة» ويسمون ذلك «طقزات» والطقز باللغة التترية معناه تسعة. راجع ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٢٣٩.

(٥) القرماني أخبار الدول ص ٢٠٩.

(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ١٤٠.

بأحد أمرائه ليحفظ الباب من العساكر التيمورية، وصلب تيمورلنك بعض عسكره الذين نهبوا بعض سوقة دمشق [1].

وانتقم تيمور لنك من المدنية أبشع انتقام؛ فلم يكتف بأخذ ألف دينار حملها إليه ابن مفلح من أهل دمشق، بل أخذ كل أموال أهل دمشق وذهبهم ومتاعهم وجميع مافى المدينة من السلاح والخيول والجمال والقماش، كما قبض على ابن مفلح وزملائه وألزمهم بأن يكتبوا له جميع خطط دمشق وحاراتها وسككها [2]. وبعد أن قسم المدينة على أمرائه، ونزل كل أمير بقسمة، أجرى على أهل دمشق أنواع العذاب من الضرب والعصر والإحراق بالنار والتعليق منكسين، وغم أنف الفرد بخرقة فيها تراب ناعم، كلما تنفس دخل فى أنفه حتى تكاد نفسه تزهق، وإذا أشرف على الهلاك، يخلى عنه حتى يستريح ثم تعاد عليه العقوبة أنواعاً. وتؤخذ نساؤه وبناته وأولاده ويقسم الجميع على أصحاب تيمورلنك، فيشاهد الرجل المعذب امرأته أو ابنته وهى توطأ، وولده وهو يلاط به ويصرخ هو من ألم العذاب، والبنت والولد يصرخان من إزالة البكارة واللواط. وكل ذلك من غير تستر فى النهار بحضرة الملاء من الناس... كما رأى أهل دمشق أنواعاً أخرى من العذاب، إذ أخذ التتار الرجل وشدوا رأسه بحبل كما وضعوا الحبال بكتفى الرجل، وأخذوا يلوون بعصاه حتى تنخلع كتفاه. واستمر هذا البلاء والعذاب حتى يوم ٢٨ رجب سنة ٨٠٣هـ ـ فبراير سنة ١٤٠١م بعد أن هلك فى هذه المدة فى أهل دمشق خلق كثير [3] ولم يحترم يتمورلنك فى ذلك الأخوة الاسلامية التى كانت تجمعه مع أهل هذه البلاد.

وحين عزم تيمور لنك على دك معالم الحضارة فيها، أشعل النار بها فى يوم عاصف، وعملت النار فى البلد ثلاثة أيام، حتى احترق كله وسقطت سقوف الجامع الأموى وزالت أبوابه [4]. وفنيت مساجد دمشق ودورها وأسواقها وحماماتها. والخلاصة أن تيمور لنك ترك

---

(١) ابن العماد : شذرات الذهب جـ٧ ص ٦٤.
(٢) المقريزى: السلوك جـ٣ مجلد ١ (مصورة) ورقة ٢٧.
(٣) نفس المرجع والجزء والورقة.
(٤) ذكر علي شرف الدين يزدى أن سقوف ا لجامع الأموى احترقت مصادفة غير أن المؤرخين العرب ذكروا أن تيمورلنك تعمد إحراقها وأيد هذا الرأى شاهد عيان هو الرحالة البافارى Schiltbeger الذى ذكر أنه=

دمشق أطلالاً بالية، وفيها أطفالها معرضين للجوع والموت، وأخـذ معه أشهر الفنانين والبنائين إلى سمر قند عاصمة بلاده حيث استخدم هؤلاء في تجميل عاصمته (١) الإسلامية الجديدة.

على أن غزو تيمور لنك لسورية تمخض عنه عدة نتائج، أولها ما أصاب مدن سورية وقراها من نقص في السكان، فضلاً عما أصابها من الخراب، حتى إن السلاطين بذلوا جهوداً كبيرة في إعادة الحياة إليها وإصلاح ما أفسده تيمور لنك (٢)؛ ثانيها اختفاء الكثير من الصناعات التي اشتهرت بها مدن سورية وعلى الأخص صناعة الزجاج (٣). وثمة نتيجة ثالثة لغزو تيمور لنك لسورية هو نشاط طرق التجارة عبر البحر الأحمر ومصر، بعد أن انعدم الأمن بسبب حروب هؤلاء التتار في طرق وسط اسيا وغربيها (٤).

أما صدى غزوة تيمور لنك لسورية في القاهرة فإنه عند عودة السلطان فرج بجيشه إلى القاهرة على هذه الصورة المزرية المفاجئة، ظن الناس أنه عاد بسبب هزيمة التتار له، وما لبثت أنباء خراب المدن السورية أن لاحقت عودته، فانتشر الرعب بين الناس. وزاد سوء الأحوال الاقتصادية «لأن الناس أخذوا يبيعون ما عندهم ويستعدون للهرب من مصر خشية زحف تيمور لنك على القاهرة» (٥). وغلت أسعار المواد الغذائية غلاء فاحشا لشدة الحاجة إليها، على حين هبطت أسعار المنقولات بسبب كثرة المعروض منها. ومما زاد الحال سوءا أن السلطان فرج عاد فجأة وقرر إرسال تجريدة أخرى لقتال تيمور لنك، وفرض على سائر أراضي مصر وأوقافها ضرائب كثيرة، ثم عاد فجبى من سائر أملاك القاهرة ومصر أجرة شهر واستدعى أمناء الحكم والتجار وطلب منهم قروضاً، وأخذ يلبغا السالمي ا ستاداره يهاجم الفنادق والحواصل في الليل،

= بعد أن امتلأ المسجد بالناس أشعل تيمور فيه النار- راجع Schiltberger : The Bondage and Travels p. 23.

(1) Hitti: Hist. of The Arabs p. 701.

(٢) راجع ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ٣٧ و ٤٢، ٥٧.

(3) Huart: Hist. Des Arabes T11 p. 94.

(4) Ibid: P. 115.

(٥) ابن عربشاه: عجائب المقدور ص ١٨٣.

فمن وجده حاضراً من أصحابها ، فتح خزائنه، وأخذ نصف مايجده فيها، وإذا لم يجد صاحب المال، أخذ جميع ما يجده، كما استولى على ماوجد من حواصل الأوقاف(١). وأدى هذا إلى ارتفاع سعر الخبز وهلاك الكثيرين من الفقراء حتى صاروا لايستطيعون دفن موتاهم لكثرة الأمراض (٢).

على أن تيمور لنك بعد أن انتقم من السلطنة المملوكية الثانية اتجه للانتقام من عدوه الآخر وهو السلطان العثماني. على أننا نلاحظ من حركات تيمور لنك أنه لم يهدف من كل فتوحاته أن يحتفظ بما فتحه، بل قصد أولاً من فتحه للبلاد الواقعة في أطراف بلاده أن ينتقم ممن لم يعلنوا طاعتهم له. ولهذا بعد أن انتقم من السلطان المملوكي ودك معالم الحضارة في سورية، اتجه إلى الشمال ليفاجئ بايزيد قبل أن يفاجئه. ولعل هذا هو الذى أنقذ الدولة المملوكية الثانية من السقوط السريع، إذ وجد تيمور لنك السلطان بايزيد يقظاً لحركاته، فإنه بعد أن اجتاز على حلب وماردين وأعاد تخريبهما اتجه فجأة شرقاً إلى بغداد (٣). ومن هناك بدأ يلتمس المعاذير للاصطدام بالسلطان العثماني، فأرسل تيمور لنك إلى بايزيد يعلن أن صاحب ارسنجا تابع له، وأن أى تعد على أملاكه يعتبر تعدياً على أملاكه هو (٤). ثم بعث تيمور لنك إلى السلطان بايزيد أن يرسل إليه أحمد بن أويس وقرا يوسف التركماني اللذين احتميا به وهدده بالزحف على بلاده إن لم يرسلهما إليه . وإذ أصبح الجيش العثماني قوة لايستهان بها خاصة بعد أنتصار نيقوبوليس سنة ١٣٩٦م فإن بايزيد تحدى تيمور لنك ورد عليه رداً خشناً مما دفع تيمور لنك إلى الإغارة عليه في سبعمائة ألف فارس وثلثمائة ألف من المشاة وذلك في سنة ٨٠٥هـ ـ يوليه سنة ١٤٠٢ (٥).

وحين وصل تيمور لنك إلى حدود الدولة العثمانية أرسل إليه عما نويل باليولوغوس إمبراطور القسطنطينية، كما أرسل إليه الجنوية يعرضون عليه مساعدتهم بإرسال قوات من

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ٢٢ ص ٢٤٧، ٢٤٩ ـ ٢٥٠.
(٢) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ورقة ١٧٩.
(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٢٦٥.
(4) De Clavijo: Op. Cit p. 73 - 74.
(٥) المقريزى: السلوك جـ٣ مجلد ١ (شمسية) ورقة ٣٦.

المشاة والفرسان. كما عرضوا الإسهام بالأموال اللازمة للحرب [١]..ولم ينتظر تيمور لنك مساعدة هذا أوذاك كما أنه لا يوجد مايشير إلى عقد محالفة مع الغرب، بل تذكر المصادر أن تيمور لنك تقدم بسرعة ليهاجم بايزيد، واستخدام الحيلة في سيره عبر الجبال إلى أنقرة في طريق غير الطريق التى توقع بايزيد أن يسير فيها تيمور لنك [٢]، ولم يدر بايزيد إلا وتيمور على أبواب أنقرة، فعاد بايزيد إليها حيث بلغ التعب من جنده أشده، ولم تجد شجاعة الإنكشارية أمام جحافل تيمور لنك [٣]. ودارت الدائرة على جيش بايزيد ووقع بايزيد نفسه في أسر تيمور لنك.. وصار يبدو أن الامبراطورية ستزول بالسيف بعد أن احتل التتار بروسة العاصمة الثانية، وأعادوا جميع الأمراء السلاجقة إلى أملاكهم التى استولى عليها العثمانيون[٤].

ولانتصار تيمور لنك على السلطنتين المملوكية الثانية والعثمانية ـ وهما القوتان اللتان حاولت كل منهما تزعم العالم الإسلامى آنئذ ـ أثر كبير في محاولة الغرب النيل منهما، وذلك حين أرسل هنرى الثالث ملك أسبانيا في يوليه سنة ١٤٠٢ سفارة سياسة من playo De satomayor ومن Fernando لدعم علاقات بلاده مع تيمور لنك وقابل تيمورلنك السفيرين بعد معركة أنقره وعاملهما معاملة طيبة، ثم أعادهما إلى أسبانيا مع رسول من عنده هو محمد القاضى، وحمله خطاباً وذياً وهداياً من جملتها جواهر وجوار إلى هنرى الثالث. وشجع هذا الود هنرى الثالث على محاولة الارتباط بأى نوع من التحالف مع تيمور لنك فأرسل فى ٢٢ مايو سنة ١٤٠٣م بعثة أخرى برئاسة De Glavijo[٥].

(1) De Clavijo : Op. Cit . pp. 76 - 77.
(2) Ibid . pp. 76 - 77.

(٣) محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٥٠ ـ ٥١.
(4)Gibbons:foundation of the Ottoman Empire, p:225
Oman: The Byzantie Empire,p334

(٥) De Glvijo pp.76-77 هناك ما يشير إلى أن تيمورلنك كتب خطاباً بعد انتصاره فى أنقره إلى هنرى الرابع ملك انجلترا منح فيه رعاياه حرية التعامل التجارى مع بلاده، ورد هنرى الرابع عليه بالتهنئة بانتصاره على العثمانين وأصول هذين الخطابين موجود فى
Vide Originah Letters llustratus Of English History, 3rd series VI By Henri Ellis pp 56-58

غير أنه برغم إكرام تيمور لنك لهذه البعثة فإنه لايوجد ما يشير إلى إى تحالف رسمى بينهما. ويبدو أن السبب هو مرض تيمورك مرة أخرى(١).

على أن ثمة نتيجة هامة لانتصار تيمور لنك على الدولة العثمانية ثم انسحابه فى نوفمبر سنة ١٤٠٢، وهى ضياع أرمينية من أيدى السلطنة المملوكية الثانية وتركها تحت رحمة القبائل التركمانية المعروفة بقبائل الشاة السوداء، والشاة البيضاء، (قراقويونلو، آق قويونلو)(٢).

وفي طريق تيمور لنك إلى بلاده أرسل كتاباً آخر إلى السلطان فرج أنبأه فيه بغزوه للدولة العثمانية وطالبه بإطلاق أطلمش، وأنه إذا قدم عليه، أرسل تيمور ما عنده من الأمراء والنواب المماليك المأسورين. وأما إذا امتنع السطان فرج عن تنفيذ مطالبه، فإنه سيعود إلى تخريب مصر(٣).وحسما للموقف طلب السلطان فرج أطلمش من سجنه بالقلعة، ويقال إنه أحضر مصحفاً حلف له أطلمش عليه أن يكون عيناً له عما من أمور تيمولنك فضلا عن إشادته بما لفرج ولوالده من أفضال عليه (٤).فخلع عليه السلطان فرج وأنعم عليه بخمسة آلاف درهم واطلقه مصحوباً ببعثة من أمرائه (٥).

وهكذا تم الصلح بين السلطان فرج وبين تيمور لنك.

ولم تقف علاقات تيمور لنك بدولة المماليك الثانية عند هذا الحد بل إن تيمور لنك حين استقبل أطلمش فى المحرم سنة ٨٠٦هـ - ١٤٠٣م أرسل رسله بكتاب آخر للسلطان فرج، وعرض فيه تيمور لنك رغبته فى إقامة علاقات المودة مع السلطنة المملوكية الثانية، فشكر الأمراء على إرسال أطلمش، ولكنه أظهر احتقاره لشخصية السلطان فرج، إذ ارسل إليه هدية شملت على علمين لونهما أخضر وخلعة للسلطان عليها ما يفيد بأن يكون السلطان فرج

(١) صادف وصول بعثه De Clavijo وصول بعثة من السلطان فرج إلى بلاط تيمور ومعها هدايا - راجع Le strange: Clavijo Embassy To Tamerlane pp.9_12

(2) Kevork:Armenia p. 101

(٣) مير خواند: روضة جـ ٦ص ٢٤٦ .

(٤) ابن قاضى شهبة. ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ورقة ٢٠٤.

(٥) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ص ٥٣٨.

- -

نائبه على الديار المصرية والشامية. نتج عن هذه للإساءة إلى السلطان فرج أنه رفض الهدية واعادها.

ولم يفتأ تيمور لنك يظهر عدم تقديرة للسلطان فرج إذ أرسل إليه فى ربيع الأول سنة ٨٠٦هـ كتاباً آخر يذكر فيه أن قرا يوسف وأحمد بن أويس تعديا على طاهر بن أحمد ابن أويس الذى عينه تمورلنك حاكماً على بغداد من قبله. وذكر تيمورلنك فى خطابه أنه أرسل إليهما ولده مير ان شاه فى مائه ألف فارس فهربا منه. وحذر تيمورلنك السلطان فرج من هذين الفارين، وأنه إن سمح لواحد منهما بالدخول إلى بلاده فإنه ربما يأخذها منه لضعفه[١].

وعلى هذا يمكن القول إنه إذا كان العامل الداخلى الذى تمثل فى إحلال العصبية الجركسية مكان العصبية التركية أعطى قيام دولة المماليك الثانية صبغة خاصة، فإن العامل الخارجي الذى تمثل فى غزو تيمورلنك لبلاد الدولة المملوكية الثانية أضاف فارقاً كبيراً بين هذه الدولة ودولة المماليك الأولى؛ إذ أنه على حين بدت دولة المماليك الأولى متماسكة فى وقت الحروب حتى انتصرت على المغول فى واقعة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ ـ ١٢٥٧م وفى مرج الصفر فى رمضان سنة ٧٠٢هـ ـ ١٣٠٣م، فإن انقسام أمراء دولة المماليك الثانية بسبب العصبيات سبب هزيمتها أمام التتار (تيمور لنك). وصار هذا الانقسام مظهراً من مظاهر هذه الدولة حتى عهد السلطان برسباى الذى تمكن من توحيد الصفوف حتى تمكن من غزو قبرص فى حملات كسبت نصراً مؤزراً وضع حداً للأخطار التى تعرضت لها دولة المماليك الثانية من جانب هذه الجزيرة[٢].

على أن العلاقات بين دولة المماليك الثانية الناشئة وبين الدولة العثمانية ارتبطت بمسألة الحدود والمنافسة على تزعم العالم الإسلامي. وبدأت هذه العلاقات ودية مادامت حدودها متباعدة وتبادل سلطان كل من الدولتين، الهدايا مع صاحبه[٣]. ثم زاد فى أواصر هذه

(١) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الأسلام مجلد ٣ورقة ٢١٣ .

(٢) راجع عاشور: قبرص والحروب الصليبية الفصل الرابع.

(٣) زيادة نهاية السلاطين المماليك فى مصر ص ١٩٩.

الصداقة ظهور تيمورلنك وتعرض كل من الدولتين لهذا الخطر. والبداية التاريخية لهذا الاتصال هى سنة ٧٩٠هـ ـ ١٣٨٨ م حين أرسل السلطان العثمانى رسله الذين أكرمهم السلطان برقوق، وبعد أن قدموا هدية سلطانهم عرضوا كتابه الذى تحدث فيه عن تحركات تيمورلنك من تبريز نحو حدود الدولتين، وأنه يلزم اتخاذ كافة الاحتياطات لرده (١). وبلغ من ثقة السلطان برقوق، وبعد نظره أنه لم يربط بتحالف مع السلطان العثمانى، وانما أظهر استعداده لقبول كل معاونة يعرضها السلطان العثماني. وسبب هذا أن السلطان برقوق أدرك خطورة الدولة العثمانية على بلاده وعلى سياسته في الوقت الذى لم يكترث فيه بخطر تيمورلنك بدليل قوله«إني لاأخاف من اللنك فإن كل أحد يساعدني عليه وانما أخاف من ابن عثمان» (٢). ويبدو أن برقوق كان على حق فى اعتقاده هذا لأن بايزيد أغار سنة ٧٩٣هـ ـ سنة ١٣٩١م على قيصرية وقبض على صاحبها وهي وقتذاك فى حماية السلطان برقوق. غير أن اقتراب خطر تيمورلنك سنة ٧٩٦هـ ـ سنة ١٣٩١ م جعل بايزيد يبعث باعتذراه إلى برقوق وهو فى سورية كما أرسل مفاتيح المدنية وهدية قيمة (٣). ولم يتأخر السلطان برقوق فى قبول الاعتذار، بل إنه أرسل رسوله حسن الكجكنى إلى بايزيد، وعقد الصلح بينه صاحب قيصرية (٤).ووجد السلطان بايزيد في صداقة السلطان المملوكى خير معين له على دفع الخطر التيمورى.. فرد فى نفس السنة ٧٩٦هـ على بعثه السلطان برقوق بهدية جليلة وكتاب يحذر فيه السلطان برقوق من خطر تيمولنك، وأنه وضع تحت تصرفه مائتى ألف فارس، كما سأل السلطان برقوق فى تجهيز طبيب من أطباء القاهرة ليداوية (٥). غير أن السلطان برقوق ظل عند موقفه واكتفى بشكر السلطان العثماني وإكرام رسلة وأرسل له الطبيب محمد بن محمد الصغير، ومعه من الأدوية والعقاقير ما يحتاج إليه ابن عثمان (٦).

(١) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٦ب.
(٢) العسقلاني: إنباء الغمر جـ١ص ٣٨٥.
(٣) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام ورقة٦٩.
(٤) العسقلاني: إنباء الغمر جـ ١ص ٣٣٦، ,٣٤٠
(٥) المقريزى: السوك جـ١ ص ٧٠٨.
(٦) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان و رقة ١٤٥أ.

وفي أواخر سنة ٧٩٦هـ ـ بعث بايزيد إلى الخليفة العباسي بالقاهرة بكتاب طلب فيه منحه تفويضاً شرعياً بالسلطنة. ومع أنه لايوجد ما يشير إلى إجابة الخليفة العباسي في القاهرة لهذا الطلب ، إلا أنه في خطاب بايزيد الذى كتبه حوالي سنة ٨٠٣هـ ـ سنة ١٤٠٠م إلى تيمورلنك ذكره بالعباسيين «ورثاء عرش الخلافة» الذين لجئوا إلى مصر، ليذكر هذا الحاكم الفظ أنه لاتزال توجد قوة إسلامية تستطيع مواجهته أوعلى الأقل يبين مدى إمكان ارتباط العثمانيين بالمصريين في فكرة الدولة الإسلامية الواحدة التى يمكنها الوقوف في وجه تيمورلنك(١).

وظلت العلاقات ودية حتى رمضان سنة ٧٩٩هـ ـ ١٣٩٧م حين وصل إلى القاهرة رسل السلطان بايزيد ومعهم هديه للسلطان برقوق؛ منها مائة أسير من الفرنج الفرنسيين والإيطاليين كانوا يقطعون الطرق على المسلمين في البحر (٢). ؛ وأخبرت البعثة العثمانية بانتصار بايزيد الحاسم على الفرنج في نيقوبوليس سنة ٧٩٨هـ سنة ١٣٩٦م (٣).

بيد أن العلاقات بدأ يشوبها السوء عقب وفاة السلطان برقوق، إذ انتهز السلطان بايزيد فرصة انقسام الأمراء في مصر وأغار في أواخر شوال سنة ٨٠١هـ على الحدود السورية واستولى على ملطية ودارندة (٤). وارتكب السلطان بايزيد بهذا الإجراء خطأ شنيعاً دل على ما في نفوس السلاطين العثمانيين من رغبة في تزعم العالم الإسلامي، والاتجاه إلى حرمان سلاطين دولة المماليك الثانية من هذه الزعامة، كما دلّ ذلك على مدى استهتارهم بالعلاقات السياسة بين البلدين في تلك الظروف العصيبة التى أحاطت بالدولتين، وصار لهذا الخطا أثره في نفوس أمراء مصر، بدليل أنه حين زحف تيمورلنك غرباً نحو الحدود المشتركة بين الدولتين العثمانية والمملوكية الثانية، وأرسل بايزيد يطلب محالفه السلطان فرج لصد خطر تيمورلنك

(1) Arnold: The Caliphate p. 105, D'Ohosson : Tableau De L'Empire Othoman VI p. 233-234.

(٢) العسقلاني: إنباء الغمر جـ١ ص ٤١٤.
(٣) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ ورقة ١٢٣.
(٤) االعيني: عقد الجمان جـ ٢٥ ورقة ٧٨.

رفض الأمراء محالفته، مذكرين إياه بإغارته على ملطية سنة ٨٠١هـ. ولم يدرك السلطان فرج أن الأمراء بانتهاجهم سياسة العداء مع الدولة العثمانية أوجدوا فرصة ذهبية طالما تمناها تيمورلنك ليستطيع مواجهة كل عدو على حدة، وهى الفرصة التي لم يمكنه منها السلطان برقوق حين تبادل الرسل مع جيرانه حتى غير تيمورلنك اتجاهه وزحف شرقاً.

وإذ شعر تيمورلنك بأن الظروف لم تعد تسمح بقيام تحالف بين السلطانين العثمانى والمملوكى زحف على الدولة المملوكية سنة ٨٠٣هـ-١٤٠٠م. وبعد أن أباد حلب وحماة ودمشق انتقم من الإهانات التى لحقته من تحدى بايزيد له عدة مرات وذلك فى واقعة أنقرة التى أسر فيها بايزيد، والتى أباد بعدها عدة مدن عثمانية (١). وفضلاً عما سببته هزيمة العثمانين من ضعف للإمارات التركية وغيرها من القلاع المسيحية فى شبه جزيرة اسيا الصغرى، فإن هزيمة بايزيد أمام تيمور وأسره كانت مخجلة حقاً، حتى أن البعض ذكر أنه لو تأخرت حرب نيقوبوليس الصليبية (١٣٩٦م). إما مصادفة أو بناء خطة مرسومة لمدة ست سنوات لتحطمت قوة العثمانين إلى الأبد.

على أن هزيمة تيمورلنك لكل من السلطانين المملوكي والعثماني والاصطدام بينهما حوالى قرن من الزمان تأرجحت فيه علاقة الدولتين بين الود والعداء. وبقاء تيمورلنك على قيد الحياة جعل السلطان العثمانى محمد بن بايزيد ينتبه لخطورة الموقف بعد هزيمة والده ووقوع شرق بلاده كلها تحت رحمة الملوك الذين حالفوا تيمورلنك، فأسرع بعقد صلح مع السلطان فرج أواخر سنة ٨٠٥هـ - ١٤٠٢م وبدأ الطرفان يتبادلان الهدايا فى كثير من المناسبات (٢).

على أن وفاة تيمورلنك آخر سنة ٨٠٧هـ - يناير سنة ١٤٠٥م أزال منافساً خطيراً من طريق العثمانين الذين أرادوا تحقيق أطماعهم في الشرق. وبدأ ميزان القوى فى الشرق الأوسط يتأرجح بين السلطنتين العثمانية والمملوكية الثانية. وأصبحت صداقة الدولتين صورية، الغرض منها إظهار قوة كل من السلطانين للآخر ، إذ صاركلما اتفق لإحدى الدولتين نصر أو فتح

(١) الزيانى: الترجمان المعرب ورقة ٩٠.

(٢) دحلان: الفتوحات الإسلامية جـ٢ ص ٦١.

قريب أو بعيد امتلأت العاصمتان بأنواع الاحتفال والزينة (١). وتبادل السلطانان الهدايا ورسائل التهنئة والتبريك، حتى إذا شعر السلطان العثمانى بقوته زحف على دولة المماليك الثانية وازالها سنة ١٥١٧م.

وكما واجهت دولة المماليك الثانية فى بدء قيامها مشكلات من جانب الشرق، فإنها واجهت مشكلات إخرى من جانب الغرب، مرجعها أن التجارة فى البحر المتوسط أصبحت احتكاراً للبندقية التى تخلصت من منافستها جنوا (٢).واستطاع السلطان برقوق والسلطان فرج أن يحققا مع البنادقة أرباحاً طائلة من احتكار التجارة. ونتج عن هذا الاحتكار تعرض شواطئ دولة المماليك الثانية لهجمات القراصنة الجنوية والقطالونيين ومن انضم إليهم من الروادسة (جزيرة رودوس) والقبارصة.

وشغلت أعمال القرصنة التى قام بها هؤلاء الفرنج جهداً كبيراً من السلطان برقوق ومن ابنه فرج. ففى جمادى الآخرة سنة ٧٨٥هـ ـ يولية سنة ١٣٨٣م هاجم الجنوية صيدا وبيروت، ونزلوا إلى البر (٣).فاتجه اينال اليوسفى أتابك دمشق إلى الساحل ، وحاول أن يقذف بهؤلاء الفرنج فى البحر حين احتموا بمراكبهم، لولا أن أسرع لنجدتهم الفرنج المقيمون فى بيروت ومكنوهم من النجاة بأنفسهم (٤).

وفى الوقت نفسه قضى السلطان برقوق على محاولات بعض تجار الفرنج الجنوية لتهريب بضائع فى مراكبهم من الاسكندرية (٥). ويبدو أن فشل هؤلاء الجنويه جعلهم يتجهون إلى مهاجمة ثغرى رشيد ودمياط. غير أن السلطان برقوق رصد لهم فرق فى ثغر رشيد بقيادة الأمير

(١) راجع زيادة: نهاية السلاطين المماليك فى مصر ١٩٩ وما بعدها.
(٢) Kirk : Ashort. Hist. Of The Middle East p. 53 انتهت أعمال القرصنة من جانب القبارصة والبنادقة والجنوية بصلح عقد سنة ١٣٧٠م وعادت تجارة الدولة المملوكية الأولى معهم: بيد أن التنافس سرعان ما نشأ بين البندقية وجنوا حتى تخلصت الأولى من الثانية واحتكرت التجارة مع سلاطين الدولة الثانية. راجع عاشور: قبرص والحروب الصليبية ص ٨٢.
(٣) ابن يحيى: تاريخ بيروت ص ٢٢٩.
(٤) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٨٨.
(٥) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ٥ أ.

أحمد بن يلبغا الخاصكى، وفرقة أخرى فى ثغر دمياط بقيادة الأمير ايدكار[١]. فتعذر على هؤلاء الجنوية غزو رشيد ودمياط، ولذا أعادوا الكرة على ثغر بيروت وقتلوا عدداً من سكانه حتى اضطر نائب بيروت إلى الاستعانة بقوات نائب حلب فى طردهم[٢].

وحين تكرر هجوم الجنوية على بلاد السلطنة المملوكية الثانية عهد السلطان برقوق سنة ٧٨٦هـ ـ ١٣٨٤م إلى الأمير الطنبغا الجوبانى ببناء أغربة وشوانى لغزو الجنوية فى بحر الروم. غير أن هذا الأسطول قبل أن يبحر إلى مياه جنوا اشتبك مع عدة مراكب على مقربة من ساحل دمياط سنة ٧٨٧هـ سنة ١٣٨٥م، وبعد قتال شديد تمكن الأسطول المملوكى من قتل عدد كبير من الجنوية وأسر نحو خمسة وثلاثين منهم، وقيل إن ثلاثة بذلوا ما قيمته خمسة عشر ألف دينار حتى فك أسرهم. وبعد هذا الانتصار وصلت الأغربة إلى بولاق فى جمادى الآخرة سنة ٧٨٧هـ ـ يونيه سنة ١٣٨٥م بالأسرى والغنائم حيث عرضوا على السلطان في اليوم التالى من وصولهم [٣].

على أن أعمال القرصنة من جانب الجنوية لم تؤثر فى حصول بعض تجارهم على ارتباطات تجارية وقنصلية [٤]. ولذا فإن الجنوية لجئوا فى سنة ٧٨٨هـ ـ سنة ١٣٨٦م إلى مصالحة السلطان برقوق [٥]. ولم يتأخر السلطان فى قبول الهدايا منهم حرصاً على مصالحه التجارية فى البحر المتوسط.

غير أن الجنوية عادوا سنة ٧٩٠هـ ـ ١٣٨٨ م منتهزين فرصة انشغال السلطان برقوق بالنزاع الداخلى مع الترك ـ إلى اعمال القرصنة، وذلك حين كانت جماعة من تجار السلطان برقوق قادمة فى المياه السورية فى مراكب مشحونة بالجراكسة الذين جلبوا من بلادهم، ومن بين هؤلاء الجراكسة أخت السلطان برقوق وجماعة من أقاربه. فهاجم

---

(١) نفس المرجع والجزء ورقة ٧ أ.

(٢) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٤٦٣.

(٣) العسقلانى: إنباء الغمر جـ ١ ص ٢٢٤.

(٤) Lammens: la Syrie, VII p. 36.

(٥) المقريزى: السلوك جـ ٣ ص ٤٦٣.

الجنوية مراكب السلطان وأخذوا ما فيها وأسروا أقاربه ومن فيها من الجراكسة، فثار السلطان برقوق، وأمر نواب البلاد الساحلية بالقبض على كل من عندهم من الفرنج سواء كانوا تجاراً أوقناصل أورعايا، ونهض نائب الإسكندرية في القبض على عدد كبير منهم، وصادر أموالهم وممتلكاتهم وأمتعتهم (١).

واذ تحرج الموقف دارت المراسلات بين الجنوية وبين السلطان حتى اتفق الجنوية على أن يطلقوا من بأيديهم من الأسرى مقابل إلغاء السلطان قراره بمصادرة أموال الفرنج والإفراج عنهم، وأسرع الجنوية بتنفيذ الاتفاقية، وقدم بالأسرى الجراكسة تاجر السلطان الخاص الخواجا على بن مسافر وحمل معه هدية ملك جنوا إلى السلطان برقوق في آخر ذى الحجة سنة ٧٩٠ هـ ـ ١٣٨٨م (٢).

وفي سنة ٧٩٢ هـ ـ ١٣٩٠م تحرك أسطول مكون من اثنتى عشرة سفينة جنوية وثلاث من صقلية وخمس من بيزا، وهاجموا جميعا ميناء طرابلس، وحين أشرفوا على الميناء هبت عليهم ريح أغرقت مركبا واضطرت البقية إلى الانسحاب واتجهوا غربا حيث استولوا على جزيرة Jerba في خليج قابس التابعة لأبى العباس أبى بكر سلطان تونس (٣) ومنها هاجموا ثغر المهدية وحاصروه، وقامت حرب شديدة بينهم وبين المغاربة انتصر فيها المغاربة على الفرنج، وقتلوا الكثيرين منهم (٤).

وفي عهد السلطان فرج كثر هجوم الفرنجة على موانى الدولة المملوكية الثانية بسبب الانقسام الداخلي ففي سنة ٨٠٤هـ ـ ١٤٠١م وصل هؤلاء القراصنة إلى طرابلس حيث استولوا على سفينتين تجاريتين مشحونتين بالبضائع المعدة للتصدير لمصر، وأسروا من فيها، وتوغل هؤلاء القراصنة في إحدى القرى الداخلية ولكن الأهالى تمكنوا من اعتقالهم(٥).

---

(١) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك جـ٩ قسم ١ ص ٢٣.
(٢) نفس المرجع والجزء ص ٤٩ ـ ٥٠.
(3) Atiya : Op. Cit. P. 398.
(٤) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٦٥١ ـ ٦٥٣.
(٥) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ ورقة ١٩٥.

وعلى الرغم من أن البنادقة تمتعوا بمركز ممتاز بسبب صلتهم التجارية بالسلاطين فإن هذا المركز تعرض للضعف في سنة ٨٠٦هـ-١٤٠٣م حين تقدم اندريه جستيان قنصل البنادقة بشكوى إلى السلطان فرج، عرض فيها مدى جهود البنادقة في إنعاش تجارة الإسكندرية سواء الصادرة أو الواردة، وأنهم برغم هذا تعرضوا للمعاملة السيئة من خمسة من الأمراء. ولم يكن قنصل البنادقة موفقاً حين هدد السلطان فرج بالرحيل عن البلاد إن لم يحسن الأمراء معاملة رعاياه، وأنهم (أى البنادقة) إذا عادوا بعد فترة ودخلوا البلاد «بقوة الله» فإنهم فى هذه المرة سيكونون «ذوى مكانة مرموقة». أما السلطان فرج فإنه رد على هذه الشكوى بكلام هادئ أوضح به عدم اكترائه برحيلهم أو بعودتهم لغزو بلاده، لأن الغرب المسيحي منقسم على نفسه بدليل وجود أكثر من «بابا على حين اتحد العالم الإسلامي في اعترافه بشخص الخليفة الواحد»(١).

أما جنوا فإنها استأنفت أعمالها الحربية ضد دولة المماليك الثانية سنة ٨٠٦هـ، وفي هذه المرة ضمت إليها قراصنة من الروادسة والقبارصة، وذلك حين تحرك De Boucicaut حاكم جنوا على رأس أسطول مكون من ١٨ سفينة واتجه إلى رودس حيث انضم إليه عدد من سفنها؛ وأعلن هناك أنه اعتزم شن غارة على قبرص التي كانت في حالة حرب مستمرة مع جنوا. غير أن غرض De Boucicaut لم يكن كذلك، بل إنه عزم على ضرب الإسكندرية، بدليل أنه أرسل إلى حنا لوزيجنان ملك قبرص وعقد معه الصلح (٢). بيد أن السلطان فرج عرف بمهمة De Boucicaut منذ أن وصل إلى رودس، وأخذ أهبته لصد الهجوم. أما De Boucicaut فإنه من جانبه أرسل إلى الإسكندرية ـ ذر للرماد ـ سفينة بها سفيرين من لدنه أعلنا أنهما جاءا لعقد الصلح مع السلطان. وحين علم السلطان بهذا النبأ أرسل بسرعة فحضر إليه واحد من السفيرين، غير أن المفاوضات حين طالت مع السلطان فرج أرسل De Boucicaut إلى سفيره، الآخر بالعودة إلى رودس. وأدرك De Boucicaut عدم

(1) Piloti : l' Egypte Au Commencement Du XVS. pp. 83- 84.

(2) De laville le Roulx : La France En Orient, p. 422.

جدوى هذه المفاوضات فاتجه بأسطوله، وهاجم ميناء انطالية فى آسيا الصغرى، ليوهم السلطان فرج أنه ابتعد عن بلاد الدولة المملوكية الثانية. ولكنه بعد أن قا م بعملياته الحربية فى ميناء انطالية عاد إلى فاما جوستا ومن هناك أرسل عشر سفن لمهاجمة الإسكندرية؛ على حين قرر أن يلحق بهذه السفن بعد أن يتزود بالمؤن من فاماجوستا. غير أن حملته فشلت فى الاستيلاء على الإسكندرية فى أغسطس سنة ١٤٠٣م بسبب استعدادات السلطان فرج (١) ولم تجن جنوا من وراء هذه الحملة سوى مانشب من قتال شوارع الإسكندرية مع الفرنج، وكذلك فشل فى إعادة تجارة جنوا بصفة رسمية مع الدولة المملوكية الثانية (٢).

على أن De Boucicaut لم يكتف بفشله فى الإسكندرية بل جرب حظه فى طرابلس، أكبر ميناء تجارى سورى وقتذاك، ولكنه فشل حين هاجمها فى ١٥ أغسطس سنة ١٤٠٣م، فرحل إلى بيروت (٣). وهاجمها من ناحية لم يكن فيها سكان من ناحية متاجر البنادقة. وبعد أن نهبها رحل من بيروت مسرعا إلى فاماجوستا غير أنه فى الطريق اصطدم بأسطول للبنادقة، الذى انتقم للرعايا البنادقة فى بيروت (٤).

وهكذا عاد De Boucicaut بعد فشله الذريع فى القيام بعمل واضح من أجل إعادة نشاط جنوا التجارى فى منطقة شرق البحر المتوسط (٥).

على أن القبارصة ـ وأعنى الملك يوحنا لوزيجنان بالذات ـ يعتبر مسئولاً عن الهجوم الذى شنه حاكم جنوا على بيروت إذ أن يوحنا أمد De Boucicaut بأربع سفن قبرصية (٦). كما أنه فى المفاوضات التى دارت بين البندقية وجنوا سنة ١٤٠٦م وعد بتعويض التجار البنادقة فى المدينة لما أصابهم من الجنوية (٧).

....

(1) Piloti: Op. Cit. pp. 89 - 90. (2) Ibid : p. 90.

(٣) كرد على : خطط الشام جـ٢ ص ١٨٦.

(4) Piloti : Op. Cit. pp. 29.

(5) De Bouard : La Roulx : Op. Cit. VI pp. 475 - 477.

(٦) راجع المقريزى: السلوك جـ٣ (شمسية ورقه ٤١).

(7) Delaville La Roulx: Op. Cit. VI pp. 475 ` 477.

غير أن فشل هذه الحملة جعل جنوا تفكر جدياً في السعى لعقد الصلح من السلطان فرج رغبة في إعادة علاقاتها مع دولة المماليك الثانية. وفى هذا الصلح الذى تم سنة ١٤٠٧م تعهدت جنوا بدفع مبلغ ثلاثين ألف دينار تعويضاً عما أحدثته من الخسائر وأنه إذا تكررت هذه الحادثة فإن الجنوية فى مصر سيقبض عليهم جميعاً (١).

وكما عادت التجارة مع جنوا، فإنها عادت مع البنادقة الذين أسرعوا بعقد الصلح مع السلطان فرج سنة ١٤٠٨م، وتوسط فى هذا الصلح بيلوتى Piloti التاجر الكريتى بمصر، وشرط عليهم السلطان شروطاً قاسية. وأخذ منهم الضمانات الكافية لحماية رعاياه وبلاده من عبثهم (٢).

أما ملوك المغرب فإنهم اعترفوا بدولة المماليك الثانية (٣)، واعتبروا سلاطينهم ورثاء دولة المماليك الأولى فى «ضخامة الملك وشرف الولاية بالمساجد المعظمة وخدمة الحرمين» (٤). فضلاً عن العلاقات التجارية بين التجار المغاربة وتجار الإسكندرية (٥)، إلى جانب حاجة ملوك المغرب لقوة سلاطين دولة المماليك الأولى فى صد الأخطار الصليبية التى تعرض لها المغرب كثيراً.

(1) Piloti : Op, Cit. pp. 94- 95.

(٢) تعرضت الموانى المصرية لهجمات القراصنة القطالونيين، ونهبوا السفن الراسية فيها، وكثيرا ما لجئوا بأسلابهم إلى قبرص وبعض جزر بحر إيجه وخاصة جزيرة ناكسوس. وقد حدث أواخر سنة ١٤٠٧م أن هاجم القرصان بطرس القطالونى سفينة تجارية مصرية محملة بالبضائع وأسر بحارتها الذين بلغوا نحو مائة وخمسين فرداً باعهم إلى جاك كريسبوس فى جزيرة ناكسوس الموالية للبندقية. وغضب السلطان= = فرج على سكوت البندقية واستدعى قنصلها وعاتبه وطلب منه الاتصال بحكومته لإطلاق سراح الأسرى. وصادر فرج سفينة للبندقية كانت راسية بميناء الإسكندرية حتى يعود الأسرى من ناكسوس، ووسط بيلوتى فى هذه المهمة، وحين نجح كافأه فرج بأن صرح له باستيراد حمولة خمس سفن شهرياً بدون ضرائب راجع : Miller: The Latins In The Levant : p. 399

(٣) ابن أبى السرور : عيون الأخبار ونزهة الأبصار ورقة ٢٩١.

(٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٧٩ ـ ٤٨٠.

(5) Piloti : Op. Cit. pp. 57- 87.

ومنذ أن وصل ابن خلدون إلى مصر سنة ٧٨٤ هـ ـ سنة ١٣٨٢م قادماً من المغرب عمل على توثيق الروابط بين بلاده وبين السلطنة المملوكية الثانية. وإذ احتاج السلطان برقوق للجياد الأصيلة كاتب ابن خلدون ملوك وسلاطين بلاد المغرب لانتقاء أفضل الجياد وإرسالها للسلطان برقوق. ثم إنه حين تمسك سلطان تونس أبو العباس الحفصي بأولاد ابن خلدون رغبة في عودة ابن خلدون إليه، أرسل إليه السلطان برقوق في ١٥ صفر سنة ٧٨٧ هـ ـ ١٣٨٤م خطاباً يرجوه فيه أن يرسل هؤلاء الأولاد إلى مصر (١) وأجاب أبو العباس مطلب السلطان وأرسل أولاد ابن خلدون مع هدية من الجياد. غير أن سوء الحظ صادف السفينة التي وصلت تحمل أولاد ابن خلدون وهدية أبي العباس إذ غرقت بمرسى الإسكندرية وغرق معها أولاد ابن خلدون ونجا رسول سلطان تونس ليخبر بهذه الكارثة فأحسن إليه السلطان برقوق وأعاده إلى سلطانه بهديه من الملابس الفاخرة (٢).

وظلت علاقات الود المتصلة بين دولة المماليك الثانية وملوك المغرب بعد عودة السلطان برقوق إلى عرشه، إذ أرسل أبو عبد الله محمد بن أبي يحيى بن أبي بكر سلطان تونس سنة ٧٩٢هـ كتاباً وجهه للخليفة المتوكل على الله مع هدية قيمة. وتضمن الكتاب رفع تهنئة صاحب تونس إلى السلطان برقوق بمناسبة عودته إلى ملكه. واستقبل السلطان برقوق رسوله بمظاهر الإكرام وأمر له بمائة درهم فضة يومياً مدة إقامته بالقاهرة (٣).

ونظراً لكثرة حروب السلطان برقوق وحاجته إلى الخيول استمر وده لبلاد المغرب، حتى إنه في سنة ٧٩٣هـ حين وصل إلى القاهرة يوسف بن على بن غانم شيخ أعراب المعقل بالمغرب ناجياً من سخط السلطان أبي العباس أحمد بن أبي سالم ـ من ملوك بني مرين بفاس ـ سنة ٧٧٥هـ ـ ٧٩٦هـ(٤). كتب السلطان برقوق إلى سلطانه كتابا شفع له فيه، وبعث إليه بهدية، كما أوصاه بانتقاء الخيل له، وقبل السلطان أبو العباس هدية السلطان برقوق وشفاعته،

(١) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ص ٢٤٩ ـ ٢٥٣.
(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٧٩ ـ ٤٨٠.
(٣) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٦٥٢.
(٤) السلامي : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى جـ٢ ص ١٤٠.

وانتقى الخيول الرائعة لإهدائها للسلطان برقوق، ولكن المنية عاجلته فتولى ابنه أبو فارس سنة ٧٩٦هـ ـ سنة ١٣٩٧م [١]. فاستكمل الهدية وبعثها بصحبة رسوله يوسف بن علي. وحين أبطأ وصول الخيل من المغرب أراد السلطان برقوق أن يبعث من أمرائه من يشترى له الخيل. فعين لذلك مملوكه قطلوبغا الخليلي، وكتب كتابا إلى أبي العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر بن أبي حفص سلطان تونس، و كتاباً إلى سلطان تلمسان من بني عبد الواد، وكتاباً آخر لسلطان فاس. وحمله لكل واحد منهم هدية خفيفة من القماش والطيب والقسي، وما أن وصل قطلوبغا إلى فاس حتى وجد هدية فاس مستكملة ومعدة للإرسال وأفاض سلطان فاس على رسول برقوق بالكثير من المنح[٢]. وحين وصل قطلوبغا إلى تلمسان أخذ هدية سلطانها أبي زيان بن أبي حمو، ثم وصل إلى تونس وأخذ هدية سلطانها من أحسن الجياد. ثم عاد قطلوبغا بالهدايا إلى القلعة حيث عرضت على السلطان، ووزع السلطان ما بها من القماش والسيوف والبسط على أمرائه [٣].

ولم يغير قيام دولة المماليك الثانية من تبعية الحجاز لها، ولقب السلطان برقوق بسلطان مصر والحجاز [٤]. وجرت العادة أن يولي السلطان المملوكي على مكة أميراً من اهلها وله حق عزله إذا ثبت مخالفته لأوامره. بيد أن إمرة مكة شغلت السلطان برقوق مدة طويلة بعد أن أصبح السلطان برقوق يعتمد على التجارة كمورد هام من موارده، فضلاً عن احتكاره بعض السلع التجارية. واهتم السلطان برقوق أن يشغل هذه الوظيفة بأمير قوى يدين له بالطاعة، حتى يضمن أمان طرق التجارة. في البحر الأحمر. وفي بداية سلطنة برقوق كانت إمرة مكة مثار نزاع بين الشريف أحمد بن عجلان وابني عمه حسن بن ثقبة وعنان بن مغامس فأشركهم جميعاً في إمرة مكة، غير أنه حدث خلاف بين عنان بن مغامس وحسن بن ثقبة من ناحية، وبين أحمد بن عجلان من ناحية أخرى، فسافر عنان وحسن إلى مصر وشكيا

(١) نفس المرجع والجزء ص ١٤١ ـ ١٤٢.
(٢) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ص ٣٤٠ ـ ٣٤١.
(٣) نفس المرجع ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥.
(4) Piloti : Op. Cit. p. 41

أحمد بن عجلان إلى السلطان برقوق، فأمر السلطان لهما بربع ما يحصله أمير مكة [1]. ولم تفلح جهود أحمد بن عجلان في رشوة رجال مصر إرضاء السلطان برقوق بالهدايا، بل إنه حين رأى كبيش ـ رسوله إلى مصر ـ إقبالاً من رجال الدولة على عنان، وافق على مارسمة السلطان لعنان وحسن وصالحهما حتى وصل إلى مكة، وعرف أحمد بن عجلان بما دار في مصر، وخيره بين الموافقة على ما أمر به السلطان برقوق أوقتل عنان، فقرر الرأى الأخير. وتمكن أحمد بن عجلان من القبض على عنان وعلى حسن بن ثقبة وإخوته الخمسة وقيدهم جميعاً سنة ٧٨٧هـ ـ ١٣٨٥م . وبرغم وصول كتاب السلطان برقوق إلى أحمد بن عجلان بإطلاقهم، فإنه ماطل في تنفيذه وبقي الإخوة بالسجن. أما عنان فإنه تمكن من الهرب واستجار بالسلطان برقوق، فأرسل أحمد إلى السلطان يطلب رد عنان ولكن السلطان برقوق رفض [2] ، ورد عليه بقوله تعالى «وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه» كما أعاد السلطان برقوق عليه طلب إطلاق سراح الأشراف الخمسة [3].

غير أن أحمد بن عجلان رفض تنفيذ قرار السلطان برقوق، وغدا بهذا مصدر قلق للسلطان، حتى إنه لم يعد يأمن على مصالحة في الحجاز، وتجارته في البحر الأحمر، فدعا أحمد بن عجلان عدة مرات لزيارة مصر. غير أن أحمد تعمد الاعتذار لعاملين: أولهما، عزم السلطان على التخلص منه، وثانيهما، خوفه من انتزاع أقاربه الولاية منه. ومهما يكن من شئ فإن السلطان برقوق تمكن سنة ٧٨٨هـ ـ سنة ١٣٨٦م من إرسال من دس السم لأحمد بن عجلان في الطعام [4].

وحين مات أحمد بن عجلان في ٢٠ شعبان سنة ٧٨٨هـ أراد السلطان برقوق تولية عنان بن مغامس فخدع محمد بن أحمد بن عجلان، الذى طالب السلطان بأن يخلف أباه، بأن أرسل إليه العهد والخلعة بولاية مكة، على حين أنه أذن لعنان في التوجه صحبة بعثة الحج[5].

---

(١) الفاسي: الثمين في تاريخ البلد الأمين حـ١ ورقه ٢٤ب.

(٢) نفس المرجع: والجزء ورقة ١٢٥.

(٣) الخزرجي: درر الفرائد المنظمة ص ٢٧٣.

(4) De Gaury : Rulers of Mecca. p. 102.

(٥) المرجع السابق والصفحة.

وأمر أمير الحج بقلة مراعاته لعنان فى الطريق حتى لا يفهم محمد بن أحمد بن عجلان الأمر. والخلاصة أن أمير الحج تمكن من قتل محمد بن أحمد بن عجلان بعد مائة يوم من موت والده كما ساعد قاتله على الاختفاء بين الحجاج، ومكن عنان من تولى إمرة مكة [1].

غير أن عودة عنان إلى مكة لم تجد السلطان برقوق شيئاً، إذ ظهر ضعفه من عدم قدرته على التغلب على ابن عجلان، الذى اغار على جدة واستولى على ما فيها من أموال وغلال تجار الكارم ومتاجر السلطان حتى إنه اضطر إلى إشراك أحمد بن ثقبة وعقيل بن مبارك معه فى إمرة مكة، وصار يدعى لهما معه فى الخطبة[2]. وحين بلغ السلطان برقوق ذلك عزل عناناً وولى على بن عجلان إمرة مكة. غير أن أصحاب عنان تحمسوا وامتنعوا عن تنفيذ أمر السلطان، وتمكن عنان وأصحابه من هزيمة على بن عجلان الذى حضر لاستلام المدينة، واضطر السلطان برقوق إلى الاعتراف بعنان أميراً على مكة مشاركاً لعلى بن عجلان. غير أنه طلب عناناً لخدمة المحمل فى مصر حتى يمكنه اعتقاله، ولكن عناناً اعتذر عن الحضور بحجة خشيته من آل عجلان. ولم يجد السلطان بدأ من أن يترك المسألة جانباً، وأرسل سنة ٧٨٩هـ ـ سنة ١٣٨٧م إلى عنان يقول له «انت على ولايتك فافعل ما تقدر عليه» [3]. غير أن عناناً لم يستطع مقاومة نفوذ آل عجلان الذين نهبوا التجارة الكارمية وذلك لاختلاف أصحابه معه [4] فاضطر عنان للهرب سنة ٧٩٠هـ سنة ١٣٨٨م إلى مصر، حيث لم يجد هناك الإقبال الذى عهد من قبل. وظل بها حتى عاد السلطان حاجى إلى العرش وسعى عند يلبغا الناصرى لإعادته فأجابه، غير أن اشتباك الناصرى مع منطاش واعتقال الناصرى وقدوم محمد بن عجلان وسعيه لدى منطاش للقبض على عنان أفقده كل آماله فى إمرة مكة، وحبس منطاش عناناً مع بعض مماليك برقوق سنة ٧٩١هـ ـ سنة ١٣٨٩م، ولكنهم تمكنوا من الفرار من السجن حين هزم منطاش وفر إلى دمشق. وحين حضر السلطان برقوق إلى مصر

(١) العينى : عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٣ ورقة ٣١١.
(٢) الفاسى: العقد الثمين جـ٣ ورقة ١٩٥.
(٣) نفس المرجع، ورقة ١٩٦.
(٤) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقة ٢٨.

شفع بطا، كبير مماليكه، لعنان فأجابه السلطان مع إقرار على بن عجلان على نصف إمرة مكة معه [1]، وأتفق على أن كلا منهما يدخل مكة لحاجته، فإذا قضاها خرج منها ولكل منهما فيها نواب، بعضهم يتسلم ما يخص كلا منهما من المتحصل؛ وبعضهم للحكم بها، «وأن يكون القواد مع عنان والإشراف مع على» [2].

غير أنه لم يقدر لهذه الاتفاقية النجاح لمدة طويلة، إذ قطع آل عجلان الدعاء لعنان سنة ٧٩٤هـ ـ سنة ١٣٩٢م، وهموا بقتله وأخرجوا نوابه من مكة، فانعدم الأمن في داخل البلاد. وحين عرف السلطان برقوق بالأمر استدعى عناناً وعلياً مع جماعة من أعيان الأشراف والقواد. واذ حضر على وعنان فوض السلطان إمرة مكة إلى على بمفرده، وذلك بسبب ما قدمه على إلى السلطان من الهدايا الوافرة [3]. ثم أمر عناناً بالإقامة بمصر، ورتب له ما ينفقه ثم عاد فسجنه بالقلعة في ٣ جمادى الأولى سنة ٧٩٥هـ ـ ١٣٩٣م [4].

وحين قامت الحرب سنة ٧٩٧هـ بين ابنى حسن وقواد مكة ببطن مر، وقتل فيها الشريف على بن عجلان، وامتنع القواد بمكة وصدوا عنها بنى حسن، أفرج السلطان برقوق عن الشريف حسن بن عجلان، الذى كان معتقلاً منذ سنتين بسبب خلافه مع أخيه، وولاه إمرة مكة وبعث معه الأمير يلبغا السالمى ليمكنه من تولى مهام وظيفته، وأوصى السلطان حسن بن عجلان أن يحفظ طرق الحج والتجارة التى نهبت في العام الماضى [5]. وتمكن حسن بن عجلان من إعادة الثقة إلى التجار، وخاصة تجار السلطان، وتجار اليمن. وبلغ اهتمام حسن بن عجلان بتأمين الطرق وكسب رضى السلطان برقوق من أنه كان يسافر مع كل قافلة إلى جدة ويحيطها بالحراس حتى تصل القافلة بالمتاجر إلى السفن، كما أسقط عن التجار ثلث الجباية،

(1) De Gaury : Op. Cit. p. 103.

(٢) الفاسي: العقد الثمين جـ٣ ورقة ١٩٦ ب، ١٩٧أ.

(٣) الخزرجي: درر الفرائد المنظمة ص ٢٧٦.

(٤) الفاسي: العقد الثمين جـ٣ ورقة ١٩٧أ.

(٥) كان السلطان برقوق قد أرسل قمحا إلى ينبع للبيع فاستولى عليه أميرها ـ الفاسي العقد الثمين جـ١ ورقة ١٥٥ أ.

ونتيجة هذا ازداد عدد الحجاج ونشطت التجارة في البحر الأحمر، وسر السلطان برقوق بجهود حسن بن عجلان وأرسل إليه خلعتين سنة ٧٩٩هـ ـ ١٣٩٧م [(١)].

وظل حسن بن عجلان على ولائه للسلطان برقوق ولابنه فرج من بعده، وأثرى من النشاط التجاري ثراء كبيراً، حتى اقتنى عدداً كبيراً من المماليك سنة ٨٠٣هـ. وفي العام الثاني أصبح لحسن بن عجلان من القوة والنفوذ ماجعله يحصل من السلطان فرج على مرسومين، في أحدهما؛ ألا يمنع الدعاء بمكة لسلطان اليمن، وذلك توثيقاً للروابط الاقتصادية مع اليمن، وفي الآخر أنه ليس لأحد من الأمراء الوافدين من مصر في أثناء السنة على صاحب مكة «يد ولا حكم» بل «يعضدونه ويقرون كلمته ويعلون شأنه وإن لم يصنع الأمير وخالف وطلبكم للقتال قاتلوه» [(٢)]. ويبدو أن قصد حسن بن عجلان من وراء هذا المرسوم الأخير هو ألا يجعل نفسه ألعوبة في أيدي أمراء مصر الذين صار بيدهم الأمر. وبمقتضى هذا المرسوم استطاع حسن بن عجلان أن يتحدى الأمير يسق أمير الحج سنة ٨٠٤ ـ سنة ١٤٠١م [(٣)].

غير أن سياسة حسن بن عجلان أغضبت السلطان فرج وأمراء الدولة وخاصةحين استولى سنة ٨٠٥هـ ـ سنة ١٤٠٢م ـ على الذهب الموجود بمركب في طريقه إلى اليمن، يملكه ابن القاضي برهان الدين إبراهيم بن عمر، فسعى هذا التاجر حتى أفرج السلطان فرج عن عنان ليهدد به حسن بن عجلان، ولكن المنية عاجلت عناناً قبل أن يصل إلى مكة [(٤)] ولم يكن هناك بد من الصلح مع حسن بن عجلان، فأرسل إليه السلطان فرج سنة ٨٠٨هـ هدية وكتاباً بعودته إلى إمرته. وفي سنة ٨٠٩هـ ـ سنة ١٤٠٦م ـ وافق على ما طلبه حسن بن عجلان من مشاركة ابنه بركات له في إمرة مكة، ولعبت الرشوة دوراً كبيراً في علاقة

(١) الفاسي: العقد الثمين جـ١ ورقة ١٥٦ أ.

(٢) الفاسي: العقد الثمين جـ١ ورقة ١٥٧ ب.

(٣) أمر هذا الأمير سنة ٨٠٤ هـ ـ ١٤٠١م بسد النوافذ التي بالجانب الغربي من الكعبة: فأمر حسن بفتحها، كما تحداه حين أمر بنقل السوق من المسعى فألغى قراره. راجع الفاسي: العقد الثمين جـ١ ورقة ١٥٧ ب.

(٤) الفاسي : العقد الثمين جـ٣ ورقة ١٩٧.

الدولة المملوكية الثانية بإمرة مكة. وبها حصل حسن بن عجلان سنة ٨١١هـ ـ ١٤٠٨م على مرسوم آخر بمشاركة ابنه أحمد لأخيه بركات فى الحكم، وأن يلقب حسن بنائب السلطنة بالأقطار الحجازية[١].

غير أن محاولة حسن بن عجلان غزو اليمن ٨١٢هـ ـ سنة ١٤٠٩م، وما تبع هذا من اضطراب الأمن والتجارة أدت إلى غضب السلطان فرج، وأمره بالقبض على حسن وولديه. غير أن السلطان فرج عجز عن تنفيذ قراره بسبب رشوة حسن لأمراء مصر وإرساله هدية للسلطان فرج بيعت بخمسين ألف مثقال[٢].

والخلاصة أن حسن بن عجلان وجد أنه برغم أن والده حكم الحجاز بشكل استقلالى فى عهد دولة المماليك الأولى، فإنه وجد نفسه مضطراً لتحمل سيطرة حكام مصر فى عهد دولة المماليك الثانية. على أن السلاطين بعد الناصر فرج اتجهوا إلى مداراة حكام مكة والاكتفاء بذكر أسمائهم فى الخطبة وإرسالهم الهدايا[٣].

على أن السلطان برقوق اتبع سياسة ودية مع الدولة الرسولية باليمن، وسبب هذا حرصه على سلامة التجارة مع اليمن وضمان مرور التجارة الشرقية دون تعرض اليمنيين لها. ووضحت هذه السياسة فى تبادل الهدايا بين الدولتين. بيد أن السلطان برقوق هو الذى بدأ بإرسال هديته سنة ٧٨٧هـ. سنة ١٣٨٥م ثم توالت هدايا سلاطين الدولة الرسولية باليمن من هذه السنة بعد أن كانت العلاقات سيئة فى نهاية الدولة المملوكية الأولى[٤]. ومن هذه الهدايا ما أرسله الأشرف إسماعيل بن عباس ملك الدولة الرسولية باليمن سنة ٧٩٩هـ ـ ١٣٩٧م إلى السلطان برقوق. واشتملت هذه الهدية على عشرة من العبيد وست جوار، وسيف محلى بالذهب ومرصع بالعقيق، وشطرنج من العقيق الأحمر والأبيض، وأربع مراوح مذهبة، وعدد من العدد الحربية المذهبة، والكثير من غلات اليمن كالعنبر واللبان والجاوى

(١) نفس المرجع جـ١ ورقة ١٥٩ ب.
(٢) نفس المرجع جـ١ ورقة ١٦١ ب، ١٦٢أ.
(٣) نفس المرجع جـ١ ورقة ١٦٣ ب.
(٤) الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ٢ ص ١٨٢.
راجع كذلك السلامى: مختصر التواريخ ورقه ١٨٨أ.

والعمود والبخور والعطور وغير ذلك وقومت هذه الهدية بستين ألف دينار. وصحب رسول ملك الدولة الرسولية التاجر الكارمى برهان الدين المحلى [١].

وظلت العلاقات ودية مع الدولة الرسولية باليمن مادام ملك اليمن يعمل على ضبط التجارة فى ميناء عدن التى أصبحت مركزاً هاماً من مراكز التجارة بين الشرق والغرب[٢].

بيد أن هذه العلاقات بدأت تضطرب بسبب اتجاه سلاطين الدولة المملوكية الثانية إلى تشجيع أمراء مكة على إنعاش ميناء جدة ـ من أجل تجارتهم فى الحجاز ـ على حساب ميناء عدن. ولم يكن سبب هذا التشجيع من جانب السلاطين رغبة منهم فى مساعدة أمراء مكة بل على العكس فإنه خشى قوة أمراء مكة، ودليل هذا أن الناصر فرج غضب على حسن بن عجلان حين قام بمحاولته سنة ٨١٢هـ سنة ١٢٠٩م لغز وبلاد اليمن [٣].

وكما حرص السلطان برقوق على علاقات الود مع اليمن فإنه حرص على نفس هذه العلاقات مع الحبشة، ومن المعروف أن الكنيستين المصرية والحبشية ترتبطان بالمذهب الأرثوذكسى، وتعتبر الكنيسة الحبشية جزءاً من الكنيسة القبطية. ومن مظاهر الارتباط بين الكنيستين تعيين بطرك اليعاقبة بمصر أسقفاً للحبشة بناء على طلب ملك الحبشة من سلطان مصر فى ذلك بكتاب وهدية يبعثهما مع رسوله إلى السلطان [٤].

غير أن ملك الحبشة داود بن سيف أرعد سنة ١٣٨١ ـ ١٤١١م انتهز فرصة الاضطرابات القائمة فى مصر والناتجة عن التطاحن بين الأمراء من أجل السلطة وهاجم أسوان فى أواخر سنة ١٣٨١م، وضرب بعض نواحيها فأرسل أهلها يستصرخون السلطان برقوق الذى أسرع بعلاج المشكلة بالطرق الودية، فاستدعى الأنبا متاؤس بطريرك الإسكندرية السابع والثمانين، واتفق معه على أن يرسل البطريرك من لدنه رسولاً إلى ملك الحبشة بكتاب من عنده ينكر

(١) المقريزى: السلوك جـ٤ ص ٢٣.

(2) Piloti : Op. Cit. P. 42.

(3) Piloti: Op. Cit. p. 42.

(٤) المقريزى: الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ص ٣.

عليه هذا الهجوم، ويطلب منه العودة إلى بلاده، وعدم التعرض للمسلمين في الحبشة. وحمل رسالة البطريرك الأسقف إبراهيم وصحبه رسول السلطان القاضي برهان الدين إبراهيم الدمياطي(١).

ويبدو أن الملك داود بن سيف أرعد حرص بدوره على اتصال الود (٢). فلم يتردد في إجابة الطلب ، ورد على رسالة البطريرك برسالة إلى السلطان برقوق في سنة ١٣٨٢م وبعث مع الرسالة هدية حملها واحد وعشرون جملاً، واشتملت على طرائف بلادهم، ومن جملتها قدور ملئت بذهب صيغ على هيئة الحمص (٣). ونفى الملك داود ما أشيع من أخبار عن أحوال المسلمين في الحبشة، وأكد أنهم في حالة طيبة، وأن لهم مطلق الحرية في التنقل والكسب. وطلب من السلطان برقوق أن يحسن معاملة البطريرك القبطي والمصريين القبط، وأن يعيدهم إلى مناصبهم التي عزلوا منها كما بين له أن حسن معاملة المسيحيين في مصر يقابل بحسن معاملة المسلمين في بلاده والعكس(٤).

ولم تقتصر العلاقات الحبشية بدولة المماليك الثانية عند هذا الحد بل نشطت التجارة في نفائس البلدين بسبب تأمين السلطان برقوق لطرق التجارة في البحر الأحمر (٥).

غير أن داود عاد في سنة ٨٠٥هـ ــ ١٤٠٢م، وانتهز فرصة الشحناء بين الأمراء في سلطنة فرج، وهاجم السلطنات الإسلامية في عدل وزيلع، وقتل من أهلها من المسلمين عدداً كبيراً(٦).

على أن قبط مصر برغم هذا أسهموا بقسط كبير في تطوير الحياة في الحبشة، إذ قدم على الملك إسحق بن داود بن سيف أرعد الذى تولى سنة ١٤١٢م فخر الدولة هارباً من اضطهاد الدولة للمصريين القبط، فرتب له أمور مملكته، ونظم له طريق جباية الأموال، كما أنشأ له ديواناً،

(١) العسقلاني : إنباء العمر جـ١ ص ١٦٢.
(٢) راجع: الحيمي سيره الحبشة ص ٢٨.
(٣) ا لمقريزي: السلوك جـ٣ (خطيبه) ص ٤٧١.
(٤) راجع اسكاروس: نوابغ الأقباط ص ٤٨ ــ ٥٨ .
(٥) العسقلاني: إنباء الغمر جـ٢ ورقة ٢٥٣ أ، ب.
(6) Budce: AHist. of Ethiapia VI p. 300.

وضع له القوانين التى ضبطت سائر أحوال بلاده، ثم جعل له زياً يمتاز به عن سائر الرعية فأصبح الملك الحبشي يلبس الملابس الفاخرة بعد أن كان يخرج عرياناً، وقد عصب رأسه بعصابة خضراء [1].

ويبدو أن هذا العمل الذى قام به فخر الدولة لملك الحبشة شجعه على استقدام عدداً من المماليك الجراكسة ممن عملوا في وظائف «ذرد كاش» بمصر فعمل هؤلاء لملك الحبشة ذرد خانات عظيمة تشتمل على آلات السلاح والسيوف والرماح والزرديات ونحو ذلك. وأوضح المقريزى أثر هذا التقدم في السلاح فى الحبشة التى ظلت حتى ذلك الوقت تحارب بالحراب، إذ أن هؤلاء المماليك الجراكسة علموا الجيش الحبشي فنون الفروسية من رمى النشاب والرمح والضرب بالسيف، ولعل أهم حدث في تاريخ الحبشة الحربى هو ما أسهم به المصريون في تعليم الأحباش استخدام النفط في الحروب [2].

أما عن موقف بلاد النوبة من الدولة المملوكية الثانية فإنه منذ أن تغلب بنوكنز على بلاد النوبة أصبحوا يشكلون خطراً على جنوبى مصر وفى سنة ٧٨٥هـ ـ ١٣٨٥م هاجم بنوكنز أسوان ونهبوها، وقتلوا عدداً من أهلها وفروا إلى أسوان مما دفع برقوق إلى تعين الأمير حسين بن قرط التركمانى والياً على أسوان [3]. غير أنه كثيراً ما التجأ حكام النوبة إلى السلطان برقوق لمعاونتهم فى النزاع على الملك، ومثال هذا ما حدث سنة ٨٠٠هـ ـ ١٣٩٨م حين حضر إلى مصر الملك الناصرى ملك النوبة هارباً من ابن عمه، فرحب به السلطان برقوق وشفع له عند ابن عمه، ووافقه على تعيين إبراهيم الشهابى والياً على أسوان، وأعاده إلى بلاده[4]. ومع ذلك كثيراً ما تأثر جنوبى مصر في عهد فرج بهجمات بنى كنز.

وخاتمة المطاف أن سياسة السلطان برقوق أنقذت مصر وسورية من عوامل الضعف التى تعرضت لها من الداخل والخارج أواخر دولة المماليك الأولى. وجعلت هذه السياسة لدولة المماليك الثانية شخصيتها ونفوذها فى الداخل والخارج.

(١) المقريزى: الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة ص ٤ ـ٥.
(٢) نفس المرجع ص ٤.
(٣) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٢٢٤.
(٤) العينى: عقد الجمان جـ٢٥ ورقة ٢١.

ملاحق توضيحية
من مصادر عربية وفارسية

الملحق الأول من هذه الملاحق منقول من كتاب «ظفرنامه» تأليف المؤرخ الفارسى شرف الدين على يزدى (جـ١ : ص ٦٤٢ ـ ص ٦٤٣) وهذا الملحق كتاب باللغة الفارسية من تيمورلنك إلى السلطان برقوق وتاريخه سنة ٧٩٥هـ. ويبدو منه أنه أول خطاب بعثه هذا العملاق التترى إلى السلطان برقوق يدعوه فيه إلى مراعاة حسن الجوار، وإقامة العلاقات الطيبة لتأمين طرق المواصلات والتجارة.

والملحق الثانى منقول من المؤرخ المصرى أحمد بن على المقريزى: «السلوك لمعرفة دول الملوك» (صورة شمسية بدار الكتب المصرية رقم ٤٦٤ تاريخ جـ ٣ ص ٢٣٧ ـ ص ٢٣٨) وهذا الملحق الثانى كتاب ثان من عند تيمورلنك إلى السلطان برقوق ويرجع تاريخه إلى ٧٩٦هـ وهو يختلف عن الكتاب الأول من حيث اللهجة والتطويل اللفظى، ويحتوى على تهديد بالحرب من تيمورلنك إلى السلطان برقوق إذا هو لم يعلن طاعته له.

أما الملحق الثالث فهو جواب السلطان برقوق على الكتاب الثانى من تيمورلنك وهو منقول كذلك عن أحمد بن على المقريزى: «السلوك لمعرفة دول الملوك» (صور شمسية بدار الكتب المصرية جـ٣ ص ٢٣٧ ـ ص ٢٣٨) وتاريخه سنة ٧٩٦هـ، وفى هذا الجواب حرص السلطان برقوق على الظهور بعدم الاكتراث لتهديدات تيمورلنك.

والملحق الرابع كتاب باللغة الفارسية من تيمورلنك إلى السلطان فرج بن برقوق وتاريخه ٨٠٣ هـ، وهو منقول من كتاب «ظفرنامه» تأليف شرف الدين على يزدى (جـ٢ ص ٢٦٧)، واشتمل هذا الكتاب على تهديد من تيمورلنك إلى السلطان فرج إذا هو لم يطلق أسيراً تترياً كبيراً من أسرة تيمورلنك، هو القائد أطلمش الذى وقع فى يد السلطان برقوق سنة ٧٩٥هـ

ويشتمل الملحق الخامس على تهديد ثان من تيمورلنك للسلطان فرج، ومطالبته بإعلان الطاعة، والدعاء له فى خطبة الجمعة بالقاهرة. وهذا الكتاب مكتوب بالفارسية، وهو منقول كذلك من كتاب «ظفرنامه» تأليف شرف الدين على يزدى (جـ٢ ص ٣١٥ ـ ص ٣١٦)

وتاريخه سنة ٨٠٣ هـ وهو خطاب جاف مختصر، ويبدو أن تيمورلنك أمر بكتابته، وهو في الطريق إلى دمشق ليلحق بها كارثته المروعة.

ويشتمل الملحق السادس على جواب السلطان فرج على هذا الكتاب التيمورى الجاف وهو منقول من كتاب «ظفرنامه» (جـ٢ ـ ٣١٧) وتاريخه سنة ٨٠٣هـ، ويتضح من هذا الكتاب استعداد السلطان فرج لإعلان الطاعة لتيمورلنك بشرط قيام تيمورلنك من جانبه بالاعتذار عما قام به من هجوم على دمشق.

والملحق السابع كتاب ثان باللغة الفارسية من السلطان فرج إلى تيمورلنك، وهو منقول من كتاب «ظفرنامه» (جـ٢ ص ٣٢٧)، وتاريخه سنة ٨٠٣ هـ ويبدو أن السلطان فرج أمر بكتابة هذا الكتاب وهو في داخل دمشق وتيمورلنك محيط بأسوارها ، وفيه يؤكد السلطان فرج وعده السابق ويطلب وقف القتال.

والملحق الثامن منقول من مخطوط، «كتاب روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء» (مكتبة جامعة القاهرة رقم ٩٧٨ فا حـ ٦ ص ٣٤٦)، وهو من تأليف محمد بن خواندشاه ميرخواند، هذا الكتاب بالفارسية كذلك، وتاريخه سنة ٨٠٥هـ؛ وهو خطاب من تيمورلنك إلى السلطان فرج بعد انتصار تيمورلنك على السلطان بايزيد العثمانى فى واقعة أنقره، وفيه طلب تيمورلنك من السلطان فرج سك نقود مصر والشام باسمه والدعاء له في خطبة الجمعة.

أما الملحق التاسع والأخير فهو كتاب منقول من ذيل كتاب «برلام ويواصف»، وهو مخطوط بمكتبة بطريركية الأقباط الأرثوذكس بالقاهرة (رقم ٤٢ تاريخ ص ٣٣١ ـ ٣٣٩)، وهو كتاب من النجاشي داود ملك الحبشة إلى السلطان برقوق يشرح ما عليه المسلمون في الحبشة من رغد العيش ورعاية ملكية، وينفى النجاشي ما نقله بعض الرسل إلى السلطان برقوق من أخبار عن سوء معاملة النجاشي للرعايا المسلمين في بلاده، ثم يدعو السلطان برقوق إلى رعاية النصارى فى بلاده ويهدد بقطع مياه النيل، وإساءة معاملة المسلمين الذين تحت حكمه إذا حدثت إساءة من جانب السلطان لقبط مصر.

الملحق(١)

كتاب من تيمورلنك إلى السلطان برقوق سنة ٧٩٥ هجرية (شرف الدين على يزدى: ظفرنامه، حـ١، ص ٦٤٢ ـ ٦٤٣).

ترجمة الكتاب:

«لما كان بيت جنكيزخان فى حروب مع أسلافكم السلاطين الذين ظلموا شعب الشام، وأن هذه الحروب أنهت بسلام اختلاف الرسل، عاد الأمن والتعاون بين الدولتين؛ غير أنه منذ وفاة الايلخان العظيم سعيد أبو سعيد بهادر لم يحكم فى بلاد فارس حاكم من نسل جنكيزخان الذى نظم أمور الناس، ولكن على العكس قام حكام فى كل الإمارات فى هذه الامبراطورية الكبيرة مكان ملوكها، وسببوا متاعب لا نهاية لها لشعوب هذه الامبراطورية. أما وقد اختارنا الإله الواحد بفضل من عنده لإصلاح ما فسد، وأدان لسيفنا المظفر كل بلاد فارس والعراق العربى الذى تتاخم حدوده حدود بلادكم، فإن المحبة التى ندين بها لشعبنا تتطلب بحكم الجوار أن نتبادل الكتب، وأن يأتى الرسل، ويعودوا فى يسر بين بلدينا، وأن ينتقل تجار البلدين فى أمن حتى تنتعش البلاد، ويكثر السكان، ويعيشوا فى سلام. ولهذا السبب أرسلنا رسولنا إليكم ضارعين إلى الله أن يكلأكم بعنايته إن سلكتم حسب هذا . والسلام على من اتبع الهدى والحمد لله رب العالمين. ».

الملحق(٢)

كتاب تيمورلنك (الكتاب الثانى) إلى السلطان برقوق في سنة ٧٩٦هـ (المقريزى، أحمد بن علي: السلوك صور شمسية حـ٣ ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨).

«قل اللهم مالك الملك»(١) ﴿ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٢) اعلموا أنا جند الله مخلوقون من سخطه، ومسلطون على

(١) ما بين الحاصرتين من ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ١٢، ص ٥٠ (طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦).
(٢) القرآن الكريم: سورة الزمر: ٤٦.

من حل عليه غضبه، لا نرق لشاكى [١]، ولا نرحم لباكى [٢]، قد نزع الله الرحمة من قلوبنا فالويل ثم الويل لمن لم يكن من حزبنا ومن جهتنا. قد خربنا البلاد وأيتمنا الأولاد، وأظهرنا فى الأرض الفساد، وذلت لنا أعزتها، وملكنا بالشوكة أزمتها، فإن خيل ذلك على السامع وأشكل وقال إن فيه عليه مشكل [٣] فقل له:

﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ [٤]، وذلك بكثرة عددنا وشدة بأسنا، فخيولنا سوابق ورماحنا خوارق وأسنتنا بوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وجيوشنا كعدد الرمال، ونحن أبطال وأقيال، وملكنا لا يرام، وجارنا لا يضام ـ وعزنا أبدا لسؤدد منقام، فمن سالمنا سلم، ومن رام حربنا ندم، ومن تكلم فينا بما لا يعلم جهل. وأنتم فإن أطعتم أمرنا وقبلتم شرطنا فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن خالفتم وعلى بغيكم تماديتم، فلا تلوموا [٥] إلا أنفسكم، فالحصون منا مع تشديدها لا تمنع، والمدائن بشدتها لقتالنا لا ترد ولا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يستجاب فينا ولايسمع، فكيف يسمع الله دعاءكم، وقد أكلتم الحرام، وظلمتم جميع الأنام، وأخذتم أموال الأيتام، وقبلتم الرشوة من الحكام، وأعدت لكم النار وبئس المصير: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [٦]، فلما فعلتم ذلك أوردتم أنفسكم موارد المهالك، وقد قتلتم العلماء وعصيتم رب الأرض والسماء، وأرقتم دم الأشراف، وهذا والله هو البغى والإسراف، فأنتم بذلك فى النار خالدون، وفى غد ينادى عليكم: ﴿ فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾[٧]، فأبشروا بالمذلة والهوان، يا أهل البغى والعدوان، قد غلب عندكم أننا كفرة، وثبت عندنا أنكم والله الكفرة الفجرة، وقد سلطنا عليكم الإله، له أمور مقدرة وأحكام محررة، فعزيزكم عندنا ذليل وكثيركم لدينا قليل، لأننا

---

(١) ، (٢) كذ فى الأصل.

(٣) كذا فى الأصل.

(٤) القرآن الكريم: سورة النمل : ٣٤.

(٥) كذا فى الأصل.

(٦) القرآن الكريم سورة النساء: ١٠.

(٧) القرآن الكريم سورة الأحقاف : ٢٠.

ملكنا الأرض شرقاً وغرباً، وأخذنا منكم كل سفينة غصبا، وقد أوضحنا لكم الخطاب، فأسرعوا برد الجواب، قبل أن ينكشف الغطاء، وتضرم الحرب نارها، وتضع أوزارها، وتصير كل عين عليكم باكية، وينادى منادى الفراق: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾(١)، ويسمعكم صارخ الفناء بعد أن يهزكم هزاً، ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ (٢). قد أنصفناكم إذ راسلناكم فلا تقتلوا المرسلين كما فعلتم بالأولين، فتخالفوا كعادتكم سنن الماضين وتعصوا رب العالمين، ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (٣)، وقد أوضحنا لكم الكلام فأرسلوا برد الجواب والسلام».

الملحق(٣)

جواب السلطان برقوق على هذا الكتاب وتاريخه سنة ٧٩٦هـ:

(المقريزى، أحمد بن على: السلوك، صور شمسية، حـ٣ ص ٢٣٨)

«بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾(٤) حصل الوقوف على ألفاظكم الكفرية ونزعاتكم الشيطانية، وكتابكم يخبرنا عن الحضرة الجنابية وسيرة الكفرة الملائكية، وأنكم مخلوقون من سخط الله، ومسلطون على من حل عليه غضب الله، وأنكم لا ترقون لشاك ولا ترحمون عبرة باك، وقد نزع الله الرحمة من قلوبكم، فذلك أكبر عيوبكم، وهذه من صفات الشياطين لا من صفات السلاطين، وتكفيكم هذه الشهادة الكافية، وبما أوقفتم به أنفسكم ناهية، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (٥)، ففى كل كتاب لعنتم، وعلى لسان كل مرسل نعتم، وبكل قبيح

(١) القرآن الكريم سورة الحاقة: ٨.
(٢) القرآن الكريم سورة مريم: ٩٨.
(٣) القرآن الكريم سورة النور: ٥٤.
(٤) القرآن الكريم سورة آل عمران: ٢٥.
(٥) القرآن الكريم: سورة الكافرون.

وصفتم، وعندنا خبركم من حين خرجتم، أنكم كفرة، ألا لعنة الله على الكافرين، من تمسك بالأصول فلا يبالي بالفروع. نحن المؤمنون حقاً لا يدخل علينا عيب، ولا يضرنا ريب، القرآن علينا نزل، وهو سبحانه بنا رحيم لم يزل، فتحققنا نزوله، وعلمنا ببركة تأويله، فالنار لكم خلقت، ولجلودكم أضرمت، ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾[1]، ومن أعجب العجب تهديد الرتوت[2] بالتوت[3]، والسباع بالضباع، والكماة بالكراع. نحن خيولنا برقية وسهامنا عربية، وسيوفنا يمانية، وليوثنا مضرية، وأكفنا شديدة المضارب، وصفتنا مذكورة في المشارق والمغارب، إن قتلناكم فنعم البضاعة، وإن قتل منا أحد فبينه وبين الجنة ساعة، ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[4]. وأما قولكم : قلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فالقصاب لا يبالي بكثرة الغنم، وكثير الحطب يفنيه القليل من الضرم، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [5]. الفرارا الفرار من الرزايا، وطول البلايا، واعلموا أن هجوم المنية عندنا غاية الأمنية، إن عشنا عشنا سعداء، وإن قتلنا قتلنا شهداء، ﴿ فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [6]. عد أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين، تطلبون منا طاعة، لا سمع لكم ولا طاعة، وطلبتم أن نوضح لكم أمرنا قبل أنا ينكشف الغطاء، ففي نظمه تركيك. وفي سلكه تلبيك، لو كشف الغطاء لبان القصد بعد بيان، أكفر بعد إيمان. أم اتخذتم إلها ثان، وطلبتم من معلوم رأيكم أن نتبع ربكم. ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ [7] قل لكاتبك الذى وضع رسالته ووصف مقالته. وصل كتابك كضرب رباب أو كطنين ذباب، ﴿كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا

---

(١) القرآن الكريم: سورة الانفطار: ١.
(٢) الرتوت جمع رت وهو الرئيس والسيد (المعجم الوسيط).
(٣) كذا في الأصل.
(٤) القرآن الكريم : سورة آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧١.
(٥) القرآن الكريم. سورة البقرة: ٢٤٩.
(٦) القرآن الكريم : سورة المائدة : ٥٦.
(٧) القرآن الكريم : سورة مريم : ٨٩ ـ ٩٠.

- -

يقـول﴾ (١) إن شاء الله تعالى [لقد خلطتم فى الأمر فى الذى أرسلتم](٢) ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُون﴾ (٣) والسلام».

الملحق(٤)

كتاب تيمورلنك إلى السلطان فرج كتبه من ملطية فى شهر المحرم سنة ٨٠٣هـ (شرف الدين على يزدى : ظفرنامه حـ٢، ص ٢٧٦).

ترجمة الكتاب:

«لقد بدرت من والدك حركات مستهجنة من جملتها قتله رسلنا دون سبب، وحبسه أطلمش الذى كان من رجال بلاطنا وعدم إرجاعه. ولما أسلم والدك وديعة الحياة فإن سؤاله وجزاءه قد أوكل إلى البارى يوم القيامة. وينبغى عليك أنت أن ترحم نفسك وأهل مملكتك، وأن تعيد أطلمش إلينا حتى تنجى أهل مصر والشام من انتقام جيشنا الذى يتحرق إلى الثأر. وإذا سلكت غير هذا الطريق بدافع من وسوسة شيطان اللجاج وعناد الخلاف، فإن جميع تلك الديار والبلاد سوف تصير خراباً بمجرد مرور عساكرنا المنصورة وعبورها فيها. وسيكون وزر ووبال دماء المسلمين وأموالهم فى عنقك».

الملحق(٥)

كتاب تيمورلنك إلى السلطان فرج فى جمادى الأولى سنة ٨٠٣ هـ حين تقدم تيمورلنك لحصار دمشق (شرف الدين على يزدى: ظفرنامه، جـ٢ ص ٣١٥ ـ ٣١٦).

ترجمة الكتاب:

«لقد علمت آثار حزمنا وعزمنا فى الأمور، وعلو همتنا فى تحصيل المطالب، وإتمام المقاصد والمآرب، وإن العقلاء ليعلمون أن تشبث الرجال بالأمور هو نزع من الغيرة والحمية، سواء كان الرجال ملوكا أو من أفراد الشعب. وإن الهدف الأصلى للملوك من قيادة الجيوش وفتح

(١) القرآن الكريم : سورة مريم: ٧٩ ـ ٨٠.
(٢) ما بين الحاصرتين من ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٥٢ (طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦).
(٣) القرآن الكريم: سورة الشعراء : ٢٢٧.

الممالك مع كل هذا الرعب والخطر هو رعاية الناموس فى الحال وبقاء الذكر الجميل فى المآل، وليس هو مجرد جمع المال وتكثير المنال.

إن أهم الأعمال فى الدينا رعاية الناموس وإبقاء الذكر الطيب، وإلا فإن المرء يكفيه نصف رغيف من الخبز.

وقد طلبت أطلمش مرات، ولكنكم لم ترسلوه وتعللتم بعلل واهية لتأخير إرساله، حتى ثارت فينا النخوة لنسير إلى بلادك، وننزل أنواع الخراب والدمار بالناس والأحوال فى دياركم.

« إذا نطق الصخر، فسيجيب بأن شجرة الخطأ لا تعطى ثمراً».

وبرغم هذا كله فإنك إذا أرسلت أطلمش، وزينت السكة والخطبة باسمنا وألقابنا، وطويت بساط النزاع بيننا، ورحمت نفسك وأهل ديارك، لانتهى كل شئ ، وإلا جيشنا الجرار المتعطش إلى احتساء الدماء سوف يعصف المخالفين، ويقهر المعاندين، ويستولى على الديار ويقتلع الرسم المعهود ويبلغ غاية المقصود.

«هناك طريقان طريق المداراة وطريق اللجاج»

«الأول يؤدى إلى الأمن والثانى يؤدى إلى الحرب»

«وقد أظهرت لك العقل فانتصح»

«واختر طريقاً من الطريقين».

الملحق(٦)

جواب السلطان فرج على كتاب تيمورلنك السابق وتاريخه جمادى الأولى سنة ٨٠٣هـ (شرف الدين على يزدى : ظفرنامه جـ٢ ص ٣١٧)

ترجمة الكتاب:

« نحن عبيد فى مقام الطاعة والانقياد. وسنرسل أطلمش فى خلال خمسة أيام. فإذا تجاوز السلطان الأعظم عن جرائمنا فإننا لن نهمل أو نقصر فى أداء وظائفنا وإطاعة الأوامر، وإظهار الخضوع وسنفعل كل ما فى مكنتنا ومقدورنا لإرضاء خاطركم الشريف ومشاعركم السلطانية».

الملحق(٧)

كتاب من السلطان فرج إلى تيمورلنك كتبه من دمشق وقت حصار تيمورلنك لها وتاريخه جمادى الأولى ٨٠٣ هـ (شرف الدين على يزدى: ظفرنامه، جـ٢ ص ٣٢٧).

«إن ما حدث أمس كان من فعل بعض الغوغاء دون رغبة منا، إذ أن جمعاً من الجهال والأوباش قد تجرأوا عن جهل للهجوم فلقوا جزاءهم. ونحن باقون على العهد الذى عرضناه، فإذا أوقف الجيش القتال اليوم، فإننا سوف ننفذ غدا كل ما تأمرون به، ونقوم بتقديم العذر عن التقصيرات السابقة حسب المقدور».

الملحق(٨)

كتاب من تيمورلنك بعد واقعة أنقره إلى السلطان فرج وتاريخه ٨٠٥هـ (مير خواند: روضة الصفا، جـ٦ ، ص ٢٤٦).

ترجمة الكتاب: «أصبح ملك جميع بلاد الروم بنصرة الله، وعناية السلطان تحت حكم أتباعنا فينبغى أن تزين سكة بلاد الشام ومصر وخطبتها باسمنا ولقبنا العظيم، وأن تطلقوا سراح اطلمش فى الحال، وترسلوه إلى بلاطنا الذى هو ملجأ للعالم، وإذا تغافلتم فى هذا الأمر أدنى تغافل فتيقنوا أن راياتنا المظفرة ستتجه بعد عودتها من بلاد الروم إلى مصر وترفرف على ربوعها. وقد قلت كل ما فى نفسى وأنت تعرف ما بعد ذلك. وقد أعذر من أنذر».

الملحق(٩)

كتاب من النجاشى داود إلى السلطان برقوق: (ضمن مجموعة سيرة برلام ويواصف: مخطوطه بمكتبة بطريركية الأقباط الأرثوذكس تاريخها ١٦ كيهك سنة ١١٧٩ ش رقم ٤٢ تاريخ ذيل المخطوطة ص ٣٣١ ـ ٣٣٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

«من المحب داود المدعو قسطنطين إلى المقام العالى المولوى الكبيرى السلطان الملكى العادلى سيف الدين الملك الظاهر أبى سعيد برقوق سلطان المسلمين والإسلام بديار مصر والشام. ملك الأنام، الخاص منهم، أعز الله أنصاره وضاعف علوه واقتداره. ورفع لواءه ومناره. ومحا بعدله

أسباب الظلم وآثاره، وجعل الفضل بالعدل شعاره. أما بعد رحمة الله تعالى، يقلد ملك أرضه من يشاء من عباده، وحافظ عدل أوليائه وأنبيائه الصادقين القائمين بأوامره ومراده، نحمده على ما أولانا من جزيل نعمائه. فنشكره شكراً على جزيل آلائه، ونسأله الإعانة على القيام بما يرضيه فيما خولنا إياه من التخصص بهذه المملكة الوسيعة والدرجة الرفيعة. إنه على ما يشاء قدير، وقد شهد عند كل عارف ومتردد علو مقدار مملكة الحبشة ومحل ملوكها عند سائر الملوك، وأنهم منصورون من الله تعالى فى تصرفاتهم، فإن مقاصدهم الخير لكل الناس أجمعين، ويتعمدون العدل، والإنصاف فى عنايتهم والشفقة عليهم وردع الظالمين، ومنع كل المفسدين من الأذى للرعية أجمعين، وإيصال الحقوق إلى المستحقين وأمن السبيل والإحسان إلى الرعية وحفظ العهود لأولياء العهد ما داموا عليه حافظين، وانصاف المظلوم من الظالمين. السلام عليكم سلاما جزيلاً وافراً كما يليق لعظيم سلطانكم. السلام على أمراء دولتكم الأعزاء والأخصاء بكم ومقدمى جيوشكم الصغار والكبار ورحمة الله وبركاته عليكم أجمعين. آمين.

نعلمكم بعد تجديد السلام عليكم، أنه لما أراد الله تعالى برحمته ومشيئته وأحكامه غير المدركة جلوسنا على كرسى الملك وتقليدنا أمور المملكة، واتفاق سائر الملوك والأمراء، ومقدمى الدولة والوزراء وكل جيوش وعساكر السلطنة العظيمة النجاشية فجلسنا على كرسى الملك الموروث من داود لسليمان ابنه عليهما السلام فقابلنا ذلك بالحمد والشكر، ثم نظرنا فى أمر الرعية وأمرنا بإطلاق المحابيس والمأسورين. وفتحنا أبواب السبل للتجار والمسافرين وأمعنا النظر فى مصالح بلادكم، وفى الوصية بأولادكم والتجار الكارمية وغيرهم فى البر والبحر، وأمرنا بتجهيز الغلال وحملها إلى السواحل الإسلامية لما سبقت به العهود للملوك المتقدمين ببلادنا وبلادكم، وبالخاصة ما كان بين الملك الشهيد الأكمل عبد سنون جدى، وبين الملك الناصر محمد بن قلاون من المحبة والاتفاق وما كان يعتمد الملك الناصر رحمه الله تعالى الوصية بأبينا البطريرك وإخوتنا النصارى بالديار المصرية والأقاليم الشامية ومراعاتهم ومنع من يتعرض لهم بأذية. و الآن فقد ورد علينا كتاب أبينا ورئيسنا ومربينا البطريرك أنبامتاوس بطريرك الإسكندرية والديارالمصرية والحبشة والنوبة على يد الأسقف المكرم إبراهام ورفقته، وكتابكم الشريف على يد رسولكم القاضى برهان الدين ورفقته الفقهاء. فقابلناهما ثم قابلناهما بالإكرام والتبجيل،

وهما يتضمنان أن قوماً أنهوا عندكم بأننا قد تسلطنا على المسلمين المقيمين ببلادنا بالقتل والإساءة والإكراه على الدخول في ديننا بالجبر والقهر، وأنهم في أمور صادرة، وهذه الأمور أكثرها سقيمة وينبغي لمن له النظر في تدبير المملكة الإسلامية ومقابلة القوم المنفيين بما يستحقونه من القصاص الواجب على الكاذبين، لأن هؤلاء القوم المذكورين الذين أنهوا عنهم إنما هم مقيمون في بلادنا راضين غير مكرهين، وكانوا فقراء فصاروا تجاراً متقلين، ويتجرون ويمشون شرقاً وغرباً من غير جزية ولاحق ولامكس يطالبون به بل هم أكثر من أهل البلاد يكرمون. ومن اختار منهم الإقامة ببلادنا، فلا نمنعه من ذلك، وأما الإكراه على الدخول في ديننا فهذا غير واجب في كتبنا، وإن اتفق شئ من ذلك فيكون منهم بالرضا والرغبة الشافية، وأما إحساننا لجماعة المسلمين في كل وقت وحين فهو ظاهر للعارفين. أول ذلك بحر النيل المبارك الذي يجرى في بلاد الحبشة إلى أرض مصر وأعمالها بطرق جريانها للديار المصرية بعيدة صعبة المسالك. ونحن نأمر بإقامة أناس أشداء يسوقونها ويسهلون سبلها وطرقها، ثم يصرفونها إلى أماكن أخرى، ولو وصل للديار المصرية لغرقها وغرق كل ما فيها، ثم نأمر كل وقت بإرسال الغلال إلى السواحل ونواحيها، والكور والمدن الإسلامية لأجل من يرد من التجار الكارمية والصادرين والواردين من الديار المصرية والبلاد اليمنية والمسافرين إلى الأقطار الحجازية، والمقيمين المزودين إلى ثغر سواكن وغيرها بحراً وبراً . ونأمر بحفظ الطرقات من المتخوفين ومن العربان المؤذين، وتقفية آثار المعتدين. وأما طرق الإقامة بالبلاد الحبشية فكل من يرد عليها من المسلمين نأمر بالوصية عليهم إن كانوا صادرين أوواردين، حتى لو سار إنسان واحد بمفرده في البلاد مع وسعها وكثرة أهلها، فهو على نفسه وماله من الآمنين ثم الاحتفال بالملوك المسلمين وببلادهم التي تحت سلطاننا وحوزتنا ونحن بها ظافرين. ولك من توفى منهم إلى رحمة الله تعالى نقيم مكانه من ذريته ونسله، ونسلم إليهم بلاد النصارى من أهلنا والتزامنا ونسلطهم عليهم، يعطونهم الخراج بالحقوق الواجبة على الرعية للملوك وهم مكرمون مبجلون أكثر من النصارى وعندنا مع الإنصاف بلا شكوى، ومن له ظلامة منهم ومن غيرهم فهي واجبة على حكم العدل والإنصاف وهؤلاء القوم الذين أنهوا إليكم بما قد طالعتمونا به لا يعرفون عنا شيئاً لأنهم أصحاب غرض وأهوية فاسدة وهم مفتنون بين الملوك، ولكن من أساء إلينا وعاندنا وخامر علينا ومانعنا بما يلزمه من الخراج أيضاً، والقطيعة التي

عليه في كل بلاده أسوة بمن كان قبله فنغزو عليه على عادة الملوك إذا خامر عليهم أحدمن الأمراء مثل ما تفعلون مع العربان ببلادكم ولكن اسألوا من التجار المترددين إلى بلادنا عن أخبارنا. وأما جماعة المسلمين عليهم مزيد الأمن والأمان ببلادنا. وأنتم تعاملون الرعية وأهل الذمة بضد ذلك حتى في أيام والدى الملك الأعز سيف أرعد، أرسل رسله مع الهدايا إلى السلطنة الشريفة الإسلامية والديار لما سمع أنكم تضرون أبانا البطريرك، وأخوتنا النصارى والأكابر والمشايخ الذين فيها، وأنكم عزلتموهم من خدمتهم وعوائدهم المستقرة فى أيام الملوك السالفين فقابلتموهم بضد الإحسان، وحصل فى حقهم مالم يحصل من السالفين فيما تقدم من السنين. إذا وجهنا بهم إليكم تقابلونهم بالفرح الزايد والإكرام والاحترام، وتسمعون منا ما سألناكم فيه وتجيبوننا عنه بالقول، ويأتوننا من عندكم فرحين مسرورين، وتعيدون لنا الجواب بأحسن الخطاب مع الهدايا الفاخرة والسلاح والثياب المثمنة وغير ذلك. فلما نقضتم العهود والعوائد المستقرة بين الملوك صعب ذلك على والدنا المرحوم سيف أرعد، وامتنع عنك وعن مرأسلاتكم، وكان في عقابه بدا من جهتكم مالا يلائم من وجوه اللوم والانجماع حتى تعملوا ما يحصل من مصالح لكم من جهتنا إذا نقضناه ومقدار الإحسان والمراعاة لبلادكم وتجاركم وجذبنا حبل الوصل عنكم وصرمناه.

ولكن لما وصل إلينا كتاب أبينا ورأسنا ورئيسنا السيد الأب البطرك، فإننا تحت طاعته ولا نستطيع مخالفته. والآن فقد جهزنا إليكم أحسن تجهيز مع أولادنا الخصيصين بنا، ومن أكابر دولتنا وهم زرع ضمانون الكيتى، ووزرع الأمانة بمحل مارى سعاده بمحل اخر سطوس (عبد المسيح) وعلى أيديهم المكرمة التى تليق بمثلكم . وكتبنا لأجل الوصاية الأكيدة على أبينا البطرك وإخوتنا النصارى بالديار المصرية بما حوته الأقاليم الإسلامية وأجرائهم على عوائدهم القديمة ومراعاتهم وإكرامهم ورجوع كنائسهم وأديرتهم التى أخذتموها وجعلتموها مساجد . وهذا بخلاف ما أمربه صاحب شريعتكم من حفظ الذمة. فإن كنتم تقرونهم على عوائدهم بين الملوك المتقدمين من حفظهم كنائسهم ورزقهم وأرزاقهم وأموالهم ومواشيهم وركوبهم معتدلين كجارى العوائد القديمة وحفظهم ما سألنا كم فيه ، فالعهد باق بيننا وبينكم والمودة باقية ونعامل المسلمين بأكثر من ذلك.ومهما فعلتموه مع أبينا البطريرك وأخوتنا النصارى من الخير والشر فنحن فاعلوه من سائر المسلمين الذين فى حوزتنا وفى سلطاننا وأنتم

مطالبون بما يأتيهم. أعاذكم الله من ذلك. ولابد من أن عظمتكم علمتم من التجار المترددين إلى بلادنا وغيرها من سعة بلاد الحبشة وكثرة ملوكها وكيف وعدهم الله فى آخر الزمان وقد قرب الميعاد أن نفعل ما يأمر الله به، وكيف يسهل لنا الطرقات ولا يخفى على علمكم ما نطقت به الكتب. ونعلمكم أن الله تعالى كشف لنا فى توزيع مجارى النيل المبارك وصده عن الديار المصرية مالم يكشف لأحد من الملوك المتقدمين قبلنا . وتعلمون أن النصارى تحت سلطانكم بالديار المصرية وغيرها ما يوازون الكثير من إقليم واحد من أقاليم المسلمين الذين تحت سلطاننا، والواصلون إليكم من رسلنا تقابلونهم بما يليق بمثلكم ، وتقضون جميع أشغالهم من جميع ما كتبناه إليكم من أمور إخوتنا النصارى وكنائسهم وأديرتهم وركوبهم معتدلين وتدعونهم يتوجهون إلى القدس الشريف للزيارة والتبرك به ويسيحون لنا فيه الآثار المقدسة الشريفة. وقد بلغنا أن بعض أجساد الشهداء الذين لنا وهو أبو إسحق الذى من دفرا أخرجوه من كنيسته وذكروا أنه عند بعض الأمراء في بيته، والقصد من سياستكم تشرفون بإرسال الشهيد المشار إليه صحبة رسلنا وواحد من رءوس بلادالمسلمين يسمى الحاج عيسى بن عبد الله وفقهاء البلاد، فهم يعرفون أحوال المسلمين عندنا وما هم فيه من الخير وركوبهم معتدلين على الخيول والبغال المثمنة. ولكن نحن منتظرون ما يرد علينا من الأخبار على يد رسلنا سريعاً فمهما فعلتموه بإخوتنا النصارى فنحن فاعلوه مع المسلمين الذين تحت سلطاننا، خيراً كان أوشراً. وقد بلغنا من المترددين أن جماعة من إخوتنا الحبوش توجهوا إلى الديار المصرية قاصدين القدس الشريف للتبرك به، وجماعة من رسلنا أيضاً تخاصمهم عبيد التجار الكارمية وغيرهم وأخذوهم باليد العالية ليعملوهم مسلمين، وهذا غير واجب فى الشريعة ولاجرت به عادة في زمن المسلمين السالفين.

وبلغنا أيضاً من المترددين إلينا أخبار الملك، وما هو عليه من العدل والإنصاف، والإحسان والشفقة على سائر خليقة الله تعالى فسررنا بذلك كثيراً، وفرحنا الفرح الكامل بما خصكم الله تعالى من الجلوس على كرسى المملكة بالديار المصرية والأقاليم الشامية فيجب عليكم أن تحمدوا الله تعالى على ما أولاكم من النعم. ثم نسألكم أيضاً أن تتواصوا بأبينا البطرك وإخوتنا النصارى وكنائسهم التى أخذتموها وعملتموها مساجد بغير حكم حق فتعيدونها لهم، وتأمروا بركوب إخوتنا النصارى معتدلين والاراخنة الذين منهم، والكتاب الذين فى الدولة ومن تجرد

منهم على عوائدهم التى كانت فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاون. فإذا سمعنا أنكم فعلتم هذا جميعاً مع إخواتنا النصارى فنحن نتوصى بالمسلمين الذين تحت سلطاننا والصادرين والواردين من عندكم. ومتى والعياذ بالله تعالى حصل لأبينا البطرك وإخوتنا النصارى جور من قبلكم أو من جهة الذين يرمون الفتن بين الملوك فليس علينا لوم فيما يصدر منا لسائر أقاليم المسلمين الذين تحت سلطاننا وإلى البلاد المصرية من قطع بحر النيل المبارك وتوزيعه إلى الأقاليم الأخرى كما أعلمناكم فى أعلى كتابنا، ومهما يحل بهم يكون الذى كان السبب فيه مطالباً بدمائهم.

ونعلمكم سعة البلاد وما نقاتل به المسلمين وهذه أسماؤهم:

سلطان سنقرا وأقاليمه. سلطان كنزا وأقاليمه. سلطان من وأقاليمه. سلطان فانا وأقاليمه سلطان أنون وأقاليمه. وبأرض الدواريت عشرة سلاطين مسلمين. سلطان بر بأرض نوحا وأقاليمه. سلطان هاره وتحت يده ملوك مسلمين مائة وثلاثون ملكا. سلطان تاكيا وتحت يده سلاطين مسلمون مائة وثلاثة وستون سلطاناً. سلطان طاعة تحت يده ملوك مسلمون مائة وخمسون ملكا وملوك المسلمين بأرض داروا أربعين ملكا. وسلطان دفاه. فكل التجار يعرفونكم سعة مملكتى. سلطان سرجه وأقاليمه. سلطان أحواره وأقاليمه. سلطان باراتا وأقاليمه. فهؤلاء جميعاً يعطون الخراج من ذهب وفضة وقماش وحرير وخيول وبغال وغير ذلك. وأما الذمة الذين فى وسط بلادنافلا يعلم عددهم إلا الله سبحانه وتعالى. وإنا ما ذكرنا لكم الأقاليم البعيدة إلاليحاط علمكم بذلك ويستدرك فارطه فى رجوع الكنائس والأديرة بغير حكم حق وعملت مساجد. فمتى والعياذ بالله لم تجيبونا إلى ما سألناكم فيه جميعه وإلا فنحن موقعون الفعل بجميع أقاليم المسلمين وسلاطينهم، وتكونون أنتم المطالبين بدمائهم ـ لكن أجروا أبانا البطرك وإخوتنا النصارى على عوائدهم التى كانت فى أيام السلطان محمد بن قلاوون. والمرجو من الله تعالى إصلاح الأمور لنا ولكم والله تعالى يسمعنا أخباراً تسر القلوب، وتشرح الصدور بصالح الأمور بمنه وكرمه وخفى لطفه، فإنه سابغ مراحمه ونعمته من بعد فراغ السلام الوافر عليكم وعلى أمراء دولتكم ومقدمى بلادكم وكل من يلوذ بكم وبمقامكم الشريف. ونشكر الله تعالى على الدوام فى مدى الليالى والأيام أجمعين آمين.

المراجع

أولا. المخطوطات العربية

* ابن أبي السرور ، محمد بن السيد (١٠٨٧هـ):
أ ـ عيون الأخبار ونزهة الأبصار ـ دار الكتب بالقاهرة رقم ٧٢.
ب ـ النزهة الزهية في ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية ـ دار الكتب القاهرة برقم ٢٢٦٦ تاريخ.
* ابن أيبك أبو بكر عبد الله : (ق ٨هـ):
كنز الدرر وجامع الغرر ٩ أجزاء مصورة بدار الكتب القاهرة برقم ٢٥٧٨ تاريخ. ابن بهادر.
* ابن بهادر. محمد بن محمد (القرن ٩ هـ): فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر، جزءان، مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ٢٣٩٩ تاريخ.
* ابن تغرى بردى، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (+ ٨٧٤هـ): المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى، ٣ مجلدات ـ دار الكتب بالقاهرة برقم ١١١٣ تاريخ.
* ابن حبيب، الحسن بن عمر (+ ٧٧٩هـ): درة الأسلاك فى دولة الأتراك ؛ ٣ أجزاء مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ٦١٧٠ ح.
* ابن دقماق : صارم الدين إبراهيم بن محمد (+٨٠٩هـ): الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين ـ النسخة الخطية بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٥٢٢ تاريخ والمصورة برقم ١٥٨٧ تاريخ.

* ابن قاضي شهبة، أبو بكر أحمد بن محمد (+٨٥١هـ): ذيل تاريخ الإسلام (الإعلام بتاريخ أهل الإسلام) ٧ مجلدات مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ٣٩٢ تاريخ.
* الأسدى، محمد بن أحمد: التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار ـ دار الكتب بالقاهرةرقم ٥٤٨٦ تاريخ.
* البسطامي، عبدالرحمن بن محمد علي (+٨٤٣هـ): مفاتيح الأسرار ومصابيح الأنوار ـ دار الكتب بالقاهرة برقم ١٦٥ مجاميع.
* البغدادى، أحمد بن عبدالله (١١٠٢هـ): عيون أخبار الأعيان ممن مضى من سالف العصور والأزمان ـ مصورة في مجلدين بدار الكتب بالقاهرة برقم ٣٨١٠ تاريخ.
* الخزرجي، عبدالقادر بن محمد الأنصارى (ق٩هـ): درر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ـ دار الكتب بالقاهرة برقم ٣٧م.
* الخطيب، على بن داود (ق٩هـ): نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان ـ نسخة بخط مؤلفه بدار الكتب القاهرة برقم ١١٦م. وكذلك نسخة الجامعة الأزهرية برقم ٤٢٤تاريخ.
* الزياني، أبو القاسم عبدالله (ق١٣هـ): الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب ـ دار الكتب بالقاهرة برقم ١٦٠٤تاريخ.
* السلامي، شهاب الدين أحمد (ق٩هـ): مختصر التواريخ ـ دار الكتب بالقاهرة برقم ١٤٣٥ تاريخ.
* السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن (+٩١١هـ): تاريخ السلطان الأشرف قايتباى – دار الكتب بالقاهرة برقم ٦١ تاريخ.
* الصفدى، صلاح الدين خليل، (+٧٦٤هـ):
(أ) أعيان العصر وأعوان النصر ـ ٦ مجلدات مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٠٩١ تاريخ.
(ب) الوافي بالوفيات ـ ١٧ مجلداً مصورة دار الكتب بالقاهرة برقم ١٢١٩تاريخ.
* الطيب، أبو محمد بن عبدالله (ق١٠هـ): قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر ـ ٣ أجزاء في ٦ مجلدات مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٦٧ تاريخ.
*العسقلاني، أحمد بن حجر (+٨٥٣هـ):
(أ) إنباء الغمر بأنباء العمر ـ جزءان بدار الكتب بالقاهرة برقم ٢٤٧٦ تاريخ.
(ب) تاريخ المائة التاسعة ـ مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ٤٧٦٧ تاريخ.
* العيني، بدر الدين محمود (ـ٨٥٥هـ):
(أ) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ـ في ٧٠ مجلدا بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٥٨٤ تاريخ (مصورة).
(ب) السيف المهند في تاريخ الملك المؤيد ـ دار الكتب بالقاهرة برقم ٣٣٥٤.

* الفاسى، أبو الطيب محمد بن أبى العباس (+٨٣٢ه):
العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ـ ٤ مجلدات بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٧٨ تاريخ.
* القدسى، محمد أبى حامد (ق٩هـ): دول الإسلام الشريفة ـ ضمن مجموعة بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٠٣٣ تاريخ.
* الكتبى، عبدالله محمد بن أحمد بن شاكر (+٧٦٤هـ): عيون التواريخ ـ ١٦ مجلداً مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٤٩٧ تاريخ.
* المقدسى، مرعى بن يوسف (+١٠٣٣هـ): نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين ـ بدار الكتب بالقاهرة برقم ٢٠٧٦ تاريخ.
* المقريزى، تقى الدين أحمد بن على (+٨٤٥هـ):
(أ) كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك جـ٣، جـ٤ النسخة الخطية بدار الكتب بالقاهرة برقم ٤٥٥ تاريخ والمصورة برقم ٤٦٤ تاريخ.
(ب) المقفى الكبير ـ ٤ مجلدات مصورة برقم ٣٥٧٢ تاريخ.
(جـ) كتاب جنى الأزهار من الروض المعطار فى عجائب الأقطار ـ دار الكتب القاهرة برقم ٤٥٨ جغرافية، وربما تكون لأحد تلاميذ المقريزى.
* النويرى، أحمد بن عبدالوهاب (+٧٣٢هـ): نهاية الأرب فى فنون الأدب ـ من جـ١٨ حتى جـ٣١ خطية دار الكتب بالقاهرة برقم ٥٤٩ معارف عامة.
* النويرى، محمد بن قاسم بن محمد الإسكندرى (+٧٧٥): الإلمام بما جرت به الأحكام المقضية فى واقعة الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ فى مجلدين بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٤٩ تاريخ.
* الهيثمى، أبو العباس أحمد بن حجر (+٩٧٤هـ): إتحاف إخوان الصفا بنبذ من أخبار الخلفا ـ دار الكتب بالقاهرة برقم ٢٧٦ تاريخ.
* بيبرس الدوادار (+٧٢٥هـ):
(أ) التحفة الملوكية فى الدولة التركية ـ مصورة بجامعة القاهرة برقم ٢٤٠٢٩.
(ب) زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ـ مصورة بجامعة القاهرة برقم ٢٤٠٢٨.
* يوساب، أسقف فوه (ق١٥م): كتاب تاريخ البطاركة مخطوط بمكتبة دير السريان بوادى النطرون.

ثانيا. المصادر العربية المطبوعة

* ابن أبى الفضائل، مفضل: النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ـ نشر E. Blochet (باريس ١٩١١ ـ ١٩٣٢م).
* ابن الشحنة الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب.
* ابن الطولونى، حسن بن حسين (ق٩هـ): النزهة السنية فى أخبار الخلفاء والملوك المصرية (القاهرة ١٢٩٤هـ).

* ابن العماد، عبدالحى (+١٠٨٩هـ): شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ١٨ جزءا (القاهرة ١٣٥١هـ).
* ابن الفرات، محمد بن عبدالرحيم (+٨٠٧هـ): تاريخ الدول والملوك جـ٧، جـ٨، جـ٩ نشر الدكتور قسطنطين رزيق والدكتورة نجلاء عز الدين (بيروت ١٩٣٦ ـ ١٩٤٢).
* ابن إياس، محمد بن أحمد (+٩٣٠هـ): بدائع الزهور فى وقائع الدهور جـ١، جـ٢ (بولاق ١٣١١هـ).
* ابن تغرى بردى، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (+٨٧٤هـ):
(أ) المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ـ جـ١ دار الكتب (القاهرة ١٩٥٦م).
(ب) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة حتى ـ جـ١٢ (سنة ٨٠٨هـ) طبعة دار الكتب بالقاهرة ٩٣٠ ـ ١٩٥٦. طبعة كاليفورنيا جـ٥، جـ٦، جـ٧ (١٩١٥ ـ ١٩٣٩).
(جـ) منتخبات من حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور ـ نشر Popper (كاليفورنيا ١٩٣٠ ـ ١٩٣١).
(د) مورد اللطافة فيمن ولى السلطنة والخلافة ـ كمبردج ١٩٧٢م.
* ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد (+٨٠٤هـ):
(أ) التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ـ نشر محمد بن تاويت الطنجى (القاهرة ١٩٥١).
(ب) المقدمة.
(جـ) العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ـ جـ٥، جـ٦ (بولاق ١٢٧٤هـ).
* ابن شاهين، غرس الدين خليل الظاهرى (+٨٧٣): كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك. نشر Ravaisse (باريس ١٨٩٤م).
* ابن عربشاه، شهاب الدين محمد بن أحمد (٨٤٦هـ):
(أ) عجائب المقدور فى أخبار تيمور (القاهرة ١٣٠٥هـ).
(ب) فاكهة الخلفا ومفاكهة الظرفا (بولاق ١٢٩٠هـ).
* ابن كثير، أبو الفدا إسماعيل بن محمد (+٧٧٤هـ): البداية والنهاية ـ ٤ أجزاء (القاهرة ١٣٥٨هـ).
* ابن مماتى، أبو المكارم بن سعيد (+٦٠٦هـ): كتاب قوانين الدواوين ـ نشر عطية (القاهرة ١٩٤٣).
* أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل (ـ٧٣٢هـ): المختصر فى أخبار البشر (الاستانة ١٢٨٦هـ).
* اسكاروس، توفيق: نوابغ الأقباط بالقاهرة فى القرن التاسع عشر ـ جـ٢ (القاهرة ١٩١٠).

* الإسحاقى، محمد بن عبدالمعطى (القرن ١١هـ): لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول (القاهرة ١٢٩٦هـ).
* الأنصارى، أبو عبدالله: نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر (بطرسبرج ١٨٦٦م).
* الجبرتى، عبدالرحمان (١٢٣٧هـ): خمسة أجزاء: تحقيق عبدالعزيز جمال الدين. القاهرة.
* الذهبى، أبو عبدالله (+ ٧٤٨ هـ)دول الإسلام ـ جزءان فى مجلدين (الهند ١٣٣٣هـ).
* الحيمى: سيرة الحبشة - نشر الدكتور مراد كامل (القاهرة ١٩٥٨).
* الخزرجى، أبو الحسن على بن الحسن: العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدول الرسولية (القاهرة ١٩١١م).
* السخاوى، محمد بن عبدالرحمن (+٩٠٢هـ):
(أ) التبر المسبوك فى ذيل السلوك (بولاق سنة ١٨٩٦م).
(ب) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ـ١٢ مجلد (القاهرة ١٣٥٣ ـ ١٣٥٥هـ).
* السلاوى، أحمد بن خالد: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى جـ٢ (القاهرة ١٣١٢هـ).
* السيوطى، جلال الدين عبدالرحمن (+٩١١هـ):
(أ) تاريخ الخلفاء (القاهرة ١٣٠٥هـ).
(ب) حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة (القاهرة ١٢٩٩هـ).
(جـ) نظم العقبان فى أعيان الأعيان (نيويورك ١٩٢٧).
* الشوكانى،محمد بن على اليمنى (+١٢٥٠هـ): البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ـ جزءان (القاهرة سنة ١٣٤٨هـ).
* العرينى، دكتور السيد الباز: الفارس المملوكى ـ بحث فى المجلة التاريخية المصرية المجلد الخامس (١٩٥٦).
* العزاوى: تاريخ العراق بين احتلالين جزءان (بغداد ١٩٣٥م ـ ١٩٣٦م).
* العسقلانى، أحمد بن على بن حجر (+٨٥٢هـ):
(أ) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ـ ٤ أجزاء ـ حيدر أباد الهند ١٣٤٨ ـ ١٣٥٠هـ).
(ب) رفع الأصر عن قضاة مصر ـ جـ١ (تحقيق حامد عبدالمجيد وآخرين ـ القاهرة ١٩٥٧).
* القرمانى، أبو العباس أحمد (+١٠١٩هـ): أخبار الدول وآثار الأول (بغداد ١٢٨٢هـ).
* القلقشندى، أبو العباس أحمد (+٨٢١هـ):
(أ) صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ١٤ جزءا (القاهرة ١٩١٣).
(ب) ضوء الصبح المسفر و جنى الدوح المثمر (القاهرة ١٩٠٦م).
* الكتبى، صلاح الدين محمد بن شاكر (٧٦٤هـ): فوات الوفيات (بولاق ١٢٨٣هـ).
* المقريزى، أحمد بن على (+٨٤٥هـ):

(أ) إغاثة الأمة بكشف الغمة ـ نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور جمال الدين الشيال.
(ب) الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام (القاهرة ١٨٩٥م).
(جـ) البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب (القاهرة ١٩١٦م).
(د) السلوك لمعرفة دول الملوك ـ جـ١، جـ٢ نشره ووضع حواشيه الدكتور محمد مصطفى زيادة (القاهرة ١٩٣٤ ـ ١٩٥٨).
(هـ) المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ـ جزءان (بولاق ١٢٧٠هـ).
* النويرى، أحمد بن عبدالوهاب (+٧٣٢هـ): نهاية الأرب في فنون الأدب من جـ١ حتى جـ١٧ (القاهرة ١٩٢٣).
* حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (ليبزج ١٨٣٥).
* خريطة القاهرة والوجه البحرى الدولية. دائرة المعارف الإسلامية.
* دحلان، أحمد بن زيني: الفتوحات الإسلامية جزءان القاهرة ١٣٢٣هـ).
* رشدى، راسم: مصر والشراكسة (القاهرة ١٩٤٨).
* رمزى، محمد: القاموس الجغرافى للبلاد المصرية (القاهرة ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤).
* زترستين: تاريخ سلاطين المماليك من ٦٩٠ هـ إلى ٧٤١ هـ (باريس ١٩١٩).
* زيادة، دكتور محمد مصطفى:
(أ) المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى (القاهرة ١٩٤٩).
(ب) نهاية السلاطين المماليك فى مصر ـ بحث فى المجلة التاريخية المصرية المجلد الرابع مايو سنة ١٩٥١.
* سرور، دكتور محمد جمال الدين: دولة بنى قلاوون فى مصر (القاهرة ١٩٤٧).
* صالح بن يحيى، (ق٩هـ): تاريخ بيروت ـ نشر لويس شيخو (بيروت ١٩٠٢م).
* عاشور، دكتور سعيد عبدالفتاح: قبرص والحروب الصليبية (القاهرة ١٩٥٧).
* عزت، يوسف: تاريخ القوقاز.
* فريد، محمد: تاريخ الدولة العلية العثمانية (القاهرة ١٩١٢م).
* كرد على، محمد: خطط الشام ـ ٤ أجزاء (دمشق ١٩٢٧).
* مؤلف مجهول: كتاب قهر الوجوه العابسة بذكر نسب الجراكسة من قريش (بولاق ١٢٨٧هـ).
* مؤلف مجهول: مراصد الاطلاع فى أسماء الأماكن والبقاع (ليدن ١٨٥٠ ـ ١٨٥٩).
* هازارد، أ. و: أطلس التاريخ الإسلامى ـ ترجمة إبراهيم خورشيد ومراجعة الدكتور محمد مصطفى زيادة.
* ياقوت، شهاب الدين أبو عبدالله الحموى (+٦٢٦هـ): معجم البلدان ١٢ جزءاً (القاهرة ١٩٠٦م).

ثالثاً.مراجع أفرنجية

* Arnold, T.W: The Caliphate, Oxford, 1924.
* Atiya, A.S.: The Crusade in the Latar Middle Ages, London, 1938.
* Ayalon, D.:

  A) Studies on the Structure of the Mamluk Army. Bulletin of the School of Oriental and African Studies, V. 16, Part I, 1954.

  B) Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom, London 1956.

  C) The Circassians in the Mamluk Kingdom, J.A.O.S 1949.
* Browne, E.G. : Literary History of Persia. VIII, Cambridge 1951.
* Bouvet, L.: L'Empire Mongol, Paris 1927.
* Brockelman, C. :

  A) History of Islamic Peoples, London 1949.

  B) Geschichte Der Arabischen Literatur (Weimar and Berlin) 1898-1902.
* Budge: A History of Ethiopia VI, London 1928.
* Bulletin of the School of Oriental and African Studies, V, 16, Part 1 and 111, 1954.
* De Bouard, M.: La France et l'Italie au temps du Grand Schisme d'Occident, Paris1936.
* De Clavijo, R.G.: Embassy to Tamerlanc, London 1859.
* De Gaury, G.: Rulers of Mecca, London 1951.
* Delaville Le Roulx, J.: La France en Orient au XIVéme siécle, 2 Vol., Paris 1886.
* Demombynes, G.: La Syrie á l'époque des Mamelouks Paris 1922.
* Devonshire, L.: L'Egypte Musulmane, Paris 1926.
* D'Ohsson: Tableau Général de l'Empire Ottoman, VI, Paris 1824.
* Dozy, R.: Supplément aux dictionnaires arabes (Supplément Dict. Ar.), 2 Vols., Paris 1927.
* Dussaud, R. Topographie Historique de la Syria Antique et Médiévale, Paris 1927.
* Encyclopedia of Islam.
* Fischel, W.J. : Ibn Khaldun and Tamerlanc, California 1952.

* Gibbons, H.A.: The Foundation of the Ottoman Empire, Oxford 1916.
* Grousset, R.: L'Empire des Steppes, Paris 1939.
* Heyd, W.: Histoire du Commerce du Levan, 2 Vols., Leipzig 1885.
* Hitti, Ph, K.: History of the Arabs, London 1937.
* Huart: Histoire des Arabes, 2 Vols. Paris 1913.
* Ibn Arab Shah: Tamerlanc or Timur the Great Amir, Eng. tr. by Sanders J.H., London 1936.
* Ibn Iyas: Histoire des Mamluks Circassiens, 2 Vols., tr. by G. Wiet, Le Caire 1945.
* Iorga: Notes et Extraits pour servir á l'Histoire des Croisades au XV siécle, T. 11, Paris 1899-1916.
* Journal Asiatique (J.A.).
* Journal of American Oriental Studies (J.A.O.S.).
* Kevork, A.: Armenia and the Armenians, New York 1920.
* Kirk, G.E.: A Short History of the Middle East, London 1949.
* Lamb, H.: La vie de Tamerlanc. Trad. de l'anglais par Robert P.J.
* Lammens, H.: La Syrie, Précis Historique, VII, Beyrouth 1921.
* Lane-Poole, S. : History of Egypt in the Middle Ages, London 1914.
* Le Strange, C.:
  A) Clavijo Embassy to Tamerlanc, London 1918.
  B) Palestine under the Moslems, London 1990.
* Malcolm, J.: History of Persia, London 1815.
*Malet and Isaac: L'Histoire du XIV, XV et XVI siécles, Paris 1927.
* Miller: The Latins in the Levant, London 1908.
* Morgan, J.: Etudes Arch. et Hist. au Caucase, T. 11, Paris 1899.
* Muir, W.E.:
  A) The Mamluk or Slave Dynasty of Egypt, London 1896.
  B) The Caliphate, its Rise, Decline and Fall., Oxford 1902.
* Oman, C.W.C.: The Byzantine Empire, London 1915.
* Piloti, E.: L'Egypte au commencement du Quinziéme Siécle. Trad. par Dopp. P.H., Le Caire 1950.

* Poliak, A.N. :

A) Les Révoltes Populaires en Egypte á l'Epoque des Mamelouks et leurs Causes Economiques, ex. de la Revue des Etudes Islamiques, Paris 1934.

B) Le Caractére Colonial de l'Etat Mamluk, Paris 1935.

C) Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon, London 1939.

* Price, D. : Memoirs of the Principal of Mahommedan History from the Deat of the Arabian Legislator to the Accession ot the Emperor Akber. from Original Persian Authorities, London 1820, VIII.

* Quatremere, E.: Histoire des Sultans Mamluks de l'Egypte, 2 Vols., Paris 1834-1845.

* Sauvaget, J.: Noms et Surnoms des Mamluks, J.A., Paris 1950.

* Schiltberger: The Bondage and Travels of Johan Schiltberger, 1396 to 1427, E.D., London Hakluyt Soc. V. LVIII, 1879.

* Sykes, P. : A History of Persia VII, London 1951.

* Thoumin, R.: Histoire de Syrie, Paris 1929.

* Wiet, G.:

A) Histoire de la Nation Egyptienne, T. IV (L'Egypte Arabe), Paris 1926.

B) Précis de l'Histoire D, Egypte, T. 11, Le Caire 1933.

C) Biographie du Manhal Safi.

* Yazdi, A. Ch.: Zafarnama. Vol IXII

En. Trans by Darly, London 1723.

* Ziadeh, N. : Urban Life in Syria under the Early Mamluks, Beiruth 1953.

فهرس الجزء السابع

• رقم الايداع: ٢٦٤٢/ ٢٠١٢
• الترقيم الدولى: 978-977-704-939-9

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقاً)
ت: 23904096 - 23952496

الهيئة العامة لقصور الثقافة

تاريخ مصر

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس بن المقفع

8

إعداد و تحقيق :
عبد العزيز جمال الدين

لم يكن ابن المقفع آخر المؤرخين المصريين، لكنه ومخطوطته كانا الأشهر فى هذا السياق، وقد تعاقب من بعده من الآباء والرهبان المصريين من عكفوا على استكمال هذا التأريخ حتى بداية القرن العشرين. وبجهد الباحث المجد عكف المحقق المصرى عبد العزيز جمال الدين على جمع هذه المخطوطات وتحقيقها والتعليق عليها، موضحاً ما كتب فيها وما كتب فى التاريخ الرسمى الشهير، ليضع أمامنا عملاً قل أن نجده فى الثقافات الحديثة، لنقف أمام وجهتى نظر للتاريخ متأملين كيفية عمل الفعل البشرى فى تسجيل الأحداث حسب الانتماء الثقافى، وليفتح الباب على مصراعيه أمام العاملين فى مجال البحث التاريخى ليعيدوا التأمل فى آلية ومسار واحدة من أهم عمليات التدوين الذى حكم مخيلة البشر فى رؤيتهم لماضيهم التليد.

تصميم الغلاف : أحمد اللباد

السعر: سبعة جنيهات

تاريخ مصر

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس بن المقفع

الجزء الثامن

وزارة الثقافة

مطبوعات

الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة

سعد عبد الرحمن

أمين عام النشر

محمد أبو المجد

الإشراف العام

صبحي موسى

الإشراف الفني

د. خالد سرور

المتابعة والتنفيذ

عادل سميح

• تاريخ مصر
من خلال مخطوطة
تاريخ البطاركة (الجزء الثامن)
• إعداد وتحقيق:
عبد العزيز جمال الدين
• طبعة:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2012م
17×24 سم
• تصميم الغلاف: أحمد اللباد
• رقم الإيداع: ٢٦٤٤٣/ ٢٠١٢
• الترقيم الدولي: 978-977-704-939-9
• المراسلات:
باسم / المشرف العام
على العنوان التالي: 16 أ شارع
أمين سامي - القصر العيني
القاهرة - رقم بريدي 11561
ت: 27947897

التجهيزات والطباعة:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابي من الهيئة العامة لقصور الثقافة، أو بالإشارة إلى المصدر.

تاريخ مصر

من بدايات القرن الأول الميلادى
حتى نهاية القرن العشرين

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس بن المقفع

إعداد وتحقيق

عبد العزيز جمال الدين

الجزء الثامن

من ١٢١٦ م حتى الأب كيرلس البطرك ٧٥ (١٢٣٥ - ١٢٤٣م)

بسم الآب والابن والروح القدس الاله الواحد(*)

(*) هذا الجزء منقول من المخطوط العربى رقم ٣٠٢ المحفوظ بالمكتبة الوطنية بباريس. وهو خاص بالفترة التى تأرجح فيها أختبار البطرك رقم ٧٥ كيرلس الثالث [ابن لقلق]، وهى فترة تمتد لحوالى ٢٠ سنة [١٢١٦/ ١٢٣٥م].

نبتدى بمعونة الرب وحسن توفيقه بنقل تاريخ الكنيسة المقدسة وذلك لاستقبال سنة اثنين وثلثين وتسع ماية للشهدآ الابرار الموافق لسنة اثنى عشر وستماية للهجرة العربية.

لما تنيح الاب القديس الطاهر الكامل الروحانى الناسك الناطق بالخفايا المتنزه عن الدنايا أنبا يوحنا [يوأنس] بطريرك (*) المدينة العظمى الاسكندرية

(*) البطرك ٧٤ فى الفترة ما بين عامى ١١٨٩، ١٢١٦م

طومان باى آخرة سلاطين المماليك(*)

أتيحت الفرصة أمام طبقة المماليك فى مصر ، فى آخر أيام الأيوبين ليحكموا البلاد بدلاً من سادتهم ؛ وذلك حينما هدد الصليبيون مصر نفسها ، ولاسيما حينما جائتها حملة لويس التاسع (Louis IX)(saint Louls) الصليبية. فبعد الإنتصار المظفر عليها، وأسر ملكها ؛ قبضوا على زمام السلطة تماماً، وأصبحت مناصب الدولة والجيش والقصر فى أيديهم . وما لبثوا أن قتلوا توران شاه أخر سلاطين الأيوبين فى مصر ، وهو ابن الملك الصالح أيوب ، الذى كان قد أستكثر منهم حتى صاروا معظم عساكره واعتبره المؤرخ أبو المحاسن أنه هو الذى أنشا طبقة المماليك فى مصر [1]. فأعلنوا سلطنة واحد منهم هو عز الدين أيبك الصالحى ، أى أنه كان ينتسب إلى سلطانه الملك الصالح هذا . ثم عملوا على محاربه ملوك الأيوبين فى الشام ، وأنتصروا عليهم أيضا ،خصوصاً وأن المماليك كانوا فى جيوشهم كذلك ؛فانضموا إليهم بحكم الانتماء العرقى والطبقى.

وفى رأينا ، أنه كما كان قيام دولة الأيوبين نتيجة من نتائج الحملات الصليبية الأولى ، فإن قيام دولة المماليك كان من نتائج استمرار هذه الحروب .

(*) طومان باى: د. عبدالمنعم ماجد. مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧٨ القاهرة.

(١) مفرج الكروب ، مخطوط .B.N برقم 1702 بالمكتب الاهليه، ورقه ٦٦ .

من سنة ١٢١٦ إلى ١٢٣٥م.

(*) أهم أحــداث سنة ٩٣٣ ق. = ١٢١٧م= ٦١٤هـ.

(*) فيها اجتمعت الافرنج عن طريق البحر ووصلوا إلى عكا، فخرج الملك العادل من مصر بعساكرها ونزل على نابلس فسارت إليه الفرنج، ولم يكن معه من العساكر ما يقدر به على مقاتلتهم، فانسحب أمامهم إلى عقبة أفيق، فثارت الفرنج على البلاد الإسلامية حتى وصلوا إلى ما بين بيسان ونابلس وعادوا إلى مرج عكا، وأقام العادل بمرج الصفر.

والقاهرة ومصر وأعمالها والحبشة والنوبة وخمس المدن وأفريقيه في نهار الخميس الحادى عشر من طوبة سنة اثنين وثلثين وتسع ماية للشهداء الابرار الموافق للخامس عشر من شهر رمضان سنة اثنى عشر وستماية الهلالية [٧ يناير ١٢١٦م] وهو يوم الغطاس المقدس توجعت المسكونة لفقده وارتجت الامور من بعده وكان قبل موته قد أوصى ابنى اخته ابى سعيد وابى المكارم أن لا يتركاه في الكنيسة ولا يدفناه بها حتى ينقل الى الديارات

طومان باى سلطان على مصر (*)

ليس لدينا معلومات كثيرة عن أصوله؛ إذ هو مثل بقيه المماليك الواردين إلى مصر، لانعرف شيئاً يذكر عنهم؛ إلا إذا وصلوا إلى مركز مرموق. وعلى العكس؛ فلدينا عنه معلومات أكثر؛ منذ توليه مناصب هامة في القصر والدولة إلى أن وصل إلى السلطة؛ بحيث أن كبار مؤرخى عصره؛ ينقلون عن سيرته جزئيات وتفاصيل وافية يوماً بيوم.

*

فلا نعرف المكان الذى نشأ فيه؛ وإن كنا نعرف أن أصله من بلاد الجركس. ثم هو، وإن كان من المماليك المشتروات أو الجلبان؛ إلا أننا لانعرف إن كان قد أشترى فى أسواق مصر، أو فى خارج مصر، أو فى أى سوق آخر. حقاً إن الأمير قانصوة ـ وهو الذى تولى السلطنة قبله ـ كان قد اشتراه لقرابته له؛ إلا أنه من الموكد أنه لم يكن ابناً له على الرغم من أنه كان يطلق عليه طومان باى أبن قانصوة؛ إذ يقول نص تاريخى آخر: إنه ابن أخيه [١].

ومع ذلك؛ فمن الممكن معرفة تاريخ ميلاده؛ إذا تتبعنا تواريخ متعددة فى حياته. فمثلا نحن على علم بتاريخ شنقه؛ وهو فى سن أربع وأربعين، فى يوم الأحد ٢١ من شهر ربيع الأول سنة ١٥/٩٢٢ سبتمبر ١٥١٧ [٢]؛ فيكون إذن ميلاده فى حوالى ١٤٧٣/٨٧٨.

---

(١) ابن إياس: بدايع الزهور فى وقايع الدهور، ٣ص ٣س٣. (٢) نفسه، ٣ص ١١٥–١١٦.

من سنة ١٢١٦ إلى ١٢٣٥م.

المقدسة على جارى عادة البطاركة بل يجنزاه ويحملاه الى الحبش(*) ويدفناه فيه فى التربة التى لأهل بيته هناك ففعلا ذلك وبيتاه فى الكنيسة المعلقة تلك الليلة وجنزاه أحسن تجنيز وحضر اسقف الملكية(*) ولم يكن احد من الاساقفة حاضراً وطلعوا به ثانى يوم وهو يوم الجمعة الى الحبش وحوله من الخلق امم لا تحصى وكان يوماً مشهودا وحفروا له وسط التربة المختصة بأهله وهى بقرب من قبر انبا زخاريس البطرك(*) رزقنا الله

(*) دير الحبش جنوب القاهرة.

(*) اسقف الروم الارثوذكس (اليونانية).

(*) كان بطركا بين سنتى ١٠٠٤/ ١٠٣٢م.

كذلك ، نعرف أن الأمير قانصوة المذكور ؛ كان هو الذى قدمه ، وهو صغير السن ، إلى سلطان وقته الأشرف قايتباى؛ فصار من جملة مماليكه، فأمر هذا الأخير بأن يتربى فى الطبق ـ وهى المدرسة الحربية ـ مع بقيه المماليك الصغار الواردين إلى مصر ؛ حيث عرف مثلهم باسم: المماليك الكتابيه[1] ؛ لأنهم بالإضافة إلى تعلم وسائل الحرب والفروسية ، كانوا يتعلمون الدين والأخلاق، والكتابة والحساب والسباحة.

وبعد أن تعلم وتثقف وتهذب فى الطبق ، أعتق مع أترابه من المماليك ؛ وإن كان الذى أعتقه ليس الأشرف قايتبارى، وإنما ابنه الناصر محمد بن قايتباى ، الذى تولى بعد أبيه لفترة قصيرة ، قبل أن يتولاها السلطان الظاهر قانصوة الغورى فى ١٤٩٨/٩٠٤، الذى كان قريبه أو اشتراه . ولدينا وصف لطومان باى وقتذاك [2]: فهو متوسط الطول، وواسع الجبين ، أسود العينين والحاجبين واللحية.

*

المرحلة التالية فى حياته، هى توليه الوظائف الكبيرة ؛ حيث تولى العديد منها لمدة عشرين سنة ؛ قبل أن يتولى السلطنة ؛ وهى وظائف تتعلق أغلبها بوظائف كبيرة فى القصر أو

(١) نفسه ، ٣س ٦٨س ٢، .

(٢) ابن زنبل الرمال، آخر المماليك. تحقيق: عبدالمنعم عامر. القاهرة ١٩٦٢.، ص ١١٢.

صلاتهما، ودفنوه هناك وعملوا قبره مصطبة. وتحدث الناس يومهم ذاك فيمن يقيموه بطريركا فقوم وقع تخيرهم على القس بول البوشي(*) وقوم وقع تخيرهم على القس داود بن يوحنا الفيومي(*) وقوم تخيروا الشيخ ابا الكرم ارشيدياقن المعلقة بمصر. والصاحب الأعز الوزير تعصّب لكاتبه سني الدولة ابي الفضايل. وتشعبت آراء الناس ولم يكن فيهم من هو ماسك غرضه إلا أصحاب القس داود بن يوحنا. وكان للسلطان

(*) نسبة الى مدينة بوش وهي من مدن الصعيد الأدنى وبها كنيسة ودير مشهوران.

(*) داود بن يوحنا الفيومي: هو ابن لقلق الذى تولى البطركية تحت اسم كيرلس الثالث وهو رقم ٧٥ من العدد تولى البطركية بين سنتى ١٢٣٥، ١٢٤٣م.

المملكة، إذ أن معظمها له صفة الأمارة . ومع أن طومان باى قد وصل إلى هذه الوظائف على أساس أنه من محاسيب ثلاثة سلاطين ؛ فإن توليه لها راجع أيضاً إلى كفاءته، إذ أن ذلك يدخل في الإعتبار أيضاً، في ترقي المملوك للمناصب الكبرى. وبحق؛ فان طومان باى ، أظهر في كل منها تفانياً، ومقدرة فائقة ، وبالتالي اكتسب خبرة لم تتهيأ لأى سلطان سابق عليه ؛ مما جعله على علم بكل تفاصيل وظائف القصر ، وجهاز الدولة.

فكانت أولى الوظائف التي تولاها بعد تخرجه من الطبق ، وظيفة «أمير جمدار» [1]، وهي لفظة فارسية، بمعنى من يتصدى لإلباس السلطان في القصر؛ حيث شعارها لمن يتولاها «بقجة» مربعة [2] ، وهي حافظة للملابس ؛ إذ جرى العرف أن يكون لكل وظيفة مملوكية شعار خاص «رنك» ؛ يدل عليها برسم أو غيره ، وضع على كل ما يتعلق بالقائم بها؛ فكان توليه هذه الوظيفة ؛ دليل على الثقة فيه؛ فقد أصبح يعمل في حاشية السلطان «خاصكية»[3]. محمد بن قايتباى، وأعتبر واحداً من حواشيه «خاصكي».

فلما تولى السلطنة قانصوة الغورى أبقاه في حاشيته ؛ إلا أنه رقاه إلى رتبة « أمير عشرة» الحربية في سنة ٩٠٦/ ١٥٠١ ؛ بمعنى أنه أصبح تحت أمرته عشرة مماليك على الأقل ؛ فضلاً

(١) ابن إياس ، ٣ص ٦٨ ص ٢٢ . من الفارسية جاما أى ثوب ، ودار تعني ممسك .

(٢) لذلك كان يطلق عليه ماسك البقجة. حسن المحاضرة السيوطي. القاهرة، ٢ص ٨٥.

(٣) ابن إياس ، ٢ص ٦٨س- ٢٢ عنها، انظر . Dozy:suppl,I,p346

من سنة ١٢١٦ إلى ١٢٣٥م.

الملك الكامل(*) اعز الله نصره طبيب خاص به يعرف بالحكيم ابى شاكر بن ابى سليمن وكان مع السلطان على فاقوس، ومع السلطان الملك العادل خلد الله ملكه كاتب له يعرف بنش [نشء] الخلافة أبى الفتوح. وكان الملك العادل(*) يوميذ على بيت المقدس واصلا من دمشق الى مصر وكان هذان [الطبيب والكاتب] في زمانهما اقرب النصارى الى سلاطينهما فاجتمعت جمعيه الى القس داود بن يوحنا في يوم دفن البطريرك وهو

(*) الكامل: حكم بين عامى ١٢١٨، ١٢٣٨م.

(*) العادل: حكم بين عامى ١٢٠٠، ١٢٣٩م.

عن أعداد من الأجناد لاتقل عن ألف ؛ وإن لم لم يتنقل مع ذلك للعمل فى الجيش ؛ وإنما بقى بهذه الرتبة الجديدة ومفهومها فى القصر، فى حاشية قانصوة.

ثم رقاه قانصوة مرة أخرى إلى رتبة أكبر فى ١٥٠٤/٩١٠ ؛ هى : «أمير طبلخاناه» [1] ؛ معنى أنه أصبح له حق دق الطبول وغيرها من الآلات تشريفاً له ، فى موكبه أو فى مكان إقامته ، وهو تشريف كان سائداً فى الشرق منذ أيام البويهيين فى العراق ؛ وإن أصبحت هذه الرتبة الحربية تعنى أميراً مملوكيا تحت أمرته عدد من المماليك لايقل عن أربعين ، وأعداد كبيرة من الأجناداً أكثر مما يكون لأمير عشرة.

ولقد أتاحت له الترقية الجديدة ، أن يتولى منصباً آخر فى القصر ؛ حينما توفى ابن السلطان قانصوة، الذى كان يشغله ، وهو منصب شاد الشراب خاناه[2] ؛ أى الأمين على ما فى هذه الخاناه ، وهى الخزانة أو البيت السلطانى؛ إذ كان الغورى على عكس سابقيه من السلاطين ، يمنح أبناءه الوظائف والرتب ، مثل غيرهم من الأمراء المماليك سواد بسواه ؛ حيث أن هذه الوظيفة كان لايتولاها إلا أمير مملوكى برتبة «طبلخاناه».

(١) هى طبلان وزم ران: صبح الأعشى للقلقشندى، ١٤ جزءاً. القاهرة ١٩١٥. ٤ص ، ٦.

(٢) هذه الخزانة الهامة وجدت فى معظم قصور حكام المسلمين ، فكانت تشبه خزانة الشراب عند الفاطميين. نفسه ، ٣ص ٤٧٢ .وتكتب الشرابخاناه كذلك.

(*) أهم أحـــداث سنة ٩٣٤ ق.= ١٢١٨م.= ٦١٥هـ.
(*) فيها نزلت الافرنج على دمياط وحاصروها في ٥ بؤنة=٣٠ مايو= ٢ ربيع الأول واستولوا على برج دمياط بعد محاربات شديدة، تحت إمرة الملك الكامل بن الملك العادل، الذى كان بمرج صفر، ويرحل العساكر إلى دمياط وقد لحقته الوفاة في جماد الثاني، وقد كتم الملك المعظم عيسى موته حتى أدخله دمشق ودفنه بقلعتها، وعمره: ٧٥ سنة، وملكه مصر ١٩ سنة ولدمشق ٢٣ سنة * وفيها تمرد أحمد بن المشطوب

يوم الجمعة وجاءوا اليه عشية واتفق رأيهم على ان يدوروا ليلتهم تلك على الناس ويأخذوا خطوطهم باستصلاحه فمضوا الى دار واحد من الجماعة يعرف بشمس الرياسة بن صفى الملك بن المرصفاوى وراموا منه ذلك فلم يوافقهم عليه واعتذر بأن قال من هو أنا حتى اقم البطرك وفي الدنيا مثل الحكيم ابى شاكر والشيخ ابى الفتوح. وكان في الجماعة من هو مستنير وخال من الهوى. وكفهم [شمس الرياسة] عن الرواح الى

فكانت أهمية هذه الخزانه في أنها تحتوى على أدوات الصيني الفاخر ، والشوكات ، والكيزان ، وطاسات نحاسية وغير ذلك ؛كما تصنع فيها وتوضع أنواع الأشربة، والحلوى، والسكر والفواكه ، والعطريات ، وحتى الأدوية والعقاقير ، إذ كانت أشبه بالصيدلية الملكية ؛ فكان يطلق عليها أيضا: الدواء خاناه [١]؛ وفيها على الخصوص الثلج [٢]؛ الذى يجلب إلى مصر من الشام على الجمال أو في السفن . فكان من يعملون تحت يده : الممتار [٣] ـ أى رئيس الخاناه ـ وبخاصة الغلمان الكثيرون الذين يسمون : الشراب دار [٤]، وهم الذين يكونون مسئولين عما في هذه الخزانة ، ويتعلق عملهم بها . كذلك لما توفى أحد كبار الأمراء، من أصحاب الوظائف الكبرى في القصر، وكان يشغل وظيفة الدوا دار الكبير [٥]، هو أصطلاح فارسي معرب يعني من يحمل دواة السلطان ؛ لم يتردد قانصوة في أن يسند هذه الوظيفة إليه أيضاً في عام ١٥٠٧/٩١٣ ؛ فكان عمله فيها متشعباً ؛ ذا طابع سياسى وإدارى ،

(١) الخطط للمقريزى، ٢س ٣٢٥س ٢٥.
(٢) صبح الاعشى، ١٤ص ٣٩٥- ٣٩٣.كان الفاطميون مثل المماليك يستعملون الثلج على موائدهم، ويصرفون رواتب منه لأكابر دولتهم كما يرسلونه مع الحجاج في مكة ،وفي ساحات القتال.
(٣) مه بالفارسيه معناها الكبير، وتار: هى أفعل التفضيل أى الأكبر .
(٤) دار معناها .ممسك أى من يختصون بالشراب .
(٥) من دولة العربية ، ودار الفارسية ، ويقال للوظيفة: الدواداريه الكبرى. بتفعيل:

غيره وانصرفوا تلك الليلة بعد ان اتهموه بأنه فند اراهم وذلك الذى كان نصر هذه الجماعة من اول امرهم الى اخره لانهم كانوا كلما بصرهم الانسان مصلحة ونهاهم عن الافراط فى السعي والطلب وعدلهم نسبوه الى الانقلاب عليهم واتخذوه عدواً وقصدوا اخذ الاشيا بالقوة، فاتصل بجماعة المصريين ما جرى من هذه الجماعة فاختبطوا وقاموا وقعدوا ونفذ القاضى الاعز الوزير الى جماعة من كتابه وتحدث معهم فى حق السنى

على الملك الكامل فأخرجه أخوه الملك المعظم عيسى، صاحب دمشق، الذى حضر لنجدة أخيه الكامل، ثم سار إلى دمشق وأمر بهدم سور أورشليم وشرد أهلها حتى لا يحتلها الافرنج، وفى هذه المحاربة قاسى المسيحيون بمصر اضطهادا شديدا حتى صار هدم كنيستهم الكبيرة المسماة باسم القديس مرقس الذى كانت بالاسكندرية بقرب باب القبارى، وقد جعلت بعد ذلك جامعا.

وشعارها المقلمة ، التى تدل على القائم بها. فكان من عمله أن يقدم للسلطان كل ما يؤخذ عليه علامته ؛ لكى يأخذ صبغة رسمية ؛حيث كانت العلامة فى وقت المماليك عبارة عن جملة دينية: الله أملى. تكتب بخط معين، وبقلم خاص ، اسمه قلم العلامة؛ فقد جرى معظم حكام المسلمين فى العصور الوسطى على وضع العلامة على كتبهم الرسمية . أو يقدم إليه كل ما يتعلق بالإقطاعات، وهى غلة أراضى مصر ، التى كانت تمنح لطبقة المماليك بديلاً عن الرواتب؛ فصار لتوزيعها رسوم معينة ، منها ضرورة كتابتها فى حضرة السلطان. أو يقدم إليه مظالم الشعب، فى شكل شكاوى أو ظلامات، كان معظمها سببه التعدى أو الفساد من موظفى الدولة. أو حتى يحمل إليه البريد، وهو نظام سلطانى ؛ يتعلق بكل كبيرة وصغيرة فى الدولة ، من مراسلات إ دارية، ودبلوماسية ، وأوامر حربية ،وحتى أخبار السرقة والجرائم ، والأمر بإرسال الأمراء المغضوب عليهم إلى السجن . وبسبب مسئولياته المتعددة ،كان يتبعه عدد كبير من الدوار دار ؛ قد يبلغون عشرة أو حتى ثمانين ؛ وإن كان يبدو أن عددهم كان أقل فى آخر عهد دولة الجراكسة.

ويبدو أن طومان باى قد أظهر كفاءة نادرة فى المنصب السابق؛ مما جعل السلطان يجمع إليه وظائف متعددة أخرى هامة دفعة واحدة. فكفل إليه منصب : إستا دار العالية [1]

---

(١) من استذ الفارسية ، المعروفة فى مصر بالأسطى، ودار معناها ممسك ؛ بمعنى المتحدث فى البيوت السلطانية، وتكتب أيضا : إستدار .

من سنة ١٢١٦ إلى ١٢٣٥م.

[أبى المجد ابن سنيّ الدولة] كاتبه المقدم ذكره ولم يوافقهم احد عليه وكان ذلك فى ليلة الاحد رابع [عشر من طوبه] وفى صبيحة الاحد المذكور اجتمعت جماعة القس داود اليه واخذوا كتابا من رجل شيخ كاتب يعرف بالمعتمد بن حشيش الى الشيخ الوجيه بن الجندى كاتب السلطان الملك الكامل نصره الله لانه كان معه على فاقوس، مضمون الكتاب المذكور: ان الحضرة تعلم ما يلزم من حق الشيخ الاجل الرئيس المالك السيد نش

ووظيفته: الإستادارية العالية؛ وهى لفظة فارسية مركبة، تعنى المشرف على جميع البيوت السلطانية أو الخانات، حيث تعددت هذه البيوت لم يعرف قبلاً، وبلغت درجة كبيرة من الغنى؛ حتى أصبح غناها الفاحش منبعاً للخيال فى قصص ألف ليلة وليلة ، إذ أن غناها كان يتمثل فيما جمعه السلاطين من أشياء جلبت من جميع بقاع الأرض ، وفيما صنعوه فى مصر؛ فكان يشرف على هذه البيوت عدد كبير من الموظفين الكبار من أمراء المماليك والمدنيين ، فضلاً عن أنه كان لكل منها إدارة خاصة .

فبالإضافة إلى الشراب خاناه السابقة الذكر؛ أصبح إشرافه على بيوت أخرى (١)، مثل: الطست خاناه التى فيها ثياب السلطان، والفراش خاناه التى فيها المفروشات مثل الخيام وشلالت النوم والسجاد وما فى نوعه ، والسلاح خاناه التى فيها انواع السلاح، وما يتصل بها من مصانع لصنع كل صنف من السلاح، والركاب خاناه التى فيها كل ما يتعلق بالخيل من معدات الركوب . والطبلخاناه ، التى توجد فيها الآلات الموسيقية وغيرها ، والشكار خاناه وهى بيوت الطير وكل ما يتعلق بها، وبخاصة تلك التى تستخدم فى الصيد، والحوائج خاناه، وهى تعنى بيت الحوائج واللوازم الضرورية التى تصرف لمطبخ السلطان ، والمستحقات العينية لأرباب الدولة وغيرهم ، وغير ذلك.

(١) بتفصيل، انظر . ماجد ، نظم المماليك ، ٢ ص ١٥ وما بعدها ، مصادر أصلية متعددة.

الخلافة وما يرومه الاب القس داود وقد امكنت الفرصة والحضرة تعلم مكانه الشيخ المذكور من السلطان عز الله نصره والحضرة قريبة العهد به وما يومن ما يجرى على من يتحدث لغيره. وكتابا اخر من الفارس اخى الحكيم ابى شاكر اليه يقول فيه ان القاضى الاعز قد تعصب لكاتبه السنى ابى الفضايل وربما تم له الامر ليحمله بذلك وان ولدك ابا العلا مريض ليقلقه على المجىء وتتحدث معه الجماعة فى معنى القس داود وبينوا حاله واجتمعوا

ثم جمع له وظيفة أخرى هامة، هي و ظيفة: كاشف الكشاف [1]؛ المتعلقة بالتعمير الزراعى فى القطر المصرى كله؛ كشق الترع وإقامة الجسور؛ إذ كلمة الكشف وقتذاك تعنى الاهتمام بالأرض وأنتاجها . ويبدو أن ثقة السلطان قانصوة أصبحت مطلقه فى كفاءته ؛ حتى أنه طلب منه الإشراف على إقامة جسر فى الفيوم [2]، وكان السلطان ينوى أن يشرف بنفسه على إقامته لأهمية . فكان تحت يده خمسة من كبار الكشاف ؛ ثلاثة بالوجه القبلى ، واثنان بالوجه البحرى، غير اعداد لاتحصى من الموظفين ، الذين يتعلق عملهم بالأرض، مثل : القياسين أو المساحين ، الذين يقيسون المساحة، والشهود العدول وهم شهود الدولة الرسميون الذين يشهدون بصحة القياسات ، وقضاة العدل ربما ليكونوا حكما فى ذلك ، والكتاب الذين يحررون المساحات المزروعة ، والشداد الذى يشرفون على جباية الخراج، والجنود لأن الجباية تحتاج إلى من عرف بقوة البطش ، ثم الكيالين والشيالين والنواتية؛ وهؤلاء يحملون الإنتاج الزراعى فى السفن إلى القاهرة.

وأخيرا قبل سفر قانصوة لمحاربة العثمانيين فى الشام؛ أضاف إليه السلطان منصب نائب الغيبة الهام على أساس أن يقوم مقامه فى غيبته عن البلاد ؛ وهو يتكافأ مع منصب نائب

(١) ابن إياس ، ٣ص ٦٩ ،صبح، ٤ ص ٦٥،٢٥ ، زبدة، ص ١٢٩ -١٣٠ ؛ ماجد. نظم المماليك ، ١س ٧١-١٢ ؛

(٢) ابن اياس، ٣ ص ٩ س ٤ وما بعدها.

تلك الليلة عنده، اعنى القس، واكلوا وشـربوا. وسار بها الصايغ صاحب القس داود المذكور فى نهار يوم الاثنين الكتب المذكورة طالباً للخيم المقصودة وسيروا المصريين جماعة منهم يتحدثوا فى حق الشيخ ابى الكرم المعروف بابن زينور المقدم ذكره. وكان الحكيم ابى شاكر عند السلطان عندما بلغه خبر وفاة البطرك فقال له: يا حكيم كيف تعملون فى البطرك الذى تقيمونه(*)؟ قال: يا مولانا نختار ثلثة رجال اخياراً اتقيا علماء يقع

(*) أزمة حول طريقة أختيار البطرك الجديد بحسب طريقة الكنيسة القبطية.

السلطنة والكفيل ، الذى عرف بالسلطان الصغير أو المختصر أو الثانى ؛ فى أيام دولة المماليك البحرية. فتوليه لهذا المنصب جعله على رأس رجال القصر والدولة معاً، بحيث أصبح له حق تعيين الأمراء فى المناصب الكبرى، ومنح الإقطاعات؛ والنظر فى المظالم وغير ذلك ، وبمعنى آخر كأنه السلطان نفسه.

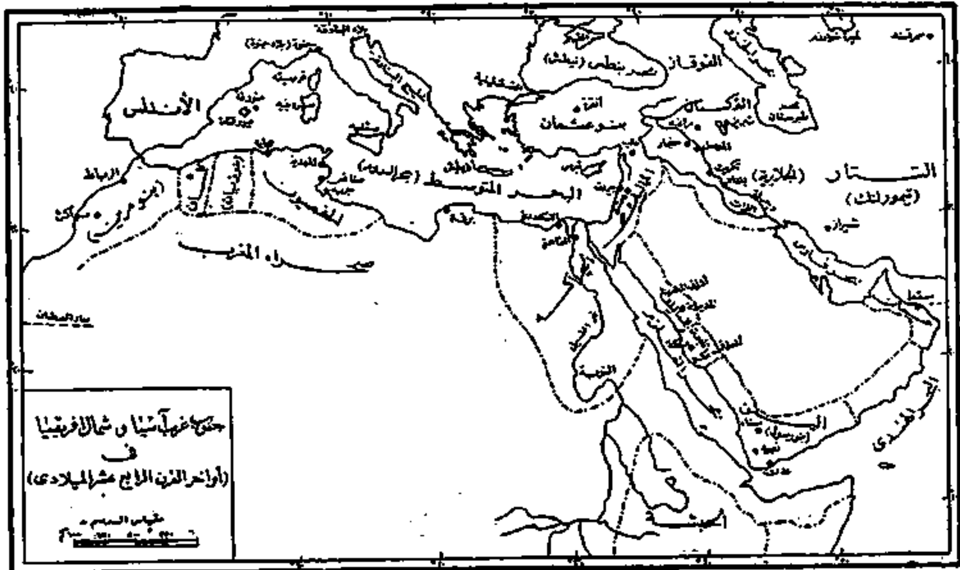

من سنة ١٢١٦ إلى ١٢٣٥م.

الاتفاق عليهم ويكتب اسماءهم فى ثلاث رقاع كل رقعة اسم واحد ونكتب فى رقعة اخرى اسم السيد المسيح ويترك الجميع على الهيكل ونصلى ثلثة ايام بطلبات كثيرة وابتهال متواتر وفى اخر الثلثة ايام نحضر طفلا دون البلوغ ونتركه يرفع واحدة من الرقاع بحضرة الشعب كله فيقراها فان وجدنا فيها اسما من الاسماء المختارة الثلثة قدمناه بطركاً علينا وان طلعت الرقعة التى فيها اسم السيد المسيح علمنا انه لم يرض احداً من اوليك

وفى خلال توليه لهذا المنصب الأخير أثبت أنه على مستوى المسئولية بحق ، بحيث حافظ على الجبهة الداخلية سليمة؛ حتى يتيح للسلطان وجيشه من المماليك ؛ أن يتفرغوا للمهمة التى ذهبوا من أجلها . فلم نسمع أن العساكر المتخلفين فى مصر قد أثاروا شغباً؛ مثلما كان يحدث غالباً فى غيبة السلطان ؛ وانما ضبط أحوال البلاد ضبطاً جيداً [1]؛ فلم يقع فى القاهرة إلا كل خير. بل كان يعمل على تقوية الروح المعنوية ؛ فكان يسير فى الشوارع فى مواكب رسمية بالطبل والموسيقى ،مما كان يثير الحماس والتفاؤل خصوصاً وأنه كان محبباً للرعية [2].

يتبين إذن أن طومان باى أصبح بالفعل مشرفاً على معظم وظائف الدولة المملوكية الكبيرة؛ بحيث لم يتبق له منها غير منصب السلطنة ، الذى ما لبث أن أتيحت له فرصة توليه أيضاً؛ نتيجة لقتل قانصوة الغورى فى حربه مع العثمانين . حقاً إن مصر أصبحت خاليه من السلطان؛ منذ سفر الغورى؛ إلا أنها لم تكن خالية من السلطة؛ لوجود طومان باى نائباً عنه. نقد عرض الأمراء المماليك الموجودون فى مصر ، ومن الذين قدموا من الشام بعد الهزيمة السلطة عليه، على أساس أن محمد ابن الغورى كان صغير السن؛ ولأن الغورى نفسه كان قد أوصى جميع أمرائه أنه إذا أصابه شئ أن يسلطنوا عليهم طومان باى ؛ فقالوا لطومان باى : «وما عندنا سلطان إلا أنت».

(١) ابن اياس ، ٣ص ٣٦س ٧وما بعدها ، ص ٦٩ .　　(٢) نفسه، ٣ص ٣١س ٨-٩ .

فنبطلهم ونرجع نختار ثلثة أخر ولا نزال كذلك حتى يطلع اسم من الاسماء فنقدمه. فأعجب السلطان ذلك وقال: افعلوا عادتكم. فلما وصل بها المذكور [الشيخ] بالكتب التى على يديه اوصل [الشيخ] الكتاب المختص بالوجيه بن الجندى اليه فقراه واخذه معه ودخل على الحكيم ابى شاكر فى خيمته واوقفه على الكتاب المذكور فاغتاظ غاية الغيظ وقال: كان البطاركة يقدمون بمثل هذا ويقال انت تعلم ما يلزم من حق فلان وما تريد

- -

ولقد تمنع طومان باى عن قبول السلطنة مدة خمسين يوماً؛ إلا أنه قبلها بعد ذلك ، تحت ضغط رجال الدين فى مصر وبخاصة ضغط عالم وشيخ كبير منهم، اسمه ابو السعود الجراحى، كان من مشايخ الصوفية، الذين كانت لهم مكانة خاصة لدى سلاطين المماليك ، بحيث أن زمنهم هو زمن كبار المتصوفة فى مصر؛مثل احمد البدرى والشاطبى والشاذلى وأبى العباس وغيرهم . فكان رجال الدين المصريون يأتون بالأمراء المماليك ، ويجبرونهم على وضع أيديهم على مصحف شريف، يحلفون عليه أنهم إذا سلطنوه لن يتآمروا ولايغدروا، ولايثير شغباً، وأنهم ينهون عن مظالم المسلمين قاطبة.

وعلى ذلك ؛ رجال الدين فى مصر كانوا هم السبب فى إختيار طومان باى للسلطنة؛ وأنهم تعبوا من استئثار إختيار السلطان من قبل المماليك وحدهم ؛ دون أن يكون لهم رأى فى إختيار سلطانهم؛ ولذلك سعت طبقة المشايخ أن يكون لهم رأى فى إختيار السلطان ؛ بعد أن كان المماليك يعينون وحدهم السلطان ؛ خصوصاً وأنهم فعلوا ذلك أيضاً مع قانصوة الغورى، الذى اختاروه لتولية السلطنة؛ وكان هو الآخر قد تمنع عن قبولها .

وأخيراً ؛ فإن طومان باى، كل مثل قانصوة الغورى (١) ، يملك ناصية اللغة العربية، وشديد الولع بالآداب والعلوم ، وله فيها خوض ونظر، ويقرض الشعر (٢) ، ومغرم بقراءة

(١) ابن إياس ، ٢ص ٥٩.

(٢) ابن زنبل الرمال: آخر المماليك. تحقيق عبدالمنعم عامر، القاهرة ١٩٦٢.

نقـدم فـلان لاجله مـا سـمع قط بهـذا. ثم اخـذ الكتـاب المذكـور وكـان قـد وافى اليـه الجـمـاعـة المصريون فنقلوا الكتاب على نسخ عدة، ثم وقف على كتاب اخيـه المضـمن مـرض ابنه فقلق واخذ دستوراً [إذن] من السلطان اعز الله نصـره وحضـر الى القـاهرة وبلغ اشـيـاء قـبـيـحـة عن القس داود وتحدث بهـا وبقى مـصـراً على امـر الرقـاع ووافقـه عليها اكثر الناس. فاما القس داود وجماعته فما كـانوا يرون ذلك بل كـانـوا يريدون الاخـذ بالقـوة

التواريخ والسير. فكان هذا شيئاً نادراً بالنسبة لطبقة المماليك عموماً، الذين كانوا يتكلمون التركية، ولو لم يكونوا تركاً، إلا أنه يبدو أنهم أيامهم تمصروا بحق، واعتبروا أنفسهم من أهل المنطقة؛ حتى أن معظم معاصرى طومان باى من الأمراء والمماليك كانوا يتكلمون العربية، والعامية المصرية.

*

وقد أقيمت مبايعة طومان باى بالسلطة، في يوم الجمعة ١٤من رمضان سنة ١١/٩٢٢أكتوبر ١٥١٦؛ بنفس الرسوم التى بويع بها السلاطين قبله؛ ولكن بشكل مختصر؛ بسبب ظروف الحرب ضد العثمانين.

وكان لابد من تواجد خليفة المسلمين للمبايعة، حتى تكتب بيعته الشرعية؛ إذ أنه لاشرعية بدون تقليد منه؛ إلا أن الخليفة المتوكل على الله، كان قد أسر فى حرب قانصوة ضد العثمانين؛ لذلك أحضر أبوه يعقوب وأخوه وأولاد عمه عوضاً عنه؛ حيث أظهر يعقوب محضراً كان ابنه وكله فيه قبل سفره فى جميع أموره، وما يتعلق به من أمور الخلافة وغيرها، وأنها وكالة مفوضة؛ فأثبت ذلك على يد قاض، وكتب يعقوب كتاب التولية لطومان باى.

بعد ذلك ،خرج السلطان، وحوله الأمراء ورجال الدولة ،وقدامهم أبو الخليفة في موكب بشعار السلطنه، من بنود وأبواق وطبول. ومع ذلك؛ فلم يكن على رأسه كثير من أشعرتها،

والسلطنة ولا يبالون بمن رضى أو غضب. واجتمعت أنا يوحنا بن وهب بن يوحنا بن يحى ابن بولس(*) بالحكيم في دخلته هذه الى القاهرة وقررت معه ان يكون اسم القس المذكور [داود] من جملة الثلاثة اسماء لانه كان صديقي وكنت اعرف منه علماً بارعاً وكهنوتاً حسناً وترجمة الالسن وانما كنت اكره منه تهافته وتظاهره بالطلب وقلة تحاشيه من الحديث في هذا الامر لنفسه وكنت انصحه في ذلك فلا يقبل النصح

(*) مؤلف هذه السيره هو يوحنا ابن وهب ولكن كاتبها وجامعها هو علم الملك ابن الحاج شمس الرياسات.

مثل : «القبة»(١)، أو ما كان يسمى ؛ أيضا «الجتر» ، وهى المظلة المصنوعة من حرير أصفر، مزركش بالذهب ، فى أعلاها طائر شبه الصقر، من فضة مذهبة. كذلك لم يكن يوجد فى موكبه «الغواشى»، (٢) - مفردها الغاشية- وهى على هيئة وسادة ، مصنوعة من خيوط الذهب ومزخرفة؛ حيث أعتبرت من أهم أشعرة السلاطين ؛ لأنها كانت أشبه بسرج ترمز لفروسيتهم .وحتى فرسه؛ فقد كان من غير «كنبوش» (٣) ،وهو ما يوضع أسفل السرج، ويكون عادة مزخرفاً «مزركشاً» أى مطرزاً، أما «السرج» نفسه، وهو مقعد الفرس فلم يكن مطعماً بالذهب ، وكذا لم توجد له «رقبة» (٤) ، التص هى عبارة عن شريط من قماش حرير لامع «أطلس»، مزركش بالذهب، ومرصع بالجوهر؛ توضع حول عنق الفرس، تحت أذنيه.

وحتى زوجته «الخوند»(٥)؛ جرت لها هى الأخرى مراسم خاصة فى هذه المناسبة ؛ فطلعت إلى القلعة بالفوانيس والمشاعل، ومعها نساء السلاطين «الخوندات»، لاسيما نساء الغورى الذى قتل فى حربه ضد العثمانين، وأعيان نساء الأمراء والموظفين ، ومن تعرفهن من

(١) بتفصيل: صبح ، ٢ص ٣٣، ٤ص٧-٨؛ ماجد، نظم المالك ، ٢ص ٩١-٩٢.
(٢) بتفصيل: صبح، ٢ص ١٣٣، ٤ص٧ ؛ انظر ؛ ماجد ،نظم المماليك ، ٢ص ٩١ يحملها غلمان الركاب.
(٣) جمعه كنايش. بتفصيل : صبح، ٢ص ١٣٥ ، ٤ص١٢، ٤٢.
(٤) بتفصيل: نفسه ، ٢ص ١٣٣، ٤س٨؛ ماجد ، نظم المماليك ، ٢ص ٩٢.
(٥) ابن إياس ، ٣ص ٧٦. هى كلمة تركية ،جمعها خوندات.

واقـول له ان هذا الامـر يصلح ان يتظاهر العـاقل
بأنه لا يريده واذا تحدث بهـا قـدامـه كـره الحـديث
وقام نزل من الموضع الذى يكون فيـه، هذا ان لم
يكن بارا وان كـان باراً فـيكون هذا باطنه وظاهره
لان هذا الامر فيـه اقدام على عظام وتقليد لرعيـه
كثيرة يكون الانسـان مداناً عنها، فيحمل الامر منى
على التـقيـيد له ولا يرجع عـمـا هو عليـه ولم يكن
متـوكـلا على الله في اعطا هذا الامـرله بل على
سعـيه واجتـهـاده. ثم سـألت الحكيم ان يقيـم تلك

الستات؛ وقد حملت فوق رأسها «القبة»، وهى المظلة المذكورة ؛ فدخلت القاعة المسماة ؛ قاعة الأعمدة أو العواميد[1] ؛ فجلست على مرتبتها بينهن.

*

وبتـولى طومـان باى السلطنة ؛ تلقب بألقـابهـا ، ولاسـيـمـا لقـبى : «سلطان»، و«ملك»، وكلاهما يدل على صاحب السلطة العليا في مصر منذ أيام الأيوبيين ؛ كما تلقب بالقاب درج على التلقب بها حكام المسلمين مثل : «الأشرف» ، وهو لقب الغورى من قبل، و«أبو النصر»، الذى يبدو أنه استحدث تفاؤلاً بالنصر على العثمانيين ؛ فكان يقال له: «الملك ، الأشرف، أبو النصر، طومان باى» .

كذلك أصبح الخطباء يخطبون باسمه على منابر المساجد ؛وإن توقفت الخطبة له قبل ذلك ؛ فبسبب تمنعه عن السلطنه ، لمدة خمسين يوماً، فلم يكن يخطب إلا باسم الخليفة فقط؛ كما ضربت باسـمه السكة وهى العملة ؛مثلما كان يحدث لمن يتولى السلطنة، وكتب اسمه وألقابه على الملابس الرسمية المسماة: «خلع» أو «تشاريف».

يضاف إلى ذلك ، أنه أصبح يقوم ، مثلما كان يقوم السلاطين قبله «بالرسوم الملكية [2]»؛ أو ما سمى أيضا: رسـوم المملكة أو السلطنة ، وهو ما كان يتبع في حفلات القصر، لاسيما

(١) بنيت في عهد بيبرس . نفسه ،١ص ١٠١ س٥,٢

(٢) بتفصيل، انظر. ماجد ،نظم المماليك ، ٢ص ٦٠ وما بعدها.

الجمعة الى يوم الاحدى ويجمع الاساقفة ويث الحال على ما قام في نفسه من امر الرقاع فلم يفعل، وكان بيّن الرأى بل انه لما علم ان ولده معافى رجع على حاله الى الخيم المنصوبة. وبعد ذلك عمل المصريون محضراً بان القس داود المقدم ذكره ممنوع من انبا بطرس اسقف الفيوم الذى كرزه قساً بسبب الاعتراف وفتن جرت بالفيوم وافتراق الشعب وانه ما خرج من الفيوم الا مطروداً من قبل الاسقف وان الاب البطريرك منعه

فى الأعياد الرسمية ؛ حيث كان يشترك فيها السلطان والأمراء ورجال الدولة والجيش ؛ وهى الرسوم التى لم يكن لها مثيل فى أى بلاط اسلامى آخر، بحيث أعتبر أن المماليك فى هذه الناحية ، ختموا الرسوم الباهرة فى مصر [1] ، فى العصور الوسطى.

وقد كان طومان باى يقوم بالفعل برسوم السلطنة فى أثناء غيبة الغورى ،ولاسيما الاحتفال بكسر الخليج ،وأما ما سمى أيضا بفتح أو جبر السد[2] ؛ مثلما كان يجرى بالرسوم الملكية من قبل؛ حيث لم تكن أخبار الهزيمة قد وصلت بعد ، وأن موت السلطان لم يكن قد تأكد كذلك .ومع أن المؤرخين لايذكرون تفاصيل كثيرة عن هذا الاحتفال؛ إلا أنهم قالوا عنه إنه كان له يوم مشهود ؛ مما يدل على اهتمامه به بالذات ، بسبب ارتباطه الوثيق بتقاليد الشعب المصرى ؛ منذ أيام الفراعنة.

*

وعلى كل حال؛ فقد تولى طومان باى السلطنة فى مصر.على أساس أنه السابع والأربعون من سلاطين المماليك فى مصر، والسادس العشرون من سلاطين الجراكسة والأخير فى دولتى المماليك البحرية والبرجية.

---

(١) إن إياس ، ٣ص ١٢٧ (آخر الصفحة). يتعذب أحد الشعراء عند ذكر حفلات المماليك الباهرة . نفسه ، ٣ص ١٢٩.

(٢) ابن إياس ، ٣ص ٣٧ ، ٦٩. عن تفاصيل احتفال سلاطين المماليك به ،انظر .ماجد ،نظم المماليك ، ٢ص ١٢٨ وما بعدها.

ايضا لما اتضح له من فساد اعتقاده ودميم طرايقه
وكتب فيه اثنان وعشرون قساً من قساً مصر
والقاهرة وضواحيها، وكان المحضر المذكور بخط
مصطفى الملك ابى يوسف بن الخطاب. وكثر
القال والقيل وعظمت المحنة والبلية وصاروا الناس
ياخذون على القس المذكور اشيآء، فقوم يقولون
هذا من الفيوم والفيوم من حيز الصعيد ولا يجوز
تقدمته، وقوم يقولوا هذا كان طلب في حياة
البطريرك مطرنه الحبشه ولم يجب اليها البطريرك

أحوال مصر
تحت حكم طومانباي

وحينما تولى طومان باى السلطنة،كانت البلاد في أقصى درجات التدهور ،والدولة المملوكية في آخر رمق؛ نتيجة لعوامل متعددة، ظهرت تدريجياً طوال مدة حكمها التي امتدت زهاء ثلاثة قرون ، وبدت بشكل واضح في أخاخر أيامها؛ بحيث توقع مؤرخون كثيرون ،كانوا شهود عيان لها، أن سقوطها وشيك الوقوع؛ وحتى أننا نحس بأن فترة اضمحلال قد وقعت بالفعل في تاريخ مصر، مثلما كان يحدث من قبل ، في أيام الفراعنة . ومع ذلك؛ فلنا أن نقرر أن طومان باى نفسه ليس هو المسئول عن هذه العوامل التي مهدت للقضاء على دولته ،كما لم يكن من الممكن أن يفعل شيئاً إزاءها، حتى ولو توفرت له النية الخالصة في مجابهتها ؛ إذ قد استشرى الفساد في كيان الدولة المملوكية ، وتحالفت عناصر الشر ضدها وكأنها حتمية النهاية ولم يعد هناك أى أمل في استنقاذها.

*

ولعل أظهر العوامل قد أتى من طبيعة الحكم المملوكي ذاته، الذى لايرعى إلا مصلحته في المقام الأول؛ بصرف النظر عن حقوق رعاياه المشروعة في الحياة، مما جعل الناس يقفون منه موقفاً سلبياً حينما هاجم العثمانيون مصر . فقد كانت دولة المماليك دولة عسكرية متعفنة، يحكمها أرباب السيوف ، الذين استحوذوا على السلطة ، بشكل لم يعرف إطلاقاً في تاريخ

بل امتنع من هذا غاية الامتناع، وقوم يقولون هذا ما استصلحه البطرك لان يقيم بدير العربه لانه كان طلع اليه ونزل به منه، واشد ما كان عليهم انه لم يسل عن البطرك فى مرضه ولا حضر جنازته واشيآء اخر شنيعة لا يليق ذكرها بهذا المسطور. ولما كان تمام الشهر اجتمع خمسة من الاساقفة وهم أنبا مهنا اسقف ابو صيربنا(*) وكان كبير الاساقفة يوميذ واخوه انبا مرقص اسقف لقانه وانبا ميخاييل اسقف طلخا المعروف بهديه وانبا غبريال اسقف

(*) ابو صيربنا: هى بوصير، أحد مراكز عبادة الاله اوزير. وفى العهد العثمانى فى تربيع سنة ٩٣٣ هـ أضيف إلى القرى التى باسم بوصير ألف فى أولها فصارت كلها بما فيها هذه باسم أبو صير. وهى كانت تابعة لمركز

مصر القديم أو الحديث ، أو حتى فى خارج مصر .حقاً إن معظم حكام مصر فى العصرين القديم أو الوسيط ، قد و سموا بالطغيان والاستبداد ؛ إلا أن طغيانهم وكان فردياً وأسرياً. ولكن بمجيء دولة سلاطين المماليك ، فإن الطغيان أصبح طغيان طبقة يجمعها رباط الرق. وعلى الرغم من أنه كانت تنخرط فيها جنسيات متعددة ، أتت عن طريق الشراء على الخصوص ؛ ألا أنهم كانوا يذوبون فى شكل طبقة متماسكة ؛ تتميز بنوعيتها وبعزلتها عن شعب مصر ؛ حتى أننا نجد إلى آخر عهد الدولة المملوكية وظيفة :«تاجر المماليك»[١]؛ وذلك لدعم كيانها عن طريق الشراء.

وقد ترتب على ذلك، أن أقامت هذه الطبقة الحاكمة من الأرقاء الغرباء لنفسها وظائف كبرى وصغرى ثابتة؛ تمكنت من خلالها من السيطرة التامة على البلاد سياسياً وعسكرياً واقتصاديا. وعلي الرغم من تغيير السلاطين المستمر، فإن كل سلطان كان يتولى الحكم ، يشغل هذه الوظائف الثابتة المحددة بأعوانه . وفى سبيل ذلك ، يقوم بعزل من كانوا يشغلونها من قبل ؛ وإن كان قد يكفل بعضها مضطراً إلى من كانوا فيها ؛ اذا كان من الأقوياء ولم يند عن ذلك ، طومان باى نفسه ، الذى ما ان تولى السلطنة حتى عين فى وظائف الدولة الكبيرة والصغيرة بعض الأمراء من أعوانه ؛ وإن كان تحت إلحاح بعض الأمراء الأقوياء من أعوان السلطان الغورى السابق ، قد اضطر إلى الأبقاء على البعض منهم؛ على الرغم من شكه فى

(١) ابن إياس، ١ ص٧٣ (آخر السطر).

اطفيح وانبا مرقص [اسقف] مليج وصلوا على البطريرك انبا يوحنا نيح الله نفسه في تمام الشهر وتقربوا عليه في يوم السبت الرابع من امشير من السنة المقدم ذكرها وعادوا الى كنيسة القديسين سرجيوس وواخس لانهم كانوا مقيمين بها، فعند عودهم حضرت رسل الامير امين الدين والى مصر باحضارهم فحضروا قدامه فقال لهم: انتم قد صليتم على بطرككم يخرج كل واحد منكم الى بلده ولا تقعدوا ساعة واحدة. فقالوا: يا مولاى

المحلة الكبرى، فلما انشئ مركز سمنود سنة ١٩٣٥ ألحقت به لقربها منه.
اما لقانه: فأصل اسمها نقانه، وفي العهد العثماني حرف اسمها إلى لقانه، وهي من قرى البحيرة.
طلخا: أحد مراكز الغربية.
اطفيح: من أقدم المدن. كانت قاعدة لمركز أطفيح سنة ١٨٢٦ ثم ضمت إلى الصف بالجيزة.
مليج: كانت تابعة لكنيسة تيالكيا القريبة منها، ثم اشتهرت مليج دون تيالكيا.

أخلاصهم له ولحكمة. وعلى كل حال ؛ فقد كانت هذه الطبقة تحرص على كيانها ، بالإستحواذ على معظم وظائف السلطنة.

وعلى الرغم من أن طومان باى نفسه قد تولى السلطنة بناء على تأييد المصريين ، وأنهم هم الذين سعوا إلى توليته ؛ فإنه مثل سابقيه من سلاطين الجراكسة لم يحاول اشراكهم فى المسئولية السياسية معه فى الحكم . وهو مثلهم أيضاً لم يعمل على إعادة منصب الوزير ،الذى كان يختار عادة من بين المصريين ، وله الأشراف على الجهاز الإدارى ، فيكون بذلك الحاكم المباشر للمصريين .حقاً إنه فى ظل المماليك البحرية،كان يوجد منصب الوزير احياناً؛ إلا أن الوزارة على عهدها أصبحت غير مستقرة بسبب إستبداد السلاطين ؛ مما أوجد بالتالى حالة من الفوضى فى شئون مصر الإدارية . فقد كن الوزراء يتغيرون بسرعة مذهلة ؛ حتى أن ذاكرة المؤرخين لم تعد تعى أسماءهم، وأوقات توليهم ؛ فبعضهم يمكث أشهراً أو أياماً أو يوماً؛ كما أنها أضحت بالتالى مهنة ، يعود إليها من صرف عنها ؛ ليتولاها عدة مرات (١)؛ لفترات تقصر أو تطول وإن كان أغلبهم مطعوناً فى كفاءتهم؛ بحيث أبدى المقريزى ملاحظة أن الوزارة أصبحت فى وقته تطلق على موظف يشترى حاجيات السلطان (٢) . فلعل هذه الحالة التى وصلت إليها الوزارة ؛ جعلت طومان باى مثل سابقيه من السلاطين يشرف على كل

(١) ابن إياس ، ٣ص ٤٤ س ٨. تولاها أحدهم فى عهد الغورى أربع مرات.
(٢) الخطط ، ٣ص ٣٦٣، انظر .ماجد .نظم المماليك . ، ١ص ٤٨ .

نحن نقيم غداً لا غير حتى نصلى على قبره ونمضى. وذكر ان الحامل للوالى على ذلك كتابه تقرّباً من قلب نش الخلافه لانه خشى ان يتفقوا على تقدمه غير القس داود فبادر بذلك وعادوا الى موضعهم كئيبين. فذكر لى القس بومنصور قس كنيسة بوسرجه والشيخ السنى ابو المجد ابن القسيس بو الفرج انهم جميعاً اجتمعوا قدام الهيكل غير اسقف مليج وحرموا القس داود ومنعوه ودعوا عليه وحلفوا انهم لا يضعون عليه

- -

شئ فى الدولة، كما أن سير الأحداث اللاهثة فى وقته ربما لم يمكنة أيضا من التفكير فى إعادة هذ المنصب .

ومع ذلك ، فإن الشيخ أبا السعود ،وهو من رجال الدين المصريين، والذى كان السبب فى توليه طومان باى ؛ أراد أن يشاركه فى مسئولية الحكم، ويتصرف معه فى أمور المملكة من عزل وولاية [1] ويبدو أن طومان باى قد استجاب له بالفعل ، فسمح له بأن يفعل ما يشاء بموظفى الدولة، الذين أصبحوا رهن إشارته ؛ حتى أنه أمر بشنق أحدهم [2].

مما جعل السلطان يحد من نفوذه نهائياً ويسيطر على الحكم بمفرده ، مثل سابقيه من السلاطين ،كسلطة أو تقراطية وحيدة فى البلاد.

والخلاصة أن طومان باى سواء فى غيبة السلطان الغورى ، أو فى وقت سلطنته ، قد أراد أن يكون رءوفا بالرعية ؛ إلا أن تركيب الدولة المملوكية لم يجعله يستطيع أن يغير شيئا جذرياً فى أحوال الأهلين ، أو الدولة ذاتها ؛ وهو التركيب الذى جعل طبقة المماليك فى واد وأهل مصرفى واد آخر.

*

وعامل آخر كان من أسباب تدهور الأحوال فى عهد المماليك فى مصر ، اتى من العرب

(١) ابن إياس ، ٣ص ٧٧س٤-٧.　　(٢) نفسه، ٣ص ٧٥.

يدا ابدا بحكم ما جرى عليهم من وجع القلب بسببه ثم انهم صلوا على قبر البطريرك وتوجهوا كل منهم الى كرسيه. ووصل السلطان الملك العادل خلد الله ملكه والشيخ نش الخلافة معه ودخل الجميع الى القاهرة فذكر لى الشيخ الحكيم ابو شاكر رحمه الله انه اجتمع بالشيخ نش الخلافة وقت وصوله وفاوضه في امر القس داود فقال ما يصلح. وانه مرتين اخرتين زاره في داره بالقاهرة وذكر له انه ما يصلح. وبقيت المشاجرة على حالها

والعربان ، الذين سكنوا فيها ، فقد كانوا يتنافسون مع المماليك فى السيطرة عليها ، واستغلالها ونهبها.وكان هؤلاء العرب قد سكنوا مصر منذ الغزوات الإسلامية الأولى ؛ حينما نقل إليها الخليفة هشام بن عبد الملك الأموى ، بيوتات من عرب قيس ، بلغوا ثلاث آلاف أهل بيت (١)، ثم قدمت إليها قبائل أخرى من البادية ؛ حيث كان تجمعهم الكبير فى الحوفين(٢): الشرقى والغربى وهما المنطقتان المتصلتان : الأولى من جهه الشام ، والأخرى غرب دمياط ؛ يشتملان على بلدان وقرى ؛ حتى غلب عليهم اسم : الحوفية ، أو أهل الأحواف أو الحوف ولاسيما فى بلبيس (٣) ، من مدن الحوف الشرقى الرئيسية، التى وجد فيها وحدها ألف وخمسائة أهل بيت من قيس (٤)؛ فكان هؤلاء العرب يسيطرون على البلاد فى أيام الأمويين.

ومنذ قيام الخلافة العباسية . أصبح الاعتماد على العرب وحدهم غير ممكن فى مصر؛ بسبب أنهم كانوا من المناصرين للخلافة الأموية. وفى أول الأمر حاو ل العرب الإبقاء على سيطرتهم فى البلاد ، وأصبحوا يولون الولاة بأنفسهم، وتوقفوا عن أداء الخراج.

وقد كان اعتماد المعتصم بعد المأمون على الترك وحدهم فى الجيش، وابقاؤه على حامية من هؤلاء فى مصر ؛ سبباً فى إضعاف نفوذ العرب فيها، كما أنه أسقط أرزاق ورواتب هؤلاء

(١) الخطط، ١ص ١٢٨س ٢٢- ٢٣،

(٢) معجم البلدان لياقوت، ٣س ٣٦٧. وجدت أحواف أخرى، مثل حوف رمسيس.

(٣) معجم البلدان ، ٢ص ٢٦٢.

(٤) الخطط ، ١ص ١٢٩س٧.

والبغضا وحديث الناس بعضهم فى بعض واخراج
مثالبهم ومناقضهم ودخل الصوم المبارك واجتمع
الشيخ نش الخلافة بالشيخ نش الامام بن عز
الكفاه بن ابى يوسف ورام منه ان يكتب التزكية
للقس داود فامتنع عليه وانفصل منه مغضباً وبعد
ذلك اجتمع بى القس داود وذكرنى ما بينى وبينه
من المودة وسالنى فى كتب التزكية فقلت فى
نفسى هذه وراقة ما علىّ فيها من الله تبعه ان رضى
الناس واتفقوا رضيت وان لم يفعلوا يكتبون له

من الديوان ـ أى السجلات الرسمية ـ حيث كانوا يأخذونها ويتوارثونها منذ عمر بن الخطاب، أى منذ مائتى سنة .

وقد مهد ذلك إلى أضعاف نفوذ العرب فى مصر ، حتى قال المقريزى إنه أنقرضت دولتهم فى مصر[1] ، وأصبحوا يعرفون بالعربان على الخصوص؛ بمعنى قاطعى الطريق؛ مما يدل على أنهم قد أصبحوا عناصر قلق فى البلاد.

ولكن عربان مصر؛ مالبثوا أن استعادوا بعض نفوذهم، حينما جاءت مصر قبائل عربية أخرى، من الخليج العربى، مدفوعة من دولة القرامطة بقصد أن يزيحوا الفاطميين عن مصر، الذين فتحوها بعسكر من المغاربة والبربر، وبرغم هزيمة القرامطة وانسحابهم ؛ إلا أن عرب الخليج عرفوا طريقهم إلى مصر، كما نقل الفاطميون إليها من بقى منهم فى فلسطين ، لاسيما من بنى سليم ؛ حيث أسكنهم العزيز الفاطمى الصعيد على الخصوص ؛ ليكونوا تحت رقابته؛ وحتى لايتفقوا مع عرب الشام ضده؛ وإن كانت المصادر لاتذكر مقرسكناهم فيه؛ مما يبين أنهم سكنوا الجبال والصحارى المحيطة به فى أول الأمر.

وقد أصبح العربان فى عهد الفاطميين، لاهم لهم إلا الإغارة على القرى ، والزحف عليها، والإحاطة بالمزارع، وإثارة القلق فى أنحاء البلاد، وتهديد طمأنينتها، مما حدا بالفاطميين إلى أن

(١) الخطط، ١س ١٥١س ٢٨ ، ١٥٢.

كنت انا لم اعمل ذنباً إنما زكيت شخصاً يتعين له على ذلك. فكتبت له أربع نسخ واحدة للاساقفة وواحدة للقسوس واخرى للاراخنة واخرى للرهبان وبعد ذلك كتبنا اخرى للاسكندرانيين. وسير الشيخ نش الخلافة القس مرقس بن رجال الى الوجه البحرى ومعه تزكية للاساقفة والرهبان فحضر ومعه اثنا عشر اسقفاً من أساقفة الوجه البحرى بعد ان كتبوا خطوطهم فى التزكية منهم ثلاثة ممن قدمنا ذكره منهم [انبا مرقص] اسقف

يتخلصوا من بعضهم؛ حينما انتفض المغرب عليهم ؛ فأرسلوهم إليه في أعداد كبيرة حيث نعرف من السجلات المستنصرية وكتب المؤرخين ؛ أسماء بعض قبائل العرب التى أرسلت ، مثل: رباح وزغبة والأثبج (الأسيج) وعدى وصعصعة وسليم. ومع ذلك؛ فإنه غلب على غزوة العرب للمغرب اسم الغزوة الهلالية؛ ربما بسبب أن أغلب هذه القبائل السابقة من أحياء بنى هلال؛ وإن كان يبدو أنه لم يذهب أغلبهم بدليل بقاء بعض الهلالية فى مصر إلى أيام المماليك. ولقد كان غزو العرب للمغرب عاملاً على تغيير جذرى فى أصول سكانه، كما خلدته قصص أبى زيد الهلالى نسبة إلى بنى هلال ، والزناتى خليفة نسبه إلى قبيلة بربرية هى زناتة.

ومن ناحية أخرى ، كانت بعض قبائل عربية أخرى فى مصر تقاوم الحكم الفاطمى نفسه ؛ على الخصوص بنوقرة[1] ، من قيس ، التى سيطرت فى إقليم البحيرة، وفى نواحى الإسكندرية ، واشتدت وطأتهم على الولاة الفاطميين؛ فضلاً عن تعاونهم مع أعداد الفاطميين ؛ مثل أبى ركوة المغربى، لاسيما الاتفاق مع عرب الشام فى فتنهم، ومضايقة الفلاحين فى قراهم ؛حتى أن الحاكم بأمر بالله حاربهم بعساكره، وحبس جماعه من أعيانهم، وقتل بعضهم كما اضطر اليازورى فى زمن المستنصر ، إلى أستدعاء قبيلة عربية أخرى من فلسطين، هى

(١) الخطط، ٤ص ٦٩ ؛ إغاثة الأمة، ط ٢ ، س ٢٤ س ٦.

لقانه واخوه الكبير [انبا مهنا] واسقف طلخا [انبا ميخاييل]. وكان اسقف طمبدى(*) انبا بطرس قد وصل فصاروا ثلثة عشر اسقفاً وكتب الاخر خطه في التزكية واحضرت تزكية الرهبان وقد كتب فيها زها اربعين راهباً وكتب في تزكية القسوس جماعة من قسا القاهرة والوجه البحرى واما القسا الذين كتبوا في محضر منعه فلم يكتب له منهم احد اصلا وكتب في محضر الاراخنة جماعة كبيرة وبقي جماعة ممتنعين فلما رأى الحكيم وجماعة المصريين حضور الاساقفة وما جرى خافوا

(*) طمبدى: وهي من قرى غرب النيل في صعيد مصر من اعمال البهنسا. والي جوارها تقع قرية إشنى (إشنين النصارى). وتسمى هي واشنى العروسين لحسنهما.

بنوسنبس [١]، لعلهم أيضاً من قيس، وأقطعهم البحيرة مكان بني قرة؛ فنزلوا ديارهم وعلاشأنهم؛ وسرعان ما أصبحوا أيضاً عناصر قلق، فسعى الفاطميون لتأديبهم ؛ بحيث أنهم في أواخر دولتهم قتلوا منهم مالايحصى ؛ وإن بقى مع ذلك كثيرون إلى وقت المماليك؛ وحتى قبيلة لواته[٢]، التى ربما كانت من أصل مغربى، تقيم في برقة وافريقية ، على أيام الغزوات الأولى ، وتبيع أبناءها في الجزية ،ولانعرف متى انتقلوا إلى مصر، وربما كان أغلبهم في مصر نتيجة لهذا البيع ؛ إذ بلغ عددهم فيها نحو خمسين ألفاً أو أربعين ألفاً سوى أتباعهم - ربما الرقيق - فعمد بدر الجمالى وزير المستنصر القوى- على حسب قول السجلات ، وهى الأوراق الرسمية - إلى القضاء عليهم باستئصالهم ؛ حيث شبههم بالوحوش، وأنهم ليسوا من البشر؛ فبسبب غاراتهم خربت البلاد وتوقفت الزراعة ،كما كانوا يهاجمون الرهبان في أديرتهم بالصحارى.

وعلى ما يظهر بقى من العربان في مصر أعداد كبيرة مع ذلك ؛ فالمؤرخون يذكرون اشتراكهم في مصر ضد الصليبيين ؛ بحيث كانوا يتخطفون الفرنجة ،ويبيعونهم لسلاطين الأيوبيين ثم إن المقريزى يذكر أنه في أيام المماليك، كانت توجد منهم في مصر جميع فروع شجرة النسب العربى، حتى أنهم كانوا في كل مكان ،ولاسيما في الفيوم. وبنواحى

(١) الخطط ، ٢س ١٣٩ ؛ البيان والإعراب ، ط. wust ،ص ٩ .
(٢) معجم البلدان ، ٧ص ٣. وربما كانت من أصل عربى. فتوح البلدان ، ص ٢٥٥ .

ان يتم الامر واغتاظ الحكيم غيظاً كثيراً فاجتمعت جماعة كبيرة من النصارى ووقفوا للسلطان الملك الكامل وتضرروا من تقدمة هذا القس عليهم وذكروا انهم لا يرضونه وانه مخالف لاعتقادهم ورأيهم فقال لهم: طيبوا قلوبكم ما يقدم عليكم الا من تريدون. وبقى الشيخ نش الخلافة متردد الى الحكيم بوشاكر ليلا يسأل عنه ولا يقول له شيئاً بل ان الرسايل كانت بينه وبينه. وكان الحكيم لا يرضى بهذا القس والشيخ نش الخلافة لا ينزل عن اختياره والشغب واقع بين الشعب. وبعد ذلك ندب

الإسكندرية ،وأمتدو إلى الصعيد في أعماقه. حتى أسوان .كما أصبحوا لهم حب في الترحال، بعضهم يرحل من البحيرة حتى يصل القيروان. وآخرون في الجنوب ما يلي قوص، يغزون في السودان، ويأتون بالسبايا ويكتب لمشايخهم تقليد بأمرة العربان، ولهم مكاتبات رسمية (١)؛ مماكان سبباً في تغيير جنسي جذرى لسكان السودان، امتد حتى وسط أفريقيا.

فكان موقف هؤلاء العرب في مصر من المماليك.مثل موقفهم من الفاطميين ، فاعتبروا أنفسهم أحق منهم باحتلال مصر كلها ؛ بحيث أنه حينما - سلطن أيبك . الملقب بالمعز، وهو أول سلطان مملوكي في مصر . لم يرضوا أن يحكم المماليك . وثاروا في البلاد ، وقطعوا الطريق ،وقالوا نحن أولى بالملك منهم (٢)، وقد تزعمهم في ثورتهم شخص اسمه حصن الدين ثعلبة، وأنضم إليه العربان في كل مكان، حتى بلغ عددهم مائة ألف ؛ فخرج إليهم السلطان ايبك بمماليكه وقاتلهم،ولكن زعيمهم ثعلبه استطاع الفرار ويبدو أن العربان، وجدوا ألا فائدة من مقاومة المماليك ، فسعوا إلى الاتفاق معهم على اقتسام البلاد؛ حيث أسرع أيبك بوعدهم بالإقطاعات والأمان، ولكن أيبك حينما جاء زعماؤهم للاتفاق معه قتلهم وشنقهم على الأخشاب التى نصبها من بلبيس إلى القاهرة ، وأمر مماليكه بمعاملة العرب بقسوة ، وزاد عليهم الضرائب.

(١) التعريف بالمصطلح الشريف العمرى، مصر ١٣١٢هـ ، ص ٧-٧٧.
(٢) المقريزى، البيان والإعراب.

السلطان اعز الله نصره القاضى الاعز الوزير الحضور الى مصر وجمع النصارى وسماع حديثهم فحضر الى مصر وحضر معه الحكيم بوشاكر وجلس بدار الوكالة العادلية واحضر جماعة من وجوه المصريين واستخبرهم فقالوا هذا ما [لا] نريده اصلا وذكروا فيه اشياء قبيحة لا يليق ذكرها فقال لهم: فمن تريدون فقالوا عندنا رجل شيخ جيد، يعنون الشيخ ابا الكرم المقدم ذكره والشيخ الصنيعة بن السكرى وهذا كان كاتب الخزانة

ومع خضوع العربان للمماليك إلا أنهم استمروا في حرق الأخضر واليابس[١]، وإثارة قلاقل عنيفة،مثلما كانوا يفعلون غالباً ، وساعد على بذلك تغير السلاطين الدائم؛ فكان مشايخهم يشيعون الفساد في البلاد. فمثلاً: في سنة ٧١٣/١٣١٣[٢]؛ اضطر السلطان الناصر بن قلاوون. أن يذهب بنفسه إلى الصعيد ليعيد إليه حالة الاستقرار؛ مما جعلهم يرحلون إلى الجبل، وأسر البعض، ووضعهم في جنازير الحديد، واستخدمهم في حفر الجسور، بل كانت بعض قلاقلهم تستمر سنوات ، مثلما استمرت من ٨٨١إلى ٨٨٣/١٤٧٦ - ١٤٧٨[٣]؛ وغير ذلك من فتن عديدة ، استمرت طوال حكم دولة سلاطين المماليك في مصر.ويبدو أنه من كثرة مقاومة السلاطين لهم؛ وبسبب أنهم عناصر اعتادت الإجرام ؛ فانه قد خمدت جمرتهم من كثرة فتنهم، وتبدد شملهم، وكان نتيجة ذلك أن تركوا الريف ودخلوا المدن ؛ فكانوا يقومون بالسرقة.

ولعل السلطان الغورى بالذات ، الذى تولى السلطنة قبل طومان باى كان قد بالغ فى تأديبهم ،وقتل منهم عدداً كبيراً؛ حتى أصبح لايوجد عربى منهم إلا وقتل له واحد من أقربائه[٤] وأصبح يطالب بثأره،كما أنه سجن عدداً كبيراً ، ووضعهم فى الحديد. بل كان الغورى، قد أرسل طومان باى ضدهم، الذى فاجأهم وقبض على عديد من مشايخهم ،

(١) ابن إياس ، ٣ص ١٤٣.
(٢) نفسه، ١ س ١٠٨-١٥٩.
(٣) نفسه، ص ١٦٠ .
(٤) ابن زنبل ، س ٥١.

العادلية وهو من اكابر اهل الاسكندرية والعضو الشريف عنده .وذكروا جماعة من الرهبان منهم حبيس ابيار. واتفق رايهم جميعاً على الرقاع وكتبوا محضر برضاهم بذلك فكتب فيه اكثر الناس واخذه السلطان الملك الكامل عرضه على ابيه وكان الشيخ نش الخلافة قد قال للملك العادل عندما جرى ذكر القرعة يا مولانا هذه سنة الافرنج(*) وليست سنتنا. فلما وقف عليه قال ما تم قرعة ولا صداع تتخيروين واحداً نجعله لهم. ورجع

(*) سُنة القرعة فى اختيار البطرك عند الافرنج تخالف طريقة الاختيار عند القبط.

وساقهم مصفدين في الأغلال ، وكاد السلطان يشنقهم ؛ لو لاأنه تحت تحريض طومان باى اكتفى بسجنهم.

إلا أن الأحوال السيئة ، التى أحاطت بالدولة المملوكية فى أخريات أيامها؛ نتيجة للغزو العثماني ؛ جعلت الغورى يتساهل مع العرب؛ حتى أنه قبل أ ن يسافر لحرب العثمانيين ، جمع منهم نحو عشرين ألف فارس ، وزعهم على سائر البلاد المصرية؛ ليحرسوها؛ ذلك على الرغم من تحذير البعض له من هذا التصرف ، الذى لم يجر عليه السلاطين قبله[١]؛ بحيث أصبح العرب هم الذين يحكمون في أرجاء مصر، ويجبون ضرائبها، مما مهد لزيادة نفوذهم بشكل لم يعرف قبلاً .وحينما علم العربان بقتل الغورى، هجموا على عسكر المماليك الراجع منهم إلى مصر [٢]؛ كما هاجموا الريف، وقتلوا من الفلاحين ما لايحصى ، ونهبوا بلاداً عديدة ، ولم يقوا فيها مواشي ولابقراً ولاغنماً؛ وأخذوا حلى النساء، وقطعوا جميع الطرقات [٣].

ومع ذلك ؛ فقد أراد طومان باى أن يستعمل العرب، وأن يجعلهم ينسون ما كان من السلاطين السابقين، ولاسيما الغورى؛ فأطلق كثيرين ممن كانوا في سجون السلاطين ، وخلع على شيوخهم[٤]، لاسيما زعمء قبيلتى غزالة وهو ارة ؛ حيث كانت الأولى تمتد من الجيزة إلى سنهور أي الإسكندرية،[٥] أما الأخرى فكانت في جرجا [٦].

(١) ابن إياس ،٣ص ,١٥
(٢) نفسه، ٣ص ٧٣ ص ٢٥ .
(٣) نفسه، ٣ص ٥٤س ١٨وما بعدها.
(٤) نفسه ، ٣ص ٧ص ٢٥ .
(٥) ابن زنبل، ٤١ .
(٦) ابن زنبل ، ص ٦٦؛

النصارى وقفوا للسلطان الملك الكامل مرتين اخرتين فى انهم لا يريدون ولم يزل الحال يتراخا الى ان جاءت الجمعة السابعة فخرج الاساقفة الى كراسيهم بعد ان كتب منهم ثمانية خطوطهم بمنع نفوسهم ان قدموا غيره، وبقى الحال بحاله والشقاق والفتنة باقيان. فلما كان فى الجمعة الكبيرة نقل السلطان الملك العادل الصنيعة ابو غالب بن السكرى المقدم ذكره الى تولى ديوان ثغر الاسكندرية وامره بالخروج اليه واستخدم معه ناظراً

والواقع إن دور العربان في مصر، كان سبباً فى تدهور أحوالها ؛ بسبب فتنهم التى لم تنقطع ؛ فضلاً عن أنه كان فى قلبهم نحو المماليك الشئ الكبير؛ بحيث أنهم كانوا عاملاً أساسياً فى زوال دولة المماليك ؛ حينما أتيحت لهم الظروف بوصول العثمانين إلى مصر؛ فهؤلاء العربان كانوا السبب فى خراب مصر، وضياع دولة المماليك.

*

يضاف إلى ذلك أن الحالة الإقتصادية قد بلغت هي الأخرى غاية السوء، نتيجة لعوامل متعددة؛ لم تظهر عوارضها إلا فى أواخر حكم دولة المماليك ، وذلك لسوء حظ طومان باى نفسه؛ فكان ذلك على عكس ما نعمت به دولتهم، فى أغلب فترات حكمهم ، التى امتدت زهاء ثلاثة قرون، حتى أصبح بلاطهم ورسومهم لامثيل لها فى أى مكان آخر، كما لاتزال منشآتهم الضخمة من عمائر وتحف[1] ، تحتل مكان الصدارة بين مخلفات مصر الإسلامية ؛ حيث عبر بصدق المؤرخ ابن خلدون[2] ، الذى عاش فى عز دولتهم حينما قال:«ولا أوفر اليوم فى الحضارة من مصر؛ فهى أم العالم، وإيوان الإسلام ، وينبوع العلم والصنائع».

ومن المؤكد أن أنحسار التجارة العالمية،وما كانت تدره من مال وفير لدولتهم؛ كانت

---

(١) وثائق مملوكية ،مخطوطة برقم ٤٤٣٩ ،ورقة ١٢٩ ؟ تذكر موظفا خاصاً اسمه : شاد العمائر.
(٢) المقدمة ، ص ٤٥٣.

يعرف بالقاضي الاكرم بن نهار فأعطى الشيخ ابو الفتوح التزكية المختصة بالاسكندرانيين للقاضي المذكور لياخذ فيها خط اهل الاسكندرية وخرج المذكور الى الثغر [اسكندرية] وكان هذا اول ما قوى نفس نش الخلافة لان هذا الصنيعة كان مضاهياً له، فلما راح استبد هو بالامر وحده وعيّد الناس مفترقى الآراء كثيرين الضغاين والأحن، وبعد ايام وقع اختيار الشيخ نش الخلافة على سايح بجبال اطرابلس(*) يعرف ببطرس المرشاد

(*) اطرابلس: هي طرابلس الغرب وكانت هي وبرقة تابعتان لمصر.

السبب الرئيسى فى سوء الحالة الإقتصادية. فقد كانت مصر تقوم بنقل التجارة العالمية بين الشرق والغرب، وهو النشاط التجارى الذى بدأ منذ الفاطميين، وعمل سلاطين المماليك على دعمه. كما يظهر من مراسيم صدرت عن دواتهم بتشجيعها وتنظيمها (١). فقد كانت مصر تنقل إلى أوربا توابل الهند والصين.التى هى بالنسبة لأهل العصور الوسطى، مثل الشاى والقهوة فى عصرنا؛ فتأخذ أوربا الجنزبيل والقرفة والفلفل والشاى والبهار والشب والعود والسكر والعاج والمنسوجات إلى غير ذلك. ولدينا رسائل متبادلة بين سلاطين المماليك ومعظم ملوك وحكام أوربا ، لاسيما المدن الايطالية، وعلى رأسها البندقية، عن هذا النشاط التجارى العالمى (٢).

وقد ترتب على انتعاش التجارة إلى أوربا عن طريق مصر، أن ظهرت طائفة من التجار؛ تخصصت بتجارات الشرق الأقصى مع الهند والصين ، لاسيما تجارة التوابل، حتى أطلق على دعاة الفاطميين فى هذه النواحى اسم «بوهرا»؛ لتعنى تاجر البهار؛ أما فى مصر نفسها؛ فكان يطلق عليهم عموماً اسم: الكارم أو الكاريمى أو الأكارم أو الكارمية – جمع كارمى(٣) فكانوا

(١) المقريزى، سلوك، ١ص ٧٤٢، ترجمة Quat، ص ٩٧ ــ ٩٨.

(٢) عن ذلك، انظر توفيق اسكندر ، نظام المقايضة فى تجارة مصر الخارجية ، مجلة الجمعية التاريخية ، سنة ١٩٥٧.

(٣) صبح ، ٣ص – ٤٦٩، ٤ص ، ٥ص ٢٧٠– ٢٧١.

ووافقه عليه الجماعة ولم يثبت على هذا الراى بل كان من طريق الامتحان لبعض الناس. واستمر الحال على ما هو عليه الى ان فرغ الخمسون(*) فاشار الشيخ نش الخلافة الى الجماعة الموافقين له وكان اكثرهم كتاباً بأن يقفوا للسلطان الملك الكامل ويطلبوا منه تقدمة هذا داود فاجتمعوا ووقفوا له بدار السلطان عند عبوره الى خدمة ابيه فقال لهم: اين هو هذا الذى اخترتموه احضروه. وانفصل مجلسهم ذلك على هذا ورجعوا بعد

(*) الخمسون: هى ما بين أحد استير ويوم الاربعاء يحتفل فيه بقيام المسيح.

أشبه بنقابة، لهم رئيس اسمه: رئيس الكارمية أو وكيل لاتجار أو حتى شهبندر التجار؛ حيث كانت هذه الرئاسة فى أسر معينة. ولعل هذا اللفظ «كارم»، قد أتى من اسم «كانم» الواقعة فى جنوب السودان؛ بسبب أن تجاراً من هذا البل عاشوا فى مصر، وتمصروا على مر الأجيال، وتخصصوا بهذه التجارة؛ فكانوا يبعونها للتجار الأجانب ،كما لعل هؤلاء التجار اول ما جاءوا من نواحى المحيط الهندى من عدن؛ إلا أنهم منذ أيام الأيوبيين عاشوا فى مصر ، وانتقل عملهم إلى البحر المتوسط. وقد أصبحت «الكارم» ، تطلق على أى تاجر يشتغل بتجارة التوابل، بما فيهم اليهود[1] ؛حيث لدينا وثائق جنيزة خاصة باليهود التى تشتمل على أسماء عائلات يهودية عاشت فى مصر ، واشتغلت بهذه التجارة.

وفى أول الأمر ، فرض المماليك الضرائب الباهظة على هذه التجارة [2]؛ وإن كانوا مالبثوا أن قاموا باحتكارها لأنفسهم عن طريق هؤلاء التجار [3].

(١) عطية القوصى، أضواء جديدة على تجارة الكارم ،من واقع وثائق الجنيزة ، المجلة التاريخية المصرية، ٢٢، ١٩٧٥، ص ١٧وما بعدها؛ انظر كذلك، صبحى لبيب، التجارة الكارمية تجارة مصر فى العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، ٢/٤، مايو١٩٥٢، ص ١٢ - ١٤.

(٢) كان الموظف الذى يشرف على جباية ضرائب هذه التجارة يسمى: ناظر تجار الكاريمى. أو مستوفى البهار والكارم ، ولاهميتها قد تضاف إلى أعمال الوزير نفسه.

(٣) المقريزى، السلوك،مخطوط دار الكتب برقم ٣٣٢٧، ورقة ٥٩٢.

ذلك وقفوا له مرة اخرى فى دار السلطان ايضاً فقال هاتوا المحاضر وعبر الى دار ابيه فسير الشيخ نش الخلافة المحاضر المذكورة اليه الى داخل الدار مع واحد من غلمان السلطان وكان محضر الاسكندرية قد حضر فسيره معهم، ثم خرج الملك الكامل من عند ابيه فوقف له الجماعة وتقاصوه الجواب فقال: جوابكم مع ابى الفتوح. فدخل الشيخ الفتوح الى السلطان الملك العادل وقال: يا مولاناى الملك الكامل قال للنصارى كذا

أو عن طريق مشرفين متخصصين ، يقيمون في موانى مصر الكبرى مثل : الإسكندرية العظمى ودمياط وعيذاب ، وهذه الأخيرة كانت من أعظم موانى ساحل البحر الأحمر؛ بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها البضائع[1] أما، في الأمبراطورية المملوكية؛ فقد كانت عدن هى المرسى العظيمة من بلاد اليمن ، فظهر لهم فيها موظف اسمه: شاد الكريمى[2] ؛ ولما انحسر نفوذ المماليك في أخريات دولتهم فيها؛ فإن جدة صارت بالتالى من أعظم مراسى الدنيا لهذه التجارة [3]، وصار للسلطان المملوكى نائب فيها للإشراف عليها.

وقد أصبح لتجارة الكارم أسطول خاص من المراكب ، تسير في جميع البحار والمحيطات ؛ حيث كان يوجد ما يعرف بمراكب الكارم[4]، التى كانت تتردد على أكثر من عشرين ميناء على ساحل الهند الغربى وجدة؛ فكانت بضائع إحدى سفنهم تقدر بمليون ونصف دينار، الأمر الذى يظهر منه عظم ثروات تجار الكارم ،ولما احتكر المماليك هذه التجارة ، أصبح لهم أيضا أسطول كبير يقوم بنقلها؛ حتى أن الرحالة ابن بطوطة قد ذكر أنه كان لسلطان مصر ٣٦ألف مركب تسير وحدها على النيل، أما ابن شاهين؛ فيقول إنه كان يوجد على ساحل مصر القديمة ما ينيف على ثمانمائة وألف مركب؛ حيث يشرف عليها هيئة من الموظفين،

(١) الخطط ، ١ص ٣٢٧.   (٢) صبح، ١١ص . ٣٢.
(٣) الخطط ، ١ص ٣٢٧س ٢٤ – ٢٥.
(٤) عطية القوصى، المرجع السابق، ص ٢٠.

وكـذا بماذا يجيبهم (عبدك) المملوك فقـال من احضر لى الف دينار قدمته، فخرج وأعلم الجماعة ذلك وكـان الحكيم ابو شـاكـر قـد تنجـز كـتـاب السلطان الملك الكامل الى والى الغربية بأن يجمع الاساقفة وينزل حبيس ابيار ويسيره معهم الى ثغر الاسكندرية ليقدموه بطريركاً فلما خرج يومه ذاك من عند ابيه بعد وقوف النصارى له نزل الى مصر ومضى الى منظرته [قصر بحديقة] بالجزيرة وقف له المصريون وقـالوا يا مـولانا انت كنت انعـمت

على رأسهم: شاد المراكب. وخوفاً على الكارم؛ كانت تخصص لحمايته بعض المراكب، حتى أنه فى أيام الفاطميين خصصت بعض المراكب بعيذاب وسوا كن وما حولها[1]؛ أما فى أيام المماليك فقد كانت بعض قوافل الكارم تقطع بعض الطريق براً؛ وخصصت لها الجند والخيالة لحمايتها.

وعلى هذا المنوال ؛ فإن دولة سلاطين المماليك كانت قد نشطت فى التجارة مع ممالك أفريقيا أيضاً؛ عن طريق القوافل مثل: مملكة التكرور ومالى، وسلطنة برنو، ومملكة غانه،ومملكة سنغاى الكبرى، وهذه الأخيرة شملت مناطق واسعة فى حوض نهرى السنغال والنيجر، ووصل نفوذها إلى الحوصا أو الهوسا فى وسط القارة ؛ فضلاً عن ممالك النوبة فى جنوب مصر ؛ حيث كانت مصر منفذاً لتجارتها فى القارة. وقد ساعد على ذلك أن ممالك السودان على الخصوص ،كانت على علاقة قوية معهم[2]. فكثير ما أتى إلى مصر ملوك أفريقيا وتجارها؛ كما عثر على العملة المملوكية فى ممالك كثيرة من ممالك السود فى غرب أفريقيا. وقد ترتب على ذلك ان انتعشت مدن فى جنوب الصعيد على الخصوص؛ مثل قوص[3] قرب أسوان، التى أصبحت من أعظم مدن الصعيد ؛ بسبب ورود تجار عدن وأفريقيا إليها.

(١) أنظر. دراج ، عيذاب ،مجلة نهضة أفريقية ، أغسطس ١٩٥٨.

(٢) انظر حسن محمود. الإسلام فى إفريقية، القاهرة ١٩٥٨ ، ١ص ٢٩١.

(٣) قوص: يعتبرها ياقوت قصبة صعيد مصر ،وهى مدينة عظيمة ، وأهلها أرباب ثروة واسعة، وهى محط التجار القادمين من عدن. معجم البلدان ، ٧ص ١٨٣.

علينا ببطرك ونشتهى تمام الانعام. فقال: ما قد قلنا لكم روحوا اعملوا شغلكم. ثم علم لهم على الكتاب واعطاه لهم فاخذه القس أبو المنصور بن القس بو المعانى المرسوم على بيعة القديسين سرجيوس وواخس بقصر الشمع بمصر والاسعد هبة بن صدقة الشماس بكنيسة المعلقة ضامن السمسره بعرصتى الفاكهة بالقاهرة ومصر، وسار بعد ان اخذا معهما بدلة من ثياب البطرك واعطاهما الحكيم بوشاكر شياً برسم نفقة الحبيس

الكنيسة المعقلة بمصر عتيقة.

وقد كانت أهم تجارة المماليك مع ممالك أفريقيا الصناعات الكثيرة التى ازدهرت فى مصر فى وقتهم بشكل لم يعرف من قبل، مثل: تطعيم المعادن والجواهر، أو ما كان يطلق عليه أيضا التزميك أو التكفيت[١]، وهو صناعة دقيقة ؛حتى أصبح للقاهرة أسلوب خاص فى صناعة الأوانى النحاسية كالأباريق والمباخر والثريات والطاسات والمسارج، وكذا صناعة السروج التى كان لها سوق خاصة ،وصناعة السجاد، التى بلغت غاية الرقى ، وصناعة الزجاج وإن كان أشهر الصناعات على الإطلاق صناعة الأقمشة، التى كانت تصنع فى مصانع النسيج الحكومية المسماه «طراز» ، أو المصانع الأهلية [٢]، التى يملكها الأفراد ، وقد كثرت هذه فى مصر ، وشملت معظم مدنها؛ حتى أن أنواعاً من الأقمشة نسبت إلى مدنها وقراها [٣].

وقد كانت الطرق التى يملكها تجار مصر للذهاب إلى أفريقيا ، هى طرق القوافل المعروفة ، مثل : درب الأربعين ، الذى يمر من أسيوط ودرفور، ومنه إلى أواسط القارة وغربها ؛ فقد أصبحت متاجر مصرية كثيرة ، تمر عن هذا الطريق ،كما وجد طريق آخر فى الصحراء الكبرى؛ يمر بواحة سيوة ؛ ويصل مباشر إلى جاو وتمبكت على نهر النيجر ،كما وجد طريق قوافل ساحلى يصل مصر بممالك شمال أفريقيا.

(١) الخطط ، ٣ص ٧١. ، عن هذه الكلمة: انظر، ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ص ١٢٥ – ١٢٦.
(٢) تعرف بطراز العامة، على عكس الطراز الآخر، المسمى طراز الخاصة.
(٣) بتفصيل، انظر. ماجد، نظم المماليك، ٢ص٦٧ ـ ٦٨.

وكان مسيرهما عشية الثلثا فلما اصبح الشيخ ابو الفتوح وبلغه ما جرى قلق وكل من كان موافقه على رايه فعبر الى السلطان الملك العادل واعلمه القضية فكتب السلطان كتابا الى والى الغربية بان لا ينزل الحبيس من مكانه ولا يتغير عن حاله وكتاباً الى والى اسكندريه بان لا يقدم الا من معه كتاباً، وسيّر بهما رسولا جاداً. فلما اتصل بالحكيم الخبر طالع المولى الملك الكامل به فعظم عليه، وكتب كتاباً ثانيا بأن يحضر الحبيس الى القاهرة

وليس أدل على انتعاش الحياة الأقتصادية فى أيام المماليك ،من وجود كلمات كثيرة تدل على ذلك [1]، مثل : دكاكين وحوانيت ومخازن وقياسر وخانات ووكالات وفنادق[2]، وهذه الأخيرة كانت أكثرها ، تتكون من عدة طوابق، عبارة عن غرف مختلفة ومخازن ،لها فناء داخلى، يحوى على البضائع والدواب، يسكنها غالباً الأجانب ، يرأسهم القناصلة – مفردها قنصل– وهم كبار الفرنج؛ فكانت الفنادق توجد فى كل أنحاء المدن المصرية من الإسكندرية إلى أسوان.

وقد كانت الحرف والتجارات موزعة فى أماكن كثيرة فى الفسطاط والقاهرة ؛ تخصص لها مؤرخون ، آخرهم فى عصر المماليك آق بغا الخاصكى، كاتب السلطان قانصوة الغورى ، الذى ألف كتابه : التحفة الفاخرة فى ذكر رسوم خطط القاهرة[3]، بعد خمسين سنة من كتاب المقريزى المشهور «الخطط» ، يشتمل على تاريخ: الحارات والخطط ـ أى الأحياء – والأزقة والدروب والخواخ والرحاب – الميادين والأسواق والسويقات والظواهر والأحكار، وهذه الأخيرة هى الميادين المقفولة ، والميادين.

(١) نفسه، ١ ص ١٢٣ ـ ١٢٤.

(٢) هى كلمة أصلها يونانى، دخلت اللغة المصرية، كما دخلت الطليانية باسم: «Fondachi».

(٣) مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس (B.N)، برقم ٢٢٦٥ (بالعربية).

وسيره مع واحد من غلمانه. فأما اولئك فانهم وصلوا الى المحله فى نهار يوم الخميس واجتمعوا بالامير فرحب بهم وانزلهم عند كاتبه وللوقت كتب باحضار الاساقفه. وفي بقية الليلة وصل كتاب السلطان الملك العادل بالتبطيل. وفي صباح يوم الجمعة وصل كتاب الملك الكامل باحضاره فأمر الامير بذلك وسيّر معهم من يساعدهم على ذلك فلما وصلوا الى الحبيس وكان يوم الجمعة لم يصلوا إليه [إلا] عشية النهار فانز ل لهم ما ياكلون

كذلك كثرت العملة الأجنبية فى مصر،مثل عمله البندقية المسماة «دوكات»[1] Ducat– نسبة إلى «دوك» – وهو الدوق Doge ، – وعملة بلاد أفرنجة عموماً ،بما فيها فرنسا وايطاليا والأراضى المنخفضة المسماة «الافرنتية» ، جمع أفرنتى «Florin» . وقد عرفت العملة الأجنبية فى مصر عموماً باسم «مشخصة» ؛ بسبب صور القديسين وملوك الفرنجة ، المنقوشة على وجهيها . فكان توافر هذه العملة الأجنبية فى مصر[2] ؛ سبباً فى إزدهار نظام الصيرفة فيها ، الذى كان يوجد فى مصر حتى قبل المماليك ؛ بحيث نسمع بكلمة «حوالة»[3]، التى تصرف من قبل السلطان، وتقبض فى يوم معين، أو «صك» ، وهو التعبير الأصطلاحى المتداول فى جميع أنحاء الدنيا إلى الآن؛ ليعنى شيك الصرف «cheque»..

ولكن الأزدهار الإقتصادى فى عصر المماليك حدثت له نكسة قضت عليه تدريجيا؛منها الغزو المغولى الذى فتح طريق آسيا إلى أوربا مباشرة ، وبخاصة أنه ربط بين الصين والهند بالمسالك البرية إلى البحر الأسود ؛ فانتعشت نتيجة لذلك محطات للقوافل فى آسيا ؛ حتى أن التاجر البندقى المشهور ماركوبولو Marco polo ، عرف طريقاً برياً إلى الصين ووصف غنى النواحى التى مّر بها، مثل مدينة سمرقند، مما شوقّ الأوربيين اليها. وقد أصبحت للمدن

(١) انظر. رحلة طافور Pero Tafur ، ترجمة وتقديم حسن حبشى، دار المعارف ١٩٦٨ ، ص٤٢.
(٢) صبح، ٣ص ٤٤١ ـ ٢. الدوكات بالطليانية «ducato»، والفلورين «Florino».
(٣) السلوك، ١/٢ ص٤ ١٠ ص٤؛ انظر. ماجد، نظم المماليك ، ١ص٨٥.

وهو رجل معروف بكرم وخير فباتوا عنده يروضونه فلما اصبحوا راودوه على النزول وكان حاضراً هناك اسقف ابيار فقال له امر السلطان ما يخالف فقال له يا ابى اكتب لى خطك بأنك أذنت لى بالنزول وان هذا الحبس [المغارة] لى متى عدت اليه سكنت به بلا مانع. فكتب له خطه بذلك. ثم قدس القس بومنصور على الهيكل الذى هناك، ودفعوا القربان اليه فتقرب على جارى العاده ودلى قفة من عنده وجلس فيها ونزل باكياً ومن كان

- -

الايطاليه، مثل جنوى والبندقية وحتى بيزنطه، موانى متعددة على هذا البحر، تتاجر فى حاصلات الصين والهند منها مينا كافا «Kaffa» ؛ التى كانت لجنوة، وأطرا بزندة – طرابيزون– التى كانت لبيزنطة[١].

إلا أن الضربة القاضية للازدهار الاقتصادى أتت على الخصوص ؛حينما قامت دول أوربا باستكشافات بحرية كان قصدها البحث عن طريق بحرى إلى الهند والصين غير طريق البحر الأحمر، الذى يقع فى أملاك السلطنة المملوكية ؛فخرج من أبناء أوروبا مغامرون لاستكشاف االبحار ؛ بما فيها المحيطات المجهولة.

ولعل أول من تطلع إلى كشف طريق بحرى جديد للهند ، هم الأسبان فى الجزيرة الأيبيرية ، الذين كانوا قد تخلصوا من سيطرة العرب فى بلادهم وذلك بالتوغل فى المحيط الأطلسى ، الذى تطل عليه بلادهم.

فنذكر من مستكشفى الأسبان الكبار كريستوف كولمبوس «christophe columbus» ، الذى هو إيطالى الأصل من جنوة .

(١) رحلة طافور، ص١٣٠ وما بعدها. عن الأخيرة: معجم البلدان، ١ص ٢٨٣ . يذكر طافور أنه كان يجلب إلى كافا كثيراً من أصناف التجارة كالتوابل والذهب واللالىء والأحجار الكريمة، وبخاصة الرقيق، رحلة، ص١٣٣، ١٧٥.

حاضراً من اهل البلد متأسفين لاجل فرقته معترفين بأنهم في بركته فأخذوه وساروا وكان بغير نعل فخلع والى ايار سرموزته من رجله وسأله ان يلبسها فلم يفعل. وكان غلامى المولى الملك الكامل محتفظاً به مانعاً احداً ان يقربه فوصلوا الى قليوب في بكرة يوم الاحد فدخلوا الى الكنيسة واجتمع اليهم جمع كبير حتى ان القس بوالمنصور حدثني انه قدس ذلك اليوم وانه حمل ثلاث عشر قربانه [قربانا] وقرب يسيراً يسيراً وفرح به الناس

(*) فاسكو دى جاما البرتغالى

كذلك شعب البرتغال المجاور للأسبان، المعروف للعرب أيضاً باسم بلاد لشبونة (Lisboa)؛ وقد بدأ هو الآخر يظهر له كيان خاص في الجزيرة الأيبرية؛ نتيجة لضعف المسلمين فيها.

فلعل أشهر مستكشفيهم هو فاسكودا جاما Vasco de Gama ، الذى كان قصده استكشاف طريق للهند ، عن طريق أفريقيا ، فخرج في أسطول في عام ١٤٩٧/٩٠٢ وسافر في ثلاثة مراكب ، هي : سان جبرييل ،وسان روفايل ، وسان ،ميجل ؛ فاستطاع أن يكشف طريق رأس الرجاء الصالح ،ويذهب إلى موز مبيق وجزيرة مدغشقر.

كذلك أسهم البرتغال بمستكشفين مشهورين آخرين لطريق الهند هما: ماجلان Magellan، الذى أرسل للبحث عن جزائر التوابل ، واشترك في توسيع رقعة البرتغال في الشرق الأقصى منذ عام ١٥١١/٩١٧ ،وهنرى الملاح Henriمن قبل، الذى قاتل المسلمين في مراكش في ١٤٥٦/٨٦١ ، وكان يأمل أن يتوصل إلى طريق الهند، حتى أنه في سبيل ذلك أنشأ شبه معهد جغرافي ، يستقبل كل من يجوب في البحار ، ويسألهم عن رحلاتهم ،وكان في رأية أن الاستكشافات يجب أن يتبعها نشر المسيحية.

وقد قدر المماليك في مصر خطر وصول الأروبيين إلى الهند ، حتى أنهم أقنعوا مهراجات في الهند، بخطر تواجد البرتغاليين في القارة الهندية؛ فما كان من أحدهم إلا أن حبس فاسكودى جاما وعذبه ،وربما أيضاً بسبب أنه لما وصل البرتغاليون إلى قرب كلكتا أساءوا التصرف بسوء أخلاقهم أمام آلهة الهنود .ولكن لأسباب خفيه أطلق المهراجا سراحه ، وعاد فاسكو دى جاما بأسطوله إلى بلاده ،بعد أن حمل سفنه بخيرات الشرق، وما لبث أن عاد مرة

من سنة ١٢١٦ إلى ١٢٣٥م.

فرحاً عظيما واضافوه في قليوب ضيافات كثيرة ثم خرجوا الى ان وصلوا الى تحت القلعة فجاء اليهم الامير شمس الدين اخو والى القاهرة فافرد الحبيس منهم وقال لهم: يا نصارى قضيت حاجة السلطان امضوا الى سبيلكم فتركوه ومضوا، وبعد رواحهم اركبه على بغلة وامر الرسول الذى معه ان يعيده على فوره الى مكانه، فاخذه من ساعته ورجع به واعاده وطلع به الى جبّه [مغارته] وسكت الناس وانقطع القول بسبب البطرك مدة.

أخرى إلى الهند بأسطول جديد، مزود بالأغراض الإستعمارية، مما جعل بعض ملوك الهند المسلمين ؛ ينزعجون من وصول البرتغاليين إلى بلادهم؛ حتى أن أحد ملوكهم وهو مظفر شاه، أرسل إلى سلطان مصر الغورى، يطلب منه تقليداً من خليفة مصر في رمضان ٩١٨/١٥١٢ بحيث أصبح عيناً له؛ يخبره بأطماع البرتغاليين . ولدينا مراسلات متبادلة بين المماليك وصاحب دهلى من البلاد الهندية، أو حتى من كان يقال له: صاحب الهند [١]، الذى أصبح له أرشيف في ديوان الإنشاء.

وبالفعل ؛ فإنه أمام الخطر البرتغالى ؛ كان سلطان مصر الغورى قد اتخذ بعض خطوات عملية ؛ إذا كان يقدر الأطماع الإستعمارية في الهيمنة على البحار ، بالإضافة إلى المنافسة على تجارة التوابل؛ فسعى إلى تحصين المراكز المتقدمة في البحر الأحمر،مثل : عيذاب[٢]، وأقيمت الأبراج في بندر جدة[٣] المينا الهام بتجارة التوابل ،كما سعى إلى إعادة نفوذ المماليك في اليمن ؛ فحارب الشيخ عامراً متملك عدن[٤].

(١) مخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس B. N.، برقم ٤٤٤٠، ورقات ٣٩ب وما بعدها.
(٢) عنها، انظر. معجم البلدان، ٦ص ٢٤٦.
(٣) عنها، انظر. نفسه، ٣ ص ٦٧ ـ ٦٨. كان يوجد فيها موظف اسمه شاد جدة. السخاوى، التبر المسبوك، ص١٧٥ ـ ١٧٦.
(٤) ابن إياس، ٣ ص ١٣١ ص٢١ ـ ٢٢.

(*) أحد سفن الكشوف الاسبانية.

وفي هذه المدة جرت امور منها ان امير من الامرآء يعرف ببها الدين شريحا كان له كاتب يعرف بالسني ابي المجد بن سني الدولة وكان هذا الامير قد راح الى اليمن وكانت له هناك جارية محرومة [من الكنيسه] وكان هذا الرجل المسكين يمنعها التطرف الى التبهرج وفعل ما لا يجب فكرهته وعلمها الشيطان ان مضت الى والى القاهرة وذكرت انه راودها عن نفسها فانفد حبسه

وفي الوقت نفسه : فإن نائب جدة،الأمير حسين الكردى، أرسل الريس سليمان إلى الهند ، الذى كان قد سبق له أن استولى على بعض مراكب الفرنجة، الذين يقطعون مسالك التجارة ، وفتح عدة بلاد في الهند[١] ، وجاء بأسرى، وغنم مالاً كثيراً.ومع ذلك؛ فابن إياس يذكر رواية ثانيـة[٢]؛ أن هذا الريس كان قد دخل في نزاع مع حسين الكردى؛ وربما يكون قتله[٣] ، كما يذكر أن مراكب للمسلمين ؛ كانت قد بنيت في السويس ؛ وأستعرضها الغورى؛ وقت نزولها ،وشحنت بعسكر الطبقة الخامسة[٤]، أى من المصريين وسودان مصر ، الذين يستخدمون المدافع والبنادق في القتال ؛ كانت قد غرقت قرب الشاطئ الغربى للهند؛ فلعل غرقها جاء نتيجة لمهاجمة الأسطول البرتغالى لها ؛ وهو ما يعرف باسم معركة ديو البحرية[٥]

---

(١) نفسه، ٢ ص ١٣١ ص٢٣ وما بعدها.

(٢) نفسه، ٣ص ٧٧ ص١١ وما بعدها. (٣) نفسه، ٣ص ١٣١ ص١٩.

(٤) عن هذا التعبير الاصطلاحى، انظر: نفسه، ٣ ص١٣١ ص٢٣ ؛ وبعده.

(٥) عن ذلك، انظر: The Commentaries of the Graat Alfonso Albuquerque, translated from the Portuguese, edition of 1774, by Walter de Gray. Birch, Part I, P. XII - XLI, 58-9, PartII, p. IXVII - IXIII؛ انظر كذلك أحمد دراج؛ المماليك والفرنج، فى القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى، القاهرة ١٩٦١، ص١٣٧ وهامش ٢٤٩. ربما كانت هذه المعركة فى ٣ فبراير ١٥٠٩، وتقع على الساحل الغربى للهند.

وشاور عليه السلطان وجرت عليه شدة وبعد هذا لطف الله به وتخلص وكان صاحبه هذا مسافراً فلما وصل في هذه المدة خرج اليه فلقيه على حلوان وسار قدامه فلحقه وضربه بالسيف فقطع عمامته وشج راسه وضربه ضربة اخرى فلقيها بيده فانجرحت يده ووكل به من يحضره الى داره ودخل الى القاهرة وهو صحبته واعتقله في داره وضيق عليه وبقي عنده مدة الى ان عمل له حسابه

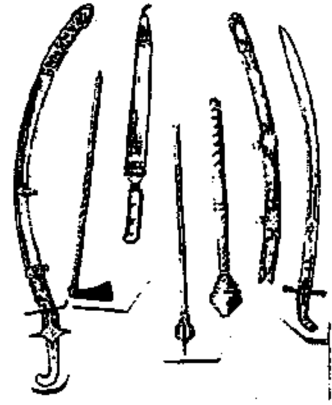

(*)سيوف وبلطه ومقمعتان

(Dia) . وبالفعل بعدها ؛ فإن البرتغاليين أخذوا يعيثون في البحر الأحمر؛ وهاجموا بندر جدة[1] ؛ وخيف أن يملكه الفرنج ؛ سيما لأنه من ناحية مكة.

ولا شك أن انشغال الغورى ،ومن بعده طومان باى؛ بحرب العثمانيين؛ ثبت أقدام البرتغاليين في الهند؛ وحتى في أماكن إسلامية في الخليج العربي مثل عمان؛ فكان هذا من شأنه أن يقضى على تجارة المماليك في الشرق ؛ مما قوض بالتالي دعائم اقتصادياتها في أخريات أيامها.

*

وفي الوقت ذاته؛ كانت مصر تعيش أسوأ احوالها المعيشية نتيجة للمجاعات المتعددة؛ حيث لايهمل المؤرخون الإسلاميون ذكرها ؛ على أساس أنه لاسبيل إلى إهمال أمرها، لنتائجها المؤثرة ؛ فقد أنهكت المجاعات مصر طوال العصر المملوكي ، وزادت على الخصوص في أخرياته؛وكان أغلبها يحدث بسبب توقف النيل عن الفيضان ؛ فيتوقف الزراع عن الزراعة ، وتقل الأقوات؛ وترتفع اسعار القوت الضروري للشعب ؛وعدم استطاعتهم حتى ولو كانوا من الأغنياء شراءها ، بحث تكون النتيجة اختلال كل شئ[2].

(١) ابن إياس، ٣ص١٦٩ ص١٥ وما بعدها. كان في سنة ٩٢٣/ ١٥١٧ .

(٢) انظر. المقريزى، إغاثة الأمة، ط٢ .

واقـتـضـى منه مـا يريده وبعـد ذلك منع من كـان يتـردد اليـه من نظره يومين ثلثـه، ثم لما كـان بعـد ذلك جاووا اليه بشي ياكل على جارى العادة وكان غلمـان الامير كل يوخـذون منهم ذاك ليطلعوا به اليـه فلم ياخـذوه منهم ذلك اليـوم بل قـالوا لابنه وغـلامـه صـاحـبكم مـات من يومين تعـالوا خـذوه فـعـادوا بالويل والخـراب واجـتـمـع اخـوه واولاده وجماعة من النصارى ووقفوا للمولى الملك الكامل

(*) اسلحة نارية اخترعها المصريون وقت سلطنة الغورى ومن قبله ومنها انتقلت إلى اوربا والعثمانيين

وكـان يصـاحـب هذه المجاعـات تفـشى الأوبئة ،وبخـاصـة وباء الطاعـون، الذى كـان أشـهـر الأوبئة منذ العصـور القديمة؛حتى أن بعض الطواعين اشتهرت في التاريخ ؛ ولعل أقواها تلك التي حدثت في عصـر المماليك بالذات ، وهى تأتي طبعاً من كثرة الفئران؛ بحيث ظهر فى إحدى المدن في الصـعـيـد فئران كثيـرة ، تخـرج عن الإحـصـاء ؛ بحيث قتل منها ما يبلغ ٣١٧أردباً، واعتبر الأردب ٨٤٠٠فأراً[١]. فكان أشهرها الطاعون المعروف بالأسود،الذى لم يكن في مصـر وحـدها، وانما انتـشـر في العـالم كله، وهو الطاعـون الذى أفـقـد انجلترا نصف سكانها، واشتهر فيها باسم «Black Death» ، أما فى مصـر ؛ فقد استـمـر سبع سنوات بداية من عـام ١٣٩٤/٧٩٦[٢] ؛ ففى كل يوم كانت فيها صور محزنة وقاسية ؛ فيخرج ما ينوف على عشرين ألف ميت؛ يدفنون بدون غسيل أو كفن ؛ فتحفر لهم حفرة يلقى فيها الموتى من البشـر ومعهم القطط والكلاب والخيل والجمال وحتى الطيـور وغيرها ؛ إذ امتد الطاعون إليهـا أيضاً ؛وخلال ذلك لم تزرع الأرض ؛ بسـبب موت الفلاحين ؛ حتى أن القرى المصرية التي كان عددها عند غزو العرب عشرة آلاف ؛ فإنها فى عهد المماليك أصبحت «لا تزيد على حوالى ألفي قرية فقط[٣].

(١) السلوك، ٢ص١٥٧.
(٢) ابن إياس، ١ص١٩١ ص٣ وما بعدها. مات تسعمائة ألف إنسان (ص٥).
(٣) الخطط، ١ص ١١٦ ـ ١١٩.

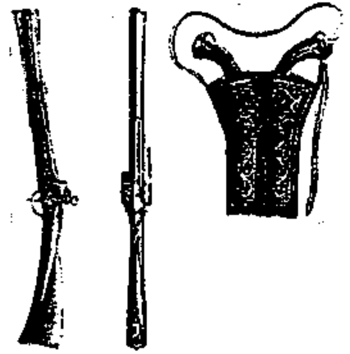

(*) بندقيتان وغدارتان

عند حضوره الى خدمة ابيه عشية الخميس فلم يجيبهم بكلمة فقعدوا عند دار السلطان الى ان خرج فرجعوا وقفوا له فقال: بينكم الشرع فألحوا عليه فقال ادفنوا ميتكم فخرج بعض الجماعة ومن فيه مرؤه ليلا كما هو وحصّل له تابوتاً واحضر الحمالين ومضوا الى الموضع الذى كان فيه فوجدوه المسكين وقد انتفخ ووجهه اسود ولسانه مدلى على صدره ولا شك انه خنق فحملوه بعد

وكان يزيد من البلاد في مصر، وقوع الزلازل، التي أصبحت مصر أحد مراكزها في عصر المماليك،واستمر إلى أوائل العصر العثماني ؛ فكانت تتساقط البيوت ومآذن المساجد،ويبدو أنه من كثرتها أصبحت موضوعاً للبحث فلدينا رسالة اسمها: تحصين المنازل من هول الزلازل[1]؛ يبينّ فيها المؤلف أسباب وقوع الزلازل، ويرجعها على الخصوص إلى التجاهر بالمعاصي؛ فكان مثل هذا القول هو تدهور للمفهوم العلمي الذى عبر عنه من قبل الفليلسوفين: الكندى أو ابن سينا عن أسباب وقوعها.

وفى أول الأمر، كان سلاطين المماليك يعالجون هذه المصائب بطريقة عملية؛ فيهتمون على الخصوص باستصلاح الأراضى، ويحفرون الخلجان، ويذهبون لذلك هم وجيوشهم للقيام بها[2]. ولكن بعد ذلك، وجدناهم لا يتدبرون المستقبل، ويكتفون أمام هذه الأهوال بصلاة الاستسقاء، وهى الصلاة التى هى عبارة عن دعاء؛ لكى يزيل الله الكرب عن البلاد؛ فكان

(١) تأليف على بن محمد الجزار (حوالى ٩٨٤/ ١٥٧٦)، انظر:

Traité de la fortification des demeurs contre,: Anwar Tâhir L' horreur des séismes Annales Islamologiques txll., 1947,. P. 131 Sqq.

مثل: ما ظهر من الدليل في الحوادث والزلازل، توقف فيه إلى عام ٩٩٦/ ١٥٨٨. كذلك لدينا رسالة أخرى من السيوطى بعنوان: كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة، استكملت برسائل أخرى. مخطوط بالمكتبة الأهلية. B.N. برقم 4058.

(٢) ابن حبيب، درة الأسلاك فى دولة الأتراك، مخطوط فى .B.N، برقم: ٤٦٨٠.

جـهـد عظيم وخـرجـوا على حـالهـم الى [بركـة] الحبش ودفنوه وترددوا اهله بعد ذلك الى السلطان وهو لا يخرجهم من الشرع فاحتسبوه في سبيل الله وشكروا الله المحمود على كل حال وسكتوا فالله لا يخلينا من معونته ولا يدخلنا التجارب.

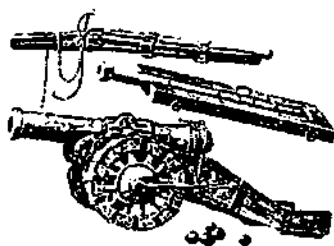

(*)مدفعيه محمولة على عجل لاستخدامها في الحصار.

وفي اثنا هذه المدة كان صبى نصراني صعيدى يعمل في بعض معاصر الزيت الحار وان انسانا من المسلمين اتهمه بابنه وكان صغير السن وذكر انه

السلطان بنفسه يقوم على رأس المصلين بها، أو يفوض القضاة للقيام بها، كما تخرج فئات الشعب من القبط واليهود بالأناجيل والتوراة لمشاركة المسلمين فى إزالة الكرب، وقد حملوها فوق رءوسهم. ومن الطريف أن نذكر أن ابن إياس لاحظ أنه حينما قام المصريون بصلاة الاستسقاء من الطاعون المشهور، زاد الوباء [١]، كما أن المقريزى يرجع هذه الأهوال التى كانت تحل بالشعب المصرى إلى غفلة الحكام عن صالح الرعية[٢]؛ فالمشكلة ليست دينية، وانما بالأولى تعود إلى سوء الإدارة والإهمال، الذى ساد فى البلاد.

* * *

هذه الأحوال السيئة فى مصر ؛ جعلت البلاد والدولة المملوكية ذاتها ؛ فى أشد حالات الإعياء والإنهيار؛ فكان ذلك من سوء حظ طومان باى، الذى تولى السلطنة ؛ عقب تراكم جميع هذه العوامل السيئة.

الصراع بين طومان باى وسليم

والواقع إن موقعة مرج دابق بين المماليك والعثمانيين ؛ قررت مصير الشام قبل مصر، وهى البلاد التى كان المماليك والأيوبيون والفاطميون قبلاً قد جاهدوا فى سبيل وحدتها مع مصر ؛

(١) ابن إياس، ١ص ١٩٢.

(٢) انظر. كتابه: إغاثة الأمة للمقريزى، طـ (٢).

حضر اليه وهو على غير الاستوا وانه ذكر ان الفاعل به هذا الشخص. فاعتقل اياما وعرض عليه الاسلام فأبى فاستفتوا فيه الفقها فافتوا برجمه وان يعمل عليه دايره من الناس ويجعل فيها فرجة فان هو خرج وسلم فلا يعارض وان مات كان بحقه ففعلوا ذلك.

فلم يكن استطاعة للتخلص بل ضربه عبد كان لابى الصبى بحجر خبط به فكه فوقع صريعاً

ولكن ابن عثمان ـ كما يقول المؤرخون - أخذها لقمة سائغة؛ إذ سلمت له أغلب مدنها بالأمان؛مما جر إلى أن يدخل في صراع مباشر مع طومان باى، الذى كان قد أعلنت سلطنته في مصر، بعد مقتل قانصوة الغورى ، فى فترة حرجة ، تعتبر من أحرج فترات مصر ، فى تاريخها بين الوسيط والحديث.

* * *

ومع ذلك؛ فلانعرف لأول وهلة حقيقة مقصد سليم، بعد انتصاره على الغورى في مرج دابق،وهل كان ينوى أن يستمر في فتح الشام ومصر، أو يكتفى بهذا الانتصار،ويعود بعد ذلك إلى بلاده ، سيما وأن المؤرخ ابن زنبل [١]، قد أورد أن سليماً لم يكن يريد أن يستمر في حرب المماليك ، وينوى العودة إلى بلاده ،مثلما فعل تيمور لنك المغولى من قبل، الذى لم يستمر في نضاله مع المماليك ،كما أنه كان من رأى سنان باشا ، وزير سليم أن يكتفى العثمانيون بأخذ الشام ،وترك مصر لشأنها [٢] ولكن إذا كان سليم قد استمر في حرب المماليك، فذلك راجع إلى تحريض خاير بك بالذات،الذى كان نائباً للغورى في حلب، وكانت خيانته من أسباب هزيمته [٣].

ولكن مثل هذه الأقوال التى رددها بعض المؤرخين ، لاتنفى حقيقة طموح سليم نفسه في أخذ بلاد الشام ومصر؛ يظهر ذلك بوضوح فى الرسالة التى أرسلها إلى طومان باى بعد موقعة

(١) ابن زنبل، ص٢٨. (٢) نفسه. (٣) نفسه، ص٢٦.

وتواتر عليه الرجم الى ان مات فحمل ودفن بالحبش وبعده بهنيهه طلع الصبى [العبد] الى السطح لبعض شانه فوقع من البادهنج وتعلق قفص الكيزان فى اضلاعه فوقع ميتا وذكر ان ذلك النصرانى كان بريأ وان الفاعل للقبيح العبد الذى قتله فانه لقى شدة عظيمة وهلك. وسافر الشيخ السنى بوالمجد بن القسيس بو الفرج الى قوص لانه كان مستوفيها وهو كان اكبر المضادين

مرج دابق ،مكتوبة بالتركية[1]، فحواها أن الله قد اوحى إليه بأن يملكه البلاد شرقاً وغرباً. كما ملكها الإسكندر ذى القرنين من قبل ،ويعتبر نفسه بسبب انتصاره على الغورى ، سلطاناً فى أملاكه ،ويدعوه؛ أن يكون نائباً له من غزة إلى مصر،وأن تكون له فيها الخطبة وسك العملة ،أما هو فيكون له من الشام إلى الفرات.

وعلى كل حال، كانت الخطوة التالية لسليم، بعد مرج دابق ، أستيلاؤه على حلب ، أكبر مدن الشام؛ فيذكر المؤرخون أنه دخلها بدون ممانعة[2]، وأنها زينت له، وأوقدت الشموع ليلاً؛وذلك راجع إلى أن خاير بك، لما انسحب من مرج دابق ، عاد إلى حلب، وما لبث أن أظهر حقيقة غدرة؛ خلع زى المماليك ، وتزيابزى العثمانيين ، وأصبح يكتب للأمراء المماليك ويرغبهم فى الدخول تحت طاعة سليم، ويعدهم بأن يبقى كل أمير فى وظيفته، ويحفظ له رزقه[3]؛ بحيث سماه سليم سخرية «خاين بك[4]»، بدلاً من خاير بك؛ وبذلك أشبه الوزير ابن العلقمى ، الذى خان خليفة المستعصم آخر خلفاء العباسيين فى العراق ، وملك هولاكو بغداد .كذلك قد يكون سهل لسليم أخذ حلب، أن أهلها كانوا غاضبين من الغورى ومماليكة ؛ بسبب أنهم قبل انتقالهم إلى مرج دابق ، أساءوا معاملة أهلها ؛ وفسقوا بنسائهم وأولادهم[5].

(١) ابن إياس، ٣ص ٨٢ س١٢وما بعدها.
(٢) نفسه، ٣ص ٤٨ (آخر الصفحة).
(٣) نفسه، ٣ص٨٣ ـ ٨٤.
(٤) نفسه، ٣ ص٥١ س٧ وما بعدها.
(٥) نفسه، ٣ ص ٤٩ س٥ وما بعدها.

للقس داود المجاهدين لسببه. وقبض على القاضى الاعز الوزير وخشب [حُبس فى قيد من الخشب] واعتقل بدار السلطان واخذ بو سعيد بن اخت البطرك المتنيح وادخل على السلطان الملك العادل فقال له اريد منك ارث البطرك لانه حشرى(*) فقال يا مولاى لم يكن له شي وقد اشهد على نفسه قبل موته. قال: ذا هذيان اريد ثلثين الف دينار، وامر باعتقاله فى دار السلطان فخافت

(*) الرجل الحشرى هو عظيم البطن والمقصود هنا أنه كان يجمع أموال كثيرة من الناس على سبيل التبرع والهبة من أجل الكنيسة ورعايتها

وحينما دخل سليم حلب، أظهر منتهى القسوة ؛ فقتل كل من التجأ إليها من المماليك ، وحتى رجال الدين ، سيما رجال الصوفية منهم ، الذين كانوا مع الغورى ، وعلى رأسهم أقطابهم، الذين هربوا إليها براياتهم ، فأمر سليم بقتل كل من وقع بين يديه،واحداً بعد آخر ، ولم يرحم كبيراً لكبرة ،ولاصغيراً لصغره(1) ؛ إذ عرف بحبه لسفك الدماء ، فمن قبل قتل أباه وأخوته لأجل العرش(2). ويبدو أن أغلب من قتلهم كانوا من أهل مصر (3) ؛ حيث أصبح من سياسته فى مصر بعد ذلك، لما استولى عليها، أن يقضى على كل مقوماتها الحضارية .ومع ذلك ؛ فقد أبقى على الخليفة وقضاه المصريين، ليستفيد منهم فى عزوته المقبلة لمصر. وإن أهانهم ووبخهم(4)، ولم يرع حرمتهم الدينية.

ولقد أسرع سليم إلى استثمار نصره بالاستيلاء على مدن الشام الواحدة بعد الأخرى، وخصوصاً أن معظمها قد سلم له بالأمان ، وساعده على ذلك أن عرب الشام لما تحققوا من موت الغورى وثب بعضهم على بعض، ونهبوا زروع الشام ، واضطربت أحواله (5). وحتى دمشق، التى قد بدأت المقاومة على يد ابن الحنش، أمير العربان(6)، الذى أطلق على جند سليم الماء من أنهر دمشق ،لما اقترب منها ؛ فغرق عدد من فرسان العثمانيين ؛ إلا أن أحوال

(1) ابن زنبل، ص٢٥.

(2) ابن إياس، ٣ ص١٣٦ س٩.

(3) نفسه، ٣ص ٨٢ س ٢١.

(4) نفسه، ٣ص ٤٩ س٢٣ وما بعدها.

(5) نفسه، ٣ص ٦٠ س ٤ وما بعدها.

(6) نفسه، ٣ص ٧١ س٤ وما بعدها.

نفوس الناس واستوثق الامر للشيخ نش الخلافه وكتب للقس داود بالتزكية من لم يكن يكتب له ولم يبق من الجماعة من لم يكتب له إلا النزر اليسير قوم يعدون. وبعد ذلك وصل القس نصير الراهب الذى كان البطرك انبا يوحنا(*) سيره الى بلاد الحبشه بكتابه بالوصاه على المسلمين الذين هناك والمترددين، كما كان امره المولى الملك الكامل ومعه رسول حبشي اسقف من بلادهم

(*) تولى بطركا بين سنتى ١١٨٩و١٢١٦م.

دمشق كانت قد فسدت ؛ بعد مقتل سيباى نائب الشام؛ بحيث نهبت أسواقها ، واضطر أهلها إلى الخروج عنها؛ فقتل العثمانيون لما دخلوها عدداً كبيراً من أمرائها المماليك ،ومن كانوا قد لجأوا إليها ،غير الرعية[١].

ومع ذلك، فقد حدثت معركة حقيقية فى غزة؛ بحيث اعتبر أنه لم تحدث معركة فى الشام، بعد مرج دابق ، إلا فيها ؛ سيما وأن نائب الغورى فيها ،كان قد طلب من طومان باى أن يدرك بالعسكر[٢]. وبالفعل شرع طومان باى فى إعداد الجند، وجمع منهم عشرة آلاف[٣]، فأرسل إليها بعض المماليك الذين كانوا فى الطباق ـ وهى المدارس الحربية المملوكية ـ ولم يكونوا قد اشتركوا فى القتال بعد[٤]،كما أرسل إليها بعض الذين هربوا من الأمر اء ومماليكهم من مدن الشام الأخرى؛ وان كانت سمة هؤلاء التباطؤ والتراخى والتقاعس؛ بسبب أن طومان باى لم يجد المال الكافى لينفق عليهم [٥]، وأظهر بعضهم الجبن ، وأراد أن يهرب من القاهرة[٦] ؛ بحيث اضطر طومان باى، أن يظهر أنه يذهب بنفسه إلى قتال سليم [٧]؛

(١) نفسه، ٣ص ٧٤ س١٠ وما بعدها.
(٢) نفسه، ٣ص ٧٩ س٧.
(٣) ابن زنبل، ص٢٩ ـ ٣٠.
(٤) ابن إياس، ٣ص ٨٠ (فى آخر الصفحة).
(٥) نفسه، ٣ ص٨١ س٥ ـ ٦، ٨٤ س ٩.
(٦) نفسه، ٣ ص٨٠.
(٧) نفسه، ٣ ص ٨١ س٢ ـ ٥.

ورجل من اهل اخميم رفيق الاسقف في الرسالة يعرف بابى الفضل ابن ابى المنصور وعلى يدهم هدية برسم السلطان [الملك العادل] وهدية اخرى برسم البطرك رحمه الله فاما هدية السلطان فاوصلوها واما هدية البطرك فلم يعلم ما كان منها. ونزل المذكورين في دار على البحر واقاموا مدة ولم يظفروا بكثير طايل ولا متوفير قبول، وانصرفوا ال بلادهم بعد ان شاهدوا من اختلاف

وليستحثهم طلب منهم القتال عن أعراضهم وأموالهم . كذلك أرسل بعض رماة البنادق من أهل مصر وسودانها فى ثلاثين عجلة تجرها الأبقار، أما رماة المكاحل ـ المدافع ـ فقد أرسلهم على الجمال[1] ولما أراد طومان باى أن يرسل بعض اللصوص والقتلة، الذين كانوا فى السجون ؛ فإن ذلك لم يعجب الناس فى القاهرة [2]. فتوجه هذا الجمع غير المتحمس للقتال؛ بقيادة الأمير جان بردى الغزالي ؛ ووصل إلى مصر ، بعد هزيمة مرج دابق.

أما العثمانيون؛ فقد هجموا على غزة فى أعداد كبيرة مثل الجراد، لايحصى عددهم[3]، بقيادة الوزير سنان باشا[4]؛ إذ كان سليم قد ذهب لزيارة بيت المقدس[5]. وقد سلحوا بالمدافع الكثيرة والبنادق ، التى حملت على عجلات خشب، تسحبها أبقار وجاموس فى أول العسكر[6].كذلك كان ضمن أسلحتهم رماح بكلاليب يخطفون بها الفارس عن فرسه[7]؛ حتى أن الجند العثمانين أسقطت جان بردى الغزالي عن فرسه ،وكادوا يحزون رأسه، لولا غلمانه الذين خلصوه. وقد انتقم العثمانيون من أهل غزة بسبب أنهم ساعدوا المصريين ، فقتلوا منهم ألف أنسان من الرجال والنساء والأطفال [8]، أما المماليك الذين نجوا من هذه

(١) نفسه، ٣ص ٨٠ ـ ٨١.
(٢) نفسه، ٣ ص ٨٠ س٦ وما بعدها.
(٣) نفسه، ٣ ص ٨٧ س١٥ .
(٤) نفسه، ٣ ص٨٦ س١٠ ـ ١١ .
(٥) نفسه، ٣ ص ٩١ س ٦ـ٧.
(٦) نفسه، ٣ ص ٨٧ س١٦ .
(٧) نفسه، ٣ ص ٨٧ س١٢ ـ ١٣ .
(٨) نفسه، ٣ ص٨٨.

الشعب وتفرق اراهم ووقوع الفتنة بينهم مالا مزيد عليه. وبلغ النيل في هذه السنة الى [سته عشر ذراع] ثم دخل فصل الخريف فمرض الناس كلهم وكان فصلا شديدا مثل الفصل الذى كان قبله واشد ودخلت سنة ثلاث وثلثين وتسع مايه للشهدا الاطهار وكان الحكيم (*) أبو شاكر ملازما للقلعة بايتاً بها لاجل مرض من بدار السلطان وكانت له منزلة كبيرة وحرمة عظيمة حتى انه كان يدخل

(*) هذا يعنى ان أبو شاكر كان طبيباً وهذا سبب اقامته في هذه الفترة بدار السلطان في القلعة.

المعركة ـ وهم قلة ـ فإنهم عادوا إلى مصر، وهم أسوا حال؛ بعضهم جاءها راكباً الحمير، وقد فقد سلاحه وملابسه، أو حتى حافياً.

* * *

وكانت الأحوال في مصر هي الأخرى في غاية الكآبة، لما حدث؛ منذ موقعة مرج دابق ،حتى صار في كل حارة وزقاق وشارع في القاهرة صراخ وبكا[1]، على السلطان الغورى وعسكره الذين قتلوا،كما حصل للناس أسى على فقد الخليفة، وتشاءم الناس بأسره؛ خوفاً من أن تزول الخلافة من مصر ؛ وهي التي أقامها المماليك في مصر منذ توليهم السلطة فيها؛ بحيث اعتبروا ذلك من الحوادث المهولة.

ومع ذلك؛ فقد كان سريان الأشاعات الكثيرة في القاهرة ؛ السبب الأول في اضطراب الأحوال فيها؛ سيما أنه بعد هذه الحوادث الجسام ،وجد بعض العثمانيين فجأة في وسط القاهرة[2] ؛ مما يدل على أن بعضهم في القاهرة قد سهل دخلوهم إليها ،وإن ادعى هؤلاء أنهم رسل سليم إلى طومان باى، الذى أسرع بالقبض عليهم ، وأصدر أوامر بأن لايأوى أحد عنده غريباً [3] ،والا تعرض للشنق ،كما زاد من القيل والقال إن أمرأة قد حاولت قتل طومان باى نفسه بخنجر[4] ،وإن لم تعرف التفاصيل ؛ فلعلها كانت هي الأخرى من جواسيس العثمانية.

(١) نفسه، ٣ ص ٥٢ ـ ٥٣.
(٢) نفسه، ٣ ص ٨٢.
(٣) نفسه ٣ ص ٨٣ س١٩.
(٤) نفسه، ٣ ص٩٥.

من باب القلعة راكباً الى الباب الجوانى ولم يكن
احد يدخله راكباً الا السلطان وحده وكان فى
بعض الاوقات يلقى اخوة السلطان واكبر الامرآء
وقاضى القضاة وجلة الفقها رجاله يمشون وهو
راكب فلا ينزل وكانوا يعذرونه لان الامر خرج اليه
بذلك، واما فى هذه المدة مدة المرض فانه كان
يركب فى صحن القاعة الجوانى ويدور على الحرم
من قاعة الى قاعة فمرض فى القاعة التى افردت

بل كادت القاهرة ذاتها أن تخرب ، حينما خرج مماليك الطباق، وقد غضبوا لمقتل الغورى؛ فعمدوا إلى حرق الأسواق التجارية [١]، التى فيها رعايا أجانب ، سيما أسواق الروم (الاتراك)، الذين كان أغلبهم يسكن سوق خان الخليلى، على أساس أن العثمانية قد استولو على بلادهم ؛وأصبحوا بالتالى حكامهم،مما جعل بعضهم فى مصر عيوناً لهم على المماليك ،وكانوا يكاتبون سليما[٢]، ولكن طومان باى أسرع فاحتجز مماليك الطباق ، وطلب من الأغوات ـ وهم أساتذتهم ـ أن يراقبوهم ، ويقول ابن إياس عن ذلك ؛ لولا همة طومان باى فى تلك ؛ لكانت القاهرة قد خربت عن أخرها[٣].

وزاد من مشاكل القاهرة ، أنه بعد هزيمة غزة بالذات ، هاجر إلى القاهرة أهالى الشرقية وبلبيس[٤]؛ خوفاً من النهب والقتل من العرب، إذا تبع ذلك أن قلت الأقوات ، وارتفعت أسعارها ،وقل الدقيق والخبز ، وتعطلت الطواحين[٥]؛ مما جعل طومان باى يغير المحتسب ، وهو الموظف المختص بالسوق والتسعير.

يضاف إلى ذلك أن أحوال طومان باى نفسه فى مصر ، كانت هى الأخرى غير مستقرة؛ بسبب أن أمراء المماليك الذين قدموا من الشام بعد هزيمتهم ، طمعوا فى أن يتولوا السلطنة

(١) نفسه، ٣ص ٥٤ ـ ٥٥.
(٢) نفسه ٣ ص ٧٧ س٢٣ ـ ٢٤.
(٣) نفسه، ٣ ص ٥٥ س٢.
(٤) نفسه، ٣ ص ٩٤ ص٢٤.
(٥) نفسه، ٣ ص ٩٦ ص٧.

له بالقلعة واقام ايام وتوفى الى رحمة الله فحمل على سريره الذى كان عليه الى الخندق وجنز هناك ودفن ال جانب اخيه ابى سعيد فى كنيسة بالدير المذكور واشتمل السلطان على ابن اخيه وابن ابنه وامرهما بالملازمة واحلهما محله لانه كان علمهما ورجحهما لذلك قبل موته. ثم بقى الحال على ما هو عليه الى طوبه(*) فاستدعانى الشيخ نش الخلافه وقال نريد رقعة للسلطان بسبب البطرك،

(*) طوبه: اواخر ديسمبر أوائل يناير [بحسب التقويم الجولياني].

من دونه ، مثل الأمير سودون رئيس نوبة النواب،الذين كان على رأس حرس الغورى[١]، وحتى جان بردى الغزالى الذى كان نائب حماة فى الشام ؛ فإنه سعى هو الأخر إلى أن يتسلطن فى دمشق قبل قدومه إلى مصر؛ لولا رفض الأمر اء[٢]، ولكن لما وجد هذان الأميران وغيرهما أن طومان باى قد تسلطن بالفعل ، بمساعى المصريين بالذات ؛ ووزع منصب الدولة؛ فأنهم قبلوا له الأرض .وحلفوا له[٣].

ومع ذلك، فإن طومان باى اضطر أن يسجن بعض الأمراء المماليك القادمين من الشام، سيما الذين سلموا قلاعهم بدون قتال ،مثل قانصوه الأشرفى نائب قلعة حلب، الذى سلمها من غير حرب وهرب ، على الرغم من أنها كانت تحتوى على ذخائر مصر ومالها ، فوبخه ثم سجنه[٤]، ولكن تمكن بعضهم مع ذلك من أن يهرب إلى سليم ،كما حاول جماعة منهم مثل قاسم بك[٥]، الصبى الصغير من أسرة سليم ، الذى كان قد لجأ إلى مصر،وكانت هناك إشاعة أن غالب عسكر العثمانين كانوا يميلون له؛ ما جعل طومان باى يسكنه معه فى القلعة.

(١) نفسه ، ٣ص٧٠، ٧١ يسمى أيضاً رأس نوبة الأمراء؛ ولمكانته فى البلاط سمى بالأخ أو الجناب الكبير؛ ويبدو أن كلمة نوبة مشتقة من النوبات التى تعنى من يؤدون عملهم فى نوبات معينة.
(٢) ابن زنبل، ص٢٢.
(٣)، نفسه، ص٢٥.
(٤) ابن إياس، ص٥٧ س٤.
(٥) نفسه، ٣ ص ٧٧ (فى آخر الصفحة)، وهو ابن أحمد بك أخو سليم، الذى قتل.

فقررنا مسودة رقعة مضمونها ان مولانا قد انعم على كافة الخلق وقوّم كل فاسد وبقى المماليك مختّلى الاحوال بغير بطرك ويسئلون النظر فى حالهم. واخذها فعرضها على السلطان وكان قبل عيد الفطر فقال بعد العيد ننظر فى حالهم، فلما كان فى يوم الجمعة الثامن عشر من طوبه(*) الموافق الثالث من شوال تقدم الى السلطان وقال يا مولانا النصارى يطلبون مراحم السلطان بما

(*) ١٣ يناير [١٤ بحسب التقويم الجوليانى]. سنة ١٢٦م = ٩٣٣ قبطية = ٦١٣هـ .

وحتى المماليك الجلبان ، أثاروا لطومان باى متاعب كثيرة . فبعد موت أستاذهم الغورى ،لم يعد لديهم وازرع لطاعة طومان باى، وسعى بعضهم إلى أن يولى سيدى محمد بن الغورى السلطنة [١]، بعد عودته من الشام. وقد أراد طومان باى أن يضع حداً للانقسام فى صفوفهم؛ بقتل سيدى محمد هذا ؛ إلا أنه لم يستطيع ذلك، وأن أهل دمشق كانوا قد رفضوا سلطنته أيضاً [٢].

حقا وإن كانت بيعة طومان باى للسلطنة شرعية؛ بناء على التوكيل الذى أظهره يعقوب، أبو الخليفة المتوكل على الله، الذى أسره سليم فى مرج دابق؛ إلا أن يعقوب هذا لم يستطع أن يتخذ لقب الخلافة، ولم يلبث المتوكل نفسه أن أصبح بوقاً للسلطان العثمانى، يدعو إلى شرعية حكمة[٣] وبالفعل ؛ كان سليم قد أرسل إلى طومان باى، قبل دخوله مصر؛ أن الخليفة والقضاة قد بايعوه ؛ فضلاً عن أنه ملك إلى عشرين جداً ، بينما طومان باى مملوك يباع ويشترى ،ولاتصح له ولاية[٤].

وحتى عربان مصر، سيما قبيلتى غزالة وهوارة، الذين كان طومان باى بعد إعلان سلطنته قد خلع على مشايخهم ، وطلب منهم أن يأتوا صحبته جماعة من فرسانهم، حتى ينضوا

(١) ابن زنبل، ص٢١.
(٢) نفسه، ص٢٥.
(٣) انظر، بعده.
(٤) ابن إياس، ٣ص ٨٣ س١٦.

وعـدهم به من النظر فى حـالهم. فـقـال: نعم اجمعهم حتى نقرر حالهم. فقال: يا مولانا ومن هو انا، هؤلاء ارباب بيوتات وما يلتفتون الى بل يأمر مولانا وال مصر ووالى القاهرة ينذرهم ليحضروا يىن يدى مولانا فى اليوم الذى يعينه. وخرج من عنده فى شغل طلبه منه فوجد والى مصر على الباب فعاد اليه: وقال يا مولانا هو ذا والى مصر برا ان كان مولانا يامره بشىء فذاك اليه، قال: نعم صيحوا به. فاستدعاه وامره ان يجمع النصارى

للعسكر[1]، «ونزلوا الجيزة بالفعل؛ بمكان اسمه الرملة – إلا ان طومان باى خاف منهم، وعدل عن ذلك ،مع أنه كان قد استعرضهم ؛ بسبب أن سليماً أصبح يكاتب مشايخهم ،مثل أحمد بن بقرشيخ غزالة[2]،كما أن العربان عموماً بعد انكسار غزة على الخصوص ، لم يعودوا يخافون الجراكسة ، وبدأوا يقدرون أن دولتهم فى طريق الإنقراض[3]، وأكثر من ذلك ، أنهم عمدوا إلى نهب البلاد حتى اضطر أهالى الشرقية وبلبيس إلى الهجرة إلى القاهرة كما ذكرنا ، هرباً منهم؛ أكثر من خوفهم من العثمانيين الغازين.

وأخيرا ، فإن طومان باى لم يكن يجد المال اللازم للصرف على العسكر والسلاح . فقد كان الغورى أخذ معه كل مال مصر، الذى بلغ مائة مليون – ألف ألف ـ غير التحف[4]، وتركه فى قلعة حلب، تحت أشراف ابنه سيدى محمد ،وحتى أمراء المماليك، الذين ساروا معه، كانوا قد أخذوا معهم معظم أموالهم [5]، وتركوها أيضاً فى حلب ؛ بحيث ان ما حصل عليه سليم لما دخل حلب لايحصر ولاينضبط . وفى أول الأمر ظن طومان بأى أن سيدى محمد[6]،كان قد أحضر بعض المال،ولكن تبين له أنه ترك كل شئ؛ وجاء إلى مصر فاراً

(1) نفسه، ٣ ص٨٨.
(2) نفسه، ٣ ص ٩١ س٢٠.
(3) نفسه، ٣ ص٨٨.
(4) نفسه، ٣ ص٥٠ س ٩؛ ابن زنبل؛ ص٢١.
(5) نفسه، ٣ ص ٥٠ س ١٥ ـ ١٦.
(6) نفسه، ابن زنبل، ص٢٤.

ويحضرهم صحبته يوم الاثنين الحادى والعشرين من طوبه(*) ليتفقوا على البطرك الذى يقيمه لهم، واحضر والى القاهرة وامره بمثل ذلك فأشعروا الناس ليلة السبت وليلة الاحد وليلة الاثنين وعلموا قسيس كل كنيسة ان يعلم جماعته وياخذهم ويحضر فى صبيحة يوم الاثنين. واما والى مصر فسيّر كاتبه وحاجبه الى المميزين [الوجهاء] من اهل مصر يعلمهم بذلك فاجتمع المصريون الى دار امين الدين والى مصر والقاهريون الى باب دار

(*) ١٦ يناير [١٧ يناير بحسب التقويم الجوليانى].

يجلده . لذلك لم يجد طومان باى لادرهماً ولاديناراً في الخزائن [١]؛ وحتى المال الذى كان بقي فيها ، قبل خروج الغورى إلى الشام ؛ ربما سرق[٢].

* * *

وعلى كل حال ، يبدو أن طومان باى قد أصبح يقدر أهمية البارود وأسلحته ، سيما و أنه قد سمع بمدفعية النفوط المرعبة ،كما يسميها ابن إياس[٣]- التى كانت السبب في نصر العثمانيين، في موقعتى مرج دابق وغزة. فيقول النص ؛ إنه حتى وهو أمير غيبة ، نائباً عن الغورى ،كان قد أظهر همة فى صنع البارود وآلاته[٤]. فلما ولى السلطنة ، بعد مقتل الغورى ، زاد عزمه – فى سبك المكاحل وعمل البنادق [٥]، وربما سعى أيضا إلى جلب بعضها من

(١) ابن إياس، ٣ ص٦٩ س١١ ـ ١٢.
(٢) نفسه، ٣ ص ٨٨ (فى آخر الصفحة).
(٣) نفسه، ٣ ص ١٣٣ س٧.
(٤) نفسه، ٣ ص٥٥ س٣. يقول النص عمل طوارق خشب وكفيات وبنادق وغير ذلك. فعن الطوارق؛ فان Dozy (انظر Suppl, 2, P. 40 _ 41)؛ يرى أن هذه اللفظة من الصعب تحديد معناها؛ فقد أتعبت المستشرقين قبله. وفى رأينا؛ فانها أسلحة؛ بدليل أنه كان لها فى أيام الفاطمين فرقة خاصة، تقيم فى معسكر خاص فى القاهرة؛ اسمه حارة الطوارق.
بتفصل، انظر ماجد، نظم الفاطميين، طـ٣، ١ ص٢٠٤ وهامش.
أما الكفيات، فهى آلات لقذف. النيران والحجارة.
(٥) نفسه، ٣ ص ٩٣ س٦ ـ ٧.

السلطان. وطلع والى مصر بالمصرين واجتمعوا مع القاهرين وكانوا زها ماية رجل او اكثر ودخلوا جميعهم الى دار السلطان فوجدوا الواليين على مصطبة بها فاستدعيا جماعة من اعيانهم وقال [قالا] من تريديون ان يكون لكم بطرك فقالا [فقالوا] القس داود الذى كتبنا له خطوطنا فانتدبوا واحد من المصريين يقال له أبو العزّ ابن وكيل الجناح وهو شماس من شماسة [الكنيسة] المعلقة

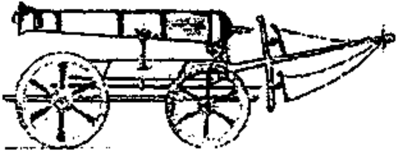

(*) مدفعية ثقيلة تجر بالدواب

صاحب رودس ، الذى أحس هو الآخر بخطر العثمانيين عليه،حتى سرى نبأ بأنه قد أرسل أليه ألف رام من أهل رودس ،وعدة مراكب محملة بالبارود ، وأنها دخلت إلى ثغر دمياط ؛ إلا أنه قد تبين فيما بعد أنها مجرد أشاعة(١) ، وأن هذا النبأ غير صحيح؛مما يدعونا إلى الجزم بأن ما اعتمد عليه طومان باى بالنسبة للأسلحة النارية على ما كان يصنع من مكاحل ، بعضها من النحاس(٢)،صرف عليها جملة من المال؛ حيث عرض بعضها أمامه؛ فكان عددها مائة ،محملة على عجل من خشب ، يسحب كلا منها زوج أبقار،كما عرض مائتى جمل باروداً ورصاصاً ،محملة ألفاً وخمسائة طارقة- جمعها طوارق - لعلها أسلحة نارية أيضاً . كذلك جمع مالا يحصى من الرماة بالأسلحة النارية ؛حيث كان جلهم من المصرين والسودانيين كما ذكرنا ؛ الذين يرمون بالمكاحل والبنادق(٣) ؛ فكانوا دائمى التمرين : حتى أن القاهرة كانت ترتج لقذائفهم(٤).

وكان من رأى طومان باى أن يهاجم سليماً فى وسط الطريق ؛ولايتركه حتى يأتى إلى القاهرة ؛ على أساس أن صحراء شرقى مصر وقسوتها ؛من الممكن أن تنهك جيشه(٥)، سيما

(١) نفسه، ٣ص ٩٢ س٢٤ وما بعدها. (٢) نفسه، ٣ ص٨٩ س١٠ وما بعدها.
(٣) نفسه، ٣ص ٩٢ س٧. يقول إن بعض المغاربة من سكان مصر ضموا للرماة أيضاً. نفسه، ٣ ص ٩١ س١٣ وما بعدها.
(٤) نفسه، ٣ ص ٦٩ س٦. (٥) ابن إياس؛ ٣ ص٩٤ س١٤ وما بعدها.

وقال: يا مولانا نحن ما نرضى. ووازره [أيده] اخر يعرف بابى الرضا قسيس كنيسة ابى شنوده بالساحل(*) وشعثا. ولم يتكلم غيرهما فنفد الشيخ نش الخلافة الى ابى العز احضره اليه الى الخزانة المعمورة ولاطفه فامسك وبقى بو الرضا على حاله فدخل الواليان على السلطان وعرّفاه اختلاف الجماعة. فقال: احضروا لى جماعة من هولاء وجماعة من هولاء حتى اسمع كلامهم.

(*) أى ساحل مصر القديمة وكانت تطل على النيل مباشرة قبل تراجعه نحو الغرب.

وانه لم يأت عن طريق الساحل ،مثلما حدث في غزوات سابقة،ولكن تحت الحاح أمراء المماليك ؛فانه اضطر أن يطرح استراتيجية المعركة ،كما يريدها ،جانبا ،وأجبر على انتظار مجئ العثمانيين .ولذلك لم يجد هؤلاء أى مقاومة فى زحفهم على مصر ،إلا من بعض العربان، الذين كانوا يميلون بطبعهم إلى النهب والسلب، فكانوا يقطعون بعض رؤوس العثمانين ، ويرسلونها إلى القاهرة ؛ لقبض الثمن [1]. ومع ذلك ؛ فإن طومان باى قد أمر بحرق بعض الشون التى تقع خارج القاهرة[2] ؛ حتى لاتقع فى أيدى العثمانيين.

وعلى كل حال؛ استعد طومان باى لمقابلة العثمانيين بجوار القاهرة ـ فى المطرية ـ فى مكان اسمه الريدانية [3]، يقع خارج أسوارها ،من ناحية باب النصر،ويمتد حتى جبل المقطم، عبارة عن بعض البساتين والأسواق ، إلا أنه فى أواخر عهد المماليك ،خرب معظمه ،وأصبح أرضاً جرداء ،خالياً من السكان. فكانت المدافع تنقل من ماسبكها إلتى يجرها ثلاثون أو أربعون من الخيل ،على الجبل الأحمر، وهو جزء من جبل المقطم فى هذا المكان ؛ بينما صغار المدافع،وكان يجرها أربعة من الخيل، قد رضت من الريدانية إلى الخانقاه ؛ إحدى زوايا الصوفيه. فأحيطت هذه الأخيرة وهى ثابتة على الأرض بالحوائط والخنادق ؛ لإخفائها عن

(١) نفسه، ٣ ص ٩٤ س٢٥، ٩٥. (٢) نفسه، ٣ ص٩٥.

(٣) الخطط ١، ٣ ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ . نسبة لريدان الصقلى؛ من خدام العزيز، الذى قتل فى أيام الحاكم بأمر الله، فى ٩٣٣/ ١٠٠٣ ؛ وإن قيل إن الريدانية تعنى الريح لينة الهبوب.

فقال جماعة الذين لا يريدون القس داود: بقى من اصحابنا شيخ وهو كبيرنا قس بحارة الروم القاهرة وهو يسمى يوسف فامر والى القاهرة باحضاره فاحضر وادخل الى السلطان وكان ارشيبابا(*) القسوس بالقاهرة. والقس بركات ارشيبابا القسوس بمصر [القديمة] وجماعة من القسوس وغيرهم فكرر كلا منهم قدام السلطان كلامه وزاد ونقص فزجرهم، واستقر اخر حديثهم ان رضى المصريون بالقس بركات والقاهريون

(*) ارشيبابا القسوس: كبير القساوسة.

- -

العيون ؛ حتى ان السلطان نفسه،كان يحمل مع عمال البناء الحجارة على كتفه لهذا الغرض[1] ؛ ففعلت المماليك مثله .كذلك أمر طومان باى أرباب البضائع أن يحولوا بضائعهم إلى المعسكر[2]، الذى هو فى منطقة نائية من القاهرة ؛ حتى تتوفر الأقوات فيه.

إلا أن المتاعب ما لبثت أن ظهرت من المماليك أنفسهم ، على الرغم من أن طومان باى، كان قد أصدر أمره للذين تجمعوا منهم فى الريدانية، من بقايا المنهزمين فى غزة ، أومنهم فى القاهرة أو غيرها؛ حتى تجمع منهم لدية أكثر مما تجمع للغورى من قبل[3] ؛ بأن يكونوا فى الميدان بكامل اللباس من آلة السلاح؛ إلا أن أغلبهم رفضوا أن يتساموا فى المعكسر؛ فكانوا يرجعون إلى بيوتهم فى المساء.

وحتى الأسلحة النارية المصرية، التى كان من المنتظر أن تلعب دوراً حاسما فى المعركة، لم تقم فيها بأى دور ؛ بسبب أن المدافع كانت قليلة، لم تتعد المائة كما ذكرنا؛ بينما العثمانية زحفت بستمائة مدفع[4]، منها مائة والخمسون مدفعاً كبيراً، وبينما هذه كانت سهلة الحركة، تتحرك على عربات، فى أى تجاه؛ فإن المدفعية المصرية ، وضعت على قواعد ثابتة، وأصبحت غير قابلة للحركة، وزاد الطين بلة، أنها طمرت فى الرمال عمداً زيادة فى إخفائها، وهى

(١) ابن إياس، ٣ ص ٩٣ (فى آخر الصفحة).
(٢) نفسه، ٣ ص ٩٢ س١٤ ـ ١٥.
(٣) نفسه، ٣ ص ٩٢ س ٥ ـ ٦.
(٤) نفسه، ٣ ص٩٣ س١٨ ـ ٢٠.

بالقس يوسف واعترفا بانهما مقدماهما فامسك السلطان القسّين وامر باقى الجماعة بالخروج فخرجوا والتفت الى القسّين فقال لهما: كم يحصل للبطرك كل سنة. فقالا: اربع ماية دينار فى السنة. قال فما يفعل بها قالا: ينفقها على نفسه ويتصدق بها. قال: فاى شى كان قبل بطركيته(*). قالا تاجراً. قال: فمن خلف من الورثة قالا: اخته. قال: فكم لها من الميراث. قالا: النصف. وغلطا فى هذا [لانهما كان ضعيفين فى علم البيعة لان

(*) المقصود هنا البطرك يوحنا ٦ المتولى بين سنتى ١١٨٩ - ١٢١٦م.

معمرة[1] حيث قيل إن الذى أمر بوضعها هكذا، هو الأمير جان بردى الغزالى[2] الذى هزم في موقعة غزة ؛ فيقول ابن زنبل عنه: إنه كان يوجد اتفاق باطنى بينه وبين خاير بك[3]، الذى خان الغورى من قبل. ويبدو أن طومان باى قد تنبه إلى خيانه الغزالى، فى آخر لحظة ؛ فأراد قتله، لولا أن الأ مراء منعوه[4]؛ لوصول العثمانية إلى الريدانية في يوم الخميس ٢٩ من ذى الحجة سنة ٢٢/١٩٢٣يناير ١٥١٧ . لذلك لما تدفقت العثمانية من تحت الجبل الأحمر بأعداد هائلة بلغت ٢٠٠ألف أو أكثر ؛ بقصد الإلتفاف حول المدافع المصرية ، بالتواجد من وراء فوهتها ،ولم توجد فرصة لهذه المدافع لمواجهة العثمانيين ، فلم تنطلق إلا واحدة[5] ؛مما أرعب العثمانيين، الذين ما لبثوا أن أدركوا عجز مدافع المصريين ؛مما جعلهم ينهبون بارودها.

حينئذ لم ينتظر طومان باى، وقصد ومعه شجعان فرسان المماليك إلى معسكر سليم، الذى أقيم فى أول الريدانية ، فوقعت موقعة مهولة[6]، أعظم من الواقعة التى كانت فى مرج دابق،

(٥) نفسه، ٣ ص ٩٣ س١١.
(٦) ابن زنبل، ص٣٠، ٥٠.
(٣) ابن زنبل، ص٦٠.
(٤) نفسه، ص٣٠.
(٥) ابن إياس، ٣ص ٩٧ ص٢.
(٦) بتفصيل: أحمد فريدون، ورقات ٦٣٠ ـ ٦٤١ ؛ روزنامه حيدر جيلبى؛ سلطان سليمان إبران سفردينه دائر مخابرات (مخطوط تركى) فى طوب قابى سراى برقم R. 1955 ورقات ١٤٣ ـ ٦٠ ؛ ابن طولون، مفاكهة الخلان، القسم الثانى؛ تحقيق محمد مصطفى، القاهرة ١٩٦٤.

شريعة النصرانية توجب للأخت جميع الميراث اذا
لم يخلف غيرها وهما عملا على شرع المسلمين]
فقال: فالنصف الاخر لمن؟ قالا لك يا مولانا. قال:
فانا اطلب منكما نصيبي لانكما مقدما الجماعة.
قالا: نحن ما كنا نكاتره ولا نعلم شيأ مما كان فيه.
فقال: هذا شي ما اعرفه. وتشدد عليهما فقالا: لا
يا مولاى اولاد اخته أولى بهذا منّا. فقال: كان له
جماعة اولاد اخت؟ ما نعرف الا واحداً الذى هو
عندنا. قالا: يا مولاى بقي اخر يسما مكارم وهو

إذ اقتحمه بشجاعة نادرة؛ حتى أن المؤرخ ابن زنبل يقول عنه[١]: فقتل عدد لايحصى من أمراء العثمانية وعسكرها، ومعظم الموجودين في خيمة سليم نفسها، بما فيهم سنان باشا الخادم، الصدر الأعظم؛ الذى بارزه طومان باى وقتله بيده بأن رفعه إلى أعلى رأسه، ثم ألقاه على الأرض بعنف، فطبق أضلاعه بين جنبيه، ثم حز رأسه؛ ربما ظناً منه أنه هو السلطان سليم نفسه[٢]؛ وإن كان سليم لم يكن موجوداً فيها وقتذاك.

وقد حزن سليم على وزيره الكبير حزناً كبيراً، واعتبره خسارة كبرى، وفكر في الانتقام وقال: استولينا على مصر، ولكننا فقدنا سنان باشا، خسارتنا فيه لايمكن أن تعدلها دولة. فكانت الجند العثمانية تنتهك حرمة المساجد بدخول الخيل فيها[٣]، وطلعت المآذن وصاروا يرمون بالبندق الرصاص؛ بحيث أن معظم قتلى المماليك كانت من رش البندق[٤]، حتى قال ابن زنبل عن ذلك: قاتل الله أول من أصطنعها، وقاتل من رمى بها[٥]؛ بحيث تمكن العثمانيون من قتل عشرة آلاف من المماليك؛ وبقى طو مان باى في قليل من المماليك والرماة

(١) ابن زنبل؛ ص٣٢.

(٢) انظر: منجم باشا أحمد دره، صحايف الأخبار في وقائع الأمصار «مخطوط عربي» طوب قابي سراى، برقم ١٩٥٤، ورقة ١١٨٤.

(٣) ابن زنبل، ص٣١.

(٤) نفسه، ص٢٩ ـ ٣٠.

(٥) نفسه، ص٣١.

مقيم بمصر. فالتفت الى الوالى وقال: يحضر الساعة. فاحضر لوقته وترك عند اخيه فى الموضع الذى كان معتقلا به بدار السلطان. ثم التفت اليهما [السلطان] وقال: من تريدان ان يكون لكم بطركا. قالا: يا مولانا نحن لنا عادة ان نعمل قرعة ونكتب ثلثة اسمآء فمن طلع لنا عملناه. قال: فهذا صاحب المحاضر. وكان السلطان قد سير احضر المحاضر. فقالا: يا مولاى ما يجوز عندنا تقديمه لانه ممنوع من مقدمنا. قال: فمن الثلثة

العبيد[1]؛ الذين دافعوا عنه ببنادقهم. فلما تكاثرت العسكر العثمانية عليه ، انسحب إلى طرا[2]، قرية في نواحي الفسطاط المجاورة ،من كثرة البندق.

* * *

وأول من أخبر سليماً بالنصر فى الريدانية كان خاير بك؛ الأمير المملوكى الخائن، الذى صاحبه فى زحفه على مصر، وأصبح من أقرب أعوانه ، سيما بعد قتل وزيره سنان باشا الخادم. ويبدو أن خاير بك دخل القاهرة قبل سليم ؛ ليستولى على القلعة[3]، التى أخذها بدون مقاومة ؛ إذ لم يكن بها أحد. فلما لحقه سليم، لم ينزلها ، وإن أخذ مفاتيحها ،وفضل أن ينزل بناحية المقياس في الروضة ،على شط النيل؛ وإن طلب وصفها؛ فقد كانت القلعة مركز الحكم في عهد الأيوبيين والمماليك، وعرفت فى عهد هؤلاء بالبذخ والترف، بحيث فاقت ما كان معروفاً فى أى بلاط إسلامى آخر.

وبمجرد دخول طلائع العثمانيين القاهرة، شرعوا فى تعقب الجراكسة فى كل مكان،وحتى فى البيوت والمقابر؛فمن كان يقع منهم تضرب عنقه فوراً،وساعدهم فى ذلك العربان؛ بحيث أنه قتل منهم فى يوم واحد ثلثمائه وثلاثون رأساً[4]؛ مما جعل كثيراً من المماليك يتخفون فى

(١) ابن إياس، ٣ ص ٩٧ س١٣.
(٢) ابن زنبل، ص٣٤. عنها. معجم البلدان، ٦ ص٣٣.
(٣) ابن زنبل، ص٣٥.
(٤) ابن إياس، ٣ ص ٩٩ س١٢.

الذى تعينون عليهم. قالا: الصنيعة اى غالب بن السكرى. قال: ذلك كاتبنا ما لكم معه حديث فمن غيره. قالا: الشيخ بو الكرم رجل من مصر شيخ عالم. قال: ومن؟ قالا: الحبيس الذى بابيار. قال: فاكتبوا اسماهم بخطكم فكتبا. فقال: ومن الثالث. قالا: صاحب هذه المحاضر. قال: فالساعة نفيتموه وقلتم ما يجب. قالا: يا مولاى هذه الرقاع نحن نعتقد انه لا يطلع فيها الا من يختاره الله فما نبالى من كتبنا ونحن نعمل هذا قطعاً للشر لئلا

زى الفلاحين[1]، أو يلبسون ملابس حرافيش القاهرة،وهم صعاليكها أو فقراؤها. كذلك عمد العثمانيون إلى قتل المصريين بوحشية لانظير لها، سيما أن سليماً وهو فى الشام، كان قد هدد إذا ما دخل ، أن يحرق بيوتها قاطبة ،واللعب فى أهلها بالسيف[2].

وفى الوقت نفسه، ساد النهب فى القاهرة ؛ بحجة البحث عن الجراكسة؛ بحيث صار الجند العثمانيون ينهبون مايلوح لهم[3]؛ فلم يتركوا خيلاً ولابغالاً؛ ولاأقمشة ،ولاقليلاً ولاكثيراً.ولم يمنع النهب ؛ إلا بعد ثلاثة أيام متوالية، عندها أمر سليم الإنكشارية ـ وهم العسكر الخاص ـ بالخروج من القاهرة ؛ والوقوف على أبوابها[4]. كذلك نادى الخليفة وقضاة القضاة؛ وكانوا قد عادوا إلى مصر مع السلطان سليم ؛ بالأمن والإطمئنان؛ والبيع والشراء[5]؛ كما أن سيدى محمد ؛ ابن السلطان الغورى؛ قابل سليماً، وحلف له؛ وأعطى ورقة الأمان، وأسكنه مدرسة[6].

وقد دخل سليم القاهرة فى يوم الأثنين ٣من المحرم سنة ٢٦/٩٢٣ يناير ١٥١٧، فى موكب حافل، وقد فرشت له على الأرض شقق الحرير تحت حافر فرسه، وكان قدامه الخليفة والقضاة

(١) نفسه، ٣ ص ١٠٠.
(٢) نفسه، ٣ص ١٠٠ ـ ١٧.
(٣) ابن إياس، ٣ ص ٩٧ ـ ٩٨.
(٤) نفسه، ٣ ص ٩٩.
(٥) نفسه، ٣ ص ٩٨، ابن زنبل، ص٦٧.
(٦) نفسه، ٣ ص ٩٩؛ نفسه، ص٦٧.

يبقى في قلب احد من الجماعة شيء. فالتفت الى الواليين وقال: احضرا الى خمسة من وجوه المصريين وخمسة من وجوه القاهريين. فخرج الواليين فاختارا خمسة من كل فئة كنت انا من خير المصريين. فعبر الجماعة الى قدامه وجلسوا في الجانبين بين يديه فرفع راسه اليهم وقال: هاذان مقدما كما؟ قالوا: هاذان مقدما كنايسنا. قال: أفلستم راضين بما قرراه. قالوا: حتى نعلم ما هو.

، وقد أحاطت به العسكر بين مشاة وفرسان، حتى ضاقت بهم الشوارع، وقد ـ حملت راياتها الحمراء ـ شعار الدولة العثمانية ـ التى كتب فى بعضها [1]: إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً؛ وفى بعضها الآخر: نصر من الله وفتح قريب . كذلك ، أمر الاهالى بتعليق الثريات معمرة بالقناديل الموقدة بطول القاهرة ؛ وأوقدت الشموع على الدكاكين، المسماة الشموع الموكبيات ـ اى الكبيرة ـ وإطلاق مجامر العود العود؛ ومر شاة الماورد.

وكان قد خطب من على منابر القاهرة في يوم الجمعة ؛ باسم السلطان سليم شاة؛ بدلاً من الخطبة لطومان باى . فلما وصفه الخطيب بقوله: إنه مالك مكة والمدينة؛ ساءه ذلك، وأمره أن يخطب خادماً لهاتين المدينتين، لامالكا لهما، ومنذئذ أطلق هذا اللقب على سلاطين العثمانية فكان يخطب له بالآتى: أنصر اللهم السلطان ابن السلطان ،ملك البرين والبحرين،وكاسر الجيشين ؛ وسلطان العراقين ،وخادم الحرمين الشريفين ،الملك المظفر ، سليم شاه، اللهم أنصره عزيزاً ، وافتح له فتحاً مبيناً؛ يامالك الدنيا والآخرة ، يارب العالمين.

وقد أخاف السلطان سليم بشكله أهل القاهرة؛ إذ أن لدنيا وصفه؛ مما نقله المؤرخون المصريون المعاصرون له مثل ابن إياس[2] ، ومن الرحاله الأوربيين مثل باولوا

(١) ابن زنبل، ص٨٣.
(٢) ابن إياس، ٣ ص٩٨.

قال: قد ذكرا اسمآء ليعملا عليهما القرعة. قالوا: ومن هم الاسماء. قال السلطان للقسيسين: تعرفاهم؟ قالا: اخترنا الشيخ ابا الكرم. قالت الجماعة: يا مولانا رجل شيخ فانى لا يقوم بهذا الامر. قال السلطان: فأين هو؟ قالوا: بمصر. قالت الجماعة: يا قسيسين من غير ابى الكرم؟ قالا: حبيس ابيار. قالوا لهما: فانتما تعرفاه حتى تزكياه. قالا: الملك الكامل يعرفه وهو الذى اختاره. فقال

جيوفيو paolo Giovio[1]، الذى وصفه وصفاً دقيقاً،كما لدينا له تصويرات وتماثيل[2]؛ بعضها بزيه الحربى الكامل. فهو يوصف[3]، بأن له من العمر نحو أربعين سنة أو دون ذلك؛ وأنه مربوع القامة، وواسع العينين، وأنفه كبير وافر، وله لحية سوداء ،حلقت حتى الذقن، وشنبه بارز؛ وله عنق قصير «أقنص العنق»، ومكرفس الأكتاف ،وعلى رأسه عمامة صغيرة وقد وجد فيه المصريون خفة ظاهرة ؛ إذ كان فى أثناء ركوبه كثير التلفت.

وقد أثار دخول العثمانين فزعاً كبيراً بين أهل مصر؛وشبه دخولهم القاهرة ؛ بدخول هولاكو بغداد؛ وأن ما جرى فى مصر بسبب ذلك، لم يحدث مثله ،منذ أن دخلها البابليون فى الزمن القديم [4]؛ حتى عبر أحد الشعراء عن ذلك بقوله[5]:

نبكي علـى مصر وسكانهـا قـد خربـت أركانهـا العامرة
وأصبـحت بالـذل مقهـورة من بعد ماكانت هى القاهرة

---

(١) انـظـر:- Le Mythe Turc et son declin, : Kefé. E. dans les relations de Voyage des Européens de la Renais

(٢) صورته وتماثيله موجودة فى متحفى: طوب قابى "Topkapi"، والمتحف الحربى.

(٣) ابن إياس، ٣ ص ٤٩ (فى أسفل الصفحة)، ٣ ص ١٠٠.

(٤) نفسه، ٣ ص ١٣٣ س٢٣.

(٥) نفسه ٣ ص ٩٨. شعر الشيخ بدر الدين الزيتونى.

السلطان: الملك الكامل مـا يدخلي بينكم دعـوه عنكم. وكثر العياط(*) فامرهم السلطان بالسكوت ثم قـال: هاتوا المحاضـر. فاحـضـرت، فـقـال لوالى القاهرة: اعطها لهم. فاخذ يدفعها للقاهريين فقال السلطان: لا ادفعـها لهـولاء الذين يخـالفـون. يعنى المصـريين. ولم يكن احـد ممن دخل اليـه في هذه المرة يخـالف في القس داود بل كلهم كانوا كتبوا له وانما السلطان كان يبث في نفسه ان المصريين

(*) ضوضاء الكلام بصوت عال.

نهاية طومان باى

لايعني دخول العثمانيين القاهرة ؛ أن طومان باى قد انتهى ؛ فقد استمر يقاومهم بشدة وضراوة ؛ على الرغم من أن سليماً كان يملك سلاح البارود المتفوق ؛ الذى كفل له النصر في جميع معاركه السابقة في الغرب والشرق؛ ما جعله لفترة يتردد في أن يستمر في حربه ، أو يعود إلى بلاده؛ محتجاً بأن الكفار يحيطون بها (١).

وبالفعل قـرر طومـان باى الرجـوع إلى القـاهرة(٢)، ولم تمض خـمـسـة أيام على انتـصـار العثمانيين عليه. ففى ليلة الأربعاء ؛ الخامس من المحرم / ٢٨يناير ١٥١٧، بعد صلاة العشاء ، تمكن من تسريب أتباعه فى حاراتها ،حتى وصلوا إلى معسكر سليم. حينئذ أطلق فيه جمالاً مـحـملة بمواد مـشـتـعله، مما جـعل مـعـسـكر سليم يشـتـعل بالنار، وظن سليم أنه مـأخـوذ لامحالة.ومالبث العامة من أحياء القاهرة ، لاسيما من حى بولاق ؛ أن انضموا إليه؛ فكانوا يرجمون المعسكر العثماني بالمقاليع وفيها الحجارة،كما أن بعض رماة البندق من المصريين قد اشتركوا فى القتال أيضاً ،حيث كـان المماليك يسمون هذه الجماعات من أهل مصر

---

(١) ابن زنبل، ص٤٣.

(٢) ابن إياس، ٣ ص١٠٢ س ٣ وما بعدها؛ انظر: روزنامه حيدر جلبى، سلطان سليمان إيران سفرينة دائر مخابرات؛ مخطوط تركي برقم R. Iq55؛ ورقات ١٤٣ ـ ١٦٠ ؛ منجم باشا أحمد دده؛ ورقة ١٨٨٥ أ؛ أحمد فريدون، ورقات ٦٣٠ ـ ٤٦٣.

كلهم كانوا مخالفين لما كان يجرى من اجتماع اكثرهم ووقفهم للملك الكامل فاخذنا المحاضر. فقال: ما تقولون في هذه. قلنا: نحن راضون بهذا الرجل وهذه خطوطنا. قال: ما هو خطكم وحدكم بل وخط الاساقفة والرهابنه. قلنا: نعم يا مولانا. فالتفت الى القاهريين وقال: فانتم ما تقولون. قالوا: راضون بهذا الرجل. فقال القسيسين [للقسيسين]: فانتم ما تقولان؟ فسكت القس بركات فقال القس يوسف: اذا رضى هولآء وهولا

بالعبيد[1]؛ حتى لاتكون لهم صفة الجندية مثلهم كما ذكرنا. فلاشك أن هذه أول مرة؛ يشترك فيها المصريون فى مقاومة العثمانيين ؛ إذ أنهم بحسهم الوطنى قدروا أبعاد الكارثة ، التى حلت بهم نتيجة مجئ العثمانين مصر. فلم يكن من الممكن إذن أن يقفوا سلبيين على طول الخط لاسيما وأن أهل القاهرة كان لهم دور إيجابى من قبل فى إختيار طومان باى. فاستمرت مقاومة المماليك ومعهم المصريون أربعة أيام وليالى ؛إلى يوم السبت، حيث ظهروا فيها على العثمانين ؛حتى صاروا يكبسون أماكن تجمعهم أيضاً .وبسبب انتصار طومان باى؛ فإنه خطب له فى القاهرة فى يوم الجمعة ، مع أنه فى يوم الجمعة الماضية ،كان قد دعى لسليم.

ويبدو أن حرب الحارات التى أكره عليها العثمانيون لم تعد تلاءم العثمانيين؛ مما جعلهم يلجأون إلى تكتيكهم السابق بالحرب بالبارود وحده، الذى كانوا يعتمدون عليه فى كل حرب ناجحة ؛ لتفوقهم فيه. فطلعت الإنكشارية من رماة البندق «اليكنجرية» إلى المآذن ؛ وصاروا يرمون فى كل اتجاه بالبندق الرصاص ؛ مما أجبر المماليك والأهالى على وقف المقاومة ؛ لاسيما وأنهم قد تعبوا من القتال ؛ بما فيهم المماليك ؛ بحيث لم يبق إلا طومان باى وحوله رماة البندق المصريين ؛وبعض خاصة مماليكه ـ مماليك سلطانية ـ واضطر طومان باى هو الآخر إلى أن ينسحب إلى خارج القاهرة.

---

(١) ابن إياس، ٣ ص١٠٣ س٢٦.

اى شي نقول نحن. فقال السلطان اخرجوا واتفقوا مع اصحابكم الذى برّا وقدموا بطرككم، ووحيات رأسي وتربة السلطان(*) ان لم تتفقوا ما قدمت لكم بطركا ابدا. فقاموا خرجوا وارتفعت الضجة بناء على ان القس داود قد اثبت امره وانخزا الذين يضادونه وعاد اكثرهم الى الرضى، ودخل الناس الى الشيخ نش الخلافة يهنئونه، وخرجوا من عنده إلى دار القس داوود يخدمونه ويهنئونه حتى لم

(*) تربة السلطان صلاح الدين الايوبى فى دمشق.

وقد انتقم العثمانيون من المصريين بحرق بيوتهم ؛ وتدنيس مساجدهم ومشاهد أوليائهم؛ بما فيها مقام الإمام الشافعي؛ وقتلوا منهم فوق عشرة آلاف[1] ؛ وتركوا جثثهم مرمية فى الطرقات تنهشها الكلاب؛ حتى كاد يفنى اهل القاهرة؛ نتيجة لذلك. كذلك قتل العثمانيون كل من وقع في أيديهم من المماليك،الذين تخفوا في بيوتهم أو فى أماكن أخرى ،بلغ عددهم نحو ثمانمائة[2]، من الأمراء والمماليك العاديين ، بما فيهم كرنباس والى مصرـ الفسطاط ـ الذى هتف وهو يموت بحياة طومان باى في نصرة الله[3]. وقد اعتبرت هذه المحاولة الفاشلة من قبل طومان باى؛ الكسرة الرابعة للماليك على أيدى العثمانيين؛ بعد مرج دابق وغزة والريدانية ؛ مما يبين أهمية انتصار العثمانيين فيها. وبالفعل ؛ فإنه بعد أن استتبت الأمور للعثمانيين فى القاهرة ؛ طلع سلم القلعة لأول مرة، في موكب حافل، ارتجت له القاهرة[4] ؛ وذلك في يوم الثلاثاء ١١ المحرم (٣فبراير).

وقد لجأ طومان باى إلى البهنسا[5] ، وهي غربى النيل في جنوب القاهرة ؛ فأقام فيها متخذاً النيل كخط دفاعي له؛ بأمل أن يعاود الهجوم فى الوقت المناسب. فانضمت إليه فلول

(١) نفسه، ٣ ص ١٠٤ س١٥ ، يقال ستين ألفا. ابن طولون، مفاكهة الخلان، القسم الثانى، ص ٤٣.
(٢) نفسه، ٣ ص ١٠٤ س٢٠. (٣) ابن زنبل، ص٣٩.
(٤) ابن إياس، ٣ ص ١٠٧ س١٩.
(٥) نفسه، ٣ ص١٠٦ س٢٣. عنها: معجم البلدان، ٢ ص ٣١٦.

تسعهم الدار. وكان ناس يروحون واخرون يجيون وما شك احد فى انه البطرك وانه يكرز فى يوم الاحد الذى بين الرفاعين(*) وهو السابع والعشرين من طوبه(*). ونفذ الشيخ نش الخلافة لاحضار الاساقفة واجتمع بى القس وقال: تريد كتب التقليد. فقلت: يا مولاى هذه وظيفة فخر الدولة ابى سعيد كاتب القلايه [البطركيه]. وكان قريبا لى وصديقاً ونسيباً ولم يكن طيب القلب بهذه

(*) الرفاعين: وبينهما مدة ١٣ يوم تقع بين يوم الاحد السابق لعيد Jonah والاحد السابق Lent والذى يبدأ يوم الاثنين.
(*) ٢٢ يناير [٢٣ يناير بحسب التقويم الجوليانى] سنة ١٢١٧م.

المماليك؛ وبعض أهالي مصر في الصعيد؛ بلغ عددهم أكثر من عشرين ألفا(١). والملاحظ أن بعض الأمراء المماليك، الذين انضموا إليه؛ كانوا قلة، إلا أنهم كانوا في غاية الفروسية والإقدام؛ يملكون مثله إرادة النضال. فكان على رأس هؤلاء الأمراء، الأمير شربك – يسميه ابن إياس شادبك(٢) ـ الذى كان مسجوناً فى أيام الغورى، وأطلق طومان باى سراحه، وأشركه في حروبه ضد العثمانيين. وقد اشتهر الأمير شربك بالأعور، مع أنه لم يكن كذلك، أو حتى به حول؛ بسبب أنه كان إذا مال بعينه إلى جانب،كان بياضها أكثر من سوادها فعينه طومان باى دو ادارً له، أى كاتم سره،وأصبح يقيمة مقام نفسه، فى جميع أموره؛ حتى أنه اشترط على نفسه إن انتصر أن يجعله ولى السلطنة من بعده(٣). ولدينا وصف الأمير شربك هذا؛ مما يدل على أنه بحكم تكوينه الجسمانى كان فارسا من الطراز الأول؛ فهو ليس طويلاً ولاقصيراً. ولا سميناً ولارفيعاً، أعرض ما فيه صدره وأكتافه وذراعاه(٤)، وكان له من القوة أن يمسك الفحل من قرنه فيجذبه؛ فيعلقه من مكانه، ويلوى قرونه بيديه؛ فيقلبه على جنبه.

وفى أول الأمر؛ قرر سليم أن يطال طومان باى، بمحاربته بالمماليك من جنسه، ولاسيما الأمراء منهم، الذين خانوا دولتهم. وانحازوا له؛ حتى من أيام الغورى؛ وذلك دون أن يحاربه بنفسه. فيرسل ضده فى الصعيد جانم السيفى،من أتباع خاير بك، الذى كان فى الأصل

(١) نفسه، ٣ ص ١٠٩ س١٨.
(٢) نفسه، ٣ ص١٠٣ س٢٧، أو يشبك.
(٣) ابن زنبل، ص٦٢.
(٤) نفسه، ص٦٦.

القضية. فقال فخر الدولة: الساعة ما اليه سبيل وربما لا يفعل. فقلت: انا افعل هذا على حكم النيابة عنه بشرط ان الاب [داوود] لا يغير عليه شياً. قال [داوود]: سمعاً وطاعة. فقررت نسخة التقليد عربياً واسميته انبا كيرلس وبيضتها ونقلوها الى القبطى، وحررت نسخه القبطى عليها، وفصلت الثياب والفقافير(*) واحضر كرسى كان من مقدم الزمان برسم البطاركه وجلى واحضرت

(*) الفقافير: هو تاج البطرك، ومشتملاته، الذى يلبسه أول مرة عند تنصيبه. ويرتديه بعد ذلك فى الاحتفالات الكبرى.

كاشفاً للفيوم ـ أى من يجبى مالها ـ مع رماة البندق الكثيرين ، عددهم عشرون ألفا؛ وكان زحفهم في المراكب فلما التقى بطومان باى ،طلب مبارزته ، فخرج له ،وتمكن من جرحه[١]، وبعدها أطبق طومان باى وأتباعه على من كانوا فى المراكب وسحقوهم ؛ وغنموا ما لديهم من البندق وآلات الحرب[٢]؛ ولم ينج جانم نفسه إلا بصعوبة.

كذلك أرسل سليم ضده جان بردى الغزالى ، أخا زوجه طومان باى نفسه ، وكان من قبل من أسباب هزيمة كل من الغورى ومن بعده طومان باى فى معاركهما مع العثمانيين؛ وإن لم يعرف هل كان ذلك عن خيانة ؛كما يؤكد أغلب المؤرخين المعاصرين؛ بما فيهم ابن إياس ؛ أو ربما لطموح فى نفسه لم يعلن عنه إلى وقتئذ ؛كما فيما بعد[٣]. وكان الغزالى قد طلب الأمان من سليم بعد الكسرة الأخيرة في القاهرة ، فظهر ومعه نحو أربعمائه مملوك، دقت أعناقهم جميعهم[٤]، ربما ثمن الأمان لشخصه . فأرسله سليم ومعه وزيره يونس باشا وقوة من خمسمائة من رماء البندق[٥]؛ فكان الغزالى فى تحركه نحو طومان باى ؛ يبالغ فى إرهاب الأهالى لاسيما العرب منهم بحرق بيوتهم ،وسبى الحريم والأولاد ، ويبيعهم كما يباع الرقيق[٦]؛ مما أغضب يونس باشا الذى تركه وحده يعيث فساداً .فلماً لحق الغزالى بطومان

(١) نفسه، ص٤٣. (٢) نفسه، ص٤٤. (٣) انظر بعده.
(٤) ابن إياس، ٣ ص ١٠٦ س٢٠ وما بعدها، ١٠٧ س ٥ ـ ٦ ؛ ابن زنبل، مخطوط، ورقات ٢٠ ـ ٢٨.
(٥) ابن زنبل، ص٦١. (٦) نفسه، ص ٩٢.

العكاكيز واشتريت الدواب وتجهز القس واصحابه للرّواح الى ثغر الاسكندريه بعد القمصيّة. وفى اثناء هذا خرج السلطان الى خصوص(*) عين شمس متوجها الى ثغر الاسكندرية. وكان الناس يظنون ان الشيخ ابا الفتوح قد استخرج(*) امره بتقدمة القس داود. ووصل اسقف لقانه الذى كان يتلوا الارشيابسقوبو واخبر ان اخاه الكبير مريض. ووصل معه بعده ثلثة اساقفه اخر وهما [هم]

(*) الاملاك الخاصة به في عين شمس.
(*) استخرج : استبعد.

باى ، تمكن من قتل عشرة من فرسانه(١) ، ودفعه غروره أن يطلب مبارزته ، فخرج له طومان باى وقلبه عن ظهر فرسه ، ووضع السيف فى نحره(٢) ، وأراد أن يقتله ، لولا أنه استرحمه بحكم القرابة، وحلف له أنه لايحاربه أبداً.

وفى الوقت نفسه؛ لجأ سليم إلى الحيلة مع طومان باى ؛ فأرسل إليه أماناً مع قضاة مصر(٣) ، يصحبهم مندوب عن الخليفة ، يعينه فيه على بلاده مدى الحياة، ويرضى منه أن تكون له الخطبة والسكة وحمل الخراج إليه، كما أرسل إلى صديقه شربك الأعور أماناً مماثلاً؛ يعلن فيه أنه لاحاجة له في مصر، وأنه يرحل عنها .وربما كان سليم مضطراً إلى ذلك؛ حيث كان قد قوى بكثرة من أتاه من العسكر، وما توافر له من مدد ومؤن وصلته من الإسكندرية بالذات ، حتى أشاع أنه زاحف إلى الجيزة .وعلى كل حال، فإنه لما عقد طومان باى مشورة ، فإن الأمراء المماليك ،وعلى رأسهم شربك الأعور؛ رفضوا بشدة الصلح ،وهاجموا رسل سليم وقتلوهم ،بما فيهم القضاة.

ويبدو أن سليماً وجد أن لاسبيل له مع طومان باى إلا أن يخوض بنفسه ضده معركة حاسمة جديدة ؛ وقبل أن يحاربه ،قتل جميع الأمراء المماليك المحبوسين فى القلعة ،وكانوا

(١) نفسه، ص٨٦. (٢) نفسه، ص٨٩.
(٣) ابن زنبل، ص٤٨ ـ ٤٩ ؛ ابن إياس، ٣ ص ١٠٩ ـ ١٠١.

اسقف اشموم (*) واسقف مليج واسقف شطنوف. وتحقق الناس انه قد تم امره. وبقى المضادون له يقولون نحن نفعل ونصنع اشياء ما كانوا يقدرون عليها لو خرج الامر. فلما كان فى عشية السبت ليلة الاحد المقدم ذكره اجتمعت الاسقافة والجماعة واجروا الحديث فقالوا نحن غدا فى مصر. قال لهم: فماذا. قالوا: كيف أما نكرز البطرك؟ قال: لا ما له فى غد تكريز لاننا ما شاورنا

(*) أشموم: هى أشمون وتعنى مركز عبادة الثامون الفرعونى المقدس. والاسم مأخوذ من الرقم ثمانيه المصرى. وردت فى معجم البلدان لياقوت باسم أشموم وهى أشموم الجريسات من أعمال المنوفية. وفى تاريخ سنة ١٢٢٨ هـ ورد اسمها أشمون جريس لمجاورتها لناحية جريس وتمييزاً لها عن أشمون الرمان التى بمركز دكرنس.

شطانوف: وردت فى «نزهة المشتاق» شطنوف مدينة واقعة على رأس الخليج (أى فرع النيل) الذى ينزل إلى دمياط، عندما ينقسم النيل إلى قسمين (فرعين) ينزلان إلى أسفل الأرض ويتصلان بالبحر، ومن هذا يتبين أن شطانوف

نحواً من الأربعين أو أكثر(١)؛ مع أنهم نالوا أمانة بعد معركة القاهرة الأخيرة؛ فكان منهم من هو مقدَم مائة أو أربعين أو عشرة من أمراء الجيش الجركسى،أو من كان يتولى وظائف أخرى كبيرة فى جهاز الحكم المملوكى السابق،مثل نائب القلعة، وحاجب الحجاب، والزردكاش، وأمير سلاح، والخازندار، ورأس نوبة، وكأنه بذلك قرر أن ينهى التركيب المملوكى فى مصر إلى الأبد.

وبعد ذلك ؛ وضع سليم مدفعيته على شواطئ النيل ؛ لقذف قوات طومان باى ،فتمكنت قواته من أن تعبر النيل ؛ لتقابل طومان باى، وقد حملت البنادق والأعلام ،التى كانت قد دخل بها القاهرة ،مكتوباً على بعضها: «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً» ، وفى بعضها الآخر «نصر من الله وفتح قريب»(٢)، وفى صحبته ابن الغورى سيدى محمد؛ ليناوئ به طومان باى(٣). ومع عدم تكافؤ قوة هذا الأخير مع قوة سليم ؛ إلا أنه قرر أن يخوض المعركة ؛ فكانت بالنسبة له ولزملائه أمراء المماليك ملحمة من ملاحم الفروسية النادرة ؛ حتى أن شربك الأعور طلب من سليم النزال(٤)، ونعته بالجبان، وشبه جنده بالبهائم(٥). وقد رمى سليم فى المعركة برماة

(١) ابن إياس، ٣ ص ١٠٦ س ١٠ وما بعدها. يقول ابن زنبل كانوا نحواً من الستين ابن زنبل، ص٥٠ ـ ٥١. أو حتى أربع وخمسون. نفسه، ٣ ص١١١ س١١.
(٢) نفسه، ص٨٣.
(٣) نفسه، ص٦٧.
(٤) نفسه، ص ٦٨ ـ ٦٩.
(٥) نفسه، ص٧٨.

من سنة ١٢١٦ إلى ١٢٣٥م.

السلطان بعد ولا اخذنا كتاباً الى والى الاسكندرية. فسكتوا واصبح المصريون طلعوا الى القاهرة ليجئوا صحبته فاعلموا ذلك فرجعوا وبقى الاساقفة بالقاهرة. ولما كان نهار يوم الثلثا من جمعة الرفاع(*) اجتمعت جماعة من قسوس المصريين واهل الصفا [الصفوة] وقوم ممن كان لا يريد القس داود وخرجوا يبتغون السلطان ليعلموه انهم لا يريدون داود. وفي يوم الاربعا اتبع الشيخ نش

كانت واقعة على رأس الدلتا في ذلك الوقت (وذلك عند منتصف القرن السادس عشر). وقال عنها ياقوت في معجم البلدان: شطنوف وهي بلد بمصر على بعد فرسخين من القاهرة. وردت برسمها الحالي وهو شطانوف في تاريخ سنة ١٢٢٨ هـ. وقد اتصلت بجزيرة دوره في جنوبها فأصبح رأس الدلتا عند القناطر الخيرية، وفي سنة ١٩١٠ اتصلت جزيرة الشعير بوسط النيل من جهتها البحرية بأرض دوره، فاصبح رأس الدلتا واقعاً جنوبي القناطر الخيرية.

(*) الاسبوع السابق للرفاع.

البندق والمدافع ؛ بحيث زلزلت الصحارى من حولهما؛ وكانت نتيجة المعركة أن قتل معظم من كان مع طومان باى من الأمراء والجند(١). وبدلا من أن يساعده الأعراب من قبيلة غزالة،كما وعدوه؛ فإنهم جروا خلفه بعد هزيمته، إلا أنه تمكن من أن يتغلب عليهم فى الجيزة، مع القليل الذى بقى معه.

ويذكر ابن زنبل شيئاً عجيباً عن طومان باى لم نصادفه لأى سلطان مملوكى آخر من سلاطين المماليك فى مصر؛ إلا أن له دلالة كبيرة ؛ تبين بحق أن طومان ؛ كان يعتبر نفسه مصرياً؛ يقاتل فى سبيل مصريته؛ فيذكر أن طومان باى وهو عند أهرام الجيزة ـ كأنها الكعبة الشريفة بالنسبة له ـ قرض قصيدة طويلة من الشعر، بلغت مائة بيت ، كتبها له شريك بيتاً بيتاً،وعلقها عند الأهرام ؛كأنه يعلقها فى أر كان الكعبة المقدسة ، تتضمن النوا ئب التى حلت به وبدولته ، وأنه بحكم المسئولية يقبل قدره، وأنه فعل كل ذلك من أجل مكانة مصر التى شهدت مولد الزمان .مولد الحضارة.

* * *

بعد هذه المعركة ا لخاسرة ، انسحب طومان باى إلى سخا، وهى مركز بإقليم الغربية ؛ حيث كان ينتشر فيها عرب قبيلة غزالة، وربما كان طومان باى منهوك القوى؛ لايقوى على

(١) نفسه، ص٧٠.

الخلافه جماعة ممن كان معه ليقفوا له [للسلطان] ويقولوا انهم يريدونه. وخرج هولآء وهولاء وكان السلطان قد رحل فاما جماعة المصريين فانهم تموا فى طلب السلطان واما اصحاب الشيخ ابى الفتوح فانهم لقيوا فى طريقهم الاسقف المعروف بهديه في قليوب جايئاً لتكريز البطرك فعرفوه القضية فرجع معهم وكان معه جماعة فصاروا عدة وساروا فوافوا السلطان على معديه دجوه في

الإنسحاب إلى مكان آخر ؛ أبعد من ذلك ؛ ولأن عرب عزاله قد أصبحوا فى طريقه ؛ وإن كان سرعان ما تركها ، بسبب أن عرب غزالة كانوا قد انضموا إلى سليم فى قتاله، واتجه إلى إقليم البحيرة، أو لأنه كانت له علاقة ودية سابقة مع عربها من قبيلة محارب ـ وهم غير قبيلة غزالة ـ أو ما كانوا يسمون أولاد مرعى؛ حيث كان طومان باى هو الذى أطلق شيخها حسن بن مرعى من حبس الغورى، لما تولى السلطنة.

وبالفعل ، فإن حسن بن مرعى وأخاه شكر ، قد أحسنا استقبال طومان باى ومن معه؛ حتى أن حسن بن مرعى قبل يدى طومان باى، وحلف له بإيمان الطاعة هو وعشيرته. وقد أراد حسن بن مرعى أن ينزل طومان باى فى منزله مبالغة فى الضيافة ؛ إلا أن طومان باى فضل أن يلجأ ومن معه إلى أحد الأودية المجاورة فى قرية تروجة، من إقليم البحيرة من ناحية الإسكندرية ؛ وهى نفس المكان الذى كان قد خرج منه وفد من المصريين ؛ لاستقبال جوهر الصقلى ـ قائد الفاطميين ـ لما قدم من شمال أفريقيا. وعلى كل حال ،سرعان ماتشاءم طومان ،لما هاجمته الكلاب ،وطار سيفه من يده ، وهو يردها عن نفسه.

ولكن سليما عن طريق جان بردى الغزالى ـ قريب طومان باى ـ اتصل بعربان أولاد مرعى؛ ووعد حسن بن مرعى ؛ إن سلمه طومان باى ؛ فإنه يقدمه على جميع مشايخ العربان فى مصر؛ ويجعل أرضه التى فيها إقطاعاً له؛ ولايأخذ منه دراهم[1]؛ وقد استجاب حسن بن

(١) ابن زنبل، ص٩٧.

نهارا يوم الخميس وكان مطر فوقفوا له فقال ما تريدون واحضر الاسقف.

فقال [الاسقف]:يا مولانا كنت انعمت علينا بتقدمة البطرك ولما وصلت لم اجد معهم خط مولانا ولم ينعمل لنا شي بغير خط وانا اسال من انعام مولانا ان يكتب لنا خطه. قال: نعم تعالوا الى المنزله نقضى حاجتكم. وسار فلقيه تلك الجماعة، فقال: ما لهولاء؟ فقالوا: يا مولانا انت امرت ان

مرعى لطلب سليم؛ اذ مالبث أن جاءت الخيل العثمانية ؛ لأخذ طومان باى . فقاوم الأمراء القليلون من حول طومان باى على غير جدوى ؛ وان استطاع الأمير شربك وحده الافلات. أما طومان باى، الذى كان يعرف أنه مأخوذ، لم يبد أى مقاومة ،حينما أحاطت به العسكر العثمانية ؛ وهى تقدر أنها قد وقعت على فريسة عظيمة[١]. ولذلك،جعلوا طومان باى يضع يده اليمنى فوق اليسرى،وربطوهما من قدام وأوثقوهما، وقدموا له بغل وأركبوه عليها ،وقيدوه من تحت بطنها.

وحينما وصلت سليم البشرى بالقبض على طومان باى : وأنه فى الطريق إليه ؛ أبدى ارتياحه العظيم، وقال الآن : «ملكنا ملك مصر[٢]، وأمر بالزينة فى القاهرة ومصر ـ الفسطاط ـ وجعل الطبول والكوسات ـ نوع من الطبول ـ تدق فى أرجائهما. فزين الناس مضطرين جميع البيوت والدكاكين ،والناس لاتعلم سبب الزينة[٣] ؛ وسرعان ما علمت بعد ذلك ،وهى لاتكاد تصدق أن طومان باى قد أمكسوه.

ولما وصل طومان باى أمام سليم ؛ استقبله وقد أحاط به خاير بك والغزالى وحسن بن مرعى والوزير يونس باشا؛ وقد وقفت العساكر العثمانية ، على حسب مراتبها ، وأسلحتها من البنادق فى أيديها فسلم طومان باى سلام الملوك ، فرد عليه سليم كما يحب ؛ ولم ينقص

(١) نفسه، ص١٠١ وما بعدها.

(٢) نفسه، ص١٠٢.

(٣) نفسه، ص١٠٨.

نتفق ونحن فما رضينا بهذا الرجل. فقال: من احضر عشرة الف دينار جعلناه بطركا. ووقفوا له مرة اخرى واخرى وهو لا يخرجهم عن ذلك. فرجعوا وبقي اوليك سايرين مع السلطان منتظرين ما وعدهم به. وكان الشيخ نش الخلافه بعد [ما زال] بالقاهرة لم يخرج منها فلما كان يوم الاحد الرفاع تقرب هو والاساقفة بكنيسة الفخّارين بالقاهرة، وبعد القربان اخذ الاساقفة معه ومضى الى دار القاضى الاشرف بن القاضى الفاضل

مكانه في سلامه ؛ وقد استمر طومان باى واقفاً؛ إلى أن أمره سليم بالجلوس ، فجلس .فنظر إليه سليم وتأمله ، فوجد فيه ـ كما يقول المؤرخ ابن زنبل[(١)] ـ كل شئ يشهد بالشجاعة والفروسية وكمال العقل ؛ فقال له معتباً بشدة: ياطومان باى ،كم نهيناك عن القتال ،وسفك دماء المسلمين ،وانى أرسلت لك من الشام أن تجعل السكة والخطبة باسمي وأنت مقيم على مصر، فأبيت ذلك، وقتلت رسولي، والرسول لايقتل ،بل قتلت قضاة بلادك ،ولم تقبل الصلح .كذلك أشار إليه ؛ أنه واجب الطاعة لأنه سلطان بن سلطان . بينما طومان باى من المماليك ، الذين لايعرفون حتى آباهم ،وربما كانوا من أولاد النصارى[(٢)].

فيناقش طومان باى سليماً وهو في الأسر، على أساس أنه سلطان مصر، ومعتزاً بالمثل العليا، فلا يتخاذل أو يطلب الرحمة ؛ فيرد : بأنه لم يكن شئ مماجرى من قتل الرسل أو القضاة ؛ قد مر بخاطره ، ولا بأمره أبداً ، ولابرأيه ؛ وعلى العكس ، أنه لما أرسل اليه من الشام الرسل أكرمهم ،ولكن الأمراء هم الذين عملوا على قتلهم[(٣)]. ثم استطرد يقول: إن دولتكم هي التي أقبلت ، ودولتي أدبرت ،هذا شئ كتبه الله تعالى ، وانى ما أخذت السلطنة برغبة منى، وانما قومي وعسكرى اختاروني ورغبوا في أن أكون أنا السلطان عليهم ، لما علموا من زهدى في ذلك ، فلما تقلدت عليهم ،وجب على أن أرد عنهم. ثم أشار إلى سليم أنه مثله قد

(١) نفسه، ص١٠٣.
(٢) نفسه، ص١٠٥.
(٣) نفسه، ص١٠٤.

وادخلهم عليه. فقال لهم: ما بالكم؟ قالوا: يا مولانا قد فسدت احوالنا بغير بطرك ونحن فقد [قد] رضينا هذا الرجل. فقال: طيبوا قلوبكم انا اخرج الى السلطان واعلمه ما سمعت منكم وانجز لكم القضية. فدعوا له وانفصلوا من عنده وخرج هو والشيخ نش الخلافة في بقية النهار وسار للسلطان وتلك الجماعة معه وقد انضم اليهم اساقفة اخرون هم يقفون له في الوقت بعد الوقت ولا يخرجهم عن المواعيد [أى يستقبلهم] الى ان

تربت نفسه في العز ، ولاتقبل الذل،وقال:وهل لو أرسلت لك أنا وامرتك أن تكون تحت إمرتى، هل كنت ترضى بذلك ، وهل سمعت أن الأسد يخضع للذئب، لا أنتم افرس منا ،ولا أشجع منا ،ولكن أنت كنت تستحل قتل المسلمين وترمى عليهم بهذه المدافع والنيران ؛ فكيف بك؛ إذا وقفت بين يدى رب العالمين ، وما من ملك وإن تعاظم ملكه ؛ إلا هو لله عبد أصغر ، فما أنا وأنت إلا بجمله العبيد.

ولاشك أن سليماً قد قرر قتل طومان باى منذ أسره له؛ وإن استقباه نحو أسبوع ـ وربما ١٧ يوماً[١] ـ تشفياً ، فحب سليم لسفك الدماء كان كبيراً ، ولايتوقف عن قتل أحد[٢]. ومع ذلك فقد قيل إن سليما لم يكن يقصد قتله؛ وينوى أن يطلقه ، أو يأخذه معه إلى بلاده[٣]، أو حتى يرسلة إلى مكة[٤]. ولكنه لما سمع أن الناس لاتصدق بمسكه، حنق من ذلك وتحت نصيحة أمراء المماليك أنفسهم ، الذين انحاز وا إليه ،مثل خاير بك والغزالى[٥]، فإنه قرر قتله.

ولدينا صورة قتل طومان باى من شهود عيان : فقد أتوا له ببغلة، وأخرجوه من الجيزة عليها ، وأنزلوه على مركب ،وعبروا به إلى بولاق .فلما وصلوا به إلى باب زويلة[٦]– أحد أبواب

(١) ابن إياس، ٣ ص١١٥ ص٣.
(٢) ابن زنبل، ص١١٥.
(٣) نفسه، ص١١١.
(٤) ابن إياس، ٣ ص١١٥ س٣.
(٥) ابن زنبل، ص١٠٩ ـ ١١٠.
(٦) انظر. بعده.

وصلوا الى ثغـر الاسكندريه ووصل الشـيخ نش الخلافه واجتمعوا هناك ولم يزالوا كذلك الى ان هم السلطان بالخروج من الثغر فى اخر الجمعة السادسة من الصَوم وكان عازماً على المضى إلى ثغر دمياط فتقدم اليه الشيخ نش الخلافه وقال: يا مولانا هولآء النصارى قد طالت مدتهم ومولانا أولى من قضى حاجتهم. فامر السلطان ان يكتب لهم كتاب بتقدمته عليهم فكتب ولم يبق الا العلامة [التوقيع] فسمع رجل من كتاب السلطان

القاهرة المشهور وأهمها ـ وجدوا حبل الشنق معداً له فأسرعوا به وأنزلوا عن البغلة ، بقصد شنقه من غير مهلة فتقدم طومان باى نحو الحبال بقلب جسور ، وحوله جنود العثمانية مسلولة السيوف فطلب طومان باى من الناس قراءة الفاتحة له ثلاث مرات؛ فقرأت الناس معه ؛ ثم قال للجلاد ـ المشاعلي ـ اعمل شغلك [1]. فكان الحبل يقطع به مرتين، وفي كل مرة يعلقوه من جديد، وشنق إلى أن مات ، وقد بقي معلقاً ثلاثة أيام، ثم بعد ذلك أنزلوه لما فاحت رائحة جسده ، ووضعوه في تابوت ، وغسله القاضي ،وكفنه من ثياب أرسلها سليم ثم صلب عليه ودفن في فسقية قبة السلطان الغورى، كما أرسل سليم ثلاثة أكياس من الفضة ، تصدقوا بها عليه فكان شنقه في يوم الأحد ٢١ من شهر ربيع الأول سنة ١٥/٩٢٢ سبتمبر ١٥١٧.

وفي الوقت ذاته ، أحضر الأمير شربك، زميل طومان باى المخلص فى نضالة للعثمانيين، وكان هو الآخر قد قبض عليه بالخديعة [2]، بعد إفلاته من الوادى المذكور. فقد قصد هو الآخر أحد أصدقائه العربان ، وأسمه أحمد بن بقر، شيخ عرب الشرقية فلما دخل لينام؛ كانت له عدة أيام لم ينم ، دخل عليه ابن بقر وأعوانه، وضربه بالنبوت فى رأسه ، ووقع عليه الباقى وكتفوه وقد ذهب الغزالي إلى ابن بقر وأحضر شربك، وهو مقيد ، وأركبوه على بغل ، وقيدوه عليه من تحت بطنه.

(١) ابن إياس، ٣ ص١١٥ ـ ١١٦؛ ابن زنبل، ص١١١.
(٢) ابن زنبل، ص١٠٦ وما بعدها.

يعرف بالرضى ابى الرضا بن دراق فكتب رقعة الى السلطان بان هذا الرجل [داود] ما يصلح وان كل من كتب له انما كتب له خوفا والاساقفة هو الذى يكلفهم ما جرى من غير رغبة منهم. ودخل بها يقصد من يعرضها على السلطان فاذا السلطان على باب القاعة منفرداً فقال: ما لك يا ابا الرضى؟ فناوله الرقعة فقراها ثم امر بتبطيل الكتاب. وقال: نحن نروح الى مصر نكشف عن حاله [داود]. واما ما كان من حديث ابنى اخت

فلما وصل شريك أمام سليم ، تأمله ـ كما يقول ابن زنبل[1] ، فوجده من أكمل الرجال. وهيبته ظاهرة عليه، وشجاعته واضحة ذو استكانة ووقار وهيبه، وضخامة وحشمة وأراد أن يختبر كلامه، حتى ينظر عقله. فقال له: لم قاتلتنى». فقال له: قاتلت عن مالى وعيالى وعرضى وأولادى وكتاب الله. فأمر سليم بضرب عنقه، فقطعوا رأسه ، وجاءت عياله وغلامه، فاستأذنوا فى أخذه فأذن لهم، فأخذوه وغسلوه، وصلوا عليه، ودفنوه فى مسجد المدرسة البيبر سية ؛ فكان قتله يوم قتل طومان باى.

كذلك قبض على قاسم بك فيما بعد [2]، وهو ابن أخ السلطان سليم نفسه ، الذى كان مع الغورى فى موقعة مرج دابق ،ومع طومان باى فى موقعة الريدانية ،ثم هرب إلى الصعيد وربما وجه إلى البحيرة عند العربان ،ثم اختفى بعد شنق طومان ، ولم يعلم له خبر مدة طويلة فلما قبض عليه ، أخذ إلى القلعة؛ حيث خنقوة فيها ، فاعتبر مسكه وقتله. أعظم من مسك طومان باى وقتله ؛حتى كتب فى مصر محضر بذلك ؛ بسبب منافسته لسليم على السلطة ، ووجود انصار له بين العثمانية حتى فى مصر ؛ لذلك سر سليم بقتله وأرسل الخلع لمن أوقعوا به.

* * *

(١) نفسه، ص١٠٧.

(٢) ابن إياس، ٣ ص ١٥٢ ـ ١٥٣، ١٥٥ ص١٥، هو قاسم بك بن أحمد بك ابن أبى يزيد بن محمد بن عثمان.

البطرك [يوحنا] فان السلطان كان قبل خروجه سلمهما للصمصام مشد الدواوين فعصرهما (*) وتهددهما وعاقبهما ولم يزل معهما حتى قطعا على انفسهما ثلثة الف دينار وضمن عليهما بها واخرجهما فقاما بها. ثم ان السلطان خرج من اسكندريه ورجع رايه عن الرواح الى دمياط فجاء الى القاهرة ودخل اليها فى نهار يوم الجمعة من الجمعة (*) السابعة من الصوم المقدس ودخل الشيخ نش الخلافة معه والجماعة. وفى نهار يوم

(*) العصر: وسيله من وسائل التعذيب فى هذا العصر.

(*) الجمعة السابعة من الصوم المقدس: تحتفل كل من الكنيسه اليونانيه (الشرقية) و الكنيسه القبطية بيوم السبت السابق لأحد السعف بعيد القديس العازر يقرأ فيه سفر قيام العازر.

وقد كان صدى شنق طومان باى أقوى ما يكون فى مصر؛ بحيث يقول المؤرخ ابن زنبل[1]، كانت له رجة هائلة، وكأن الدنيا قد انقلبت بسبب موته؛ واعتبر يوم شنقه أشأم الأيام، وارتفع الناس بالضجيج والبكاء والصياح فى كل مكان، ويقول ابن إياس [2]: صرخت عليه الناس صرخة عظيمة ،وكثرت عليه الحزن والأسف . فكان المصريون من غيظهم يقولون الزجل، وكثرت المرثيات عليه، ومعظمها من قرض الزجالين والشعراء المصريين[3].

وبسبب شنق طومان باى على باب زويلة؛ فإن هذا الباب عرف بباب المتولى أو بوابة المتولي أو بوابة المتولى[4]؛ لعله بسبب أنه كان لقب لطومان باى قبل السلطنة؛ إذ أن لقب

(١) أبن زنبل، ص١٠٩.

(٢) ابن إياس، ٣ ص١١٥ ص١٤.

(٣) ابن زنبل، ص١١٣ مثل:

لهفى على سلطان، كيف قد ولى وزال، كأنه لن يذكرا
شنقوه ظلماً، فوق باب زويلة، ولقد أذاقوه الوبال الأكبرا
يارب، فاعف عن عظائم جرمه، واجعل جنات الخلد له قرا (مقرا).

والزجل فن من فنون الشعر ظهر وقتذاك يعرف بالبديعيات؛ وان ظهر نوع من الشعر العامى كالموال. نجيب المصرى، فى الأدب الإسلامى، ص١٥٩.

(٤) انظر. محمد وصفي، باب زويلة، مجلة كلية الآثار، العدد (١)، ١٩٧٦، ص٨٧. زويلة اسم لبابين، الأول بناه جوهر وقد هدم، أما الثانى فقد بناه بدر الجمالى، وهو الذى بقى، ويعتبر أحد أبواب ثلاثة، =

السبت الذى هو سبت العازر (*) احضر الشيخ نش الخلافه الاساقفه الى بين يدى السلطان [العادل] وكانوا سبعة، الاربعة المقيمون بالقاهرة فى دار الشيخ نش الخلافة عند القس داود، وثلثه الذين كانوا يسيروا ورآء السلطان من موضع الى موضع فاستخبرهم عن القس داود فقالوا نحن راضيون به ولا نخرج عما كتبنا به خطوطنا له. فقال لهم: اخرجوا واشهدوا عليكم بذلك. فخرجوا الى الديوان وكتبوا عليهم شهادة برضاهم

(*) وهى الجمعة السابقة لأحد السعف وعيد القديس يوحنا وهرقل.

«متولى»،كان يضاف إلى الوظائف المملوكية المختلفة. وقد اعتاد كل من يمر تحته أن يتلو صلاة قصيرة على روحه،كما أن رجال الصوفية وأتقياء الناس أصبحوا يسكنونه، واصبح له شهرة خاصة.كذلك قيل إن بهذا الباب قطعة من الحبل متصلة بخطاف؛ هى التى شنق بها طومان باى، وذكرها أحد الرحاله الأوربيين[1] ؛ وعلى كل حال ، فإنه منذ قيام الدولة المملوكية، كان يشنق على هذا الباب أعداء الدولة وحتى المجرمون العتاة ؛ لاسيما رسل هو لاكو الذين كانوا قد شنقوا عليه، فى أوائل حكم هذه الدولة.

أحوال مصر بعد طومان باى

وقد بقى سليم فى مصر بعد شنق طومان باى حوالى ثمانية أشهر [2]؛ بعدها غادرها إلى القسطنطينية (أو اسطنبول). وفى خلال إقامته فى مصر؛ أخذ فى زيارة معالمها المشهورة فزار

= بناها هذا الوزير؛ فكان هذا الباب، وباب النصر، وباب الفتوح، يعتبر من أروع الأمثلة الهندسية والحربية فى مصر، أثار إعجاب الرحالة: فهو باب عظيم، ذو قوس، يرتكز على برجين عظيمين، على كل منهما منارة؛ عليها نقش عليه عقيدة الشيعة الفاطمية: «لا إله إلا الله؛ محمد رسول الله؛ على ولى الله؛ لأن هذا الباب قد أنشئ فى أيام الفاطميين الشيعة.

(١) ذكر ذلك الرحالة البريطانى Pococke سنة ١٧٣٥م.

(٢) ابن إياس، ٣ ص ١٣٣ ـ ١٣٤. ثمانية أشهر إلا أياماً قلائل.

بالقس داود واستصلاحهم له ان يكون بطريركا. وسيرها الشيخ نش الخلافة الى السلطان فخرجت علامته [توقيعه أو خاتمه] عليها للوقت فاخذ الشيخ الخط وسيره الى والى مصر عشاء لكى ينذر الناس بان يخرجوا باكر للقاء بطركهم وليوقدوا كنيسة المعلقة ويزينوها. فنفذ الى كهنة المعلقة وتقدم اليهم بذلك فشاعت القضية وخرج الاسعد هبة الله بن صدقة المذكور اولا وهو الذى كان يولب [يؤلب] الناس على الوقوف للسلطان بتلك

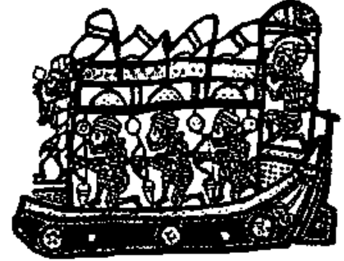

(*) من رسوم خيال الظل المصرى.

الأهرام؛ وأعجب بالمقياس الذى بناه الفاطميون ؛ لقياس فيض النيل وأقام فيه وقتاً[1]؛ ودخل إحدى الحمامات الكبيرة؛ التى امتازت بها القاهرة فى العصور الوسطى ؛ فكان إحدها يخدم فيه أكثر من مائه شخص، وأعجب بها [2].

كذلك صلى سليم فى الجامع الأزهر[3]، الذى كان بنى فى أيام الفاطميين، وأصبح من وقتهم، جامعة إسلامية كبرى؛ ومنبراً للعرفان فى دنيا المسلمين، وحضر الاحتفال الذى كان يحصل بمصرسنوياً لفتح الخليج عند بلوغ النيل الدرجة الكافى لرىّ الأراضى المصرية، كما شاهد سفر المحمل الشريف وقافلة الحجاج إلى الأراضى الحجازية، وأرسل الصرة المعتاد إرسالها إلى الحرمين الشريفين ، بقصد توزيعها على الفقراء ، لاسيما وأن أشراف مكة كانوا قد قدموا التهنئة له؛ لما انتصر على المماليك.

بل اشتاق سليم إلى رؤية البحر؛ فذهب إلى الإسكندرية[4]، وأمضى بها ثلاثة أيام، وقال عنها إنها إقليم لانظير له، وكانت رحلته فى الذهاب والإياب قد أخذت خمسة عشر يوماً ذهاباً وإياباً ، وأتاه العربان من حولها يقدمون له الولاء ، وإن كانت زيارته للإسكندرية؛ بسبب وصول الأسطول العثمانى إليها، فى يوم الثلاء ٢٨ ربيع الآخر ٩٢٣/١٩مايو ١٥١٧، حيث

(١) نفسه، ٣ ص ١١٨ س ١٢.
(٢) نفسه، ٣ ص ١١٦ س ٢١ وما بعدها.
(٣) نفسه، ٣ ص ١١٦ س ٢٠.
(٤) نفسه، ٣ ص ١٢١ ص ١٠.

المرار ويجمعهم وصار يدخل من كنيسة الى كنيسة الى ان اجتمع معه خلق فطلعوا الى القاهرة لوقتهم ومعهم جميع أقسا [قساوسة] الكنايس ما خلا قسيس كنيسة بومر قوره، وأوقدوا الشمع وقصدوا القلعة ليلا فلبوا وغوّثوا وصرخوا واستغاثوا الى ان سمعهم الملك الكامل، ثم عادوا ليدخلوا القاهرة فوجدوا باب زويله قد اغلق فرقدوا على الباب. وبطلت فى تلك الليلة جميع كنايس مصر من الابصلمديّة ومن تدوير الزيتونه. فلما

(*) من رسوم خيال الظل المصرى.

كان مقرراً أن يشترك فى فتح شواطئ مصر لوطالت الحرب مع المماليك ؛ فقام بزيارة قطعة البالغ عددها ٣٠١ وحدة ، وأطلقت المدافع من السفن لتحيته.

وفى أثناء إقامته الطويلة فى القاهرة ؛ أصبح يتسلى برؤية خيال الظل ، الذى كان أول ظهوره فى مصر فى أيام الفاطميين على ما يبدو، ثم انتشر بعدهم فى أيام المماليك؛وهو أشبة بدار الخياله الساذجة، أو ظل الخيال؛ أو طيف الخيال(١)، أو حتى مسرح الدمى؛ مما يدل على دور مصر الحضارى الرائد دائماً. فكانت تقص الشخوص اللازمة لتمثيلياتها من جلود البقر أ و الجاموس ، ويعالجونها حتى تصبح شفافة ، ويصبغونها بالألوان، ويتركون فتحات فى مفاصلها لتحريكها. وكان العرض يتم فى المساء؛ حيث يجلس الجمهور أمام الستار ، وقد يعمد من يقدمونها إلى إنشاد المدائح التمهيدية ، وفى النهاية يعاد التسبيح وطلب الغفران.

فيذكر ابن إياس فى تاريخه عن حوادث عام ١٥١٦/٩٢٢(٢)؛ أن السلطان سليماً، لما كان بالمقياس ، أحضر فى بعض الليالى «خيال الظل». فلما جلس لفرجة ، قيل إن المخايل

(١) ابن دانيال، خيال الظل، حققه حمادة ١٩٦٣ ؛ انظر: أحمد تيمور، خيال الظل واللعب والتماثيل المصورة ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص١٧ وما بعدها؛ رشدى الصالح، مسرح خيال الظل فى العالم الإسلامى، المجلة، عدد ٣٣، سبتمبر ١٩٥٩ ، ٢٥ وما بعدها؛ بولس، خيال الظل، المكتبة الثقافية، عددها ١٣٨ ، أغسطس ١٩٦٥.

(٢) ابن إياس، ٣ص ١٢٥ ص١٨ وما بعدها.

اصبحوا قصدوا دار القاضي الاشرف بن الفاضل قبل ركوبه ثم مضوا الى دار السلطان فمنهم من عبر ومنهم من بقي برا يغوث ويصيح ودخل من هذه الجماعة قوم الى القاضي عماد الدين بن اخي العلم صاحب الديوان وذكروا له ان البطرك مات وله [مال] في جهة الاساقفة ديارته(*) سنة، وهذه سنة بعد موته والسلطان وارثه، فاطلبها منهم وهي الفان ومايتا دينار. فنفذ اليهم ووكل بهم وكانوا عازمين الى النزول الى مصر لتقديم البطرك، وكتب

(*) ديارية: مخصصات مالية ترسلها الكنايس والاديرة للبطرك سنويا.

صنع له صفة باب زويله ، وصفة السلطان طومان باى لما شنق عليه ، وقطع به الحبل مرتين، فانشرح سليم لذلك ، وأنعم على الخايل فى تلك الليلة بثمانين ديناراً، وخلع عليه قفطاناً مخملاً مذهباً، وقال له: إذا سافرنا إلى إسطنبول، فامض معنا، حتى يتفرج ابنى عليه، يعنى ولده سليمان الذى عرف بالقانونى فيما بعد : فلعله هو الريس فتات العنبر [1]، الذى كان أستاذاً فى صنعه الخيال، وفاق على بريوه فى هذا الفن. ومن الغريب إنه بعد سفر سليم إلى إسطنبول نودى بأن لا أحد من الناس يصنع خيال الظل [2]، ربما لأنه كان من أهداف خيال الظل الأساسية أنه تعبير عما يحس به الشعب المصرى من آمال وآلام ، ويؤكد ذلك أن سليماً استقدم من هؤلاء الخيالين ستمائه شخص أخذهم معه بعد مغادرته مصر؛ للبقاء فى تركيا.

أما تصرفه الشخصى فى خلال إقامته فى مصر؛ فهو أنه طولها لم ينصف مظلوماً ولو مرة، وكان مشغولاً بالسكر، وتبجحه مع الصبيان المرد[3]، ولايظهر للجمهور إلا عند سفك دماء الجراكسة ، ويصفه المؤرخون المصريون بأنه كان من طبعه أن لايثبت على قول،وكلامه ناقض ومنقوض، وأنه ما كان له أمان إذا اعطاه لأحد .

أما عساكره؛ فكانوا على شا كلته، ليس لهم نظام يعرف، لاهم ولا أمراؤهم، وهم فى رأى المصريين كالبهائم[4]، يلبسون الطراطير والقفاطين

(١) نفسه، ص ٢٢١ ص ١٠ ـ ١١.
(٢) نفسه، ٣ ص ١٨٣ ص٢٦.
(٣) ابن إياس، ٣ ص ١٣٤ س٥.
(٤) نفسه، ٣ ص ١٣٤ س١٤.

رقعة للسلطان [العادل] بانه جرى كذا وكذا فقال السلطان: ان تعرض اليهم احد ضربت رقبته، هذا هذيان، اى شئ اسكتهم عنهم هذا الزمان كله فقد رفع التوكيل عنهم. وركبوا مطمأنين وركب معهم القس واجتمع معهم من الخلق ما لا يحصى عدده وكان يوماً مشهوداً وجآت الرهجية [المبلغين] فاعطوهم شيئا وصرفوهم وتبادرت الاخبار الى مصر بان الامر انبت [أنتهى] فصارت الاسواق لا تنشق [لا يمكن السير فيها]. فاما

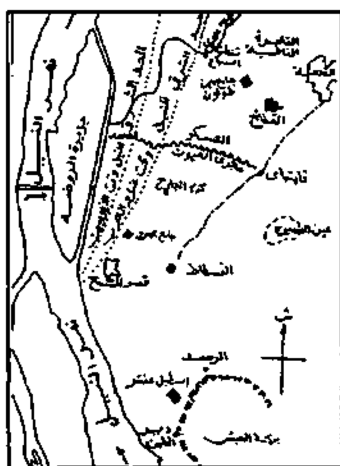

القاهرة حتى سنة ٩١٧ قبطية = ١٢٠٠م = ٥٩٧ هـ .

الحرير(١)، وجميعاً عيونهم دنيه ، ونفوسهم قذرة ، يأكلون وهم راكبون على خيولهم فى الأسواق ،ويتجاهرون بشرب الخمر بين الناس،ولما جاء شهر رمضان كان غالبهم لايصوم ولايصلى فى الجامع ، ولا صلاة الجمعة إلا قليلاً منهم، ولم يكن عندهم أدب ولاخشية ؛ حيث كان جند الإنكشارية يعتدون على الأموال والأعراض بشكل ظاهر؛ ويقومون بطرد السكان من دورهم والسكنى فيها(٢).

* * *

وبالفعل؛ فإن العثمانيين الذين كانوا صفر اليدين من كل حضارة، اندهشوا مما وجدوه فى مصر من مظاهرها، وصمموا على أن تكون لهم وحدهم، على أن يحرموا منها مصر فى نفس الوقت؛ ولم تكن هذه طريقتهم مع مصر فقط، وأنما فعلوا ذلك من قبل مع الصفويين؛ ولكن ليس بالشكل الذى حدث فى مصر،وذلك لأنهم استولوا عليها كلها؛ فكان العثمانيون يأخذون كل ما وجدوه فى مصر، وهى التى تملأ متاحفهم فى وقتنا.

فقد سعى العثمانيون إلى إفقار مصر مالياً بكل الوسائل؛ بما فيها النهب فبالإضافة إلى أنهم غنموا كل ما كان حمله الغورى معه من مال وتحف ؛ فإنهم لما دخلوا مصر عملوا على

(١) نفسه، ٣ ص١٢٢ س١.
(٢) نفسه، ٣ ص ١١٨ س ١٠ ـ ١١.

[الكنيسة] المعلقة فلم يكن لأحد فيها وطأة قدم من كثرة الخلق فطلعوا برزمة فيها ثيابه [داود] ومعها عكازه الى كنيسة المعلقة وكان [هناك] والى القاهرة فلما غوث النصارى تلك الليلة نفذ استدعاه وحمله رسالة الى ابيه وكان القس [داود] والجماعة قد خرجوا من باب الخوخه(*) قاصدين مصر فوصلوا الى الميمونة ومعهم نايب والى القاهرة وتلقاهم[أ] بن والى مصر هناك واذا رسل قد جآءوا عدواً استردوا الاساقفة وقالوا السلطان

(*) باب الخوخه: كان فى السور الغربى للقاهرة الفاطمية، وهى الجهة المطلة على الخليج الكبير (الخليج المصرى). وكان إلى جواره بابان، «باب سعادة» و «باب القنطرة ويظن المقريزى أن باب الخوخة مستحدث فى هذا المكان. ويجاوره حارة زويله حيث كانت دار الوزير «يعقوب بن كلس» وهى المعروفة بدار الديباج، كان قبالة هذا الباب على الخليج جامع بناه المأمون وجعل عليه تحصينات عسكرية.

مصادرة أموال كبار الدولة المملوكية، وحتى مال الستات أيضا(١)، بما فيهن زوجه طومان باى ووالدتها ؛ فأخذوا ما لديها من جواهر وذهب وأوانى فضيه ونحاس مكفت «مطعم». وحتى يسود الفقر المصريين جميعاً، فأنهم منعوا تداول العملة المملوكية السائدة، وأصدروا بدلها عملة خفيفة(٢)، لايدخل فيها الذهب والفضة إلا قليلاً، منها عملة ذهبية أو فضية اسمها : الأشرفى(٣)، كما أباحوا الزغل وهو الزيف(٤) ؛ فكانت الإنكشارية تدخل الأسواق وترمى فضة مغشوشة، ومن رفض قبولها تنهب تجارته أو حتى يشنق(٥) ولعل سليماً جمع جميع الذهب والفضة من مصر؛ فحينما خرج منها خرج ومعه ألف جمل محملة ما بين ذهب وفضة(٦). كذلك ألغى العثمانيون دور سك العملة من مصر، وكانت منتشرة فى مصر والشام، بل إن سليماً قد أخذ معه عند عودته إلى أسطنبول معلم سك العملة فى القاهرة (٧).

ويتبين مما أورده ابن أياس من إحصائيات للمال فى مصر منذ أيام الفراعنة إلى وقت العثمانيين هبوط دخل مصر فى أيام العثمانيين(٨)، بشكل لم يحدث قبلاً سيما وأن مال مصر أصبح يحمل مباشر من مصادره إلى إسطنبول، مثل المال الذى يرد إلى ثغور الاسكندرية

(١) نفسه ، ٣ ص ١١٨.
(٢) نفسه، ص ١١٧ س١٦.
(٣) نفسه، ٣ ص ٢٢١ س ٨ ـ ٩.
(٤) نفسه، ٣ ص ٢٩٠.
(٥) نفسه، ٣ ص ٢٧١.
(٦) نفسه، ٣ ص ١٣٣ س ٢٢.
(٧) نفسه، ٣ ص ٢٨٩.
(٨) نفسه، ٣ ص ٢٦٦.

طلبـهم، وفي الحـال جآء سـهم الدين والى القـاهر يركض فـاسـتـعـاد الخط الذى كـان فـيـه عـلامـة السلطان واخذ الاساقفة معه وعاد، فلما وصل الى باب دار السلطان كـاد الناس يرجـمـون الاسـاقـفـة فحماهم سهم الدين وقال: والله ان تعرض اليهم احد قطعت يده. فكفت عنهم الايدى بل تناولوهم بالالسن فشتموهم وسبوهم وعيروهم. وعبروا الى دار السلطان فعيقوا بها. واما القس وبعض الجماعة

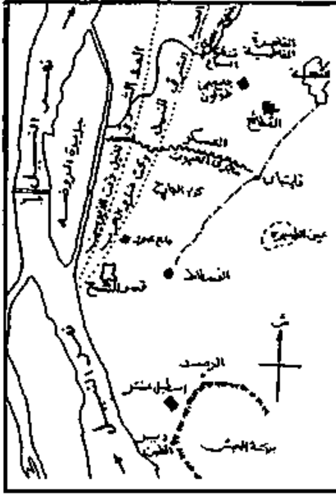
خريطة القاهرة

ودمياط والبرلس[1]؛وحصيلة خراج الأرض ١٫٣٠٠,٠٠٠ ، غير العينى من القمح والشعير والفول.

ومما جعل المعاناة المالية تسود فى أعماق القرى المصرية أيضاً، أن العثمانيين جعلوا مقاييس جديدة للأرض، ليست من مقاييس مصر التى تعودت عليها، ومن لم يكن يعمل بها يشنق من غير معاودة[2]، منها ذراع من الحديد تسمى العثمانية تزيد على الزراع الهاشمى، الذى كان يتعامل به أهل مصر منذ أيام العباسيين ، وحتى فى الموازين أرسلت صنج من نحاس وأرطال على طريق اسطنبول . وأرسلت الأوامر بابطال ما فى مصر من صنج.

وفى الوقت ذاته ، رسمت سياسة عامة؛ لنهب كل ما هو قيم فى مصر، وحمله إلى اسطنبول بالطريق البرى على آلاف الجمال،وفى أعداد لاتحص من المراكب. فكان أكثر ما نهب من القلعة أو قلعة الجبل - جبل المقطم- التى كانت مقر سلاطين المماليك بالقاهرة، وجمعت فيها تحف عديدة على مدى ثلاثة قرون ، فيما عرف بالبيوت أو الخانات أو الدور ، وهى الأماكن الواسعة التى استخدمت إما فى خزن البضائع أو فى صنع الأشياء ،ولم تكن للسلطان وحده، وانما للخواص من أمرائه؛ حيث تعددت فى أيام المماليك بشكل لم يعرف قبلاً، وتمثل درجة كبيرة من الغنى؛ بحيث أصبح غناها الفاحش منبعاً للخيال فى قصص ألف

(١) نفسه، ٣ ص ٢٦٧ ص ١٠.
(٢) نفسه، ٣ ص ٢٧١ ص وما بعدها، ٢٩٠.

فدخلوا الى كنيسة حارة الروم الحمرا(*) وبعضهم بقي برا على الطريق وبعضهم بل اكثرهم تغللوا وبقي من بقي منتظرين لم ينقطع رجاهم. واما اوليك فكانوا مقيمين على باب دار السلطان لما دخل الملك الكامل الى خدمة ابيه وقفوا له وراهم ولما خرج وقفوا له ودعوا له. وطالت الحال وجآت [الساعة] التاسعة. وكنت انا في جميع ما جرى في هذا النهار مقيما بكنيسة ابو سرجه، فلما قيل لي قد وصل [القس داو]الى الميمونه قلت اقوم

(*) كنيسة حارة الروم الحمرا (كنيسة بومنا): فيما يذكرها المقريزى أنه في سنة ثمان عشره وسبعمايه (١٠٣٤ قبطية = ١٣١٨م)، رفع النصارى (القبط) قصة باعادة ما تهدم بها، فرسم لهم بذلك فأعادوها أحسن ما كانت. وشق ذلك على المسلمين، فوقفوا للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وشكوا أمر الكنيسة وأنه جدد إلى جانبها بناء لم يكن بها. فأمر الخازن والي القاهرة بهدم ما جدده النصارى، فلم يكن بأسرع من هدمه واقامة محراب فيه. وتجمع المسلمون فأذنوا به ووصلوا وقراوا القرآن، فانكر النصارى ذلك

ليله وليلة، منها(١): الشر ابخاناه التي احتوت على أدوات الشراب النفسية، وأنواع الصيني الفاخر، والطشتخاناه التي احتوت على أدوات غسل الملابس الخاصة بالسلطان والساكنين بالقلعة، والفراش خاناه، وفيها أنواع الخيام والسجاجيد، والسلاح خاناه أو حواصل الذخيرة وفيها كل أنواع السلاح، حتى تلك التي تستخدم في حفلات السلطان وكلها مطعمة بالذهب والفضة والجواهر ؛ إذ كانت توصف بأنها عجيبة من العجائب، بها من جميع آلات السلاح ،حتى من المدافع النحاس، والركبخاناه حيث يوجد فيها كل ما يتعلق من معدات ركوب الخيل، والطبلخاناه وفيها أنواع الآلات الموسيقية والآعلام ،والشكار خاناه وفيها كل ما يتعلق بالطيور وبخاصة تلك التي تستخدم في الصيد ،هذا غير ما يوجد في القلعة من خزائن المال والكتب ،وحواصل وأهراء وهي مخازن، واسطبلات للخيل ،ومناخات للجمال، ومطابخ إلى غير ذلك.

فلم يترك سليم في القلعة شيئاً لم يأخذه منها؛حتى وأعمدتها ، لاسيما تلك التي في الإيوان ، وهي قاعة الاستقبال الرسمية ، التي كان من يراها يقر لسلاطين مصر بعلو وسعة الإنفاق والكرم؛ حيث كانت تعلوه قبة خضراء عالية جداً.وهو الإيوان الكبير، أشهر إيوانات قلعة الجبل، في القصر المعروف بالكبير والمعظم(٢)، وكانت حوائطه مغطاة بالرخام

(١) انظر: عبدالمنعم ماجد. نظم المماليك ورسومهم في مصر، الجزء الثاني.
(٢) ابن إياس، ٢ ص٢، ٣ ص١١٧؛ الخطط، ٣ ص ٣٤٠ ـ ٣٤١. بني في ٧١٤/ ١٣١٤.

القاه على راس الدرب فقمت ركبت وانا اقول هنا القاه هنا القاه الى ان قيل لى الجماعة قد نزلوا عند الحمرا فتعجبت واسرعت لعلم الخبر فجيت وجدت اصحابنا قعوداً فاعلمونى القضية فقعدت معهم فلما فاتت التاسعة قلت اليوم عظيم [عيد الشعانين حد السعف]، وما يجب ان يفوتنا فيه القربان، وكان هناك قس من اهل دميره يسمى بانوب فاخذته معي وجماعة من اصحابنا المكابرين

من فعلهم وشكوا مصابهم إلى كريم الدين ناظر الخاص، (قتله الملك الناصر بعد ذلك فى عام ١٠٤٠ قبطية = ١٣٢٣م = ٧٢٤ هـ)، فتعصب لهم عند السلطان حتى أمر بهدم المحراب، فهدم وبقى مكانه كوم تراب (انظر مسودة المواعظ والاعتبار. تحقيق: د. ايمن فؤاد سيد. ص. ٤١).

والفصوص المذهبة والمشجرة بالصوف وأنواع الملونات، وأرضها مفروشة بالرخام من مختلف أقطار الأرض مما لايوجد مثيله ، فكان سليم يأمر بوضع الرخام فى صناديق خشبية ؛ ليشحنه إلى اسطنبول.

يضاف إلى ذلك أن سليماً شحن إلى بلاده ما أخذه من بيوت الأمراء قاطبة والأعيان، بل نقل إلى بلاده أعمدة عظيمة من الصعيد (أعمدة فرعونية) ومسلات، وأبواباً مسوكة من حديد بصناعة بديعة[1]، وحتى آثار النبى ومفاتيح الكعبة وأبوابها التى كانت بمصر ؛ هذا غير الخيول والنجائب وكل ما هو ناطق.

ولاشك أن سياسة استغلال جميع موارد مصر على يد العثمانين تلك التى بدأت بسليم،كانت من العوامل التى جعلت مصر يعمها الخراب وتكره هذا الاحتلال الفظيع.

* * *

وفى سبيل القضاء على مقومات مصر الحضارية، سعى سليم إلى أن يفرغها من كل ناحية فيها؛فسحب منها رجالها الحاذقين فى المهن والحياة الحضارية؛ ليحملهم معه إلى إسطنبول ، بقصد أن يسخرهم فى تعمير بلاده. ولذلك لم يقابل أهل مصر منذ قديم الزمان أعظم من هذه الشدة، ولاسمع بمثلها من قبل فى التواريخ القديمة.

(١) نفسه، ٣ ص ٣٣٥.

[الموافقين] لى وجينا الى كنيسة غبريال(*) وكانوا قدسوا فيه قبل ذلك فطلبنا قربانة فاحضرت واحضر كسوة وانيه فقدسنا وتقربنا. وعدت انا الى كنيسة بو سرجه التى كنت مقيم(*) بها فى الصوم وبقى بعض اصحابنا منتظرا على حاله فاما اوليك المصرون [المصممون] فبقوا على باب دار السلطان الى العشا الى ان اخرجت الاساقفة واكثرهم باتوا بالقاهرة. واما القس داود فاقام بكنيسة حارة الروم الحمرا الى عشية النهار ثم عاد

(*) كنيسة غبريال: هى كنيسة الملاك غبريال بحارة السقايين، تم هدمها بعد ذلك تم اعيد بناؤها سنة ١٨٩٠م.

(*) كان كاتب السيرة مقيما بكنيسه ابو سرجه.

فيذكر المؤرخ ابن إياس أسماء هؤلاء التعساء، الذين تقرر سفرهم من مصر إلى اسطنبول؛ حيث خصص فصلاً فى كتابه لمن توجه منهم إلى القسطنطينية على حد قوله(١) وهم من جميع نواحي مصر،من المسلمين والقبط واليهود على السواء (٢)،منهم : أصحاب الحرف والصناعات(٣)، كالمهندسين والبنائين والنجارين والحدادين والسباكين والفعلة؛ حيث أخذ سليم من هؤلاء جماعة كبيرة جداً، لايمكن حصر أعدادهم(٤)كذلك أخذ سليم الحذاق من صناع الزردخانه، أى السلاح(٥)، أو الذين يشتغلون بصناعة النسيج ؛ وهم من الصناع الذين كانوا يوجدون فى مصر بكثرة كما أخذ جماعة من التجار. لاسيما تجار الخليلى(٦)، وحتى تجار الشراب «العصير» ؛ حيث لاتزال توجد فى بلاد الأتراك للآن .ومن رجال الحكم أخذ رؤساء الديار المصرية،ومشاهير الناس، وكتاب الدواوين (٧)، والمعلمين فى المدارس الحربية «الطباق» والقضاة والشهود،وأخذ الفلاحين والعوام والسوقة كعبيد وعمال.

ولعل الذى يؤيد قصد العثمانيين إفقار مصر من أهلها سيما من الحذاق هو أخذهم المعلم عبد الرحمن بن طبيلة، الذى كان علامة عصره فى أنتاج الفروج أو معامل الدجاج والأوز؛

(١) نفسه، ٣ ص ١٤٧.
(٢) نفسه، ٣ ص ١١٦ ـ ١١٧ ، ١٤٩ س١٢.
(٣) نفسه، ٣ ص ١٢٢ س ٢٢.
(٤) نفسه، ٣ ص ١٤٩ س ٩ ـ ١٠.
(٥) نفسه، ٣ ص ١٤٨ س٢٤.
(٦) نفسه، ٣ ص ١١٩ س ٤ ـ ٥.
(٧) نفسه، ٣ ص ١٢٢.

الى بيته وبطلت كنايس مصر فى هذا النهار من القداس وهو يوم الشعانين واصبحوا الناس يوم الاثنين الذى هو اول يوم البصخه (*) وكان عيد الاضحى، اجتمعوا ووقفوا للسلطان بالاناجيل والمجامر والصلبان يدعون له وخرجوا الاساقفة فى ذلك النهار كل منهم الى كرسيه ورجع الناس الى كنايسهم واستقروا بها وعيدوا والقال والقيل بينهم يحتبك. واما ما جرى على البيعة فى هذه الايام فان وكيل السلطان جآء الى قصر الشمع

(*) البصخه : قربان بيرام

حيث اشتهرت مصر بتفريخهم[١]؛ فكانت معامل التنانير، التى كان يعمل فيها البيض، ويوقد عليها بالنار؛ فتحاكى نار الطبيعة فى حضانة الدجاج ؛ فتخرج الفراريخ ، ولايعمل هذا فى بلد غير مصر[٢]؛ كما يقول ابن إياس.

فكان ترحيلهم إلى إسطنبول فيه إذلال كبير لهم، وقسوة بالغة؛ فهم قد فصلوا عن أهاليهم ؛حتى جرت الدموع فى مصر بسبب ذلك أنهارا، وأحزن نساءهم غاية الحزن، حتى قاموا لنعيهم كأنهم مفقودون ،ودقوا عليهم بالطارات[٣] .وكانت تكتب أسماء المرحلين فى قوائم[٤] ،ومن لم يحضر منهم أخذ بدله ضامن من أهله ،ولايطلق سبيله إلا إذا حضر. وحينئذ يربطونهم بالحبال فى رقابهم، ويسوقونهم بالضرب الشديد على ظهورهم، ولو كانوا من أعيان الناس[٥] .بل أحياناً يطلب من بعض كبار الموظفين السفر إلى إسطنبول،ويقولون لهم أكتبوا وصاياكم،مما جعل أحوالهم تضطرب[٦] . فيوضعون فى السجون أو الابراج أو الخانات وهى المخازن[٧] ؛ إلى أن يتم ترحيلهم فى المراكب عن طريق البحر إلى إسطنبول، ومن يرفض منهم النزول فى المركب يضرب، وينزلها رغم أنفه[٨] .

---

(١) نفسه، ٣ ص ٢٥٥ .
(٢) نفسه، ١ ص ٥ .
(٣) نفسه، ٣ ص ١٧٩ .
(٤) نفسه، ٣ ص ١٤٩ س١٤ .
(٥) نفسه، ٣ ص ١٢٤ ، ١٣٢ .
(٦) نفسه، ٣ ص ١٧٩ .
(٧) نفسه، ٣ ص ١٢١ ص ٣ .
(٨) نفسه، ٣ ص ١١٩ س ٧ .

(*) صقعه: أى طاف بكل نواحيه وقيمه ماليا.

وصقعه(*) جميعه واخذ الناس بأن يقوموا عن كل دار بشي على حكم الحكر واخذ من كثير منهم، وحدد عليهم الحكر مضاعفاً وقطع على اوقاف الكنايس التي للذمه من كل دار خمسة دنانير ووقع للناس من ذلك في شدة عظيمة. وكان التوكيل على القسوس في كل حين بهذا السبب وقاموا ببعض المبلغ فغرمت كنيستا المعلقة وبوسرجه زهاء خمسون دينار، ولما وصل السلطان وقفوا عن الطلب. وبعد ذلك وردت الاخبار بغلا

ولانعرف ما حدث لهؤلاء المنفيين أو حتى أعدادهم[1]، بعد أن فارقوا أوطانهم، لأول مرة؛ وإن عرفنا أن بعضهم قد غرق في الطريق ؛ فقد ذكر أن مركباً قد غرقت وهي في طريقها إلى إسطنبول ؛كانت تحمل أربعمائه شخص، منهم جماعة من الأعيان ، الذين خرجوا من مصر[2]، وأنه في عام ١٥١٧/٩٢٣[3]،وصلت أنباء من إسطنبول تفيد وفاة جماعة كبيرة من أهل مصر ممن توجه إليها، وإن كثيراً منهم لم يعلم خبره. ولعل بعض هؤلاء المنفيين ، على الأقل أعيان مصر منهم،كان قد راودهم أمل أن يفرج عنهم، إلا أنه لم يلتفت إليهم. لذلك بذلت بعض المحاولات منهم للهرب إلى مصر؛ إلا أنهم كانوا يعاد وضعهم في الحديد عن طريق الصوباشية ـ القائمين بأعمال الشرطة ـ ويعرضون في شوارع اسطنبول أمام أهلها ، وقد قاسوا من الهوان الكثير، بينما منهم الأعيان والقضاة[4] ومع أنه قد سمح لبعضهم بالزيارة في مصر؛ إلى أنهم سرعان ما يعادون إلى اسطنبول ، وبوضعهم في الحديد، وتكتيفهم بالحبال إلى أن ينزلوا في المراكب[5]؛ وقد لوحظ أن أكثرهم لما وصل إلى مصر كان قد حصل لهم ذهول[6].

ولا نشك في أن هؤلاء المنفيين في اسطنبول وغيرها،هم الذين بنوا للعثمانيين أجمل

(١) قيل ١٨٠٠ إنسان.
(٢) ابن إياس، ٣ ص ١٤٠ س ٦ ـ ٧.
(٣) نفسه، ٣ ص ١٧٦ س٩.
(٤) نفسه، ٣ ص ٢٢٤.
(٥) نفسه، ٣ ص ٢٥٥.
(٦) نفسه، ٣ ص ٢٦٣ س٦.

الغلة فى الشام وخصوصاً ارض القدس والساحل [ساحل الشام] حتى انهم ذكروا ان الماء عدم بها وان عين سلوان نزحت حتى صارت طريقا، ولم يسمع بمثل هذا . وتحركت الاسعار بمصر الى خمسة وثلثين دينار الماية اردب القمح ثم انحطت الى سبعة وعشرين دينار. وعمل جسر مراكب من الجزيرة [الروضه] الى الجيزه وكان مبتداه من قدام الصناعة [ترسانة بناء السفن] المستجده وعدة

- -

عمائرهم وأرواعها، التي يفخرون بها للآن، سيما جوامعهم ومنائرهم وبازاراتهم وغير ذلك،وهي التي تعتبر من أروع المباني العثمانية. ولعل لفظة «جي» التي انتقلت إلى لغة المصريين [1]؛ لتعني حذق حرفة؛ قد تدل على ما قام به المصريون من نشر للحرف والصناعات التي كانوا على دراية بها وتفوق ، وعلى العكس ؛ فقد لاحظ المؤرخ ابن إياس، أنه بسبب ترحيل أصحاب الحرف والصناعات من مصر إلى بلاد العثمانيين؛ فانه قد بطل من مصر نحو من خمسين صنعة،مما يبين أن مظاهر حضارة مصر وتفوقها قد انتقلا على يدهم إلى إسطنبول وغيرها[2].

يضاف إلى ذلك ، أن سليماً قد قضى على الزعامة الروحية التي استمرت طوال حكم دولة سلاطين المماليك، بنقل منصب الخلافة إلى اسطنبول؛وإن كان يبدو أنه قد فعل ذلك تدريجيا [3]. فبعد موقعة مرج دابق ،ربما كان سليم قد وعد الخليفة بأن يسيره إلى بغداد؛ ليعيد إليها مركز الخلافة؛ مثلما كان الحال قبل انتقالها على يد المماليك إلى مصر، بعد أن

(١) انظر. نجيب المصرى، التركية فى العامية المصرية، المجلة التاريخية المصرية، المجلد ٢٣ ، ١٩٧٦، ص١٥٦.

(٢) ابن إياس، ٣ ص ١٣٣ ص٢٨.

(٣) لا يذكر مؤرخون ترك معاصرون شيئاً عن نقل الخلافة إلى سليم. انظر ابن كمال، وحيد جلبي، ومترجمي نصوح، وجلال زاد قوجه نشانجي. ملاحظة متولي، المرجع السابق، ص ٢٣٤.

المراكب التى فيه ثلثة وخمسين مركبا، وكان كماله فى نهار يوم الخميس التاسع من ابيب سنة ثلاث وثلثين وتسع ماية [٩٣٣ قبطية = ١٢١٧م] وأبيح للناس [عبوره] بغير حق يطلب عنه. واستخدم السلطان برسمه رجال لاصلاح ما يفسد منه ولفتح الابواب للمراكب المصعده والمنحدره لانهم عملوا فيه مواضع لاجل ذلك يفتح للمراكب وتعاد على حالها وصار الناس رايحين الى

اقدم خريطة مصورة للقاهرة قبل عام ١٤٨٠م

استولى المغول على بغداد . كذلك لاحظ المؤرخ ابن إياس أن الخليفة المتوكل كان صاحب الحل والعقد فى أول أيام فتح العثمانيين لمصر،وأنه فى مقام سلطان مصر(١)، فى نفوذ الكلمة وظهور العظمة ،حتى كانت زوجة طومان باى فى بيته.

وبعد أن استفاد سليم من الخليفة المتوكل فى تثبيت فتحه لمصر؛ تغير خاطره عليه،وأصدر له الأمر بالرحيل إلى أسطنبول ،مع بعض أولاد عمه(٢)؛ ربما ليقطع جذور أسرته من مصر نهائياً. فلما وصلوا إلى أسطنبول ، فرق سليم بين الخليفة وأبناء عمه، وأدعى عليه ادعاءات كثيرة .منها أنه كان أخفى عن السلطان ما كان عنده من ودائع الأمراء الذين قتلوا، وأنه أساء إلى زوجة طومان باى وأمها، بأخذه أموالها، ووصل به إلى أن حط من قدره بالاعتداء عليه بالسباب والضرب ،ثم نفاه إلى خارج اسطنبولى لتسهل مراقبته،وحتى لايتمكن من الهروب،مثلما فعل ببعض المصريين ، الذين رحلوا إلى بلاد العثمانيين ، وربما لم يعد الخليفة إلى مصر بعد ذلك أبداً.

ولانعرف على وجه التدقيق ماحدث بالنسبة لانتقال منصب الخلافة إلى سليم ،الذى وضحت نياته منذ البداية فى الاستحواذ عليها ، بدليل أنه لم يدع للتوكل بالخلافة فى

(١) نفسه، ٣ س ١٠٥ ص ١٣ ـ ١٤.
(٢) نفسه، ٣ ص ١١٩ ص ٢١ وما بعده.

الجيزه وجايين ركابا ورجالة [على اقدامهم] وفرحوا بذلك فرحاً عظيما ودعوا للسلطان بسببه وعمل عليه درابزين خشب من الجانبين احترازا من ان يسقط احد الى البحر فى [أىّ] وقت.

ووجد الناس به راحة عظيمة ووصل الماء فى هذه السنة الى اثنين وعشرين اصبعاً من سبع عشر ذراعاً ثم انحط، وتحركت اسعار الغلة الى ان بلغ القمح خمسين دينار المابة اردب ثم انحط الى

اسطنبول ،وربما حصلت هناك مبايعة منه إلى سليم أو أنه لم يتم التنازل فى عهده؛ وانما حدث فى عهد خلفه.ومع ذلك فإننا نرجح انتقال الخلافة إلى سليم نفسه ؛ بسبب أنه كان له لقب الخليفة ، فيذكر ابن زنبل من ألقابه : السلطان الأعظم، الخاقان المعظم ،مالك رقاب الأمم، صاحب السيف والقلم ،خليفة الله فى الأرض [1] ،كما أن سليماً نفسه قد أخذ عند عودته إلى اسطنبول شارات الخلافة كالبردة،حيث سميت «خرقة شريف»،والسيف وغيرهما.

كانت آثار مصر وخيراتها نهباً للعديد من القوى الاستعمارية منذ الرومان والفرس والعرب والترك والأوروبيين من مختلف الجنسيات والامريكان.. الخ.

(١) ابن زنبل، ص٢.

خمسة وعشرين دينار. ورجعوا كرروا الطلب على القسوس فى طلب قيمة ما قطعوه على الاوقاف، ولم يزالوا مجتهدين الى ان غلقوه بعد جهد وشدة ورهبان [رهبة] اجحفت بالكنيسة. وفى هذه السنة خرج السلطان الملك العادل من القاهرة الى البركة المعروفة ببركة الحبش(*) طالبا للدار الشامية لما بلغه من اخبار الفرنج وكثرتهم واقام بها مدة ثم انتقل الى بلبيس(*) دخلت سنة اربع وثلثين وتسع مايه

(*) بركة الحبش: تقع للجنوب من القاهرة الفاطمية ومدينة الفسطاط فيما بين النيل وجبل المقطم. وهي ليست بركة بالمعنى الدارج الآن ولكنها كانت غيطان وبساتين تغمرها المياه وقت فيضان النيل. وكان يقع إلى شمالها الرصد الفاطمي الذى بناه الوزير الفاطمي الأفضل ابن بدر الجمالي ومحله الآن اسطبل عنتر بالبساتين. وكان يقع عليه دير للأحباش ولعل هذا سبب تسميتها ببركة الحبش.

(*) وبلبيس من مدن محافظة الشرقية، كانت تقع على الطريق من الفسطاط إلى الرملة بفلسطين،

ولاشك أن السلطان العثمانى قد وضع قبل سفره الخطوط الرئيسية لكيفية حكم مصر، بعد أن هزم المماليك هزيمة مطلقة، بشنق طومان باى آخر سلاطينهم؛ إلا أنه قد قرر فجأة وعلى غير انتظار أن تعود مصر للجراكسة،ولكن تحت سيطرته؛وهو نمط الحكم الذى استمر فى مصر؛ إلى أن سعى الفرنسيون بمجئ نابليون للقضاء عليه؛ وان تم القضاء عليه نهائياً بتولية محمد على الكبير؛ حتى أصبحنا نميز بين عصرين فى حكم المماليك لمصر، حكم السلاطين الذى انتهى بشنق طومان باى ، وحكم أمراء المماليك الذى استمر إلى العصر الحديث،وربما سليماً قد وجد ذلك أيسر من حكمها حكماً مباشراً،وخصوصاً أنه لم يعد يخشى الجراكسة، الذين لم تكن لهم حيلة أمام تفوق العثمانيين الحربى،مادام قد ترك فى مصر حامية من جنده، ومزودة بالسلاح الحاسم،الذى كان السبب فى نصر سليم على طول الخط فى جميع حروبه فى الغرب والشرق، وهو البارود وآلاته المتطورة، سيما المدفع والبندقية.

ولاشك أيضا أن تفكير سليم فى حكم مصر بهذا الشكل ،كان على عكس ما فعله نابليون فيما بعد،الذى أراد أن يقضى على حكم المماليك لصالح المصريين،كذلك لانشك فى أن سليماً من ناحيته،لم يكن يحب المصريين بتاتاً أو يميل إليهم ؛ حتى يدعوهم إلى المشاركة فى الحكم،ربما لأن سليماً نفسه كان يخشى من شعب مصر أن يعيد حكم دولة سلاطين المماليك. حقاً إن الجراكسة قد بقوا فى مصر، إلا أن الذين استعان سليم بهم لم يكونوا فى

ثم توجه الى الشام ونزل ببيسان(*) يجمع عساكره وجنوده واقام بها مدة طويلة وكان قد وصل الى الافرنج ملك من ورا البحر [المتوسط] يعرف بملك الهنكر(*)وقيل انهم اجتمعوا فى اربعة الف راكب وماية الف راجل وقصدوا عسكر الاسلام ببيسان فلم يثبت قدامهم [عسكر الاسلام] بل انهزموا وتبعتهم الافرنج اربعة خمسة ايام الى ان ابعدوهم عن الساحل ونهبوا من الغلال والاسلحة وقتلوا واسروا خلقاً عظيما. ثم عادوا نزلوا على

ولذلك عُرفت بمحطة رحال الدرب الشامى، ولأهميتها العسكرية كان بها والى الحرب، ويمر بها نهر النيل وقت الفيضان.

(*) أما بيسان فهى من شمال فلسطين قرب نهر الاردن.

(*) الهنكر: المجر وهو غالباً الملك اندرو الثانى.

خدمة مصر وسياستها ،وانما فى خدمة العثمانيين،أو بمعنى آخر من الخونة الجراكسة ،الذين تعاو نوا معه.

وربما قد فكر سليم لوقت قصير جداً، أن يحكم مصر حكماً مباشراً، بتولية أعظم وزرائه يونس باشا، نائباً عنه فيها، لاسيما وأن يونس باشا كان السبب فى ولايته السلطنة من دون أخوته [1] فى اسطنبول، فقرره فى النيابه فى حكم مصر[2]. ولكننا لانعرف السبب الحقيقى الذى من أجله عدل سليم عن ذلك ، وربما قدحدثت مؤامرة لقتله على يد الإنكشارية [3]، فى أثناء عرضه لعسكره قبل عودته ؛ وكان ليونس باشا يد فى ذلك، أو لأن يونس باشا لم يعد على وفاق معه؛ فكان يعارض تصرفاته؛ بحيث أن سليماً نفسه لم يلبث أن قتله ؛ فقطع رأسه[4]، وهو فى طريقه إلى اسطنبول؛ وإن كان ابنه قد هرب إلى مصر، وقبض عليه فيها.

وعلى كل حال؛ فإن سليماً قبل مغادرته مصر اختار نائباً فيها من المماليك الجراكسة،هو خاير بك، الذى كان السبب فى انتصاره بخيانته للسلطان الغورى؛ فقد ورد فى كتاب توليته الذى صدر فى يوم الاثنين ١٣من شعبان ٣١/٩٢٣أغسطس ١٥١٧[5]: أعطيك هذه المملكة

(١) ابن إياس، ٣ ص ١٣٦ س ٦ ـ ٧. (٢) نفسه، ٣ ص ١٢١ س ١٤.

(٣) نفسه، ٣ ص ١٣١. (٤) نفسه، ٣ ص ١٢٦ س ٢.

(٥) رزونامه جلبى، ورقات ١٤٣ ـ ١٦٠ ؛ أحمد فريدون، ورقات ٦٣٠ ـ ٦٤١؛ ابن إياس، ٣ ص ١٣١ س ٢٥.

طبريه(*) اياما ثم رجعوا الى عكا(*) اقاموا بها يعملون آلات الحصار ثم خرجوا نازلوا الطور [قلعة طابور(*)] وهي قلعة عظيمة استنجد بها الملك العادل قريبة من عكا وقاتلوها عشرة ايام وقتلوا مقدمها ثم رحلوا منها بغير سبب علم وعادوا الى عكا. وكان قبل عيد الميلاد المقدس. وفي هذه الايام امر السلطان عز نصره بعرض المسجونين فعرضوا عليه فكان فيهم رجل يسمى اسداً وكان حايكاً وكان قد تخاصم مع امرأته فحملته الى

(*) عكا: من مدن الساحل الفلسطيني الشمالي، وميناء هام. في العصور الوسطى، كما كانت لها صله بمحاولات بونابرت الاستيلاء على الشام وقت الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨م.
أما طبريه فهي بحيرة في شمال فلسطين ينبع منها نهر الاردن.
(*) قلعة طابور: من القلاع الحصينة التي تقع خلف قلعة عكا. ويعتقد اقباط مصر أن يسوع المسيح تجلي على طور طابور. ويحتفل بهذه الذكرى في ١٣ مسرى. انظر السنكسار جـ ٢ ص ٣٦٦.

إقطاعاً لك إلى أن تموت .ونحن لانعرف كثيراً عن خاير بك،غير أنه جركسي، أبوه اسمه يلباي (١)، وأنه ترقى في أيام قايتباي ،كما صبح في أيام الغوري من أكبر مساعديه، حتى أنه كان أرسله في سفارة إلى اسطنبول في أيام بايزيد الثاني في ١٥٤٧/٩٠٣، وظل يترقى في الوظائف المملوكية ؛ إلى أن أصبح نائباً على حلب؛ وإن وصف بأنه كثير الحيل والخداع ؛ منها أنه كان دائم الأتصال بسليم ؛يظهر ذلك بوضوح من الوثائق التركية الرسمية ذاتها مما جعل سيباى نائب الغوري بالشام يتهمه بالخيانة، وأراد قتله؛ إلا أن الغوري لم يوافقه (٢).

كذلك سمح سليم لنائبه خاير بك أن يستعين في حكم مصر بني جنسه من الجراكسه، وقبل سفره كتب إلى الدواوين في مصر المعارضة لجميع أصحاب الإقطاعات والأرزاق من المماليك (٣)؛ بل جعلهم يعو دون بالفعل إلى حكم مصر من جديد ؛ فقسم البلاد من الناحية الإدارية إلى مديريات ، عددها أربع وعشرون مديرية ؛على رأس كل منها أمير مملوكي؛ تكون مهمتهم فيها جمع المال له (٤)، وبذلك لايتغير الوضوح الذى كان سائداً من قبل؛ وفي الوقت ذاته قسم مصر من الناحية السياسية إلى ثلاثة أقسام كبيرة ، جعل على كل قسم رئيساً من المماليك أيضاً لمعاونة خاير بك في حكم البلاد؛ على أن يتبع هؤلاء الثلاثة الديوان ـ أي الوزارة ـ في اسطنبول (٥).

(١) ابن إياس، ٣ ص ٣١٥ ـ ٣١٦.
(٢) انظر. قبله.
(٣) ابن زنبل، ص ١١٣.
(٤) أوردها فريد. انظر. الدولة العلية، ص ٧٧.
(٥) نفسه، ص ٧٦.

الشـرع فـجـرت منه لقطه [لفظة] شـهـد عليـه بالاسلام وانكره فاعتقل وبقى فى الاعتقال مدة سنة الى هذا الاوان فـاحـضـره السلطان ورغبـه ووعـده بمال وكـسـوة ان هو بقى على الاسـلام فـامتنع وقـال: مـا انا الا نصـراني وعلى نصـرانيتي امـوت. فـقـال له: ويلك تلفظ بالشـهـادة قـدامي واينمـا اردت امـضي، أفـتـضـل بنفسك؟. قـال: لا. كان هذا ابدا. ولم يزل الحال يتردد بينهم وبينه الى

ومع ذلك؛ فإن سليماً لم يكن يثق فى خايربك أو ا لجراكسة ثقة مطلقة ؛ بدليل أنه أخذ معه عند مغادرته مصـر ابن خاير بك نفسـه رهينة [1].كذلك قـرر سـليم مع خـاير بك؛ خير الدين باشا؛ احد أمراء العثمانيين ، وجعله يقيم فيها ، ولا ينزل إلى المدينة [2]، بينما خاير بك أصبح يقيم أساساً فى المدينة. وقد جعل سليم تحت حكم هذا الأمير العثمانى «أوجاقات» وهى فـرق من الجيش العـثـمـانى مكونة من خـمـسـة آلاف فـارس«سـبـاهى» ،ومن الرمـاة بالبندق (توفتكجيان) نحو خمسمائة رام ، وقيل عشرون ألف عـسكرى من المشاة ـ الإنكشارية ـ واثنا عشـر ألفـا من الفـرسـان [3](السباهية) .فكان رؤساؤهم أو ضـباطهم يعتمد عليهم الأمير العثماني، بما فيهم « الأغا» ، أى رئيس الفرقة أو نائبه ويسمى «الكخيا أو الكتـخدا». وربما يكون سليم قد أتاح مع خاير بك شخص اسمه، جانم الحمزاوى[4]، الذى وصف بأنه من أعيـان أبناء الناس ـ لعله من المصريين ـ بعض السلطة؛ فأصبح صاحب الحل والعقـد فى البلاد؛ وإن كنا لانظن أنه قد استمر له نفوذ كبير لمدة طويلة مع وجود خاير بك. وأخيراً؛ فإن سليماً قد طلب من ابن الغورى ، سيدى محمد [5]؛ أن يغادر مصـر معه؛ حتى لايوجد أى مطالب بحق السلطنة المملوكية، لاسيما وأن طومان باى لم يترك أولاداً ذكوراً.

(١) ابن إياس، ٣ ص ٢٣٥ س ٢٦ ـ ٢٧.
(٢) نفسه، ٣ ص ١٣٣ س ١٤ ـ ١٥.
(٣) ابن زنبل، ص ١١٧. (٤) ابن إياس، ٣ ص ٢٢٨.
(٥) نفسه، ٣ ص ١٣٤ س ١٥؛ ابن زنبل، ص ١١٧.

يوم الغطاس الجيد فامر بضرب رقبته فاحضره والى القاهرة عند باب زويله واحضر الشهود وعرض عليه الاسلام قدامهم فامتنع وقال: انجزونى [انحرونى] بالله عليكم ولا تردونى الى الحبس. فتقدم اليه احد مماليكه فنخسه بالسيف الى ان غاب منه فيه اربع اصابع فقال له: كمل. فقال له المملوك :مد عنقك. فمده فضربه ضربة طارت بها رأسه عن جسده وعلق بدنه على باب زويله.

- -

ولما اطمأن سليم إلى أن قبضته أصبحت قوية فى مصر، ووجد أنه لم يعد لبقائه فيها لزوم؛ غادرها فى ٢٠ رمضان ٩٢٣/ أوائل سبتمبر ١٥١٧ ، وقيل إن سبب مغادرته لمصر أنه قد سمع أخباراً سيئة من بلاده؛ فاستعجل العودة إليها؛وهو على كل حال لم يعد لمصر بعد ذلك. وقد غادر سليم مصر عن الطريق البرى، فى موكب كبير.

ولقد قام خاير بك بتنفيذ سياسة سليم فى مصر؛ فاعتمد فى حكمه على المماليك الجراكسة مثلما كان سليم يريد؛ وكبداية لذلك أطلق جماعة كثيرة منهم ممن كانوا فى الاعتقال [(١)]؛ وذلك بناء على أمر سليم نفسه؛ مما جعل الكثير منهم يظهر؛ بعد أن كان معظمهم قد أختفوا فى زى الفلاحين، وبلغوا غاية الذل والفقر والعرى[(٢)].

أما العربان، الذين أسهموا فى احتلال العثمانيين مصر ، فقد استمروا مقطعين فيها، ترسل لهم المراسيم لكل واحد منهم على انفراد ،كما ترسل الخلع وهى القفاطين الحرير، التى بلغت فى مرة سبعة قفاطين؛ لدينا مثل على ذلك فى القائمة المشتملة على أسماء شيوخ هوارة فى جرجا؛ فكان شيخهم يحضر إلى القاهرة فى حضرة ملك الأمراء خاير بك.ومع ذلك؛ فإن العربان فى أول حكم خاير بك؛ بعد مغادرة سليم؛ربما طمعوا فى حكم البلاد من دونه؛ وما

(١) ابن إياس، ٣ ص ١٣٣ ص٢٢ وما بعدها؛ وثيقة بطوب قبوسراى برقم E5594.
(٢) نفسه، ٣ ص ١٤٢ س ٥ وما بعدها.

ومجد الناس الله على صبر هذا الرجل وحسن ايمانه وبقى معلقاً ثلثة ايام وبعد ذلك حطوه واخرجوه خارج المدينة واخذوا ان يحرقوه ولم يلق عليه من الوقود ما يفي باحراقه فبقي جسده سالماً، واجتمعت جماعة من النصارى المباركين وسالوا الوالي فيه فاعطاهم اياه فاخذوه ودفنوه في كنيسة الملكية التي بحارة الروم الحمرا وشكروا الله الذى يثبت قديسيه على الايمان باسمه الى اخر نفس.

لبثوا أن صاروا عنصر اضطراب فيها؛ فخربوا فيها، وقطعوا طريق القوافل الواردة من الشام؛ حتى أن بعضهم من عرب السوالم وصلوا إلى القاهرة، بعد أن كانوا في الشرقية [1]، في أعداد كبيرة بلغت أكثر من عشرين ألفا، يتزعمهم أحمد بن بقر وابنه عبد الدايم؛ فحاربهم خاير بك بالإنكشارية والجراكسة[2]؛حيث اشترك من هؤلاء في قتالهم خمسة آلاف مملوك؛وقد استخدم خاير بك في قتالهم المدافع النحاس[3]التي تجر على عجل؛ فهزم العربان هزيمة منكرة، وعلق «رءوس قتلاهم في القاهرة وأماكن شتى[4]»، كما سلخ بعضهم وحشاهم تبناً نكاية فيهم[5].

وبذلك فعل خاير بك، ما كان يفعله سلاطين المماليك من قبل؛ مما جعل العربان تخضع للأمر الواقع.

وقد كان حكم خاير بك في مصر يتمثل في تنفيذ أوامر السلطان العثماني ـ أو ما كان يسمى أيضاً بالخنكار ـ واستقبال القصاد من قبله؛ حيث كانت تزين القاهرة له في كل مرة، ويكلف الناس كثيراً في ذلك، وتمشي النصارى بالشموع الموقدة[6]، وتطلق النساء الغناء

(١) ابن إياس، ٣ ص١٤٢ ـ ٤٣١

(٢) نفسه، ٣ ص ١٦٦.

(٣) نفسه، ٣ ص١٨٠ س١٩.

(٤) نفسه، ٣ ص ١٤٥.

(٥) نفسه، ٣ ص ٢١١.

(٦) نفسه، ٣ ص ٢٨٢ (قبل آخر الصفحة بسطرين).

وفى هذا الوقت امر السلطان ابقاه الله ان يعمل على مصر سور من جانب البحر [النيل] وان يمد مع طول الخليج الى القاهرة وشرعوا في ذلك وابتدوا به من عند دار الملك وحفروا الاساس وشرعوا في العمارة. وفى هذه الايام خرج امر الملك الكامل الى القاهرة ومصر بان يخرجوا كل ليلة ويتشالقوا(*) ففعلوا ذلك وصارت تقع بينهم القتلى والجرحى والمعطوبون من الحجارة وصار كل

(*) التشالق: يقصد به هنا تقاذف جانبين من الناس بالحجارة لمعرفة قدرة كل منهما على إصابة اكبر عدد من الطرف الآخر. وهي بذلك كانت من الألعاب الهمجية التي ابتدعها الحكام من أجل إلهاء الناس.

والزغاريد، وينثر الحلوى والفضة، ومجامر البخور والعود، والطبول والزمور[1]؛ فيشق القاهرة محاطاً بالعسكر ،الذين يطلقوا النفوط.

كذلك أصبح همة ان يرسل إلى اسطنبول جميع مال مصر، سيما المال الذى كان يجبى على الزرع، وهو الخراج [2]؛ مصحوباً بالجزية وبالهدايا الكثيرة من خيرات مصر،مثل الخيول والأقمشة والسكر والعصفر والحناء والمربى؛ وفى سبيل ذلك سلط خاير بك على المصريين جابيا ليأخذ أموالهم ، وإتلاف عملتهم الذهبية والفضية والفلوس، بإدخال الزيف فيها، كما جعل شخصاً تركياً متحدثا على الدواوين ،وهى الإدارات الحكومية.

وحتى النساء لم يسلمن منه، فكان يقصد هتك حريم مصر؛مما جعله يحارب النساء ايضاً ،وأمر بألا يخرج إلى الأسواق إلا العجائز [3]،وكل من خالف من النساء تضرب وتربط من شعرها ؛ مما جعل النساء تتضرر بل أراد أن يمشى نساء مصر على قاعدة نساء إسطنبول ، بألا يقر الرجل لهن نفقة إذا طلق ؛ وأن يطعمها ما يختار ،وأنها ترد نصف المهر بعد زواجها [4]، ومنعهن من ركوب الحمير .

ولما توفى سليم في يوم الخميس ٩شوال ٩٢٦/٢٢ سبتمبر ١٥٢٠[5]؛ أظهر خاير بك

(١) نفسه، ٣ ص ٢٨٣ ص ٣ ـ ٤.
(٢) نفسه، ٣ ص ٣٢٠ س ٢٢.
(٣) نفسه، ٣ ص ٣٠١ س ١٧ ـ ١٨.
(٤) نفسه، ٣ص ٣٠١ س ٤ وما بعدها.
(٥) نفسه ٣ ص ٢٣٤ س ٧ ـ ٨.

من فى البلدين بايديهم المقاليع وبطلوا اهل مصر وبقى اهل القاهرة على الحال وهم فى كل وقت متزايدين.

وبعد ذلك دخل الصوم المقدس فجعل الاراخنة اصحاب القس داود ياخذونه فى كل احد الى كنيسة ويقدس بها ويفرحون معه لانه كان كاهناً حسناً وعالماً خبيراً ومحبوباً ممن يخاف الله، فاما من كان تعانده فما كان تعانده الا لوجوه شتى

والعثمانية الحزن ،ونودى فى القاهرة بموته بالتركية والعربية. وعلى العكس ؛ فإن الجراكسة أظهروا الفرح والسرور لموته[1]، بسبب أنه كان قد قتل أغلبهم، كما أظهر المصريون الشماته ، لاسيما وأن موته كان بطيئاً بسبب مرضه ؛ فقد أصيب بحمرة كانت سبب عذابه ، ثم موته، ويقول ابن إياس عن ذلك؛ إن الله قد أخذه بالعقاب. على ما كان يفعله في الناس، وتخريب ديارهم ، وهتك حريم مصر.

وبعد سليم؛ فإن ابنه سليمان ، الذى عرف مثله بالخنكار[2] ـ وهو من ألقابهم منذ أيام دولة سلاطين المماليك ـ فإنه جعل هو الآخر خاير بك نائبا عنه في مصر ، فولاه بما عرف بخلعة الاستمرار[3]، وهي زى مذهب ، كان يصله في كل سنة ؛ وإن كان قد تأخر وصولها حتى المحرم ٩٢٧/يناير ١٥٢١ ؛ مما جعل مركزه يضطرب في البلاد[4]، لاسيما من قبل جند الحامية العسكرية.وتظهر شخصية السلطان العثماني الجديد ؛من أنه حينما كان يوجه لخاير بك أوامره ؛فإنه يذكر اسمه قبل البسملة ؛ فيكتب :أنه من سليمان ، وأنه بسم الله الرحمن الرحيم..

(١) نفسه، ٣ ص ٢٣٦.
(٢) نفسه، ٣ ص ٢٣٧ س ١٩ ـ ٢٠.
(٣) نفسه، ٣ ص ٢٥٠ س١١.
(٤) نفسه، ٥ ص ٣٩٦ .

اغراض، منهم من كان يحسده ومنهم من كان يخاف من تقدمته لاجل اشياء هو مرتكبها أو من مكروه قد اسداه اليه فيخاف معاقبته عليه، ومنهم من لا يدرى فيظن لاجل كثرة الشناعة ان الامر صحيح وانه غير مستحق فيضادد فى امره ديناً. فلما كان فى الاحد الثالث [من الصوم الكبير] خلف عليه بعض الجماعة الى كنيسة القديس بوسرجه بمصر باتفاق من قس البيعة المذكورة

أسباب النزاع بين العثمانيين والمماليك(*)

يتشابه تاريخ كل من دولة المماليك والدولة العثمانية فى وجوه كثيرة. ففى الدولتين سادت العلاقات التى تميّز بها الإقطاع الشرقى، وكلتاهما مثّلتا ثيوقراطية(١) عسكرية عملت تحت راية الإسلام السنى المؤمن) وعلى مدى فترة زمنية طويلة لم تنشأ بينهما أى خلافات سياسية أو

(*) الفتح العثمانى للاقطار العربية ١٥١٦/ ١٥٧٤ نيقولاس ايفانوف، ترجمة: يوسف عطا الله، دار الفرابى ١٩٨٨ بيروت.

(١) اصطلاح «ثيوقراطية» لا ينبغى أبداً أن يؤخذ بمفهومه التقليدى الثابت الذى انتشر فى الآونة الأخيرة، بل باعتباره شكلاً من أشكال الإدارة البيروقراطية التى تعود فيها السلطة إلى رجل الدين أو للمؤسسة الدينية. صحيح أنه لا وجود للاكليروس فى الإسلام لكن الدولة الإسلامية وحدها دون غيرها تجسد المدلول المباشر لهذا الاصطلاح تماماً وبدقة، وسعى إلى تطبيق «إرادة الله على الأرض»، فالسلطة الشرعية الوحيدة فى الإسلام هى السلطة التى تقوم على أساس تعاليم القرآن ووصايا النبى محمد، أى انطلاقاً من السلطة الإلهية مباشرة، وتنص الشريعة أن الله هو المصدر الوحيد للسلطة العليا التى عليه تطبيق تعاليمه بدقة، ولأن الإسلام لا يفصل بين السلطة المدنية والسلطة الدينية كان الحاكم المسلم يمارس الحكم على أساس تطبيق الشريعة، الأمر الذى اتخذ طابعاً دينياً واتخذ رأس الدولة طابع الزعيم الدينى الأعلى.
ف. إيفانوف: حول الخصائص البنيوية للاقطاع العربى العثمانى، مجلة «شعوب آسيا وأفريقيا» العدد الثالث ١٩٧٨، انظر ص٥٤ ـ ٦٦.

فحضر وحضرت معه جماعة من الاراخنة وشعب كثير وضرب له قسيس الكنيسة المطاونه فقدس، فلما وصلوا الى الابسطلس واذا برجل يعرف بابن صدقه المقدم ذكره قد دخل ومعه غلمان الوالى وشغب وصاح وافترى على قس البيعة ورام تبطيل القداس بعد ان حمل القربان. واجتمع من الناس على باب الكنيسة خلق لينظروا ما يكون وجرت مفاوضات كثيرة اخرها ان القس داود يكمل القداس ووالى مصر قاعد له فى وسط الكنيسة

عقائدية ولا حتى تنافس تجارى أو اقتصادى أو غيره، وحتى سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣، كان الحكام العثمانيون يعترفون بالأولوية الدينية والسياسية للمماليك كزعماء لدار الإسلام، بينما خصصوا لأنفسهم دوراً متواضعاً هو دور «البكوات حماة الأطراف» الذين يدافعون عن الحدود العامة لدار الإسلام. أما المماليك، من ناحيتهم فقد ظلوا ينظرون إلى تحركات العثمانيين كجزء من المسألة الاسلامية العامة. كما أن القاهرة اعتبرت الاستيلاء على القسطنطينية نصراً للمسلمين قاطبة.

بيد أن الوضع تغير جذرياً بعد عام ١٤٥٣. وكان تبادل البعثات والاحتفالات التى أقيمت بمناسبة الاستيلاء على القسطنطينية آخر مظهر من مظاهر الوفاق العثمانى ـ المملوكى. فقد لاحظ حكام القاهرة بقلق شديد، أن دولة إسلامية قوية ودينامية أخذت تنمو على حدودهم وتشق طريقها الخاص بها. ثم تزايد قلقهم عندما نشطت فى اسطمبول (القسطنطينية)، العاصمة الجديدة للسلطنة العثمانية، المساعى لتغيير كل نظام العلاقات الذى أوجده الإسلام وكان له فيه دور القائد الموجه. ويؤكد مؤرخو المماليك أن «البكوات حماة الحدود»، وللمرة الأولى بدأوا يتكنّون بألقاب «الملوك» أو «السلاطين»[1] بعد أن كانوا يكتفون بلقب «غازى» الذى يعنى المكافح فى سبيل العقيدة. على أن سلاطين المماليك كانوا فى رسائلهم يطلقون عليهم ألقاب «أمير» أو «خوند كار».

(١) ابن أياس، القاهرة ١٩٦١ / ١٩٦٢، المجلد الخامس، ص٣٦٥.

على دكة ليحفظ القس داود ممن يتعرض اليه لان ابن صدقه واصحابه راموا رجمه وهو على الهيكل. وكمل قداس كيرلس على ما جرت به عادته لم يتغير شئ من كهنوته المعروف منه. ثم خرج وركب ووالى مصر راكب معه في خدمته الى ان اوصله الى قريب القاهرة ومضى الى بيته سالم. واجتمع الصعيدون بياعون الزيت الحار والاشنان(*) الذين هم يعتقدون ان هذا الذى

(*) الاشنان: المقصود هنا غالباً زيت بذر الكتان.

ويؤكد ابن أياس ان محمداً الثانى كان أول زعيم فى بنى عثمان اتخذ لنفسه لقب «سلطان»[1] وبدأ على الأقل يدّعى بمساواة نفسه بحكام مصر.

كان اتخاذ الألقاب السلطانية يرمز إلى تحول العثمانيين إلى سياسة الدولة العظمى. وكان المقصود بذلك تأكيد الدوّر العالمى الجديد للسلطنة العثمانية. فقدّم مناصرو فكرة الدولة العظمى السلطان محمد الثانى على انه الحاكم المسلم الأعظم بعد الخلفاء الراشدين الأربعة، أما هو فقد اعتبر نفسه وريث ملوك الروم البيزنطيين. وقد سمّاه أحد مادحيه من اليونانيين ويدعى جيورجى ترابيزونتس «أمبراطور الروم» .سعى محمد الثانى، كما يذكر المؤرخ التركى المعاصر خليل اينالجيك إلى الجمع بين التقاليد الإسلامية والتركية والبيزنطية فى الزعامة الدنيوية وجعل اسطمبول العاصمة الجديدة للسلطنة ذات الامتداد الواسع[2].

أدت سياسة الدولة العظمى التى انتهجها محمد الثانى إلى تدهور حاد فى العلاقات العثمانية المملوكية. وأصبح الصراع على الهيمنة وبالدرجة الأولى على الأولوية فى زعامة العالم الإسلامى، السبب الأساسى والرئيسى للنزاع العثمانى ـ المملوكى. وتفاقمت العلاقات أكثر فأكثر إثر شائعات تقول إن بنى عثمان من أصل عربى، من قبيلة حجازية كانت تقطن

(١) المرجع ذاته، ص٣٦٤.

(2)H. Inslcik. "The Ottoman emplre: the Classical Age..., pp. 56 _ 57.

يعملونه دين لغرارتهم وجهلهم ورباطهم وطلعوا الى تحت القلعة ثاني يوم وقصدوا الوقوف للسلطان وكتبوا رقاعاً ولم يخرج لهم جواب بل رجعوا خايبين، وهذه امور لله فيها سر ومشيئة وهو العالم بالمصلحة فى كل شئ وبقى الناس على ماهم عليه.

(*) ٢٩ مايو بحسب التقويم الجوليان.

ولما كان يوم الثلثا الرابع (*) من بوونه من السنة المذكورة وصلوا الفرنج الى ثغر دمياط فى عدة عظيمه ونزلوا على بر الجيزة [بدمياط]

وادى الصفرا، وبسبب انتشار محبة العثمانيين على نطاق واسع، تَهَدَّدَ بناء المجتمع المملوكى بأسره. فقدم العثمانيون بديلاً موضوعياً للأزمة التى عصفت بالمنطقة فى القرن الخامس عشر.

وفى ظروف غياب خلافات أساسية ذات طبيعة قومية أو عرقية أو دينية متزمتة، اتخذت القضايا الثانوية المتنوعة بما فى ذلك عادات الناس وتقاليدهم وأذواقهم، أهمية كبيرة كرموز للأطراف المتصارعة. ويكاد مؤرخو العصر المملوكى يجمعون على اتهام «أباطرة الروم» بالافراط فى الصبر حيال مختلف أنواع بدع الهرطقة. فقد حمى العثمانيون، فى الواقع الدراويش الصوفيين، وحوّلوا طرق الدراويش إلى نظام عام فى الحياة الدينية. لكن المماليك أنفسهم، أظهروا تسامحاً حيال الفرق الصوفية. فقد سمحوا، تحت ضغط الفئات الشعبية لمجموعات الدراويش بممارسة شعائرهم، وتقديم الاحترام لزعماء الفرق الصوفية لكن المماليك لم يتخلوا، بعض الأحيان، عن تصلبهم فى بعض الأمور، فقد منعوا، حتى النهاية، تداول مؤلفات محى الدين بن العربى (١١٦٤ ـ ١٢٤٠) وهو الصوفى الذى كان له تأثير كبير على نشوء الفكر الاجتماعى العثمانى وتطوره. فاذا كانت مؤلفاته قد أحرقت فى القاهرة أو أغرقت فى المياه، فقد حُفظت فى أسطمبول وقونيه بإجلال وأعيد نسخها[1] وتمثل أول اختبار سافر للتنافس العثمانى ـ المملوكى بفضيحة ديبلوماسية عام ١٤٦٣ عندما رفض السفير العثمانى الانحناء لحاكم مصر. وفى عام ١٤٦٤ أدى الصراع على السلطة فى قونيه

(١) أ. شميدت. «عبدالوهاب الشعرانى وكتاب الدر المنثور»، سان بطرسبرج ١٩١٤ ص ٢٠ ـ ٢١.

وضربوا خيامهم وتقدمهم الى برج السلسلة فصبوا عليه منجنيقات وقاتلوه وعبروا بشخاتير وحراريق حربية الى البحر الحلو [النيل] وصاروا قبلى السلسلة وانقطعت الميرة(*) عن دمياط فى البحر وما صار ينقل اليها شئ الا فى البر على الجمال.واشتد بالناس الامر واخلت الدميرتان (*) والمحله وسنهور وسخا واكثر البلاد البحريه وانتقل اهل مصر [عتيقه] الى القاهرة. ووصلت العساكر

(*) الميرة: هي الامدادات والتموين.
(*) حملة الفرنج وهى حملة جان دى برين
(*)الدميرتان: بالقرب من دمياط أحداهما تقابل الأخرى. وفي قوانين ابن مماتي وردتا منفصلتين باسم دميرة البحرية (وهي اكبرهما) ودميرة القبلية التي عرفت بعد ذلك باسم كفر دميره. وورد في «نزهة المشتاق» أنه يعمل بها الثياب الشروب الحسنة يتجهز بها إلى دمياط حيث تصدر لكثير من البلاد خارج مصر.

وقضية ميراث قرمان إلى أول صدام سياسى كبير. كما حدد الاستيلاء على قونيه وضم قرمان فى عام ١٤٦٨ إلى الممتلكات العثمانية بداية لمواجهة واسعة. وتحولت الدول الإسلامية الفاصلة بين الفريقين، كدولة الرمضانين الذين حكموا كيليكيا (آسيا الصغرى) ودولة القادريين الذين حكموا كابدوكيا (قيساريه)، إلى ساحة رئيسية للصراع بين الدولتين، فدعَّمتْ كل منهما المناصرين لها وأمدتهم بالمال والسلاح وأحياناً بالقوات المسلحة.

تحولت القاهرة واسطمبول إلى ملجأ سياسى لكل زعيم يفر من غضبة سلطات بلاده. وحصل عدد كبير من الزعماء اللاجئين على مساعدات للعمل ضد حكوماتهم، فتمكن العثمانيون من التحكّم بالطرق التجارية وعلى مصادر المواد الخام الاستراتيجية البالغة الحيوية بالنسبة إلى المماليك، كأخشاب السفن مثلاً، فبذلوا جميع المحاولات لتقويض طاقة مصر العسكرية، ووضعوا العراقيل على طريق شراء المماليك الفتيان من أسواق البحر الأسود لنقلهم إلى مصر. وقد اعتبر د. كانتيمير ذلك أحد الأسباب الرئيسية للنشاط العثمانى فى شبه جزيرة القرم والقفقاس بما فى ذلك حملة العثمانيين على تشيركاسيا فى عام ١٤٨٤ التى دمرت خلالها كل المراكز الأساسية التى كانت تؤمّن الإمدادات البشرية للمماليك[1].

ثم أدت الصدامات المسلحة (١٤٨٣ ـ ١٤٨٥) التى نشبت مع حاكم كابدوكيا علاء الدولة القادرى الذى طلب مساعدة الجيوش العثمانية، فى أول حرب عثمانية ـ مملوكية

(1) D. Cantimitr "Histoire de L' empire Ottoman, Paris. 1743. op. cit. T. 2. p. 95.

من الشام الى دمياط وخرج من مصر والقاهرة خلق عظيم للجهاد فمنهم من انفق فيهم السلطان ومنهم من انفق فيهم وجوه المدينتين [القاهرة ومصر] ومنهم من خرج من ذات نفسه ديناً وصارت الاخبار تزيد وتنقص واتخذ الناس في بيوتهم الطواحين وخزنوا القمح والدقيق والكعك والارز وغيره من الات

أما المحلة المقصودة هنا فهى ليست المحلة الكبرى ولكنها غالبًا المحلة الواقعة على الطريق البرى إلى دمياط بين سخا وسنهور وهى من المدن التى كان يقيم بها مقسم للماء (أى مهندس للرى).

وسنهور من مدن مصر القديمة تقع قرب شواطئ بحيرة المنزلة. أما سخا فهى من مدن مصر القديمة كذلك وفى عهد الدولة الأيوبية كانت قاعدة لأقليم الغربية ومحل مقام الوالى.

(١٤٨٦ ـ ١٤٩١)، فاستطاع المماليك إلحاق الهزيمة بالعثمانين ثلاث مرات، إلا انهم لم يتمكنوا من إحراز نصر حاسم. وفى عام ١٤٩١، ونتيجة لوساطة تونس، عقدت اتفاقية سلام بينهما، وتخلّى العثمانيون عن مطالبهم فى كابادوكيا وكيليكيا، اللتين تقرر اعتبارهما مشمولتين بحماية الحرمين الشريفين مكة والمدينة المقدستين، أى اعتبارهما فى الواقع تحت حماية المماليك.

ظلت اتفاقية عام ١٤٩١ هشة للغاية، وتحت ستار علاقات السلام والإخلاص الظاهرى استمر الصراع بين الدولتين دون انقطاع من ناحية، ومن ناحية أخرى اثار اتساع التعاطف مع العثمانين وتدعيم الطاقة العسكرية، «للدولة التى يحرسها الله»، كما سمّيت السلطنة العثمانية رسمياً، وتنامى هيبتها كحامية لجميع المسلمين السنة، كل ذلك أثار قلقاً استثنائياً لدى المماليك. أما بلاغات البعثات العثمانية عن الانتصارات فاعتبرت فى القاهرة ابرازاً لقوة الباب العالى المتعاظمة. وخلافاً للماليك، طبق العثمانيون سياسة نشطة فى أوروبا، فأخذوا يوسعون تدخلهم فى الشؤون الأوروبية. ففى عام ١٤٨٠ استولوا على اوترانو مؤقتاً، ثم شجّعوا نابولى وميلانو فى مقاومتهما لفرنسا والبندقية التى كانت على علاقة تحالف وثيق مع مصر المملوكية. وفى أواخر القرن الخامس عشر بنى العثمانيون أسطولاً قوياً. وفى حرب ١٤٩٩ ـ ١٥٠٢ ضد البندقية، أظهر هذا الأسطول مزايا عسكرية لا بأس بها، وكفاءة عالية فى مجابهة أفضل الأساطيل الأوروبية. فأخذت الطوائف الاسلامية السنية الواحدة تلو الأخرى تلتمس المساعدة والحماية لدى العثمانين. وفى عام ١٤٨٥ وصلت إلى اسطمبول بعثة من غرناطة،

الحصار وخرج الملك الكامل بنفسه الى الثغر(*) واقام على شارمساح(*) ونصب الافرنج على دمياط وعلى برج السلسلة(*) الذى مقابلها ثمانية منجنيقات وكانت حجارتها تصل الى وسط المدينه وكانت نشابهم لا تفتر ليلا ولا نهاراً مع المنجنيقات على الاستمرار وكانت القتلى والجرحى كثيرة جدا. ولما كان فى نهار يوم الجمعة الثامن

(*) ثغر دمياط.

(*) شارمساح: شرمساح تقع على الضفة الشرقية بفرع دمياط، بينها وبين بورة (كفر البطيخ بمركز شربين) أربعة فراسخ، وبينها وبين دمياط خمسة فراسخ.

(*) أما برج السلسلة فهى القرية التى كانت تسمى البرلس وسميت بها بحيرة البرلس التى كانت تسمى فى السابق ببحيرة نسترو، نسبة إلى مدينة نسترو التى كانت بين البحيرة والبحر المتوسط، وكان صلاح الدين الايوبى قد أقام بها البرج ويقابله على الضفة الأخرى من فرع دمياط برج آخر

وطلب المغاربة الإسبان من بايزيد الثانى «تقديم المساعدة لهم بوصفه حامياً للدين الإسلامى»[1]. فقرر الباب العالى تلبية الطلب. وفى صيف عام ١٤٨٦ أرسل الأسطول العثمانى إلى غرب البحر المتوسط، واجتاح البحارة العثمانيون بقيادة كمال على باشا، وهو كمال ريّس الشهير، شواطىء إسبانيا وإيطاليا ومالطا. ومنذ ذلك التاريخ خاضت السفن الحربية العثمانية وبعض السفن التجارية حرباً متواصلة ضد القوات البحرية للدول الأوروبية المسيحية.

كان كل انتصار جديد للعثمانيين يعنى هزيمة قاسية للمماليك، ويؤدى قبل كل شىء إلى الانتقاص من هيبتهم بصفتهم «سلاطين المسلمين». إلى ذلك، فإن عدواً مشتركاً لم يخفف مطلقاً من التناقضات بين الدولتين السنّيتين «الشقيقتين» اللتين كانت كل منهما تتصرف بمعزل عن الأخرى. فلم يقدم المماليك ولم يسعوا إلى تقديم أى مساعدة للعثمانيين فى أوروبا وفى البحر المتوسط. وقابلهم العثمانيون بالمثل. لكن بايزيد الثانى قدّم للقاهرة فى عام ١٥١١، أى بعد معركة ديو المشؤومة بسنتين، كمية كبيرة من الأسلحة والذخائر الحربية قدرت بثلاثماية بندقية، وباروداً ونبالاً وألفى مجداف وحبالاً ومراسى وغيرها لإعادة بناء أسطول البحر الأحمر المصرى.

اتخذت علاقات الدولتين فى الشرق الأدنى شكلاً أكثر غرابة. فقد رفض المماليك بعناد، بدءاً من عام ١٥٠٢، أى تعاون مع العثمانيين لمقاتلة الصفويين الشيعة، حكام إيران، رغم

(1) Ibid. p. 96.

والعشرين من بوونه(*) ركبوا فى زهاء سبعين [أو] ثمانين مركباً بعد ان لبدوها وستروها(*) وزحفوا بها على البلد وقاتلوا قتالا عظيما وكان يوماً شديداً ثم رجعوا الى منزلتهم والحال على ما هو عليه من ضرب المنجنيقات ورمى النشاب الى يوم الاحد السابع من ابيب(*) فعملوا على اربع بطس اربعة ابراج وزحفوا بثلثة منها الى البرج وواحدة الى الثغر وقاتلوا وجدوا فى القتال واشرفوا على

يربط بينهما سلسلة ضخمة. ومن هذا الوقت عرفت مدينة البرلس باسم البرج

(*) ٢٢ يونيو حسب التقويم الجولياني. سنة ٩٣٤ قبطية = ٦١٥ هـ. = ١٢١٨م.

(*) المقصود بأنهم لبدوها اى وضعوا على اخشابها من الخارج لبود مغطاة بالقطران حتى لا تشتعل بفعل النيران التى تطلق عليها لحرقها.

(*) أول يوليو بحسب التقويم الجولياني.

عداوتهم لهم. كان العثمانيون في وضع أكثر حرجاً من المماليك وكان بإمكان هؤلاء أن يقدموا لهم مساعدة أكثر فاعلية. لكنهم، وفى تلك الفترة بالذات، قرروا تلقين حكام اسطمبول درساً لا ينسى. كان قانصوه الغورى. كزعيم للمسلمين السنّة، ملزماً أن يشن حملة ضد باشوات قيزيل. غير انه فضل اتخاذ موقف المراقب من بعيد وترك «الدولة التي يحرسها الله» وحيدة فى مواجهة الصفويين.

ودون تبصر بنتائج ما يقوم به اسماعيل الصفوى من أعمال عدوانية متزايدة وعلاقات وطيدة مع البرتغاليين أراد المماليك تدبير استفزاز لإثارة صدام بين ايران وبين تركيا، لكي يتحطّم أحد العدوين بيد العدو الآخر، ثم يتقدم المماليك للقيام بدور منقذ الإسلام السنّة وربما بدور وريث السلطنة العثمانية. وتدل مدونات ابن اياس أنه لم يكن يساورهم أى شك فى قوتهم العسكرية الذاتية، وأن العثمانيين لن يتمكنوا من التغلب على الصفويين. فتحولت مسألة النزاع مع المتطرفين الشيعة إلى حجر عثرة بين الدولتين السنيتين. وتبيّن ان هذه المسألة هي القشة التى قصمت ظهر البعير فى النزاعات العثمانية ـ المملوكية.

لقد اعتبرت سياسة المماليك تجاه اسطمبول مظهراً من مظاهر العداوة السافرة التى أضعفت مواقع المماليك فى مصر، وقوّت المشاعر المعادية لهم فى الأوساط العثمانية الحاكمة فأخذ الحكام العثمانيون يميلون تدريجيا إلى اعتبار المماليك عدوهم الرئيسى والأشد خطراً. هذه القوى بالذات وفى مقدمتها القوى الانكشارية، هى التى أوصلت إلى الحكم السلطان سليم الأول، الملقب بالرهيب، الذى اعتلى عرش السلطنة العثمانية فى ٢٤ ابريل ١٥١٢.

من سنة ١٢١٦ إلى ١٢٣٥م.

البـرج ونصبـوا سـلالم للطلوع اليـه ولم يبق في اخـذه شئ ومالوا كلهم الى صـوب البـرج وكـانوا مثقلين بالحديد فانقسم الصارى ووقع كل من كان على السـلالم الى البحر بزردياتهم وعددهـم فغرقوا كلهم وفـرح المسلمون بذلك فـرحاً عظيـما وزينت المدينتان ورجع من سلم منهم الى منزلتهم والحال على مـاهو عليـه من ضـرب المنجنيـقـات ورمى النشـاب. وبعد ايام وصلت الاخبـار بان احد اولاد السلطان دخل الى بلاد عكا واخـذ منهـا برجـاً

حملة سليم الأول لضم سوريا وفلسطين

بدأ سليم الأول يستعد للحرب مباشرة بعد طرح مسألة من يستطيع، بل من ينبغي أن يكون الخليفة الحقيقي وزعيم دار الإسلام السني.

خلال فترة قصيرة تمكن سليم الأول من إنجاز الإصلاح العسكرى، وقمع تحركات باشاوات قيزيل داخل البلاد، وتجهيز جيش جرّار. وفي مايو ١٥١٤ بدأ هذا الجيش حملة ضد الصفويين الشيعة. ووصلت في الوقت ذاته إلى القاهرة بعثة عثمانية كررت اقتراحها بعقد تحالف بين العثمانيين والمماليك لمحاربة اسماعيل الصفوى. لكن المماليك رفضوا الاقتراح، وتمسكوا بسياستهم مع تفضيل اتخاذ موقف الانتظار. وفي العاشر من يونيو١٥١٤، قرر المجلس العسكرى في القاهرة إرسال قوة مراقبة عسكرية إلى حلب، التي أثارت غضب الطرفين المتحاربين لكنها لم تلعب أى دور في تطور الأحداث.

نتيجة حياد مصر المراوغ، وفشل الحملة الصليبية الأوروبية التي أجهضتها انتفاضة الفلاحين عام ١٥١٤ في هنغاريا، نشأت ظروف مناسبة تماماً لتحقيق مخططات سليم الأول. وبفضل تفوق العثمانيين الملموس في مجال تنظيم الجيوش وتجهيزها التقنى تقرر مصير الحملة سلفاً. في ٢٣ اغسطس ١٥١٤ نشبت معركة تشالديران، فتكبّد جيش الصفويين هزيمة ساحقة ودخل سليم الأول تبريز عاصمة إيران الشيعية في ٥ سبتمبر من ذلك العام.

يسمى دهوق كان فيه ثلثون نفساً وضربت ايضاً البشاير بالقاهرة وعملت بالقاهرة ومصر سلسلة عظيمة لتقوى بهاتيك السلسلة وزنها ماية وثلثون قنطارا بالمصرى، واستمر الحال على الرمى بالنشاب والضرب بالمنجنيقات، وركب من الفرنج خيل وغاروا الى بعض الدنجاويه(*) واخذوا منها غلة وتبنا وعادوا وقتلوا من لقيوه فى الطريق وسير السلطان احرق(*) البلاد المجاورة للموضع الذى وصلوا اليه وصارت الغارات مستمرة فى البر

(*) الدنجاويه:كانت تابعة لمركز شربين، وهى قرب دمياط وينطقها أهلها دنجيه.

(*) من المدن الكبرى التى دمرها الملك الكامل بن الملك العادل فى هذه الفترة مدينة تنيس. انظر قصة تدميرها فى هامش ص ٤٠٢ الجزء الثالث وكذلك الهامش عن الحروب الصليبية ص ٣٤٦ وما بعدها.

كانت هزيمة باشوات قيزيل الذين فقدوا قرابة الـ(٥٠) ألف رجل[١] فى مرج تشالديران، مفاجأة غير منتظرة بالنسبة إلى المماليك على حد قول ابن اياس. وقد اهتزت القاهرة لهزيمة الصفويين ولم يستطع حكام مصر إخفاء خيبة أملهم. وأمام دهشة العالم الاسلامى كله، لم يتهج المماليك لانتصار العثمانيين عل باشاوات قيزيل.

كانت لمعركة تشالديران نتائج حاسمة على مصير المعركة المرتقبة مع المماليك. ففى ربيع عام ١٥١٥ وصلت إلى القاهرة تباشير الأنباء عن استعدادات العثمانيين العسكرية. فقد كان الجيش والأسطول العثمانيين يستعدان لشن حملة على مصر. وسيطر على اسطمبول جو محموم للحرب التى صورها العثمانيون ضد المماليك كما لو كانت واجباً مقدسًا على كل مسلم خوضها. كما أصدر علماء السلطنة العثمانية ثلاث فتاوى تضفى على الحرب طابع الجهاد الدينى. فقد ورد فى إحدى هذه الفتاوى أن المماليك خانوا الإسلام وأنهم يساعدون الكفّار. وأعلن مفتي اسطمبول الأكبر: «أن من يساعد أعداء الله هو عدو الله أيضاً»[٢]. أما الهدف المعلن للحملة فهو تحرير المضطهدين وحماية المسلمين من العدو الخارجي.

كانت الجيوش العثمانية جيدة التسليح والتجهيز. ومنذ منتصف القرن الخامس عشر أخذت

(١) ابن أياس، المصدر السابق، المجلد الخامس، ص٣٦١.
(٢) بارتولد «الخليفة والسلطان» مقالات. المجلد السادس. موسكو ١٩٦٦، ص٦٠.

والبحر والقتال لا يفتر وكان مقابلهم فى [برج]
العرب جماعة كبيرة من العربان تناهز ثلاثة الف
فارس ومعهم اميرين من اكابر العرب فركب من
الفرنج الفا فارس وكان بينهم وبينهم مسافة يوم
واحد فساقوا ركضاً الى ان وصلوهم فلما
صدموهم انهزموا قدامهم وقتل منهم خلق كثير
واسر وحصل بيد الفرنج من الخيول العربية مالا
يدرى وتموا عليهم الى ان تعدوا خيامهم واخذوها
واخذوا كلما فيها واخذوا الازواد التى كانت

تطبق الأساليب التكتيكية التى أثبتت فعاليتها خلال حروب الهوسيين(*) على يد القائد التشيكى يان جيجكا (١٣٧٨ ـ ١٤٢٤). لجأت الجيوش العثمانية إلى تدعيم مواقعها بواسطة «قلاع» متحركة تشكلت من عربات مربوطة بعضها بالبعض الآخر على غرار ما يفعل الغجر فى مخيماتهم. وامتازت المعدّات المقاومة للخيالة كالشوكات الحديدية والخطّافات الحديدية (الكلاليب) المربوطة بالحبال، بأهمية كبيرة فى محاربة المماليك، إذ كان الجنود العثمانيون يطلقون هذه الأدوات عل فرسان المماليك المدججين بالسلاح ويلقونهم أرضاً. كان العثمانيون كذلك يمتلكون أفضل مدفعية فى العالم آنذاك فقد استخدمت جيوش سليم الأول أحدث المدافع النحاسية المركبة على عجلات يجر الواحد منها زوج من الثيران. ورغم أن جنود الجيش العثمانى كانوا ينتمون إلى مختلف القوميات والطوائف الدينية، فقد عرف هذا الجيش بانضباطيته الجيّدة وتماسكه المعنوى. فقد كان الجيش العثمانى يضم إلى جانب المسلمين عدداً كبيراً من المسيحيين ولا سيما من دول البلقان. كما أن الحديث باللغات السلافية، كما قال ب. جوفيو كان يتردد فى معظم قطعات الجيش العثمانى[1] الذى ضم أيضاً عدداً كبيراً من

(*) حروب الهوسيين (١٤١٩ـ١٤٣٤) حرب تحررية وطنية بارزة فلاحية بشكل رئيسى، معادية للاقطاع والكاثوليكية فى تشيكوسلوفاكيا، بدأت بعد إعدام يوحنا هوس أحد زعماء انتفاضة الحرفيين فى براغ عام ١٤١٩.

(١) بارتولد «الخليفة والسلطان»، ص٦١.

عندهم والجمال ورجعوا الى منزلهم فاما العرب الذين انهزموا فمنهم من كان من الفيوم ومنهم من كان من الصعيد فتموا على شوطهم نهبوا من كان بقي في الغربيه وتفرقوا الى بلادهم. وفي اثنا ذلك هدم الملك المعظم سلطان الشام قلعة الطور [طابور] التي كان الافرنج نازلوها ونقل جميع ما كان فيها الى القدس الشريف. واستتموا الحال بالزحف بين كل يومين ثلثة والرمي بالمنجنيقات العظيمة الهايله التي وزن حجر احدها فكان

(*) أحد شوارع دمياط

الجنود الأرمن واليونانيين. لكن السمة الأكثر أهمية التي جمعت بين هؤلاء تكمن في منشئهم الفلاحي[1].

في شباط فبراير ١٥١٥، شن العثمانيون هجوماً على كابادوكيا فقضوا على جيوشها قبل حلول شهر مايو، وقبضوا على حاكمها علاء الدولة القادري المشمول بحماية المماليك، فقطعوا رأسه وأرسلوه إلى القاهرة في يوليو ١٥١٥. كان ذلك تحدياً سافراً لكنه في الواقع كان إعلاناً للحرب. بيد أن المماليك لم يستجيبوا للتحدّي وعملوا ما بوسعهم لتسوية النزاع «بطريق المفاوضات». ومن الملفت للنظر أن مجلس المماليك الذى اعتاد الانعقاد عند ورود أى خبر جديد عن استفزازات سليم الأول، لم يتفق على إصدار أى قرار.

عكست الخلافات المستشرية في أوساط زعماء المماليك الحالة السياسية والنفسية العصيبة التي عصفت بالجيش والسلطة. في ابريل ١٥١٥، بدأ قانصوه الغوري يستعد للحرب، وفي ٣ أكتوبر أعلن التعبئة العامة. وحاول المماليك، على غرار العثمانيين، إضفاء الطابع الديني على الحرب، ووصموا «ملك الروم» كما لقبوا سليم الأول ـ بالارتداد عن الدين الحنيف والسنة، سيّما وأنه يحلق ذقنه ويرتدى القفطان والعمامة الكبيرة، بدلاً من الملابس الإسلامية التقليدية.

(1) G. Stripling.The Ottoman Turks and Arabs. 1942 op. cit. 45.

ثلثماية وخمسين رطلا بالمصرى والنشاب العظيم
الكبير الذى هو اصناف وانواع، واهتموا بمراكب
يسمونها المرمه وهي بطستان قربوهما واوثقوهما
بالاخشاب والمسمار الى ان بقيت الاثنتان مثل
واحدة وعملوا حوله سوراً مثل سور المدن بشراريف
وعملوا اسقاله عظيمة بحبال وبكر ترخي وترفع
وتقدموا الى البرج [برج السلسلة] في نهار يوم
الجمعة اول النسى من سنة اربع وثلثين وتسع

لكن تلك الاتهامات لم تؤد إلى إثارة أى نعرات مذهبية وسط اتساع التعاطف مع العثمانيين. ولم يقتنع الجيش والشعب بوجود مبرّر للصراع ولم يرغبا بالحرب. وكانت النقمة على المماليك تنتظرهم في كل قرية ومدينة. وفى ربيع عام ١٥١٦، أخذ فلاحوا قرى بكاملها في مصر يفرّون من البلاد مخلفين وراءهم محاصيل الحقول التى لم يجمعوها. وفى القاهرة أقفل الخياطون حوانيتهم وصانعو الأسلحة مراكزهم الحرفية. وفى الشوارع تعالت التهديدات والشتائم الموجهة ضد السلطان المملوكى[(١)]. أما فى سوريا فكان الوضع أشد سوءا، حيث إن الفلاحين هناك لم يكتفوا بتقويض تدابير التعبئة العامة، بل انخرطوا أيضاً فى أعمال معادية للحكومة بصورة مباشرة. وخرجت قرى كثيرة ومناطق بأسرها عن طاعة السلطات المملوكية. وفى ٧ اغسطس، أى بعد احتلال كابادويكا مباشرة قام الأمراء بإبلاغ قانصوه الغورى وخاطبوه قائلين، «أيها السلطان، أرض حلب أفلتت من أيدينا وانتقلت إلى أيدى ابن عثمان، فاسمه يذكر هناك فى خطبة الجمعة وينقش على النقود». ويذكر ابن اياس كيف انه بسبب تعسف نواب السلطان واستبدادهم تحولت أكثر مناطق حلب وغيرها من الأراضى إلى تأييد ابن عثمان[(٢)]. وبعد أن انتشرت المشاعر المعادية للحكومة فى أوساط الشعب، انتقلت إلى صفوف

(١) ابن أياس «بدائع الزهور...»، المجلد الخامس. ص ص ٢٨ و٣١.
(٢) المصدر نفسه، المجلد الرابع. ص٤٦٣.

ماية(*) وكان به ثلثماية مقاتل من المسلمين فارخوا الاسقاله على البرج ونزلوا اليه وملكوا الطبقة الفوقانية وقتلوا من كان فيها فاما الذين فى الطبقة الوسطا فصاحوا الامان فاسروهم . وكان الجسر [الذى يوصلهم إلى البر] قد انقطع فلم يفلت منهم احد الا من رمى بنفسه الى البحر [النيل] وكان يوما عظيما ونصبوا على البرج الاعلام والصلبان وسدوا بابه الذى من جانب دمياط وفتحوا الباب الذى من براهم [ناحية النيل

(*) ١٢١٨م = ٦١٥هـ. وفى هذه السنة توفى الملك الكامل ابن الملك العادل، الذى كان بمرج صفر بالشام، والذى أرسل عسكره إلى دمياط. وقد كتم الملك المعظم عيسى موته حتى ادخله دمشق ودفنه بقلعتها وعمره: ٧٥ سنة، وملك مصر ١٩ سنة ودمشق ٢٣ سنة وفى هذه السنة قاسى قبط مصر اضطهاداً شديداً حتى صار هدم الكنيسة الكبيرة بالاسكندرية المسماة باسم القديس مرقس (القمحا) بقرب باب القبارى بأمر السلطان، وقد جعلت بعد ذلك جامعاً

الجيش، فانخفضت درجة الإنضباط بصورة خطيرة، وارتفعت أصوات الجنود تطالب بالمال والمكافآت واللحوم، وأخذوا يتمردون ويعيثون فى الشوارع العامة فساداً. وفى شهر ديسمبر ١٥١٥، صرخ المماليك المتمردون فى وجه السلطان: «لماذا لا تسير على طريق الملوك الغابرين، ولماذا لا تضع حداً لهذا الظلم؟»[١].

من الواضح أن غالبية الجنود لم تكن ترغب فى الحرب. فقد رفض قرابة ألف مغربى كانوا نواة رجال مدفعية المماليك الاشتراك فى القتال عموماً وأعلنوا: «لن نقاتل إلاّ الفرنجة! لن نقاتل المسلمين!»[٢] ولعل هذا كان عائداً إلى ولاء سلاطين المغرب للعثمانيين.

أدّت تلك المشاعر التى اجتاحت البلاد وفى صفوف الجيش إلى تفسّخ الأوساط الحاكمة. فأعدم عدد كبير من أمراء المماليك بتهمة الخيانة. وبدأ كثير من القادة العسكريين وعلى رأسهم خير بك عامل حلب يتعامل مع العثمانيين، ومنهم من أقام علاقات سرية معهم، وأكدت الوثائق ان بين المستشارين الشخصيين للسلطان وبخاصة بين من كانوا موضع ثقته الكبرى، حظى سليم الأول بأنصار يزودونه بالمعلومات عن أوضاع مصر[٣].

فى ذلك الوضع المتفاقم حاول قانصوه الغورى تأخير اندلاع العمليات العسكرية بكل الوسائل حتى بعد بداية حملته العسكرية فى مايو ١٥١٦ لم يفقد الأمل بالمفاوضات السلمية.

(١) المصدر نفسه، المجلد الرابع. ص٤٨٥.
(٢) المصدر نفسه، المجلد الرابع. ص١٣٧.
(٣) ابن أياس، المجلد الخامس. ص٧٦.

حيث الاسطول] ونصبوا جسرهم من عندهم اليه واخذوا فيه من الاسلحة والنفط والازواد ما لا يحصى وفرحوا فرحاً عظيما وكثرت الادلة على نظر سيدنا [المسيح] لهذا الدين ورضاه عن اهله. فمنه ما حدثني به القسيس بانوب وهو رجل فاضل مسيحى صادق قال قدست فى هذه السنة بكنيسة سمر من اعمال الغربيه في يوم عيد الثلثة الفتيه(*) وهو عشرة ايام فى بشنس، فلما كان وقت الاسبسمس (*) الذى هو الصلح [الصباح] ظهر

(*) عيد الثلاث فتية: وهم حنانيا وعزاريا وميصائيل، تنيحوا فى عهد الملك نبوخذ نصر البابلى بنى لهم البطرك ٢٣ تاوفيلس كنيسة بمدينة دركنه بالصعيد.

(*) الاسبسمس: هو وقت رش المذبح والكهنة والمصلين بالماء المقدس قبل قداس الأحد.

وعملت الديلوماسية العثمانية ما فى وسعها لترسيخ هذا الوهم فى ذهن قانصوه الغورى، مستغلة ذلك لإرباك العدو وإبقاء المبادرة فى يد سليم الأول الذى ظل حتى اللحظة الأخيرة يحتفظ بإمكانية تحديد مكان وزمان توجيه الضربة الحاسمة. فى يوليو ١٥١٦ عشية بدء الهجوم العثمانى استقبل قانصوه الغورى بعثة عثمانية جديدة اقترحت عليه استئناف التجارة، وعرضت شراء شحنة كبيرة من السكَّر المصرى. ومن فرط سروره أصدر السلطان قانصوه الغورى أمراً إلى شيخ الإسلام الشافعى بإلقاء موعظة تبرز حسنات السلام[1].

فى الخامس من اغسطس ١٥١٦ عبرت الجيوش العثمانية الحدود. فنسى قانصوه الغورى تجارة السكر وخرج بجيش قوامه ٦٠ ألف رجل (بينهم ١٣ ـ ١٥ ألفاً من المماليك)، رابطوا شمال حلب فى مواقع تبعد عن المدينة مسيرة يوم واحد[2]. وفى مرج دابق نشبت فى ٢٤ اغسطس ١٥١٦ إحدى أكبر معارك التاريخ العالمى.

كان سليم الأول يخشى أكثر ما يخشى فرسان المماليك. فوزَّع قواته ومدفعيته بحيث تستطيع الاختباء فى أى لحظة خلف سلاسل من العربات المتصلة بعضها ببعض وخلف حواجز من الأشجار والأخشاب لمقاتلة العدو من هناك. تمكَّن المماليك فى بداية المعركة، دون

(١) المصدر ذاته، المجلد الخامس. ص٦٢.

(2) G. Stripling. op. cit. p. 46.

فوق قبة الهيكل شخص جالس على كرسى وقدامه شخص واقف بين يديه وفي يده مجمره وهو يبخر ولهيب النار صاعد من المجمره ثم ظهر بداير القبة كلها خياله ركاب على خيل مثل صور القديسين التى فى الكنايس وكانوا يدورون حول القبة وأذناب خيلهم تتحرك وكلهم [اعنى الناس] يشاهدونها فاذا وصلوا الى الكرسى صقعوا وعبروا ولم يزالوا كذلك إلى وقت القربان انصرفوا وظهر مثل ذلك فى كنيسة حانوت(*) من مدة طويله

(*) حانوت : هناك قريه بهذا الاسم فى الشرقية واخرى بالغربية.

عناء كبير، من صدّ هجمات فرسان العثمانيين وقتلوا منهم قرابة عشرة آلاف رجل[١]، لكنهم لم يتمكنوا من تجاوز الحواجز الخشبية وسلاسل العربات، بل وقعوا هدفاً لنيران الانكشارية عندئذ دبت البلبلة فى صفوفهم وبدأوا بالتراجع.

ولما علم الجنود ان خواص مماليك السلطان ظلوا إلى جانب القوات الإحتياطية ولم يشاركوا فى المعركة استاؤوا وتمردوا فغادر الجناح الأيمن مواقعه. وحذا قائد الجناح الأيسر خير بك حذوه فسحب قواته. فسارع العثمانيون إلى الهجوم. وبحلول فترة الظهيرة بدا ان المماليك مُهدّدون بالحصار فجفلت عساكرهم ولاذوا بالفرار دون انتظام. وانتحر السلطان قانصوه الغورى. وقد روى ابن اياس: كيف ان السلطان عندما تأكدمن الهزيمة تناول السُّم من الخاتم الذى يحمله بصورة مستمرة، وعندما انساب السمّ إلى جوفه، فقد وعيه وسقط عن الحصان ومات على الفور[٢].

كان نبأ هزيمة المماليك مؤشراً لاندلاع انتفاضة فى حلب، فهاجم المواطنون الحامية المملوكية وقضوا عليها ثم أقفلوا بوابة المدينة. وحذت مدينة عينتاب وغيرها من المدن الشمالية حذو حلب، واستسلم عدد من الأمراء وكبار الزعماء والخليفة المتوكل وثلاثة من شيوخ الإسلام المصريين المرافقين للجيش. أما شيخ الإسلام الحنفى فقد حاول الفرار، لكنه تعرض

(١) ابن أياس، المجلد الخامس، ص٦٩.
(٢) المصدر ذاته، المجلد الخامس. ص٧٠.

وشاع وايضاً فى كنيسة شباس(*) وفى كنيسة السيدة بظاهر منية عمرو فى كنيسة الشهيد ابو يحنس بشبرا الخيمة، وكل ذلك يشهد به المسلمون اهل البلاد. وحدثنى هذا القس ايضاً انه رأى فى منامه كانه واقف بكنيسة يصلى وكأن صليباً قد ظهر من المشرق قدر دراع فى مثله وكأنه كله نار يتقد وفى وسطه صورة السيد [المسيح] وكأنه سجد له وارتاع وأعلن بكيرياليصون (*) ورفع رأسه فرأى الصليب قد امتد من اربع الجهات الى

(*) شباس الشهدا بالمنوفيه وهناك شباس الملح وشباس عميد.

(*) كيرياليصون: معناها ارحم يارب.

للسَّلب فى الطريق على يد البدو. وعمّت الفوضى بين المماليك، فانتقل قسم منهم بقيادة خير بك إلى جانب العثمانيين فى شهر سبتمبر ١٥١٦، ولاذ الباقون بالفرار. كما أن الكثيرين منهم سرّحوا خيولهم وألقوا سلاحهم. وظهر المماليك أمام أهل دمشق فى ثياب رثّة وأحياناً عراة تماماً، بعضهم يسير على قدميه وآخرون على الحمير والجمال(١). وفى دمشق كانت تنتظرهم خيبة أمل جديدة. فقد انتشرت الفَوضَى فى المدينة لانعدام وجود السلطة فيها. وأخذ المماليك يشقون طريقهم إلى مصر فرادى أو جماعات صغيرة. ولم يعد لجيش المماليك وجود فعلى.

فى ٢٨اغسطس ١٥١٦، دخل سليم الأول مدينة حلب. وفى اليوم التالى، وأثناء خطبة الجمعة، نودى بسليم الأول «خادماً للحرمين الشريفين»(٢). وبذلك اتخذ لنفسه اللقب الذى كان يحمله حكام مصر منذ صلاح الدين، وكرّس نفسه زعيماً روحياً ومدنياً لدار الإسلام السنّى، وبدأ يطلق على نفسه لقب «سلطان المسلمين» أو «بادى شاهى إسلام» كما فعل المماليك. هكذا حقق سليم الأول، خلال أسبوع واحد، أهداف الحرب بكاملها: إلحاق الهزيمة بالمماليك وبسط الهيمنة العثمانية.

قوبل تسنُّم العثمانيين للسلطة العليا فى الاسلام باعتراف فورى فى العالمين الإسلامى السنّى

(١) المصدر نفسه، المجلد الخامس. ص٧٣.
(٢) بارتولد «الخليفة والسلطان». ص٦٨.

ان ملأ الافق وعم الارض فانتبه عند ذلك. وحدثنا ايضا انه رأى فى ليلة اخرى كأن الفتنة قد ثارت والناس قد خافوا وكأنه هو فى كنيسة وكأن رجلا جآء اليه فقال له كلم الهنكر فحضر بين يديه فقال له: امض الى اخوتنا النصارى طمن قلوبهم وهدهم واعلمهم اننا ما جينا الا ننتقم من اعدايهم ما جينا لنوذيهم وانهم باقون فى كنايسهم وعلى سنتهم. وعند ذلك استفاق من منامه.

والمسيحي الاوربى[1]. والأهم من ذلك كله أنه حظى باعتراف السادة في الحرمين الشريفين مكة والمدينة. في سبتمبر ١٥١٦ أصدر سليم الأول، بصفته حامي الحج، أمراً باستئناف تأدية فريضة الحج. وفي عام ١٥١٧، ولأول مرة في تاريخ العالم الإسلامي، وصل المَحْمَل محروساً من العثمانيين وعليه الكسوة المصرية غطاء الكعبة المقدس.

بعد أن استأثر سليم الأول بحقوق سلاطين المماليك وصلاحياتهم احتفظ بألقاب الخلافة كلها بعد أن أضفى عليها بريقاً جديداً. ففي رسائله إلى رؤساء الدول الإسلامية الأخرى أطلق على نفسه لقب «ظل الله على الأرض»[2]. وعلى هذا الأساس طلب من جميع الزعماء إقامة الدليل على إخلاصهم وتقديم الولاء له، كما كان الأمر في عهد خلافة بغداد.

كان سليم الأول يؤمن برأى واحد للعالم الإسلامي وبخليفة واحد. لكن وجود خليفة آخر موال له لم يكن يثير لديه مشكلة جدّية. ثم إن سليل العباسيين الخليفة المتوكل رحّب بحرارة بدخول سليم الأول إلى حلب ورأى فيه على الفور حامياً جديداً للإسلام واعترافاً منه بالجميل قدّم المتوكل لسليم الأول الذخيرة المقدسة للبيت العباسي وتضم عباءة وبضع شعرات من

(١) المرجع نفسه، صفحات ٦٩ ـ ٧٢.

(٢) ابن أياس «بدائع الزهور...»، المجلد الخامس، ص١٣٥.

Voir aussi M. Ohsson op.cit. T. I. P. 127 et Arnold Wilson T. i. "The Presian Guif. an Historical Sketch. Oxford 1928. T. 4. p. 59.

وتاخر وفاء النيل فى هذه السنة الى السادس من توت فخلق [فغلق) المقياس وكسر الخليج فيه ونودى على الماء فى ثانيه اربعة اصابع من سبعة عشر ذراعاً ودخلت سنة خمس وثلثين وتسع مايه للشهداء الاطهار. وبعد ذلك وردت الاخبار بموت الملك العادل ابى بكر محمد بن ايوب وكان السلطان الكبير والملك العظيم وكانت مملكته من اليمن الى خلاط [شرق الشام] وجعل كل واحد من اولاده فى مملكه فالملك الكامل وهو ولى عهده

لحية النبى مع سيف الخليفة عمر. كان سليم الأول فى غاية السرور والرضى، فغمر المتوكل بعطفه وأذن له بالجلوس إلى جانبه وأغدق عليه المال، ثم نزع عن كتفيه رداءة وقدمه له. وبلغ به الأمر أن وعده باستعادة بغداد(١).

ورغم أن لقاء الخليفتين مر على خير ما يرام، إلا أن وجود خليفة آخر للمسلمين لم يكن يتفق مع مخططات سليم الأول. فى هذا الصدد يقول بارتولد: «يبدو أنه قرر عدم الاكتراث بوجود ذلك الرجل»(٢). ومهما يكن من أمره، فإن فئات الشعب الواسعة لم تكن تعلم شيئاً عنه. ثم رافق سليم الأول فى حملته على مصر وبقى إلى جانبه فى القاهرة، لكنه لم يكن يتصرّف بصفته شخصية دينية. وخلافاً للمماليك لم يكن العثمانيين بحاجة إلى «اسمه» ولم يعهدوا اليه بأى مسؤوليات رسمية.

بعد انتصاره فى مرج دابق أصبح أمير المؤمنين الجديد سيداً على سوريا كلها. واذا استثنينا الغزوات المرحلية التى كان يشنها البدو، فإن أحداً لم يعد يبدى أى مقاومة، بل إن سكان سوريا استقبلوا سليماً الأول كمنقذ لهم من ظلم المماليك، وساعدوا الجيوش العثمانية بكل الوسائل. اندلعت الإنتفاضة فى طول البلاد وعرضها. وقام سكان طرابلس وصفد وغيرهما من

(١) ابن أياس، المرجع السابق، المجلد الخامس. ص٧٤.
(٢) بارتولد «الخليفة والسلطان». ص٦٣.

بمصر وهو الذى فتح اليمن واقام به ولداً له بنعت بالملك المسعود، وفى الشام الملك المعظم، وفى المشرق وخلاط الملك الاشرف، وفى الرها شهاب الدين غازى، وفى قلعة جعبر الملك الحافظ وفى قلعة [بصرى] واعمالها الملك الصالح ، وفى قلاع بنين وهو نين والشقيق وبانياس الملك العزيز. وحلف الناس للملك الكامل انه السلطان من بعده وخطب له على المنبر وضربت السكة باسمه وهو مقابل الافرنج على دمياط. وانتهى النيل فى هذه

مدن جنوب سوريا ولبنان وفلسطين بالقضاء على الحاميات المملوكية، والاستيلاء على القلاع وإسقاط السلطات المملوكية. وبدأت في الأرياف حملة مطاردة حقيقية للمم+اليك. وأظهر السوريون على المماليك نقمة شديدة وقسوة أكبر من العثمانيين أنفسهم[1]. فعند اقتراب الجيوش العثمانية فتحوا لهم بوابات القلاع والمدن. ففي ٢٠ سبتمبر ١٥١٦، دخل سليم الأول مدينة حماة، وفي ٢٢ سبتمبر دخل حمص وقامت انتفاضة في دمشق، حيث استولى مسلموا المدينة على السلطة ونهبوا منازل الفرنجة واليهود ولم تسلم بيوت العلماء والأثرياء. فغادر بعض أعيان دمشق نسائهم وأولادهم المدينة مع المماليك[2].

وفي ٩ اكتوبر ١٥١٦، دخل سليم الأول دمشق وسار في شوارعها المفروشة بالحرير وسط احتفالات مهيبة. واستقبل سليم الأول فيها وفود طرابلس وبيروت وصيدا وغيرها من المدن السورية التي سارعت إلى تقديم ولائها له. ووصل إلى دمشق أمراء دروز جبل لبنان الذين انحازوا إلى جانب العثمانيين. ومقابل الاعتراف الشكلي بالتبعية للعثمانيين احتفظوا لأنفسهم بالحكم الذاتي الداخلي. وفي ٣٠ نوفمبر ١٥١٦، وصل العثمانيون إلى غزه، فأكملوا بذلك احتلال سوريا وفلسطين.

---

(1) G. Stripling. op. cit.p. 51.

(٢) ابن أياس، المصدر السابق، المجلد الخامس، ص٨٤ و١٠٦.

السنة الى سبعة اصابع من سبعة عشر ذراعاً وهى سنة خمس وثلثين وتسع مايه القبطية(*) وانحط بسرعة وشرق اكثر الديار المصرية وتحرك سعر الغلة واجتمع على الناس فى هذه السنة ثلثة اشياء موت السلطان ونزول العدو على البلاد وشحة النيل والكنيسة خالية من البطرك. ثم ان المسلمين اجتمع رأيهم على ان يقصدوا الافرنج ويزحفوا اليهم فعدا من خيالتهم مقدار اربعة الف فارس ومن الرجاله مثلها ورتبوا [مابين] خمسين [و]

(*) ٩٣٥ق = ١٢١٨م.

عقب دخول سليم الأول إلى دمشق ببضعة أيام دعا إلى مؤتمر لممثلى مختلف المدن والمناطق عُقد قرب أسوار المدينة. واستمع سليم الأول إلى المندوبين بكل انتباه وحلّ الخلافات وبتّ الشكاوى. ثم عيّن مسؤولى أهم الوظائف الحكومية مع الاحتفاظ بهيكلية الادارة المملوكية السابقة بشكل عام[١]، وبناء على رغبة السوريين، أعاد النظر فى قوانين قايتباى ووضع تفسيراً دقيقاً لها، كما أدخل قسماً منها فقط فى أساس التنظيم الإدارى والضرائبى العثمانى. وعمد سليم إلى تخفيض الضرائب والرسوم الجمركية من ٢٠ بالمائة إلى ٥ بالمائة، والأهم من ذلك، أنه أعاد توزيع الأرض بشكل جذرى، فشكلت اللجان التى باشرت سن القوانين الجديدة وتقسيم الأرض وتسجيلها وفقاً لمبادىء نظام استغلال الأراضى العثمانى. وفى أكثر الأحيان كانت اللجان تستمر فى مهمتها لسنتين أو ثلاث سنوات. وفى عام ١٥١٨، كان الدفتر المفصل (قانون نامه) لمدينة حلب جاهزا. اما الدفاتر المفصّلة لطرابلس وبعض المناطق الأخرى، فقد انجزت عام ١٥١٩[٢] وفى الوقت عينه ألغى سليم الأول القيود المذلة المفروضة على السكان المسيحيين واليهود وتجار البندقية، وأذن لهم بممارسة طقوسهم الدينية بحرية[٣].

(1) G. Stripling. op. cit. p. 50.

(1) Bernard Lewis, "The Ottoman Archives as a Source the History of the Arab Lands" In "Journal of the Royal Asiatic Society" 1951. Octoer. pp. 149 - 155.

(2) G. Stripling. op. cit. p. 51.

ستين مركباً شواني وحراريق تزحف في البحر [النيل] فاما الخياله فكان زحفهم من القبله [الجنوب] فوصلوا الى خندق الافرنج فوجدوه منيعاً وخلفه حمية من المقاتله فلم يتعدوه واما الرجاله فانهم زحفوا من جانب البحر [النيل] من شرقى منزلة الافرنج فاخلوا لهم الفرنج اطراف الخيم واندفعوا قدامهم واوجدوهم [تظاهروا] الضعف والقلة الى ان توسطوا [عسكر المسلمين] خيامهم

أظهر سليم الأول اهتماماً كبيراً بالأولياء ورفات القديسين وأمكنة العبادة التى يقدّسها الشعب. وانتشرت أسطورة تقول: الفاتح الرهيب وقف فى مسجد بنى أميّة ذليلاً أمام درويش رث الثياب، ولم يجرؤ على مبادرته بالكلام[1]. وبناء على رغبة مستشاريه قام بالحج إلى القدس لمدة ثلاثة أيام. بيد أن أكبر دوى كان ذاك الذى أحدثه زيارته لقبر ابن العربى فى ضاحية دمشق حيث أمر ببناء ضريح رائع له.

ولم ينس سليم الأول دوره كنصير للشريعة والعدالة. فكان يوزع الصدقات ويلجأ إلى كل الوسائل لاظهار عنايته بالفقراء والأرامل واليتامى ومنع السرقة والاغتصاب. فكسب إلى جانبه جماهير الناس البسطاء. وقد أجمعت كل المصادر عملياً، على أن سليم الأول لقى فى سوريا استقبالاً ترحيبياً غير عادى لا سيما من قبل المزارعين والتجار والحرفيين. ولم يستقبل السلطة الجديدة بالعداء الا البدو، والمماليك ، وأعيان المدن.

مصر والحجاز تحت سلطة العثمانيين

مكث سليم الأول فى دمشق حتى منتصف شهر ديسمبر ١٥١٦. كان مصير الحرب قد تقرر عملياً ولم تبق إلا مسألة تسوية العلاقات مع المماليك. لم يكن السلطان العثمانى يعارض

(1) M. Ohsson. op. cit. T. I. p. 312.

ثم قاطعوا عليهم من الجنوب فقتلوا اكثرهم ولم يفلت منهم الا من رمى بنفسه الى البحر [النيل] [من عسكر المسلمين] واكثر الذين رموا نفوسهم الى البحر غرقوا لان منهم من لا كان يعرف يعوم من رجالة الشام ومنهم من يعرف العوم فاعجل [فلم يتمكن] عن نزع لباسه فوقع به الى البحر فغرقه. واما الذين في المراكب فلما رأوا ما كان من الرجاله بقوا مكانهم ولم يرجعوا [لم يتقدموا] وكانت وقعة عظيمة في نهار يوم الثلثا

عقد اتفاق سلام مع المماليك شرط ان يعترفوا به كخليفة للمسلمين السنّة وخادم للحرمين الشريفين في ١٦ ديسمبر ١٥١٦، وصلت بعثة عثمانية إلى القاهرة، واقترحت على المماليك تقديم الولاء إلى السلطان العثماني. وفي حال استجابتهم للاقتراح يُعهد إليهم بادارة مصر نيابة عن سليم الأول، ويُحفَر اسمه على النقود المصرية، ويدعى له في خطبة الجمعة، ويدفع المماليك الضريبة التي كانوا يدفعونها «أيام الخلفاء العباسيين»[١].

لم يتقبل المماليك فكرة الهزيمة ولا دفع الضريبة، واعتبروا من العار عليهم الانحناء وتقديم الولاء إلى أخلاف من عالة الناس كما كانوا ينعتون الحكام العثمانيين. وفي ١١ ديسمبر ١٥١٦ انتخب المماليك طومان باى سلطاناً عليهم، وكان في الثامنة والثلاثين من عمره.

كان طومان باى مقاتلاً مقداماً تتجسّدُ فيه أفضل مزايا الفارس المملوكي، ولايفكر إلا بالثأر من الهزيمة وتحقيق نصر على العثمانيين، فكان من الطبيعي أن يرفض اقتراح عقد اتفاق سلام معهم. أما المبعوثون العثمانيون الذين تصرفوا بتحدٍّ فاق كل تصور فكان مصيرهم القتل.

هكذا أصبح استئناف الحرب أمراً حتمياً. في فترة قصيرة تمكن طومان باى من جمع فصائل المماليك وتجهيزها. وشكل فصائل من المرتزقة، كما ضمن لنفسه تأييد شيوخ البدو،

---

(١) ابن أياس، المصدر السابق، المجلد الخامس. ص١٢٥.

الحادى عشرى من بابه(*). ورجع السلطان امر العسكر الذى كان تعدى بالرجوع الى بر دمياط وشرع فى الحشد والجمع ولما كان فى نهار يوم الجمعة السابع والعشرين من بابه(*) زحفت الافرنج الى عسكر المسلمين الذى كان عدى الى بر الغرب وكانوا زهاء الف فارس لانهم كانوا حلقة [الجند الخاص] الملك الكامل بكمالها ومن انضاف اليهم من [البدو] العرب والمغاربه فكسروهم جميعهم واوصلوهم الى البحر واخذوا

(*) ٨ اكتوبر بحسب التقويم الجوليانى سنة ١٢١٨م = ٩٣٤ق.=٦١٥ هـ.

(*) ٢٤ اكتوبر بحسب التقويم الجوليانى.

وحاول اقتباس أحدث المنجزات العسكرية التكتيكية التى يستخدمها العثمانيون بما فى ذلك المدفعية المثبتة على عربات، بدأ انتاجها فى ديسمبر ١٥١٦[١]. راهن طومان باى على حرب طويلة وعنيفة. وكان على ما يبدو ينوى انهاك العثمانيين فى معارك صغيرة تمتد حتى الربيع وللشروع بالحرب قرر قطع كل اتصال له بآسيا الصغرى[٢]. ولهذه الغاية أرسل إلى فلسطين جيشاً من عشرة آلاف مملوك بقيادة عامل دمشق السابق جان بردى الغزالى الذى شارك فى معركة مرج دابق. غير أن الجيوش العثمانية بقيادة سنان يوسف باشا، أحد أفضل القادة العسكريين عند سليم الأول، تمكنت من إلحاق هزيمة منكرة بالمماليك فى معركة قرب بيسان فى فلسطين فى ٢٥ ديسمبر ١٥١٦. كان المقاتلون العثمانيون يلقون الخطاطيف المربوطة بالحبال على المماليك فيسحبون فرسانهم من على ظهور الخيل ويقتلونهم بالفأس أو اليطقان (خنجر محدب ذو حدين).

كانت القوات الرئيسية للجيش العثمانى غادرت دمشق فى ١٦ ديسمبر ١٥١٦، وخلال عشرة أيام عبرت صحراء سيناء ووصلت إلى دلتا النيل فى منتصف يناير ١٥١٧. وفى بلبيس أصدر سليم الأول نداء إلى مصر وشعبها فوعدهم بالعفو العام وضمن الحصانة للأفراد

(١) المصدر نفسه، ص١٣٤.

(2) G. Strlpling. op. cit. pp. 52 - 53.

خيولهم وعددهم وقتلوا جماعة من ابطالهم ولم يسلم منهم الا العدد القليل من رمى بنفسه الى البحر وكان خبيرا بالعوم. واشتد الرعب وخافت نفوس الناس وعظمت مهابة الافرنج وانحلت العزايم عن لقايهم وتمادى الحال على ذلك ودخل الشتا وشتى الافرنج على البلاد ولما كان فى اوايل كيهك(*) جآء نو عظيم ورياح عاصفه وطلعت [مياه] البحيره [المنزلة] مما تحامل عليها

(*) ما بين ٢٧ نوفمبر و٢٧ ديسمبر بحسب التقويم الجولياني.

والممتلكات وأعلن أنه جاء ليقاتل المماليك وحدهم(١). وأعلن الأهلون فى كل مكان رفضهم لدفع الضرائب مهللين لسليم الأول(٢). كما قدموا المساعدة لجنوده فى القبض على المماليك المتوارين عن الأنظار. ولم يبق إلى جانب طومان باى إلاّ الأعيان الذين ظلّوا أوفياء للمماليك حتى النهاية، وبعض البدو الذين كان طومان باى يدفع لهم ذهباً عن كل قتيل عثماني.

فى مواجهة الوضع الناشىء، فضّل طومان باى سحب قواته إلى القاهرة. وبالقرب من الريدانية، الضاحية الشمالية لعاصمة المماليك، حُفرت الخنادق وأقيمت الأسوار والدشم لمائة مدفع، وزرعت الخنادق بالحواجز المضادة للخيول، وشكلت العربات سداً يحمى قطع المدفعية المنصوبة هناك، كما رفعت أمامها سواتر ترابية لحمايتها. لقد فعل المماليك فى الريدانية ما فعله العثمانيون فى مرج دابق تماماً، لكن كان ينقصهم القادة العسكريون المحنكون والجنود المدربون. وجنّد طومان باى فى جيشه قرابه الستة آلاف ووزع السلاح على الأغنياء الذين تشكلت منهم وحدات شبه عسكرية. هكذا بلغ مجموع المجندين قرابة أربعين ألفاً بمن فيهم عشرون ألف فارس من المماليك والبدو(٣).

(١) ابن أياس، المصدر السابق، المجلد الخامس. ص١٤١.
(٢) ابن أياس، المصدر السابق، المجلد الخامس. ص ص ١٣٣ و١٤١.
(3) D. Cantimir. op. cit. T. 2. p. 200.

من البحر المالح [المتوسط] ففرقت [فغرقت] خيام العسكر من دمياط الى العادلية وهى القرية التى استجدت فى بر دمياط مقابل بورة بعد اخذ الفرنج لبوره. وهلك فى هذه النوبه من المسلمين خلق عظيم ومن الدواب وضاع من الاموال الامتعة والاسلحة ما لا يقع عليه الحصر، وكان البحر قد طما والامطار والبرد يقع والريح يكاد يزعزع الجبال، وكانت شدة عظيمة لم يشاهد

كان جيش طومان باى غير متجانس ويفتقر إلى روح قتالية عالية. فقد رفض رجال المدفعية المغاربة اتخاذ مواقع قتالية لهم. وبين المماليك أنفسهم كان هناك أنصار مستترون للعثمانيين. فعشية المعركة سلَّم جان بردى الغزالى إلى سليم الأول معلومات مفصلة عن تنظيم الجيش المصرى ولا سيما بالنسبة لمواقع قطع المدفعية.

بدأت معركة الريدانية فى ٢٢ يناير ١٥١٧. واصطفت الجيوش فى تشكيلات قتالية من المطرية حتى الجبل الأحمر. ودارت معركة بالمدفعية تمكّن العثمانيون بنتيجتها من إسكات مدفعية المماليك دون عناء، ودمّروا جزءاً كبيراً من قطع المدفعية المصرية. وبفضل التفوق العددى تمكّن سليم الأول من تنفيذ مناورة التفاف حول المقطّم، فحاصر جيش طومان باى. ولم تسفر هجمات الفرسان المماليك والبدو عن أية نتيجة. فمن كل حدب وصوب كان الجنود العثمانيون «كالجراد الذى لا يحصى»[1]، يتحركون باتجاه مواقع المصريين. وأبدى طومان باى ومماليكه معجزة خارقة من البسالة والإقدام لاختراق صفوف العدو والتوغل فى عمقها. بل قيل إن طومان باى قتل بيده فى ذلك اليوم أكثر من ألف رجل بمن فيهم الوزير الأكبر سنان يوسف باشا[2]، إلا أنه مع ذلك لم يتمكن من قهر الجيش العثمانى. فتراجع

(١) ابن أياس المصدر السابق، المجلد الخامس. ص١٤٤.
(٢) المصدر نفسه، ص١٤٥.

مثلها. وحمل البحر مسرمة(*) كان الافرنج عملوها على ست بطس كبار وعملوا فيها من السلالم والابراج والازقة ما لا يحصيه الوصف فرماها في بر المسلمين وكان فيها ستة عشر رجلا منهم اربعة عشر قاتلوا حتى قتلوا واثنان رموا نفوسهم الى البحر وعادا الى البر الاخر فاخذهما الملك وشنقهما كيف لم يقتلا ويصبرا للحرب مثل البقية. وتكاثر المسلمون على هذه المرمه

(*) مسرمة: قلعة عائمة أو برج كبير من الخشب.

الجيش المصرى دون انتظام مخلفاً وراءه قرابة ٢٥ ألف جثة[١]، ثم انفرط عقده وتفرّق، فاحتلت الجيوش العثمانية عاصمة السلطنة المملوكية.

في ليل ٢٩ يناير ١٥١٧، اندفع طومان باى على رأس مجموعة من المماليك فجأة إلى القاهرة الغارقة فى النوم، وأشعل انتفاضة فيها. واندلعت المعارك فى شوارع المدينة واستمرت الاشتباكات ثلاثة أيام بلياليها فى الشوارع وعلى سطوح المبانى[٢]. حتى النساء والأطفال شاركوا فى إلقاء الحجارة وقطع القرميد. وكان الجنود العثمانيون يطلقون النار على نوافذ مبانى القاهرة ويحطمون أبوابها الضخمة بالمدفعية، فاحترقت مبان كثيرة، وقارب عدد القتلى الخمسين ألفاً من السكان[٣]، وفى نهاية حرب الشوارع هذه، أصدر سليم الأول نداءً أعلن فيه الأمان، وتمكّن من إلقاء القبض على أكثر من ثمانمائة فارس من المماليك كان مصيرهم الإعدام العلنى.

بعد إخضاع القاهرة، أخذت الاسكندرية وغيرها من مدن مصر السفلى تطارد حاميات المماليك، وأخذ سكانها يوجهون المندوبين إلى سليم الأول للإعراب عن ولائهم. أما طومان

(1) M. Digeon. "Nouveaux contes turcs et Arabes". 2 tomes. Paris 1781. T. I. p. 50.

(2) Joseph Hammer "Histoiredel'Empireottoman. Depuis son origine jusqu' ános jours". Paris 1836. T. 4 p. 306.

(3) J. d Hammer. op. cit. T. 4. p. 308.

فنظروا ان ليس لهم بها طاقة وانهم لا يحسنون
تدبيرها ولا يامنون من ان تتكاثر الافرنج عليهم
فياخذونها منهم فاحرقوها وكانت شياً عجيبا لا
يوصف وكانت للفرنج مراكب في البحر جائيه من
عكا وغيرها لانهم منذ نزلوا هذه المنزلة لم تنقطع
المراكب عنهم فتكسرت كلها واسندت الى البر
فاخذ منها شئ في غزه والعريش وغيرهما. وكانوا
قد حفروا بحراً كان يعرف بخليج الزعفران ليعبروا

باى فقد عاود نشاطه فى مصر الوسطى. وبدعم من قبائل الهوّارة البدوية والمماليك الوافدين من مناطق مصر العليا البعيدة، تابع تنظيم المقاومة ضد العثمانيين. لكن ميزان القوى لم يكن متعادلاً، كما أن البدو نشطوا فى أعمال سلب الفلاحين وكانوا يفرّون ويتشتتون أمام أول طلقةٍ من مدفعية العثمانيين. ثم دبّ الخلاف بين البدو والمماليك، إذ اعتبر شيوخ البدو أن لا جدوى من مواصلة القتال، فأعربوا عن رغبتهم بعقد اتفاق مع العثمانيين. وفى مارس ١٥١٧ وخلال إحدى المعارك التى نشبت فى منطقة الأهرام، حصلت مشادة بين البدو والمماليك. فحاول البدو ابّان المعركة الانضمام إلى العدو، لكنهم أبيدوا بنيران مدفعية العثمانيين[١].

اندفع طومان باى إلى الشمال بعد انفصال البدو عنه فوصل إلى منطقة البحيرة. وفى ٢ نيسان أبريل ١٥١٧، خاض معركته الأخيرة فى منطقة الوردان التى تبعد ٥٠ كيلو متراً إلى الشمال من القاهرة. لكن المعركة انتهت بهزيمته، ففرّ والتجأ إلى صديقه الشخصى حسن بن مرعى شيخ قبيلة محارب فى قرية بوطة. ورغم قواعد الضيافة البدوية المزعومة، حنث بن مرعى بقَسَمه على القرآن وسلّم صديقه المملوكى إلى العثمانيين. وبعد بضعة أيام قام بدو الشرقية شيوخ بنى بكر بتسليم شريك إلى العثمانيين وهو آخر أمير مملوكى رفض إلقاء السلاح أمام الانكشارية.

(1) Ibid. p. 315.2

مـراكـبـهم منه لان السلطان كـان قـد وعـر مـا بين البـرجين [أقـام مـتـاريس] خـشـيـه من عـبـورهم بمراكـبـهم الكبـار فلمـا جـات الامطار وطلع البـحـر الكبيـر [المتوسط] ملا الخليج الذى حفروه وكانوا قد قربوا الحفر من البحر فصاروا يحملون مراكبهم على الحمير ويطرحونها فى ذلك البحر فصار لهم فيه جملة مراكب واستمر الحال على ذلك الى مـدة فـرجع السلطان غـرق مـراكب قـدام الموضع

وضعت الحرب أوزارها. وفى ٩ أبريل ١٥١٧ أنزل نقد جديد إلى سوق التعامل فى القاهرة يحمل اسم سليم الأول، سيد مصر الجديد. واختفت دولة فرسان المماليك الجبارة. وفى ١٣ أبريل وتحت قنطرة بوابة القاهرة - باب زويلة، شُنِقَ آخر سلاطين المماليك طومان باى كمجرم عادى. وكتب كانتيمير فى ذلك أن هذا المشهد أرعب المصريين[1]. فى شهر مايو ١٥١٧ دعا سليم الأول إلى ما يشبه المؤتمر العام فى القاهرة. وإضافة إلى القادة العسكريين العثمانيين ، حضر المؤتمر القضاة المصريون وممثلون عن التجار والمهنيين ومختلف فئات السكان بمن فيهم ممثلو الطائفة اليهودية[2]، ولخّص سليم الأول مبادىء السياسة الجديدة وأعلن عن تعيين الموظفين فى مراكز الدولة، فلم يطرأ على هيكلية الإدارة أى تغيير جوهرى، فى مصر العليا أبقيت السلطة فى أيدى شيوخ البدو، أما فى مصر السفلى والوسطى فقد بقيت السلطة فى أيدى المماليك الذين انحازوا إلى جانب سليم الأول.

لكن تغييرات أساسية طرأت على الحياة الاجتماعية، فقد تمت إعادة توزيع جذرى للأراضى. وأبطل العثمانيون كل أشكال ملكية الأرض الإقطاعية المملوكية.ورفضوا الإعتراف بأى حقوق للمماليك على الأراضى والأملاك، كما لم يعترفوا لهم بما يحملون من صكوك

(1) D. Cantimir. op. cit. T. 2. p. 205.

(٢) ابن أياس، المصدر السابق، المجلد الخامس. ص١٧٨.

الذى طلعوا اليه وجعلها ثلاث صفوف وركب فيها صوارى [متاريس] وسمر عليها صوارى اخر بالعرض فلما كان في يوم السبت الذى بين الرفاعين(*) هيأت الافرنج مراكبهم وطلعوا اليها بآلاتهم وخيامهم وعددهم واسلحتهم وطاب لهم الريح وكان هذا اليوم الثامن من امشير(*) فاقلعوا يدا واحده والمسلمون كلهم مطلبون على البر راجلهم وفارسهم ومعتقدين انهم يصلون الى تلك

(*)الرفاعين: الرفاع الاول يقام يوم الاحد قبل عيد Jonah والثانى يقام يوم الاحد والمدة بينهما ٣٠ يوم

(*)٨ أمشير = ٢ فبراير بحسب التقويم الجوليانى.

- -

الإقطاع والأرزاق(١). وفى صيف عام ١٥١٧ تم إجراء أول مسح عثمانى تفصيلى فى مصر السفلى، فألحقت كل الأملاك الاقطاعية المملوكية بالخزينة(٢). علاوة على ذلك أخذ الجباة يتطاولون على حصانة الأوقاف، وبدأوا يتقاضون الضرائب من أملاك المماليك الوقفية. وفى عام ١٥١٨ وبعد «التدقيق» بالوثائق، انتقلت أكثرية الأوقاف وأرزاق المماليك رسمياً إلى ملكية *الحكومة العثمانية*. وفى يونيو ١٥٢٢ *طبقت تدابير مماثلة فى مصر العليا*(٣). ومُنع المماليك بتاتاً من تأسيس أوقاف جديدة. ولم تعتبر قانونية إلاَّ الأوقاف والأرزاق التى تُنفَق مداخيلها لغايات دينية محضة. هكذا أصبحت أراضى مصر كلها بإستثناء الأوقاف «الشرعية» ملكية عمومية تحت إشراف الخزينة العثمانية. وأُلغيت كذلك كل الامتيازات الضريبية والحصانات التى كانت قائمة فى عهد المماليك(٤).

فى يونيو ١٥١٧ حوَّل سليم الممتلكات السكنية والعقارات البلدية فى مصر إلى ممتلكات عامة. وكانت فى مقدمة الأملاك المصادرة المنازل والأموال غير المنقولة الأخرى العائدة للماليك بما فيها تلك التى يملكونها زوراً باسم الأوقاف(٥). أما مالكو المنازل السكنية الأخرى فقد

(١) المصدر نفسه، ص١٦٢.
(٢) المصدر نفسه، صفحات ١٨٩، و١٩٤ و ١٩٤ و٢٤٧ و ٢٩٢.
(٣) ابن أياس، المصدر السابق، المجلد الخامس. ص٤٦٥.
(4) M. Digeon. cit. T. 2. p. 241.
(5) Ibid. p. 273.

الصوارى فيقفون [تصدهم وتمنعهم] فلما وصلوا الى تلك الصوارى [المتاريس] جعلها الله لهم مثل الحشيش فقصفوها [كسروها] جميعاً وتموا طالعين الى الموضع الذى ارادوه وهو مضيق البحر فتعجب المسلمون من ذلك وكان عليهم يوماً شديداً. واقاموا جميعا الافرنج والمسلمون يوم السبت والاحد والاثنين ملبسين رابطين بعضهم بعضا فلما كان في ليلة الثلثا الحادى عشر من امشير(*) جرى

(*) ١١ أمشير = ٥ فبراير بحسب التقويم الجولياني.

طُلب إليهم إبراز وثائق تؤكد شرعية امتلاكهم، أو إدارتهم للأوقاف. فإذا تبيّن أن الوثائق صحيحة يتسلّم المالك إفراجا، أى أمراً يجيز له استعمال الملك بعد دفع الرسوم للدولة. وإذا كانت الوثائق باطلة يُصادر الملك ويصبح من ممتلكات الدولة ويمكن تأجيره «للمستأجرين الشرفاء»(١).

في أغسطس ١٥١٧، وقبل أن يغادر سليم الأول القاهرة، أذاع نداء دعائيا أعلن فيه أنه لا يُسمح لأى كان، من الآن فصاعداً، أن يضطهد فلاحاً أو إنساناً من عامة الشعب(٢). وفرض على القضاة والمسؤولين جعل حاجات الفلاحين ومطالبهم في مقدمة اهتماماتهم. وقد ورد في قانون ـ نامه مصر(٣)، أن القضية الأولى في جدول أعمال كل جلسة يعقدها الديوان المصرى ينبغي أن تكون قضية أحوال الرعيّة(٤). وقد اعتبر أى اعتداء على ممتلكات الفلاحين، بل أى محاولة بسيطة للكسب على حساب الفلاحين، وفقاً لقانون ـ نامه مصر، بمثابة جريمة خطيرة يعاقب عليها في أكثر الأحيان بالموت، وكُلّف القضاة بدراسة شكاوى الفلاحين بكل عناية لا سيما فيما يتعلق بمصالحهم المادية، وكل مماطلة في دراسة الشكاوى أو أى قرار يصدر دون وجه حق لمصلحة الملاكين الأغنياء يعرّض القاضي للسجن(٥).

(1) Ibid. p. 274.

(٢) ابن أياس، المصدر السابق، المجلد الخامس. ص٣٠٥.

(3) O. Barkan. op. cit. pp. 355 - 387.

(4) Ibid. p.378. et M.. Digeon. op. cit. T. 2 p. 247.

(5) M. Digeon. op. cit. T. 2. p. 262.

بين السلطان وواحد من اكابر الامرا يعرف بابن المشطوب(*) بخلف معماهم فيه من الارتباك والشدة فقضى ذلك برحيلهم جميعهم ليلا وتركهم لخيامهم وجميع عددهم والاتهم واصبح الافرنج متعجبين معتقدين انها مكيدة لانهم كانوا يودون لو هلك اكثرهم حتى يتملكوا شطرا من بر الشرق لا غير فاتفق لهم ان ملكوه منعما من الخيرات والنعم التي لا توصف ولا تحد [و] لا

(*) تمرد أحمد بن المشطوب على الملك الكامل فاخرجه اخوه الملك عيسى صاحب دمشق، الذى كان حضر لنجدة أخيه الكامل.

وألغى سليم الأول «الضرائب» و«المغارم» المفروضة [١] بصورة غير قانونية، وحدّ من الغرامات النقدية المفروضة على الفلاحين، ومنع تقديم الهدايا المالية والعينية للموظفين والمسؤولين الذين يجوبون القرى[٢]. وفي يونيو ١٥١٩، ووسط ابتهاج الجماهير الشعبية، كما كتب ابن أياس، تمّ تحديد أسعار البضائع تحديداً صارماً[٣].

أولت السلطات كذلك اهتماماً كبيراً بإعادة إسكان القرى المهجورة وحماية الفلاحين من البدو. وقد ورد في قانون ـ نامة مصر، أنه يحق لكل من يأتي برأس بدوى نهّاب أن يأخذ حصانه وسلاحه وثيابه[٤]. ويقدّم ابن أياس أمثلة كثيرة على مطاردة البدو. وعقاباً للبدو على انتهاك القوانين العثمانية، كانت تصادَر جمالهم وخيولهم وسباياهم وأسلحتهم وأقمشتهم وحلاهم، أما نساؤهم فيُعن في سوق العبيد، ويتعرض رجالهم للقتل وأبشع صنوف التعذيب الوحشي. في ٣١ يناير ١٥٢٠، طاف بعض العثمانيين في شوارع القاهرة وهم يحملون اثني عشر رأساً مقطوعاً وستة مومياءات محنطة لشيوخ البدو من قبيلة السوالم بعد أن سُلخت

(١) الجبرتي «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» المجلد الأول، ص٢٠ القاهرة ١٨٧٩.
(2) O. Barkan. op. cit. pp. 361 et 373 - 374 et M.Digeon. op. cit. T. 2. pp 199 et 233 - 234.
(٣) ابن أياس، المصدر السابق، المجلد الخامس. ص ٣٠٤.

(4) M. Digeon. op. T. 2. p. 202.

تحصى قيمتها فطلعوا الى البر المذكور فى يوم الثلثا
المقدم ذكره وتسلموا الخيام بجميع ما فيها
والابراج والمنجنيقات والعدد والزرد التى لا تحصى
كثره وقتلوا كل من وجدوه متخلفا فى المنزله لان
الناس كانوا يظنون ان طلوعهم اليها يتراخى فبقوا
بها طمعاً فيما يشيلونه من قماشهم وكانوا زهاء
ثلاثة الف نفس واحاطوا بدمياط من كل ناحية
ونصبوا عليها المنجنيقات وجدوا فى القتال عليها

جلودهم وحُشيّت بالقش وأُلبست ملابس بدوية وطافوا بهم فى المدينة لكى يكونوا عبرة لمن يعتبر[1].

واتخذت تدابير لا تقل صرامة وقساوة لتطبيق الفرائض الإسلامية. ففى عام ١٥١٩، أقفلت فى جميع أنحاء مصر الخمّارات وحانات شرب الخمر والحشيش وبيوت البغاء. ووضعت البغايا فى أكياس أُلقى بها فى النيل[2] بعد إحكام اقفالها عليهن. وأعلن حظر العادات الذميمة ورقص المجون الذى كان ابن خلدون معجباً به أيّما اعجاب. ونص قانون ـ نامة مصر، على فرض غرامات باهظة على «ظهور العروس بمظهر غير لائق». فقد كانت العروس أثناء احتفالات العرس، وفقاً للعادات القديمة، تخرج سبع مرات على الضيوف مكشوفة الوجه فى «ثياب غير محتشمة» تبدلها سبع مرات[3].

أين عظمة الماضى وأبهته؟ وكيف غربت شمس تلك الأيام الرائعة؟ هكذا يتساءل ابن أياس. كان المماليك والأعيان الباقون على قيد الحياة يكرهون سليم الأول الذى وصفه ابن أياس أنه «قاتل أبطال مصر، ومُيتم أطفالها ومُستعبد رجالها»، ذلك لم يحدث من قبلٍ منذ عهد نبوخذ نصّر. يقول: «مصر أجمل دول العالم قاطبة»[4] فقدت استقلالها ودمّرت

(١) ابن أياس، المجلد الخامس. ص٣٢٥. (٢) المصدر نفسه، ص٣٠٥.

(3) M. Digeon. op. cit. T. 2. p 251.

(٤) ابن أياس، المصدر السابق، المجلد الخامس. ص٢٠٦.

واما السلطان فانه غرس سنجقه [رايته ومحل معسكره] باشموم وكل من راه من الامرا الاكابر وقف حوله فاما المغاربه والطواشين فانهم ساحوا فى البلاد واكثرهم عبروا الى القاهرة وبقى الناس متخبطين فعاقت نفوسهم جدا وكثرت الشناعات على النصارى واشتد بعض القوم فيهم. وكان فى اثناء هذه الحال اجمع [الولاة] المسلمون وقرروا تصقيع الاملاك بمصر والقاهرة واخذ اجرتها

واستُبيحت». ويضيف ابن أياس: «يقولون إن ابن عثمان عندما غادر مصر أخذ معه ألف جمل محملاً ذهباً وفضة، بالاضافة إلى غنائم السلاح والخزف والبرونز والخيول والبغال والجمال وغيرها، فضلاً عن بلاط الرخام الرائع. من كل ذلك أخذ سليم الأول أفضله مما لم ير آباؤه وأجداده مثيلاً له فى حياتهم»[1]. وعاش المماليك فى فقر مدقع، إذ لم تعد لديهم خيول ولا ملابس لائقة ولا سلاح ولا حتى حجر يسندون إليه رؤوسهم ولم يعد لديهم خدم ولا حشم. كان العثمانيون يطوفون البلاد على الخيول، وهم (أى المماليك) يجوبون الأسواق على أقدامهم. لكن سليماً الأول، ما لبث أن أعلن «العفو» عن المماليك بعد فترة قصيرة، وبدأ يشكل منهم وحدات خاصة فى الجيش العثمانى هى «جماعة الشراكسة». فأعيد إليهم السلاح وخصصت لهم رواتب مالية ضئيلة. غير أن المماليك مع ذلك أجبروا على التخلى عن بزة الفرسان الأنيقة وارتداء القفطان التركى والقبعة الشتوية (القلبق) والحذاء العالى (الجزمة). ولم يبق لهم من كل مظاهر عظمة الماضى إلاّ اللحية التى كانوا يتميزون بها عن الفرسان العثمانيين الذين يحلقون ذقونهم باتقان. وبصفته خليفة المسلمين الشرعى والعادل حصّل سليم الأول على جميع حقوق سلاطين المماليك والتزاماتهم فى مضمار العلاقات الخارجية. وورث السيادة على المناطق التابعة لهم فى أفريقيا وشبه الجزيرة العربية. وأخذ حكام هذه البلدان، الواحد تلو الآخر، يبعثون بالسعاة والرسل إلى سليم الأول للإعراب عن الولاء

(١) المصدر السابق، ص٢٠٧.

شهرين ومساعدة السلطان بها وصقعوا مصر ولم يستخرجوا منها شيا وبطل ذلك ثم عادوا جبوا من المسلمين على قدر احوالهم طريقين حتى انتهوا الى ان اخذوا من الخمسة دراهم الى ما فوق ولم يجد ذلك نفعاً ولا حصل منه طايل. وبعد هذه الكسرة المقدم ذكرها بيومين ثلاثه وصل الملك المعظم [عيسى] سلطان الشام الى اخيه الملك الكامل الى اشموم واتفق رايهما وقبضوا على ابن

والاستعداد لإستئناف العلاقات التى كانت قائمة بينهم وبين سلاطين المماليك[1]. على أن وصول مبعوثى شريف مكة محمد أبو البركات الهاشمى حاكم الحجاز إلى القاهرة. اتسم بأهمية بالغة. كان شرفاء مكة من بين أوائل المعترفين بسليم الأول زعيماً جديداً للإسلام وحامياً للحرمين. وكانوا فى طليعة الذين سارعوا إلى الترحيب بانتصاره.

وصلت بعثة أبو البركات برئاسة ولده ولى عهده أبو نمي محمد في الخامس من يونيو ١٥١٧[2]. فقدمت التهانى والهدايا إلى سليم الأول وسلّمته مفاتيح الكعبة مؤكدة بذلك اعترافها بسلطنة خليفة المسلمين وأمير المؤمنين[3].

حافظ سليم الأول على استقلال الحجاز الذاتي كاملاً، واعترف بوضعها الخاص وبالحقوق الموروثة للأسرة الهاشمية. وكرّس محمد أبو البركات أميراً على البلاد، وأرسل إليه القفطان والخلعة. ومنذ عام ١٥١٧ بدأ مبعوثو السلطان الخاصون يزورون مكة كل عام حيث يقومون بتوزيع الأموال والهدايا، كما كانوا يجمعون الفقراء خارج المدينة على غرار العادة التى اتبعها سليم الأول، ويوزعون عليهم أموالاً بالنقد الذهبى. أما البناء الداخلى والإدارة فى الحجاز فلم يتعرضا لأى تغييرات جوهرية، ولم يتدخل الأتراك فى صلاحيات أشراف مكة الذين استمروا فى ممارسة العادات والتقاليد القديمة. واكتفى العثمانيون بتولى حراسة الشواطىء البحرية

(1) G. Strlpllng. cit. p. 56.

(٢) ابن أياس، المصدر السابق، المجلد الخامس. ص١٨٩.

(3) M. Ohsson. op. cit. T. 3. pp. 202 - 203.

المشطوب الذى هو اكبر الامراء الذى ذكر انه كان سبب الكسرة وقيدوه وسيروه الى قلعة الكرك موثقا ثم ذكر انه نفى [إلى] دمياط وقوما قالوا ما قتل الا ا لاسرى لانهم وجدوهم قد بقوا وراموا الخروج الى اصحابهم. واما اهل منية بنى سلسيل(*) فان اهلها ثاروا على النصارى(*) واهلكوا منهم جماعة وكان الزمن كلما مر اشتد والفتنة كلما مرت عظمت ثم رسم بتصقيع املاك

(*) منية بنى سلسيل: ينطقها أهلها ميت سلسيل، وهى من القرى القديمة بين أشمون الرمان ومنزلة ابن حسون. تابعة لمركز المنزلة بشمال الدلتا.

(*) اضطهاد الاقباط المصريين بسبب الحروب الصليبية.

وحماية الحجاج وقوافل المؤن والمواد الغذائية للمدن المقدسة. وتولت السلطات العثمانية مراقبة أموال المساجد فى مكة باهتمام بالغ، والاعتناء بحال الطرق وإهراءات الحبوب وخزانات المياه. أما الإشراف على الوضع فى البلاد فقد كُلف به الوالى العثمانى فى مصر، كما أنيطت به مسؤولية الدفاع عن الحجاز على اعتبار أنه من وجهة النظر العسكرية والسياسية يعتبر ضمن دائرة اختصاصه ومجال سلطته(١). وكانت الحاميات العثمانية المرابطة فى البلاد تأتمر بأمره وفى طليعتها حامية جدة التى تحولت إلى قلعة حصينة للسيطرة العثمانية على البحر الأحمر. وفيها أقام الباشا العثمانى قائد القوات المسلحة التابعة للباب العالى. وبفضل اعتماده على هذه القوات كان الباشا يتمتع بنفوذ كبير فى البلاد، بل يشعر انه سيد الوضع. فجعل من جدة عاصمة عسكرية وسياسية وتجارية أصلية للحجاز. هكذا دخلت مكة والإمارات التابعة للهاشميين فى ظل الحكم العثمانى. لم يكن العثمانيون يتدخلون فى شؤون الهاشميين الداخلية ولا فى حياة المدينة، ولا سيما فى مسألة وراثة العرش. بيد أنهم اعتادوا تقديم الدعم إلى من يطالب به، فإذا خرج منتصراً فى الصراعات الداخلية، عندئذ تُرسل له خلعة التعيين على الفور مع التعويضات والهدايا المناسبة(٢).

(1) A. Lybyer "The Government of the ottoman Empire in the time of Suleiman the Magnificent" Cambridge. 1913. pp. 258 - 260.

(2) M. Ohsson. op. T. 3. P. 278.

الناس بمصر والقاهرة وان يجبى منهم اجرة شهرين واخذ اكابر مصر ان يجبوا من اهلها شياً على قدر احوالهم ويسيروه مساعدة للسلطان والمسلمين فحصلوا فى جبايتين زهآء تلثة الف دينار. ولما وصل الملك المعظم ملك الشام واجتمع باخيه اتفق رايهم على ان يعدوا الى بر الغرب [برج العرب]لأن صليبه الفرنج كانت فيه فعدوا بالعساكر والجنود وامروا بعمارة سور من مصر الى

بعد انحياز أبو البركات إلى العثمانيين أقام خلفاؤه تعاوناً وثيقاً مع الباب العالى، فدعموا نفوذ السلطان وحموا طريق الحج، كما ضمنوا طاعة قبائل البدو الرحّل. وفى عام ١٥١٧، أقيم احتفال أدّى فيه شريف مكة يمين الولاء للسلطان وأقسم معه زعماء كل القبائل الرئيسية فى الحجاز وسوريا. ووفقاً لمدونات كانتيمير خضع زعماء قبائل البدو الرحل، الذين ينتقلون فى الصحارى بين مكة والقاهرة ودمشق طوعاً للسلطان سليم الأول، ووقعوا وثائق ولائهم المطلق وسلموا المحتجزين لديهم من الرهائن من المماليك وغيرهم(١).

إلغاء الحكم الذاتى فى سوريا ومصر

بعد هزيمة المماليك، احتفظت سوريا ومصر بقدر كبير من الحكم الذاتى الداخلى، ولم ترافق «العثمنة» الاجتماعية لهذين البلدين فى المرحلة الأولى مع تطبيق كامل للنظامين العسكرى والإدارى العثمانى. فقد وضع هذان البلدان التابعان سابقاً للدولة المملوكية تحت إشراف دائم من جانب القادة العسكريين المماليك الذين انحازوا إلى جانب السلطان سليم الأول. فعيّن جان بردى الغزالى حاكماً على سوريا وسيف الدين خير بك على مصر. وبعد أن أكمل العثمانيون احتلال المدن والقلاع الاستراتيجية المهمة منحوا هذين الحاكمين استقلالاً داخلياً شبه تام. حتى أن خير بك أُعفى من دفع الضرائب للباب العالى، وكان كل من

(1) D. Cantimir. op. cit. T.2. p. 208.

القاهرة من [قصر] اللؤلؤه وجعلوا اساسه الحجر وباقيه بالتراب عمل المغاربة. ثم أستأدوا جوالى الذمه لسنة ست عشر وستمايه (*) في يوم الاثنين الثامن عشر من ذى الحجه سنة خمسة عشر وستمايه، ثم رجع رأيهم عن عمل السور بالتراب فهدموا ماكانت المغاربة عملته وشرعوا فى البنايه باللبن، ثم ورد الامر باستخراج اجر الاملاك من الناس كافة بالقاهرة ومصر وشرع فى استخراجها.

(*) ٦١٦ هـ + ١٢٢٠م الملك المعظم عيسى يقبض جزية القبط المصريين لسنة قادمة أى قبل أن يأتى موعد دفعها.

الحاكمين يملك قواته العسكرية الخاصة، وجهازه الادارى الذى لم يطرأ عليه عملياً أى تغيير جذى.

عُيِّن جان بردى الغزالى حاكماً على سوريا فى ١٦ فبراير ١٥١٨. وفى بداية عهده طبق السياسة العثمانية بحذافيرها فقمع حركات تمرد البدو وانتفاضاتهم دون رحمة، وبخاصة فى عام ١٥١٩ عندما سحق انتفاضة الشيخ البدوى ابن الحنش قرب بعلبك الذى حاول فرض سيطرته على وادى البقاع وشن حملتين لغزو حوران. وساد البلاد هدوء تام حتى أن «الذئب والحمل استطاعا السير معاً»(١) على حد تعبير ابن أياس. والى جانب الجيوش العثمانية، شكل الغزالى جيشاً خاصاً به قوامه البدو والمماليك بمن فيهم فيلق الفرسان أو الخيالة.

بيد أن أبناء الطبقات المميزة القديمة الذين أحاطوا بالغزالى بعد أن وضعوا أنفسهم فى خدمة السلطان سليم الأول، كانوا يكرهون النظم العثمانية ويشدهم الحنين إلى الماضى لإستعادة السلطات والامتيازات. فى ٢٢ أيلول (سبتمبر) ١٥٢٠ توفى سليم الأول، فانتهز أعيان البدو المماليك فى سوريا موته ليعلنوا تمردهم، ورفضوا أداء يمين الولاء للسلطان الجديد سليمان العظيم الملقب بالقانونى (حكم ما بين ١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) وحاولوا احياء دولة المماليك الغابرة.

(١) ابن أياس، المصدر السابق، الجلد الخامس. ص٣٨٢.

واما ما كان من امر العسكر فى تعديته الى بر الغرب فانهم وصلوا الى قرب منزلة الافرنج فى يوم الاحد السابع من برمهات(*) فارسل الله ريحاً عاصفة وامطاراً وهاج البحر وطلع اليهم ولو لم يتلافوا بالرجوع كان غرقهم فرجعوا ولم ينالوا قصداً وعدوا الى بر الشرق ونزلوا على فارسكور(*) وما والاها. وكانت في هذه السنة شتوة ما شوهد مثلها في الديار المصريه حتى انه

(*) ٧ برمهات = ٢ ابرايل بحسب التقويم الجولياني.

(*) فارسكور: قرب دمياط والى جنوبها.

تزعم التمرد جان بردى الغزالى نفسه وراهن على البلبلة في عاصمة السلطنة وعلى مساعدة المماليك المصريين، فأعلن انفصال سوريا عن السلطنة العثمانية. وفى ٣١ أكتوبر ١٥٢٠، اتخذ لنفسه لقباً مملوكياً هو «الملك الأشرف»(١) وأمر بالدعاء له فى خطبة الجمعة، ونقش اسمه على النقود السورية. وقضى على حامية دمشق العثمانية، وطرد العثمانيين من بيروت وطرابلس وحماه وغيرها من المدن. لكن التمرد لم يحظ بتأييد شعبي واسع، ولم يكن المماليك المصريون على مستوى ما عُلق عليهم من آمال. ولم يبدِ فلاحو سوريا والأهالى فيها أى اهتمام، بل اتخذوا موقفاً عدائياً من الغزالى. كما أن التمرد كان مفاجئاً للسكان، إذ «أدهش البلاد بأسرها»(٢). ولم يلتحق بالغزالى غير الدروز وبدو جبل نابلس وبعض القبائل، كما أن فرسان يوحنا أرسلوا له بعض قطع المدفعية من جزيرة رودس(٣). في مطلع شهر نوفمبر عام ١٥٢٠، جمع الغزالى ٢٣ ألف مقاتل وشن حملة على حلب التى لم تعترف بسلطته. ورغم القصف المدفعى العنيف الذى تعرضت له المدينة، فإنها تمكنت من الصمود حتى وصول الجيوش العثمانية من الأناضول. وفى ٢٢ ديسمبر بدأ الغزالى بالتقهقر، وفرّ عملاؤه من طرابلس وبيروت وغيرهما من المدن فور وصول طلائع العثمانيين. وفى ٢٧ يناير

(١) ابن أياس، المصدر السابق، المجلد الخامس. ص٣٧٠.

(2) D. Cantimir. op. cit. T. 2. P. 283.

(٣) بارتولد «الخليفة والسلطان»، ص ٦٣.

حدث بها من الثامن برمهات الى الخامس عشر(*) منه من الرياح والامطار والبرد الشديد مالم يشاهد قط مثله. وكانت احوال هذه السنة كلها عجيبة غريبة. وبعد ذلك ورد امر السلطان باخراج نصف اهل مصر والقاهرة الى القتال اختيارا واضطرارا وخرج اكثر الناس وصار المميزون [الأغنياء] الذى لا يليق بهم الخروج يفدون انفسهم بما يقومون به من الذهب كل منهم على قدر حاله. فاما النصارى

(*) ١٥ برمهات = ١٠ ابريل بحسب التقويم الجولياني.

عام ١٥٢١، نشبت معركة المصطبة قرب دمشق وإنتهت بهزيمة قوات الغزالي[١] الذى تنكّر فى زى درويش وحاول الهرب، غير أنه وقع فى الأسر وأعدم فى ٦ فبراير ١٥٢١. ودخل العثمانيون دمشق وألغى الحكم الذاتى فى سوريا، وقُسمت البلاد إلى ثلاث ولايات مراكزها فى دمشق وحلب وطرابلس، ووضعت منذ ذلك الحين تحت إدارة الباشاوات العثمانيين وخضعت للباب العالى مباشرة. أما المماليك فقد تشتتوا وانصهر بعضهم فى الطبقة العثمانية الحاكمة. وظلت أسماوهم خلال القرن السادس عشر تلاحظ بكثرة ضمن قوائم أصحاب الأملاك الاقطاعية فى سوريا[٢].

أما سيف الدين خير بك الذى حكم مصر منذ العاشر من أيلول (سبتمبر) عام ١٥١٧، فقد حافظ أثناء تمرد الغزالى على ولائه للباب العالى، ووجّه قواته لمحاربة الغزالى. وخلافاً للمعتمدين العثمانيين الآخرين خلع على نفسه لقب «ملك الأمراء»، وكان ذلك أرفع من لقب بكلربك (أمير الأمراء) لكنه دون لقب سلطان. كان يصبو إلى أن يكون هذا اللقب رمزاً لوضع مصر الخاص كخليفة للباب العالى تتميز عن باقى ولايات السلطنة الأخرى. كان لخير بك جيشه الخاص وحاشيته مع بروتوكول مملوكى مثالى، كما أنه تمتع باستقلال تام فى شؤونه الداخلية، واحتفظ كذلك بالتنظيمين الدينى والإدارى السابقين فى البلاد، وحافظ على

(1) J. de Hammer. op. cit. T. 5. p. 13.

(2) B. Lewls "The Ottoman Archives...". p. 149.

الذين بالقاهرة انهم جبوا منهم مع اصحاب المعايش كل من كان متمعشاً مع اهل معيشة ولم يجحف بهم ولا باحد من اهل القاهرة، وفى الاخر جبوا من الكتاب المقيمين بها وراعوا البعض وتركوا البعض. فاما مصر فان واليها كان منقاداً بالفقها فاحضر قسا [قسسا] الكنايس التى للقبط والملكية(*) وقال لهم تخرجون، وتهددهم وقال انتم تخرجون مع المسلمين وما تصلون معهم الى باب المدينة حتى يقتلوكم وما يقدر احد يقول لهم

(*) الارثوذكس الشرقين (اليونان).

التقاليد المحلية فى حياة الدولة. كان انكشارية مصر، خلافاً لانكشارية اسطمبول وغيرها من المدن العثمانية يتقاضون راتباً شهرياً على غرار «مماليك الخندكار»(١).

أصبح المماليك المصريون وشيوخ البدو الركيزة الأساسية لخير بك، الذى استمالهم إلى جانبه وعيّنهم فى المراكز العسكرية والإدارية. وخلافاً لفرق الخيّالة والانكشارية العثمانيين الذين تحوّلوا إلى حاميات فى كبريات مدن مصر الذين كانوا يتبدلون بصورة دورية، ظل المماليك المصريون يرابطون فى البلاد على نحو دائم ويمارسون السلطة فى مناطقهم. واستمر النظام التقليدى فى شراء المماليك وتعليمهم وترقيتهم على حاله دون تغيير. ومنذ عام ١٥١٩، عاد المماليك إلى تقاضى الرواتب واستلام مخصصات اللحوم والحبوب. وفى عام ١٥٢٠ أعيدت إليهم بزتهم القديمة، لكن دون أراضيهم وأملاكهم.

فى عهد سليمان العظيم بدأت فى مصر «عثمنة» الادارة تدريجياً. ففى شهر مايو ١٥٣٢ أمر السلطان بتعديلات فى النظام القضائى. فعوضاً عن نظام القضاة الأربعة الكبار (قضاة الشرع) استحدث منصب قاضى القضاة فى القاهرة، فأخذ يصدر أحكامه وفقاً للمذاهب الأربعة(٢). وفى الوقت نفسه، تمّ حل الجهاز الضخم من المساعدين والأمناء الذين كانوا

(١) ابن أياس، المصدر السابق، المجلد الخامس، ص ص ٣٦٧ و٤٠٩.
(٢) المصدر نفسه، ص٤٥٣.

فى هذا الوقت شيأ. وكان الميل فى القول بالاكثر على الملكية لانهم كانوا يشنعون عليهم بانهم يحبون الافرنج وانهم على سنتهم فى تربية الشعر وترك الختان وما شابهه فعمل فيهم الخوف واستعجل واحد منهم وقال عندنا الف دينار فقالوا مبارك قوموا جيبوا بالف دينار، وقالوا للحاضرين من قسوس القبط هولاء منكم بالقيراط نحن نجعلهم بالعشر (*) اعطونا عشرة الف دينار. واخر الحال انهم قرروا عليهم ثلثة الف دينار وخرج

(*) اى عليكم أن تدفعوا عشرة امثالهم.

يعاونون القضاة وقد بلغ عددهم مئات عدة، وأعيدَ تنظيم إدارة الأوقاف وأملاك الخزينة لكي تتفق والنمط العثماني.

الخطوة التالية التي اتخذت على طريق «عثمنة» مصر تمثّلت بإنهاء الملكية المملوكية. ففى ٥ أكتوبر ١٥٢٢، توفى ملك الأمراء سيف الدين خير بك، وفى ٢٧ أكتوبر عُين الوزير الأكبر مصطفى باشا والياً جديداً على مصر، فقام هذا بإعادة تنظيم شاملة لإدارة البلاد، أبقى مصطفى باشا على التقسيمين السياسى والإدارى السابقين بما يتلاءم ومتطلبات السلطة الجديدة. فأصبحت مصر ولاية عثمانية جديدة يحكمها بكلربك (أمير أمراء)، وخضع له المماليك وشيوخ البدو وقادة الحاميات المحلية. وتم تسريح الحرس المملوكي وقوات المرتزقة التابعة للمماليك من المغاربة وغيرهم... أو ألحقوا بقوات السبعة أوجاقات (أورطة) الجيش العثمانى فى مصر. أما التنظيم الداخلي ودفع رواتب الانكشارية فكان يتم وفق القوانين العثمانية العامة. وفى مناطق الريف عُهد بمسؤولية المحافظة على النظام إلى شيوخ البدو والمماليك الذين حافظوا على تنظيمهم الطائفى. وقد تبين فى هذا المضمار أن نظام ملكية الإقطاع الصغير ليس ضرورياً وبالتالى لم ينتشر فى وادى النيل. وبدأت مصر تدفع ضريبة سنوية للباب العالى بلغت ١٠٠ ألف دينار مع إرسال جنودها لوضعهم فى تصرُّف الحكومة المركزية. وعيِّن على المماليك وشيوخ البدو ان يتشبهوا فى عملهم ببكوات السناجق

(*) سلبه: المقصود هنا بالسلبه غالباً فلكه من الخشب والحبال يربط فيها رجلى رافع الغرامة أو الجزية ليسهل جلده على رجليه.

جميعهم بالترسيم وعلقت سلبه(*) فى كنيسة المعلقة وسلبه فى كنيسة المكليه وسلبة فى كنيسة اليهود لان الأخر كانوا وزنوا فى المرة الأوله وقت ما طلب من النصارى شئ خمسماية دينار وقرروا عليهم فى هذه النوبة ستماية دينار. وصار الضرب فى الناس والتعليق والترسيم والهوان وكان القسا [القسسا] هم الذين يخرجون اسماء الناس ويقطعون عليهم القطايع. وكانت ايام الصوم المقدس وكانت اياما صعبة شديدة واضطهاد

- -

العثمانيين. ودّونت التعليمات المتعلقة بذلك فى قانون ـ نامه مصر، الذى نشر فى ١٨ سبتمبر ١٥٢٣[١]. لسن هذا القانون، استفاد مصطفى باشا بشكل واسع من نظم (قوانين) السلطان المملوكى قايتباى التى جسدت التقاليد القديمة لحياة الريف والإدارة فى مصر. جرى التدقيق فى تلك القوانين وأعيد النظر فيها كى تتفق ومقتضيات الحياة الحكومية والاجتماعية العثمانية.

أثار حل السلطنة المملوكية استياء جديًا فى أوساط المماليك والبدو، فدبّروا مؤامرة تزعمها جانم الصيفى وهو مؤيد متحمس لخير بك. فى عام ١٥٢٣، قام المملوكان جانم واينال بانتفاضة فقضيا على خونة (السلطة المملوكية»، ثم تحركا إلى الشرقية حيث التقيا ووحدا قواتهما هناك، ووقفا ينتظران وصول متآمرين آخرين. فسارع والى مصر مصطفى باشا إلى تحريك القوات العثمانية لمواجهتهما، وكانت تناهز الخمسة الاف انكشارى وتوفكجى (فرنسان). وتمكنت القوات العثمانية من سحق قوات المماليك وقُتل جانم فى المعركة فى حين فرّ إينال. ورغم فشل التمرد، بقى الوضع فى مصر على حاله من التوتر الشديد. وفى ٢٠ أغسطس ١٥٢٣، استدعى مصطفى باشا إلى اسطمبول وخَلَفَهُ قاسم باشا الذى أبلغ الباب العالى بعد فترة قصيرة أن ليس بمقدوره ضبط الأوضاع فى مصر[٢]. عندئذٍ عَيّن أحمد باشا

(١) فى منشورات برقان ورد أن قانون ـ نامه مصر مؤرخ فى ١٥٢٤، وقد يكون ذلك تاريخ تسجيل أو تثبيت قانون – نامه فى اسطمبول.

M. Digeon "Nouveaux Contes...", T. 2. p. 278.

(2) M. Digeon. op. cit. T. I. p. 95.

عظيم. فاما الملكية فانهم جبوا من شعبهم الذى قدروا عليه وبقيت عليهم جملة فاخرجوا الانية الفضة الذى لهم ورهنوها عند واحد من المسلمين فقيه، يقال له الفقيه نصر، على مايتى دينار بمايتى وخمسين. ان [ولا] احداً بقي بلا غرامة الا النادر القليل. وكان جملة ما حصل لهم الف وماية دينار وكان بعضهم يرافع بعضاً [يفتن] وصار كل من يريد ان يخفف عن نفسه دخل في القضية وصار مستخرجاً فاجتمعوا بالوالى ودخلوا فى كل مدخل

بكلربك مصر وهو من أصل جيورجى، وقد أطلق عليه فى التاريخ العثمانى اسم «الخاين». كان هذا القائد قد هزم فرسان رودس فى عام ١٥٢٣، وكان يصبو إلى منصب الصدر الأعظم. غير أن سليمان باشا القانونى عيّن ابراهيم باشا المقرّب منه فى منصب الصدر الأعظم. وعرض مصر على أحمد باشا، (فشعر) هذا بالمهانة لكنه مع ذلك قبل منصب بكلربك مصر. وفى ديسمبر ١٥٢٣، وصل إلى القاهرة وتمكّن على الفور من التفاهم مع المماليك المعارضين وشيوخ البدو. لكن التعطش إلى الانتقام الذى استبدّ بأحمد باشا لم يبق على ما يبدو خافياً على السلطان. وتشير المصادر العثمانية إلى أن أحمد باشا عند توجهه إلى مصر أتبعَ برسول يحمل إلى قائد انكشارية القاهرة «قارا موسى» أن يتسلّم زمام الأمور فى مصر وأن يعدم أحمد باشا(١).

بيد أن الكتاب السرى وقع بيد أحمد باشا وكان سبباً لتمرد جديد. فألقى القبض على قارا موسى وبعض قادة الانكشارية الكبار وأعدمهم. ثم حصل على تأييد سريع من بعض المماليك والبدو الذين لعبوا دوراً حاسماً فى حركته. وفى يناير ١٥٢٤، وصلت إلى القاهرة فصائل البدو المسلحة التابعة للأمير أحمد بن بقر من الشرقية والأمير بن عمر من الصعيد أو مصر العليا(٢). وبالاستناد إلى هذه القوات نادى أحمد باشا بنفسه سلطاناً على مصر وأعلن

(1) Ibid. pp. 69 et 96.

(2) J. de Hammer. op. cit. T. S. p. 52. Note numero 1.

الى ان جعلوها الفاً ومايتى دينار. ورجعوا الى الذى بقى فقضوه على الكنايس كل كنيسة على قدرها حتى نفدوا الى الديارات البرانية مثل دير طموه(*) ودير الشمع وغيرها واخذوا منها القطيعه(*) وطلعوا الى القاهرة يسترفدون(*) اهلها فلم يعطيهم احداً منها شياً فعادوا خايبين لانهم كانوا الذين وقفوا فى امر القسيس داود فى معنى البطركية. وما زالوا الى ان وفوا المبلغ المذكور ولم يبيعوا انية ولا ريعاً ولا رهنوا بل انها كانت اياما

(*) ديرطموه: أو طامية بالفيوم. أما دير الشمع فهو داخل القاهرة.
(*) القطيعة: الغرامات المقدرة عليها.
(*)يسترفدون يطالبون بغرامات وتبرعات.

انفصاله عن الباب العالي وأحيا دولة المماليك. ثم عَزَل قاضى قضاة مصر وأعاد العمل بنظام قضاة الشرع الأربعة. وفى مراسم تنصيب السلطان الجديد روعيت أدق التفاصيل التى كانت نافذة فى البلاط المملوكى القديم. إضافة إلى قضاة الشرع الأربعة اشترك فى مراسم التنصيب الخليفة العباسى المتوكل الذى عاد إلى مصر بعد وفاة السلطان سليم الأول(١).

بعد استيلاء أحمد باشا على السلطة، عزل كل الموظفين العثمانيين وسرّح الانكشارية وبدأ باعادة تنظيم جيش المماليك. وأعيد تحويل الأملاك السلطانية وبدأ توزيعها على المماليك والبدو(٢). وأخذ يفتش له عن حلفاء خارجيين، فحاول إقامة علاقة مع نبلاء روما وقائد فرسان القديس يوحنا الكبير، وملك الصفويين اسماعيل. لذا أطلق عليه العثمانيون لقب «الخاين».

أثار قلب السلطة العثمانية وإبراز دور زعماء البدو استياء عاماً فى البلاد. فرفض الفلاحون دفع الضرائب، واندلعت الاضطرابات فى المدن. وبسبب مصادرة الأملاك والقروض الإلزامية والحكم بالموت على الأعيان، تحول كبار الأعيان والتجار وزعماء الطوائف الدينية إلى أعداء لأحمد باشا. من جراء ذلك اتخذ التمرد ملامح انقلاب منذ البداية، ولم يحظ بأى تأييد جدى فى مصر.

(١) بارتولد «الخليفة والسلطان...». ص٦٧.
(2) Stanford Shaw. "History of the Ottoman Empire and Modern Turkey. Vol. 1. Emplre of the Gazis: The Rise and Decline of the Ottomen Empire. 1280 - 1808". Cambridge, 1977. p. 89.

شـديدة. وكـثيـر من الكنايس اغلقت اياما كـثيـرة
بسبب هذه القطيعه. وكان قد استخدم من القاهرة
ومـصـر عـشـرة الف راجل وسـيـروا وكـان اكـثـرهـم
مغاربة فهدموا كل كنيسة وجدوها في طريقهم الى
ان وصلوا الى المعسكر. وكان الزحف قد ترتب ان
يكون يوم الزيتونه فزحفوا الى الفرنج فقتل اكثر
اوليك الرجاله الذين هدموا الكنايس والذى سلم
من القتل هرب. ووصلت منهم جماعة الى القاهرة
ومـصـر [في] مـراكب مملوه ثم زحفوا زحفة اخرى

وسرعان ما أرسل سليمان القانونى قوات عثمانية لإخماد التمرد. ولم تكد تتحرك حتى تلقت أمراً بالعودة، إذ فشل التمرد في ٢٣ فبراير ١٥٢٤، بعد أن انتفض سكان القاهرة وقلبوا «الطاغية الوغد»، أخذ أحمد باشا على حين غرّة، فقد كان فى الحمام ووجد صعوبة بالغة فى الخروج منه للوصول إلى القلعة، وفى اليوم التالى فرّ من القاهرة[1] وراح يجوب البلاد بحثاً عن ملجأ له، لكنه وقع في الأسر وأعدم فى ٦ مارس ١٥٢٤[2].

وبهدف إقرار الهدوء والأمن نهائياً فى البلاد، أرسل سليمان العظيم إلى مصر الصدر الأعظم ابراهيم باشا الذى وصل إلى القاهرة فى ٢٤ مارس ١٥٢٥. وخلال ثلاثة أشهر من وصوله أعاد الشرعية العثمانية إلى مصر وأعدم الشيوخ الذين شاركوا فى التمرد بحماس، وطرد المماليك المشتبه باشتراكهم بأحداث ١٥٢٣ ـ ١٥٢٤. واستخدم ابراهيم باشا كل الوسائل التى تؤكد عزم الباب العالى على الحزم في الإدارة. ودُفعت التعويضات السخية إلى كل من تعرض للظلم فى عهد أحمد باشا، ونشط العمل لإعادة بناء أنظمة الرى ومنشآته، واعمار القُرى وتحضير سجلات الريف وغيرها. وأطلق سراح الفقراء المسجونين بسبب الديون، وصدر أمر بإعالة اليتامى على حساب الدولة وإصلاح المساجد والمآوى وغيرها من المؤسسات

(1) M. Digeon. op. cit. pp. 103 - 104.
(2) P. Hotl. "Egypt and the Fertille Crescent 1516 - 1922. A pollitical History". New york. p. 50.

ولم ينالوا غرضاً لان الفرنج كانوا عملوا عليهم خندقاً من البرين وجسرين فى البحر وعملوا على الخندق ابراجاً وبتاتى [تحصينات] مثل سور المدينة وجعلوا خلفه الرماه والمقاتلة فصاروا لا يقدر احد يدنوا منهم. ثم اجمع راى المسلمين على سد بحر الشرق من عند زفيتا(*) وان يتحامل الماء جميعه الى بحر الغرب وشرعوا فى ذلك وأخذوا له المراكب والعدد والالآت وتكامل سده فى نهار

(*) زفيتا: هى مدينة زفتى الحالية فى الغالب، وهى من المدن القديمة. وهى على الضفة الغربية لفرع دمياط يقابلها على الضفة الشرقية ميت غمر.

الإسلامية. وطاف المنادون فى الشوارع يدعون كل من له شكوى ان يتقدم بها إلى الصدر الأعظم مباشرة[1].

جمع ابراهيم باشا بين «محبة الشعب» للطريقة العثمانية النموذجية وأقسى صنوف الاضطهاد والتنكيل. فتمكّن بذلك من إقرار الأمن والهدوء فى البلاد خلال فترة قصيرة. وفى ١٤ يونيو ١٥٢٥، عاد إلى اسطمبول. ومنذ ذلك التاريخ حتى عام ١٥٨٧ لم تشهد مصر أى اضطرابات سياسية جدّية. ولم تتسبب هذه البلاد بأى متاعب للحكومة المركزية العثمانية وعلى مدى جيلين ظلت مصر تتمتع بالهدوء والسكينة. فيضانات النيل، وحفلات استقبال الباشاوات وتوديعهم، إرسال فصائل المقاتلين فى الحملات العسكرية، ووصول القوافل والحجاج، والزلازل والحرائق هى تقريباً كل ما دونت كتب التاريخ من أحداث فى حياة الولاية الهادئة ذات الزراعة الخيّرة تلك كانت مصر فى عهد البكاوات العثمانيين الأوائل.

ضم العراق وشرق شبه الجزيرة العربية إلى السلطنة العثمانية

قامت السلطة العثمانية فى العراق، كنتيجة غير مباشر لحرب العثمانيين مع إيران الصفوية

(1) J. de Hammer. op. cit. T. 5. pp. 57 - 59. Et S. Shaw. op. cit. pp. 89 - 90.

الجمعه الخامس عشر من بشنس(*) سنة خمس وثلثين وتسع مايه [٩٣٥ = ١٢١٩م] بعد كلفة عظيمة وغرامة كثيرة الا انه صار طريقاً ولم ترجع المراكب تصعد فيه ولا تنحدر. وانقطع [هدم] فى ليلته وضاع كلما غرم عليه و ذكر انه كان غرم عليه سبعة عشر الف دينار وتحامل [جرفه] الماء موضعه ويئس من سده ثانية فترك بحاله. وهدم [السلطان اسوار] القدس الشريف في برموده من

(*) ١٠ مايو حسب التقويم الجولياني.

والبرتغال. ومع ان جانباً كبيراً من تاريخ تلك الحقبة الزمنية لا يزال غامضاً، نستطع التأكيد ان الطوائف المسيحية ولا سيما الأشوريين، والمسلمين السُّنة رأوا فى الباب العالى منقذاً من الصفويين فقد ترافق فتح الشاه اسماعيل الصفوى للعراق تنكيل جماعى لكل فكر مناهض حكمه، ولم تسلم بعض الأماكن السُّنية المقدسة من الضرر.

وقد شهدت بغداد وغيرها من المدن العراقية موجات من الفرس، وانتشرت فيها اللغة الفارسية، وأغدقت الهبات على الأماكن المقدسة الشيعية فى النجف وكربلاء وسامراء. وبأمر من الشاه اسماعيل، بدأ بناء ضريح ضخم على قبر الإمام الشيعي السابع موسى الكاظم الذى يعتبر الأب الروحي للصفويين. وحصلت قبائل القزِل باشى على أفضل الأراضى والمراعى، وأصبح خاناتهم (جمع خان) حكاماً من ذوى السلطة المطلقة فى العراق.

لذا استقبلت أخبار انتصار سليم الأول فى مرج تشالديران فى عام ١٥١٤ بمظاهر الابتهاج فى أوساط جميع طوائف العراق باستثناء الشيعة، وذلك فى مناطق ما بين النهرين السفلى والعليا، أى فى العراق والجزيرة[١]. كان الأكراد أول من انتفض عام ١٥١٤ وأعلنوا انضمامهم إلى السلطان.

(١) الجزيرة هي القسم الذى يضم ما بين نهرى دجلة والفرات يبدأ من خط تكريت ـ عانه فى الجنوب حتى سلسلة جبالى طوروس الأرمنية الشرقية فى الشمال، وهي أراضى مملكة الأشوريين القديمة تقريباً.

السنة المقدم ذكرها بعد ان اخلى من اهله ولم يبق به سوى [كنيسة] القيامة المقدسة وبرج داود ومسجد الصخرة والجامع المعروف بالاقصى وهدم باقية اسواره ودوره وفنادقه ووقع على الناس بسبب هدمه خوف عظيم وقلق للشام من اجله وعلا السعر فيه. فاما ديار مصر فكان السعر فيها رخيصاً في طول هذه الايام. ثم ان الافرنج هيأوا مرمات عظيمة وابراجاً كباراً وزحفوا الى دمياط براً وبحراً

١.ذكر تولية الأمير خيربك الجراكسى(*)(١)

وهو أول من تولى مصر من الباشات، وأصله من أمراء السلطان الغورى(٢) وكان السلطان سليم(٣) أوعده أن ملك، ليعطيه مصر من غير خراج. فلما ملك مصر. أعطاه ما وعده، فمكث في مصر باشه، خمسة أعوام وثلاثة أشهر. وكان قد تولاها سنة ٩٢٣. وتوفى سنة ٩٢٨(٤)، فأعرض المصريون خبر وفاته الى الديار الرومية، لحضرة السلطان سليمان خان(٥)، فورد عليهم أخبار مصطفى باشا بعد خمسة وأربعين يوما.

(*) النص التالى حتى تولية مصطفى باشا أمير ياخ خور المتولى بمصر رقم ٩٦ مأخوذ بتصرف من «أوضح الإشارات فيمن ولى مصر القاهرة من الوزرا والباشات» الملقب بالتاريخ العينى. تأليف: أحمد شلبى بن عبد الغنى الحنفى المصرى. تحقيق: د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم. القاهرة ١٩٧٨. مكتبة الخانجى بمصر.

(١) كتب بالهامش عنوان جانبى «اعرف أول البشاوات بمصر».

(٢) ولى السلطان الغورى امور البلاد فى الفترة ٩٠٦/ ٩٢٢هـ ١٥٠١/ ١٥١٦م.

(٣) ولى السلطنة: ٩١٨/ ٩٢٧هـ ـ ١٥١٢/ ١٥٢٠م.

(٤) مدة ولايته: ٩٢٣/ ٩٢٨هـ ـ ١٥١٧/ ١٥٢٢م، بالأصل تولاها ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م، وهذا خطأ حيث أن السلطان سليم دخل القاهرة ٣ محرم ٩٢٣هـ/ ٢٦ يناير ١٥١٧م، انظر: أحمد بن محمد بن أياس، بدايع الزهور، جـ٥، ص٣٥٢، ٤٠٧.

(٥) تولى السلطنة ٩٢٧/ ٩٧٤ ـ ١٥٢٠/ ١٥٦٦م.

سبعة ايام متوالية في العشر الاوسط من ابيب(*) وزحفت المسلمون اليهم وبقوا فى القتال ليلا ونهاراً ثم ان الافرنج اخروا الاتهم عن دمياط فرجع المسلمون الى منزلهم وبقى الامر على ما هو عليه وقد كانوا قبل ذلك شغبوا بكنيسة القديس مرقس التى بظاهر الاسكندريه المعروفة بالقمحا(*) وتقدم الامر بهدمها فبذل النصارى فى ابقايها الفى ديناراً ولم تقبل وقيل لا بد من هدمها فان هذه اذية على الثغر لانها ترصع [ترصد] برجاً عليه ويقاتل العدو

(*) يمتد شهر ابيب ما بين ٢٥ يونيو إلى ٢٤ يوليو بحسب التقويم الجولياني. لاحظ هنا تعبير الاواسط الذى يعود إلى طبيعة المصريين فى تقسيم الشهر إلى ٣ أقسام كل قسم عشرة ايام كما كانت عادة المصريين الفراعنه.

(*) انظر فى خصوص كنيسة القمحا الهامش الجانبى ص١٣١.

وخير بك من المآثر جامعه(١) الذى بباب الوزير وبه مدفنه المشهور. وحكايته مشهورة في تاريخ ابن زنبل، وغيره، والله أعلم.

٢.ذكر تولية مصطفى باشا، الشهير بابلق
عفي عنه

قدم الى مصر ثالث عشر الحجة الحرام سنة ٩٢٨(٢). ولما قدم الى مصر، ضم اليه طايفة خير بك واحسن اليهم. وفي زمنه عصى جانم السيفي كاشف الجيزة(٣)، ....

(١) انشأ خير بيك هذا الجامع ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م، ويوجد بعطفة الخيربكية، داخل حارة ابراهيم باشا يكن بدرب القزازين، ولا تزال شعائره مقامه، وكانت عليه اوقاف تتبع وزارة الأوقاف، على مبارك الخطط التوفيقية، جـ٢، ص١٠٣، جـ٤، ص١١٠.

(٢) مدة ولايته: ١٣ ذو الحجة ٩٢٨/ ٤ شوال ٩٢٩هـ ـ ٣ نوفمبر ١٥٢٢/ ١٦ اغسطس ١٥٢٣م.

(٣) بالأصل «الجيزه»، وجانم السيفي: هذا كما تذكر جميع المصادر، شغل فى عهد السلطنة المملوكية وعهد خايربيك، منصب كاشف البهنسا ومنفلوط والفيوم، وتولى امارة الحاج في سنوات ٩٢٦هـ/ ١٥١٩م، ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م ٩٢٨هـ/ ٥٢١م، وهذا بخلاف ما يذكره أحمد شلبي بأنه كان كاشف الجيزة. وكان جانم من الفريق الناقم على السلطة العثمانية، فاتفق مع اينال الطويل على اعلان العصيان، وكانت نتيجة عصيانهم الفشل، وقتل جانم نفسه، وارسل راسه الى السلطان سليمان، لمزيد من التفصيل انظر: دكتور عبدالكريم رافق، بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة بونابرت. دمشق. دون تاريخ. ص١٣١،=

الثغر منها اذا نزل عليه فهدم منها اكثرها بامر السلطنة حتى لم يبق منها سوى قامة واحدة. فلما كان في يوم الجمعة الذى يتلو هدمها صلا المسلمون صلاة الجمعة وخرجوا اليها فهدموا باقيها الى الارض وكان حزناً عظيماً على الطايفة وكآبة متواتره وشدة متظاهرة وكان ذلك فى اوايل ابيب. ثم ان الماء تأخر فى هذه السنة حتى جآء اخر ابيب وهو فى ستة اذرع. وتزيد سعر القمح الى ان بلغ ستين دينار المايه اردب. ثم ان النيل بقى متوقفا والسعر ياخذ ويعطى. ولما كان فى يوم الخميس

واينال الطويل[1] كاشف الغربية، وقر قماش[2]، كاشف البهنسا، وجمعوا جموعا من المفسدين، بقية من بقي من الجراكسة، وبعض عربان. وانتهى امرهم الى الوزير مصطفى باشا، عين عليهم تجريده، جعل سردارها قرأ موسى اغات مستحفظان وآغا التفكجية[3] فاجتمعوا في ولاية الشرقية. ووقع بينهم حرب الى ان (قتل)[4] جانم السيفى وعدم اينال وقرقماش،

= ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، أحمد بن زنبل الرمال، «اخرة المماليك» تحقيق عبدالمنعم عامر، ص ١٦٦ - ١٦٨، دكتور أحمد فؤاد متولى، المصدر السابق ص٢٤٠ - ٢٤١.

(١) اينال الطويل: هو اينال السيفى طراباى، عين كاشفا احيانا على الغربية، واحيانا على الشرقية وكان من الفريق الناقم على السلطة العثمانية، فوحد جهوده مع جانم السيفى على اعلان العصيان ففشل عصيانهم، وقتل جانم، وهرب اينال الى غزة، وتذكر بعض المصادر ومن بينها مصدرنا هذا انه لم يعرف له مصير، انظر: نفس المصادر السابقة، ونفس الصفحات.

(٢) قرقماش: ينفرد مصدرنا هذا بذكر قرقماش، ولم نعثر له على ترجمة فى المصادر المعاصرة، والمصادر التى اعتمد عليها المؤلف، وبينما يذكر أحمد شلبى انه كان كاشف البهنسا، فان كل المصادر المعاصرة لتلك الفترة تذكر أن جانم السيفى كان كاشف البهنسا ومنفلوط والفيوم فى ذات الوقت الذى يذكر أحمد شلبى، ان جانم السيفى كان كاشف الجيزة، وربما كان ذلك خلط من المؤلف حول تاريخ الفترة التى لم يعاصرها. انظر التحفة، ص١٦٤، ابن أياس، المصدر السابق، جـ٥، ص٣٥١ - ٣٥٢، ٤٠٧، ٤٣٢، ٤٣٣.

(٣) بالأصل «الكيفكجية».

(٤) الاضافة لتوضيح المعنى، من التحفة، ص١٦٤.

سادس النسى(*) لانها كانت سنة كبيس زحفت الافرنج الى المسلمين برا وبحراً فانكسروا قدامهم وكان الفرنج تظن ان الماء الذى فى خندق المسلمين حلو. فلما وصلوا الى الخندق المذكور من جانب الرمل وهو موضع بعيد من البحر ذاقوا المآء فوجدوه مالحاً فرجعوا على اثرهم من ذاتهم من غير ان يكسرهم احد فلما راهم المسلمون قد رجعوا تبعوهم وطمعوا فيهم فصارت عليهم [على الافرنج] كسرة عظيمة فاخذ من خيالتهم زهآ اربع مايه فارس منهم جماعة اكناد [قواد كبار]

(*) هو يوم ٢٩ أغسطس بحسب التقويم الجوليانى.

ولم يعلم لهما خبر. ثم ان مصطفى باشا جهز راس جانم الى الديار الرومية، وارسل يطلب العزل. فورد الخبر فى رابع شوال بتولية احمد باشا. وكانت مدة مصطفى باشا، تسعة اشهر وعشرين يوما.

٣.ذكر تولية أحمد باشا المعروف بخاين عفى عنه

قدم الى مصر سنة ٩٣٠، فى ثامن عشر شوال(١) ولما استقر فى مصر، شرع فى قتل جماعة من أعيانها. ثم انه نزع يده من الطاعة واظهر العصيان، وجمع جمعا عظيما من أشقياء العرب والفلاحين وتحارب مع طايفة من الينجشرية(٢)، وقتل منهم طايفة كثيرة. وبعد ذلك اجتمع عسكر المنصورة(٣)، وقتلوا احمد باشا، وارسلوا راسه الى الأعتاب العلية.

(١) مدة ولايته: ١٨ شوال ٩٣٠/ ربيع أول ٩٣١هـ ـ اغسطس ١٥٢٤/ ديسمبر ١٥٢٤م.

(٢) بالأصل «البحيرة»، وهذا تصحيف، والتصويب من التحفة ص١٦٤، حيث كتبها «اليكجرية» وهى احدى الصور التى كتبت بها فى سجلات المحكمة الشرعية، وصحتها الينجشرية أما «البحيرة» فهذا خطأ، لأنه لم توجد طائفة من الجند فى ذلك العصر، تسمى «طائفة البحيرة».

(٣) يقصد عسكر الدولة العثمانية، والمنصورة هنا تعنى الدولة العثمانية.. ويذكر صاحب التحفة «اجتمعت العساكر المنصورة» ص١٦٤.

ومقدمون وقتل من الرجال والاطراف ما مقدره الفا نفس ووردت البطايق بذلك وطيرت الطيور وزينت القاهرة ومصر وفرح المسلمون بذلك فرحاً عظيما..

(*)٩٣٦ش = ١٢١٩م.

ودخلت سنة ست وثلثين وتسع ماية(*) للشهدآء وكان النيل مقصراً وغاية ما انتهى اليه خمسة عشر دراعاً ولم يثبت عليها بل نقص وتواتر نقصه وفتح خليج القاهرة المحروسة فى يوم الخميس الرابع عشر من توت(*) ونشف فى يوم

(*) ١٤ توت = ١١ سبتمبر بحسب التقويم الجولياني.

وكانت مدته ستة أشهر. ثم تولى على مصر جوزلجه قاسم باشا، وجعل قايم مقامه(١) على بيك الازمرلي.

٤. ذكر تولية جوزلجه قاسم باشا

عفى الله تعالى عنه

قدم الى مصر فى غرة جماد آخر سنة ٩٣١(٢)، فأقام فى الولاية شهر واحد، ثم عزل. وكان رجلا عظيما. وسبب عزلانه، أنه طلب الى السلطنة العلية.

(١) قيامة مقام: وظيفة قيامة مقام، كان يشغلها الشخص الذى يتولى عمل الباشا، فى فترة خلو منصب الباشوية، سواء بعزل الباشا، أو وفاته. وفى بداية العصر العثمانى، كان منصب القائمقام يسند الى قاضى القضاة أو الدفتردار، ولكن عندما ازداد نفوذ الأمراء المماليك، وتسلطوا على شئون مصر الادارية أصبح هذا المنصب يسند الى احد البكوات المماليك، انظر: دكتورة ليلى عبداللطيف، ادارة مصر فى العصر العثمانى، ص١١٨ ـ ١٢٠.

(٢) مدة ولايته غرة جماد آخر ٩٣١/ ٢٦ مارس ١٥٢٥: يذكر الاسحاقى ان قاسم باشا تولى أمور مصر قبل أحمد باشا الخائن حيث ذكر «فكان دخوله سنة تسع وعشرين وتسعماية، وخروجه من مصر فى أوائل سنة ثلاثين وتسعماية وكانت مدة ولايته شهر واحد والله تعالى اعلم ثم تولى أحمد باشا الخائن» وهذا خلاف ما تذكره كل المصادر فى ترتيب الولاة، انظر. لطائف اخبار الأول، طبعة مكتبة المليجى، ص١٣٥.

الخميس الذى يتلوه ومشى الناس فى وسطه وفتح بحـر ابى المنجـا(*) يوم الاحـد الذى هو عـيـد الصليب المقدس(*) فنقص المآء يومئذ ذراعاً كاملا ولم ينتفع به ولا روى فى بركة الحبش الا خلجان واما ارض الطبـاله (*) فلم يشـرب اصـلا ولم يرو من البـلاد فى هذه السنة الا القليل مثل الفيـوم وكورة البوصيريه والدنجاويه والبشـمور وما جرى مـجراها من بلاد الغربيـه. وحمل اكثـر الاسـرى

(*) بحـر ابو المنجـا: هى الترعـة الكبرى التى اقيـمت عليها قناطر أبو المنجا أيام الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٧م = ٦٦٥هـ = ٩٨٤ق. غـرب قـرية ميت نما بمركز قليوب. ولقد تركت هذه القناطر بدون استخدام بعد أن تغيير مجرى أبى المنجا عند هذه القناطر فطمست عيونها وأصبحت قائمة وسط الأراضى الزراعية.

(*) ١٤ سبتمبر بحسب التقويم الجوليانى.

(*) الطبالة : شرق القاهرة.

---

٥. ذكر تولية ابراهيم باشا الشهير بالاسكندرلى عفى عنه

قدم الى مصر فى أواخر سنة ٩٣١[١]، واحضر صحبته أحمد اغا اغات مستحفظان من القسطنطينية. وكان قدومه من البر[٢]. وجدد بمصر وجاق التفكجية[٣] وعمر القلتين[٤] اللتين بباب مستحفظان بمصر، وأحدث وجاق الجوالى[٥]، وجعله مرتبا على العلماء والفقراء

(١) مدة ولايته أواخر ٩٣١/ غرة شعبان ٩٣١ ـ أوائل ١٥٢٥/ ٢٤ مايو ١٥٢٥م.

(٢) كان الباشوات يصلون الى مصر، اما بطريق البر عن طريق بلاد الشام حتى مصر، أو بحرا الى الاسكندرية أو دمياط أو رشيد، حيث يركبون النيل الى بولاق.

(٣) وجاق التفكجية: افراده من الفرسان الذين يتسلحون بالبنادق، وكانت المهمة المنوطة بافراد هذا الوجاق مشاركة رجال الكوملية بحراسة الاقاليم وحفظ الامن بها وحمايتها من اغارات البدو، وحراسة الجسور وحسن توزيع المياه على الاراضى الزراعية، انظر: عراقى يوسف، الاوجاقات العثمانية فى مصر. رسالة ماجستير. كلية اداب جامعة عين شمس ١٩٧٨م. ص٦٧.

(٤) بالأصل «القلعتين»، والتصويب من التحفة، ص١٦٤، وباب مستحفظان احد ابواب القلعة الرئيسية، وسمى بهذا الاسم نسبة لطائفة مستحفظان التى كان منوطا بها حفظ البلاد وحمايتها.

(٥) وجاق الجوالى: الجوالى، مفردها «جالية» تطلق على اهل الذمة، ثم اصبح هذا المصطلح يطلق على الجزية التى تحصل من اهل الذمة، وفى العصر العثمانى، اصبحت هذه الضريبة مقاطعة قائمة بذاتها اطلق عليها وجاق الجوالى، أو مقاطعة الجوالى، وقد حدد أحمد شلبى فى النص أوجه صرفها، انظر بشأن الجوالى، دكتور قاسم عبده قاسم. أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى، ص٦٨ ـ ٧١.

الذين اخذوا فى هذه الكسرة الى القاهرة المحروسة وشقت المدينة بهم وابقى منهم المقدمون بالعسكر ليتحدثوا فى الصلح، فمشوا فيه حتى كاد يتقرر على ان ياخدوا القدس بعد ان يعمر لهم وجميع ما كان فى ايديهم مما فتحه الملك الناصر. وبقى الامر متردداً بينهم وارتفع سعر الغلة حتى بيع القمح بدينارين ونصف الاردب وكان لا يقدر عليه الا بالغاية. ثم وردت الاخبار بان النجدات قد وصلت الى الافرنج وان الصلح قد انتقض وجآ امر

(*) أهم أحداث سنة ٩٣٥ ق. = ١٢١٩م. ٦١٦هـ.

(*) فيها اشتد الغلاء بدمياط لشدة محاصرة الفرنج لها، الذين هجموا عليها واستولوا علهيا فى ٢٥ شعبان، بعد محاصرة ١٦ شهراً و٢٢ يومًا، وقد قتلوا وأسروا من بها، وجعلوا الجامع كنيسة، فحينئذ بنى الملك الكامل المنصورة ونزلها بعساكره.

(*) وفيها كان ظهور التتر وفتكهم بالمسلمين وتملكهم فى مدة قريبة أكثر بلاد الإسلام.

والايتام، والارامل. وقتل الامير على بن عمر[١]، والامير أحمد أولاد بقر[٢] من امراء العرب، لما بلغه منهم ظلم الرعية وجدد القوانين المصرية. وخلد ما فى الدفاتر السلطانية. واستصحب معه الأمير جانم الحمزاوى، الى الديار الرومية، للسؤال عن أحوال مصر وفوض ولاية[٣] مصر الى الوزير سليمان باشا الذى كان صارى عسكر العثمنلى الى مصر. فجاءه الحظ بتوليته مصر، لما رجع من الهند[٤]. وكان غيابه فى الهند سنتين. وتوجه هو وقاسم باشا الى الأعتاب

(١) على بن عمر: هو الامير على بن عمر زعيم قبيلة الهوارة التى الت اليها امارة الصعيد منذ العصر المملوكى، وكان قد قدم خضوعه للسلطان سليم، فأخلع عليه امرة الصعيد، وجعل مركزه جرجا.

(٢) أحمد بن بقر: زعيم بدو الشرقية، اخلع عليه السلطان سليم وأبقاه فى منصبه، واعترف خاير بيك بأمرة أحمد بن بقر بعد ان التزم بأحوال منطقته، وعفى عن ابنه عبدالدايم الذى كان عاصيا. ولكن عربان الشرقية عادوا الى العصيان، حتى تمكن ابراهيم باشا ٩٣١هـ/ ١٥٢٥م. من اخضاعهم.

(٣) بالاصل «ولايات»، والتصويب من التحفة، ص١٦٥.

(٤) حملة سليمان باشا: اهتم السلطان سليم بعد عودته من مصر بالصراع البحرى الذى كان دائرا فى البحر الاحمر بين البرتغاليين والقوى الإسلامية، ولذا عمل على بناء قوة بحرية عثمانية ولكنه توفى قبل تحقيق آماله، فقام ابنه السلطان سليمان باتمام هذا العمل، وعمل جاهدا على صد الخطر البرتغالى والقضاء على المراكز البرتغالية فكانت حملة سليمان باشا هذه وهى حملته الأولى، ولكنها لم تحقق الآمال العثمانية فى القضاء على الخطر البرتغالى، ولذا فان السلطان سليمان امر سليمان باشا اثناء ولايته مصر «ببناء ثمانين سفينة من مختلف الأنواع والأحجام، كما ارسل اليه من استانبول المهمات والاخشاب اللازمة لبناء هذه السفن» استعدادا لحملة اخرى، وقبل ان يتم بناء هذا الاسطول صدرت الاوامر =

السلطان باخرج كل من بالقاهرة ومصر للغزاه وضربت الاجراس بذلك وخرج اكثر الناس على وجوههم واغلق البلدان ورجع سعر القمح انحل لاجل اشتغال الناس بنفوسهم حتى بلغ دينار واحد ونصف كل اردب ودينار وربع ولم يجد من يشتريه وكان شدة عظيمة وضايقة شديدة الا ان الذمه لم يكونوا تعرضوا لهم في الاول فلما كان بعد ذلك امسك والى القاهرة النصارى وعلقهم على ابواب دورهم وادارهم في الطواحين وقال لهم اريد منكم

(*) [١توت سنة ٩٣٦ = ٣٠ أغسطس ١٢١٩ = الجمعة ١٧ جماد الثاني سنة ٦١٦].

(*) وفيها حلف الملك المنصور، صاحب حماه، الناس لولده الملك المظفر، وجعله ولي عهده وجرد معه عسكرا والطواشي مرشدا المنصوري نجدة للكامل بمصر، فاكرمه الكامل وأنزله في الميمنة منزلة أبيه وجده.

(*) [الأربع ١ يناير سنة ١٢٢٠ = ٥ طوبه سنة ٩٣٦ = ٢٣ شوال سنة ٦١٦].

السلطانية. وكانت مدته سبعة أشهر. ووجهت الوزارة لسليمان باشا[١] في غرة شعبان سنة ٩٣١.

٦.ذكر تولية سليمان باشا
المنفصل عن صارى عسكر الهند

فتولى على مصر في رمضان سنة ٩٣١[٢]، وهو أول من أرسل الخزينة[٣] وفي ايامه عين المساحات لضبط الاقاليم جميعا، وحررها بدفتر يأتي ليومنا هذا بالخزينة العامرة المصرية، وهو

= لسليمان باشا ٩٤١هـ/ ١٥٣٥م بأن يقوم بحملته الثانية. ج. ج لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، جـ١، الترجمة العربية، الطبعة المعدلة والمنقحة، ص١٦، دكتور سيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الأول لليمن ١٥٣٨ ـ ١٦٣٥، ص ١٥٤.

(١) بالأصل «لأحمد باشاه» والتصويب من التحفة، ص١٦٥.

(٢) مدة ولايته: ٩٣١/ ٩٤١هـ ـ ١٥٢٥/ ١٥٣٥م.

(٣) الخزينة أو الخزنة: كانت تعنى في ذلك العصر، المقدار المتبقى من ايراديات مصر، الذى يجب ارساله الى القسطنطينية، بعد انفاق ما يقرر السلطان انفاقه على الادارة ومختلف شئون الصرف التى يقرها. ولم يكن مقدارها ثابتا، بل كان يتغير من عام لآخر لعوامل كثيرة يقرها السلطان. كما كانت تصدر احيانا خطوط شريفة من السلطان بشأن القيام ببعض الاعمال على ان تخصم تكلفتها من الخزينة، وسوف نقابل امثلة كثيرة لهذه الحالات في النص، وكان يصحب الخزينة صنجق، يسمى صنجق الخزينة، انظر، محمد شفيق غربال، مصر عند مفرق الطرق (١٧٩٨ ـ ١٨٠١م)، ص١٥.

المال واخذ منهم ما يطيقون وما لا يطيقون حتى انهم يذكرون الحاكه(*) وحدهم من النصارى بالقاهرة قاموا بالف وثلثماية ديناراً. واشتد الامر على الناس. فاما والى مصر [القديمه (الفسطاط)] فلما راى ما فعله والى القاهرة احضر قسا [قسسا] النصارى وقال لهم انتم قد سمعتم ما عمله والى القاهرة وانا اشير عليكم ان تجمعوا مع بعضكم بعض وتجمعوا بينكم الف دينار وتحضروها والا انا استخرجها وما اخذها الا خمسة الف فشكوا اليه

(*) وفيها كان تتويج الأمبراطور فريدريك الثانى فى رومه.

(*) الحاكة: الخياطين

المعروف بدفتر التربيع(١)، والعمل على ذلك الدفتر، فأقام واليا بها عشر سنوات، ثم جاءه العزلان من الاعتاب العلية. والتوجه الى الهند، ثانى مرة، وله من الآثار التى فعلها بمصر، مقام سيدى ساريه(٢) بباب مستحفظان، ومسجد وتكيته التى بقوصون والتكية ومسجده الزينى ببولاق(٣)، المعروفين بالسليمانية، وأرقف عليهم أوقافا كثيرة من جملتها سوق الكتان الذى ببولاق ورشيد. ثم تولى سرو باشا(٤).

(١) يبدو من فحص وثائق، دار الوثائق القومية أنه خصص لكل ولاية من ولايات مصر دفتر خاص بها من دفاتر الترابيع هذه، حيث يوجد بالدار الدفتر الخاص بولاية البهنساوية، وكتب على الصفحة الأولى منه «دفتر بيان مساحة نواحى ولاية البهنساوية، المحررة بمعرفة قاضيها محمد بن نسيبة، ومأمور المساحة سليمان شلبى، فى ١٥ جماد الثانية ٩٣٤هـ»/ ٧ مارس ١٥٢٨م، وطبعا هذا التاريخ هو تاريخ الانتهاء من عملية المسح والتسجيل التى بدأت ٩٣٣هـ/ ١٥٢٧م، وقد سجلت فى هذا الدفتر، مساحة كل ناحية بالفدان والقيراط والسهم، وأرقامه مكتوبة برموز خط القرمة، ويتضح مما هو مكتوب على هذا السجل، ان عملية المسح هذه كانت تتم فى كل ولاية بمعرفة قاضيها، ومأمور المساحة، وهذا السجل يحفظ الآن بمتحف دار الوثائق بالقلعة.

(٢) أنشأ المسجد والمقام، فخر الدين أبو منصور ٥٣٥هـ/ ١١٤١م، فى الزاوية البحرية الشرقية من القلعة، وجدده سليمان باشا ٩٣٥هـ/ ١٥٢٩م، ويعرف الآن بجامع سليمان باشا. على مبارك، المصدر السابق، جـ٥، ص١٤.

(٣) مسجد الزينى، ويعرف بجامع السليمانية ببولاق القاهرة، له باب على شارع الجزارين، وباب من الجهة الغربية، أنشأه سليمان باشا ٩٣١هـ/ ١٥٢٥ «وعمر بجواره وكائل وأسواقا وربوعا وغير ذلك، انظر: على مبارك، المصدر السابق، جـ٥ ص١٨.

(٤) خسروا باشا: بالأصل «خسرق»، ويذكره صاحب التحفة «خسرد» ص١٦٥، ويذكره ابن ابى السرور=

وتضرروا فقررها ثمان ماية دينار وخرجوا قعدوا في الكنايس وشرعوا في الاستخراج وكانت ايام صعبه على العالم اجمع. ومن جملة ما جرى فيها ان السلطان كان في اثناء ما ذكرناه قد زحف الى الافرنج ونزل على كنف خندقهم من بر الغرب ونزل الملك الفايز على كنف خندقهم من بر الشرق وضايقوهم من البرين وسير السلطان الى المدينتين(*) يطلب الجرار الفرغ وكل اواني الفخار الفارغة ليملاها رملا و يردم بها الخندق ونودى في

(*) القاهرة والفسطاط (مصر عتيقه).

٧.ذكر تولية خسرو باشا
عفى الله عنه

قدم الى مصر يوم الاثنين حادى عشرين شعبان سنة ٩٤١، الى ان عزل فى سادس جماد الثانى سنة ٩٤٣[١]. وكانت مدته سنتين. ومن أثاره السبيل والمكتب الذى فوقه بالصاغة، وكانت مصر فى أيامه فى غاية الأمن من اللصوص والقطاع وكان فى زمنه غاية الرخا، بحيث ان اللحم الضانى رطلين ونصف، بنصف فضة[٢]. والجاموسى أربعة ارطال، بنصف. والخبز ثلاثة عشر رطل، بنصف فضة. والعسل الجر، كل جرة، بنصفين، والجرة: عشرة ارطال، والأرز بنصفين. والربع والشمسى بخمسة انصاف، العشرة. وفى زمنه فشت القهوة والقهاوى،

= فى «اللطائف الربانية على المنح الرحمانية»، ص١٨، باسم «خسرف»، وكلها تصحيفات، وصحتها «خسرو». كما ذكر الاسحاقى، المصدر السابق، ص١٣٦.

(١) مدة ولايته: ٢١ شعبان ٩٤١/ ٦ جماد ثانى ٩٤٣ هـ ـ ٢٥ فبراير ١٥٣٥/ ٢٠ نوفمبر ١٥٣٦م، يذكر صاحب التحفة انه قدم فى ٢١ شعبان ٩٤٠هـ/ ٧ فبراير ١٥٣٤م.

(٢) نصف فضة: اصغر عملة نقدية تركية، تساوى ١/٤ من القرش، واطلق عليها اسم «بارة» وترد كثيرا فى سجلات المحكمة الشرعية بالاسمين «نصف فضة، بارة»، وواضح مما يذكره أحمد شلبى ان أقدم اشارة اليها ١٥٣٥/ ١٥٣٦م، وليس ١٥٨٣م، كما ذكر الدكتور عبدالرحمن فهمى، انظر عبدالرحمن فهمى «النقود المتداولة ايام الجبرتى»، ضمن ابحاث ندوة الجبرتى، ص٥٧٣، سجلات محكمتى الباب العالى، والقسمة العسكرية.

مصر بذلك واجتمع على ساحل البحر من الجرار والقدور الاف لا تحصى وأحضر معظمها الى المعسكر، فرجعوا تحدثوا فى الصلح فاذعن اليه الافرنج بعض الاذعان حتى رجع الملكان عن خندقهما من البرين، ثم عادوا هم وسعوا الخنادق وقووا الابراج فامتنعوا من الصلح فاغتاظ الملك وسير اخاه الملك الفايز الى الشرق يطلب النجدات وألبسه الحداد وسفره على التخت. وانقسم عسكر الافرنج قسمين قسم يزحف الى دمياط بالنوبه ليلا ونهارا وقسم يحفظ جهة الخندق مقابل عسكر

(*) حملة لويس التاسع تتوجه إلى دمياط.

وكان الرطل البن، بأربعة انصاف. وكان الريال الحجر[١] بثلاثين نصف. والكلب[٢] بأربعة وعشرين نصف. وكان الشريفي الجديد[٣]، بخمسة وخمسين نصف فضة. وكان البندقي[٤]، بخمسة وستين فضة. وكانت الفضة، كل ثلاثة، درهم.

فلما ورد ركاب سليمان باشا من سفرة الهند، انعم عليه مولانا السلطان بباشوية مصر ثانيا، فكان كذلك.

(١) الريال الحجر: نوع من العملة التى انتشرت فى مصر، وتذكره وثائق المحكمة الشرعية أحيانا باسم الريال الحجر، أو أبو طاقة أو بطاقة، وواضح من النص ومن سجلات محكمتى الباب العالى والقسمة العسكرية انه كان منتشرا في مصر منذ الثلث الأول من القرن السادس عشر، وليس كما ذكر عبدالرحمن فهمى منذ القرن السابع عشر، المصدر السابق، ص٥٧٨.

(٢) الكلب: او بوكلب، كما تكتبه وثائق المحكمة الشرعية، هو الريال الهولندى وكان اقل قيمة من الريال الحجر، وكانت كلها تقدر بقيمة العملة التركية النصف الفضة الديوانى» كما يرد ذلك فى سجلات محكمتى القسمة العسكرية، والباب العالى.

(٣) الشريفي الجديد: نوع من العملة التركية، وكانت أعلى قيمة من الريال الحجر، والريال الكلب كما هو واضح من النص، وان اختلفت قيمة هذه العملة من فترة لأخرى.

(٤) البندقي: نقد ذهبى أجنبى انتشر فى مصر، وسمى كذلك نسبة «الى مدينة البندقية التى بدأت فى ضربه حوالى ١٢٥٢م»، وقد أقبلت كل بلاد الشرق على التعامل به، وأصبح نموذجا لعلو القيمة والنقاوة، فأصبح يضرب به المثل فيقال «دهب بندقي»، دكتور عبدالرحمن فهمى المصدر السابق، ص٥٧٧،

من سنة ١٢١٦ إلى ١٢٣٥م.

المسلمون. ولم يزل الحال على ذلك يأخذ ويعطى والاخبار تتواتر بان الثغر قد ضعف ومات اكثر من فيه. فرتب السلطان سبع ماية راجل مقاتله وانفق فيهم وقرر معهم ان يهجموا هجمة واحدة ليلا ويدخلوا حميه الى الثغر ففعلوا ذلك فقتل اكثرهم والقليل منهم سلموا وعبروا فما كان بعد عبورهم الا بليلة او ليلتين حتى فتح الافرنج ثغر دمياط(*) فى ليلة يسفر صباحها عن نهار يوم الثلثا الثامن من هتور(*) سنة ست وثلثين وتسع مايه المقدم ذكرها الموافق للخامس والعشرين من شعبان سنة

(*) استيلاء الفرنجه على دمياط بعد حصارها مدة ١٦ شهراً، وذلك فى شهر ماتور سنة ٩٣٦ ق وفى اعقاب ذلك بنى الملك الكامل المنصورة ونزلها بعسا كره. وفى نفس هذه السنة كان هجوم التتار على الشام.

(*) ٨ هاتور ٩٣٦ = ٢٥ شعبان، ٦١٦هـ = ٤ نوفمبر. ١٢١٩م.

* اهم احداث سنة ٩٣٦ق. =١٢٢٠م. =٦١٧هـ.

* فيها كانت الافرنج مالكة لدمياط، والملك الكامل مرابط لهم

---

٨. ذكر تولية سليمان باشا مصر (ثانيا)

عفى الله عنه

قدم الى مصر حادى عشر رجب سنة ٩٤٣، فتولى سنة وخمسة اشهر، الى ان عزل فى حادى عشر محرم الحرام سنة ٩٤٥(١).

٩. ذكر تولية داود باشا الخادم

عفى عنه الله

قدم الى مصر فى سابع عشر محرم الحرام سنة ٩٤٥، فأقام واليا بها احد عشر سنة وشهرين، الى ان مات فى ربيع الاول سنة ٩٥٦(٢)، وكان حاكما مهابا، سفاكا للدماء، وقد نقل المؤرخون انه قتل فى زمن ولايته، ستة آلاف نفس من المفسدين، ومن مآثره، الجامع(٣)

(١) مدة ولايته: ١١ رجب ٩٤٣/ ١١ محرم ٩٤٥هـ ـ ٢٤ ديسمبر ١٥٣٦/ ١٠ يونية ١٥٣٨م.

(٢) مدة ولايته: ١٧ محرم ٩٤٥/ ربيع الأول ٩٥٦ ـ ١٦ يونية ١٥٣٨/ ابريل ١٥٤٩م، بالاصل تاريخ موته (٩٤٦) وهذا خطأ كما هو واضح من سياق الكلام.

(٣) جامع داود باشا بسويقة اللالا، كان اول مرة مدرسة انشأها داود باشا، وأوقف لها أوقافا كثيرة منقوش على بابه فى الرخام.

اتم بناه داود صديق
وفى سبيل الهدى قد جد سيرا =

ست عشره وستماية وكانت ليلة عظيمة يوما مشهوداً. ولم يشعر المسلمون بذلك حتى راوا اعلام الافرنج والصلبان على الابراج والمراقب، فعند ذلك علموا ان الثغر قد اخذ فرحل ملوك المسلمين لوقتهم وتركوا التجار والعوام في المنزله، فصار الانسان منهم ما همه الا ان ينجوا بنفسه وتركوا كل اموالهم وبضايعهم فضاع في هذه النوبة ايضاً من الاموال مالا يحصى. وجآء

بالمنصورة، والملك الأشرف في حران، وقد أقطع عماد الدين احمد بن المشطوب رأس عين، فجمع ابن امشطوب جمعا وخرج على الأشرف، وحسن لصاحب سنجار الخروج عن طاعة الأشرف، فحصره بدر الدين لؤلؤ بتل اعفر فقبض عليه وسجن.

* [١ توت ٩٣٧ = ٢٩ اغسطس ١٢٢٠ = السبت ٢٧ جماد الثاني سنة ٦١٧].

* وفيها توفي الملك المنصور، صاحب حماة، في شهر ذي القعدة، واستولى الملك الناصر عليها بناء على ما أتاه الوزير زين الدين من الاتفاق

الذي بسويقة اللاله، بقرب سيدنا ومولانا محمد بن محمود الحنفي، نفعنا الله ببركته وهو الذي بنى قلعة المويلح[١]، وقلعة الازلم[٢]، لاستراحة الحاج الشريف لأنه لم يكن قبل ذلك خلاف العقبة شيء. ومما اتفق، في ايام ولايته، ان رجلا لقش على ولد امرد من اولاد المتعممين. وكان جميلا. وكان يتيم الأب. فضرب الرجل، فمات الرجل. فمسكه اهل المقتول، وأعرضوه على حضرة الباشا. فلما رآه الوزير، شفق عليه لأجل والدته فارضى الورائة بثلاثماية دينار دية المقتول، وحلما على الغلام، لأجل والدته. ثم ان الوزير قال للغلام هل تحفظ القرآن، فقال الغلام: نعم فقال: اقرأ ما تيسر، فاستفتح الغلام بقوله تعالى: ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾[٣] الآيات، فقال الوزير: صدق الله العظيم.

= حمدناه فأرخنا بناه
حوى حمدا جزاه الله خيرا

على مبارك، المصدر السابق، جـ٤، ص١١١.

(١) قلعة المويلح: على الساحل الشرقي للبحر الأحمر، على طريق الحج المصري بالحجاز، انشأها داود باشا لخدمة محل الحج المصري، وكان يرابط بها جماعة من الانكشارية (مستحفظان)، لحمايتها وحراسة طريق الحاج، عراقي يوسف، المصدر السابق، ص١٠٠.

(٢) قلعة الأزلم: احدى محطات الحج المصري، تقع الى الجنوب من العقبة، وكانت ترسل اليها قافلة لمقابلة موكب الحج عند العودة وتزويده بالمؤمن اللازمة وحمايته من اعتداءات العربان، عراقي يوسف، المصدر السابق، ص٢٠٨.

(٣) سورة ص رقم ٣٨، آية ٢٦، وما بعدها.

السلطان فنزل مقابل طلخا(*) على راس بحر اشموم(*) من القبلة [الجنوب] واما الملك المعظم صاحب الشام فتوجه الى بلاده ونزل على غزه. واختلف القول فى فتح الثغر فقوم قالوا ما فتح الامخامره من أهلها لما وقعوا فيه من الشدة . وقوم قالوا ما فتح الا بالسيف عنوه وقيل انهم وجدوا فيه من الاموال الذهب والفضه قناطير مقنطره فاما الاسلحه والزرد هي من الملوك والامرا والاجناد

مع الكبراء وعلى ما تهد به الملك الناصر خاله الملك المعظم، صاحب دمشق من دفع مبلغ سنوى بما أن العهد بالسلطنة بعد الملك المنصور كان لولده الملك المظفر.

* [١ يناير سنة ١٢٢١ = ٦ طوبه سة ٩٣٧ = الجمعة ٥ ذو القعدة سنة ٦١٧].

(*) طلخا: على الضفة الغربية لفرع دمياط بجوار جوجر.

(*)اشموم: واسمها المصرى شمون بمعنى ثمانية حيث كانت مركز لعبادة الثامون المقدس. وبعد احتلال العرب سميت أشموم طناح،

ثم امر بقتل الغلام، فقتلوه، وانزلوه مقتولا الى والدته وارسل الى والدته مايتى ذهب. وهذا لم يحكم به الشرع، بعد رضى الورثة بعدم القتل، وهذا جهل من الوزير، ثم انه مرض وامر ان يدفن بجوار قبر الامام الليث بن سعد[1] رضى الله عنه. فكان كذلك. ثم ان العسكر المنصور، اجتمع امرهم ان يجعلوا مصطفى بك قايم مقام الى ان يجيء الجواب من الديار الرومية، وارسلوا عرضا بموتة. فورد عليهم الخبر (بعد خمسة وخمسين يوما)[2] بتولية على باشا.

١٠. ذكر تولية على باشا الوزير

عفى الله عنه

قدم الى مصر خامس عشر شوال سنة ٩٥٦، فأقام بها واليا أربع سنين ونصف وعزل فى ٢٥ من محرم سنة ٩٦١(*) وكان حاكما عادلا، صالحا، محبا للفقراء، والعلماء محسنا لهم.

(١) الليث بن سعد (٩٤/ ١٧٥هـ - ٧١٣/ ٧٩١م): هو الليث بن سعد بن عبدالرحمن الفهمى، امام اهل مصر فى عصره، حديثا وفقها، اصله من خراسان، ومولده فى قلقشندة، ووفاته فى القاهرة انظر: الاعلام، جـ٦، ص١١٥.

(٢) كتبت هذه العبارة على هامش الصفحة ووضعت علامة ادخالها فى موضعها من النص.

(*) مدة ولايته: ١٠ شوال ٩٥٦/ ٢٥ محرم ٩٦١هـ - ١ نوفمبر ١٥٤٩/ ٣١ ديسمبر ١٥٥٣م.

كان قد جعل كلما يعز عليه فيها اعنى دمياط لانها كانت حصينة جداً وما ظن احد انها توخذ، وقيل إنهم وجدوا بها ستة الف رجل وقيل احد عشر الفاً الا انهم اسروا كل من وجدوه بها ما خلا النصارى. واما المسلمون فكانوا يقولون انه لم يبق بها سوى ستماية نفس ولم يصح ذلك. وذكر المحققون ان باب الثغر اغلق على ستة واربعين الف رجل خارجاً عن النسا والصغار. واستوطن الافرنج

وهى كذلك قرب دمياط. وفى وقت الاحتلال العثمانى أعيد إليها اسمها المصرى وهو شمون أرمان محرقا إلى اشمون الرمان. وعندما جعلت المنصورة سنة ٩٣٣هـ قاعدة لولاية الدقهلية، ومنذ ذلك الوقت اضمحلت أشمون الرمان وزال ما كان فيها من آثار المدنية والعمران فاصحبت قرية عادية من قرى مركز دكرنس.

ومن مآثره الحميدة، انه عمر مقام السيدة زينب، بنت الامام على رضى الله عنه، المعروف بقناطر السباع، وعمر قلعة العريش[1]. وعزل فى سنته.

١١.ذكر تولية محمد باشا الشهير بدوقه لى[2]

عفى الله عنه

قدم الى مصر فى غرة صفر سنة ٩٦١، فأقام بها واليا سنتين وتسعة عشر يوما الى أن عزل فى حادى عشر ربيع آخر سنة ٩٦٣[3]، كان احب ما اليه اللهو والطرب والخروج الى المفترجات حتى انه كان يركب فى المراكب ويمر فى الخليج فى ايام النيل، ويضرب على الطنبور ويغنى باللغة التركية ولا يبالى بمن عدل أو لام. وكان يهوى الجمال. فلما وصلت اخباره الى الاعتاب العلية ارسلوا عزلانه، فأقام قايم مقام يوسف بيك. الى ان ورد ركاب الوزير

(١) قلعة العريش: تقع على الساحل الشمالى لشبه جزيرة سيناء، كان يرابط بها جماعتان من العسكر، من الفرسان والمشاة، وهم يعرفون باسم (عساكر محافظين).
عراقى يوسف، المصدر السابق، ص٩٩.

(٢) يذكر صاحب التحفة، ص ١٦٧ ان اسمه «محمد باشا الشهير بدوقه لين»، بينما يذكر الاسحاقى، ص١٣٦ ان اسمه «محمد باشا الشهير بدوفتر كين زاده».

(٣) مدة ولايته: غرة صفر ٩٦١/ ١١ ربيع آخر ٩٦٣هـ ـ ٦ يناير ١٥٥٤/ ٢٣ فبراير ١٥٥٦م.

الثغر واستقرت قاعدتهم. فيه فلما كان بعد رواح الملك المعظم سير السلطان استدعى الصاحب صفي الدين عبد الله بن على الذى كان وزير ابيه وقلده تدبير مملكته فنفذ هذا بالحوطه على جماعة من الكتاب مسلمين ونصارى ويهود وبسط عليهم العقوبات وطالبهم بالاموال أمتلت الحبوس منهم ومنهم من خرج من مذهبه من الشدة والعقوبة ومنهم من عطبت بعض اعضايه. وكانت ايام

(*) الحملة الصليبية (الخامسة) تحتل دمياط.

اسكندر. واتفق فى زمن محمد باشا غلاء عظيم. الى ان عدمت الحنطة، والشعير والفول وصارت الناس يقتاتون بالبذور[1] والترمس. وصار اصحاب الأموال يجيبون الحنطة من بلاد الشام وغيرها من البلاد، حتى هلكت الفقرا.

١٢.ذكر تولية اسكندر باشا

رحمه الله تعالى

قدم مصر خامس عشر ربيع آخر سنة ٩٦٣. فأقام واليا بها ثلاث سنوات وشهرين وعزل فى رجب سنة ٩٦٦[2]. وله من المآثر الحميدة المسجد والتكية اللذان بباب الخرق[3]. وأوفى البحر فى ٣١ أبيب وزاد زيادة كثيرة وانحلت الأسعار. وكانت الرعايا تحبه محبة شديدة. ولما عزل اقام قايم مقام محله على بك الخازندار المنصورى.

(١) بالأصل «البزور».

(٢) مدة ولايته: ١٥ ربيع آخر ٩٦٣ ـ رجب ٩٦٦هـ، ٢٧ فبراير ١٥٥٦ ـ ابريل ١٥٥٩م.

(٣) مسجد اسكندر باشا وتكيته: انشأ اسكندر باشا هذا المسجد بشارع باب الخرق (الخلق) ٩٦٣هـ/١٥٥٦م وانشأ تجاهه تكية ومكتبا وسبيلا، وأوقف عليها جميعا أوقافا، وشرط النظر عليها لمن يكون واليا على مصر، وازيل الجامع والتكية وما جاورهما من الدور، فى القرن التاسع عشر، حينما بدأ تنظيم القاهرة وعملت الشوارع والميادين، وفتح الشارع المعروف بشارع، محمد على (القلعة حاليا) انظر على مبارك، الخطط، جـ ٤ ص٥٦.

صعبه جدا. وفي اثناء ذلك صقعوا رباع الناس واملاكهم بالقاهرة ومصر واستادوا [أخذوا] اجرتها الشهرين وكانت ايام شديدة على الناس ولا يخرجون من شي حتى يدخلون فما هو اشد منه وبطلوا دور الوكالات جميعاً وكل الفنادق التى تباع فيها البضايع مثل الكتان وغيره، ورسم ان لا يباع شي الا بدار وكالة السلطان التى بدار الملك وان تكون السمسرة للسلطان ونظروا في اوراق

١٣.ذكر تولية علي باشا الخادم
عفى الله عنه

قدم الى مصر يوم الخميس غرة صفر سنة ٩٦٦. فأقام بها واليا سنة واحدة، ثم توفى، ثالث الحجة سنة ٩٦٧[(١)]، ودفن بجوار القاضى بكار بن قتيبة[(٢)]، بالقرافة وكان وزيرا حاكما، محبا للعلماء، محسنا، بحيث انه لم يوجد فى خزانته سوى سبع دنانير ومن اللباس والتجملات شيء قليل. وكان كل شيء جاء له يفرقه على الفقراء وكان ينزل الى مصر متخفيا ويتصدق بالعشرة دنانير والماية، واكثر من ذلك. واتفق تاريخه عند مليك مقتدر، واقامت اهل مصر نائبا عنه القاضى قادرى افندى. قاضى مصر، الى ان يحضر الجواب من

(١) مدة ولايته: غرة صفر ٩٦٦/ ٣ ذو الحجة ٩٦٧ ـ ١٣ نوفمبر ١٥٥٩/ ٢٥ اغسطس ١٥٦٠م، يذكر الاسحاقى ص١٣٦، انه تولى امور مصر ١٧ شعبان ٩٦٦/ ٢٥ مايو ١٥٥٩م وهو الاصوب حيث ان اسكندر باشا عزل فى رجب ٩٦٦ باتفاق المصادر، فكيف يكون على باشا تولى ولاية مصر قبل عزل اسكندر باشا، وهذا الخطأ وقع فيه كل من أحمد شلبى، وصاحب التحفة، والصواب ما ذكره الاسحاقى.
(٢) بكار بن قتيبة (١٨٢/ ٢٧٠هـ/ ٧٩٨/ ٨٨٤م) هو بكار ابن قتيبة بن اسد ابو بكرة، من بنى الحارث بن كلدة الثقفى، قاض فقيه محدث، ولى القضاء بمصر للمتوكل العباس ٢٤٦هـ/ ٨٦٠م، اعتقله أحمد ابن طولون لامتناعه بخلع الموفق من ولاية العهد، فأقام بالسجن يقصده الناس ويروون عنه الحديث ويفتيهم، وهو باق على القضاء الى ان توفى فى سجنه بمصر. له كتب منها «الوثائق والعهود» فى الفقه، انظر الاعلام، جـ٢، ص٣٤.

الناس وفيما بايديهم. وضاق الوقت على العالم ولو مكنوا من الخروج لم يبق فى البلاد احد. واما الافرنج فكانت ترد اخبارهم من العدل والرافة وحسن المعاملة مالا يوصف وبلغت الدراهم السودا(*) عندهمماية درهم بدينار لكثرة ما وجدوه منها بالثغر وكونهم لا يتعاملون بها. ولما كان فى نهار يوم الثلثا السادس عشر من امشير(*) فى الجمعة الثانية من الصوم المقدس حدثت امطار

(*) الدراهم السوداء: دراهم من الفضة.

(*) ١١ فبراير بحسب التقويم الجوليانى.

الديار الرومية. فبعد خمسين يوما ورد الخبر بتولية مصطفى باشا الشهير بشاهين. فأرسل مسلمة على العادة.

١٤. ذكر تولية مصطفى باشا الشهير بشاهين عفى عنه

قدم الى مصر فى غرة ربيع اول سنة ٩٦٨. فأقام واليا بها ثلاث سنوات واربعة اشهر غايتها سنة ٩٧١[١]. وله من المآثر الحميدة بالقاهرة، الحمام الذى بسوق السلاح[٢] والدكاكين والبيت الذى اخذه يوسف كتخدا عزبان وعمله وكالة سنة ٩٧١. وكان جبارا ظالما سفاكا للدماء. ولما وردت أخباره بالظلم والجور للرعية أرسل السلطان له العزلان.

(١) مدة ولايته: غرة ربيع أول ٩٦٨/ ٩٧١ - ٢٠ نوفمبر ١٥٦٠/ ١٥٦٣، يذكر صاحب التحفة انه استمر ٢٠ جماد الآخر ٩٧١/ ٤ فبراير ١٥٦٤م، بينما يذكر الاسحاقى انه استمر الى غاية جماد الأخر ٩٧١هـ/ ١٣ فبراير ١٥٦٤م.

(٢) حمام مصطفى باشا الشهير بشاهين: اصبح هذا الحمام فى القرن التاسع عشر، يعرف بحمام سوق السلاح للرجال، وكان يؤمه الرجال والنساء، واصبح فى القرن التاسع عشر «جار فى ملك يوسف أصيل، ومحمود بيك العطار والشيخ مصطفى عرفات» على مبارك المصدر السابق، جـ٢ ص١٠٦.

عظيمه واستمرت ليلة الاربعا ويوم الاربعا ونصف ليلة الخميس وفي النصف الثاني خرجت ريح عظيمة ولم يزل الى الظهر من يوم الخميس وهدمت مواضع كثيرة وكثيرون ماتوا تحت الردم وكانت حادثة عجيبة لم يشاهد مثلها. ثم بعد ذلك خرج الامر بجبايه الدياريه التى كان البطرك يستأديها من الكراسى والكنايس وندب فى كل عمل واحد لذلك. وكتب الى والى مصر والقاهرة

---

١٥. ذكر تولية الوزير على باشا الصوفى

المعروف بكيلون

قدم الى مصر فى سنة ٩٧١. وعزل فى سنة ٩٧٣[١]. وكانت مدته سنتين. وهو اول من أوقع الفساد فى المعاملة، لانه امر دار الضرب[٢] بالمقاطعة تحت خلط النحاس الزايد على القانون. وصار امنا دار الضرب يخلطون فى المائة درهم ثلاثة درهما نحاسا، فثقل الامر، وقامت الرعايا، وكثرت اللصوص والمفسدون. فلما وصل خبره الى الديار الرومية أتى الأمر بعزلاته.

١٦. ذكر ولاية محمود باشا المقتول

قدم الى مصر فى غرة شوال سنة ٩٧٣، فاستمر واليا بها الى ان قتل فى عشرين جماد آخر سنة ٩٧٤[٣]، وكانت مدة ولايته سنة وسبعة أشهر وأربعة عشر يوما، وكان مقداما،

(١) مدة ولايته: ٩٧١/ ٩٧٣هـ ـ ١٥٦٤/ ١٥٦٦م يذكر صاحب التحفة، ص١٦٨، انه قدم فى غرة رجب ٩٧١/ سلخ رمضان ٩٧٣هـ ـ ١٤ فبراير ١٥٦٤/ ٢٠ ابريل ١٥٥٦م. ويتفق معه فى ذلك الاسحاقى، ص١٣٦.

(٢) بالأصل «الدرب» وهذا الخطأ فى كل الكتاب عدا مرة واحدة كتبت فيها هذه الكلمة «الضرب» وسوف اشير اليها فى موضعها، اما فيما عدا ذلك فسوف اكتب هذه الكلمة بصورتها الصحيحة دون الاشارة.

(٣) مدة ولايته: غرة شوال ٩٧٣/ ٢٠ جماد آخر ٩٧٤هـ ـ ١٠ مايو ١٥٦٦/ ٢ يناير ١٥٦٧م.

بجباية ما يخصهما فاحضر والى مصر قسا [قسا] الكنايس وقال لهم اعطونا ما كان ياخذه البطرك منكم فقالوا ما جرت عادة القاهرة ومصر ان يوخذ منها شي قال فاكتبوا لنا حججا بانكم ما قمتم قط للبطرك بشى فابتدر واحد منهم وقال يا مولاى نحضر تعليق البطرك ومن يضمن باسمه شياً قام به. قال واين تعليق البطرك قالوا هو عند بن صدقه، يعنون المقدم ذكره فاحضره وقال اريد

(*) عاصفه قوية تهدم البيوت وتقتل الناس وتفسد الزروع

شجاعا، ظالما، محبا لجميع الأموال. وكان لا يلبس هو وجماعته الا الديباج. وجميع اوانيه من الفضة والذهب[1]، وفي زمنه عين الباشا ابراهيم بيك لعمارة العين التى بجبل عرفات. والسبب في قتله، ان في يوم الأربع عشرين جماد آخر سنة ٩٧٤[2] ركب في موكب عظيم لقطع جسر أبي المنجا[3] فلما وصل الى المحل المعروف بقصر البدوية، في الغيط الذى بطريق بولاق أتته رصاصة من داخل الغيط في كتفه الشمال، فوقع من على الجواد، فاحتملته جماعته، ووضعوه في التخت ودخلوا الغيط يفتشون فوجدوا أربع[4] رصاصات وبندقية، ولم يروا احدا في القصر، وسالوا الخدمة عن الضارب، فلم يقروا على احد، فقتلوا منهم اثنين ظلما.

ثم انهم غسلوه وكفنوه ودفنوه في جامعة الذى بالرميله، الذى كان انشأه قبل موته بسنة

(١) بالأصل الذهب والفضة، ووضعت عليها علامة التقديم والتأخير، سنشير بعد ذلك لمثل هذه العبارة بكلمتى «قدم واخر».
(٢) ٢ يناير ١٥٦٧م.
(٣) جسر أبى المنجا: المقصود فتح قناطر أبى المنجا التى انشأها الظاهر بيبرس على بحر أبى المنجا سنة ٦٦٥هـ ـ ١٢٦٦/ ١٢٦٧م، وتقع غربى ناحية ميت نما بمركز قليوب حاليا، وهى الآن تحت ادارة حفظ الآثار العربية، النجوم الزاهرة، جـ٧، ص١٤٨، هامش ٤٨.
(٤) بالأصل «اربعة».

تعليق البطرك فاحضره لوقته وكان تعليقاً قديماً وفيه اشيا عتيقة قبل الغلا واشياً ما كان البطرك يستأديها بل كان ذكرها في التعليق حفظاً لمبلغها. فنقلوه كهيئته وسيروا نسخته الى السلطان فخرج امره الى الولاه باستيدا ما تضمنه فصار كل منهم يقصد الاستظهار والتبرير على الاخر فيستخرج المبلغ مضاعفاً. وكانت هذه الايام كلها ما روى في العمر اصعب منها. وندب لا ستخراج مال الدياريه

- -

واحدة، المعروف بالمحمودية[1] وعملوا تاريخ موته: قبل أرخ لقتله. قلت: تاريخه عظة ٩٧٥[2]. ثم ان الجند اجتمعوا على من يولوه محله نيابة الى حين يعود الخبر من الديار الرومية. فولوا شيخي افندى.، ومحمد بيك دفتردار فضبط الولاية خمسين يوما الى ان ورد عليهم الخبر بتولية الديار المصرية ومحافظتها الى سنان باشا، الشهير نسبه الكريم، بقجاسنان.

١٧.ذكر تولية قجا[3] سنان باشا

قدم الى مصر في رابع عشرين شوال سنة ٩٧٥، وهو اول نياب السلطان سليم ابن السلطان سليمان[4]. فاستمر واليا الى ان جاءه العزلان سنة ٩٧٦[5]. فكانت مدته تسعة أشهر. ثم ورد عليه خبر الأمر الشريف بالتوجيه الى فتح اليمن، فاستصحب معه من مصر

(١) جامع المحمودية: يقع في الشارع الذى سمي باسمه، والذى يبتدىء في بنهاية شارع الحجر بجوار زاوية الشيخ حسن الرومى وينتهي الى المنشية، وبه قبر منشئه محمود باشا، وتعلوه قبة مرتفعة انظر: على مبارك، المصدر السابق، جـ٢، ص١٠٤.

(٢) ١٥٦٧م.

(٣) قجا، قوجه: تعني العظيم.

(٤) تول السلطنة: ١٥٦٦/ ١٥٧٤م.

(٥) مدة ولايته: ٢٤ شوال ٩٧٥/ ٩٧٦هـ ـ ٢٣ ابريل ١٥٦٧/ ١٥٦٨م، يذكر صاحب التحفة انه تولى مصر ٢٤ شعبان ٩٧٥/ ٤ جماد اول ٩٧٦هـ ـ ٢٣ فبراير ١٥٦٧/ ٢٥ اكتوبر ١٥٦٨م.

والتصقيع وسدس ثمن تمرة البساتين بالوجه القبلي لانهم كانوا اوجبوا ذلك في جميع ديار مصر ونقط [ضريبة] النخل ايضا عن كل نخله خمسة دراهم خارجا عن الخراج الجارى به العادة. وكان امير يقال له المكرم بن اللمطي وكان رجلا مغربياً وابغض ما اليه النصارى، فوصل الى مصر وامسك بها جماعة ممن هو منهم بحبال من النصارى واليهود وعلق عليهم العقوبة والهوان الى

حمزة[1] بيك وماماى بيك، وابن الخبير، وغيرهم من اكابر مصر. وكانوا اربعة وعشرين سنجقا[2] واثنين وعشرين الفا من العساكر واصرف جميع جوامكهم[3] من خزنته، وجميع مصارفهم ثلاثة شهور، ولم يحسبه على السلطنة ولا الدرهم الفرد. واصرف عليهم الجوامك والمركوب وما احتاجوه اليه من زاد وسلاح. واوكب من مصر فى رابع شوال سنة ٩٧٦[4]. وسار[5] الجيش برا وبحرا الى اليمن، وملك القلاع، والمدن والقرى. وعاد منصورا مؤيدا الى الديار الرومية، والعسكر الى مصر بالسلامة.

١٨. ذكر تولية اسكندر باشا جركس
عفى عنه

قدم الى مصر[6] في يوم الخميس رابع عشر جمادى آخر سنة ٩٧٦، فاستمر واليا الى ان

---

(١) بالاصل «عزا بيك» والتصويب من التحفة، ص١٧٠.

(٢) صنجق: لفظ تركي، صحة كتابته سنجاق، وتعنى العلم، ثم اطلق اللفظ على القسم الادارى كما اصبح يطلق على حاكم هذا القسم، ثم اصبحت السنجقية، رتبة عسكرية عليا، يتقلدها كبار الامراء المماليك، شفيق غربال، المصدر السابق، ص١٤، عبدالقادر طليمات، المصدر السابق،ص٣٤٧.

(٣) جوامك: مفردها جامكية، وتعنى الراتب.

(٤) ٢٢ مارس ١٥٦٩م.

(٥) بالاصل «وصار».

(٦) بالأصل يوجد حرف «في» بعد الى.

ان اخذ خطوطهم بما مبلغه احد عشر الف دينار
كل منهم على قدر ما قطع عليه وسيرها على
كتابه ا لى السلطان فاكبر ذلك وانكره ورسم بان
تعاد الخطوط على اربابها وكانت هذه نادره لم يجر
مثلها في هذه الايام فاعيدت الخطوط وتوجه ابن
اللمطي الى الصعيد لجباية التصقيع والدياريه
وسدس ثمن الثمار ونقط النخل عن كل نخله
قايمة خمسة دراهم وكان ذلك في جميع الديار

عزل فى ٢٠ محرم سنة ٩٧٩[١]. وكانت مدة ولايته سنتين ونصف، واحد عشر يوما. وكان ظالما جبارا، عارض الفقرا فى ارزاقهم واموالهم، ووظايفهم[٢]، وما فى ايديهم، وزاد ظلمه وجوره. فاتصلت اخباره الى الدولة العلية، فارسل مولانا السلطان بعزلاته، فدعوا عله فى الجامع الازهر فوق المواذن، والله اعلم.

١٩.ذكر تولية سنان باشا قجا

التولية الثانية

قدم الى مصر من الديار الرومية بعد رجوعه من سفرة اليمن، فى رابع عشر جماد الآخر سنة ٩٧٩، فاستمر واليا بها الى ان عزل فى شهر جماد آخر سنة ٩٨٠[٣]، وكانت مدة

(١) مدة ولايته: ١٤ جماد آخر ٩٧٦/ ٢٠ محرم ٩٧٩هـ ٤ ديسمبر ١٥٦٨/ ١٤ يونية ١٥٧١م.

(٢) بالأصل «ووضايفهم».

(٣) مدة ولايته: ١٤ جماد آخر ٩٧٩/ جماد آخر ٩٨٠هـ ـ ٣ نوفمبر ١٥٧١/ اكتوبر ١٥٧٢م، يذكر صاحب التحفة انه تولى مصر ١٠ مصر ٩٧٩/ غاية الحجة سنة ٩٨٠هـ ـ يونية ١٥٧١/ ٢ مايو ١٥٧٣م.

المصرية واستمر الحال على ذلك وزادت الشدة على الناس حتى ان جماعة شنقوا انفسهم (*) وجماعة خرجوا من الايمان ولم يفدهم ذلك.

(*) انتحار الناس بسبب المعيشة الصعبة.

ثم لما كان في جمعة الفصح المقدس وكان ذلك اخر برمهات(*) ورد على الارض من الجراد شئ لم يرقط في الديار المصرية مثله حتى انه ملأ الفضاء وستر السماء ورعى [أكل] كل خضرا وخاف الناس من ذلك وعلموا انها ضربة من الله

(*) يمتد برمهات مابين ٧ مارس و٥ ابريل بحسب التقويم الجولياني.

ولايته سنة واحدة وايام. وله من المآثر الحميدة الجامع الذى ببولاق(١) والحمام والمدرسة التى بالجامع الأزهر التى بالصنادقية والسوق الذى بسكندرية. وله العمارة فى الشام وغيرها، تكايا ومساجد وحمامين، والبنايات العامرة واخباره معلومة بالخيرات. وكان ايام ولايته رخا وسخا. وكان الأردب الحنطة بعشرة انصاف، وجميع القوت رخيص، والله اعلم.

٢٠.ذكر تولية حسين باشا
عفى الله عنه

قدم الى مصر يوم الاثنين غرة محرم الحرام سنة ٩٨١، فأقام بها واليا الى رمضان سنة ٩٨٢(٢) . فكانت مدة ولايته سنة وتسعة أشهر، فلما توفى السلطان سليم بن سليمان، وتولى اخوه السلطان مراد(٣) وهو الثالث عشر من آل عثمان عزل حسين باشا وفوض ولاية مصر الى مسيح باشا.

(١) جامع سنان باشا: يوجد هذا الجامع ببولاق قرب شاطىء النيل، وعين له خطيبا واماما، وستة مؤذنين وبوابا، وفراشا، ووقادا، ومسبلا وغيرهم وجعل للجميع مرتبات شهرية، انظر، على مبارك المصدر السابق، جـ٥، ص١٩ ـ ٢٠.
(٢) مدة ولايته: غرة محرم ٩٨١/ رمضان ٩٨٢هـ ـ ٣ مايو ١٥٧٣/ ديسمبر ١٥٧٤م.
(٣) تولى السلطنة: ١٥٧٤/ ١٥٩٥م.

لتواتر الظلم. واغلى كل شئ حتى كاد يعدم. وفى ليلة الاثنين الذى هو صبيحة حد الحدود الموافق للحادى عشر من برموده(*) جات ريح سوداً ظن الناس انها القيامة قد قامت وظنوا انه لا يبقى على الارض جدار قايم ووقع من النخل شى كثير وظهرت نيران فى الجو وكانت ليلة عظيمة لم ينم احد فيها ولما اصبحوا سكن ذلك الهيج والاضطراب ووجدوا بعض المواضع وقعت وبعضها

(*) ١١ برموده = ٦ أبريل (جولياني).

٢١.ذكر تولية مسيح باشا

عفى الله عنه

قدم الى مصرى فى سنة ٩٨٢، فاقام بها واليا خمس سنوات، الى ان عزل فى خامس عشر جمادى اول سنة ٩٨٨[١]. وكان حاكما عالما بأحيوال السياسة سفاكا للدماء، لا يقبل الرشوة ولا يعفو عن المفسدين، كل من وقع فى يده من المفسدين قتله، ولا يقبل فيه شفاعة احد، ولو يعطوه الف دينار. وله من المآثر الحميدة مسجدة[٢] الذى بباب القرافة والصهريج والكتاب، واشترط النظر (فى ذلك)[٣] الى البدر القرافى[٤] وذريته الى ان يرث الله الارض ومن عليها، وهو خير الوارثين، وهو باقى الى يومنا هذا على حكم الشرط. ثم عزل وتولى بعده حسن باشا.

(١) مدة ولايته: ٩٨٢ ـ ١٥ جماد اول ٩٨٨هـ/ ١٥٧٥/ ٢٨ يونية ١٥٨٠م.
(٢) مسجد مسيح: يعرف بجامع المسيحية بعرب يسار، ولا يزال مقام الشعائر.
(٣) الاضافة من التحفة ص١٧١، لتوضيح المعنى.
(٤) بالاصل يوجد «عليه» حذفتها ليستقيم المعنى.
البدر القرافى: يذكر على مبارك ان اسمه نور الدين القرافى، وكان احد علماء عصره وكان مسيح باشا يعتقد فيه اعتقادا زائد، واختص بصحبته، وعمر له الجامع، وجعل نظر اوقافه له ثم لذريته من بعده.

ســالمه. وبقى الطلب والمصـادره على حـالهـا والاساقفة في التوكيل والضرب ونصارى البلاد كـذلك. ودخلت سنة سـبع وثلاثين وتسع مـايه وانتهى النيل فى هذه السنة المباركة الى اصبعين من سبعة عشر ذراعا وهى سنة سبع وثلاثين(*) وتسع مايه الموافقه لسنة سبع عشره وستمايه للهجرة الاسـلامـيـه(*) وبقيت الاسعار على حالها تاخذ وتعطى [و] القمح العال الغايه بماية وخمسين

(*)٩٣٧ش = ٩٣٧ق = ٦١٧هـ = ١٢٢٠م.

(*) من الملاحظ هنا استخدام التاريخ الهجرى إلى جانب التاريخ القبطى.

---

٢٢. ذكر تولية حسن باشا الخادم(١)
عفى الله عنه

قدم الى مصر فى عاشر جماد آخر سنة ٩٨٨. وكان حاكما محبا للرشوة. فاستمر واليا بها الى سـنة ٩٩٠(٢). وكانت مدة ولايته سنة وعشرة أشهر. وفى زمنه البس اليهود الطراطير الحمر، والبس النصارى البرانيط السود. وفى ايامه نزل السيل ببدر وحنين، فأغرق خلقا كثيرا من الحجاج، وما نجا الا من طال عمره، وقلع الزرع والبساتين ثم جاءه العزلان، وتولية ابراهيم باشا.

٢٣. ذكر تولية الوزير ابراهيم باشا
فاتح قلعة قنجة(٣)

قدم الى مصر سنة ٩٩١، فاستمر واليا الى عاشر شوال سنة ٩٣٢(٤)، وكانت مدة ولايته

(١) بالاصل «حسين باشا الخادم» وهذا تصحيف من الناسخ، حيث ذكره بعد ذلك «حسن» وهو الصحيح، انظر كذلك، التحفة ص١٧١، الاسحاقى، المصدر السابق، ص١٣٨.
(٢) مدة ولايته: ١٠ جماد آخر ٩٨٨/ ٩٩٠ ـ ٢٣ يولية ١٥٨٠/ ١٥٨٢م.
(٣) بالاصل يمكن قراءتها «طنجة» وهذا خطأ، وصحتها «قنجة»، وقنديا وهى قلعة جزيرة كريت.
(٤) مدة ولايته: ٩٩١/ ١٠ شوال ٩٩٣ ـ ١٥٨٣/ ٥ اكتوبر ٥ ١٥٨م.

دينار الماية اردب، والشعير والفول بماية دينار المااية اردب واما الحمص فكان قليلا بدينارين الاردب. وروى في البلاد اكثر مما روى في العام الماضي وكانت التقاوى قد نفذت لاجل حاجة الناس وخوفهم فامر بان يوخذ غلال التجار ويقوى بها البلاد ويكتب على الاجناد ونوابهم حجج بالثمن الى زمن الميسور، ففعلوا ذلك في القاهرة ومصر وجميع الديار المصرية حتى صاروا يدخلون الى

سنة وخمسة اشهر وثمانية عشر يوما. ولما قدم مصر عمل حساب حسن باشا وما تأداه من المسلمين، فطلع[1] عليه من الغلال ماية الف واثنان واربعون أردبا، خلاف النقود. فعرض الى الأعتاب العلية في شأن ذلك. ثم ان ابراهيم باشا سافر الى الصعيد، ووصل الى معدن (مناجم) الزمرد، واستخرج منه شيئا كثيرا، ولما رجع من الصعيد، صعد الى جبل الجيوشي، وفتح كنزا بمعرفة منجم ماهر، فأراد الدخول، فلما دخل الكنز، رأى المنجم في العسكر عين الغدر، فزعق على الباشا: أخرج والا انقفل الكنز عليك. فخرج مسرعا، وبيده دينارين فقط، وهو متعجب من تلك الدنانير، ومن حمرة ذهبهم، وكبرهم، ثم انه طلب المنجم فلم يجده. ثم انه اوقد عليه النار، فلم يفده شيئا، ولم يتيسر له فتح ذلك، ورجع خايبا. ثم انه طلب لنفسه العزلان، وطلب لسنان أفندى، دفتردار مصر سابقا، ولاية مصر. فأرسل حضرة مولانا السلطان له العزلان، ولسنان افندى باشوية مصر وان سنان افندى هذا كان دفتدار مصر، لأن الدفتدارية[2] كانت تأتي من الديار العلية. وكان يأتي بها اغا تحت الباشوية والله اعلم.

(١) بالأصل «قطع» وصحتها فطلع، التحفة، ص١٧٢.

(٢) الدفتدارية: كان صاحب هذه الوظيفة له الاشراف العام على مالية مصر، وقد حلت وظيفة الدفتدارية محل وظيفة ناظر الأموال. وكان الدفتدار في بداية العصر العثماني، يعين من بين الشخصيات العثمانية، ولما ازداد نفوذ الامراء المماليك، وسيطروا على أجهزة الادارة، اصبحت هذه الوظيفة تشغل من بين صفوفهم، وكان يصدر مرسوم سلطاني (خط شريف)، بتعيين صاحب هذا المنصب.
ـ دكتورة ليلى عبداللطيف، المصدر السابق، ص٢٩٨ ـ ٣٠١.

بيت الواحد يجدون فيه قمحا ولو ويبه فياخذونه ويتركونه بلا شي. ولما زرعوا ارسل الله فى اواخر بابه(*) وهتور(*) جرادا لم يرقط فى الديار المصريه مثله من كثرته وعظمه وكان احمر وقد كان الذى جا فى السنة الخارجة [الخراجية] اصفر فرعى اكثر ما زرع وطلع وخصوصا المواضع التى حول المدينتين [القاهرة ومصر عتيقة] والفيوم ثم ان السعر تحرك فى طوبه(*) فبلغ القمح مايه درهم

(*) بابه: من ٨ اكتوبر إلى ٦ نوفمبر بحسب التقويم الجولياني.
(*) هتور= من ٧ نوفمبر إلى ٦ ديسمبر.
(*)طوبه: من ٦ يناير إلى ٤ فبراير بحسب التقويم الجولياني.

٢٤.ذكر تولية سنان باشا دفتدار مصر سابقا

قدم الى مصر من العادلية، فى ثالث عشر شوال سنة ٩٩٣، واستمر واليا بها سنة وستة اشهر وعشرين يوما. ثم عزل فى رابع عشر ربيع آخر سنة ٩٩٤[1]. ثم ورد التفتيش على الأموال السلطانية. وقدرها خزنتان ونصف خزينة، والذى كان اخذها سنان باشا لما توجه الى اليمن، وارسل صورة دفتر يتضمن، ان خزينة مصر فقد منها مايتا الف دينار، ولم يعرف لهم محل. ثم ان اكابر مصر، لما سمعوا هذا الخبر قتلوا من جماعته بعض ناس، ونزلوه فى بيت صالح بيك الذى بقرب سوق السلاح فلما ورد ركاب أويسى باشا الى الديار المصرية، ارسل سنان باشا الى الديار الرومية مع جماعة من العربان، فأعرض اهل مصر الى الاعتاب العلية[2] بذلك، فلم يجدوه فى الديار الرومية.

٢٥.ذكر تولية أويس باشا
عفى الله عنه

قدم الى مصر فى ثانى عشر جماد الثانى سنة ٩٩٤، واستمر واليا بها خمس سنوات وخمسة اشهر، الى ان توفى فى رجب سنة ٩٩٩[3]، ودفن بجوار امام الليث بن سعد.

(١) مدة ولايته: ١٣ شوال ٩٩٣/ ١٤ ربيع آخر ٩٩٤هـ ـ ٨ اكتوبر ١٥٨٥/ ٤ ابريل ١٥٨٦م.
(٢) كررت «العلية» بالأصل.
(٣) مدة ولايته: ١٢ جماد اخر ٩٤٤/ رجب ٩٩٩هـ ـ ٣١ مايو ١٥٨٦/ ابريل ١٥٩١م.

الاردب والشعير والفول ستين درهم الاردب وقلت الغله من ايدى الناس وكثر القحط وازداد الفقرا من الناس والمساكين والسايلون على الابواب. واما امر العدو فى طول هذه المدة فكان على حال واحد تارة يخرج اسطول المسلمين فى البحر فتصادف لهم مراكب زاد ونجده [للصليبيين] فياخذها وتارة يخرجون هم الى بعض الثغور والاطراف المصرية او الشامية فينهبون وياسرون

واول فتنة حلت فى مصر من الاسباهية[1] كانت فى زمنه. فانهم هجموا عليه، وهو فى الديوان. ففر هاربا ودخل الى الحريم. فنهبوا ما وجدوه، ثم خرجوا. فقتلوا كاتخدا الجاوشيه. وطلبوا من قاضى العسكر[2] ان يحضر لهم القاضى على بن الفارقى، والقاضى على شمس الدين، شهود الديوان[3] فأحضرهما، فلما حضر، قتلوهما. وسبب ذلك ان أويس باشا قد

(١) الأسباهية: كانت الأسباهية فى ذلك العصر، تتكون من ثلاثة اوجاقات (فرق)، من اوجاقات الحامية العثمانية هى: اوجاق جمليان، اوجاق تفكجيان، اوجاق الجراكسة. وكانت مهمة جند الساهية الاساسية، حفظ الامن فى الريف وحماية الطرق، ولكنهم استغلوا نفوذهم فى الريف وفرضوا لانفسهم كثيرا من الامتيازات والضرائب غير الشرعية التى أرهقت السكان. دكتور عبدالرحيم عبدالرحمن، الريف المصرى، ص٥٣ ـ ٦٣.

(٢) قاضى العسكر: كان يعرف باسم «قاضى عكسر افندى» فقد اهتم العثمانيون اهتماما كبيرا بالقضاء، وكان قاضى قضاةمصر يحتل المركز الرابع بين قضاة السلطنة، وكانت مناصب قضاة العسكر فى الدولة العثمانية مناصب علمية، حيث وضعت شروطا قاسية لوصول العالم الى احد هذه المناصب الكبرى، وقد تمتع قاضى العسكر فى مصر بمكانة كبيرة، وكان السلطان يخاطبه فى فرماناته بلقب «اقضى قضاة المسلمين. اولى ولاة الموحدين.. رافع اعلام الشريعة والدين»وغير ذلك من القاب التفخيم والتعظيم، كما تنعته الوثائق بألقاب «شيخ مشايخ الاسلام، ملك العلماء الاعلام...» وكان قاضى عسكر افندى، هو رئيس هيئة القضاء فى مصر كلها. دكتورة ليلى عبداللطيف، المصدر السابق، ص٢٤٨ ـ ٢٥١، دكتور عبدالرحيم عبدالرحمن، القضاء فى مصر العثمانية، ضمن كتاب بحوث فى التاريخ الحديث، طبع جامعة عين شمس ١٩٧٦، ص ١٧١ ـ ١٨٧.

(٣) انظر محمد بن أبى السرور البكرى، كشف الكربة، ص٣١٦، محمد البرلسى، بلوغ الارب ص٢٨٨.

ويرجعون. واشتدت البلية من الغلا والخوف والظلم وبلغ الزيت الطيب ثلثة دراهم الرطل. والكنيسة بلا من يسوسها ولا من يدبرها. ثم تزيد السعر ايضاً الى ان بلغ القمح ثلثة دنانير الاردب ولم يزل كذلك الى عيد الفصح فانحل واستبشر الناس، ولم يزل ينحط إلى أن بلغ دينار واحد والاردب القمح والشعير والفول بنصف دينار الاردب. ووردت الاخبار بخروج ملك من الشرق

كان افرط في الظلم، فاتهموا هؤلاء المقتولين انهم هم الذين يغرونه. ثم ان العسكر مدوا ايديهم الى اموال الرعايا، واخربوا الاسواق، والحمامات، وهجموا على بعض بيوت أعيان مصر، فنهبوها، وقتلوا اصحابها. فاجتمع قاضي العسكر، والدفتردار، واعيان العسكر، وحذروهم فلم يفد النصح ولا التحذير. وزاد امرهم وحجرهم على الباشا وفي كل يوم يزيدون طغيانا، فلما رأى اويس باشا هذا الأمر وحجرهم عليه أعرض أمره على الاعتاب العلية، فولى حضرة مولانا السلطان، أحمد باشا الحافظ، والله أعلم.

٢٦. ذكر تولية أحمد باشا الحافظ عفى الله عنه

قدم الى مصر سادس عشرين رمضان سنة ٩٩٩، فاستمر واليا بها أربع سنوات وعزله في رمضان سنة ١٠٠٣[١]. وكانت أيامه ربيع الفقها والعلماء، والرعايا، لأن في زمنه استأصل المفسدين من العربان. وعين تجريدة لعربان غزالة[٢]، وقتل منهم في هذه الواقعة خلق كثير.

---

(١) مدة ولايته: ٢٦ رمضان ٩٩٩/ رمضان ١٠٠٣هـ ـ ١٢ يولية ١٥٩١/ مايو ١٥٩٥م.

(٢) عربان غزالة: وكانوا يعرفون كذلك باسم عربان خبيرى. وكانت اماكن اقامة هؤلاء العربان في ذلك العصر ضواحي الجيزة والمناطق القاحلة بجوار الاهرام، وحتى منطقة المعادى، حيث كانت لهم معديات نيلية بين شرق النيل وغربة تربط بين مناطق نفوذهم.

يقال له ملك الصين [چان كيزخان] ومعه خلق من الاتراك القطا [التتار] والقفجق وانه كسر خوارزم شاه ملك الفرس وفتح خوارزم وبخارا والمراغه ومدناً كثيرة من بلاد العجم وسبى اهلها ووصل الى الكرج فكسرهم وجا الى ارض اربل وخافت البلاد منه لانه ذكر ان معه آلافاجملة من الاجناد والخلايقماية الف اويزيدون. ووصل الملك الاشرف بن الملك العادل صاحب خلاط وميا

ونهبت اموالهم، ونساؤهم، وأولادهم، وابيعوا في الرميلة، حتى يبعت البنت (بدينار)[1] والولد بدينارين الواحد. وله من المآثر الحميدة، السحابة الاحمدية (قافله حمل الماء) التي لحمل الماء، والمنقطعين من الحجاج في كل سنة على الدوام، واوقف عليها الوكالتين، والدكاكين، والمنازل المشهورة ببولاق. وفي ايامه جاء السيل من باب النصر مثل امواج البحر، فدق الأموات من القبور وهدم البيوت والقصور. ولم يكن السيل الا لباب الوزير، وكان يوما مشهودا. وهو آخر وزير تولى على مدة السلطان مراد بن محمد. ولما جلس السلطان محمد بن مراد[2] أنعم على قرط باشا بمحافظة مصر القاهرة.

٢٧. ذكر تولية قرط باشا أول نياب السلطان محمد

قدم الى مصر في ثاني رمضان سنة ١٠٠٣، فاقام واليا بها عشرة اشهر. وعزل في سابع رجب سنة ١٠٠٤[3]. وكان وزيرا حكيما، كريم الانعام على الامراء، والفقراء. وكان سليم الصدر. ومما اتفق له، ان في يوم من بعض الايام كان جالسا في مجلس، يشرف على عرب

(١) بالأصل «حتى بيت البنت» ولفظ بدينار اضيف لتوضيح المعنى.
(٢) تولي السلطنة: ١٥٩٥/ ١٦٠٣م.
(٣) مدة ولايته: ١١ مايو ١٥٩٥/ ٨ مارس ١٥٩٦م.

فارقين وحران وسنجار وما مع ذلك الى ارض الموصل. وقصد العدو المذكور [چان كيزخان] هو [و] صاحب اربل فوجدوه قد وصل الى شهرزور فلم يلقهم بل رجع على اثره من غير قتال ولا كسرة. فرجع الملك الاشرف الى حران وسار اليه اخوه الملك المعظم صاحب الشام واجتمعا هناك وجمعا العساكر وجيشا الجيوش وقصدا مصر لنصرة اخيهما الملك الكامل على عدوه الذين هم

اليسار(١)، رأى رجلا ينكح حمارة في خربة، فأمر بعض الجوخدارية(٢) ان يتلطف به، ويحضره، فأحضره الجوخدار، بحيث انه لم يزعجه، ولم يخبره بما رأى الوزير. فلما رآه الوزير، قال له: انت أعزب ام متزوج. فقال: بل اعزب يا مولانا الوزير. فقال له الوزير: لم لا تتزوج؟ فقال: ليس لي من المال ما اتزوج به. فقال له الوزير، فلأى شيء تنكح. فعرف الرجل القضية، فقال بقلب اقوى من الحجر، يا مولانا الوزير، غلبت على الشهوة، والحرارة، وخفت على نفسى ان يغلبى الشيطان، فأتعاطى شيئا يوجب الحد، فاطفأتها في الحمارة. فضحك الوزير، وقال، اذا أنا زوجتك تتوب الى الله عن نكح الحمير، فقال: نعم أيها الوزير. فأمر الوزير اغا الحريم(٣) أن يأتي(٤) له بجارية. فأحضر الجارية، وعتقها، وكتب له عليها، وأمر له ببيت، وفرشه مما يحتاز الأمر اليه، وجعل له علوفة(٥) تكفيه. وقال: هل بقيت تنكح الحمير بعد اليوم. فقال: ما شاء الله، يا مولانا الأمير، بل الوزير، وهل توكل الميتة الا عند الاضطرار. فضحك منه. وجاءه العزلان بعد ذلك.

(١) منطقة عرب اليسار هي المنطقة الواقعة الى الجنوب الشرقي من القلعة.
(٢) الجوخدارية: اعضاء من أوجاق الانكشارية كانوا يقومون بما يشبه أعمال الجاسوسية على النزعات الاجرامية لدى السكان، انظر، المجتمع الاسلامي والغرب، الترجمة العربية، جـ٢، ص١٨٨.
(٣) اغا الحريم: الشخص المسئول عن جناح الحريم بقصر الباشا.
(٤) بالأصل «يأتيه».
(٥) علوفة: راتب نقدى يصرف من الخزينة، أو ما يعرف ببدل تعيين سواء للأشخاص، أو الخيول.

الافرنج ملاك دمياط. وكانت الافرنج قد وصلت اليهم ايضا نجده من داخل البحر فجمعوا وحشدوا وخرجوا من دمياط براً وبحراً متمهلين متنقلين من منزلة الى منزلة الى ان وصلوا قبالة منزلة المسلمين على رأس بحر اشموم من الشمال وبقي البحر فاصلا بينهم، وانزعجت البلاد لخروجهم وسير السلطان بسفر المسلمين للخروج للقايهم فجمعهم الولاه وقرروا على كل سوق جماعة من الرجال

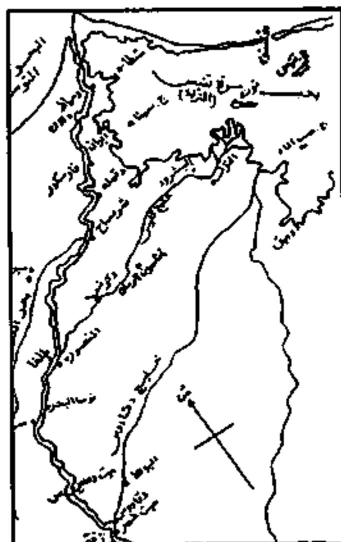

٢٨.ذكر تولية محمد باشا الشريف
عفى الله عنه

قدم الى مصر ثاني شوال سنة ١٠٠٤، فاستمر واليا بها الى ان عزل سنة ١٠٠٦(١) وكانت مدة ولايته سنتين وشهرا. ولما(٢) ورد الى مصر كانت العساكر فى طغيانهم الاول، فلم يقع للوزير المذكور راحة مدة ولايته فمما اتفق في زمنه، انه كان يوما في البرسيم بالجيزة(٣)، ينظر الى خيله، ولما رجع(٤) الى مصر القاهرة، قامت عليه الاسباهية في باب الوزير. وضربوا عليه بالمكاحل، فتفرقت أتباعه، وبقي الوزير وحده. فجعل يلاطف العسكر، ويقول لهم: ما مرادكم. فقالوا له: مرادنا تقتل لنا محمد كتخدا الشاويشية، ووالى مصر(٥)، ومراد بيك،

(١) مدة ولايته: ٣٠ مايو ١٥٩٦/ يولية ١٥٩٨م.

(٢) بالأصل حرف «ان» وعليه شطب.

(٣) برسيم الجيزة: هي الأراضي التي كانت تعرف باسم «اوتلاق» وتزرع برسيما لعلف خيول الباشا، وكانت ضمن اراضي ولاية الجيزة.

(٤) كرر اللفظ بالأصل.

(٥) والى مصر: الشخص المسؤل آنذاك عن الأمن بالقاهرة، وقد قسمت العاصمة في ذلك العصر الى ثلاث مناطق (القاهرة، بولاق، مصر عتيقة)، عين لكل منها «والي» (صوباشي) وقسمت كل منطقةالى عدة ادراك، يقوم بحراسة كل درك منها جماعة من الخفراء الذين يتبعون والى المنطقة، وكانت المهمة الموكولة بالوالي وأتباعه القبض على المجرمين، وقاطعي الطرق وتسليمهم لعساكر الجاويشية لايداعهم بسجن الوالي، لحين صدور الأحكام بشأنهم، وكان لوالي القاهرة الرياسة والزعامة على زميليه، والى بولاق ووالي مصر عتيقة، عراقي يوسف المصدر السابق، ص٢٠٢ ـ ٢٠٤.

ينفقون فيهم ويخرجونهم، وجبوا اكثر ذلك وسيروا عدة لها كثرة ومبغة(*). وفي اثنا ذلك سير السلطان الامير حسام الدين يونس والى الاسكندرية الى القاهرة ومصر لاخراج من بهما قاطبة [للقتال] وسير الى كل عمل [أقليم] اميراً يفعل فيه كذلك وخرج عامة الناس واكثرهم حتى لم يبق الا شيخ فان او صبى لم يبلغ الحلم واغلقت المدينتان في نهار يوم الاحد الثامن

(*) مبغة: المقصود هنا ما يتغيه ويحتاجه الجند من تموين وعتاد وسلاح إلخ.

وخضر كاشف المنصورة، ومحمد بيك بن الطباخ فقال لهم: اعطوني(١) مهلة ثلاثة ايام فقاموا عليه، وقالوا له: شرع الله، نحن واياك. واستمر واقفا مقدار ساعة. ثم ان الله سبحانه وتعالى ارسل ريحا عاصفا اظلم منه الجو، فصاروا لا يرون احدا، وصارت الدنيا ككحل، فاغتنم الوزير الفرصة وفر من بينهم، الى ان دخل القلعة وقفل ابوابها. ثم ان العسكر توجهوا الى بيت محمد كتخدا الجاوشية الدالي، وصادفوا محمد بيك بن الطباخ في طريقهم بخط الصليبة(٢)، فهجموا عليه وقطعوه بالسيوف، ثم توجهوا الى بيت محمد كتخدا الدالي بقناطر السباع(٣). فتحاربت معهم طايفته ثم انهزموا منهم، فهجموا المنزل وقطعوا رأسه ونهبوا جميع ما كان في المنزل. وأما خضر كاشف المنصورة، ووالي القاهرة، ومراد بيك. فانهم اختفوا وتوجهوا الى الديار الرومية. فمن ذلك الوقت بطلت أحكام الوزير المذكور وصار الحل والربط لطايفة الاسباهية(٤). وهو الذي البس الاشراف العمايم الخضر بعد ان كانت علامة

(١) بالأصل «اطعيوني» والتصويب من التحفة، ص١٧٦.

(٢) خط الصليبة: المنطقة الممتدة من جامع السلطان حسن حتى جامع أحمد بن طولون، الواقعة حاليا ضمن دائرة قسم الخليفة بمحافظة القاهرة.

(٣) قناطر السباع: منطقة السيدة زينب محافظة القاهرة.

(٤) كتب عنوان جانبي «اعرف أبطال أحكام الوزراء بمصر وتغلب طايفة الاسباهية».

عـشـر(*) من جمادى الاخره سنة ثماني عشرة وستماية الموافق للخامس عشر من مسرى(*) واصبحت يوم الاثنين باقية مغلقة حتى لم يوجد شي يوكل ولا تتعامل الناس في هذين اليومين. الا الاجراس تضرب(*) في البلدين. [و] معاشر المسلمين كافة من بات في هذه الليلة في المدينة شنق. والولاه ركاب يهجمون على الناس [في] بيوتهم ويخرجونهم منها ومن وجدوه لم يسافر غرز [وضع في غرارة] واحرق به حتى لم يبق الا

(*)١٨ جماد آخر ٦١٨هـ= ١٥ مسرى ٩٣٧ق= ٩٣٧ش = ١٢٢١م.
(*) ١٥ سرى = ٨ أغسطس بحسب التقويم الجولياني.
(*) كانت نواقيس الكنائس في تلك العهود تضرب ولا تقرع.
(*) أهم أحداث سنة ٩٣٧ق = ١٢٢١م. = ٦١٨هـ.
(*) فيها أتت النجدات للملك الكامل من الشام والشرق مع الملك الأشرف والملك المعظم عيسى فانزلهم عند المنصورة في ٧ يونيو ١٢٢١م، ولما تم مجيء الملوك والنجدات وتم

فقط(١). ودار بالمقام الخليلي يوم الكسوة، وهو لابس العمامة(٢) الخضرة، والاشراف حوله وامامه بالعمايم الخضر، تعظيما للكسوة. وهو الذى البس اليهود الطراطير السود(٣)، بعد الحمر، ميزة لهم. ومن مآثره الحميدة انه عمر مقام الامام الحسين بن الامام على رضى الله تعالى عنهما، وعمر الجامع الأزهر، والقبلة التى هى موجودة الى يومنا هذا وتعرف بقبلة الباشة. وأوقف شربة العدس على المجاورين، ورمه مرمة عظيمة. ثم ان أخبار الاسباهية(٤) وصلت الى الديار الرومية، فجاءه العزلان، وفوضت ولاية مصر الى خضر باشا.

٢٩. ذكر تولية خضر باشا
عفى الله عنه

قدم الى مصر في سابع عشر الحجة سنة ١٠٠٦، فاستمر واليا بها الى سنة ١٠١٠(٥)،

(١) كتب عنوان جانبي «اعرف لبس الأشراف العمايم الخضر».
(٢) قدم واخر.
(٣) كتب عنوان جانبي «اعرف لبس اليهود الطراطير السود».
(٤) بالأصل «الاخبار الإسلامية» والواضح من سياق الكلام، ومما ورد فى التحفة، ص١٧٦، انها «الاسباهية» حيث ذكر صاحب التحفة. «ولما اتصلت احوال العسكر الى الديار الرومية».
(٥) مدة ولايته: ١٧ الحجة ١٠٠٦/ ١٢ محرم الحرام ١٠١٠هـ ـ ٢١ يولية ١٥٩٨/ يولية ١٦٠١م، لم يذكر يوم وشهر العزلان والتكملة من التحفة ص١٧٦.

النساء. وكانت اياما ما شوهد مثلها من الخوف والضنك والهجاج على الناس قاطبة. وكانت ايام [فيضان] النيل الا انه لم يعنى به احد ولا يطلع اليه. ثم وصل الملك المعظم سلطان الشام والملك الاشرف سلطان الشرق ومن معهما من الملوك مثل صاحب حمص وصاحب حماه والعساكر والجيوش وعدوا من اشموم وقاطعوا على الافرنج وصاروا بينهم وبين دمياط براً وخرج اسطول المسلمين من

عنده أربعين ألف فارس حاربوا الصليبيين بحرا وبرا حتى تضعضع أمرهم، فخاطبهم الملك الكامل ليخرجهم من بلاده، وأراد أن يعطيهم عدة بلاد نظير دمياط فأبوا، فحصرت المسلمون الأفرنج بأن قطعوا عليهم قطعا من ترعة المحلة أغرق جميع الزراضى التى تفصل الصليبيين عن دمياط، وباتوا يشكون الجوع والغرق، ولذا ندموا على رفض المعاهدة وطلبوا أن ينسحبوا من القطر بدون مقابل، فالملك الكامل قبل فى ١٧ رجب أن يعطى كل من الفريقين رهاين مكان ذلك، وسارت الافرنج إلى دمياط

وعزل فى ثانى عشر محرم. وكانت مدته ثلاث سنوات واثنى عشر يوما. وفى آخر مدته ظهر الدخان فى مصر وارخوه دخان نار الصهبة(١) وهو الذى قامت الاسباهية عليه وقتلوا كيخية وكتخدا الجاوشية والترجمان، وقطعوا رءوسهم، واشهروهم فى البلد، ثم علقوهم فى باب زويله، على الخشبة التى صلبو طومان باى عليها فلما اتصلت الأخبار الى الاعتاب العلية ارسلوا له العزلان. وجاء مسلم على باشا.

٣٠. ذكر تولية على باشا السلحدار المكرم عفى الله عنه

قدم الى مصر فى عاشر صفر سنة ١٠١٠، فاستمر واليا بها الى سادس ربيع الثانى سنة ١٠١٣(٢). وكانت مدة ولايته سنتين وشهرين وعشرين يوما. وكان سمينا، شجاعا كريما، سفاكا لدماء المفسدين. وكان فى زمنه الغلاء العظيم. وسبب ذلك قلة وفاء النيل. بحيث ان أمين الحسبة(٣) أوقف ناسا على الأفران، يمنعون الناس من خطف العجين من المواجير، والخبز

(١) الصهبة: الاسم الذى تطلقه العامة على الجلسة التى يتعاطى فيها متعودوا التدخين شرب الدخان بصورة جماعية، وكتب عنوان جانبى «اعرف ظهور الدخان بمصر».

(٢) مدة ولايته: ١٠ صفر ١٠١٠/ ٦ ربيع الثانى ١٠١٣ ـ ١٠ أغسطس ١٦٠١/ ١ سبتمبر ١٦٠٣م.

(٣) أمين الحسبة: هو الشخص المسئول عن الأشراف على طوائف الحرف القائمة على صنع المأكولات. للتأكد من صحتها وخلوها من الغش، ومراقبة الأوزان والمقاييس والمكاييل، ومعرفة الأسعار، ومعاقبة=

فم بحر المحله البحرى وقطع بين مراكب الافرنج وبين الثغر فصاروا لا يصل اليهم ميره لا براً ولا بحراً ولا يجيهم خبر عن دمياط ولا يجيها عنهم خبرا، واستمروا على ذلك اياما والمسلمون كلما مروا [مرت الايام] فى قوه وهم كلما مروا فى ضعف. وفرغت ازوادهم وعاينوا الهلاك فاجمعوا امرهم فى ليلة صبيحتها الجمعه رابع النسى على

وسلموها إلى رجال الملك الكامل فى ١٩ رجب من هذه السنة = ٩ سبتمبر، ثم دخل الملك الكامل دمياط بأخوته وعساكره، ثم عاد إلى المنصورة، وعاد المعظم عيسى إلى دمشق وبقية الملوك إلى بلادهم، كذا رجع الملك الكامل إلى القاهرة وانتقل من دار الوزارة وسكن قلعة الجبل.

(*) [١ توت سنة ٩٣٨ = ٢٩ أغسطس ١٢٢١ = الأحد ٩ رجب سنة ٦١٨].

(*) ١ يناير ١٢٢٢ = ٦ طوبه ٩٣٨ = السبت ١٦ ذو القعدة سنة ١٦ ذو القعدة سنة ٦١٨].

من الأسواق. ثم أنه شرع فى بيع قمح العنبر الشريف[١] الى الأفرنج، فى الجلود على هيئة البهار، فعند ذلك قامت العسكرى عليه، وقالوا له: كيف تبيع القمح للأفرنج بستين فضة، وقد أكلت الناس بعضها بعضا من الغلاء. والقمح يباع بستة وثلاثين نصف فضة، وتطمع فى أربعة وعشرين نصفا[٢] زيادة فى كل وية[٣]. فبطل بيع القمح للأفرنج.

وجاء النيل بزيادة وعملوا المقياس بحسب العادة. وسرق نحاس الباشا ليلة الجبر[٤] من المقياس. ثم أعقبه الفنا الذى لم ير مثله ولم يسمع به. وأمر الوزير ان لا يكشف على أحد من الموتى ولا يستأذن عليه. وكفن الوزير من الموتى ما لا يحصى عنده الا الله تعالى. وصلى على الأموات فى الجامع الأزهر على ألف[٥] فى كل يوم [لمدة] ٣٥ يوما. وله من المآثر الحميدة

= كل مخالف لها. والتشهير به، وكان يقوم هو ورجاله بعدة حملات تفتيشية على الأسواق المنتشرة فى القاهرة، وبولاق، ومصر عتيقة، وكان دائما يختار من بين رجال أوجاق الجاويشية.

(١) قمح العنبر الشريف: وهى كميات القمح الميرى التى كانت تجبى من ولايات الوجه القبلى،وتصرف منها الجرايات والعليق لكل من يستحقها، واذا توفرت الغلال بعد ذلك، تطرح فى أسواق القاهرة والاسكندرية ورشيد، لتوفير القوت للأهالى أولا، فاذا تبقى فائضا بعدئذ، فيجوز لأمين الشونة بيعه للتجار الأجانب (الأفرنج)، القادمين للثغور، بعد موافقة الباشا، والدفتردار، وواضح من النص، أن الباشا تصرف تصرفا مخالفا للقواعد المتبعة، انظر. عراقى يوسف، المصدر السابق، ص١٨٧ ـ ١٨٨.

(٢) قدم وأخر.

(٣) سدس أردب.

(٤) بالأصل «الجيزة».

(٥) كررت كلمة «الف» بالأصل وشطبت.

ان يوقدوا النيران ويتركوا بعض الخيام التى لاحاجة لهم بها ويرحلوا ويصدموا العسكر الذى بينهم وبين دمياط فانه لا تقوى بهم ويتلاقوا بالثغر ويحفظوا الجدار فانهم اذا حفظوه لم ينتفعوا. فوشيت بهم الى السلطان فى ليلتهم فركب وركبت العساكر وكان زمان [فيضان] النيل وهم اغرارا [جاهلون] بالبلاد فامر السلطان بفتح الترع الذى فى طرقهم وكسر الجسور وبحريتها من كل

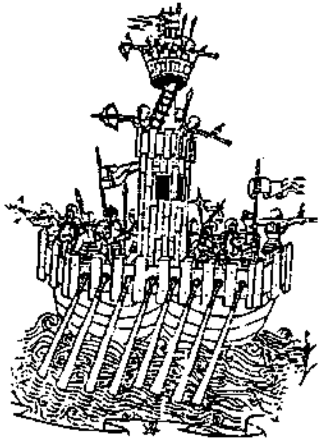

(*) سفينة من الاسطول الصليبي تهاجم دمياط.

بالقاهرة، السبيل الذى بقرب الامام الشافعي المعروف بسبيل على باشا، وجدد قلعة خان يونس[1]، وعين لخان يونس أربعين راكبا، وعشرين راجلا، وعين لهم جرايات وجواميك، وما يكفيهم. ثم ان الوزير عزم على التوجه صحبة الخزينة العامرة، لما بلغه ان فى طريق الخزينة جماعة من الباشوات عصاة خوارج، يريدون أخذها. فكتب معه من العساكر المصرية ما يحتاج اليه الأمر، من آلة الحرب والمدافع. ونصب خيامه بالعادلية، وعمل ديوانا عظيما، واقام مقامه برى بيك أمير الحاج قايم مقام وأخذ معه خزنتين كاملتين، وتوجه بها الى الديار الرومية. ثم أن الأمير برى بيك توفى الى رحمة الله خامس عشر شعبان سنة ١٠١٢[2]. ثم ان الصناجق اجتمعوا، وولوا عثمان بيك الخطاط: وعثمان بيك هذا صاحب تسبيح البردة التى أولها «الله يعلم ما بالقلب من ألم» وكانت[3] بيرديات على باشا يعمل بها من يوم خروجه من مصر، الى حين ورد الى قورط قلاغي (لفظ تركية معناها بالعربى ودن الديب)، أتته الوزارة العظمى[4]، الى ان وصل الى تونية، اتته بجلوس السلطان أحمد[5] فاجتهد فى السير الى ان وصل الى دار السعادة. تلقته اكابر الدولة السلطانية، فاجتمع بالسلطان احمد فقلده الوزارة

(١) قلعة خان يونس: تقع على الحدود الشمالية لشبه جزيرة سيناء، وكان يعسكر بها جماعتان من جند الفرسان والمشاة، عراقى يوسف، المصدر السابق، ص٩٩.
(٢) ١٨ يناير ١٦٠٤م. (٣) بالأصل «وكان». (٤) بالأصل «العظمة».
(٥) هو السلطان أحمد الأول، وتولى السلطنة ١٦٠٣/ ١٦١٧م.

جانب وهم يتحاملون الى ان وصلوا البرمون(*) فرأوا انفسهم في وسط الطوفان لا مسلك لهم فاجتمعوا في موضع واحد واشتد القتال بقية ليلة الجمعة ويوم الجمعة وليلة السبت الى ان تضحى نهار السبت والرسل تتردد والسلطان يضرب الراى مع الجماعة ويعرفهم ان هذه الجماعة من الافرنج هالكة الا انها لا تهلك حتى تهلك مثلها من المسلمين ثم لا يسلم دمياط ابدا لانه كان بها تسعون الف مقاتل خارجاً عمن خرج وقد عملوا

(*) البرمون: من البلدان القديمة قرب المنصورة. وفي تاريخ سنة ١٢٣٠هـ قسمت إلى ناحيتين إحداهما البرامون وهذه هي التي كانت تعرف بالبرامون القبلي بالنسبة لموقعها من البرامون البحرى وهو كفر البرامون.

العظمى. فكان عل باشا آخر من ولاه السلطان محمد ابن مراد، وكان اول من ولى على مصر في دولة السلطان أحمد، ابراهيم باشا الوزير.

٣١. ذكر تولية ابراهيم باشا

اول نياب السلطان أحمد

قدم الى مصر من طريق البحر رابع عشر ذى الحجة ختام سنة ١٠١٣، فاستمر واليها بها إلى ان قتل في ثالث عشر ربيع آخر سنة تاريخه[1]. فكانت مدة ولايته أربعة اشهر وعشرة ايام. ولما وصل الى بولاق استقبلته العساكر على حكم العادة، وطلبوا منه التراقي[2] الذى جرت به العادة، فامتنع عن ذلك، وأغلظ عليهم في الجواب. فقاموا عليه جميعا قومة واحدة، أهدموا عليه الوطاق واخذوا منه التراقي بالقهر والغلبة عليه. ولما دخل الى مصر، اراد ان ينتقم منهم، فشرع في قتل العسكر بأدنى سبب، وشنق من الاسباهيةرجلا بسرواله في باب زويله على سبيل الدهيشة، الذى مقاصد باب زويله. ولما كان زمن النيل ركب وتوجه الى بولاق،

(١) مدة ولايته: ١٤ الحجة ١٠١٣/ ١٣ ربيع آخر ١٠١٣هـ ـ ١٤ مايو ١٦٠٤/ ٨ سبتمبر ١٦٠٤م ذكر كل من المؤلف، وصاحب التحفة ص١٧٨، ان تاريخ قتله ربيع آخر ١٠١٢، وهو خطأ، حيث انه ولى شئون مصر في ١٤ ذى الحجة ١٠١٢هـ ـ ١٤ مايو ١٦٠٤ واستمر واليا أربعة أشهر، فيكون تاريخ قتله ١٣ ربيع آخر ١٠١٣/ ٨ سبتمبر ١٦٠٤.

(٢) التراقي: المكافآت المالية التي كان يقدمها الباشا من الخزينة ساعة قدومه الى كبار رجال الاوجاقات.

عليها سبعة خنادق ويضعف الناس عن نظرها فضلا عن النزول عليها لانهم لا يفنون هذه الشريذمة(*) حتى تفنى اضعافها فاجتمع رايهم على الصلح وترددت الرسل بينهم وتقرر الصلح على ان يسلموا دمياط وترد كل فئة ما عندها من اسرى الاخرى من قديم الزمان والى الان وتقرر الصلح ثمان سنين. ونزل الملك [ملك الفرنجه] والملكان والمقدمين عند السلطان الى ان تسلموا دمياط. واخذوا الفرنج عندهم رهاين عليهم خشية من ان يغدرو بهم الملك الصالح ابن السلطان

(*) الشريذمة: تصغير شرذمه بمعنى الفئة القليلة العدد.

لأجل قطع جسر أبي المنجا فلما نزل بناحية شبرا، في الكشك، ومعه قاضي العسكر عرب زادة وابن خسرو(١)، هجم عليه طايفة الاسباهية وضربوه بالسيوف وقطعوا رأسه فأراد ابن خسرو ان يمنعهم عنه فقتلوه، وقطعوا رأسه، وحملوها على رمحين وشقوا بهما القاهرة من أولها الى آخرها، ثم انهم علقوهما محل ما علق الاسباهي. ثم اجمع رأيهم على أن يجعلوا عثمان بيك الخطاط قايم مقام فأبى، فجعلوا عرب زادة قاضي العسكر قايم مقام. ثم أعرضوا الى الديار الرومية، فبعد خمسين يوما جاء، مسلم محمد باشا الجرجي الى مصر القاهرة.

٣٢. ذكر تولية جرجي محمد باشا الوزير
عفى الله عنه

قدم الى مصر من طريق بحر دمياط في خمسة وعشرين رجب ١٠١٣، فاستمر واليا بها سبعة أشهر واثنى عشر يوما. وعزل في أواخر صفر سنة ١٠١٤(٢)(١٥٩).

ولما استقر في مصر ورد عليه خط شريف أن يتقيد بالطائفة (الذين)(٣) كانوا السبب في قتل ابراهيم باشا، فلما قرء الخط بالديوان، اجابوا بالسمع والطاعة. وكتبوا له دفترا بأسمائهم

(١) بالأصل «حرف» والتصويب من كشف الكربة، ص٣٢٥، «بلوغ الأرب»، ص٢٩٦.
(٢) مدة ولايته: ٢٥ رجب ١٠١٣ ـ أواخر صفر ١٠١٤هـ ١٨ ديسمبر ١٦٠٤ ـ اوائل يولية ١٦٠٥م.
(٣) اضيف الاسم الموصول لايضاح المعنى.

وقطب الدين اخاه وشمس الدين بن اخته وجماعة من اكابر الامراء فتركوهم فى مركب برا البحر المالح [المتوسط] واحسن السلطان الى الملك والذين معه احساناً ما روى مثله وقام لهم بكلما يحتاجونه واكرمهم كرامة عظيمة وامر بأن يحمل الى معسكرهم من الخبز والرمان والبطيخ ما لا يحصى، وامر الناس ان يعبروا الى وطاقهم ويبايعوهم ويشاروهم فصار مخيمهم كانه سوق من أسواق المسلمين وباعوا واشتروا. وفرح السلطان والمسلمون فرحاً عظيماً لانهم كانوا

(*) دار ابن لقمان حيث سجن الملك لويس التاسع بعد اسره في المنصورة

جميعا. فاجتهد في قتلهم وتحصيلهم، الى ان قتل منهم ثلاثماية نفر[1] خارجا عل ما نفاه، ولو طالت مدته لقتلهم جميعا، ولكنه عزل لأجل الوزارة العظمى، وتول بدله لمحافظة مصر حسن باشا.

٣٣.ذكر تولية حسن باشا الوزير عفى الله عنه

قدم الى مصر في غرة ربيع اول سنة ١٠١٤، فاستمر واليا بها الى ان عزل فى آخر صفر سنة ١٠١٦[٢]، وكانت مدته سنتين. وكان قدومه من اليمن وكان واليا بها. وكان معه هدية اهداها الى السلطان أحمد، وهى سرج من ياقوت احمر، وركاب من الزمرد الأخضر. وكان ذلك لحسان ملك التبع[٣]. وكان حليما، عادلا، صافى السيرة، مايلا لفعل الخير. وهو الذى عمر صحن الجامع الازهر وفرشه ببلاط، واحدث رواق اليمن، وعمر الخزاين الخشب لحفظ كتبهم وأسبابهم[٤]. وفي أيامه سكنت الفتنة بمصر، وبطل القيل والقال.

(١) بالأصل «نفرا».
(٢) مدة ولايته: غرة ربيع أول ١٠١٤/ آخر صفر ١٠١٦هـ ـ ١٧ يولية ١٦٠٥/ ٢٨ مايو ١٦٠٧م.
(٣) كتب عنوان جانبي «اعرف هذه الهدية من بقايا تحف حسان ملك تبع الخ».
(٤) كتب عنوان جانبي «اعرف من فرش الجامع الأزهر بالبلاط وأحدث رواق اليمن».

مترقبين انهم مغلوبون وان البلاد قد خرجت من ايديهم وقد كانوا اعطوا القدس والساحل وقطيعة اخرى فداء لدمياط فما فعل الافرنج واعطوها هكذى فكان موضع السرور والغبطه لهم.

ودخلت سنة ثمان وثلثين وتسع مايه [١٢٢١م]وفى اثنا هذا وصلت خمسة واربعين شينيا من عسكر الانبرور [الامبراطور] وهو هنا فردريك الثانى. الذى كان جانباً [جائياً] فى النجده الى دمياط فلما سمعوا ماجرى من الهدنه

وفى أيامه كان دخول ابن جنبلاط الخارجى الى الشام، ثم عزل وتولى على مصر القاهرة محمد باشا المعروف بقول قران.

٣٤.ذكر تولية محمد باشا المعروف بقول قران

قدم الى مصر فى سابع صفر سنة ١٠١٦، وعزل فى غرة جماد اول سنة ١٠٢٠[١] وكانت مدة ولايته أربع سنوات وأربعة اشهر. واول ديوان جلس فيه أبرز خطا شريفا[٢] بالتفتيش على من قتل ابراهيم باشا، وقتلهم عن آخرهم. فلما قرى الأمر بحضرة الصناجق والاغوات سكتوا ولم يجيبوا بحرف واحد. فسألهم عن القاتلين، فلم يجيبوا، فسألهم ثانيا وثالثا، فكان من جواب اختيار الجاوشية والمتفرقة، بعد السؤال الثالث من الوزير[٣] ما قتله الاسباهية الا بمعرفة الصناجق فعندذلك رفع الوزير صنجقيتهم. وهم الذين كانوا السبب فى قتل الباشا. وكانوا ثلاثة عشر صنجقا فنفاهم الى أبريم[٤]. وأبرز خطا

(١) مدة ولايته: ٧ صفر ١٠١٦ ـ غرة جماد أول ١٠٢٠/ ٤ يونية ١٦٠٧ ـ ١٢ يولية ١٦١١م.

(٢) بالأصل «خط شريف».

(٣) اضيف حرف «من» لايضاح المعنى.

(٤) ابريم: احدى قرى مركز عنيبة محافظة أسوان، وهى من القرى القديمة، وسميت فى فترة باسم «القبض» لأنها كانت مركزا لاقامة القابض أى الصراف، المعين لتحصيل الأموال الأميرية المقررة على اراضى بلاد مركز الدر، كما اشتهرت بأنها منفى للأمراء المماليك وقت الاحتلال العثمانى.

وان الملوك رهاين رجعوا. واخذ السلطان يجهز الافرنج للرواح فمنهم من راح في البحر فاعطاهم الازواد والاقامات وجهز معهم اخاه صاحب قلعة جعبر(*) حتى سيرهم. ومنهم من مد لهم الجسور الى بر الغرب حتى عبروا سايرين الى دمياط لان بر الشرق ما كان يحق لهم والمرمه العظيمه التى لهم ومراكبهم حولها محاذيه لهم في البحر وما زالوا اياما حتى وصلوا وسافر اكثرهم وخرج من

(*)جعبر : قلعة على نهر الفرات.

شريفا[1] بابطال الطلبة[2] وهى مظلمة كانت الاسباهية تأخذها[3] من رعايا مصر القاطنين بقراها. فلمات بطلت الطلبة تحركت الاسباهية وشرعوا في الفساد، وهجموا على كاشف الغربية[4] وكان حسن كاشف الحلوجي، فخاف منهم فنزل «من»[5] مركب الى مركب الى ان غرق في بحر النيل. فلما بلغ الوزير نزل الى قراميدان[6] وطلب أعوان الاسباهية وقتل من انفارهم طايفة. ولم يزالوا على عنادهم، وارسلوا جمعوا انفارهم ومضوا الى ناحية الخانقة[7] فلما بلغ الخبر الى الوزير عين عسكرا، وجعل صارى عسكرهم، قجة[8] مصطفى بيك وخرجت معه الصناجق والأغوات والنفر، ومعهم المدافع، ووصلوا يوم السبت الى الخانقاة،

(١) بالأصل «خط شريف». (٢) بالأصل «الطلعة». (٣) بالأصل «اخذها».
(٤) بالأصل «البحيرة» والتصويب من التحفة ص١٨٠، كشف الكربة، ص٣١٤، «بلوغ الأرب» ص٣١٦.
(٥) بالاصل «ف».
(٦) قراميدان: هو الميدان الممتد اسفل سور القلعة، وكان يطلق عليه احيانا ميدان الرميلة ومكانه الحالى، منطقة المنشية وميدان صلاح الدين، اسفل القلعة، بقسم الخليفة.
(٧) الخانقة: هى خانقاه سرياقوس، حيث أنشأ الملك الناصر محمد بن قلاوون في ٧٢٣/ ١٣٢٣م خانقاه اى دارا للصوفية وبنى بجوارها مسجدا وحماما، وعمر قصورا وبيوتا وتمت هذه العمارة ٧٢٥هـ ١٣٢٥م ثم اقبل الناس على البناء والسكنى حولها حتى صارت بلدة كبيرة تعرف بخانقاه سرياقوس لقربها من سرياقوس، وظلت تابعة لسرياقوس حتى فصلت عنها في تربيع ٩٣٣هـ/ ١٥٢٧م وأصبحت ناحية قائمة بذاتها. محمد رمزى، المصدر السابق، جـ١، ص٣٢.
(٨) في التحفة، ص١٨٠ «قوجه» بمعنى العظيم.

بقى بدمياط الـــى اجرمها(*) وسلمت دمياط فى العشر الاول(*) من توت وسار السلطان اليها هو والعساكر وبقى بها الى ان سافر بقية الافرنج وودع الملوك الافرنجيه من البحر وعاد الى اشموم وبقى بها الى ان ودع اخوته وعساكر الشام والشرق وعاد الى القاهرة فعبراليها فى نهار يوم الجمعه الثامن من شهر رمضان سنة ثمان عشرة وستمايه وكان عبوره يوماً ما شهد [مشهود] وزينت المدينتان زينة ما روى مثلها وفرح الناس وامنوا

(*) الاجرام: هي السفن. وكان هذا الخروج من ٢٩ اغسطس إلى ٧ سبتمبر بحسب التقويم الجولياني.
(*) العشر الاول: الشهر ثلاث اقسام كل قسم ١٠ أيام بحسب التقويم المصرى.
(*) أهم أحداث سنة ٩٣٨ق. = ١٢٢٢م. = ٦١٨هـ.
* فيها استقل بدرالدين لؤلؤ بملك الموصل، وتسمى لؤلؤ بالملك الرحيم.
وفيها سار الأشرف وأقام عند أخيه بمصر متنزها.
وفيها قصد المعظم، صاحب دمشق، حماه، لأن صاحبها الناصر،

فلما رأى العصاة كثرة العسكر التى اتت من مصر، نزل الرعب فى قلوبهم واستسلموا، وأتوا طايعين. فوضعوا فى رقابهم الحديد. وكانوا ثلاثة عشر جربجيا[1] ومابة من النفر وخمسة من اكابرهم المغامرين الذين (حقروا الدولة)[2]. ونفى نحو الاربعماية من النفر الى اليمن. وكانت الواقعة فى الحجة سنة ١٠١٧[3] ووافق قتلهم «تاريخ بظلمهم» وابطل الوزير الطلبة، وجعل للكشاف قانونا لا يتعدونه، وجعل المشاق مالا مقررا، وعوايد المال الصيفى والشتوى. وكانت قبل ذلك ليس لها قانون، بل كانوا يتجاوزون الحدود فى طريقهم. وكانوا يصرفون الجامكية فى ثامن عشرين فى الشهر. وفى سنة ١٠١٨ توقف النيل الى ايام النسىء، فحصل الغلاء الشديد. وفى سنة ١٠١٩ او فى النيل آخر يوم من أبيب[4] فعاد الرخا المفرط. ثم جعل مكانه حاجى افندى قايم مقام، وتوجه الى الديار الرومية، ولما طلع من مصر، طلع بمال عظيم. وتولى مكانه على مصر محمد باشا.

(١) جربجى: رتبة عسكرية تعادل فى الرتب الحالية رتبة «نقيب» ويذكر صاحب التحفة، ص١٨٠، انهم ثمانية عشر جربجيا.
(٢) بالأصل «حقوا الدولتين» وصحتها ما أثبتناه.
(٣) الحجة ١٠١٧هـ/ مارس ١٦٠٨م.
(٤) ابيب هو الشهر الخامس من شهور السنة القبطية، وآخر ابيب فى السنة المذكورة (آخر ابيب ١٣٢٧ قبطية) ٣ أغسطس ١٦١٠م.

وبلغ النيل فى هذه السنة الى [سبعة عشر ذراع].

وصارت بين السلطان وبين ملك عكا [جان دى برين] صداقة عظيمة اكيده والهدايا تحمل من هذا الى هذا وتزاحمت الظنون فقوماً قالوا انه كان مخامراً وانه الذى فعل بالفرنج هذه الفعله وقوم قالوا ما كان عن رضاه وانما اللكات (*) الذى اشار بالخروج وما امكنه ان يخالفه ليلا ينسبه الى المخامره ولقد قال له [اللكات:] ينبغى ان لا نخرج

الذى اغتالها بخديعة الوزير زين الدين والكبراء، لم يف للملك المعظم بما التزمه من المال، وجرى بينهما قتال شديد، ثم رحل المعظم فاستولى على سلمية وحواصلها.

* [١ توت ٩٣٩ = ٢٩ أغسطس ١٢٢٢ = الاثنين ١٩ رجب سنة ٦١٩].

* فيها حصلت زلازل عظيمة فى المانيا.

* [١ يناير ١٢٢٣ = ٦ طوبه ٩٣٩ = الأحد ٢٦ ذو القعدة سنة ٦١٩].

(*) اللكات: ملك عكا.

---

٣٥. ذكر تولية محمد باشا الصوفى

عفى الله عنه

قدم الى مصر من طريق البحر سنة ١٠٢٠، فاستمر واليا بها الى ان عزل فى ثامن ربيع الأول سنة ١٠٢٤. وكانت مدة ولايته ثلاث سنوات ونصف[1] وكان محبا لأهل العلم، صالحا، ولم يحب الظلم للرعايا. وانما كان له رجل[2] يقال له يوسف أغا، وكان شهر حوالته[3]، وكان قد القى الله محبة ذلك الأغا فى قلب الوزير. وكان يدلس عليه. وكان كل شىء شرع فيه الوزير يخالفه فيه، ويدخل عليه بأمور لم يسع الوزير مخالفته. وكانت جميع الامور مقاليدها بيده. ان قال له افعل هكذا فعله، وان لم يقل لم يفعل. ووقع له فى ايام ولايته ان طايفة من القابى قول[4] الذين فى الديار الرومية. وقع منهم طغيان فاحش وفساد كبير. وكانوا ماية نفر غير اتباعهم. فجهزوهم الى مصر. فلما ورد الى مصر اعقبهم خط شريف بنفيهم الى بلاد اليمن، فلما امرهم الوزير بالتوجه الى اليمن، امتنعوا واظهروا العصيان،

(١) مدة ولايته: ١٦١١/ ٧ أبريل ١٦١٥م. (٢) بالأصل «رجلا».

(٣) شهر حوالته: الحوالة هو الشخص المخول بجمع الأموال الأميرية من العمال المكلفين بتحصيلها، وسمى شهر حواله لقيامه بجمع الأقساط الشهرية، قانون نامة عن مصر، مادة ٢٤، ص٣٩.

(٤) القابى قول: نوع من جند الانكشارية، كانوا يدربون تدريبا خاصا، ويستخدمون فى قصر السلطان حيث يرتقون حسب كفاءتهم الى اعلى المراتب فى الدولة كالوزارة العظمى، أو حكومة الولايات ثم اصبح هذا الاصطلاح يطلق على جند الانكشارية عامة بعد ان انتسب المسلمون الأحرار الى الانكشارية، دكتور عبدالكريم رافق، المصدر السابق، ص٧٣ ـ ٧٤.

من بلدنا هذا [يعني دمياط] حتى يأتي تحدثنا [تجدتنا] الامبرور [الامبراطور] فردريك الثاني: ويحق اذا بقينا ورا خنادقنا الف سنه ما نلتفت لاحد ولوجآء عدد الرمل [عساكر] وهذه العساكر التي تسمع بها فما يثبتوا عندنا لان ما فيهم الا وراه شغل وله عدو فغايتهم ان ينزلوا علينا شهراً اثنين ثلاثة فلا ينالون منا طايلا فيرجع كل واحد الى موضعه فنقوى نحن وتقوى عزايمنا ويقل عدونا وتضعف نفسه. واذا ملكنا مصر في عشرين سنة نكون قد استعجلنا. فما قبل منه بل قال :

* الملك فردريك.

وقطعوا الطريق التي لباب النصر، وسدوا طريق الركن[1] وبنوا حايطا وتحصنوا من ورايه. فعين الوزير لهم عسكرا فتوجهوا اليهم وكلموهم بالمعروف فابوا الا العصيان. فلما بلغ الوزير ذلك، جهز لهم عسكرا وصناجقا وامرهم بمحاربتهم. فضربوا عليهم المدافع ثلاثة ايام، فقتل من البغاة ثلاثة انفار ففتحوا باب النصر وهربوا. فمسكوهم عن آخرهم، ولم يعدم منهم الا الثلاثة انفار الذين هلكوا. فاحضروهم بين يدى الوزير، وامروا لهم بالعلوفة والذخيرة سلمت اليهم. وفي ثاني يوم توجهوا الى العادلية، ومنها الى السويس وسافروا الى جدة وكفى الله المؤمنين شرهم. ومن مآثره الحميدة، التكية التي بالحطية تكية الشيخ نظام الدين، فانه عمرها وجعل لها وقف يكفى ارباب شعايرها ومجاوريها، وهي معمورة الى يومنا هذا. ثم بعد ذلك اتاه العزلان، وفوضت محافظة مصر[2] لأحمد باشا.

٣٦.ذكر تولية أحمد باشا الوزير

عفى الله عنه

قدم الى مصر في عاشر ربيع الثاني سنة ١٠٢٤، فاستمر واليا بها الى ان عزل في ثاني

(١) في التحفة، ص١٨١ «وسدوا طريق الركن المخلق (باب الخلق) الذى بقرب بيت القاضى»، تاريخ ملوك ال عثمان، ورقة ١٢٠.
(٢) بالأصل «مخاطفة».

انت مـخـامـر. قـال : انا اخـرج مـعك وارادة الرب تكون. فخـرجوا حتى [جاوا] شـهر مساح فقال له: ينبـغي ان تقـيم ها هنا هذه السنة ونحـفـر علينا خندقـا ونزرع من هنا الى دمـيـاط ومـراكـبنا تجـينا والطيـر ما يقدر يطير بيننا وبين دمياط فـاذا انفض هذا الجـمع وجـات نجدتنا كانت مـصر قدامنا في يومين بلا مانع. فقال: انت مخامر ما اخذ مصر الا في هذه الايام. فـصاروا حتى بلغوا مقابل فم بحر المحله الذى قدام البرمون الذى خرجت منه مراكب

* جنود فردريك

عشر صفر سنة ١٠٢٧[١] فكانت مدة ولايته سنتين ونصف واثنى عشر يوما، ودخل الى مصر في موكب عظيم لم يسبق لغيره. ولما مر بالسوق المعروف بالباسطية قرب باب زويلة سقط عليه حجر من ربع هناك فكسر الريشتين اللتين على الطلخان[٢]. فلمـا استقر بالديوان امر زعـيم مـصـر[٣] ان يتوجه الى سوق الباسطية ويأتيه بالرجل الذى القى الحجر عليه. فتوجه الوالي وقبض على الرجل. واحضره بين يدى الوزير. فسأله الوزير عن سبب القاء الحجر فأقر الرجل انه وقع غصبا عنه. فشهدت عليه جيرانه بأنه لم يرمه الا قصدا. فكتب عليه حجة، وامر الوالي ان يصلبه في محل القى الحجر، فكان كذلك، وفي زول سنة من ولايته، ورد الى مـصـر اربعة خطوط شريفة بتجـهـيز اربع سفـرات: واحـدة للعجـم، والثـانية لليـمن، والثـالثـة للحبشة، والرابعة لاوجله[٤]، فجهزها في ستين يوما، ولم يحصل للرعايا ضرر من العسكر لا

(١) مدة ولايته: ١٠ ربيع الثاني ١٠٢٤/ ١٢ صفر ١٠٢٧هـ ـ مايو ١٦١٥/ ٢٩ يناير ١٦١٨م.
(٢) بتحفة الاحباب، ص١٨٢ «فكسروى الريشتين اللتين فى تاجه».
(٣) زعيم مصر: هو نفسه والي القاهرة، وكان يعرف كذلك باسم «الصوباشي»، وكان يشارك اغا الانكشارية في حفظ الأمن في القاهرة، وله سلطة اعلى من زميليه، زعيم بولاق، وزعيم مصر القديمة.
(٤) اوجلة: واحة في طرابلس الغرب، تشتهر بالنخيل، وقد وجدت بالقاهرة في العصر العثماني، جالية أوجلية، تشتغل بالتجارة في القاهرة، حيث نعثر في سجلات محكمة القسمة العسكرية على بعض المغاربة الذين ينتسبون الى هذه الواحة وهذا يؤكد أن كلمة مغاربة لا تطلق على أهل المغرب الحالى فقط، انظر، سجلات القسمة العسكرية، سجل رقم (١٤٠)، مادة (١٤٦)، ص١٠٩.

المسلمين، فقال له هذا البحر ما علينا اضر منه اعطني هذه المركب الكبير الذى معك نحطه في فم هذا البحر ونجعل معه عشر شواني تمنع الهواء يعبر من هنا ونأمن شره. فقال : وحق ديني ما احط هذه الصلبان التي على رأس هذا الصارى الا على سور القاهرة. قال له : سر وسوف نرى ما يجرى. وانه لو لم يكن فعل ذلك كان الافرنج قد اهلكته. ثم خرج السلطان الى ابيار اقام بها مدة الصيف ثم انحدر الى دمياط وامر بان يعمل جسراً

في عرض ولا في مال، وبعد ان صرف علوفاتهم وجراياتهم على حكم العادة، أعطى لكل واحد من النفر احسانا على قدر مراتبهم، من عشرة دنانير الى ثلاثين دينارا. فخرجوا من عنده داعين له بالبقاء. وكان يتقيد في القصص [القصاص] والدعاوى، وكان ينظر في أحوال الرعايا، ويتقيد بهم، ويعتنى بها، ويعلم على العرض بيده، ويأمر المعين[1] ان يتقيد بخدمته على وجه الحق وان «كان»[2] خصمه صنجقا. ويجرى الأحكام على الشريعة المطهرة، وجاء في أيامه غلاء فبيع الأردب القمح بتسعين نصفا فضة، فنادى ان لا يباع بأكثر من أربعين فضة، وارسل الوالي الى مخازن القمح كسرها، ثم سار الى الخانكة والى بلبيس وصحبته الوالي والمحتسب خفية، واخرج القمح المخزون واوثقه على الجمال والحمير واوصله الى مصر، واوقع القتل في أصحاب الخزاين، وارسل أكثرهم الى المقداف [أى العمل في الاسطول سخرة] فبعد ذلك انحط السعر الى ثلاثين نصفى[3] الأردب.

وحصل في ايام توليته ان الريح ارسل مركبا من مراكب الافرنج العصاة الى ثغر دمياط فانكسرت وغرق البعض وأسر البعض الذى سلم. وكانوا ثمانين نفسا، فاسلموا خوفا من القتل، مكيدة وخبثا، فزفهم الباشا في مصر على الخيل ثم ختنهم ثم بعد ذلك اختفوا وفروا

(١) المعين: الرسول المكلف بتنفيذ الأوامر التي تصدر من الادارة.
(٢) أضيف الفعل «كان» لايضاح المعنى..
(٣) بالأصل «نصف».

على بر البحيرة من بوره(*) الى البحر المالح [المتوسط] يمنع ماء البحر ان يفيض على البحيره ووظف على الامرا والاجناد كل صاحب الف دينار حراقتين ففعلوا ذلك وفرغ الجسر ثم شرع فى عمارة بر الجيزة قلعة حوالى النيل وجعل فيها عشر برجاً وطرح الابراج على الامرا على قدر قوتهم فمنهم من طرح عليه برجاً بمفرده ومنهم اثنان فى برج واخرون ثلثه وأربعة فى برج. ودخلت سنة تسع وثلثين وتسع مايه للشهدا الاطهار(*) وانتهى

(*) بوره: على مدخل بحيرة البرلس المطل على البحر المتوسط.

(*) ٩٣٩ش = ١٢٢٣م

- -

الى ارضهم وبلادهم. فلما تولى السلطان مصطفى خان(*) انعم على مصطفى باشا بمحافظة مصر.

٣٧. ذكر تولية كفكلى مصطفى باشا
عفى الله عنه

قدم الى مصر فى غرة جماد اول سنة ١٠٢٧، فأقام واليا بها الى سنة ١٠٢٨(١) فكانت مدتة تسعة أشهر ونصف. وكان عاقلا، صالحا، ومن عادة اهل مصر [من العسكر أنهم] لا يحبون العاقل، فتحركت العسكر فى زمانه، وتساوى الكبير بالصغير منهم، فصاروا يولون المناصب بمعرفتهم، ويعزلون بمعرفتهم، ثم صاروا يتغلبون عل الملتزمين، ويأخذون كل قرية اعجبتهم، من يد ملتزمها بالقهر عليه والغلبة. فلما زاد بغيهم اجتمعت العسكر وفتشوا على سبب ذلك ومن فتح هذا الباب، فوجدوه من كاتب ديوان الوزير، واحمد اغا اغت الجملية، ومحمد جاويش الخزندار، ويوسف اغا الترجمان، فاحضروهم وقتلوهم. فلما اتصلت اخبارهم الى الديار الرومية، عزلوا مصطفى باشا كفكلى، وولوا مكانه جعفر باشا. وذلك سنة تولية السلطان عثمان(٢).

(*) هو مصطفى الأول، تولى السلطنة: ١٦١٧/ ١٦٢٣م.
(١) مدة ولايته: ٢٦ ابريل ١٦١٨/ ١٦١٩م.
(٢) هو عثمان الثانى، تولى السلطنة ١٨/ ١٦٢٢م.

النيل في هذه السنة الى سبعة اصابع من ثمانية عشر ذراعاً ورخصت الاسعار وطابت الديار. وفي هذه السنة وصل الملك الاشرف سلطان الشرق الى ديار مصر على سبيل الفرجه والخدمة لاخيه السلطان الملك الكامل وتلقوه بالضيافات والاقامات من الرمل [رملة ميناء بولاق] وعبر الى القاهرة في يوم الخميس العاشر من طوبه(*) من هذه السنة وقد زينت زينة ما روى مثلها وكان هذا اليوم من ايامها العظيمة المشهوده وتردد الملك

(*) ٥ يناير بحسب التقويم الجولياني.

---

٣٨. ذكر تولية جعفر باشا الوزير

أول نياب السلطان عثمان خان

قدم الى مصر تاسع ربيع اول سنة ١٠٢٨، وكان اول نياب السلطان عثمان فاقام واليا بها سبعة أشهر ونصف، وعزل سنة ١٠٢٨[١] وكان وزيرا عاقلا كثير الاحسان للفقراء، حدث في زمانه الطاعون العظيم «الذى»[٢] عم اقاليم مصر[٣]، وهو الذى يسمونه بفصل جعفر[٤] وحصل منه الضرر الشديد الذى لم عليه مزيد. وقيل انهم صلوا في الجامع الأزهر في اليوم على تسعماية وخمسة وثلاثين. ومكث الطاعون ثمانين يوما. وابيعت النارنجية بخمسة عشر نصف فضة. لمن جعل الناس بعد الطاعون كتفاح، فاذا اعلق النارنج حصل له الشفا. ثم عزل، وفوضت محافظة مصر الى مصطفى باشا.

٣٩. ذكر تولية مصطفى باشا

عفى الله عنه

قدم الى مصر سابع عشرين رمضان سنة ١٠٣٨، فأقام واليا بها سنة وسبعة ايام وعزل في

(١) مدة ولايته: ٩ ربيع أول ١٠٢٨/ ١٤ شعبان ١٠٢٨هـ - ٢٤ فبراير ١٦١٩/ ٢٧ يولية ١٦١٩م، تحديد تاريخ العزل من التحفة، ص١٨٤.
(٢) الاضافة لايضاح المعنى.
(٣) بالأصل «اقليم» والتصويب من التحفة، ص١٨٤، ٢٧ رمضان ١٠٢٨/ ٧ سبتمبر ١٦١٩م.
(٤) كتب عنوان جانبي «اعرف الطاعون في مصر ١٠٢٨».

الاشــرف في الديار المصــرية من القــاهرة الى الخرقـانيـه(*) الى اشـمـوم الى ابيار(*) الى جـزيرة مـصـر [الروضـة] وكان نزوله بالجزيره في ايام النيل المبارك وكانت النيران توقد في كل ليلة بحمله من الشمع والزيت. وكان اهتماما ما شوهد مثله. فأما ليلة خلوق المقياس فزادوا على وقود الزيت وقيد اطواف خشب وجدروها [ثبتوها] في البحر ووقود العـشـاريه(*) والحراريق وبفرشها في وسط البحر

(*) الخرقانية: من القرى القديمة تتبع مركز قليوب، وتقع بين باسوس و بين شلقان.

(*) ابيـار: من القـرى القـديمة كذلك تابعه لمركز كفر الزيات، عند طرف جزيرة بني نصر، ويعمل بها القماش الإبيارى والعبايات الغالية الثمن.

(*) العـشــارية: هي سـفـينـة الاحتفال بوفاء النيل.

رمضـان سنة ١٠٢٩(١) وفي زمنه قتل مصطفى بيك وفرحت الناس لهلاكه، لأنه كان جبارا، عنيدا. وانشـوا في زمنه مركبا كبيرة في بولاق، الى ان تمت، وبعد تمامها عملوا لها عجلا وركبوها على ذلك العجل، وسحبوا العجل على الجمال الى السويس بماية وخمسين جملا، ثم ان الوزير حصل منه ظلم لطايفة التجار، ثم اتصلت اخباره الى الديار الرومية بظلمه الزايد لتجار مصر، فارسل له العزلان.

٤٠.ذكر تولية قرا حسين باشا

عفى الله عنه

قدم الى مصر عشرين رمضان سنة ١٩٢٩، فأقام واليا بها سنة وسبعة اشهر، وعزل في تاسع ربيع اول سنة ١٠٣١(٢). ثم حصل له مرض، فأقام مريضا مدة شهرين، لم ينظر في أحوال الرعايا(٣) والعسكر، ثم شفي، فشرع في تحصيل الاموال الديوانية، والنظر في احوال الرعايا والعسكر، وصنع(٤) ختانا لأولاده، وزينت له البلد ثمانية أيام. وجاءه من الهدايا شيء

(١) مدة ولايته: ٢٧ رمضان ١٠٢٨/ رمضان ١٠٢٩هـ ـ ٧ سبتمبر ١٦١٩/ اغسطس ١٦٢٠م.
(٢) مدة ولايته: ٢٠ رمضان ١٠٢٩/ ٩ ربيع أول ١٠٣١هـ ـ ١٩ أغسطس ١٦٢٠/ ٢٢ يناير ١٦٢٢م.
(٣) بالأصل «الرعاية».
(٤) بالأصل «ووضع» والتصويب من التحفة، ص١٨٤.

وكانت ايام كلها اعياد. ورخصت الاسعار الى الغايه حتى بيع القمح بثلثين دينار المايه اردب. والشعير والفول بعشرين دينار المايه اردب، والخبز عشرة ارطال بدرهم، واللحم بنصف وثمن درهم الرطل، والفراريج بخمسة دراهم العشره. ولم يكن شيا غالي وكان البرسيم ايام زيادة النيل بخمسة وعشرين درهما الاردب ولما نقص النيل بيع

(*) أهم أحداث سنة ٩٣٩ق = ١٢٢٣م. = ٦٢٠هـ.
* فيها رحل المعظم عن سلمية بأمر الملك الكامل، صاحب مصر، والأشرف، ورجعت المعرة وسلمية للناصر.
* وفيها اتفق الكامل والأشرف وسلما سلمية إلى أخيه المظفر محمود أبن الملك المنصور، فأرسل المظفر إليها نائبا من قبله وهو حسام الدين.
* وفيها قام الأشرف في مصر إلى حلب، ومعه خلعة وسناجق سلطانية من الملك الكامل، وأركب الملك العزيز في دست السلطنة وعمره عشر

كثير. وزاد النيل زيادة مفرطة، ولم يهبط في عادته واستمر الى عشرة بابه فايست الناس من عدم هبوطه. وارتفعت الأسعار، فخرج الباشا والعلماء والاشراف وأولاد المكاتب الى سبيل على باشا ودعوا الله، فهبط النيل، وابيع القمح بثلاثين نصف فضة الوية، والصابون بعشرة انصاف الرطل. ثم اعقبه طاعون، فمكث من شهر الحجة الى غاية جماد اول[1]، الى ان بلغت الصلاة على الاموات في الجامع الأزهر في اليوم ستماية نفس. ثم عزل، وتولى بعده، محمد باشا البستنجي.

٤١.ذكر تولية محمد باشا البستنجي
عفى الله عنه

قدم على مصر رابع جماد آخر سنة ١٠٣١، فأقام واليا بها شهرين ونصف[2]، ثم خُلع السلطان عثمان وتولى السلطان مصطفى ثاني مرة[3]، فعزل محمد باشا المذكور وتولى ابراهيم باشا السلحدار.

(١) أى من: اكتوبر ١٦٢٠/ ٢٢ ابريل ١٦٢١م.
(٢) مدة ولايته: ٤ جماد آخر ١٠٣١/ رمضان ١٠٣١هـ ـ ١٦ ابريل ١٦٢٢/ يولية ١٦٢٢م، في التحفة انه قدم الى مصر في ١٤ جماد آخر ١٠٣١هـ/ ١٦ ابريل ١٦٢٢م.
(٣) تولي السلطنة للمرة الثانية ١٦٢٢/ ١٦٢٣م.

[الفول] البعلى بستة وستين درهما الاردب والحراتي بأربعة وخمسين درهما الاردب وهو شي عجيب لان النيل ما كان بالعالى الا انها امور بيد الله تعالى. وتحدث بعض الاراخنه مع الصاحب الوزير في اقامة البطرك فرسم بان يطلب الحبيس الذى بابيار وان يقام عنه بخمس ماية دينار لبيت المال وشرعوا فى طلب المبلغ المذكور وتقسيطه

سنين، وارسل الأشرف منها عسكرا هدموا قلعة اللاذقية إلى الأرض.
* [١ تـوت ٩٤٠ = ٣٠ اغسطس ١٢٢٣ = الأربع غرة شعبان سنة ٦٢٠].
* فيها كانت وفاة فيليب أوجست، وتولية لويز الثامن.
* [١ يناير سنة ١٢٢٤ = ٥ طوبه سنة ٩٤٠ = الاثنين ٧ ذو الحجة سنة ٦٢٠].
(*) أهم أحداث سنة ٩٤٠ق. = ١٢٢٢٤م. = ٦٢١هـ.
* فيها حسن المعظم لأخيه المظفر، صاحب خلاط، العصيان على الأشرف، فعصى، وكان قد اتفق مع المعظم والمظفر غازى وصاحب اربل

---

٤٢. ذكر تولية ابراهيم باشا السلحدار عفى الله عنه

قدم الى مصر سابع رمضان سنة ١٠٣١، واقام واليا بها سنة واحدة وعزل فى سابع عشر رمضان سنة ١٠٣٢[١]، وكان حليما وجيها، ولكن حصل فى زمانه قحط عظيم، استمر مدة ولايته، ثم عزل، وتولى مصطفى باشا، ونظر فى حسابه ودفع ما كان عليه، وتوجه الى ثغر سكندرية.

٤٣. ذكر تولية باشا جنى مصطفى باشا عفى الله عنه

قدم الى مصر فى ثامن عشرين رمضان سنة ١٠٣٢، فأقام واليا بها سنتين واحد عشر شهرا، وعزل فى سنة ١٠٣٥[٢]. ولما دخل مصر اقام بها احدى وسبعين يوما، وتولى السلطان مراد[٣] فارسل له العزلان، وأولى محافظة مصر الى على باشا النشنجى، فلما بلغ أهل مصر

(١) مدة ولايته: ٧ رمضان ١٠٣١/ ١٧ رمضان ١٠٣٢هـ ـ ١٦ يولية ١٦٢٢/ ١٥ يولية ١٦٢٣م.
(٢) مدة ولايته: ٢٨ رمضان ١٠٣٢/ شعبان ١٠٣٥هـ ـ ٢٦ يولية ١٦٢٣/ مايو / يونية ١٦٢٦م، تحديد تاريخ العزل من التحفة، ص١٨٥، وفيها ايضا انه قدم الى مصر فى ٢٢ رمضان ١٠٣٢هـ/ ٢٠ يولية ١٦٢٣م.
(٣) هو السلطان مراد الرابع، وتولى السلطة ١٦٢٣/ ١٦٤٠م.

على الكنايس فلم يقدر عليه ولا مشى فيه حال فوقفت القضية وانقطع الحديث. وسافر الملك الاشرف من مناظر [حدائق] سيف الاسلام التى على بركة الفيل فى نهار السبت الحادى عشر من شعبان سنة عشرين وستمايه الموافق الحادى عشر من توت وخرج السلطان الملك الكامل لوداعه وكانت المصادرات على حالها والحبوس

مظفر الدين، وكان بدر الدين لؤلؤ منتميا إلى الأشرف فحصر مظفر الدين صاحب اربل، صاحب الموصل عشرة أيام ليشتغل الأشرف عن قصد أخيه بخلاط،ثم رحل عن الموصل لحصانتها، ولذا لم يلتفت الأشرف إلى محاصرتها، بل سار وحصر المظفر فسلمت إليه مدينة خلاط، وانحصر المظفر بقلعتها، ونزل ليلاً إلى أخيه الأشرف معتذرا فقبل عذره وعفا عنه.

* وفي رجب امره على ميافارقين واستعاد البلاد منه.

* [١ توت سنة ٩٤١ = ٢٩ اغسطس ١٢٢٤ = الخميس ١٢ شعبان سنة ٦٢١].

تكدر عيشهم. واجتمعوا مع بعضهم البعض فى أمر ذلك الوزير، وقالوا: كل سبعين يوما باشا. فهذا مضر بالعسكر والرعية والتقادم[١]، وهذا لا نقدر عليه، ونبقى حادثة، فى كل سبعين يوما وزيرا، فتخرب البلاد من العوايد الزايدة، ومصاريف زايدة، فيصير ضررا على الخزينة. والرأى اننا نبقى مصطفى باشا، ونعرض فى الشفاعة فيه. ونمنع على باشا من الدخول الى بلدنا. فكتبوا عرضا وجهزوه للاعتاب العلية، وعينوا من كل بلك رجلا، فلما وصل العرض الى الديار الرومية، أعرضوا[٢] على شيخ الاسلام، فعرف مضمونه. فلما عرض الأمر على حضرة السلطان مراد، كان شيخ الاسلام بمجلس مولانا السلطان، فأخذ يستحسن فعال أهل مصر، ويقول نعم ما فعلت عسكر مصر بامتهم، فانهم قدموا نفع الدولة الشريفة على نفعهم، فانه فى نفس الأمر يكون اجحافا[٣] بالخزينة فحصل للسلطان مراد سرور، واستصوب ذلك الأمر منهم، فانعم على مصطفى بالمقرر والتمكين بالمنصب. فلما وصل الخبر الى المصريين، حصل لهم غاية السرور، وكل أحد هادى بما يليق به. وأما على باشا، لما ورد الى سكندرية، وسمعوا به، كتبوا له مكتوبا، لانقبلك، واننا راضين على حاكمنا، وأنا أرسلنا عرضنا، وجاء الحاكمنا المقرر، وأما أنت فانك تتوجه الى الديار الرومية بالسلامة، وأرسلوا المكتوب صحبة يوسف بيك الغطاس[٤] وابن سويدان القبطان. فلما وصلوا الى الباشا، وأعرضوا عليه المكتوب، توقف فى

(١) التقادم: هى الهدايا التى يقدمها الأمراء وكبار رجال الدولة للباشا، ساعة وصوله، أحمد كتخدا عزبان، الدرة المنصانة فى أخبار الكنانة.

(٢) بالأصل «أعرضوه». (٣) بالأصل «احجافا». (٤) بالأصل «العطاس».

* ١ يناير ١٢٢٥ = ٦ طوبه سنة ٩٤١ = الأربع ١٩ ذو الحجة سنة ١٢٢١].

[السجون] ملأى من الكتاب واصحاب الدواوين والوزير لا يعرف الا شيا يحصله للسلطان من كل وجه. ودخلت سنة اربعين وتسع مايه وبلغ النيل في هذه السنة الى اثنا عشر اصبعا من سبعة عشر ذراعاً. وكانت الاسعار رخيصه والاشيا كثيرة موجوده والدنيا هاديه من الفتن ولم يكن شيا غاليا الا الذهب والشمع فان الصرف بلغ ثلثه واربعين درهماً بدينار والشمع ثمانية دراهم ونصف الرطل.

* نقود السلطان مراد الرابع ١٦٢٣/١٦٤٠م.

الرجوع، وغضب على ابن سويدان، وأمر بحبسه ووضع الحديد فى رجليه. فلما رأى يوسف بيك هذه الفعلة التى فعلت فى القبطان، جمع عسكر سكندرية على عسكره وهجم على الباشا، وخلص ابن سويدان منه وهدم صيوانه على رأسه. وأنزلوه فى المراكب الذى جاء فيها، ولم يبيتوه تلك الليلة الا على ظهر البحر. واستمر الوزير فى أهنى عيش مع أهل مصر، الى أن جاء مسلم بيرم باشا، وعمل يوسف بيك الغطاس قايم مقام، على حسب العادة، وانزلوا مصطفى باشا الى بيت السعيد بن الظاهر بسوق السلاح على ميمنة السالك الى الرميلة.

٤٤ـ ذكر تولية بيرم باشا

أول نياب السلطان مراد

قدم الى مصر تاسع شعبان سنة ١٠٣٥، فاستمر واليا بها الى أن عزل فى سنة ١٠٣٨[1]، فكانت مدة ولايته سنتين وثلاثة أشهر، وكان وزيرا كبيرا، عاقلا محبا للعلماء. وكان له ميل الى التجارة، وهو الذى نادى على البطيخ، خمسة أرطال بنصف، وفى زمنه جاء

(١) مدة ولايته: ٩ شعبان ١٠٣٥/ ٩ محرم ١٠٣٨هـ ـ ٦ مايو ١٦٢٦/ ٨ سبتمبر ١٦٢٨م، تحديد تاريخ العزل من التحفة، ص١٨٧، وتاريخ ملوك بنى عثمان ورقة ١٢٤، ويذكر كل من هذين المصدرين انه قدم الى مصر فى ١٩ شعبان ١٠٣٥هـ ـ ١٦ مايو ١٦٢٦م.

وبقى الحال على ما هو عليه. وفي اخر كيهك(*) في هذه السنه وردت الاخبار ان الملك المسعود صاحب اليمن ابن السلطان الملك الكامل واصل الى الديار المصريه وانه بلغ [ميناء] عيذاب(*) فاخرج السلطان ابنه الملك الصالح وابن اخيه الملك المظفر تقي الدين وابن اخيه شمس الملوك ابن الملك الاعز أبن صلاح الدين ومن معهم من الامرا والاجناد لتلقيه فلقوه قريبا من قوص(*) ثم

(*) انتهى كيهك في هذه السنة في ٢٦ ديسمبر بحسب التقويم الجولياني.

(*) عيذاب: ميناء مصرى على البحر الاحمر، كانت ميناء الحج المصرى على البحر الأحمر في العصور الوسطى وذلك بسبب انقطاع طرق الحج عبر سيناء أثناء الحروب الصليبية، فكان الحجاج يتزلون في النيل حتى مدينة قوص بمحافظة قنا، وعند عيذاب يجتازون البحر الأحمر إلى جدة ومنها إلى مكه

(*) قوص: بمحافظة قنا. اسمها المصرى هات هور، اى قصر الإله

الفصل الكبير الذى سموه فصل بيرم باشا. وضبط الذى وجدوه في دفتر بيت الما، من الموتى ثلاثماية ألف. ومنعوا النساء من الصياح وراء الأموات. وفي زمنه عز الصابون، فأمر قاضي العسكر ألا يباع الصابون الا تحت قصره وأن لا يعطى الا بورقة من قاضي العسكر. وبلغ الرطل الصابون خمسة عشر نصفا فضة، وكان اذ ذاك ابراهيم أفندى هو الذى رتب الالتزام على المحاكم، وفي هذا العام عصيت أهل اليمن، وامتنع أهل اليمن من الحجاج، ومنع المحمل اليمنى عن الكعبة. وجاء قفطان لقانصوه بيك من السلطان بالباشاوية، ثم تبعه قفطان آخر وسيف مجوهر، وأن يكون باشا العسكر الى اليمن، وبعد فتحها يكون (هو)(١) باشا بها، وان العسكر التي خرجت معه من مصر وهم ثلاثة آلاف، يكونوا رعايا باليمن. وارسل السلطان مراد ألفي عسكرى من الديار الرومية، تكون عسكرا عوضا عن(٢)، عسكر مصر الذين صاروا رعايا. ولما ورد الالفان، ودخلوا مصر، مكثوا فيها ثلاثين يوما، وتوجهوا الى اليمن خلف قانصوه بيك، في عاشر الحجة ختام سنة ١٠٣٨(٣). وكان قانصوه بيك سافر صحبة الحج ٢٧ شوال سنة ١٠٣٨(٤). وهو الذى عمر الغيط (الذى)(٥). بقراميدان، وعمل السواقي،

(١) الاضافة للتوضيح.
(٢) قدم وأخر والاضافة لتوضيح المعنى.
(٣) ٣١ يولية ١٦٢٩.
(٤) ١٩ يونية ١٦٢٩م.
(٥) الاضافة لتوضيح المعنى.

وصل الى القاهرة فى امشير(*) من السنة المذكورة بتجمل عظيم وهدايا كثيرة واموال جمه ومن جمله ما وصل معه من العجايب ثلثة افيال منهم اثنان لم يرقط اعظم منهما مثل الجزاير العظام وذكر ان عمر كل منهما دون العشرين سنة واخر صغير عمره ثمان سنين وذكر المشايخ وارباب التواريخ انه لم يرد قط الى البلاد اعظم منهم وكان عبوره يوماً مشهودا. وقد كان سير قبل ذلك

حور. وردت فى كشف الأسقفيات قوص وروير، كانت مركز تجارى هام بين مصر والبلاد المطلة على البحر الاحمر.

(*) يبدأ فى ٢٦ يناير. وينتهى فى ٢٤ فبراير بحسب التقويم الجوليانى.

وله الكشك الذى بالديوان، ويعرف بكشك بيرم باشا، والحوض والسبيل والزاوية، ولما عزل، نزل الى قراميدان، وقعد فيه الى ان توجه الى الديار الرومية. وجاء مسلم طبان محمد باشا.

٤٥- ذكر تولية محمد باشا طبان

عفى الله عنه

قدم الى مصر رابع عشر صفر سنة ١٠٣٨، فاستمر واليا بها الى ان عزل فى آخر ربيع آخر سنة ١٠٤٠(١)، وكانت مدة ولايته سنة و احد عشر شهرا. وكان وزيرا كريما، شجاعا أحيا ناموس السلطنة بالديار المصرية. وفى زمنه دخل السيل الى مكة المشرفة حتى هدم البيت الشريف، ولم يبق الا الركن اليمانى، فأرسل الشريف مسعود، شريف مكة، عرضا الى مصر، قرى بالديوان، فاهتم الباشا لذلك الأمر ثم ان الباشا أرسل المهندسين، والبنايين والأخشاب، وجهز الباشا من ماله ستة آلاف شريفى لعمارته. وفى أيامه توقف النيل الى أيام النسىء، ولم يزد عن ستة عشر ذراعا، فغلت الأسعار، وأبيع الأردب الحنطة بثمانية قروش، ومع ذلك مضت أيام الغلا، ولم يشعر أحد بها من كثرة المكاسب والحظ والبحبة ثم جاءه العزلان من السلطنة العلية، وورد مسلم موسى باشا.

(١) مدة ولايته: ١٣ اكتوبر ١٦٢٨/ ٥ ديسمبر ١٦٣٠م، فى التحفة ص١٨٧ ان الوزير طبانى يعنى محمد باشا قدم الى مصر ٤ صفر ١٠٣٨هـ = ٣ اكتوبر ١٦٢٨م.

عسكر الى خدمته الى الحجاز مع ابن عمه الملك الجواد مظفر الدين ابن مودور فخالفهم في الطريق فمضى اوليك الى الينبع(*) وهي قلعة منيعة من بلاد الحجاز وكانت ممتنعة على الملك المسعود قد اجتمع بها جماعة وقد عصت عليه ففتحوها بالسيف وسبوا كل من بها وتركوا بها خليفة لهم ورجعوا وبقى الملك المسعود بالقاهرة نازلا بالقصر والاحوال مستقرة على ما هي عليه والصاحب صفى الدين الامر كله في يديه والاسعار بحالها في

(*) الينبع: ميناء يقع على الساحل الشرقي للبحر الأحمر على نفس خط عرض اسوان تقريبًا، كما كان يقع على الطريق البرى للحاج المصرى.

٤٦ـ ذكر تولية موسى باشا
عفى الله عنه

قدم الى مصر فى جماد الآخر سنة ١٠٤٠، فاستمر واليا بها الى أن عزل فى سنته[1]، فكانت مدة ولايته سبعة أشهر من السنة المذكورة. وفى أيامه بطل تراقى القدوم، وفى يوم عرفة قتل قيطازبيك الكبير، لقصة يطول شرحها، ولكن اقتصرنا. ثم أنه لما قتله الباشا اجتمعت العساكر بالرميلة، وحضر قاضى العسكر، ونقيب الاشراف، والشيخ البكرى والسادات، والعلماء، وجلسوا بمدرسة السلطان حسن[2]، وقالوا نطلب قاتل قيطاز بيك لفقوده فيه، فأرسل الباشا يقول: أنا الذى قتلته بموجب هذا الخط، وأبرز خطا شريفا، فقروه، ثم قالوا: لابد من عزلان الباشا، والا تصير عادة لقتل أمرائنا، فعزلوه، وجعلوا حسن بيك قايم مقام. ثم أعرضوا الى الاعتاب العلية، فقبل (العرض)[3]، وولوا على مصر خليل باشا.

---

(١) مدة ولايته: جماد آخر ١٠٤٠/ ذى الحجة ١٠٤٠هـ ـ يناير ١٦٣١/ يوليه ١٦٣١م، تحديد تاريخ العزل من التحفة ص١٨٧، وفيها انه قدم الى مصر فى ٣ جماد اول ١٠٤٠هـ ـ ٨ ديسمبر ١٦٣٠م.
(٢) مدرسة السلطان حسن: مقرها جامع السلطان حسن تجاه قلعة الجبل، كان يوجد بها، لكل مذهب من المذاهب الأربعة شيخا الى جانب الطلبة والمدرسين، وكان الصرف عليها يتم من ريع الأوقاف الكثيرة الموقوفة على الجامع والمدرسة، على مبارك، الخطط، جـ٤، ص٨٣ ـ ٨٧.
(٣) الاضافة لتوضيح المعنى، من التحفة، ص ١٨٨.

طول السنة وزاد رخص الاشيا وبلغ النيل فى هذه السنة الى اربع اصابع من ثمانى عشر ذراعاً ثم دخلت سنة احدى واربعين وتسع(*) مايه والسلطان الملك الكامل مقيم بقلعته المعمورة بالقاهرة، والملك المسعود مقيم ايضاً. والصاحب ابن شكر الحاكم فى الامور مستقلا، والبيعة بغير بطرك، والاسعار بحالها. فلما كان فى اثناء السنة بلغ السلطان من بعض الناس عن بعض الامور أمر توهم منه فاعتقل بعضهم ونفى بعضهم واحتاط

(*) أهم أحداث سنة ٩٤١ق. = ١٢٢٥م. = ٦٢١هـ.
* فيها توفى الملك الأفضل، وعمره سبعة وخمسون سنة.
* ١ توت سنة ٩٤٢ = ٢٩ اغسطس ١٢٢٥ = الجمعة ٢٢ شعبان سنة ٦٢٢.
* فى أول شوال توفى الإمام الناصر لدين الله، وخلافته سبع وأربعون سنة، وبويع ابنه الظافر بأمر الله أبو نصر محمد.
* [١ يناير سنة ١٢٢٦ = ٦ طوبه ٩٤٢ = الخميس ٢٩ ذو الحجة سنة ٦٢٢].

٤٧ـ ذكر ولاية خليل باشا المنفصل عن الوزارة

عفى الله عنه

قدم الى مصر فى سابع ربيع الأول سنة ١٠٤١، فاستمر واليا بها الى أن عزل فى اثنين وعشرين رمضان سنة ١٠٤٢[1]، فكانت مدة ولايته سنة وأربعة أشهر. وفى أيامه عصى شريف من أشراف مكة يقال له الشريف نامى فجمع جموعا من المفسدين، من أهل اليمن، ومن أهل الحجاز وهجم مكة، فطلعت له الاشراف، وأمير جدة، مصطفى بيك، صحبة شريف مكة. فتقاتلوا قتالا عظيما أدى الى قتل شريف مكة، ومصطفى بيك نايب جدة، وجماعة من أشراف مكة. ونهبوا مكة وأسواقها، وجعلوا الشريف نامى شريفا على مكة[2] فلما تم هذا الأمر، أرسلت أشراف مكة عرضا الى مصر فقرى بالديوان. فلما سمعت عسكر مصر ما فى العرض، انتصب قاسم بيك وقال: أنا أتوجه إلى هؤلاء البغاة، فألبسه خليل باشا قفطانا وجعله صارى عسكر، وعين معه رضوان بيك الشواربى أمير الحاج، وعابدين بيك، وعلى بيك، وطايفة من الجراكسة وغيرهم وجهزهم وأرسل الباشا قفطانا الى زيد بشرافة مكة[3]. فوصلت اليه

(١) مدة ولايته: ٧ ربيع اول ١٠٤١/ ٢٢ رمضان ١٠٤٢هـ ـ ٣ اكتوبر ١٦٣١/ ٢ ابريل ١٦٣٣م.
(٢) الشريف نامى: هو نامى بن عبدالمطلب، تولى الشرافة مائة يوم، انظر: عثمان بن بشر، عنوان المجد فى تاريخ نجد، جـ١، ص٥١.
(٣) الشريف زيد: هو زيد بن محسن، انظر عثمان بن بشر، المصدر السابق، ص٥١.

على موجودهم واقطع اخبازهم [رواتبهم] وطالب بعضهم بمال. وفى الصوم المبارك تقدم المستوفيون الى الصاحب [ابن شكر] وقالوا له: انك قد اصلحت كل شي الا امر النصارى فانهم بغير بطرك وقد استضروا وانحلت نواميسهم. فقال لهم: لا بد من شي [مال] للسلطان. فقرروا معه خمسماية دينار فكتب الى السلطان واستاذنه فجاء جوابه بان يختاروا فاختار المستوفيون وجماعة

الخلعة وهو فى بدر، فهرعت اليه الاشراف، والعربان، وسافرت العسكر من مصر، فى ثامن عشر شوال سنة ١٠٤١[١]. وكان خروج رضوان بيك أمير الحاج فى عشرين شوال. فجعل يوسف بيك الشهير بافرنج سردارا على خمسماية نفر، وأرسلهم الى البحر، صحبة محمد بيك بن سويدان القبطان ـ وتوجهوا الى بركة الحاج واجتمعوا هناك ثلاثة أيام، وعملوا شنكا، ثم توجهوا الى السويس. فلما سافروا، ودخلوا الينبع استقبلهم الشريف زيد واخلع عليهم، وعلى رضوان بيك، وقاسم بيك، وعلى بيك، وساروا الى أن وصلوا الى وادى فاطمة. رضى الله عنها[٢]، فاستقبلهم شيخ الحرم وصحبته جماعة من البغاة ليسألون قاسم بيك أن يجعلهم محافظين بمكة، فابى قاسم بيك، وقال: ما بيننا الا السيف وكان كبير البغاة يقال له محمود، مستخفيا من وراء الجبال، فلما رأى العسكر رجع الى مكة، وأخذ جماعته، وهرب الى قلعة تربة[٣]. فلما دخل العسكر الى مكة لم يجدوا بها أحدا من البغاة. ثم اتفق أمرهم أنهم يذهبون الى قتال البغاة بعد أداء الحاج، فلما قضوا نسكهم، ساروا الى البغاة وحاصروهم، ثم قطعوا عنهم الماء الذى كان يدخل اليهم. فلما اشتد بهم العطش، وضعفت قوتهم، وقعدوا عن القتال خرجوا من القلعة فأخذتهم السيوف من كل مكان، وقبضوا على نحو ألف رجل

(١) ٨ مايو ١٦٣٢م.
(٢) وادى فاطمة: احد الوديان الشهيرة ببلاد الحجاز.
(٣) قلعة تربة: بالأصل «ظربة»، وهى احدى القلاع الحصينة، تقع على مسافة جنوب شرق مكة.

الرعاع راهباً يقال له بولس البوشي، وكان في ذلك الزمان قد حضر من ديره ليتداوى لانه كان بحمى الكبد، ووازرهم على ذلك الصاحب [ابن شكر] واختار بعض الناس القس داود بن يوحنا المعروف بابن لقلق. ولم يكونوا يجسرون ان يظهروا ذلك لان القسيس المذكور مشهوراً بانه صاحب الشيخ نش الخلافه بن المنقاط، والشيخ المذكور فهو [كان] عدو للصاحب لا يصل له الى

منهم، وصاروا يقتلون في كل منزلة طايفة منهم، الى أن دخلوا مكة، ومعهم نحو الثلاثماية رجل. فلما دخلوا مكة أشهروا محمود على جمل بالشاميات. ثم كبلوه من يديه ورجليه بالكلاليب فبقى في الكلاليب ثلاثة أيام. ورموا رقاب الثلاثماية في جميع شوارع مكة. وأما الشريف نامي، فانهم اثبتوا عليه قتل شريف مكة، ومصطفى بيك أمين جدة، فشنقوه في المعلى وزينت مكة ثلاثة أيام. وخرج العسكر من مكة في غرة صفر سنة ١٠٤٢[١]. ودخلوا مصر منصورين مؤيدين. وزينت مصر ثلاثة أيام بلياليها. ثم أن خليل باشا أقام إلى (أن) جاء مسلم جرجي أحمد باشا[٢]، وعمل قاسم بيك قايم مقام.

٤٨. ذكر تولية جرجي أحمد باشا رامي النحاس

عفى الله عنه

قدم الى مصر سنة ١٠٤٣، فاستمر واليا بها الى أن عزل في خامس عشر جماد الأول سنة ١٠٤٥[٣]، فكانت مدة ولايته سنتين ونصف. وكان قدومه من طريق البحر من اسكندرية. وفي أيامه عين سفرة على ابن معن بجبل الدروز، بألفين نفر، جعل سردارهم حسين بيك

(١) ٧ اغسطس ١٦٣٣م.
(٢) الاضافة لتوضيح المعنى، بالاصل «محمد باشا» والتصويب اكتوبر ١٦٣٥م.
(٣)مدة ولايته : ١٠٤٢ / ١٥ جماد أول ١٠٤٥ هـ ـ ١٦٣٣ / ٢٧ أكتوبر ١٦٣٥ م.

دار بالضـد [بالعند] من كل من في البـلاد. وكل من سـمع انه يسلم عليـه [على نش الخلافـة] فى الطريق عمل فى اهلاكه لا سيما من يكون صديقه وصـاحبـه. فكان كل من يريد القس داود يخـفى ذلك و لا يظهـره خـوفـا من الصـاحـب. [و] تعـذر الحال لبولس البوشي وأنبـرم (*) وجات الاساقفـة وكتبوا له محضراً كتب فيه اكثر الناس بالرضى به لاجل نفس الصـاحب، الى ان وقف للسلطان قـوم

(*) انبرم: اعتذر

الفقارى، فتوجهوا الى الشام، وأخذوا من الشام عساكر، وركبوا جبال معن، وملكوهم، وقتلوا ابن معن، ونهبوا جبال ابن معن عن آخرهم. وفى أيامه ورد من الديار الرومية أقراص النحاس لتباع فى مصر، فجمع الباشا العسكر، واستشارهم فى أمر النحاس، فأشار بعضهم برميه على التجار، وبعضهم أشار برميه على الأوقاف. وكان مراد الوزير (أن)[1] يرسله الى بلاد السودان والتكرور، ويدفع الثمن [من] عنده الى السلطنة، فمـا أراد الله، وحـصل للناس ضـرر عظيم بسببه. وعين الباشا لرمى النحاس، مصطفى بيك، وألبسه قفطان، فنزل الى حوش اقبردى، وصار يرمى النحاس فى سادس الحجة ختام سنة ١٠٤٣[2] فمكث سنة وهو يرميه على الناس كل قنطار ٢٤٠٠ نصف. وكان آخر الرمى فى أواخر ربيع آخر سنة ١٠٤٤[3]، فرموه على أرباب الحرف، وعلى أهل الأوقاف وتحصل ثمنه فى غاية شعبان وفى أيامه ورد أمر شريف بطلب ثلاثة آلاف وأن يكون صارى عسكرهم دليور بيك الذى بيته قريب من بيت حسن آغا بلفيه من جهة جامع المردانى[4]. وكان سفرهم من مصر الى بغداد يوم الخميس ثالث عشر

(١) الاضافة لتوضيح المعنى.

(٢) ١٦ يونيه ١٦٣٥م. (٣) اواخر اكتوبر ١٦٣٤م.

(٤) جامع المردانى: موقعه بجوار خط التبانة، خارج باب زويلة، انشأه الأمير الكبير طنبغا الماردانى ٧٤٠هـ/ ١٣٤٠م، وهو جامع مرتفع البناء، وذا اتساع عظيم، وكانت عليه أوقاف تحت نظر ديوان الأوقاف، والآن معطل الشعائر، انظر: على مبارك، المصدر السابق جـ٥، ص٩٨ ـ ٩٩.

لا يعنى بهم وقالوا: يا مولانا نحن ما نرضى بهذا البوشي وعندنا من يصلح سواه. فقال: ومن هو قالوا: داود ابن لقلق ونشتهى من مولانا ان يحضر الاثنين الى بين يديه ويسمع حديثهما وعلمهما ومن رجحه فقد رضيناه لان مولانا نايب الله في ارضه. فقرر احضارهما وقد كان الشيخ نش الخلافه تحدث مع السلطان في ذلك وقرر القاعده وانتهى الحال فيما بين اصحاب الاثنين الى ان

الحجة ختام سنة ١٠٤٤[(١)]. ولما طلع العسكر الى سفرة بغداد، جاءه العزلان، وورد مسلم حسين باشا الدالي.

٤٩. ذكر تولية حسين باشا الدالى عفى الله عنه

قدم الى مصر في خامس عشر رجب الفرد سنة ١٠٤٥، وعزل في ١٥ جماد أخرى سنة ١٠٤٧[(٢)]، فكانت مدة ولايته سنتين. وكان سمينا، شجاعا، فارسا، الا أنه كان سوداوى. وكان يركب في مصر متخفيا ويطوف بالليل[(٣)] فمن لقيه يقتله. فمن جملة ما قتل في ليلة واحدة خمسين نفسا. واتفق له يوما أنه كان متوجها الى مصر القديمة فرأى الخلق مجتمعين[(٤)] في خضرة البطيخ، فهجم عليهم وقتل منهم ثلاثة عشر نفسا، فسموه بالمجنون. ولما عزل عن مصر عمل حسابه فطلع عليه ألف ومايتان اثنان وأربعون كيسا. ولما طولب بها لبس سلاحه هو واتباعه، وعزم على السفر، فاجتمع العسكر وقالوا له: أين تروح من غير دفع المال الذى عليك، قال: ان أنا لم أدفع ما أنتم صانعون؟ قالوا: نحبسك في كشك يوسف صلاح الدين. ثم أنه طلب الجواد فركبه وتوجه الى قصر يوسف وحبس نفسه من قبل أن

(١) ١٠٤٤هـ = ١٦٣٥م.
(٢) مدة ولايته: ١٥ رجب ١٠٤٥/ ١٥ جماد آخر ١٠٤٧هـ - ٢٥ ديسمبر ١٦٣٥/ ٦ سبتمبر ١٦٣٧م.
(٣) بالأصل «باليل».
(٤) بالأصل كتبت «حلقة» وشطبت.

جعلوا المبلغ الف دينار فاما اصحاب داود [ابن لقلق] فكانوا يقولون انهم يقترضونها ويدبرونها ولا يكلفون احداً شيا فاما اصحاب بولس [البوشى] فكانوا قد قرروا مع الصاحب انهم يجبونها من النصارى بالوجهين القبلى والبحرى والناس كافة. فاعتمد السلطان على احضارهما فى يوم معين لانهما كانا فى حيز مصر وان يحضر بطرك الملكية معهما فحضروا جميعاً واحضر السلطان الفقها

يطالبه أحد بذلك، ولم يدفع من الذى عليه شيئا، وعينوا لمحافظته خيدر بيك، ورضوان بيك الفقارى، ووالى بيك[1]. ثم ورد مسلم محمد باشا.

٥٠.ذكر تولية محمد باشا زلعة السم عفى الله عنه

قدم الى مصر ثانى رجب سنة ١٠٤٧، فاستمر واليا بها الى أن عزل فى ثانى عشر جماد أول سنة ١٠٥٠[2]. وكانت مدة ولايته ثلاث سنوات وتسعة أيام وكان ابن أخت السلطان سليم الثانى. وفى سنة ١٠٤٨[3] توفى الشيخ إبراهيم اللقانى بالعقبة، وهو راجع من الحج، رحمه الله تعالى، وعملوا تاريخا لموته (الجبر على الطروس رقياه). وفى أيام هذا الوزير ورد فرمان شريف بطلب ثانى سفرة ـ ألف وخمسماية ـ الى بغداد، وأن سنجقها رضوان بيك الشواربى فبمجرد ما ترى الأمر ألبس الوزير قفطان السفرة الى رضوان بيك، وشرع فى كتابة جماعة من الأكابر والأعيان. وخرجوا من مصر فى أواخر محرم سنة ١٠٤٨[4]، ولم يحصل

(١) هكذا بالأصل، وفى التحفة ص ١٩٢ «ولى بيك».
(٢) مدة ولايته: ٢ رجب ١٠٤٧/ ١٢ جماد اول ١٠٥٠هـ ـ ٢٠ نوفمبر ١٦٣٧/ ٣٠ اغسطس ١٦٤٠م، وفى التحفة ص١٩٢ انه قدم الى مصر ٨ رجب ١٠٤٧ ـ ٢٦ نوفمبر ١٦٣٧م، وعزل فى ١٢ جماد آخر ١٠٥٠هـ ٣٠ سبتمبر ١٦٤٠م.
(٣) ١٦٣٩م.
(٤) اوائل يونيه ١٦٣٨م.

واجلا الناس، وعبر مع داود اثنان من اصحابه واما بولس [البوشي] فلم يتركوا احداً يعبر معه. وخرج داود مرجحاً الا ان الحال واقف لاجل ما قاله فخر الدين عثمان للسلطان لاجل عرض الصاحب وصار الناس فيتين [فئتين] ورجعوا الى ما كانوا عليه من البغضة والتعادى وعمل المحاضر المزوره فى حق القس داود وايصالها الى السلطان، ا لى ان اوقفوا خاطره فى القضية وضاق الوقت

لأهل مصر منهم شيء. وكانوا فى العدد ألف وخمسماية، وكانوا بخدمهم، وأتباعهم نحو الخمسة آلاف. وبعد سفر الحاج أرسل الباشا الى حسين باشا يطلب منه المال، فدفع لهم أربعماية كيس، وسألهم أن يكتبوا عليه حجة ويرسلوا الى الأعتاب العليا. فاتفقوا على أنهم يكتبوا حجة بالباقى الذى عليه، ويرسلوا الى السلطان ثم أن الوزير أخرجه من الحبس، فبمجرد خروجه من الحبس، ركب جواده، وتوجه الى الديار الرومية. ثم أن الوزير أرسل بعد توجهه، عرضين: واحد: من جهة حسين باشا، والثانى: من جهة أمير الحاج، رضوان بيك، بأن يعزله ويجعله باشة[1] الحبش. فبعد مضى خمسين يوما، ورد جواب العرضين، واحد بالعفو عن حسين باشا الدالى، والثانى بعزلان رضوان بيك الفقارى من امارة الحاج، وتوليته باشا بالحبش. فلما ورد الخط الشريف، ألبس الوزير الى ترك بيك قفطان امارة الحاج، واعطاه الخط وبيرلدى، وأرسله ليتسلم المحمل الشريف. فلما وصل الى بندر العقبة. وتلاقيا برضوان بيك، وأعرض عليه صورة الخط والبيردى بتسليم المحمل الشريف، أجاب بالسمع والطاعة، وأن يتوجه الى الحبشة باشا عليها، فامتثل الأمر، وسلم المحمل، وركب هجينا وصحبته خمسة أنفار من خدمة، وتوجه الى الديار الرومية. فاجتمع بالسلطان مراد خان، فأمر بحبسه، وبيع جميع ما تملك يده بمصر، ويرسلوا جميع ما تحصل من أثمانهم. فضبطوا جميع ما يملك من أمتعة وبلاد وغيرها، فجمع خمسماية كيس، وأرسلها الباشا الى القسطنطنية، خلاف ما أخذه الباشا

(١) بالأصل «باشت» بالتاء المفتوحة، وقد كتبتها كلما وردت بصورتها الصحيحة.

وتدحرجت الايام وجاء العيد والحال على ما هى عليه. وفى اخر هذه السنة توفى الصاحب [ابن شكر] الوزير ودفن بالقاهرة فى موضع قريب من داره عمره لنفسه وكان له خروج عظيم وجنازه عظيمة شهدها كل من حضر من المدينتين [القاهرة ومصر عتيقه] وسير السلطان اولاده واقاربه صلوا عليه. ثم دخلت سنة اثنين واربعين وتسع مايه(*) فى شعبان سنة اثنين وعشرين وستمايه والنيل لم يوف ولا وصل

(*)٩٤٢ش = ٦٢٢هـ= ١٢٢٦م.

لنفسه. فاستمر رضوان بيك محبوسا الى ان توفى السلطان مراد، وتولى السلطان إبراهيم[١]، فأطلق رضوان بيك وأنعم عليه. بجميع ما أخذ منه، واخلع عليه قفطان امارة الحاج، فخلد الى الممات. فلما ورد الى مصر، استرجع جميع ما كان أبيع وأكثر منه. وفى مدة الباشا المذكور وقف النيل على الزيادة الى آخر مسرى القبطى، ثم لما جلس السلطان ابراهيم، أرسل عزل الباشا، وورد مسلم مصطفى باشا.

٥١.ذكر تولية مصطفى باشا البستنجى عفى الله عنه

قدم الى مصر فى عاشر جماد آخر سنة ١٠٥٠، فأقام بها الى أن عزل فى يوم الجمعة سابع عشر رجب سنة ١٠٥٢[٢]، فكانت مدة ولايته سنتين وشهرا واحدا. وفى سنته جاء الشراقى فى اقليم مصر، واستمر الى آخر، مسرى، كما تقدم، ثم أخذ فى الهبوط، فجبروه، ولم يوف خمسة عشر ذراعا، وحصل للباشا كرب عظيم، الى أن أبيعت الوية الحنطة بثلاثين نصفا فضة، وفى أيامه كثرت المناسر[٣]، لكونهم لم يجدوا الخبز. ونزل الباشا الى المقياس.

(١) تولى السلطنة: ١٦٤٠/ ١٦٤٨م.
(٢) مدة ولايته: ١٠ جماد آخر ١٧/١٠٥٠ رجب ١٠٥٢هـ ٢٧ سبتمبر ١١/١٦٤٠ أكتوبر ١٦٤٢م.
(٣) بالاصل «المناصر» وصحتها المناسر، والمقصود بها قطاع الطرق.

المقـــرر(*) والاسعار قد تحركت وفى ليلة الاربعاء السادس من توت(*) كسر الخليج من قبل الوفا سراً ولم يعلم به احداً وشاط(*) سعر الغلة وطلبها الناس فمنع السلطان احداً ان يبيع منها شيا اصلا. ثم وصل المقرر فى النهار المذكور فاهتدى الناس واملوا ان المآء يزيد فتمادى الحال ونقص الماء. وكانت الغلة فى هذه السنة كثيرة فاستقر سعر القمح العالى الغاية على عشرين درهم الاردب

(*) أى لم يرتفع إلى الحد الذى تحدد عليه الخراج.
(*) توت = ٣ سبتمبر حسب التقويم الجوليانى.
(*) شاط: ارتفع وزاد.

ومكث فيه احدى عشر يوما، فلم يوف، ولما زعل، أمر بجبره فجبر، فلم يتعدى من قناطر السباع، وكانت سنة شديدة على الغنى والفقير. ودخلت اللصوص الى الأسواق، وصاروا يأخذون فى كل ليلة محلات. واستمر ذلك الى أن رحلت الناس من المحلات المطرفة. ودخلت اللصوص الى سوق ابن طولون. واخذوا منه ثمانية وأربعين دكانا فى ليلة واحدة، من سوق المغاربة. وطلعت طايفة من المغاربة الى الباشا، واعرضوا عليه الأمر، فأمر الوالى أن يأخذ بخاطرهم. فتصالح واياهم على كيسين دراهم. وكل ذلك لعجز الباشا، وضعف أحكامه، لأن الوالى كان اذا مسك أحدا وأحضره بين يديه ممن يستحق القتل، يقول له الباشا، استتوبه، واطلقه، فينزل الوالى ويأخذ بلصته ويطلقه. فزاد الكرب، واستمرت اللصوص (فى الدخول الى الأسواق وأخذها الدكاكين)(١). الى أن عزل، وتولى مقصود باشا.

٥٢.ذكر تولية مقصود باشا

عفى الله عنه

قدم الى مصر فى ثامن شعبان سنة ١٠٥٢، فاستمر واليا بها الى أن عزل فى ثالث عشر صفر سنة ١٠٥٤(٢)، فكانت مدة ولايته سنة ونصفا، وارخوا قدومه: مقصود بخير. وفى أيام

(١) الاضافة لتوضيح المعنى، كما يفهم من سياق الكلام السابق بسطور.
(٢) مدة ولايته: ٨ شعبان ١٠٥٢/ ١٣ صفر ١٠٥٤ ـ ١ نوفمبر ١٦٤٢/٣ مايو ١٦٤٣م، فى التحفة انه عزل ١١ صفر ١٠٥٤هـ ـ ١ مايو ١٦٤٣م.

والشعير ثلثة عشر درهما والفول عشرة دراهم والجميع من هذه النسبة ولم يغل شي لا لحم ولا غيره. وغاية ما انتهى اليه [الفيضان] في هذه السنه ستة عشر اصبعا من ستة عشر ذراعاً ولم يوف ولا خلق [خلق أى بلغ حد فرض الخراج] المقياس في هذه السنة ولا نودى عليه. ثم ان السلطان كثر تخيله [خوفه] من الأمرا فاعتقل جماعة اخرى ثم قبض على اولاد الصاحب

(*) أهم أحداث سنة ٩٤٢ق. = ١٢٢٦م. = ٦٢٣هـ.
* فيها نازل الملك المعظم عيسى، صاحب دمشق، حمص، ثم رحل عنها لكثرة موت الخيل، وورد عليه الأشرف طالبا للصح فاكرمه ظاهرا وأسره باطنا.
* فيها كان استيلاء لويز الثامن على افينون.
* كذا فيها كان وفاته، وتولية لويز التاسع.
* في ١٤ رجب توفى الخليفة الظاهر بأمر الله محمد بن الناصر، وولى

ولايته حصل الطاعون بمصر الذى ما عليه من مزيد ولم يسمع بمثله في زمن جعفر باشا وعلى باشا بحيث أن الجنايز صارت تمر في الأسواق مثل قطارة الجمال. ومكث سبعة أشهر، ثم أخذ في التراجع. وكان قبله الغلاء الشديد فحصل للناس ضعف وفقر. وفي زمنه ورد أمر شريف ببيع جميع ما يملك مصطفى باشا في نظير ما تحرر عليه من الحساب والبواقي، وقدره ألف وسبعماية كيس، وأن يباع جميع أسباب كتخداه وكاتب ديوانه واتباعه، فباعوا جميع ذلك، فتحصلت منه أربعماية كيس، ولم وجدوا له جهة يتحصل منها شيء، فاعرضوا الى الديار الرومية. فعاد الجواب بأن يكتب عليه حجة، وترسل صحبة الاغا. فكتبوا عليه حجة وأرسلوها صحبة الاغا المعين. وكان مقصود باشا حاكما عالما بمواقع أحكام السياسة. وفي أيامه أبطل كثيرا من المظالم والموازين والذراع، وما يؤخذ من المغانى وغيرهم. وتقيد بالفحص عن السراق واللصوص الذين كانوا ظهروا في مدة مصطفى باشا فقتل منهم طايفة عظيمة. وفي أيامه أمر الوزير أن يقطع الخليج الحاكمى (فقطع من أرضه ستة أذرع ونصف)(١) والناصرى(٢) ذراع ونصف أسلانبولي. في أيامه وهو ربيع الآخر سنة ١٠٥٣(٣) أمر الوالى أن يمسك الناس الى المقداف، فانقطع الجالب عن مصر، وانقطع اهل القرى الذين كانوا ياتون بالمواشى والغلال، فغلت الأسعار، ووصل الأردب القمح ثمانية قروش، واشتد الكرب، وأبطل

(١) الاضافة لتوضيح المعنى من التحفة، ص١٩٥.
(٢) بالأصل «الناصره».
(٣) يونيه ١٦٤٣م.

وغلمانه وعاقبهم وطالبهم بالاموال. وكان هذا الوقت وقتا صعباً لان السلطان طالب الناس بالبواقي [من الخراج] وامر بتخريج الاخلاف (*) والمطالبة بالاموال وهو مقيم بالقلعة المحروسه وابنه صاحب اليمن عنده بالقاهرة وجميع العساكر بعد ان خرجوا في اواخر السنة الخارجة [الخراجية] الى ظاهر القاهرة وخيموا اياماً ولبسوا كلهم العدد والتشاهير (*) وعرضوا كل امير ولا يزالوا [ولا ينزلوا] بالقاهرة لا صغير منهم ولا كبير. وكان

الخلافة بعده ولده الأكبر المستنصر بالله أبو جعفر المنصور.

* [١ توت سنة ٩٤٣ = ٢٩ اغسطس ١٢٢٦ = السبت ٤ رمضان سنة ٦٢٣].

(*) تخريج الاخلاف: أى: جمع الخراج المقرر على الاراضى التى يتولاها الخلفاء (الكاشف) من رجال الدولة.

(*)التشاهير: الاسلحة.

القرض الذى كان يؤخذ فى أيام الخزينة، وابطل أربعين قلما من المظالم. وفى ايامه وقعت واقعة فى ثغر اسكندرية، ان قبطانا عمر مركبا فى البحر، وأراد أن ينزلها البحر، فجمع النصارى الذين فى المراكب، وحلوا جميع قيودهم لتنزيل الغليون[1] الى البحر، وكانوا نحو الستماية نفر، فخلوا الناس وهم فى صلاة الجمعة فانفرد منهم ثلاثماية نفس، وكسروا باب الترسخانة واخذوا السلاح الذى فيها، وفردوا قلاعهم وتوجهوا بعد أن نهبوا أسواق البلد[2]، الى ظهر البحر المالح. ولما طلعت الناس من صلاة الجمعة، فما وجدوا أحدا. واستمر الباشا نافذ الكلمة الى أن قامت العسكر عليه، وعزلوه، وجعلوا شعبان بيكى قايم مقام. وأعرضوا الى الاعتاب العلية، فوجهوا محافظة مصر الى أيوب باشا الوزير، وأنزلوا مقصود باشا الى البيت الذى فى الصليبة.

٥٣.ذكر تولية الوزير أيوب باشا
عفى الله عنه

قدم الى مصر فى ثامن ربيع أول سنة ١٠٥٤، فأقام واليا بها الى أن عزل فى غرة ربيع

(١) الغليون: ضرب من المراكب الشراعية الاسبانية، يمتاز بعظم المقدم والمؤخر وقد برز هذا النوع كمركب حربى منذ أواخر القرن الخامس عشر الى أوائل القرن السابع عشر. انظر: درويش النخيلى، السفن الاسلامية، ص١١٢ ـ ١١٤، دكتوره سعاد ماهر، البحرية فى مصر الاسلامية ص٣٦٠ ـ ٣٦١.

(٢) بالأصل «وتوجهوا» حذفت ليتسق المعنى.

الذهب فى طول هذه الايام لا يقدر عليه حتى ان الصرف بلغ الى اربعة واربعين درهماً ونصف بدينار واستمر كذلك. ورسم السلطان ان يفتح دار ضرب بالقلعة(*) ودار اخرى بمصر مع الدار التى بالقاهرة ففتحت الدار التى بالقلعة وضربت بها دراهم مدوره. وغلا الذهب بالكليه الى ان كاد يعدم. وبيعت الدراهم خمسين درهماً بدينار واقله سبعة واربعين درهما بدينار. ثم خرجت الدراهم المذكورة

(*) أصل تأسيس دار الضرب بالقلعة.

أول سنة ١٠٥٦[1]. فكان مدة ولايته سنتين واثنين وخمسين يوما. وفى أيامه جدد ما كان ابطله مقصود باشا من المظالم والمكس، ولكن حصل فى أيامه الرخاء الزايد، الى أن أبيع الأردب القمح بعشرين نصف فضة، والأردب الشعير بثمانية انصاف. وفى زمنه طلب الى قلعة جريدة[2] سبعماية نفر، ثم عزل، وجاءت قيامة مقام الى قانصوه بيك.

٥٤. ذكر تولية محمد باشا الشهير بحيدر زاده

عفى الله عنه

قدم الى مصر فى يوم الخميس سادس جماد أول سنة ١٠٥٦، فاستمر واليا بها الى أن عزل فى غرة القعدة الحرام سنة ١٠٥٧[3]، فكانت مدة ولايته سنة وسبعة أشهر. وفى أيامه تحركت الفتنة، وسبب ذلك أن الباشا جعل الحل والربط لقانصوه بيك، وماميه بيك القاسمى. واراد أن يحط بشهامة رضوان بيك الفقارى، لأن الباشا كان يميل الى طرف[4] ولا يصدر من الباشا أمر من الأمور الا بمعرفة قانصوه بيك، لكون أنه كان قايم مقام. فحصل عند عسكر مصر غيرة من قانصوه، بيك، فحسده طايفة الفقارية. وقامت النار بينهم فارشوا الباشا، وقتلوا

(١) مدة ولايته: ٨ ربيع أول ١٠٥٤/غرة ربيع أول ١٠٥٦هـ ـ ١٥ مايو ١٦٤٤/١٧ ابريل ١٦٤٦م.
(٢) جريد = كريت.
(٣) مدة ولايته: ٦ جماد أول ١٠٥٦/ غرة القعدة ١٠٥٧هـ ـ ٢٠ يونيه ١٦٤٦/٢٨ نوفمبر ١٦٤٧م.
(٤) بالاصل «طرق».

وامر ببيعها سبعة وثلثين درهماً بدينار وان يكون العتق(*) اثنين واربعين درهما بدينار. وكان الناس في هذا الزمان في ضيق عظيم وتخبيط، والسلطان يطلب الاموال ويجمعها من كل وجه، واولاد الصاحب وغلمانه في العصر [التعذيب] والعقوبة وهم يبيعون ويوردون . ثم ان الماء كان قد انتهى الى ما تقدم ذكره ولم يغلق [المقياس] وانحط الى ثلاثة عشر ذراعا ثم رجع زاد في اواخر بابه(*) الى ان بلغ الى اصابع من خمسة عشر ذراعاً ثم نقص

(*) العتق = الدراهم القديمة. تلاعب السلاطين بالعملة.

(*)يبدأ شهر بابه في ٢٨ سبتمبر وينتهي في ٢٧ اكتوبر بحسب التقويم الجوالياني.

قانصوه بيك، ومامية بيك، ومحمد بيك بن المكسح، وسبعة عشر من أعيان القاسمية، ما بين أغا وأمير. ونفوا البعض، وهرب البعض. وختموا على منازلهم، وضبطوا جميع موجوداتهم. وكان سبب تلك الفتنة أن جماعة قالت لرضوان بيك الفقارى، أمير الحاج، أن قانصوه بيك يسعى في امارة الحاج لمامية بيك الفقارى، وانه اعرض الى الديار الرومية في حقك وفي حق على بيك، صنجق الصعيد. وأنه أرسل يطلب صنجقية الصعيد لمحمد بيك ابن المكسح. وحلفوا لرضوان بيك انهم ختموا على العرض الذى توجه الى الديار الرومية، مع جملة من ختم عليه. ومن يسمع يخل. وكانوا أعيان من أصحاب الحل والعقد. فصدقهم أمير الحاج، رضوان بيك، وأرسل يعرف على بيك بواقعة الحال بهجان ويأمره بالحضور. فحضر بعسكره جميعا فراى (٣٦) الفتنة همدت بقتل الجماعة وهرب الباقي. وفي أيام ولايته ألبس الباشا قفطان السنجقية ليزبك جلبي بن رضوان بيك أبو الشوارب، لما جآءه خبر موت أبيه. ثم قامت العسكر على الباشا بعد قتل الجماعة المذكورين، وأنزلوه من القلعة. وجعلوا حسين بيك صهر؟؟ باشا، قايم مقام. ثم اعرضوا الى الأعتاب العلية، فولوا محمد باشا الشريف.

٥٥.ذكر تولية محمد باشا الشريف عفى الله عنه

قدم الى مصر في يوم الخميس غرة صفر بسنة ١٠٥٨ ، فاستمر واليا بها الى أن عزل في

الى ان عاد الى ثلثة عشر ذراعاً ثم عاد زاد الى ان بلغ ما كان عليه في الاول وغرق كل ما كان قد زرعه الناس. وعاد [الفيضان] عبر الخليج وعبرت فيه المراكب في النصف من هتور(*) بعدما كان قد جف ومشى الناس فيه وتعجب من هذا الامر كل احد.

(*) يبدأ من ٢٨ اكتوبر الى ٢٦ نوفمبر.

وفي هذه الايام اسلم راهب من رهبان دير ابو مقار ووشى بالرهبان عند السلطان وذكر ان فيهم من يحتمي بالرهبنه عن وزن الجالية(*) وان

(*) الجزية. أى ان هناك من يدخل سلك الرهبنه هرباً من الجزية.

صفر سنة ١٠٥٩[١]، فكانت مدة ولايته سنة وسبعة عشر يوما. ولما استقر فى مصر، عمل حساب محمد باشا، فقطع عليه تسعماية كيس، وذلك من مال الذين قتلوا، وهربوا. وفى أثناء ذلك ورد خط شريف بالافراج عن محمد باشا، فاخرج من الحبس، وتوجه الى الديار الرومية. وفي سابع صفر[٢]، ورد الخبر بعزلان محمد باشا الشريف، وتولية أحمد باشا ارنؤط، وهو أول نياب السلطان محمد بن السلطان ابراهيم خان[٣].

٥٦.ذكر تولية أحمد باشا أرنوط أول نياب السلطان محمد عفى الله عنه

قدم الى مصر فى آخرة ربيع أول سنة ١٠٥٩. فأقام واليا بها الى أن عزل فى غرة صفر سنة ١٠٦١[٤] فكانت مدة ولايته سنة واحدة واحد عشر شهرا. وكان فى أيامه قيطاز بيك متولى ببندر جدة، فتولى حسن باشا ببندر جدة، وعزل قيطاز بيك. فلما ورد الباشا حدثت فتنة بين زيد شريف مكة، وبين واحد شريف، وآل أمرها الى المحاربة فاقتصر قيطاز بيك الى طرف

(١) مدة ولايته: غرة صفر ١٠٥٨/ صفر ١٠٥٩هـ ـ ٢٦ فبراير ١٦٤٨/ فبراير ١٦٤٩م.
(٢) ٢٠ فبراير ١٦٤٩م.
(٣) هو السلطان محمد الرابع وتولى السلطنة: ١٦٤٨/ ١٦٨٧م.
(٤) مدة ولايته: غرة ربيع أول ١٠٥٩/ غرة صفر ١٠٦١هـ ـ ١٥ مارس ١٦٤٩/ ٢٤ يناير ١٦٥٠م.

عندهم حقوقاً ومواريث الديوان. ورسم السلطان ان يخرج معه امير من الامرا للكشف عنهم فخرج معه امير يعرف بابن سيروين وصار الى الدياره [الاديرة] بوادى هبيب [وادى النطرون] فلم يجعله كشفا بل امسك الرهبان وضربهم وعلقهم وعاقبهم الى ان قطع عليهم ستماية دينار واستخرج منها اربع ماية دينار واحضرها صحبته وقرر معهم ان يحصلوا المايتى الاخرى حتى يعود ياخذها منهم. وحمل المبلغ المذكور الى السلطان

حسن باشا، وانضم اليه، وحاربوا، وضربوا المدافع على بيت زيد، وعلى الحرم المكى، وجرت أهوال عظيمة، تقشعر منها جلود المؤمنين. وكان سبب ذلك ان قيطاز بيك كان أوعد رجلا من الأشراف أن يأخذ له شرافة مكة بمعرفة حسن باشا. فبلغ ذلك الى زيد، فكان ذلك سبب الفتنة. ثم أن علماء مكة وأعيانها كتبوا عرضا فى حق قيطاز بيك بما حصل منه من الاهانة، وانتهاك حرمة البيت الشريف، وأرسلوه الى الديار الرومية. فورد خط بقتل قيطاز بيك، فأخفاه أحمد باشا. وفى أثناء هذه القضية، ورد خط شريف بطلب خمسماية نفر (٣٧) الى قلعة جريد للمحافظة. فولوا حسين جاويش مستحفظان، سرداراً، وسافرت العسكر من بولاق، فى سادس ربيع أول سنة ١٠٦١[1] ثم بعد ذلك ورد عزلان أحمد باشا، فعمل الباشا حسابا مع أهل مصر، وأخذ الرزنمجى دفتر الحساب[2]، وخطه، بعلم المتأخر عليه. ولما جاء مسلم عبدالرحمن باشا، نزل أحمد باشا فى بيت ابن خضركتخدا عزبان الذى بطولون. ثم مكث أربعين يوما، ودفع ما كان عليه من المال، من غير ان يسأله أحد ولما أراد التوجه الى الروم منعوه من ذلك، وقالوا له أن عليك بقايا من الأموال، وكان نازلا بخيامه برا[3] العادلية، فلم يلتفت اليهم، ولبس هو وعسكره آلة الحرب، وسافر على حمية، وأى حمية.

(١) ٢٧ فبراير ١٦٥٠م.
(٢) بالاصل «وأخذ دفتر الحساب الرزمنجى».
(٣) برا بمعنى خارج.

وهو اربع ماية دينار وقال له انى مضيت الى الدياره
وقلت للرهبان احلفوا انه ليس للسلطان عندكم
حق فاشتروا يمينهم بستماية دينار وقد احضرت
منها اربع ماية دينار والبقية انا احضرها وما
انفصلت منهم الا وهم على تحصيلها. وحضر من
مشايخ الرهبان جماعة ووقفوا للسلطان اعز الله
نصره وشكوا له قضيتهم فلما وقف على امرهم
امر بان يعاد ماحمل من جهتهم عليهم فاخذوه
وجعلوه فى صينيه واوقدوا الشمع وداروا به القاهرة

٥٧.ذكر تولية عبد الرحمن باشا الخادم
عفى الله عنه

قدم الى مصر فى يوم الاثنين ثانى عشر ربيع أول سنة ١٠٦١، فاستمر واليا بها الى أن عزل فى خامس شوال سنة ١٠٦٣م[١]، فكانت مدة ولايته سنة وسبعة أشهر. ولم يحصل فى مدته قيل ولا قال، ولا نزاع. وكانت أيامه أحسن الأيام. ثم عزل وتولى بعده على مصر القاهرة محمد باشا أبو النور.

٥٨.ذكر تولية محمد باشا أبو النور
عفى الله عنه

قدم الى مصر فى عشرين جماد أول سنة ١٠٦٣، فاستمر واليا بها الى أن عزل فى ثامن شعبان سنة ١٠٦٦[٢]، فكانت مدة ولايته ثلاث سنوات وتسعة أشهر. ولما استقر فى مصر زار القرافة، وزار مقام سيدى عقبة بن عامر الجهنى، الصحابى[٣]، رضى الله تعالى عنه، فأمر

---

(١) مدة ولايته: ١٢ ربيع أول ١٠٦١/ ٥ شوال ١٠٦٢هـ. ٥ مارس ١٦٥٠/ ٩ سبتمبر ١٦٥٢م.
(٢) مدة ولايته: ٢ جماد أول ١٠٦٣/ ٨ شعبان ١٠٦٦هـ ــ ١٨ ابريل ١٦٥٣/ ١ يونيه ١٦٥٦م.
(٣) عقبة بن عامر الجهنى: سكن مصر، وكان واليا بها من قبل معاوية، وكان قارئا وفقيها وشاعرا، توفى ٥٨هـ ــ ٦٨٧م ودفن بمصر فى قرافتها خارج المقطم، على مبارك، المصدر السابق، جـ٥، ص٥٦.

كلها وكانت قضية تعجب منها كل احد
وعجيبة ظهرت من اباء الديارات.

ثم امر [السلطان] بان لا يتعاملوا بالدراهم العتق اصلا بل من كان معه منها شي يمضى به الى الصيرفي وياخذ به ذهبا على حساب خمسة واربعين درهماً [عتيقا] بدينار، ويرجع يصرف الذهب بدراهم جدد على حساب سبعه وثلثين بدينار. كان هذا بالاسم لان الذهب النقي ما كان

بنايه، فبنى، وجعل فيه مسجدا ومدرسة لقراءة الحديث الشريف. وبنا ضريحا، ومكتبا للأطفال، ورتب فيه عشرة أنفار يقرءون القرآن فيه كل ليلة اثنين[1]، وجعل لأرباب الشعاير والفقراء مرتبا من الخبز والشربة. وجعل لهم علوفة تصرف في كل شهر. واشترط في وقفه النظر لمن يكون أغاة الينجشرية بقلعة مصر. وهو الى الآن على ما كان عليه في زمانه، جارى الشعاير والخيرات. جزاه الله خيرا، ورحمه رحمة واسعة، وأمر في أيامه لنظار الجوامع أن يبيضوا الجوامع والزوايات والرباطات[2]، والمشاهد فبيضوها جميعا، فبسبب ذلك سمي أبو النور. وفي زمنه (٣٨) ظهر خارجي بارض الحبشة يقال له درويش جمع طايفة من المفسدين فقتل نايب الحبشة، وتولى درويش المذكور نيابة الحبشة، بالقهر والغلبة. فلما ورد الخبر الى مصر، أعرض في شأن ذلك الى الاعتاب العلية. فورد الخبر بتعيين عسكر الى بلاد الحبشة. فعين من العساكر المصرية ألفا وخمسماية، وجعل سردارهم أحمد بيك بشناق. فسافروا من مصر خامس شوال

(١) لمزيد من التفصيل حول هذه المنشآت، والأوقاف المرصودة عليها، انظر: على مبارك، المصدر السابق، جـ٥، ص٥١ ـ ٥٨.

(٢) الربط: دور أعدت لاقامة الصوفية، وخصص بعضها للنساء المنقطعات، أو المهجورات أو المطلقات أو العجائز الأرامل من العابدات، وكان لها الجرايات، والمقامات المشهورة من مجالس الوعظ.
ـ دكتور توفيق الطويل، التصوف في مصر ابان العصر العثماني، ص٣٨، على مبارك، المصدر السابق، جـ١، ص٨٩.

يقدر [الحصول] عليه. وكل من كان معه شى ما كان يقربه [يصرفه]، وانما هو اسم حتى تحل معاملتهم على مقتضى دينهم لانهم يقولوا [المسلمين] ان بيع الفضة بالفضة لا تحل بل حرام وكذلك الذهب بالذهب وكل شى بمثله. وكان الناس يتعاملون بها ولكن فى السر كل عشرة دراهم عتق يحسبوها بثمانية دراهم وربع جدداً، وكل درهم ينقصونه ثلاثة خرايب [خروبات](*)

(*) كانت حبوب الخروب معيار للوزن عند الصاغة، وهى هنا عملة صغيرة جداً وقد استفاد السلطان مبالغ كبيرة من فروق أسعار العملة هذه.

سنة ١٠٦٥(١)، فلما وصلوا حاربوا درويش المذكور. فظفروا به وقتلوه. وقتلوا جميع جنده، ونصرهم الله. وولوا ابن النايب الأول، نيابة الحبشة، عوضا عن والده. لأن أهل الحبشة طلبوه يكون نايبا عوضا عن والده. وعادوا الى مصر بالتأييد والظفر وفى تلك السنة حصل فى مصر طاعون(٢)، الى أن عافت الدنيا بالموتى. وسماه أهل مصر بفصل الحبش. ومات بهذا الفصل من العلماء، الشيخ أحمد السويدى، والشيخ على الاجهورى، وختم الفصل بموت هذين العالمين رضوان الله عليهم أجمعين. ولما ورد أحمد بيك بشناق إلى مصر زينت مصر ثلاثة أيام بلياليها. وفى آخر جماد الثانى سنة ١٠٦٦(٣) توفى رضوان بيك الفقارى وأمير الحاج الشريف سامحه الله تعالى. فألبس الباشا امارة الحاج لأحمد بيك بشناق. فلما حصل ذلك الأمر، اجتمع الصناجق الفقارية جميعهم وقالوا: كيف يأخذ امارة الحاج رجل أجنبى واحنا فينا الكفاية وهذا لا يمكن ابدا. فباتوا على ذلك وأصبحوا ملأوا(٤) الرميلة. وأنزلوا الباشا بالقهر والغلبة. ونفوا أحمد بيك بشناق خال، إبراهيم بيك أبو الشنب. وكان ابراهيم أبو الشنب خازندار. وكان أيامها خالى العذار وجعلوا حسن بيك الفقارى، سيد أبن الفقار الكبير أمير

(١) ٨ أغسطس ١٦٥٥م.
(٢) كتب عنوان جانبى «اعرف حلول الطاعون بمصر».
(٣) ٢٤ ابريل ١٦٥٦م.
(٤) بالاصل «مليوا».

والدراهم التي تجمع عند الصير في تحمل الى القلعه وهي بعينها التي تضرب وتعمل هذا الدراهم المدورة بلا زيادة ولا نقصان وكانت فايدة للسلطان فيها كل الف دينار ماية وخمسة وسبعين دينار. وكانت الدار تعمل في كل يوم ماية الف درهم فايدتها كل يوم بالتقريب خمس ماية دينار واستمر الحال على ذلك وتوسوس الناس وانضروا واستغاثوا الى الله تعالى فلم يغثهم. وعدم الذهب بالكلية

الحاج، وأعرضوا الى الديار الرومية فوجهت محافظة مصر الى الوزير مصطفى باشا. وأرسل قيامة مقام الى حسن بيك.

٥٩.ذكر تولية مصطفى باشا الوزير

عفى الله عنه

قدم الى مصر يوم الاثنين المبارك خامس عشر شوال سنة ١٠٦٦م فأقام واليا بها الى أن عزل في ثامن رمضان سنة ١٠٦٧[١]، وكانت مدة ولايته سنة واحدة. ولما قدم الى مصر عمل الى أكابر مصر، ضيافة في قراميدان. واصلح بين الفقارية (٣٩) وبين أحمد بيك بشناق القاسمي، المتقدم ذكره، وفي تلك السنة أخرجوا أولاد العرب والشام من السبع وجاقات، وذلك بفرمان سلطاني[٢]. وسببه عرض من أهل مصر. ثم وقعت فتنة بين السبع وجاقات عظيمة من عزل وتولية ونفي وقتل وغير ذلك. ثم ورد خبر بعزلان الباشا وتولية غازى باشا العجمي.

(١) مدة ولايته: ١٥ شوال ١٠٦٦/ ٨ رمضان ١٠٦٧هـ، في التحفة عزل ١٨ رمضان ١٦٥٦/١٦٥٧م.

(٢) كان الانتماء الى الوجاقات للتمتع بامتيازاتها، أصبح سهلا ميسورا، مما جعل السكان يشكون من ظلم المنتمين الى الوجاقات، فكان صدور ذلك الفرمان، وان ثبت من استقراء الأحداث في الفترات التالية ان مثل هذه الفرمانات، لم تنفذ بجدية وحزم، وظل باب الانتماء إلى الوجاقات مفتوحا.

حتى صار الدينار يدفع فيه خمسين درهما عتقاً فلا يقبل صاحبه يبيعه، ولم يوجد من يقربه وانضر الناس في هذا اضراراً بيناً لان كل درهم كان مع الناس رجع إلى النصف والربع ونقص [نصف] الربع او انشف [أقل] لا محاله. وضربوا بعد ذلك فلوساً وباعوها كل اربعة فلوس بربع درهم واستبشر الناس بها اكثر من الدراهم الجدد وبقى الناس على هذه الحال مذبذبين. وجات رسل

---

٦٠. ذكر تولية غازى محمد باشا بن شاه سوار العجمى
الشهيد عفى الله عنه

قدم الى مصر فى ذى القعدة سنة ١٠٦٧، فاستمر واليا بها الى أن قتلوه فى شوال سنة ١٠٧٠[١]، فكانت مدة ولايته ثلاث سنوات. وفى مدته حصلت فتنة بين محمد بيك آلت الى قتل محمد بيك حاكم جرجه، بعد أن خرج الباشا والعسكر بسببه وتوجهوا الى الصعيد، فى خامس جماد آخر سنة ١٠٦٩[٢]، ثم رجعوا بعد أن قتلوا محمد بيك وتابعه أيوب بيك، ورجعوا بروسهم من منفلوط، وأن الباشا لم رضيت العسكر بتوجهه صحبتهم، ودخلت العسكر الى مصر براس محمد بيك وأيوب بيك، فى ثامن عشر رجب سنة ١٠٦٩[٣]. ثم أن الباشا مكث شيئا قليلا بعد قتلة[٤] محمد بيك، وأرسلوا أعرضوا فيه، من جهة السرج الزمرد، والركاب الزمرد وكان محمد بيك قد حاز شيئا من الزمرد لم يحزه أحد. وكانت قتلة محمد بيك حسدا على كثرة ماله. لأنه ملك من الزمرد شيئا لم يحزه غيره. من قبض خناجر

(١) مدة ولايته: غرة ذى القعدة ١٠٦٧/ غرة شوال ١٠٧٠هـ ـ ٩ سبتمبر ١٦٥٧/ ١٠ يونيه ١٦٦٠م، تحديد تاريخ القدوم والعزل، من التحفة، ص٢٠١.
(٢) ٢٨ فبراير ١٦٥٩م.
(٣) ١١ أبريل ١٦٥٩م.
(٤) بالأصل «قتلت».

خــوارزم شــاه ملك الفــرس ومــا علم في اى شي جاءوا.

وفي الصـوم المقدس من هذه السنه تحرك اصحاب القـسـيس داود [ابن لقلق] لطلب البطركيـه له واجتمعوا بانسان رومي تاجر يتردد الى البلاد من عكا وغيرها وكان اسمه مفرجاً وكان قريباً من السلطان اعز الله نصره ومن الامير فخر الدين استاذ الدار وجعلوا للسلطان خلد الله ملكه الفى

- -

وسيوف، وسكاكين، ثم ان السلطان (أمر)[1] بقتل غازى باشا وضبط جميع ما تملك يده. ثم أنهم حبسـوه في قـصر يوسف، واذا بأغا جاء في طلب السـرج الزمرد، والركاب الزمرد، والغدارة، وجميع ما كان عنده فخنقوه يوم الخميس ٧ شوال سنة ١٠٧٠[2]. ثم أنهـم لما جروه على دكة المغسل، وجدوا في جيب قفطانه ورقة مكتوب فيها الأبيات المشهورة، وهي التي خمستها الشعراء، وهي التي أولها:

أمورا للاعادى أنتجتها   يد الأقدار حتى أحكمتها

بنار في فؤادى أضرمتها   تجنـوا ذنوبـا مـاجنتـها

يداى ولا أمرت ولا نهيت

وهي أربعة أبيات مشهورة، خمستها الشعراء تخميسا نفيسا، رحمه الله تعالى. ودفن بجوار الشباك الذى للأمام الشافعي ابن ادريس[3].

(١) الاضافة لتوضيح المعنى.   (٢) ١٦ يونية ١٩٦٠م.

(٣) الامام الشافعي: هو أبو عبدالله محمد بن ادريس بن العباس ابن عثمان بن شافع بن السائب القرشي ولد ١٥٠هـ/٧٦٧م. قرأ الموطأ على مالك بالمدينة، رحل الى بغداد مرتين، ثم خرج الى مصر وأقام بها الى أن توفي سلخ رجب ٢٠٤هـ/ ٨١٩م، ودفن بالقرافة في القبة المشهورة، على مبارك، المصدر السابق، جـ٥ ص٢٥ ـ ٢٧.

دينار عن تقدمه داود فطلب منهم الفا معجلة والالف الاخراه حتى تنجز حال القسمه فاجتمع سبعة انفس من اصحابه ومضوا الى انسان تاجر يقال له الحلى فادانوا [استدانوا] منه الف دينار بالف ومايتى دينار الى شهرين وسلموها الى مفرج. وتطاول الحال وسمع اضداد داود بهذا فتجمعوا وتحزبوا وكتبوا الى السلطان بانهم غير راضين وتفاقم الامربينهم على جارى العاده واقتبلوا

---

٦١. ذكر تولية مصطفى الباشا الوزير
ثانيا رحمه الله تعالى

قدم الى مصر غرة شوال سنة ١٠٧٠، فاقام واليا بها الى أن عزل فى شوال سنة ١٠٧١[١]. فكانت مدة ولايته سنة واحدة. ولما استقر فى مصر أمر بخنق غازى باشا، وضبط جميع ما كان أخذه من محمد بيك. فعدم الركاب الزمرد، فعاقبوا خازنداره، وكاتب ديوانه، فلم أقر أحد منهم بشيء. لأن السلطان محمد أرسل ينبه على جميع ما كان أخذه غازى باشا من الزمرد، الذى كان استخرجه محمد بيك من الصعيد، كأنه كان حاضرا فى استخراج محمد بيك لذلك الزمرد، وكان سبب استخراج الزمرد، أنه لما تولى محمد بيك جرجه، سال عن جبل الزمرد، فاخبروه بأن محل استخراجه صعب، لقلة الماء. فركب وسار، وهو وجماعته، الى الجبل، وصار فى كل يوم تطلع خلفه ماية جمل محملة من الماء العذب، الى أن صار فى كل يوم، يدخل عليه الماء والذخيرة، الى أن بلغ الجبل، وبلغ ما بلغ من استخراج الزمرد، وكان من أمره ما كان. وعدم الذى عدم، وعوقب الخازندار والكاتب، ولم يقر منهم أحد. ثم أن الباشا مصطفى أرسلهما الى الاعتاب العلية. ولنذكر ما وقع فى زمانه من الوقايع وهو أن منارة (جامع)[٢] السلطان حسن سقطت فى الرميلة، ولم يحصل

(١) مدة ولايته: غرة شوال ١٠٧٠/ شوال ١٠٧١هـ ـ ١٠ يونيه ١٦٦٠/ يونيه ١٦٦١م.
(٢) الاضافة لايضاح المعنى، من التحفة، ص٢٠٢.

بالالفى دينار وقسطوها على الكنايس والنصارى على ان داود [ابن لقلق] لا يذكر. ورفعوا الامر الى السلطان فلم يقبل بل قال لهم اتفقوا مع اصحابكم ولم يزل الحال كذلك ورقعة الالف دينار مع مفرج والسلطان لا يردها ولا ياخذها لانه ينتظر اتفاقهم . وفي اثنا هذا قبض على بعض المستوفيين الذين كانوا يعاندون داود [ابن القلق] وكان اخر ما تقرر ان تكتب اربعة رقاع من

لأحد أذية من سقوطها، الا رجل وامرأة، وكان ذلك في يوم الجمعة، والناس في صلاة الجمعة في ١٥ محرم الحرام سنة ١٠٧١[١]. وفي عاشر صفر الخير منها[٢]، ثارت فتنة الفقارية[٣] وهي التي قطعتهم. وكان سبب ذلك قتل خمسة أنفار من العزب، في بلد عثمان بيك الوالي. وكان عنده سيمانية بعلوفة[٤]، فغضب عليهم لأمر منهم، فقتلهم. ثم لما وصل الخبر لباب عزبان، عينوا له أغا، وطلبوه، فجاء، وترافعوا في الديوان العالي على يد شيخ الإسلام، بحضور الوزير فثبتوا عليه القتل، فقتلوه، وطلع بيرم أوضباشا، والصناجق الفقارية، محامين لعثمان بيك الوالي. فقتلت العزب، بيرم أوضباشا. وكانت القاسمية محامين للعزب. وطلعت الصناجق الفقارية هاربة الى نحو الصعيد، ثم عادوا نحو الجيزة. فتهيا الباشا للسفر خلفهم. فحضر أحمد بشناق والتزم بالسفر خلفهم هو وجماعته فقط وانه يحضرهم بين يديه. فألبسه قفطانا، وتجهز خلفهم، فادركهم في الطريق، وقتلهم في الطرانة[٥]، وعاد الى مصر برءوسهم،

(١) ٢٠ سبتمبر ١٦٦٠م.
(٢) ؟؟
(٣) فتنة الفقارية: لمزيد من التفصيل عن هذه الفتنة، انظر: «تراجم الصواعق في واقعة الصناجق» تأليف، إبراهيم الصوالحي العوفي، تحقيق: د. عبد الرحيم عبد الرحمان. المعهد الفرنسي. القاهرة. بدون تاريخ.
(٤) سيمانية بعلوفة: أي مماليك، لهم مرتبات شهرية.
(٥) الطرانة: احدى قرى مركز كوم حمادة، محافظة البحيرة، وهي من القرى المصرية القديمة، محمد رمزي، القاموس الجغرافي، القسم الثاني، جـ٢، ص٣٢١ ـ ٣٣٢.

جملتهم داود ويرفع على الهيكل فمن طلع اسمه قدم الا ان اصحاب داود [ابن لقلق] لم يرضوا بالقرعة لانهم كانوا يقولون ما عندنا الا صاحبنا ومن هو مثله حتى نقرنه به ونقارع بينهما. وكان التناحر والاحتيال والمنازعة قويا جدا وكان زمانا صعبا على الناس وخصوصاً الكتاب. ولما امسك هولاء المستوفيون اشتغل كل احد بنفسه ووقف حديث البطركيه فمنهم من اخذ خطه بعشرة الف

وطلع الى الديوان فى موكب عظيم. ثم سافر أحمد بيك برءوسهم الى الديار الرومية، والعرض فى ربيع أول سنة ١٠٧١[١]. ثم عزل مصطفى باشا المذكور وتولى عوضه ابراهيم باشا.

٦٢. ذكر تولية ابراهيم باشا الشيطان

ويعرف بملك[٢]

قدم الى مصر من طريق البحر، وصحبته أحمد بيك بشناق. الذى كان سافر برءوس الفقارية، فى غرة جماد آخر سنة ١٠٧١. ثم عزل فى رابع شوال سنة ١٠٧٤[٣]، فكانت مدة ولايته ثلاث سنوات الا شيء. ومن جملة ما معه خط شريف باخراج أولاد عرب من البلوكات، وتبطيل أولاد وعيال والمرتبات التى بمكة والمدينة، وأسامى[٤] كثيرة. وأن يرفع من أسامى النسوان ما زاد على سبعة عثامنة. وجعل على الملتزمين مالا، وسماه المضاف، على كل

(١) فى التحفة ص٢٠٢، أن سفر احمد بيك بالرءوس والعرض كان فى صفر ١٠٧١هـ ـ أكتوبر ١٦٦٠م.

(٢) فى التحفة ص٢٠٢، أنه «كان يعرف بشيطان إبراهيم، وفى استنبول بملك إبراهيم باشا».

(٣) مدة ولايته: غرة جماد آخر ١٠٧١/ ٤ شوال ١٠٧٤هـ ـ ١ فبراير ١٦٦١/ ٣٠ أبريل ١٦٦٤م، وفى التحفة أنه قدم فى ١٦ شوال ١٠٧١هـ ـ ١٤ يونية ١٦٦١م.

(٤) كذا بالأصل.

دينار ومنهم من اخـذ خطه بخـمـسـة الف دينار واقلهم ثلثـة الف دينار وكـان الوقت على الناس كلهم صـعبـاً شـديداً وان كـان الرخص الا من قـبل [بالرغم من] قـسـاوة قلب السلطان عليـهـم. وفى هذه المدة وصل رسـول امـيـر المومنين ابى نـصـر الظاهر بامر الله القايم بعد ابيه الناصر لانه توفى فى هذه السنة فى بغداد ومعه خلع سنيه سود مذهبه وحل [حُلل] منهـا مـا هو مـفـصل بذهب برسم

- -

كيس خمسة آلاف نصف فضة[1]، وفى تاسع الحـجـة سنة ١٠٧٣[2]، طلع أحـمـد بيك بشناق يعيد على حضرة الباشا حكم ما جرت به العادة، يهنون الوزير بيوم عرفة، فسلم على الوزير وأراد الذهاب، فهو فى دهليز السرايا، واذا بجماعة الوزير لقته فضربته بالخناجر فقتلوه. ثم أنهم أخذوه برجله ورموه فى حوش الديوان هو وكيخيته مصطفى كيخية. ثم أنهم جابوا تابوتين ووضعوهما فيهما، وأنزلوهما الى منزلها. ثم جاء العزلان الى ابراهيم باشا، وحوسب، فطلع عليه تسعماية كيس. فحبسوه الى حين يقدم عمر باشا، ثم ورد مسلم عمر باشا فى شعبان.

٦٣.ذكر تولية عمر باشا قاتل العرب

عفى الله عنه

قدم الى مصر فى يوم الخميس ذى الحجة سنة ١٠٧٤ فاستمر واليا بها الى غاية رمضان

(١) المضاف: ضريبة أضافية كانت تفرضها الروزنامة فى بعض السنوات لاكمال العجز الذى يحدث فى الخزينة، وقد سجلت دفاتر الالتزام، نوعين من المضافات، مضاف مؤقت يفرض لظروف طارئة تستدعى فرضه ثم يلغى بزوال هذه الظروف، ومضاف ثابت، يضاف الى المال الميرى ويصبح جزءا منه، انظر: دكتور عبدالرحيم عبدالرحمن، الريف المصرى، ص١٠٨ ـ ١١٠.

(٢)

ركوب السلطان الكبير. ولبس السلطان واولاده الخلع بالعمايم والبس اكابره واكابر الامرا خلعاً دونها. من [فمن] كان منهم يلبس العمامه اعطاه عمامه ومن كان منهم يلبس شربوشا اعطاه شربوشا وكل ذلك مما جا من بغداد وكان ذلك يوماً مشهودا. ووصل بعد ذلك رسول ملك الروم صاحب قونيه واقصرا ورسول الكرج [الكرد] ورسل كثيرة من كل جهة. وارجف بعد ذلك بان

سنة ١٠٧٧[١]. فكانت مدة ولايته سنتين وسبعة أشهر. وفي سنة ١٠٧٥[٢] قامت طايفة مستحفظان على مراد كتخدا، ودرويش كتخدا، وقتلوهما في القلعة خنقا. وفي تاسع عشر ربيع الثاني[٣] اتفقت الينجشرية والعزب وادعوا على أويس[٤] بيك الدفتردار بأنه قتل نفرا من أنفارهم، وأثبتوا عليه القتل، فاقر بأنه مملوكه، فلم يفده شينا وقتلوه فيه. وفي السنة المذكورة طلع في السماء نجم له ذنب طويل، وحصل في تلك السنة زلزلة عظيمة ثلاث مرات[٥]، بحيث أنها أرمت النخيل، والجميز، والأشجار العالية، وهدمت البيوت. وكانت زلزلة هايلة، لم يسمع بمثلها. وفي ذلك الشهر ورد خط شريف من الديار الرومية، بطلب زين الفقار بيك، ومصطفى بيك أفندى بن سهراب الرزنمجي، فسافروا، ورجعوا منصورين مويدين. وكان ورودهم في رجب سنة ١٠٧٥[٦]، بعد قتلة مراد كتخدا، ودرويش كتخدا، وبعد مجيء[٧] ابن سهراب. وهو في أواخر رجب سنة ١٠٧٥[٨]، اجتمعت العسكر بالديوان، وطلبوا من

(١) مدة ولايته: ٥ ذى الحجة ١٠٧٤/ غاية رمضان ١٠٧٧هـ ـ ٢٩ يونية ١٦٦٤/ ٢٦ مارس ١٦٦٧م، في التحفة أنه عزل ١٥ رمضان ١٠٧٧هـ ـ ١١ مارس ١٦٦٧م.
(٢) ١٦٦٤/١٦٦٥م.
(٣) ٩ نوفمبر ١٦٦٤م.
(٤) بالأصل «عويس» والتصويب من التحفة، ص٢٠٤.
(٥) بالأصل «مرار» والتصويب من التحفة، ص٢٠٤.
(٦) يناير/ فبراير ١٦٦٥م.
(٧) بالأصل «مجتيء».
(٨) فبراير ١٦٦٥م حيث أن سفر ابن سهراب كان في شهر ربيع الثاني ١٠٧٥ ـ أكتوبر/ نوفمبر =

خوارزم شاه قد كسر عسكر الكرج وفتح تفليس وايجارا [سنجار] وشاعت بذلك الاخبار. وبعد هذا طال على اصحاب القسيس داود المطال وطالبهم صاحب الالف دينار بها وبربحها لانهم كانوا اخذوها منه الى شهرين بالف ومايتى دينار فلما تجاوزت الشهرين اعطوه فايدة اخرى فشاوروا السلطان واستعادوا الالف دينار المذكورة واعادوها الى صاحبها مع ربحها وسكنت الدهما وانقطع

الوزير خمسين نفرا من جماعته تنزل تفتش على السلاح الذى عند الرعايا وأهل القرى جميعا، ويمنعون الرعايا من شيل السلاح. فعينوا سياويش[1] أغا، أغة الجملية، وجماعة الاسباهية. فنزلوا وفتشوا جميع الوكايل وجميع قرى الاقاليم. وعادوا بسلاح لا يكاد يوصف، ففرقوه على السبع أوجقات وأحدث سياويش أغا مظلمة[2] على جميع البلاد، وسماها الطلبة[3]، وهى باقية الى زماننا هذا. وتسمى بطلبة سياويش أغا، وهى كانت فى نظير خدمته. وفى عاشر جماد الثانى سنة ١٠٧٦[4] توفى شيخ الاسلام السلطان، سلطان المزاحى شيخ الجامع الأزهر[5]، وبعد موت الشيخ سلطان، ظهرت

= ١٦٦٤، وعودته فى أواخر رجب ١٠٧٥هـ ـ فبراير ١٦٦٥م والضمير «وهو» يعود على «المجىء».

(١) بالأصل «سواويش» والتصويب من النص ذاته حيث كتبها بعد ذلك «سياويش» ومن التحفة، ص٢٠٤.

(٢) كرر بالأصل لفظ «مظلمة».

(٣) بالنسبة لمظلمة «الطلبة» انظر، كشف الكربة، لمحمد بن أبى السرور البكرى، «وبلوغ الأرب» للبرلسى السعدى، مصادر سبق ذكرها.

(٤) ١٨ ديسمبر ١٦٦٥م.

(٥) الشيخ سلطان المزاحى: هو أبو العزايم سلطان بن أحمد ابن سلامة المزاحى الشافعى، وحديث المؤلف عنه، على أنه شيخ الجامع الأزهر، يدل على أن منصب مشيخة الأزهر، كان سابقا على عهد محمد ابن عبدالله الخرشى المالكى، لمزيد من التفصيل حول هذه القضية، انظر: دكتور عبدالجواد صابر اسماعيل، مجتمع علماء الأزهر فى مصر ابان الحكم العثمانى، رسالة دكتوراه، غير منشورة، أجيزت بكلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، ص٥٥٩ ـ ٥٨١.

القال والقيل. ثم جآ النيل فمد مداً لطيفاً ثم نقص من السادس عشر من ابيب(*) الى العشرين منه مقدار عشرة اصابع ثم رد النقص وزاد الزيادة المعهوده. وفى هذه الايام وردت الاخبار بان الملك المعظم سلطان الشام قد خرج من دمشق طالبا الى حماه وانه قد حرك [أبعد] خوارزم شاه على ارض خلاط وهى ملك الملك الاشرف صاحب الشرق والسلطان صاحب مصر من قبله فامر العساكر المصرية ان يخرجوا الى ارض القدس والساحل وما

(*) ١٦ أبيب = ١٠ يوليو حسب التقويم الجولياني.

الظرب[1] فى مصرنا. وكان رأسهم محمد بيك حاكم جرجة الثانى. وكانوا خمسة انفارا من الينجشرية، وهم قرا فضلى وفضلى[2] اليمانى، ويوسف الحريرى وأصلان، ودرويش على. واجتمع عليهم من اوجاقهم طايفة ضالة آذوا المسلمين، واستباحوا أموال الخلق، وزاد الظلم، وابتهلت الخلق بالدعاء الى الخالق. فطلع محمد بيك الى الديوان منفردا عن أعوانه، فأمر الوزير بقتله، فقتلوه وهو خارج من عند الباشا. ثم قطعت رأسه وأراح الله المسلمين من شره وظلمه. ولما بلغ الخبر الى أعوانه الفجرة، قامت قيامتهم، فاجتمعوا، ودخلوا جامع المؤيد[3]، وتحصنوا فيه. وكان يوما مشهودا، ولكن تداركه الله باللطف فأمر الباشا الصناجق، والاغوات، والامرا، أن يتوجهوا اليهم ويحاربوهم وان ادى الى هدم الجامع هدموه، فلما احتاطوا بالجامع، ورموا عليهم بالمدافع والبندق، نادوا: الأمان، الأمان، واستسلموا وخرجوا من الباب الذى ناحية الماطيين: الباب الصغير، يريدون الفرار من القتل والحرق، فتخطفتهم أيدى الرعايا، وسقاهم

(١) الظرب، أو الزرب: جمع زربة Zarba التركية، وتعنى العصاة من العساكر، وقاسى السكان الشيء الكثير من اذاهم، دكتور عبدالكريم رافق، المصدر السابق، ص٢٨٢.
(٢) بالأصل «قرافطلى وقطلى اليمانى» والتصويب من التحفة، ص٢٠٤.
(٣) جامع المؤيد: موقعه بجوار باب زويلة، أنشأه السلطان الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودى الظاهرى ٤ جماد آخر ١٧/٨١٨ ربيع أول ٨٩هـ ـ ١٢ أغسطس ١٤١٥ ـ ١٥ مايو ١٤١٦م، ووقف عليه عدة مواضع بمصر وبلاد الشام، على مبارك، المصدر السابق، جـ ٥، ص١٢٤ ـ ١٢٨.

يتاخم دمشق ونهبوا وحرقوا وسبوا. فجهزوا لذلك. والناس بعد ذلك في ضايقة وشدة من النقود واختلافها وقول السلطان لا يتعامل بالنقد العتيق وهو كثير بايدى الناس وايضاً فلبغضهم في النقد الجديد لانهم كانوا يخسرون فيه الربع من اموالهم لانهم كانوا يحضرون الى الصيارف او الى دار الضرب خمسة واربعين درهماً عتيقاً فيعطون بها سبعة وثلثين درهما جديد والقيمة القيمة والعيار العيار فيكون غرامتهم فيه الربع او دونه والنداء

الباشا كاس المنايا، وضربت رقابهم في باب زويلة. لهم وأتباعهم وكان في ذلك اليوم لأمر يريده الله تعالى، تحت الدكك سرداب الجره بتاع الصالح، فرموهم على السرداب: ولم يهرب منهم الا القليل. ومن جملة من هرب، يوسف الحريرى، فاستجار بجار له يقال له الميمونى. وكان من أعز اصدقايه فلما استخبا عنده، واذا بالمنادى ينادى: كل من دل على يوسف الحريرى، له ثمانين عثمانى، وكيس فلوس خمسة وعشرين ألف فضة، وان وجد عند أحد، ولم يدل عليه، يقتل وتخرب داره. فدل عليه الميمونى. فأخذوه، ورموا رقبته على التراب، ولم يعطوا الميمونى شيئا. وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قويا عزيزا. وفي شهر ربيع أول سنة ١٠٧٧[١] ورد خط شريف بطلب ألفين عسكرى[٢] الى محافظة قلعة جريد، وأن يكون سردارها رمضان بيك. فلما سافر من اسكندرية، طلعت عليهم أنفار، بعدة غلايين، فمكثوا ثلاثة أيام يقاتلوا، الى ان فرغ الرصاص والجلل، فصار رمضان بيك يرمي باكياس الريالات، الى ان لم يبق شيء من الريالات، وأسروه وجميع من كان في ذلك الغليون جميعا. وفي خامس عشر ربيع أول سنة ١٠٧٧[٣]، أرسل السلطان محمد خطاً شريفا[٤]، بطلب مصطفى أفندى بن سهراب. وهى السفرة الثانية، لاجل سؤال ورد جواب، من جهة الخزينة

(١) سبتمبر ١٦٦٦م.
(٢) كذا بالأصل وصحتها «الفي عسكرى».
(٣) ١٥ سبتمبر ١٦٦٦م.
(٤) بالأصل «خط شريف».

مستمر بأنه من تعامل بها احل ماله ودمه ومن وجدت معه احرق به ونكل، والذهب قليل جدا. ورسم السلطان ان يكون صرف الدينار بالجديد اربعين درهما بدينار واذا جا الانسان الى الصيرفى يطلب منه دينارا بدراهم ولا ياخذ منه الا ثلثه واربعين درهما ونصف جديده والا انكر ان ما عنده ذهبا اصلا. وكان الناس من هذا الوجه فى شدة شديدة الا ان الاسعار كانت رخيصه والاشياء موجوده وسببه استيلا الفقر والضعف على الناس.

العامرة. فامره الوزير عمر باشا بأن يكتب دفترا بالايراد والمصرف على التحرير[1]، بمعرفة أعيان مصر. وجهزة مع ابن اسهراب أفندى صحبة الاغا، وكان ابن سهراب أفندى هذا عارفا بعلم الرمل، والزايرجه (٣٤٩)، والروحانى، والنجم، والميقات، والكيمياء. ومن أعجب ما وقع له، أن رجلا من ذوى البيوت والأعراض، صار لا يملك شيئا، وركب عليه ألف شريف محمدى. ثم أنه ذهب الى ابن سهراب، وشكا له حاله، وكان يعرفه فى حال غناه، فرق له، ثم انه فتح الدولاب الذى خلف ظهره، فى المقعد بمنزله الذى هو الآن سكن حسين كتخدا الدمياطى، بالقرب من سوق السلاح، وأخرج له من الدولاب فنجانا، وقال له: خذ هذا الفنجان وضعه فى دولابك على فمه، وفى كل يوم بعد أن تصلى الصبح، افتح الدولاب، وخذ ما تحت الفنجان، الى أن توفى دينك، وتكفى روحك هاتة وتعالى، فكان كذلك. فأخذه، ووضعه كما قال، ثم انه أصبح صلى الصبح، وفتح الدولاب، وشال الفنجان، فرأى تحته ماية بندقى. ثم انه بعد الأربعة أشهر رده الى ابن سهراب. وكان عنده رجل جالس. فاعطاه (له)[2] وامره ان يفعل كما أمر الرجل، والله أعلم. ثم أنه ضرب لنفسه تخت رمل، لينظر ما يحصل له من السلطان محمد، فرأى أنه يحصل له رقى، الى أن يدخل مصر على أعناق الرجال. ثم سافر وجاء العزلان إلى عمر باشا، وتولية ابراهيم باشا، والله أعلم.

(١) بالأصل «التجريد» والتصويب من التحفة، ص٢٠٥.
(٢) الاضافة لايضاح المعنى.

واستوديت الجزيه فى هذه السنة من الذمه دينارين كل راس، صرف ثمانيه واربعين درهما عتق [قديمة] بدينار. تقع [تجمع]ماية درهم الجزيه فى القاهرة ومصر، فأما البلاد البرانيه فتقع الجزيه ماية وعشرين درهما. وندب من المقام السلطانى قوم يقال لهم الصقعون(*) والكشاف خرجوا الى الاعمال القبليه والبحريه واحدثوا على الناس حوادث منها انهم طلبوا منهم حق الجبانات والمقابر وثمن الطوب والحجارة التى بنوا بها بيوتهم وادعوا

(*) الصقاعون والكشاف يجمعون مختلف الغرامات والأموال من المصريين دون وجه حق.

٦٤.ذكر تولية ابراهيم البستنجى

عفى الله عنه

قدم الى مصر فى يوم الاثنين عشرين شوال سنة ١٠٧٧، فأقام واليا بها الى أن توفى فى سبعة عشر رجب سنة ١٠٧٨[١]. وكانت مدة ولايته سنة واحدة وثمانية أشهر. وكان وزيرا[٢] عاقلا، محسنا، وجيها، صالحا غير أن[٣] كيخيته كان خبيثا لئيما، فسلم الوزير مقاليد الحكم اليه، فصار لايتم أمر الا بمعرفة كيخيته. وفى زمنه توفى الشريف زيد، وتولى شرافة مكة من بعده ولده سعد الاشرم[٤] وفى تلك السنة ورد مصطفى أفندى بن سهراب من الديار الرومية، وصحبته[٥] خط شريف بأنه مفوض الأمور جميعها فى أموال مصر، مصرفها وايرادها ولما بلغ ابراهيم باشا ذلك الأمر، دس عليه السم فى سماط عمله له فى الخانقاه بقرب سرياقوس[٦]. وكان قد أرسل اثقاله[٧] الى منزله، وبات فى الخانقاه، ولأجله أكل السماط.

(١) مدة ولايته: ٢٠ شوال ١٠٧٧/ ١٧ رجب ١٠٧٨هـ - ١٥ أبريل ١٦٦٧/ ٢ يناير ١٦٦٨م، وفى التحفة ص٢٠٥ أنه توفى ١٠٧٩هـ - ١٦٦٨/ ١٦٦٩م.

(٢) بالأصل «وزير».

(٣) بالأصل «أنه».

(٤) بالأصل «الاثرم».

(٥) بالأصل «وصحبة».

(٦) سرياقوس: من القرى القديمة بمركز شبين القناطر، محافظة القليوبية، محمد رمزى، المصدر السابق، القسم الثانى، جـ١، ص٣٥.

(٧) بالأصل «ثقله» والتصويب من التحفة، ص٢٠٦.

ملكية الدور وطالبوهم بالاثبات وقالوا البلاد كلها ملك السلطان وانتم من اين ملكتم هذه اثبتوا بالشرع والا الكل ملك السلطان وقوموا بالاجرة منذ سكنتم والى الان. واعادوا عليهم المساحات فى الراتب وغيره وزيدوها عليهم وكثر الرفاعون [المساحون] وانفتحت لهم الابواب وحصل من هذه الجهة جملة كبيره افقرت الناس جميعهم. وكان بمصر رجل يقال له عبد القادر وكان قد ضمن [التزام] مكوس الذمه بالقاهرة ومصر وكان

وكان السم فى طاسة مسلوقة، فبمجرد ما أكل من المرقة لوى عليه قلبه، ومات من وقته. فحمل على أعناق الرجال الى منزله. وصح ما كان قاله قبل رواحه الى الديار الرومية، بأنه لا يدخل مصر الا محمولا على أعناق الرجال الى منزله، لما ضرب التخت الرمل، ولم يخيل بباله الموت، وانما خيل بباله الرقى والرفعة، ولكن اذا جاء القضا عمى البصر. وبعد موت ابن سهراب وقع فى مصر طاعون لا يكاد يوصف. وسمى ذلك الفصل أهل مصر، الموت الأصفر، لأن الرجل أو المرأة اذا انضرب، أصفر وجهه وجلده. الى أن يصير مثل الليمون الأصفر. وفى هذه السنة سافر يزبك بيك[١] بالحج الى مكة المشرفة فلما دخل مكة اجتمع برجل من الأشراف الحسنية، يقال له حمود[٢]، فاتفق معه انه اذا دخل مصر يأخذ له قفطانا بشرافة مكة، والتزم له بذلك. ثم أنه أصطحب معه ابن الشريف حمود الى مصر، فلما اخبروا الباشا، لم يرض بذلك. وقبض على ابن حمود، وحبسه عند نقيب الاشراف بمصر. فلما بلغ حمود هذا الأمر، أظهر العصيان والفساد والتعب لاهل مكة، وقطع الطريق. ولما بلغ الوزير ذلك الأمر لبس[٣] يوسف بيك قفطانا، على مشيخة الحرم، ومحافظة بندر جدة. وعين له خمسماية نفر

(١) بالأصل «يذره والتصويب من التحفة، ص٢٠٦.

(٢) بالأصل «حمودة»والتصويب» من النص ذاته حيث كتبه بعد ذلك «حموده والتحفة ص٢٠٦، عثمان بن بشر، عنوان المجد بتاريخ نجد، جـ١، ص٧٢.

(٣) بالأصل «ليس الأمره، ووضعت علامة التقديم والتأخير.

عليهم منه ضر عظيم وكان يظلمهم ظلماً فاحشاً ويقطع مصانفاتهم [مصانعاتهم = اتباعهم وعمالهم] وياخذ جواريهم ومماليكهم باليد ويودعهم الحجز ويقول هولاء مسلمون وانتم سمحتهم فيهم وغلبهم عليهم فاما نبالغهم واما يقطع مصانعتهم عليهم. وكان ارباب الدوله يساعدونه على ذلك لعلمهم بنفس الاصل. وفى هذه السنة فتح خليج الدكر الذى من قنطرة المقس وخرق الى خليج القاهرة المعروف بالحاكمى

صحبته وتوجه على العادة، في أواخر جماد آخر. فلما وصل الى بندر الينبع، أرسل حمود يعرف يوسف بيك ويحذره، ويقول له ارجع الى مصر بالسلامة. وكرر عليه القول أولا وثانيا. فقال يوسف بيك: هذا لا يمكن ايش جرى علينا حتى نرجع من غير قتال. فما اتم هذا القول، حتى احاط به حمود بعسكره، وأنزل بهم القتل. ولم يمكث يوسف بيك الا أقل من ساعة حتى قتلت طايفته، وأسر يوسف بيك، ومن بقي. ثم أن حمود أرسل أربعة أنفار يوردوا الخبر الى الباشا بمصر، فلما قرا الوزير الكتاب، جهز ثلاثة صناجق وهم محمد بيك أبو قورة[1]. ويوسف بيك صهر النقيب، وحسن بيك طبال، وعشرة من الجراكسة. وفى سادس شوال[2] برز محمد بيك أبو قورة، سردار العسكر ومحافظ جدة، ومن عين معهم، وتوجهوا من البر والبحر، وسافر يزبك بيك خلفهم بالحاج، في رابع عشر شوال[3]. ولما وصلوا الى ينبع البر وراى حمود هذه العساكر الذى سدت القفار، وهم ينوفون عن خمسة آلاف، وأتباعهم، لان العساكر المكتوبة ثلاثة آلاف[4]، غير اتباع الصناجق. فالقى الله الرعب في قلبه، وأخذ جميع ما يعز عيه وهرب ليلا، ولما طلع النهار، صارت العسكر تنظر الى خيام حمود، فلم يروا فيها احدا، فهجموا عليها ونهبوها[5] جميعها. ثم ساروا مع الحاج، ووقفوا بعرفات، وعادوا صحبة الحاج الشريف. فلما بلغ الوزير مجيهم بغير اذنه، احتد الوزير، وأراد أن يمنعهم من الدخول

---

(١) بالأصل «أبو قدوة»، والتصويب من التحفة، ص٢٠٧، ومن النص ذاته.
(٢) ٢٠ مارس ١٦١٨م. (٣) ٢٩ مارس ١٦٦٨م. (٤) بالأصل «ثلاث آلاف».
(٥) بالأصل «نهبوا» والتصويب من التحفة، ص٢٠٧.

وعمل على فمه سد مضافا الى السد الجارى به العاده. وفى هذه السنة التقى البحران [النيل والخليج المصرى ٦٢٣هـ= ١٢٢٧م = ٩٤٢ قبطية]. فى نهار الجمعه السابع من مسرى الموافق للرابع من شعبان سنة ثلاث وعشرين وستمايةوكان السعر رخيصاً والاشيا موجودة الا ان الرزق مقتر قليل . ثم ان السلطان اعز الله نصره عزم على التوجه الى الشام لخلف وقع بينه وبين اخيه صاحب دمشق ورسم للامراء والاجناد بتجهيز

الى مصر. فاجتمع به أعيان الأكابر، وعرفوه أن منعهم الدخول الى منازلهم يحصل منه فتنة، فأرسل لهم فرمانا[1] بالدخول. فطلعوا الى الديوان، ولبسوا القفاطين على حكم العادة. وفى خامس عشر رمضان سنة ١٠٧٨[2] ظهر فى الجو عمود احمر بين المغرب والعشا، ومكث طول ليلته. وفى ثامن شوال[3]، امطرت السماء بردا، كل واحدة قدر النارينجة، وبقيت أياما على وجه الأرض. وفى ثامن الحجة[4] أتى نجاب من مكة المشرفة بموت يوسف بيك محافظ جدة، وأنه ترك ولدين لصلبه، كانا فى صحبته[5]، لما توجه الى حمود. ثم ان الباشا ختم على موجوداته. وفى شوال[6]. ورد خط شريف بطلب الرزنمجى. وكتبة الديوان والأوقاف والدشايش[7] الى الأعتاب العلية. فجهزوهم، وسافروا فى غرة محرم الحرام سنة ١٠٧٩[8] صحبة مصطفى أغا. فقضوا أمر السلطان وأدوا ما كان مطلوبا من السؤال والجواب ورجعوا صحبة مصلى اغا الى مصر منصورين مؤيدين، فى سابع جماد الثانى سنة ١٠٧٩[9]، وفى يوم ورودهم الى مصر، توفى ابراهيم باشا، ودفنوه بالقرافة، وعملوا يوسف بيك قايم مقام،

(١) بالأصل «فرمان».
(٢) ٢٨ فبراير ١٦٦٨م.
(٣) ٢٢ مارس ١٦٦٨م.
(٤) ٢٠ مايو ١٦٦٨م.
(٥) بالأصل «كانوا».
(٦) مارس/ أبريل ١٦٦٨م.
(٧) الدشايش: هى اوقاف الدشيشة الكبرى، وأوقاف الدشيشة الصغرى، وهى الحبوب المطحونة التى كانت ترسل الى كل من مكة والمدينة.
(٨) ١١ يونية ١٦٦٨م.
(٩) ١٢ نوفمبر ١٦٦٨م.

اشغالهم وقويت الحركة في ذلك وتجهز الناس بما يقدرون عليه وخرجوا الى البركه [بركة الحبش] وفي يوم الاربعا السادس والعشرين من مسرى(*) [٩٤٢ قبطيه] الموافق للثالث والعشرين من شعبان سنة ثلاث وعشرين وستمايه وصل المفرد من الصعيد واخبر بان النيل وفى به وكان النيل اذ ذاك في مصر على اصبع من ستة عشر واصبح في السابع والعشرين من مسرى(*) زاد ثلاثة اصابع وفي الثامن والعشرين ثلاثة اصابع وفي التاسع

(*)٢٦ مسرى = ١٩ اغسطس.

(*) ٢٧ مسرى= ٢٠ اغسطس.

- -

وأعرضوا الأمر الى الأعتاب العلية، فلما وصل العرض فوضوا محافظة مصر الى قراقاش على باشا. وفي غرة رمضان[1]. حبسوا أحمد كيخية الوزير، وحسين أفندى، شهر حواله. وفى ثالث عشر رمضان، ورد خط شريف بطلب الف نفر الى محافظة جريد، فعينوا قانصوه بيك القرينى، وسافر العسكر، وفتح الله عليهم بفتح القلعة. وفى شعبان ورد مسلم على باشا قراقاش الوزير.

٦٥.ذكر تولية الوزير على باشا قراقاش

عفى الله عنه

قدم الى مصر يوم السبت ٣ القعدة سنة ١٠٧٩، فاستمر واليا بها الى أن عزل فى غرة الحجة سنة ١٠٨٠[2]. فكانت مدة ولايته سنة واحدة. لما استقر بالقلعة احضر أحمد كتخدا الوزير. وطالبه بما كان على سيده. فأجاب للوزير جوابا لا فايدة فيه، فتغير الوزير منه، ورده الى السجن. وفى تاسع ربيع الأول[3] كان وفا النيل، فأمر على باشا بأن المراكب تزين على

(١) ٢ فبراير ١٦٦٩م.

(٢) مدة ولايته: ٣ ذى القعدة ١٠٧٩/ غرة الحة ١٠٨٠هـ ـ ٤ أبريل ٢٢/١٦٦٩ أبريل ١٦٧٠م، فى التحفة، ص٢٠٩ أن قدومه كان فى ١٣ القعدة ١٠٧٩هـ ـ ١٤ أبريل ١٦٦٩م.

(٣) بالأصل «تاسع الأول» ٧ أغسطس ١٦٦٩م والتصوب من التحفة، ص٢٠٩، ويذكر أنه فى «ثانى ربيع الأول ـ ٣١ يولية ١٦٦٩م».

والعشرين [زاد] اصبع واحد فصار على ثمان اصابع من ستة عشر ذراعاً ثم وقف اخر مسرى(*) واول النسي(*) وربما اضطرب. وفي هذا النهار ورد الخبر بموت الامام الظاهر ابى نصر محمد الخليفة الجديدة وما له اكثر من ستة اشهر وعملت ضحيته ببركة الحب [الحبش] في اليوم المذكور وهو يوم الاثنين اول النسي والسلطان راحل يريد الشام والاسعار رخيصة والاشيا موجوده الا ان الناس ضعاف الى الغاية والدولة فيها عنف. ثم دخلت

(*) أخر مسرى = ٢٣ أغسطس

(*) اول انسى = ٢٤ أغسطس.

حسب العادة القديمة. وركب الباشا من بولاق. هو والصناجق. والأغوات. وشيخ الاسلام الى المقياس. على الحكم القديم. وكان عادة مصر على هذا الحكم. وكانوا قد أبطلوه قبل هذا التاريخ بسنوات. وكانوا محتجين بطلوع العسكر الى محاصرة جريد. وأن هذا اللهو لا معنى له في هذه الأيام. وفي ذلك الشهر ورد خط شريف بطلب ألف ومايتى كيس من أحمد أغا كتخدا الوزير المسجون، لأنه كان أعرض بطلب باشوية مصر. والتزم بدفع ذلك القدر، فلما قرى الأمر، طلب أحمد أغا من السجن. فلما حضر طولب بما في الخط، فانكر، فرجع في السجن وضيق عليه. فصبحوا لم وجدوه. فلما بلغ الوزير هروبه، أطلق منباديا ينادى، ان كل من آتى به فله ماية عثماني. فلم يقفوا له على خبر. ثم بعد برهة ورد خبر أن شيخ العرب شاهين قبض عليه في وادى العقبة، وهو هارب. وسبب ذلك ان شيخ العرب كان له أربعين عثماني، في بلك المتفرقة، فقطعها أحمد كيخية المذكور، فلما ظفر به، قبض عليه، واتى به الى الوزير، فأنعم عليه الوزير بالماية عثماني. وفي ذلك الشهر، نزلت صاعقة من السماء لها دوى كالمدافع الكبار، وتبعها ريح غربية أظلم منه الجو، وقلعت الأشجار، وارمت المواذن وفي يوم الخميس ثامن ربيع الثاني[1]، ظهر في السماء نجم له ذوايب، وكان ظهوره بعد صلاة المغرب. وفي غرة جماد الثاني[2]، ورد مصلى أغا ومعه فرمان بزينة لفتح قلعة جريد [كريت]

(١) ٥ سبتمبر ١٦٦٩م.

(٢) ٢٧ أكتوبر ١٦٦٩م.

سنة ثلاث واربعين وتسع مايه للشهداء(*) والماء متوقف ثم زاد وفتح سد بحر [أبو] المنجا الاول في يوم الثلثا رابع توت(*) وخلق[غلق: اى بلغ حدود فرض الخراج] المقياس في يوم الاربعا خامسه وفتح الخليج الجارى به العادة في يوم الخميس سادسه. فاما الخليج المستجد من المقس المعروف بخليج الدكر فانه فتح من مده ثم رد عليه الخليج الحاكمي فعمل له سد عند باب

(*) ٩٤٣ش= ١٢٢٧م

(*) ٤ توت = أول سبتمبر.

المعروفة بقندية(١) وكان ابتداء محاصرتها سنة ١٠٥٩ وحصل الفتح سنة ١٠٨٠(٢)، وكانت مدة المحاصرة ستة وعشرين سنة وهذا شيء لم يسمع بمثله، ثم ان على باشا مرض، فأرسل خلف الصناجق والأغوات واحضرهم وشاورهم في عمايل كنعان بيك، قايم مقام، فرضوا بذلك. وجعله قيما محله، ثم ألبسه قطانا(٣)، وتوفى في شعبان سنة ١٠٨٠(٤). وصلى عليه الشيخ الشبرملسي. ودفن(٥) بالقرافة بجوار الامام الشافعي، بالقرب من غازى باشا، وانزلوا ابنه واسكنوه في بيت حسين أغا بيك زاده، المطل على بركة الفيل(٦)، وارسلوا خبر وفاته الى الديار الرومية في غرة رمضان سنة ١٠٨٠(٧)، ثم ورد الخبر ان العسكر الذى كانوا في محافظة جريد صحبة اسماعيل بيك بأنهم لما وردوا على سكندرية، وارموا المراسي،

(١) كتب عنوان جانبي «اعرف فتح قلعة قندية».
(٢) قلعة قندية: القلعة الرئيسية بجزيرة كريت، وكانت تسمى بالحصن الكبير، وقد استغرق فتحها من العثمانيين مدة امتدت ١٠٥٩/ ١٠٨٠هـ ـ ١٦٤٩/١٦٦٩م، لاحظ: إضطراب التواريخ والمدة. أنظر: دكتورة زينب عصمت راشد، كريت تحت الحكم المصرى، ص٣٧ ـ ٤٨.
(٣) بالأصل «قفطان».　　(٤) ٢ يناير ١٦٧٠م.　　(٥) بالأصل «ودفع».
(٦) بركة الفيل: كانت انذاك بركة كبيرة الى جنوب غرب القاهرة، وكانت تمثل منطقة منفصلة لسكنى الأرستقراطيين الذين بداوا ينشئون مساكنهم حول هذه البركة ثم بركة الأزبكية. دكتور عبدالرحمن زكى، خطط القاهرة أيام الجبرتي، ضمن أبحاث ندوة الجبرتي، ص٤٨٠ ـ ٤٨١.
(٧) ٢٣ يناير ١٦٧٠م.

القنطرة من جانب الميدان الذى هناك. وتتابعت زيادة النيل الى الرابع عشر من بابه(*) وبلغ اثنا عشر اصبعاً من ثمانية عشر ذراعاً وكان من عجايب الدنيا، لانه ما روى بل توقف توقفه وجا مجيه ثم انه نزل نزولا مهتدياً من اصبعين ومن ثلثة ورخصت جميع الاشيا واتفق [تصالح] الملك المعظم صاحب الشام مع الملك الاشرف صاحب الشرق اخوه السلطان الملك الكامل اعز الله نصره

(*) ١٤ بابه= ١١اكتوبر.

قامت عليهم ريح عظيمة شديدة قطعت الحبال، وكسرت المراكب وفرقتهم من بعضهم البعض، فأصبحوا لم يجدوا المراكب، ووجدوا العسكر جميعهم موتى جانب البر البعض، والبعض فوق البر، وجميع المينة ملانة بالغرقى واسماعيل بيك من جملتهم، والذى نفاهم الريح الى البركة [بحيرة مريوط]، وكان عمره طويل، عرته العرب، والذى ركبوا الجزيمات[1] الى رشيد، غرقوا جميعا. فورد الخبر الى مصر، وحضر البعض من الذين عرتهم العرب. فعين كنعان بيك قايم مقام تجريدة وجعل يزبك بيك سردارها، وقيطاز آغا آغاة الجملية، فتوجهوا فى ١٧ رمضان، فكسروا العرب، ثم عادوا منصورين مويدين. ثم ورد الخبر الى مصر بتولية ابراهيم باشا كتخدا الوزير، وهو الذى كان محافظا فى قلعة قندية.

٦٦.ذكر تولية ابراهيم باشا الوزير عفى الله عنه

قدم الى مصر من طريق البحر ثالث عشر محرم الحرام سنة ١٠٨١[2]. وفى هذا التاريخ ورد آغا وصحبته فرمان بطلب الروزنامجى، ويوسف بيك صهر النقيب، وكنعان بيك قايم مقام على باشا. فتوجهوا صحبة الاغا الى الديار الرومية وفى هذا التاريخ حرقت الدفاتر

(١) الجزيمات: نوع من المراكب الشراعية.
(٢) مدة ولايته: ١٣ محرم ١٠٨١/ آخرجماد أول ١٠٨٣هـ ـ ٢ يونية ١٦٧٠/ ٢٣ سبتمبر ١٦٧٣م.

وزال الشنان الذى بينهم وعاد مولانا الملك الكامل بعسكره من العباسه الى القاهرة المحروسة واستقر الحال بمملكته الشريفة وبسط العدل على الرعية وبذل لهم الاحسان وكانت ايام رخية وخيرات كثيرة. ثم وردت الاخبار بخلافة الامام المستنصر ابى جعفر المنصور ودعي له وضربت السكة باسمه وهو ولد الامام الطاهر ابى نصر محمد المتوفى. وفي هذه الايام تجهز المولى الملك المسعود صاحب اليمن للرواح الى بلاده وسير اكبر قماشه [متاعه]

(*) أهم أحداث سنة ٩٤٣ق. = ١٢٢٧م. = ٦٢٤هـ.
* ١ يناير سنة ١٢٢٧ = ٦ طوبه ٩٤٣ = الجمعة ١١ محرم سنة ٦٢٤.
* فيها خرجت التتار تحت قيادة جنكيزخان، من شمالى اسيا. وفيها كانت وفاته.
* ١ توت ٩٤٤ = ٣٠ أغسطس ١٢٢٧ = الاثنين ١٦ رمضان سنة ٦٢٤.
* في ذى القعدة توفى الملك المعظم

الديوانية[1]. وفي ثالث شوال حرق سوق البارودية، الذى بقرب باب زويلة، وانهدمت الحوانيت والبيوت، وانحرق خلق كثير ومن جملة من انحرق بيت يوسف بيك، وجواره، وجميع من كان فيه. وأعقب هذا الحريق طاعون عم أقطار[2] مصر وجميع قراها. وسموه بفصل الحريق وبعد فراغ الفصل عمل الباشا تفتيش على بلك الأيتام والجوالى والمتقاعدين، واخرج من يستحق السفر. وأقام الطاعون من غرة شوال، إلى، الحجة ختام سنة ١٠٨١[3]. فحصل للباشا شيء كثير من المحاليل[4]، وابيع بعض البلاد في الديون ثلاث مرات[5] وفي

(١) حرق الدفاتر الديوانية: ربما يلقى هذا النص الضوء على سر غياب دفاتر الديوان العالى الخاصة بهذه الفترة من المحفوظات المصرية، ويجعلنا نرجح احراقها في هذا الحريق، لغيابها غيبة تامة خاصة، مع وجود مجموعة دافتر الروزنامة كاملة.
(٢) بالأصل «عم أقطار السكك وعم مصر» والتعبير بهذه الصورة غير مستقيم والتصحيح من التحفة، ص٢١١.
ـ كتب عنوان جانبى «اعرف حلول الطاعون بمصر».
(٣) بالأصل «الجمعة ختام سنة ١٠٨١» والمقصود الحجة أى أن الطاعون استمر من فبراير الى أبريل ١٦٧١م.
(٤) المحاليل: أى الالتزامات التى توفى ملتزموها، وعرضت في المزاد، وكان الباشا يأخذ عليها ما يعرف بالحلوان. انظر: دكتورة ليلى عبد اللطيف: المصدر السابق، ص٩٨.
(٥) بالأصل «مرار».

فى البحر [الاحمر] وكان هو ايضا عازماً على الرواح فى البحر ثم رجع رايه عن ذلك فاخرج خيمته الى البركه وقوى عزمه على السفر فى البر ثم ان السلطان اعز الله نصره صار يتعهد النزول الى مناظر البركه [بركة الفيل] المعروفه بمناظر سيف الاسلام ويأمر السكان بها بوقودها فى الليالى التى.. نزلها ورمى فى البركه السماريه(*) والحراريق وصار يركب فيها كل ليلة ويدور تحت دورها ويعطى الناس ويهبهم الدنانير والدراهم

عيسى ابن الملك العادل، بقلعة دمشق، وعمره: ٤٩ سنة، وملكه لدمشق تسع سنين وشهور، ثم قام بأعمال بعده فى مملكة ولده الملك الناصر صلاح الدين داود.

(*) السمارية: مراكب خفيفة للنزهة والسمر فى النيل.

أيامه تغيرت معاملة مصر. وسبب ذلك ان ابراهيم باشا استصحب معه جانب من الفضة الصفرى[١] معاملة جريد، فقطعها فى مصر، وجعلها معاملة، فما مكثت شيء قليل حتى صارت صفرا، وامتنعت الناس من المعاملة بها. وهو الذى ربط الخزينة من توت الى توت[٢]. ثم أنه عين الخزينة صحبة الروزنمجى ويوسف بيك وكتبة الديون جميعا، والأوقاف جميعا، حتى أنها صارت قافلة صغيرة، لكون انهم طلبوا. فلما وصلوا الى الأعتاب العلية حاسبوا يوسف بيك، وكنعان بيك، على الذين تأدوه[٣] فى حالة قيامة مقام فطلع جهتهم نحو[٣]. المايتى كيس. فحبسهم السلطان، وعين حسين آغا ابن جنبلاط ببيع جميع جهاتهم واملاكهم وبلادهم، فأبيعت وسلمت اثمانهم له. ثم ان الباشا عمل حساب الدشيشة، والأوقاف، والحرمين فطلع عليهم نحو المايتى كيس. فأرسل الوزير الخبر الى الاعتاب العلية بالواقع، وتسليم نظارة الدشيشة، فورد الخبر بتسليم المبلغ الى حسين اغا، مستحفظان، والحرمين لكل من يكن باش جاويش مستحفظان. والخاسكية لكل من يكن كتخدا عزبان. وأن يحاسبوا

(١) هذا يوضح ان العملة فى كريت، كانت تضرب من معدن أصفر، ونعتقد أنه ليس الفضة، وانما نوع من النحاس الأصفر، لأنه لا توجد فضة «صفراء» كانت تطلى بالفضة.

(٢) ربط الخزينة من توت الى توت: من سبتمبر الى سبتمبر، وتوت هو بداية السنة الخراجية بالنسبة للسنة القبطية.

(٣) بالأصل «تحت» والتصويب من التحفة ص٢١٢.

والمطعوم والمشروب والفاكهة وغيرها ويقرب من الناس وعادتهم. وكانوا الناس يتفننون فيما يعملونه من الوقيد [المشاعل والصواريخ والزينات] وغيره. وكانت هذه الايام ايام نزه ولهو وطيبة ورخا وامن والسلطان خلد الله ملكه يتردد من البركة [بركة الفيل] الى الجزيرة ومن الجزيرة الى البركة وكانت ليالى البركة عجيبة مبدعة الى الغاية. وجد الملك المسعود على المسير الى اليمن ورد بثقله [احماله

النظار، وان يستخلصوا ما دخل جهتهم، ويرسلوا ذلك صحبة حسين أغا (المعين) فحاسبهم وتادوا ما كان دخل جهتهم، وجهزوه خزينة مستقلة، وسافر بها حسين اغا بن جنبلاط. ولما أحضر ما كان على يوسف بيك، وكنعان بيك من الأموال، افرجوا عنهم[1] من الحبس وآذنوا لهم بالعود الى مصر. فأما كنعان بيك فانه توفى بعد افراجه من الحبس بثلاثة أيام، وأما يوسف بيك فانه لما رجع الى مصر، توارى في منزله عن الخلق، فانه صار لا يملك شيئا. فما مكث الا أياما قليلة وتوفى الى رحمة الله تعالى ـ ثم ورد أمر شريف بعد ذلك بتجهيز ثلاثة آلاف الى محافظة مكة، وتعمير مركبين بالسويس، لخبر ورد، ان أمام اليمن، مراده الركوب على مكة واستيلايها من يد العثماني. فلما تموا المراكب. وجهزوا العسكر، ورد أمر من الاعتاب العلية، ان ما كان نقل عن امام اليمن، كذب لا اصل له، وانكم تبيعون المركبين، والعسكر ترسلوهم الى قلعة قمانيصة[2]، فكان كذلك. ثم أن العسكر سافر الى قمانيصة سنة ١٠٨٣[3]. وركب السلطان، فسهل الله له الفتح والنصر، ففتحها في السنة المذكورة. وأراد فتح غيرها، فصالحوه الكفرة على ثلاثماية وعشرين ألف بندقي، في هذه السنة[4]، وفى كل سنة. ثم ان

(١) بالأصل «يملهم» والتصويب من التحفة، ص٢١٣.

(٢) قلعة قمانيصة: قلعة كانت تتبع آنذاك بولندا، وقد نجح العثمانيون في الاستيلاء عليها، بعد حصارها مدة قصيرة ـ تم على أثره ـ كما هو واضح من النص عقد صلح بين الطرفين لم يستمر كثيراً، كتب عنوان جانبي «أعرف صلح السلطان واعطاء النصارى للدولة».

(٣) ١٦٧٢م.

(٤) الاضافة لتوضيح المعنى.

ومتاعه] واخذ له من جميع الصناع [المصريين] من يسافر معه الى بلاده وتجهز في البر والبحر وسافر الى اليمن(*) على مكة في البر. ثم ان الزراعات نجبت والخيرات كثرت والاسعار رخصت والامور سكنت والدنيا بظل السلطان آمنة. وسير الملك المسعود في هذه السنة رجلا من اهل الهند صورته صورة الادمين وعلى وجهه وجسمه جميعه شعر وصوف يشبه صوف الدب حتى ان لحيته لا تتميز من شعر وجهه ومعه ترجمان يكلمه بالهندى

(*) جلب الصناع من مصر إلى اليمن

السلطان جاء الى أدرنه(1) وزينت جميع ممالك العثماني ثلاثة أيام. وفي سادس عشر ربيع الثاني(2)، أو في النيل، ونزل الباشا من بولاق، هو والصناجق، والاغوات، والامراء، وشيخ الاسلام، على حكم الجبر القديم، وهو آخر جبر مصر. وفي آخر جماد أول(3)، ورد مسلم حسين باشا ابن جانبلاط، الذى كان معينا(4) في حساب الاوقاف، بقيامة مقام، الى عوض بيك، ونزل ابراهيم باشا من القلعة بالاى من وسط القاهرة الى العادلية، فأقام بها عشرة أيام. وعملواحسابه، فطلع عليه شيء قليل، بالجبر ثم أنه اعطاه لهم، واعطى كل وجاق خمسماية محمدى، بقشيش وشال من العادلية، ثالث رجب سنة ١٠٨٣(5)، وكانت مدة ولايته ثلاث سنوات وخمسة أشهر. وطلع من مصر بسبعة عشر خزينة، والله أعلم.

٦٧. ذكر تولية حسين باشا جنبلاط

عفى الله عنه

قدم الى مصر في يوم الخميس عشرين شوال سنة ١٠٨٤(6)، ولما ورد الى الصالحية. طرد محمد آغا، كتخدا الجاوشية. وابقاه في الصالحية، منفيا، واكد على حبسه. ولما ورد الى مصر،

(1) ادرنة: احدى المدن التركية، وكانت عاصمة للدولة العثمانية بعد بروسة.
(2) ١١ يولية ١٦٧٢م.
(3) ٢٣ سبتمبر ١٦٧٢م.
(4) بالأصل «معين».
(5) ٢٥ أكتوبر ١٦٧٢م.
(6) مدة ولايته: ٢٠ شوال ١٠٨٤/ غرة رجب ١٠٨٦هـ ـ ٢٨ يناير ١٦٧٤/ ٢١ سبتمبر ١٦٧٥م.

وذكر انه من اهل بيت كلهم هكذا الرجال منهم والنسوان وانزله السلطان واكرمه ورتب له راتب يقوم به وزيادة. وجاء الصيام المبارك فلم يجر حديث في امر البطركية ولا غيرها. واتفق فيها اتفاق ردى وهو ان واحدا من الكتاب يعرف بالاسعد بن الكردوش كان يخدم كاتبا ببيت المال المعمور فاحضر من ثغر الاسكندريه متاع على جارى العادة وكان قد امسى عليهم المساء عن ان يفسروه فتركوه [في بيت المال] في الصناديق

تشفعوا فيه [١]، فرده الى منزله معزولا. وفي تلك السنة، ورد آغا يطلب عسكر، ثلاثة آلاف، الى قمانيصة أيضا. وجعل[٢] سردارها سليمان بيك بشناق. وعين فيها عشرين رجلا من أكابر الجراكسة اصحاب الربط والحل. وأمر الباشا أحمد افندى ابن البواب، بان يكون سردارا على بلك المتفرقة، فتعلل بوجع مفاصله، فامر بخنقه. ثم شرع في كتابة العسكر، وصرف لهم الجوامك، وسافروا خامس عشر القعدة سنة ١٠٨٤[٣]. وقتل الباشا عبد الرحمن أفندى، بخيانة ظهرت عليه. وفي خامس ربيع أول[٤]. ورد خط شريف، بطلب ثلثماية كيس قروش كلاب من الخزينة بتاع [سنة]خمسة وثمانين وألف[٥]، وكل كلب بثلاثين نصف فضة، فنزلوا سعر الكلب الى ثلاثين فضة، وكان باربعين. وكان الريال باثنين وأربعين، والشريفي المحمدى بخمسة وثمانين، والبندقي بخمسة وتسعين[٦] واتفق الأمر على ذلك. وأن الملتزمين يقبضوا الكلب بثلاثين، والريال بثلاثة وثلاثين، والمحمدى بثمانين، والبندقي بستين. فتوقفت البلد، وعدمت الانصاف. ثم ان الباشا آمر اغا مستحفظان أن ينزل يشق البلد، في كل أسبوع يوم. ثم ورد مسلم أحمد باشا الدفتردار في غرة رجب سنة ١٠٨٦ [٦] وعملوا قانصوه

(١) الاضافة لتوضيح المعنى، من التحفة، ص٢١٤.
(٢) بالأصل «وجعله» والتصويب من التحفة ص٢١٤.
(٣) ٢٤ فبراير ١٦٧٤م. (٤) ١٩ يونية ١٦٧٤م.
(٥) كتب عنوان جانبي «اعرف اسعار المعاملة من ذهب وفضة».
(٦) ٢١ سبتمبر ١٦٧٥م.

البرانية واصبحوا قابلوا [راجعوا] بالرسالة على المتاع فوجدوه قد عدمت منه سوسيه(*). فقالوا: من كان فى بيت المال البارحة عند وضع القماش فيه فذكروا جماعة منهم هذا الاسعد الكاتب فكتب بن رمضان صاحب الديوان الى السلطان بصورة ماجرى فامر السلطان بمسك جميعهم وايقاع الحوطه بينهم، فأمسك جميعهم واحتيط على نسايهم، وكان المقصود منهم الاسعد المذكور فأمسك ولده وعوقب فأقر على ابيه انه اخذها. ثم

(*) أقمشة تصنع فى مدينة سوسة.

بيك قايم مقام، فكانت مدته سنتين. وكان قانصوه سردارا [١] فى جريد، فجعله قايم مقام.

٦٨. ذكر تولية أحمد باشا الدفتردار

عفى الله عنه

قدم الى مصر فى سادس شوال سنة ١٠٨٦[٢]، ولما جلس فى الديوان أبطل اليهود الصرافين بالديوان، وجعل محلهم ابراهيم جاويش دلال البلاد[٣]، فى مقام صراف باشا[٤]، واشترك معه صالح أفندى كاتب الحولات[٥]، وأقاموا لهم صيارف من تحت أيديهم من المسلمين. وفى ذلك الشهر، ورد أمر شريف بطلب الفين نفر الى قمانيصة، فالبس الباشا قفطان السفر الى ايواظ بيك، وكذلك قيطاز آغا، آغاة الجراكسة، جعلوه سردار الجراكسة،و

(١) بالأصل «سرادر».

(٢) مدة ولايته: ٦ شوال ١٠٨٦/ ٣ ذى الحجة ١٠٨٦ ـ ٢٤ ديسمبر ١٦٧٥/١٨ فبراير ١٦٧٦م، سقط من النص ذكر السنة والتصويب من التحفة ص٢١٥.

(٣) دلال البلاد: الموظف المسئول عن ارشاد كل شخص عن أرض أثره، أو مساحته، وحدودها الصحيحة قانونا، دكتور عبدالرحيم عبدالرحمن، الريف المصرى، ص٣٠.

(٤) صراف باشا: رئيس الصرافين.

(٥) كاتب الحولات: اى الموظف المسئول عن قيد أسماء الملتزمين، وقدر الميرى الذى عليهم والأقساط المطلوبة منهم، وارسال الحوالات أى الأشخاص الذين يطالبونهم بهذه الاقساط.

ظهرت السوسيه بعد ذلك من عند شخص عدل [من الشهود] في بيت المال ذكر ان امرأة رمتها لاجل بنيه ومعها رقعة وتركتهم وهربت وانهم اطلعوا على انها من بيت الاسعد بن الكردوش ان الرقعة من عندهم. وفيها استروا ما ستر الله وارحموا ترحموا وشى من هذا، فاحضرها من ساعته الى السلطان معما تقدم من اقرار ولده عليه فامر السلطان ان تقطع يده اليمنى وشفع فيه كل

طلعوا بموكب عظيم سنة ١٠٨٦ [١]. وفي ثالث ذى الحجة سنة ١٠٨٦، اشاعوا ان الباشا مراده يحدث مظالم على البيوت والخانات، والطواحين، ويجعلها حكم الشام، ويفتش على الجوامك وغيرها. فنهوه عن ذلك فأبى، وقال: لابد من ذلك، فان هذا الأمر ليس من عندى، وانما هذا من صاحب البلد. ثم أن العسكر اجتمعت بالرميلة، واجتمع أمرهم على نزوله وإذا بعبد الفتاح المقاطعجى نازل من عند الباشا فقاموا عليه وقتلوه، لأنهم زعموا ان هذا الأمر منه، لأنه كان سافر الى الديار الرومية صحبة الكتبة وان الكتبة جاءوا، وهو تعقب، الى ان أتى صحبة هذا الباشا، فزعموا أن هذا الأمر منه، فقطعوه بالرميلة. وفي الجملة [٢] محل الشبهة. ولما نزل أهل الديوان والصناجق من الديوان قامت العسكر عليهم. وقالوا: لا نريد هذا الباشا مطلقا، وان لم ينزل طوعا، نزلناه كرها. فاعرضوا القول على الباشا، فأبى، فكرروه ثانيا وثالثا، والعسكر مجتمعة بالرميلة، الى قرب العصر، حتى أنزلوه بالقهر عليه، واسكنوه في بيت محمد باشا حاجى، الذى بالصليبة. وجعلوا رمضان (بيك) [٣] قايم مقام، واعرضوا بذلك الى الديار الرومية. وعينوا صحبة العرض محمد بيك الجندى، وسليمان آغا، الذى كان أغت البنات سابقا، واصحبوا معهم من البلوكات أنفارا. فتوجهوا في عاشر محرم سنة ١٠٨٧ [٤]،

(١) ١٦٧٥م.
(٢) الاضافة لتوضيح المعنى.
(٣) الاضافة من التحفة ص٢١٦.
(٤) ٢٤ مارس ١٦٧٦م.

امير فى الدولة فما قبل فقطعت يده يوم الاحد
وتوفى فى يوم الاحد الاخر وكان صابرا محتسبا
شاكرا لله تعالى ولم يقر قط بشى وجرى على
الطايفة شدة وامتهان اياما عده وخصوصا الكتاب.
ثم ادركت الغلات ورخصت الاسعار حتى بيع
القمح فى بلاد الصعيد باربعة دراهم ونصف
الاردب والشعير بثلاثة دراهم الاردب وكذلك
الجلبان والترمس اما السلجم وبذر الكتان فانهما

ولما وصل العسكر الى الديار الرومية نفوا محمد بيك الجندى، وسليمان آغا، الى جزيرة لمية[1]، ورجع النفر الذى كانوا معهم الى مصر. ولم يزل رمضان بيك قايم مقام الى أن ورد مسلم عبد الرحمن باشا فى سابع عشر صفر، فكانت مدة ولايته بالعزلان سنة.

٦٩. ذكر تولية عبد الرحمن باشا

عفى الله عنه

قدم الى مصر فى سادس ربيع الثانى سنة ١٠٨٧ ،فاستمر واليا بها الى ان عزل فى غاية شعبان ١٠٩١[2]، فكانت مدة ولايته أربع سنوات. ولما استقر به الجلوس،عمل حساب أحمد باشا، ووجهه الى الديار الرومية. وفى عشرين جماد آخر، ظهر كشك محمد، فاوقع فى طايفة الينجشرية القتل والنفى، والبس محمد كتخدا الحبشلى،قفطان السنجقية. وكذلك مصطفى كتخدا شنار، البسه قفطان السنجقية. وبعد مدة عفى عن الحبشلى. وارجع له كيخاويته، واظهر زين الفقار،والبسه قفطان السنجقية.وامارة الحاج معا،فى سنة ١٠٨٧[3]. واما مصطفى بيك استمر صنجقا الى أن توفى فى جدة، ثم حصل بعد ذلك غلا، الى أن بيع الأردب[4]

(١) بالأصل «المنية» والتصويب من التحفة ص٢١٦، ولمية، هى احدى الجزر اليونانية.
(٢) مدة ولايته: ٦ ربيع الثانى ١٠٨٧/ غاية شعبان ١٠٩١هـ ـ ١٨ يونية ٢٥/١٦٧٦ سبتمبر ١٦٨٠م، وفى التحفة ص ٢١٦ أنه قدم ٦ جمادى آخر ١٠٨٧هـ ـ ١٦ أغسطس ١٦٧٦م.
(٣) ١٦٧٦م.
(٤) بالأصل «الأرنب» وهذا خطأ.

يبعا بثمانية دراهم الاردب وهو شئ ما سمع بمثله والزيت الحار بثلاثين درهم القلة والبطيخ بدرهم القنطار والعنب بسبعة دراهم القنطار وكل الماكولات من هذه النسبة وكانت خيرات ما روى مثلها من سنين عديدة. الا ان الارزاق كانت قليلة والمكاسب كانت ضعيفة والناس يشكون من وقوف احوالهم حتى ان جماعة من البذارين تركوا دكاكينهم وقاموا من الاسواق لاجل البوار. وانحط صرف الذهب الى ان بلغ احد واربعين درهما

الحنطة بثمانية قروش، والشعير بماية وعشرين، وبيع الحمل التبن بماية وخمسين فضة. ونهبت الرقعة التي بجوار مدرسة السلطان حسن، وحرقوها. وزينت مصر ثلاثة أيام. ووقع في زمنه ان امراة ولدت سبعة أولاد، في بطن واحد. ثم انهم اعرضوا الأولاد وامهم على الوزير، فلما رءاهم عبدالرحمن باشا، انعم على امهم بسبعة عثامنة، ولكل ولد من الأولاد بسبعة عثامنة. وكان السبعة ذكورا وأعطى أمهم أيضا ثلاثة آلاف فضة بيضة[1]. ثم ان خدم الوزير اخفوا ولدا من سبعة، فولولت وبكت على ولدها، ثم أن الخدم أعطوه لها، فسبحان من جعل شفقة الوالدين على الاولاد من أكبر المهمات. وفي ثاني عشر ربيع أول[2] قتلوا الشريف مصطفى، باش جاويش مستحفظان. وفي غرة جماد آخر سنة ١٠٨٩[3] قطعوا رأس زين الفقار كتخدا، مستحفظان بطندا[4]. ومحرم جاويش مستحفظان بجرجة. وفي سنة ١٠٨٩ انشوا مركبا في الخاسكية. وفي سنة ١٠٨٩، أيضا، ثاني رجب، قامت الينجشرية على كوجك محمد وأرادوا قتله[5] فالتجى الى وجاق العزب، واصطلح الفريقان على نفيه الى بلاد الروم،

(١) كتب عنوان جانبي «اعرف أن امرأة ولدت سبعة أولاد في بطن واحدة».
(٢) ٤ مايو ١٦٧٨م. (٣) ٢١ يولية ١٦٧٨م.
(٤) هي طنطا الحالية، وكانت تكتب طنتا، أو طندا كما في الأصل.
(٥) بالأصل «كشف محمد» والتصويب من التحفة ص٢١٧، ويذكر أن ذلك حدث في ١٢ رجب ١٠٩١هـ ـ ٨ أغسطس ١٦٨٠م.

ونصف بدينار. وجاء اوان النيل المبارك فتوقف اولا ثم اندفع ثم وقف ايام فى مسرى(*) ونقص اصبعا او اصبعين ثم ردها وزاد ثم دخلت سنة اربع واربعين وتسع ماية والماء لم يوقف ثم استمرت زيادته ووفى فى يوم الخميس الرابع من توت(*) وزاد الى ان بلغ عشر اصابع من سبع عشر ذراعاً في الثامن عشر من توت(*) ونقص من التاسع عشر منة نقصا فاحشا وخرجت الاراضى [وضع عليها الخراج] وتحركت

(*) يقع مسرى بين ٢٥ يوليو و ٣٠ اغسطس ٩٤٤ ش = ١٢٢٨م.

(*) ٤ توت = أول سبتمبر.

(*) ١٨ توت= ١٥ سبتمبر

- -

فنفوه. ولم يزل عبدالرحمن صاحب الربط والحل فى مصر الى أن ورد مسلم عثمان باشا، في عاشر شعبان سنة ١٠٩١ [١]. وعمل قيطاز بيك بتاع قناطر السباع، قايم مقام، وانتهت رياسة مصر الى زين الفقار (لفقارى)، وقيطاز بيك، القاسمى. وصارت مصر فى أمان، وسخا، ورخا.

٧٠. ذكر تولية عثمان باشا

رحمة الله تعالى عليه

قدم الى مصر فى ثانى عشر رمضان سنة ١٠٩١، فأقام واليا بها الى ان عزل فى ثانى عشر رمضان سنة ١٠٩٤ [٢]، فكانت مدة ولايته ثلاث سنوات. وفى ثانى عشر الحجة ختام سنة ١٠٩١ [٣] جاء سيل بمكة المشرفة فاقتلع شجرة الجميز الكبيرة التى كانت بمولده صلى الله عليه وسلم، وألقاها السيل الى تحت جدار البيت. وغرق بالحرم ناس كثير. وفى جماد آخر [٤]. شالوا صنجقية عمر بيك الأعور، والحقوه بباشوية غزة. وفى سنة ١٠٩٢، عملوا

(١) ٥ سبتمبر ١٦٨٠م.
(٢) مدة ولايته: ١٢ رمضان ١٠٩١/ ١٢ رمضان ١٠٩٤هـ ـ ٧ أكتوبر ١٦٨٠/ ٤ سبتمبر ١٦٨٣م، وفى التحفة ص٢١٧، أنه قدم ٢ رمضان ١٠٩١هـ ـ ٢٨ سبتمبر ١٦٨٠م.
(٣) ٣ يناير ١٦٨١م.
(٤) جماد آخر ١٠٩٢/ يونية/ يولية ١٦٨١م.

الاسعار شيا يسيراً ثم انحطت الى حدها. ورسم السلطان للامرا والاجناد بان يخرجوا الى ظاهر القاهرة ويلبسوا ويطلبوا(*) حتى يخرج يعرضهم على الخيل فى الجبل ففعلوا ذلك وخرجوا كلهم مع من اجتمع معهم من العربان والاصحاب والرحالة وكان جمعاً عظيماً ويوماً مشهوداً وتزينوا اطلابا اطلابا(*) ميمنة وميسره وقلباً من باب القاهرة [باب زويله] الى بركة الحب [الحبش]

(*) يطلبوا: أى ينقسموا إلى فرق.

(*) الأطلاب = الفرق العسكرية.

ابراهيم جلبى بن أخت أحمد بيك بوشناق الشهير بابو شنب، ومراد أغا، صناجق فى يوم واحد. فى ثانى عشر جماد آخر عينوا تجريدة الى أهل هلبا سويد. وفى غرة محرم سنة ١٠٩٤[١]، سافر ابراهيم كتخدا العزب سابقا بثلاثة آلاف عسكرى الى سفرة ألّيس[٢]. وفى ثانى عشر رمضان ورد مسلم حمزة باشا. وعمل زين الفقار بيك أمير الحاج، قايم مقام، والله أعلم.

٧١. ذكر تولية حمزة باشا

عفى الله عنه

قدم الى مصر فى تاسع شوال سنة ١٠٩٤، فأقام بها واليا الى أن عزل فى عشرين القعدة سنة ١٠٩٨ [٣]، فكانت مدة ولايته أربع سنوات، فلما أستقر به الجلوس واذا باغا معين بخط شريف، بطلب [٤] ثلاثة آلاف نفر الى محافظة مكة المشرفة، قرى (الخط) [٥] بالديوان، فى

(١) ٣١ ديسمبر ١٦٨٢م. و«هلباسويد» من المدن التى خربت فترة الاحتلال العثمانى.
(٢) يذكرها صاحب «تاريخ ملوك ال عثمان ونوابهم» ورقة ١٣٦، باسم «البج» ولعل صحتها كما ذكرت إعلاه ألّيس على نهر الفرات.
(٣) مدة ولايته: ٩ شوال ١٠٩٤/ ٢٠ القعدة ١٠٩٨هـ ـ ١ أكتوبر ١٦٨٣/ ٢٧ سبتمبر ١٦٨٧م.
(٤) بالأصل «تطلب».
(٥) الاضافة لايضاح المعنى.

وعبرالسلطان عليهم راكباً يمر يطلب طلب ينمر [يحصى] جميعهم وعددهم وتركهم ويجوز من واحد الى اخر في يوم الثلثا الرابع عشر من شوال سنة اربع وعشرين وستماية(*) وامرهم ان يعودوا من الجبل ويبيت كل امير وجماعته في منزلته بغير خيام ويصبحون يعبرون عليه فما بقى لكل امير في وطاقه الاخيمة واحدة برسمه لا غير وباتوا واصبحوا عبروا على الخيمة التى ضربها السلطان على تل قريب من باب النصر وبدايرها شبابيك

(*) أهم احداث سنة ٩٤٥ ق. = ١٢٢٨م. = ٦٢٥هـ.
* ١ يناير ١٢٢٨ = ٥ طوبه ٩٤٤ = السبت ٢١ محرم سنة ٦٢٥.
* فيها قدم الامبراطور فريدريك، صاحب جزيرة صقلية وغيرها، إلى عكا بناء على دعوة الملك الكامل للاستعانة به على أخيه

غرة صفر سنة ١٠٩٤[(١)]. ثم أن الباشا احضر عبدالله بيك والبسه قفطان السفرة، وسافر فى غــرة ربيع أول سنة ١٠٩٥[(٢)]. ثم جاءت الاخبار من الطور بموت شيخ الاسلام يحيى المغربى[(٣)]، وتوجه ولده سيدى عيسى الى الطور، وجابه الى مصر، وصلى عليه سيدى أحمد بن ناصر المغربى [(٤)]، القطب، الذى هو آخر السبعة الذى كل من رأى وجهه دخل الجنة. وكان اذا رأى وجهه انسان يقول له ، أشهد لى أنى رأيت وجهك. فيقول: شهدت لك. وكانت هذه البشاير لسابع جد له من المصطفى صلى الله عليه وسلم. وكان سيدى أحمد بن ناصر سابع ولد، وهو آخرهم ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم، وكان أخبر جده الأعلى وقال له، كل من رأى وجهك، ورأى وجه أولادك، وأولاد أولادك، الى سابع بطن من ولدك وولد ولدك. ولم يعقب بعده أحد. وجاء الى مصر مرتين، مرة سنة ١٠٩٥[(٥)]، وحضر الصلاة على الشيخ يحيى المغربى، والمرة الثانية سنة ١١٠٥[(٦)]. وجعلوا تاريخ موته «الشيخ يحيى أصبغا» ودفن بجوار السادات المالكية، والله أعلم. وفى ثانى عشر ربيع أول سنة ١٠٩٦ [(٧)]، ألبس الباشا لاسماعيل بيك قفطان السنجقية، وأزوجه حسن أغا بلفية أبنته، التى محمد بيك الدفتردار

(١) يناير ١٦٨٣م. (٢) ١٧ فبراير ١٦٨٤م.
(٣) كتب عنوان جانبى «اعرف وفاة الشيخ يحى الشاوى المغربى».
(٤) كتب عنوان جانبى «اعرف كرامة سيدى أحمد بن ناصر الذرعى» وربما يقصد المغربى كما فى النص.
(٥) ١٦٨٤م. (٦) ١٦٩٣/ ١٦٩٤م. (٧) ١٦ فبراير ١٦٨٥م.

الملك المعظم، الذى كان قد مات قبل وصول الأمبراطور.
* [١ توت ٩٤٥ = ٢٩ اغسطس ١٢٢٨ = الثلاث ٢٦ رمضان سنة ٦١٥].
* فى شوال سار الملك الكامل، صاحب مصر إلى الشام ونزل بتل العجول قاصدا محاربه ابن أخيه الملك الناصر، حيث لم يعطه حصن الشوبك، فاحتال على نابلس والقدس من بلاد ابن أخيه.

خشب وقد سمرت سقفها وهو جالس داخل الشبابيك مع خواصه والمعممين من اهل دولته وصار الامرا يعبرون عليه كل امير على ترتيب ما وضع لهم بأوراق بأن فلان بعد فلان وفلان بعد فلان ولا يقدر احد ان يتعدى ذلك. وكان اول من عبر المولى الملك الصالح ولد السلطان لانه كان راس الميمنة وما زال الامرا يعبرون في يوم الاربعاء الخامس عشر من شوال المقدم ذكره من صلاة

منها. وفي سنة ١٠٩٧ (١) ورد شاطر (٢) باشا بتاع السلطان محمد ، بخط شريف، بطلب الفين من الغربا (٣)، بجوامك من الديوان العالى. وان تكون الالفين من العزب والينجشرية فقط. وان يكون من العزب الف، ومن الينجشرية الف، وان يكون لكل واحد عشرة عثامنة عند كتابتهم، وعند العود من السفر عثمانيين، فيصير كل واحد اثنى عشر عثمانيا على وجه الترقي. وان يكون قيطاز بيك سنجقهم، وان يتوجوا الى قلعة مورة (٤).وأيضاخط شريف ثاني، بأن العسكر التى وصلت صحبة عبدالله بيك ناقصين ستماية نفر. فأنكم تعوضوا ستماية نفر عوضهم ، وتنصبوا لهم سنجقا، وترسلوها الى محافظةقلعة جريد. فجهزوا الألفين صحبة قيطاز بيك، وسافر فى غرة جماد آخر سنة ١٠٩٧ (٥)، وعينوا قانصوه بيك على الستماية، وسافر فى غرة رجب (٦) من السنة المذكورة. وفى ذلك العصر، حصل بمصر

(١) ١٦٨٦م.
(٢) كان شاطر باشا يشغل منصب رئيس سعاة السلطان، تاريخ ملوك آل عثمان، ورقة ١٣١.
(٣) الغربا: نوع من الجند كانت الدولة العثمانية تأمر بتجنيدهم، من البلدان الاسلامية، ليشاركوا فى حروب السلطان، وقد ورد فى المصادر اسم «غرباء» كفرقة من الفرق العسكرية العثمانية، جب وبوون، المجتمع الاسلامي والغرب، ترجمة دكتور أحمد عبدالرحيم مصطفى، جـ١، ص١٠٠ ـ ١٠١.
(٤) بالأصل «موزا» والتصويب، من تاريخ ملوك آل عثمان ورقة ١٣٦، التحفة ص٢١٨.
(٥) ٢٥ أبريل ١٦٨٦م. (٦) ٢٤ مايو ١٦٨٦م.

الصبح الى موذن العشا طلب بعد طلب بحيث لا ينقطع العبور لحظة واحدة الا اواخر هذا الطلب أوايل الذى بعده الجنايب والهجن والعدد والزرد والتشاهير(*) والاكواس والبوقات حتى ارهجت [أرتجت] الارض وكان عسكرا ما روى مثله . ثم عبر السلطان مساء بعد عبورهم جميعاً ثم رسم لهم بأن يشدوا ويركبوا فى نهار يوم الاحد التاسع عشر من شوال الذى يلي الاربعا المقدم ذكره لاجل

(*) التشاهير: أى السلاح.

طاعون، الى أن عم مصر وأقطارها، من اول شهر صفر الى جماد الثانى سنة ١٠٩٧(١). ومات فيه خلق كثير، وخلت منه بيوت كثيرة. وفيه توفى والدنا الشيخ عبد الغنى رحمة الله عليه، وعلى من دعا لنا وله بالمغفرة آمين. وسمى بفصل السيل، لأنه أتى قبله سيل لم وجد فى مصر مثله. حتى البرد كل بردة قدر بيض الدجاج والحمام. وفى شوال سنة ١٠٩٧(٢)، ورد ركاب كشك محمد من النفية، وطلع الى باب مستحفظان، وقبلوه وألبسوه الضلمة(٣)، الى أن مات قرا سليمان كتخدا، فخل الضلمة وعمل باش أوضباشية. وخرج من الوجاق ناس كثير بسببه، وما زال كذلك، حتى اجتمعت الناس بباب مستحفظان وأخرجوا كشك محمد، وكور عثمان، من باب مستحفظان، فتوجه كشك محمد الى حسن أغا بلفية، وعمل جربجى فى وجاق الجملية، واستمر مدة. وفى سنة ١٠٩٨(٤). أرسل [الشيخ] حبيب المشهور، تابعا له، يقال له نصر، فى قارب. فطلع الى بولاق، وأخذ معرف السلطنة فى قاربه، ولما توسط البحر دبحه، وارماه فى البحر، وأهل بولاق ينظرون. ثم أن نصر تابع حبيب أنحدر [عاندا]، وكان الكلب لم يأكل عجين. ومضى دمه هدر. وسبب ذلك، انه عارض مراكب حبيب،

(١) ديسمبر ١٦٨٥/ مايو ١٦٨٦م، وكتب عنوان جانبى «اعرف حلول الطاعون بمصر».
(٢) أغسطس/ سبتمبر ١٦٨٦م.
(٣) الضلمة: الزى الرسمى الذى كان يلبسه كبار رجال الأوجاقات، وكبار الأمراء المماليك.
(٤) ١٦٨٦م.

ظهور المولى الملك العادل ولده الاصغر فلبسوا وركبوا وليس كاليومين الاولين الا مختصرين من ذلك وخرجوا الى صوب جامع بن طولون تحت القلعة ولعبوا وكان السماط قد عمل فى الميدان الذى هناك [ميدان الرميله] ونزل السلطان من القلعه راكبا وعبر على الاطلاب ومر بالسماط فامر به فتخاطفه الناس على جارى العادة وطلع الى القلعة المحروسة وظهر ولده وختن معه خلقا من

وكتبهم فى رسالة العنبر. وان حبيب هذا فلاح جميسى بدوى، فى قرية من قرى الوقف، تحت يد كل من يكن أمير الحاج. والقرية تسمى دجوة [1]، على جانب النيل. يقطع البر والبحر، بموالسة أكابر مصر، وصناجقها، وأمراها، وينهب أموال الناس. ورتب على جميع المراكب التى تمر عليه عوايد، لا يختلوا عنها. وطلعت له تجاريد عديدة، ولم يظفروا به. فلما حصل ما حصل، من جهة المعرف، وأخبر الباشا، حلف لابد من نزوله له. ثم جهز الصناجق، والاغوات، والعسكر، وتوجه له فى ثامن رجب [2]، فلم يظفروا به، لموالسة الصناجق له. لأنه كان كل شئ أخذه، يرسل لهم منه، من رز، وحطب، وغنم، وعسل، وجبن، وجمال، وخيل. ثم أنهم اخربوا دجوة، ورجعوا ولم يقعوا ولا برجل واحد. وعاد الباشا والعسكر جميعا. ثم بعد ذلك أحدث [3] تجريدة عبدالله بن وافى، وهو رجل مغربى [قرصان] [4]، اجتمعت عليه جماعة من المفسدين، وصار يضرب البر والبحر، ويدور فى البحر بالمدافع والآت الحرب، ويضرب البلاد، والكشاف. فتوجه له العساكر، فلم يظفروا به، فعادوا. وفى سنة ١٠٩٩ [5]. كانت غزوة مورة، فعينوا محمد بيك بالف عسكرى. وفى ثامن عشرين شعبان سنة ١٠٩٩ [6]،

(١) دجوة: احدى يقرى مركز طوخ، محافظة القليوبية، تقع على الشاطىء الشرقى لفرع النيل، محمد رمزى، المصدر السابق، قسم ٢، جـ١، ص٤٥.
(٢) ٢٠ مايو ١٦٨٧م.
(٣) بالأصل «احدثه».
(٤) كتب عنوان جانبى «اعرف عبدالله بن وافى وخبره».
(٥) ١٦٨٨م.
(٦) ٢٨ يونية ١٦٨٨م.

اولاد الصعاليك الذين لا قدرة لهم كسباً لثوابهم. وجرى الامر فى نزوله الى بركة الفيل وشربه بها واعطايه الناس وهباته وصلاته ووقودالبرين والازر وطرح السماريه والحراريق فيها على ما جرت عليه الحال فى السنة الخالية. وبعد ذلك خرج السلطان اعز الله نصره الى ثغر الاسكندرية لكشف احواله وتدبر اموره لانه وقعت الشناعة بان العدو على حركه. ووردت الاخبار فى ذى الحجة سنة اربع

توفى زين الفقار بيك. وفى ٢٥ رمضان توفى شيخ الاسلام الشيخ عبد الباقى الزرقانى[١] والبسوا ابراهيم جلبى بن زين الفقار بيك الصنجقية، عوضا عن والده. والبس الباشا، اسماعيل بيك، نسيب حسن اغا بلفية قفطان امارة الحاج الشريف. ثم ورد مسلم حسن باشا، وانزلوا حمزا باشا الى بيت يوسف أغا. أغة البنات، الذى بسويقة عصفور[٢]، بالاى عظيم ، ولم يعينوا عليه حرسا[٣]، ثم ورد الخبر بجلوس السلطان سليمان[٤] رحمه الله تعالى.

٧٢. ذكر تولية حسن باشا

أول نياب السلطان سليمان خان

قدم الى مصر فى سابع عشر صفر سنة ١٠٩٩ وتحاسب مع حمزة باشا. وتوجه حمزة باشا فى غرة جماد (الأولى) [٥] سنة ١٠٩٩ [٦]. وفى هذا التاريخ ورد آغا بضبط جميع

(١) ٢٤ يولية ١٦٨٨م، كتب عنوان جانبى «اعرف وفاة الشيخ عبدالباقى الزرقانى».
(٢) سويقة عصفور: شارع سويقة عصفور كان يبتدىء من شارع الداودية تجاه شارع الحمزية وينتهى الى حارة عصفور، وطوله مائة وعشرة أمتار، على مبارك، الخطط، جـ٢، ص٦٤.
(٣) بالأصل «حرص».
(٤) هو السلطان سليمان الثانى تولى السلطنة ١٦٨٧/ ١٦٩١م.
(٥) التكملة من التحفة، ص٢٢٠.
(٦) مدة ولايته: ١٧ صفر ١٠٩٩/ غرة جماد الأولى ١٠٩٩هـ ـ ٢٣ ديسمبر ١٦٨٧/٤ مارس ١٦٨٨م.

وعـشـرين وسـتـمـايه بوفـاة الملك المعظم سلطان
دمشق والقدس وقعود ولده الملك الناصر بعده في
مملكتـه واسـتـقـر الامـر على يده وعـمل العـزا
بالاسكندريه بحـضـور السلطان الملك الكامل
وبقيت الاحوال على ماهي عليه والاسعار راخيه
والاشيآء كثيرة والخيرات موجودة الا ان الناس
كانوا يشكون من قلة المعاش وعدم المكسب وقلة
الدرهم والدينار. وفي هذه الايام في اواخـر

موجودات يوسف آغا القطردار. وفي زمنه طلع جلبي البيرقدار الى باب مستحفظان وحصل له ما حصل. ومكث حسن باشا سبعين يوما. ثم ورد مسلم حسن باشا السلحدار وعمل أبو شنب قايم مقام.

٧٣.ذكر تولية حسن باشا السلحدار

عفى الله عنه

قدم الى مصر في يوم الخميس ثاني عشر ربيع الثاني سنة ١٠٩٩، فاقام واليا بها الى أن عزل في خامس الحجة سنة ١١٠٠ (١)، فكانت مدة ولايته سنة واحدة وتسعة أشهر. وفي (اليوم) الثاني جلوسه ابرز خطا شريفا قرى بالديوان بالسكة والخطبة باسم السلطان سليمان بن ابراهيم. وخلع على أرباب الديوان قفاطين على جرى العادة .. وفي سادس عشر ربيع الثاني أمر بالزينة، فزينت البلاد ثلاثة أيام بلياليها. وفي ١٣ ربيع الثاني ألبس الباشا قفطان امارة الحاج لابراهيم بيك أبو شنب. وعزل اسماعيل بيك من امارة الحاج، والبسه قفطان الدفتدارية. وفي تاسع شعبان سنة ١٠٩٩ (٢) حل ركاب يوسف أغا القطردار من الديار الرومية، ونزل بيته الذى بسويقة عصفور، لأن أحمد آغا الوكيل، كان قد أخذه من الباشا، لما ذهب مال

(١) مدة ولايته: ١٢ ربيع الثاني ١٠٩٩/ ٥ الحجة ١١٠٠هـ - ١٥ فبراير ١٦٨٨/ ٢٠ سبتمبر ١٦٨٩م.
(*) الاضافة للتوضيح.
(٢) ٩ يونية ١٦٨٨م.

كيـهك(*) عـاد السلطان الملك الكامل من ثغـر الاسكندرية وجـعل طريقـه على الديارات ديارة بو مـقـار بوادى هبيب [وادى النطرون] ونزل بهـا واضافه الرهبان وكل من معه واكثروا لهم الخير مما يوجد عند الرهبان وانعم عليهم السلطان ووقع لهم بخمس ماية اردب غله ثلثمايه قمحا وشعيرا وماية فولا وماية جلبانا واكرمهم وقربهم منه. ورفع الحجاب دونهم وكتب لهم منشورا بان من ترهب

(*) كان أخر ايام كيـهك فى هذا العالم يوافق ٢٧ ديسمبر بحسب التقويم الجوليانى.

الاغا، وضبطه (١) بموجب الخط الذى تقدم ذكره. ولما قدم الاغا اعطاه احمد اغا الوكيل له وفى ثانى عشر شعبان ورد اغا من الديار الرومية، بتسليم الصرة الى امير الحاج المصرى، يوصلها الى مكة، و ابطلوا سفرها من الشام.

وفى خامس عشر شعبان (٢)، سافرت الخزينة من مصر، وصحبتها ما تحصل من موجودات يوسف اغا القطردار، وعلى أغا الخزندار. وفى ثالث عشر الحجة ختام سنة ١٠٩٩ (٣)، كانت وقعة ابراهيم بك أبو شنب الفقارى مع العرب (٤) وراء جبل الجيوشى ، وقتله لهم، هو والصناجق، والاغوات، وجميع عسكر مصر، ودلاة الباشا. فاستمر الحرب بينهم من صلاة الصبح الى قبل العصر. وقتل من العرب نحو الف، ومسكوا بالحياة نحو الخمساية. واتوا بهم الى الوزير، فأمر بحبسهم فى العرقانة، ونهبت العسكر جميع جمالهم واحمالهم، ومتاعهم، لأنهم كانوا عرب عشرين قبيلة، حتى من عرب المدينة وعرب الحجاز، وعرب الطايف، وعرب جاءوا يموتوا، لأن تلك الأرض كان واقع فيها القحط والجدب. ثم انهم اطلقوا العرب المسجونة وأرسلوهم الى قبايلهم، فاعلموا قبايلهم بما جرى لهم. فاتفق رأيهم، أنهم ينهبوا

(١) بالأصل «ضبط».
(٢) ١٥ شعبان ١٠٩٩هـ/ ١٥ يونية ١٦٨٨م. (٣) ٩ أكتوبر ١٦٨٨م.
(٤) بالأصل «العزب» وصححتها «العرب» كما واضح من سياق النص، ومن المصادر المعاصرة، التحفة، ص٢٢٢. أما دلاة الباشا فهم فرقة مرتزقة فى الجيش العثمانى.

لا يلزمه جزيه ولا يطلب بها وان اى راهب مات كان ميراثه للرهبان ولا للمواريث الجسديه عليه تعلق ولا للديوان السلطاني عليه اعتراض. وتحدثوا معه في امر البطرك فقالوا له: يا مولانا نحن بغير بطرك وقد تلفت احوالنا وكان بهذا الدير نيف وثمانين قساً ما فيه اليوم الا اربعة لانهم ما وجد من تقدم عوضهم. فقال لهم: اختاروا من شئتم وانا اقدمه لكم. قالوا: يامولانا نحن ما معنا مال

الحاج في تلك السنة، وهي سنة ١١٠٠ [(١)]. ثم أن العرب اجتمعت في عش الغراب، واذا بقافلة الوش [(٢)] قابلة عليهم في عش الغراب، فأخذوها عن بكرة أبيها، ولم يبقوا فيها شيئا. ثم ورد نجاب الى مصر، (أخبر) [(*)] أن العرب طلعت على الحاج، وتقاتلوا هم وأياهم في الشرفة، فقتل خلق كثير، وقتل خليل آغا كيخية الحاج، وأخذوا نحو الف جمل بأحمالها، وأسروا النساء. ومن جملة ما أسروا من النساء، بنت السيد تاج، اخت السيد عبداللطيف الجيزى، كاتب الاشراف، وناظر الكسوة [(٣)] و نسآء كثير، لا تعد ولا تحصى. فعندما بلغ الوزير هذا الخبر، عين خمس صناجق، قيطاز بيك بتاع قناطر السابع، ودرويش بيك، ومراد بيك، واسماعيل بك الدفتدار، ومصطفى بيك الخطاط، وصحبتهم ماية وخمسين نفرا من طايفة الاسباهية ورحلوا من البركة [(٤)]. في غاية محرم

---

(١) ١٦٨٩م.

(٢) الوش: وتعرف كذلك «بالوجه» وهي احدى موانى بلاد الحجاز؛ وكانت آنذاك محطة من محطات الحاج.

(*) الاضافة لتوضيح.

(٣) ناظر الكسوة: المشرف على اعداد الكسوة الشريفة. كسوة الكعبة التى كان يحملها أمير الحاج المصرى معه سنويا.

(٤) البركة: هي بركة الحاج من ضواحي القاهرة، احدى نواحي مركز شبين القناطر، بمحافظة القليوبية، محمد رمزى، المصدر السابق، قسم ٢، جـ ١ ص٣١.

والبطرك يطلب عليه المال فقال لهم: اتفقوا على من اردتم وما يطلب احد منكم شيئا. ولم يقر عزمهم على احد. وانفصل السلطان عنهم وهو شاكراً لهم وكذلك ساير العسكر. ثم وصول رسول السلطان الذى كان توجه مع رسول الانبرور [الامبراطور فردريك الثانى حكم ما بين ١١٩٤/ ١٢٥٠م.] الواصل فى السنة الخارجة ووصل معه رسول اخر من جهة الانبرور المذكور الا انه ليس مثل ذاك الرسول فى حرمته بل دونه واحضر معه

- -

الحرام [١]. فلما وصلوا الى نخل [٢] قعدت الصناجق فى نخل، وأما درويش بيك فانه أبى القعاد وسار الى أن وصل العقبة، هو وجميع طايفته فقط. فلما علم ابراهيم بيك بوصول درويش بيك فرح، وفرح الحاج، وأطمان، وحصل لهم غاية السرور. وأما العرب فان الله القى الرعب في قلوبهم فهربوا جميعا ودخل الحاج الى مصر بالسلامة. ثم أنهم أعرضوا هذا الأمر الى الاعتاب العلية، وأرسلوا العرض صحبة موسى أغا قبجي باشا: المجهز لقبض تعلقات يوسف أغا القطردار، وعلى أغا الخزاندار. وفى رابع ربيع الثانى [٣]، أرسل الباشا كيخيته الى جرجة، وجعله حوالة الحولات على غلال العنبر والحرمين، وأرسل قطع رأسه في جرجه. وفى شعبان [٤]، نقبت المحابيس العرقانة، وطلعوا منها، فلم يوجد أحد، وهربوا عن بكرة أبيهم. وفى شعبان غلت الحبة، وجميع الأسعار، حتى أن اللحم الضانى بيع بنصف فضة الرطل، والجاموس بخمسة جدد الرطل، ولم يزد على ذلك، وأستمرت الزيادة فى اللحم الى يومنا هذا، ولم ينزل[٥] الى عادته من ذلك اليوم. وفى خامس الحجة وصل مسلم أحمد باشا وعمل قيطاز بيك قايم مقام.

---

(١) ١٣ فبراير ١٦٨٩م.
(٢) نخل: قرية من قرى شمال الحجاز، وكانت تعتبر محطة من محطات الحاج.
(٣) ٢٥ يناير ١٦٨٩م. (٤) مايو / يونية ١٦٨٩م.
(٥) بالأصل «يزل» وصحتها «ينزل».

هدايا من خيل وقماش ومصاغ وجوارح(*) وانزل على جارى العاده. وتحرك السلطان عز نصره للسفر الى الشام هو وعساكره وخرج من القاهرة في يوم الاحد التاسع والعشرين من ابيب(*) من السنة المذكورة وسار على فوره ونزل على تل العجول منزله بين الداروم [الدارون] وبين غزه بعد ان ا ستخلف بمصر ولده الملك الصالح وسلطنه بها وانابه فيها. ودخلت سنة خمس واربعين وتسع

(*) صقور صيد.

(*) ٢٩ أبيب = ٢٣ يوليو

---

٧٤. ذكر تولية أحمد باشا الذى بنى المؤيد

بعد انهدامه

قدم الى مصر فى يوم الاثنين سادس محرم الحرام سنة ١١٠١، فاستمر واليا بها الى ان توفى فى ثانى عشر جمادى الثانى سنة ١١٠٢[١]، فكانت مدة ولايته سنة وخمسة أشهر. وفى ثانى عشر ربيع آخر سنة ١١٠١[٢]، ورد أغا بخط شريف بطلب الفين عسكرى الى الديار الرومية، وصحبتهم سنجق. فبعثوا مصطفى بيك حاكم جرجه. وتوجه فى سادس جماد آخر من السنة المذكورة [٣]. وفى هذا التاريخ كان التجريدة الكبرى الى البحيرة والبهنسة، وأرسلوا صنجقين[٤]، وألفين نفر من السبع وجاقات، وعليهم سردارية من أبوابهم[٥] وأعطوا كل صنجق عشرة اكياس، وكل سردار كيسا[٦]. وكل نفر ثلاثة آلاف «نصف فضة»[٧]

(١) مدة ولايته: ٦ محرم ١١٠١ / ١٢ جماد الثانى ١١٠٢ هـ - ٢٠ اكتوبر ١٦٨٩ / ١٣ مارس ١٦٩١م، وفى التحفة، ص ٢٢٣ أنه قدم ١٦ محرم ١١٠١هـ - ٣٠ أكتوبر ١٦٨٩م.

(٢) ٢٣ يناير ١٦٩٠م.

(٣) ١٧ مارس ١٦٩٠م.

(٤) الاضافة من التحفة، ص ٢٢٣.

(٥) بالأصل كتبت العبارة التالية «وكل نفر ثلاثة آلاف، وأرسلوا صنجقين» وواضح أنه خلط من الناسخ فى زيادة هذه العبارة أثناء عملية النسخ.

(٦) بالأصل «كيس».

(٧) الاضافة لايضاح المعنى.

مـايه ثم ان السلطان تنقل من تل العـجـول من منزله الى منزله الى ان وصل الى نابلس فاقام بها وامتـدت جيوشـه للفور الى قصـر بن معين الدين وجـاز القـدس والسـاحل من الداروم الى القـصـر المذكـور. وفي اثنا ذلك وصل الانبرور من المغـرب [أوربا] الى قـبـرص ومن قـبـرص الى عكا وجـات رسله الى السلطان بهدايا نفيسه وبجمل [ملابس] عظيم وكانوا اثنين جليلين احدهمـا صاحب صيدا

وأرسلوا الى كل ناحية سنجقا وألف نفر، وجمعوا من الاقليمين من البلد الكبير ثلاثة آلاف، ومن البلد الصغير الفين. وتوجهوا في ثاني عشر جمادالثاني سنة ١١٠١ (١). ثم أنهم سافروا، فما حملوا غير يوم واحد، وبعثوا يطلبوا امدادا. ثم أن الباشا أرسل فرمانا (٢) الى سـاير الكشاف، أن يتوجهوا له، وأرسل الوزير كتخداه، بثلاثماية نفر من الدلاة. ثم أنهم تلاقوا مع عربان ابن وافي مرارا وهم ينكسروا من العرب. ثم أن الوزير أرسل قيطاز بيك، وأغوات السبع بلوكات، وكتخدا الجاوشية، وفي آخر الأمر، وهي الوقعة الطامة، هزموا العرب، وولوا هاربين نحو الغرق (٣). ثم أن قيطاز بك، وحسن أغا بولفية، وكتخدا الوزير، صادفوا شرذمة قليلة، فاخذوهم، ونهبوا أموالهم، وجمالهم، وقطعوا رءوسهم، وهم سبعة أنفار منهم. ثم ان الباشا أرسل لهم فرمانا (٤) بالحضور فحضروا، وطلعوا الى الديوان، ولم يصحبوا معهم من العرب شيئا. وفي ثامن رجب سنة ١١٠١ (٥)، ألبس الباشا قفطان امارة الحاج، ابراهيم بيك بن زين الفقار، بخط شريف. وفي ذلك التاريخ كانت واقعة الشريف ابن غالب بمكة، مع محمد

(١) ٢٣ مارس ١٦٩٠م. (٢) بالأصل «فرمان».
(٣) بالأصل «الفرزدق» وصحتها «الغرق» احدى نواحي الفيوم.
(٤) بالأصل «فرمان»..
(٥) ١٧ أبريل، كتب عنوان جانبي «أعرف ولاية الشريف محسن ابن حسين بن زيد وتغلبه على ولاية مكة المشرفة».

والاخر الكند تماس[الكونت توماس] نايب الملك
في عكا. وتلقاهم السلطان ملقا عظيما. وركب
العسكر جميعه يوم وصولهم وانزلوا في كرامة
كبيرة و ترددت الرسل من السلطان اليهم ومنهم
الى السلطان وكان هذا الانبرور رجلا حكيما
كريما حسن المقاصد مشكور السيرة وتمادى الحال
على ذلك والسلطان اعز الله نصره يمده بالهدايا
من الحجورة [الاحجار الكريمة] والبغال والهجن

بيك حاكم جدة، ومحاربته واياه، وحفر المتارسات، وضرب المدافع. ثم بعد ذلك كانت الغلبة على ابن غالب، فولى هاربا، وتولى الشريف محسن بن حسين بن الشريف زيد، ونادوا بالأمان. بعد حروب كثيرة، وزينت مكة ثلاثة أيام. وكان دخوله الى مكة في ثاني عشر رجب من السنة المذكور[1]. وفي سابع عشرين الحجة ختام سنة ١١٠١[2] توفي شيخ الاسلام والمسلمين، عمدة أهل اليقين، قطب دايرة الوجود، الذى كان له فى العلوم غاية البطش، سيدى محمد الخرشى [3] أسكنه الله فسيح الجنان، وزاده احسانا فوق احسان، أنه هو الحنان المنان. ثم تولى بعده مشيخة الجامع الأزهر، شيخ الاسلام، الشيخ محمد النشرتى. ومن خيرات أحمد باشا ترميم الجامع المؤيد، وقد كان تداعى الى السقوط، فأرسل كشف عليه، بشيخ الاسلام. ثم شرع في العمارة إلى أن أتمه في أحسن حال، جزاه الله أحسن الجزاء. ثم بعد ذلك مرض، وتوفي الى رحمة الله تعالى، في ثاني عشر جماد الثانى سنة ١١٠٢[4]. ثم جهزوا الباشا ودفنوه بالقرب من علي باشا ثم أنهم أعرضوا وفاته إلى الديار الرومية.[5] ثم ورد

(١) ٢١ ابريل ١٦٩٠م.
(٢) ١ اكتوبر ١٦٩٠م، كان يعتقد أن الشيخ محمد الخرشي، هو أول شيخ للأزهر، ولكن ثبت مما سبق ذكره، ان منصب مشيخة الأزهر، سابق، على عهده.
(٣) كتب عنوان جانبى «أعرف وفاة الشيخ محمد الخرشى».
(٤) ١٣ مارس ١٦٩١م.
(٥) بالأصل «الى تأتيه الخبر الى الديار الرومية».

والنجابى والاقمشة وغير ذلك من تحف الملوك وبعد ذلك رحل السلطان من على نابلس وعاد الى مجدليا نزل عليها وتنقل فى المنازل الى قريا بالقرب من عسقلان وهناك وصل اليه اخوه الملك الاشرف صاحب الشرق يوم عيد الاضحى من سنة خمس وعشرين وستمايه وكان يوماً مشهوداً ورسل الانبرور لم تكن تنقطع . وسير السلطان اعز الله نصره احضر من مصر الفيل الذى كان الملك

الخبر من الاعتاب العلية أن يكون كتخداه، على حكم ما ولاه سيده الى آخر مسرى [1]. ثم ورد مسلم على باشا، بقيامة مقام على ماهو عليه، كتخدا أحمد باشا، الى حين ورودنا، أن شاء الله تعالى.

٧٥.ذكر تولية على باشا قايم مقام

الركاب السلطانى

قدم الى مصر فى يوم الخميس ثانى عشر رمضان سنة ١١٠٣ [2]، وكان وروده من طريق البحر، وكان بصبته الترخان [مسئول البريد] يريد التوجه إلى الحاج الشريف، فأقام بمصر، إلى أن توجه صحبة الحاج، وعاد من طريق الشام. وفى ثانى عشر القعدة ورد قراسليمان أغا من الديار الرومية، بخط شريف بجلوس السلطان أحمد[3] بن السلطان ابراهيم. فزينت مصر ثلاثة أيام بلياليها، وفى ثالث عشر صفر الخير سنة ١١٠٣ [4]، ورد نجاب من مكة المشرفة بتولية سعد الشرافة، عوضا عن الشريف محسن فاعرض [5] الوزير على باشا الأمر إلى

(١) آخر أغسطس ١٦٩١م.
(٢) مدة ولايته: ١٢ رمضان ١١٠٢ / ٨ محرم ١١٠٧ هـ / ٢٨ مايو ١٦٩٢ ـ ١٩ أغسطس ١٦٩٥م.
(٣) هو السلطان أحمد الثانى، تولى السلطنة ١٦٩١ / ١٦٩٥م.
(٤) ٥ نوفمبر ١٦٩١م.
(٥) كرر بالأصل لفظ «فاعرض».

المسعود صاحب اليمن والحجاز احضره صحبته مع جملة الفيلة ولم يكن بقى منهم سواه لانهم ماتوا كلهم وسير الفيل المذكور الى الانبرور ورحل الانبرور من عكا ونزل يافا يعمرها بعد عمارة قيسارية. ووصل نيل مصر فى هذه السنة الى عشرين اصبعاً من سبعة عشر ذراعاً وكانت الاسعار راخية بها جدا والشام بضد ذلك وكان العسكر فى ضايقة وغلا حتى انهم باعوا خيلهم وعددهم.

الاعتاب العلية بواقعة الحال. وفى ثامن عشر ربيع أول[1]، ورد أغا من الديار الرومية، بخط شريف بتولية الحرمين، والدشايش، لأربعة صناجق، فتولى ابراهيم بيك بن زين الفقار الدشيشة الكبرى، عوضا عن كتخدا [2] مستحفظان. وعبدالله بيك، الخاسكية، عوضا عن كتخدا العزب. فألبسهم على باشا القفاطين. وفى غرة رمضان سنة ١١٠٣[3] ورد ركاب سعد الاشرم من الديار الرومية بشرافة مكة، وتوجه فى تلك السنة، لأنه لما تولى شرافة مكة، عوضا عن محسن، وجاء الخبر الى مصر، وأعرض الباشا بسبب ذلك، أرسل السلطان أخذه من مكة على خيل البريد، البسه باشوية حمص، ثم أنعم عليه بشرافة مكة، فورد الخبر إلى مصر كما ذكرنا، ثم سافر. وفى مستقبل شوال سافر على آغا كتخدا أحمد باشا الى الديار الرومية. وفى اواخر شوال سنة ١١٠٣[4] جاءت الدفتدارية لاسماعيل بيك، عوضا عن مراد بيك. وفى سبعة عشرين من شوال من السنة المذكورة [5]. قتل جلب خليل فى باب مستحفظان، وكان كتخدا الوقت، وتحامت الفتنة، وأصلها من كشك [كچك] محمد، وأخرجوا سليم أفندى، ورجب كتخدا الكبير، من بلكهم، وألبسوهم السنجقية، وادخلوا كشك [كچك] محمد ثالث مرة، وعمل باش الاضباشية مثل اول. فابطل الحمايات، التى كانت بباب مستحفظان، وباب

(١) ٢٩ نوفمبر ١٦٩١م.
(٢) بالأصل «كيخدان».
(٣) ١٧ مايو ١٦٩٢م.
(٤) اوائل يولية ١٦٩٢م.
(٥) ١٢ يولية ١٦٩٢م.

ورحل السلطان نزل تل العجول اقام بها والملك الاشرف معه ورجع الملك الناصر ولد الملك المعظم صاحب دمشق يسلم بلاده من الغور الى غزه ولم يبق بيد السلطان من الشام سوا غزه والداروم ووصل الى السلطان على هذه المنزله الملك المجاهد صاحب حمص اقام عنده مدة ورسل الانبرور مترددة وهو على يافا ورسل السلطان مترددة اليه ايضا. وفى اثناء ذلك رحل الملك الاشرف ورحل

العزب، باتفاق جميع الصناجق، والوجاقات السبعة. ونادوا فى مصر، وبولاق، بيد المنادى، واغا من طرف الوزير، ومن (كل) (١) بلك جاويش واشهروا المنادات بالشوارع والأسواق، وكان يوما مشهوداً (٢). وفى غرة القعدة (٣) قبض على باشا، على سليم أفندى بيك، ووضعه فى العرقانة، ثم خنقة، وانزله الى منزله بعد العصر مخنوقا. واما قرا رجب كتخدا مكث فى العرقانة عشر ايام ثم أنه استعفاه من الصنجقية، ونفاه الى المدينة من البحر، وفى أواخر القعدة سنة ١١٠٣ (٤). وفى غرة محرم سنة ١١٠٤ (٥)، سافر ابراهيم بيك أبو شنب ، صارى عسكر، على الف نفر، الى محافظة جريد. ثم عاد فى الحجة من سنته (٦)، ولم يمكث غايبا عن مصر، الا سنة واحدة. ولما ورد الى بنط (٧) بولاق قابلوه جميع شحاتين مصر بحصان، تقدمة له، أخذوه بأربعة آلاف فضة بل بنصف ديوانى، وأنهم لموا ثمنه من بعضهم البعض. وهم ينادون يا أبا الفقراء ما (٨) أحد أفتكرنا وأنت غايب ابداً. ثم ان ابراهيم بيك أعطى لشيخ الشحاتين جوخة، ولنقيبهم جوخة، ولكل فقير جبة، وطاقية، وشدا، ولكل امراة قميصا وملاية فيومية تتزر بها واغدق عليهم اغداقات زايدة، وعمل لهم سماطا، ولم ركب الا الجواد

(١) الاضافة لتوضيح المعنى.
(٢) بالأصل «يوماً مشهوراً».
(٣) ١٥ يولية ١٦٩٢م.
(٤) أوائل أغسطس ١٦٩٢م.
(٥) ١٢ سبتمبر ١٦٩٢م.
(٦) أغسطس ١٦٩٣م.
(٧) بنط بولاق، تعنى ميناء بولاق.
(٨) بالأصل «أماه».

معه صاحب حمص وكان المستامنون من عسكر دمشق كثيرا يحضرون الى خدمة السلطان ويرحب بهم ويعطيهم ويخلع عليهم ويقطعهم وكانوا عدة لا تنحصر واخر من جا منهم عز الدين ايدمر وكان من اجل امريهم وينزل بمنزلة استاذ الدار وأوفى واعطاه السلطان من النعم ما لا يوصف وادناه وقربه ورفع منزلته واعطاه فى جملة ما اعطاه دار الصاحب ابن شكر بالقاهرة لسكنه واحسن اليه احسانا كثيرا. وفى هذه المدة تحركت

الذى اهداه له الفقرا. وكان جوادا أدهما يساوى كيسا، الا أنهم اخذوه بأربعة آلاف من خيل سليم بيك الذى خنقه الباشا. لما باعوا موجوداته، اخذه لهم مراد بيك. لما قالوا: احنا رايحين نقدمه لابى شنب. وفى غرة ربيع أول سنة ١١٠٤[١] ورد خط شريف بتزيين القاهرة، ثلاثة أيام، لمولودين توامين، اتيا للسلطان أحمد سمي احدهما سليم، والثاني ابراهيم. وفى ثانى عشر شعبان من السنة[٢]، سافر حسين بيك أبو يدك، بألف نفر محافظا لقلعة خانية بجزيرة جريد[٣].

وفى ثانى عشر رمضان سنة ١١٠٥ [٤]، هبت ريح صفرا شديدة، ورمل أصفر الى أن صارت السماء والأرض والحيطان كلها صفر، ثم قلبت بسواد عظيم اظلم من الكون، وكان يوم الجمعة والناس فى المساجد، وتقطعت السقوف، فخرجت الناس من المساجد هربا (فظنوا)[٥]، أن القيامة قد قامت، ولم يكن شك فى ذلك وحصل للناس رعب زايد ووقعت المركب التى على منارة ابن طولون [العشارية] ووقع نخل واشجار وتهدمت بيوت كثيرة، وفطرت ناس كثيرة فى ذلك اليوم. وأخبرنى رجل مغربى تاجر، أن هذه الريح التى أتت مصر،

(١) ١٠ نوفمبر ١٦٩٢م.
(٢) ١٨ أبريل ١٦٩٣م.
(٣) خانية: أحد الأقسام الادارية الثلاثة التى قسم العثمانيون جزيرة كريت اليها، وتشمل الجزء الغربى من الجزيرة، دكتورة زينب عصمت راشد، المصدر السابق، ص ٤١.
(٤) ٧ مايو ١٦٩٣م.
(٥) الاضافة لتوضيح المعنى.

الغلة بمصر وبلغ القمح خمسين دينار المايه اردب والشعير مثله او دونه بشي يسير ثم انحط يسيراً فصار القمح بثمانية عشر درهما الاردب والشعير ثلثة عشر درهما. وأشيع بان السلطان عز نصره صالح الانبرور على ان يعطيه القدس الشريف وبلاد من اعماله وهي التي على الطريق من عكا اليه وبيت لحم من جملة ذلك(*) ثم صحت الشناعة وتسلم الانبرور مدينة القدس الشريف وبيت لحم ولد الرمله وما والى ذلك من القدس

(*)الملك الكامل يُسلم القدس وبيت لحم واللد والرملة وما حولهم لفردريك الثانى من باب الصداقة. سنة ١٢٢٩م.

والناس في صلاة الجمعة، مرت عليهم في فاس عند طلوع الشمس، فتكون أخذت من فاس الى مصر، في خمس ساعات، ولم أبقت في طريقها شيئا. وفي يوم الثلاثاء غرة محرم الحرام سنة ١١٠٦ (١) الموافق السابع عشرين مسرى جبروا البحر وانتظر الناس جريانه، فلم يجرى، لأنهم لما جبروه جاء الى قنطرة الخروبى تانى يوم بعد الظهر مسلولا رقيقا. وكنت يومها في بيت بباب الشعرية وبت تلك الليلة هناك، وكان ذلك اليوم لايكاد يوصف، فقد نشف ما كان جرى في الخليج. لعدم الزيادة من فوق. وكانت الحنطة بستين نصف فضة الأردب. وفي يومها فتشت الناس على الخبز فلم يجدوه. فلما رأى كشك [كچك] محمد هذا الحال، ركب الى بولاق، وطلع الى التكية، وارسل احضر الأمناء، والكيالين والرؤساء، وأوصاهم (بانه اذا)(*) زاد القمح على ستين فضة الأردب شنقهم جميعا وحلف لهم أن زاد عم قلت لكم، لا تلومون الا أنفسكم. ثم أن الوكلا بتوع الهوارة والملتزمين، اجتمعوا (٢)، في بيت خليل افندى باش اختيار الجراكسة، الذى كان ساكنا بدرب القزازين وأرسلوا أحضروا كشك محمد ليأخذوا بخاطره، وجعلوا له خمسة آلاف دينار. ويبيعوا الحنطة بأربعة قروش الأردب ، فحلف بالله العظيم ، ان زاد عن ماهو عليه، ليقتلن الجميع. والحامين لهم. وان ما أرسلت هوارة، الملتزمين

(١) ٢٢ أغسطس ١٦٩٤م.
(٢) بالأصل «واجتمعوا».
(*) بالأصل «بان».

* أهم أحـــــداث سنة ٩٤٥ق. = ١٢٢٩م. = ٦٢٦هـ.
* فـيـهـا اتفق الملك الكامل وأخـوه الملك الأشـرف على نزع دمـشق من يد الملك الناصر، ولد أخيهم، فـسافـر الأشرف وحصـر الناصر بدمشق.
* [١ يناير ١٢٢٩ = ٦ طوبه ٩٤٥ = الاثنين ٣ صفر سنة ٦٢٦].
* فـيـه تسلم الامـبـراطور فـريدريك القـدس من الملك الكامل على شـرط بقـاء أسـواره خـرابا وأن لا تعمرها الافـرنج وأن لا يتعرضـوا

الى عكا ويافا وكان فى طول هذه المدة قد عمر قيسارية ويافا واستتب الامر بينه وبين السلطان خلد الله ملكه. وعبر الانبرور الى بيت المقدس فى اوايل الصوم الشريف من هذه السنة وكان يوما عظيما وتسلموا [مسجد] الصخرة ثم اقام الانبرور بالقدس يومين لا غير وخرج منه الى عكا وبقى بها الى ان فرغ العيد واستخلف فى البلاد من يثق به وسافر فى البحر الى بلاده. وكان السلطان الملك

القمح ، لتخرب محلاتهم. وانتفض فى المجلس، ثم بات تلك الليلة، وكانت ليلة السبت. وفى يوم السبت توجه الى بولاق فرأى المراكب فارغة، وما فيها قمح، فمسك من الروسا ثلاثة ومن الامنا اثنين وقتلهم. وأكد عليهم (ببيع القمح) [١] بستين فضة. ثم أنه ركب يوم الثلاثا، ثالث عشر محرم، وهو طالع الى الديوان حكم عادته، واذا ببندقية طلعت عليه فى صدره. من شباك الجامع المطل على السور [٢] الذى بابه من داخل باب العزب يقال له مسجد المؤيد. وكان القاتل له، عبد أسود «لا يساوى» [٣] ثمن بابوج فى رجله، ولكن القدر ما منه مفر. ثم أن القاتل له رفيق وعمل لكل من يعلم عنه [٤]، ألف محمدى، فتوجه القاتل ليأخذ الألف، فقتلوه، وهرب الثانى الى يومنا هذا، لم أحد يره [٥]، فلما وقع ميتا، فرت رفقاؤه من حوله، ثم أنهم حملوه الى منزله ، فغسلوه، وكفنوه، وواروه الى التراب، رحمه الله. ففى ثانى يوم «قتله» [٦] تزايد الغلا وابيع أردب (القمح) [٧] بخمسة قروش ومازال الغلا يشتد الى أن وقفت الويبة بشريفى طرلى، وطحينها ١٣ فضة الويبة والفول بأربعة طرلية، والشعير بأربعة

(١) الاضافة لتوضيح المعنى. (٢) بالأصل «الصور».
(٣) الاضافة ليستقيم المعنى، والباجوج تعنى الشبشب.
(٤) بالأصل «وكان من يعلمه الله عمل له» والمعنى بهذا الاسلوب لا يستقيم.
(٥) بالأصل «يراه». (٦) الاضافة لتوضيح المعنى.
(٧) الاضافة لتوضيح المعنى.

الاشرف قد اخذ بعض العسكر وتوجه الى دمشق نازلها ولحقه السلطان الكبير الملك الكامل ونزلوا جميعاً عليها واجتمعت اليهم العساكر من الشام والشرق وضايقوها وحاصروها وقاتلوها. وفي اثنا ذلك وردت الاخبار بوفاة الملك المسعود صاحب اليمن والحجاز بمكة لانه كان خرج من اليمن طالبا الى ديار مصر واحضر معه كل موجوده وكل تحفة وجميع ما اقتناه واقتناه من تقدمه في طول

إلى قبة الصخرة ولا إلى الجامع الأقصى، ويكون الحكم في الرساتيق إلى والي المسلمين، وأن يكون لهم من القرى ما هو على الطريق من عكا إلى القدس.
وبعد ذلك توجه الملك الكامل إلى دمشق وانتزعها والبلاد الشرقية من ابن أخيه لنفسه، وعوضه عنها غيرها.
* [١ توت ٩٤٦ = ٢٩ اغسطس ١٢٢٩ = الأربع ٧ شوال سنة ٦٢٦].
* فيها كان الحاق مقاطعة تولوز بفرانسا.

طرلية [١] والحمل التبن بخمسة قروش، ولم يزل الأمر يزداد وتغلو الأسعار الى تمام سنتين حتى دابت الخلق واستمر يزيد ويغلو في كل يوم الى ما سنذكره من حوادث سنة ١١٠٧ [٢]، فتنبهت الناس لموت كشك محمد، وأن لو أراد الله ولم يقتل، لم يكن يحصل هذا الأمر «من» [٣] هتك الأعراض وبيع الناس أولادهم وهجاجهم الى يومنا هذا. ولكن كل شئ له سبب، وسبب أرتفاع الغلال موت هذا الرجل، لأنه لما اجتمعت أرباب الغلال والوكلا وتعطفوا خاطره، وعملوا له الدراهم التي لها صورة وامتنع وقال لهم هذا امر ما رآه اهل مصر في وفآء النيل وهروبه في ليلة واحدة وأكثر أهل بلدنا فقرا، وصناعية. وكان اذا جاء الغلا، لا تغلوا الحنطة الا في ثاني سنة، عند بدار النيل الثاني، وأنتم لمجرد عدم مجئ النيل في يوم واحد تبيعوه بأربعة قروش ، فيلزم من هذا أن تبيعوه في آخر السنة، ببالغ ما بلغ . وهذا أمر لم يمكن، ولم يزد عن ستين فضة، مع وجودى على قيد الحياة. وقام من مجلسهم، وفعل ما فعل بالريسا والامنا في ثاني يوم، فقالوا هذا أمر لا نبلغه من وجود هذا أبدا. والوكلا لأولاد همام (ريسا) [٤] مصر، اصحاب الحل والربط، ففعلوا بالرجل ما تقدم ذكره. وفي سادس ربيع أول من السنة [٥]، جمع الباشا جميع أكابر البلد، والامرآء والصناجق، وطلب منهم الخراج.

(١) بالأصل كررت عبارة «والشعير بأربعة طرلية».
(٢) ١٦٩٥ / ١٦٩٦م.
(٣) الاضافة لتوضيح المعنى.
(٤) بالأصل «ريناه».
(٥) ٢٥ أكتوبر ١٦٩٤م.

المدد وسيرها برا وبحرا فتوفى بمكة(*) ووصلت امواله وخزاينه الى القاهرة المحروسة وكان موجوداً عظيما لا يحصر فسبحان الحى الذى لا يموت ووصل نساوه وحشمه وغلمانه بعد ذلك. ورخصت الاسعار بمصر ورجعت الى حدها واستمر الحصار والقتال على دمشق والرسل تتردد بين السلطان وبين ابن اخيه الى ان تقرر انه يسلم دمشق ويقنع بالكرك ونابلس والغور والبلقا وبقية بلاد القدس الشريف فتسلمها السلطان فى الثامن

(*) الملك المسعود: وهو أضسيس المعروف بأقسيس. مرض بعد خروجه من اليمن مرضًا مزمنًا، ومات بمكة فى حياة والده الملك الكامل، وكان ظالمًا جبارًا سفاكًا للدماء، وكان أبوه الملك الكامل يكرهه ويخافه، ورام يحكم اليمن حتى سمع بموت عمه الملك المعظم عيسى، وخرج من اليمن يطمع فى دمشق، فمرض ومات فلما سمع أبوه الملك الكامل بموته سر بذلك واستولى على جميع أمواله ويذكر ابن تغرى بردى أن وفاته كانت سنة ٦٢٦هـ.

فأجابوا بالسمع والطاعة. فكتب عليهم حجة بذلك الأمر. واما كشاف الولايات، حصل منهم توقف فى حط عوايد الكشف. ثم أن الباشا فات لهم الوسية التى كان يأخذها منهم، وتوافقوا على أن الاقليم الذى يأخذوا منه العوايد على الكامل، والذى فيه الرى مصالحة، والذى «لا»[١] يرتوى، لا شئ عليه. ثم أنهم جعلوا لكاشف بنى سويف، والبهنسة ثلاثة وعشرين كيسا، يعطيها للعسكر، والجربجية. وأبطلوا «نزلة»[٢] عسكر المنية، وشرق اطفيح لكونهم شراقى، بكر. وأما اقليم الغربية، والمنوفية، والبحيرة، والشرقية والمنصورية، والجيزة، والقليوبية، فان العسكر نزل لهم لكون غالب أرضهم رى على حكم العادة. واتفقوا على أن مقدمين الولايات المذكورة، بأن يدفعوا من الأموال التى تخصهم من الخدم التى للعسكر المعينين فى الولايات الشراقى، لكل جربجى ألف فضة، ولكل نفر ثلاثماية نصف فضة، واتفقوا على هذا الأمر. وفى ثانى عشر جماد الثانى [٣]، حضر الشريف أحمد بن غالب الى مصر، مطرود من الشريف سعد الاشرم. وفى ثالث رجب سنة ١١٠٦ [٤]، ورد آغا من الديار الرومية بجلوس السلطان مصطفى [٥] بن السلطان محمد وصحبته السكة والأمر بالخطبة باسمه. وفى خامس

(١) بالأصل «والذى فيه الرى مصالحة والذى يرتوى» الاضافة والتصحيح ليستقيم المعنى.
(٢) الاضافة من التحفة، ص ٢٢٨، لتوضيح المعنى.
(٣) ٢٨ يناير ١٦٩٤م. (٤) ١٧ فبراير ١٦٩٤م.
(٥) هو السلطان مصطفى الثانى، وتولى السلطنة ١٦٩٥ /١٧٠٣م.

من شعبان سنة ست وعشرين وستمايه(*) وتقرر ان يعطيه الملك الاشرف دمشق وانتقل منها السلطان الى غيرها. وتوقف النيل فى هذه السنة توقفا عظيما فى مباديه حتى انه جاء الخامس والعشرين من ابيب (*) وهو فى خمسة اذرع ثم مد مداً جيداً من السادس والعشرين منه وكان القمح والغلة كلها قد غلت وبيع القمح بعشرين درهما الاردب خفية لانه كان قد منع بيعه الا على

(*) ٦٢٦هـ ١٢٢٩م

(*) ٢٥ ابيب = ١٩ يونيو.

رجب من السنة المذكورة ورد فرمان بطلب الفين الى دمشوار، (تمسفار، شمال بلغاريا) فألبس الباشا قفطان الغزو الى اسماعيل بيك نسيب بلفية، وأحمد بيك، تابع يوسف آغا القطردار، قبطانا على ألف، إلى محافظة رودس. فطلع أحمد بيك فى عشرين شعبان بالاى، واوكب اسماعيل بيك سابع عشرينه الى بولاق، فمكث ثلاثة أيام وتوجه طالب سكندرية وفى رابع رمضان من السنة المذكورة، ورد آغا من الديار الرومية بضبط أموال نديرآغا، واسماعيل اغا، الطواشية. فسجنوهم فى باب مستحفظان، وضبطوا أموالهم، وختموا على بيوتهم. ويجيبوا جربجى من باب مستحفظان نيابة عن كتخدا الوقت وفى كل جمعة على اختيار من اختيارية باب مستحفظان على حفظ بيوتهم لئلا يختل من البيت شئ أو ينقص. ثم أرسلوا عرضا الى الاعتاب العلية، ماذا يفعل بالمال والأغوات. فورد الخبر بعد مضى خمسين يوما، ببيع جميع مخلفاتهم، وتضبط نقدا، سوى الجواهر، ترد الى السلطنة، ويحبسوا فى قلعة مستحفظان، الى أن يرد له خبرا، أما بالموت، واما بالعفو. فباعوا جميع الموجودات، فجمع ألفا واربعمائة كيس وأرسلوها صحبة سليمان بيك، صنجق الخزينة. وفى خامس شوال [1]، أنهى العلماء، وأصحاب الأوقاف، والمستحقين، أمرهم الى على باشا، على أن الملتزمين امتنعوا عن دفع خراج الأوقاف والرزق المرصدة على المساجد، وان يحصل بسبب عدم دفعهم تعطيل الشعاير.

(١) ١٩ مايو ١٦٩٥م.

المحتاجين من الطحانين بستة عشر درهما الاردب. ثم دفع النيل دفعاً عظيما من السادس والعشرين من ابيب حتى انه كان يزيد فى النهار عشرين اصبعاً وما حولها والتقى البحران النيل والخليج المصرى فى ليلة الخميس التاسع من مسرى(*) وانحطت الاسعار واطمان الناس ووصل المقرر فى نهار الثلثا الحادى والعشرين من مسرى(*) المذكور وزاد الرخص واطمأن الناس من قبل الطعام وما يجرى مجراه. وفى هذه الايام وردت الاخبار بان

(*) ٩ مسرى = ٢أغسطس.

(*) ٢١ مسرى = ١٤ اغسطس.

* أهم أحداث ٩٤٦ق. = ١٢٣٠م. = ٦٢٧هـ.

فأعطاهم الباشا فرمانا[1] بالدفع، وأكد على الملتزمين أن يدفعوا ما عليهم، وقال للمرتزقة كل من لم يدفع شيئا[2] أعلمونى، وأنا أدفع ليكم، وأفعل بالملتزمين ماهو أهله فلم يبق أحد الا ودفع بمجرد ما يروح له المستحق، لا يخرج من عند الملتزمين حتى يعطيه. وفى ثالث عشر شوال[3] أرسل الوزير فرمانا[4] الى مراد بيك الدفتردار، أن يجمع الصناجق، والأغوات، والملتزمين أن يعملوا مشاورة من جهة غلال العنبر والحرمين. فاتفق الأمر، بعد اختلاف كثير، أن البلد الرى تدفع ما عليها والتى لم تكن رويت تبقى غلالها على ملتزمها الى العام القابل.

وأعرضوا التوافق المذكور على الباشا، فرضى بذلك، وكتب عليهم حجة على حكم التوافق، أخذوا وصولاتهم على العادة. وفى عشرين شوال [5]، ورد خبر من منفلوط، ان الشريف اسماعيل التيلاوى قتل عبدالله بن وافى شيخ عرب المغاربة. وفى غرة محرم الحرام سنة ١١٠٧ [6]، اجتمعت الفقراء والشحاتين من النساء والرجال والصبيان، وطلعوا الى حوش الديوان، وصاحوا ونادوا: متنا من الجوع، وشدة الغلا. فلم يرد عليهم احد جوابا. فاخذوا الحجارة ورجموا جميع من فى الديوان. فضربهم الوالى جميعا، وطردهم، فنزلوا الى

(١) بالأصل «فرمان».
(٢) بالأصل «شئ».
(٣) ٢٧ مايو ١٦٩٥م.
(٤) بالأصل «فرمان».
(٥) ٣ يونية ١٦٩٥م.
(٦) ١٢ أغسطس ١٦٩٥م.

السلطان جرد عسكرا وسيره من دمشق الى حماه لياخذها ويسلمها الى ابن اخيه الملك المظفر بن الملك المنصور بن تقي الدين لان العهد كان له من ابيه انها له من بعده واتفقت وفاة ابيه وهو عند السلطان الملك الكامل بالديار المصرية في نوبة الافرنج على دمياط فغلبه على الملك وسبقه اليه اخ له شقيق يقال له الملك الناصر واقام بها مدة وكان الملك المعظم يشذ منه [لا يحبه] فلما توفى

* ١ يناير سنة ١٢٣٠ = ٦ طوبه ٩٤٦ = الثلاث ١٢ صفر سنة ٦٢٧.
* فيها تجمعت الفرنج، من حصن الأكراد، وقصدوا حماه، فخرج إليهم الملك المظفر محمود بن الملك المنصور، صاحب حماة، والتقاهم في قرية يقال لها افيون، بين حماه وبارين، وكسرهم كسرة عظيمة، ودخل الملك المظفر حماه منصورا.
* وفيها ضرب بالقاهرة نقود ذهبية على أحد وجهيها اسم الملك الكامل وعلى الوجه الآخر اسم الإمام المستنصر.

الرميلة، فنهبوا جميع الغلال التي بالرقعة، وكسروا الحواصل، ونهبوا جميع ما كان فيها، من قمح وفول وشعير، ونهبوا حاصل كتخدا الوزير، وكان ملآن فول وشعير، وكانت هذه الفعلة ابتدا الغلا في جميع الماكولات جميعا. ثم اخذت الأسعار في الزيادة من محرم سنة ١١٠٧، واستمر في الزيادة الى أن ابيع القمح بستماية فضة الأردب، والفول بخمسماية فضة والشعير باربعمائة فضة والعدس لم وجد، والرز بثمانماية فضة واللحم الضاني بخمسة انصاف الرطل، والجاموس الوقيع بثلاثة أنصاف الرطل، والسمن بالف فضة القنطار، والعسل النحل بستماية، والكل ديواني. وحصل للناس بسبب ذلك الغلا الشديد في مصر، وأقاليمها [١]، حتى أن غالب أهل الأرياف والبلاد جاءوا مصر، ولكن أكثرهم من البهنسا والفيوم، و أمتلأت أزقة[٢] مصر، وحاراتها، وأسواقها، واشتد الكرب والبلاء[٣]، وأكلت الناس الجيف. ووالله رأيت بعين أم رأسي جمعًا من النساء الفقراء يأخذون جيفة طفل من الدرب الذى بحارة الجودرية [٤]،

(١) بالأصل «واقليمها».
(٢) بالأصل «أرزقة».
(٣) جامع بيبرس الخياط: بالجودرية أنشأة بيبرس الخياط ٦٦٢هـ / ١٢٦٤م، بشارع الجودرية وكان الصرف عليه يتم من ريع الأوقاف الموقوفة عليه، على مبارك، الخطط، جـ٤، ص٦٩.
(٤) حارة الجودرية: حارة كبيرة بشارع الجودرية، ممتدة من جامع بيبرس الخياط الى درب سعادة، على مبارك، المصدر السابق، جـ٣، ص ٣٩.

* [١ توت ٩٤٧ = ٢٩ اغسطس ١٢٣٠ = الخميس ١٧ شوال سنة ٦٢٧].
* فيها حصل طاعون فى بلاد الدينمارك.
* ١ يناير ١٢٣١ = ٦ طوبه ٩٤٧ = الأربع ٢٤ صفر سنة ٦٢٨.
* فيها تخلى الملك الأشرف عن البلاد الشرقية التى صارت لأخيه الملك الكامل، واشتغل باللهو والملاذ، ثم سار من دمشق وأقام عند أخيه الملك الكامل بمصر.
* [١ توت ٩٤٨ = ٣٠ أغسطس ١٢٣١ = السبت ٢٩ شوال سنة ٦٢٨].

الملك المعظم وفتحت دمشق اراد السلطان اعز الله نصره ان يوصل كل ذى حق الى حقه فامر العساكر فسارت مع الملك المظفر المذكور ونزلوا الى حماه ونازلوها وضايقوها الا ان الملك الناصر الذى فيها حصن القلعة وقواها وهى قلعة حصينة منيعة وحصل فيها من الازواد ما يكفى لسنين كثيرة وبقيت البلدة محاصرة والقتال عليها. وتوقف النيل بمصر ونقص اصابع يسيرة بعد وصول المفرد [المبلغ] وساء ظن الناس به.

وحطوه فى جورة الفرن، ثم صاروا يتقاتلون عليه، وهم يأكلون فيه والدم والصديد وتراب الجورة. يتساقط منه وافتقرت[1] الأغنياء، وتهتكت الاحرار، وهجت الناس جوعا. بحيث ان الأزقة، والحارات والأسواق، امتلأت بالأموات، وهلك أهل القرى، حتى كان المسافر يمر بالقرية فلم يجد بها ألا القليل من أهلها، ويجد بعض الدورمفتحة، ولم يكن فيها أحد وصارت الفقراء يخطفون الخبز من الأسواق، والعجين وهو رايح الفرن. وكل من اراد أن يخبز الخبز، واحد يشيله، واثنان يحرسان ويقولان [2] اوعا العوام، والخبازين الذين يبيعون الخبز. اصطنعوا لهم أقفاص. مثل أقفاص الفراخ. فاذا اشترى انسان خبزا. يأتى الرجل الى الخباز ليأخذ منه. يقول له بكم تأخذ. فيقول: بالشئ الفلانى فيأخذ منه الدراهم ويفتح القفص ويعطيه ويكون العوام حاضر. فيخطف الخبز بالفوطة ويطير. فما أحد يقدر يدركه، لشدة جريه. واذا سرح الخباز يكن معه رجلان: واحد امامه. والثانى خلفه بالعصا. ثم ان الخطافين صاروا يجتمعون ثلاثا أو اربعا، ويأتى واحد فى حذو الخباز، والاخر من خلفه، فالذى من خلف الخباز يدفعه، يكون الذى فى حذوه منحنى قدام الخباز، فيتعتر [3] الخباز يقع، يقوم الثالث بخطف القفص. ويفر هاربا فلم أحد يدركه، والرابع يحوش الناس عنه. ثم انهم يأكلوه، وكل رغيفين

(١) بالأصل «وافترقت».
(٢) بالأصل «يحرصون ويقولوا».
(٣) بالأصل «فيتعطر».

ثم دخلت سنة ست واربعين وتسع ماية ووفى النيل ستة عشر ذراعاً في اول توت [٢٩اغسطس ١٢٣٠م] وخلق المقياس في نهار الخميس ثانيه وكسر الخليج في اليوم المذكور وكان يوماً عظيماً وانحلت الاسعار ورخصت وكثرت الخيرات والازواد وفتحت حماه سلماً لان صاحبها خرج منها طالبا لخدمة السلطان وان يستعطفه فاوقعت الحوطة به ورأى الذين بقوا بعده في القلعة انه قد

بنصف فضة، وكل رغيف وزنه ثلاثة أواق من دقيق الفول، ودقيق الشعير. ثم ان في يوم الأحد سادس محرم سنة ١١٠٧ (١)، عمل الباشا ديوانا، وأرسل أحضر الرزنمجى، ومراد بيك الدفتردار، وطلب من الرزنمجى علم خبر الاموال الديوانية الباقية على الأمراء فأخبره بما في الدفتر، بأن باقى عند زيد هذا القدر، وعند عمر هذا القدر، وعند ابراهيم بيك خمسة وثمانين كيس، أورد يوم تاريخه خمسة عشر كيسا والباقى جهته سبعون كيسا، فأمر الباشا بحضوره، فحضر، فطلب منه المال، فقال له مولانا الوزير، ان شاء الله تعالى، قبل نزول الحج أسدهم. تعطيني مهلة لآخر محرم. فما سمع الباشا هذاالكلام، حتى زعق بأعلا صوته: شيلوه الى العرقانة. وتهور تهوراً زايدا. ثم أن مراد بيك الدفتدار، تشفع عند الوزير أن يعفوه من الحبس. فقبل الوزير شفاعته، وحلف برأس السلطان، إن لم يأت (٢) بالسبعين ثاني ديوان، وهو بعد غد. والا ضربت على اسمه حلقه وقتلته. ثم ان ابراهيم بيك أبو شنب، نزل من الديوان بعد الظهر، ولكن الموت بين عينيه. فلما نزل الى منزله، رأى جماعته لا أكلوا الغدا، ولا مدوا السماط، وحار كيف ما يصنع. وكان ذلك العصر ما فيه أحد من المرابين. وانما أحدث الربا في هذا البلد، ومن رهن البلاد، واستيجارها من صاحب البلد، انما هو محمد دادى الشرايبى [المغربى]، لما ارتكن الخواجة الكبير، محمد الشرايبى. فلما جاء محمد داده قلد له الأمر،

(١) ١٧ أغسطس ١٦٩٥م.

(٢) بالأصل «يأتى».

حيل بينهم وبينه فما كان لهم الا ان راسلوا اخاه الملك المظفر واطلعوه الى القلعة وسلموا اليه المملكة فى مستهل شوال من السنة المذكورة وعاد العسكر المصرى ومقدمه الامير فخر الدين استاذ الدار فنزلوا على بعلبك وحاصروها فما بقوا بها الا اياماً قلايلا حتى اخذوا المدينة وتحامت للقلعة مدة مديدة لان صاحبها كان مدبراً شيخاً فنزل الملك الاشرف على القلعة المذكورة عسكراً

شرع فى أخذ البلاد ورهنها عنده. وأما الخواجة الكبير ما كان عنده ولا قيراط مرهون، ولا ملك، والخربطلية، والعنتبلية، واهل برا هم كلهم الذين احدثوا الربا فى هذه البلدة، نسأل الله العفو. ثم أنه كان شيخ يقال له الشيخ أحمد المالكى، وكان من الرجال المعلومة فأرسل له فجاه فلما رآه على تلك الحالة، رقد على جنبه قدر خمسة أدرج ثم أنه قام وقال له، لا تخشى من شئ. وكان من عادة الشيخ انك اذا سألته عن شئ لا يرد عليك جوابا حتى يرقد هذه الرقدة. واعجب من هذا أنه كان ساكنا بحارة عابدين [1]، ويقرى فى جامع عابدين [2]، درسا فى فقه مالك قبل الظهر، ودرسا فى النحو بعد العصر. وسبب معرفة ابراهيم أبو شنب به، أنه فى حال خلوه من الصنجقية، «كان»[3]، مارا على مسجد عابدين بيك، والشيخ خارج من المسجد، فسلم ابراهيم جلبى على الشيخ «فقال له الشيخ وعليك السلام يا ابراهيم بيك، فوقف وقال : يا سيدى تهزوا بى. فقال له الشيخ: «ستكون قايم مقام» [4] وأمير الحاج، ودفتردار، وكلمة البلد، ولا تموت الا على فراشك فهذا كان سبب المعرفة ثم تفرقا.

(١) حارة عابدين: حارة كبيرة نافذة لشارع عابدين، وبها عدة عطف، على مبارك، المصدر السابق جـ٣، ص ٨٧.
(٢) جامع عابدين: انشأه الأمير عابدين بيك، بشارع عابدين، وكانت شعائرة مقامة من أوقافه، انظر: على مبارك، الخطط، جـ، ص ٤٦.
(٣) الاضافة لتوضيح المعنى.
(٤) الاضافة ليستقيم المعنى مع سياق الحديث، وتتابع الحوادث كما حدثت.

يحصرها ويمنع من يطلع اليها او ميرة(*) تحمل اليها وتوجه العسكر في خدمة السلطان الى حران لان السلطان كان قد تقدم وقت نزول العسكر على حماه وكان السلطان قد اخذ من الملك الاشرف حران والرها وسروج والرقة ورأس العين واقام بالبلاد المذكورة يحفظها ويدير احوالها فجا خوارزم شاه وهو ملك الفرس الاعظم نزل على خلاط وحاصرها وقطع عنها الميره واحتاط بها

(*) الميره: هي العتاد والغذاء والماء.

ومن مناقبة أنه كان بجوار منزله حوش وفيه بير ماء عذب ولكن لم أحد يقدر يملأ منها، وكانت البير معمورة بالجان الذين ساكنين بالبير، فشكا امره الى الشيخ أحمد المالكي، فكتب له ثلاث شقافات، وأمره بأن يرمى واحدة بعد واحدة. فلما رمى الأولى، طلع الماء الى ان فاض عن الخرزة، وملا أرض الحوش ولما رمى الثانية، طلع خادمها وعيط وشيط، الى ان حمت الاذان. فرمى الثالثة سكت ما كان في البير من الغوش، وملأوا من البير من ساعته، وصارت كان لم يكن بها شئ. وله مناقب كثيرة، لو اردنا شرحها لطال الأمر علينا. ولنرجع الى مانحن بصدده، ثم ان الشيخ أحمد صار يسليه، وهو لا يعى طول ليلته، ولم يقعد على حيله، ولم يطلع الحريم، لأنه بايت على القتل، وعارف ان هذه المكيدة من ابراهيم بيك بن زين الفقار. وجاءه الخبر ان الفقارية عملوا للوزير ماية كيس على قتله، وله جميع بلاده، والشيخ احمد يقول له، عند الصباح يأتى لك الفرج. فهم عند اشتقاق الفجر، واذا بالباب يطرق، طرقا مزعجا، فقال ابراهيم بيك، رحت ورب الكعبة، لعلمه أن الحرسية [1] مالين الحارة، خوفا ان يهرب. ولو ملك الهروب لهرب. لأن جماعته. كل ساعة يطلعوا من الشبابيك المطلة على الباب. فيروا الغز مصطفين على الدكاكين، خوفا من هروبه. فلما طرق الباب. طلع الصنجق. وطل من الشباك. رأى رجلا راكبا على جواد. فقال له: من أنت. فقال: افتحوا الباب. مخبر بخبر خير، قال له أيش هو، قال: أفتحوا الباب. ففتحوا الباب. فدخل الى الحوش. رأى جماعة

(١) بالأصل «الحرصية».

وكان فى جيوش لا تحصى وشتا عليها واصحابها متماسكين الى ان فرغ الشتا فتقدم اليها وقاتلها فاخذها بالسيف وقتل فيها جماعة كبيرة من الاجناد واهل البلد ثم رفع السيف عنهم فلما علم السلطان ذلك عاد الى القاهرة المحروسة فى بوونه(*) الموافق لشهر رجب من السنة المذكورة ودخل اليها في اليوم الثامن عشر منه وكان ولده فى حال غيبته قد جاف على العامة وظلم الرعية

(*) يبدأ بؤنه فى ٢٦ مايو حتى ٢٤ يونيو.

الصنجق كلهم مسلحين على مدخل (١) له، فطلع الى المقعد وسلم على الصنجق، وقال، المسلم في سبيل علام. وأنت قايم مقام. فما تكلم الرجل بهذه الكلمات، حتى طار عقله، وأرمى كركه الذى عليه، على ظهر المبشر بيده، وباس المبشر بين عينيه وأمر له بماية شريفى، فى الحال، وكان الكرك يساوى عشرة آلاف. ثم أنه أرسل سراجا الى مراد بيك يعلمه بما جاء من الفرج، فبمجرد ما سمع مراد بيك ما أخبره به السراج، أرمى الكرك الذى كان لابسه على ظهر السراج، لأنه كان فى الحريم، ونزل للسراج لما سمع الهرج: ثم أنه (٢)ركب من وقته، وتوجه لابراهيم بيك، رأى المشاعل موقودة والغنم تذبح، والنوبة تضرب، وانقلب ذلك الحزن بالفرج. فما (٣) طلعت الشمس الا والمسلم داخل عليه، فاخذه وطلع الى الديوان، وطوى بساط الباشا. ثم ان الباشا البس المسلم كركا، وابراهيم بيك كركا. وأنزلوا الباشا بعد ثلاثة أيام، واسكنوه فى بيت أحمد كتخدا عزبان، الذى ببركة الفيل.و عين له جميع ما كان له. على ما كان عليه. فكانت مدته أربع سنوات وثلاثة أشهر. وكان ورود المسلم يوم الثامن من محرم سنة ١١٠٧ . وكان بين غضب الباشا وقيامة مقام ابراهيم بيك. يوم وليلة، وهذا من جملة الفرج بعد الشدة. افرج الله على كل متضايق بمنه وكرمه آمين.

(١) بالأصل «قدقم» ، وأعتقد أنهن تصحيف من الناسخ.
(٢) بالأصل كرر تعبير « ثم آنه» .
(٣) بالأصل «فلما» .

وصار يسخرهم في بستان ومناظر عمرها بغير اجرة فلما علم السلطان ذلك ازاله واخذ من كان حوله مما كان يحسن له ذلك قوماً اعتقلهم وقوماً ضربهم وصادرهم وقوماً نفاهم وعاد الى الدواوين المستخدمين فآخذهم بتغليق الاموال واستخراج بواقى الاعمال فما كان فى شدة سواهم. وطرح الشيخ نش الخلافة ابوالفتوح [فى] الجب دفعة ثانية لانه كان رسم له ان يخرج الى الاسكندريه

---

٧٦. ذكر اسماعيل باشا الوزير
عفى الله عنه

قدم [١] الى مصر، من طريق البر، منفصلاً عن تولية دمشق الشام، عمرها الله بالذكر والتوحيد، مادام التوحيد. وأوكب يوم الخميس سابع عشر صفر سنة ١١٠٧[٢]، فلما استقر به الجلوس، سال عن أحوال مصر. وعن سبب قيام الرعايا فى وجهه، وعياطهم، وغوشهم، من قبة العزب الى أبواب القلعة. فاخبروه بما هم فيه من الغلا، والكرب الشديد، وكثرة الشحاتين، التى امتلأت مصر منهم، لأن جميع الأرض التى لم تكن رويت جاء فقراؤها الى مصر. فلما سمع اسماعيل باشا، أمر بالنداء فى شوارع القاهرة، ان جميع الفقراء والشحاتين، يذهبون[٣] الى قراميدان، فى غد. فلما كان من الغد، نزل الباشا الى قراميدان، فأتت خلق كثير، لا يعلم عددهم الا الله تعالى. فامر الوزير بتوزيعهم على الصناجق، والملتزمين بمصر، كل انسان على قدر حاله، وبحسب مقامه، بحضرتهم جميعا. واخذ لنفسه، ولأعيان دولته، ألف نفس، وعين لهم من الخبز والطعام ما يكفيهم، صباحا ومساء، الى أن أنقضى الغلا. ثم أعقب ذلك الغلا وباء عظيم، مهول لم تر المسنين مثل ذلك الوباء، لا يشبهه مقصود، ولا

(١) بالأصل «طريق» وصححها «قدم».

(٢) مدة ولايته: ١٧ صفر ١١٠٧ / ١٩ صفر ١١٠٩ هـ ٢٧ سبتمبر ١٦٩٥ / ٦ سبتمبر ١٦٩٧م.

(٣) بالأصل «يذهبوا».

فيكشفها [يكشف على قلاعها] فاعتذر وطلب الاعفا من ذلك فحنق عليه فامر برميه [فى] الجب. وتوقف النيل الى اخر ابيب(*) وتحرك سعر الغلة حتى بلغ عشرين درهما الاردب القمح و الشعير عشرة دراهم ونصف الاردب وارتاح الناس من ذلك. ثم توقف النيل الى ان جا العاشر من مسرى(*) وهو فى اربعة اذرع فطلب القمح ودفع فيه ستة وعشرين وسبعة وعشرين درهما الاردب

(*) يقع أبيب بين ٢٥ يونيو و٣٠ يوليو.

(*) ١٠ مسرى = ٣ اغسطس.

الحريق (١). فأمر الباشا لبيت مال الخاصة والعامة، أن يغسلوا الفقرا ويكفنوهم. ويتقيدون بهم، حتى يدفنوهم. وبنى لهم تربا (٢) عديدة يدفنون فيها، وتسمى بترب الغربا. فصارت الناس يحملون الموتى من الأسواق، والأزقاق، ويأتون بهم الى مغسل السلطان الذى بالرميلة، الى أن أنقضى الفنا. ولقد أخبرنى الفاضل كاتب بيت المال، أن الذى ضبطه بالقايمة التى عرضت على الوزير، ثمن أكفان، وقطن، خمسة وعشرين كيسا مصرية. هذا خارج عما كفنه الأكابر، والتجار، المتمولين من أهل الخير والاكرام، فانه اضعاف ذلك. وكان ابتداء الفصل من أول رجب الى غاية شوال سنة ١١٠٧ (٣). وتوفى فى هذا الفصل، سيدنا، ونسل صديق نبينا صلى الله عليه وسلم، زين العابدين البكرى الصديق (٤)، رضى الله عنه، وعن جده، وأمير الأمراء ابراهيم بيك، أمير الحاج، بن زين الفقار بيك، وغيرهم من أعيان البلد، وتجارها، من لو ذكرناهم لطال الشرح، وسمى بفصل الشحاتين، وفصل الهبأ، وفصل الشراقى الكبير. ولم نسمع بفصل له ثلاثة أسماء الا هذا. وقد ورث الوزير أموالا، توارثها الناس وارثا بعد وارث، لاتكاد تعد ولا تحصى. ثم بعد ذلك شرع فى ختان ولده، ابراهيم بيك، وكان عمره اذ ذاك

(١) المقصود الطاعون الذى حل بالبلاد فى عهد الوالى ٥٢ مقصود باشا ١٠٥٢هـ - ١٦٤٢م وفصل الحريق الذى انتشر فى عهد الوالى ٦٦ ابراهيم باشا ١٠٨١هـ - ١٦٧٠م، انظرهم.
(٢) بالأصل «طربا».
(٣) ١ يونية ١٦٩٦م.
(٤) كتب عنوان جانبى «اعرف وفاة الشيخ زين العابدين البكرى رحمه الله».

ثم نودى عليه وسعر بعشرين درهما الاردب والشعير باثنى عشر درهما الاردب وكذلك الفول وجزم السلطان فى ذلك جزما لم ير مثله ثم من الله تعالى ودفع النيل دفعاً عظيماً متواصلا من الحادى عشر من مسرى الى العشرين منه فزاد فى عشرة ايام سبعة اذرع والتقا البحران فى يوم الاربعا الحادى والعشرين من مسرى [١٤ أغسطس] وكان ثالث عيد المسلمين الذى هو الفطر وسر الناس بذلك سروراً عظيما وانحطت الاسعار

عشرة سنوات. ثم نادى فى شوارع القاهرة، من كان له ولد، ويريد ختانه، فعليه بالوزير يختنه، ويكسوه ويعطيه دينارا. فهرعت الناس اليه بأولادهم، فصارت المزينين تختن، والوزير يعطى الكسوة اللايقة به، و يعطيه الشريفى، ويأخذه أهله. فكان جملة من اختتن، ألفين وثلاثماية وخمسة وستين غلاما، من سنتين الى عشرين، من أجل الكسوة والدينار. وبلغ جملة ما صرف على الأولاد، خلاف الفرح أربعماية ألف، وثلاثة وأربعون الفا، وثمانية وستون نصفا فضة ديوانى. وهذا ما أخبرنى به وكيل الخرج[١] الذى كان متقيدا بهذا الامر . ومن جملة مآثرة الحميدة الكشك المطل على عرب اليسار، والقاعة التى تجاهه، والمصطبة والبستان الذى داخل السراية. وأنشأ على الباب الذى بجوار ديوان قايتباى مدرسة جعل فيها اثنى عشر قارئا يقرءون القرآن، ورتب كل يوم من الثلاثة أشهر مدرسا. ومقرئا، وعشرة من الطلبة يحضرون قراءة البخارى. ورتب لهم جوامك، وجرايات، يصرف لهم، جزاه الله خيرا، وتقبل منه الصرف والعدل، أنه على ما يشاء قدير، وبالاجابة جدير. وفى شهر ربيع أول[٢] من السنة المذكورة، طلع نجم له ذنب، وعمود فى السماء، من جهة الشرق، فاستمر مدة، ثم غاب. وفى عشرين ربيع أول[٣]، ورد أغا بخط شريف لمحاسبة على باشا، فحوسب، فطلع عليه آخر كل حساب

---

(١) وكيل الخرج: هو آحد مساعدى الروزنامجى، وكان ، من بين مهامه الاشراف على ارسال الصرة الارسالية لأهلى الحرمين، والحاجيات المطلوبة للمطبخ السلطانى.
(٢) أكتوبر ١٦٩٥م.   (٣) ٣٠ أكتوبر ١٦٩٥م.

وطابت قلوب الناس واستبشروا بالخير ومد النيل بعد ذلك الى الخامس والعشرين من مسرى وكان يزيد في كل يوم نصف ذراع ثم تقاصرت زيادته الى يوم الاحد الثاني من النسى [٢٥ أغسطس] وهو الرابع عشر من شوال سنة سبع وعشرين وستمايه فوقف وقد بلغ اصابع من اربعة عشر ذراعاً. وورد الخبر بكسر الخوارزمي(*) في يوم الثلثا السادس عشر من شوال من السنة المذكورة الموافق

(*) الخوارزمي: هو السلطان جلال الدين ابن خوارزم شاه كان قد اخذ مدينة خلاط بعد حصار

ستماية كيس. فأمر الباشا بالقبض على أربعة انفار من أعيان خدمه، فاودعهم السجن. ثم ان اسماعيل باشا أرسل خلف باش شاويش مستحفظان، وكان حسن النجدلي، فلما حضر أمره، وأمر الدفتردار، والرزنمجي، ان يتوجهوا الى منزل علي باشا ويختموه، فكان كذلك. وفي ثاني عشر (ربيع آخر)[١] شرعوا في بيع أسبابه، فأبيعت، وضبطت أثمانها، وأرسلت صحبة الخزينة العامرة. وفي[٢] أواخر جماد الآخر من السنة (المذكورة) [٣]. ورد أمر بتزيين القاهرة، ثلاثة أيام، بسبب نصرة الاسلام على القوم اللیام، وأخذ أهل الاسلام ثمانية قلاع، وصابروا الكفار. وفي غرة رجب سنة ١١٠٧ [٤] ورد أمير اخور بطلب الفين من العسكر، وأن يكون صنجقهم مراد بيك. ففي الحال ألبس مراد بيك قفطان السفر، وألبس السبعة سدادرة، الذين معينين في الخط. ومن جملتهم خليل أفندى، سردار الجراكسة. وفي ٧ رجب ألبس الباشا قيطاز بيك قفطان السنجقية، عوضا عن سيده، ابراهيم بيك بن زين الفقار. وتزوج بسيدته، ام ابراهيم بيك، سيده. وفي عشرين رجب ورد ركاب أحمد بيك، تابع القطردار من الغزو. وفي سابع عشرين رجب ألبس الباشا قفطان الصنجقية، وأمارة الحاج، لأيوب بيك. وفي ثامن محرم الحرام سنة ١١٠٨ [٥] ورد ركاب اسماعيل بيك من سفرة دمشوار [تمسفار]، وصحبته آغا

(١) الاضافة لتوضيح المعنى.
(٢) بالأصل «في» فقط.
(٣) أواخر يناير ١٦٩٦، والاضافة للتوضيح.
(٤) ٥ فبراير ١٦٩٦م.
(٥) ٧ أغسطس ١٦٩٦م.

للرابع من النسى ودقت البشاير بذلك ثلاثة ايام وخلع على الرسول الواصل من دمشق بهذا الخبر خلعا سنية واعطى فرسا بسخت [برخت اى بسرجه ومشتملاته] وشرفسار [خلعة] ذهب والف دينار فى كيس. وركب بذلك ودار القاهرة ومصر. ودخلت سنة سبع واربعين وتسع مايه للشهداد الأبرار فى نهار الخميس الثانى عشر من شوال سنة سبع وعشرين وستماية الهلالية والنيل

طويل سنة ٦٢٧هـ = ٩٤٦ق. من صاحبها الملك الأشرف. ولكنه هزم على يد ملك الروم بعد ان استجد به الملك الأشرف. و فى السنة التالية طارد التتار السلطان جلال الدين الخوارزمى حتى ديار بكر حيث قتلوه.

سيده [السلطان]، بتزيين القاهرة، ثلاثة أيام، لمولود جاءه، وسماه محمود. وورد الخبر باستشهاد مراد بيك، وخليل أفندى. وفى رمضان قامت العساكر على ياسف اليهودى فقتلوه وحرقوه فى الرميلة، وراح [(١)]. الى لعنة الله، وكان ذلك يوم الجمعة بعد الصلاة. وكان ياسف هذا ملتزما بدار الضرب [(٢)]. فى دولة على باشا، ثم طلب الى الديار الرومية فاجتمع بالملك وسأله عن أمور مصر فاخبره بالمكر والخداع والتزم له بخزينة مال يحصلها له كل سنة زايدة على خزينته واخذ من الملك خطوط شريفة يريد بها احداث حوادث ومظالم يحدثها فى مصر. من جملتها بأن يجعل للبن مدقا واحدا وكل رطل دقه نصفين، وعلى كل مقطع دمغة بنصفين، ويحدث على الحوانيت والبيوت مظلمة حكم الشام. ولما حضر الملعون الى بولاق، تلقته اليهود وأركبوه جوادا ومشى قدامه اليسفجية واليهود الى الديوان وابرز الخطوط وقريت بالديوان. ومن جملتها سكة الذهب، وهى سكة الطرلى وقريت بين يدى اسماعيل باشا والعسكر حضور ووافقه الباشات على اجرائها والعمل بما فيها. واشهر النداء بالديوان وأن ينزل الى القاهرة وينادى فى شوارعها. فنزل ونادى فى شوارع القاهرة فحصل للناس كرب شديد واجتمعت التجار

(١) بالأصل «وإراح».

(٢) دار الضرب. هى دار سك العملة حسب النظام الذى تقرره الدولة، انظر: محمد شفيق غربال، مصر عند مفرق الطرق (١٧٩٨ ـ ١٨٠١). ترتيب الديار المصرية فى عهد الدولة العثمانية، كما شرحه حسين أفندى، احد أفندية الروزنامه فى عهد الحملة الفرنسية، ص ٤٩.

متوقف والناس مغتمون لذلك والقمح مسعر بعشرين درهما الاردب ولا يباع الا على الطحانين بمقدار ما يستعملونه او باطلاق من الوالي. والحبوب قد تحرك سعرها وصار الخبز ثمانية ارطال بدرهم وكسر الخليج من غير وفا في يوم الاربعا السابع من توت(*) الموافق للرابع والعشرين من شوال سنة سبع وعشرين وستمايه واقام الى ثاني يوم حتى وصل الى باب الخرق وبعد ثلثة ايام وصل

(*)٧توت = ١٤ سبتمبر = ٢٤ شوال ٦٢٧هـ.

وأعيان البلد وعلماؤها وتوجهوا الى الصناجق والأمراء، وقالوا : هذه مظلمة يحصل منها فساد كبير، وسألوهم ابطال هذه المظلمة. فركب اصحاب الحل والربط، وطلعوا الى الباشا، وقالوا له، هذا الأمر يحصل منه تعطيل الأموال السلطانية. وتخرب البلد. وهذا أمر لا يتم بمصرنا. فرد عليهم جوابا لا يرضيهم. فلما سمعوا منه ذلك الجواب. قاموا الكل قومة واحدة . وسألوه ان يسلم لهم اليهودى. فامتنع . فأغلظوا عليه فى الجواب. وصمموا على أخذه. اما كرما واما كظما. فاحضر كتخدا مستحفظان. وكتخدا العزب. واسماعيل بيك ابو الشنب وامرهم أن يودعوه العرقانة: ولا يدعوا أحدا يشوش عليه، حتى ينظرون فى امره ففعلوا ما أمرهم به الوزير فقامت الجند على الصناجق والباشا، وطلبوا ان يسلمهم اليهودى. فامتنع من تسليمه، ومن [1] اعطاء بيردى بقتله. فمضت الجند جميعا الى العرقانة، واخرجوه وقتلوه، وجرته الرعية من رجله الى الرميلة، وجمعوا الحطب الذى فى الرميلة وحرقوه، وفعلوا به كما ذكر [2]. وفى يوم تاريخه كانت واقعة محمد الزرقانى، أحد شهود المحكمة، وهو أنه كتب وقفية بيت آل إلى بيت مال الوزير، ولم تصادف الوقفية محلا. وثبت تزوير الحجة فأمر الوزير باحضار كاتب الرقعة، فلما حضر، أمر بحلق لحيته، واشهاره على جمل فى اسواق القاهرة، والجلاد ينادى: هذا جزاء من يكتب الحجج المزورة. ثم بعد ذلك أمر بنفيه الى الطينة [1]، وأنه

(١) بالأصل «وأنه» والتصويب من التحفة، ص ٢٣٥.
(٢) بالأصل «ذكره».

الى باب الخوخه ووقف هناك وبلغ الماء الى ثلثة وعشرين اصبعا من اربعة عشر ذراعاً. ولم يشرب احد فى هذه السنة من الخليج ولا استقا منه سقا ولا احتيج فيه الى معديه لانه كان يخاض. ونقص من السابع عشر من توت الذى هو عيد الصليب(*) وجا فى توت المذكور من الحر ما لم يعهد مثله . ثم رد بعض النقص فى الرابع والعشرين من توت الى اخره اصابع لم ينتفع بها.

* عيد الصليب = ١٧ توت = ١٤ سبتمبر.

كان بريا، لأنه كاتب الرقعة بالاملاء من رئيس مجلس المحكمة الشرعية،و جعلوا هذا دفعا للبلا عنهم.

وفي ثامن عشر صفر سنة ١١٠٩ (٢)، غيرت سكة ذهب الاشرفي، بسكه عليها طرة، ويسمى بالذهب الطرلي. واحضر الوزيرالصناجق والاغوات بالديوان، واحضر أمين دار الضرب(٣)، وأسلمه السكة، وأمره أن يطبع بها، وأن يكون الذهب اثنين وعشرين قيراطاً، وكل ماية طرلي وزنها ماية وخمسة عشر درهما. وفي شهر تاريخه لبس عبدالرحمن بيك قفطانا، على صنجقية جرجه، وتوجه اليها من جمعته. وفي يوم الاثنين ثاني عشر ربيع أول(٤). قامت العسكر على الباشا، وطلبوا عزلانه، فابى فراجعوه المرة بعد المرة في النزول، وهو يمتنع. فلما رأى أمرهم لم ينفلك الا بنزوله، فأجاب، ونزل من يومه، الى منزله الذى اشتراه من(٥) عتقا عثمان جربجي، المطل على بركة الفيل، المعروف الآن ببيت شكربرا. وكان سبب ذلك أنه أشيع من جماعته للعسكر أن مراده البطش ببعض الأمراء، وظهر ذلك، وهو ان

(١) الطينة : جزيرة قرية من دمياط.
(٢) ٥ سبتمبر ١٦٩٧م.
(٣) المرة الوحيدة التي كتب فيها «دار الضرب» ثم وضع في الهامش كلمة «الدرب» ووضع اشارة احلالها مكان كلمة «الضرب» والصحيح أنها «الضرب» وليس «الدرب» ، كتب عنوان جانبي «أعرف تغير سكة ذهب الاشرفي».
(٤) ٢٨ سبتمبر ١٦٩٧م.
(٥) بالأصل «عن» والتصويب من التحفة، ص ٢٣٦.

وارتفعت الاسعار ورسم السلطان بالتسعير وان لا يباع القمح الا بعشرين درهما الاردب ووظف على كل شونه شيا معينا برسم الطحانين وامتنع الناس من البيع ومن جلب الغله . وضاق بالناس الامر وصار الخبز لا يصاب بالاسواق وان وجد كان عليه من الضراب ما لا يوصف ثم يكون متغير الطعم والرايحة لان الناس ما يبيعون من القمح الا العتيق المسوس وما يجد الطحانون سواه

رجلا من عتقا ابراهيم بيك زين الفقار، له دراهم عند أيوب بيك أمير الحاج، باقية عليه من ثمن الذخيرة، التي كتبت عليه لما لبس امارة الحاج التي في بندر الحجاز، فطالبه، فامتنع، فشكى أمره الى الوزير فأحضره وقال له، لم لا تدفع لهذا الرجل حقه، يدفعه للايتام. فقال له: ادفع، ولكن أنا دفعت البعض ، وبقى البعض ، ان شاء الله بعد رجوعى من السرحة ادفعه له. فقال الباشا، ودوة العرقانة. فقال اسماعيل بيك الدفتردار: دولتلي وزير، هذا أمير الحاج لم يحبس ولا على خمسماية كيس. فقال له الوزير: ترادني فى أحكامي، ولكن أن شاء الله أصبغ لحيتك بدمك. فقال اسماعيل بيك، وزير، أنا ما تنصبغ [1] ذقني حتى يموت ناس كثير . واخذ ايوب من يده، وطلع به من الديوان، ونزل به الى منزله، وصبر الى بعد العشاء حتى انقطعت الرجل، وركب وحده، بقواس وسراج، من غير فانوس، ودخل منزل نسيبه حسن اغا بلفية، وأرسل أحضر مصطفى كتخدا القازدغلي، وتكلموا هم الثلاثة، بكلام، ثم افترقوا، وروح كل واحد الى منزله، ثم أنهم فى ثانى يوم امتلأت الرميلة بخلق لا تعد . هذا كان السبب فى نزوله. ثم أنهم جعلوا مصطفى القطردار قايم مقام، وكتبوا عرضا وأرسلوه الى الأعتاب العلية، صحبة سبعة أنفار من البلكات السبعة. وكانت مدة اسماعيل باشا سنتين. ثم ورد مسلم حسين باشا فى ١٧ رجب سنة ١١٠٩[2].

(١) بالأصل «تنسبغ».

(٢) بالأصل ١٧ فى رجب ١١٠٩ / ٢٩ يناير ١٦٩٨م.

فيعملونه مخبى [سراً] على هذه الحالة والسوس فما كان يقدر على شرا شي لان الوطف [الأوامر] للطحانين لا يعطون احداً منه شيئاً . واصحاب القمح لا تسمح نفوسهم ان يبيعوا شيئاً بهذا السعر[٢٠ درهم] الاغصباً وبقى هذا الحال الى اوايل هتور(*) وكاد القمح يعدم. ورسم السلطان باطلاق السعر فبيع فى نهار اطلاقه بستين درهما الاردب ثم رجع انحط الى اربعين واستمر على ذلك مدة. واما الزيت الحار فانه بلغ الىماية

(*) يقع هاتور ما بين ٢٨ اكتوبر و٢٦ نوفمبر.

٧٧.ذكر تولية حسين باشا ارنوط الشهير بنقرة

قدم الى مصر من طريق البر في يوم الخميس خامس عشرين رجب سنة ١١٠٩ (١) وفى ثانى يوم حضر امير اخور الكبير، بطلبَ الفين وخمسماية نفر من الغربيات (٢)، ولكل واحد من الغربيات خمس عثامنة: ثلاثة حين السفر، واثنان بعد العود، وأن يكون يوسف بيك المسلمانى سردارهم. فأخلع القفاطين على الصنجق وعلى جميع السدادرة. وأما الخمسماية نفر فانهم وزعوهم على السبعة أوجقة، وأعطوا كل نفر الفين فضة من الميرى. وفى تاسع شهر رمضان (٣). أوكب يوسف بيك بالاى عظيم الى بولاق ، وسافر من بولاق ٢٥ رمضان (٤). وفى رابع عشر شوال (٥) ورد عرض من جرجه من عند عبدالرحمن بيك، أن عرب هوارة امتنعوا من دفع المال والغلال، والأمر امركم، فأرسل الوزير جمع جميع الصناجق، والأمراء، والأغوات، اختيارية الوجاقات السبعة، ومر العرض عليهم ومضمون العرض أنى كلما أرسلت لهم أحدا، بطلب الغلال والمال منهم، يقولون: نحن عرب والبعض يقولون: أنا مستحفظان. ثم أن الباشا قال لهم: ايش تقولون، تقعدون بما على العرب من مال وغلال، واكتب عليكم

(١) مدة ولايته : ٢٥ رجب ١١٠٩ / ١٣ ربيع أول ١١١١ هـ - ٦ فبراير ١٦٩٨ / ١٦٩٩م.
(٢) نوع من الجند سبق التعريف به حيث ذكر الجند الغربا أى المرتزقة.
(٣) ٢١ مارس ١٦٩٨م. (٤) ٦ أبريل ١٦٩٨م.
(٥) ٢٥ أبريل ١٦٩٨م.

ودرهمين القله وانحط الى تسعين وما دونها واستمر على ذلك وكان اكثر البضايع فاسدة في هذه السنة، وكذلك ما يختص به من البزر والسلجم . وفي طوبه(*) من السنة المذكورة رسم بحفر [تطهير] خليج القاهرة وطرح على اصحاب الادر [الدور] والبساتين التى عليه فاعتمد الناس ذلك ونالهم منه غرامة كثيرة وكانت الدار تغرم ثلثين دينار وما دونها على قدر الدار وعرضها

(*) يقع طوبه ما بين ٢٧ ديسمبر و٢٥ يناير.

حجة، والا تخرجوهم من عندكم، فقيل للجميع: ليسوا منا، والعرب لم يكونوا عسكرية. فعند ذلك كتب عليهم ثلاث حجج شرعية، بأنهم لم يكونوا عسكرية، واحدة وضعها في نوبة خانة الجاوشية (١) والثانية في باب مستحفظان، والثالثة أرسلها الى عبدالرحمن بيك حاكم جرجة. وفي خامس عشر الحجة سنة ١١٠٩ (٢). توجه اسماعيل باشا الى العادلية، من غير الاى، بجماعته فقط، بعد أن عمل حسابه حسين باشا، فطلع عليه من غلال العنبر الشريف خمسين ألف أردب، فباع منزله الذى تقدم ذكره، والبلد التى كان أوقفها على السحابة وهى البدرشين، ودفع (٣) ثمن الخمسين الف أردب، خمسين كيسا، كما هو مضمون الخط الشريف ، المحضر عليه، على يد قرا محمد كيخيته. وفي حادى عشرينه توجه من العادلية طالب بغداد، دار ولايته، ومحل حكمه. وفي غرة محرم سنة ١١١٠ (٤)، دفع حسين باشا لأرباب الجرايات ثمن جراياتهم على كل أردب خمسة عشر نصف في الشعير، وخمسة وعشرين في الحنطة، وهذا الذى فعلوه في قبول الدراهم من الوزرا، عوضا عن غلال العنبر، كان أول غم وقع في العنبر، من بيع الوصلات، وعدم عطيه الغلال وكان منشاها

(١) نوبة خانة الجاوشية ، مقر رياسة وجاق الجاوشية.
(٢) ٢٤ يونية ١٦٩٨م.
(٣) بالأصل خمسين، ربما كانت خطا من الناسخ، والتصويب من التحفة، ص ٢٣٧.
(٤) ١٠ يولية ١٦٩٨م.

وكذلك رسم فى جميع البلاد ان تحفر خلجها وتقوى جسورها وتفتح لها الترع المستجدة التى تقضى ريها من الانيال [الترع] القليله وكل ذلك على المقطعين واهل البلاد. ثم رسم فى اواخر امشير(*) بان يحفر بحر مصر من جهة دار الملك الى فم خليج القاهرة وجعل ذلك على اصحاب الادر بمصر والجزيرة التى على البحر واجبوا ذلك على الناس وجعلوه قصباً تكون القصبة طول

(*) يقع امشير ما بين ٢٦ يناير و٢٤ فبراير حسب التقويم الجوليانى.

اسماعيل باشا، وانما دخلت جهته سنة التراقى، وباع منها الذى باعه، وأطعم الفقرا الذين كان اخذهم لطرفه الذين تقدم ذكرهم، واشيع للناس أنه أطعم الف فقير طول الغلا، وهو من غلال أهل مصر، وغلال فقراهم، لا من غلال أغنياهم، لأن الأغنياء لا يذهب لهم شئ. وكل ذلك ذاهب على الفقراء والله أعلم. وفى أواخر شهر جماد الثانى من السنة المذكور[1]، ظهر رجل من الفيوم، يقال له محمد العليمى، ادعى الولاية، ونزل بالرميلة، فصار على القهوة، التى تجاه سبيل المؤمنين وارتكن بظهره الى القهوة واقف على رجل واحدة. فهرعت اليه رعايا مصر، وعوامها، ونسايهم، ونساء اكابرها، فلما تكاثرت عليه الناس، حفروا له حفرة مثل المنامة، وصارت النقبا التى له يقفون على رأس الحفرة، ومن اراد النزول ينزلوه له، فيجتمع عليه وهو واقف على رجله. وكان يفرد عين وهى اليمنى. ثم أنى توجهت له فرأيته واقفا داخل الحفرة، وسيدى محمد الزرقانى جالساً عنده، يبوس فى يده. فقلت له: يا سيدى ما هذا الحال، فقال لى: يا أحمد أعتقد ولا تنتقد. فقلت له: ياسيدى كذلك. ثم أن النساء كثرت حتى أنها صارت تنام فى سبيل المؤمنين. وصار فى المحل فساد كثير، وصارت الناس الى التربة، ثم الى قراميدان، زحمة بالكتف. فلما رأت العسكر هذا الأمر، طلعت الى الديوان وأخبرت الوزير. فلما سمع الوزير هذا الكلام، أرسل طلبه، فطلع الى القلعة.فلما دخل الى الديوان، لم

(١) أواخر ديسمبر ١٦٩٨م.

سبعة اذرع في عرض اربعة قصبات او خمس على حسب بعد المكان من البحر وقاربه في عمق خمسة عشر ذراعاً بالعمل فكان ينوب القصبة عشرة دنانير واكثر. وتحرك السعر وبلغ القمح الى ستين درهما الاردب والشعير الى ثلثين درهما وجميع الحبوب من [بنفس] النسبة. واحترق [جفّ] البحر احتراقاً ما روى مثله وظهرت القرابيص (*) التي فيه من امشير وجرفت المراكب

(*) القرابيص: ما أرتفع من باطن النهر مثل الجزر المغمورة بالمياه.

تمالك العسكر حتى ان هجم أيوب بيك وضربه بالخنجر، فوقعت فيه العسكر ضربا، فمات، فربطوا في رجله حبل وجروه الى الرميلة، وهربت نقباه. ثم أن أهل الخير من المؤمنين غسلوه وكفنوه، وعملوا له مشهدا عظيما، ودفنوه بجوار الست نفيسة، رحمة الله عليه وعلى أموات المسلمين جميعاً [1]. وفي سابع شوال سنة ١١١٠ [2] كانت واقعة المغاربة مع أهل مصر. وذلك أن المغاربة كان من عادتهم انهم يحملون الكسوة الشريفة، التي تعمل كل سنة، ويمرون بها في [3] شوارع القاهرة، وانهم يضربون كل من يروه يشرب الدخان، في وقت مرورهم بالكسوة الشريفة. فاتفق لهم انهم ضربوا رجلا من اتباع مصطفى كتخدا القزدغلي، فشجوا، رأسه. وكانوا اذ ذاك مسلحين، فتشاجروا، ووقع بينهم الضرب بالسلاح، وطالت القضية، واتسعت، فقام عليهم أهل السوق، وضربوهم، فادركهم اوضباشة البوابة، وكان اذ ذاك سراج مصطفى أوضباشا، سراج تابع ابراهيم القرماني، فقبض على أكثرهم، ووداهم القلعة. ثم في ثاني يوم اعرضوهم على الوزير، وعرفوه بحالهم، فأمر بهم الى العرقانة، ولم

(١) لمزيد من التفصيل حول واقعة العليمي، انظر: التحفة، ص ٢٣٠ - ٢٣٩. عبد الرحمن الجبرتي، عجايب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق: عبد العزيز جمال الدين جـ١، ص ١٤٢ ـ ١٤٣، حيث سجل ما قاله الشيخ حسن الحجازى في هذه الحادثة شعرا.
(٢) ٨ أبريل ١٦٩٩م.
(٣) بالأصل «من» والتصويب من، الجبرتي، المصدر السابق جـ١، ص١٤٣.

الصغار وقيل ان [الماء] الذى فى قاع البحر فى الوقت المذكور ثلثة اذرع ونصف وربع. ولم يزل الحال على ذلك والاسعار غالية والناس فى شدة شديدة لان احوالهم كانت ضعيفة الى الغاية وجاء الخامس والعشرين من بوونه(*) الذى يطالع فيه باحوال النيل وفى القاع ذراع واحد ونصف وربع وهو شى قليل ما روى مثله. وتوقف الماء [فى] ابيب (*) كله ثم زاد فى مسرى(*) وانتهى الى

(*) ٢٥ بؤنه= ١٩ يونيو.
(*) يقع ابيب بين ٢٥ يونيو إلى ٢٤ يوليو.
(*) يقع مسرى ما بين ٢٥ يوليو و ٢٣ اغسطس ٩٤٨ق. = ١٢٣٢م.

يزالوا مسجونين الى أن سافر الحاج، ومات أكثرهم فى العرقانة، فشفعت أرباب الدولة فى الباقى، بواسطة الخواجة محمد الشرايبى [المغربى]، بدراهم عملوها لاسماعيل بيك الدفتردار، فأفرج عنهم الوزير، ومن تلك السنة لم تشل المغاربة فى الكسوة. وفى عاشر شوال وصلت مرضعة السلطان تريد [١] الحج، ونزل الى ملاقاتها حسين باشا، وأنزلها فى الحلى، وهاداها، وهادتها جميع رجال الدولة. ثم انها حجت ورجعت، فلما وصلت الى عجرود، توفت الى رحمه الله تعالى. وفى غرة الحجة سنة ١١١٠ [٢] ورد الى بندر السويس مركب الخواجا عبدالغفور، وكان عبدالغفور هذا رجل هندى ناخوذه [تاجر بحرى] وهذه المركب من جملة سبعة عشر مركبا، والجميع خشب ومتجر وخدم، ملكا له، سبحان المنعم المتفضل، فمكثت فى السويس، وحملوا حملها التى بيت محمد جربجى الجودرى، الذى بجوار سر الحسبة، ومكثوا يبيعوا فيها سنة كاملة. ثم سافروا فى محرم سنة ١١١٢ [٣]. وفى محرم سنة ١١١١[٤]، ورد ركاب سليمان باشا من الديار الرومية، واليا على بندر جدة، وبيده أمر شريف،خطاب الى حسين باشا، أن يدفع له عشرة آلاف طرلى، من مال الخزينة العامرة، برسم عمارة ماتهدم من سور [٥] المدينة. فأجاب، ودفع . وفى

(١) بالأصل «يريد» والتصويب من التحفة ، ص ٢٤٢.
(٢) ٣١ مايو ١٦٩٩م.
(٣) يونية / يولية ١٧٠٠م.
(٤) يولية ١٦٩٩م.
(٥) بالأصل «صور».

خمسة عشر ذراعاً ثم وقف [في] النسى(*) ويئس الناس منه ثم دخلت سنة ثمان واربعين وتسع ماية للشهدا(*) الابرار وكسر مجرى المنجا خشية من نزول الماء وكذلكساير الابحر الكبار واذن الله بزيادته فزاد في توت(*) شيا لم يعهد قط ووفى في التاسع منه [٧سبتمبر] وانتهت زيادته الى عشرة اصابع من سبع عشر ذراعاً ورويت البلاد كلها لان السلطان كان دبر البلاد تدبير لم يدبره احد واخذ

(*) النسى: ما بين ٢٤، ٢٩ أغسطس وهى آخر أيام السنة المصرية.

(*) توت: يقع ما بين ٣٠ أغسطس و٢٨ سبتمبر.

- -

يوم[1]. الثلاثا ثالث عشر ربيع أول سنة ١١١١[2]. ورد مسلم قرا محمد باشا، كتخدا اسماعيل باشا، وجاء الفرمان بقيامة مقام اسماعيل بيك الدفتردار، ونزل حسين باشا ثاني يوم، ووكلوا به الحرس، وكانت مدة ولايته سنتين، والله أعلم.

٧٨. ذكر تولية قرا محمد باشا

عفى الله عنه

قدم الى مصر يوم الاثنين رابع عشر ربيع الثاني سنة ١١١١ فاستمر واليا بها الى سنة ١١١٦[3]، فكانت مدته خمس سنوات. وفى ثاني عشرين ربيع الثاني[4]، ورد قابجى باشا[5]. من الاعتاب العلية ومعه ثلاثة أمور شريفة، مضمونهم أرسال الخزينة على الفور، ومحاسبة حسين باشا على وجه الحق، وبطلب الشريف أحمد بن غالب، والشريف عبدالله والشريف بن بركات، فجهزوهم فى الحال، وارسلوهم الى الديار الرومية، ولما وصلوا الى الأعتاب العلية قابلهم بالاجلال والتعظيم، وأفراد لهم مساكن تليق بهم، ورتب لهم جميع ما

(١) بالأصل «اليوم».
(٢) ٨ سبتمبر ١٦٩٩م.
(٣) مدة ولايته: ١٤ ربيع الثاني ١١١١ / غرة رجب ١١١٦هـ - ٩ أكتوبر ١٦٩٩ / ٣٠ أكتوبر ١٧٠٤م.
(٤) ١٥ أكتوبر ١٦٩٩م.
(٥) رسول كبير، جب، بوون، المجتمع الإسلامي والغرب، الترجمة العربية، جـ١، ص ١٢١.

اهل كل عمل لعمل جسورهم وحفر ترعهم وحمل الماء اليها من المواضع البعيده بالجسور التى تعمل عليها فرويت البلادكلها ولم يشرق منها الا السواحل العوال التى لا يبالى بها معما [علما] انه روى من هذا الماء ما لا كان يروى الا من ثمانية عشر ذراعاً وتسعة عشر ذراعاً وكل ذلك بتدبير مولانا السلطان وحسن نظره. وكانت الفلوس قد كثر فيها الزغل [التزييف] والفساد وصار فى

(*) أهم أحداث سنة ٩٤٩ق. = ١٢٣٢م. = ٦٢٩هـ.
* فيها استولت التتر على بلاد العجم كلها.
* ١ يناير سنة ١٢٣٢ = ٥ طوبه ٩٤٨ = الخميس ٦ ربيع أول سنة ٦٢٩.
* وفيها سار الملك الكامل والأشرف من مصر إلى البلاد الشرقية، ونزل الملك الكامل ببلاد الشوبك، وأناب عنه في مصر ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب.

يحتاجون اليه. ومكثوا مدة، ثم أن أحمد بن غالب، وعبدالله ابن هاشم، توفيا الى رحمة الله تعالى. واما يحيى بن بركات فانه استأذن في العود الى مصر، فا ذن له، فرجع الى مصر واستوطنها، وأفرد له جامكية، في كل يوم الف وخمسماية فضة. وفي يوم الخميس ١١ جماد توفى شيخ الطريقة والحقيقة، وشيخ القراء، الشيخ محمد البقرى. وفي سنة ١١١٢ (١). عمر محمد باشا مقام الاربعين الذى (٢) بقرا ميدان، ونشأ فيه جامعا بخطبة، وتكية لفقرى الخلوتية من الأروام، وأنشا مقابلا لهم مطبخا، ودار ضيافة للفقرى، وفي علوها مكتبا للاطفال يقرءون القرءان فيه، وجعل لهم من الخيرات ما يكفيهم . وأنشأ فيما بينها وبين البستان المعروف ببستان الغورى حماما فسيحا. وجدد بستان الغورى وعمره، وأنشأ الأشجار المثمرة، ورم قاعة الغورية التى بجوار البستان، وعمر بجوار الحمام سكن أمير اخور ومسطبة عظيمة، برسم تلبيس القفاطين للمحمل وتسليمه لامير الحاج. وبنا مسطبة لرمى النشاب، وعمر بالقرافة مقام العارف بالله، سيدى عيسى بن القطب الربانى، سيدى عبد القادر الكيلانى، وجعل فيه فقراء مجاورين، ورتب لهم علوفة وجرايات تكفيهم. وعمر صهريجا داخل القلعة بجوار نوبة الجاوشية، ورتب فيه خمسة عشر فقيها يقرءون القرءآن صبيحة كل يوم بعد طلوع

(١) ١٧٠٠ / ١٧٠١م.
(٢) بالأصل «الدين»، ٦ سبتمبر ١٧٠١م. كل هذا من أقوات المصريين للتنابله (الصوفية العثمانية).

الصعيد من يضربها خارج الدار [دار الضرب] وكثر ذلك وفشا وكان صرفها كل ستة عشر فلساً بدرهم اسود [الفضه] وليس بينها وبين الصرف فى الذهب با لدراهم سوى نصف درهم فى الدنيا ونصف وربع [ثلاثة أرباع] . وكان الناس طيبين النفوس بها ولا يردها ا حد فامر السلطان بان ينادى ان لا يتعامل الا بالفلوس السلطانيه وما ظهر من غير ذلك يقص ويطرح [يصادرا]. واقيم لذلك

* ١ تـوت سـنة ٩٤٩ = ٢٩ أغسطس ١٢٣٢= الأحد ١١ ذو القعدة سنة ٦٢٩.
* فيها رجع السلطان الملك الكامل من البلاد الشرقية إلى ديار مصر.
* ١ يناير سنة ١٢٣٣ = ٦ طوبه سنة ٩٤٩ = السبت ١٧ ربيع أول سنة ٦٣٠.
* وفيها أستأذن الملك المظفر محمود، صاحب حماه، الملك الكامل في انتزاع بارين من اخيه قليج أرسلان خيفة أن يسلمها إلى الافرنج لضعفه عن مقاومتهم،

الشمس. وفى ثانى ربيع أول سنة ١١١٢ (١) قتل عبدالرحمن المنفصل عن صنجقية جرجة، باتفاق من أصحاب الوجاقات السبعة وركبت نفر السبع وجاقات، وجربجياتها، وبارقهم، وجردوا عليه المدافع، الى أن أحاطوا بمنزله الذى بباب زويلة، المعروف بمنزل رضوان بيك، وضربوا عليه المدافع، وتسلقوا عليه من الحيطان، وقتلوا أكثر جماعته. ومن جملة من قتل أحمد أضباشا البغدادى، ودالى محمد اوضباشا، تابع الحبشلى، وأسماعيل من أعلا المحل، وضرب عبدالرحمن بيك برصاصة، فخر ميتا. وكان محرما فى صلاة الضحى. ثم هجموا عليه، وجزوا رأسه، وودوها الى الوزير ، فأعطى الذى أتى بها خمسة وعشرين ألف فضة. ونهبوا جميع ما كان فى داره وسبوا عياله، وجواره، وجميع خدمه. ولقد كنت واقفا والنهب واقع، واسماعيل بيك الدفتردار، وبجانبه أيوب بيك، وبجانب أيوب إبراهيم بيك أبو شنب، وباب الحريم مقفول، والناس واقعين فى النهب للمقعد ، والخيل، والخيام، والأمور المتعلقة بالرجال واذا بايوب بيك يزعق على النهابة. وقال لهم: اكسروا باب الحريم فكسروه.و انزلوا الجوار والخدم. واذا بأربعة من الغز، واحد يقال له بشت عثمان ، جول على، وقبطان ابراهيم، وصارى عبدالله، نازلين بصندوق فيه المال والجواهر التى للصنجق. ثم أن جول على ، عمل كتبخدا مستحفظان، ورميت رأسه فى غيطه. وقبطان ابراهيم مرض بالقصبة الى أن مات ،

(٦) سبتمبر ١٧٠١م.

صيارف وتلف على الناس من ذلك شئ كثير ثم ان صرفها رخص فصار الدينار بخمسة واربعين درهما فلوسا ثم تدرج الى ان بلغ يوم تطيره [تسطير] وهو السادس والعشرين من ابيب(*) الى ثمانين درهما فلوسا بدينار والدراهم السواد كل عشرة دراهم بثمانية عشر درهما فلوس، يكون الدرهم المصرى ثلثين فلساً واما الدراهم النقره فانها تساوى كل ستة دراهم وربع بالفلوس، وما

فأذن الكامل بذلك فسار المظفر من حماه وحاصر بارين وانتزعها من أخيه.
* فيها كان إنشاء وتأسيس المدرسة الكلية في طولوز.
* ١ توت ٩٥٠ = ٢٩ أغسطس سنة ١٢٣٣ = الاثنين ٢١ ذو القعدة سنة ٦٣٠].

(*) ٢٨ أبيب = ٢٤ اكتوبر (جولياني).

وصارى عبدالله هلك غريبا، وعثمان هلك في البقيع، بعد رجوعه من مكة. وسبب قتله عبدالرحمن بيك: أنه نقل عنه كلام الى الفقارية، وكان ينسب الى القاسمية، وأنه لما لبس قفطان جرجة، ونزل الى الولاية، ورجع الى مصر حصل بينه و بين حسن أغابلفية تكلما في الديوان، وسحب الخنجر عليه، وقال له، دا الوقت، اسبغ دقنك بدمك. ثم أنهم فرقوا بينهم، ونزلوا على غير حال مرضى، وتسببوا في قتله، وقتلوه، ورحمة الله عليه. وعمل فيه الشيخ مصطفى النحاس تاريخا أرخوه: «جآعدوانا وظلما». وفي يوم السبت ٤ شوال سنة ١١١٤[(١)]، جرت حادثة هي: أن الفضة النحاس، والحت [(٢)]، فشت في القاهرة، وصار النصف المختوم لا يوجد، وان وجد لا يتعامل به، وانما تاخذه اليهود ويقصوه أربعة أنصاف، ويصرف،حتى أن الشريفي المحمدى صار بماية وخمسين، والطرلى بماية وسبعين، والبندقى بمايتين، والريال بسبعين، والكلب بستين، ثم أنها فشت الى أن صارت تباع بالدراهم، وصار أهل الأسباب يبيعون الاسباب، وفي آخر النهار يذهبون الى الصاغة ، ويبيعون ما تحصل معهم من المقاصيص، فضاعت رساميل الخلق، واشتد الحال على الناس، وزاد الكرب. فاجتمع أهل الأسواق، ودخلوا الجامع الازهر، وشكوا امرهم الى العلما، والزموهم بالركوب الى حضرة

(١) ٢١ فبراير ١٧٠٣م.
(٢) أى المقصوصة، انظر : التحفة ، ص ٢٤٥.

بقى بايدى الناس [من المعاملة] سوى الفلوس لان ديوان السلطان ما كان ياخذها فى شى من معاملاته لا فى اجرة املاك ولا ضمان ولا بيع ولا شرا وبطل عمل الفلوس بدار ضربها وهى كلما مرت رخصت . ثم انه جرت فى هذه السنة كاينة عجيبة وذلك ان رجلا قسيساً راهباً خبيرا يعرف بابى سعيد بن العفيف كانت زوجة اخيه قد ابتاعت جاريه روميه من رجل فرنجى ثم باعتها الى

الوزير، فى شأن ذلك الأمر. فركب الشيخ محمد النشرتى، وركب خلفه جميع العلماء، وتوجهوا الى الديوان، وافهموه على القضية، وضرورة الناس. فجمع السناجق، والاغوات، الامراء، وكان ديوانا حافلا، وتشاوروا فى شأن تلك[1] القضية. فاجتمع امرهم، أنهم يقطعون فضة جديدة ، وتوزع على الصيارف بالقاهرة، وينادى بابطال المقاصيص أصلا، وأن كل من كان معه شئ من المقاصيص، يطلع الى الديوان، ويبدل وزنها فضة من دار الضرب، أو من الصيارف. وكل من تعامل بالمقصوص يستأهل ما يجرى عليه. وأن الطرلى بماية، والمحمدى بتسعين، والبندقى بماية وعشرين، والريال بخمسة وخمسين، والكلب بثلاث وأربعين، وأنزلوا الأسعار المبتاعة، وجعلوا لكل صنف سعرا لا يباع باكثر منه. واجمعوا ان يركبوا، على أغا مستحفظان، بالعمامة البيرشان، والملازمين قدامه، وحاكم الشرطة، وأوضباشة البوابة، والمحتسب، وجاويش من بيت نقيب الاشراف، وسبع جاوشية. من كل باب واحد، ونايب القاضى، فى مقدمته، والمماليك خلفه بالبندق واليدكات موقرة، واثنان صيارفة واحد عن يمينه، والاخر عن يساره، ويمر فى شوارع القاهرة، ينقدوا الدراهم، ويحرروا الارطال، وينادى على الاسعار المبتاعة. فمن وجده باع شيئا بخلاف المشرط، أو اشترى، سواء، كان ذلك الرجل فلاحا، أو تاجرا، أو قبانيا، يسطحه فى السوق على وجهه، ويضربه بالمساوق الشوم الى

(١) بالأصل «ذلك».

رجل من التجار المترددين من بلاد الفرنج فلما بلغ مولانا السلطان ذلك انكره غاية الانكار وامر بان يباع القسيس وامراة اخيه واختها ونودى عليهم فى سوق الرقيق وكانت شدة ما سمع بمثلها فاشتراهم رجل مبارك اصله نصرانى من الشام من المارونيه وقد اسلم فابتاعهم بستين دينار وانتحى الناس عنهم وجمعوها لهم وافتكوهم وكان هذا الرجل [المارونى] محسناً اليهم الى الغاية. واما القس فانه خرج الى دير العربة [دير القديس انطون] فاقام به و[واما]المرتان ا حداهما كانت

حتى يتلف أو يموت. وقل من قام من تحت الضرب حيا ومنهم من ودوه الى منزله وعاش يوما أو يومين ومات. فهلك خلق كثير بسبب ذلك، فهج أكثر الناس. وكان رجلا جبارا فاطاعته (الناس)[١]، ودخل فى قلوب الناس الرعب وكان اذا اراد الركوب يشيع خبر ركوبه، فتهرب الناس الى منازلها، ولم يبق فى السكة أحد ولا الكلاب. ولكن ضبط البلاد ضبطا شافيا. وكل شئ نادى عليه لم يكن فيه زيادة أبدا، ويكثر، ولم يعدم، ونزل فى السعر عن مناداته. وانه نادى عن البن بألف ومايتى، وكان بألف وخمسماية، فنزل الى أن ابيع بعشرين ريال، كناية عن الف وماية، وكل شئ هكذا. وفى سنة ١١١٥ [٢]. أمر الوزير بقطع الدكاكين لتوسعة الطريق، فقطعوا الدكاكين، وجعلوا مساطبها عشرين قيراطا. ثم نادى بقطع الارض وتمهيدها، فقطعت الناس من الأرض ذراعا اسطنبولى. وهو أول آغة حكم فى القاهرة. وفى ربيع آخر [٣] ورد أخبار من الديار الرومية بجلوس السلطان أحمد [٤] ابن محمد فى ٢٧ ربيع أول سنة ١١١٥ [٥]. وفى يوم الأربع ثاني عشرين جماد آخر [٦]. من التاريخ المذكور، انحرقت

(١) الاضافة لتوضيح المعنى. (٢) ١٧٠٣ / ١٧٠٤م.
(٣) أغسطس ١٧٠٣م.
(٤) هو السلطان أحمد الثالث، وتولى السلطنة ١٧٠٣ / ١٧٣٠م.
(٥) ١٠ أغسطس ١٧٠٣م. (٦) ٣١ أكتوبر ١٧٠٣م.

راهبة وكان كلاهما قديسين واطلق سبيلهما.
وسافر السلطان بالعسكر المنصورة في يوم عيد الفصح من هذه السنة وهو في جمادى الاخره سنة تسع وعشرين وستمايه الهلاليه [١٢٣٢م] ومضى الى دمشق ومن دمشق الى الشرق لان عدواً كان قد خرج على بلاد الفرس والعراق يعرف بكافر ترك [هولاكو] في عدة كثيرة لا يحصى عددها وهزم خوارزم شاه واستباح بلاده وأخربها ووصل الى اطراف بلاد بغداد. وسير الخليفة الامام المستنصر ابو جعفر المنصور من

البارودية [١]. التي بالباسطية الحرقة الثانية، وأحدثوا عوضها باوردية بالرميلة، التي هي الآن. وفي غرة رجب [٢]. ورد ركاب مسلم سليمان باشا من جدة الى اسماعيل بيك الدفتردار، بقيامة مقام، وأنزلوا قرا محمد باشا الى منزل على أغا الخزندار الذى بالمظفر. ثم ان أعيان البلد أبوا أن يكون سليمان باشا واليا عليهم، فأرسلوا عرضا الى الديار الرومية برفعه عنهم، لما يعلموا من تجبره وعناده، قبل العرض. وفوضوا أمر مصر الى الوزير الأعظم رامي محمد باشا. وعمل له تاريخا، الشيخ مصطفى بن فتح الله النحاس الشاعر، قدوم شريف للوزير محمدا. وأن هذا الشيخ مصطفى ألف [٣] له كتابا يشتمل على أحد وعشرين علما، وقدمه له، ومدحه في الكتاب بثمانية وعشرين قصيدة محبوكة الطرفين على حكم ارتقيات الصفى الحلي. فلما رأى الكتاب حصل له السرور، وكساه كسوة وزراء [٤]، وأعطاه ماية طرلي، وسبع عثامنة، بدفترالأيتام. وصار يتوجه له في كل يوم جمعة، ويذكر لنا محاسن الوزير . ثم أنه باع العثامنة بأحدى عشر ألف فضة ديواني، وتوجه إلى الحجاز سنة ١١١٦ [٥]. فلما ورد مسلمة، أبقى اسماعيل بيك على ماهو عليه، وأرسل مولانا السلطان الى سليمان باشا بالعزلان.

(١) دار صناعة البارود.
(٢) ١٠ نوفمبر ١٧٠٣م.
(٣) بالأصل (اللف).
(٤) بالأصل «وزرء».
(٥) بالأصل ١١٦١، و صحتها ١١١٦ هـ / ١٧٠٤م، و التصويب من التحفة، ص ٢٤٧.

بغداد الى السلطان رسولين جليلي القدر احدهما معمم والاخر مشربش من اخص مماليكه وكانت لهما حشمة وحرمة لم يعرف لرسول مثلها واهتم بهما السلطان اهتمام مثله وجعل لهما من الاقامة والراتب ما يعجز الواصف عن وصفه . وكانا احضرا معهما خلع الخلافة الشريفة على السلطان عز نصره وعلى اقاربه وخواصه والعهد [المرسوم] بسلطنة البلاد والمماليك التي بيد سلطاننا . وكان وصولهما من دواعي اسباب سفر السلطان عز نصره وكانت اخبار هذا الخليفة احسن الاخبار من

٧٩.ذكر تولية محمد باشا رامي.

عفى الله عنه

قدم الى مصر من طريق البحر يوم الاثنين «سادس شعبان» (١) سنة ١١١٦ (٢) وهو أول نياب السلطان أحمد بن محمد. وفي أول قدومه توفي مصطفى كتخدا القزدغلي. وفي أيامه جاءت آمارة الحاج الشريف الى غيطاز بيك، تابع ابراهيم بن زين الفقار سنة ١١١٧، وفي ايامه توقف النيل عن الزيادة، وهرعت الناس لطلب الدعاء، وامر الوزير العلماء، وأولاد المكاتب، وجميع أهل القاهرة، أن يطلعوا للاستسقا. ثم نادى المنادى بأن أول يوم الى الجيوشي، والثاني في جامع عمرو، والثالث في سبيل علي باشا، وكان بجانبي رجل شريف فتوفي في حالة الدعاء. واستجاب الله دعايهم، وأوفى البحر حادى عشر توت القبطي (٣)، وعملوا له تاريخا:

(١) الاضافة من التحفة، ص ٢٤٧. حيث أنه لا يوجد بالأصل شهر القدوم.
(٢) مدة ولايته: ٦ شعبان ١١١٦ / ٧ شوال ١١١٨ - ٤ ديسمبر ١٧٠٤ / ١٢ يناير ١٧٠٦م، في التحفة، ص ٢٤٨، أنه عزل ٦ رجب ١١١٨ / ١٤ أكتوبر ١٧٠٦م. وهو الأصوب، حيث أن «على باشا» التالي له قدم ٢٢ شعبان ١١١٨ هـ / ٢٩ نوفمبر ١٧٠٦م.
(٣) ١٩ سبتمبر ١٧٠٥م.

العدل والاحسان وتجنب الظلم والعدوان واعادة ما عطب من سالف الزمان والمساواه فى الفضل على كل انسان حتى ان الذهب كثر فى ايدى الناس وورد منه الى مصر جملة كبيرة لكثرة عطاياه واحسانه الى رعيته كافة واوليائه. ثم ان السلطان الملك الكامل سافر الى الشام المحروس فى برومودة من هذه السنة الموافق لجمادى الاخرة سنة تسع وعشرين وستمايه على ما تقدم ذكره وتوجه الى الشرق وقصد الكافر فاندفع قدامه ولم يقف اصلا وخرج عن البلاد ونزل السلطان عز نصره على

البحر لما تأخر إلى توت حارت النواظر
جادا الآله وتفضل في يوم أحد وعاشر
فقلت فيه مورخ لله جبر الخواطر (سنة ١١١٧)

فرويت بعض البلاد، و هبط سريعا، فحصل الغلاء الشديد، وبلغ القمح ماية وأربعين الاردب، والشعير مابة وخمسين، والفول مابة وثمانين، والارز بأربعمائة فضة، واللحم بثلاثة فضة الرطل والدجاجة بعشرة، و الشمع الشحم بثمانية الرطل، وقس على هذا. وكثرت الشحاتين فى الاسواق والأزقة ولم يأتى تلك السنة بن من اليمن ولا قماش هندى من بلاد الهند، وغلاء البن، بأن أبيع بأثنين وخمسين ريال حجر القنطار، من بعد ما كان بأحد وعشرين ريال، والشاش الهندى لم يوجد ولبست الناس الخاصة، والاكابر صاروا يقطعون الخاصة، ويشتغلوا له طرفا بالقصب شغل الابرة. وكانت أيامه كلها نحس على مصر. وان فى حال مجيئه لو مات فى اسكندرية، لبنوا له قرارا، من كثرة ما تكلم الناس فيه. وأخبر عنه ناس من الذين راوه متوليا فى القلاع والامصار، أن قدمه هكذا فى كل بلدة تولى بها، حتى انه لما تولى قبرص حصل فيها القحط ونشف بعض أعين من أعين الجزيرة.

وفى سابع شوال [1]، توفى الشيخ محمد الاطفيحى، والشيخ مصطفى الحنفى، وسيدى أحمد بن الفقى. ثم ورد مسلم على باشا الازمرلى، بقيامة مقام لاسماعيل بيك الدفتردار. ثم

---

(١) ٢٢ يناير ١٧٠٦م.

أمـيـد(*) وحـاصرها. ووفى النيل المبارك فى الثانى من النسى (*) بعد توقفه اياماً كثيرة لان المفرد(*) كـان وصـوله فى السـادس عـشـر من مـسـرى [٩أغسطس]، وتاخر الوفا بعده الى هذا التاريخ. وكانت الفلوس قد كثرت جدا ورخصت حتى بلغ الدينار الى تسعين درهما فلوس والدرهم النقره الى سبعة دراهم وتأذى الناس من ذلك.

(*) أميد: آمد.

(*)الثانى من النسى =٢٥ أغسطس.

(*) المفرد: الرسول.

ثم دخلت سنة تسع واربعين وتسع مـايه وبلغ

أنهم أنزلوه الى منزل أحمد كتخدا، المطل على بركة الفيل، قريبا من شكر بره. فكانت مدة ولايته سنتين، غفر الله له. وأن من جملة ما حصل أن رجلا من أهل الجامع الأزهر، كتب عرضا وقدمه له، يشكو له حاله وفقره، وأنه يطلب احسانا ليتزوج به، فكتب له على العرض «وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله».

٨٠. ذكر تولية على باشا الأزمرلى عفى الله عنه

قدم الى مصر من طريق البحر، يوم الاثنين ثانى عشرين شعبان سنة ١١١٨ (١) وجـاء صحبته ألف نفر من أتباعه، وأتباع أتباعه وكان رجلا وجيها حاكما، فلما جلس للحكم، وحكم بين الناس، عزل وولى ومن جملة من عزله، حسن جاويش جلب، والبسه كرك سمور(٢)، وأن من العادة، اذا عزل باش جاويش، يلبسه قفطان، وانه ألبسه الاكراك، فصارت عادة أحدثها الوزير. ثم أن فى ثانى عشر رمضان (٣) وقعت فتنه بين العزب والمتفرقة. وسببها

(١) مدة ولايته: ٢٢ شعبان ١١١٨ / ٢٢ جماد آخر ١١١٩هـ - ٢٩ نوفمبر ١٧٠٦ / ٢٠ سبتمبر ١٧٠٧م.

(٢) بالأصل «حمود» كتب عنوان جانبى «أعرف أن الوزير أحدث للبيات [البيات جمع بيك] لبس السمور فى ولايتهم، ولم يكن قبل ذلك».

(٣) ١٨ ديسمبر ١٧٠٦م.

النيل الى ان وفى ثمانية عشر ذراعاً وامتدت زيادته الى السابع من بابه [١٤اكتوبر] وزاد فى هذا الشهر زيادة ما عهد مثلها وذلك انه زاد في ثانيه وثالثه وخامسه اصبعين فى كل يوم وهو ذراع الثمانية عشر وفى سادسه وسابعه وهو اخر زيادته كل يوم ثلثة اصابع ورخصت الاسعار وبيع القمح بعشرين درهما الاردب بالفلوس والشعير بعشرة دراهم الاردب ورخصت الاشيا كلها. الا ان الفلوس

أن رجلا من العزب يسمى محمد افندى، كان كاتب صغير فى باب العزب، ثم عزل، وتولى خليفة المقابلة [١] بالديوان العالى، فحصلت له تهمة، فعزل عنها من المقابلة، ثم عمل سرداراً بثغر أسكندرية، على طايفة العزب، وعمل كتخدا القبطان، وركب فى المراكب، فأشيع انه غرق فى البحر، فحلوا اسمه، وجميع تعلقاته التى فى باب العزب، ثم ظهر خلاف ذلك. وحضر الرجل الى الديوان، وصحح تعلقاته جميعا التى بباب العزب، وعجز عن بعض تعلقات خارجة عن تعلقاته التى بباب العزب، وظهر له من العزب عدم اهتمام له،و مساعدة فى استخلاصها. فلما رأى ذلك منهم توجه الى بلك المتفرقة، والتجأ لهم، وسألهم أن يخرجوه من العزب، ويأخذوه عندهم.و جعل يركب معهم فى كل ديوان، ويمر من باب العزب فبينما هو ذات يوم طالع الى الديوان، واذا بجماعة من العزب قبضوا عليه وحبسوه فى القلعة عندهم. وبلغ الخبر الى المتفرقة وهم فى الديوان. وكان محمد جاويش أمين بيت المال العزب، وكان اذ ذاك وكيلا عن با ش جاويش العزب. لتمرضه، فعاتبته جماعة المتفرقة على ما فعلوا جماعته، فأغلظ عليهم فى الجواب، فمسكوه من أطواقه، وارادوا ضربه، فدخل بينهم المصلحون، وخلصوه من بين أيديهم، فنزل الى باب العزب. فلما مر أبطال [٢]، وصارى على، واسماعيل بيك، وجاوزوا باب العزب، قامت عليهم طايفة العزب قومة واحدة، وأنزلوا

---

(١) خليفة المقابلة: الموظف المسئول عن «قيد دفاتر جمكية العساكر، وساليانات الامراء والمشايخ والايتام .. وهو الذى يعطى التمكينات إلى أصحاب المرتبات»، محمد شفيق غربال ، المصدر السابق، ص ٣١.
(٢) يذكره الجبرتى تحت اسم «محمد الابدال».

رخصت بالاكثر وبلغت الى ماية وعشرين درهما بدرينار والدرهم النقره بتسعة دراهم فلوساً وضاق الامـــــر علـى النـاس لان ديوان السـلطـان لا يستخرجون من الناس فى ساير معاملاتهم الا ذهباً او دراهم ســـواداً(*) ولـم يبـق بايدى النـاس الا الفلوس وكـانوا فى شـدة عظيـمـة من هذا المعنى [السبب]. ووردت الاخبار بان السلطان عز نصره فتح امد وجميع حصونها وهى اثنين وسبعين حصنا ولم يبق منها سوى حصن واحد يسمى حصن كيفا (*) ومات فى اوايل هذه السنة شمس

(*) الدرهم الاســود يسـاوى ثلاثة دراهم ناصريه

(*) حصن كيفا: بديار بكر.

أبطال، وصـارى على، من على الخيل، وضـربوهم الضـرب الشـديد، وأخـذوا جـمـيع مـا كان عليهم من القمـاش، وتمزق صوف اسـماعيل بيك، ولم يراعـوه، ففر هاربا بالجواد. فلمـا بلغ المتفرقة والصناجق، ما فعله العزب، اجتمعوا فى باب الينجشرية، وأقاموا ثلاثة أيام، الى ان وقع التوافق على نفى أربعة أنفار، الذين كانوا سبب ذلك: أحمد كتخدا العزب، ومحمد (أمـــين)[1] بيت المال، وشريف محمد باشا الأوضباشية ومحمد أفندى قاضى أو غلى. وأنزلوهم فى مركب، ونفوهم الى جرجة، مع جماعة محافظين عليهم. ومكث اسماعيل بيك، لم يطلع من باب العزب مدة، فصالحوه بشئ من حطام الدنيا، وأخذوا خاطره، وعاد يطلع، كما كان حكم العادة. وفى ثانى عشر الحجة ختام سنة ١١١٨ [٢]. عزل على اغا، وتولى رضوان، وركب فى القاهرة بالشعار المذكور، الذى كان يركب فيه على آغا، وحكم حكمـا زايدا، حتى أنه أمر أن تدمغ الارطال فى دار الضرب بالدمغة السلطانية، وجعل دمغة كل رطل أو نصف رطل، نصفين فضة، فجمع من هذا الأمر مالا له صورة. وفى سنة ١١١٩[٣]. توفى اسماعيل بيك الدفتردار، وتولى الدفتردارية أيوب بيك.

وفى ثامن عشر صفر[٤] ورد أمر شريف بحبس محمد باشا رامى، وبيع جميع ما تملكه يده، فحبس فى كشك يوسف، ووقع البيع فى جميع امتعته وخيله. فى ثالث عشر صفر[٥] دخل

(١) الاضافة لتوضيح المعنى.
(٢) ١٧ مارس ١٧٠٧م.
(٣) ١٧٠٧م.
(٤) ٢١ مايو ١٧٠٧.
(٥) ١٠ سبتمبر ١٧٠٧م.

الملوك بن اخت السلطان والامير فخر الدين عثمان استاذ الدار وجماعة من الامراء الكبار. وكان الغلا عندهم الى حد لا يوصف الخبز بثلاثة دراهم نقرة الرطل، والعلاق الشعير بدرهمين نقره، والتبن باربعين درهما نقره الحمل(*) ولا يقدر عليه[أحد]. ووصل اكثر العسكر رجاله [على اقدامهم] عرايا الى القاهرة المحروسة. ثم ورد الامر السلطاني بتاريخ يوم الاحد اخر كيهك(*) الموافق للثاني عشر من شهر ربيع الاول سنة ثلثين وستمايه(*) [هلاليه]

(*) [الحمل]: ربطة.

(*) يقع كيهك ما بين ٢٧ نوفمبر و٢٦ ديسمبر.

(*) ٦٣٠هـ ١٢٣٣م.

الحاج الشريف. في ثاني عشر جماد آخر (١) جاء خط شريف بتولية ابراهيم بيك أبو شنب الدفتردارية، وعزلان أيوب بيك، وفيها عزل رضوان أغا، من أغوية الانكشارية، وتولى الاغوية أحمد أغا بن باكير أفندى ، ولكن اين الأخاء والنسب، شتان بين رضوان وغيره، وبين على أغا ولكن الفضل للمتقدم. ثم ورد خط بتبطيل نوبة محمد باشا الرامي، ونفيه الى جزيرة رودس، فنزل من يومه الى بولاق، وسافر من بولاق في خامس عشر جماد آخرسنة ١١١٩(٢).

وفي ثاني عشرين جماد آخر (٣) ورد على أغا بخط شريف بعزلان على باشا، وحبسه في قصر يوسف، واستخلاص ما هو عليه من الديون التي لتجار القسطنطينية، ويكون ابراهيم بيك أبو شنب قايم مقام، الى حين أن يحضر لهم باشا. ثم أنهم شالوه من وقته، وهو في مرتبة حكمه، الى كشك(*) يوسف،وجلس ابراهيم بيك وقته في محله، وكان ذلك في كشك اسماعيل باشا، وكمل ديوان ذلك ابراهيم بيك، فسبحان المعزل المذل.

وفي ثالث رجب(٤)وقعت فتنة في باب الانكشارية، وعزلوا افرنج أحمد،من باش الاوضباشية، وجلبي حسين(٥)، من الميتينه، ونفوهم الى الطينه [بدمياط] في خامس رجب سنة ١١١٩(٦). وفي غرة شعبان سافر يحيي الشريف الى مكة المشرفة من البر، وكنا صحبته

---

(١) ١٦ مايو ١٧٠٧م.

(٢) ١٣سبتمبر ١٧٠٧م.

(٣) ٢٠ سبتمبر ١٧٠٧م.

(*) بالأصل «كشف» وصحتها «كشك».

(٤) ٣٠ سبتمبر ١٧٠٧م.

(٥) يذكر الجبرتي ذلك جـ١ ص١٤٩، من مرجع سابق.

(٦) ٢ سبتمبر ١٧٠٧م.

بتبطيل ضرب الفلوس والمعاملة بها. فنودى عليها في يوم الاثنين ثاني النهار المذكور وبيعت من نهارها بالرطل في سوق النحاسين بدرهمين ونصف الرطل ودرهمين وربع وصار المال الى ربعه وتلف على الناس جملة كبيرة ثم بيعت بعد ذلك بدرهم واحد وربع الرطل وتلف على الناس شي كثير وجملة كبيرة الا انهم تباشروا ببطلانها للنظر في العاقبة فيما تقدم. ثم وردت الاخبار بفتح

- -

بحرا، ويوم دخلنا جدة، كان دخوله مكة، وعمل فيها مثل ماعمل على أغا في مصر، من قطع مساطب(*) المسعى، والخرجات الزايدة على قانونه، وركب الشريف عبدالكريم وخلفه القاضي وايواظا بيك، وأخوهم يحيى، وأنهم هدموا جميع الشقايق والمساطب التى بالمسعى والسوق الشامي، ومن جملة ما هدموا الكشك الذى على واجهة بيت البرطلى، قبالة باب القبطى. وهذا كله بواسطة الشريف يحيى. ثم جاءت الاخبار الى مصر بتولية حسن باشا، الذى كان متوليا مصر سنة ١٠٩٩، وكانت مدته سنة واحدة.

٨١. ذكر تولية حسن باشا السلحدار
محافظ مصر سابقا
عفى الله عنه

قدم الى مصر من طريق البحر يوم الاثنين خامس عشرين شعبان سنة ١١١٩ (٢) وصحبته افرنج أحمد، وبشلى حسين، سنجقين، ودخلوا مصرليلا. ثم أن أفرنج احمد توجه الى جاره مصطفى اغا، أغة الجراكسة تابع بلفية، وبشلى حسين التجى الى التفكجية. ثم أن الينجشرية دريت بمجئ أفرنج والبشلى، فطلعوا الى بابهم واجتمعوا جميعا، وطلبوا من الباشا نفى الاثنين، الى الطينة. فلبثت طايفة الجراكسة والتفكجية والجملية، وقالوا: لا سبيل فى تسليمهم بوجه

(*) بالآصل «مسابط».

(٢) مدة ولايته ك ٢٥ شعبان ١١١٩ / ٩ رمضان ١١٢١ هـ ـ ٢١ نوفمبر ١٧٠٧ / ١٢ نوفمبر ١٧٠٩م.

حـصن كـيفـا وتسليم السلطان له ثم انه استناب عنه في بلاد الشرق [الشام] وامد واعمالها وحران وما والاها وسروج وما معها ابنه الملك الصالح ايوب الذى كـان ولى عـهـده بمصر ووصل الى القـاهرة المحروسة في جمادى الاخرة سنة ثلثين وستمايه ووصل بعده في خدمته الملك المسعود الذى كان صاحب امد ومعه خواصه واهله وماله وحرمه واحسن اليه سلطاننا احسانا لم يسبق اليه

من الوجوه. وطلبوا عرض الاثنين، فأبت الينجشرية. ثم أن الثلاث أوجاق جمعت على عدم تسليمهم. وساعدتهم بقية البلوكات.ثم أن جميع العسكر مكثت ثلاثة أيام في أبوابهم، فلما رأت العلماء، والاشراف، وأرباب السجاجيد، هذا الأمر، خافوا من تعاطيه وتحكيم الفتنة. فتوجهوا الى الصناجق، وأعيان البلد، وتكلموا فى هذا الأمر، فاجتمع رايهم أن يجعلوه [أفرنج أحمد] صاحب طبلخانة[1]: ولما تم الأمر والتوافق في بيت أيوب بيك، أعرضوا الامر على الوزير صحبة كتخدا الجاويشية، سليمان أغا، فأمر الوزير له بقفطان الصنجقية وفرمانها صحبة كتخداه، وتوجه كتخدا الوزير الى منزل مصطفى اغا بلفية والصناجق والاغوات معا، الى أن دخلوا عليهم، فلما رءاهم افرنج أحمد وراوه أخبروه بالواقع فأجاب، فقروا عليه فرمان الصنجقية والبسوه القفطان، وتوجه الى منزله، وجميع الصناجق والأغوات قدامه. الى أن دخل منزله، الذى هو قصاد منزل بلفية، وبقى اسمه افرنج أحمد بيك.

وفى خامس عشرين شعبان سنة ١١١٩[2] نزل له الطوخات والعلم على حكم ما جرت به العوايد الصنجقية. وفى غرة شوال[3] ورد كيخية حسن باشا وصحبته أمران: أحدهما أن يقطعوا ذهبا زنجرليا، وأن يقطعوا الزلاطة[4] والفضة و الأخشا، كل ثلاثة بنصف، وجابوا السكة معهم، فامتنع المصريون من ذلك، ووافقوا على قطع الجنزرلى فقط. وفى غاية

(١) أى تتقدم موكبه جوقة موسيقية. (٢) ٢١ نوفمبر ١٧٠٧م.
(٣) ٢٦ ديسمبر ١٧٠٧م.
(٤) بالاصل «الطلطاء والزلاطة عملة تركية قيمتها ثلاثين بارة.

واعطاه من الاموال والكساوى والاوانى مالم يعط احد واقطعه بلاداً تغل اربعين الف دينار فى السنه لخاصه خارجاً عن الغله، واضاف اليه خبز مائتى فارس وانزله في قطر [قصر] من دار الوزارة وهو المعروف بباب السر، وشكره كل ملك فى الارض على ذلك وعرف حسن عهده وصحة وفايه.

وتحرك جماعة اصحابنا واجتمعوا مع رهبان دير بو مقار لانه كان الصيام واتفقوا على اختيار الشيخ

شـــوال[1]. ورد آغا من الديار الرومية، وصحبته خط شريف ببيع جميع امتاع على باشا، المسجون في كشك يوسف، فباعوها في الديوان. وفى ذى الحجة ورد آغا من الديار الرومية بطلب خزندار ابراهيم بيك أبو الشنب، والسبب في ذلك أن حضرة مولانا السلطان أحمد بن محمد خان انهى له أن بمصر مملوكا يسمى خليل، من جملة مماليك أبو شنب، أتاه رجل بقوس، فأخذه وصار يجربه الى أن لان، وصار في يده كالماء الجارى، وأن هذا القوس مع الرجل الدلال أكثر من أربعة شهور، ولم يقدر أحد يجربه، الى أن دخل الى بيت أبو شنب، وأخذ خليل القوس وجربه كما تقدم. وكان عنده رجل من اتباع الدولة العلية، فأخذ القوس وأراد أن يجربه فلم يقدر على ضربه، ولا قدر قمحة. فتعجب من قوة خليل، ثم أن خليل أبى أن يأخذ القوس ، ثم أن الرجل اشتراه. ولما توجه الى الروم، استصحبه ليمتحن به صاحب ذلك الفتى. فأخذه أهل دار السلطنة، فلم يقدر أحد على جذبه ، فاتصل خبره الى السلطان، فلما مسكه تعجب منه و من صعوبته. فقال له الرجل، ان بمصر مملوكا لابراهيم بيك أبو شنب جذب هذا القوس، وصار يرمي به، وغير ذلك ان عنده مكحلة ثلاثين درهما، يرمى بها الهدف وهو رامح على ظهر الجواد. فأرسل السلطان طلبه، فهذا كان السبب، فكساه كسوة تليق بخدمة السلطنة، وجهزه في غاية ذى الحجة ختام سنة ١١١٩[2]. وان خليل هذا مكث عند السلطنة الى ان جاء بعد موت سيده أبو شنب، وكتبوه في سفرة، ومات بالعجم سنة ١١٣٨[3].

(١) ٢٣ يناير ١٧٠٨م. (٢) ٢ مارس ١٧٠٨. (٣) ١٧٢٥م.

يوحنا بن الموتمن بن ابو البدر شماس من كنيسة المعلقة ذو دين ونسك واعمال جميله وكتبوا له محاضر وكتبوا كلهم خطوطهم فيها وقدموها لمولانا السلطان عز نصره ورسم على لسان الامير الصلاح بأنه اذا اتفقوا عليه تقدم لهم، ثم تجادلوا فيما بينهم ولم يعملوا شياً وانحلت القضية وخرج الرهبان الى ديرهم(*) وبقى الحال بحاله الا ان هذه الايام كانت اياما مباركة، الكنايس تعمر

(*) دير ابو مقار

وفى خامس عشرين صفر سنة ١١٣٠[١] ورد الى بنط بولاق قبطان مراكب السلطنة الشريفة جانم خوجه، وطلع الى الديوان راكبا، وخلفه بقية الريسا والاتباع الذين جاءوا صحبته[٢] من سكندرية غلمانا ورجالة كل الجميع مشاة. فلما اجتمع مع حسن باشا، أبرز أمرا شريفا بتجهيز على باشا الى الديار الرومية. ففى ثامن عشرينه[٣] جهز على باشا الى بولاق، وطلع بالاى، ولم يتفق لغيره، وجانم خوجا، والصناجق، والاغوات، وجماعة الباشا ونزل فى تكية بولاق. وفى مستهل ربيع أول[٤]. سافر الى الروم.

وفى مستهل جماد (أول)[٥]. وردت الجماعة الذين كانوا توجهوا الى مراجعة أبطال العثامنة والزلاطة، وان السلطان قد عفاهم من ذلك. وفى عاشر رجب سنة ١١٣٠[٦]، توفى أحمد كتخدا القيمجى، ويوسف بيك المسلمانى بدمياط.

وفى عشرين رجب سنة ١١٢٠[٧]، اجتمع العسكر بالديوان، واخبروا الوزير بأن محمد بيك حاكم جرجة انزل عرب المغاربة بالوادى، وأن هذا أمر يؤدى الى الفساد. فعزلوه والبسوا

(١) ١٦ مايو ١٧٠٨ كتب عنوان جانبى «اعرف قدوم جانم خوجه قبطان السلطنة الشريفة الى مصره».
(٢) كرر اللفظ بالاصل.
(٣) ١٩ مايو ١٧٠٨م.
(٤) ٢١ مايو ١٧٠٨م.
(٥) الاضافة لتوضيح المعنى، ١٩ يولية ١٧٠٨م.
(٦) ٢٥ سبتمبر ١٧٠٨م.
(٧) ٥ أكتوبر ١٧٠٨م.

بالنهار باذن مولانا السلطان وفتاوى الفقها والنصارى مكرمون معزوزون ركاب [يركبون] الخيل والبغال ولا يطالبهم احد بغيار والسلطان مراع للرهبان منهم محسن اليهم، ووارثهم بعضهم للبعض لا يدخل بينهم يد حشريه، وكذلك النصارى واليهود تقبل اقوال مقدميهم في انسابهم ومن ذكروا انه اهل لم يتعرض اليه. ثم جاء النيل المبارك وبدر شيا لم يعرف مثله وذلك

ولاية جرجة[1] الى محمد قايم مقام، تابع قيطار بيك كان بالديوان فألبسوه السنجقية، وولاية جرجة في آن واحد. ونزل الى الصعيد وهو الذى اسمه الآن قطامش. وفي شعبان[2]. ورد ركاب لحسن باشا والى جده الى مصر وصحبته خط شريف بعزلان أيواظ بيك من ولاية جدة، وتولية محسن باشا، فأدخله حسن باشا بموكب عظيم، وأنزله في الغيط الذى بقرا ميدان، وسافر صحبة الحاج الشريف. ومن حوادث سنة ١١٢٠. أن مملوكا من مماليك رجل من اختيارية الجاوشية يقال له محمد جاويش الحلبي، جاء الى رجل قصاب يشترى منه لحما؛ وكان على دكان القصاب رجل حمار أو ضباشة البوابه، وكان يشترى لحماً، وكان أو ضباشة البوابة اذ ذاك، عثمان أو ضباشا تابع شاهين جربجي الجلالى، الذى بباب الوزير، فتشاجر المملوك مع الحمار، فاراح الخبر الى سيده بالبوابة، فأرسل له أربعة توبجية فقبضوا عليه، وجاءوا به الى البوابة، فأمر الاوضباشة بحبس المملوك، فحبس في سجن الوالى. فلما بلغ محمد اغا الحلبي سجن مملوكه، حضر هو واتباعه وولده على جلبي، لخلاص مملوكه من حبس أوضباشا. فأبا أوضباشا أن يسيبه. فتفاوض الاوضباشا في الكلام مع على جلبي، وحصل السب والغم الأكبر من على جلبي. فأمر الاضباشا بالقبض على[3] على جلبي ابن محمد أغا، وأودعه السجن عند مملوكه، وتوجه محمد أغا الى كتخدا الجاويشة، وتوجه عثمان أوضباشا الى باش الاضباشية وهو إذ ذاك سليمان أوضباشا. وطلع الى[4] كتخدا الوقت،

(١) بالاصل «جرجره». (٢) أكتوبر ١٧٠٨. (٣) بالاصل «على قبض».
(٤) الاضافة لتوضيح المعنى، الجبرتي، المصدر السابق، جـ١، ص١٥١.

انه التقى البحران(*) تحت جزيرة مصر فى الرابع والعشرين من ابيب(*) ووصل الماء الى سد الخليج فى التاسع والعشرين منه ووصل المفرد فى السادس من مـــســـرى(*) وتوقـــفـت الزيادة ووفى، وخلق المقياس في يوم الجمعة التاسع عشر من مسرى(*) الموافق للثالث من ذى القعده سنة ثلثين وستمايه وكسر الخليج في ثانى اليوم المذكور وكان نيلا ما روى اعجب منه. ومن عجايبه انه زاد فى السادس

(*) البحران: هما النيل والخليج.

(*) ٢٤ ابيب = ١٨ يوليو.

(*) ٦ مسرى = ٣٠ يوليو.

(*) ١٩ مسرى = ١٢ أغسطس= ذو القعدة ٦٣٠هـ.

برمقسيس أحمد كتخدا. وعرض عليه القضية، ورجع الى البوابة، واخرج على جلبى ومملوكة من حبس الشرطة. وفى ثامن يوم اجتمعت الجاويشية، والمتفرقة، والجملية، والجراكسة، والتفجكية، والصناجق، والأغوات، بالديوان وطلبوا نفى عثمان أوضباشا، فامتنعت الينجشرية. ثم انهم طلعوا ثاني ديوان، وطلبوا عثمان أوضباشا للدعوة عليه، فحضر، وأقيمت الدعوة عليه، بحضور حسن باشا، والقاضى، فأمر القاضى بحبسه، كما حبس على جلبى، فلم ترض الأخصام بذلك. وقالوا: لابد من نفيه، فلم توافقهم الينجشرية. فطلبت العسكر من الباشا ان يكتب لهم فرمانا[1]. بنفيه فامتنع الباشا، ونزلت العسكر مغضبة، واجتمعوا بمنزل كتخدا الجاوشية، صالح آغا، أخو أحمد كتخدا أمين البحرين، وأنزلوا مطبخهم من النوبة، الى منزل كتخدا الجاوشية، ومكثوا ثلاثة أيام بلياليها، وامتنعوا من طلوع الديوان. وفى يوم الاربع اجتمعت البلوكات، وتحالفوا على انهم على قلب رجل واحد. واتفقوا على نفى اوضباشا، كرما أو كظما، وأرسلوا اعلموا الصناجق أنهم يكونوا معهم على الينجشرية، وأرسلت الاسباهية الى جميع الأقاليم، أحضروا عسكرهم. فحضرت أنفارهم جميعا. وعزلت الينجشريه عثمان اوضباشا، وانزلوا الى البوابة غيره. وفى يوم الجمعة ثامن عشر الحجة ختام سنة ١١٢٠[2]. أخبرت الينجشرية بان الست بلكات يريدون قتالهم، فارسلت الينجشرية

(١) بالاصل «فرمان».

(٢) ٢٨ فبراير ١٧٠٩م.

والعشرين(*) من مسرى فى ذراع السبعة عشر عشرة اصابع فصار تسعة عشر من سبعة عشر وفى ثانيه سبع اصابع فكمل سبعة عشر ذراعاً ودخلت سنة خمسين وتسعماية للشهداء الابرار ثم زاد فى ذراع الثمانية عشر فى الثانى عشر من توت(*) اربعة اصابع فصار تسعة من ثمانية عشر ذراعاً وزاد فى سادس عشر(*) توت اربعة اصابع صار على سبعة عشر من ثمانية عشر ذراعاً وزاد فى سابع

(*) ٢٦ مسرى = ١٩ اغسطس ٩٥٠ش = ١٢٣٤م.

(*) ١٢ توت = ٩ سبتمبر.

(*) ١٦ توت = ١٣ سبتمبر.

الجبجية الى أنفارهم. فحضروا جميعا الى بابهم بالسلاح. فانزعجت أهل الأسواق، وقفلت دكاكينهم، واستمرت أهل الأسواق فى قيل وقال وجمعيات، وتجتمع الست وجاقات، وتشاوروا فى أبوابهم، وفى بيت محمد أغا الشاطر، وفى منزل أبو شنب دفتر دار مصر حالا، وأما الينجشرية فانهم كانوا مجتمعين(١) بالباشا فقط. وفى رابع عشرين الحجة(٢). ورد ركاب محمد بيك حاكم جرجة فى جند كثير، وعسكر كبير، وطلع الى الديوان على حكم العادة التى تطلع بها حكام الصعيد، حين عزلهم من الولاية، ونزل بمسكنه الذى بالمظفر، قبال الميلاوية(٣). ثم ان الوجاقات الست اجتمع أمرهم على تبطيل الحمايات والمظالم المستجدة بالقاهرة ونواحيها وكتبوا فى شأن ذلك محضرا كبيرا. واتفقوا أيضا أن كل من كان له وظيفة بدار الضرب، أو بالعنبر، أو التعريف (بالبحرين)(٤)، أو المذبح السلطاني، لم ينسب الى العسكرية مطلقا، ولم ينسب لبلك من البلوكات، وأن لا يحتمى أحد من أهل الأسواق لوجاق

(١) بالاصل «مجتمعون». (٢) ٧ مارس ١٧٠٩م.

(٣) تكية الميلاوية: بشارع السيوفية، وهى من وقف يوسف سنان، كانت أول امرها الرباط الذى أنشأه الامير شمس الدين سنقر السعدى ١٣١٥/٧١٥م بمدرسته المعروفة بالسعدية، فيها ضريح يقال أنه قبر احد مشايخ التكية. على مبارك، الخطط، جـ٢، ص٤٥.

(٤) بالاصل «التعريق»، واضافة كلمة البحرين، لتوضيح المعنى، والتصويب والاضافة من الجبرتى، المصدر السابق، جـ١، ص١٥٣ والمقصود ارشاد السفن فى البحر على يد البحارة، أو ربان السفن، والمقصود بالبحرين، النيل والخليج.

(*) عيد الصليب ١٧ توت = ١٤ سبتمبر.

عشر توت وهو يوم عيد الصليب(*) سبعة اصابع فكمل ثمانية عشر ذراعاً وزاد فى ثامن عشره ستة اصابع فى ذراع التسعة عشر وكانت نهاية زيادته عشراصابع من تسعة عشر ذراعاً وثبت على الارض فى اخر بابه(*) حتى ظن انه ما ينزل ثم نزل فى واحدة وزرع الناس وتباشروا بعد ان غرق بلاداً كثيرة واخرب عمارة عظيمة. وكان نيلا عظيما ورخصت الاسعار وبيع القمح العالى بتسعة

(*) يقع شهر بابه ما بين ٢٨ سبتمبر و٢٧ اكتوبر.

من الوجاقات، وأنه ينظر المحتسب فى أمورهم، وأحوالهم وتفويض أمر أهل الأسواق له من أمر موزون، ومدروع [القياس بالدراع] ومكيول، له، لاحد غيره، وتحرير موازنهم، وان يكون نايب القاضى صحبته. وأن لا يتعرض أحدا الى المراكب التى تحمل غلال الحرمين، والعنبر الشريف، وأن المراكب فى البحر الحلو [النيل]، مما جميعها تحمل الغلال السلطانى، ولا أحد يحمى مركبا منهم الى باب من الأبواب، وان كل شىء دخل من الأرياف بسبب الأكل، لا يؤخذ عليه قمرك(١)، ولا يباع شىء من جنس الحبوب، والقهوة، الى جماعة الافرنج، وان لا يباع البن أكثر من سبعة عشر الرطل.

وأرسلوا المحضر الى الوزير، يأخذوا على موجبه فرمان. وينادى به فى شوارع القاهرة. فتوقف الباشا فى اعطاء فرمان. ولما بلغ الينجشرية ما فعلوه الستة وجاقات، اجتمعوا ببابهم، وكتبوا قايمة، نظير القايمة، التى معهم بمظالم الخردة(٢) ومظالم الاقاليم التى للاسباهية فى الارياف وغيرها. وأرسلوا القايمة الى الباشا. فاعرض عليهم القايمة من المظالم.

وفى يوم الاحد ٢٧ الحجة(٣) اجتمعت الاوجاقات الستة، بباب العزب، والصناجق

(١) «جمرك»، وكانت تكتب «كمرك».
(٢) رسوم كانت تفرض على الملاهى والنساء «العوالم» والحواة، ومن على شاكلتهم. محمد شفيق غربال، المصدر السابق ص٢١، ٥٦.
(٣) ٩ مارس ١٧٠٩م.

دراهم الاردب والشعير بخمسة ودونها بدون ذلك، وساير الحبوب من النسبة ولم يكن ثم شي غالياً الا اللحم والدجاج وكان ذلك لانقطاع الطرق لان النيل غشى الارض كلها. وفي هذه السنة تجهز السلطان الملك الكامل عز نصره للخروج الى الشرق وانفق في العساكر اموالا عظيمة حتى كانت الدراهم تشق القاهرة على اقفاص الحمالين الى ادر [دور] الامراء لكل امير على قدر عدته لانه اذا كان الامير معه ماية فارس اعطى المايه الفى

والاغوات، وقاضي العسكر، وحسن افندى، نقيب الاشراف، والعلما، والبكرية، والسادات، وطلعوا الى الديوان، وأرسلوا يعرفوا الباشا أن يكتب لهم فرمانا باجراء ما في القايمة، والمنادات في الديوان، وفي شوارع القاهرة، وأن يفعل ذلك وألا أنزلوه، ويعرضوا ذلك الى الاعتاب العلية. فلما تحقق الباشا ذلك منهم أعطاهم فرمانا[1] بجميع ما طلبوا، واعطاهم القاضي حجة على موجب الفرمان، ونادوا به في شوارع القاهرة، صحبة المحتسب، والوالى والاوضباشا وأغا من طرف الباشا، ونايب القاضي، في يوم الأحد ٢٧ الحجة سنة ١١٢٠[2].

وفي ٢٨ الحجة أيضا سنة ١١٢٠ [3]. توفي شيخ الاسلام والمسلمين، الشيخ النشرتي المالكى، شيخ الجامع الازهر، بعد الشيخ محمد الخرشي، وهرعت اليه الصناجق، والاغوات، والعالم جميعا، وكان يوما مشهودا. وفي غاية الحجة[4]. كسفت الشمس سبعة عشرة درجة. من الساعة الثانية، ثم انجلت. ولم تزل أهل البلوكات في تشاور. وجمعيات. الى أن دخلت سنة ١١٢١ فاجتمعت الينجشرية عند أغاتهم. يوم السبت رابع محرم سنة ١١٢١ وحلفوا على المصحف[5] الشريف، انهم على قلب رجل واحد.

واجتمعت جميع انفارهم. في غيط حسين كتخدا، الذى يرمى عنده الاخشاب، التي تحمل

(١) بالاصل «فرمان». (٢) ٩ مارس ١٧٠٩م.
(٣) ١٠ مارس ١٧٠٩م. كتب عنوان جانبي «اعرف وفاة شيخ الأزهر الشيخ محمد النشرتي المالكي».
(٤) ١٢ مارس ١٧٠٩م. (٥) بالاصل «المكرم».

(*) أهم أحداث سنة ٩٥٠ ق. = ١٢٣٤م. = ٦٣١هـ.
* ١يناير سنة ١٢٣٤ = ٦ طوبه سنة ٩٥٠ = الأحد ٢٨ ربيع أول سنة ٦٣١.
* فيها تعرض كيقباذ، صاحب الروم، إلى بلاد خلاط، فقصده الملك الكامل بعساكره من مصر ونزل على حدود بلاد الروم ومعه إخوته الأربعة وملوك أخرى، ولما لم يتمكن الكامل من دخول بلاد الروم أرسل المظفر مع مقدمته إلى خرت برت فحاصرهم كيقباذ،

دينار لكل فارس عشرين دينار والامير الف دينار ولجميعهم من هذه النسبة وفيهم من خصصه بزيادة عن ذلك مثل حلقته الخاص وغيرهم فاما انقص فلا. ولم يبق من لا اخذ هذه النفقه الا المجردون بالحجاز وولاة الاعمال والمتاخرون من السفر لا غير. وخرج [السلطان الكامل] من القاهرة في الحادى عشر من بشنس [١٦ مايو] من هذه السنة وقد كان تقدمه اخوه الملك الاشرف

للسويس. وكان زمن المشمش، وكان صاحب العزومة كور عبدالله اوضباشا، وكنا بصحبتهم، وكانت عسكر وفقرى شيء لا يعد. ولا يحصى. وذبح في ذلك اليوم ما يتى خروف، والبن قنطار، وكانوا الجاويشيه من قبل بيومين تحالفوا أنهم على قلب رجل واحد، ومدوا تلك الأسمطة الفاخرة، لحوم وحلويات، ولم يكن فيه من جنس الخضار، و لا الفتة المحشية، ولا من الشوارب شيء، الابقلاوات، وبوركات، وقمعات، وكباب، كل قطعة ثلاثة أرطال مستوية. ثم أن الصناجق مشت بين الوجاقات السبعة[1] في بيت ابراهيم بيك أبو شنب، وان يكونوا[2] على ما كانوا عليه من المصافات والمحبة، وأن يقروا على جميع ما في القايمة وما نادوا به، ولا يعارضوا في شيء منها. ولم يستمر ذلك الصلح الا سبعة أيام.

وفي يوم حادى عشر المحرم وقعت فتنة بالجامع الأزهر وسبب ذلك أن الشيخ محمد النشرتي لما توفى، انجلت[3] عنه وظيفة التدريس، والمشيخة بالابتغاوية[4] فافترقت

(١) بالاصل «اوجاقات» حذفت ليقيم المعنى.
(٢) بالاصل «يكون» والتصويب في الجبرتي، جـ١، ص١٥٤.
(٣) بالاصل «انحل».
(٤) المدرسة الابتغاوية: هي المدرسة الأقبغاوية وهي تجاه المدرسة الطيبرسية، بشارع الجامع الازهر، أنشأها الأمير آقبغا عبدالواحد المالكي الناصري، بقيت عامرة حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، علي مبارك، الخطط، جـ٢، ص٩١. كتب عنوان جانبي «اعرف فتنة الواقعة بالجامع الازهر».

مــوسى، بأيام. ثم رسم بان يكون نائبـا عنه ولده الاصغر الملك العادل فولاه ذلك وركب بالسيوف والسنجق بعد سـفره فى يوم الاثنين العشـرين من بشنس [٢٥مايو] المقدم ذكره. وقد كانوا الجماعة يحـدثوا فى امـر البطرك على لسـان اميـر يقـال له الصـلاح الاربلى وطلب منهم خـمـسـة الف دينار ووعدهم ان يحظهـم منها شيـا فلـم ينهض قواهم بذلك ولا تحرر امـر بل قـالوا انه وصى ولده الملك العـــادل بانهم اذا اوردوا المبـلغ تقـــدم لهم من

ولم يتيسـر للكامل إعانة المظفر لمخامرة من كان معه من الملوك، فانجبـر المظفـر على تسليم نفسه وخرت برت فاستلمها كيقباذ وأطلق المظفـر بعد يومين، وسار من عـنـده إلى الكـامل فى ٢٥ القعدة.

* [١ توت ٩٥١ = ٢٩ اغـــسطس ١٢٣٤ = الثلاث ٢ ذو الحجة سنة ٦٣١].

المجـــاورون[1] فرقتين: فرقة تطلب الشيخ أحمد النفراوى، وفرقة تطلب الشيخ عبدالباقى القلينى، وكان الشيخ أحمد النفراوى بموت النشرتى، أخذ حجة من القاضى، وعليها بيوردى شريف من الوزير، بالتدريس والمشيخة. والشيخ عبدالباقى لم يكن حاضرا بالقاهرة. فأرسلت له جماعة النشرتى يستعجلونه فى المجىء. فقبل حضوره، جلس الشيخ أحمد النفراوى للتدريس فمنعه القاطنون بها، ولما حضر الشيخ عبدالباقى، لفت عليه جماعة النشرتى، وتعصبوا له، فلما كان تلك الليلة، التى هى ليلة حادى عشر محرم، جاءت جماعة الشيخ أحمد النفراوى، وكبست الجامع تلك الليلة، وأشهرت فيه السلاح، وضربت فيه البندق، وأخرجت جماعة القلينى، وكسروا باب الابتغاوية واجلسوا النفراوى موضع الشيخ محمد النشرتى. ثم ان فى يومها بعد العصر، اجتمعت جماعة القلينى، كبسوا الجامع، وقفلوا أبواب الجامع الازهر، وتحاربوا مع جماعة النفراوى، فظفروا بجماعة النفراوى، وقتلوا منهم عشرة أنفس، وتجرحت ناس كثير، ونهبت الخزاين التى كانت بالجامع، وكسرت جميع القناديل، وحضر الوالى لاخراج القتلى من الجامع، وتفرقت المجاورون، وخلا الجامع، ولم يبق فيه أحد. ولم يقع له خلا من الخلق مثل ذلك اليوم وتلك الليلة، ولم يصلى فيه ذلك اليوم.

وفى ثانى يوم طلع الشيخ أحمد النفراوى الى الديوان، ومعه حجة الكشف على المقتولين، فلم ينظر الباشا فيها، لعلمه أن السبب طرف النفراوى. فأمره الوزير أن يلزم بيته، وأن يسافر

(١) بالاصل «المجاورين».

يختارونه وبقى الناس بعضهم يرى ذلك وبعضهم يقول ما هو مصلحة لانه حادث على الكنيسة ولا يرجع يتغير ابدا. الا ان الثمار في هذه السنة كانت قليلة جدا لاجل الغرق وثبات الماء على الارض المدة الطويلة ثم ان الماء زاد في بوونه(*) زيادة ظاهرة مقدار ذراعين وكان فى القاع [قاع المقياس بالروضة] مقدار ستة اذرع وجا اوان اخذ استقرار القاع بالمقياس المبارك وهو الخامس والعشرين من بوونه [٢٩ يونيو] وهو في اول التسعة اذرع ثم

(*) يقع بونه ما بين ٥ يونيو و ٤ يوليو.

الشيخ محمد شنن الى بلده الجدية[١] ونفا بعض جند، لكونه بعد النشرتى انضم وأياه، وصار يحضره، ووقعوا القبض على من كان طلع الى الديوان صحبته، وحبسهم الباشا فى العرقانة، وكانوا اثنى عشر رجلا، وأنزلوا الشيخ محمد شنن في مركب وسافروا به من يومه، والنفراوى لزم بيته من يومه، بحيث انه لم يخرج الى صلاة الجمعة، ولا يجتمع عليه أحد، ولا أحد يجتمع عليه.

ومن جملة ما تتطاول على الشيخ أحمد النفراوى وعلى شنن في الديوان، قدام الباشا، حسن أفندى، نقيب الاشراف، فان من جملة ما قال له يجوز ياشيخ الاسلام، أنك تطلع جماعة المفاسيد الذين هم تلامذتك على ماذنة الجامع، ويعصوا على المنابر، محل الاذان، يقول بالحرام، ويضرب بالرصاص في الجامع. فقال له النفراوى: حسبك الله بما تقول. ولنرجع الى ما كنا بسببه من صلح السبعة الوجاقات، فان صلحهم لم يمكث الا خمسة أيام. وبعد ذلك ان الينجشرية نقضوا الصلح. وسبب ذلك ان القايمة فيها ان كل من (له)[٢]. وظيفة في دار الضرب أو غيرها، ليس له في العسكرية اسم، ثم ان الباشا طلعت له الست بلكات، وطلبت نقل باب الضرب الى السراية، فاعطاهم الباشا الفرمان، بانهم يجتمعوا، ويتشاوروا فى

(١) بالاصل «بلاده الجديه» والجدية، أحدى قرى مركز رشيد، محافظة البحيرة، وهى من القرى القديمة، بالقرب من رشيد، محمد رمزى، المصدر السابق القسم الثاني، جـ١، ص٢٩٩.
(٢) الاضافة لتوضيح المعنى.

نقص مقدار نصف ذراع ووقف وتحرك سعر الغلة اربعة دراهم الاردب. وحدث فى عشية نهار السبت الرابع وعشرين من ابيب الموافق للتاسع من شوال سنة احدى وثلثين وستمايه غيم كثير واصفر الجو وامطرت ساعة جيده وبقى الغيم طول الليل وكان هذا من جملة النوادر التى لم يجر مثلها. ووفى النيل المبارك فى يوم الاربعا الثالث والعشرين من مسرى وخلق[اكتمل] المقياس فى النهار المذكور

هذا الأمر، فلما نزلوا، واجتمعوا مع بعضهم، من جهة نقل باب الضرب لكون ان ذهبها خارج، وفضتها نحاس، وهذا كله سببه أن الينجشرية يأخذوا منهم البلص، ويأمروهم بشغل الذهب الخارج، والفضة الزيوف. ثم أن الينجشرية قالوا: لا نسلم فى نقل دار الضرب الى السرايا، حتى تكتبوا «لنا»[1] حجة، أن نقلها لم يكن لخيانة ظهرت ولا صدرت منا. فامتنعت الاخصام من كتابة الحجة، وتوافق الستة «وجاقات»[2]، أنهم يرسلوا يعرضوا فى شأن ذلك. ثم انهم كتبوا عرضا الستة بلوكات، وختمت عليه الصناجق، والعلماء ونقيب الاشراف والشيخ أبو المواهب البكرى، وسيدى عبدالخالق السادات، ما عدى الينجشرية، لم تختم على العرض.

ثم أنهم عينوا من كل بلك واحد، وأغا من طرف الباشا، ثم أنهم سافروا فى سادس عشرين محرم سنة ١١٢١[3]. وأما الينجشرية فأنهم اجتمعوا فى بابهم، وكتبوا عرضا من أنفسهم لأرباب العقد والحل من الينجشرية بالديار الرومية. ثم أنهم جهزوا على أفندى كاتب كبير، وأحمد جريجى، وسافروا بعد العرض الاول بيومين.

وفى ثالث عشر ربيع أول[4] لبس قيطاز بيك قفطان امارة الحاج على العادة القديمة،

---

(١) بالاصل «له»، التصويب من التحفة، ص٢٦٠.
(٢) الاضافة لتوضيح المعنى.
(٣) ٨ ابريل ١٧٠٩م.
(٤) ٢٣ مايو ١٧٠٩م.

بحضور الملك العادل بن السلطان الملك الكامل اعزالله نصره، ورخصت الاسعار ورجعت الى حدها الا ان الغل كان قليلا والثمار مما اصلح وخسر اكثر مما اربح. وبيع العنب في هذه السنة بخمسين درهما القنطار والقند [قمع عسل السكر] باربعة دنانير ونصف القنطار و[كذلك] اصناف الحلاوة من [بنفس] النسبة ولم يعصر من الناس [الكروم] في هذه السنة الا النزر اليسير والذى يعمل شيأ اقتصر على نصفه لاجل غلا الاصناف.

صبيحة مولد النبى، وكانوا قد أشاعوا أنهم رايحين يلبسوا زين الفقار أبو سعده الصنجقية، وامارة الحاج. فلما بلغ الينجشرية ذلك، تسلحوا وجلسوا خارج الباب، الذى فى طريق الديوان، وقالوا: كل من لبس امارة الحاج خلاف قيطاز بيك قطعناه، لو أنها تفى الى أمر الله. فلما رأت الصناجق والباشا أنه متى لبس قفطان السنجقية، أبو سعده ثارت الفتنة، فأبى الباشا، ولبس قفطان امارة الحاج لقيطاز بيك، وانكشفت الفتنة. ثم ان الست أوجاق والصناجق، قالوا: ما سبب هذه الفتنة، الا من ثمانية أنفار من الينجشرية، فمتى ما خرجت هذه الثمانية أنفار، بردت الفتنة، ويصير بعد ذلك كل مفعول جايز. ودبروا هذا التدبير واحكموه. فلما أخبرت الينجشرية بهذا الأمر، وما دبرته الصناجق، وكل هذه تحريكا من افرنج أحمد، لأنه كان يدخل الاسطبل، ويطل على ظهر جاره، ويقول له: ما لبسناه على ظهرك، خسرناه[1]، على ظهر الحصان ومنا، أرجع واركب. ثم أن الينجشرية اجتمعوا ببابهم فى عددهم وعددهم، وأما أهل البلكات الستة، فانهم هم والصناجق. التفتوا الى ما فعلوه الينجشرية، وقالوا لابد من محاربتهم، على أى وجه كان، أو نفى الثمانية. وعزموا على محاربتهم، واجتمعوا فى أبوابهم متسلحين وكذلك الينجشرية طلعوا جميعا الى بابهم وشحنوه بالاسلحة والبندق، والمدفع والذخيرة، من أكل وشرب، ونصبوا المدافع الى جهة القلعة. فلما بلغ ذلك الى أهل مصر،

(١) بالاصل «خصرناه».

ووردت الاخبار ان السلطان اعز الله نصره دخل الى بلاد الروم [سلطنة الروم السلاجقه. بأسيا الصغرى] ودقت البشاير بالقلعة بالنصرة والظفر وانه اخذ من بلاد الروم حصنا يقال له حصن منصور ثم عبر على ضيعة يقال لها رعبان وعبر منها الى الدربندات التى تسميها العرب الدروب وانتهى الى الدربند الثالث بالعساكر والجموع. وكانت عساكر جمه لم يجتمع مثلها وقيل انه عرض فى سبعة وعشرين الف جندى خارجا عمن

حصل لهم خوف وانزعاج، لأنهم شيء عمرهم ما رواه فى مصر، قبل هذا التاريخ، فقفلوا دكاكاينهم، وأكثر الناس مكثت فى بيوتهم، وأما طايفة الجاوشية، فانهم انزلوا مطبخهم فى بيت صالح اغا، كتخدا الجاوشية. وأما سراية الباشا، فان الينجشرية، عينوا بعض طوايفهم محافظين على باب الجبل، وأبواب القلعة، وباب قراميدان، والسبع حدرات، خوفا من انه العسكر يميلوه بالذهب(1)، وينزلوه قراميدان، لأنهم كانوا أرادوا أن ينزلوا الباشا الى قراميدان. وأرسلوا له كتخدا الجاوشية فى شأن ذلك لاجل ما يتداعوا على يد القاضى والباشا مع طايفة الينجشرية فلم تمكنهم الانكشارية من نزول الباشا. وأما كتخدا الجاوشية، ومن كان معه، ما تخلصوا من عند عودهم من عند الباشا الا بالجهد الجهيد من الخوف والفزع.

وفى يوم الخميس عشرين ربيع أول(2). اجتمعت الصناجق الاختيارية، وعينوا محمد بيك حاكم جرجة الى جهة جيل الجيوشى، وعينوا معه عشرة مدافع. ثم ان العسكر حسبت حساب أنهم يكونوا مشغولين مع اخصامهم فى الحرب، ربما يحصل نهب فى الاسواق، فعينوا مصطفى آغا، الذى هو آغة الجراكسة، أن ينزل ويطوف، كما فعلوا حين يعزل الباشا، وعينوا أفرنج أحمد بيك، وأحمد آغا، آغة التفكجية، يحاصروا باب الينجشرية من جهة المحجر وباب الوزير، ليمنعون كل من يطلع باب الينجشرية بأكل أو شرب والامداد من الطرايق، وأما

(1) فى التحفة، ص٢٦١ «يستميلوا الباشا».

(2) ٣٠ مايو ١٧٠٩.

يتبعها من غلمان واتباع وعربان وكان الشى عندهم غاليا جدا لان بلاد الروم لا يخرج لهم منها شى وبلاد الشام قد ابعدوا عنها فرأى السلطان ان الامر عسر وان عساكر الروم قدامه فرجع من هناك. وعدى موضع يعرف بجسر الخشب طالبا الى الشرق وكان صاحب خرت برت [خربت = خربطلى] فيمن كان معه وكان قد عرفه ان الطريق من بلاده الى بلاد الروم سهلة وان الذى دل السلطان على هذه الطريق غره

الينجشرية التى كانت تحت فى البلد، فانهم اجتمعوا فى باب زويلة، وتمكنوا من بيت الوالى، وتواطئوا مع بعضهم أن يكبسوا باب المحجر بعد هجعة من الليل، وكشفوا العسكر عن الباب، ويدخلوا بابهم. فلما بلغ الصناجق ما دبروه عينوا ابراهيم بيك الوالى، ومصطفى آغا، وأغوات الجبجية، فى طايفة من الاسباهية، ونزلوا الى باب زويلة، فلما دريت الينجشرية، الذين فى باب الشرطة، تفرقوا، ولم يبق منهم أحد. وجلس مصطفى أغا فى مسطبة الاضباشا، وابراهيم بيك، الوالى، مقاصده على مسطبة الجربجى، وانتشرت طوايفهم فى نواحى باب زويلة، وباب الخرق، والغورية، واستمروا على هذا الحال ثلاثة أيام بلياليها. فلما كان رابع يوم، الذى هو رابع عشرينه[(1)]، طلع القاضى، ونقيب الاشراف، والعلماء، والسادات، والبكرية، الى الشيخونتين بالصليبة، وكتبوا فتوى الى الينجشرية: أن لم تسلموا فى الثمانية ينتفوا، وإلا اجزنا العسكر بمحاربتكم(٢) بموجب الفتوى. وارسلوها صحبة جوخدار القاضى إلى باب الينجشريه. فلما قراها تراخت عزايمهم، وبطلت همتهم عن المحاربة، وسلموا فى نفى المطلوبين، الا أنهم أرسلوا يقولوا للعسكر: أنا لا نسلم فى نفيهم، الا ان كان بضمانة جماعة، تظهر لنا، ونكتب عليها حجة بالضمانة والتسليم، ثم أن الصناجق جميعا ضمنوهم.

وكتبوا على أنفسهم حجة بالضمانة والتسليم، وأرسلوا أيواظ بيك، ورمضان أغا، الى باب مستحفظان، وأرسلوا الحجة لهم، وتسلموا الثمانية، وهم: مصطفى كتخدا الشريف، وحسين

(٣٨) ٧ يونية ١٧٠٩م.

(٣٩) بالاصل «محاربتهم».

فقصد السلطان اعز الله نصره ان يعبر الى الروم من هناك. ودخلت سنة احدى وخمسين وتسع مايه للشهداء الابرار وزاد النيل المبارك وانتهى الى احدى عشر اصبعا من تسع عشره ذراعاً واطمان الناس وكثرت الخيرات ورخصت الاسعار. ثم ان ملك الروم وهو المسلم صاحب قونيه واقصريا ابلغه [بلغه] قصد السلطان خرت برت فاتاها بالرم والطم فسير السلطان اعز نصره ابن اخته الملك

كتخدا النجدلي، وناصف كتخدا، وقرا اسماعيل كتخدا، وأحمد شربجي تابع باكير أفندى، وكور عبدالله، وابراهيم أوضباشي، أخو جدك، وحسن أوضباشا العنتبلي. ثم انهم توجهوا بهم الى بولاق، وساروا يومهم الى بلاد الأرياف، في يوم الاربع ثامن عشر ربيع آخر سنة ١١٢١[١].

وفى يوم الخميس تاسع عشرين ربيع آخر[٢]. ورد أغا من الديار الرومية، وصحبته أمرين شريفين، قريا بالديوان. أحدهما بازالة المظالم والحمايات، بموجب العرض الذى أعرضته العسكر، ونفى عطاالله، وأحمد جلبى بن يوسف أغا، صاحب الحمام الذى بباب سعادة، والخرق، وأن يحاسبوا تجار البن على مرابحة القهوة، العشرة اثنى عشر من غير زيادة بعد رأس المال والمصاريف. والثانى بنقل باب الضرب الى الديوان، وبناء قنطرة اللاهون، وأن يحاسب عليها من مال الخزينة.

وفى يومه اخرج الباشا فرمانا[٣] برفع صنجقية افرنج أحمد بيك، والحاقه بوجاق الجملية. وفى يوم السبت اجتمعت أعيان باب مستحفظان بمنزل أحمد كتخدا، شهر أوغلان، وأرسلوا خلف افرنج أحمد، وتصالحوا واياه، من غير احقاد، صلحا فاشيا، وتعاقدوا على الصدق، وأنه

(١) ٧ يولية ١٧٠٩م. (٢) ٨ يولية ١٧٠٩م.
(٣) بالاصل «فرمان».

المظفر بن تقى الدين صاحب حماه نجدة لصاحب خرت برت ومعه جماعة من اكابر الامراء مثل البانياسى وصواب الخادم ومن يجرى مجراهم فوافوا المدينة قبل وصول[عسكر] الروم [السلاجقة] اليها فجعلوها ظهرهم وجاء الرومى فقاتلوه اشد قتال وامره ثم كثر عليهم الجمع لانهم ما كان معهم سوى زهاء ثلثة الف فارس فانكسروا وعادوا الى المدينة [خربت: خربطلى] فاما صاحب

لا يغدر بهم، وهم لا يغدروا به، ومضوا به الى باب الجملية، وأخذوا له عرضه، ثم أنه بعد ان أخذ عرضه، توجه الى منزله. وفى ثانى يوم، الذى هو يوم الاحد، ثانى ربيع آخر سنة ١١٢١[1]، ركب الحمار وطلع الى الباب، فى جمع غفير من الأضباشية، وتقرر باشي كما كان.

وفى غاية شهره رجعت الثمانية انفار الذين كانوا منفيين، فأخرجوهم من الوجاق ووزعوهم فى الأوجقة بمعرفة الصناجق. وفى ثانى يوم أرسل القاضى الى ارباب الحرف والصنايع، وأخبرهم انه جاء خط شريف، ان لا يكون أحد من أرباب الحرف والصنايع له تعلق بوجاق من الوجاقات، وأن يكونوا رعايا. فأجابوا بأنهم عسكرية، وأولاد عسكرية، وأقاموا على غير امتثال، ثم بلغ القاضى انهم اجتمعوا على ايقاع مكروه به، فخاف منهم، وتغافل عنهم، وما عاد ذكر لهم، ذلك، بعد ذلك اليوم.

وفى يوم الخميس أوفى النيل رابع مسرى، وهو آخر سنة المقياس، الذى كانوا يعملوه الينجشرية، سبعة أيام، عند نزح الفسقية التى للمقياس. وكانت جميع اهل القاهرة يهرعون، وجميع الصناجق، والأغوات، وشيخ الاسلام، والوزير وكان يصرف فيه مال كثير. وكان دايما على كل من كان باش جاويش. وكان جميع الاكابر والتجار يهادوه فى عمايل ذلك الاسبوع،

(١) ١١ يونية ١٧٠٩م.

حماه والامرا ومن معه من الامراء فالتجأوا الى القلعة واما الاجناد والغلمان والجمع فمنهم من اسر ومنهم من هرب وفيهم من قتل وعبروا الى القلعة وصاحب خرت برت معهم و وكان قد وعدهم ان بالقلعة كلما يحتاجوه فما وجدوا بها شيا وقيل انها كانت مكيدة منه فتجالدوا وتصبروا على ضر شديد وضنك عظيم أياماً تناهز العشرين يوماً فلما تيقنوا الهلاك سيروا من جماعتهم امير

الذى لم يكن يوجد له نظير في الدنيا. فابطلوه من سنة ١١٢١[١] وكان آخر من عمل المقياس عثمان جاويش امطقران، قريب محمد كتخدا شغشي أوغلي. وفي خامس عشر جمادى الثانية[٢]. ألبس الباشا قفطان الدفتردارية لقيطاز بيك، وقفطان لأبي شنب، على امارة الحاج. هذا عوض عن هذا. وهذا عوض عن هذا.

وفي يوم الجمعة سابع رجب[٣]، توفي حسن أفندى، نقيب الاشراف، بالقاهرة، ودفن بالقرافة. وكانت هذه النقابة لجده وجد جده قديما وبموته انقرضت دولتهم ولم يترك الا بنتا تحت محمد بيك بن درويش. وفي ثاني يوم اجلسوا السيد مصطفى الرفاعى، قايم مقام الى أن يرد جواب من الديار الرومية. وفي تاسع رمضان[٤] وردت أخبار من الديار الرومية بعزلان حسن باشا؛ وتولية ابراهيم باشا القبطان ووردت منه مكاتيب، خطاب لحسن باشا أن يكون قايم مقام.

وفي يوم الاحد ثاني عشر شوال[٥]، ترادفت الأمطار بكثرة، وسالت الاودية، حتى ان ماء النيل زاد وافيض ماء البحر، واستمر المطر الى غاية شوال، حتى انه منع الناس من التفرج على

(١) ١٧٠٩م.
(٢) ٢٢ أغسطس ١٧٠٩م.
(٣) ١٢ سبتمبر ١٧٠٩م.
(٤) ١٢ نوفمبر ١٧٠٩م.
(٥) ١٥ ديسمبر ١٧٠٩م.

يقال له بها الدين بن ملكيشوا [ملكشاه] الذى كان والى القاهرة الى ملك الروم يطلب لهم الامان على انفسهم وان يسلموا القلعة فاعطاهم الامان على نفوسهم خاصة فخرجوا باسوا حال يكون ولم يخلع على احد منهم سواء الملك المظفر وصواب الخادم واعطى كل منهم فرساً يركبه الى عسكر السلطان وكان فى طريقهم الدير المعروف بدير برصوما(*) فخرج اليهم الرهبان

(*) دير برصوما: كشف حديثًا عن هذا الدير بآسيا الصغرى، ويعرف بقلاية برصوما.

المحمل الشريف، وابتلت جميع الصناجق، وبقى ابراهيم بيك يدوس بالجواد فى الطين، والمطر نازل كافواه القرب. ومكثت تمطر سبعة عشر يوما، اذا ما مطرت بالنهار تمطر بالليل. وكانت مدة حسن باشا سنتين وشهر ثم أنه نزل الى بيت يوسف أغا القطردار، بسويقة عصفور.

٨٢ـ ذكر تولية ابراهيم باشا القبطان

عفى الله عنه

قدم الى مصر يوم الخميس تاسع عشر القعدة سنة ١١٢١[(١)]. وكان قدومه من البحر وطلع بالديوان بالاى عظيم، ثم بعد ذلك اجتمعت العسكر بسبيل على باشا الذى بالقرافة فى يوم الاربعاء رابع عشرين محرم سنة ١١٢٢[(٢)]، واتفقوا على نفى ثلاثة أنفار وهم: على أفندى. كاتب الحوالات، وقاسم آغا، ومحمد آغا ابن الجيعان. ومن وجاق المتفرقة، على أفندى المحاسبجى[(٣)]. وسبب ذلك أنهم اتهموا بأنهم يجتمعون على الباشا. ويعرفوه بالاحوال الكلية والجزئية. وأنهم اعزوا الى الباشا بقطع جوامك أولاد وعيال. والجوامك المرتبة على الاوقاف. واتفق أنه ماتت جماعة ولهم جوامك أولاد وعيال[(٤)] ومرتبا. فخلهم بعد موتهم: وضبطهم

(١) مدة ولايته: ١٩ القعدة ١١٢١/١٥ رجب ١١٢٢هـ ـ ٢٠ يناير ١٧١٠/٩ سبتمبر ١٧١٠م.
(٢) ٢٥ مارس ١٧١٠م.
(٣) بالاصل «المحاسبى»، والتصويب من الجبرتى، المصدر السابق، جـ١، ص١٥٨، التحفة، ص٢٦٦.
(٤) بالاصل «وعيد»، والتصويب من الجبرتى، المصدر السابق، جـ١، ص١٥٨ والتحفة، ص٢٦٦.

السريان تلقوهم بالازواد والخيرات وحملوهم على
بغال الدير الى ان اوصلوهم الى العسكر وصار
للرهبان بهذه القضية عند ساير المسلمين مدحة
عظيمة. ونزل النيل فى وقته وتباشر الناس بانها
سنة مقبلة وان الزراعات فيها ناجيه لان السنة
الماضية ما افلح فيها زرع وكان سعر القمح من
ثلثة عشر درهما الاردب الى سبعة دراهم الاردب
على قدر العالي والدون والشعير بخمسة دراهم

الى المحلول، وأن العسكر راجعوه في ذلك الأمر فلم يوافقهم، ولما كان يوم الثلاث ثاني عشر صفر[1] من التاريخ المذكور، اجتمعت اختيارية الوجاقات السبعة بباب مستحفظان: وأرسلوا للسناجق والاغوات، ليراجعوا الباشا في عدم معارضته هذا الأمر، فلم يوافقهم، وتكلمت العسكر في نزوله، ثم راجعوه المرة الثانية، فقال: أنا لا نسلم الا لمن يفك أولاد وعيال، ويكتبهم باسماء معلومة، والذى لم يفك، احله واضبطه للمحلول؛ فرضوا بذلك؛ واخذوا فرمان بذلك. ثم بعد ذلك ورد سلحدار الوزير بخط شريف، خطابا لابراهيم باشا، بتبطيل أولاد وعيال، وكل من خالف، ترسل تعلمنا عنه. فلما قرى بالديوان اذعنوا بالطاعة. فكتب الوزير فى الوقت فرمانا[2] بنفي ثلاثة أنفار من العزب؛ فلم توافق العزب، وابدلوا ما أراد؛ وكتبوا عرضا الى الاعتاب العلية، يستعطفون مولانا السلطان في ابقاء ذلك، وتوجه من كل بلك واحد الى الديار الرومية.

وفي يوم الخميس غاية ربيع آخر[3]. عزل الوزير ابراهيم بيك أبو شنب من امارة الحاج، والبسها الى ايواظ بيك. وفي يوم الخميس سادس جماد أول سنة ١١٢٢[4] ورد من الديار الرومية نقيب للاشراف، يسمى عبدالقادر أفندى، فأستقبله الاشراف، وانزلوه بمنزل الشريف

(١) ١٢ أبريل ١٧١٠م.
(٢) بالاصل «فرمان».
(٣) ٢٧ يونية ١٧١٠م.
(٤) ٣ يولية ١٧١٠م.

الاردب والفول بسته والجلبان مثله وبذر الكتان بعشرة دراهم الاردب والسلجم والبرسيم من النسبه وجميع الماكولات والمطعومات رخاص جداً ولم يكن شياً غاليا اصلا. وعاد السلطان الملك الكامل عز نصره الى الديار المصريه وطلع الى قلعة المحروسة في يوم الاثنين الثامن من جمادى الاول سنة اثنين وثلثين وستماية [هلالية] الموافق للرابع من امشير سنة احدى وخمسين وتسع مايه وهو

أحمد باش جاويش الاشراف بن السيد عمر الخشاب ببولاق. فعملوا له في ذلك اليوم سماطا، فاكله، وبات تلك الليلة، ثم أنهم دخلوا صبيحة اليوم ليقيموه، وأتوا له بالفطور، فرأوه مدبوحا في فراشه، ولم يعلم من دبحه، فأخذ الاشراف باش جاويش، وحبسوه في العرقانة. واتفق الاشراف على ان يجعلوا الشريف محمد كتخدا العزب، وباش اختيار العزب[1]، لامتناع السيد مصطفى الرفاعي في تولية قيامة مقام. ووافق تاريخه ذبح عبدالقادر. وفي يوم الاربعاء ثاني رجب[2] زلزلت الأرض زلزلة لم ير الناس مثلها، الى أن هربت الناس من الأسواق، وخافت من سقوط البيوت، وكانت خمس درج. وفي يوم الخميس ثالث رجب ورد اغا من الديار الرومية، وصحبته خط شريف، قرى بالديوان، بابقاء أولاد وعيال، والمرتبات، على ما هم عليه، ومن تاريخ الخط لا يعمل أولاد وعيال، ولا مرتبات، من بعد اليوم. وفي خامس عشر رجب ورد مسلم خليل باشا، والى صيدة، وأن يكون قايم مقام أيوب بيك. وفي يوم الأربع سادس عشر[3] رجب، نزل ابراهيم باشا من القلعة الى منزل عباس آغا، بحارة قيصون، المشرف على بركة الفيل، وكانت مدة ولايته ثمانية أشهر.

(١) بالاصل «أن يجعلوا الشريف محمد قايم مقام، في نقابة الاشراف، كتخدا العزب، وباش اختيار العزب» فأجريت التقديم والتأخير ليستقيم المعنى، والتصويب من التحفة، ص٢٦٧.
(٢) ٣ سبتمبر ١٧١٠م كتب عنوان جانبي «اعرف هذه الزلزلة».
(٣) التصويب والاضافة من التحفة، ص٢٦٨.

اول يوم من صيام اهل نينوى واطمأن الناس وطابت الاخبار الا ان الناس [العسكر العائد] لقوا في هذه السفره شدة عظيمة وقاسوا صعوبة في الطريق ووقعت اصابع اناس كثير من الثلج [التجمد] وناس ماتوا بالكلية ومنهم الاكرم بن زنبور فانه وقعت اصابع يديه ورجليه من الثلج ومات بحران ليلة الميلاد وكثير مثله ممن لا يعرف وممن يعرف. وكانت الرهبان قد جرت لهم تجربة

(*) أهم أحداث ٩٥١ق. = ١٢٣٥م. = ٦٣٢هـ.
* فيها انثنى عزم الملك الكامل عن قصد الروم للتخاذل الذى حصل في عسكره، ورجع إلى مصر، وعاد كل من الملوك إلى بلده.
* [١ يناير ١٢٣٥ = ٦ طوبه ٩٥١ = الاثنين ٩ ربيع الثاني سنة ٦٣٢].
* وفيها قصد كيقباذ، صاحب بلاد الروم، حران والرها وحاصرهما واستولى عليهما، وكانتا للسلطان الكامل.

٨٣ذكر تولية خليل باشا صاحب الفتنة

عفى عنه أمين

قدم الى مصر من طريق البر يوم الاثنين سابع عشر شعبان المبارك سنة ١١٢٢[١]. وصحبته مصطفى أفندى كيجي زادة، نقيب على الاشراف بالقاهرة. وفي خامس عشر القعدة[٢]. ورد أغا بطلب ثلاثة آلاف الى كفرة مصقوة [موسكو] وكانت نوبة السفر لمحمد بيك أمير الحاج سابقا[٣]. فالبسوه الصنجقية، وأمره محمد بيك باربعين كيسا، وجعله بدلا عنه، ولبس القفطان يوم الاحد ثاني عشر الحجة[٤]. وفي يوم الاثنين تاسع عشر الحجة ختام سنة ١١٢٢[٥] توفي شيخ الاسلام، وشيخ السنة، الشيخ محمد الزرقاني، وأذن الموذن على المنابر بالحضور على الجنازة. وفي يوم الخميس غرة محرم سنة ١١٢٣[٦]. اوكب اسماعيل بيك بالاى عظيم الى بولاق. وفي رابع عشر محرم سافر العسكر من بولاق. وفي يوم الخميس

(١) مدة ولايته: ١٧ شعبان ١٢/١١٢٢ رجب ١١٢٣ هـ ١١ اكتوبر ٢٦/١٧١٠ أغسطس ١٧١١م. في التحفة، ص٢٦٨، انه قدم ٢٠ شعبان ١٤/١١٢٢ اكتوبر ١٧١٠م.
(٢) ٥ يناير ١٧١١م. (٣) قدم وآخر.
(٤) ٢٢ يناير ١٧١١م.
(٥) ١٨ فبراير ١٧١١م، كتب عنوان جانبي «أعرف وفاة الشيخ محمد الزرقاني».
(٦) ١٩ فبراير ١٧١١م.

* [١ يناير ١٢٣٦ = ٥ طوبه ٩٥٢ = الثلاث ١٩ ربيع الثانى سنة ٦٣٣].
* فيها سار الناصر داود من الكرك إلى بغداد ملتجئا إلى الخليفة المستنصر لما حصل عنده من الخوف من عمه الملك الكامل.
* [١ يناير ١٢٣٦ = ٥ طوبه ٩٥٢ = الثلاث ١٩ربيع الثانى سنة ٦٣٣].
* وفيها سار السلطان الملك الكامل من مصر إلى البلاد الشرقية واسترجع حران والرها من يد

عجيبة وهو ان جماعة من الصبيان قد صاروا يلبسون الثياب الصوف ويتزيون بزى الرهبنة وهم فى المدن متصرفون ليحتموا من الجزيه فنمى امرهم الى السلطان فرسم بانه اى راهب لا يكون مقيما فى دير منقطعا فى البرية مشهود له بذلك توخذ جزيته، وما احتاج النواب والمستخدمون اكثرن من هذه الكلمة ومدوا ايديهم الى الرهبان وصاروا يمسكون الصالح والطالح وياخذون

اجتمعت جماعة مصطفى كتخدا القزدغلى. وتبعهم عشرون من أعيان البنجشرية. واتفقوا انهم لا يرضوا بافرنج أحمد أن يعمل باش الاوضباشية. وانه يلبس الضلما، أو يجعلونه جربجى فى الوجاق، وأن كان ما يرضى بأمر من الأمرين، أعطونا عرضنا، لنذهب الى أى وجاق نريده. وكان هذا الكلام فى باب العزب. وساعدتهم البلوكات الست وصمموا على لبس الضلمة واستمروا بباب العزب مصممين على عزمهم الذى تقدم ذكره. ثم أن الصناجق والأغوات لما راوا الأمر يتزايد مشوا بينهم فى الصلح فصارت الصناجق والأغوات يجتمعون تارة بمنزل قيطاز بيك، وتارة بمنزل ابراهيم بيك ابو شنب. وكانت الدفتدارية مع قيطار بيك، فلما كان يوم الجمعة سادس عشر[١] محرم، اتفق رأى الجماعة اجمعين، انهم ينقلوا الى باب العزب الثمانية أنفار، ومن انضم اليهم، وكانوا ستماية رجل، منهم أربعة كواخى، وعشرة جربجية وأضباشية والبقية أنفار الينجشرية. وأعرضوا فى شأن ذلك للباشا. فاتفق الأمر أن كل من كان اسمه مكتوبا الى الغزو يسافر، والذى لم يكون مكتوبا يعطى عرضه الى وجاق العزب. وحضر كاتب العزب وكاتب البنجشرية فى المقابلة[٢]، فاخرجا من كان اسمه فى الغزو، والذى لم يكن مكتوبا أعطوه عرضه، وتفرقوا على ذلك. ووقع الحث على سفر المسافرين، وعدم اقامتهم

(١) بالاصل «ثالث»، والتصويب كما هو واضح من ترتيب تواريخ الأحداث، ومن التحفة، ص٢٦٩.
(٢) المقابلة: المحل الذى تحفظ فيه دفاتر جمكية العساكر وساليانات الامراء والمشايخ والايتام اسما باسم، وافندى المقابلة هو الشخص المسئول عن هذه الامور، محمد شفيق غربال، المصدر السابق، ص٣٢.

كيقباذ، ثم عاد الملك الكامل إلى دمشق وأقام عند أخيه الملك الأشرف.

المشايخ الذين لهم خمسون سنة فى البرية [والاديرة] واستادوا من جزيتهم جملة كبيرة تزيد على الف دينار وخصوصا بالغربية لانه كان فيها رجل ناظر [جوالى] من اهل اسكندريه يقال له ابن القرمسينى وكان مبغضا فى النصارى فجعل كده [أذية] الرهبان واكثرهم فى اعمال الغربية وهى بلاد جرايتهم ودياراتهم فى ذلك الحين فأنالهم اذية عظيمة. وكان هذا ادباً من الله لانهم ما كانوا بقوا

بمصر، وأن يلحقوا بالمسافرين الى اسكندرية، ونزلت القبجية والجاويشية، وكل من راوه أخذوه الى البحر. وفى يوم ٢٢[١] ربيع أول سافرت العسكر من الاسكندرية الى جهة الروم.

وفى ١٢ صفر ورد ركاب أيواظ بيك بالحج الشريف، ولما استقروا فى منازلهم أرسل حسن جاويش القزد غلى، سردار القطار، وسليمان جربجى القزدغلى، سردار السرة، وابراهيم جربجى، سردار جدة، عرضهم. فتوجهت اليهم اختيارية الينجشرية، واستعطفوا بخاطرهم ان لا يخرجوا من عندهم. فما وافقوهم، وأخذوا عرضهم.

وفى ٢٣ صفر[٢]. (ترك) موسى جربجى، تابع ابن مرزة، عرضه وأنه يروح الجملية، فلم يرضى رضوان آغا بقبله عنده فى الجملية، فتوجه موسى جربجى إلى ايواظ بيك، وابراهيم بيك، وقيطاز بيك، وطلبهم ان يشفعوا له عند رضوان، فارسلوا يشفعوا عنده فى قبوله عنده فى الوجاق، فأبى ولم يقبل شفاعتهم، فلما راوا عدم قبول الشفاعة، اجمع رأيهم أنهم يرسلوا الى الباشا عرضا فى عزلان رضوان آغا من اغوية الجملية، وأن يولى على (اغا)[٣] مكانه، وان يعزل سليمان آغا من كتخدا الجاوشية، ويولى مكانه، بل محله، اسماعيل آغا، تابع ابراهيم بيك فامتنع الباشا من ذلك. وكانت اختيارية الجملية وافقوا الصناجق على عزلان رضوان أغا.

(١) ٢١ مايو ١٧١٠م. (٢) ٢٣ أبريل ١٧١٠م.
(٣) الاضافة، من التحفة، ص٢٧١، لتوضيح المعنى.

مستقيمين. واما الرهبان الصغار فانهم كلهم رجعوا
الى ما كانوا عليه وقلعوا الثياب الصوف اذ لم تغن
عنهم من اداء الجزيه. ولما جا السلطان عز نصره
اجمع جماعة من رهبان الديارات وجاءوا الى باب
السلطان بهدية على قدر حالهم مما يليق بالرهبان
فكتب لهم بماية وخمسين اردبا غله وسمع
بخبرهم رهبان دير القصير الملكية [بطره]
فاحضروا الاخر هديه من السنبه [على قدرهم]

فلما راوا امتناع الباشا، أخذوا الصندوق. وتوجهوا به الى بيت ابراهيم جربجي الشعراوى، باش جاويش الجملية، واجتمع كل بلك ببابه، واستمروا على هذا الحال ثلاثة أيام. وأما الينجشرية الذى انتقلوا الى باب العزب، فانهم اجتمعوا مع بعضهم البعض، وقطعوا الطريق التى توصل الى القلعة مطلقا، ومنعوا من يطلع الى باب مستحفظان، من الاتباع والخدم، وكل من أراد الطلوع لا يملك ذلك، ولم يبق من الطريق الموصلة الى القلعة الا باب المطبخ. ثم ارادوا قطع الماء عنهم ولم يقدروا يأتوا فيهم بحركة، فتوجهوا الى السواقى التى بقرب اليسار، وحلوا قواديسها وخشبها، وقطعوا الطوانش. ثم ان رجلا من انفار الينجشرية نزل من ناحية الحجر، يريد النزول الى تحت، فضربوه العزب وبطحوه، واخذوا سلاحه، ومنعوه من النزول الى المدينة، فعاد الى طريق القلعة، ودخل من باب الجبل، واجتمع بافرنج احمد، وأخبره بحاله، فأخذه وأخذ جماعة من الينجشرية وودوه الى خليل باشا، واعلموه بما فعلت العزب، والقاضى جالس عند الباشا، فقال القاضى: هؤلاء بغاة خرجوا عن السلطنة، وحيثما قطعوا الماء عنا، والزاد واذوا الناس وسلبوهم، فقد جاز لنا أن نحاربهم. ثم ان افرنج احمد استأذن الباشا والقاضى فى محاربتهم، وضربهم بالبندق والمدافع، فأذنوا له، فأخذ فرمانا[١]، وأعلام القاضى. ومن ذلك اليوم مكث القاضى ومعه الباشا من النزول الى المدينة. الى أن نزل هو

(١) بالاصل «فرمانه».

فامر لهم بماية اردب غله وبقي الرهبان ملازمين باب السلطان مدة وبعد ذلك خرج الامر بان يكتب لهم بان يجروا على عادتهم بشرط انهم لا يخفون عندهم احداً ممن يجب عليه الجزيه ولا يرهبون احداً الا بعد تنزيله في الديوان وممن يستحق الرهبنه ويدخل فيها لطلب الله تعالى لا لاجل جزية ولا شدة لحقته. واخذوا الكتاب المذكور ومضوا به الى الغربية ولم يفدهم شياً. واستمر ابن القرمسيني على ما هو عليه والرهبان

واياه بعد ستة وستين يوما. وكان لي صاحب له باع في الرمل والزايرجية، فجاءني والحرب قايم، وقال لي: اني عملت زيارجة[1]، فجاءت احد عشر بيتا، ان هذه الوقعة لا تنفك الا بعد ستة وستين يوما، اولها اليوم. فلما مال اخذت الزايرجة، فاذا فيها، فيما رأيناه بعد في مدة عددها الجلالة ٦٦، قد حكمت أيامها للحساب، فجاءت طبق ما اخبر، رحمة الله عليه. فلما اذن الباشا والقاضي لافرنج احمد بالمحاربة. نزل الى الباب، فشرع في المحاربة، وضرب باب العزب بالمدافع وذلك يوم الخميس أحد عشر صفر[2]. بعد الزوال الى بعد العشا، فمات من العزب اربعة انفار، ثم ان في ثاني يوم اجتمعت الصناجق والامراء وهم: ايواظ بيك وابراهيم بيك، وقانصوة بيك. دفتر دار مصر حالا، واتفقوا أنهم يلبسوا السلاح وآلة الحرب، ويذهبوا الى الرميلة، ويحاربوا الينجشرية. فأخبروا ان أيوب بيك ركب المدافع على طريق المارين، وعلى قلعة الكبش وانه ناوى اذا طلعوا الي الرميلة كبس بيوتهم وينهبهم. فامتنعوا من الركوب، وجلسوا في منازلهم متسلحين، خوفا من أن يطرقهم العدو. وأما افرنج احمد فانه استمر ثلاثة أيام مع العزب في المحاربة ليلا ونهارا، لا يفتر عن ضرب المدافع والبندق. فهذا ما كان له، وأما ما كان لرضوان آغا، فان طايفة الجملية اجتمعوا عليه، وقالوا له: احنا لا نرضا علينا آغا الا انت، وانا معك في كل ما دعونا اليه، فسألهم عمن كان السبب في نقل الصندوق وتوديته

(١) بالاصل جايزة.

(٢) ١١ ابريل ١٧١٠م.

في الشـدة الشـديدة وكـانت هذه تجـربة من الله تعـالى جـآء بهـا عليـهم لاجل سـوء تصـرفـهم فى الرهبنة .

كيرلس البطرك الخامس والسبعون [ابن لقلق] (*)

[١٢٣٥ / ١٢٤٣م]

(*) تولى كيـرلس (ابن لقلق) بعد خلو كـرسى البطركـيـة حـوالى عشرين سنة.

كـيـرلس البطرك الخامس والسبعـون من العـدد هذا الأب كيرلس ابن لقلق قدم بمدينة الاسكندرية

لبيت ابراهيم بيك جربجي الشعراوى، وسبب هذه الفتنة، فقالوا له، سليم جربجى، وأحمد جربجي نوالي، ومحمد أفندى ابن طلق(١)، فقالوا: احنا لا نرضى هؤلاء الثلاثة بعد اليوم من أن يكونوا اختيارية عندنا. وركبوا وتوجهوا الى بيت قيطاز بيك، وأرسلوا من كل (بلك) اثنين الى منزل أيوب بيك، يطلبون رضوان آغا. فركب فى موكب عظيم، لا يكاد يوصف الى قيطاز بيك، فاقروه آغا، على ما هو عليه، وكتبوا ثلاثة تذاكر لثلاثة بأنهم يلزموا بيوتهم، ولا يركبوا مع أحد، ولا يجتمعوا على احد، وأرسلوا التذاكر مع جاوش الباب، وركبوا رضوان آغا من بيت قيطاز بيك فى موكبه، الى منزل أيوب بيك. ثم أنه اجرى ذكر الصلح بين الينجشرية والعزب، واتفقوا على ان يصلحوا بينهم، وكتبوا تذاكر وأرسلوها الى أفرنج احمد، ان يطلوا المحاربة. فلما وصل اليه الرسول امتنع من الصلح، وصمم على المحاربة. فكتبوا عرضا وأرسلوه الى الباشا، على لسان الصناجق والأغوات الخمسة، وأن يرفعوا المدافع والمحاربة. فارسل الباشا فرمانا(٢) الى آغاة الينجشرية(٣) بأنهم يرفعوا ضرب المدافع، وانهم لا يضربوا مدافع بعد اليوم، وان لا يتحارب احد من العزب مع الينجشرية. فامتثل الامر. ثم ان الصناجق والاغوات

---

(١) كتب في الهامش «طنلق»، وفى التحفة، ص٢٧٣، محمد أفندى بن طلق، وفى الجبرتى، جـ١، ص١٦٢ «محمد أفندى ابن طلق».

(٢) بالاصل «فرمان».

(٣) بالاصل «الانجشرية».

فـي يوم الأحـد الـثاني والعشـرون مـن بؤونة سنة تسعماية واحد وخمسين للشهداء(*) وأقـام بطـركاً سبـع سنين وتسـعة شهـور وتنيـح في يوم الثلاث الرابع عشر من برمهات سنة تسعمائة تسـعة وخمـسين للشـهـداء(*) بدير الشـمع بالجـيزى ودفـن بـه. وكـان رجلا عـالماً فاضلا. فـيـه عـدة فـنون مـن الفـضـيلة إلا إنه كـان مـحـبـاً للـمـال وأخـذ الـشـرطونيـة وجـرا شليـه

(*) ٩٥١ ق.=١٢٣٤م =٦٣١هـ.

(*) ٩٥٩ ق.= ١٢٤٢م=٦٤٠هـ

ارسلوا يطلبون اختيارية(١). الينجشرية ليتكلموا معهم، بسبب الصلح بينهم، فحضر منهم جماعة، واخبروا ان طريق [باب] المحجر مقطوع من العسكر الذى فيه، وانهم لا يمكنهم النزول اليهم. فأرسل الصناجق تذكرة الى حسن كتخدا الجلفى كتخدا العزب ذلك الوقت، بان يرفع النفر الذى في طريق المحجر فأرسل اليهم، فاخلوا الطريق، ونزلوا الى باب العزب فاجتمع رأى الينجشرية انهم يرسلوا حسن كتخدا واحمد كتخدا برمقيس، واحمد كتخدا شهر اغلان هؤلاء الثلاثة فقط، فاجتمعت الصناجق والأغوات وهؤلاء الثلاثة في منزل اسماعيل بيك، وحضرهم اصحاب الكلمة النافذة، وتشاوروا في اخماد هذه الفتنة، وعقد الصلح. وأرسلوا بذلك خبرا لباب الينجشرية فقال الينجشرية: احنا لا نأبى الصلح(٢)، ولكن لا نرضى بهؤلاء الثمانية في وجاق العزب. لأنهم سبب الفتنة والعداوة بيننا، بل يروحوا الى البلكات التي كانوا فيها من وقت النفى، وأنهم لا يقيموا بمصر بل يذهبوا الى بلادهم التي خارج مصر، وأن يسلموا في حسن الأخميمى الى الباشا، يفعل به ما يريد. فلما عاد الرسول واخبرهم بما قالت الينجشرية، أرسلت الصناجق أخبرت العزب بما قالت الينجشرية، فلما يرضوا بذلك الشرط، وقالوا جميعا لا نوافق على ذلك، ولا نرضى. فأرسلت الصناجق كواخيهم صحبة اختيارية البلكات الستة، الى باب مستحفظان، يتشفعوا عندهم، على أن الثمانية يرجعوا الى الوجاقات التي كانوا فيها، ويعفوهم من النفى، وان لا يطلبوا الأمير حسن

(١) بالاصل «يطلبوا الاختيارية». (٢) بالاصل «بالصلح».

شدايد بسببها وتعصب عليه قوماً وأهانوه وعقدوا له مجالس بحضور نايب السلطان والعدول والوزير معين الدين ابن الشيخ . وغرموه بنيف عن اثنى عشر الف دينار. وخلى الكرسى بعده سبعة سنين وسبعة شهور. وهذا الآب هو الذى رتب كتاب الاعتراف(*) الاثنين وعشرين مقالة وسماه كتاب المعلم. ولما كان فى العاشر من بوونه ورد كتاب السلطان عز

(*) البطرك ابن لقلق يؤلف كتاب «الاعتراف» «والذى سماه» «المعلم».

الأخميمى منهم. فلم يوافق افرنج أحمد على ذلك الشرط، وقال: ـ ان لم يرضوا بما شرط عليهم، والا حاربتهم ليلا ونهارا حتى يرضوا صاغرين، أو أخفى باب العزب، حتى يبقى يقال كان هنا باب يقال له باب العزب. ثم تفرقوا على غير صلح.

وفى رابع ربيع أول اجتمعت جميع الصناجق والأغوات ببيت ابراهيم بيك ابو شنب. واتفقوا على اجراء الصلح بين الفريقين، واجرايه على اية حاله تكون، واجتهدوا فى ذلك، وفى اتمامه. أشهدوا على انفسهم ان كل من خالف، أو صدر منه نوع خلف، يكون الجميع عليه. وكلموا أيوب بيك بأنه يرسل يعلم افرنج احمد بواقعة الحال، ويمنعوا المحاربة، وضرب المدافع، الى الامر المتفق عليه، فبطلت المحاربة ثلاثة عشر يوما[1] ، وهم ينتظرون الصلح، ولم يقع من العزب شيء.

وأما أفرنج أحمد فانه فى هذه المدة، اجتهد فى تحصين جوانب القلعة، ونصب المدافع. وبناء المتاريس، وتحصيل البارود والرصاص والذخيرة، وملوا الصهاريج. والعزب كانت قد اخلت لهم الطرق، وفعلوا ما قدروا عليه. وفى أثناء تلك[2] القضية، ورد ركاب محمد بيك حاكم جرجة، بفرمان خليل باشا، ونزل فى القدم[3] بعسكره، وهوارة صحبته، ومن جملته

(١) فى التحفة، ص٢٧٤ «خمسة عشر يوما». (٢) بالاصل «ذلك».
(٣) فى الجبرتى، جـ١، ص١٦٣، «ونزل بالبساتين» والمقصود هنا «قدم النبى» أثر النبى حاليا.

نصره الى الامير جمال الدين بن يغمور نايبه فى القاهرة من ثغر الاسكندرية المحروس [لان السلطان كان خرج الى الثغر المذكور فى هذه المدة لاجل طيبة هوايه ولين فنايه] فورد كتابه المذكور يطلب القسيس داود بن لقلق ان يمضى اليه ولا علم احد من كان السبب فى ذلك لانهم علموا انه انما طلب للبطركيه الا ان راهبا مرشارا شابا من اهل الصعيد كان قد توجه مع الشيخ عماد الدين شيخ

عمر بن عبدالقادر، ومعه أنفار وطموش، فمكث فى القدم يومين، وفى ثالث يوم دخل الى مصر بعسكره وهواريته وطمشه، ونزل ببيت آقبر دى الذى برأس الرميلة، ثم تهيا للحرب مع العسكر الذين[1] فى جامع السلطان حسن، وحاربهم محاربة تقصر[2] عنها الألسن، فقتل منهم نحو العشرين نفسا. والذين[3] كانوا يقاتلون فى السلطان حسن: محمد بيك واتباع قيطاز بيك، مع من انضم اليه من اتباع أبو شنب، وايواظ بيك.

وتترسوا بمتاريس من جهة سوق السلاح ووضعوا المتاريس فى باب الجامع والشبابيك التى للجامع، وكان رأس المحاربين محمد بيك الصغير، قدام محمد بيك حاكم جرجة، وكان الظفر فى هذه اللطمة لمحمد بيك الصغير. وقتل فى هذه الوقعة من الطرفين من فرغ عمره. ثم ان محمد بيك الصغير قام من محلة وتوجه الى رأس الصليبة بجوار سوق الفراخ بالرميلة، وجعل له هناك متاريس، ثم أنه هجم على طايفة العزب الذين[4] فى سبيل المؤمنين، هو وزين الفقار أبو سعده، تابع أيوب بيك. فتحاربوا حربا اكيدا، وقتل من الفريقين خلق كثير، مع ضرب المدافع من باب مستحفظان، آناء الليل واطراف النهار. فاخلوا العزب سبيل المؤمنين. وهربوا الى بابهم وعين محمد بيك من اتباعه جماعة فى سبيل المؤمنين. واما ما كان من امر

(١) بالاصل «الذى» والتصويب من التحفة، ص٢٧٥. (٢) كرر اللفظ بالاصل.
(٣)، (٤) بالاصل «الذى» والتصويب من التحفة، ص٢٧٥.

الشيوخ الى ثغر الاسكندرية، وكان للشيخ المذكور عناية بالقسيس داود وكان يتردد اليه [على] الدير الذى كان مقيما به وهذا الراهب هو الذى احضر الكتاب المشار اليه فقيل انه هو الساعى وانه قرر مالا على البطركيه. وكان قصد القسيس داود ان يجعل قمصا فى مصر قبل خروجه الى الثغر لانه كان له رغبة عظيمة فى هذا الامر وما كان يتلتم فيه ولا يتكتم، فاشار جماعة من العقلا ان

الينجشرية. فان الشيخ أحمد الخليفى توجه اليهم. وتكلم مع احمد أوضباشا فى امر الصلح. فقام عليه أحمد اضباشا قومة عظيمة. واسمعه كلاما لا يليق فى حق الشيخ، وما راعى مقامه واهانه. وفى الحال ارسل الى الطبجية يامرهم بضرب المدافع، فضربوهم على حين غفلة. فأنزعج الناس انزعاجا شديدا. ثم ان الشيخ احمد الخليفى قام من عنده حين ما سمع المدافع ضربت ومضى من حيث اتى، وكان السبب فى طلوع الشيخ احمد الخليفى الى باب مستحفظان اخبر ان بعض العلماء (افتوا)[1] لأفرنج أحمد، وكما ان العسكر كانوا فرقتين، كذلك العلماء كانوا فرقتين. وأما اهل القلعة وأهل باب العزب فانهم تركوا بيوتهم. ونزلوا وسكنوا فى المدينة، وتركوا منازلهم خالية. خوفا على انفسهم، وحصل الخوف الشديد لأهل مصر، لكونهم لم يروا شيئا من هذا قبل الآن. ولا سمعوا به، وقفلت اسواقها. وحوانيتها. وخاناتها. ورحل غالب السكان الذين بجوار القلعة، وبقربها الى داخل القاهرة. وكان الأمر كما حسبوه، لأن اكثر البيوت التى بقرب القلعة، وباب العزب. والحطابة، وعرب اليسار، قد هدمتهم المدافع، واحرقته جماعة افرنج احمد بالنار، ولم يصب باب العزب من ضرب المدافع شيء، سوى محل كتخدا العزب فانه انهدم، ومحل آخر من محلات اغات العزب لاغير. ثم

(١) بالاصل «انتهوا لافرنج»، والتصويب من التحفة، ص٢٧٦ حيث يذكر صاحب التحفة «والسبب فى ذلك افتا طايفة من العلماء».

هذا ما هو مصلحة وربما افسد ما يريد ان يتم لان السلطان ما رسم الا بتسييره لا غير. واتفق الحال على ذلك ولم يكن بقى فى الكراسى من الاساقفة سوى خمسة: ثلاثة فى الوجه القبلى [هم]: اسقف طحا(*) واسقف ارمنت(*) واسقف اسنى(*) وكان قد عجز وكبر وصار كالميت. وفى الوجه البحرى اثنان [هما]: اسقف مليج وهو كبير الاساقفة يومئذ واسقف دمنهور فاحضر اسقف

(*) طحا: هناك مدينة طحا الأعمدة بمركز سمالوط/ المنيا. يعمل بها ثياب الصوف العالية الجودة. نسبت إلى المعبد المصرى ذى الأعمدة الذى كان قائماً بها.
وأرمنت: اشتقت من اسم الاله منتو. على الضفة الغربية للنيل مركز الأقصر. اشتهرت بنخيلها النادر.
واسنى: هى اسنا مدينة الاله خنوم تقع على غرب النيل بمحافظة قنا. تشتهر بمعابدها المصرية، ولضخامتها كانت مركز لمديرية باسمها ولكن فى سنة ١٨٨٨م الغيت هذه المديرية.

أن افرنج أحمد توافق مع أيوب بيك على انهم يعينوا عسكرا من الينجشرية، صحبة اغوات الاسباهية الثلاثة وهم: عمر اغا أغت الجراكسة، وأحمد اغة اغت التفكجية، ورضوان آغا اغة الجميلة، يقعدوا احد الاغوات مع ما انضم اليه من العسكر بجامع مرداده بسويقة العزى(١)، ورضوان آغا بجامع قوصون(٢) وعمر اغا بجامع قجماس(٣)، الذى بالدرب(٤) الاحمر، يقطعون الطريق على العزب، ويمنعون الذين يذهبون لهم. واختار افرنج أحمد من الرجال الذين معه فى الباب، من الينجشرية، سبعين رجلا. واعطى كل واحد شريفى طرلى. وامرهم ان يذهبوا الى الاغوات الثلاثة بعد المغرب. فاما رضوان اغا فانه تعلل عن الركوب وقعد. وأما احمد اغا فانه ركب الى المحل المعين اليه، وتحارب مع جماعة الصنجق، ومع جماعة العزب. وأما الذين ذهبوا الى جامع مردادة، وانتظروا من ياتيهم من الاغوات، فلم ياتهم احد. فملكوا

(١) جامع مرداده: انشأه الامير سودون زاده الظاهرى برقوق. بسويقة العزى، وظلت شعائره مقامة من اوقاته حتى نهاية القرن التاسع عشر، على مبارك، الخطط، جـ٢، ص١٠٥.
(٢) جامع قوصون: انشأه الامير قوصون سنة ٧٣٠هـ/ ١٣٣٠م. وكان موضعه بجوار حارة المصامدة، خارج باب زويلة، وأوقف عليه الاوقاف، وعطلت شعائره فى نهاية القرن التاسع عشر، انظر: على مبارك، المصدر السابق، جـ٥، ص٨٧ ـ ٨٨.
(٣) جامع قجماس: أنشأه الامير قجماس سنة ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧هـ، ويعرف بجامع أبى حريبة، وكانت شعائره مقامة من أوقافه، وموقعه بالقرب من باب زويلة، على مبارك، المصدر نفسه، جـ٢، ص٩٩.
(٤) بالاصل «بالضرب».

مليج على انه يجعله اقمصا وكان اسقف أرمنت بمصر لانه كان بالمقدس. ووصل وحصل الرهج من جماعة المصريين وكثر القال والقيل الا انه لم يجسر احد ا ن يتظاهر بشئ وكان بمصر بكنيسة بوسرجه رجل راهب يعرف قبل رهبانيته بالسنى ابى المجد بن القسيس ابى الفرج من بيت بن غليل فترهب بدير انطونيوس وعاد منه لما استدعاه السلطان واستخدمه فى ديوان النظر على الديار

ودمنهور: هى قاعدة محافظة البحيرة. واسمها المصرى دمن حور، أى مدينة الإله حور. ولقد ظلت قاعدة لاقليم البحيرة منذ عهد الفراعنة وحتى اليوم.
اما مليج: فهى قرية من المحلة وكانت مركزاً دينياً هاماً بالنسبة لقبط مصر.

الجامع ومنعوا من كان يذهب الى العزب بالفطور والاكل والملبوس. فيخدوه منهم. وهم السبعين رجلا الذين اختارهم افرنج احمد، وارسلهم الى رضوان، فلما لم يركب رضوان، فمكثوا فى مرذادة يغنمون من فطورات العزب. ففى أثناء تلك المدة، نزل رجل أوضباشا عزب، من السلطان حسن، متوجها الى منزله، ليغير حوايجه، فقبضوا عليه جماعة الينجشرية، واخذوا ملبوسه وسلاحه، وارسلوه الى افرنج احمد بالقلعة. فلما بلغ العزب ان طايفة من الينجشرية قاعدة فى مرذاده، ياخذوا كل شيء، طلع الى باب العزب وخبر هذا الاوضباشا أرسلوا جماعة من عندهم الى مرذادة، فدخلوا الى بيت يحيى الشريف فنقبوه، ودخلوا الى بيت عمر كتخدا نعمة الله، وهو كتخدا الوقت يوميذ، فنقبوه، ونقبوا ما جاوره من البيوت، الى أن وصلوا الى منزل مراد كتخدا مستحفظان. فبمجرد ما رأته السبعون المستخبية[1]، فروا هاربين من جامع مرذادة[2]. وفاتوا سجاجيدهم، واحرمتهم، وآلتهم. وأما عمر أغا الذى هو اغة الجراكسة، جلس فى جامع قجماس، وأرسل طايفة من جماعته الى نحو البنانه، وجماعة الى باب زويلة، فحصل لأهل ذلك الخط الفزع الشديد، خصوصا الذى بيته مطل على ذلك المحل فارسلت العزب جماعة يقدمهم صالح جربجى الرزاز، ومن انضم اليه من العسكر، الذين انتقلوا من الينجشرية الى العزب، ففر عمر اغا نحو احمد اغا

(١) بالاصل «المستخبة».

(٢) بالاصل «مجداده».

المصريه واقام سنين وهو راهب ثم انفصل منه [من الديوان] وقعد فى الكنيسة المذكورة لانه كان شماساً بها قبل رهبنيته وكان رجل جليل القدر مسموع القول عند المسلمين لاجل ما اسلفه اليهم من الخير فى ايام تصرفه ولانه كان متنزها ناسكاً، وكان قد صار مثل البطرك وكان الناس يحتكمون اليه وامره نافذ فى الكنايس فى الديارات وممتثل فى الرهبان وغيرهم وحكمه جايل فى الاوقاف وكان

- -

بقوصون. وأما حسن جاويش، تابع القزدغلى، فانه نزل فى الميدان، وحسن جاويش جلبى بجامع اصلان، وانتشرت طوايفهم، فحصل للناس بعض اطمينان، واطمأن السكان، وأصحاب الحوانيت. وأما عمر آغا فانه لما فر الى أحمد اغا بقوصون ارسله الى جامع المؤيد داخل باب زويلة الى ان حضرت له تذكرة من محمد بيك، حاكم جرجة. يأمره بالحضور الى بيت محمد بيك بالصليبة. فبمجرد قيام احمد آغا، واذا بجماعة المتفرقة، أتوا محله. وعملوا متاريس على رأس عطفة الحطب، ومكثوا أيام قلايل. ثم أتى على كتخدا الداوودى بجماعته وتملكوا ذلك المحل، وجلسوا فيه، غير ان طايفة من المتفرقة والاسباهية هجموا على بيت قرا اسماعيل، كتخدا مستحفظان، فدخلوا من بيت مصطفى بيك. بتاع النقيب. وخرقوا الحايط التى بين اسماعيل كتخدا مستحفظان وبينه فلما وصل الخبر الى العزب عينوا بيرقا من العزب، واقاموا عليه احمد[1] جربجى، تابع ظالم على استدار بابه، فلم يمكنهم الدخول الى البيت من الباب. فخرقوا دكان السروجى الى تجاه جامع السايس[2]، التى بجوار باب الضرب، وتوصلوا منه الى بيت احمد افندى، كاتب صغير الجراكسة، ثم نقبوا منه الى منزل اسماعيل

(١) الاضافة لتوضيح المعنى، من التحفة، ص٢٧٩.

(٢) جامع السايس: يعرف بجامع الجانى، وكان قديما يعرف بمدرسة الجانى، خارج باب زويلة، بالقرب من قلعة الجبل، وظلت شعائره مقامة حتى نهاية القرن التاسع عشر، من ربع أوقافه، على مبارك، المصدر نفسه، جـ٢، ص١٠٥.

قد سعى فى عمارة كثير من الكنايس وثمر [زرعها بالثمار] اوقافها. فعظم عليه هذا الامر واغتاظ منه غيظاً عظيما وصار يتوهم في كل من يعرفه ومن يقرب منه ويظن ان له باطنا فى تقدمة داود والامر بضد ذلك حتى وصل من حرجه الى انه صار يسب ويشتم ويتكلم بما لا يليق بعلماني عاقل ان يتكلم به لاسيما شيخ راهب مثله. وكان هو قد اعاد الحديث فى معنى أبي البدر بن الموتمن الذى

كتخدا، ودخلوا عليهم، فوجدوهم مشغولين فى النهب فهجموا عليهم هجمة واحدة فاذاقوهم الموت الاحر، فارموا ما بايديهم من النهب، وفروا الى محل دخلوا منه، وهو منزل مصطفى بيك، فتبعوهم وتقاتلوا هم واياهم، فكانت الدايرة على المتفرقة والاسباهية. فنهبت العزب منزل مصطفى بيك، لكونه مكن من دخول طايفة افرنج أحمد، ولكونه كان معاديا لايوب بيك، ولكونه طالبا للدفتردارية، اذا قتلوا قيطاز بيك.

ثم أن أحمد جربجى المذكور انتقل الى جامع قوصون بمن معه من العسكر، وتحصن فيه. واما محمد بيك حاكم جرجة، فى كل يوم يمر من هناك عند المساء والصباح الى منزله الذى بالصليبة، وبجواره منزل محمد اغا، اغة المتفرقة. فانتقل أحمد جربجي المذكور من جامع قوصون الى جامع الماس[1]، فتمكن منه، وبقى مقاصدا لبيت محمد آغا، ومحمد بيك حاكم جرجة. فانتهز أحمد جربجي الفرصة هو وأعوانه، وهو انه وجد منزل محمد كتخدا البيرقدار مفتوحا، فتمكن منه وكمن فيه هو واعوانه، لقتل محمد بيك اذا مر به. فبينما هو مار، واذا بالرصاص قد اخذه وهو خارج من عطفة الحمام، يريد الصليبة، فمات من جماعته أربعة أنفار.

(١) جامع الماس: انشأه الامير سيف الدين الماس الحاجب، احد مماليك السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ٧٣٠/١٣٣٠م، وكانت شعائره مقامة من ريع أوقافه وموقعه بشارع الحلمية، على مبارك، المصدر نفسه، جـ٢، ص٣٩.

تقدم ذكره وكتب مدرجاً ياخذ فيه خطوط الجماعة بما يقوم به كل واحد مساعدة فى اقامة البطرك لانه علم انه بعد ان وصلت الامور الى هذه الغاية ما يقوم البطرك لا بشئ. ووافقه على ذلك جماعة واكثرهم كتبوا خطوطهم بما تيسر لهم وفيهم من كان فى وقت الحقيقة يضاعف ما كان كتب به خطه. وكان هذا الامر داعياً لداود ولاصحابه الى تجديد الحديث وتجريده والمسابقة وبذل الجملة

واذا بمحمد بيك وقف ينظر الرصاص، من أى جهة أتاه، فاذا به قد أتاه من علو بيت البيرقدار. فأمر أعوانه أن يحرقوا البيت، فحرقوه فى الوقت. فدخل هو وجماعته الى المنزل فنهبوه. وفرت الطايفة التى كانت علو البيت، الى منزل حسين كتخدا الخريدلى، الذى تجاه جامع الماس، ثم أن النار مازالت ترعى الى أن أكلت تلك الجهات، وبيت أمامه الذى تجاه بيت البيرقدار، وأحرقت الربوعة التى هناك، والحوانيت الى أن وصلت الى المظفر، فأفسدت ما فيها من الأمتعة، والتى لم يحترق نهبته تلك الطموش التى صحبته. وخرجت المخدرات، حاسرات، مكشفات الوجوه، لا يمون على أنفسهم على ما جرى عليهم. وأما طرق القاهرة فانها تعطلت عن المرور منها، لقلة الأمن، ووقوع القتل والبغى، وصار كل مفعول جايز، على الخصوص طرق بولاق ومصر القديمة والقرافة، وبطلت الاشاير، الذين يزورون الامام، وأبو السعود، ومنعت الزيارة ليلا ونهارا مدة قتالهم، لكون أن أيوب بيك أرسل أحضر [الشيخ] حبيب، وجميع مفاسيده، مستعين[1] بهم على محاربة أعدايه، وطايفة من العرب الهوارية الذين حضروا صحبة محمد بيك، فصاروا يسلبون الناس ويقتلوهم، وأحاطوا باطراف القاهرة، واستاقوا جمال السقايين، حتى كانت أهل القاهرة يموتون عطشا. وأرسل أبو شنب اتى بالسلالة والهنادى عرب البحيرة. وصارت العسكر فرقتين، حتى العلماء والجعيدية والنساء فى

(١) بالاصل «مستعن» والتصويب من التحفة، ص٢٨٠.

الكثيرة والنقدة المعجلة المميزة. وكان ممن وافقه على ابن الموتمن ورفض داود بالكلية الشيخ نش الخلافة بو الفتوح والحكيم الرشيد بو الوحش بن الفارس. فلما جرى لداود ما جرى اتهما بان لهما باطنا معه كما اتهم غيرهما حتى ان الشيخ بو الفتوح طلع اليه يوم ميلاد يوحنا المعمدان ثلثين من بوونه(*) ليفتقده فجرى عليه منه من السفه والشتم والقذف بالقبايح التى لا يستحسن الانسان

(*) ٣٠ بؤنه الاحتفال بيوم ميلاد يوحنا المعمدان = ٢٤ يونيو.

البيوت كذلك فرقتين. وايواظ بيك، أمير الحاج، وقيطاز بيك، الدفتردار، وأبو شنب، ومحمد بيك الصغير، بتاع[1] قيطاز، ومحمود بيك، وعثمان بيك بارم ديله، وقانصوه بيك، وبلكات الاسباهية الثلاثة، والجاوشية، والعزب، والستماية نفر التى جاءت العزب من الينجشرية بكواخيها، وجربجيتها، وجاوشيتها، وافنديتها، واضباشيتها، هؤلاء فرقة واحدة.

وأيوب بيك، ومحمد بيك، حاكم جرجة، وأغوات الاسباهية الثلاثة، رضوان آغا، وأحمد اغة آغة المتفرقة، وسليمان أغا، كتخدا الجاوشية وصحبته بعض أنفار، وشاهين جربجي الشركسي. هم وجماعته الطبالة، والينجشرية الذين فى القلعة، وأفرنج أحمد أوضباشا، والباشا، والقاضى، ونقيب الاشراف. هؤلاء فرقة واحدة. ثم أن الينجشرية لما رأت جميع الدولة صارت من ذلك الطرف، قفلوا أبواب القلعة جميعا الا باب الجبل، فان افرنج أحمد، قعد فيه أحمد أو ضباشا قرا جهنم، باربعين نفر، وامتنع الناس من الصعود الى القلعة، ومن النزول منها، الا من باب الجبل الذى هو باب المطبخ. واستمر افرنج أحمد يضرب بالمدافع على باب العزب ليلا ونهارا.

ولقد اخبرنى من أثق به غير الواحد بعد ما انقضت القضية: ان الذى ضرب على باب العزب من المدافع أحد عشر ألف مدفع وستماية. ولقد أصابت كثيرا من قارب [اقترب من]

(١) بالاصل «متاع».

ان يخطرها بباله فضلا عن ان ينطق بها وكان ذلك بمحضر من جماعة قسوس وغيرهم. وكان مطلع كلامه معه ان قال له هذا مسيلمة الكذاب ثم خرج من ذلك الى ما لا يتسع ذكره. وهذا مسيلمة فهو رجل يزعم المسلمون انه رجل ادعى النبوه بعد نبيهم وظهر كذبه الا ان الشيخ ابا الفتوح لزم لفظه [حفظ لسانه] اكثر من الراهب. وبعد ذلك ما انفصلا حتى اصطلحا وضرب كل

باب العزب، وسوق السلاح، الى ان جاءت بعض الجلل الى بيت ابراهيم أفندى؛ كبير مستحفظان، ووقعت فى در قاعة القاعة التى للحريم، وفرت النساء هاربة من الفزع. وقد كان العزب رتبوا لجماعتهم جوامك، تفرق عليهم كل يوم، لكل واحد نصف ريال، يدورون فى اطراف الباب خوفا من أن تكبسهم الانكشارية، خلاف مصارفهم، واكلهم وشربهم.

فلما طال الأمر على العسكر، والصناجق القاسمية ومن والاهم من الفقارية. من كثرة المصاريف والجوامك. التى كانت تصرف فى الثمانية، والامراء والصناجق، فى كل يوم أربعة أكياس، خلاف الاغداقات التى كانت تأتيهم، وخلاف البن الذى كان يأتيهم من الشرايبى والتجار، اجتمعوا فى جامع بشتك[1] الذى بدرب الجماميز، أن يولوا من طرفهم قايم مقام، ويعزلوا الباشا، ووافقهم جماعة من العلماء، وافتوهم بعزل الباشا فنصبوا لهم قانصوه بيك، ونصبوا لبلوكات الأسباهية، وللجاوشية والمتفرقة، خمس أغوات، للجملية صالح آغا، وللتفجية زين الفقار وللجراكسة: مصطفى آغا بلفية، وللمتفرقة: عبدالرحمن آغا، وللجاوشية: اسماعيل آغا، كتخدا ايواظ بيك، وحسين آغا واليا، زعيم مصر سابقا، الذى كان عزله الباشا وولى محله عبدالله الوالى. فلما احكموا أمرهم، وبلغ الخبر الى خليل باشا، والقاضى ، وأيوب

(١) جامع بشتك: يقع بدرب الجماميز بالصليبة، وظلت شعائره مقامة، من ريع أوقافه حتى نهاية القرن التاسع عشر، على مبارك، المصدر نفسه، جـ٣ ص١٠.

منهما الاخر المطانوه واما القسيس داود [ابن لقلق] فانه توجه الى الاسكندريه في يوم الخميس الثالث من بوونه(*) ومعه اسقف مليج فاما ا سقف ارمنت فاعتذر بالمرض ولم يخرج لانه خشى ان لا يتم له شي. ووصل القسيس داود الى اسكندريه يوم الاثنين السابع عشر من بوونه(*)واجتمع بالسلطان عز نصره في يوم الثلثا على موضع يعرف ببوقير وتقررت له البطركيه وقام بالف دينار وحملها الى الخزانه معجلة ولم تكن معه وانما دبرها بقرض

(*) ٣ بؤنه = ٢٨ مايو

(*)١٧ بؤنه = ١١ مايو.

(*)تقرير البطريركية لداود ابن لقلق.

بيك، وافرنج أحمد، كتب الباشا فرمانا، خطابا[١] لايوب، وللاغوات الخمسة، وللعسكر، ان يحاربوا الصناجق القاسمية، وكل من انتمى لهم، لكونهم أنهم خرجوا عن طاعة السلطان، وصاروا بغاة خارجين على نايب السلطان. ثم ان الباشا توافق مع أفرنج أحمد، أنه يكتب ثمانماية نفر عسكرية جديدة، يقال لهم سردن كجدى[٢]، وأن يعطى لكل واحد منهم خمسة أحمر، وخمس عتامنة جامكية ترقى، وأن يجعلوا لكل مية، بيرقا وجربجي سردار، يقال له اغا السردن كجدى[٣].

فكتبوهم وتم امرهم، ثم أن أفرنج أحمد تواعد مع محمد بيك، حاكم جرجة، أن يهجم على العزب، من طريق باب قراميدان، هذا ما دبروه الاثنان من غير ثالث بينهما. وأما العزب فانهم وصلهم هذا التدبير بعينه، فاستعدوا لهم، ومكثوا قريبا من الباب المذكور، وكانوا قد أعدوا لهم مكرا. وهو أنهم أخذوا من حطب القرطم شيئا كثيرا. ودهنوه بالزيت والنفط والكبريت. فلما تكاملت العسكر جميعا بعد العشاء الاخيرة هجم محمد بيك على الباب.

(١) بالاصل «خطاب».

(٢)، (٣) بالاصل «السردنة خيشعى» ذكرها الجبرتي، جـ١ ص ١٦٨ سردن كجدى، أى لواء فرقة الفدائيين في الجيش العثماني، وهي فرقة تتغلغل في صفوف العدو وتقتحم القلاع المحاصرة. وهذا الاسم أصله جملة فعلية معناها «تجاوز عن رأسه» وقد صارت هذه الجملة التي أسند فعلها للمفرد الغائب علماً على فرقة الفدائيين. انظر الجبرتي، جـ١ ص٢١٤ هامش ٢٥٩..

وغيـره وكتب خطه بألفي دينار اخـرتين [مـؤجلة الى شهرين. وقدم اقمصا(*) في يوم السبت الثاني والعشرين من بوونه(*) بكنيسة بوشنوده المعروفه بكنيسة السباع خارج البلد وكمل في يوم الاحد بطريكا بكنيسة السوتير. وسير اليه السلطان خلعة حسنة وهي ثوب عتابي ازرق بطراز ذهب وبعيار ذهب وطرحه.وحكى الحاضر انه كان يوماً مشهوداً وان اكثر غلمان السلطان وخدامه كانوا حاضرين

(*) اقمصا: جمع قص Hegoumenos

(*) ٢٢ بؤنه = ١٦ يونيو.

فاوقد العزب النار في الحطب المدهون. وأرموه عليهم. فصار قراميدان كالنهار. ثم ضربوهم بالبندق. ففروا. فصار كل من ظهر ضربوه، فقتلوا منهم خلقا كثيرا. فولوا منهزمين. وانعكس مرامهم. ثم أن قانصوه صار يقطع ببرديات ويرسلها الى الذين من طرف الانكشارية، ومن جملة ما أرسل، فرمان الى محمد بيك، حاكم جرجة يأمره بالتوجه الى ولايته، وله الأمان على نفسه وماله، فلما وصل اليه الفرمان، قام وقعد، وأرغاى، وازبد، وقال: وصل من قدره أن يخاطبني بهذا الكلام. فلما وصل الخبر الى قايم مقام بالذى قاله محمد بيك، ففي الحال قطع فرمانا الى حسن اغا الوالي، المولى من طرفه، أن يذهب الى بيت الوالي ويملكه، ويقعد فيه، فتوجه الوالي وصحبته فرقة من العزب، فلما وصلوا الى بيت الوالي هرب عبدالله الوالي.

وأما العزب، فانهم نزلوا على بيت عبدالله الوالي لينهبوه، فمنعهم جماعة سليمان أغا، كتخدا الجاوشية، وضربوهم بالبندق، فولوا صاغرين، وقتل منهم ثلاثة أنفار، وعادوا مشتتين. ثم أن حسن الوالي توجه الى بيت غيطاس. ثم أن الباشا لما طال الامر عليه من المحاصرة، أرسل الى غيطاس بيك، وابراهيم بيك، وايواظ بيك، يطلبهم الى الديوان، ليتشاوروا مع الانكشارية. فلما وصل اليهم الاغا المعين، وقرأ عليهم الفرمان. اجابوا بالسمع والطاعة. وقالوا: انا مطيعين لولي نعمتنا. ولي الامر ونايبه، غير أننا نخشى على أنفسنا الهلاك، لكون الانكشارية ملكوا علينا الطرق، ورتبوا علينا المدافع، ولولا ذلك لاتينا الى حضرة الوزير ونحن صاغرين.

وانه كان مجداً لم ير مثله من زمان. وفى يوم الاثنين الرابع والعشرين من بوونه(*) ركب[ابن لقلق] وخرج الى دار ابن السكرى التى فيها راس مرقس الانجيلى، وقيل انها راس بطرس بارومرتيرس(*) لان راس الرسول الانجيلى كانت مع جسده لما نقله الروم(*) الى البندقيه، فاخرج له على العاده. وكان لهذا الراس ما اخرج ثما وين سنه مدة مقام انبا

(*) ٢٤ بؤنه = ١٨ يونيو.

(*) هذا القديس هو تاج الشهداء بطرك الاسكندرية ما بين ٣٠٠ إلى ٣١١م.

(*) نقلت جثة وراس مرقص الانجيلى الى فينسيا «البندقية» من اسكندرية على يد تاجرين من فينسيا= = احدهما يدعى : Buono di Malamoceo والثانى Rusticodi Torcello فى عام ٨٢٨م.

فلما أيس الباشا منهم، ومن دخولهم تحت الطاعة، اتفق مع أيوب، ومن أنضم اليه من العسكر، على محاربة الصناجق، وأن يبرزوا الى المحاربة خارج القاهرة. فلما كان يوم الاحد ١٢ ربيع أول(*) أرسل(١) أيوب بيك خيل [فرسان] حبيب، ليأخذوا جمال السقايين وحميرهم، فنزلت العرب فى صبيحة ذلك اليوم الى الاربع جهات التى تنزل منها جمال السقايين، وأخذوا جميع الجمال والحمير، فعز الماء وعطشت أهل القاهرة. ومن جملتها أخذوا لى جملا، ولم يأت الى يومنا هذا. ووصلت القربة الماء من الصهريج خمسة أنصاف. ولما اخذوا الجمال ساروا بها الى نحو قصر العينى، لأن محمد بيك جعل المقابلة هناك فى القتال. ثم أن الخبر وصل الى قيطاز بيك، بان محمد بيك أخذ جمال السقايين وحميرهم نحو قصر العينى. قام ايواظ بيك، وقانصوة بيك، قايم مقام، جماعة من العسكر، أن يركبوا الى جهة قصر العينى، ويستخلصوا الجمال ممن نهبهم، فذهبوا وجلسوا فى المصاطب [مصاطب النشاب] التى بقرب القصر ينتظرون احدا يمر عليهم بالجمال، فلما وصل الخبر الى محمد بيك بمجيئهم ومكثهم عند المصاطب أرسال عمر عبدالقادر بهوارته، فهجموا عليهم على حين غفلة، وكان البعض جواده قدامه، وبعضهم أخذها السياسة، وابعدوا عنهم من الدخان، فاخذتهم الدهشة، فالذى جواده بين يديه ركب وفر، والذى جواده مع السايس، ركب السايس

(*) ١١ مايو ١٧١٠م.

(١) الاضافة لتوضيح المعنى من التحفة، ص٢٨٣، الجبرتى جـ١، ص١٦٩.

يوحنا(*) نيح الله نفسه ثماني وعشرين سنة ومدة التعطيل بعده فى الزور والفرق والبدع عشرين سنة. ووضع فى حجرة وكساه كسوة جديدة على جارى العاده. واقام البطرك المذكور بالاسكندرية مدة ثم خرج منها الى دير بومقار وكرز فيه قسوسا وشمامسة ورتب فيه تراتيب واقام فى كل دير يوماً ويومين ثم جآء الى دير نهيا(*) فى يوم الخميس الثانى عشر من

(*) تولى البطركيه ما بين عامى ١١٨٩ و ١٢١٦م.

(*) نهيا: من المدن القديمة، كانت مركزاً لعبادة الإله هاتور. كان هذا الدير عامراً حتى أيام الحملة الفرنسية على مصر وله اوقاف وغيطان واسعة على ضفة النيل الغربية قرب امبابه. وكان مزاراً لكل ولاة مصر وسلاطينها للتمتع بجمال مناظره. اما دير الشمع فيقع داخل الحصن الرومانى بمارجرس وحوله عدة كنايس هى:ابنا شنوده التى احترقت وأعيد بناؤها سنة ١٨٧٠م، مارجرجس، السيدة العدرا بالمعلقة، السيدة العدرا بقصرية الريحان، الست

وفر، وخلى سيده قتل. فجمع محمد بيك رءوس المقتولين، وأرسلها الى الباشا، وكان جملا محملا، فحصل عند الباشا بتلك الفعلة سرور زايد، وأعطى من أتاه بالرءوس كمشة من الذهب نحو الماية. فلما رجع المنهزمون[١] الى الصناجق، وأخبروهم بتلك الفعلة، لم يسهل عليهم ذلك الامر، واتفقوا على المبارزة والحرب فى غد. فلما كان ثانى يوم، وهو يوم الاثنين رابع عشر ربيع الثانى سنة ١١٢٣[٢]، خرج الفريقان الى قصر العينى، والى الرملة، التى بين القصر وبين الروضة، وتقابل الفريقان، وتحاربوا وتقاتلوا قتالا عظيما لا يتفق مثله فيما بين الكفار، الذين[٣] على الضلال، وتجندلت فيها الرجال، وقتل من الفريقين نحو الاربعماية نفس من الجند، وأما من الخدم والعرب لا تسأل فانها رمت، وأن محمد بيك، حاكم جرجة، وأحمد أغا متفرقة، وعمر بن عبدالقادر، سووا الاهوال فى العسكر، فبينما هم كذلك فى المعركة، اذا ورد على فرقة القاسمية خبر موت أيواظ بيك أمير الحاج، فذهبوا يتسارعون فى طلبه، فوجدوه مقتولا، مقطوع الراس بين الروضة والسواقى فى الرملة وكان القاتل له عمر بن عبدالقادر، فاخذوا رأسه، وأحضروها بين يدى الباشا، وكان يوم سرور عند الباشا، وأعطى للذى جاء[٤] بالرأس، كيسا[٥] من الدراهم، وفرق اموالا لها صورة، ورجع[٦] الفريقان الى منازلهم، وتركوا

(١) بالاصل «رجعت المنهزمين» التصويب من التحفة ص٢٨٤.
(٢) ١ يونية ١٧١١م. (٣) بالاصل «الذى».
(٤) بالاصل «للذى جاوا». (٥) بالاصل «كيس». (٦) بالاصل «ورجعت».

ابيب[٦ يوليو] ثم وصل الى دير الشمع(*) فى يوم الجمعه ثانيه وقدس فيه، وجاء يوم السبت الى كنيسة ميكائيل راس الخليج بمصر، وفيها لقيته انا الحقير(*) وسلمت عليه واخذت بركته واقام بالكنيسة المذكور ذلك النهار وبات بها. واهتم به اهل الكنيسه المذكورة اهتماماً حسناً وهم كلهم من اهل البهنسا(*). واصبح يوم الاحد ركب من الكنيسة المقدم ذكرها وحضر اليه من القاهرة

بربارة. وبعض هذه الكنايس احدث من بعضها، كما طرأ على معظمها تغييرات كثيرة بسبب ما تعرضت له من هدم وحرق فى بعض السنين.

(*) مؤلف هذه السيره هو يوحنا بن وهب ابن يوحنا بن بولس احد المقربين الى داود بن لقلق أما كاتبها وجامعها فهو علم الملك ابن الحاج شمس الرياسات.

(*) البهنسا: كان اسمها القبطى Pemdjé وحرفا dj فى اللغة القبطية ينطقان سينا أو صادا، فقال بمسه، ومنها اسمها الحالى بهنسه ثم أضيف إليه أداة التعريف الوافدة فصارت

- -

القتال والقتلى فى مصارعهم سوى أيواظ باى فان اتباعه اخذته، ثم بعد ذلك أرسلت جماعة القاسمية الى أيوب بيك أن يحسن لهم فى ارسال الرأس ليدفنوها مع الجثة فأرسل أيوب بيك الى الباشا يطلب الرأس، فأرسلها له عظما لأنه سلخها ليرسلها الى السلطان، فلما وصلت اليهم غسلوها وكفنوها ودفنوها مع جسدها، فى المسجد الذى تجاه غيط الطواشى، بقرب البيدق، وعملوا له تاريخا لموته، وهو هذا: مات رأس القاسمية. ثم أنهم قعدوا عن الحرب ثلاثة أيام، ثم ان جماعة أوشت الى قيطاز بيك، فى (حق)(١) كتخدا ابراهيم، انه موالس(٢). مع أيوب بيك، وأنه يخبره بجميع ما يقع فى مجلسك، فارسل له حسن أغا، الوالى، وخزنداره، فدخلوا عليه فى بيته، فوجدوه جالسا على دكته، فضربوه، فقتلوه، ولم يأخذوا من البيت شيئا. وأما أيوب بيك فانه حصن منزله بالمدافع من جهاته الاربع، وحشره بالعسكر، وكان قد جاءه خبر بأن قيطاز بيك ناوى يكبس عليك فى بيتك. ثم اقتضى أمره بأنه أولا يحاربهم برا، فاذا ضعفت العسكر يهجموا عليه فى بيته فيقتلوه، وينهبوا البيت وان اهتمامهم أولا بالمحاربة لاجل تفريق هذه العساكر المجتمعة، فاذا تفرقوا عزموا على ما أرادوه من محاصرة المنزل. فتهيا الفريقان الى المحاربة، وأرسل افرنج أحمد عسكرا تقوية الى أيوب بيك، وعليهم سردارا وبيرقا، وكذلك العزب ارسلت تقوية الى منزل قيطاز بيك، وقانصوة، وخرج الفريقان الى المحاربة

(١) الاضافة لتوضيح المعنى. (٢) بالاصل «موانس» التصويب من التحفة.

ومصر وما حولها امم لا تحصى واجتمع من الامم الغريبة المسلمون واليهود خلق عظيم حتى كانوا ممتدين ملء الطريق وعلى الدكاكين والفرج [الميادين والساحات] والاسطحة من [كنيسة] ميكائيل الى [الكنيسه] المعلقة ورفعت الصلبان قدامه على العيدان والاناجيل فى ثنى الابرسفارنيات(*). وكان الشمامسه والكهنة يجتمعون احزابا احزابا خمسين خمسين واكثر من

البهنسا. اشتهرت قديماً بصنع الستور والعبايات الكتان الرفيع من مزارع بوصير، وهى واقعة على الضفة الغربية من خليج المنهى (بحر يوسف) بمركز بنى مزار/ محافظة المنيا.

(*)الابرسفارينات: حوافظ مبطنة بالحرير يحفظ داخلها الاناجيل.

وذلك يوم السبت ١٩ تاسع عشر ربيع الثاني[١]. وخرج أيوب بك من باب داره، الذى هو باب السر، المتوصل منه الى زين العباد[٢]، فرأى بيرقا من العزب، مع طايفة من الجند، ولم يعلم هم من أى الفريقين، فسألهم: من أين اقبلتهم، فقال البيرقدار ولم يعرف أنه أيوب بيك، لأنه[٣] كان لابسا قاووقا من غير شاش، فقال: من باب العزب. فلما سمع أيوب أنه من باب العزب، هجم عليه، وأخذ البيرق من يده، وقتله، وقتل جميع من كان معه من العزب. ثم انفصل الحرب، ورجع الفريقان الى منازلهم. وأن النغص واقع فى العزب لأن مع محمد بيك هوارة، صحبته عمر عبدالقار، وحبيب وعرب الجزيرة، وجميع خيلهم.

فلما رأت العزب تطاول الأمر، وعدم التوصل الى القلعة، وامتناع من فيها، وضرب المدافع عليهم ليلا ونهار، لا يفتروا أبدا ولا طرفة عين، اجمع أمرهم، بل رأيهم، على أنهم يولوا كيخية عندهم تحت، ويجلسوه فى بيت الوالى، ويرسلوا له بيرقا بجماعة من العزب، وينادوا له فى أسواق القاهرة، وفى شوارعها، أن كل من كان له عثامنة بدفتر الانكشارية، فليأت الى باب الوالى، عند كتخدا مستحفظان مع[٤] بيرق أوجاقه. فاستصوبوا[٥] جميعهم ذلك الرأى، فأحضروا[٦] حسن جاويش الجلب، وكانت نوبة الكيخوية له بعد عمر كتخدا نعمة الله المولى

(١) ٦ يونية ١٧١١م.
(٢) المقصود «زين العابدين»، حاليا أحد، احياء قسم السيدة زينب.
(٣) بالاصل «أنه».
(٤) بالاصل كلمة «اوجاق» حذفت ليستقيم المعنى.
(٥) بالاصل «استصوب» والتصويب من التحفة، ص٢٨٦.
(٦) بالاصل «فاحظروا».

ذلك واقبل يقراون قدامه المدايح والتسابيح والاراخنه ركاب البغال والخيل قدامه ونايب والى مصر واكثر اصحابه قدامه معهم وجآت طبول وبوقات وشبابه [من الآلات الموسيقيه المصرية] ضربن قدامه. وكان قدام [البطرك] زهآ ماية شمعه موقوده واكثر، وكان يوماً ما شهد [مشهوداً] وما روى في جيلنا مثله. ولما جآء [البطرك] ما عبروا به من الخراب على الزقوقين بل جاوا به على دار

ذلك الوقت. وأرسل قانصوه بيك، قايم مقام، فرمانا الى المقابلة، باخراج حسن جاويش جلب من بلك العزب، الى بلك الانكشارية كما كان أولا، ثم ألبسه قايم مقام قفطان الكيخوية، يوم الاربع ثالث عشرين[١] ربيع الثانى سنة ١١٢٣[٢]، وركب بالقفطان من بيت قايم مقام، والوالى يقدمه، والبيرق والعسكر خلفه بالسلاح مشاة، والمنادى ينادى أمامه: معاشر الناس. من كان انكشارى فلياتي البوابة، تحت البيرق، ومن خالف ولم يأت بعد ثلاثة أيام، نهبت داره، ثم عاد وجلس فى البوابة، واركز البيرق عندما يجلس الجريجى، ثم ارسل الى أوضاباشة البوابة المتولى اذ ذاك بها، واجلسوه بالباب، وصار يدور البلد بطايفته على العادة، وأتت له أكثر الناس، من الاصاغر والاكابر من الانكشارية الذين لم طلعوا القلعة وقاتلوا حسن كتخدا الجلب. وفى يوم الخميس هجمت الانكشارية من بابهم بالبيرق الى البدرم[٣] الى باب العزب، وصحبتهم محمد بيك الكبير وكتخدا الباشا، وأفرنج أحمد، فبمجرد ما نزل أولهم من البدروم، كان العزب قد اعدوا فى الزاوية التى تحت القصر التى لصلاح الدين يوسف مدفعين ملانين بالرش، والفلوس الجدد، وقطع القزاز، فبمجرد ما راوا الانكشارية هجمت عليهم،

(١) بالاصل «ثالث ثالث عشر» حذفت كلمة «ثالث» المكررة والتصويب من التحفة، ص٢٨٦.
(٢) ١٠ يونية ١٧١١م.
(٣) البدرم: تحريف للكلمة التركية «بدروم» وتعنى الطابق الذى تحت مستوى الأرض أسفل المنزل، ولا تزال مستعملة فى مصر، حتى الان بهذا المعنى.

وكالة دارالملك وسير به من راس السوق الكبير الى القلعة. وطلع اليها فى يوم الاحد الحادى والعشرين من ابيب [١٥ يوليو] المقدم ذكره وكرز بها. وطلع الى السنترانس وقرى الانجيل المعروف للبطاركة وهو الذى فيه انا هو الراعى الصالح. وهو من يوحنا، وفسرته انا الخاطى عليه. وكان من الايام المشهورة المشهودة. ثم من بعد ذلك اجتمع جماعة من المسلمين وانكروا ما عمل واستبشعوا

ضربوا المدفعين عليهم، فوقع منهم البيرقدار، وثمانية أنفار منهم، وولى الباقون منهزمين، يطأ بعضهم بعضا، فأخذت العزب رءوس التسعة أنفار، وأرسلوها الى قايم مقام، فارسلها قايم مقام الى باب العزب، ثم أن (باب)[١] العزب أرسلها الى كتخدا مستحفظان، بباب الوالى، فوضعها على دكان الصراف الذى على كتف باب زويلة. ثم أن الصناجق، وقايم مقام، والاغوات، اتفق رأيهم على أنهم يلبسوا على أغا، أغة، على طايفة الانكشارية، لهيبته وخوف الناس منه. فلما أرسلوا له، أبى أن يقبل الاغاوية، وتحول من منزله، الى منزل سيده الذى بالجودرية. فعند ذلك ركب محمد بيك الصغير، تابع قيطاز بيك، وعثمان بيك بارم ديله، ويوسف جربجى الجزار، وصحبتهم مائة خيال غير المشاة، وذهبوا الى بيت على أغا، فلم يجدوه، فاخبرهم اتباعه بالمحل الذى هو فيه، فارسلوا له فامتنع وأبا أن يحضر لهم، فاظهروا له (أنه)[٢] أن لم يحضر والا لم يامن على نفسه وماله. ثم أنهم أرسلوا الى البوابة. يطلبوا من كتخدا الوقت، حسن كتخدا، ستين نفرا مسلحة من الذين عنده، فأرسل لهم ما طلبوه. فلما أخبر على آغا بما حصل، ركب واتى اليهم، ووافقهم على مرادهم. ثم أنهم أخذوه وتوجهوا صحبته الى قايم مقام [فى] ٢٥ ربيع الثانى[٣]، وعاد الى منزله بالقفطان، تقدمه العسكر مشاة

(١) الاضافة لتوضيح المعنى.
(٢) الاضافة من التحفة، ص٢٨٧، لتوضيح المعنى.
(٣) ١٢ يونية ١٧١١م.

حمل الصلبان على رووس الاشهاد وسط النهار في الاسواق وتحدثوا في [ذلك] واكثروا وحملوا رجلا فقيهاً متميزا يعرف بعوض البوشي على ان كتب رقعة الى السلطان فشكوا فيها ماجرى، فوقع مولانا السلطان عليها الى والى مصر بان يحضر البطرك ويوقفه على مضمون الرقعة ويتقدم اليه ان لا يتعدى على الشريعة ويعود الى مكانه ففعل الوالى ذلك واحضره. وكان عنده رجلا معلم كان

بالسلاح. والملازمين مهليين بلفظ الجلالة، كما هو عادتهم في المواكب. وفي ثاني يوم عين قايم مقام بمعرفة حسن كتخدا، عسكرا الى بولاق، وصحبتهم أحمد جربجي، يجلسوه في التكية. ووالى الى بولاق، وآغا من المتفرقة عوضا عن آغة الرسالة، التي بها من طرف خليل باشا. فجلسوه في مرتبته، ونهبوا جميع ما كان وجدوه لاغة الرسالة.

وفي يوم السبت ٢٧ ربيع الثاني[١] خرج الفريقان من العسكرين الى خارج القاهرة من باب قناطر السباع، (واجتمعوا بين القصر العيني[٢] والروضة)، وكل منهما بطايفته وأعوانه، ومعهم البندق والمدافع وآلات الحرب. فتقاتل الفريقان قتالا تعجز عنه الألسن، من بكرة النهار الى بعد العصر، وقتل من الفريقين من دنا أجله. هذا وأيوب بيك، ومحمد بيك، في قصر العيني يضربون بالرصاص على طايفة القاسمية. فلما كان بعد العصر، ورجعت الطايفتان من محل المعركة، ورجعت الصناجق ومن معهم الى داخل البلد فتأخرت طايفة العزب بيرقهم، فلما رآهم محمد بيك الكبير، أتاهم وأحاط بهم وحاصرهم فلما بلغ الخبر الى قايم مقام، ارسل محمد بيك، وعثمان بيك، ويوسف جربجى الجزار، والعسكر صحبتهم، فتقاتلوا مع محمد بيك الكبير، فهزموه الى قنطرة السد، وقد كان أيوب بيك جالسا داخل القصر، فلما رأى الحرب والجدال، ركب جواده وفر هاربا نحو منزله، فبلغ يوسف جربجى الجزار أن أيوب

(١) ١٤ يونية ١٧١١م.

(٢) الاضافة لتوضيح المعنى.

في مسجد من المساجد التى في الطريق التى عبر عليها البطرك وكان قد لبى وغوث وشعث وقام الصبيان الى عنده بالالواح(*) التى بايديهم وفيها القران ليستجيشوا ويستثيروا الشر فلم يوثر ذلك لان العالم كان عظيما ومهابة السلطنة شديدة لا سيما ونايب الوالي وغلمانه قدام البطرك. فلما حضر البطرك عند الوالى كلمه المعلم المذكور وقال: انت رفعت الصلبان وفعلت وصنعت. فقال [البطرك]: ما علمت شيأ مما صنع وكنت محمولا

(*) الالواح: جمع لوح، وهو ما يحمله الأطفال ليكتبوا عليه دروسهم في الكتاتيب، وهو مصنوع من الاردواز ذو اللون الاسود ليسهل الكتابة عليه بالطباشير، وقد بطلت هذه الألواح الآن بعد أن الغيت الكتاتيب.

بيك داخل القصر، فكر راجعا علي القصر، فدخله[1] وسأل الدراويش[2] عن أيوب بيك، فأخبروه أنه ذهب، فلم يصدق الدراويش، فاوقع في القصر النهب والحرق وهدمه، ثم رجع الى منزله، فلما كان في ثاني يوم، ذهب الى غيط افرنج أحمد، فنهب جميع ما كان فيه من غلال، وبهايم، وجاموس، ووز، وفراخ، ولم يبق فيه شيء، وكان فيه شيء كثير، وقلع اشجاره، وحرق خشبه، وهدم القصر، وأوقد النار فيه، ورجع الى محل الحرب، وتقاتل مع اخصامه الى بقية اليوم، فلما بلغ محمد بيك الكبير ما فعل الجزار بغيط أفرنج احمد، عمد هو وطايفته، الى غيط حسن كتخدا النجدلي، ونهب جميع ما فيه من الغلال، وأخذ جميع ما كان فيه من المواشي، وقلع جميع الأشجار التي فيه، وهدمه الى الأرض، وردم سواقيه. ثم في صبيحة ثاني يوم الذى هو ٢٩ تاسع عشرين ربيع الثاني[3] خرج الفريقان الى ميدان الحرب، وتقاتلوا من طلوع الشمس الى العصر، فما انفصلوا الا بالجهد الجهيد، ولكن محمد بيك سوى الأهوال، فتلاقى مع واحد من أعيان القاسمية، فتقاتل واياه، فأراد محمد بيك ان يضربه، ففر هاربا، فتبعه محمد بيك، فاحتمى منه بالطابية التي للقاسمية. وهلك من الفريقين نحو الاربعماية نفس.

(١) بالاصل «فأخذوه» حذفت ليستقيم المعنى.
(٢) الاضافة، من التحفة، ص٢٨٨، لتوضيح المعنى.
(٣) الاضافة من التحفة، ص٢٨٩، لتوضيح المعنى/ ١٦ يونية ١٧١١م.

من كثرة الناس ولا اعلم ما كان تم. وعاد الى المعلقة ومعه جماعة من غلمان الوالى لان المسلمين كانوا وقفوا فى الطريق وقصدوا ان يعبثوا به فما مكنوا ذلك. وعاد الى كنيسة المعلقة بكرامة ووقار وكانت تيك [تلك] الليلة ليلة عيد القديس مرقوريوس (*) وقداهتموا له فى كنيسته بالساحل بما ينبغي لاجل العيد والبطرك. فامتنع من الرواح اول الليل لانه بلغه ان جماعة وقفوا على باب

(*) عيد القديس مرقوريوس: لعل المقصود هنا هو عيد القديس مرقوره الذى يحتفل به فى ٢٢ ابيب = ١٦ يوليو.

وفي ثاني جماد أول[1] اجتمعت الامراء والصناجق بمنزل قايم مقام، وتنازعوا مع بعضهم البعض، بسبب تطاول الحرب، وامتداد الأيام والأوقات، الى ان اتفقوا على انهم ينادوا في شوارع القاهرة: ان كل من كان له عثامنة في وجاق من الأوجاق السبعة، ولم يحضر الى بابه، نهب ماله، وقتل. فأمهلوهم ثلاثة أيام، وانقضى المجلس على ذلك. ولما كان ثاني يوم نودى بتلك المنادات في شوارع القاهرة، بآغا مستحفظان، وأرسل قايم مقام فرمانا الى من في قلعة مستحفظان من الكواخي، والجربجية، والاوضباشية، والنفر، كل من ينزل بعد ثلاثة أيام، نهبنا بيته، وقتلنا من وجدناه ومن فر رفعنا اسمه، ومن حذر فقد انذر، وها نحن قد اعلمناكم، والسلام على من اطاع. فلما قروا الفرمان، تلاشي امرهم، واختلفت كلمتهم. ثم ان الصناجق بلغهم أن الباشا أرسل يعرض الى الديار الرومية في شأنهم، فاجتمعوا وكتبوا عرضا بصورة الوقعة، منافيا لعرض الباشا، وجهزوه صحبة سبعة أنفار من السبعة أوجاق، وأعطوا لكل واحد نصف كيس فلوس، وسافروا من بولاق يوم الجمعة ٤ رابع جماد أول.

وفي يوم السبت خامس جماد أول. اجتمعت الصناجق والامرآء في منزل قايم مقام واتفقوا على أنهم يرسلوا الخيالة الى قصر العيني، ليتحاربوا مع اخصامهم، ويرسلوا المشاة الى بيت أيوب بيك، فاستصوب الجميع ذلك. وتوجهت كل طايفة الى ما اعدت له[2]، وتقاتل الفريقان الى آخر النهار. وأما المشاة فانهم دخلوا الى منزل ابراهيم بيك ابو الشنب وحرقوا بيت عمر اغا، أغة الجراكسة وتحاربوا مع من كان هناك، الى ان ملكوا المنزل منهم، بالقهر والغلبة،

(١) ١٨ يونية ١٧١١م.

(٢) بالاصل داعده والتصويب من التحفة، ص٢٩٠.

الكنيسة وعبثوا بالنصارى العابرين اليها ومنهم من رجموهم ومنهم من لوثوا ثيابهم . ولما كان بعد العشا الاخير جاء كهنة بو مرقوره ومعهم غلمان الوالي واستدعوا الى الكنيسة المذكورة وقال له غلمان الوالى ما سيرنا الامير الا فى خدمتك نقوم ونحن قدامك ومن تعرض الى شئ جازيناه، وكنت انا عنده اذ ذاك فاشرت عليه بان لا يروح فصرف غلمان الوالى بعد ان شكره [شكروه]

ودخلوا فيه، ونقبوا الربع الذى على علو[1] بيت أيوب بيك، واكمنوا هناك ليلتهم، الى ان كان ثاني يوم، وهو يوم الأحد ٦ سادس جماد أول، حملوا حملة واحدة على منزل أيوب بيك، وضربوهم بالبندق، فلم (يجدوا)[2] من يمنعهم، بل فروا من البيت. وكان أيوب بيك قاعدا في المقعد، هو ورضوان آغا، وجميع اتباعهم. فلما رأى المشاة هجموا عليه بالبندق، منعها ساعة الى أن ركب جواده، ورضوان آغا، والذى عنده، وفروا هاربين من باب الجبل، الذى على طريق زين العياد، فلم يتبعه أحد. ثم أن العسكر انشغلوا بالنهب، وملكوا جميع ما في بيته، وقتلوا جميع اتباعه. ومن جملة ما قتلوا الأولاد الصغار. حتى اني دخلت الحريم الذى له فوجدت أربعة أولاد صغار مدبوحين في باب الحريم. وكان أيوب بيك قبل ذلك بثلاثة أيام أرسل زوجته الى طيلون، عند النصراني، المباشر[3] بتاعه، مع انه كان مستعدا الى الحرب، متهيا للقتال، قد ركب المدافع على علو داره، وعلى قلعة الكبش. وقد كان أمس يومه، أرسل له أفرنج أحمد بيرقا[4] صحبة أحمد جربجي، وكرر يوسف أوضباشا، وصحبتهم ماية نفر من الانكشارية، فلم يفد لما أراد الله سبحانه وتعالى خذلانهم وهلاكهم وتشتيتهم فى البلاد وموتهم غربا. ثم أنهم حرقوا البيت، وقلعوا أشجار الغيط، ونهبوا منزل عمر آغا، ونهبوا منزل أحمد آغا، اغة التفكجية فلما رأى أحمد آغا هذا الأمر، فر هاربا الى بيت قايم مقام، فدخل فى

(١) بالاصل «علو على»، والتصويب من التحفة، ص٢٩٠.
(٢) الاضافة ليستقيم المعنى.
(٣) المباشر: اى المشرف على اعماله، أو وكيله فى ادارة امواله.
(٤) بلاصل (ببرق).

وشكرهم. وقمت بين يديه الى ان جاء الى كنيسة بو سرجه وطلع الى قلاية الاب الراهب انبا بطرس المعروف قبل رهبنته بالسنى بو المجد وطيب قلبه وازال ما في نفسه من الوحشة وتفضل في ذلك غاية التفضل. وعاد بعد ذلك الى [الكنيسة] المعلقة مشكوراً ماجوراً. ثم ان شيوخ كنيسة بو مرقوره جااو اليه عند ذلك واخذوه بغير اختياراً منه الى كنيستهم فبات بها وعيد ثاني يوم وكان عيداً

عرضه، فاذا بيوسف جربجي الجزار داخل عليهم، فسأل عن أيوب بيك، ورضوان آغا، وأحمد آغا، فقال له قايم مقام، أما أحمد آغا فها هو في الخزنة، وقد دخل في عرضي، وأنا قد واريناه عند قدومك، فاعف عنه لأجل خاطرنا. فلما سمع الجزار هذا الكلام، قام مسرعا الى الخزنة فوجده جالسا، فلما وقع نظر أحمد آغا على الجزار، قال له: انا في عرضك يا أبا محمد، وخذ لك مايتي كيس، واعف عني، فلم يقبل الجزار، وضربه بالسيف قتله. واما عمر آغا فانه تحصن بالقلعة، ومحمد آغا، آغة المتفرقة، وسليمان، كتخدا الجاوشية، وعلى جلبى بن السباعى، ترجمان الباشا، ومحمد آغا الشاطر، وعبدالله الوالى، وشاهين جربجى جراقة، والطبابلة، ومن انضم اليهم من العسكر لحقوا أيوب بيك في قصر زين الفقار بيك الكبير الذى ببركته، فوجدوه قاعدا وقدامه قادوس ملان من الساقية، فسلموا عليه وجلسوا عنده، فرأوه يبكي، ويقول: هذا أول زولان النعم من علينا. ثم ركب هو واياهم، وتوجهوا نحو الشام، فمكثوا في الشام قدر خمسة عشر يوما. ثم أن ايوب توجه الى القسطنطينية هو واتباعه، فما دخل القسطنطينية الا بعد مضى ثلاثة أشهر، وهو مريض بالبطن، فنزل بمنزل كور على آغا، فمكث عنده ١٧ سبعة عشر يوما وتوفى الى رحمة الله تعالي، ودفن باسكدار سنة ١١٢٣. وسليمان آغا جاوشان مات بالقسطنطينية سنة ١١٢٩[١]، ومحمد بيك الحوشى الكبير، ومحمد بيك آغا. اغات المتفرقة، ماتوا شهداء في حفرة بين الأغراض، سنة ١١٣٠[٢].

(١) ١٧١١م، ١٧١٧م. (٢) ١٧١٨م.

عظيما على ما بلغنى لانى لم احضره ولم يجر بحمد الله شئ مما كان يتوقع ولا شاب العيد شايب. وكان ذلك اليوم الخميس وكانت عادة الفقها ان يحضروا عند مولانا السلطان عز نصره ليلة الجمعة فاجتمعوا عنده على العاده واجروا ذكر النصارى وركوبهم البغال وامر ما جرى من حديث البطرك فلم يصغ الى شئ من ذلك. ولما كان يوم السبت كان والى مصر قد حضر بين يديه فانكر

ومحمد آغا الشاطر، مات بالشام، هو وشاهين جربجي جراقة سنة ١١٣١[(١)]. ورضوان رجع الى مصر، يذكر في محله. ومحمد بيك الكبير فر هاربا نحو الصعيد، يذكر في محله، حين يتوجه الى حفرة بين الأغراض. ثم أن العسكر أوقعت النهب في البيوت، والحرق في بيوت الجماعة الذين كانوا من حزب أيوب بيك فمن جملة البيوت التى نهبت، بيت يوسف آغا، ناظر الكسوة، وبيت محمد آغا قافلة باشا[(٢)]، وبيت محمد آغا، متفرقة باشا، وبيت محمد بيك الكبير، الذى قدام بيت محمد آغا المتفرقة، وحرقوه، وبيت أحمد جربجي العنتبلى، وبيت مصطفى أفندى، كاتب كبير المتفرقة. ولما تم الأمر من نهب وحرق وهروب، استقر الحال على ذلك. ثم ان في ثامن جماد أول سنة ١١٣٣[(٣)]. اجتمعت الصناجق والأمراء في بيت قايم مقام، وهم مسلحين، ثم انهم أرسلوا طايفة منهم الى جبل الجيوشى، وركبوا المدافع على قلعة الباشا، وعلى باب الانكشارية، واحتاطوا بالقلعة، وأطلقوا على الباشا سبعة مدافع وطلق بندق، فما رأى الباشا ذلك الحال. نصب بيرقا ابيضا[(٤)] على بدن القلعة. ونادى: الأمان، وانهم لا يحاربوه: ويسلم لهم في كل ما يطلبوه.

وفر كل من كان داخل القلعة، والبعض نزل بالحبال من على بدن القلعة، فالذى سلم راح؛ والذى وقع في أيديهم قتلوه. ثم ان الباشا فتح أبواب الديوان، ودخلت العسكر الى

(١) ١٧١٩م.
(٢) بالاصل «قافلا باشا» والتصويب من التحفة، ص٢٩٣.
(٣) ٢٤ يونية ١٧١١م.
(٤) بالاصل «بيرق أبيض».

عليه وقال: بلغتى ان اهل مصر تعرضوا الى البطرك والى كنايسه واقسم بالله لئن جرى شى من هذا فكان قبالته الا روحه. واشتهر هذا الامر لكل احد واطمانت نفوس المومنين [القبط] وقوى نفس البطرك مع ان الساده المسلمين ما فيهم الا من ساعد واحسن السفاره وانما هذا كان من العوام وبعض الفقهآ. ثم جآء الى كنيسة حارة الروم بالقاهرة في نهار يوم الاحد الثامن والعشرين من ابيب(*) واهتم له بها ارشد باقتها الشيخ فخر

(*) ٢٨ أبيب = ٢٢ يوليو

- -

حوش الديوان. ثم ان الباشا أرسل القاضى، ونقيب الأشراف، يطلب منهم الأمان فلما رات الصناجق القاضى ونقيب الأشراف، سلموا عليهما[١]، وسألوهم عن مطلوبهم، فقالوا: الباشا يقريكم السلام، ويقول لكم انه اغتر بهؤلاء الشياطين وكفاهم ما حل بهم؛ والمراد منكم أنكم تعلمونا بمطلوبكم، وأنا لا نخالفكم. فأجابهم الصناجق؛ وقالوا مهما، تعلمون[٢] حضرة الوزير أن الأغوات والعسكر وأعيان البلد قد اتفقوا على عزلانه، وان يكون قانصوة بيك قايم مقام، وحضرة الوزير ينزل من القلعة، ويسكن تحت فى احد المنازل، الى أن نرسل نعرض الى حضرة ولى نعمتنا؛ ويأتينا منه رد جواب، فما يريده اطعناه. فأرسل القاضى نايبه الى الوزير يعرض عليه الأمر، فأجاب بالسمع والطاعة، واستأمنهم على نفسه، وماله، واتباعه، فامنوه، وركب من ساعته، وقايم مقام امامه، وآغة المتفرقة عن يمينه وآغة الانكشارية عن يساره، والأغوات واختيارية البلوكات امامه، وخلفه، وقد داروا به كما يدور الخاتم بالاصبع، يحفظونه من سفهاء العسكر، والرعية.

ونزلوا من باب قراميدان، وشق من الرميلة على الصليبة، والرعايا قد اصطفت ميمنة وميسرة، يشافهونه بالسب، الى ان أدخلوه الى بيت على آغا الخزندار، الذى تجاه المظفر. فهذا ما كان من خليل باشا، وأما ما كان من العسكر، فانها هجمت على باب مستحفظان

(١) بالاصل «عليهم».　　(٢) بالاصل «لهم تعلموا».

السعد بن زنبور وكان ايضا يوماً مشهودا. وكان الناس يظنون انه ياخذ الشرطونيه(*) من كل من يكرزه لاجل المبلغ المقدر عليه فلم يجز الامر فى ذلك على نظام ولا بشرط وكان يجنى من الناس على قدر قدرتهم بغير عسف ولا حيف. وشرع فى تكريز الاساقفة على الكراسى الخاليه. وكرز فى يوم الاحد الخامس من مسرى(*) بكنيسة بومرقوره اربعة اساقفه على كرسى سمنود واسنى والواح

(*) الشرطونية: السيمونيه اموال تجمع مقابل التعيين فى وظائف الكنيسه.

(*) ٥ مسرى = ٢٩ يوليو.

فملكوه، ونهبوا أسباب اغاة مستحفظان حسين اغا كتخدا أيوب بيك سابقا، وكان سابقا يتاع عيدان [قصب] ومجاحيد [خضروات] فى الأسواق، فحل عليه نظر هذا العزيز فعمله آغا مستحفظان، وختمت برمى عنقه. ونهبوا أوض الجاوشية تماما.

وأما على حسن كتخدا، فانه خرج من باب المطبخ، فلما رآه يوسف جربجى الجزار، أشار الى العسكر بأن قطعوه، فنزلوا فيه بالسيوف، وهو يقول: أمان، فقتلوه. وأما افرنج أحمد، فانه طلب الأمان، فأعطوه الامان. فنزل وفى رقبته محرمة، وبيده حربة يتوكى عليها، وصحبته اسماعيل أفندى، وكشك أحمد أوضباشا فبمجرد ما نزل الى الحجر، رأى كور عبدالله، وحسن كتخدا النجدلى، وناصف كتخدا، وبقية الثمانية، جالسين على مسطبة القهوة، على باب الدريس، فسلم عليهم فردوا عليه السلام، فجلس بجانبهم، فتغامزوا عليه، ففر هاربا نحو باب الحطابة، فضربة قواس بنبوت على رأسه، فوقع الى الأرض، فمالوا عليه بالسيوف فقتلوه، (وقتلوا)(١)، اسماعيل افندى، وكشك أحمد.

وأما عمر آغا، آغة الجراكسة، فانهم قبضوا عليه، وهو لابس قميص أزرق بتاع فلاح، كان أخذه منه، وأعطاه ملبوسه، وعلى رأسه طاقية بيضا، وهو فار نحو البساتين. وأتوا به الى باب

(١) الاضافة لتوضيح المعنى، من التحفة، ص٢٩٣، مصطفى ابن الحاج ابراهيم «تاريخ وقايع مصر» سنة ١١٠٠/١١٥٠هـ - ١٦٨٨/ ١٧٣٧م، مخطوطة، ص١٣٢.

[الواحات] والبنوان واستمر تكريز الاساقفة والقسوس والشمامسة والرهبان والعلمانيين. واستقرت القاعدة على انه لا يكرز احداً الا بشرطونيه، وكان في الاساقفة من يزن المايتى دينار واقل الى المايه دينار، والفقير والصاحب خمسين دينار والذين من هذه البابه [الفئة] اثنان او ثلاثة والا الجميع من البابة الكبيرة. ولم يتكرر من الاساقفة احد بغير شرطونيه سوى مطران دمياط

العزب، فوقع في عرض حسن كتخدا الجلفي، وكان كتخدا الوقت، فعالج ان يمنع عنه، فما قدر، فقطعوا راسه في حوش الآغا، مثل السايس. ثم أنهم أخذوا رءوسهم وودوهم الى بيت قايم مقام، وأجسادهم مرمية على الباب ذلك اليوم بطوله. ثم أنهم بعد ما طافوا برءوسهم على الصناجق جميعا وضعوها على أجسادهم وأرسلوهم الى منازلهم.

وأما العسكر فانهم نزلوا الى منزل يوسف جاويش جمليان فنهبوه وحرقوه. ونزلوا فقابلوا معكوسا يقال له قصاب محمد، وهو أخذ نهب من بيت يوسف جاويش، فأخذوا النهب منه، وقتلوه، ونهبوا منزله، فلا رحمه الله، لأنه كان من عادته قتل النفس، وشرب الخمر، وهتك الأحرار، وكان أياما يعمل عزب، وأياما انكشارى. ثم أن على آغا مستحفظان، طلع الى الباب وجلس في محل حكمه في باب مستحفظان.

وفي يوم الثلاث، سابع جماد الثاني[1]، أوكب حسن كتخدا جلب، الى باب مستحفظان، والبيرق أمامه، الى أن جلس في محل حكمه.

وفي ثاني يوم أرسل الكتخدا، جاويشا، الى أحمد كتخدا بر مقزيز، فأخذه وأطلعه الى الباب، وخنقوه، ونزل الجاويش ختم على بيته. ثم ان على آغا ركب وشق القاهرة، تقدمه الملازمين، لابس البيرشان، فطاف البلد، وضرب، وقتل وكان أكثر مما كان أولا، وهابه الناس.

(١) ٢٣ يولية ١٧١١م.

الذى كـان قـد ترهب وكـان يعـرف قـبل رهبنتـه بالعميد بن الدهيرى وكان قد جا من الشام وسكن مع البطرك المذكـور قبل بطركـيتـه بدير القـدس فيلاتاوس المعروف بدير النسطور فانه لم ياخذ منه شيا. واما القسـوس فكان فيهم من يزن الخمسـة دنانير الى ما دونها والشمامسة ممن كان يكون له خصم او مناصب يقوم بالعشـرة الدنانيـر واكثرهم من ثلثة دنانير الى دونها. وكانت قضية مستكره الا انها قد شاعت وذاعت وعرفت والفت، ثم انه

ثم أنه مر على [جامع] المظفر فرأى أبو بكر التراس بتاع الشون. خارج من بيت خليل باشا، فرمى رقبته بين الأربعة مفارق، ولقيه ابن الخبيرى فى الصليبة فرمى رقبته، ثم (طلع)[1] الـى الباب فأتاه محمد بن الشيخ عاشور، الذى من قايتباى، فلما رآه أمر بقتله، فقتله ورماه من سور[2]. القلعة.

وفى يوم الخميس تاسع جماد الثاني، ألبس قايم مقام أغوات السبع اوجاق قفاطين التقرير، وطلعت الستمايه التى كانت راحت الى العزب، الى باب مستحفظان، وطلعت لهم العزب كواخيتها، وجربجيتها، واوضباشيتها، ونفرها، فى جم غفير الى ان ادخلوهم الى الباب، وشربوا القهوة والشربات ونزلوا. وفى يوم السبت حادى عشر جماد البس قايم مقام الى يوسف جربجى قفطان الصنجقية وامارة الحاج معا. والبس محمود بيك قفطانا على قبطانية السويس، وفى ثانى يوم عين يوسف بيك الجزار، ومصطفى آغا آغت الجراكسة، للتجريدة للشرقية، على عرب الجزيرة، وفى يوم رابع عشر جماد البس محمد بيك الصغير، الذى سموه فى العيطة بقطامش قفطان على ولاية جرجة ومنفلوط، وطلع من منزله الذى بقيصون بالاى، والعسكر تقدمه، والطوايف خلفه الى قدم النبى، وعينوا صحبته خمسماية نفر من السبعة أوجاق، واعطوا لكل نفر الف وخمسماية فضة ديواني. وفى عشرين جماد الثانى رجع الجزار،

(١) الاضافة لتوضيح المعنى، من الجبرتى، جـ١، مرجع سابق.
(٢) بالاصل «صوره صوبت فى كل النص.

صرف بعض اولاد الثوانى والثوالث(*) واقام الحجه فى امرهم، فجات هذه مع الشرطونية فانحرف الراهب انبا بطرس المعروف بالسنى قبل رهبنته ولم يرجع يحضر معه فى كنيسة ولا ياخذ له بركه مع ان الشيخ نش الخلافه ابا الفتوح المعروف بابن الميقاط قد تغير قلبه من جهته وصار لا يصل اليه ولا يسلم عليه بعدما كان بينه وبينه مما تقدم شرحه متقدماً.

(*) أولاد الزوجه الثانية والثالثة كانوا محرومين من خدمة الكنيسة (الكرازه) بحسب قوانين الكنيسه القبطية.

ومصطفى آغا من التجريدة. وفي ثاني عشرين جماد الثاني سنة ١١٢٣، ألبس قايم مقام الى محمد بيك بن اسماعيل بيك الكبير، واسماعيل بيك بن ايواظ بيك، قفطانين للسنجقية فى يوم واحد، ولكن محمد بيك قبل اسماعيل، ونزلت لهم الصناجق السلطانية، صحبة أغوات الباشا خليل على ثلاثة أيام، أولهم الجزار، وآخرهم اسماعيل. وفى يوم الخميس ثامن عشرين جماد الثاني وردت الأخبار أن محمد بيك الصغير، تلاقيه هو ومحمد بيك الكبير وتقاتلا. ثم أنه كسر[1] وفر [محمد بك الكبير]، هو ومن معه نحو مصر. ثم أنهم قبصوه، فرأوه عدى من على بولاق بالليل، الى أن ورد دجوة، وأخذ من حبيب ما يحتاج اليه الأمر. ولحق بأيوب، ومات كما ذكرنا. واطاعت البلاد، وصفا الوقت وطاب، ونالوا من أعدايهم ما أملوه. ونزل حسين كتخدا الجلفي الى الامام الحسين، واشترى محلات. ووسعه وبناه هذه البناية التى هى الآن، واحدث الصهريج[2]، ورتب فيه اجزاء تقرى الآن وكان ذلك فى رجب سنة ١١٢٣[3] وعملوا له تاريخا وهو هذا:

من جاء هذا الحي أصبح آمنا ... وقد نال منه سعادة الدارين
فانزل بآل البيت واروى مؤرخا ... حسنا أتاك النصر بالتحسين

ثم أنه تابعه شاهين أوضباشا، وجدد فيه ووسع البابا. وأوفى النيل يوم الجمعة ثانى رجب

(١) بالاصل «كسروا».
(٢) كتب عنوان جانبي «اعرف من وسع فى مقام الحسين رضى الله عنهم».
(٣) أغسطس/ سبتمبر ١٧١١م.

(*) ٩٥٢ق = ١٢٣٦م

ثم دخلت سنة اثنين وخمسين وتسع مماية(*). وكرز البطرك المذكور منذ بطركيته والى ان دخل الصوم من هذه السنة ما يزيد عن اربعين اسقفاً اما الشمامسة والقسوس فما لا يعد. وكان العذر فى اخذ الشرطونيه ما قدر السلطان وتغلق [تسديد الاموال] الذى [التى] للسلطان. وحمل [البطرك] هو كمال ثلثة الف دينار والحال على ماهو عليه. وكان السلطان اعز الله نصره قد بلغه خروج

الموافق ثالث مصرى، ووافق تاريخه: بالفضل قد جاد الاله. وفى ثانى عشر رجب ورد مسلم ولى باشا من سكندرية، وطلع الى الديوان من يومه.

٨٤. ذكر تولية ولى باشا

من جزيرة ساقظ

عفى الله عنه

قدم الى مصر من جزيرة ساقظ، وكان محافظا بها، وطلع الى الديوان بالاى عظيم فى يوم الخميس سابع عشرين رجب سنة ١١٢٣[١].

وفى عاشر رمضان جلس رجل صفطا[٢]، رومى الجنس، بجامع السلطان ابو النصر المؤيد، بأيوان الشافعية، قريبا من تربة السلطان، يوعظ الناس على الكرسى، خمسة أيام، فتسامعت به الناس، فهرعوا اليه ليسمعوا وعظه وتكاثرت الخلق حتى امتلأ الايوان، وبقيت الخلق واقفة على أرجلها من خارج الدرابزين الخشب، من كثرة زحام الخلق، كى يرونه، فلم يمكنهم رؤيته. فلما رأى انكباب العالم عليه وشوقهم لمشاهدتهم، صعد على الكرسى الكبير بالمقصورة، ثم زاد الامر حتى صار كل يوم يتزايد حتى ملأ رواق الحنفية، ورواق مالك لعند الحنفية التى بوسط

(١) مدة ولايته: ٢٧ رجب ١٢/١١٢٣شوال ١١٢٦هـ - ١٠ سبتمبر ٢١/١٧١١ اكتوبر ١٧١٤م.
(٢) أى واعظا، الجبرتى، جـ١، ص١٧٨.

بعض عسكر الروم والمسلمين قد قصدوا اطراف بلاده بالمشرق فخرج الى الشام بالعساكر والجحافل، فاما اولئك فانهم نزلوا على امد واقاموا عليها جمعه من الزمان فلم ينالوا منها طايلا فرحلوا عنها الا ان احرقوا زراعاتها واحرقوا رساتيقها(*). ثم جاو الى السويدا اخذوها بمخامرة [العالي] ممن كان بها لانه باعها لهم. ثم انتقلواالى الرها فاخذوها بالسيف وقتلوا اكثر من كان منها

(*) رساتيقها: مفردها رستاق، ومعناها القرى والحقول.

الصحن. وان من جملة وعظه ان كرامات الأولياء تنقطع بالموت وما يذكر لهم من الكرامات بعد موتهم فباطل[1]، وما نقله الشعراني في طبقاته بأن الأولياء لهم اطلاع على اللوح المحفوظ فباطل لا أصل له، ومن يقول بذلك فهو كافر، لأن اللوح لا يطلع عليه الا الأنبيا، فكيف ما يتيسر للأولياء. حتى انه أنكر رؤية ـ أى اطلاع ـ النبى الى اللوح، وأن جميع ما يوقد في مقامات الأولياء من شمع وزيت لا يجوز، ويخشى من قبل اعتابهم ومقاماتهم الكفر. ويجب على المسلمين وولاة[2] الأمور السعى فى ابطال ذلك ومن جملة ما ذكره أنه يجب على المسلمين أن يهدموا القبب المبنية على الموتى، والتى على التكايا كتكية الجلشنية، والميلاوانية[3]، واضرحة الأولياء: وحرض على منع الأولياء الفقرى الذين يذكرون الجلالة فى رمضان عند باب زويلة بعد العشاء. فلما سمعت حزبه منه هذا القول، كمنوا لما صلت الناس العشاء، وخرجت بالنبابيت والسيوف، على الذين يذكرون الجلاله، فضربوهم، فهاجت الناس وهربت وصاروا يقطعون الاكر التى على الباب والجوخ، ويقولون أين الأولياء. ثم أن رجلا تركيا يقال له يوسف، تابع فروح كتخدا، أتى الى الطاقة التى وراء الباب وبال فيها، فابتلاه الله باليرقان الى أن مات. فتوجه بعض الناس الى الشيخ احمد النفراوى واخبره بما قاله

(١) كتب عنوان جانبى «اعرف كلام هذا السفط فى الاولياء الخ». (٢) بالاصل «والات».
(٣) تكية الجلشنية، والميلاوانية: كانتا من أكبر تكايا الصوفية العديدة التى انتشرت فى القاهرة فى ذلك العصر، وحبست عليهما اوقاف كثيرة، كما يتضح من دفاتر الرزق الاحباسية المحفوظة بدار الوثائق القومية.

واسروا وسبوا وكان اكثرهم المساكين نصارى سريان وارمن. وحاصروا القلعة اياماً فاخذوها بالامان من غلام من غلمان السلطان يقال له كويح يقال انه صالحهم عليها لانها كان بها مال عظيم وسلاح وقماش يناهزماية الف دينار فاخذوها واخذوه معهم. ثم انتقلوا الى حران اخذوها واخذوا قلعتها بالامان ثم ان السلطان اعز الله نصره عدى الفرات فتركوا في كل قلعة من

السفطي، أى الواعظ، بانقطاع كرامات الأولياء بموتهم، وعدم جواز «الاطلاع على»[1] اللوح المحفوظ حتى للأولياء والأنبياء. فأجاب الشيخ أحمد النفراوى من المالكية، والسيد على من الحنفية، والشيخ أحمد الخليفى، والشيخ عبده الدوى من الشافعية، كرامات الأولياء حق وأنها جايزة فى حال الحياة وبعد الممات، ومن أنكر ذلك فانه معتزلى.

وأما انكاره لكون أن النبى لا يطلع على اللوح المحفوظ، فهو كلام لا يجوز التكلم به. وان قايله يجب على الحاكم زجره، بل وقتله، وكتبت عليه العلماء (فتوى)[2]. فأتى بعض الناس ورقب الواعظ حتى جلس على الكرسى، ودفعها[3] له. فلما رآها اغتاظ غيظا شيدا، وقال: أيها (الناس)[4] ان علماوكم، أولاد العرب، أفتوا بخلاف ما ذكرته لكم، بجواز قتلى، وانى أريد المباحثة[5] معهم فى مجلس شيخ الاسلام، فهل منكم من يساعدنى على ذلك، ويقوم معى لنصرة الحق وتأيده، وخماد شوكة هؤلاء الكفرة الزنادقة، الذين أفتوا بالباطل.

فعند ذلك قامت الجماعة المنتصرة له، وقالوا له: اذهب بنا أى محل اردت، ونحن معك فى كل ما تريد. فنزل من على الكرسى، وصار نحوه، نحو الألف من الذين يحضرونه، من جنس الاتراك [من فرق الجند] الذين لم يفرقوا بين ميم ونون، اذا وضعت. وسار بهم من وسط

(١) الاضافة لتوضيح المعنى.
(٢) الاضافة من الجبرتى، جـ١، ١٧٩، لتوضيح المعنى.
(٣) اى «الفتوى».
(٤) الاضافة من الجبرتى، جـ١، ص١٨٠، لتوضيح المعنى.
(٥) بالاصل «المباحة» والتصويب من الجبرتى، جـ١، ص١٨٠.

يحفظها وتوجهوا الى بلادهم بعد ان اسروا وقتلوا واخربوا ما شا الله. فسير السلطان عسكر الى دنيسر وبلادماردين لان صاحبها كان مع الرومى فاخربوا البلاد واسروا العباد واخذوا من الكسب ما لا يحصى حتى ان المراة المستحسنه بيعت بخمسين درهما نقره والبغل الجيد بثلثين درهما والخروف بدرهم ووصل سبيهم الى القاهرة ومصر. ثم عاد السلطان الى حران ونزل على قلعتها

القاهرة الى بيت القاضي، وكان ذلك في يوم الاثنين تاسع رمضان سنة ١١٢٣[١]. وكان الوقت قريب العصر. فلما رآهم القاضي انزعج وقال: ما الذى يريدونه، فقالوا: نريد منك أن ترسل تحضر لنا الشيخ أحمد النفراوى، والشيخ أحمد الخليفى، والسيد على، الذى كتبوا على هذه الفتوة. واعرضوا الفتوى على القاضي، فلما قرأها، قال لهم اصرفوا هؤلاء الجموع، ونحن نحضرهم لكم، ونسمع دعواكم. فقالوا له: ما تقول فى هذه الفتوى، فقال: باطلة. فطلبوا منه حجة على بطلان الفتوى.

فقال لهم ان الوقت قد ضاق، والشهود قد ذهبوا الى منازلهم، فاصبروا الى غد، فخرج ترجمان القاضي ليعرض عليهم هذا الأمر، فلم يصغوا لقوله، بل هجموا عليه، وضربوه ضربا شديدا. فقام القاضى ودخل الحريم وهرب من كان في المحكمة. وكان القاضى رسول زاده، والترجمان عبده، وأما النايب فما ساعه الا أنه كتب لهم حجة حسب مطلوبهم.

فلما كان ثانى يوم اجتمعوا وقت الظهر لسماع الواعظ، على عادتهم، فلم يحضر فأخذوا يسألون عن سبب المانع من حضوره، فقال بعضهم: اظن أن القاضى منعه من الوعظ، فقال رجل منهم: أيها الناس من أراد الحق ونصرته، فليمضى معى حيث أريد. فتبعه نحو الألف، فمضى بهم الى القاضى.

فلما رآهم القاضى، ومن فى المحكمة، طارت عقولهم من الخوف والرعب، وفر من كان

(١) ٢١ اكتوبر ١٧١١م.

وحاصرها اياما وامتنعت فنصب عليها منجنيق مغربى فاخذها بالسيف واسر كل من فيها وكانت عدتهم تزيد عن سبع ماية رجل وسيروا الى القاهرة في القيود والكبول. وانتقل الى الرها نزل على قلعتها وكانت احصن وامنع من قلعة حران فلم تمسك مع المنجنيق المغربى لانه هد منها بدنه يوم علق عليها فاخذت ايضا بالسيف واخذ من بها اسرى ووصلوا ايضا الى القاهرة وكانوا زها الف رجل. وكان النيل قد بلغ في هذه السنة الى

هناك من الشهود والرسل، ولم يبق سوى القاضى، فدخلوا عليه، وقالوا: مولانا القاضى، أين شيخنا؟

فقال: لا أدرى.. فقالوا له: قم، فاركب معا الى الديوان، لنسأل الباشا عنه، ونسأله أن يحضر لنا أخصامنا، الذين أفتوا بقتل شيخنا، ونتباحث معهم فان اثبتوا دعواهم نجوا، وان لم يثبتوا قتلناهم. فركب القاضى بالقهر عليه الى أن مضوا به الى الديوان، وهم خلفه. فسأله الباشا عن سبب ذلك! وعن حضوره فى غير وقت!..

فقال: أنظر الى هؤلاء الذين ملوا حوش الديوان، هم الذين[1] أتوا الى، وركبونى بالقهر على، وعرفه عن الذى وقع منهم، بالأمس واليوم، وأنهم ضربوا الترجمان وأخذوا منى حجة على مشتهى مرادهم، وهاهم أركبونى بالقهر على، خوفا على نفسى منهم. فأرسل الباشا الى كتخدا مستحفظان، وكتخدا عزبان وقال: سلوا هؤلاء عن الذى يريدوه. فقالوا: نطلب السيد على، والنفراوى، والخليفى، الى مجلس الشرع يتباحثوا مع شيخنا فيما أفتوا به عليه، وأن حضروا والا كبسنا عليهم منازلهم. فاعطاهم الباشا فرمانا على طبق مرادهم، فنزلوا الى المؤيد، وأتوا بالواعظ وأجلسوه على الكرسى، كما كان أول فصار يحرضهم على مجيئهم الى المؤيد فى غد، وهم على غرورهم، واطاعتهم لهذا المعتزلى، وميلهم اليه بالقلب والقالب. وكنت جالسا صحبة شيخنا، الشيخ على الطيلونى، ونحن نتحدث فى تعصب هؤلاء الطايفة الضالة، وميلهم لهذا المعتزلى ثم أن الشيخ قال: يا فلان لقد صدق الذى قال: أن أول ما يطع

(١) بالاصل «الذى».

ثمانية عشر ذراعاً واحدى عشر اصبعا وكانت الاسعار رخيصه والاشيا موجودة، ولم يكن فى البلد شي غاليا سوى السكر فانه كان بثلثة دراهم الرطل. واتفق فى هذه السنة ان وقع فى الديار المصرية وباء عظيم وخصوصاً بالقاهرة ومصر وضواحيها حتى انه كان يخرج في كل يوم من البلد ما يزيد عن مايتي ميت واستمر هذا من النصف من بابه الي اخر امشير وكان شيا ماشوهد مثله. وقل من لا مرض فى هذه السنة. ولم يكن

الدجال، أهل مصر. وما زال يحرضهم على مجيهم في غد، واجتماعهم في المؤيد، والتوجه معه بجمعهم الى القاضي، وكل من يخلف عن المجيء، فتكن مسينا. وصار يقول: انصروا الحق ينصركم الله، كيف ما تسكتون عن من يقول ان: الاولياء لهم الكرامات بعد الممات فاجابوا بانا معك في كل ما تريد وافترقوا على ذلك.

وأما حضرة الباشا فانه بعد ما أعطاهم الفرمان أرسل فرمانا الى ابراهيم أبو شنب، وغيطاز بيك، يعرفهم عن القضية التى حصلت، من اجتماع النفر والعامة الذين اجتمعوا على الصفتا، وقلة الأدب التى وقعت منهم، وطلوعهم الى الديوان، وأذيتهم الى شيخ الاسلام، وركوبه فى غير وقت، وهؤلاء ما مرادهم من هذا شيء، وانما مرادهم تحريك الفتنة. فلما قروا الفرمان طار عقلهم فأرسلوا جمعوا الصناجق والأغوات فى منزل الدفتردار، وعرضوا الأمر عليهم، فأجمع رأيهم أنهم ينظروا هؤلاء العصبة التى قامت مع الواعظ، من أى وجاق، فيخرج الوجاق من طايفته، وينفوا الواعظ، وأمروا آغا مستحفظان أن يركب، ويقبض على كل من رآه منهم، وأن يدخل للمسجد ويخرج كل من كان ساكنا منهم فى الخلاوى، ويفتش عليهم، ويوقع الرعب فى قلوبهم، وقلوب هؤلاء الزنادقة. وتفرقوا على هذا التدبير. ثم أن فى ثانى يوم ركب على أغا الى المؤيد، وأرسل الجاوشية الى المسجد، ودخلوه وفتشوا، فلم يجدوا احدا، والكل هربوا واخلوا الخلاوى جميعا، فسمر الخلاوى جميعا، ومسك من كان جالسا ينتظر مجيء الواعظ لأجل ما يستفيد من وعظه، فأرسل كل منهم الى وجاقة فضربوا البعض، ونفوا البعض، وهمدت الفتنة.

فى البلدين [القاهرة ومصر عتيقة] بيت لم يخرج منه ميت ثم رفع الله ذلك عن الناس وبقيت عقاب الامراض. وكان الى جانب الكنيسة المعلقة(*) مسجد وفيه مادنة عاليه وهو مجاور للطبقة [المنزل] التى سكن فيها الاب البطرك وهى كانت قلاية انبا مرقس بن زرعه(*) نيح الله نفسه وكان فيه موذن يسمي سالم ولا شك انه ما كان ينصف من جهة من كان يتولى احوال البطرك.

(*) الكنيسه المعلقة : اقيمت هذه الكنيسه على برجين من حصن بابليون الرومانى.
(*) بطرك الاسكندرية ما بين ١١٦٦ و ١١٨٩م.

وفى يوم الجمعة ثانى شوال توجه على آغا الى جامع طيلون[١]، ليصلى الجمعة، فصلى الجمعة، وبدى يصلى فى سنة الجمعة الاخيرة، فسجد للركعة الثانية، ومكث فى سجدته ولم يرفع رأسه فحركوه، فاذا هو قد قبض فى السجدة الثانية، فأخذوه الى منزله، فغسلوه، وكفنوه، من يومه، ودفنوه ثانى شوال سنة ١١٢٣. ثم أنهم أجمع رايهم أن يجعلوا محمد أفندى بن طسلق، آغاة مستحفظان فأخذوه الى الديوان، وألبسوه الاغوية، فى يوم الاحد رابع شوال سنة ١١٢٣[٢].

وفى يوم الثلاث ثالث عشر شوال ألبس الباشا الأعسر[٣]، تابع ابراهيم أبو شنب، قفطان السنجقية، مع كشوفية البحيرة، وفى يوم الخميس خامس عشر شوال سافرت السبعة أنفار بالعرض الى الأعتاب العلية.

وفى سابع عشرين شوال ورد آغا من الديار الرمية، وصحبته ثلاث خطوط، أحدها: باستعجال الخزينة،والثانى، بمحاسبة خليل باشا، والثالث: ببيع بلاد الفارين، والمقتولين،وبيع أملاكهم، وأن يجعلوا الذهب[٤] البندقى بماية وخمسة عشر، والطرلى بماية، والجنزيرى بماية

(١) بالاصل «هيلون». (٢) ١٥ نوفمبر ١٧١١م.
(٣) كتب عنوان جانبى «اعرف تولية احمد باى الاعسر السنجقية ١١٢٣م».
(٤) كتب عنوان جانبى «اعرف التبيه على سكة الذهب».

وكان من حقوق الطبقة [المنزل] المذكورة سطيحة [حوش] من جانب المسجد وكانت مكشوفة من المسجد فاراد البطرك ان يعمل عليها سترة فمنعه الموذن المذكور ولما عملت طلع هدها وازلها وبقيت النفوس غير طيبة. واتفق ان البطرك خرج الى منية مصطراد(*) ليعيد بها عيد السيده في احد وعشرين يوماً من طوبه(*) وكانت الطبقه المذكورة خالية فاصبح من كانت معه مفاتيح القلاية طلع اليها فوجد الابواب من برا مغلقة

(*) [مسطرد] تبعد عن المطرية بثلاثة كيلو مترات غرباً، شمال القاهرة.

(*) ٢١ طوبه = ١٦ يناير. وهو عيد رفع السيدة مريم العدرا إلى السماء بعد موتها.

ستين، والكلب بخمسة وأربعين، والمقصوص بطال، ونودى بذلك فى شوارع القاهرة، وأن لا أحد يركب بغلة، ولا رهوانا، من أولاد البلاد والتجار. وفى غرة القعدة باعوا جميع بلاد المقتولين ما تملك أيديهم. وفى ثانى يوم ركب اغاة مستحفظان، ونزل الى الصاغة، ونادى ان لا تباع فضة ولا ذهب الا لدار الضرب، وأن لا تفتح دكاكين الصاغة حتى تستكفى دار الضرب. وقفلت الصاغة، وقطعوا الفضة الجديدة. وفى غرة محرم الحرام سنة ١١٢٤[١] بدى ولى باشا بعمارة قنطرة الجسر، لتهدمها، وهى القنطرة التى قريبة من الطيبى. وجدد قبة قاعة المقياس، بأمر من حضرة مولانا السلطان أحمد، ومباشرة مولانا ولى باشا.

وفى هذا التاريخ ظهر البطيخ الاجرب، والسبب فى ذلك أن غيطاز بيك اتاه بطيخ من غزة، فرآه صادق فى الحلاوة، فجمع عجفة، وأرسل زرعه فى الجيزة، فطلع عجايب، وهذا مبداه فى مصر سنة ١١٢٣[٢].

وفى عاشر محرم سنة ١١٢٤[٣] ورد أمير أخور، وبيده خط شريف بطلب عسكر ثلاثة الالف الى بن الأصفر [روسيا]. وفى يوم الثلاث ثانى عشر محرم تشاجر رجل شريف يقال له السيد وفا، مع مملوك من مماليك رجل خواجا يقال له الحاج عبدالله المسلمانى والمملوك يقال له

(١) ٩ فبراير ١٧١٢م.

(٢) كتب عنوان جانبى «اعرف ظهور البطيخ الاجرب باقليم مصر».

(٣) ١٨ فبراير ١٧١٢م.

سالمه والباب الفوقانى قد كسر وموضع اخر قد ثقب وباب الخزانه قد قلعت منه حشوه، وكان ثم قماش كثير. وجاء البطرك فما وجد عدم له سوى صنية فضه وصليب فضة كان فيه قطعة من صليب الصلبوت وجميع القماش سالما وكانت له قيمة وحضر البوابون فشهدوا ان هذا المكان ما عمل الا من ناحية المسجد واعلموا الوالى بذلك فاخذ الموذن وحبسه وجاءت شفاعة بعض اكابر المسلمين الى البطرك بسببه فابى ان يخرجه

(*) أهم أحداث سنة ٩٥٣ ق. = ١٢٣٦م. = ٦٣٣هـ.
- ١ توت سنة ٩٥٣ = ٢٩ اغسطس ١٢٣٦ = الجمعة ٢٤ ذو الحجة سنة ٦٣٣.
- فيها عاد السلطان الملك الكامل الى الديار المصرية.
- [١ يناير سنة ١٢٣٧ = ٦ طوبه سنة ٩٥٣ = الخميس ٢ جماد اول سنة ٦٣٤].
- فيها قويت الوحشة بين الملك الكامل وبين أخيه الملك الأشرف، الذى اتفق مع صفية خاتون،

ابراهيم، فتشاجر معه فى البندقانيين، فضربه المملوك، فقتله، وفر هاربا، فوضعت الأشراف المقتول فى تابوت، وطلعوا به الى الديوان، وأثبتوا القتل على القاتل.

فلما كان يوم الخميس، عاشر محرم قامت الأشراف وقفلت أسواق القاهرة، وصاروا يرجمون أهل الدكاكين (بالحجارة)[1] ويأمرونهم بقفل الدكاكين[*]، وصاروا كل من رأوه فى طريقهم من شريف أو رعية يضربوه، ومكثوا يومين على هذا المنوال.

وارسلوا خبرا للاشراف القاطعين فى قرى مصر ليأتوا، واجتمعوا بالمشهد الحسينى، ثم أخرجوا أمامهم بيرقا، واجتمعت الناس خلفه، وتوجهوا الى منزل غيطاز بيك، فخرجت عليهم جماعة بالسلاح، فهزموهم، وقامت عليهم العسكر، وركبت اغوات الثلاث وجاق السباهية[2]، واغاة الانكشارية فى عدته وعدده. وشق القاهرة، فعند ذلك تفرق جمعهم، وذهب كل احد الى حال سبيله، ونادوا بالامن والامان، وان تفتح الرعية دكاكينهم.

وكانت الناس فى صلاة الجمعة فى حال مرورهم، ولقد جاء صالح آغا، اغة الجملية، على باب جامع الفاكهانى[3]، والناس داخلة الى صلاة الجمعة، وهو يسأل الداخلين، ويقول: هل

(١) الاضافة لتوضيح المعنى، من الجبرتى، جـ١، ص١٨١ - ١٨٢، وبالاصل يوجد «ويقولون».
(*) بالاصل «بالاحجار» حذفت ليستقيم الاسلوب.
(٢) بالاصل «الصباحية».
(٣) جامع الفاكهانى: كان يعرف قديما باسم جامع الظافر، وهو من المساجد الفاطمية، وله باب بشارع العقادين، وكانت شعائره مقامة، من ريع أوقافه، على مبارك، الخطط، جـ٥، ص٦٧.

فتعصب الموذنون بالجامع العتيق بمصر وهم جمع كبير وصاروا يجتمعون طوايف ويحضرون الى المسجد المذكور ويوذنون جميعا حتى تنزعج الحاره لهم. فشكى حالهم الى القاضى جمال الدين بن المثلى صاحب ديوان الاحباس فرسم بان لا يوذن في المسجد الا موذن واحد وافضى الامر الى ان اغلق المسجد المذكور فاجتمع المسلمون العوام وجآوا في جم غفير الى باب المسجد وكسروا الاقفال التي عليه وطلعوا المأذنة وغوثوا ولبوا

أخت الملك الكامل وصاحبة حماه، كذا مع بقية الملوك على مخالفة الملك الكامل، ولم يثبت مع الكامل سوى الملك الناصر داود.
ـ فيها كان انتصار فريدريك الثاني فى إيطاليا.

هنا[1]، أحد من هؤلاء اليهود! ـ يعني الاشراف ـ فكانت هذه الكلمة سببا لهلاكهم، وصارت الاشراف تقلع شاشاتها الخضر، وتلبس الشاشات البيض من شدة ما حصل لهم من الحقارة، ومكثت الأشراف نحو الجمعة، لم تقدر تظهر. ثم اجمع رأى أكابر الدولة بأن ينفوا طايفة من أكابرهم فتشفعت فيهم العلماء، وأرباب السجاجيد، فعفوا عنهم، وراح الشريف المقتول بين عمودين بارد.

وروح الحاج الشريف خامس صفر، وسبب ذلك خروج الحاج من مكة سابع[2] عشرة الحجة، لأجل دخول عثمان أوغلي، وعزله عبدالكريم، وتوليته لسعيد بن سعد، فى عاشر صفر سنة ١١٢٤[3]، ووقع اخبار بأنه وقع تلج بقريتين من قرى المنوفية يقال لأحداهما عشمه[4]، والثانية سرسنة[5]، كل قطعة قدر رطل. فقتلت من البهايم شيئا كثيرا، واعقب الثلج صاعقة

(١) بالاصل «ها هنا».
(٢) بالاصل «دخول» ووضع فوقها علامة الحذف.
(٣) ١٩ مارس ١٧١٢م.
(٤) عشمة: احدى قرى مركز شبين الكوم، محافظة المنوفية، وهى من القرى القديمة محمد رمزى، القاموس الجغرافى، قسم ٢، جـ٢، ص١٩٢.
(٥) سرسنة: احدى قرى مركز شبين الكوم، محافظة المنوفية، وهى من القرى القديمة، محمد رمزى، المصدر نفسه، قسم ٢، جـ٢، ص١٨٩.
كتب عنوان جانبى «اعرف نزول الثلج بهاتين القريتين والصاعقة».

واجتمع على باب الكنيسة المعلقة(*) جمع لا يحصى وخافت انفس المومنين وكان يوم الاحد الاول من الصوم والبطرك قد ابدل وهو فى القداس وقد قدس قداس كيرلس فجا الوالى وصرف الناس وانفصل الامر على خير. ومضى اكثر الجمع الى الامير جمال الدين بن يغمور نايب السلطان وشكوا اليه وقالوا: يا مولانا تغلق المساجد وتفتح الكنايس. فقال: هذا حديث ما يسمع بل

(*) كان بالكنيسة المعلقة فى هذا الوقت عدة هياكل هى: هيكل القديس بقطر، هيكل يوحنا المعمدان، هيكل القديس انطونيوس، هيكل القديس ساويرس.
والى جانب الكنيسة المعلقة كان يوجد فى ذلك الوقت عدة كنايس بمصر منها:
١ ـ كنيسة المخلص الشهيرة باسكندرية وفيها قدم ابن لقلق بطريركا، ٢ ـ كنيسة القديس شنوده، خارج اسكندريه، وفيها كان ابن لقلق قد رسم قمصا. وكانت هذه

عظيمة، احرقت شيئا كثيرا من الزرع، ومن[1] الفلاحين جماعة من الذين كانوا فى الغيط، الى أن صاروا كالفحم. وفى عشرين صفر قدمت العسكر الذين كانوا فى سفرة مصقوة، صحبة اسماعيل بيك الذى توفى فى اسلامبول(*) واعطاهم السلطان ريش يقال له: شلنك، معناه ان هذا الريش لا يضعه الانسان على رأسه الا اذا كان مغازيا، يلقى الرجال فى محل الحرب، ولم يولى، ولو كثرت عليه الكفار، فصار[2] رسما للسلطنة، يعطيه السلطان لمن يريد، من أى عسكر كان. فكانت عسكر مصر استحقت هذا الريش، فأرسل الوزير للسنجق ريشة، ولجميع السدادرة، ولجميع العسكر، لكل واحد ريشة، يضعها الرجل فوق عمامته، حين يطلع الى السفر أو الاى. ولكونهم ظهرت منهم اليد البيضاء فى الكفار، ودخلوا مصر فى هذه الصفة، وفى هذه السنة وسع حسن كتخدا الجلفى مقام الامام الحسين(**) وأضاف له محلات اشتراها بجواره؛ وصنع له تابوتا من الأبنوس المطعم بالصدف، وصنع له سترا من الحرير الابرهيم المزركش بالذهب، وجهزه الى المشهد المذكور؛ وقد وضعه على قفص من الجريد، فحمله من الرجال اربعة، وعلى جوانبه الأربعة، أربعة قناديل من الذهب، تقدمت السادات الرفاعية بطبولهم، واعلامهم، معلنين بالذكر، وبين أيديهم المباخر بالعنبر والعود،

(١) بالاصل «وفى». (*) بلاصل «اسلانبول». (٢) بالاصل «فسار».
(**) كتب عنوان جانبى «أعرف توسيع المقام الحسينى على يد حسن كتخدا الجلفى».

ان الجميع تفتح ومن اراد المسجد طلع اليه ومن اراد الكنيسة طلع اليها الا انه لا يوذى احد ولا يتعرض احد الى احد فهولآء رعية السلطان وانتم اخبر، وان كان هذا المسجد فقيراً انا اقوم به الا ان التعدى لا يمكن احد منه. فمضى المسلمون وجمعوا بينهم شياً وبيضوا المسجد وعملوا عنده مصطبه وبيضوها ولم يجر منهم الا خيراً. وكان النصارين فى هذه المدة كلها مع المسلمين فى

الكنيسة مشهورة باسم كنيسة السباع، ٣ ـ كنيسة القديس مرقس، المعروفة باسم القمحا، فى طرف مدينة اسكندرية، ٤ ـ كنيسة مارى جرجس فى حارة الروم الحمرا بمصر عتيقه، ٥ ـ كنيسة الفخارين بالقاهرة، ٦ ـ كنيسة الملاك ميخائيل فى رأس الخليج المصرى، ٧ ـ كنيسة القديس اسطافنوس، كانت بداخل الكنيسة المعلقة، ٨ ـ الكنيسة بجزيرة الروضة. وقد هدمت بعد ذلك، ٩ ـ الكنيسة الملكانية بحارة الروم الحمرا.
كما أن الأديرة التالية كانت

- -

والقماقم الماء الورد، يرشون على الناس، ميمنة وميسرة، وطافوا به القاهرة على هذا الشكل، الى أن وضعوه على التابوت الحسينى.

وفى خامس عشرينه هبت ريح أظلم منه الجو، وهدمت بيوتا كثيرة؛ وكان الوقت بعد العصر، وفى آخر الشهر الذى هو صفر ورد آغا من الديار الرومية، بطلب عسكر الى كفرة المصقوة، ثانى مرة، فعين الباشا مصطفى بيك، تابع يوسف آغا القطردار، واوكب الى بولاق، فى يوم الخميس غرة ربيع الثانى، وسافر فى عاشره الى اسكندرية، فبمجرد ما دخل العسكر سكندرية ورد آغا من الديار الرومية فى خامس عشر ربيع الثانى وصحبته خط شريف، قرى بالديوان، أن كفرة بنى الأصفر ـ يعنى مصقوه ـ أذعنوا للصلح(١)، واعطوا الى ملك الاسلام، خمسة قلاع من أكبر قلاعهم، والتزموا بجميع ما غرمته السنة، فى هاتين السنتين، وهما سنة ١١٢٣ وسنة ١١٢٤(٢)، واقروا على أنفسهم فى كل سنة خزينة.

وقد عفوناهم من السفر فى هذه المرة، وانعمنا عليهم بالعود الى مصر، والسفر محسوب لهم، والعثامنة تكتب لهم. ثم أن الباشا فى الحال أرسل الى الاسكندرية فرمانا بالعفو لهم من السفر، وسفركم محسوب لكم. ثم أنهم رجعوا الى مصر، فطلبت الوجاقات ما كانوا قد اعطوهم من الدراهم.

(١) كتب عنوان جانبى «أعرف صلح السلطان أحمد خان مع الطاغية مصقوة وما أعطوه بالذل والمسكنة.
(٢) ١٧١١/١٧١٢م.

انصاف عظيم واكرام جسيم وود عميم فالله سبحانه يحرس ايامهم وينصر سلطانهم وهو سلطاننا وامامهم وهو راعينا . وبعد ذلك توجه الاب البطرك الى دير بو مقار في الجمعة السادسة من الصوم المقدس ومعه جماعة من اساقفة الوجه البحرى ومن القسوس والشماسه ومحفل كبير وكان قد استطلق[طلب] من السلطان الملك العادل شيئاً من دهن البلسم فامر له به فاخذه معه

موجودة أيضاً: ١ ـ دير الخندق، ٢ ـ دير الشمع، ٣ ـ دير نهيا، ٤ ـ در طموه، ٥ ـ دير شهران، ٦ ـ دير البنات بالكنيسة المعلقة، ٧ ـ دير الملكانية للقديس أرسانيوس في طره، ٨ ـ دير القديس فيلتاوس المعروف بدير النسطوريين. وغير ذلك في وادى النطرون والصعيد وساحل البحر الاحمر.

فأخذوا منهم الثلث، وفاتوا لهم الثلثين. وسافر خليل باشا في ثامن عشر جمادى الثاني. وفي ثامن عشرينه ورد آغة من الديار الرومية بعزلان غيطاز بيك من الدفتدارية، وتوليته امارة الحاج، وعزلان الجزار من امارة الحاج، وتولية ابراهيم بيك أبو شنب الدفتدارية محل قيطاز بيك، فأجاب كل منهم بالسمع والطاعة، ولبسوا القفاطين. ثم أبرز خطا آخر بعمارة سفينتين ببحر القلزم لأجل غلال الحرمين الشريفين، وأن يجهزوا الى مكة المشرفة ماية وخمسين كيسا من الأموال السلطانية، يسلم ليد محمد بيك بن حسين باشا، المعين لتعمير العين، فقوبل بالأمتثال.

ثم أن غيطاز بيك جمع الصناجق والأغوات بأن يكونوا له مساعدين عند الباشا في طلب خمسين كيسا، يستعين بها على امارة الحاج، وأن تكون من الخزينة العامرة، ويرسل يعرض من أجلها بعد تسليمها له، فان قبل العرض فيها، وان لم يقبل، فان الصناجق وأغوات البلوكات[1]، يضعوها في الخزينة العامرة. فأجاب الوزير الى ذلك، ودفع لهم ما طلبوه، ثم أنه أعرض في شأن ذلك.

وفي يوم الأربع آخر جماد آخر ورد آغا من طريق الشام يقال له خليل باشا، ابن اخت عثمان أوغلي، معينا[2]، لمحافظة جدة، فدخل القاهرة في كبكبة عظيمة، وصحبته عسكر

(١) بالاصل «والاغوات البلوكات».

(٢) بالاصل «معناه».

ومضى الى الدير وقدسه فى الخميس الكبير على الرسم والعاده، وكان معه جمع كبير من كهنة القاهرة ومصر والبلاد فاراد ان يجبر قلوبهم بان يصرفهم فى هيكل بنيامين فاغتاظ الرهبان من ذلك وجاوا بالعكاكيز وكسروا بعض قناديل الكنيسة، ولم يلتفت البطرك اليهم بل كمل شغله وخرج الى قلايته بات بها واصبح صلا فيها صلاة الساعة الاولى من الجمعة الكبيرة واذا الرهبان قد

كثير من عسكر الروم، من الذين يقال لهم صرجا سيجان[١] وجمال محملة بالأثقال، يقدمهم ثلاثة بيارق. فخرج لملاقاتهم غيطاز بيك حالا، فى طايفة كثيرة من الصناجق والأغوات، وقابل الباشا، وأنزله فى غيط حسين بيك، ومد له سماطا[٢] وقدم له خيولا، وصار بينه وبين خليل باشا صحبة، الى أن أنزله فى بيت اسماعيل بيك، صنجق مصقوة، بجانب الحنفى.

وفى يوم الخميس غرة رجب[٣]. سافر خليل باشا الى جدة، وطلع بالاى عظيم. تقدمه السناجق والأغوات. وفى ثالث عشر شعبان[٤]. البس الباشا قفطانا لأحمد بيك الأعسر، على ولاية جرجة[٥]، عوضا عن محمد بيك الصغير، تابع غيطاز بيك. وفى عشرين من شعبان سنة ١١٢٤، ألبس الباشا محمد بيك جركس قفطان السنجقية[٦].

وفى يوم الأربع تاسع شوال توفى حسن كتخدا الجلفى، بعد عزلانه من كخاوية العزب فى الفتنة، وكذلك عمر كتخدا نعمة الله كذلك الذى كان فى الفتنة، كتخدا مستحفظان. وفى

(١) يذكر الجبرتى، جـ١، ص١٨٣. هذه الفرقة تحت اسم «سارجة سليمان» كما ذكرها «سردن جشتى».
(٢) انظر الجبرتى، جـ١ ص١٨٣.
(٣) ٤ أغسطس ١٧١٢م. (٤) ١٥ سبتمبر ١٧١٢م.
(٥) كتب عنوان جانبى «اعرف ولاية أحمد بيك الاعسر على ولاية جرجة».
(٦) كتب عنوان جانبى «أعرف ولاية محمد بيك جركس الصنجقية سنة ١١٢٤».

اجتمعوا وحضروا اليه وضربوا له المطانوه وسالوه ان يغفر لهم ذلتهم ودخلوا تحت كلما شرطه عليهم. وكانت لهم عوايد ردية ازالهم عنها وجآ الى الكنيسة وفرح وكمل العيد وكرز لمن اراد تكريزه الا ان الرسم ما كان بد منه لاجل ما تاخر من المبلغ المقرر للسلطان. ثم توجه الى ثغر الاسكندرية واقام به مدة وجرى له فيها ما جرى في الدير مع كهنتها ثم رجعوا الى الطاعة وموافقة

عاشره البس الباشا غيطاز بيك الأعور تابع غيطاز بيك الكبير السنجقية وفى ثانى عشرة، ورد عبدالباقى، كتخدا ولى باشا، وصحبته (أمر) بتقرير ولى[*] باشا عن سنة ١١٢٥.

وفى يوم الخميس ثالث العشر القعدة سنة ١١٢٤[١] ورد آغا من الديار الرومية وصحبته خط شريف بطلب ثلاثة آلاف عسكرى الى سفرة مصقوة، لأنهم نقضوا العهد، وتعدوا على الاسلام، فطلع الى الديوان والخط بين يديه، وقرى بالديوان، فاجابوا بالسمع والطاعة، وألبس الباشا قفطان السفر الى حسين بيك شولاقى ـ يعنى الاعسر ـ الى سفرة مصقوة، عوضا عن عثمان بيك بارم دبله.

وفى يوم الاثنين غرة محرم سنة ١١٢٥. سافر حسين بيك، والعسكر من بولاق الى رشيد، ثم بعد سفر السنجق، وقع الطاعون فى مصر وقراها، الى ان افنى الخلق[٢]، وصار اذا مات الميت لم يجدوا له مغسلا، ولا عدة، من كثرة الازدحام على الحوانيت. وسموه بفصل النار، لأن نارا ظهرت فى الكوم الذى بالمجاورين أكلت الكوم. وتوجهت اليها مع جملة من الاخوان، وقادوا منه دواية الدخان ومكثت أياما الى ان طفوها بالماء. وختم الفصل بموت الشيخ احمد

(*) بالاصل «بتقريرا ولى» التصويب من التحفة، ص٣٠١.
(١) ١٢ ديسمبر ١٧١٢م.
(٢) بالاصل «ادعى» كتب عنوان جانبى «اعرف حلول الطاعون فى مصر سنة ١١٢٥».

الجماعة. وكان هذا البطرك له قوة نفس وصبر واحتمال فما كان يبالي بشى مما يجرى. ثم عاد الى مصر بعد ان شق بلاد الغربية واكثر الوجه البحرى وافتقد كنايسه والسلطان عز نصره مقيم بالشام. والشيخ السنى الراهب بكنيسة بوسرجه بمصر وهو لا يطيع البطرك ولا يجتمع به ولا يوافق على شى من اعماله والبطرك لا يصل الى الكنيسة المذكورة وليس له فيها شى الا ذكر اسمه

النفراوى[١]، شيخ الجامع (الأزهر)[٢]، يوم السبت عاشر ربيع الثانى سنة ١١٢٥[٣]، وتولى مشيخته بعده شيخ[٤] الاسلام محمد شنن، وطلع الى الباشا وألبسه كركا.

وفى ثانى عشر ربيع الثانى ألبس الباشا قفطان امارة الحاج الى محمد بيك الصغير، تابع غيطاز بيك الكبير، عوضا عن سيده لوضعه وضعفه.

وفى رابع عشرينه اشيع خبر فى القاهرة ان بعض الفارين دخل مصر متنكرا، فلما بلغ العسكر هذا الخبر، اجتمعوا فى بيت صالح آغا، كتخدا الجاوشية، واتفقوا أنهم يطلعوا الى الباشا، ويامروه ببيع بلاد الفارين، لأجل ما ينقطع طمعهم من مصر، ومن عودهم اليها. فامتنع الباشا وقال: لابد من الاذن فى شأن ذلك، فقامت العسكر وصممت على بيع بلادهم وأماكنهم. فلما رأى الباشا تصميمهم على هذا الأمر، وعدم انفكاكهم عنه، قال لهم، آخذ عليكم حجة، أن هذا الأمر منكم، وباجتهادكم، ليحتج بها عليهم فيما بعد، أن سئل عن ذلك من طرف السلطنة، فكتبوا له حجة بما أراد على طبق مراده. ثم انه أعرض الأمر على

(١) كتب عنوان جانبى «اعرف وفاة الشيخ أحمد النفراوى رحمه الله»، وهو فى ذلك الوقت كان شيخ المالكية. ولم يتولى مشيخة الازهر. انظر ترجمته فى الجبرتى، جـ١ ص٢٨٢.
(٢) أضيفت كلمة «الازهر» لتوضيح المعنى رغم عدم صحتها تاريخيا.
(٣) ٦ مايو ١٧١٣م.
(٤) بالاصل «الشيخ».

فى القـداسـات والصلوات لا غيـر وكـان يقـول [السنى الراهب] لولا امر السلطان منعت من يذكر اسـمـه. فى هذه الايام رسم بحـفـر جـانـب البـحـر [النيل] على الساحل ليعمل فيه اساس السور الذى رسم ببنايه على مصر والقاهرة، فسير الى البطرك ورسم له بان يحـضـر اصـحـابه ويحـفـر مع الناس وعـزل له مكان مقـدار طوله ماية ذراع فى عـمق الاسـاس وقـد كـان الناس كلهم قـد حـفـروا الامـرا

الأغوات الذين جاءوا من طرف السلطنة، فقالوا له لابد أن تبعث عرضا قبل البيع، ثم انه أعلم العسكر، وأخبرهم بالعرض قبل البيع، فوافقوه على ذلك.

ثم ارسل اعرض الى الأعقاب العلية، ثم انهم أرسلوا سبعة انفار من السبع بلوكات وأعطوا لكل واحد منهم خمسة وعشرين ألفا من مال الفارين، وسافر العرض ثامن عشرين جماد آخر سـنـة ١١٢٥[١]. واستمر الطاعون الى غاية جماد آخر. ومات فى هذا الطاعون عالم لا حد له.

ولقد صلينا فى الجامع الازهر جملة واحدة بامام واحد على اربعة وعشرين رجالا ونساء وصبيانا صغارا.

وفى رابع رجب ورد اغا بدفتدارية مصر الى غيطاز بيك، عوضا عن ابراهيم بيك أبو شنب، ومقرر الى مملوكه محمد بيك الصغير بامارة الحاج، على ما هو عليه، وهذا لم يتفق لأحد بأن يكون السيد دفتدار ومملوكه أمير الحاج، فى آن واحد، وهذا من جملة كمال السعادة. فلبسوا القفاطين بالديوان، ونزلا غيطاز، على اليمين، ومملوكه على اليسار. واوفى البحر فى سابع عشرين رجب الموافق لسبع عشرين ابيب، ووافق تاريخه: هل نظرت عيناك تاريخا يوافا، مع العشرين سبعا فى أبيب.

(١) ٢٣ يولية ١٧١٣م.

والاشراف والولاه وساير الناس واليهود اخرجوهم عند خروج النصارى فاستحى الناس وحضروا من كل مكان وحفروا وبقوا كذلك قريباً من شهر ثم انهوا العمل واستراحوا. وكان البطرك يقوم بهم فيما ياكلون وما يشربون ووقف اخذ الشرطونيه وقل الا فى النادر. والاسعار راخيه والاشيآ موجوده والامن عام [عم] البلاد. واما الشيخ نش الخلافة ابا الفتوح فان البطرك كان مشى الى منزله ليلة

وفي يوم الخميس خامس[1] عشر رمضان، توفي الشيخ أبو المواهب البكرى الصديقي واتفق له ليلة موته بالنفس، بعد صلاة التراويح، ان قال لمن كان جالسا عنده، انى أرى القمر ينكسف الليلة، وانى أرى القمر فى المحاق الله الله الله، ودونى الحريم، فلما دخل الى الحريم كانت عنده جارية. جزاها الله، بعد موته بما تستاهله، فلما رأته دخل الحريم على خلاف عادته، أخذت توديه، لأنها كانت جاعلة له محلا صغيرا لجلوسه ونيامه. وتشتغل هى بالجنك، طول ليلتها، والجوار السود يخدموا عليه، ولم تلتفت اليه، وأنها كانت حامية لواحد يقال له عمر آغا، تابع شاكر بره، من جماعة أيوب بيك، وكانت مسكناه فى القاعة الوسطانية، وكان جميع الدولة يعلمون أنه عندها، ولم يقدروا يسالوا الشيخ فيه، فبمجرد ما مات الشيخ لم يعبر البيت تلك الليلة، حتى خرج فارا، ولم يعلم أحدا أين ذهب. وفي أثناها جلس على السجادة الشيخ أحمد البكرى الصديقي ابن الشيخ عبدالمنعم البكرى، وكانت النوبة الى أخيه، محمد افندى، فتنزه له عنها، لما يعلم لما فيه من الكفاءة، حفظه الله وحفظ عليه اخوانه، الشيخ بكرى، والشيخ على، أمدنا الله بمددهم فى الدنيا والأخرة، أنه على ما يشاء قدير. ثم أن الشيخ لكبر سنة تنزه عن المرتبه، الى ولده الشيخ بكرى.

(١) بالاصل «خامع» ١٥ أكتوبر ١٧١٣م، كتب عنوان جانبى «أعرف وفاة الشيخ أبو المواهب البكرى الصديقي».

وبات عنده فاتر فيه ذلك وصار لا صديقا ولا عدواً بل على جانب الا انه يكثر الترداد الى كنيسة بوسرجه والاجتماع بالشيخ السنى الراهب. وكان البطرك قد حرم انه لا يقم راهب فى مدينة ولا ريف الا فى ايام الجرانه[الحصاد] لا غير. واستمر الحال على ذلك . ثم وردت الاخبار بان عسكر الروم [السلاجقه] خرجوا وجاوا الى حران واحرقوا دار العافيه [الضيافة] التى بظاهرها، وسبوا ونهبوا

وفى ثانى محرم الحرام سنة ١١٢٦[1] . ورد أغا مكلف من الديار الرومية، وبيده خطان قريا بالديوان احدهما بباشوية جدة ليوسف بيك الجزار، والثانى بأن محمد أغا بن حسين باشا الذى كان متوجها الى مكة لعمارة العين بأن يكون باشا بالحبش، فأمتثلوا الأمر، وأن الاغا أخبر الوزير ولى باشا، بأن عثمان أو غلى الشهير بنصوح باشا[2]، قد قتله السلطان وهو قافل بالحاج الشامى فذكره فى محله.

وتولى باشوية الشام رجل يقال له طبال يوسف باشا، ثم أن الباشا أرسل الى يوسف بيك اتى به من كشوفية البصنا [البوسنه]، فحضر يوم الخميس خامس ربيع أول سنة ١١٢٦[3] وطلع الى الديوان، والبسه الباشا قفطانا على تولية جدة.

وفى يوم الاحد خامس ربيع أول ورد آغا من الديار الرومية بخط شريف قرى بالديوان، مضمونه انه مال الصرة، الذى كان يرسل صحبة الحاج الشامى الى فقراء مكة المشرفة يجهز الى الديار الرومية، صحبة الخزينة العامرة لترسل الى مكة صحبة الصرة الرومية.

(١) كتب بالهامش التعليق التالى «ومن مختصر ما لا يشيع للعلامة ابن عقبة رضى الله عنه قوله:
عش خـــامـــد الذكـــر بين الناس وارض به
فـــــذلك أسلم للدنيـــــا وللدين
من عــــاشــــر الناس لم تسلم ديانتـــه
ولم يزل بين تحـــــــريك وتسكين»
(٢) بالاصل «بتوح باشا»، الاضافة والتصويب من التحفة، ص٣٠٨.   (٣) ٢١ مارس ١٧١٤م.

وعـادوا نزلوا على امـد يحـاصرونهـا. وزاد الماء [في النيل] المبـارك واطمـان الناس بذلك. وجـآء امـر السلطان باخراج العساكر ولم يكن حضر منهم الا الاجناد وبعض الامرآ القليل منهم والا الجميع كانوا في خـدمـة السلطان بدمـشق فـتجـهـزوا وخـرجـوا متقاطرين من عشرة وخمسة عشر واكثر واقل وكـانوا ضـعـفى ليس لهم شئ غـسـة اخـبـازهم. ورخص اسعار الغلات واستقر الحال على ذلك. ودخلت سنة ثلاث وخمسين وتسع مايه وبلغ النيل

وفي يوم السبت [ثالث عشر ربيع الأخر] توفي الشيخ عبده الدرى البيصرى[1]، شـيـخ السادة الشافعية.

وفي يوم الثلاثة عشر من جمادى آخر وقعت حريقه ببولاق بوكالة البوص. فأنحرقت الوكالة وما جاورها من الربوع والدكاكين، ومكثت ثلاثة أيام حتى طفيت. وفي ثامن عشر جمادى آخر وردت أم سلطان اليزبك تريد الحاج الشريف.

وفي يوم تاسع عـشـر رجب سنة ١١٢٦[2]، عزلوا كور عبدالله أوضباشا من باشوية الاوضباشية، والبسوه ضلمة الاى جاويش، وفوته الثلاث خدم، التى قبل اللاى جاويش، وهذا شيء لم يتفق لغيره أبدا، ولو كان السلطان، الا كل شيء في طريقه، لأنها رابع نوبة في الضلمة، وهذا شيء خاص به.

وفي يوم الجمعة سادس شعبان سنة ١١٢٦[3]، عملوا ابراهيم أوضباشا الصابنجى، جربجي عزبان، وانزلوه بموكب عظيم الى بيته، واتته الهدايا من كل فج عميق، من خيل وقناطر سكر، وفروق بن. وفي يوم الخميس خامس شوال ورد أغا بيده خط شريف مضمونه أن لا يباع شيء من القهوة، والقمح، والرز، وكان قبل ذلك ورد خط شريف في شأن ذلك،

(١) كتب عنوان جانبي «اعرف وفاة الشيخ عبده الدرى». انظر ترجمته في الجبرتي، جـ١ ص٢٨١ حيث يذكره باسم «عبد ربه أحمد الديوى الضرير» وبهذا يكون صحة الاسم هنا هو «عبد ربه الديوى البصير».
(٢) ٣١ يولية ١٧١٤. (٣) ١٧ أغسطس ١٧١٤م.

المبارك ثمانية عشر ذراعاً وثمانية اصابع والاسعار راخية والخيرات موجودة كثيرة. ثم ان جماعة من الاراخنه اجتمعوا وطلعوا إلى الاب البطرك بكنيسة المعلقة وقالوا له: الى متى تفعل هذه الاشيا التى قد جعلتنا بها سبة بين الامم والشعوب. قال لهم: وماهى ؟ قالوا له: أخدك الشرطونيه(*) على الكهنوت. فقال : نوفى مال السلطان. قالوا له: ومن احوجك الى ان نقرر للسلطان مالا. قال: انتم

(*) الاراخنه القبط يعترضون لدى البطرك ابن لقلق على أخذه للشرطونية.

وكتب مضمونه فرمان الى الثغور جميعا، بأن لا أحد يرسل الى الأفرنج، لا قمح، ولا رز، ولا بن قهوة.

وفى يوم السبت حادى عشر شوال سنة ١١٢٦(١). ورد مسلم عابدى باشا، وطلع الى الديوان، وابرز امرا شريفا لابراهيم بيك أبو شنب، بأن يكون قايم مقام.

وفى ثانى يوم نزل ولى باشا الى بيت، على آغا الخزندار.

وكانت مدة ولايته ثلاث سنوات وشهرين، ولم يقع فى مدته غم ولا فتن ولا كلام، وكانت أيامه سخا ورخا، وكانت كالحلم. [..!!!؟]

٨٥ـ تولية عابدى باشا

قاتل قيطاز بيك الفقارى

قدم الى مصر يوم الاثنين ثالث ذى الحجة ختام سنة ١١٢٦(٢)، ولما استقر به الجلوس، حاسب ولى باشا، فظهر عليه خمسماية كيس، غير الترقى، الذى للمسافرين فى قلعة خوتن(٣). فلما طولب ولى باشا بذلك، تعلل بأنه لم يأت له محلول. ثم أن عبدى باشا

(١) ٢٠ أكتوبر ١٧١٤م.

(٢) مدة ولايته: ٣ ذى الحجة ١٥/١١٢٦ شوال ١١٢٩ ـ ١٠ ديسمبر ٢٢/١٧١٤ سبتمبر ١٧١٧.

(٣) فى التحفة، ص٣١٠. «قلعة هدنن». وصحتها قلعة «هونن».

قرر تم المال للملك. قالوا: فما كان يتعين عليك ان تدخل فيه ولا البطركيه طرحت عليك بالشدة، بل انت برطلت عليها وخطبتها ولك اليوم تسعى فيها عشرين سنة وقد اخربت كنيستنا . قال: انا ما اخربت كنيستكم بل عمرتها وما كان بقى فيها اسقف وقد صار فيها اليوم خمسين اسقفا ومن الكهنه مالا يحصى عددهم. وزاد الحديث منهم ونغص [وزاد الطن بله] اخر الامر حلف ان المبلغ الذى للسلطان ما تغلق الى الان وانه بقى منه الى

أحضر عبدالباقي، كتخدا ولى باشا، وسأله، فلم يبد بحرف ما، فأمر بسجنه، فسجن فى العرقانة. وارسل فرمانا الى كتخدا مستحفظان باقامة الحرس على ولى باشا، وكان كاتخدا الوقت اذ ذاك[1] حسن كتخدا القزدغلى، فعين جربجيا الى حرس الباشا وانفارا، وكان ذلك يوم الاثنين غرة محرم الحرام سنة ١١٢٧ . ثم أن عابدى باشا احضر جماعة ولى باشا، الذى هم أصحاب المناصب، وهم: الخزندار، والمهر دار، وكاتب خزينة، وقفطانجى، واودعهم العرقانة، وعين عليهم جماعة من الدلاة حرسية، فجلسوا فى فتحة على باب العرقانة، ثم أن فى ثانى يوم احضر الباشا بين يديه، وأحضر الوالى فوقف خلف اظهرهم ينتظر الأمر فيهم وجعل الباشا يهددهم، ويتوعدهم بالقتل[2]، فعند ذلك أخبروا بما هو مدخر عنده من نقود وجواهر وامتعة وغير ذلك. فاحضر ولى باشا وسألوه عما قالوه خدمته، فأنكر، فأرسل اتى بجماعته، وسألهم بحضرته فأخبروه مواجهة له بما قالوه أولا. فأمر عبدى باشا باطلاقهم لصدقهم، وأمر الباشا باحضار ما كان مطلوبا منه من مال السلطنة، فعند ذلك توجه ولى باشا الى منزله، وشرع فى بيع جميع أسبابه. ثم أنه أحضر الدلالين وأوقع البيع فى متاعه.

وفى يوم الاثنين فى ٢٢ محرم ورد آغا من الديار الرومية الى الديوان، وابرز خطا شريفا قرى بطلب ثلاثة آلاف عسكرى وسنجقا الى جزيرة مورة، فامتثلوا الأمر. ونزلوا الى منازلهم، ثم

(١) بالاصل «اذاك».

(٢) بالاصل «بالفتيل».

ساعة تلك ثلثماية دينار . قالوا له: فالاساقفة الاخر ياخذون الشرطونية. قال: ومن يرضى للاساقفة بهذا والله ما بلغني ان اسقفاً اخذ شرطونيه الا فامنعه وهذه كتبي تخترق البلاد بهذا. قالوا: فتكرز اولاد التواني(*) قال اروني قانونا قد منعوا فيه من الكهنوت. قالوا : عاده كنيستنا وما جرت به سنه ابابنا. قال : انا اوافقكم على هذا على انه عاده لكم لا شرع وناموس. قالوا: فنريد كتباً الى الوجهين القبلي والبحرى بمنع الشرطونيه وقطع

(*)اولاد التواني : أى أولاد الزوجه الثانية.

انهم تشاوروا في بيت الدفتدار فيمن يرسلوه من الصناجق. فاجمع رأيهم انهم يرسلوا أحمد كاشف، تابع ايواظ بيك، ويمدوه، ويجعلوه صنجقا.

فلما كان يوم الخميس سادس عشرين محرم، أطلعوه الديوان، وألبسه الباشا قفطان السنجقية، وقفطان السفر الى مورة، ونزل من الديوان فى موكب عظيم الى منزله.

وفى تاسع عشر من محرم ورد آغا من الديار الرومية بخط قرى بالديوان، بطلب عشرة آلاف كيلة رز[1]، بكيل القسطنطينية، وعشرين ألف كيلة عدس، وثلاثة آلاف قنطار من الفرك البربرى[2]، يرسل ذلك على الفور صحبة سفر الميرى، فامتثلوا الأمر.

وفى عاشر صفر ورد الحاج الشريف الى مصر صحبة. أمير[3]، الحاج، محمد بيك الصغير، وأخبروا بأن الذى عاقهم عن المعتاد كثرة البرد، وموت الجمال، وانقطاع طرق الحاج.

وفى رابع عشرة دخلت الربايع وصحبتها مقاطيع الحاج، وصارت المقاطيع تأتى فى كل يوم الخ الشهر، وأما الذين[4]، ماتوا جوعا وعطشا ليس لهم حساب، وجاء صحبة الحاج الشريف يوسف بيك الجزار الذى كان باشة جدة قبل الجزار، قريب عثمان أو غلى الذى تقدم ذكره،

(١) بالاصل «روز».
(٢) فى التحفة، ص٣١١ «ثلاثة آلاف قنطار يدك (حبال) مفتول من الكتان».
(٣) بالاصل «مير». (٤) بالاصل «الذى».

(*) يمنع من الكرازه اولاد الزيجه الثانيه للرجل أو للمرأة فى حالة الطلاق أو الوفـاة للزوج أو الزوجه.

تكريز اولاد من تزوجت رجلا ثانيا(*). قال: انا اكتبها واسيرها لكم. وانفصل المجلس على لا شئ ولم يكتب كتبا ولا عمل شيأ. ثم وقع المرض فى الناس والموت مثل السنة الخارجة [السابقة] واشد واستمر ذلك ومات ناس كثيرون، ومرض البطرك مرضة شديدة قارب فيها الموت ومن الله عليه بالعافية. ثم ان السلطان عز الله نصره عاد من سفرته هذه الى القاهرة المحروسة فى الثانى

واكرام غيطاز بيك له، فلما ورد الى مصر حبس فى العرقانة لان حسن كتخدا المعين عليه مأمور بتوديته الى الديار الرومية، فحبسه فى العرقانة خوف الفرار، كما فر كتخداه من الدار الحمرة.

وفى أواخر صفر سافر الاغا وصحبته خليل باشا الى الاعتاب السلطانية.

وفى ثامن عشرين صفر ورد آغا ايضا وبيده أمر شريف قرى بالديوان، مضمونة أنا أرسلنا لكم مرارا نحذركم[1] عن ارسال غلال الى الكفرة النصارى، فلم تمتثلوا، فاستمريتم على المخالفة، وارتكبتم ما يوجب العصيان، وقد بلغنا ذلك، وتحققناه وسبب ذلك طمع المكاسين، ومستلزمين المكس، لكثرة الدراهم. وموالستكم[2]، فانتم تحذروا من ان تتعاطوا شيئا يوجب المخالفة، وتقوية الكفرة المشركين على عسكر الموحدين، والسلاح عليكم والرحمة، ومن حذر فقد انذر. فما تم قراءة الخط، واذا بآغا ورد من يومه وصحبته خمسة خطوط قرءوا بالديوان، أحدها: بطلب ثلاثماية كيس من عابدى باشا، كشوفية المنصب، والثانى: ان كل من مات من طواشية دار السعادة، يضبط ماله، بيت مال[3] المسلمين، بمعرفة قاضى العسكر، ومن يكن واليا، فى حالة موت ذلك الطواشى، وتباع امتعتهم، وما يكون لهم خلاف الجوهر، والثالث:

(١) بالاصل «نحدكم». (٢) بالاصل «موانستكم».
(٣) بالاصل «بيت» وفوقها علامة الحذف، وحذفت ليستقيم المعنى.

والعشرين من كيهك [١٨ ديسمبر] مويداً منصوراً
وخرج الى ثغر دمياط المحروس في العشرين من
امشير[١٤ فبراير] اقام به مدة ثم انتقل الى ثغر
الاسكندرية واقام بها مدة وكان غرضه على انه
يقيم بها زمانا طويلا لانها طيبة فى الصيف. وكان
قد اهتم فيها بدار ما رأى احد من الملوك مثلها
حتى جآء امراً وجب له الخروج منها والجى الى
القاهره المحروسه. وهو ان اخاه الملك الاشرف

بعمل وكيل الخرج. والرابع: لا يعطي شينا للنصارى، لا من حنطة، ولا أرز، ولابن. والخامس: بحبس ولى باشا فى كشك يوسف، على العادة، والتضيق عليه وعلى جماعته أصحاب المناصب. ثم ان الباشا أرسل حبس ولى باشا فى الكشك، وحبس جماعته فى العرقانة، الذى تقدم ذكرهم، وكان قد عفى عنهم.

وفى تاسع عشر ربيع آخر نزل حسين آغا المعين على ولى باشا الى منزل ولى باشا وباع جميع موجوداته، سوى اثياب بدنه، وكذلك جميع موجودات عبدالباقى كتخداه.

وفى يوم الجمعة امر الباشا بضرب اتباع ولى باشا فى العرقانة، فكل من اقر بشيء أخذوه منه وأضافوه الى ما تحصل من موجودات الباشا، فالذى تحصل من موجودات الباشا وكتخدا، واتباعه، أربعون كيسا، ثم بعد ذلك توجه قبجى باشا الى ولى باشا وطلب منه ما تأخر عليه، فاخبره بانه صار لا يملك شيئا، فشدد عليه، ومنع طايفته من الاقامة عنده، ما عدى رجل لخدمته ووضوئه(١). وفى يوم الأحد عشرين ربيع آخر. أحضر عابدى باشا مقاطعجى الغلال وامره بقراءة البواقي التى على الصناجق. فأول شيء بدى به اسم محمد بيك الصغير، أمير الحاج، تابع قيطاز بيك الدفتدار، فظهر جهته عشرة آلاف اردب حنطة، من حين كان حاكم

---

(١) بالاصل «ووفوه» والتصويب من التحفة، ص٣١٣، حيث يذكر صاحبها «ماعدا رجل واحد لوضوئه وطعامه».

صاحب دمشق وسنجار تغير قلبه ووقع بينهما شنان فعاد لتدبير هذه الحال. وكان قد وصل رسول الخليفة من بغداد وهو رجل فقيه من اكابرها ومضى الى السلطان الى دمياط واجتمع به فى معنى الصلح مع ملك الروم [السلاجقه] التى كانت المحاربة بينه وبينه. وسير السلطان معه رسولا من قبله وسارا الى ان وصلا الى قيساريه وهي كرسي [عاصمة] مملكة الروم [السلاجقه]

جرجة، فاغتاظ الباشا غيظا شديدا، وقال لمحمد بيك: الذى عليك هذا المقدار من توليتك كشوفية جرجة، ولم أوردتها، أو أوردت ثمنها الى الوزير، الذى كان قبلنا، فعلى هذا الحال: ان مرادك عدم الاعطا، وهذا الأمر علامة على اكل غلال الميرى. ثم ان عابدى باشا أمر بسجنه فى العرقانة. فاحتاطت به جماعة الباشا ليأخذوه الى السجن، فتقدم اليه ابراهيم بيك ابو شنب ويوسف بيك الجزار. وتلطفوا بالباشا وتعهدوا له بما عليه من غلال ومال، وانزلوه الى منزله وهم صحبته. ثم ان الباشا فى ثانى يوم ديوان، عزل قيطاز بيك من الدفتدارية، وأعطاها الى يوسف بيك الجزار، وعزل كتخدا الجاوشية، وولى اسماعيل أغا الشبرخيتى، تابع أبو شنب، وكذلك آغاة المتفرقة، وولى عوضه محمد جلبى بن زين الفقار بيك الكبير وعزل الوالى، وولى عوضه الوالى القديم.

وفى ثانى ديوان الذى هو يوم الأحد، ثامن جماد اول سنة ١١٢٧[١]. عزل محمد بيك الصغير من امارة الحاج واعطاها الى اسماعيل بيك بن عيواظ، وعزل اغة الينجشرية وولى عوضه أحمد آغا بن باكير، أفندى مستحفظان.

وفى عاشره نزل الباشا الى قراميدان، واحضر البيهات [البكوات] المتولية جميعا، والبيهات المعزولة، وقاضى العسكر، وحلف أنه ما فعل هذا الفعل كراهة فيهم، ولم يكن فى ضميره سوء، وانما فعلت هذا الامر الا خوفا على ضياع مال السلطنة.

(١) ١٢ مايو ١٧١٥م.

المسلمين. فا تفق في وصولهما ان مات ملك الروم المذكور ولم يجتمعا به. وقعد على كرسيه ولده واطلق الاسرى الذين كانوا عنده من عسكر مصر والشام الذى كان ابوه اسرهم في تيك المدة المتقدمة. ثم ان مولانا السلطان اعز الله نصره اطلق الاسرى الذين كانوا عنده كلهم الذين اخذهم من القلاع التى استعادها من الروم [السلاجقة]. وقويت الاخبار بمجاهرة الملك

فقال المعزولون: يا مولانا الوزير، مناصب يعطيها وكيل السلطان لمن يريد، ووالله لم يكن عندنا غيظ من هذا الأمر، وزيادة على ذلك، ان المناصب تقليد لا تخليد.

وحلفوا له تأكيدا أنه لم يكن عند أحد منهم غيظ من هذا الأمر، وأوقع القاضى الصلح بينه وبينهم. ثم أنهم أكلوا وشربوا، وجاءهم الماورد والبخور، واتفق المجلس وتوجه الباشا الى القلعة، وتوجهوا الى منازلهم.

وفي يوم الثلاث عاشر جماد الأول وقعت فتنة بباب العزب، وما ذاك الا أن طايفة من العزب تكلمت في طايفة أخرى، فظهر لهم منهم عين الخيانة، فالتجوا الى باب مستحفظان، وطلبوا عرضهم، وأن يلحقوا بباب مستحفظان.

فلما بلغ الطايفة الثانية الذين(*)، ظهرت منهم عين الخيانة، أرسلوا بعض اختيارية الى باب مستحفظان يلاطفوهم ويأخذوا بخاطرهم، ويردوهم الى الوجاق، فما أمكن. فأعرضوا أمرهم الى الوزير، لما أنهم راوا عدم أعطا عرضهم، وقولهم: فانا لا نعطيهم عرضهم أبدا، وأنهم يزعلوا من قعادهم عند الانكشارية، يعودوا ويصلحوا بالقهر عليهم. فلما وصلهم الخبر أعرضوا أمرهم الى الوزير، كما تقدم، فأمر الوزير المقابلجى(١) بأن يتوجه الى باب مستحفظان، ويكتب اسماءهم، ويخرجهم من باب العزب بدفتر المقابلة، بفرمان الباشا. ثم أن أفندى

(*) بالاصل «الذى».

(١٤) المقا بلجي: هو رئيس قلم المقابلة، وقد سبق الحديث عن اختصاص، أفندى المقابلة، انظر ص٣٢٤.

الاشرف لمولانا السلطان ووافقه على ذلك صاحب حمص وصاحب حماه واكثر ملوك الشرق حتى انه طرد نوابه الذين بدمشق واخذ حواصله التى بها وحواصل ابن اخيه الملك الناصر صاحب الكرك لانه كان فى طاعة السلطان الملك الكامل. وجآ الى خدمته الى القاهرة المحروسة في يوم الجمعة الثاني من ابيب [٢٦ يونيو] من هذه السنة وكان يوم عبوره يوماً مشهوداً لان المدينتين [القاهرة

المقابلة توجه الى باب مستحفظان، وكتب اسمايهم، ثم رجع الى الديوان، وكتب عرض حال، وأخذ على موجبه فرمان الوزير، ونقلت اسماؤهم الى باب مستحفظان وكتب تذاكرهم، ونزلوا الى منازلهم.

وكان جمعهمماية وأربعة وستين نفرا، واثنين وثلاثين جربجي وأوضباشا، واثنين من الكواخي. فوقع الرعب في قلوب الباقين في باب العزب. فعند ذلك أقاموا لهم ستين نفرا لحرس بابهم ليلا ونهارا، خوفا من طارق يطرقهم على حين غفلة. عشرين داخل الباب ميمنة، وعشرين بالزاوية التى تجاه باب مستحفظان، وعشرين عند أوضهم، التى تعلو قراميدان، وجعلوا لكل واحد منهم عشرة أنصاف فضة جامكية، يأخذوها كل ثلاثة أشهر، ولم يكن الحرس مخصوصا الا لباب مستحفظان دون الأبواب الستة. والحرس ما حدث بباب مستحفظان الا من يوم كشك محمد اوضباشا سنة ١١٠٦.

وفي يوم الخميس غرة جماد آخر ورد خبر من ثغر اسكندرية ان مركبا من مراكب النصارى القرصان أتت الى اسكندرية، وأراد أن يدخلها، فرأى مركب السلطنة من مينة البلد، فأرمى مرسيه خارج المينة، تجاه البلد.

فلما رأى قبطان غليون الميرى تلك المركب أرمى مراسيه خارج المينة، قال: هذا قرصان. ثم أنه عزم على انه يحربه فوصل الخبر الى القنصل، فأرسل اعلم قبطان المركب بما وقع من قبطان السلطنة، وأمره باظهار حاله، والا أسره القبطان، فلما وصله الخبر أرسل صندلا الى

ومصر عتيقه] زينتا والاسوار من باب النصر الى القلعة المحروسة. وكان كل امير ياخذ برجاً وبدنيين [أو] ثلثه ومنهم من ياخذ برجين على قدرته ويزينها بعدته ورنكه واسلحته والصور العجيبة والحركات المستغربة وكان كل واحد يريد ان يزيد على الآخر فكان امراً عجيباً مستحسناً فاما القلعة فما زينها الا السلطان وخواصه وخدامه الساكنون [بها]. وكانت كنيسة الجزيرة [الروضة] قد انهدت زربيتها واخذ [أكل] البحر البستان الذى لها

سكندرية فيه أموال الى الافرنج، ومكاتيب، فلما دخل الصندل الى البنط [المرساة]، كان ذلك الوقت بالثغر العسكر المنصور، المتوجه الى جزيرة مورة، صحبة أحمد بيك، صارى العسكر، الذى تقدم ذكره، وسردار مستحفظان، عثمان جاويش الزللي، ويمقه [قائد القواسه] أحمد جربجى الشامي، الذى كان سردار بيت قاضي العسكر. فلما رأى قبطان السلطنة دخول النصارى الى البر، اغرى العسكر بنهب ما فى الصندل، لكون انه مال الافرنج العصاة[1]. وانما فعل هذا الذى فعله الريس شيطنة، لخلاص المركب والمال من القبطان.

ثم انه توجه هو وجماعته، وتبعتهم طايفة العسكر، فهجموا على الصندل فنهبوا جميع ما فيه، وكان كله ريالات. وكان لى صاحب فى العسكر المسافر، فاخبرنى واحد منهم أنه وقع فى يده كيس فيه خمسماية ريال، وكان شركاؤه فيه خمسة غيره، وشيء أخذ ماية، وشيء أخذ عشرة، وشيء مات وأخذ الذى كان قد أخذه من الصندل، وصار فى البلد فتنة كبيرة، ولم أبقوا فيه شيئا.

فلما رأى قنصل سكندرية ما حصل[2]، بالصندل، أرسل الى القنصل الذى بالقاهرة اعلمه، فلما جاءه الخبر، طلع الى الباشا، هو وتجار الأفرنج صحبته، وعرف الوزير بما وقع من القبطان والعسكر المتوجه الى مورة، وعرفه بصورة الحال. ثم أن القنصل تكرر طلوعه والمراجعة، فعند ذلك أمر الباشا بأن يتوجه الى سكندرية سبعة أنفار من [كل] بلك واحد،

(١) قدم وآخر. (٢) بالاصل «فى».

وبعض كنايس العلو وخشي على الجامع الذى بها وهو المقياس فخرج السلطان الى والى مصر بان يتقدم الى البطرك بعمارتها(*) فنزل بهـا واهتم بامرها وعمرها ويقال انه انفق عليها الف دينار وعمرتها [عمرها] برسمه قاعة على البحر بشبابيك وهمة عالية ما ترى احسن منها وقدس بها وجلس على السنطرن وقرى عليه الابرولوغس واخذها من اسقف الجيزه وصارت بطركيه ونزل بها. وكذلك الديارات فى جميع الديار المصرية

(*) ترميم كنيسة جزيرة الروضة وجعلها مقراً للبطركية.

ليتحققوا صورة الحال. ثم أن القنصل أعطى لكل واحد من السبعة أنفار أربعة آلاف نصف فضة لنفقة عياله ولسفره.

ثم انهم سافروا فى غاية الشهر، فلما وصلوا إلى اسكندرية سألوا عن القضية فأخبرت أن أهل اسكندرية، ان أول من نهب قبطان البيليك واتباعه، وتبعهم العسكر المعينين إلى جزيرة مورة. ثم أن المعينين وردوا إلى مصر واخبروا بما وقع وبما شهدت به أهل اسكندرية. ثم أن عابدى باشا قال للقنصل: العسكر سافرت، والقبطان سافر، وغليونكم أيضا سافر، فارسلوا اعلموا أمركم إلى الوزير الكبير والقبطان هناك والعسكر هناك. ثم أن القنصل أرسل أخبر قنصل سكندرية، فكتب مكاتيب، وأعطاه لريس الغليون الذى نهب صندله وسافر.

وفى يوم الأربع (٨)(١) من رجب الفرد سنة ١١٢٧(٢). نزل الباشا إلى قراميدان وأرسل إلى قيطاز بيك ليأتيه إلى قراميدان، فلما وصله المرسال أمر بأن يأتوا له بالجواد ليركب. فلما ركب على الجواد وساقه نحو الباب، فرجع الجواد، وأبى الخروج، فضربه بالركاب، فمضى إلى أن قرب الباب، رجع، فقال له جماعته: بلا طلوع اليوم، فان هذا الجواد لم فعل هكذا ابدا، وأن هذا اليوم يوم نحس، فبالله عليك الا ما رجعت، وبلا ركوب اليوم. فأبى وقال: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾(٣) ثم أنه ساق الجواد وطلع، فلقيه خارج الباب داوود، صاحب

(١) الاضافة، من التحفة، ص٣١٦. (٢) ١٠ يولية ١٧١٥م.
(٣) سورة التوبة رقم ٩، آية ٥٠.

فانه جعلها كلها بطركيه(*) ولم يجعل لاسقف حكماً الا فى كنايس المدن خاصة. ثم انه قدم مطرانا على البيت المقدس والساحل والشام الى نواحى الفرات وسيره الى هناك. وامتعض لهذا بعض الاراخنه وقال هذا ما لا يجوز لان هذه البلاد من كرسى انطاكيه والكرسيان واحد ويقع بهذا فرق [خلاف] لم تجر به عادة. ولم يلتفت البطرك بل قدمه وجعل الحكم له فى تيلك البلاد كلها حتى بلاد الافرنج وسيره فلما كان عيد

(*) توحيد كل البطركيات تحت سلطة البطركية الكبرى ما عدا بطركيات المدن الكبرى.

عيار وقال له: ارجع يا بيك، فلم يلتفت اليه أن جاء إلى رأس الصليبة، فلقيه حسن كتخدا النجدلى، فقال له: الى أين. قال: الى الوزير، أرسل طلبنى. فقال له حسن هذا ما هو طلب خير، ارجع بلا رواح؛ ثم أنه قال له: أنت ما كنت عامل له العزومة اليوم فى العادلية التى طلبها منك بفمه. فقال له «قيطاز بيك: أرسل لى حسن آغا ليلة أمس، وقال لى، أن الباشا ناء عن رواح العادلية فى غد، ويطلبك فى قراميدان، وأنا رايح له. ثم أن قيطاز بيك سار إلى قراميدان، فلما دخل على عابدى باشا قام له، وأجلسه بجنبه، ثم أنه بعد ما جلس، وشرب القهوة أخرج له خطا شريفا من عبه، فاعطاه له فلما قراه أصفر وجهه، فأخذ الباشا الخط من يده، وأشار الى اتباعه. فضربوه بالخناجر، فمات[1]. ثم أن الباشا أرماه من فوق الكشك الى قراميدان، وركب وطلع الى القلعة، وأمر الوالى بأن يحمل جثته الى منزله، فحملها الى منزله، وأرسل ختم على بيته، فضجت البلد، وارتجت أهلها، فأرسل الباشا الى الوالى وأعطاه فرمان، وأمره أن ينادى بالأمان، وأن الناس تفتح دكاكينها، وتبيع وتشترى.

وفى يومه طلعت طايفة من العزب الى [مسجد] السلطان حسن، وملكوه وقعدوا فيه ببندقهم وسلاحهم،وقفلوا الأبواب، ومنعوا الناس من الصلاة فيه، وأخرجوا السكان الذين ساكنين.

(١) كتب عنوان جانبي «اعرف قتل الوزير عابدى باشا لقيطاز بيك».

(*) هو أغناطس الثاني بطرك السريان في المدة من ١٢٢٢ / ١٢٥٣م

القيامه المقدسة وصل انبا اغناطس (*) بطريرك السريان الى البيت المقدس والكناغيطس بطريرك الارمن. فلما بلغ البطرك ذلك جهز لبطرك السريان هدية من هدايا مصر وسير بها اسقف الخندق وقسيس من قسوس مصر فلما وصلوا الى القدس بلغ المطران وصولهم فخرج بلقاهم بالاناجيل والمباخر والصلبان وانزلهم عنده ومضى اسقف الخندق الى بطرك السريان اجتمع به وسلم عليه

وفي اليوم الثاني احضر الباشا الصناجق وأبرز لهم الخط بقتل قيطاز بيك فقراه عليهم، ثم أنهم نزلوا الى منازلهم، وحصل للامراء الرعب في قلوبهم، وامتنع عبدالله جاويش من طلوعه الى الديوان لخدمته المعتادة، وهي جاوشية باب مستحفظان واراد أن ينزل الى منزله، فحصل الخلاف في ذلك بين متكلمي الأوجاق، فأرسل الباشا يسأل عليه، وعلى سبب عدم طلوعه الى الديوان. فأرسلوا أخبروه بأنه خايف منك، فأرسل له الأمان، ويقول له: لا تخشى من شيء، وعليك الأمان، فما أمكن انه يطلع الى الديوان أبدا. ثم انه أرضى متكملي وجاق وأخذ بخاطرهم، فساعدوه على العزلان، واقاموا في بيت المال باش جاويش، وانزلوه الى منزله مكرما مبجلا، تقدمه اختيارية[1] أوجاقة، وعليه قفطان العزلان.

وفي يوم الاحد سادس عشرين رجب توفي أحمد آغا، آغاة مستحفظان، ابن باكير أفندى، وقانصوه بيك، قايم مقام الفتنة، وصلوا عليهما معا في سبيل المؤمنين. وفي ذلك اليوم وصل قابجي باشا من الاعتاب العلية، وصحبته خط شريف قرى بالديوان، يتضمن تجهيز[2]. ولي باشا الى الأعتاب العلية، وكاتب ديوانه، وخزنداره، وكتخداه، ومن كان يباشر أموره. فلما قرى الخط بحضور ولي باشا، طلبت العسكر تراقيها التي استحقت عليه، وهي سفرة: هونن والجداوية، والخزينة فسألوه عن ذلك، فتعلل بالاعسار، فعادوه الى السجن، وأعرضوا في شأن

(١) بالاصل «الاختيارية».

(٢) بالاصل «تضمين».

واعطاه كتاب الاب البطرك وهديته وكانت عود بخور ومنديلين لليد وشبوقه(*) ابنوس فقبلها واقبل عليهم وقال لهم: الاب البطريرك انبا كيرلس اخى وانما هذا الشيطان(*) رمى بيننا وافرق الكنيسة وما له عندى تصرف يعنى المطران. وخرجوا من عنده فنفذ اليهم وسالهم النزول عنده فامتنع الاسقف وقال انا نازل عند المطران وما اقدر اخرج من عنده الا باذنه فحنق بطرك السريان من ذلك ورد

(*) شبوقة: صولجان الأسقف.

(*) الشيطان هنا المقصود به مطران القدس القبطى.

ذلك، وانتظروا عود الجواب. ولما كان يوم الثلاث ثامن عشرين رجب، تولى، اسماعيل بيك، تابع اسماعيل بيك ابن ايواظ، اغاوية مستحفظان، وألبس زين الفقار، آغة التفكجية، تابع قانصوة بيك الصنجقية التى كانت لسيده قانصوة بيك.

وفى عشرين رمضان خرجت العساكر التى كانت فى السلطان حسن، وفتحت أبواب المسجد للمصلين، فمكثت العزب خارج المسجد، ثم عادت الى المسجد خامس عشرين رمضان، ومنعوا المصلين، وأقاموا الحرس فيه لاجل باب العزب لأنه مواجها له(١).

والسبب فى ذلك لما قتل قيطاز الدفتدار، وعزل مملوكه محمد بيك الصغير من امارة الحاج، وتولى اسماعيل بن ايواظ، وتولى يوسف بيك الجزار الدفتدارية وأنتقل محمد بيك من بيته، الذى فى قيصون، وسكن فى بيت سيده قيطاز بيك، فاجتمع رأى الأكابر: أصحاب الحل والعقد، ان يولوا محمد بيك ولاية جرجة، وعثمان بيك بارم ديله ولاية منفلوط تسكينا للفتنة لأنهم لم يأمنوهم فكلفوهم الى ذلك فأبوا وتعلل محمد بيك بسبب دين سيده، وكفالة أيتام سيده، وأنه لم يكن هناك أحد يعولهم غيره، فلم يقبل منه ذلك. وأرسل الباشا يطلب المذكورين، محمد بيك، وعثمان بيك ليلبسهما خلع المناصب حكم التوافق، وكان ذلك فى يوم الأربع سابع عشر رمضان سنة ١١٢٧(*)، فامتنعا، وقالا: نحن لا نريد مناصب، بل الباشا

(١) بالاصل موجها له.

(*) ١٦ سبتمبر ١٧١٥م.

الهــدية ومنـع المطران ولـم يرجع يرى الاســقف وجهاً. واما المطران فـانه استعان بالافرنج وواخى منهم جماعة وتصرف فى كنايس القبط هو وشعبه ويقال ان الافرنج اخذوا خطه بان اعترافه اعترافهم واعتقاده اعتقادهم وان هذه عادة لهم ان لا يتصرف احد من الاجناس الابعد ذلك وانفصل اسقف الخندق ومن معه على غير طيبه. ثم ان السلطان عز نصره جهز العساكر اولا اولا وصار

يولى من يريد غيرنا. فلما سمع الرسول من محمد تابع غيطاز بيك، وعثمان بيك بارم ديله، هذا الجواب، أخبر الباشا بما قاله الصناجق من عدم قبول المنصب.

وأما محمد بيك وعثمان بيك لما توجه الرسول من عندهم وأخبر الباشا بما قالوه تحقق(١) عندهم أن الباشا لا يسكت، وهل بت أنه يبطش بهم، وأن أعداءهم يغرونه على قتلهم، كما اغروه على قتل قيطاز بيك. فعن لمحمد بيك أن يتأهب للحرب. ثم أنه جمع طايفته الذين هم كانوا سراجين سيده، وأرسل أتى بجماعة غرب [مغاربة] جت من خان الخليلى، واعطاهم الذهب الأحمر، وضمهم الى من عنده من الطوايف والاتباع، وأنضم اليه عثمان بيك، وحسين بيك أبو يدك، واستعدوا له خوفا منه أن يفعل بهم كما فعل قرأ محمد باشا بعبد الرحمن بيك. فجمعوا من عندهم من الطوايف والغرب الذين اكروهم، فوجدوهم ما يفوقوا عن ألف رجل، فوزعوهم فى جوانب البيت، وفوق الأسطحة التى للبيت، وفى بيوت الجيران المجاورة لهم، وفوق اسطحتهم، واوقفوا جماعة داخل الباب الذى يخرج منه الى البركة ردا لمن يأتى لهم من ذلك الطريق. ووضع مدافع خارج البيت، ومدافع داخله. فلما رأت السكان المجاورين له، انزعجوا وخرجوا من منازلهم، خوفا من النهب والقتل، وكذلك فعلت التجار الذين فى سوق السلاح.

---

(١) بالاصل «يحقق».

يخرج عسكر ويردفه باخر. وفي هذه الايام وردت الاخبار بان التطر[التتار] نزلوا على اربل واخذوها بالسيف ويقال انهم قتلوا في جامعها سبعين الف نفس وبقيت القلعة ممتنعة عليهم وسيروا الى صاحب الموصل واطاعهم صاحبها وحمل اليهم الاتاوه الازواد والاقامات لان بينهم وبينه مسافة دون يوم وكانت الاخبار من الشرق والغرب تدل على ان الاحوال مضطربة. ووفي النيل المبارك في

وأما ما كان من الباشا فانه لما عاد له الرسول، اخبره بما قال الصناجق، مع عدم حضورهم اليه، وامتناعهم من قبول المنصب وتهيئتهم للحرب والمقاتلة، وجمع العساكر والطوايف، حصل عنده غيظ شديد، وتحقق عصياتهم عنده.

فلما كان ثاني يوم وهو يوم الخميس عشرين رمضان سنة ١١٢٧[١]. أرسل الى القاضي، والعلماء، ونقيب الاشراف، وارباب السجاجيد، والصناجق، والاغوات، والامراء المتكلمين أصحاب الحل والعقد من السبعة (*). أوجاق، وعرفهم بعصيان محمد بيك، وعثمان بيك، ومخالفتهم لوكيل السلطان، وطلب من العلماء أن يعطوه أذنا لمحاربته لهم. فسألوا الباشا أن يأذن لهم في التوجه لهم، وان يطمن خواطرهم، ويدفع ما عندهم من الخوف والوهم، أن يأتي بهم[٢] صحبتهم للبس القفاطين، ونزولهم الى مناصبهم، فأذن لهم الباشا، والتزم نقيب الاشراف أن يتوجه صحبتهم، فأجاب، وتوجه الجميع الى منزل ابراهيم بيك أبو شنب، وأرسل اليهم اختيارية الوجاقات يسألونهم الحضور الى منزل ابراهيم بيك أبو شنب. فتوجهوا الى منزل محمد بيك وعثمان بيك وعرفوهم باجتماع العلماء، والنقيب والصناجق، والأمراء، في منزل ابراهيم بيك وهو ينتظرون حضوركم، وقد تعهدوا لكم بجميع ما تطلبونه، وقد التزموا لكم

(١) ١٩ سبتمبر ١٧١٥م.

(*) كتب بأعلى هامش الصفحة «عونك يالله».

(٢) كررت بالاصل.

هذه السنة في نهار يوم الخميس الثالث عشر من مسرى(*) وهو عيد التجلي بطور تابور . وكان نيلا بدرياً وتواترت زيادته وكانت الاسعار رخيصه والاشيآ موجودة رخيصة الى الغاية والناس في رخآ عظيم وخيرات واسعة . ثم دخلت سنة اربع وخمسين وتسع مايه(*) والماء يزيد الى ان بلغ ثلاثا وعشرون اصبعاً من تسعة عشر ذراعاً وكان لما بلغ ثمانية عشر اصبعاً من تسعة عشر ذراعاً رسم

(*)١٣ مسرى = ٦ اغسطس عيد التجلي

(*) ٩٥٤ ق = ١٢٣٧م.

بضمان ذلك، وما مرادهم من ذلك الا اخماد الفتنة، واطاعة ولي الامر، وحقن دماء المسلمين. فأجاب المذكورون الى ذلك، فمنعهم الطوايف، والذين جاءوا اليهم من البلوكات، وقالوا لهم: نحن لا نأمن طرفهم، ولا تحت حكمهم وان خالفتونا، قطعناكم بايدينا.

فلما سمعوا، تعللوا بأمور، وسوفوا بهم، وامتنعوا من الركوب والتوجه معهم. فلما رجعت الجماعة، وعرفوهم بما وقع من محمد بيك وعثمان من اجابة الأمر، واجتماع طوايفهم، فعند ذلك قامت الجماعة جميعا، وطلعوا الى الديوان، وأخبروا الباشا بما حصل من امتناعهم. فكتب الباشا فرمانا(١) الى السبعة أوجاق بأن يحضروا الى قراميدان، كل بلك(*) بيرقة، وكذلك أمر طبجي باشا بتجهيز المدافع الى خارج سور القلعة، ويضعها على عرباتها في سوق الخبز، الذى خارج جامع قلاون(٢)، وكذلك أمر الوالي أن يأتي بخيل الطواحين لجر المدافع، فبادر كل منهم بالامتثال، وبات كل منهم على ذلك. فلما كان صبيحة يوم الجمعة حادى عشرين شهر رمضان سنة ١١٢٧(٣). حضر اسماعيل بيك بن ايواظ بخيله ورجله، وأيضا جميع الصناجق والاغوات بآلة حربهم تماما، ودخلت الصناجق والاغوات عند الباشا.

وأما الجاوشية والمتفرقة والأسباهية فانهم اجتمعوا جميعا في الرميلة، والعزب ببابهم،

(١) بالاصل «فرمان».
(٢) بالاصل «قيلون».
(*) بالاصل «بلق».
(٣) ٢٠ سبتمبر ١٧١٥م.

السلطان عز نصره ان لا يرجع ينادى عليه بل ان الخواص علموا ذلك من الرقاع التى كانت ترفع الى السلطان فى كل يوم. ووردت الاخبار من دمشق بان الملك الاشرف(*) مات ولم يصح ذلك حتى جاوا العزايه وعملت له الصبحه(*) وفشا الامر. ثم ان عماد الراهب المرشار الذى كان السبب فى تقدمة البطرك [كيرلس الثالث/ابن لقلق] وعاد عدوا له لما ابعده اجتمع مع شخص

(*) الملك الأشرف: هو اخو الملك الكامل، توفى ٤ محرم ٦٣٥هـ، تولى بعده ملك دمشق أخوه الصالح إسماعيل بعهد من الأشرف، وكان ذلك فى المحرم ٦٣٥هـ. وفى ٢٤ رجب من نفس العام توفى الملك الكامل بدمشق فتولى بعده فى مصر ولده سيف الدين أبا بكر الملقب بالملك العادل، وكان قد أستخلفه أبوه على مصر عندما سار إلى الشام.

(*) الصبحة: هى سرادقات التعازى.

- -

والينجشرية ببابهم. ومن جملتهم كور عبدالله جاويش، وناصف كتخدا القزدغلى، وحسن كتخدا النجدلى، وكانوا اتفقوا على قتل الشريف حسين كتخدا الوقت، وابراهيم أوضباشا باش الأوضباشية أخو محمد كتخدا جدك وعلى كتخدا الدوادلى، ومصطفى كتخدا الشريف، وغيرهم من الجاوشية المعزولة، والكواخى، مع ما كان بينهم من المصافات ظاهرا، والعهود والمواثيق والايمان العظيمة، لا يغدر أحد برفيقه.. ثم جددوا جميعا على السيف والختمة، وكل منهم واضع يده على السيف والمصحف، وكان الأمر بخلاف ذلك، واتفق المجلس.

ولما كان ثانى يوم الذى هو يوم الجمعة، وقد اجتمعوا بالباب، وهم فى همة التهيء لمحاربة محمد بيك، فأول من نقض العهد وضرب الشريف حسين كتخدا، وهو جالس على التخت، كان كور عبدالله جاويش، وكانت العسكر الذين فى الرميلة منتظرين ضرب المدافع، وحين ضرب البندق، وقد قفلوا الأبواب التى للقلعة من الجانبين، وكان السبب فى ذلك طايفة كور عبدالله، لما رأوا سيدهم ضرب شريف حسين(١) كتخدا بالبندقية قتله، سحبوا السيوف وضربوا بالسيوف والبندق.

ثم أنهم فتنوا على ابراهيم أوضباشا جدك، وكان قد اختفى هو وسليمان باش جاويش، فى أوضة باش جاويش، هجموا عليهم، وأخرجوهم، وقتلوا ابراهيم أوضا باشا، وأرادوا أن يقتلوا

(١) قدم واخر.

يقال له الاسعد بو الكرم ابن ابن اخت البطرك المتنيح [يوحنا السادس] وكان هذا البطرك [كيرلس الثالث] قد انتخبه وجعله صاحب سره وكلما ياخده على يده وشهد قدام الجماعة مراراً انه راض بقوله وان كل ما اخده على يده، وانه قد بقي على البطرك ثلثماية دينار ذهباً والاسعد عالم بها . فوقع بين البطرك وبينه لامر ما علم فاتفق مع هذا الراهب وعمل اوراقا مفصلة باسما من اخذ

* أهم أحداث سنة ٩٥٤ق. = ١٢٣٧م.= ٦٣٥هـ.
* ١ توت ٩٥٤ = ٢٩ اغسطس ١٢٣٧ = السبت ٦ محرم سنة ٦٣٥.
* في محرم توفي الملك الأشرف، أخو الملك الكامل، وتملك دمشق أخوه الصالح إسماعيل بعهد من الأشرف، الذى ملك دمشق ثمان سنين وشهورا، وعمره: ٦٠ سنة.
* ١ يناير ١٢٣٨ = ٦ طوبه ٩٥٤ = الجمعة ١٣ جماد أول سنة ٦٣٥.

سليمان جاويش، فحال بينه وبيهم البعض منهم، فسجنوه في القلعة، ثم فتشوا على محمد كتخدا جدك، ومصطفى كتخدا الشريف، وعلى كتخدا الداوديلي، ورجب جاويش، فوجدوهم قد هربوا، ونزلوا بالجمال من القلعة الى الحطابة، من ناحية سيدى سارية، ولحقوا العسكر الذين في السلطان حسن.

فلما أيسوا منهم، أخرجوا سليمان جاويش من القلعة، وأجلسوه بجانبهم ولا طفوه، وكانوا قد أرادوا قتل مصطفى كتخدا الشريف، فهرب، فادركه بعضهم، فضربه بالسيف في رأسه، فجرحه جرحا بليغا، فحال بينه وبين الضارب له، خدمة فجاءوا له بجواد فاركبوه وفر هاربا، فنجا، وجعلوا يستفزوا العسكر، فمن وجدوه طرفهم حبسوه في القلعة، خوفا من أن يتقاووا عليهم، ثم أجمع رأيهم أنهم ينصبوا قرا اسماعيل كتخدا، ويجعلوه كتخدا الوقت عليهم، فأبى، فاكرهوه، فلما رأى عين الغدر منهم، وظهر له عين القتل منهم، طاوعهم، فألبسوه العمامة، واجلسوه على التخت.

فلما بلغ الناس الخبر، ضجت وقفلت الأسواق والحوانيت، وحولت التجار أرزاقها من سوق السلاح، ووصلت الاخبار الى الباشا، فأشتد غيظه، وأرسل يطلب المدافع التى كانت هيئت الى محمد بيك، فوجد الانكشارية قد ادخلوهم الى داخل بابهم؛ فأمر الباشا العسكر الذى كان هيئهم لمحاربة محمد بيك، بمحاصرة بابا مستحفظان من جهاته الأربع، فحاصرهم

منه البطرك شرطونية وغيرها على يده خاصة فى مدة صحبته له الى ان فارقه يشتمل على تسعة الف دينار ومتين، واخذاها وطلعا بها الى القلعة وكانت نسخاً [عدة نسخ] فنسخة تسلمها الامير نور الدين بن الامير فخر الدين عثمان استاذ الدار، ونسخة تسلمها القاضى الاسعد الفايزى الوزير. فسيرا احضرا البطرك بحضور الراهب والاسعد وقابلوا بينهم فاتفق الحال على ان

* فى ٢٤ رجب توفى الملك الكامل بدمشق، وعمره نحو ستين سنة، ومدة حكمه نائبا على مصر عشرين سنة، وسلطانا عليها عشرين أخرى، وبوفاته بايعت المصريون ولده سيف الدين أبا بكر، الملقب بالملك العادل، وكان قد استخلفه أبوه على مصر عندما سار إلى الشام.

اسماعيل بيك من جهة المحجر، والجزار من الجبل، ومصطفى بيك القزلار من جهة القلعة، وجماعة الباشا من طرف باب جامع قلاوون(١). وأما البلوكات الخمسة فأنهم فى الرميلة، وقد امتلأ السلطان حسن(٢) والمحمودية بطوايف الصناجق والأغوات، وأما العزب فى بابهم.

وأما محمد بيك لما وصل له الخبر بموت الشريف حسين وابراهيم أوضا باشا جدك، امتلأ قلبه فرحا، وصار منتظر الخبر يأتيه من باب مستحفظان، لأجل ما ينضم مع كور عبدالله.

وأما كور عبدالله فانه لم يجد محلا ينفذ منه الى محمد بيك رسولا، بل كل جهاتهم محاصرة. وأما الأغوات فأنهم كانوا مشغولين فى تدبير أمرهم من كتابة قايمة بأسماء الجماعة الذين كانوا سبب اشعال نار الفتنة. وارسلوها الى الباشا، وكانوا خمسة وثلاثين ما بين صنجق وآغا وجربجى وواجب رعاية. ثم انهم بعد تقديم القايمة الى الباشا اجمع رايهم على ان ينصبوا عليهم كتخدا، ويرسلوه الى الباشا ليلبسه قفطانا، وينزلوه الى بيت الوالى.

ولما كان صبيحة ذلك اليوم، الذى هو يوم السبت ثالث عشرين رمضان، طلعت السناجق والأغوات الى الباشا، وأعرضوا عليه القايمة المكتبة باسماء الجماعة وتلبيس قفطان

(١) بالاصل «قلون» والتصويب من التحفة، ص٣٢٢.
(٢) بالاصل «والرميلة» وفوقها علامة الحذف، فحذفتها ليستقيم المعنى.

البطـرك يقـوم بالف دينار لبـيت المال المعـمـور. وفيما هو يقوم بها [بالألف دينار] كان رجل صايغ يعرف ببها [بهاء] وهو من اصحاب البطرك، وهو الذى كـان يخـدمـه ويأوى اليـه فى ايام العلمـانيـة وكان له دكان فى الصاغة بالقاهرة فاتفق ان عبدا سـرق من القلعـة مـصـاغـاً ونزل به الى دكـان هذا[الصـايغ] بهـا [بهـاء] سلمـه اليـه وتسلم عليـه مبلغا، ثم ان هذا الصايغ المذكور تصرف فى بعض

الكتخدائية(١). الى محمد كتخدا الجدك. فأمرهم أن يضعوا اسمائهم وختومهم على القايمة، ففعلوا ما امرهم به الباشا.

أما ما كان من أمر الذين كانوا فى باب مستحفظان، فانهم اتفقوا على انهم يرسلوا الى الباشا رجلا يسألونه بانه يأذن لهم فى تلبيس الكتخداوية الى قرا اسماعيل كتخدا ببيردى يرسله لهم، وأنهم متهيئون الى محاربة محمد بيك وغيره، وأنا متأهبون للطاعة لكم، أصحابا لمن صاحبكم، عدوا لمن عاداك، وأن شئت تبقى الأمر الى بعد العيد، ونحن نلزم(٢) محمد بيك يتوجه الى جرجة، وعثمان باى الى منفلوط، بالرغم عليهم. وأما الشريف حسين، وجدك ابراهيم أوضباشا، فان العسكر اغتالوهم وما قدرنا نمنعهم، وكان من أمرهم ما كان ونحن من اليوم مطيعون الله والسلطان.

ثم انهم تشاوروا فيمن يرسلوه الى الباشا لتأدية الرسالة، فأجمع رأيهم على أنهم يرسلوا محمد جاويش المنلا، وكان اذ ذاك سراج الاغا، فأرسلوه الى الباشا؛ فلما توجه اليه وأعرض الأمر عليه؛ وطلب الجواب منه، فقال عابدى باشا، هذا الامر متعلق بباش جاويش الاوجاق، فاذا جاء الينا عرفناه الجواب الذى يكون فيه الصلاح. فأراد محمد جاويش المنلا أن يذهب ليحضر باش جاويش، فمنعه الباشا، وقال له: أنت تجلس عندنا، ونرسل له غيرك يحضره.

(١) بالاصل «الكخداية».

(٢) بالاصل «تلتزم» والتصويب، من التحفة، ص٣٢٣.

المصـاغ وسـبكه. فلمـا كـان فى هذه الايام علم بالعبد انه اخذ العمله، فامسك وضرب وقرر فقر على [الصايغ] بها [بهاء] المذكور فاخذ [الصايغ بهاء] ووكل به واحرق به واستعيد منه اكثر المصاغ وغرم كلما يملكه عوضاً عما عدم منه. ثم بعد ذلك رجعوا على البطرك بالطلب وقالوا هذا صاحبك[الصايغ بهاء] وانت علمت به ورضيت وآخر الحال انهم قرروا عليه خمس ماية دينار اخرى

جـاويش، فكتب[1]. محمد جاويش، تذكرة يخبر الكواخى بما وقع، ويطلب (باش)[2] جاويش. فلما وصلتهم الرسالة أمروا باش جاويش بالتوجه الى الوزير. فلما حضر بين يدى الباشا، قال له: أنت لا تروح الى الباب؛ بل تكن فى خدمة كتخدا مستحفظان هذا، واشارة بيده الى محمد كتخدا الجدك. ثم أنه أفرغ على كل واحد قفطانا، وقال للمنلا: اذهب أنت الى الباب، وأخبرهم بما عاينت. فقال آغاة الانكشارية: هذه خدمة متعلقة بى، ولا يلزم من هذا أنه يروح الباب.

ثم نزل آغة الانكشارية، وكتخدا الوقت جدك، وسليمان جاويش، والمنلا، قدام الاغا الى المحمودية، ليكونوا مع من هناك من العسكر.

فلما نزلوا من باب العزب، وأرادوا التوجه الى بيت الوالى تصدر ابراهيم جربجى الصابنجى، الى جدك محمد، وقال له: توجه أنت الى السلطان حسن، ودع آغة الانكشارية يتوجه الى بيت الوالى حكم التوافق، لأننا مرادنا نهجم على باب الانكشارية الليلة لاجل ما نبقى قريبا من المراجعة، فعند ذلك أرسل الاغا، وباش جاويش الى بيت الوالى، وتوجه الجدك الى السلطان حسن، ونزل المنادى ينادى قدام آغاة مستحفظان: من كان انكشارى فليأتى الى

(١) بالاصل «بتحدير»، والتصويب، من التحفة، ص٣٢٤.
(٢) الاضافة لتوضيح المعنى، من التحفة، ص٣٢٤.

وصـار مطلوباً بالف وخمـسـمـاية دينار وقام بهـا [البطرك]. واما بها [بهاء] فـانه بقي في الترسيم اياماً حتى يقوم بما طلب منه حتى انه المسكين وصلت حاله الى ان طلب من الناس [سداد باقي العقوبة عنه]. وبعد ذلك لما علم انه لم يبق له شي رمى [في] الجب. واما العبد فقطعت يده. ثم ان مولانا السلطان خرج من القاهرة طالباً الى دمشق في يوم الخميس الثامن عشر من بابه [١٥ اكتوبر]

بيت الوالي. وأما محمد كتخدا جدك فانه جلس في السلطان حسن واجتمع عليه من الجند خلق كثير. وان كل من جاء الى بيت الوالي يرسلوه الى السلطان حسن. وأما الباشا فانه حاصر باب مستحفظان، وشدد عليهم في المحاصرة.

وأما العزب فانهم ملكوا كشك يوسف صلاح الدين الذى داره [حاصره] العسكر بباب مستحفظان كما يدور الخاتم الاصبع من جوانبه الأربع، ومنعوا الناس من الصعود اليهم. وأما الذى في باب مستحفظان، فانهم علموا بأن جدك محمد تولى الكيخوية وقطعوا الماء عنهم، وبطلوا السواقي، فتحققوا الموت من كل بد وسبب، ولم يجدوا الى الفرار سبيلا، لأن الجهات الاربع مملوكة. فاستمروا في حيرتهم الى قريب الغروب، وهي ليلة الاحد ثاني عشرين رمضان، هجمت جماعة الباشا، وجماعة مصطفى بيك، فكسروا الباب الذى على جامع «محمد بن قلاوون»[1]، واجتمعوا بالرحبة التى بين البابين، المتوصل منه الى الباب. فلما تكلموا هجموا على الباب المذكور، فخلعوا درفة الباب، وكسروا الثانية، وهجموا عليهم. وأما المحاصرون فانهم لما راوا الباب انكسر والسيوف بارقة، وكان كور عبدالله، وباكير، امروا من عندهم بضرب البندق، فكثرت عليهم العسكر ففروا الى بدن القلعة، وربطوا أرواحهم بالحبال، ونزلوا من وراء القلعة، فانقطع الحبل بكور عبدالله، فنزل، فانفكت رجله، لأنه كان جسيما، ثم قام يجرى.

(١) بالاصل «ابن قلون»، والتصويب والاضافة، من التحفة، ص٣٢٥.

في هذه السنة ووصل اليها ونزل عليها وحاصرها وكان القتال يستجبر عليها من جوا وبرا وكان رسول الخليفة رجلا يقال له ابن الجوزى فمشى بين السلطان وبين اخيه الذى كان بها وهو الملك الصالح غازى فاصطلحا على ان يعطى الملك مع بصرى قلعته التى له [فى] بعلبك وبلاد اخرى ويسلم السلطان الملك الكامل مدينة دمشق. وعبر اليها فى نهار بوم الاربعا الرابع من كيهك [٣٠

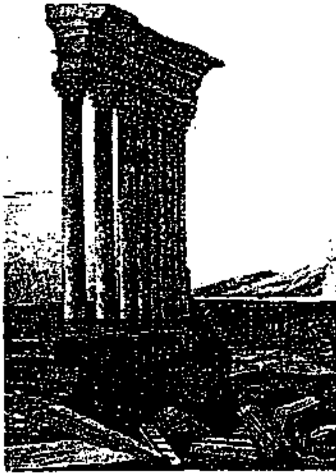

* آثار معبد ايزيس في بعلبك

وأما باكير، فان الحبل انقطع به فوقع، فانكسرت رجله، فشاله بعض من اتباعه، ووضعوه في تربة[١]، مهجورة، وله كلام يأتي.

وأما حسن كتخدا التجدلي، هرب الى مستوقد الحمام، فأخرجوه، ورموا عنقه، وأخذوا حوايجه، وابقوه باللباس والقميص عند الشـشمة[٢]، ولم ينفعه ماله ولا جنده.

وأما ناصف كتخدا، فانه فر الى الاوضا القديمة، فقتلوه، وأرسلوا رءوسهم الى الباشا، وباتت جثثهم مرمية الى ثاني يوم، وفتح الباب الذى يتوصل منه الى المحجر فأدخلوا من كان خارجا منه، فدخلت العسكر وصحبتهم محمد كتخدا الجدك، فجلس محل الحكم، ووضعوا قرا اسماعيل كتخدا، وحسن العنتبلي، وحسين اوضباشا الدمياطي، وجماعة أخر ممن كان ينتمي الى المقتولين، من أوضباشية، ونفر أودعوهم القلة[٣]. وأما إسماعيل أو ضباشا القزدغلي، فانه هرب، فلحقوه، وأودعوه قلة العزب.

وأما محمد بيك الصغير، المدعو قطامش، فانه لما بلغه ما فعل بالجماعة، ركب هو وجماعته ليلا، وفر هاربا الى بولاق، فنزل في مركب، وفر هاربا بنفسه، وترك خيله وماله وجماله، فانتهبوها جميعا.

(١) بالاصل كلمة «غفير» مشطوبة.

(٢) تعني صهريج خزن المياه، ويذكر صاحب التحفة ص٣٢٥ انهم «وجدوه في أتون حمام فأخرجوه، وضربوا عنقه عند الأذان».

(٣) أي سجن باب القلة بالقلعة.

نوفمبر] ولم تدخل حمص وحلب في اليمين وكان المرض ايضا قد فشا في الناس مثل السنين المتقدمة ومات خلق كثير واقام السلطان بدمشق وعظم امره وعزم على الخروج لاخذ حلب وجهز العساكر لذلك فمرض في اثنا ذلك وتوفي في ليلة الخميس الخامس عشر من برمهات [١٠ ابريل] الموافق للرابع والعشرين من رجب سنة خمس وثلثين وستماية [١٢٣٨م] فكانت مدة مقامه

* الطريق إلى حلب

وأما عثمان بيك بارم ديله، وحسين بيك أبو يدك، وصالح كتخدا الجاوشية، ومحمد كتخدا الجاوشية الأعور، فانهم اختفوا، ولم علم أحد أين راحوا، ولا الى أين ذهبوا، ولم يعلم لهم خبر.

وأما محمد بيك، فان يوسف بيك الجزار، الزمه الباشا به، أن يلحقه، وكان بين محمد بيك والجزار ود قديم، فركب في سفينة وتوانى في السفر خلفه، فلم يلحقه الى أن دخل ثغر دمياط في ثمانية أيام، سيل عن محمد بيك، فأخبروه أنه منذ يومين أتي الى هنا، ومن هنا توجه الى الطينة، ونزل في سفينة، وتوجه الى الشام. فرجع يوسف بيك الى مصر، وأخبر الوزير بما حصل، وتقيد بحريم محمد بيك، ونقله من محله الى محل غيره، ورتب لهم كلما يعتازوه حتى اجرة المنزل. فهذا ما كان من محمد بيك والجزار.

وأما العسكر، فانهم تفرقوا، يفتشوا على الفارين فظفروا بباكير أو ضباشي، فأتوا به في أسوا حال، ملفوفا في ملاية زرقا، مبطوشا على حمار، الى ان اطلعوه الباب، فلما رآه محمد كتخدا، أرسله الى القلعة.

وكان الظافر به، إسماعيل بيك بن ايواظ، لقيه في تربة عند قبة الهوا، بواسطة رجل بدوى، فطلعه من التربة مكسور الرجل، لأن الحبل قد انقطعت به فانكسرت رجله. فلما رآه اسماعيل بيك، امتلأ فرحا، وأعطى البدوى عشرة أحمر، لانه كان قد اسكن مهجته غما وغيظا، لأنه

بدمشقماية يوم ويوماً واحداً وكان الخدام متولين امره ولم يعبر اليه احد من اقاربه ولا خواصه من الامرا ولم يوص بشى فكتموا امر وفاته وادعوا انه مريض وانه رسم بان تحلف الامرا لولده(*) بان السلطنة له من بعده وهو الولد الاصغر الذى بمصر فحلفوا جميعهم. فلما تكاملت ايمانهم افشوا خبر موته فندم بعضهم ومن لم يحلف ما حلف، وهو الملك الناصر بن المعظم الذى كان صاحب دمشق الذى كان السلطان قد ركبه فى

(*) الملك العادل. وهو سيف الدين أبا بكر، حكم ما بين ١٢٣٨ و ١٢٤٠م.

كان اراد أن يتخذه مسندا له، وأعطاه في شعبان ألف زنجرلي، واعطاه بيت على جريجي الحبيشلي، من غير شيء، وأورد ثمنه من عنده، عشرة أكياس، وفرشه له وخزنه له من الأشياء، حتى الحطب أرسل له ماية قنطار، وأسكنه فيه، فبعد هذا كان هو السبب في قتله، وعمل جمعية في رمضان بالليل، وركب هو وبعض جماعته نحو الأربعين، وساروا له بعد التراويح، على أنهم يقتلوه في بيته، فكان في المجلس رجل محب لاسماعيل، فلما قروا الفاتحة، وتهيئوا للركوب، سبق الجماعة، وتوجه الى اسماعيل بيك، رآه يصلي التراويح، وجلس في المقعد فجاءه وقال له: الأمر كما هو كيت وكيت، وان باكير راس الجماعة، وان كنت ما تصدقني اودعني عندك في اوضا، فان صح ما أقول والا فانقلني. فبقي اسماعيل بيك بين مصدق ومكذب لما فعل في باكير من المعروف في شعبان. فأمر البواب ان يقفل الباب، فجآءه الجماعة، فرأوا الباب مغلوقا، فطرقوا الباب، فجاوبهم البواب، وقال: هذا من(١) فجاوبه واحد منهم، وقال: افتح لنا. فقال البواب: الصنجق في الحريم، والمفتاح عنده. فقالوا لبعضهم: الطبخ فسد. ارجعوا والسنجق ينظر من أوضة المهاترة [جاويش الباب]، التي فوق وجه الباب. ثم في ثاني يوم الذي هو يوم الثلاث الخامس والعشرين من رمضان(٢)، أتوا باسماعيل أوضا باشا من باب العزب لأنه كان قد هرب، فمسكه العزب، فلما أحضروه قدام محمد كتخدا،

(١) بالاصل وضع فوقها علامة التقديم والتأخير. (٢) ٢٤ سبتمبر ١٧١٥م.

القاهرة ركوب السلطنه على انه اتابك وولده هذا المخلوف له واركبه فى دمشق بعد فتحها كذلك . فعز عليه [الملك الناصر] هذا الامر وكان اهل دمشق يحبونه لولايتهم فى ابيه وما اغنى ذلك شيأ. فاخذ الامرا الكبار والخدم الملك الجواد مظفر الدين بن ممدود بن ابى بكر بن ايوب وهو ابن اخى السلطان المتوفا سلموا له دمشق وجعلوه اتابك الملك العادل صاحب مصر فها [فيها] وسلموا اليه

فأمر به الى القلة. واذا باغا من حضرة عابدى باشا وبيده فرمان بطلب رءوس الثلاثة، وهم: اسماعيل كتخدا، وباكير، واسماعيل كاشف. فقرا الفرمان أفندى الباب فأمر الجدك باخراج الثلاثة. فأول ما أخرجوه قرأ اسماعيل، فلما رأى الجلاد، قال: آتونى بابريق، فأتوه بطشت وأبريق، فتوضا وصلى ركعتين، واتى بالشهادتين، وانفذ الجلاد فيه حكم الله، فمات بريا مظلوما لأنه كان فى بيته، فأرسلوا أخذوه قهرا عليه، وتوضأ كذلك اسماعيل أوضباشا، وسار يقول: لا إله الا الله، محمد رسول الله، لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وهو كالذهلان. ثم أنهم أتوا بباكير، ورقبته مكسورة، ولم فيه نفس، فذبحه الجلاد بالسيف، فلم ينزل منه دم، لأن اسماعيل بيك ما أبقى فيه شيئا. ثم ان الاغا أخذ رءوسهم جميعا وأحضرهم قدام الباشا. فسلخهم الجلاد، [رؤوسهم] وأرسل الجماجم الى الباب، يوضعوهم على جثتهم، وأرسلوا الثلاثة الى منازلهم.

وأما حسين كتخدا الشريف، فانه غسل وكفن ودفن بسارية، وابراهيم اوضا باشا غسل وكفن ودفن بالأوضا القديمة. ثم أنهم اجتهدوا فى التفتيش على كور عبدالله جاويش، فلم يروه، واختفى ناس كثير. ثم ان محمد كتخدا الجدك، اخذ فرمانا، ونادى به اغاة مستحفظان: ان كل من راى احدا من الهاريين ومسكه واتى به، أو أخبر عنه، فله ماية عثمانى وكيس، ومن علم به، او خبأ احدا منهم، وفطن به، كان روحه وماله هدر. ثم ان اسماعيل بيك، امير الحج ابن ايواظ، ركب هو وجماعة الباشا، على دجوة بلد [الشيخ] حبيب، فنهبها وهدمها الى

الخزاين فاعطى وخلع ووهب واقطع وكان كريما حسن الخلق فاخذ بقلوب الامرا والاجناد واحبه الناس الا ان الغلا كان بدمشق. وكان لما ورد الخبر بوفاة السلطان الى مصر واستصحه الناس طلب كل احد الغلة وشحت نفوسهم عليها وتوهموا ان ثم حصاراً يقع. وارتفع السعر الى ان بلغ ثلثين درهما الاردب والشعير ثمانية عشر درهما والفول مثله ومنع بيع الغله اصلا الا للطحانين على قدر

الأرض، ولم يبق بها ولا الزاوية، وجعلها مراح وقطع اشجارها وردم[1] سواقيها، وهدم حتى دور الفلاحين، وأخفى آثارهم، ولم تخرب دجوة خرابا مثل هذه الخربة ابدا.

وأما حبيب فانه ذهب الى جهة جرجة، فمكث بها أياما متخفي، ثم طلع له طاعون فى رجله، فمات به، وأراح، ودفنه أولاد سعيد ليلا، وخفوا قبره، لئلا (أحد)[2]، يخرجه ويحرقه، ولم يشعر به أحد الا ابنه سالم وسويلم وسليمان فقط. وهجوا الى الصعيد. ولم يكن لهم كلام. وأما اسماعيل بيك فانه رجع يرقص جواده، ودخل منزله. وأما منزل محمد بيك الصغير، وعثمان بيك بارم ديله. فان العسكر نهبهم. ولم يبقوا شيئا. ولما كان يوم[3]، السبت. التاسع والعشرين من رمضان سنة ١١٢٧ ظفروا بكور عبدالله جاويش. وخزنداره. فى أم خنان[4]. فجاء الخبر الى الباشا فأرسل له محمد بيك جركس. فسافر محمد بيك الى أم خنان. فوجده قد مسكه الفلاحون، فأركبه على جواد. والقيد فى رجليه من تحت بطن الجواد

---

(١) بالاصل «ورد».
(٢) الاضافة لتوضيح المعنى.
(٣) بالاصل «ولما كان يوم الثلاث بل السبت» حذفت كلمتى الثلاث بل «ليستقيم المعنى والتاريخ حيث أن يوم الثلاث كما سبق كان يوافق الخامس والعشرين من رمضان، فيكون السبت هو التاسع والعشرين من رمضان ٢٩/١١٢٧ سبتمبر ١٧١٥م.
(٤) أم خنان: اسمها الاصلى «مخنان المرسين»، وهى احدى قرى مركز قويسنا، محافظة المنوفية، وقد عرفت بالمرسين تمييزا لها من سميتها بمحافظة الجيزة، ثم حرف أسمها الى «أم خنان»، وهو اسمها الحالى، محمد رمزى، المصدر السابق، قسم ٢، جـ٢، ص٢٠٠.

غلاتهم وبقى الناس فى شدة والقمح لا يقدر عليه ولا الخبز وعلى كل دكان زحام حتى لا يقدر احد يعبر عليه وجندارية [الشرطة] الولاه على دكاكين الخبازين ولا يباع لاحد خبز الا بالقسط. واستمر هذا جمعة من الزمان حتى اطلقت الغلة للناس اشتروها ورخصت وكثر الجلب واهتدى الناس مما هم فيه. وكان البطرك قد توجه الى اسكندريه فى

الى الديوان وهو ملفوف بملاية. وأوقفه بين يدى الوزير. فلما رآه لم يخاطبه، بل أرسله الى الجدك، وأرسل خلفه آغا بفرمان بانفاذ أمر الله فيه.

فلما ورد الأغا الى باب مستحفظان، وأبرز الفرمان، فأمر الكتخدا بانفاذ أمر الله فيه، فدخل الجلاد الى القلعة، فلما رآه الجاويش لم يكترث به، بل قال له شانك وما تريد. فأخرج الحبل ليربط يديه، فقال له: بلا ربط، افعل ما بدا لك. فقال له الجلاد لا يمكن من غير ربط يديك ياسيدى. لأن هذه روح. فسلم له فى ربط يديه، فلما رآه الخزندار، قال للجلاد: خدنى أنا أولا، ولا أرى سيدى فى هذه الحالة فقال سيده: لا والله! لم يكن أولا الا أنا. وصار الاثنان يتعازمان على بعضهما البعض، فقال الجلاد: هذا أمر يطول.

ثم ان الجلاد انفذ أمر الله فى سيده أولا، ثم خزنداره بعده، رحمهما الله. ثم ان الجلاد أخذ الرؤوس وسلخهم، وأرسل الجماجم على الجثث، وارسلوهم الى منازلهم ثم أن بيت مال مستحفظان ختم على منازل الجميع، فلم يجد عند أحد أكثر من الذى وجد عند حسن كتخدا النجدلى، وشاع بين الناس ان الذى وجد من النقود التى ضبطت ثمانماية كيس، غير الذى توزع، وغير الذى تناولته أيدى خارجا عن الأسباب، والامتعة، والفضيات، والجواهر، والذخاير المثمنة، هذا كله خلاف الغلال التى بمصر القديمة، وبولاق، والصعيد، واخربوا بستانه وقصره الذى، بقنطرة المدابغ، وبستان كور عبدالله وقصره الذى كان سابقا لأفرنج

اثنا الصوم قبل ورود هذا الخبر بايام. وبعد هذا توصلت العساكر من الشام اولا ا ولا وجات الخزاين مع الخدام بعد ان اخذ منها الملك الجواد [مظفر الدين بن محمود] ما احتاجه وتكامل العسكر بالديار المصرية ولم يبق بدمشق الا امراء قلايل اختارهم الملك الجواد لمساعدته ومرافقته. وكان السلطان الملك العادل قد احضر العربان لياخذ عليهم العهود والايمان وكانوا قد كثروا

أحمد بطريق بولاق. وفي رابع شوال[1]. أرسل الباشا فرمانا الى باب مستحفظان، بقطع الشجرة التوتة التى ببيت قيطاز بيك، فقطعوها وهدموا الديوان الذى كان تحتها وكانت هذه التوتة لم يكن فى مصر لها نظير، وكان لها من العمر نحو الخمسماية عام، لان هذا البيت كان للأمير سودون العجمى، من امراء قايتباى، وكان قد عمر كثيرا من العمر، فلما ورد السلطان سليم الى مصر، بعد أن ملكها. ونزل ببيت قايتباى الذى بشيخ الظلام، جاءت له جميع الأكابر، وسلموا عليه، فسأل: هل بقى أحد لم يقابلنا؟!. فأخبروه: سودون العجمى[2]. فقال: ولم لا أتانا؟! فقال له: أنه معمر فى العمر، لم يقدر على الركوب، ولا على المشى، وزيادة على ذلك أنه لما طلع قانصوة الغورى الى مقابلتكم، بنا [سد بالحجارة] بابين بالبيت الذى له، خوفا ان يستغفله أولاده ويركبوا صحبة الغورى، وكان له ولدان فرسان زمانهما، واحد يقال له قاسم: والآخر يقال له ذو الفقار، فوضع الاثنين فى القيود، وبنا البابين. فقال السلطان سليم: فاذا بقى الواجب علينا نروح له. ثم أنه ركب فى الحال من البركة، وتوجه الى منزل سودون العجمى. فرأى الباب مبنيا، كما ذكروا، فأمر بهدم البنا، ودخل فوجد المسطبة والتوتة مظلة فوقها، فنزل تحت التوتة، وارسل الى الامير، فأعلموه بورود السلطان سليم الى

(١) ٣ أكتوبر ١٧١٥م.

(٢) كتب عنوان جانبى «أعرف حكاية السلطان سليم خان مع سودون وابناية أحد قواد قايتباى الخ وسبب الفقارية والقاسمية».

بالقاهرة حتى صار فيها زهاء الفي فارس وخشى الناس منهم الى ان وصل العسكر وخلع عليهم وحلفوا وخرجوا وخلع على الامرا الذين وصلوا ووصلوا [وصلهم] بالمال والزيارات فى اقطاعاتهم. وكان الناس بعد موت السلطان قد تكرهوا الفلوس والمعاملة بها وصار في البلدين [القاهرة ومصر عتيقه] سعران سعر بالفضة وسعر بالفلوس ، وانتهى حالها الى ان صار كل درهم ورقاً [فضة]

منزله، فخرج مسرعا، والخدم شايلينه الى أن أوقفوه قدام السلطان، فلما رآه قام له، ورحب به، فطلب منه الأمان، فامنه على نفسه وماله وأولاده، وطلب أولاده الاثنين، فاحضرهم فى الحال بالحديد، فأمر السلطان بفك قيودهم، وامنهم على أنفسهم. ثم أنه طلب ان يرى صدق ما قالته الامرآء من فروسية أولاده، فأخبر الأمير سودون: ولتكن العزومة من عند عبدك سودون. ثم أن السلطان ودعه، وسار الى منزل قايتباى، ثم أن الأمير أرسل من مطبخته، من وقته، الى القصر العينى.

وفى ثانى يوم أرسل أخبر السلطان، فركب في خواصه، وسار[1] الى قصر العينى فرآه مفروشا بأفخر الفرش. ثم أن قاسم قال لأخيه، أنا أكون من طرف السلطان، وأنت تكون من طرف مصر. فقال له اخوه: وجب. ثم أنه صار الى جماعة السلطان وانتخب منهم نحو المائة فارس، وكذلك(*) ذو الفقار أخذ من جماعته التى يعرفها نحو المائة، ووقفوا قدام بعضهم، قاسم نحو القصر، وذو الفقار نحو القنطرة، ثم طلع فارس الى فارس، وصاروا يتزايدون الى ان طلع قاسم الى أخيه ذو الفقار، فخرجا وتعاركا معاركة الحرب، فرأى ذو الفقار من أخيه عين الغدر أولا وثانيا وصار يكر عليه ليقتله.

فلما رآه كذلك، قال له: يا اخى ما هذا؟. فقال له ما هكذا القتال. ثم ان قاسم غافل اخاه واراد ان يرمى عنقه، فاستتر منه فنزل الحسام على فخذه، فجرحه جرحا خفيفا فلما احس

(١) بالاصل «وصار».

(*) كتب بأعلى هامش الصفحة «عونك بالله».

بدرهمين فلوساً والدرهم النقرة بستة دراهم فلوساً وضرب منهم وشهر وهم لا يرجعون، ثم بعد ذلك صاروا يبيعونها بالرطل بدرهم واحد ورقاً ونصف درهم ورقاً كل رطل. وحدث فى عشية يوم الاربعا اول بونه مطر عظيم لم ير مثله فى مثل هذا الوقت من السنة ودام الى برهة من الليل وكان معه برق ورعد مخوف وكان هذا من جملة الاعاجيب. ثم انهم رجعوا شرعوا فى تتمة عمل

أخوه بالفولاذ، قام زنده بالحسام، وقال له: ما هكذا الحرب! واراد أن يرمى عنقه، فولى هاربا نحو القصر، فلما رأى جماعة السلطان الذين هم حزبه الى نحوهم هارب، وأخوه ذو الفقار كالشاهين، استقبلوا ذو الفقار وهجموا عليه ليقتلوه، فيا نعماك بذو الفقار، وكان يردهم بالطعن والضرب، وتبع ذو الفقار جماعته، وكانت تولى جماعة قاسم الى الفرار. ثم ان السلطان اطلع من فوق الكشك على جماعته، وكذلك امراء مصر فمنعوهم عن بعضهم البعض، والا كان وقع بينهم التساقط.

ثم أن السلطان أرسل الى الاثنين واخلع عليهم، واعطاهم كل واحد ثلاث بلاد وكتب لهم جوامك. فمن ذلك اليوم ظهر فى مصر الفقارية والقاسمية، وصارت الفقارية تدل[1] عن أهل مصر، والقاسمية تعرض الى طرف السلطنة. وكان محل مجلس السلطان سليم درابزين[2] خشب، وكانت الصناجق الذين سكنوا فيه يجلسون خلف الدرابزين، وكانت المسطبة ليس لها نظير فى الملك.

وأما التوتة كان توتها حكم القمر، وكان فيها خزاين مصنوعة، وكان هدم المصطبة، وقطع التوتة يوم السبت رابع شوال سنة ١١٢٧ . ثم ان يومى الأحد خامس شوال عمل الباشا ديوانا

(١) بالاصل «تدب».
(٢) بالاصل (ضرابزين) وهى تعنى سور أو حاجز من الخشب يحيط بالمسطبة التى يجلس عليها السلطان.

السور على البلدين من ناحية ـ البحر والخليج ورجعوا الزموا الناس كلهم بحفر الاساس من المسلمين والنصارى واليهود وصاروا يمسكون القسوس الذين بالقاهرة ومصر الذين هم قسوس الكنايس بها وصار اوليك المساكين يتكلفون ان يصيروا اما حشاراً او نقبا اسطول. ويأخذوا معهم الجنداريه من عند المشدين ويجيبون المساكين ارباب الصنايع والمتماعشين يخرجونهم يحفرون من بكره

عظيما، وأرسل أحضر الأعيان، وقال لهم ما يقولون في هذه القايمة التي كتبتم فيها أسماء الجماعة المستحقين القتل والازالة، ووضعتم اسماوكم، وختومكم فيها؛ وشهدتم عليهم، وعملنا بقولكم، وأنفذنا حكم الله في البعض، وفر البعض وبلغني أن الذين فروا بعلمكم[1]، ومنهم أفراد مستخفين عندكم، وأنا أقسم بالله: متى ما ظهر أحد منهم عند أحد منكم أو في منزل أحد منكم، قتلته اشرها قتلة، ليعتبر به الغير.

فما كان جوابهم الا أن قالوا: احنا على قولنا الذى قلناه، ومتى ما ظهر أحد عند أحد، فنحن بريون منه، وأمره لكم فما قالوا هذا القول، حتى ان الباشا أمر بكتابة فرمان، وأرسله الى آغاة مستحفظان؛ فنزل نادى به في شوارع القاهرة مضمونة: ان كل من ظفر بأحد من الفارين، أو عرف مكانه وأخبر عنه، فله مائة عثماني. وكيس فلوس. ومن علم بأحد ولم يخبر عنه. فروحه وماله هدر. ونادى بذلك في شوارع القاهرة. ثم أن الباشا أرسل فرمانا الى باب مستحفظان بطلب رأس حسين أوضاباشا العنتبلي، فلما قرى الفرمان في باب مستحفظان، وجميع الاختيارية في الباب، فقال محمد، كتخدا الوقت، ما تقولوا[2] يا اختيارية؟. فقال الجميع: نرسل نراجع الوزير في عدم القتل. ونرسل ننفيه الى بلاد الروم. فقال الكتخدا: نرسل نراجع الوزير. ثم انهم أرسلوا راجعوا الوزير، فأجابهم لما قالوا.

(١) بالاصل «بعملكم».

(٢) بالاصل «مايقولوا».

الى الليل، ومن كانت له اجره وزن عن نفسه حق البديل لمن يحفرعنه على ما يشارطه عليه من ثلثة دراهم الى حولها. وكان رجل من اهل طمبدى وكيلا للبطرك على رباع الاوقاف وكان اشد ما على النصارى هو لانه كان يؤلب عليهم الولاه والمشدين حتى يقطع مصانعة النصارى لانه جعلها معيشه، والبطرك غايب والناس فى شده وهى واقعة بالضعفا خاصة لان الكتاب وارباب الجاه ما كان احد يتعرض اليهم ولا كان فيهم هم من

ثم أنهم فى ثانى يوم نفوه الى الروم. وفى حادى عشر شوال أحضر الباشا قاضى العسكر، واعيان العسكر الى الديوان، فلما حضروا أبرز الباشا لهم القايمة وقال لهم: بلغنى أن الذين فروا، ما فروا الا بمعرفتكم. والذين لم يفروا عندكم. وتعلموا أين هم. فانكروا، وحلفوا انهم لم عند أحد منهم خبر أبدا عن[1] احد منهم. فقال لهم: كيف ما تحلفوا، وعمر آغا شاكر بره، عند على كتخدا الداودلى فى منزله مخبا، ثم انه التفت الى آغا مستحفظان، وكتخدا مستحفظان، وقال لهم: تقوموا فى هذا الوقت، وتنزلوا الى بيت على كتخدا، وتحضروا عمر آغا، والا لا تلوموا الا أنفسكم، هيا. فركبوا فى الوقت والساعة ونزلوا الى بيت على كتخدا، فرأوه جالسا فى المقعد، ولم يكن عنده خبر من هذا الأمر، فأخبروه بما قال الباشا، ثم أنه أمرهم بالتفتيش، ففتشوه فلم يجدوا عنده أحدا، ثم أنهم رجعوا خبروا الوزير، بأنهم لم يجدوا لا عمرو ولا عامر، وهذا كله كلام المنافقين.

وفى يوم الخميس غرة الحجة ورد آغا من الديار الرومية وصحبته خط شريف يتضمن عزلان يوسف بيك الجزار من الدفتدارية، وتولية ابراهيم بيك أبو شنب وخط ثانى برجوع بلاد الفارين الذين فروا فى الواقعة الأولى، ومحاسبة واضعين اليد على البلاد بفايض خمس سنوات، ويرسلوا استغلالهم الى الفارين، وكذلك جوامكهم ومنازلهم، وجميع تعلقاتهم، فأجابوا بالسمع والطاعة.

(١) بالاصل «من».

المروه ان يواسوهم ولا من القوة ان يخلصوهم وبقوا على هذه الحال. واما اليهود فانهم تعصبوا [تعاونوا] على جارى عادتهم وواسى غنيهم فقيرهم وقام كل عن نفسه ببديل ممن لا يقدر على الحفر وانجزوا ما يخصهم وتفرغوا لاشغالهم. وكان الشيخ السنى الراهب المقدم ذكره منحرفاً متوجعاً لما يجرى على القسيسين ولا يجد من ينجده ولا من يساعده لانه كان قد انقطع بكنيسة بوسرجه وترك خدم [خدمة] السلطان، ولو كان

وفي آخر الحجة ختام سنة ١١٢٧[1]. أمر الباشا بقتل ثلاثة من اليهود، من كتبة الديوان، لخيانة ظهرت منهم في الديوان، فضربت رقابهم في الرميلة، وأمر بنفي على أفندى المحاسبى الشامى، فنفى الى دمنهور البحيرة. وفي غرة محرم الحرام سنة ١١٢٨[2] اختفى عبدالله أفندى من أجل فتنة فتنت عليه الى الباشا من أحمد أفندى، باش قلفة الرزمانة، ولكن فتنة تؤدى الى القتل، مع أنه كان متخذ أحمد قلفة كاولاده. فلما هرب أقر الباشا أحمد أفندى محله روزنامجيًا، وأحاط بجميع ماله من المال، وأبيع جميع تعلقاته وخيله، وأضيفت الى السلطنة، وأخلت الديار الى أحمد أفندى الروزنامجى. ثم ان في ثانى محرم سنة ١١٢٨[3]. اتفقت أعيان مصر، أصحاب الربط والحل على المقاصيص والدراهم النقرة[4]، وتنزيل أسعار الذهب والريال، واتفقوا جميعا. ثم أنهم طلعوا جميعا الى الباشا، وأعرضوا الأمر عليه، فاجبهم الى ذلك، وقطع لهم فرمان بأن الجنزرلى بماية وسبعة، والطرلى بماية، والفندقلى بماية وعشرين، والريال بستين، والكلب بخمسة وأربعين، والمقاصيص لا يتعامل بها، والدراهم بطالة. وقطعوا فضة جديدة، وجددا بطرة، وزن كل جديد درهما، وأمر الناس بمعاملتهم، وأمر الاغا باشهار الندا في القاهرة. فركب من وقته، وكان الوقت بعد العصر، فنزل وأشهر الندا في

(١) ٢٦ ديسمبر ١٧١٥م. (٢) ٢٧ ديسمبر ١٧١٥. (٣) ٢٨ ديسمبر ١٧١٥م.
(٤) بالاصل «البقرة» والتصويب من التحفة، ص٣٢٩.

متصرفا لماجرى من هذا شي وكان يضارب بالنيه.
ثم ان الراهب عماد الاخميمي الذى كان سبباً لتقدمة البطرك وهو الذى قرر للسلطان الثلاثة الاف دينار على البطركيه ما زال يتسبب حتى ينجز كتاب السلطان الملك العادل الى والى الاسكندريه بان يسلم اليه البطرك ويعمل فيه ما يقول الراهب، وينجز كتباً من اكابر الدولة الى والى البحيرة بان يسير معه اسقف دمنهور واسقف فوه. وكان قصده ان يثبت عليه اشيا يوجب القطع بحضور اسقفين

القاهرة، فتعطلت معايش الناس تلك الليلة، وباتت الفقراء تلك الليلة بالجوع. ثم أن فى ثانى يوم قفلت البلد، وأرتجت ارتجاجا عظيما، وقفلوا الجامع الأزهر، ولموا الجميع، وساروا، وكل من راوه ودكانه مفتوحة يقفلوها، ويأخذوه صحبتهم، واذا بالشيخ محمد شنن داخل من الكحكيين[1]، راكب على بغلته، فأخذوه بالقهر عليه وتحاوطوا به، وطلعوا به الى الباشا وانهوا أمرهم الى الوزير: أن كل ما برز به الأمر مقبول على الراس والعين، وأن الأسعار التى كنت بالمقاصيص صارت بالديوانى وأنكم تسعروا لنا الأسعار، فأجابهم الى ذلك. ثم ان فى ثانى يوم أنزل المواجب ذهبا وفضة بيضا. ثم ان الباشا أمر الصناجق أن يعملوا جمعية[2]، ويسعروا الأسعار. ثم أنهم توجهوا الى بيت ابراهيم بيك أبو شنب الدفتدار وسعروا الأسعار على موجب المعاملة الصحيحة، وبعد ما عملوا الأسعار، توجهوا الى الباشا، وأعرضوا القايمة عليه، فأجابهم الى ذلك، وأعطاهم فرمانا بالاسعار. ثم ان الأغا نزل الى القاهرة وأشهر المنادات وأن الفلوس الجدد كل عشرة بنصف فضة. وفى ثانى يوم الذى هو خامس عشر محرم سنة ١١٢٨[3] ألبس الباشا محمد جركس[4] قفطان السنجقية، وولاية جرجة.

(١) شارع الكحكين: يقع بين شارع الغورية، وشارع الباطلية، وطوله ثلثمائة متر، وعشرة أمتار، وكان من الاخطاط المزدحمة في ذلك العصر، على مبارك، المصدر السابق، جـ٢، ص٩٥.
(٢) بالاصل «جميعا».
(٣) ١٠ يناير ١٧١٦م.
(٤) كتب عنوان جانبى «اعرف تولية محمد بيك جركس سنجق».

فـمـا مكنه الوالى من ذلك، الا انه اخـذ مـعـه قراغلامين وجندارين(*) بالكتب التي معه وعبر علي فوه ودمنهور اخذ ا لاسقفين معه ودخل الثغر واوصل الكتاب الى الوالى فامر الوالى بان يسلم اليه البطرك واصحابه المعينين فى الكتب وكانت ليلة الاحد والبطرك قد فرغ من الصلاة وخرج الناس من الكنيسة فنقل البطرك الى طبقه كان قد نزل بها واخذ اصحابه اودعهم السجن. وقصد ان يعمل مجمعاً بالثغر فما اتفق له ذلك لان اكابر

(*) من رجال الشرطة.

وفى يوم الاثنين تاسع صفر، دخل الحاج الى مصر، سالما، شاكرا من اسماعيل بيك بن أيواظ، لتقييده بالحاج، وتعهد أحواله. وحضر صحبته الشريف عبدالكريم (أمير)[1]، مكة، وأنزله اسماعيل بيك فى بيت أبو الشوارب.

وفى (يوم الأحد ٢٢)[2] صفر، عزل اسماعيل آغا، تابع اسماعيل بيك بن أيواظ من أغوية الانكشارية، وولى الوزير محله محمد أغا بن الجيعان فاطاعته الرعية، وحصل لهم الفرح الأكبر من عزلان اسماعيل اغا، وتولية محمد أغا الجيعان، وفتحوا دكاكينهم، وباعوا واشتروا، لأنهم كانوا فى زمن اسماعيل اغا فى خوف شديد من تجبره وفسقه وظلمه، ولأنه أحدث الخوازيق والسلخ. ولقد أشيع فى القاهرة أنه كان متوجها الى مصر القديمة فى موكبه الى أن جاء الى الكوم الذى تجاه الطيبى، واذا برجل نازل من الكوم بحرى من بحريات السويس، وهو يربط فى سرواله فلاحت من الأغا التفاتة، فرآه وهو على بعد منه، فأمر الجنينية أن يأتوه به، فقدموه له، فسأله: من أين جاء فتلجلج فى الجواب، فأمر وأحدا من اتباعه أن يصعد الكوم وينظر ما هناك؛ فأخبره أنه محل الخواطى. فأمرهم أن يصعدوا اليه، ويأتوا بمن هناك؛ فوجدوا أمرأة جالسة هناك؛ فأتوا بها اليه، فضربها نحو المابة نبوت وسمر[3] الرجل من ذكسره فى الجميزة الذى عند الطيبى، وأشيعت هذه النكتة فى مصر. وفى ثانى ربيع أول[4]. ورد ركاب

(١) بالاصل «سلطان»، والتصويب، من التحفة، ص٣٣١.
(٢) بالاصل «ثالث صفر»، وهو خطأ، والتصويب والاضافة، من التحفة، ص٣٣١ ۰ ١٦/ فبراير ١٧١٦م.
(٣) بالاصل «وصمر». (٤) ٢٦ مارس ١٧١٦م.

البلد كانوا اصحاب البطرك فاجتمعوا بالوالي وقالوا السلطان ما رسم الا بتسييره اليه وهو يفصل فيه هناك فاخذه وخرج واخرج اصحابه مخشبين [أى في أغلال من الخشب] وهم الكاتب والتلميذان واحدهما عبده الذى رهبه وكرزه شماساً على دير الشمع. ووصل [الوالي] الى القاهرة في عشية يوم الجمعة في اواخر بوونه(*) فطلع الراهب الى القلعة واخبر بان البطرك وصل فامر ان يحبس هو واصحابه في حبس القلعة فباتوا

(*) يمتد بوونه ما بين ٢٦ مايو و٢٤ يونيو.

أغا من الأعتاب العلية، وأبرز خطا شريفا بتزيين القاهرة ونواحيها سبعة أيام ولياليها، سبب نصرة الاسلام على كفرة مورة؛ وأخذ قلاعها وضمها الى العثماني. ولما قرى بالديوان وضربت المدافع، وزينت القاهرة. وفي شعبان(١). ورد من الديار الرومية رجل أفندى يقال له محمد أفندى، رئيس الكتاب بالديار الرومية، وبيده خطوط، من جملتها خط بأنه يكون رزنمجي بالقاهرة، فألبسه الوزير كركا، على الرزنامه، وعزلان أحمد أفندى. وكان بيده أوامر ستة، اسلمها الى الوزير. ثم أن الباشا أسكنه بالقلعة، ثم بعد ذلك عمل الباشا ديوانا وجمع فيه جميع السناجق، وأرباب الديوان وقريت الخطوط.

أحدها، يتضمن سكة جديدة، للذهب والفضة، في جهتها طرة صغيرة والثانية اسم السلطان، وضرب في مصر، وأن يكون الذهب من أربع وعشرين قيراطا وأن تكون الفضة خالصة [خالية] من النحاس. والثاني بعسكر لمحافظة جدة. والثالث: ان لا أحدا يصحب معه سلاحا الى بلاد الحجاز، الى البيع، وكل من وجد معه سلاح يؤخذ منه بالقهر عليه. والرابع: أن الأموال، المخلفة من المقتولين والفارين في المعركة وهى ألف وخمسماية كيس. وأن يعين لحفظها في الطريق الى الديا الرومية، ويوصلوها الى الأعتاب العلية. والخامس: بعمل [حساب] ولى باشا؛ وانفاد أمر الله فيه. والسادس: بتعيين طايفة من العزب الى محافظة بندر الينبع، فاجابوا بالامتثال.

(١) يولية/ اغسطس ١٧١٦م.

فيـه تلك الليلة ثـم ان جماعـة المستوفيين اجـمعوا
ثاني يوم وهو يوم السبت واجتمعوا بالامير الصارم
لانه كان استاد الدار في ذلك الزمان ولم يزالوا به
حتى اخـرجوه من الحبس وانزلوه الى الكنيسـة
بحـارة زويلة بالقـاهرة. فـجـا الراهب الى الصـارم
ومـوه على الاميـر وقـال هذا الرجل مطلوب من
السلطان فحمله وقد قعد [الصارم] هو واصحابه
ياكلون ويشـربون ورحت اليـهم [كـاتب السـيره]

وفي يوم الاثنين سابع شعبان اجتمعت الامراء بمنزل عبدالرحمن آغاة الجملية من جهة الباشا من أجل تغير سكة الفضة، فأجمع أمرهم على أن الذهب تغير سكته والفضة على ما هي عليه، وانقضى المجلس على ذلك، وطلعوا الى الديوان، وأعلموا الباشا بما اتفق عليه رأيهم، فاجابهم الى ذلك، وأعطاهم فرمانا باشهار المنادات بذلك.

وفي يوم اثنى عشر رمضان[١]. ورد قبجي باشا، وصحبته خط شريف، مضمونه أن الألف والخمسماية كيس المتخلفة من مال المقتولين والفارين الذين أرسلنا لكم أنهم تجهز صحبة جماعة الباشا، فلا ترسلوها صحبة اتباع الباشا، بل تجهزوها صحبة الخزينة العامرة، وتجهيز عبدالكريم الى الأعتاب العلية. فتهيأ عبدالكريم الى السفر، واذا بالاخبار متواردة بموت على باشا الوزير الأعظم، صاحب الختام.

وفي ذلك التاريخ استأذن محمد أفندى الروزنمجى في العود الى الديار الرومية، فأذن له، فلما توجه الى رشيد توفي، وألبس الباشا الرزنامجية الى أحمد أفندى ثانيا. وفي تاسع ذى القعدة[٢] تعدى رجل من العزب على رجل من الانكشارية، فقتله في سوق السلاح، وكان ساعة الضحى، ثم ان القاتل مضى، ولم يعترضه أحد في طريقه، فأعرض الأمر على الباشا، فأرسل فرمانا الى باب العزب بالفحص على القاتل، فبحثوا عليه، فلم يجدوه.

(١) ٣٠ أغسطس ١٧١٦م.
(٢) ٢٥ اكتوبر ١٧١٦م.

فضربونى وعربدوا على فسير الصارم الى والى القاهرة بان ياخذه ويحبسه فجا الراهب [عماد الاخميمى] من عند الوالى بجمع عظيم ورهج واخذ البطرك حافياً راجلا وامسك كل من وجده عنده وركب [الاخميمى] بغلته والبطرك ماش وهو يفترى عليه. فلما وصلوا الى الوالى على تلك الحال وكان رجلا جيدا اعظم [عظم عليه] الحال واكرم البطرك وخلى طريق اولئك الممسوكين من

وفى أواخر القعدة سنة ١١٢٨[١] ورد آغا بطلب بشير آغا الذى توجه بأغاوية المدينة المنورة، أن يجهز الى الديار الرومية، بأن يكون قزلارا ثم أنه تجهز وسافر صحبة العرب الى مكة المشرفة فى غرة الحجة الحرام سنة ١١٢٨[٢]. وأدرك الجوخدار الوقوف، وأخبر بشير آغا بورود الخط الشريف له بأن يكون آغة البنات بدار السعادة. ثم أنه حج واعتمر، وسافر صحبة الحج الى أن ورد الى مصر ومكث فيها ستين يوما، لأجل الراحة، وسافر الى الديار الرومية فى غرة جماد أول سنة ١١٢٩[٣]. ولنرجع الى ما نحن نصدده. ثم ان فى غرة محرم سنة ١١٢٩[٤]. ألبس الباشا الى اسماعيل اغاة مستحفظان سابقا، تابع ابن ايواظ قفطان الصنجقية.

وفى ثانى ديوان ألبس الباشا قفطان الصنجقية الى اسماعيل آغا، كتخدا الجاوشية الشبرخيتى، تابع أبو شنب، وألبس خليل آغا البشيلى، على كخاوية الجاوشية، عوضا عن اسماعيل آغا، وألبس مصطفى آغا أبو دفيه، آغة الجراكسة عوضا عن اسماعيل ابن الدالى.

وفى ثامن صفر سنة ١١٣٩[٥] ورد الحاج الشريف بالسلامة والناس داعين له من السخا والرخا الذى كان فى الطلعة والرجعة، وصحبته بشير آغا، الذى تقدم ذكره، ومكث فى مصر

(١) أواخر نوفمبر ١٧١٦م. (٢) ٢٨ نوفمبر ١٧١٦م.
(٣) ١٣ أبريل ١٧١٧م. (٤) ١٦ ديسمبر ١٧١٦م. (٥) ٢٢ يناير ١٧١٧م.

الناس ما خلا اصحاب البطرك ، ورسم بان يقعد في طبقة بالربع الجديد الذى بين القصرين الذى تحته دكاكين الصيارف هو واصحابه ومعه مترسمون من قبله، وزجر الراهب وانكر عليه. واقام البطرك هناك واما الاسقفان فنزلا بكنيسة ابو سرجه والراهب معهما عند الشيخ السنى الراهب. ثم ان الراهب السنى اتفق مع اسقف فوه على اوراق عملوها لياخذوا خط البطرك بها ان ابقوه

قدر شهرين، وتوجه الى الأعتاب العلية، بعد أن أقام عبدالله الفحل وكيلا عنه فى بنا السبيل والمكتب الذى تجاه قنطرة سنقر وقد بدا عبدالله في بنا السبيل والمكتب فى غرة ربيع أول سنة ١١٢٩[١].

وفى ليلة اثنى عشر ربيع أول توفى يوسف آغا القطردار، وكان له من العمر ستة وتسعين سنة، وفيه ألبس[٢] الباشا قفطان كشوفية جرجة لاسماعيل بيك، تابع ابن ايواظ، عوضا عن محمد بيك جركس، والحق نظارة الكسوة بدار الضرب وألبس قفطانا الى داوود صاحب عيار.

وفى يوم الأحد خامس عشر جماد أول ورد آغا من الديار الرومية وصحبته خط شريف بطلب ثلاثة آلاف عسكرى الى قلعة بنى أغراض، يقرى بالديواين العالى، فأجابوا بالسمع والطاعة. ثم أن الباشا سال الرزنمجي: هذه السفرة نوبة من فى الصناجق؟ فأخبره بانها نوبة محمد بيك جركس، فألبسه الباشا قفطان السفرة. ثم انهم نزلوا من الديوان. ثم أنه أكربهم فى التهى، فسافرت العسكر من بولاق فى غرة رجب سنة ١١٢٩[٣].

وفى زمن عابدى، الباشا المذكور، سنة ١١٢٧ ظهر أمر عجيب، وأظنه لم يتقدم: وقع أن ببولاق رجل من الجلادة، يقال له مصطفى الجلاد، يتعاطى تجارة جلد الجاموس، الى بلد

---

(١) ١٣ فبراير ١٧١٧م. (٢) قدم وأخر.
(٣) ١١ يونية ١٧١٧م.

في البطركيه منها امانة القبط، وان لا ياخذ رشوه على شرطية احد من رتب الكهنوت، وان لا يجعل للمطران في الشام امرا في كرسى انطاكيه بل تقتصر به على غزه وما ولاها من تخوم مصر، وان يقطع اولاد النساء الذين يقدموا على رتبة الكهنوت. وكذلك العبيد الذين قدمهم. وان يختصر في اللباس على ما جرت به عادة القبط ولا يدل البدلات التي هي من شعار الملكية، وان

الافرنج، ولدت بغلة[1] زرقا ببغل أزرق، مثل امه، فتسامعت به الأكابر والأصاغر، فالأكابر أرسلوا فأخذوها، وتفرجوا عليها، وعصروا من ثديها اللبن، والاصاغر هرعوا الى بولاق، صاروا يتفرجون عليها وصارت الخدم يأخذون ممن يتفرج عليها الفلوس كل من هو على قدر حاله، ثم أن عابدى باشا أرسل احضرها الى الديوان وكان بحضرته شيخ الاسلام، وكان عبدالله جاويش القزدغلي، باش جاويش، فتعجب الباشا والقاضي، وجميع أهل الديوان من ذلك، والله أعلم.

وفي عاشر رجب ألبس الباشا الى محمد بيك بن أيواظ بيك، أخو اسماعيل بيك، قفطان الصنجقية، بواسطة ابراهيم أبو شنب، بغير رضى أخيه، اسماعيل بيك.

وفي غرة شعبان[2]. ورد آغا من الديار الرومية بفرمان الوزير، بأن حضرة مولانا السلطان وجه ولاية مصر الى علي باشا الازمرلي، والى مصر سابقا، وأنك تهي روحك وتقطع حسابك، وتأتي صحبة الاغا على العجل. ثم أنه اختلى هو وابراهيم بيك، وتحدث معه من شان هذه القضية، وكان باقي له خمسة وخمسين يوما من مدته، فجباها له واقعده باربعماية كيس، وتحت تراقي العسكر خزينة، ومكة، وسفر سلطاني، لأنها كانت على ابراهيم بيك، من جهة بلاد الأمير حسن، فقعد بها، كتبها على نفسه، وكتب لعابدى باشا على العسكر، أن ليس عنده شيء لجهة عسكر مصر لامن جوامك وترقيات وغلال[3]. كل هذا طمعا في الخمسة

(١) كتب عنوان جانبي «أعرف أن بغلة ولدت بغل أزرق». (٢) ١١ يولية ١٧١٧م.
(٣) بالاصل «خلال» والتصويب ليستقيم المعنى.

يوفر اجر الاوقاف على المواضع التى هى موقوفه عليها فبدا [فيبدأ] بعمارة الرباع المذكورة ثم بالكنيسة والفقرا من كهنتها، فما فضل بعد ذلك استجد به وقفاً اخر. ولا ياخذ رسوم الاعياد التى ياخذها من ساير الديار المصريه بل يوفرها على مصالح الكنايس التى الاعياد [العوايد] لها، ومن له رسم فيها مثل اسقف او والى او غيرهما، فيما [فما] فضل كان للفقرا والمساكين. وكذلك ديارية

- -

والخمسين يوما. ولم ينزل[١] فى بيوت مصر، وانما نزل الى الحلى ببولاق، ولم يمكث فى بولاق الا أيام قلايل، وسافر من بولاق ثانى رمضان سنة ١١٢٩[٢]، وكانت مدته سنتين وعشرة أشهر، وأوفى البحر فى عاشر مسرى الموافق لثانى عشر رمضان.

وورد ركاب مسلم على باشا فى خامس عشر شوال، بقيامة مقام ابراهيم بيك على ما هو عليه، من مدة عابدى باشا، وورد على باشا الى سكندرية فى غرة القعدة سنة ١١٢٩. وسافرت أصحاب الدركات من مصر الى ملاقاة على باشا. وكانت مدة عابدى باشا سخا ورخا، وعلم وصحة، وجبى أبو شنب فى الخمسة والخمسين يوما، شيئا كثيرا من بلاد محلول وعتامنة[٣]، الى أن قامت ظهره، والله أعلم بغيبه، وأحكم وأعفى وأحلم.

٨٦ ذكر تولية على باشا الأزمرلى

محافظ مصر سابق

عفى الله عنه

قدم الى مصر يوم الاثنين غرة الحجة ختام سنة ١١٢٩[٤] وأوكب موكبا عظيما، ثم أنه

(١) بالاصل «يزل».   (٢) ١٠ أغسطس ١٧١٧م.

(٣) بالاصل «مع أبو شنب الخمسة والخمسين يوما، بشىء كثير من بلاد محلول وعتامنة». فضبطت العبارة مع ما ورد، فى التحفة، ص٣٤٦.

(٤) مدة ولايته: غرة الحجة ٦/١١٢٩ ذو القعدة ١١٣٢ ـ ٦ نوفمبر ٩/١٧١٧ سبتمبر ١٧٢٠م.

الديارات التي احدثها وجعلها له في الديار المصرية ان يوفرها على الديارات لعمارتها والرهبان لضروراتهم وان ياخذ من الدياريه المقررة على البلاد الجارى بها العادة ما يكفيه لنفقته وهو خمسة عشر دينار في كل شهر ويترك باقيها لمنقطع [ناسك] لا يقدر على جزيته فيزنها عنه ويشترى بها دينه او عادم قوته وملبوسه فيريح نفسه ويستر جسده، اوكاينه تجرى مثل حفر البحر

عقب على ابراهيم بيك من جهة عابدى باشا الذى جهزه في أسرع زمان. فأخبره بفرمان الوزير، وطلب عليه العجل. وسبب عتب على باشا، على أبو شنب، لتخاصم قديم بين على باشا وعابدى باشا[1]، فهو الذى الجأ عابدى باشا في فوات الخمسة وخمسين يوما، ولم يقابل على باشا.

وفي غرة محرم سنة ١١٣٠[2]. ورد آغا من الديار الرومية بطلب ما يتى كيس من أبو شنب، عن مال الخمسة وخمسين يوما، الذى كان جباها عابدى باشا له، فان عابدى باشا قد أوهبها الى حضرة مولانا السلطان، فلما قرى الخط بالديوان، قال له الباشا: ما تقول يا ابراهيم بيك. فقال له ابراهيم: أنا ومالى للسلطان، ولكن من عادة الوزراء اذا أوهبوا شيئا لا يرجعون فيه.

فقال له على باشا: وأين هم الوزراء؟. هذا رجل فجورى، ولكن أنت تساهل الذى ما كنت حشته الى حين حضورى، وهو ما عمل هكذا الا خوفا، أنت ملزم في المايتى كيس، فقال سمعا وطاعة، وفي غرة ربيع أول[3]. سأل الباشا عن دار الضرب، وعدم شغلها، فأخبروه بقلة الوارد لها، فألبس داوود قفطانا، وأشرك بينه وبين ابنه وقطعوا فلوسا نقرة وزن كل

---

(١) بالاصل «عايدى باشا».
(٢) ٥ ديسمبر ١٧١٧م.
(٣) ٢ فبراير ١٧١٨م.

وما يجرى مجراه فيحمل ثقلها عن الصعاليك ويرفع البدلة عن القسوس الذين عادوا مماليك، وان يشترى فى كل سنة من مال هذه البيعة [كنيسه بوسرجه] ماية اردب قمحاً برسم الرهبانات المقيمات بديرالمعلقة ويصون وجوههن من البدله [البهدله] واحوالهن من القلة، وان يكون كاتبه شيخا اسقفاً لا مطعن عليه، واشيا مما هذه سبيله. وسيرت اليه الاوراق وقريت عليه فما

رطل ثمانية عشر فضة، وسموها الجدد الداوودى[1]، ونزلت الى البلد فى غرة ربيع الثانى[2]، وفى عاشرة ألبس الباشا قفطان الصنجقية الى محمد جلبى بن أبو شنب.

وفى اثنايها عم الطاعون بالقاهرة وأقاليمها[3]. واشتغلت الناس بأنفسها، وكان أكثر الموت فى الشباب من الصبيان والمخدرات. ومات فيه عثمان بيك ابن بارم ديله فى طيلون، عند امرأة دلالة، وأخبروا ابراهيم بيك أبو شنب بموته؛ فارسل كيخيته بكفن عظيم، وثلاثة آلاف فضة لتجهيزه؛ وكان له مشهدا عظيما. واستمر الطاعون الى رجب، وكان ختامه ابراهيم بيك أبو شنب[4]؛ فى خامس عشر رجب سنة ١١٣٠[5]. وحصل فيه غلاء؛ إلى أن أبيع الأردب الحنطة بأثنين جنزير. وفى شوال ورد آغا وصحبته خط قرى بالديوان، بأن العثامنة التى احدثها عابدى باشا من المجموعات من فايضها يضاف الى بلك الأيتام؛ ويباع كل عثمانى بألفى فضة ديوانى؛ وكانت جملة العثامنة أربعة آلاف وأربعماية وثلاث وثمانين ديوانى؛ ويضبط ثمنهم إلى الميرى، لأن عابدى باشا كان قد أحدثهم من فايض الجمرك، وجعلهم خاصة لنفسه؛ ويرسل اليه فايضها فى كل سنة. وكان قد أقام اسماعيل بيك الشبرخيتى وكيلا فى قبض استغلالها

---

(١) كتب عنوان جانبى «أعرف ضرب الجدد الداوودى».
(٢) ٤ مارس ١٧١٨م.
(٣) بالأصل «واقليمها» كتب عنوان جانبى «اعرف حلول الطاعون بالقاهرة».
(٤) كتب عنوان جانبى «اعرف وفاة عثمان بيك بارم ديله وابراهيم بيك أبو شنب بالطاعون».
(٥) ١٤ يونية ١٧١٨م.

اجاب الى شى منها وكان الراهب عماد المبدا [السابق] بذكره ملازماً لباب السلطان ساعياً فى عمل المجمع على البطرك فما زال المستوفيون يسعون فى امره حتى اخذه امير جندار ضربه ضربا منكراً وطرحه فى الزردخاناه وعمل فى حلقه [رقبته] طوقاً وفى رجله باشه [قيد] وكان عادما الخبز فلقى شدة عظيمة حتى انهم منعوا من يفتقده فى الحبس وتسببوا الى ان اخرجوا البطرك

فلما تولى على باشا أعلم السلطنة بها فجاء فى حقها ما تقدم ذكره. وما ملك على باشا بعمل (شيء)[1] فى عابدى باشا من المكايد غير هذه. وكان على باشا ألبس اسماعيل بيك الشبراخيتى دفتر دارية مصر بعد أبو شنب لموته، وألبس اسماعيل آغا، تابع أيواظ بيك، قفطانا على كخاوية الشاوشية، عوضا عن خليل آغا البشلى.

وفى شهر القعدة الحرام سنة ١١٣٠[2]. حصل ان محمد بيك بن ايواظ بيك طلب من أحمد افندى الجركسى، تابع محمد افندى المسلمانى منزله الذى بقرب سوق السلاح لأجل عمارة حصلت فى بيته، فأعطاه له من غير اجرة. فبعدما سكن فيه مدة أخبر أحمد أفندى بأن محمد بيك قلع الرخام والقيشانى الذى فى بيته ووضعهم فى بيته، وبيض محل الرخام والقيشانى. فتوجه له صحبة اختيارين من اختيارية وجاقه، فلما دخل القاعة ورأى حيطانها من غير رخام، ومن غير قيشانى، زال عقله، فلما رآه محمد بيك أراد أن يبطش به، فما خلص الا بالجهد.

ثم أنه آراد ان يدعى عليه بخراب منزله، فكان محمد بيك أسرع منه، فتوجه الى الباشا من وقته، واخبره أن أحمد أفندى تعدى عليه فى منزله، وهجم عليه، واخذ من السلاح ما هو كيت وكيت، وعين عليه آغا من طرف الوزير، فنزل وطلب التحاكم واياه على يد الوزير،

(١) الاضافة لتوضيح المعنى. (٢) سبتمبر/ اكتوبر ١٧١٨م.

من الطبقه وانزلوه الى كنيسة حارة زويله اقام بها.
ولم يزل الحال كذلك الى الرابع والعشرين من ابيب [١٨ يوليو] و كانوا قد اصلحوا اكابر الدولة فتحدثوا في خلاصه فخلص وكانت ليلة عيد بومرقوره فنزل كما هو الى كنيسته التى بمصر واصبح ابدل على جارى عادته وزفوه في وسط الكنيسة وطرح له كرسي جلس عليه ومدح.
وكان يوما عظيما مشهودا واجتمع فيه من الخلق

وشيخ الإسلام فتوجه هو واياه الى الديوان، وادعى محمد بك بأنه هجم بيته هو وجماعته، ونهبوا بيته، وسأله القاضي، فانكر، فطلب القاضي من محمد بيك بينة تشهد بما ادعى به، فأتى بالبينة، وشهدت بما علمت، فالزم[1] القاضي أحمد أفندى بما ادعى به محمد بيك. ثم أن أحمد افندى ادعى بخراب منزله، فأمر الباشا الكشاف أن ينزل ويكشف، فنزل وكشف، فرأى البيت حقيقا خرابا، فكتبوا كما رأوا، واطلعوا الى الباشا فاخبروه بما رأوه، فحكم القاضى على محمد بيك بعمارة ما(*) افسده، والزمه، وصار أحمد أفندى في عين المعادات، ولم يعمر محمد بيك شيئا أبدا، ولم يلتفت الى حكم القاضى. ثم انه تداعى هو واياه مرة اخرى، فاثبت عليه الذى أخذه من الرخام بالذهب والقيشانى أثنا عشر كيسا، وأخذ بذلك حجة. وفي هذه المرة اتفق ان الطوابة الذين يحفرون الأساسات بمصر القديمة، لاجل اخراج الطوب، فوجدوا شخصا من الصوان مقطوع الرأس على قاعدة كأنه رجل جالس على كرسي، ومن صرته الى ابزاره عشرة اشبار قد قستها بيدى، كبير الجثة، مهول المنظر، وكان يده اليمنى مفتاحا[2]، ويده اليسرى كذلك على فخذه الأيسر من غير رجلين الأن رجليه مندمجة في بقية الحجر

(١) بالاصل «فالتزم». (*) كتب باعلا هامش الصفحة «اطلب منك العون».

(٢) بالاصل «ويده اليمنى، وكان بيده مفتاحا»، فضبط النص ليستقيم المعنى، كتب عنوان جانبى «اعرف الشخص الذى وجدوه الطوابه تحت الأرض». ومن الواضح أن هذه المنطقة كانت تابعة للمدينة الفرعونية القديمة منف الشرقية حيث اقيمت عليها مدينة الفسطاط والقاهرة.

ما لا يحصى وتردد الى الكنايس وجرى على حالته الاولى واما عماد [الاخميمي] فانه كان قد اخذ خطه بان يقوم لبيت المال المعمور باربعة الف وثماني ماية دينار التي ذكر انه يظهرها في جهة اصحاب البطرك فما زال الشيخ السني ومن يختص به يسعون حتى تخلص واستعيد خطه. ثم ان البطرك لم يزل يتوسل حتى عبر الى السلطان واهدى اليه هدية فقبلها وسمع منه ما قوى جنانه

مقابلا لابى الهول، فهرعت اليه الناس لتفرج عليه، ولكن فوقه كوم مهول لو وقع على ألف لم يظهر منهم ظفر أحد. ثم ان على باشا سار اليه وتفرج عليه، ثم أمر بردمه ثانيا، فردموه في يوم الخميس غرة محرم الحرام سنة ١١٣١[١].

وفي ثامن صفر الخير[٢]. ورد الحاج الشريف الى مصر بالسلامة وأخبروه بما فعل اخوه مع أحمد أفندى، فاستظلم اخاه، وكان بينه وبين أحمد أفندى حظ نفس من جهة كفر، يقال له كفر كلا [مركز السنطه]، وكان اسماعيل بيك مراده ان يفترس به، بواسطة أفراد من وجاقه، فوصل أحمد أفندى الخبر، فوقع في عرض باب مستحفظان، فأجابوه، وأخذوا له عرضه، وعملوه جربجي عندهم فلما وصل الخبر الى اسماعيل بيك، ارسل قيام مقامات بلاده، فأخربوا بلاده، وأنزل جماعته في بلاده وامرهم بالتصرف، ومنع أحمد افندى من التصرف في البلاد. فلما حصل من أخيه ما حصل، استظلمه وحصلت العداوة بينهم.

وفي عاشر صفر ألبس الباشا قفطان السنجقة الى عبدالله أغا، تابع ابن ايواظ. وفي خامس ربيع أول[٣] أتى على باشا[٤] بعبد الله أفندى الرزنمجي من القدس، وألبسه الرزنمجيه، وامنه على نفسه، وأمره بأن يعمل حساب أحمد افندى الرزنمجي، الذى كان سببا لهياج عبدالله

(١) ٢٤ نوفمبر ١٧١٨م. (٢) ٣١ ديسمبر ١٧١٨م.
(٣) بالاصل «خامع»/ ٢٦ يناير ١٧١٩م.
(٤) بالاصل «على باشا اتى» ونعتقد أنه سبق قلم من الناسخ، فاجريت فيها عملية التقديم والتأخير.

وبسط لسانه وتسلط به على النصارى. واما ماجرى فى هذه الايام من الكاينات فان الملك الناصر بن المعظم قصد بلاد الساحل [الشام] ووصل الى غزه واقطع البلاد وجند الجنود وكان قصده كله دمشق، وسير الى السلطان الملك العادل يعلمه ان صاحب دمشق معه وانه دعاه الى مطاوعته وان يكونوا معاً يداً واحده، وسير كتبه اليه بذلك فبلغ صاحب دمشق ذلك وكان الملك

* احد قلاع الغور

أفندى الى القدس. فعمل حسابه فطلع عليه مايتا كيس من العثامنة ومن غيرها من أمور السلطنة. فباع بلاده، واقلاعه التى بديوان السلطان وتعلقاته جميعا. والذى كان السبب فى عزلان أحمد أفندى الرزنمجى، ومجيء عبدالله أفندى من القدس؛ اسماعيل بيك، أمير الحاج.

ثم ان أحمد أفندى توجه الى باب مستحفظان وعمل جربجى، وأرسل اختيارية الانكشارية يستشفعون عند اسماعيل بيك بن ايواظ، فأبى، فرجعوا واخبروا أحمد أفندى، فجعل يتردد على محمد بيك جركس، ووقع فى عرضه، من جور اسماعيل بيك، أمير الحاج، كالمستجير من الرمضاء بالنار، وأن يصلح بينه وبينه. فتوجه له المرة بعد المرة، فلم يمكن الصلح عليه.

فلما رأى جركس عدم الصلح من اسماعيل بيك، قال لأحمد أفندى: ولما هذا الذل. فقال له أحمد أفندى: أنا خايف على هؤلاء القراريط التى فضلت من على باشا، أن يضع يده عليها. فقال له: اجرنى. اياها، وأنا أمنعه عنها، وأعطيك ايجارك فى كل سنة قبل أن تفرغ على الصراف. ثم ان جركس استأجر البلاد، وأرسل قايم مقامه اليها، فطردهم قيام مقام اسماعيل بيك، فآل الأمر الى الفساد.

ثم أن فى عاشر جماد الآخر[1]. ورد آغا وبيده خط شريف، وطبجى، من الأعتاب العلية،

(١) ٨ مايو ١٧١٩م.

* بقايا حصن الكرك

الجواد مظفر الدين بن ممدود وكان قد استخدم جيشاً قوياً كثيراً مع العسكر الذى معه من مصر فخرج اليه فى عدد وعدده فالتقوا بالقرب من الغور فانكسر الناصر ولم ينج الا بنفسه. فمضى الى الكرك، واخذت [أسرت] عامة اصحابه واثقاله وازواده ويزكه [يسقه = مؤنته]. وغنم [الملك الجواد من] العسكر الدمشقى غنما كثيراً وسيرت اعلامه الى القاهرة وطيف بها. وكان النيل المبارك

- -

بطلب المدافع التى فى السويس الى الديار الرومية. فأرسل الباشا اتى بالجمالة[1]. وقاولهم على مجيء الأربع مدافع التى فى السويس بخمسين ألف فضة ديوانى. فأتوا بها الى الشيخ قمر الذى ببركة المجاورين فى غرة رجب سنة ١١٣١[2]. على عجل فى كل عجلة ثمانية شواحى قزدغلى وكل شوحية فى عرض ذراع اسطنبولى فى سمك ذراع مصرى، كل مدفع يجره أربعون جملا من جمال الشواغرية وقد قستهم بشبرى فكان الكبير ثمانية وعشرين شبرا، والثانى سبعة وعشرين شبرا، والثالث خمسة وعشرين شبرا، والرابع ثلاثة وعشرين شبرا. ثم ان فى يوم الثلاث سابع عشر رجب الفرد[3] ركب اسماعيل بيك من منزله وطلع الى الديوان الى أن وصل الى قبو النشاب، واذا برصاصة قد طقت، فالتفت ليرى الضارب، فلم ير أحدا، فاكزا الجواد[4] نحو باب العزب.

وأما العسكر الذى أمامه وخلفه فانهم هربوا، فمنهم من رمح نحو الصلبية، ومنهم من رمح نحو قراميدان، ومنهم من رمح نحو القرافة، الا يوسف بيك الجزار، ومماليكه الذين خلفه، فانهم فى ظهره الى أن دخل باب العزب. ثم أنه أرسل اعلم الباشا، ولم يصب اسماعيل بيك

(١) بالاصل «الحبالة» والتصويب من سياق الموضوع.
(٢) ٢٠ مايو ١٧١٩م. (٣) ٦ يونية ١٧١٩م.
(٤) بالاصل «الجواب»، كتب عنوان جانبى «اعرف سبب الفتنة بين اسماعيل بيك بن ايواظ ومحمد بيك جركسى».

قد هجم في هذه السنة من اولها ثم توقف بعد ذلك ووفي في يوم السبت اخر النسي. وفيه خلق المقياس وكسر الخليج. وكان في هذه السنة عجايب حدثت في غير وقتها، جات زلزلة ظاهرة تبينت لكل احد في البيت ومطرت في ايام النسي وقيل انها لا تحدث الا في سنة شح النيل ثم دخلت سنة خمس وخمسين وتسع مايه وانتهى الماء فيها الى ستة عشر ذراعاً وثماني اصابع وكان

* اهم أحداث سنة ٩٥٥ق. = ١٢٣٨م. = ٦٣٦هـ.
* ١توت ٩٥٥ = ٢٩ اغسطس ١٢٣٨ = الأحد ١٦ محرم سنة ٦٣٦.
* فيها سار الناصر، صاحب الكرك،

شيء، وان الرصاصة أصابت القواس الذى كان فى ركابه فمات. وكان الجواد الذى راكبه أشهب.

فلما أعلم الباشا، جمع الصناجق، والاغوات، واعيان البلد، واروى عليهم ما فعله جركس. فهم فى الكلام والهرج، واذا بجماعة دخلت باب العزب، وأخبرت اسماعيل بيك، والذى فى المجلس، أن الذى ضرب الرصاص على اسماعيل بيك دخلوا بيت جركس، وأنهم هناك عنده، وهم خمسة أنفار، محمد كاشف، وعبدأسود، واثنان لم نعرفهما كأنهما سيمانية. ثم أن اسماعيل بيك طلع الى الديوان فوجد محمد بيك بن ابراهيم، وأحمد بيك الأعسر واخبرهم بما وقع له. فحلفوا له أنه لم يكن معهم من هذا الامر خبر. فدخل الى الباشا، وطلب منه فرمانا بالتقاضي هو وجركس؛ فاعطاه فرمانا، فنزل هو والمذكورون الى باب العزب، فسلموا على اسماعيل بيك، وهنوه بالسلامة، وسألوا ابن ابراهيم بيك والأعسر عن هذه الفعلة، فحلفوا لم يكن عندهم خبر من هذه الفعلة.

ثم أن اسماعيل بيك أرسل الفرمان صحبة عشر اغوات من طرف الوزير، فأبرز الأغوات الفرمان، فلما قراه قال جركس: أنا لم يكن عندى خبر من هذا الامر، ولكن يفك هذه اللموم التي عنده، وينزل القاضى الى بيت ابراهيم بيك ويأتى هو مع سبعة ثمانية ممن يحب، وندعى، فان أثبت هذا الأمر على، انى أنا الذى ضربته، أو أغريت عليه، كلما حكم به الشرع أنا راضى به، والاحط النفس ما هو مليح، وأن كان لم يثبت هذه الدعوى، والله لاقاتله حتى لم يبق عنده نفس.

[كانت] الجسور قد انقطع اكثرها لانها كانت مدبرة فى ايام الملك الكامل فلما مات زالت تيك المهابة ووقع الطمع فى قلوب الولاه والمتصرفين فاهملوا امرها فانقطع اكثرها، ومنها جسر كان بالجيزه وكان جسراً عظيما يرد الماء من اراضى البهنسى فانقطع وخرج اليه الامير جمال الدين ابن يعمور مشد الدواوين المعمورة واقام عليه مدة وانفق عليه جملة من المال والعده ولم

إلى مصر، واتفق مع العادل بن الكامل على قتال الصالح أيوب.
* ١ يناير ١٢٣٩ = ٦ طوبه ٩٥٥= السبت ٢٣ جماد أول ٦٣٦.
* في جماد ثاني استولى الصالح أيوب بن الكامل على دمشق وأعمالها وعوض عنها الأمير يونس، الملقب بالملك الجواد(٢) بسنجار والرقة.

فأرسل اسماعيل بيك يقول له: انا ما خصمى الا أنت، ولابد من قتلك، وأنت لو لم تكن السبب في ذلك؟. ما قعاد مطرودين السلطنة عندك؟. وما سبب قعاد أحمد أفندى الرزنمجى عندك؟ فما أنت الا خصمى.

فأرسل يقول له: أنا خصمك، وكل شيء جآء من يدك افعله، ولا تبقى منه شيئا. ثم ان اسماعيل بيك جمع العسكر وارسل عبدالله، ملك بيت شكر بره[1]، واسماعيل بيك، تابعه، في بيته الذى كان فيه غيطاس بيك، لأنه بعد هروب محمد بيك الصغير اشتراه، وسكن فيه اسماعيل بيك بتاع جرجة مملوكه، وهو كان قد اشترى بيت يوسف بيك أفرنج الذى بدرب الجماميز وعمره وسكن فيه وأدرك جميع النواحى، وأنزل البيارق، بيرق الى الصليبة، وبيرق الى طيلون صحبة على بيك الأصفر، والست وجاق عسكرها طوع يده. وصار يعين الى كل طرف عسكرا، الا وجاق الانكشارية لم ينزل منه أحد. وكان كتخدا الوقت ابراهيم كتخدا مناوات، وانسحبت المدافع، وعملوا المتاريس، وجركس كذلك، حصن نفسه بالمدافع فوق بيته، وفوق قلعة الكبش، وعمل متاريسا تجاه بير الوطاويط، وتحاربوا حربا شديدا عشرة أيام، ومات من الطايفتين خلق كثير الى أن رسمت الطرق. ومن جملة من مات من العزب حسن كتخدا الوقت. وكان ابراهيم الصابونجى قد عينه صحبةماية نفر ببيرق الى طيلون، وصحبة يوسف

(١) بالاصل «شاكر بره».

يقدر ان يسده . واتفق على الناس فى هذه السنة المباركة شحة النيل وبقطع الجسور ونشفت البلاد بسبب العربان لانهم كانوا قد اختلفوا بالصعيد ونهبوا الناس وسبوا اهل بعض البلاد فقلت الاسعار وصار القمح بدينار الاردب والشعير قربا منه وما روى قط الشعير بسعر القمح الا فى هذه السنة. وغلا كل شي ورخص الذهب حتى صار صرف الدينار النقره اثنا عشر درهما وربع

- -

بيك الجزار، والرصاص نازل مثل المطر، واذا برصاصة من خلف العسكر جاءت في ظهر حسن كتخدا عزبان، خرجت من صدره، فوقع في الحال ميتا. ثم ان اسماعيل بيك خاف من تطويل الأمر، فأرسل احضر مدفعين من المدافع التى في الشيخ قمر، واحد اتوا به على خمسة وعشرين جملا، والثاني على سبعة وعشرين، ودخلوا بهما من باب النصر، يوم الجمعة ثامن عشرين رجب والناس يهدون مساطب الدكاكين. الى ان أتوا بهما الى بيت غيطاس بيك من الباب الذى من درب الجمازين. فلما رأى محمد بيك جركس الى تلك المدافع الذى اذا انطلق واحد منها لا يبقي شيئا من عمران القاهرة، ففي تلك الساعة غطس أحمد أفندى الرزنمجي كأنه فص ملح وداب.

وأما محمد بيك جركس فانه بات تلك الليلة الى ثاني يوم وقت الضحى، وكان يوم السبت ففر هاربا هو وحسين بيك أبو يدك، والدبشة، ووالي بالطة، وغيطاس تابع رضوان أغا، ومحمد كاشف، تابع أبو سعده، واسماعيل اغا الوالي، تابع غيطاس، وحسن كتخدا المعمار، تابع قيطاس نسيب أحمد أفندى الرزنمجي، وأبو الشراميط، باش سايس، وبعض جماعة، واتباع، وطلعوا شاهرين السيوف على بيت أيوب بيك، واذا هو يوسف اغا، تابع سليمان اغا، كتخدا الجاوشية، فقابله ساحب السيف، فلما رآه جركس قال له: أنت جيت تقاتلني يا ملعون، وتأخذ رأسي توديها لأسماعيل بيك مثل ما أخذت رأس عبدالرحمن بيك، ووديتها الى

وثمن و[ثمنه] بالورق خمسة وثلثين درهما وربع. وكان السبب في ذلك كثرة ما اخرج السلطان من الاموال وفرقه على الامرا والاجناد وهو السبب الاكبر في غلا الاسعار لان الناس كثرت معهم الاموال وخصوصا الاجناد واطمانوا على نفوسهم حتى ان النبيذ القديم ابيع باربعة دراهم نقره الجرة لكثرة طلب الناس له والفواكه غلت والملبوس والمصاغ والاملاك ايضا وكانت ايام تشبهها الناس لايام الملك العزيز رحمه الله

الباشا. وضربه بالسيف فاخذ نصف رأسه من فوق، فوقع الى الأرض ميتا؛ ثم قصد قناطر السباع، فوجد الدرب[1] مقفولا، فضربه وكسر الضبة، وطلع هو ومن معه قاصدين الريف، فرجع من خلفه خمسة انفار؛ اسماعيل آغا الوالي، وغيطاس تابع رضوان، وحسين معمار، والحبشي تابع غيطاس بيك، وخزندار غيطاس، فانهم اختفوا في مصر وكذلك أحمد افندى اختفى في مصر. فلما علم اسماعيل بيك بهروب جركس أرسل خلفه[2] عبدالله بيك، واسماعيل بيك جرجة، وعلى بيك، وارسل صحبتهم نحو المايتين، فطلعوا من وسط البلد رامحين، فسافروا خلفه الى أن لحقوه، فتحارب هو واياهم الى ان دخل الليل، فافترقوا.

ثم أن جماعة اسماعيل بيك نزلت لتأكل وتعلف على خيلها، وأما هو فانه لم يزل سايرا هو ومن معه. ثم أن جماعة اسماعيل بيك ركبت ثانى يوم، فلم يجدوا أحدا، فتبعوا أثرهم، فوجدوا حسين بيك قد انقطع والدبشا فقتلوهما، ومن وقف فرسه. ثم انهم عادوا لأنهم لم يكن معهم زادا ولا مآء إلا على جرايد الخيل وأما جركس فانه سار أول يوم، وثانى يوم وقت الضحى واذا هو بخمسةعشر خيال فنده عليهم: من أنتم ومن تكونوا؟ فقالوا نحن من عرب الصوالحة. ومن انت؟! قال: جركس. فنزلوا عن خيلهم، وقبلوا يده، فقال لهم: خوانا فقالوا: لا.. وحلفو له بأنهم أصدقاء لمن صادقه، اعداء لمن عاداه.

(١) بالاصل «الضرب».

(٢) بالاصل «خلف».

لطيبها . ثم ان الاساقفة حضروا من الوجه البحرى وكانت عدتهم اربعة عشر اسقفا(*) واجتمعوا فى كنيسة حارة زويلة وتحدثوا فى امر البطرق وذكروا انهم ما يرضون اشياء تاتى منه عددوها وايقنوها فى مسطور تكتب الاخوة الاساقفة الرب يبارك عليهم وعلى شعبهم وكراسيهم بالموافقة على هذا المكتوب وما ثبت فيه من الامانة والسيرة المرضية والعوايد البيعية ومن خرج عنه او حاد عن شروطه

(*) اجتماع اساقفة الوجه البحرى من أجل ترتيب قوانين الكنيسة حتى يقنعوا البطرك ابن لقلق (كيرلس) بها ويعتمدها قانونا للكنيسة القبطية فى كل مصر وما يتبعها فى الشام وشمال أفريقيا والحبشة بداية من ٦ توت سنة ٩٥٥ ق. = ٣ سبتمبر ١٢٣٩م.

ثم أنه شكى لهم الجوع وقلة النوم. فقالوا له: أبشر، ثم أنهم أخذوه وساروا نحو أبو زعبل، فقال لهم: لا ادخل البلد. فقالوا له: قدر ما تأكل ونسير واياك. فدخل الى البلد، ونزل دار واحد منهم، فاتوا له بالأكل، فأكل وشرب واياهم، الى ان جاءوا به الى وطية من الأرض على غير طريق، ونصبوا له بيتا من الشعر، وأتوا له بصحن(١) من الماء، فركزوه له بجانب البيت الشعر وخلعوا الفرسة، وعلقوا له عليه، ولم يكن معه أحد من جماعته، وتفرقت جماعته جميعا، وصار وحده.

ثم أن العرب قالوا له: لو تقعد هنا شهرا، لم أحد يعرف لك طريقا، وأحنا كل ليلة نأتيك بالزاد والماء والعليق الى أن يفرج الله عليك، أو يتم لك أمر. ثم أنهم ساروا من عنده، فلما خلا بنفسه توضا وصلى، ثم أن النوم غلب عليه، وله ثلاثة أيام لم يأكل فيها شيئا، ولم ينم، فنام وسيفه فى حضنه من كثرة التعب. فاستيقظ آخر الليل ليشرب، فلم ير القربة ولا الجواد، وسمع قعقعة اللجم فى أفواه الخيل، فمد بصره، فرأى خارج البيت الشعر نحو أربعين خيالا من العرب، فسل سيفه رقصدهم، فقتل منهم رجلين، فتكاثروا عليه، فمسكوه قبضا باليد، ثم أنهم كتفوه وأركبوه على جواده، واركبوا خلفه رجلا، ولفوا الاثنين بحبل، ولفوه بملاية زرقا، وساروا به ذلك اليوم وتلك الليلة.

(١) بالاصل «صعن».

كان محروماً مبعدا من فم الثالوث المقدس الاب والابن والروح القدس ومن فم الثلثماية وثمانية عشر المجتمعين بنيقيه(*) والمجمعين(*) المقدسين المجتمعين بقسطنطينة وافسس ثم الاقرار بما اختصت به البيعة اليعقوبية مما اخذناه من الاب كيرلس الكبير والابن ساويرس (*) وديسقرس(*) الارتدكسين وهو الايمان بان المسيح الاله المتأنس طبيعة واحدة اقنوم واحد مشيئة واحدة فهو الاله

(*) المجمع الاول كان في عام ٣٢٥م.
(*) والثاني في ٣٨١م والثالث في ٤٣١م.

(*) ساويرس: بطرك Antioch انطاكيه ٥١٢ - ٥٣٨م
(*) ديسقرس: بطرك الاسكندرية ما بين ٥١٦ - ٥٢٧م

وفي ثاني يوم عند طلوع الشمس ادخلوه بيت اسماعيل بيك، وكان اذ ذاك في الحريم. ثم أن الطواشي طلع فأخبره، فأمر الطواشي أن يودوه الى اوضة الخزندار ثم ان اسماعيل بيك نزل من الحريم، فقابلته العرب فنهرهم، وقال لهم: لما أتيتم به حيا؟ هلا اتيتم برأسه؟!. فقال له يوسف بيك الجزار، وابراهيم جربجي الصابونجي: اقتله. فقال: لا! وحياة رأسي، من وقت دخل بيتي لم اقتله فعالجوه على قتله كثيرا فما أمكن. ثم أنهم اخبروه أن به جراحة. فأرسل له جاد الله المزين. فشد له جراحاته وأمر الخزندار بأن يتقيد به. وبمأكله ومشربه وملبوسه. فمكث ثلاثة أيام. ثم أنه بعد الثلاثة أيام قطع يبردى من الباشا بنفيه الى جزيرة قبرص. ثم أنه أرسل له مايتي جنزرلي[1]. وبدلتين وأرسله صحبة جماعة الى قبرص. ولم يرد. ولم يجتمع عليه ثم انه أخذ من اتباعه ثلاثة مماليك، وسافرت به جماعة اسماعيل بيك الى[2] جزيرة قبرص في يوم الاثنين تاسع شعبان سنة ١١٣١.

وأما اسماعيل بيك فانه في ثاني يوم هرب محمد بيك جركس. فتش على أحمد الرزنمجي فلم يجده ابدا. ولا وجد احدا ممن تقدم ذكرهم. فحرق بيت جركس بالنار، وأمر الرعية أن ينهبوه. ويأخذوا اشجاره وخشبه. فخلوه كوما في يوم واحد. حتى البلاط أخذوه. ثم أنه اتاه خبر أن مصطفى الحبشي في بيته مستخفيا. فأرسل له جماعة فقتلوه في بيته. وحسن

(١) بالاصل «جنزلي».
(٢) كرر حرف «الى» بالنص.

الكلمـة وهو الانسـان المولود من مـريم العـذراء ولذلك يصح وصـفـه بكل الاوصـاف الالهـيـة والانسـانيـة ثـم من بعـد الزام مـا تـضـمنتـه الكتب الالهية والقوانين الرسولية والمجامع المقبولة والعادات المستقرة في البيعة اليعقوبية القبطية التي عليها اعتمادنا في ديانتنا. فاما الفصول التي دعا الوقت الى امرها بالذكر طلبا لدوام السلامة الاول لا يقدم اسـقف من الان الا من كـان عـارفـاً وعـملت له

كتخدا المعمار دخل بيت محرم أفندى ليقبض جامكيته. فأعطاها له. وقال له: يا ولدى اخرج عنى. فاني لم اقدر أن أحميك. فخرج من عنده ولم يدرى أين يتوجه. ففطن به بعض العسكر فمسكوه وودوه لاسماعيل بيك. فرمى رقبته. ولم يره الا من برا الباب. أى باب العزب. وكان ثالث شوال، فرميت رقبته على باب العزب التحتانية. وأما محمد كاشف فانه ذهب الى قبين الضاشة بالبتنون فأكرمه وأرسل مكتوبا فى الحال خفية الى أستاذ البلد. ان فى يوم تاريخه ورد الينا محمد كاشف. تابع أبو سعده زين الفقار. وها هو عندنا. والأمر أمركم.

فلما ورد المكتوب الى يوسف اغا، استاذ البلد، أرسله الى اسماعيل بيك. فلما قراه ارسل فى الحال عشرة خيالة فاتوا به على اسوا حال، بعد ذلك العز والسيادة. فلما ادخلوه على الصنجق أمر به الى الحبس فحبسوه. ثم أنه بعد أن صلى العشاء أمر الجماعة أن يخرجوه من الحبس، فاتوا به بين يديه فلم يخاطبه، بل أمر القواسة أن يرموه الأرض، وأمرهم بالضرب، فضربوه نحو الخمسماية نبوت، ثم أنه عاقبه ثلاثة أيام، ثم أرمى عنقه، وحلف أنه لم يدفن، بل رماه تحت رجلى الخيل فى البلاعة. ثم أن اسماعيل بيك أرسل أحضر الخرج الذى كان تحت جركس، لأن العرب جاءت به ثانى الأيام الى اسماعيل بيك، ففتحه فرأى فيه بعض ذهب، وتذاكر بالتقوية على محاربة اسماعيل بيك، وكل شىء اعتزته أرسل اعلمنا به، وكان ذلك من أعيان البلد الذين غداهم وعشاهم على سماط اسماعيل بيك.

تزكية ورضى به شعبه ولا يوخذ منه شرطونيه ولا تباع روح القدس ولا تشترى وكذلك يجرى الامر فى تقدمة القسوس والشمامسة وجميع رتب الكهنوت ولا يأخذ احد من الحكام رشوى له وما يقوم مقامها فى حكم من ساير الاحكام بطركاً كان او اسقفا او نائبا عنهما او يحابى فى حكم لاجل جاه او شفاعة فمن فعل ذلك كان ممنوعاً.
الثانى ان يتفق البطرك مع الاساقفة العلما على

ثم انه حرق الأوراق بعد أن أعرضها على الجزار، وابراهيم جربجى، وعلى كتخدا الخربطلى، ومن أخيه محمد بيك المجنون. ثم أنه لما صفت له الأوقات، وخلت له الارض، عملت له أبياتا بتاريخ، وأرسلتها له صحبة الشيخ محمد بن أمليت الدمياطى، وهى هذه.

لما أتى داعى الهنا   يقول قولا قد حلا
لبيش اسماعيل   تاريخ غم وانجلا
يابها البيك الذى   نجم السعود به علا
لا تحزنن لما جرى   تاريخ غم وانجلا

وأما جركس فانه سافر من بنط دمياط[1] فى عشرين شعبان الى أن طلع الى قبرص، ولم يكن الباشا بها، وانما بها المسلم، فأخذه المسلم والثلاثة أنفار صحبته وعاودت المعينون، فقعد محمد بيك جركس فى بستان البلد. ثم أنه بعد مدة دخل الى حاكم القلعة وأخبره بأن فى مراده يرسل اثنين من اتباعه الى مصر، يأتوه بشىء من الدراهم، ومن أثياب البدن.

ومن عادة قبرص أن لا أحد يقدر يخرج من البلد وينزل الى المركب الا بورقة من حاكم البلد، خطابا الى آغة المينة باسمه، وملبسه وأمرد كان أو بدقن، أو أسود اللحية أو أبيض اللحية. فأخذ الورقة وسار الى منزله.

(١) بالاصل «ضمياط» غلطه مكررة، صوبت.

عمل مختصر قوانين في المحرمات والمباحات في الزيجات وغيرها وفي المواريث وترتيب طقوس الكهنوت وتكتب نسخاً وعليها خط البطرك [كيرلس الثالث ابن لقلق] والاساقفة بالموافقة وتخلد للكراسي واي حكم خرج عنها كان باطلا.
الثالث ان يجتمع الاساقفة الى القلاية دفعة واحدة في السنة وهي من اول الجمعة الثالثة من الخمسين والى اخر الجمعة الرابعة منه وان لا يغير القواعد

ومن جملة سعوداته أنه لما كان كاشفا بالبحيرة، أتاه افرنجي: قبطان، على البر، وهو متوجه الى سكندرية، فنزل بدمنهور عند جركس، فاكرمه اكراما زايدا على الحد والطاقة، ثلاثة أيام. وكانت الطريق مخيفة، فأرسل معه جماعة من طايفته أوصلته الى سكندرية.

فلما دخل محمد بيك الى جزيرة قبرص اشيع في الجزيرة أن محمد جركس جآء الى قبرص من مصر منفيا.

فكان القبطان المذكور لاقيا[1] بغليونه في مينة الليماسول، أحد مين [مواني] قبرص، فسمع بذكر جركس، وكان متهينا لثغر دمياط، فاجتمع على جركس، وقال أعمل معه هذا الجميل، في نظير ما أكرمك، فلما اجتمع به دبر هذا التدبير في أخذ الورقة من المسلم. ثم أنه أخذ واحدا من أتباعه، وكان الثاني نفسه، فطلع من وقته الى المينة، وهو تابعه، فما جآء وقت الصباح الا وهو في المينة، وكان القبطان له في الانتظار سرا، وفي الظاهر يورى أنه يخرج المرساة. واذا بمرسال من آغة الميناء، يقول: لا تبرح حتى تأخذ هذين الرجلين توصلهما الى بنط [ميناء] دمياط فان الباشا ارسلهما. فأجاب بالامتثال . ثم ان الاغا ارسلهما في قارب الى الغليون، فبمجرد نزولهما في الغليون فرح في الحال، وجاءهم الريح من خلفهم كالمدافع الكبار . فورد الى دمياط مستخفيا وكان احمد جلبي بن مصطفى كتخدا الشريف، آغة الحبشة، فنزل عنده، فاخفاه.

(١) بالاصل «الاقلا».

المستقرة فى البيع القبطية كالختان قبل التعميد ما لم يقطعه ضرورة. وكالامتناع من تكريز اولاد السرارى والعبيد ما خلا المسبيين من بلاد الحبشة والنوبه اذا حسنت سيرتهم وزكوا للكهنوت، ومن كان غير مسبى بل ابن جارية عاهرة غير مكلله فلا يقدم من الان فى شى من درج الكهنوت، وكذلك اولاد النسا الرواجع(*) من الان لا يقومون فى شى درج الكهنوت، وكذلك اولاد

(*)الرواجع : اى اللائى مات عنهم ازواجهن ثم تزوجن.

ثم انه ارسله الى مصر مستخفيا، وأكمن فيها، واما اسماعيل بيك فانه جمع الصناجق وأعيان الدولة وكتب محضرا بمعرفتهم وبمعرفة الباشا، بصيغة ما حصل من جركس، ومن لاف به، بضبط بلاده، وبلاد الفارين جميعا، الى الميرى. وسافر العرض الى اسلامبول فى غرة رمضان سنة ١١٣١ (١). ثم أن بعدما سافر العرض توفى الشريف عبد الكريم، شريف مكة، والشيخ عبد الوهاب الشنوانى (٢)، ودفن الشريف عبد الكريم. وأوفى البحر فى رمضان الموافق آخر أبيب.

وفى يوم الاحد رابع شوال سنة ١١٣١ (٣). توفى ابراهيم جربجى الصابونجى، والسبب فى موته انه عزم ابراهيم أفندى عزبان، وكان ضده، وكانت العزومة ليلة سبعة وعشرين فى رمضان، فأخرج سما واعطاه الى الخزندار، وأوصاه أن يضعه فى طاسة شربات، ويعطيها الى ابراهيم أفندى فأراد الله ان الطاسة المشغولة لم يعطها المملوك الا لسيده فلما شربها أحس بالبلا وابراهيم أفندى جاته الطاسة السالمة فصار الصابونجى يطرش الى أن نزلت امعاؤه مكث ستة ايام وفى سابع (٤) يوم توفى الى رحمة الله تعالى ودفن بمدفن كاتب غريب بجوار الامام الشافعى ابن أدريس رضى الله عنه. وفى سابع عشرين شوال سافر اسماعيل بيك بالحاج. ثم

(١) ١٨ يوليو ١٧١٩م.
(٢) كتب عنوان جانبى «أعرف وفاة الشيخ عبد الوهاب الشنوانى».
(٣) ٢٠ أغسطس ١٧١٩م. (٤) بالاصل «السابع».

الزوجة الثالثة ولو كانت بكرا لا يقدمون فى شى درج الكهنوت، ويمنع من تكلل سراً فى البيوت خارجاً عن الكنيسة والقربان، ويحرم دخول الحايضات الى الكنايس فى وقت حيضهن، وان يكون كاتب القلايه من يختاره البطرك اما اسقفا واما رجلا معتبرا، وان يطلب خط مطران غزه وما والاها بالموافقة على اعتقاد البيعة اليعقوبية المقدم ذكره وموافقة من وافقها ويمنع من يمنعه من

بعد شيل الحاج فطنت أكابر مصر بدخول جركس الى مصر القاهرة وأنه كل ليلة يدور فى البلد بجماعته فطلعوا الى الباشا وأخذوا منه فرمانا خطابا الى الوالى أن ما أحدا يقعد بعد المغرب وكل من وجد بعد المغرب يقتل فقامت أهل البلد وقالوا هذا أمر ما سمعنا به أبدا وانما العادة بعد العشاء فغيروا الفرمان بفرمان آخر بعد العشاء وقبل الاذان [آذان الفجر] فكان كذلك. وفى غرة محرم الحرام سنة ١١٣٢ (١). قطع الباشا فرمانا وأعطاه الى أغا مستحفظان، أشهر المنادات به فى القاهرة أن كل ما يأوى جركس، أو حباه، او ظهر عنده كان ماله نهبا ودمه هدرا وكل من أخبر عنه له من الالتزام بلد ومن العثامنه خمسماية عثمانى واحمد أفندى المسلمانى واطن فى البلد وفى كل شهر يأتى مكتوب بانه فى القدس وانه طيب ولم أجد عنده خبرانه فى بيت الشيخ على الطرابلسى الابعد ظهوره واستمر الحال على هذا الامر الى ان جآء الحاج فى ثامن صفر الخير سنة ١١٣٢ (٢). وكانت سفرة حصلت فيها المشقة من العرب الا ان الله سلم ولم يرح من الحاج شئ وكان أغة الوجه حمزة أغا تابع اسماعيل بيك وأما العقابة فانهم انتهبوا جميعا ولم يسلم منهم احد ومات من كان خارج القافلة ولم ينج منهم الا الهجان وأما حمزة فانه انجرح وسلم من نهب القافلة فلما رجع الى مصر البسه الباشا قفطانا على السنجقية فى غرة ربيع اول سنة ١١٣٢ (٣). وفى خامس عشر ربيع أول طلع الشيخ محمد شنن الى على باشا وأعلمه أن الجامع الأزهر آلا الى السقوط

(١) ١٤ نوفمبر ١٧١٩م. (٢) ٢١ ديسمبر ١٧١٩م. (٣) ١٢ يناير ١٧٢٠م

المجامع ومتى لم يجب الى ذلك قطع، وان يكون طقس مطران دمياط الحاضر بها الان مستقراً على العادة لمن يقدمه بها، وان لا يكرز البطرك ولا الاساقفة على غير كراسيهم بالجملة ولا يطقسوا احدا الا برضى اهل كرسيه او اكثرهم وبرضى اسقفه الذى قدمه ولا يقبله اسقف كرسى اخر الا برضى اسقفه الذى هو فى كرسيه ولو كان ساكناً عنده، واى من انتقل من بلده وكنيسته من غير

والمرجو من عالي همتكم أنكم ترسلوا تعرضوا الى حضرة مولانا السلطان فأجاب الى ذلك وأمره ان يكتب عرضا ويختموا عليه وهو كذلك يعرض فى طلب شئ يبنى به الجامع. فكتبوا العرض وكتب الوزير كذلك وسافر العرض صحبة آغا من أغوات الوزير فى غرة جماد (أول)[1] سنة ١١٣٢. وفى غرة رجب[2]. توفى حسن جربجى قانصوة. وفى تاسع عشر شوال[3]. وتوفى جدك محمد. وفى خامس القعدة [4]. ورد مسلم رجب باشا بقيامة مقام لاسماعيل بيك الشبرخيتى دفتردار مصر وعزلان على باشا. وفى ثاني يوم نزل على باشا فى بيت محمد أغا متفرقة الذى بقرب الميلاونية فمكث فى البيت مدة وحبس فى كشك يوسف مدة ثم جاء خط شريف بانفاذ امر الله فيه فانفذ رجب باشا، أمر الله فيه ودفن بالطحاوى فى ثالث عشر ربيع أول سنة ١١٣٣[5]، وله من المآثر الحميدة الصهريج الذى بالديوان الذى لم يوجد له نظير ولم يسبقه عليه أحد وله القصر الذى ببستان اسماعيل بيك الذى بمصر القديمة قريبا من بيت اسماعيل بيك وكان هذا القصر سبباً لهلاكه لانهم اخبروا حضرة مولانا السلطان أحمد ببنايه قصرا لاسماعيل بيك ببستانه الذى بمصر القديمة وصرف عليه جملة أكياس وأخبروه بمحبته له وكانت مد على باشا ثلاث سنوات.

(١) الاضافة لتوضيح المعنى / ١١ مارس ١٧٢٠م.
(٢) ٩ مايو ١٧٢٠م.
(٣) ٣ سبتمبر ١٧٢٠م.
(٤) ٨ سبتمبر ١٧٢٠م.
(٥) ١٢ يناير ١٧٢١م.

امـر ضـروری الی کـرسی اخـر او کنیسـة اخـری
فليـمنع من كليـهـمـا، ولا يمنع البطرك احـداً من
شعـوب كراسي الاساقفـة الا بموجب شـرعي اذا
ثبت عن اسقفـه انه لا يمنعه فليسير البطرك بامره
بمنعـه فـان أبى الاسـقف لوجـه غيـر مرضي واصـر
على ذلك يمنعـه البطرك وان لا يحل البطـرك من
منعه اسقفه الا اذا ثبت عنه أنه منعه بهوى عن غير
وجه شرعي ويكاتبه البطرك دفعه واثنتين بسببه فان

٨٧.ذكر تولية رجب باشا قاتل الاسماعيليين

عفى عنه أمين

قدم الى مصر من طريق البر وكان محافظا لقلعة حلب الشهبا فأوكب[1] من العادلية يوم السبت خامس عشرين القعدة سنة ١١٣٢ [2]. وطلع الى الديوان وجلس ثم أن أعيان البلد طلعوا اليه وأخبروه بدوران جركس بالليل وسألوه أن يعطيهم فرمانا بكبس كل محل سمعوا بانه فيه فأبى وقال هذا أمر لا يصح لكن أن كنتم تظنون أنه فى محل وادى اجتهادكم أنه فيه أكتب عليكم حجة على أنكم اذا لم تلقوه فى المحل الذى تكبسونه تكونون أنتم القاعدون به فقالوا اعطنا فرمانا بالمنادات عليه وعلى أحمد أفندى المسلمانى فاعطاهم فرمانا بالذى طلبوه ونادوا به في البلد.

وفي غرة الحجة ختام سنة ١١٣٢ [3] ورد نجاب من اسماعيل بيك أمير الحاج بأن العرب طلعت علينا في الطلعة فى العقبة من طريق غزة ولكن ربنا سلم وانكم ترسلوا لنا عبدالله بيك صحبة باش الأزلم فان العرب كثير قوى وقد مات في الوقعة ناس كثير ومن جملة الذين ماتوا صدر المدرسين الشيخ محمد الحماقى استشهد برصاصة من بدوى فى العقبة فلما أخبر الباشا

(١) بالأصل «فيها» وفوقها علامة الحذف.
(٢) مدة ولايته: ٢٥ القعدة ١١٣٢ / غرة رمضان ١١٣٣ ـ أكتوبر ١٧٢٠/ ٢٦ يونية ١٧٢١م.
(٣) ٤ أكتوبر ١٧٢٠.

اصـر الاسـقف على ذلك احـضـرهمـا كليـهـمـا وانفصلا بما يوجبه الشرع. ومن كرز على كرسى من الاساقفة وعمله فلا تنقص عليه منه بلد. ومن اسـتقـر بيـده كـرسي بلاده الى يوم تسطيـره فـلا يخرج عنه.. واما الدياريه التي توجب من الاساقفة إلى البطرك فلا يؤخـذ على سـبيل القـهـر الا على قـدر كـراسيـهم وعلى قـدر مـا يسـهل عليـهم على سـبيل البـركـه.. وان لا يلزم البطرك الاسـقف بان

بهذا الأمر ومعارضة العرب الى الحاج الشريف أرسل الى عبدالله بيك أتى به فلما جاءه البسه قفطانا وعينه بأن يكون صحبة أزلم باشا فنزل من الديوان وهيأ نفسـه وأخـذ معه نحـو المابة نفس وسافر يوم السبت ثامن عشر الحجة ختام سنة ١١٣٢[١] فلمـا وصل الى العقـبـة رآها مـعـقـودة من العـرب لا يملك الطالع ينزل ولا النازل يطلع ولكن من لطف الله به أنه رآهم تحت فوقع بينه وبينهم قتال كبير ونجا سالما ثم أنه أرسل يستنجد الباشا بأن يرسل له عـسكرا صـحـبـة نجاب فلمـا ورد النجـاب الى البـاشـا وأسلمـه المكاتيب فلمـا قـراها أرسل إلى جـمع الصناجق والأغوات وقال كيف الرأى فقالوا له الرأى لما تراه فقال الباشا هات قفطان فالبسه يوسف بيك الجزار وأحمد بيك الجزار وأحمد بيك الاعسـر واسماعيل بيك جرجة وقاسم بيك وعبد الرحمن آغا أغة الجملية وكتب خمسـماية نفر[٢]. من السبع بلوكات. كل واحد اعطاه الفا وخمسماية نصف ديوانى وطلعوا بالاى من وسط القاهرة صحبة بيارقهم الى العادلية عند الصناجق فى خامس عشر محرم الحرام سنة ١١٣٣ [٣]. وفي ثاني يوم الذى هو سادس عشر محرم أرسل رجب باشا لحضر محمـد بيك الجنون أخو اسماعيل بيك البسة قفطان جرجة والصناجق فى العادلية. ثم ان الصناجق شالوا من البركة ثامن عشر محرم [*]. ثم ان البـاشـا عمل ديوانا يوم الثلاث، بعد شيل الصناجق من البركة وعكس اسماعيل الدفتردار، واسماعيل

---

(١) ١ نوفمبر ١٧٢٠م.

(٢) كتب بالهامش «لعلة خمسة آلاف كذا وجده».

(٣) ١٦ نوفمبر ١٧٢٠م.

(*) ١٩ نوفمبر ١٧٢٠م.

يطقس فى كرسيه او يكرز من لا يرضاه اسقف الكرسى او اكثر جماعته ويساوى بين الاساقفة فيما هو مطلق لجميعهم وممنوع.. وان لا يتعرض البطرك الى ما يدخل الكنايس فى اعيادها ورسومها واوقافها بل يكون تحت نظر الاسقف ولا يخرج عن يده الا من كان قد اشترط عليه ذلك قبل تكريزه ان يكون دخل الكنيسة عوضا عن دياريه الكرسى ولا يخـــرج عن ايديهم شئ من اديرة

أغا كتخدا الجاوشية وجميع الاوجاق بالسب، والقاضى كذلك يقول: أنا ماجيت مصر الا لاجدد لأهل مصر دينهم فأنهم كفروا نعوذ بالله من قوله. وفى يوم الخميس عشرين محرم[1]، بعد انقضاء الديوان ارسل اخذ الدفتدار وكتخدا الجاوشية، وأعرض عليهم ظهور محمد بيك جركس. فقال اسماعيل بيك الشبرخيتى، دفتر دار مصر: أمركم مطاع ولكن اذا جاء أمير الحاج يكن أحسن لأنه كبير البلد فقال. القاضى لاسماعيل بيك: الدفتدار يا كلب يا ملعون أنت واياه ملاعين، وهذه الشيبة العن منكما يعنى اسماعيل آغا كتخدا الجاوشية وكان القاضى محمد أفندى كتخدار زاده وانتفض قايما الى أوضة كتخدا الباشا، فبمجرد قيام القاضى هجمت جماعة الباشا على اسماعيل بيك واسماعيل أغا كتخدا الجاوشية مسكوهما وأخرجوهما الى جهة الكشك، وذبحوهما وارموا جثتهما الى قراميدان، شهدا رحمهما الله تعالى. وأرسل فى الحال، أتى بمصطفى بيك الخطاط، والبسه قفطان الدفتدارية ومصطفى أغا أبو دفية البسه أغة الجملية. ثم أنه كان فى الديوان حين قتل الجماعة وهرب من باب المطبخة ولم يلتق جواده، ونزل راكبا حمارا ولكن الباشا ناظرا اليه. فأرسل أحضره وألبسه أغة الجراكسة ومحمد أغا بلفيه أغة الانكشارية، وعمر أغا تابع أبو شنب، كتخدا الجاوشية وعلى أغا الزعفرانى آغة المتفرقة، على ما هو عليه، ومحمد آغا الترجمان بن الجيعان على ما هو

(١) ٢١ نوفمبر ١٧٢٠م.

كراسيهم الا من كان قد التزم بذلك قبل تكريزه..
وان لا يقبل قول الرهبان بعضهم في بعض الابعد
الفحص الشديد والاخذ بقول الاكثرين المزكيين
ولا يزعج الرهبان من اديرتهم من غير ضرورة
ظاهره ولا يستناب في الحكم بين الرهبان قوم من
العلمانيين بل روسا الاديره ومن يقوم مقامهم من
المومنين المعتبرين العارفين.. وان لا يمنع اسقف
على الامور الصغار من القلايه ومتى وقع فيما

عليه، وغير المناصب جميعا وظن أن الدهر يدوم له ولم يعلم بأن الدهر مجنون بأهله ثم انه أرسل الى باب العزب، وأرسل الى السبعة أوجاق، سبع فرمانات، على انكم ترسلوا باش جاويشاتكم ومن كل أوجاق اختياريين الى بيت أبو شنب، وتجيبوا محمد بيك جركس بالتكريم والتعظيم الى حضرتي، والحذر من المخالفة، فاجابوا بالسمع والطاعة.

ثم انهم توجهوا الى بيت أبو شنب، فوجدوا جركس جالسا في مقعد سيده، فسلموا عليه، وهنوه بالسلامة، وركبوه وأخذوه وطلعوا به الى الديوان فوجدوا الباشا والقاضي جالسين يتحدثان، فأكرمه وأجلسه وألبسه قفطان السنجقية وحكم تاريخ جركس اذن الله بالفرج سنة ١١٣٤[١]، وتاريخ القاضي،جاء بلغا النهى سنة ١١٣٣[٢]، وتاريخ الباشا يا بك أحكمت فيه البشاير سنة ١١٣٣، ونزل بعد العشاء من عند الباشا الى باب مستحفظان، شرب فيه الشربات، ثم أنهم انزلوه الى بيت سيدة أبو شنب.

وفي ثاني يوم الذى هو احد وعشرين محرم سنة ١١٣٣ [٣]، ظهر أحمد أفندى المسلماني، وطلع الى الديوان، والبسه الباشا كرك سمور، ونزل الى بيته وقد كان متخفيا عند الشيخ على الطرابلسي وظهر أحمد أفندى الرزنمجي بن محمد أفندى التزكرجي وظهر أسماعيل الوالي وقيطاس تابع رضوان أغا ودالي بلطه وباكير كاشف ويحيى أفندى واسماعيل

(١) ١٧٢٢م. (٢) ١٧٢١م. (٣) ٢٢ نوفمبر ١٧٢٠م.

يوجب منعه يكاتبه البطرك دفعه واثنين ويحذره عن ذلك وبعد ذلك يحضر الى القلايه يحاقق عن نفسه قبل منعه ان وجب عليه المنع. الاغوسنس: رتبته رتبة ارشي بابا القسوس له ان يقول التحليل على القسيس المقدس ويرفع البخور بعده ويتقرب بعده وقبل ساير من دونه من القسوس غير المقدسين واذا حضر مع الاسقف يتناول هو البخور من يد الاسقف ولا يناول هو البخور لاحد من يده

أغا اغة التفكجية، وظهرت ناس كثير وكانو جميعا مخفيين وارتكن محمد بيك جركس الى وجاق الينجشرية وعزل عثمان كتخدا تابع شاهين جربجي الجلالي، وولوا رجب كتخدا قريب شعبان أفندى كاتب صغير. وجلس وحبس على باشا في قصر يوسف لفتنة حصلت بين عثمان كتخدا وبين على باشا، ومن جهة ان عثمان كتخدا الجلالي اجتمع مع على باشا يعطي مايتي كيس الى ا لوجاقات. فعلم رجب باشا بذلك، فعزله وحبس على باشا في القصر، وأرسل جمع الصناجق، وأكابر البلد وكتب عليهم حجة على أنهم لم يقبلوا أحدا من الذين هم برا البلد وأنهم لم يخالفوا السلطان ويعملوا بأمره. فكان كذلك، كتبوا على أنفسهم حجة وأسلموها الى رجب باشا.

وفي ثالث عشرين محرم [1] أبرز الباشا خطا شريفا قرى بالديوان باخذ رأس أسماعيل بيك أمير الحاج واسماعيل أغا كتخدا الجاوشية تابع ايواظ بيك. وخط ثاني بامارة الحاج الى محمد بيك بن اسماعيل بيك الكبير، دفتدار (مصر) [*] سابقا. والبس قاسم الصغير قفطان السنجقية والبحيرة معا. وبعد الباس الصنجق وقراءة الخطوط، أمر الباشا القاضي أن ينزل يختم على بيت اسماعيل بيك أمير الحاج واسماعيل بيك الدفتدار واسماعيل أغا كتخد الجاوشية. فنزل وختم عليه، ثم انه البس أحمد أفندى المسلماني، قفطان السنجقية يوم الاثنين رابع عشرين محرم..

(١) ٢٤ نوفمبر ١٧٢٠م.

(*) الاضافة للتوضيح.

من القسوس وليس له شي غير ذلك ومن اراد من المومنين ان يمضي الى عيد كنيسه من اى كرسي كان فلا يمنعه اسقفه بهذا السبب. وهو مسطور طويل الشرح وهذه زبد معانيه اختصرناها خشية من التطويل وتاريخه في سادس توت من سنة خمس وخمسين وتسع مايه(*) وعمل مختصر القوانين في الامور الضرورية الواقعة في الزواج وشروطه والميراث واقسامه. وهو بايدى المومنين

(*) ٦ توت ٩٥٥ ق. = ٣ سبتمبر ١٢٣٩م.

وفي خامس عشرينه أرسل الباشا الى السبع أوجاق ماية وعشرين كيسا، بأن يكتبوا الف عسكرى الى ملاقاة الحاج. ومجيبه رأس اسماعيل بيك أمير الحاج، وأن يعطوا لكل واحدا[1] ثلاثة آلاف نصف فضة ديواني، وعين محمد بيك أبن اسماعيل بيك صنجق التجريدة وارسل صحبته محمد بيك أباظة وزين الفقارى تابع قانصوه بيك وسافر صحبتهم سالم بن حبيب وعمر العادلي وعلى الشواربى ونحو الألفين من المصرية والجميع طلعوا يقولوا هذا يوم مبارك هذا حلم والا علم. وفحشوا في الكلام الزايد والناقص، والفلاح ليس له عقل يميز به وساروا يوم السابع والعشرين من محرم وارسل الباشا الى حمزة بيك أن يسافر الى المنصورة والى محمد بيك اخو اسماعيل بيك ا ن يسافر الى جرحة، فسافروا في ثامن عشرين محرم.

وفي غرة صفر[2] ورد قيطاس بيك الى مصر من كشفه فأرسل له الباشا بأن يلحق التجريدة، فشال من ساعته الى برك الحاج، وأخذوا جمال السقايين ظلما وعدوان. وفي ثاني يوم أرسل الباشا الى السبع وجاق انكم تلحقوا التجريدة وأرسل كيخيته صحبتهم فبقى عرضي من باب النصر الى العقبة كسوق يمشي الرجل وحده الى العقبة ظهر وجهه، وهذه الهمة ما اتفقت ولا لقايتباى لما صار يرسل الى مكة كل يوم ألفا على الخيل البلق لتصديق الشريف عجلان لأخت قايتباى قولى لأخيكى يغزونى على الخيل البلق. فصار يرسل الى مكة

(١) بالأصل «أحده».　　(٢) ٢ ديسمبر ١٧٢٠م.

نسخ عدة وكتب [اعتمده] عليه البطرك والاساقفة ثم خرج الاساقفة الى كراسيهم وقد طابت نفوسهم بذلك. ثم ان السلطان [الملك العادل الثانى] سير امير من اخص اصحابه واجلايهم الى دمشق الى الملك الجواد بن عمه يدعوه الى الحضور الى مصر وياخذ له اى اقطاع شاء وخيره فى ذلك وينزل عن دمشق. وكان ذلك تغبطا ومتوهما انه اذا وصل الى مصر صار الخيار عليه لا له، فكتب

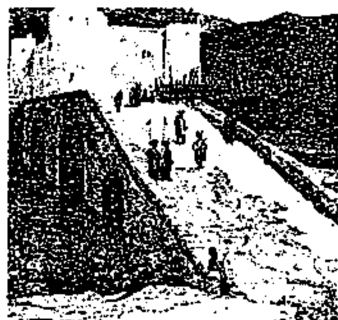

* قنطرة على نهر بردى تؤدى إلى دمشق

كل يوم الفا على الف جواد ابلق ، اول الخيل دخلت مكة وآخر الخيل خارجة من باب النصر ما كانت مسكت من البركة الى العقبة وحكايته مشهورة. وفى خامس صفر جاء الخبر بأن اسماعيل بيك هرب ليلة الاربع رابع صفر سنة ١١٣٣ (١). من نخل أبى زيد وصحبته عبدالله بيك واسماعيل بيك اتباع جركس (٢) . وثمانية عشر مملوكا ودخل محمد بيك بالمحمل الى مصر تاسع صفر ولم ينزل الباشا الى قسماس على العادة القديمة وانما سار محمد بيك أمير الحاج بالمحمل الشريف وكتخدا الوزير صحبته ومحمد بيك جركس وأحمد بيك الأعسر وجميع الصناجق الى أن أنزلوا المحمل فى الجنبلاطية. وفى ثانى يوم اوكب محمد بيك بالمحمل الى قرا ميدان وسلمه الى الباشا والبسهم القفاطين وصار كل احد الى منزله. وفى ثانى يوم حصل الصلح بين الباشا والصناجق والبس عبد الرحمن آغا قفطان الأمان ورد له كشوفية الشرقية على ما كان عليه وعزل أباظا من الكشوفية والبس ابراهيم آغا الفارسكورى الصنجقية، وامر الوالى ان ينادى فى البلد بالأمان وقبل هذا التاريخ توفى الشيخ احمد الدقدوسى سادس عشر محرم والسيد على الحنفى كذلك توفى خامس (*) صفر. وفى سابع

(١) ٥ ديسمبر ١٧٢٠م. (٢) بالأصل «جركه».
(*) ١٧ نوفمبر، ٦ ديسمبر ١٧٢٠م كتب عنوان جانبى «أعرف وفاة الشيخين احمد الدقدوسى، والسيد على الحنفى رحمهم الله».
(٣) ٨ ديسمبر ١٧٢٠م.

الى الملك الصالح صاحب الشرق، امد وحصن
كيفا وسنجار وغير ذلك مما هو قاطع الفرات،
يعلمه انه طايع له وانه يعطيه دمشق اذا اعطاه من
بلاد الشرق ما تقدم به. فحلف له على سنجار
وبلاد اخرى معها فلما توثق به سير اليه بان يحضر
ويقال انهما اجتمعا فى البرية وتحالفا. وعبر الملك
الصالح ايوب ابن الملك الكامل الى دمشق
وتسلمها وخرج الملك الجواد مظفر الدين الى

صفر (٣). طلع باش اوضا باشية العزب الى باب مستحفظان بسبب وقعة (١) ابراهيم افندى وحسن القاشقجي وعلى الرزاز وطلب عرضهم فأعطاهم عرضهم فى ثانى يوم. وفى تاسع عشر صفر (٢). ورد ركاب محمد بيك بن ابراهيم بيك ابو شنب من ولاية جرجة واجتمع مع جركس وتشاكوا الم الفراق. وفى ثالث عشرين صفر (*). توجه الشريف يحيى الى الديار الرومية لانه كان صحبة الحاج وكان قد عقب عليه الباشا كون انه كتب عليه الحجة أنه سلم المحمل اسماعيل بيك الى يوسف الجزار ولم يحوش اسماعيل بيك فلم يرد جوابا. وفى خامس عشرين صفر (٣) نفوا ابراهيم افندى الى رشيد وابراهيم عجمى الى أبى قير وانفدوا حكم الله فيه ونفوا البنهاوى الى سكندرية والزموا محمد أغا ابطال بيته والبسوا خليل أغا قفطانا على أغوية المتفرقة وعزلوا على أغا الزعفرانى.

وفى غرة ربيع اول (٤). عزلوا مصطفى بيك تابع القزلار (٥) وولوا محله أحمد بيك الاعسر دفتدارا وعزلوا عبد الله أفندى الرزنمجي وولى أحمد أفندى الرزنمجي. وأما اسماعيل بيك أمير الحاج فانه بعد ما سلم المحمل الى يوسف بيك الجزار وأخذ عليه حجة جاء الى مصر

(١) بالأصل «بسبب محمد وقعة وابراهيم» والتصويب من التحفة، ص ٣٦٨.
(٢) ٢٠ ديسمبر ١٧٢٠. (*) نوفمبر ١٧٢٠م.
(٣) ٢٦ نوفمبر ١٧٢٠م. (٤) ٣١ ديسمبر ١٧٢٠م.
(٥) بالأصل «القرداء» والتصويب من الجبرتى، جـ١، ص٢٤٢.

سنجار وتسلمها واستقر الملك الصالح بدمشق وكان معه عسكر يقال لهم الخوارزميه وكان الناس خايفين منهم لانهم مفسدون في الارض من جنس التطر [التتر] الا انهم لم يصلوا معه الى دمشق بل كانوا مقيمين في البرية صوب بلاد حلب وما والاها. وكان قبل دخول الملك الصالح الى دمشق قد قفز على رسول السلطان الملك العادل الذى تقدم ذكره وهو عماد الدين بن شيخ الشيوخ وقتل

صحبة الحاج في حريم يحيى الشريف، فلما سافر يحيى الى الروم انتقل الى بيت شمس الطباخ تابعة.

وأما عبد الله بيك واسماعيل بتاع جرجة فانهما دخلا الى مصر قبل الاذان من باب حارة السقايين وجمال السقايين طالعين الى البحر في سادس ربيع أولى فلما علم الجماعة بدخولهم أعلموا الباشا فنادى عليهم بالوالى. وفيها توفى الشيخ الشرفي والشيخ البرماوى [1]. وفي رابع عشر ربيع أول عزلوا كيخية أبطال من أغاوية الجراكسة والبسوا محله على آغا الزعفرانى ونفوا على أغا [2] الاصفر الى بلاده وابراهيم جلبى ابن يزبك الى بلاده أيضا وعلى كتخدا الخربطلى الى بلاده وعثمان أغا أغاة مستحفظان الى رشيد. وفي ثانى عشرين ربيع اول كبسوا بيت يحى الشريف بعد سفره الى الديار الرومية يدوروا على اسماعيل بيك فلم يجدوا احدا لانهم اوشوا لهم أنه عند ابنه فكبسوا البيت فلم يجدوا أحدا. ونفوا ابن يحى الى بلاده وعينوا على بيوت الخمسة المذكورين خمسة جربجية أوضباشية بنفرهم.

وفي يوم الخميس ثامن عشرين ربيع اول ورد سلحدار الوزير بأربع قطع خط شريف قروا بالديوان أحدها(*) بضبط أموال الهاربين والحث عليهم أينما كانوا وجدوا، والثانى بتقرير

(١) كتب عنوان جانبى «اعرف وفاة الشيخ الشرفي والشيخ البرماوى».
(٢) بالأصل «عطاء». (*) كتب بأعلا هامش الصفحة «عونك بالله».

بدار السلطان بدمشق وكان بدعة ما سمع بمثلها
واول رسول قتل الا انهم ذكروا انه ما قتل الا غيلة
عمل عليه صاحب حمص فقتله. وبعد ذلك
تسلط الخوارزميه على بلاد الشام اخربوها ونزلوا
على حمص وحاصروها واعطاهم صاحبها مالا
جزيلا حتى رحلوا عنها. وسير الملك الصالح الى
الساحل اقطعه. وكان الغلا في الشام بلغ القمح
في دمشق مايتى وثلثين درهما الغراره وانجلى

امارة الحاج محمد بيك بن اسماعيل بيك الدفتدار والثالث بتقرير الدفتدار الى احمد بيك الأعسر والرابع بتلبيس قفاطين الى الصناجق جميعا، والاغاوات [1]. جميعا ، اختيارية السبع اوجاق جميعا، فكانت جملة القفاطين التى فرقت ماية وتسعة وعشرين خلعة، ولم يتفق هذا الامر قبل الآن لأحد من الباشات مطلقا. وعزلوا ابراهيم كتخدا الفلاح من كخاوية العزب والبسوا يوسف جربجى جدك كخاوية.

وفى يوم الخميس غرة ربيع آخر [2]. أرسل رجب باشا بطلب جارية كان قد اخذها الخواجا الشرايبى لعبد الله بألفين ريال حجر فكساها وأرسلها صحبة الطواشى الى الباشا. فلما رآها أنعم على الطواشى بماية زنجرلى وأدخلها الى السراية. وفى عاشره ورد ركاب كور محمد آغا الذى كان فر صحبة محمد بيك الصغير. وفى ثانى عشرة ورد امير اخور السلطان وكاتب الميرى بخط شريف بضبط مال ابن اسماعيل بيك وجميع تعلقاته وجميع تعلق اتباعه جميعا. وفى ثالث عشرة أرسل الباشا احضر شيخ الاسلام، قاضى مصر وشيخ الاسلام الشيخ محمد شنن وأبرز لهم خطا شريفا رد جواب العرض الذى كان أرسله على باشا من جهة عمارة الجامع الأزهر، بانعام خمسين كيسة ديوانى لعمارة الجامع الازهر فقرى بين ايديهم، ثم بعد قراءة الخط امر القاضى والاغوات المعينة بهذا السبب وولد الباشا ويوسف بيك الجزار ناظر

(١) بالأصل « وأغاوات».

(٢) ٣٠ يناير ١٧٢١م.

[نزح] اكثر اهل البلاد الى مصر مع انها كانت مبهضه [باهظة] الا ا نها بالنسبة ارفق. ورسم [الملك العادل]بخروج العساكر الى بلبيس ونزولهم عليها الى ان يومروا بما يعتمدون عليه. وخرج منهم جماعة عين عليهم ونزلوا بها [بلبيس]. ثم ان قوماً من المسلمين كانوا مقيمين بالمسجد الذى الى جانب الكنيسة المعلقة جاوا الى حايط بينهم وبين الكنيسة تفضى الى مجلس كان

الجامع الأزهر وكتخدا الجاوشية واغاة المتفرقة والترجمان والكشاف صحبة الشيخ محمد شنن الى الجامع وكشفوا عليه ومد لهم الشيخ محمد شنن سماطا فى الابتغاوية فأكلوا ثم أنهم طلعوا الى الباشا واعلموه بما رأوا ثم ان الباشا امر الشيخ محمد شنن بالتقييد فى هذه وعمارته. فبدى ثانى يوم فى الهد. ثم أن الباشا أبرز خطا بموت على باشا فأرسل انفذ امر الله فيه فى قصر يوسف فى يوم الخميس رابع عشر ربيع الثانى سنة ١١٣٣ (١) ودفنوه بجوار الطحاوى رحمه الله تعالى رحمة واسعة وامطر عليه من سحايب رحمته السابغة. ثم أن رجب باشا اودع ابنه ومهر داره وكخيته وكاتب ديوانه الى العرقانة وعاقبوا ولده والخازندار فاقر الخازندار، أن الباشا أودع عند الميلوانية مابة وخمسين كيسا كلها ذهبا فأرسل الباشا أتى بها من عنده بختم الباشا.

ثم ان الباشا ارسل الى احمد افندى الرزنمجى بن أحمد التذكرجى كون انه خصم على باشا وقال له اكشف على الذى (تادآه) على باشا فى مدته الذى تولاها وهات علم خبرها. فنزل وكشف (انه) (٢) قد تبدد أربعة آلاف واثنين وثلاثين كيسا فى ثلاث سنوات فطلب الباشا خصومها ورجاعتها من أبنه فاعطاها له فأرسلها الباشا الى الديار الرومية، وأرسل يقول للسلطان أن المال أرسله على باشا الى اخيه وهو عندكم أبرز خطا شريفا بتمشية العثامنة

(١) ١٢ فبراير ١٧٢١م.   (٢) الاضافة لتوضيح المعنى.

البطرك عمله برسم جلوسه تحت قلايته الفوقانية فهدموا منها طاقات وصورة ابواب وادعوا انه من حقوق المسجد وصار في الكنايس بلبله لان ذلك كان في نصف الصوم المقدس وفي الكنيسة المعلقة بالاكثر وتعطلت من القداس والصلاة اياماً كثيرة في الصيام. وكان المسلمون يطلعون على سلالم الى سطح قلاية البطرك العالية ويوذنون ويكبرون ويذكرون ما يذكرونه على ما عهد منهم.

والزلطة، فهاجت العسكر وقالوا هذا أمر لا يصح ولا يمشي وتعدم الرعية ونموت احنا وانت تطلبها بالقهر عليه ونادوا في القاهرة ان لا احدا يذكرها بلسانه مطلقا. وقال الباشا : الذى لم ترض به الرعية لم نرضاه لهم.

وفي يوم الثلاثاء ثالث عشرين ربيع آخر [1]. نفوا محمد آغا الكور. وفي يوم السبت اجتمعت الصناجق ببيت أمير الحاج اسماعيل بيك بن اسماعيل بيك على أنهما ينزلوا القاضي والباشا ويعزلوهما لأنهما فشوا في الظلم والاذية وكيف اخدهما في جميع مال اسماعيل بيك وتفاريقه، وخيله وارسالهم الى سكندرية صحبة محمد آغا الطوقاتلي. وهذا أمر لا يعمل ولا في بلاد الكفار.

فلما سمعت الوجاق هذا الكلام قالوا كيف ننزل الباشا ونظهر اسماعيل بيك وقد جاء في حقه خط شريف فموجب عرضكم الذى اعرضتموه [2] الى السلطنة بانه خاين قاتل النفس مؤذى الجار والمار مستحق الازالة ثم انكم كيف ما تفعلون فيما بعد. فقالوا نرسل نعرض. فقامت العسكر على امر غير تام من بيت محمد بيك أمير الحاج، ثم انهم قالوا لبعضهم البعض هذا الامر ، وهذا الدولاب دولاب احمد بيك الاعسر وله ثمانية أيام ماطلع الديوان. ثم ان الانكشارية والعزب اجتمعوا مع بعضهم البعض وارسلوا باش جاويشاتهم الى الباشا وأخبروه

(١) ٢١ فبراير ١٧٢١م.
(٢) بالأصل «أعرضموه».

وجرت فى ذلك خطوب. وسير امير جندار احضر قوما منهم وضربهم اشد ضرب وحبس والى مصر منهم جماعة دفعتين ولا يجدى ذلك فيهم وحضر المهندسون وكتبوا مشاريح بان هذا الحايط للكنيسة [المعلقة] وما للمسجد فيه شى ولا فى المجلس الذى يليه. ودخل فى ذلك صاحب ديوان الاحباس وتحدثوا فى ان يضعوا نصف نخل من دون الحايط وتسد الحايط على نصف النخل بين الموضعين. ولم

بما فى مراد العسكر وان الانكشارية والعزب والبلوكات الخمسة معك وانما هذا امر من الصناجق، وامر الصناجق من غير الاوجاق لا يتم. فأعطى كل واحد أربعين عثمانى، وكيس فلوس.

ثم انه أرسل الى امير الحاج، والدفتدار، وابن ابراهيم بيك، وابن ابراهيم بيك الفارسكورى خامس[1] عشرين ربيع آخر وقال لهم: مابال الصناجق مبطلين ديوان السلطان فقال محمد بيك ابن أبو شنب لا علم لنا، ولكن هم الآن كلهم فى بيت محمد بيك امير الحاج هذا. ومسك بديل أمير الحاج، فأرسل لهم ابراهيم بيك الفارسكورى، ينظر ما سبب انقطاعهم عن ديوان السلطان.

فأرسل الباشا ابراهيم بيك فنزل لهم واخبرهم بما قال الباشا وانكم ان لم تطلعوا الديوان، إلا شال صنجقيتكم. فقالوا له: قل له يعطينا مهلة الى غد، نجتمع وننظر ما فيه الصلاح نرد عليه به. فرد عليه ابراهيم بيك فأمهلهم الى ثانى يوم.

ونزل امير الحاج وابن أبى شنب والمرسل الى بيت امير الحاج. فعملوا الجمعية فى بيت أمير الحاج، وجاء الشيخ محمد شنن، والشيخ احمد البكرى[2]، وسيدى عبد الخالق السادات، ونقيب الاشراف، والقاضى صلاح الدين، وضمنوا المشايخ الباشا لمحمد بيك جركس، ولأحمد بيك الاعسر، ان كل قايم مقام من طرف الباشا يكونوا هم القاعدون به. وأخذوهم وطلعوا

(١) بالأصل «خالمع» / ٢٣ فبراير ١٧٢١م. (٢) قدم واخر.

يجب اصحابنا الى شئ من ذلك ثم تحدثوا فى ان يسدوا الحايط المهدوم على حده على ما كان عليه وتهد الطبقة العالية وامتنع اهل الكنيسة من ذلك. وبقى الامر على ذلك مدة وجا العيد والامر على حاله ودخل شهر رمضان سنة ست وثلثين وستمايه [١٢٣٨م] وما عدم اصحابنا فى هذه المدة غرامة جملة كبيرة. وفى هذه الايام اخرج صاحب امد من الاعتقال لانه كان فى برج بالقلعه وله مدة

بهم الى الوزير. فلما دخلوا على الوزير، قام لهم واجلهم واكرمهم، وأصلح المشايخ بينهم وبين الباشا، فقال احمد بيك الاعسر يا مولانا الوزير سمعنا كلام، ومن يسمع يخل، فخفنا وكبر الخوف عندنا، وعفوكم اقرب. فعفى عنهم والبس كل واحد كرك سمور، وحلف لهم أنه لم يقع منه أذية فى حقهم، ونزلوا فى أمان الله تعالى فلم يبلغوا مرادهم من نزول الباشا.

وأما السبب الثانى (لغياب) [1] جركس والأعسر، فانه أتاهم خبر من داخل السراية ان الباشا مراده يقتلك ويقتل الاعسر، ويملك مصر ويمشى فيها العثمانة، ويفعل كلما أراد. وكان الباشا يتحدث مع القاضى صلاح الدين زاده، فكان الاعسر له انعام على وجه جوخدار، فسمع فاخبر فلما سمع الباشا قول الاعسر سمعنا كلاما، ففطن الباشا، لكن سكت، وفتش الى أن عرف الجوخدار فقتله.

ثم ان الباشا ارسل الى وجاق مستحفظان ستة آلاف زنجرلى وللعزب ثلاثة آلاف ولكل وجاق من الخمسة الف وخمسماية، فاجتمع جركس والاعسر على الصناجق وقالوا كيف الحال، الاوجاقات اخذت الفلوس وباعونا بالذهب، ولكن نظهر اسماعيل بيك وهو يدبرنا. ثم انهم اجتمعوا على اسماعيل بيك فى بيت الجزار فقال: ما عليكم منه. ثم انه أرسل جمع مايتى كيس وهو مخبآ فى بيت الجزار.

(١) بالأصل «لغيب».

طويله وخلع عليه واعيد اليه كل قماش كان اخذ منه لانه كان محفوظاً مودعاً مضبوطا وجهز باهله وجماعته ليتوجه في البحر الى انطاكيه الى خدمة قريبه ملك الروم [السلاجقة] صاحب قونيه واقصرا [قيصريه] وكانت هذه القضية من المكارم العظام التي ابتدعها هذا السلطان، ثم ان الغلة انحط سعرها قليلا وكان القمح من ثلثين الى اربعة وعشرين درهما الاردب والشعير من ثمانية

وأما جركس فانه لم حصل بينه وبين الباشا، تكلمت أهل مصر في حقه كون أنه اصطلح مع الباشا ثم نقض عهد الباشا ومال الى طرف جماعة اسماعيل بيك. وكان جركس حقيقا ينقض العهد، لأنه أخبر يقتل الجوخدار، فعلم ان الذى كان سمعه حقا فنقض العهد ومال الى الجزار وقال له: اصلح بيني وبين اسماعيل بيك ونظهره ونكون احنا واياه على نزول الباشا، وان كانت الوجاقات لم تطاوعنا. ثم انهم اجتمعوا على اسماعيل بيك كما ذكرنا فاخذ اهل البلد تتكلم في حقه وتنسب له العجز، كونه انضم الى طرف اسماعيل بيك وما معهم خبر من الذى ظهر لجركس والاعسر في اخدهما. وتفرس الباشا في مصر وراح الخبر بما فعلوا، وجمع اسماعيل بيك في المايتي كيس. فاحدث أغا بخط شريف، ان السلطان جاءه ولد، وراسل يعمل شنك في القلعة ثلاثة ايام بالمدافع. (وفي يوم)[1] ورد الاغا يوم الخميس ثامن عشر جماد أول[2]، وتوفى الشيخ محمد شنن، وحكم تاريخه، محمد ختام سنة ١١٣٣. ثم ان الباشا عمل الشنك [الوليمة] ان احدا يطلع الديوان، فما طلع أحد الا ابراهيم بيك الفارسكورى، وابراهيم بيك الوالي، ومرجان جوز، وتم الشنك على هؤلاء الثلاثة، ولم يفده من مكره شئ. وتمتعت الفقراء والمساكين بالكباب والشربات.

(١) بالاصل «في فقط» والاضافة لتوضيح المعنى.
(٢) ٢٧ مارس ١٧٢١م. / كتب عنوان جانبي «اعرف وفاة الشيخ محمد شنن شيخ الجامع الأزهر».

وعشرين درهما الاردب الى دونها والفول بعشرين درهما الاردب وتباشر الناس بالرخص لان الغلال نجبت في هذه السنة نجاباً ما سمع بمثله وكانت مطرت مطراً كثيراً لم يجر به العاده في مصر وواتتها برودة عظيمة الى اخر وقت ولم يكن في المدينتين [القاهرة والفسطاط] شئ غالياً خارجا عن القياس سوى التبن فانه كان بستة دراهم نقره الشبكه وحمولته، والحطب فانه بلغ عشره ورقا

وفي يوم الخميس ورد ابراهيم الذى كان منفيا في رشيد. ثم ان اسماعيل بيك بعد ما جمع المايتى كيس ارسل فرقها على السبعة أوجاق بمعرفته، فالستة اوجاق قبلت الا وجاق مستحفظان، لم يقبل. فلما (اخبر) [1] جركس بان باب مستحفظان لم يقبل ارسل الى على كتخدا الداودلى باش اختيارية يقول له: والله ان لم تقبل والاقتلتك أنا، وأنت قاعد في مقعدك. فأرسل يقول له على كتخدا، ان كان ولابد فلا يصح حتى اجتمع انا وأنت واياه، ونتعاهد واياه عهدا شافيا فقال: نعم. ثم انه ركب هو واياه ليلة الاربع بعد العشاء وتوجها الى بيت يوسف بيك الجزار وطلعا الحريم، واجتمعا مع اسماعيل بيك، والجزار، وتعاهدوا واياه، ورابعهم جركس وحلف الأربعة انهم على قلب رجل واحد، وان باب الينجشرية بابه، وان على كتخدا الداوديلى يملك عوضا عن الجدك. وقريت الفواتح، وشربت الشربات، وتوجهوا من عنده.

ثم ان اسماعيل بيك، ارسل الى محمد بيك امير الحاج، واحمد بيك الاعسر دفتردار مصر، بأن يخبروا العلماء، والبكرية، والسادات، ونقيب الاشراف وجميع العسكر، والاوجاق السبعة، أن يأتوا جميعا الى بيت محمد بيك أمير الحاج للجمعية يوم الاحد سابع عشر جماد اول: فأجاب الجميع. ثم أنهم توجهوا الى بيت أمير الحاج وكنا صحبة الشيخ ابراهيم الفيومى. وكان اذ ذاك شيخ الجامع الأزهر بعد الشيخ محمد شن، ولم يكن عند أحد خبر لا من

---

(١) الاضافة لتوضيح المعنى.

الجمله والزيت الحار فانه كان بخمسة عشرة درهما العشرة ارطال. ثم رسم بخروج بعض العساكر الى بلبيس واقامتهم بها فخرج جماعة من الامرا يكونون زهاء من ثلاثة الف فارس فكان منهم امير كبير يعرف بنور الدين بن فخر الدين عثمان فاتفق ان وقع بينه وبين والى بلبيس واقع فصار يكتب فيه الى السلطان ويذكر انه يكاتب الملك الصالح وتجيه رسل الملك الصالح وكتبه، فصار ثم

العلماء ولا من العسكر سوى متكلمين الاوجاقات، وهم يتحدثون مع بعضهم البعض. ويقولون: العلماء. وارباب السجاجيد، ما السبب في هذه الجمعية، واذا اسماعيل بيك امير الحاج ايواظ، وعبد الله بيك، واسماعيل بتاع جرجة ، ويوسف بيك الجزار، الذى كان عامل مشوش، ونزل له كتخدا رجب باشا يسلم عليه ودخل له الحريم وادعى ان محاشمه نزلت فيها نزلة الى ان بقت مثل الجرة، وكان قد رقد في الفراش، ومد رجليه ووضع بين فخذيه (١) جرة صغيرة، وغطاها بحرام احمر.

فلما دخل كتخدا الباشا ورآه في تلك الحالة، أخبره بسلام الوزير له، وقال له: ان الوزير قد اخبر بمرضك، وانه قد ارسل لك جراح باشا بتاعه. فقال له الجزار شكر الله احسانه، ولكن المزين قد فصدني اليوم ووضع لي الفتيلة ولا أقدر على كشفها الا بعد ثلاثة ايام اولها اليوم، وان شاء الله في بعد غد يأتي لنا، ثم ان الكتخدا توجه واخذ المزين صحبته فلما سلم المزين على الجزار في حالة الذهاب أعطاه في يده خمسة جنزرلي (٢) فلما دخل الجزار صحبة الثلاثة والعسكر قايدين الفتيل وراءهم، والجميع مسلحين، واذا بالذين في الجمعية قالوا: ايش الخبر؟ ما بال الناس هايجة؟ قالوا: ا سماعيل بيك بن ايواظ بيك ظهر، فقام جميع من كان في الجمعية، وسلموا عليه وقبلوا يديه وهنوه بالسلامة.

(١) بالاصل كتبت قبل فخذيه كلمة «رجلية» وفوقها شطب.
(٢) بالأصل «جزير».

توهم منه فخرج الامر بان يتوجه الى رشيد يتركز بها بمفرده. وكان هذاا لثغر مما يجرى فى حيز الامير المذكور فتوهم ان ارساله الى هناك لشرير ادبه وأن يمسك ويحبس، فتوقف عن الرواح وكاتب اكابر الدولة فاعفى من ذلك وبقى فى القلوب ما فيها. وكان قد اتفق معه على رايه جماعة من الامرآ وهم عز الدين ايبك الكردى، وعز الدين ايبك الحمد لله المعروف بقضيب البان

* احد شوارع مدينة رشيد

ثم ان اسماعيل بيك قعد، وشربوا القهوة، ثم تكلموا فى شأن الباشا والقاضى محمد أفندى كتخدار زاده وما صنعوا فى اسماعيل بيك واخذ امواله وارساله[1] الى اسكندرية فما تقولوا يا علماء يا بكرية، يا سادات، يا أشراف، يا عسكر الاسلام فقال[2] الجميع: هذا امر ما أحد فعله فى بلدنا قبل الآن. فقال جركس: الباشا معزول، ويوسف بيك الجزار قايم مقام. فقال الجميع: نعم كذلك. ثم أنهم قروا الفاتحة جميعا وأحضر محمد بيك قفطانا وأفرغه على يوسف بيك الجزار وركبوا جميعا الى الرميلة والعلماء. وأرباب السجاجيد والأشراف واسماعيل بيك وعبد الله واسماعيل جرجه فى وسطيهم والسناجق والعسكر خلفهم، واليدكات موقودة ودخنة اليدكات معبقة.

ثم أنهم أدخلوا العلماء، والنقيب، والبكرى، والسادات فى [جامع] المحمودية. كذلك اسماعيل بيك، والصناجق جميعا، والعسكر الى السلطان حسن، وسبيل المؤمنين، والشيخونتين وانجرت العالم من عسكر ورعاية، يتفرجون على اسماعيل بيك امير الحاج.

ثم أن الصناجق ارسلوا الترجمان، واغة المتفرقة، وكتخدا الجاوشية الى الباشا، وأن ينزل الى تحت، فتردد فى النزول، فكرروا القول عليه فأبى النزول. فقطعوا عليه بيردى وأرسلوه الى

(١) بالأصل «واساله».
(٢) بالاصل «فقالوا» والتصويب من سياق الكلام، وما ذكر بعده فى النص.

وسيف الدين الدنيسرى. وسطر الخوارزمى
واخوه وعلاء الدين بن الشهاب احمد ونور
الدين على بن الاكتع وعز الدين تلبان
المجاهدى [والى البهنسا] والركن عمر الفائزى
وايدكين العزيزى وعلم الدين شحر اليمنى.
وكانوا جميعا نزالا فى منزلة واحدة ورايهم
واحد وكلمتهم واحدة وشاع امرهم وذاع،
فسير اليهم السلطان الامير فخر الدين بن

عبدالله بيك الجيوشى بأن يضرب على القلعة المدافع. فضرب عليه ثمانية مدافع. فلما سمعت العسكر التى فى الرميلة المدافع، اسرعوا الى قراميدان، وارموا نحو المايتى بندقية. فقال الباشا أمان أنزل. ونصب على بدن القلعة بيرقا ابيضا فبطلوا الرمى وقالوا له: أنزل فنزل قرب المغرب هو والقاضى من باب قراميدان. فى الضلمة والرعاية تصفق[1] عليه، وتناوله بالالفاظ القبيحة وأن رجلا من الرعية، أتى قدام القاضى وقال له: يا شيخ الاسلام، أنت الذى جيت لمصر تجدد لأهلها دينها؟ واذا بالخبر وصل الى اسماعيل بيك بما فعلت الرعية فى الباشا. فأرسل محمد بيك جركس، فركب وأدرك الباشا ووقع فى الرعية ضربا بالنبوت هو وجماعته الى أن اوصله الى بيت شكر بره بعد المغرب، ولم يكن معه فرش يفرشه لأنه نزل هو وجماعته على جرايد الخيل، واذا بخمس جمال محملة فرش وعشرة طبايل ملانة بالاطعمة من عند زوجة أبو شنب الجردية أم محمد بيك. وأرسلت أخذت حريمه وابنه عندها تلك الليلة. فمكث مدة قليلة فى شكر بره، ولكن ما قدر يعاين السكة هناك، لأن بيت اسماعيل بيك دفتردار مصر الشبرخيتى مقابل بيت شكر بره، وعند حريمه حزازة منه، كون انه قتل سيدهم. فصاروا يحضروا الغوازى ويعطوهم الفلوس، ويقولوا لهم: قولوا كلاما على الباشا. فبقوا يتكلموا على الباشا كلام قبيح لا يليق بالوزراء[2]، ومن حجة قولهم له يا: باشا يا باشا يا وجه القملة من

(١) بالأصل «تسقف». (٢) بالاصل « بالوزر».

الشيخ يطيب قلوبهم ويطمنهم وكتب اليهم كتابا بخطه يذكر فيه انه ليس عنده خبر مما توهموه وانه يحلف لهم على ما يريدونه، فطابت قلوبهم بذلك وكتبوا نسخة اليمين وتسلمها الامير فخر الدين بن الشيخ وعاد الى القاهرة ليحلف السلطان عليها بعد ان حلف الامرا المذكورون له انهم فى طاعته ما لم يغير عليهم امراً وما لم يبدلهم شياً منكراً.

قلة عقلك ياباشا تعمل ذا العمل(*). وصارت الاذية من حريمه بالليل والنهار فطلب السكن فى منزل آخر، فانزلوه من بيت يوسف أغا القطردار بسويقة عصفور، حتى انه انعتق منهن لانهن نساء لا عقل لهن، ومحرقين القلب على سيدهن الذى مات ظلما.

وفى غرة جماد آخر(1)، دخل اسماعيل بيك منزله الذى بقرب الجماميز، وكانت مدة اخفايه ماية وعشرة أيام. وظهر هذا الظهور وحكم تاريخ ظهوره الذى عمل له: ففى مصر اسماعيل ينصره الله سنة ١١٣٣(2). وجاء حريمه من بيت أخته الذى بسويقة السباعين بالجنك قدامها الى دخول البيت وكان يوما يعد من الاعمار، واسماعيل بيك جالس بالمقعد، والصناجق، والعلماء، وأهل البلد حوله، فبذر على الجنك الفضة وارباع الريال والدنيا مطبقة عليه. ثم اجتمعوا مع بعضهم السناجق واحضروا العلماء وارباب الساجيد ونقيب الاشراف ومتكلميهم، وكتبوا عرضا، وختم عليه الجميع، وكتب عليه سيدى عبد الخالق السادات بيده الكريمة، وهو ما رآه المؤمنون حسنا، فهو عندالله حسنا، وعينوا صحبة العرض سبعة من السبعة او جاق.

أما الذى سافر سابقا بعرض الصابونجى، ومن الجاوشية: عثمان افندى، ومن الجملية: صالح

(*) ظل هذا الهتاف يردده المصريون حتى وقتنا بالشكل التالى: يا باشا ياوش الأمله [القملة] مين ألك تعمل دى العمله.

(1) ٣٠ مارس ١٧٢١م.

(2) ١٧٢١م.

وحلـف السـلطان على النسـخـة وجـات مع الاميـر شـجـاع الدين بن ابى ذكـرى..ثم ان احـد الامـرا المقـدم ذكـرهم كـان متـاخـراً بالقـاهرة وهو [عـز الدين] تلبـان المجـاهدى الذى كـان والى البـهـنسـى، فخـرج منها بغير دستور [إذن] اعنى القـاهـرة وجـاء الى هذه الجمـاعـة نزل عندهم فوقع التخيل ايضا ولم يفد اليمين شياً فرجع فخر الدين بن الشـيخ خـرج الى العسكر وخـرج معـه

جريجى القرنفلى، ومن التفكجية: مصطفى جرجى أكشاش، ومن الجراكسة: عثمان جربجى أبو شامة، ومن العزب: يوسف جربجى تابع حسن أغا، أستاذ بركة الحاج، ومن الانكشارية: محمد أفندى اشراق رجب كتخدا الكبير. ومن الاشراف [1]: احمد جلبى جاويش الاشراف، ومن العلماء: الشيخ العمدة الفهامة شيخ الاسلام الشيخ أحمد العماوى، اكابر معتبرة. والذى فى العرض أنها الى حضرة مولانا السلطان وصورة شفاعة واعتذار فيما تقدم من الانها، وانها كانت بالقهر علينا من الوزير رجب والعفو منكم أجل وأقرب.

ثم انه أمرهم بالسفر، فسافروا الى سكندرية فى عاشر جماد آخر سنة ١١٣٣[2] ثـم أن اسـماعيل بيك بعـد سـفـر العرض عين من كل بلك واحدا لمجيبـه. من تفـاريقـه وخيله من سكندرية، التى كـان ارسلهـا رجـب باشـا الى سـكندرية فـسـافـروا. فلمـا دخلوا الى سكندرية، وجدوا الغليون الذى فيه الخيل والمال، بتاع اسماعيل بيك سافر قبل دخولهم الى اسكندرية بيوم واحد. وسافر العرض والجماعة فى ذلك اليوم فى نفس الغليون.

وفى عشرين جماد آخر توفى شيخ الاسلام: الشيخ محمد البرماوى الكبير[3]، وعـلـى كتخدا الداوديلى باش اختيار باب مستحفظان، وحكم تاريخه تهنا فى الجنان يا محمد.

وفى يوم تاسع رجب انحرقت البارودخانة التى بالازبكية وتعلق محمد الشناوى. وانحرق

---

(١) بالأصل «اشراف». (٢) ٨ أبريل ١٨٢١م.
(٣) كتب عنوان جانبى «أعرف وفاة الشيخ محمد البرماوى».

الامـيـر بهـاء الديـن ابن ملكـيـشـوا الذى كـان والى القـاهرة مـرة وتولـى دمـشق ايضـاً مـرة واجتـمعـوا بالامـرا وفاوضـوهـم فى هذا الامـر، وان خروج تلبان المجاهدى بغير دستور ما كان واجباً وانكم رضيتم بهذا وهو قبح الايمان. وكان ذلك اليـوم الاربعـا الحـادى والعـشـرين من شـهـر رمـضـان سنة ست وثلثين وسـتـمـاية [الهـلاليـة] الموافق للثـاني من بـشنس واتـفق في ذلك النهـار

فيهـا خلق كثـيـر وصـارت النار، والحـارة فى الهـوى، حـتى رميت بعض حـجـارة فى بـركـة ابو الشـوارب، وانهـدمت الحـارة التى اسـمـهـا قلعـة الكلاب، ثم ان الشـناوى بعـد حـرق الخـانة، أحدث له معملا غيره فى كوم الشـيخ سلامة فخافت الناس اهل الكوم ان يجرى لهم كما جرى اولا فطلعت أهل الحارة اعرضت أمرها الى باب مستحفظان فعينوا اغا مستحفظان ينزل يهد ذلك المحل فنزل الاغا هو وجماعته، وأخذ معه نحو أربعين فاعلا فلما دخل الحارة ووقف فيها فارشده الى المسجد الذى بها، فنزل فيه، وأرسل الجاويش وكان محمد جاويش قريب جدك فأمر الجاويش الفعلة بالهدم فوقعوا فى المعمل هدموه، واذا برجل منهم ضرب جزمته(١) فجاءت على الجرن الصوان فطارت النار من ذلك فنزلت شرارة الى المخزن وكن بقرب الجرن، فحرقت وجه محمد جاويش، لأنه كان يلم فى جرر البارود فمن كربة الناس انكسرت الجرر، فهاجت الحارة، وطلع الاغا رامح، ومحمد جاويش محروق وانحرقت جماعة الاغا لأنهم كانوا دايرين ينهبوا، ومات نحو الماية وثمانية.

واعجب من هذا أخبرنى الشيخ منصور العطار، شيخ الكوم، انهم يطفوا فى بيت من جملة البيوت التى بقو يطفوا فيها، بيت مات أهله جميعا، والرجال يطلعوا الموتى من تحت الردم، واذا بقفص فيه أربعة فراخ وكتكوت فى نصف قدح طلعوه من تحت الردم بعد أربعة أيام وهو

(١) بالأصل «قدمته».

ان جماعة من رجال الحلقه وهم الاتراك اتفقوا
على ان يخرجوا ويلحقوا بالامرآ المقدم ذكرهم.
وكانوا زهآء الفي فارس فاجتمعوا ولبسوا وخرجوا
من القاهرة وكان للامرا طلايع [جواسيس]
يعرفونهم الاخبار فجاهم فارس يركض واخبرهم
بان الحلقة قد خرجت لاخذهم وان الفارس خطلبا
مقدمهم. وكان الفارس خطلبا المذكور قد خرج
الي الجماعة المذكورة ليردهم هو وامير اخر معه

بالحياة ولم يصبهم شئ، وأن أهل البيت جميعا ماتوا ولم يبق الا صاحب البيت رجل وكان خارجا، فسبحان الحى الذى لا يموت أبدا ولا يشغله شاغل.

وفى غرة شعبان [1]. ورد ركاب على جلبى بن الساعى من الشام، من جملة الذين كانوا صحبة أيوب بيك وكان مدة غيابه عشر سنوات، وفيه ورد خبر من جرجة أنها قفلت سبعة أيام. وفى ثامنه كبس [الشيخ] سالم بن حبيب على كفر دجوة، ما أبقى فيه احدا.

الانظف الأرض من الغلة، باخو محمد بيك جركس وان اسماعيل بيك من يوم سافر العرض ما قعد فى منزله ابدا. الا كل يوم فى الخلا يعمل حظا يوم فى العنيبه، ويوم فى الجنينة مدة غياب العرض. وورد أغا من الشام من جماعة عثمان أو غلي نصوح باشا، يطلب ذخيرة الى مكة من بحر السويس فسألوه عن خبر العرض، فلم يبين خيرا. وصارت الناس مشوقة الى مجئ رد الجواب وعندهم شاغل، ولم يدخل الى سكندرية مدة خمسة ومبعين يوما ولا مركب بمقدافين الى ان ورد غليون عيش محمد وصحبته قاضى مكة وقاضى المدينة وثلاث أغوات سمر منفيين إلى مصر، واخبروا ان حضرة مولانا السلطان، عفى عن اسماعيل بيك عفوا تاما.

وفى ثانى عشر ورد جو خدار الوزير بخط شريف، خطابا الى اربعة صناجق، محمد بيك أمير الحاج، ويوسف بيك قايم مقام، واحمد بيك الاعسر، ومحمد بيك جركس، انهم يكونوا

---

(١) ٢٨ مايو ١٧٢١م.

يعرف بالصارم المسعودى فاخذوهما وربطوهما معهم. وكان للامرا طلايع فجا فارس ركضا الى بلبيس الى الخيام اخبرهم ان الحلقة قد خرجت للقبض عليهم فقاموا ولبسوا وركبوا فسمع الركن الهجاوى والاكراد الفيه [الفرقة] الاخرى بذلك فركبوا ايضاً لابسين السلاح وعدة الحرب وتواقعوا فاندفع الامرا المقدم ذكرهم قدام الجماعة التى من حزب السلطان ولم يزالوا كذلك يقالبوهم

على بصيرة. وتوغلوا الى البلد وتصرفوا الى الفقراء والمساكين جراياتهم وجوامكهم وتصرفوا غلال الحرمين، فان مدة رجب باشا، صارت تعلق يوسف بيك قايم مقام ودفتدار خزينته وان كل شئ خصه يكن عهدتكم، وبواقى على باشا عهدتكم، الى أن يأتيكم رد جواب عرضكم صحبة محمد باشا النشنجى، فانه والى عليكم لأن سابقا ورد عرض رجب باشا، يطلب العزلان، فكنا معينين قبطان ابراهيم باشا. فلما جاء عرضكم عينا لكم محمد باشا صدر أعظم النشنجى، من قلعة قندية بجزيرة جريد، وان يعطى لمحمد بيك أمير الحاج، ثلاثين كيسا مساعدة للحاج فحسب أنها رجب باشا. وفى ثانى يوم ورد مسلم محمد باشا بقيامة مقام يوسف بيك الجزار على ما هو عليه، فالبس عبد الرحمن أغا، آغة الجاوشية بل الجملية عوضا عن مصطفى آغا أبو دفيه، والبسوه الدشيشة عوضا عن مصطفى بيك تابع القطردار، والبسوه الشرقيه عوضا عن أباظا.

وفى رابع عشرين شعبان ورد الساعى من ثغر اسكندرية بمكاتيب تتضمن دخول محمد باشا النشنجى الى ثغر سكندرية وصحبته الذين توجهوا بالعرضى. ثم ان الجماعة فارقوا الباشا من سكندرية ودخلوا الى مصر وتوجه الشيخ أحمد العماوى الى منزل اسماعيل بيك، والجميع صحبته، وحكم تاريخ مجيهم نشأت البرايا المالكى عاد بالنصر سنة ١١٣٣. ثم أنهم اخبروا بأنهم حين سافروا ودخلوا الى اسلام بول طلعوا على بغاظ حصار، وجاءتهم خيل المنزل اخذتهم، فمكثوا خمسة أيام الى أن دخلوا بيت رجب باشا، فمكثوا فيه ثلاثة أيام، لم يطلعوا ولو الى صلاة وقت من الأوقات الا عليهم الترسيم. ثم بعد الثلاثة أيام أخذوهم

[يناوشوهم] قلبه بقلبه الى وقت المغرب وقد وصلوا الى قريب العباسه وحال بينهم الليل، وعاد عسكر السلطان الى موضعه، وتم الامرا على نوبتهم ولم يضف معهم من اصحابهم الا القليل لان اكثرهم رجعوا الى خدمة السلطان لاجل بيوتهم واقطاعاتهم. وكان قد وقع من جماعة الامرا امير يعرف بابن الاكتع [نور الدين على] واخذ اسيرا واصطنعه الامير فخر

وأنزلوهم الى مركب ولم يجتمعوا على أحد من كثرة الترسيم الذى عليهم. ثم انهم قالوا لهم رد جوابكم عند محمد باشا صدر أعظم بقلعة جريد وامروا الريس بأن يسافر، فسافر بهم الى أن دخلوا قندية، واجتمعوا مع محمد باشا النشنجى فمكثوا هناك الى أن شهل الوزير وسافر هو واياهم، الى أن دخلوا مصر، ولم يعلموا ما فى جواب العرض ان كان مليحا أو قبيحا. ثم لما أخبروا الجماعة بهذا الخبر، عملوا جمعية فى بيت أمير الحاج، وكانوا جميعاً فى الجمعية فقال احمد بيك تابع محمد أغا المسلمانى، فيما جمعتمونا. فقال الاعسر: لنقرى الفاتحة على اننا نكون على قلب رجل واحد، لأن العرض الذى أرملناه لم ظهر لنا منه نتيجة، وأرسلنا نطلب صورة جواب العرض الخط الشريف، فسمعنا ما أرسل يقول لكم ان رد جواب العرض فى الخط، والخط لا يقرى الا فى محله فى ديوان السلطان، فجمعناكم لاجل ما نقرى الفاتحة، ونكون على قلب رجل واحد ان كان الخط على مرادنا [1]، والا دبرنا أمرا يكون فيه نجاتنا.

فكان جواب احمد بيك المسلمانى: أنتم لا ايمان لكم ولا عهد ولا ميثاق، لو كان لكم عهد وميثاق أو أيمان، لكانت لما حلفتم لى أن تردوا الى بلادى، فأين البلاد الذى اعطيتموها لى؟ وانى بارى الذى اخذ بلادى، يتصرف فيها ولم احد منكم جاب يده الى صدره، خلص لى بلدا واحدا. وزيادة على ذلك انكم عملتونى صنجقا، وانى بقيت أفشل من طنبور بلا وتر،

(١) بالأصل «وأن كان» وفوقها شطب.

الدين بن الشيخ والركن الهجاوى ومن معهم، وذكروا انه فعل ذلك قاصداً لخدمة السلطان واحضر الى القاهرة وخلع عليه وابقى على خبره. واما [عسكر] الحلقه فانهم لم يلحقوا الامرا ولم يعبروا على بلبيس بل جعلوها على يسارهم واخذوا من شرقيها صوب البريه والاميران الاسيران معهم فاتفق رايهم على ان يطلقا الاميرين المذكورين وان ينفذوا من اكابرهم

فلو بقيتمونى أفندى مثل ما كنت، كان خيرا لى، وكنت اتقوت بحسب القلم. فقال له أحمد بيك الاعسر بلادك أشترتها الملتزمين من ديوان السلطان بالاكياس، هات فلوس ونحن نساعدك فى خلاصها. فقال مصطفى بيك تابع بلفيه: انا لما أعطانى حضرة مولانا السلطان الدشيشا انعاما واخذتوها منى، كانت انباعت فى الديوان، هذا أمر لا يليق منكم أنتم صناجق وغيركم رعية. فقال له الاعسر الدفتدار: أنت مافيك كفاية لها، وانك من يوم تلبست بها، عطلت الغلال عن شيلها وسفرها فى زمنها قال لهم محمد بيك أباظا، أنتم دايما لا تنظروا الا لانفسكم وجاعلين الناس تحت ارجلكم . فقال الدفتدار: أنت بقالك اليوم كلام وتعرف تتكلم يا محمد بيك! فقال أباظا: أنا لى الكلام وأتكلم وأنت فى الخزنة عند سيدك ابراهيم بيك. أنتم لما أخذتم منى خمسماية زنجرلى على كشوفية الشرقية، وشلتوها عنى بعد عشرين يوما، واعطيتوها لعبد الرحمن أغا، وشلتوا حسن أغا كخيتى من أغاوية الجراكسة، والبستوها لمصطفى بيك الخطاط، ومصطفى بيك سنجق وأنا ما فى شئ، أنتم تعملوا عمايل لا ترضى الله ولاترضى المخلوق، وتريدوا انكم تقروا الفاتحة على انكم تكونوا على قلب رجل واحد! من يطاوعكم لعدم ثباتكم على القول. فقال اسماعيل بيك، هذا الكلام الذى أنتم مبقين عليه مبيتين عليه ما كنتم جيتم الجمعية، لكن الأمر الذى يقم بكم لا أتمه. وانتفض اسماعيل بك قايما، وانفض [1] المجلس على غير رضى. ثم ان فى ثانى يوم أعطوا احمد بيك سبيل علام،

(١) بالأصل «وانتقض».

خمسة رجال الى السلطان يستوثقون منه ويستحلفونه ويعودون الى اخبازهم لان الجميع ما كان بهم الا خوف على نفوسهم لا غير. فجآء الاميران المذكوران والخمسة وانعم عليهم وجهزهم وسير معهم احد خدامه وهو المسمى بنان [عز الدين ايبك الحمد لله المعروف بقضيب البان] فخرجوا الى ان وصلوا الى الداروم فلم يجدوهم. ولا شك انهم فى اثناء

واعطوا مصطفى بيك بلفيه مصر القديمة، وأباظا القرافة، واكدوا عليهم يروحوا بأنفسهم ولم يرسلوا كواخيهم. وقال: اقعدوا طالعوا فى الروح هنا شهرا. وكان السيد ياسين، نقيب الاشراف، فى الجمعية، فقال لهم: والله الذى لم يثبت على قوله، وعهده، لا ايمان له، محاميا لأحمد بيك أفندى ، فصبروا عليه الى غرة رمضان، وعزلوه، وولوا موضعه مصطفى افندى الرفاعى، واردوا يعزلوا القاضى، فلم ترض الينجشرية، وقالوا: ان فعلتم هذا، يكون علامة العصيان، وأننا لا نسلم فى هذا الأمر حتى لم يبق منا ولا واحد، ثم أنهم اخذوا فرمانا من يوسف بيك الجزار، قايم مقام، بالابقا والتمكين وتنفيذ الاحكام الشرعية فكان كذلك. ولكن هبطت همته التى كان فيها اولا وزاد مع أهل مصر، تواضعا لا يكاد يوصف، وتغيرت تلك الاخلاق الشعثة باخلاق رضية. وكانت مدة رجب باشا سخا ورخا الى ان أبيع الاردب القمح بسبعة وعشرين فضة والفول بثمانية عشر نصف فضة، والشعير باثنى عشر فضة وأخذت الحنطة التى فى الانخاخ باثنين وثلاثين نصف فضة، وهذا كله من أعتنايه. وفى جمعة عزل، وانزلوه، أبيعت الحنطة باربعين الى خمسين، ولكن لا اله الا الله محمد رسول الله كانه كان عنده جنون، لأن أفعاله التى فعلها، كانت أفعال مجانين، لانه انفق فى هذه الفعلة اموالا لا تعد ولا تحصى ولكن كان ذلك فى الكتاب مسطورا رحمه الله وغفر له ما ندم عليه وأرضى عنه خصماوه.

وفى يوم الاثنين ثانى عشر رمضان ورد محمد باشا النشنجى [1] الى قصر الحلى، وكانت مدة قيامة مقام الجزارماية وعشرين يوما والله اعلم.

(١) بالأصل «النسنجى».

ذلك اجتمعوا بالامرا فقبلوا روسهم واخذوهم معهم وساروا. فعاد الخدام والخمسة ولم يصنعوا شيأ وكانت البلاد فيها قلق واضطراب وخوف واحتيط على موجود الامرا وادرهم [ديارهم] مرة ثانية لانهم كانوا افرجوا عنهم لما توهموا رجوعهم. وبعد ايام وصل الملك الناصر بن الملك المعظم الى القاهرة المحروسة في يوم السبت التاسع عشر من بشنس

---

٨٨. ذكر تولية محمد باشا النشنجي صدر اعظم عفى الله عنه

قدم الى مصر بالموكب يوم السبت سابع عشر رمضان سنة ١١٣٣[(١)]، وحكم له تاريخان، تاريخ في حال قدومه الى الحلى وهو هذا الذى عملته في الحلى، «قدم نور الوزير النشنجي». والثاني حال دخوله الى مصر القاهرة بالموكب، «محمد باشا سرى الى مصر عادلا». فسبحان الله جاء بخلاف ذلك ثم ان الصناجق توجهوا له الى الحلى على حكم العادة، فالبس الجميع قفاطين الا اسماعيل بيك، فانه البسه فروة سمور كالليل الحالك، على جوخة نارنجية، تأخذ بالعقل، وقال لهم: ما عليكم باس، ولا تخافوا من شئ، ولا هناك ان شاء الله الا الخير وانتم أمنا السلطان في ارضه والبلاد، واما نحن فاننا ناس ضيوف عندكم، وبلاد السلطان لايسال عليها الا منكم. ثم انه اسقاهم الشربات وانصرفوا الى خيامهم، وشال من الحلى ثاني يوم الى العادلية واوكب الى مصر كما ذكرنا. وكان صحبته أغة القابجية، وأمير اخور، المعينين صحبته في الموكب، والناس يدعون الى اسماعيل بيك، ويقولون للوزير من ركوبه من العادلية ا لى حين دخوله الى القلعة يمينا وشمالا، الرعية والفقراء والمساكين يا دولاتلي. يا وزير لو كان عندنا واحد ثاني مثله، كنا بخير حتى أنهم اخيلوه وبقي يحط يده على رأسه.

---

(١) مدة ولايته: ١٧ رمضان ١١٣٣ / ١٠ ذى القعدة ١١٣٨هـ ١٢ يولية ١٧٢١ / ١٠ يولية ١٧٢٥م.

المـوافق للثـامن من شـوال سنة ست وثلثين وستمايه [١٤ مايو ١٢٣٨م] وزينت له القاهرة ومصر والقلعه ونـزل بدار الوزاره، ثم انه شفع فى الامرا ورجال الحلقه وتقرر انه يسيـر اليهم يطـيب قلوبهم ويحـضـرهم. ووصل ابنه بعـده بايام يسيـرة وما زالت الزينه مستمرة بل زيدت الى ان وصل. وبعد هذا بلغهم ان الملك الصالح خرج من دمشق فجمع السلطان الامرا واحضر الملك

وفى ثانى يوم ورد على بيك سنجق الخزينة الى الديوان، والبسه الباشا قفطانا، ولجميع السدادرة وأصحاب الدركات، ونزل الى منزله فى وجاهة عظيمة. واجتمع عليه سيده اسماعيل بيك، وسأله عن أخبار الخطوط، فقال: والله يا بيك ما أحد معه خبر ما فى الخطوط الا السلطان، والوزير، المفتى، والباشا الذى جاءته الخطوط. والله يا بيك نفس أغة القبجية، وأمير ياخور لم يكن معهما خبر ما فى الخطوط، ولكن يأبيك لاتقلق ، ما يكون فى ملكه الا ما يريد. وأما اسماعيل بيك فلم يكن عند قلبه خبر من ذلك . ووالله يا اخوانى لم أر قلبا مثل قلب اسماعيل بيك، شخص مطرود يكون خليفة الوقت وملك البسطة، ويظهر ولم يلتفت الى طرف السلطنة، ويقابل الباشا من الوراق ، ويقدم له التقدمات، ويلبس منه الاكراك، ولم ينهز منه، ولم يخطر يباله شئ من ذلك. وفى كل يوم يركب الى الخلايا كان قلبه قد من الجبل واجتمع مع رجب باشا تلك الليلة فى الحلبة، ولم يكن رجب باشا راه قبل الليلة ولم يكترث الباشا ولم يصانعه، بل قام له وكان بعد العشاء فى مجلس محمد باشا ثم بعد صلاة القيام، وانفض المجلس وتوجه اسماعيل بيك الى صيوانه.

وفى يوم الخميس ثانى عشرين رمضان [١]. عمل الباشا ديوان واظهر فيه ثلاث خطوط، قربت بالديوان. والأول: بغلال الحرمين، والثانى: بمحاسبة رجب باشا على وجه الحق، فان

(٢) ١٧ يولية ١٧٢١م.

الناصر واستحلفهم انهم مطيعون مخلصون وانهم يقاتلون عنه الى ان يموتوا قدامه وهذه اليمين الرابعة. ثم ان قبيلتين من العرب(*) يقال لاحدهما جذام والاخرى ثعلبه وكانتا باعمال الشرقيه وكان بينهما دماً وضغائن قديمة فلما حضر هذا التشويش حسد بعضهم على بعض واقتتلوا مرارا وقتل بينهم جماعة كبيرة، وكانت ثعلبة في هوى ملك مصر وجذام في هوى

(*) صراعات القبائل العربية وفسادها فى مصر.

طلع له تعطوه له، وان طلع عليه شئ يحاسبوا محمد باشاصدر اعظم به وترسلوه لنا على العجلة، والثالث: ان الذى نعلم به أعيان مصر، وعلمايها، واشرافها، وصناجقها. ان سابقا وردعنكم عرض عليه خطوطكم، وختومكم، فى حق اسماعيل بيك انه عاص، وقاتل النفس، واجب الازالة. فأرسلنا لكم رد الجواب بالخروج من حقه لشهادتكم فيه بالفساد فى الأرض فعين عليه رجب باشا العساكر فهرب من طريق الحجاز، ثم فيما بعد ذلك أظهرتموه وعزلتوا الباشا وانزلتوه من القلعة على حال غير مرضى، ونصبتم لكم قايم مقام، يجرى الاحكام، ثم بعثتوا عرضا ثانيا خلاف الأول، وأرسلتوا سبعة أنفار من السبعة أوجاق، وعالم وشريف بخطوطكم وختومكم، بأنه ليس بمفسد وانه مزيل الضرر عن[1] البلاد، وانه على الكتاب والسنة ففهمنا مقصودكم فعينا لكم محمد باشا صدر أعظم، بفحص ويتحقق القضية بمعرفة السبعة أوجاق، ويرسل يعلمنا حقيقة الأمر، نرسل لكم جواب شافى. وانفض الديوان ونزل اسماعيل بيك الى منزله، ثم بعد ذلك عملوا حساب رجب باشا، فطلع عليه خمسين كيسا، فقعد بها محمد باشا النشنجى، ثم ان رجب باشا، طلع الى الديوان، وأخذ خاطر الباشا وكان يوم الثلاث السابع والعشرين من رمضان، واوكب يوم الخميس تاسع عشرين رمضان من البلد، وسطها بالآى، وحكم تاريخ خروجه «الباشا راح حيث أتى».

---

(١) بالأصل «على».

مـلك الـشـام فـاسـتـنجـدت ثعلـبـة [بقـبـيلة] سنـبس فجاوهم من بر العرب واستعانت جذام بزناته وزناره فـجـاوهم من البـحـيـرة وكـانت ايام خوف وحرب وانقطعت الطرقات وسير السلطان جماعة من الامرا والاجناد لاصلاح ما بينهم فجرا بينهم عصى إلى اجل معلوم بعدما قتل منهم. ثم ابتـد [ظهـر] للناس رجل خـادم يقـال له شـبل الدوله خادم النبي وادعى انه راى نبيـهم في الـنوم

ولقد رأيتـه وهو في موكبـه حين طلع الى العادليـة، وجـميع الصناجق صحبته، خلاف اسـماعيل بيك، وجركس. ولقد علاه صـفرة، حتى اذا رآه الرائى، يظن أنه مريض، وهو فى طبقات الغم الى أن نزل فى خيامه بالعادلية، ثم ان جميع اكابر القاهرة، أرسلت له الهدايا الاجركس واسماعيل بيك لم يرسلا شينا، ان القول الذى قالته الناس، وشاع فى القاهرة، ان اسماعيل، اهدى له عشرين حملا محملة رزا وسمناو عسلا وسكرا وبنا، الحامل والمحمول، وأربعة من الخيل الاصايل ، مرختة، وستة عرايا، ومابة جمل من جمال العرب، تشيله الى غزة من غير اجرة. وحمل قطن وشاشات وبفت وآلاجات، فانه كذب لا أصل له. فانى سألت محمد آغا البواب، الذى هو أحد كواخيه، عن هذا الأمر، فقال لى: هذا كلام كذب لا أصل له، وانما اراد محمد بيك جركس، بان يرسل له هدية، ويقابله، فامتنع الباشا وقال: لا اقبل منه شئ، ولا يقابلنى فان رأيته ووقع نظرى عليه والله العظيم اقتل هذا الكلب كيف وانا قد اخرجته من ضيق الاقفاص، واظهرته، وصنجقته ومشيته على رءوس اعدايه غصبا عن شنباتهم بالقهر عليهم، وقتلت بسببه دفتدار مصر وكتخدار الجاوشية، وعينت على خصمه اسماعيل بيك، التجاريد، واخذت ماله وعقاره، وهربته من نخل، وصرفت من أجله خمسماية كيس، وفعل معى هذا الفعال، والله العظيم ان رأيته لاذبحه (١) بيدى، آه منه، لكن ما يبالى.

(١) بالأصل «لا يذبحه».

وقال له خذ الذمه بتغير حليهم [ملابسهم] فانهم قد خرجوا عن حدهم وشرع في ضرب الناس والاخراق بهم من النصارى واليهود فالنصارى ناخذهم برفع الدوايب [الذؤايب] وشد الزنانير واليهود بعمل العلامه الصفرا. وصار بعض الجماعة بشد الزنار وترخي الداوبه فانتهى [خادم النبى] الى ان قطع دوبة [ذؤابه] القس كاتب الحوايج خاناه لانه كان ارخاها وشد الزنار. وكان اذا لم يجد مع

- -

واما اسماعيل بيك، اخذت ماله وخيله وعقاره. وحصل له مني أعظم الحقارة ولم يقابلني بشئ يكرهني. ويقول هذا كله مقدور عليه، وماهو من رجب باشا ولا من السلطان، هذا من الله والحمد الله على سلامتي واما[1] الذى راح من المال والخيل فان الله يعوضه، واجتمعت وأياه في الحلى حين قدم محمد باشا وسلم علينا. وأما جركس ان قابلني قتلته، لو أنها تفى الى أمر الله.

ثم أنه سافر في يوم[2] السبت ثامن شوال. وصحبته الاثنى عشر آغا المعينين على قتل اسماعيل بيك، لأن المدة التي كان فيه رجب باشا، كان في كل يومين والثالث، يأتى أغا بخطوط، البعض منها يقرا والبعض يقول: هذا متعلق بى، ليس هو متعلق بكم حتى كملت اثنى عشر آغا، ثم انه شال من العادلية، ونزل بالخانكة بعد أن حط بها قتل أمير آخور بتاعه واثنين «مطرجية» [المطرجي هنا هو حامل إبريق الوضوء] وأراد ان يقتل آغا القابجية، فهرب الى مصر من الطريق، كان أحدا اخبره أوهو عرف بذنبه، فهرب لأنه كان اخبر ان الجوخدار الذى قتله كون انه اخبر جركس لم يكن هو الذى أخبره وحده وانما هولاء الاربعة كذلك اخبروه لانه لما أراد قتل جركس عيط له وقال له: اذهب انت وكيخيتى الى منزل أمير آخور

(١) بالاصل «واناه».

(٢) بالاصل «الخميس» وهذا خطا، والتصويب من ترتيب الحوادث كما وردت بالنص، ومن ذيل التحفة، ص ٣٨٤.

واحد زناراً قطع عمامته وشد وسطه بها. ونودى على ذلك بالاشهار بالقاهرة ومصر فى يوم السبت الخامس عشر من ابيب [٩ يوليو] ووقع الناس من ذلك في شدة وثقل عليهم لانه شي قد بعد عهدهم به منذ عشرين سنة، واكثرهم ممن كان يمكنه القعود في بيته ولزم داره واما الحكما الساميون فامر بان لا يتعرض اليهم، فبقوا على حالهم، [كان] خادم [النبى] المذكور اذا لقيهم

السلطان فالذى يقول لك عليه افعل. وكان بينه وبين أمير آخور امر مدبر على قتله حين يأتيه صحبة كتخداه غمزة هؤلاء وقالوا له أن الباشا مراده ير سلك(*) صحبة كتخدا الى أمير يخور السلطان لاجل ما يقتلك. ولما سمع هذا الكلام نزل من ديوان قايتباى وركب جواده، فنده عليه كتخدا الباشا لأنه كان قد تعوق عند الباشا لسؤال، وطلع فرأى جركس قد ركب جواده، فنده عليه فلم يلتفت اليه وساق الجواد وهو يقول له: اديني قدامك، وكان لأمر يريده الله وطول الله عمره، ورأى باب الجبل مفتوحا فطلع منه وهى الطلعة التى عصى فيها. وكان السبب فى ظهور اسماعيل بيك، أميرالحاج، ونزوله كما تقدم ذكره، وقتل هؤلاء الثلاثة، وهروب كتخدا القابجية، هرب بات تلك الليلة وسافر ثانى يوم من الخانكة.

ثم أن فى يوم الخميس آخر يوم من رمضان المعظم سنة ١١٣٣(١). تم بنا الجامع الأزهر وغسلوه وفرشوه بالحصر الجديدة ليلة عيد الفطر، وكانت مدة تجديده وترميمه ودهانه وبنا الفسقية خمسة شهور، وجملة ما صرف عليه ٦٣ كيسا منها الخمسون التى أنعم بها السلطان أحمد، وثلاثة عشر كيسا صرفها اسماعيل بيك أمير الحاج، وسبب صرف اسماعيل بيك هذه الأكياس لما مات الشيخ محمد شنن تسببت الاطراف، وكثرت النهابة، وكل من اخذ شيئا لم يرده حتى الخشب العتيق اخفوه، والتجارة الجديدة شالوها بالليل من وكالة قايتباى، والشيخ

(*) بالأصل «يرسل».

(١) ٢٢٢٥ يولية ١٧٢١م.

يذنب ويعيرهم بالكلام. واسلم بهذا السبب رجل من خيار النصارى يقال له النفه بن الشماس وكان صاحب ديوان الحوايج خاناه والبيوت والاسطبلات وديوان الحاشيه فاجتمع عليه الخدام واخذوه لشد الزنار فشده فاخذوه برفع العدبه [العذبة] فابى فتكاثروا عليه ولزوه فرمى الزنار فقالوا اسلم وشهدوا عليه فاسلم. وكان النصارى فى هذا الوقت فى ضيق عظيم وهوان اليم واى من لقيهم

ابراهيم الفيومى الذى تولى مشيخة الجامع، رجل ولى، وأبى أن يتعاطى أمور الجامع وقال أنا لا أعرف شيئا من هذا الأمر والناظر يوسف بيك الجزار، رجل أمين، معلوم فأكله الاكلا، وفرغت الفلوس، فتعطل البنا. فلما ظهر اسماعيل بيك، أخبروه، فتوجه الى الجامع ورآه ناقص أشياء، فارسل من طرفه وكيلا، وصرف عليه ثلاثة عشر كيسا من ماله، وتممه على أحسن حال، وزاد فى العمدان الحجر التى فى رواق الاتراك، وزاد فى علوة عن قديمه دراع مهندس، ومات فيه من البنايين واحد، ومن الفعلا ثلاثة ، ومن المبيضين اثنان، وصلوا فيه صلاة عيد الفطر سنة ١١٣٣ والله أعلم.

وفى ثانى شوال نزل الباشا الى قراميدان وأتته الصناجق والاغوات ثم أنهم قالوا للوزير: مولانا الوزير قد أخبرنا أنه قد جاء صحبتك خط شريف، بالعفو لأهل مصر. ولولدك اسماعيل بيك، وهذا يوم عيد، وهو خير اقراه علينا لاجل مانطمن. وكذلك أهل مصر يطمنوا لان عندهم حصر من عدم خط العفو. فقال لهم الوزير: نعم، ما قلتم صحيح. ولكن عندى خط بخلاف ما ذكرتم، ان عملتم بما فيه هو الحظ الاوفر لكم، وجاءكم خط العفو والا [إذا] عملتم بما فيه نراجع لكم، لكن يطول الأمر عليكم، ويبقى الأمر متعلق بين اما واما. فقالوا له: مولانا الوزير ما هو الذى فى الخط فقال لهم: الاول، الخمسماية كيس الذى صرفها الباشا على التجاريد، والثانى، الخمسماية كيس التى باقية من موجودات اسماعيل بيك الدفتدار،

من العوام والسوقة شتمهم وسبهم ثم ان الامر تحلل في امر العذبه فصار بعض الناس يرخيها لكن بامر استاذ الدار وهم ثلثة انفس الذى رسم لهم بارخاء الدوابه [الذؤابه] مع شد الزنار ثم انهم اجتمعوا وكتبوا فتاوى واخدوا فيها خطوط الفقهاء فى امر الدوابة من العمامة فافتوا جميعهم بانه لا يلزم رفعها بل شد الزنار خاصة للتمييز بينهم وبين المسلمين، فكان ممن كتب لهم بذلك الشريف

واسماعيل كتخدا الجاوشية. لأن تركتهما قطعت الفا ومايتى كيس، وصل السلطنة سبعماية والباقي خمسماية كيس والالفين التى عملها محمد بيك جركس الى السلطنة، واعطى بها تمسكا الى (رجب)(*) باشا يوصلها الى السلطان على ظهوره وظهور احمد افندى، تابع محمد آغا المسلماني، ورجوع بلادهم الى تصرفهم فهلبت من تحصيلها وارسالها الى السلطنة، فما تقولون قالوا مولانا نرد هذا القول على بقية العسكر ونتشاور ثم نرد عليك بما فيه الصواب.

ثم ان المجلس انفض وقاموا، ثم انهم اعرضوا السؤال على اسماعيل بيك، فقال لهم كلمتين صغيرتين: كل من كان جهته شئ يخرج من عهدته، وكل من عمل شئ يفي بما اوعد به، فقالوا له صدقت ، ثم أنهم ردوا على جركس، فقال الذى عملته من أجله هو ظهر خذوهم منه، وقضية البلاد أنا ما أخذت لهم تقاسيط حتى أنه ياخد حقهم منى، فقالوا له: الذى لم تأخذ لهم تقاسيط لأى شئ تتصرف فيهم. فقال: البلاد بلادى، واتصرف فيها بخاطرى.

ثم أنهم ردوا على اسماعيل بيك، فقال هذا رجل جاهل، لكن ردوا على الباشا وقولوا له أحنا قلنا لهم. فقالوا يعطينا حضرة الوزير مهلة قدر ماية يوم. ثم أنهم ردوا على الوزير فأجاب

(*) الاضافة للتوضيح.

شـمس الدين قـاضي العـسكر(*) وهو نقـيب الاشراف وبها الدين بن الحميري خطيب القاهرة وجمال الدين بن البوري الذى كان تولى الوزارة في ايام السلطان الملك الكامل ومبارك المعروف بابن الطباخ وبعد هذا لم يرخوها[العُذب] خوفا من الخادم [شبل الدولة]. ثم ان النيل مد وزاد ووصل المفرد [حد وضع الخراج] في يوم السبت العشرين من مسرى [١٨ أغسطس] وانحطت

(*) قاضي العسكر: كان السلاطين المماليك قد أقروا العادة الخاصة بتعيين قضاة للعسكر في مصر وسوريا. وكانوا يتبعون مركز القيادة في ميدان القتال بدلاً من بقائهم في العاصمة. ومن مهامهم الفصل في قضايا الميراث والزواج وعتق الرقيق والتفتيش على العسكروتحديد رواتبهم وكان يسمح لهم بحضور الديوان السلطاني. ومن الملاحظ هنا أن قاضي عسكر كان في ذلك الوقت نقيب للأشراف، وهو الأمر

لما قالوا. وفى خامس عشر شوال عزم اسماعيل بيك، محمد باشا فى قدم [أثر] النبى وعمل له عزومه لا تليق(١) الا بالملوك.

وفى يوم الخميس سابع عشرين شوال(٢)، ورد ركاب الشريف يحيى من الديار الرومية ، وصحبته توقيع من حضرة الملك بألف وخمساية نصف فضة ديوانى فى كل يوم جامكية، على ان يمكث فى مصر هذه السنة التى هى سنة ١١٣٤ . وورد صحبته آغا بثلاثة خطوط، ولم يقروا فى ذلك اليوم لغياب الصناجق والامراء فى بركة الحاج لتوديع أمير الحاج.

ثم أن فى يوم الاحد سلخ شوال طلعت الصناجق والامراء الى الديوان،الا اسماعيل بيك وجركس واذا باسماعيل بيك مقبل من جهة الصليبة الى أن وصل مقدم الطوايف الى باب العزب. وكان عبد الرحمن أغا أغة الجملية قدامه صحبة الطوايف، واذا باسماعيل بيك لفت رأس جواده وكر راجعا الى منزله من جهة المظفر، فلحقته الطوايف الا عبد الرحمن فأنه ما زال سايرا إلى أن طلع الديوان، فذهلت الناس من رجوع إسماعيل بيك، ولم أحد علم ما الخبر وما سبب رجوعه، فلما طلع عبد الرحمن أغا الديوان رآه محتبكا والباشا فى الانتظار لجئ اسماعيل بيك، فأخبر برجوعه، فقرا خطا واحدا من الثلاثة ولم يقرا الاثنين الاخيرين، ومضمون الخط الذى قرى الذى نعلم به محمد باشا وأعيان مصر أن باقى جهة امراء مصر

(١) بالأصل «يليق».
(٢) ٣١ اغسطس ١٧٢١م.

الاسعار وبيع القمح بعشرين درهما الاردب ودونها والشعير بستة عشرة درهما وبقية الحبوب بالنسبة. وكان السلطان الملك العادل قد خرج الى بلبيس بعساكره وجنوده لما بلغه ان اخاه الملك الصالح قد تقدم من بلبيس واصلا اليه، ورحل نزل الى العباسه. وكان بعض الجماعة قد سعى سعياً نافعاً في امر ارخا الدوابه من العمامة فرسم بارخايها بشرط شد الزنار،

الذى استمر حتى بعد الاحتلال العثمانى لمصر والشام. وكان الشريف لا يمكن محاكمته إلا على يد عشيرته كما لم يكن من الممكن اعدامه دون موافقة النقيب. أو اجبارهم على الانضمام لسلك الجندية بالرغم من أنهم كانوا قضاة للعسكر، وفى بعض الأوقات كان قاضى العسكر لا يكون من الأشراف ولكنه كان يحتل منصب نقيب الأشراف.

سبعماية كيس، بقية موجودات اسماعيل بيك الدفتدار، واسماعيل آغا كتخدا الجاوشية، فهلبت من تحصيلها وارسالها صحبة الخزينة العامرة، فقالوا سمعنا واطعنا ثم انه اغلظ عليهم في الكلام فقال لهم هنا تقولوا سمعنا وأطعنا، وحين تنزلوا تقولوا (*) سمعنا وعصينا تجنبوا مقارشة السلطان فانى لكم ناصح، ثم ا نه امهلهم خمسة أيام فى تحصيل ما ذكر.

ثم ان فى ثانى القعدة ارسل الباشا الى الصناجق يطلبهم فى الديوان فطلعوا جميعا الا اسماعيل بيك، وجركس فانهما لم يطلعا، فألبس الباشا، قفطانا الى محمد آغا آغة مستحفظان على ما هو عليه وامر بالركوب فى البلد لكثرة ما وقع فيها من الفساد والقتل وتعرية الخلق، وقد أوصاه الوزير باشهار المنادات بعدم شيل السلاح لأن الغربا جت تمشى بالسلاح على عين الندا والاجهار وكثرة الغربا من بر الشام وحلب وشيل الطبانجات والشواشى الطويلة،وتغيير عمايم عسكرية الوجاقين بعمايم آخر، وصار البلد أكثرها سراجين وصار لهم صولة فى القاهرة من قتل وضرب وتركيل وحكم، وصار لجركس سراجا يقال له الصيفى، وقد صار له مشاديد ، وصار لكل بيت رأس السراجين من بيوت الصناجق اسماعيل بيك وجركس واما اسماعيل بيك جرجة صار له اربعين سراجا، ويوسف[1] الجزار كذلك، ومحمد بيك المجنون كذلك، وعبدالله كذلك ، وكذلك جميع اشراقات جركس، أقلها صنجق عنده عشر

(*) بالأصل «يقولوا» والتصويب من سياق النص.

(١) بالأصل «يوسف» فقط.

وارخـا اكـثـر الناس. ووفى النيل المبـارك في يوم السـبت العـشرين مـن مسـرى وكـان السلطان الملك العادل قـد دخل المدينة لاجـل الخـلوق[*] فلمـا كـان يوم الخلـوق اتفق ان الخـادم [شـمس الدولة] المشار اليه كان في البحـر واتفق ان قـوما من النصـارى كانوا فى مركب في البحـر وفيـهم مـن هـو مـشـدود الزنار ومن هو بغـيـر الـزنار فعـرفـهم الخـادم والصق اليـهم وحـملـهم الـى

(*) عيد وفاء النيل.

من السراجين حتى صار اذا تخانقت المرأة مع زوجها توكل لها في في زوجها سراجا، وهذا بخلاف ما تقدم وصار القتل والخطف والتعرية في داخل القاهرة الى أن نزل الآغا في مراكب الخليج ، وصار يمسك من الرايسين وان هذا لم يقع سابقا أن آغة مستحفظان ينزل في مراكب الخليج.

وفي يوم الخميس ثاني عشر القعدة البس الباشا اسماعيل بيك جرجة قفطانا على كشوفية الغربية، وعبد الله بيك على كشوفية بني سويف وحمزة بيك على كشوفية المنوفية، ثم ان الباشا حاش يوسف بيك الجزار، وأحمد بيك الاعسر الدفتدار، في الديوان في جهة السبعماية كيس، وقال لهما: لا تنزلا حتى تنظرا ما تفعلا في الفلوس المطلوبة للسطنة، فقالا له ننزل ونرد عليك الجواب، فنزلا واجتمعا مع بعضهم البعض، فاتفق رايهم انهم يجعلوها بولصا (١) ثم انهم ارسلوا اعلموا الباشا بهذا الامر فاجاب الى ذلك، وكان مرادهم ان لا يطلعوا الباشا شيئا من ذلك فلما حاش الباشا الجزار والاعسر، وأغلظ عليهما في الكلام وحلف أن لم يعطوا هذه الاكياس الا نزلت واخذت القاضي وسافرت الى سيدى حتى لانت قلوبهم وجعلوها بولصا. واسلموا أوراقها الى الوزير.

(١) في ذيل التحفة، ص ٣٨٩ « يجعلها بلوصا الى التجار الكاينين في القسطنطينية». وانظر كذلك،ص٢٠٥ من نص مخطوط أحمد شلبي نفسه حيث يذكر «وفي سابع عشرين الحجة سافر أميرياخور، ببلوصة السبعماية كيس» ص ٥١١ من طبعتنا هذه.

الاميـر جمـال الـدين استاد الدار فسيرهم الى المحتسـب بمصر، فحمل الامر على انهم جميعاً بغيـر زنار فـضـربوا واشـهـروا مـصـر كلـهـا. وكـانت قـضـيـة شـديدة على النصـارى وتمكن العوام منهم. وكانت بدعة عظيـمـة وكـان هذا حـكمـا مـن الله تعـالي الواحـدة فـى تـرك الـزنـار واخـفـا المذهـب. واخرى ان الجمـاعـة المذكـورة كـانوا شـمـامـسـة لا ينبـغى لـهم ان

ثم البس الباشا قفطانا لمحمد بيك بن ابراهيم بيك ابو شنب، على كشوفية جرجة، وارسلوا الى محمد بيك أباظا يخبروه بمنصب المنية ومنفلوط فأرسل يقول كشوفية منفلوط والمنية تودى الى الانكسار، فان كان ولابد ضيفوا اليها جرجة، يشيل بعضها البعض، فقالوا جرجة اخذها ابن أبي شنب، فأمر الباشا ابن أبى شنب أن يلبس منفلوط والمنية، فأبى، فأرسل الباشا الى قيطاز بيك الصغير والبسه قفطان الثلاثة ولا يات ونزل بالقفطان يهتف، فأخذ ابن أبى شنب الغيرة، فتوجه الى اسماعيل بيك [وقال له] اروح الى محمد بيك جركس وانت اسمك سيده فان كان ما يقوم بخدمتك يقوم بخدمته. من ثم أنا اروح الى جركس، فأخبره، فركب هو واياه الى احمد بيك الاعسر الدفتدار، وارسلوا الى غيطاس بيك، فلما حضر سلم وجلس، فقالوا له: ايش تكون أنت يا غيطاس، فقال: واحد منكم، فقالوا له : لو كنت واحد منا ما تعديت على ابن سيدنا ولبست قفطان جرجة ومنفلوط. فقال لهم أنا م تعديت على ابن سيدكم، وانما الوزير أرسل لى، فلما سرت اليه لم يخاطبنى بشئ غير هات قفطان، أوليتك كشوفية جرجة ومنفلوط. وها هو القفطان عندى ارسلوا أعرضوا امركم الى الوزير أن اليسكم، الله يبارك، وأن بقانى الله يبارك، فكتبوا عرض حال وارسولها الى الوزير صحبة كتخدا الجاوشية، فلما قراه الوزير شرمطه وقال: كتخدا الجاوشية، أنا ما البست غيطاس الا بعد امتناع ابن أبي الشنب، وأما أن يلبس المنيه ومنفلوط وهذه مناصب السلطان ولا يمكن تعطيلها، ثم

يـشهدوا هـذه المشـاهدة(*) ولا يحضروا مواضع الملاعب ولا المجامع الخارجة عن المذهب المسيحى. الا انهم صبروا وشكروا وحسب ذلك لهم براً. ثم ان السلطان فى حال دخوله الى القاهرة بلغه ان العـسكر اضطرب [تمرد] عليـه وانه صـار فـرقـاً فخرج على حاله وامسك ثلثة امرآ احدهم فخر الدين بن شيخ الشيوخ وليس فى الامرا اكبر منه، والاخر فتح الدين سليمان ابن اخى الشهاب احمد

(*) كان يحرم على رجال الدين القبطى حضور الاحتفالات بوفاء النيل.

انهم عملوا جمعية وبعد ذلك اخدوا خاطر الباشا وابقوا محمد بيك على جرجة، المنية الى غيطاس بتنزيل عشرة أكياس وخمسة آلاف أردب غلال، وسافروا الى مناصبهم.

ثم أن فى يوم الخميس ثالث الحجة ختام سنة ١١٣٣[١]. قامت الجراكسة على خليل افندى واردوا قتله، فهرب الى بيت جركس، فأرسل جركس الى عمل آغا باش اختيار الجاويشية، فأرسله لهم فلم يقبلوا. وسبب قيامهم عليه أن اشراقات ابراهيم جربجى عجم الذى أرسل خليل أفندى موته فى أبى قير بعد أن نفاه أنهم ادعوا على خليل أفندى بستين كيسا التى اخذها من موجودات عجم، ولم يعط اختيارية الوجاق شيئا منها، ومن حب روحه كرهته الناس، ومن أكل وحده غص وحده، ولما أبت الجاوشية أن يقبلوه توجه الى وجاق العزب فقبلوه وعملوه جربجى عندهم.

وفى سادس الحجة الموافق لسادس الميزان أيضا الموافق لعشرين توت امطرت مطرة من بعد عشا ليلة الاحد الى عشا ليلة الاثنين اربعة وعشرون ساعة الى أن خرقت القبور ، ولله خرق العوايد لا معقب لحكمه. وفى يوم الاثنين رابع عشر ذى الحجة [٢]. قامت العزب على أحمد كتخدا أمين البحرين باغراء جركس، وباتفاق باش الاضباشية، على أنهم يودوه الى بلاد الكشيدة لاجل ما يقى تحت حكم الوزير، لانه عند ابراهيم اوضباشة الذى هو باش او ضباشية

(١) ٢٥ سبتمبر ١٧٢١م. (٢) ٥ أكتوبر ١٧٢١م.

وكـان اخص من عنده هذا السلطان وقـد اعطاه الله حمله كبيره، والثالث زين الدين غار. فاما ابن الشيخ فـخر الدين فـجعل فى برج بالقلعة، وهذا البـرج الذى كـان فـيـه صـاحب امد. واما الاثنان الاخران فنزل بهما الى الجب الذى بالقلعة. وكان الناس فى هذه الايام فى وجل وتوقع وشناعـات كثيرة وكـان القمح والشعير والحبوب قد توسط سعرها فكان القمح اغلاه بثلاثين درهما الاردب

فهرب الى باب مستحفظان، فأرسل الوزير الى الست اوجاقات الايقبله أحد منهم، فاجتمعت الانكشارية وقالوا له لابد من أخذ عرضه، وأرسلوا اسماعيل جاويش تابع مراد كتخدا الى الباشا مرتين وهو يأبى، وفى الثالثة أعطى عرضه بالقهر عليه وانزلوه الى بيته، فلما نزل الى بيته حلف يمينا انه لا يعود الى باب العزب مطلقا.

وفى يوم الجمعة ثامن عشر الحجة[1]، عقد الشيخ أحمد البكرى الصديقى، عقد ابنته على كميل على كتخدا، وهو جاويش معزول، وكان الجارى للعقد شيخ الاسلام، ومحمد افندى قاضى العسكر.

وكانت جميع اختيارية السبعة اوجاق واوضباشية البابين والعلما وارباب السجاجيد وسيدى عبد الخالق السادات والسيد مصطفى الرفاعى النقيب شيخ سجادة الرفاعية وتجار البلد من الاعيان واسماعيل بيك وايواظ بيك وسناجه ويوسف بيك الجزار وجركس وصناجقه وبقية الصناجق وكتخدا الوزير والترجمان وآغة المتفرقة وكتخدا الجاوشية. وشرب فى ذلك اليوم خمس قناطير من السكر المعاد، وخمسة وعشرون رطلا من البن، وفرقت الف واربعماية محرمة، ومنديل، وكان عقدا لم ير مثله فى زماننا ، كان الله له حيث كان واطال الله فى عمره وأعاد علينا من بركاته وبركات جده، وجعل الله البركة فى نجليه السعيدين، هما سيدى

(١) ١٠ اكتوبر ١٧٢١م.

ودونه بعشرين درهما الاردب والشعير والفول بتسعة عشر درهما الاردب والحمص باربعين درهما الاردب الا ان كل شئ غال من المأكول والمشروب والملبوس والعدد والات العمارة وغيرها، وساير الماكولات غالية السعر والنبيذ باربعة دراهم نقره الجره والشمع بثمانية دراهم ونصف الرطل. ولم يكون في المدينتين شئ رخيصاً سوى السكر فانه كان بدرهم ونصف الرطل وهو رخيص بالنسبة

بكرى وسيدى على، وفي اخواته محمد أفندى وسيدى عبد الخالق وسيدى أبو المواهب ولطف بنا وبهم اجمعين(١).

(١) كتب بالهامش «قال ابو فارس البغدادى في رسالته المعروفة، برسالة البغدادى يقال ان وليمتين، كانتا لم يكن في الاسلام مثلهما، فالأولى: وليمة الرشيد دخوله بزبيدة قال أحمد بن طاهر، صاحب تاريخ بغداد لما زوجها المهدى من ابنه هارون، وأعد لها ما لم يعد لاحد قبلها من الاثاث والاوانى والفرش والاتباع والطيب والجوهر والخدم والوصايف، وعمل لها درع در، لم يقوم بقيمة، ودخل بها في المحرم سنة ١٦٥ في قصر الجلد، وحشر الناس من الآفاق، وفرق من الاموال، ما لم يتوهم أن بيت المال يحويه، وكانت أواني الذهب تملأ بالدراهم، وأواني الفضة تملأ بالدنانير. ويدفع ذلك لوجوه الناس، مع نوافح المسك، وقطع العنبر، وخلع الريش ، وأحضر المهدى، نسل بني هاشم جميعا، وكان يدفع لكل واحدة ثوب موشى، وخريطة فيها دنانير ودراهم وآنية طيب وبلغت النفقة في هذه الوليمة من بيت مال الخاص، سوى ما أنفقه الرشيد خمسين الف دينار.
والثانية : هى وليمة المأمون على بدران بنت الحسن بن سهل، قال أبو الفرج لما خطبها المأمون استعد لها استعداد يجل عن الوصف، وفعل الحسن الوزير في الوليمة ما لم يفعله ملك في جاهلية ولا أسلام، ثم نثر على الهاشميين والقراء والكتاب نفايح مسك، وفيها رقاع باسماء ضياع، واسماء جوار، وتعيين حلاة، وغير ذلك من كل شئ نفيس ، فكل ما سقط منه توقيع مضى واستوفى قبض ما فيه، ثم نثرت بعد ذلك، على ساير الناس الدنانير والدراهم ، ونفايح المسك والعنبر على جميع عسكر المأمون، لكل رجل على قدره، وقدر العسكر ستة وثلاثين الف جندى، ولما حليت بدران فرش لها حصير من ذهب، وجئ باناء عظيم من ذهب مملوء درا فنثر على الحصير وكان فيمن حضر من النسا زبيدة وحمدونة بنت الرشيد وغيرهما من بنات الخلفا، فلم تلفظ واحدة منهن بشئ، فقال لهن المأمون أكرمنها فمدت كل واحدة

لغيره من الاصناف. ثم ان العربان كانوا قد طمعوا وصاروا يغارون(*) على البلاد فيأخذون كل ما فيها ويقتلون ويسبون. وفي هذه الايام غاروا على خمسة وعشرين بلدا في الغربية فجرد لهم السلطان اميرا يقال له الفارس خطلبا ومعه الف فارس اقسه(*) وحراريق [مراكب حربية تطلق نيران] في البحر [النيل] فمضوا الى العربان فوجدوهم قد طلعوا الى البرية وفاتوهم. فجاوا الى

(*) العربان تنهب اطراف البلدان والقرى في الغربية.

(*) اقسه: جمع قوس.

وفي عشرين الحجة [1] عزل رجب كتخدا بشناق مستحفظان، وتولى بعده على جاويش.

وفي ثاني عشرين الحجة سنة ١١٣٣ [2]. جرت نكتة غريبة، وهي ان رجلا من سماسرة البن. يسمى أبو السبعة، متزوج بامراة قاطعة الحيض لم تلد، وكان ممكنا من الدنيا فقال لزوجته وهو جالس واياها يا فلانة، والله نفسي تتطلب الاولاد وخايف أني أموت وليس لي من الاولاد من يطرد بيت المال وتفرح اقاربي، ويأخذون مالي من بعدى ويقلون الرحمة عني و مرادى اخذ لي جارية لعل الله يرزقني منها بولد نبقى نضحك عليه ونذكر به اذا عاش ومتنا، ويطرد الاعداء. فقالت له المرأة لك البشرى يا سيدى فان الحيض ما اتاني الشهر الذى مضى وهذا الشهر الثاني، ونفسي بتطلب الحامض، فقال لها الرجل: انظرى ما تقولي فقالت يا سيدى وحياة راسك ما اقول الاحقا، ومزاجي متغير من أول الشهر الذى هو مولد النبي، فقال

يدها، وأخذت درة واحدة ، وبقي الدر ظاهر على الحصير، فقال المأمون قاتل الله الحسن بن هاني كأنه كان حاضرا، حيث قال:

كان كبرى وصغرى من براقعها   حصباء در على أرض من الذهب

وأوقد في تلك الليلة شمعة عنبر وزنها ثمانون رطلا، قال وسال المأمون زبيدة عن مقدار النفقة في هذه الوليمة، فقالت مأتين خمس وثلاثون الف الف الى سبع وثلاثين، فبلغ ذلك الحسن بن هاني، فقال كان النفقة كانت على يديك. والله لقد حضرتها فكانت ثمانية وثلاثين الف الف دينار الخ. من تحفة العروس للتجاني».

(١) ١٢ اكتوبر ١٧٢١م.   (٢) ١٤ اكتوبر ١٧٢١م.

[اهالى] البلاد فصاروا يدعون انهم بنون [أولاد] العربان فصاروا ينهبون اموال الناس(*) وياخذون نساهم ودراريهم على انهم اهالى العربان وليس الامر كذلك فخربت البلاد خرابا ثانيا. وجآء اهل البلاد وقفوا للسلطان فأمر برد ما اخذ منهم اليهم وبقوا فى حيره ممن ياخذون ولمن يطلبون وقد جرى على حرمهم ما لا يعلمونه. الا ان النيل زايد والاحوال متماسكة . ثم دخلت سنة ست

(*) العسكر السلطانى المطارد للعربان يهاجم الأهالى وينهبهم، وهكذا وقع الأهالى بين نهب العربان ونهب العسكرالسلطانى.

ان شاء الله. ومضى على هذا الكلام (تسعة أشهر) [1] ثم أنها تزمرت وتوجهت الى اخت لها، وقالت لها يا اختى، التسعة اشهر قربت الفراغ، وهذا الذى أنا فيه لم يكن حملا، فدبرينى، فقالت لها اختها لا تخشى من شئ ولا تعرفى هذا الامر الا منى. ثم طلعت من عندها لامر يريده الله، انها رأت امرأة شحاتة ومعها بنت لم تكمل السبوع، فقالت لها المرأة يا حجة، أنت تمشى تجى اوديك الى ست ترضعى لها ابنها، وتاخدى كل يوم ثلاثة انصاف، وتنكسى، وتبقى عند الست فى أرغد عيش؟ فاجابت المرأة، ومشت معها الى ان جاءت بها الى باب[2] حمام الخراطين، فقالت لها ادخلى استحمى ونظفى جسدك لاجل ما تشوفك الست وأنت نظيفة وأعطتها الصابون وطفلا، وقالت لها لا تبطى واطلعى بالعجل وأنا أحمل البنت حتى تطلعى، فقالت لها مليح. ثم ان المرأة دخلت الحمام والمرأة الثانية أخذت البنت وقالت: يا ستار الى بيت أختها، ثم أنها عملت صنعتها من طلق وولادة.

ثم أن أم البنت طلعت من الحمام ودورت على المرأة فلم تجدهاولم تر البنت، فصارت لا تعرف تروح ولا تجى، وصارت على هذه الحالة سبعة أيام، الى يوم سبوع المرأة زوجة أبى السبعة. ثم أن جيرانه يعرفون أن زوجته عجوز مقطوعة الحيض من منذ خمسة اعوام، فرات

(١) الاضافة لتوضيح المعنى.

(٢) قدم واخر.

(*) أهم أحـداث سنة ٩٥٦ ق. = ١٢٣٩م. = ٦٣٧هـ.
* ا توت ٩٥٦ = ٣٠ اغسطس ١٢٣٩ = الثلاث ٢٨ محرم سنة ٦٣٧.
* في صفـر سار الملك الصالح إسماعيل، صاحب بعلبك، ومعه شيركوه، صاحب حلب، وهجموا دمشق وحصروا القلعة،وتسلمها الصالح إسماعيل، وقبض على المغيث فتح الدين عمر بن الملك الصالح أيوب، الذى كان سار إلى نابلس ومنها قاصدا الاستيلاء على الديار المصرية لكنه وقع هناك في اعتقال الملك الناصر

وخمسين وتسعمايه والبطريرك انبا كيرلس [بطرك كنيسة الاسكندرية]. المعروف بداود بن لقلق وهو الخامس والسبعون والسلطان الملك العادل ابو بكر بن الملك الكامل محمد والقاضى شرف الدين الاسكندرى المعروف بابن عين الدولة والغالب على الامور السلطانيه بدر الدين يونس امير جندار وكان السلطان قد خرج الى العباسه بالعساكر والجنود. وبلغ النيل خمسة عشر اصبعا من ثماني عشر

المرأة الشحاتة امراة من جيران أبى السبعة وهي تبكي وتولول فقالت لها المرأة ما شأنك ياحجة، فأخبرتها بالقصة فقالت لها المرأة تعالى أنا اوديك بيت المرأة التى آخذت بنتك وهذا اليوم سبوعها. ثم ان المراة أخذتها واورتها البيت، فطلعت الحريم، فرأت المراة التى أخذت البنت ورأت البنت في حجرها، فصرخت وقالت بنتى ورب الكعبة فقاموا عليها وضربوها وأنزلوها من البيت والدم ينزل منها فجاءت الى منزلها بحارة كفر الطماعين، وجمعت جيرانها واخذتهم وسارت الى بيت القاضى.

وكان القاضى محمد افندى كتخدا زاده، الذى جاء صحبة رجب باشا، فلما رآها القاضى ورأى هذا الجمهور صحبتها فقال، ما خبر هؤلاء فأخبروه بالقضية. فقال والله لا سمعت دعوة هذه المراة الا فى محل الواقعة، فركب هو وجماعته الى محل الواقعة، ثم أن شاهين أوضباشا تابع الجلفى كان حاضرا فأنزل القاضى عنده فى منزله وأرسل احضر السمسار وزوجته وتداعتا المراتان، ثم أن كلا منهما أتى ببينة، فقدموا بينة الثبوت وشهدت بينة النفى، فتحير القاضى، ثم ان القاضى أتى بواحدة من بنات الافكار، وهى انه فرق عشرة من النسا وفيهم زوجة السمسار، وعشرة أخرى وفيهم المرأة الشحاتة.

والتفت الى النسا وقال تعالى يامراه خذى بنتك، واذا بالمراة الشحاتة قفزت نحو(١)

(١) كتب فوقها «الى».

ذراعاً. ثم ان رجال الحلقة الذين كانوا نافقوا وتوجهوا الى الشام الى خدمة الملك الصالح اخى السلطان كاتبوا السلطان الملك العادل وسيروا نقابهم [نقباهم] يعرفونه ان قصة حربه لاخيه اوجبت له ان يسير يطلب العسكر الذى على غزه مع عميه مجبر الدين وتقى الدين فانهم امتنعوا من الرواح معهم ويستاذنوه فى المجئ ويطلبون عسكرا يمضى الى غزه يتسلمها لان اولئك تركوا

داود، الذى أرسله إلى الكرك معتقلا بها.
* [١ يناير ١٢٤٠ = ٥ طوبه ٩٥٦ = الأحد ٤ جماد الثانى سنة ٦٣٧].
* وفيها قصد الناصر داود القدس، وكان الفرنج قد عمروا قلعتها بعد موت الملك الكامل، فحاصرها وفتحهاوضرب القلعة.
* فى آخر رمضان أفرج الملك الناصر داود عن ابن عمه الملك الصالح أيوب، وسارا إلى قبة الصخرة وتحالفا على أن أن تكون ديار مصر للصالح أيوب ودمشق والبلاد الشرقية للناصر، وسارا

القاضى وقالت هات بنتى يا شيخ الاسلام، فاعطاها لها وحكم لها بأنها بنتها، ومنع زوجة السمسار فطلعت المراة وهى تزغرت فى مجلس القاضى ثم أن السمسار تقدم الى القاضى وقبل يديه، وطلق زوجته فى مجلس القاضى على سوال سايل وارسل معه القاضى اربعة من الجوخدارية عزلوا المراة الى بيت أهلها والله أعلم.

وفى سابع عشرين الحجة (١)، سافر أمير ياخور ببلوصة السيعماية كيس.

وفى ثانى يوم وقعت أربعة بيوت فى باب الزهومة، التى فوق قهوة بركات ومات فيها خمسة وعشرون نفسا، رجالا ونساء.

وفى اواخر الحجة نزل اسماعيل بيك والجزار ناظر الازهر واحمد بيك الاعصر الدفتدار، واسماعيل بيك جرجة وكتخدا الوزير، وامير ياخور، وقاضى الاسلام محمد أفندى كتخدا زاده، ودخلوا الجامع وكشفوا عن عمارة الجامع وترحم القاضى على الشيخ محمد شنن، فقال اسماعيل بيك والله الحمد لله الذى مات، وانا كنت مستخفيا والا لو كنت ظهرت وهو على قيد الحياة لكان الشيطان اغوانى فى امره.

فقال له القاضى. وما كان الحامل لك على ذلك، فقال كلامه الذى تكلمه فى حقى لرجب باشا، وهو قوله اياك وهذا الولد الفاجر، الذى اهلك العباد، فلو ادركته قبل الموت ما كان يحصل خيرا، ولكن الحمد لله رأينا فيه ، ولم ير فينا.

(١) ١٩ اكتوبر ١٧٢١م.

وذهبوا . فخلع السلطان على رسلهم وكانوا منهم، واعطاهم الهبات والصلات فصاروا يتواصلون من خمسة عشر وعشرين وكل من يصل يخلع عليه ويعطى الصلة الى ان تكاملوا. وكان الملك الناصر ابن المعظم وهو ابن عم السلطان قد اخذ عسكرا زهآ الف فارس وفيهم امرا مقدمون مثل ابن قلح [قلج] وغيره ومضى الى الكرك قلعته. وفي اثنا ذلك عمل الملك الصالح اسماعيل الذى هو اخو

لمحاربة الملك العادل فقبضت عليه المماليك الأشرفية في ليلة ٩ من ذى الحجة ومدة حكمه نحو سنتين، ثم استولى الملك الصالح أيوب على مصر ودخل قلعة الجبل في ٢٤ القعدة من هذه السنة.

* فيها شرع الملك الصالح أيوب في بناء قلعة الجزيرة، وأخذها مسكنا له.
* [١ توت ٩٥٧ = ٢٩ أغسطس ١٢٤٠ = الأربع ٨ صفر سنة ٦٣٨].
* وفيها قبض الملك الصالح أيوب ابن الكامل، بعد استقراره في

وفي ذلك اليوم كتبوا العرض باتمام بنا الجامع والكمال على ما ينبغي وختمت عليه جميع العلماء والعساكر والصناجق والباشا والقاضي، وسافر العرض صحبة أمير يخور. وفي غرة محرم سنة ١١٣٤(١)، سافر أمير ياخور من الحلى وسافر الشريف يحى الى القدس وان الاغا المعين أخبر ان حضرة مولانا السلطان أرسل أخذ رجب باشا من الشام على خيل البريد.

وفي عاشر محرم وصل كتخدا الباشا ومهرداره وديوان افندية الذين كانوا في خدمته حين كان وزيرا فلما(٢) تولى ابراهيم افندى الوزارة أرسل نفاه الى جريد، فلما انزلت المصرية رجب باشا قالوا ما بقا يصلح لمصر الا هذا الوزير الحاذق محمد باشا النشنجي، فلما جاء الى مصر من جريد كان هؤلاء الدولاتلية في اسلام بول، فجاءوه ليكونوا له اعوانا في العدل وصحبتهم امر شريف لم يقرا في حال دخولهم لأن حضرة الوزير كان عنده تشويش، ولم يطلع ثلاثة دراوين.

ثم انه طلع الى الديوان يوم الثلاث ثالث عشر محرم، وقرا الخط ومضمونه ان الخمسماية كيس الذى اصرفها رجب باشا على التجاريد التي توجهت الى اسماعيل بيك أمير الحاج فاتكم تستخلصوها من الذين كانوا السبب في طلوع التجاريد، واغروا رجب باشا وان اغرايهم لم يصادف محلا ولسهم على هروبه من عجرود وموالستهم على السلطنة وكذبهم عليها.

(١) ٢٢ اكتوبر ١٧٢١م.

(٢) بالأصل «كان» فوقها شطب.

الكامل الذى كان نايب الملك الاشرف فى دمشق. ولما مات الملك الاشرف خرج الملك الكامل الى دمشق اخذها منه واعطاه بعلبك مع بسرى [بصرى] لانها كانت له فعمل على دمشق مع روسايها لانه كان محبوبا منهم. وكان فى القلعة ابن الملك الصالح ايوب بن الكامل. وكان الملك الصالح المذكور فى نابلس قد رابطها ومكث بها والامرآء الذين جاوا اليه، فسلم روساء دمشق

ملك مصر، على أيبك الأسمر، ريس المماليك الأشرفية وعلى غيره من أمراء مصر الذين قبضوا على أخيه، وأودعهم السجن وقتلهم جميعا، وولى مكانهم من اختاره.
* [١ يناير ١٢٤١ = ٦ طوبه ٩٥٧ = الثلاث ١٥ جماد الثانى سنة ٦٣٨].
* وفيها كثر عبث الخوارزمية وفسادهم بعد مفارقة الملك الصالح أيوب البلاد الشرقية وساروا إلى قرب حلب.
* وفيها سار لؤلؤ، صاحب الموصل وحاصرسنجار فى غياب الأمير

فلما فرغ من قراءته، قال لهم ما تقولون، فقالوا سمعنا واطعنا، ثم انهم نزلوا يدبرون امرهم، ثم ان الباشا البس كتخداه ومهرداره[1] وافندى ديوانه قفاطينا، وولاهم على مناصبهم، وعزل الذين كانوا متولين محلهم.

وفي عشرين محرم طلع ابن على باشا ا لى الكتخدا الذى جاء من الديار الرومية صحبة باش جاويش العزب، لأنه كان عمل جربجي فى العزب فى مدة رجب باشا لما قتل اباه بواسطة محمد آغا الطوقطلى، فلما قابل كتخدا الوزير واراه الترضية فمنعه الكتخدا من نزوله، وقال له حضرة الوزير يطلبك فلا بد انك تقابله، فعالج باش جاويش العزب أن ينزل به فلم يقدر، ونزل صفر اليدين.

فلما ورد باش جاويش الى بابه وأخبر الكتخدا، فركب وطلع الى كتخدا الباشا ، وقال هذا جربجي عندنا، ثم أن الكتخدا اخبر الباشا بما قال كتخدا العزب، فأرسل له فلما قابله أبرز له خطا شريفا يطلبه الى السلطنة العلية، فلم يبدوا جوابا، ونزل وأخبر اختيارية الوجاق، فلم يتكلموا ولا بحرف واحد، وقالوا امر السلطان مطاع، ثم ان الباشا حبسه الى بعد العشاء ، وانزله من باب الجبل صحبة عشرين من الدلاة يوصلوه الى اسكندرية يسلموه الى امير ياخور، يوصله الى السلطنة العلية.

(١) بالاصل «والمهردارة».

المدينة المذكورة الى الملك الصالح اسماعيل الذى كان عندهم أولا، وخرج ابن الملك الصالح ايوب وهو ابن ابن اخيه من القلعة هارباً. وقعد الملك الصالح اسماعيل بدمشق وجاءت البشاير الى العباسه الى السلطان الملك العادل بذلك ودقت البشاير في العسكر بذلك في القاهرة ومصر والقلعة وزينت المدينتان والقلعة مدة ايام كثيرة. وانفض العسكر الذى كان مع الملك الصالح حتى

يونس واستولى عليها، ولما لم يبق بيده شيء من الملك استنجد بصاحب مصر، ولما لم يجبه سار إلى عكا وأقام مع الفرنج فاشتراه منهم الصالح إسماعيل، صاحب دمشق، واعتقله ثم خنقه.

* وفيها سلم الصالح إسماعيل صفد والشقيق إلى الفرنج ليعضدوه على ابن أخيه الصالح أيوب، صاحب مصر.

وفي شهر صفر الخير (١) أرسلوا احضروا سليمان اوضباشا تابع حسن كتخدا القردغلي من النفيه، لأن رجب كتخدا كان نفاه في حال توليته، فلما عزل وتولى على جاويش ميسو ارسل احضره، وبعد قليل البسه الضلمة، وأعجب من هذا ان في يوم الثلاث،جرت نكتة من سيدى على الرميلي وهاذا ان الرميلى من المترددين على شيخ الاسلام محمد افندى كتخدا زاده، وانه محسن في حقه، فجاءه يوم الثلاثا بعد الظهر وهو يسب فيه سبا فاحشا، من باب الحوش، ويسب حمار الحمار، وطلع له، فما صا ر قدامه، شال يده ولطخ شيخ الاسلام على رأسه ارمي عمامته عن رأسه، فوقعت الى الأرض، فارادت الجوخدارية ضربه فمنعهم، ونزل من المقعد وهو يقول، ايوه تمت. ولم يبطل السب الى ان خرج من المحكمة، فما مضى الا عشرة أيام، واذا بمكتوب قد أتى الى شيخ الاسلام، أن في يوم الثلاثاء وردت مركب من الديار الرومية، وكان بصحبتها قاضى مصر عبد الله افندى، اخو فيض الله أفندى، فتوفي في جزيرة استان كوى، فغسل ودفن فيها ولكم البقاء. وان من العادة انه اذا توفي قاضي مصر، يكون الضبط لامام الباشا، فلما قرا القاضي المكتوب، وركب وتوجه الى بيت سيدى احمد البكرى، وعملوا جمعية على أن لا يضبط المدة الا كتخدا زاده، ثم أنهم طلعوا الى الباشا واعلموه بالقضية، وان يكون كتخدا زاده ضابطا للمده الى ان يأتي خبر من الديار الرومية، فأجابهم

(١) نوفمبر / ديسمبر ١٧٢١م.

انه لم يبق معه الا خواصه وحتى كادت العرب تنهبه فاستجار بالملك الناصر صاحب الكرك [كرك مؤاب] فاجاره وحمل اليه الازواد والاقامات ثم حمله الى الكرك فاقام بها لانه ابن عمه. ثم ان الافرنج لما انفضت ايام الهدنه اخلوا القدس الشريف حتى لم يبق به سوى فارس واحد وسبعين راجلا يعمروا في برج داود. ثم ان السلطان جرد زهاء الفي فارس من عدة امرا وسيرهم الى غزه

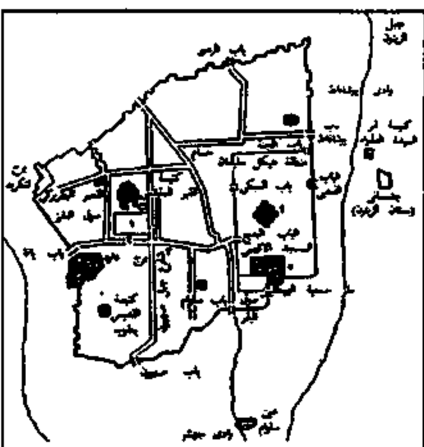

* خريطة القدس

الوزير الى ذلك، فما مضى الا مدة يسيرة واذ بآغا معينا الى مصر بأن لا يكون ضبط مدة عبد الله أفندى الا لمحمد افندى كتخدا زاده الحاقا الى مدته، فألبسه الباشا كركا سمورا[1]. ونزل مبجلا وزاد اعتقاده في[2] الشيخ سيدى على الرميلي، وان سيدى على الرميلي حين نزل من عند القاضى قابله مملوك أمرد، وهو راكب على حمار، وكان المملوك سكرانا فجاءه الرميلي ومسك ثغر المملوك، فسحب خنجره وضربه فى عينه اليمنى اخرجها، فاراد أن يمسكوه، فمنعهم عنه، وقال له روح ياكبدى ، والله أعلم.

وفي يوم ورود الاغا بالمقرر الى كتخدا زاده، جاء صحبته خط شريف لعلي بيك بالخاسكية على ما هو عليه جواب الفرمان الذى تقدم ذكره، حين جابها بفرمان الوزير واخرجه العزب خطا، وقال له الوزير فرمان الوزير لا يقبل الخط الشريف. وقال له الوزير ارسل اعرض، فان جاءك خط شريف مكناك، فأرسل اعرض فجاءه هذا الخط على ماهو عليه، وان يتخلص من العزب.

وفي يوم الجمعة ثاني وعشرين صفر[3]، قامت العزب على ابراهيم أفندى باش اوضباشية العزب، فالبسوه الجزمة وعملوه جربجي بالقهر عليه مع ارتكازه مع محمد بيك جركس،

(١) بالأصل «قاقوما»والتصويب، من ذيل التحفة ، ص ٣٩٩.
(٢) قدم واخر. (٣) ١٢ ديسمبر ١٧٢١م.

لحفظ البلاد. وكان الافرنج قد خرجوا الى عسقلان ونزلوها وقصدوا عمارتها فركبوا وتجمعوا وجاوا الى قريبا فتواقعوا مع عسكر المسلمين الذى كان على غزه فكسروهم من اول النهار الى الظهر ثم تحايا [تنادوا بالحرب] عسكر المسلمين على عادتهم وقد تعب راجل الافرنج فكروا عليهم فاسروا منهم جماعة وكان الافرنج ايضا قد قتلوا من المسلمين جماعة واسروا جماعة منهم امراء

* آثار قلعة داود بالقدس

والسبب فى عمايله جربجى اسماعيل بيك أمير الحاج مع ان جركس حاجج كثيرا، كون أنه يبقيه باش على ماهو عليه، فما أفاد. ومكث نحو العشرة أيام وهو يحاجج وكان ذلك اليوم عنده أمر من لعق الصبر. ثم ان فى ثانى يوم، دار على الصناجق لاجل ما ياركوا له بلبس الجربجية، فمن جملة ما دخل لهم محمد بيك جركس ، فلما دخل عليه سلم عليه، وقال له، الحمد لله على السلامة ابراهيم جربجى، وقال والله يا بيك كل ما نزل البير بحبلك لا يصل الا سلم، فقال له كيف ما اضع لك وجميع أهل البلد اخصامك، وأعلى الخصومة يا بيك . فقال والله مالى خصم الا ابن ايواظ ، فقال جركس ما كان الا خيرا، ثم انه البسه كرك سمور، وقدم له جوادا معددا، ثم انه خرج من عنده ودخل لاسماعيل بيك أمير الحاج فاجله واسقاه قهوة وشربات، ولم يعطه شيئا.

وفى غرة ربيع اول[1] ورد ركاب مصطفى افندى نقيب الاشراف التى كان متولى النقابة فى عيطة الاشراف سنة ١١٢٤ ثم انه صار نقيبا ثانى مرة، وهى هذه المرة.

وفى ثانى عشر ربيع أول أيضا توفى شيخ الاسلام، الشيخ على ابو الصفى الشافعى، والشيخ على العقبى الحنفى، ومن أعجب ما وقع أن العزب وقع بينهم الخلف من بعد ما عمل ابراهيم افندى جربجى وطلبوا أن يرجموا الذين فى وجاق الانكشارية فأبى ابراهيم

(١) ٢٠ ديسمبر ١٧٢١م.

ومقدمون فتكافات القبيلتان. واما السلطان فعاد ببقية العساكر الى القاهرة. ثم خرج الى الصيد بعد ان امر ان يوخذ موجود الامرا الذين نافقوا ونهب دورهم ومن كان لهم عنده شي يوخذ منه وصار الناس يكذبون بعضهم على بعض. ووقع الناس من ذلك في شدة شديدة وطلبوا بما لا عندهم ومنهم من غرم ومنهم من حبس. واما الاسعار فانها رخصت وانحلت ورجع كل شي الى

جربجي، وقال لا يمكن. فعملوا جمعية في بيت علي كتخدا القيصرى الشريف، فلم يعجب ابراهيم المجلس وقام منه مغضبا. ثم انهم اجتمعوا في بيت اسماعيل كتخدا، وقالوا لابد من مجئ الغضبانين الى الوجاق ، فقال ابراهيم نعم، ولكن من يقعد بغايلتهم ان حصل منهم فساد. فقالوا جميع الاختيارية، ونحن القاعدون بجميع القايم منهم في حقك وعلينا الضمان. ثم ان صالح كتخدا قال الضيافة عندى في غد، ثم انهم تعاهدوا مع بعضهم البعض وقروا الفواتح وزال الغم واكلوا العزومة عند صالح كتخدا الذى بيته عند حيضان مصلى جربجي. وفي ثاني يوم عمل جربجي ابراهيم عزومة، وعمل ابراهيم اوضباشا بتاع الرميلة الذين كانوا عملوه باش لما عمل ابراهيم افندى جربجي واعطاه اسماعيل كتخدا كركا وجوادا معددا . ثم في ثاني يوم بعد الضيافة راحوا باب مستحفظان واخذوا جماعتهم وهم احمد كتخدا امين البحرين وبشناق محمد باش وشاهين الجلفي وكشك محمد وعملوا بشناق باش وكشك رابع، وكان ذلك يوم الخميس احد عشر ربيع الثاني سنة ١١٣٤[١]. وفي ثاني يوم نفت الانكشارية سليمان اوضباشا الاقواسي الى ابيار. وفي عشرين ربيع آخر[٢] البسوا الضلمة الى سليمان أوضباشا القزدغلي، وعزلوا حسين باش جاويش ابو قورة والبسه الباشا قفطانا، فقال له، دولتلي وزير هذه عادتك كرك احدثه عابدى باشا. فقال كانت عادة باش جاويش سنة،

(١) ٢٩ يناير ١٧٢١م.
(٢) ٧ فبراير ١٧٢٢م.

حده ما خلا الزيت الطيب والزيت الحار والسيرج واللحم والدجاج والبيض والحمص والجلبان، فانها كانت الزيت الطيب لاجل انقطاع الطرق بثلثة دراهم الرطل والزيت الحار بدرهم وربع الرطل والسيرج بدرهم ونصف واللحم بدرهم ونصف والدجاج بدرهمين الدجاجة والحمص بخمسين درهما الاردب والجلبان بخمسة وعشرين درهما والشمع بثمانية دراهم ونصف الرطل والعسل

واما الآن كل تسعين يوما باش جاويش. ثم ان العسكر قطعوا فرمانا من الباشا على أن يعملوا جمعية فى بيت عبدالرحمن اغا آغة الجملية فكان كذلك.

فلما اجتمعوا تكلموا من جهة الصناجق، انهم لا يقارشوا الابواب والابواب لا يقارشوا الصناجق، اذ كل صنجق مرتكن على باب من البابين، ويفعل فى الثانى خلاصه، وقروا الفواتح وانصرفوا.

وكان يوسف بيك الجزار عامل عزومة فى بستانه الذى كا ن لحسن كتخدا النجدلى، لما ورثه منه، وكانت العزومة لابن سيده اسماعيل بيك بن ايواظ، ولجميع صناجقه واذا بالجماعة الذين كانوا فى الجمعية وقروا الفواتح على عدم مقارشتهم للصناجق وعدم الاجتماع عليهم وكل من كان له حاجة يأتى بابه ويقص قصته الى الاختيارية فيرسلوا جاويشا من عندهم لقضاء مصلحة هذا الذى لم عند الصنجق ولا يروح هو ان كان كتخدا أو أوضباشا او جربجى او نفر، فما تم النهار حتى ذهب بعض العزب وبعض الانكشارية الى الغيط، وحكوا للصناجق واكلوا الكباب والبقلاوة، ونشفت الفواتح بحال خروجهم من الجمعية.

وفى يوم الاثنين ثانى عشر ربيع الثانى سنة ١١٣٤ (١) توفى شيخنا الشيخ على الطيلونى، ودفن بالمجاورين بجوار الشيخ خالد الازهرى.

(١) ٩ فبراير ١٧٢٢م.

النحل بدرهمين الرطل لان النحل جميعه هلك فى هذه السنة واما القمح فانه انحط الى خمسة عشر درهما الاردب والشعير الى تسعة دراهم الاردب. ثم بعد ذلك انحلت الوقعة بين المسلمين والافرنج على ان الكسرة [الغلبة] للمسلمين على الافرنج وذلك ان الذين خرجوا مع الافرنج كانوا من العرب الذين لا يعرفون مكان البلاد ولا ختال المسلمين فى القتال ولاحيلهم فسافروا وتفرقوا وامعنوا فى

وفى يوم الثلاثا ثالث عشرين ربيع آخر توفى يوسف بيك الجزار، وكان مشهده عظيما، الا ان المطر منع الناس من المشى فى الجنازة، ولأن المطر حصل من شروق النهار الى غروبه، وأن جميع الناس ذهبوا راكبين، وكان عبدالله أفندى الرزنمجى راكبا فى الجنازة فنزلت عليه الظلمة(١) فأخذوه الى منزله محمولا.

وفى يوم الخميس خامس عشرين ربيع اخر، ورد آغا بخطين احدهما بمقرر امارة الحاج لمحمد بيك بن اسماعيل عن سنة ١١٣٤. والثانى بالعفو لمحمد بيك جركس، والبسه الباشا كرك سمور على جوخ احمر، والبس احمد أفندى قفطانا على الرزنامه عوضا عن عبد الله افندى.

وفى يوم السبت خامس جماد اول(٢) طلع كشك محمد أوضباشا باب العزب بمعرفة محمد أوضباشا بشناق باش أوضباشية، وأحمد كتخدا أمين البحرين، وملكوا باب العزب وطردوا جماعة ابراهيم جريجى عن بكرة أبيهم.

وفى عاشر جماد اول(٣) أخذ اسماعيل بيك نظارة الجامع الازهر عوضا عن الجزار. وفى ثانى يوم حصل ان رجلا يهوديا له ولد. وكان اليهودى متمولا فسكر الولد وكذلك أبوه

(١) اى أصيب «بالعمى». (٢) ٧١ فبراير ١٧٢٢م.
(٣) ٢٦ فبراير ١٧٢٢م.

البلاد لانهم ساقوا من عسقلان الى غزه. ولم يصحبهم احد من الساحليه المتدربين بالبلاد بل تركوهم طعمة على جارى عادتهم فى المخامرة والمواطاه مع عدوهم على اهل مذهبهم. وكان المسلمون قد اندفعوا قدامهم واستجروهم الى ان طمعوا وتفرقوا واحدقت بهم العربان من كل جانب فاخذ منهم كند [كونت] كبير وزها [زهاء] خمسة عشر فارسا ومن الرجاله ما يناهز خمس

سكرانا، فتشاجر الولد مع ابيه، فضربه ابنه بسكين كانت فى يده فجرحه فى فخذه، فاستغاث اليهودى بخادمه وكان الخادم شريفا، فأسرع الخادم الى سيده لحوش عنه، فضربه الولدى بالسكين فجاءت فى نحره فوقع الى الارض ميتا، فحركوه فلم يجدوا فيه روحا، فلما رأى الولد الرجل مات هرب.

فجاء ارباب القلق [الشرطه] فمسكوا الرجل، واعرضوه على الوزير، فأدعى بهروب الولد فألزمه بحضور الولد، وأرسلوا يفتشوا على الولد. فجاء الخبر ان الولد اليهودى مسكوه بالرملة ومنية العطار وجاءوا به يوم [1] الجمعة بعد العصر خامس عشرين جماد اول [2] فاودعوه فى قلعة مستحفظان تلك الليلة. وفى يوم السبت أشهروه فى البلاد على حمار بأربع شاميات، ثم أنهم ارموا عنقه فى الرميلة، وكان الوالى اسماعيل آغا تابع عبدالله آغا الوالى. ثم ان الباشا قطع فرمانا الى آغة مستحفظان أن يشهر النداء على طايفة اليهود والنصارى لا يستخدمون المسلمين، وكل من استخدم مسلما يستاهل ما يجرى عليه. ثم أن المتفرجين من أهل الرميلة جاءوا بالحطب واحرقوه وراح الى لعنة الله لانهم اعرضوا عليه الإسلام فأبى(*).

وفى يومه توفى الشيخ محمد الطحاوى الكبير المالكى [3]. ومن أعجب ما اتفق، ان (فى)

(١) بالأصل «الى» وصوابها «يوم» ليستقيم المعنى. (٢) ٨ مارس ١٧٢٢م.
(*) لا يعرف السبب الإنسانى فى هذا الطلب من أهل الذمة رغم تكراره فى تاريخ مصر؟
(٣) كتب عنوان جانبى «اعرف وفاة الشيخ محمد الطحاوى المالكى».

ماية رجل وقتل اضعافهم، ولم يقتل من عسكر المسلمين سوى ابن خلكان ومن لا يعبا به. ووصل الاسرى المذكورون الى القاهرة وكان يوم وصلوهم يوماً مشهوداً[*] وركب الكند [الكونت] والخياله البغال والرجاله الجمال وكان معهم قسيس فركب بغلة ايضاً. ثم ان السلطان احسن الى الكند فلم يقيده بل تركه فى برج وحده واطلق له كلما يحتاج اليه واما القسيس والخياله فجعلوا فى

(*) وقعت هذه الحادثة مع الكونت الصليبى تابوت Thibaut الرابع (IV) كونت شمبانيا -Cham ..pagne

- -

ثامن عشرين من جماد آول [1] وقعت فتنة فى القليوبية، بين سليمان الوالى ابو دفية، وكان قايم مقام من طرف اسماعيل بيك امير الحاج وبين سالم بن حبيب واخواته، وعرب الجزيرة أدت الى لم اللموم، وارسل اسماعيل بيك على آغا الاصفر تقوية الى أبو دفية وصحبته غز كثير وعرب تقوية على أولاد حبيب، وانتصر جركس الى أولاد حبيب فأرسل له كاشف المنصورة ابراهيم آغا وكاشف القليوبية، فوقع الحرب بينهم مرتين، المرة الاولى مات فيها نحو المابة والستين من الطرفين، والمرة الثانية مات فيها نحو المايتين، ومات فيها قايم مقام الجزار من يد سالم بن حبيب وأخذ راسه على مزراق، وصار يدور بها فى اقليم القليوبية.

وجاءوا بجثته الى مصر واعرضوا على الوزير، فأمر بدفنها والبس ابراهيم آغا تابع الجزار قفطانا على الصنجقية.

وكان يوم الجمعة ثانى جماد آخر وامره ان ينزل هو وعلى بيك ويصلحوا هذه القضية ويطفوا هذه النار الثايرة بين العرب والغز.

ثم انهما نزلا الى اسماعيل بيك واخبراه بما قال الوزير فأهمله، ثم ان الصناجق اجتمعوا فى بيت على آغا الزعفرانى الذى هو آغة المتفرقة وجمعوا الصناجق واسماعيل بيك وجركس وامير الحاج والدفتدار وجميع المتكلمين، وأصلحوا بين جركس واسماعيل بيك صلحا شافيا،

(١) اضافة حرف الجر لتوضيح ا لمعنى ١٦ مارس ١٧٢٢م.

ارجلهم قيودا بطوق حديد، واما الرجاله فقيدوهم واستعملوهم فى القلعة. ونزل الملك الناصر صاحب الكرك الى القدس بعد هذه الكسرة وتسلمه وقتل كل من كان بقي فيه من الافرنج وخطب فيه خطبة عظيمة على حكم القرآن. وبقى الملك الصالح بن الملك الكامل معافا عند ابن عمه هذا الملك الناصر بالكرك وكانت الاحوال محتبطه. ورجع الخوارزميه عدوا

* قبة الصخرة بالقدس

وكتبوا مكتوبين واحد من اسماعيل بيك لسليمان أبو دفية وواحد من جركس لاولاد حبيب، فسافروا بالمكتوبين على اننا اصطلحنا ففكوا هذه اللموم وكل من هو يروح الى محله، فانفكت اللموم فى عشرة درج، ورجع كل من هو الى محله. وصار ابراهيم آغا صنجقا عوضا عن سيده الجزار، وفتح بيت سيده.

وفي يوم السبت عمل احمد بيك الاعسر عزومة الى الباشا فى سبيل علام لاجل الصلح، وأرسل على[1] اسماعيل بيك ومحد بيك جركس فابوا أن يروحوا، وذهب اسماعيل بيك الى قصر العينى، وجركس جعل نفسه رمدانا لأنى رأيته وهو جالس فى المقعد وهو مرفرف عينيه بمرفرف أزرق.

وقدم الاعسر الى حضرة الوزير أثنين عبيد طواشية، كل واحد معه كيس فيه خمسة وعشرون الف فضة بيضا، واثنين وعشرون جوادا، اثنان مرختات، والعشرين عرى، له ولجماعته، وكان يوما عظيما.

وفى ثانى يوم العزومة الذى هو يوم الاحد، حادى عشر جماد آخر، ورد خبر بأن سليمان آغا ابو دفية، بعد ما انفكت اللموم وتمت القضية،صبر الى مسكة الابريق وهجم على سالم وهو فى بلده، فوقع بينه وبين سالم معركة كبيرة مكثت ثلاثة أيام، وولى سليمان آغا مكسورا

(١) كرر لفظ «على» بالأصل.

الفـرات وجـآوا الى حـمص حـاصـروها اياما وخـربوا بـلادهـا واخـذوا من صـاحـبـهـا مـالا ورجـعـوا. والعـربان بالصـعـيـد على حـالهم فى الشـقاق والنفاق بحجة ما ين بعضهم البعض. ثم ان الغلة رجعـت تحركت وبلغ القمح ثلثين درهما الاردب العـال الغـاية والشعير ثلثة عـشر درهما الاردب. ولـم يكـن فـى هـذه الايـام شـئ رخيصا لا غله ولا غيرها ولا ملبوس ولا عدة

- -

ونهب جميع ما كان معه وماتت ثلث جماعته، وكانوا نحو الاربعين جندى وسبعة عشر قايم مقام.

ولم يلغ من سالم مراده ومن العرب نصف حرام، اثنى عشر مقدام ورجع الى يسوس[1] مكسورا.

ثم أن اسماعيل بيك عمل جمعية فى بيت عبدالرحمن آغا آغة الجملية على انهم يرسلوا تجريدة الى سالم، ويأخذوا من الوزير فرمانا خطابا الى جميع البلاد التى فى السبعة أقاليم، وأن كل من اجار سالم بن حبيب أو أحد من اخوته أو من عرب الجزيرة أو أضافهم أو اعطاهم شربة من الماء فبخراب تلك البلاد، وقتل جميع من فيها حتى النساء والصبيان، ولو كانت من بلاد الوقف. ثم أنهم اعرضوا العرض على الباشا وطلبوا على موجبه فرمانا فأبى. ثم أنهم اخذوا الفرمان منه بالقهر عليه، وعينوا على بيك وعبد الرحمن آغا آغة الجملية باش التجريدة، ومن الخمسة أوجاق كل وجاق ماية وخمسين. وكتب اسماعيل بيك عسكرا بجوامك خلاف اتباعه واتباع جماعته وطلعت التجريدة الفان من الغز خلاف العرب. ونزلوا يوم الخميس خامس عشر جماد آخر سنة ١١٣٤ [2]. ولقد اخبرنى من اثق به ان سالم لما جاءته المكاتيب

(١) يسوس: احدى قرى، مركز قليوب، محافظة القليوبية، وهى من القرى القديمة، وتعرف حاليا باسم وباسوس لسهولة النطق، محمد رمزى، المصدر السابق، قسم ٢، جـ١، ص ٥٥.
(٢) ٢ ابريل ١٧٢٢م.

لان الاجـنـاد كـانوا قـد امـتـلآوا من عطايا السلـطان وغلوا كل شئ وفـسـد في هذه السنة اكثر نبيذ الناس حتى انه لا يوجد بيت لم يفسد فيه نـبيذ خمرا كان او شمسياً ثم ان الراهب عـمـاد المـرشـار الذى كـان سـعى في تقـدمـه البطرك بالرشي وداس قوانين البيعـة وفعل ذلك وحـده من غـير رأى احـد اشترك معه فيه لا اسقـف ولا ارخـن واوقـع الله بينهـمـا العداوة

بأن الصلح وقع بين الصنجقين توجه سالم نحو بلده، وأنفكت اللموم والعشاير من عنده ولم يبق، الا المقادم وعرب الجزيرة وعرب الذيب، فلما هجم أبو دفية وحصل ما حصل، اصبح سالم في الميدان بين الصفين، وقال فين أبو دفية يظهر لي ويحقن دماء المسلمين، واذا برصاصة قد جاءت من القدم لم تخط لبة جوادة، فوقع الى الارض فهجموا عليه ليقتلوه فكانت جماعته أقرب اليه، فركبوه جنبا له. فذلك كان يوم الهزار وهو يوم كسرة أبو دفية الى يسوس وقتل في ذلك اليوم نحو المايتين وهذا كان «السبب». ثم ان في ثاني يوم ثالث التجريدة، جاء الى محمد بيك جركس من كل اوجاق اثنان اختيارية، وقالوا له هذا الذى تفعلوه خراب على البلاد وخمار على الفقراء والمساكين، وهذا أمر مضر بالعامة جميعا أغنيا وفقراء، ويتولد من هذا الضرر الزايد. فقال لهم جركس وما المراد، قالوا له الصلح الشافي بينك وبين اسماعيل بيك فقال جركس انا على الصلح الذى حصل بيني وبينه في بيت على آغة المتفرقة، فقالوا له مرادنا تقوم معنا هذا الوقت ونحلفكم ويوقع الصلح الشافي بينك وبينه، ومن حصل منه أمر خلاف ما يقع عليه الصلح تكون الكل عليه، والله ينتقم منه لأن العالم هلك وهذه الامور مضرة على الغني والفقير.

ثم أنه ركب في الحال واياهم، ودخلوا على اسماعيل بيك واوقعوا الصلح بينه وبين جركس، وكان كتخدا الوزير حاضرا والدفتدار، والبعض من الصناجق، ثم ان كتخدا الوزير

لان القصد كان فاسداً فصار البطرك يضطهده
في كل موضع ويمنعه لانه كان قساً وكان
هو يتصيد عبارات البطرك ويتتبع نقايصه
ويقاومه في كل زمان ويروم قطعه كما تقدم
من الشرح، فجآء في هذا الوقت وتسبب الى
ان استخرج امر السلطان الى امير من الامرا
يقال له الصارم المسعودى بان ينظر فى أمر
البطرك ويعقد له مجلساً مع النصارى بحضور

تهيا الى القيام فقدم له جوادا مرختا، وقعد جركس والدفتدار عند اسماعيل بيك الى بعد العشاء، ثم انهم توجهوا الى منازلهم وأن الصلح الذى وقع بين الاثنين، ان التجريدة لا تتعرض لبلد من البلاد، وانما ينادى فى الاقاليم بأن سالم بن حبيب وعرب الجزيرة لا أحد يجيرهم ولا يضيفم ولا ياويهم، وبالامان و الامان لجميع الرعية والعرب والفلاحين والله أعلم.

ثم ان فى يوم الثلاث عمل الشيخ السادات عزومة الى جميع الصناجق، واسماعيل بيك ومحمد بيك جركس من باب المحبة، ولأجل الصلح بينهم فهم فى غاية الحظ، الالة تضرب وهى فى أكمل اللذة، واذا بخبر داخل عليهم بأن عبد الرحمن آغا اخرب دجوة. وأحرق زرعها، وهدم دورها، وكان فى دجوة عشرين جندى من طرف محمد بيك أمير الحاج، كانوا محافظين فى البلد من طارق يطرقها فقتلهم ثم تواردت الاخبار بأن التجريدة وعرب الصوالحة خربوا الاقليم من التعربة والقتل ولا أحد من نصف سعد صار فى الاقاليم الا الذى هج، والذى لم يهج مخبا فى دار، وأخذواالقافلة التى طلعت الى السويس فلما ورد عليهم هذا الخبر انخرم المجلس وقام كل أحد الى منزله.

ثم أن فى ثانى يوم عملوا الجمعية فى بيت أحمد بيك الدفتدار، فما انتظم لهم حال، فعملوا جمعية فى قرا ميدان فما انتظم لهم حال، لكون أنهم اخذوا فرمانا من الوزير بصلح

ســـادة المــسلمين وقضـايهم وحكامهم وعـدولهم [الشـــهود] فشرع فى ذلك وكان البطرك قد طلع الى الكنيسة المعلقة بمصر ليكرز راهبه بها وكان له زمن كبير ما طلع اليها منذ خرج منها [الكنيسه المعلقة] لما استولى المسلمون على قطر منها بسبب ما بينه وبينهم من التفاقم ولاجل النظرة [المنظرة] التي حـددهـا وكـان قـد دبرت على مـا قـدم من القـول، فلمـا ابدل وخـرج الى وسط الكنيســة

جميع العرب، الا سـالم وعرب الجزيرة ، كما قال اسماعيل بيك، وأن ينادى لجميع(*) العرب والفلاحين بالامان، الا سالم وعرب الجزيرة، كل من أطلعهم بلد من البلاد يكون بخراب البلد ونهبها وقتل اهلها، وقروا الفواتح، واتفق المجلس على ذلك.

وسافر الآغا بالفرمان الثاني ونادى فى الاقليم وفى جميع الاقاليم الغربية والمنوفية والبحيرة، وهرب سـالم بن حبيب وعرب الجزيرة، ونهبوا نجع عرب الجزيرة وما كان بقى من نهب بلاد سالم، وبقيت دجوة قرع لا نخل ولا دور، وفر سالم نحو الصعيد بأولاده ونسايه، ولم يبق لهم فى القليوبية صريخ ابن يومين.

ورجعت التجريدة الى مصر، فى ثامن عشرين جماد آخر سنة ١١٣٤[١]. وفى آخر جماد آخر المذكور، طلع شيخ الاسلام محمد افندى كتخدا زاده قاضى مصر الى الوزير ليأخذ خاطره، لان الانعام الذى جاءه من شيخ الاسلام الى غاية جماد آخر، فطلع ليأخذ خاطر الوزير فقال له لا يمكن انى اعطيك اجازة فى الرواح الا أن اتاك خبر بتولية قاضى غيرك، وانت تكون قايم مقام الى أن يأتى قاضى، ثم أنه البسه كركا ونزل الى المحكمة، فنفذ الاحكام.

(*) بالاصل «يناد الجميع» والتصويب من سياق النص.

(١) ١٥ أبريل ١٧٢٢م.

والشمع قدامه والكهنة يمدحونه على جارى عادته، وكان هناك رجل مخبل يعرف باسرائيل بن المهندس مقيما فى علو الكنيسة فلما سمع بذلك جآء الى موضع يشرف على المكان الذى فيه الجماعة وسب وذكر قبايح وقال اخرجوه اخرجوه وعمل ما لا يسوغ عقلا الا انه عادم العقل، فاحتد بعض الجماعة وطلعوا اليه فضربوه وشجوا راسه وجرى دمه على ثيابه فخرج مستغيثا الى والى

وفى غرة رجب ورد خبر من بندر السويس، بأن عرب الصوالحة نهبت من مركب الزفتاوين سبعماية وخمسين فرق بن، واخذوا جميع آلاتها وسيبوها قصعة فى البحر من غير آلة، وقتلوا من كان فيها من الرجال، ونزلوا الى نابعة ومنعوا الماء عن اهل السويس، الى أن بلغ الصحن[1] [من الماء] ريال حجر ومات كثير من العطش، فاعرضوا الى مصر فورد الخبر فى غرة رجب[2]، فطلع الخواجا محمد داده الشرايبى والخواجات صحبته الى الديوان، واعطوا الباشا العرض الذى جاء من السويس بنهب المركب وقطع الماء عنهم، فقال لهم الباشا جميع ما راح لكم عهدتى، وأنا القاعد به، فنزلوا الى محلاتهم، وارسل الباشا جمع جميع الصناجق واوراهم العرض، فقالوا، نرسل الى اسماعيل بيك جرجة كاشف الشرقية، يسافر ويفتح الطريق ويمنع العرب ، فأرسل الباشا اليه فرمانا، فقال هذا الامر لم يكن تعلقى، وانما هو تعلق أمير الحاج، ولنا رجل مانى مكلف الا بحفظ منصبى، فرجع الاغا اخبر الوزير بما قال اسماعيل بيك، فتحير الوزير فقالت الصناجق مولانا الوزير، ننزل نعمل جمعية مع بعضنا بعض، فقال لا يمكن الا رواحى أنا بنفسى.

ثم انه فى الحال امر باخراج الطوخ والخيام الى قراميدان، واخذ البقسماط وما يحتاج اليه الأمر وطلع الطوخ والخيام الى العادلية ثامن رجب، وقال لابد من رواحى الى العرب ان

(١) بالأصل «الصعن».

(٢) ١٧ أبريل ١٧٢٢م.

الصناعة(*) وهو من مماليك السلطان، فوافا الراهب عماد عنده قد جآ بامر من عند الامير الصارم يطلب البطرك، فطلع البطرك ومعه التوكيل ووكل على ابن اخيه والخازن الذى له ويعرف بابى الفرج ابن خلبوصى، وجاوا بالبطرك الى دار الامير الصُارم ومعه اسقفان: انبا يوساب اسقف فوه وانبا بولس اسقف الفيوم فانزلوهم فى طبقة بجانب دار الامير المذكور وكان له صاحب

(*) والى الصناعة: هو والى ترسانة بناء السفن بجزيرة الروضة.

كسرت العرب، أتيت اليكم، وان كسرنى العرب، والله لم أرجع الى مصر ثانيا، وكان هذا مراده حقيقة.

ثم ان الصناجق حارت فى امرها ومكثوا ثلاثة ايام يتشفعوا ويأخذوا بخاطره ولم يرض، وعملوا ثلاث جمعيات، واحدة ببيت عبد الرحمن آغا، وكان جركس حاضرا فى الثلاثة، والثانية فى بيت أمير الحاج، والثالثة فى بيت الدفتدار، ولم يكن اسماعيل بيك حاضرا فاتفق امرهم على انهم يطلعوا صنجقين وعسكرا، ثم انهم اعرضوا الامر على الوزير فقال لهم: ان كان مرادكم فعادى تعملون جمعية فى بيت اسماعيل بيك امير الحاج وكل شئ اتفق رأيكم عليه يكون، ثم أنهم عملوا جمعية فى بيت اسماعيل بيك يوم الخميس رابع عشر (وحضر الجمعية)(1) البكرى والسادات والقاضى والعلماء وجميع أكابر مصر، الا محمد بيك جركس.

فبعد ما تكلموا جميعا قال لهم اسماعيل انتم مرادكم فتح الدرب، ومجئ البن المنهوب، وجميع ما ضاع، قالوا نعم، قال يكن باكير آغا اغة التفكجية قافله(*) باشا ويطلع صحبته على بيك وعبد الرحمن آغا يطلعون يطردون العرب وجميع ما راح من بن الخواجات على، واحمد بيك يقعد بنهب الصوالحة وأول ما يجئ نهب الصوالحة [من] كل تنفه عدمت، أو بنة من بن التجارة، خودوا منى بدلها رطلا، فرضيت التجار والعسكر.

(1) الاضافة لتوضيح المعنى.

(*) بالاصل «قاعلاء».

نصراني يعرف بالنجيب كاتب الصلاح فتحدث مع الامير ونقلهم الى داره واقاموا كذلك من يوم الاحد السادس من الصوم المقدس الى يوم الاربعا من الجمعة السابعة وهو التاسع من برموده(*) من السنة المذكورة [٩٥٦ للشهداء = ١٢٣٩م] فعقد المجلس(*) في اليوم المذكور واحضر جماعة من وجوه النصارى ممن طلب وفيمن طلب من لم يحضر منهم لقصد ومنهم لشغل وحضر المجلس

(*) ٩ برموده = ٤ ابريل.

(*) مجلس محاسبة البطرك ابن لقلق.

- -

وكتب اسماعيل بيك على نفسه حجة بين التجار ذمة ومالا، واحمد بيك الاعسر قعد بنهب الصوالحة، ثم ان اسماعيل بيك التفت الى احمد بيك الاعسر وقال له، أى شئ جاء لاخيك من ضرب الصوالحة ونهبهم، وأتعبنا واتعبك، فقال له أحمد بيك، كله لاجل التشنيع عليك، وهي ما ينفك الا برايك، ثم انهم اخبروا الباشا فرضي والبس باكير اغا، وعبد الرحمن آغا وعلى بيك كل واحد قفطانا، وسافروا يوم السبت ثالث عشرين رجب[١]. وفتحوا الطريق، ومشت الطرق، وجاءت القوافل بتدبير هذا العزيز، ثم انهم بعد ما رجعوا جاءت الاخبار بأن بعدما رجعت التجريدة، نزل سالم بن حبيب على البلاد ونهب وقتل وجاء الى كفر دجوة وقعد هناك بخيله فقط وعرب الجزيرة، والسبب في ذلك مكتوب محمد بيك جركس، الذى أرسله إلى سالم بأنك تقعد في كفر دجوة إلى أن أرسل لك فرمان الوزير بالأمان والعمارة، فقعد في كفر دجوة ينتظر ما أوعده جركس به من ارسال فرمان الامان له.

ثم أن جركس لما أوعد سالم بفرمان الامان، اخبر بذلك أحمد بيك الأعسر، فقال له، هذا أمر لا يمكن الا يرضى أسماعيل بيك لانه هو السبب في ذلك وبغير رضاه لا يتم . فزاد

(١) بالأصل «سادس عشرين» والصواب ثالث وعشرين، والتصويب من سياق أحداث النص نفسه / ١٠ مايو ١٧٢٢م.

المذكور الامير الصارم نيابة عن السلطان عز نصره والقاضى الفقيه جمال الدين بن البورى الناظر على الدواوين المعمورة بالديار المصرية والقاضى المحى نائب الحكم العزيز بالقاهرة المحروسة والفقيه شرف الدين السبكى المحتسب بها وهو كان المتكلم فى المجلس واربعة عشر عدلا [شهودا] على ما ذكر من حضر من النفقات من اصحابنا. فتقدم البطرك وعماد وجلسا قدام صدور المجلس، فقالوا: من كان

جركس غيظا وحنقا[1]، على اسماعيل بيك بكلام الأعسر، ثم أن فى ثانى يوم الذى هو خامس عشرين رجب[2]، ورد آغا من الديار الرومية من طريق البحر، يقال له محمد آغا الطوقطلى، الذى كان جاء سابقا لأجل أخذ رأس على باشا. وآخذ مال اسماعيل بيك وخيله، وسافر إلى الديار الرومية.

فلما ورد إلى مصر هذه المرة طلع إلى الديوان يوم السبت وأعطى الوزير كيسا فيه خطوط وصورة صندوق، ففهم الوزير المراد فأرسل الى كتخدا الجاوشية وأمره أن يرسل ينبه على الصناجق وأرباب الديوان يحضروا فى غد الى قراميدان لقراءة خط شريف، ثم أن فى ثانى يوم الذى هو سادس عشرين رجب[3]، نزل الى قراميدان بالنقرزان خلفه، واجتمع جميع الصناجق والاغوات حتى العوام، وجاء الاغا والخطوط بين يديه. والصندوق شايله آغا من اتباعه. فأخذ الباشا الخطوط وأعطاها الى الأفندى، فقرا أول خط، فاذا هو بالعفو لاسماعيل بيك [وتلبيسه] كرك سمور سواده يأخذ بالبصر على جوخ زهر الخوخ، فأخرجه الاغا من الصندوق، وأفرغه على ظهر اسماعيل بيك، فلما لبسه أسماعيل واذا بمحمد بيك جركس انقلب وجهه حتى صار كالقطنة البيضا، والثانى بالدفتدارية إلى مملوكه اسماعيل بيك جرجة. وهذا أمر لم اتفق قبل الآن أن خطا قرء، بقرا ميدان، ولم أرسلت السلطنة الى أحد من

(١) بالاصل «حمقا». (٢) ١٢ مايون ١٧٢٢م. (٣) ١٣ مايو ١٧٢٢م.

له قول او دعوى يدعى بها على صاحبه فليقل . فتقدم عماد وقال ادعي على هذا داود بانه اعطى الرشا على التقدمه واخذها على من قدمه من رتب الكهنوت وهو خارج عن شرعنا. فقالوا للبطرك: ما تقول. قال: ما اخذت. قال عماد: ولا امرت من اخذ لك. قال: ولا امرت من اخذ لى. قالوا: فمن لك يشهد بالاخذ يقولون لعماد قال: هذان الاسقفان : فقالا: ما نشهد بشئ ولا راينا شيئاً.

صناجق مصر كركا، الا هذا الكرك الذى جاء إلى اسماعيل بيك، وان الخط الذى بالعفو فيه دعاء من السلطان إلى اسماعيل بيك.

ونزل اسماعيل بيك إلى منزله والناس امامه وخلفه لاتعد ولا تحصى وشألته الناس بالدعاء، من قرأ ميدان الى ان دخل بيته ودقت النوبة، وفرحت المحبون، وانغمت المبغضون، والاعسر دفتدار مصر يهنيه بالسلامة، ويهنى اسماعيل بيك بالدفتدارية، وجركس لم ينزل معه، بل نزل إلى بيته، حتى أن العوام قالت أن السلطان عفى عن اسماعيل بيك، وأرسل له طوق ذهب وزنه خمسة أرطال، فيقول الآخر له، لا يا اخى أنا رأيته بعينى يجئ ألف شريف. وكثر الهرج وهذا يقول يا سيدى انه صار عتيق السلطان، وهذا يقول كذا، وهذا يقول كذا، وبات الناس فى تلك الليلة فى حديث اسماعيل بيك.

ومن جملة المبالغة أن رجلا من المعرفين لا سماعيل بيك، حلف بالطلاق أنه راح بيت اسماعيل بيك وأراه وهو قاعد والطوق الذهب فى رقبته. فلما فرغ الناس من التهنية عن(*) له الطلوع الى الديوان.

فلما كان يوم الخميس ثامن عشرين رجب(**). طلع الى الديوان، واجتمع بحضرة الوزير، وهناه بالسلامة، وأخبره بأن السلطان قتل بسبب الشفاعة ثلاثة الى يوم من بعض الأيام دخل

(*) بالأصل «عز».

(**) ١٤ مايو ١٧٢٢م.

لانهما الاخرين ممن كان دفع الرشوة عند تقدمته
لانه لم يكن فيمن تقدم من هولاء الاساقفة كلهم
الذين قدموا فى زمان هذا البطرك من لم يعط
رشوه سوى اثنان وهو مطران دمياط واسقف
الخندق لا غير والباقون جميعهم اعطوا معجلا
وموجلا وكتبوا خطوطهم بالمؤجل حتى خرجوا الى
كراسيهم حيوه وستروه، وكانت رشوتهم من مائتى
دينار وهو الاكثر الى خمسين دينارا وهو الاقل

الوزير على السلطان،. وكان القطردار واقفا بين يديه، والملك فى غاية الحظ، فأجرى الاغا مذاكرة اسماعيل بيك، فتقدم الوزير وقبل أتك[1] الملك وقال: مولانا السلطان، عبدك اسماعيل من يوم جاءك العرض من مصر يطلب العفو له، ولم أرسلتوا له خط شريف بالأمان والعفو عنه لاجل ما يطمين ، ويلتفت الى خدمة السلطان.

ولم يكن فى نظير العفو ألف كيس ثمن ملح للمطبخ، فقال عفوت عنه، لأجل خاطركم، أنتم الاثنين، ثم أن بشير آغا القطردار باس الارض، وأورد الف كيس فى الحال ، وأمر الوزير ابراهيم باشا أن يكتب الخط، ورسم له بكرك يرسله له، ففى الحال كتب فرمان العفو وقدمه الى الملك ، فكتب عليه وأرسله له، وسلمه الكرك فى الصندوق وارسله اليك والحمد لله على سلامتك، وهذا [ما] نقل الباشا لاسماعيل بيك واسماعيل بيك أخبر به والله أعلم.

ثم أن الباشا عزل على آغا الزعفرانى من أغوية المتفرقة وولاه كتخدا الجاوشية وعمل حسن آغا أباظة أغة المتفرقة، وولى سليمان آغا أبو دفية واليا.وعزل أحمد أغا أفندى روزنامجى، وولى محله عبدالله أفندى، الذى كان نزلت عليه الضلمة. يوم موت الجزار، كل هذا برأى اسماعيل بيك، وورد ركاب قاضى مصر ابراهيم أفندى زاده.

وسافر قاضى مصر كتخدا زاده، فلما علم سالم بن حبيب بما حصل لاسماعيل بيك من

(١) الأتك ، يعنى ذيل القفطان.

وذلك خارج عما يدفع لابن اخى البطرك وهو
حمله لها حسد وعن الهدايا من المتاع والدواب
وغير ذلك من الاصناف المخصوصة بصقع صقع.
فقيل لعماد: من لك يشهد غير هذين. فقال:
هولآء قسوس المعلقة. فاستدعى القس ابو المكارم
لانه الكبير كان طقساً وسناً فقام فقيل له: تشهد.
فتلكا واخر الامر قال: اخذ للضرورة وخجل.
فقيل[له:] اقعد. فقعد واستدعى المكنا [المدعو]

العز لم يلتفت إلى قول جركس له، أقعد في كفر دجوة الى أن أرسل فرمان الأمان، والعمارة لك في دجوة، بل رحل من يومه، ولم يلتفت الى قول جركس.

وفي يوم الاحد غرة شعبان، عزل عبد الرحمن آغا من آغاوية الجملية، ولبس قفطان الصنجقية.

وفي ذلك اليوم، عمل كتخدا اسماعيل بيك آغاة الجملية، الذى هو عبدالله الشامي. ثم أن الباشا أبرز خطا شريفا في الديوان بماتين كيس، خمسة وثمانين كيس على أحمد بيك[١] الاعسر، وعلى أحمد أفندى بيك لرجب باشا، ونزل على الاثنين أغوات وجاوشية معينين لتحصيل المبلغ، وعين الباشا عشرة أغاوات على محمد بيك بن ابراهيم بيك الى جرجة لتحصيل ما عليه من المال والغلال.

وان يوم الاحد ثان شعبان، طلع اسماعيل بيك الى الديوان ودخل عند الباشا وقعد هو واياه قدر ساعتين.

ثم أن الباشا أرسل الى آغة القابجية المعين من طرف السلطنة، ومحمد آغا الطوقاطلى، وأرسلهم الى محمد بيك جركس، وعين صحبتهم على آغا الزعفرانى كتخدا الجاوشية وآغة المتفرقة حسن آغا أباظة بفرمان لتحصيل أربعماية كيس، مايتين كيس بقية ثمن البلاد، ومايتين

(١) بالأصل «باى».

بصندوق العلم القس ابو المعالى بن السنى رفيقه فشهد وقال: ا شهد ان هذا البطرك اعطى الرشا على الكهنوت واخذها لنفسه ممن قدمه. ثم قعد، ثم بدأوا براهب يعرف بانبا ميخاييل وكان قبل رهبنته يعرف بفخر الدوله مرجا وهو كان مساكن هذا البطرك مدة ثلثة عشر سنة، فقام فقالوا: بماذا تشهد. فقال: اشهد ان هذا البطرك اخذ الرشى على الشرطونيه واعطاها . فقال البطرك هذا راهب

كيس التى عملها لمولانا السلطان لأجل العفو الذى جاء له قبل تاريخه، فهلبت من تحصيل هذا القدر والا الحبس.

فلما ورد على جركس هذا الخبر، قال جركس، أما فلوس ما عندى، وأن كان الوزير يأخذ بلاد أعطيه بلادا بالاربعماية كيس، والا البلاد عنده فى الدفاتر تباع بقدر الذى له لأى شخص كان، فقال له الجماعة المعينون، الباشا لا يأخذ بلادا ولا يبيع بلادا، ومهلة الشرع ثلاثة أيام، أما الفلوس وأما الحبس، هكذا أمر الوزير، وتوجهوا من عنده ثم أنهم اعرضوا الأمر على الوزير وعلى اسماعيل بيك [فارسلوا] من الديوان بخلق قدامه وخلفه لا تعد ولا تحصى، سبحان مفنى الامم، والرجال والنساء قاعدين على افواه السكك التى يمز عليها يتفرجون عليه فى الطلوع الى الديوان وفى حال النزول، وهم يدعون له.

وأما سبب تحرك السلطنة على جركس، فأنا أخبرنا أنه كان أعرض سابقا من جهة العفو له، وعمل هذا القدر الذى هو أربعماية كيس، منها تحت العفو ماتين، والباقى ثمن البلاد الذى اشتراها من الديوان، فجاءه العفو الذى تقدم ذكره.

ثم بعد أن حصل له العفو وأطمأن، وأرسل من طرفه رجلا سراجا، يقال له محمد الصيفى باش سراجينه بمكاتيب الى الوزير والى القطردار بشير آغا، بأن يتشفعوا له عند السلطنة، بأن المايتى كيس بطلب العفو يقسطوها على أربع سنين، والمايتان اللتان من جهة البلاد يرسل

مجرد ما يقبل قوله علي. وقد كان البطرك لما استدعى القسوس للشهادة عليه قال: ما يقبل قولهم عليّ. قيل له: فهم عدول. قال: عدول الا عليّ لان البطرك لا يقبل فيه الا قول الاساقفة. قالوا: اكتب لانهم كلما جرى شي سطروه على نصه. فكتبوا كلما جرى. ثم بعد ذلك قال الحكام للبطرك: فان شهد عليك الاساقفة. قال: ان شهد على اسقفان اني اخذت رشوة على من قدمته في

صحبة الخزينة، فتحور الوزير والقطردار. وعينوا المعينين، وما فعله جركس من ذلك جاء نفع لاسماعيل بيك وضرر على جركس، ثم ان جركس لما عين الباشا عليه هؤلاء المعينين عرف أنها من أسماعيل بيك. فأرسل إلى باب مستحفظان يشكو حاله لهم، ويستعين بهم، وجعل لهم أكياسا على ذلك، فأرسلوا يقولون له الذى تعطيه لنا أعطيه الى السلطنة العلية، وان السلطنة لم تفت شيئا من الذى عملته لها، هل رأيت أحدا يخاصم سيده، وان كان مرادك شئ ها أنت وخصمك فى خارج البلد، وأما نحن لا نقارش أحدا منكم ولا أحد منا يتكلم فى هذه القضية، لما تقدم فى الخط المتقدم من الكلام الغليظ والعتب والمنة علينا، ونحن عسكر السلطان، ما نحن عسكرك، ولا عسكر اسماعيل بيك.

فلما وصله الخبر من باب مستحفظان علم ان يده خلت منهم، فسكت، وفى يومها نزل آغة الانكشارية ينادى فى البلد، أن لا يخرج [أحد] بعد العشاء ولا قبل الآذان، وكل من قبضته رميت عنقه، فامتنع الناس من زيارة الأولياء. ثم أن جركس لما رأى عدم النجدة من الانكشارية أو فى الباشا ما عليه من الأكياس المطلوبة، ولم يبق عليه لطرف السلطنة شئ من مال العفو وثمن البلاد، وأخذ فرمان الغلاق.

وفى ثالث شعبان [1]. ورد آغا بخط شريف بطلب خمسماية عسكرى معينين الى بلاد

(١) ١٩ مايو ١٧٢٢م.

رتبة من رتب الكهنوت او امرت من اخذها كنت مقطوعاً من كهنوتي. فقال الراهب [عماد] تحلف. فقال البطرك: انا ما يمكنني انا احلف لان البطاركة اذا حلفوا سقطوا من رتبتهم. قالوا له: فان ادعى عليك مدع بما ليس عندك كنت تقر ولا تحلف. قال: كنت اما اخسر واما احبس ولا احلف. فتقررت القاعدة على انه لا يحلف بحال من الاحوال، قال فيقسم بنعمة السلطان خلد الله

الحجاز، يجلسوا يحيى الشريف شريفا بمكة المشرفة، شرفها الله تعالى، وتقدم أن يحيى الشريف توجه الى القدس، فجاءته الشرافة الى القدس، فتوجه الى مكة من طريق الشام، وأرسل الخط يطلب العسكر الى مكة تجلس يحيى، فبمجرد ورود الاغا، البس الباشا قفطان السفر الى أحمد بيك المسلمانى يوم خامس عشر شعبان سنة ١١٣٤[(١)] ثم أن البلكات اجتمعوا على أنهم يجعلوا سدارهم خلاف سدارية الخمساية الجداوية ثم أنه اجتمع رأيهم أن يجعلوهم ويلحقوهم بالجداوية، وأن يكونوا صحبة الحاج الشريف على المعتاد، وكان الأمر كذلك.

وفي سبع وعشرين من شعبان [(٢)]. ألبس الباشا الى على آغا الأصفر قفطان السنجقية وعثمان آغا قفطان القبطانية، وعمر آغا الذى كان كتخدا الجاوشية تابع ابراهيم بيك أبو شنب قافلا باشا.

وفي يوم الجمعة غرة القعدة سنة ١١٣٤ [(٣)]، توفى على آغا الزعفرانى كتخدا الجاوشية.

وفي ثالث القعدة البس الباشا عمر كتخدا البرلى كتخدا، لوجاق الجاوشية [(٤)]، ولقب بالالفى، لأن علقته، كان الفا، فهربت جميع المعاكيس. ثم انه كان واحد من الانفار يقال له قدرى، وكان إذا مر راكبا حماره يضرب الناس قدامه بالنبوت، وهو لم يقل لاحد ظهرك أبدا،

(١) ١٠ يونية ١٧٢٢م. (٢) ١٢ يونية ١٧٢٢م. (٣) ١٣ أغسطس ١٧٢٢م.

(٤) بالأصل «على كتخد الوجاق الجاويشية»، والتصويب من سياق النص ليستقيم المعنى.

ملكه انه ان شهد عليك اسقفان بانه اخذ رشوة على تقدمة او اذن لمن اخذها كان مقطوعاً من كهنوته. فسطروا ذلك. ثم قال الحكام لعماد: هل من دعوى اخرى. قال: نعم هذا داود قدم على القدس وبلاد الافرنج مطرانا اخرج القبط عن اعتقاداتهم ومنعهم من الختان وزيجة القرايب وصارت كتب الافرنج تاتى اليه وكتبه تمضى اليهم وهذا لم تجرى به عادة. فقال البطرك انا ما قدمته

وانما يرفس الرجل برجله فى ظهره أو فى صدره، وكان سانيكى، فضربه الالفى ونفاه. ومن يومها لم يفلح. ونفى كثيرا منهم بعد الضرب المذكور. ومسك البلد بعد ما كانت كل يوم يقع فيها القتل الكثير. وكان قدرى هذا من أكبر انفار رجب كتخدا بوشناق، جزاه الله خيرا، وغفر له ما أسلفه.

وفى ثامن القعدة سنة ١١٣٤ (١)، قامت الرعية من جهة الفضة المقاصيص، فنزل المنادى، ونادى فى البلد بابطال المقاصيص، وكان كذلك. ومما أراد الله ان البحر توقف خمسة أيام عن الزيادة ثم، خس قدر ذراع. فهاجت البلد، وغلت الحنطة، وجميع الحبوب غلت وبيعت الحنطة بخمسة وثمانين فضة نصف، من بعد ما كانت باربعين، وحولت الناس، فحما كثيرا لا يحيط ولا يسعه عقل بالماية اردب، وكرى كل أردب خمسة أنصاف، والذى لم يجد تراسا يضع القمح على(٢) البر وينام عليه، الى اليوم الثانى. وصار البحر يزيد يوما وينقص يوما. فهاجت الناس حين وصل الأردب أربعة قروش وأخبرنى رجل من الامنا يقال له الشيخ عبد الشافى، بأن الخزانين حوالوا من الساحل فى ثلاثة أيام، اثنين وثمانين الف أردب قمح، فى ماية وعشرين [رقعه]. ثم أنه لما طلع الى ماية وثمانين قامت الرعية وضربت الصناجق وهم طالعين الى الديوان. وجاء حجر فى ركبة اسماعيل بيك، فهرب الى باب العزب، والا كان هلك. ثم

(٥٨) ٢٠ أغسطس ١٧٢٢م.

(٥٩) بالاصل كلمة «الارض» وفوقها شطب.

الا على غزه لا غير فان كان قد تعدى الى غيرها فما امرته بذلك. فقيل له فهل فعل هذا من تقدمك. قال لهم: هناك قسوس. قال عماد: كانت القسوس لما كان القدس بيد المسلمين وانت عملت هذا مطرانا والقدس بيد ا لافرنج والمطران غير القسوس وها هنا من يشهد بان هذا المطران تحول الى بلاد الافرنجيه بامرك وقد صار اعتقاده اعتقادهم. فقالوا من هو. فاستدعى القس الراهب

أن العزب حموه بالبندق، ثم أن الرعية طلعت الى الديوان، وشكت حالها الى الوزير، فسعر القمح بسبعين، والشعير بخمسة وثلاثين. ونزل آغا مستحفظان نادى في بولاق، ثم أن الرعية نهبت جميع الرقع التى فى البلد فامتنع الجالب، وصار القمح لا يوجد، وباتت الناس تلك الليلة بالجوع. ثم أنهم أطلقوا القيد، وقالوا السعر سعر الله، فتواجدت الاشياء، ثم أنهم نادوا على عدم الملو من الخليج ولم يمكث الخليج الا خمسة وستين يوما. وحكم تاريخها، وعام المدة بالسنابك يقدم. وكانت سنة ضيقة الحال، وتعبت فيها الفقراء.

وفي غرة الحجة [١]. وقعت فتنة في باب العزب، وهو ان اليمق، والثالث وجملة من النفر، ذهبوا الى باب الانكشارية، فلم يقبلوهم، فتوجهوا إلى باب المتفرقة، فلم يقبلوهم.

ثم أنهم ذهبوا الى بيت مصطفى كتخدا باش اختيار متحفظان، فاخذهم وطلع بهم الى الباب، وقام على عمر كتخدا البرلي، الذى [٢] لم يقبلهم ثم انه قبلهم وأخذوا عرضهم.

وفى ثالث الحجة [٣]. طلع ابراهيم جريجى عزبان، الذى كان باش أوضباشية الى باب مستحفظان، وطلب منهم أنه يقبلوه، عندهم، ويأخذوا له عرضة من باب العزب الى وجاق المتفرقة، ودخل فى عرضهم، فافترق الوجاق فرقتين ، فرقة منهم قالوا هذا وجاق السلطان، ودايم الوجاق، يجبر الخايف. وفرقة قالت هذا رجل فتنة، لم نقبله، فالذين قالوا هذه وجاق

(١) ١٢ سبتمبر ١٧٢٢م. (٢) بالأصل «كان» مشطوبة. (٣) ١٤ سبتمبر ١٧٢٢م.

غبريال بن القس مكارم بن كليل فقام وشهد بانه فارقه بعكا. فسطروا ذلك. ثم قيل: هل من دعوى اخرى: فقام عماد وقال نعم اخذ رجلا مسلماً يعرف بابى الفخر القلا لانه كان يبيع القلى الذى يبيض به الكتان وقربه [ناوله القربان] فانكر البطرك، وكان فى الجماعة من يشهد [بذلك] واستمسك فمسك ولم يشهد عليه احد بهذه، فكتبوا ذلك جميعه على انهم يوقفون عليه

السلطان، من طرف جركس، وهم باكير والشاطر وبقية الوجاق، والذين لم يقبلوه من طرف اسماعيل بيك، وهم : محمد آغا بن الدالى، وأحمد آغا بن عبدالرحمن بيك والقاشقجى. ثم ان الذين من طرف جركس، تغلبوا على الذين من طرف اسماعيل بيك، وملكوا الباب، فهرب محمد آغا بن الدالى الى الجملية، واحمد جلبى بن السيد عبدالرحمن بيك كرنكوا فى الباب وقبلوا ابراهيم أفندى وأخذوا عرضه من العزب. وأما العزب ما كان مرادهم قتله، بل كان مرادهم يجعلوه سردارا فى جرجة .

وفى هذا التاريخ، ورد آغا من الديار الرومية، صحبته خط شريف، يطلب خمسة وثمانين كيسا على محمد بيك بن ابراهيم أبو شنب، التى لرجب باشا، فقالت الجماعة سمعا وطاعة، ونزلت العسكر من منازلها. ثم فى ثانى ديوان أمر الوزير عبدالله أفندى الرزنمجى، أن يخرج قايمة [بلدة] الطرانة من الرزنامه، فأنزلها الى المزاد فلما رأت العسكر الطرانة فى المزاد، دخلوا جميعا الى الباشا، وقالوا له مولانا الوزير! الرجل المطلوب منه القدر المعين فى الخط الشريف، لم يكن هذا البلد، وانه فى جرجة، وأن الرجل مسافر الى اسلامبول بالخزينة، وانه عن قريب يكن هنا، لأنه فى البحر، وزيادة على ذلك، ان هذا القدر المعين فى الخط، دخل جهة على باشا، وقعد به رجب باشا، وأخذ به محمد بيك حجة من شيخ الاسلام، محمد أفندى كتخدا زاده، على رجب باشا بوصوله، وأن قولنا ما فيه خلاف، وفى غد يأتى وأعرض عليه الخط،

السلطان ويستخرجون امره بما يعتمدونه فيه. وجرى ذكر اوقاف الكنايس وانه يتسلم ريعها ولا يوصل ارباب الوقف الى شئ منها وزاد الحديث فيها ونقص. وكتب الفصل الاخر وانفض المجلس والمسلمون غير شاكرين للنصارى ولا لمقدمهم. اما مقدمهم فكيف لم يكن عنده رياضه الى ان يسوس عقولهم ويولف قلوبهم له، واما النصارى فكيف وصلوا مع مقدمهم الى هذا الحد، واما

وانظر جوابه، فلما سمع الوزير هذا القول رفع البيع عن البلد، فما مضى الامدة يسيرة، الا ومحمد بيك ورد من جرجة، فاعرض عليه الخط ، فأبرز له الحجة، ثم أن الباشا أرسل رد جواب محمد بيك الى الاعتاب العلية، وصورة الحجة، وألبسه قفطان على الخزينة، في تاسع الحجة ختام سنة ١١٣٤[١]. وفي يومه توفى شيخ الحقيقة، شيخ الاسلام، الشيخ أحمد الطشطوشي الشافعي، وكان له علينا مشيخة، أمطر الله عليه سحايب الرحمة والرضوان، وأسكنه أفسح الجنان، بمنه وكرمه. وفي يوم الأربع، ثالث المحرم الحرام سنة ١١٣٥ [٢]، جرت نكتة، وهو أن الوزير أرسل طلب عابدى أفندى كتخداه، الذى جاء من اسلامبول بمكتوب الوزير صورة شفاعة، أن يجعله كتخداه، وعزل كتخداه خليل كتخدا، فلما جاءه لم يكلمه ولا كلمة واحدة بل أمر الجلاد برمى عنقه، بل أرمى عنقه، ولفه في بشت أسود، وأرماه في الجب من غير تغسيل وتكفين. ثم أنه ختم على بيته وجميع مخلفاته، وضبط الجميع، فقطع ذلك ستين كيسا، وأخذ أولاده وعياله وخدمه، وأرسل الجميع الى السلطنة العلية، صحبة آغة من أغواته. وأرسل احضر ابراهيم آغا أغة الرسالة، وجعله كتخدا، وكان ابراهيم آغة المذكور، رجلا عاقلا حليما، وأما عابدى فكان بخلاف ذلك.

(١) ٢٠ سبتمبر ١٧٢٢م / كتب عنوان جانبي «اعرف وفاة الشيخ أحمد الطشطوشي الشافعي».
(٢) ١٤ اكتوبر ١٧٢٢م.

العقلا من النصارى فما رضوا بهذا المجلس ولا استحسنوا ما جرى فيه وقالوا كان من الواجب ان يجتمع الاساقفة والاراخنة ويجتمعون بالبطرك ويعزلوه فيما بينهم على كل ما يكرهونه منه مما يخالف شريعتهم وينافى احكامهم فان رجع عن ذلك فهو المقصود وان اصر عليه كان لهم ان لا يتبعوه ولا يذكروه في قداساتهم بحيث يتفق على ذلك جمهورهم وجلتهم. وبعد ذلك انقطع

ولنذكر سبب قتله لتمام الفايدة، وما ذلك الا أن الباشا جاءه عرض من سكندرية عليه خطوط العلماء وأعيان البلد، ومكتوب بخط عابدى أفندى كتخداه بختمه، وختم أربعة من أعيان البلد، هم جركس، ورجب كتخدا، ومحمد بيك أبن ابراهيم ومصطفى كتخدا باش اختيار، وأرسلوا ذلك صحبة رجل من طرفهم، الى اسماعيل بيك، فأوصله اسماعيل بيك الى الوزير بجملة من القمح، والرز، والبن، لجماعة من تجار الفرنج، مع وقوع التحريج فى عدم أرسال شئ من هذه الاشياء الثلاثة لكون وقوع الغلا بمصر كان هذا السبب الظاهر. وأما السبب الباطنى فهو غير ذلك. وهو الذى الجا الباشا لقتله، وما ذاك الا أن الباشا، أرسل الى كتخداه، الذى بالديار الرومية، أن ياخذ له منصب مصر فى مثل هذه السنة، وان يحط عوايد المنصب كما جرت به العادة، وهى ثمانماية كيس كشوفية المنصب، وأرسل له كتخدا الباشا طلبه، فلما حضر عنده، أعطاه كيسا فيه مكتوب، وقال له: أعط هذا المكتوب الى كتخدا الوزير فى يده . ثم ان الجوخدار توجه للديار الرومية، ومن المعلوم أنه يدخل الى كتخدا الباشا يعطيه المكاتيب الذى أعطاها له سيده، فطلع المكاتيب ليعطيها له، واذا بمكتوب كتخدا الباشا عابدى أفندى بينهم فيناوله الجوخدار ليأخذه، فقال له ما بالك، تاخذ هذا المكتوب، فقال له: هذا لم يكن مكتوب الباشا، وانما هو مكتوب كتخداه عابدى أفندى، وأمرنى أن أعطيه الى كتخدا الوزير فى يده، فأخذه منه، فاعطاه له، لانه لا يسعه مخالفته، ففكه وقراه لأمر يريده الله، فاذا فيه المذمة والشكاية فى حق الباشا، وعدم التفاته، وأنكم أرسلتمونا لنكون عليه أمنا

الحديث ولم يظهر لذلك المسطور اثر ولا وقف له على خبر ورفع الترسم عن البطرك واصحابه، ويقال انه غرم في هذه النوبة ثلثماية دينار. فاما عماد فانه لما راى انه لم ينعمل له شئ خرج من ساعته من دار الامير الصارم ولحق البطرك الى المواضع الذى كان فيه ولازمه وما كان جرى منه شئ. وكان البطرك قد سير الى الاساقفة بان يحضروا لعقد المجلس معتقدا انه يتاخر الى ان

وأنا نخبركم بجميع ما يقع، وها أنا قد أخبرتكم، ونسب اليه كل كريهة. فلما قراه كتخدا الباشا، غاب عن الصواب.

ثم أن الجوخدار طلب المكتوب، فاعرضه عليه، وقال له، لو أظهرت هذا المكتوب لراحت رأسى، ورأسك، ورأس الباشا، ولكن الحمد لله، الذى لم يقع فى يده الوزير. ثم أنه توجه الى الوزير، وتمم قضية المنصب، وكتب مكاتيب الى سيده باشة مصر، محمد باشا، وأرسل المكتوب في وسط المكاتيب صحبة الجوخدار فأخذهم الجوخدار وسافر الى مصر، وأوصلهم الى الباشا، فلما قراه غاب عن الصواب، ثم أنه أرسل طلب عابدى أفندى كتخداه فى الحال، فلما حضر بين يديه قال له، هل أرسلت شيئا من المكاتيب الى الوزير، فقال لا وحلف وغلظ الايمان، فأعرض عليه المكتوب، وقال له هذا ما هو خطك، وختمك. ثم أنه أمر بقتله، فقتل كما تقدم، وارسل جميع ماله ومخلفاته وأولاده الى الديار الرومية، وكتب مكاتيب وصورة العرض الذى جاء من الاسكندرية، وأبى أن يرسل العرض لكون ختوم الأربعة فيه من أهالى مصر، ولم يعاتبهم بما فعلوا من مطاوعتهم لكتخداه [1]، وجعل الذنب لكتخداه، وهذا هو السبب الباطن والله أعلم، فلما شاع فى القاهرة، أن الباشا قتل كتخداه، وسببه أرسال الغلال الى بلاد الافرنج، امتنعت التجار من هذا الأمر، وحصل فى الغلة عدم التفات، وكان

(١) بالأصل «مطاعتهم لتخداه».

يحضروا فوصلوا الى قليوب بعد المجلس في يوم سبت العازر (*) وكتب البطرك اليهم بان يرجعوا الى كراسيهم وان الله قد اغنى عن ازعاجهم وان الدايرة كانت على من عانده ووافقه. فرجعوا لان طلبهم ما كان الا من جهته لا غير وكان فيهم على ما ذكر من يريد ان يشهد عليه باخذ الرشي وانما ما وجدوا سبيلا ولا صادقوا محلا وبقى البطرك لا هو طيب مع الجماعة ولا هم طيبون معه

(*) سبت العازر: هو السبت السابق ليوم الاحد والذى يعتقد فيه ان العازر قد عاد إلى الحياه.

قتل الكتخدا فك طلسم الغلا، فنزلت الغلة لنفسها، الى أن بيع القمح بثمانين الى ماية، والفول بستين الى خمسة وستين، وكان قتله سبب ذلك.

ثم أن في يوم الخميس خامس محرم، حصل أن بعض جماعة من المتكلمين في باب مستحفظان، ودبروا أمرا فيما بينهم، على نفى جماعة من الاوجاق، ففسد منهم الشغل، فخافوا على أنفسهم، فذهبوا الى باب العزب، فمن جملتهم، ابراهيم افندى، كاتب كبير مستحفظان سابقا، ومحمد جريجى تابع مصطفى كتخدا بأبو شنجى أو غلى، وبعض جماعة. ثم ان اختيارية باب مستحفظان توجهوا الى بيت أسماعيل بيك، أمير، الحاج، و أرسل[1] اسماعيل بيك أحضر الجماعة الذين راحوا باب العزب، وأصلح بينهم وبين أهل الاوجاق، وأمر اختيارية الانكشارية، أن يجعلوا ابراهيم أفندى كاتب كبير، وأن يعطوه الجوالى، فكان كذلك، وأضافوا له جمرك بولاق، ورجعوه الى الباب.

ثم أنهم فتشوا على من كان سبب هذه الفتنة، فراوا الفتنة، من أيواظ أوضباشية باش الاوضباشية، فعزلوه، وولوا ابراهيم أوضباشا باشى، فلما تولى ابراهيم أوضباشا، خاف ايواظ أوضباشا على نفسه، فراح العزب في أثنى عشر محرم سنة ١١٣٥[2].

وفى خامس عشر، ورد آغا من الديار الرومية بمقرر الباشا، من طرف البحر وصحبته،

(١) بالاصل «الى» مشطوبة.

(٢) ٢٣ اكتوبر ١٧٢٢م.

لا ظاهراً ولا باطناً. ثم ان البطرك مضى فى عيد الزيتونه (*) الى كنيسة بوجرج الحمرا وكان مقيما به شيخ ارخن يعرف بالصنيعة اخى السنى وهو مستوفى ديوان الخزانه المعمورة الذى الدواوين كلها راجعة اليه، وكان قصد البطرك اصلاح قلبه لانه كان رجلا عالما عاقلا نافذ الكلمة خالياً من الهوى فبات عنده ليلة الزيتونه وكتب له خطه بان يسلم الاوقاف التى للكنايس لرجل جيد ممن تختاره

(*) عيد الزيتونه: هو حد السعف.

رضوان آغا، الذى كان هرب صحبة أيوب بيك سنة ١١٣٣ (١). ولكن تخلف فى اسكندرية لأمر حصل له، وهو أن زوجته حصل لها مرض من اختلاف الارياح والبحر. وكانت ربت المحاظى اللواتى كن لعثمان أوغلى نصوح باشا باشت الشام، وأمير حجهم الذى شاع ذكره فى الخافقين من شجاعته وتدبيره، ومن جملة تدبيره، أنه قتل كليب، الذى هو مثال بين الناس، يقولون: أنت جبت راس كليب. وملك قلعة الكرك، التى لم يملكها ملك ولا سلطان بعد الناصر بن قلاوون(٢) وفتح درب الحجاز، الذى كان قفل، ففتحه بقايم سيفه.

من جملة ما عمل لهم، حلوى فى علب، نحو اثنى عشر ألف علبة، كل علبة نصف رطل، مسمومة بالسم الخارق، وأرسلها صحبة شرذمة من عسكره، على حكم التجريدة، وكان العرب مجتمعين لنهب الحج الشريف، فلما رأوا هذه القافلة، نهبوها عن بكرة أبيها، فهربت الرجال، فما أحد من العرب تبعهم، ففتحوا الحمل، فراوا حلوى فى علب، فنزلوا عليها بالأكل فمات أكثرهم، والذى لم يمت من الحلوى، ادركه عثمان أوغلى فعجل عليه بالموت، فخلت منهم الديار وقدر العرب الذى هلكت اثنان وثلاثون ألفا. وكانت هذه الحيلة، سببا لهلاكهم، وأيضا عمل اثنى عشر الف بلطة، اعطى كل رجل من عسكره بلطة، وسار نحو

(١) ١٧٢٠ / ١٧٢١م.
(٢) بالاصل «قلون»، كتب عنوان جانبي «اعرف اخبار نصوح باشا بالشام».

الجماعة فان ريعها يصرف اولا فى مرمتها ثم مرمة الكنايس ووقودها وقرابينها، ومهما فضل فرق على المساكين، وليس له في ذلك الا النظر لا غير، ولا يتسلم منه درهما وانه يقيم على مصر اسقفاً وكذلك على الخندق وكذلك ساير الكراسى الخالية ممن ترتضيه الجماعة ويشهد بصلاحته، وانه يقيم بمصر معلماً وبالقاهرة معلماً ليعلم الناس ما يشذ عنهم ويفسر لهم ما يشكل عليهم ويحرر

بلاد الدروز، ثم أنه أمر العسكر بأن يقطعوا أشجار التوت، التي كل توتة تجى على احضان رجلين. وجمع مالهم وأخذهم وبيعهم من هذا التوت، لأنهم يأخذون أوراقه الى دود القز، فمكث خمسة ايام يقطع في شجر التوت باثنى عشر الف بلطة، حتى أنه أفقرهم و أذعنوا للطاعة وصاروا اذل من اليهود. ولو ذكرنا جميع مناقبه، لطال علينا الحال، وانما اقتصرنا بهذه، وأنا لم اذكر شينا من هذا، وانما اقضى التاريخ ذكر هذه النبذة اللطيفة.

ونرجع الى ما كنا نحن فيه من اخبار القاهرة، المعزية، لرضوان آغا وزوجته، التي هي ربت محاظي عثمان آغا أو غلي ، فانه لما قعد فى رشيد، وجاءهم الخبر، أرسلوا له مركبا عظيمة، فنزل فيه، ثم أنه ورد الى بنط بولاق ثامن محرم سنة ١١٣٥(*).

وتوجه له زوج ابنته قاسم بيك الصغير، تابع محمد جركس بيك، وادخلوه بيته بموكب عظيم، وكان اسماعيل فرش له البيت، وخزنه من جميع ما يحتاج اليه حتى البن.

وفي حال وروده الى بولاق، أرسل له جوادا معددا، ولما أتاه البيت ليسلم عليه، أعطاه تقسيط بلد فى الغربية، فايضها ثمانية أكياس، وقد جاء صحبته أربعة خطوط شريفة، فلم يقر منها ولا واحد، لأنها متعلقة بالباشا، وسبب مجئ رضوان آغا أنه (١). قبل مجيئه بثلاثة شهور، ورد مكتوب من ابراهيم باشا الوزير، الى باشت مصر وأعيانها بالشفاعة في رضوان آغا

(*) ١٩ أكتوبر ١٧٢٢م.

(١) بالأصل «أنه».

الكتب والتفاسير بحيث انه لا يقف على من يقراها منها شيء، وانه اى ديراً اراد اربابه ان يكون تحت نظر اسقف ذلك الكرسى الذى ذلك الدير فيه جعل نظره عليه بشرط ان يحمل ديارية الدير المذكور اليه، واشياء من هذا الجنس كثيرة منها: انه يجعل معه اسقفين يكونان حاضرين للاحكام والتصرفات كلها ولا يبت امراً من دونهما. فاخذ الشيخ الصنيعة الكتاب المذكور وجآء به الى

ورجوعه الى مصر، فقرى بين أعيان الدولة، فأجابوا بالسمع والطاعة. وكتب محمد باشا مكتوبا، واسماعيل بك مكتوبا، وعين الوزير جوخدار من أتباعه بقبول الشفاعة، فهذا كان بسبب مجيئه، والله أعلم.

وفى اثنين وعشرين محرم، توفى محمد آغا بن الجيعان ترجمان الباشا، وتولى بعده روس عثمان آغا.

وفى ثالث عشرينه، ورد نجاب من الحجازية، بمكاتيب مضمونها، دخول يحيى الشريف الى مكة المشرفة، ولم يقابل الشريف عبدالله، شريف مكة، ولا أحدا من حلفاه، لأن مجرد، ما أتاه الخبر، بتولية الشريف، وأنه صحبة الحاج الشامى، توجه الى اليمن، واجتمع بأشراف مكة، ورضوا به شريفا عليهم، لاطاعة السلطان ، ولحظ الشريف الذى صحبته باشت حلب وصحبتهم تسعة آلاف مقاتل وخمسماية صحبة أحمد بيك المسلمانى وأمير الحاج المصرى محمد بيك بن اسماعيل بيك الكبير، والله أعلم.

وفى ثامن صفر، دخل الحاج الى مصر، وعامهم سخا ورخا، ولكن تعلق معهم الفنا الى العقبة، فأهلك خلقا كثيرا، ومن جملة من مات، قاضى مكة، وقاضى المدينة، وباشت الشام، على باشا بن المقتول فى عسفان والله أعلم.

ثم بعد أن جاء الحاج الى مصر، جرت نكتة، وما ذاك الا ان العزب بعد دخول الحاج ارادوا

كنيسة بوسرجه الى الشيخ السنى الراهب لانه كان مقيما بها، فاوقفه عليه وكان معه جماعة من الكهنة والاراخنة فما رضى به. وقال: ان قدم اسقفا على مصر فما تكون كنيسة بوسرجه له واريده ان يكتب نسخة هذا الكتاب. واخرج نسخة كتاب بخط انبا يوحنا ابن ابى غالب المتنيح وفيه شرح الامانة والبركة من المجمع الرابع(*) وفصول كثيرة فى امر الختان وتربية الشعر وما يجرى مجرى

(*) المجمع الرابع: وهو الذى عقد فى افسوس عام ٤٤٩م.

- -

أن يغيروا الكتخدا المتولى عليهم ويولوا غيره بعد الرجوع من الغيبة [١] فاجتمع رأيهم، على أنهم يولون على جربجي ابن يوسف كتخدا، تابع البليك، صاحب وكالة في سوق السلاح، وقروا معه فاتحة، على ثلاث آلاف زنجرلي فعلم حسن جربجي أبو مدر، مملوك أبيه وزوج والدته، فاجتمع عليهم، وانقدهم الثلاثة آلاف زنجرلي، فألبسوه الكخاوية، وطرحوا ابن سيده، وأصل ذلك انه وقع بينه وبين ابن سيده غم، وقال له فى اثناء الغم، أن لم أبوسك يدى، والا لم أكن شيئا كما تقول. فجرت حركة الكخاوية، فلما أخبر بها، فقال هو في غد يعمل كتخدا وبعد ما يكون يبوس يدى أبقى أنا أبوس يده، لكن أعمل أنت كتخدا [٢] وبوسه يدك، فأنقدهم الثلاثة آلاف زنجرلي وعمل كتخدا.

فلما رأى على جربجي، انهم قدموا مملوك أبيه، وعملوه كتخدا، مع أنه أقدم منه فى الجربجية، وأن الكخاوية كانت له، فقال فى نفسه، هذا مراده، يثبت ما قاله من بوسى يده، ولكن أروح الى وجاق الانكشارية الى أن ينعزل ارجع الى الباب كما كنت، فراح الى الانكشارية، فلما علم اسماعيل بيك أرسل اخذه[٣] من الانكشارية وسأله عن سبب رواحه الى الانكشارية، فأخبره بحقيقة الأمر، فأرسل أخذ عرضه الى الجاوشية، وأنزله آغا، ثم أنه طلع هو واياه الى الباشا، والبسه قفطان أغوية العزب، وأنزله الى باب العزب آغا عليهم، وكان مراد

(١) بالأصل «الغبة».

(٢)، (٣) قدم واخر.

ذلك. فقال الشيخ: الصنيعة يكتب هذا الكتاب وما فيه شي ردى. قال: واريد ان يكتب بانه يصرف الرهبان فى المدن والريف وان لا يرجع يكلل عروسا في يوم رفاع نينوى. ولا الرفاع الكبير لاجل دخول الاصوام عليهم، وان يعمر كنيسة المعلقة ودير بو مقار، واشيا مثل هذه الامور. فاخذ بها الشيخ الصنيعة نسخه وضمن انه يفعلها

حسن كتخدا، أن يوس يده ابن سيده، فأراد الله أنه هو يوس أتاك ابن سيده يخفي يده الا أتاكه ـ يعني ذيل قفطانه، ومن الجايز أن نظر السعيد، اذا حل على منحوس أسعده، وبعكسه كذلك، كفانا الله واياكم شر النحوسات، كما قال صاحب الهمزية الامام البوصيرى فى همزيته.

واذا سخر الاله اناسا .. لسعيد فانهم سعدا

ونزل بالاغوية فى ست وعشرين صفر سنة ١١٣٥[1].

وفى غرة ربيع أول[2]، نزل عبدالله بيك الى القليوبية، وخرب [بلدة] طوخ الملق ونهبها، وقتل منها مايتى وآثنين وثلاثين رجلا، وخوزق عشرة أنفار، وهم الامام، والخطيب . والمبلغين، وستة مشايخ البلد، فمكثوا ثلاثة أيام، ثم ان فى اليوم الثالث مر عبدالله بيك على كوم البلد فرأى العشرة وهم مخورقين، فجاء الى الامام وهو على الخازوق وقال له يا مولانا هل المقتولون هؤلاء يغسلون ويكفنون ويدفنون، فقال الامام له نعم، هؤلاء شهداء من أهل الجنة، فقال له: يالله العجب، لما استجار سليمان آغا أبو دفية والغز، الى بلدكم، لما انطرد من سالم ابن حبيب ، مع أنها بلدنا صرتم تمسكوهم وتسلموهم لهذا الفاجر، سالم، يقتلهم، وأفتيت أنت بعدم تغسيلهم وتكفينهم ودفنهم، وان تتركوهم للطير والوحش يأكلوهم، وقلت أنت هؤلاء بغاة،

(١) ٦ ديسمبر ١٧٢٢م. (٢) فى١ ديسمبر ١٧٢٢م.

وتوجه. وكان هذا فى يوم احد الزيتونه. وبعد ذلك خرج الامر بهدم دار الاميـر نور الدين بن الامير فخر الدين عثمان التى بدار الديباج(*) وهو مقدم الامرا الذين كانوا نافقوا وراحوا الى الشام الى الملك الصالح اسماعيل فى العام الماضى فشرع فى هدمها فى العشر الاوسط من برموده(*) من السنة المذكورة. وهم بهدم دار بن الشيخ الاخرى التى فى

(*) دار الديباج: كانت توجد بحارة زويله وباب الخوخه حيث «دار الوزير يعقوب بن كلس» التى عرفت بعد وفاة يعقوب سنة ٧٠٧ ق. = ١٩٩٠م. «بدار الديباج» لأنها صارت برسم استعمال الديباج. ثم صار موضعها المدرسة الصاحبية التى كانت للصاحب صفى الدين ابن شكر وقفها بعد وفاته سنة ٩٢٩ق. = ١٢٣٢م. على اتباع المذهب المالكي. انظر متن المخطوط ص٦٢٥.

(*) العشر الاواسط من برمودا= ٦ ابريل إلى ١٥ أبريل.

فهذا جزاؤك، فقال له الامام : حسبك الله، أما أنا فانى قد رأيت مقامى، وأما أنت فاستعد لوقوفك بين يدى الله سبحانه وتعالى. وانى أنا رايح قدامك، فان كنت تقدر على الهروب فاهرب، أو على عدم المجئ فلا تجئ.

ثم أن عبدالله بيك، أمر المشاعلى أن يعجل عليه، فلحلح الخازوق، فخرج من صدره، فمات رحمة الله عليهم أجمعين.

وسبب ذلك، أنهم لما انطردوا من سالم بن حبيب، واستجاروا بهذه البلد، رموا عليهم بالنار، ومنعوهم من دخولهم البلد، فهذا هو السبب والله أعلم.

ثم أن البلد خربت ، ونادى عبدالله بيك في الاقليم، على أن كل من أجار سالم، وعرب الجزيرة، أو اطلعهم بلده، أو أواهم أو ركب معهم، يجرى عليه حكم ما جرى على هؤلاء، فلما سمع سالم بن حبيب، سافر نحو الصعيد، لعرب يقال لهم المغاربة، الذين كان عندهم سابقا، فلما اخبر اسماعيل بيك بأن سالم راح الى عرب المغاربة [1]، كتب مكاتيب، وأرسلها الى غيطاس بيك الأعور، كاشف جرجة ومنفلوط، هلبت من ركوبك على سالم بن حبيب، وطرده من الصعيد وأن قدرت على قتله فأقتله، فأرسل الى شيخ العرب القبيلة، وكان بينه وبين شيخ العرب صحبة، فارسل له واخبره بمكتوب أسماعيل بيك، فقال له على الرأس

(١) كرر لفظ «المغاربة» بالاصل.

درب ملوخيـه(*) ولم يفعل ذلك بل ان رخامها وبلاطها قلع وحمل الى القلعة المحروسة. ووصلت فى هذه الايام رسل امير المومنين خليفة العصر المقيم ببغداد بالجامع وتقليده الوزارة للسلطان الملك العادل اعز الله نصره ومعهم رسول السلطان المشار اليه الذى كان سيره الى هناك من مدة. ولبسها السلطان في يوم الجمعة وكان يوم الصلبوت العظيم الثامن عشر من برموده [١٣

(*) درب ملوخيه: كان يعرف بحارة قائد القواد حسين ابن جوهر. وقد عرف حديثاً باسم حارة قصر الشوك المتفرعة من شارع قصر الشوق بالجمالية. وهى من دروب الفترة الفاطمية.

والعين، لكن لا يصح الا بهمتك، فقال له كيف ما نصنع ؟ فقال أنا أعمل له عزومة عندى، وتكون أنت حاضر تحت الندهة، ثم أنه خرج من عنده، وتوجه الى المغاربة، وعزم على سالم، فتوجه صحبته الى نجعه، فعمل له عزومة، وذبح له الذبائح، وقدم له التقدمة، واذا بمرسال من عند المغاربة لسالم، وقال الكاشف قد ملك عليك جميع الطرق، بجميع الغز والعساكر وأحاطوا بجميع البلد، فما كان جواب سالم لشيخ عرب القبيلة، الا قوله له، ما هذا شأن مشايخ العرب، يأخذوا الناس بالحيلة. ثم أنه جرد سيفه، وضرب شيخ العرب قصمه نصفين، وركب هو وجماعته فتقاتلوا الى نصف النهار، فولت خيل الكاشف، وقد قتل منهم خمسة وثمانين نفسا، ثم عاد الى البلد، فقتل أولاد شيخ العرب واخوته وأتباعه، ونهب جميع ما فى البلد، وسار الى المغاربة على حمية، ووصل الخبر الى مصر، فلما سمع اسماعيل بيك بما حصل من سالم، فى حق شيخ عرب القبيلة، سكت عن غصصه، ثم أن اسماعيل بيك، قعد يوما من الأيام، واذا برجل منافق من كبراء الدولة، دخل عليه وأسره فى اذنه سرا، فتغير حاله من بعد ما كان فى انبساط ، ثم انه فى الحال أرسل الى على جاويش (كيل) يعنى الأقرع، وقرا مصطفى أوضباشا قريب محمد جاويش جدك، ودخل وأياهم الخلوة قدر ثلاث ساعات من الليل، واتفق المجلس ، وروح كل الى مجلسه. ثم بعد يومين، واذا بكيل على جاويش، أحدث عزومة الى اختيار كتخدا المسلمانى وبعض من اختيارية الأوجاق وجاوشية الاوجاق وحاشية الاوجاق، فهم فى العزومة، وكان عمر كتخدا البرلى نزل الى بيته يوم الجمعة،

إبـريـل] مـن هـذه الـسـنـة [٩٥٦ق. = ١٢٤٠م] وطلع الى قلعتـه المحـروسـة وكـان يوم مشـهـوداً وخـرجت الطوايف كلهـا فى خـدمـتـه، النصـارى وبطركـهـم وغـيـرهـم. وفى يوم الاربعـا الثـالث والعـشرين من برمـوده [١٨ إبريل] المذكـور ركب ولد السلطان المذكور بخلع الخليفـة بولايته العـهد بعد ابيـه وكـان طفـلا صـغيـراً مقـدار عـمـره ثلاث

وكانت العزومة يوم السبت غرة ربيع، وكان قرا مصطفى خلى البرلى فى عزومة كيل على، طلع إلى الباب ، فملكه فجاء الخبر الى الجماعة الذين فى بيت كيل على فقاموا ينظروا الخبر، كان لم يكن، معهم خبر، وكـان البـرلى فى بيتـه لم يكن عنده علم من ذلك، ومـصـطفى كتخدا باش اختيارية فى بيته، وكذلك رجب كتخدا فى بيته، فلما دخل عليه الجماعة الذين كانوا فى العزومة، على مصطفى كتخدا باش اختيار قال لهم ما هذا الحال، قالوا له لا نعرف، وكان ابن مصطفى كتخدا الشريف بيت المال، وعثمان كتخدا الجلالى، ومحمد جاويش خال قرا مصطفى جدك، الذى ملك الباب صحبة الذين فى العزومة، فبمجرد ما رآهم مصطفى كتخدا حاشهم، وقال لهم لا يمكن أنكم تخرجون من هنا مالم ينزل أحمد جاويش ابنى، ثم أن عـثـمان كـتـخـدا قال له لا تخـشى من شئ على ابنك وقروا فاتحة على أنهم رجل واحد، وأخذوا عمر كتخدا طلعوه فوق ، ولم ينزلوا الا مع اذان المغرب، ولم يمكن أن قرا مصطفى والجماعة يسلمون فى نزول أحمد جاويش. ثم أن فى ثانى الأيام عملوا جمعية فى بيت باش أختيار، وقالوا لباش اختيار اطلع الباب، وابنك ليس عليـه ضـرر ، فأبى أن يطلع الباب هو ورجب كتخدا، فلما طلعوا الى الباب ، حاشـوا أحمـد جاويش عن النزول، وكان هذا تدبير اسماعيل بيك، وقال لهم، احترصوا على ابن مصطفى كتخدا أن ينزل ، لأنه ان نزل، لم يتم أمره.

وكانت العزومة قصدا من كيل على ، وكان الأمر متمم بين عثمان كتخدا الجلالى، لان

سنين الى ماحولها [تقريبا]. وكان وراه خادم راكباً
والخلع كانت سوداً كلها لان هذا شعار الدولة
العباسية ورنكها. وكان يوماً مشهوداً الا انه دون
اليوم الاول لان السلطان الكبير ما ركب ولا رسل
الديوان بل الامراء يمشون في ركابه. وبعد هذا
انتبذ البطرك رجل قس يعرف بالمكين اى البها
[البهاء] من اهل منية غمر [ميت غمر] وهو كان
من اصحاب البطرك وكان يمشي له في جباية

الستة أوجاق كانت كلها تحت كلمة اسماعيل بيك الا باب مستحفظان، فانه لم يكن معه، ولا تحت كلمته الا النصف، وان الذين كانوا تحت كلمته لم يكونوا متكلمين في الوجاق، فدبر هذا التدبير لأجل ما يكون الوجاق تحت كلمته حكم الاوجاق الستة، ثم أنه عين أحمد كتخدا أمين البحرين قعد في باب العزب ، وكشك محمد في السلطان حسن بستين نفر وعشرة أوضباشية.

وفي يوم الأحد ثالث عشر ربيع آخر، نزل بيورلدى من الباشا خطابا الى السبعة اوجاق، بأن لا أحد منهم يقبل رجب كتخدا، ولا أحمد أوضباشا أخوه، ولا سليمان أوضباشا الأقواسي، وكان أخو رجب كتخدا، وكان الاقواسي يفسق، وأخو رجب ثالث، ونزلت تذكرة جامكيته وجامكية أخيه وسليمان الأقواسي وجميع أتباعهم، الى بلد الكشيدة، فلما جاءهم التذاكر، ركب هو وجماعته جميعا الى أحمد بيك الأعسر، بمعرفته محمد بيك جركس، وجاءه جركس وقاسم بيك الكبير، وقاسم بيك الصغير، وقالوا له لا تخف، كلنا فداوك، وطمنوه، وفرش له أحمد بيك الأعسر محلا له ولجميع أتباعه، وأرسل محمد بيك جركس بجمع غز وقيامة مقامات وعسكر من الذين يألفوه ويجتمعون عليه. وقد ملك من الحمام الذى بالرميلة الى بيت عبد الرحمن كتخدا باش اختيار الذى بقرب درب السادات وبيت قيطاس بيك وابن درويش بيك وملك الحومة جميعها، وأودع فيها رجالا وكذلك ملك بيت حسن أفندى ، نقيب الأشراف، ووضع فيه ماية وخمسين من الغربيات، الذين يبيعون المصبغات والعيدان، وأعطى كل واحد منهم خمسة زنجرلي، ورتب لكل واحد منهم جامكية، كل يوم خمسة عشر نصف

الوجه البحرى، وكان البطرك قدمه قساً على ثغر الاسكندرية، وكان قد حصل له غيظ من البطرك لاجل ما يراه من اقواله واحكامه وتصرفاته، فمضى إلى الصارم المسعودى الذى تولى الامر أولا وقال له: ان البطرك يقول انك اخذت منه مالا وتركته وان السلطان اذا بلغه هذا لم نامن منه [أى من البطرك] والمجلس ما انفصل الا مقروفاً بحضور الاساقفة وشهادتهم. وقد وصلت الاساقفة الى

فضة [١]، ورتب لهم سماطا بالضهر، وسماطا بالعصر، ورتب لهم القهاوى فى جميع المحلات التى ملكها، وأما اسماعيل بيك فأنه أرسل لجميع قيامة مقاماته أتى بهم من الأرياف جميعا، ولم يرسل أحدا الى بيت من البيوت سوى السلطان حسن، وباب العزب وباب الانكشارية، والخمسة أوجقه كذلك معه، وأما مصطفى كتخدا الشريف فأنه أبى أن يطلع من بيته، وقال أنا أموت فى بيتى، ولم أطلع منه أبدا.

ثم أن فى ثانى يوم، جاء ابراهيم أفندى كاتب كبير واختيارية الأوجاق الى بيت مصطفى كتخدا باش اختيار الشريف، على أنهم يأخذوه الى الباب، فقال لهم أنتم مرادكم أنى اطلع الباب وأكون باش اختيار عليكم. كما كنت، يعزل محمد جاويش جدك من باش جاوشيته، وقرا مصطفى يعمل جربجى وابراهيم الباش يعمل جربجى ، والا لم أطلع الباب ولا أقعد فى الوجاق أبدا، فلما سمعوا هذا الكلام قالوا نعرض هذا القول فى الباب ونرد لك الجواب، ثم أنهم طلعوا الباب واعرضوا القول فى بقية الاختيارية، فجماعة منهم أبت، وقالوا لا ينعزل محمد جاويش و لا يعملوا جربجية، وجماعة قالوا فى غاية ما يكون يجئ الى الباب وننظر بينهم، وكثر اللجج بينهم[٢]. وكان قد حصل لأحمد باش جاويش بن مصطفى تورعك، وأضطرب حين ملكوا الباب، فأنزلوه الى أبيه. ثم أنهم فى يوم الثلاث، خامس ربيع الثانى،

(١) قدم وأخر.

(٢) بالاصل «الحجج».

قليوب وردهم البطرك بكتبه. واغراه [أى أن المكين أغرى الصارم] بالبطرك، واخرجه الى ان رجع سيراً. حضر البطرك ووكل به واقعده في كنيسة حارة زويلة واحضر ابن اخيه ابا سعيد ووكيله ابا الفرج بن خلبوص وكاتبه القس سمعان وحبسهم. وسير احضر انبا يوساب اسقف فوه لانهم اخرجوا خطه على البطرك لفصول تحققها في جهته كان

اجتمعت السبع بلوكات في بيت أحمد بيك الاعسر، وتكلموا من جهة رجب كتخدا وأخيه، والاقواسي ومصطفى كتخدا وولده أحمد جاويش بيت المال قال: أمرهم أنهم يأخدوا عرض رجب كتخدا الى الجملية، وكذلك الاقواسي الى العزب، ومصطفى كتخدا الى الجاوشية، وابنه أحمد جاويش الى المتفرقة، ومحمد جاويش جدك باش جاويش على ماهو عليه، وتلبسوه الضلمة الى ايواظ اضباشا عوضا عن أحمد جاويش بن مصطفى كتخدا بيت المال، فكان كذلك فأرسلوا كتخدا الجاوشية، فأتى بعرضهم، فأخذت الجملية رجب كتخدا وتوجهوا به الى باب أغتهم، وكان آغاة الجملية اذ ذاك محمد آغا ابن الاشرف زادة، وكذلك الجاوشية أخذوا مصطفى كتخدا، والمتفرقة آخذوا احمد جاويش بيت المال، وكذلك العزب أخذوا أحمد أوضباشة وسليمان الأقواسي. وانفض المجلس من الاوجاق، وأما الصناجق، فأنهم لم ينفكوا عن ماهم فيه من اجتماعت العسكر وملكهم في المحلات، وتزايد الأمر بينهم وتفرقة الفلوس، فلما انقطعت تفرقة المال من اسماعيل بيك، قالت له العسكر هذا الأمر الذى أنتم فيه لم يفرغ أبدا، واجتمع من الاوجاق السبعة، أربعة عشر اختيار وراحوا الى اسماعيل بيك وقالوا له الاختيارية جميعا يسلموا عليك، ويقولون لك، هذا الأمر لا يفرغ، فان كنت تريد الصلح، نصلح بينكم، وان كنت ما تريد الصلح أحنا مالنا في هذا الأمر شئ احنا لا نمشى الا في الخير، وأما في الشر ما نمشى معك ولا معه. فقال اسماعيل بيك، وأنا كذلك مرادى الصلح، فتم الأمر. ثم أنهم قاموا من عنده، وتوجهوا الى جركس وقالوا له مثل ما قالوه لاسماعيل بيك، فاجتمع رأيهم على أنهم يجعلوا جمعية في بيت سيدى عبد الخالق السادات ثم أن في

كتبها ايام مخاصمته معه لما اخذ منه الضيعة
المعروفة بدنيبه فحبس الاخر معهم وسير الصارم
كتبه الى الاساقفة بان يحضروا، فحضر منهم
احدى عشر اسقفاً وفيهم من كتب خطه تسعه
وهم: انبا يونس اسقف سمنود وانبا مرقس اسقف
طلخا وانبا يونس اسقف بنها وانبا يونس اسقف
لقانه وانبا مخاييل اسقف البرمون وانبا غبريال
اسقف سنهور وانبا ميخاييل اسقف سنشا [شنتنا]

ثاني يوم اجتمعوا في بيت سيدى عبد الخالق جميع اختيارية السبعة أوجاق وآغا من طرف الباشا، واسماعيل بيك امير الحاج، واسماعيل مملوكه، وعبد الرحمن بيك ومحمد بيك أمير الحاج بن اسماعيل بيك الدفتدار، وأحمد بيك الأعسر، الوكيل الشرعي عن محمد بيك جركس، لأنه لم يأت الى الجمعية، وأقام الاعسر وكيلا عنه في الصلح.

ثم أنه فتشوا الكلام فقال أحمد بيك الاعسر لاسماعيل بيك، الاول من الكلام، الذى يقع عليه الصلح، أن الصناجق لا يقارشوا (١) البلوكات، ولا البلكات تقارش الصناجق ، فقال اسماعيل بيك نعم، فقال الاعسر، وكل من طلع من وجاق يرجع الى وجاقه، والذى لا غرض(٢) له في(*) الرجوع الى وجاقه بخاطره، وهذا أمر مطلوب من أهل الوجاق، وأن تقدم منك أول الكلام، أن ليس لنا مقارشة عندهم، ليس لى ولا لك فيه تعلق، ايش كان قولك(٣) يا بيك، فقال الاعسر: المناصب التى تتعلق بأمير الحاج ليس لأحد مقارشة فيها، والذى تتعلق بالدفتدار كذلك ليس لاحد مقارشة فيها بوجه من الوجوه على حكم القوانين القديمة، فقال اسماعيل بيك نعم هذا كلام ما يقدر أحد يعارضه، فقال الاعسر وما بقى من المناصب والكشوفية فنصفها لنا ، ونصفها لك فقال اسماعيل بيك، هذا امر لا يمنعكم منه

(١) بالأصل «لايكارشوا».
(*) بالاصل «فيه».
(٢) بالاصل «تعريض».
(٣) بالاصل «قول».

وانبا افرهام اسقف نستراو(*) وانبا مرقس اسقف سنجار ومنهم من لاحظه اثنان وهما: اسقف فوه واسقف اشموم، وكتبوا جميعهم خطوطهم بان البطرك اخذ الرشى على رتب الكهنوت واعطاها. ومنهم من كتب انه دخل تحت المنع لانه كتب خطه بشروطه وخرج عنها. ولم يبق من لم يكتب خطه منهم الا مطران دمياط واسقف اشمون فانها

(*) سمنود: كان اسمها القبطى سمنوتى Djemnouti لأن حرفى dj ينطقان فى اللغة القبطية صادا مثل: Djani وهى صان، وMedjilوهى مصيل. كما ينطق الحرفان dj سينا كما فى: pemdji وهى بهنسا، وDjebenouti وهى سنباط. والأسم المصرى لسمنود هو سبنترت وهو مكون من مقطعين «سب» ومعناها هنا الأرض، و«نترت» ومعناها المقدسة أى الأرض المقدسة ثم حرف اسمها سنترت إلى سبنوتس الرومية ثم إلى سمنود بعد الاحتلال العربى. وهى تقع على الضفة الغربية لفرع دمياط قرب المحلة.

أحد، ولكن أنا ما تلبست بالكشف، الا انكم لما أنكم لم(١) رضيتوا تلبسوا فخشيت على المناصب التى للسطان أن تتعطل، والأقاليم تخرب فأخذتهم ولكن أنتم لما أخدتم البحيرة، هل أحد منعكم، ولكن فى هذا العام ما عاد يمكن، ان شاء الله العام القابل لكم النصف ولنا النصف، هل بقى لك شئ، فقال له الاعسر مشتهر(*) الذى نهبها حمزة بيك مملوكك، نرجع نهبها، فقال اسماعيل بيك هذه البلد كانت مأوى المفاسيد، وخربها الحاكم، والرعية جيرة البلاد، والعرب نهبتها، والنهب لا يرجع، ولكن تعفونا من هذه، وما بيننا وبين محمد بيك أمير الحاج خلاف.

ثم أن المجلس قام على الاعسر، وقالوا تعفونا من هذه القضية، واسماعيل بيك يعرض على محمد بيك أمير الحاج أيش يقول يا أمير محمد بيك؟. فقال محمد بيك: الأمر للاعسر لأنه الوكيل: فقالوا له: ما تقول يا أحمد بيك، فقال: لأجل خاطركم، قالوا له: رضيت فقال: رضيت قالوا: عهده جركس، قال الأعسر، على كل مقام من جركس أنا أكون القاعد به، وأنت يا اسماعيل بيك من يقعد بعهدتك؟ فقال: المجلس جميعا نحن الكل نقعد بعهدة اسماعيل بيك الفاتحة.

ثم أنهم قروا الفاتحة، وشربوا الشربات ثم انصرفوا من المجلس، وان اسماعيل بك يشيل

(١) قدم وآخر.

(*) مشتهر: احدى قرى، مركز طوخ، ومحافظة القليوبية، محمد رمزى، قسم ٢، جـ٢، ص ٤٨.

لم يوافقا على شئ من ذلك. وجرت مفاوضات بين البطرك وبين هذا القس وعدد له اشيا منها انه منع اسقف الخندق على اخذ ستة دنانير في ثمن تربه بدير الخندق ثم اخذها منه لنفسه. وانه حكم على امراه [امرأة] بان ترد المهر لمالكها مضاعفاً لما ارادت الرهبنة ، ثم خالف الحكم في غيرها، وانه كرز اولاد العبيد كهنه واشيا يطول شرحها وشرح

طلخا: وتقع على الضفة الغربية في مواجهة المنصورة الواقعة على الضفة الشرقية لفرع دمياط.

بنها: وهو اسم مصرى قديم مكون من مقطعين: «بى» ومعناه بيت أو حظيرة، و«نها» ومعناها شجر الجميز فكأن «بنها» معناها حظيرة الجميز. ولا يخفى أن شجر الجميز كان له شأن يذكر عند المصريين فكانوا يصنعون منه التوابيت والأثاث والتماثيل. وقد عرفت باسم بنها العسل بسبب شهرتها الفائقة بعسل النحل. وهى تقع على الضفة الشرقية لفرع دمياط وتعتبر قاعدة لمحافظة القليوبية.

الحرس، من السلطان حسن، ومن باب العزب ومن باب مستحفظان وأبو قفه الذى في غيط أفرنج أحمد. وجركس كذلك يشيل الغز، التى اكراها وأودعها في البيوت، وكانوا نحو الفين بجوامك، وتوجه كل من الصناجق الى منزله، وأحمد بيك الأعسر توجه الى بيت الامير محمد بيك جركس، فأخبره بالمجلس، فأبى، وقال ان لم يأتى نهب مشتهر الثمانين كيس لم أصطلح، فقال له الاعسر: المجالس تحكم والذى لم ترض بصلحى لأى شئ اقمتنى وكيلا، ثم أنه حصل بين الاعسر وجركس مفاوضة كبيرة فى الكلام، ثم أن أحمد بيك توجه الى اسماعيل بيك واخبره بما حصل من جركس، فلما سمع اسماعيل كلام أحمد بيك قال: فمن نكث فانما ينكث على نفسه ، ثم ان اسماعيل بيك أرسل الى الجماعة ان لا أحد يروح منكم.

وفي ثاني يوم زود الحرس، فهو في الكلام واذا بسراج من سراجين حمزة بيك داخل على اسماعيل بيك وهو مجروح، فقال له اسماعيل بيك: ايش الخبر؟ فقال له: يا بيك أنا سراج من سراجين حمزة بيك، كنت مارر أنا ورفيقى فلان ففتنا على بيت جركس، فقامت جماعته علينا فقتلوا رفيقى وأنا انجرحت، ثم انى هربت وجيتك، فأخذ بخاطره وقال له: ما يكن إلا خيرا، وما زال الغم يتزايد بينهم، وفى كل يوم يعملون جمعية ولم ينتظم لهم حال.

ثم ان فى يوم الاثنين حادى عشر ربيع آخر اجتمعت الاغوات، والصناجق فى بيت محمد

ذكرها، وكان يقول انا ما افعل هذا الا من شان الله ولاجل صلاح كنيسة الله. وما زال الحال يتردد والشنأء تتاكد. وكتب كاتب البطرك خطه مفصلا بالاسماء بان الذى وصل الى البطرك من رشى الكهنوت وما يجرى مجراها انها سبعة عشر الف دينار وقيل خمسة عشر الف دينار وكسور. ثم ان الشيخ السنى المقدم ذكره كان من المساعدين

لقانه: وهي من قرى البحيرة. اسمها الأصلى نقانه وفى ظل الاحتلال العثمانى حرف اسمها إلى لقانه.

البرمون: واسمها القبطى Bara-mouni وهى تابعة لمركز المنصورة. وقد قسمت فى تاريخ سنة ١٢٣٠هـ = ١٨١٤م. إلى ناحيتين «هما البرامون وكفر البرامون.

سنهور: وهو اسم شائع للقرى والمدن المصرية. ولكن ما أشتهر منها سنهور التابعة لمركز دمنهور بمحافظة البحيرة. كان اسمها القبطى Sanhou-ri وأظن أنها المقصودة هنا. أما سنهور الأخرى فهى من مدن الفيوم مركز

بيك جركس، وكلموه كلاما يابسا، وقالوا له: أما أن تصطلح أنت واسماعيل بيك، والا شلنا أيادينا منكم أنت وهو بخاطركم. فقال اصطلح لأجل خاطركم، فقالو له: ترسل لاسماعيل بيك يتوجه الى بيت الشيخ البكرى ، ونتوجه احنا واياك اليه، ونوقع الصلح بينكم، فقال جركس: عواض عما نروح بيت البكرى نروح بيته، فقال الجميع والله نعم الرأى.

ثم أنهم ركبوا جميعا، وكذلك جركس، وتوجهوا الى اسماعيل بيك؛ فوجدوه قاعدا فى المقعد، والسيد أحمد البغدادى وصناجقه، فسلموا عليه، فأخذهم باهلا وسهلا، وأوقعوا الصلح الوافى، والبس جركس كرك سمور، وقدم له جوادا معددا بعدة كاملة ، وأنقضى المجلس على رضى، وتوجه كل منهم الى مجلسه.

ثم أن فى ثانى يوم، كل منهم فك الحرس الذى كان رتبه فى المحلات جميعا، ثم أن فى ثانى يوم ركب عشرة اختيارية، وتوجهوا الى مصطفى كتخدا، ان يرجعوه الى الباب باش اختيار على ماهو عليه، ويرجع أحمد جاويش يعمل باش جاويش، فأبى، وقال: لا أرجع الى الباب، الا اذا شلتم الحرس الذى حطيتوه، واحط أنا حرسا من عندى ، ويلبسوا قرا مصطفى الجربجية، وكذلك ابراهيم أوضباشا البولاقى جربجى، والا أنتم فى بابكم وأنا فى بابى، ثم أن الاختيارية توجهوا الى الباب وأعلموا الاختيارية جميعا، فقالوا. فى غاية ما يكون.

ثم أنهم جابوا عثمان كتخدا امضقران بتاع حارة عابدى، وعملوه باش اختيار، وانزلوه الى

للقس ابى البهـا [البهاء/ المكين] لانه كـان يرى ذلك من اسباب البر وانواع الاجر، فارسل اليه وطلب منه بان يكتب خطه بنسخه كتاب. وجد بخط انبا بولس بن ابى غالب الذى كان قبل هذا البطرك قد كتبته فى اول بطركيته بامانته الارتدكسية، ويقطع من ياخذ شيا من الرشى على رتبة من رتب الكهنوت او يعطيها، وابوابا من

سنورس ويذكر أن اسمهار القبطي هو Smen Hor ، وكانت مخصصة لعبادة الإله خنوم الإله المصرى الذى يخلق البشر من الصلصال وقد ارتبط اسمها باسم «بمويه» القرية منها التى اشتهرت ببساتينها وصناعة النسيج. وقد غلب اسم سنهور على المدينتين فورد اسمهما باسم سنهور في دفتر المقاطعات سنة ١٠٧١هـ. = ١٦٥٩م. = ١٣٧٦ق.

شنتنا: وتعرف الان باسم شتنا الحجر تتبع مركز المحلة الكبرى محافظة الغربية على بحر المحلة (بحراشبين). ويكتب اسمها أحيانًا

بيته بالاى عظيم بجميع الاختيارية الى منزله الذى بجامع الماس وكان ذلك يوم الثلاث ثانى عشر ربيع آخر سنة ١١٣٥(١).

ثم أن فى سابع عشر ربيع آخر ورد آغا من الديار الرومية، وصحبته خط شريف بدفع ستين كيسا الى باشة جدة، يأخذبها مركبا هنديا ليشيل غلال الحرمين، عوضا عن المركب التى غرقت. وورد صحبة الاغا تاجر كير من الشام هو واتباعه، على خيل البريد، الى أن جاءوا الى بركة الحاج، فقعدوا ليأخذوا لهم راحة، لكون أنهم دخلوا الامان، فبمجرد ما فارقهم الاغا نزل عليهم سالم بن حبيب فعراهم، وان الخواجا كان معه ألف أحمر خرجية السفر، وعرا كل من رآه في الطريق، ومن جملة ما أخد جمال عبد الرحمن بيك وكانت سبعين جملا محملا ذخيرة من الوجة لبيته وكذلك جمال عبد الله بيك، وجمال السقايين، وبهدلوا البلد بهدلة واسعة، واشعفوا قلوب الناس، وسالم قاعد في البركة،وكان صحبته المغاربة وعرب الجيزة وكل مفسود، وكانوا نحو ا لألف.

وكان سبب ذلك، لما حصل له ما حصل مما تقدم ذكره، مع قيطاز بيك فى الصعيد مع شيخ العرب القبلية وقتله، وقتل أولاده ونهب بلده، فقال: أنا بعدت عنهم، فيرسلوا خلفى يريدوا قتلى ولكن أنا أروح لهم أما يعمرونى وأنا كانوا ما يعمرونى قطعت عليهم الطريق،

(١) ٢٠ يناير ١٧٢٢م.

الاحكام والبراه من مجمع خلقدونيه. فكتب بالجميع بخط كاتبه. وكتب خطه عليه بانه صادر عنه وانه قابل بما فيه وقابل له. فقال الشيخ المذكور: ما يكتب الجميع الا بخطه ويضيف اليه انه لا يقدم اولاد الرواجع، ولا يدخل امراه [امرأة] الى الكنيسة الا بعد نقاها من الحيض بخمسة ايام. فكتب الجميع بخطه وكتب الزيادة التى زادها. ثم

شنتار.
نستراو: كانت من البلدان العامرة في بحيرة المنزله (بحيرة نستراو). وقد اندثرت الآن بسبب اهمالها في ظل الاحتلال العثماني، وغلبة الرمل وطم غالب بيوتها. ويذكر ان قوت أهلها السمك وشربهم من النيل حيث يأتيهم الماء الحلو من على مسيرة نصف يوم في المراكب عبر البحيرة. وقد وردت في معجم البلدان باسم «نسترو» قال وهي جزيرة بين دمياط واسكندرية يصاد فيها السمك، وعلى سكانها خمسين ألف دينار للسلطان. ومكانها الان قرب غرب البرلس على الساحل الرملى الفاصل بين البحر

ففعل ما سمعت اذهانكم الرايقة، فلما جاء الخبر الى، مصر اخبروا الوزير، فعين أمير الحاج وكاشف القليوبية حمزة بيك وعينوا صحبتهم عرب الصوالحة، وهم نصف حرام. فبقى نصف حرام من جهة مصر واقطاعها، وسالم فى المساطب، التى فوق بركة الحاج هو وخيله، ونصب صيوانه كاشف شرق اطفيح التى نهبه منه وهو متوجه من قبلى، لأن الكاشف لما رأى سالم وهو مقبل، رمح عليه وكان فى جماعة قليلة: وكانت بقية الخيل وراءه فهجم عليهم وقتل منهم، فهربوا جميعا. فاخذ الصيوان ونهب الوطاق والنقارية. ثم انه نزل إلى البركة وربط خيله تلك الليلة، فأكلت ستا وثلاثين فدان برسيم، ثم أن أمير الحاج قعد فى المسبك ولم يسر خلفه، فأرسل الباشا له فرمانا بالرجوع، فدخل مصر يوم السبت خامس عشر جماد أول. ثم أن الباشا عين عبدالله بيك، وحمزة بيك، وخليل اغا، وأرسل اسماعيل صحبتهم خمسماية جندى من اتباعه، ومن البلكات وصحبتهم فرمان لجميع العرب بالتعمير الا سالم بن حبيب واخوته، وجميع من يلوذ به، ويجتمع عليه. ثم أن التجريدة. سافرت ثالث عشر جماد أول؛ إلى أن حطت فى بركة الحاج، فسالوا على سالم فاخبروهم أنهم ساروا نحو غزة فركبت التجريدة على البلاد نهبتها وقتلت أهلها واخربوا المساكين والفلاحين؛ الى أن ادخلتم السباخ، ولم تقابلوا أحدا من الذين عليهم الكلام . ثم ان الوزير أرسل فرمانا بالعود، فعادوا ، وأما أحمد أوضباشا، فانه لما توجه الى العزب هو وسليمان أوضباشا الاقواسى أمروهم بالنزول

ان السلطان حضره الامر على الخروج فخرج الى بلبيس وخرج معه الامير الصارم واقفل ذلك المجلس واجتمع الاساقفة بالبطرك واتلوا عذرهم ولم يقل لهم كلمة الا ان خطوطهم بما كانوا كتبوا به قد صارت بايدى الناس نسخا عده. ومن بعد خروج السلطان الملك العادل الى بلبيس اجمع العساكر على امساكه وان يرسلوا الى اخيه الملك الصالح بان ياتي ويتسلم المملكة. فاجتمعوا

المتوسط وبحيرة نستروا (البرلس)، تسمى كوم مسطوره.
سنجار: هذا الأسم لقرية مندثرة في شمال الدلتا كانت عامرة حتى احتلال العرب لمصر ومنها أتى اللحن المصرى المعروف باللحن السنجارى. وهناك اشتباك في المصادر القديمة بين اسمها وبين عدة أسماء هي شتنا، وشنشار، وسنجار، وكوم النجار. ويذكر محمد رمزى في القاموس الجغرافي للبلاد المصرية أن اسم كوم النجار ورد في السلم القبطي العربي وفي كشف الأسقفيات، واسمها العربي سنجار بين إبيار وبرما. ويرى محمد رمزى أن السبب في تغيير

الى بلد رجب كتخدا، فنزلوا الى سمخراط [١]، فمكثوا فيها شوية أيام، ثم رجعوا الى مصر من شهرهم من غير فرمان لأنهم لما نزلوا الى سمخراط، نزلوا من غير فرمان، فعلم الجماعة بجيهم، فأخذوا فرمان بنفيهم الى الطينة فشفعوا فيهم، وأرسلوهم الى سمخراط ثاني مرة.

وفي أحد وعشرين جماد أول، توفى شيخ الاسلام والمسلمين، مفتي علوم الدين، شيخ مشايخ من تعاطى فن المعقولات والنحو والبيان، الفقيه المحدث، مولانا الشيخ منصور المنوفي [٢]، البصير بقلبه [الأعمى] و كان قد تجاوز التسعين، لأنه كان بقية القدماء، وقد كان أدرك الشيخ سلطان المزاحي والشيخ شهاب الدين القليوبي، والشيخ البابلي، والشيخ ابراهيم اللقاني صاحب الجوهرة، والشيخ على الشبراملسي والشيخ على الاجهوري، نفعنا الله بهم أجمعين في الدنيا والاخرة، وقد كان له علينا مشيخة ودفن في يومه وهو الحادى والعشرين من جماد أول سنة ١١٣٥ [٣]. وفي هذه التاريخ ورد شاهقتان من نحو أرض حوران، مملوءتان [٤] قمح في كل مركب عشرة آلاف أردب مصرى، وأبيعوا في دمياط، لأن الغلا فحش وتسامعت

(١) سمخراط: احدى قرى، مركز المحمودية، محافظة البحيرة، كانت تابعة قبل ١٩٢٨م، الى مركز شبراخيت، ثم الحقت بالمحمودية لقربها، محمد رمزى، المصدر السابق، قسم ٢، جـ٢، ص ٢٧١.
(٢) ٢٧ فبراير ١٧٢٣م. كتب عنوان جانبي «أعرف وفاة الشيخ منصور المنوفي رحمه الله».
(٣) ٢٧ فبراير ١٧٢٣م
(٤) بالأصل «مولانا».

في ليلة يسفر صباحها عن نهار يوم الجمعة التاسع من ذى القعدة سنة ست وثلثين وستمايه للهلاليه [=١٢٣٩م] الموافق للسابع من بوونه [١٣ يونيو] من هذه السنة [٩٥٥ق.] وكان الذين اجتمعوا رجال الحلقة ومقدموهم ثلثة من الخدام: شمس الخواص مسرور وشبل الدولة كافور والصفى جوهر النوبى والاشرفية وكان مقدمهم مملوكاً يعرف بابيك الاسمر وداروا حول خيمة السلطان ملبسين

الاسم من سنجار إلى كوم النجار، وهو أنها كانت خربت في العهد العربي وهرب معظم سكانها، ولما عمرت في العهد المملوكي الشركسي سماها سكانها الجدد كوم النجار ظناً منهم أنه هو اسمها القديم وهو سنجار. ومن هذا يتبين أن بشنجرى هو اسمها القبطي، وسنجار هو العربي، وكوم النجار هو اسمها الحالي. فوه: من المدن القديمة. وردت في كشف الاسقفيات هكذا: مصيل Madjil، وهي كرسي فوه: ويذكر شامليون أن بطليموس وضعها على الشاطي الشرقي لفرع رشيد. وقد حدث لبس في الاسماء بين فوة وعده

به الناس وجميع البلاد والله أعلم، وفى يوم الخميس ثالث عشرينه[١]. عزل العزب عثمان بيت المال القبرلصى، وعملوه جربجي، بعد أن شفعوا فيه من النفى، وسبب ذلك أنه تواعد مع ابراهيم افندى، الذى تقدم ذكره، وعملوه جربجي، على أنهم يأخذوا الباب مع موافقة من العزب اختيارية وأوضباشية ونفر. وتفرقت الفلوس فى بيت عثمان جاويش، هذا وكان رجل منهم بعد أن أخذ الذى أعطوه له نزل من عند عثمان جاويش الى بيت كشك محمد يمق عزبان اخبره، فأخذه اليمق، وتوجه هو واياه الى اسماعيل بيك فأعلمه، فلم يكذب خبره وأعطاه ماية زنجرلي، ثم أنهم أصبحوا فعلوا هذه الفعلة، ووقعت فى رأس القبرلصى بيت المال، ولم يحركوا ساكنا لغيره.

وفى عشرة رجب[٢] ورد اغا من الديار الرومية بخط شريف وسيف وقفطان الى شريف مكة يحيى، ومقرر الى باشت جدة، وأغوية المتفرقة، الى عبد الغفار افندى وان هذا لم يسبق الى احد قبل هذا، أن أغاوية المتفرقة تأتى من(*) الديار الرومية، وسبب ذلك، أن حسن أفندى أبو عبد الغفار أفندى كان عنده طواشي، فأهداه الى السلطنة فأرسل الى ابن سيده خط شريف باغاوية المتفرقة فألبسه الباشا قفطانا على آغاوية المتفرقة، فلما صار أغاة المتفرقة، وقعت حركة. وما ذلك الا أن أوجاق المتفرقة فرقتان ظاهرتان بخلاف غيره، مع أن كل وجاق فرقتين، لكن

(١) ١ مارس ١٧٢٣م. (٢) ١٦ أبريل ١٧٢٣م. (*) بالأصل «الى».

الزرد والعدد من العشا الى بكره فلما اصبح النهار عبروا اليه اخرجوه وجعلوه في خركاه في خيمة لطيفة ووكلوا به من رجال الحلقة من يحفظه ليلا ونهارا، ثم داروا على وطاقات ساير الامراء من الاكراد والمولدين فنهبوها ونهبت ادر كثيرة في مدينة بلبيس، ونهبت الكتاب والحكما والمغنون والسوقه وكانت نوبة عظيمة، الا انها لم يسفك فيها دم ثم عادوا الى اصحاب الملك العادل

مدن وقرى أخرى مثل مصيل ودمليج. ولكن محمد رمزى فى «القاموس الجغرافى» يذكر أن مصيل وفوه مدينتان منفصلتان وهما كذلك غير مدينة دماليج، ولكن لمجاورة سكان فوه لمدينة دماليج التى كان بها أسقفية كبرى للقبط، فقد أهمل اسم دماليج وعرفت اسقفيتها باسم اسقفية فوه. ثم الغيت اسقفية دماليج وألحقت فوه باسقفية مصيل لقربها من بعضهما وصارتا اسقفية واحده باسم مصيل وهى كرسى فوه كما ورد فى كشف الاسقفيات. وقد خربت مصيل ونعرف اطلالها اليوم باسم كوم المدينة بناحية بسنتاواى بمركز أبو حمص

هذا أظهر فالذين ظاهرين فى الوجاق هم متكلمو [١] الوجاق ستة من الاختيارية، سليمان آغا الشاطر، وعلى آغا، وعبد الرحمن آغا والقاشقجى وخليل اغا، وابراهيم كاتب المتفرقة سابقا، وكبيرهم محمد آغا السنبلاوين وتقدم أنهم من طرف محمد بيك جركس، ولكن لما ظهر اسماعيل بيك وجاءه العفو، انحطت كلمتهم، وصارت كلمة الوجاق للذى من طرف اسماعيل بيك؛ وهم اسماعيل اغا بن الدالى، واحد جلبى أغا استاذ الطالبية، وأيوب جلبى وهم الذين مالكين الباب ومتكلمين فى الوجاق، فأخذ الفرقتين المتقدم ذكرهما، لحقهما الحسد، فتكلموا مع بعضهم بعضا، حتى تولى عبد الغفار على أنهم. يملكون الباب. فاجتمعوا ببعضهم وانفارهم وملكوا الباب ، فهرب عبد الغفار آغا الى بيت اسماعيل بيك، ولم يوجد فى الباب ذلك الوقت أحد من ذلك الطرف: لأنهم كانوا عند اسماعيل بيك، واذا بعبد الغفار داخل عليهم فاخبرهم بالواقع ، ثم أن أسماعيل بيك أمرهم بأن يتوجهوا الى بيت أحمد جلبى ويجلسوا الاغا فى بيته ويجعلوه محل الحكم.

ثم ان أحمد جلبى، قال: هذاالبيت أو هذا الاغا. ثم أن الطرف الذى ملك بيت عبدالغفار قعدوا فى الباب ، وأرسلوا الى محمد أغا ابطال آغا وباكير اغا تابع اسماعيل بيك الكبير، ومصطفى آغا الذى فى العزب منفين، لأنهم من طرفهم وكانوا كبراهم فلما حصل لهم ما

(١) بالأصل «متكلمون».

الخواص فاوقعوا الحوطة عليهم وعلى موجودهم وكتبوا الى السلطان الملك الصالح ايوب(*) بان يحضر فوصل رسولهم اليه وهو بالقدس عازم على العود الى الكرك لانه كان قد عجز عن المقام على غزه لان عسكر مصر قدامه ومن ورايه الافرنج ومعهم صاحب دمشق(*). وكانت نية الملك الناصر بن عمه انهم اذا رجعوا الى الكرك اوقع عليهم الحوطه [الحصار] كما كانت اولا فجاه الفرج بل

غربى مدينة المحمودية قرب رشيد.وهكذا فإن فوه التى نعرفها اليوم تقع على الشاطىء الشرقى لفرع رشيد فى مواجهة المحمودية. وهى تتبع محافظة كفر الشيخ مركز فوه.

(*) الصالح ايوب: حكم بين سنتى ١٢٣٩ و ١٢٤٩م.

(*) الصالح اسماعيل.

حصل من الذى تقدم ذكره فى واقعة جركس، وراحوا الى العزب ، وتمكنت جماعة اسماعيل بيك لم ينتقلوا الى المتفرقة، فلما ارسلوا لهم أن ياتوا الى الباب ابوا ، وقالوا: احنا لم نأت الى الباب بقولكم. فلما ابوا المجئ، عملوا القاشقجى باش اختيار، محل ابطال، لأنه كان باش اختيارهم، وعزلوا وولوا على مرادهم، فأصبح اسماعيل بيك يوم الاحد، وعلى بيك وأمير الحاج ومملوك اسماعيل بيك الدفتدار، وأخبروا الباشا بما فعل القاشقجى، فأرسل الباشا اثنين أغوات من جماعته ومن كل وجاق اثنين اختيارية ينظروا الخبر، فلما نزلوا اليهم فزعوا عليهم، فرجعوا واخبروا الوزير بما وقع منهم ثم ان الباشا منع الصناجق من النزول الى بيوتهم، وأرسل لهم فرمانا بنفيهم الى الكشيدة، فأبوا وصمموا على عدم رواحهم الى الكشيدة.

ثم أن الباشا لم يزل حايش الصناجق الى المغرب، ثم أنهم نزلوا بعد المغرب، واوعدوا الباشا أنهم فى غد يفكوا هذا الامر، وان كان ما يروحوا الى الكشيدة، والا، نسحب عليهم بيرقا ونحاربهم. ثم أنهم فى ثانى يوم، عملوا جمعية واتفق أمرهم على أن الستة كل واحد منهم يروح الى وجاق من الستة اوجاق، ثم انهم اخبروا الوزير بما حصل لهم، فأرسل لهم(١) ست فرمانات لكل واحد فرمانا بوجاق من الوجاقات (٢) هو وجماعته، فكان كذلك، وتفرقوا فى الاوجاق، ونزل اسماعيل بيك الى بيته يوم الاثنين ثالث عشر رجب سنة

(١) قدم وأخر.

(٢) بالاصل «الوجاق».

الملك من حيث لا يحتسب وركب وجاء الى العسكر ببلبيس فوصل يوم الاثنين التاسع عشر من ذى القعدة سنة سبع وثلثين وستماية الموافق للسابع عشر من بوونه [٢٣ يونيو] واعطى المقدمين الاموال الجزيلة وخلع عليهم وعبر الى القاهرة المحروسة فى نهار يوم السبت الرابع والعشرين من ذى القعدة المذكورة الموافق للحادى والعشرين من بوونه [٢٧ يونيو]. وشق المدينة وطلع

١١٣٥[1]. وكانت الطوايف التى قدامه دخلت الى بيته وهو نازل من باب العزب، لأنه مكث ثلاثة أيام فى باب العزب، حتى تم الأمر على مراده. وكان خلفه نحو المايتين بالطرابيش الكشف، وجميع صناجقه خلفه، وكذلك أهل البلكات، الى أن دخل منزله والكل مسلحين الى ثانى يوم جاءه الخبر أن هذه الفتنة، من اسماعيل آغا ابن الدالى. فطلع يوم الثلاث الى الديوان البس اسماعيل أغا بن الدالى آغوية العزب، وقرا على آغا بن يوسف أغوية العزب، وأرسل احضر محمد آغا أبطال باش اختيار. وكان ذلك فى خامس عشر رجب، وفى يومها عبد الله بيك وحمزة بيك، جاءوا بأربعماية وخمسين رأسا، وسبعة مقادم بالحياة، ويدخل مصر بالليل، فقتل الذين معه، وأرمى الرءوس، ودخل بعد العشاء، والله أعلم بنيته[2].

ويرجع النص: الى سالم بن حبيب فأنه لما علم أن التجريدة، راحت له صحبة عبدالله بيك، وحمزة بيك، قال وسع حتى يأتوا، وعاود أرجع، فسافر نحو غزة، فلما قرب من أرض غزة، واذا هو بشيخ عرب، من مشايخ غزة، كان له الحكم والمشيخة، فظهر له مناغص من أقاربه فطرده، وأخذ مشيخته، وصارت الكلمة له، وكانت عربه جميعا بالزروخ، فلما غلب منه وانكسر، قال له جماعته: روح الى سالم، وهو يأخذ بتارك، ويقتل خصمك، ويمكنك من

(١) ١٩ أبريل ١٧٢٣م.

(٢) بالاصل حرف «من» حذف ليستقيم المعنى.

الى القلعة المحروسة وعزل الامير جمال الدين بن بعور من الاستاذ داريه وولاه ثغر الاسكندريه، وعزل بدر الدين يونس من الامير جنداريه وولاه القاهرة المحروسة، واستخدم المعين بن الشيخ وزيره وسلم اليه الاشغال، وجرد عسكراً الى الصعيد بسبب العربان وقدم عليهم الامير زين الدين بن ابى ذكرى وكان فيهم الامراء والاشراف وعدة امرا وجماعة من الحلقة يزيدون عن الف فارس. ثم ان

أرضك ، فسافر نحو البر، فاذا هو بسالم فى أرضهم، فوقع فى عرضه فاجاره، ثم انه سار هو أياه الى أن قربا من القوم، فقال له البدوى الغزاوى، اكمن هنا إلى أن أروح وآتيك بأولاد عمى وأسير أنا واياك. ثم أن سالما نزل فى تلك الأرض [1]، والغريب أعمى ولو كان بصير ، ويقتل الارض خابرها ، وتقتل الارض جاهلها. فصارت خيله نحو البر، فرأوا شرذمة تسقى، فتصدوها يأخذوها، يحسبوا أنهم فى أرض القليوبية، واذا بالعايط قايم، فما قام العايط الا والخيل من نحو البر ترمح.

فلما رأى سالم الخيل قاصداه تصدر لهم بصدره، واذا بالخيل التحمت مع بعضها، فصار سالم يضرب فى حديد، وعرب غزة تضرب فى لحم، لأن سالم وعربه ما عندهم ولا واحد مزردخ، وأما هم كلهم حديد، فتقاتلوا مع بعضهم البعض، فأنكسر سالم كسرة، عمره لم ينكسر مثلها، وأخذوا خيمه جميعا بما فيه،حتى صيوان كاشف شرق طفيح، وقتلوا اخاه، وابنه منصور، وابا دومة وحبيب الزاملى، ومقداما من عرب العايد عقدما برجال وكان هذا المقدام من العايد صحبة سالم، وأفنوا عرب الجزيرة، وهرب هو ونحو العشرين خيال، ولولا الليل أدركهم، ما بقى منهم أحد. ثم أنه سار نحو العقبة الى عرب المغاربة، الذى كان غرب نحوهم، وأن سالم لم يخنه الا الزرخ، وأما عرب غزة، أو غيرهم من العرب لم يدركوا من

(١) كتب عنوان جانبى «أعرف كسرة سالم بن حبيب من عرب الشام».

جماعة من النصارى تنجزوا التوقيع على رقعة منهم بان تعاد الكنيسة المعلقة الى ما كانت عليه وجاوا الى الوالى شاوروه فامرهم بذلك فقاموا فى الليل سدوا الابواب التى كان المسلمون فتحوها وعملوا على انهم قد تصرفوا فيه. وكان لهم ضد يقال له بن حوله وهو الموذن فى المكان فجا الى المواضع التى قد سدت [فـ] فتحها وردها الى ما

خيل سالم ولا قيراط، من أربعة وعشرين قيراطا، لكن يا خسارة كفه يابس، واما سويلم لم يذكر فى الخيالة، لكنه أكرم وسليمان كذلك والله أعلم بغيبه.

ولنذكر نكتة جرت[1]، وأظنها ما اتفقت ابدا، لا فى الكفر، ولا فى الاسلام وهى أن فى كل سنة، عند دخول الخماسين، تطلع نساء البلد الى الخلا لأجل ما يتنشقوا النسمات، أكابر كانوا، أو اصاغر، فحكم يوم الخماسين، فى اثنين وعشرين رجب[2]، فطلعوا على جرى العادة، فملوا بركة[3] الأزبكية، فاجتمع سرب من النساء نحو المائة من أكابر النساء فى غيط الاعجام الذى هو قريب من [جامع] العنانى تجاه قنطرة الدكة. ثم انهن اجتمعن على أكل، وشرب، ولعب، وقهوة، وضحك، كل منهن جالسة على مشتهى، هى وخدامها، من غير حجاب، واذا بجماعة سراجين سكارى والسيوف مسحوبة بأيديهم، وهم يزعقون لرؤياهن، واطلعوا عليهن من جهة الخليج، فلما رأتهم النساء، هاجوا فى بعضهن البعض، وندهن منهم، ومنهن من القت بنفسها فى الماء، وصارت هتيكه كبيرة، ثم أنهم صاروا يعومونهن و يأخذوا حوايجهن، وجميع ما معهن من حلى وحلل، ثم أن الغفرا، دخلت واوضباشا القنطرة، لما علموا ان السراجين أخذوا، وراحوا دخلوا كان لم يكن لهم علم منهم، فكملوا بقية النهب،

(١) كتب عنوان جانبى «أعرف هذه النكتة».
(٢) ١٨ أبريل ١٧٢٣م.
(٣) بالأصل «البركة».

كانت عليه وطلع الى الفقيه عباس خطيب القلعة فحمله في القضية وقال له ان هذا مسجدا وقد تغلب عليه النصارى واضافوه الى كنيستهم، فاخذ ذاك معه علم الدين شمايل امير جندار وجا الى الكنيسة وحضر معهم من عوام المسلمين جموع لا تحصى وحضر معهم المهندسون وما قدروا ان يقولوا الحق الذى قد راوه. وكان هذا يوم الخميس

وكذلك حمارة المركز، فما ابقوا شيئا، وكن نساء أكابر. ومن جملة ما ضاع، حزام جواهر لزوجة رجل أكابر، وبشت جواهر على ديمبى أصفر مشخت، فقالوا أن الحزام مشتراة تسعة أكياس ديواني، والبشت خمسة أكياس، قالوا هكذا، تلك دماء طهر الله منها سيوفا والحمدلله.

ومن جملة من كان هناك أمنة الجنكية، وصحبتها امراة من أكابر النساء فعروهن، وأخذوا خزانة. وكان لها ولد صغير، وفوق رأسه طاقية جواهر، ودايرها بنادقة، ولامه جوزين أساور، واحد جواهر، والثانى ذهب، وخلخال ذهب بندقى قديم، قالوا ان وزنه اربعماية درهم. ومن جملة ما أخذوا، لباس شبيكة من الحرير الابيض القصب الأصفر، فى كل عين من الشبكة لولية، فى كل لولية شريط من الخيش والدكة كذلك، وأخذوا فرجياتهن ويزرهن، ثم أنهن أرسلن اتباعهن الى منازلهن، فجاءوا اليهن بيزر وفرجيات ولبس بدن.

فأنظر. يا اخى الى هذه الفعلة، التى فعلت لم يفعلها اليهود الخيبريه فى المسلمين، فما بالك مسلمين، ولكن حاشا أن يكونوا مسلمين.

ثم أن فى ثانى يوم، قدموا عرض حال الى الوزير، واخذوا على موجبه فرمانا الى آغة الينكشرية، الى انه يتوجه الى محل الواقعة، وياخذ صحبته الوالى وأوضباشا البوابة فتوجهوا[1] الى محل الواقعة، واحضروا أولاد الحارة وسالوهم فشهدوا على أن فعل هذه الفعلة الا

(١) بالأصل «فتوجواه».

فلما كان يوم الجمعة وقت الصلاة ووقف [عباس الخطيب] فى وسط الجامع وقال يا مسلمين من كان اسلام [مسلما] وحميد فى مذهبه يحضر نهار غد الى الكنيسة المعلقة واصبحوا طلعوا اليها وكسروا قناديلها وحجب(*) هياكلها واخذوا كل انية كانت فيها . وقيل انهم وجدوا تحت هيكل من الهياكل انية قديمة من الايام المزمنة [القديمة] لم

(*) حجب الهيكل وهى من الخشب الخرط وتفصل الهيكل عن عامة المصريين فى الكنيسة.

أوضباشة المركز. ثم أن الباشا أمر بنفى أوضباشة المركز الى أبى قير، بعد أن أخذوا منه مبلغا له صورة حتى أفقروه، وأنزلوا محله أوضباشا غيره، ثم أن الباشا أن قطع فرمانا الى الاغا، ينادى به فى يوم السبت خامس عشرة رجب سنة ١١٣٥(١)، على النساء لا تروح غيطانا، ولا يركبوا حميرا، وراحت على من راحت وكانت غنيمة كبيرة وهتكا لجميعهم، الله أعلم.

وفى ثانى شعبان (٢) سافر الاغا الطواشى، وكان أبيض اللون الى مكة المشرفة، بالسيف والقفطان الى الشريف يحيى، الذى تقدم ذكره. وفى عاشر شعبان عصى محجوب الخبيرى ونهب قافلة الفيوم عن بكرة أبيها.

وفى خامس عشر شعبان سنة ١١٣٥(٣)، سافر اسماعيل بيك، الى زيارة القطب الربانى سيدى على المليجى لأنه أحدث فيه عمارة، وسيدى أحمد البدوى فسافر لزيارتهما ولأجل أن يكشف على العمارة، ثم أنه قتل العادلى وأخاه، وهو متوجه الى زيارة السيد أحمد البدوى، ولقد تحرت والله يا أخوانى فى قوة قلب هذا الرجل لأن داخل القاهرة اعداؤه وخارجها اعداؤه، ولم يبال من أحد منهم ومحمد بيك جركس كان أقوى قلبا منه، مشهورا بالشجاعة، مع انه من يوم ظهر لم يطلع ولا الى العادلية ثم أنه غاب خمسة عشر يوما وأتى آخر شعبان.

(١) ٢٦ أبريل ١٧٢٣م. (٢) ٨ مايو ١٧٢٣م.
(٣) ١٩ مايو ١٧٢٣م / كتب عنوان جانبى «أعرف عصيان محجوب الخبيرى وأخذه قافلة الفيوم».

يكن احد يعلم بها من اهل هذا الزمان ولها قيمة كبيرة وجازوا من ناحية هيكل ساويرس وصار ذلك الجانب الغربى جميعه في حوزهم وبقيت الكنيسة مغلقة لا يقدس فيها ولا يصلي. واما الملك العادل فان اخاه الملك الصالح طلع به الى القلعة وجعله في موضع لا يصل اليه احد ولا رجع احد يبصره وبقى النصارى مذبذبين بالطلوع الى القلعة والوقوف للسلطان ولم ينعمل لهم شئ.

وفى عشرين شعبان(١) حصلت فتنة في رشيد، وجاء الى مصر نحو المائتين من النفر يشكوا في عبدالله جربجى، فطلعوا باب مستحفظان فعزلوه، وولوا محله أحمد جاويش الخربطلى، وأخمدوا نار الفتنة.

وفى ثالث عشرين شعبان(٢) ورد عرض من مكة المشرفة، بأن يحيى الشريف، وعلى باشا باشت جدة، وعسكر مصر الذين عينوا صحبة أحمد بيك المسلمانى وأهل مكة تقاتلوا هم والشريف مبارك شريف مكة سابقا وكان صحبته سبعة آلاف من عرب اليمن وتقاتلوا قتالا كبيرا، ووقع على باشا باشت جدة من على جواده، لو لم يكن أدركه أحمد بيك بجواده الجنيب، والا كان هلك، وألبس أحمد بيك كركا وسدار مستحفظانه. ثم انهم رجعوا الى مكة لأن «الدهمة» كانت في عرفات، وقد قتل من العرب الفان وخمسماية، ومن العسكر نحو الخمسين، ومن جماعة الباشا خمسة وأربعون، ومات على آغا سردار الجملية، وكان الباشا قد قتل من الاشراف اثنى عشر شريفا وقد كانوا في جيرة يحيى الشريف، وانه قد ابطل الجيرة، ثم أنهم يلموا اللموم وانهم قادمون علينا إلى مكة فهلبت من ارسال صنجق وألف وخمسماية عسكرى، صحبة الحاج الشريف لأن العسكر الذين عندنا حين يحجوا يروحوا وتبقى مكة

(١) ٢٦ مايو ١٧٢٣م.
(٢) ٢٩ مايو ١٧٢٣م.

ودخلت سنة سبع وثلاثين وستمايه بالعربيه [١٢٤١م] والسلطان الملك الصالح ايوب والوزير معين الدين بن الشيخ والقاضى شرف الدين بن عين الدولة الاسكندرانى ووالى القاهرة بدر الدين يونس الذى كان قتل امير جندار ووالى مصر عز الدين محمد ابن امراة الشهاب احمد والبطريرك انبا كيرلس المعروف بابن لقلق. وانتهت

خالية وأنهم ناويين يهجمون على حين غفلة، وأنا قد اخبرناكم واعرضنا مثل ذلك الى الاعتاب العلية صحبة الشيخ جلال الدين، ومفتى مكة، وانه قد فارق عرضكم من العقبة، فهذا كان السبب فى ارسال العرض، ثم ان الباشا وأكابر مصر أعرضوا الى الأعتاب العلية ينظروا الجواب والله أعلم.

ثم بعد العرض بيومين، الذى هو خامس عشرين شعبان، ورد آغا من الديار الرومية، بخط شريف قرى بالديوان، با مارة الحاج الى عبدالله مملوك اسماعيل بيك، وجوز اخته ، فألبسه الباشا قفطان الامارة، وعزل محمد بيك بن أسماعيل بيك الكبير؛ ونزلت الصناجق قدامه، واسماعيل بيك الدفتدار تحت شماله، وسيدهم قدامهم، وصار اسماعيل بيك شيخ البلد[١]، ومماليكه، واحد أمير الحاج، والتانى دفتدار، وقد كمل صعده وقالت المتقدمون.

أذا تم شئ بدى نقصه توقى زوال اذا قال تم

وفى ثانى عشرين شعبان، ورد قاضى مصر أحمد أفندى بن عثمان افندى زاده من طريق دمياط وما اتفق أن قاضيا جاء لمصر من دمياط الا هذا، وسبب ذلك، أنه جاء صحبة مركب الميرى، التى أنت بمهمات البرج التى أمرت السلطنة بناه فى عكة، وسبب بنايه، أن مراكب

(١) يفسر لنا هذا النص ظهور منصب مشيخة البلد بين الأمراء ا لمماليك.

زيادة الماء فيه الى ثلثة وعشرين اصبعا من سبعة عشر ذراعاً وكان الماء قد توقف زيادته من عيد الصليب(*) وقلق الناس لذلك وبلغ القمح ثلثين درهما الاردب والشعير عشرين والفول سبعة عشر والبرسيم ستين درهما الاردب ورجع زاد اصبعان فانحل السعر قليلاً واطمان الناس وروى اكثر البلاد. ووردت الاخبار بان الافرنج قد خرجوا الى

(*) فى ٢٧ سبتمبر بحسب التقويم الجريجورى.

القرصان يدخل مينة عكة ويستتر(١) فيها، وتأخذ منها المراكب لكون لها برج يمنع القرصان، فاعرض أهل عكة الى السلطنة، فأرسل لها ماية من البنايين والمدافع فى مراكب السلطنة فجاء القاضي صحبتهم فأرخوا مهماتهم فى عكة، وجاء القاضى الى دمياط، فهذا كان السبب وأن أحمد أفندى هذا، كان مصاحبا للسلطان، وصنع للسطان ثلاث عزومات وكان غنيا. وأنه جاء لمصر لاجل التفرج عليها، واحاطة علمه بها، وكان رجلا وجيها، عظيما مسناً في العمر، جعل الله قدومه على مصر قدوم خير.

فأوكب يوم الخميس، تاسع عشرين شعبان(٢)، وعمل الرؤية(٣)، وأصبح ثاني يوم صيام، وكانت القاهرة فى غلاء، حتى أنه أضر باهلها، حتى أن الصابون بثمانية أنصاف، وكل شئ غالي السعر، وقد فسدت المعاملة أكثر، الى أن صار الجنزرلي بماية وخمسين، والريال بماية، والكلب بخمس وسبعين، والطرلي بماية وخمس وثلاثين، والنصف الفضة بعشرة جدد، وتغيرت أحوال البلد، حتى أن المقياس أمتلأ بالرمل، ولم تدخل الماء الى الفسقية، وتاخرت المنادات عن ميعادها أحد عشر يوما.

لأنه معتاد المنادية في السادس والعشرين من بؤنة ، فنادوا عليه من هذا العام، وهو عام سنة ١١٣٤ خراجية، خامس أبيب، الموافق لثامن شوال سنة ١١٣٥(٤) هلالية، والفتن كل مالها

(١) بالأصل «ويشهر».
(٢) ٥ يونية ١٧٢٣م.
(٣) بالأصل «وكانت» حذفت ليستقيم الاسلوب.
(٤) ١٢ يولية ١٧٢٣م.

نابلس والغور، وجاوا الى غزه نزلوها واخذوا القدس الشريف(*) شرعوا فى عمارة عسقلان. وان ذلك بموافقة الملك الصالح غازى صاحب دمشق عم السلطان، وانه اعطاهم رهانيه على انه موافقهم ومعاضدهم. وجرد السلطان زهاء اربعة الاف فارس ليمضوا الى غزه وخرجوا وبرزوا الى بلبيس . ثم ان النصارى رجعوا الى ما كانوا عليه

(*) اخضعت القدس للامبراطور فردريك الثاني بموجب معاهدة بينه وبين الملك الكامل فى عام ١٢٢٩م= ٩٤٥ ق. = ٦٢٦هـ، ويبدو أن عودة الفرنج إلى القدس هذه المرة كان بمساندة الملك الصالح غازى.

فى زيادة ، وقتل على الشواربى، وقطع بيت الشواربية من القليوبية، وكان بيتهم مشهورا فى السبعة أقاليم، وضرب الكاشف منية جنان(١) فى الشرقية، وقتل منها نحو المائتين من نصف سعد، وقتل شيخها الحاج ياسين، وكان مقداما كريما، وكانت القصع التى يخرجها الى الضيوف، كل قصعة لا يشيلها الا أربعة رجال من أعفا الرجال، وجميع الاقاليم صارت على هذا الشكل التى لم يخربها الكاشف أخربتها العرب.

وفى يوم الخميس ثانى عشر شوال(٢)، ورد ركاب محمد بيك أبو شنب من الخزينة، وصحبته خط شريف بالدفتدارية له، ولبس قفطان القدوم وقفطان الدفتدارية، ونزلت الخواسك قدامه، ونزل اسماعيل بيك جرجة معزولا من الدفتدارية. وانفض الديوان ولم يقر ذلك اليوم غير خط بالدفتدارية. ثم أنهم عملوا ثانى يوم ديوان وطلع اسماعيل بيك الى الديوان، مسلحا، وجميع أتباعه مسلحين وباش جاويش انكشارية محمد جدك طلع صحبته نحو الثلاثين نفر مسلحة من تحت حوايجهم. فلما رأى القاضى هذا الأمر تحور وانغم، وقال للباشا: ما هذا الامر الذى قد احدثه فى الديوان السلطانى، هذا محل ازالة المظالم والا محل السلاح وتعاطى الشر، هذا أمر يتولد منه فساد كثير، ثم انه قام من الديوان ونزل مغضبا. ثم أن جماعة أبو

---

(١) منية جنان: من القرى القديمة، وهى احدى قرى مركز كفر الشيخ ، محافظة الغربية، وحاليا أصبحت تعرف بأبعادية الروضة محمد رمزى، المصدر السابق، جـ٢، جـ٢، ص ١٣٥.

(٢) ١٦ يوليو ١٧٢٣م.

من منازعة البطريرك ورفع بعضهم قصة الى السلطان بانه يتعمد مالا ينبغي ويخرج عن الشرع وان في جهته للسلطان جملة كبيرة اخذها على اسمه وانه ان حضر الاساقفة وعقد له مجلساً تحققت في جهته. فرسم باحضار الاساقفة من الوجهين البحرى والقبلى ورسم على البطرك وبقي في كنيسة حارةت زويله على جارى العاده. ثم

شنب: قاسم بيك الأعسر، وابن أبو شنب، توجهوا له وأخذوا بخاطره، وصالحوه ودعوه في ثاني اليوم الى العزومة في قصر العيني، وأرسلوا له العربة اركبوه فيها، وكان يوما عظيما.

وفي ثاني يوم، طلع الى الديوان وقرأ فرمان الوزير بتغيير سكة المرادى، ويسكوا الفضة سكة الجنزير، فأبت الصناجق واختيارية الاوجاقات، وقالوا هذا أمر يتولد منه قيام الرعية وتخرب البلد، ولكن نعمل جمعية، فان اجابت العلماء وأصحاب السجاجيد، كان، والا فلا. ثم أنهم نزلوا وجمعوا البكرية والسادات والعلماء في بيت اغاة التفكجية فأبوا، وأعرضوا الأمر على الباشا، فنزل أغة الانكشارية وأمره بالمنادات في القاهرة أن المعاملة على ماهي عليه.

وفي يوم الاربع سابع مسرى[1]، أوفى البحر وجبروه ثاني يوم، وقعد الباشا في الكشك المعتاد، الذى على ممر الخليج، لأنه أحدث له هذا السقف، وكان قبل الآن ينصبوا خيمة، ووافق تاريخ الجبر، الحمد لله أتم الكسر جبرا.

ويرجع النص والكلام، الى أحمد جاويش الخربطلى، لما تولى الى اختيارية باب مستحفظا يستشفع عندهم في رجوع السردارية، الى عرض اسماعيل بيك، الى أنه يرجعه الى سرداريته برشيد، فأرسل الى اختيارية باب مستحفظان يستشفع عندهم في رجوع السردارية، الى عبدالله جربجى، فقبلوا شفاعته، وأرسلوه الى رشيد متولى، وارسلوا الفرمان الى أحمد جاويش الخربطلى، فلما دخل رشيد، هاجت العسكر، ونزلوا في المراكبماية وخمسة أنفار، ثم

(١) ١١ أغسطس ١٧٢٣م.

عقد المجلس بين يدى المعين الوزير وكان المخاطب له
الشيخ السنى الراهب (و) انبا بطرس واسقف فوه
المعروف قبل رهبنته بالفقه يوسف، واسقف
اسيوط، واسقف سمنود وجماعة من الاساقفة
وجرت بينهم خطوب ومنازعات اخرها انهم قالوا:
عندنا للسلطان ثلاثة الف دينار ويعمل بطركا
عوضه. فقال الصاحب لبعض الحاضرين: يجوز

ودخلوا الى قصر الحلى ببولاق، وأرسلوا الى باب مستحفظان يطلبون عرضهم الى العزب، فأبى عمر كتخدا ما حصل، من عدم اعطاء عرضهم فآل الأمر الى عزلان البرلى، وتولية مصطفى جاويش، تابع ذو الفقار كتخدا الذى يقال له، بلطة قبان، فاعطاهم عرضهم الى العزب، ونزلت الجميع الى رشيد يوم الأثنين خامس عشر القعدة سنة ١١٣٥[١]، وفى سابع عشر القعدة، جاء الخبر الى القاهرة بكسر جسر بدوية، وان تحت هذا الجسر جميع بلاد المنزلة، فغرقت وتلفت أموال لها صورة، وأن هذا الجسر من الجسور المتروكة، فخس البحر نصف ذراع فى ليلة واحدة، وانه غرق أهل المنزلة وجميع سعيهم، وزادت الغلة فى السعر، وحصل للناس كرب وخوف كبير. فألبس الباشا الى حمزة بيك قفطانا بمعرفة اسماعيل بيك على كشوفية المنصورة، وسد الجسر وأمره بأن يشترى شاهقتان من مراكب الروم، فنزل وأخذ مركبين من دمياط بماية وثمانين ألف فضة ديوانى، وكذلك مراكب غيرهما، وساعدته يد الأقدار الى أن سده بعد مشقة شديدة.

وفى عشرين القعدة البس الباشا قفطان السنجقية الى على آغا أبو العذبات وأمانة العنبر[٢]

(١) ١٧ أغسطس ١٧٢٣م.

(٢) أمانة العنبر: تعنى الاشراف على الغلال الاميرية التى تجبى من ولايات الصعيد، والتعرف على كمياتها والتأكد من نظافتها وخلوها من اى شوائب وصرف الجرايات والعليق منها لكل من يستحقها، وطرح الفائض فى الأسواق . انظر : عراقى يوسف . المصدر السابق، ص ١٨٧ ـ ١٨٨.

هذا عندكم قال لا يامولانا ما يجوز قال: وما نعمل ما لا يجوز الا ان هذا قد اخذ مالا جزيلا للسلطان وما اوصله اليه وانا اريده منه. فتحدثوا فيما يرونه وبلغوا الامر الى الف وخمس ماية وعشرة دنانير، وكتب بها اولاد اخى البطرك واولاد اخته خطوطهم، وخرجوا وقد انفسد قلب البطرك على الاساقفة وقلوب الاساقفة عليه، ونزل يهتم فى

وحاكم جرجة الى على آغا أمين العنبر تابع اسماعيل بيك، (وهى)[1] صنجقية كتخدا الباشا، لأنهم كملوا اربعة وعشرين سنجقا، لأن معتاد صناجق مصر اثنان وعشرين صنجقا، والثالث والعشرين القبطان بسكندرية، لأنها باية [بقية] صنجق، وكذلك كتخدا الوزير باية صنجق، فلذلك البس الباشا صنجقية كيخته الى على بيك الارمنى، الذى يقال له أبو العدبات[2]، فتكرم الباشا له بالصنجقية لأجل اسماعيل بيك، وصارت الصناجق التى من بيت اسماعيل بيك ابن ايواظ بيك عشرة، وهم اسماعيل بيك الدفتدار، وعبدالله بيك، واخوه محمد، وحمزه بيك، وعبدالله بيك الهندى، وعلى بيك الأصفر، وابراهيم بيك خزندار الجزار، وعبد الرحمن بيك، وعلى بيك أبو العدبات وهؤلاء ونفس أبن أيواظ بيك صاحب البيت،ومن بيت أبو شنب، محمد بيك بن أبو شنب، وجركس الكبير ، ومملوكه جركس الصغير، وقاسم الكبير، وقاسم الصغير، وأحمد بيك الأعسر،و ابراهيم بيك الفارسكورى، وزين الفقار تابع قانصوة، ومصطفى بيك القطردار، وقيطاز بيك تابع قيطاز بيك الكبير، وابن اسماعيل بيك الدفتدار محمد بيك، وأحمد بيك المسلمانى الذى هو الآن صارى عسكر الحاج الشريف، ومرجان جوز، وابراهيم الدالى. وكملوا بهؤلاء الثلاثة وعشرين صنجقا.

والبس الغربية الى محمد بيك بن اسماعيل بيك، والبحيرة الى احمد بيك الاعسر، وبنى

(١) بالأصل «هنا» والتصويب من سياق النص، ومن الجبرتى. جـ١، ص٢٤٦.
(٢) يذكر الجبرتى، جـ١، ص٢٤٦ «وعلى بك هذا المعروف بأبى العدب».

القيام بالمبلغ، وخرج الاساقفة الى كراسيهم. ثم ان السلطان جرد عسكرا ليمضى الى اليمن مقداره الفا فارس وفيهم اكثر الامراء الكبار المحتشمين وتجهزوا بالجمال والهجن والروايا [قرب الماء الكبيرة تحمل على الجمال] والقرب وجهز لهم فى البحر مراكب حربية زهآء اربعين قطعة عملت فى [دار] الصناعة بمصر وركبت وحملت على الظهر

اسطول بحر القلزم

سويف الى قاسم بيك الصغير، والجيزة الى محمد بيك دفتدار مصر ابن أبو شنب حكم القانون القديم، وعبد الرحمن بيك الشرقية، وعزل خليل آغا من آغوية الجراكسة والبسه كشوفية القليوبية، وعزل قيطاز آغا من آغاة التفكجية والبسه كشوفية المنوفية، وحسين آغا ابن محمد آغا تابع البكرى البسه كشوفية الفيوم، وألبس ابراهيم بيك الدالى على الخزينة، والبس محمد آغا ابن الاشرف قفطان على آغوية الجملية على ماهو عليه، بعد أن أراد محمد بيك ابن أبى شنب دفتدار مصر، أن يلبس مصطفى آغا أبو لفية، فالبسه اسماعيل بيك بالرغم على محمد بيك ابن أبى شنب، وحصل بين محمد بيك بن أبى شنب واسماعيل بيك جرجة غم كبير فى الديوان، وجاء اسماعيل بيك بن ايواظ بيك من باب الجبل بنحو ماتين من جماعته مسلحين، وكانت رايحه تقع بينهم فى الديوان.

فلما رأى مصطفى آغا أبو دفية الغم رايح يقع بين اسماعيل بيك، وبين ابن ابى شنب بسببه، فما ساعه الا أنه نزل من السبع حدرات وتركهم متكلمين مع بعضهم البعض، فدخلت بينهم الصناجق وفرقوا بينهم والبسوا ابن أشرف بالقهر عن ابن أبى شنب، والبسوا ابن عبدالغفار أفندى آغاوية الجراكسة عوضا عن قيطاز، وألبسوا مصطفى أغا تابع عبدالرحمن بيك آغاوية المتفرقة، وركب اسماعيل بيك بجماعته ونزل من باب الجبل من محل جاء منه الى قصره الذى بمصر القديمة، ونزل الأعسر وقاسم بيك بعد نزول اسماعيل بيك، وابن أبى شنب ملآنين من الغيظ وما قدر أحد يتكلم بكلمة واحدة.

[ظهور الجمال] الى القلزم لتركب هناك وتسافر. وقبض رجالها من القاهرة ومصر المحروستين وبلادهما وكانت الحبوس والفنادق بمصر مملوه من رجال الاساطيل وانفق فيهم جملة كبيرة وخلع على الامراء المقدمين خلعاً سنية وطيب السلطان قلوبهم الى الغاية القصوى وبذل لهم كل جميل ثم ان الملك الجواد مظفر الدين بن مودود (وهو

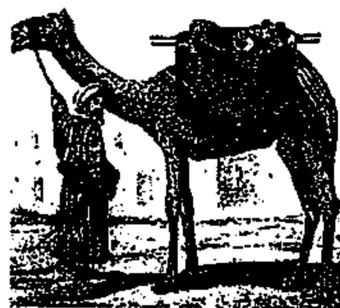

جمل لحمل روايا الماء

وكان في ظنهم أن محمد بيك لما أن صار دفتدار تنفد كلمته في البلد، فكان الأمر بخلاف ذلك، ولم تلبس المناصب الا بكلام اسماعيل بيك، وكانت جميع العساكر تروح ليه فى مصر القديمة، حتى الرزنمجى، وما أحد يروح بيت الدفتدار، وكان الرزنمجى وكتخدا الجاوشية وآغوات المتفرقة والترجمان يروحون بيت الدفتدار فى يوم الديوان فقط، وخدمة الديوان وجماعة والده ولم أحد من العسكر يلتفت اليه وجميع العسكر فى بيت اسماعيل بيك، الذى بمصر القديمة صباحا ومساء، فتزايد الغم بينهم وكثر، ولكن مالهم قوة على تحريك أمر.

ولنذكر نبذة وقعت الى اسماعيل بيك، وهى أنه لما نزل من باب الجبل، وتوجه الى قصره الـــذى[1] بمصر القديمة، بعد ما حصل له فى الديوان ما حصل ، وألبس ابن الاشرف والجماعة، فهو قاعد فى قصره بعد العشاء، واذا بعياط فى الروضة، قصاد قصره، هذا يقول: أقتل الله أكبر، وهذا يقول اذبح ، وهذا يقول جاك، وهاج الصياح فى الجيزة، فسأل اسماعيل بيك ما الخبر؟ فقالوا لا نعلم، واذا بالعايط انقطع، والرجال ترد الى أن جاءوا الى قصاد قصره فى ذلك البر والماء بينهم والقابل يقول بصوت مزعج: يا اسماعيل يا ابن يواظ، ماهو شطارة، أنت قاعد فى قصرك، وشيخ العرب سالم بن حبيب، الذى بتدور عليه وترسل له التجاريد، وقاتل غزك، أهوقدامك فى الجيزة ، قصاد قصرك، أنزل له، وخذ بتارك منه، ان كنت رجلا، ما هذا شطارة، وانت ترقد على جنبك، وتقول لخدمك كبسوا لى رجلى، وان كنت رجلا أنزل؟؟

(١) بالأصل «التى».

الذى كان صاحب دمشق وسلمها للسلطان الملك الصالح، وكان قد اعطاه سنجار ولا شك انه غلب عليها بحيلة احتال بها عليه صاحب الموصل فاخذها منه ولم يبق له سوى عانه فباعها للخليفة،ووصل ديار مصر على البرية لانه ما قدر على العبور ببلاد الشام لاجل صاحب دمشق وصاحب الكرك، فلم يمكن من العبور الى القاهرة

وأنا أكبسك بهذا المزراق العشارى، ادينى جيتك وكبست جيزتك[1] وقتلت رجالها ونهبت سعيها وما ابقيت فيها شيئا وأخربت الكفر، وأن كنت صنجق مثل ما تقول ، اتبعنى. فلما سمع اسماعيل ذلك امرهم ان يأتوا بالمراكب التى فى مصر جميعا وملاها بالرجال، وأنزلهم فيها، وأرسلهم الى الجيزة، فلما توسطوا البحر، واذا بالرصاص اخذهم من كل جانب كالمطر من بر الجيزة، فما وسعهم الا رجوعهم الى البر وهم يسبونه ويلعنونه، واخذ سالم جميع ما فى الجيزة من سعى وغيره، ووضع ذلك فى المراكب وسار الى محل ما جاء منه.

وكان السبب فى ذلك، أن سالما لما حصل له ما حصل من عرب غزة، توجه الى عرب ابن وافى ، فأرسل اسماعيل بيك ينبذ عليهم ويحرض قيام مقامات البلاد عليه، فضاق الحال على سالم، فرجع الى القليوبية، وركب هو وجماعته وجاء العطف، و اذا بمركب كبير متوجه من المحلة ملانا بالرزق، فضرب المركب واخذ جميع ما فيه، وقتل خمسة عشر رجلا من الذين فيه، فلما أصبح الصباح ملأ العايط مصر بأن سالم ضرب مركب القزاز، وأخذ جميع ما فيها. فلما أرسل اسماعيل بيك حمزة بيك له بالتجريدة، أوصاه أن يمر على دجوة وينظر سالما أين هو، فأى محل به، أرسل اعلمنى أرسل لك تقوية فجاء الخبر لسالم ان حمز ة نازل لسد الجسر وما رر عليك فاحرص على نفسك. فلما علم أن حمزة ليس قفطانا على سد الجسر عدى المنوفية هو وجماعته، فلما فات الصنجق ولم ير أحدا سار الى المنصورة، فلما فأت رجع سالم

(١) بالأصل «خيزتك» والتصويب من النص نفسه.

بل بقي بالعباسه. وكان معه على ما ذكر ابن
صاحب حمص الصغير وابن صاحب قلعة جعبر،
فاخرجت لهم الاقامات والنفقات والكساوى
والانعام والخيل والبغال وكل ما يحتاجون اليه
ورسم لهم بان يتوجهوا الى الشوبك فتوجهوا الى
نحو الشام صوب غزه وما والاها . وكان السعر
غاليا بلغ القمح اربعين درهما الاردب والشعير نيفا

الى القليوبية وقال لمن حوله من الملأ، يا اخواننا، الصنجق يتعب نفسه ويرسل لنا كل ساعة تجاريد، أنا أروح له الى بيته، ثم أنه أمر جماعته أن يأتوا له بعشرة قوارب فنزل فيها هو ونحو الماتين من مشايخ بنى حمدان، الذين يقومون الى الأكل من غير غسيل وجه، وجاء الى الجيزة كما قدمنا، ونهبها كما ذكرنا، ورجع كان الكلب ما اكل له عجين، فهذا كان السبب، وراحت كامس مضى لا عودة له.

واملأ قلب اسماعيل بيك غيظا لكن ما الحكم فى طير كل يوم فى بر[1] ولم يستقر فى بلد يوما واحدا، واذا بات فى البلد لا ينام الا فى الغيط، خوفا من الكبسة عليه من اسماعيل بيك. وفى خامس الحجة، ختام سنة ١١٣٥[2]. طلع بعض الرعاية الى الديوان، وغوشوا فسأل الوزير: ما الخبر، فقامت الجاوشية والمتفرقة اخبروا الباشا بأن السراجين والغز ينهبوا الفقرى والمسببين، ويقتلو، وأن الناس قفلت دكاكينها، وبطلت البيع والشراء، فلما أخبر الوزير أرسل احضر[3] أغاة مستحفظان وأمره بأن ينزل ينادى فى البلد بعدم شيل السلاح، وكل من شال السلاح ترمى رقبته عسكريا كان، أو شريفا، أو ابن بلد، وكتب له حجة على ذلك باتفاق الصناجق والأغوات واختيارية الاوجاق السبعة، وان كل من رآه مسلحا وهرب منه فى بيت أو قهوة، ولو فى بيت أكبر كبير، فعليه هجم ذلك المحل وآخذه منه. فنزل من يومه وشق القاهرة. ثم أنه فى حال نزوله رمى رقبة واحد من الشرفا فى الرميلة، وثانى يوم واحد فى

(١) بالأصل «يوم». (٢) ٦ سبتمبر ١٧٢٣م. (٣) قدم واخر.

وثلثين درهمــا الاردب واللحم والدجــاج والزيت والسيرج وجميع اصناف الماكول على غلائها على مـا تقـدم ذكره ولم يكن في البـلاد شئ رخيـصـاً اصلا ولا صنف من الاصناف . واما العمـاير فانها كـثـرت الى الحـد الذى مـا عليـه مـزيد حـتى ان البنا[البناء] صـار باربعـة دراهم نقـره اجـره فـي كل يوم، والجـبس بدرهم ونصـف الويبـه. والجـير بسـتـة

الجمالية. وفي ثاني يوم رمي رقبة واحد عسكرى من العزب في سوق السلاح يقال له بشناق يوسف، وصار كل من لقيه مسلحا رمي عنقه، وكل من دخل بيتا أو قهوة هجم عليه وأخذ من ذلك المحل الذى دخل فيـه. فسكتت البلد وطابت، بعد أن كـان في كل يوم يقـتـل فـيـهـا الواحد والاثنان.

وكـان السـبب في ذلك، أن مـحـمد السـيفي، باش سراجين مـحـمـد جـركس متخاصم هو وباش سراجين اسماعيل بيك جرجة، يقال له «ولي»، وكان اذا مشى في البلد لا يمشي الواحد منهم الا صـحـبـتـه نحـو الخـمـسين أو الستين من السـراجين، فـاذا قـابلوا بعـضـهـم يتـقـاتلون مع بعـضـهم البعض، فيقع بينهم السـاقط ، ثم أن جمـاعـة جـركس أتوا في رمضـان الى قيـصـون وتعاركوا مع سـراجين اسـماعيل بيك الدفتدار تابع اسماعيل بيك أمير الحاج ثلاثة أيام متوالية من بعد الظهر الى بعد العصر، ومات من سراجين جرجة ثلاثة ورجل من المارين وجارية سوداء في أول يوم ، وانفـصلوا . ثم أن جمـاعـة اسماعيل بيك قتلوا واحدا من جمـاعـة السـيفي في سوق السلاح يقال له الدالي حسين، وكـان جبارا عنيـدا لا يضـرب الرجل الا بالخنجر من غير ان يخاطبه الرجل ، فـقـتل كذا وكذا رجلا، ثم أن جماعة السيفي قتلت من جماعة ولي اثنين في مصـر القديمة ثم أنهـم تقاتلوا في بولاق، فوقع من الفريقين من فرغ أجله، فرفعت الناس أمرهم الى الوزير ، فأمر الاغا بالنزول، فهذا كان السبب. فهمدت شوكتهم ، وكـان الواحد منهم يلبس على رأسه بوشـتـيـة ، وفي وسطه أربع طبنجـات وجردة ونيـبـال طول ذراع، فعند

دراهم الاردب القنطار. ولا يقدر احد عليه وكانت كثرة العماير لاجل كثرة الواصلين من الشام والشرق لانه وصل منهم فى هذه الايام امم لا تحصى وبنوا لهم ادر [دور] كثيرة برا المدينة وفى ساير المواضع والطرقات حتى صارت المدينة بمقدار عشرة مدن، وهو السبب فى غلا الاصناف واجر الصناع وكان الغلا بغير مصر اكثر من مصر

ذلك لم يظهر منهم أحد، وصاروا يتخبون في الشقوق، وكانت البلد حكم مالطة وكلهم جماعة عثمان أوغلى حين جاء الى مصر وصار عنده سراجين كرجب واسماعيل جرجة والله أعلم.

وفى هذا التاريخ تهدم باب سعادة والخرق[1] الذى هو مقابل لمحكمة باب الخرق ثم بناه احمد جربجي بن يوسف اغا من ماله، ابتغاء وجه الله تعالى ، وكان الفراغ من بنايه ثالث عشر الحجة سنة ١١٣٥[2].

ولنرجع الى كلام سالم بن حبيب، فانه لما رجع من الروضة نزل بالعطف، واذا بمركب مارة عليه، وكانت تلك المركب من دمياط لواحد من تجار دمياط فتوجهت الى مصر وفيها ثلاثة قايم مقامات وبعض من التجار، واذا بابن حبيب خرج عليهم صبيحة خامس عشر عيد الأضحى، وهو فى صفة قايم مقام، فى مركب كأنه مسافر الى مصر، فلاصق المركب وقفز فيها على حين غفلة، فصار داخل المركب وكان (الريسا غفلانين)[3] فضرب المركب وأخذ

(١) باب سعادة والخرق: كان ابتداؤه من أخر شارع تحت الربع ، وانتهاؤه أول شارع غيط العدة، وبه كثير من الحارات والدروب والعطف ، وكثير من الحمامات، وتعرف هذا المنطقة حاليا باسم منطقة باب الخلق، وتتبع اداريا قسم الموسكى، ومحافظة القاهرة ، على مبارك، الخطط، جـ٣، ص ٥١.
(٢) ١٤ سبتمبر ١٧٢٣م.
(٣) بالأصل «الريح غلنيىر» والمعنى بذلك غير مستقيم، والتصويب من سياق الأسلوب،حيث أنه دخل المركب على حين غفلة ، وكان ريسا المركب فى غفلة.

اضعاف مضاعفة. وكان السلطان خلد الله ملكه قد رتب موضعاً وسماه دار العدل(*) ورتب فيه ثلاثة اشخاص جندا تعرف بالافتخار ياقوت الجمالى اليمنى والشريف قاضى العسكر وهو من سادات الناس، ورجل اخر يعرف بالفقيه عباس وهو خطيب القلعة [السابق ذكره فى احداث الكنيسه المعلقة] وكان الناس يرفعون اليهم

(*) دار العدل هذه اعاد بنائها الظاهر بيبرس تحت القلعة سنة ٦٦١هـ.=٩٧٩ ق. = ١٢٦٢م. ظلت تقوم بدورها حتى اقام المنصور قلاوون «الايوان» المعروف بدار العدل فهجرت دار العدل القديمة حتى هدمها الناصر محمد ابن قلاوون سنة ٧٢٢ هـ = ١٠٣٨ق.= ١٣٢٢م. وعمل موضعها «الطبلخانه». ولما عمل الملك الناصر محمد ابن قلاوون «الروك الناصرى» أمر

جميع ما فيها ، وقتل، الثلاثة قيام مقام والخوجا الدمياطى. وكان فى المركب ثلاثين كيسا زنجرلى وريالات، أخذ الجميع، وكان منها عشرين كيسا للقيام مقام مال الملتزمين، وعشرة أكياس أماين التجار الى مصر ، فأخذ الجميع فورد العايط الى الديوان، فتغير الباشا وسأل عن البلد التى ضربت تحتها المركب، فأخبروه بأنهم ثلاثة بلاد، بطا ومشيرف[1] والعطف، وأن بطا تعلق محمد بيك جركس وسليمان آغا الشاطر، والعطف تعلق يوسف آغا، ومشيرف تعلق على كاشف تابع أسماعيل بيك الكبير، فأخرج الباشا الثلاثة ترى الى البيع فى الحال، ودلل عليها الدلال فى الديوان فى الوقت والساعة لأجل ما يباعوا، ويعطى الثمن لاصحاب المال الذى ضاع منهم فى المركب لتمنعهم. فدللوا عليها أول ديوان، فطلعت اعيان البلد وتشفعت عند الوزير أن اصحاب البلاد يقعدوا بالمال الذى ضاع لاصحابه. فهم فى الكلام، واذا باغا من أغوات الباشا طلع الى الديوان وهو عريان ومجروح ودراعه مكسور، الى أن وقف قدام الوزير، فسأله الوزير عن حاله، فأخبره بأنه توجه الى الخدمة التى أرسله فيها بمصر القديمة.

(١) بطا: كانت تعرف باسم «البططه»، وكانت واقعة بحوض البطط بأراضى ناحية توب طريف، مركز السنبلاوين، ومحافظة الدقلهية، محمد رمزى ، المصدر السابق ، قسم ١ ص ٣٢.

(*) مشيرف: اسمها الاصل شميرف، وعرفت باسم مشيرف منذ العهد العثمانى لسهولة النطق، وهى احدى قرى مركز قويسنا ، محافظة المنوفية، ومحمد رمزى، المصدر نفسه، قسم ٢ جـ٢، ص ٢٠٦.

(*) العطف: احدى قرية مركز منوف، محافظة المنوفية ، تقع على الجانب الغربى من فرع النيل (دمياط). وهى قرية كثيرة الخيرات ، ومحمد رمزى، المصدر نفسه، قسم ٢ ، جـ٢ ، ص ٢١٤.

ظلامـاتهم ويوقعـون لهم على الولاه ويكتبـون موضع العلان أسماهم الثلاثة. واستراح السلطان بذلك وصار ملازما للذته وركوبه وصيده وماهو بصدده. ثم ان رسل الافرنج ترددت الى مولانا السلطان فى طلب الصلح على ابقاء البلاد التى اعطاهم الملك الناصر بن المعظم اياها بايديهم، وان يتسلموا اسراهم الذين اخذوا فى هذه الوقعة

بهدم الإيوان واعادة بناءه، ثم زاد فيه فى سنة ٧٣٥هـ.= ١٠٥١ق.= ١٣٣٤م. وانشا به قبة وأقام به عمدا عظيمة نقلها من المعابد الفرعونية المجاورة، ورخمه ونصب فى صدره سرير الملك وعمله من العاج والابنوس، وعمل امامه رحبة متسعة. وقد اندثر هذا الديوان ويدل على مكانه الآن الأرض القائم عليها جامع محمد على باشا وملحقاته بالقلعة.

فلما قضاها ورجع الى مصر، فهو عند القناطر، واذا هو بعشرة من العرب خرجوا عليه فعروه وجرحوه. فلما سمع الوزير ذلك، زاد غمه، وقال: يا عسكر مصر وصناجق مصر، صارت العرب تضرب فى البحر، وتحت قلعة السلطان. فلما سمع الصناجق من الباشا هذا الجواب، وكان غفر مصر القديمة مع مرجان جوز، فنزل من الديوان، وتبعه أحمد بيك الأعسر، وابراهيم بيك الجزار، وبعض الاغوات على العجل، فى طمع أنهم يدركوا الخيل، وطلعوا من باب الجبل، فتقوشعت الناس الذين ليس عندهم علم من القضية، فهاجت الناس فى الديوان، ونزل بعضهم الى حوش الديوان، فطلعت الخلق كسرة الى الرميلة، والخلق تقول الباشا حاش الصناجق، فقفل العزب الباب الذى لهم من طرف الديوان، ونزلت الناس كسرة الى الرميلة وانتهبت الأسواق حتى ضاع بعض أشياء من سوق السلاح.

فمن جملة الذى ضاع ونهب، ان رجلا دلالا بيده كرك سمور، يدلل عليه ويقول، حراج عشرين زنجرلى والكسرة نازلة من الرميلة، فهاجت أهل السوق وواحد من أولاد الزنا، تعرض الى الدلال، وهو يجرى وخطف الكرك، وذهب يجرى والكسرة وراءه، وصار لم أحد يبقى[1] الى أحد، وصارت الكسرة الى باب النصر، ثم أن الصناجق الذين طلعوا ورا العرب، رجعوا ولم يجدوا أحدا. ثم أن الباشا قطع سبع فرمانات الى السبعة أقاليم، أن كل بلد ينزل فيها سالم بن حبيب ولم يطردوه، أن لم يقدروا على مسكه، فبخراب تلك البلد، وقتل جميع من

(١) بالأصل «يبعى».

القـريبـة على انهم يعـيـدو هم ايضـاً الاسـرى المسلمين الذين عندهم. وتردد الوزير كمال الدين بن الشيخ، شـيخ الشـيـوخ اليـهـم فى هذا المعنى وانبت الحـال بينهـم على ذلك وحلفـوا للسلطان وحلف السلطان لهم واخـرج الكنـد [الكونت] الذى كـان اسـر والخـيـاله الذين كـانوا مـعـه وخلع عليهم اجمعين وشقوا القاهرة راكين وتوجهوا الى

- -

فيها، ونزلت الأغوات الى جميع الأقاليم خطابا الى كشافها، وأشهر الكشاف المناداة فى السبعة اقاليم.

وفى ثانى يوم محرم سنة ١١٣٦[١]، ورد آغا من الديار الرومية بمقرر الباشا على سنة ١١٣٦، وكان عشرين توت القبطى سنة ١١٣٥ قبطية [٢]، وأشيع فى القاهرة أنه جاء صحبة مقرر محمد باشا خط شريف برجوع بلاد أحمد بيك تابع محمد آغا المسلمانى[*] الى تصرفه، ولكن ما قرى ذلك اليوم لغياب أحمد بيك بالديار[٣] الحجازية.

والسبب فى رجوع بلاد أحمد بيك الى تصرفه، أنه لما سافر صارى عسكر الى مكة المشرفة، وقاتلوا مع العرب، ووقع باشت جدة من جوادة، وأحمد بيك ادركه بجواد النجيب بتاعه، ووقف حتى أركبه كما تقدم ذكره، فرأى باشت جدة هذا معروفا كبيرا وسببا لحياته، فجمع الاشراف فى حضرة الشريف يحى شريف مكة، وكتب عرضا يتشفع هو والشريف وجميع الاشراف الى حضرة مولانا السلطان برجوع صحبه الشيخ تاج الدين مفتى السادة الحنفية فقبل وأرسل له خطا شريفا صحبة المقرر فلم يقرى لغيابه، وابقى الى حين وروده الى مصر، فهذا كان السبب والله اعلم.

(١) ٢ أكتوبر ١٧٢٣م. (٢) ٢٣ سبتمبر ١٧٢٣م.
(*) بالأصل «الملالى» والتصويب من النص، ومن الجبرتى، جـ١، ص ١٠٠، ١١٢.
(٣) بالأصل «الرومية» وفوقها علامة الحذف.

بلادهم فى برمهات (*) من هذه السنة. ووردت الاخبار بان قاضى نابلس تسلم الاسرى المسلمين وانه خلع ايضا عليهم واحسن اليهم والبلاد التى رجع الفرنج اخذوها وهى القدس الشريف وبيت لحم وعسقلان واعمالها وبيت جبريل واعمالها، وعمل غزه غير المدينة، وطبريه واعمالها، ومجدليانا واعمالها وجبل عامل وصفد وكوكب

(*) يقع برمهات بين ٢٧ مارس و٢٥ ابريل.

(*) الملك الناصر بن المعظم بعطى الفرنج كل الساحل والقدس ما عدا غزه ونابلس والخليل.

- -

وفى خامس محرم سنة ١١٣٦[١]، نزل آغا مستحفظان الى القاهرة، واشهر فيها الندا لجميع طايفة اليهود والنصارى أن كل من دخل الحمام فلا يدخل ألا وفى عنقه جلجل، ليعرف الكافر من المؤمن. وسبب ذلك، أن رجلا من المتعممين دخل الى حمام فأهانه رجل فى داخل باب الحرارة، فظنه من أكابر الدولة لوجاهته، فلم يرد عليه جوابا لتقيد خدمة الحمام له، فلما طلع الى خارج الحمام، واذا به صراف باب مستحفظان، فكاد الرجل المتعمم أن يهلك غيظا، فأخبر آغاة مستحفظان، فقطع فرمانا ونادى به. فهذا كان السبب، ثم أنه نادى بأن خدمة الحمام لا يخدمون داخل الحرارة أولادا، وكذلك طايفة المؤمنين لا يخدمون أولادا مردا، ولم تمكث الا مدة يسيرة، وعاد كل شئ (*) الى أصله. ثم أن الحمامية أجتمعوا مع بعضهم البعض، وقالوا الأمر خمار علينا، وأن حمام من غير أمرد لا يمكن، ثم أقتضى رأيهم أنهم جمعوا من بعضهم البعض ثمانية آلاف نصف فضة، وأوردوها الى الاغا[٢] على عدم المعارضة من دخول أهل الذمة الى الحمامين من غير جلاجل فى أعناقهم، فقطع الاغا لهم تذكرة بما أرادوا، ونزل شيخ الحمامين فرقها، على كل حمام مايتى نصف فضة، لأن جملة حمامين القاهرة ثلاثة وسبعون حماما[٣]، بالثلاثة التى أحدثت وهو حمام الرميلة، وحمام محرم أفندى

(١) ٥ أكتوبر ١٧٢٣م.

(*) بالاصل «حى».

(٢) كتب كتب بأعلى هامش الصفحة «أطلب منك العون».

(٣) كتب عنوان جانبى «أعرف أن حمامين مصر ٧٣ حمام».

والطور وتبنين وهونين والشقيقان وعلى الجملة جميع بلاد الساحل لم يخرج عنهم شي سوى نابلس والخليل ومدينة غزه لا غير. ويقال ان الصلح انما هو مع العرب والاسناريه [الاسبتاريه] لا غير، وان الديويه(*) لم يحلفوا. وفي هذه الايام رسم السلطان خلد الله ملكه. با ن تهد جميع الادر [الدور] وما معها وجميع ما بجزيرة مصر [الروضه] وان تعمر قلعة(*) ورسم بشرى الادر

(*) فرسان المعبد.

(*) انشاء قلعة الروضة.

بسويقة اللالة، وحمام قراميدان، واثنان بمصر القديمة، وستة ببولاق، فجملتهم أحدى وثمانون حماما[1].

ومن جملة ما أتفق، أن رجلا دخل الى حمام السكرية، واذا برجل ذمي دخل الى الحمام وقلع حوايجة، واذا بالناطور[2]. قدم له الفوطة، وقدم له جلجلا، فقال له الذمي: ما هذا؟ فقال له الناطور: كما أمرنا الاغا. فأبى الذمى أن يضع الجلجل في عنقه ولبس حوايجه ولم يدخل، وطلع يبربر وأن أكثر مقبل الحمامين على أهل الذمة والله أعلم.

وفي سادس محرم، ورد آغا من الديار بمقرر الدفتدارية لمحمد بيك ابن أبي الشنب، لأنه عمل عليها كشوفية الى الوزير وجعلها الحاقا الى الوزير حين سافر بالخزينة، وأنها لم تكن تأتى من الديار الرومية قبل الان، وانما كانت لمن يوليه والى مصر، وجاءته وكالة الخرج عوضا عن اسماعيل بيك جرجة والله أعلم.

ومن أعجب ما وقع، ان ابن ابراهيم بيك، لما أنعم عليه الملك بدفتدارية مصر كان قضا مصر وجه الى أحمد أفندى بن عثمان أفندى زاده، فحصل بينه وبين الأفندى ود كبير،حتى أنه أقرضه عشرين كيسا رومية، وصار لا يفارقه طول مكثه الى حين التوجه الى مصر نزل صحبته في الغليون، الى أن ورد الى مصر.

(١) كتب تعليق جانبي «أحدث بعد ذلك حمام عثمان كتخدا بالأزبكية، وحمام ابراهيم جاويش بباب الخرق».

(٢) الناطور: عامل الحمام الذى يتسلم الملابس من المستحم، ليحفظها لحين أنتهاء الشخص من الاستحمام.

التى فيها من اربابها ليهدمها ويعمل الابراج والسور مكانها وشرع فى ذلك وحفر الاساس وترتب العمل فيها وتضاعف ثمن الاصناف واجر الصناع بهذه الحركة وذكر ان الذى تقرر عمله بدايرها سبعة عشر برجا وان كل برج يحتاج الى احدى وعشرين خنزيره(*) غير الابدان تسمر وتدك ثم يبنى عليها. وسير الافرنج الاسرى الى مصر للعمل

(*) خنزيره: المقصود بها هنا اساسات ومداميك قوية ليتم عليها تعلية البناء.

فلما ورد مصر صار أحمد أفندى لا يفارقه، ففى كل ديوان ينزل الى بيت محمد بيك، وان محمد بيك طاير بجناح القاضى ، وما جاءته دفتدارية مصر تانى سنة الا بهمة القاضى، فأنه أرسل أعرض له فى شأنها ووكالة الخرج. وصار يصنع له العزومات، وصار القاضى لا يلتفت الى أسماعيل بيك مطلقا، واذا رآه عند الباشا لا يكترثه، فحصلت نكتة وهى أن على باشا حين قتله رجب باشا ترك جوارى وسرارى، ومن جملته باش محاظية، فتزوجت بخازندار على باشا، وكان شريفا وكان يقال له الشريف محمد الازمرلى[1].

فلما تزوجها الخزندار ما ملأ عينها ولا جاء على خاطرها فصارت تجلب له الغم من كل فج عميق، وصار الآخر يؤذيها اذية بالغة. فشكت أمرها الى القاضى وأرشته بكيس من المال، فأرسل القاضى خلف زوجها وامره أن يطلقها فأبى، فاستفتى القاضى العلماء، فأفتاه المالكية، بأن الزوج اذا حصل منه هجر الفراش والضرب المؤلم مع أقامة البينة، فيفرق الحاكم المالكى بينهما، ففرق الحاكم المالكى بينهما، وأمر القاضى بدفع المؤخر فادعى الاعسار، فأراد حبسه، فادعى أنه انكشارى، فأرسله صحبة الجربجى الى باب مستحفظان، وأمرهم بسجنه الى أن يدفع ما عليه من مؤخر الصداق. فسأله الكتخدا عن سبب سجنه وعن حاله، فأخبره بما وقع له مع القاضى، وتعصبه عليه، فشاع هذا الأمر فى القاهرة، فعلم اسماعيل بيك بهذا المنصف، فأرسل الى كتخدا مستحفظان بأن ينصب له وكيلا يكن ماهرا حاذقا يدرى أمور

(١) كتب عنوان جانبى «اعرف حكاية القاضى مع خازندار وزوجته».

في القلعــة المذكــورة وانزلوهم فى كنيســة ابو مــرقــورة(*) التى بالســاحل لاجل قــربهــا. ووقع النصــارى من ذلك في بليــه لان الكنيسـة المعلقـة جرى فيها ما جرى وهذه الكنيسة هذا حالها مع ان الخراب كان قد استولى عليها وكنيسة الجزيرة [الروضـه] مـا ندرى مـا يكون منها مع هذا السـور المحدث فيها وكل هذه كنايس البطرك التى انتخبها

(*) كـانت كنيســه أبو مـرقـورة فى ذلك الوقت على الضفة الشرقية للنيل بمصر عتيقه مباشرة وهى الآن تبعد عنه حوالى ٧٠٠م.

الشرع، فأقام كتخدا مستحفظان له وكيلا. فلما كان ثاني يوم الذى هو يوم الأحد ثالث عشر محرم سنة ١١٣٦[١]. طلع شيخ الاسلام الى الديوان، وجلس عند الوزير[٢]، وإذا بالوكيل انتصب بين يدى الوزير، وصحبته باش جاويش مستحفظان وجماعته من اختيارية الوجاق، وقدم عرض حال يشكو فيه القاضى، ويدعوه الى الشرع الشريف، وحكى قصة موكله الى الوزير فى العرض الذى قدمه للوزير، والتفت الوزير الى القاضى وقال له: مولانا شيخ الاسلام، هذا الرجل الذى قدم العرض يدعى أنك فى أمس حكمت على موكله حكما ينافى مذهبك، وينافى مذهبه، وفرقت بينه وبين زوجته بخلاف ما نصت مشايخ مذهبكما، فقال القاضى: فرقت بينهما على مذهب مالك بن أنس. فقال الوكيل: يا شيخ الاسلام، كيف ما تحكم بمذهب الغير ولم يكن المدعى والمدعى عليه متعبدين على مذهب ذلك الامام الذى يقول بصحة ذلك القول، وأن مذهبهما مذهب أبى حنيفة النعمان، الذى يقول بعدم صحة ذلك القول، وأنت تقول بعدم صحته، كيف ما تحكم. فقال القاضى: حكمت بصحته ونفذته، وحكم الحاكم يرفع الخلاف وقد قربته، وأن كان ضعيفا فى مذهبى فانه تقوى فى مذهب مالك والمفتى به، وأنكم أنتم انكشارية ظرب وزيادة على ذلك التزوير. ثم انه فز قايما ودخل الى داخل السراية، فنزلت الانكشارية الى بابهم، واعلموا جماعتهم، ففى الحال تسلحوا

(١) ١٣ اكتوبر ١٧٢٣م.
(٢) بالأصل كتب فى وسط كلمة الوزير بعض حروف كلمة الوكيل «كيل» وشطبت.

ومـواضع سكنه وراحـتـه. وفى هذه الايام اسلم اسـقف سندفـا(*) وكـان يقـال له ابن السندوبى، ودور [فى] المحله [الكبرى] راكبا على حصان وقد خلع عليه الوالى فروه وشربوش، وكانت بدعة ما شوهد مثلها. وسببه انه كان خرج عن الواجب ووقع فى خطيـة الزنى واراد البطرك منعه ما مكنه منه الشيخ الصنيعة رئيس المستوفيين خوفا مما

(*) سندفا: تذكر المراجع القديمة أن مدينة المحلة الكبرى لها جانبان أسم أحدهما المحله والآخر سندفا: وقد ذكر ياقوت فى معجمه أن المحلة ذات جنبين أحدهما سندفا والآخر شرقيون. وكانت سندفا تشغل القسم الجنوبى من مساكن مدينة المحلة الكبرى القديمة أى الواقعة فى الجهة الغربية لمحطة السكة الحديد المصرية، وهى الآن جزء من سكن مدينة المحلة لا

وخرجوا الى السوق الكبير، وجلسوا على بابهم، الذى فى طريق الديوان، واذا باسماعيل بيك أمير الحاج، واسماعيل جرجة وعلى بيك فردتهم الانكشارية، فرجعوا وأخبروا الباشا بأن الانكشارية تقول شرع الله، وأنهم رايحين يرسلوا محضرا الى شيخ الاسلام الذى بالديار الرومية ويرسلوا له الحجة التى وقع فيها الحكم.

فلما سمع القاضى تحير فى أمره، وصبر الى المغرب، ونزل من السبع حدرات صحبة الصناجق، وبات تلك الليلة بياتة سودا، مثل خيار الشنبر، طويلة سودة ملينة. ثم أن الانكشارية فى ثانى يوم، أرسلوا شالوا الشربجى واليمق والكشلية والعسكريين اللذين[(١)] على باب بيت القاضى، وأشيع فى القاهرة أنهم على نية أرسال عرض الى السلطنة العلية، ان القاضى الذى أرسلتموه يطلق النساء من الرجال أزواجهن بالجبر عليهم لأجل حطام الدنيا. فحصل عند القاضى حصر وضيق، وصار لايهنى له أكل، ولا شرب، فأرسل نايبه الى مفك الحبلات، مير اللواء أمير الحاج اسماعيل بيك بن أمير الحاج ايواظ بيك، يستجير به من الانكشارية، فأجاب بالسمع. وفى حال أرسل تذكرة الى باب مستحفظان يتشفع عندهم بالصلح على القاضى، وأنهم يعفوه من هذا الذنب، وأنه يرد المرأة الى زوجها، ويرد اليها ما أخذه منها. ثم أن فى ثانى يوم أتت اختيارية الانكشارية الى اسماعيل بيك، وسلموا عليه، وقال له: شفاعتك مقبولة، ولكن نعمل جمعية عندنا فى الباب، ونأخذ بخاطره، فقال لكم ذلك، ثم أن اسماعيل أرسل

(١) بالأصل «العسكرتين اللتين».

جرى، وكان السبب في ذلك رجل شماس من كنيسة سندفا منعه الاسقف واوقفه عن التصرف فما زال يرقبه حتى عبرت اليه المره [المرأة] الخاطيه وكانت مسلمة فمضى الى والى المحله اعلمه بذلك لان سندفا جاره من جارات المحله ما يفرق بينهما الا البحر وكان اذ ذاك فسير الوالى شاهدين مع الغلمان فاحضروا الاسقف مع المره وضرب ضربا

يفصل بينهما إلا الشارع الذى حل محل ترعة المحلة. وكانت المحلة مدينة قائمة بذاتها ليس لها زمام خاص بها إلى سنة ١٢٦٠هـ.=٥٦٠ق.= ١٨٤٤م. وفى تاريخ تلك السنة الغيت الوحدات المالية لنواحى سندفا وهورين وبهرمس والمنتصرية وكانت من القرى القديمة المجاورة للمحلة واندثرت. فأضيف زمامها إلى بعضه وقيد فى دفتر المساحة باسم المحلة الكبرى لأنه يحيط بسكانها من جهاتها الأربع،

الى باقى الوجاق يطلب من كل وجاق اختيارين يحضروا الجمعية فى باب مستحفظان، فحضروا وحصل التوافق والرضى، على أن الصناجق لم يذهبوا بيت القاضى، واذا عن لهم مصلحة يرسلوا كواخيهم، وكذلك العلماء لم يدخلوا بيت القاضى، ولا بيوت الصناجق، ولا بيوت أحد من الأكابر والشيخ سليمان المنصورى، والشيخ أحمد العماوى، والشيخ عبدالله الشبراوى ممنوعين من الأفتى، ولا يفتى الا الشيخ عبد العزيز الحنفى والشيخ سالم البغدادى المالكى، والشيخ مصطفى العزيزى الشافعى، وأن الزوجة باقية على عصمة زوجها فكان كذلك. ثم أنهم أرسلوا السدار واليمق والشكيلة الى بيت القاضى وأصلحهم اسماعيل بيك، مع القاضى، وأرسلوا الرجل الى بيته واصلحوه مع زوجته، وما قدر أحد يأخذ بشمال القاضى، من طرف جركس ولا ابن أبى شنب، الذى هو دفتدار البلد واشراقه، وأن لم يلتفت اسماعيل بيك الى قول من قال:

الليالى من الزمان حبالى   مثقلات تلدن كل عجيبة

وكون أنه كان سببا لجيب الدفتدارية له ثانيا لم يجب يده الى صدره، ولم يتكلم بكلمة ما، وكل هذا الذى جرى للقاضى كان بتدبير اسماعيل بيك، وتقديم باب مستحفظان على القاضى، لكون ميل القاضى الى طرف محمد بيك جركس والدفتدار، ويقول للباشا اجعل نظرك على محمد بيك، فانه أشراقى، فلما حصل للقاضى هذه الحقارة صار فى النفس شئ. ولكن كيف ما يصنع ما بيده شئ، فاجتمع على الباشا وأعرض عليه الأمر، فقال له الوزير: ما

وبذلك اختفى اسماء الثلاث قرى المذكـــورة من عـــداد النواحي المصرية.

اليمـا اقـضى به الى الخـروج عن المذهب. وهذه الكباير هذه نتايجها لانه تبعد عن المسيح بالكلية فتخلى معونتـه عن راكبيها فيقعون في هذه الفخاخ الصعبة فنسئل الله تعالى ان يكفينا امرها ولا يخلينا من معونته فان ليس لنا غيرها. وفي هذه الايام حضرت امراة من الشرق ومعها زوجها وهي بلحيه مستديره وشوارب مثل لحا الرجال وذكرت

نصنع، الرجل متحرص الاستحراص الكلي[1]، فقال له القاضي أنت تعطيني الاذن ، وأنا أدبر لك زمرا تبلغ به المقصود، فقال له الباشا، أفعل فقال القاضي لا يتم الأمر الا بمعرفة جركس. ثم أن المجلس اتفق، وجاء جاويش الحاج رابع صفر[2]، وأخبر أن الحاج يدخل الى مصر عاشر صفر، وطلعت الناس الى ملاقاة الحاج، ولم يتعب الحاج أشد تعب من هذه السنة من الغلا وموت الحاج وموت الجمال، وأن سنة محمد بيك غيطاز كانت قيراط من سنة عبدالله بيك.

ثم أن القاضي أرسل تذكرة الى محمد بيك جركس، وأخبره بما وقع بينه وبين الوزير، فأرسل له رد الجواب صحبة ابن سيده محمد بيك الدفتدار، لأن التجريح وقع من اسماعيل بعدم رواح الصناجق الى بيت القاضي، فاجتمع وأياه وأخبره بما قال به جركس، وانه يقول لك أن كنت تسنده أنت، والوزير يفعل أن شاء الله تعالى، فقال له: القاضي يفعل: لك ذلك، أنتظرني، ثم انه اجتمع على الوزير وأخبره بما قاله الدفتدار، فأعطاه فرمانا على طبق مراده ومراد جركس. وكان ذلك يوم الثلاث سابع عشر صفر سنة ١١٣٦[3]. ثم أن جركس اخذ الفرمان ولم يشعر به أحد، سوى القاضي وجركس والدفتدار، ثم ان جركس في ثاني يوم، الذى هو يوم الاربع احدث حساب الخاسكية في بيت سيده ابراهيم بيك، الذى بمصر

(١) كذا بالأصل. (٢) ٣ نوفمبر ١٧٢٣م.

(٣) ١٦ نوفمبر ١٧٢٣م كتب عنوان جانبي «اعرف واقعة محمد جركس مع اسماعيل ابن ايواظ».

ان لهـا اولادا وانهم في بلادها وكـان الناس كلهم يزوورونها ويرونها ولا تمتنع من احد لا من الرجال ولا من النساء الا انه ما كان احد يعبر اليـها حتى يعطى زوجها شيئاً وحصل له من هذه الوجه جملة كبيرة. وكـان العربان الذين حضروا من الصعيد الاعلى مع العسكر الذى كان توجه اليهم قد قرروا ثمانين الف دينار قطعيه يحملونها الى بيت المال

القديمة، ثم أن الحساب لم يتم ذلك اليوم، وابقوه الى الليل، وأن يتمموا الحساب بالليل. فاجتمعوا في بيت جركس الذى تجاه الحوض المرصود، وكان محمد بيك جركس، ومحمد بن سيده، وقاسم بيك الكبير، وزين الفقار تابع عمر آغا اغة الجراكسة، وقيطاز، وقبلان، وأيوب. وكان هؤلاء الأربعة انفار أعيان طايفة جركس ، مع أنهم فقارية.

وكان قيطاز هذا من اتباع رضوان آغا، وكان رجلا طويلا عريضا وجيها، له زنود كقوايم البعير، وأصابع يديه كالخيار، وكان هذا الحساب لا أصل له، وأنما تستر على اجتماعهم بهذا التدبير. ثم أن جركس أحضر أيوب، وقيطاز وقبلان، وزين الفقار، ثم انه قال لزين الفقار أنت وهؤلاد الثلاثة أعيان طايفتي، وأن في مرادى أمرا أفعله، ولكن لا يصح الا بكم أنتم الأربعة، وأن تم وحياة رأسى لكم أنتم الأربعة السنجقية ومهماتها جميعا، وهؤلاد يشهدون على، يعنى ابن سيده وقاسم بيك. فقال له زين الفقار: قل ما في مرادك، ولو كان فيه هلاك روحى، فقال له جركس: أنت بينك وبين اسماعيل بيك مخاصمة، من جهة القيراطين بتوعك اللتين في قمن[1]، واننا زعلنا نطلب قسمتها من محمد جاويش جدك، وأن محمد جاويش مسافر في غد الى الخزينة، وأنك كلمت اسماعيل بيك من هذه القضية مرارا عديدة[2] وهو يوعدك

(١) قمن العروس: احدى قرى مركز الواسطى، محافظة بنى سويف،كانت تعرف قديما باسم قمن، ضُمت كلمة «العروس» اليها في تربيع ٩٣٣هـ / ١٥٢٧م. فعرفت باسمها الحالى ، محمد رمزى، المصدر السابق ، قسم ٢ ، جـ٣، ص ١٣٢.
(٢) بالأصل «معدة».

المعمور عن جباية تعديهم، وخرجوا الى بلادهم ليجبوا المال ويحملوه. وكان السلطان اعز الله نصره قد اخرج مالا جزيلا وسلمه للفقيه بهاء الدين بن الجميزى برسم مرمة المساجد التى بالقاهرة ومصر المحروستين وما بينهما، واهتم بها وعمرت احسن عمارة وبيضت ونقش على ابوابها اسم المولى السلطان الملك الصالح أيوب وتاريخ

وعد فارغ، وانك لما كلمته أول أمس وقال لك لما يسافر محمد جاويش ويجئ يقسمها لك، لأن الوقت ضاق ، وأن محمد جاويش لم يملك القسمة اليوم، ولكن يا زين الفقار أنت ماشى على النصف، ومحمد جاويش ماشى على النصف الثانى الذى من جملتهم الأربعة قراريط بتوع النصرانى. ولما قتل لطف الله، ظهروا باسم محمد جاويش، فصار له النصف، فرأيت بابا تدخل منه، وأن محمد بيك الدفتدار فى حال طلوعه غدا الى الديوان، يقدم عرض حال الى الباشا ويأخذ على موجبه فرمانا خطايا لكاشف الاقليم، بجمع الفلاحين والمشايخ ويقسموا لك النصف، وانك سابقا أخذت مكتوبا من اسماعيل بيك بحضور المشايخ، فأرسل مكتوبا بخلافه،يقول: أن الواصل لكم مكتوب منى بانكم تحضروا فلا تحضروا وكل من جاء منكم لا يلوم الا نفسه. والمراد انك تأخذ الفرمان، وتطلع الى الديوان، وتكون (أنت فى المقدمة)(١) وهؤلاء الثلاثة خلف ظهرك، وتخلى اسماعيل بيك وهو قاعد فى الديوان وتعطيه الفرمان يقرأه، فخليه وهو مشغول فى قراءة الفرمان وأضربه بالخنجر فى مدوده، تقدر تعمل هكذا ولك صنجقية بجميع لوازمها، فقال له زين الفقار: بشمول نظرك اقدر، ولكن بشرط أن تكون أنت حاضر بالديوان وجماعتك، لأن قتل مثلى لهذا المقدام صعب على، خصوصا فى ديوان السلطان، فقال له: لك ذلك، لا تخشى من شئ أبدا فاذا قتل فانا وجماعتى امنع كل من قصدك بالقتل.

(١) الاضافة لتوضيح المعنى.

تجديدها وعمارتها وهو سنة ثمان وثلثين وستماية وكان السلطان قد رسم بعمارة قنطرة على الخليج في موضع السد حتى يعبر عليها في ايام النيل الى بستانه المعروف ببستان الخشاب(*) وعملت ونجزت قبل ايام النيل وعبر عليها. وكانت الاسعار في هذه الايام كلها غالية لا تنحل اصلا القمح لا ينزل عن دينار الاردب واكثر والشعير بثلاثين درهما الاردب

(*) بستان الخشاب: وموقعه الحالي بالتقريب حول القصر العيني وجاردن سيتي على الضفة الشرقية للنيل.

ثم أنهم باتوا على ذلك التدبير الى أن أضح الله بالصباح، وكان يوم الخميس تاسع عشر صفر سنة ١١٣٦(١)، أمر الدفتدار وقاسم بيك، وابراهيم بيك الفارسكوري، أن يطلعوا الى الديوان، وطلع زين الفقار وقبلان وقيطاز وأيوب وشركوا الديوان جميعا بطوايف جركس، فقال لهم جركس اطلعوا أنتم الديوان وأنا مرادى أروح قصر العينى، وأمر بشد الهجن فركبوا جميعا، وطلعوا الى الديوان، ثم أن الدفتدار دخل الى الباشا ليصبح عليه وقدم له العرض فعلم عليه فأخذه منه وفي حالة خروجه اعطاه لزين الفقار وجلس في مرتبته، واذا باسماعيل بيك الأصفر، وعلى بيك الأرميني ، وأسماعيل بيك جرجة دفتدار مصر سابقا، وابراهيم بيك تابع الجزار، فقعد الثلاثة ودخل الاسماعيلان يصبحان على الوزير، وكان جركس أرسل عيون تنظر طلوع اسماعيل بيك الى الديوان.

فلما طلع اخبروا جركس، فركب هو وأثنا عشر مملوكا من غير زايد عليهم، وطلع من على زين العباد(٢) من باب الجبل، فما شعرت أهل الديوان الا وجركس بينهم في الديوان، فسلم وجلس، الا واسماعيل بيك، واسماعيل بيك جرجة طالعين من عند الوزير. فسلم ابن أيواظ وجلس، واسماعيل بيك جرجة جلس ولم يسلم، ففي الحال تقدم زين الفقار وأخرج من عبه الفرمان الذى تقدم ذكره، فأعطاه الى اسماعيل بيك، فأخذه وصار يتأمل فيه ويقراه، فقراه

(١) ١٨ نوفمبر ١٧٢٣م.

(٢) المقصود «زين العابدين».

ولم يكن شئ اغلا من الزيت الحار فانه كان بدرهمين الرطل ودرهمين وربع الرطل واما الشمع فانه بلغ احد عشر درهما الرطل والحطب عشرة دراهم الحمله(*) وكان الناس فى شدة من هذا ومن عمارة قلعة الجزيرة(*) فلما غلت جميع اصناف العمارة. وكان السلطان خلد الله ملكه قد اطلع على مخامره من [رئيس عسكر الاشرفية

(*) حملة : ما يحملها الجمل.

(*) قلعة الجزيرة (قلعة الروضه) هذه القلعة انشأها الملك الصالح بجزيرة الروضة سنة ٩٥٧ق. = ١٢٣٩م. = ٦٣٨هـ. فعرفت بقلعة الروضة، وبقلعة جزيرة

وحطه في جيبه، وقال له: أنا ما قلت لك لما يسافر محمد جاويش تقسم لك البلد، أنت بقيت راحل اليوم وتعرف تأخذ فرمان من الباشا بمجيئ المشايخ أنت بقالك بلاد اليوم.

فالتفت اليه محمد جركس بيك، وقال له يابيك هذا أمر عويل، اقضى له حاجته، هذه المصلحة لأجل خاطرنا احنا ما بقى لنا كلام يمشي عندك، يا زين القفار بوس يده، فمال زين الفقار يبوس يد الصنجق، فمنع يده منه، فمسك دقن السنجق بيده اليسرى، ودقه في مدوده الأيسر بيمينه، وسحب الخنجر، فقام الصنجق على حيله، ووقع، فقام اسماعيل بيك جرجة ليمسك زين الفقار، واذا بقبلان خلفه فضربه، فأصيب زين الفقار وفر هاربا نحو الباشا، واذا بقاسم بيك ادركه عند مصطبة المتفرقة، فضربه بالسيف على جدع رقبته فقطع رأسه الى الأرض، وفر جركس وابن سيده ضاربين ابن ايواظ كان هو قد نفذت روحه، فوقع ضرب الاثنين فيه وهو بلا روح، وسحبوا سيوفهم ونزلوا فيهم ضربا، فانجرح على بيك الأصفر، وحسين جربجي جمليان وابن سيده قاسم بيك، والفارسكورى وعمر آغا كتخدا الجاوشية، وروس عثمان الترجمان، وزين الفقار وأيوب ، وقبلان وغيطاس ساحبين السيوف.

وركب زين الفقار جواد ابن ايواظ وأيوب ركب جواد اسماعيل بيك جرجة، ونزلوا من باب الجبل الى بيت محمد بيك الدفتدار، وكذلك الدفتدار وجركس.

فلما استقر بهم الجلوس فى مقعدة، واذا بجميع الاوجاقات وأهل الديوان اتوا اليه، وصار

(الأتراك)] الاسمر وكافور الفايزى الخادم وكان أيبك في الاسكندرية وكافور في بلبيس مجردين فسير الى كل منهما اميرا وامسكهما واحتاط على موجودهما وحبس أيبك الاسمر بالثغر وكافور طلع به الى القلعة حبسه بها ثم تتبع كل من توهم منه من المفاريد والاجناد فامسكهم وحبسهم ومنهم من هو بالاسكندرية ومنهم من هو بالقاهرة ومنهم من هو بالقلعة واكثر هؤلآء من الذين كانوا عملوا

الفسطاط، وبقلعة المقياس وبالقلعة الصالحية. وقد اتخذها الملك الصالح دار ملك وسكن فيها بأهله واسكن فيها معه مماليكه البحرية، وكانت عدتهم نحو الألف مملوك. وكانت مبانيها تمتد إلى مقياس النيل في جنوب الجزيرة، وتشغل مساحة لاتقل عن ٦٥ فدانًا ومكانها الآن المنطقة التى تحد من الشمال بشارع الملك المظفر، ومن الغرب بنهر النيل، ومن الجنوب بمقياس النيل، ومن

بيته لا ينشق من كثرة المخلوقات، وأرسل أحضر جميع المتسببين(١)، وجميع من كان في الاوجاقات، وأرجع كل احد الى وجاقه، والبس رضوان آغا آغاوية الجملية بالقهر عليه. وقال له: خذ جميع بلادك، والبس محمد اغا المذكور آغاوية التفكجية، والبس حسين آغا تابع ايوب بيك آغاوية الجراكسة، والبس حسن آغا أباظة آغاوية المتفرقة، وعزل اسماعيل المحتسب تابع عبدالله الوالي من الحسبة، واولاه كشوفية القليوبية، وسليمان آغا الدالي أبو دفية هرب الى باب العزب، فأولى مكانه أحمد آغا لهلوبة، والبس سويلم بن حبيب على غفر بولاق، وأعطى لابن اخى السيسي غفر قليوب، وأعطى المحجوب الخبيرى الذى كان هاربا من اسماعيل بيك، غفر الخبيرية وهى أم خنان. هذا ما كان من أمر جركس، وأما اسماعيل بيك أمير الحاج، واسماعيل بيك الدفتدار، فانه شالوهما في تابوتين الى منازلهما، فما نزلا، الا وجماعة الباشا نزلوا بيت اسماعيل بيك أمير الحاج فختموا على جميع محلاته وساروا الى بيت اسماعيل بيك الدفتدار فراوا السراجين الذين(٢) عنده فى بيته نهبوا الخزنة والأكراك وجميع أسبابه التى هى فى أوضته التى فى المقعد.

ومن جملة ما اخذ، صندوق صغير، اخذه سراج او هو باش السراجين، يقال له مصطفى ملآن، فهرب به، فطلعت خلفه جماعة جركس يدورون عليه، فما ختمت جماعة الباشا الا على الحريم فقط. لأن أصله من تهاوش فاذهبه الله فى تناوش. وفى الحديث من أصاب مالا من

(١) بالأصل «المتبين».

(٢) بالأصل «الذى».

الشرق بسيالة جزيرة الروضه، وفى هذا الوقت هدمت دار البطركية التى كانت بالجزيرة.

على الملك العادل وخلعوه. ثم ان جماعة من الاتراك الذين يقال لهم الاشرفيه كانوا قد تحالفوا على انهم ينهبون الاكراد الذين كانوا مجردين الى اليمن وياخذون موجودهم ويقتلونهم ويروحون لانهم جميعاً كانوا نازلين بالبركة المعروفة ببركة الحب [الحبش] فشعر الاكراد بذلك فسيروا الى السلطان عرفوه فامرهم بالعبور الى القاهرة فجاوا ليلا واصبحت ابواب القاهرة مغلقة وماعلم

نهاوش روى بالنون من نهش الحية وبمثناة فوقية وبميم وكسر الواو مهواش، وهو من الهوش، وهو كل مال أصيب من غير حله، اذهبه الله في تهادر، والمراد ان كل مال أصابه من غير حله، كنهب أذهبه الله في غير حله أهـ. مناوى(١).

ثم انهم اغسلوهما وكفنوهما ودفنوهما، ولم يمشى قدامها الا النساء، وبعض مماليك كتيبه، وبعض اولاد بلد، وراحا كأنهما لم يكونا أبدا، وبقى عليهما وزر ما فعلاه فى الناس. فانظر يا اخى الى هذه الدنيا، وانظر الى هذا الذى كان، لم تنطق الأصوات عند مقره، اراح وما احد من العشرة صناجق الذين صنجقهم يقول حاس عند ولم ينفعه منهم أحد، فاعتبروا يا اولى الأبصار.

ولقد رأيت يوم قتل فى الديوان رجلا من البشلية، بعد أن نزل جركس والجماعة، وبقى الذين فى الديوان من المتفرجين عليهما، واذا بهذا البشلى قد فتح عبه واخذ ما كان فيه. وكان فى جيوبه فضة فأخذها، وأخذ الساعة والكرك وسكينة ذهب مطعمة بالمعادن، والختام من أصبعه، وكذلك فعلوا باسماعيل الثانى، وجروهما الى سلالم الديوان، وقد ماتا شهيدين

(١) مناوى: هو عبد الرؤوف زين الدين الحدادى المناوى بن تاج العارفين بن على بن زين العابدين، ولد فى القاهرة ٩٥٢ هـ / ١٥٤٥م وتوفى . ١٠٣١هـ / ١٦٢٢م. اشتغل بعلوم التصوف والحديث . وله كثير من المؤلفات فى علوم الحديث والتصوف، انظر المحبى، خلاصة أثر فى أعيان القرن الحادى عشر، جـ٢، ص ٤١٢.

السبب. وكان السبب لاخذ الاشرفيه فاخذوا من كل مكان، وكان بعضهم يتزيا بزى النسا ويخرج فيعلم به ويوخذ، ومنهم من جعل نفسه في افراد [أوعيه كبيره من الخوص] البصل والجزر وما يجرى مجراها ولم يخف لانه كان على كل باب امير باصحابه وجلقته(*). واقامت القاهرة كذلك جمعه ايام وكان اليوم الاول والثاني اشدها وكان هذا في الجمعة السابعة من الصوم المقدس وهو

(*) الجلق: المقصود هنا فرقته من الجند والحرس. وهي تكتب كذلك في المصادر التاريخية «القلق».

ليس عليهما ذنب مغفور لهما: لقوله عليه الصلاة والسلام، وما ترك القاتل على المقتول من ذنب ولو تقدم منه قتل أهـ. مناوى، فرحمه الله وسامحه وغفر له ما تقدم ، ولقد رثاه بعضهم بأبيات وقد جاءوا كما نطق بهم قبل وقوعهم وذلك قوله:

صروف الليالي ليس يدفعها ... وليس يحل العزم ما عقد القدر
وفي حادثات الدهر كل عجيبة ... يراها اولوا الالباب من أكبر العبر
وما هذه الدنيا سوى دار غرة ... فنعماؤها بؤس وفي نفعها ضرر
ورفعتها خفض وراحتها عنا ... وعزتها ذل وفي صفوها كدر
تريك شرورا في سرور وغبطة ... كجان أصاب الايم في يانع الثمر
الم تر ما اردت عزيزا وملكت ... ذليلا وذلت بالغرور وبالغرر
فلا تغتر ذا اللب يوما بها وكن ... على حذر فالعارفون على حذر
ترى بؤس اسماعيل بيك بمصر ... الى أن له دانت رقاب ذوى الخطر
وكان جديرا بالرياسة والعلا ... فقد سار فينا سيرة سارها عمر
لكنه لم يخل من صدد أمر ... قضاه قضاء الله من آدم البشر
وكان له حزم وراى ومنعة ... ولكن اذا جاء القضا عمى البصر
به غدر الجبار جركس ماكرا ... فعما قليل سوف يجزى بما مكر

(*) يقع برمهات ما بين ٢٧ مارس و٢٥ ابريل.

اواخر برمهات(*) ثم استمر الحال على القبض على كل من حصل منه وهم وكثر المحابيس من الامرا الكبار والصغار والاجناد وبالاكثر المماليك الاتراك. وقبض السلطان على بدر الدين يونس الذى كان ولاه القاهرة وعلى الخادمين الاخرين وهما مسرور وجوهر النوبى الكبيران وكانا مجردين بثغر دمياط المحروس واحضرهما الى القلعة حبسهما فيها واحتاط على موجودهما. وفى

اسر له كيدا به كان حتفه ... بديوان مصر بيس والله ما أسر
فقطعه أربا وسيق لجنة ... وقابله ظلما يساق الى سقر
وجندل من اتباعه كل صنجق ... كبير عظيم الشأن أربعة غرر
فتبت يداه أو فشلت يمينه ... والارماه الله بالعجز والقصر
فقد هد ركنا كان للناس معقلا ... يكف اذا الباغين في البر والبحر
بأغراء من ولى وزارة مصرنا ... لقد عقد الايمان لكن لها غدر
فأعظم به وزرا لقد عم وقعه ... يوم خميس تاسع العشر من صفر
وقد قيل في عام مضى قبل قتله ... خراب بمصر اذا بتاريخه ظهر
فمن بعده الاذناب فوق الروس قد ... علت وعلى الاشراف قد جار محتقر
تقدمت الابدال لما تأخرت ... صناديدها هذا لعمرى من الكبر
ألا في سبيل الله قامت قرودها ... ونامت سراجين المعارك فى الحفر
فأين جبان القلب من أسد الشرا ... وهيهات أم أين الذوات من الصور
وكانوا فبانوا والذى بعدهم أتى ... قريبا سيروا للورى عبر
كان لم يكونوا كم دولة مضت ... فما القوم فى هذا بأول من عبر
فعمى قليل سوف ترا ملوكهم ... مدكدكة حتى لا يرى لهم أثر

هذه الايام خرج الافرنج من كنيسة بو مرقوره لما
[ثم] توجه اكثرهم الى بلاده وهم الذين كانوا
اخذوا فى هذه النوبة القريبة مع هذا الكند
[الكونت] وبقى منهم ناس قلايل نقلوا الى موضع
اخر. وجردت العساكر الى غزه والاسكندريه
ودمياط وخرجوا اولا اولا وبطل تجريد اليمن
بالكلية ولم يسافر سوى ثلثماية فارس او اربع ميه

وسوف ينادى فى عراض بيوتهم	الا يا لاخذ الثأر من كان منه فر
فكل مصاب عنه مصطبر سوى	مصاب أتانا فيه ما عنه مصطبر
فسبحان من عز الملوك بعزه	ومن بعده للخلق بالموت قد قهر
الاهى فأمطر سحب عفوك دايماً	لتهمى عليه فى السماء وفى السحر
وكن رب عن تقصيره متجاوزا	وعامله بالغفران ياخير من غفر
بحرمة من صار الحجيج لقبره	نبيك طه المصطفى سيد البشر
عليه مع الاصحاب والال كلهم	صلاة وتسليم يفوقان من حضر

ولقد رثوه بقصايد كثيرة، ولقد اقتصرنا على هذه القصيدة والله أعلم.

ولنرجع إلى ما نحن فيه، ثم بعد ما نزل الإسماعيلان ودفنا، هرب على بيك وإبراهيم بيك الجزار، وحمزة بيك، ودخلوا بيت أحمد بيك الأعسر، وعلى بيك الأصفر ودوه بيته مجروحا، وكذلك محمد بيك المجنون اخوه راح بيت الأعسر.

ثم أن جركس احضرهم من بيت الأعسر، وحبسهم عنده فى حبس المجرمين، ولم يكرمهم كما اكرمه اسماعيل بيك، حين أتوا به العرب مكتفا فأمر الخازندار أن يلبسه حوايج وأفرد له محلا لنفسه، وأجرى له الجراح، إلى أن طابت جراحاته، وعالجه أيضا الصابنجى، ويوسف بيك الجزار على قلته فأبى، وقال هذا دخل بيتى، وبعد أن دخل بيتى أقتل، لا كان ذلك ابداً.

اتراك سيروا الى مكة قصد ابعادهم. وقيل انهم لما خرجوا الى البرية اخذوا العرب الذين كان معهم ربطوهم وقالوا لهم ان لم ترونا طريق الشام ويخرجون بنا اليهم والا قتلناكم. وانهم فعلوا لهم ذلك. ثم ان السلطان اعز الله نصره جهز العساكر الى الشام وكان قصدهم نابلس ان ياخذوها من الملك الناصر بن المعظم فخرجوا الى

ثم أنه أمر الخازندار أن يعطيه ثلاث بدل من الحوايج، و كركا وخمسماية زنجرلى، وأرسله إلى قبرص.

فانظروا يا اخواني إلى فعل اسماعيل بيك، وإلى فعل هذا الدولتلى الذى حبس أربع صناجق في حبس بيته، الذى يحبس فيه المجرمين، وإذا كان اسماعيل بيك كفر، فما ذنب اخوته واتباع اتباع أبيه، وقد قال الله تعالى ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ولكن هذا الذى كان فى الكتاب مسطورا، وأما عبد الرحمن بيك، فإنه كان غايبا فى تحصيل غلال اللعنبر وأتى قبل هذه الواقعة بيومين، كذلك في بيته، وكذلك عبد الله في بيته.

ثم أن جركس أرسل طلب عبد الله بيك فأبى أن يروح له وكان عنده فى البيت جملة عسكر فركب مع بعض جماعته، وتوجه إلى بيت مصطفى كتخدا الشريف، فلم يجده فى البيت، وقد كان اخذته الانكشارية وأطلعوه إلى الباب وجعلوه باش اختيار محله، وعزلوا الظربة من باشا الجاوشية، وجعلوا أحمد جابى بن مصطفى كتخدا باش، وكذلك رجب كتخدا رجع إلى الباب، وأخوه أحمد أوضباشا جعلوه ثالثا، وسليمان الاقواسي يمق، وابراهيم الصغير الذى كان باش عزبان، ارجعوه إلى الباب جربجي، وكذلك إبراهيم افندى عزبان عمل جربجي وألبسه الباشا كرك سمور، وبشناق الذى كان باش أو ضباشية عزبان عملوه جربجي، وكذلك محمد اغا بتاع السنبلاوين، رجع إلى وجاقة وعملوه جربجي، وكان ناس

غزه وكانوا زهآء ثلاثة الف فارس ومقدميهم كمال الدين بن الشيخ وعلاء الدين قراسنقر الساقى ومعهم من الاعراب جماعة كبيرة وكان الملك الجواد مظفر الدين بن ممدود الذى كان صاحب دمشق اولا وسلمها للمولى السلطان الملك الصالح ايوب ودفع له عوضها سنجار وباعها للخليفه قد وصل الى العباسه فى خدمة مولانا السلطان الملك

كثيرون خرجوا عن اوجاقهم نحو المابة رجعوا إلى أوجاقهم، وكان اسماعيل بيك مانع لهؤلاء من أوجاقهم.

فانظر يا أخى إلى هذا التجبر، وسبب هذا كله، المين [الخداع] وجيفة الدنيا، التى يعطون حسابها، ولقد اجاد من قال:

وإذا عطيت ولاية كن عادلا　　　واعلم بانك بعدها معزول

ولقد أحسن من قال:

إنما المرء حديثا بعده　　　فكن حديثا حسنا لمن بقى

والدنيا زايلة بجميع ما فيها، ولم يبق إلا العمل الصالح.

ثم أن عبد الله لما أنه لم يجد مصطفى كتخدا، رجع إلى منزله، فأرسل له جركس ثانيا، فأبى أن يروح، ثم أن مصطفى كتخدا أرسل له ولده أحمد جاويش، وأرسل له تذكرة صحبته، مضمونها، أنا أرسلنا ولدنا رهنا لك، حتى تقابلنا وترجع إلى منزلك يأتى ولدنا. فلما وصل له وأعطاه التذكرة فقراها، وركب وأبقى أحمد جاويش رهنا، إلى حين يعود إلى مجلسه. فلما دخل إلى مصطفى كتخدا سلم ع ليه وأكرمه، وقال له سر بنا إلى جركس نصلحه عليك وتروح إلى منزلك، فقال والله لو قطعونى اربا، ما دخلت بيته ولا واجهته، وادينى قاعد فى بيتك، أفعل بى ما تريد. ثم أن مصطفى كتخدا أرسل احضر من كل وجاق اثنين، وركب هو واياهم إلى جركس، وأبقى عبد الله بيك فى منزله.

الصـالح وقـصـد العـبـور الى القـاهرة والاجتـمـا ع بمولانا السلطان وان ياخذ معه العساكر ويمضى الى دمـشق يفـتـحـهـا فلم يمكن من العـبـور الى القاهرة ولا اجتمع به المقام السلطانى وكان معه ابن صاحب حمص الصغير وابن صاحب قلعة جعبر فاخرج لهم الانعام والمال والخلع والخيل والاقامات ورسم لهم بالاقامة بموضعهم. واتفق خروج العساكر فتوهموا انها طالبة لهم لتمسكهم فرحلوا ووعروا فى الطريق حتى اجتمعوا بالملك

فلمـا دخل على جركس قال له: يا محـمد بيك أن عبدالله بيك فى بيتى وقد وقع فى عرض الوجاقات السبعة، وعمل لك خمسين كيسـا، وللوزير خمسين كيسا ولوجاق مستحفظان أربعين كيسـا، ولباقى البلوكات ستين كيسا فجملتهم مايتا كيس، فقال له جركس: هذا أمر تعلق الوزير، وفى حقه خط، وأن لم يكن فى حقه خط لم ابقيه، ولو اعطانى ألف كيس، وكلم مصطفى كتخدا كلاما يابسا.

ثم انه قام من عنده هو والجماعة، واراح الى بيته، وأرسل عبدالله بيك الى بيته بعد أن أخبره بعدم رضى جركس عليه، وقبول الخمسين كيسا، فتوجه عبدالله بيك الى بيته وأرسل أحمد جاويش الى أبيه، ثم أنه توجه الى أحمد بيك الاعسر ووقع فى عرضه، فقام الاعسر وتوجه الى جركس، فلما قال له من جهة عبد الله بيك قام عليه قومة منكرة، وقال له ما يكفاك شئ، نفاق وموالسة، والله الوقت اقطعك ، وفزع عليه بالحسام، فقام الاعسر من محله متغيرا.

فلما نزل من المقعد، قال له جركس احترس على الذى عندك، فأنى ما اعرفه الا منك فما استقر الاعسر فى بيته الا وآغا معينا من طرف الوزير وكتخدا الجاوشية وآغة المتفرقة والترجمان، وقاسم بيك وابراهيم بيك الفارسكورى، فلما رآهم الاعسر، وأرسل الى السبعة أوجاق، وأحضر من كل وجاق بلك اختيارين، وسلمهم الصنجق وقال لهم: هذا فى عرضكم فاعملوا ما يخلصكم من الله والله لو كان لى يد لخلصته.

الناصر واتفقوا معه على انهم يد واحده مع من والاهم وعلى من عاداهم. ثم ان العسكر المصرى طمعوا فيمن قدامهم فركبوا بعد ان لبسوا وطلبوا عسكر الملك الناصر وكان مقدمه الجواد وكانوا على ما ذكر ثلثماية فارس لاغير وكان قد اخذوا على عسكر مصر المضايق وسبقهم الى راس العقبه التى من نواحى القدس التى على طريق بيت توبه. وطلع شاليش عسكر مصر ومقدمه علم الدين سنجر الفخرى ومعه الشجاع الاكتع والامير

ثم أنهم أخذوه ومروا به على بيت محمد بيك بن اسماعيل بيك، ليشفع له عند جركس فركب واياه الى جركس فشفع، فلم يقبل وأرسله الى الباشا، فلما وقف بين يدى الوزير، فلم يخاطبه الا بقوله ودوه أوضة الكيخية، فقالت السبعة الذين صحبته من الوجاقات السبعة دولتى وزير هذا فى عرض السبعة اوجاق، فقال لهم الوزير : نعم ما فيه خلاف، ولكن هل الوجاق تخالف أمر السلطان؟ فقالوا: لا وهل هناك أمر السلطانى، فقال نعم، وأظهر خطا وقرى عليهم، فما كان من جوابهم الا انهم قالوا سمعنا واطعنا.

ونزلوا من عنده واودعوا عبدالله بيك فى أوضة كيخيته، ثم أنهم نزلوا الى بيت محمد بيك جركس واعلموه بما جرى، فأرسل جركس الى الجموع التى فى بيت عبدالله بيك بأن يتفرقوا، فما وجدوا أحدا لأنهم اخبروا بحوش الباشا فتفرقوا وخلوا الدار تنعى من بناها وكل أحد رأح الى حال سبيله. ثم ان جركس قال لاحمد بيك أفندى، اكتب بلادك الذى جاءك عفوها من السلطان، ومنعك هذا الظالم من أخذها فكتبها فى قايمة، ثم أنهم اتفقوا جميعا بأن كل من كان له بلاد وابيعت يأخذها، بفايض خمس سنوات، وقروا ثلاثة فوائح.

ثم ان جركس قال لاحمد بيك، خذ كشوفية الغربية فأبى، وقال: أنا لا أخذ شيئا لا كشفا ولا شئ، وأنا بلادى تكفينى. ثم أن جركس أعطى زين الفقار أربعة بلاد فى الغربية من أعز بلاد اسماعيل بيك، وستة فى الصعيد، وأوعده بالسنجقية. ثم أن القاضى عمل له محمد بيك

احـرى والمسـابك هولآء امـرآء وامـا من اجنادهم فكثير فاخذوا باجمعهم بعد ان قتل منهم ما قتل. ولما راى ذلك من كـان وراهـم من الاطلاب لـم يردونهم بل رجعوا منكسرين ولم يطلعوا العقبة بل تموا منكسـرين الى غـزه ولم يقـفـوا فى غـزه بل خرجوا منها طالبين مصر فلما علم عسكر الملك الناصر ذلك تبعوهم وخرج عليهم العربان الذين كانوا معهم وغيرهم ونهبوهم فلم يبق لهم شئ والذى سلم منهم رجع برقبـتـه راجـلا. ووصل

الدفتدار عزومة تلك الليلة، ونام عنده ثلاثة ليالى على أكل وشرب ولذة وسماع، ثم أن القاضى صار يطلع الى الديوان من بيت أبن أبى شنب، وينزل الى بيت محمد بيك جركس. ثم أن القاضى طلع الى الديوان يوم الاحد ثالث عشرين صفر سنة ١١٣٦[١]، واجتمع مع الوزير وتحدث معه فى قضية هذه القضية، التى حطت على أهون سبب ولكن دنت. ثم أن الوزير البسه على الدفتدارية قفطانا وكركا على ماهو عليه، وألبس قاسم بيك قفطانا على كشوفية الغربية، وألبس الفقارية المناصب التى كانت مع جماعة اسماعيل بيك. وتحاينت الفقارية بعد العدم.

وكانت مدة الفقارية ثلاثة عشر سنة، وكان احيا القاسمية غيطاس بيك الكبير مع مخاصمته مع أيوب بيك سنة ١١٢٢[٢]. وسبب أحيا الفقارية فى هذه النوبة جركس، وكان أكبر المتعرضين لاسماعيل بيك الأعسر فعلم نفاقهم، فألتجا الى الفقارية، وفعل هذه الفعلة، مع انفاذ المقدور وفروغ مدتهم وظهور الفقارية وأن جميع المحلات قد أقعد فيها الفقارية، قيطاز بيك الاعور، وكان أقعده جركس فى المحجر، وزين الفقار فى الصليبة ولم يكن فى جميع الدركات الا الفقارية، ولم يمكن أحدا من القاسمية فى درك من الدركات، الا قاسم بيك الكبير فى السلطان حسن، ونزل القاضى الى بيته وصحبته فرمان من الوزير الى العلماء، بانهم

(١) ٢٢ نوفمبر ١٧٢٣م.

(٢) ١٧١٠م.

عسكر الشام الى موضع الخزانه وكان كمال الدين بن الشيخ عندها فاخذت الخزانه عن اخرها واخذ كمال الدين اسيرا ومضى به الى الملك الناصر وكانت كسرة ما راى اعجب منها ان ثلثماية كسروا ثلاثة الف او يزيد عنها. ووصل عسكر مصر الى بلبيس واخرجت لهم الاقامات والازواد ورسم بعبورهم الى القاهرة ولم يواخذهم السلطان بشئ مما جرى وبقوا على اخبازهم [رواتبهم] وكذلك الذين فى الاسر بقيت اخبازهم عليهم ولم

على ما هم عليه من الفتوى، التى تقدم ذكرهم الشيخ سليمان المنصورى، والشيخ أحمد العماوى، والشيخ عبدالله الشبراوى (١٥٢).

ثم انه أرسل الفرمان الى الجامع الازهر، صحبة نايبه، فقرى فى المقصورة بين يدى الطلبة بالجامع الازهر، وأما الاربعة صناجق فى حبس محمد جركس وعمل حساب محمد بيك المجنون، فطلع عليه الى جركس ماية وخمسين كيسا، وأربعون كيسا الى أحمد بيك تابع المسلمانى فى خراب بيته، التى تقدم ذكره.

ثم انه ارسل ختم على بيوت الثلاثة وهم، عبدالله بيك، محمد بيك المجنون، وابرهيم بيك الجزار ثم أن الباشا أرسل اخذ ما فى بيت الاسماعيليين الى الديوان، ثم أن أخت اسماعيل بيك، زوجة عبد الله بيك، توجهت الى محمد بيك بن اسماعيل وباست رجله، وتشفعت عنده، بانه يشفع فى زوجها عبدالله بيك، فقال لها: والله يا هانم لم تقبل شفاعتى ابدا فخرجت من عنده وهى تبكى.

فانظر يا أخى الى هذا الحكم القهرى، كان الوقت لهم، والزمان مبتسم لهم فصار عليهم وهذا فعل الله لا معقب لحكمه سبحانه وتعالى.

(١) كتب عنوان جانبى «أعرف رجوع العلماء الى الافتى، وهم الشيخ سليمان المنصورى، والشيخ أحمد العماوى، والشيخ عبدالله الشبراوى الخ».

يقطع الا خبز فخر الدين بن جلدك لا غير وقيل انه بسبب عسفه بالاجناد مع انكساره من غير قتال. وبعد ذلك وقع بين الملك الناصر والملك الجواد خلف وتوهم منه مخامرة عليه وخافه على نفسه فامر بالقبض عليه فقبض عليه واراد توجهه الكرك ليحبسه فيه فاشير عليه بان هذا ملكا شجاعا ومن اهل بيتهم ومن الواجب ان تخرجه من البلاد وتطرحه في البرية التي تاخذ الى الشرق وبغداد ويمضي برزقه وبخته ان نجا كان وان هلك

ثم أن جركس طلب قرأ مصطفى، الذى كان عامل ثالث، فاخبروه أنه فى بيت صالح كتخدا عزبان، وكشك محمد أو ضباشا عزبان تابع اسماعيل بيك كذلك فى بيت اسماعيل كتخدا عزبان، وعبدالله كتخدا جاويشان تابع اسماعيل بيك، وقاسم آغا باش الازلم خزندار اسماعيل بيك فى باب مستحفظان. وتفرقت جماعته فى جميع الأبواب، وصاروا مشتتين مالهم صدر حنون يأخذ بيدهم، ثم أن جركس أمر بنفى قرا مصطفى وعلى بن داوود، وسليمان الى الطينة، وكشك محمد ويمق على اوضباشى التكلى الى جرجة، كون انهم اشراقات اسماعيل بيك، وعلى بيك أمين الشون فى بيت جركس أثناء الليل واطراف النهار لا ينفك عن مجلسه، كأنه واحد منه(١). وانه من جملة ما قال لمحمد بيك جركس، والله ما كان مرادى، ولا كنت طالب السنجقية، وانما اسماعيل بيك البسنى الصنجقية بالقهر على،

(١) كتبت أبيات الشعر التالية فى الهامش كتعليق يناسب واقعة الحال.. ورحم الله القايل:

قد زال ملك سليمان معاودة ... والشمس تنحط فى الجرى وترتفع

وقال آخر:

لا تشمت عدوى أن عثرت فقد ... يكبو الجواد ويتبو للصارم الذكر
هذا الكسوف يرى تأثيره أبدا ... ولا يعاب به شمس ولا قمر

وقال عدى بن زيد:

أيها الشامت المعير بالدهر ... أنت المعور الموفور
من رأيت المنون خلفى ام من ... عليه من أن يضام صغير

لم يكن في ذمة الملك الناصر منه شي فامر بذلك. ولما توجه الى البرية عمل على عوده الى الشام وقيل انه ارغب العربان الذين معه حتى اوصلوه وقيل انهم لما تركوه تسبب ومضى الى الشام واجتمع بالملك الصالح عمه صاحب دمشق واتفقوا ومشت الرسل بين مولانا السلطان الملك الصالح صاحب مصر وبين الملك الناصر [ابن المعظم] واصطلحوا وحلف كل منهما لصاحبه وسير الملك الناصر الاسرى الذين كانوا عنده

وان طلبت شيل الصنجقية عني كنت والله أدعو لك، وأن عملتني مهما علمتني مقبول، ولو كنت تجعلني رفيق أبي الشراميط. فضحك جركس وقال له: لا تخشى من شيء، عليك أمان الله ورسوله من كل ما تخاف منه، وكل من كلمك رميت عنقه وأنت في عرضي. وكان على بيك أمين الشون هذا من اتباع حسن كتخدا النجدلي، وما قربه اسماعيل بيك الا لكونه قديم، وانه شقجي، فكان اسماعيل بيك ينبسط منه، ومن جواباته تركية كانت أو عربية، وأما على بيك الهندى أرسل طلبه وعفى عنه، وأنزله في بيت سيده أحمد بيك، الذى استشهد في مورة، وأما حمزة بيك فانه كذلك اخرجه من سجنه، وعفى عنه، وأبقى عليه كشوفية المنصورة، وأنزله في بيته الذى مقاصد زاوية سيدى واستاذى سيدى شمس الدين أبي محمود الحنفي رضى الله عنه وعنا.

وأن حمز هذا كان مملوك ايواظ بيك ، وكان خادم الحريم، ثم أن أسماعيل بيك وهو صغير ضربه كفا وهو في الحريم، فبكى حمزة فقال له أنت ما يبكيك يكفيك في هذا الكف، أني اعملك صنجقا وألبسك كشوفية المنصوره، ثم ان اسماعيل بيك أوفى بما اوعده ، وان جركس البس على بيك الهندى ، وحمزة بيك كركين سمور وارسلهم الى منازلهم صحبة كتخدا الجاوشية واغاة المتفرقة(١). ثم أن جركس أرسل الى محمد باشا قاسم بيك وابراهيم

(١) كتبت أبيات الشعر التالية في الهامش، كتعليق يناسب واقع الحال.. قال أحد الأدباء. =

كمال الدين بن الشيخ والامرا الذين كانوا معه بعد ان خلع عليهم واحسن اليهم وقد كانوا قبل ذلك في هو ان وتهديد وتحقير ولم يعدم منهم الا الشجاع الاكتع قيل انه قتله لانه نافق عليه وغدر به مرتين وقيل انه جعله في الجب في الكرك والله اعلم . ثم ان الملك الصالح صاحب دمشق خرج مع من ضامه ووافقه من ملوك الاطراف مثل صاحب حمص وصاحب صرخد والملك الجواد الذى التجا اليه وجآء الى نابلس واستغلها ووقع

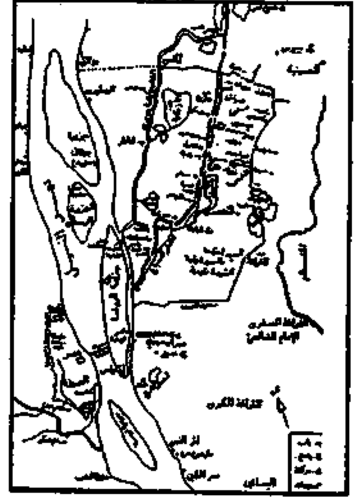
خريطة القاهرة

بيك الفارسكورى بأنه يرسل له عبدالله بيك صحبتهم بعد العشاء بساعة، فكان كذلك،فجركس جالس في مقعده بعد العشاء، واذا بابراهيم بيك الفارسكورى داخل يقول له: الرجل أتينا به وهو على الباب، فقال له اخرج الاثنين الاخرين، فأخرجوا محمد بيك المجنون اخو اسماعيل بيك، وابراهيم بيك تابع الجزار من سجن جركس، وكان لهم في السجن تسعة أيام، والحديد في أرجلهما، وفي اعناقهما فاركبوهما حمارين. وخرجوا بهما من باب جركس، واذا بعبد الله بيك راكب على بيجير الماء [حصان حمل الماء] والقيد من تحت البيجير، فلم يلتفت اليه ابراهيم بيك، ولم يخاطبه بكلمة ما قط الى أن ساروا بهم الى الخلى، وكان صحبتهم قاسم بيك، وابراهيم بيك، وثلاثين بشلي من جماعة الباشا، ونحو المابة نفر من السبعة اوجاق، الى ان أنزلوهم الى مركب، ونزل قاسم بيك، وابراهيم بيك، والوالي، ونحو العشرين نفر، وبعدوا بالمركب عن البر.

= وما الناس الا مع الدنيا وصاحبها فكيف ما انقلبت يوما به انقلبوا
يعظمون اخا الدنيا فان وثبت عليه يوما بما لا يشتهى وثبوا

وقال غيره:

لا يصعب عليك في طلب العلا طول التنقلا وفراق المكنس
فالبدر لو لم ينتقل عن برجه ما كان يعرف نوره في الحندس

وقال الشاعر:

أحسن الى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الانسان احسانا

على شرذمة من عسكر الناصر فهزمها واسر منها
ونهب ووصلوا الى غزه فرحل العسكر المصرى
عنها وتاخروا وكان الافرنج قد خرجوا معهم لانهم
اعطوهم الساحل [ساحل الشام] جميعه ووعدوهم
بشئ اخر اذا نجح قصدهم ورجع مولانا السلطان
اعز الله نصره جهز العساكر واخرج خيمته
ودهاليزه ضربها على الخندق واهتم بالسفر
وخرجت العساكر اولا اولا ومنهم من وصل الى
العباسه. ثم وردت الاخبار بان العسكر الشامى

ثم ان عبدالله بيك، قال يا قاسم بيك، فك لى يدى لأجل ما أتوضا، فقال له ابراهيم بيك تابع الجزار: توضى ياملعون، كنت وضيت الخطيب، والامام، والمبلغين الذين خوزقتهم فى كوم طوخ الملق، يا ملعون، والله ما هلكنا الابنارك، ونار سيدك، وفاز هذا الملعون، الذى كان كل كشك نزل فيه، فعل بحرايرها وقتل رجالها، وبلص أراملها، والله هذا الجزاء قليل فيكم، وتأتى الخبر لسيدك الممقوت بما يفعل هذا الملعون اخوه، الذى سميتموه المجنون، حتى حرقونا بناركم، بالله عليك يا قاسم بيك ارمى رقاب هذين الملعونين، حتى أتشفى[1]. قبل الموت ولو بدرجة، فان مثلا تقوله النساء أن البصلة فرجة السيرج، وهو بيتطشطش قبل نزول البصلة عليه. مع أن المسافة قريبة بين السيرج والبصل. ثم ان قاسم بيك أمر أحمد آغا لهلوبة الوالى، أن يرمى رقبة المجنون، وعبد الله بيك، ثم اخذ رأس الجزار ابراهيم بعدهما، وأخذ رءوسهم، ورجعوا بعد أن رموا جثتهم فى البحر، وكان قد مضى من الليل تسعة ساعات. وكان ذلك ليلة الاحد ثامن ساعة من الليل، الثامن والعشرون من شهر صفر سنة ١١٣٦[2]، وان ابراهيم بيك الجزار قتل ظلما، وكان سبب قتله، أنه لما ظهر اسماعيل بيك أعطى يوسف بيك الجزار الى محمد بيك جركس بلد ههيه [بالشرقية]، وكان البلد باسم ابراهيم خزنداره هذا، فقال له: يا بيه أنت اعطيت محمد بيك بلدى التى اعطيتها لى، فقال له سيده أنا أعوضك بلدا

(١) بالأصل «أتشوقى».

(٢) ٢٧ نوفمبر ١٧٢٣م.

تاخر عن غزه، ثم وردت الاخبار بانهم رجعوا فتوقفت الحركة، الا ان مولانا السلطان صلح مع الملك الناصر. وفي هذه الايام زاد النيل زيادة جيدة وطلع على العماره التى عمرت بالجزيرة وبطل العمل منها ما خلا الادر [الدور = المنازل] والمناظر السلطانيه المحدده فان العمارة كانت فيها مستمرة. وفي هذه الايام نزل رجل من الاجناد وكان من مشدى(*) عمارة الجزيرة في القاعة التى كان البطرك عمرها بكنيسة الجزيرة واقام بها اياماً

(*) المشد: المقصود به هنا ملاحظ أو مقاول البناء

خلافها. ثم أنه توفي ولم يعوضه خلافها، فاخبر اسماعيل بيك عنها، فقال اسماعيل: أنا اعطيك بلدا احسن منها وأكثر فايض، ثم أنه تركه فذكره بها ثانيا، وكان قد اشتد عنقه، وقويت شوكته، وكان ابراهيم صار صنجقا، فقال له اسماعيل بيك جركس: آخذ البلد، وأنا أعطيك بلدا غيرها، بلصة سيدك اعطاه شئ لا يملكه، وهي على اسمك أنت صنجق، وهو صنجق أطلب بلدك منه وأنا أكلم لك الوزير. ثم أن ابراهيم بيك، قدم عرض حال الى الوزير بطلب البلد من جركس، فأرسل الباشا الى جركس فرمانا صحبة آغا معين عليه من جهة الباشا، فلما قرأ الفرمان رآه من جهة البلد اللى أعطاها له الجزار فأرسل يقول الى الباشا هذا البلد كان اعطاها لي سيده، وهي باقية على اسمه، ولم أغير اسمها، وهذا تقسيطها اعطيه له. فوصل الاغا الى الباشا واعطاه التقسيط، فسلمه الوزير الى ابراهيم بيك، فهذا كان سبب قتله والله أعلم.

وفي تاسع عشرين صفر(١)، قدم سالم بن حبيب الى مصر، وقد كان عند المغاربة بالصعيد، فاخبر بموت خصمه الذى طارده عن وطنه، فرجع من الصعيد من يومه ، فضرب ثلاث بلاد من بلاد اسماعيل بيك، وأخذ وساياها اربعماية ثور وجاموس وثمانماية رأس من الغنم ، وأرسلهم الى دجوة ودوغهم بداغه [ختمهم بخاتمه]، ودخل الى مصر، واجتمع

(١) ٢٨ نوفمبر ١٧٢٣م.

وتنكد البطرك بسببها. وتحدث للناس بان هذا هو الذى كان يخشى ويحذر لان هذه لو كانت على حالها من داخل الكنيسة وهى موضع لا يوبه له ما تعرض احد اليها وهو امر يودى الى خراب الكنيسة ويطرق الايدى الغريبه اليها. ثم ان المذكور خرج منها وهو المعروف بسيف الدين بورنا السهمى . ثم ان النيل المبارك وفى ست عشر ذراعا فى نهار يوم الاثنين التاسع عشر من مسرى [١٢أغسطس] الموافق الثالث من صفر سنة تسع

بجركس وسلم عليه وعلى الصناجق فى المقعد لذى فى وسطه العامود الرخام على ميسرة الصنجق، وغيطاس وقبلان وأيوب بجانبه، فتقدم اليه سالم ليسلم عليه، فأخرج له الخنجر الذى قتل به أسماعيل بيك . وقال لسالم بوس هذا الخنجر، فقال سالم: لماذا يا أمير زين الفقار، قال له: لولا هذا الخنجر ما دخلت مصر، وحضرت فى ديوان محمد بيك، فقال له: ان شاء الله يدوم يا أمير زين الفقار، ولكن تأذى باطنا واخبر الأعسر، وقاسم بيك، فقاموا على جركس فيما بينهم وبينه، فلم يلتفت لهم ولا يرد لهم جوابا الا بقوله صدق. ثم انه كساه فى ذلك اليوم كرك فاقوم. وفى ثانى يوم ارسل طلبه، وكان بايتا عند رجل شريف، يقال له السيد محمد الطحان، فركب وسار الى منزل محمد بيك جركس، فقال له جركس: يا شيخ العرب سالم، قد أوليتك غفر البرين من بولاق الى دمياط، وانك شيخ الرايتين من الغربية وانك تخرج من حق المفاسيد، فقارية كانوا او قاسمية، وان حصل فى الاقاليم فساد يكن براسك، فقال: سالم كذلك يا بيك. ثم انه كساه كركا مقصبا وأمره أن يسافر الى دركه، ويعمر دجوة، وأن سالم هذه فارس لا يطاق، علقم مر المذاق.

ومن أعجب ما وقع، ان اسماعيل بيك لما اخرجه الخرجة الاولى، نهب دجوة، ولم يبق فيها شيئا، وهدمها واحرمه أن يمر، وكان كل ليلة من الليالى تحدث مع سيدى أحمد البقرى شيخ نصف حرام، وكان اسماعيل بيك يحبه ، فقال : له يا أحمد الان فى العرب نبيه من

وثلاثين وستماية الهلاليه [١٢٤١م][*] وقد كان امر بعقد جسر من مصر إلى الجزيرة [الروضه] فعقد وكان فيه احد وعشرون مركبا وكان عرضه يسع جملين محملين احدهما جايئاً والاخر رايحاً ولا يزدحمان، ووجد الناس به راحة عظيمة. ولما قربت ايام النيروزجا مولانا السلطان الى الجزيرة واقام بها هو وخواصه وكان عمل على المقياس المقعد الذى عمله ولم يكن قط لانه لم يكن تم قط سوى بسطه والمقعد كان داخلا منها. فعمل

(*) أهم أحـــداث سنة ٩٥٨ق.= ١٢٤١م.=٦٣٩هـ.
* أول توت ٩٥٨ = ٢٩ اغسطس ١٢٤١= الخميس ١٩ صفر سنة ٦٣٩.
* فيها الصالح اسماعيل، صاحب دمشق، والمنصور إبراهيم، صاحب حمص، وصاحبة حلب صفية خاتون، كانوا متفقين على عداوة الملك الصالح أيوب، صاحب مصر.
* ١ يناير ١٢٤٢=٦طوبه ٩٥٨= الأربع ٢٦جماد الثاني سنة ٦٣٩.

مشهور بالفروسية فقال له: يا بيك أثنان، سالم ابن حبيب وحماد شيخ عرب هلبا سويد، ولكن يا بيك سالم أقوى لكون أنه صبى، وأما حماد عرص فارس، الا أنه عرص جاهل، ومتزوج بعشرين امرأة[١] وعمره نحو الثمانين، فقال الصنجق: كيف ماتنسبهم الى الفروسية وهم اخصامك، فقال: يا بيك هذا الحق الذى باقول، وان كانوا اخصامى.

ثم ان الصنجق سكت ، فأصبح شيخ العرب سيدى أحمد البقرى سافر، ثم أنه فى حال رجوعه الى مصر ، اجتمع مع سالم وأخبره بالمجلس، وقال له روح له وادخل له وحدك من غير واسطة احد، وان جرى فيك شئ أكون انا القاعد به، فدرجه وقوى قلبه، الى أن قرب الى مصر، فقال سالم لسيدى احمد البقرى الفاتحة، الى الامام سلطان مصر. ثم انه دخل الى اسماعيل بيك فقال له: أنت من يا رجل؟. فقال : يا بيه أنا سالم بن حبيب، فقال له: أنت سالم؟ فقال: نعم يا بيه، فقال يا سالم الفقارية تدخل بيوت أعداهم القاسمية، فقال: يا بيه ضاقت بى الدنيا، وما رأيت احد يحمينى منك، فقلت: أروح الى اسماعيل بيه خليه يقتلك وارتاح من هذا الذل الذى أنا فيه لكون أنى صرت من العرب الرحالة كل يوم فى وادى، وأنا جيت اليك كفنى تحت أبطى، ان كنت تقتل أقتل، تعفو أعفو، أنا بين يديك أفعل ما تشتهى وتريد.

(١) بالأصل كتبت كلمة «جارية» وفوقها «أمراة».

هذا السلطان هذا المقعد [شرفة على النيل] وجآء بدعـه حـسنه وهو ادام الله ايامـه كل مـا يعـمله ويقترحه ما يجى فى الدنيا اوقع منه ولا احسن ولا اوزن. فجا احد الخدام ويعرف برشيد الصغير نزل بالقاعة التى للبطرك التى بكنيسة الجزيرة المقدم ذكرها وكان البطرك قد خرج منها ومضى الى دير الشمع وكان من الاتفاقات المقاربة [الصدفة]. ثم رسم بعقد جسر على المآء من الجزيرة [الروضه] الى الجيزة واهتم به وكان المهتم بجميع العماير

* وفيها اتفقت الخوارزمية مع الملك المظفر غازى، صاحب ميافارقين.
* في ذى الحجة توفي الملك الحافظ نور الدين أرسلان شاه بن الملك العادل بن أيوب.
* في ٢٧ صفر، بقرب الخابور، هزمت عكسر حلب ومعه المنصور إبراهيم وعسكر الخوارزمية ومعهم المظفر غازى.

فما كان من جواب اسماعيل بيك، الا أن قال له، مرحبا بك يا شيخ العرب سالم، ثم أن سالم قبل يديه فافرد له محلا، وصار يتحدث معه فى كل ليلة ثمان ساعات، وانما ضر سالم خربة اسماعيل بيك، وصار صحبة من سار الى العقبة، وصار يتكلم فى حقه الكلام الذى لا خير فيه[1]. فلما ظهر ما قدر يقابله، وجرى له معه ما سمعت أذهانكم الرايقة.

ولقد اخبرنى رجل من البقرية، أن سبب ما سموا اولاد بقر، أن جدودهم كانوا يتزوجون بالمحارم، مثل الاخت وبنت الام، وبنت الاخت، وكان كل قاضى جاءهم يقولون له أعقد لنا على الاخت أو البنت ، فاذا امتنع قتلوه ، حتى جاءهم قاض كان ماهرا، فلما ذكروا له العقد على المحرم، فقال هذا لا يصح الا للبقر، فقالوا: ونحن بقر، فسموا بهذا الاسم.

وأما حماد فانه سار الى الشرقية، واجتمع عليه، وكان صحبته، سيدى أحمد البقرى، فلما اجتمع عليه قال له: يا حماد أنت متزوج بكم، فقال: يا بيه والله ما أدرى تمنطاشر أو تسعطاشر يابيه. فقال له أنت مذهبك ايش يا حماد، فقال: يا بيه مثل القوم كلهم، ثم أن اثنين من الطايفة نزلوا بجانب فدانين زرعه حشيش فقالوا للمرابعى، يا رجل ماذا تصنعون بهذا؟

(١) كتب بيتا الشعر التاليين لمناسبتهما لواقع الحال.. قال الشاعر:

بمكارم الاخلاق كن متخلقا ... ليدوم نثر ثنايك العطر الشذى
وانفع صديقك أن أردت صداقة ... وادفع عدوك بالتى فاذا الذى

الامير جمال الدين بن يعمور. وخرج الخادم المذكور من القاعة ولم يبيت بها سوى ليلة واحدة ثم بطل الجسر المذكور لعدم المراكب التي تصلح له وقيل انه أخر الى ان ينزل النيل المبارك فيقل ما يحتاج اليه من المراكب. وكان النيل يزيد والسعر يزيد والغلاء في كلما في الارض، وكانت مصر في تلك ارجح من غيرها واصلح لانه ذكر ان القمح بدمشق يسوى ثلثماية درهم نقره الغراره وهي اردبان بالمصرى واجرة الطحين ستون درهما

فقال المرابعي والله يا أمير هذا لرأس حماد[1]، في كل سنة يزرعوا له ويأكلهم ، فانظر يا أخى جهل هذا الرجل، مع انه في سن الثمانين والله أعلم.

وأما عبدالله كتخدا الجاوشية، وعبدالله كتخدا البيت، فانهم عملوا جربجية في وجاق مستحفظان، وأما سليمان أبو دفية عمل جربجي في وجاق العزب، وحول الباشا جميع ما في بيوت الخمس صناجق الى الديوان. وأما أخت أسماعيل بيك فأنما تحولت من بيت أبيها الذى بجامع مسكة، الى بيت حسين جربجي الذى بجوار حمام الكلام، ولم يتعرض لها أحد بنهب، لأن المال الذى هي فيه ميراثا من أبيها، وجوار أخيها اسماعيل بيك أتوا عندها، لأن جميع أموالهن نهبت ولم تفدهن منه شئ الا ما اخذوه، لأن أموال الخمس صناجق ضبطت الى الميرى، فانظروا يا اخواني الى هذه الدنيا والى غرورها.

وكانت قطيعة الشواربية مثل قطيعة البرامكة الذى تقدم ذكرهم، وانظروا الى العز الذى كان فيه اسماعيل بيك وجماعته، والى نفاذ الكلمة التي كانت له، ولم تصر الى أحد غيره، وأطاعة العسكر وجميع الأكابر والأعيان الا محمد بيك جركس، فانه كان اذا اصطلح هو وأياه لم يمكث صلحه ثلاثة أيام، ويحدث له غما وهم جرى على هذا المنوال، الى أن كان ما كان في علم الله.

(١) بالأصل «الرأس».

نقـره لان انهـارها جـفـت وارتحل اكـثـر الناس من المتمـاعشـين [الفقـراء] والصعـاليك وغـيرهم من الشرق والشام وساير الامـصـار الى مـصـر وصـار بها من الخلق مـا لا يحد ولا ويوصف وهو كـان اكـبـر الاسباب في الغلاء.

ثـم دخلت سنة ثمـان وخـمـسين وتسع مـايه والسلطان خلد الله ملكه واعـز نصـره الملك الصـالح والوزير مـعين الدين بن الشـيخ والقـاضي

ومما اتفق أنى دخلت بيته قبل العصر، فرأيت البيت ملانا بالخلق من علماء واشراف وأعيان البلد، والقاضى، ومن السبعة أوجاق ولم يكن البشيلى عندهم، فسألت عليه فقالوا: فى الحريم، فلم أجد محلا أجلس فيه من كثرة ازدحام الخلق، فجلست فى دهليز المقعد، وكان بجانبى رجل من طلبة العلم، فتحدثت معه الى أن مضى بعد صلاة العصر خمسة عشر درجة، واذا بالبشيلى نزل من الحريم، فبمجرد ما رفع نظر الذين فى المقعد جميعا قاموا، فلما دخل عليهم وسلم، انحنوا له نحو نصف القوس، وأخذوا سلامه وصار هذا يلم حرمته على صدره، وهذا يضم عمامته ثم جلس، فالذى مرتبته الجلوس جلس، والذى مرتبته الوقوف وقف، فقلت فى نفسى سبحان الذى أودع سره فى أضعف خلقه، وكان صغير السن، لأن عمره كان نحو تسعة وعشرون سنة، لأنه ولد سنة ١١٠٦، ومات سنة ١١٣٦.

وكان اذا طلع الى صلاة الجمعة تصطف له الناس ميمنة وميسرة، وبايديهم القصص، فيعطوهم له فى حال خروجه من المسجد، لأن الفقراء ما كانت تملكه فى المقعد من كثرة الازدحام، وفصل مصالح الناس أى الخلق، لأنه كان يقضى مصالح الخلق من غير شئ، ولم عهد عليه أخذ شئ فى قضاء مصلحة. وكانت الخلق تعطى الرزق معاملة، ويقطعوا كل قرش نصف فضة، وأما هو فكان يعطيها فضة بيضا، والذهب بماية وسبعة، ولم يقطع الخزندار النصف أبدا، ويعطيهم على السواء.

شرف الدين بن عين الدولة الاسكندرى، والبطرك انبا كيرلس المعروف بابن لقلق، والماء متزيد والاسعار متشحطه. ووردت الاخبار بكسر عسكر الشام ورجوعهم الى دمشق مخذولين كسرهم عسكر الملك الناصر بن المعظم. وجات رسل الافرنج بطلب الصلح من مولانا السلطان اعز الله نصره وهم رسل الديوية اصحاب عسقلان وغيرهم من اكبر الفرنج كونوا صلحاً مع مولانا السلطان وهولاء الذين كانوا مع صاحب دمشق لما

ومن أعجب ما وقع[١]، أن رجلا جنديا من طايفته، وكان قد اشترى جارية بيضا، وكانت جميلة، وكان قد اخدها بماتين زنجرلى، وكان مغرما بها، وكان فى البيت عندها امرأة السايس تخدمها، ولم يكن فى البيت أحد غير الست وامرأة السايس، والسيد والسياس هم الأربعة فقط فاذا ركب قدام السنجق يغلق الباب السايس ويأخذ المفتاح، فاذا جاء يفتح الباب ويدخل ، ثم أن يوما من الأيام، فتح الباب ودخل فلم يجدها فطار عقله، فنده عليها فلم تجبه، ولم يجد زوجة السايس فسأل السايس، فقال له: أنا واياك والا فى البيت، فقال: اطلع فتش عليها، فطلع الاثنان فلم يجدوا شيىا، وما أحد أخبر بخبرهما.

فانقطع عن رواح بيت الصنجق نحو ستين يوما، وهو داير طول النهار لم يخل محلا فلم يجدها ولا وقع لها على خير، فسأل عليه الصنجق فأخبره محمد آغا البواب بواقعته فأرسل له، فلما جاء سأله فاخبره، فقال له: هل أخذت شيىا من الحوايج ؟. فقال : لا .. فقال وجميع حوايجها؟ قال: قاعدة فى الصندوق. فقال له هات الصندوق الذى فيه اطمار بدنها، فأتى به قدامه، فقال له: افتحه وطلع(*) ما فيه قطعة قطعة، فطلع قفطانا، فقال له: أنت فصلت لها هذا القفطان؟ فيقول نعم، الى أن طلع قاوشترمة، فقال له هذه؟ فقال لا لم أفصل لها هذا فحاش القفطان، واعطاه الصندوق.

(١٦١) كتب عنوان جانبى «اعرف واقعة جارية الجندى وزوجة السايس الخ».

(*) كتب بأعلى الصفحة «عونك يا الله».

رأوا خذلانهم وانتصار صاحب مصر عليهم رجعوا الى الموادعة والمسالمة وطلب الهدنه على ما فى ايديهم. ثم ان مولانا السلطان اعز الله نصره اطلع على خيانه من بعض الامرا رد الله كيدهم فى نحرهم فقبض على واحد منهم يقال له ابن فلاح وكان من الاشرفيه وكان مولانا السلطان قد احسن اليه غاية الاحسان فكافاه بما لعنه. ثم قبض على اميرين كبيرين من الاكراد وهما بهاء الدين بن ملكيشوا وناصر الدين بن برطاس وصير الثلاثة الى

ثم أنه أرسل لخياط بيته، واعطاه القفطان، وقال له: تأتينى بمن خيط هذا القفطان فغاب ثلاثة أيام، وأتى له برجل نصرانى خياط، فسأله الصنجق، فأخبره بانه خياطة يده، وأنه باقى له من مصروفه و أجرته تسعون نصفا، وأنه خاطه لسراج فلان، فأرسل أتى به واوراه القفطان، فقال: نعم هذا قفطانى فصلته لفلانة جارية فلان، قال له: وأين هى ، قال قتلتها فقال له: ما سبب قتلتك فيها، فقال: يا بيك اتكلم الصدق، قال له: تكلم الصدق وعليك الأمان.

فقال يا بيك أنا سراج من جملة سراجين قاسم بيك، وهذه الجارية ساكنة فى فم الرميلة قريبة من بيت الصنجق، فلم يكن عندى خبر منها، فأنا مارر من تحت بيتها الى الوكالة، واذا بمحرمة وقعت على رأسى متلفة تسوى فندقلى، فرفعت عينى الى المحل الذى وقعت منه المحرمة، فرأيت الجارية واقفة فى الشباك، وكان وقت المغرب، فلما رفعت رأسى اليها، وضعت يدها على صدرها وشالتها باستها فتحيرت، ورحت مشغول البال، فجعلت طريقى من على بابها، فأجد الباب مقفولا، واذا بامرأة السايس قاعدة بعيد عن البيت، فلما تبعتنى اخبرتنى بانها مرسال الجارية، ثم أنى امرتها أن تجيب لى المفتاح فجابته لى فعملت واحدا مثله، وصرت افتح الباب واطلع مدة، ثم أنها قالت لى مرادى آجئ عندك الاوضة، فقلت أهلا وسهلا، ثم أنها صارت تفتح الباب وتأتى هى والمرأة.

الى يوم من الايام جاءت عندى، فدمنا فى السكر فرقدنا فاقمنا الا بعد العشاء، فلما عادت

قلعة صدر تحت الحوطه بعد حوز جميع مالهم. وانتهى النيل المبارك فى هذه السنة الى ثمانى عشرة اصبعا من ثمانى عشر ذراعاً وجاء مجياً وثبت على الاراضى ثباتا مليحا الا ان الاسعار كانت متزايدة فى كل شئ من الماكول وغيره حتى الكسوات والعماير والعالم يكثرون بالديار المصرية من الشام والشرق والعراق لاجل الغلا الذى هناك. ثم ان مولانا السلطان عز نصره قبض على امير كبير من الاتراك من مماليك ابيه يعرف بسنجر اليمنى ويقال

راحت ، ثم انى حشتها عندى فى الاوضة نحو خمسين يوما، ثم أن بجانبى سراج، فطلعت يوما من الايام فما وجدتها فى الاوضة، فرحت أوضة جارى السراج فرأيتها تحته، فما ساعنى الا أنى قتلت الاثنين ورمتهما فى بيت الخلاء بتاع الوكالة، وان كنت ما تصدق ارسل وأكشف وأنظر، وان كنت تقتل اقتل. ثم أن الصنجق سأل عن امرأة السايسى فقال هربت فعفى عن السراج وأنزل سيد الجارية حوالة على[1] جملة بلاد، جاله منها نحو ثمانين ألف فضة، وحث على المرأة وقتلها ، غفر الله له وأرضى عنه خصماه والله أعلم.

ثم أن فى يوم الخميس خامس ربيع أول سنة ١١٣٦[2]، وردا آغا من الديار الرومية وصحبته خطان شريفان، واحد بخمسة آلاف فرق بن، والثانى بغلال الحرمين، وطلع محمد بيك جركس الى الديوان، وكان أول طلوعه بعد قتلت اسماعيل بيك، وكذلك محمد بيك أمير الحاج، وعلى بيك الهندى، وحمزه بيك، وعلى بيك أمين الشون، فقرى الخطان، فأجابوا بالسمع والطاعة، ثم أن الباشا البس الصناجق خمسة أكراك سمور وأقر أمير الحاج وحمزة بيك على كشوفية المنصورة، وعلى بيك الهندى على نظارة الخاسكية، وعلى بيك على امانة الشون ومحمد بيك جركس على مشيخة القاهرة محل اسماعيل بيك ثم أن الباشا أمرهم أن يرسلوا الى مشايخ الاسواق والمطربازية [المسؤلين عن المزادات] والدلالين أن يحضروا الى

(١) بالأصل كلمة «المراة» وفوقها علامة الشطب. (٢) ٣ ديسمبر ١٧٢٣م.

انه اخرجه من البلاد وجماعة من المغاربه معروفين وغير معروفين. وعزل القاضى شرف الدين قاضى القضاه من قضا مصر واقتصر به على قضا القاهرة والوجه البحرى واستخدم فى قضا مصر مع الصعيد رجلا كان قاضى سنجار وهو من اصحاب السلطان عز نصره وكان قد سير اليه كتاباً احضره لانه كان خدم السلطان خلد الله ملكه ايام كان بسنجار وبذل الجهد فى خدمته. وارتفعت الاسعار حتى ان القمح بلغ خمسين

الديوان ، فحضروا ، فأمرهم أن يبيعوا حوايج الخمس صناجق، فنزلوا الحوايج الى حوش الديوان. وجلس الباشا والقاضى والرزنمجى أحمد أفندى والقسام والصناجق فى ديوان قايتباى، وفتحوا باب البيع فى خامس عشر ربيع أول سنة ١١٣٦ ، فأول ما باعوا الخيل والجمال والخيام والفرش والنحاس والصينى، واخرجوا شينا يذهل العقول بحضرة أعيان البلد، ثم أنهم اخرجوا صندوقا صغيرا فوجدوا فيه طاقية وصديرى وحزام لم عرفوا هو من جلد ايش من الحيوانات، ووجدوا عليه كتابة مثل دبيب النمل، لكن الخط كوفى، كان قد أهداها له مولاى اسماعيل سلطان الغرب [المغرب]، فأخذه الوزير ولم يبعه، وأخذ الوزير الصيوان الكبير الذى كان اخذه رجب (*) باشا وأرسله الى سكندرية مع جملة المنهوبات. فلما ظهر اسماعيل بيك فأرسل يجيب المنهوبات، فوجدها سافرت صحبة المركب التى سافر فيها العرض الذى تقدم ذكره صحبة العماوى، وكان هذا الصيوان تأخر، وما أرسله الا بعد سفر المنهوبات. فلم يجد اسماعيل بيك الا الصيوان، فأرسل أحضره فأخذه الوزير محمد باشا بعشرة آلاف زنجرلى. وكان هذا الصيوان من الكشيرى، وكان قد اصطنعه رجل تاجر يقال له خضر فى الهند، وأتى به الى مصر ، فأعرضه على اسماعيل بيك، وقال له مرادى التوجه الى الديار الرومية لابيعه فى اسلام بول، فدفع لهماية كيس، فأمتنع الحاج خضر أن يبيعه، وتوجه به الى الديار الرومية،

(*) بالأصل «رب».

درهما الاردب والشعير خمسة وثلثين درهما الاردب وبذر الكتان الفلت [الردىء] ثمانين درهما الاردب والسلجم مثله والزيت الحار ثمانية وثمانين درهما القله والجميع من هذه السنة. ولم يكن فى البلاد شئ رخيصا بالجملة الكافية. واما اصناف العماير فما يقدر عليها لان الناس مع الغلا ما كانوا يقترون من العماير مع العماير السلطانية التى ما كان قط مثلها. وكسفت الشمس(*) فى الساعة التاسعة من نهار يوم الاحد تاسع بابه [٦ أكتوبر]

(*) كسوف للشمس في يوم الأحد ٩ بابه.

فما أخذه أحد فاعرضه على السلطان أحمد، فدفع فيه خمسين كيسا فأبى أن يبيعه، فعمله له بشير آغا بستين كيسا ليأخذه ويهديه الى حضرة الملك، فأبى ثم انه أتى به الى مصر وأعطاه الى اسماعيل بيك فأخذه بثمانين كيسا، فلما طلع فى المنهوبات أخذه الباشا بعشرة آلاف أحمر.

وفى يوم الخميس الخامس والعشرين من ربيع أول[1]، طلع محمد الدفتدار ابن أبى شنب، فلقيه رجل فى حوش الديوان وقال له: ارجع الى بيتك، فان الأمر دبر عليك وعلى عمر اغا كتخدا الجاوشية، فقال لا يمكن الرجوع من حوش الديوان. ثم انه طلع الى الديوان وجلس فى مرتبته، ثم فز قايما، ونزل ركب وسار الى منزله، وكان فى حال جلوسه، أخبر عمر اغا كتخدا الجاوشية، فقال له الذى اخبرك أخبرنى واخبرنى بالسبب، فقال: ممن؟ فقال: من اخت اسماعيل بيك، بواسطة جماعة اخيها من داخل الداخل، ثم انى اعطيته مايه زنجرلى، فقال الدفتدار: وانا أعطيته الكيس الذى فى جيبى بما فيه، ثم أن كتخدا الجاوشية افرقه ودخل الى الوزير، فقال له الوزير لماذا محمد بيك نزل ولم يعمل ديوانا؟ ما سبب ذلك؟ فقال عمر اغا: يا وزير دولتلى نزلت عليه نزلة ثم أنه تقايا فخاف أن يثقل عليه الأمر، فسكت الباشا على خبره.

(١) ٢٣ ديسمبر ١٧٢٣م.

من هذه السنة واستغرقها الكسوف بحيث ان
النجوم ظهرت في ذلك الوقت واوقد الناس
السرج في الدكاكين والحمامات ثم بعد ذلك
انجلى الكسوف اولا اولا الى ان رجعت الشمس
الى حالها وظهر النور كما كان وقيل ان هذا
الكسوف لم يعقل احد لمثله وقال قوم من المشايخ
انه كان مثله في ايام الملك الناصر صلاح الدين
سنة اخذ القدس من الافرنج ويكون لهذا الحديث
اليوم خمس وخمسون سنة [من ١١٨٧ -

ثم أن في ثاني يوم أظهر الخبر، وهو أن أخت اسماعيل بيك اجتمعت مع بعض جماعة أخيها، وأقرت لهم بأنهم يجتمعوا على الوزير ويعملوا له خمسماية كيس وللابواب ثلاثماية كيس، وأن الوزير يقتل الدفتدار وعمر اغا في الديوان، وبعد قتلهم.. بأمر العسكرى أن يهجموا على جركس في بيته فيقتلوه، وكان هذا تدبيرهم، ففطن جركس، وابن سيده جمع السبع أو جاق وأعرض عليهم هذا الأمر ، وقال الهم:

لابد من نزول الباشا لكون انه رتب جماعة من جماعة اسماعيل بيك وانه البسهم لبس البشتلية، ونزلهم في الديوان، وهم نحو الثلاثين، فقالت السبعة اوجاق أحنا معك في الخير والشر، وهذا أمر لا يثبت، ونبقى نحن العايبون.

ثم ان الجماعة اقتضى أمرهم أنهم يكتبوا عرض حال ويرسلوه الى الباشا، يعلم لهم عليه بأنه لا أحد يطلع الى الديوان من الصناجق ألا كواخيهم وباش جاوشية الديوان الذين للوجاق، وان كان أحد من العسكر له مصلحة في الديوان، لا يطلع الى [سوى] الديوان ألا بمعرفة ضابطه. ثم أنهم قدموا العرض الى الوزير، فلما قراه، قا ل لا أعتاز في الديوان [سوى] الدفتدار والرزنمجي خدمة الديوان ، وأما الصناجق لا حاجة لي بطلوعهم، فان طلوعهم وعدمه على حد سوا، ثم انه علم لهم على العرض.

ثم أن جركس عمل جمعية في بيته، وكتب قايمة بنفي جماعة يأتي ذكرهم في محله.

١٢٤٢م] وارتاع الناس لهذا الامر ارتياعاً عظيما وقالوا ماذا يكون من هذا الحادث. ووصل رسول الانبرور(*) الى الاسكندريه ومعه اموال عظيمة وبضايع جزيلة وتحف كريمة وقيل ان المركب الذى وصل فيه تسع ماية بحار وان اسمه نصف الدنيا، وتاخر وصوله الى القاهرة ثم اذن له فى المجى فاحضر فى البر وطول [طوف] به فى طريق ودور به من على الفيوم وجآء الى الاهرام(*) وعدى من الجيزة وكان معه زهآء مايه رجل وكان

(*) الامبراطور فردريك الثانى امبراطور الامبراطوريه الرومانية المقدسة فى الفترة من ١١٩٤/١٢٥٠م.

(*) وفد الامبراطور فردريك الثانى يزور الاهرام فقد كان للآثار

ويرجع الكلام الى الأربعة انفار الذين كانوا نفوهم، وهم قرا مصطفى جدك وعلى أوضباشا بن داوود وسليمان مستحفظان وكشك محمد، وعلى أوضباشا عزبان وكل منهم اليمق ويمقه وان كان قد شاع فى القاهرة انهم ماتوا، ولم يكن له أصل، وانهم لما دخلوا الى جرجة، فر قرا مصطفى الى العزب، وقال انا عزب فما قدروا أن يأخذوه من أيدى العزب، وكذلك على اوضباشا، ثم ان سردار العزب حماهم وكتب مكاتيب وأرسلها الى مصر يتشفع فى قعادهم فى جرجة.

فلما وصلت مكاتيب السردار الى مصر، وقروها أجمع رأى الانكشارية والعزب أنهم يأخذوا فرمانا بنفيهم الى أبريم ، وأن يكون السردار العزب صحبتهم، فكان كذلك.

وعينوا سرادارا عوضا عنه يقال له حسين جاويش العقاب، وسافر من يومه فلما ورد السردار الى جرجة، هرب مصطفى ولم يواجه، ونفوا السردار وعلى أوضباشا الى أبريم، وانفوا كشك ورفيقه فى جرجة.

وفى يوم الخميس خامس وعشرين ربيع أول نفوا ابراهيم أوضباشا الى رشيد، وعملوا محله سليم أو ضباشا باش مستحفظان، وعملوا يمقه سليمان ا لاقواسى واحمد أوضباشا اخو رجب كتخدا ، عمل ثالثا فى خامس عشرين ربيع أول سنة ١١٣٦ . ونفوا من باب العزب على كتخدا الخربطلى، وابو شناق أو ضباشا، وسليمان اغا الوالى وخمسة او ضباشية الجميع الى

يوم وصوله عظيما زينت له المدينتان وركب العسكر جميعه وتلقاه وخرج الناس اجمعون وكان الرسول المذكور ورفيقه لانهما كانا اثنين على فرسين من خيل النوبة التى لمولانا السلطان اعز الله نصره وجاوا بهما وانزلوهما فى الادر السلطانيه التى تحط دار الديباج(*) المعروفة بسكن الصاحب بن شكر فالكبير منهما وهو الذى يقال ان على جسمه ثوب صوف فى الدار الكبيرة، والصغير فى الدار التى على باب درب الشيخ المعروفة بسكن

المصرية سحرها فى هذا الوقت وحتى اليوم.

(*) دار الديباج: انظر الهامش العلوى ص ٥٤٩.

أبى قير، وصاروا ينفون جماعة بعد جماعة بالتدرج من الذين كان لهم مدخل مع اخت اسماعيل بيك ابن ايواظ ، وأصبحت جماعة اسماعيل بيك مختفية فى القاهرة لم ير منهم أحد بعد ذلك العز والجاه.

ويرجع الكلام الى الامير زين الفقار، فان محمد بيك الدفتدار أبن أبى شنب طلع الى الديوان يوم الثلاث غرة ربيع آخر سنة١١٣٦(١)، فدخل على الوزير صبح غليه وجلس، فما استقر به الجلوس حتى سأله الوزير عن الامير زين الفقار فقال:

يا مولانا الوزير، حاضر فى الديوان، فأرسل الوزير كتخدا الجاوشى وأوفى له جركس بما وعدله، وصار زين الفقار اشراق جركس فى الصنجقية ونزل راكبا على جواد الدفتدار وركب قدامه طايفة محمد بيك جركس، والدفتدار الى جانبه، الى منزله الذى كان ساكنا فيه(٢)، بسويقة العزى واوفى له جركس بما وعد له ، وصار زين الفقار اشراق جركس فى الصنجقية اشراقه فى مشيخة القاهرة، لأنه لو لم يقتل اسماعيل بيك، ما كان يحصل لجركس هذا العز الذى حصل له.

وفى ثانى يوم الذى هو ثانى ربيع آخر سنة ١١٣٦(٣)، نفوا ابراهيم أفندى كاتب كبير

(١) بالأصل «ربيع أول» والتصويب من سياق النص / ٢٩ ديسمبر ١٧٢٧م.
(٢) قدم واخر. (٣) ٣٠ ديسمبر ١٧٢٣م.

عز الدين ابن الصاحب المقدم ذكره، واطلق لهم من الرواتب والضيافات والانعام والاطلاقات ما لم يسمع بمثله، واقام الرسولان اياما لا يجتمعان بمولانا السلطان خلد الله ملكه ثم استدعاهما وسير اليهما خيل النوبه ولا صحابهما ما يركبون لانهم كانوا وصلوا فى البحر وكان يوم طلوعهما الى القلعة المحروسة مثل يوم وصولهما، واقاما فى البلاد لاجل الشتا فى الضيافة والكرامة والدعاوى

مستحفظان الى دمياط، ويوسف بيك الذى كان كتخدا الحاج تابع اسماعيل بيك نفوه الى بلده، واثنين أوضباشية من العزب الى بلد اسماعيل كتخدا عزبان. ثم أن ابراهيم أفندى الذى عملوه جربجى الذى كان خصم اسماعيل بيك وصار جناح جركس الذى يطير به، تفقد باب العزب فرأى ثمانية أوضباشية وقد أحدثهم اسماعيل بيك، فقلعهم القواويق الطرابيشى وعادوا الى النفرية بعد الاوضباشية.

وفى يوم الخميس عاشر ربيع الثانى(١)، البس الوزير قفطان الصنجقية الى عمر خزندار جركس ، وكان يقال له عمر الصغير، وأسكنه فى بيت محمد بيك المجنون أخو أسماعيل بيك.

وفى رابع عشر ربيع آخر سنة١١٣٦(٢)، أعرض على بيك الأصفر الى حضرة الوزير، بأنه قد صار عاجزا، وليس له قدرة على الصنجقية، وحضرة مولانا الوزير اولى بها منى، يعطيها لمن يريد. فرفعها الباشا عنه، وارسل أخذ الطوخ من بيته، ثم أنه التجأ الى باب العزب وارشاهم بالفين زنجرلى وعملوه جربجى. وفى تاسع عشر ربيع المذكور، البس الباشا صنجقية الأصفر الى عمر بيك الكبير، وكان خزندار جركس، وأسكنه ببيت ابن درويش بيك، بجوار قيطاز بيك، وهو ثالث اشراقاته.

---

(١) ٧ يناير ١٧٢٤م.

(٢) فى١١ يناير ١٧٢٤م.

والفرح والصيد ورماية البندق. ثم ان الاخبار وردت بان العسكر الذى كان مجردا بقوص(*) وكانوا اتراكا وكان مقدمهم رجل يقال له طغربل الجحافى الزاهد نافقوا وجعلوا هذا طغربل سلطانا وقبضوا على والى قوص واستادوا الزكاه والجوالى والخراج وتصرفوا فى الحواصل، الا انهم لم يتابعهم احد على ذلك من العربان خوفهم من السلطنة فجرد لهم السلطان زها الفى فارس

(*) قوص: وردت فى كشف الاسقفيات هكذا: قوص وروير، وهى قوص التي بمحافظة قنا على الضفة الشرقية للنيل. واسمها المصرى حات هور أى قصر الأله حور(س). وكانت في الفترة المملوكية عاصمة للوجه القبلي ومركز للتجارة بين مصر والبلدان المطلة على البحر الأحمر وعدن والهند، وذلك بسبب نقص اراضيها الزراعية، ولكن فى ظل الاحتلال العثماني فصل لها زمام خاص من أراضي الحرجه (الحراجيه الآن)، فأصبحت وحدة ماليه، كما ورد فى دفاتر الروزنامه القديمة وتاريخ سنة ١٢٣١هـ= ١٥٣٢ق.=

وفي يوم السبت خامس عشر ربيع آخر سنة ١١٣٦، اجتمعت الصناجق وأكابر الدولة، باحمد كتخدا أمين البحرين، في قبة الامام محمد ابن ادريس الشافعي، وقروا ثلاثة فواتح على أنهم رجل واحد، وان كل امر مخالف للشرع اذا أتى لا يعمل به، كان من الوزير أو من السلطان، ونكون مساعدين في دفعه وعدم العمل به، وان كل اسم كان عليه شئ من اسماء اتباع المقتولين لايسلموه الى السلطنة، ويكون باقيا على اسم صاحبه يتصرف فيه كيف يشاء.

وكان السبب الحامل على هذا الاجتماع وهذه الفواتح، انه ورد عليهم خبر من الديار الرومية صحبة محمد السيفى باش السراجين بتوع جركس، ثم أنهم بعد ما قروا الفواتح مع أمين البحرين، ظهر لهم منه نقض الفواتح وعدم العمل بها فأرسل جركس يطلبه، فادعى انه مريض وعنده انحراف مزاج ولا يمكنه الحضور. فلما ورد عليه هذا الجواب، فأرسل جمع الجماعة وأعرض عليهم ماتقدم ذكره، فاجتمع رأيهم على نفيه الى بلدة بسيون هو وولده وجميع اتباعه، فكان كذلك ثم أنهم سفروه في غرة جماد أول سنة ١١٣٦[1]. وفي ثاني جماد المذكور، ورد آغا من الديار الرومية وصحبته خطان شريفان وقرى بالديوان بحضرة صناجق مصر وأعيانها بطلب ثلاثة (آلاف)(*) من عسكر مصر الى بلاد العجم، وهي روات، والثاني بالثناء للوزير والدعا له وأكابر مصر وصناجقها فيما فعلوه من قتل الخمسة صناجق

(١) ٢٧ يناير ١٧٢٤م.

(*) الاضافة للتصويب.

ومقدمها الركن الهيجاوى في بر الشرق وسير الاشراف في بر الغرب فجمعوا من عشايرهم وقبايلهم ما يزيد عن الفى فارس وساروا الى ان وصلوا الى منية بني خصيب [المنيا](*) فوصل رجل من الصعيد زاهد معظم في المسلمين ويقال ان له كرامات وقد كان وصل الى القاهرة وبجل من السلطان والوزير وساير المسلمين فجآء الآن في طلب الامان لهذه الطايفة المنافقة وسد باب الفتنة

١٨١٥م كما أنها في نفس الفترة العثمانية اندمجت في ولاية جرجا التي كانت تمتد في ذلك الوقت على جانبي النيل من مدينة اسيوط شمالاً إلى وادى حلفا جنوبا. ثم في سنة ١٨٢٦م عندما أنشيء اقليم قنا لأول مرة باسم مأمورية قنا ضمت إليها مدينة قوص ثم صارت مركزاً منذ عام ١٨٩٠م.

(*) المنيا: بصعيد مصر على الضفة الغربية للنيل، وهي عاصمة محافظة المنيا. ومن قبل ذلك مديرية المنيا التي تكونت لأول مرة في سنة ١٢٤٩هـ.=١٨٣٣م.=١٥٤٩ق. في عهد محمد على باشا.

وبياض وجههم وهكذا خدمة الوزراء الناصحون والخدام المطيعون وأن يكن خبزى حلال لكم، وكرك سمور للباشا على وجه ديمي أبيض، ولجميع أعيان الديوان والصناجق وأغوات القاهرة قفاطين(١)، ولمحمد بيك جركس كرك سمور على وجه جوخي، فكان جملة القفاطينماية وخمس وأربعين وكركين سمور، وكان من عادة آغات السفر أن يركب من باب النصر الى القلعة باللاى بالملازمين، فهذا طلع من برة ولم يشق القاهرة، ولا البلد على حكم العادة لرذالة الوزير، فان عوايد اللاى آغة السفر عشرة الاف فضة، فأبى أن يعطيهم ثم بعد ماقرى الخطان الشريفان ألبس كيخيته حمزة بيك قفطان السفر نايبا عن سيده حمزة بيك، لأنه كان في كشفه بولاية المنصورة، وأرسلوا له خبر السفر.

وفي ثاني يوم، أرسل فرمانا الى باب مستحفظان بطلب عثمان كتخدا الجلالي الذى بباب الوزير، فطلع الى الوزير من وقته وصحبته رجب كتخدا، وسقا حسين كتخدا وسليمان كتخدا الخربطلي، وعمر كتخدا البرلي، فألبسه الوزير كرك سمور وقفطان السفر، بأن يكون سردارا على طايفة الانكشارية، ونزل الى بابه، ثم ان طايفة الانكشارية أخذوه من الباب بالاى الى منزله الذى بباب الوزير، وأرسل فرمانا الى باب العزب بسفر أحمد كتخدا أمين البحرين، ثم أنهم أرسلوا له الفرمان الى بسيون وأمروه بالتوجه الى رشيد الى أن يأتي له العسكر، وعملوا

(١) بالأصل «قفطانا».

وحقن الدمآء وكان مسكنه دمامين (*) من الصعيد ويعرف بالشيخ مفرج وجآء في حراقه في اربعة ايام واجتمع بمولانا السلطان واخذ لهم الامان وتوجه على فوره فى حراقته وكان العسكر قد وصل الى حدود اخميم(*) فاعطاهم الامان فنزلوا عما كانوا عليه واطاعوا وجآوا الى خدمة الامير الركن الهيجاوى وعادوا جميعاً الى القاهرة المحروسة، ولما وصلوا لم يروا لمولانا السلطان وجها. وبعد ايام رسم بالقبض على جماعة منهم

(*) دمامين: قرية بالقرب من شمال قوص شرق النيل.

(*) اخميم: هى من اقدم المدن المصرية حيث عرفت باسم «برمين» نسبة إلى إله الخصوبه «مين» تقع على الضفة الشرقية للنيل وبها الآن كثير من آثار الفراعنه خاصة تحوتمس الثالث وبطليموس الثالث والتى تم تدمير معظمها على يد الغزاه والسكان

سليمان جربجى باش اختيار الجراكسة ، سردارا على طايفة الجراكسة، وابراهيم جربجى باش اختيار الجراكسة، سردارا على طايفة الجراكسة، وابراهيم جربجى البنهاوى سردارا على طايفة التفكجية، وسردار المتفرقة أحمد جلبى باش اختيار الجراكسة، سردارا على طايفة الجراكسة، وابراهيم جربجى باشن اختيار الجراكسة، وسردارا على طايفة الجراكسة، وابراهيم جربجى البنهاوى سردارا على طايفة التفكجية، وسردار المتفرقة أحمد جلبى بن سيد عبدالرحمن بيك باش اختيار المتفرقة. وباش اختيار الجاوشية سردارا على طايفته وهو عثمان آغا ابو النور تابع محمد باشا أبو النور، وباش اختيار الجملية مصطفى جربجى التكلى سردارا على طايفة الجملية، وهؤلاء أعيان البلد. وكانوا اجنحة اسماعيل بيك أمير الحاج لأن بموت اسماعيل بيك انتهى الحل والربط لمحمد بيك جركس، وصارت الكلمة النافذة فى داخل البلد. وخارجها لجركس ومصطفى كتخدا باش اختيار مستحفظان: ورجب كتخدا أبو شناق مستحفظان، وابراهيم جربجى عزبان المعروف بافندى، وأن جميع الكلام الذى دون كلام هؤلاء الاربعة باطل، لا يسمع ولا يعبآ به آبدا، ثم أن الفساد والقتل وأخذ أموال الناس بغير الحق فشا وكثر فى البلد، ثم أن الجالب انقطع وغلا كل شئ وقفلت البلد . فأجمع راى متكلمى[1] القاهرة أن أغات مستحفظان ينزل الى القاهرة، وأن يجلس فى باب زويلة داخل سبيل الدهيشة، الذى مقابل باب زويلة، فمسك رج البلد شيئا قليلا.

(١) بالأصل «متكلمين».

قبل الغزو العربي وبعده. وقد أشتهرت أخميم بصناعة المنسوجات الصوفية وسجادها الجيد الذى كان يصدر إلى كثير من البلدان.

معنيين وقيل انهم بقوا وقيل بل حبسوا في بعض المدن، واما باقيهم فرسم لهم با ن يخرجوا الى الريف يسكنون فيه بشرط ان لا يكون لاحد منهم فرس ولا يحمل عده [سلاح] بل يكون فلاحا او تاجرا وان اراد [اهل] بيته ان يخرجوا له فلا يمنع من ذلك، فتفرقوا في البلاد ووهبهم مولانا السلطان ارواحهم لان الفقها كانوا قد افتوا بانه قد حل قتلهم لانهم شقوا العصا ونكثوا العهد وغدروا سلطانهم واقاموا الفتنة فعفا لهم عن ذلك

ثم أن حمزة بيك جاء من بسيون[1] وطلع الى الديوان، وألبسه الوزير كركا وقفطان السفر، ونزل الى محله، واعطوه أربعين كيسا وأعطوا عثمان كتخدا ثلاثين كيسا من بابه، وانهم كتبواجميع أغراض اسماعيل بيك، وانهم كانوا لا يكتبون الا متكلمين الاوجاقات أصحاب الحل والربط في ذلك العصر، فصاروا يلصون بلصا فاحشا. فمن جملة ما بلصوا هياتم، فانهم كانوا عملوه سردارا، فلما آخذوا منه ثلاثة آلاف زنجرلي عفوه من السفر، وكتبوا محله حسن جربجي قانصوة فحط الفين أحمر فعفوه، وكتبوا محله على أفندى كاتب[2] الجملية، فعفوه بعد أن أخذوا منه الغيط والبيت الذى في الجيزة والفين [زنجرلي]، وعملوا محله مصطفى جربجي التكلي وهو الذى سافر بها ، وان كل أوجاق أخذ من أوجاقه بقدر ما يقول.

وكانت سفرة على مرادهم فان اعطاهم عفوه ، وان ما اعطاهم كتبوه، بالرغم عليه وانهم لم يكتبوا أولا، إلا أصحاب الأموال، فاذا اخذوا ما طلبوه عفوه وكتبوا غيره الى أن ما خلوا أحدا من أصحاب الكلمة النافذة في ذلك العصر حتى أنهم أخذوا منه بما قالوا وطلبوا، وأنها سفرة جاءت لجركس والجماعة المتكلمون أحيتهم من العدم، ونمنمت شنباتهم. وأن أحمد

(١) بسيون: احدى قرى، مركز كفر الزيات ، محافظة الغربية اسمها الاصلي «شبرا بسيون» فحذف صدر الاسم، وأصبحت تعرف باسم «بسيون» محمد رمزى، المصدر نفسه، قسم ٢ ، جـ٢، ص ١٢٣.

(٢) بالأصل «كانت».

جميعه. ثم انه رسم بخروج العساكر الى الشام وتجهزوا ولم يخرجوا. ووردت الاخبار بان الملك الجواد بن ممدود اتفق مع الافرنج ونزل معهم وانهم جاوا الى غزه واخذوا كلما كان بها وعادوا نزلوا الى قيساريه وبقوا مترددين فى الساحل من موضع الى موضع والملك الجواد معهم. وبعد رواح الافرنج من غزه جآء الملك الناصر بن الملك المعظم نزل بها هو وعسكره. وفى هذه الايام كان فى بيت المال المعمور رجل ناظر يعرف بشهاب الدين قاضى

كتخدا أمين البحرين لما راح له الخبر بأنهم عملوه سردارا، الى مصقوة ارسل الى بابه انه يعفوه من السدارية ولهم فى نظيرعفوهم له خمسة وعشرون كيسا. فأبى ابراهيم جربجى وجركس، وأخذ رجب كتخدا من محمد جربجى المرابى مبلغا وعفاه من اليمقية. ومازالت اختيارية الاوجاقات تكتب وتعفوا الى أن اقتصر الحال على الذين ذكروا ولبسوا القفاطين. ولو ذكرنا كل وجاق وما أخذ لطال علينا[1] الشرح وانما اقتصرنا، وأن الذى أخذه جركس ومتكلمين عصره هو الذى كانت أخذته متكلمين عصر[2] اسماعيل بيك. ولما ملك جركس وحزبه صاروا يأخذون منهم ما كانوا يأخذونه منهم وما كانت كلمة اسماعيل بيك ماشيه عليهم إلا بعطية الذهب الزنجرلى لمتكلمين الاوجاقات، واما جركس، فما كانت تسمح نفسه بالدرهم الفرد يعطيه لأحد منهم أو من غيرهم، وكل شئ آخذوه من الذين عفوهم من السفر يشاركهم فيه.

ثم أن الوزير أرسل فرمانا الى الاوجاقات والصناجق بأن يعملوا الاى الصنجق فى غد الذى هو خامس عشر جماد آخر سنة ١١٣٦[3]. فراجعوه فأبى وحلف برأس السلطان لابد من طلوع الصنجق وكان كذلك.

وأوكب حمزة بيك يوم السبت خامس عشر جماد آخر، وأوكبت جميع الصناجق وجميع

---

(١) بالأصل «الحال» وفوقها علامة الحذف.

(٢) بالأصل «مصر». (٣) ١١ مارس ١٧٢٤م.

دارا وكان ناهضا [نشطاً] فيما يتصرف فيه شديد الجهاد في خدمة سلطانه، فاطلع على انه بقي من مبلغ خط البطرك خمس ماية وعشرة دينار إما بأنه وقف عليه او وشي اليه به، فسير طلب ابن اخيه وابن اخته الذين كان الخط باسمهما وطلب منهما المبلغ ورسم عليهما وكان الشيخ الصنيعة الذى يقال له مستوفى المستوفيين هو حل الدولة وربطها وفيه خوف الله وكان من مبغضي البطرك، فتسبب

- -

سدادرة السفرة، الا أحمد كتخدا أمين البحرين، لأنه في رشيد، وأوكب ولده ابراهيم جلبي محل أبيه، وكان صغيرا لأن والده ارسله يشهل مصالح السفر، وكان آلايا معتبرا عظيما، والبس حمزة بيك ثمانية عشر مملوكا الزروخ خلفه، وعثمان كتخدا كان حواليه وخلفه نحو الماتين بالطرابيش الكشف، ثم انهم دخلوا بولاق فبمجرد ما دخل الصنجق الى بولاق، كان الطبجي أعطى النار الى مدفع من المدافع الذين معدين لعمايل الشنك، واذا به فرقع فقتل خمسة أنفار من العسكر الذين هم قدامه.

وفي خامس عشرين جماد المذكور، أوكبت السدادرة من أبوابها حكم العادة وكان حصل قبل أن عملوا الاى ألسدادرة أن عمل(١) مصطفى كتخدا باش اختيار جمعية في بيته، على أنهم يلبسوا عثمان كتخدا قفطان السفر في المحجر ولجميع جربجية السفر خوفا من أن تحصل فتنة من عثمان كتخدا فيملك الباب، لأن عثمان كتخدا ليس عليه سفر، وأن هذا السفر الذى هو رايح فيها بالقهر عليه، فخشوا أن يقع منه غم. فلما علم عثمان كتخدا قال أنا لا ألبس القفطان الا من بابي، والا طلعت من بيتي وخرقت القوانين فكان كذلك. وأوكب من الباب وطلع قدامه جميع الاختيارية الا رجب كتخدا ومصطفى كتخدا باش اختيار، ومن العزب اسماعيل كتخدا وابراهيم جربجي وعلى كتخدا القيصرلي باش اختيار عزبان، وكذلك الخمسة أوجاق لم يوكب باش اختياريتهم.

(١) بالاصل ، وكان حصل أن قبل أن عملوا آلاى السدادرة عمل مصطفى.. فضبط النص ليستقيم المعنى.

الى ان احال بالمبلغ بعض الاجناد التقدمه وتسبب معهم الى ان صالحهم عليها. ويقال ان البطرك لم يزن من هذا المبلغ سوى ثلثمـاية دينار واخـذ الوصولات وتخلص اقرباوه. الا انه حصل له من الاسف في هذه النوبة وضـيق الصـدر وشكوى العدم مالم يجر مثله ولا سمع في وقت الحمل الكبار. ونفذ [البطرك] الى [كنيسة] حارة زويله اخذ ما بها من شمع وغيره. واستعان بقس بها كان يسمى ابا شاكر وكان يخدم في باب الميسم

وكانت (سدارة) (١) الوجاق لعثمان كتخدا ولوجاقه وخلفه نحو الثمانماية نفر مكشفة الرءوس بالطرابيش فقط، لأنه هو صاحب فتنة اثنين وعشرين، وهو اوضباشة في باب الشرطة، وكانت مدة كتابتهم اثنين وعشرين جماد أول والاى السدادرة يوم خامس عشرين جماد آخر سنة ١١٣٦ وما طلعت سدادرة الوجاق السبعة الا وجميع أبوابهم محصنة خوفا من غدر يقع منهم، والسلطان حسن كذلك محصنة، وبيت جركس وجميع بيوت الاختيارية محصنة، وباتت البلد في قوشعة عظيمة من خوفهم.

ولنرجع الى ما نحن بصدده: ثم ان عثمان كتخدا دخل الى بولاق، فجاءته الهدايا العظيمة ثم أنه أرسل الى محمد بيك جركس يطلب منه ثلاثة آلاف احمر التى كان أخذها منه لما قتل اسماعيل بيك واراد قتله فأرسلها له، واخذ الالف زنجرلي الذى اخذها منه الدفتدار ابن أبي شنب فأرسلها له، وان عثمان كتخدا ضبط بولاق من التعفيش فلم يحصل فيها شئ. ومن أعجب ما وقع أن عثمان كتخدا جالس في الترسخانة، واذا بمركب وردت الى بولاق فيها خمسة وعشرون مرود سمن، كل مرود ثلاثة قناطير. وأربعون قفصا من الجبن المنصورى، كل قفص فيه قنطاران. فأرسل الغز اتوا له بجميع ذلك، فأدخل ذلك الترسخانة، ثم أن القواص الذى صحبة ذلك جاء الى عثمان كتخدا وأخبره بان ذلك لجركس. فقال عثمان كتخدا: والله ما أحسن هذا، تباع ، والذى وما بين الابن والاب شئ.

(١) الاضافة لتوضيح المعنى.

المفرد في جامكيه البارداريه(*)، وكان موسرا ويقال انه اخذ ثمن طاحون كانت وقفاً على الكنيسة [بحارة زويله] والله اعلم . وكتب [أبا شاكر] الى الوجهين القبلي والبحرى بهذا السبب واستعان بالشيخ الصنيعة الارخن المقدم ذكره في مثل ذلك وكتب له الى النواب والمستخدمين بالمساعدة. واما الاسعار فانها ارتفعت جدا [حتى] بلغ القمح خمسة وسبعين درهما الاردب، والشعير اثنين واربعين درهما الاردب، والدجاج بدرهم نقرة

(*) جامكية البارداية: كان الموظف الذى يتولى هذه الوظيفة في الفترتين السلجوقيه والمملوكية من المدنيين وكان يختصر اسمه إلى «الجامدار»، كانت مهمته النظر في ملابس السلطان ومع تعددهم كان يقوم بعضهم بدور الحاجب على ابواب الوزراء والأمراء.

ثم أن الخبر راح لجركس فأرسل يطلبهم وكان عثمان كتخدا في حال أخذه فيهم وزنهم، فوجد السمن خمسة وسبعين قنطارا، والجبن ثمانين قنطارا، فحسب ثمنهم خمسماية وخمس وثلاثين زنجرلي، وكان السمن بخمسة زنجرلي القنطار، والجبن باثنين زنجرلي القنطار، اسم بلا جسم، وكانوا لا يجدون شيئا من ذلك وانما هو رزق ساقه الله له، فما جاء المرسال من جركس يطلبهم، كانت الصرة مقطوعة محسوبة مختومة، وكتب تذكرة وأرسل الصرة والتذكرة صحبة[1] جاويش الديوس [الخياله]، فتوجه بذلك الى جركس، فلما ورد عليه الجاويش سلم عليه وناوله التذكرة فأخذها وقراها، فما كان من جوابه الا كتب في ظهرها استعن بذلك على وقتك، وهم هبة مني اليك، ثم انهم عوموا ثاني يوم. كان قبل تعويمه اتته جميع الكواخي والجاوشية والجربشية والاوضباشية وسلموا عليه الا رجب كتخدا ومصطفى كتخدا باش اختيار والأقواسي ، وأخو رجب أحمد أوضباشي، فما أحد منهم جاء له، ولا سلم عليه، وكان تعويمهم من الوراق [2] يوم الاثنين غرة جماد آخر سنة ١١٣٦.

(١) كتب بأعلى هامش الصفحة «عونك بالله».

(٢) الوراق: احدى قرى، مركز امبابة، محافظة الجيزة، وتعرف حاليا باسم «وراق العرب» لكثرة من بها من العرب، واستحدث منها ناحية أخرى، تسمى «وراق الحضر» محمد رمزى، المصدر السابق، قسم ٢، جـ٣، ص ٦٥.

الدجاجة، واللحم بدرهم ونصف، وثمن الرطل السكر بثلاثة دراهم الرطل، والشمع بدرهم الاوقيه، والعسل النحل بثلاثة دراهم الرطل، والزيت الطيب بثلاثة دراهم الرطل وجميع ما في الارض من هذه النسبة. وكانت شدة ما روى اعظم منها ولا اعجب لان الماء في هذه السنة بلغ ثمانية عشر اصبعا من ثمانية عشر ذراعاً، وهذه الاسعار على هذه الحالة. وكانت العادة جارية ان الغلة اذا غلت رخص كل شئ مثل الدقيق والدواب

ولنذكر سبب هذه السفرة[1]، وذلك أن رجلا شريفا من أولاد العباس، يقال له محمود بن عويس، ظهر في بلاد اليزبك، وكان سني، سنوى يحضر الجمعة والجماعة ، ويترضى عن جميع الصحابة رضى الله عنهم أجمعين.

وكان والده الشريف عويس له قلعة في آخر بلاد اليزبك، وأول بلاد العجم يقال له قندهار، وأنه يتوصل من هذه القلعة الى بلاد الهند، لكن من قندهار هذه الى عمارة الهند ستين يوما برا، ليس في هذه الستين يوما عمار الا ما قل.

وكان عويس هذا الحاكم على هذه القلعة، وحامي أرضه بعسكره والجنود، فتوفى الى رحمة الله تعالى. فلما مات تغلبت الارفاض [الشيعة] على هذه القلعة فملكوها، وتشتت عسكره والجنود منهم من راح الى اليزبك، ومنهم من قعد وصار يحط الجزية الى الارفاض. وكان محمود هذا، صغيرا، فهرب هو ووالدته واخواته وأقاربه ودخل بلاد اليزبك لأنهم سنية، ومنهم العلماء الى أن بلغ مبالغ الرجال، فاجتمع عليه بعض رجال والده، فقالوا له: ما هذا القعاد على قلعة ابيك، وما هذا الخمول ؟ فقال : كيف اصنع، وأنا لا مال لى ولا رجال وأخذ القلاع لا يكون الا بالمال والرجال وأنا عادم الاثنين، فقالوا له: تكن رجلا ونحن نجمع لك

(١) كتب عنوان جانبي «أعرف حكاية الشريف محمود بن عويس وتملكه لقلعة أبيه قندهار وتملكه أيضا بلاد العجم وقلعة اصفهان الخ ذلك».

والقمـــاش والاثاث وفى هذه الايام كل مـــا فى الارض غال حتى الات العماير واجر الصناع. واما قلعة الجزيرة [الروضه] فكان العمل مستمراً فيها والاجتهاد واقعاً فى تكملها وهدت كل دار كانت فيها، وانتهى الامر الى المواضع التى قدام الكنيسة [كنيسـة الروضه] والجامع فهدت وصار المكان رحبة عظيمة وبهواً. وجاء احد اصحاب السلطان وهو المهمندار(*) ويعرف باخي الحاجب على نزل

(*) المهـــمندار. وأصلهـــا فى الفـارسيـة «مـاه مندار» أى متلقى الضيوف كانت وظيفته فى الخلافة الفاطمية نيابة عن صاحب الباب (هو من الامراء ووظيفته تلى رتبة الوزراء ويقال لها الوزارة الصغرى، ولذلك كان يسمى بالنائب وكذلك «النيابة الشريفة». ومقتضاها أنه كان يتولاها أحد الاعيان أو أحد أرباب العمائم، وينعت كذلك «عدى الملك». وهو يتلقى الرسل الواصلين من الدولة، ومعه نواب الباب في خدمته،

رجال ابيك وغيرهم، لعل الله يساعدنا ويكشف عنا هذا الذل وهذا التشتيت الذى نحن فيه، وأن أهل القلعة مطعين وموامنين من طارق يطرقهم فيعيننا ربنا على فتح القلعة، ان كان لك سعد وتكون حاكما علينا كما كان والدك . فقال ان شاء الله يكون ذلك.

وكانوا خمسة وأربعين رجلا فجمعوا نحو الثلاثماية مقاتل، وساروا نحو القلعة فى غرة محرم الحرم سنة ١١٣٦[١] وصاروا يسيرون الليل ويكمنوا بالنهار، الى أن وصلوا الى القلعة أخر الليل، فكمنوا عندها، الى أن فتحوا القلعة عند طلوع الشمس فهجموا عليهم على حين غفلة، فاعانهم الله فملكوها، ودخلوا معلنين بالتكبير والترضى على الصحابيين، ووقعوا فيهم قتلا وساعدتهم السنة الذين في القلعة، كانوا عندهم فى الذل، فما جاء وقت العصر، حتى لم يبقوا فيها رافضين غير النساء، وان السنية التى كانت فى داخل القلعة تحط الجزية الى الارفاض، حكم النصارى الذين يؤدون الجزية الى الاسلام.

ثم ان الشريف محمود ملك القلعة بجميع ما فيها وقتل ما بقى فيها من الارفاض، رجالا ونساء، وفرق جميع ما أخذه الى الرجال الذين كانوا صحبته، ثم نادى فى الاقليم: كل من يريد الثواب والمال فليأت الى الشريف محمود . فجاءة خلق كثير من اليزبك، فركب واياهم الى أن ملك ثلاثة وعشرين قلعة من قلاع الارفاض، وكل ما ملك قلعة، فرق جميع ما يغنمه

(١) ١ اكتوبر ١٧٢٣م.

بقاعة البطرك التي بجانب كنيسة الجزيرة ووضع بها قماشه واخذ مفتاحها وجاء البطرك نزل بالطبقة التي اخرجها من جانب الكنيسة وجعلها في جانب قاعته قصداً منه في حفظها، وان هذا الرجل [المهمندار] اذا خرج من هذه القاعة رجع اليها. وحصل له من هذا المكان تعب قلب ونكد. واما المقعد الذى كان عمل على بسطة المقياس

ويحفظهم وينزلهم فى الاماكن المعدة لهم مثل دار الطراز، ويقدمهم للسلام على الخليفة والوزير مع صاحب الباب يميناً وهو يسار، ويتولى افتقادهم والحث على ضيافتهم. وسُمى هذا النائب كما جاء هنا فى المتن بالمهمندار وهو له راتب خمسون دينار فى كل شهر، وفى اليوم نصف قنطار خبز. ولكن هذه المهنة أنحط أمرها فى فترة صلاح الدين الايوبى حتى أنه تولاها الجند من الامراء الصغار.

على العساكر، الى ان كملت عساكره أربعون الفا. ثم انه حط على قلعة اصفهان وهى تحت الشاه الكبير، الذى يحكم على جميع الاعجام، فحاصرها ثمانية اشهر. وفى أول يوم من التاسع ملكها بقدره الله عز وجل، فتحصن الشاه فى القلعة الداخلة هو وأولاده وأقاربه ونساه واربعة آلاف مملوك له، وجميع ما كان للملوك المتقدمة من زمن أنو شروان، فى هذه القلعة. ثم انه نهب جميع ما فى القلعة البرانية، وقتل جميع من فيها من الارفاض. وحاصر القلعة الثانية أربعين يوما الى أن أعانه الله وملكها، وقبض على الشاه قبضا باليد، والأربعة آلاف مملوك، وهرب ابن الشاه. ثم انه امر بحبس الشاه، وملك الحريم والخزاين، وفتح الخزاين فوجد فيها شيئا كثيرا من الجواهر والتحف والدخاير والذهب والفضة، تكل الألسن عن وصفه، لأنه من عهد ان ملكت الاسلام بغداد وانتقل حكم المخالفين الى هذه القلعة، لا مسلمون ولا كفار ولم تملك الا هذه المرة لأن الارفاض كانت تتوارثها ملكا بعد ملك، ففرق جميع ما فيها على الفارس سهمان، وعلى الراجل سهم واحد.

ومن جملة ما وجد فيها ، حجر الماس قدر بيضة الدجاجة، لا يقاوم بمال، وانه من دخاير أنو شروان، فكان من نصيب هذا الشريف محمود ابن عويس. ثم ان المماليك ترضوا عن الصحابة وصاروا اتباعا الى محمود. ثم انه عن له ان يدخل مرحاض السراية، فدخله فوجد الكرسى من الرخام الأبيض، مطعم فيه بالرخام الأسود، تحت رجل الجالس اليمنى أبو بكر،

واستحسنه كل احد فانه هد وعمل موضعه برج عظيم على راس القمية . واما الجانب الغربى فانه تكامل جميعه مناظر لمولانا السلطان بساتين ومقاعد من الكنيسة الى اخر العمارة. ثم ان السلطان اعز الله نصره جرد عسكراً الى اليمن عدتهم الفا فارس وفيهم جماعة من الامراء والمقدمين مثل الصارم المسعودى والاشراف وعلم الدين شمايل وغيرهم، وانفق فى كل طواشى ثلثين دينارا واعطى خمس ماية دينار خارجاً عما

(*) مدينة تعز اليمنية

وتحت الرجل اليسرى عمر بن الخطاب رضى الله عنهم. فلما رأى ذلك المرحاض أمر باحضار الشاه، بعد أن طار(١) عقله ، وغاب عن الصواب.

فلما حضر الشاه، قال : ما هذا يا ملعون ، فتكلم الشاه كلام من يعلم انه لا حياة له بعد هذا الامر . ثم ان الشريف أمر أن توقد نار، فأوقدت ثم امر أن يأتوا له بسيخين من حديد فحماهما في تلك النار، ثم أنه كحل بهما عينيه كما كحل عنتر الأسد الرميصي . ففرقعت عيناه في الحال، وعاش بعد ذلك ثلاثة ايام وهلك الى حيث شاء الله تعالى. ثم انه سال عن ولده الشاه فأخبروه بأنه من حين ملكت القلعة لم ير، فأرسل خلفه الخيل فلم يقعوا له على خبر. ثم انه استوب ابنة الشاه وتزوج بها ومكث يعمل مهرجان الغزوة.

وأما ابن الملك، فانه لما هرب لم يزل سايرا الى أن وصل الى بلاد ملك المصقوة، هو والبعض من جند أبيه، فاجتمع ابن الشاه بملك المصقوة وأخبره بما حصل له، ولوالده، مع الشريف محمود ووقع في عرضه، فأرسل معه جندا الى أن أوصلوه الى همدان، فدخلها وكان أكثرها ارفاضا وأهل السنة رعاياهم. فصار يصول على البلاد ويقتل أهل السنة، ويقوى شوكة الارفاض فحصل لأهل ذلك(٢) الاقليم الضرر حتى وصل الى طرف بغداد، فأرسل أحمد باشا أخبر الدولة العلية، فأرسلت له العساكر من الديار الرومية، وأمره بالركوب على سروان. ثم أن

(١) كتب بالهامش «طاش».

(٢) قدم وأخر.

تاخذه الطواشيه لانفسهم. ورسم لهم بالتجهز والمسير الى اليمن وشرعوا في ذلك وصاروا يبيعون الخيل والابقار والجاموس والاغنام ويسيرون الجمال والهجن وعدد السقاين والات سفر الحجاز واليمن. ورخصت الخيل الى حد ما عليه [مزيد] وغلت الجمال والاكواز [جمع كوز، وهو كوب للشرب] والروايا والقرب والدلا [جمع دلو] وكل ما يجرى هذا المجرى غلواً كبيراً، واشترى الرقاق الموصلي بخمسين درهما القنطار وخمسة وخمسين

(*) وسائل نقل الماء. يعد السقاين من أقدم الطوائف الحرفية المنظمة فى مصر.

حضرة السلطان أحمد خان أعزه الله تعالى أرسل هذا الخط الشريف الى مصر يطلب الثلاثة آلاف، فعينت وسافرت من بولاق فهذا كان السبب. ثم أن العسكر سافرت الى سكندرية ومكثت فيها، الى أن تكامل العسكر.

ثم ان جركس ومتكلمين أوجاق الانكشارية والعزب بعد سفر السدادرة، أرسل وجاق مستحفظان نحو العشرين واجب رعاية، ونزلوهم في يومهم بالقهر عليهم فلحقوهم على بولاق. والعزب كذلك أرسلوا خمسة أوضباشية، وأرسلوا الى ابراهيم جربجى بتاع الرميله الذى كان باش أو ضباشية العزب ونفوه الى رشيد بأن يكون بيك، ويسافر.

ثم أن العسكر سافرت من اسكندرية عشرين شعبان سنة ١١٣٦(١)، فوردوا الى اسلامبول، وطلعوا الى البلد، فجاءت الاخبار أن أحمد باشا نزل على سروان، وأنه محاصرها، ثم أنه أشيع فى أسلام بول أن السفرة بطالة، وأن الوزير كلف حمزة بيك والسردار الى حضرة الملك يعطى لكل نفر عثمانى، وأنهم يرجعون الى مصر، فابت السدادرة وقالت ما نأخد تراقينا الا على الكامل، وانا جينا هنا، فأرسلونا الى أى قلعة أردتموها، وأن أرسلتمونا الى مصر أعطونا تراقينا على الكامل.

فلما اشيع هذا الخبر، سأل الوزير ابراهيم باشا الذى يقال له ابراهيم أفندى، فوجد هذا

(١) ١٤ مايو ١٧٢٤م.

والكعك مثله لانه اتفق فى [هذه] الايام ان السعر تحرك وبلغ القمح بسبعين درهما الاردب والخبز بربع وثمن درهم الرطل فاشتد الحال. وقبض رجال الاسطول برسم مراكب اليمن وقل الواصل وكان الوقت صعبا الى الغاية. ثم ان السلطان اعز الله نصره جهز عسكراً اخر الى غزه فى زها ثلثة الاف فارس ومقدمه الركن الهيجاوى وفيه جماعة من الامرآء وخرجوا ونزلوا غزه اجتمعوا بالملك الجواد مظفر الدين بن مودود وكان القصد اصلاح قلبه

(*) ارتفاع اسعار المواد الغذائية تحت دعوى حرب اليمن

الكلام من مصطفى جربجى يمق عثمان كتخدا السردار المعين الى سفرة، فنفاه الوزير الى ليمية.

ثم ان القزلار بشير آغا اجتمع عليه عثمان كتخدا، وأحمد كتخدا أمين البحرين، فسألهم عن أحوالهم، وما سبب سفرهم، وأن هذه لم تكن عادة من تولى الكخاوية أنه يسافر الى الحجاز اذا طلبت نفسه السفر، فأحكوا الى القزلار الواقع بعينه.

ثم أن القزلار أخبر الملك، فعفاهم من السفر، ورتب لهم رواتب وأبقاهم فى اسلام بول، وعينوا سدادرة تخلفهم وأرسلوهم الى سروان يحاصروها، ثم مكثوا ثمانية عشر شهرا وراحت لهم الاجازة بالعود فجاءوا الى اسلام بول، فوجدوا عثمان كتخدا توفى بالطاعون، وولده، وكذلك أحمد كتخدا أمين (البحرين)[1]. ثم أن يشير آغا أمر الوزير أن يحضر مصطفى جربجى من النفية، وأرسله صحبة العسكر، وكان عينهم ثمانية وعشرين شهرا.

ومن العجب أن بعد سفر حمزة بيك والسدادرة، فى خامس عشر رجب[2]، ظهر فى حلوان عين ماء حار تحت الرحاية نازلة الى البلد. فجاء الخبر إلى الباشا والصناجق، فركبوا وساروا اليها وتفرجوا عليها، ورجع الوزير وباتت الصناجق تلك الليلة هناك. وسبب ذلك، أن رجلا مغربيا جاءته دليلة بخبية [آثار فرعونية] فى هذا الجبل، فجاء اليها وعالجها، فطلعت هذه العين والله أعلم.

---

(١) الاضافة لتوضيح المعنى.　　(٢) ٩ أبريل ١٧٢٤م.

والمسير الى دمشق لاخذها فاقاموا هناك وعسكر اليمن يتجهزون للخروج وما بقي فيهم الا من هو مصم على ذلك، واذا الاخبار قد وردت بان فخر الدين ابن رسول صاحب اليمن جآء الى مكة اخذها مخامرة [خيانة] من العسكر الذى كان بها، فانحل العزم عن تجريد اليمن وبطل. وكان السعر قد انحل في يوم السبت النور(*) وبلغ الى اربعين درهم الاردب والخبز ستة ارطال بدرهم والدقيق بخمسة وستين درهما الحمله. واستبشر

(*) هو اليوم السابق لعيد الميلاد المجيد، وهو اليوم التاسع والعشرون من شهر كيهك. انظر السنكسار جـ١ ص٢٢٧. مكتبة المحبة. القاهرة.

وفي يوم الثلاثا عشرين رجب سنة ١١٣٦[1]، ورد آغا من الديار الرومية وصحبته خطان شريفان قريا بالديوان، أحدهما بجميع فايض بلاد الخمس صناجق، وبيع جميع موجودات البلاد وبيع أطمار أبدانهم وجميع محلاتهم ويعطوا ذلك لأرباب الديون بعد الاثبات، ويضبطوا البلاد الى الميرى، وأن الفايض الذى يدفعوه الى أرباب الديون فايض خمسة وثلاثين، ويبيعوا البلاد، وأن يقسم الذى يجعلوه قسم غرماء، وأن فاض شئ يضيفوه الى الخزينة العامرة مع ثمن البلاد.

والخط الثاني بأن يعطي لأمير الحاج عشرين كيسا مساعدة في مثل هذه السنة، وأن يضاف البدرشين الى امارة الحاج، وان تباع البلاد بفايض عشر سنوات. فلما سمعوا قوله بفايض عشر سنوات، كسف طبعهم، فهم في قراءة الخط الثاني، واذا بالديوان رج رجة كبيرة، فقال الوزير: ما الخبر، فقال الصناجق: مولانا الوزير جانا خبر بأن محمد بيك جركس قتل قيلان تابع قيطاز بيك الكبير، وقيطاز تابع رضوان آغا، وأيوب تابع قيطاز بيك أيضا، فقام الباشا ودخل السراية ونزلت العسكر الى بيت جركس فقالوا له: ماهذا الأمر يابيك، قال لهم: هؤلاء الثلاثة دخلوا على وارادوا قتلى فقتلتهم، فقال له العسكر مستحقين وجزاهم ما حل بهم.

وكان السبب ان جركس رأى منهم عين الخيانة، وكان عمل أيوب كتخدا فعزله من

(١) ١٣ أبريل ١٧٢٤م.

الناس بذلك استبشارا كبيرا وكان عيدا مباركا وفرح العسكر المجرد الى اليمن بتبطيل التجريد الى هناك ورجعوا الى بيع ما كانوا اشتروه واكثر الاصناف ضاعت عليهم مثل الكعك والرقاق والدهن وما جرى مجرها، ورجعت الخيل غلت اثمانها لانهم عادوا الى شراها. ووردت الاخبار بان الركن الهيجاوى الذى كان مقدم عسكر غزه ترك العسكر(*) وانفصل عنه هو والملك الجواد [الامير يونس] لامر توهما منه، فاما الملك الجواد فانحاز

(*) الخيانات والصراعات داخل البيت الأيوبى وكان ذلك فى عام ق.٩٥٥ق.=١٢٣٨م=٦٣٦هـ.

الكخاوية، وقال لهم: أنا عندى[1] خوف منكم، ولكن لا تدخلون بيتى وأنا أعمل لكم ما يكفيكم.

فمكثوا اياما قلايل، وصاروا يدخلون البيت، فجاءه واحد منافق وقال له ان زين الفقار وهؤلاء الثلاثة، فلان وفلان، وعد له جماعة، قروا فواتح على قتلك فى بيتك ، والرجل خايف منهم ويقول ما جركس الا بنا. ومن يسمع يخل فما كذب خبرا، وأنه من خوفه مكث خمسة جمع لم يطلع من بيته، ولم يصل الجمعة، وأنه من خوفه من الفقارية عمل له ضرابزين خشب وراء ظهره محل جلوسه، ووقف فيه جماعة مسلحين وراء ظهره يكشفوا القادم من باب المقعد.

وكان زين الفقار بيك دخل بدرى فسال عليه، فقالوا له فى الحريم، وانه كان قاعدا هو ورجب كتخدا ومصطفى كتخدا الشريف فى داخل المقعد، فلما سأل عليه زين الفقار بيك وقالوا له فى الحريم، جاءه مملوك جربجى بفنجان[2] قهوة، وكلمه بلسان الجرج [اليونانى] ففز قايما، ونزل فقابله المقدم شعبان، ومقدم جركس، ونده على الركبدار، هات الجواد، فجاء له الجواد فركبه، وقرط على رجل زين الفقار، وقال اخرج.

ثم أن الجماعة دخلوا وجعلوا يدورون فى الحوش، فطلع جركس فرأى الجماعة يدورون فى

(١) بالأصل «عنده».

(٢) بالأصل «بفلجان».

الى الافرنج لانهم حلفاوه واما الركن فانه توجه الى دمشق وقيل انه ما مضى الى هناك الا لمصلحة يرمها واشنان [شؤن] يصلحه وان كان رواحه خوفاً على نفسه والا المخامرة والغدر ونكث الايمان ماعرفت منه قط. ثم ان الافرنج صاروا يخرجون من بيت لحم وغيرها ويتعقبون بالناس يقتلونهم فى الطريق ويستبيحون اموالهم فبلغ الملك الناصر بن المعظم وهو صاحب الكرك ونابلس وجبل الخليل وبيسان ذلك فسرى [هجم ليلاً] على بيت لحم

(*) أوانى السقاية

الحوش، فسأل عن زين الفقار، فقالوا له: ركب، فأمر بأن يقفل الباب فقفل، فقال: اضربوهم فضربوهم، فمانعوا عن أنفسهم وجرحوا منهم جماعة، ثم أنهم تكاثروا عليهم فقتلوهم.

فهاذا كان السبب، ثم أنهم غسلوهم فى الحوض المرصود، وأرموهم فى الجب، وأرسل نهب بيوتهم وأخذ جميع ما فيها، ثم ارسل بعد العشاء أحضر له رفيقهم اسماعيل وقتله، ثم أن محمد بيك جركس أرسل أحضر اختيارية السبعة اوجاق، وقال: ان هؤلاء الذين قتلتهم، كانوا قاتلين لى وهم من جملة عشرين نفس متفقين على قتلى، وقروا فواتح ولابد لى من قتلهم، وكل من عارضنى فى قتلهم لا يكن خصمى الا هو . فأجاب أغراضه بالسمع والطاعة، ثم انه فى ذلك اليوم، أرسل أحضر[1] شهود محكمة طولون وكتب حجة، بأن المقتولين متعدين عليه وأرادوا قتله فقتلهم، وشهد بذلك كل من كان فى مجلسه.

ثم انه فى ثانى يوم عزل رضوان آغا من اغاوية الجملية، وولى محله حسن كاشف قبين الضاشه وعزل محمد آغا الكور من آغاوية التفكجية، وولى محله الزناتى، وما قدر أحد من الفقارية يتكلم بكلمة واحدة ابدا، ولا قالوا له لأى شئ فعلت هذا ابدا. ثم أن قيطاز بيك الصغير تابع قيطاز بى الكبير توجه الى محمد بيك الدفتدار ابن أبى شنب، وتوجه هو واياه الى محمد بيك جركس، وكذلك زين الفقار بيك توجه الى عمر بيك، وتوجه واياه الى جركس،

(١) قدم وأخر.

وقـتل كل من بهـا من فـرنجي ونصـراني [في ٩٥٥ق. = ٦٣٧هـ = ١٢٣٩م] واخـذ الامـوال وسبي الدراري [الأطفال]. وكانت ايام فتن قلاقل ومخاوف. وكان بعض الحجاج الذين توجهوا الى البـيت المقـدس خـرجـوا منه الى عكا، منهم من مضى في تجارة ومنهم من مضى الى قرابته هناك، فـاخـذوا في الطريق وقـتل منهم جـمـاعـة رجـال ونسـآء. واما البطرك فصار اكبر مقامه بدير الشمع

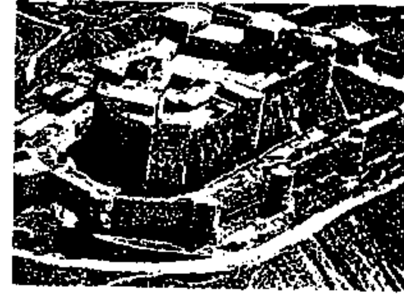

(*) قلعة الكرك بالشام

فاجتمعوا في بيت جركس، واحطوا [1] على جركس فعاتبهم، فحلفوا له أنهم لم يكن معهم خبر من هذه القضية، وأنه كفاهم ما حل بهم. وأرسل رجب كتخدا اخاه أحمد أوضباشا الى المحجر بطايفة معه قعدوا في المحجر، وكذلك ابراهيم جربجي عزبان أرسل جماعته الى السلطان حسن قعدوا فيه، وكذلك جركس حرس نواحي الصليبة بطايفته.

ثم أن الباشا لما جاءه الخبر بما فعلوا، ومسكهم في المحلات وتحرسهم، نزل الى قرا ميدان يوم السبت رابع عشرين رجب سنة ١١٣٦[2]، وأرسل طلب جركس فأبى ان يروح له، ثم انه أرسل نبه على الصناجق بأن يطلعوا الى الديوان في غد، الذى هو يوم الاحد خامس عشرين رجب فأبوا أن يطلعوا الى الديوان، واعتذروا الى الباشا بعدم سلوك الطريق، و أن عدم طلوعهم خوفا من الفقارية، لأنهم وقع في قلوبهم خوف كبير من طرف الفقارية، مع أن الفقارية لم يتحرك منهم احد، ولم يفكروا فيهم، وحقيقا لم يكن عندهم خبر بما حصل من ايوب بيك، وقبلان وقيطاز، ولم يكن الثلاثة دخلوا بيت جركس ليقتلوا،و ما عمل جركس هذه العملة الا خوفا منهم، وحرس بعض جماعته من الليل، انهم اذا دخلوا في غد البيت فاقتلوهم.

وكان زين الفقار لم يكن معه علم من هذا الأمر، ودخل ذلك اليوم على قلب غافل، ولم

(١) بالأصل «واحطلوا».

(٢) ١٨ أبريل ١٧٢٤م.

لانه لم يبق له موضع ياويه سواه . ولما كان فى نهار يوم الجمعة الثانى عشر من بوونه [٢٦ يونيو] وهو عيد الملاك الجليل ميكاييل الموافق للخامس من ذى الحجه سنة تسع وثلثين وستمايه الاسلاميه [١٢٤١م]، وقف رجل من الصوفيه الذين يسمون القلندريه(*) فى الجامع بمصر بعد صلاة الجمعة وبعد فراغ الخطبة وصاح بأعلى صوته: يامسلمين من اراد منكم الجهاد فى سبيل الله فعليكم

(*) القلندريه: أو القرندلية، طريقة اسمها الشيخ القرندلي.

تكن الثلاثة هناك، وكان البيت عليه الاخر، وكانوا ينتظروا مجئ الثلاثة ويأخذوهم، ولكن عمر زين الفقار بيك باقى فغمزه المملوك، فركب وخرج وطلع الى الديوان فى دخول الثلاثة وطلوع جركس من الخلوة، وقد كان رأى زين الفقار فسآل عليه، فقالوا: طلع الى الديوان، فرأى الجماعة فى الحوش، فأمر بقفل الباب وقتلهم، ولكن ليس من الممكن أن الثلاثة يدخلون بيت جركس ويقتلونه فيه، فهذا من المحال ولا يدخل عقل عاقل، وأنما هذا خوف منه، وجبنا[1] لأن محمد بيك جركس كان عنده جبنا.

فلما أرسل الباشا طلبه وأبى يقابله، كبر الخوف عنده من زين الفقار ومن الفقارية، فأرسل طلب زين الفقار، وطلب من كل وجاق اثنين، فأرسلوا له من كل وجاق اثنين اختيارية، وأخبروا زين الفقار فقال: نعم أروح له، ثم أنه ركب صحبة الاختيارية، وتوجهوا الى بيت جركس، فلما دخلوا عليه[2] وأكرمهم، ثم بعد ما جلسوا، قال زين الفقار لمحمد بيك: أنت أرسلت طلبتى، وها أنا قد جيتك فما تريد؟ فقال له جركس: أنا ما أرسلت طلبتك، الا لأنى غير مؤتمن من طرفك، والمنافقون كلامهم كثير، فأنت تطلع تسافر الى ولايتك المنوفية وتكف الشر وكلام المنافقين، فقال: على الرأس والعين، ولكن تملهنى خمسة عشر يوما، ولكن مرادى أن تعطينى

(*) بالأصل «طرق».

(١) بالأصل «وجبان».   (٢) بالأصل «عليهم».

بكنيسة المعلقة. فخرج من الجامع كل من كان فيه وهم امم لا تحصى وجآوا الى الكنيسة، وكان والى مصر فى الجامع وكان رجلا خبيراً عالماً ذا تجربه يقال له المجاهد سليمان فسمع التشويش فسير مملوكه وعشرة من المقدمين لحفظ الكنيسة فجاء اليها فوجد من الخلق مالا يعد وقد طلع بعضهم الى المسجد المجاور له الذى اخذ منها، والملح إذا رمى لا يقع على الارض، فحمل فى

من بلاد الصناجق خمسة بلاد، فقال: نعم، أكتب قايمة بالذى تطلبه. ثم أنه كتب قايمة بما طلب من البلاد، وأخذ منه مهلة خمسة عشر يوما ويسافر. ثم أن المجلس انفض، ثم أن جركس أرسل أحضر جماعة اسماعيل بيك أمير الحاج وأصطلح معهم، وأنه يرد على على بيك الاصفر صنجقيته، وأنهم يكونوا عونا له على الفقارية واحنا أولاد اليوم، والذى مضى لا يعاد وقروا الفواتح وانصرفوا، والحرص واقع من رجب كتخدا ومصطفى الشريف مستحفظان، وابراهيم جربجى عزبان، وقد كثر القيل والقال، وسافر زين الفقار الى المنوفية فى غرة شعبان، وشق من وسط القاهرة. وكذلك عمر بيك طلع بيته، الذى بسوق السلاح الى ولاية المنصورة بعد طلوع زين الفقار، وكان طلوعه على قناطر السباع.

وفى هذا التاريخ، أرسلت هوارة الى جركس من الصعيد، نخلة واحدة[١]، لها سبعة عشر راسا، وانها طرحت فى أرضها التى قلعوها منها سبعة أرادب تمر ناشف، وأنهم أتوا بها الى مصر القديمة فى مركب على حدتها، ثم أن جركس أرسل لها عتالين وغزا، فأتوا بها، وهم ثمانون عتالا، فانفسخ منها راس واحد وزرعوها فى جنينته التى بمنزله، وأن بمنزله عند سلالم مقعدة شجرة كابلى قديمة، وكانت فى بيت من جملة البيوت التى ادخلها فى بيته، فجثمت

(١) كتب عنوان جانبى «أعرف أن هوارة الصعيد أرسلوا الى محمد بيك جركس نخلة لها سبعة عشر رأسا فغرسها فعاشت».

تلك الخلايق بالدبوس والعشرة المقدمين بالمقارع
ومهابة السلطنة قايمة عظيمة فافرجوا [فتفرقوا]
عن باب الكنيسة فاغلق الباب الذى عندها الذى
هو من ابواب قصر الشمع ويعرف بدرب المعلقة
وطلب رووس الفتنة وكانوا طلعوا الى المسجد
وكانت عدتهم خمسة انفس اوستة [وقبض على]
القلندرى ومن وافقه على ذلك وصار يضرب كل
واحد منهم نوباً عدة باصناف الات العقوبات مما لا

الشجرة عند سلالم المقعد. وانى أظنها من زمن الجراكسة، وهى باقية الى يومنا هذا وأن هذه النخلة من العجايب، وأن سابقا فى سنة ١١٣٢[١]، كان قد جاء الى اسماعيل بيك ثمانية عشر صندوقا مزقبة، فى كل صندوق شجرة من الجوز الهندى من بلاد الشحر. وكذلك جاء له شجر الكارى، وزرع ذلك فى جنينته التى فى الحريم بمنزله بدرب الجماميز.

ولنرجع الى ما نحن بصدده، ثم أن بعد سفر زين الفقار شالوا الحرس الذى بالحجر والصليبة والذى بالسلطان حسن باقيا على حاله، وفى رابع شعبان[٢] توجه رضوان آغا الى بيت زوج ابنته قاسم بيك ليسلم عليه، ويخبره بالتذكرة (التى)[*] جاءته من جركس فى حال قتل تابعه قيطاز بيك، يذكر فيها انه حاصل عندى عدم أمن من طرفك، فأنظر أى محل تريده أرسلك اليه، أما الحجاز، واما اسلام بول وأما الشام، وانه لا بد من أرسالك الى محل من هذه الثلاثة، فأرسل يقول له ليس لى ارادة الا المحل الذى تريده أنت، فانى اتوجه اليه.

فلما أرسل له رد جواب التذكرة، ركب جواده وتوجه الى زوج ابنته قاسم بيك الصغير تابع جركس، فلما رآه قاسم بيك أكرمه ، وقال له لا تخشى من شئ، أنا أشفع لك عند الصنجق وآخد لك خاطره، ثم انه ركب وتوجه الى جركس،و أخبره بما قال له، أنه حلف أنه لم يكن

---

(١) ١٧١٩م.
(٢) ٢٨ أبريل ١٧٢٤م.
(*) بالأصل «الذى».

يذكر مما يجده ثم المقارع والعصى واصناف الات
الهوان ثم اخذهم بعد ذلك مربوطين فى الحبال
ومضى بهم الى دار صاحبه [والى مصر]، وكان
يسكن بالقرب من حمام الفار، فاخذهم الوالى
وجدد عليهم العذاب والهوان وامر بهم الى
الحبس وكان ذلك بهم مثل التجريس عليهم
واهتدت المدينة وانقمع المفسدون، ودعا لهذا
الوالى العقلآء من السادة المسلمين وعامة النصارى

عنده خبر من هذا الامر وأنه مظلوم فى هذه القضية. ثم أن جركس قبل شفاعته ورضى عليه، وأرسل شال جماعته من بلاد رضوان آغا، وأمره أن يرسل قيام مقام من طرفه الى بلاده كما كان أولا، وقابل به قاسم بيك.

وفى سادس شعبان، عمل الباشا ديوانا، وانتظر أن احدا يطلع له، فلم يطلع أحد ولا الرزنمجى، فسأل الباشا عن الخبر، فقالوا له: أن الصناجق والعسكر عندهم. قال: وقيل فيما بينهم.

وكان السبب فى ذلك أن زين الفقار بيك، لما نزل الى ولايته وهى المنوفية، نزل على البتنون[1] بلد محمد جاويش تابع على كتخدا الداودلى باش أختيار مستحفظان سابقا، فلما حط على البتنون، أرسل الغز تطلب له كلفة، وأن البلد لم يكن عليها نزلة الى الكاشف مطلقا، وأن الكلفة التى بعث يطلبها خارقة للقانون، وهى خمسون خروفا وقنطار سمن وقنطار عسل وعشرون أردب شعير وعشرة أرادب فول وعيش كفايته وخمسون زنجرلى، لأن البلد[2] كبيرة، وهى قلعة المنوفية، وأنها نصفان، ولكن النصف لواحد فيه رجل مقدام، يقال له الحاج

(١) البتنون: احدى قرى، مركز شبين الكوم، محافظة المنوفية، وهى من القرى القديمة، محمد رمزى، المصدر السابق، قسم ٢، جـ٢، ص ١٨٤.
(٢) بالأصل «البلاد».

واليهود لانه حسم مواد كادت تتفرع، وعلى انصار الفساد والعباد كانت تتطلع. وكان القاضي شرف الدين الاسكندرى المعروف بابن عين الدولة الذى كان افرد بقضاء القاهرة وما يليها من الوجه البحرى بعد ان كان قاضيا على الاعمال كلها قد توفى وعوض عنه بالقاضى بدر الدين قاضى سنجار الذى كان فى قضاء مصر، وبقيت مصر

ناصف، وهو من نصف حرام، وهو اميرهم على البلد، وجيرتها خلاف النصف الثانى، كريم اللحية، طعام عيش لا يحب فسادا، فتلقى جميع أمور البلد يصدره، وأن مضيفته للشارد والوارد من أهل الرايتين، وأنه عين البلد، وأن جرايته التى تخبز فى داره فى كل يوم أردبان، وأن فى داره طاحون بحجرين، وفرن تخبز فيه الرجال.

فلما سمعت اهل البلد، من جماعة الكاشف، طأب الكلفة قالوا نحن ما علينا كلف للكشاف ثم أنهم توجهوا الى الحاج ناصف وقالوا له: نحن ماعطينا كلف الى قايم مقام، فكيف نحط الى الكشف، وأنه ليس علينا كلف وما فياتات للكشاف، وأن هذا الكلام لا يصح ولا ترتب علينا حادثة. فقال لهم الحاج ناصف: نراجع الكاشف فى نصف الكلفة، وأن كنتم ما تستقيموا فيما أنا أقوم بها من عندى، ولا نجعل بيننا وبين الكاشف غما. قال أهل البلد لا يمكن هذا ابدا، ولا نجعل علينا عادة. فراجعهم الحاج ناصف، فلم يفد شيئا للامر النافذ فى حكم الله تعالى، فاوصل المنافقون الخبر الى زين الفقار بخلاف الواقع وقالوا له: ان ناصف وأولاد عمه يقولون ايش هو زين الفراخ، ما لقى شيئا يلصه فى البلاد الا هذه البلد؟ وأن أستاذنا محمد جاويش طيب لم يمت، لما أن زين الفراخ يلصنا، وتعلم أن خدمة الكشاف أولاد حلال.

فلما سمع زين الفقار بيك هذا الكلام، طاش عقله، ومن يسمع يخل. فجمع العسكر

ایاماً بغیر حاکم الی ان فوض الامر فی قضایها الی رجل من اهل دمشق یعرف بابن عبد السلم [عبد السلام](*) وقد کان ولی الخطابة بمصر قبل ذلك فاجتمع له الخطابة والقضاء وکان رجلا جیدا وسمعته [مصانه]. وکانت الاسعار تاخذ وتعطی والقمح الی زیادة اقرب من النقص من خمسین درهما الاردب الی ما حولها وکل شئ غال. ثم ان

(*) هو عزّ الدین عبد العزیز ابن عبد السلام ابن ابی القاسم الدمشقی الشافعی، شیخ الاسلام والمسلمین، القائم بالأمر بالمعروف والنهی عن المنکر فی شرع المسلمین توفی فی عام ٩٧٨ق.=٦٦٠هـ.=١٢٦١م. فی عهد الملك الظاهر بیبرس الذی أقام الخلافة العباسیة بعد سقوطها فی بغداد علی ید التتار بقیادة هولاکو فی ٢٠ محرم سنة

- -

وهجم علی طرف البلد الذی فیها الحاج ناصف، فهرب الحاج ناصف وأولاده وأولاد عمه وأقاربه جمیعا ولم یقع منهم أحد، فنهب دور الحاج ناصف ودور أقاربه. ولم یبق فیها شیئا ولا رأس عنز، وشال من علی البلد، فطلع جماعة الحاج ناصف الی مصر ببیارق الی الوزیر یشکوا فی زین الفقار بیك.

فلما أخبر زین الفقار بیك، أن أهل البتنون نزلت[1] الی مصر تشتکی فیه، کتب مکاتیب وأرسلها الی الفقاریة یخبرهم بواقعة الحال، فلما رأهم الوزیر سأل عن الخبر، فأخبروه بما فعل زین الفقار بیك فیهم، فکانت الفقاریة فی الدیوان، فاظهروا المکاتیب التی أرسلها زین الفقار بیك، فلما رأی المکاتیب زین الفقار بخلاف مکاتیبهم، فهذا أمر لا ینفصل الا بحضور زین الفقار.

ثم أن الباشا عین اثنین من طرفه الی حضور زین الفقار، فلما سمع جرکس بمجئ زین الفقار، قال هذا أمر مدبر بین الفقاریة، ویعملون معی مثل ما عملوا مع جماعة ابن أیواظ، وأنی ما أخرجته من البلد الا التی والتی، وما هذا ألا بتدبیر رضوان آغا، ومحمد آغا الکور.

ثم أنه عمل جمعیة، وقال لهم أننا ما أخرجنا زین الفقار ألا بالجهد، ومرادی نفی رضوان والکور، لأنه اذا وقع أمر لا تکون منشاه الا من هؤلاء الاثنین، لأنهما فتنة الفقاریة والقاسمیة،

(١) کتبت بأعلی هامش الصفحة «منك العون».

٦٥٦هـ=٩٧٤ق. =١٢٥٨م. وقتله لآخر الخلفاء العباسيين المستعصم بالله بدسيسة من وزيره الشيعي مؤيد الدين ابن العلقمي.

القاضي بن عبد السلام المذكور ظهرت منه اسباب كانت كامنة في نفسه فاسقط عليه الشهود وتعقب اثار القاضي المتوفا وتطلب ولده محي الدين عن ذلك، وضيق على الناس في امور شتى وتعاسر في الاحكام، واقام الوراقين من الدكاكين وامرهم بان يقعدوا بين يديه في الزيادة [الرحبه] التي في الجامع.ثم ان السلطان [الصالح ايوب] خلد الله ملكه رسم بان يعمر مدرسة بالقاهرة قدام

فقالوا له: نعم الراى. ثم أنهم أخذوا فرمانا بنفي رضوان والكور، فنفوا رضوان آغا الى رشيد، ومحمد آغا كور الى دمياط. كل هذا خوفا من الفقارية.

ثم أن الاغوات الذين أرسلهم الباشا لاحضار زين الفقار تعذر عن المجئ، وأرسل قايم مقام العمل وكيلا عنه في الدعوة، فترافعا في محمد جاويش أستاذ البلد، ولم يثبت على زين الفقار شئ. وكتب حجة، وأخذها الوكيل، ونزل من الديوان وسافر الى سيده في ثاني يوم الذى هو عاشر شعبان سنة ١١٣٦(*).

وفي ثاني رمضان توفي شيخ الاسلام مسموما من الوزير، والسبب في ذلك أنه تقدم أن هذه القاضي الذى دبر هذه الفتنة وأحكمها، وكان سببا في قتل هؤلاء الصناجق، وانه لما حصل من قتل اسماعيل بيك وجماعته زاد بغيه وطغيانه في العالم، وافشا ما كان في سره من الحقد والضغاين القديمة، وصار لا يبالي بالوزير ولا بالعلماء، وتقدم أنه لما حصل له ما سمع من اسماعيل بيك وبهدلته[1] الى العلماء، وحصل أن اسماعيل بيك نصر العلماء، وكتب العلماء والبكرية والسادات عرضا بمعرفة الباشا، وذكروا جهل القاضي وانه حكم بتطليق المراة من زوجها على الرغم عنه، وساعدهم الوزير بعرض ثان من عنده، ولم يشعر القاضي، ثم أن

(*) ٤ مايو ١٧٢٤م.

(١) بالاصل «بدلقه» والتصويب من سياق النص.

الصـاغـة فى الموضع الذى كـان يسكن فيـه البياطرة(*) قدام القصر(*)، وشرع فى ذلك، ونقل البياطره من هناك فتحولوا الى ناحية باب البحر الى صـوب الركن المخلق، وهد ذلك الجـانب من القصـر وهو ما يلى باب الزهومه(*) الى بحـرى طول مـاية ذراع بالعمل فى مثلهـا فى العـرض، واهتم بذلك مع استمرار الاهتمام بعمارة قلعة

(*) البيـاطرة: معـالجى الدواب من الخيول والبغال والحمير.

(*) القصر : لعل المقصود بالقصر هنا بقايا القصر الغربى الفاطمى.

(*) بابا الزهومة: كان أحد الأبواب التسعة للقصـر الشرقى الكبير الفاطمى. وسمى بالزهومة لأن اللحـوم وحـوايج الطعـام التى للمطابخ إنما كـانت يُدخل بهـا

العرضين سافرا فوقعا فى يد الوزير، ثم أن الوزير كتب فرمانا بأربعة أشهر انعاما للقاضى، ولف العرضين فى داخل الفرمان، وأرسل ذلك للقاضى. فوصلوا اليه ثانى عشرين رمضـان، وكان القاضى فى يومها عازم على عبدالله أفندى، رئيس كتاب الديوان الهنكارى بالديار الرومية، الذى جاء فى بيع البلاد، وكان الشيخ أحمد العماوى، والشيخ سليمان المنصورى الحنفى حاضرين بالمجلس.

ثم أن القاضى فتح الفرمان، فوجد فيه انعام شيخ الاسلام بواسطة الوزير الاعظم، لأن هذا القاضى كان من الذين لا يغيبون عن مجلس الوزير بالليل والنهار، فرأى الفرمانين ورأى العرضين، فلم يرى للعماوى كتابة، ورأى كتابة المنصورى، فاغتم القاضى، وحصل له غيظ على الوزير، وعلى المنصورى وعلى أهل مصر، ولكنه لم عاتب المنصورى، ولم يذكر له هذا الأمر، وأنما أخبر الشيخ العماوى.

ثم انه فى ثانى يوم طلع الى الديوان واختلى بالوزير وعاتبه بما فعل فى حقه، فقال له الوزير: العلما وأكابر البلد أغصبونى، فقال له: لم لا تخبرنى، ولو لم يكن لك غرض، ما كانوا فعلوا هذا، ولكن أن شاء الله ربنا يقدرنا على مجازاتك اذا توجهنا الى الديار الرومية.

وكان هذا القاضى ممن يحضر مجلس الوزير للمنادمة والتحدث هو وأياه فى الخلوة، فلما سمع محمد باشا من القاضى هذا الكلام، تغيرت أحواله، ولكن تدارك أمره فأراد القاضى

منه، وكان يقابل المدرسة الصالحية بشارع المعز لدين الله فى موقع حي الصاغة.
(*) قلعة الجبل: وهى التى كانت تعرف بقلعة الكبش.

الجزيرة ومناظرها وعماير القلعه بالجبل (*) وعماير المناظر ببستان الخشاب وغيرها من العماير السلطانية فصارت اصناف العمارة لا يقدر عليها، والصناع لا يصابون البنا بعشرة دراهم كل يوم ودرهم موونته، والفاعل باربعة دراهم ونصف وربع درهم موونته، والبقية من هذه النسبة. والخبز لا يوجد الا باطلاق، وبعد هذا الناس يعمرون والعماير تكثر والخراب يعمر واموال الناس تترى مع الغلا، وهو من الامور المتضادة. وجآء راس

الانصراف، فحاشه الى الغداء واياه،و لا طف مزاجه، وأخذ بخاطره. ثم أنه ادغر له السم فى الشربات، فنزل مشغولا بالسم، فعاش ثمانية أيام، وتوفى ثانى رمضان سنة ١١٣٦[(١)]، وصلوا عليه بالجامع الازهر، ودفن بالمدفن الذى كان أعده شاهين أوضباشى الجلفى لنفسه بالمطهرة التى تجاه الامام الحسين، وعمل له التركيبة الرخام والعمامة العسكرية. وجاءته والدته والجوخدارية شايلينها فى قفص، لأنها اعمرت فى العمر نحو الماية وعشرين سنة، هكذا قد اخبروا ، ثم أنها سافرت بعد موته بعشرة أيام، وكان آخر مدته شعبان، ولم يكن تولى من الانعام الذى جاء له الا يوما واحدا، وهو غرة رمضان. ثم أن نايبه طلع الى الديوان، فألبسه الباشا كركا سنجابا على جوخ أحمر، وجعله قايم مقام الى أن يجئ جواب من الديار الرومية.

ولنرجع الى ما نحن بصدده: ثم أن بعدها سافر قايم مقام العمل، الذى كان وكيلا فى الدعوة عن زين الفقار، ونفى رضوان ومحمد آغا الكور لم يكفيه ذلك، بل شال بلاد رضوان آغا ومحمد آغا الكور، ورفع أيضا البلاد التى على زين الفقار بيك، وأضاف منهم امانتين الى امارة الحاج ونهب برمه، وشبين وقصر بغداد واقطاعهم، وعمل جركس حساب زين الفقار بيده، فوجد قد طلع عليه ثمانون كيسا، الذى تأداها من المال والموجودات، فعين عليه عشر أغاوات. فلما وصلوا اليه لم يلتفت اليهم، وقال لهم لما نحضر الى مصر نحاسبهم ونعطيهم

(١) ٢٥ مايو ١٧٢٤م.

السنة المباركة الهلالية وهى سنة اربعين وستماية للهجرة(*) وامر باستخراج الجوالى [الجزية] فاستخرجت استخراجا بعنف عظيم، وكان قد تولا بها رجل يقال له أبن جراده فعمل مالا عمله احد وسلط الاوباش على الناس ولم تقتصر على جوالى مصر والقاهره بل اى من وجده وزنه. وجعل عرفا(*) ارباب الصنايع يحضرون من هو تحت ايديهم من كل صناعة واصحاب الارباع

(*) ٦٤٠هـ = تبدأ في الاول من يوليو ١٢٤٢م. والسابع من ابيب ٩٥٨ق.

(*) عرفا: هى جمع عريف، وهو رئيس الطائفة الحرفية والمسئول عنها أمام المحتسب.

الذى يطلع لهم، بعد ما نفرغ من ولاية السيد أحمد البدوى، ونتوجه الى مصر، وننظر ماذا يكون.

وفى يوم السبت رابع شوال[1] اوكب داوود آغا صاحب عيار بالكسوة الشريفة، فلما وصل البرقع الى باب زويلة انكسر الخشب الذى عليه البرقع قطعتين، ووقع البرقع على الأرض، فشالوا البرقع على أقفاص الخبازين الى مقام الامام الحسين رضى الله عنه. وكذلك طبل المحمل انقطع من الجمالية، وانكسرت شرافة المحمل وهو خارج من باب قراميدان، يوم موكب أمير الحاج محمد بيك بن اسماعيل بيك الدفتدار الكبير. وفى ليلة شيل الحاج من البركة، سرقت الأربعة كوايخ التى للمحمل من قدام صيوان أمير الحاج من البركة، فا ستفولت الناس بذلك الأمر. وكان كذلك، فان الحاج تعب تلك السنة، ولم يأت من العقبة، وجاء من طريق غزة، وكانت سنة متعبة.

وفى سابع شوال[2] ورد ركاب ابراهيم افندى ثابت كبير مستحفظان من دمياط فأنزله جركس فى بيت مصطفى كتخدا باش اختيار، ولم يدخله بيته، ولم يجتمع على أهله وأولاده، فمكث ثمانية، ثم أنهم أطلعوه باب مستحفظان والبسوه قفطانا على سردارية جدة، ونزل من

(١) ٢٦ يونية ١٧٢٤م.

(٢) ٢٩ يونية ١٧٢٤م.

ياخذون من هو ساكن في حارتهم بالقيام بالجزية، وكانت العقوبة مبسوطة على الناس. وفي هذه الايام نودى في مصر بما حكايته رسم الشرع ان يشد النصارى الزنانير في اوساطهم وقيل ان السبب فيه أبن جراده المقدم ذكره لان شكا الى القاضي ان النصارى ما بقوا يعرفون من المسلمون لانهم ما يشدون الزنانير، وان الرسل ربما مسكوا المسلمين لسبب الجوالي. فامر بهذا النداء فرجع

الباب بالبيرق، الى بيت مصطفى كتخدا،ومكث في بيت باش اختيار الى ان سافر صحبته للحاج، في سابع عشرين شوال سنة ١١٣٦[١].

فانظر يا اخي إلى هذه الدنيا كيف ما تفعل باهلها، فقد كان (له)[*] في باب مستحفظان الكلمة التي لا ترد، وكان كل شئ فعل في الباب لا يمكن فعله الا اذا كان برضاه ولا يتم أمر اللا باطلاعه، وكان الداخل الذى يدخل الى الباب يسمع جرم صوته من عند كشك محمد باكير، وكان صوته في مدة اسماعيل بيك من العجب، فلماقتل اسماعيل بيك نفوه الى دمياط، ثم أنهم جابوه ودخل مصر ولم يجمعوه على أهله وأولاده، وسافر الى الحجاز بحسرة اجتماعة عليهم. وفي خامس القعدة[٢] من السنة المذكورة، عزل محمد آغا الطويل، وتولى باكير آغا الاعسر تابع أبو شنب، وتولى محمد جاويش الملة كتخدا مستحفظان، وعزل مصطفى كتخدا بلوط قبان. وفي عاشر القعدة[٣]، ورد آغا من الديار الرومية الى أن جاء الى قطية وسار منها واحد عشر نفرا من جماعته طلع عليهم عرب يقال لهم القصاصين والسماكين. الذين تقدم ذكرهم في كلام سالم بن حبيب، فقتلوا الاغا وتسعة انفار من جماعته وواحدا من أهل العريش، وأن العرب لم تقتل هؤلاء من تلقاء انفسها.

(١) ١٩ يولية ١٧٢٤م.
(٢) ٢٦ يولية ١٧٢٤م.
(*) الاضافة للتوضيح.
(٣) ٣١ يولية ١٧٢٤م.

الناس شدوا الزنانير فى اوساطهم [خاصة] المشايخ منهم ومن يخاف على عرضه، وتسلط العوام على جارى عادتهم. ثم رسم السلطان بان يخرج العساكر الى صوب الشام لان رسول الخليفة وصل الى تل العجول، وتجهزت العساكر وخرجت اولا اولا ونزلوا على ظاهر القاهرة من مسجد التبر(*) الى بركة الحب [الحج] ووصل رسول الخليفة المسير من بغداد وعبر الى القاهرة وانزل بدار

(*) مسجد تبر: بنى هذا المسجد عام ١٤٥هـ.=٤٧٨ ق. =٧٦٢م. وعرف وقتها بمسجد البئر والجميزة. وفى فترة كافور الاخشيدى قام الامير تميم

وأن السبب في قتلهم جركس، لأنه جاءه خبر من الديار الرومية أن الاغا المعين الى مصر صحبته خط بباشوية جدة اليك، فان ابيت جردوا عليك وقتلوك، وان رحت الى جدة قتلوك، فلم يكذب خبرا، فأرسل الى العرب فقتلوه، فهذا كان السبب.

ويرجع النص الى زين الفقار بيك، فانه لما رجع الاغا من عنده وأخبر جركس ومصطفى كتخدا الشريف باش أختيار، ورجب كتخدا مستحفظان وابراهيم جربجى عزبان متكلمين البلد، فقالوا: لا، هذا أمر غم علينا، نحن ما صدقنا أخرجناه من البلد غدا يفرغ مولد السيد البدوى ويروح الكشاف ويروح ما يخلينا في هدوء فان[1] خيار ما نعمل نريح الدنيا منه، ويتم مرادنا ونبقى مرتاحين آمنين، ولم يحصل قيل ولا قال. ثم انهم اجمع امرهم على أنهم يرسلوا يقتلوه في طنطا[2]، ولم يدخلوه البلد، ثم أنهم اجتمعوا وأخذوا فرمانا من الباشا برفع صنجقيته وقتله ، وهذا امر أسروه وأخذوا فرمانا ثانيا ظاهر للناس بنفيه الى بلدة قمن العروس، وأرسلوا الفرمان صحبة اثنين اغوات ومن كل بلك، واحد اختيار، فزين الفقار كان في الملقة، ناصب الملعب وهو يرمح في الملعب يوم الثلاث حادى عشر القعدة وكان يطرد الخازندار على الصايبة، وكلما قرب الصايبة يزرقه بالجريدة فيحود عنها قبل أن تقع الى الأرض. ثم أن الملعب انفض ورجع الى الخيمة، واذا برجل في صورة قواس دخل عليه الخيمة

---

(١) بالأصل «بين».

(٢) بالأصل «طنته».

الوزارة وكان السلطان قد خرج تلقاه لانه كان رجلا مميزا ريساً ذا قدر خطير . ثم ان قوماً من المسلمين يعرفون بابن حوله وابن صباح وجماعة تعصبوا معهم وهم الذين كانوا قاموا في قضية الكنيسة المعلقة وفعلوا فيها ما تقدم ذكره، انتبذوا لكنيسة بوسرجه بمصر وجاوا الى دارين من ادر وقفها لاصقين بها احداهما من شرقيها شارعه على

بتعميره. وكان هذا المسجد يقع بآخر الحسنية من جهتها الشمالية في سفح الجبل الأحمر. وما زالت بقاياه قائمة باسم زاوية محمد التبرى في الشمال الغربي لمحطة مترو حمامات القبة بالقرب من قصر القبة.

وناوله مكتوبا ففكه وقراه، فتغير وجهه ، ثم أنه سأل عن الرجل الذى اعطاه المكتوب فلم يجده، فقطع المكتوب.

وكنت أنا في طنطا، فهو قرب المغرب جالس في صيوانه، وكان يوم الثلاثا حادى عشر القعدة[1]، واذا بالاغوات والجماعة داخلين عليه في الصيوان، فقام لهم وأكرمهم وأهلهم وجاب لهم القهوة، فلما شربوا القهوة أبرزوا له الفرمان فقراه، ثم أجاب بالسمع والطاعة، وقال لهم تروحوا بنا في هذا الوقت أو تصبروا الى أن نتعشى: فقالوا: الى غد ما يكون الاخيرا، ثم انه أفرد لهم خيمة وأكرمهم وصبر الى أن مضى من الليل الثلث. فهرب هو وثلاثة مماليكه، ثم أن الجماعة أصبحوا فطروا وشربوا القهوة فلم يروا الصنجق فسألوا عليه، فقالوا : لا نعرف، ورأوا النهب واقع في الصيوان من المماليك والطوايف ثم أن سليمان آغا كاشف الغربية منع النهب وضبط الصيوان وهرب المماليك والطوايف. ثم ان الجماعة زارت السيد البدوى وسافرت من يومهم الى مصر وسافرنا نحن من يومنا فوجدنا المماليك ضايعة في البلاد فبتنا في كفر حسين، و قد بات فيه ثلاثة مماليك من مماليك الصنجق. ثم أن زين الفقار قام على مصر فلم يبت الا فيها، وما كان هروب زين الفقار بيك بسبب النفية، وانما هربه المكتوب الذى جاءه من مصر يخبر فيه برفع صنجقيته، فدخل مصر ليلا قبل أن تدخل الاغوات.

(١) ١ أغسطس ١٧٢٤م.

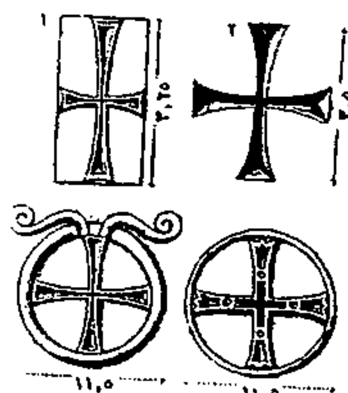

(*) صلبان للتكريس: (١) على اعمدة كنيسة العذراء بحارة زويله (٢) على اعمدة كنيسة ابى سرجه.

الطريق والاخرى من غربيها من داخل الدرب الذى ابواب الكنيسة فيه وادعوا ان كل دار منهما كانت مسجدا وانهم يعرفون ذلك من مدة تنيف على اربعين سنة. وكان الشيخ السنى الراهب المعروف بابن الثعبان مقيما بالكنيسة [ابو سرجه] المذكورة وناظرا فى احوالها وقد عمرها وعمر رباعها واستجد بالرباع مواضع عديدة اضافها الى

ودخلنا نحن مصر ثالث يوم فوجدنا أحمد بيك المسلمانى قاعدا فى قدم النبى عينوه ليستعجل غلال العنبر الشريف، ثم أنه سافر من قدم النبى فى اثين وعشرين القعدة سنة ١١٣٦[(١)].

وفى يوم سفر أحمد بيك حرق بيت ابراهيم جربجى عزبان، الذى بقرب الصليبة، ولم يبق فيه شئ، وما خلص الا العيلة[(٢)] هو وزوجته، وكانت النار أول ثورانها من الكرار الذى فيه الدهانات والطب، وصارت أناس تقول هذا بسبب اهانته الى السيد أحمد البسيونى.

فسألت عن الخبر فاخبرنى غير واحد: أن السيد أحمد البسيونى له ثلاثة مراكب حمايته من قديم، ليس عليها سخرة من مدة أسماعيل بيك الكبير وأحمد كتخدا القيمجى وظالم على، وغيرهم من الذين ملكوا هذا المرتبة التى ملكها ابراهيم جربجى الشهير بافندى، فكتبها ابراهيم افندى فى الرسالة، فعلم السيد أحمد البسيونى بذلك فتوجه له وساله عن سبب كتب مراكبه الى الرسالة. فكلمة ابراهيم أفندى كلاما يابسا، فرد عليه السيد أحمد جوابه الذى يعمله معه دايما ، ومع أكبر منه. فسبه ابراهيم افندى وسحب عليه الخنجر، وكان كتخدا الجاوشية حاضرا فمنعهم عن بعضهم وخرج من عنده وهو يدعو عليه وحاله متغير، ثم أن جركس أسكنه فى البيت الذى كان ساكنا فيه زين الفقار، فانه لما هرب (الى)[(١)] طنطا عزل

(١) ١٢ أغسطس ١٧٢٤م.
(٢) بالأصل «وهو».

وقفها وسار فيها سيرة الملايكة [المالك] فاقآم هولآء المدعون المخربون قوما منهم رفعوا [اشتكوا] الشيخ المذكور الى الشرع الى هذا القاضى [عز الدين] بن عبد السلم[السلام] بعد ان اجتمعوا به وقرر معهم ما يعملونه وعرفهم الطريق التى يسلكونها، فادعى واحد منهم مسلماني(*) يعرف بابى الحسن بن مكين القزاز وكان بينه وبين الشيخ السنى مشاحنة لانه كان ساكنا بقاعة من ربع

(*) المسلماني هو المسلم من غير العرب، وكان يحتقر من العرب والقبط المصريين.

حريمه منه لأنه فى الاصل بيت محمد آغا الدالى آغة الجملية أبو اسماعيل بيك وصار يعمر فى البيت لأن الذى لم ينحرق هدوه.

ولنذكر هذه النبذة التى جاءت عارضة: وما ذاك الا أن أحمد آغا لهلوبة، والى القاهرة تابع جركس شق فى البلد على حكم العادة. ورجع الى البوابة، نزل عن جواده وطلع الى المقعد، فأخذ السايس الجواد. وربطه فى البرنية مقابل المقعد، ولم يقشطه، وتفرقت الجماعة كل منهم راح ينام ومنهم جماعة دخلوا عند القهوجى يشرب له فنجان قهوة ليذهب نومه فجاء الشاطر ودخل البوابة وفك الجواد من برنيته وركب وطلع من البوابة، فستر الذى يستر على العاصى وهو يعصيه، فجاء السايس فلم ير الجواد، فسأل عن الجواد، فما أحد انباه فهاجت الخدمة.

ثم انهم طلعوا فتفرقوا ميمنة وميسرة، فلم يجدوا احدا فهم فى الدهشة، واذا بالخبر جاءهم ان الغفر اخبروا ان الجواد فات من داخل باب زويلة، فصاروا يسألون الغفرى، فيقولون: فات، وعليه رجل وسلم علينا، الى أن وصل الخبر الى باب النصر، ثم أن الوالى ركب جوادا غيره وسار الى باب النصر، وسأل البواب فقال: جاءنى رجل وقال. افتح لى قلت له انت من(٢)، والى أين تذهب؟ فقال لى: أنا من جماعة جركس، ورايح الى بلبيس أقضى حاجة واجئ من

(١) الاضافة لتوضيح المعنى وكتب عنوان جانبى «أعرف أسم والد اسماعيل بيك محمد آغا الدالى».
(٢) قدم واخر.

الكنيسة ولم يعط عنها اجره، وكان الشيخ يطالبه بها لانه ما راى ان يتركها له ولا كان لتركها وجه. وكان هذا الشخص [المسلماني]مذموم الطريقه زايفاً عن الحقيقة فادعى على الشيخ بتسليم الدار الواحده البرانيه وما يجب من اجرتها من نيف واربعين سنة، فانكره [الشيخ] فالتمس [المسلماني] منه اليمين، فقال له القاضي: احلف . قال [الشيخ]: نعم قال: قل وحق من انزل الانجيل على

يومى، ففتحت له، ولم يعطيني شيئا. فما ساع الوالي الا أنه رمى عنق البواب، وراح مظلوما شهيدا. وهذا من جملة الشطارة والاباحة التي عملوها في لهلوبة، وما عملت الا قصدا، دقة اباحة.

وفي ثامن عشر القعدة[1]، أمر محمد باشا بعمارة السراية ونزل المنادى ينادى فى شوارع مصر القاهرة بجميع البنايين والفعلة، ان كل من تخلف عن عمارة السراية يقبض عليه ويضرب ويهان وصار جميع البنايين والفعلة التى تتعاطى الهد والبنا والسراية وتحزم معمار باشا بالحزم، وصار يباشر خدمة السراية بنفسه. وكذلك الوزير صار يباشر البنا بنفسه وجميع خدمته، وصار يجلس على الكرسى والخيزرانة بيده، ولم يبق فى البلد بنا ولا فاعل الا والكل يشتغلون فى السراية، فمكث البنا نحو أربعة أشهر، ولم يقدر أحد يشغل بنا، وتمت بناية السراية فى آخر ربيع أول سنة ١١٣٧[1].

وفى عشرين القعدة سنة ١١٣٦[3]، أمر ابراهيم افندى برفع الحرس من السلطان حسن، وكان السبب فى رفعه أن ابراهيم قايم، رأى فى منامه السلطان حسن وبيده حربة من نار وهو يقول له يا ابراهيم تمنع الصلاة من مسجدى تسعة أشهر وتحط فيه جماعة مفاسيد يشربون

(١) ٨ أغسطس ١٧٢٤م. (٢) ١٧ ديسمبر ١٧٢٤.
(٣) ١٠ أغسطس ١٧٢٤م.

قلب عيسى قال له الشيخ: هذا ما هو مذهبى ولا معتقدى ولا يحلف الانسان الا على معتقده كماعهدنا من تقدم من القضاه. قال له: ان لم تحلف على ما قلت لك اخرقت بك [جلدتك]. قال: مهما شيت افعل ما سمعنا قط من حكم بهذا الحكم فاغتاظ عليه واخرق به قدامه وامر به الى الاعتقال كما جرى للرسل الاطهار. ثم ان المسلمين المتحزبين عملوا محضراً برأى القاضى [عز الدين بن عبد السلام] بان هذا الموضع

فيه الخمر، وبدلت محل الصلاة بشرب الخمر، وعزة الربوبية، ان لم تشلهم من المسجد فى غد، وامرت الخدمة يغسلونه ويصلى الناس فيه كل وقت، والاضربتك بهذه الحربة قتلتك، فاستفاق من المنام ولم ينم بقية ليلته، الى أن أصبح أمر يشيل من كان فيه من الحرس وأمر بغسله وفرشه بالحصر الفيومى وباشر الأمر بنفسه هذا قوله بلسانه فى مجلسه والله أعلم.

وفى عشرين القعدة سنة ١١٣٦[1]، أمر ابراهيم أفندى برفع سيدى مصلح الشعرانى وحضرنا الصلاة عليه بالجامع الأزهر، وخطب له، ودفن بتربة جده سيدى عبد الوهاب الشعرانى. وكان رجلاً صالحًا مهابًا وكان مجذوبا. ومن جملة ما وقع له أنه طلع إلى محمد باشا وأخذ منها فرمانا بأن لا أحد يصبّح عليه ولا يكلمه وهو مار فى الطريق، وكل من صبح عليه أو كلمه يضرب ويهان ونودى به فى شوارع القاهرة رحمه الله وسامحه. ولم يعقب ذرية إلا بنتا وابن عمة له، وهو سيدى عبد الرحمن، وهو الذى استخلف بعده على الزاوية، وجلس على سجادة جده، وأيضا خلف ابن اخت له من إبراهيم جربجى باشجاويش الجملية. ثم أنهم جعلوا لكل منهما الثلث فى وقف الزاوية، وان الفايظ اثنى عشر كيسا لكل منهما أربعة اكياس والله أعلم.

(١) ٢٩ أغسطس ١٧٢٤م، كتب عنوان جانبى «اعرف وفاة القطب الربانى مصلح الشعرانى».

مسجد من مساجد المسلمين وان النصارى
تعدوا عليه وعملوه دار من ايام الغلا في سنة
سبع وتسعين وخمسماية [١٢٠٠م] ودعوا
الشيخ من الاعتقال في اليوم الثالث لان
مبتدى احضاره كان العصر من نهار الثلثا التاسع
عشر من مسرى [١٢أغسطس] من هذه السنة
وجددوا الدعوى عليه، فانكر فاخرجوا المحضر وقد
شهد فيه ثمانية من هذه الطايفة فادوا شهاداتهم،
وفيهم من لم يبلغ اربعين سنة وشهادته من نيف

وفي عاشر الحجة [١]، رفعوا صنجقية أحمد المسلماني، وضبطوا بلاده الى الميرى، وعينوا آغا لجيبة رأسه من جرحة، فهرب، وجاءت جميع طايفته وخدمة الى القاهرة.

وفي ثالث عشر الحجة [٢]. ورد ركاب محمد جاويش الجدك، سردار الخزينة الى رشيد، فعينوا سراج كتخدا الوقت محمد كتخدا الملة، الى رشيد بمجينه البيرق، وابقاء محمد جاويش في رشيد، فكان كذلك ودخل البيرق الى مصر صحبة اليمق [اليسق = الحرس] يوم الاحد سادس محرم سنة ١١٣٧ [٣].

وفي ثاني يوم هرب خليل أفندى، كاتب صغير جراكسة تابع أحمد بيك المذكور، والسبب في ذلك أن محمد بيك جركس، له بلد في الشرقية يقال لها مشتول [٤]. وأنها عاصية عليه، وأنها في الحاجز فأرماها الى الكشوفية، وأخذ عوضها بلدين من بلاد الكشوفية، زنكلون والتلين. فلما علمت الجملية والجراكسة والتفكجية أبوا، وقالوا هذا أمر لايمكن، وهذه خسارة على العسكر، فلما علم جركس بأنهم أبوا، أرسل تذكرة الى حضرة الوزير، صحبة ابن سيده

(١) ٣٠ أغسطس ١٧٢٤م. (٢) ٢ سبتمبر ١٧٢٤م.
(٣) ٢٥ سبتمبر ١٧٢٤م.
(٤) مشتول: احدى قرى، مركز بلبيس، محافظة الشرقية، وتعرف حاليا باسم «مشتول السوق» وهو الاسم الذى عرفت به منذ العهد العثماني، لشهرتها بسوقها الكبير، محمد رمزى، المصدر السابق، قسم ٢، جـ١، ص ١٠٤.

واربعين سنة فسمعها الحاكم المذكور وزكى منهم اثنين وهما ابن حوله وابن صباح لانهما كان شخصين لكن كشيخي سوسنه، فاثبت المحضر واعاد الشيخ الى الاعتقال بعد ان جرت بينه وبينه مفاوضات. وقال له: ان كان لك بينه احضرها. قال له: يا مولاى من اين لى بينه وانا فى الاعتقال. قال له: وكل عنك. قال له: يا مولاى ما لى وكيل يبقى معي الترسيم الى ان احضر بينتي . قال له :

محمد بيك الدفتدار، تتضمن تلبيس آغاوية العزب الى خليل أفندى، فأرسل الباشا الى خليل أفندى آغا يطلبه، فتوجه واياه الى الديوان في يوم الخميس عاشر محرم سنة ١١٣٧[1].

فلما واجه الوزير لم يخاطبه، الا بأنه فى الحال البسه قفطانا وقال له: أوليتك أغاوية العزب، فلبسه وطلع به الى خارج الديوان، أخبر الدفتدار بأنه لا قدرة له على آغوية العزب، فلم يلتفت اليه، فعلم أن الأمر مبيت، فنزل الى باب مستحفظان، ورد القفطان وعدم قبوله الاغاوية، فأرسل اليه ثلاث أغوات بفرمان النفي الى بوقير. فلما فطن بمجيئ الاغوات له بالنفي، فر هاربا، ولم علم أحد الى أين هرب، فلما آخبر الوزير بهروبه، أرسل عزل أفندى الوجاق، وباش جاويش، وولى خلافهما من عنده، وهذا بخلاف العادة، فلما رأى باقي الاوجاقات بما فعله الباشا بخليل أفندى سكنوا ولم يتكلم منهم احد، فأخرج جركس مشتول من تصرفه فالحقها بالكشوفية وأخذ عوضها زنكلون والتلبين وانفدت كلمته وصار خليل[2] أفندى، وزين الفقار بيك مختفين في مصر والله أعلم.

ومن أعجب ما وقع: ان رجلا حلاقا أتى حانوته صبيحة يوم فرأى غلاما نايما على مسطبة دكانه، فأيقظه، وقال له: ما بالك ها هنا قايما، فقال له الغلام: أنا غريب يا سيدى، وجيت ممسيا، ولم أعرف أحدا، فنمت على هذه الدكان. فقال له الحلاق: أنت لك أحد، فقال: لا.

(١) ٢٩ سبتمبر ١٧٢٤م.

(٢) كرر الاسم بالأصل .

لا سبيل الى ذلك . وامر به الى الاعتقال فى عشية يوم الجمعة الثانى والعشرين من مسرى. وبعد ذلك عملوا المحضر بالدار الاخرى التى من داخل الدرب وكان القسيس المعتمد بن القسيس معاني قسيس الكنيسة المذكورة [ابو سرجه] ساكنا فى الدار المعينة فدعوه وادعوا عليه بتسليمها وعملوا معه كما عملوا فى الدار الاولى، فاعترف انه ساكنها من مدة عشرين سنة فامره بخلوها للوقت والساعة

فقال له : أنت تخدم عندى وأنا أعلمك صنعة الزيانة، فقال له: نعم. وكان الغلام دون البلوغ، فأعطاه الأسطى محزما تحزم فيه وقايشا.

وكان الغلام عنده بعض جماله، وصار الغلام بالدكان فى النهار وبالليل[1] فى منزل الأسطى، الى مدة ثلاثة أيام، وفى اليوم الرابع تعرف عليه جماعة من النصارى، فأتوا الى دكان الحلاق، وأرادوا أن يأخذوا الغلام فأبى الولد، وقال: أنا مسلم ، وانى لست بابنكم، وأن كنت ابنكم، فأنا أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم أن الحلاق منعهم من أخذه، وكان بجوار دكان الحلاق منزل يوسف جربجى عزبان، الذى كان سابقا سافر بالعرض الى اسلام بول صحبة الشيخ أحمد العماوى، وجاءوا بمحمد باشا النشنجى هذا من قلعة جريد على ما تقدم ذكره، فخشى الحلاق على نفسه، فأخذ الولد ودخل الى يوسف جربجى تابع حسن اغا البركاوى، وسلمه الولد، وحكى له حكاية الولد ومجئ النصارى واسلام الولد. ففى ثانى يوم جاء النصارى الى الحلاقة وسألوه عن الولد، فأخبرهم أن يوسف جربجى أرسل أخذ الولد وهو عنده، فلما علموا أن الولد عند يوسف جربجى توجهوا الى محمد بيك جركس، وأخبروه بأن يوسف جربجى البركاوى، أخذ ولدنا، أغصبه على الاسلام، وأن له أم لم تنم الليل على فقده، وأن الولد دون البلوغ. فكتب تذكرة

(١) قدم واخر.

ووكل عليه اجرة عشرين سنة. وامر باخلا الدار الاخرى البرانيه من سكانها لانها كان بها سكان فاخليت الدار وصارتا بيد الخصوم. وانهى اليه ان القسيس المعتمد فقير لا يقدر على شي فقال نضمنه عليه ويعمل محضرا بعدمه فضمنه اهله وخرج يتسبب فى المحضر. ولما كان فى عشية يوم الاثنين الخامس والعشرين من مسرى [١٨ أغسطس] دعا القاضى [عز الدين بن عبدالسلام] الشيخ السنى، لانه كان فى كل ثلثة ايام يدعوه

وأرسلها صحبة باش سراجينة، محمد السيفى، وناهيك به في ذلك العصر، فأخذ التذكرة، وذهب بها الى يوسف جربجى، فلما دخل الى بيت الجربجى رأى الولد واقفا فى الحوش، وكان الجربجى فى الحريم، فمسك الولد، وأراد أن يخرج به من البيت، فاستغاث الولد بالجربجى، فمنعه الخدم من أخذ الولد، فغلظ كلامه عليهم، وفزع عليهم، فأرادوا أن يضربوه، وكثر الهرج بينهم فسمع الجربجى الهرج فنزل من الحريم، فرأى الولد فى قبضة السيفى، فلما رأى السيفى الجربجى لم يكترث به، ولم يلتفت اليه، وبالغ فى سب الخدم، مع أن السيفى هذا كان سراجه سابقا، وكان قد جابه معه من سفرة بلغراد لما كان سردار العزب بها، وكان جركس صارى عسكرها، وانكسرت الاسلام وملكت الكفار بلغراد سنة ١١٢٩[1].

وكان قد استسلمه لأنه كان أرمينى الأصل، فلما جاء الى مصر جعله سراجا له، فعمل ذنبا، فطلب أن يضربه فهرب الى جركس، وعمل سراجا عنده الى ذلك اليوم، فلما رأى الجربجى الولد فى يده، وعدم أكترائه له، وكان فى يد الجربجى نبوتا ففزع عليه وأراد أن يضربه، فأسيب الولد وفر هاربا الى خارج الباب، فعيط الجربجى على البواب أن اقفل الباب فدقها السيفى ولم يلتفت خلفه، فما وجد نفسه الا عند سبيل رجب آغا الذى فى علوة باب الخرق . وأدركه حماره بالحمار، فركب وسار الى سيده، وحكى له خلاف ما حصل. وانى

(١) المقصود بجراد / ١٧١٧م.

وقال له: اى شئ عملت. قال له: يا مولاى ما الذى اعمل وانا فى السجن وانا ما لى احد. قال: ضمن عليك وامض تسبب فى نفسك . فحضرت جماعة وضمنوه ضمان وجه، وجآ الى الكنيسة الى القلايه التى له بها. وجآ اليه الجماعة وبذلوا مجهودهم الا انهم ما كانت لهم حيلة لان اكابر المسلمين وشيوخهم وروساهم كانوا متحققين ان هذه الشهادة باطلة وان هذا شئ ما كان قط، الا انهم ما يمكنهم الشهادة، وادوابهم [أذنابهم]

دخلت له وأعطيته التذكرة، فرماها وسبك وسبنى، وأراد يضربين فما ساعنى الا أنى جيت لك وادينى قلت لك، ولو كان معى اذن منك بالضرب لضربته. فقال له جركس. كنتى ضربتيها، لأنه كان يؤنث المذكر.

ثم أن الجربجى ركب وسار الى جركس فراى السيفى قد سبقه وأخبره بخلاف الواقع. فلما رآه جركس قال له: يا يوسف جربجى، أنت الأن بقيت تفزع على سراجى فى بيتك، فقال له يوسف جربجى: والله لو أدركته لقتلته، لكن هرب فحصل بينه وبين الصنجق كلام زايد وناقص، وبالغ يوسف جربجى فى الكلام، وقال له: هذا خدامى قبل أن يخدمك، وأنا الذى استسلمته[٢] ولكن والله لو كنت أعلم أنك تعمل هذه العمايل وتريد أن ترد مسلما الى دين الكفر، وتسمع كلام هذا الملعون الذى هتك البلد ما كنت تركته يجئ لك سالما الا كنت اطرد وراءه الى بيتك، ولكن لما خرج هاربا من البيت ما أحد راح وراءه، وانى والله ما أراد الواد المسلم الى الكفر، لو أعلم أنى أبقى أربا أو أنفى أو أخرج من وجاقى وطلع مغضبا.

ثم انه طلع باب العزب، وحكى لهم ما سمعته أذهانكم الرايقة، وأسماعكم الفايقة، فقالوا له ما عليك من هذا الأمر شئ ، كن فى أمان من هذا الطرف، ثم أنه نزل الى منزله[٢] فما

(١) أى جعلته يعتنق الاسلام.

(٢) كتب بأعلى هامش الصفحة «عونك يا لله».

والمسايير منهم ممن يعلم ذلك يخافون من القاضي. حتى ان المحضر التي بالدار الاولى الشارعة على الطريق تضمن ان هذا المسجد كان له ثلاثة ابواب قصدا منهم في ان ياخذوا فيه دارين اخرتين وكانت هاتان الداران شركة مع امراة مسلمة لها الربع والكنيسة النصف والربع فجاءت هذه المرأة بكتبها الى القاضي وشنعت وشعتت وهي امراة مسلمة، فامر بان لا يعارض الدران اللتان لها فيها الحصه واقتصروا على الدار الواحدة التي هي

استقر به بالجلوس واذا بصالح كتخدا قد أتاه يستشفع عنده في تسليم الولد الى أهله، لأجل خاطر محمد بيك جركس ولك في نظير ذلك ثمانين زنجرلي، فأبى، وقال. والله لو تعطوني مايتين ألف أحمر، لا يمكن أني أرد مؤمنا الى الكفر مطلقا، وأخصم محمد بيك والدنيا واني ان رأيت هذا الملعون السيفي لا قتله، ولو كان واقفا في باب جركس سيده وقد اخصم جركس واخصم وجاقه لأجل النصارى عملوا للوجاق مائتين زنجرلي، وللسيفي خمسين، وللعلماء ستين، وأخذوا فتوة من أيمة الشافعية[1]، ان الولد يرد الى اهله لكون أنه مراهق، لأن ساداتنا الشافعية لا يرون الاسلام الا بعد البلوغ والحنفية برونه بعد التميز ولم يشترطوا البلوغ، وأن يوسف جربجي أخذ فتوة من السادة الحنفية بعدم تسلمه الى أهله، وأنه باقي على اسلامه وأن اسلامه صحيح، وكل من اراد رجوعه الى الكفر فهو مرتد، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. وأخذ على موجب الفتوى حجة، ومنعهم بالرغم عليهم وأخذ الولد عنده، فأسرها محمد بيك جركس في نفسه والله أعلم.

فأنظر يا اخي الى هذه الأمور: وأعجب، من هذا، ان رجلا من الجند له خدم وله في بيته عشير[2] وفراش، ثم ان الفراش تحته اتباع، فتبع من اتباعه، سرق جوخة لمملوك وهرب، فأخبروا سيدهم، فهو مار يوما من الأيام فرأى الفراش فأمر القواصة بمسكه، فمسكوه وساروا

(١) كتب عنوان جانبي «أعرف هذا السؤال فقده».

(٢) بالأصل «وعشير».

لصيقة بالكنيسة قصداً منهم فى التسلط على الكنيسة واخذ ما يجاور الادر المذكورة منها حسب ما يمكنهم كما فعلوا فى المعلقة. وكان فى الحارة جيران مسلمون ولهم املاك مجاورة للدار البرانيه ومعهم كتب تاريخها منذ تسعين سنة تشهد بحدود احدها ينتهى الى هذه الدار وهو يشهد بالدار الوقف على النصارى ولو كانت مسجدا كما ذكروا ذكرت، واخر نصراني يعرف بابى اسحق بن الاعمى له دار من داخل الدرب مقابلة الدار

به فمروا به على بيت عمر بيك، بيت جركس، فاستجار الفراش بالسراجين الذين واقفين على البيت، ففزعوا على الجندى وخلصوا الفراش منه، ودخلوا وأخبروا عمر بيك بأن رجلا جنديا مسك فراشا واراد أن يأخذه فخلصناه منه، فلما رأى الجندى السراجين أخذوا الولد، وادخلوه البيت، دخل البيت ونزل على بيت الركوبة، وطلع الى المقعد، فرأى الصنجق جالسا على دكة المقعد، فسلم وميل على الصنجق الا أنه شال رجله ورفس الجندى فى صدره، فوقع الى الأرض على ظهره، ثم أنه أمر المماليك أن يمسكوه فمسكوه، ثم أنهم أنزلوه الى الحوش ومدوه، وأمر القواصة أن يضربون بالنبابيت فضربوه نحو المابة نبوت، وأمرهم بشيله ورميه خارج الباب. وكانت خدمه هربت، ولم يبق الا سراجه خارج البيت، فأتى اليه بحمار وركبه ورده الى بيته، وكان الرجل من الأكابر ولم يحصل لعمر بيك شئ، ومضى على الرجل أيام قلايل وتوفى من قهره، ولم يجد له ناصرا. وأنه لما تولى (عمر بيك الصغير) (*) كشف المنصورة، مسك ابن البقرى، فما خلصوه منه الا بخمسة آلاف زنجرلى. ومما اتفق أن بالمنصورة كوم تراب من زمن الكفار فنادى (عمر بيك) (**) فى البلد بشيله، وأن هذا الكوم لا يمكن شيله، واذا شالوه أين يودوا ترابه، وان رموه فى البحر سده، ولم يمكن (شيله) بوجه[1] من

(*) الاضافة لتوضيح المعنى. (**) الاضافة للتوضيح.

(١) بالأصل «بوه» التصويب والاضافة ليستقيم المعنى.

الاخرى المنازع فيها ومعه كتب عهدها ماية واحدى وثلثين سنة فشهد بحدود مثل ذلك والحد الذى ينتهي الى هذه الدار يذكر فيه انه ينتهي الى الدار الوقف على النصارى سكن الشيخ ابى غالب. واحضرت الكتب المذكورة الى القاضي [عز الدين بن عبدالسلام] فوقف عليها وما اصغى اليها. وبقي الشيخ المذكور [السنى] يسعى بالقاهرة ومصر ويتسبب يوم الثلثا والاربعا ولم

الوجوه فصالحه أهل البلد بخمسماية زنجرلي، وعفاهم من شيله وهو باق الى يومنا هذا، وكانت أفعالهم كثيرة، وكل شئ فعلوه لا يمكن مخالفته الا بالزنجرلي.

وأوفى النيل وزاد زيادة كثيرة، وكان كلما زاد البحر زادت الغلال قرشا. وأبيع القمح بعد زيادة البحر ووفاية بثمانية قروش الأردب ديواني، والفول بسبعة قروش، وصلب البحر والغلا زايد، الى أن حصل الى الفقراء شدة كبيرة.

وارسل جركس الى أولاد همام بأنهم لا يرسلون غلالا، الى أن تفرغ غلاله، والله أعلم.

وفي عشر محرم سنة ١١٣٧[١]، عزل الباشا عبدالله أفندى الرزنمجي أمين الله على أموال المسلمين وتعلقاتهم الديوانية وولى أحمد أفندى بن محمود أفندى التذكرجي الذى كانت ظهرت خيانته على مدة على باشا الأزمرلي وحبسه في قلعة مستحفظان مدة طويلة على مدة سليمان كتخدا، وأخذ منه على باشا ستماية كيس، ولولا احتمى بباب مستحفظان، والا كان قتله وانه أراد أن يعمل رزنمجي في زمن اسماعيل بيك، فما أمكن لأن كان باش قلفة الرزنامه الى أن صارت مصر في حكم محمد بيك جركس، فعمله رزنمجي وباع قلم قلفة الرزنامه بثمانية وعشرين كيسا، وعمل رزنمجي وعزله عبد الله أفندى الذى كان يستسقى به الغيث. ولكن كل زمان له دولة ورجال وما عمل رزنمجي ، حد أخذ منه، جركس

(١) ٢٩ سبتمبر ١٧٢٤م.

ينعمل له شئ فلما كان فى عشية يوم الخميس الثامن والعشرين من مسرى [٢١ أغسطس] جاء القاضى الى الكنيسة ومعه جمع من الشهود وغيرهم ووالى مصر ودخل الى الدار البرانية واحضر السنى وقال له: اى شئ عملت .قال له: يامولاى ماعملت شيئاً قال له: يا شيخ هذه الدار قد ثبت عندى انها كانت مسجدا من مساجد المسلمين فانت ما جددت ولا غيرت بل ان ابن ابى

خمسة ألاف زنجرلى و الله أعلم. وفى ثانى يوم الذى هو حادى عشر محرم أتوا برأس أحمد بك المسلمانى من جرجة وكان تقدم أنه هرب من جرجة فأرسلوا خلفه الخيل فأتوا به بعد خمسة أيام الى جرجة، وأحضروه الى ديوان جرجة وقروا عليه الفرمان الذى جاء من مصر بطلب رأسه فقتلوه وأرسلوا رأسه الى مصر كما ذكرنا وأن أحمد بيك هذا كان من أعوان جركس ومن اعداء اسماعيل بيك.

ثم ان جركس أرسل ضبط جميع ما فى منزله الذى بسوق السلاح لأن خليل أفندى كان مستخفيا وما كان أحد يقول حاس، وكان أحمد بيك هذا رجلا عظيما حليما، ولكن أغواه جركس لأمر أراده الله وما أحد يقدر يمحى المقدر ولا الذى على الجبين مسطر، وكفاه أنه حصلت له الشهادة رحمه الله وسامحه لأنه كان بيننا وبينه ود ومحبة وكان عنده معرفة بالضرب، وكان يقول: اللهم أكفنى شر علو المرتبة فان حصوله علو المرتبة لى يحصل لى مشاق كبيرة والله أعلم.

وفى عشرين محرم سنة ١١٣٧[١] حصل أن رجلا من العزب، يقال له باكير العنتبلى، دخل على مصطفى آغا بن أحمد آغا الوكيل فى بيته الذى بالحبانية بعد صلاة العصر، فرأى مصطفى آغا جالسا، والامام بجانبه ولم يكن عنده أحد غيره، فتقدم ليبوس يده وسحب

(١) ٩ أكتوبر ١٧٢٤م.

غالب الذى كان بطركا(*)، وانت فما يلزمك الا مدة الثلاث عشر سنة التى اعترفت انك تصرفت فيها فى هذا المكان تقوم لنا باجرتها. قال له: يا مولاى هذه الاجرة صرفتها فى جوالى النصارى وصدقاتها على شرط الوقف. قال: هذا ما لا يفيد. قال: يا مولاى ان كان هذا المكان كان على ما قيل مسجدا فمن اين له هذه العماير وهذه الطبقة وهذه الالات التى صار له بها هذه القيمة. قال:

(*) هو البطرك ٧٤ يوأنس (يوحنا) السادس (أبو المجد أبن أبى غالب أبن ساويرس) فى المدة ما بين ١١٨٩ - ١٢١٦م.

خنجرا ليضرب به الاغا وكان الامام باله معه ففز قايما ليمنع الجندى وزعق حاس عن الأغا يا ملعون، فالتفت على الامام وضربه فجاءت الخدم، وتقدم له الخازندار ليمسكه، فجرحه، فتكاثروا عليه ومسكوه، ثم ضربوه بالنبابيت إلى أن قطع النفس، ثم حبسوه الى ثانى (يوم)(١) أطلعوه الى الوزير وادعى عليه بحضرة الوزير، وشيخ الاسلام فانكر، وقال: أنا ما فعلت شيئا من هذا الذى يدعيه ولا قتلت أحدا وأنما أنا لى فلوس عند الاغا فدخلت أطالبه فمسكنى وضربنى وحبسنى، وها هو قد أتى بى بين يديك فطلب القاضى من مصطفى أغا البينة، فأبرز حجة الاخبارية بما حصل ودخوله البيت وتهجمه، على الأغا وقتله فى الامام، وأتى ببينة شهدت بمضمون الحجة وأبرز الخنجر الذى قتل به الامام فأمر الوزير بأن يكسروا يديه ورجليه، ثم أنهم يقتلوه بالخنجر الذى قتل به الإمام ولا يشيلوه الا بعد ثلاثة أيام، ثم أنه ادعى أنه عزب فأنكروه العزب، ثم أنهم أنزلوه الرميلة، وفعلوا به كما أمر الوزير، عند باب قراميدان ومكث ثلاثة أيام، ثم أنهم رموه فى الجب.

وكان السبب فى ذلك رجل من الخلنج جابه أبوه وعمله سراجا، ثم أنه نقله من السراجية، وجعله جابى على أوقاف الحرمين وغيرهما، وصار، يراشيه، الى أن تريش، وصار صاحب مال وجامكية، وصار متكلما على البيت، فوق وتحت وكان شاطر ممارس للأمور التى للآغا، الجزنى

(١) الاضافة لتوضيح المعنى.

قوموا اجره المكان مسجدا منذ ثلاث عشر سنة، وقيمة هذه الاخشاب والاصناف والبنيان الذى به الان . فقالوا : يفضل للشيخ احد عشر دينارا. قال لهم: انتم فى حل منها. فخرجوا على هذه الصورة وانتقل الى الدار الاخرى ولم يكن بها الا العلو الذى كان القسيس يسكنه لان سفلها كان مخرباً، وكان الشيخ قد سد بابه من ناحية الدرب وفتحه من ناحية الكنيسة جعله مخزناً

والكلى، فعمله جربجى فى العزب، وكان أسمه أحمد السراج فصار أسمه أحمد جربجى ، وجوزته ابنة أخت مصطفى أغا هذا فمات والده وتحضن به اسماعيل بيك، وخلص له بلاد أبيه بأقل الشئ، وطلب أحمد جربجى هذا أن يجعل له فى البلاد قسما، فأبى، وقال: بلاد أبى لى، وأنت أيش تكون لأبى، وأن أنت الا زوج أختى. فحصلت العداوة بينهم، وأخرج أخته من البيت وأسكنها فى بيت مصطفى كتخدا جار المحمل، ومنعها من الاجتماع على أمها وأخيها، الى أن ترجى اسماعيل بيك، فصار يطلب أذيته، ويغرى عليه مثل هذا وأمثاله الى أن أغرى هذا، وجرى له ما سمعته أسماعك الفايقة وأذهانكم الراقية، وقد قال المتقدمون:

من غاب عنك أصله كانت دلايله فعله

وقال السلف: سبب الشر فعل الخير. وقال الشاعر:

واذا اختفى أصل الفتى أنظر الى

أفعاله، تغنيك عن أنسابه(١)

فانظر يا اخى الى هذه التجارى: وهجوم واحد حلنج مثل هذا على مثل هذا الأغا فى بيته محل أمنه ويريد قتله، فكان جزاه ما حل به، وبعد ذلك بأيام قلايل مات أحمد جربجى،

(١) كتب بالهامش كتعليق يناسب واقع الحال « ومما اجمعت الأمة عليه، اتق شر من أحسنت اليه». وقالت الحكماء: العفو على اللئيم يفسد، بقدر صلاحه من الكريم».

للحلفا (*) وهو يجاور مستخدمات والمطلع، وجآء الى موضع المراحيض والقذارات [القاذورات]. فقالوا: هذا موضع المحاريب. قال: ثبت عندى ان هذا ايضا كان مسجداً اطلبوا القسيس الساكن فيه. قال له الشيخ: يا مولاى ماذا تريد منه على ضمانة. قال: نريد الاجره. قال [الشيخ السنى] له: يا مولاى مهما وجب عليه اما ان يثبت عسرته اويقوم به . وخرج على هذه الصورة. فلما كان يوم الاحد اول النسى [٢٤ أغسطس] سير الشهود

(*) الحلفا: المقصود هنا السمار الذى يصنع منه الحصير.

وضبط مصطفى آغا ميراثه، وطلع الى حريمه وختم على الخزنة وهو راقد فى الفراش ينظر وه وفى حالة النزع، وكذلك عاش بعده مدة قليلة وتوفى هو أيضا وصار كل ذلك لأخته والله أعلم.

وفي ثانى عشرين محرم المذكور من السنة المذكورة سنة ١١٣٧[١]. أوكب باش العقبة الى بركة الحاج.

ثم أنه شال منها قاصد العقبة، واذا هم بعرب يقال لهم الترابين، فمنعوهم من السفر فتحصنوا بقلعة نخل[٢]. وأرسلوا الى مصر يعلموهم بالحال، فأرسلوا لهم مايتين من الغز وعمر بيك وسليمان آغا كاشف الغربية، الى أن أوصلوهم الى العقبة فلم يروا الحج جاء، فنزلوا العقبة ينظرون الحج.

وأما الحاج، فأنه لما سافر ودخل الى الينبع فى الروحة، فوجدوا الينبع نارا مشعلة من الغلا والفول كل ربع بريال فلم يمكثوا فيها ساروا الى أن دخلوا مكة المشرفة فوجدوا الغلا بها، ولكن الطف لأن الشئ موجود فيها لكنه غالى، فالحنطة بخمسين زنجرلى والسمن بخمسين ريال القنطار والرز لم يوجد واذا وجد بثمانين ريال الأردب، والجبن بثلاث قروش الرطل، واللحم الضانى والماعز بخمسة عشر الرطل.

---

(١) قلعة نخل كانت محطة من محطات الحاج المصرى، وبها حامية لحماية الحاج من العربان.

(٢) ٣٠ أكتوبر ١٧٢٤م.

والمهندسين وعبروا الى الدار البرانية وقعدوا يقومون. واخذوا في ان يهدوا بابا مشدوداً ظناً منهم انه ينفذ الى الكنيسة فياخذوا به قطعة منها وينتهون من اسفل الى العلو فلم يجدوا وراه الا ترابا من تقادم السنين. ثم انتقلوا الى الدار الجوانيه وجاوا الى موضع المراحيض وقالوا لنا: السفل والعلو من هذا الموضع اربع ادرع دايرة غير العشرة في عشرة التي لنا في المخزن، ولم يكونوا في الاول ذكروا الا عشرة في عشرة لانهم كانوا قاسوه من

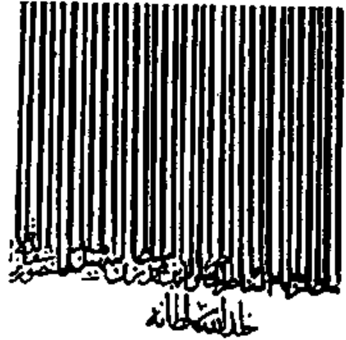

* توقيع المنصور سيف الدين قلاون ابو المعالي الألفي. تولى في ٩٩٥ق. = ١٢٧٩م = ٦٧٨هـ.

وقد أخبرنا لولا سردار جدة عثمان جاويش، تابع حسن كتخدا القزدغلي في مكة لماتت عسكر السبعة بلوكات جوعا: لأنه كان في كل يوم يمد سماطين، واحد في الغدا وواحد في العشاء، ويأكل منه العسكر وفقراء مكة، وما فضل من السفرة يخرجوه الى الذين لم يأكلوا على السماط، لأنه كان عنده الفين حمل ذخيرة، ففرق البعض وباع البعض. وأكل هو وجماعته والعسكر وفقراء مكة البعض، وأنه واسى أهل الحجاز خيرا يذكر به الى يوم القيامة، خصوصا فعل الخير في تلك الأرض الحجازية التي الحسنة فيها بسبعين. وأن الحاج لما رأى هذا الغلا حار في أمره ثم أنه حج. ونزل فمكث ثلاثة أيام زايدة لأجل مركب هندى. ثم أنهم ساروا من مكة الى المدينة، فرأوها أغلا من مكة المشرفة فزاروا وجاءوا الى الينبع فوجدوا النجاب الذى أرسلوه من الجبل قاعدا في الينبع عريانا وقد ذبحوا ناقته وأكلوها ووجدوا أهل الينبع أكثر أهلها ماتوا جوعا، وتعلق الغلا والموت في الناس والجمال من الينبع الى أن جاءوا العقبة.

وكانوا أرسلوا نجابا من الينبع الى مصر خلاف نجاب الجبل، وان الجمال التي ماتت لا تعد ولاتحصى.

وأما عثمان جاويش القزدغلي كانت حملته ماتين وخمسين جملا، فما وصل الى العقبة حتى مات منه اثنان وتسعون جملا، وأمير الحاج مات من جماله من أصل ثمانماية ستماية اثنان وأربعون جملا وأكرى جميع حملته الى العرب.

برا. وكان الشيخ لما جاوا يقيسون ويقومون قد مضى الى القاضى قعد عنده فخرجوا وقد اوجبوا على المكانين ثلثماية واربعين ديناراً فقبله. وقام القاضى وجآء الشيخ الى الكنيسة بغير توكيل الا ان الامور مختبطة فلما كان اخر النهار استدعاه وكلمه برفق وطيب قلبه وقال لنايبه تقف على هذه الكتب وتعرفنى بما فيها. وطلع الى القاهرة فلما كان فى صبيحة يوم الاثنين سير اليه النايب رسولا طالبه فمضى اليه ومعه الكتب المقدم

وحصل له وللحاج تعب ومشقة كبيرة ولابن أبى شنب وكان الدليل على تعب الحاج كسر البرقع وكسر شرافة المحمل وسرقة الأربعة كواجب التى للمحمل فى الجملية كما تقدم ذكره.

ونهبت الاشراف الينبع ودخل الحاج الى مصر اضعف من بعوضة لو لم يكن هذا الرجل الذى سخره الله تعالى للحاج فى مكة وفى الطريق والاكانت الناس هلكت. وأن الهدايا التى جاءته فى بندر الوجه وبندر العقبة والدار الحمرة فرقها جميعا على الفقراء والمحتاجين اليه من عليق وماء وبقسماط ومن جميع الأشياء وصاح الحاج جميعا يدعو الى عثمان جاويش القزدغلى وأن الحاج دخل الى مصر حادى عشر صفر سنة ١١٣٧[١]. وفى رابع عشر صفر[٢]. ورد آغا من الديار الرومية بخط شريف يأمر الوزير بتزين القاهرة ثلاثة أيام لنصرة الاسلام واخذهم قلعة سروان[٣]، وهى قلعة كبيرة ولها بابان وتحتها سبعة آلاف قرية، وانهم لما ملكوها وجدوا فى خزينة الشاه خمسة عشر الف كيس كل كيس ضمنه الف أحمر عجمى، فأرسلوها الى حضرة السلطان أحمد عز نصره وان صارى عسكرها كان أحمد باشا بن حسين باشا والى بغداد. ونهبت عسكر الروم جميع ما فى تلك الأرض وأسروا أهلها وأن

(١) ٣٠ أكتوبر ١٧٢٤م. (٢) ٢ نوفمبر ١٧٢٤م.
(٣) كتب عنوان جانبى «أعرف تزيين القاهرة ثلاثة أيام لفتح قلعة سروان من العجم».

ذكرها فقال: هذه قبور لا تفيد شيا. وقال له ما الذى عملت. قال: يا مولاى ماعملت شيئاً. فوكل به على المبلغ وبيته في التوكيل فلما كان فى غد ذلك اليوم سير استدعاه فقال: انا مريض ما اطيق الحركة. فسير وقال يحمل على قفص جمال ويحضر فاحضر اليه قفص من اسرة النوم فحمل عليه وجاوا به اليه فقال: ياسنى اى شئ عملت؟ قال له: يا مولاى ما عندى شئ اعمله. قال: الساعة يعتقلونك قال: يا مولاى اعمل ما شئت.

البنجكات التي ضبطت من بيع الذين أسروهم وباعوه وكتبت بنجكياتهم سبعة وخمسون الف بنجكا التي أخذتها السلطنة وان كل بنجق بشريفين بندقي.

ثم أن الباشا قال للعسكر: ما تقولون فقالوا: وما تقول: سمعنا وأطعنا فقال لهم الباشا: هذه أيم غلا والناس في مصر من الشدة لكن نعمل شنكا مدافع في القلعة ثلاثة أيام ونعفوا الرعايــة من هذا التكليف، فقالوا له: الأمر أمرك وكان كذلك وكان انتهاء الشنك ثامن عشر صفر سنة ١١٣٧[١] والله أعلم. وفي تاسع عشر صفر من السنة المذكورة، تولى ابراهيم أفندى كخاوية العزب. وفي ثالث ربيع أول. من السنة المذكورة قامت الرعية وقفلت حوانيتها ونهبت أسواق القاهرة وهجمت الجامع الأزهر على العلماء وهم في الدروس[٢] ووقع الضرب في الجامع من الرعية، وهربت العلماء الى بيوتهم ولم يبق في الجامع الا المغاربة والمجاورين. فضربوا الرعية بالبندق والنبابيت فقتل من المغاربة رجل ومن الرعية واحد. ثم أن الرعية نزلت الى الرميلة والى بيت جركس، فلما رآهم العزب ضربوهم بالبندق فنزلوا على بيت جركس فضربهم جماعته بالرصاص فانكسروا الى الرميلة، فبقيت الرعية بين العسكرية، فما ساع الرعية الا أنهم قصدوا القرافة وتوجهوا الى قبة الامام الشافعي، وفرقة طلعت الى الجيوشى

---

(١) ٦ نوفمبر ١٧٢٤م.

(٢) كتب عنوان جانبي «أعرف قوم الرعية بمصر وهجومهم على جامع الأزهر وبيت جركس».

قال: يودى الى الاعتقال. فمضى به الى الاعتقال وصار مطلوباً بما يجب على الدارين لاجل ضمانه للقسيس وكان القسيس قد استتر [هرب].

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وتسع(*) ماية فى يوم الجمعة مستهل ربيع الاخر سنة اربعين وستماية [هجرية]، والسلطان الملك الصالح [نجم الدين ايوب] خلد الله ملكه وقاضى القاهرة بدر الدين الذى كان قاضى سنجار، وقاضى مصر عز الدين

(*) أهم أحداث سنة ٩٥٩ق. =١٢٤٢م.
* ١ توت ٩٥٩ =٢٩ اغسطس الجمعة غرة ربيع الأول ٦٤٠.
* فى ١١ جماد الأول توفيت صفية خاتون، بنت الملك العادل، صاحبة حلب، وتولى بعدها ابنها

- -

وفرقة قصدت الامام الليثى بن سعد ، وباتوا طول ليلتهم يدعون الله بالعفو، ويدعوا على جركس وطايفته. وطلع الناس على المنارات يدعون الله بالعفو عنهم. والدعاء على جركس، أول ليلة وثانى ليلة الا المنارات التى بجوار بيت جركس فلم يطلع عليها احدا. ثم ان جركس كتب مراسلة الى القاضى يامره بعدم طلوع المنارات وطلبهم من الله. وكان دعايهم فوق المنارات: يأمن له المراد. فى كل ما أراد. بجاه المصطفى الحبيب. تعفو عن البلاد . فكتب القاضى مراسلات وارسلها الى المساجد يأمرهم بعدم طلوعهم المنارات والطلب من الله العفو.

ثم ان جركس عمل جمعية ثانى يوم وأخبرهم بجميع ما فعلته الرعية وكسرهم فى حبس الرحبة وتسييهم فى المحابيس وضربهم فى الوالى والأوضباشا وضرب سليمان كتخدا الخربطلى فقالوا له: ما الممكن؟ فقال: تركب الخمس اغوات.

ثم انهم قطعوا فرمانات وأرسلوا لاغاة الجملية فرمانا ولا غاة التفكجية فرمانا، ولاغاة الجراكسة فرمانا، ولا غاة الينجشرية فرمانا، ولا غاة العزب فرمانا، ينزولهم الى القاهرة. فنزلوا فى ذلك اليوم بعد العصر.

وفى ثانى يوم وثالث يوم فابشعوا القاهرة وتبوشعت الناس فارسلت اختيارية باب مستحفظان الى محمد بيك الجاويش يقولون له: نزول الخمس أغاوات ليس بعادة وأنما العادة نزول آغة مستحفظان، فأرسل جركس يقول لهم: ان لم تكن عادة فانا أجعلها عادة لأنكم موالسين، وأن قيام الرعية منكم.

الملك الناصر يوسف، وعمره وقتئذ ١٣ سنة.

* في ١١ جمـاد الثانى وفاة المستنصر بالله أبو جعفر المنصور، بعد أن حكم سبع عشرة سنة إلا شهرا، وهو الذى بنى المدرسة، ببغداد، المسماة بالمستنصرية، وتقلد الخلافة بعده ولده عبدالله، ولقبوه المستعصم بالله، وكنيته أبو أحمد بن المستنصر بالله منصور.

* ١ يناير سنة١٢٤٣=٦ طوبه٩٥٩= الخميس ٨ رجب سنة ٦٤٠.

بن عبدالسلام، والبطريرك انبا كيرلس المعروف بابن لقلق. وانتهى النيل فى هذه السنة الى ثمانى اصابع من سبع عشر ذراعاً وكانت نهاية زيادته يوم الاثنين الرابع من توت [١ سبتمبر] وصار يزيد وينقص ولم يزد عن الثمانية من سبعة عشر شيا اخر. وتحركت الاسعار وغلت وبيع القمح بسبعين درهما الاردب، والشعير باربعين درهما الاردب واما

فلما وصلهم الجواب لم يلتفتوا لكلامه، وأرسلوا باش جاويش الى الباشا بتبطيل ركوب الاغوات. فأرسل الباشا بتبطيل ركوب الاغوات. فأرسل الباشا أربع فرمانات بعدم ركوبهم ونزولهم القاهرة. فلما أخبر جركس بما فعله الباشا من تبطيل ركوب الاغاوات، أرسل جمع السبع أوجاق في بيته ثاني يوم الذى هو يوم الأربع خامس ربيع أول سنة ١١٣٧[1]. فلما اجتمعوا قال لهم: الوزير أرسل الى الوجاقات فرمانات بعدم ركوبهم، فقالت اختيارية الثلاث أو جاقات ليس لنا عادة في الركوب الا في عزلان الباشا: فقالت اختيارية العزب: أن كان أغة الينجشرية يركب وينزل البلد أحنا كذلك اغتنا يركب وينزل البلد فقالت جماعة من الينجشرية: ليس بعادة نزول أغة العزب. فقال ابراهيم كتخذا العزب فأى شئ بقى من العادات على أصوله حتى تبقى هذه العادة. أن كان أغاتكم ينزل فأغاتنا كذلك. وأن كان الباشا يعطى أغاتكم فرمانا بالنزول ولم يعطنا فرمانا بنزول أغاتنا، ضربنا أعناقكم بالرصاص لو أنها تفى الى أمر الله.

وانفض المجالس على عدم ركوب أغاة مستحفظان ولا يجعلوها حادثة بركوب أغاة العزب وأخمدت الينجشرية الفتنة لأنهم يعرفون عناد ابراهيم كتخدا والنفر (الذين)[2] معه ورجب كتخدا وشريف مصطفى وابراهيم كتخدا اجنحة جركس وهاماناته ولا يعمل جركس شيئا الا

(١) ٢٢ نوفمبر ١٧٢٤م.

(٢) الاضافة لتوضيح المعنى.

البـرسيم فطلب الى الغاية لاجل شحة الماء وقلة نبات الربيع [البرسيم] المباع فبيع بتسعين درهما الاردب وغلا الزيت الحار ايضا ولم يكن فى البلاد شياً رخيصاً فى هذه المدة. وكان البطرك مقيما بدير الشمع لم يدخل مع الناس فى شئ مما كانوا فيه ولا كان كانه منهم. وكان قد حضر فى مبدا الحال بات بكنيسة بوجرج الحمرا ليلة واحدة

* وفيها أنشأ الملك الصالح نجم الدين أيوب جامع الصالح أيوب، الكائن بشارع النحاسين فى مقابلة الصاغة.
* فيها اتفق الصالح اسماعيل مع الناصر داود واعتضدا بالفرنج وسلمّا اليهم طبرية وعسقلان، فعمر الفرنج قلعتيهما، وسلما اليهم أيضا القدس.
* ١توت ٩٦٠ =٠ ٣ اغسطس ١٢٤٣ = الأحد ١٢ ربيع أول ٦٤١.
* ١ ينـاير ١٢٤٤ =٥ طوبة ٩٦٠ = الجمعة ١٨ رجب سنة ٦٤١.
* فيها تراسل الصالح أيوب،

بعلم هؤلاء الثلاثة. ولا يتم شئ فى القاهرة وغيرها الا بعلم هؤلاء وغيرهم[١] وتوجه كل الى منزله والله أعلم.

وفى ثانى يوم توجه جاوشية القاضى لتأخذه وتطلع به الى الديوان وكان يوم الخميس سادس ربيع أول فأبى القاضى. والسبب فى ذلك أن رجلا من أرباب الوظايف توفى وله جملة وظايف.

ومن جملتها وظايف قبانة تقطع نحو ثمانين الفا، فأرسل ابراهيم كتخدا العزب الى القاضى تذكرة بأن يكتب له الوظايف جميعا ووظايف القبانة فأرسل له صرة ضمنها ماية زنجرلى فردها له.

فأرسل ابراهيم كتخدا بعض اختيارية من جماعته عن أن يكتب له الوظايف فأبى فكان هذا السبب فى عدم ركوبه فأخبر جركس فأرسل يتشفع عنده وأرسل له ثلاثماية زنجرلى فكتبها له واصطلح.

ومن أعجب العجايب[٢]: ان فى طريق بولاق من طريق قنطرة يوسف سعيد قريب من رزقة الشيخ حسن الدجمونى محل قمين طوب وكان معدا لحرق الطوب. بينما الرجل الطواب

(١) بالأصل «لا» حذفت يستقيم المعنى.
(٢) كتب عنوان جانبى «أعرف ظهور قبر الولى الصالح ناصر الدين الشهيد».

واشار عليه بعض الجماعة بالعود الى مكانه فعاد الى دير الشمع ولم يعد منه فى هذه المدة وكان معذورا لانه كان خايفاً . ثم ان القاضى بمصر [عز الدين بن عبدالسلام] تطلب القسيس المعتمد الى ان وقع به فاودعه الاخر الاعتقال وصار هو والشيخ السنى فى السجن. وكان الجماعة قد كتبوا فتيا الى الفقها يستفتونهم فى قوم مسلمين علموا

صاحب مصر، والصالح اسماعيل صاحب دمشق، في الصلح، وأن يطلق الصالح اسماعيل المغيث بن الملك الصالح أيوب وحسام الدين الهدياني، وكانا معتقلين عنده، فاطلق حسام الدين فقط وجهزه إلى مصر.

* فيها وصلت الخوارزمية إلى غزة، باستدعاء الصالح أيوب، ليعضدوه على عمه الصالح اسماعيل.

* وفيها توفي الملك المغيث عمر بن الصالح أيوب فى حبس الصالح اسماعيل، صاحب دمشق.

نايما بالليل واذا هو برجل أتاه وفي يده حربة من نار وقال: الى كم تحرق الطوب على تربتى وتوذينى وأنا صابر والآن آن ظهور قبرى. فوعزة الربوبية أن لم يظهر قبرى وتزرع الاشجار عندى عوض حرق الطوب وان ما فعلت ما قلت لك عليه والا قتلتك بهذه الحربة. وأنا ناصر الدين الشهيد: فما أصبح الصباح حتى أن الرجل لم يكذب خبرا، فأسرع فى شيل الاتربة وفحت الآرض فوجد فيها فسقية بالحجر الأحمر تحت الأرض وقد ركبت التراب عليها قامتين فصلحها وبنى شواهدها وزرع عندها الأشجار. وبعد أن كانت كوما صارت متنزها وبها أم الطواب خدامة بقبر الشيخ فى كل يوم من صبيحة النهار الى المغرب تسير الى منزلها. وكان ظهوره فى غرة ربيع آخر سنة ١١٣٧[١] . والله اعلم. وفى عاشر ربيع آخر المذكور، قطع

(١) ١٨ ديسمبر ١٧٢٤ / كتبت بالهامش أبيات الشعر التالية:

قال الشاعر:

لا يصعبن عليك فى طلب العلى
طول التنقل أو فراق المكنس
فلا بدر لو لم ينتقل من برجه
ما كان يعرف نوره فى الحندس=

وقال الآخر:

وما فى الأرض عن دار القل متحول
وكل بلاد أو طنك بلاد

شهادة فى حق من حقوق الله سبحانه من مدة طويلة ثم ودوها الان فهل يكون تاخير الشهادة المذكورة قادحاً فى عدالتهم ام لا. فافتوا جميعاً بان عدالتهم ساقطة بتاخير شهادة الحسبة، واستثنى منهم من قال الا ان يكون له عذر واضح، واحتج عليه من لم يستبن بان العذر غير مقبول فى بلد فيه سلطان الاسلام قايم والولاه والحكام. ولم يفد

* ١توت٩٦١=٢٩ اغسطس ١٢٤٤=الاثنى ٢٣ ربيع أول سنة ٦٤٢.
* فى ١١ جماد أول توفى الملك المظفر، صاحب حماه، بعد أن حكمها ١٥سنة و٧ أشهر، وكان يحب أهل الفضل ويعين على نشر العلوم.
* ١ يناير ١٢٤٥=٢ طوبه٩٦١ = الأحد ٣٠ رجب سنة٦٤٢.
* وفيها حصلت محاربة فى ظاهر غزة بين عساكر مصر والمتحدين من الخوارزمية معهم، تحت امرة ركن

محمد بيك جركس فرمانا ونادى به فى القاهرة على زين الفقار بيك على أن كل من كان يعرف محله ويخبر عنه فله من الأنعام بلد التزام وخمسة آلاف زنجرلي، والذى يكون عنده ولا يخبر عنه ويظهر عنده يقتل وينهب ماله ويهد جداره، ومن يوالس عليه أو يواريه أو ياويه يستاهل ما يجرى عليه، ومن حذر. فقد أنذر، وليس له عذر يعتذر به. والله أعلم . وفى سابع عشرين ربيع الثانى(١). ورد الى محمد بيك جركس صورة مغطس من صيوان مربع الطول والعرض عمقه نحو الذراعين من ثغر اسكندرية وجدوه داخل الأرض فوضعوه فى جريم من جرمات بحر اسكندرية الى أن أتوا به الى بولاق فأرسل جركس له خمسة عشرة جوزا من الثيران فوضعوه على عجل وجرته الثيران الى أن أتوا به الى باب منزله، فما أمكن دخوله على العجل، فانزلوه خارج الباب.

وطلع جركس وجميع من فى البيت من مماليك وقواصة وسياس نحو الثلاثماية رجل ووضعوا تحته البراطيم وزحلقوه على تلك البراطيم فانكسر منهم ثلاثة براطيم.

ومكثوا يعالجوا فيه من صبيحة ذلك الى بعد العصر حتى أنهم أدخلوه ووضعوه بجانب الجنينة، ولم يضعه فى محل الى يومنا هذا وهو مرمى وخربت الدار ولم يبق فيها شئ، وهو قاعد ما أحد جاء نحوه، لأنه شغل كاهن عمله، وكأنه كان مغطسا لحمامه، أو هو كان ملآن

(١) ١٣ يناير ١٧٢٥م.

هذا ايضا شيئاً ولا عمل به مع انه نص شرعهم وهو صفة الحال. ومن بعد هذه كتب الشيخ شمس الرياسة ابن هبلان رقعة الى مولانا السلطان عز نصره عن النصارى يسله [يسأله] فيها ان يعقد لهم مجلس مع خصومهم فى مجلس العدل الشريف وان يحضر الراهب يحاقق عن نفسه، فامر بذلك على لسان امير يقال له بدر الدين اخو الحاجب علي، فعقد المجلس في يوم الاثنين صبيحة

الدين بيبرس وبين عسكر دمشق والمتحدين معهم من الافرنج وغيرهم، فانهزمت عساكر دمشق وصاحب حمص والفرنج، واستولى الصالح أيوب، صاحب مصر، على غزة والسواحل والقدس، وأرسل باقى عسكره المصرية والخوارزمية وحاصروا دمشق وبها الصالح اسماعيل وصاحب حمص، واستمر الحصار لما بعد آخر السنة.

* فيها تسلم عسكر الملك الصالح أيوب، ومقدمهم معين الدين بن الشيخ، دمشق من الصالح اسماعيل بن الملك العادل.

ذهب، أو أكسير لأنه مربع، فلو كان مطاولا مثل الحيضان الذين يخرجوهم من منية رهينة، مما كان فيه الكهان ويدفنوا فى الارض فيغير الكاهن الذى فيه والله اعلم[١].

وقد رأينا منهم فى منية رهينة ودهشور. وكان فيهما قايم مقام وكان صاحبا لنا فأخبرنا أنه رأى تربة خراب فأخبره رجل أن فيها مال من زمن الكفار فلما أخبر بهذا (٣١٣) الخبر. أمر الفلاحين أن يحفروا فحفروا ثلاث قامات، فوجدوا حوضا من صوان أزرق بغطا صوان صنعته الكهنا فعالجه حتى فتحه فوجد فيه كاهنا راقدا فيه وقد صار مثل الفحمة السودا ولكن له برقان زايد وراى جميع أعضاية كاملة لم[٢] يذهب منها ولا ظفر. ثم أن جماعة من الفرنج جاءت لتتفرج على الأهرام فاتوا الى قايم مقام ليتوجه صحبتهم ليلا أحد يكلمهم من العرب فباتوا عنده تلك الليلة فأخبرهم بالحوض وبالذى فيه فما سمعوا به قالوا له: ننظره، فأوراه لهم فأخذوه منه بماية وعشرين طرلى، وأرسلوه الى بلادهم.

ولنرجع الى مانحن بصدده: ان محمد بيك جركس لما صفى له الوقت وراق له الزمان، البس جماعته الكشوفات وتقدم أنه البس مملوكه عمر بيك الصغير المنصورة وفعل ما سمعته أذهانكم الرايقة واسماعكم الفايقة من شيل الكوم وأخذ الخمسماية زنجرلى. ثم أنه البس

(١) كتب عنوان جانبى «اعرف القبر الذى ظهر فى منية رهينة».
(٢) بالأصل «يطر» وفوقها علامة الحذف. وكان هذا حال آثار مصر فى هذه الازمنة.

* ١ تـوت ٩٦٢=٢٩ اغسطس ١٢٤٥= الثلاث ٤ ربيع الثانى سنة ٦٤٣.

* وفيها قصدت التتر بغداد فخرجت عساكر بغداد للقائم، فلم يكن للتتر طاقة بهم فولوا منهزمين.

* ١ يناير ١٢٤٦ = ٦ طوبه ٩٦٢ = الاثنين ١١ شعبان سنة ٦٤٣.

* وفيها توفيت ربيعة خاتون بنت أيوب أخت السلطان صلاح الدين، بدمشق، وقد بنت في حياتها مدرسة للحنابلة بجبل الصالحية.

* فيها اتفق الحلبيون وصاحب حمص وصاروا مع الصالح أيوب بن الكامل وقصدوا الخوارزمية والصالح اسماعيل وهم محاصرون لدمشق فرحلت الخوارزمية عنها والتقوا مع الحلبين على القصب فانهزم الخوارزمية شر هزيمة.

* ١ تـوت سنة ٩٦٣=٢٩ اغسطس ١٢٤٦ = الاربع ١٤ ربيع الثانى سنة ٦٤٤.

* وفيها رحل حسام الدين بمن عنده من العسكر بدمشق ونازل بعلبك وحاصرها وتسلمها بالامان، وحمل أولاد الملك الصالح اسماعيل إلى الملك الصالح أيوب بمصر فاعتقلوا وأمين الدولة وزير الصالح بمصر، وزينت القاهرة لذلك.

* ١ يناير ١٢٤٧= ٦ طوبه ٩٦٣= الثلاث ٢١ شعبان ٦٤٤.

* وفيها حبس الصالح أيوب مملوكة بيبرس، صاحبه في اعتقاله

مملوكه عمر بيك الكبير كشوفية البحيرة . فلما نزل الى الاقليم صار ينزل البلد فلا يرحل عنها الا بماية زنجرلى خلاف الكلفة. ثم أنه أمنه على ابن منيعى شيخ الهنادى وقتل أخاه(١)، وكان له عبد خيال الغبرة فقتله وقتل عبده شيخ عرب البهجة. وكان هؤلاء اذا أرادوا خراب الاقليم اخربوه، واذا ارادوا عمارته عمروه، ولم أحد من الصناجق ظفر بما ظفر به عمر بيك من قتل هؤلاء المقدامين والعبدين وصار له صيت في البحيرة يخرق الطبل وحكم البحيرة حكما ما أحد حكمه، وبلص الاقليم بلصا ما أحد بلصه قبله ولا سيده ولا الأعسر.

ثم أنه نزل على بلد يقال لها سمخراط لرجب كتخدا الذى هو جناح سيده فأخذ منها ماية زنجرلى وأكل الضيافة. ثم بعد أكل الضيافة كسر حواصل الأوسية وأخذ ما فيها من القمح والفول والشعير والسمسم وحمله على جمال الفلاحين وثيران الأوسية فطلع خلفهم قايم فلولا أنه هرب من قدامه لقتله.

ثم أنه نزل على بلد أخرى لجربجى من التفكجية يقال له ابن مراد، وكان شريك شيخ الاسلام، الشيخ محمد شنن، فأخرجوا له الكلفة وأخذ من البلد مايتى زنجرلى. ثم أنه رحل عنها فلاح نظره على غيط فيه ثمانية عشر محراثا، يحرث غيط لابن مراد فساقهم، فراح الخبر للجربجى. فطلع هو وعبد لوالده عسكرى في وجاق ابن سيده فأدركوا الكاشف

(١) كتب عنوان جانبى «اعرف قتل عمر بيك الكبير لابن شيخ العرب على بن منيعى الهنيدى وغيرهم».

بالكرك، لصيرورته مع الخوارزمية لما جرده إلى غزة.

* وفيها توفي الملك المنصور إبراهيم بن شيركوه، صاحب حمص، بدمشق، وكان متوجها إلى خدمة الملك الصالح أيوب بمصر، فدفن بحمص، واستقر مكانه ولده الملك الأشرف مظفر الدين.

* فيها عاد الملك الصالح أيوب من دمشق التى، توجه إليها فى سنة ٦٤٤، إلى مصر، بعد أن فتح فخر الدين بن الشيخ قلعتى عسقلان وطبرية وكانتا بيد الفرنج. * وفيها سلم الأشراف، صاحب حمص، سميس للصالح أيوب.

* ١ تـوت ٩٦٤ = ٣٠ اغسطس ١٢٤٧= الجمعة ٢٦ ربيع الثانى سنة ٦٤٥.

* وفيها توفي الملك العادل أبو بكر بن السلطان الكامل بالحبس، وكان مسجونا من وقت ما قبض عليه ببلبيس، فاقام بالسجن نحو الثمان سنين.

* وفيها حاصر فريدريك الثانى مدينة بارمة.

* ١ يناير ١٢٤٨=٥ طوبه ٩٦٤= الأربع ٣ رمضان سنة ٦٤٥.

* فيها سلم الأشرف موسى حمص إلى عسكر الناصر، صاحب حلب، بعد حصار، وتعوض عنها بتل باشر، زيادة على ما بيده من تدمر والرحبة، فغاظ ذلك نجم الدين أيوب وقدم إلى دمشق مريضا، وأرسل عسكرا إلى حمص بالمجانق، ثم بلغه وصول الفرنج إلى جهة دمياط

وكلموه من جهة الثيران فقال لهم: أرض الكشوفية أولى من أرضكم فقال له العبد: وكان يابيك[1] فارسا أرضنا لها ثلاث سنين شراقى وندفع مالها فلا تبورها وما عندنا محاريث الا الذى اخذتها، فاغتاظ الصنجق على العبد فى الجواب، فقال العبد: أحنا نروح مصر ونعلم محمد بيك جركس سيدك بما فعلت.

فما تكلم[2] العبد بهذه الكلمة حتى أمر الجلاد برميه، فرمى رأسه فى الحال، وحبس ابن سيده فى حبس المجرمين فى القلس. فما أسيبه الا بماية زنجرلى واخذ المحاريث وقال له: روح محل ما تريد. قل لجركس أو للباشا.

وأخذا المحاريث بالثيران وسار. فما ساع قيامة مقامات الا أنهم كتبوا مكاتيب وارسلوها الى أسيادهم، ونزل ابن مراد الى مصر يشكوا عمر بيك الى وجاقه.

فلما دخل مصر أعلم وجاقه بما فعل عمر بيك فى حقه، وقتله لعبد والده، وكذلك المكاتيب التى وردت من قيامة مقامات الى أسيادهم، فركبت الملتزمين كل وجاق بأوجاقه ودخلوا الى جركس وأخبروه بما فعل عمر بيك الكبير فى البحيرة، وعمر بيك الصغير فى شرقية المنصورة من الظلم والجور.

فلما أتموا كلامهم قال لهم: يا سبحان الله! أنتم تشكوا من ظلم الريف وأنتم الظلمة !

(١) قدم واخر.

(٢) بالأصل «هذاء» مشطوبة.

فرحل عن دمشق بعد أن استقر الصلح بينه وبين الحلبيين.

* ١توت ٩٦٥= ٢٩ اغسطس سنة ١٢٤٨= السبت ٨ جماد أول سنة ٦٤٦.

* وفي ٤ جماد أول قامت التجريدة السابعة للصليبيين تحت امرة سنت لويز، وهو لويز التاسع، ملك فرانسا، وكل من الكونت دانجوا والكونت دوبواتيه والكونت تواز، قاصدين محاربة المسلمين بمصر، وعدتهم خمسون ألف مقاتل.

* ١ يناير ١٢٤٩=٦ طوبه ٩٦٥= الجمعة ١٥ رمضان ٦٤٦.

* في ٢٠ صفر وردت مراكب الصليبين إلى دمياط، وفي ٢١ منه حصلت مقتلة بين الصليبين وبني كنانة محافظيها الذين فروا ليلا، وفي ٢٢ منه استولت الافرنج على دمياط بكل ما فيها، وفي ٢٤ منه توجه الصالح إلى المنصورة وعسكر فيها، بعد أن شنق بني كنانة عن اخرهم. وبعدها صارت الفرنج تحارب وتتقدم حتى هاجموا المنصورة.

* ١ توت ٩٦٦= ٢٩ اغسطس ١٢٤٩= الأحد ١٨ جماد أول سنة ٦٤٧.

انتم تفعلوا أمورا في هذه البلد ما تفعلها المجوس! فقالوا : خير نحن لم نظلم احدا. فقال لهم شيلوا الظلم الذى رتبتموه في هذه البلد وظلمتم به الفقراء والمساكين. فاذا شيلتموه فعلى شيل ما كان في الريف من ظلم كشاف وقيامة مقامات وان كنتم لم تشيلوا هذا الظلم الذى في هذه البلد والا أمرت الكشاف بأن يأخذوا من كل بلد قدر ما كان يأخذه عشر مرات ويخربوا البلاد تماما فقالوا له: أرنا محل الظلم الذى نحن نظلمه حتى نعرفه؟ فقال: المقاطعات وأمانة بحر بولاق والمذبح والخردة وما زاد على الحسبة والجمركات برفع جميع ما زاد عن تحرير ابراهيم باشا ويكشف على تحريره الذى حرره سنة ١٠٨٣[١] فأرسلوا احضروا دفتر الى سنة ١١٣٧[٢]. ستماية وثمانين كيسا. ثم أنهم قروا فواتح وقالوا هذا أمر فيه نفع لجميع الناس المؤمنين والكفار والأغنياء والفقراء.

وأصبحوا ثاني يوم الذى هو يوم الخميس تاسع عشرين ربيع آخر سنة ١١٣٧[٣]. أرسل جمع العلماء والبكرية والسادات ونقيب الاشراف وأغوات السبع بلكات والصناجق والسبع أوجاق في بيته وقال لهم.

يا علماء يا بكرية يا سادات. يا أشراف يا أغوات يا صناجق يا عسكر مصر. الفقرى والرعية

(١) ١٦٧٢م.

(٢) ١٦٧٢ / ١٧٢٤م.

(٣) ١٤ يناير ١٧٢٤م.

عيد الصليب(*) وحضر جماعة من الاجلا والروسا وكان صدور المجلس الشريف الارموى قاضي العسكر وبدر الدين قاضي القاهرة والوجه البحرى، والفقيه عباس(*)، ووالى مصر، ونايب قاضي مصر لانه (قاضي مصر، عز الدين ابن عبدالسلام). ما حضر، وجماعة من الشهود، واحضر ابن حوله وابن صباح والشيخ السنى والقسيس من السجن وجاوا بمحاضرهم.

(*) عيد الصليب في ١٧ توت= ١٤ سبتمبر (الجولياني) = ٢٧ سبتمبر (الجريجورى).

(*) هو نجم الدين أبو العباس المقدسي الشافعي.

وجميع أهل مصر أنحرقوا من تزايد الظلم وفحشه في الارياف وفي هذه البلد وأننا جبنا دفتر التحرير الذى حرره ابراهيم باشا سنة ١٠٨٣ فوجدنا زاد الى يومنا هذا ستماية وثمانين كيسا واحنا نظلم الرعاية وأهل بلدنا الى الباشاوات لأى سبب وهذا حرام علينا وأننا قادرين على ازالته فما تقولون ؟ فقالوا: والله هذا فعل خير كبير وتثاب عليه الجنة أن شاء الله تعالى فقروا ثلاثة فواتح. وفي الحال كتبوا عرض حال وأرسلوه صحبة كتخدا الجاوشية وأغاة المتفرقة ومن كل وجاق واحد. فلما قرأ الوزير العرض قال في غاية ما يكون. والذى لم يرض برفع الظلم فهو الظالم. ولكن أنا أرفع الزايد عن دفتر ابراهيم باشا وأسلمكم المقاطعات والجردة وأنتم على ما أنتم عليه من الظلم وزيادة. ولكن أنا ما أخالف لكم قولا وأبطل الزوايد من المقاطعات والجمرك والجردة وأمانة البحرين والمذبح والحسبة وجميع الزوايد من سنة ١٠٨٣ والى سنة ١١٣٧، واجعلها على موجب دفتر التحرير وأنتم تكونوا أمناء على هذا الأمر، وأسلم جميع المقاطعات والجردة الى جماعتي ينزلوا يضبطوا المحلات على موجب دفتر التحرير وعلى عدم لبوسيته الكشاف وأخذ الحلوان من الذى يكن حيا واما الذى على اسم الميت لا خلاف فيه. وأما أن كان مرادكم ترفعوا الزايد الذى لى وتأخذوه انتم وتزيدوا الظلم عشرة أمثاله فلا سبيل الى ذلك فقال الجميع: نعم لك ذلك سمعنا وأطعنا فكتب لهم فرمانا في الحال على(١)

(١) كتب بأعلى هامش الصفحة «عوني بالله».

والمتحدث قاضي القاهرة، فاستدعى المحاضر ووقف عليها وقال لاوليك الشهود: ما اخركم عن الشهادة وهي شهادة حسبنه لله تعالى مدة خمسين سنة . قالوا: قلنا بها. قال: لمن قلتموها . فذكروا شخصا ميتا. قال: هذه دعوى منكم وامر معدوم. وجرت مفاوضات كثيرة اخرها انهم قالوا للسنى: لك بينة . قال: نعم. قالوا: احضرها. قال: يا مولاى مع السجن . قالوا: لا لكن يستاذن عليه

موجب ما طلبوا. ثم أن الانكشارية اردوا ما كان تعلقهم من المقاطعات والمذبح، وتسلم ذلك الوزير. وأما العزب فانهم مكثوا ثلاثة أيام يحاولوا فما أمكن، وسلموا الخردة الى الوزير. ثم ان الوزير انزل جماعته، في جميع المحلات، وكتب عليهم حجة، وكذلك هم كتبوا على الوزير حجة، وأن لا يكن صاحب عيار ألا من هذا البلد، وأن ينزل أغات مستحفظان ينادى على الأسعار، فعالجت العزب على عدم نزول الآغا فما قدروا فنزل وشق البلد، ونزل الى كل اقليم أغا وصحبته من كل أوجاق اثنان. ونادوا برفع الظلم عنهم، ولا يدفعوا الا على موجب القوانين القديمة، الى الكشاف، والذى ما عليه شئ لم يدفع شيئا. وفى غرة جماد أولى[1]. قدم باب مستحفظان عرض حال الى الوزير يشكو له من غلو الأسعار، أن كل شئ قد زاد النصف، فأعطاهم فرمانا بأن يجتمعوا فى محل ويجمعوا أهل الخبرة ويسعروا بالحظ والمصلحة. ثم أن أغة مستحفظان يشهر النداء فى البلد، ولا يأخذ بلصا من أحد، وان أشتهر عليه أنه يأخذ البلص يعزل ويخرج من حقه. فخرج الاغا ونادى على اللحم الضانى بنصفين والجاموس بنصفين فلوس. والزيت الحار بثلاثة أنصاف. والجبن بنصفين والصابون بثمانية أنصاف بعد أثنا عشر. والبن بخمسة وأربعين الرطل، وأن الجدد ماشية والفضة ماشية ولم يكن فى البلد فضة ديوانية وأن وجد الديوانى فهو والمقصوص سواء. فلما نادى الأغا قفلت

(١) ١٦ يناير ١٧٢٤م.

القاضى [عز الدين بن عبدالسلام] ويضمن عليه ويخرج يتركض فى نفسه . فاستاذنوا عليه القاضى فقال لا سبيل الى هذا الا ان كان بغير امرى . فاعيد الى السجن هو والقسيس وكان الجماعة قد عملوا محضرا يشهد بهاتين الدارين وقف على النصارى وانها بايديهم من مدة تزيد على خمسين سنة والى الان، وكتب لهم فيه رجل شريف معتبر متصدر فى الجامع. فعلم به قوم من اصحابه

الدكاكين ولم يبق أحد يجد شيئا ووقف الحال، ووقفت الفلوس الجدد التى كانت ماشية وكانت دراهم ولم ينقدها ألا يعدها فقط.

فهم فى الحال والشيل والحط، واذا بآغا ورد وصحبته صاحب عيار وأمين على الضربخانة وجميع خدمة الضربخانة من السباك الى الجلا وصحبته سكة الذهب الفندقلى(١) ولم يكن قبل ذلك اليوم ذهب فندقلى. وأنما كان الاشرفى والطرلى والزنجرلى ثم هذا الفندقلى وان يكون عليه الاثنين وعشرين قيراطا فلما قرى الخط قامت العسكر على الوزير وقالوا له: أما من جهة تمشية الذهب فعلى الرأس سمعين مطيعين . وأما من جهة صاحب عيار فانا لا نغيره. فقال الوزير: نعم كذلك ولكن الأغا الذى جاء يكن ناظرا على الضربخانة لاجل اجراء الخط، فان داوود لما اخبر بمجئ الاغا فى سكندرية تدارك امره مع الوزير ومع العسكر وجركس ومتكلمين البلد بخمسة وعشرين الف زنجرلى فرقها عليهم قبل ورود الأغا. ثم أن الباشا البس الأغا قفطانا على نظارة الضربخانة. وألبس داوود قفطانا على ما هو عليه صاحب عيار الضربخانة. ثم أن الناس شكت من عدم وجود الشئ وكثت الناس نحو الثلاثين يوما لم يجدوالسمن، ولا الجبن ولا الزيت. وصارت الفقراء تنامن فى الظلام، والسمن الزبد صار لا يوجد ولا بخمسة عشر الرطل. فزاد الحصر على الناس، فشكوا أمرهم

(١) كتب عنوان جانبى «أعرف خروج الفندقلى».

الاشراف اصحاب القاضى فدخلوا عليه بالترهيب والتانيب والتخويف والتثقيل الى ان اشهدوا عليه بالنزول عن شهادته . وشهد في المحضر ايضاً رجل من جيرة الحارة شيخ معتبر يعرف بابن ابى الطبيب وكان قد ازمن فما بقى يقدر على التعرف، فحمل اليه عدلان سمعا قوله واديا عنه الشهادة، وبعد هذا مضوا الى الاخر وعنفوه وخوفوه بانك ساكن

الى الباب مستحفظان وكان اذا أصاب الناس ضيم من ضجق أو كبير، يشكو أمره الى باب مستحفظان ففكه ولو كان في يد الوزير، فاجتمع رأيهم أن يجعلوا باكير آغا أغة مستحفظان، وكتبوا له حجة بتبطيل جميع الحمايات والجمركات الزايدة، عن قانون ابراهيم باشا، والمظالم التي تقدم ذكرها، ولا أحد يؤخذ منه زايد على القانون أو أحد يأخذ من أحد شيئا ظلما ويشكو له يخلص له ظلامة منه، وأن أراد أن يمسك أحدا وهرب منه واستجار ببيت أحد يقف على الباب ويطلب الرجل فان أعطاه له فلا كلام، وأن أبى أن يعطيه يكبس عليه بيته ويأخذه منه ولو كان بيت جركس أو مصطفى كتخدا أو رجب كتخدا مستحفظان أو أبراهيم كتخدا عزبان. ولم يكن في ذلك العصر الأمر منوط الا بهؤلاء الأربعة فقط. وكتبت الحجة بحضرة العلماء والبكرية والسادات وختم عليها قاضي الاسلام وسلمها الى الآغا، وكان ذلك في يوم الجمعة سادس عشر جماد آخر سنة ١١٣٧[١]. ونزل الأغا الى القاهرة وأشهر المنادات على عدم توقفهم في أخذها فضة أو جددا وعلى الأسعار كما تقدم من منادات محمد آغا قبل عزلانه.

فلما حصل هذا الأمر منعت الأشياء بالكلية من جميع البضايع، وغلت أعظم مما كانت من جهة المعاملة، وصار على كل طابونة رجل معين بعشرة أنصاف لقبض غلة الخباز، لنقدها

(١) ٢ مارس ١٧٢٤م.

في مسجد مدة سنين والساعة تخرج منه وتطالب
بالاجـره من هذه السنين، فـاشـهـدوا على الاخـر
بالنزول عن الشهادة. ثم ان هؤلاء المعاندون اخذوا
البنايين والفعله والجبس وجاوا ليلة من الليـالى الى
الادر المذكـورة فـقـصـدوا ان يبنوا فـيـهـا المحـاريب
[القبلات] فمضى بعض الجماعة الى الوالى اعلمه
بذلك فـسير منعهم. ومن باكر اجتمعت جماعة

- -

من الدراهم والمقصوص، وصار الأغا ينادى بأنها ماشية والرعية لم تأخذ ألا الديوانى، فوقفت البـلـد[1]. وكان خوف الرعية من قبض المقصـوص والدرهم، من مجئ الأغا بالسكة أن لا ينادى على تبطيل المعاملة على حين غفلة . فتوقفوا فى عدم أخذها، وأن الغلا ناصب صيوانه، على مصر من حين، نزل رجب باشا، وقدم محـمد باشا هذا من مدة أربع سنوات لم ينفك القمح عن اثنين زنجرلى، ومايتى فضة، اذا رخص وأما مدة رجب باشا كانت الغلة رخيصة، فكان القمح بسبعة وعشرين نصف الأردب، والفول بأربعة وعشرين الأردب والشعير عشر نصف الأردب ، وأما مدة هذا الوزير لم ينفك عما تقدم ذكره. والسبب فى ذلك أن الباشا أراد أن يخرج هوارة من الأوجاقات ويجعلهم رعية، والتجار من العسكرية، ويجعلهم رعية، لأجل ما إذا ماتوا تضبط تركاتهم، فلم تمكنه العسكر وقالوا: القوانين القديمة يكشف عليها. فأرسل الباشا أحضر دفتر ابراهيم باشا الذى تقدم ذكره. فوجد عرب هوارة انكشارية وعزب وأولاد البلد والتجار عسكرية فى السبع أوجاق من قبل ابراهيم باشا بأعوام، فرجع عن ما كان طالبه وردته العسكر بالحق بعد توقف كبير نحو الخمسة دواوين وهو مصمم على أعطاء فرمان الابقاء فهذا كان السبب فى عدم ارسال الغلال.

ثم حصل فى البلد قيل وقال وقلقلة، فأرسل ابراهيم كتخدا عزبان عسكرا نحو الستين نفرا ملكت السلطان حسن وقعدت فيه، ولم يتفكر الرؤية التى رآها ذلك.

(١) بالأصل «على حج» حذفت ليستقم المعنى.

كبيرة ووقفوا لمولانا السلطان فامر بان لا يتعرض لهذا المكان حتى يثبت الحكم. وكان القسيسان الشيخ القديس السني ابو المعانى المعروف بابن كمش والشيخ الرضى بن ابى الطيب هما المنشغلان لهذا الامر اللذان صرفا جميع همتهما اليه فكانا فى تعب شديد وجهد جهيد لا يفترقان بالنهار ولا يهديان

والسبب فى هذا أن الوزير ارسل الى حسين أفندى كاتب كبير مستحفظان تقرير الجوالى فابى أن يقبله فأرسل الباشا فرمانا الى باب مستحفظان يامرهم بقبول الجوالى لكون أنه قلم واسع، ولم يكن عنده جماعة تفهم اصطلاحهم فقبل ذلك منه برضا أوجاقه واتفاقهم.

فلما علمت العزب أحدثوا قلقة وطلبوا الخردة، فأبى الباشا وقال أنا أعطيت الجوالى الى حسين أفندى الا بالرغم عليه لقلة معرفة جماعتى بتعاطيها. وأما الخردة فلا أعطيها لأنها مظلمة تظلم فيها. وأما الجوالى ليست مظلمة وأنتم كتبتم على أنفسكم حجة برفع المظالم. فنزلوا من الديوان من غير قضاء حاجة ولا مصلحة فملكوا السلطان حسن والرميلة وساعدتهم الانكشارية بمسك المحمودية والمحجر. ثم أن الانكشارية طلعت الى الباشا وتشفعت بأن يعطيهم الخردة فأعطاها لهم. ثم أن فى يوم الجمعة خامس عشر رجب سنة ١١٣٧ (١). عمل ابراهيم كتخدا عزبان ديوانا فى بابه وعزم على جميع أختيارية بابه، وواجب الرعية بأن يصلوا الجمعة ويتوجهوا جميعا الى بيت محمد بن اسماعيل بيك ليحضروا عقد أخت محمد بيك عليه فأجابوا بالسمع والطاعة. ثم أنهم صلوا الجمعة وتوجهوا فوجدوا البيت قد امتلأ من اختيارية الوجاقات السبعة، ممن يألفوه وجركس وجميع صناجقه وكان قد أرسل النشان قبل بيوم فرق بن قهوة ثلاثة قناطير، وخمسة قناطير سكر منعاد، وقنطار ماء ورد، وبيعة عنبر،

(١) ٣٠ مارس ١٧٢٤م.

بالليل ويدفعان من اموالهما فالله سبحانه يحسن لهما ويجزينهما جزآء امثالهما، فحملا الى مجلس العدل شهوداً أخر غير دينك وهم القاضى المعين عبد الحكم بن محمد ابن عبد الحكم، والقاضى الاسعد بن مسير، والشيخ الحكيم ابو سعيد بن تمام، فادوا الشهادة بمجلس العدل على ما تضمنه المحضر، وبقوا فى قيد التزكية لان الشهود لم يكونوا عدولا وصاروا فى المدة الطويلة يحضرون

وخمسة مراود ديمى مقصب، ومقطعين خياطة مقصب، وعشر مقاطع برنجك اسطنبولى، ومائة طربوش ومائة خف ومائة صينية فطور وخمسمائة زنجرلى مقدم الصداق وعقد العقد وفرق يومها خمسماية محرمة ومنديل، أقل ما فى المحارم تساوى ريال والله أعلم.

وفى ثانى يوم الذى هو يوم السبت سادس عشر رجب[1]. توفى الخواجة محمد داده الشرايبى وكان له مشهدا عظيما لم يتفق لغيره من الخواجات [المغاربة] معه[2]. فأول الجنازة قد دخلت من باب الجامع والنعش فى العتبة الزرقة، ومشى فى جنازته العلماء جميعا والبكرى والصناجق وأختيارية السبع وجاقات، وكان كريما يواسى الناس خيرا. ويسعى فى مصالحهم، وقسم ما له ين أولاده وبين عبدالله بن الخواجة محمد الكبير وبين أبن أحمد أخو عبد الله كما فعل الخواجا الكبير فانه قسم المال ين الدادة وبين عبد الله وأخيه أحمد. وكان المال الذى استلمه الداده وقسمه ستماية كيس والمال الذى قسمه الدادة ين أولاده وبين عبدالله وأبن أخيه وهم قا سم وأحمد ومحمد جربجى وعبد الرحمن والطيب هؤلاء أولاده لصلبه وعبدالله بن الخواجة الكبير وأبن أخيه الذى يقال له ابن المرحوم، ألف وأربعماية وثمانين كيس خلاف وكالة الحمزاوى. وغيرها من الأملاك، وخلاف الرهن الذى تحت يده من البلاد وفايضهم ستون كيسا وفايض البلاد الملك أربعون كيسا. خلاف ثلاثة مراكب ببحر السويس،

(١) ٣١ مارس ١٧٢٤م / كتب عنوان جانبى «أعرف وفاة الخوجا محمد دادة الشرايبى سنة ١١٣٧».
(٢) بالأصل «الخواجاه».

شاهداً للتزكية وهم يريدون اربعة لا اثنين كما فعل اولئك. وطالت المدة فسير القاضي [عز الدين بن عبدالسلام] احضر الشيخ السنى من الحبس وقال له: الى متى تتجلد، ان لم تقم بالمبلغ والا عاقبتك عقوبة الشرع. قال له: يا مولاى مهما استعملك الله اعمله. قال: ما عملت شيئاً . قال: يامولاى ما يكون. ثم مهله. قال: يومين وثلاثة. قال: الشيخ وخمسة وستة- وكان قايما فقال: يا مولاى ما فى [ما أستطيع أن] اقف: قال اقعد. فقعد ساعة ثم

وخلاف سبعة وكايل وحمايم. كل هذا أحداث الدادة، وأن أصل المال الذى أستلمه الدادة فى حال الاصل سنة ١١١١[1]. من الخواجة لما عجز عن البيع والشرى. وراح سعد الدادة يتلألا تسعين كيسا هكذا شاع فى ذلك العصر. ولما قسم الخواجا المال بين الدادة وبين عبدالله وأخيه بالثلث غضب عبدالله وقال: هو أخ ثالث: فقال أبو عبدالله: والله لا يقسم المال الا مناصفة له النصف ولك ولأخيك النصف. وأن هذا الموجود كله، مكسب الدادة وأنى لما أسلمته المال كان تسعين كيسا وها هو الان ستماية كيس غير ما حدث من البلاد ملكا ورهن. فكان كذلك كما قال. وكان مرتب لعبد الله فى كل يوم ألف نصف فضة ديوانى تحت البشرقة خلاف المصروف والكساوى له ولأولاده وعياله إلى أن مات وقام قاسم ولده محله. وكان محسنا فى حق اولاد البيوت وكان مسعدا فى كل شئ تعاطاه ولقد صدق القايل حيث قال:

لعمر ما الرزية فقد مال   ولا شاة تموت ولا بعير
ولكن الرزية فقد حر   يموت لموته ناس كثير

ولقد رأيت فى بعض التواريخ: أن فى مدة مروان بن الحكم، أن رجلا تاجرا يقال له ابن القصاص. وكان مسعدا فى كل شئ تعاطاه ويوجه الله له الربح الكثير منذ تعاطى التجارة لم يقع له فيها خسارة ولا كساد ولم يخسر طول عمره فى شئ أبدا.

---

(١) ١٦٩٩م

قال: يا مولاى ما اروح الى موضعى. فقال: رح فعاد الى الاعتقال. وبعد ذلك بايام شنع اولئك الرهط فى يوم الجمعة ان القاضى [عز الدين بن عبدالسلام] يخرج السنى ويجرسه.فبلغه ذلك فقلق قلقا عظيما. ومضى رجل نصرانى يعرف بابن الحشا الى القلعة فاعلم الجماعة بذلك فاما الحكيم الرشيد المعروف بابى خليفة فانه اجتمع ببدر الدين اخى الحاجب على فسير جندارين [جنديين] من عنده الى والى مصر يقول له اما

ففي يوم من الأيام صنع لاخواته ومحبيه ضيافة وشكى لهم حاله من كونه لم يخسر فى شئ باعه وقال: أننى أخشى أن يكون لهذا عاقبة سوء فتضرنى فان كل شئ بلغ كماله قرب زواله. فقال له رجل منهم: نشدت خبير. ان كان مرادك تشترى شيئا وتخسر فيه فأنا أرشدك الى شئ تفعله وتخسر فيه وينصرف عنك الذى قايم بك وذلك أن التمر بالبصرة رخيص ويجلب الى الكوفة. فأرسل الى الكوفة عشرة آلاف احمر خذ بها تمرا وأرسلها الى البصرة يبيعوه لك بالخسارة، وقد تخلصت مما تحذره. ففعل كما أمره الرجل وأرسل عشرة آلاف أحمر الى الكوفة فأخذوا له بها تمرا وشاله على جمال الكرى الى البصرة. فلما صار بينهم وبين البصرة يوما، واذا بأهل البصرة خارجين لمقابلة القافلة. يسألوا أهل القافلة هل جئتم بتمر؟ فقالوا لهم: ويلكم والتمر تسألون عنه؟ فقالوا: بان الجراد لم يبق لنا تمرا، حتى الجريد أكله. فباعوا لهم التمر فربح الواحد واحد، فربحت العشرة آلاف مثلها غير ما صرف فى الطريق وأجرة الجمال.

فلما ورد اتباعه بالمال حصل له غم كبير، وقال لاحول ولا قوة الا بالله العلى العظيم لابد لهذا العز والسعد من زوال. ثم أنه أعرض عن هذا الأمر واشتغل. بما هو فيه من التجارة، فعن له يوم من الأيام أنه فتح دولابا له فى قاعته، وكانت القاعة على بستان فى داره. فوجد فى الدولاب علبة ففتحها فوجد فيها ألف حبة من اللؤلؤ الرطب وكل لؤلؤة تحكم ربع درهم، ووجد عشرة موادن من الزمرد والياقوت الأحمر فأخذ العلبة وجلس على سدلة بجانب

علمت ان مولانا السلطان عز نصره قد عقد للنصارى مجلساً وانتهى الامر فيه الى الاثبات وقد احضروا بينهم وهم في تزكيتها فالله الله لا يمكن احدا من هذا الرجل ولا من المواضع. واما المستوفون حرسهم الله فانهم كتبوا رقعة الى مولانا السلطان عز نصره بصفة الحال وسيروها على يد استاذ الدار، فخرج امره بان يسير الى الوالى وينكر عليه الغفلة عن مثل هذا والحذر ثم الحذر ان يتعرض احد الى هذا الراهب او يحرك فيَ هذه

البستان أفرغ العلبة فى حجرة وجعل يقيها ليجعلها عشرة سبح وهو يصلح فيها واذا بالخدم داخلين عليه منزعجين. فقال : ما الخبر؟ فقالوا: أعوان مروان قد كبسوا البيت. فما ساعه الا أنه حذف ما كان فى حجره من شباك القاعة الى البستان، فهجموا عليه وكتفوه ونهبوا جميع ما فى داره وجميع ما ملكته يده، وأخذوه وقفلوا الدار الى أن اوقفوه بين يدى مروان، فلم يخاطبه سوى أنه أمر بحبسه.

فمكث في السجن أربعة أشهر. ثم بعد الأربعة أشهر توفى مروان، وتولى ولده عبدالملك بن مروان، فسأل عن من في حبس أبيه فأخبروه بجماعة من جملتهم ابن القصاص، فقال: على به. فلما أوقفه بين يديه سأله عن سبب حبسه. فقال: لا أعلم لى ذنبا غير أنى أخذت من محلى ونهبت جميع ما فى دارى ولى أربعة أشهر وأنا مسجون؟ فأرسل الى الكتبة وسألهم عن ماله. فقالوا: قد أذهبه والدك ولم يبق سوى داره، فأنعم عليه بها فقط.

فتوجه الى داره فلما دخل لم يكن له التفات الا البستان فدخله فوجد اللؤلؤ قد علاه التراب، فجمعه فرآه كاملا لم يعدم منه شئ ولم يكن عنده شئ سوى ذلك، فجعلها عشرة سبح وباعها بعشرة آلاف أحمر. فما مضى عليه ثلاث سنين حتى عاد المال أكثر مما كان . وقد نقل عنه أنه كان عنده بعض تغافيل.

وأما محمد الداده لم يكن عنده غفلة وكان فهيما وكان على قدر هذا المال والمتاجر والبلاد، لم يتخذ له كاتبا وكان كل شئ بيده فرحم الله تربة ضمته وتجاوز عن سيئاته.

المواضع ساكنا. فمضى جندار اخر عن السلطان بهذا وارتدع اهل العناد الساعون في الارض بالفساد. واما القاضي [عز الدين بن عبدالسلام] فانه انكر ان يكون هذا خطر بباله او جرى فيه حديث. قال له الوالي: فتكتب خطك بهذا الى السلطان والا راحت روحي. فكتب القاضي رقعة يقول فيها ان النصارى شنعوا عني ما لم اقله ولا نويته وانما هذا الرجل محبوس علي حق شرعي، و سيرت الى مولانا ا لسلطان. فقراها وتركها ولم

وفي يوم السبت سادس عشر رجب[1]. ورد ساعي من ثغر سكندرية بمكاتيب، تخبر أن في يوم تاريخه ورد الى سكندرية غليونان من غلايين السلطنة. وصحبتهم باكير باشا باشت جدة وصحبته ألف وخمسماية عسكرى من عساكر الروم، وطلب ستماية جمل وأربعماية جواد تحمل عازقة واتباعة، فلما قريت المكاتيب حصل عند أعيان البلد غم بذلك الخبر. ثم أنهم عملوا جمعية في بيت محمد بيك جركس من بعد العشاء الى نصف الليل على أنهم لا يرتبون مظلمة على البلاد للباشة البراني، مثل باشت جدة والحبشة في تسخير جمال الفلاحين وخيلهم لشيل عازقهم. وانما هذا الأمر مخصوص بمن يكون باشة مصر فقط، وأما غيره فلا، وانما يرسل محمد بيك ومحمد بيك الدفتدار ابن سيده وأحمد بيك الأعسر وقاسم بيك الكبير وعمر آغا كتخدا الجاوشية يرسلوا الى بلادهم يخبرهم أنهم يرسلوا يشيلو عازق باكير باشه الى رشيد فكان كذلك. ثم أن جركس ومن كان عنده خوف من طرف السلطنة، حصنوا بيوتهم بالغز، والسلطان حسن والمحمودية والمحجر وسبيل المؤمنين والصليبة وباب العزب وباب مستحفظان، وأن جركس وأبن أبي شنب واحمد بيك الأعسر وعمر آغا كتخدا الجاوشية أكروا غزا وأعطوا كل نفر خمسة زنجرلى بقشيش وقرش في كل يوم لكل واحد، وحصنوا بيوتهم وأصرفوا جملة أموال.

(١) ٣١ مارس ١٧٢٤م.

يجب عنها. وقد كان القاضى قبل هذا جرت له قضية مع رجل نصرانى سكرى [صانع حلوى] من اهل منية غمر يقال له مكرم بن محاسن وذلك ان ولده عبر على مطبخه وكان قايما بغير زنار وهو يتنابذ [يتشاجر] هو ورجل حلفاوى فشكا اليه الحلفاوى ان هذا النصرانى ما يفعل [لابد] يروح معى الى الشرع، ولم يعلم مكرم انه ابن القاضى. فقال [ابن القاضى] لغلامه: اعبر اخرجه فتشابط الغلام مع صناع المطبخ فعبر ابن القاضى

وكل هذا من الفزع الحاصل عندهم، والذى يخاف من شئ لابد له من وقوعه والذى له رأس عند الرواس لم يغم البال. هكذا قالت الأفاضل واذا وقع القضى عمى البصر. ثم أنهم كلهم أرسلوا له هدية كبيرة الى رشيد.

ثم أن باكير باشا دخل الى بولاق ثانى عشر شعبان سنة ١١٣٧[(١)] ونزل بقصر قيطاز بيك المعروف بالمدش. فنزل له كتخدا الوزير وشيخ الاسلام وكتخدا الجاوشية عمر آغا وآغة المتفرقة والترجمان وعمل له أمير الحاج محمد بيك بن اسماعيل بيك سماطا عظيما، وأرسل كتخدا مستحفظان وكتخدا عزبان قابجية الى جميع الوكايل التى بمصر وبولاق أن لا أحد يسكن عنده أحد من جماعة باكير باشا وكل من سكن أحد ترمى رأسه. ثم أن محمد باشا نزل من القلعة الى الأثر وأرسل الى باكير باشا أن يأتيه الى قدم النبى، فنزل باكير باشا فى القايق [المركب] الذى لابن ابراهيم بيك أبو شنب. وكان بأربعة وعشرين مقدافا محلاة بالذهب، وكان قد جاءه من البلاد الرومية، وكانت بنديرته [أعلامه] من الحرير، ثم أنه سار فيها الى أن طلع الى الأثر واجتمعوا مع بعضهم البعض. ثم أن محمد باشا طلع الى القلعة بعد المغرب وأما باكير باشا فانه روح الى بولاق بعد العشاء من البر بالمشاعل الى أن دخل الى القصر. وفى ثانى يوم نصب صيوانه فى وسعة الشيخ فرج بأربعة وعشرين عامودا وثلاث قبب من النحاس

(١) ٢٦ أبريل ١٧٢٤م.

الى المطبخ راكبا وضرب الصبى، ووقف مكانه
وسير الى ابيه فركب بنفسه وجآ الى المطبخ وكان
المطبخ الذى عند دار الفاضل مقابل صناعة الثمر،
واخرج هذا المسكين مشحوطا مكشوف الراس
مقطع الثياب واجتمع عليه امم لا تحصى ما منهم
الا من يضربه ويهينه وهو صابر. وبلغ الوالى الخبر
فحضر وقال يحبس حتى يجى امرالسلطان
فحبسه وكتب الى مولانا السلطان بما جرى، فلم
يصبر القاضى حتى يجى جواب السلطان بل قال:

الأصفر المطلى بالذهب البندقى، فوق كل قبة طوخ من أطواخ السلطنة. ثم أنه شال من بولاق الى قبة العزب فى غرة رمضان ونادى لجماعته بالقصر وعينوا له فى كل يوم ثلاثين جملا من الماء العذب.

ثم أنه فى أحدى وعشرين من رمضان[1]. سار الى البركة فمكث فيها ثلاثة أيام وفى خامس عشرين رمضان سافر من البركة وصحبته العرب الى بلاد الحجاز وسافر صحبته خلق كثير من أهل مصر الى مكة المشرفة.

ثم فى ثانى يوم سافر باكير باشة وورد آغا وصحبته قفطان وثلاثة أغربة [مراكب] مشغولة مفروغة وانما يعتازوا التركيب فقط، وللنجارين والقلافطة صحبته وجميع الالات صحبة القبطان. ثم أن الوزير أمر بشيلها جميعا الى السويس وكان كذلك. وأيضا صحبته آغا معه من الديار الرومية بمحلول أحمد كتخدا امين البحرين وعثمان كتخدا الجلالى وولده. وفى خامس عشرين رجب سنة (١١٣٧)[2] ورد خبر من ولاية البهنسة بموت قاسم بيك الصغير.

والسبب فى ذلك: أنه لما نزل فى كشوفية بنى سويف والبهنسة فشق فى الاقليم وكان فى رمضان فرأى رجل من فقراء البهنسة جالسا على تل من تلول البهنسة وهو يشرب فى دخان،

(١) بالأصل فى رمضان / ٣ يونية ١٧٢٤م.
(٢) أضيف الرقم لتوضيح المعنى / ٩ أبريل ١٧٢٤م.

سير لى النصرانى حتى اعمل فيه الواجب. فسيره اليه وقال له: هذا انت تركبه بين هولآء العوام وهو يقتل وما تعلم ما ياتى من السلطان. فاخذه ولم يركبه بل اشهره ما شيا وهو مهان الى ان شق له البلد ومضى به الى مجلس الوالى وهو صابر شاكر وحسب الله اجرا وكان ذا يسار وقدره كبير واقام فى الحبس اياما واخرجه الوالى بعد ان كتب عليه حجة بانه لا يخرج من بيته الا بزنار ولو كان فى حبس القاضى ربما كان عسر خروجه.

فطب [١] عليه حتى وقف بازايه وقال له: ما هذا يا رجل؟ تشرب دخانا فى رمضان يا قليل الأدب فقال له الفقير: جوز فى طريقك، أقام العباد فيما أراد أيش لك عند الفقراء ، كن فى حالك، وخلى الحال يعمل حاله وخلى كل من هو تحت بلوته. فقال لجماعته مدوه، أنا أريك حالك. فأحاطوا به زبانية جهنم ومدوه ونزلوا عليه بالضرب، فالتفت الى قاسم بيك وقال له وهو تحت الضرب: شفاعة ياقاسم، فقال له: ما فيه شفاعة. فقال له الفقير: وأنت الآخر ما فيك شفاعة الله، وأشار بيده نحو الصنجق: واذا بالصنجق انحنى عن قربوص سرجه وزعق بأعلى صوته آه يا قلبى اسيبوه فما سيبوه حتى وقع الصنجق من على جواده الى الأرض وقد خرج من مناخيره نشابا، دم أحمر، فرفعوه عن الأرض فاذا به فارق الدنيا فأخذوه الى الوطاق وغسلوه وكفنوه ولم ينقطع الدم من مناخيره وحلقه.

فلما ورد الخبر الى جركس حصل له غم كبير عليه، ثم أنه أرسل جاء به من البهنسة ودفنه بالقرافة فى خامس شوال سنة ١١٣٧[٢].

ومن العجايب: أن كل من تولى كشوفية البهنسة وظلم فيها لم يحصل له خير، فانه تولى عبدالله بيك فحصل له ما حصل وتولى بعده محمد بيك المجنون أخو اسماعيل بيك بن

(١) بالأصل «قضيب» والتصويب ليستقيم المعنى.
(٢) ١٧ يونية ١٧٢٤م.

واما ما كان من امر كنيسة بوسرجه فان القاضى لما ابطا عليه الحال ايقن ان النصارى لا ينعمل لهم شي ولا يزكى لهم احد لانه كان قد سك عليهم الدنيا. واى من سمع انه يشهد او يزكى شاهدا سير هدده وتواعده وكانوا المساكين في شدة شديدة ومن اين لهم بمقاومة القاضى [عز الدين بن عبدالسلام] لولا معونة البارى، فسير الى الوالى فى عشية يوم الاربعا رابع بابه [أول أكتوبر] مع رجل من شهوده يقال له ابن زيدان.

ايواظ فحصل له ما حصل، وتولى قاسم بيك هذا فحصل له ما حصل. لأن ظلمهم قد فحش فى العباد خارج البلد وداخلها.

ومن جملة ظلمهم: ان السراجين صاروا يدخلون بيوت التجار فى رمضان بالليل، فما يقوموا من عنده الا أن أخد الواحد اطلسية وشاشا وخمسة زنجرلى.

فلما رأت التجار هذا الأمر فصاروا بدخلون بيوتهم من العصر ويقفلونها ولم يفتحوها ولو جاءهم أعظم ما يكون. وحصل للناس غم كبير من القتل فى السكك.

ومن جملة ما وقع: ان رجلا تاجرا يقال له لطفى النطرونى، وكان ذو مال كثير. وكان قد عجز بصره وهو قاعد فى منزله الذى بالسبع قاعات قريبا من مسجد شرف الدين، والناس فى صلاة التراويح، وهو جالس ينتظر الفقهاء الذين يقرءون عنده فى كل ليلة فى رمضان، واذا هو باثنين من سراجين دخلا عليه وأربعة مسكوا باب الدرب فضربه الاثنان اللذان دخلا عليه بالخناجر فمات وأخذا ما أخذاه وساروا جميعا. وفى ثانى يوم ارسل محمد جركس سراجه محمد السيفى أخد ما ببيته من نقد وتمسكات وحجج وتقاسيط، وكان والى مصر اذ ذاك أحمد آغا لهلوبة فصار يأخذ على بياض الثوب.

ثم ان جركس عزله من الولاية وعمله آغة مستحفظان، وعزل محمد اغا كتخدا الملة من كخاوية مستحفظان وتولى على جاويش كيل يعنى الاقرع فى ثانى القعدة، كل ذلك والحرس موجود فى البابين والمحلات مرتبطة بالعسكر. ثم أن عسكر الخزينة دخلوا الى مصر ولم يأت

وهو يقول له: انني اجتمعت بالسلطان وقد رسم لي بان نعمل في هذين الموضعين [المنزلين] ما اوجبه الشرع. وانتهى ان يساعد هولآء القوم على ما هم بصدده. قال له: الوالي مهما اردتم افعلوا ومكنهم من كل ما يريدون. فبيتوا على الفعلة والمساحى والطوارى وصبحوا من الفجر الى الدار الجوانية هدموا واجهتها وروشن الطبقة التى كان يسكنها القسيس وطلع اصحابنا بالخيبة وكانوا فى هذا النهار اعنى في يوم الخميس خامس بابه [٢

- -

صنجقها مرجان جوز، و لا سردار مستحفظان أحمد جاويش بل مصطفى كتخدا الشريف باش اختيار مستحفظان.

ثم أنه أشيع في البلد أن الوزير قتلهما، وفى كل يوم يسمع الانسان خبرا غير الأول، الى أن تحقق أن الوزير حبسهما خلف الأبواب وانقطعت الأخبار عنهما، ثم أن مصطفى كتخدا عن له أن يكتب عرض حال الى حضرة مولانا السلطان صورة شفاعة فى ولده أحمد جاويش، وأراد أن يرسله، واذا بعزلان محمد باشا قد ظهر من جركس.

والسبب في ذلك أن ديوان السلطان ما بقى أحد من أعيان البلد يطلعه: ولا الدفتدار ولا أحد من الصناجق سوى الرزنمجى والكتبة وبعض من الجاوشية وبعض من المتفرقة مقدار عشر درج وينزلون وأخرموا نظام الديوان. فلما رأى الباشا عدم طلوع الدفتدار والصناجق الى الديوان، أبرز خطا شريفا[١] برفع صنجقيه محمد بيك جركس وأرسل الى كل وجاق من السبعة أوجقة فرمانا، وأرسل فرمانا الى العلماء، وفرمانا الى البكرى، وفرمانا الى سيدى عبد الخالق السادات، وفرمانا الى النقيب، بأن صنجقية جركس[٢] مرفوعة بخط شريف فلا أحد يدخل بيته ولا يجتمع عليه. وكل من دخل بيته أو اجتمع عليه فلا يلومن الا نفسه.

(١) بالأصل «خط شريف».
(٢) كتب بأعلى هامش الصفحة «عونك يا الله».

اكتوبر] واتفق انه خامس ربيع الاخر سنة اربعين وستمايه الهلاليه [١٢٤٢م] قد اخذوا معهم ابن تمام ليوذن لهم لانه كان ابنه كتب عنه باذنه لعجزه عن الكتابة لاجل كبره، ولم يكن روى وجات هذه القضية فكشفت خواطرهم واظلمت ابصارهم حتى من الله تعالى بان السلطان خلد الله ملكه ركب في ذلك اليوم ومضى الى مصر واجتمع به الوالي فقال له ابتداء منه كلاماً ما فهم الا ان يفتتحه ان الوالي حضر الى دار العدل

فلما درى جركس بارسال الفرمانات الى الأوجاقات والى الجماعة، ففى الحال كتب تذاكر وأرسلها الى اختيارية الأوجاقات والى الجماعة على انكم هلبت تحضروا فى هذه الساعة لسؤال ورد جواب. فلما قروا التذاكر اجتمعوا مع بعضهم وقالوا: ما الحكم فى هذا الأمر؟ فقالوا: نروح ننظر سؤاله ونرجع ولا نعود نروح له بعدها. ثم ان اختيارية الوجاقات قاموا من باب مستحفظان وتوجهوا له جميعا. فلما وردوا عليه، اجلسهم وأكرمهم. فقالوا له : فيما أرسلت لنا تطلبنا ، فقال: لسؤال أقل لكم عليه لما تحضر العلماء والبكرى والسادات والنقيب.

ثم أنه[1] أرسل لهم فحضروا، الا سيدى عبد الخالق فانه لم يأت وتعلل بأن مزاجه متغير. فلما حضر الجميع ولم يبق منهم أحد قال لهم: أنتم تعرفون[2] لأى شئ طلبتكم. قالوا: لا. فقال: لأقتلكم جميعا من قبل أن أموت أنا درع لا يركب حجر على حجر بعدى، أو انكم تكونوا معى على الذى أقوله لكم. ثم أنهم رأوا جميع من فى بيته مسلحا بالسلاح الكامل، فقالوا له كلما تريد أحنا معك فيه، ولو كان فيه تلاف أرواحنا. فقال لهم: الباشا اظهر خطا بشيل صنجقي والذى ترفع صنجقيته الموت اهون له من ذلك، وأنا مرادى نزول الباشا، ما تقولون: فقالوا جميعا: نعم، الذى تختاره نحن معك فيه.

ثم انه ابتدى فى كتابة سؤال. وأخذ عليهم خطوط ايديهم جميعا وصورة السؤال: ما

(١) بالاصل «أنهم».

(٢) بالأصل «تعرفوا».

واجتمع مع الاكبار الذى فيه سراً وقال ابصروا الى ساعياً يروح الساعة الى مصر يمسك الهدم ويقول لهم لا تعملوا شياً الى ان احضر. واستدعى النصارى وقال انجزوا اليوم شغلكم فقد رسم السلطان بذلك. ثم انه لما لم يجد ساعياً يسيره سير بابنه الشريف الى مصر ركضاً فبطل الهد وحضر ابن تمام وودى شهادته وجآء الحكيم ابن الزبير زكاه فى المجلس وجا النبيه العدل الاخر وزكى ابن عبد الحكم وقويت الانفس وهان الامر

قولكم دام فضلكم فى نايب السلطان؟ اراد فى مملكة سلطانه فسادا من قتل وسلب ونهب وتسليط البعض على البعض وتقوله عليهم بالفتن لأجل قتل بعضهم بعضا. ففطن أهل المملكة بأنه أحكام فتنة، لأجل خراب مملكة السلطان، وقتلهم واخذ أموالهم، فماذا يلزمهم وما يجب عليهم. فأجابه العلماء، بأنه يلزمهم الصلح فيها بينهم ولا يلتفتوا الى فتنة ذلك النايب ويجب عليهم أن ينزلوه لأجل حقن دماء المسلمين ويعرضون أمرهم الى صاحب المملكة يرسل نايبا غيره فأخذ الفتوى منهم. ثم أنه التفت اليهم جميعا وقال لهم: لا تخشوا من شئ. أنا أن مت وآياكم، وان عشت واياكم ما عليكم بأس.

ثم أنه أخذ مثل الذين يعتمد عليهم، مثل رجب كتخدا، ومصطفى كتخدا وابراهيم كتخدا عزبان وبقية جنده. ودخل وأياهم الى داخل وترك الجميع فى المقعد والحوش والحرس عليهم. وباتوا تلك الليلة بالجوع وقلة الغطا، والذى أرسل أحضر من بيته ما يأكله أكل. والذى لم يفعل بات جوعا.

ولقد حلف لى الشيخ محمد الجداوى أن عمره لم يبت بيتة العن من تلك الليلة. وكان بقربهم بيوت راحة المقعد، فعموا تلك الليلة من الرايحة الخبيثة.

ثم أن فى ثانى يوم الذى هو يوم الجمعة عاشر القعدة[1]، أرسل قاسم بيك الكبير الى

(١) ٢١ يولية ١٧٢٤م.

وبقيت الحاجة الى شاهدين اخرين يكملان تزكية بينة المحضر ويثبت، فعادوا الى القاهرة بعد ان استاذنوا الجماعة فى ان تكون تتمة التزكية فى دار القاضى بالقاهرة فانهم ما يجتمعون بدار العدل(*) الا يومى الاثنين والخميس ويتعذر فى هذين اليومين وجود الشهود ويطول الوقت ويتسوف، فاذنوا فى ان تكون تتمة التزكية بدار القاضى بالقاهرة، فعبر الى القاضى بالقاهرة فى بكرة يوم الجمعة السادس من بابه [٣ اكتوبر]

(*) كان الاجتماع للتقاضى (انعقاد المحكمة) لا يتم إلا يومى الاثنين والخميس بدار العدل.

الجبل المقطم بخمسماية خيال وأرسل أحمد بيك الأعسر الى الباشا يقول له: أنت تنزل أو تحارب. فقال: لا بل أنزل، أنظروا لى بيتا أنزل فيه. وأن كان للبلد صاحب يدور عليها. ثم انه نزل فى يومه قبل صلاة الجمعة فى بيت محمد بيك قطامش الذى بقيسون المعروف ببيت محمد آغا الدالى آغة الجملية. ولم ينضرب فيها ببندقية. ولم يخرج جركس من بيته ولا أحد من الذين منحاشين عنده سوى قاسم بيك وأحمد بيك الأعسر.

ثم أن محمد باشا بمجرد نزوله: ذبح سبعة رءوس غنم من أسمن الكباش فداء له لكونه نزل سالما. ثم أن جركس كتب عرضا على موجب الفتوى التى تمسك بها وختم عليها جميع العلماء والبكرية والسبع وجاقات ونقيب الاشراف والسادات والذى كتبه سيدى عبد الخالق ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن.

وصورة العرض: انه اغرى أهل مصر على بعضهم بعضا وانه صنجق [أى أعطى الصنجقية] رجلا لم يكن أهلا للصنجقية ، وأولاه صنجقية الصعيد، وتواطى هو واياه على بيع غلال الحرمين وغلال الفقراء والمساكين، وباع كل أردب بجنزرلى ولم يأخذ تلك السنة من أهالى الحجاز ولا أهالى مصر ولا أردبا واحدا. ومن جملة ما باع من غلال الدشايش والخواسك ثمانية وعشرين ألف أردب. وختم عليه القاضى وأرسله صحبة ستة أنفار، من كل أوجاق واحد ومن الجاوشية والمتفرقة واحد وأرسل مصطفى كتخدا عرض ولده صحبة عرض أهل مصر وأعطى كل واحد منهم مايتين زنجرلى وسافر العرض يوم الجمعة غرة الحجة ختام

شاهد طبيب يعرف بجمال الدين الرازى، زكى ابن عبد الحكم فكملت تزكيته بشاهدى عدل وبقى ابن تمام يحتاج الى شاهد اخر لا غير ويثبت المحضر، وفى وسط نهار يوم الجمعة اشيع بان القاضى [عز الدين] بن عبد السلم [السلام] عزل وقوم يقولون انه عزل نفسه لاجل قضية النصارى وكون حكمه نقض عليه. وفى بكرة يوم السبت السابع من بابه [٤ اكتوبر] حضر شاهد اخر عدل فاضل يعرف بجمال الدين عبد المعطى وكان

- -

سنة ١١٣٧[١]. ثم أنه أقام محمد بيك الدفتدار ابن سيده قايم مقام فصار يعمل الديوان فى بيته. ولم يطلع الى الديوان الا فى يوم نزول الجامكية، وهذا لم يقع لغيره من قيامة مقامات التى تقدمت مطلقا.

وأوفى البحر خامس عشرين أبيب وفاء زايدا. وجاء الرخاء، وولى الغلا، ومكث الخليجماية يوم وصارت الغلال فى ساحل بولاق لم يقل لها أحد بكم الأردب بخلاف ما تقدم من السنين.

ثم أن الزمان صفى لجركس بعزلان الباشا وعزل مملوكه محمد آغا الدالى من الولاية. والبسه قفطان الصنجقية فى بيت ابن سيده محمد بيك قايم مقام وسماه بمحمد بيك جركس الصغير، وألبس على آغا مملوك ابن أخى قاسم بيك الصغير صنجقية عمه، وأبقاه على ماله وجواره وبلاده وكان ذلك فى سابع عشر الحجة ختام سنة ١١٣٧[٢]. فسبحان المنعم المتفضل. ثم فى ثانى يوم لاحت من جركس التفاتة فرأى حسن آغا الشبكة كتخدا محمد بيك أمير الحاج ابن اسماعيل بيك الكبير واقفا فى ديوان قايم مقام. فقال لبعض من طوايفه: خذ حسن آغا وأدخله البستان واقتله. فجاءه واحد منهم، وقال له: يا حسن آغا الصنجق يطلبك ليقول لك على سؤال. وكان جركس قد تحول من مجلسه، فذهب حسن آغا صحبة

(١) ١١ أغسطس ١٧٢٤م. (٢) ٢٧ أغسطس ١٧٢٤م.

خطيب القلعة زمانا وزكى ابن تمام فكمل المحضر. وقويت القضية بان قاضى مصر عزل نفسه عن القضاء واشهد عليه بذلك وكتب به رقعة الى مولانا السلطان ولم يخرج لها جواب. وكان فى هذه الايام قد حدث تغير عجيب وهو انه لما كان فى ليلة السبت اخر توت [٢٧ سبتمبر] جات ريح عظيمة حتى قلعت النخل من اصولها وطرحتها الى الارض ووقعت ادر كثيرة ومات تحتها اناس كثيرون. وكانت ليلة عظيمة مزعجة وقد كانت

* رياح عظيمة تخلع النخيل

الرجل الى البستان، واذا بجماعة داخل البستان، فلما رأوه قاموا عليه وقتلوه ودفنوه تحت شجرة فى بستان بيته.

وكان السبب فى قتله ان محمد باشا ليلة نزوله من القلعة كتب عرض حال الى السلطنة ومكتوبا الى باشت غزة، ثم أنه أراد أن يرسل ذلك الى غزة فما أمكنه ذلك من شدة الحرس الذى ملك الطريق (فأرسل انسان اليه، بأن لا يقضى[1] لك هذه المصلحة الا كتخدا الحاج حسن آغا الشبكة لكونه كتخدا الحاج والعرب تحت يديه، فاستحسن هذا الرأى. فكتب تذكرة الى حسن الشبكة، بأن الواصل لك صرتين، واحدة فيهاماية زنجرلى لك، والثانية فيها ماية زنجرلى تنظر رجلا بدويا بمعرفتك تعطيه الماية زنجرلى، والمكتوبين يوصلهما الى باشت غزة. وأرسلها الى الشبكة يوم الخميس بعد المغرب ، فأوصلها المرسال اليه. فأرسل أحضر بدويا واعطاه الصرة التى له والمكاتيب. وأخبره بأن يوصل ذلك الى باشت غزة، فأخذها البدوى وأوصلها الى الباشا. وأخذ رد الجواب ورجع: الى أن جاء الى البساتين قبضوا عليه وفتشوه فوجدوا رد الجواب معه. فسألوه فاخبرهم أن ما أرسله الا حسن آغا الشبكة فأخذوه الى أن أوقفوه قدام جركس، فسأله فأخبره، فأسيب البدوى وتسبب فى قتل الشبكة، وهذا هو السبب والله أعلم.

(١) بالأصل «فأرسله انسان بأن يقضى».

الشمس كسفت من ليلة الجمعة المذكورة من اخر الليل وطلعت منكسفه الا انها لم تظهر منكسفة لانها كانت تحت الشفق ولم تكن مثل السنة الخارجه [السابقة] لان ذلك الكسوف كان عظيما مستغرقا وقت العصر كما تقدم شرحه. وفى نهار السبت السابع من بابه [٤ اكتوبر] تحقق ان القاضى [عز الدين] بن عبدالسلم [السلام] عزل نفسه من الحكم واشهد عليه بذلك شهودا عدة عدولا وبقيت مصر بلا حاكم ولا نايب لان النواب

وفى يوم الخميس ثامن عشرين الحجة (١) أحضر قايم مقام مملوكه رضوان خزنداره وألبسه الصنجقية، وفى غرة محرم الحرام سنة ١١٣٨(٢) ألبس قايم مقام قفطان الصنجقية الى على الحرمجى مملوك جركس، وألبس أيضا أحمد الخزندار مملوك أحمد بيك الأعسر قفطان الصنجقية. وفى ثانى ديوان الذى هو ثالث محرم، ألبس أيضا قفطان الصنجقية الى سليمان آغا جميزة تابع احمد آغا الوكيل،والجميع ألبسهم قايم مقام محمد بيك ابن أبى شنب فى بيته، وهذا أمر لم يحكم لغيره مطلقا. ثم ان قايم مقام أرسل فرمانا الى أحمد آغا لهلوبة آغاة مستحفظان بأنه يركب ويشق البلد وأمره مفوض وحكمه نافد فى الغز والرعية، ويفعل كما كان يفعل على آغا.

وفى يوم الخميس تاسع عشر محرم سنة ١١٣٨(٣). أرسل محمد بيك قايم مقام الى محمد آغا استاذ السنبلاوى رضوان بيك مملوكة، وصحبته ثلاثين سراجا الى بيته فمسكوه، وأخذوه حافيا مكشوف الرأس. ماشيا من بيته الى قصر العينى. فغرقوه فى البحر من بعد ذلك العز ونفاذ الكلمة .

وكان محمد آغا هذا ثانى اختيار فى وجاق المتفرقة.

---

(٢) ٧ سبتمبر ١٧٢٤م.

(٣) ٩ سبتمبر ١٧٢٤م.

(٢٨٣) ٢٦ سبتمبر ١٧٢٤م.

رفعوا ايديهم بحكم رفع يد مشئيهم. وكان عيد القديس واخس يوم الاحد الشامن من بابه [٥ اكتوبر] الذى هو يوم شهادته. ويوم الثلاثا العاشر منه [٧ اكتوبر] عيد القديس بو سرجه. وكان هذا الذى جرى اية عجيبة لهذين القديسين فى عيدهما لانه شى ما كان فى قدرة احد من النصارى ان يفعله ولا يقدر عليه. وصار كل احد يقول هذا بسبب النصارى ونيتهم، وكانت اعجوبة ما روى مثلها. ثم ان القسين المقدم ذكرهما جآ الى دار

- -

وفى ثانى يوم أتى محمد آغا أبطال باش أختيارية المتفرقة الى بلده منية هلال[١]. بالشرقية.

وفى يوم الجمعة سابع عشرين محرم ورد ركاب ابن على باشا بزينة الى القاهرة ثلاثة أيام فزينت القاهرة. وسببها أن السلطان ملك قلعة تبريز بالعجم[٢]. وأنها قلعة حصينة كبيرة يسير الراكب فى طولها من الباب الى الباب اثنى عشر ساعة. وتحت تلك قلعة سبعة آلاف قرية تزرع الحنطة والشعير وبها بساتين عديدة. ولم يكن فى قلاع العجم أكبر منها واستشهد فى فتحها اثنى عشر ألفا من عسكر الروم ومات من الارفاض نحو أربعين ألفا. هكذا جاء الخبر صحبة الاغا المعين للزينة.

وأخبر أيضا أن جمرك الحرير الذى يطلع فيها فى كل سنة أربعة آلاف قنطار وأن العسكر مكثت ثلاثة أيام تضرب فيها بالسيف وقد بطل حكم النار.

وفى غرة صفر أوكب ابراهيم بيك الفارسكورى بالاى الخزينة العامرة. وفى يومها ورد قاضى مصر. وله من الأولاد ثلاثة، أحدهم تام وكان اسمه، فايز أحمد أفندى وكان شريفا، وكان قساما عسكريا. والثانى قساما عربيا، والثالث نايب الباب، فأما ولده الكبير. فانه كان قساما

(١) منية هلال: احدى قرى، مركز منيا القمح، محافظة الشرقية، وتعرف حاليا باسم «بنى هلال» وهى من القرى القديمة، محمد رمزى، المصدر السابق، قسم ٢. جـ١، ص ١٤١.
(٢) كتب عنوان جانبى «أعرف ملك قلعة تبريز من أرض العجم على يد السلطان أحمد خان».

العدل فى يوم الخميس الثانى عشر من بابه [٩ اكتوبر] ومعهما المحضر ونسخته التى نقلت منه بامر القاضى لان كان كتب فى المحضر ينقل، فجاء الى دار العدل وسالا القاضى ان يكتب فى المحضر بالثبوت ويسجل عليه بمحضر من الجماعة الذين بدار العدل، فتوقف عن ذلك وقال: محضركم قد ثبت الا ان العجلة ما هى جيدة تمهلوا حتى نبصر ان كان خصومكم مطعن فى الشهود او حجة يلجون بها . فقال بعض الحاضرين ممن له علم

عسكريا ونقيب أشراف، ونايب الديوان ومحاسبجى، وهذا لم يتفق لأحد من القضاة. وأتى صحبته مكتوب من أحمد جاويش بن مصطفى كتخدا الشريف يخبر والده أنا كنا تسيبنا من الحبس فلما ورد عرض أهل مصر عاودنا الى الحبس ثانيا، فلما أخبر مصطفى كتخدا باش اختيار بهذا الخبر من ولده مرض ثلاثة أيام وتوفى الى رحمة الله تعالى سابع صفر سنة ١١٣٨[١].

وتولى محله عثمان كتخدا باش اختيار الذى ساكن بجامع الماس، وجاءت أخبار الحاج أن العرب تملكت العقبة وأن الحج لم يملك الطلوع إلى السطح. ثم أن الحج شال من البندر نصف الليل صحبة شديد البدوى من وراء العقبة بثلاثة أيام زايدة على المعتاد، وأن الطريق التى سلكوها عسرة ومعطشة. فبلغ الفنجان الماء نصف ريال، والشربة: أخبرنا رجل من الحاج أنه شرب شربة بأربعة زنجرلى. الى أن طلع الحاج على نخل، ودخل الى مصر ثالث عشر صفر سنة ١١٣٨ . وفى ثانى ليلة دخل الحاج كسف القمر. وكان كسوفه تسعين درجة ست ساعات. وكان السبب فى كون العرب ملكت العقبة ومنعتهم من الطلوع ان من العادة ان كل من توجه الى مكة فى غير أيام طلوع الحاج لا يشيله الا عرب العقبة.

فلما سافر باكير باشا شاله شديد وفزاع لأن محمد بيك جركس طرد عرب العقبة، وأرسل

(١) ١٥ أكتوبر ١٧٢٥م.

ونباهة: يا سيدنا هولاء ما لهم خصوم انما اوليك كانوا يقولون ان عندهم شهادة حسبه قالوها وقد ثبت بضد ما قالوا. فقال: قبيح بالحاكم ان يخرج خطه بشي ثم ينتقض. وكان كلامه هذا [موجبا] ثم التفت الى والى مصر وقال له: قل لهولاء ان محضر النصارى قد ثبت فان كان عندكم حجة فاتوا بها او مطعن فاظهروه. وانفصل المجلس على هذا ثم ان جماعة النصارى اجتمعوا ووقفوا تحت القلعة ثلاثة ايام متوالية اولها يوم السبت الرابع

جاب فزاع وشديد وأمرهم بشيل باكير باشا فأوصلوه الى[1] مكة، ولم رجعوا من شيلهم باش الأزلم محمد آغا اغت مستحفظان سابقا فلما وصل باش الوجه الى العقبة رآها ملآنة بالعرب فلما رأى أنه لا يقدر عليهم رجع[2] الى نخل وأرسل الى مصر أعلم جركس فعين جركس على بيك ابن اخى قاسم بيك . فسافر الى ان اجتمع مع محمد آغا فى نخل، فساروا الى العقبة فما أمكنهم النزول الى البندر. فمكثوا فى سطح العقبة.

فلما وصل الحاج الى القلعة فوجد العرب قد نهبت القلعة وردمت بير ماء وأخذوا مدافع القلعة ووضعوها على أول حلزونها[3] فما بقى أحد يقدر يملكها من كثرة العرب والحصار الذى قد عملته العرب. فأرسل لهم نجابا ينظر أحوالهم،و ما مرادهم، فطلبوا عشرة أكياس. وعشرة احمال قماش، وعشرة أحمال بن . فعمل لهم ألف زنجرلى وأنهم يخلوا له الطريق فأبوا وقالوا: أين يروح هو ؟ فلما حكم محمد بيك أمير الحاج ابن اسماعيل بيك أن قعادهم لم فيه فايدة، أرسل أحضر شديد وفزاع واستشارهم، فأخبروه بهذا الدرب[4]. وأنه يزيد على المعتاد ثلاثة أيام فزعق نفيره على حين غفلة من الليل. وقصد الدرب الذى أشار به شديد

(١) مكرر بالأصل.
(٢) بالأصل «نزل» وكتب فى الهامش «رجع» ووضعت أشارة أحلال الكلمة مكان «نزل» من النص.
(٣) بالأصل «حزفها».
(٤) بالأصل «الضرب».

عشر من بابه [١١اكتوبر] ينتظرون ركوب مولانا السلطان خلد الله ملكه فلم يركب يوم السبت ولا يوم الاحد بل انهم كانوا في كل يوم من اليومين يلقون القاضي بدر الدين قاضي القاهرة فيقول لهم: حقكم قد ثبت وانا أعرف السلطان بذلك. فلما كان يوم الاثنين السادس عشر من بابه [١٣ اكتوبر] ركب السلطان عز نصره وركب القاضي [عز] بن عبدالسلام واجتمع بالسلطان ويقال انه تضرع واستغفر الله تعالى مما جرى وكان قد

فنزلت العرب من القلعة فنهبت أواخر الحاج وأخذوا تسعة عشر حملا من الأقمشة كانت مع الربايع للتجار وقطعوا نصف الربايع، وهلكت الرجال والجمال وما رجع الى مصر إلا كل طويل العمر واجتمعوا مع علي بيك وباش الأزلم في نخل وباش العقبة ومكثوا ثلاثة أيام، ريحوا فيها أنفسهم والبهايم. وصاروا الى أن دخلوا الى مصر كما ذكرنا والله أعلم.

وفي يوم الاثنين حادي وعشرين صفر سنة ١١٣٨[١]. توفي السيد مصطفى الرفاعي وكان له من العمر ماية وثمانية عشر سنة لأنه ولد سنة ١٠٣٠ وتوفي سنة ١١٣٨.

وفي يوم الخميس رابع عشرين صفر حصل أن أحمد جربجي صاحب عيار سابقا طلع الى الباب.فلما أراد النزول قال له علي كتخدا الوقت: لا تروح فان لي بك حاجة فلما انغلق الباب ونزلت الاختيارية، فأمر بحبس أحمد جربجي في القلعة فحبس.

فلما علم عثمان كتخدا الذى هو باش اختيار بحبس احمد جربجي أرسل له تذكرة يأمره باطلاق أحمد جربجي. فلما جاءته التذكرة ركب ونزل الى بيت قايم مقام وأخذ منه فرمانا بنفيه الى أبي قير، فلما طلع الى الباب نفاه في الحال من ليلته.

فلما أصبح الصباح اجتمع الاختيارية في بيت باش اختيار، وأرسلوا احضروا على كتخدا

(١) ٢٩ اكتوبر ١٧٢٤م / كتب عنوان جانبي «آعرف وفاة السيد مصطفى الرفاعي».

تحدث في حقه قاضي نابلس وقبح ان قاضيا مثل قاضي قضاة مصر يعزل في شهرين. فرسم له بالعود الى القضا وشرط عليه شروطا على ما ذكر من سمعها ولم يثبتها. فعاد القاضي جذلا مسروراً وكذلك اصحابه ونزل في يوم الثلاثا صبيحة اليوم المذكور الى مصر وحكم بعد ان بقيت مصر بغير حاكم احد عشر يوما الا انه ما اعاد ولا ابدى في امر الادر التي ادعى انها كانت مساجد، الا انه ما زال يسير الى شاهد شاهد من شهود محضر

وتشفعوا في رد أحمد جربجي فأبى. فعزروه باللسان. وتكلمت الاوضباشية فقال لهم على كتخدا: أنتم الآن صار لكم كلام لكن أن شاء الله في نظير كلامكم لألبسن عشرين أوضباشا منكم الجزمة لأنكم كثرتم. فقامت عليه جميع الاختيارية وجميع من كان حاضرا في المجلس. ثم أنه قام من المجلس مغضبا فلم أحد أكترثه، وطلع الى الباب، ثم أن باش اختيار منعهم من الطلوع الى الباب فمكثوا ثلاثة أيام لم يطلع الباب أحد منهم، وفي اليوم الرابع أرسلوا جابوا أحمد جاويش الخربطلي الى بيت قايم مقام وألبسوه قفطان الكيخاوية وألبس على كتخدا كرك العزلان، ونزل الى بيته معزولا، وطلع أحمد جاويش الخربطلي الى الباب. وفي ثاني يوم أرسلوا جابوا أحمد جربجي. وكان ذلك في يوم الثلاث اثنين وعشرين صفر سنة ١١٣٨[(١)].

وفي خامس عشرين صفر ورد ركاب عبد الرحمن بالتسليم الى محمد بيك أبن أبي شنب وأن يكون قايم مقام جن علي باشا على ماهو عليه الى حين يحضر، وأن محمد باشا يكون محافظا قلعة جريد محل جن علي باشا وصحبته خط شريف الى شيخ الاسلام قاضي مصر والى العلماء والبكرية والسادات وأرباب السجاجيد، بأن يدعوا الى السلطان بالنصر لكون أنه ملك قعة خنجا بالعجم وهي مينة العجم عوضا عن الزينة فدعوا له[(٢)].

(١) ٣٠ أكتوبر ١٧٢٤م.

(٢) كتب عنوان جانبي «اعرف ملك السلطان أحمد خان قلعة خنجا بأرض العجم».

النصارى قوماً بالترهيب وقوم بالترغيب حتى
استنزل الجميع عن الشهادة واشهد عليهم بذلك
الا ان المحضر قد ثبت وكتب قاضى القاهرة عليه
بالثبوت في دار العدل بعد ان توقف عن الكتابة
اياماً وكتب من دار العدل مطالعة في يوم الخميس
التاسع عشر من بابه [١٦ اكتوبر] وترجمها(*)
جميع الناظرين بدار العدل على جارى العادة
وكان مضمونها: انه ثبت بمجلس الحكم بمصر ان
مسجدين كانا من مساجد المسلمين وقد جعلها

(*) لاحظ كلمة ترجمها. فلعل المحضر كان مكتوبا باللغة القبطية.

وفي تاسع عشرين صفر[١]. ورد الخبر من سكندرية بأن على باشا ورد الى سكندرية. فسافر كتخدا الشاويشية وآغة المتفرقة والترجمان وأحمد باش جاويش وكان أبن أحمد كتخدا مناو وباش جاويش العزب والملازمين الى سكندرية يوم الجمعة خامس عشرين صفر. ثم جاءت الأخبار بعد سفرهم من سكندرية أن بعد ورود على باشا ورد غليونان من الديار الرومية وصحبتهما مصطفى آغا جاويش باشت السلطان وصحبته خطوط. وأيضا صحبته محمد بيك مرجان جوز سردار الخزينة وصحبته أصحاب درك أحمد جاويش سردار مستحفظان ابن باش اختيار، وأن أحمد جاويش لم يزل في حبس السلطان ولم تقبل فيه شفاعة شافع ، والغليون الثاني فيه عسكر السفر الذى كانوا في العجم وجاءهم الآذن برواحهم الى مصر، وان حمزة بيك والسبعة سردارة في اسلام بول والست الذين توجهوا بالعرض وأنهم لم يقابلوا ولا كتخدا الوزير وأنما قابلوا كتخدا محمد باشا الذى العرض بسببه، وهو الذى أنزلهم بيته وأخذ لهم الأذن بالرجوع بعد أن حبسوهم في حبس العين اثنين وعشرين يوما. وان مرجان جوز سبب تعوقه الى الآن أنه سافر الى بلاده وودع أهله وأقاربه وان أحمد جاويش كان قد اسيب. ففى رواح العرض من أبيه رجعوه الى السجن. ولم يبق عنده الا مملوكين لخدمته فقط، ثم انه ورد مصطفى بيك أبن قرا محمد باشا من البر، أغاة القبجية، فأرسل محمد باشا أخذه عنده وأسكنه قريبا من منزله الذى هو فيه.

(١) ٦ نوفمبر ١٧٢٤م.

النصارى ادراً للسكن من مدة ثلاث واربعين سنة ثم ثبت محضر تنجزه النصارى بدار العدل العزيزة ان هذين ا لموضعين المدعي انها كانت مساجد ادر وقفت على النصارى من مدة تزيد عن خمسين سنة ومقتضى ذلك ترجيح بينة النصارى مالم يعارضها تجريح الشهود. وبقيت الرقعة مع الحاجب اياماً انتظاراً لان يركب السلطان أويجلس فيعرضها عليه ويتحدث عليها فلم يركب ولم يجلس وطال الامر عليها الى يوم الاثنين الثالث والعشرين من

وفي خامس ربيع أول[1]. ورد آغا من ثغر دمياط وأنزله محمد باشا قريبا من منزله أيضا. وفي عاشر ربيع أول[2]. ورد خبر الى مصر أنه ورد الى سكندرية غليون ملآن [عسكر] غريب جت. فلما آخبر جركس بهذا الخبر أرسل أتى باغة مستحفظان وقطع له فرمانا من قايم مقام وأمره بأن ينادى به شوارع القاهرة لجميع أهل مصر، أن كل من اسكن غريبا من جنس غريب جت في وكالته أو في بيته يستاهل مايجرى عليه. وكل من قعد بعد ثلاثة أيام يرمى عنقه فى الحال، ونادى في بولاق لجميع المراكبية أن كل من حمل غريبا من دمياط أو رشيد الى مصر يشنق على صاريها. وفي خامس عشر ربيع أول سنة ١١٣٨[3]. شال ابراهيم بيك الفارسكورى بالخزينة من العادلية . وفي يوم الجمعة سابع عشر ربيع أول[4]. ورد ركاب على باشا الى بولاق. وكانت هذه المرة التى تولى فيها محمد باشا النشنجى أربع سنوات، لم يرخص فيها الغلال مطلقا والغلاء قايم والفتنة لم ترقد، وله من الماثر الأرض التى فى السراية.

وكانت مدة محمد بيك في قيامة مقام أربعة أشهر، من عاشر القعدة، الى عشرين ربيع أول سنة ١١٣٨[5]. والله اعلم.

(١) ١١ نوفمبر ١٧٢٤م.
(٢) ١٨ نوفمبر ١٧٢٤م.
(٣) ٢٣ نوفمبر ١٧٢٤م.
(٤) ٢٥ نوفمبر ١٧٢٤م.
(٥) ٢٨ نوفمبر ١٧٢٤م.

بابه [٢٠ اكتوبر] فاجتمع به روسا دار العدل وقالوا ان تاخير عرض هذه الرقعة ضرر علينا وعلى النصارى فانه ربما يبلغ للسلطان ذلك او يكتب اليه الغير فيقول ولأى شئ ما اعلمتمونى فتسيرها الى السلطان فى هذه الساعة على رقعة منك، واملوه ما يكتب في الرقعة فكتبها بحضورهم وحملها الى مولانا السلطان على يد بعض الخدام فلم يخرج لها جواب. ولازم النصارى الاجتماع والطلوع الى القلعة يوم الثلثا والاربعاء والخميس

٨٩ـ ذكر تولية جن على باشا

وكان رجلا كهلا قدم الى مصر واوكب يوم الثلاث فى أحدى وعشرين ربيع أول سنة ١١٣٨[1]. ولم يركب محمد بيك جركس الالاى وانما قابله فى قصر الحلى ثانى يوم ورد، وألبسه الباشا كرك سمور وألبس من كان صحبته من الصناجق، وكانوا اثنى عشر صنجقا منهم أربعة مماليك وهو. عمر. وعمر. ومحمد بيك جركس الصغير. وعلى المحرمجى. واشراقة سليمان بيك جميزة. لأنه لم يكن مملوكه، وآنما كان مملوك أحمد آغا الوكيل وصحبته الباشا مصطفى آغا جاويش باشة وأغا من أغوات السلطان يقال له عبد الرحمن آغا معين صحبة جاويش باشا.

وكان مركبا عظيما وتوجه اليه محمد باشا الى الحلى ومكث عنده الى المغرب وركب من الحلى بعد المغرب. ودخل من باب الحديد وشق البلد في الذهاب. بالنوبة خلفه، وفي الاياب بالمشاعل قدامه والنوبة خلفه. ومكثت الأسواق مفتحة الى أن فات من باب زويلة. وكان الناس داخلين الى المساجد لصلاة العشاء وحكم التاريخ قدومه لنصر على باشا بمصر يؤيد. واستبشرت الناس بقدومه.

(١) مدة ولايته: ٢١ ربيع أول ١١٣٨ / ٨ جماد آخر ١١٣٨ هـ ٢٧ نوفمبر ١٧٢٥ / ١١ فبراير ١٧٢٦م.

فلم يركب السلطان، وفي نهار يوم الجمعة هو لا يركب. واستمر على ذلك ولم يقفوا لمولانا السلطان عز نصره، بل ان القاضي بدر الدين قاضي القاهرة كان يقول لهم انا قد قلت لمولانا السلطان ان محضركم قد ثبت ولكن ان قدرتم على زيادة بينة فافعلوا لاجل ان شهودكم قد نزلوا عن الشهادة. وصار الجماعة يدابون في تزكية الشاهدين الذين كتبا لهم في المحضر اللذين لم يزكيا بعد واحدهما كان ادى في مجلس العدل

وفي ثاني يوم، الذى هو يوم الخميس ثالث عشرين ربيع أول[١]. عمل ديوانا وهو أول دواوينه فأبرز أربع خطوط شريفه، واحد بغلال الحرمين، والثاني بعشرين ألف أردب غلال جهة ابراهيم بيك أبو شنب. والثالث بمقرره. والرابع بعزلان محمد بيك بن أبي شنب من دفتدارية القاهرة، وتولية أحمد بيك الأعسر ثم بعد قراءة الخطوط افرغ على جميع اختيارية الديوان والسبعة أوجاق وجميع الصناجق والاغوات قفاطين.

وكان جملة القفاطين التي البسها الباشا بالديوان في ذلك اليوم مایة وسبعين خلعة، وكان مصطفى آغا جاويش باشا صحبت على باشا بالديوان حين قراءة الخطوط. فلما فرغوا من قراءة الخطوط، قام واقفا على حيله ومسك يد أحمد بيك الأعسر وقال له: حضرة مولانا السلطان أرسل لك دفتدارية مصر وجعلك شيخ البلد. فافتح عينيك ، و انه اخبر بأن محمد بيك جركس بيعمل الجمعيات في بيته ومن هذا اليوم كل من عمل جمعية في بيته من غير فرمان الوزير لا يلوم الا نفسه وكرر عليه القول ثلاث مرات. ثم أنهم أنصرفوا من الديوان الى منازلهم. ثم أن على باشا في ثاني يوم نزل الى منزل محمد باشا فمكث الى العصر.

وفي يوم الأحد الذى هو سادس عشرين شهر ربيع أول[٢] عمل ديوانا ثانيا، فلم يطلع محمد بيك بن أبي شنب وكذلك عمر آغا كتخدا الجاوشية مملوك أبي شنب وجعلوا أنفسهم

(١) ٢٩ نوفمبر ١٧٢٥م.

(٢) ٢ ديسمبر ١٧٢٥م.

وهو الاسعد بن ميسر والاخر كتب ولم يود وهو الموفق بن النحاس وكانوا يريدون انهم ان لم يقدروا على تزكية الاثنين فعسى ان يكون احدهما وكان الامر قد عسر لان الناس كانوا يخافون من [عز الدين] ابن عبد السلم [السلام].

وفي هذه المدة وردت الاخبار بان الافرنج خرجوا من يافا وجاوا الى نابلس وقتلوا كل من كان بها من مسلمين ونصارى وهدموا الجامع الى الارض

مشوشين، فسأل عنهم فأخبروه بمرضهم وأعلموه بأن الدولة مرادهم تغييره وان يلبس محله مملوكه محمود كاشف الخداوية. وكان المخبر له بذلك القول دفتدار مصر أحمد بيك الأعسر ومحمد بيك أمير الحاج، فأبى على باشا أن يلبسه.

والسبب في ذلك: ان عمر آغا كتخدا الجاوشية قد أخبر أن الباشا في مراده ان يعزله من كتخدا الجاوشية ويلبسه قفطان الصنجقية وامارة الحاج. فتوجه الى جركس وأخبره بما سمع، فأجمع رأيهم أنهم يلبسوا محمود كاشف تابع عمر آغا كتخدا الجاوشية، واخلو له بيتا، وفرشوه وأرسلوا له الخدم وارسلوه صحبة أمير الحاج والدفتدارية، وأرسل خلفه الجواد خاليا من غير فارسه فهذا كان السبب.

ثم أن الباشا ألبس مرجان جوز قبطانية السويس. ثم بعد ذلك شرع محمد بيك جركس في عمايل عزومة الى مصطفى آغا جاويش باشا، فأبى أن يروح إلى عزومته ثم ان أحمد بيك الأعسر عمل عزومة له وركب له بنفسه وعزم عليه. فأجاب وركب معه فلما دخل الى منزل الأعسر رأى جركسا وجميع الصناجق الذين من طرفه جالسين، فقاموا له وأهلوه وبجلوه واجلسوه صدر مكان وهو صاحب الصدر بغير خلاف. ثم أن محمد بيك جركس عتب على مصطفى آغا في كونه امتنع من عزومته فقال له: أنا ما جيت لأكل عزايم انما جيت[1] لخدمة

(١) كتب بأعلى هامش الصفحة «منك أطلب المدد».

وحرقوا الاشجار واخربوا الديار. وحكى انهم لما احاطوا بالناس وجمعوهم قالوا من كان نصرانيا ينعزل حتى نخلصه ففرح النصارى بذلك وامتازوا من المسلمين، فلما صاروا عزله عادوا اليهم فقتلوهم اجمعين. واما المسلمون فانهم قتلوا منهم واسروا بعضهم وكان القتل يعم النسوان والولدان والصغار والكبار، واقاموا بها ثلثة ايام ثم عادوا بالسبي والغنايم وكانت فتنة ما روى اشد منها.

مولانا السلطان وأنظر حالكم لأن اخباركم عند السلطان غير محمودة، فأرسلني السلطان لأتحقق صدق الخبر من كذبه، فرأيت الخبر الذى أخبر به السلطان قيراطا من أربعة وعشرين قراطا ولكن أنا خوفي لم يكن عليك وأنت لم تكن عند السلطنة شيئا وانما خوفي على فقراء مصر يموتون بسببكم . وكان بالمجلس كتخدا محمد باشا . فلما سمعوا ما تكلم به مصطفى جاويش قاموا جميعا له على الاقدام ووقعوا عليه يقبلون يديه وركبتيه وقالوا له: حاش الله ان يكون عندنا مما ذكرت شيئا واننا مطيعين حضرة مولانا السلطان وعنقنا له أرق من الشعر وان الذى سمعه هذا كلام كله زور وبهتان وحسد ومن نكن نحن حتى نخالف مولانا السلطان فى أقواله وأفعاله. والزم نفسه انه فى غد يطلع الى الديوان وانقضى المجلس وقدم له الأعسر جوادا معددا والبسه كرك سمور يساوى ألف زنجرلي وانصرف كل أحد الى منزله. وفى ثانى يوم طلعت الصناجق الا جركسا وابن سيده وعمر أغا كتخدا الجاوشية، وطلع على بيك الهندى تابع ابن ايواظ، فالبسه على باشا قفطانا على نظارة الخاسكية ثم أن الباشا قال لهم: تقدم، أن حضرة السلطان أرسل خطين، واحد بعد واحد. بتلبيس الخاسكية الى على بيك هذا وابن ابراهيم بيك يمنعه من اعطاء الخاسكية له واتصلت أخباره الى السلطان فأرسلني(١) لأنظر فى احوال بلده.

(١) بالأصل كتبت كلمة فاخبرني «وشطب على حرفي «فا» رسلني، فاصبح، التصويب «فأرسلني».

ورسم السلطان خلد الله ملكه بخروج العساكر الى الشام فخرج زهآء الفى فارس مقدمهم مملوك يقال له شمس الدين سرا سنقر الذى كان استاذ الدار ووصلوا الى غزة واجتمعوا مع العسكر الذى كان هناك. وكان الملك الناصر معهم وصاروا فى عسكر عظيم وتموا ونزلوا على منزلة تسمى العوجا مقابل يافا وراموا حاصر يافا فاستعد الافرنج لذلك واقاموا [مدة] مديده وبعد ذلك سير

* ميناء وحصن يافا

ثم أن على بيك الهندى بعد أن لبس القفطان قال: يا دولتلى وزير أنت تلبسنى القفطان ومحمد بيك جركس لم يعطينى مفاتيح الشونة فقال له: أنزل والمفاتيح تأتيك، ثم أنه أمر آغا من أعوانه أن يأخذ المفاتيح ويسلمها الى على بيك فلما نزلوا له الصناجق اخبروا جركس تلبيس القفطان على الخاسكية، وارسل اغا لأخذ مفاتيح الشونة وتسليمها الى على بيك الهندى فقال جركس: يالله العجب. هذا له ثلاثة أشهر وهو عامل متشوش والآن يعنى طاب وأنه كان راكبا بنحو المايتين نفس والله أن لم يجئ الى منزلى واصطلح أنا واياه لم يشف مفاتيح الشونة بعينه ولو أنها تفى الى أمر الله. ثم أن رجب كتخدا ومحمد جاويش الداودلى ركبا الاثنان وتوجها الى على بيك واجتمعا عليه وقالوا له: تركب معنا ونصلح بينك وبين جركس لأجل كسر الشر وضمانك علينا أن اصابك شى فبرءوسنا فقال: يا نعم ، يا نعم وأنا حين يقتلنى تطلع تربتى أما أنا والله لا أروح له ولا اجتمع عليه مطلقا وأما كان ضمانكم فانه حكم ضمان مصطفى كتخدا الشريف لما ضمن عبد الله بيك وحط ولده احمد جاويش فى بيته وأخذه لجركس وأرسل جركس للباشا فقتله وأرسل مصطفى كتخدا أخذ ولده من بيت عبدالله بيك، وخلص ابن مصطفى كتخدا ، والله لا أروح له ولا عندى غم منه مطلقا. ثم أنهم قاموا من عنده ولم يركب صحبتهم. ثم أنهم حصنوا جميع المحلات والأماكن بالسلاح والرجال.

السلطان اعز الله نصره الى شمس الدين سرا سنقر المقدم ذكره وامره بان ياخذ العسكر الذى خرج معه ويحضر، فلموا خيامهم وارتحلوا، فلما راى الملك الناصر ذلك حمل ما قدر عليه من قماشه واحرق الباقي ورحل ومضى الى الكرك. واما العسكر الذى بقي هناك وهم الاشراف والصارم المسعود وشمايل ورجال من الحلقه مقدمهم ريحان الصاحبى فانهم رجعوا الى غزه.

* سامريون من نابلس

ومن أعجب ما وقع: ان المراكب التى ورد فيها على باشا، فيها مركب يقال لها قبطانة. وأن قبطانها ورد صحبة الباشا الى مصر وسكن في درب المصنع وصحبته ثلاثون لاوندى[(١)] خدام له، فأخبر جركس ان عنده ماية لاوندى فأرسل الصيفي وصحبته عشرة من السراجين. فدخلوا على القبطان في بيته وأمروه بالخروج كما أمرهم جركس. فما كان من جوابه لهم الا أنه أراد أن يبطش بهم وأمر أتباعه بضربهم، فما ساعهم الا الهروب. ثم أن القبطان ركب جواده وسار الى جركس فلما رآه قام له وأجلسه فقال له القبطان: سفهاؤك يأتون الى بيتى ويتطاولون على في الكلام ويقولون لى أخرج من هذه الحارة فانها ما تساعك[(*)] أنت وجماعتك. فقال له جركس: انا الذى أرسلتهم لك لأن هذه الحارة أهلها فقراء وخوافين لأنهم حضروا جماعتك لاوند يشربون الخمر، فخفنا على أهل الحارة من أذية أتباعك، أنهم عمرهم ما سكن عندهم قباطين. لأن القباطين مسكنهم دايما في التركانة التى ببولاق. فقال له القبطان: محمد بيك: مثل ما أنت صنجق، أنا كذلك باشا بطوخين وهذا الكلام ما يقال لمثلى أن كانت البلد لك وأنت سلطانها سمعنا وأطعنا. وأن كانت البلد للسلطان أحمد تبقى كلامك تخانة وجه والذى يتكلم في ملكه تخين الوجه أنا رجل السلطان والبلد بلد السلطان. قليل الادب أنت مثلك يرسل لى يأمرنى بالخروج من بيتى؟! ثم أنه فز قايما فركب وسار الى منزله وهذا كله سببه الخوف.

(١) بالأصل «دوندى».

(*) بالاصل «تساعدك».

واما احوال اصحابنا النصارى فما كانوا فيه فانهم اجروا ذكر الشيخ السنى عند مولانا السلطان عز نصره فقال انا اعرفه قولوا للقاضى يخرجه. فكتب صاحب يقال له بدر الدين اخو الحاجب على الى القاضى رقعة يعرفه فيها ان مولانا السلطان رسم بخروج السنى الراهب المعروف بابن الثعبان الذى فى اعتقال الشرع وهذا خطى عند سيدنا بذلك. ومضى بها اليه جندار، وكان يوم الجمعة وكان

ثم ان جركس كتب مراسلات وارسلها الى العلماء بأن لا حد منهم يجتمع على القاضى ولا على الباشا، وان كل من اجتمع عليهما لا يلومن الا نفسه.

وان السبب في ذلك: ان محمد بيك جركس اخبر أن القاضى أرسل شيخ الاسلام صحبته سؤالا يطلب عليه جوابا من علماء مصر. فجمع العلماء وأبرز لهم السؤال فقراوه مضمون السؤال ما قولكم؟ دام فضلكم؟ فى طايفة من المسلمين تعدوا على طايفة من المسلمين فقاتلوهم وقتلوهم فى حرز السلطان وهم فى محل مأمنكم.. فأجابت العلماء بانهم يقتلون ولو ولوا مدبرين. فلما أنهم كتبوا على السؤال اخذه القاضى عنده. فلما علم جركس بذلك، أرسل حرج عليهم بعد الاجتماع على القاضى والباشا وأراد أن ينفى الكاتب على الفتوة فما قدر فهذا كان السبب. ثم أن جركس لما رأى الحال رايح يتغير أرسل الى على بيك الهندى صحبة ابراهيم كتخدا العزب يقول له: من يوم عزل محمد باشا جعلت نفسك مريضا الى حين جاء على باشا ركبت وقابلته فى الخلى بمايتى نفس وصرت فى كل يوم تركب فى هذه الطايفة فلابد من أنك تقابلنى وان ما قابلتنى لا تلوم الا نفسك. فأرسل على بيك يقول له: أما ركوبى بهذه الطايفة خوفا من غدرك فأخاف أن تغدرنى كما غدرت بسيدى فى ديوان السلطان محل الأمن. وأن كان ولابد من الاجتماع فيكون فى أحد البيتين، أما بيت عبد

بمصر فاعتذر وقال حتى اجتمع بمولانا السلطان. فكتب اليه رقعة ثانية وهو يقول هذا خطي وعلي العهدة، فابى وقال: هذا في حبس الله علي حق شرعي ما هو في حبسي حتى اطلقه. ولم يعد احد يعرف السلطان ان القاضي رد قوله. وقد كان قبل ذلك قد جرى بين القاضي والوالي مشاحنة بسبب هذه القضية، وهو ان القاضي سير شهودا الى الموضع الجواني حتى تجدد

- -

الرحمن بيك، أو بيت قيطاز بيك. وأما قولك لا تلوم الا نفسك فاني جالس في بيتي وأن كان في رأسك فساد فاركب برهطك وخذني من بيتي ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم.

فلما ورد عليه الجواب قال: نجتمع في بيت ابن اسماعيل بيك وهو محمد بيك فلما ورد الخبر الى علي بيك، فأبى، وباتوا تلك الليلة. فلما أصبح صباح يوم الأحد الثالث ربيع الثاني سنة ١١٣٨ [٢]. وعمل الباشا ديوانا داخل السراية وجمع السبعة أوجاق بحضرة مصطفى أغا جاويش باشا وعبدالرحمن آغا الذى جاء بالتسليم وأبن قرأ محمد باشا والقبطان وأبرز خطا شريفا قرأه عليهم متعلق بالسبعة أوجاق، ان الوارد عليكم علي باشا وصحبته خطوط بجماعة من المفسدين في السبعة أوجاق . تخرجوا من حقهم وأن لم تفعلوا بالخط والا لا تلوموا الا أنفسكم. فلما قرى عليهم قالوا: سمعنا وآطعنا . ثم أن علي باشا التفت اليهم وقال لهم: من كتخدا الوقت اليوم بباب مستحفظان[*] مع معرفته به فأشاروا له وقالوا له: هذا وكان أحمد كتخدا الخربطلي فاعطاه مكتوبا وقال له: اقرأ هذا المكتوب على طايفتك وخذ هذا المكتوب من آغا مستحفظان وأعمل بما فيه ولا تخالف فتندم وخذ

(١) كرر بالأصل الاسم واللقب « محمد بيك».
(٢) ٩ ديسمبر ١٧٢٥م.
(*) كرر بالأصل لفظ «اليوم» حذف ليستقيم المعنى والأسلوب.

تحديده، وكان قصدهم ان يدخلوا فيه بما لا كان فيه اولا حتى يستضيفوا اليه مواضع اخرى، فسير اليهم الوالى مقدم ركابه وقال لهم بامر من عملتم هذا وما هذا التحديد بعد التحديد الاول، فجاوا الى القاضى اعلموه فسير القاضى اخذ المقدم المذكور ضربه وحبسه، فسير الوالى أخذ الشاهدين ضربهما وحبسهما، وكتب كل منهما الى السلطان وبقيت بينهما مشاحنة. ولا شك ان السلطان رجح

صورة مكتوب الوزير بعد قراءته على طايفتك وأعطه لباقى الأوجاق يقرونه على نفرهم فى أبوابهم، وبعد ثلاثة أيام تأتونى بالجواب يوم الخميس. ثم أنهم تفرقوا فى أبوابهم.

ثم ان فى اليوم الثالث اطلعوا محمود آغا الصعيدى تابع عمر آغا كتخدا الجاوشية الى الديوان، وألبسه الباشا قفطانا على كتخدا الجاوشية عوضا عن سيده عمر آغا، وأن محمود آغا هذا كان ولدا صغيرا من أولاد ملوى، وكان ابراهيم أبو شنب لما نزل عمر آغا تابعه كاشف على ملوى، رأى هذا الولد محمود، فأخذه وجعله عنده خداما، فرأى الولد عينه مفتوحة فصار يلتفت اليه الى ان عمله كتخدا الجاوشية، فأطلعوه ديوانين والباشا يأبى ان يلبسه الى أن أخذ كشوفية المنصب وألبسه ثالث ديوان.

وفى يوم الأربع رابع عشر ربيع الثانى(١). عزم ابراهيم أفندى كتخدا عزبان على مصطفى أغا جاويش باشا فى بيته ولم يكن عندهم أحد الا عمر كتخدا الجاوشية وبعض من اختيارية العزب فقط، ولما انفضت العزومة قدم له جوادا معددا والبسه كرك سمور يساوى خمسماية زنجرلى.

ثم ان اختيارية سبعة أوجاقات طلعت الى الباشا يوم الخميس فى الموعد الذى داخل السراية. فلما وقفوا قدامه سألهم وقال لهم: كيف ما فعلتم فى فرمان الوزير ومكتوب آغاة

(١) ٢٠ ديسمبر ١٧٢٥م.

القاضى، فخمن الوالى ومال الى ملاينة القاضى، فاخرج الشاهدين واخرج القاضى المقدم الذى كان حبسه، وبقى الامر على ما هو عليه والجماعة يسعون فى تزكية شاهدين اخرين.

وكان فى هذه السنتين وهى هذه السنة وما قبلها بسنتين قد ظهر فى الفيوم بركة عظيمة وصار فيها من البلطى شي لا يحصى وكان يحمل منه

مستحفظان؟. وجعل خطابه مع أحمد آغا كتخدا الخربطلى، هل قرأتموه على طوايفكم ؟ فقالوا نعم: فقال لهم: ما تقولون ؟ فقالوا: سمعنا وأطعنا لمولانا السلطان فى كل ما يأمر ولو كان فيه هلاك أنفسنا. وان كان هناك خطوط شريفة بكل شئ كان، فانا سميعين مطيعين لمولانا السلطان وللوزير ولجنابكم، خلافا لمولانا السلطان. وان كان عندنا مفسدين أخرجناهم من أوجاقنا وخلصنا من حقهم. فقال لهم الباشا: شكرا لله صنيعكم وهكذا تكون عسكر السلطان وعلى مثلكم، وبكم يشتد ظهر السلطان ولكن تكتبوا لى حجة على هذا القول. فقالوا: نعم . ثم أنه كتب عليهم حجة بما قالوا من خروجهم من حق المفسدين وانفض[1] الديوان. ثم أن فى يوم الثلاث ثامن عشر ربيع الثانى سنة ١١٣٨[2]. طلعت اختيارية السبعة أوجاق الى الوزير وقدموا عرضا من جهة امارة الحاج فقال لهم الوزير أمير الحاج محمد بيك بن اسماعيل بيك ما هو موجود قالوا: نعم ولكن ليس له قدرة على امارة الحاج. فقال لهم: أرسلوا اسالوه ربما يكون له مراد وأنتم تقولون هذه القول من عند أنفسكم.

ثم أن الباشا أرسل كتخداه الى محمد بيك وأخبره بما وقع من اختيارية الوجاقات فصادفه على ما وقع منهم. فرجع الى الباشا وأخبره. فقال الباشا: أرسلوا له. فأرسلوا له. فجاء وسأله فقال له: مولانا الوزير لا طاقة لى. فقال الوزير: نرسل نعرض[3] من جهة امارة الحاج فيرسل

---

(١) بالأصل «انقض». (٢) ٢٤ ديسمبر ١٧٢٥م.

(٣) بالأصل «كرر» لفظ نرسل حذف ليستقيم الأسلوب والمعنى.

الى مصر فى كل يوم حمله لا يحصى عددها حتى ان بعض الاصحاب ذكر انه توجه يوما من القاهرة الى مصر[الفسطاط] فلقى فى طريقه فى تيك [تلك] المسافة ما يزيد عن عشرين حملا هذا خارجا عما يحمل من غير تيك الطريق وما يحمل فى طول النهار وما يباع بمصر والجيزة لانه كان يحمل من الفيوم الى الجيزة على الجمال وله سوق بالجيزة يباع به. وقد ضمن [فرض] السلطان

السلطان يوجه امارة الحاج لمن يريد من أمراء مصر. فقالوا: يروح الوقت منا وتتعطل امور الحاج. فقال الباشا: فكيف العمل؟ فقال أحمد كتخدا الخربطلى دولتلى وزير خدامكم عمر آغا فيه كفاية ولم يعتاز لمساعدة من السلطنة، وبلاد الوقف تكفيه . فقال الوزير: من يضمنه. فقال أحمد كتخدا : هذا رجل لا يعتاز لضمان وأن كنت تطلب ضمانه فبلاده تحت يدك فقال لهم الباشا: أكتبوا عرض حال، بأن محمد بيك لا قدرة له على امارة الحاج، وأن عمر آغا لايق الى الصنجقية وامارة الحاج، وانه لم يعتاز الى مساعدة السلطنة، واكتب عليكم حجة على موجب الغرض، وأنا ألبسه الصنجقية وامارة الحاج ثم انى بعد ذلك ابعث العرض فقالوا له: يا وزير لم يكن عندنا صنجقية خالية من صاحبها فقال لهم فما الحكم؟ قالوا له: مولانا الوزير قدامكم مصطفى بيك تابع القطردار عمى وطرش نتوجه اليه ونرضى خاطره ونأخذها منه لعمر(*) آغا. فقال: أنزلوا افعلوا ما قلتم من كتابة العرض والحجة وتعالوا يوم الأحد وأنا البسه قفطان الصنجقية وامارة الحاج.

ثم أنهم نزلوا من عنده واجتمعوا مع مصطفى بيك القزلار(١) وطلبوا منه سنجقيته، فابى. فلما كان يوم الأحد طلعوا جميعا الى الديوان وأعطوا الباشا الحجة والعرض ثم انه سألهم عن سنجقية مصطفى بيك فقالوا له: ابى أن يعطيها. فلما سمع الوزير منهم هذا القول قال

(*) بالأصل «عمر».

(١) بالاصل «القزدار».

[على هذا السوق] ستين دينارا، ومن هناك يشتريه الناس ويفرق فى البلاد. وكان فيه الكبير واللطيف، واللطيف ما كان يكون وزن البلطية منه اربعة ارطال وتباع كل عشر بلاطى منهم بتسعة دراهم ودون ذلك، واكبر من هذا الوزن بعشرة دراهم العشرة والكبير من اكبر من هذا الوزن بكثير بخمسة عشر درهما العشرة؛ وكانوا يحضروا فيهم ما يقدر وزن كل بلطية عشرة ارطال

لهم: فما الحكم؟ تعملوه أمير الحاج من غير صنجقية ؟. فقالوا له : مولانا الوزير الأمر امركم. فلما سمع على باشا ما قالوه له فقال: أنا أعطيه صنجقية كيخيتى فقبلوا ذيله، ثم أنه البسه صنجقية كتخداه بقفطان وألبسه كرك سمور على امارة الحاج

وكان ذلك يوم الأحد ثانى عشرين ربيع الثانى سنة ١١٣٨[1]. ونزل الى منزله فكملت جملة الصناجق بعمر آغا أربعة وعشرين صنجقا وما كملت الصناجق أربعة وعشرين أبدا الا فى هذه المرة. فاتباع جركس. عمر . وعمر. ومحمد بيك جركس الوالى. المحرمجى. واشراقات على مملوك قاسم الصغير. وسليمان جميزة تابع أحمد أغا الوكيل وعمر أغا تبع عبدالرحمن بيك. هؤلاء اتباعه واشراقاته. وابن سيده محمد بيك. واشراقه رضوان بيك. وهو مملوك محمد جربجى الدفراوى. ومملوك سيده أبو شنب أحمد بيك الأعسر. ومملوكه أحمد بيك. وقبى الضاشه قاسم بيك الكبير، وابراهيم بيك الفارسكورى. هؤلاء الأربعة عشر من بيت أبى شنب مماليكه واشراقاته ومماليك مماليكه وأما البرانيين فهم. محمد بيك بن اسماعيل بيك. وقيطاز الأعور، تابع قيطاز بيك الكبير. وعبد الرحمن تابع حسين آغا استاذ الطالبية. وزين الفقار تابع قانصوه بيك. ومصطفى بيك القطردار. ومحمد بيك مرجان جوز. وابراهيم بيك الوالى. والذى فضل من صناجق ابن ايواظ على بيك الهندى. وعلى بيك الأرمنى . وحمزة بيك المتوجه لسفرة سروان العجم. وأن الكشوفيات والمناصب جميعا على جركس وجماعته.

(١) ٢٨ ديسمبر ١٧٢٥م.

واكثر تباع بدرهم نقره ودون ذلك، وتحققت من السماك الذى يبيعه بالجيزه ان الذى كان يصل منه فى كل يومماية حمل ويزيد وينقص، وان فى اكثر الايام يصل مايه وثلثين حمل على كل حمل مايتى بلطيه يكون العده على هذا الحكم ستة وعشرين الف بلطية.وكان الناس قد وجدوا به رفقا عظيما وما كان معظم الناس بقى له اكل سواه ولولاه ما قدر على اللحم لان اللحم فى هذه الايام قد غلا

- -

واما سبب تلبيس عمر آغا صنجقية كتخدا الباشا: لما أن حصل ما حصل من تلبيس محمود آغا كتخدا الجاوشية اجتمعت الصناجق والسبع أوجاق عند جركس فقال لهم: مرادى أنكم تتوجهوا الى مصطفى بيك وتسلمون عليه وتطلبون منه صنجقيته وله فى نظير ذلك خمسة آلاف زنجرلي يستعين بها على وقته.

فركبت اختيارية السبعة أوجاق واعرضوا عليه ما قاله جركس فأبى. (وقال)(*) كيف ما أبيع صنجقية انعم بها على السلطان؟ والله ما أبيعها ولو بخمسين كيسا ولا يقال على بانى فشلت وبعت صنجقيتي أبدا، لا يكون هذا الامر أبدا.

فلما ايسوا منه ركبوا وتوجهوا الى جركس وأخبروه بما قال مصطفى بيك فشرع محمد بيك جركس في عزومة قاضي مصر وولده وقبطان البيليك[1]. ودفتر دار مصر أحمد بيك الأعسر وعمر آغا.

ثم أنه أعرض أمر صنجقية كتخدا الباشا وقال للقاضي: مرادى نتشفع عندك وأنك تتشفع لنا عند حضرة الوزير أن يعطى صنجقية كتخداه الى عمر آغا الى حين تقع له صنجقية محلول وله في نظير ذلك خمسة آلاف زنجرلي. فقال القاضي: هذا أمر لا يتم الا من يد

(*) الاضافة للتوضيح.

(1) البيليك: نوع من السفن الحربية التى كانت تستعمل فى ذلك العصر. درويش النخيلى، السفن الاسلامية على حروف المعجم، ص ١٨.

غلوا عظيما حتى بلغ الرطل درهمين واكثر مع ان الاسعار كانت رخيت، وانحط القمح الى ان بلغ العال فيه الى خمسين درهما الاردب والى دون ذلك، والشعير الى سبعة عشر درهما وحولها، والفول مثله. وبيع الخبز خمسة ارطال بدرهم وثمن، ما خلا اللحم فانه غال جدا. واما البلطى فما كان ينقطع طول السنة ومن كثرته ما صار يباع فى السماكين خاصة بل فى ساير الاسواق ولا

مصطفى آغا جاويش باشا. ففى الحال اركب احمد بيك الاعسر الى مصطفى آغا يعزمه، فسار اليه وأركبه وأتى به الى مجلس جركس. ثم أنهم تكلموا فى شأن الصنجقية وله فى نظير ذلك ألف زنجرلى فكان. ثم أنهم أكلوا وركبوا فأفرغ عليه جركس كرك سمور وقدم له جوادا معددا. وكذلك القاضى وابنه والقبطان كل واحد كرك سمور واصطلح مع القبطان. ثم ان مصطفى أغا اخبر الوزير بالذى وقع. فلما كان ثانى يوم ألبسه الصنجقية وامارة الحاج فى يوم واحد فهذا كان السبب وانتهت رياسة مصر الى جركس، وملك ما لم يملكه أحد غيره، واخضع الله له أهل مصر. حتى اذا طلب أمرا لا يخالفه فيه أحدا، ولو كان فيه تلاف أنفسهم وهو جالس فى بيته لم يطلع منه ولا الى صلاة الجمعة.

ومن أعجب ما وقع له: انه طلع يوم السبت الى زيارة الامام الشافعى رضى الله عنه ونزل الى الروضة قبل الظهر، فبمجرد ما سمع بقدوم الباشا الى قصر العينى ركب من الروضة وفات الغداء مع أن الغداء كان بيفرق، فقسم للفقراء والمساكين ففرق عليهم جميعا. وصارت الناس تقول ان شاء الله فى كل يوم يأتى باشا لأجل ما يهرب منه ونأكل شيئا ما أكلناه عمرنا أبدا وصار الناس والفراشة يكبوا ما بقى من الطعام وصار الغز رامحين من الروضة الى أن دخلوا بيوتهم.

وكان يوما لم يكن يقع له نظير مع أن الباشا لم يكن معه خبر منه وانما هو طل على العنبر ولم يطلع الى الخلا بعد ذلك اليوم. وكان جركس اذا طلع الديوان لم يمكث فيه الا

صار السمك يعدم اصلا لاجل وجود هذا البلطى. الا انه سيم [سئم] لكثره، واكثر الناس ما كانوا رجعوا ياكلونه بل كانوا يتبطرون حتى يقع لهم فرخ او بنيه [حمام] فياكلون منه. ثم تمادى الامر فى امر ادر الكنيسة الى اوايل شهر رمضان من هذه السنة فاجتمع القاضى [عز الدين] ابن عبد السلام بمولانا السلطان اعز الله نصره وقال له: ان هذه المواضع التى يدعى بها النصارى انها املاك

قدر ساعة وينزل ولم يقابل الباشا. وقد ظهر فى مدته الفساد العام والنهب من الأسواق والدكاكين. ونهبت النحاسين، والصاغة، وخان الخليلى،الحريزانية، أخذوا منها أربع ربط كهرمان، كل ربطة نصف أقية. ومن الغورية الشاشات والقطين وكذلك الاماطين والسكرية نهب فى صورة خطف أو صورة شراء تأتى ثلاثة أو أربعة من السراجين يقعدون على دكان التاجر ويطلبون منه ما يريدونه ويأخذونه بلا شئ فاذا تبعهم صاحب الدكان يضربون عليه الطبنجات. فيرجع ويحتسب الله. وهجموا حمام القاضى وحمام قنطرة الأمير حسن وحمام الموسكى. كل ذلك فعل السراجين ولم أحد يقول حاس. وعروا بعضا من الخواجات فى وسط الأسواق، فمن جملتهم الخواجا حسن مرزوق. وكان معه أربعماية وعشرين زنجرلى فأخذوها وأخذوا حوايجه أيضا وقتلوا أربعة أنفار فى جمعة من أعيان الناس، على جلبى الماوردى بالخراطين المعروف بالقرافى وكان بعد العصر، وسليمان جلبى بن حسين جاويش بحارة الروم، وكان بعد الظهر ورجل جندى قطعوه أربع قطع فى الصليبة وأيوب كاشف أتباع الصابنجى فى رأس الجمعية بعد صلاة الجمعة ومسكت الغفراء أربعة أنفار من السراجين وهم يعروا اثنين من الأرمن فى طريق بولاق وصار الناس فى كرب شديد فقفلت البلد يومين وانتقل الخبر الى الباشا.

فأرسل الى آغا مستحفظان يأمره بالركوب وكذلك الوالى، وأمرهم بأنهم كل من رأوه من

وقف عليهم قد ثبت عندى انها مساجد، والنصارى فلم يثبت لهم شئ لان شهودهم نزلوا عن شهادتهم وهولاء المسلمون قد اشتهوا ان يجددوا هذه المساجد فى ايام مولانا. فقاله له: مهما ثبت فى الشرع اعمل به فنزل الى مصر وسير الى الوالى يقول له قد رسم لى السلطان بان أهد هذه المواضع واعيدها كما كانت مساجد واريد مساعدتك وشدك فسير الوالى الى مولانا

المعاكسين يقتلوه وكان الاغا إذا ذلك لهلوبة تابع جركس والوالى اسماعيل آغا تابع عبدالله الوالى من اشراقات جركس، فمسكوا بعض أنفار من الذين لا علم لهم بهذا الأمر فقتلوهم ونفوا البعض فلم يفد شيئا.

وزاد الأمر فتعب الناس وكثر الغم واتفق ان رجلا من فقراء الأزهر، كان له ولد فأراد أن يطاهره، وكان عنده من حطام الدنيا عشرة أصحن نحاس وطنجرتين، فأخذ من ذلك سبعة أصحن وطنجرة، وأبقى ثلاثة أصحن وتنجرة[1] وأخذهم هو وزوجته لبيعهم فى النحاسين ويطاهر ابنه. فهو فى الكحكيين بالقرب من قهوة الخرابة واذا بثلاثة معاكيس رأوهم فسألوا (المرأة: هل للبيع)[*] قالت : نعم. فتناول واحد الطنجرة وآخر تناول الصحون.

ثم أن الذى آخذ الطنجرة وسار نحو الباطلية تبعه[2] الرجل. والآخر سار نحو القرابة فتبعته المرأة سحب الطبنجة وضربها والاخر ضرب طبانجة اخرى فما أحد حاشهم. فقفلت الناس الدكاكين وأخذوا الرجل ودخلوا الجامع الأزهر واخبروا العلماء بما وقع. فقال العلماء: نحن وقع علينا التحريج من محمد بيك جركس أننا لا نقابل الباشا فرجعت الناس ولم يفد من شكايتهم الى العلماء شيئا.

---

(١) الطنجرة: أناء من النحاس، يستعمل فى طهو الطعام، وتعرف حاليا باسم «الحلة».

(*) الاضافة للتوضيح.

(١) بالأصل «تبعة».

السلطان عز نصره رقعة فى هذا المعنى فلم يخرج لها جواب. فجاء القاضى الى المواضع بنفسه ورسم [افتى] بهدها فهدت لانه ما كان يمنع من ذلك الا الوالى، فلما لم يجد نفساً من السلطنة تخلى. وأشار جماعة من الناس بانه ما بقى يفيد الا الوقوف للسلطان فاجتمع جماعة من النصارى القسوس والصعيديين ووقفوا مراراً، فوقتا توجد رقعتهم ووقتا لا يجاوبون، واخر الوقت وكان

ومما وقع فى بركة الأزبكية من سراجين كيل على كتخدا زوج ابنة سيدى أحمد البكرى شيخ السجادة، أنهم أذوا المتسببين فشكوا امرهم الى الشيخ البكرى، فأرسل البكرى الى على كتخدا يخبره بما فعله سراجينه، فتحور الكتخدا وقال للرسل: والله لولا أنك من طرف نسيبى لأذيتك، ثم أن الرجل خرج من عنده ولم يبد جوابا.

فاجتمعنا به فأخبرنا: بأنه قال له قدام السراجين، يا فلان احنا لأجل فلاحين الازبكية نضرب خدامنا وقد ربيناهم حكم أولادنا لأن الواحد منهم يفوت رأسه عندنا واحنا أن لم نراعيهم ونتغافل عن أمورهم والا فروا من عندنا. فما ساعنى الا انى لم أخبر الشيخ ما وقع منه.

واعجب من هذا: ان رجلا مباشرا من جملة مباشرين الأوقاف، وتاجر فى السكر يقال له عبد الرحيم السلمونى وهو ذو مال، فعن له أن يعمل فرحا ليزوج ابنته . فعزم على العلماء يوم الجمعة وعلى الصناجق يوم السبت وكانوا خمسة صناجق محمد بيك بن اسماعيل بيك، ومحمد بيك ابن أبى شنب. وفى ثانى يوم الأحد عزم على القاضى والنقيب. وفى يوم الاثنين (عزم على)[1] اختيارية مستحفظان. فلما مدوا سماط الاختيارية طلب سراجينهم سماطا لانفسهم، فمدوا لهم سماطا كما طلبوا فامتنعوا عن الأكل.

(١) الاضافة لتوضيح المعنى.

السلطان بالجزيره جاهم بعض الحجاب وقال لهم: قال لكم مولانا السلطان لا ترجعون تقفون فاني لا اسمع لكم كلاماً. وكان القاضي [عز الدين] بن عبدالسلام في ذلك اليوم قد مضى الى تيك المواضع وهو يردد نظره فيها بعد هدم البعض فجاء اليه الوالي وقال له: يا سيدنا كنت الساعة مع مولانا السلطان عز نصره وقد وقفوا له النصارى في امر الكنيسة وامر بطردهم فازداد غيظاً وتحزباً

فقال لهم السيد محمد الطحان وكان مهمندار الفرح:ما تأكلون يا أسيادنا؟ فقالوا له: نحن عادتنا لانأكل حتى نأخذها. فقال:وماهي؟ فقالوا:لكل واحد منا ريال كرا،ما نأكل. فأخبر الشيخ عبد الرحيم بما حصل منهم،فأعطى لكل واحد منهم ريالا وكانوا خمسة وعشرين سراجا وصان نفسه من البهدلة. وكان كتخدا الوقت احمد كتخدا الخربطلي، وكانت جميع الكواخي حاضرين،فلم يتكلم أحد منهم، مع علمهم بما حصل ولم يلتفتوا الى كلام المخبر. وفي يوم الثلاث كانت عزومة اختيارية باب العزب فأخذت منه سراجين العزب خمسة وعشرين ريالا، والمتفرقة والجاوشية واختيارية الجملية والتفكجية والجراكسة في يوم الأربع.

وفي يوم الخميس خامس جماد (أول) سنة ١١٣٨[١] كانت عزومة اغوات دار السعادة لأنهم نظار الاوقاف السلطانية، وهو مباشر أكثر أوقافهم والله أعلم. وفي سابع عشر جماد أول[٢] ورد ركاب أحمد جاويش من الديار الرومية الذى تقدم ذكره، الى أن ورد الى الخانكة. صحبة خيل المنزل في سبعة وعشرين يوما.

فلما ورد الى الخانكة توجه الى بلده أبو زعبل[٣]. فمكث فيها ثلاثة أيام ثم تقدم الى العادلية بعد أن أخذ التقادم من بلده.

(١) الأضافة للتوضيح / ٨ فبراير ١٧٢٦م. (٢) ٢٠ فبراير ١٧٢٦م.

(٣) أبو زعبل : من القرى القديمة التابعة لمركز، شبين القناطر، محافظة القليوبية، محمد رمزى، المصدر السابق، قسم٢ جـ١، ص ٣١.

وامر بهدم المواضع كلها واستضاف لها مواضع اخر، وامتد في الزقاق فهدم من حايط الكنيسة القبلي الى قمية الزقاق الذى يسلك منه دار القسيس معاني والادر التى هناك ودخل في هذا الحد ثلثة ادر علوا وسفلا من هذا الدار التي من شرقي الكنيسة وطبقه الشيخ السنى التي كان عمرها في موضع الفرن العتيق وانتهى الى سفلها الذى كان مطلعاً الى علو الكنيسة ومستخدمات.

ثم ان محمد بيك جركس أرسل له جميع ما يعتاز له المطبخ وصنع له طعاما سماطا لايكاد يوصف، وسارت اليه جميع اختيارية باب مستحفظان ثم أنهم بعد السلام عليه جلسوا على السماط فأكلوا ثم انهم عملوا له الاى عظيما في يوم الخميس تاسع عشر جماد أول سنة ١١٣٨[١]. وفي عشرين جماد أول، توجه مصطفى جاويش الى بولاق وصحبته القبطان الذى جاء صحبة على باشا يريدون السفر الى الديار الرومية، وصحبتهم عرضين من مصر الى الاعتاب العلية مضمونهما: لم يكن عندنا مفاسيد في مصر وان المفاسيد الذى كانوا بمصر هلكوا مع جملة من هلك مع ابن ايواظ بيك، والثاني من جهة جركس بأنه مصلح بالبلد ولولا وجوده وقطع ما تقدم من المفاسيد لكانت مصر وأقطاعها خرابا وأن وجوده (في) مصر كوجود النيل على أرضنا، ينتفع به البار والفاجر، وصحبة مصطفى جاويش ثمانين ألف زنجرلي الى السلطنة وعشرة آلاف زنجرلي الى الوزير وعشرة آلاف مثلها الى[*] اغوات البنات بشير آغا القطردار وأنه مطيع الله والسلطان، ولولا وجوده على الفقراء والمساكين لهلكوا.

وأما مصطفى جاويش والقبطان فأنهم عملوا لهما الايا وركب قدامهما جميع الصناجق والاغوات واخرجوهما بالاى الباشات حتى يدخلون الى مصر، وانهم أعموهما من كثرة ما اعطوا لهما من ذهب فندقلي وبن وسكر وخيل وعدد وفراوى سمور عمرهما مالبساها

(١) ٢٣ يناير ١٧٢٦م.

(*) قدم وأخر.

واستمر الهدم وبقى زقاق الكنيسة لا يسلك من الهدم والردم والطوب والاخشاب، وصار القاضى يتردد كل يوم الى الكنيسة ويقوى جأش اوليك الجماعة الذين كانوا سبب الفتنة المدعين والشهود والمتعصبين. وفى اثناء هذه القضية جاء شخص يقال له ابو الحسن بن مكين القزاز مسلمانى وهو من تيك الجماعة المقدم ذكرهم وهو الذى كان ادعى على الشيخ السنى اولا وعمد الى طاق فى

وأقمشة هندى ومسك وعنبر وعود الى ان بقى الحلى لا ينشق من كثرة الهدايا. ولما دخلوا الى القصر وشربوا القهوة والشربات، وأعطا جركس عرض حال من جهة أمارة الحاج الى عمر بيك، وأن أحمد جاويش بن مصطفى كتخدا باش اختيار كان قد أخبر جركس فى حال وروده أن جميع السدادرة الذين تولوا من مصر تغيروا جميعا بالموت وان منهم سرداره، تغير أربع (مرات)(*) الا محمد جربجى هياتم سردار التفكجية، فانه لم يتغير، وأن حمزة بيك قد مات. والبسوا صنجقيته الى رجل يقال له جعفر آغا، وقد كان سابقا ساعى أيواظ بيك وكانت الهمة له فى لبس الصنجقية ابراهيم باشا، واعطى خطا بجميع بلاد حمزة بيك له وان لا أحد يعارضه لكون أنه اشراق الوزير. وأخذوا منه عوايد الصنجقية وحلوان البلد ستين كيسا، وكان العسكر متهى الى السفر الى مصر وانما المانع لهم من السفر الشتا. وأخبر أيضا أنه أجتمع مع ابراهيم بيك الفارسكورى وانك يا مصطفى آغا تكون مساعدا الى ابراهيم بيك فى سفره الينا فإننا نعتازه فى مصر، وأن أحمد جاويش فى حال خلوصه من السجن لم ينتظر خروج الشتا وأتى فى المراكب لأنه حبس ثلاث مرات. فلما خلص فى المرة الرابعة عدى الى اسكدار وتوجه الى مصر من على البر وقد أخذوا منه خمسة عشر الف زنجرلى قد حطهم عن البازرجان وأخذوا له فرمان خيل المنزل الى مصر. فما أصبح الا بينه وبين مصر أيام. وكان مدة غيابه سنة

(*) بالأصل «تغيرت أربع مراره».

طبـقـة من الطبـاق التى هدمت وهى فى سـور الكنيسة وهى من جملة طاقات دايرة فى سورها، فجاء الى هذه الطاق التى هى الى ناحية القبلة على زعمهم وان كان معها طاقات عديدة فى هذا الحد الا انه اختص بهذه فكتب فيها الشهادتين التى لهم بالمغرة وعمل عليها التراب حتى ترى انها عتيقة والصق عليها قطعة بياض من الذى نقص. وكانت امراة من السكان تبصره، وبات فى المكان

وأربعة أشهر فى مشقة وعنا واعراض فى كل يوم وحبس وعفو. فلما حصل له العفو فى هذه النوبة وأخذ له البازرجان الفرمان، ما بات الا فى البر الثانى خوفا من الحبس مثل ما عملوا معه فى الأول . فلما سافر سألوا عليه بعد فوجدوه قد سافر منذ أيام والله أعلم.

وفى رابع عشر جماد أول سنة ١١٣٨[(١)]. أعطى الباشا فرمانا الى أحمد أغا لهلوبة ينادى به فى شوارع مصر القاهرة، لطايفة[(٢)]. اليهود بأن يلبسوا الطراطير والطواقى الزرق، والنصرانى يلبس القلايق، والافرنج قلايق وبرينطاط، ولا يلبسون جوخ أحمر ولا بوايج صفر ولا مزوز صفر ولا شخاشين، وكل من خالف ولبس، فللرعايا أخذه منه، وللحكام أن يخرجوا من حقه ولجميع الغربا كل من قعد بعد ثلاثة أيام يقتل ويكون دمه هدرا.

وفى ثانى يوم أرسل محمد بيك جركس أحمد يكن الأعسر وابراهيم أفندى الى كتخدا عزبان الى مصطفى آغا جاويش باشا ببولاق بأن يسافر فأخذ منهم مهلة الى يوم الجمعة لأن مصالحه لم تتم، ولم يكن محمد بيك جركس عنده خبر من الأمر الذى زيدوه عليه، وهو أنه لما طلع جاويش باشا الى بولاق كما تقدم له أنه عمل غما مع على باشا من جهة جركس، لأنه جاويش باشا ما عمل الصلح بينه وبين جركس الا لغرض وتدبير بينه وبين الباشا القديم محمد باشا النشنجى لأنه لما حصل ماحصل من قراءة العرض بقتل المفسدين الذين تقدم

(١) ١٨ يناير ١٧٢٦م.

(٢) كررت كلمة «لطايفة» بالأصل.

يحرسه فلما اصبح مضى الى القاضى وقال له ياسيدنا قد ظهر لنا الحق ووجدنا المحراب فيه الشهادتان مكتوبتان من قديم الزمان فجا القاضى وخلق لا تحصى من المسلمين الى ان كان الملح اذا رمى عليهم لا ينزل الى الارض وراى المكان وعمل بذلك محضراً واشهد فيها جماعة من العدول بانه وجد كذا وكذا وسيره الى مولانا السلطان. وحكى ان السلطان عز نصره لما راى ذلك قال هذا الرجل

ذكرهم، وأخذ ما تقدم ذكره من الذهب واصلاح السلطنة عليه. وتوجه الى بولاق جاءه خبر بأن على باشا أراد أن يأخذ الذهب ويخفى الخط، ويموه بالسلطنة، فجعل هذه النكتة ونزل الى بولاق . وكان قد قام على على باشا بهذا السبب حتى ان على باشا قال لمصطفى آغا : والله أقتلك ولم أسلم لك الفلوس توديها أنت، وأنا آخذها ايش لك، أنت فى أحكامى . ثم انه أجتمع مع جركس وأخذ منه ما تقدم ذكره من الثمانين ألف أحمر التى للسلطنة والعشرين للوزير والقزلار. ونزل الى بولاق متحيرا فيما يصنع فاجتمع مع الباشا القديم وقال له: رايح أدبر لك أمرا يعجز عنه أفلاطون، لكى لا تكون معى. فقال له: افعل. ثم أن مصطفى آغا اجتمع على على بيك الهندى وزين الفقار وقال لهما، هل فيكما قدرة لمكايدة جركس ومحاربته ؟ فقالوا: نعم. ثم أنه أخذ على بيك الهندى وزين الفقار، وكان مخبأ عند على بيك فأخذهما ليلا واجتمعوا على الباشا القديم ودبروا أمره فى الغيب قبل تدبيرهم وقروا الفواتح على قتل جركس ثم أنهم تفرقوا واجتمع على بيك، على الشواربية وقبض منهم ثلاثمائة كيس، وأضافوهم على ما تسلمه جاويش باشا وأرسلوهم الى الباشا القديم، فتسلمهم وأرسل الى الاطراف التى هى خارجة عن طاعة جركس من الأوجاقات السبعة وفرق عليهم الذهب، وربط جميع المحلات بالرجال ولم يشعر أحد من طرف جركس.

والسبب فى ذلك: أن جاويش باشا اجتمع عند الباشا وعلى بيك وخليل أفندى وزين الفقار

من الاولياء ولا ينبغي ان نرادده في شي. وما كان في الارض قضيه اعجب من هذه القضيه ان يكون محالا وتتميما وتعصباً وكل عاقل وشيخ من المسلمين يشهد بان هذا محال وشى ما كان قط وبعد هذا نصر هذه النصرة وتم فيه ما لم يتم فى زمن من الازمان الا ان هذا كان تخليه من البارى سبحانه وعقوبة لاهل هذه الكنيسة التى انا من جملتهم. واما الشيخ السنى فان هذا كان له زيادة

- -

وقالوا: ما الحكم؟ فقالوا : نقتل رجب كتخدا ونملك باب مستحفظان. فقال على بيك الهندى، لا يتم لنا أمر بموت رجب ويتلف نصفنا[1] لأن باب مستحفظان فى يدنا ما خارج عنا الا باب العزب، وبوجود ابراهيم كتخدا فانه يعد بعشرة آلاف واما رجب ومحمد كتخدا الدوادلى ليس لهم عزوة حكم ابراهيم أفندى وكان تدبيرا جيدا من الهندى، ولو لم يمت ابراهيم كتخدا ما كان تم لهم أمر. ثم أنهم جمعوا اثنى عشر رجلا، منهم أبو دفية مصطفى خزندار يوسف بيك الجزار، وهو الفار وابراهيم الاعسر وارسلوهم الى الرميلة. فهم واقفين في سوق الخيل واذا بابراهيم كتخدا طالع وقدامه الاختيارية ومن جملتهم: يوسف جربجى البركاوى. تابع حسن اغا وكان معه الخبر واذا بابراهيم الخزندار مسك لجام جواده بيمينه وضربه بيساره فارمى عنقه وكان أعسر. ففرت جميع من بصحبته، فوقع قتيلا وفى دمه هدير[2]، وكان يوم الخميس خامس جماد آخر سنة ١١٣٨[3]. ثم أنه نزل من على جوادة وحز رأسه وأخذها وتوجه نحو باب العزب وعلقها على باب العزب. واما الاختيار الذى كان معه العلم دخل بابه والذى من حزبه فر هاربا نحو داره، فما شعر كتخدا الوقت الا ومحمد بيك الوالى جركس الصغير داخل عليه، فأخبره بما حصل ، ففر جركس هاربا. فما طلع من

(١) بالأصل «منصفنا».   (٢) بالأصل «هديرا».

(٣) ١٩ يناير ١٧٢٦م/ كتب عنوان جانبى «أعرف واقعة محمد بيك جركس، وجماعته وما وقع لهم».

بر ومضاعفة اجر وشهادة وجهاداً وسبقا لانه لم يكن يستوجب ما جرى له من المحن الا على هذا النوع لا غير. ثم ان القاضي جاء الى الكنيسة [المعلقة] ودخلها واخذ بيده قادوما وصار يهد بيده وهدوا السور الذى كان فيه الطاقات الذى ذكروا ان فيه وجدوا المحراب وليس محراب بل طاق من جملة طاقات عدة وهم كانوا يشهدوا بان هذا المسجد كان ارضيا والبرانى كان معلقاً وهذا

باب العزب واذا بباب العزب قد امتلأ بعلى بيك الهندى وأخو اسماعيل بيك بن ايواظ مصطفى بيك وعلى بيك الأصفر وزين الفقار بيك وعلى بيك الأرمينى وعلى الوزير ومصطفى بيك تابع الدمياطى، ومعهم عسكر لا تكاد توصف دخلوا باب العزب على حين غفله. فلما رأى العسكر الذين فى السلطان حسن هؤلاء الجماعة ملكوا باب العزب ولو الأدبار [1]، وركنوا الى الفرار لأنهم كانوا من طرف ابراهيم كتخدا المقتول . ونزل الباشا المتولى الى باب العزب. وكذلك الباشا القديم، وظهر خليل أفندى وأبو دفيه وجميع الشوارية وجميع الفقارية كأنهم النمل. ثم أن الباشا البس أبو دفية أغاوية مستحفظان وحبس أحمد آغا لهلوبة فى القلعة. وسليمان الأقواسي وأحمد أوضباشا أخو رجب كتخدا نزلوا الى باب العزب، فلم يقبلوهم. فتوجهوا الى بيوتهم يتدارون فيها. ثم أن الباشا البس أغاوية السبعة أوجاقات جميعا. فالبس عبدالله أغا كتخدا الجاوشية وسليمان أفندى أغاوية المتفرقة، والبس حسن أغا الجملية سابقا الصنجقية، وألبس مصطفى أغاة الجملية سابقا تابع بلفيه الصنجقية، وخليل آغا تابع الجزار البسه أغاوية التفكجية، وسليمان آغا البسه أغاوية الجراكسة وابقوا خليل أغا البشلى على ما هو عليه آغة العزب، والبست قفطان الصنجقية الى مصطفى جلبى بن ايواظ أخو اسماعيل بيك، وعلى آغا الأصفر عملوه صنجقا، ومحمد جلبى ابن الجزار عملوه صنجقا

(١) بالأصل «الابدار».

المحراب الذى ادعوا به فى طبقة وكان هذا السور
ينتهى الى اسطوان عرضى فيه ثلاثة هياكل
احدهما وهو الصدرانى على اسم القديس ابو فكتر
والثانى على اسم يوحنا المعمدانى والثالث على
اسم ابينا انبا انطونيوس وهذا الموضع كان موضع
المغطس العتيق الذى غيره الشيخ السنى وجعله فى
كنيسة استافنس، وكانت الكنيسة المذكورة فى
ظهر هذا الاسطوان فهدموا الكنيسة الاخرى

والبسو سليمان آغا تابع درويش بيك الصنجقية، والبسوا زين الفقار قفطان الصنجقية على ماهو عليه لأن جركس أمر محمد باشا النشنجى برفعها عنه، والبسوا الولاية الى حسن جربجى تابع على آغا أغاة مستحفظان.

ثم أن على باشا المتولى أمر بطلوع البيرق الى الرميلة، وأرسل الى سليمان أغا أبو دفية بأن ينزل ينادى جميع العلماء والاشراف وطلبة العلم والعسكر والرعاية، بأن كل من كان طايع الله والسلطان يأتى تحت البيرق النبوى بالرميلة فطلعت الناس جميعا الى الرميلة. ثم ان الباشا ارسل أتى بالعلماء والاشراف والصناجق والاغوات وأعيان العسكر والبكرى والسادات ونقيب الاشراف وقاضى مصر الى باب العزب، والباشتين محمد باشا المعزول وعلى باشا المتولى وأظهر لهم خطا شريفا قراه عليهم بأن محمد جركس يكون باشا بطوخين ويتوجه لمحافظة غزة، فان أبى فعليكم بقتله وقتل ما يكون معينا له، ونهب ماله وهدم بنايه ونهب مال من يكون من طرفه والمعين له بموجب فتوة شيخ الاسلام وأظهرها وخط شريف فيه نحو ثلاثين أية من كتاب الله تعالى وأحاديث شريفة مطابقة الى فتوة شيخ الاسلام. فلما سمعت العلماء الخط والفتوة والأحاديث قالوا جميعا: نرسل نكاتبه. ثم أن الباشا أرسل له قاصدا من خدمة الشرع يأمره بالحضور الى الشرع الشريف وسماع الخط واطاعته الى ما يدعوه السلطان بالتوجه الى غزة وعدم مخالفته، فتوجه القاصد وأظهر له فرمان الوزير فأبى وقال: لا يمكن

وهدمـوا السلم والمطلع والغـوا الموضع البـرانى
بالموضع الجـوانى ولم يبق فى الكنيـسـة سـوى
الاسطوانات الثلاثة لا غيـر ولم يبق بهـا فـرن ولا
مستخدم ولابقى احد يصل الى علوها الذى على
الاسطوانين اللذين فى الجـانبين، فـامـا علو تيك
المواضع فانه هد مع سفلهـا وكان الذى عـدم من
الكنيـسـة اربع كنايس وسـبـعـة هيـاكل والفـرن
والمستخدمات والمطلع وخمسة ادر، وبقى النصارى

أن أطلع واقابل هذا الجمهور، واني قاعد في بيتي فان قاتلوني قاتلتهم ولا يمكن أني أطلع من بيتي مطلقا وأرسل لهم القاصد بما قال، فلما توجه القاصد أرسل احضر جميع حزبه. ثم أنه أحضر محمد بيك بن اسماعيل بيك الدفتدار، واحمد بيك الأعسر، واسماعيل آغا الوالي تابع عبدالله آغا الوالي، وعلى آغا الوالي سابقا، وسليمان بيك جميزة وابن سيده محمد بيك ومملوكه رضوان بيك وأحمد افندى الرزنمجي وعلى بيك وقاسم بيك الكبير ومحمد بيك جركس الصغيرى ثم أنه أرسل رضوان بيك وعلى بيك المغلق الى الشيخونتين فملكوا ذلك المحل.

ثم أن الباشا لما رجع له الجواب من جركس ورأى خيل جركس ترمح نحو الشيخونتين التفت الى العلماء وقال لهم: ماتقولون يا موالينا فيما سمعتموه من رد الجواب؟ ومن الذين تعاينونه من خيله وهى ترمح قصادكم؟ فقال: الجميع قد طغى وبغى وتجبر وعصى فأخذ عليهم حجة بعصيانه ومخالفته أمر السلطان وأخذ خطوط أيديهم على الحجة. ثم أنه ركب عشرة مدافع على عربات وجرتهم الخيل وأمر العسكر بنزولهم صحبة المدافع فنزلوا نحو الشيخونتين ليهجموا عليه في بيته فوجدوا رضوان بيك وعلى بيك المغلق قد حصنوا فى ذلك المكان ليردوا العسكر عن بيت جركس، فضربوهم بالمدافع فتحدروا منهم الى زاوية الخضيرى وأزرقوا بيارقهم هناك.

في حزن وكآبة لم يروا مثلها من زمان وذلك على العقلا منهم وذوى الدين والتميز. وفى اثناء هذه الشدة مرض البطرك جمعه من الايام وتوفى فى يوم الثلاثا الرابع عشر من برمهات [١٠ مارس] من هذه السنة الموافق للثامن عشر بالعدد من شهر رمضان سنة اربعين وستماية بدير الشمع، وفى الحال جآء بعض النصارى الذى عليهم اسم النصرانية خاصة وهم عماد الراهب المرشاد المقدم

ثم أن العسكر أفترقت فرقتان: فرقة منهم نزلت على المظفر الى بيت على بيك المغلق فكسروا بابه ودخلوا لنهبه فهم فى النهب. اذا بالصيفى وصحبته ثلاثماية من السراجين والسياس ومقدامهم أبو الشراميط وبايديهم السيوف صلتا فوقعوا فيهم وهم مشغولون بالنهب.

ثم ان جركس وقاسم بيك طلعا على الفرقة الثانية التى عند البيارق بزاوية الخضيرى فكرشوها الى سبيل المؤمنين ووقعت الكسرة على الفرقة التى من طرف الباشا، وأركز جركس بيرقه على سبيل المؤمنين، وقاسم بيك أركز سنجقه على قهوة الظربة، ورجعت البيارق منكسرة والفرقة التى دخلت بيت على بيك مات منها العشرين ورجعوا مكسورين. وقد مات من الفريقين نحو الخمسين نفسا، وبيارق الانكشارية طلعت نحو المحجر وبيارق العزب دخلت بابها ووقع الرصاص على الباشات من داخل المحمودية ومن زين الفقار من السلطان حسن. فلما رأت الصناجق هذا الأمر ركبت العسكر والاغوات وجاويش باشا والقبطان والباشا المتولى والمعزول وهجموا عليهم فردوهم الى الشيخونتين وصارت الكسرة على جركس، ونزلوا هناك وعملوا متاريس على قدم الصليبة وضربوهم بالرصاص وكان جركس قد اخذ منهم خمسة مدافع حين التهوا فى النهب ثم آنهم باتوا طول ليلتهم يرمون عليهم بالنار. وفى ثانى يوم الذى هو يوم الجمعة سادس جماد الثانى سنة ١١٣٨[١]. أمر الباشا أغة مستحفظان أن يشهر

(١) ٩ فبراير ١٧٢٦م.

ذكره والقس سمعان الذى كان كاتب القلاية وجرى منه ما تقدم ذكره وذكر ان معهم انبا يوساب اسقف فوه واعلموا الصاحب معين الدين بن الشيخ بان البطرك توفي وانه خلف جملة مال فسير احتاط عليه وعلى موجوده جميعه وختم على الجوسق وهو فيه ميت وبات كذلك فلما كان ثاني يوم وهو يوم الاربعا سير والي الجيزة وكان

النداء فى القاهرة لجميع العساكر بأن يطلعوا الى باب العزب وكل واحد يأخذ عثمانين تراقى والف ديواني، فطلعوا وكتبت الباشان الفا وخمسماية رجل، ستماية من الانكشارية واربعماية من العزب وخمسماية من الخمسة أوجاق وأعطوا لكل واحد الف فضة، وجعلوا عليه صارى عسكر زين الفقار بيك. ثم ان زين الفقار هجم بالعسكر على بيت جركس فمنعهم جماعة جركس بالرصاص فرجعوا. فلما رآهم القبطان أرسل أتى بثلاثة مدافع وركبها على قصر يوسف وأرسل الستماية التى كانت وراء المدافع الى بيت جركس وعلى كل ماية مقدم، فعثمان جاويش القزدغلى باش على ماية والمولى على على ماية والدمياطى على ماية وعلى كتخدا ميسه على ماية والمايتان فى قصر يوسف، فصارت النار نازلة على جركس ومقعده وعلى حريمه. فخرج سليمان كتخدا جركس وأخذه قاسم بيك وجماعة من عسكره وهجموا على العسكر واذا برصاصتين[1] من خلف المدافع فكل واحد حطت في واحد فلفتوا خيلهم وولوا منهزمين الى بيت جركس. فما دخلا الحوش الا وقد وقعا الى الأرض ميتين والمدافع نازلة من قصر يوسف مثل المطر فاهلكت خلقا كثير. ومن جملتهم قاسم بيك وكتخداه سليمان. فما ساع جركس الا الهروب هو وجماعته الذين كانوا عنده فى داره وطلعوا خلفه[2]. وهم :

(١) بالأصل «برصاتين».
(٢) كتب عنوان جانبى «اعرف خروج محمد بيك جركس وجماعته من مصر وفرارهم».

اميرا يقال له شمس الدين الطنبوغا، وكان والى الغربية قبل ذلك مدة طويلة، وسير معه وكيل السلطان وهو كمال الدين بن الفقيه نصر فجآء الى الدير ومعهم شهود واخرجوا الميت بعد ان بات الليلة فى الظلام بغير سراج(*) يقد عليه واثبتوا الموجود. ويقال انهم وجدوا له ستة عشر غفاره عنابى وغيره، واربعين وزره مثمنه، واما من الثياب

(*) يوقد سراج إلى جانب المتوفى حتى موعد دفنه.

احمد أفندى الرزنمجى واغة التفكجية الزنانى ومحمد بيك جركس الصغير وأحمد بيك الأعسر وابن سيده محمد بيك وعمر الصغير بيك وعمر امير الحاج وعلى بيك المغلق وابراهيم كتخدا ابو شنب وابراهيم بيك والوالى والنظامى والصيفى وبعض من الاتباع. وطلعوا من بيته فى مقابلته لسليمان اغا، فضربه جركس بالسيف فأهدل كتفه ولم يكن الرجل قاصدا له وطلع الى مصر القديمة فلم يجد مراكب لأن اخصامه نادوا لجميع المراكبية بأن الذين فى بولاق يعدوا ذلك البر والمراكب التى فى مصر تعدى الجيزة، وأنهم لم يعدوا احدا الى ذلك البر فلما لم يروا المراكب ساروا الى معدية الخبيرى فعدوا الى ذلك البر، الى ان طلعوا كرداسة وانقطع خبرهم.

ثم أن العسكر هجمت على بيت محمد بيك جركس وقاسم بيك وأحمد بيك الأعسر وجركس الصغير وقاسم بيك وابن أبى شنب والصيفى وعمر بيك وعلى بيك ورضوان بيك والنظامى ولم يبقوا بيتا ينسب لجركس الا ونهبوه. وقد وجدوا فى بيت قاسم بيك ومحمد جركس وعبد الرحمن النظامى شيئا لا يكاد يوصف من نحاس وفرش وبن وسكر ومبسطاريات جوخ لا تعد . ومن الغنم فى بيت جركس نحو الفا رأس ومن الحرير نحو الف قنطار، فما جاء وقت العصر حتى لم يبق فى هذه البيوت ولا مسمار فى خشبة ولا خشبه فى

والعمايم والسراويلات والبلاريات (*) والعراضي والجحور(*) التي للبدلة التي تكون على الرأس فشي كثير الا انني ما تحققت عدته، وذكر لي بعض الجماعة ان عدة السراويلات اربعون والعهدة عليه، ووجد له على ما ذكر ست عشرة علبة حلواء وقد زنخت وساس بعضها، وست قروات تمرا عتيقا وغير ذلك مما يجرى مجراه، فاحتاطوا

(*) البلاريات: جمع بلينة وهى عباية كتيسة.
(*) الجحور: صحتها الحجور، وهى الثياب. أو الغطاء للرأس.

حايط(١). وكنت واقفا على مسطبة الجنينة بعد العصر وقد فرغ النهب والهد حتى أخذوا المكعب النفيس الذى هو من الجنينة الى المقعد، واذا باغة مستحفظان سليمان آغا أبو دفية دخل الى البيت فطرد الناس وكانوا متفرجين، وأما النهابون فقد فرغوا منه وذهبوا لغيره. ثم أنه قفل الباب البراني ولم يبق من الأبواب غيره، وكان جركس مكث أربع سنين يعمر فيه فخرب منه ضحوة الى بعد العصر، وكانت تلك القاعات والجناين والكشكات والقصور (كأن)(٢) لم تكن أبدا وبقيت هي والأرض شئ واحد، وكذلك جميع البيوت نهبت وخربت حتى بيت أبي شنب نهب وخرب منه شئ قليل.

ثم أن اختيارية باب مستحفظان أرسلت تطلب رجب كتخدا من بيته فأبى أن يطلع، فأرسلوا له محمد جاويش الداودلي وعلي كتخدا ميسه وعمر كتخدا البرلي. فلما رآهم اكرمهم وركب صحبتهم الى أن جاء الى سويقة العزى الى بيت سليمان كتخدا الخربطلي

(١) كتب بالهامش: كما قال الشاعر:

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا.
صروف الليالي والجدود العوائر

(٢) الاضافة لتوضيح المعنى.

على الجميع واثبتوا مع اوانى الكنايس وكساويها التى كانت عنده والكتب التى كانت له وللكنايس وكانت كتبا لها قيمة لانها كانت منتخبة مثمنة.

ثم قالوا لابن اخيه ابى سعيد ولوكيله وخازنه وكان صبيا يعرف بابى الفرج بن خلبوصى البنا: اين المال؟ قال: ما نعلم شيا. فتشدد الامير عليهما. فقال له ابن اخى البطرك: انا رجل غريب ما كنت

باش اختيار فدخل فيه هو ومحمد جاويش الداودلى ودخلوا فى عرض سليمان كتخدا، فأبقاهم عنده وأرسل جماعة من عنده تحرس بيوتهم من نهب الرعية. ثم ان الباشتين ومصطفى آغا جاويش باشا قعدوا فى باب العزب وجاءتهم اختيارية السبعة أوجاق قابلوا على باش المتولى ومحمد باش المعزول وهنوهما بالسلامة، وجاء أمير الحاج محمد بيك بن اسماعيل بيك الدفتدار وهنته العسكر بالسلامة الذى خلص من يد جركس، لأن أراد قتله فهرب. واسماعيل آغا كاشف قليوب ومصطفى آغا آغة المتفرقة سابقا هربوا لأنهم كانوا محبوسين عند جركس وكان مراده قتلهم. فلما هرب لم يفتكرهم لأن بيته أخذ فى أقل من عشرة درج، ثم أنهم أحضروا سليمان بيك جميزة وعزره الوزير وشال صنجقيته وعفى عنه. ثم أنهم فتشوا على محمود آغا كتخدا الجاوشية تابع عمر بيك أمير الحاج الذى تقدم ذكره ثم ان الباشتين تفرقا الى محلاتهما وتفرقت العسكر والعلماء وجميع أرباب السجاجيد.

ومن أعجب العجاب: ان فى حال خروج جركس من باب قناطر السباع غيمت السماء وأمطرت فى الحال. ثم أن على باشا عين تجريدة خلف الفارين وعدوا الى الجيزة. وكان هروبهم من مصر يوم السبت سابع جماد آخر سنة ١١٣٨[1] ولم يعاين الا يوما واحدا فقط وهو يوم الجمعة وما جاء عصر يوم السبت حتى لم يبق فى مصر من جماعته أحد، والذى لم

(١) ١٠ فبراير ١٧٢٦م.

عند القوم هذا الخازن والمتصرف. قال له الامير: المال والا عصرت اصداغك فى هذه الساعة فدخل الى موضع اخرج منه من تحت بلاطة الف دينار وكسوراً واخرج من الدراهم النقره والسواد، ما ذكر ان الجميع تناهز الفى دينار فاخذوا المبلغ فى حرمدان [مفرش أو طرحة] حسن الصنعة له قيمة وختموا على المواضع وتوجهوا واخذوا معهم ابن اخى البطرك مع الاساقفة الذين كانوا حاضرين.

- -

يهرب توارى ولم يتوار الا ما قل حتى هجعت القضية سافر خفية. فسبحان المعز المذل، بغى فأخذه الله ببغيه[1]. ثم أنهم أرسلوا لشيل القتلى الذين فى بيت جركس فرأوا من جملة القتلى قاسم بيك الكبير، فأخذوه وغسلوه فى الحوض المرصود فى الرميلة. فبعد عزلان محمد باشا النشنجي أخرجوه ودفنوه بالقرب من سيده، وكانت النهاية أخذت زوجته وولده الصغير فلقيهم شعبان أفندى كاتب كبير عزبان فخلصهما من يد من أخذهما وأعطاه عشرين زنجرلي.

فانظر يا أخي الى فعل ربك: وكان عنده مابة كيس مضبوطة وكان أو عدة قاسم الشرايبى أن يدفعهما له مماعليه فلم يتملك أن يدفعها له، فنهبت من جملة النهب.

وأما عمر بيك الكبير مملوكه فانه كان فى كشف المنوفية، وعلى بيك الحرمجى مملوك

(١) كتب بالهامش «وكان يقال ثلاثة من لم ينزلها منزلتها، ويرعى لها حقها أسرعت مفارقته، والتحول عن قربه وهي : الملوك: العلماء، والنعم، وقال الامام محمد بن ادريس الشافعي، رضى الله عنه:

اذا ظالم استحسن الظلم مذهبا ... ولج عتوا فى قبيح أكتسابه
فكله الى صرف الليالى فانها ... ستبدى له ما لم يكن فى حسابه
فكم قد رأينا ظالما متجبرا ... ترى النجم يتها تحت ظل ركابه
معمى ضليل فى غفلاته ... أناخت صروف الحادثات ببابه
فأصبح لامال له ولا جاه يرتجى ... ولا حسنات تلتقى فى كتابه

وهم: انبا يوساب اسقف فوه، واسقف بوتيج والسندوبي وولده، وانبا بمين اسقف اطفيح، وجماعة من القسوس والشمامسة وجمع كبير من الشعب. وجنزوه على جارى العادة. وقيل ان رايحته تغيرت حتى انهم كانوا يرشون عليه ماء الورد لتزول الرايحة الكريهة عن الناس ودفن في عشية يوم الاربعا الخامس عشر من برمهات

جركس كان قد أرسله حوالة على جميع بلاده وأقطع له على كل بلد خمسين زنجرلي فالذى ضبطه ستين كيسا وهرب بها الى يومنا هذا. ثم أن الشواربية ملكت مراتبهم بعد الذل الذى كانوا فيه، والفقارية بعد الخوف ثم أنهم أرسلوا الى غيطاز بيك الصغير وعبد الرحمن بيك ومحمد آغا أبطال، فأتوا بهم من اقليم الشرقية، لأن جركس كان قد أعطى غيطاز كشف الشرقية وأمره أن لا يأتي الى مصر ولو فرغت مدته ونفى عبدالرحمن الى بلده الوجلة(*) ونفى أبطال الى بلده وارسلوا الى رضوان آغا اتوابه من رشيد، ومحمد آغا الكور أتوابه من دمياط وأرسلوا أتوا بجميع المنفيين فظهروا كالنمل في جمعتهم. ثم أن في ثاني يوم الذى هو ثامن جماد آخر[1]. أرسل مصطفى آغا جاويش باشا جميع الصناجق والاغوات والبكرية والسادات ونقيب الاشراف والعلماء ومن كل وجاق اختيارين وأمرهم أن يطلعوا الى على باشا ويأمروه بالنزول من القلعة. وأن يولوا محمد باشا النشنجي ثاني مرة. فأبوا، وقالوا: لا قدرة لنا على هذا الأمر الا بأمر سلطاني، فابرز لهم في الحال خطا سلطانيا بالتفويض في كل ما يفعله، ولا أحد يعارضه، وأن أمره من أمرى وفعله من فعلى، وقرى الخط بالمجلس فقال الحاضرون، سمعنا وأطعنا ولكن نتمسك عليه بأى شيء، فقال لهم: قولوا له أنت الذى اعطاك مولانا خطا شريفا

(*) الوجلة: من القرى القديمة، مركز منيا القمح، محافظة الشرقية، محمد رمزى، المصدر السابق، جـ١، ص ١٤١.

(١) ١١ فبراير ١٧٢٦م.

[١١ مارس] في القاعة التي كان عمرها بدير الشمع وعاد الناس الى مواضعهم. فاما ابن اخى البطرك وابو الفرج الخازن فانهما لما وصلا الى الصاحب معين الدين أمر بتسليمها الى المجاهد سليمان والى مصر وقال له تسلم منى هذين واريد منك عشرين الف دينار مما كان يقال له ومما كان يخشى في اسماعه. فا خذهما الوالي وحبسهما

بباشوية محمد بيك جركس وانك ترسله الى غزة ومكثت هذه المدة ولم تظهره لنا، فما أنت الا خاين السلطنة ومرادك هتك سترنا عند السلطان، وخيانتنا، وهذا أمر مضر بنا جميعا ولا نرضى به فانت معزول قم فأنزل. ثم أنهم قاموا من مجلس جاويش باشا وطلعوا لعلى باشا وفعلوا ما أمرهم به مصطفى آغا، فقال لهم، لم يكن في وسعى أن أظهر الخط فى ذلك الوقت للنار التى كانت قايمة فم يفده شيئا، وأنزلوه في يومه. وهو ثامن جماد آخر سنة ١١٣٨ ، وأسكنوه في بيت قاسم بيك الصغير بالمظفر وكانت مدته سبعة وسبعين يوما والله سبحانه وتعال أعلم.

٩٠.ذكر تولية محمد باشا النشنجي ثانيا

وفي يوم الأحد حادى عشر جماد آخر سنة ١١٣٨[١]. توجه مصطفى آغا جاويش الى منزل محمد باشا الوالي اغاة الجملية، وأرسل جمع الصناجق والاغوات والسبع أوجاق والعلماء والاشراف والبكرية والسادات، وقرأ عليهم الخط الذى صحبته بالتفويض فأجابوا بالسمع والطاعة. ثم أنهم فى الحال أخذوا محمد باشا وأطلعوا الى القلعة، وكان الوقت بعد الظهر، وعملوا له الآيا عظيما من بيته، وركب قدامه جميع الصناجق والاغوات واختيارية السبع بلوكات الى القلعة وكان يوما عظيما يعد.

(١) مدة ولايته: ١١ جماد ١١٣٨ / ١١ محرم ١١٤١ هـ - ١٥ فبراير ١٧٢٦ / ١٧ أغسطس ١٧٢٨م.

وضيق عليهما واما رهبان الدير فان الوالى سير اليهم احضرهم اليه ووكل عليهم وتركهم عنده. وبقى الدير بلا قداس ولا صلاة، وباب القاعة التى البطرك مدفون فيها مغلق وكان جماعة يريدون ان يزوروه فلا يجدون سبيلا.ثم ان مولانا السلطان اعز ا لله نصره رسم بان يعقد جسر الى الجيزة فاخذت المراكب التى كانت على بحر الجزيرة [الروضه] نقلت الى الناحية الاخرى من الغرب

ثم أنه فى يوم الثلاثاء الثالث عشر جماد آخر سنة ١١٣٨[(١)]. عمل ديوانا عظيما طلع فيه جميع الصناجق والاغوات وجميع أختيارية السبع اوجاق. ثم أنه البس قيطاز بيك الأعور قفطانا على أمارة الحاج وألبس على بيك الهندى قفطانا على دفتدارية مصر، والبس عبد الله أفندى الرزنمجى قفطانا على رزنمجية الديوان عوضا عن أحمد أفندى أبن التذكرجى الذى هرب صحبة جركس، وألبس زين الفقار قفطانا على مشيخة البلد، وقسم الباشا مناصب مصر قسمين على موجب القوانين القديمة. نصفها الى الشوارية جماعة ابن ايواظ، ونصفها الى الفقارية، والدفتدارية على الفقارية، وصار وجاق الانكشارية طرف زين الفقار، والعزب طرف على بيك الهندى، ودمر بيت أبى شنب وسبب تدميره محمد بيك جركس ومحمد بيك بن سيده وكان ذلك فى الكتاب مسطورا.

ثم أن جميع اختيارية السبعة أرجاق أخرجت الذين من طرف جركس أو (من)[(٢)] كان يميل الى طرفه، فالبعض نفوه والبعض قتلوه والبعض ابقوه. ثم أن عثمان جاويش القردغلى تشفع فى أحمد أغا لهلوبة وفى رجب كتخدا وفى محمد جاويش تابع على كتخدا الداودلى فانزلوهم الى بيوتهم، ونزل آغا مستحفظان سليمان آغا أبو دفية نادى فى البلد بالأمان، وان لا أحد يظلم أحدا ولا يأخذ من أحد شيئا بالقهر. ثم أن محمد باشا أخبره أعيان جماعة جركس

(١) ١٦ فبراير ١٣٢٦م.

(٢) الاضافة لتوضيح المعنى.

(*) بناء الجسر بين الجيزة وجزيرة الروضة وتعميرهما بالعسكر والأسواق والعماير.

وعقد الجسر من الجزيرة [الروضه] الى الجيزة(*) ومشى الناس عليه وكانت الطريق قد مشت من مصر الى الجزيرة في البر من جانب الجزيرة [الروضه] الاخرى [الشرقى] على جارى عادتها في كل سنة. ورسم السلطان عز نصره ان ينتقل من كل سوق قوم الى الجيزة ويقيموا بها لان قصده ان يعمرها. وقيل انه قاس لعمارتها مقدار اسكندريه طولا وعرضا. ورسم بأن ينقل الشوانى

- -

بأن جركس أرسل أحضر القنصل ليلا، وأعطاه ماية خمسة وعشرين ألف زنجرلى فى خمسة غلايات أمانة عنده واخذ عليه حجة بذلك: فأرسل اليه الوزير، فلما حضر ساله عما سمع فقال: نعم ولكن آخذ عليك حجة وخذ المال أو أقتل الرجل وأعطى فرمانا بوصول المال اليك او يأتنى خط شريف بطلبه وأنا أسلم المال له. فقال له الوزير: يكون خيرا وأمره بالنزول. وأن جملة من هرب صحبة جركس الى الجزاير ستة صناجق. جركس الصغير. وأحمد بيك الأعسر. ومملوكه أحمد بيك. وعمر بيك الذى عمله صنجقا، وأمير الحاج، ولم يقسم له نصيب في السفر، وعمر بيك الكبير. لحقهم فى البحيرة. ونحوا أربعين من المماليك والاتباع والزناتي ومحمود آغا كتخدا الجاوشية وأبو الشراميط عدوا ولحقوهم على درنة. وكانت مدة صنجقية عمر كتخدا الجاوشية وامارة الحاج أحد وأربعين يوما، وكان صاحب مال عريض. فلما اجتمعوا على الركب الجزيرى [الجزائرى] يوم الخميس، وكان هروب جركس يوم السبت، وكان جاء الخبر الى الوزير، بأن جركس والفارين سافروا صحبة الركب الجزيرى، فأرسل عشر أغوات بفرمانين الى عرب البحيرة أحدهما خطابا لهم بأنهم يركبوا صحبة الأغا الى البيه شيخ ركب الجزاير ويعطونه الفرمان الذى صحبته. فركبوا صحبة الاغا وسافروا الى ركب الجزاير فأدركوهم وقد خرجوا من حكم العثمنلى، فاجتمعوا بهم واعرضوا عليهم الفرمان فقرى عليهم بمجلس عام. فاذا مكتوب فيه أن جماعة المفسدين خرجوا على

الى بر الجيزه وتعمر هناك وان تعمر الامرآء لهم هناك ادراً [منازل] ليكون مقام السلطان فى قلعة الجزيره [الروضه] والامرآء في الجيزه. ونقل اصناف عماير المراكب الحربية والنيلية من صناعة مصر الى صناعة اختطها بالجزيرة. وكان العمل مستمراً بالجزيرة وطلعت ابراجها الشرقية وشرعوا فى الابراج والابدان الشرقية. وكان قد طلع فى بحر الجزيرة جزيرتان كبيرتان فامر بقطعهما ونقل

السلطان وبغوا وحاربوا وخرقوا حرمته وفروا، فجاءنا الخبر بأنهم جاءوكم ووقعوا فى عرضكم فلا تحموهم وتخالفوا السلطان وتخرقوا ناموس السلطنة، وانكم تسلموهم الى الاغا والعرب يأتون بهم الينا والحذر من المخالفة. فلما قرى البيه الفرمان على من كان صحبته من أهل طرابلس والجزاير فلم يلتفتوا الى الفرمان ولا الى الاغا ولا الى العرب، وقالوا: نحن لم نكن تحت حكمكم ولا حكم أهل مصر ولو جاءنا الباشا بنفسه لم نسلم فى أحد منهم. ثم أنه دق طبله وسافر، ورجعت الاغوات وأخبروا الوزير بأنهم رأوا جركس. بعينهم وسافر جركس وجماعته صحبة الركب الطرابلسى والجزيرى والله أعلم.

وأما الصيفي فانه سافر الى اسكندرية واختفى عند اللاوند الى أن ينزل القبطان وأرغبه بالفين زنجرلى ، وسافر الى أن دخل الديار الرومية، فمكث فيها مدة فأخبر الوزير بأن القبطان قد أخذه من مصر الى الديار الرومية وهربه، فأتى به وساله، فأنكر فقتله.

وأما على بيك المغلق ابن اخو قاسم بيك الصغير فانه هرب هو أحمد أفندى الرزنمجى الى وردان(*). فعلم بهما مصطفى قايم مقام الطرانة، فركب ومسكهما فقطع رأس على بيك وأرسلها الى مصر وأرسل صحبتها أحمد أفندى بالحياة فأدخلوه بيت على بيك الهندى دفتدار

(*) بالأصل «ويعطويه».

(*) وردان : أحدى قرى، مركز امبابة محافظة الجيزة، محمد رمزى، جـ٣، ص ٦٥.

ترابهما في المراكب الى بر الجيزة وردمه هناك لانه كان غرق في ذلك البر مراكب وكان قصده بذلك كله ان يتوكا [يتوقى = يحمى] البحر [النيل] على الجانب الشرقي فتبقى تحت الجزيرة من الشرق شتاء وصيفاً وربما يستمر في خليج القاهرة. ورسم بابتياع الابقار والاستكثار منها فابتيع واحضر من الابقار ما يناهز الف وخمسماية راس ورتبت في العمل في بر مصر بالجراريف من دار الملك الى فم

- -

مصر، وهو راكب على حمار والحديد فوق رجليه، فأمر على بيك بتوديته الى زين الفقار بيك فقال أحمد أفندى: يا بيك فك هذا الحديد من رجلي وركبني جوادا. فقال على بيك: لو تركتمونا كنا ركبناكم ولو رحمتمونا كنا رحمناكم، خذوه بهذه الحالة واعرضوه على زين الفقار بيك فأخذوه وأعرضوه عليه فقال: خذوه وأعرضوه على الوزير. وكان يوم ديوان وهو يوم الخميس ثاني (عشر) جماد الثاني سنة ١١٣٨[١]. وكان أمر به الى كيخيته فبات تلك الليلة عنده. ثم في ثاني يوم أرسل كتخدا مستحفظان أخذه عنده وأودعه في القلة الى أن يظهر أحد من الذين داخل القاهرة ولم يخرجو منها، والذين لم يخرجوا من القاهرة، أبن أبى شنب. ومحمد بيك. ومملوكه رضوان بيك. وعمر بيك الصغير، وعلى بيك الحرمجي. وعبدالرحمن النظامي. وأما سليمان بيك جميزة. فان سليمان آغا ابو دفية رفيقه شفع فيه وشالوا صنجقيته كما تقدم. وسليمان كتخدا جركس مات صحبة قاسم بيك كما تقدم وتبددت جميع دولتهم وطوايفهم، وقد كانوا ثلاثة عشر صنجقا فتفرق شملهم في يوم واحد ولم ير لهم أثر، وكل من ظهر قطعوا رأسه كما فعل الرشيد بدولة البرامكة، فعل محمد باشا النشنجي بدولة ابراهيم أبو شنب، وسبب ذلك جركس وابن سيده محمد بيك، و قد كانوا سموه بمحمد بيك البرص. ثم أنهم بنوا جامع السلطان حسن الثاني الذى من الرميلة، ونزل آغا مستحفظان

(١) ١٥ فبراير ١٧٢٦م، الاضافة من النص.

الخليج. ونقل سوق الغلات والعلافين اصحاب المقاعد الذين كانوا على الساحل وادر الاملاك التى تباع فيها البطيخ والفقوس والخيار وما يجرى مجراها الى الكوم الاحمر قبلى مصر، ما خلا دار الاملاك الى الجيزة لما عزم على حفر هذه المواضع. ثم انه رسم تخلى كنيسة الجزيرة وجامع المقياس ويخرج [يطرد] من بهما وكان بالكنيسة رجل قسيس كبير السن ضعيف البصر يسمى إفرهام

وسليمان آغا ابو دفية نادى فى القاهرة بفرمان الوزير، وكل من خبا أحدا من الهربانين ولم يخبر عنه ويظهر عنده، يكون بخراب داره وهلاك نفسه وكل من دل عليه فله أربعين عثمانى على بساط السلطنة.

وفى يوم الجمعة الذى هو ثالث عشر جماد الثانى سنة ٨ ١١٣ (١). أرسل آغا مستحفظان لجميع البنايين والفعلة بأن يحضروا يوم السبت الى بيت محمد بيك جركس يهدموه الى الأرض، وأن يجعلوه ساحة لينظر أن كان فى الأرض شئ مدفون من المال، فلم يجدوا فى الأرض شيئا، وأنما وجدوا فى ساقية البيت التى تجاه المقعد أربع صناديق، فأخذها الاغا المعين من طرف الباشا لأن الباشا عين آغا بعشرين آغا من الدلاة لنقض الخشب والأحجار والطوب والأعمدة. وأما الأربع صناديق التى أرسلها الاغا للباشا لم يعلم أحد ما فيها.

وقد أخبرت: ان جملة الخشب الذى أخذه جركس من الخشابة بستين كيسا ولم يدفع من ذلك الدرهم الفرد. ومن جملة ما أخذ من الخواجا يوسف القط الذى ببولاق من الخشب بثمانية وعشرين كيسا بوصلات، فلما فرغ مغلقة من الخشب صار يتردد عليه فى كل يوم ويطلب منه، فلما ضجر منه أرسل الى خزنداره فجاءه الخواجا واعمل حسابه وأعطيه حقه و لم تدعه يقابلنى بعدم اليوم ثم أن الخزندار أخذه وأخذ الكاتب النصرانى وصار الى أن أدخله

(١) ١٦ فبراير ١٧٢٦م.

وكان له في الكنيسة المذكور ستين سنة فاخرج منها وسمر بابها، واخرج ابن ابي الرداد من جامع المقياس. ولم يعلم السبب في ذلك فقوم قالوا ان السلطان يريد ان يعمل من جانب الكنيسة طريقا الى الابراج التي عملها على المقياس وقوم يقولون انه كره تخطي الناس على باب داره وبقي الحال على هذا. وكانت اسعار الغلة قد انحطت وتوطت. وكان النصارى في مصر في ضايقة من قبل

الى داخل الدار للداخل من البيت وقال للنصراني: أعمل حسابه. فأخرج الوصلات وحسبوها فوجدوها ثمانية وعشرين كيسا وسبعة آلاف نصف فضة فأخذ الخزندار الوصلات وصار يتشوف نحو الباب فظهر للخواجا عين الغدر[1] فقال للخازندار: ماذا تريد؟ فقال له: أريد قتلك؟ فان الصنجق ما عنده فلوس وأنت رجل ما تستحى، وفى كل يوم تقف قدامه مثل الناطور، فزعل منك فقال لى ليلة أمس إذا جاء الخشاب أعمل حسابه وخذ منه الوصلات وأقتله وها أنا قد أخذت الوصلات وأنى أرسل أحضر القواسة ليقتلوك. فقال يوسف الخواجا: وأنت تدخل فى دمى وتكون القاتل لى على شئ لم يدخل جهتك ولكن الوصلات معك قد اخذتها ولم يبق لى شئ اعتمد عليه وأطالب الصنجق به فقال له الخزندار: فان كان ولابد فأعطنى تمسكا بأن حقك وصلك بالتمام فقال له: لك ذلك. ثم أنه كتب له تمسكا بأنه

(١) كتب بالهامش «ومن كلام سيدنا وهب رحمه الله فى حق سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام:

قضى الله أمراً وجف القلم	وقد قضى ربنا ما ظلم
وفى الأمر ما خال عن أمره	وفى الحكم ما جاء فيما حكم
إذا تم أمرا بدأ نقصه	وعما قليل إذا قيل تم
سليمان جاءت له نملة	تعاتبه عن عساكر القدم
إذا كنت فى نعمة فارعها	فإن المعاصى تزيل النعم
وداوم عليها بشكر الاله	فإن الاله سريع النقم
فكم ملك عاش فى نعمة	ولم يدر بالموت حتى هجم

القاضي حتى انه كلف الناس انه من كان ثوبه ابيض يحمل زناره ازرق او اسود او لونا يخالف الابيض وان كان ثوبه اسوداً او ازرق فيكون زناره ابيض واخذ جماعة بذلك، وكان العوام اشد على الناس من هذه الامور كلها. ولم يكن في القاهرة شئ من هذا اصلا.و كان قد جرى لليهود(*) في هذه المدة قضية عجيبة لانهم كانوا بلا ريس وكان

(*) من أحوال رجال الدين اليهود في مصر في هذا الوقت.

وصله جميع ما كان جهة الصنجق من ثمن الأخشاب وغيرها، ولم يتاخر له عنده شئ قل ولاجل من أول الزمان الخ، وختمه واعطاه له وخرج ينفض غبار الموت من على رأسه، ثم أنه راح الى بولاق فلم يمكث الا سبعة عشر يوما وتوفى الى رحمة الله تعالى.

هكذا أخبرنا بنفسه حين توجهنا لعيادته: وقد أشيع هذا الأمر وهذه خصلة من جملة خصاله وكان قد أوصل بيته الى بركة الفيل وقد أخذ نحو العشرين بيتا. ومن جملة ما أخذه بيت شعبان آغا وبيت المحتسب وبيت النفرية، وقد مكث أربع سنوات يعمر، فيه وأخذ بيت عبد اللطيف أفندى الرزنمجي وأخذ حارة النفرية بجميع بيوتها وأدخل جميع ذلك في بيته.

ولقد دخلت يوم الهدم فرأيت نحو ثلاثماية فاعل يهدمون فيه وهم يضحكون يلعبون ويقولون: بنيناك لا أجرة والحمدلله هدمناك باجرة [1]. وكان في حين بناء البيت جميع الفعلة والبنا يشتغلون بلا أجرة، فهربت الناس من فعلة وبنايين ونجارين، وصارت أتباعه تجرهم بالضرب والقتل.

(١) كتب بالهامش وقال بن سعيد رحمه الله.

لا تشمت عدوى أن عثرت فقد	يكبو الجواد وينبو الصارم عن الذكر
هذا الطرف ترى تأثره أبدا	ولا يعاب به شمس ولا قمر

وقال عدى بن زيد:

أيها الشامت المعير بالدهر	أنت المموه الموقور
من رأيت المنون خلفى لا من	عليه من أن ينضام فقير

فيهم قوم متعنفين يعرفون باولاد الفارق في دقنه، وكانوا يسعون في الرياسة فاتفق ان اثنين منهم وهم الكبار من الاخوة حضروا للكنيس التي لهم في سبت من السبوت فطلعا الى المنبر وقرآ العشر الكلمات التي في التوراة (*) وكان هناك من اليهود من يشناهما [يشنع عليهما] فمضى الى والي مصر وقال له ان السلطان خلد الله ملكه رسم ان لا يكون ريس لليهود الا بعد ان يقوم

(*) هي الوصايا العشر.

ثم ان المعمار جمع أرباب الصناعة الى تحت قلمه والفعلة،و جعل على كل واحد شغل يومين في الجمعة وباقيها عند غيره، وأما شيل التراب والطين والجبس والجير والحجر فكان يأخذ ذلك بالتجرة، القنطار بمايتين فيبيعوه بستين نصفا، ولم يخلص من يده الا الدهانين فقط، وهذا شئ فاق فيه شغل السلطنة لأن شغل السلطنة بنصف الأجرة وقد نفع الجيارين والجباسين بغلو الجير والجبس تعويضا لهم عن شغله لأن الجبس كان بخمسة عشر نصف فضة الأردب فأمرهم أن يبيعوه باثنين وعشرين، وكان الجير بخمسة أنصاف القنطار فأذن لهم أن يبيعوه بثمانية أنصاف وصار يأخذ الجبس والجير بلا ثمن . وأن الباشا قد انزل من فوق المقعد أربعة صوارى [أعمدة]، كل صار يلف عليه أحضان رجلين، وان الأغا المعين على هدم البيت أرسل الى الغيطانية وأمرهم بشراء الأشجار التي في الجنينة وكان زمن نقل الأشجار فصارت الغيطانية تشترى من الأغا بثمن ويبيعوا بثمن، لأنه كان فيه نحو المائة نخلة ما بين رشيدى وتمرة عامر وأشجار عنب ليس له نظير، وترنج ونارنج ولم يبقوا الا عشرة أشجار نخل ونبق عتيق. وشجرة كابلى، وأما النخلة التي أتته من ألواح بسبعة عشر رأسا فانها ماتت. وقد أحدث محمد باشا ديوانا فوق العرقانية وبناه من حجر بيت جركس، وطوبة وخشبه ونشر الأعمدة ورخمه بها ورخم الحمام منها ومكث يعمر فيه خمسة أشهر حتى أتمه في أحسن حال. ولم فرغ من بنايه باع باقي الخشب والحجر والطوب وأعطى الأراضي لأصحابها خالية

بالـف دينار لبـيـت المال و[ها]هو ان اثنان من اولاد الفـارق فى دقنه قد سرقا الرياسـة وطلعا الى المنبـر وقـرا مـا كـان يقـراوه الريـس ولـم يـزنا [يـدفعـا] شـيـأ. فـسـيـر الوالـى احـضـرهـمـا واخـذ علـيـهـمـا الشـهـادة فـانهـمـا قـرآ العـشـر الكلمـات، فـو كل علـيـهـمـا وسـيـر أعلم مـولانا السلطان، فخرج اليه الامر بان يحبسهما حتى يزنا

عن الينا وقلع باب البيت البراني وشاله على الجمال الى العقبة، لأن محمد بيك جركس كان أرسل الى عرب العقبة بأنهم يقطعوا الطريق على الحاج كما تقدم فما تمكنوا الا بحرق باب القلعة.

فلما جاء الخبر الى الباشا كان يهدم بيته، ففك الباب وأرسله وأرسل صحبته المعلمين فوضعوه على باب القلعة فجاء محكم.

وقد اخبرنى بعض (من)[1] تزوج من جواره: ان جركس قبل هروبه طلع الى الحريم وفرق عليهم صندوقا من الذهب الفندقلي ونزل بعشر صناديق كسرها، وصار يحط كل ذهب صندوق في مقدم وضعه على ظهر جواد، ويركب عليه مملوكا من مماليكه وسار من وقته وكانت تأتيه الهدايا من جميع[2] الأقطار حتى من الططر. وكان يدخل فى السنة ألف كيس لأنها كانت بلاد الملتزمين تحت يده حتى أن البلد كان يأخذ فايظها وصاحبها يحط مالها، وصار يظلم الناس ثمانية وعشرين شهرا أولها صفر سنة ١١٣٦. وآخرها سابع جماد آخر سنة ١١٣٨[3]. وكان كل مال دخل له لا يخرج منه شئ ولا الدرهم الفرد، وكان يلص الناس

(١) الاضافة لتوضيح المعنى.
(٢) بالأصل «سايره وكتبت كلمة «جميع» ووضعت فوقها علامة احلالها محل «سايره».
(٣) نوفمبر ١٧٢٣ / فبراير ١٧٢٦م.

الالف دينار الذى تقرر فى الرياسة فحبسهما. وكان اسم احدهما ابا البها [البهاء] وهو العالم فيهما والاخر ابا النجم وكان يسافر مع السلطان الملك الكامل ويتخادم لاكابر الدولة، فاما ابو البها فانه اسلم وتخلص، واما ابو النجم فبقى فى الحبس. وفى هذه الايام مات اسقف الملكيه الذى بمصر ولم يوجد له ما يكفن به. وكانت اياما عجيبة، النصارى القبط بغير بطرك، والملكية كذلك لان

من الخمسة أحمر الى العشر آلاف أحمر وأزيد من هذا، وكان أرسل أحضر أخاه وبعض أقاربه من ديار الكفر، فلم هرب، أرادوا قتلهم، فشفع فيهم عثمان جاويش القزدغلى وأرسلهم الى بلادهم. وكان من تجبره وعتوه أن الناس جميعا كرهته وعملت الموالد والأفراح لخروجه، وكان عندهم يوم هروبه كالعيد بل وأعظم لشدة الفرح عندهم ولو ذكرنا جميع مساوئه لأمليت الكتب ولكن أقتصرنا على البعض اليسير وأن جملة الصناجق الذين البسهم. الوزير محمد باشا بعد هروبه، ثمانية وهم: مصطفى بيك أبن ايواظ. ومحمد جلبى بن الجزار. وعلى أغا الأصفر. وسليمان القلاقسى[1] كاشف طحطة وألبسه الصعيد. والذى من الفقارية زين الفقار. وأسماعيل آغا بن الدالى. ومحمد أغا بن درويش بيك. وحسن آغا تابع أباظة محمد بيك. وألبس ابراهيم الخزندار قيامة مقام الغربية لقتله أبراهيم كتخدا. وألبسهم الولايات وقسمها بينهم، والبلاد التى كان للقاسمية اعطاها للقاسمية، والتى كان للفقارية أعطاها لهم وهؤلاء الثمنية كان ألبسهم على باشا.

وفى يوم الخميس الذى هو خامس عشر جماد آخر سنة ١١٣٨[2]. عمل محمد باشا ديوانا وألبس فيه أربعة صناجق وهم: اسماعيل بيك جرجة الملقب بالخاين وتزوج بأخت بن أيواظ فكملت جملة الصناجق اثنين وعشرين صنجقا نصفهم قاسمية ونصفهم فقارية.

(١) يذكره الجبرتى، جـ١، ص ٢٥٤، تحت اسم «سليمان كاشف القلاقسى».
(٢) ٢٠ فبراير ١٧٢٦م.

بطركهم مات(*) قبل انبا كيرلس، واليهود بلا ريس. واما اصحاب البطريك المحبوسين وهم ابن اخيه وتلميذه وغلامه فانهم عصروا مراراً ولم يقروا بشئ، وكان العصر بالاكبر لابى الفرج بن خلبوصى الذى هو التلميذ والمتصرف كان فى المال فعصر حتى قارب الموت ولم يخرج شياً وبقوا محبوسين. وفى هذه الايام كان الصاحب معين الدين بن الشيخ قد عمر مناظر على البحر بمصر

(*) هو نيقولا الاول بطرك الاسكندرية الارتودكس اليونان تولى ما بين ١٢١٠ إلى ١٢٤٣م.

- -

فالفقارية: قيطاز بيك الصغير أمير الحاج. وابن سيده اسماعيل بيك. ومحمد بيك بن اسماعيل بيك الكبير. وسليمان بيك كاشف الغربية. ومصطفى بيك الخطاط. ومحمد بيك بن درويش. واسماعيل بيك بن الدالى. وحسين بيك أباظة. وابراهيم الدالى. وزين الفقار. وعمر آغا. وعلى بيك الأرمنى تابع حسن كتخدا النجدلى. واشراق بن أيواظ. والقاسمية: على بيك الهندى دفتدار مصر حالا. وعلى بيك الأصفر. ويوسف الشرايبى. ويوسف بيك بن يوسف الجزار. ومرجان جوز وزين الفقار تابع قانصوه بيك. وحسن بيك الرزاز الذى ألبس عوضا عن حمزة. وابراهيم بيك الفارسكورى صنجق الخزينة الذى توفى فى الديار الرومية ولو لم يكن فى الخزينة لهرب أو قتل.

وفى سابع عشر جماد آخر(١). المذكور أخبر الوزير بأن جركس دخل الى مصر وأنه فى الدرب الجديد الذى بقناطر السباع فقطع فرمانا وأرسله الى اغات مستحفظان بكبس الدرب الجديد وان يفتشه. ثم ان الأغا أخذ صحبته ثلاث صناجق بجميع طوايفهم، ودخل الدرب، وقفل الثلاثة أبواب وفتشه بيتا بيتا حتى بيت زين الفقار بيك، فلم يجد فيه أحدا. وفى ثانى يوم نادى الاغا بجميع الغريب وجميع الراجين كل من قعد فى مصر بعد ثلاثة أيام ترمى رقبته ولا أحد يخدم عند احد من الأكابر وكل من خدم أو قعد بعد ثلاثة أيام يرمى عنقه أينما وجد.

(١) ١٨ فبراير ١٧٢٦م.

من جانب باب القنطرة، وكان القاضي [عز الدين] ابن عبد السلم [السلام] قاضي مصر قد عبر على هذا المكان في وقت من الاوقات وقال لبعض الوكلاء الوقوف على العمارة لا تعمروا هذا المكان فقد ثبت عندى انه كان مسجداً وفيه اموات، فعرفوا الصاحب بذلك فلم يكثرت له وكان الى جانب هذا الموضع مسجد وكان ابن القاضي الاسكندرى الذى كان قبل هذا القاضي

ثم أن الباشا جمع الصناجق وجعل البلاد التى(*) قسمها عليهم بفايض ثلاث سنين وأمهلهم ثلاث سنوات واشترط بأن يعطوه فى كل سنة الثلث وكتب عليهم حجة بذلك.

ثم أن أهل مصر بعد أن بردت الفتنة طلعوا الى الباشا الديوان، وطلبوا منه العثامنة التى جعلها لهم هو وعلى باشا حين أرسلهم الى جركس فقال: أرسل أعرض الى السلطان، فان أتى رد جواب العرض بالعطية أعطيتكم، فلما سمعت الصناجق والعسكر بذلك العرض قالوا: مولانا الوزير! نحن خدمنا حضرة الملك خدمة لا نطلب عليها عثامنة ولا شيئا ونحن جميعا خدمة السلطان. فلما سمع الوزير ما قالوه دعا لهم وقال: تأتونى فى غد لسؤال وجواب.

ثم فى ثانى يوم الذى هو يوم الاثنين ثامن عشر جماد آخر(١). اجتمع جميع الصناجق والاغوات والعسكر والعلماء والاشراف والبكرى والسادات. فلما اجتمعوا ظهر وسلم عليهم وجلس فى ديوان اسماعيل باشا وقال لهم: أتدرون لأى شئ جمعتكم؟ فقالوا : لا ندرى. فقال لهم: ما فعلتم بجركس وأعوانه؟ فقالوا له : لا نعرف له جهة. فقال لهم: كيف لا تعرفون له جهة وان مصر وأقطاعها تحت أيديكم وتحت ختمكم؟ ان أردتم أمرا من الأمور وكان لكم فيه غرض لا تخلوا الطير يطير، وقام عليهم قومة لم يعهدوها منه منذ تولى عليهم، فحلفوا له انهم لم يكن عندهم علم ولو علموا محله لأتوا به ولو كان حوله العساكر وكيف يكون

(*) بالأصل (الذى).

(١) ٢١ فبراير ١٧٢٦م.

قد عمر عليه طبقة مليحة تانق فيها وغرم عليها جملة، وقد كان هذا القاضى قصد هدمها لانه قال الاوقاف لا يجب أن تغير عن صورتها ولا يزاد فيها ولا ينقص، فما مكنه الصاحب من ذلك، وبقى في نفسه. فلما تم له فى كنيسة بوسرجه ما تم ظن ان المواضع كلها هكذى، فاخذ معه جماعة من الشهود وجمعاً من الهدادين واجتمع معه من المتفرجين والمتفرغين [العاطلين] خلق عظيمَ وطلع

أعادينا نتركهم؟ لا، وحياة مولانا السلطان أحمد خان. فقال لهم: أنتم صادقون، ولكن أكتب عليكم حجة أن ظهر عند أحد منكم أحد من الهاربين يكون بقتله ونهب ماله وبيع بلاده ولو كان من البلكات السبعة وقيلت أحد من أهل بلكه يكون روحه وماله الى السلطنة. فقالوا: سمعنا وأطعنا. فتعاهدوا على ذلك وكتب عليهم حجة بذلك ونزلوا الى منازلهم. ثم أن فى ثانى يوم الجمعة طلع يوسف بيك الخاين الى الباشا وأخبره بأن رضوان بيك تابع محمد بيك بن أبى شنب عنده في بيته، فأمر سليمان أبو دفية أغاة مستحفظان بانه يأتى به من بيت يوسف بيك الخاين فنزل آغاة مستحفظان الى بيت يوسف بيك الخاين الذى هو بيت ايواظ بيك فدخل الاغا وأخذه من يده وطلع هو واياه الى الحريم ودخل هو وأياه الى خزنة، واذا برضوان نايم وهو مغطى بالحاف ولم يكن الا بالديون وعلى رأسه شال كشمير فرخانه يساوى خمسين أحمرا، فأيقظه آلاغا فلما رأى ابو دفيه قال: انا لله وآنا اليه راجعون عملتها ياخاين، لكن لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ولكن يا يوسف، ان كنت ما تعرف جميل، اعمل مثلما يعمل معك، أنا أحميتك مع أن جركس أخذ خبرا انك عندى، وأنت خزندار وأظهرتك ومشيتك فى البلد عرضا وطولا ما كنت تخبر عني الوزير كنت تركتنى اروح الى حال سبيلى، ولكن خاين. فسمى بذلك الاسم. ثم أن الاغا أخذه وأركبه حمارا وكان ضحوة يوم السبت فأنا خرجت من الحنفى فاذا بالأغا وهو صحبته، فلما وقع نظر الوزير عليه قال له:

أين جركس وسيدك؟. فقال: لا علم لى بهما وأنا خرجت من عندهم قبل أن يهربوا

الى الطبقة وشرع فى هدمها وكان قصده انه بعد هدمها يهدم الموضع الذى اشار الى انه ثبت عنده انه كان مسجداً وقد عمله الصاحب مجازاً الى داره، فبلغ الصاحب ذلك، وكان بالجزيرة، فجآء الى المكان فى جمعه وغلمانه واشياعه والوالى معه وسير الى [عز الدين] ابن عبدالسلم [السلام] وقال له: بامر من فعلت هذا ان كان بامر السلطان خلد الله ملكه فعرفنا على لسان من خرجت لك

بيومين. فقال الباشا: خذوه وهاتوا رأسه. فالتفت رضوان بيك الى الوزير وقال له: مولانا الوزير اسمع منى كلمتين أخبرنا بهما فقال له: قل؟ فقال له: ان عفوت عنى قلت لك على محل سيدى وأخبرتك بألف كيس أين هى شايلها، فقال الباشا الى سليمان أغا، خذه أنا أعرف أين سيده وأعرف الألف كيس أين هى وعند من هى.

ثم أن الاغا أخذه ورمى عنقه فى حوش الديوان وسلخ الرأس ورمى القرعة بين رجليه. وكان ذلك فى يوم الخميس تاسع عشر جماد آخر سنة ١١٣٨[١]. ثم أنهم غسلوه وكفنوه ودفنوه وأنه هو الذى قتل حسن الشبكة كتخدا محمد بيك أمير الحاج بن اسماعيل بيك الكبير، وأخذ ابراهيم جربجى أتباع السنبلاوين ماشيا حافيا مكشوف الرأس قدام جواده الى مصر القديمة، ورمى عنقه عند مسطبة الأعسر، وكان ذلك باذن سيدة.

وفى يوم موت رضوان بيك، [كان] قدوم رضوان أغا من رشيد وصار المنفيون يأتون واحدا بعد واحد من الفقارية والشواربية، وظهرت الفقارية والشواربية ظهوراً كليا وانتشروا فى الأرض الى أن ملوا البلد وقويت شوكتهم وأورث الله الفقارية والشواربية أموال القاسمية وديارهم

---

(١) ٢٢ فبراير ١٧٢٦م / كتب بالهامش «ورحم الله القايل:

قد زال ملك سلميان فعاوده.

والشمس تنحط فى المجرى وترتفع

الرسالة ونحن اولى ان ننفذ امر السلطان، وان بامرك فما لك هذا. فقال: بامر الله.. فقال الصاحب: نحن نعلم ان الله تعالى ما اوحى اليك بهذا ونحن نمنعك منه حتى ترى ان كان هذا الامر من الله. وكانوا قد هدوا من الطبقة مسقفتين من جانب الطريق لا غير فسير الصاحب غلمانه واشياعه فأخرقوا بالشهود اخراقا عظيما وضربوهم الى حد الموت، وضربوا الهدادين وبدوا بهم، وانفض ذلك الجمع وهربوا، واما القاضى [عز

وبلادهم وتزوجوا بنسايهم وسكنوا بيوتهم وقفلت بيوتهم جميعا وفتحت بيوت الفقارية والشوارية، وصاروا أقوى مما كانوا.

وفى يوم عشرين من جماد المذكور(١). نزل أغا مستحفظان واظهر النداء فى القاهرة لجميع من كان يخدم جماعة ابراهيم بيك أبو شنب لايخدم أحدا من الفقارية والشواربية، وأن الصناجق لا يخدموا الا سراجين اثنين والكواخى كذلك والجاوشية المنفصلة عن الضلمة وبقية الخمسة أوجاقات لا يخدموا الا سراجا واحدا. وان السراجين لا يمشون الا مع أسيادهم، وكل من وجده الأغا أو الوالى ماشيا من غير سيده يرمى عنقه ولو كان أمير الحاج أو الدفتدار. وضبطت البلد ضبطا شافيا ولا صرت ترى سراجا من غير سيده، وصارت البلد فى أمان من دولة السراجين، وجورهم وعتوهم وأكثر من نهب بيوتهم، وسراجينهم أكثرهم سافر الى بلاده.

ثم ان الباشا أرسل فرمانا الى باب مستحفظان يأمرهم بنفى رجب كتخدا فأجابوا لما أمروا، وأرسلوا له جاويشا، صحبة الأغا المعين الى منزله فأخذوه الى تكية بولاق وأكروا له خمس مراكب وأنزلوه فى واحدة منها، ونزل الجاويش والأغا فيها، ونزلت جماعته فى بقية المراكب وكانوا نحو الأربعين، خوفا عليه الى أن أوصلوه الى دمياط فى يوم الأحد ثانى عشرين جماد(٢). وكذلك أحمد خرواط كتخدا احمد بيك الأعسر أرسلوه فى مركب الى بطن

(١) ٢٣ فبراير ١٧٢٦م.

(٢) ٢٥ فبراير ١٧٢٦م.

الدين بن عبدالسلام] فانه بقي في الطبقة وحده وكانت بغلته على الباب فضربها الغلمان وهججوها وكسروا يد الركاب دار. وكان يوماً مشهوداً لم يرا اعجب منه. وبعد زمان خرج القاضي يمشي الى برا الباب ونزل في مركب حتى مضى الى بيته. وكان قد اراد من الوالي ان يعينه فلم يعينه بشي، فحلف انه لا يحكم ولا يتصرف الا ان عزل الوالي، وانقطع عن النزول الى مصر وعن الحكم بها، الا ان نوابه كانوا باقيين على

البقرة. ثم أنهم قتلوه وارموه البحر وأتوا برأسه. وسليمان أوضباشا الأقواسي وأحمد أغا لهلوبة وقرا حسن أو ضباشا الذى كان رابعا أنزلوهم ثاني يوم صحبة سقا باشا وأحمد أو ضباشا أبو رجب كتخدا الزموه بيته وأبو سليم أوضباشا على ماهو عليه وعملوا يمقه عثمان تابع منا وأحمد كتخدا وعملوا الثالث حسن تابع النجدلي والرابع عثمان تابع شاهين جربجي الجلالي. وفي ثاني يوم الذى هو رابع عشرين جماد[1]. سافر مصطفى أغا جاويش باش الى سكندرية. وفي سادس عشرينه[2]. أرسل الوزير أربع أغوات الى باب المتفرقة وصحبتهم فرمان يطلب علي أفندى كاتب كبير وباكير أغا وأيوب أغا استاذ ايواظ فأسلموا على أفندى وباكير الى الاغوات وان أيوب لم يكن حاضرا فأخذوا الاثنين الى قصر العيني وقتلوهما وأرموهما البحر محل ابراهيم أغا السنبلاوى الذى تقدم ذكره.

والسبب في ذلك: أنهم كانوا حاضرين عند محمد بيك الدفتدار ابن أبي شنب، حين أرسل أحضر أبراهيم أغا وأرسله صحبة رضوان بيك وقتله، ولم يشفعوا فيه، ولم يتكلم احد منهم بكلمة، واما أيوب فانه لما وصله الخبر بأخذ الاثنين وقتلهما، تدارى اربعين يوما. وطلع عليه الجذام ومات، واما على باشا فانهم حرجوا عليه ان لا احد يدخل اليه وجعلوا عليه الحرس، واما سليمان بيك جميزة فانهم أودعوه القلة عند احمد افندى الرزنمجي، يطلبون[3] منه

(١) ٢٣ فبراير ١٧٢٦م. (٢) ١ مارس ١٧٢٦م. (٣) بالأصل «يطلبوا».

حالهم ومتصرفين. ثم ان الامر خرج ببيع تركه البطرك فاخرجت فى مصر وبيعت فى يوم الثلثا السادس والعشرين من برموده. وابصر الناس فيها من التحف والاشيا الغريبة ما لم ير مثله حتى ا نه قيل ان قماش بدنه حقق اربع ماية دينار ولم احقق ذلك الا انه بيع بجملة عالية، وكان التوب الصوف المفصل يباع بمايتى درهم، والغفارة [العباءة] الجوخه العتيقة بماية وخمسين درهما

- -

حساب ما تأداه من الغلال ومال الجهات، وأما أحمد أفندى فانهم صاروا فى كل يوم يطلعوه ويعملوا معه حساب الرزنامه ويردوه الى القلة عند سليمان بيك جميزة وغيره من المحبوسين الذين عليهم الدم من طرف جركس ولم وجدوا أحدا يتكلم فى حقه كلمة خبر مما أودعها قلوب الخلق مرات حين كان متولى الرزنامة [1]. ثم انه جمع أهل مصر وأعرض عليهم الخط الذى أتى له بتولية طرابلس الشام حين أعرض فى طلبها لما عزل من مصر وطلب منهم أن يكتبوا عرضا بأن يطلبوه من حضرة السلطان فكان كذلك فكتبوا له عرضا وسافر العرض من على البر صحبة سبعة أنفار من السبعة أوجاق فى يوم السبت ثامن عشرين من جماد آخر سنة ١١٣٨[2].

وفى غرة رجب الفرد[3]. وقعت فتنة فى باب العزب فنفوا حسن شولاق باش الأوضاباشية وصحبته خمسة عشر أوضباشا وثمانية من النفر ومن أوجاق الجراكسة ثلاثة وزاد الحريج على جماعة جركس والتفتيش عليهم وكبس البيوت بسببهم. ثم أن الباشا ضبط البلاد التى كانت

(١) كتب بالهامش «كما قال الشاعر:

ما الناس الا مع الدنيا وصاحبها ... فكيف ما انقلبت يوما به انقلبوا

يعظمون أخا الدنيا فان وثبت ... عليه يوما بما لا يشتهى وثبوا

(٢) ٣ مارس ١٧٢٦م.

(٣) ٥مارس ١٧٢٦م.

واخبرت ان شخصا اشترى قطعة من الحلقة واخرجها الى السوق عرضها فسويت نصف ثمنها وكذلك كل ما بيع لان الحلقة لها سمعة لا سيما مع هيبة السلطنة. واما اوانى الكنايس مثل الصوانى التى للقربان والكاسات والكساوى التى للهياكل وما يجرى مجراها فانهم عزلوا حتى تشاوروا عليها. ولما كان فى اوايل بشنس(*) خرج [عز الدين] بن عبد السلم [السلام] قاضى مصر الى المصلى الذى بالقرافة وجمع جماعة من

(*)يقع بشنس = ما بين ٢٦ ابريل و٢٥ مايو

لاتباعهم وعثامنتهم وبيوتهم وأوقع البيع فيها من غرة رجب ثم أن الباشا نفى عابدى جربجى باش اختيار التفكجية الى دمياط وصحبته على جربجى مملوكه فمكثوا مدة قليلة وأرسل قتلهما.

ومن أعجب ما وقع فى هذا التاريخ: ان الباشا لما تعب من التفتيش على محمد بيك ابن أبى شنب فجاءه انسان واخبره انه حلق دقنه وحنا كفوفه وقدميه وأنه يبرز بزى النساء ويخرج صحبة أمه وجارية على باشا ويدور الأسواق وبيوت معارفهم، فقطع فرمانا وأرسل الى زين الفقار بيك بالتفتيش عليه والحث فلما قرأ الفرمان قال هذه بدعة كون أننا نفتش النساء فى السكك أن كان ذلك حقا كما سمعنا أن محمد بيك يزين بزى النساء ويخضب كفيه وقدميه بالحنا يكفيه هذا الذل. ورد الفرمان الى الوزير وقد قال فيهم (شيخنا سيدى أحمد السندوبى بن سيدى احمد).

لقد ضلت أكابرنا	برأس غير مرءوس
وزالت نعمة بهم	وكانوا جنس ابليس
وقد ملكوا بلاد الله	من خيل وعيس
وما راعوا وما اعتبروا	بما قد صار فى الكيس
وشيد رأسهم بيتا	كأنه عرش بلقيس
فصالوا واعتدوا وبغوا	وصار الناس انكيسى

الشهود وعزل ولده وولد البها [البهاء] بن حنا الذى هو صهر الاسعد الفايزى. وفيما هو فى ذلك سير اليه الوالى ابن اخيه وقال له هذا ما هو موضع الحكم فيما هذا الجمع. فشتمه القاضى [ابن عبد السلام] وافترى عليه فقال له ابن اخى الوالى انا ما لى معك حديث بل هولآء الشهود هم يعلمون ما يلقنون وكانوا زهآء ثلثين رجلا، فانقضوا جميعهم وقاموا فاستعادهم القاضى وقال لهم اشهدوا على بأنى عزلت نفسى من الحكم بمصر

الى أن زاد بغيهم	برأى كان معكوس
وقطعا من له مكر	يصبح نحس منحوس
فكم نقضوا عهدهم	ولم يحرضوا بتدليس
وكم حلفوا بايمان	ولا أيمان للتيس
وكم حقا على دين	يضاهى دين قسيس
وقد مردوا بتاريخ	لتعريف ابن ادريس

وقد توفى في غرة رجب الفرد سنة ١١٣٨ وكان هذا آخر كلامه. وفي عاشر وجب. نفت العزب أربعة أنفار وهم حسن كتخدا البولاقى الذى كان متولي الكخاوية في مدة هروب جركس وولوا محله يوسف جربجي البركاوى أبو حسين وعلى جربجى الذى كان باش أو ضباشية ويمقه حسن القاشقجى جربجى وابراهيم جلبى قبين الضاشي ابراهيم كتخدا أفندى المقتول.

وفي غرة شعبان ظهر الطاعون[١]: وتوفى به شيخ الاسلام والمسلمين العارف بالله تعالى المحقق بقية العلماء الراسخين سيدى محمد الصغير المغربى بالطاعون[٢]. وكان هو أول

(١) كتب عنوانن جانبى « أعرف ظهور الطاعون باقليم مصر».
(٢) كتب عنوان جانبى «أعرف وفاة سيدى محمد الصغير المغربى بالطاعون».

واعمالها، وصرفت نوابي، واني عزلت الوزير ابن الشيخ من النظر على [أوقاف مسجد] الشافعي، ومن شيوخة [تكية] الصوفية، ومن النظر على تركة اخيه عماد الدين وورثته واسقطته من العدالة. فسمعوا ذلك وراح كل منهم الى بيته وخرج القاضي وحده راح الى القاهرة لانه كان يسكن بها. وبقي الحال على ذلك الى يوم الجمعة السادس من بشنس [اول مايو] وهوعيد الشهيد ابى اسحق

استغناما للشهادة وكثر الطعن بعده حتى أن الرجل يكون ماشيا يقع فيموت. وكان الشيخ اسمر اللون خفيف اللحية، وكان له باع في اكثر العلوم وله معلقات على كتب التوحيد ولكن كان عنده لكانة وكان شديد الفهم مع عدم أنطلاق لسانه أجتمعنا به وحضرناه سامحه الله ورحمه وغفر له ما قد جنى والله أعلم.

وزاد الطاعون الى أن صار يدخل البيت، فلم يبق فيه أحدا وبيوت لم يدخلها أبدا، وبيوت أخذ منها البعض من الذين فرغت[1] أجالهم وابقى من بقي في عمره بقية والقتل واقع في جماعة جركس. ثم أنهم عملوا جمعية: واتفق امرهم على أن كل من كان عنده أحد من جماعة جركس أو من اطرافه يطرده وانهم لا يحموا احدا منهم وكل من رأوه من جماعة جركس بعد عشرة أيام يقتلوه، فما كنت ترى في بولاق الا قتلى على المراكب والخلق في ازدحام على النزول الى المراكب وأن سليمان بيك كاشف طحطة الذى تولى جرجة عوضا عن سليمان بيك جميزة كان في قدم النبي وهو متهي الى السفر لجرجة. وكان عنده من اتباع جركس خمسة وعشرون رجلا فرمي رقابهم في قدم النبي، وكان قد أرسل قدامه في مركب ثمانية كشاف من كبارات جركس فلما عوم وطلع المنية قابلوه وسلموا عليه وهنوه بالسلامه فمسكهم ورمى أعناقهم في منية ابن خصيم وأرسل رءوسهم الى مصر.

(١) بالأصل «فرغ».

بدفـرى(*)، رسم الشيخ ابى المجد الاخميمى بان يعود الى الخطابة على ما كان عليه اولا، وهذه اولا خدمة كانت لابن عبد السلم [السلام] فخطب في النهار المذكور بجامع مصر وكان له يوماً مشهوداً وتلقاه الناس بالشمع الموقود والمصاحف المنشورة وفرحوا به فرحاً عظيما. وبقى الحكم بغير قاض بمصر والامر موقوف فى ذلك الى ان ركب السلطان يوما فى بر الجيزة فلحقه [عز الدين] ابن عبد السلم [السلام] وجاء اليه الى المنظره بمنيه

(*) دفرى: من القرى المصرية القديمة. اسمها القبطى Difré ومنها اسمها الحالي، وكان اسمها القديم Tiphré. وهى على مسافة قريبه من طنطا.

وفى يوم ثامن شعبان[1] ورد آغا من الديار الرومية وبيده صحبته خطان شريفان[2] واحد بمقرر باشا عن سنتين سنة ١١٣٨ وسنة ١١٣٩ والثاني بمحاسبة على باشا وارساله الى قلعة جريد حكم ما كان فيها سابقا والحث على جماعة أبى شنب وجركس وأبن سيده وجميع صناجقه وانكم تطلبوهم اينما سمعتم بهم. فلما تم قراءة العرض قدم رجل بين يدى الوزير وقال مولانا الوزير محمد بيك ابن أبى شنب قد توفى، وها هو يغسلوه فى هذا الوقت بحارة الجامع الازهر بدرب هناك يقال له درب الاتراك فى بيت رجل يقال له الشيخ محمد القبانى، وقد أسكنه فيه الشيخ عنبر تابع الشيخ محمد الخراشي وتلميذه الشيخ على الواطى. وكان المخبر للباشا بهذا الخبر الشيخ محمد البتنونى ناظر الشيخ نجم الدين البندارى فقال له الوزير انظر ما تقول يا رجل؟ فقال له: ارسل الاغا والوالي. ونزلوا فى الحال الى الجامع الأزهر الى المحل المذكور فوجدوه حقا كما قال الرجل وقد غسل وكفن وينتظرون غفلة يخرجونه فيها لأنهم فطنوا بأن البتنونى علم به.

وكان السبب فى ذلك أن الشيخ محمد الخراشى له عبد يقال له الشيخ عنبر وهو رجل صالح وكانت أم محمد بيك تعرفه من زمن أبى شنب فلما ضاق على ولدها الحال من شدة التفريط عليه، اجتمعت بالشيخ عنبر وحكت له عدم قبول الناس فى تخبية ولدها من شدة

(١) ١١ أبريل ١٧٢٦م.

(٢) بالأصل «شريف».

عقبه(*) [ميت عقبه] واستاذن عليه فاعطاه دستورا [إذن] بالعبور فعبر اليه فاكرمه وقام له واكل معه واستعفاه من القضاء فاعفاه، وما كان يظن ذلك ثم استاذنه في السفر فاذن له فيه الى اى جهة اراد ثم خرج من عنده وقد انبت [انقطع] من الحكم والخطابه واستخدم نوابه جميعهم(*) فى مواضعهم على احالهم لكن من قبل السلطنة لا من قبل قاضى مصر على جارى العادة. وكان قاضى مصر

(*) منية عقبه: هى ميت عقبه الحاليه من اعمال محافظة الجيزة. والعقبة معناها الكوم أو التل، وهذا ينفى أن اسمها على اسم عقبه ابن عامر الجهنى والى مصر من قبل معاويه ابن أبى سفيان سنة ٤٥هـ. = ٣٨١ق. = ٦٦٥م.

(*) بعد أن عزل الصالح نجم الدين القاضى ابن عبد السلام وولى محله محمد ابن ناماور ابن عبد الملك الخونجى الشافعى. توفى سنة ٦٤٦هـ = ٩٦٤ق. = ١٢٤٨م.

التفريط عليه وحبس البيوت وطلبت منه أن ينظر لها بيتا فى ناحية الجامع تسكن بولدها فيه الى أن ينفذ الله حكمه. فقال لها على الرأس والعين. ثم أنه سال أهل الجامع على بيت خالى فوصفوا له هذا البيت فرآه خاليا فاستاجره منه واخذ مفتاحه واعطاه لام محمد بيك فأتت هى وابنها، وهو مزين، فى صفة امراة، وصحبتهما جاريتان حبشيتان، فسكنوا فيه مدة الى أن توفى، ولم يشعر به أحد من خلق الله تعالى.

وكانت امه تتردد اليه كل حين تنام عنده تلك الليلة الى أن طعن بثلاثة طواعين ومات، فلما توفى أرسلت أمه الى الشيخ عنبر واخبرته بموت ولدها فارسل الشيخ عنبر أحضر مغسل الوقف ودكة الوقف وأخبر بانه رجل من أهل مكة قد توفى فغسله وكفنه وأخذ سلبه وطلع. واذا بالشيخ أحمد البتونى جالس على حانوت القبانى الذى مقابل الدرب فرأى المغسل وهوخارج من درب الأتراك بالسلب فنده عليه فأتاه فقال له: ما هذا الذى معك؟ فقال له: غسلت رجلا مكيا أحضرنى له الشيخ عنبر وهذا ملبسه ففتح السلب فوجد فيه كركا سمورا وقفطانا اطلسا نفيسا، وشاية من أطلس نفيس، وقميصا، ولباسا ملزا، وشاش الطون باش، فوق طربوش جوخ، وشالا كشميرا، وتشاقر كشميرا[1]، وشخيشا داخل ملاية زرقاء، سلبه بقطع ستين زنجرلى، فأخذ السلب والمغسل ودخل الى البيت فلما رآه الشيخ عنبر تعطف بخاطره

(١) ضبطت العبارة كلها على النصب، بعد أن كانت مرفوعة خطأ.

ايضـا من جـملة النـواب الذين ابقـوا على حـالهم ولـم يتـغـيـر احـد من النواب سـوى قـاضى قـوص، وكـان هذا تدبيـرا من الله تعالى لانه كـان قـد ظلـم النصارى واساء عليهم واحدث عليهم حوادث لم يكن[لـم يسـبق لهـا مـثيل] حـتى انه اسـتـسـلم كل مملوك لهم ومنع ان يبـاع شى من الجلب [العـبيـد المجلوبين] لاحـد من النصـارى، وقـال ان هـولاء الجلب جـمـيـعـهم مـسلمـون وهم يعـبـرون على

فما أمكن. ثم أن أمه اعطته خمسين زنجرلى على أن يستر القضية فما أمكن. وأرسل ولده الى الوزير ومكث هو عند الرجل الى أن جاء الاغا والوالى وأخذوه فهـذا كـان السـبب ثم أنهم اطلعوه الى الوزير: فلما وضعوه بين يديه فرآه فاذا هو فأمر بالصلاة عليه ودفنه فى باب الوزير وأبى أن يدفن عند والده ثم أن أمه توجهت الى على بيك واخبرته بأن مسكنها فى هذا البيت وأتى لها بالمفتاح. وأن أحمد البتونى والشيخ على صقر والشيخ على الطرابلسى، وانهم كانوا يأخذوا منها فى كل يوم ثلاثة زنجرلى وأن الذى كان يأخذ ثلاثة زنجرلى فى كل يوم أحمد البتونى وما عمل هذه العملة الاتسترا عليه أن أحدا يشك فيه أن عنده خبر من هذا الأمر. فركب على بيك جواده وطلع الى الوزير وأخبره بما قالت له أم محمد بيك، فأرسل الوزير آغا مستحفظان فمسك أحمد البتونى وعلى صقر والمغسل والمفوض وابن الشيخ محرم وهرب الطرابلسى وعلى الواطى تابع الشيخ عنبر والشيخ عنبر. ثم أن الباشا امر آغة مستحفظان بهدم البيت فهدم الى الاساس واودع من مسكه الى العرقانة. وفى ثانى يوم تشفع على بيك فى دفن محمد بيك عند والده فى القرافة فامتنع وما دفن محمد بيك عنده والده الا بعد عزلان الباشا وكذلك رضوان بيك عند سيده. وفى ثانى يوم أرسل له الوالى خنقه فى العرقانة فكأنه لم يكن وما عملت أم محمد بيك هذه العملة الا لكون أن الشيخ أحمد البتونى هتك ستر ولدها فأهتكتهم بهذه العملة ثم أنهم بأتوا تلك الليلة واسيبهم الاغا فى ثانى يوم.

دهلك(*) وعيذاب وبلاد المسلمين ويدخلون المساجد ويصلون فيها فلا يجوز ان يباعوا للنصارى، واشيا كثيرة من مثل هذا، من ان ابن الابن يتبع الجد اذا كان مسلماً وان كان الابن نصرانيا لانه كان بالغاً في حال اسلام ابيه الذى هو الجد. فصرف دون جماعتهم واقر ساير النواب على ولاياتهم. واهتدى الناس مما كانوا عليه قليلا الا ان كنيسة الجزيرة [الروضه] هدمت الى الارض

(*) دهلك: جزيرة فى البحر الأحمر فى مواجهة ساحل اريتريا، كانت مركزاً لتجارة العبيد السود المجلوبين من السودان على يد العرب. أما عيذاب فهى ميناءمصرى قديم على البحر الأحمر، فى مقابلة مدينة قنا كان على طريق الحج وقت الحروب الصليبية.

وفي يوم الاحدحادى عشر رمضان [1] آرسل الوزير طلب الحاج داوود صاحب عيار، فلما مثل بين يديه وكان على بيك الارمني وكتخدا الجاوشية وآغة المتفرقة وكتخدا الوزير بمجلس الوزير فقال له الوزير: يا داوود آغا قد جاء في حقك خط شريف بقتلك. فقال سمعا وطاعة والحمد لله الذى أنا معلوم عند السلطنة ويعرف السلطان اسمى اللهم اجعلها على شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله. ثم أن الوزير امر جماعته أن يودعوه العرقانة وارسل الى الوالى فلما حضر أمره أن يقتل داوود وأعطاه فرمانا فأخذ الفرمان ونزل الى العرقانة فأخرجوه له وهو صايم، فأعرضوا عليه الشرب فأبى، وقال للوالي: والله لا أقابل ربى الا صايم. ولكن اذا قابلت ولدى فاقريه منى السلام ثم أنه توضأ وصلى ركعتين وقال للوالى: افعل ما امرك به مولانا السلطان، ولم يتغير له لون، ولم يحصل له انزعاج فرمى عنقه رحمه الله تعالى حادى عشر رمضان سنة ١١٣٨.

والسبب فى قتله: ان السلطان صفى الذهب الذى أرسله سابقه فخس فى العيار ثمانين كيسا، فأرسل اخذها ونهاه الوزير عن عمل الذهب الردى، وفى سبع وثلاثين جاء الاغا الذى صفاه أول سنة فنقص ماية كيس فأرسل الذى كان يصفى الذهب فجعله صاحب عيار وأرسله الى مصر فلم يقبل لقوة جركس واغتر داوود بجركس وفرق الذى تقدم ذكره، وبهدلوا الاغا وابقوا داوود على ماهو عليه.

(١) ١٣ مايو ١٧٢٦م.

وغيرها في عماير القلعة(*) وصارت من جملتها. وكان في هذه السنة قد وردت الاخبار أن الخليفة المستنصر بالله(*) قد توفي ببغداد وكان رحمه الله من الخلفا الراشدين الذين اقاموا منار الحق وانصفوا بين الخلق وقربوا المويدين وأقصوا المفسدين فتوفي وقعد بعده ولده المستعصم بالله امير المومنين، وكانوا يطلقوا له هذا للنعت لان الخلفا العباسين قد ناهزوا الاربعين فقد استوعبوا اكثر الاسماء، ومن شرطهم الا يسمى خليفة باسم قد سمي به

(*) هدم كنيسة الروضة.

(*) المستنصر بالله: هو الخليفة العباسي الذى بنى المدرسة المستنصرية فى بغداد. حكم سبع عشرة سنة إلا شهرا. تقلد الخلافة بعده ولده عبدالله ولقب بالمستعصم بالله، وكنيته ابو احمد ابن المستنصربالله منصور. كانت وفاته فى ١١ من جماد الثانى سنة ٦٤٠هـ. = ٩٥٩ق. = ١٢٤٢م.

فلما حصل لجركس ما حصل وتبددوا جميعا كان عنده خط بقتله أو هو فعله من عندياته فأرسل له وفعل به ما فعل وأرسل أتى بالاغا فأولاه من يومه ولم يكن عند احد خبر من هذا العلم الامر، فما شعروا الا وهو نازل عليهم التابوت فكشفوا عليه فراوه جثة بلا رأس والرأس مسلوخة فسألوا عن الخبر، فقالوا قتله [الوزير] وأولى محله على آغا صاحب عيار. وفي ثاني يوم لقوا عبدالرحمن النظامي فى حارة اليهود، فمسكوه وأعرضوه على الباشا فأمر برمي عنقه فقطع وهو مصطفى آغا الوالي عنقه بالديوان، وكان عبدالرحمن هذا النظامي كتخدا جركس وكان له باع فى قطع الجرايم.

وفي عشرين رمضان(١) توفي محمد جربجي المرابى، وكان ذو مال عريض وكان له من البلاد والاماكن والعلوفات والنقد ما ينوف عن الف وخمسماية كيس ولم يعقب أولادا الا ولدين لسيده مصطفى كتخدا الشهير ببابوجي أو غلى يعنى البوابجى. ثم أنه أوصى بوصية فمن جملة وصيته أنه أوصى لرجل يقال له عمر آغا القبطان تابع شاهين أحمد أغا بثلاثين كيسا، ولواحد بألفين أحمر، وحكم تاريخه ختامه محمد سنة ١١٣٨ وبموته ختم الفصل وجلا حكم الطاعون فرحمه الله وعفى عنه وأرضى عنه خصماه وبيته الذى برصيف الخشاب.

(١) ٢٢ مايو ١٧٢٦م.

غيره، فيقال انهم اقاموا مدة يحثون حتى وقع لهم هذا الاسم . وجات رسله [رسل الخليفة العباسي] الى مولانا الملك الصالح وخطب له وضربت السكة باسمه. ثم ان مولانا السلطان عز نصره سير الى اخص الامرا الذين بغزة وهم الامرا الاشراف اولاد تعلب بان يحضروا الى القاهرة لشغل عرض له فجاوا، وفي مجيهم كان الافرنج قد جآوا في امر[فوجودا] مركبات الواردة فنهبوها واخذوا منها جماع ثم جاوا الى قطية وفي مجيهم

وكان افتتاح الفصل بالقاضي الذى مات بالديوان الذى تقدم ذكره وكان زيادته في رجب وشعبان، وكان ختامه موت محمد جربجي المذكور ولم يذكر طاعون بعد عشرين رمضان. وفي يوم الخميس خامس شوال[1] ورد ركاب حسين بيك الرزاز الذى سافر الى سفرة العجم الذى سافر صحبة حمزة بيك صنجق السفرة لأنه سافر ملياخور الصنجق، فلما مات حمزة بيك أعرض الوزير صنجقيته على أغا [2] المتفرقة فأبي، فكان حسن هذا حاضرا بالمجلس. فعمل للوزير عشرة آلاف أحمرعلى الصنجقية وعلى بلاده، وأخذ فرمانهم ورجع الى مصر فأوكب خامس شوال كما ذكرنا وكان حسن هذا أصله فلاح من المنزله ورباه حمزة بيك والله أعلم.

وجاء صحبته قرا مصطفى قريب جدك وعلي أوضباشا بن داوود وسليمان وصحبته فرمان الوزير خطابا الى متكلمين باب مستحفظان بأن قرا مصطفى يكون باش أو ضباشا مستحفظان وعلي بن داوود يكون أوضباشا وسليمان بمقه ثم أنه لم يفده بشئ من مجيبه الفرمان الا انه البسوه الضلمة ودخل جميع من كان في السفر وأن جميع السدادرة التى تولت من مصر تغيروا المرة والمرتين الا البنهاوى. فانه لم يتغير وكلما طلع بالسدارية رجع بها. وفي ثانى يوم ورد أغا من الديار الرومية بضبط جميع ما يملكه علي باشا وبيعه وارساله الى قلعة رودس نفيا،

(١) ٦ يونية ١٧٢٦م.

(٢) بالأصل «الأغا».

اليها نزل الاشراف بها ولم يعلموا واذا الافرنج قد طلعوا من المراكب اول الليل وجاوا الى السوق ونهبوه وامسكوا كل من وجدوه وربطوهم معهم في السلاسل، فلما بلغ الاشراف ركبوا وكانوا في قلة لان اصحابهم تفرقوا وكانوا في الاصل ضعافا لان اجنادهم مقاربة جداً الا انهم ما قصروا بادروهم وقاتلوهم من اول الليل الى ان طلعت الشمس وخلصوا منهم المسلمين الذين كانوا اسروهم واخذوا منهم ثلثة انفس بالحياه وقتلوا

فأرسل له محمد باشا فرمانا صحبة أربعين نفرا من وجاق مستحفظان وعليهم جربجي سردارا من باب مستحفظان فحبسوه في بيته. وقعد الاربعون ففرا المعينون على باب المخدع الذى حبسوه فيه وصاروا لا يمكنون أحدا من الدخول عليه ثلاثة أيام، الا ان باعوا له وشال صنجقيته واطواخه وعزل من الباشوية بموجب الخط الذى أتى بضبط ماله ورفع اطواخه ونفيه الى جزيرة رودس وأنزلوه الى الحلى ثلاثة أيام بالترسيم عليه. ثم بعد الثلاثة أيام أرسلوه الى سكندرية بالجربجي والأنفار الى أن أنزلوه في الغليون وسلموه الى القبطان وسافر به القبطان في غرة القعدة سنة ١١٣٨[(١)] وورد الركب الجزايرى واخبر أن جركس وجماعته قابلوهم في طرابلس وانهم (وردوا)[(*)] على الدوتلى في تونس فلم يقبله وطرده. ثم انه توجه الى طرابلس فاكرمه الدوتلى أحمد باشا بن يوسف بتاعها ولم يكن معه الا عمر آغا فاخذ منه عرضا وتوجه الى الجزاير ليأخذ منه عرضا الى السلطنة. ثم ان الباشا لم علم أن ركب الجزاير ورد أرسل فرمانا الى كاشف البحيرة ابن يوسف بيك الجزار يفتش ركب المغربى الفاسى الى العقبة الاخضر فسافر الى أن وصل العقبة فأجتمع بشيخ الركب فاخبره بأنه قابل جركس وهو متوجه الى الغرب، فساله فاخبره بأنه متوجه الى مولاى اسماعيل ليأخذ منه عرضا الى السلطنة بالشفاعة كما أخذ عرضا من طرابلس، وانه لم يكن معه الا رجل يقال له عمرآغا

(١) ١ يولية ١٧٢٦م.

(*) الاضافة للتوضيح.

(*) الشعف: هي الرووس أو فروة الرأس.

منهم زها عشرين نفساً جاوا بشعفهم(*) معهم على الرماح ويقال ان اكثرهم جرحوا ومنهم من مات بعد انفصالهم عنهم وماراحوا الا بشدة ويقال انهم ما بين ثلثماية قواس وهذه حملة كبيرة بازا هذه الجماعة اليسيرة. وشكر الامرا الاشراف من مولانا السلطان ومن كل احد. وخلع مولانا السلطان عليهم خلعاً سنية وكانوا ثلاثة امرا اولاد عم وهم حصن الدين وكان اصغرهم سناً واكبرهم قدراً. وشرف الدين، وتقي الدين . ثم بعد

ومعه عرب ومماليك وبعض عياله وخدم وانه قابل جميع الصناجق بعضهم في درنة وهم: جركس الصغير ومحمود وبعض مماليك وأحمد بيك الأعسر ومملوكه أحمد بيك والزناتي في بني غازى والله أعلم. وفي ثاني يوم ورد آغا بخط شريف يتضمن بيع بلاد ابراهيم بيك الفارسكورى، والسبب في ذلك أن ابراهيم بيك كان وكيلا على بلاد ابن عثمان باشا، فلما دخل بالخزينة اجتمع عليه وطلب منه فايض بلاده فلم يجد عنده شيئا، وجاءهم خبر جركس وهروبه فتحاسب معه فطلع له خمسة وأربعون كيسا فأخذ خطا شريفا ببيع بلاده وارسال الخمسة وأربعين كيسا صحبة الاغا المعين فكان كذلك وارسلوها له.

ومن أعجب ما وقع: أن سفينة جاءت الى سكندرية من بني غازى وفيها ثلاثة مماليك لاحمد بيك الأعسر وصحبتهم مكاتيب الى ولده ومفاتيح صناديق بأنه يتوجه الى رجل يعرفه ابنه وأن ياخذ الصناديق ويفتحها ويرسل ما فيها الى والده في بني غازى، فأخبر القبطان سردار اسكندرية بما حصل، فمسكهم السردار وارسلهم الى باب مستحفظان. فأخبروا الباشا بما وقع وأرسلوا له المماليك فأرسل الباشا الى الوالي وهو اذا ذاك مصطفى أفندى تابع ولي باشا فلما ظهر زين الفقار ظهر مصطفى أفندى فعمله الوالي بمعرفة حسين كتخدا الدمياطي لأنه ارتكن له وعمل أشراقه، فلما حضر الوالي أمره أن ياتى بابن احمد بيك الأعسر فلما أتى سأله عن المال فانكر فعاقبه فأقر انه عند ابن درويش المزين الذى جهة بيت أبى شنب مزين ابراهيم بيك أبو شنب، فأرسل له الوالي فهجم بيته ونهبه وأخذ الصناديق وأرسلها الى الوزير فأخذها ونفى

ذلك تحرك العسكر الشامي [متحالفين] مع الافرنج الى نا حية غزة وجات الاخبار بان الملك الناصر بن الملك المعظم صاحب الكرك اتفق معهم فعاد العسكر الذى كان بغزه وطلعوا الى فاقوس(*)، ورسم مولانا السلطان عز نصره للعساكر بالخروج، وانفق فيهم لكل امير على عدد حلقته عن كل جندى عشرة دنانير، ان كان معه ماية جندى اعطاه الف دينار والاجناد لكل جندى عشرين ديناراً، فاما رجال الحلقة فلكل واحد اربعين ديناراً.

(*) فاقوس: هى من المدن القديمة. كان اسمها المصرىPakes والقبطى Fakoussa ومنها جاء الاسم الحالى. وفاقوس الحالية تقع للجنوب الشرقي من محطة فاقوس وعلى بعد ١٥٠٠ متر منها. وهكذا تكون تابعة لمحافظة الشرقية كما تقع على بحر فاقوس.(مصرف فاقوس)، وكانت على طريق مصر للشام.

- -

ابن الاعسر الى دمياط وقتل المماليك والله أعلم. ثم أن باب مستحفظان كانوا عملوا ايواظ جاويش سردارا الى جدة فمات فاجمع رأيهم أن يحضروا رجب كتخدا من دمياط ويجعلوه سردارا في جدة، فأرسلوا له جاويشا بأن يأخذه من بره الى بره ولم يدخل مصر واتوا به الى بولاق وأخذوه من بولاق الى العادلية، ولم يدخل مصر ولا رأى بيته فلما نزل بالعادلية أتى له سليمان أوضباشا الاقواسي باش جاويش وابراهيم جربجي يمق صاروا اختيارية بابه فاجتمعوا عليه وسلموا عليه وقوموا عليه ذخيرة ايواظ جاويش وعازقه جميعا بعشرة آلاف زنجرلي وقبضوها منه بالمجلس وأرسل أتى بحريمه ومكث فى العادلية ثلاثة أيام ثم أنه سافر ا لى البركة ونزل في قصر أيوب بيك وصحبته قافلة وصحبته سليمان جاويش الدبوس الذى كان يمق باش الاوضباشية.

فما أصبح الصباح وطلع النهار واذا بالبر من نحو مصر قد اسود وانكشف السواد وظهر من تحته عسكر يقدمهم سليمان بيك الفراش وسالم بن حبيب فى عرب الجيزة فنهبت العرب قافلة عن بكرة أبيها وهرب رجب كتخدا فأدركه سالم بن حبيب وأتى به وأرمى عنقه تحت القصر قدام حريمه وأولاده واتباعه ينظرون اليه، فلما رآهم سليمان الاقواسي اخذ ولده ونزل يجرى نحو البر، واذا ببندقية نزلت في ظهره خرجت من صدره فوقع الى الأرض وانتر ولده عثمان من حضنه وقد فرط فيه الفرط فأخذوه الولد وأعطوه الى أمه ولم يصبه شئ وأخذوا الاثنين الى مصر فغسلوهما وصلوا عليهما سوية ودفنوهما رحمة الله عليهما وكان

ويقال ان الذى اخرج مايتا الف . وجات ايام اخذ القاع بالمقياس والمطالعة به وهو الخامس والعشرين من بونه [١٩ يونيو] وكان القاع فى النهار المذكور اربعة ادرع واربعة عشر اصبعاً وكان فى العام الماضى فى مثل هذا النهار اربعة ادرع وعشرين اصبعاً النقص بينهما ستة اصابع. وكانت الاسعار هاديه القمح من خمسين درهما الاردب الى ثلاثين والشعير من اثنين وعشرين درهما الاردب الى عشرين والفول مثل ذلك واما اللحم والدجاج

ذلك يوم الجمعة خامس القعدة سنة ١١٣٨. وكان بينه وبين رفيقه ماية وخمسون يوما وفى ثانى (يوم)[١] أرسل الى مصطفى آغا الوالى فرمانا بقتل أيوب كتخدا ابراهيم ابن شنب فتوجه له فوجده قد خرج من صلاة الجمعة وهو قاعد على دكته فى باب منزله الذى تجاه بيت أيوب بيك، فدخل عليه واعطاه الفرمان فقال: سمعا وطاعة وأتى متوضى فأخذه ورمى عنقه على بلاعة البير، وكان رجل شيبة رحمة الله تعالى. ثم أنه فى ثانى يوم الذى هو السبت سادس القعدة[٢] أمر الباشا باشل جاويش مستحفظان بحضور أحمد أفندى الرزنمجى، فلما حضر بين يديه طلب منه الوزير المال المطلوب منه فقال مولانا الوزير لم يبق عندى ما يباع بدرهم فان كنت تعفو وتطلقنى فأفعل. وان كان مرادك قتلى فاقتل، فلما سمع الوزير كلامه امر به الى العرقانة فمانعت الانكشارية فقال لهم: كل من اراد أن يأخذه منى يقعد بالمائتين كيس الذى عليه للميرى والا فانا أقتله وادفع المال الى الميرى وأريح المسلمين من شره فلم يردوا عليه جوابا وسلموه له ونزلوا وكان هذا توطى بينهم وبين الباشا ثم أن الباشا أمر به الى العرقانة، فمكث فى العرقانة يعاقبه أياما ومشى فى أصابعه الغاب. ثم أنه أمر بتكسير يديه ورجليه وخلع رقبته وعاقبه عقابا لا يعاقبه النصارى فى يسراء [اسرى] المسلمين ثم أمر بعد ذلك برمى عنقه فى حوش الديوان ثم أنه أمر بشيله الى المغسل الذى بسبيل المؤمنين، فمكث

(١) الاضافة للتوضيح.

(٢) ٦ يوليو ١٧٢٦م.

وساير اصناف الموكول وما يجرى مجرى ذلك فعلى حاله فى الغلا. وكان مولانا السلطان قد امر بنفى جماعة من الامرآء المعتقلين فاخذ لهم شوانى [مراكب] وركبوا فيها ومضوا بهم الى بلاد الغرب الى جزيرة فيها قوم يهود يقال لها طلمشه [مقابل برقة] فتركوهم فيها. وكان انسان من اولاد النصارى يعرف بابى المجد بن الموتمن بن ابى البدر وكانت امه ابنة اخت الاب البطرك ابن زرعه(*) كان قد جرت له نكبه على سكر من مدة ثمان

(*)هو مرقس الثالث رقم ٧٣ تولى مابين ١١٦٦ إلى ١٢١٦م.

فيه يوما وليلة وفى ثانى (يوم)[١] استأذنوا الوزير بشيله فجاء أهله وأخذوه وغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه وذلك فى يوم الخميس ثامن عشر القعدة سنة ١١٣٨[٢]. ثم ان فى ثانى يوم طلعت جارية سودة الى الديوان واخبرت الباشا بأنها تعرف محل ماشال فيه أحمد أفندى ماله، فأرسل الوزير صحبتها كتخداه . والوالى وآغا وصحبته ثلاثين من الدلاة فنزلت بهم الى بيته وأدخلتهم الى الحريم ثم أنها أتت الى حايط فى صدر البيت وأمرتهم بهدمها فهدموها، فوجدوا خلف الحايط باب من الخشب فكسروه فوجدوا خلفه خزنة فوجدوا فيها صندوقا عليه قفلا قدر ركبة البغير فشاله عشرون رجلا بعود العتل فوجودا فيه عدد خيل ورخوت مثمنة وصحون صينى وصحون فضة ووجدوا ثلاثة صوانى من الفضة ووجدوا أطباق صينى شالها خمسة عشر رجلا من حمالين العسكر ووجدوا شيئا لا يكاد يوصف.

وأخبرنا رجل من جماعة الوزير: لما فتح الصندوق وجد فيه ثمانية وأربعون الف زنجرلى وثلاثين صره ريالات كل صره خمسماية ريال.

وكان السبب فى اخبار الجارية بذلك: أنها كانت لوالده وكان والده عتقها وكتب لها جراية فى العنبر وسبعة عثامنة بدفتر الأيتام فلما مات سيدها طلبت من ابن سيدها أحمد أفندى ما كتبه لها أبوه فنهرها وشتمها وأبى أن يعطيها وقال لها: ان لم تسكتى والا بعتك الى القرمان

(١) الاضافة للتوضيح. (٢) ١٨ يولية ١٧٢٦م.

وعشرين سنة وهو انه تخاصم مع قوم وهو سكران فتلفظ بالاسلام فحفظوا القول عليه ومضوا به الى مدرسة الفقيه الطوسي وبيتوه في بيت وحده فلما افاق من سكره رمى بنفسه من باب ريح الى الطريق من ناحية البحر ومر من وقته استتر عند بعض النصارى الى ان قضى شغله وتوجه الى الشرق فاقام هناك هذه المدة وتزوج ورزق اولاداً ومالا ثم انه رمي من الزمان بحوادث اذهبت المال وافقدت بعض الاولاد فعاد الى مصر رجاء ان امره

وكانت تعرف هذا المحل من زمن حبسه في القلعة على مدة على باشا الرزنمجي، فلما مات طلبت مالها من ابنه فقال لها: ان كان أبي ما باعك فأنا أبيعك. فطلعت الى الباشا وأخبرته واخذ ما سمعته اسماعكم الفايقة واذهانكم الرايقة. ثم أن الباشا اعطاها الجراية والعثامنة واعطاها خمسماية زنجرلي وامر باغاة مستحفظان بالفحص على ولده. فأنظر يا اخي الى هذا الرجل وكيف ما غلبت عليه الدنيا وفتنته وقاسى العذاب من اثنى عشر جماد آخر الى ثامن القعدة. ستة أشهر ولم يفز، ومات ولم يقر، ولم يفد ورثته شيئا من بعده وأخذ الوزير منه نحو الاربعماية كيس غير هذا ولم يفده شئ مما ادخره لأنه كان سراقا غير مؤتمن على اسرار المسلمين ومعايشهم فجوزى بما حصل له فنسال الله اللطف بنا في الدنيا والآخرة[1]. وصار الطلب على ولده فاحتمى في بيت عثمان جاويش القزدغلي، فلا تغتروا يا اخواني باقبال الدنيا فانها غرور نسأل الله أن يجعل حبها في أيدينا لا في قلوبنا وأن يرزقنا الكفاف. وكان شيخنا سيدى محمد الزرقاني شيخ السنة يقول لي: يا أحمد الله، لا يكثرها عليك ولا يقلها عنك، فاقول له آمين.

(١) كتب بالهامش رحم الله الشاعر حيث قال:

ثلاثة كن خايفا منهم ... ولد عاق ولو اعجبك

أنثى ولو شابت، ومال ولو ... زاد وسلطان ولو قربك

نسى وان حاله يمشى وانه يقيم بالبلاد ويتعرف
نصرانياً فخوف من ذلك وقيل له ان هذا ما لا
يمكن وترجع يجدد هموماً قد مضت فاستتر عند
اخوته وكان له اخ صالح مبارك يسمي الصنيعة ابا
البدر يوحنا وكان مرشحاً للبطريركية، وقد تحدث
له فيها مرة قبل تقدمه انبا كيرلس [ابن لقلق]
فكان يسعى ويبيع ويقترض حتى يحصل له شيئاً
ياخذه ويسافر، فبينما هم كذلك فى السابع عشر

وفى ثامن عشرين القعدة(١). ورد اغا من الديار الرومية وصحبته محاسبى وعليه رجل أمين يقال له ثمانية وعشرين جلبى لضبط جميع بلاد الهاربين وبيعها وضبط أموالهم الى السلطنة العلية، وبصحبتهم ناظر على باب الضرب وبصحبتهم خطوط شريفة لم تقرى فى ذلك اليوم لحادثة وقعت فى الديوان. وذلك أنه لما سافر محمد بيك بن يوسف بيك الجزار الى البحيرة كاشفا، وجد البحيرة قد خرجت من يد عرب الهنادى والأفراد فحاربهم وقتل منهم كثيرا وطردهم عن الوادى ونهب نجعهم واخذ منهم مالا كثيرا. وأخذ من الغنم خمسة آلاف، ومن الجمال ثلاثة آلاف، ونزل بنى عون مكانهم والبهجة ونزل الى دمنهور ثم أن رجلا من جماعة الكاشف نزل الى السوق ليشترى بطيخا فرأى بطيخا عند رجل دمنهورى فأخذ منه بطيختين فما عرف يرضيه فى الثمن فحصل بينهما الغم الى أن أدى الى ضرب الدمنهورى فضربه الرجل فجاءت الدماهرة على الرجل ومنعت جماعة الصنجق، فسمعت جماعة الصنجق العيطة فادركوا رفيقهم فكسروا الدماهرة فقتل منهم رجل، فلما رأت جماعة الكاشف رفيقهم قد قتل ولوا الى ناحية الصنجق فسأل الصنجق عن الخبر فأخبروه، فهم فى الكلام واذا بالدماهرة قد تحاوطت بيت الحكم، فلما رأى الصنجق هذا الأمر أمر العسكر أن بضربوهم

(١) ٢٨ يولية ١٧٢٦م.

من بوونه [١١ يونيو] اذا وجعه فواده ليلة واحدة واصبح ميت فى التاريخ المذكور وكان قد رضى ان يخرج الى دير شهران(*) حتى اذا مات يدفن هناك فما امهله الزمان وبقى اخوه المسكين متحرقاً ومتخوفاً فطلع الى القلعة واعلم الجماعة بذلك فاشاروا عليه بان لا يدفنه الا مسلماً وان هذا الامر فيه خلاص من درك عظيم وليس فيه خطية على ميت ولا حى فاما الميت فما مات الا على ايمانه وما هذا مما ينقله عنه، واما الحى فما قصد بهذا

(*) دير شهران: هى من القرى القديمة تعرف حالياً بالمعصرة جنوب طرا. وهذا الدير هو ذاته دير العريان بالمعصرة الآن.

بالرصاص.فما كان الاساعة حتى قتل خمسة عشر رجلا فهربت الدماهرة الى داخل البلد فنادى عليهم الكاشف محمد بيك أن لا أحد يقعد فى البلد وكل من قعد قتل فطلعت الدماهرة هاربة الى مصر وطلعوا الى الديوان بمعرفة اختيارية أوجاقهم وطلع صحبتهم بعض من اختيارتهم ليعرفوا الوزير فتعرض لهم على بيك أبو العذبات أمين الشون وقال من جهة فلاحين قتلوا وهم العايبون ترسلوا يحضروا صنجق سلطان من ولايته وتكلم بكلام يابس، فنزلت العزب والانكشارية مغضبين الى أبوابهم وأخرجوا الجنازير على أبوابهم، فلما أخبرت الصناجق تحيروا. فركبوا خيولهم ونزلوا على باب الجبل فرأوه مقفولا فكسروا الباب ونزلوا الى بيوتهم فهذا الذى كان منعهم من قراءة الخطوط. ثم ان اختيارية البابين اجتمعوا بأجمعهم واجمع رأيهم على أنهم ينفوا على بيك أمين الشون فاجمع رؤسايهم مع على بيك فى الليل واصطلحوا ليلا ومشت الزنجرلية، ولما أصبحوا سفروا الدماهرة وأخذوا لهم مكاتيب من الصناجق وأرسلو معهم جماعة أصلحتهم مع الصنجق والله أعلم.

وفى يوم تاسع الحجة[١]. أو فى البحر، وفى ثانى يوم صلى الوزير صلاة العيد وركب الى مصر القديمة وقطع الجسر وحكم فيه ثلاثة أعياد، عيد الجبر، وعيد الأضحى، وعيد الجمعة، وكان الجبر يوم الجمعة عاشر الحجة الموافق لرابع مسرى سنة ١١٣٨[٢]. وفى يوم الثلاث رابع

(١) ٨ أغسطس ١٧٢٦م.

(٢) ٩ أغسطس ١٧٢٦م.

التحقير به ولا التقصير في حقه وانما على سبيل الدوا الذى يستعمل لمنفعته وان كان مراً. فمضى الى مستخدمي المواريث فكتب لهم خطه بما تخلص به منهم واخرجه مسلماً ودفن مع المسلمين وكانت هذه من جملة المحن التى امتحن بها هذا القديس. ثم ان الاخبار وردت بان التطر [التتر] مالوا الى جانب مملكة روم المسلمين [الروم السلاجقة.] وهي نواحي قونيه فاقصرا [قيصريه]

عشر الحجة[1] قريت الخطوط الثلاثة أحدها: بضبط جميع بلاد الهربانين وأتباعهم والمقتولين وأتباعهم وجميع علوفاتهم وجراياتهم وأملاكهم ولم يبقوا لهم شيا، وان لا أحد يأويهم ولا ينتصر لهم. والثاني: بقيمة الثلاثة آلاف كيس التى عملها ابن ابراهيم بيك الى السلطنة حين صار سنجق الخزينة على الدفتدارية وعلى ظهور جركس الذى تقدم ذكره، ووصل منها الفان وستماية كيس وصار الباقى أربعماية كيس تنظروا هي جهة من تخلصوها وترسلوها صحبة الخزينة العامرة، والثالث: خطابا لجميع السبع وجاق بأن يكونوا مساعدين لحضرة الوزير في الذى ذكره في الخطين. وفي رابع عشرين الحجة[2]. عزل أحمد كتخدا الخربطلي وتولى بعده محمد جاويش الدردنلي، وفي يومها وردت مكاتيب من طرابلس الغرب يخبروا فيها بسفر عمر آغا كتخدا الجاوشية الى اسلام (بول) بعرض الجزاير وطرابلس يشفعوا عند السلطان أحمد خان في رجوع جركس الى مصر. وفي غرة محرم الحرام سنة ١١٣٩[3]. ورد الى مصر القاهرة خمسماية عسكرى من عساكر اسلامبول للقوارب التى أحدثها السلطان أحمد خان في بحر السويس، فمكثوا في مصر نحو شهرين وسافروا الى السويس. وفي صفر الخير[4]. أرسل حضرة الوزير محمد باشا النشنجي فرمانا الى باب العزب خطابا الى كتخدا الوقت يوسف كتخدا أبو جبين البركاوى بأن تنفذ حكم الله في أحمد جلبي بن علي باشا

(١) ١٣ أغسطس ١٧٢٦م.
(٢) ٢٣ أغسطس ١٧٢٦م.
(٣) ٢٩ أغسطس ١٧٢٦م.
(٤) سبتمبر ١٧٢١م.

وسواس وملطيه وهى بلاد عظيمة تمسك عساكر جمة وهى من اعمال القسطنطينيه العظمى كان قد اخذها بالحيلة رجل تركمانى يقال له قليج رسلان وان ملكها انفق نفقات عظيمة وضرب دنانير ما سمع بمثلها. ووصل التجار من هنا واحضروا معهم شيا منها وكان فيها ما وزنه اربعماية وخمسون مثقالا(*) ودونها الى خمسين مثقالا وكان ذهبا عاليا جداً حايفاً حتى انه بيع بالقاهرة

(*) وزن = ٤,٦٨ جرام.

استاذ مطوبس القرا(*) والسبب فى ذلك أن آحمد جلبى كان أعز جماعة أبى شنب ، وكان كلمته لا ترد . فجاءت جماعة من المغضين وأشاعوا أن جركس أرسل مكاتيب سرا الى أحمد جلبى هذه من الجزاير فلما وصل الخبر الى الباشا أرسل الفرمان الى يوسف كتخدا بقتله، فهذا كان السبب. والسبب الأقوى طمع الباشا فى مطوبس وفى ماله. لأنه كان ذا مال عريض وبخل كثير ونفوا ولده، وكان جربجيا فى باب العزب الى مكة المشرفة.

وفى ثالث صفر[1]. ورد نجاب المحمل وهذا بخلاف العادة ، ان نجاب المحمل يقعد الى ثالث صفر. فاستغربوا أهل مصر هذا الأمر ولم يدروا ما السبب، وكان السبب لذلك موت قيطاز بيك الأعور، أمير الحاج، فانه وقف بعرفة وتحلل التحلل الأصغر والأكبر وكسى البيت وعاد الى منا فبات ليلة ثالث عشر الحجة وتوفى ودفن بالمعلا رحمه الله تعالى ومات كتخداه الذى كان كتخدا الحاج فى الدهنا من [بلاد] العرب ودفن بالينبع ولم يحصل للحاج تعب أبدا. لأن باشت جدة وباشت الشام وشريف مكة أجمع رأيهم أنهم يسلموا المحمل الى اسماعيل آغا الدويدار وكان كذلك الى أن أوصله الى مصر، فلما جاءت الأخبار الى مصر أرسل الوزير الى الصناجق فجمعهم وأعرض عليهم القول فقالوا جميعا لا تصلح امارة الحاج الا لزين الفقار

(*) مطوبس : احدى قرى، مركز فوه، محافظة الغربية، واسمها الاصلى «تطويس الرمان» ، محمد رمزى، المصدر السابق ، جـ٢، ص ١١٥.

(١) ٢٠ سبتمبر ١٧٢٦م.

بناقص درهم واحد فى كل مثقال عن المصرى لاغير فما كان النقص يفى بحق ضربه بمصر فدل على صيغه وانه يصلح غيره اذا سبك معه. وفى هذه الايام وصل الى الاسكندريه من بلاد الافرنج غلال كثيرة وهو من العجايب الغريبة حتى ان قمحهم بيع بالاسكندريه بستة وثلثين درهما الاردب وكان قمحاً رضيناً صحيحاً قوياً وخبزه احسن ما يكون. وكان اللز [الاستعداد] فى هذه الايام على خروج العساكر والنفقة مستمرة والحفر

بيك وكان كذلك، فألبسه الباشا كركا وأمره أن يسافر الى المحمل يقابل الحج فى أى محل كان فيه فيتسلم المحمل، والبس اسماعيل بيك ابن سيده قفطانا على ضبط مخلفاته وسافر صحبة زين الفقار بيك الى أن قابلوا الحج وتسلم المحمل ودخل الى مصر ثانى عشر صفر سنة ١١٣٩[١]. ففى تاسع عشر صفر[٢]. ورد ساعى من سكندرية وصحبته مكاتيب الى باب مستحفظان يخبروا بورود غليون من الديار الرومية وصحبته محمد بيك قطامش بمفرده، وأنه طلع الى ثغر اسكندرية سابع عشر صفر ففى الحال هيئوا له مراكب وأرسلوها له.

ففى يوم الخميس خامس ربيع أول دخل الى بولاق فأنزلوه فى المدش [ساحل الغلال] فهرعت اليه الخلق من كل ناحية الى ان بقيت لا تقدر على المشى فى بولاق من كثرة الزحام فأخبر الباشا بذلك فخشى أن تقع فتنة فأرسل اليه فرمانا بأنه يدخل الى مصر فلم يبت فى بولاق غير ليلة واحدة. وفى ثانى يوم وهو الجمعة سادس ربيع أول سنة ١١٣٩[٣]. دخل الى مصر والناس فى صلاة الجمعة، ولم يكن يصحبته أحد من الصناجق الا زين الفقار بيك لأنه هو الذى عمل له السماط فنزل بمنزله الذى بقيصون المعروف بمنزل محمد آغا الدالى أغاة الجملية. وفى ثانى يوم طلع الى الديوان فاجتمع على كتخدا الوزير فألبسه كرك سمور ودخل

(١) ٢٩ سبتمبر ١٧٢٦م.
(٢) ٦ أكتوبر ١٧٢٦م.
(٣) ٢٣ أكتوبر ١٧٢٦م.

في البحر ليدور على الجزيرة والعمارة في قلعة الجزيرة والعمارة ايضاً في المدرسة المستجدة بالقاهرة(*). وفي هذه الايام رسم بعمل قنطرة على الخليج عند باب الخرق واهتم بها وحصل للناس بها فرح عظيم لانها تجى فرحاً لهم. ووفا النيل المبارك ستة عشر ذراعاً في يوم الاحد الثالث والعشرين من مسرى [١٦ أغسطس] واستبشر الناس بانه نيل مبارك الا ان الاسعار كانت ماسكة نفسها القمح العال بخمسة واربعين درهما الاردب

(*) هي غالباً الجامع الذى اقامه الصالح نجم الدين ايوب في شارع النحاسين في مقابلة الصاغة.

به الى الوزير فألبسه كرك سمور بعد أن سلم عليه وقال سلامة يا محمد باشا وكان بصحبته أغا وصحبته ثلاثة خطوط أحدها: أننا أنعمنا على محمد باشا بصنجقية، والثاني: لا يعمل أمر في مصر الا باطلاعه ومعرفته، والثالث: برجوع بلاده جميعا له وانكم تستخلصوهم له وتحاسبوا واضع اليد على ما دخل من جهته خلاف الحلوان الذى حطه وكانت مدة غيابه أحد عشر سنة ونصف ثم أنه دار على آخوانه الصناجق فردا فردا وجاءه من الهدايا شئ كبير.

ولنذكر سبب مجيئه الى مصر: وهو ان زين الفقار بيك (قال في نفسه) ان الفقارية قليل والقاسمية جماعة ابن ايواظ قد ملآوا الأرض(*)، ربما يحدث أمر من الأمور وقد مات غيطاز أمير الحاج، فجمع العلماء والصناجق وأعرض عليهم الكلام في رجوع قطامش الى مصر، فالذى لم يجب طيبته أجاب غصبية فأمر في الحال بكتابة عرض وكتب عليه العلماء وأرباب السجاجيد صورة شفاعة في محمد بيك قطامش الى السلطان أحمد خان وكتب عليه الوزير والقاضي وسافر العرض الى أن دخل الى تخت الملك وأعرضوه على مولانا السلطان أحمد خان فقبل شفاعتهم، فأرسل اليه وأحضره هو وابراهيم بيك الفارسكورى فأعرض على محمد بيك رواحه الى مصر فقبل الأرض وقبل، ثم أنه أعرض على ابراهيم بيك الرجوع فابى، ثم ان السلطان أنعم على محمد بيك بصنجقية ابراهيم بيك وانعم على ابراهيم بيك بباشوية محمد

(*) صوب التعبير، فقدمت (قال في نفسه) ليستقيم الأسلوب والمعنى.

والدون بخمسة وعشرين درهما الاردب والدقيق بخمسة وثمانين درهماً الجملة والخبز اربعة ارطال بدرهم وكل ما في البلاد غال من ماكول ومشروب وملبوس ومركوب واصناف العمارة واجر الصناع. وكان قد وصل من بلد روم المسلمين [الروم السلاجقة] مع التجار دنانير منها ما دون الدينار اربع ماية وخمسون مثقالا وما وزنه مايتي وخمسة مثاقيل ولم ار هذين بل سمعت بهما بل انني رايت دينارا وزنه ماية مثقال ومثقالان

بيك وهذا كان السبب والله أعلم. وألبسه الصنجقية التى كانت على قيطاز بيك أمير الحاج وألبس رضوان أغا أغوية الجملية.

وفي خامس جماد[1] المذكور ورد مكاتيب من بندر السويس يخبروا ان البحر الملح طفش على البلد فغرق اموال التجار وأتلف الحمول ودخل الى عنبر المحمدية والدشيشة فغرق الغلال التى كانت فيهم وعم بيت القبطان ومسجد السليمانية وعم البلد جميعا وكان ذلك فى غرة جماد آخر سنة ١١٣٩[2]. وأن هذا لم يعهد قبل الآن.

وفي يوم الخميس عاشر جماد المذكور ورد جوخدار مكتوب من الوزير خطابا الى محمد باشا الوزير يقول فيه: أنا كنا سابقا أرسلنا لكم فرمانا بالحث على جركس وجماعته فجاء لنا عرض دولتى طرابلس ودولتى الجزاير والعرضين صحبة عمر بيك أمير الحاج يتشفعوا عند مولانا السلطان في رجوعه الى مصر، فلم يقبل مولانا السلطان أحمد خان فأرسل يتشفع بملك الفرنسيس ، أرسل ملك الفرنسيس الى مولانا السلطان بقبول الشفاعة وله نظير ذلك ثلاثة آلاف كيس يتسلمها من القنصل الذى له عندنا فى اسلامبول بأن يعفوه من القتل هو وجماعته، وأن يرجعه فى مصر فلا يكن عندكم شاغل بهذا السبب وتكونوا فى أمان. ثم أن

(١) ١٩ ديسمبر ١٧٢٦ / بالأصل كلمة «أخر» مشطوبة.
(٢) ٢٤ يناير ١٧٢٧م.

ونصف مثقال وعلى الوجه الواحد اعتقاد المسلمين [لا اله إلا الله محمد رسول الله] واسم الخليفة وعلى الوجه الاخر اسم ملكهم وهو السلطان الاعظم غياث الدنيا والدين كيكاوس بن كنقباد وتاريخ ضربه بدار الملك قونية سنة خمس وثلثين وستماية(*). وفي هذه الايام وردت الاخبار بان التطر نزلوا على بلد الروم هذه وكسروهم واخذوا منهم بلاد كثيرة منها سواس وانزعج الناس من هذا انزعاجاً كثيرا لانهم قربوا من الشام

(*) ٦٣٥هـ = ١٢٣٨م.

محمد باشا قرأ المكتوب على أربعة من الصناجق وهم زين الفقار بيك ومحمد بيك قطامش وعلى بيك الهندى دفتدار مصر وعلى بيك أبو العذبات أمين الشون، فلما سمع الصناجق هذا الكلام من الوزير تحيروا فى أمرهم، ولكن هذا فى الظاهر صورة ما فيه، وأما فى باطن الأمر كلام كثير ثم أنهم نزلوا الى منازلهم وأرسلوا اخبروا السبع أوجاق بما حصل من الباشا، فلما سمع العسكر قاموا جميعا من بيت زين الفقار الى باب مستحفظان.

وكان ذلك يوم الأحد حادى (عشر) جماد آخر سنة ١١٣٩[١]، فلما اجتمعوا قالوا: هذا الوزير يلعب بنا ومراده يقطعنا جماعة بعد جماعة، فأجمع رأيهم أن يطلعوا الى الباشا ويطلبوا منه الخط الشريف الذى جاء ببيع البلاد التى لهم وضبط أموالهم والحث عليهم أينما وجدوا هم وأتباعهم وفتوة شيخ الاسلام التى جاءت بعصيان جركس وضبط أمواله وأموال أعوانه والجواز بأخذهم وقتلهم ويقرى الفرمان الذى جاء من الوزير الذى أخبر به الباشا. ثم أنهم طلعوا أبى الوزير واخبروه بأجتماع العسكر فى باب مستحفظان فأرسل لهم الخط والفتوة وقرأ عليهم مكتوب الوزير فأخذوا الخط والفتوة موضعوهم فى باب مستحفظان فى الصندوق وانقضت الجمعية. ونزلوا على هذا الكلام فما مضى بعد هذا الأمر الا ايام قلايل، واذا بأغا ورد الى العادلية فأرسل له الباشا كتخداه فطلع الى الديوان يوم الأحد خامس عشرين جماد

(١) ٣ فبراير ١٧٢٧م، الاضافة للتوضيح.

وصار بينهم وبين حلب مسافة يسيرة، وكان قد توجهت منهم فرقة الى بلاد الانبرور [الامبراطور] صوب اللمان [الالمان] ولم ينالوا طايلا. وقتل من التطر والافرنج خلق عظيم كانت الكسرة على التطر ولم تنج منهم الا نزر يسير لانهم كانوا عدوا البحر. وفى هذه الايام وردت الاخبار من الاسكندرية بوصول رسول من جهة الانبرور(*) الى مولانا السلطان الملك الصالح وكان تخير بطسه

(*) فردريك الثاني حكم بين ١١٩٤ / ١٢٥٠م. الامبراطوريه الرومانيه المقدسة.

آخر فقرى الخط واذا به بالسفر الى قندهار العجم، الى اشرف قاسم عم محمود بن محمود فانه توفي وأخذ محله أشرف قاسم، وأن السفر عليه وأن يجهزوا ثلاثة آلاف عسكرى وأن يكونوا الأسماء التى مكتوبة فى الخط أحمد كتخدا القيمجى وسردار الجملية سليم وسردار التفكجية أحمد حلوات وسردار الجراكسة خليل أفندى وسردار المتفرقة سليمان آغا الشاطر وسردار الجاوشية محمد آغا أبطال وصارى عسكر السفرة على بيك الأصفر فأجابوا بالسمع والطاعة. ثم أنه فى الحال ارسل على بيك الأصفر قفطان السفر ونزل الى بيته ونزلت العسكر الى ابوابهم وعملوا جمعية فأجمع رأيهم على أنهم يأخذوا من كل بلك آختيارين ويطلعوا الى الوزير يراجعوه فى هؤلاء السدادرة لأن هذا الأمر لم يكن من السلطان وانما هو من عند الوزير فطلعوا له بعد العصر وهم يعالجوه فى قضية العفو عن هؤلاء الرجال التى جاءت اسماؤهم الى أن دخل وقت العشاء وقالوا له: ان لم تعف عنهم، والا تنزل فعفى عنهم ونزلوا، فلما اصبحوا نقض ما وقع منه من العفو. ثم أنهم اجتمعوا فى بيت عثمان كتخدا باش اختيار واجمع أمرهم على انه ان لم يعف عنهم والا يعزلوه، فلما أحس بالعزلان أرسل لهم سبع فرمانات بالعفو عنهم وأن يولوا أصحاب الطريق على موجب قوانينهم . ثم ان الانكشارية فى ثانى يوم تاسع عشرين جماد آخر طلعوا خليل جاويش نسيب النجدلى الى الديوان، فألبسه الباشا قفطان السفر والعزب البسوا على أوضباشا الذى كان باش أو ضباشية سردارا، والجاوشية البسوا حسن أغا استاذ كمشيش، والمتفرقة البسوا خليل أغا استاذ الواط والجملية البسوا

يسمى نصف الدنيا وكان الناس يتعجبون من عظمتها وقيل ان فيها ثلثماية بحار خاصة خارجاً عن الركاب وكان فيها من البضايع ما لا يحصى كثره من زيت وخمر وجبن وعسل نحل ومتاع وغير ذلك. ثم ان الاخبار وردت بان الملك الناصر بن الملك المعظم صاحب الكرك اتفق مع عمه الملك الصالح صاحب دمشق ومع صاحب حمص ومع الملك الجواد الذى هو مع الافرنج واخذ

ابراهيم جلبي والتفكجية ألبسوا ابراهيم جربجي الزفتاوى والجراكسة البسوا حسن أغا جركس. وأوكب على بيك بالاى عظيم رابع عشرين رجب سنة ١١٣٩[١]. الى العادلية وأوكبت السدادرة يوم الاثنين غرة شعبان الى بولاق، وسافر الصنجق من البر سادس شعبان سنة ١١٣٩[٢]، والعسكر سافروا من البحر ثامن شعبان وأن الاجتماع يكون على قلعة حلب وبعد السفر يكون الى أصبهان لمقابلة أشرف قاسم عم محمود بن ادريس وسافر صحبة الصنجق خلق كثيرن من التجار والله أعلم.

وفي يوم الثلاث حادى عشر شعبان عزل الباشا خليل أغا البشلى من آغوية العزب وولى محله محمود آغا تابع حسن آغا قانصوه وعزل آغة الجراكسة سليمان وولى محله اسماعيل أغا تابع قيطاز بيك. وفى خامس عشر شعبان[٣]. طلعت الرعية الى الديوان وشكوا من ظلم الأغا ومما قد رتبه على الرعية من الحوادث والظلم، وجعل على كل طاحون ريال فى كل جمعة فلما سمع الوزير شكوى الرعية من أبى دفية وكثرة الظلم الذى أحدثه، عزله وولى محله عثمان أيواظ بيك الذى كان أغا سابق وعزل بسبب ضربه لابن الشيخ منصور المتوفى ونزل نادى فى البلد برفع ما كان أحدثه سليمان أغا أبو دفية (*).

(١) ١٨ فبراير ١٧٢٧م.
(٢) ٢٩ مارس ١٧٢٧م.
(٣) ٧ أبريل ١٧٢٧م.
(*) قدم وأخر.

عـسكرا فنزل على الشـوبك يحـاصـرها ورجع
العسكر المصرى الذى كان على غزه وبقى الحال
على هذا مدة . وعتق ابن الملك الناصر الذى كان
بالقـاهرة بالقلعـة واحيط على جـميع اصـحـابه
وحبـسوا وقطعت رواتبهم. واخذت قاى التى كانت
اعطيت لابن مليح لانه كـان من اصـحـاب الملك
الناصـر وهو صـاحب قلعـة عـجلون. ثم وردت

وفى سابع رمضان(١). جاءت الأخبار من سكندرية بموت خليل جاويش نسيب النجدلى سردار مستحفظان فقروا المكاتيب في باب مستحفظان فارسلوا الى يمقه قفطانا فتولى محله. وفى اثنين وعشرين من شوال دخل الركب الجزايرى والفاسى. فاجتمعنا معهم وسألناهم عن قضية محمد بيك جركس وفى أى أرض هو فأخبرنى شيخ الركب بأنه واطن فى الجزاير عند الدولاتلى وأنه أنزله فى بيت رجل كبير من أهل الجزاير عين له تعايين والدخيرة وما يحتاج اليه من الأمر ولا يعرف عن شئ ، وان صحبته أربع من الخدم وعين له فى كل يوم خمسين نصفا فضة للشبرقة وتحت ما يحتاج هو اليه، فأنظر يا أخى الى حكم القادر القاهر كيف نزع ما عنده وألبسه لباس الذل بعد ما كان سلطان مصر وتجئ له الهدايا ويجئ اليه ثمرات كل شئ. وكانت تأتيه الهدايا من الحجاز والروم واليمن ومن أقصى الصعيد ومن الططر فصار تحت الحكم ويصرف عليه ويعطى له فى كل يوم خمسين نصفا وهى ما كان يقنع السايس أبو الشراميط بها بل كان يصرف كل يوم نحو الماية على السياس فى القهوة فسبحان المعز المذل الا فاعتبروا يا أولى الأبصار فان الملك لله الواحد القهار.

وأخبرنى : أنه صار بالابله ا ذا كلمته أو خاطبته لم يرد عليك جوابا الا كالغايب ويغطس فى نفسه حتى انه لا يكاد ينطق. وأخبرنا: أن أحمد بيك الأعسر وأحمد بيك مملوكه فى قرية

(١) ٢٨ أبريل ١٧٢٧م.

الاخبار بان الملك الصالح صاحب دمشق وصاحب حمص اتفقا على الملك الجواد وهو عندهما فقبضا عليـه وسـيراه الى دمشق ورحلا طالبين دمشق. وان الملك الناصر لما بلغه ذلك رحل عن الشوبك بعدما اشرف على اخذها وطلب الكرك ورجع السلطان خلد الله ملكه جرد عسكراً ثقيلا ووجهه الى غزه.

من طرابلس يقال لها المنشية خارج طرابلس هو ونحو العشرة أنفار وفى كل يوم جمعة يأتى الى طرابلس فيصلى الجمعة ويجتمع مع الدولاتلى أحمد باشا بن يوسف قرمانلى يتحدث معه ثم أنه يخرج الى قرية المنشية ومرتب له ما يكفيه هو وجماعته من أكل وملبس وفى كل شهر صرة فيها الف نصف فضة تحت الشبرقة له ولجماعته.

وأخبرنى بموت مولى اسماعيل سلطان الغرب: توفى يوم الاحد ثانى عشرين رجب سنة ١١٣٩[(١)]. وتولى بعده ولده ونزل نجله مولاى محمد الذهبى ولد الحرا وقتل ثلاثة من أخوته واحد شقيقه واثنان غير الشقيقين وذكر لنا أن له من الأولاد الذكور والأناث ثمانية وستين. وكان فى كل يوم يولد له ويموت له وكان له عشرة آلاف عبد، وعشرة آلاف جارية ومزوج الجوارى للعبيد وينكح من أولادهم لأن الجوار فى الرق لم يكونوا أحرارا فيستولدهم وينكح بناتهم المستولدات.

(١) ١٥ مارس ١٧٢٧م/ كتب عنوان جانبى «أعرف موت مولاى اسماعيل سلطان الغرب».

فهرس الجزء الثامن

• رقم الإيداع: ٢٦٤٣/ ٢٠١٢
• الترقيم الدولي: 978-977-704-939-9

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقا)
ت: 23904096 - 23952496

الهيئة العامة لقصور الثقافة

تاريخ مصر

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس بن المقفع

9

إعداد و تحقيق:
عبد العزيز جمال الدين

لم يكن ابن المقفع آخر المؤرخين المصريين، لكنه ومخطوطته كانا الأشهر فى هذا السياق، وقد تعاقب من بعده من الآباء والرهبان المصريين من عكفوا على استكمال هذا التأريخ حتى بداية القرن العشرين. وبجهد الباحث المجد عكف المحقق المصرى عبد العزيز جمال الدين على جمع هذه المخطوطات وتحقيقها والتعليق عليها، موضحاً ما كتب فيها وما كتب فى التاريخ الرسمى الشهير، ليضع أمامنا عملاً قل أن نجده فى الثقافات الحديثة، لنقف أمام وجهتى نظر للتاريخ متأملين كيفية عمل الفعل البشرى فى تسجيل الأحداث حسب الانتماء الثقافى، وليفتح الباب على مصراعيه أمام العاملين فى مجال البحث التاريخى ليعيدوا التأمل فى آلية ومسار واحدة من أهم عمليات التدوين الذى حكم مخيلة البشر فى رؤيتهم لماضيهم التليد.

وزارة الثقافة

السعر: سبعة جنيهات

تصميم الغلاف: أحمد اللباد

تاريخ مصر

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس بن المقفع

الجزء التاسع

وزارة الثقافة

مطبوعات

الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة

سعد عبد الرحمن

أمين عام النشر

محمد أبو المجد

الإشراف العام

صبحي موسى

الإشراف الفني

د. خالد سرور

المتابعة والتنفيذ

عادل سميح

• تاريخ مصر
من خلال مخطوطة
تاريخ البطاركة (الجزء التاسع)
• إعداد وتحقيق:
عبد العزيز جمال الدين
• طبعة:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2012م
17×24 سم
• تصميم الغلاف: أحمد اللباد
• رقم الإيداع: ٢٦٤٣/ ٢٠١٢
• الترقيم الدولي: 978-977-704-939-9
• المراسـلات:
باسم / المشرف العام
على العنوان التالي: 16 أ شارع
أمين سامي - القصر العيني
القاهرة - رقم بريدي 11561
ت: 27947897

التجهيزات والطباعة:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابي من الهيئة العامة لقصور الثقافة، أو بالإشارة إلى المصدر.

تاريخ مصر

من بدايات القرن الأول الميلادى
حتى نهاية القرن العشرين

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس بن المقفع

إعداد وتحقيق

عبدالعزيز جمال الدين

الجزء التاسع

من الأب أثناسيوس حتى أنبا كيرلس البطرك ١١٠ (١٨٥٢- ١٨٦١م)

[اثناسيوس البطرك السادس والسبعون]

[١٢٥٠-١٢٦١م]

اثناسيوس البطرك وهو السادس والسبعون من العدد هذا الأب اثناسيوس البطرك ولد القس مكارم ابن كليل كان شماس بالمعلقة واختير للبطريركية وقدم في الخامس من بابة سنة تسعماية سبعة وستين للشهدا واقام بطركاً احدى عشر سنة وستة وخمسين يوماً وتنيح في اول كيهك سنة تسعماية وسبعين للشهدا.

* أهم أحداث سنة ٩٦٦ق. = ١٢٥٠م. - ٦٤٧هـ.
* [١ يناير ١٢٥٠ = ٦ طوبه ٩٦٦ = السبت ٢٥ رمضان سنة ٦٤٧].
* في ١٤ رمضان توفى الملك الصالح أيوب، فاتفقت جاريته شجرة الدر مع الأمير فخر الدين ورئيس الخصى على كتمان وفاة الملك واستقدام ولدها الملك المعظم غياث الدين طوران شاه، وأخذت البيعة له من جميع الأمراء والقواد أعيان السلطنة، وصار الأمير فخر الدين أتابكا له.
* في محرم عزمت الفرنج على

وقد تولى السلطنة بعد مولاى رشيد سنة ١٠٨٢ وتوفى سنة ١١٣٩[١] فكانت مدة سلطنته سبعة وخمسين عاما وأنه كان لابد له في كل ليلة جمعة أن يفضي ببكر هذا زايد عن موطياته وجميع ما كان له من المال الذى لا يخرجه قبان، والسلاح والأمتعة وضع عليه يده مولاى أحمد الذهبى وأنه في حال توليته قتل ثلاثة وثلاثين قايدا من أتباعه، وقتل القايد المتولى بفاس فوجد عنده من الفضة ستماية قنطار من الفضة، ومابة قنطار من الذهب، وأربعة آلاف بندقية مكملة العدة، وأنه أولى الملك لابنه أحمد الذهبى قبل موته بخمسة أشهر، وأنه لم يمرض طول عمره الا مرض الموت. وكان عنده في الجماع (قدرة)[٢] لم تكن عند غيره. وقيل انه كان قد خرج عليه اثنان من أبنايه فظفر بهم وقطع ايديهما وأرجلهما ومثل بهما في شوارع البلد وكانت سيرته في قومه غير حميدة، وكان اذا ظهر احد من بلاده لابد من قتله ولو كان ولده الذى من صلبه وسلب نعمته، ولوكان من اتباعه الى أن تشتت أكثر أهل بلاده الى البلاد والامصار وتاهوا فيها ولم يرجعوا الى الغرب وأكثرهم بالحجاز والهند والشام ومصر السعيدة. وكان لأحمد الذهبى أخ يقال له عبد المالك وكان والده ولاه مدينة سوس وكان اكبر أولاده، فلما تولى أحمد الذهبى محل والده في مدينة مراكش ركب عبد المالك يطلب قتال أخيه. فلما جاء الخبر الى اخيه أحمد الذهبى جمع عسكره وقال لهم: كيف الرأى، وكان بالمجلس جماعة من عسكر مولاى اسماعيل الذى يقال لهم عبيد نجارى أوعبيد نجار، هذه كلمة مولاى اسماعيل وفرسان الاقليم وعربهم فقالوا له: هذا اخوك وأنت آخوه والداخل

(١) ١٦٧ / ١٧٢٧م.
(٢) الاضافة للتوضيح.

التقهقر فتعقبهم المصريون فادركوهم غربي فارسكور، ويقال إنه قتل من الفرنج ثلاثون ألفا، وأسروا الملك لويس التاسع وكثيرا من ضباطه في منية أبي عبد الله، حيث فروا اليها، فاحضروا الى المنصورة مغلولين، وجعلوا في دار ابن لقمان، وتوكل بامرهم الطواشي صبيح * وفي ٢٨ محرم قتل الملك المعظم طوران شاه، وأول من ضربه ركن الدين بيبرس، فكانت مدته شهرين وأياما، فتولت بعده شجرة الدر، وخطب لها على المنابر في ٩ صفر *وفي ٣٠ منه استلم المسلمون دمياط، وأطلقوا لويز الرابع بمن معه، واقلعوا الى عكا *

[غبريال البطرك السابع والسبعون]

[١٢٦٢/١٢٩٣م]

وغبريال البطرك هذا ابن اخو الاب بطرس الشامي أسقف طنبدى. هذا الاب كان قساً بالمعلقة فأختير للبطريركية وكرز قمصاً ثم ان بعض الاراخنة بمصر اتفقوا علي يوانس ابن ابى سعيد السكرى وعملوا قرعة هيكلية فطلعت باسم أنبا غبريال فنازعه يوانس ابن أبى سعيد المذكور ومن كان معه فابطل.

بينكما منافق وأن قاتلنا معك وانتصر قطعنا، وان قاتلنا معه وانتصرت قطعتنا، والرأى عندنا الصلح بينك وبينه ولا يجرى الدم بينكما.

ثم ان عبد المالك رأى الحق ما قال عبيد تجارى فجرت المقادم فى الصلح فيما (بينه) وبين أخيه فاصطلحوا ولم يسافر الركب الفاسي تلك السنة لأن البلاد كانت فى حركة فقل أهل فاس الجديدة وفاس القديمة فلم يحجوا سنة ١١٤٠[(١)]. والله أعلم.

ولنرجع الى ما نحن بصدده: وهو أنه لما سافر زين الفقار بالحج الشريف اجتمعت الشوارية وهم : مصطفى بيك بن ايواظ وجوز أخته يوسف بيك الخاين وسليمان آغا أبو دفية وعبدالله كتخدا الجاوشية وعلي بيك أمين الشون ويوسف بيك الشرايبى وبعض من السبعة أوجاق المغرضين لطرف أبن ايواظ فأجمعوا فى محل غير معروف الحال، وعملوا أربعماية كيس للجماعة المتبيتين وأعطوهم ما يتين وكتبوا على أنفسهم تمسكا بالباقي المايتين كيس بعد تمام المنصف على أنهم يعزلوا الباشا ويجعلوا على بيك أمين الشون قايم مقام والخاين دفتدار ومصطفى ابن ايواظ أمير الحاج ويطلعوا تجريدة حتى يأتى الحاج ويقطعوا زين الفقار يوسف كتخدا عزبان ومحمد كتخدا الملة وعلى بيك الهندى أن طاوعهم أبقوه، وأن خالفهم قتلوه. ثم أنهم تحالفوا مع بعضهم البعض فى قبة الامام الشافعى وأنهم ينتظروا وفاء النيل وينزل

(١) ١٧٢٧م.

وقـدم يوانس فى سـادس طوبة سنة تسـعـماية ثمـانيه وسـبـعين للشـهـداء بعـد وفـاة انبـا أثناسيوس بشهر وأقام بطركا مدة ست سنين وتسعة اشهر.

ثم عزل يوانس ابن سعيد وكملوا انبا غبريال واستقر فى البطركية مدة سنتين وشهرين من رابع عشرين بابة سنة تسعماية وخمسة وثمانين للشهدا. والى سادس طوبة سنة تسـعـماية وسبعة وثمـانين سبعة وثمانين.

وفى أخـر ربيع الثـانى اتفـقـت أمـراء مـصـر وولت عـز الدين أيبك التركمانى، ولقب بالمعز، ثم اتفقـوا على إقامة الأشرف موسى بن يوسف، وأقـامـوه فى الخـامس من جـمـادى الأولى، وصـار عـز الدين أتابكاله * وفى ١٧ شـعبان هدموا أسوار دمياط، وبنوا المنشية.

* [١ تـــــوت ٩٦٧ = ٢٩ اغسطس ١٢٥٠ = الاثنين ٢٩ جماد أول سنة ٦٤٨]. *
وفى ١٥ رمـضـان سـار الملك الناصـر بعـسكره من الشام فـالتـقى بالمصريين فى العباسية فى ٩ القعدة

الباشا لجبره فيمنعوه من الطلوع الى السراية، ثم أنهم أرسلوا الى على بيك الذى هو كبيرهم ودفتدار مصر بأن يأتيهم إلى غيط النجدلى الذى هو الآن غيط محمد بيك بن يوسف بيك الجزار، فتوجه اليهم بطايفة كبيرة فعرضوا عليه ما دبروه، فما كان من(١) من جـوابه الا أنه قال لهم: أين اليـمين وأين مـا عهـدتمونى. لا يمكن أنى ما أخون اليـمين ولو كان فيـه اتلاف روحى، فلما تحققوا عدم موافقته عليه سكتوا، على خبرهم الا أنهم أضمروا له القتل حين ظفرهم بالمنصف وخافوا ان يبطشوا به فينكشف منصفهم ولم يردوا عليه جوابا. بل انقضى المجلس وتفرقوا الى منازلهم. وكان فى مجلسهم من كان معهم ظاهرا لا باطنا، فلما رأى أتباع على بيك قام من المجلس وقال اجعلوا الوقت وقتين ولما توجه على بيك إلى منزله، فما ساعة المكان بل أنه كتب تذكره وارسلها الى الوزير خفية من رجل غير معلوم الحال، وكان هذا الكلام فى يوم السبت سادس عشر الحجة ختام سنة ١١٣٩(٢).

فلما قرى الوزير التذكرة لم يكذب خبرا، ثم انه أوصى جماعته بأن يكونوا على أهبة، وأرسل تذكرة الى كتخدا الوقت محمد كتخدا الملة وتذكرة الى كتخدا الوقت عزبان بأن يكونوا على أهبة من أمرهم. ثم أنه فى ثانى يوم عمل ديوانا، وكان عقب عيد الأضحى وألبس الوزير فيه قفطانا الى باش الوش، ثم ان الباشا افتقد على بيك أمين الشون، فلم يجده

(١) بالاصل «كان» حذفت ليستقيم الاسلوب والمعنى.
(٢) ١٤ اغسطس ١٧٢٧م.

ثم عـزل من البطركـيـة واعـيـد يوانس بأمـر السلطنة ولم يزل أنبا غبريال معزولا إلى أن تنيح بكنيسة ابو مر قوره بمصر ودفن بها فى سابع عشر أبيب سنة تسعماية وتسعين للشهدا ولما تنيح قدموا اسمه على اسم أنبا يوانس فى الكنيسة.

[يوانس البطرك الثامن والسبعون]

[١٢٦٢/١٢٦٨م.]ثم[١٢٧١/١٢٩٣م](*).

يوانس البطرك ابن سعيد السكرى هذا كان من

وانكسر كل من الفريقين حتى خطب للناصر يوم ١٠ القعدة بقلعة الجبل * وفى ١٢ ذى القـعـدة دخل أيبك التركماني معظما وشنق أمين الدولة ورفيقه على باب القلعة، كذا قتل الصالح اسماعيل.

(*) هذه هي المرة الأولى التي يجلس فيها اسقفان على الكرسي المرقسي. وكان البابا يؤنس (يوحنا) من مصر، والبابا غبريال من الشام. وانقسم الشعب بينهما، وتقوى حزب يؤنس وتمكن من البطركية نحو ست

فأرسل اليه فطلع الى الوزير وكان الوزير فى أوضة العرض، فلما رآه قام له واجلسه وأرسل طلب جميع الصناجق الذين فى ديوان الغورى، فطلعوا اليه وكان من جملتهم محمد بيك قطامش ومحمد كتخدا الملة ويوسف كتخدا عزبان، فلما استقر بهم المجلس، التفت الى على بيك وقال له: على بيك. فقال: لبيك مولانا الوزير. فقال له: أنت اشراق من من الصناجق. فقال له: مولانا الوزير لم أكن اشراقا لأحد من الصناجق، وأنما أنا اشراقك فقال له: أنت اشراقى ؟ فقال له: نعم. فقال له: أخذت منك كشوفية الصنجقية. قال لا ؟ قال له: البستك كشوفية جرجة وأمانة الشون، اخذت شيئا منك تحت ذلك السبعة آلاف أردب وفر لكيل عوايدى على أمين الشون اخذت منها شيئا ؟ قال: لا. فقال له: كل ذلك منة لك كون أنى جعلتك لى ولدا تنفعنى اذا حصل أمر، تجعل على جمعية وتكون اول متكلم فى حقى سوءا. فقال: حاشا لله، مولانا الوزير هذا كلام المبغضين فأظهر التمسك المذكور بالمايتين كيس وختمه فيه أول الختوم، فقال: مولانا الوزير باغرا جماعة[1] من الانكشارية والعزب والخمسة أوجاقات وهم: فلان وفلان وصار يعد له جماعة. والتفت [الوزير] الى عبدالله كتخدا الجاوشية وقال له جعلتك كتخدا الجاوشية. وقال لعلى بيك: من بعد ماقاسيت الذل من أخينا على باشا، فأنا استحق منك هذا الجزاء؟ فقال مولانا الوزير هذا كله باغواء على بيك الأرمنى ومصطفى بيك

(١) كررت كلمة « جماعة» بالأصل.

اهل مصر وقدم فى سادس طوبة سنة تسعماية ثمانية وسبعين للشهدا كما شرحنا أولا . وكان فى ايام الملك الظاهر بيبرس. وفى سنة ستماية اثنين وستين للهجرة أمر السلطان أن يحفروا حفرة كبيرة ويجمعوا النصارى يحرقوهم فيها وطلب البطرك وقرر عليه خمسون الف دينار وأطلقوا النصارى. واقاموا سنتين يستخرجوها وجرى على

سنوات، كانت كلها منافسة ومعاكسة وخصام تمكن خلالها حزب البابا غبريال من عزل يونس وسجنه فى احد الاديرة وولوا غبريال مكانه. واستمر سنتين يدير الكنيسة حتى تنيح فقام الاساقفة وأعادوا يؤنس الذى طالت أيامه حتى تنيح فى ٢٦ برموده عام ١٠٠٩ق.= ١٢٩٣م. ولبث بطركًا فى مدته الثانية أثنى وعشرين سنة وستة شهور، فتكون جملة سنى بطركيته ٢٩ سنة.

* أهم أحداث سنة ٩٨٦ق.= ١٢٥١م.= ٦٤٩هـ..

* فيها جهز الملك الناصر يوسف، صاحب الشام، عكسراً إلى غزة،

والخاين وأبو دفية، فأمر بشيله. فأخذه جماعة مستحفظان وأودعوه القلة، وأمر بحبس الأرمنى على بيك وعلى بيك الهندى الدفتدار ويوسف بيك الشرايبى بل الخاين وأما أبو دفية فابوا أن يطلعوا، فأرسل الوزير محمد بيك بن درويش بيك الى باب العزب وحسين بيك إلى باب مستحفظان وخليل أفندى جراكسة إلى السلطان حسن وحصن جميع المحلات، وأرسل يطلب عبدالله كتخدا الجاوشية ليقتله، فأمتنعت الانكشارية وقالوا هذا جربجى عندنا فنحن نقتله، فأرسل لهم بقتله فقتلوه. وكان كتخدا الوقت خليل بن جلب خليل.

ثم أنه أرسل أتى بعلى بيك من العرقانة وقتله فى حوش الديوان، ثم أرسل يطلب مصطفى بيك ويوسف بيك الخاين وآغة مستحفظان أبو دفية فرآهم قد هربوا من العشا، ثم أنه البس على بيك الدفتدار والبسه قفطانا على الدفتدارية على ماهو عليه. وألبس كتخداوية الجاوشية التى كانت على عبد الله الى على آغا تابع محمد بيك قطامش، والبس عبدالله أغا الشامى على أغاوية المتفرقة، وعزل عثمان آغا من آغوية مستحفظان، وألبسها الى حسن آغا قافلة باشا تابع قيطاز بيك الكبير سيد قطامش، وألبس أيوب قيطاز المذكور زعامة مصر وجعله واليا، وألبس مصطفى بيك بولفية واسماعيل بيك بن الدالى قفطانين على التجريدة، وأمرهما(*) بالسفر خلف الفارين الثلاثة. فسافر مصطفى بيك نحو القليوبية واسماعيل بيك

(*) بالأصل «أمرهم».

النصارى شدايد كثير في ايامه يطول شرحها وقاسوا الاساقفة شئ يطول شرحة وعزل من البطركية كما شرحنا في خبر أنبا غبريال المذكور قبله ثم عاد ومدة بطركيته تسعة وعشرين سنة وتنيح في اليوم السادس والعشرون من برمودة سنة الف وتسعة للشهدا [١٢٩٣م.] ودفن بدير النسطور وخلي الكرسي بعده سنة واحدة وایاما .

وخرج المصريون إلى السايح، واقاموا كذلك حتى انتهت السنة.

* [١توت٩٨٦=٣٠ اغسطس ١٢٥١= الأربع ١٠ جماد الثاني ٦٤٩.]
١ ينـاير ١٢٥٢=٥طوبه٩٦٨= الاثنين ١٦ شوال سنة٦٤٩.

*١توت٩٦٩=٢٩اغسطس١٢٥٢ = الخميس ٢١ جماد الثاني ٦٥٠.
١ ينـاير١٢٥٣= ٦طوبه٩٦٩= الأربع ٢٨ شوال سنة ٦٥٠.
* في هذه السنة الافرنكية صار تأسيس كلية السربون.

عدى الجيزة. وإذا بابراهيم قايم مقام متوجه الى مصر للمكتوب الذى كتبه وأرسله له مصطفى بيك لأجل مساعدته لهم على نزول الوزير، فلما رآه أمر بالقبض عليه وأرسل أعلم الباشا باننا قبضنا على ابراهيم قايم مقام العمل بتاع المنوفية الذى كان قتل كتخدا العزب ابراهيم أفندى، فأرسل له الوزير فرمانا بقتله فقتله، وأرسل برأسه الى مصر. وفى ثانى يوم نفوا محمد جاويش جدك مستحفظان، والعزب نفت على كتخدا الخربطلي وكشك محمد جربجي تابع بن ايواظ الى أبو قير، وألبسوا الضلمة الى سليمان أوضباشا الذى كان يمق تابع النكلي. وفى ثانى يوم نهب بيت علي بيك الأرمنى وبيت مصطفى بيك بن ايواظ وبيت أبو دفية، وأن على بيك بات تلك الليلة فى المغسل، وفى ثانى يوم كفنوه فى مقطع فلوطى أى فيومى، وشاله أربعة من الحمالين وهم يقولون: الله الله يا غريب لك الله، الى أن دفنوه فى القرافة، ولم يحضر جنازته لامن أهله ولا من غير أهله، فأنظر يا أخى الى الطمع كيف ما يفعل بالمؤمن بعد ذلك العز والسؤدد والكلمة النافذة.

وكان عنده من المماليك المشترى أربعة وثمانين وسبعة من الطواشية وثمانية وأربعين سراجا، وكان فى حريمه نحو الستين جارية من البيض والحبش والسود وكان يركب قدامه خمسين من الطوايف، اذا ركب بعلايق وجرايات وكساوى على العيد، فلما مات لم يغسل فى مغسل الرميلة، ولم يكفن الا فى كفن من القماش الفيومى بعد ميته ليلة فى المغسل، ولم ينفعه ماله

تاوضوسيوس البطرك التاسع والسبعون

[١٢٩٤/ ١٣٠٠م]

تاوضـوسـيـوس البطرك ابن أبو مكين الافـرنجى كان اسمه عبد المسيح من اهل منية بنى خصيم وكـان بدير القديس أبو فانا كـرز قسـاً بديره وقدم فى عاشر أبيب سنة الف وعشرة للشهدا (*). فـى ايام الملك الناصر محـمـد ابن قلاوون (*). واقـام

*فيها استقر الصلح بين الناصر، صاحب الشام، وبين المماليك البحرية، بمصـر، على ان للمصـريين إلى نهـر الأردن وللملك الناصر ما وراء ذلك.

*وفيها وصلت الأخبار من مكة أن نارا ظهرت فى عدن وبعض جبالها تظهر فى الليل ولها فى النهار دخان عظيم.

(*) ١٠١٠ق.=١٢٩٤م.حكم قلاوون ثلاث فـتـرات هى من ١٢٩٠ـ١٢٩٤.
ومن ١٢٩٩ ـ ١٣٠٩.
ومن ١٣١٠ ـ ١٣٤١م.

ولا رجاله من الأمر المحتم، فسبحان المعز المذل. وعبد الله كتخدا الجاوشية ودوه فى بيته فلم تقبله زوجته فغسلوه فى بيت واحد من جيرانه. وتوقف البحر على الزيادة ثمانية أيام فضجت الناس وتغيرت أحوالهم وطلع القمح الى تسعين بعد أربعين ثم أن الاله جاد فى تاسع مسرى بالوفاء الموافق لخامس عشرين الحجة ختام سنة ١١٣٩(*).وصارت الكلمة الى محمد كتخدا الملة وليوسف كتخدا عزبان بعد مصطفى كتخدا ورجب كتخدا مستحفظان وابراهيم كتخدا عزبان، الا أن يوسف كتخد مقبول عند الباشا أكثر من محمد الملة وألبس الوزير يوسف كتخدا قفطان المحمدية أنعاما له من محبته له.

ثم أن محمد باشا أرسل فرمانا الى باب مستحفظان بقتل عثمان كتخدا مستحفظان(١) وولده محمد جاويش وحسين أفندى كاتب كبير مستحفظان. ثم أن اختيارية البلك أبوا أن يقتلوهم وراجعوا الوزير فى عدم قتلهم. فأرسل لهم ثلاث فرمانات أحدها: بالتحريج على عثمان كتخدا بأن لا يخرج من بيته ولا الى صلاة الجمعة وأن لا يدخل له أحد. والثانى: بنفى ابنه الى أبو قير، والثالث: بنفى حسين أفندى الى الطينة فكان كذلك. وألبسوا سليمان كتخدا الخربطلى كركا على باش اختيارية باب مستحفظان عوضا عن عثمان كتخدا، وألبسوا على

(*) ١٣ أغسطس ١٧٢٧م..

(١) بالاصل « أمطقران» والتصويب من سياق النص. ومن الجبرتى، جـ١ ، ص ٢٥٤.

الشعب مدة لم يذكروا اسمه بل كانوا يذكروا اسم الذى قبله وذكر انه اخذ البطركية بما يخالف الناموس والشريعة وكان محباً لأخذ الرشوة. وحدث فى ايامه فنا وغلا عظيم واكلوا الناس الميته من بعضهم البعض وتنيح فى الخامس من شهر طوبة سنة الف وسته عشر للشهدا. ومدة مقامة على الكرسى ستة سنين ودفن بدير النسطور وخلى الكرسى بعده أياماً.

* توقيع الناصر محمد ابن قلاون. تولى فى ١٠١٠ق.= ١٢٩٣م. = ٦٩٣هـ.

أفندى القيصرلى اشراق مراد كتخدا كاتب كبير، وأرسل الباشا فرمانا الى باب العزب بنفى عثمان جربجى الصابنجى فنفى الى أسيوط وصار يلتقط جميع من قال عليه على بيك الأرمنى من الذين كانوا فى الجمعية وقروا الفواتح وهم نحو السبعين.

وفى غرة محرم الحرام[1] عينت الانكشارية قرا مصطفى جاويش جدك الى جرجة، بخدمته الى أبى همام وأرسلوا خلفه فرمانا الى حاكم جرجة يحوشه عنده الى حين ياتيه فرمان، أما بطلبه أو بغير ذلك.

وفى يوم الأحد رابع محرم سنة ١١٤٠[2] جاء رجل الى أيوب بيك آغا الوالى وأخبره بأن مصطفى بيك بن ايواظ بيك عند المقدم حسن فى بيته الذى بحارة السقايين، وكان حسن مقدم أخيه. فلما مات خدم عند مصطفى بيك فلما هرب لم يتلق فى وجهه الا مقدمه حسن هذا فتاواه عنده ثمانية وعشرين يوماً.

وفى يوم ٢٩[3] فطنوا به فركب الوالى الى الوزير وأخبره، فأرسل الى آغاه مستحفظان فرمانا بكبس بيت الرجل ومجيبته منه فركب الاغا وأخذ الوالى واضباشة البوابة وكبسوا بيت الرجل فوجدوهم جالسين يتحدثون ومصطفى بيك جالس بينهم بالزبون والقميص والعرقية

(١) ١٩ أغسطس ١٧٢٧م.
(٢) ٢٢ أغسطس ١٧٢٧م.
(٣) ١٧ سبتمبر ١٧٢٧م.

يوانس البطرك الثمانون

[١٣٠٠/ ١٣٢٠م]

يوانس البطرك الشهير بابن القديس اختير للبطركية وكرز في اليوم التاسع عشر من أمشير سنة الف وستة عشر للشهدا. وكان في ايامه لبس العمائم الزرق وما يجرا مجراه وحدثت زلزلة عظيمة في يوم الخميس نصف شهر مسرى سنة

١ توت ٩٧٠=٢٠ اغسطس ١٢٥٣ = الجمعة ٣ رجب سنة ٦٥١.
١ يناير ١٢٥٤=٦ طوبه ٩٧٠ = الخميس ١٠ ذو القعدة ٦٥١.
* فيها قتل المعز ايك التركماني خشداشه اقطاى بالتجهيز عليه، إذ كان يمنعه عن الاستقلال بالسلطنة، وكان الاسم للأشرف موسى المذكور آخر من خطب له من بيت أيوب بمصر، وفي هذه السنة انقضت دولتهم من الديار المصرية، ولما علمت المماليك البحرية بقتل اقطاى توجهوا من مصر إلى الناصر، صاحب الشام، واطمعوه في مصر.

والسروال فقط، فمسكوه وأخذوه عريانا، حافي القدم والوالى ظابطه من طوقه. ورجل اخذه من يده قدام ركاب الاغا وهم ماشيين من حارة السقايين الى الديوان، والاغوات محتاطون به، والأسلحة مسحوبة واليدكات موقدة، فلما دخلوا من باب حوش الديوان واذا بالوزير جالس في ديوان قايتباى في انتظاره كاد أن يطير فرحا، وتحول من مجلسه وأقفا. فلما مثل بين يديه قال له : سلامات يا مصطفى بيك، يالى رايح تعزل محمد باشا وتعمل أمير الحاج، وتعمل على بيك قايم مقام، وتعمل يوسف بيك دفتدارا عوضا عن على بيك الذى لم يطاوعك في غيط ابن الجزار، وتطلع يا أمير الحاج بالتجريدة وتجيب رأس زين الفقار بيك وتفعل معه كما فعل مع أخيك يا قليل الأدب. فلم يرد عليه جوابا مطلقا. فقال له: تكلم! فلم يرد جوابا. فأمر الباشا برميه في الحال. وكان الوقت بعد العصر فرمى عنقه رحمه الله عليه وكانت أمه واخته عنده فصارا يأخذان من دمه ويلطخان أنفسهما من فوق الحبر ثم أمر به الى المغسل فبات تلك الليلة فيه وأمه واخته عنده لم يفارقانه. وفي ثاني يوم أمر الوزير بارساله الى بيته، فشالوه، وغسلوه، وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه مع أخيه بمدفنهم الذى (*) تجاه غيط الواشي قريب من البيدق.

ثم أن الباشا سأل المقدم عن بقية الجماعة وكيف كان هروبهم، والى أين ذهبوا؟ وكيف ما

(*) بالأصل «التي».

ألف وتسعه عشر للشهدا(*). وتنيح في اليوم (*). الرابع من شــهــر بؤونه سنة الف ســتــة وثلاثين للشهدا ودفن بدير شهران. ومدة بطركيته عشرون سنة ومـاية وخـمـسـة ايام وهـذا الاب حـضـر تجنيـز الاب القـديس برصـومـا العريان فى خامس النسى سنة ألف وواحد وعشرين للشهدا وصـلا عليـه، بركـة صـلاة الجـمـيع تكون مـعنا الى الابد أمين [١٣٢٧/١٣٢٠م].

(*) حدث هذا الزلزال فى الثامن من اغسطس ١٣٠٣م.
(*) ١٠٣٦ق. = ١٣٢٠م.

دخلوا مصر ثانيا، وفي أى محل شالوا حوايجهم؟ فأخبره بأنهم غابوا أربعة أيام ورجعوا وانى لم اكن معهم، وأما حوايج مصطفى بيك فهم فى البيت الذى قصاد بيته، وأما يوسف بيك وسليمان آغا لم أعرف لهما محلا، وانما هما فى مصر، ثم أنه أمر بقطع رأسه فقطعت، ونهب بيته فنهب.

فانظر يا أخى: الى هذه المصيبة التى أصابت بنت ايواظ بيك، وأظن أن احدا لم يصب بمثل مصيبتها. أولا قتل أخوها رضوان فى بلاد الحجاز، والثانى قتل أبوها فى قصر العينى، والثالث قتل اخوها اسماعيل بيك فى الديوان، والرابع قتل أخوها محمد بيك فى حوش الديوان، والسادس هروب بعلها الثانى يوسف بيك الخاين وموته ولم تره والسابع تزويجها بتابع زين الفقار بيك الذى هو خازن عثمان بيك، ولم تمكث الا أياما قلايل وتوفت الى رحمة الله تعالى.

وقعد صالح على جميع المال الذى هو مخبأ من أيام أبيها واخواتها وأزواجها اذ لم يتعرض لها أحد بنهب ولا غيره مطلقا، وأن صالح هذا مملوك الأعسر أحمد بيك فى الأصل، وخدم عند زين الفقار ولا أحماه من القتل الا عثمان بيك وهو خزندار وقال لسيده: ان كنت تقتله فاقتلنى قبله كيف تقتل واحدا كانت حياتى على يده من جركس والاعسر.

فانظر يا اخى الى حكمة البارى وأن هذا سببه دعوة مظلوم تقبلها الله فقطعت نسلهم

٨٠ : يوانس [١٣٠٠ / ١٣٢٠م].

[يوانس البطرك الحادى والثمانون]

[١٣٢٠/١٣٢٧م]

يوانس البطرك وهو الحادى والثمانون من العدد هذا الأب يوانس البطرك من اهالى ناحية نفيه(*) بالمنوفية كرز بطركاً فى اول شهر بابة سنة الف سبعة وثلاثون للشهدا. وفى ايامه جرت شدايد كثيرة على النصارى وقتل منهم وحرق منهم وسمروا منهم واشهروهم على الجمال وألبوسهم

(*) نفيه: من القرى القديمة. كانت تسمى نفيوس. من توابع طنطا.

وأخربت ديارهم ولم تبق منهم بقية فيالله السلامة من الظلم والبغى فاعتبروا يا أولى الأبصار فان الملك لله الواحد القهار. فوالله هذه الدنيا زايلة وانما هى تغرك بالذهب والنساء الحسان والخيل المسومة والعدد المحلاة والملابس الفاخرة. وأن هذا جميعه يزول ويبقى عليك وزره. وكان فى عصر المانية، رجل من أهل الخير يمشى فى الأسواق دايما وهو يقول بأعلى صوته : تخايل لك، تخايل لك، فلا ترتكن اليها فيمكن بك يا سلام سلم من الظلم والبغى والله أعلم.

وفى يوم الخميس خامس عشرين محرم[1]، عزل خليل كتخدا مستحفظان جلب وتولى بعده حسين كتخدا الدمياطى، وكانت مدة خليل ثلاثة وثمانين يوما وكسفت الشمس ثانى يوم تولى، ثانى ساعة من يوم الاثنين تاسع عشرين محرم سنة ١١٤٠.

وفى ثالث صفر[2] جاءت رأس محمد جاويش جدك من دمياط وفى عاشر صفر سنة ١١٤٠[3] ورد ركاب الحاج الشريف صحبة زين الفقار بيك وحصل له العز والجاه بوجود الامير زين الفقار بيك، وما ذاك الا أنه شال الحج من البركة على جرى العادة، فلما ورد الى نخل واذا بالعرب[4] عملوا صورة غم مع بعضهم البعض فلما علم زين الفقار بغيهم فأرسل

(١) ١٢ سبتمبر ١٧٢٧.
(٢) ٢٠ سبتمبر ١٧٢٧م.
(٣) ٢٧ سبتمبر ١٧٢٧م.
(٤) بالأصل «بالعمل» والتصويب من النص.

العمائم الزرق، ثم فرج عن الشعب برحمته. ومدة بطركيته ستة سنين وخمسه شهور ونصف وتنيح في اليوم الثاني من برمودة سنة الف وثلاثين واربعين للشهدا ودفن بدير النسطور بظاهر مصر وخلى الكرسى بعده ايام قليلة..

[بنيامين البطرك الثاني والثمانون]

[١٣٢٧ / ١٣٣٩م]

بنيامين البطرك وهو الثاني والثمانون من العدد

١ توت ٩٧١= ٢٩ اغسطس ١٢٥٤ السبت ١٣ رجب ٦٥٢].

* فيها صار جعل فرنكفور مدينة حرة، وصار تاسيس استكهلم.

* [١ نياير ١٢٥٥ =٦ طوبه ٩٧١= الجمعة ٢٠ ذو القعدة سنة ٦٥٢].

* فيها سعى نجم الدين البادرانى في الصلح بين المصريين والشاميين على أن للناصر الشام إلى العريش، والحد بئر العاصى، وهو ما بين الواردة والعريش، وللمعز ايبك الديار المصرية.

* وفيها - وقيل في التي قبلها -

من جماعته طايفة فقتلوا من عرب نخل نحو عشرين رجلا، فلما دخل الى العقبة جاءته مشايخ العقبة فحاش محمودا، شيخ العقبة وابنه وأخاه، فقتل محمودا وشال من العقبة وصحبته أخو محمود وابنه.

والسبب في قتل محمود: أنه لما جاء الى مصر واجتمع بمحمد بيك أمير الحاج ابن اسماعيل بيك فقال: يا بيه هذا زين الفقار ما يكلمني وكأنه لم يعرفني ولكن سوف أعرفه بنفسي . ثم أن محمد بيك أخبر زين الفقار بما قاله محمود فسكت على غضضه، فلما نزل الى العقبة مسكه وعنفه قبل القتل وقال له: ما سبب كونك منعت محمد بيك عام أول من طلوعه الى العقبة ولففته ثلاثة أيام الى أن قطعت الحاج؟ وصار يعنف فيه وهو يضربه بحد الحسام الى أن قطعه قطعا، وشال من العقبة الى أن دخل الحجاز وحط في الشيخ محمود على المعتاد القديم، ولم يظهر له أحد من العرب ولم أحد يقابله من أصحاب الدركات الا أن الدركات محفوظة لأن من العادة القديمة أن أمير الحاج يقعد في الشيخ محمود، فاذا نزل الشريف في ذلك الوقت يركب أمير الحاج ويتلاقا معه وهما على ظهور الخيل ويلبسه القفطان ويسلما على بعضهما البعض وهما على السروج ولما تهيا زين الفقار ليركب واذا بالشريف عنده في الصيوان، فلما رآه أمير الحاج في صيوانه قام على قدميه وسلم عليه وقبل يديه وجلس يتحدث معه نحو الساعتين. ثم أن كتخدا الحاج جاء بالقفطان ليفرغه فقال له الشريف: أنت مستعجل أصبر بتحدث مع أمير الحاج.

هذا الأب بنيامين تنبأ عليه أبينا القديس برصوما العريان قبل نياحته. أو سموه بطركاً في الخامس عشر من شهر بشنس سنة الف ثلاثة واربعين للشهدا وكان هذا الأب القديس من اهل الدميقراط(*) بالصعيد وكان راهباً عابداً مقيم بجبل طرا وتنيح في اليوم الحادى عشر من شهر طوبة سنة الف خمسة وخمسين للشهدا= ١٣٣٩م. وفي ايامه تولا شرف الدين النشوا ابن

تزوج المعز أيبك شجرة الدر أم خليل، التى خطب لها بالسلطنة في مصر.

(*) الدميقراط: من القرى القديمة. مكانها الان نجع الدمقريه بناحية المحاميد مركز اسنا غرب النيل. وينطقها أهلها الدمجريه. وكانت مركزاً لعبادة الإله التمساح «سوبك».

ثم أن الشريف أعرض على أمير الحاج: أن يدخل معه الى مكة من باب شبيكة فأبى وقال: والله لا دخلت مكة الا من باب السلام على العادة القديمة؟ فعالجه الشريف، فأقسم عليه أن لا يكون سببا في تغيير القوانين القديمة، ولا يشاع في الاقطار أن أمير الحاج المصرى زين الفقار المصرى بيك خاف من أمير الحاج الشامي ولم يدخل الى مكة من باب السلام ودخل من باب شبيكة صحبة شريف مكة، ثم أن الشريف بره في يمينه وقسمه وركب جواده وسار، وزعق أمير الحاج نفيره وسار طالب باب السلام، ومر على المعلى، وباشت الشام بها، وعسكره حوله ولم يلتفت زين الفقار اليهم والنوبة تخبط وهو كالأسد الكاسر الى أن نزل بمدرسة قايتباى أبي محمد اسكنه الله أعلى الجنان على حكم العادة القديمة. فلما استقر به الجلوس واذا بالشريف داخل عليه من باب المدرسة وتحدث وأياه وهناه بالسلامة وركب، وهذا لم يتفق لأحد من الصناجق أن الشريف ينزل له في الصيوان، وينزل له في مدرسة قايتباى ولا لرضوان بيك أبي الفقارية لأن من عادة أشراف مكة يأتون الى الشيخ محمود فيرسل أمير الحاج كيخية الحاج بقفطان فيفرغه عليه ويسلم عليه وهو على ظهر الجواد ويلوى رأس جواده الى باب السلام الا هذا الشريف عبدالله، فانه من محبته لزين الفقار نزل له في الشيخ محمود ونزل له في مدرسة قايتباى. وهذا بسبب عيسى باشا بن العظم، باشت الشام وأمير الحاج، واصل جدوده من عرب الشام وانما حصل له نظر السلطنة من جهة عزه وفروسيته وكثرة ماله

التاج وجرا عليه شدايد كثيره واهانوا النسا واولادهم والرهبات والرهبانات والاساقفه، ومات النشو في العقوبة ببركة صلاة هذا الأب وطلباته وحل الانتقام من الله على جميع فاعلى السو وهذا الاب اعمر دير القديس أنبا إبشاى بشيهات وأنفق عليه من عنده. ومدة اقامته بطركاً احدى عشر سنة وثمانية شهور وتنيح ودفن بدير شهران.

* ١ تـــوت ٩٧٢ = ٣٠ أغسطس ١٢٥٥ = الاثنين ٢٥ رجب سنة ٦٥٣.

* ١ ينايـر ١٢٥٦ = ٥ طوبه ٩٧٢ = السبت غرة ذو الحجة سنة ٦٥٣.

* ١ توت ٩٧٣ = ٢٩ اغسطس ١٢٥٦ = الثلاث ٦ شعبان سنة ٦٥٤.

* ١ ينايـر ١٢٥٧ = ٦ طوبه ٩٧٣ = الاثنين ذو الحجة سنة ٦٥٤.

وكرمه، وكانت كلمته على عرب الحجاز من طريق الشام كالسم، وكانت جميع العرب تخشاه من بعد نصوح باشا المكنى بعثمان أو غلى وأن شريف مكة تفهم منه عسره وسمع كلاما منه في حق زين الفقار بيك وكان تقدم له من منذ ثلاث سنوات وهى ا ول سنينه انه أوقف محمل الشام ميمنة ومحمل المصرى ميسرة.

فلما أخبر زين الفقار من الشريف بأن ثلاث سنين من حيث توليته وهو يجعل محمل الشام[1] ميمنة والمصرى ميسرة، طار عقله وقال: جم العنق دون هذا الأمر كيف ما تبطل العادة القديمة التي جعلتها الملوك المتقدمة والله لا يكن هذا ولو أموت أنا وعسكرى جميعا. فلما توجه الشريف الى منزله أرسل الى الاربعة عشر سدارا، الذى هم حكام الحاج المتولية والمعزولة وأخبرهم بما قاله الشريف من جهة أن له ثلاث سنين وقد غير قانون المحمل المصرى وهذا أمر لا يتم، فركبوا من عنده وتوجهوا الى حضرة الشريف وسألوه ان يجرى العادة القديمة بين المحملين فى الجبل والا يقع فساد كثير بين الحجين. فلما سمع الشريف ما قالوا له، قال: هذا أمر لم يتعلق بأمير الحاج المصرى ولا الشامى وأنما هو تعلقى وأنا أفعل الذى أريده، وأنكم تسلموا على البيه وقولوا له يكن فى أمان من هذا الطرف فرجعوا وأخبروا أمير الحاج بالذى قاله الشريف. ثم أن فى ثانى يوم طلع الحاج الى عرفة، فلما جاء وقت الوقوف أنجرت

(١) بالأصل «الشريف» والتصويب من النص.

* في ٢٣ ربيع اول بينما كان المعز أيبك التركماني مارا في الدهليز السرى الموصل الى دار الحريم وثب عليه خمسة خصيان بيض كانوا قد كمنوا له هناك وخنقوه بعمامته، وكان ذلك بدسيسة من شجرة الدر زوجته، وكانت مدة أيبك عشر سنوات وأحد عشر شهرا، وهو أول من أقام من ملوك الترك بقلعة الجبل، وفي مدته بنيت المدرسة المعزية برحبة الحنا في مصر القديمة، ثم تولى بعده ابنه نور الدين، ولقب بالملك المنصور. وكان عمره خمس عشرة سنة.

* [١توت ٩٧٤ = ٢٩ اغسطس ١٢٥٧ = الأربع ١٦ شعبان سنة ٦٥٥] -

* وفيها قتلت شجرة الدر وألقيت خارج البرج فحملت الى تربة كانت عملتها فدفنت فيها.

* [١يناير ١٢٥٨ = ٦ طوبة ٩٧٤ = الثلاث ٢٣ ذوالحجة سنة ٦٥٥] -

* في أولها قصد هولاكو، ملك التتر، بغداد، وملكها في ٢٠ من المحرم، وقتل الخليفة المستعصم بالله، أخر الخلفاء العباسيين، بدسيسة من وزيره مؤيد الدين بن العلقمي، لفتنة وقعت بين السنية والشيعة ببغداد.

* وفيها انضمت المماليك البحرية الى المغيث بن العادل، وخيم بغزة وسار الى مصر، فخرجت عساكرها مع مماليك الملك المعز أيبك، وبعد قتال كانت الكسرة على المغيث ومن معه فولى منهزما.

* [١توت ٩٧٥ = ٢٩ اغسطس ١٢٥٨ = الخميس ٢٧ شعبان سنة ٦٥٦] - * وفيها اشتد الوباء بالشام، خصوصا بدمشق، حتى لم يوجد مغسل للموتى * وقد اشتد القحط جدا

المحامل ولكن المحمل المصرى ماشي على الهوينة، فما شعر الحاج الا والشريف انفرد عن عسكره وتقدم الى المحملين وأخذ بزمام جمل المحمل المصرى بيمينه والشامى بشماله الى ان جاء الى محل الوقوف فاوقف المحمل المصرى على اليمين والشامى على اليسار والى أن نفر الحاج ونزل الى المزدلفة والمحمل المصرى على اليمين، فما نزلت المحامل الى المزدلفة الا ورصاصة من عسكر الشام قد فرقعت فجاءت في رجل من الحاج فوقع محله بلا روح. ثم أن الرصاص قد فقع من العسكر المصرى نحو المابة فوقع من الحاج الشامى ثمانية رجال، وجرح من المصرى ثلاث رجال، ورجع الشريف افرق بينهما وهذا لم يتفق أبدا. ولما تموا نسكهم ونزلوا الى مكة شرفها الله تعالى الى يوم القيامة، صارت جماعة الشامى لا تمشى الا بالسلاح حتى داخل الحرم، فأرسل الامير زين الفقار بيك أمير الحاج الى باشت الشام يقول له: قل لجماعتك يبطلوا شيل السلاح لأن هذا أمر يقع بسببه غم كبير ويكون سببا الى الفتنة. فأرسل يقول له: أن جماعتنا لم يفارقهم السلاح في بلدهم طرفة عين فكيف في السفر والغربة؟ فان كان جماعتك ما معهم سلاح فأمرهم بشيله والا فانت وما تريد.

ثم أنه مكث خمسة أيام وشال قبل ميعاده بثلاثة أيام، لأن شال يوم خمسة وعشرين الحجة سنة ١١٣٩ (١). وسار الى (أن) (٢) جاء الى العقبة فبات تلك الليلة، وفي ثاني يوم جاءه

(١) ١٢ أغسطس ١٧٢٧م.

(٢) الاضافة للتوضيح.

في لونده، وبسببه مات قوم كثير.
* ١ يناير ١٢٥٩ = ٦ طوبه ٩٧٥ = الأربع ٤ محرم سنة ٦٥٧.
* في ٤ محرم قبض سيف الدين قطز على ولد استاذه الملك المنصور نور الدين على بن المعز أيبك، وخلعه من سلطنة مصر، وتولى عليها، وتلقب بالملك المظفر.

* ١ تـوت ٩٧٦ = ٣٠ اغسطس ١٢٥٩ = السبت ٩ رمضان سنة ٦٥٧.
* ١ يناير ١٢٦٠ = ٥ طوبه ٩٧٦ = الخميس ١٥ محرم سنة ٦٥٨.
* في ٩ صفر استولت التتر على حلب من حسام سيف الدولة، واستمر النهب الى ١٤ منه.
* في ٩ ربيع الأول تسلم هولاكو قلعة حلب بالأمان من الملك توران، شاه بن صلاح الدين.
* فيها أمر قطز بردم مصب النيل، في دمياط، فالقي فيه حجارة، وهو على ذلك للآن.
* في ٢٧ جماد أول وصلت الى دمشق رأس الملك الكامل محمد بن الملك المظفر، صاحب ميافارقين، التى استولت عليها التتر وقتلوا صاحبها، وطيف برأسه في البلاد ومروا على حلب وحماه.
* وفي غاية شعبان سار قطز من مصر بعساكره لملاقاة التتر فالتقيا في عين جالوت من فلسطين، وفي ٢٥ رمضان انهزمت التتر شر هزيمة.

* [١ تـوت ٩٧٧ = ٢٩ اغسطس سنة ١٢٦٠ الأحد ٢٠ رمضان سنة ٦٥٨] ـ

قرايب شيخ العرب محمود شيخ العقبة الذى قتله أمير الحاج زين الفقار بيك في الطلعة ليلبسوا ابنه واخاه اللذين[١] أخذهما معه في الطلعة صحبته الى مكة فقال لهم: اذا طلعت السطح اسيبهما لكم فقالوا: لا يمكن الا أنك تسيبهما قبل طلوعك السطح فقال لهم: الى غد. ثم أن أمير الحاج صبر الى أن صلى العشاء وزعق نفيره، فلما أصبح الصبح الا وهو جمع الحاج فوق السطح، فلما رأت [العرب] الحج وقد طلع السطح طلبوا منه أن يسيب جماعتهم فامتنع، وقال: أنتم أخذتم جمال أخي علي باحمالها وهى طالعة الى السويس ماية جمال وسبعة جمال فاحضروهم وأنا أطلق لكم الاثنين وأكسيكم جميعا: فقالوا: أننا لم نأخذ جماله ولا أخذ القافلة الا عرب أغراب لم يكونوا من هذه الارض وأن حقيقا ما أخذ جمال علي بيك الا عرب العقبة، وانهم انكروا ثم أنهم قاموا غضبانين ودبروا أمرا، يربطون (في)[*] طريق جاويش الحاج. وكان الجاويش قد سار من أول الليل وصحبته من الرجال خمسة وعشرون رجلا، فلما وصلوا العلايا سادس ساعة من الليل، واذا هم بأربعين هجينا مردفة تزعق عليهم الى أين تروحون ونحن لكم في الطلب وخلفكم في (طلب)[٢] الاثنين فما كان جواب الجاويش الا أنه نزل من على الهجين ونزلت رفقته وعقلوا الهجن وجعلوها لهم حصارا ووقفوا

(١) بالأصل «الذى».
(٢) الاضافة لتوضيح المعنى.
(*) قدم وأخر.

* في ١٦ ذو القعدة قتل بيبرس البندقدارى قطز، صاحب مصر،وهو عائد من الصيد فبويع لبيبرس في الحال، وتلقب بالقاهر، ولتشاؤمه من هذا اللقب استبداله بالظاهر وأضاف اليه أبا الفتوح.

* ١ يناير ١٢٦١ = ٦ طوبه ٩٧٧ = السبت ٢٧ محرم سنة ٦٥٩.

* في ٥ محرم التقت التتر بصاحب حماه وعساكره على حمص فانهزمت التتر * وفي ١٣ صفر وصل علاء الدين أيدكين البندقدارى، استاذ الملك الظاهر بيبرس، الى دمشق وأخذها بالسيف من علم الدين سنجر * وفي ربيع الثاني وردت الأخبار من ناحية عكا ان سبع جزائر في البحر خسف بها وبأهلها * في رجب قدم الى مصر جماعة من العرب معهم شخص اسمر اللون اسمه أحمد، زعموا أنه ابن الامام الظاهر ابن الامام الناصر، وأنه هرب من دار الخلافة، فعقد الظاهر مجلسا لثبوت نسبة، ثم بايعوه ولقبوه المستنصر بالله أبا القاسم أحمد، ثم خرج مع الظاهر عند ذهابه إلى دمشق قاصدا بغداد فقتله التتر.

* [١ توت ٩٧٨ = ٢٩ اغسطس ١٢٦١ = الأثنين غرة شوال سنة ٦٥٩] .

* وفيها تسلم الملك الظاهر بدر الدين الأيد مرى فتسلم الشوبك في سلخ ذو الحجة من الملك المغيث، صاحب الكرك.

* [١ يناير ١٢٦٢ = ٦ طوبه ٩٧٨ = الاحد ٥ صفر سنة ٦٦٠] .

* في اواخر ذو الحجة جلس

خلفها وتقابلوا معهم وصاروا يرمون عليهم بالرصاص الا أن طلعت الشمس و انجرح منهم أربعة عشر رجلا، ومات من الهجن خمسة عشر هجينا فأرادوا أن يسلموا فاذا بركب الجزيرى طلع عليهم فاحياهم بعد العدم، فقتلوا من قتل وهرب من لم يقاتل وأخذوا هجنهم وأعطوها للجاويش ففرقها على جماعته اللى ماتت هجنهم وودعهم(١) وسار نحو مصر، وأبقى الجرحى عند الجزايرية.

وكان مراد العرب أن يأخذوا الجاويش لأجل ما يخلصون به رفقتهم ابن محمود واخيه. ودخل زين الفقار الى مصر يوم الخميس بالاى ليس له نظير قدام ركابه خمسون نفر من الانكشارية بالطرابيش الكشف وخلفه خمسة وسبعون جوز راكبين على الهجن، وهم الذين كانوا صحبته في الحج وقد أخلف من تقدم من امراء الحج، مثل ايواظ واسماعيل ابن ايواظ والله أعلم.

ولنرجع الى ما نحن بصدده: وذاك انه لما قتل مصطفى بيك وهرب أبو دفية والخاين فصار الاغا يكبس الحارات يدور عليهم، فمن جملة ماكبس بيت رجل من جماعة ابن ايواظ وكان جربجي السيمانية يقال له شنار أحمد، وكان ساكنا بحوش عيسى الذى بالبندقانيين فمسكوه

(١) بالأصل «وعدهم».

الظاهر مجلسا عاما وأحضر شخصا كان قد قدم إلى الديار المصرية في سنة ٦٥٩ من نسل بني العباسي يسمى أحمد، وبعد أن اثبت نسبة بأبعه ولقبه الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين، وقد اختلف في نسبه.

* ١ تـوت ٩٧٩=٢٩ اغسطس سنة ١٢٦٢ = الثلاث ١١ شوال سنة ٦٦٠.

* في ذى القعدة قبض الملك الظاهر على نائبه بدمشق وأرسله لمصر وبقي في السجن سنة وشهر.

* فيها وقع غلاء بمصر لعدم ثبات النيل وشحة مياهه.

* [١ يناير ١٢٦٣ = ٦ طوبة ٩٧٩ = الاثنين ١٨ صفر سنة ٦٦١] ـ

* في ١١ ربيع ثان سار الملك الظاهر بيبرس من الديار المصرية الي الشام

* في ٢٧ جماد أول قبض الظاهر على المغيث، صاحب الكرك، وأرسله معتقلا الى مصر.

* في ٢٣ جماد ثاني تسلمت عمال الملك الظاهر الكرك وصارت جزءا من مملكة مصر.

* في ١٧ رجب عاد الملك الظاهر بيبرس من الشام الى مصر.

* في هذه السنة الافرنكية كان تأسيس وإنشاء اول مجلس للمشورة في انكلتره، وهو المعروف بالبارلمان.

* [١تـوت٩٨٠=٣٠ اغسطس سنة ١٢٦٣ = الخميس ٢٣ شوال سنة ٦٦١] ـ

ومسكوا سراجا يقال له عثمان ومحمد اضباشا والجميع من الانكشارية ولكنهم معاكيس حقيقة على الخل والليمون، فاعرضوهم على حسين كتخدا الوقت الدمياطى فأمر بتفريقهم في جزيرة الخيوطية وصحبتهم اثنان من جماعة جركس لا أعرفهم. ثم أن الوزير أرسل فرمانا الى رشيد خطابا الى سردارها بمعرفة يوسف كتخدا عزبان بأنه يتوجه الى أبو قير وينفذ أمر الله في على كتخدا الخربطلي ومحمد جوربجي أبو شناق قريب سليم أفندى كاتب كبير وكشك محمد أوضباشا تابع اسماعيل بيك بن أيواظ فكان كذلك رحمة الله تعالى عليهم أجمعين..

وفي خامس عشر ربيع أول(١) طلع كيل على كتخدا باب مستحفظان فأمر حسين الدمياطى بحبسه في القلعة فحبس، ثم أرسل أتى بفرمان من الباشا بقطع عنقه وكان أرمنى الجنس وأزوجه سيدى أحمد البكرى الصديق شيخ السجادة ابنته وخلف من بنت الشيخ مولودا فورث به البيت الذى على الرصيف ببركة الازبكية المعروف قديما ببيت الخشاب محمد كتخدا واشتراه عثمان كتخدا القزدغلي باثنا عشر كيسا وأعطاه لكاتبه سليمان كاشف وتشفع فيه نسيبه سيدى أحمد البكرى عند الباشا وحسين كتخدا، فلم يقبل شفاعته فيه رحمة الله عليه(٢).

(١) ٣١ أكتوبر ١٧٢٧م.

(٢) كتب عنوان جانبي «أعرف صهر سيدى أحمد البكرى وابنه».

* في ذي القعدة انتقلت حمص الى مملكة الظاهر بيبرس.
* ١ يناير ١٢٦٤ = ٥ طوبه ٩٨٠ = الثلاث ٢٩ صفر سنة ٦٦٢
* فيها حشد الملك الظاهر بيبرس جيشا كبيرا لمناهضة الصليبيين، وكانوا لا يزالون حاكمين في اماكن كثيرة من فلسطين.
* فيها أسس بيبرس الخياط جامع بيبرس الخياط الموجود بالجودرية.

* ١ تـوت ٩٨١ = ٢٩ اغسطس ١٢٦٤ = الجمعة ٥ ذو القعدة سنة ٦٦٢.
* فيها سار الملك الظاهر بيبرس من مصر بعساكره الى جهاد الفرنج بالساحل.
* ١ يناير ١٢٦٥ = ٦ طوبه ٩٨١ اغسطس = الخميس ١١ ربيع أول ٦٦٣.
* في ٩ من جماد أول نازل الظاهر بيبرس قيسارية، وفتحها في ١٥ منه، وأمر بهدمها فهدمت
* في جماد ثان نازل الملك الظاهر أرسوف وفتحها.

*١توت ٩٨٢=٢٩ اغسطس ١٢٦٥ = السبت ١٥ ذو القعدة ٦٦٣.
* فيها سار بيبرس الى أرمينية واستولى على عاصمتها سيس وعلى سائر مدنها.
* في هذه السنة الافرنكية البابا نصب شارل دانجو ملكا على نابولي.

* [١ يناير ١٢٦٦ = ٦ طوبه ٩٨٢ = الجمعة ٢٢ ربيع اول سنة ٦٦٤] ـ
* في ٨شعبان نازل الملك

وفي عشرين ربيع أول سنة ١١٤٠[(١)] ألبس الوزير قفطانا الى مصطفى آغا الوالي تابع خليل باشا وأشراق حسين كتخدا الدمياطي للصنجقية وقفطانا على جرجة والمنية وذلك بضمانة حسين كتخدا المذكور وأرسل فرمان العزلان الى سليمان القلاقيسي تابع ابن ايواظ بيك بجرجة.

وفي ثاني يوم الذى هو اثنان وعشرون ربيع أول[(٢)] نزل الباشا طوخ الصنجقية الى مصطفى بيك الوالي المذكور وفي ثالث عشرينه ألبس مملوكه يوسف أوضباشا الضلمة وصار لحسين كتخدا اشراقين في آن واحد، جاويش وصنجق ، أما جاوشية فهذا كثير، أما كتخدا يكن اشراقه صنجقا فما رأينا الا هذا والله أعلم.

ثم أشيع في القاهرة أن جركس أتى مصر صحبة محمد بيك الوالي وعمر بيك اتباعه، فأرسل الباشا فرمانا الى آغا مستحفظان بالنداء عليهم وأن لا أحد يخرج من بعد صلاة المغرب، فضجت الناس وقالوا: ما رأينا هذا أبدا وان فقراء مصر وصناعيتها لا يتعشون الا بعد المغرب وبطلت صلاة العشاء من المساجد ثلاثة أيام.

ثم أنهم نادوا على بعد العشاء وقبل الفجر: لا يخرج أحد من بيته وكل من خرج وقابله الحاكم بعد العشاء أو قبل الفجر يرمى عنقه وكثر الهرج في القاهرة ووقع التفريط الزايد على

(١) ٥ نوفمبر ١٧٢٧م.
(٢) ٧ نوفمبر ١٧٢٧م.

الظاهر صفد، وفتحها في ١٩ منه.
* وفيه عاد الملك الظاهر الى مصر، عن طريق الكرك، وفي الطريق تقنطر به فرسه فانكسره فخذه فحمل الى قلعة الجبل.

* [١ تـوت ٩٨٣ = ٢٩ أغسطس ١٢٦٦ = الأحد ٢٦ ذى القعدة ٦٦٤] ـ
* فيها وصل الملك المنصور محمد صاحب حماه، لخدمة الملك الظاهر بيبرس، فاكرمه
* فيها صار تأسيس جامع الظاهر بشارع الظاهر بخط الحسينية، اسمه الملك الظاهر بيبرس البندقدارى.
* [١ ينـاير ١٢٦٧ = ٦ طوبه ٩٨٣ = السبت ٣ ربيع الثاني سنة ٦٦٥] ـ
* فيها أبطال الملك الظاهر ضمان المزر وجهاته، وأمر بابطال المنكرات، وأمر بمنع النساء الخواطى من التعرض للبغاء ونهب الخانات التي كانت معدة لذلك وسلب أهلها جميع ما كان لهم، وحبس النساء حتى يتزوجن، وكتب بذلك توقيعا وقرىء في المنابر.
* وفيها علم بأن الطواشى شجاع الدين عنبر، المعروف بصدر الباز، أنه يشرب الخمر، فشنقه تحت قلعة الجبل.

* [١ تـوت ٩٨٤ = ٣٠ أغسطس ١٢٦٧ = الثلاث ٨ ذو الحجة سنة ٦٦٥] ـ
* فيها بني الملك الظاهر دار العدل، تحت القلعة، وصار يجلس فيها لعرض العساكر كل اثنى وخميس وكان ينظر في أمر المتظلمين بنفسه، فكان المتظلم يشكو للسلطان رأسا.

أن باب مستحفظان اجتمعوا فيه فقال لهم حسين كتخدا الدمياطي: ان الوزير أرسل فرمانا بقتل أحمد جاويش ابن مصطفى كتخدا باش اختيار وانتم ما تقولون له؟ فقالوا له: وما سبب ذلك. فأخبرهم بأنه الباشا وصله خبر بأن جركس أرسل له مكتوبا فقالوا نرسل نحضره ونساله ان كان جاءه مكتوب أم لا: فأرسلوا له فاتاهم فسأله حسين كتخدا عن ما قاله الباشا، فحلف انه لم يكن معه خبر من هذا الكلام ولا علم مطلقا فأمر الباشا فرمانا آخر بقتله ثم أن كتخدا الوقت حسين كتخدا أنفذ فيه أمر الله وكان ذلك يوم السبت ثامن عشرين ربيع آخر(١).

ثم أن الباشا أفرج على يوسف بيك الشرايبي ونزل الى بيته بعد حبسه في قلة مستحفظان أربعة أشهر تماما، وكان قد ابتلي بالجذام، ولم ترفع صنجقيته، ولكن بلاده ابيعت تماما ولم يبق عليه منها شئ ابداً.

وفي غرة رجب(٢) توفي الشيخ عنبر تابع الشيخ الخراشي متعنا الله ببركته وبركة سيده، وأرسلوا احضروا محمد جاويش بن عثمان باش اختيار من أبو قير وأبو حسين أفندى في رشيد، لا نه كان رفيقه في أبى قير وأرسل يوسف كتخدا أحضر عثمان الصابونجي من منفلوط وعفي عنه لكونه ابدل المال. وسافر مصطفى بيك القزلار بالخزينة العامرة عوضا عن زين الفقار بيك في غرة رجب.

(١) ١٣ نوفمبر ١٧٢٧م.
(٨٤) ١٢ فبراير ١٧٢٨م/ كتب عنوان جانبي «أعرف وفاة الشيخ عنبر تابع الشيخ الخراشي».

* [١ ينـاير ١٢٦٨ = ٥ طوبه ٩٨٤ = الأحد ١٣ ربيع الثاني سنة ٦٦٦] ـ
* أول جماد ثان توجه الملك الظاهر إلى يافا وفتحها في العشر الأوسط منه.
* أول رمضان نازل الملك الظاهر انطاكية فامتلكها في ٥ منه، وفي ١٣ منه ـ استولى على بغراس

* [١توت ٩٨٥ = ٢٩ اغسطس ١٢٦٨ = الأربع ١٨ ذو الحجة سنة ٦٦٦] ـ
* فيها خرج الملك الظاهر الى الشام وخيم في خربة اللصوص، وتوجه الى مصر بالخفية، ووصلها بغتة واهل مصر والنائب لا يعلمون بذلك إلا بعد ان صار بينهم، ثم عاد الى الشام.
* [١ ينـاير ١٢٦٩ = ٦ طوبه ٩٨٥ = الثلاث ٢٥ ربيع الثاني ٦٦٧] ـ
* فيها توجه الملك الظاهر بيبرس الى الحجاز، فرحل من الغور في ٢٥ شوال، ووصل الكرك ، وقام منه في سادس القعدة الى الشوبك، ورحل منها في ١١ القعدة فوصل المدينة النبوية في ٢٥ القعدة، ووصل الى مكة في خامس ذى الحجة، ووصل الى الكرك في سلخ ذى الحجة.

* [١توت ٩٨٦ = ٢٩ اغسطس سنة ١٢٦٩ = الخميس ٢٩ ذو الحجة سنة ٦٦٧] ـ
* اول محرم توجه الملك بيبرس من الكرك فوصل دمشق بغتة وتوجه ووصل حماه في ٥ محرم، وتوجه من ساعته الى حلب، ولم يعلم به العسكر إلا

وأما سبب اشاعة محمد بيك جركس بانه دخل مصر: فان عسكر الجزاير قامت على الدولتلي من جهة جركس وقالوا له: رجل هربان من السلطنة وانت تحميه الا أن تطرده أو نقتلك؟ فلما رآهم مصممين على ذلك، أرسل احضر جركس وأصلح له مركبا صغيرا وأنزل فيها ثلاثة آلاف كيس ونوى بأن يصبر الى العشا وينزل هو واياه في المركب ويسافر الى أن يدخله الى اسلامبول، ويفرق هذه الأكياس على أهل السلطنة ويدخل جركس الى مصر ولم يفوت غرضه . ففطن أهل الجزاير فقطعته، فلما فرغت العسكر من تقطيع الدولتلي نزلوا على بيته فنهبوه فلم يجدوا فيه من النفقة شيئا، فسألوا فأخبرهم جماعة انه نزلهم الى المركب وكان مراده يعوم الليلة وله خمسة أيام وهو يحول المال، فرجعوا الى المينة فلم يجدوا المراكب، فسألوا عنها فقالوا لهم سافروا من عشية أمس. ثم أنهم عينوا مركبين وسافروا خلفه الى أن دخلوا الى طرابلس فلم يجدوا أحدا، فسألوا عن المركب فقالوا: أن شحرورا(*) أتى من منذ أيام وطلع منها رجلا واجتمع باحمد بيك الاعسر. ثم أنهم توجهوا الى أحمد بيك الاعسر وسألوه فأخبرهم أنه طلع ومكث عندنا أربع ساعات وسافر. فقالوا له: هل سألته أى الموانى[١]

(*) الشحرور: نوع من المراكب التى كانت تستعمل فى تعدية الناس فى النيل، واستعمل هذا النوع فى البحر المتوسط، ويكتب الأسم أحيانًا «شختور» درويش النخيلي، المصدر السابق، ص ٧٤ ـ ٧٥.
(١) بالأصل «الماوان».

وهو معهم، وعاد الى دمشق في ١٣ محرم، ثم الى القدس، ثم الى القاهرة، فوصلها في ثالث صفر.
* [١ ينـاير ١٢٧٠ = ٦ طوبه سنة ٩٨٦ = الأربع ٦ جماد اول ٦٦٨] -
* وفيها عاد الملك الظاهر الى الشام، وأغار على عكا، وتوجه الى دمشق ثم الى حماه.
* وفيها جهز الملك الظاهر عسكرا الى بلاد الاسماعلية فتسلموا مصياف في العشر الاوسط من رجب، وعاد الملك الظاهر من حماه الى دمشق فدخلها في ٢٨ من رجب ثم عاد الى مقر ملكه بمصر.
* في هذه السنة الافرنكية كانت وفاة لويز التاسع في تونس.

* ١ تـوت ٩٨٧ = ٢٩ اغسطس ١٢٧٠ = الجمعة ١٠ محرم سنة ٦٦٩.
* فيها جهز الظاهر ما يزيد على عشر شواني لغزو قبرس فتكسرت في مرسى الليمسون وأسرهم الفرنج، فعمل السلطان في مدة يسيرة شواني ضعف ما عدم.
* [١ ينـاير ١٢٧١ = ٦ طوبه ٩٨٦ = الخميس ١٧ جماد اول سنة ٦٦٩] ـ
* فيها كان تولية فيليب الثالث، الملقب بالجسور، على فرنسا.
* في ٩ شعبان نازل الملك الظاهر حصن الأكراد، وامتلكه في ٢٣ منه
* في ١٧ رمضان نازل الملك الظاهر حصن عكار وامتلكه في اخر الشهر.
* في شوال تسلم الملك الظاهر قلعة العليقة من الباطنية

يطلب. فقال: نعم سألته . فقال لي : أنا طلب بلاد نمسة يجتمع على ملكها. ثم أنهم رجعوا على عقبهم خايبين ولم يظفروا بالمطلوب فاشيع في القاهرة ما ذكرنا فهذا هو السبب والله أعلم.

فبعد عشرة أيام واذا بخط قد ورد من الديار الرومية، وكان في غرة جماد أول يخبر به أنا جاءنا خبر من الجزاير بأن محمد بيك جركس هرب منها وقتل الدولتلي بسببه، وانه هرب، فلما أخبر السلطان أحمد خان بهروبه أمر بقتل عمر آغا الجاوشية الذى توجه الى السلطان بعرضين من أهل الجزاير وأهل طرابلس الغرب فقتله هو والصيفي على باب السراية، وكان الصيفي محبوسا عنده من ايام هروبه من الغليون، وقتل الوزير القبطان بسببه الى أن مسكه وحبسه. فلما جرت هذه النكبة أخرجه وقتل الاثنين وأننا آخبرنا انه دخل مصر في صفة أفرنجي فانكم تكونون على يقظة من دخوله مصر وأرسل خطوطا لجميع المين الاسلامية بأن كل من رأى جركس فعليه بقبضه، وأن كل بلد دخلها ولم يضبطوه يكن بخراب البلد التي يوجد بها، وذكرها في الخط انه دخل الى ملك النمسا، وانه وقع في عرضه تاني مرة فتكونوا مستيقظين ليلا يدخل مصر أن كان لم يدخلها ويتتاوى عند أحد فالحذر ثم الحذر.

وفي خامس عشر جماد أول (١) نفى العزب أربعة اضباشية ثلاثة الى جرجة وهم: درويش

(١) ٢٩ ديسمبر ١٧٢٧م.

ثم سـار الى دمـشق، وفي ٢٠ شـوال سـار منهـا، وفي ٢ ذى القـعـدة نازل حـصن القـرين وتسلمه بالأمان وهدمه، ثم عـاد الى مصر.

* ١ تـــوت ٩٨٨ = ٣٠ اغـسطس ١٢٧١ = الأحـد ٢٢ محرم سنة ٦٧٠

* فـيـهـا توجه الملك الظاهر الى الشام.

* مـسـتـهل ربيع أول توجـه الملك الظاهر الى حـمـص، ثم الى حـصـن الأكـراد، ثم عـاد الى دمـشق، وفي أثناء ذلك أغـارت التـتـر على عـينـتـاب وغـيـرها فاستدعي الملك الظاهر عـسكرا من مصر فسار بهم الى حلب ثم رجع الى مـصـر في ٢٣ جـمـاد الاولى.

* [١ يـنـايـر ١٢٧٢ = ٥ طوبه ٩٨٨ = الجمعة ٢٨ جماد أول سنة ٦٧٠] ـ

* في شـوال عـاد الملك الظاهر بيـبـرس من مـصـر الى الشام.

* في ٣ صـفـر وصل الملك الظاهر الى الشام عائدا من مصر.

* [١ توت سنة ٩٨٩ = ٢٩ اغـسـطس ١٢٧٢ = الاثنين ٢ صفر سنة ٦٧١] ـ

* فـيـهـا نازل التـتـر البـيـرة وضايقوها فـسـار اليـهم الظاهر فقـاتلوه على الخاضـة فـاقـتـحم الفـرات وهزم التـتـر ورحلوا عن البـيـرة، وعـاد الظاهر الى مـصـر فـوصلهـا في ١٥ من جـمـادى الثانية.

* [١ يـنـايـر ١٢٧٣ = ٦ طوبه ٩٨٩ = الاحـد ٩ جـمـاد الثاني سنة ٦٧١] ـ

* فيها استقرت بنو مرين من

محمد وطوقطلي خليل ومرباز ابراهيم وشولاق حسن الى رشيد ومسك الوالى الطواشي بتاع جركس من سويقة اللالة وأخذه الى زين الفقار بيك بقصر العينى فسأله عن جركس فقال : لا أعلم له أرضا من وقت خروجه من مصر؟ فأمر برمى عنقه بقصر العينى، وفي ثاني يوم جاءت رأس حسين بيك الرزاز.

والسبب في ذلك: ان الباشا البس وزير على بيك كشوفية الفيوم عوضا عن الرزاز وأمره أن يتوجه له ويقتله في أى محل وجده. وكان حسن بيك لما أحس بالعزلان توجه الى بلده وهى زاوية المصلوب(*)، فلما علم على بيك توجه له وأخذ رأسه مع أن الاثنين اتباع بن أيواظ، فهذا كان السبب والله أعلم.

وفي ثاني يوم دخل على زين الفقار غلام حديث السن وأسر في أذنه بأن جركس وعمر بيك في سويقة اللالة في بيت الطواشي الذى رميت عنقه في قصر العيني فقال له: البيك. انظر ماذا تقول؟ فقال: بعنقى أن كنت فيما أقوله كاذبا، فأرسل الى الوالى أتى به وأرسل صحبته عشرين رجلا من جنده وأرسل الولد صحبته، فلما وصلوا الى المحل وهجموا على البيت لم يجدوا من الرجال أحدا وأنما وجدوا جوارى جركس وورقا كثيرا. وأما الرجال فقد

(*) زاوية المصلوب: احدى القرى القديمة، مركز الواسطى، محافظة بنى سويف، محمد رمزى، المصدر السابق، جـ٣، ص ١٣٠.

ملوك الغرب، وانقرضت دولة عبد المؤمن.

* [١ تـــوت ٩٩٠ = ٢٩ اغسطس ١٢٧٣ = الثلاث ١٣ صفر سنة ٦٧٢] ـ
* في هذه السنة الافرنكية تنصب رودولف هابسبورغ امبراطورا على جرمانيا.
* [١ ينـاير ١٢٧٤ = ٦ طوبه ٩٩٠ = الاثنين ٢٠ جماد الثانى سنة ٦٧٢] ـ
* في هذه السنة الافرنكية افتتحت الانكليز بلاد الجبال (ويلز)، وتنصب رودولف امبراطور المانيا ملكا على ايطاليا.

* [١ تـــوت ٩٩١ = ٢٩ اغسطس ١٢٧٤ = الأربع ٢٤ صفر ٦٧٣] ـ
* فيها دخل الظاهر بيبرس بلاد سيس بالعساكر، وعاد الى دمشق.
* فيها صار تسمية رودلف امبراطور المانيا سلطانا لايطاليا.
* [١ يناير ١٢٧٥ = ٦ طوبه ٩٩١ = الثلاث ٢ رجب سنة ٦٧٣] ـ
* فيها نازلت التتر البيرة فتوجه الظاهر، وكان بدمشق، فرحل التتر عنها فعاد الظاهر الى مصر.

* [١ تـــوت ٩٩٢ = ٣٠ اغسطس ١٢٧٥ = الجمعة ٦ ربيع اول سنة ٦٧٤] ـ
* فيها جهز الظاهر جيشا مع اقسنقر الفارقانى وعز الدين الأيبك الأفرم وسار من مصر الى

هربوا فأخذوا جميع ما كان فى البيت وجميع الورق والحمامى جار المنزل وصاحب البيت واوقفوهم قدام زين الفقار بيك، فلما رآهم صاحب البيت وسأله وكان من المتفرقة. فقال له: ما أخذ المفتاح الا سليمان آغا الذى رميت عنقه. وأن البيت لم يكن فيه رجال وانما نسا لا نعلم لمن هن فسأل الحمامى فحلف أنه لم يكن عنده خبر من هذا الأمر ولا أعرف أن هذا البيت فيه رجال ولا نساء ولا أعرف جركس الذين تقولون عليه؟ ثم أنه عاقبهم فلم يقر منهم أحد فاسيبهم وأسيب صاحب البيت وأبقى الجوار عنده لانهم كانوا جمالات حقيقة هكذا نقل لنا.

وفى يوم الخميس خامس عشر جماد المذكور(١)، عمل الوزير ديوانا وسأل عن عبدالرحمن بيك فقالوا له أنه لم يطلع اليوم الى الديوان فأرسل له يطلبه فأبى أن يطلع وتعلل بالمرض، فأرسل له ثانيا عشرة من الدلاة وصحبتهم آغا فدخلوا بيته فلم يجدوه، فسأل عنه فأخبره بأنه مريض من ثلاثة أيام فقال: لا بد من مقابلته فأطلعوه الحريم فرأوه ملقى فى الفراش، فلما رآهم قال لهم: انظروا حالى واخبروا الوزير بما رأيتم واعطاهم ثلاثين زنجرلى فاخبروا الباشا بأنه ضعيف قوى، فأرسل الى كيخيته فلما حضر ألبسه قفطانا على تجريدة الى البهنسا الى عرب خويلد ومحارب، فلما أتى الى سيده وأخبره بأن الوزير ألبسه قفطانا نيابة عنك لتحضر بنفسك وسافر الى البهنسا صحبة سليمان كاشف بنى سويف والبهنسا وصحبته حسين بيك أباظة

(١) ٢٩ ديسمبر ١٧٢٧م.

النوبة فغنم وعاد بعد ان استولى على جميع مصر العليا * كذا حارب برقة وافتحها.

* [١ يناير ١٢٧٦ = ٥ طوبه ٩٩٢ = الأربع ١٢ رجب سنة ٦٧٤] -

* فيها تزوج الملك السعيد بركة بن الظاهر بيبرس غازية خاتون بنت الأمير سيف الدين قلاوون الصالحي.

* وفي اواخر ذى الحجة خرج الظاهر من مصر قاصدا حلب.

* في محرم وصل الظاهر دمشق ثم عاد الى مصر.

* [١ توت ٩٩٣ = ٢٩ اغسطس ١٢٧٦ = السبت ١٧ ربيع أول سنة ٦٧٥] -

* [١ يناير ١٢٧٧ = ٦ طوبه ٩٩٣ = الجمعة ٢٤ رجب سنة ٦٧٥] -

* فيها استولى رودلف على فينيا.

* في ٢٠ رمضان خرج الظاهر من مصر بعساكره فسار الى حلب ثم الى النهر الازرق ثم سار الى أبلستين فوصلها والتقى بالتتر في ١١ القعدة، فانهزمت التتر، وبعدها سار الى قيسارية، وفي ٢٢ منه حل عنها، وحصل للعسكر شدة عظيمة من نفاد القوت والعلف وعدم الخيول.

* في ٥ محرم وصل الظاهر الى دمشق، وفي ٢٨ منه توفي، وقت الزوال، بعد ان حكم ١٧ سنة وشهرين وأحد عشر يوما، واستقر ابنه الملك السعيد بركة في مملكة مصر و الشام بعد أبيه الملك الظاهر في اوائل ربيع الأول من هذه السنة. والملك الظاهر هذا هو

وأنت تكون ثالثهم فهم يحيوا وأنت تموت فقال عبدالرحمن بيك: هذه سفرة سودة ولكن صانعهم.

ثم ان في ثاني يوم[١] أشيع في القاهرة بانه هرب، فما وصل الخبر الى زين الفقار بيك أرسل الى عبد الرحمن بيك فوجده في بيته فألزمه بالسفر وكان السبعة أوجاق حاضرة بمجلسه وأنه لا يخالف فرمان الوزير، ثم انه مده بالف زنجرلي وخيام كبار وذخيرة وأمره بالسفر، ثم أنه قام من المجلس وصار يدبر أمر السفر وصار يرسل يأتي بأصحاب[٢] الديون ويعطيهم الذى لهم من الدين. ومن جملة ذلك أن رجلا له تسعون نصفا فأعطاه عشرة فناجين، ويقول لكل من أخذ حقه: هذه التجريدة أظن أني ما بقيت أشرب الماء لمصر. ثم أن سليمان بيك الفراش وحسين بيك برزوا، وسليمان آغا اغاة الجراكسة، وارسل الباشا فرمان الى مصطفى بيك كاشف جرجة، بأن يكون صحبتهم الى البهنسا يتوجه الى شرق بني يحيى يجيب رأس يوسف بيك الخاين وأبو دفية وسليمان بيك القلاقسي كاشف جرجة سابقا وقرا مصطفى جاويش جدك لأن الباشا أخبر بانهم عند سليمان بيك كاشف جرجة وبرزوا جميعا.

---

(١) كرز التعبير بالأصل.

(٢) بالاصل «بارباب» وكتب بالهامش «يا أصحاب» ووضعت علامة احلالها محل «بارباب» فلذا وجب التصويب.

الذى عمر الحرم النبوى وقبة الصخرة ببيت المقدس وزاد اوقاف الخيل وعمر قناطر شبرامنت بالجيزة وسور الاسكندرية، ومنار رشيد وردم فم بحر دمياط وعمر المدرسة بين القصرين وجامعه الكبير حفر خليج الاسكندرية القديم وباشر حفره بنفسه وبنى هناك قرية سماها بالظاهرية وحفر بحر أشمون طناح وجدد الجامع الأزهر ،ومن أثاره أيضا قناطر السباع الموجودة للآن.

* [١ توت سنة ٩٩٤ = ٢٩ اغسطس ١٢٧٧ = الاحد ٢٨ ربيع اول سنة ٦٧٦] ـ

* [١ ينـاير ١٢٧٨ = ٦ طوبه ٩٩٤ = السبت ٥ شعبان ٦٧٦] ـ

* فيها سار الملك السعيد بركة الى الشام بالعساكر، صحبة الأمير سيف الدين قلاوون الصالحي، لمحاربة شرف الدين سنقر، والي دمشق الذى ادعى الملك لنفسه وتلقب بالملك الكامل وبايعته الأهالى، وللمخاتلة التى حصلت بين الأمراء وماصار الاتفاق عليه من خلع الملك السعيد تركهم وسبقهم الى مصر ونزل بقلعة الجبل.

* [١ تـوت ٩٩٥ = ٢٩ اغسطس ١٢٧٨ = الاثنين ٨ ربيع الثاني سنة ٦٧٧] ـ

فيها وصلت العساكر التى خرجت عن طاعة الملك السعيد بركة إلى مصر، وحصروه بقلعة الجبل.

* [١ ينـاير ١٢٧٩ = ٦ طوبه ٩٩٥ = الأحد ١٥ شعبان سنة ٦٧٧] ـ

ثم أن عبدالرحمن بيك برز الى معدية[١] الخبيرى قريبا من الدير الذى هناك، ثم أنه أرسل أتى بشيخ الترابين وشيخ الصواحية واعطاهم مالا وقال لهم: ايش في يدى منكم: فقالوا: كل ما تريد فقال: انكم تتبعونى الى الشام . فقالوا له: ابشر متى تريد؟ فقال لهم : الليلة فقالوا له : تكن حاضرا ولكن هنا لم نقدر نأتيك ولكن الملتقى بيننا وبينك عند سيدى عقبة بعد المغرب وكان ذلك اليوم يوم الثلاثا غرة جماد آخر سنة ١١٤٠[٢].

ثم أنه صلى المغرب وركب هو وعشرون نفسا من الرجال الذى يعرفهم مشترى ماله وكتخداه المكاواى، فسأله بعض من جماعته المخلفين فقال لهم: أريد أن أزور الامام وأوصى الخدم بأنهم لا يطفون الفانوس الى حين رجوعه ولو انكم توقدون شمعتين. ثم انه توجه الى الامام زاره وتوسل به الى الله تعالى. ثم أنه سار نحو سيدى عقبة فرأى الرجال له فى الانتظار فركب وركب معه عشرون من العرب ورجع بقية الخيل الى الخيام فكثر القيل والقال فسأل مصطفى بيك عن السبب. فقيل له: ان عبد الرحمن بيك ركب هو وعشرون رجلا من هجينا وسار نحو الجبل اتباعه عشرين ، والخيل رجعت فارغة من ركابها فركب مصطفى بيك وسليمان آغا الجراكسة وساروا خلفه ذلك اليوم فلم يجدوا الا نجع عرب حاطط فى طرق

(١) بالأصل «الى» حذفت ليستقيم المعنى والأسلوب.

(٢) ١٤ يناير ١٧٢٨م.

* فى ربيع اول صار خلع الملك السعيد بركة، وأرسل الى الكرك، بعد ان حكم مصر سنتين وثلاثة أشهر.

* [١ توت ٩٩٦ = ٣٠ اغسطس سنة ١٢٧٩ = الأربع ٢٠ ربيع الثانى ٦٧٨] _

* وفيها صار مبايعة سلامش ين بيبرس، وسنه سبع سنوات وبضعة أشهر، ولقب بالملك العادل، بوصاية الأمير سيف الدين قلاوون.

* فى ٢٠ رجب صار خلع الملك العادل وارساله الى قلعة الكرك، وتولية وصيه سيف الدين قلاوون،وتلقب بالملك المنصور.

* [١ ينـاير ١٢٨٠ = ٥ طوبه ٩٩٦ = الاثنين ٢٦ شعبان ٦٧٨] _

* فيها توفي الملك السعيد بركة بالكرك فتولاها بعده أخوه نجم الدين، ولقب بالملك المسعود.

* وفى ٢٤ ذو القعدة تسلطن سنقر الأشقر بدمشق وحلفت له الأمراء والعساكر، وتلقب بالملك الكامل.

* فيها جعل السلطان قلاوون ابنه الملك الصالح ولى عهده.

*فى ٩ صفر التقى سنقر الأشقر، ومعه العساكر الشامية، بالملك المنصور قلاوون، ومعه العساكر المصرية، فانهزم الشاميون ونهب المصريون اثقالهم.

* [١ توت ٩٩٧ = ٢٩ اغسطس ١٢٨٠ = الخميس غرة جماد أول سنة ٦٧٩] _

* فيها عاد السلطان المنصور الى مصر .. من الشام، وقد وصلت التتر الى حلب.

* [١ ينـاير ١٢٨١ = ٦

الجبل فسألهم هل مر عليكم أحد؟ فقالوا: نعم مر علينا مغرب أمس نحو الاربعين هجينا وهم سايرون سير مجد. فقال لهم لم حشتوهم؟ فقالوا: لا نقدر عليهم لأنهم نحو الاربعين هجينا وكلهم نار، فمسكهم وأرمى اعناقهم واخذ جمالهم ورجع الى الخيام ليضبط ما تركه عبدالرحمن بيك فى الخيام. فوجد خشاخين واقفاصا ومواهيا وبططا ففتحهم جميعا فاذا بهم جميعا مليانين تبنا وأحجارا والبطط ملآنة بلحا.

فانظر يا أخى: الى دهقنة هذا الكاهن وما فعل من باب الدكيات. ثم أنهم أخبروا الباشا فأرسل أتى بقبى الضاشه وأرمى عنقه فى حوش الديوان وفى ثالث يوم جاء بدوى من السويس الى زين الفقار بيك فوجده فى بركة الحج عند بستانه وحوضه الذى انشاه ببركة الحاج قريبا من منزل الجداوية.ومن جملة سعده ان الساقية طلعت أحلى من جميع الابار والسواقى التى ببركة الحاج. وكان بداة عمارته فى الغيط الذى انشاه وزرع فيه خمسة آلاف نخلة. والحوض الذى بناه بهذه الاوجه النفيسة فى رجب سنة ١١٣٩، واتم بناوه فى سنة ١١٤١(١) فلما رأى البدوى زين الفقار بيك نزل من على هجينه وقبل يديه وأخبره بأنه قابل عبدالرحمن بيك فى عجرود وأعطانى هذا المكتوب وقال لى: أعطيه الى زين الفقار بيك وهاهو. ثم أنه ناوله المكتوب فأخذه منه وقراه فاذا فيه بعد السلام بأنك تكون وكيلى على

(١) فبراير ١٧٢٧م/ ١٧٢٩م.

طوبه ٩٩٧ = الأربع ٨ رمضان سنة ٦٧٩] ـ

* في أول ذى الحجة عاد السلطان المنصور قلاوون الى الشام.

* فيها كانت عدة محاربات بين طرطباى، المرسل من قبل الملك المنصور قلاوون، والملك الكامل، صاحب دمشق، الذى بعد ان دافع دفاعا شديدا التجا الى التسليم فقبض عليه وجاؤا به الى القاهرة وأودعوه سجنا مظلما، وولوا على دمشق وسائر الشام الأمير حسام الدين لاجين.

* [١ تـوت ٩٩٨ = ٢٩ اغسطس ١٢٨١ = الجمعة ١٢ جماد أول سنة ٦٨٠] ـ

* فيها تكونت جزيرة بولاق.

* [١ ينـاير ١٢٨٢ = ٦ طوبه ٩٩٨ = الخميس ١٩ رمضان سنة ٦٨٠] ـ

* فيها شارل دانجو حاصر مسينه.

* فيها عاد التتر الى الشام بجيشين، أحدهما تحت قيادة أباكه خان، والآخر مؤلف من ثمانين ألف فارس تحت قيادة منجو تيمور، فحاربهم المصريون وفازوا بهم وقتلوا منجو تيمور، وفر أباكه خان

* فيها كان الطاعون في بلاد الدانمرقة.

* [١ تـوت ٩٩٩ = ٢٩ اغسطس ١٢٨٢ = السبت ٢٣ جماد أول ٦٨١] ـ

* فيها عقد الملك الصالح على بن السلطان الملك المنصور قلاوون على بنت سيف الدين بكية، ثم تزوج أخوه الملك الأشرف أختها الأخرى وكان بكية

بلادى، ويوسف كتخدا يكون وكيلى على الحريم والبيت، وانى متوجه الى الديار الرومية يكن فى علمك والسلام.

ثم ان يوسف كتخدا قدم عرض حال للباشا وطلب منه اغا، يضبط موجودات عبدالرحمن بيك، فأرسل معه أغا وكاتب من طرف الشرع فذهبوا الى البيت وضبطوا جميع موجوداته بقايمة، ثم أنه سلم جميع المضبوط الى أهله وابقى القايمة عنده وأعطى الاجرة للاغا المعين والشاهد من عنده.

ثم ان الصناجق المعينين (ساروا)[١] الى البهنسة فى خامس جماد آخر واشغل محمد بيك جركس أهل مصر وصار التفتيش عليه في جميع بيوت القاهرة لا يوفر كبير ولاصغير الا كل من قال: جركس فى المحل الفلانى ينزل الاغا والوالى كابسين تلك الحارة وقافلين دربها ويفتشوها بيتا بيتا والنرنجية اتباع الوالى واوضباشا يطلعون على المواذن ليكشفون الهارب اذا هرب أو طلع السطح فيكشفوه. وصارت مصر فى حرك شديد من هذا الكبس، وقد كبسوا الدرب الجديد الذى هو خارج قناطر السباع ثلاث مرات(*) ويفتشوا جميع بيوته، فلم يجدوا أحدا.فلما طال هذا الأمر وبسل ومل ارسل الباشا فرمانا الى العلماء يطلبهم والى قاضى

(١) الاضافة للتوضيح.

(*) بالأصل «مراره».

بالاسكندرية معتقلاً فاخرج لذلك وأكرم.
* [١ يناير ١٢٨٣ = ٦ طوبه ٩٩٩ = الجمعة ٣٠ رمضان سنة ٦٨١] ـ
* فيها صار انضمام مقاطعة ويلز الى ملكة انكلترا.
* فيها تمردت المماليك ونبذت طاعة السلطان، فغضبت غضبا شديدا أعمى بصره حتى لم يعد يميز المجرم من البرىء فساق الجميع بعصا واحدة وأعمل فيهم السيف ثلاثة أيام متوالية حتى غصت الأسواق بجثثهم رجالا ونساء.

* فيهما مات الاشكرى، صاحب القسطنطينية، واسمه ميخائيل، وملك بعده ابنه ماندرسكوس، وتلقب بالدوقس.

* [١ توت ١٠٠٠ = ٣٠ اغسطس ١٢٨٣ = الاثنين ٤ جماد الثانى ٦٨٢] ـ
* وفيها خرج السلطان بالعسكر المصرى لحفر الخليج الذى بالبحيرة، وهو ما يسمى الآن ترعة المحمودية من اعمال وآثار محمد على الكبير * وفى العشر الأول من شعبان كان السيل بدمشق، فأخذ العمارات واقتلع الاشجار وأهلك خلقا وخيلا وجمالا وخياما لا تحصى.
* [١ ينائر ١٢٨٤ = ٥ طوبه ١٠٠٠ = السبت ١٠ شوال سنة ٦٨٢] ـ
* فيها أنشا الأمير سيف الدين السلحدار المنصورى جامع الجميزة، بشارع باب اللوق.
* فيها أمر قلاوون ان يغير المماليك ملابسهم فمنعهم عن استعمال الزينة بالذهب وعن الضفائر الطويلة التى كانوا يجعلونها فى أكياس من حرير،

العسكر والى الشيخ البكرى وانه أسما العلماء الذين طلبهم وهم الشيخ سليمان المنصورى الحنفى، والشيخ أحمد العماوى المالكى، والشيخ مصطفى العزيزى، والشيخ أحمد السجينى، والشيخ عبد الله الشبراوى الشافعية.

وكان ذلك فى يوم الخميس سابع عشر جماد آخر سنة ١١٤٠(١). وكان الشيخ سليمان والعزيزى والسجينى طلعوا من باب العزب واما الشيخ أحمد العماوى والشبراوى فمن السبع حدرات(٢) فهم فى حال الطلوع، واذ بالشيخ البكرى نازل مكروشا ولم يكن معه احد سوى سايسه، فسألوه ما الخبر؟ فقال : ضرب علينا الرصاص واحنا طالعين الى الديوان فرجعوا هم وأياه الى منازلهم فهم فى أثناء الطريق واذا باغا لحقهم وطلب رجوعهم فأبوا (٣) وتوجهوا الى منازلهم.

وكان السبب فى ذلك: ان على بيك الهندى الذى هو الدفتدار، وكان تقابل هو والشيخ البكرى فدخل الى بيت زين الفقار بيك أمير الحاج فسألوا عليه، فأخبروهم أنه فى الحريم لم ينزل وعنده توعيك، فشربوا القهوة والشربات وتوجهوا الى الديوان، فهم بين بابى الديوان واذا بسراج مسك بلجام جواد الدفتدار وفزع عليه بالحسام كان فى يده واذا بعلى بيك سحب بيده

(١) ٣٠ يناير ١٧٢٨م. (٢) بالأصل «حضرات».
(٣) بالاصل «وتوجهوا فابوا» حذفت ليستقيم المعنى والاسلوب.

وجعل حالة ملبسهم كحالة رجال الحرب، ثم سار الى حصن مرقد فحاصره ٣٣ يوما فسلم * فيها حصلت زيادة عظيمة بنهر دمشق ليلا وارتفع الماء على جسر باب الفرج وذهب من أموال العسكر ما لا يحصى.

* [١ تـوت ١٠٠١ = ٢٩ اغسطس ١٢٨٤ = الثلاث ١٥ جماد الثاني سنة ٦٨٣] ـ
* فيها انتصرت اهالي جنوا على أهالي بيزه في موقعة بحرية
* فيها افتتحت أهالي جنوا جزيرة قورسيقة.

* [١ ينـاير ١٢٨٥ = ٦ طوبه ١٠٠١ = الاثنين ٢٢ شوال ٦٨٣] -
* في ١١ شوال توفي الملك المنصور، صاحب حماه، وعمره : ٥١ سنة و٦ شهور و١٤ يوم وملك حماه : ٤١ سنة وخمسة اشهر وأربعة أيام، فتولي بعده ابنه الملك المظفر بأمر من الملك المنصور قلاوون.
* في اواخر محرم وصل المنصور قلاوون الي دمشق، وبعد وصوله بثلاثة أيام قلد الملك المظفر على حماه والمعره وبارين، وزاد في إكرامه.

* في اول ربيع أول نازل المنصور حصن المرقب وافتتحه وتسلمه في ١٩ من هذا الشهر
* فيها ولد للمنصور قلاوون ولده الأعظم الملك الناصر.

* [١ تـوت ١٠٠٢ = ٢٩ اغسطس الأربع ٢٦ جماد الثاني ٦٨٤] ـ
* فيها توفي فيليب، الملقب بالجسور فتولي فيليب، الملقب بالظريف، على فرنسا.
* فيها توفي اسكندر الثالث ملك اسكتلنده ووقع شقاق

الركاب وضربه فاسيب السراج لجام الجواد ،فما شعروا الا وخمس طبانجات قد زعقت رصاصها عليه طلقة واحدة وسراج من خلفه فزع عليه بسيف آخر فقتله مملوكه الذى خلفه بقلنج [سيف] في راسه فغرق في رأسه جميعه. ثم انه ولى هاربا نحو باب مستحفظان فكبى به الجواد قدام باب الانكشارية فوقع ثم انتصب ولم يصبه بشئ فمشى الى أن دخل الى الباب الذى يبيع فيه الدريس. ثم انه ركب جواده ونزل الى بيته رامحا والسيف مسحوب بيده وكركه على كتف السايس وهو بالبنش فقط، وكان السراجين الذين فزعوا عليه وضربوه عشرة ، فلم يصيبه من الضرب ولا من البندق شئ.

وأما البكرى: فانه لم يزل رامحا حتى تقابل مع العلماء كما تقدم، ثم أن زين الفقار بيك ظهر من تشويشه وجمع جميع العسكر وطلع بهم الى الرميلة وابطل الباشا الديوان في ذلك اليوم. ونزل اغا مستحفظان ونادى في القاهرة جميع العسكر بأنهم يطلعوا الى أبوابهم وكل من تخلف لا علوفة له.

ثم أن زين الفقار بيك: ركب ومحمد بيك قطامش صحبته الى أن نزلا في السلطان حسن، وجاء بعدهم الى السلطان حسن، اسماعيل بيك بن الدالى، ومحمد بيك بن درويش، ومحمد بيك مرجان جوز، وأرسلوا أحضروا مصطفى بيك الوالى من قدم النبى، ومصطفى بيك أباظة ، ومصطفى بيك أبو بلفية، وأنهم عينوا مصطفى بيك الدالى الى الشيخونتين وبلفية الى الحجر

عظيم اعقبه حروب بين اسكوتلانده وانكلترا.
* [١ ينـاير ١٢٨٦ = ٦ طوبه الثلاث ٤ ذو القعدة سنة ٦٨٤] ـ
* فيها سار حسام الدين طرنطاى بعسكر من مصر وحاصر الكرك وتسلمها بالأمان، وعاد وصحبته صاحب الكرك خضر وبدر الدين سلامش، أبناء الملك الظاهر، فاكرمهما السلطان، ثم بلغه ما كرهه عنهما فاعتقلهما حتى توفي فنقل خضر وسلامش الى القسطنطينية.

* فيها سار السلطان الى الكرك فقرر امورها ثم عاد.
* [١ توت ١٠٠٣ = ٢٩ اغسطس ١٢٨٦ = الخميس ٧ رجب سنة ٦٨٥] ـ
* [١ ينـاير ١٢٨٧ = ٦ طوبه ١٠٠٣ = الأربع ١٤ ذو القعدة سنة ٦٨٥] ـ
* فيها حاصر حسام الدين طرنطاى، نائب السلطنة، صهيون، ثم تسلمها بالأمان من سنقر الأشقر، ثم سار الى اللاذقية وحاصر البرج الذى فيها

وتسلمه بالأمان، ثم عاد الى مصر
* وفيها أرسل السلطان عسكرا، مع علم الدين سنجر المسرورى الخياط متولى القاهرة، إلى بلاد النوبة، فغزوا وغنموا وعادوا.

* [١ توت ١٠٠٤ = ٣٠ اغسطس ١٢٨٧ = السبت ١٩ رجب سنة ٦٨٦] ـ
* فيها أنشا قجماش الاسحاقى السيفى جامع أبو حريبه بشارع الدرب الأحمر.
* [١ ينـاير ١٢٨٨ = ٥

واغا الجملية فى سبيل المؤمنين، وطايفة الجراكسة فى المحمودية، والتفكجية فى البارودية، والانكشارية فى بابهم، وكتخدا الجاوشية واغة المتفرقة فى باب العزب وأرسلوا ابن درويش بيك الى باب العزب.

ثم أن زين الفقار ومحمد بيك قطامش أرسل الى على بيك سبعة اختيارية من السبعة أرجاق يطلبوه الى السلطان حسن ينظروا فى حاله وقال: أما أنا فليس لى دعوة عند احد من خلق الله تعالى ولا أريد الصنجقية والدفتدارية، فرجع المرسال واخبر زين الفقار بيك فأرسلوا له ثانيا وسألوه بأن يتوجه صحبتهم فأبى، فأرسلوا له اسماعيل بيك بن الدالى ورضوان أغا الجملية وابراهيم كتخدا عزبان الشهير بالفلاح يوم الخميس، وكان وقت العصر، فقال لهم. الوقت راح ولكن فى غد تأتوا الى هنا فأدخل بصحبتكم الى أخى زين الفقار بيك أمير الحاج وكل شئ يفعله أنا به راض، والذى قضاه الله يكون ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم. ثم أنهم رجعوا واخبروه بما قال، ثم أنهم حرسوا[١] عليه جميع الطرق خوف الهرب. ثم أنهم فى ثانى يوم أرسلوا له الثلاثة: اسماعيل بيك، ورضوان آغا، وابراهيم كتخدا، قبل صلاة الجمعة وحلفوا له بالايمان المغلظة بأنه لا يصيبه الا ما اصابهم، ثم أنهم أخذوه وتوجهوا به الى بيت أمير الحاج زين الفقار بيك وكان فى السلطان حسن فأرسلوا أخبروه، فلما وصله الخبر

(١) بالاصل «حرصوا» ، وقد صوبت كلمة «حرص» ومشتقاتها فى النص كله.

طوبه ١٠٠٤ = الخميس ٢٥ ذو القعدة سنة ٦٨٦] ـ

* فيها توفي الملك الصالح علاء الدين علي بن السلطان الملك المنصور قلاوون بالدوسنتاريا، وكان ولي عهد أبيه، وترك ابنا إسمه موسى.

* [١ توت ١٠٠٥ = ٢٩ اغسطس ١٢٨٨ = الأحد ٢٩ رجب سنة ٦٨٧] ـ

* [١ يناير ١٢٨٦ = ٦ طوبة ١٠٠٥ = السبت ٦ ذو الحجة سنة ٦٨٧] ـ

* في اول ربيع اول سار الملك المنصور قلاوون من مصر بقصد فتح طرابلس الشام.

* في ٣ ربيع ثان فتح السلطان طرابس بالقوة والاقتدار، وهدم كنيسة سنت طوما، ثم عاد الى مصر، وبذا استخلص طرابلس من يد الفرنج بعد ان بقيت تحت سلطتهم ١٨٥ سنة وشهورا.

* [١ توت ١٠٠٦ = ٢٩ اغسطس ١٢٨٩ = الاثنين ١٠ شعبان سنة ٦٨٨] ـ

* [١ يناير ١٢٩٠ = ٦ طوبه ١٠٠٦ = الأحد ١٧ ذو الحجة ٦٨٨] ـ

* في هذه السنة خرج السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون بقصد غزو عكا، فابتدأ مرضه في العشر الأواخر من شوال، وتزايد المرض حتى توفي يوم السبت ٧ ذو القعدة، بعد ان حكم نحو ١١ سنة وثلاثة أشهر وأيام، وجلس في الملك بعده ابنه السلطان خليل بن قلاوون الملقب بالملك الأشرف، ومن أثاره الباقية للآن جامعه الشهير ومقامه، وكلاهما داخلان

بأنه في بيته أرسل له اربعين نفرا عشرين من الانكشارية وعشرين من العزب والوالى ليحرسوه لا يهرب.

ثم انهم أرسلوا الى زين الفقار بيك تابع قانصوة بيك القاسمى فأتوا به الى السلطان حسن، ثم أنهم أرسلوا للباشا يطلبون منه فرمانين، بقتل الاثنين ثم أن زين الفقار بيك أرسل آغا الدم الى منزله ليأتوا بعلى بيك من منزله، فتوجه الاغا اليه فرآه جالسا في المقعد. وكان الوقت بعد المغرب والثلاثة جالسين واياه، اسماعيل ورضوان وابراهيم كتخدا الذين حلفوا له الايمان فأرسل له الاغا يطلبه فنزل ونزلوا صحبته فاركبوه بغلا من الذين يشيلون عليه النحاس فى الافراح فقال: أين جوادى فقالوا له قد أخذه الوالى. وكان ذلك اليوم قبى الضاش زين الفقار بيك فقال: كيف يأخذ جوادى الوالى وأنا على قيد الحياة وكيف ما أركب عليه وهو أزفر، والله ان هذه لهتيكه ما سبقت لاحد غيرى ولكن حسبنا الله ونعم الوكيل هذا جزاء من يفعل المعروف مع غير أهله، ويقطع أطرافه بيده ولكن كان ذلك فى الكتاب مسطورا. ثم انهم اركبوه وضربوا القيد فى رجليه من تحت بطن البغل وساروا به الى الرميلة، فأبى أن يطلع الى السلطان حسن ثم ان الوالى قطع رأسه عند باب العزب. ثم ان الوالى طلع الى السلطان حسن واخبرهم بموته، ثم أن اغاة الدم أبرز فرمانا بموت زين الفقار بيك القاسمى ، فلما سمع الفرمان وقع على أرجلهم يسوها كي يشفعون فيه ففتشه مصطفى بيك الوالى تابع

في بنا البيمارستان الذى يشاهده المار في شارع النحاسين.

* [١ تـوت ١٠٠٧ = ٢٩ اغسطس ١٢٩٠ = الثلاث ٢١ سنة ٦٨٩] ـ

* [١ ينـاير ١٢٩١ = ٦ طوبه ١٠٠٧ = الاثنين ٢٨ ذو الحجة سنة ٦٨٩] ـ

* في اوائلها كملت عمارة قلعة حلب التى كان شرع فيها قرا سنقر في مدة السلطان الملك المنصور وقد كتب الملك الأشرف اسمه عليها.

* في ربيع اول مات ارغون، ملك التتر، بعد ان حكم نحو سبع سنين.

* في اوائل جماد اول الملك الأشرف نازل عكا وحاصرها اشد حصار.

* في جماد ثان فتح الملك الأشرف عكا، وكانت الحصن الفريد الذى بقي للصليبين.

* [١ تـوت ١٠٠٨ = ٣٠ اغسطس ١٢٩١ = الخميس ٣ رمضان سنة ٦٩٠] ـ

* ١ يناير ١٢٩٢ = ٥ طوبه ١٠٠٨ = الثلاث ٩ محرم سنة ٦٩١.

* فيها سار الأشرف من مصر بعساكره الشامية والمصرية وتلقاه الاخوان : المظفر، صاحب حماه، والأفضل، صاحب دمشق، وأقاموا بضيافته.

* فيها حصلت محاربة بين فرنسا وانكلتره.

* في العشر الأول من جماد اول نازل الاشرف أرضروم وضايقها أشد مضايقة.

* في ١١ رجب أفتتح الملك الأشرف قلعة أرضروم.

* [١ تـوت ١٠٠٩ = ٢٩

الدمياطى واسلمه الى الوالى، فأخذه وقطع رأسه بجانب رفيقه رحمة الله عليه وعلى جميع المسلمين وأرسلوا اختموا بيوتهما فى تلك الليلة على المشاعل وكان ذلك يوم الجمعة سادس جماد الثانى سنة ١١٤٠.

وفى ثان يوم هرب حسن اغا آغاة التفكجية تابع على بيك المقتول ويوسف بيك الشرايبى، وعثمان آغا كاشف الجيزة تابع على بيك، وهرب بهذه الفعلة نحو المابة أمير من اتباعهم. ثم أنهم طلعوا الى الديوان وألبسوا محمد بيك قطامش الدفتدارية، وعلى آغا مملوكه عزلوه من كتخدا الجاوشية والبسوه قفطان الصنجقية، والبسوا رضوان جربجى الجملية تابع حسن اغا بولفية قفطانا على كتخدا الجاوشية، وألبسوا أحمد أغا كتخدا زين الفقار على اغوية المتفرقة.

وكان ذلك يوم الاحد ثامن عشر جماد الثانى سنة ١١٤٠[١] وقطعوا أثر الصناجق القاسمية وأرباب الحكم جميعا، ولم يبق فى ذلك اليوم من القاسمية حاكم ولا أمير أبدا، فانقطعوا فالذى مات مات والذى هرب هرب، ولم يبق فى البلد الا الفقارية وبقيت المدينة بباب واحد. ثم أن زين الفقار نزل من الديوان كالاسد الكاسر ولم يبال بمن بقى ولم يبق له فى القاهرة مناغص الا من يحدثه الله والله اعلم.

(١) ٣١ يناير ١٧٢٨م.

اغسطس سنة ١٢٩٢ = الجمعة ١٤ رمضان سنة ٦٩١] ـ
* فيها كان مولد ابن الوردى المؤلف المشهور.
* ١ يناير ١٢٩٣ = ٦ طوبه ١٠٠٩ = الخميس ٢١ محرم سنة ٦٩٢.
* فيها طلب الملك الأشرف المظفر، صاحب حماه، والملك الأفضل علي، صاحب دمشق، الى مصر، فحضرا من يوم خروجهما، فانعم عليهما، وساروا معه الى جهة الكرك، ثم قدم الى دمشق.
* ١ تـوت ١٠١٠ = ٢٩ اغسطس ١٢٩٣ = السبت ٢٥ رمضان سنة ٦٩٢.
* في ذى القعدة سار الأفضل نور الدين علي من حلب الى دمشق، وتوفي بها في اوائل هذا الشهر.
* لعدم ثبات النيل وقع الغلاء بمصر.
* [١ يناير ١٢٩٤ = ٦ طوبه ١٠١٠ = الجمعة غرة صفر سنة ٦٩٣] ـ
* في المحرم توفي الملك الأشرف مقتولا، قتله احد مماليكه بيدرا، قيل بتواطىء من إحدى نسائه مع المملوك، ودفن بمدرسته التي انشاها بالقرب من مشهد السيدة نفيسة، وقد اخربتها الفرنج سنة ١٢١٤ هجرية، وإليه ينسب الخان المشهور بخان الخليلي، أو الخان الخليلي، وبوفاته بويع بيدرا، ولقب بالملك القاهر، إلا أنه لم يحكم إلا يوما واحد، ثم قتله المماليك وبايعوا أخاه الملك الأشرف المدعو محمد بن قلاوون وسنه ٩ سنوات، ولقب بالملك الناصر.

وكذلك يوسف كتخدا عزبان نزل من بابه نزلة تقطع مرارة الاسد، ولم يحصل لاحد قبله في ذلك الباب مطلقا ولا لاحمد كتخدا القديم الذى كان اذا دخل على الوزير قام له ومشى له لنصف المحل لم يدرك غير يوسف كتخدا الذى ادركه في بابه وباب غيره وصناجقها وكلمته مسموعة ونافذة في جميع البلوكات، وعند الصناجق والقاضي والبشوات جميعاً، وكذلك نزل محمد بيك قطامش ركابه في ركاب زين الفقار بيك، وكذلك محمد كتخدا الملة نزل من بابه نزله لم يحكم لغيره عصره، وتمزقت الشواربية في أقطار الأرض كما تمزقت السبتية . ولم يبق في البلد الا غرض واحد لكن بقوا مع بعضهم بعض اخوان لا منغص بينهم لأن الفارين فتحوا على أنفسهم باب البغي فأهلكهم بغيهم وأن الذين بقوا في البلد لا يعبأ بهم لأنهم ما قعدوا في البلد الا لما ارتهنوا الكبير من الفقارية، والذى مات من جماعة ابراهيم بيك أبو شنب اثنا عشر صنجقا ونحو العشرين كاشفا، والذى مات من جماعة ابن ايواظ في مدة محمد باشا النشنجي ثمانية عشر صنجقا أولهم اسماعيل بيك وآخرهم على بيك الدفتدار.

ثم ان اغاة مستحفظان نزل البلد ونادى فيها بالأمان لجميع الناس ومضى كل شئ كأنه لم يكن، سعد فيها من سعد، وخسر فيها من خسر، وسار مصطفى بيك الوالي حاكم جرجة الى جرجة، فبعد سفره كتبوا عرضا بالواقعة التي جرت وهروب عبدالرحمن بيك وقتل على بيك الدفتدار وأرسلوا العرض صحبة آغا من طرف الوزير واختيار من المتفرقة واختيار من الجاوشية

* [١ تـوت ١٠١١ = ٢٩ اغسطس سنة ١٢٩٤ = الأحد ٥ شوال سنة ٦٩٣] ـ

* فيها روجير وباكون استكشفا بارود المدافع.

* في ٩ محرم جلس زين الدين كتبغا المنصوري، وصي الناصر، على سرير الملك، وتلقب بالعادل واستخلف الناس، وخطب له بمصر والشام، وضرب السكة باسمه، بعد أن خلع ونفى الملك الناصر الى الكرك.

* [١ يناير سنة ١٢٩٥ = ٦ طوبه ١٠١١ = السبت ١٢ صفر سنة ٦٩٤] ـ

* فيها هبط النيل بسرعة، فوقع الغلاء بمصر، وعدم وجود القمح، وبلغ سعر الأردب ثمان مثاقيل ذهبا ونصفا.

* [١ تـوت ١٠١٢ = ٣٠ اغسطس ١٢٩٥ = الثلاث شوال سنة ٦٩٤] ـ

* ١ يناير ١٢٩٦ = ٥ طوبه ١٠١٢ = الأحد ٢٣ صفر ٦٩٥.

* فيها قدم من التتر نحو عشرة الاف والفدين، ومقدمهم طرغية، من أكبر المغول، وهم المعروفين تحت اسم الأويرانية، فانزلهم الملك العادل بالحسينية، ورتب لهم الرواتب، وبالغ في تقاربهم، واستجلبوا طائفة كبيرة حتى اشتد التحاسد والتشاجر بين أهل الدولة والملك العادل.

* [١ تـوت ١٠١٣ = ٢٩ اغسطس ١٢٩٦ = الأربع ٢٨ شوال ٦٩٥] ـ

* ١ يناير ١٢٩٧ = ٦ طوبه ١٠١٣ = الثلاث ٥ ربيع اول سنة ٦٩٦.

وابراهيم افندى الشريف بن حسام الدين نايب الشرع الشريف بمحكمة قوصون وسافروا جميعا من البر يوم الاثنين خامس رجب سنة ١١٤٠(١).

وفي ثاني يوم الذى هو سادس رجب(٢). أرسل يوسف آغا، أغاة التفكجية تابع محمد بيك قطامش جاويشا من جاوشية البلك الى مصطفى جربجي القرمانلي وجاويشا الى محمد جربجي البنهاوى، فلما حضرا الى بيت اغتهما أمر بحبسهما مع أن محمد جربجي البنهاوى كان مريضا في فراشه نحو الشهرين، فطردوا الحريم واخذوه الى بيت الأغا راكبا حمارا لأنه لم يقدر يركب جواده من مرضه الذى به . ثم انهم أخرجوهما من الحبس وأركبوهما حمارين وساروا بهما الى غيط حسن كتخدا النجدلي وهما مقيدان الأرجل من تحت بطن الحمير وآياديهما مكشوفة والوالي صحبتهما. فلما ادخلوهما البستان جردوهما من الحديد فأما مصطفى جربجي اختيارى القرماني ثاني اختيار في التفكجية فانه ظل حيا(٣) فتوضأ وصلى ركعتين وأرمى الوالي عنقه وأما محمد جربجي باش اختيار فأنهم وجدوه قد توفى فذبحوه وأخذوا رءوسهما وأرسلوهما الى بابهما وقد كانا كلمة الباب وأصحاب الحل والربط وكانا من طرف اسماعيل بيك وكذلك كان لهما الكلام في دولة جركس لأنهما قاسمية. .

(١) ١٦ فبراير ١٧٢٨م. (٢) ١٧ فبراير ١٧٢٨م.

(٣) بالأصل «حى».

* في صفر خلع السلطان الملك العادل كتبغا، وبويع حسام الدين لاجين المنصوري، ولقب بالملك المنصور، كلقب سيده قلاوون، واذن الى كتبغا ان ينسحب الى صرخد في سوريا.
* فيها هبط النيل سريعا فشرقت البلاد ووقع الغلاء بمصر وأعمالها، وانتهى سعر القمح الى ١٧٠ درهما، والشعير الى ١٢٠ دهما كل اردب، واكلت الناس الخيل والجمال والبغال والقطط والكلاب، وعم هذا الغلاء سائر البلاد المصرية والشامية.

* توت ١٠١٤= ٢٩ اغسطس ١٢٩٧ = الخميس ٩ ذو القعدة ٦٩٦] ـ
* فيها استولت إسبانيا على جزيرة ساردينا.
* ١ يناير ١٢٩٨ = ٦ طوبه ١٠١٤ = الأربع ١٦ ربيع أول سنة ٦٩٧.
* فيها رد الملك المنصور لاجين إقطالعات الأجناد اليها، واخرجها بأسرها من دواوين الأمراء، وجعل للأمراء والاجناد أحد عشر قيراط وللعساكر تسعة قراريط، ثم أمر بتخفيض مرتب الأمراء والأجناد الى عشرة قراريط فتنكرت قلوب الأهالي منه.
* وفيها ـ وقيل في الذى قبلها ـ قبض الملك المنصور على طرغاى، مقدم الأويرانية، وعلى جماعة من أكابرهم، وبعث بهم وسجنهم بالاسكندرية، ثم قتلهم.

* [١ توت ١٠١٥ = ٢٩ اغسطس ١٢٩٨ = الجمعة ٢٠ ذو القعدة سنة ٦٩٧] ـ
* فيها تولى البرت، من اوستوريا، على امبراطورية المانيا.

وفي ثاني يوم ارسل كتخدا العزب جاويشا وعشرين فقرا الى بيت حسن كتخدا عزبان ابو مدرة تابع يوسف كتخدا الذى بنا وكالته بسوق السلاح سنة ١١١٨[١]، فلما دخلوا عليه رأوه جالسا بمقعده فأخذوه وأركبوه جواده وسافروا به الى غيط النجدلي وقطعوا راسه واخذ الوالي جواده وختموا على بيته وانطفت بيوت الثلاثة ولم يخلفهم احد رحمة الله عليهم اجمعين وعلى من ترحم عليهم وعلى من دعا لمؤلفه بالغفران.

وفي غرة رجب[٢]. جابوا محمد جاويش وعملوه باش جاويش ثمانية أيام، وعزلوه وجعلوه سردار إلى الحجاز وأبقوه هناك الى أن توفي في سنة ١١٤٦[٣]. والله أعلم بغيبه.

ومن أعجب (ما وقع)[٤]: ان في ليلة الجمعة ثالث رجب سنة ١١٤٠، عملوا مولد سيدى أحمد الرفاعي المعتاد الذى بسوق السلاح، فحصل فيه شدة ازدحام كبير من كثرة الخلق، فمات فيه تحت أرجل الخلق سبعة عشر رجلا وولد صغير فهاجت الخلق ولم تنفك الناس وكان آغة مستحفظان في السبيل الذى بالقرب منه فأخبر فأتى وطرد الخلق، وأمر اتباعه بشيل الأموات فشالوهم ووضعوهم داخل السبيل.

ثم أنه توجه الى منزله وأبقى كتخداه الى أن طلع النهار وأوصاه بأن كل من عرف ميته

(١) ١٧٠٦م.
(٢) ١٢ فبراير ١٧٢٨م.
(٣) ١٧٣٣م.
(٤) الاضافة للتوضيح.

* فيها هزمت أهالي جنوا أهالي فينسيا في موقعة بحرية.
* [١ ينـاير ١٢٩٩ = ٦ طوبه ١٠١٥ = الخميس ٢٦ ربيع اول سنة ٦٩٨] ـ
* في ١١ ربيع ثان قتلت المماليك الملك المنصور لاجين فبقي كرسي السلطنة خاليا ٤١ يوما، في خلالها تمكن سيف الدين طغجي من السلطنة، وتلقب بالملك القاهر، ولم يحكم إلا يوما واحد، ثم ذبحه المماليك وبايعوا نائبه السلطان الملك الناصر بن السلطان الملك المنصور قلاوون، بعد ان استقدموه من منفاه في الكرك، وعمره إذا ذاك خمس عشرة سنة.
* فيها حصلت زلازل في ألمانيا.

* [١ تـوت ١٠١٦ = ٣٠ اغسطس ١٢٩٩ = الأحد غرة ذو الحجة سنة ٦٩٨] ـ
* فيها عاد غازان خان، ملك التتر، الى افتتاح سوريا، فسار السلطان الناصر بالعساكر ونزل بظاهر حمص.
* في ٢٧ ربيع اول حصلت وقعة عظيمة بين التتر والمسلمين حتى استولوا على دمشق والقدس والكرك.
* [١ ينـاير ١٣٠٠ = ٥ طوبه ١٠١٦ = الجمعة ٧ ربيع الثاني ٦٩٩] ـ
* في ١٠ رجب خرجت عساكر مصر والسلطان الى الصالحية، ثم تقرر بارسال السعاكر المصرية الى الشام تحت إمرة سيلار وبيبرس.

* [١ تـوت ١٠١٧ = ٢٩ اغسطس سنة ١٣٠٠ = الاثنين ١٢ ذو الحجة سنة ٦٩٩] ـ

يأخذه من غير كشف يغسله ويكفنه ويدفنه بلا مشورة ثم ان الوالى تعلل وقال هذه جربجيتي وأن لي على كل قتيل أحد عشر قرشا، وأما الاغا ان كان امر بالعفو فما أمره نافذ الا في أمر يتعلق به، وأما هذه جربجيتي واني لا افوت من دفناتهم شيئا. فلما سمع أهل الموتى دخلوا الى سيدى مصطفى الرفاعي فأخبروه، فركب جواده وطلع الى الوزير وأخبر بما حصل، فأعطاه فرمانا خطابا للوالى بالمعاف، ونزل فأمر أصحاب الموتى بأخذ موتاهم فأخذوهم ودفنوهم وهذا لم يقع مطلقا.

وفي ليلة الأحد خامس رجب أيضا وقع كذلك في مقام سيدى[1] على زين العابدين وقع ازدحام فمات اثنان في تلك الليلة واثنان في مقام الأستاذ والله اعلم.

ولنرجع الى ما نحن بصدده: في ثاني يوم اشترى محمد بيك قطامش بيت اسماعيل بيك بن أيواظ الذى بدرب الجماميز بجوار مسجد بشتك بسبعة وثلاثين كيسا من الميرى بالوكالة والدكاكين التي بجواره واخذ زين الفقار بيك القصر والجنينة اللذان بمصر القديمة وتقاسموا بيوتهم وبساتينهم وتزوجوا نسايهم واستخدموا اتباعهم وصار زين الفقار بيك شيخ البلد داخلها وخارجها وانتهت له الرياسة وصارت كلمته نافذة في الأكابر والأصاغر، وكساه محمد باشا كرك سمور وقال له أنت شيخ البلد . ثم أنه توجه الى السرحة التي تطلع اليها امارة

(١) قدم وأخر.

* فيها عادت التتر الى الشام، ولذا استخرج السلطان من غالب الاغنيــاء بمصـــر والشـــام ثلث أموالهم لاستخدام المقاتلة * فيها كـان بداية دولة ال عـــثــمـــان وتاسيسها في بر الاناضول.

* [١ يـنــايـــر ١٣٠١ = ٦ طوبه ١٠١٧ = الأحد ربيع الثاني سنة ٧٠٠] ـ

* فـيـهـا ألزم اليـهـود بلبس العمائم الصفر والنصارى الزرق والسامرة الحمر.

* وفيها جرد الناصر جيشا جرار لمقاتلة غازان فالتقى معه في حمص.

* فيها حصل، في مصر، حادث للحيوانات [طاعون بقرى].

* [١ تـــوت ١٠١٨ = ٢٩ اغـسطس ١٣٠١ = الثلاث ٢٣ ذو الحجة سنة ٧٠٠] ـ

* فيها توفى الخليفة الحاكم بامر اليه أحمد، ودفن عند السيدة نفيسـة، ومدة خلافته ٤٠ سنة، وعـمـره : ٦٣ سنة، وبويع بعـده لولده المستكفي بالله سليمان.

* [١ يـنــايـــر ١٣٠٢ = ٦ طوبه سـنة ١٠١٨ = الاثنين ٢٩ ربيع الثاني ٧٠١] ـ

* فيها فلا لفبوجيوجا اخترع البوصلة * فـيـهـا كـان إنشـاء مجلس الشورى، أى البرلمان، في باريز.

* فـيـهـا جرد من مـصـر بدر الدين بكتاش بالعسـاكر فدخلوا حماه.

* فـيـــهـــا الفلمنك هزمت الفرنساوية في كورشراى .

* في ٢٥ شوال قام كتبغاء، نائب حمـاه، بالعســاكـر فدخلوا حلب مستهل ذى القعدة.

الحاج فجاءه ألف جمل وماية جواد من أصلاء الخيل، ومايتا ثور من أكبر الثيران، ولما رجع من السرحة أرمى امارة الحاج بمعرفة الوزير فألبسه الوزير كرك العزلان وعزل رضوان آغا من كتخدا الجاوشية، وألبـسه قفطان امارة الحاج والصنجقية معا وألبس عمر آغا جلبى من عتقا رضوان بيك الفقارى الذى بقرب جامع الصالح بباب زويلة قفطانا على كتخدا الجاوشية. فهم كذلك واذا بأغا ورد الى الديوان وصحبته خطوط، أحدها: يضبط أموال على بيك الهندى دفتدار مصر وزين الفقار بيك وجزاكم الله خيرا، وبيض وجوهكم، لأنكم نصحتم في خدمة مولانا الوزير وأنا أخبرنا بأن عبد الرحمن بيك هرب من مصر فان جاء طرفنا اعطيناه جزاه، وأن ظهر نواحيكم تخرجوا من حقه، لكونه خالف أمر الوزير وعدم سفره، وانكم تضبطون ماله وترسلوه صحبة ماله زين الفقار، وعلى دفتدار مصر، والخط الثاني: يقرر الى زين الفقار بامارة الحاج ومقرر ثاني الى محمد بيك قطامش بالدفتدارية فألبس الوزير قفطان امارة الحاج الى رضوان، والبس قفطان الدفتدارية الى محمد بيك قطامش، وقال أنا أرسل اراجع في امارة الحاج لرضوان ونزلوا الى منازلهم.

وفي يوم السبت عاشر رجب(١) مر آغا مستحفظان على بيت محمد جربجي الجراكسى الشهير بالمنزلاوى الذى بالجانية فرأى اتباعه واثنين على الباب فسأل عنه اين سيدكم هل هو

(١) ٢٣ فبراير ١٧٢٨م.

* وفي ٣ ذى القعدة رحلوا عنها وانتشروا في بلاد سيس، ونزلوا على قلعتها، وبعد ان غنموا منها شيئا كثيرا عادوا الى حلب.

* ١ تـوت ١٠١٩ = ٢٩ اغسطس ١٣٠٢ = الأربع ٤ محرم سنة ٧٠٢

* فيها بطل أمر عيد الشهيد، وأحرقت بأمر السلطان الأصابع التي كان يزعم ان النيل لا يزيد حتى يلقوا تلك الاصابع فيه.

* [١ ينـاير ١٣٠٣ = ٦ طوبه ١٠١٩ = الثلاث ١١ جماد اول سنة ٧٠٢] ـ

* فيها انتصر ادوار الأول، واستولى على أيد مبورج.

* فيها داهمت الشرق زلزلة قوية أخربت قسما عظيما من سوريا ومصر وأخرجت المياه من الآبار الى سطح الأرض وطافت الأبحر على اليابسة فأغرقت خلقا كثيرا، وقيل إن ذلك حصل في سنة ٧٠٣ .

* فيها عادت التتر الى قصد الشام ونزلوا ازوار الفرات، فارسل كتبغا عساكره، فحصلت جملة محاربات انتهت بفوز السلطان الناصر وعساكره وهزيمة التتر.

* ١ توت سنة ١٠٢٠ = ٣٠ اغسطس ١٣٠٣ = الجمعة ١٦ محرم سنة ٧٠٣.

* فيها توفي غازان، ملك التتر.

* ١يناير ١٣٠٤ = ٥ طوبه ١٠٢٠ = الأربع ٢٢ جماد اول سنة ٧٠٣.

* فيها أنشأ الملك كتبغا

حاضر أم راكب ؟ فأخبروه بأنه غايب فسار وكان بالبيت فأعلموا بسؤال الأغا، وكان ذو مال عريض وبلاد كثيرة في اقليم المنصورة،وكان عنده من الجوارى البيض والحبش جنكيات [مغنيات وعازفات] وغير جنكيات المعدة للوطي أربعون خلاف الخدم، وكان عنده بعض طمع وبخل فبمجرد ما أخبره الخدم بسوال الأغا عنه، ركب جواده وسار الى خليل أفندى باش اختيار وجاقه فأخبره ما قال آغاة مستحفظان، فمن كثرة ما دخل عنده من الخوف والرعب صار لا يعرف يتكلم فقال له خليل أفندى: ريض على نفسك لا تخف، فكان من جوابه الا أنه قال له: يا خليل جربجي لي عندك عشرين كيسا التي أخذتها قرضا هذا تمسكها وهي مني اليك عطية والبيت الذى اشترينه منكم بخمسة وعشرين كيسا كذلك هو حيازتي وهذه حجته وأرسل احضر العبادى بوقع الفراغ لك وهو البيت الذى بالعطفة التي قبل أن تصل الى سوق السلاح المقابلة لجامع السايس الذى هو محل سكنه الآن، فأرسل أتى بالشاهد وفرغ له عن البيت فقال له خليل افندى: لا تخش من شئ ولكن أقعد عندى ثلاثة أيام الى أن أصالح عليك.

ثم أنه بعد الثلاثة أيام قال له: صالحت عليك ببلدين وهما: منية سمنود(*)، وسبربيه(**)،

(*) منية سمنود: أحدى القرى القديمة: بمركز أجا. محافظة الدقهلية. محمد رمزى، جـ١، ص ١٧٦.

(**) سبربيه: أحدى قرى ، مركز طنطا. محافظة الغربية، اسمها الأصل، سمر باية، محمد رمزى ، جـ٢، ص ٩٩.

المنصورى جامع الناصرية الموجود بالنحاسين.
* فيها كان انتصار فيليب الظريف على الفلمنك.

* ١ تـوت ١٠٢١ = ٢٩ اغسطس ١٣٠٤ = السبت ٢٦ محرم سنة ٧٠٤.
* فيها لتوقف النيل، شرقت البلاد ووقع الغلاء بمصر* فيها وصل الى مصر صاحب دنقلة اياى الأسود بهدية عظيمة، وطلب نجدة من السلطان فجرد معه عسكرا تحت قيادة طقصيا نائب قوص.
* [١ ينـاير ١٣٠٥ = ٦ طوبه ١٠٢١ = الجمعة ٣ جماد الثانى سنة ٧٠٤] ـ
* فيها وصل من المغرب حاج كثير صحبتهم رسل ملك الغرب، ومعه هدية عظيمة: خيل وبغال نحو خمسمائة بسروج ولجم ملبسة بالذهب.

*١ توت سنة ١٠٢٢ = ٢٩ اغسطس ١٣٠٥ = الأحد ٧ صفر سنة ٧٠٥.

* فيها انتقل مركز البابوية من رومة الى افينيون، فى فرنسا، وبقى بها ٧٠ سنة.
* [١ يناير سنة ١٣٠٦ = ٦ طوبه ١٠٢٢ = السبت ١٤ جماد الثانى سنة ٧٠٥] ـ

* ١ تـوت ١٠٢٣ = ٢٩ اغسطس ١٣٠٦ = الاثنين ١٨ صفر سنة ٧٠٦.
* ١ يناير ١٣٠٧ = ٦ طوبه ١٠٢٣ = الأحد ٢٥ جماد الثانى سنة ٧٠٦.
* فيها كانت وفاة ادوار

وكان مشتراهما عليه ثمانين كيسا، ولم يكن الأغا سال عليه لأمر من الأمور، أنما كان فى الخلا فسأل عليه ليدخل عنده يستريح فى القاعة المطلة على بركة الفيل، ولم يكن محمد آغا الطويل قاصده بشئ وانما الوهم قد اخذ فرقة القاسمية الى أن اداهم الى هذه الحالة، وبعد ثلاثة أيام أركبه الى بيته وقال له قد صالحت عليك الباشا ولم يكن مع أحد علم من هذه القضية، وأخذ البلدين الى رأسه. ثم انه صار كلما اعتاز شيئا يرسل يأخذه منه الى أن كاد يفقره، فانتقل الى بلك الجملية وأخذ عرضه وما احماه من خليل أفندى الا سليم جربجى لما اخذه الى وجاقه وسفره سردارا الى مكة جداوى. ثم انه با ع الذى باعه من الجوار وعتق الذى عتقه وأزوجهن وسافر الى الحجاز سنة ١١٤٢[١].

وفى يوم الثلاثاء ثالث عشر سنة ١١٤٠[٢]. جاءوا برأس محمد بيك ابن يوسف بيك الجزار من البحيرة، والسبب فى ذلك أن محمد بيك قطامش وزين الفقار أجمع رأى الاثنين على أنهما لا يطمين قلبهما ويطل القال والقيل ألا بموت محمد بيك فأخذوا فرمانا خطابا الى اسماعيل بيك كاشف الغربية فانه يتوجه الى البحيرة يأخذ رأس محمد بيك ويرسلها لهم، فلما وصله الفرمان اجاب بالسمع والطاعة وركب فلقيه تحت سديمة(*) وهو متوجه نحو

(١) ١٧٣٠م. (٢) ٢٤ فبراير ١٧٢٨م.
(*) سديمة: احدى قرى، مركز كفر الزيات، محافظة الغربية، نفسه، جـ٢، ص ١٢١.

الأول، وسلطنة ادوار الثانى على انكلتره.

* ١ تـوت سـنـة ١٠٢٤ = ٣٠ اغـسـطـس ١٣٠٧ = الاربع ٢٩ صفر سنة ٧٠٧.

* فيها توقف النيل واستسقى الناس، وانتهت الزيادة فى ٢٧ توت الى ١٥ ذراع واصابع، ثم وفى فى ١٩ بابه، وتشاءم الناس بسلطانهم ركن الدين بيبرس.

* [١ يـنـايـر ١٣٠٨ = ٥ طوبه سنة ١٠٢٤ = الاثنين ٦ رجب سنة ٧٠٧] ـ

* ١ تـوت ١٠٢٥ = ٢٩ اغسطس ١٠٣٨ = الخميس ١١ ربيع أول سنة ٧٠٨.

* فيها اظهر السطان الناصر قصد الحجاز وتوجه، فلما وصل الكرك ارسل نائب الكرك اقوش الى الديار المصرية يعلم الناس ان السلطان كره الاقامة بمصر لتغلب بيبرس وسلار عليه.

* [١ يناير سنة ١٣٠٩ = ٦ طوبه ١٠٢٥ = الأربع ١٨ رجب ٧٠٨] ـ

* فى ٢٥ رمضان ورد كتاب من الملك الناصر الى المماليك مصرحا بتنازله ومفوضا لهم من ارادوا، فبايعوا الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير ولقبوه بالملك المظفر.

* فى اواخرها قدم الافرنج، بموافقة صاحب قبرس، لغزو دمياط بحرا.

* فى ذو الحجة جدد الملك المظفر بيبرس توقيعا بالأرض والبرج الذى بنى عليهما جامع الريس بالروضة.

* فيها كانت قيمة المثقال الذهب عشرين درهما فضة.

رشيد، فتقاتل هو واياه، فقتل من طايفة اسماعيل بيك خمسة وعشرين رجلا ومن العشير سبعة وثلاثين، فلما دخل عليهم الليل رجعوا عن القتال فنزل بعيدا عن خصمه. ثم انه تشاور مع جماعته فأمروه بأن يعدى فعدى الى البحيرة من كفر الزيات، فسار الى ان رأى سكندرية فتذكر صاحبا له فى رشيد من العزب فتوجه له راجعا ليودع عنده شيئا من المال الذى معه ويأخذ القليل معه الى حين يستقر فى محل يرسل يأخذه منه لأنه ما جاء الى سديمة الا مراده الفرار لأنه اخبر بما حصل فى مصر، وجاءه الخبر بأنك تتوجه ألى أرض خلاف مصر فأنهم ناوين على قتلك، فيبقى فى مصدق ومكذب ويقول: هذا لا يكون مع وجود محمد بيك والجميل الذى فعله أبى معه وصرفه على بيته مدة غيابه والترتيب من جميع ما يعتاز له فقال له: الرجل الذى اتاه بالخبر الذى فعله على بيك الهندى مع زينْ الفقار بيك أكثر من الذى فعله أبوك مع محمد بيك، وقد رأى ما عاينته بالرميلة ان كنت تفوز بنفسك فانجو. فسار الى أن قابل اسماعيل كما ذكرنا وجرى له معه ما جرى ومضى الى أن رأى اسكندرية وتذكر صاحبه ليودع عنده شيئا من المال، فاجتمع به ونام عنده تلك الليلة فلما أصبح الصباح ركب من عنده سار يريد سيدى فما مكنه صاحبه بل خلاه حتى سار وتوجه الى حسين جربجى الخشاب سردار رشيد وأخبره بمحمد بيك فلما سمع حسين جربجى ركب وأخذ معه جملة من العسكر وسار ليلحقه قبل أن يعدى، فتقاتل معه فقتل منهم اثنى عشر رجلاً ومسكوه قبضا باليد. ثم أنه أرسل أعلم زين الفقار بيك فأرسل لهم أربعين جنديا صحبتهم عثمان اغا تابع

* ١ تــــوت ١٠٢٦ = ٢٩ اغسطس ١٣٠٩ = الجمعة ٢٠ ربيع أول ٧٠٩.

* فيها أنشا الملك بيبرس الجاشنكيرى جامع بيبرس بحارة المبيضة بالجمالية * فيها توقف النيل عن الزيادة الى ١٧ توت، ثم نقص فى ١٩ بابه، فرسم السلطان بكسر السد من غير وفاء فشرقت البلاد ووقع الغلاء بمصر.

* ١ يناير ١٣١٠ = ٦ طوبه ١٠٢٩ = الخميس ٢٨ رجب سنة ٧٠٩] ـ

* فى شعبان بارح الملك الناصر الكرك مستخلفا عليها أرغون، وسار الى دمشق فبايعوه فجندا الى مصر عسكرا * وفى اول شوال عاد الناصر محمد بن قلاوون الى السلطنة ثالثا.

* فيها بعث الناصر من قبض على المظفر، بقرب غزة، وأحضره مقيدا الحديد، وقتله فى ذى القعدة.

* فيها قبض الناصر على الذين تمردوا عليه وسجن سلار فى القلعة حتى مات * فيها استقر الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل فى نيابة السلطنة فى حماه وانتقل استدمر الكرجى الى نيابة حلب فاستقر نائبا بها عشرين سنة.

* [١ تـــوت ١٠٢٧ = ٢٩ أغسطس ١٣١٠ = السبت ٢ ربيع الثانى سنة ٧١٠] ـ

* ١ يناير ١٣١١ = ٦ طوبه ١٠٢٧ = الجمعة ٩ شعبان سنة ٧١٠.

* فيها استقر الأمير اراغون الدوادار نائب الملك بالديار

أحمد آغا الذى قطعه يوسف بيك الجزار في بيت قانصوه بيك قايم مقام الذى تقدم ذكره في عيطة أيوب بيك، ثم أنه تسلمه من حسين جربجي فالتفت محمد بيك الى حسين جربجي وقال له اين فلان الذى أخبرك فقال ها هو؟ فقال قد اعطيته خمسة آلاف زنجرلي فخذها منه: والله يرى ذمتك منها، ولا تخلي هذا الخاين ياكلها والذى يأكلها السبع خير وأولى من الذى ياكلها الكلب، ثم أنه تفل في وجهه ثم ان عثمان أغا أخذه الى أن أتى به الى النجيلة[١]، ورمي عنقه وأخذ الراس ورمى الجثة الى البحر رحمة الله عليه، وأرسلوا جابوا رأس يوسف جربجي مملوك أحمد جربجي البنهاوى من المحلة[٢]، ورأس مصطفى جربجى مملوك القرمانى من المنصورة، وجابوا رأس حسن أغات الوالى من رشيد.

وفى سادس رمضان وقعت فتنة في وسيم[٣]، بين الزيدة وبين الفرقة الثانية التى هى سعد، وقامت الزيدة على النصف الثاني فقتلوا منهم جماعة. فجاء الخبر الى استاذها زين الفقار بيك

(١) النجيلة: احدى قرى، مركز كوم حمادة، محافظة البحيرة، كانت فى ذلك الوقت من النواحى المعتبرة لتحصيل الأموال، محمد رمزى، المصدر السابق، قسم ٢، جـ٢، ص ٣٣٣.

(٢) المحلة: حاليا حاضرة مركز المحلة، محافظة الغربية، كانت فى ذلك الوقت قرية من القرى القديمة، محمد رمزى، المصدر السابق، قسم٢ ، جـ٢، ص ٢٣.

(٣) وسيم: تعرف حاليا باسم «أوسيم» وهى من القرى القديمة التابعة لمركز امبابة، محافظة الجيزة، محمد رمزى، المصدر السابق، قسم ٢، جـ٣، ص ٥٧ ـ ٥٨.

المصرية فاستمر ست عشرة سنة، وعظمت دولة الملك الناصر.

* [١ تـوت ١٠٢٨ = ٣٠ أغـسطس ١٣١١ = الاثنين ١٤ ربيع الثانى ٧١١] ـ

* فيـهـا نقل قره سنقر من دمشق الى نيابة حلب، وولى نيابة دمشق كراى المنصورى.

* [١ ينـايـر ١٣١٢ = ٥ طوبه ١٠٢٨ = السـبت ٢٠ شعبان سنة ٧١١] ـ

* فيـهـا امـسك من حـمص نائبها بيبرس العلائى ومن دمشق بيـبرس المجنون وبيـبرس التـاجى وسـيف الدين كـشلى والبـروانى وحبـسوا بالكرك.

* [١ توت سـنـة ١٠٢٩ = ٢٩ اغسطس ١٣١٢ = الثـلاث ٢٤ ربيع الثانى ٧١٢] ـ

* فى ربيع الأول طلب الى مـصـر اقـوش الكركى، نائب دمـشق، وفى ربيع آخـر ملك الأمراء سيف الدين تنكر الناصرى نائبا بالشام.

* [١ يناير سنة ١٣١٣ = ٦ طوبه ١٠٢٩ = الاثنين ٢ رمضان سنة ٧١٢] ـ

* فـيـهـا وصل الـسـلطان من الحـجـاز، وصلى بجـامع دمـشق جمعتين ثم سار الى مصر * فيها وفى النيل اخر ايام النسىء.

* [١ تـوت سـنـة ١٠٣٠ = ٢٩ أغـسطس ١٣١٣ = الأربع ٦ جماد اول سنة ٧١٣] ـ

* فى شـعـبـان انشـا الملك محـمـد بن قلاوون القصـر الأبلق وانتهى فى سنة ٧١٤.

* [١ يـنـايـر ١٣١٤ = ٦

وأخبروه بأن عندهم جماعة جركس، وقيل جركس، فهرعت اليه العسكر بالتعدية وقد عدوا بعد المغرب ومقدمهم زين الفقار بيك ورضوان بيك وعلى بيك تابع محمد بيك وعثمان بيك تابع زين الفـقار بيك وحسين بيك الوالى ومحـمد بيك أبن اسماعيل بيك وآغة الجملية وآغة التفكجية وآغة الجراكسة وجميع أتباعهم فادركوا[١] البلد بعد العشا.

فلما رأت الزيدة الذين هم نصف حرام طلعوا عليهم وهم محتاطون بالبلد فتقاتلوا معهم فأعطتهم العرب وهم الزيدة طاعة ثم رجعوا عليهم فحصل للغز كسرة الى خلف ووقع منهم بعض أفراد من الخدم، فأرسلوا الى مصر يطلبوا نجدة.

فأرسلوا لهم بيرقين، بيرق من العزب وبيرق من الانكشارية وخمسة مدافع، وأرسل يوسف بيك عزبان جميع طايفته، وعثمان جاويش القزدغلى، جميع طايفته، وأرسل محمد بيك الدفتدار جميع طايفته، فتقاتلوا واياهم يومين وداروا بوسيم كا دار الخاتم بالأصبع لأن عليها سور داير حولها وجعلوا العرب تحت الجبل وهو على أبو شاهين وكانت البلد قسمين، زيده وفلاحين، فالزيدة من ذرية أبو زيد الهلالى،فرموا عليهم بالمدافع ولكن وقع من العسكر جماعة وانجرح جماعة لأنهم من داخل السور والعسكر خارجه وضرب الزيدة واقع فى الرجال وضرب الغز واقع فى السور.

(١) كررت الكلمة بالأصل.

طوبه ١٠٣٠ = الثـلاث ١٣ رمضان ٧١٣] ـ
* فيها أنشا الملك الناصر محمد بن قلاوون الجامع النفيسى بخارج خط الخليفة عند باب القرافة.

* [١ تـوت ١٠٣١ = ٢٩ اغسطس ١٣١٤ = الخميس ١٧ جماد أول سنة ٧١٤] ـ
* في رجب توفي بحلب نائبها سيف الدين سودى، فتولى بعده الأمير علاء الدين الطنبغا الصالحي.

* [١ يناير سنة ١٣١٥ = ٦ طوبه سنة ١٠٣١ = الأربع ٢٤ رمضان ٧١٤] ـ
* فيها كانت قيمة الدينار عشرة دراهم.
* فيها كان قحط اوطاعون في المانيا * فيها كان استقلال أهل سويسرا عن جرمانيا.

* [١ توت سنة ١٠٣٢ = ٣٠ أغسطس ١٣١٥ = السبت ٢٨ جماد أول سنة ٧١٥] ـ
* فيها صار انضمام ليون الى فرنسا.

* في اولها سار ملك الأمراء سيف الدين تنكر بجيش دمشق وتقدمه ستة الاف من عسكر مصر الى حلب، ثم سار من حلب لغزو ملطية فوصلوها في ٢١ محرم، وقد تهيأ اهل ملطية للحصار والدفع، ولكنهم لكثرة الجيوش سلموا بالأمان.
* [١ ينـاير ١٣١٦ = ٦ طوبه ١٠٣٢ = الخميس ٤ شوال سنة ٧١٥] ـ
* فيها كان صرف الدينار عشرين درهما * فيها أبطل بعض المكوس بالديار المصرية * فيها

ثم أن الزيدة صبروا الى نصف الليل وطلعوا حريمهم وجميع بهايمهم ولم يبقوا في البلد شيئا يتعلق بهم وطلعوا من طرف الجبل وهي الناحية التي واقع فيها شيخ العرب على أبو شاهين فاخلى لهم الطريق فطلعوا على حمية، ثم أصبح الصباح تحركت العسكر الى القتال فلم يجدوا أحدا فكبسوا البلد فلم يجدوا فيها الا بعض رجال ونساء عواجز، فقتلوهم. وملكوا البلد فوجدوا شيئا كثيرا من الغلال والأغنام لأنها لم يطرقها كاشف مطلقا فنهبوها وطلع جماعة من العسكر خلف الهاربين فلم يجدوا أحدا وما وعوا اى طريق سلكوها فرجعوا الى البلد. ثم انهم في ثاني يوم توجهوا الى مصر.

واما العرب فكانوا ثمانين مقدام منهم محمد عمير وشرف الدين شيخ نصف كفركله(١) الذى كان خصم أبو زهرة الذى قتله زين الفقار بيك حين طلع الى السرحة وقتلهم. واشال، ثم أنهم قبل ان يتوجهوا الى مصر أخربوا البلد وهدموا السور وتركوها أرضا. ثم أنهم بعد دخولهم مصر بثلاثة أيام ورد ساعي من جرجة يخبر بموت مصطفى بيك الوالي، فأخذوا المكاتيب التي أتى بها الساعي وأطلعوها الى الباشا، فاذا هي من سردار جرجة، يخبر فيها بموت مصطفى بيك الوالي اشراق الدمياطي، وان القاتل له مملوك مصطفى بيك بن أيواظ.،

(١) كفر كله: تعرف باسم «كفر كلا الباب»، وهي من القرى القديمة، مركز السنطة، محافظة الغربية، محمد رمزى، المصدر السابق، قسم ٢ جـ٢، ص ٩.

أخرج الملك الناصر محمد بن قلاوون الأمير سيف الدين يكتمر الحاجب نائبا الى صفد وانعم عليه بمائة ألف درهم.

* [١ تــوت ١٠٣٣ = ٢٩ أغــطس ١٣١٦ = الأحــد ٩ جماد الثاني سنة ٧١٦] ـ
* [١ يناير سنة ١٣١٧ = ٦ طوبه ١٠٣٣ = السـبت ١٧ شوال سنة ٧١٦] ـ
* فيها فتحت العثمانيون بروسة * فيها غرق النيل ظاهر القاهرة وغرقت الأقصاب والزروعات الصيفية وتلفت مطامير الغلة حتى بيع قدح القمح بفلس ـ والفلس يومئذ جزء من ثمانية واربعين جزءا من الدرهم * فيها بنى الملك الناصر جسرا بين بولاق ومنية الشيرج لحجز مياه النيل عند الفيضان.

* [١ تــوت ١٠٣٤ = ٢٩ أغسطس سنة ١٣١٧ = الاثنين ١٩ جماد الثاني سنة ٧١٧] ـ
* [١ يناير ١٣١٨ = ٦ طوبه سنة ١٠٣٤ = الأحد ٢٦ شوال سنة ٧١٧] ـ

* في ذى القعدة وقيل في صفرـ كان سيل ببعلبك خرب سور البلد وحائط الجامع وذلك مع رعد عظيم، وخرب ثلث البلد وعدم تحت الرمل خلق كثير.
* فيها أنشا الملك الناصر محمد بن قلاوون جامع القلعة القديم، وهو أمام الطوبخانة بالقلعة، وسماها الجامع الناصرى
* فيها كان بديار بكر وماردين والجزيرة وميافارقين غلاء وجلاء حتى بيعت الأولاد وأكلت الميتة، وكان سبب الغلاء جرادا، وعدم المطر سنتين.

لأنه قاتل سيده مصطفي بيك ، لأنه كان بعد موت سيده خدم عند مصطفي بيك حتى توجه الى جرجة، فلما دخل الى جرجة ما زال يترقب فرصة الى أن دخل عليه وقت القايلة، فرآه نايما وليس عنده أحدا ورأى سيفه فوق رأسه فجرده وضربه على عنقه، وفصل الرأس عن الجثة، ولم يتحرك وكان قد ولف من رفقايه ثلاثة أولاد، وكانوا ماسكين له زمام المحل، فلما قتله طلع وأخذ الثلاثة مماليك، وكان الأربعة من مماليك ابن ايواظ ، وركبوا وعدوا الى سليمان بيك الشرق، فأرسل سليمان بيك جاويشه الى محمود آغا متفرقة، فأخذ جميع مال مصطفي بيك، وكان المستولى عنده خير الله الذمي، فهرب الى تكية الانكشارية فأخذه بالقهر والغلبة . ثم أن السردار هرب هو ومحمد جاويش تابع على باش جاويش الخربطلي، وكان معينا على هوارة، فهربوا الى برديس[١]. عند يوسف ابو همام . وان هوارة لما قتل مصطفي بيك وسلموا جميع متعلقاته الى محمود آغا، فوجدوا صندوقا ففتحوه فوجدوا فيه أربع فرمانات واحد: بقتل يوسف همام، والثاني: بقتل عثمان بن يوسف والثالث: بقتل عمر بن عبد القادر، والرابع: بقتل على جربجي سردار جرجة، فلما رأوها أعرضوها على سليمان بيك، وقروا معه فاتحة، على انهم لا يقبلوا صنجقا، يتولى عليهم غيرك وكل صنجق جاء خلافك لا يقبلوه.

(١) برديس: أحدى القرى القديمة، التابعة لمركز البلينا، محافظة سوهاج، محمد رمزى، المصدر السابق، قسم ٢، جـ٤، ص ٩٨ ـ ٩٩.

* [١ توت سنة ١٠٣٥ = ٢٩ اغسطس ١٣١٨ = الثلاث غرة رجب سنة ٧١٨] ـ

* في رجب ثارت ريح عاصف من جهة البحر عند قرية المعيصرة من الجون من عمل طرابلس، فكونت عمودا أغبر صورة تين متصل بالسحاب فما تركت شيئا من البيوت والأثاث، وأهلكت جماعة وخطفت جملين وارتفعت بهما في الجو مقدار ١٠ أرماح، واختطف كثير من الدواب، ووقع بعدها مطر وبرد كبار كبر البردة ثلاثة أواق، وأصاب ذلك أربعا وعشرين قرية.

* [١ يناير ١٣١٩ = ٦ طوبه ١٠٣٥ = الاثنين ٨ ذو القعدة سنة ٧١٨] ـ

* فيها حج الملك الناصر ومعه الملك المؤيد نائب حماه، فلما عاد الى القاهرة ولاه سلطنة حماه، وقد مشى في خدمته أرغون نائب الملك وأمراء القاهرة

* فيها نهى المنجمون بدمشق أن يكتبوا على التقاويم النجومية احكاما.

* في جماد اول اختلت التتر وقتل منهم نحو ثلاثين ألفا حتى كاد يزول ملكهم.

* [١ توت ١٠٣٦ = ٣٠ اغسطس ١٣٢٠ = الخميس ١٣ رجب سنة ٧١٩] ـ

* [١ يناير سنة ١٣٢٠ = ٥ طوبه سنة ١٠٣٦ = الثلاث ١٩ ذو القعدة سنة ٧١٩]

* في هذه السنة الافرنكية كان اول ضرب العملة الذهب في ممالك النصارى.

* ١ توت ١٠٣٧ = ٢٩

ثم أن اهالى جرجة اجتمعوا وعلماؤهم وكتبوا عرض حال الى علماء مصر بأنهم لا يقبلوا عليهم صنجقا خلاف سليمان، لان الهوارة أجمع رأيهم أنهم اذا جاءهم حاكم غير سليمان بيك لا يقبلوه، وانهم ناويين على العصيان. فدخل الى مصر ثامن عشرين رمضان سنة ١١٤٠[١]، ففي يوم دخوله ورد عرضان واحد من مكة المشرفة وواحد من سكندرية فالذى من مكة: يخبر بموت السيد جعفر في حادى عشر رجب سنة ١١٤٠[٢]، ويخبر بأنه وردت مركب من بندر جدة على أن بحر جدة، علا الى أن ساوى السور، ان علو السور ثمانين قامة، فغرقت البلد وهدم منها أربعماية بيت وعدم منها خمسون لطا من الريالات وكذلك ماية الف ريال حجر وغرق فيه خلق كثير، ولا بقى الا من طال عمره ولولا أن الناس هربت الى الجبل والا ما فضل احد ، والعرض الذى من سكندرية : يخبر بأن رجلا من اليهود قتل فخلصه الانكشارية بالرغم منهم، وأدخلوه المحكمة فادعى عليه أهل سكندرية فقال لهم القاضى: انتم متعصبون على هذا الذمى فرجموا القاضى وأخذوا اليهودى وحرقوه ونهبوا بيته، ونهبوا الوكالة التى فيها الذمى. ومن جملة ما نهب لليهود الساكنين بها، في الوكالة، اثنى عشر الف ريال، فلما دخل عرض جرجة الى الجامع الأزهر قراته العلماء. فما كان من

(١) ٨مايو ١٧٢٨م. (٢) ٢٣ فبراير ١٧٢٨م.

اغسطس ١٣٢٠ = الجمعة ٢٣ رجب ٧٢٠.
* في ٦ ربيع آخر، في ساعة واحدة، حصل حرق كنايس كثيرة في القاهرة ومصر والاسكندرية وجهات كثيرة من الاقليم، فحصل نهب وقتل وقت اشتغال الناس بالصلاة، وبعد ذلك بشهر اتفقت النصارى على حرق مصر والقاهرة فوقع حرق هائل في عدة حارات وكثير من الدور والربوع والجوامع والمدارس، واستمر ذلك أياما، وقد عرف أنها من النصارى فقبض على الفاعلين وعوقبوا بالحرق والقتل، وبعدها ألزمت النصارى بلبس العمائم الزرق، ونودى بأن من وجد نصرانيا لابسا عمامة بيضاء أو راكبا حل له دمه وماله، وأن لا يركب أحد منهم بغلا ولا فرسا، وان ركب حمارا فليركبه مقلوبا، ولا يدخل نصراني الحمام إلا وفى عنقه جرس، ولا يتزيا أحد بزى المسلمين، ومنع الأمراء من استخدامهم، وكثر أيقاع المسلمين بهم.
* وفيها حصلت زلازل في انكلترا * فيها انشأ الأمير ملك شاه دار البغدادى جامع الجنيد بشارع الدرب الجديد بقرب المشهد الزربى.
* [١ يناير ١٣٢١ = ٦ طوبه ١٠٣٧ = الخميس ٣٠ ذو القعدة سنة ٧٢٠] ـ
* في ١٩ رجب خربت الكنيسة المعروفة بالقرائين من اليهود بدمشق ثم هدمت.

* [١ توت ١٠٣٨ = ٢٩ اغسطس ١٣٢١ = السبت ٤ شعبان سنة ٧٢١] ـ

جوابهم الا انهم قالوا سيف السلطنة طويل وهذا أمر منوط بالعسكر يولوا من يريدوه. فلما أخبروا بهؤلاء العروض لم يهتموا الا بعرض جرجة.

ثم أنهم اجتمعوا مع بعضهم، وقالوا ابن الذيب لا يتربى، ثم أنهم بدوا فى قتل جميع اتباع القاسمية الذين عندهم، فلما أخبر الاتباع والمماليك الذين عندهم فالذى هرب نجا، والذى لم يهرب قتلوه. فمن جملة من قتل كتخدا يوسف بيك الجزار دخل يسلم على زين الفقار بيك يوم خامس شوال[١]، فسلم عليه وخرج من عنده فأرسل له الوالى الى بيته فقتله، وخزندار على بيك الأرمنى ، كان عند على بيك تابع محمد بيك قيطاز، فأرسله بتذكرة الى الوالى فأخذ التذكرة فقرأها فوجد فيها قتل حاملها فارمى عنقه وأرموا رقاب ثلاثة مماليك ، وشنقوا سراجا بباب زويلة، والأربعة مماليك ابراهيم قافلة باشا وكانوا عند سليمان أغا الشاطر فقتلوا خرنداره فقتلهم فى باب زويلة رابع عشر شوال[٢] ثم انهم اتفق رايهم أن يلبسوا سردارا الى جرجة عوضا عن على جربجى . فالبسوا محمد جربجى من محرم ولبسوا بقية السبعة سدادرة والبس الباشا حسين بيك أباظة على كشوفية جرجة. وكتبوا خمسماية عسكرى واعطوا كل نفر ألف فضة، وكتب حسن بيك خمسماية سيمانى وأعطوه ستين كيسا، يعطيها لهم لكل واحد ثلاثة آلاف فضة. وأعطاه الباشا أربعين كيسا مساعدة له، وأنزل له من

(١) ١٥ مايو ١٧٢٨م.
(٢) ٢٤ مايو ١٧٢٨م.

* فيها أغار نائب الروم تمرتاش بن جوبان على بلاد سيس فخرب وحرق ونهب.
* فيها ولدت كلبة بالقاهرة ثلاثين جروا، ولم يسمع بمثل ذلك.
* [١ يناير سنة ١٣٢٢ = ٦ طوبه ١٠٣٨ = الجمعة ١١ ذو الحجة سنة ٧٢١].
* ١ توت ١٠٣٩ = ٢٩ اغسطس سنة ١٣٢٢ = الأحد ١٥ شعبان ٧٢٢.
* ١ يناير سنة ١٣٢٣ = ٦ طوبه ١٠٣٩ = السبت ٢٢ ذو الحجة سنة ٧٢٢.
*فيها صار إنشاء جامع الجاولي بقلعة الكبش.
* فيها كانت وفاة ماركوبولو السواح الفينسياني الشهير.

* ١ توت ١٠٤٠ = ٣٠ اغسطس ١٣٢٣ = الثلاث ٢٦ شعبان ٧٢٣.
* ١ يناير ١٣٢٤ = ٥ طوبه ١٠٤٠ = الأحد ٣ محرم سنة ٧٢٤.
* فيها كانت تعامل الناس بفلوس النحاس بالرطل، كل رطل بدرهمين من الفضة، ورسم بضرب فلوس، كل فلس وزن درهم.
* فيها كانت حرب بين فرنسا وانكلترا.
* فيها حمل كريم الدين، الذى كان وكيل السلطان، من القدس الى الديار المصرية فحبس وأخذت بقية أمواله وذخائره، وحمل الى قوص بالصعيد * فيها ورد مرسوم السلطان باطلاق مكس الغلة بالبلاد الشامية.

كشوفية جرجة خمسماية وعشرين كيسا، وأعطوا كل سردار كيسين ديواني، ولكل نفر من العسكر المكتوبة ثلاثة آلاف فضة ديواني. ونزلوا خامس عشر شوال سنة ١١٤٠[١]، وسافروا جميعا يوم الخميس رابع عشر القعدة، وسافر الحج في عادته صحبة رضوان بيك.

وفي خامس عشر القعدة سنة ١١٤٠[٢]. أنزلوا في البلد الفلوس الجدد كل جديد وزن درهم، ونزل الأغا في نهارها ونادى على ان كل نصف ثمانية عدد والدراهم بطالة. وفي عشرين القعدة[٣]. دخل العسكر الذين كانوا في العجم وصحبتهم جميع السدادرة جميعا وأخبروا بموت علي بيك الأصفر، وتولية خليل آغا المتفرقة عوضا عن علي بيك الأصفر وتولة خليل آغا. وانه مكث في اسلامبول لما أخبر وسمع بما وقع في مصر وما حصل فيها من قطعية القاسمية، وما حصل لهم من الاهانة وقعادهم في انطاكية. ومن جملة من قعد في انطاكية أحمد أضباشا أخو رجب كتخدا المقتول في بركة الحاج وبصحبته ثمانية أوضباشية وحسين آغا بن محمد آغا البكرى، لما جاء الى دمياط منعوه من الدخول الى مصر وحاشوه بها فهرب منها، ولم يظهر له خبر الى أن ماتو فظهر خبره وأرسل الوزير آغا مستحفظان ليأتى

(١) ٢٥ مايو ١٧٢٨م.
(٢) ٢٣ يونية ١٧٢٨م / كتب عنوان جانبي «أعرف خروج الدراهم الجددثمانية بنصف فضة».
(٣) ٢٨ يونية ١٧٢٨م.

* [١ تـوت ١٠٤١ = ٢٩ اغسطس ١٣٢٤ = الأربع ٨ رمضان سنة ٧٢٤] ـ

* ١ يناير سنة ١٣٢٥ = ٦ طوبه ١٠٤١ = الثلاث ١٥ محرم سنة ٧٢٥] ـ

* فيها كانت اول معاهدة تجارية بين انجلترا وفينيسيا * فيها اخترعت الايطاليانيون من أهالى فلورنسا المدافع.

* فيها جدد القاضي نجم الدين محمد بن حسين الأسعردى، محتسب القاهرة، عمارة الجامع الأزهر.

* وفي جماد الأول وقع بمصر مطر كثير قل أن يقع مثله، وجاء سيل من النيل فزاد وتغير وزاد أربع أصابع.

* [١ توت سنة ١٠٤٢ = ٢٩ اغسطس ١٣٢٥ = الخميس ١٩ رمضان سنة ٧٢٥] ـ

* فيها وقع الغرق ببغداد، ودام أربعة أيام، وبقيت البلد كجزيرة وسط الماء.

* ١ يناير سنة ١٣٢٦ = ٦ طوبه سنة ١٠٤٢ = الأربع ٢٥ محرم سنة ٧٢٦.

* فيها كانت ولادة السلطان مراد الأول ابن السلطان أورخان الغازى.

* فيها ايزابيل، زوجة إدوار الثاني، شنت الغارة على انكلترا.

* فيها وردت الأخبار الى الشام أنه أجريت عين بازان الى مكة المشرفة، وكان العراقيون شرعوا فيها من أول السنة.

* ـ [١ توت ١٠٤٣ = ٢٩ اغسطس سنة ١٣٢٦ = الجمعة ٢٩ رمضان سنة ٧٢٦] ـ

* في ٢٠ رمضان كانت وفاة

بعلى اغا أبو شارب الوالى من بيته، فلما دخل بيته ورآه على آغا ربط حبلا فى السقف ووضع تحت رجليه كرسيا وربط الحبل في عنقه ودفع الكرسي برجله فشنق ومات الى رحمة الله تعالى. ثم ان آغا مستحفظان هجم الحريم ودخل الى المحل الذى علق روحه فوجده معلقا فخلاه ورجع الى الباشا فأخبره بما رأى منه، ونفوا محمد آغا بن أشرف الى المحلة الكبرى فى أربعة عشر الحجة، وغرقت مركب الشيعية بعد أن زارت سيدى أحمد النبوى بعد أن فاتت رفتة تحت سند بسط[١]. فوق الساقية[٢]. وأوفى البحر سادس عشرين أبيب الموافق لخامس عشرين الحجة سنة ١١٤٠[٣]. وفي يومها دخل مصطفى بيك الخطاط صنجق الخزينة وأخبر بأنه رأى عبد الرحمن بيك باسلامبول وأنه أتى بخط شريف خطاب للباشا بانعام أربعماية عثمانى له فى نظير (مصحف)(*) مكرم شريف كتبه وأهداه الى السلطان، فأنعم عليه بما ذكرنا.

وحدث فى هذه السنة، هى سنة ١١٤٠، بالقاهرة حمامان وسبيلان، اما الواحد فحمام محرم أفندى بسويقه اللالة ومات ولم يكمله، والثانى حمام أحمد جربجى بن يوسف الذى

(١) سند بسط: قرية من القرى القديمة، مركز زفتى، محافظة الغربية، محمد رمزى، المصدر السابق، قسم ٢، جـ٢، ص ٥٨.

(٢) الساقية: احدى القرى القديمة، مركز اشمون، اشمون، محافظة المنوفية، محمد رمزى، المصدر السابق، قسم ٢ جـ٢، ص ١٦٠.

(٣) ٢ أغسطس ١٧٢٨م.

(*) الاضافة للتوضيح.

السلطان عثمان خان الغازى، وسنة ٧٠ سنة، ومدة سلطنته ٢٧ سنة، وتسلطن عقب وفاته ولده السلطان أورخان.

* ١ يناير سنة ١٣٢٧ = ٦ طوبة سنة ١٠٤٣ = الخميس ٦ صفر ٧٢٧.

* في صفر وصل الأمير سيف الدين أرغون الناصرى إلى حلب نائبا بها.

* فيها جرت بالإسكندرية مخاصمة بين مسلم وافرنجي فضربه بالمداس فعظمت الفتنة وحصلت مقتلة وأحرق باب السلطان ووقع بعض نهب في دور يلوذ أهلها بالنائب، فغضب السلطان وأمر بوضع السيف في الاسكندرية وهدها إلى البحر، وأخذ من التجار أموالا عظيمة، وقد نحر ثلاثين رجلا وقت صلاة الجمعة، ثم عزل النائب بعد ضربه واهانته، وقتل ناس من الفقهاء، وهم الذين خرجوا وقت الفتنة يصيحون في الشوارع.

* في ربيع الأول حاصر الأمير ودى جماز المدينة النبوية سبعة أيام، ودخلوها وأحرقوا باب السويقة.

* ـ [١ توت ١٠٤٤ = ٣٠ اغسطس ١٣٢٧ = الأحد ١١ شوال سنة ٧٢٧] ـ

* فيها كان إعدام ادوار الثاني، ملك الانكليز، وسلطنة ادوار الثالث.

* فيها كان ابتداء ضرب السكة العثمانية.

* ـ [يناير سنة ١٣٢٨ = ٥ طوبة ١٠٤٤ = الجمعة ١٦ صفر سنة ٧٢٨] ـ

* في ربيع أول جدد سطح الكعبة الشريفة وأبوابها، وبنيت طهارة مما يلي باب بني شيبة،

بدرب السعادة قريب من المحكمة داخل الدرب السلطاني، ومات آخر جمعة في رمضان موت فجأة ولم يكمل بناه وماكمله الا الورثة، والسبيل الواحد: الذى بالرميلة المقابل لباب العزب وأصرف عليه جانبا من المال وغرم جانبا من المال الى باب العزب بعد بنايه وحول شباكه الى سوق القملة ولو تكلموا قبل بنايه ما كان بناه وأنما صبروا عليه حتى فرغ من بنايه وأمروه بهدمه وقالوا: هذا يكون مقابل بنايا ويصير مشرفا علينا ونخاف منه. فلما أخذوا المال أمروه بتحويل شباكه الى ناحية سوق القملة، السبيل الثاني: الذى بناه الخواجا فخر الدين الصبان بوكالة الصابون بباب جامع الحاكم من جهة باب الفتوح. وختمت تلك السنة بخير وهي سنة ١١٤٠، وأنشا الخواجا قاسم الشرايبى مسجد بخطة الرويعى[(١)]. وكان قديما زاوية ودرست وأراد رجل من أهل الخبر أن يهدمها ويبنيها بيتا فأخبر قاسم الشرايبى بذلك فمنعه، وأنزل عليها كشفا فرأى لها بالديوان العالى رزق طين، فأخرجها وبدأ في هدمها في أول يوم من شهر محرم الحرام سنة ١١٤١[(٢)]. وبناها مسجدا بخطبة وتم بناه على احسن حال.

وفي يوم الأحد عشر محرم الحرم سنة ١١٤١[(٣)]، البس الباشا قفطان الصنجقية الى حسن آغا الوالى الذى قتل على بيك الدفتدار وزين الفقار قانصوه وأعطاه الباشا بيت على

(١) كتب عنوان جانبي «أعرف تأسيس الشرايبي قاسم لجامعه بخطبة».
(٢) ٧ أغسطس ١٧٢٨م. (٣) ١٦ أغسطس ١٧٢٨م.

واجريت عين ماء أخرى تعرف بعين جبل.
* في جماد أول حصل حريق عظيم بدمشق.
* فيها وصل الماء إلى القدس، بعد عمل طريقة في ستة أشهر.
* فيها عزم الملك الناصر على عمل خليج يبتدىء من ناحية حلوان لتوصيل الماء إلى القلعة، ولم يتم له ذلك لأن المهندسين الذين أحضرهم من الشام قدروا المصروف ثمانين ألف دينار، والمدة عشر سنين، فعدل عن ذلك.

* - [١ توت ١٠٤٥ = ٢٩ اغسطس سنة ١٣٢٨ = الاثنين ٢١ شوال سنة ٧٢٨] -
* فيها صار إنشاء جامع الحراني، بالقرافة الصغرى بمصر بجوار الإمام الشافعي، أنشأه ناصر الدين الحراني.
* - [١ يناير ١٣٢٩ = ٦ طوبه ١٠٤٥ = الأحد ٢٨ صفر سنة ٧٢٩] -
* فيها تغلب إدوار الثالث على والدته إيزابيل وسجنها.
* فيها ظهر بالقاهرة ابن سالم والخدوم، ولهما أتباع حرامية، وكانوا يخطفون العمائم، فأمسكوا وسمر بعضهم.
* في جمادى الثانية - وقيل في ربيع الآخر - قدم أولاد قره سنقر المنصوري دمشق، وأعطوا املاكهم بها، وأمر كبيرهم علاء الدين بها.

* - [١ توت ١٠٤٦ = ٢٩ اغسطس ١٣٢٩ = الثلاث ٣ ذو القعدة سنة ٧٢٩] -
* في حدود هذه السنة جدد الصاحب شمس الدين المقسي

بيك بما فيه وأسكنه فيه وماخرج منه سوى زوجة على بيك فقط ووضع يده حتى على الجوار وأن حسن هذا تابع مصطفى بيك الخطاط القزلار، واسكن رضوان بيك ببيت ابراهيم بيك أبو شنب واخذ يوسف كتخدا غيط النجدلي الذى كان وضع يده عليه يوسف بيك الجزار. فلما قتلوا محمد بيك بن الجزار اخذه يوسف كتخدا عزبان وأخذ حسين كتخدا الدمياطى بيت الخربطلي الذى بجوار حمام الكلاب بقنطرة أمير حسين بخمسة أكياس من الديوان لقبين الضاشته يوسف جاويش وأنه كان باش جاويش وأن مفاتيحه ثلاثماية وستين مفتاحا وفيه نحو الثلاثين نخلة حيانية وأنه أخذه من الباشا وأنه كان لمصطفى بيك بن ايواظ بيك وكان يساوى خمسين كيسا فأكثر وقد أهلك الله أعاديهم، وأمنوا واطمئنوا وصفا لهم الزمان[1]، وعزل يوسف كتخدا من بيته الذى بباب الخرق وسكن فى بيت عبدالرحمن بيك الذى بجوار السادات وعمل يوسف كتخدا عزومة سبعة أيام لجميع الصناجق والاغوات والسبع أوجاق

(١) كتب بالهامش الشعر التالي وقال بعضهم:

سلم الى الله تعيش سالما وأرضى بالطاف العلى القدير
ولا تقل لعلمى ولا حكمتى فالحكم لله العلى الكبير

وقال غيره:

دع الاختيار فما الامر لك ولا الحكم فى حركة الفلك
ولا تسال الله على فعله فمن غاص لجة بحر هلك

جمع الفخر بالروضة، فصار يقال له جامع المقسى.

* ـ [١ يناير سنة ١٣٣٠ = ٦ طوبه ١٠٤٦ = الاثنين ١٠ ربيع أول ٧٣٠] ـ

* فيها أنشأ الأمير سيف الدين قوصون جامع قوصون، بشارع قوصون، وأنشأ سيف الدين الماس الحاجب جامع الماس بشارع الحلمية.

* ـ [١ توت سنة ١٠٤٧ = ٢٩ اغسطس ١٣٣٠ = الأربع ١٤ ذو القعدة سنة ٧٣٠] ـ

* فيها اخترع راهب في كولونيا البارود.

* ـ [١ يناير سنة ١٣٣١ = ٦ طوبه سنة ١٠٤٧ = الثلاث ٢٠ ربيع أول سنة ٧٣١] ـ

* فيها كان تاسيس مدرسة الطب في باريس.

* فيها ثارت عبيد مكة ساعة الجمعة بالحاج وقتلوا ونهبوا جماعة من الحجاج وقتلوا أمير مصر، وهو أيد مر، فجرد السلطان جيشا من مصر والشام للانتقام من فاعل ذلك.

* ـ [١ توت سنة ١٠٤٨ = ٣٠ اغسطس ١٣٣١ = الجمعة ٢٥ ذو القعدة ٧٣١] ـ

* فيها كانت قيمة المثقال من الذهب عشرين درهما فضة.

* وبنى الأمير الجارى الناصرى، مملوك السلطان الناصر محمد بن قلاوون الدار القردمية، وأنفق في مؤنها خاصة مائة ألف درهم فضة، قيمتها نحو الخمسة آلاف مثقال من الذهب.

* ـ [١ يناير سنة ١٣٣٢ = ٥ طوبه ١٠٤٨ = الأربع غرة ربيع الثانى ٧٣٢] ـ

في بستانه الذى كان للنجدلي وكذلك محمد كتخدا الملا عمل عزومة سبعة أيام الى السبع أوجاق ثلاثة أيام في غيط أفرنج أحمد الذى بقنطرة الليمون وأربعة أيام بمصر العتيقة القديمة. وما زالوا في عزايم في الغيطان والبيوت إلى أن دخل عليهم نجاب الجبل في سادس عشر محرم الحرام(١)، فأخبر أن الحاج طلع من مكة المشرفة ثامن عشر الحجة(٢). قبل العادة بأربعة أيام. وذلك لعدم الموسم. فان المراكب الهندى لم تدخل ولم يكن في مكة قماش. وقلة الماء لأن العين قد تعطلت، وأن القربة بلغت ريالا.

وأخبر الحاج في مكاتيب الجبل بتوليه باكير باشا مصر، وعزلانه من جدة، فلما وردت المكاتيب الى مصر وقريت، وفرحت أهل مصر بتوليته وعزلان محمد باشا، وأخبروا بأنهم وقفوا بعرفات يومين الجمعة والسبت.

والسبب في ذلك أن الحاج المصرى رأى هلال الحجة يوم ليلة الخميس، والقاع وأهل مكة لم يروه الا ليلة الجمعة. ثم ان الحاج المصرى اجتمع في الحرم المكي، واخبروا بأنهم رأوا الهلال ليلة الخميس في القاع، وكانوا بمجلس الشريف وباكير باشا ورضوان بيك أمير الحاج المصرى وباشت جدة عيسى باشا، وقاضي مكة، وجميع أهل مكة ثم أنهم تكلموا في شأن الوقوف. ثم أنهم بعد كثرة القيل والقال فوضوا الأمر الى رجل من علماء مصر شافعى

(١) ٢٢ أغسطس ١٧٢٨م. (٢) ٢٦ يولية ١٧٢٨م.

* فيها مات السلطان المؤيد إسماعيل ابن الملك الأفضل، صاحب حماه، فتولاها الملك الأفضل ناصر الدين محمد بن الملك المؤيد.

* فيها مات بالاسكندرية الصالح القدوة الشيخ ياقوت الحبشي الاسكندرى الشاذلي، وكان من أصحاب أبي العباس المرسي، ومدفون في مسجده بغربي جامع أبي العباس.

* ـ [١ تـوت ١٠٤٩ = ٢٩اغسطس ١٣٣٢ = السبت ٦ ذو الحجة سنة ٧٣٢] ـ

* ١ يناير ١٣٣٣ = ٦ طوبه ١٠٤٩ = الجمعة ١٣ ربيع الثاني سنة ٧٣٣.

* فيها أنشا الأمير تنكر، نائب الشام، دارا صرف في زخرفتها سبعة عشر ألف درهم، ولما قدم إلى مصر أنعم عليه بما قيمته ألف ألف درهم وخمسون ألف دينار.

* ـ [١ توت ١٠٥٠ = ٢٩ اغسطس ١٣٣٣ = الأحد ١٧ ذو الحجة سنة ٧٣٣] ـ

* ١ يناير ١٣٣٤ = ٦ طوبه ١٠٥٠ = السبت ٢٣ ربيع الثاني سنة ٧٣٤.

* في رجب وصل كتاب من المدينة النبوية يذكر فيه أن وادى العقيق سال من صفر إلى الآن، ودخل السيل قبة حمزة، رضى الله عنه، وبقى الناس عشرين يوما ما يصلون إلى القبة، وأخذ نخلا كثيرا، وخرب أماكن، ومات الأمير عز الدين، نقيب العساكر المصرية، ودفن بالقرافة.

* فيها عزل الأمير سيف

المذهب، يقال له الشيخ يونس. وكان له في مكة مجاورة من سنة ١١٣٣(١) من واقعة مصر، فافتى لهم بأنهم يقفوا يوم الجمعة ويوم السبت لازالة الشبهة والعمل بالأحوط فكان كذلك، فهذا كان السبب.

وفي يوم الاحد الذى هو الخامس والعشرين من محرم الحرام سنة ١١٤١(٢)، ورد مسلم باكير باشا من طريق الحجاز بقيامة مقام الى زين الفقار بيك وصحبته آغا بأربعة خطوط قروا بالديوان، أحدها: بغلال الحرمين والعنبر. والثاني: في قضية محمد بيك جركس لا أحد يتاويه، وأنا ارسلنا طلبناه من ملك النمسة، فهرب من عنده، فالحذر ثم الحذر من أن يكون أحد يعرف طريقه ويوالس عليه، فانه مطرود السلطنة. والثالث: بتجهيز بقية الحلوان وانكم ترسلوه صحبة الخزينة. والرابع: خطاب الى محمد باشا النشنجي بأنك معزول وانك لا تطلع من مصر الا بعد أن تصرف قمح الحرمين، والشون، وتراقي العسكر، وتعطى كل ذى حق حقه، وبتولية باكير باشا من أول توت سنة ١١٤١(٣). وان المسلم حين دخوله مصر كان خامس عشرين محرم وهو آخر يوم من أيام النسئ، ولم يكن بقى من أيام محمد باشا الا ثلاثة ايام، فوجبها الى زين الفقار بيك. وكان صحبة المسلم خزندار رضوان بيك، وصحبته محاليل كثيرة، ماتت

(١) ١٧٢١م.

(٢) ٣١ أغسطس ١٧٢٨م.

(٣) ٨ سبتمبر ١٧٢٨م.

الدين بلبان عن ثغر دمياط، وأخذ منه ماله وحبس.

* ـ [١ توت ١٠٥١ = ٢٩ اغسطس ١٣٣٤ = الاثنين ذو الحجة سنة ٧٣٤] ـ

* فيها أقام الملك الناصر جسور شين.

* ١ يناير ١٣٣٥ = ٦ طوبه ١٠٥١ = الأحد ٥ جماد أول سنة ٧٣٥.

* في شوال قدم عسكر حلب والنائب من غزاة بلاد سيس، وقد خربوا بلاد أذنه وطرسوس وأحرقوا الزرع واستاقوا المواشي، فلما علم أهل إياس بذلك احاطوا بمن عندهم من المسلمين التجار وغيرهم في خان وأحرقوه، فقل من نجا.

* ١ توت ١٠٥٢ = ٣٠ اغسطس ١٣٣٥ = الأربع ١٠ محرم ٧٣٦.

* فيها أنشأ الأمير بشتاك جامع باشتاك، بشارع درب الجماميز بالقرب من ديوان المدارس.

* في صفر عمر تنكر، نائب الشام، قلعة جعبر، بأمر الملك الناصر.

* ـ [١ يناير سنة ١٣٣٦ = ٥ طوبه سنة ١٠٥٢ = الاثنين ١٦ جماد أول سنة ٧٣٦] ـ

* فيها اتقن الراهب الألماني صناعة البارود، وأول من عرف وفطن لقوة انفجاره في أوربا هو روجير باكون، ولم يعرف في أوربا إلى سنة ١٢٥٧ ميلادية، وقيل إن الصينيين استعملوه في بداية التاريخ المسيحي.

أهلها في حال الرجعة لأنه أصابهم فنى لم يبق من العشرة الا الثلث، أو أقل والحلول بلاد نحو اربعماية كيس، و ان الذين ماتوا نحو العشرين من أعيان مصر، واما الفقرى فلا تعد ولا تحصى، وغنم أمير الحاج في هذه السنة غنيمة لم يغنمها أحد خلافه من أمرا الحاج[١]. ومن جملة ما أخذ عشرة جمال لرجل تاجر، توفى ولم يبق من اتباعه أحد، ولا من يخبر، وقس على ذلك (وكانت) سنة[٢] مشهورة، ونزل محمد باشا من السرايا يوم الاثنين غرة صفر الخير سنة ١١٤١[٣]. بالاى عظيم الى بيت عبدالرحمن بيك الذى على بركة الفيل، وكتخداه في بيت عمر اغا امير الحاج الجركسي، وله من المأثر الكشك الذى بناه فوق العرقانة، والمسجد الذى داخل السراية حمامين، وأحد للرجال وواحد للنساء،والجميع بالخشب والحجر والمونة من الذى هدمه من بيت جركس وجميع الرخام أخذه وكان بالمقعد أحد عشر عامودا، فأخذها ونشرها ورخم بها الحمامين والسراية، وكانت مدته سبع سنوات، لم يحصل فيها الرخاء مطلقا. ولم تزل مدته مغلية ، لأن القمح لم ينزل في مدته عن زنجير ويجعل الانسان الشحاتين حين ينزل بولاق، ليأخذ القمح والفول بستين نصفا، والحمص بنصفين ولم ينزل عنها، وأما الصابون فانه لم ينزل عن سبعة أنصاف وكانت[٤] أيامه جميعا قتل وسلب وغلاء وأخبرونا بأنه كان كذلك، في قلعة جريد وقد قطع دولتين دولة الشوارية، وأولها اسماعيل،

(١) بالاصل «أمير الحاج».
(٢) بالاصل «وسنة» والاضافة للتوضيح.
(٣) ٦ سبتمبر ١٧٢٨م.
(٤) بالاصل «وكان».

* ١ تـــــوت ١٠٥٣ = ٢٩ اغسطس ١٣٣٦ = الخميس ٢٠ محرم ٧٣٧.

* فيـهـا أنشـأ الأمـيـر أيد الخطيرى جامع الخطيرى ببولاق.

* في هذه السنة الافـرنكيـة كانت ولادة تيمورلنك.

* ـ [١ينـايـر ١٣٣٧= ٦ طوبه ١٠٥٣ = الأربع ٢٧ جماد أول ٧٣٧] ـ

* فيها كانت أول مرة أمكن للفلكيين أن يصفوا بكل دقة سير النجم ذى الذنب.

* في ١ رمـضـان وصل إلى حلب، من مصر ومن دمشق ومن طرابلس، عسكر، وصار بهم ملك الأمراء علاء الدين في الثاني من هذا الشهر ونزل على ميناء أياس وبعـد حـصـارها سلمت هي والمصيـصـة وكـوير والهـارونيـة وبانياس ونحيـمـيـة والنقيـر، ثم عادت العسكر في هذا الشهر.

* فيها أنشأ الأمير الطنبغا الساقي جامع المرداني، وهو بجوار التبانة.

* ـ [١ تـــــوت ١٠٥٤ = ٢٩ اغسطس ١٣٣٧ = الجمعة غرة صفر سنة ٧٣٨] ـ

* فيـهـا توفى أنوق ابن الملك الناصر، فحزن عليه حزنا شديدا.

* في هذه السنة الافـرنكيـة كان ابتداء حرب المائة سنة، وهى بين الفرنساويين والانكليز.

* ـ [١ ينـاير ١٣٣٨ = ٦ طوبه ١٠٥٤ = الخميس ٨ جماد الثانى سنة ٧٣٨] ـ

* فيـهـا أخـرج الخليـفـة أبو الربيع سليمان المستكفى بالله من مكانه بمصر عنفا إلى قوص.

وآخرها على الهندى، ودولة جركس وحزبه. وكانت طايفة اسماعيل ثمانية عشر صنجقا، خلاف الأغوات، والجربجية والكشاف، والأمراء، وثلاثة عشر صنجقا لجركس، خلاف الأغوات، والجربجية والكشاف، والأمراء، وأن الصناجق التى هلكت وهربت من الطايفتين سبعة وثلاثون صنجقا، وعشر اغوات، وكواخى، وجربجية وجاويشا، وأوضباشية ، شئ هلك وشئ هرب، نحو العشرة آلاف نفس.

فلما جاءت أخبار باكير باشا فرحت الناس واطمانوا بمجرد ما دخل المسلم، ونزل الباشا وقعد زين الفقار، وجدت الغلال وراجت الأشياء. وفي ثالث صفر الخير(١). دخل باكير باشا الى بركة الحاج ودخل صحبته الحاج المغربى والله أعلم.

٩١.ذكر تولية باكير باشا

جاء من طريق الحجاز، قدم الى مصر يوم الخميس المبارك رابع عشر صفر سنة ١١٤١(٢). بالاى عظيم وبالغت أهل القاهرة بالدعاء له، وشكوا له من الجور وغلو الأسعار فصار يشير لهم بيده فوق رأسه، وفرحت به الناس وصار يسلم على الناس يمينا وشمالا(٣). ثم أنه طلع الى

(١) ٨ سبتمبر ١٧٢٨م.

(٢) مدة ولايته : ١٤ صفر ١١٤١/ غرة محرم ١١٤١هـ - ١٩ سبتمبر ١٧٢٨م / ٢٧ يولية ١٧٢٩م.

(٣) بالأصل «وصار يمينا وشمالا يسلم على الناس» والتقديم والتأخير ليستقيم المعنى والأسلوب.

* في شـوال رسم ملك الأمراء بحلب الطنبغا بتوسيع الطرق التى فى الأسواق اقتداء بما فعله نائب دمشق فى أسواقها.
* فى هذه السنة الافرنكية كـان أول استعمال الانكليز للمدافع.

*ـ [١ توت ١٠٥٥ = ٢٩ اغسطس ١٣٣٨ = السبت ١١ صفر سنة ٧٣٩] ـ
* فيها انتهت زيادة النيل إلى ستة عشر ذراعا وعشرة أصابع، ثم هبط سريعا فشرقت الأراضى ووقع الغلاء بمصر.
*ـ [١ يناير ١٣٣٩ = ٦ طوبه ١٠٥٥ = الجمعة ١٨ جماد الثانى سنة ٧٣٩] ـ
* فيها سار الأمير علاء الدين من مصر إلى غزة نائبا بها.
* فيها حج الأمير سيف الدين بشتك الناصرى، من مصر، وانفق فى الحج أموالا عظيمة، وقيل كان صحبته ٦٠٠ راوية، وتكلم الناس في القبض عليه عند عوده بمدينة انكرك فما أمكن ذلك، ودخل مصر وصعد القلعة فتلقاه السلطان بالحسنى.
* فيها احتلت الانجليز المقاطعات الشمالية من فرنسا.

*ـ [١ توت ١٠٥٦ = ٣٠ اغسطس ١٣٣٩ = الاثنين ٢٣ صفر سنة ٧٤٠] ـ
* فيها تلقب إدوار الثالث بلقب ملك فرنسا.
* فيها قبض السلطان على ناظر الخاص، وكان قد أشيع عنه أنه حجر على بيت القمح حتى وقع الغلاء.

الديوان فبمجرد ما جلس فى ديوان قايتباى، أمر بثلاثة اكراك سمور، فأفرغ واحد: على زين الفقار بيك، والثاني: على محمد بيك قطامش دفتدار مصر، والثالث: على رضوان آغا آغة الجملية، فاعترضه أهل الديوان وقالوا له: مولانا الوزير لم تكن عادة أن الباشا يلبس اكراكا فى نزوله من مركب الاى الى أحد. فقال لهم: ان لم تكن عادة فأنا أجعلها عادة. ثم أنه قبل هداياهم جميعا، ولم يكن فى الهدايا أجل من هدية زين الفقار بيك، لأنه أعطى للباشا، وأولاده ولجماعته أصحاب المراتب، ثلاثين جوادا عشرة معددة لانظير لها وعشرين عريانه. وكان خلفه فى الاى ستة وثلاثون جوز مملوكا بالرخوت بل بالزروخ[1] الكاملة. ثم أنه عمل ديوانا فى يوم الأحد سابع صفر[2]. وأبرز خطا شريفا[3]. قرى بالديوان متعلق بمحمد باشا، بأنه يكون و اليا على بندر جدة والحبشة. وفى يومها سأل عن أسماعيل آغا، الذى كان كتخدا الحاج سنة توفى قيطاز بيك، وألبسه باكير باشا قفطان الصنجقية، وسلمه المحمل ولما ورد الى مصر أبوا أن يجعلوه صنجقا[4]، فلما ورد الوزير سأل عنه فأتوا به، فألبسه قفطانا على أغاوية مستحفظان وقال له أن شاء الله ألبسك قفطان الصنجقية، ولم يكن أحد معه خبر من أن الباشا يلبس أغاوية مستحفظان، الى اسماعيل الدويدار ثم أنه أرسل الى باب مستحفظان صحبته باش جاويش، وأرباب الديوان الى بابه.

(١) كررت الكلمة بالأصل.
(٢) ١٢ سبتمبر ١٧٢٨م.
(٣) بالأصل «خط شريف».
(٤) بالأصل «صنجق».

* - [١ ينـاير ١٣٤٠ = ٥ طوبه ١٠٥٦ = السبت ٢٩ جماد الثاني سنة ٧٤٠] -

* في شعبان توفي الخليفة أبو الربيع سليمان المستكفي بالله في قوص، فبويع ابن أخيه أبو اسحق إبراهيم.

* فـيـهـا هزمت الانجليـز الفرنساوية في محاربة بحرية يقال لها واقعة اكلوز.

* فيها توقف النيل، فاجتمع الناس في جامع عمرو بن العاص للاستسقاء، وبعدها بسبعة عشر يوما زاد النيل ستة أصابع، واستمر حتى وفي.

* فيها كانت قيمة المثقال من الذهب خمسة وعشرين درهما.

* فيها أنشأ نجم الدين دلال جامع نجم الدين، وهو خارج باب البحر بطريق بولاق.

* - [١ توت ١٠٥٧ = ٢٩ اغسطس ١٣٤٠ = الثلاث ٥ ربيع أول سنة ٧٤١] -

* فيها اهتم الناصر في سوق الماء إلى القلعة، فأمر بحفر آبار وخليج صغير وأعمال قناطر تحمل الماء إلى القلعة، غير أنه مات قبل أن يتم ذلك.

* - [١ ينـاير ١٣٤١ = ٦ طوبه ١٠٥٧ = الاثنين ١٢ رجب سنة ٧٤١] -

* في ٢١ الحجة توفي الملك الناصر، وعمره: ٥٧ سنة، ومدة حكمه ٤٤ سنة وبضعة أشهر، فـتـولى بعده ابنه البكر سيف الدين، ولقب بالملك المنصـور الرابع.

* ١ تـوت ١٠٥٨ = ٢٩

وفي ثاني يوم ورد ركاب الحاج الشريف ثامن صفر(١) وسلم الوزير المحمل، وقد حصل للحاج أكبر المشاق الذى لم تتفق لغيره، وصار الموت متعلقا بهم من مكة الى أن دخلوا المويلح، وكان طول الحج خمسة وثمانين درجة، فمكث عليها يومين. فلما شال منها صار طوله احد وأربعون درجة. وما زال كل يوم في نقص الى أن عزل الى الدار الحمرة، وبها مات هجان باشا الجراكسة. وكان هو أخر من قفل عليه الدرب وان الذى مات في بندر المويلح في تلك، ثاني، ضبط بدفتر قاضي المحمل أربعة آلاف وثلاثماية نفس، وأخبرنا بأن الحاج الشامي بات ليلة في عسفان، مات منه ليلتها ألف وسبعماية نفس، مع أنه لم يكن محل معد للمبات.

ولقد أجتمعنا بمن سافر الى مكة خمسة وثلاثين عاما متوالية ، فقال، لن أر، أخت هذه السنة مطلقا مما رأى من المشاق العظام قال، أنه كان يمر على الخيمة فيجد فيها العشرين نفسا، ثم يعود فلا يرى منهم أحدا بالحياة ويرى الجميع أموات وصاروا يطلبون شربة الماء بخمسة شريفية فلم يجدوها، وان اكثر الناس مات عطشا والله أعلم وفي يوم الاحد خامس عشر صفر(٢) البس الباشا جميع الصناجق، وأرباب الديوان ومن له عادة قفاطين القدوم. جملة ذلك ماية وخمسة وعشرين قفطانا على ما جرت به العادة، وان باكير باشا لما دخل مصر كان من جملة أغاواته اثنان من مماليك مصر الذين هربوا منها. الى الحجاز، فخدموا عند

---

(١) ١٣ سبتمبر ١٧٢٨م.

(٢) ٢٠ سبتمبر ١٧٢٨م.

اغسطس ١٣٤١ = الأربع ١٥ ربيع أول سنة ٧٤٢.
* فيها كان صرف المثقال من الذهب عشرين درهما.
* في غرة صفر عزل الملك المنصور الرابع، ونفى إلى قوص، وفي يوم خلعه سطا المماليك على نساء أبيه وأهانوهن ونهبوا متاعهن، فبويع أخوه علاء الدين قوجق، ومنه ست سنوات، ولقب بالملك الأشرف.
* ـ [١ يناير ١٣٤٢ = ٦ طوبه ١٠٥٨ = الثلاث ٢٢ رجب سنة ٧٤٢] ـ
* في رمضان خلع الأشراف، وسجن في قلعة القاهرة، فتوفى هناك، فبويع أخوه شهاب الدين أحمد، ولقب بالملك الناصر الثاني.
* فيها توفى الملك المنصور الرابع.
* في ١٢ محرم أعيد الملك الناصر الثاني إلى الكرك، منفاه الأول، وبويع أخوه عماد الدين، ولقب بالملك الصالح.
* [١ توت ١٠٥٩ = ٢٩ اغسطس ١٣٤٢ = الخميس ٢٦ ربيع أول سنة ٧٤٣] ـ
* ١ يناير ١٣٤٣ = ٦ طوبه ١٠٥٩ = الأربع ٣ شعبان ٧٤٣.
في شوال خرج الأمير ركن الدين بيبرس الأحمدى من مصر بعسكر لحصار الكرك، وكذلك من دمشق، فحاصروا الناصر بها بالنفط والمجانيق.
* وبلغ الخبز أوقية بدرهم، وغلت دمشق لذلك حتى أكلوا خبز الشعير.
* فيها زاد النيل إلى أن بلغ عشرين ذراعا وخمسة عشر إصبعا، فغرقت البساتين وانقطعت الطرق والجسور. * فيها نقلت

باكير باشا الى أن دخل مصر، فكانوا صحبته. أحدهما: من جماعة اسماعيل بيك بن أيواظ يقال له ابراهيم تابع عبد الرءوف السبربيهى، والثاني: من اتباع جركس يقال له عثمان الجوخدار، فولى أحدهما أغاوية الحسبة بدمياط، وأولى عثمان الجوخدار آغاوية جرجة. ثم أن في يوم الثلاثا الذى هو سابع عشر صفر سنة ١١٤١[(١)]. توفى ابراهيم بيك الوالى، ونفت العزب على جاويش الشهبندر الى المحلة، ثم انه اشيع في القاهرة بأن سليمان بيك دخل الى مصر ليلا فحصل في القاهرة خوف وفزع عند أكابرها لأنهم اشاعوا انه دخل بجميع من كان معه من الاعيان المعروفة الذى كانوا معه في شرق يحيى[(٢)]، وجاءت أوراق من جرجة فزادتهم حرصا على حرصهم وصار الطوف يدور في كل ليلة. ثم انهم أخبروا بأنهم يجتمعوا في بيت زين الفقار بيك ويرسلوا يطلبون من باكير باشا عثمان الجوخدار تابع جركس الذى أولاه الباشا أغاوية جرجة، وابراهيم تابع بن ايواظ الذى أولاه حسبة دمياط. فلما اجتمعوا في بيت زين الفقار بيك وتكلموا معه من جهة ما ذكر، فأجابت الصناجق الى قولهم، وكتبوا عرض حال وطلعت أختيارية السبعة أوجاق ودخلوا جميعا على الوزير. فلما رأى جمهور

(١) ٢٢ سبتمبر ١٧٢٨م.
(٢) شرق يحيى: اسمها الأصلى أولاد يحيى شرق، ومنذ ١٨٨٨م، فصلت عنها ناحية أخرى باسم أولاد يحيى بحرى، وهي أحدى قرى مركز البلينا، محافظة سوهاج، محمد رمزى: المصدر السابق، قسم ٢، جـ٤، ص ١٠٥.

جشة تنكر من مصر إلى تربته بدمشق.

* ـ [١ توت ١٠٦٠ = ٣٠ أغسطس ١٣٤٣ = السبت ٨ ربيع الثانى سنة ٧٤٤] ـ

* فيها أعاد الملك الصالح منصب الوزارة إلى حكمه، وكان قد ألغاه أبوه.

* فيها أغارت التركمان مرات على بلاد سيس فقتلوا ونهبوا.

* ـ [١يناير ١٣٤٤=٥ طوبه ١٠٦٠ = الخميس ١٤ شعبان سنة ٧٤٤] ـ

* فى منتصف شعبان وقعت الزلزلة العظيمة بمصر والشام، وخربت بحلب وبلادها أماكن، لا سيما منبج.

* فى صفر حوصرت الكرك ونقبت، وأخذ الملك الناصر أحمد وحمل إلى أخيه الملك الصالح بمصر.

* ـ [١ توت ١٠٦١ = ٢٩ اغسطس ١٣٤٤ = الأحد ١٨ ربيع الثانى ٧٤٥] ـ

* فيها قتل الملك الصالح أخاه شهاب الدين أحمد، وكان منفيا فى الكرك.

* فيها استرجع السلطان الملك الصالح ما باعه الملك المؤيد وابنه الأفضل بحماه والمعرة وبلادهما من أملاك بيت المال.

* ـ [١ يناير ١٣٤٥ = ٦ طوبه ١٠٦١ = السبت ٢٥ شعبان سنة ٧٤٥] ـ

* فى رمضان اتفق سيل عظيم بطرابلس هلك فيه خلق، وزاد نهر حماه وغرق دورا كثيرة، ولطم العاصى خرطلة شيزر فأخذها، وتلفت بساتين البلد.

العسكر قال لهم: ما تريدون، فقدموا له العرض فلما قراه اجابهم الى ما طلبوا، ثم أن الباشا سلم فيهما وقال لهم: لم يكن هنا الا ابراهيم أغا، أما عثمان، فانه سافر الى جرجة، وكان قد ارتكن الى ابراهيم ستة انفار من جماعة ابن ايواظ فطلبوهم فاحضروا السبعة أنفار قدام الوزير فلما رأوا تسليم الوزير فيهم، ولم يمانع عنهم، أدعوا أنهم عسكرية، فأدعى ابراهيم انه تفكجي، وادعى اثنان انهما انكشارية، وواحد جركسى، والبقية متفرقة، فأخذهم باش جاوشية أوجاقهم.

ثم أن الباشا ابى ان يعطيهم فرمانا بقتلهم وقال، أعطيكم فرمانا برواحهم الى جدة، ثم أن الباشا أرسل أحضر بدويا. وأعطاه مالا وأمره، أن ياخدهم الى جدة، فكان كذلك، قيل انه لما تسلمهم البدوى ونزل بهم ارسل زين الفقار جماعة فقتلوهم جميعا. وفى رابع يوم جاءت راس عثمان الجوخدار الذى سافر الى جرجة، أرسل زين الفقار بيك خلفه من ادركه فى المنية وباتوا عنده. ثم أنهم صبروا الى الليل وذبحوه وجاءوا براسه الى زين الفقار بيك والله أعلم. وفى ثانى يوم ورد خبر بموت عبد الرحمن بيك فى اسلامبول، وفى يومها أرسلوا الوالى الى سليمان الخزندار تابع على كتخدا الخربطلى أخذه من بيت سليمان بيك الفراش وأرمى عنقه فى الصليبة.

* فيها كانت قيمة الدينار أحد عشر درهما.
* فيها أنشأت الست مسكة جامع مسكة، وهو بسوق مسكة، قرب جامع الشيخ صالح.

* [١ تـوت ١٠٦٢ = ٢٩ اغسطس ١٣٤٥ = الاثنين ٢٩ ربيع الثاني ٧٤٦] ـ
* في ٤ ربيع ثان توفي الملك الصالح، فبويع أخوه الخامس سيف الدين شعبان، ولقب بالملك الكامل.
* فيها وصل الأمير سيف الدين أقطاى إلى حلب نائبا، وأبطل الخمور والفجور.
* ـ [١ ينـاير ١٣٤٦ = ٦ طوبه ١٠٦٢ = الأحد ٧ رمضان سنة ٧٤٦] ـ
* في أواخر هذه السنة ملكت التركمان قلعة كابان وربضها بالحيلة، وهي من أمنع قلاع سيس.
* فيها كان انتصار إدوار الثالث على الفرنساوية وفيها كان خلع لويز الرابع امبراطور المانيا.

* [١ تـوت ١٠٦٣ = ٢٩ اغسطس ١٣٤٦ = الثلاث ١٠ جماد أول سنة ٧٤٧] ـ
* في جماد أول عزل الملك الكامل، فبويع أخوه السادس زين الدين حاجي، ولقب بالملك المظفر الثالث.
* فيها وقع الوباء ببلاد أزبك، ثم اتصل بالقرم، حتى كان يخرج في اليوم ألف جنازة، فبلغ عدد من مات به خمسة وثمانين ألفا، وامتد الوباء والغلاء إلى قبرص.
* [١ ينـايـر ١٣٤٧ = ٦ طوبه ١٠٦٣ = الاثنين ١٧ رمضان ٧٤٧] ـ

وفي خامس عشرين صفر[١] نفي الانكشارية مصطفى كتخدا تابع زين الفقار كتخدا الى دمياط والعزب، نفت اسماعيل أوضباشا، قطة مسكينة وصحبته خمسة عشر أو ضباشا وأنفار. وفي يوم الاحد ثالث ربيع آخر[٢] دخلت عشرة انفار ببوشيات بعد المغرب علي، عبد البر، كاتب التقارير، ببيت القاضي، وهو جالس على دكة بيته وأولاده حوله، فضربوه ثلاث خناجر في بطنه، فنزلت أمعاؤه، وطلعوا على حمية فعاش بعدها ثلاثة أيام ومات.

ومن العجب: ان كل شئ فعله انسان لابد له من المجازاة، لأن عبد البر هذا كان قد تسبب في قتل اثنين من الشهود، فاغرى عليهما، أحدهما: أحمد بن الدويب، أغرى عليه محمد جاويش جدك. فأرسل له بعض نفر فقتلوه في بيته بعد المغرب. والثاني: على السلموني، شاهد الديوان، فعزل القاضي عبد البر من كتابة التقرير واعطاها الى على السلموني، فاغرى عليه كذلك المتقدم ذكره، فأرسل خلفه رجلا[٣] ففر بعد أن قام من عنده فأدركه في الاهوانية، وهو داخل الى بيته، فضربه بالسيف فقطع ثلاثة أصابع من يده اليمنى. ولم يبق الا الابهام، والشاهد، فوقع من فوق حماره فلكز الجندى الجواد فلم يره أحد، فعاش سبعة أيام وتوفى رحمة الله عليهم أجمعين.

---

(١) ٣٠ سبتمبر ١٧٢٨م. (٢) ٦ نوفمبر ١٧٢٨م.
(٣) بالاصل «رجل».

* فيها قل ماء النيل حتى صار الناس يخوضون من بر مصر إلى المقياس، وصار من بولاق إلى شبرا إلى منية الشيرج أرضا رملة، فعز الماء حتى بلغت الراوية درهمين ثم أربعة.

* فيها حصل وباء شديد هلك فيه كثير من الناس.

* فيها الانكليز حاصرت كاليه واستولت عليها.

* فيها - وقيل في محرم - ظهر بين منبج والباب جراد عظيم. * فيها سفر بيدمر البدرى نائب حلب إلى مصر معزولا.

* [١ توت ١٠٦٤ = ٣٠ اغسطس ١٣٤٧ = الخميس ٢٢ جماد أول ٧٤٨] -

* ١ يناير ١٣٤٨ = ٥ طوبه ١٠٦٤ = الثلاث ٢٨ رمضان سنة ٧٤٨] -

* في ١٢ رمضان ذبح الملك المظفر الثالث، بعد أن حكم سنة وثلاثة أشهر، فبويع أخوه السابع نصار الدين حسن، ولقب بالملك الناصر الثالث.

* فيها تراجع الناس وحدث فناء فخربت أكثر المنازل.

* فيها تغلب لويز، ملك المجر، على نابولي * فيها كان في أوربا طاعون يقال له طاعون فلورنسا.

* [١ توت ١٠٦٥ = ٢٩ اغسطس ١٣٤٨ = الجمعة ٣ جماد الثاني سنة ٧٤٩] -

* في رجب وصل الوباء إلى حلب، وكان بمصر أيضا، وفي أغلب البلاد الشامية إلا معرة النعمان.

* [١ ينـاير ١٣٤٩ = ٦ طوبه ١٠٦٥ = الخميس ١٠ شوال سنة ٧٤٩] -

وكان هذا الجزاء بعد سبعة أعوام، وألبس القاضي كتابة التقرير لابنه السيد على ثاني يوم، مات والده ثامن ربيع آخر سنة ١١٤١[١]. وفي تاسع الشهر ورد رجل من أغاوات مستحفظان وأخبره بأن أربعة من الهربانين دخلوا بيت عثمان اغاة مستحفظان سابقا، من جماعة ابن ايواظ فركب وأخد الوالي، وأوضباشا، وساروا الى بيت عثمان آغا الذى بقرب بيت أشرف ببركة أبي الشوارب، ففتشوا البيت والحارة الى ان جاءوا الى بيت رجل، فطلبوا منه أن يدخلهم ليفتشوا البيت لأجل ما يرى، من الشبهة، ولأجل أطاعة الحاكم فأبى وقال: لا سبيل الى ذلك، ثم أنه دخل الى منزله، وقفل بابه، فأرادوا أن يكسروا الباب ويدخلوا، واذا هو بشباك علو الباب، وبيده قوس ونشاب فضربهم بالنشاب، فجرح منهم بعض جماعة، ومات واحد منهم، فكسروا الباب وهجموا عليه[٢] فمسكوه وذبحوه على تبليطه البير، ونهبوا البيت ولم يبقوا فيه شيئا ولا التبن، ثم انهم أخذوا راسه وسمروا البيت على حريمه وأولاده وعليه وساروا. ثم ان في ثاني يوم جابوا الرأس وأمروهم بدفن الميت فغسلوه ودفنوه رحمة الله عليه. وعلى أموات المسلمين، وعلى من دعا لنا، ولجميع المسلمين بالمغفرة والرحمة أمين.

ومن أعجب ما وقع في هذا التاريخ: أن باكير باشا، أمر الرزنمجي، أن يعمل حساب محمد باشا مدة توليته السبع سنوات، فأخبر الرزنمجي متكلمين القاهرة بما طلب الوزير،

(١) ١١ نوفمبر ١٧٢٨م.

(٢) كرر التعبير بالأصل.

* فيها ولى الأمير أرغون الكامل نيابة حلب عوضا عن قلطيجا الحموى، وكان قد وليها نحو شهر ومات.

* ١ توت ١٠٦٦ = ٢٩ اغسطس ١٣٤٩ = السبت ١٣ جماد الثاني ٧٥٠.
* ١ يناير ١٣٥٠ = ٦ طوبه ١٠٦٦ = الجمعة ٢٠ شوال ٧٥٠.
* فيها كان الدينار يساوى عشرين درهما * فيها الأمير سيف الدين منجك اليوسفي أنشأ جامع منجك، خارج باب الوزير.

* يها كانت محاربات بين الجنويين والفنيسين.
* فيها هبط النيل فى خامس توت، فعطشت الأراضي ووقع الغلاء ودام العطش ثلاث سنين متوالية.

* - [١ توت ١٠٦٧ = ٢٩ اغسطس ١٣٥٠ = الأحد ٢٤ جماد الثاني ٧٥١] -
* ١ يناير ١٣٥١ = ٦ طوبه ١٠٦٧ = السبت ٢ ذو القعدة سنة ٧٥١.

* فيها كان قحط عظيم فى فرانسا.

* ١ توت ١٠٦٨ = ٣٠ اغسطس ١٣٥١ = الثلاث ٧ رجب سنة ٧٥٢.
* فى أول رجب خلع الملك الناصر الثالث، وسجن فى قلعة القاهرة، فبويع أخوه الثامن صالح صلاح الدين، ولقب بالملك الصالح الثاني.
* ١ يناير ١٣٥٢ = ٥ طوبه ١٠٦٨ = الأحد ١٣ ذو القعدة سنة ٧٥٢.

فالزموه أن يعمل حسابه على وجه الحق، فعمل حسابه فطلع عليه عشرة آلاف عثمانى تراقى العجم والخزينة وجداوية مكة، فلم يجد عنده عثامنة فقطعوا حسابهم من الباشا، كل عثمانيين بثلاثة آلاف فضة واربعماية وخمسين، على الباشا، وقطع الرزنمجى فى كل عثمانى خمسين نصفا له وللكتبة بالديوان، وقعد بها زين الفقار بيك للعسكر والدفتدار، وأمر الدفتدار، وزين الفقار بيك دلالين العلوفات بأن يشتروا التراقيات التى بيد العسكر عشرين زنجرلى العثمانى، ويعطوهم فى كل عثمانى زنجرلى مكسب فطلعت الدلالين، أشتروا ما بأيدى العسكر من التراقيات، بثمانية عشر، وسبعة عشر، وبأقل من ذلك، وصاروا يأخذون منهم الى أن علقوا التراقيات جميعا، فانكسر لهم بعض شئ، نحو أربعين كيسا فطلبوها الدلالون من الذين قعدوا بالثمن فقالوا لهم، ما يكفيكم انكم اخدتموها بخمسة عشر، وبستة عشر، وطردوهم الى يومنا هذا. فمن جملة من انكسر من الدلالين، وكان إكثر أخذ العثامنة له، عثمان أفندى دلال الجوامك ، واقعدوا (محمد) باشا بغلال[١] العنبر والحرمين ، وطلع عليه ما يتان وخمس وسبعون كيسا فقال لباكير باشا، اكتب له تمسكا بالقدر المعلوم فأبى وقال ، كيف الحال كون أن هذا الرجل يتولى مصر سبع سنوات ويطلع عليه هذا القدر هذا كلام لا أصدقه،

(١) بالأصل «باكير باشا لغلال» والصواب كما لحظ الناسخ، وكتب فى الهامش «لعله محمد باشا» فيصبح التعبير السليم طبقا للنص «محمد باشا بغلال العنبر والحرمين».

* فيها قام السلطان من مصر وحارب بعض نواب البلاد الشامية لما حصل منهم من الفساد والخروج عن الطاعة وبالأخص بدمشق ثم عاد منصورا.
* فيها كان أول دخول الترك فى أوربا.

* ١ تـوت ١٠٦٩ = ٢٩ اغسطس ١٣٥٢ = الأربع ١٧ رجب سنة ٧٥٣.
* ١ يناير ١٣٥٣ = ٦ طوبه ١٠٦٩ = الثلاث ٢٤ ذو القعدة سنة ٧٥٣.

* فيها دهم القطر المصرى طاعون، وانتشر حتى عم البلاد.
* واختطف الإمام الحاكم بأمر الله (الثاني) وصى الخلافة، فبيع عمه المعتضد بالله.

* ١ تـوت ١٠٧٠ = ١٩ اغسطس ١٣٥٣ = الخميس ٢٨ رجب سنة ٧٥٤.
* ١ يناير ١٣٥٤ = ٦ طوبه سنة ١٠٧٠ = الأربع ٥ ذى الحجة سنة ٧٥٤.

* ١ توت سنة ١٠٧١ = ٢٩ اغسطس ١٣٥٤ = الجمعة ٩ شعبان سنة ٧٥٥.
* فيها بلغت أوقاف أديرة وكنايس النصارى ٥ ألف فدان، وقد قرر الأمير شيخو والامير صرغتمش والأمير طاز، وكانوا قائمين بتدبير الدولة، بأن ينعم بذلك على الأمراء، زيادة على قطاعهم، وهدموا للنصارى عدة كنائس.
* وفيها منعت اليهود والنصارى من مباشرة الدواوين، وأن لا تزيد عمائمهم عن عشرة أذرع ولا يدخل أحد منهم الحمام

لأني اجتمعت مع اسماعيل باشا، والي مصر سنة ١١٠٧[(١)]، حين توليته بغداد وكنت ببغداد فسألته عن مصر وأحوالها، فأخبرني بأنه تولى مصر سنتين منهم نصف سنة معزول حين انزلوه وعمل بها فرحا أخرج فيه تسعماية كيس، ووضع ختمه بعد الفرح على الفين كيس غير الذى أعده للسفر، فهذا يتولى مصر سبع سنين ويقتل منها أربعين صنجقا، واثنى عشر كتخدا، وأغوات، وقدر هذا أكابر وأعيان، وفعل شيئا لم يفعله خليل باشا ولا غيره، ممن تعاطى حكم مصر من الوزراء، ويبقى على هذا الوجه والقدر، هذا كلام محال لكن لأجل خاطركم اقعد بالتمسك لكن أحاسب به من مال سنة ١١٤١[(٢)].

ثم أن محمد باشا بعد أن عمل الحساب اراد التوجه الى جدة، فأبى باكير باشا ان يخلى سبيله فلما ورد الخبر على محمد باشا بأن باكير باشا أبى أن يخلى سبيله، وأن مراده ينزل عليه الحرس من باب مستحفظان كما جرت به عادة الباشاوات أخدته الحرارة من باكير باشا، وخاف أن يكون معه أمر فى حقه من السلطنة، ومعه خبر بأن حسين جلبى أرسل ططرى الى الديار الرومية، وكذلك محمد باشا ارسل آغا وكذلك أعيان مصر أرسلوا عرضا صحبته على جلبى بن الساعى الذى كان هرب صحبة أيوب بيك سنة ١١٢٢[(٣)]. فلما ورد هذا الخبر على محمد باشا النشنجى من باكير باشا آرسل إلى يوسف كتخدا عزبان وعثمان جاويش

(١) ١٦٩٥ /١٦٩٦م. (٢) ١٣٨ / ١٧٢٩م. (٣) ١٧١٠م.

إلا وفي رقبته صليب. ولا تدخل نساؤهم مع نساء المسلمين، وأن يكون إزار النصرانية أزرق وإزار اليهودية أصفر والسامرية أحمر، وأن يلبسوا الخف لونين، كل فردة من لون.

* وفي أواخر رجب خرج الأمير علاء الدين، والي القاهرة إلى ناحية شبرا الخيام فهدم كنيسة للنصارى وأخذ منها أصبع الشهيد في صندوق وأحضره الملك الصالح فاحرقه بين يديه في الميدان وذرى رماده في البحر، فبطل عيد الشهيد من يومئذ كليا.

* وفي ٢٢ شوال خلع الملك الصالح بدسيسة من أخيه الملك الناصر حسن الذى أخرج من السجن وتولى السلطنة بعده.

* ـ [١ ينساير ١٣٥٥ = ٦ طوبه سنة ١٠٧١ = الخميس ١٦ ذى الحجة ٧٥٥].

* فيها أنشأ الأمير الناصر حسن جامعه المعروف بجامع السلطان حسن، وهو بشارع محمدعلي، تحت القلعة.

* ١ تــوت ١٠٧٢ = ٣٠ اغسطس ١٣٥٥ = الأحد ٢٠ شعبان سنة ٧٥٦.

* ١ يناير سنة ١٣٥٦ = ٥ طوبه ١٠٧٢ = الجمعة ٢٦ ذى الحجة سنة ٧٥٦.

* ١ تــوت ١٠٧٣ = ٢٩ اغسطس سنة ١٣٥٦ = الاثنين ٢ رمضان سنة ٧٥٧.

* فيها رسم السلطان الناصر حسن بضرب فلوس جدد، جعل كل أربعة وعشرين فلسا بدرهم، وكانت قبل ذلك كل الفلوس العتق كل رطل ونصف بدرهم.

القزدغلي وحسين كتخدا مستحفظان الدمياطي وزين الفقار بيك ومتكلمين السبعة أوجاق وعمل لهم ستماية كيس على عزلان باكير باشا أو أخذ فرمان (لمحمد باشا)(١) له بالسفر الى بندر جدة، ثم أنهم اجتمعوا جميعا في بيت زين الفقار بيك وتموا أمرا اما يعطيه فرمانا ـ محمد باشا ـ بالسفر الى بندر جدة، وأما بالعزلان، ثم أنهم قاموا وطلعوا الى الباشا جميعا دون زين الفقار بيك. فلما مثلم بين يديه طلبوا منه فرمانا بسفر محمد باشا الى منصبه بندر جدة فابي وأحدث غما مع الرزنمجي من طرف الخزينة، وكلام يابس ليس له محل في ذلك الوقت، ثم أنه التفت الى الصناجق واختيارية السبعة اوجاق وقال لهم، أنتم اسمكم امنا، ولكن انتم خيان السلطنة، فلما سمع السبعة أوجاق هذا الكلام ورأوا محمد بيك قطامش الدفتدار ،مايل الى طرف الباشا، قاموا (غضبانين)(٢) من الديوان وقالو: خيان السلطنة لا يطلعون، ديوان السلطان، ونزلوا على حالهم إلى باب العزب. ثم أنهم اجتمعوا هناك واذا بالدفتدار جاء اليهم، فلما راوه كادوا أن يقتلوه ثم أنهم قاموا جميعا الى بيت زين الفقار بيك وكان ذلك في يوم الخميس ثاني عشرين ربيع آخر سنة ١١٤١(٣). ثم أن زين الفقار بيك أرسل الى باكير باشا من كل أوجاق اختياريين بعرض حال يطلبوا منه فرمانا بسفر محمد باشا

(١) الاضافة للتوضيح.
(٢) بالأصل «غضباناه».
(٣) ١ ديسمبر ١٧٢٨م.

* في ربيع الأول أنشأ شيخو بقسم الخليفة.

* ١ يناير ١٣٥٧ = ٦ طوبه ١٠٧٣ = الأحد ٨ محرم سنة ٧٥٨.

* فيها توجه شهر زاده سليمان باشا إلى الروم ايلي وفتح كليبولي. * فيها قام أحد المماليك على الأمير شيخو في الديوان وضربه بخنجر ثلاث ضربات، فقبضوا على المملوك وقتلوه، وبقي شيخو مريضا ثلاث شهور ثم مات. * فيها أنشأ محمد محمد بدر العباسي الجامع المعروف بجامع بدر الدين العجمي، وهو بحارة الصالحية، بشارع الجوهرجية.

* فيها توفي أرغون بن طيجو الكاملي، بالقدس.

* ١ تـوت ١٠٧٤ = ٢٩ اغسطس ١٣٥٧ = الثلاث ١٢ رمضان سنة ٧٥٨.

* ١ يناير ١٣٥٨ = ٩ طوبه ١٠٧٤ = الاثنين ١٩ محرم سنة ٧٥٩.

* فيها ضربت الفلوس الجدد في سلطنة الملك الناصر حسن باشارة صرغتمش، وهي كل فلس بفلسين.

* في ربيع ثان أنشأ الملك الناصر صرغتمش، جامعة بشارع الخضيرى بالصليبة.

* فيها ابتدأ حكم تيمورلنك في العجم * فيها تولى الأمير سيف الدين منجك الناصرى نيابة حلب، عوضًا عن طاز، ثم نقل إلى دمشق.

* ـ [١ تـوت ١٠٧٥ = ٢٩ اغسطس ١٣٥٨ = الأربع ١٣ رمضان سنة ٧٥٩] ـ

فأبي. ثم أرسل له ثانيا وثالثا وقال: أنا لا أقدر أعطي فرمانا (١) مالم يجئ جواب من السلطنة. فان كان يسافر من غير فرمان يسافر، وأما أنا فلا أعطي فرمانا، ومالم يات جواب العرض الذى ارسلتوه، وأما أن طلبتم عزلاني، فأنا أنزل في هذا الوقت، فلما سمعوا كلامه أخبروا به زين الفقار بيك، ثم أن زين الفقار بيك أمر خليل أفندى اختيار الجراكسة الى أن يأخذ الغـز اللي(*) عنده وينزل يحرس في السلطان حسن وحصن المحمودية وسبيل المؤمنين وباب العزب وباب مستحفظان والحجر، وصارت الرميلة ملآنة غز مسلحة، ثم أنه مكث يوم الجمعة والسبت، وارسل له يوم الأحد من كل وجاق اثنين، وكتخدا الجاوشية، وأغاة المتفرقة، والترجمان، وبعض الصناجق طلعوا له بعد العشا، فلما رآهم قال لهم. بالله العجب محابتكم لهذا الرجل، ما كان ينبغى أن تفعلوا هذه الفعلة وتقوموا هذه العساكر وتلبسوا السلاح لأجل هذا الذى قتلكم ونهبكم، ما انتم الا قوم عصاة، فياليتنى مت أو كان أكلتنى كواسر البر ولا رأيت وجهكم. فقالوا: مولانا الوزير أنت وزير وهو وزير وزيرين فى بلدنا ضرر علينا، ومرادنا طلوعه من بلدنا ولا نرى وجهه، فلما سمع باكير باشا ما قالوه اعطاهم ما طلبوه بالرغم عنه ونزلوا من عنده بعد العشاء بساعتين. ثم أنهم أخذوا الفرمان واعطوه الى زين الفقار بيك

(١) بالأصل فرمان.

(*) بالأصل «الى».

* ١ يناير ١٣٥٩ = ٦ طوبه ١٠٧٥ = الثلاث ٣٠ محرم سنة ٧٦٠.

* فيها زاد النيل حتى بلغ أربعة قراريط من الذراع العشرين، وثبت إلى أول هاتور، فخرج الناس إلى الصحراء يدعون بهبوطه.

* فيها نقل الأمير على إلى نيابة دمشق، واستقر عوضه بحلب الأمير بكتمر المؤمنى.

* ـ [١ توت ١٠٧٦ = ٣٠ اغسطس ١٣٥٩ = الجمعة ٥ شوال سنة ٧٦٠] ـ

* فى ١٥ الحجة زلزلة وقت صلاة الصبح انزعج منها الناس وسقطت منها الحوامل.

* ١ يناير ١٣٦٠ = ٥ طوبه ١٠٧٦ = الأربع ١٠ صفر سنة ٧٦١.

* فيها وفى النيل فى ٦ مسرى وثبت إلى بابة، ولم يهبط، وانقطع جسر الفيوم وغرقت بساتين جزيرة الفيل وغرق طريق شبرا والمنية، ووصل الماء إلى أول دور الحسينية فغرقت وطفت الآبار بالماء ونبع الماء من ميضاة جامع الحاكم، وخرب عدة أماكن بالروضة، واستمر فى ثباته لغاية بابه، ولم يعهد مثل ذلك فى الجاهلية ولا فى الإسلام، ولم تقع هذه الزيادة قط بمصر.

* وكان فيها قيمة الدينار من الذهب عشرين درهماً.

* فيها توفى السلطان أورخان غازى، وسنة ٨١ سنة، وحكمه ٣٥ سنة، فتسلطن بعده ولده السلطان مرادخان الغازى، الذى ولد له فى هذه السنة ولده السلطان بايزيد الأول.

فركب ثاني يوم هو واختيارية السبعة اوجاق ودخلوا على محمد باشا واعطوه الفرمان، ففى الحال شهل روحه وكانت الاشياء موضبة ، فأرسل أتى بالجمال من البركة والبغال حاضرة. فما بات تلك الليلة فى سبيل علام بالاى يفقع مرارة الاسد وجميع الصناجق والاختيارية وأغوات[١] السبعة اوجاقات، والخيل تلعب قدامه الى السبيل، فلما دخل الى السبيل واذا بنساء الكفر تزغرت.

ثم أنا سألت أمراة من نساء الكفر وقلت لها: يالله العجب فيكم من دون النساء فانى مع هذا الباشا من بيته الذى بدرب السادات ما سمعت احد زغرت الا أنتم ولا أحد قال طريق السلامة له ابدا فما الموجب لكم أنكم تزغرتوا فقالت لى واحدة منهن: يا سيدى احنا نزغرت لكونه مفارق مصر. ثم نزل فى السبيل يوم الاحد خامس عشر ربيع آخر سنة ١١٤١[٢].

ثم أن العسكر طلعوا الى الباشا ثالث يوم يطلبون منه فرمانا بقيام محمد باشا فهم فى الكلام، واذا بساعى قد جاء من ثغر دمياط فأمهل العسكر الى أن يدخل الاغا وينظروا الخطوط الذى معه على أى شئ تشتمل. ثم أن الاغا ورد الى مصر يوم الثلاثاء ثانى عشر جماد أول[٣] فطلع الى الديوان وأبرز ما معه من الخطوط فاذا هم خطان أحدهما بمحاسبة

(١) بالأصل « والاغوات».
(٢) ١٨ نوفمبر ١٧٢٨م.
(٣) ١٤ ديسمبر ١٧٢٨م.

* ـ [١ توت ١٠٧٧ = ٢٩ اغسطس سنة ١٣٦٠ = السبت ١٥ شوال سنة ٧٦١] ـ
* فيها لما سكن الأمير الطواشي سعد الدين بشير الجامدارى الناصرى بقرب الأزهر احب أن يؤثر فيه أثرا صالحًا فعمل اصلاحات بالأزهر وبيضه وبلطه وعمل فيه سبيلا، ووقف على ذلك أوقافا جليلة.
* ١ يناير ١٣٦١ = ٦ طوبه ١٠٧٧ = الجمعة ٢٢ صفر سنة ٧٦٢.
* فيها حضر إلى مصر رجل يقال له عثمان، ومعه مملوك يقال له برقوق، باعه للأمير يلبغ، وهو الذى حكم مصر في سنة ٧٨٤.
* في ٩ منه قتل السلطان الناصر بمكيدة من كبار أمرائه، فبويع ابن أخيه محمد ابن الملك المظفر حاجي، وسنه ١٤ سنة، ولقب بالملك المنصور الخامس. والسلطان الناصر هذا هو السلطان حسن صاحب الجامع الكبير الموجود بقرب القلعة.
* فيها توجه الأمير بيدمر الخوارزمى بالعساكر الحلبية إلى غزو بلاد الأرمن، وفتح أذنة وطرسوس والمصيصة وعدة قلاع، وعاد منصورا.
* ـ [١ توت ١٠٧٨ = ٢٩ اغسطس سنة ١٣٦١ = الأحد ٢٦ شوال سنة ٧٦٢] ـ
* فيها نهب العساكر الفرنساوية فرانسا.
* فيها كان فتح أدرنة، التى استولى عليها السلطان مراد الأول.
* ١ يناير ١٣٦٢ = ٦ طوبه ١٠٧٨ = السبت ٤ ربيع أول سنة ٧٦٣.

محمد باشا واخراجه الى منصبه بالتعظيم والتكريم، والثانى بالبحث على جركس وجميع أطرافه اينما وجدوا واينما كانوا، ثم أنه أرسل الى محمد باشا بالشيل الى منصبه فشال يوم الأربع ثالث عشر جماد أول سنة ١١٤١[(١)] وأن جميع صناجق مصر وأكابرها هادوه بهدايا لها صورة، فمن جملة الهدايا هدية زين الفقار بيك. فانه أرسل اليه ستين جملا وخمسة حجوز معددات وخمسين قنطار من السكر المنعاد وخمسين قنطار من المربيات والشرابات وعشرة أفراق بن قهوة، وماية أردب أرز وماية قنطار سمن وخمسماية راس من الغنم. وارسل الى كتخداه ثلاثين جملا وحجزتين معددتين، ومحمد بيك الدفتدار أرسل له خمس وعشرين جملا وفرسين والى كتخداه خمسة جمال وفرسا عربيا، والدمياطى أرسل له خمسة قناطير سكر وفرقين بن ، وابن زين الفقار كان مرتبا[(٢)] له مدة مكثه في السبيل كل يوم عشرة آلاف رغيف وقنطارين سمن وتسع قناطير لحم ضانى وقنطار عسل اسود وأردبين رز وقنطار عسل أبيض وقنطار سكر ونصف قنطار بن وعشرة أرطال شمع رشيدى وثلاثة أرطال شمع عسلى وقنطار زيت برسم القناديل وثلاثين أردب من الشعير وخمسة وعشرين أردبا من الفول وعشرة أحمال جمال تبن وستين حملة حطب وخمسة أرطال ماء ورد.

فأنظر يا أخى الى هذه المكارم الاخلاق، مدة مكثه: وكانت مدة مكثه سبعة عشر يوما ولو

(١) ١٥ ديسمبر ١٧٢٨م.

(٢) بالأصل «مرتب».

* فيها كان تشكيل الانكشارية في بلاد الترك.
* فيها استبدلت اللغة الفرنساوية باللغة الانكليزية أمام محاكم انكلترة.
* فيها توفي خليفة مصر الإمام المعتضد بالله، أبو الفتح بن المستكفي بالله أبي الربيع، واستقر مكانه ولده المتوكل على الله أبو عبدالله محمد.

* ١ تـوت ١٠٧٩ = ٢٩ اغسطس سنة ١٣٦٢ = الاثنين ٨ ذو القعدة ٧٦٣.

* فيها ضربت نقود ذهبية بالقاهرة للملك المنصور محمد.
* ١ يناير ١٣٦٣ = ٦ طوبه ١٠٧٩ = الأحـد ١٤ ربيع أول سنة ٧٦٤.
* فيها توقف النيل ليالى الوفاء، واستمر على توقفه إلى ثالث توت، ثم وفي، ثم هبط سريعا، فوقع الغلاء.
* في منتصف شعبان اضطر الملك المنصور الخامس إلى التنازل لابن عمه شعبان بن حسن، وسنه عشر سنوات، ولقب بالملك الأشرف الثالث، والذى جبره على التنازل هو الأمير يلبغا الذى قتل السلطان حسن، أبا السلطان شعبان هذا، وصار أتابكا له.

* ـ [١ توت ١٠٨٠ = ٣٠ اغسطس ١٣٦٣ = الأربع ١٩ ذو القعدة سنة ٧٦٤] ـ
* ١ يناير ١٣٦٤ = ٥ طوبه ١٠٨٠ = الاثنين ٢٥ ربيع أول سنة ٧٦٥.

* ١ تـوت ١٠٨١ = ٢٩ اغسطس سنة ١٣٦٤ = الخميس ٣٠ ذو القعدة سنة ٧٦٥.

ذكرنا الهدايا الذى وردت له من أهل مصر لطال الشرح وأكثرها وردت فى بركة الحاج، لأنه مكث فى قصر زين الفقار بيك الذى أحدثه خمسة أيام وضال، حتى دخل جدة، فى غرة رجب[١]، فابتلاه الله بمرض مكث فيه ثلاثة أشهر الى أن وقع لسانه قطعا ومات فى أواخر القعدة سنة ١١٤١[٢]. ولم يقسم له حج ولا زيارته صلى الله عليه وسلم. وكان ما وقع له جزاؤه الدنيوى، أما الاخروى فلا يعلمه الا الله، لأنه ما خرج من هذه البلد حتى افقر أهلها، وقتل أعيانا، وهرب من هرب ولم يعد ابدا ولكن كله بولس الطرف الذى كان معه وأنه لو كان وحده من غير الطرف الثانى ما كان يقدر يأخذ سايسا من سياسهم ولكن كان ذلك فى الكتاب مسطورا

فلنرجع الى ما نحن بصدده: وان الساعى الذى أتى بخبر الاغا الذى تقدم ذكره أورث خبر موت الشيخ الفاضل المحدث الفقيه حاوى فنون المنقول والمعقول المتكلم فى الدرس بافصح لسان الشيخ محمد البديرى الشهير بابن الميت[٣] وقد قرأ البخارى بجامع الفكهانى سنتين كاملتين غايتهما سنة ١١٣٣[٤] وحضرته الافاضل من الجامع الازهر وله علينا مشيخة توفى فى غرة جماد أول سنة ١١٤١[٥]، وكان شا فعى المذهب. وقام ريح أصفر ملأ الخافقين فى

(١) ٣١ يناير ١٧٢٩م. (٢) أواخر يونية ١٧٢٩م.
(٣) كتب عنوان جانبى «أعرف وفاة الشيخ المحدث الشيخ محمد البديرى».
(٤) ١٧٢١م. (٥) ٣ ديسمبر ١٧٢٨م.

* فيها تولى الأمير جرجي نيابة حلب، عوضا عن اشقتمر، الذى كان قد تولاها فى أوائل سنة ٧٦٥.

* ١ يناير سنة ١٣٦٥ = ٦ طوبه ١٠٨١ = الأربع ٧ ربيع الثانى سنة ٧٦٦.

* فيها تمرد الأمير طنبغا على السلطان فحاربه الأمير يلبغا بجهة الجبل الأحمر من العباسية، وانتصر يلبغا وقتل عدداً وافراً من المتمردين.

* ـ [١ ينـاير ١٣٦٦ = ٦ طوبه ١٠٨٢ = الخميس ١٧ ربيع الثانى سنة ٧٦٧] ـ

* فيها وردت مراكب صاحب قبرص على ثغر الاسكندرية، وكانت سبعين سفينة حربية مشحونة بمقاتلين، فطرقوا المدينة على حين غفلة، فقام عليهم نائب الاسكندرية بمن جمعهم فهزموه ودخلوا المدنية ونهبوها ورحلوا عنها، ولذا أمر السلطان بانشاء مائة مركب من المراكب الحربية.

* فيها أغارت أهالى النوبة على البلاد المجاورة لها من مصر وقطعت سبل التجارة.

* [١ تسوت ١٠٨٣ = ٢٩ اغسطس ١٣٦٦ = السبت ٢١ ذى الحجة سنة ٧٦٧] ـ

* فيها أنشأ الأمير سيف الدين الجاكى جامعة بسويقة العزة بسوق السلاح.

* ١ يناير ١٣٦٧ = ٦ طوبه ١٠٨٣ـ = الجمعة ٢٨ ربيع الثانى ٧٦٨.

* فيها عاد الأمير منكلى بغا الشمسى إلى نيابة حلب، عوضًا

غرة جماد أول سنة ١١٤١ . وكان هذا الريح يقال له ريح برقة [رياح الخماسين] واتفق نظيره فى رمضان سنة ١١٠٥[١] حتى هرب الناس من المساجد وتركوا الخطيب على المنبر وكان فى ظن الناس أنها يوم القيامة فهذا نظيره فى الظلمة ورمى الاشجار وتغريق السفن بالمالح [البحر] والعذب [النيل] وقد أغرق المكلة وكان فيها اثنى عشر ألف أردب حنطة الى الحرمين، وأغرق غليونين بثغر أسكندرية.

وفى يوم الخميس خامس جماد أخر توفى محمد بيك مرجان جوز صنجق الخزينة، وكانت الخزينة قد طلع سدادرتها، وكانوا مسافرين فى يوم محمد بيك وكان عنده ذلك اليوم الشيخ أحمد فختمه، وكان قد جاء يسلم عليه فقال له: مرجان جوز، بالله يا شيخ أحمد تدعو لى ، فقال له الشيخ أحمد: ختم الله عملك بالخير وأدخلك الجنة بمنه وكرمه ثم أنه فارقه ودخل الصنجق ليزيل ضرورة فازالها، ثم دخل الى الصيوان فأخذته رعشة فقال، غطونى فغطوه فاذا هو يقول أشهد أن لا اله الا الله واشهد أن محمدا رسول الله، وفهق فلم يلتقوا فيه روحا، فأرسلوه الى مصر فى تابوت فغسلوه ودفنوه رحمه الله. ثم أنهم ضبطوا مخلفاته فوجدوا النفقة التى فى صندوقه احدى وتسعين فندقلى وثلاثة عشر الف فضة مرادى وكان قد[٢]

---

(١) ابريل / مايو ١٦٩٤م.

(٢) بالأصل «ذلك» حذفت ليستقيم الأسلوب.

عن جرجي الناصرى، وأنشا جامعة المعروف بحلب داخل باب قنسرين.

* ١ توت سنة ١٠٨٤ = ٣٠ اغسطس ١٣٦٧ = الاثنين ٣ محرم سنة ٧٦٩.

* فيها نقل منكلي بغا الشمعي إلى مصر أتابك الجيوش، واستقر عوضه في نيابة حلب طيبغا الطويل، ونقل أمير على إلى نيابة مصر، واستقر عوضه بدمشق الأمير منجك.

*ـ [١ يناير سنة ١٣٦٨ = ٥ طوبه ١٠٨٤ = السبت ٩ جماد أول سنة ٧٦٩] ـ

* فيها زاد نهر حلب زيادة عظيمة، وأصبحت منها بيوت لا أثر لها، وقلعت كثيراً من الأشجار.

* ١ توت سنة ١٠٨٥ = ٢٩ اغسطس ١٣٦٨ = الثلاث ١٤ محرم سنة ٧٧٠.

* فيها أنشأ الوزير الصاحب شمس الدين عبدالله المقسى جامع أولاد عنان، وهو خارج باب البحر، وهو على يسار الذاهب من الشارع الجديد إلى محطة السكة الحديد.

*ـ [١ يناير ١٣٦٩ = ٦ طوبه ١٠٨٥ = الاثنين ٢١ جماد أول سنة ٧٧٠] ـ

* فيها توفي طيبغا الطويل، نائب حلب، قيل بسم دسه إليه المصريون حين بلغهم أنه قصد المخامرة، واستقر في نيابة حلب استبغا لأبو بكرى، ثم طلب إلى مصر واستقر عوضه قشتمر المنصورى.

* ١ توت سنة ١٠٨٥ =

أعطى بنتيه كل واحد كيسين وأعطاها موخر صداقها خمسة آلاف نصف فضة وقال لهن: هذا الذى اعطيته لكن لتتزوجن به فاني ما اظن انى بقيت اجتمع عليكن لأن الوزير قال لى: لما كنت عام أول وديت الخزينة لم يبق في مصر صناجق غيرك، كل سنة تأتي بها وحلف أن رحلت له بالخزينة ليقتلني وأنا أخاف أنه يعمل بما قال وأنا رايح غصبا عنى لما حلف زين الفقار بيك لابد من رواحك فقلت : اللهم اجعلها على شهادة، تمتعوا أنتم بهذه الستة أكياس والسلام. فكان بين ما فعله وموته خمسة وعشرون يوما. وتوفى سامحه الله تعالى ورضى عنه وأرضى عنه خصماه. ثم أن زين الفقار بيك قدم أحمد اغاة مستحفظان بل المتفرقة تاعب ياقوت جربجي الجركسى كتخدا زين الفقار سابقا، وسبب عمايله كيخيته أنه كان اسباهيا في بلك الجراكسة فعملوه جربجي لكنه فقير، فلما هرب زين الفقار كان أحمد جربجي هذا من جملة من أخشى عندهم، فلما ظهر عمله كتخداه ثم عمله اغاة المتفرقة، فلما مات مرجان جوز عزله عن أغاوية المتفرقة وألبسه الصنجقية والخزينة وأعطاه جميع ما يحتاج اليه في السفر والحضر، وأسكنه في البيت الذى بجوار منزله، وصنجقه باكير باشا وطلع بالاى ليس له نظير بجميع الصناجق والاغوات قدامه الى سبيل علام. وسافرت الخزينة يوم الاثنين ثاني عشرين جماد آخر وكانت صنجقيته يوم الثلاث حادى عشر جماد أخر سنة ١١٤١ (١)، فمكث في السبيل عشرة أيام وسافر.

(١) ١٢ يناير ١٧٢٩م.

٢٩ اغسطس ١٣٦٩ = الأربع ٢٥ محرم سنة ٧٧١.
* فيها أنشأت الست بركة، أم السلطان الأشرف شعبان ابن حسن، الجامع المعروف بجامع أم السلطان، وهو بالتبانة بالدرب الأحمر.
* ـ [١ يناير ١٣٧٠ = ٦ طوبه سنة ١٠٨٦ = الثلاث ٢ جماد الثاني سنة ٧٧١] ـ
* فيها كان إنشاءوإيجاد وظيفة الصدارة العظمى.
* فيها كان تأسيس وإيجاد وظيفة الصدارة العظمى.

* فيها كان تأسيس وإيجاد سجن الباستيل في باريس.
* فيها انتصر تيمورلنك على التتار وتسلطن على بلادهم ـ وقيل كان ذلك في شعبان ـ
* فيها اخترع هنرى روفيك الألماني أول ساعة غير مائية.

* ١ توت ١٠٨٧ = ٢٩ اغسطس ١٣٧٠ = الخميس ٥ صفر سنة ٧٧٢.
* فيها ظهر في السماء نور عظيم اتضحت به الطرق وقارب ضوء النهار إلى الثلث الأخير.

* ١ يناير سنة ١٣٧١ = ٦ طوبه سنة ١٠٨٧ = الأربع ١٢ جماد الثاني ٧٧٢.
* فيها تسلطن روبرت استوارت على ايقوسيا.
* فيها رسم السلطان الأشرف للأشراف بخضرة العمائم ليمتازوا بها.

* ـ [١ توت ١٠٨٨ = ٣٠ اغسطس سنة ١٣٧١= السبت ١٧ صفر سنة ٧٧٣] ـ
* فيها زاد النيل زيادة مفرطة نحو ٢٢ ذراعًا وزيادة، واستمر

ثم أن في يوم الاحد سادس عشر جماد أخر(١) أرسل الباشا يطلب الصناجق جميعا الى داخل الديوان فدخلوا، فلما جلسوا أبرز لهم خطين: أحدهما: بعزلان محمد بيك من الدفتدارية وتولية محمد بن اسماعيل بيك والثاني: بعزلان رضوان بيك من أمارة الحاج وتولية محمد بيك المنفصل عن الدفتدارية فقال: يامولانا الوزير ، لا قدرة لى على ذلك وسابقا طلعت مرتين وحصل لى وللمحج التعب الزايد. ثم أنه البسه الباشا قفطان العزلان الدفتدارية، وأبى أن يلبس قفطان امارة الحاج فقال الوزير انظروا من يليق، ونرسل نراجع فيها ، ثم أنهم نزلوا تشاوروا في أمرهم، لينظروا من فيه أهلية لأمارة الحاج فما وجدوا أحدا غيره، فطلعوا يوم الثلاث ثامن عشر جماد آخر فاعرضوا الأمر على الوزير، فألبسه قفطانا ونزل الى بيته. فهم في الديوان واذا بالاغا طلع الى الديوان وأخبرالوزير بأنه وصله خبر بأن بعض الهربانين دخلوا دربا بالدرب المحروق فاعطاه فرمانا بكبسه فأخذ الوالى والاضباشا ونزلوا وقفلوا الدرب الذى بجوار سبيل كور عبدالله، والدرب الثاني.

وطلع بعض جماعة سيمانية الوالى على مادنة مسجد قرا(*) أصلان وفتشوا البيوت جميعا بيتا بيتا، فلم يجدوا أحدا، فأخذوا البواب وثلاثة فلاحين ونزلوا والدروب مقفلة من بكرة ذلك اليوم الى بعد الظهر، وتعطلت أهل تلك الحارة عن معايشها ذلك اليوم الى بعد

(١) ١٧ يناير ١٧٢٩م.

(*) بالأصل «قار».

ثابتًا إلى آخر هاتور، وفات أوان الزرع، فخرج الناس إلى جامع عمرو والجامع الأزهر يدعون الله تعالى في هبوط، فهبط.

* ـ [١ ينـاير ١٣٧٢ = ٥ طوبه سنة ١٠٨٨ = الخميس ٢٣ جماد الثاني سنة ٧٧٣] ـ

* ١ توت سنة ١٠٨٩ = ٢٩ اغسطس ١٣٧٢ = الأحد ٢٨ صفر سنة ٧٧٤.

* ١ يناير سنة ١٣٧٣ = ٦ طوبه ١٠٨٩ = السبت ٦ رجب سنة ٧٧٤.

* ١ تـــوت ١٠٩٠ = ٢٩ اغـسطس ١٣٧٣ = الاثنين ٩ ربيع أول سنة ٧٧٥.

* فيها وقف النيل عن الزيادة حتى دخل النوروز، وكان بقى على الوفاء اصبعان، ثم نقص فقلق الناس لذلك فرسم السلطان بالخروج إلى الاستسقاء، فخرج جماعة من العلماء ودعوا الله تعالى فهبط في ذلك اليوم خمسة أصابع فتكرر خروج الناس إلى الاستسقا، فعاقب ذلك مطر غزير حتى غرقت الأراضي فزرع الناس بعض الحبوب. وفي ٧ توت زاد ١٢ إصبعًا في يوم واحد، ثم بعد يومين زاد ٨ أصابع، ففرح الناس بذلك، ثم هبط جملة واحدة، وشرقت البلاد ووقع الغلاء، وكسر الخليج في ٩ توت من غير وفاء، وقد بقى للوفاء خمس أصابع، ثم هبط من يومه فاضطربت الأحوال.

* فيها تقرر أن الملوك، تعتبر بالغة رشدها متى بلغوا سن ١٤ سنة * فيها فتح سلطان مصر أرمينية.

* ـ [١ يناير سنة ١٣٧٤ = ٦ طوبه سنة ١٠٩٠ = الأحد ١٦ رجب سنة ٧٧٥].

الظهر، فالذى خارج الدرب لم يقدر على دخوله لبيته، والذى داخله لم يقدر على خروجه لقضاء مصالحه.

والسبب في ذلك : ان رجلا أخبر الاغا أن قرا مصطفى جاويش دخل الى بيت رجل من معارفه هو وسبعة أنفار مع أن قرا مصطفى في جرجة أنما أخذهم الوهم، فلما أخذ الاغا البواب فاعرضه على الباشا فأخبره بأن ثمانية رجال دقوا عليه الدرب فأبى أن يفتح لهم الباب، فنطوا من أعلى الدرب. ثم أنهم نزلوا كسروا الضبة وأرادوا أن يذبحوه، ثم أنهم نزلوني ودخلوا الدرب وما خرجوا فهذا ماعندى والسلام وكان كلامه صحيح، فأطلقه الوزير وأنهم لم يكونوا الذين ذكروهم وانما هم غيرهم ولم يعرفوا أين ذهبوا فهذا كان السبب لهجج الحارة والله أعلم.

وكان تقدم قبيل فتح الدرب المحروق بخمسة أيام جاءت جماعة من درب الغريب سابع ساعة من الليل دقوا الدرب على البواب، فأبى البواب أن يفتح لهم، فنطوا من أعلى الدرب ونزلوا الى داخل الحارة فمسكوا البواب وضربوه وأخذوا المفتاح منه وطرشوا الضبة، ومكث الدرب مقفولا الى قبيل الظهر الى ان جابوا نجارا وعمل مفتاحا له. وفي يومها جاء رجل مغربى من سكندرية وصحبته مكتوب الى زين الفقار بيك فدخل عليه فرآه جالسا في مقعده، فسلم عليه واعطاه المكتوب ففتحه وقراه، فلما فرغ من قراءته قال له من اعطاك هذا

* فيها بيع إردب القمح بمائة وخمسة وعشرين درهمًا، وقيمتها إذ ذاك ستة مثاقيل ذهبًا وربع ذلك لتقصير النيل.

* ـ [١ توت ١٠٩١ = ٢٩ اغسطس ١٣٧٤ = الثلاث ٢٠ ربيع أول سنة ٧٧٦] ـ
* فيها غلا البيض بدمشق فبيعت الحبة الواحدة بثلث درهم، من حساب ستين بدينار.
* ـ [١ يناير ١٣٧٥ = ٦ طوبه ١٠٩١ = الاثنين ٢٧ رجب سنة ٧٧٦] ـ
* فيها سطا علي يلبغا، أحد أمراء المماليك، عصبة من مماليكه في مصر فقتلوه، وساروا قاصدين قتل السلطان فردهم بعد حرب هائل قتل فيها زعيمهم. * فيها توجه قشتمر نائب حلب بالعساكر الحلبية بأمر السلطان الملك الأشرف وفتح بلاد سيس بعد أن حاصرها شهرين.
* فيها جعلت سيس مملكة قائمة برأسها للفتوحات، وأضيف إليها طرسوس وأذنة واياس وغيرها، وأستقر في كفالتها الأمير موسى بن سنهرى.

* ـ [١ توت ١٠٩٢ = ٣٠ اغسطس ١٣٧٥ = الخميس غرة ربيع الثانى ٧٧٧] ـ
* ـ [١ يناير ١٣٧٦ = ٥ طوبه ١٠٩٢ = الثلاث ٧ شعبان سنة ٧٧٧]ـ
* فيها توفى الامير منجك نائبا بمصر، وهو الذى عمر الصهريج الكائن بالقرب من قلعة الجبل.

المكتوب فقال، اعطاه لى رجل شريف حين نزلت السفينة وقال لى، خذ هذا المكتوب أعطيه الى زين الفقار بيك وهو يعطيك البقشيش فأخذته وها أنا قد جيت به اليك فقال: اتعرف الشريف الذى اعطاك فقال، لا، فاعطاه زين الفقار بيك خمسة زنجرلى وأكرمه وكان المكتوب من جركس يخبره بأنه فى طرابلس، وأنا ان شاء عن قريب نكون عندك فى مصر ولا تاخد خاطرك إلا الطيب يكن فى شريف علمك والسلام. وفى سابع عشرين رجب سنة ١١٤١[١] ورد ركاب صالح باشا باشت غزة هاربا من باشت الشام اسماعيل باشا بن العظم ولو وجده لقتله، لأنه أوشى له فى طرفه، فأرسل له يطلبه فأبى أن يروح له، فأرسل له جردة فكسرها لأن عرب غزة جميعا تحبه لكون أنه تربى بينهم، ومن أولاد تلك الأرض.

فلما أن كسر الجردة خاف أن يجرد عليه بعسكره فأبقى مع أكابر دولته وقال لهم : كيف الحال فى هذا الظالم وأخاف أن يركب علينا ويقع الحرب بيننا وبينه فيهلك ناس كثير من الطرفين بسببى فاكون أنا السبب فى هلاك العالم، فقالوا له: أنت بينك وبين زين الفقار بيك صحبة فأرسل أعلمه بهذه القضية فأنا لا نحميك منه، وما يحميك ألا هو. فكتب مكتوبا وأعلمه بالقضية وقال فى مكتوبه: وأنا مستجير بك من هذا الظالم فارسل يقول له: مرحبا بك

(١) ٢٦ فبراير ١٧٢٩م.

* فيها صار إبطال ما كان يؤخذ على اصحاب الأغاني، من رجل ونساء، من الفردة.

* ١ تــوت ١٠٩٣ = ٢٩ اغسطس ١٣٧٦ = الجمعة ١٢ ربيع الثاني سنة ٧٧٨.

* فيها زاد النيل زيادة مفرطة، ولم يقع مثل ذلك من مائة وخمسين سنة.

* ١ يناير ١٣٧٧ = ٦ طوبه ١٠٩٣ = الخميس ١٩ شعبان سنة ٧٧٨.

* ١ يناير ١٣٧٧ = ٦ طوبه ١٠٩٣ = الخميس ١٩ شعبان سنة ٧٧٨.

* فيها سار السلطان الأشرف للحج إلى بيت الله الحرام، فلم اوصل العقبة فر راجعاً إلى القاهرة فأختفي في دار امرأة فقبض عليه، وفي ٩ القعدة صار خنقه وكسر ظهره ثم وضع في زنبيل والقى في بئر، ثم بايعوا ابنه علاء الدين، وعمره سبع سنوات، فلقبوه بالمنصور السادس، واقاموا له الأمير لابن بك وصياً.

* فيها حصل حريق هائل في القاهرة أحترق منه نحو الخمسمائة دار، ولولا سور القاهرة لاحترق نصفها.

* ١ توت سنة ١٠٩٤ = ٢٩ اغسطس ١٣٧٧ = السبت ٢٢ ربع الثاني ٧٧٩.

* ١ يناير ١٣٧٨ = ٦ طوبه ١٠٩٤ = الجمعة غرة رمضان سنة ٧٧٩.

* فيها استقر في نيابة حلب الأمير منكلى بغا البلدى عوضاً

ولو كنت قاتل ولده وأخذ له فرمانا من باكير باشا بالامان عليه والجئ الى مصر لأن حضرة باكير باشا يعلم ما بين اسماعيل باشا وبين زين الفقار بيك من حظ النفس الذى حصل على يديه فى مكة، وما وقع فى عرفات التى تقدم ذكره ولا فرق بينهم الا حضرة باكير باشا حين كان باشت جدة.

وكان بين صالح باشا وزين الفقار بيك صحبة ومودة من أيام هرب من طنطا، فما ساعه الى رواحه الى غزة من جور محمد بيك جركس صحبه عرب الجزيرة. فلما دخل الى غزة تلقاه صالح باشا بالاكرام والاحترام، فمكث عنده أربعة شهور ثم أنه أرسله الى مصر خفية صحبة جماعه من عنده فلما أرسل له وأخبره صالح باشا من جور اسماعيل باشا أخذ له الفرمان، وكتب له المكاتيب فلما وردت له المكاتيب والفرمان فأصبح مسافر لأنه هيا نفسه وأمره وكان منتظرا رد الجواب أما بالقبول أو بعدمه فلما جاءه الامر بالقبول، ما بات الا بينه وبين غزة مرحلة الى ان دخل الى مصر هو وجماعته نحو الثلاثين نفسا. فلما وصلوا الى العادلية أرسل له زين الفقار بيك جوادا معددا صحبة كتخداه وطلع له قابله فى العادلية وعمل له سماطا نفيسا. وكان قد فرش له بيت صالح بيك الذى مقابل بيت شكر بره المطل على بركة الفيل، وخزنه من جميع ما يحتاج اليه الأمر وأنزله فيه وكتب له عرضا بما حصل له من اسماعيل باشا باشت الشام وجوره، وهروب صالح باشا منه الى مصر لأجل

عن قشتمر، ثم أمسك، وأستقر عوضه تمر باى، وتوجه إلى التركمان وانكسر عسكر حلب كسرة لم يسبق مثلها. * وفيها عظم شأن التركمان.

* ـ [١ توت سنة ١٠٩٥ = ٢٩ اغسطس ١٣٧٨ = الأحد ٤ جماد أول ٧٨٠] ـ

* ١ يناير ١٣٧٩ = ٦ طوبه ١٠٩٥ = السبت ١١ رمضان سنة ٧٨٠.

* فيها دخلت في مصر الدراهم الحموية، وكثر ضرب الفلوس، وقلت الدراهم. * فيها هجمت العربان على دمنهور البحيرة ونهبوا كثيراً من قرى البحيرة فتوجهت إليهم حملة من العساكر فقاتلوهم وانتصر العسكر عليهم فأتوا بالأسرى إلى القاهرة وباعوهم بيع الأرقاء.

* ـ [١ توت سنة ١٠٩٦ = ٣٠ اغسطس ١٣٧٩ = الثلاث ١٦ جماد أول سنة ٧٨١] ـ

* ١ يناير ١٣٨٠ = ٥ طوبه ١٠٩٦ = الأحد ٢٢ رمضان ٧٨١.

* فيها عاد الأمير قشتمر في نيابة دمشق واستقر بها وعاد منكلى بغا البلدى إلى نيابة حلب ورفع المكس عن أهل عزاز.

* ١ توت ١٠٩٧ = ٢٩ اغسطس ١٣٨٠ = الأربع ٢٧ جماد أول سنة ٧٨٢.

* ١ يناير سنة ١٣٨١ = ٦ طوبه سنة ١٠٩٧ = الثلاث ٤ شوال ٧٨٢.

* في هذه السنة الأفرنكية أذعنت أمراء الأتراك ببلاد

حقن دماء المسلمين وسافر العرض الى حضرة مولانا السلطان أحمد خان في غرة شعبان سنة ١١٤١[1].

ثم أن زين الفقار بيك رتب له جميع كل شئ، وأرسل له خمسة خيل وكسى جميع اتباعه، وأرسل له الكساوى العديدة الى أن جاءه رد جواب العرض بالقبول وأرسل الوزير فرمانا الى اسماعيل باشا، ومكث في مصر مدة وهاداه أهل مصر بأجل الهدايا، وسافر إلى وطنه مكرما مبجلا منصورا على خصمه.

ثم أن في ثاني يوم شعبان عن لزين الفقار بيك أن يعمل جمعية لما ورد عليه المكتوب الذى جابه المغربى من جركس وقوله، له فيه: أن شاء الله عن قريب نكن عندكم، حصل له تغويش بال من طرف القاسمية الذى موزعه في البلوكات فمن جملتهم محمد جاويش الداودلى، لأنه رجل صاحب عزوة كبيرة قوى واتباع كثيرة واشراقات أكثر من الاتباع وهو مولى وممكن ولكنه واقع في عرض عثمان جاويش تابع حسن كتخدا القزدغلى وقد تقدم لعثمان جاويش ما حصل من القزدغلية من جركس وأراد أن يفترس بعثمان جاويش فتصد له محمد جاويش وقال له: والله لا يمكن روحى دون روحه فما قدر ينظر له بعين غدر، فنفعه ما تقدم منه له.

(١) ٢ مارس ١٧٢٩م.

الأناطول إلى السلطان مراد الأول، ونزل له أمير كرميان عن مدينة كوتاهية.

* فيها حصل الصلح بين أهالى فينيسيا وجنوه.

* فيه توفى الملك المنصور السادس، وهو علاء الدين على بن شعبان، على أثر الوباء الذى انتشر فى القطر وهلك به عدد عظيم، ومدة حكمه أربع سنوات وأربعة أشهر، فبويع أخوه زين الدين حاجى بن شعبان، وسنه ست سنوات، ولقب بالملك الصالح الثالث.

* ـ [١ توت سنة ١٠٩٨ = ٢٩ اغسطس ١٣٨١ = الخميس ٧ جماد الثانى سنة ٧٨٣] ـ

* فيها استقر بيدمر الخوارزمى فى نيابة دمشق عوضا عن قشتمر، واستقر يلبغا الناصرى، فى نيابة حلب عوضا عن إينال.

* ـ [١ يناير ١٣٨٢ = ٦ طوبه ١٠٩٨ = الأربع ١٤ شوال سنة ٧٨٣] ـ

* فيها استولت التتر على مدينة موسكو.

* فيها حصلت ثورة فى فرانسا بسبب مضاعفة الخراج.

* فيها تولى نظر الجامع الأزهر الأمير بهادر الطواشى وتنجز من السلطان برقوق بأن من مات من مجاورى الأزهر عن غير وارث وترك موجودا فيأخذه المجاورون.

* فيها انتهت زيادة النيل إلى ثلاث أصابع من إحدى وعشرين حتى عد ذلك من جملة الطوفان فدعا الناس الله تعالى فى هبوطه حتى هبط.

* ـ [١ توت ١٠٩٩ = ٢٩ اغسطس ١٣٨٢ = الجمعة ١٨ جماد الثانى سنة ٧٨٥] ـ

فلما عمل الجمعية فى بيته كان عثمان جاويش حاضرا بالمجلس، ثم أن زين الفقار بيك قال لأهل المجلس، أنتم تعرفون لماذا قد جمعتكم: فقالوا له لا نعرف وانما انت طلبتنا فنحن جينا، فما مرادك. فقال مرادى بأن عثمان جاويش يرفع يده من محمد جاويش الداودلى وجماعته لأنى مانى مطمين القلب من طرفهم لأن ابن الديب لم يتربى، وأن لابد لنا من الى زين الفقار بيك وقال له: يا الله اقتلنى ولا تقول لى هذا الكلام، هذا قتله، فقالوا له، وأنت ما تقول يا عثمان جاويش، فتصدر عثمان جاويش كلام لا يمكن مطلقا ما دمت فى قيد الحياة. كيف اسلم فى قتل رجل وقع فى عرضى هذا لا يكون أبدا ما لم أموت ! فقال له زين الفقار: كيف يكون ؟ ما أنت مثل غيرك لما أنا كنت حامى على بيك الهندى مع ما عمله معى من المعروف وأخذوه بالقهر على من بيتى بالوالى ورموا عنقه فى الرميلة ومن بيت أمير الحاج هذا كان حامى محمد بيك بن يوسف بيك الجزار مع ما صنعه يوسف بيك الجزار مع أهل بيته وأولاده من المعروف، وقد أرسلوه قتلوه بالقهر عليه وهو فى كشوفيته ويوسف كتخدا عزبان هذا ما سلم فى الاثنين اللذين كانا فى عرضه وأرسلوا الوالى أخذهما من وسط بيته بالقهر عليه وقتلوهما، فان كنت فقارى وأنت من طرفنا (قل لنا) وأن كنت قاسمى، وأنت (من)[١] ذلك الطرف عرفنا انك ما أنت قزدغلى. قال: نعم. فقال له: من كان سبب فى قطيعة القزدغلية،

(١) الاضافة للتوضيح.

* في ١٩ شعبان خلع برقوق الملك الصالح الثالث ونفساه واستلم مقاليد الملك، وكان الملك الصالح هذا آخر من حكم من دولة المماليك الأولى، المسماة بالبحرية، ومن هذا الوقت قامت دولة المماليك الثانية، المسماة دولة الجراكسة، بمصر، وأولها برقوق، الملقب بالظاهر.

* - [١ يناير سنة ١٣٨٣ = ٦ طوبه ١٠٩٩ = الخميس ٢٥ شوال سنة ٧٨٤] -

* فيها أنشأ الأمير سيف الدين أتيمشر النجاشي جامعه برأس التبانة، داخل باب الوزير.

* فيها زاد النيل في رابع مسرى أربعين إصبعا ثم زاد بعدها ٢٤ إصبعا، ثم وفى في سادس مسرى، وانتهت الزيادة نحو خمسة أصابع من إحدى وعشرين ذراعا ففرقت عدة مواضع وتهدمت دور كثيرة.

* - [١ توت ١١٠٠ = ٣٠ اغسطس ١٣٨٣ = الأحد غرة رجب سنة ٧٨٥] -

* فيها أمسك قشتمر وحبس حتى مات في الحبس، واستقر مكانه في نيابة دمشق الأمير علاء الدين الطنبغا الجوناني.

* - [١ يناير سنة ١٣٨٤ = ٥ طوبه ١١٠٠ = الجمعة ٧ ذو القعدة سنة ٧٨٥] -

* ١ توت ١١٠١ = ٢٩ اغسطس سنة ١٣٨٤ = الاثنين ١١ رجب ٧٨٦.

*١ يناير سنة ١٣٨٥ = ٦ طوبه ١١٠١ = الأحد ١٨ ذو القعدة سنة ٧٨٦.

* فيها اجتمع برقوق

قال: القاسمية. فقال: وهذا أكبر القاسمية ولكن هذا الذى بتعمله مع هذا من المعروف خوفا من أن يدور الدور ويملكوا فيحميك هذا كما كنت أنت حاميه. فقال: لا أنا لا أنظر هذا النظر وهذا أمر في علم الله لا يعلمه إلا الله تعالى وأنما هذا رجل وقع في عرضى. وحصل عنده أنفعال مزاج وانغم.

فلما رأى زين الفقار بيك أنحراف مزاجه وغمه: قال له، يا أميرعثمان جاويش، قد عفونا عنه من القتل لأجل خاطرك لكن ما يقعد في هذه البلد بل يسافر الى أى محل يريد نعطيه أجازه وعليه الامان فاعرضوا الامر عليه. فقال: أريد الحجاز. فقال عثمان جاويش : وأنا أكون صحبتك إلى أن تنزل السفينة ثم أن عثمان جاويش أعرض عليه سردارية جدة فأبى، وقال: المنفى لا يكون حاكما وأنا اسافر حجى. ثم ان محمد جاويش شرع في تجهيز نفسه. ثم انه جمع جميع قبين الضاشاته[١] واعطاهم تقاسمهم المكتبة باسمايهم وأقام عثمان جاويش وكيلا على بلاده وبلاد ابن سيده على كتخدا الداودلى، وسد جميع ما كان عليه من الدين ولم يبقى عليه شئ ولا الدرهم الفرد. وكذلك حسين أفندى كاتب كبير وأرسلوا جابوه من أبو قير وسفروه وصحبته. ثم أنهم جهزوا أنفسهم في خمسة أيام وطلعوا الى السبيل سادس يوم و لكن جميع مهماته رآها عثمان كتخدا وطلع صحبته ومعه نحو الماية جمل محملة، الى أن

(١) بالأصل «أضاشباته».

بالمشايخ والأئمة والعلماء وأجمع معهم على خلع الخليفة المتوكل بالله، فخلعه وحبسه فى القلعة، ونصب عمرا أخا إبراهيم ولقبه بالواثق بالله. * فيها ابتدأ السلطان برقوق بانشاء المدرسة البرقوقية.

* ١ تـوت ١١٠٢ = ٢٩ اغسطس ١٣٨٥ = الثلاث ٢٢ رجب ٧٨٧.

* فيها أمسك الناصرى وحبس بالاسكندرية، واستقر عوضه بحلب سودون المظفرى، وأساءالسيرة فى أهل حلب، وتخيل من أرباب المناصب أن لا يرونه بعين العظمة لكونه نشأ بحلب وضيعا.

* ـ [١ ينـاير ١٣٨٦ = ٦ طوبه ١١٠٢ = الاثنين ٢٩ ذو القعدة ٧٨٧] ـ

* فيها كان انتهاء بناء المدرسة البرقوقية.* فيها عصى منطاش بملطية فاستضعف السلطان سودون عن إحضاره فعزله وأعاد السلطان الناصرى بحلب أميرا. * فيها أدخل السلطان مراد الأول تحت حكومته معظم مملكتى مقدونيا وبلاد الأرنؤد.

* ١ تـوت ١١٠٣ = ٢٩ اغسطس ١٣٨٦ = الأربع ٢ شعبان سنة ٧٨٨.

* فى ٩ شوال توفى الواثق بالله فنصب أبى يحى زكريا عمر بن الخليفة المستنصر بالله.

* ١ يناير ١٣٨٧ = ٦ طوبه ١١٠٣ = الثلاث ٩ ذو الحجة سنة ٧٨٨.

* فيها ضربت الدراهم الظاهرية. * فيها سار الناصرى

نزلوا الى البركة ثم أن عثمان جاويش أرسل أتى بجميع من كان واقعا فى عرضه من القاسمية من بلاده، الذى كان موزعهم فيها فلحقوه فى بركة الحاج.

ثم أنه مكث فى البركة ثلاثة أيام وشال يوم العاشر من شهر شعبان سنة ١١٤١[١]. وسافر عثمان جاويش صحبته، وكذلك حسين أفندى والجماعة الذى كانوا فى بلاده الواقعين فى عرضه، وأنه ما سفرهم الى السويس الا سبب الخط الذى تقدم ذكره بالبحث على جركس وجميع من كان يلوذ به، فخشى عثمان جاويش أن يحصل غم من الوزير وليس له قدرة على مخالفة الخط فأرسلهم صحبة محمد جاويش وحسين أفندى. وأما سفر عثمان جاويش صحبتهم خوفا عليهم أن يفعلوا معهم كما فعلوا مع رجب كتخدا، ثم أنهم دخلوا الى السويس، فمكثوا فيه أربعة عشر يوما الى[*] أن أنزله فى مركب سفينه. وسافرت السفينة يوم الثلاث ثالث عشر شعبان[٢]، ورجع عثمان كتخدا الى مصر يوم الجمعة ثامن عشرين شعبان، ثم ورد عليه جميع الصناجق والاغوات واختيارية السبع أوجاق للسلام عليه وهنوه بالسلام، وفى يومها ورد بأن قايم مقام زين الفقار بيك مر على الانبوطين فدخلها قرأ محمد بن أشرف كان قد أرسله اليها لأنها بلده. فلما رآه ابن الاشرف اكرمه وبجله وأمرهم فى الحال

(١) ١١ مارس ١٧٢٩م.
(٢) ١٤ مارس ١٧٢٩م.

(*) بالأصل «الا».

بمن معه من العساكر المصرية والشامية والحلبية إلى جهة منطاش، فالتجأ منطاش إلى القاضي برهان الدين صاحب سيواس، ووصل الناصرى بمن معه إلى سيواس وحاصرها وقارب أخذها فأرسل القاضي برهان بطلب الأمان وسأل الناصرى أن يتأخر عن المدينة قليلا ليخرج إليه ويسلمه منطاش فأجابه لذلك، وتمت الحيلة على الناصرى، وركب صاحب سيواس ومعه عشرون ألفا من التتر فثبت الناصرى وانتصر عليهم.

* ـ [١ توت سنة ١١٠٤ = ٣٠ اغسطس ١٣٨٧ = الجمعة ١٤ شعبان سنة ٧٨٩] ـ

* ١ يناير ١٣٨٨ = ٥ طوبه ١١٠٤ = الأربع ٢٠ ذو الحجة سنة ٧٨٩.

* فيها عظم الخراب وشرعت الناس في هدم الدور حتى صارت تلالا، ومن وقتها تمت العمارية بالقاهرة.

* فيها كان اختراع كرات المدافع.

* فيها أمسك الجونابي من دمشق، واستقر عوضه الأمير طربطادى، وكان إذ ذاك حاجبا كبيرا بها.

* ١ توت ١١٠٥ = ٢٩ اغسطس سنة ١٣٨٨ = السبت ٢٥ شعبان سنة ٧٩٠.

* ١ يناير ١٣٨٩ = ٦ طوبه سنة ١١٠٥ = الجمعة ٢ محرم ٧٩١.

* فيها ثبت النيل إلى تاسع بابه فعد ذلك من النوادر. * فيها انتصر السلطان مراد الأول على البلغار في كاسوفي.

* في جماد الأول، لاساءة

بذبح الاغنام، فذبحت وتهيأ للغدا فأكلوا، ثم بعد الأكل عند توجهه سحب قلنجا [خنجرا] له بوز كالحزبة وضرب به محمد اغا ابن الاشرف في رأسه فغرق الخ [إلى آخره] وسحبه فطلع مخه واخذ براسه، ثم ركب وسار.

والسبب في ذلك: ان محمد اغا ابن الاشرف واقع في عرض عثمان جاويش القزدغلي، فأرسله عثمان جاويش الى بلده الانبوطين. فلما سافر عثمان جاويش الى تودية محمد جاويش وجد زين الفقار فرصة فأعلم حسين كتخدا الدمياطي بما قام في وجوده من قتل محمد اغا فطابقه على ذلك ولم يخبر احدا من وجاقه خلاف الدمياطي مع ان محمد اغا في قايمة سليمان كتخدا باش اختيار الخربطلي، فأعلم باكير باشا بالامر واخذ منه فرمانا الى قايم مقام العمل وكان قايم مقام من اتباع زين الفقار. فلما وصله الفرمان ومكتوب سيده ومكتوب حسين كتخدا الدمياطي ركب في الحال وكان عمر ابن أبي زهرة صحبته ، فلما تغدى وقام ليركب ضربه أبو زهرة بالقلنج في رأسه. ثم أنه ذبحه وأخذ رأسه وساروا جميعا رحمة الله تعالى عليهم. وقد كنا من المترددين عليه أحيانا، ونهبوا جميع ما كان في البلد والعشير وفلاحين البلد لم ابقت بعدهم شيئا ، فجاء الخبر يوم ورود عثمان جاويش فحصل له غم بذلك وأخبروه أنه بعلم حسين كتخدا الدمياطي وأن عثمان جاويش جمع الاختيارية جميعا في منزله، وأخبرهم بالقضية وما فعله حسين كتخدا في غيابه مع علمه انه في عرضي فاستظلموه

٨٢: بنيامين [١٣٢٧ / ١٣٢٩م.]

أبي يحي زكريا بن المستنصر للسلطان برقوق، خلعه وأعاد المتوكل، الذى خلع برقوق ونفاه إلى الكرك، بعد أن حكم ست سنوات وسبعة أشهر، واستقدم السلطان حاجي، آخر سلاطين الدولة البحرية، وهو الذى خلعه برقوق، فبايعوه فى ٦ جمادى الآخرة، وكان يلقب بالملك الصالح، فابدله بالملك المنصور.

* ـ [١ توت ١١٠٦ = ٢٩ اغسطس ١٣٨٩ = الأحد ٦ رمضان سنة ٧٩١] ـ

* فى ١٥ شعبان استشهد السلطان مراد خان الغازى عند محاربته للصرب، وسنة ٦٥ سنة، ومدة حكمه ٣١ سنة، وفى يوم وفاته تسلطن ولده السلطان يلدرم بايزيد خان.

* ١ يناير سنة ١٣٩٠ـ = ٦ طوبه ١١٠٦ = السبت ١٣ محرم سنة ٧٩٢.

* فيها كانت الحرب الصليبية تحت رئاسة الدوك دوبوربون ضد أهل تونس. * فيها ركب منطاش على الناصرى وأمسكه مع جماعة من الأمراء وأرسلهم إلى الاسكندرية محبوسين، وأرسل إلى الكرك من يقتل السلطان برقوق، وكان الرسل مكروها عند الأهالى فقتلوه وأطلقوا السلطان برقوق.

* ـ [١ توت ١١٠٧ = ٢٩ اغسطس سنة ١٣٩٠ = الاثنين ١٧ رمضان سنة ٧٩٢].

* فيها خرج الخليفة والسلطان من مصر بعساكرهم لمحاربة برقوق فانتصر بعض كل

فعزله من يومه وولى مصطفى جاويش تابع جدك الذى كان منفى فى أبي قير مع حسين أفندى الذى توجه الي الحجاز ونزل الى منزله، الذى بسوق السلاح المعروف ببيت ابن سهراب.

ومكث فى الكخاوية عشرين شهرا، وتولى مصطفى كتخدا على البشتختة غرة رمضان سنة ١١٤١، فمكث فيها ثلاثين يوما وعزل خامس شوال، وتولى بعده اسماعيل كتخدا تابع مراد كتخدا خامس شوال المذكور، فهذا أول ظهور عثمان جاويش القزدغلى على جميع أهل وجاقة خصوصا محمد كتخدا الملا الذى كان الباب فى قبضة يده فلما ظهر عثمان التم عما كان فيه وشرع فى بناء مدفن له وسبيل بالمجاورين قريب من تربة الشرايبي ولم يقسم له الدفن فيه، ثم أن ابراهيم جلبى ابن يزبك بيك لما رأى هذا الحال خاف على نفسه فوقع فى عرض عثمان جاويش.

ثم أني دخلت ثاني شوال المذكور، أعيد على عثمان جاويش، فرأيت ابراهيم جلبى جالسا على الكرسى بجانب الجاويش، فعيدت على الجاويش، وعليه، فسمعته يقول له: لما يفوت العيد. ففى خامس شوال أرسله الى الخرقانية[١]. بلد عثمان جاويش، ثم أنهم سفروا مصطفى

(١) الخرقانية: قرية من القرى القديمة، التابعة لمركز قليوب، محافظة القليوبية، محمد رمزى، المصدر السابق، قسم ٢، جـ١، ص ٥٤.

٨٢: بنيامين [١٣٢٧ / ١٣٢٩م.]

من الفريقين وانكسر البعض، وانتهى الأمر بانتصار الملك الظاهر الذى عاد إلى مصر وأطلق الأمراء الذين حبسهم منطاش.

* ١ يناير ١٣٩١ = ٦ طوبه ١١٠٧ = الأحد ٢٤ محرم سنة ٧٩٣.

* كان وفاء النيل فى سابع مسرى، وثبت إلى آخر بابه.

* فيها كان اختراع ورق اللعب فى فرانسا لتسلية الملك.

* فيها مر منطاش غربى حلب وتوجه إلى حماه وملكها، ثم إلى بعلبك، فخرج إليه الناصرى فخالفه منطاش ودخل دمشق ثم عاد الناصرى إلى دمشق وبقى منطاش بظاهرها والناصرى بداخلها يتناوشان، ولما بلغ السلطان ذلك خرج نحو الشام فهرب منطاش.

* - [١ توت ١١٠٨ = ٣٠ اغسطس ١٣٩١ = الأربع ٢٩ رمضان سنة ٧٩٣] -

* ١ يناير سنة ١٣٩٢= ٥ طوبه ١١٠٨ = الاثنين ٤ صفر ٧٩٤.

* فيها ضرب فى الاسكندرية فلوس ناقصة الوزن، طمعا فى الربح، فآل الأمر إلى أن كانت أعظم الأسرار فى فساد الأسعار.

* فيها وصل السلطان الملك الظاهر إلى مصر.

* فيها أخذ يوسف بن قرامن، أمير التركمان بالشرق، مدينة تبريز، وأسل مفاتيحها إلى السلطان الظاهر فأقره نائبا بها.

* - [١ توت سنة ١١٠٩ = ٢٩ اغسطس ١٣٩٢ = الخميس ٩ شوال سنة ٧٩٤] -

فيها ثبت النيل إلى رابع بابه.

كتخدا المذكور بعد عزلانه الى الحجاز من البحر فى شهره، ثم أن الحاج سافر صحبة محمد بيك قطامش، فبعد سفرة ظهرت الاخبار بأن سليمان بيك القلاقسى اشراق ابن ايواظ عدى من شرق بنى يحيى الى طحطه[1] ومجئ جركس من وجاق طرابلس ثم ان جركس عدى الى شرونه[2].

وكان السبب فى مجيئه من طرابلس، أنه لما جاءه الخبر ان سليمان بيك فى شرق بنى يحيى أرسل له مكاتيب يحثه ويغريه على الركوب الى مصر ويملك ما كان مالكا سيده اسماعيل بيك، وكان وروده الى شرونة فى غرة شوال سنة ١١٤١[3]. فأرسل له سليمان بيك يقول له: لا تركب من محلك الا اذا جاتك الأخبار بأننا قد كسرنا فى تلك الوقعة فاركب وادركنا فى ذلك الوقت تكن النتيجة لك. ثم ان سليمان بيك سار الى طحطه ونزل بها ونصب خامه وخيامه، فلما علم حسن بيك حاكم جرجة أرسل الخبر الى مصر بالذى حصل، فلما وصلت المكاتيب الى زين الفقار بيك جمع الصناجق والعسكر واعرض عليهم المكاتيب

(١) طحطة: اسمها «طهطا» وهى قاعدة مركز طهطا، محافظة سوهاج، محمد رمزى، المصدر السابق، قسم ٢ جـ٢، ص ١٤٣.

(٢) شرونة: من القرى القديمة، التابعة لمركز مغاغة، محافظة المنيا، محمد رمزى، المصدر السابق، قسم ٢ جـ٣، ص ٣٤٨.

(٣) ٣٠ أبريل ١٧٢٩م.

* ١ يناير سنة ١٣٩٣ = ٦ طوبه سنة ١١٠٩ = الأربع ١٦ صفر سنة ٧٩٥.

* فيها أنشأ الأمير سيف الدين إينال اليوسفي جامع إينال بالخيمية، بجوار جامع محمود الكردي. * فيها قدم إلى مصر السلطان أحمد بن أويس هاربا من تيمورلنك، فخرج السلطان إليه وتلقاه وأمر الأمراء بالمشي في خدمته وأكرمه، وأخبره السلطان أحمد أن تيمورلنك أخذ بلاد العجم والعراق وأنه أرسل قصاده إلى السلطان، فكتب السلطان إلى نائب حلب الرحبة أن يقتل قصاده عن أخرهم ففعل، وبلغ ذلك تيمور لنك فتوجه نحو الشام ووصل الرها وأخذها بالسيف سبيا ونهبا وعاد.

* ـ [١ توت سنة ١١١٠= ٢٩ اغسطس ١٣٩٣ = الجمعة ٢٠ شوال ٧٩٥] ـ

* فيها كان فتح سلانيك واسكي شهر.

* ١ يناير سنة ١٣٩٤ = ٦ طوبه ١١١٠ = الخميس ٢٧ صفر ٧٩٦.

* فيها خرج السلطان الملك الظاهر برقوق إلى جهة حلب بسبب تيمورلنك، واستصحب معه السلطان أحمد بن أويس، ولما وصل إلى دمشق جهزه بشعار الملك فتوجه إلى بغداد وأخذها وضرب السكة باسم السلطان برقوق.

* ١ توت ١١١١ = ٢٩ اغسطس ١٣٩٤ = السبت ٢ ذو القعدة سنة ٧٩٦.

* فيها صار بناء الجامع الكبير في بروسه.

التي أتت من حسن بيك حاكم جرجة، فلما سمعوا مافي المكاتيب قالوا له: الأمر أمرك، ثم أنه أعرض الأمر على الوزير باكير باشا فقال له: ما المراد فقال له: نعين عسكرا عليه، فان هذا أمر مهم فقال له الوزير : افعل ما يكون فيه الصلاح.

ثم أنه نزل الى منزله وجمع الأمراء والصناجق والبلوكات وقال لهم: مرادي أعين ثلاثة صناجق وأن يكون اسماعيل بيك غيطاز صاري عسكر عليهم وعثمان بيك وحسن بيك الدالي جماعتي. فقالوا جميعا: نعم الرأى ثم أنهم أرسلوا الى الوزير فألبسهم القفاطين ونزلوا في عاشر القعدة وعين صحبتهم عسكر من السبعة أوجاق ومن طوايف الصناجق والاغوات والكواخي خلاف العسكر المكتتبة، وأرسل الى عرب العايد والهنادى وبني عونة وصارت الناس في عسكر عظيم الى قدم النبي، ورحلوا من قدم النبي تاسع عشرين القعدة سنة ١١٤١، فلما وصلوا الى طحطه[١] أخربوا اقليم البهنسة، فما وصلوا الى طحطه، الا في ستة عشر الحجة فراوا سليمان بيك جالس في صيوانه والعساكر كالنمل حوله، ثم أنهم في ثاني يوم نصبوا المعركة وطلعت مشالي الخيل فما امهلهم سليمان بيك حتى أنه هجم عليهم فما حملوا غير ساعة، وانكسر الصناجق جميعا والعسكر وقابل سليمان، حسن بيك حاكم جرجة[٢] فضربه

(١) بالأصل «حتى» حذفت.

(٢) قدم وأخر.

* ١ يناير ١٣٩٥ = ٦ طوبه ١١١١ = الجمعة ٨ ربيع أول سنة ٧٩٧.

* فيها أنشأ الأمير محمود بن على الاستدار جامع محمود الكردى بين قصبة رضوان والخيمية.

* فى آخر يوم من أبيب زاد النيل ٤٠ إصبعا، وفى أول مسرى زاد ٦٢ إصبعا. فوفى وزاد إصبعين، أعنى أنه زاد فى أربعة أيام سبعة أذرع ونصف وأصبعين، وكان الوفاء فى ثالث مسرى، وهذه الزيادة لم يعهد مثلها فيما مضى، وثبت النيل إلى أول هاتور فحصل للناس منه الضرر الشامل.

* - [١ توت ١١١٢ = ٣٠ اغسطس ١٣٩٥ = الاثنين ١٣ ذو القعدة سنة ٧٩٧] -

* ١ يناير ١٣٩٦ = ٥ طوبه ١١١٢ = السبت ١٩ ربيع أول سنة ٧٩٨.

* فيها كانت محاربات بين المجر والترك.

* فيها اتحد العرب الأحمدية مع أولاد الكنوز والهوارة وقاموا على حاكم مدينة أسوان ونهبوا منه المدينة وسبوا أهلها.

* ١ توت ١١١٣ = ٢٩ اغسطس ١٣٩٦ = الثلاث ٢٤ ذو القعدة سنة ٧٩٨.

* فى ٢٣ ذى الحجة انتصر السلطان بايزيد بجهة الدانوب وفتح بنكوبولى.

* فيها وفى النيل فى عاشر مسرى.

* ١ يناير ١٣٩٧ = ٦ طوبه ١١١٣ = الاثنين ٣٠ ربيع أول سنة ٧٩٩.

- -

مزراقا فى صدره طلع يلمع من ظهره، فوقع قتيل وفى دمه هدير فولوا الأدبار وركنوا الى الفرار، فأتوا جميع خيامهم واثقالهم فأبى سليمان بيك أن يتبعهم ونزل فى صيوان اسماعيل بيك وحاز مدافعهم وجميع ما تملكه ايديهم فى ذلك المحل ورأى الطناجر على النار وقد تهيأ غداهم فى الخيام لجميع الاتباع بأن عليهم الأمان ولا أحد يكلمهم. ثم أنهم عرفوا له ما كان قد اعدوه من الطعامات الفاخرة فأكلوا وشربوا قهاويهم مع أن سليمان بيك كان قد قال وقت البن أرسل الى جرجة يأتون له بالبن فرأى اجربة ملئانة بنا مدقوقا كل جراب فيه قنطار خلاف البن الأخضر. وان حسن بيك أباظة لما أخبر أن سليمان بيك عدى طحطة كان فى المنية وكان قد طلع الى السرحة وصحبته جميع ما كان جمعه من المال وهو خمسة وعشرون الف فندقلى فأخذها وأخذ جميع جماله التى جاءته تقدمه وأخذ ما كان جمعه اسماعيل بيك وعثمان بيك وحسن بيك من المال الذى اخذوه صحبتهم خلاف ما أخذوه فى الطريق من تقادم وهدايا ونهب من عرب خويلد ومحارب، ووجد فى سحارة عثمان بيك سبعة آلاف أحمر ثم أن الخدم لما سمعوا المناداة بالأمان عليهم صاروا يدخلون فيعطيهم من الذى وجده واذا بالقهوجى بتاع اسماعيل بيك دخل عليه وبيده بطة ملانة قهوة كالخولان، ومعه مجمع للفناجين ففرغ فنجانا وشرب منه، وناوله اليه وفرغ لجميع من كان حاضرا فأعطاه البقشيش،

* فيها اتحدت الدانيمارقة إلى أسوج ونروج.
* فيـهـا طلب الأميـر تغرى بردى إلى مصر واستقر بها اميرا كـبـيـرا، واسـتـقـر عـوضـه بحلب أرغون شاه [الذى] نقل إليها من طرابلس، وكان قبلها نائبا بصفد، وأقام بحلب شهورا ومات.
* فيها نكب الأمير محمود بن علي، صـاحـب المدرسـة المحمودية، وحمل من ماله مائة قنطار ذهبا وأربعين قنطارا، عنها ألف ألف دينار وأربعمائة ألف دينار.

* ١ تـــوت ١١١٤= ٢٩ اغـسـطس ١٣٩٧ = الأربع ٤ ذو الحجة سنة ٧٩٩.
* فـيـهـا ابـتـدىء ضـرب النحاس والتعامل به، وبطل تقدير الأشياء بالميدى (عملة عثمانية).
* ١ يناير سنة ١٣٩٨ = ٦ طوبه سنة ١١١٤ = الثلاث ١١ ربيع الثاني سنة ٨٠٠.
* فيها، تشعث الجامع الأزهر وميل قواصره، انتدب السلطان رئيس التجار يومـئـذ إبراهيم بن عمر بن علي المحلي وهدم صدره بأمره فيما بين المحراب الكبير إلى الصحن طولا وعرضا وأزال اللوح الأخضر، وأعاد البناء كما كان، وقيل إن منارته كانت قصيرة فهدمت فعمرت باطول منها.

* ١ تـــوت ١١١٥ = ٢٩ اغسطس ١٣٩٨ = الخميس ١٥ ذو الحجة ٨٠٠.
* فيـهـا نودى في مـصـر أن صـرف كل دينار ثلاثون درهمـا ومن امتنع نهب ماله. * فيها أنشأ بركة، مباشر استدارية الأمراء، جامع بركة، وهو بجوار جامع طولون.

واذا بموسى المهتار بتاع[1] حسن بيك الدالي داخل عليه قبل يديه وعمل نوبة بالسنيطر والدرك والرق فانحط وحصل له غاية الحظ، فلما فرغ أعطاه خمسين زنجرلي وصار يعطى كل من أتاه وقصده.

ثم أنه شال من طحطه وحط فى ساقية موسى(*) قريب من منية ابن خصيم وأما اسماعيل بيك وعثمان بيك وحسن بيك الدالي والعسكر والعشير فأنهم لم يزالوا فى كرشتهم لم يلتفتوا خلفهم حتى أن الرجل يسمع خشخشة رجلين جواده فيحسب أن أحدا تابعه فيقوى ولم يلتفت خلفه، الى أن دخلوا مصر بعد العصر فالذى أخذوه فى سبعة عشر يوما فى الرواح أخذوه فى ثلاثة أيام فى الرجوع.

وقد صارت جميع البلاد أعاديهم لكثرة ما حصل منهم من الأذية والبلص وأخذ الأغنام، وصاروا كل من رأوه وهو هارب يعروه ويسيبوه أو يقتلوه، فهلكت أكثر المشاة،و كذلك اسماعيل بيك، وصاروا سايرين بالخيل الى المنية ثم أنهم أودعوا الخيل فى المنية ونزلوا فى مركب من المنية الى ان جاءوا الى قدم النبى ثم انهم مشوا على أقدامهم الى قدم النبى الى أن

(١) بالأصل «أمتاع».
(*) ساقية موسى: أحدى القرى القديمة، مركز ملوى، محافظة المنيا، محمد رمزى، المصدر السابق، جـ٤، ص ٦٧.

* ١ يناير ١٣٩٩ = ٦ طوبه ١١١٥ = الأربع ٢٢ ربيع الثانى ٨٠١.

* ١ تـوت ١١١٦ = ٣٠ اغسطس ١٣٩٩ = السبت ٢٧ ذو الحجة ٨٠١.

*فى١٥شوال توفى السلطان برقوق، وسنه ستون سنة، فبويع بكر أبنائه فـرج زين الدين، الملقب بأبى السعادات، ولقبوه بالملك الناصر، ومدة سلطنة برقوق ١٦ سنة وشهور.

* فيها طمع ابن عثمان ونازل ملطية وحاصرها وأخذها.

* ١ يناير ١٤٠٠ = ٥ طوبه ١١١٦ = الخميس ٣ جماد أول سنة ٨٠٢.

* فيها خرج السلطان الناصر فرج من دمشق وخرج تنم بمن معه إلى مصر، والتقى الجمعان بأرض فلسطين، وانكسر تنم، وأمسك هو وجماعة من الأمراء ودخل السلطان دمشق وقتل تنم وأيتمش وأحمد بن يلبغا وجماعة من الأمراء، وعاد إلى الديار المصرية منصورا.

* فيها استقر فى نيابة حلب الأمير دمرداش الخاصكى.

* ١ تـوت ١١١٧ = ٢٩ اغسطس ١٤٠٠ = الأحد ٨ محرم سنة ٨٠٣.

* فيها اكتشف الأوروباويون بلاد بابونيا.

* ١ يناير ١٤٠١ = ٦ طوبه ١١١٧ = السبت ١٥ جماد أول سنة ٨٠٣.

* فيها وقف النيل عن الزيادة قرب الوفاء، ثم زاد ٤٨ إصبعا فى ليلة واحدة، ثم وفى.

دخلوا بيوتهم بعد العشا، ولو علم بهم جركس وهم فايتون بأنهم فى المركب ما خلى أحد منهم يروح، وأنما فاتوا بالليل والذى حصل لهم من المشقة لم تحصل لهم مدة عمرهم لأنهم لما(*) طلعوا الى قدم النبى لم يجدوا خيلا ولا حميرا فأنهم طلعوا العشا فما ساعهم أنهم ما روحوا لبيوتهم مشاة بالسراويل والأكراك والسلاح فهذه أعظم مشقة على مثل هؤلاء الدلاتلية ولكن تقدير الله الذى قدر بهذا.

وأما أهل طحطه وعربها: فأنها غنمت غنيمة ما غنموا عمرهم مثلها، لأن الواحد منهم ما كان يملك قدرا يطبخ فيه فسار عنده قزانات وصحون نحاس وصوانى وبكارج قهوة وطشوت وأبارق وأكراك واطالس وسيوف مذهبة وبنادق مجوهرة وفرش، والذى كان ركابه حبل صار ركابه مطلى بالذهب والعدد المفضضة وصاروا أغنيا بعد أن كانوا فقرا وصاروا يطبخون فى الطناجر والقزانات.

وأما سليمان بيك: فأنه لما نزل فى ساقية موسى، اتاه أهل المنية فقال لهم: يا ناس لا تخشوا من شئ أنا ليس لى عندكم حاجة، وانما حاجتى عند الذى أعرفه فعليكم الأمان. ثم انه وردت عليه جميع الخدم والمهاترة بتوع الصناجق فقال لهم: الذى مراده الرواح يروح الذى مراده يخدم عندى مرحبا به. ثم أنه جاءه رجل من غز المنية يقال له قرا محمد، فدخل عليه

(*) بالأصل «ما»

* فيها انتشرت عساكر تيمورلنك في جميع جهات الشام ودمروا ما وصلوا إليه من البلاد، لا سيما حلب، وقد استمر القتل فيها ثلاثة أيام، وحرقها ثم تركها بعد أن عذب العلماء وامتحنهم بمسائل لا يقصد منها إلا قتلهم فانتصروا عليه، ثم إن دمرداش الخاصكي عاد نائبا عليها وأخذ في عمارتها.

* فيها انفق يلبغا السالمي على المماليك السلطانية كل دينار من حساب ٢٤ درهما، ثم نودى في البلد أن صرف الدينار ٣٠ درهما، ثم أمر بضرب الذهب كل دينار زنته مثقال.

* ١ تـوت ١١١٨ = ٢٩ اغسطس ١٤٠١ = الاثنين ١٩ محرم سنة ٨٠٤.

* فيها كانت ثورة الأشراف بانجلترا.

* فيها تغلب تيمورلنك على بغداد وأخربها.

* ١ يناير ١٤٠٢ = ٦ طوبه ١١١٨ = الأحد ٢٦ جماد أول سنة ٨٠٤.

* فيها انهزم السلطان بايزيد العثماني أمام تيمورلنك وأخذه أسيرا في أنقره. * فيها جهز تيمورلنك قصاده إلى سلطان مصر يطلب منه أميرا اسمه الطندى، كان قد أمسكه من عدة سنين قرا يوسف وجهزه إلى الملك الظاهر برقوق واستقر من جملة أمراء مصر محجورا عليه.

* ١ تـوت ١١١٩ = ٢٩ اغسطس ١٤٠٢ = الثلاث ٢٩ محرم سنة ٨٠٥.

* فـيـهـا عـادت رسل

في الصيوان، وكان قديما يعرفه، فلما رآه سلم عليه وأهل به وأكرمه، فلما قام ليتوجه أعطاه ثلاثين فندقلي وقال له: لا تقطعنا يا قرا محمد. فقال له، قرا محمد: هذا والله يا سيدى كان هذا الرجل عنده كشف، لأني كنت محتاجا الى عشرة منها فرزقني الله بثلاثين.

ورأيت كل من دخل عليه من خدم الهربانين يعطيه الشريفي والاثنين ويقول له: خذوا هذا من مال اسيادكم. فمكث ثلاثة أيام واذا بجركس قدم عليه، فسلم على بعضهما البعض وجلسا الى الحديث(١). وكان صحبة سليمان بيك على بيك المحرمجي ويوسف الشرايبي ويوسف بيك الخاين وأبو دفية وقرا مصطفى وغيطاز آغا والزناتي وسعيد العبد تابع عبدالله بيك وجماعة الشوارية وصحبة تابعه محمد بيك جركس وأحمد بيك الأعسر ومملوكه أحمد بيك ومحمد آغا كتخدا الجاوشية وحسن الشبكة، زعيم مصر وجماعته من الشنبية، الى ان صاروا في جمع عظيم من الغز نحو الالف، ودردير شيخ محارب، وأحمد شيخ خويلد.

وكانت الاعراب أكثر من أربعة آلاف وساروا من ساقية موسى. الى أن نزلوا في وادى البهنسة في محل يقال له الشحيمي قريب من البدرشين(٢)، ونزل نصب خامه وخيامه، أما الثلاثة صناجق لما رجعوا بيوتهم وباتوا تلك وصبحوا ركبوا خيلهم ودخلوا على زين الفقار

(١) كتب عنوان جانبي «أعرف قدوم محمد بيك جركس على سليمان بيك الخ».

(٢) البدرشين : قرية من القرى القديمة، وهى حاليا قاعدة مركز البدرشين، محافظة الجيزة، محمد رمزى، المصدر السابق، قسم ٢، جـ٣، ص ٣.

تيمورلنك، وانعقد بينه وبين سلطان مصر مودة ومهادنة.
* فيها أرسل تيمورلنك إلى سلطان مصر هدية وفيلا.
* ١ يناير ١٤٠٣ = ٦ طوبه ١١١٩ = الأحد ٢٩ جماد الثاني سنة ٨٠٥.
* في ١٥ شعبان توفي السلطان يلدرم بايزيد خان، وسنة ٤٤ سنة ومدة سلطنته ١٣ سنة.
* فيها وقف النيل عن الزيادة إلى ثالث أيام النسيء ثم نقص ولم يف.

* ١ تـوت ١١٢٠ = ٣٠ اغسطس ١٤٠٣ = الخميس ١١ صفر سنة ٨٠٦.
* فيها ولد السلطان مراد خان الثاني ابن السلطان محمد خان جلبي. * فيها نودي على الفلوس أن يتعامل بها وزنا وسعر كل رطل منها بستة دراهم، وكانت قد فسدت حتى صار وزن الفلس ربع درهم بعد ما كان مثقالا.
* ـ [١ يناير ١٤٠٤ = ٥ طوبه ١١٢٠ = الثلاث ١٧ جماد الثاني سنة ٨٠٦] ـ
* فيها انقطع من مصر اسم الدينار والدرهم، وظهر البندقي والفندقلي، وكان أول ظهورهما في القسطنطينية. * فيها خرب أكثر بولاق وتلاشى أمرها وخربت المهمشة أيضا. * فيها شرقت مصر بسبب قصور النيل فدهى أهل الصعيد من ذلك بما لا يوصف حتى أنه مات في مدينة قوص ١٧ ألف إنسان ومات في مدينة أسيوط ١١ ألفا. * فيها كانت مدينة أسوان بدون حاكم، وعرضة لاغارات العرب عليها.
* فيها أنشيء جامع الاكربى بجهة الخرنفش بحارة برجوان.

بيك فأعلموه، وكان قد درى من المنهزمين الذين جاءوا قبل الصناجق واخبره عثمان بيك وحسن بيك واسماعيل بيك بما وقع. وكان الرجل سمارا فأنا بمجرد ما وقفت قدامه انكسرنا كأنه قرأ علينا اسما فقال زين الفقار: الحمدلله على سلامتكم وأحكوا لنا على حسن بيك الأباظة.

ثم أن زين الفقار جمع الصناجق والأوجاقات وقال لهم : كيف الحال، الجماعة رجعوا مكسورين منهوبين. قالوا يابيك هذا أمر لا يسكت عنه، واذا أعطيت تهاونا دخلوا مصر، فلم يبقوا منا لا كبيرا ولا صغيرا، فقالوا نعرض هذا الأمر على الباشا، لأننا ما عندنا فلوس فننظر ماذا يقول؟ ونعين عسكرا لأجل ما نرد العدو ويعطينا الباشا أربعماية كيس لأجل ما نكتب بها عسكرا فقالوا الأمر اليك ونحن معك. ثم أنهم طلعوا الى الباشا وأخبروه بما وقع وكسرت العسكر وموت حسن بيك أباظة حاكم جرجة فقال لهم: والمراد؟ فقالوا له: مرادنا تولى اسماعيل آغا أغة مستحفظان على التجريدة وتصنجقه وتلبس أيضا مصطفى الخزندار تابع حسن بيك أباظة صنجقية سيده. فألبس الاثنين قفطانين على الصنجقية ثم أنه أيضا ألبس اسماعيل بيك قفطانا على جرجة. وكان ذلك في يوم الخميس ثامن عشر الحجة ختام سنة ١١٤١ (١).

(١) ٥ى١ يولية ١٧٢٩م.

* ١ تـــوت ١١٢١ = ٢٩ أغـسطس ١٤٠٤ = الجمعة ٢١ صفر سنة ٨٠٧.

* فيها كان اختراع البرانط، اخترعها رجل سويسرى كان فى فرانسا.

* فيها احترق النيل احتراقا زائدا وكان النيل شحيحا جدا.

* ١ يناير ١٤٠٥ = ٦ طوبه ١١٢١ = الخميس ٢٨ جمادى الثاني ٨٠٧.

* في ١٧ شـعـبـان توفي تيـمـورلنك في أورناره، ببـلاد التركستان، فاغتنم فرج تلك الفرصة للتخلص من سلطة التتر.

* فيها ضرب الناصر فرج دنانير عيارها أقل من عيار الدنانير القديمة.

* ١ تـــوت ١١٢٢ = ٢٩ اغـسطس ١٤٠٥ = السبت ٣ ربيع أول سنة ٨٠٨.

* في ١٦ ربيع أول خلع المصريون فرجا، بعد أن حكم ست سنوات وخمسة أشهر و ١١ يومًا، وولت أخاه عز الدين عبدالعزيز، ولقبوه بالملك المنصور، وبعد شهرين مالوا بكليتهم ثانيًا إلى برقوق وأعادوه إلى منصبه الأول في منتصف جمادى الآخرة، ونفوا أخاه عز الدين إلى الاسكندرية.

*ـ [١ ينـايـر ١٤٠٦ = ٦ طوبه ١١٢٢ = الجمعة ١٠ رجب سنة ٨٠٨] ـ

* فيها اكتشف باتنكور جزائر كنارية. * فيها استولت أهالى فلورنسة على بيزه.

* ١ تـــوت ١١٢٣ = ٢٩ اغـسطس ١٤٠٦ = الأحد ١٤ ربيع أول سنة ٨٠٩.

ثم أنهم طلبوا منه أربعماية كيس قرض يشهلوا بها التجريدة فأبى، وقال أنا جيت بلدكم أخذ منها فلوس والا جيت أحط فلوس، ما عندى شئ اعطيه لكم. فنزلوا من عنده صفر اليدين ولم يتقض لهم حاجاتهم. ثم أنه في ثاني يوم، نزل الى قراميدان وطلب زين الفقار بيك ومحمد بيك الدفتدار وكان مراده أن يمكن بهم ويمكن سليمان بيك ويدور له دورة معهم ليموت الصناجق ويأخد بلادهم ويفعل بهم كما فعل بهم محمد باشا ففهموا مراده، فدخلوا عليه جميعا فى أكمل عدة والجميع مسلحين، فسألوه عما يطلب فلما رآهم على هذا الشكل فقال: أنا أرسلت أطلب زين الفقار بيك ومحمد بيك الدفتدار وأنى أراكم أتيتمونى جميعكم مسلحين فقال زين الفقار: ها نحن قد اتيناك فما تريد: قال: أريد العزلان فقال له أنت ومرادك ثم أنهم أرسلوا أخذوا له بيت يوسف كتخدا الذى بالحبانية وفرشوه وأنزلوا له[١] جميع حوايجه وأنزلوه بالاى الى بيته وجعلوا محمد بيك بن درويش بيك قايم مقام محله، ثم أنهم ترددوا فيما يكون من تجهيز العسكر لمقابلة سليمان بيك وجركس لإتيانهم على حين غفلة، ولم يكن عندهم فلوس يجهزوا بها العسكر فقال لهم زين الفقار بيك المطلوب لتجهيز العسكر أربعماية كيس نفردها على التجار فقالوا له: التجار تأبى ذلك. فقال لهم: علىّ هذا الأمر. ثم أنه كتب تذاكر وصار يرسلها الى التجار صحبة سراجينه ويرسل صحبة التذكرة

(١) بالأصل «أنزلوه».

* في ٧ ربيع ثان توفي عز الدين عبدالعزيز بالاسكندرية.
* ١ يناير ١٤٠٧ = ٦ طوبه ١١٢٣ = السبت ٢١ رجب سنة ٨٠٩.
* ١ تـوت ١١٢٤ = ٣٠ اغسطس ١٤٠٧ = الثلاث ٢٥ ربيع أول ٨١٠.
* ١ يناير ١٤٠٨ = ٥ طوبه ١١٢٤ = الأحد غرة شعبان سنة ٨١٠.
* فيها أنشأ الأمير جمال الدين الاستدار الجامع المعلق، أو الجمالي، بالجمالية، تجاه القره قول.

* ١ تـوت ١١٢٥ = ٢٩ اغسطس ١٤٠٨ = الاربع ٦ ربيع الثاني سنة ٨١١.
*في ١٧ جماد ثان قتل الأمير يلبغا خنقا، وهو في السجن.
* ١ يناير ١٤٠٩ = ٦ طوبه ١١٢٥ الثلاث ١٣ شعبان ٨١١.
* فيها كان تأسيس وانشاء كلية لبسيك.
* فيها استمر النيل في الزيادة وثبت في نصف هاتور فحصل للناس بسبب ذلك الضرر الزائد وغرق من البلاد أكثر من مائتي ضيعة وعدة بساتين ووصل الماء إلى دور الحسينية من نزز (رشح) الأرض.

* ـ [١ تـوت ١١٢٦= ٢٩ اغسطس ١٤٠٩ = الخميس ١٧ ربيع الثاني ٨١٢].
* ١ يناير ١٤١٠ = ٦ طوبه ١١٢٦ = الأربع ٢٤ شعبان سنة ٨١٢.
* فيها كان اختراع كيفية رسم الصور بالزيت.
* فيها ظهرت بمصر في

صورة تمسك وكتب عليه فيه خمسة الاف أحمر فما يسع التاجر، الا أنه يرسل له ألفين أحمر أو ثلاثة آلاف أحمر مساعدة ويرسل له التذكرة والتمسك.

فمن جملة ما أخذ من عمر لطفي، ثلاثة آلاف احمر، ومن أحمد الصراف مثل ذلك، ومن عثمان حنون خمسة آلاف أحمر، والذى يعطيه طيبة اذا لم يعطيه طيبة تأخذ منه غصبية أكثر مما طلب.

وفي ثلاثة أيام جمع ماية الف زنجرلي وجهزوا التجريدة في خمسة عشر يوما، وعينوا رأس التجريدة على بيك تابع محمد بيك أمير الحاج قطامش، وصحبته سليمان بيك الفراش واسماعيل بيك حاكم جرجة ومصطفى بيك أباظة وعملوا عثمان بيك جاويش القزدغلي سردارا على طايفة الانكشارية وعلى كتخدا الجلفي سردارا على طايفة العزب. وكل[1]. اختيار من اختيارية السبعة أوجاق والصناجق والأمراء والاغوات، منهم أرسل ثلاثين نفرا معدة مذخرة، ومنهم من أرسل كل ما يحتازوه من سلاح ومركوب وبارود ورصاص، وما كل، كل منهم على قدر حاله، وتوجه عثمان جاويش بمايتين من جماعته، وكذلك على كتخدا الجلفي وطلعت العسكر نحو الأربعة آلاف خلاف الاعراب والعشير ثم أنهم ساروا فيث زربعة ايام إلى أن قدموا على الجماعة في البدرشين في يوم الأحد غرة محرم الحرام سنة ١١٤٢[2]. ثم أن

(١) بالأصل «وكان» والصواب «وكل».
(٢) ٢٧ يولية ١٧٢٩م.

القاهرة ثورة دينية أساسها الشيخ المحمودى والإمام المستعين بالله.
* فيها استولى جيش الدوك دانجو الفرنساوى على رومة.

* ١ تـوت ١١٢٧ = ٢٩ اغسطس ١٤١٠ = الجمعة ٢٧ ربيع الثاني سنة ٨١٣.
* فيها انقض الأمير موسى جلبي على أخيه سليمان الأول في نومه وهو سكران وقتله، ثم اقتسم السلطنة مع أخيه السلطان محمد الأول.
* ١ يناير ١٤١١ = ٦ طوبه ١١٢٧ = الخميس ٥ رمضان سنة ٨١٣.
* فيها أمر السلطان الناصر بأن تكون الفلوس كل رطل باثنى عشر درهمًا فغلقت الحوانيت فغضب على الناس وأمر المماليك بوضع السيف في العامة حتى تشفع فيها الأمراء، وقبض على جماعة وضربوا بالمقارع، وشنق رجل بسبب ذلك.

* ١ تـوت ١١٢٨ = ٣٠ اغسطس ١٤١١ = الأحد ١٠ جماد أول ٨١٤.
* فيها بلغ النيل فى أول مسرى ستة عشر ذراعاً.
* ١ يناير ١٤١٢ = ٥ طوبة ١١٢٨ = الجمعة ١٦ رمضان ٨١٤.
* في هذه السنة الافرنكية دخل علم الجبر من بلاد العرب فى أوروبا.
* في ٢٥ محرم - وقيل في أواخر سنة ٨١٤ - صار اعدام الملك الناصر فرج بن برقوق خارج أسوار دمشق، وتسلطن على مصر بعده الإمام المستعين بالله، وفى ٨ ربيع أول ولى الشيخ

يوسف كتخدا عزبان أبو جبين خلي العسكر لما سافرت من قدم النبى وشرع فى عمارة البرج الذى على يسرة الداخل الى باب العزب خوفا من أن العسكر تكسر كما كسرت أول مرة فياتى جركس على غفلة، فشرع في بنايه في غرة محرم سنة ١١٤٢. وركب عليه المدافع ثم ان العسكر حطت في مقابله سليمان بيك وجركس وباتوا تلك الليلة. ففى ثاني يوم عند طلوع الشمس واذا بسالم بن حبيب وعرب البحيرة قدموا من البر الأقفر والمهمة الأغبر، وصحبته من عرب الجزاير والعشير نحو الف وخمساية، فهجم على عسكر سليمان بيك فشتت خيامهم ووقع سليمان بيك وسبعة أنفار غير معلومين، وهرب جركس من طريق الفيوم الى البحيرة، فأرسلوا رأس سليمان بيك الى مصر صحبة السبعة رءوس ، وغسلوا جثته وكفنوه ودفنوه عند الشيمى رحمة الله تعالى عليه وما أغراه الا جركس ولكن حلت نحوسات جركس عليه لأنه ليس له سعد.

وأما جركس لما هرب: تبعه على بيك وعلي كتخدا والثلاثة صناجق الى طريق الفيوم فلم يجدوه وهرب قرا مصطفى نحو الصعيد، فتبعه عثمان جاويش الى أن أدركه الى جزيرة فمسكه وأتى به الى مصر، فأعرضوه على زين الفقار بيك فأرسله إلى القلة. وكان صحبته سبعة عشر رجلا فأدخلوهم القلة. ثم ان زين الفقار أمر الوالى أن يروح باب مستحفظان وينفذ أمر الله فى قرا مصطفى، فسار الى أن دخل القلعة وقطع رأس مصطفى وأنزلوا جثته الى بيته

المحمودى نيابة الملك فتمرد الشيخ على المستعين بالله ولم يخلعه بل حبسه في القلعة وجلس على سرير الملك في شهر شعبان، وتلقب بالملك المؤيد.

* ـ [١ توت ١١٢٩ = ٢٩ اغسطس ١٤١٢ = الاثنين ٢١ جماد أول ٨١٥] ـ

* فيها ضربت النقود الخالصة زنة الدرهم نصف درهم والدينار ثلاثون حبة، وفرح الناس بها وطلبت الدراهم التى كان عيارها العشر فضة والتسعة أعشار نحاساً ثم صار الثلثان فضة والثلث نحاس.

* ـ [١ ينـاير ١٤١٣ = ٦ طوبه ١١٢٩ = الأحد ٢٨ رمضان سنة ٨١٥] ـ

* فيها أنشأ الأمير الشيخ المحمدى جامع الضوة، أمام باب القلعة بالمنشأة. * فيها اغارت العرب الهوارة على مدينة أسوان فانتصروا على أولاد الكنوز ونهبوا المدينة.

* فيها تسلطن السلطان محمد خان جلبى ابن السلطان بايزيد الأول. * فيها أمر الملك المؤيد شيخ بضرب الدراهم المؤيدية.

* ١ توت ١١٣٠ = ٢٩ اغسطس ١٤١٣ = الثلاث غرة جماد الثاني سنة ٨١٦.

* ١ يناير ١٤١٤ = ٦ طوبه ١١٣٠ = الاثنين ٨ شوال سنة ٨١٦.

* وفيها راجت الدراهم البندقية والنوروزية وحسن موقعها فى التعامل بين الناس.

* فيها أنشأ الأستاذ شمس الدين أبو محمود محمد الحنفى

سابع عشر محرم سنة ١١٤٢(١). واسيبوا الجماعة الذين كانوا معه لأنهم همج وكان فيهم واحد نصرانى.

وأما على بيك: فانه لما تبع جركس الى طريق الفيوم فلم يجدوه، وأما جركس، فانه لم يرح الى الفيوم وانما أوراهم أنه رايح الى الفيوم ونزل الى البحيرة، فنزل فى علقم(*) وقتل مشايخها، أربعة فتواردت، الأخبار من البحيرة بما فعل جركس من التقتيل(٢) والسلب والنهب، وقتله فى الأمير محمد مليوا مسلم البحيرة والغارات التى شنها.

فلما وردت الأخبار الى زين الفقار بيك: عين رضوان بيك وعين صحبته تجريده إلى البحيرة، ثم أنه سافر بالتجريدة فلما حس بمجئ التجريدة رجع الى البهنسة وصار يقطع للبر والبحر، فصارت السفن لم تسافر، فغلت الخنطة بمصر إلى أن بلغ الأردب ثمانية قروش وصار عليها القتل فى ساحل بولاق، ثم أن زين الفقار عن له أن يلبس صنجقين، فتوجه الى باكير باشا وطلب منه ان يلبس على الوزير وحسين جربجى مستحفظان الصنجقية، وأنه يرسل حسين بيك الى ولاية البحيرة كاشفا لأجل ما يرد جركس، ويرسل على الوزير كاشفا الى منفلوط لئلا

(١) ١٢ أغسطس ١٧٢٩م.

(٢) بالأصل «القتيل».

(*) علقم : اسمها الأصل «علقام» احدى قرى، مركز كوم حمادة، محافظة البحيرة ، محمد رمزى،جـ٢ ، ص ٣٣٩.

جامع الحنفي، بخط الحنفي، بين سويقة اللالة وسوق مسكة.
* فيها كانت معارضة يوحنا هس آراء الكنيسة الرومانية والحكم عليه بالحرق في مجمع قسطنسية.

* ـ [١ توت ١١٣١ = ٢٩ اغسطس ١٤١٤ = الأربع ١٢ جماد الثاني سنة ٨١٧] ـ
* فيها ظهر ميل في منارة الأزهر فهدمت وعمل بدلها. * فيها أمر الملك المؤيد شيخ بضرب الدراهم المؤيدية.

* ـ [١ يناير ١٤١٥ = ٦ طوبه ١١٣١ = الثلاث ١٩ شوال سنة ٨١٧] ـ
* فيها وقف النيل المبارك عن الزيادة، وقلق الناس لذلك، وارتفع سعر القمح، واستمر الحال على ذلك أياما ثم زاد إلى أن وفى.
* في ٣ جماد الأول أقيمت أول صلاة جمعة في جامع المؤيد، ولم يكمل منه سوى الايوان القبلي.

* ١ توت ١١٣٤ = ٢٩

اغسطس ١٤١٧ = الأحد ١٦ رجب سنة ٨٢٠.
* ١ يناير سنة ١٤١٨ = ٦ طوبه ١١٣٤ = السبت ٢٣ ذو القعدة سنة ٨٢٠.
* فيها كانت الدينار الافرنتي ثلاثين مؤيدا فضية، وكان المؤيد بتسعة دراهم نحاساً. * فيها أنشأ الأمير فخر الدين عبدالغني ابن الأمير تاج جامع البنات، وهو بين قنطرة الموسكي وقنطرة الأمير حسين.

* ١ توت ١١٣٥ = ٢٩

يرجع إلى البهنسة فيرده فأبى باكير باشا وقال: أنا رجل معزول وتولية المعزول لا تصادف محلا فأخذ بخاطره وألبسهم الصنجقية.

ثم أن محمد بيك بن درويش قايم مقام، ألبس حسين بيك الخشاب قفطانا على كشوفية البحيرة وعلى بيك بيك الوزير ألبسه قفطانا على كشوفية منفلوط، وساروا في ثامن عشرين محرم سنة ١١٤٢[١]، فلما رجع جركس الى البهنسة لقيه على بيك الوزير فهرب منه الى البحيرة فنزل الى البحيرة فوجد التجاريد هناك، فرجع الى البهنسة فتبعه على بيك وما زال يفعل ذلك الى أن أتعب الخيل والمشاه، وما زال يفعل كذلك (طوال شهرى)[٢] محرم وصفر، الا أن وردت الأخبار الى مصر بورود عبدالله باشا الكبرلي الى سكندرية، فأرسلوا له كتخدا الجاوشية وأغات المتفرقة والترجمان، وكاتب الحوالات وباش جاويش مستحفظان وباش جاويش عزبان والملازمين كما جرت به العادة.

والسبب في ذلك: ان أهل مصر لما نزلوا باكير باشا أرسلوا عرض حال الى الديار الرومية يشكوا فيه من باكير باشا من جهة جركس، ويخبروا في العرض بأنه أراد أن يدخل جركس الى مصر، فلما علمنا بذلك السبب قلنا له هذا الأمر مخالف للعروض، والخطوط التى تأتى من الدولة العلية فنهيناه، فلم ينته فأنزلناه، الى بيت [يوسف كتخدا الذى بالحبانية]، والأمر

(١) ٢٣ أغسطس ١٧٢٩م.
(٢) قدم وأخر والأضافة للتوضيح.

اغسطس سنة ١٤١٨ = الاثنين ٢٦ رجب سنة ٨٢١.
* فيها افتتح تريستان فاس وزاركو البورتغاليون بورتووسانتو.
* فيها ظهر شخص يقال له بدر الدين بن سماوية، وادعى السلطنة، وجمع جمعًا عظيمًا لخلع السلطان محمد، زاعمًا أنه هو الأمير مصطفى ابن السلطان بايزيد، وكان حقيقة يشبهه، فهزمه السلطان محمد وحاصره بمدينة بالونيكى.
* ١ يناير سنة ١٤١٩ = ٦ طوبه سنة ١١٣٥ = الأحد ٣ ذى الحجة سنة ٨٢١.
* فيها كثر ضرب الدراهم المؤيدية. * فيها صار خلع الإمام المستعين بالله من السلطنة والخلافة ونفيه إلى الاسكندرية، وإقامة أخيه داود خليفة مكانه، ولقبوه بالإمام المعتضد بالله.
* فيها وقع بمصر وباء وغلاء استمر إلى سنة ٨٢٣.
* فى ٤ جمادى الآخرة كان حفر أساس جامع المؤيد.

* [١ توت ١١٣٢ = ٣٠ اغسطس ١٤١٥ = الجمعة ٢٣ جماد الثانى سنة ٨١٨]
* فيها أنشأ المعتقد أحمد بن سليمان، المعروف بالزاهد، جامع الزاهد، بشارع سوق الزلط، بجوار منزل الشيخ العروسى.
* فيها كان نزول الانجليز فى أراضى النورماندیا وهزيمة الفرنساوية فى أزينكور.
* [١ يناير ١٤١٦ = ٥ طوبه سنة ١١٣٢ = الأربع ٢٩ شوال سنة ٨١٨]
* فيها هم السلطان المؤيد بتغيير التعامل بالفلوس وجمع

أمركم فأرسل عبدالله باشا الكبرلى هذا الى مصر حاكما جعل الله قدمه ثابتا ومباركا على مصر وأقطارها.

٩٢.ذكر تولية عبد الله باشا الكبرلى

قدم الى مصر القاهرة يوم السبت سادس ربيع آخر سنة ١١٤٢[١]، وكان وروده من طريق البحر وأوكب بالاى لم يعمل لغيره الا لاسماعيل باشا الوزير وطلع الى الديوان وله من الأولاد الذكور أحد عشر ولدا، وله من الجوارى الحاظى الموطآت خمسين، والجوارى الخدم ثمانين، فسأل عن أحوال مصر فأخبروه بخروج جركس، وأنه قد جمع عليه من العرب والمفاسيد، وأنه بيضرب البر والبحر[٢] فأمرهم بالاجتهاد فى طلبه والحث عليه وألبسهم القفاطين ونزلوا.

ثم أن جركس لما تبعه على بيك رجع الى البحيرة فلقيه رضوان بيك وحسين بيك الخشاب حاكم الولاية فسار الى الدلنجات فتبعه حسين بيك فكسره جركس وقتل منه خلق كثيرا وأخرب عشرة بلاد من بلاد البحيرة، ونهب جمالها وخيلها وغنمها وسعيها وسار إلى البهنسة، وكان على بيك قد جاء الى كرداسة ثم أنه جمع الصناجق جميعا وسار هو واياهم الى

(١) مدة ولايته : ٦ ربيع آخر ١١٤٢ / ١٢ ربيع أول ١١٤٤هـ. ٢٩ أكتوبر ١٧٢٩ / ١٤ سبتمبر ١٧٣١م.
(٢) قدم وأخر.

منها شيئًا كثيراً وأراد أن يضرب فلوسًا جدداً وأن يرد سعر الفضة والذهب إلى ما كان عليه في الأيام الظاهرية. * فيها شرع الملك المؤيد أبو النصر في استكمال بناء جامع المؤيد عند باب زويلة، وكان الشروع في ٥ صفر.
* فيها كان إحراق القديس جروم من مدينة براك بسبب مناداته باصلاح الديانة المسيحية.

* ١ توت سنة ١١٣٣ = ٢٩ اغسطس ١٤١٦ = السبت ٥ رجب سنة ٨١٩.

* ١ يناير ١٤١٧ = ٦ طوبه سنة ١١٣٣ = الجمعة ١٢ ذو القعدة ٨١٩.
* فيها ترتبت الدروس للشافعية والمالكية والحنابلة بجامع المؤيد، وكان ذلك بحضور السلطان.

* ١ توت ١١٣٦ = ٣٠ اغسطس ١٤١٩ = الأربع ٨ شعبان سنة ٨٢٢.
* ١ يناير ١٤٢٠ = ٥ طوبه ١١٣٦ = الاثنين ١٤ ذى الحجة سنة ٨٢٢.

* فيها كان التعامل في الآستانة بنقود ذهب أجنبية تسمى قزل غروش، كل ستة منها تساوى غرشًا واحدًا أسديًا.
* فيها وقف النيل عن الزيادة وارتفع سعر القمح، واستمر توقفه أيامًا فنادى السلطان في القاهرة بصوم ثلاثة أيام، فلم يزد شيئًا، فخرج السلطان والخليفة والقضاة وصلوا صلاة الاستسقاء فزاد النيل في ثاني يوم ١٢ إصبعًا، واستمر إلى أن وفى، وكان شحيحا فروى نصف الأرض وعطش النصف، وحصل الغلاء.

البهنسة خلفة، فلما رآهم جركس ترفع الى الواحات، فمكث بها أياما قلايل الى أن انقطع خبره ورجع على بيك هو وجماعة الصناجق والاغوات الى مصر.

وكان دخولهم الى مصر يوم الاثنين تاسع عشر جماد الثاني سنة ١١٤٢[١]، وكان مدة غيابه خلف جركس وهو ساعة بالبحيرة وساعة بالبهنسة، ومكث ماية وثلاثة وستين يوما واجتمع على سيده.

ثم أن زين الفقار ألبس كرك سمور على جوخ فتنة الى سالم بن حبيب وصار يفتخر به في مصر، وألبس أخاه سويلم كرك سمور على جوخ أخضر وأوكبا بالكركين فسار بهما[٢] الى باب الفتوح ونزلا باتا عند معارفهما.

ثم أن في ثاني يوم سافر دجوة، وفي يومها الذى هو عاشر جماد آخر سنة ١١٤٢[٣]. توفي الشيخ محمد أبو النور ودفن في بيته الذى بباب الخرق، وسافر اسماعيل بيك الى ولايته جرجة، وكذلك على بيك الوزير سافر الى كشوفية منفلوط والمنية. ثم أنهم عملوا حساب باكير باشا وأرادوا أن يحبسوه في قصر يوسف، ففهم منهم ما أرادوا، فكان أفرس منهم، فركب جواده ونزل الى باب مستحفظان وأتم حسابه فيه. ومكث فيه خمسة عشر يوما الى أن

(١) ٩ يناير ١٧٣٠م. (٢) بالأصل «نساها».
(٣) ١٠ يناير ١٧٣٠م / كتب عنوان جانبي «أعرف وفاة الشيخ محمد أبو النور».

* في رجب هدم السلطان المؤيد الشيخ المحمودى جامع المقياس، ووسع عمارته، ومات قبل فراغه.

* [١ تـوت ١١٣٧ = ٢٩ اغسطس ١٤٢٠ = الخميس ١٩ شعبان سنة ٨٢٣]

* فيها اكتشفت البرتغال جزائر ماديرا، ومكتشفاها هما تريستان فاز وزاركو.

* ١ يناير ١٤٢١ = ٦ طوبه ١١٣٧ = الأربع ٢٦ ذى الحجة سنة ٨٢٣.

* في ٩ محرم كانت وفاة السلطان الشيخ المحمودى، فتسلطن بعده على مصر ولده أحمدو وتلقب بالمالك المظفر.

* فيها كانت وفاة السلطان محمد خان جلبى، وعمره: ٤٣ سنة، ومدة سلطنته ثمان سنين، فتسلطن بعده ولده السلطان مراد خان الثاني. * فيها زاد النيل زيادة مفرطة، واستمر لغاية هاتور، ولم يعهد قط ذلك في الإسلام، فحصل للناس ضرر عظيم.

* ١ تـوت ١١٣٨ = ٢٩ اغسطس ١٤٢١ = الجمعة ٢٩ شعبان سنة ٨٢٤.

* في شوال تخلى الملك المظفر عن السلطنة لوصيه وحميه سيف الدين، الملقب بالملك الظاهر.

* في ذى الحجة توفي الملك الظاهر، فبويع ابنه ناصر الدين، ولقب بالملك الصالح.

* ١ يناير ١٤٢٢ = ٦ طوبه ١١٣٨ = الخميس ٧ محرم سنة ٨٢٥.

* فيها زاد النيل في يوم واحد ٥٠ إصبعًا، واستمرت الزيادة إلى

أتم حسابه على وجه الحق بمساعدة عثمان جاويش وخلاصه من زين الفقار بيك والا كان مراد زين الفقار أن يبطش به ثم أنه نزل من باب مستحفظان الى بيته لأجل مايشهل مصالحه وصار الرزنمجي يعمل حسابه فكمل جميع حسابه قبل ورود عبدالله باشا الكيرلى، ونزل الى قبة العزب صحبة قاضى مكة وعمل له زين الفقار بيك عزومة بقصره الذى(*) ببركة الحاج، وسافر الى السويس لورود الخط بتوليته جدة محل محمد باشا لوفاته بجدة ولم يحج، وكان سفره في ربيع أول سنة ١١٤٢(١). وسافر اسماعيل بيك أبن الدالي بالخزينة في احد وعشرين رجب(٢).

ثم أن بعدما سافر اسماعيل بيك بالخزينة العامرة واذا بالاخبار المتواردة بنزول جركس الى البهنسة وضربه في البلاد ونهبها وقتل أهلها، وحوشه في المراكب المقلعة والمحدرة وقطع الجالب عن أهل مصر فغلت الحنطة وقد حصل الى اهل القاهرة تذكير زايد في أذيه هذا الرجل في خلق الله تعالى، وتقدم انه أنزل له أربع تجاريد حتى أنهم زهقت نفوسهم منه وكلما تنزل له تجريدة يهرب منها ولم يقابلها وقد صار لهم عدوا كبيرا. فلما وردت الأخبار بنزول جركس من ألواح وأنه بيربع خيله في البهنسا أعرضوا الأمر على عبدالله باشا الكبرلى فأمر

(*) بالأصل «بقصر التى».
(١) أكتوبر ١٧٢٩م.
(٢) ٩ فبراير ١٧٣٠م.

نصف هاتور، ولم يهبط، فحصل منه غاية الضرر للفلاحين، وتأخر الزرع عن أوانه.

* في ربيع ثان خلع الملك الصالح، خلعا وصيه برسباى فبويع له في ٨ منه، ولقب بالملك الأشرف.

* فيها كانت الحرب بين الامبراطور مانويل والسلطان مراد، الذى سار وحاصر القسطنطينية، وتحت إمرته مائتا ألف نفر، فقاومتهم المدينة لأنها كانت منيعة وأسوارها حصينة، فتركها السلطان وتوجه إلى آسيا لتسكين الفتنة التى أضرم نارها الأروام.

* ١ تـوت ١١٣٩ = ٢٩ اغسطس ١٤٢٢ = السبت ١١ رمضان ٨٢٥.

* ١ يناير ١٤٢٣ = ٦ طوبه ١١٣٩ = الجمعة ١٨ محرم سنة ٨٢٦.

* فيها عقد مجلس للتكلم في الفلوس، فاستقر الأمر على أن نودى عليها أن الخالصة كل رطل بسبعة دراهم والمخلوطة كل رطل بخمسة دراهم، وحصل من الباعة فى ذلك منازعة، ثم نودى على الفلوس، فسكن الحال ومشى ورخص سعر القمح جداً.

* ١ تـوت ١١٤٠ = ٣٠ اغسطس سنة ١٤٢٣ = الاثنين ٢٣ رمضان سنة ٨٢٦.

* فيها ابتدأ الملك الأشرف بناءجامع الأشرفية تجاه سوق العطارين.

* فيها حصلت تجارب في إمكان النقش والرسم على الخشب والنحاس في فلورنسة.

* ١ يناير ١٤٢٤ = ٥ طوبه

بتجهيز تجريدة اليه. وفى الحال ألبس ثلاث قفاطين أحدها الى رضوان بيك، والثانى الى مصطفى بيك أبو لفيه، والثالث الى على أغا أغة الجملية وكتبوا خمسماية عسكرى وأعطى كل واحد خمسة زنجرلى وعين العرب، وسافرت التجريدة من قدم النبى ثالث عشرين رجب ثم أن زين الفقار بيك أرسل الى سالم بن حبيب بأنه يسير الى البحيرة فسار ثالث يوم، فلما رحلت الصناجق الى البهنسة وجدوا أحمد بيك الأعسر قد مات بالحمى ودفن بالبهنسة[١]. فلما تلاقت العساكر ظفر جركس بالعسكر وجاء مزراق فى حنك مصطفى بيك أبو لفية فجرحه جرحا بالغا، وهربت التجريدة الى مصر مكسورة ومكث مصطفى بيك يداوى نفسه ستين يوما. ومسك على آغا آغة الجملية وقيل أنه حطه فى محارة الصباغ التى يحط فيها النحاس وحرقه وأخذ جميع من كان معهم من جمال وثقل وأما على آغا الجملية، فكان رجلا حليما عاقلا رحمة الله عليه وغفر ذنبه، ومات عثمان آغا أخو زين الفقار بيك رحمه الله تعالى،وكذلك سعيد العبد فارس الخيل رحمه الله، وأنما كان أخذه فى على آغا وحرقه بعد موته لأنهم أتوا به من تحت أرجل الخيل، وما فعل به هذه الفعلة ألا لكون أنه كان كتخدا زين الفقار بيك فعزله من كخاويته وعمله أغة الجملية فهذه حرارته منه. وأما عثمان أخو زين الفقار فانه لا يعرفه فلو عرفه لفعل به أكثر من على آغا، وأما رضوان بيك فانه ما رجع الا بعد رجوع

(١) كتب عنوان جانبى «أعرف موت أحمد بيك الأعسر ودفنه بالبهنسة بالحمة»

١١٤٠ = السبت ٢٨ محرم ٨٢٧.

* فيها أنشأ الملك الأشرف جامع الأشرفية بالأشرفية. * فيها صار هدم منارة جامع الأزهر، حيث مالت وكادت تسقط، ثم أعيدت.

* في شوال ابتدئ في عمل الصهريج الموجود بوسط جامع الأزهر.

* ١ تـوت ١١٤١ = ٢٩ اغسطس سنة ١٤٢٤ = الثلاث ٣ شوال ٨٢٧.

* فيها أنشأ الأمير جانبك الدوادار جامع جانبك، بشارع المغربلين.

* ١ يناير ١٤٢٥ = ٦ طوبه ١١٤١ = الاثنين ١٠ صفر سنة ٨٢٨.

* فيها نودى على الفلوس كل رطل باثنى عشر درهماً، وقد قلت، فصار الرغيف بدرهم فضة.

* فيها حصلت زلزلة بمصر.

* ١ تـوت ١١٤٢ = ٢٩ اغسطس ١٤٢٥ = الأربع ١٤ شوال سنة ٨٢٨.

* فيها كان سعر الذهب البندقى كل مشخص بمائتين خمسة وعشرين درهماً.

* ١ يناير ١٤٢٦ = ٦ طوبه ١١٤٢ = الثلاث ٢٠ صفر سنة ٨٢٩.

* فيها عقد مجلس استقر الأمر فيه على ابطال التعامل بالدنانير البندقية. * فيها فتح الملك الأشرف قبرس، وحضر ملكها بين يديه ذليلا حقيراً، فتحسن عليه وأعاده إلى ملكه، وجعل عليه ضريبة يرسلها كل سنة.

مصطفى بيك بثلاثة أيام فحصل لزين الفقار بيك غم زايد قوى لعدم وقوفه [أى جركس] قدام العسكر الا يستقبل وينزل يضرب وينهب فاذا رأى الرجل ثقيلة هرب، وان كانت العسكر خفيفا قابلهم فصار يهرب من البحيرة الى البهنسة وهلم جرى الا أن أعيى الخلق وأتعب الأكابر والأصاغر فهم فى هذا الكلام واذا بأغا من الديار الرومية ورد وبيده خط شريف قرى بالديوان مضمونه طلب الفين عسكرى الى بلاد الحجاز معينين على عرب حرب بن مضيان بأرض المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام وأن يكون صنجقها على بيك تابع محمد بيك أمير الحاج، فعملوا جمعية من جهة على بيك فاقتضى أمرهم باطلاع العلماء بأن على بيك يتوجه الى جركس يرد هذا العدو الكبير، وأن يكون مسافرا الى عرب حرب ابن مضيان محمد بيك بن درويش فاعلموا الوزير فكان كذلك. فبعد خمسة عشر يوما واذا بأغا أتى بابطال السفر الى عرب حرب وأهتموا باخراج التجريدة وهى تاسع تجريدة خرجت الى محمد بيك جركس.

ثم ان الباشا حصل بينه وبين أهل مصر غم كبير كون أن عندهم الولس، فى هذا الامر. ثم أنه طلع الى قدم النبى يوم السبت تاسع شعبان سنة ١١٤٢(١). وأقسم لابد من رواحه الى هذا الخارجى(٢). ويتبعه الى اين يروح ولو يروح الى سد ياجوج وماجوج فطلع جميع الناس

(١) ٢٧ فبراير ١٧٣٠م.

(٢) بالأصل «الخارجين» والمقصود به محمد بيك جركس.

* ١ تـــوت ١١٤٣ = ٢٩ اغسطس سنة ١٤٢٦ = الخميس ٢٤ شوال سنة ٨٢٩.

* فـيـهـا ـ لتـوقف النيل ـ أجـدبت الأرض وعطشـت جـدًا، ووقع الغلاء.

* ١ يناير سنة ١٤٢٧ = ٦ طوبه ١١٤٣ الأربع ٢ ربيع أول سنة ٨٣٠.

* فيـهـا رصـد أولغ بك مـيل الكسـوفيـة فـوجـده: ٢٣ درجة و ٣٠ دقيقة و ١٧ ثانية.

* فيها انتصرت الدانيمارقيون على الانجليز فى مونتارجيز.

* فيها انتزع السلطان مراد الثانى اقليم الصرب من القرالات المتسلطة عليه.

* ١ تـــوت ١١٤٤ = ٣٠ اغسطس ١٤٢٧ = السبت ٧ ذو القعدة سنة ٨٣٠.

* فيها نودى بابطال المعاملة البندقيـة والملكيـة، وأخـرجت الدنانير الأشرفية. * فيها زاد النيل فى أول يوم من مسرى ٢٤ إصبعًا دفعة واحدة.

* ١ يناير ١٤٢٨ = ٥ طوبه ١١٤٤ = الخميس ١٣ ربيع أول سنة ٨٣١.

* ١ تـــوت ١١٤٥ = ٢٩ اغسطس ١٤٢٨ = الأحد ١٨ ذو القعدة سنة ٨٣١.

* فيها نودى على الفلوس أن يباع الرطل المنقى منها بثمانية عشر درهمًا، ورسم للشهود أن لا يكتبوا وثيقة فى معاملة أو غيرها إلا بأخذ النقدين الذهب والفضة دون غيرهما.

* ١ يناير ١٤٢٩ = ٦ طوبه ١١٤٥ = السـبت ٢٤ ربيع أول ٨٣٢.

* فيها توقف النيل بعد الوفاء وهبط سريعًا فشرق غالب البلاد

حتى الاغوات الطواشية وعمل ديوانا بقـدم النبـى، واجتـمع جميع الصـناجق والاغـوات وقـال لابد من رواحى لهـذات الخاين، ثم أنهم أخـذوا خـاطره وقـالوا له: لا يمكن رواحـك ونحـن موجدون.

ثم أن محمد بيك أمير الحاج تقدم له، وقال: دولتلى وزير أنا أقضى هذه الخدمة، فدعا له عبدالله باشا وألبسه قفطانا وكذلك على بيك البسه قفطانا وألبس الثلاثة أغوات ثلاثة قفاطين وألبس أغة الجاوشية وأغاة المتفرقة ومحمد كتخدا المنلا سردار على طايفة الانكشارية وابراهيم كتخدا عزبان بن أحمد كتخدا أمين البحرين سردارا على طايفة عزبان وعثمان بيك ومصطفى بيك أباظة وأعيان الأوجاق السبعة ومن جملتهم أحمد كتخدا الخربطلى.

وسافروا من قدم النبى سابع شعبان(١)، وعدى عبدالله باشا الى الجيزة يوم السبت سابع شعبان، فلما سافر العسكر رجع من يومه الى قدم النبى، ومكث فيه أربعة عشر يوما، ثم أن زين الفقار بيك والدفتردار أقسموا عليه أن يطلع الى السراية، فطلع فى أحدى وعشرين فى شعبان(٢).

ولما سافر العسكر الى البهنسة كان سالم بن حبيب وعرب الجزيرة والعشير سافروا قبلهم

(١) ٢٥ فبراير ١٧٣٠م.

(٢) ١١ مارس ١٧٣٠م.

ووقع الغلاء، ولما اشتد الأمر توجه الأشرف برسباى إلى الآثار النبوية فزار ودعا الله بالزيادة.

* ١ تـوت ١١٤٦ = ٢٩ اغسطس ١٤٢٩ = الاثنين ٢٨ ذو القعدة سنة ٨٣٢.

* فيها حصل وباء في مصر مات فيه أمير المؤمنين المستعين بالله أبو الفضل العباسي.

* فيها كان ظهور سان جان دارك، ابنة فرنساوية، لمحاربة الانكليز وتخليص بعض أقاليم فرنسا.

* ١ يناير سنة ١٤٣٠ = ٦ طوبه ١١٤٦ = الأحد ٥ ربيع الثاني سنة ٨٣٣.

* فيها وجد في النيل ـ قبل الزيادة ـ أسماك طفت على وجه الماء ميتة وقد صبغت بالدم الأحمر، فكان بعدها الطاعون.

* في ٢٦ رجب ولادة السلطان أبي الفتح محمد خان.

* ١ توت سنة ١١٤٧ = ٢٩ اغسطس ١٤٣٠ = الثلاث ٩ ذو الحجة سنة ٨٣٣.

* ١ يناير ١٤٣١ = ٦ طوبه ١١٤٧ = الاثنين ١٦ ربيع الثاني سنة ٨٣٤.

* فيها كانت زلازل عظيمة في لشبون. * فيها تتويج هنرى السادس ملك انكلترا ملكا على الفرنساويين، وهو في باريس.

* فيها حرّج الأشرف برسباى على الباعة أن لا يتبايعوا إلا بالدراهم الأشرفية التي كل درهم منها بعشرين من الفلوس.

* في شوال نودى بمنع المعاملة بالفضة التركية وبأن الدينار الذهب الأشرفي بمائتي درهم نحاسا.

يوم فاجتمعوا هم واياه عند مقابلتهم بجركس فرمحوا عليه وتقاتلوا هم واياه يوما بطوله وأخذوا منه أربع رءوس من جماعته ووقع في محارب وخويلد الذى صحبته نحو أربعين نفسا، فانفصلوا عند دخول الظلام. فلما طلع النهار لم يجدوا له أثر فساروا خلفه فوجدوه نازلا في مريوط ووجدوا حسين بيك قد عوفي من جرحه وهو قاعد في دمنهور وعنده سليمان بيك الفراش كاشف المنوفية وأحمد بيك كاشف الغربية، ثم أن[١] التجريدة باتت تلك الليلة عندهم وفي ثاني (يوم)[٢]. ساروا جميعا الى مريوط بمجرد ما رآهم (جركس) لم يكشرث بهم، في ثاني يوم لم يجدوه فلما لم يجدوه تبعوه الا ثلاثة كشاف لم يسيروا خلفه بل قعدوا في البحيرة لئلا يرجع ثم أن على بيك ومحمد بيك ساروا خلفه فوجدوه نزل على ابن جزم فنزلوا بالقرب منه.

ثم أن على بيك أرسل يخبر زين الفقار بيك بتلاعب جركس وهروبه من محل الى محل وعدم ثبوته في محل واحد، وأنه لم يقع بيننا وبينه مقاتلة الا فرد مرة وهذا أمر يطول على والدكم أمير الحاج والوقت أزف عليه لطلوع الحاج الشريف والمرجو من عالى همتكم تأخذوا له فرمانا بالرجوع لأجل تشهيل الحاج، وأما نحن فاننا خلفه أينما راح ولا يكون عندك تكدير

(١) مكرر بالأصل.

(٢) الاضافة لتوضيح المعنى.

* ١ تـوت سـنـة ١١٤٨ = ٣٠ اغسطس ١٤٣١ = الخميس ٢١ ذو الحجة سنة ٨٣٤.
* فيها فتحت العثمانيون يانينه.
* فيها كانت محاكمة سان جان دارك واعدامها حرقا، أحرقها الانجليز.
* ١ يناير ١٤٣٢ = ٥ طوبه سنة ١١٤٨ = الثلاث ٢٦ ربيع الثاني سنة ٨٣٥.

* ١ تـــوت ١١٤٩ = ٢٩ اغـسطـس ١٤٣٢ = الجـمـعـة ٢ محرم سنة ٨٣٦.

* فيـهـا قلد الملك الأشـرف برسباى نيابة الرها إلى أبي النصر إينال العلائي، الذى صار سلطانا على مصر في سنة ٨٥٧. * فيها كـان الذهب الأشـرفي بمائتين وسبعين.
* ١ يناير سنة ١٤٣٣ = ٦ طوبه سنة ١١٤٩ = الخـمـيس ٩ جماد أول ٨٣٦.
* فيـهـا، بعـد أن زاد النيل، نقص قبل الوفاء ست أصابع، ثم رد النقص.
* في شـعـبـان كـان سـعـر القمح كل أردب ونصف مصرى بدينار ذهب أشرفي والأردب بستة دراهم فضة.

* ١ تـــوت ١١٥٠ = ٢٩ اغسطس سنة ١٤٣٣ = السبت ١٢ محرم سنة ٨٣٧.
* ١ يناير ١٤٣٤ = ٦ طوبه ١١٥٠ = الجمعة ١٩ جماد أول سنة ٨٣٧.
* قـد زاد النيل في هذا العام الهـجـرى مرتين، أحـداهمـا في أوائل السنة، والثانية في أواخرها، ثم إنه زاد بعـد الوفـاء بيـوم ٨ أصـــابع، ثم في ثالث يوم من

خاطـر من هـذا الطرف، فأرسل يقول: قد أخذنا له الفرمان وهـو واصـل لكم صحبة أغـة الوزير ولا يكون عندكم تقصير في هذا الأمر. فلما وصل له الفرمان فارقهم أمير الحـاج ورجع الى مصـر وكرنك على بيك والتجريدة في مقابلته ، ودخل محمـد بيك الى مصـر خامس رمضان.

ومن اعجب العجاب أن بالمارستان(١) رجل يقال له الشيخ رضوان، ولكن من أولياء الله تعالى، جالسا بالشباك المقابل للداخل من بابه له في ذلك المحل أثنين وثلاثين عامًا لم يخرج منه ولم أحـد رآه خـرج من بابه مطلقـا، ولا نفس خـدمـة المحـل وأنما تدخل الناس تزوره وتطلب منه الدعاء فيروه جالسا بالقميص الأزرق شتا وصيفا،و في أقدامه المركوب الأحمر دايما وقعاده على عجزه وأقدامه الاثنين على الأرض وركبتاه منـقامة الى صدوره ويديه فوق ركبتيه والدواية بيده ففي بعض الأوقات يعمل ملاطفة، وفي بعضها لم يتكلم وأن أتاه الوزير، وفي بعض الأوقات يضع يديه على ركبتيه ويدخل رأسه بينهما وتراه يلبس المركوب أحمر جديد فما يمكث جمعة حتى يذوب فما ترى الا وواحدا خلافه قد أتاه مع عدم خروجه من هذا المحل.

(١٥) بالأصل «لكن» مشطوبة، كتب عنوان جانبي «أعرف الولى الذى بالمرستان الشيخ رضوان».

الوفاء زاد ١٥ إصبعا، وعدت هذه الزيادة من النوادر.

* ١ توت سنة ١١٥١ = ٢٩ اغسطس ١٤٣٤ = الأحد ٢٣ محرم سنة ٨٣٨.

* فيها راجت الفلوس التى ضربها السلطان عن كل درهم ثمانية عشر عدد منها، وكان صرف الدينار بسبعة وعشرين درهما.

* ١ يناير سنة ١٤٣٥ = ٦ طوبه ١١٥١ = السبت ٣٠ جماد أول سنة ٨٣٨.

* فيها ـ فى أول مسرى ـ نودى على النيل بزيادة ٥٠ إصبعا.

* ١ توت ١١٥٢ = ٣٠ اغسطس ١٤٣٥ = الثلاث ٥ صفر سنة ٨٣٩.

١ يناير سنة ١٤٣٦ = ٥ طوبه سنة ١١٥٢ = الأحد ١١ جماد الثانى سنة ٨٣٩.

* فيها صار طرد الانجليز من باريس.

* فيها أنشأ القاضى يحيى زين الدين الاستدارى جامع القاضى يحيى عند قنطرة الموسكى.

* ١ توت ١١٥٣ = ٢٩ اغسطس ١٤٣٦ = الأربع ١٥ صفر سنة ٨٤٠.

* ١ يناير ١٤٣٧ = ٦ طوبه ١١٥٣ الثلاث ٢٢ جماد الثانى سنة ٨٤٠.

* فيها كان دخول كارلوس السابع باريز، وحصل بها قحط أيضا.

* ١ توت ١١٥٤ = ٢٩

ففى يوم الاثنين سادس رمضان(١)، واذا به قد فتح الباب وخرج على خدمة المحل فما قدر أحد يقول له الى(٢) أين رايح وكان الله قد الجمهم بلجام، وهو يعيط ويصرخ ويقول هاتوا لى جوادا وسيفا حتى أروح اخلص بلدى من المكافيت وأقتل هؤلاء الكلاب وهم رايحين يأخذوا بلدى منى بالغصب يكفى وأنا صابر. ثم أنه نزل من سلالم المارستان من الباب الذى هو مقابل الصالح فرأى حمارا فركبه، وقال لصاحبه : أنت تعرف وسيم فقال: نعم أعرفها سوق من هنا ثم أنه ساق به الى باب النصر وأنا خلفه فوقف على عتبة الباب وقال للحمار: ارجع بنا فانى طردتهم وخلصت بلدى منهم. ثم أنه رجع ودخل الى محله وقعد فى الشباك ثم انه طلع ثانى يوم وثالث يوم ولم يطلع بعدها.

ثم أن على بيك ومصطفى بيك وعثمان بيك والثلاث أغوات الاسباهية ومحمد كتخدا المنلا. وابراهيم كتخدا سردار العزب وبقية السبع أوجاق والتجريدة وسالم بن حبيب ساروا من كرداسة يوم رابع عشر رمضان الى أن نزلوا على أبى جرج(٣).

فلما نزلوا أخذوا يحفروا الأرض بينهم وبين أعدايهم فيعملوه مثل الخليج بين الوطاقين يقال

(١) ٤ أبريل ١٧٣٠م.
(٢) كرر الحرف بالأصل.
(٣) أبو جرج: احدى القرى القديمة، التابعة لمركز بنى مزار، محافظة المنيا، محمد رمزى، المصدر السابق، قسم ٢ جـ٣، ص ٢٠٩.

اغسطس ١٤٣٧ = الخميس ٢٦ صفر ٨٤١.

* ١ يناير ١٤٣٨ = ٦ طوبه ١١٥٤ = الأربع ٤ رجب سنة ٨٤١.

* فى ١٣ الحجة توفى الملك الأشرف، بعد أن حكم ١٧ سنة و ٨ أشهر و ٦ أيام، وسنة ٦٠ سنه، فبويع ابنه جمال الدين يوسف، ولقب بالملك العزيز.

* فيها حدث وباءعظيم بمصر (طاعون).

* ١ تـوت ١١٥٥ = ٢٩ اغسطس ١٤٣٨ = الجمعة ٨ ربيع أول سنة ٨٤٢.

* فى أول مسرى أمطرت السماء مطراً غزيراً ووقف النيل عن الزيادة ثم زاد حتى وفى.

* فى ١٩ ربيع أول عزل الملك العزيز، وبويع أتابك جيشه سيف الدين جقمق، ولقب بالملك الظاهر.

* ١ يناير ١٤٣٩ = ٦ طوبه ١١٥٥ = الخميس ١٥ رجب سنة ٨٤٢.

* ١ توت سنة ١١٥٦ = ٣٠ اغسطس ١٤٣٩ = الأحد ١٩ ربيع أول ٨٤٣.

* ١ يناير ١٤٤٠ = ٥ طوبه ١١٥٦ = الجمعة ٢٥ رجب سنة ٨٤٣.

* فيها انهزام السلطان مراد الثانى فى رودس.

* فيها تسلطن فريدريك الثالث على ألمانيا. * فيها اكتشف نونوتريستان البورتغالى الرأس الأبيض.

* فيها أنشأ الدوادار تغرى بردى جامعه الذى يقال له المؤزى، بشارع الصليبه، وبرأس درب جميزه.

له بلسان الروم ستريز فيصير من طرف العدو واطى ومن طرفهم عالى فيقفوا وراه لأجل رمى الرصاص فيصير رصاصهم واقعا فى عدوهم ورصاص عدوهم واقعا فى الحاجز الذى ين يديهم. فاذا أراد العدو أن يدهمهم فلا يمكن من هذا الجبل الذى بينهم والرصاص خلفه. فمكثوا ثلاثة أيام وهم يحفرون الأرض التى(*) أصلحوا حالها وصارت المقابلة العدو حصن منيع وفى اليوم الرابع قاموا ينظروا العدو فلما يجدوا له أثرا فقال على بيك: لاحول ولا قوة الا بالله للعلى العظيم، ثم أن على بيك سار خلفه فتبعته التجريدة الى نحو البحيرة هذا ما جرى..

اسمع أنت ما جرى فى مصر والقاهرة من الأمر الذى لم يقع فى غيرها من بلاد الله تعالى ولم يسمع أبدا ولا فى الجاهلية وذلك أنه لما حصل ما حصل من قضية سليمان بيك وقتلهم فيه وهروب جركس ورواحه الى البحيرة تفرقت عنه جماعة اسماعيل بيك ابن ايواظ ودخلوا مصر ليدبروا أمر فى خلاص ثأرهم ممن قتل سيدهم فاجتمع أمرهم على أنهم يدخلوا فى بيت زين الفقار بيك ويقتلونه فى بيته كما قتل سيدهم فى ديوان السلطان، فجمعوا بعضهم وكانوا نحو المائتين وأتوا برجل وألبسوه لبسا كلبس أوضباشية البوابة بالعمامة القلان وألبسوه طوقا وضموا اليه نحو ستين رجلا وبايديهم النبابيت، وأرسلوا رجلا من جماعة زين الفقار بيك من

(*) بالأصل «الذى».

* ١ توت سنة ١١٥٧ = ٢٩ اغسطس ١٤٤٠ = الاثنين ٣٠ ربيع أول ٨٤٤.
* فيها أنشأ جوهر المنجكي جامع جوهر بشارع الخباله تحت القلعة.
* فيها كان اختراع فن الطباعة.
* ١ يناير سنة ١٤٤١ = ٦ طوبه ١١٥٧ = الأحد ٧ شعبان سنة ٨٤٤.
* فيها زاد النيل في ٤ بؤنه زيادة مفرطة فغرقت الأمكنة وحصل الضرر، وانتهت الزيادة إلى عشرين إصبعا من عشرين ذراعا بدون أوان واستمرت متابعة إلى أن وفى.

* ١ توت سنة ١١٥٨ = ٢٩ اغسطس ١٤٤١ = الثلاث ١١ ربيع الثاني سنة ٨٤٥.
* ١ يناير ١٤٤٢ = ٦ طوبه ١١٥٨ = الاثنين ١٨ شعبان ٨٤٥.
* فيها رد السلطان مراد الثاني إقليم الصرب إلى القرالات [الملوك] التي كانت متسلطة عليه.
* فيها توفى الإمام المعتضد، وأوصى بالخلافة بعده لأخيه، فبايعوه ولقبوه بالمستكفي بالله.

* ١ توت ١١٥٩ = ٢٩ اغسطس ١٤٤٢ = الأربع ٢١ ربيع الثاني سنة ٨٤٦.
* فيها تعصبت العبيد في بر الجيزة وأقاموا لهم سلطانا ووزراء، فصار القبض عليهم وبيعهم في المملكة العثمانية. * فيها تولى أبو النصر إينال نيابة صفد.
* ١ يناير سنة ١٤٤٣ = ٦ طوبه سنة ١١٥٩ = الثلاث ٢٨ شعبان ٨٤٦.

الذين يتعاطون خدمته، ومعروفا عنده يقال له عثمان وكان من اتباع صالح كتخدا عزبان، فلما توفي خدم عند زين الفقار بيك فجعله مشدا على الجامع الأزهر وصار يخدم عنده ينصح وينفعه فقدمه عنده ثم أنهم أغروه وقالوا له: ان تم هذا الأمر اعطيناك ما تريد من المناصب وقروا معه الفاتحة على أنه معهم. ثم أنهم أرسلوه أمامهم يخبر زين الفقار بيك بأن أوضباشية البوابة قد ظفر بسليمان أغا أبو دفية وقد مسكه وها هو أتى به وسبقهم ودخل بيت زين الفقار لأمر يدبره الله، فلم يلتق أحدا في الحوش من الخدم ولا من السراجين، وكل منهم قاعد في محله لأن هذا الأمر كان بين المغرب والعشاء وكل أحد مشغول بشرب القهوة والدخان والوضوء، فطلع المقعد فلم ير فيه أحدا الا قاسم الشرايبي وابراهيم آغا المتفرقة ويوسف جاويش المناوى المحتسب سابقا والآن معمار باشا، فسأل عن الصنجق فأخبروه بأنه في خزنة المقعد يتوضأ، فدخل عليه فرآه قاعد على الكرسي والولد ماسك الابريق فقال له: يا بيه أوضباشية البوابة قد مسك سليمان آغا أبو دفية من قنطرة أمير حسين فبطل وقال: أين هو؟ ووقع هذا الكلب؟ واذا بالأوضباشا داخل عليه وأربعة أنفار ماسكين واحدا وهو مغطى الرأس. فلما رآه قال: شيلوا هذه الدفية التي على رأسه فكشفوا الدفية من على رأسه واذا قد ظهر من تحتها خليل آغا تابع الجزار وأخو زوجته وبيده طبنجة منقامة الزناد فاسيبها في صدره فخرجت من ظهره وضربه يوسف بيك الخاين بشيش كان في يده فسحب زين الفقار الخنجر وضربه

* فيها تعب السلطان مراد من أعباء السلطنة فخلعها على ولده السلطان محمد الثانى، وانقطع السلطان مراد للعبادة فى تكية مانيسا وانتظم فى سلك الدراويش ففسخت الفرنج الهدنة بتحريض ملك القرمان فجبر السلطان مراد على الخروج من التكية والعود إلى المملكة حيث رآها عرضة للأخطار.

* ١ توت سنة ١١٦٠ = ٣٠ اغسطس ١٤٤٣ = الجمعة ٤ جماد أول سنة ٨٤٧.

* ١ يناير ١٤٤٤ = ٥ طوبه ١١٦٠ = الاربع ١٠ رمضان سنة ٨٤٧.

* فيها انشأ الأمير أرغون الإسماعيلي جامع أرغون بشارع الناصرية، تجاه درب القرودى.

* فيها قصد السلطان مراد الأعداء بجيش يبلغ ستين ألفا، وكان أمامه رمح موضوع فى أعلاه ورقة الهدنة.

* ١ توت ١١٦١ = ٢٩ اغسطس ١٤٤٤ = السبت ١٤ جماد أول سنة ٨٤٨.

* فى ٢٨ رجب تلاقى السلطان مراد بعساكر المجر وانتصر عليهم فى وارنه، وقتل فى المعركة لادسلاس ملكهم، فتولى بعده وستروسيا، وكان قاصرا، فتولى هونياد مسر عسكرية الجيوش المجرية والنيابة عنه فى المملكة مدة اثنى عشرة سنة، ولما انتصر السلطان مراد خلع السلطنة على ابنه السلطان محمد الثانى وعاد إلى التكية وتزيا بزى أهلها، فلم تقره الانكشارية، وجبر السلطان مراد على العود ثانيا وتسيير جنوده نحو بلاد الارنؤد.

الخاين فجاءته الضربة فى كتفه فغار الخنجر الى قبضته وفرغت فيه بقية الجماعة وخرجوا واذا بالخزندار على أتى مسرعا ينظر ما الخبر، فضربوه نحو عشرة طبانجات، فما حم فيه شئ فضربوه بالسيف فجرح من يده ورجله وفر هاربا. فلما سمع الجماعة الذين فى المقعد القرش وحس الطبانجات ورأوا الجماعة طالعين واذا بباش السراجين الشتوى طالع عليهم وهو يجرى ويقول ايش الخبر. واذا بالسيوف واقعة فيه، فقطعوه وضربوا يوسف جاويش المعمار بالسيف فجاءه لطش على وجهه، فأخذ جبهته ولحيته ولم يبق منها شيئا وصار وجهه عظما من غير جلد و أما قاسم الشرايبى وابراهيم فنطوا من المقعد الى الجنينة فانكسرت أرجلهم، ومكثوا مدة يداوون أنفسهم بالمجبرين نحو أربعة أشهر ويوسف المعمار مات فى ثانى يوم ثم ان الغز نزلوا الى الحوش واذا بعلى بيك الوزير داخل عليهم فقطعوه وخرجوا على حمية وركبوا خيولهم وطلعوا الى الخلا نحو المائة والعشرين جماعة ايواظ المعروفين وأما الذين غير معروفين توارورا فى محلاتهم وأنهم سافروا الى ابى زعبل الى عرب الصوالحة . ثم أنهم حفروا حفر وقادوا فيها النار وأخرجوا النار منها وعروا يوسف الخاين ورقدوه فيها وردوا عليه الرمل، فلما حمى جسده طلع نصل الخنجر من كتفه لأنه انحاش النصل وطلعت القبضة فى يد زين الفقار وقتل[1] بهذا الجرح. ولم يقل زمامها ضعيف وأن خليلا هذا كان مملوكا إلى محمد بيك

(١) بالأصل «قاتل» فى تفاصيل الحادث انظر: الجبرتى: عجايب الآثار جـ١ ص٣٩٨ وما بعدها.

* ١ يناير سنة ١٤٤٥ = ٦ طوبه ١١٦١ = الجمعة ٢١ رمضان سنة ٨٤٨.
* فيها وقع طاعون عظيم مات به كثير من الأغراب، وجاء بعده غلاء بيع فيه الأردب من القمح بخمسة أشرفيات إلى سبعة، وغلا سعر كل شيء في سائر البلاد المصرية.
* ١ توت ١١٦٢ = ٢٩ اغسطس ١٤٤٥ = الأحد ٢٥ جماد أول سنة ٨٤٩.
* ١ يناير سنة ١٤٤٦ = ٦ طوبه ١١٦٢ = السبت ٢ شوال سنة ٨٤٩.
* فيها غرق مائة ألف نفس من هولاندة بسبب طغيان البحر.
* ١ توت ١١٦٣ = ٢٩ اغسطس سنة ١٤٤٦ = الاثنين ٦ جماد الثاني ٨٥٠.
* ١ يناير سنة ١٤٤٧ = ٦ طوبه ١١٦٣ = الأحد ١٣ شوال سنة ٨٥٠.
* فيها ولد السلطان بايزيد الثاني ابن السلطان أبي الفتح محمد خان.
* ١ توت ١١٦٤ = ٣٠ اغسطس ١٤٤٧ = الأربع ١٧ جماد الثاني ٨٥١.
* ١ يناير ١٤٤٨ = ٥ طوبه ١١٦٤ = الاثنين ٢٣ شوال ٨٥١.
* فيها اكتشف كانزولوفيلو البرتغالي جزائر سوره. * فيها تولى ادارغازيس، ابن الأمير أمورمانويل، على القسطنطينية، خلفا ليوحنا بالبولوغ.

قيطاز، وكانت أخته قد اشتراها يوسف بيك الجزار وأتى منها بمحمد بيك الذى قتلوه فى رشيد، فلما هرب محمد بيك الى الديار الرومية ذهب واياه الى اسلامبول.

ثم أنه رجع الى مصر خدم عند الجزار لكون أنه زوج اخته، فلما رجع محمد بيك رجع اليه، ثم ان هذا اجتمع عنده الجماعة بعد قتل سليمان بيك والذين كانوا عند يوسف الخاين ويوسف بيك الشرايبي وأبو دفية وعلى بيك الوزير.

وسبب اجتماع على بيك الوزير: تقدم ان زين الفقار بيك ألبسه الصنجقية، وولاه منفلوط فانكسر عليه سبعة أكياس، فحبسه الصنجق في قلة مستحفظان، ثم أنه مكث فيها ثلاثة أيام وحطهم عنه[1] حسن بيك الدالي، لأنه قبي الضاشه وأنهم الاثنين، أتباع موسى بيك الخطاط.

فلما حصلت له أهانة الحبس في قلة الانكشارية مع كونه صنجقا وحلف زين الفقار أنه لا يسيبه سالما، الا اذا حط السبعة أكياس فهذا كان سبب العداوة. فربطوا، هم وأياه، على أن يفطروا في بيته، ويتوجه الى زين الفقار، فيجلس عنده ويشاغله الى حين يدخلوا عليه فيكون أول الضرب منه فما جاء الا بعد تمام الأمر، فقال خليل هذا الآخر، وأنه لم يكن معه علم لما رأى على الباب نحو ماية رجل منهم راكب، ومنهم واقف، مرتكن على بندقيته مع أن

(١) بالأصل «عنده» والصواب «عنه».

* ١ تـوت سنة ١١٦٥ = ٢٩ اغسطس ١٤٤٨ = الخميس ٢٨ جماد الثاني سنة ٨٥٢.
* ١ يناير ١٤٤٩ = ٦ طوبه ١١٦٥ = الأربع ٦ ذو القعدة سنة ٨٥٢.
* فيها غلت الأسعار حتى وصل سعر أردب القمح خمس أشرفيات، ثم تناهى إلى سبعة، وغلا كل شيء من البضائع، وبيع الرطل من الخبز بنصفين، واستمر الغلاء نحو سنتين.
* فيها أنطوى نولي الجنويرى اكتشف جزائر الرأس الأخضر.

* ١ تـوت سنة ١١٦٦ = ٢٩ اغسطس ١٤٤٩ = الجمعة ١٠ رجب سنة ٨٥٣.
* ١ يناير ١٤٥٠ = ٦ طوبه ١١٦٦ = الخميس ١٧ ذو القعدة سنة ٨٥٣.
* فيها توفى الإمام المستكفى بالله، فبويع أخوه، ولقب بالقائم بأمر الله.
* فيها دخلت النورمانديون تحت طاعة الفرنساوية.
* فيها وقف النيل عن الوفاء وبقى له أربعة أصابع، فضج الناس ومضت مسرى ولم يف، ثم نقص النيل ٣ أصابع فاشتد قلق العالم، وقد فتح السد بدون وفاء، فوقع الغلاء وبلغ سعر القمح سبعة دنانير كل أردب.

* ١ تـوت سنة ١١٦٧ = ٢٩ اغسطس سنة ١٤٥٠ = السبت ٢٠ رجب سنة ٨٥٤.
* فى شعبان أنشأ الملك الظاهر جقمق جامع لاشين السيفى بشارع مراسينه، قريب الحوض المرصود.
* ١ يناير ١٤٥١ = ٦ طوبه ١١٦٧ = الجمعة ٢٧ ذو القعدة سنة ٨٥٤.

الصنجق أخبر بأن خليل أغا يجتمع عنده جماعة من جماعة ابن ايواظ . ثم أنه أراد بعد صلاة التراويح، يهجم على بيت خليل، وأرسل عثمان المذكور الى الوالى، وأوضباشية البوابة، على أنهم بعد التراويح يأتوه البيت، فلم يروح لهم ولم يخبرهم، وأخبر الصنجق ، أنه راح لهم وخبرهم، وأنهم بعد التراويح يأتوا اليك ثم أنهم غسلوا الصنجقين وكفنوهما ودفنوهما، وذلك في يوم الخميس خامس عشرين رمضان سنة ١١٤٢(١).

ثم أن على الخزندار رأى عثمان جالس فى البيت، وكان الكلب، لم يأكل له عجين، فجاء من أخبر على الخزندار، بأن عثمان هذا كان رابطهم، وأنهم أوعدوه بأنهم يعملوه كتخدا العزب، وأعطوه خمسماية أحمر، وان الصنجق، قد أرسله للوالى، ولم يرح له وأخبر الصنجق بالكذب، ثم أن على الخزندار أرسل الى الوالى، فجاءه وساله فقال: لم يأتنى أحد. ثم ان على الخزندار أرسل يوسف كتخدا عزبان، بما أخبر به، ثم أن يوسف كتخدا أخبر الوالى، بأنه يأخذه، فسار الوالى من عند يوسف كتخدا، فهو مارر من على بيت زين الفقار بيك واذا بعثمان خارج من بيته فمسكه وادخله البوابة، وقطع رأسه فى البوابة.

فأنظر يا أخى: الى فعل الله مع شدة الحرص وأنه قد وضع مدفعين مدخرين على مسطبة الجنينة مقابلين من يدخل من الباب، فما أفاده من ذلك شئ حين فرغت حياته رحمه الله. ثم

(١) ١٣ أبريل ١٧٣٠م.

* في ٥ محرم توفى السلطان مراد خان الثاني، وسنه ٤٩سنة، ومدة حكمه ثلاثون سنة ونصف، وفي ١٦ محرم تسلطن بعده ولده السلطان أبو الفتح محمد خان.

* ١ تـوت ١١٦٨ = ٣٠ اغـسطس ١٤٥١ = الاثنين ٢ شعبان سنة ٨٥٥.

* ١ يناير سنة ١٤٥٢ = ٥ طوبه سنة ١١٦٨ = السبت ٨ ذو الحجة ٨٥٥.

* فيها كان بناءحصار [قلعة] الروم ايلي.

* ١ تـوت ١١٦٩ = ٢٩ اغسطس سنة ١٤٥٢ = الثلاث ١٣ شعبان سنة ٨٥٦.

* ١ يناير سنة ١٤٥٣ = ٦ طوبه ١١٦٩ = الاثنين ٢٠ ذو الحجة سنة ٨٥٦.

* فيها كان فتح استانبول، فتحها السلطان محمد بن مراد، وأباد مملكة الرومان. * فيها ضرب الملك الظاهر جقمق دنانير من الذهب تنقص عن الأشرفي قيراطين، وسماها الناصرية.

* في ٢٩ صفر توفي فخر الدين عثمان بن القائم بأمر الله، وقد كان تولى السلطنة بعد تنازل أبيه عنها له، وتلقب بالملك المنصور، ثم خلع بعد شهر ويوم، وقد بويع بعدها مملوك اسمه أبو النصر إينال، ولقبوه بالملك الأشرف.

* ١ تـوت ١١٧٠ = ٢٩ اغسطس ١٤٥٣ = الأربع ٢٣ شعبان سنة ٨٥٧.

* فيها كان تسليم بوردو للانجليز. * فيها كان انتهاء حرب المائة سنة. * فيها لم يبق للانجليز ملك في فرنسا سوى كاليه.

- - - - - - - - - - - - - - - - - - - -

أن حضرة عبدالله باشا في ثاني يوم عمل ديوانا، يوم موت زين الفقار، وعزل محمد بيك قطامش، من امارة الحاج، وجعله شيخ البلد، وعزل محمد بيك ابن اسماعيل بيك من الدفتدارية، وعمله أمير الحاج وعمل رضوان بيك دفتدار.

وفي ثامن عشرين رمضان(١). ألبس على الخزندار الصنجقية، وامره ان يجلس محل سيده، ووجدوا فايض زين الفقار بيك ماية وستين كيسا، فعملوا مصالحة الى الباشا عشرين ألف زنجرلي، وسكن على بيك في بيت باكير أفندى الذى بالشيخ الظلام، وتزوج بسيدته زوجة سيده، وكان زين الفقار بيك رجلا يخوف،وكان كريما مع قلة هذه الايراد، لأنه لا يكفيه كساوى على عيد الفطر للصناجق والاغوات والسبع أوجاق. وكان يعطى العلماء ستين جوخة خمسة أدرع، وثلاثة ادرع اطلاز، وله من المآثر الجنينة والحوض اللذان ببركة الحاج، والوكالة التى برأس الجودرية، التى شرع في بنايها، وقد كانت ثلاثة وكايل سكنا للقوم من الانكشارية والعزب، وكان يقع فيهم من الخطف للنساء والأولاد والبطح والعرى، فجزاه الله خيرا لقد أزال منكرا، وكانت الأولى تسمى مالطة، والاثنان يسميان(٢) الاهوانية.

وكان شارعا في بناء وكالة للتجار وسبيل ومكتب فعاجله الموت ولم يتم مراده فتم

(١) ١٦ ابريل ١٧٣٠م.

(٢) بالأصل «يسميا».

* ١ يناير سنة ١٤٥٤ = ٦ طوبه ١١٧٠ = الثلاث غرة محرم ٨٥٨.
* فيها كان بناء أسكى سراى. * فيها ارتفع سعر الذهب حتى بلغ الدينار الأشرفى ٣٧٠ درهما فلوسا.
* في ١٦ جماد أول عقدت شروط بين العثمانيين والبنادقة (الفينسيون) مقتضاها مراعاة حقوق الجوار.

* توت سنة ١١٧١ = ٢٩ اغسطس ١٤٥٤ = الخميس ٥ رمضان سنة ٨٥٨.
* ١ يناير سنة ١٤٥٥ = ٦ طوبه سنة ١١٧١ = الأربع ١١ محرم سنة ٨٥٩.
* فيها ابتدت حروب الورد في انكلترا، وهى حروب أهلية بين حزبين كبيرين.

* ١ توت سنة ١١٧٢ = ٣٠ اغسطس ١٤٥٥ = السبت ١٦ رمضان ٨٥٩.
* ١ يناير سنة ١٤٥٦ = ٥ طوبه ١١٧٢ = الخميس ٢٢ محرم ٨٦٠.

* فيها صار إلحاق الدولفتينا بفرانسا.
* في هذه السنة الافرنكية سار السلطان محمد إلى بلغراد ومعه مائة وخمسون ألفا ومائتا سفينة حربية، وأغار على المدينة مرارا، لكن إغارته كانت بدون طائل، فرجع إلى مملكته، ثم عاد وفتح دوقية أثينا، وكانت في يد عائلة من فلورنسة، وكانت تشتمل على أثينا وطيره وميغاره وقورنثه وبلاطيا وغيرها.

* ١ توت ١١٧٣ = ٢٩

الوكالتين بعده تابعه (على)[1] بيك وعمل الفسقية وحول سوق المؤيد، وجعله في عمارة سيده وانتصب السوق بها في غرة محرم الحرام سنة ١١٤٥[2]. وألبس عبدالله باشا صالح أغا تابع محمد بيك قطامش قفطان الصنجقية رابع شوال ثم أن محمد بيك بن اسماعيل بيك شكى حاله من جهة سفره الى الوزير، وأنه لا يقدر على امارة الحاج فعزله منها ولم يمكث فيها الا ثلاثة أيام ثم أنه عزل محمد بيك الكور من أغوية العزب وألبسه الصنجقية وامارة الحاج في يوم احد وهو سابع شوال سنة ١١٤٢[3].

ثم أن في غرة شوال. وقعت قلقلة في مصر، وثارت هزيعة في الخلا: فركب الصناجق وطلعت نحو بركة الحاج وتقفلت أبواب البلد العشرة وأبطلوا المراجيح وكذلك بيت الوالى لم يزينوه حكم العادة وما قدر[4] احد يطلع الى الترب لزيارة الأموات من كثرة الخوف الذى حصل بمصر، فائمرت القضية بمسك خزندار خليل آغا الذى تقدم ذكره. فمسكوه وأعرضوه على محمد بيك فأمر بحبسه في قلة[*] مستحفظان وقرروه فأمر بأن الجماعة فلان وفلان وأني لم أكن الضارب لزين الفقار أنما الضارب له سليمان أبو دفية وسيدى خليل آغا ثم

(١) التكملة من النص.
(٢) ٢٤ يونية ١٧٣٢م.
(٣) ٢٥ أبريل ١٧٣٠م.
(٤) بالأصل «قده».
(*) بالأصل «قلعة».

اغسطس ١٤٥٦ = الأحد ٢٧ رمضان سنة ٨٦٠.

* ١ يناير ١٤٥٧ = ٦ طوبه ١١٧٣ = السبت ٤ صفر سنة ٨٦١.

* فيها نودى على الدينار بثلثمائة درهم لا غير، بسبب كثرة الغش فيه وكثرة الغش في الفضة، حتى أن السلطان عقد مجلسا وبعد امتحان المعاملة القديمة فلم يوجد أكثر غشا من ضرب فضة دولة الأشرف إينال، فأمر السلطان بالمناداة في القاهرة بابطال المعاملة الحلبية والدمشقية، فوقف حال الناس واضطربت الأحوال، فنودى ثانيا ببقاء كل شيء على حاله في المعاملة، ثم نقض.

* ١ توت ١١٧٤ = ٢٩ اغسطس ١٤٥٧ = الاثنين ٨ شوال سنة ٨٦١.

* فيها كان نزول الفرنساوية بالأراضي الانكليزية، أى في انكلترة.

* ١ يناير ١٤٥٨ = ٦ طوبه ١١٧٤ = الأحد ١٤ صفر سنة ٨٦٢.

* فيها ضربت فضة جديدة وبطل جميع ما كان من الفضة العتيقة، وصار الأشرفي يصرف بخمسة وعشرين نصفا فضة.

*فيها فتح السلطان محمد اقليم الصرب، الذى كان انتزعه السلطان مراد الثاني من قرالات هذا الاقليم في سنة ٨٣٠ ورد إليهم في سنة ٨٤٥.

* ١ توت ١١٧٥ = ٢٩ اغسطس ١٤٥٨ = الثلاث ١٨ شوال سنة ٨٦٢.

* فيها وقع طاعون بالقاهرة ومكث ثلاثة أشهر.

أنهم أرموا رقبته ومازالت الرجال واقفة في البلد الى أن دخلت مكاتيب على بيك بموت محمد بيك جركس في يوم الثلاث[1] آخر شهر رمضان قدره سنة ١١٤٢. وقد كان بينه وبين موت زين الفقار بيك خمسة أيام ولم ير أحدهما موت الآخر، ولم يبلغ جركس مراده من زين الفقار وكذلك زين الفقار لم يبلغ مراده من جركس.

فأنظر يا أخي: الى هذا التوافق الغريب وقد وافق تاريخهما اية قرأنية وهي هذه «فاعتبروا يا أولى الأبصار» سنة ١١٤٢[2].

وكان السبب في ذلك: ان جركس لما سار من أبي جرج سار الى منية بني خصيم فسار على بيك خلفه الى أن رآه عدى الى الشرق فعدى على بيك خلفه وعثمان ومصطفى بيك ومحمد كتخدا المنلا وجميع العسكر وسالم بن حبيب بعرب الجزيرة الى أن أدركوه، داخل الى شرونة فرمح عليه على بيك ، وكان الوقت الظهر فرد جركس على على بيك فكسره، وكان على بيك في خيل قليلة لأن جميع التجريدة تخلفت فأدركه المنلا وجميع المشاة فكسروا جركس فلم يملك أن يدخل الى شرونة. وكان سالم قد جاء من فوق ونزل على شرونة، فلما رأى جركس العسكر خلفه وسالم ساق هو ومن معه نحو البحر والذى كان

---

(١) بالأصل «الثلاثة» / ١٩ مارس ١٧٣٠م. كتب عنوان جانبي «أعرف موت محمد بيك جركس».
(٢) ١٧٣٠م.

* ١ يناير ١٤٥٩ = ٦ طوبه ١١٧٥ = الاثنين ٢٥ صفر سنة ٨٦٣.

* ١ تــــوت ١١٧٦ = ٣٠ اغسطس ١٤٥٩ = الخميس غرة ذو القعدة سنة ٨٦٣.

* ١ يناير سنة ١٤٦٠ = ٥ طوبه سنة ١١٧٦ = الثلاث ٧ ربيع أول سنة ٨٦٤.

* فيها كان اختراع الحفر على النحاس.

* فيـهـا رصد بورباكيـرس ورصـمـتنا نوس ميل الكسـوفـيـة فقالوا إنه ٢٣ درجة و ٢٩ دقيقة.

* فيـهـا اسـتـولى السلطان محمد الثانى على أثينة.

* ١ تــــوت ١١٧٧ = ٢٩ اغسطس ١٤٦٠ = الجمعة ١٢ ذو القعدة ٨٦٤.

* ١ يناير ١٤٦١ = ٦ طوبه ١١٧٧ = الخميس ١٨ ربيع أول ٨٦٥.

* فيها دمر السلطان محمد الثاني امبراطورية طربزون، وفتح كريزونه وسينوب.

* فى ١٥ جـمـاد أول توفى الملك الأشـــرف، وهـو السلطان إينال، بعـد أن حكم ٨ سنوات وشهرين وستة عشر يوما، فتولى على مصر بعده ابنه شهاب الدين أحمد، الملقب بابى الفتح، ولقب بالملك المؤيد.

* فى ١٨ رمضان عزل الملك المؤيد، وبويع سيف الدين خوش قدم، ولقب بالملك الظاهر.

* ١ تــــوت ١١٧٨ = ٢٩ اغسطس ١٤٦١ = السبت ٢٢ ذو القعدة ٨٦٥.

* فيـهـا تسلطن إدوار الرابع على انكلترة.

صحبته أحمد بيك مملوك الأعسر ومملوكه على بيك الحرمجى واسماعيل أبو جرج، وأما جركس الصغير ومحمود كتخدا جاويش والزناتي ودربعي شيخ محارب وحمزة شيخ خويلد ما كانوا عدوا فغرق جركس وكل من كان معه الا من طال عمره ولو لم يكن الليل دخل عليهم ما كان قد بقى منهم من يعطى الخبر.

ثم ان على بيك: نصب خيامه على البحر وأمر الصيادين بأن يرموا شباكهم وسنانيرهم فى البحر فاطلعوا خمسة وخمسين رجلا موتى وخمسة رجال بالحياة لكن أدركوهم على آخر نفس فأعرضوهم على على بيك فلم ير فيهم جركس فنادى فى العسكر العريض كل من أتى بجركس حيا أو ميتا[1]. فله ماية زنجرلى واذا برجل بدوى أتاه وقال له: يا بيه هات الماية زنجرلى وأنا أرشدك عليه فأعطاه، فلما أخذها أخذ بعض غز معه من جماعة الصنجق ثم أنه سار بهم إلى جرف واذا بجركس تحت الجرف وهو ميت وقد عروه فستروا عورته بشئ من القش فشالوه وأتواه به الى على بيك إلى ان وضعوه بين يديه، فلما رآه امر المشاعل بسلخ رأسه ولم يقطعها، ثم أنه غسله وكفنه ودفنه فى شرونه ودفن الذين طلعوهم من البحر حوله، واما ما بقى من الجماعة لم يقع لأحد منهم على خبر.

ثم أنه رجع الى مصر فدخلها يوم الثلاثا سابع شوال سنة ١١٤٢[2] بالاى عظيم فأوله

(١) بالأصل «هى أوميت».

(٢) ٢٥ أبريل ١٧٣٠م.

* ١ يناير ١٤٦٢ = ٦ طوبه ١١٧٨ = الجمعة ٢٩ ربيع أول سنة ٨٦٦.

* فيها تخيل خوش قدم على الأمراء وجمعهم بالقلعة وقبض على جماعة من الأشرفية وأرسلهم إلى سجن الاسكندرية فحصلت وقعة بينهم، وسلطنوا جرباش الأتابكى غصبا وبالقوة ولقبوه بالناصر، فحصلت وقعة ثانية انتصر فيها خوش قدم.

*فيها توقف النيل وغلت الأسعار إلى أن بلغ ثمن الأردب القمح ألف درهم، وقد تغير لون النيل وطعمه حتى عافته الناس.

* ١ توت سنة ١١٧٩ = ٢٩ اغسطس ١٤٦١ = الأحد ٣ ذو الحجة سنة ٨٦٦.

* ١ يناير ١٤٦٣ = ٦ طوبه ١١٧٩ = السبت ٩ ربيع الثانى سنة ٨٦٧.

* فيها تسلطن إيوان الثالث فى بلاد الروسيا.

* فيها أدخل السلطان محمد الثانى تحت طاعته اقليم بوسنة، وشن الغارة على ولايات الأفلاق والبغدان والصقالبة.

* فى رمضان نقضت البنادقة مشارطة الصلح المنعقدة بينها وبين العثمانيين فى ١٦ جماد أول سنة ٨٥٨.

* ١ توت ١١٨٠ = ٣٠ اغسطس ١٤٦٣ = الثلاث ١٤ ذو الحجة سنة ٨٦٧.

* ١ يناير ١٤٦٤ = ٥ طوبه ١١٨٠ = الأحد ٢٠ ربيع الثانى سنة ٨٦٨.

* فيها كان إيجاد البريد فى فرانسا. * فيها مات البابا بيس الثانى بمدينة انقونه، عقب مرض أصابه على حين غفلة عند ما كان سائرا لمقاتلة العثمانيين، وقيل

أغة الجراكسة، وبعده أغة التفكجية، وبعده أغة الجملية، وبعده المتفرقة وبعده الجاوشية، وبعده العزب وابراهيم كتخدا سردارهم، وبعدهم محمد كتخدا المنلا سردار مستحفظان، وبعده الصناجق وخلفهم الخمسة مع رأس جركس فى صينية على برنج من نحاس وخلفه على بيك ومصطفى بيك وعثمان بيك. ثم أنهم ادخلوهم قراميدان وكان الباشا جالسا فى الكشك فأعرضوهم عليه فأمر بقتل الخمسة وأمر برمى الخمسة وخمسين رأس إلى الجب وامر بشيل رأس جركس الى أن يرسلها الى السلطنة. ثم انه البس على بيك قفطانا وكركا سمورا[١]، وأركبه على جواد أشهب معددا كامل العدة وألبس مصطفى بيك وعثمان بيك كل واحد كرك سمور، وألبس سبع سدادرة كل واحد منهم قفطانا وكذلك اغاوة البلوكات الذين كانوا فى التجريدة كل واحد منهم قفطانا وأخذ رأس الجلبى وطلع بها الى السراية.

فانظر يا أخى: الى هذا الرجل الذى اتعب الاغنياء، وأخرب الفقراء وأهلك الناس وأهلك البلاد، وأهل ملك فى حال ملكه وبعد خروجه من مصر نحو عشرة آلاف كيس واخرب البلاد وطلع له زين الفقار بيك عشر تجاريد بعضها من ماله وبعضها من مال الأكابر، ومن مال التجار ولم ير زين الفقار موتته، وكذلك هو، ولم يقتله احد وأنما رأوه فى دوبه [وحله]

(١) بالأصل «قفطان وكرك سمور».

كانت وفاته في ١٥ الحجة من هذه السنة.

* ١ تـــوت ١١٨١ = ٢٩ اغسطس ١٤٦٤ = الأربع ٢٥ ذو الحجة سنة ٨٦٨.

* ١ يناير ١٤٦٥ = ٦ طوبه ١١٨١ = الثلاث ٣ جماد أول سنة ٨٦٩.

* فيها احرقت البنادقة ـ أى الفينيسيون ـ مدينة مزلرة، وهي اسبرطة الجديدة.

* ١ تـــوت ١١٨٢ = ٢٩ اغسطس ١٤٦٥ = الخميس ٦ محرم سنة ٨٧٠.

* في صفر أنشأ خوشقدم الأحمدى جامعه بشارع درب الحصر، بتمن [بقسم] الخليفة.

* ١ يناير ١٤٦٦ = ٦ طوبه ١١٨٢ = الأربع ١٣ جماد أول سنة ٨٧٠.

* فيها ظهرت أول فابريقة لنسيج الحرير في ليون من فرنسا.

* فيها مات اسكندر بك عقب حمي شديدة لحقته في مدينة السيو، من البنادقة، ولموته دخلت مـــدن بلاد الأرنؤد وحصونهم تحت حكم العثمانية ما عدا تختها.

* فيها نهبت الفينيسيون مدينة أثينا.

* فيها استمر وقوف النيل إلى حادى عشر مسرى، وفى ٢٧ الحجة بعث الله الزيادة فوفى.

* ١ تـــوت ١١٨٣ = ٢٩ اغسطس ١٤٦٦ = الجمعة ١٧ محرم سنة ٨٧١.

* فيها وقف النيل فى مبدأ الزيادة ثمانية أيام متوالية حتى قلق الناس وقلت الغلال. (ومما

الى مناخيره فأخرجه البدوى، وأخذ ما كان عليه من جميع السلاح وزرخ وكمر ملآنا من الجواهر المثمنة. ولم يظفروا به الابعد عشرة تجاريد، وقد افقر أهل الاقليمين، واقليم البهنسة، واقليم البحيرة، ودهلك زرع بنى سويف والبهنسة والبحيرة، ومكث يحارب أقليم مصر احد عشر شهرا. وكان قد اجتمع عليه من الغز والعرب، نحو أربعة آلاف نفس، خيالة ومشاة، يرمون أرواحهم على الموت، كى يظفروا بدخولهم الى مصر، فلم يبلغوا مرادهم وماتوا قهرا. ثم بعد ذلك جاءت الاخبار من شرقية بلبيس(١) بظهور سليمان أبو دفية ويوسف بيك الخاين وخليل أغا وغيطاز أغا وجميع بقية الشواربية وظهورهم فى الشرق وكثرة فسادهم ونهبهم البلاد، وقتلهم الأنفس، فلما جاءت الأخبار الى مصر واخبر عبدالله باشا بهم فعين ثلاثة صناجق محمد بيك بن درويش واسماعيل بيك بن غيطاز وحسن بيك الدالى وخمسماية نفر من السبع أوجاق وصالح أغة كاشف القليوبية وساروا الى أن وصلوا الى القرين(*). فلم يجدوا أحد فعادوا الى مصر. ثم أن أكابر مصر اجمع رأيهم بأن يرسلوا حسن بيك الدالى الى السويس صحبة باش القافلة ، لجبية بن التجار، وصحبته كتخدا محمد باشا النشنجى وحريمه،

(١) بلبيس : قاعدة مركز بلبيس، محافظة الشرقية، محمد رمزى، المصدر السابق، قسم ٢ جـ١، ص ١٠٠ - ١٠١.

(*) القرين: آحدى القرى القديمة،مركز أبو حماد، محافظة الشرقية، محمدن رمزى ، جـ١، ص ٧٠ - ٧١.

يستحق الملاحظة أن الوفاء كان في سنة ٨٧٢ كما أن الوفاء عن سنة ٨٧٠ حصل في سنة ٨٧١ هجرية.

* ١ يناير ١٤٦٧ = ٦ طوبه ١١٨٣ = الخميس ٢٤ جماد أول ٨٧١.

* فيها اكتشفت الكهربائية في أوربا.

* ١ تــوت ١١٨٤ = ٣٠ اغسطس ١٤٦٧ = الأحد ٢٩ محرم سنة ٨٧٢.

* في ١٠ ربيع أول توفي خوش قدم، بعد أن حكم ست سنوات ونصف سنة، وسنه ستون سنة، فبويع بعده أبا سعيد يلباى، ولقب بالملك الظاهر، وهو آخر المؤيدية.

* في ١٧ ربيع ثان صار خلع أبا سعيد ومبايعة الأمير أبا سعيد تماربوغا، الملقب بالظاهرى، ولقبوه بالظاهر أيضا.

* ١ يناير ١٤٦٨ = ٥ طوبه ١١٨٤ = الجمعة ٥ جماد الثانى سنة ٨٧٢.

* في رجب صار خلع الأمير أبا سعيد تماربوغا، ومبايعة الأمير قايت باى، الملقب بالمحمودى وبالظاهرى، ولقبوه بالملك الأشرف.

* فيها استولى أورتون حسن التتارى على مملكة العجم من حفدة السلاطن تيمورلنك، وأسس فيها الدولة المسماة بالشاة البيضاء.

* ١ تــوت ١١٨٥ = ٢٩ اغسطس ١٤٦٨ = الاثنين ٩ صفر سنة ٨٧٣.

* فيها وقف النيل عن الزيادة أياما، وقلق الناس، وارتفعت

فانه لما توفي محمد باشا بجدة، ولم يحج ولم يزر، فانزل كتخدا حريم سيده، وأنزل صحبتهم الى بندر السويس.

فلما جاء خبرهم الى مصر، أرسل الباشا حسن بيك الدالي، صحبته قافلة باشا لجيهم خوفا عليهم من الطريق من الشواربية وعرب الصوالحة، فرجعوا الى مصر سالمين، فبعد نزول القافلة، نزلت على الطور فوجدوا مركب المرادية، واقفة على مراسيها فنهبوها ولم يبقوا فيها شيئا. وقد كان فيها خمسماية فرق بن وسبعماية قطعة لبان والبهار خلاف ذلك وخلاف القماش والركاب فلم يبقوا شيئا وقتلوا جميع من فرغ عمره وأبقوا المركب قصعة في وسط البحر من غير رجال ولا آلات وكان ذلك في غرة القعدة سنة ١١٤٢(١).

فلما وردت الأخبار الى مصر: خافوا من الشواربية أن تقوى شوكتهم، ويرسلوا الذين داخل البلد، فيحصل لهم تعب، فقطعوا فرمانا، على جماعة محمد كتخدا جدك، لا يقعدوا في مصر، بل يتوجهون الى أى محل أرادوه، بالامان ، وكل من قعد بعد عشرة أيام يقتل أينما وجد، فسافر خلق كثير، ولم يبق من طرف محمد جدك أحد.

وأما أبن جدك: فانه نزل الى دمياط بأهله وعياله، ونفوا الطربة الى رشيد، ومصطفى

(١) ١٨ مايو ١٧٣٠م.

الأسعار، وقل القمح، لم بعث الله بالزيادة روفى، ثم هبط سريعا فى أثناء توت، وتزايد أمر الغلاء.

* ١ يناير ١٤٦٩ = ٦ طوبه ١١٨٥ = الأحد ١٦ جماد الثانى ٨٧٣.

* فيها نهبت البنادقة مدينة اينو التى على خليج ساروتيق، المعروف الآن بخليج أثينا، فعند ذلك أمر السلطان خطباء مساجد القسطنطينية وغيرها من مساجد الدول الإسلامية أن ينادوا بأن مقصده محق دين النصرانية ومحو آثاره بالكلية.

* ١ توت ١١٨٦ = ٢٩ اغسطس ١٤٦٩ = الثلاث ٢٠ صفر سنة ٨٧٤.

* ١ يناير ١٤٧٠ = ٦ طوبه ١١٨٦ = الاثنين ٢٧ جماد الثانى ٨٧٤.

* فيها هجم السلطان محمد الثانى على جزيرة اغريبوز، وكانت من أعمال البنادقة، وبدونانمة كبيرة تشتمل على جنود عظيمة، ففتح تختها عنوة بعد أن هجم عليه أربع مرات، وذبح عساكره أهلها عن آخرهم.

* فيها حصلت أول تجربة تختص بفن الطباعة فى باريس.

* ١ توت ١١٨٧ = ٢٩ اغسطس ١٤٧٠ = الأربع ٢ ربيع أول سنة ٨٧٥.

* فيها كانت ولادة السلطان الغازى ياوز سليم، وهو ابن السلطان بايزيد الثانى.

* ١ يناير ١٤٧١ = ٦ طوبه ١١٨٧ = الثلاث ٩ رجب ٨٧٥.

* فيها أنشأ الشيخ تمراز الأحمدى جامعه، بشارع اللبودية، الموصول إلى السيدة زينب.

جاويش الدرندلى الى سكندرية، ومصطفى جاويش الداودلى الى دمياط، وحسن كتخدا عزبان وشعبان كتخدا عزبان الى سكندرية[1]، ودرويش محمد عزبان، وعلى الخشاب، وسليمان نسيب سليمان كتخدا، واسماعيل تابع على كتخدا، وهؤلاء الأربعة أوضباشية أرسلوهم الى جرجة، وشالوا سليمان أوضباشا الذى بقنطرة سنقر، من اليمقية، وعملوه جربجى، وعملوا دالى محمد تانى يمق الى اسماعيل أوضباشا الباش، وعملوا سليمان أوضباشا أبو لطعة الجلفى ثالث، وانتهت الرياسة فى البلد والكلمة النافذة الى يوسف كتخدا عزبان وأنه وصل الى مرتبة لم يصل اليها أحد فى أوجاقه، وفى غير أوجاقه، وزيادة على ذلك كرمه ، الذى لم يوجد فى عصره . وكان الذى يعطيه كل عيد، ما كان يعطيه زين الفقار، مع كرمه وانه اعطى الى محمد بيك بن درويش، الف ذراع جوخ، وخمسماية ذراع اطلس أفرنجى، وأربعماية ذراع خطاية مقصب الى الحريم، وكان راتبه فى بيته كل يوم أربعة قناطير من اللحم ضانى، خلاف الخرفان الذى يذبحها فى البيت، وعشرة أرطال بن قهوة فى كل يوم وكان سماطه، فى الحوش، مشعل فى ذيل السماط ، ومشعلين فى رأس السماط، وحاسب اللبان، خزنداره على ثمن اللبن الحليب والحامض، الذى صرف فى بيته فى شهر رمضان، عشرة آلاف نصف فضة، وكان يركب وفى عبه الخمسماية زنجرلى، لم يرجع الى البيت ولم فى عبه منها شيئا.

(١) كرر التعبير بالأصل.

* ١ تـــوت ١١٨٨ = ٣٠ اغسطس ١٤٧١ = الجمعة ١٣ ربيع أول ٨٧٦.
* فيها جان سانتارين وبيراسكوفار، البرتغاليين، اكتشفوا سواحل غينا.
* ١ يناير ١٤٧٢ = ٥ طوبه ١١٨٨ = الأربع ١٩ رجب سنة ٨٧٦.
* فيها خربت البنادقة بلاد كاريه وجزيرة استكوى وايونيه، وقد أعانهم الكردينال أوليفيه كرافه، قبودان سفن البابا سفسطوس الرابع، على حرق مدينة أضاليا ومدينة أزمير.

* ١ تـــوت ١١٨٩ = ٢٩ اغسطس ١٤٧٢ = السبت ٢٤ ربيع أول سنة ٨٧٧.
* ١ يناير ١٤٧٣ = ٦ طوبه ١١٨٩ = الجمعة غرة شعبان سنة ٨٧٧.
* فيها البابا بولص الثانى وأوزون حسن، الذى اتحد مع البابا لكونه صهراً لداود قومين آخر أباطرة طربزون، الذى قتله السلطان محمد، أغار على بلاد الأرمن والكرج، لكن هزمهما السلطان محمد بمدينة قراحصار.

* ١ تـــوت ١١٩٠ = ٢٩ اغسطس ١٤٧٣ = الأحد ٤ ربيع الثانى ٨٧٨.
* ١ يناير ١٤٧٤ = ٦ طوبه ١١٩٠ = السبت ١١ شعبان ٨٧٨.
* فيها هزم اسطفان ويوود البغدان جيشا من العساكر العثمانية قريبا من مدينة رافويز.
* فيها انهزم سليمان بيكلر بيك رومانية رئيس عساكر العثمانية تجاه مدينة اسكودارى.

وكذلك انتهت الرياسة الى عثمان كتخدا القزدغلي في بابه، من الكلمة النافذة، ولم يدرك أحد ما ادركه عثمان كتخدا القزدغلي من الكلمة النافذة.

وكان حاكما، وكانت جميع الناس تخشى سطوته، وانه تولى الكخاوية فى رمضان، وكان اذا وقع احد فى يده، وكان قليل الأدب يضربه الألف وينفيه، وقد مات تحت الضرب فى مدة توليته أربعة أنفار ولكن كانوا مستحقين للذى حصل لهم، أحدهم يقال له البهلوان ضربه الى أن مات تحت الضرب ووقعت أصابع أقدامه وقد كان مستحقا، لأنه كان قد قتل علي جلبي الماوردى من أولاد أبن أبى جمرة في رمضان، فعاش بعدها سنة، ومات فى رمضان، والثانى أرمنى عثمان، وكان ليس له في الاسلام حظ. والثالث يقال له ابراهيم وطر نبس المعروف، ضربه الى أن مات في بيته بعد الضرب بثلاثة أيام. وكان له اغداقات فى محلها لم يسحقها وكان يجير من استجار به ويرتب له المصروف. انظر الى جماعة الهربانين كل من استجاره اجاره، ولم يسلم فيه ابدا، وكان قد رتب لنساء ابن أيواظ ولنساء جركس تراتيب من مصروف وكساوى،، و كان لا يهن درهمه ولا يوضعه الا في محله وأما يوسف كتخدا كان يهين درهمه في محله، وغير محله، لمستحقه وغير مستحقه، نهاب نهاب، وكانت جرايته فى كل يوم سبعة أرادب خلاف الفطور الذى كان ينزل من الحريم وقس يا أخى على هذا الأمر وقد اعرضنا عن أشياء كبيرة لان النفس تمل من التطويل لطف الله بهم اجمعين.

٨٢: بنيامين [١٣٢٧ / ١٣٢٩م.]

* فيها ضرب السلطان فلوسا جددا نودى عليها كل رطل بستة وثلاثين درهمـا ونودى على الفلوس العتق كل رطل بأربعة وعشرين درهما.

* ١ تـوت ١١٩١ = ٢٩ اغسطس ١٤٧٤ = الاثنين ١٥ ربيع الثانى ٨٧٩.
* ١ يناير ١٤٧٥ = ٦ طوبه ١١٩١ = الأحد ٢٢ شعبان سنة ٨٧٩.
* فيها استولى السلطان محمد الثانى على القرم.

* فيها انهزم سليمان بك، رئيس عساكر العثمانية، تجاه مدينة ليبنة. * فيها أتلف أحمد باشا قبودان العثمانية نزلات الجنويين التى بمدينة كفا، وكانت مهمة تعادل مدينة جنوة.

* ١ تـوت ١١٩٢ = ٣٠ اغسطس ١٤٧٥ = الأربع ٢٧ ربيع الثانى ٨٨٠.
* ١ يناير ١٤٧٩ = ٥ طوبه ١١٩٢ = الاثنين ٤ رمضان سنة ٨٨٠.
* فيها صار النصف من الفضة يصرف بثمانية عشر من الفلوس العتق، وصارت البضائع بسعرين، سعر الفضة وسعر الفلوس.

* ١ تـوت ١١٩٣ = ٢٩ اغسطس ١٤٧٦ = الخميس ٨ جماد أول سنة ٨٨١.
* ١ يناير ١٤٧٧ = ٦ طوبه ١١٩٣ = الأربع ١٥ رمضان سنة ٨٨١.
* فيها هزم العثمانيون البنادقة على شواطىء نهر

ومن اعجب ماوقع لعثمان اغا الوالى: ان الحرامية سرقوا جميع ما فى بيته، ولم يبقوا فيه شيئا، وكتبوا ورقة وعلقوها على باب المقعد مكتوب فيها الذى نعلم به عثمان آغا أننا دخلنا بيتك وأخذنا ما كان فيه وما دخلناه لأجل أخذ شئ. وما كان مرادنا الا ذبحك، فما وجدناك ولا وجدنا أحد فلو وجدناك أو وجدنا آحداً كنا ذبحناه، فأخذنا الذى جمعته من مال الصناجق الذى قتلتهم ولكن تستاهل السلامة فان كنت حاكما تجتهد فى معرفة خصمك وتأخذ (حرصك)[1] واننا لابدلنا أن نهجم عليك فى محل حكمك ونقتلك، أو نفعل فيك امراً والسلام واذا بالامر المقدر ما كان ذلك اليوم فى البيت أحد.

فلما جاء الخبر الى الوالى راح الى بيته يلتقى الدار فقرى والمزار بعيد، فسكت على آخر خبره، وكان هذا الأمر وقع فى غرة القعدة الحرام سنة ١١٤٢[2] وقد أخبرنا بهذا الامر غير واحد من جماعته. وفى يوم الجمعة ثالث عشرين القعدة [3] توفى عبدالله أفندى الرزنمجي رحمه الله، وتولى، محله عبداللطيف أفندى.

وفى غرة ربيع آخر سنة ١١٤٣[4] ورد آغا من الديار الرومية صحبته خط شريف قرى

(١) الاضافة للتوضيح. (٢) ١٨ مايو ١٧٣٠م. (٣) ٩ يونية ١٧٣٠م.
(٤) ١٤ سبتمبر ١٧٣٠م / كتب عنوان جانبي «اعرف ولاية السلطان محمود بن مصطفى خان رحمه الله».

ايزونزو، وصاروا يخربون بلاد ايطاليا.

* ١ توت ١١٩٤ = ٢٩ اغسطس ١٤٧٧ = الجمعة ١١ جماد أول سنة ٨٨٢.

* فيها - بسبب زيادة النيل - غرقت أراضي الحسينية وشبرى والروضة وطريق مصر وبولاق وجسزيرة الفيل وكوم الريش وطمت الآبار.

* ١ يناير ١٤٧٨ = ٦ طوبه سنة ١١٩٤ = الخميس ٢٦ رمضان سنة ٨٨٢.

* فيها وصلت العثمانيون إلى مدينة بيادة، من أعمال ايطاليا.

* فيها ضرب الألطونى العثماني، وسمي بأسماء عديدة.

* وفيها انقطع سد أبو المنجى ليلة الوفاء فحصل للبلاد التى تحته غاية الضرر، ولم يتأثر النيل فى كسر الجسر، بل زاد فى ليلتها ١٢ إصبعا، فعد ذلك من النوادر.

* ١ توت سنة ١١٩٥ = ٢٩ اغسطس ١٤٧٨ = السبت ٣ جماد أول سنة ٨٨٣.

* فيها تسلمت العثمانيون مدينة كروية، وبهذا تم لآل عثمان فتح بلاد الارناؤد، وقد خرج من تلك البلاد حينئذ عائلة كستريو، الذين كانوا يحكمونها، ونزلوا لمملكة نابولي والتجئوا إلى ملكها فأعطاهم أراض والتزامات، وهربت طائفة من الأرنئود أذن لها بالنزول فى اقليم كلابريه.

* ١ يناير ١٤٧٩ = ٦ طوبه سنة ١١٩٥ = الجمعة ٧ شوال ٨٨٣.

بالديوان بعمايل زينة ثلاثة أيام لتولية السلطان محمود بن السلطان مصطفى فراجعت الصناجق الباشا في ذلك الأمر، واخبروه بأن البلد فى تخويف فأمر بعمايل شنك بالمدافع فى الديوان، وكانت تولية السطان محمود ثانى عشر ربيع أول سنة ١١٤٣[١]، فما تم الشنك حتى جاء الخبر الى الدولة بأن يوسف الخاين ومصطفى تابع يحيى أفندى وخزندار على بيك الهندى، دخلوا بيت فى كفر الطماعين والبيت ساكن فيه عبدالرحمن الدنوشرى وجماعة أخر دخلوا بيت محمد الكميت شاهد القسمة العسكرية فأخبروا الباشا، فأمر الباشا آغة مستحفظان بأن يأخذ الوالي واضباشه البوابة فيكبس عليهم، فنزل الاغا والجماعة فى يوم الجمعة خامس عشرين جماد أول سنة ١١٤٣[٢] فكسروا البيت فوجدوا الثلاثة أنفار طالعين من بيت عبدالرحمن الدنوشرى وكان أهل البيت جميعا فى جنازة أبن يوسف الحنبلي والثلاثة وجدوهم خارج البيت. فلما راوا آغا مستحفظان سحبوا السيوف ووقعوا فى جماعته ضربا، حتى انجرح من جماعة الاغا والوالى جماعة، ثم أنهم مسكوهم بعد عراك كبير، ثم انهم ودوهم فى بيت عثمان بيك فارمى أعناقهم فى الحوش. وفى ثانى يوم هجموا على بيت الكميت فما وجدوا فيه أحدا فنهبوه وهدموه، ونهبوا بيت الدنوشرى وهدموه الى الارض،

(١) ٢٥ سبتمبر ١٧٣٠م.

(٢) ٦ ديسمبر ١٧٣٠م.

* فيها حج السلطان قايتباى، ولم يحج من السلاطين الجراكسة غيره.
* فيها هزمت الانكليز الفرنساوية فى جينجات.
* فيها عقد السلطان محمد الثانى صلحًا مع البنادقة. * فيها زاد النيل بعد الوفاء بيومين عشرين إصبعًا فكمل الذراع السابع عشر وزاد ستة أصابع من الثامن عشر، فعد من النوادر.

* ١ تسوت ١١٩٦ = ٣٠ اغسطس ١٤٧٩ = الاثنين ١١ جماد الثانى سنة ٨٨٤.
* ١ يناير سنة ١٤٨٠ = ٥ طوبه ١١٩٦ = السبت ١٧ شوال سنة ٨٨٤.
* فيها كان إنشاء البوسطة فى فرنسا بخصوص المصالح الملوكية.
* فيها كان ابتداء قيام التفتيش والتجسس الدينى فى مدينة اشبيلية فى اسبانيا، كذا كانت حروب الاسبانيوليين مع عرب الأندلس، واستمر ذلك نحو ١٢ سنة.
* فى جمادى الثانية أنشأ الملك الأشرف ابو النصر قانصوه الغورى جامع الإمام الليث بالقرافة الصغرى.

* ١ تسوت ١١٩٧ = ٢٩ اغسطس ١٤٨٠ = الثلاث ٢٢ جماد الثانى ٨٨٥.
* وفيها أنشأ الأمير أبو بكر مزهر جامعه بحارة برجوان.
* فيها أرسل السلطان محمد

واختفى الكميت هو وأولاده أربعة أشهر وصالحوا عليه بأربعة آلاف زنجرلى بواسطة على بيك وخليل أفندى.

وقفل الجامع الازهر بهذا السبب(١)، لأن الاغا لما أخذ الثلاثة من حارة الجامع صار يتطاول على أولاد الجامع ويضربهم ويؤذيهم وجعلهم شغله، وصار يمر عليهم بالليل والنهار فشكى أهل الجامع الى العلماء فأمروهم يقفل الجامع فقفل يوم الأربع وليلة الخميس بطولها.

ثم أن العلماء، ركبوا وتوجهوا الى محمد بيك قيطاز وتكلموا معه ومع اكابر الدولة كلاما يؤدى الى قيام الرعية فأخذ الأكابر خواطر العلماء، وحرجوا على أغاة مستحفظان على أن لا يكلم أحدا من أهل حارة الجامع، واذ مر من تلك الطريق لا يكلمهم ولا يؤذيهم، ثم أن العلماء امروا الأكابر أنهم يرسلوا الاغا ينادى بالامان لأهل الجامع، فنزل ونادى فى البلد بالامان والبيع والشرى وفتح الجامع يوم الخميس ثانى جماد آخر سنة ١١٤٣(٢). وفى ثالث عشرة جاء رجل الى محمد بيك وأخبره بأن جماعة من الهربانين مختفين فى بيت رجل جربجى من وجاق الجملية يقال له محمد جربجى فأرسلوا أغاة مستحفظان والوالى فهجموا عليهم الحارة فضربوهم بالرصاص فوقع فى جماعة الاغا ثلاثة رجال، وزاد عليهم الحال فأرسلوا اعلموا الصنجق محمد بيك فركب.

(١) كتب عنوان جانبى «اعرف قفل الجامع الأزهر».
(٢) ١٣ ديسمبر ١٧٣٠م.

الثاني اسطولا فيه مائة ألف مقاتل، تحت إمرة مسيطش باشا، إلى جزيرة رودس، فحاصرها ثلاثة أشهر ثم ارتحل عنها.

* ١ يناير ١٤٨١ = ٦ طوبه ١١٩٧ = الاثنين ٢٩ شوال سنة ٨٨٥.

* فيها جيش السلطان جيشين عظيمين، أعد احدهما لقتال جزيرة قبرص، تحت قيادة أحد وزرائه، وقاد الثاني بنفسه وتوجه إلى قتال ملك العجم.

* في ربيع أول وفاة السلطان أبو الفتح محمد خان، وعمره: ٥٣ سنة، ومدة حكمه ٣١ سنة. وفي ١٠ ربيع الأول تسلطن ولده السلطان «بايزيد الثاني» - [وقد قال المؤرخون العثمانيون إن السلطان أبا الفتح هو أعظم سلطان من سلاطين الدنيا، وقالوا إنه فتح سلطنتين عظيمتين واثنتى عشرة مملكة ومائتى مدينة] -

١ تـــوت ١١٩٨ = ٢٩ اغسطس سنة ١٤٨١ = الأربع ٤ رجب سنة ٨٨٦.

* ١ يناير سنة ١٤٨٢ = ٦ طوبه سنة ١١٩٨ = الثلاث ١١ ذو القعدة سنة ٨٨٦.

* فيها توجهت عساكر مصر تحت إمرة يشبك إلى محاربة حسن أوزون، أى الطويل، ملك العراقيين، فمات يشبك وانهزمت العساكر. * فيها أنشأ الملك الأشرف أبو النصر قايتباى جامع قايتباى بقلعة الكبش.

* فيها استولت الاوستوريا على الهولاندة.

فلما علمت الصناجق بركوب محمد بيك، ركب جميعهم، وكذلك ركب الكواخي من الانكشارية و العزب، فنزلت عسكر البابين، وصار جمهور عالم وحاصروا جميعا درب غزية. وقفلوا جميع ابوابه ولم يبقوا الا باب واحدا والعراك واقع بينهم بالرصاص من ظهر ذلك اليوم الى نصف الليل، فخافوا أن يطع عليهم النهار ولم يملكوهم، فحرقوا عليهم البيت فلما انحرق البيت هجموا عليهم فرأوهم ثلاثة أنفار، وقد ماتوا وهم محمد بيك الصغير وزين الفقار خزندار قاسم بيك وعيسى أغا ابن أخت يوسف كتخدا عزبان وقريب محمد بيك جركس أيضا لأنهم كلهم جراكسة الجنس وأقارب فوجدوا قد أصاب محمد بيك جركس خمس رصاصات وزين الفقار سبع رصاصات، وعيسى آغا رصاصة واحدة وما سمحت أنفسهم أن يمكنوا من أرواحهم وهم أحيا وقد وقع من اللوم التي كانت بعض الناس لأن ضربهم صار في لحم وضرب التحتانين في الحيطان كل ثلاثة رصاصة حتى يدخل لهم واحد. ثم أنهم هدموا البيت ونهبوا جميع ما كان فيه، وفي ثاني يوم كبسوا بيتا بدرب المغربلين فوجدوا فيه رجلين فمسكوهما واطلعوهما الى عثمان كتخدا القزدغلي، وهو يوميذ كتخدا الوقت فأمر بحبسهما. ثم أنه بعد ذلك استنطقهما عن خليل آغا واوعدهما بالعفو عنهما، فأخبراه بأنه في حارة عابدين عند واحدة من النسوان العزاب، فأمر الوالي برواحه الى حارة عابدين ووصف له المحل، فهجم عليه فاذا هو عريان بالزبون، والمرأة تغسل له حوايجه فنط من البيت الى مستوقد الحمام وأرسلوه الى سيده، فأمر باعراضه على الوزير، فأعرض عليه فأمر الوزير بقتله في محل

* فيها ابتدأ البورتغاليون في التجارة بالعبيد.

* ١ تـــوت ١١٩٩=٢٩ اغسطس ١٤٨٢ = الخميس ١٤ رجب سنة ٨٨٧.

* ١ يناير ١٤٨٣ = ٦ طوبه ١١٩٩ = الأربع ٢١ ذو القعدة سنة ٨٨٧.

* ١ تـــوت ١٢٠٠ = ٣٠ اغسطس ١٤٨٣ = السبت ٢٦ رجب سنة ٨٨٨.

* ١ يناير ١٤٨٤ = ٥ طوبه ١٢٠٠ = الخميس ٢ ذى الحجة سنة ٨٨٨.

* فيها وقع الرخاء حتى بيعت بطة الدقيق بأربعة أنصاف فضة والأردب القمح بنصف دينار. * فيها عز وجود القطن حتى بلغ سعر القنطار اربعمائة والف درهم وارتفع سعر البرسيم حتى بلغ سعر الفدان عشرة أشرفيات.

* فيها ديجو كامبو، البرتغالي، اكتشف نهر الكونجو.

* ١ تـــوت ١٢٠١ = ٢٩ اغسطس سنة ١٤٨٤ = الأحد ٦ شعبان ٨٨٩.

* ١ يناير ١٤٨٥ = ٦ طوبه ١٢٠١ = السبت ١٣ ذيا لحجة سنة ٨٨٩.

قتل، فأنزلوه الى بيت عثمان بيك وارموا عنقه في حوش بيته، وعفي عثمان كتخدا على الاثنين الذين قرا على خليل أغا وأمرهما أن لا يقعدا في البلد من يومهما. وفي يوم الخميس تاسع رجب(١) توفي على كتخدا ميسه واجلسوا عمر كتخدا البرلى باش اختيار محله والبسه الصناجق واختيارية أوجاقه سبعة اكراك سمور وهذا لم يتفق لغيره ووقع الطعن في القاهرة، وتوفى الشيخ عبد الرءوف البشبيشي يوم الاربعاء رابع عشر رجب، وكذلك الشيخ هيكل أبو الكلاب الولي الصالح(٢). وكان قد مر عليه علي أغا حين تولى فرآه جالسا على كانون الكنفاني والكلاب حوله فأمر جماعته أن يمدوه ويضربوه، فمدوه ورفعوا ايديهم بالضرب فوقفت أيديهم ولم تنزل ثم أن الاغا تركه وسار وكراماته ظاهرة. توفي يوم الاحد رابع شعبان سنة ١١٤٣(٣). ووقع الطاعون وتوفى أكثر أولاد عبدالله باشا الكبرلي وجواده، وكانت له محظية تدعى دودر فحزن عليها حزنا كثيرا، وأشترى لها القطعة الأرض التى عند الباب الثانى التي للامام الشافعي، وبنى عليها الشبابيك النحاس والتراكيب الرخام المحلات بالذهب وكتب على كل قبر اسم صاحبه، وزاد الطاعون في رمضان سنة ١١٤٣ وكان انتهاؤه الى غاية محرم سنة ١١٤٤(٤).

(١) ١٨ يناير ١٧٣١م.

(٢) كتب عنوان جانبى «اعرف وفاة الشيخ عبد الرءوف البشبيشى بالطاعون رحمه الله تعالى، وكذلك الشيخ الصالح هيكل أبو الكلاب».

(٣) ١٢ فبراير ١٧٣١م. (٤) مارس/ يولية ١٧٣١م.

[بطرس البطرك الثالث والثمانون]

[١٣٤٠/١٣٤٨م]

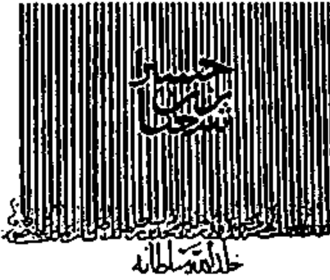

* توقيع السلطان شعبان ابن الناصر. تولى فى ٦١. ١ق. = ٧٤٦هـ. = ١٣٤٥م.

بطرس البطرك وهو الثالث والثمانون من العدد هذا الأب الفاضل بطرس كان رئيس بدير شهران أختير للجلوس على الكرس المرقسى الانجيلى فقدم فى اليوم السادس من شهر طوبة سنة الف وسته وخمسين للشهدا. وأقام بطركاً ثمان سنين ونصف، وكانت ايامه هاديه. وتنيح فى اليوم الرابع عشر من ابيب سنة الف واربعه وستين للشهدا.

وفى خامس شعبان[١] ورد أغا من الديار الرومية بخط شريف بطلب ثلاثة آلاف عسكرى الى العجم، ففى الحال لبس الباشا حسين أغا المعمار قفطانا على الصنجقية والسفر، وأرسلوا قفطان السدارية الى مصطفى شاويش الذربه بثغر رشيد، وعزل عثمان كتخدا فى آخر رمضان سنة ١١٤٣[٢]. وفى عشرين رمضان[٣] عملوا الاى الصنجق فى بولاق غرة شوال وفى خامسه سافرت السدادرة من بولاق، ولم يحصل من العسكر تعب ولم يلبسوا سراجين لأن عثمان حرج على لبسها وعمايلها، فلو أراد الرجل أن يعمل سردينة عند خياط أو سروجى ويعطيه ألف فضة لا يمكن أن الرجل يعملها مطلقا ابدا، وضبط البلد عثمان كتخدا ضبطا شافى. وفى خامس عشر شوال[٤] جاءت الأخبار من الشام، بانتقال الشيخ عبدالغنى النابلسى الموحد العارف بربه بأنه توفى فى سادس عشر شعبان سنة ١١٤٣[٥].

وفى غرة محرم الحرام[٦] ورد أغا من الديار الرومية بخط شريف قرى بالديوان برفع المظالم وتبطيل الخمامير والمواقف [بيوت الدعارة]، فعمل عبدالله باشا جمعية، وجمع فيها العلماء وأرباب السجاجيد والنقيب وقاضى العسكر وجميع الصناجق والعسكر جميعا وقرى عليهم الخط فأجابوا بالسمع والطاعة.

(١) ١٣ فبراير ١٧٣١م. (٢) ٨ أبريل ١٧٣١م.
(٣) ٢٩ مارس ١٧٣١م. (٤) ٢٣ أبريل ١٧٣١م.
(٥) ٧ مارس ١٧٣١م. (٦) ٦ يولية ١٧٣١م.

[مرقس البطرك الرابع والثمانون]

[١٣٤٨/١٣٦٣م]

هذا الاب مرقس البطرك كان من اهالى ناحية قليوب أختير للبطركية فقدم في الثامن من أبيب سنة الف وخمسة وستين للشهداء وأقام بطركاً أربعه عشر سنة وثلاثة شهور وتنيح فى السادس من امشير سنة الف وتسعه وسبعين للشهداء وكانت ايامه هادية.

ثم أن العسكر أخبروا الوزير، بان الوالى له عوايد، وعليه خدم الى مقدمين الأتراك، والجميع مرتبة على المواقف [بيوت الدعارة] يجمع منهم مال له صورة، وليس لوالى الشرطة الا هذا الأمر، فلما سمع عبدالله باشا هذا الكلام ضحك ، فقال سبحان الله فعلى هذا الكلام يصير مصروف الوالى، وجميع أكله من الذى يتحصل من الخواطى فالسلطنة ليست بعاجزة ان تجعل له شيما، يقوم به ويرفع هذا الذى ، لم يكن فى بلد من بلاد الاسلام. ثم انه اقر له أثنى عشر كيسا، على كشاف السبعة اقاليم، يأخذها والى القاهرة، وذلك مما يخص الباشا من كشوفيته، وابطل الخمامير والمواقف وهدم جميع الخمامير والمواقف، وكتب بذلك حجة على طبق الخط، وسجلها فى الديوان، وبيت القاضى وكان ذلك غرة محرم الحرام سنة ١١٤٤.

وفى خامس عشر محرم[١] غرقت مركب الشناوية، وهى راجعة من مولد سيدى ابراهيم الدسوقى رضى الله تعالى عنه.

وفى غرة صفر اوفى النيل سنة ١١٤٤ ، المبارك الموافق لتاسع عشر مسرة سنة ١١٤٤[٢]، وكان نيلا قليلا وحصل أن الحنطة لم تنزل عن فندقلى، وبلغ كل من القنطار الصفر والقطن،

(١) ٢٠ يولية ١٧٣١م.

(٢) ٥ أغسطس ١٧٣١م. = ١٤٤٧ قبطية.

[يوانس البطرك الخامس والثمانون]

[١٣٦٣/١٣٦٩م]

يوانس البطرك وهو الخامس والثمانون من العدد هذا الاب يوحنا المؤتمن الشهير بالشامى قدم بطركا فى اليوم الثانى عشر من شهر بشنس سنة الف وتسعة وسبعين واقام بطركاً ستة سنين وشهرين وكان عالم فاضل وتنيح فى اليوم التاسع عشر من أبيب سنة الف وخمسة وثمانين للشهدا.

أربعين قرشا ديوانى، والقنطار البصل أربعين نصفا فضة، واستمر هذا الحال الى أن أوفى النيل، والناس فى حصر شديد من الغلا لكن حصل اللطف من الله.

وفى غرة توت الموافق لثانى عشر ربيع اول سنة ١١٤٤[(١)] ورد مسلم محمد باشا السلحدار والى البصرة، بقيامة مقام الى على بيك الصغير، تابع زين الفقار بيك، وبعزلان عبدالله باشا الكبرلى، فألبس عبدالله باشا على بيك كرك سمور وكذلك الاغا، ومكث فى مصر معزولا سبعة أشهر، وقرا العلم على ثلاثة من العلماء[(٢)]. قرأ القرآن بالقراءات على الشيخ أحمد البقرى والشيخ أحمد السقاطى وقراءة الحديث على الشيخ أحمد العماوى، ووساهم خيرا. وله من الماثر التربة التى بناها بجوار الشيخ الامام الشافعى لاولاده وجواريه واقاربه ورتب لهم خيرات وانه هجا أهل مصر، بيتين وهما:

أرى ايديا نالت غنا بعد قطرة	لا لئيم قوم فى اخس زمان
فظنت بما نالته شل بنانها	وان رمت جدواها تشل بنانى

٩٣. ذكر تولية محمد باشا السلحدار

قدم الى مصر من طريق البر، لأنه كان واليا بالبصرة، ووصل الى العادلية بعد سبعة

(١) ١٤ سبتمبر ١٧٣١م.

(٢) كتب عنوان جانبى «اعرف الثلاثة مشايخ الذين قرأ عليهم عبدالله باشا الكبرلى رحمه الله».

[غبريال البطرك السادس والثمانون]

[١٣٧٠/١٣٧٨م]

غبريال البطرك وهو السادس والثمانون من العدد هذا الاب الفاضل الجليل غبريال كان من دير المحرق وأختير للبطركية فقدم في اليوم الحادى عشر من طوبة سنة الف ستة وثمانين للشهدا وكان عالماً فاضلاً عابداً ناسكاً ومدة إقامته على الكرسى المرقسى ثمانية سنين واربعة شهور وتنيح

أشهر، وكان وروده الى العادلية يوم السبت ثامن جماد الثاني[١]، ومكث في العادلية اربعة أيام، وكان المعتاد ثلاثة أيام فأبى ان يوكب يوم الثلاث لأنه يوم منقرض، فأوكب يوم الاربعاء ثاني عشر جمادى الثاني سنة ١١٤٤[*]. وقامت الرعية في وجهه وشكوا له المعاملة وغلو الاسعار لأن الفندقلي صار يصرف بمايتي والزنجرلي بماية وستين، فلما قاموا في وجهه، فزع عليهم الوالي فضربه الرعية بالطوب، فجاءت ضربة في فخذ الباشا، فأمر الوالي بأن لا يكلمهم وطلع الى القلعة. ثم أن في ثاني يوم ارسل جمع العلماء والبكرية والسادات ونقيب الاشراف والصناجق والعسكر في الديوان وقال لهم: ما هذا الحال الذى في بلدكم وانتم ساكتون فقالوا: الجميع منتظرين قدوم مولانا الوزير فقال: أنا لا أعرف قانون بلدكم وانتم توضحون لنا الأمر وتخبرونا عن قانونكم في حضرة علمايكم فقالوا له: قانون بلدنا أن المعاملة ديواني والأن فحشت المقاصيص فغلت الأسعار فأمر بتبطيل المقاصيص والمناداة على جميع الأسعار وأن لا يمشي الا الديواني، وأن يكون النصف باثنى عشر جديدا فكان كذلك. وكتب عليهم حجة في شأن ذلك وألبس أغاة مستحفظان قفطانا وأمره بأن يظهر النداء في البلد، فنزل ونادى بأن الريال بستة وستين والزنجرلي بماية وسبعة والطرلي بماية، والفندقلي بماية

---

(١) مدة ولايته: ٨ جماد الثاني ١١٤٤ / ١٥ صفر ١١٤٦ - ٨ ديسمبر ١٧٣١ / ٢٨ يولية ١٧٣٣م.
(*) ١٢ ديسمبر ١٧٣١م.

في اليوم الثالث من شهر بشنس سنة الف اربعة وتسعين للشهدا الأطهار.

[متى البطرك السابع والثمانون]

[١٣٧٨/١٤٠٨م]

متى البطرك وهو السابع والثمانون من العدد وهو الشهير بالمسكين هذا الاب القديس كان من صعيد مصر من ضيعة صغيرة من أعمال

وثلاثين والنصف باثنى عشر جديدا. وكان ذلك في يوم الاحد سادس عشر جماد آخر سنة ١١٤٤[١].

وفي عشرين جماد آخر[٢] عزل الباشا محمد يوسف أغا تابع قطامش من آغوية الجملية وألبسه قفطان الصنجقية. وفي يوم الخميس حادى عشر شوال سنة ١١٤٤[٣] أوكب عبدالله باشا الكبرلي بالالاى الى بولاق ونزل فمكث في الحلي عشرين يوما، وسافر من بولاق يوم الخميس حادى القعدة سنة ١١٤٤[٤]. وفي يوم السبت ثالث عشر القعدة ورد[*] ركاب محمد جاويش الداودلي من الحجاز من طريق البحر وكان له ثلاث سنين منفيا بمكة المشرفة. وكان السبب في مجيئه عثمان كتخدا القزدغلي وأرسل له مائة جمل وعشرة الى السويس البعض محملا هدايا والباقي لشيل حوايجه ثم انه اجلسه على تخت الاوجاق ثاني الحجة ختام سنة ١١٤٤[٥].

وفي غرة محرم الحرام افتتاح سنة ١١٤٥[٦] بدأ عثمان كتخدا القزدغلي في عمارة

(١) ١٦ ديسمبر ١٧٣١م.
(٢) ٢٠ ديسمبر ١٧٣١م.
(٣) ٧ أبريل ١٧٣٢م.
(٤) ٢٦ أبريل ١٧٣٢م.
(*) بالأصل «وركب».
(٥) ٢٧ مايو ١٧٣٢م.
(٦) ٢٤ مايو ١٧٣٢م.

الأشمونين تسمى بني روح(*) وكان منذ صغره راعي غنم في بيت ابيه وان الله المظهر العجائب في قديسيه أظهر فيه من طفوليته في الرعاية أعمال عجيبة جداً منها انه لما كان يقف يلعب مع الأطفال كان يضع يده على رأس واحد من الأطفال وهو يقول اكسيوس ثلاث مرات وكان يرسم جماعة منهم قسوس واخرين شمامسة حتى كان والدته المباركة تعجب من ذلك وتسير إلى الجمع قائلة ان ابني هذا لابد ان يصير بطريركاً

(*) بني روح: هي من القرى القديمة. وردت في كتاب وقف السلطان الغوري المحرر في سنة٩١١هـ. = ١٢٢١ق. = ١٥٠٥م. ويستفاد مما ورد في دليل سنة ١٢٢٤هـ. = ١٥٢٥ق. = ١٨٠٩م. أن هذه القرية والقرى المجاورة لها غربي بحر يوسف كانت تابعه لناحية دلجا، في دفتر الأموال ثم فصلت عنها في تربيع سنة ٩٣٣هـ. ١٢٤٢ق. = ١٥٢٥م. وهي تابعه لمركز ملوى محافظة المنيا.

الصهريج والمسجد اللذان ببركة الازبكية بجوار الشيخ أبو طاقية، وتم بناه وصلى في المسجد يوم الجمعة غرة رجب الفرد سنة ١١٤٧[(١)] وقد أحكم بناؤه ورتب له الرواتب [(٢)] الزايدة وجعل على الصهريج مكتبا لقراءة اطفال المسلمين تقبل الله منه.

ومن أعجب ما وقع: أن أهل صا الحجر[(٣)] حفروا فوجدوا حوضا أزرقا[(٤)] طوله خمسة أذرع وعرضه ذراعان مغطى فوجدوا فيه حكيما مصبرا فأخرجوه منه، وكانت البلد في التزام عثمان كتخدا، وكان حفر الفلاحين، لأجل بنا ساقية فوجدوا هذا الحوض، فأرسلوا اعلموا الكتخدا، فأمر بحضوره، فاكروا عليه من الغيط الى البحر، باربعين فندقلي، وانزلوه في مركب، الي بولاق فطلعه منها الى البر، أربعون عتالا فانشعر الغطا، ثم ركبوه على عجل وسحبوه الرجال الى الازبكية في ثلاثة أيام، فعمل الحوض حنفية، والغطا اعتابا رصها بالمسجد.

ثم أني توجهت الى بولاق لا نظره: فرأيت عليه غطا وأربعة من اليهود يقرونه فقلت لهم:

(١) ٢٧ نوفمبر ١٧٣٤م. (٢) بالأصل « الرياتب».

(٣) صا الحجر: احدى القرى القديمة ، التابعة لمركز كفر الزيات، محافظة الغربية، محمد رمزي، المصدر السابق، قسم ٢ ، جـ٢ ، ص ١٢٦ . نهبت اثارها ودمرت لقرون عديده.

(٤) كتب عنوان جانبي «أعرف هذا الحوض الذى وجد مردوما بالأرض».

وهذا لم يمكث الطفل قليلا حتى كبر ونشا فلما صار له من العمر أربعة عشر سنة حينئذ ترك بيت ابيه ومضى الى بعض الديارات بالصعيد عمل راعي غنم كعادته وكان لايلبس على جسده ثوب بالكلية بل كان متوزاً بعباة وحبل على حقويه وكان مع حقريته لذاته هكذا ذو شجاعة وقوة شديدة حتى أن من معظم شجاعته كانو الرعاة الذين اكبر منه اذا ارصدوهم الضباع الكاسرة فى الليل لكسر اغنامهم ولايقدروا عليهم فكانوا

ما هذا الذى تقرونه ؟ فقالوا: تاريخ الحوض . فقلت كم له من السنين؟ فقالوا له: من حيث وضع الحكيم فيه ١٩٢٣سنة وكان قبل ولادته صلى الله عليه وسلم ٨٦٧سنة.

وفى سابع صفر سنة ١١٤٥ الخامس لعشرين أبيب[1] أوفى البحر وجبره عبدالله باشا فى يومه بعد العصر ولو ابقاه لكان فاض من على الجسر وكانت زيادته فى ثلاثة أيام. وفى يومها ورد جاويش الحج.

وفى ثانى عشر صفر[2] دخل الحاج الشريف وقد حصلت له مشقة كبرى من العرب ولكن نصره الله تعالى وخذل العرب.

والسبب فى ذلك: انه لما سافر[3] الحج الشريف صحبة محمد بيك قطامش سنة١١٤٤، خرج عليهم فى العقبة بدوى يقال له قطيفان فأسا على الحاج من خلفه وأوقع النهب والقتل فأعان الله أمير الحاج فمسكه وعشرة أنفار من جماعته ورجع بهم الى مصر فاظهرت العرب العصيان ودخل أوان الحاج الثانى فلم تأتى العرب لاخذ كساويها قبل الحاج حكم المعتاد وأرسلت العرب تهدده، فلما قرا الورقة ورأى قضية التهديد أخرج قطيفان من الحبس وقطع رأسه و صحبته سبعة وأبقى ثلاثة منهم ردهم الى الحبس وكان ذلك يوم عيد الفطر. ثم أنه

(١) ٣٠ يولية ١٧٣٢م. (٢) ٤ أغسطس ١٧٣٢م.
(٣) كرر التعبير بالأصل.

يمتحنوا هذا الأب ويعثوه إلى تلك الضباع فكان إذا دنامنها وزعق عليهم بصوته تتقافز منه وترجع مولية هاربه حتى كانوا الرعاة الذين هم اكبر منه يتعجبوا من عظم شجاعته ونعمة الله حالة على وجهة . لأن هذا الأب كان حسن الوجه محبوب الشكل والصورة والمنظر جداً وكان كل من ينظره يحبه، منها انه في دفعه نظرته امرأة واشتهت حسن حاجبه وسلطها عليه الشيطان وأبدته بالشر وانه انفرد الى ناحية وقشط حاجبه بموس وأخذه

سافر الى الحج وكان لقطيفان ابنة وعبد يقال له ابراهيم وكان خيالا ولكن العرب كانت تخشى ابراهيم هذا اكثر من سيده فأخذ بنت سيده وطاف بها أحياء العرب فالتم عليه ثمانية عشر قبيلة فلم تدرك الحج إلا القليل منهم فمن كان قريبا من درب الحج فى الطلعة فطلعوا عليه في حلزون الكيخية وكان أمير الحاج قد أخذ المغاربة صحبته وقسمهم ثلاثة أقسام قسم تلقاء الحاج وقسم (على) ميسرة الحاج وقسم على ميمنة الحاج من جهة العطف وتعقب هو خلف الحاج فطلعت عليه العرب من العطف فحرقهم بالنار وقتل منهم جماعة ونزل البدو على حمية بالسلامة وارسل نجابا الى مصر يخبرهم بما وقع له فى العقبة، وسافر هو الى مكة فى أمان الله.

فلما وصلت الاخبار الى مصر: هيئوا امرهم وعينوا صنجقين صالح بيك ومملوكه حسين بيك الخشاب وكتبوا عسكرا وابطلوا أغاة الوجه وأرسلوا محله عرب موانة وتأخرت العرب قبل الصناجق.

فلما وردوا العقبة فوجدوها قد مليت عربا وان لهم خمسة وثلاثون يوما فى البندر ينتظروا الوشاشة. فلما رأوا الموانة قاتلوهم وأخذوا جميع ما كان معهم لأنهم كانوا قد جاعوا ثم أن الموانة راحت الى قبايلها وأخبروهم بما حصل لهم فجمعوا بعضهم ورجعوا الى العقبة فوجدوا العرب مشتبكة مع التجريدة فساروا الى مجوعهم فنهبوها على الكلب. وكانت التجريدة

وجابه إلى تلك الامرأة قائلا لها خذى شعر الحاجب الذى اشتهيته فلما نظرته الامرأة تألمت لذلك جداً ولكنها لم تكف عنه حتى سأل الأب الأسقف ان يطلق سبيله لأن تلك الأمرأة كانت مجاورة لمنزل الأسقف وكان هذا الأب يكتم أمرها ولم يريد يشهره للأسقف عليه بزيادة وأنه سأل الأسقف أن يطلق سبيله فلم يشأ. حينئذ عمل ذاته مثل مجنون وجمع للوقت ثياب الأسقف وبلالينه [العباءات] وقطعهم الجميع قطعاً قطعاً وطرحهم

أخذت شديد، شيخ الحويطات، لأنهم لم اتوا على طريق العقبة وانما أخذوا على طريق الدورة من نخل فما فطنت العرب الا والتجريدة عليهم والمدافع، والرصاص واقع فيهم، وكان بصحبة التجريدة مدفع كبير يقال له المجنون،تجره عشرون جملا فاسيبوه وكان فى داخله جلة فجاءت فى رجل بدوى فطيرته فى الهوى، وأصابت آخر فطيرته[1]. فلما رأت العرب ماحل بهم، وكانوا نحو العشرة آلاف بدوى فولوا الأدبار وركنوا الى الفرار فوقعت الخيل باقفيتهم فهلك من العرب نحو الاربعماية رجل فكوموهم أربعة أكوام[2]. ثم أن العرب رحلوا الى نجوعهم، فرأوا قد نهبت أموالهم، وماتت رجالهم ونساؤهم فزادوهم غما على غمهم، وكان أمير الحاج فى المويلح فركب هو الحاج وساروا الى أن دخلوا العقبة غرة صفر سنة ١١٤٥[3]. واجتمع بصالح بيك وحسين بيك فشكروهم على ما فعلوا وكتب مكاتيب العقبة وأرسلها صحبة شديد البدوى عوضا عن الشاويش، وأرسل يخبرهم بما حصل له من النصر وأمرهم أن يخوزقوا الثلاثة المحبوسين الباقية من جماعة قطيفان.

فلما جاءت الأخبار: خوزقوا الثلاثة قصاد بباب قراميدان وأما أمير الحاج لما دخل العقبة وأراد أن يقطع جميع النخيل الذى ببندر العقبة جاءته العرب وطلبوا منه الصلح وأنه لا يقطع

(١) بالأصل «فطريته». (٢) بالأصل «اكمان».
(٣) ٢٤ يولية ١٧٣٢م.

كوم شراميط فلما نظر الأسقف ذلك فقام على هذا الأب وانهره وطرده إلى ديره ولم يكن يعلم أنه فعل هذا بسبب تلك الأمرأة بل انه جنون عرض له وان الله ارسل للأسقف جماعة أعلموه ما اتفق عليه مع الأمرأة فلما تحقق ذلك ندم على طرده وان الأب الاسقف صار يتوقع الاجتماع به، إلى حين اجتمع به حينئذ قبض عليه للوقت وكرزه قساً وهو ابن ثمانية عشر سنة فلما ذاع خبر تكريزه إلى الأب المكرم الروحـــانى وهو الاب

- -

نخلهم وأن هذا الفساد الذى كان قد وقع، كان من قطيفان وقد أهلكه الله فاصطلح معهم على عدم قطع النخل الذى لهم دون نخل ابراهيم العبد فلا بد من قطعه فقطعه وكان أربعماية نخلة وكانت جميعها عليها الطرح، وكان ثمرا ينبعاويا، ليس له نظير فى تلك الارض وكان قد جابه قطيفان من نخل المدينة.

ثم أنه دخل الى مصر حادى عشر صفر[1]. ورأى الثلاثة وهم فوق الخوازيق حين دخل الى قراميدان لتسليم المحمل. فلما رجع لقيهم قد هلكوا فأمر بنزولهم من على الخوازيق ودفنهم فهذا كان السبب، والله اعلم . ففرحت أهل مصر لنصرة الاسلام على العرب الانجاس. وقد اتحف الله عباده المسلمين بنصرة ثانية فى عقب نصرة الحاج وهى النصرة التى حصلت لأهل الجزاير وأخد ولد الملك الاسبنيول، وما ذاك الا أنه جهز ستماية مركب من الغلايين وملأها بالرجال والعسكر المقاتلة لأهل الجزاير[2] بسبب ابنته التى أخذها أهل الجزاير وهى مسافرة الى زيارة القمامة [كنيسة القيامة] فلقيها مركب الجزاير فأخذتها وجميع من كان معها من الهدايا التى للقمامة. فلما وصل الخبر الى والدها أرسل يطلبها من الجزاير فأبوا أن يعطوها له فبالغ فى عطية الفدا فأبوا. فارسل أعلم السلطان أحمد خان فارسل يطلبها منهم فأرسلوا

(١) ٣ أغسطس ١٧٣٢م.
(٢) كتب عنوان جانبى «أعرف نصرة أهل الجزاير على طاغية الاسبنيول وأخذ ابنته وكسر عمارته».

ابراهيم القمص الفانى فقام للوقت على الأسقف وقال كيف جسرت يا ابينا وكرزت صبى شاب راعى غنم قسا وهو ابن ثمانية عشر سنة فجاوبه الاسقف قائلا ان الشاب يستحق ان يكرز بطريركا لما علمه منه لانه كان يصوم فى زمن الصيف يومين يومين وفى الشتاء ثلاثة ثلاثه فلما سمع ابينا القمص ما شهد به عنه الأسقف تعجب ومجد الله المتكلم على افواه قديسيه. واما هو لما نظر الشك الذى وقع من اجله مضى الى جبل القديس

يقولون له أنه قد اسلمت واشتراها منا الدولتلى وهى الان زوجته فان كان يصح فى الاسلام انا نرد[1] من أسلم الى الكفر فعلى الرأس والعين، وان كان لا يصح فنحن نرد ما يأتى من طرفه بحول الله وقوته . فلما ورد الجواب االى السلطان أحمد خان قال لا سبيل الى ردها الى الكفر أبدا ولو أنها تفى الى أمر الله تعالى. فمكث هذه المدة يدبر أمره ويجمع فى عسكر ومراكب وتسامعت أهل الكفر بركوبه على الجزاير فأرسلوا يساعدوه بالرجال والمراكب الى أن صار فى ستماية مركب ثم أنه أرسل عسكره على الجزاير التى فيها قلعة وهران. ثم أنه قصد الجزاير وبنا قلعة مقاصدة لقلعة وهران فى ثلاثة أيام، وحاصر قلعة وهران فملكها وقتل من فيها وأسر البعض ثم أن أهل الجزاير أرسلوا الى السلطان محمود خان والى أهل تونس وطرابلس فجاءوا جميعا وجاءت عمارة العثمانى وجاءت عمارة مولاى عبدالله بن مولاى اسماعيل فى ستين ألفا من على البر فتقاتلوا مع أهل الكفر فلم تلبث الكفار ألا ثلاثة أيام وهلك منهم على السيف ثلاثون الفا وأسروا سبع عشر ألفا أسيرا وملكوا قلعة وهران واسيبوا من كان فيها من أسارى المسلمين الذين كانوا فى القلعة وهدموا القلعة التى بنوها والذى هرب الى البحر، غرق، وعمارتهم أهلكتها عمارة العثمانى. وعمارة الثلاثة واجاقات، ولم ينجو من الستماية الا أربعين مركبا، وبقيت المراكب، شئ غرق والباقى اخدتهم مراكب

(١) بالأصل «تردوا» والصواب «ترد».

أنطونيوس [ليخدم به] ولم يظهر لأحد أنه كاهن، اذا كان قصده الخدمة سوى شماس، واذا بيد الآهيه خرجت من الهيكل أعطته البخور ثلاثة دفوع عند قراءة الأنجيل ثم غابت عنه فلما نظروها بعض الشيوخ القديسين وتحققوها أعلموه أنه لابد أن يصير بطريركا فلما سمع هذا منهم حزن جداً وقام ومضى إلى مدينة ايروشليم [القدس] وتغرب هناك وكان يعمل في الفاعل وياكل من تعبه وكان من عظم جهاده في النهار يقطع الليل كله

العثمانلى، ومراكب الطرابلسية ومركب التوانسية، وأسروا اكابر دولة الملعون ونصر الله الاسلام. ثم أن الاربعين مركب التي سلمت صارت تبرطق في البحر وتؤذى مراكب الاسلام.

فمن جملة ما دخل الى منية دمياط خمسة غلايين وثلاثة شطيات[1] فروا غليون السلطنة الذى هو يدك القبطان يقال لها أريالا على مراسيه ولم يكن فيه الا ماية وخمسين لاوندى وقبطانها القبطان خليل فقط وبقية الثمانماية لاوندى جميعا في دمياط فتحاوط الثمانية مراكب بالغليون، فما ساعه الا أنه أخذ مراسيه وطلب الباحة فتقاتل هو واياهم ثلاثة أيام الا أن بقى الغليون قصعة من غير صوارى من مدافع الكفار التى أرموها عليه وقد استشهد كل من كان فى الغليون سوى القبطان واثنى عشر رجلا ثم أن الكفار ملكوا المركب وأخذوا القبطان والاثنى عشر رجلا أسارى، وكان ذلك في ثانى عشر ربيع أول سنة ١١٤٥[2].

وفي غرة ربيع الثانى[3] ورد أغا بخط شريف بامارة الحاج لعلي بيك تابع محمد بيك قطامش فالبسه الباشا قفطانا على أمارة الحاج. وفي يوم الاحد سادس عشر شعبان سنة ١١٤٥[4] ورد اغا من الديار الرومية وصحبته خط شريف بطلب ثلاثة آلاف عسكرى الى

(١) الشطيات: نوع من المراكب الحربية الصغيرة، التى تمتاز بالخفة والسرعة وكانت تستعمل فى البحر المتوسط، ووظيفة هذا النوع كشف الموانى، أنظر: درويش النخيلى ، المصدر السابق، ص ٨٢. كتب عنوان جانبى «أعرف أخذ الريالة من جزيرة دمياط».
(٢) ٥ سبتمبر ١٧٣٢م. (٣) ٢١ سبتمبر ١٧٣٢م. (٤) ١ فبراير ١٧٣٣م.

ايضاً ساهراً فى مغارة ولم يخالط احداً ولم يتكلم
قط وإذا كان يضطره الامر أن يتكلم كان لايتكلم
سوى سبعه كلم واما يوم الجمعة فلايتكلم فيه بل
كان يتكلم مع السيد المسيح النهار كله . وهكذا
لم يزل هذا الأب مجاهد فى مدينة ايروشليم إلى
أن حضر اليه راهب غريب الجنس وقال له: يارجل
الله ارحمنى. فان كان معى مبلغ فضة ينفعنى فى
غربتى سرقوه ولا أعلم من هو الذى سرقه منى
وكان الذى سرقه أخذه فى خفيه وسار لساعته إلى

بغداد، فأجابوا بالسمع والطاعة، ثم أن الوزير سال الرزنمجى عن النوبة فى هذه السفرة نوبة من من الصناحق فاخبره بانها نوبة على بيك أمير الحاج، ثم أن الوزير قال لهم كيف الحال فى هذه الأمر ؟ فقال على بيك: هى نوبتى وأنا أنظر بدلا يتوجه الى السفر عنى. فأمهله الوزير الى ثانى ديوان. ثم أن محمد بيك، وعلى بيك، اجمع أمرهما على تلبيس أيوب كاشف الصنجقية ويرسلوه بدلا عن على بيك أمير الحاج ثم أنهم اطلعوه الى الديوان فالبسه الوزير قفطان الصنجقية وقفطان السفر معا فى يوم الاحد ثالث عشرين شعبان، ونزل موكبا الى منزله وأن على بيك قضى جميع لوازمه وما يعتاز له الأمر ثم أن عثمان بيك أرضى خاطر على بيك وقال له هذا اشراقك وانك تجعله بدلا عنى وأنا أعطيه ثلاثين كيسا ثم أن على بيك أجاب الى ذلك وقال: هذا اشراقى ولكن يكون بدلا عنك لأجل خاطرك ولا فرق بيننا وبينك فهادته جميع الصناجق لأجل خاطر على بيك.

ثم أن باب مستحفظان: أرادوا أن يلبسوا باش جاويش الذى هو نوبته الى السفر، فقال محمد كتخدا المنلا لا يتوجه الى هذه السفرة غيرى لأجل ما أزور قبر أبتى وأخى وأهلى. فابت الاختيارية وقالوا: لا يمكن هذا أبداً، فقال: لابد من ذلك وحلف ان لم يجعلوه سردارا الا سافر من غير كتابة. وتوجه له محمد الداودلى كتخدا الوقت واختيارية أوجاقه بأن يمنعوه من سفره فأبى، وحلف لابد له من السفر.

بيت لحم قاصد الهرب إلى بلاده فلما علم هذا الأب بالروح أمره ترك ذلك الراهب مكانه ومضى لساعته إلى بيت لحم قبض الذى سرق المبلغ وأخذه منه ولم يشهر أمره لكن أخذه منه وأعاده إلى ذلك الراهب صاحبه وان الراهب تعجب لذلك وذاع بهذه الاعجوبه لكل احد في اورشليم فلما علم هذا الاب ان أمره قد اشهر قام لساعته وجاء إلى جبل انطونيوس، وناله وقت عودته أحزان كثيرة وشديدا منها أن الملك بمصر لما وقع

ثم أن أغاة مستحفظان البسه كركا: ونزل الى منزله ليشهل نفسه ثم أن أيوب بيك أوكب بالاى رابع شوال وسبب تعجيل الالاى الططرى الذى أتى في رمضان بتعجيل السفر لأمر حصل في بغداد لأن الارفاض ملكوا من روان الى أن أخذوا من حكم بغداد ثمانية عشر يوما وانهم اسروا بعض باشات وأنهم محاصرون بغداد فعجلوا التشهيل وطلعوا الالاى لأن الططرى، لما أتى بالخط الشريف نزل الوزير الى قراميدان ثالث شوال وقرأ الخط عليهم، ففى ثاني يوم علموا الاى فهذا الذى كان السبب في تعجيل السفرة. فلما طلع الاى الصنجق كثر الفحش في البلد (٤٧٧) من جماعة المنلا لأنه كتب جميع ما كان في قايمته،وكانوا نحو الاربعماية فصار الخطف والقتل في البلد وأخذ بغال الخواجات حتى أن قربة الماء صارت بأربعة أنصاف فضة لأن كل من أرسل بغله أو جمله يأخذوه ويروحوا به الى العادلية، لأنهم آذوا ناسا كثيرا، حتى أن الأسواق جميعا قفلت حوانيتها، وصارت البلد شكل الخراب فلما كثر الأمر وزاد نزل الاغا ونادى في البلد على النساء والاولاد المرد لا يخرجون، فامتنعت النساء من الخروج وكذلك الاولاد وأن النداء على الاولاد لم يتفق أبدا في سفرة من الأسفار اذ من العادة النداء على النساء دون الاولاد فكون أنهم(*) أقرنوا الاولاد مع النساء في هذه، النكتة لا يخفى على من له ذوق سليم وعقل مستقيم.

(*) بالاصل «أنتهم» .

من الافرنج (*). ما وقع بمدينة الاسكندرية فأرسل قائد وجند من عنده يعاقب الرهبان ويطلب منهم أوانى الدياره فلما قبضوا الجند على هذا الأب وعاقبوه عقاب صعب الى أن تألم قلب الطوبانى مرقس عليه، فانتهره القائد من أجله قائلا له أنت ما تخاف الله اذ تسمع الشاب يقسم عليك من ألم الضرب بشأن الله وأنت لاترحمه وتقبل شأن الله فلما سمع القائد كلامه حنق جداً وامر ان يطلقوا هذا الأب ويضربوا الطوبانى مرقس عوضاً عنه

(*) بسبب ما وقع بالاسكندرية من بيترلوزينان ملك قبرص فى عام ١٣٦٥م.

وفى عاشر شوال عملوا الاى السدادرة وأركب محمد المنلا وكانت الركبة له دون غيره من السدادرة الى العادلية وما رجع العسكر من العادلية حتى زاد الغم.

ومن أعجب ما وقع: ان نفرا من الأنفار مر من الصاغة فرأى رجلا ذميا واقفا فمسك أنفه وقال ايش هذا فقال الذمى: هذا أنفى لماذا يا سيدى تمسكه.، فقال النفر: قل هذا أنفك؟ فقال له الذمى: هذا أنفك، فقال: اريد أن أقطع أنفى من يمنعنى من قطع انفى، فقال له الذمى: لا يا سيدى هذا أنفى ليس هو أنفك ، فقال له النفر: أن كان هو أنفك فاشتريه، فما خلص منه حتى أخذ منه خمسماية فنادقة، وكم مثل هذه، وأمثال، ثم أن العايط قام فى البلد، واتصل الخبر الى الوزير، فجمع العلماء والصناجق، والكواخى، ثم أنه قام عليهم قومة شنيعة، وتكلم بكلام كثير، وكذلك الشيخ سليمان المنصورى، والشيخ أحمد العماوى قاموا على اختيارية الوجاقات، وقالوا : ما رأينا عسكرا عملت هكذا أبدا، و تقدمت السفرة التى طلعت عام أول التى أخرجها عثمان كتخدا، ما حصل منها شيئا، مثل هذا حتى أن السرديات، ما أحد لبسها وطلع مصطفى جاويش الزربة[١]. ثم أنهم أخذوا خاطر الوزير بأن العسكر تشيل من العادلية الى البركة فى غد، ثم أنهم شالوا من العادلية الى البركة ليتمموا

(١) كتب عنوان جانبى «أعرف كلام الوزير الباشا والشيخ سليمان المنصورى، والشيخ أحمد العماوى الخ».

وعيا القائد من عقابهم فأخذهم في الوثاقات يريد يروح بهم الى مصر. ان الله المظهر عجائبه في قديسيه أظهر على أيديهم أعجوبة عظيمة ألى أن تعجب القائد وندم على عقابه لهم، وذلك ان هؤلاء القديسين لما اشتد بهم ألم الضرب والوثاقات حصل لهم في طريق عطش صعب إلى أن دابت كبودهم وكان الطوباني مرقس انهره قائلا ان كنت انت ما تعطينا ماء لنشرب ها هو الرب إلهنا يعطينا ماء من السماء لنشرب. ومع

قضاء مصالحهم وكانت مدة قفل البلد عشرين يوما. وفي سادس عشر شوال[1] فتحت ولكن أضمحل ناموس العسكر.

وفي احدى وعشرين شوال[2] شال العسكر جميعا من بركة الحاج ولكن ما شالوا من البركة حتى دخلوا الى مصر يوم الجمعة والناس في المساجد وخطفوا من الدكاكين، ما كان متطرفا، وكانوا نحو ستين نفرا خيال، ثم أن رجلا منهم رأى رجلا خواجة محرم خلف الامام على المصلة التي قدام باب المسجد المطلة على الدكاكين وعلى كتفه شال كشميرى، فنزل من على جواده وطلع من السلالم التي على باب الجملون من خلف المصلي وسحب الشال من على كتفه، ونزل ركب جواده وسار الى البركة وهو شاهر السلاح وثلاثة أنفار ضربوا ثلاثة طبانجات على باب النوبجية وهو واقف بجانب البوابة وحصل منهم في ذلك اليوم اذية كثيرة في البلد.

فاخبرت الناس عثمان كتخدا: فأرسل الى باب النصر غزا بسلاح وكذلك جميع أبواب البلد أرسل لها غزا تحرس الأبواب لئلا يدخلها أحد من المسافرين وقعد الوالي في الحسنية والاغا في باب الشعرية وعلى قناطر الليمون جماعة الغز.

---

(١) ١٢ مارس ١٧٢٣م.

(٢) ٦ أبريل ١٧٢٣م.

كـلام الطوباني مـرقس له صلى ورفع وجـهـه إلى السماء وللوقت انفتحت ميازيب السماء وهطلت الامطار إلى ان امـتلئت البـقـاع والأوديه وشـربوا جميعهم ومن كثرة المطر نزلوا يستريحوا فوافاهم رسـول من عند الملك بخـلاصـهم وعـودتهم الى ديارتهـم. وهكـذا لـم يمكـث هـذا الأب بـالدير الا قليـلا ثم انه أخـذ أذن من الطوبانى مـرقس ومـضى

والسـبب في قـعـاد الغز، في قنطرة الليـمـون أثنان من المغاربة، كـان لهم دراهم في بولاق فراحا بولاق واخذا الدراهم، فلما رجعا طلع عليهم ثلاثة نفر من جماعة المنلا فضربوهما وأخذوا ما كان معهما، وكان واحد منهما معه ماية وعشرين فندقلى، والاخر ثلاثماية فندقلى هكذا آخبرانى بانفسهما، فلما حصروا الطرق وكل من رأوه بسلاح أخذوا سلاحه وأرسلوه الى بابه فيضربه علقة، ويرسله الى البركة وأوضباشة البوابة دايرا في البلد بثمانين رجلا، فمكثوا ثلاثة أيام يفعلوا هكذا الى أن شال على بيك من الحضرة ونزل في البركة حتى أنهم شالوا منها بالجهد الجهيد ولو لم يكن الحج زحف عليهم ما كانوا شالوا ولو أتاهم فرمان الوزير لأنهم كانوا قد كسروا في العالم واستباحوا اموالهم وشال الحاج من البركة على حسب عادته صحبة على بيك. ثم[1] بعد توجه الحاج فحشت المعاملة وزادت الى أن بلغ الفندقلى الى مايتين وأربعين فضة، وغلت الأسعار فشكت أهل البلد الى العلماء، وقامت الرعية[2]، وقفلت البلد، فكان الذين قاموا وشكوا امرهم، الى العلماء هم الحريريين والعقادين، ثم أنهم كتبوا عرضا الى الوزير، وأرسلوه صحبة الشيخ ابراهيم البسيونى، وبعض من طلبة الشيخ عبدالله الشبراوى، فتوجه الشيخ ابراهيم، الى محمد بيك قطامش ، قبل أن يتوجه الى الوزير ، لأنه

(١) كرر بالأصل.
(٢) كتب عنوان جانبي «أعرف قوم الرعية من سبب المعاملة».

إلى جبل قسقام بالمحرق(*) وكان ذلك بتدبير من الله لمنفعة الأخوة السكان هناك . لأن كان فيهم من لايدوام الصوم في كل يوم إلى التاسعة فعلمهم هذا الاب مداومة الصوم في كل يوم إلى التاسعه مع الجهاد الكثير الذى كان يجاهده امامهم كي يتعلموا منه بالنظر لانه افضل من السماع، فكان تارة يشيل الرماد على رأسه ويغسل أواني المطبخ والقدور ويخدم الشيوخ والمرضى الذين فيهم والمترددين وليس له ثوب ولاقينة ولا قلايه بل

(*) قسقام: وهي بالقبطية Couskam وCous، وهي القوصيه. و هي تقع على الضفة الغربية للنيل محافظة اسيوط. مازال يوجد بها بعض بقايا الآثار المصرية القديمة. والدير المحرق القائم بها يعتبر من اعظم اديرة الوجه القبلي.

ناظر الجامع. فلما قرأ العرض، ارسلهم الى الوزير، وأرسل(١) كيخيته صحبتهم، فأمرهم الوزير بان يجتمعوا في بيت رضوان بيك الدفتدار، في غد، فما أصبح الصباح الا والجامع الأزهر، قد امتلأ بالرعية، وطلعت عميان الازهر، الى الأسواق، وقد أخذوا الشيخ أحمد بحبحه قدامهم، وكل ما مروا بدكان مفتوح، ضربوا صاحبها وقفلوها، فقفلت البلد جميعا، وما زالوا سايرين الى الرميلة، فلما رأوهم الصناجق، خافوا يكون هذا الأمر سببا الى ألفتنة، ففي الحال امروا الاغا بالركوب، فركب ونادى في القاهرة بتبطيل المقاصيص والدراهم، وأن الجدد الديوانية بنصف، وأن الفضة الاخشا بطالة، الى حين يعرضوا، (هدأت)(*) الرعية ورجعت الى محلاتها. ثم ان العلما طلبت التسعير فامرهم الوزير بأن يجتمعوا في بيت شيخ الاسلام، واجتمعت جميع من ذكر، وسعروا جميع الاصناف، بحضرة مشايخهم، ثم أن محمد بيك قطامش، وعثمان كتخدا ويوسف كتخدا، الزموا المشايخ بان كل من خالف هذا المجلس، يرمى عنقه علي باب حانوته، وان عبدالله شهاب الدين البهوتي، وعبد الرحمن البوز القباني بالرميلة، لا يتعاطون امراً من الامور مطلقا، وأينما وجدوا قتلوا، وأن دماءهم هدر وانهم كانوا ببيت القاضي، لكن لم يدخلوا الجمعية.

(١) بالأصل «أرسله».
(*) بالأصل كلمة غامضة صوبت الى «هدأت» ليستقيم المعنى والأسلوب.

كانت اقامته في مغاره بالجبل خارج عن الدير ويصلي فيها وكان الشيطان يثير عليه في تلك المغاره حروب كثيرة وخيالات مفزعة، منها انه كان يهيج عليه مثل السباع والضباع الكاسره ليأتوا اليه يفترسونه فكانوا حين ينظروه يأنسوا اليه ويخافوا منه . وقد أخبرنا هذا الأب ان الوحوش الكاسره أنست اليه حتى صاروا اليوم الذى لا يجدوا فيه قوت رضعاهم فيأتوا ويشكوا اليه فيقوم ويعطيهم ما عنده من الخبز ويترك ذاته أيام جائع

فلما سمعوا ما تكلموا به هؤلاء الثلاثة هربوا من حمام بيت القاضي، بواسطة جوخدار من اتباع[1] شيخ الاسلام، بخمسين زنجرلي، و ان عبدالله هذا كان تحت يده جملة أقلام، وكان من طرف باب مستحفظان، والبوز كان من طرف باب العزب، وكان على الاثنين جميع خضار متكلمين البلدين، وكانت الاقلام التى على الاثنين اثنان وسبعون قلما، من جملتها قلم الرميلة من قثا وخيار، وعبدلاوى وعجور، وبامية وقرع، فالتزم بالرميلة والخضرة بعد عبدالله، أحمد أوضباشا باش أوضباشية مستحفظان الشهير بالمطرباز، وكان ذلك في ثامن عشر الحجة ختام سنة ١١٤٥[2]. ثم أن عثمان اغاة مستحفظان، اشهر الندا في القاهرة بما وقع عليه الاتفاق، ولكن حط، على البوز الاعين فجاء الخبر بانه في قهوة السطوحي بحاسب المعلمين، فركب وكبس عليه القهوة، فاخذه منها، ورمى عنقه على بابها، وكان ذلك (في)[3] الخامس والعشرين من ذى الحجة سنة ١١٤٥[4]. وأما عبد الله فانه أحتمي في بيت محمد أوضباشا الرابع، فمكث فيه نحو ستين يوما، ومات وأزال الله الكرب عن المسلمين بموتهما وأراح الله العباد من شرهما. ثم أن الاغا نزل البلد فلم يجد في البلد دكانا مفتوحة ولم يوجد شيئا في البلد مطلقا ومنعوه إلى أن صارت الناس تجيب الخضار من الحسينية، والملوخية من بركة

(١) كرر بالأصل.
(٢) ١ يونية ١٧٣٣م.
(٣) الاضافة للتوضيح.
(٤) ٨ يونية ١٧٣٣م.

بدون أكل إلى ان يعود الى الدير. وكانوا الوحوش لمحبتهم فيه إذا سار في الطريق يسيروا معه وإذا أمرهم بالرجوع رجعوا وكان تدبيره هكذا من وقت إلى وقت إلى أن انتقل البطريرك الذى كان قبله وحينئذ دعوه جماعه الشعب وسألوه ان يصير بطريركاً عليهم فلم يرض وقام واختفى ونزل فى مركب تقلع إلى قبلى فمنع الله الهواء ان لا يخرج إلى ان أتى طفل صغير غمزهم [أنه] في خن المركب فمضوا اليه الشعب للوقت واطلعوه

المجاورين، وصار لا يوجد بطيخ ولا خيار، ولا شئ يقال له شئ، وتعب الناس تعبا زايدا، ثم أن الاغا أحدث أربع خوازيق بكلاليب على اكتاف القواسة خلفه، وكانت تلك الخوازيق لأجل بلص الرعية والتجار، ولم يمكث هذا الأمر الا ثلاثون يوما ورجع كل شئ الى اصله وزاد ولم يخوزق، أحد أبدا.

وفى هذا العام: تم مسجد الخواجا قاسم الشرايبى الذى(*) بالرويعى، وصليت فيه الجمعة وبدا حسن الرزاز كتخدا عزبان بعمارة الصهريج، والمكتب الذى تجاه منزله بالشيخ الظلام المعروف بمنزل قايتباى، وكان تمامه فى خامس عشرين الحجة سنة ١١٤٥(١).

وفى عاشر محرم سنة ١١٤٦(٢): وردت الاخبار من الأقطار الحجازية من الموانة بما وقع فى الينبع فى الطلعة مع عرب الينبع ومع على بيك (٤٨١) أمير الحج.

وسبب ذلك: ان مملوكا لعلى بيك طلع الى السوق يشترى تمرا فاشترى تمرا من بدوى فاختلف السعر بينهما حال وزن التمر فتشاجر مع البدوى ففزع عليه البدوى فضربه الولد قتله فالتم عليه الظابط من العرب فقتلوا المملوك، فتزايد الأمر ووقع الخطف والنهب من العرب فى الحاج. فجاء الخبر الى على بيك فركب وركبت معه جميع العسكر فانتصب

(*) بالأصل «التى».

(١) ٨ يونية ١٧٣٣م.

(٢) ٢٣ يونية ١٧٣٣م .

٨٧: متى [١٣٧٨/ ١٤٠٨م.]

من الخن من المركب ولما علم أن ليس له خلاص
من ايديهم حينئذ سألهم سؤال كثير ان يصحبوه
صحبة اثنين منهم إلى جبل القديس انطونيوس
ليشاور أبهاته الشيوخ وفي الساعة الذى ابصروه
الشيوخ قاموا عليه وبالخاصة الطوبانى مرقس
واشاروا عليه ان لايبرح عما ر سم له بل يستعد
ويقبل الخدمه ويعمل بطريركاً ولما حضر إلى مصر
وتحقق انه يصير بطريركاً تألم قلبه لذلك جداً
حتى ان من زايد تألمه أخذ مقص بولاد [حديد]

الحرب بينهم من بكرة النهار الى بعدى الزوال. فهلك خلق كثير من الغز والمغاربة والعرب وأما الخدم والمسبين فهلك أكثرهم ثم أن عبد المعين ادرك على بيك وافرق بينهم وأمره بالرحيل فرحل من وقته وسار عبدالمعين صحبته حتى أخرجه من تلك الحكم. وكان عبد المعين[١] هذا حاكم الينبع من طرف الشريف عبدالله، ثم أن على بيك دخل الى مكة وحج وسار الى المدينة، وزار سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، وسار فى المدينة على غير طريق الينبع ثلاثة عشر يوما الى أن اطلع على الازلم ودخل الحاج الازلم، وقد هلك أكثر الحاج عطشا وانقطع خبر من انقطع من التعب لأن البهايم قد ماتت من قلة (الماء) لأنهم مكثوا أربعة أيام لم يروا فيها الملاء، وبلغ الفنجان الماء ريالا وصار اذا مع الرجل زمزمية ماء لا يسقى ولده، وكان سفرة غير حميدة وتعب الحاج تعبا شديدا. ودخل الحاج الى مصر ثالث عشر صفر[٢] وأخبر بموت الشيخ يوسف الشرقاوى فى عرفات ودفنه بها.

وفى خامس عشر صفر سنة ١١٤٦[٣] ورد من طرابلس الشام من حضرة عثمان باشا بقيامة مقاميه، الى محمد بيك قطامش وصحبته خط شريف بعزلان محمد باشا السلحدار

(١) باصل «عبد المنيع» والصواب ما أثبتناه.
(٢) ٢٦ يولية ١٧٣٣م / كتب عنوان جانبى «أعرف وفاة الشيخ يوسف الشرقاوى بعرفات ودفنه بها».
(٣) ٢٨ يولية ١٧٣٣م.

وقطع طرف لسانه وطرحه امام الشعب، وأنهم تألموا جداً وقصدوا يعالجوه فلم يمكنهم ولكن الرب الذى أطلق لسان زكريا بعد الخرس هو الذى اطلق لسانه وانهم تحققوا أن راعيهم هذا من الله ثم مسكوه وكرزوه بطريركا فى اليوم الأول من شهر مسرى سنة ألف أربعة وتسعين للشهدا [١٣٧٨] وكان جملة من اجتمع من الاساقفة ووضع يده عليه بمدينة الاسكندرية إحدى عشر أسقفا وكان يود من المسيح أن يرسل له الاسقف

فطلع محمد بيك صحبة المسلم الى الباشا فألبسهما الباشا كركين ومكث فى السراية ثلاثة أيام، ثم أنهم أنزلوه واسكنوه فى بيت أبى الشوارب رابع توت الموافق لثلاثين صفر سنة ١١٤٦[١]. ثم أنهم نقلوه منه الى بيت حسن اغا أبو لفية الصغير الذى بجوار مسجد مزدادة يسرته وأنزلوا عليه الحرس فمكث فيه ثمانية أشهر لم يخرج ولا الى الجمعة. وقد حصل له تعب كبير ولم يقعد عليه عثمان باشا بالذى جهته الى أن جاءه العفو من حضرة الوزير، والزم عثمان باشا بالذى جهته، فقعد به وكتبه عليه أهل مصر بحجة وسافر من العادلية فى يوم الاربع ثانى عشر الحجة ختام سنة ١١٤٦[٢]. وكانت ولايته سنة واحد وحبسه عشرة اشهر وطلع على حمية وأخذ من أهل مصر حجة بغلاق التراقى، والذى لأهل مصر نحو تسعين كيسا صارت جهة عثمان باشا وأخذوا عليه حجة كما ذكرنا وصار فى أمان الله ورسوله، والله تعالى أعلم.

٩٤.ذكر تولية عثمان باشا والى طرابلس الشام

قدم الى مصر من طريق البر يوم السبت ثالث عشر جماد آخر سنة ١١٤٦[٣]، وكان واليا بطرابلس الشام وانه ولاه حلب وكان والده محصلا بحلب من طرف السلطنة، وكان معلوما

(١) ١١ أغسطس ١٧٣٣م. (٢) ٢٠ مايو ١٧٣٤م.

(٣) مدة ولايته: ١٣ جماد آخر ١١٤٦ / ١٤شوال ١١٤٧هـ ٢١ نوفمبر ١٧٣٣ / ٩مارس ١٧٣٥م.

الثانى عشر وكملوا جلوسه بطريركاً فى اليوم السادس عشر من مسرى لمحبته فى ذلك اليوم الذى هو تذكار [ذكرى وعيد] سيدتنا العذراء وانه لم يغير شئ من طريقته ولا تواضعه فى ايام بطركيته لكنه نصب جرس نحاس فى القلاية البطركية وصار كل من سمع ذلك الجرس ينهض للصلاة فى أوقاتها والصوم فى كل يوم إلى التاسعه وكان من حرصه على الصلوات والسهرانات لايغفل عن رحمة المساكين بل كان اذ اجلس فى مجلسه ثم

عندهم، ثم عمل جاويش باشا، ثم أولوه باشوية حلب فبنى بها مسجدا، ثم بعد وفاة والده كان عثمان ولده محصلا، ثم انفق على الجامع الذى بناه اربعماية كيس وبنى حمامات وحوانيتا ووكايل وبيوتا ورتب وقفا يتحصل منه فى كل يوم خمسة آلاف فضة، ثم أنه انفصل عن باشويتها الى طرابلس الشام مع بقاء عياله بسرايته التى بحلب ثم انفصل عن طرابلس الى مصر القاهرة وصحبته من العسكر الف ومايتى خلاف اتباعهم ومن الجمال النجاتى أربعماية وخمسة خارجا عن الجمال البلديات والابغال والخيل والحمير.

ومن العجب: أنه بحال ما عملوا له الاى من أوله الخ لم تغيم الشمس، ولم يظهر لها الحال يدل على انزال المطر الا بمجرد نزوله من على الجواد وجلوسه فى ديوان قايتباى، واذا بالجو أظلم، ونزل المطر كافواه القرب فاستبشرت أهل مصر بقدومه وكان كذلك وانظر لهذا الطف الذى حصل كون أنها لم تمطر عليه فى الاى وانه فى دخوله من باب النصر قامت الرعية فى وجهة وذكروا له الغلا وفساد المعاملة، فلم يتلفت اليهم فرجموه فسحبت جماعته السيوف فمنعهم. ثم انه فى ثانى يوم الذى هو يوم الاحد الذى هو رابع عشر جماد آخر سنة ١١٤٦[(١)] عمل ديوانا وأبرز ثلاثة خطوط قروا بالديوان احدها بغلال الحرمين، والثانى دستور مكرم امره من أمر السلطان وفعله من فعله، والثالث محاسبة محمد باشا وتخليص الخمسماية

(١) ٢٢ نوفمبر ١٧٣٣م.

وافاه انسان جائع أو مسكين فكان يترك ما هو فيه من الاشتغال بالحكم وينظر في حال ذلك المسكين الجائع أفضل مما هو فيه لان هذا الأب ما كان أكثر اهتمامه إلا بالمساكين والصدقة عليهم ومن زايد اهتمامه في الصدقة والرحمة كان اليوم الذي ما يأتي اليه فيه مسكين فكان يقوم يطوف بيوت الأرامل والمساكين ويفتقدهم والذين في السجون أيضاً كان يتعاهد كل واحداً واحداً منهم وأما الديارات التي للرهبانات فأعظم من الكل فانه

كيس التي له عليهم وألبسهم الاكراك وانفض المجلس والديوان، ونزلوا جميعا . ثم في ثالث يوم الذي هو تاسع عشر جماد (أخر)[1] ورد اغا وصحبته خطوط قروا بالديوان احدهما بعمايل شنك ثلاثة أيام بنصرة السلطان، بأخذ ثلاثة قلاع من قلاع العجم من جملتها قندهار وهذه القلعة آخر حكم العجم وأول سواد الهند، والثاني بامارة الحاج الى محمد بيك قطامش وبأن الاربع الولايات تكون تبعا لامارة الحاج وهي، البحيرة والغربية، والشرقية، والقليوبية، وكانت القليوبية والشرقية تبعا لامار الحاج فاضيف لهما البحيرة والغربية، وعملوا شنكا ثلاثة أيام غايتها أحد وعشرين جماد آخر وحصل بقدومه رخا وكثر الخير واستبشر الناس بالخير. وفي خامس القعدة سنة ١١٤٦[2]: توفي السيد على البصير الحنفي، وكذلك توفي سيدى على الحنفي شيخ سجادة جدة، أبي محمود نفعنا الله والمسلمين ببركاته في يوم الاربع عاشر محرم سنة ١١٤٧[*].

وفي سادس عشرينه[3]، توفي سيدى محمد بن سيف الولى الصالح، وفي يوم موته مطرت السماء ثلاثة أيام حتي أهلكت العبدلاوى ولم يبق منه شئ وصار لا يوجد ، ثم أعقب

(١) ٢٧ نوفمبر ١٧٣٣م، الاضافة للتوضيح.
(٢) ٩ ابريل ١٧٣٤ / كتب عنوان جانبي «أعرف وفاة السيد على البصير الحنفي، والسيد على الحنفي شيخ سجادة جدة أبي محمود آلخ، وفاة الشيخ سيدى محمد أبو يوسف الولى الصالح».
(*) ١٢ يونية ١٧٣٤م. (٣) ٣٠ أبريل ١٧٣٤م.

كـان يطوف على كل دير من دياراتهم وينظر في حالهم، وفي دفعة دخل أحد الديارات فوجد امرأة عجوز راهبة مسكينة جالسه وقت التاسعة تأكل خبز وملح فقط فأخذه لذلك تألم وحزن قلب على الرهبانات حتى صار لا يغفل عن إفتقادهم بل صار يرسم لهم كل شهر من قمح وحبوب وزيت وغير ذلك من حين بطركيته إلى يوم انتقاله وكذلك الذين في الدياره والجبال كان يرسل لهم جميع ما يحتاجوه والذين في الضوايق والشدايد

تلك المطر ليلة سادس عشر صفر سنة ١١٤٧[١] سادس ساعة من الليل ظهر كوكب في السماء قدر الغربال اخفى نور القمر ونزل منه نار مثل نار المشعل، وله قعقعة، ودوى كدوى، الرعد القاصف، قد ايقظ النايمين لم ير مثله ولم يسمع.

وأخبرني غير واحد: من أهل المناوات[٢] ان تلك الصاعقة وقعت بأرضهم فأهلكت أكثر من مايتى نخلة من نخل الأمهات.

وفي يوم الثلاثاء تاسع عشر صفر سنة ١١٤٧[٣] ورد ركاب محمد باشا باشت جدة وصحبته عبدالله أفندى قاضي مصر من طريق البحر ونزل في قصر الحلى، ونزل له عثمان باشا ومكث عنده الى العصر ثم أن عثمان باشا عمل له عزومة في قدم النبي ورجع محمد باشا الى الحلى بعد أن صلى العشاء في القدم، ورجع الى البحر ومكث في الحلى ثمانية عشر يوما. ثم انه توجه الى العادلية ومكث فيها أياما، وسار الى السويس سادس عشرين ربيع آخر سنة ١١٤٧[٤].

---

(١) ١٩ يولية ١٧٣٤م.
(٢) المناوات: أحدى القرى القديمة التابعة، لقسم الجيزة، محافظة الجيزة، محمد رمزى، المصدر السابق، قسم٢، جـ٣، ص ٨.
(٣) ٢١ يولية ١٧٣٤م.
(٤) ٢٥ سبتمبر ١٧٣٤م.

كان يتلقى عنهم تلك الشدة والذين فى السجون كـان لأجل خـلاصـهم يطرح ذاته على أبواب الامـراء والحكام ويبذل لهم الأموال الكثيرة حتى يخصلوا من تلك الشدة وكان يطلب العوض من ذلك السيد المسيح وكان كلما صنع مثل هذه المراحم وأعطى المساكين والمتضيقين كلما أعطاه أضعافه وكان كلما تزايدت اليه العطايات من ذهب وفضه كان يصرفه أول بأول على المساكين فكملوه بسبب ذلك وأشاروا عليه أن يبقى شئ من

وفى ثانى عشر ربيع آخر سنة ١١٤٧[1] الذى هو يوم السبت توفى الخواجا قاسم الشرايبى بن الحاج محمد الداده وكان له مشهدا عظيما، وكان أول جنازته فى الازهر وآخرها فى منزله التى ببركة الازبكية، ومشى فى جنازته العلماء والبكرية والسادات ونقيب الاشراف والصناجق والاغوات والكواخى. ومن جملة من مشى قدام نعشه، عثمان كتخدا القزدغلى من بيته الى التربة وأما بقية الأكابر مشوا الى الجامع وركبوا الى التربة. والسبب فى موته أنه فصد فى أنثيه وكان الفاصد له رجل مزين من فوة أتى به جماعة من الخواجات، ثم أنه ضربه بالريشة ووضع له الفتيلة، ثم أنه اتاه تانى يوم ليغير عليه الفتيلة فوجدها قد هربت داخل الكيس، فضربه ثانيا ريشة فجاء اللطش فى الفرخ فنزل دم كثير فالتفت اليه الخواجة وقال له قتلتنى يا ظالم انج بنفسك بين يدى الله تجتمع الخصوم.

ثم أن الرجل جاء فى ثانى يوم قبل طلوع الشمس وكان يوم السبت فرأى العياط بالمنزل فمسكوه وأعرضوه على أخيه الخواجا احمد فقال: اطلقوه، ناخذ كلبا فى سبع، ثم أن الخدم ضربوه ضربا شديدا، ثم أن الخواجا اطلقه من بين أيديهم والا كانوا اهلكوه، فلم يظهر بعدها. رحمة الله عليه وعلى والده وعلى جميع أموات المسلمين، وكان قد فاق والده فى كل شئ وزاد على والده بالتواضع الزايد واجلسوا اخاه سيدى أحمد، وكان كبيرا عن عبدالرحمن

(١) ١١ سبتمبر ١٧٣٤م /كتب عنوان جانبى «اعرف وفاة الخواجا قاسم الشرايبى».

الصدقات وغيره الوارده اليه لعارض يعرض. ولما لحوا عليه بالاكثر فحفر فى الارض حفرة شال فيها ستمائة دينار فلما شال ذلك تفكر فى ذلك وقال: يامتى ربنا يقول فى الكاتب المقدس لاتكنزوا لكم كنوزا فى الأرض حيث السوس يفسدها والسارقون يحتالون فيسرقون وانت حبست ذلك عن المساكين وخزنته في الأرض وبقيت مخالف لقول الانجيل. أو ما تعلم أن الله سبحانه وتعالى يعوض بدل ما تعطيه للمساكين أضعاف. وأنه ندم وبكى

فأبى، فجعلوا عبدالرحمن محله ولكن ختمت الشاه بندارية [شاه بندر التجار] في قاسم بعد والده الدادة رحمة الله عليهم أجمعين.

وفي يوم الخميس الخامس والعشرين من ربيع آخر، الموافق لغرة توت سنة ١١٤٧[١]. ورد آغا بمقرر عثمان باشا عن سنة ١١٤٧، وصحبته خط شريف بماية تسعة وعشرين كيسا على عثمان بيك زين الفقار بيك بواقي على سيده زين الفقار بيك، بواقي حلوان البلاد والتراقي، التي قعد بها في مدة قيامة مقامه، ثم أن الباشا أراد أن يحوشه عنده فشفعت فيه الصناجق وأوعدوه بتمام غلاق المبلغ، فرفع عنه الدشيشة الكبرى والبهنسة الى محمد بيك الكور، ثم أنه ألبس أرباب المناصب جميعهم قفاطين، ثم ان عثمان كتخدا أورد خمسين كيسا عن عثمان بيك ثاني [ديوان]، وما مضى عليه ديوانان حتى لم يبق عليه شئ وكان الوزير قد تحور على عثمان بيك وعمر آغا كتخدا الجاوشية فأخدهم عبدالله أفندى وتوجه بهم الى قدم النبي، وكان حضرة عثمان باشا هناك فدخل بهم عليه وأصلحه واياهم فألبسهم كركين سمور.

وفي ثمانية وعشرين ربيع آخر. ورد ركاب رضوان بيك صنجق الخزينة وصحبته امارة الحاج

(١) ٢٤ سبتمبر ١٧٣٤م.

وقام لساعته ليخرج تلك الستماية دينار وأذ هو يجد إلى جانبها ستمايه دينار أخرى كشفها له الرب من أجل رحمة المساكين. فلما نظر ذلك تعجب وصار يكت تلاميذه على قساوة قلوبهم قائلاً انظروا يا أولادى انه اذا كان هذا صنيع الرب مع من ينجد ويعطى المساكين فكيف تمنعونى أنا الحقير أن لا أعطى المساكين ثم أنه أخذ للوقت بتلك الألف مائتي دينار قمح وحبوب وفرقها الجميع على الديارات والمساكين والمحتاجين

فألبسه قفطان القدوم، وبعد أسبوع ألبسه قفطان امارة الحاج وألبسه قفطان الخاسكية والبحيرة والغربية والشرقية والقليوبية ونزل فى غزة وسلم لوازم الحاج جميعا.

وفي يوم الخميس خامس جماد أول ورد رجل يقال له على آغا وكان دفتدار بالقسطنطينية وصحبته سبعة خطوط شريفة قريت بالديوان بحضرة العلماء. وأرباب السجاجيد وشيخ الاسلام وقاضى مصر عبدالله أفندى ونقيب الاشراف والصناجق والاغوات والعسكر واختياريتهم، ثلاثة خطوط بسبب الجوالي، جوالي اليهود والنصارى، بآيات قرآنية وأحاديث نبوية، وان على آغا هذا، يكون قايما بخدمتنا، وقبضه من غرة جماد آخر سنة ١١٤٧[(١)]. وأن يقبض من الأعلا أربعماية، والأوسط مايتين، والأدنى ماية ديوانى، فأجابوا بالسمع والطاعة، وأخذوا الدفاتر من حسين كتخدا الدمياطى، وأسلموها الى على أفندى. ثم أن النصارى، أجمع أمرهم بأن يطلعوا الى الديوان، يراجعوا في هذا الأمر، وكانوا نحو ألف نصرانى، فهم في الرميلة واذا بالعسكر قامت عليهم فضربوهم ومات منهم اثنان ورجعوا معاكيس. ثم ان القباض قبضوا من غرة جماد آخر سنة ١١٤٧، وكل من قبضوا منه يعطوه ورقة مختومة بأربعة ختوم، ختم بالتاريخ، وختم باسم ابراهيم أغا دفتدار اسلامبول، وختم بالأعلى والأوسط والأدنى، وختم في ظهر الورقة، وصاروا يكتبون شكل الذمى وملبوسه فى الورقة.

(١) ٢٩ أكتوبر ١٧٣٤م. وكان هذا الاضطهاد في عهد البطرك ١٠٥ يوانس الملواني [١٧٢٧/١٧٤٥م].

والأرامل والأيتام والمستورين. وفى دفعه قال لتلاميذة قوموا يا أولادى اشتروا الف أردب غلة للمساكين لان غلا عظيم يقع بأرض مصر ويموت كثير من المساكين والفقرآء. فقالوا له تلاميذه من أين يا أبينا نشترى الف أردب غلة وليس معنا من ثمنها سوى النصف خمسائة دينار لاغير فقال لهم يا أولادى اشتروا ولاتخافوا الرب يجهز لنا خمسائه دينار أخرى لاجل المساكين. وهكذا لم يفرغ الكلام من فم هذا الأب حتى وافا اليه امرأتين من

وكانت النصارى قد أخذ منهم الحشار[1] نحو نصف الجوالى وأعطوهم الوصلات على الحساب القديم،ماية وعشرين نصف فضة كل ذمى، بالغ وغير بالغ، من ستين الى ثلاثين، فأبت خدمة الجوالى، ان يقعدوا بشئ مما أخذوه منهم، فرجع النصارى على حسين كتخدا الدمياطى فصار يأخذ منهم الوصول ويدفع لهم أربعة أرباع ريال تعجز فى الوزن عجزا فاحشا فصارى النصارى الفقير ياخد، وغير الفقير يتعفف عن الخمسين نصفا التى يأخذ ويحط ثانى جوالى وصار النصرانى الغير الفقير يلبس حوايجا رثة ويعطى ادنى الجوالى ويعطوه الورقة ثم انهم يقابلوه ثانى مرة فيروا لبسه يقبل الأوسط أو الأعلى فيمسكوه فيخرج لهم الورقة فيروا أدنى الجوالى فيعرضوه على المستلزم فيأخذ منه الاعلا وأما الأوسط، فقبضوا تلك العام ثمانيماية كيس ديوانى وشئ وقد كانوا يأخذها الملتزمون بالجوالى من الوزير بثمانين كيسا ويأخذوا من النصارى واليهود ماية وعشرين. وخطين شريفين بالحاق دار الضرب الى على آغا مستلزم الجوالى ، والخطين بغلال الحرمين والعنبر الشريف وصارت الجوالى ودار الضرب خارجين عن استلزام مصر من سنة ١١٤٧[2].

(١) الحشار: الأشخاص الذى كانوا يقومون بمهمة جمع ضريبة الجوالى، وكان هناك «حاشر» خاص بجمع هذه الضريبة من النصارى، وآخر خاص لجمعها من اليهود.
(٢) ١٧٣٤ / ١٧٣٥م.

أعيـان الناس ومعهـمـا خـمسـائة دينار وسـألوه ان يشترى بهم قمح للمسـاكين فلما نظروا تلاميذه ذلك تعجبوا بماكان وقاموا لساعتهم اشتروا تلك الألف أردب غلة كما قال، وبعد ما اشترى الغلال لم يمكث الامر إلا قليـلا حتى وقع بمصـر غـلا صعب وهج أناس كثير من بلادهم واجتمعوا إلى عند هذا الأب حـتى امـتـلأت طريق قـلايتـه من الجيـاع والمطروحين وكـان هذا الأب يطوف وينظر إلى كل طائفة منهم ويتألم قلبه عليهم، وكان يهتم

ومن العجايب: انه جاء الى بنط بولاق شاهقة ملأنة تفاح فعن ليوسف كتخدا عزبان بأن يشتريها ويحملها، فاشتراها وأرسلها الى أبي زعبل، ثم أنه شالها من أبي زعبل على ماية وخمسين جملا الى بركة الحاج، فانكسرت المركب نصفين فأمر يوسف كتخدا بكسرها فكسروها وأدخلوا خشبها الى مطبخه الذى ببركة الحاج.

وفي يوم السبت ثامن رجب سنة ١١٤٧(١). سافر العرضي صحبة سليمان جربجي سردار التكية ببولاق وصحبته ستة أنفار من الستة أوجاقات والشريف عثمان باش جاويش نقيب السادة الاشراف والشيخ عمر الطحلاوى المالكى.

وفي يوم الخميس خامس شعبان سنة ١١٤٧(٢). بدأ اسماعيل بيك بن محمد الدالى فى عمايل فرح لزواج ولده وعزم فيه عثمان باشا في يوم السبت رابع عشر شعبان الى بيته الذى ببركة قريب من الشيخ ظلام، فمكث خمسة عشر يوما، ثم أنه قدم الى الوزير فى حال جلوسه محرمة مجركشة داخلها ألف فندقلي ليفرقها على الخدم وأرباب الحرف وقدم له حين التوجه جوادا معددا وأربعة عريانة.

وفى عشر شعبان: تم علي كتخدا باش اختيار عزبان مسجده الذى بدرب ائتمار وصلوا فيه

(١) ٤ ديسمبر ١٧٣٤م.

(٢) ٣١ ديسمبر ١٧٣٤م.

للجميع بما يحتاجوه يوما بيوم إلى أن ارتفع ذلك الغلا وزالت تلك الشدة. حينئذ دعا الغربا وعزاهم وعطا كل واحد منهم ثوب وكساء له وكذلك النسوه أعطاهم مايجب لسترتهم ثم زودهم الجمع واكرا لهم مراكب تحملهم إلى بلادهم وكان عدتهم ثمنمائه نفر. وكان يهتم أيضا بالاموات ويكفنهم ويدفنهم وكان يفعل الرحمة مع كل الطوايف نصارى ومسلمين ويهود وكان الله تعالى يبارك في جميع الغلات وغيرهم كما بارك في

وكذلك الصهريج والمكتب الذى علوه تجاه القنطرة الجديدة التى أحدثها تجاه منزله الذى بحارة الافرنج وكذلك محمد كتخدا الداودلى فتح صهريجه الذى بناه قريبا من منزله.

ومن غرايب ما وقع فى غرة رمضان سنة ١١٤٧[١]: لرجل تكرورى دخل الى الجامع الأزهر وخلط فى كلامه وادعى أنه نبى مرسل، فمسكوه وأتوا به الى الشيخ أحمد العماوى وهو يقرى فى درسه فسأله الشيخ عن حاله فأخبره أنه كان فى شربين فأتاه سيدنا جبريل وأخذه وعرج به الى السماء ليلة السابع والعشرين من رجب،وأنه قدمه وصلى بالملايكه وان جبريل أذن له، فلما فرغ من الصلاة أتاه جبريل بورقة وقال له: أنت نبى مرسل، انزل فأظهر معجزاتك. فلما سمع الشيخ أحمد هذا الكلام قال: لعل بك جنون يا رجل. قال: ليس بى جنون وأنما أنا نبى مرسل فأمر الطلبة بضربه فضربوه. واخرجوه من الجامع الأزهر، ثم أن عثمان كتخدا أرسل طلبه فواجهه فسأله فقال له كما قال للشيخ أحمد العماوى، فأمر بتوديته الى المارستان، فلما دخل المارستان هرعت الناس اليه، فمكث فيه ثلاثة أيام والخلق تهرع اليه من قبل أن تشرق الشمس الى أن يأتى الغروب من نساء ورجال أكابر وأصاغر من لا عقل له ويغلب عليهم الجهل وصار المارستانى يأخذ منهم مالا، كل واحد على حسب حاله ، من خمسة أنصاف الى نصف واحد وأقل من ذلك وأكثر.

(١) كتب عنوان جانبى «اعرف التكرورى الذى ادعى النبوة» / ٢٥ يناير ١٧٣٥م.

الخمس خبزات والحوتين. حتى صاروا تلاميذه اذا شكوا عدم الغلة وأن ما يبقى فى المخازن ما يكفى الجميع للغد فكان يقول لهم فرقوا يا اولادى ولا تخافوا لان عندى مخازن أخرى فايضة ملآنه. وليس كان هذا الاب يعنى عن مخازن أرضية بل المخازن السماوية لان هذا الاب كان عادته يعيد لستنا العدرى ولريس الملايكة الطاهر ميخائيل عيدين فى كل شهر وكانت المخازن إذا انقضت ودخل وباركها فى هؤلاء العيدين كانت المخازن

وأخبرنى رجل من خدمة المارستان: ان الذى حصله المارستانى فى هذه الثلاثة أيام قد كسا من ذلك نفسه وعياله وعمل من ذلك الكعك واشترى منه النقل ومصروف رمضان وصار يدعو الى عثمان كتخدا الذى أرسله الى المارستان ، فلما كثرت الخلق وزاد ازدحام الناس عليه أخبر عثمان باشا به، فأمر باحضاره الى الديوان فنزل الوالى فأخذه الى أن أحضره بين يدى الوزير فسأله الوزير عن حاله فأخبره بما أخبر به الشيخ العماوى وغيره سابقا فأمر بحبسه فى العرقانة فحبس فيها أربعة أيام.

وفى اليوم الخامس وهو خامس عشر رمضان[1]. أرسل الوزير أحضر العلماء وأحضر الرجل فسأله العلماء فروه مصرا على ما هو عليه، فأمروه بالتوبة وان ينزل الى حال سبيله، فقال: لا أتوب ولا أنفك عن ما أنا فيه ولو كنت أقتل، فلما رأوه العلماء مصرا على ما هو فيه ولم ينفك عنه أمروا الوزير بأن ينفذ فيه أمر الله وأنه لايغسل ولا يصلى عليه ولا يدفن فأمر الوزير بقتله، فأخذه الوالى وأنزله الى حوش الديوان وأمر الجلاد بأن يرمى عنقه ، فاقعده الجلاد ليرمى عنقه ، ثم قال له: تشهد. فالتفت اليه وقال له: أنا أصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ثم أن الجلاد رمى عنقه من يومه الذى هو يوم الثلاث، ثم أنهم أنزلوه الى الرميلة، فمكث فيها ثلاثة أيام الى أن اكلته الكلاب وراح الى لعنة الله. ثم ان رجلا أخبرنا بأنه مكث

(١) ٨ فبراير ١٧٣٥م.

تنمو وتفيض من البركة السمائية. وفي دفعه رأيت هذا الاب سبق واشترى للديارات والجبال الف أردب ترمس من أجل وقوع ذلك الغلا فلما ابطأ وقوع ذلك الغلا صار بعض الاخوه الرهبان يحملوا من ذلك الترمس في النار كالزبل [كوقود]، فلما اتفق وقوع ذلك الغلا ندموا أولئك الرهبان كثيراً وأما الذى حفظوا ما عندهم فانهم صاروا كلما جاعوا ولم يجدوا شيئا يقتاتوا من ذلك الترمس ويمجدوا الله. ولما نظروا الاغنياء

في خلوة في شربين ثلاثة أشهر وهو يستعمل الجلالة في كل يوم والليلة ثلاثماية ألف من غير شيخ فوصل، فحصل له هذا الأمر.

ثم أن بعض الشعراء نظم فيه قصيدة أحد عشر بيتا وعمل فيه بعض الأدباء موالا بتاريخ موته وحجره وهذه الأبيات:

شقي جهول أسود الوجه قد بدآ	يروم ارتفاعا بالنبوة واعتدا
واضحي ينادى أيها الناس انني	نبي وفي الجهل العظيم تزايدا
وأغواه أبليس اللعين وعمه	شقاء وحرمان وحاد عن الهدا
وحارب مولانا العظيم بجهله	ومد ذراعا للضلال وشددا
وقايل بالكفران أنعم ربه	ومن يلبس الدين القويم تجردا
وحل به الخسران من كل جانب	وأصبح في سجن الهوان مقيدا
فتبا له وتعسا لعقله	فلولا جنون ما أتا ذلك الردا
وما ناله هذا الشقي جزاءه	ويوم اللقى يصلى الجحيم مخلدا
فيا علما الدين قوموا وساعدوا	على قتل من عادى النبي محمدا
عليه صلاة الله ثم سلامه	وأصحابه والتابعين ومن هدا
دواما على طول المدا ما تناشدت	شقي جهول أسود الوجه قد فدا

الذين بغير رحمة الى صنيع هذا الاب وزايد محبته في الرحمة صاروا يتبعوا اثاره ويصنعوا كصنيعه حتى ان احد الاغنياء كا ن يسمى السعيد بركه ابن وجه المهر اتي . وطلب الى قائلاً: أنا أسالك ياسيدى الاب أن تسأل السيد المسيح لذلك رحمة في قلبه. كما طلب الى ان صار لا يرد احدا مما يسأله ولايبرح يصدق ويعطي وكان اكثر صدقاته على الرهبانات الى ان وصلت صدقته الف اردب غلة في كل عام فلما ارضى الاله بأعماله ودنت

وأما الموال فهو قول بعض الأدباء:

واحد ظهر وادعى أنه نبي من حق ... وانو عرج للسمي وأنو اجتمع بالحق
وابليس ضلوا وصدوا عن طريق الحق ... قم يا وزير البلد وأحكم على قتله

وأهل العلوم أرخواها كفر بالحق، سنة ١١٤٧[١].

ثم أن الوزير أمر برميه في الجب، ثم بعد قتله بثلاثة أيام ورد ركاب مسلم باكير باشا من بندر جدة . وقد جاء من البر بقيامة قايم مقام الى محمد بيك قطامش وعزلان عثمان باشا، وكانت مدته سنة وخمسة أشهر، وكانت أيامه سخا ورخا وأمان واطمينان، وكان قدومه مباركا، ثم أن محمد بيك طلع الى الباشا صحبة المسلم فكساه الوزير كركا وكذلك المسلم كركا، وكان ذلك في ثامن عشر رمضان سنة ١١٤٧[٢]، ثم أنهم أسكنوا عثمان باشا في بيت صالح اغا الذى ببركة الفيل تجاه بيت شاكر بره والله أعلم بغيبه وأحكم وأكرم. ولفعله أحكم. فيما مضى وتقدم.

٩٥.ذكر تولية باكير باشا والى مصر سابقا

قدم الى مصر يوم السبت رابع عشر شوال المبارك سنة ١١٤٧[٣]، وكان قدومه من

(١) ١٧٣٤م. (٢) ١١ فبراير ١٧٣٥م.
(٣) مدة ولايته: ١٤ شوال ١١٤٧ / ٢٧ الحجة ١١٤٩هـ ـ ٩ مارس ١٧٣٥ / ٢٨ أبريل ١٧٣٧م.

ساعته حركته النعمة الآلهية طلع ذات يوم الى القلاية ليتبارك من هذا الأب كعادته فادركته الوفاه بحضرة هذا الاب كما طلب حتى تعجب من أمانته، وانه كفنه بيده الطاهرة وكتب على [قبره] سألت عطيت قرعت فتح لك. لان الله سبحانه وتعالى يسمع للرحومين والمتواضعين فاما الاغنياء الذين بغير رحمه، فقد رأيت هذا الأب سأل واحد من الأغنياء ان يعطي شيئا من ذهبه وفضته للمساكين فلم يفعل، وان الله أرسل له قايد ظالم

السويس من طريق البر، لأنه كان واليا بجدة، وكان خلفه في الاى خمسة عشر زوج من طايفته الرخوت المكتسية بالذهب وفى مقدمه من الأولاد خمسة. فلما ورد الى باب النصر، قامت الرعية في وجهه من جهة فحش المعاملة، كون أنها صارت ثلاثة معاملات، اخشه، ومرادى، ومقصوص، فالأخشى بستة عشر جديدا، والمرادى باثنى عشر جديدا، والمقصوص بثمانية جدد. فلما جلس الباشا: انتظرت الرعية أن الوزير ينادى عليها، فلما لم يتعرض الوزير للمناداة مطلقا وحصل للناس شدة كبيرة من عدم المناداة على الأسعار والمعاملة، ثم أن الرعية توقفت عن اخذ المقصوص مطلقا، وصار لايأخذ الا الاخشا، والمرادى، وخفى المقصوص، وصار لا أحد يأخذ مقصوصا، وصار الذى كان بالمقصوص صار بالديوانى، وكان اللحم الضانى بثلاثة مقاصيص صار بثلاثة أخشا، والجاموسى باثنين مرادى، بعد أن كان باثنين مقاصيص، والمرادى، من المرادى والنصف الديوانى المختوم، الذى ليس فيه قص، فصارت الناس فى غلبة وحصر شديد واذا بأغا ورد من الديار الرومية وصحبته خط شريف قرى بالديوان بطلب ثلاثة آلاف عسكرى الى محافظة بغداد لأن العجم قد زحفت على بلاد الاسلام وأن الزمن الذى طلب فيه العسكر لم يكن زمن السفر لأن من عادة طلب العسكر أن يأتى فى طوبة أو كيهك[1]. فى زمن الربيع. وهو العسكر المطلوب من مصر فى عشرين برمودة [2]،

(1) يناير / فبراير ١٧٣٥م.   (2) ٢٦ أبريل ١٧٣٥م.

قبل ان يخرج هذا الأب من بيته فوضع يده على خزاين ذلك الغنى أخذ ذهبه وفضته ودخائرة، ثم مات موته ردية مقهور وراحت نفسه إلى الجحيم، لان هكذا الشقا الذى يحل بالأغنياء الذين بغير رحمه .وكان هذا الأب يحب جميع الناس ان يداوموا على الرحمة من محبته فى الرحمة وصار اليوم الذى لايجد فيه شئ يصدق به فصدق مرة بالبساط الذى تحته وفى دفعه صدق بتوبه [ثوبه] ووزرته وفى حين أخر بالدواه النحاس الموضوعه

فصار الفرق ماية وعشرين يوما فزاد الناس غما على غمهم وقالوا: ربما يحصل من هؤلاء مثل ما حصل من سفرة المنلا فتعصبوا بعصايب الخرق وأنهم ذكروا فى الخط أنكم لا تكتبوا صاحب عثمانى بل من عشرة وطالع، ولا تكتبوا من الخمس الأوجاقات الخيالة لا من عسكر القليوبية ولا من عسكر الجيزة، ولا من عسكر شرقى أطفيح بل من عسكر الغربية، والبحيرة، والمنوفية، وشرقية المنصورة، لأن البلاد فيها غلا زايد ويكون الصنجق قادرا والعسكر قادرين.

ثم ان الباشا البس قفطان السفر الى مصطفى بيك اباظة المنفصل عن ولاية جرجة وأبى أن يعطى فرمان الكتابة لكون ان حسن بيك الوالى صنجق الخزينة مبرز فى العادلية من منذ خمسة أشهر، لأنه برز ثالث رجب(١). والاغة ورد فى خامس عشر القعدة(٢)، ثم أن الوزير احرب فى تشهيل الخزينة.

ومن أعجب ما وقع: ان فى عاشر الحجة الذى هو يوم عيدالأضحى،خرج ريح اسود قبل العصر بساعة(٣)، وكان من جهة المغرب فأظلمت منه الدنيا وحجب ضوء الشمس الى أن بقى الرجل لا يرى كفه، ولا الذى جالس بجانبه، وصار كالليل الحالك فمكث الى بعد العصر

---

(١) ٢٩ نوفمبر ١٧٣٥م. (٢) ٨ أبريل ١٧٣٥م.
(٣) كتب عنوان جانبى «اعرف الريح الأسود الذى خرج».

امامه. ومره وافاه انسان كاتب محتاج أعطاه بساطه وايضاً وافاه انسان جايع عند المساء فاخذ عشاه من قدامه ودفعه لذلك الجايع، ثم خرج قرع الأبواب مثل مسكين فى طلب رغيف، فلما قرع الباب تحققوا انه صوت البطريرك فخرجوا وسألوه ان يقبل أكثر من رغيف فلم يفعل. وفى دفعه أرسل احد تلاميذه يحضر له طعاماً عند المسا فلما ابطأ عنه حضور ذلك التلميذ وصار يبكت نفسه قائلا لماذا لم تكتفى بالتراب عن الطعام وأخذ

بساعة ولكن التراب أسود بخلاف الذى كان فى سنة ١١٠٥[١]، فانه كان ترابا اصفرا وهذا أسود غرق المراكب فى الحلو والمالح، وقلع الجميز الذى عند الشيخ قمر ببركة المجاورين وأما شجرة السدر التى[*] ببولاق تجاه التكية فانه أرمى منها ثلاثة فروع، وكانت أكبر فروعها، وأرمت نخلا كثيرا ثم أعقبه بعد العشا مطر عظيم ورعد قاصف وبرق مخبل.

وفى سابع عشرالحجة[٢]. ورد ركاب أيوب صنجق السفرة التى كان المنلا بها سردارا وأخبر بموت المنلا وما وقع له وقتلة الباشا فيه وتشتت جماعته فى البلاد، ولم يبق منهم الا ما قل، وكانت مدة غيابه سنتين وثلاثة أشهر.

وفى ثامن عشر الحجة [٣] حصل فى القاهرة أمر عجيب ما وقع نظيره مطلقا وماذاك الا أنه أشيع فى القاهرة، بان يوم الجمعة ثالث عشرين الحجة ختام سنة ١١٤٧[٤]. تقوم القيامة وقد ملأ مصر وقراها وجميع أطرافها هذه الاشاعة وصارت الناس لا تتكلم الا بهذا الكلام، الا أن بقى الرجل يقول لرفيقه: بقا من عمرنا يومان ونموت يا فلان، وتقول المراة لزوجها كيف ما يجرى يا أبا محمد، بقا يومان وتقوم الساعة، ونموت ولما طهرنا محمد ولا فرحنا به، ويقول

---

(١) ١٦٩٣ / ١٦٩٤م.
(*) بالأصل «الذى».
(٢) ١٠ مايو ١٧٣٥م.
(٣) ١١ مايو ١٧٣٥م.
(٤) ١٦ مايو ١٧٣٥م / كتب عنوان جانبى «اعرف ما وقع فى القاهرة من سبب القيامة».

يغمز خبزه بالتراب ويأكل حتى شبع وشكر الله فلما حضر التليمذ وجده اكتفى بالتراب عن الطعام فتعجب لانه ما كان له اهتمام بحاجة الجسد حتى ولا الثياب والبرانس التى لجسده ما كان يلتفت اليها بل كان يكتفى بخيشه شعر من تحت ثيابه ويعطى جميع ما عنده لاولاده الأساقفة ولايدع عنده غير برنس واحد برسم الخدمه. وفي دفعة سأل تلاميذه أن يعطوا ذلك البرنس لأسقف مسكين اقامه فلم يفعلوا ولما لم يطاوعوه ارسل له

لها زوجها: صدقيني يا أم محمد يا ليتها لو كانت الجمعة الاتية كنا نطهر ولا بقا يومان فتقول المرأة يا حسرتي رايحين نموت ولا فرحنا، ويأتون في غم وبعضهم يقفل دكانه ويأخذ رفيقه الذى (*) يجتمع عليه ويرحون الى الغيطان ويقولون لبعضهم البعض اعملوا حظا هو بقاشئ من عمرنا غير يومين وتقوم القيامة، وأما أهل الجيزة صاروا يطلعوا الى البحر نساء ورجالا يأكلون و يلعبون ويغتسلون فى البحر ومنهم من تاب عما كان يفعله، فاذا نهاهم الانسان وقال لهم هذا كذب ولا أصل له كيف ما تقوم القيامة ولم يات من شروطها الكبرى شى فيقولون له: اسمعنا يا سيدى هذا الكلام،صحيح قد قاله فلان اليهودى وصادقه عليه بترك القبطة لأن له معرفة فى الزايرجية وأنه راح الى فلان الكبير وقال له: ان كنت ما تصدقنى احبسنى عندك فكيف يحبس الرجل روحه على الكتب، استغفر الله روح روح بلا جنان، ويكون رجلا وأقفا فيجاوبه ويقول له: أى نعم، حتى أن اليهودى قال : لأن من علامة القيامة الريح، وها هو قد قام يوم العيد صدق يكفى يا سيدى لا تعطى عقلك لغيرك. وكثر الهرج والقيل والقال الى يوم الجمعة أزدحمت المساجد فى صلاة الجمعة ازدحاما كبيرا. ثم أنهم صلوا الجمعة وخرجوا الى العصر ما وقع شئ الى ثانى يوم صاروا يقولون: يا سيدى، قال فلان العالم أن سيدى أحمد البدوى وسيدى أبراهيم الدسوقى والامام الشافعى تشفعوا عند الله فقبل الله

(*) بالأصل «الذين».

الرب في تلك الساعة برنس حرير كمنحة جديد أحسن من ذلك وانه اعطاه لذلك الاسقف فلما نظروا التلاميذ ما كان مجدوا الله وندموا على مخالفتهم له ولم بقوا يخالفوه في شئ. وانه أجاد مع الرحمة فضيلة الاتضاع [التواضع] فكان يعمل مع الفعله معاجن الطين وينزح المراحيض مع العمالين ويشيل الغلال مع التراسين وكان يجرى خلف الحمير ومع هذا لم ينحط عن هيبته ووقارة في اعين الناس . وأما في خدمة الكهنوت

شفاعتهم، يقول الآخر نعم والحمد لله احنا ما شبعنا من الدنيا مرادنا نعمل حظا وانبساطا. أجارنا الله وأياكم من خزى العقول ومن غفلة الجهل، وأكثر وقوع هذا الأمر من الذين يأكلون الأخضر، يأكل الرجل منهم القطعة الحشيش ويشرب الفنجان القهوة ويدردش كما قال شيخنا العلامة أحمد السندوبى رحمه الله تعالى وتغمده بالرحمة والغفران.

أخبار مصر صار اكثر نقلها
يرويه من هو صورة الإنسان
وتظنه خبرا صحيحا صادقا
والكيف يرويه عن الفنجان

وفي يوم الثلاث ثالث محرم الحرام سنة ١١٤٨[١]. حكم تاريخه عام حارت الأفكار فيه. وورد ركاب سليمان جربجي وصحبته الشيخ عمر الطحلاوى وعثمان باش جاويش السادة الأشراف والستين الذين من الأوجاق وصحبتهم أغاة القابجية السلطاني وصحبتهم أثنى عشر خط شريف ثلاثة منهم: رد جواب العرض وواحد بابطاء التوجيهات وواحد: بغلال الحرمين وواحد: بتفويض العشرين ألف أردب الحنطة التى حطها السلطان مصطفى يدك في السويس اذا تعذر قمح الحرمين وتشهلت المراكب فيكون هذا حاضرا يشحنونه وتسافر المراكب، فاذا أتى

(١) ٢٦ مايو ١٧٣٥م.

فكان اذا ابدل وطلع الى المدبح [للصـــلاة] يصيرلون وجهه مثل الجمر وعيناه تلمع كمثل من ينظر ابن الله قايماً على المدبح فيخاف ويرهب منه. وكـانوا جـمـاعـة الكهنة يسـألوه الجلوس على الكرسى فكان يمتنع من ذلك ويجـيـبـهـم قـائلاً: كـيف يمكن يا اولادى ان يكون المسـيح حـاضـر ونحن لا نتأدب ونمتنع من الجلوس على الكرسى. وكـان يزجـر بيـده وينهـر الكاهن الذى لا يقـوم بمخـافـة امام تلك الخـدمـة، ومن تهـاون بكلامـه

قمح الحرمين من مصـر، يوضع محله وهلم جرا، وواحد: بتحرير بلكات الأيتام والجوالى والمقاطعة والكشيدة الى قديمهم المعتاد، وكل شئ زاد يرجع الى البلوكات السبعة، وواحد: بفك أولاد وعيال والمرتبات التى عملت من سنة ١١٠٠[١]. وكل عثامنة عملت معه فى هذا التاريخ يفك ويرجع الى البلوكات وواحد: بتصليح الخليج الاشرفية الذى[*] تمـلأ مـنـه صهاريج الاسكندرية، وأن يجعلوا مصروف التنضيف على الثلاثة ولايات كل بلد سبعة فنادقه، بحيرة، وغربية، ومنوفية، وواحد: برفع الظلم، وواحد: بأنه لا يعرف فى البلد الا ديوانى جامكية وغيرها، وواحد: بابطال المرادى، ولا يمشى الا الاخشا، وحصل الى الشيخ عمر الطحلاوى، قبول من شيخ الاسلام محمد أفندى زاده، الذى جاء فى مدة باشوية ابراهيم باشا القبطان سنة ١١٢٢[٢] برفع أولاد وعيال وحصل فيه المراجعة وجاء خط بابقايهم على ما هو عليه.

ثم أن بأكير باشا: منع الفراغ الى بلوكات الأيتام والجوالى والمتقاعد والكشيدة والذى يفرغ منها لا يعود وانما يقيدوا فى السبع بلوكات ولا يفرغ لهم. ونزل الاسم عشرين زنجرلى بعد أن

(١) ١٦٨٨ / ١٦٨٩م.
(*) بالأصل «التى».
(٢) قدم وأخر / ١٧١٠م.

يحرمه فيموت لساعته. وفي دفعة [مرة] رأيت شماس تجاسر على الخدمة بتهاون حرمه هذا الاب فسقط من سلم عال وتقطع قطعاً ومات . وفي دفعة رأيت شماس أخفا مكاتيب بستان لأطفال ايتام فلما كلمه الاب في معناهم كان من جوابه له: كلمتك تقطعني يا أبي ان كنت اخفيت عنك مكاتيب بستان أولئك الايتام. فقال له هذا الأب بغضب: من فاك يكون لك كما قلت. ولم ينتهي ذلك الشماس إلى بيته حتى وقع ومات ووجدوا ما

كان ياع بماية وعشرين زنجرلي وكان في الطالع، نزل الى ماية من الدلال، وبخمسة وتسعين من البايع وينقله الى بلكات العسكرية.

ثم أن الأغا طلب رد الجواب: لأجل ما يسافر فأرسل الباشا جمع العلماء وأرباب الساجيد جميعا يوم الثلاث عشرين صفر وقرأ عليهم خطا بمنع نزول كتبة الديوان بنزول الدفاتر صحبتهم وأنهم يبقوا بالديوان فاذا طلعوا الى الديوان يخرجوا لهم الدفاتر، فاذا انفك الديوان يوضعوهم في خزنة الديوان وكذلك دفتر الرزنامه لا ينزل صحبة الرزنامجي وأعيد قراءة خط الذى يفك أولاد وعيال فتكلم القاضي عبيد الله أفندى وأفصح في الجواب وقال امر السلطان لا يخالف وقد قال الله تعالى[1] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُم﴾[2].

ثم أن الشيخ سليمان المنصورى الحنفي: بادر برد الجواب وقال يا شيخ الاسلام هذه المرتبات فعل نايب الاسلام بل السلطان وفعل نايب السلطان كفعل السلطان. وهذا شئ جرت عليه العادات في مدة الملوك المتقدمة وقد أولته الناس بينهم وصار ياع ويشترى منذ سنين تقدمت وجرى عليه الشرع وقيدته الناس على خيرات عديدة مساجد واسبلة وكتاتيب وقراءة قرآن عظيم الشأن فكيف يجوز تبطيلها ومتى بطلت هذه المرتبات بطلت شعاير

(١) كرر التعبير بالأصل.

(٢) سورة النساء، أية رقم، ٥٩.

أخفاه من المكاتيب في جوانب بيته، لانه ما كان يحكم بسوى روح القدس. فانه ما كان يبتدئ في أول حكوماته بشئ حتى يدع الحضارين للحكومة يقولوا الذى في السموات. وأما مكاتباته فكان يكتب فيها بعد ذكر الثالوث المقدس الخلاص للرب. يشير بذلك ان المسيح إلهنا هو الذى يحكم على فمه بما فيه الخلاص لعبيده. ولهذا كل حكومه تتعطل على الملوك والحكام يرسلوها له تنحل لوقتها .وكم من مرة كان الملك بمصر اذا

المساجد وبطلت الكتاتيب والأسبلة التي مرتبة عليها هذه المرتبات فلا يجوز لأحد يؤمن بالله ورسوله أن يرفعها أويسعى في رفعها وأن امر الامام بفكها لا يسلم له في ذلك ويخالف لكون تبطيلها مخالف للشرع والمخالف للشرع يخالف فيه الامام ولا يسلم له في فعله ولا لنايب الامام فسكت القاضى وما أتى ولا بحرف.

ثم أن باكير باشا تدارك القضية، وقال: هذا أمر يحتاج الى مراجعة فيراجع ثم أنه أبرز خطا بابطال التوجيهات وأن المال يأتي الى الديوان ويصرف من الديوان الى أربابه حكم ما يقبض يصرف. فقال العلماء هذا أمر فيه اصلاح، فالتفت رجل من أعيان الدولة وقال للشيخ أحمد السجيني تبقى يامولانا تأخذ الرزق والوظايف ديواني. وكلامه كالمستهزى فقال له الشيخ: حسبكم الله أنتم خليتم لنا رزق وظايف أنتم أخذتم الجميع وصارت تحت أيديكم.

ثم أن الديوان أنفض على هذا الشكل: وما زالوا يعملون جمعيات بهذا السبب، ولم ينفك باكير باشا عن قوله هذا أمر لا يصح اذن في الفراغات ما لم يأت اذن من مولانا السلطان وتعطلت الفراغات مطلقا الى الأربع بلكات، ثم أنهم أجمع أمرهم على أنهم يرسلوا يعرضون في شأن مراجعة أولاد وعيال والمرتبات.

ثم أن الباشا أمر أفندى البلكات: بضبط عثامنة، أولاد وعيال، والمرتبات، فضبطت ثمانية وأربعين ألف عثماني، فأجتمع أكابر القاهرة، وقالوا نسفر الأغا من غير حق طريق، لا يمكن،

عسرت عليه حكومه في خطف الأموال الذى كانت الشوايله(*) تدعى ان الافرنج اختطفوها لهم في البحر المالح وكان الملك اذا تبصر في ذلك الحكومة لايعرف المظلوم من الظالم فكان يرسلها لهذا الاب فيحكم بينهم فتنحل للوقت لحسن اخلاقه وكلامه بروح القدس الساكن فيه. وان جماعه الروم لكثرة ما عاينوه من محبة هذا الاب لهم وسلامته في الحكم لجميعهم صاروا لا يشتهوا احداً يحكم بينهم سوى هذا الاب، وأيضا

(*) الشوايله : بحارة وتجار الشوالي أى المراكب. ومفردها شالية.

فاجتمع أمرهم على أنهم يكتبوا عرض حال، ويكتبوا عليه خطوطهم، وخطوط العلماء، وأرباب السجاجيد، ان هذا الأمر لا يمكن فكه لكون أنه مرتب على مساجد، وكتاتيب، وأسبلة، لا يمكن فكه، وخيرات جعلها الأقدمون، ومتى بطلت هذه المرتبات، بطلت جميع الشعاير، فتقفل المساجد والكتاتيب والأسبلة، وهذا أمر لا يمكن رفعه، وآيات قرآنية، وأحاديث نبوية، وختم عليه جميعهم، وأعطوه الى خليل آغة آغة القابجية، الذى جاء بجواب العرض وبرفع هؤلاء.

ثم أنهم أجمع رأيهم وأمرهم: على أنهم يجعلون على كل عثمانى نصف زنجرلى ويأخذون خاطر الباشا والأغا المعين فكان كذلك فجمعوا من أفندية البلكات أربعة وعشرون ألف زنجرلى وقبضوها وأعطوا الوزير أربعة آلاف زنجرلى، والى خليل آغا المعين الفين زنجرلى، والباقى تقاسموه فيما بينهم وسافر الأغا بالعرض ثم ان العرض قبل عند السلطنة وأرسل خط شريفا بايقافها على ماهو عليه وان لا يعمل من بعد الموت لا مرتبا ولا أولاد ولا عيال وورد خط العفو في خامس عشرين شعبان سنة ١١٤٣ (١). ولم يأذن باكير باشا بعطية فراغات البلوكات الأطراف.

وفي سادس عشر محرم الحرام سنة ١١٤٨(٢). ورد نجاب من باش الوش بمكاتيب يخبر

(١) ٥ مارس ١٧٣١م.　(٢) ٨ يونية ١٧٣٥م.

طوايف الافرنج كذلك لما عاينوا الحكم مجدوا الله لان خبر هذا الاب قد ذاع فى تخوم تلك البلاد، وان الحب والصلح الذى تجدد فى زمان هذا الاب بين ملوك النصرانيه ما سمعنا بمثله قط ولا الهدايا الذى هادوا بها الملوك بعضهم بعضا ما سمعنا بمثلها قط. وهو ان ملك الحبشه لما سمع بالحب الذى لملوك الافرنج فى هذا الاب وعظم هداياهم له أرسل لهم هدايا ما هو اعظم منها وارسل يقول لملك الافرنج انى ما ارسلت اليك هذه الهدايا

فيها أن عرب ظهر الحمار [على طريق الحج] الذى يقال لهم العمارنة لموا لموما حتى من عرب الشام وقاعدين فى قصر البدوية، وانا لا نقدر ننزل العقبة فانهم منتظرين اخذنا وأخذ الحاج لأن العرب مبالغة فى الكثرة فأنهم منتظرون، وأخذ الحاج فرجعنا من السطح وقاعدين فى محل فالحقونا بالرجال والا هلكنا وهلك الحاج. فلما ورد الخبر الى الوزير ارسل الى أعيان البلد، فلما حضر أخبر بما ورد عليه فقالوا: نلحقهم بصنجقين وعسكر فقا لهم: انزلوا دبروا أمركم الليلة وانظروا من ترسلوه تأتوا به البسه قفطانا، ثم أنهم نزلوا واجتمعوا فى بيت محمد بيك فأجمع رأيهم على أنهم يرسلوا على بيك الصغير تابع زين الفقار بيك وعبدالرحمن آغا، آغة الجملية وأن يكتبوا ثلاثماية عسكرى وأن يعطوا لكل واحد خمسة عشر زنجرلى، ويعطوا على بيك خمسة عشر كيسا ويعطوا أغة الجملية عشرة أكياس وأن يمدونهم بمايتين من طوايفهم، فكان كذلك. ثم أنهم فى ثانى يوم طلعوا الى الوزير وأخبروه بما حصل وطلبوا منه خمسة وأربعين كيسا فقال لهم: ومن يعط هذا المبلغ قالوا له: أنت ونحسبه على السلطنة قال: فان لم يقعد بها السلطان كيف العمل فيها ؟ فقالوا : نعطيها لهم فأخذوها وأعطوا على بيك الخمسة عشر كيسا وكذلك آغاة الجملية وشهل على بيك روحه وطلع الى العادلية وعمل على بيك الكبير سماطا الى على بيك ونزل باكير باشا الى العادلية وتفرج على العسكر واكل من

٨٧: متى [١٣٧٨/ ١٤٠٨م.]

لطلب هدايا مثلها الا لتهدى لى شىء من الاثارات السيديه [نسبة للسيد المسيح] الذى فى بلادكم.
ولما وصلت تلك الهدايا إلى ملك الافرنج فرح بها جداً وارسل اليه ما هو اجل وأعظم منها، وهو انه كان عنده فى دخائره قطعة خشب من خشب الصليب الذى صلب عليه سيدنا يسوع المسيح فاخرجها للوقت ووضعها داخل صليب مجوف من ذهب مرصع بالفصوص المتمنة، واخرج معها جسد طفل من أجساد الأطفال الذى قتلهم

السماط وكان ذلك يوم الأحد عشرين محرم الحرام سنة ١١٤٨[1]. ثم أن الباشا روح من يومه وفى ثانى يوم شال على بيك الى البركة.

وفى ثاني عشرين من محرم[2]. سافر من البركة فأدركوا الحاج وقد قام من مغاير شعيب بعد خمسة أيام الى أن لم يبق عندهم من الفول ولا حبة وكان قد بلغ الفول ريالا فأقام عليه الحاج والعسكر وقالوا له: قم أما أن نسلم أونهلك: وكان قد تقدم لهم أنهم عملوا الى العرب ثمانية احمال بن وثلاثماية فندقلى فأبوا وقالوا : هذا القدر ما يبلغ الرجل منه خمسة أنصاف. ثم أنهم زادوهم الى الألف. فأرسلوا يطلبون منهم الدراهم فارسلوها لهم ثم قالوا: هم لنا، أما اليوم أو فى غد الى حين تفرغ ذخيرتهم نأخذهم قبضا باليد. ثم أن امراة صعيدية حست برجل دخل الى خيمتها، فأخبرت زوجها ثم ان الاثنين قاما واذا هما رأيا الرجل يلعب فى الموهية، فهجما عليه ومسكاه ووداه الى الصنجق فأراد أن يقتله واذا هم عرفوه واذا هو اخو شيخ العمارنة فحبسوه فلما درت العرب بحوش هذا البدوى أرسلوا يطلبوا البن والذهب، فأبوا أن يعطوهم.

ثم أن العسكر قاموا على الصنجق وقالوا له: قم بنا فقاموا بعد الخمسة أيام فما مشوا قدر ساعتين واذا هم يروا خيلا وهجينا أقبلت من البر قدحا فخاف الحاج وقالوا: العرب قد دهمتنا واذا بشديد البدوى يقول لهم لا تخافوا يا حجاج هذا على بيك الصغير قد أتاكم والعسكر

---

(١) ١٢ يونية ١٧٣٥م. (٢) ١٤ يونية ١٧٣٥م.

هيرودس المنافق وجعلهم داخل صندوق ثم وضع معهم من الأواني الذهب والفضة والحلل الفاخرة الذى للملوك والكهنة ما لم يكن وصفه، وانه صور على احد الحلل صورة هذا الاب مصورة بالذهب اللامع، ثم انه ارسل يقسم على هذا الاب ان لا يرسل هذه الهدايا إلى الحبشة حتى يقدس فى تلك البدله الكهنوتيه المصور عليها صورته وليقبل فيها البركة من فمه الطاهر قبل مضيها إلى هناك لانه كان له امانه عظيمة فى هذا الأب ولم يكن رآه ولا

والوشاشة وأن العرب لما رأوا البن والصرة وانحاش اخو شاهين شيخ العمارنة وقع الخلف بينهم فتفرقوا نحو العقبة واذا بعلي بيك والتجريدة مقابلاهم فوقع القتال بينهم فى قصر البدوية. وكان قتالا شديدا لا يوصف وقد قتل من العرب خلق كثيرة. وكان قتاله خداعا لا كان يقاتل وهو ساير، فاذا اجتمع العرب كوما يضرب عليه مدافع فيهلكهم الى أن قابل الحاج كما ذكرنا، وكان قد سار الحج قدر ساعتين وما قابلهم على بيك الا وقد هلك من العطش، فأمر الحاج بالراحة فبرك الحاج.

وكانت الوشاشة معه، فأكلوا وانبسطوا، ودعوا الى على بيك واجتمع على جميع السدادرة وأمير الحاج، وقاموا تلك الليلة فى ذلك المحل، وفى ثانى يوم شالوا ، فقابلتهم العرب فى دون حقن فقاتلوهم فانكسرت العرب كسرة عمرهم ما انكسروا مثلها، ونصر الله الحاج ودخل الى العقبة فى خامس صفر[1]، فمكثوا العادة وشالوا من العقبة دخلوا الى مصر خامس عشر صفر ١١٤٨[2]. ودخل على بيك الى مصر وجميع الخلق تدعوا له من حجاج وغيرهم لما حصل على يديه من نصرة الحاج وأن الناس ما كانت تظن فيه هذه الهمة الكبيرة على حد قول من قال:

ان الرجـــال صناديق مـــقـــفلة
وما مـفـاتيـحـهـا الا التـجـاريب

(١) ٢٧ يونية ١٧٣٥م.
(٢) ٧ يولية ١٧٣٥م.

أبصره بل لما كان يسمع من فضايله. ولعظم أمانته فيه أرسل له بسوال كثير يطلب قطعة من عمامته فأرسل له ذلك فكان يضعها في الأعلاً [المرضى] فيبرؤن. وان الاب سمع ما أشار به الملك وقدس في تلك البدله أمامنا ودعانا الجميع استباركنا في ذلك اليوم تلك الأثارات السيديه، وتعجبنا بالأكثر لما عايناه من حسن جسد ذلك الطفل الذى له من ايام سيدنا المسيح الى الآن ولم ينحل من اعضاءه ولا اصابعه اصبع واحداً. وسألناه ان يتركه لنا في

ثم أن الباشا أرسل اعرض من جهة التسعة وأربعين كيسا فجاءه فرمان بحسابها على السلطنة، ثم أن عبدالله أفندى انقضت أيامه ومدته وجاءه العزلان فنزل الى رشيد في عشرين صفر ثم ان السبعة أوجاق دخلوا الى الوزير يطلبون منه فرمانا برجوع الدفاتر الى أهلها يأخذونها معهم الى منازلهم لأن مفارقة الدفاتر عن أربابها حصر عليهم فاذن لهم برجوع الدفاتر لهم على حكم عادتهم القديمة.

وفي يوم الاثنين خامس عشر ربيع أول سنة ١١٤٨[١]. توفي شيخ الاسلام والمسلمين الشيخ عبد العزيز الزيادى الحنفي وصلى عليه بالجامع الأزهر، وخطب له.

وفي ثامن عشرينه عزل الباشا ابراهيم أغا آغة الجراكسة مملوك محمد بيك قطامش وألبسه الصنجقية وكشوفية البحيرة، وألبس عثمان آغا الوالي آغاوية الجراكسة. وفي عشرينه. أرسل حسين بيك الخشاب كاشف جرجة الى يوسف كتخدا عزبان أسدا.

وفي غرة ربيع آخر[٢]. ألبس الباشا كشوفية جرجة ومنفلوط والمنية الى على بيك الصغير تابع زين الفقار بيك في نظير خدمته الى مجيبة الحاج.

(١) ٥ أغسطس ١٧٣٥م / كتب عنوان جانبي «أعرف وفاة الشيخ عبدالعزيز الزيادى الحنفي».
(٢) ٢١ أغسطس ١٧٣٥م.

القلايه ايام قلايل لنتبارك منه فلم يفعل. وفى الساعه التى وصلت الهدايا بلاد الحبشه وعاين الملك البار اثار سيدنا المسيح مع ذلك الطفل تعجب وكشف التاج من على رأسه واقام نحو ساعه مطروح ساجد على تلك الاثار السيديه ثم رفع رأسه فرأى البدله الكهنوتيه التى فيها صورة هذا الاب مصورة وانه صار تهلل ويفرح ويمجد الله الذى جعله مستحق ان ينظر صورة هذا الاب

وفي يوم السبت ثانى ربيع الثانى[1]. بدأ باكير باشا فى فرح عمله زوج فيه ثلاثة أولاد من أولاده اكبرهم زوجة بنت شيخ حرم مكة، وكان قد أتى بها صحبته وأخيها فأدخلها به بمصر، وابنه الثانى زوجه بجارية رآها عند جنش الجنكية فأمر على بيك بأن يشتريها له من سيدتها وأرسل له ألف فندقلى يعطيها لها فى ثمنها، فطلبها منها على بيك فأدعت أنها قد اعتقتها، فأخبر الوزير، فأمره بأن يكون وكيلا على ولده فى العقد ويمهرها بألف فندقلى الذى أرسلها له، فأرسل على بيك أتى بها وعقد لابن باكير باشا عليها وكساها حزام جواهر بخمسة عشر كيسا وأساور جواهر كسوة أولاد الملوك الى أولاد الملوك على ما ينبغى، قيل بثلاثين كيسا وجاريتين وأرسلها فى تخت صحبة حريمه الى الوزير كما قال الشاعر:

واذا العناية لاحظت عبد الشرا

نفذت على ساداته أحكامه

والثالث أيضا زوجه بجارية، وكان فرحه بخمسة عشر يوما طاهر فيه بقية أولاده.

وفى خامس عشرينه[2]: ورد خبر بموت حسن بيك الدالى فى اسلامبول بعد أن سلم الخزينة العامرة بثلاثة أيام.

(١) ٢٢ أغسطس ١٧٣٥م.

(٢) ١٤ سبتمبر ١٧٣٥م.

في بلاده قبل انتقاله، لان الملك كان مشتاق ينظر صورة هذا الاب لما صنع معه من النبوة، لان ذلك الملك ما كان من قبل ملكاً على الحبشه بل أخيه فارسل له هذا الاب رساله من مصر يبشره فيها انه يصير ملكاً موضوع اخيه، لان الملك بمصر برقوق كان اشار لهذا الاب ان يكتب كتاب الى ملك الحبشة، [السابق] وكان هذا الاب لايشتهي يكاتب ذلك الملك، فلما جلس ليكتب تكلم الله على لسانه فكتب الكتاب باسم أخيه داوود ولم يكتبه

وفي غرة جماد أول[1]: ألبس الوزير قفطان صنجقيته الى مملوكه حسن نايب غيبته عوضا عن سيده حسن بيك.

وفي سابع عشرة[2]: طلع أوضباشا باش الأوضباشية، تابع شاهين جربجي الجلالي الى العزب، والسبب في ذلك أنه أشيع عنه أنه يريد قتل عثمان كتخدا مستحفظان القزدغلي هو وبعض جماعة، فأخبر عثمان كتخدا الكبير فأرسل له جماعة بالليل صحبة الوالي وباكير أوضباشا ابن رجب كتخدا الكبير الى بيته فحاوطوه، فجاه الخبر فقفل بابه فهو جالس في بيته ثاني يوم عند الصباح واذا بجماعة أتته ليأخذونه ويطلعون واياه الباب على جرى العادة فرأى الجميع مسلحين فقال لهم: اطلعوا قدامي الى أن أقضي شغلي والحقكم فركبوا وطلعوا فخشي على نفسه الهلاك فأرسل الى اسماعيل باشا أوضباشية عزبان يطلب منه جماعة تأخذه الى بابه، فأرسل له جماعة من نفره فأخذوه وأطلعوه الى باب عزبان، فمكث في باب العزب سبعة أيام. ثم أنهم أرسلوا له أحمد كتخدا الخربطلي وعمر كتخدا البرلي وجماعة من الكواخي على أنهم يصلحوه ويرجعوه الى الباب فأبى وقال: هذا الأمر لا يمكن، فلما عجزوا عن رجوعه أعطوه عرضه يوم الأحد ثاني عشرين جماد (أول) سنة ١١٤٨[3].

(١) ١٩ سبتمبر ١٧٣٥م. (٢) ٥ أكتوبر ١٧٣٥م.
(٣) ٩ نوفمبر ١٧٣٥م، الاضافة للتوضيح.

باسم المتولى قبله حتى انكروا عليه رسل الملك بمصر وقصدوا أن لا يحملوا ذلك الكتاب، فألزمهم هذا الأب الى أن اخذوا ذلك الكتاب ومضوا وانهم لما بلغوا الى تلك البلاد جيداً وجدوا بالتدبير الالهى ذلك الملك قد عزلوه عساكره عن ملكه لسوء اعتماده واقاموا اخيه داوود ملكاً [بين سنتى ١٣٨٢ ـ ١٤١١م] عوضاً عنه، كما كتب هذا الأب. فلما سمعوا رسل الملك بمصر الأخبار قبل وصولهم إلى بلاد الملك مجدوا الله وصاروا

ثم أن العزب عملوه جربجيا: وطلع عمر أوضباشا وعلى أوضباشا وتسعة عشر نفرا والجميع قبين الضاشاته فمكث فى العزب أربعة أشهر ورجع الى بابه فى اثنين وعشرين رمضان بعد علاج كبير. وقعد بغايلة عثمان كتخدا القزدغلى حسين كتخدا الدمياطى والبسه الضلمة، ولما طلع عثمان اوضباشا إلى العزب حصل أن حسين كتخدا الدمياطى كان معه التزام دمياط ثلاثة سنوات، فالتزم عثمان كتخدا بالجمارك، والبسها الى اسماعيل كتخدا تابع مراد كتخدا، ثم ان عثمان كتخدا كان يأخذ اسكندرية فى كل سنة فأخذ دمياط، وأعطاها الى حسين جاويش قبى الضاشة وخزنداره.

ثم أن حسين جاويش توجه الى حسين كتخدا الدمياطى: يطلب منه رجلا من أتباعه يقال له عمر القبانى، فقال له حسين ما مرادك منه فقال له: أخذه دمياط، فلما سمع بهذا الكلام، تحور، وأراد أن يروح الى العزب، فأبى يوسف كتخدا عزبان، وقال له أنا أصلح بينك وبينه، وأنت لا تعرف ذلك الا منى، ولا يفرق بينك وبين عثمان كتخدا ولا مابة دمياط.

ثم أنه حصل بينهم وبين بعضهم لقلقة وكلام نحو ايام، ثم أن يوسف كتخدا واختيارية بقية الأوجاق اجتمعوا فى بيت على بيك الكبير وأصلحوهم مع بعضهم البعض، ثم أن عثمان كتخدا عرض عليه التزام دمياط بعد الصلح فأبى فأنزل عثمان كتخدا حسين جاويش خزنداره على دمياط لقبض الجمرك ثم أن عثمان كتخدا توجه الى بستانه الذى بقرب قبة الغورى

٨٧: متى [١٣٧٨/ ١٤٠٨م.]

متعجبين لا طلاع هذا الأب. ولما وصلوا قدموا تلك الرسالة بفرح للملك داوود الذى كتب ابونا الكتاب باسمه، فلما فك الملك خاتم الرساله ووجدها مكتوبه باسمه تعجب وارسل وراء الرسل ان يعطوه صليب هذا الاب ومنديله وكان هذا الاب اعطى للرسل مع الرساله الصليب فلما سهو ان لايعطوهم للملك فى تلك الساعه فسألهم هو عنهم فتعجبوا وسألوا الملك من اعلمه بذلك فقال لهم السيد البطريرك أعملنى بذلك قبل وصولكم

وشرع في عمايل عزومة الى اختيارية أوجاقه وكان توجهه الى البستان ثاني جماد آخر سنة ١١٤٨[1].

فلما كان في يوم السبت خامس جماد آخر[2]. هو جالس في بستانه واذا باتباعه تتجارى نحوه فقال لهم: ما الخبر؟ فقالوا له: ان باكير باشا ساير من جهة البستان. فما ساعه الا أنه ركب جواده وخرج مسرعا الى نحو الوزير، فلما قرب منه ترجل عن الجواد[3] فبادرة الوزير بالسلام فقبل ركبته وعزم عليه فقال له الوزير: ماعليه في وقت آخر فقبل فخذه ثانيا وقال له: مولاى الوزير يمر على بستاني بوطي أقدامه، فأجابه الى ذلك ودخل البستان فأجلسه في قصره المشرف على البستان، وأكرم منزله وقدم له ما يناسب به شيئا كثيرا، كأنه كان معدا له، وكان يوسف كتخدا عزبان في قصره الذى أنشاه خارج قبة المسبك.فجاءه الخبر بأن حضرة الوزير عند عثمان كتخدا فركب وتوجه الى على بيك الكبير.

وكان بستانه الذى بقرب بستان عثمان كتخدا: فأخبره بنزول الوزير عند عثمان كتخدا، فركب الاثنان وتوجها اليه فوجدا الوزير جالسا عنده في أسيد السيادات فسلما على الوزير وتحدثا هما وأياه الى أن صلوا العصر ثم ان الوزير تهيأ للركوب فقدم له عثمان كتخدا ثلاثة خيل من جياد الخيل واحدا معددا والاثنين عريانا، فقبلهما وسار من وقته الى القلعة.

---

(١) ٢٠ أكتوبر ١٧٣٥م. (٢) ٢٣ أكتوبر ١٧٣٥م.
(٣) بالأصل «الجواب».

وعندى شهود يشهدوا بذلك ودعا للوقت وزراه وعساكره وجنوده واخته المباركه وأخذ يقص عليهم ما أبصر قائلاً: أقول لكم ياهؤلاء ان من قبل ان تجلسونى ملكاً على الكرسى أبصرت هذا الأب البطريرك فى الرؤيا وقد أقام أخى من على الكرسى واجلسنى عوضاً عنه. وقال هكذا ينزع الله الملك مما لايسير بالاستقامه، ثم من بعد ما تكلم بهذا وأجلسنى على الكرسى أعطانى هذا الصليب بيدى ودعا لى ان الله يثبت كرسى مثل

ثم أن عثمان كتخدا فى ثانى يوم الذى هو يوم الأحد سادس جماد[1]. آخر عزم على جميع آختيارية أوجاقه، وثانى يوم لجميع أضباشية أوجاقه، وفى ثالث يوم الى جميع الصناجق، والاغوات وما زالت العزومة الى آخر الجمعة ثم أن الباشا بعد ضيافة عثمان كتخدا نزل الى محمد بيك قطامش وأكل عزومته وأخذ تقدمته وأضافه على بيك فأكل عزومته وأخذ تقدمته، ثم أنه أضاف يوسف كتخدا عزبان وأكل عزومته وأخذ تقدمته ونزل بكشك على كتخدا الجلفى الذى ببركة المجاورين وكان يعرف بقصر القبرصلى أنشاه فى سنة ١١٤٦[2]. فأكل عزومته وأخذ تقدمته، ونزل الى عثمان بيك وأكل عزومته وأخذ تقدمته، ونزل بقصر رضوان بيك الذى أحدثه سنة ١١٤١[3]. بمنية السيرج ونزل بقصر مصطفى بيك أبو لفية الذى أحدثه كذلك بمنية السيرج سنة ١١٤٠[4]. وهذا أمر لم يتفق لوزير من وزراء مصر أنه أضاف أحدا من أمراء مصر قبل الآن الا عثمان باشا لما عزم عليه اسماعيل بيك بن محمد بيك الدالى، وكان بعزومة وتقبيل أيدى وهذا من تواضعه وصحبته لأكابر مصر يأتيهم بلا عزومة.

(١) ٢٤ أكتوبر ١٧٣٥م. (٢) ١٧٣٣ / ١٧٣٤م.
(٣) ١٧٢٨ / ١٧٢٩م.
(٤) منية السيرج: من القرى القديمة التى كانت تتبع مأمورية ضواحى القاهرة، وهى حاليا حى من أحياء، قسم شبرا، محافظة القاهرة، محمد رمزى، المصدر السابق، قسم ٢، جـ١، ص ١٤ / ١٧٢٧ / ١٧٢٨م.

داوود أبينا لأقضي بين الشعوب بالعدل، ثم باركني وانصرف عني فانتبهت وانا متعجب وكنت أود لو شرحت لكم هذه الرؤيا في وقتها فلم تمكني أختي المباركه من ذلك خشيه من الملك أخي لئلا يدري فيقتلني ولهذا دعوتها لتشهد لكم بما سمعته مني من قبل. ولما أخبر الملك بهذا امام الجمع فمجدوا الله جميعاً المظهر عجايبه على يد هذا الأب، اذ كان جالس بمصر وهو ينظر بالروح ما يقع في بلاد الحبشه وأن الرسل لما عادوا من بلاد

بل يكون الصنجق في منزله واذا به داخل عليه فيحصل للصنجق منه حيا كبير وتظهر له محبة الوزير والله أعلم.

وفي التاسع وعشرين من شهر شعبان سنة ١١٤٨. جرت العادة بركوب المحتسب ليلة الروية فأرسل المحتسب الى جميع مشايخ الأسواق بأنهم يركبون، ومن العادة الجديدة التي أحدثها أغوات الحسبة الشريفة أن يأخذوا من مشايخ الأسواق المعلوم المقرر عليهم في كل سنة لاغاة الحسبة في نظير عدم ركوبهم تلك الليلة.

فلما تولى اسماعيل آغا الحسبة، تابع عبد الله الدالي: امره عثمان كتخدا بأن يركب مشايخ الأسواق جميعا حكم العادة القديمة وأراد بذلك احياء المآثر القديمة وتجديد ما دثر من الأمور التي بطلت من سنة ١١٠٥، من عهد محمد آغا الحين آغاة الحسبة سابقا، فأرسل التذاكر الى جميع مشايخ الأسواق فامتثلوا، الا(*) شيخ التجار بالغورية والجملون فانه جمع التجار بمنزله وطلب منهم بأن يعاونوه على كلفة ركوب تلك الليلة من كلفة سماط وأجرة مهاترة واثنين سعاة ومماليك تركب خلف الراكب وشموع ومشاعل، فلما اجتمعوا في منزله أعرض عليهم الأمر وطلب من كل واحد على قدر حاله فقالت المغاربة: هذا أمر حرام. وكانت مشايخ الأسواق تعمله من عندهم وهذا أمر قد نسخ، وغير ذلك أن الحاج حسين شيخ

(*) بالأصل «إلى».

الحبشة أعلموا الملك بمصر بما اتفق من هذا الاب فتعجب لانه كان يحب هذا الاب و هو ايضا كان يحبه لانه لم يجلس ملكاً الى ان يرسل يسأله فيأخذ له اذن من الشيوخ القديسين بجبل القديس انطونيوس [بالصحراء الشرقية] انه يجلس ملكاً فأقامه الله ملكاً. واقام جميع ايام حياته لم يشوش على هذا الاب والملك لم يسمع فيه سعايه كذب لانه كم من مرة سعوا المعاندين فى هذا الاب والملك لم يسمع لهم وفى دفعة رأيت راهبين

الحريرية وملتزم بمصبغة السلطان لم يطلب من أحد شيئا وأن الذى يجامله بشمع أو مشاكل فلا بأس، وكذلك الحاج محمد الغزولى كذلك وأنت يا شيخنا ترتب علينا مظلمة هذا أمر لا يمكن، وكان الشيخ اذ ذاك الحاج على الغزى. ثم ان الشيخ أرسل الى المحتسب بأنه يعفوه من الركوب، فأخبر المحتسب عثمان كتخدا فأرسل له تذكرة لابد من ركوبه فتوجه اليه وأخبره بما فعل الخواجات وعدم مساعدتهم له فيما لوازم ركوبه وان الخواجا ابن جلون هو المتعصب فقال له عثمان كتخدا لابد من ركوبك فنزل من عنده متهيأ للركوب، وأرسل الى المهاترة والى جميع ما يعتازه شيخه ثم ان عثمان كتخدا أرسل سمر دكان ابن جلون، فلما سمرت دكانه توجه الى سليمان كتخدا عزبان الجلفى وأخبره. ثم أن سليمان كتخدا أرسل جاويشا من جاوشية الباب ففتح الدكان. ثم أن أحمد أوضباشا المطرباز باش أوضباشية باب مستحفظان أخبر بما فعله ابن جلون، فهو ركب من منزله طلع الى باب مستحفظان، وكان يوم الجمعة واذا به وقع نظره على رجل مغربى يظنه ابن جلون فنهره أحمد أوضباشا وقال له : مثلك من يتعصب فى أبطال ما شرع فيه الحكام وكان ذلك المغربى ليس هو ابن جلون. وكان هذا المغربى ممن يتردد على حسين كتخدا الدمياطى فتوجه اليه وأخبره بما فعل فيه أحمد أوضباشا من جهة على الغزى وتعصبه على الركوب وان هذا أمر قد نسخ. فلما سمع الدمياطى ما قاله الخواجا كتب تذكرة وأرسلها الى على الغزى قريب المغرب صحبة عشرة أنفار

مناجيس لطلبهم الكهنوت باطل سعوا فى هذا الاب عند ذلك الملك ولما لم يسمع لهم سعوا به ايضاً عند كل حاكم بمصر. وكان كل حاكم يمضوا به اليه يتكلموا فيه بما يخالف ما ادعوا به عند الحاكم الآخر وان الحكام لما تحققوا كذبهم وضجروا منهم قصدوا يعاقبوهم ويلقوهم فى السجن، فلم يمكنهم هذا الاب، ولم يزال يحتملهم ويطول روحه عليهم فلم يرجعوا عن شرهم وملأ الشيطان قلبهم فهجموا ذات يوم على

بعدم الركوب وان ركبت أو ركب أحد من طرفك وحيات رأسي قتلته، وكان الغزى قد رتب جميع لوازمه وقد أتلوا السماع والأمر تهيأ وفرقت الدراهم، فلما وردت هذه التذكرة اليه اجاب بالسمع. انه توجه إلى عثمان كتخدا فأخبره وأعرض عليه التذكرة فما كان من جواب عثمان كتخدا الا أنه قال له: هذا أمر متعلق باغاة الحسبة أو روح بلا ركوب. وهذا من كماله وغزارة عقله وكره وقوع الشر على أمر لا طايل تحته، ولو أراد الشر، أوغما، كان يرسل من طرفه خمسين نفرا مسلحة ويركبه، فخشى وقوع الفتنة وعمل بالحديث الشريف، الفتنة نايمة لعن الله من أيقظها، فلو أرسل من طرفه جماعة وكذلك حسين كتخدا أرسل من طرفه جماعة، فهلبت من وقوع غم وقتل بلا شك فيكون هو السبب ثم أن على الغزى كان قد أعطى لهم جميعا معلومهم ففاته لهم وأبطل الركوب ثم أن الغزولي أركب ولدا من طرفه، فلما وردوا بيت القاضى جاءت جماعة الدمياطى وسألوا عن الولد فاخبروهم أنه من طرف شيخ الشرب، وأن على الغورى شيخ الغورية والجملون لم يركب أحد من طرفه وهذا شيخ الشرب ودفع الله السوء بعدم ركوبه.

ثم أن أهل الحسينية أشتبكت مع أهل بولاق: عند قهوة الخراطين وضربوا أهل بولاق وأخذوا نقارتهم وبغل الحطب وكسروا دكة جامع الاشرفية وخربوا الركبة وعكسوا الروية، وتبدل اسماعيل آغا المحتسب. وصار رمضان، فنشا، وفشى الطاعون من غرة رمضان (١)،

(١) ١٥ يناير ١٧٣٦م كتب عنوان جانبي «اعرف حلول الطاعون بمصر».

هذا الأب وهو قاعد يحكم وقالوا له ما بالك ما تقوم وتنحط عن كرسيك فانه قد جاء الوقت الذى يصير فيه الواحد منا بطريركاً والأخر اسقف. فلما سمع كلامهم تبسم ولم يتشدد بالغضب بل اجابهم بعظم اتضاع قائلاً: ما تروا يا هؤلاء وانا اسألكم أن تصبروا على قليلا واضرب لكم المطانوه، أن تمهلونى اربعين يوماً فقط حتى اخلص من تعلقات البطركية وودايع الشعب الذى تحت يدى وبعد كمال الاربعين يوم تعالوا الى وانا أسلم

وكان سابع طوبة القبطى، وان من عادة الطاعون بالديار المصرية فى الفريك وأنه يأتى من خارج الغربية وهذا أتى من داخلها فى كيهك[1]. ولم يظهر فى بلدة قبل القاهرة وانه ظهر فى بيت الذهبى قريب من الصنافيرى، فأخذ جميع من كان فيه ولم يبق الا صاحب البيت فقط فى تسعة أيام، وكانوا اثنين وثلاثين نفسا، وختمت بصاحب المنزل، فتعجبت الخلق فى كون أن الوقت شتاء. وكان لصاحب البيت قريب وكان فقير الحال، وكانوا طاردينه لفتره فملكه الله جميع مالهم ووقفهم فى عشرين يوما مع أنه ما كان قدامه ثلاثة مراتب تمنعه من الارث والوقف فابادهم الله فى عشرة أيام، ثم أنه بدأ فى موت الجمالات من الحور والولدان. ثم أنه أول من مات من الاكابر أيوب بيك أشراق محمد بيك فى حادى عشر رمضان.

وفى ثانى يوم (مات)[2] أحمد بن عطية، وكان له من العمر مابة وخمسة وعشرين سنة وفى ثالث عشرة مصطفى بيك بلفية، ثم من بعده جميع اتباعه . ثم ختم البيت بموت زوجته وكانت أبنه أسماعيل بيك الدفتدار وكان قد أخدها فى سنة ١١٠٧، وقد توفت بكرا لأنهم ربطوه عنها فما أحد قدر على فكه.

ثم أنهم البسوا صنجقيته إلى مملوكه ابراهيم أغا أغت مستحفظان وابقوه فى بيته، ثم مات الشريف بركات بن يحيى والشريف حمزة وشريف أخر، ثم أن سيدى محمد الحنفى نجل

(١) ديسمبر ١٧٣٥م.

(٢) الاضافة للتوضيح.

لكم كرسي البطركيه بغير مانع يعيقني. وهذا لما قال لهم هذا الاب فرحوا ومع فرحهم لم يدعهم هذا الاب يمضوا حتى قدس وناولهم من السراير المقدسة. ثم بعد التناول تركوه ومضوا الى بعض الدياره لكي يقيموا فيها الاربعين يوم ولا مضى لهم ثلاثين يوماً اخذ الرب نفوسهم وماتوا واحد بعد واحد من الصلاة القوية التي لهذا الاب الذى احتمل هولاء الرهبان إلى هذا الحد ولم يحقد على شرورهم بل اعطاهم من السراير المقدسه قبل

سيدى على الحنفى وانقطعت أولاد الظهور بموته فانه لم يعقب، ثم حسن بيك، ثم أحمد بيك ياقوت زاده، ثم اسماعيل بن قيطاز، ثم جاء خبر،[1] على بيك حاكم جرجة خزندار زين الفقار بيك، ثم اسماعيل كتخدا مستحفظان، ثم حسين كتخدا الدمياطى، ثم يوسف كتخدا عزبان الصغير، ثم مصطفى كتخدا عزبان القيمجى، ثم أحمد أوضباشا المطرباز باش اختيار. ومات لباكير باشا ولدان، ومن الخدم نساء ورجال ثلاثماية وثلاثة وستون، ومابة وأربع وخمسون من بيت عثمان كتخدا القزدغلى، وختم بابن سيده حسن كتخدا وقبى الضاشة مصطفى حافظ وخلق لا تعد ولا تحص ولا تكتب.

واخبرني خزندار المعمار أن الذى قبضه سيده من الرتيبة ألف وسبعة وخمسون ألف[2] خلاف الاوقاف. وكانت شدته فى رمضان وشوال والقعدة[3]، ثم انتقل إلى البلاد والثغور فلم يبقى الا طويل العمر.

وقد أخبرني شيخ الطباخين: ان الذين بطلوا من الاسطوات العيشة من بيوت أسيادهم ماية وسبعة وأربعون أسطى عيش، وجميع هؤلاء الذين قفلت بيوتهم هم أعيان البلد.

وقد أخبرت السفارة: أنه نزل بالغربية مطر مثل بيض النعام فأهلك أهل سبعة قرى وأغرق

(١) كررت كلمة «على» بالأصل. (٢) قدم وأخر.
(٣) يناير، فبراير، مارس ١٧٣٦م.

موتهم. وايضاً راهب سرياني يسمى ابراهيم خرج من الايمان قدام الملك وتجند وصار جندياً وتكلم في حق هذا الاب وفي حق جماعة الرهبان المجروحين بالبرية وقبض على جماعة منهم واوثقهم وحملهم الى مصر وكان يظن انه يجد احداً من اولئك المجروحين فلم يجد غير راهب الذى صار مجروح احضره موثوق صحبة الرهبان وانه اخذ الشهاده، واما ذلك الراهب [الذى] صار جندى لم يبرح يعاند هذا الأب ويقاومه الى ان ضجروا

زرعهم، والذى هرب إلى المينتين هلك، وصارت المواشى تسرح ولم تعد الى الدور من قلت من يرجعها وكذلك نزل المطر بشرقية بلبيس فأهلكتهم وقد أبطلوا تزين بيت الوالى فى الاعياد.

وقد حصل الى الناس وهم كثير، لم يحصل فى فصل من الفصول المتقدمة. وأمر شيخ الإسلام جميع الميقاتية أنهم لا يؤذنون آذن العشاء، الا بعد مضى ثلاثين درجة وقد سموه بفصل الأكابر، والولدان، وقد أرخوه بتاريخين في ابيات وهى هذه:

أتى غم بهذا العام صعب ... عميما بالورى جمعا وطالا
فنرجوا من عظيم الشأن عفوا ... ففى التاريخ زال الغم زالا

وقال غيره:

أرسل الرحمن جندا ... لعباد يصطفيه
كم به مات شهيدا ... رحمة الله عليه
عندما الالطاف حفت ... من رحيم نرتجيه
فاقتضى ارخت عام ... حارت الأفكار فيه

وقد عملوا عدة تواريخ، وقد سموه كثيرة، من جملتها الكناس، وفصل كو، وفصل

الشعب منه وسألوا هذا الاب ان يدعو عليه فلم يدعى عليه وقال لهم لا يا أولادى لاتدعوا عليه بل انا ادعى له ان الله يرده ويعطيه اكليل الشهادة. فلم يمكث ذلك الا قليلا حتى ندم ومضى أخذ اكليل الشهادة كما دعا له هذا الأب. وفى [دفعة] وقع على هذا الاب تجربه من الامير منطاش، لان ذلك الامير لما حارب الملك برقوق وكسره واخرجه إلى الكرك فقام احد المعاندين لهذا الاب نها للأمير منكاش ان تحت يد هذا الاب أموال وذخاير

الشباب، وفصل الحور والولدان، [والفصل العايق ياخدع الرايق] وقد توفى لى فيه، ولد يسمى مصطفى، وكان له من العمر ثمانية عشر سنة فقسم ظهرى موته، وكان قد أدرك فى هذا العمر ما لم يدركه أبن أربعين عاما، وولدى عبد الرحمن ، وكان عمره ثمانية أعوام، وكان نجيبا، وكان الذى يراه لا يمكنه مفارقته، وقد توفى الاثنان فى يوم الأحد قبل الشمس ثامن عشرين شوال سنة ١١٤٨(١) فرحمة الله عليهم، ورحم الله من ترحم علينا، وعليهم، وقرأ، لنا ولهم الفاتحة. وكان رفعه فى آخر الحجة الموافق لرابع عشرين برموده سنة ١١٤٨(٢).

وفى يوم الاحد آخر رمضان المعظم سنة ١١٤٨(٣) تم عمارة مسجد الفاكهانى(٤) الامير أحمد كتخدا مستحفظان الخربطلى وأراد أن يصلى فيه صلاة عيدالفطر، فما أمكن لبعض نقص، وهو جلى رخامه، وما أذن الله فيه بالصلاة الا فى يوم الخميس حادى عشر شوال، ثم انه فرشه بالبسط وعمل فيه مولدا لسيد المرسلين، وفتح السوق وأوقدت فيه الشموع والقناديل وكان ليلة معتبرة وفرقت القهاوى والشربات الفخرة. وفى ثانى يوم خطبت فيه

(١) ١٣ مارس ١٧٣٦م. (٢) ١١ مايو ١٧٣٦م.
(٣) ١٣ فبراير ١٧٣٦م.
(٤) مسجد الفاكهانى: كان يعرف قديما بجامع الظافر، وهو من المساجد الفاطمية، وكانت له أوقاف جارية عليه، يصرف عليه منها لاقامة شعائره، وكان يعقد به درس فى غالب الاوقات، انظر ، على مبارك، المصدر السابق، جـ٥، ص ٦٧.

اودعها عنده الملك برقوق قبل خروجه الى الكرك
وانه طلب هذا الاب وعصره فلم يجد تحت يده
شئ بالجملة فندم على عقابه له ثم اطلق سبيله.
ومرة أخرى تسلط عليه أميرا يسمي يلبغا السامليى
وقصد يحدث على الشعب حوادث ودية وعادات
صعبه، فلم يوافقه الاب على ذلك قاومه، فجرد
ذلك الامير سيفه بغضب يريد ضرب رقبته وللوقت
مد عنقه للسيف وسأله ان يضرب عنقه فلم
[فلما] رأى الأمير شجاعته وقوة قلبه هلع عنه.

الخطبة وازدحمت الخلق، وصلى فيه شيخ الاسلام قاضي مصر والعلماء والصناجق وأتته الناس من جميع المحلات وكان يوم فتحه يوم مشهور. وكان قد بدى في هدمه يوم الثلاث غرة محرم الحرام افتتاح عام سنة ١١٤٨[١] وكان على خلاف هذا الوضع فانه كان ينزل له بدرجتين، فلما هدمه جعل ترابه فيه وعلاه هذا العلو الذى هو عليه اليوم ، وانه لم يبق من معالمة القديمة سوى المنارة وانه قد اخذ بعض محلات وادخلها فيه الى أن صار في هذه السعة. وهذا الاعتدال وهذا البنا الذى أحدثه أحمد كتخدا انما هو ثالث عمارة له، لأنه في الاصل أنشاء بدر الدين الشهيد في عصره سنة ٥٤٩[٢] وكان يسمى بالأنور فمكث مدة ودثر، فهو من جملة الاربعة مساجد المعلومة وهم: الازهر. والاقمر. والايض . والانور. وهو هذا وقد دثر نحو المائة وأربعين سنة فلما أراد الله بالعمارة سخر له وليا من أوليائه وكان بجوار المسجد رجل فاكهاني يتعاطى بيع الفاكهة، وكان حانوته بابه الان الذى بالشارع وكان يترأى في وجهه الخير فجاءه ذلك الولي وكان قطب ذلك العصر، فابتاع منه قنطار من الفاكهة بثمن معلوم ودفع له الثمن وأمره أن يتصدق منه لكل من سأله الى حين يأتيه ويأخذ ما بقى منه، فغاب عنه الى بعد صلاة العصر. وأتاه وطلب منه ما بقي من الفاكهة، فقال له: يا سيدى من وقت توجهت من عندى ما زلت أفرق منه الى وقتى هذا وأنى أظن لو كا ن فيه عشرة قناطير

(١) ٢٤ مايو ١٧٣٥م.
(٢) ١١٥٤م.

وأن الله لم يغفل عنه بل اسلمهم في يدى الملك الذى أقامه وضربه وعصره وارسله إلى الجب بمدينة الاسكندريه. وكانوا الشعب كلما خشوا عودته فكان يطمنهم هذا الاب قائلاً لاتخشوا يا اولادى ولا تخافوا ولاتظنوا ان ذلك الامير بقى يعود الى مصر لانى وكلت بسجنه الاربعه حيوانات الحاملين كرسي الله، ولم يبرح ذلك الامير مسجون في الاسكندرية الى ان مات أشر موته وان الشعب تعجبوا ومجدوا الله . وفى دفعه سعوا

لفرغت على هذه التفرقة، فقال له: زنه فوزنه فرآه قنطارا لم ينقص منه شئ فقال له القطب: يا هذا ابنى هذا المسجد وأنه لا ينقص من مالك شئ كما أن هذه الفاكهة لم ينقص منها شئ ودعا له بالتسهيل. فشرع فى بناية وجعل له بابا بالشارع وهو حانوته وسمى بعد الأنور بالفاكهانى وكان على وضع الأقمر الذى هو قريب من مرجوش.وكان تمام بنايته فى رجب سنة ٥٥٩[١] وكان محصوله شئ قليل الى (أن)[٢] أراد الله بعمارته على يد أحمد كتخدا الخربطلى وأدعى أن الشيخ الفاكهانى أتاه فى منامه وامره بعمارة المسجد، فلما أصبح استفتى العلماء فى عمارته من مال حلال وانه لم يكن عنده مال حلال، فأمروه بالاقتراض، فتداين من التجار عشرة آلاف أحمر، ثم انه بدأ فى هدمه وبنايه الى أن جعله فى هذه العمارة التى جاءت محكمة البنا وكان ابتداء الهدم والبنا فى يوم الثلاثا فى غرة محرم الحرام سنة ١١٤٨[٣]. ولم تبطل العمارة منه الايوم فى الجمعة وهو يوم الاحد. وفى آخر المدة شغلهم فى يوم الاحد فمكثوا يعمرون فيه تسعة اشهر وسبعة أيام واشترى محلات وادخلها فيه وادخل جميع اتربة الهدم فيه وجعله فى هذا العلو وجعل له بابين وأبطل الباب الذى كان من عطفه الرسام وأنشا هذا الصهريج والمكتب عليه وعمل هذه السقيفة ورخم در قاعته ووضع فيه هذه الأعمدة الأربعة الصوان التى (*) أهداها له عثمان كتخدا القزدغلى وأعطى الاجرة

(١) مايو / يونية ١١٦٣م.
(٢) الاضافة للتوضيح.
(٣) ٢٤ مايو ١٧٣٥م.
(*) بالأصل «الذى».

جماعه من المعاندين ان يهدموا كنيسة ستنا السيده بالمعلقه .وكان هذا الاب فى تلك الايام خرج الى البريه ليصلى هناك، فلما سمعوا المعاندين سعوا فى غيبته وان الملك لم يمكنهم من ذلك بل الاكثر الهمته الصلاة القوية الى ان اشار للقضاة الاربعه بالكشف عن تلك البيعه وهكذا لم يجدوا شيئاً مما انهوه المعاندين حينذا انقهروا وامتلوا غيضاً ومن زايد غيظهم أخذوا جفنة نار اطلقوها تحت اساسات تلك البيعه يريدوا يحرقوها بكمالها ولكن

بشيلها من بولاق الى هذا المكان خمسة وأربعين فندقلي، وقد كانت عند وكالة أيوب بيك، وقد كانت عشرة أعمدة بالازبكية فاحتاج منها ستة واهدى له الأربعة يشتالها الى المسجد فصبغها بالزنجار، وكان هذه المنارة لم تكن بناية الفاكهانى لأن الذى بناها الفاكهانى كانت من لبن، وهدمت فى زمن العثمانى وبناها أهل الخير. كما تقدم وقوع منارة السلطان حسن ومنارة أبا النصر المؤيد وانها حين وقعت منارة المويد طلع اليه العينى وابن حجر ليسلموا عليه فابتدى ابن حجر بأبيات ليسلى بها الملك أبا النصر المؤيد وهى هذه الأبيات:

لجامع مولانا المؤيد رونق ... منارته بالحسن تزهو وبالزينى
قالت وقد مالت على تمهلوا ... فليس على جسمى أضر من العينى

فقال العينى مجيبا له:

منارة كدر وسر الحسن قد جلبت ... وهدمها بقضاء الله والقدر
قالوا اصيبت بعين قلت ذا غلط ... ما أوجب الهدم الا خسة الحجر

ووقعت منارة جامع الماس الذى هو قريب من المظفر وبناها أهل الخير، وكان قد أعوجت فأهدموها وأعادوها فى سنة ١١٢٥[١]. وبنى له كشكا فوق بابه ليس له نظير تقبل الله منه،

(١) ١٧١٣م.

الله الذى سمع للثلاثة فتيه في اتون النار فطفاها عنهم سمع صلاة هذا الأب ولم يدع النار تصعد الى علو البيعه. ولما كانوا تلاميذ هذا الاب يطفوا النار من أسفل أرسل لهم الرب ندا [مطر] بارداً من فوق أطفأ لهيب النار المتوقدة حتى تعجبوا الحاضرين ومجدوا الله. وفي دفعة تسلطوا جماعة من المعاندين على دير شهران ان يهدموه وذلك انهم انهوا [إلى] الملك كلام كثير باطل عن رهبان الدير حتى أذن لهم الملك بهدمه فلما اجتمعوا

وقيد الشيخ أحمد السلمانى الحنفى فى قراءة فقه حنفى فى كل يوم بعد صلاة الظهر، ضاعف الله له الاجور.

وفي يوم الخميس حادى عشرشوال سنة ١١٤٨، ورد آغا من الديار الرومية وصحبته خطوط شريفة، ومن جملتها خط شريف بتبطيل دق سكة الفندقلى وانه لا يعمل بعد اليوم ورفعت السكة الى السراية وأن كان بماية وستة وأربعين بعد أن كان بماية وأربعة وثلاثين فى البيع والشراء والديوان وأن يسبك عوضه ذهب زر محبوب[١] وجعلوه بماية وعشرة أنصاف أخشا وان يبطل المرادى ولا يقبض لا فى بيع ولا شراء وانما يباع بالدراهم بأربعة أنصاف أخشا كل درهم، وان زر بالفارسية علم على الذهب واضيف الى محبوب فصار بالعربى ذهب المحبوب وسموه زر محبوب وأنه فى الوزن ثلاث عشر قيراطا ونصف قيراط ونودى عليه فى القاهرة فتوقفت الناس فى صرف الفندقلى بماية وستة وأربعين أخشا وكان فى دار الضرب نحو مايتين كيس فضة[٢] أخشا أعدت للخزينة العامرة فاصرفها الوزير الى أهل القاهرة فاطمأنت الناس وقبضت وباعت واشترت والله أعلم.

وفى خامس عشر شوال[٣] مر المحتسب، اسماعيل آغا اشراق عبدالله آغا الوالى من درب

---

(١) كتب عنوان جانبى «أعرف ضرب زر محبوب بمصر».
(٢) قدم وأخر. (٣) ٢٨ فبراير ١٧٣٦م.

ليهدموه لم يمكنهم هذا الاب لان كان اجتمع فى ذلك اليوم خلق كثير لا يحصى لهم عدد وكانوا يظنوا لكثرة اجتماعهم [جموعهم] يخافهم هذا الاب ويسلم لهم الدير ليهدموه وان هذا الاب لم يخافهم بل برح يناصبهم ويقاومهم الى ان قال لهم: من منكم يا هؤلاء له يد وسلطان يجرد سيفه ويقتلني لانى ما دمت حيا لا أمكنكم تهدموا طوبه واحده من ذلك الدير الا ان اقف انا وانتم قدام السلطان واظهر له باطل ما نهيتوه وباطل

الجماميز، فرأى رجلا يتشاجر مع رجل من جهة صرف نصف أخشا بجدد فوجد فيها جديدين دراهم، فأراد أن يغيرهما فأبى الرجل أن يغيرهما له في مرور المحتسب، فسأل عن الخبر فأخبره الرجل بما ذكر فأمر بضربه وكان الضرب واقعا على الرجل قدام بيت أحمد أوضباشا الثالث فى خروج أحمد أوضباشا من منزله فرأى الضرب واقعا على الرجل فشفع فيه فأبى، فأمر الحمار أن يضرب المحتسب ففزع عليه الحمار فسحب عليه الدبوس فنزل أحمد أوضباشا من على حماره وأخذ النبوت من يد الحمار وضربه ففر هاربا الى وجاقه فاستعيبوه و لم يأخذوا بناصره فذهب الى باب العزب وطلب عرضه من الجاوشية ورمى الحسبة فاعطوه عرضه وأبطلوه من الحسبة. ثم أنهم قطعوا فرمانا بما ذكر ونزل الوالي واشهر الندا فى القاهرة بابطال المكس الذى كان فى الرميلة وهدموا مرطبة (مسطبة) الجمرك والخيمة اللذان فى الرميلة، وسمروا بيت الحسبة وابطلوا الاوضباشا والجربجي من باب الحسبة وأرادوا أن يسفروهما فمنعهم من ذلك كثرة الفنا والطاعون وظهور حسن آغا اغاة التفكجية تابع على بيك الهندى، وكان فى مدته آغاة التفكجية.

فلما قتلوا على بيك الهندى دفتدار مصر: هرب عند زوجته ولم يشعر به أحد وكانت زوجته تصرف عليه منذ ثمانية سنين ولم يشعر به أحد إلى ان ماتت زوجته وأولاده وجميع عياله بالطاعون ولم يبق عنده احد، فهانت عليه روحه وتمنى الموت فأخذ كفنه معه وتوجه إلى على بيك ووقع فى عرضه وأخبره بالواقع فامنه على نفسه ثم أنه ألبسه ثيابا فاخرة وألبسه

كلامكم. ومع كلام هذا الاب لهم تركهم ومضى الى القلعة واستغاث بقوة الملك برقوق ولما اتصل بالملك صوت صراخه أرسل للوقت كشف عن ذلك الدير كالعادة، فلما مضوا القضاة الاربعة كشفوا عن الدير فلم يجدوا شيئا مما أنهوه المعاندين. ولبغضهم في هذا الاب كمنوا للشعب كمين صعب وقدروا مع الامير سودون انهم لابد ان يرموهم في ذلك الكمين فكشف الرب لهذا الاب ماكمنوه فلم يلتفت لورايه بل اقام ساعته

كرك سمور واعطاه ماية فندقلي واركبه جوادا معددا وأرسله الى سيده محمد بيك صحبة كتخداه، والى سليمان كتخدا ويوسف كتخدا، وأن يقابله بهم ويخبرهم بأنه واقع فى عرضه وأنه قد عفى عنه، وانه أمنه على نفسه، وأنهم يعفوا عنه ويهنوه على نفسه فكان كذلك.

ثم انه أسكنه فى منزله الذى براس الرميلة، سكن قاسم بيك سابقا، فلذلك حصل فى البلد قيل وقال وعزلوا مصطفى كتخدا مستحفظان الدرندلي وولوا محله عبد الله الجاويش القزدغلي وحصنوا الباب بعسكر. وكذلك باب العزب عزلوا سليمان كتخدا الجلفى وولوا أحمد كتخدا اشراق يوسف كتخدا ثاني مرة وحصنوا بابهم والسلطان حسن بعسكر وخشوا ان يكون حسن آغا هذا فخ، ولم يكن كذلك وانما ضاقت معيشته فقال الموت ولا هذا الذل فارتكن على هذا الركن الجازى على بيك فأخد بيده وأظهره.

ثم أنهم فوضوا حكم الحسبة الى الوالى إلى أن يعتدل الأمر ويتم النظام: ثم أن العزب أخبرت برجل قبانى يقال له ابو لطعة وكان يقبن الخيار والقثا بالرميلة من طرف العزب فلما هدمو المسطبة التى بالرميلة المعدة لاخذ الجمرك من القثا والخيار والقرع والبامية فصار هذا القبانى يسير الى سيدى عقبة ويأتيه بعض البياعين فيوزن لهم، فلما أخبرت العزب به أرسلوا بعض غز فمسكوه وهو يقبن لهم فأخذوه وأخذوا رجلين من المعلمين وودوهم الى الباب وارادوا أن يقتلوهم فآل الأمر الى ان ضربوا كل واحد ألف ونفوهم.

خرج في خفيه عن قلايته ولم يعلم تلاميذه ومضى الى بيعه الشهيد ابو مرقوره حبس ذاته هناك فى مكان مظلم ولم يطلق لأحداً ان يبصره واوصا الرجل الذى حبسه ان لا يكلم أحداً به فأقام سبعة أيام وليالى وهو يصلى فى ذلك الحبس ويعبد الله ويستغيث بشفاعة الست السيدة الى ان ظهرت له وقالت له ان الله قبل طلبته فى خلاص الشعب وبطلت موأمره المعاندين السوء. حينذا ابهج قلب هذا الاب وفرح فرحاً عظيما

وفي يوم الاحد خامس عشرين الحجة ختام سنة ١١٤٨[١]: عزل الباشا ابراهيم آغا آغاة مستحفظان من الاغاوية وألبسه صنجقية سيدى مصطفى بيك بلفية، وفي يومها جاء الخبر من جرجة بموت على بيك الصغير تابع زين الفقار بيك وألبسوا مصطفى كيخية حسن بيك الدالي الصنجقية واولاه جرجة محل على بيك وألبس محمد جلبى بن على كاشف آغاوية ومستحفظان وفي يومها شالت الخزينة من العادلية صحبة حسين بيك الخشاب وكان ذلك فى يوم الخميس سادس محرم سنة ٩ ١١٤ الموافق لثامن عشر بشنس سنة ١١٤٨[٢].

وفي يوم الأحد تاسع محرم سنة ١١٤٩[٣]: طلعوا العلماء الى الديوان وقاموا على الوزير من جهة الجامكية التى يصرفونها معاملة الفندقلى بماية وستين، والجنزرلى بماية وثلاثين ومن جهة غلال الحرمين ومن جهة غلال العنبر فآل أمرهم بأن جميع حمايات والمراكب بطالة والجوامك تصرف ديواني وكتبوا في شأن ذلك حجة. ونادوا فى البلد بأن الجوامك تصرف ديواني وحمايات المراكب بطالة والقبض ديواني فى غرة شوال سنة ١١٤٨[٤] فلم يفد ولم يصرفوا ديواني الا شهرا واحدا وهو القعدة وتكلموا من جهة فرمان الجوامك بأن يفرغ لكل من أراد فلم يفد، وصار كل من أراد أن يفرغ على عثامنة يعطيها الى كاتب ديوان الوزير أو

(١) ٧ مايو ١٧٣٦م.
(٢) ١٧ مايو ١٧٣٦م.
(٣) ٢٠ مايو ١٧٣٦م.
(٤) ١٤ فبراير ١٧٣٦م.

وخرج في اليوم السابع مثل ملاك الرب. وبتدبير من الله أرسل الأمير طلبه في ذلك اليوم وصار يخاطبه بما أضمره للشعب من الحوادث الرديه الصعبة ومن جملتها انه [سودون] أراد ان يلبس النسوة الازارات الزرق وغير ذلك، وان هذا الاب احتمى بالروح وقال له: من هو من الامراء الذى تقدموك فعلوا هكذا مع الرعية أو من الامراء البطاركة الذى اتفق له مثل هذا ان يشهر بنات شعبه ويصيروا عاراً وضحكة لصغار عوام الناس

الى المهردار أو الى أحد من خدمة الوزير فيأخذوا على كل سبعة عثامنة [١] فندقلي، ثم أن الرعية أبطلت الفضة المرادى وصاروا يقبضون الاخشا فقط. فاجتمعت العلماء والبكرية والسادات والعسكر واجتمعو في منزل محمد بيك قطامش فاجمعوا أمر العلماء وأكابر البلد البكرية والسادات بأن يطلوا المرادى واعطاهم فرمانا فأسلموه الى محمد آغا آغة مستحفظان، فنزل وأشهر النداء في القاهرة بعدم مشي المرادى ولا يمشي الا الاخشا وكان ذلك يوم الخميس ثالث عشر محرم الحرام سنة ١١٤٩ [٢].

وفي ثاني يوم الذى هو يوم الجمعة رابع عشر محرم[٣] توفي الولي الصالح الشيخ محمد محمد العياشي المغربي ودفن بجوار ابن أبي جمرة رحمهم الله آمين.

وفي يوم الجمعة واحد وعشرين محرم[٤]. طلع عثمان كتخدا القزدغلي الى القرافة ففي حال رجوعه عند رأس الجودرية واذا ببترك الاروام مقابله فقال له: القواص أنزل يا بترك فأمر عثمان كتخدا بضربه فانزلوه من فوق حماره وضربوه بالنبابيت فصارت الرهبان الذين صحبته يتلقون الضرب عنه، ثم أنهم شالوه وهو مرضوض من النبابيت.

(١) قدم وأخر. (٢) ٢٤ مايو ١٧٣٦م.
(٣) ٢٥ مايو ١٧٣٦م / كتب عنوان جانبي «اعرف وفاة الشيخ سيدى محمد العياشي المغربي رحمه الله».
(٤) ١ يونية ١٧٣٦م.

ولكن الحق اقول لك ايها الامير انك متى اشهرت واحدة من بنات شعبى انا لا ابرح أطلق الخراب والشهرة [التشهير] فى بلادكم من اطراف الحبشة والى اقاصى مصر، وأنا اخبرك ايها الأمير ان النصارى ما هم بغير ملوك على الأرض ولا امم كما انتم تحكموا عليهم ولا هم بلا سلاطين ينظروا فى سلطنتكم. فحصل للامير من ذلك وهم كثير واطلق سبيل الاب ولم يعد يخاطبه بشى حتى تعجبوا الشعب ومجدوا الله وستنا العدرى التى

وفي ثالث عشرين صفر[1] جاءوا باسماعيل بن محمد الدالي ميت من الدماير احد بلاده فدفنوه بالقرافة.

وفي خامس عشرين[2]: ألبس الباشا صنجقيته الى ولده درويش جلبي فصار درويش بيك وفي يومها الذى هو الخامس والعشرين منه نزل محمد آغا آغاة مستحفظان وأشهر المناداة بالقاهرة لجميع المغاربة وارباب الاقلام من اولاد البلد والتجار أن لا يشتروا المماليك والجوار البيض، والذى عنده منهم شئ يبيعه ولا يقنيه ولا يستخدموا الا العبيد والجوار السود ولجميع فرق اليهود والنصارى انهم لا يستخدمون الجوار السود وأن كل من تعاطى بيعهم أو شرايهم فعليه القبض باغاة مستحفظان ويقتل وينهب ماله، ومن حذر فقد أنذر، فهاجت البلد.

وكان السبب في ذلك رجل مغربي يقال له الحاج محمد بنو. من طرابلس الغرب له صهر يقال له محمد صادق تشاجر مع خزندار رجل من كتبة الجامكية يقال له الشيخ يحيى القطورى فحصل بينهما السفه الزايد، ثم ان الخزندار سحب الخنجر على الغلام فجاء الحاج محمد المغربي نسيب الغلام فضربه وأخذ الخنجر منه وكان المغربي من اعزا على بيك وسيده محمد بيك قطامش، وكان عندهما بمنزلة الوالد لهما، وكان بينه وبين محمد بيك صحبة من حين كان باشا في طرابلس، فلما جاء محمد بيك إلى مصر مكث مدة قليلة وجاء الى مصر

(١) ٣ يولية ١٧٣٦م.

(٢) ٥ يولية ١٧٣٦م.

تساعد هذا الاب فى جميع حركاته لان هذا الاب ماكان يتحرك فى شئ حتى يقف امام ايقونة ستنا السيدة ويسألها فيه وكانت تظهر له وتخاطبه من الصورة، حسب شهادة ابينا القديس رويس عندما سألناه ذات يوم ان يذكرنا [يعظنا] فاجابنا قائلاً من هو انا يا اولادى حتى تسألونى ان اذكركم اسألوا ابينا القديس البطريرك الذى تظهر له ستنا السيدة وتخاطبه من ايقونته الطاهره وتخبره بأسرار عجيبه وتساعده فى كل اموره. واننا تعجبنا

فصار عزيزا عنده وعلى الخصوص عند على بيك وصار عندهم محبة زايدة له الى أن صار لم يصبر على بيك مفارقته. فلما حصل له هذا الأمر أخذ الخنجر وأوصله له فحصل الى الشيخ يحيى تعب الى ان «خرج من باب مستحفظان ودخل فى عرض يوسف كتخدا وعلى كتخدا الجلفى وجعلوه عندهم جربجى وأخذوا خاطر على بيك وعثمان كتخدا القازدغلى فهذا كان السبب.

وفى خامس ربيع أول سنة ١١٤٩[١]: ألبس الباشا إلى عبداللطيف أفندى رزنمجي[٢] مصر آغاوية العزب، وكانت قد مكثت آغاوية العزب بطالة من موت ابراهيم استاذ كوم شريك الذى توفى فى الفصل [طاعون كو]، وفى يومها ألبس الباشا قفطان الحسبة إلى محمد المغربى زعيم مصر سابقا، وكانت قد مكثت القاهرة خمسة أشهر من غير محتسب من حين ضرب أحمد اضباشا اسماعيل المحتسب وارمى الحسبة كما تقدم ذكره.

وفى يوم السبت ثامن عشر ربيع أول [٣]: جاء الخبر بهلاك سالم ابن حبيب بمرض الاستسقا، وكان فى أيام مولد سيدى أحمد البدوى رحمه الله ورضى عنه، وكان مدة مرضه خمسة أشهر وثمانية أيام، وأوفى البحر يوم السبت حادى عشر مسرى وعملوا له تاريخا وهو

(١) ١٤ يولية ١٧٣٦م. (٢)
(٣) ٦ أعسطس ١٧٣٦م / كتب عنوان جانبي «أعرف هلاك سالم ابن حبيب».

من كلامه ومجدنا الله. وفي دفعة اتوا الى هذا الاب بصبيه شابة بها روح نجس يعذبها فلم نظر الروح القدس قايم يصلي فر هارباً ولم يعود يقر بها. وايضاً كان صبي من ضواحي مصر اعتراه روح نجس وكانوا اهله كلما اردوا حمله الى عند هذا الاب يرميه هذا الروح ويعذبه ولم يمكنهم يدنوا منه وأن الله الكثير الرحمة ألهمهم لورقه بركة مكتوبة بخط يد هذا الاب ان يضعوها عليه فلما وضعوها عليه برئ لوقته. وان اهالي بلدته

بل الله جبر الخواطر، وكان نيلا شحيحا، وحكم فيه أن الغلال امتنع مجينها لقلة المراكب لكون أنهم أرسلوها الى الرسايل وهي مراكب الفقراء، وأما مراكب الأغنياء فأنها صارت تأتي بالغلال وصارت الحنطة بماية الاردب والفول بخمسة وتسعين.

وفي يوم الخميس تاسع عشرين ربيع آخر[1]: عزل الوزير عمر آغا كتخدا الجاوشية وألبسه الصنجقية وكان في كتخدا الجاوشية عشر سنوات.

وفي يوم الاحد ثالث جماد آخر[2]: ألبس باكير باشا قفطان الصنجقية الى على جلبي تابع حسين كتخدا الدمياطي بعد أن حصل له المنع من باب مستحفظان من لبس الصنجقية وأجمع رأيهم أن يسفروه بيرقدار الى مكة ويلبسوه الضلمة فأبي ووقع في عرض على بيك الكبير فألبسها بالرغم عنهم مع تعصبهم على عدم لبسه الصنجقية وقولهم البلاد وهذا المال الذى تحت يده هو اكتساب سيده من بابنا ويعمل صنجق بمال الباب فما أفاد شيئا، وألبسه على بيك قهرا عنهم.

وفي رابع جماد آخر[3]: عزل محمد أوضباشا برمقسيس من أوضباشية البوابة ونفي، وكان السبب في ذلك ان رجلا من جماعة يوسف كتخدا عزبان وكان هذا الرجل شريك عبدالله

(١) ٦ سبتمبر ١٧٣٦م.
(٢) ٩ أكتوبر ١٧٣٦م.
(٣) ١٠ أكتوبر ١٧٣٦م.

تعجبوا ومجدوا الله. وصار كل من اعتراه روح نجس عندهم يضعوا عليه تلك الورقة المكتوبة بخط هذا الاب يبرا لوقته. وفي دفعة رأيت انسان فاعل [بناء] قايم يعمل في البيعة التي في حارة. زويلة على اسم ستنا العدرى وقع من فوق الاسقالة [السقالة] إلى الارض فحمل ميتاً لانه كان حامل حجر ثقيل فلما وقع ونزل عليه ذلك الحجر فرقع اظلاعه وان أصحابه قصدوا أن يتركوه ويهربوا فلم يمكنهم هذا الاب بل قام عليهم وقال لهم أسكتو

كتخدا وكان له عند رجل من فلاحين عبدالله كتخدا القزدغلي غلال فطلبه فأبى أن يعطيه فمسكه وادعى عليه بمجلس الشرع، فثبتت عليه الغلال فأخذ عليه حجة وأخذ جماعة من طرف الشرع وأخذ الرجل صحبته، وتخاصما عليه، وأخذ ماله من الغلال التي اثبتها وأسيب الرجل، فجاء الى مصر، فاشكاه الى عبد الله كتخدا فأمر الكتخدا أوضباشة البوابة بأن يمسكه اينما يجده، فرآه في خان الخليلي فأنزله من على جواده وأخذه ماشيا الى أن سلمه الى عبدالله كتخدا. فلما وصل الخبر الى يوسف كتخدا أرسل جماعة من الكواخى والاوضباشية الى الباب فاسيبوه ثم أن في ثاني يوم أرسل الكواخي والاوضباشية الى بيت سيده عمر كتخدا باش اختيار وحصل غم كبير فأمرعثمان كتخدا بنفيه فنفوه ثم أن يوسف كتخدا أحرب في عزلان عبدالله كتخدا وقال: هذا رجل مأمور ايش له ذنب لابد من عزلان الآمر له فعملوا جمعية في بيت علي بيك وأخذ خاطره عثمان كتخدا الى أن عفي عنه فهذا كان السبب والله أعلم بغيبه.

وفي عاشر جماد آخر[1]: عزلوا اسماعيل أوضباشا باش أو ضباشية العزب وعملوه جربجي وعملوا محمد أوضباشا الدالي باش أو ضباشية عزبان وأبو لطعة يمقه وجابوا عبدالرحمن أوضباشا عملوه ثالثا، ثم أن عثمان بيك، أراد أن يجعل، صالح آغا خزنداره تابع الاعسر وعلى

(١) ١٦ اكتوبر ١٧٣٦م.

ولا تفزعوا لاتظنوا ان الفاعل مات لانه لم يمت بل انا أضمن لكم من مراحم المسيح انه حي. وانه حمله بين أربعة ووضعه امام صورة ستنا السيدة التي في حنية البيعة ثم غطاه بالوزره التي له نحو من تلتة ساعات من السادسه من النهار إلى التاسعه، ثم انه استدعي قليل ماء سخن صلا عليه وغسل اعظاه وكان كلما غسل عظو من اعظا ذلك الفاعل يتحرك العظو لساعته الى ان قام حياً على قدميه فلما نظروا رفقايه الفعلا ذلك تعجبوا

الخزندار تابع محمد بيك بن يوسف بيك الجزار وخزنداره صناجق، فأبى محمد بيك قطامش، وقال: هذا لم يكن ابدا، ثم ان محمد بيك أخبر بأن عثمان بيك عمل الى الباشا ماية كيس على صنجقية الاثنين فما ساعه الا أنه طلع (الى)[1] الوزير وأخبره بأنه أخبر بأن عثمان بيك عمل له ماية كيس فان كان الامر كذلك وتعملهم صناجق فانه يقع بذلك فساد كبير وقتل وتكون أنت السبب في ذلك. فحلف له أن هذا الكلام لم يكن له أصل، وانما هو تقولات وفتن وأن عثمان بيك لما رأى الأمر تعصب شال يده من قضية صالح كاشف وقال له: يا ولدى هذا الأمر تعصب بعدم رضا محمد بيك، فان كان لك نصيب فى لبس الصنجقية فانك تلبسها غصبا عن محمد بيك وعن كل أحد.

ثم أن فى ثامن عشر جماد آخر[2] ورد خط شريف سنة ١١٤٩[3] بعزلان محمد بيك قطامش من الدفتدارية وتوليته أمير الحاج وتولية محمد بيك بن اسماعيل بيك الدفتدارية، ثم أن فى تلك الليلة وقع فى البلد غم من جهة ضرب المحلات بالليل، فحصل ان المناصر [اللصوص] ضربت الازبكية، ونهبت سبعة بيوت من ناحية الدرب الذى يخرج منه الى المغربى ثم باب الوزير، ثم الفوالة وصاروا كل ليلة تضرب الرجال محلا الى أن عزلت الناس.

(١) الاضافة للتوضيح.
(٢) ٢٤ اكتوبر ١٧٣٦م.
(٣) ١٧٣٦ / ١٧٣٧م.

ومجدوا الله. وكم من مرضا وأعلا [جمع عليل] كثير رايت هذا الاب ابراهم [شفاهم] واقامهم ببركة صلاته، منهم من كان يضع وزرته عليه ويذهب الى بين الكيمان ويسأل ستنا السيده فيه ويكشف عنه تلك الوزره فيجده قد تحرك ونهض من نزاع الموت لساعته ومنهم من كان يسأل فيه الملاك الجليل ميخائيل فيقوم لساعته. وهكذا صنيع هذا الاب مع المرضى الذى يمضوا اليه اهلهم ويحضروهم له فى قلايته. وقد اخبرنا عن هذا

ثم انهم ضربوا الصبانة التى وراء رقعة القمح التى بالجامع الازهر وضربوا القسام والدرب المحروق ثم أنهم صاروا يعروا فى طريق مصر وبولاق، ثم ان الغم كثر فهجموا بولاق ليلة الخميس عشرين جماد آخر سنة ١١٤٩(*) فنهبوا اطارفها وأذوا أهلها وقلعوا خلاخيل النساء واساورهن وهن راقدات عند أزواجهن. ثم انهم أرادوا أ يذبحوا زوج امرأة فاكرموه لاجل خاطر زوجته وقالوا له : انت فى حماية زوجتك،وكان دخل عليها الليلة فأصبحت بولاق قافلة ذلك اليوم. ثم أن السيد أحمد جربجى الرشيدى سردار التكية، كتبه أهل بولاق عرضا وأخذه أهل بولاق وتوجهوا به الى الباشا بالبيارق وأخبروا الوزير بأن الخفرا لم يقو من محرم وطريق بولاق سايبه من غير غفر لكون ان مراكبهم سافرت الى الرسالة وحماياتهم بطالة، فاعطاهم الوزير فرمانا بأن ما كان لهم من القوانين القديمة تجرى لهم على حسب القديم فنزلت الغفرا من طرف ابن سالم ابن حبيب. ثم أن أهل القاهرة لما كثر نهب البيوت بالليل صار الطرق يدور بالليل، ثم أن أكابر البلد طلبوا من الوزير فرمانا بأن لم أحد يخرج من بيته قبل السلام [الفجر]، ولا بعد العشاء فاعطاهم فرمانا ثم أنهم أشهروا الندا فى يوم الاحد سابع رجب الفرد[1] بالقاهرة بان لم أحد يخرج من بيته قبل السلام ولا بعد العشاء، وان الاشاير الذين معتادين على زيارة الاوليا الذين يروحون لهم بعد السلام [الفجر] وبعد العشاء لا يشيلون المناور الكبار ولا ينزلون من زاوية الولى الذين يرحون اليه الا بعد السلام.

(*) ٣١ اكتوبر ١٧٣٦م. (١) ١١ نوفمبر ١٧٣٦م.

الاب انسان يسما فخر الدولة قال: بالحقيقة اقول لكم يا أخوتي انه لما ادركني نزاع الموت ومت ولم اجد هذا الاب يحضرني عند موتي ولم أشعر حتى ابصرته في مقام الخوف والدينونه عندما اختطفوا الملائكة روحي وأقاموني امام كرسي السيد المسيح وابصرت السيد المسيح له المجد وهو يشير إلى الملائكه الموكلين بي ان يشهروا كتاب خطاياي وانا كل خطية انساها ولا أعترف بها يبكتوني عليها بغير رحمه وابصرت هناك خوف وفزع شديد ونار

فسألت عن السبب في عدم شيل المنور الكبير، فقال لي المسئول: ان سبب ذلك ان المفاسيد الذين يكونون صحبة الاشاير يضعون السلاح داخل المنور الكبير فاذا قابلهم أحد من الحكام لم ير معهم سلاحا ويكون السلاح داخل المنور وقد أخرج خليل الوالي من بعض المناور[1] سيفين وطبنجة وكان السبب في ذلك أن البلد مخوفة من المناصر بالليل ونهب الحارات، ومن جملة نهب أربعة بيوت في ليلة المناداة في الدرب التي تجاه السادات.

ثم أن في ثاني يوم الذي هو يوم الثلاث تاسع رجب[2]، لم يعمل الباشا ديوانا فتخوف العسكر وامتلت الأبواب بالعسكر وحرسوا أنفسهم، ثم ان العسكر نزلت الى بيوتهم الى يوم الخميس حادى عشر رجب الفرد. وطلبوا من الباشا فرمانا بجمعية اما في بيت محمد بيك قطامش أمير الحاج أو في بيت محمد بيك الدفتدار بن اسماعيل بيك. فجاء الفرمان الى باب مستحفظان فقال الجماعة: نجتمع في بيت أمير الحاج فقال عثمان كتخدا: بيت الدفتدار اقرب. ثم أنهم نزلوا الى منازلهم الى أن كان يوم الخميس حادى عشر رجب بعد العصر ركبت الاختيارية والصناجق جميعا الا علي كتخدا الجلفي، فانه لم يركب ولا أحمد كتخدا عزبان كتخدا الوقت، ولا عبدالله كتخدا القزدغلي مستحفظان فأخذوه وتوجهوا الى بيت محمد بيك الدفتدار فراوا محمد بيك هناك وعلي بيك وصالح بيك أتباعه ويوسف كتخدا عزبان

(١) بالاصل «المنار».

(٢) ١٣ نوفمبر ١٧٣٦م.

لا تطفا حتى انه لعظم ما ابصرت سقطت لوقتي مرعوبا وكنت اطلب من يقيمني فلم اجد وانني ابصرت هذا الاب قد أقامني وسأل السيد المسيح ان يعيد روحي على حتى اتوب عن خطاياى التي صنعتها دفعة اخرى وان السيد المسيح [سمع] لهذا الاب ولم يرد سواله وقال له قد سمعت لك في ذلك الانسان ووهبته لك فعرفه منذ الان لا يعود يخطي لئلا يصيبه شرا وهذا لما قاله السيد المسيح لهذا الاب وانا [لا] أشعر حتى انتبهت

وخليل أفندى تابع أحمد بيك المسلمانى باش أختيار الجراكسة واغاة الجملية، والجراكسة، وأغاة المتفرقة، والتفكجيه، وكتخدا الجاوشية وعلى جلبى الترجمان ومحمد بيك أبن درويش ورضوان بيك وعثمان بيك، ومن كل بلك اختيارين وثلاثة، وعمر جاويش الزللى وسليمان جاويش الملط وجم غفير، ثم أنهم بعد القهوة تكلموا فيما اجتمعوا فيه بسببه فما تم الامر الاقبل المغرب بعشرة درجات. ثم أن محمد بيك الدفتدار طلب الشربات وخلع كركه ليزيل ضرورة، فما خرج من باب الخزنة التى هم فيها واذا بستين سيفا مسلولة داخلة عليهم بايدى رجال من غير عمايم وهم بالطرابيش الكشف ومتلفعين بالشالات فوقعوا فيهم ضربا فاول لطش وقع فى قطامش ففز قايما وجرد تنشة كانت تحت شماله فضرب بها الضارب له فارمى يمينه واذا به سليمان بيك الفراش والثانى ضرب صالح بيك تابع قطامش واذا به صالح كاشف الذى تقدم ذكره فى طلب الصنجقية وأبوا أن يلبسوه الذى كان متزوجا بأخت اسماعيل بن ايواظ وثالث لطش وقع فى على بيك تابع قطامش.

وكان اللاطش له مملوكه يوسف الجوخدار أحد اتباعه فأخذ جبينه ووجهه، ورابع لطش وقع فى يوسف كتخدا عزبان فوقع على عمر كتخدا البرلى، وخامس لطش وقع فى أحمد كتخدا الخربطلى فانجرح البرلى جرحين بسبب وقوع يوسف كتخدا عليه، والسادس لطش وقع فى خليل جربجى باش أختيار الجراكسة.

وقفت بما انا فيه فوجدت روحى عادت الى فمجدت الله وتحققت الصلاة القوية التى لهذا الاب الذى كان يفعل فى المرضى مثلى هكذا يقيمهم المسيح بصلاته حتى يعودوا الى التوبه من خطاياهم. والذى يستوجبوا حكم الموت يخدمهم على سرير وجعهم الى ان يتنيحوا ويسأل المسيح فى غفران خطاياهم لانه ما كان عنده فى الفضائل جميعها افضل ولا أبر من خدمة المرضى اذ كان كل مريض يمرض وتأنف الناس منه كان هذا

فلما رأى عثمان بيك هذا الأمر: فر هاربا وأخذ عثمان كتخدا من يمينه فحال بينه وبين عثمان كتخدا يوسف كاشف الجيزة فضربه فوقع، فنزلوا عليه فأخذ صالح كاشف عثمان بيك وأنزله قدامه فلم يلتق جواده فركب جواد عثمان كتخدا وأخرجه برا الباب ورجع فرأى كتخدا الجاوشية قد قتل وآغاة الجملية عبدالرحمن آغا آغة الجملية وعلى جربجى وصالح الجملى وعلى الترجمان قد خرج وهرب الى الحريم بعد العشاء وارمى نفسه فى البركة وهرب وتم الأمر[1] وهرب حسين أفندى كاتب التفجكية وهرب الملط والزللى وخليل جاويش ولم يصب أحد غير هؤلاء الاحد عشر نفسا ثم أن محمد بيك أمر بتقطيع رءوسهم وارمى جثتهم تحت قلعه الكبش.

ثم أنهم ركبوا وتوجهوا إلى السلطان حسن، وكان مولد الرفاعى، فلما رآهم الحراجية قفلوا باب الجامع. فلما رأوا باب الجامع قفل كسروا دكاكين التجار الذين يبيعون البندق والحوايج والبصطرمة والشمع وأخذوا جميع الخشب وجعلوه على باب المسجد وارموا شمع الدهن فوق الخشب وطلقوا فيه النار وحرقوا الباب وملكوا السلطان حسن وقتلوا من كان فيه وأتوا بالرءوس وجعلوها فوق المصطبة[2] ووضعوا أولا رأس قطامش وجنبها رأس على بيك وتحتها

(١) كرر التعبير بالاصل.

(٢) كتب عنوان جانبى «اعرف من مات فى هذه الخيانة».

الاب يبدل نفسه دونه الى ان ينقا من جميع
اوساخه واوجاعه. وفي دفعة رأيت هذا الاب عبر
على باب منزل لانسان من الاغنيا فوجد بذلك
الباب عبداً لهم ملقى مريض قد جاف ونتن من
كثر أوساخه ولا وجد من يعالجه فلما نظره هذا
الاب هكذا لم يلتفت للعبور الى اولئك الاغنيا بل
سارع للوقت واشتد بمنديل وغسل اوساخه
وفراشه وثيابه الوسخين الملوثين من قذر ونتن
رايحته. وان نفس ذلك العبد ارتاحت واراد الموت

صالح بيك وتحتها عثمان كتخدا الجاوشية وبعدها يوسف كتخدا وبعدها الخربطلي وبعدها خليل أفندى وبعدها كتخدا الجاوشية وبعدها آغاة المتفرقة وآغة الجملية وعلى جربجي صالح، ومات نحو ثلاثين نفسا من الاتباع. والبس الباشا الى صالح كاشف قفطان الصنجقية بالليل وفرقت المناصب فى السلطان حسن والذين ملكوا السلطان حسن رضوان بيك. ومحمد بيك. الدفتدار. وصالح كاشف. وعثمان كاشف الجيزة. فدريت الناس جميعا.

ثم أن فى ثانى يوم الذى هو يوم الجمعة ثانى عشر رجب سنة ١١٤٩[(١)] أرسلوا أحضروا التوابيت وشالوا جثتهم، أما عثمان كتخدا دفنوه فى التربة التى[(*)] فى ظهر بيته التى بها أمير شاهين الوزير، فمكث بها خمسة أيام ثم تبين أنها جثة يوسف كتخدا عزبان وكان قد دفنوه فى القرافة فازحوا له ففتحوا عليه وأخذوه ودفنوه عند سيده حسن كتخدا القزدغلى ورجعوا ليأخذوا يوسف كتخدا يودوه القرافة فما أمكنهم لأنهم راوه قد انفتح وتمزق ثم أنهم أبقوه الى أن ينفش، وأما الجماعة جميعا دفنوا فى القرافة الا أحمد كتخدا الخربطلى فانه دفن فى الجامع الذى فى الباطلية التى يقال لها السودانية، واماالرءوس فانهم سلخوها وأرسلوا القرع الى جثتهم، ثم أنهم صاروا يكتبوا تذاكر ويرسلوها الى بعض الاختيارية واوضباشية ونفر من

(١) ١٦ نوفمبر ١٧٣٦م.

(*) بالاصل «الذى».

بحضرة هذا الاب ولا نتن تلك الرائحة التى كان يستنشقها في كل يوم. وفي دفعه عبر على بير معين مالحه ووجد بها امرأة مقتولة قد جافت ونتنت ولم يدنوا منها احداً من الناس ولا يعترف بها وانه نزل الى تلك البير واصعد تلك الامرأة ولم يأنف منها بل بيده الطاهرة غسلها وكفنها ودفنها. والذين كان بهم الامراض الزمنه [المزمنة] والعاهات كان يعالجهم منها. [ومنها] انهم قدموا اليه صبية بكر مصابه بقروح في عينيها فلما نظرها

العزب والانكشارية وغيرهما من الاوجاقات وولوا آغا، ووالى وارسلوا احضروا على بيك الدمياطى من بيته، لأنه قريب منه، ولا تسعه المخالفة في ذلك الوقت.

ثم أن ثانى يوم أرسلوا الى عثمان بيك تذكره بالامان وأنه يأتى إلى السلطان حسن فاخذ التذكرة، وكان عنده على كتخدا الجلفى فأخذه وطلع هو وأياه الى المحجر وحلف لهم أنه لم يكن عنده خبر، وصارت الناس تطلع الى البابين ولكن باب العزب مقفول ورواحهم من باب مستحفظان. ثم أنهم أنزلوا آغاة مستحفظان نادى في البلد بالامان وأخذوا عمر جلبى ابن على بيك وأطلعوه الى الباشا فألبسوه صنجقية والده وألبس خليل مملوك محمد بيك الصنجقية.

والبس عمر مملوك قيطاز بيك الصنجقية وألبس خليل مملوك الكور الذى كان سابقا والى وعمل آغاة الجراكسة الصنجقية، والبس قاسم المكاوى تابع قطامش الولاية، وألبس اسماعيل آغا كتخدا الجاوشية وعثمان آغا استاذ سمنود آغاوية المتفرقة، واسماعيل كاشف تابع ناصف كتخدا أغاوية الجملية وابراهيم تابع قطامش امارة الحاج، وعملوا عمر بيك قايم مقام، فأبى أن يعمل قايم مقام، والبسوا ابن درويش بيك الدفتدارية. ثم أن الرعية نهبت بيت صالح بيك وبيت محمد بيك الدفتدار الذى عمره ما أصابه غم ولا ضيم ولكن لعب به الشيطان وأغواه، وبيت سليمان بيك الفراش نهب وارسلوا سليمان بيك وزوج ابنت محمد بيك ابراهيم كاشف الى الباشا فاستنطقهم ثم ارمى أعناقهم.

تحن عليها وقال لأمها منذ الان لا تعودى تعالجى ابنتك بالاكحال بل أشار اليها ان تعمل فى عينيها شئ من الادوية الحقيرة وانها بريت ابنتها. وكذلك كما فعل ابونا برسوما العريان وغيره يـــداوا الامراض الصعبة بضدها من الأدويه ليعلم ان الامر من الله والاعتماد فيه على الصلاة القويه التى للقديسين الأبرار كما قال يعقوب الرسول: ان الصلاة بايمان تخلص المريض والرب يقيمه وان كان عمل خطية يغفر له. ومنها انهم قدموا امرأة

وكان السبب فى ذلك: أن صالح كاشف لما طلب الصنجقية وامتنع قطامش وعلى بيك فدخل فى عرض الدفتدار ورضوان أمير الحاج فكلموا قطامش فأبى لأجل الامر النافذ فكلموا على بيك فأبى كذلك، ثم أن الامرترك فجاءت امارة الحاج الى قطامش وعزل رضوان وتولى محمد بيك الدفتدار ، فلعب رضوان بمحمد بيك بطايفة وكذلك طايفة الفراش وصالح كاشف بجماعة قاسمية من طرفه مفهم عثمان كاشف الجيزة من الشواربية وصاروا يدبروا فى أمرهم الى أن نزل الفرمان بالجمعية فى بيته فى صبيحة يوم الخميس فابقاه الى العصر ثم أرسل التذاكر قبل وصار كل من أتته تذكرة يركب، الا جملة أفراد من جملتهم على كتخدا الجلفى وعبدالله كتخدا مستحفظان وأحمد كتخدا عزبان لم يكونوا فى الجمعية وكان الذين حضروا للجمعية أعمارهم على أعمار بعضهم البعض الى أن تم هذا الأمر الذى لم يظفر به السلطان محمود بن مصطفى خان ولو ركب على مصر بماية كرة ولو انفق ثلاثين خزينة ولكن قضا قضاء الله من الازل.

ثم أن فى يوم السبت: نزل الاغا ونادى فى القاهرة بالامان وان كل العسكرية تروح الى أوجاقها وكل من راح الى السلطان حسن يرمى عنقه فصارت العسكر تطلع الى أبوابها، ثم أن محمد كتخدا الداودى كان فى منية عقبة فجاء ليلة الجمعة بعد المغرب ثم أنه نزل فى بيته، فتوجه اليه عبدالرحمن جاويش بن سيدى عثمان كتخدا مع ثلاثة من الاختيارية

مقعدة قد يبست اصابع يديها ورجليها وانه امسكها بقوة ليفتح اصابع يديها فانشحط مع ذلك اقفال اصابع رجليها فنهضت للوقت بسرعة قايمه تمشي وان الحاضرين تعجبوا ومجدوا الله. وفي دفعة قدموا اليه انسان ملسوع بحية جرده وهو في ألم قوى وانه أخذ جرو وشق بطنه ووضع فيه رجل ذلك الملسوع ثم استدعى قليل لبن وشحم حنظل واشار له ان يستعمله وانه بقى يستعمل منه قليل قليل ويتقاياه الى ان قذف ذلك

الاوجاق، فسلم عليه وطلب يطلع الى الباب، فقال له: انا كان لى أخ عدمته ولا آمن على نفسي أن اطلع الى الباب ما لم يظهر لى أمر. فقال له: قم الى البيت أحسن من قعادك هنا [قال له:] لك ذلك فى هذا الوقت أروح، توجه أنت الى الباب. فتوجه الى الباب ثم أن محمد كتخدا ركب من وقته الى السلطان حسن وقعد فيه وكذلك سليمان كتخدا الجلفى سار الى السلطان حسن من غير أن يرسلوا لهم فلما حصلوا وصار كل من عنده ضغينة فى قلبه يذهب الى السلطان حسن.

فلما حصلت المناداة يوم السبت: صبروا الى بعد العشاء واركبوا الاغا والوالى وحسن جاويش النجدلى وباش أوضباشية ونحو الثلاثماية من الرجال وأرسلوهم من ناحية المظفر، وأمروا الذين فى الباب بأنهم يرموا المدافع التى فى البرج الذى بناه يوسف كتخدا فصاروا يرمون كذلك من الباب، والضرب عليهم من المظفر فما ساعهم الا الهروب بعد ثمان ساعات من الليل ثم انهم ملكوا السلطان حسن فهرب جميع من كان فيه ونهبوا جميع ما كان فرشه الصناجق من الأحرمة والأحزمة الحرير والكشايات والسجاجيد والنحاس والبندق والسيوف ولم يلقوا فيه الا رجلا أسباهيا قتلوه والذين(*) ملك السلطان حسن كانوا انكشارية.

وفى ثاني يوم: اسلموه الى العزب وهرب رضوان بيك ومحمد بيك الدفتدار وصالح

(*) بالاصل «الذى».

السم جميعه وقام معافاً لساعته. والذين كانوا يقعوا في الشدايد كان يسأل المسيح في خلاصهم يخلصوا. وفي دفعة وقع شاب من اولاد الوزراء في شدة قويه مع الملك برقوق بمصر وان هذا الاب لعظم الشدة كان يستغيث للشهيد العظيم تاوضوروس في خلاصه قائلا: انا اعلم ياشهيد الله انك لعظم شجاعه خلصت اولاد الارملة من فم ذلك التنين القاتل، وانا اربطك بالسلطان الذى اعطا لي من ربنا يسوع المسيح ولا احلك من

كاشف وعثمان كاشف الجيزة، وأما محمد كتخدا فانه دخل بيت ابراهيم بيك بولفية ووقع في عرضه وسليمان كتخدا الجلفي وقع في عرض أخيه على كتخدا الجلفي وهرب صحبة رضوان بيك وصالح وعثمان كاشف ثمانون رجلا من أتباعهم وأتباع المقتولين الى نحو الصعيد وقابلهم الفارون وكان اسماعيل آغا المحتسب تابع عبدالله الوالي كاشفا في شرق اطفيح من طرف عثمان كتخدا فترفع عنهم الى الجبل وسافر الى مصر فرأى منهم ثلاثة أنفار قد أنقطعوا فأخذهم وأتى بهم الى عبد الرحمن جاويش فأرسلهم عثمان بيك وكان قد ألبسه باكير باشا كركا وقفطانا وجعله شيخ البلد باتفاق الجميع فأرمى رقاب الثلاثة.

وأما محمد كتخدا. فأنهم أخذوا منه ثمانين كيسا وسليمان كتخدا الجلفي أخذوا منه ثلاثين كيسا بشرط سفرهما الى الحجاز وأرسل الوزير فرمانا الى السويس بعدم سفر المراكب الباقية، وأنها لا تسافر الا صحبة محمد كتخدا وسليمان كتخدا عزبان ثم أن محمد (كتخدا)(*) أراد أن يتوجه الى منزله واعلم باب مستحفظان، فأبوا وقالوا: لا يخرج من بيتك الا الى السويس. فأخبرهم بغرض له في البيت فأرسلوه صحبة ابراهيم بيك وابراهيم جاويش وسليمان الجوخدار تابع سليمان كتخدا فأخذوه وتوجهوا به الى بيته فقضى غرضه ورجع الى بيت ابرهيم بيك وهم صحبته.

(*) الاضافة للتوضيح.

الرباط الا أن تسرع وتخلص ذلك الانسان من الشدة الذى هو فيها، وانه لم يستتم الكلام من فم هذا الاب الى ان تخلص ذلك الانسان من تلك الشدة وصار متعجب لا يعلم كيف كان خلاصه فازداد تعجبه من الكرامة والوقار الذى يكرموه بها القديسين والشهدا. وانه كان يفعل ذلك مع كثير من الشهدا والقديسين وذلك انه اذا عدمت أنية بيعه من بيعهم يربطه بصلاة ولا يحله حتى يظهر له من سرق أواني البيعة. ودفعه ربط صورة القديس

ثم أن عبد الرحمن جاويش: أبى أن يجلس في بيت عثمان كتخدا فأجلسوا فيه مملوكه سليمان جاويش الجوخدار مكان سيده. وكذلك احمد جاويش الخربطلى أبو أن يجعلوا أحمد جاويش متصرفا في بيت خاله وأقاموا كلهم على أوضباشا.

ثم ان عبدالله كتخدا مستحفظان القزدغلى كتخدا الوقت، وأحمد باش جاويش ابن اخت الخربطلى، واختيارية الوجاق وركبوا من الباب ونزلوا الى بيت عثمان كتخدا وأجلسوا عبد الرحمن جاويش محل عثمان كتخدا وجعلوا سليمان كاشف كتخدا كما كان كتخدا عمه، ثم أنهم ركبوا الى بيت الخربطلى وأجلسوا أحمد جاويش ابن أخته محل خاله وكان ذلك يوم الاثنين خامس رجب سنة ١١٤٩[١]. وصار الاغا والوالى يشقوا البلد ويمسكوا الهاربين. فمن جملة ما مسك الوالى، ابراهيم جلبى ابن أحمد بيك الاعسر[٢] وهو متميز يزمجرة ويزار، فأخذه الوالى بهيئته الى بيت عثمان فارسله الى الباشا بقيافته فارسله الباشا حبسه في قلة مستحفظان الى أن مليت القلة من المحابيس.

وفي يوم الاثنين ثاني عشرين[٣]: سافر محمد كتخدا الداودلى الى السويس وصحبته عسكر صحبة سليمان جاويش الجوخدار سراج الاغا يوصل الى السويس الى أن ينزل في

---

(١) ٩ نوفمبر ١٧٣٦م.
(٢) كتب عنوان جانبى «اعرف مسك ابراهيم جلبى بن أحمد بيك الاعسر وحبسه الخ».
(٣) ٢٦ نوفمبر ١٧٣٦م.

ابو شنوده بمصر ولم يحله حتى ارسل له من عرفه بالذى سرق أوانى بيعته. وكان [السارق] له عادة يسرق اوانى البيع فلما هجم هذا الاب بيته وانه قام عليه وانتهره وقال له كم لى من مدة وانا احتملك وانهيك ان لا ترجع وتسرق اوانى البيع وانت لا ترجع ولا تكف ولكن من الان سيأتى عليك الانتقام القوى الذى لا يكون لك بعده حياة على الارض بل تموت اشر موته. وبعد كلامه له هكذا لم يمكث هذا الانسان قليلا حتى وقع فى

مركب الجزايرلى نفيا، وركب فى مركب أحمد الطوقطلى وانكسر صاريها وطلع على الطور وسافر الى مكة على البر من الطور(١).

وفى يوم الخميس خامس عشرينه:(٢) سافر سليمان كتخدا الجلفى كذلك الى السويس ويكون صحبة محمد كتخدا، وكذلك صحبته جاويش من بابه. وقد نظم شيخنا الشيخ حسين المحلى الشافعى لموت الجماعة تاريخا هو هذا:

لا تعجبن لمن غلب	وصار فى أغلى الرتب
وبعد ذا قد صار من	تحت الثرى بلا سبب
سلم لربك فعله	وكن على نهج الادب
فالله يقضى أمره	فى خلقه مما أحب
انظر الى حكامها	ترى لهم أمرا عجب
كانوا باهنى عيشة	فى لحظة ذاقوا الكرب
نادى المنون مؤرخا	أخلوا ديارا فى رجب

سنة ١١٤٩(٣)

(١) كتب بالهامش «وقال صاحب المدخل، هو الشيخ الامام محيى الدين بن العربى قوله: لا تزال مصر بادعة، ولا تقال الامور موادعة، ومع حكامها مخادعة، حتى يقابل المريخ كيوان فى أخر درجة من الميزان الخ كلامه. فهمت ، واذ فهمت فاغنم».

(٢) ٢٩ نوفمبر ١٧٣٦م.

(٣) ١٧٣٦م / ١٧٣٧م.

يدى متولي الحكم بالقاهرة بأواني ذهب وفضه عدموا من بيته، ولما تحقق انه تجاسر وسرق انيته سمره لساعته وتم عليه قول هذا الاب ومات اشر موته. وفي دفعة تكلم احد الامراء مع الملك [برقوق] والقضاة ان لا يبقوا نصراني على الارض، فقام هذا الاب على صورة الشهيد مارى جرجس من اجله وقال له: إلى كم يا شهيد الله يا مارى جرجس أسألك الانتقام من ذلك الامير وانت لم تنتقم منه ولكن هو ذا اربطك بالكلمة ولا احلك

وأن هذا الذى وقع لهم كان تعجز عنه ملوك الأرض ولم يلغو منهم أربا وأنهم كانوا اصحاب أموال جميعا وجاها وكانوا هؤلاء أسياد مصر وحكامها وأعيانها وكان أكثرهم مالا عثمان كتخدا، واكرمهم يوسف كتخدا، وانفذهم كلمة على بيك، وصاحب رأيهم وتدبيرهم محمد قطامش، وأصلحهم عبدالرحمن آغا اغاة الجملية تابع رضوان آغا، واشجعهم صالح بيك، وأحلمهم الخربطلي وأغضبهم خليل أفندى الجركسي. وأما مصطفى آغا كتخدا الجاوشية وعلى جربجى صالح الجملى فان هؤلاء كانوا من الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا لا بأيديهم حل ولا ربط فرحم الله الجميع بفضله.

فأما عثمان كتخدا: فان له من المآثر الحميدة مسجده والسبيل والكتاب الذين أنشاهم بالأزبكية وقصره الذى بجزيرة الخيوطية الذى لم يتمه وأما أحمد كتخدا، فمن مآثره مسجد الفاكهاني الذى غير معاليمه وبناه ولم يتم بناء فسقيته، أما يوسف كتخدا فمن مآثره قصره الذى بقبة العزب وأما خليل أفندى، فمن مآثره بستانه الذى بجوار الشيخ فرج ببولاق وترميم قصر البكرى فرحم الله الجميع.

وفي يوم الثلاث ثالث عشرين رجب[1]: البسوا حسين أوضباشا الشريف تابع على كتخدا ميسوا الضلمة وأنه قريب باكير باشا وأخوه من الرضاع، وانه أورد عليه الفى زنجرلى لبس

(١) ٢٧ نوفمبر ١٧٣٦م.

حتى تسرع وتنتقم لى منه. ولم يستتم الكلام من فمه حتى قدموا لذلك الامير فى ذلك اليوم كأس مملوء سم قاتل شربه وهو لا يعلم مات لساعته. وفى دفعة اشتد غضب هذا الاب على امير آخر من أمراء مصر يسما اوزبك فاقام ستة ايام وستة ليالى يسأل رئيس الملائكة الطاهر ميخائيل فى هلاكه فلما انتهى اليوم السادس ولم يسمع لذلك الامير خبر حينئذا ارسل احد تلاميذه يستعلم عن خبر ذلك الامير فوجد تابوت ذلك الامير على

الضلمة وأعطاه عشرة أكياس فايضا فى كل سنة، وكان مراده تلبيس الضلمة سابقا، فأبى عثمان كتخدا وقال: اشراقات الوزير لانلبسهم الضلمة، فلما حصل لهم ماحصل وطلب تلبيسه فألبسوه.

ومن أعجب ما وقع ان فى يوم الجمعة سابع عشرين رجب تسيبت طبنجة من رجل سراج فى سوق السلاح وكان عمر بيك بن على بيك نازلا من تربة أبيه فجاءت الرصاصة قدام جواده فحصل لهم فزع وهاجت الناس فاسيبوا فى السلطان حسن نحو العشرين بندقية فهربت الناس من السوق ووقع النهب فلم تزل الكسرة الى باب العزب وقفلت الدكاكين والأسواق جميعاً إلى أن وصلت بولاق ومصر القديمة وكان يوما مهولا فمسكوا السراج وأطلعوه الى باب مستحفظان فضربوه خمسماية ونفوه مع أن الطبنجة تسيبت من غير مراده. ثم ان الاغا نزل الى القاهرة ونادى بالأمان وان سوق السلاح يطل عشرة أيام من يوم السبت ثامن عشرين رجب ويفتح فى يوم الثلاث تاسع من شعبان ثم انهم بدوا فى هدم المسطبة التى بباب المسجد وبنوا بابه الحجر وجعلوا محله دكاكين.

ثم أن أبراهيم بيك بولفية واسماعيل آغا آغاة الجملية: وصحبتهم خمسماية رجل سافروا الى البهنسة تجريدة الى رضوان بيك[1] وصالح كاشف واسماعيل كاشف كتخدا أحمد

(١) كتب باعلى هامش الصفحة «اللهم صلى على الحبيب الكامل».

الباب والناس يستغيثوا قائلاً ان هذا الامير له ستة أيام معذب من طعنة جنبه واليوم هذا مات. فلما سمع التلميذ كلامهم اعاد الخبر على هذا الاب فتعجب ومجد الله ورئيس الملائكة ميخائيل الذى سمع دعاه ولم يخيب سواله فى ذلك الامير الظالم. وفى دفعة وافا الى هذا الاب شماس مضروب وقال له يا كاهن الله ارحمنى فان بعد [بعض] الاجناد عبر على اليوم راكب فرس ابيض وعاقبنى عقاب كثير مؤلم لأكلى يوم الأربعاء

كاشف الاعرج وعثمان كاشف الجيزة فى يوم الأربع ورجعوا ثامن عشرين شعبان ولم يصدفوا أحدا من الفارين.

وفى ثامن عشرين شعبان سنة ١١٤٩ (فتح)[١]: للمسجد بابا من الدكاكين التى بالرميلة مقاصدا لباب العزب عند المدشات.

وفى يوم الخميس عاشر[٢] شعبان: البسوا عثمان تابع حسن بيك أباظة آغاوية مستحفظان.

وفى يوم الجمعة حادى عشرة[٣]: نقلوا يوسف كتخدا عزبان من التربة التى بجوار منزل عثمان كتخدا التى بها الاغا شاهين الى القرافة.

وفى يوم الثلاث تاسع عشرين شعبان[٤]: عزلوا باكير باشا وكانت ليلة الروية ولم يركب ليلتها محمد آغا المحتسب ركبته المعتادة وانما ركب وحده من غير بيرشان بعمامته المعتادة من غير وقده وريس الباب قدامه ينادى من رمضان من غير مشاعل سوى ثمانية مشاعل وأما الباشا فانهم أسكنوه فى منزل أحمد آغا الوكيل بالحبانية.

وسبب عزلانه: انهم فطنوا بأن الذى حصل فى مصر بعلمه واطلاعه وأنهم أقاموا محمد

---

(١) ١ يناير ١٧٣٧م / والاضافة للتوضيح.
(٢) ١٤ ديسمبر ١٧٣٦م. (٣) ١٥ ديسمبر ١٧٣٦م.
(٤) ٢٢ يناير ١٧٣٧م.

والجمعة من بكره لأني كنت أكل في خفيه ولا اعرف من هو الذى اخبر ذلك الجندى عنى حتى جاء إلي وضربني وكلما كان ضربني يقول لي كيف تكون يا هذا شماس ونصراني وتأكل يوم الاربعاء والجمعة من بكره ثم من بعد ما كلمنى بهذا تركني وهو يتواعدني لانى لا اعود لما كنت عليه وانا خايف من ذلك الجندى لا اعلم من هو. فقال له : لا تخاف يا ابني فان الجندى الذى

بيك بن درويش بيك قايم مقام محله، ثم ان قايم مقام ألبس الصنجقية الى حسن قايم مقام بنتف تابع عثمان بيك في يوم الأحد تاسع عشرين رمضان.

وفي يوم احدى وعشرين رمضان البس اسماعيل تابع ابراهيم آغا قبي الضاشي رضوان المنسوب الى عثمان بيك الصنجقية، وفي يومها انزلوا المواجب وذلك بهمة عثمان بيك وانه اصرف الجوامك ديوانى من غرة ربيع أول سنة ١١٤٩ وكل ذلك بهمة عثمان بيك والتفاته الى أهل مصر وفقرايها بعين الشفقة والرحمة والرافة وصار أهل البلد يدعون له بطول العمر.

وفي ثالث عشرين[١] : البس الصنجقية الى محمد قايم مقام، كفر كله، تابع على بيك الكبير وخزنداره والى حسن تابع ابراهيم بيك أمير الحاج اشراق محمد بيك قطامش.

وفي ثالث عشرين رمضان[٢] : سافر العرض الى الديار الرومية من طريق البحر صحبة من الوجاقات السبعة وصحبتهم الشريف أحمد البسيوني الشافعي وعليه خطوط العلماء وأصحاب السجاجيد والنقيب وأكابر الدولة بأن ما كان سبب هلاك امراء مصر في بيت محمد بيك الدفتدار الا بمعرفة باكير باشا واطلاعه بشهادة سليمان أفندى كاتب يد محمد بيك الدفتدار وقوله الى الوزير : الست أنت الذى قلت لسيدى والى رضوان بيك أمير الحاج؟ ان الجماعة يأمنوا طرفك فاعمل الجمعية في بيتك وأقتلهم وان لم تفعلوا والا قتلتكم، ثم أن سيدى امتنع

(١) ٢٧ ديسمبر ١٧٣٦م. (٢) ٢٥ يناير ١٧٣٧م.

ضربك انا اعرفه ولكن اذا مضيت بك تتوب امامه فقال له ذلك الشماس نعم يا أبي. وانه مسكه بيده واوقفه قدام صورة رئيس الملائكة ميخائيل وكانت تلك الصورة التى للملاك مصور فيها راكب على حصان ابيض فلما تأملها ذلك الشماس خر ساجداً امامها وقال بالحقيقة ان هذا هو ذاك الجندى الذى ضربني وانا منذ الان تايب امامه لاني شماس على بيعته وقد انساني اللهو فلم اذكر اني شماس على بيعته حتى افتكرني هو وضربني ان اترك ما انا فيه

فأرسلت له أول تذكرة وثاني تذكرة فيها أنه جاء في حقهم خط شريف وشافه الوزير وان الانكشارية كانوا متوقفين في عدم عزلانه. فلما جاوبه سليمان أفندى بما ذكر أنزلوه من يومه الذى هو يوم الثلاث سلخ شعبان سنة ١١٤٩[١].

ومن أعجب ما وقع: ان حصل فى خامس عشرين رمضان[٢]. برد ثلاثة أيام فكادت الناس أن تهلك الى أن خيم فوق نيل مصر ثلج سمك القزاز، وجاءوا به الى القاهرة صحبة السقايين لما توجهوا يملوا الماء، وكان في ذلك حكمة لله تعالى ولطف لمن قد جاء من طريق العقبة جراد لا يكاد يوسف فأهلكه الله بهذا البرد الى أن سد طريق الدار الحمرا وحكت السفار من العرب أنه صار في الأرض سمكه علو[*] ذراع الى أن وجد فى بركة الحاج وطريق السويس شئ مبالغة وكان هذا من جملة الطاف الله تعالى بأهل القاهرة والله أعلم بغيبه.

ومن غرايب الاتفاقات: ان فتنة مصر كانت في حادى عشر رجب[٣]، وفتنة جدة في خامس عشر رجب ومات بها سبعة عشر نفرا ونهبت وكالة اقاش وبعض اماكن، وفتنة الشام

(١) ٢ يناير ١٧٣٧م.
(٢) بالأصل «ان وقع» حذفت ليستقيم المعنى والاسلوب. / ٢٧ يناير ١٧٣٧م.
(*) بالأصل «طول» وكتب بالهامش كلمة «علو» لتحل محلها.
(٣) ١٥ نوفمبر ١٧٣٦م.

من اللهو واقوم بما يجب على من خدمته. وانه تاب من ذلك اليوم وهو متعجب من صلاة ذلك الاب ووجوده مع الناس على الارض وهو يشاهد المكتومات الخفية. وفى دفعة رأيت اخرين من اعيان الناس ووقع عليهم شدة قوية بالقاهرة ولما راموا الهرب الى عند هذا الاب بمصر لم ينهضوا وحينئذا ادركهم الليل ناموا، وفى تلك الساعة أبصر احدهم هذا الاب وهو قايم قدام صورة الشهيد مارى جرجس يسأل فى خلاصهم ويقرع

فى سابع عشر رجب [1]. بين عسكر الشام والتركمان ومات بها نحو المايتين وكان سببها الأمراء، وسبب فتنة جدة فردة دخان وهذا من غرايب الاتفاقات والله أعلم.

وفى يوم الجمعة ثامن شوال[2]: بعد صلاة الجمعة مسكوا محمد بيك الدفتدار من بيت أخته الذى بجوار منزل أيوب بيك بقناطر السباع والسبب فى ذلك أن داية ابنته دخلت لهم على حين غفلة فرأته جالسا بين أخته وبنته وزوجته فلم يكترثوا بها لكون أنها دايتهم، فما مكثت الاقليلا وتهيأت الى الخروج فحاشوها فما أمكن أن تقعد فخرجت فى الحال الى بيت عمر بيك بن على بيك فأخبرته بما رأت فحاشها عنده وأرسل الى ابراهيم بيك أمير الحاج فأخبره فأرسل أمير الحاج الى آغاة مستحفظان، فلما أتاه أخبره بما قال عمر بيك وأمره بالتوجه الى منزلهم وأمره أن لا يدخل أحدا غيره وأنه لا يضر منزل أخته بشئ. فتوجه الأغا، فما شعر أهل المنزل الا والأغا عندهم فى الحريم فرآه جالسا عندهم فأخذه ونزل وأجلس بعض جماعته يحرسون البيت من النهب وساروا به الى منزل أمير الحاج راكبا على حمار وجماعته محتاطون به فلما رآه أمر الأغا بأن يوديه الى عمر بيك. وكان عنده حسن جاويش النجدلى وعثمان جاويش مناو، فلما رآه عمر بيك سأله لم فعلت هذه الفعلة فأخبره بأنه برى من هذا الأمر ولم يكن عنده خبر من ذلك فأمر الأغا بأن يوديه الى بيت عثمان بيك، ثم يأخذه الى

(١) ٢١ نوفمبر ١٧٣٦م. (٢) ١٢ دسمبر ١٧٣٦م.

الصورة بيده ويقول ياشهيد الله يا مارى جرجس ما اعـرف خـلاصـهم الا منك وأنه امـال رأسـه من الايقـونه كـمن يقـول نعم نعم انا أخلصـهم. فلمـا نظر هذا الاب ما كان من تواضع الشـهيـد انطرح ساجداً له على الارض فعظم الامر على الشـهيـد من سـجـوده له وخـرج من الايقـونه مـثل فـارس متجسد فمسك باديال [باذيال] هذا الاب وتبارك منهـا ثم ان هذا الاب فعل كـذلك، أعني يتبـاركـا من بعـضـهمـا بعض ثم انتبه من نومه وقص تلك

منزله ويقتله في محل قتل الجماعة. ثم أنه أرسل خلفه قاسم آغا الوالي فأدركهم في منزل عثمان بيك، ثم أن الأغا أخذه ونزل به فتفلفص من جماعة الأغا وقال : أنا في عرضك يا عثمان بيك، واذا بالوالي أخذ نبوتا وضربه على ظهره واسيب الدرابزين وجروه ماشيا حافي القدم الى منزله وأطلعوه الى محل ما قتلت فيه الجماعة . وكان عمر بيك وابراهيم بيك قد سبقوا ثم أن عمر بيك أمروه أن يجلسوه في محله الذى كان قاعدا فيه حين قتل الأمرا فأجلسوه فقال: هات شربات واذا برأسه قد سقطت الى الارض ، فأخذوها وأمر أن توخد وان ترمي جثته في الحوش، ثم انهم قفلوا الباب وأخذوا الرأس داروا بها على منازل أكابر الدولة. ثم ان الوالي فتح البيت وأخذ الجثة الى المغسل الذى بالرميلة وبات في المغسل.

ثم في ثاني يوم أعطت أخته الى الوالي ماية فندقلي وأخذت جثته فغسلوه ودفنوه في الزاوية التي قصاد بيته عند والده وأمه لأن أمه كانت قد ماتت قبل مسكه بثلاثة أيام ولا جابه الى بيت أخته الا موت والدته لأنها ماتت يوم الثلاثاء خامس شوال سنة ١١٤٩[١].

وفي يوم الأحد ثالث عشرين: شوال[٢]: توفي عمر كتخدا البرلي من جرحه الذى انجرح مع الجماعة، وفي غرة القعدة عينوا خليل بيك وحسن بيك الى التجريدة.

---

(١) ٩ ديسمبر ١٧٣٦م.

(٢) ٢٦ فبراير ١٧٣٧م.

الرؤيا على رفقايه ولم يصدقوه حتى وافاهم الخبر باكر النهار خرج من الله وشهيده بخلاصهم وان الامير خلصهم من غير سعي، وهكذا لما تحققوا خلاصهم قاموا للوقت ومضوا الى عند هذا الاب يشكروا له عما رأوه في الرويا من غير ان يحضروا ولا يسألوه في ذلك بل كانوا اضمروا في نفوسهم لا غير. فعلم الاب المكرم ضميرهم من غير ان يسألوه فتعجب جميعهم ومجدوا الله. وفي دفعة وافى اليه كاتب وهو في شدة عظيمة ومعه

وفي خامس القعدة [١]: الذى هو يوم الخميس ورد جواب العرض الذى أرسلوه صحبة مصطفى جربجي خامس عشر رجب بسبب موت الجماعة، فجاء رد جوابه صحبة مصطفى بيك أمير ياخور كبير ابن ابراهيم باشا الالشي. وجاء صحبته أربعة خطوط قريت بالديوان من جهة بيع البلاد وضبط ثمنهم وأرسالهم صحبة الخزينة. ثم أن في خامس القعدة، كثر القيل والقال وحصل في القاهرة زعل كثير الى أن كادت الناس أن تهلك.

ثم أن في يوم السبت بعد الظهر سابع عشرين الحجة[٢]: ورد خبر من ثغر رشيد بورود غليون سلطاني وصحبته أطواخ الباشاوية ومهماتها الى مصطفى آغا أمير ياخور بباشوية مصر القاهرة وبتوجه باكير باشا الى حلب.

وفي يوم الخميس ثانى محرم الحرام سنة ١١٥٠[٣]: ورد آغا بالأطواخ الى مصطفى آغا أمير ياخور فكان يوما عظيما ثم أنهم أرادوا أن يخرجوه الى العادلية ويعملوا له القوانين المعتادة الذين يعملونها للباشاوات فأبا فعملوا له شنكا ثمانية أيام ببركة الفيل لأنه نزل بمنزل شاهين أحمد آغا، ثم أنهم أوكبوا به يوم السبت عاشر محرم الحرام سنة ١١٥٠[٤]. من الجنبلاطية ولم يعمل له السماط لأنه ركب من منزله بعد صلاة الفجر.

(١) ٧ مارس ١٧٣٧م.
(٢) ٢٨ أبريل ١٧٣٧م.
(٣) ٢ مايو ١٧٣٧م.
(٤) ١٠ مايو ١٧٣٧م.

خمسمائة دينار وقال له يا رجل الله اقبل منى هدى الخمسمائة وصلى عنى فان الملك برقوق اليوم هذا يريد قتلى ولا اعلم كيف يكون خلاصى. فقال له هذا الاب المكرم لا تخاف يا هذا ولا تظن بالذهب الذى احضرته يكون خلاصك فان الصلاة بالذهب لا يكون بها خلاص بالكلية بل ان اردت ان تتخلص عيد الذهب الذى احضرته الى مكانه والرب يخلصك من غير ذهب البته. وانه قام صلى عليه وباركه

---

٩٦. ذكر تولية مصطفى باشا امير ياخور المتولى بمصر

قدم الى مصر وهو أمير ياخور وصحبته ثلاثة خطوط شريفة قريت بالديوان بحضرة محمد بيك بن درويش بيك قايم مقام بضبط أموال أمراء مصر المقتولين بمنزل محمد بيك الدفتدار. في يوم الخميس خامس القعدة سنة ١١٤٩[1]، فاليسه قايم مقام قفطانا وألبس من كان صحبته من الدلاة وكانوا عشرين رجلا واسكنه بمنزل شاهين أحمد أغا الذى بقيصون المطل على بركة الفيل، فمكث فيه خمسة وعشرين يوما وهو فى كل يوم يطلع الى الديوان. ويطلب رد جواب الخطوط الى أن كتبوا الى الديار الرومية عرضا برد الجواب. واذ بخليل أغا قد ورد من طريق البحر في يوم الخميس ثاني محرم سنة ١١٥٠[2]. بالاطواخ والباشوية الى مصطفى آغا أمير ياخور فركب قايم مقام، وجميع الصناجق، وأعيان مصر. ودخلوا عليه، وهنوه بالوزارة، وأجمع رأيهم أنهم يطلعوه الى العادلية ويعملوا له الأسمطة المعتادة والشنك. فأبى وقال: لا أوكب الا من يتى هذا. فعالجوه فما امكن الى أن اقتضى رأيهم، الى أن يوكبوا به الى الجنبلاطية ، ثم أنهم شرعوا فى عمايل شنك سبعة أيام، فى بركة الفيل، وكان كذلك.

وفى يوم السبت حادى عشر محرم صلى الفجر بمنزله وركب إلى باب النصر، فأنزلوه فى

(١) ب ٧ مارس ١٧٣٧م.
(٢) مدة ولايته: ٢ محرم ١١٥٠ / ذو الحجة ١١٥١ - ٢ مايو ١٧٣٧م / مارس ١٧٣٩م.

وارسله الى الملك برقوق واعطاه صليبه ومنديله وقال له احملهم جواك وادخل ولا تخف، وانه امتنع وخاف بلاكتر [بالأكثر] ان كيف يحمل الصليب وهو مجروح يقع عليه الانظار اذا شعر به احداً. فقال له الاب: قلت لك يا هذا احمل الصليب والمنديل داخلك وادخل الى الملك وانا اضمن لك على الله تعالى الذى انت حامل صليبه ان الملك لا يؤذيك ولا يضرك. وانه اطاع لكلمة الاب وحمل الصليب ودخل إلى الملك وان الملك

الجنبلاطية وأوكبوا به من باب النصر الى أن طلع الى الديوان ثالث ساعة من يوم السبت حادى عشر محرم الحرام سنة ١١٥٠[١]، وان مصطفى باشا هذا أبن ابراهيم باشا الألشى الذى كان أرسله السلطان مصطفى رسولا الى بلاد النصارى لتحديد الحدود، وكان ابراهيم باشا خزندار الوزير فقتله السلطان فهرب الخزندار بمبلغ من المال الى أن جاء مصر وسكن بها وعمل جربجيا بوجاق العزب واشترى البيت الذى بالحبانية الذين يبيعون الفاكهة على بابه الذى أخذه وكيل القطردار وأدخله في بيته وبنا بابه الذى على السكة. التزم بجملة بلاد من جملتها بشبيش[*] فمكث مدة فأحدث الله له ولدين، أحمد آغا، ومصطفى آغا هذا، فمات أحمد أغا بعد مدة، ثم أنه كان له رفيقا فتولى الوزارة فأرسل أخذ ابراهيم جربجى هذا فجعله كتخداه فقتل الوزير ومسكوه وارسلوا باعوا جميع ما تملكه يده سوى البيت ثم انه صار فى اسلامبول لا يملك شيئا الى حين أراد السلطان مصطفى أن يرسل رسولا الى النصارى كفار النمسى، فما وجدوا من يصلح سوى ابراهيم هذا لأنه كان فهيما طلق اللسان فعملوه باشا وارسلوه رسولا الى الكفار، فتم لهم الأمر على المراد، ورجع الى اسلامبول فعينوه باشا الى بلد

(١) ١١ مايو ١٧٣٧م.

(*) بشبيش: احدى القرى القديمة، مركز بيلا، محافظة الغربية. محمد رمزى، المصدر السابق، جـ٢، ص ٣٩.

كان مملؤ غضب عليه ففي تلك الساعة تغير غضب الملك بلين ورضا ورأفه وصار كل كلمه يتكلم بها ذلك الانسان امام الملك تدخل في اذان الملك مثل ندا بارد تطفئ ما عنده من الغضب . ثم انه خرج من عند الملك فرحان متقوى مباشر على عادته حتى تعجب ذلك الانسان من الصلاة القويه التي لهذا الاب الذى ابدلت غضب الملك وحنقه الى رضا لانه كان يضمر في نفسه انه متى ما وقع له، قتله. فصار هذا الرجل وكلمن سمعوا يمجدوا

الروم فأرسل أخذ ولده مصطفى هذا وباع البيت الى اسماعيل كتخدا ايواظ بيك وان مصطفى باشا هذا ولده بالكناية.

فانظر الى والده ابراهيم باشا: بعد جمعه المال وملكه البلاد والعقار.. والنوال سلب السلطان منه جميع ما بيده، وصار في اسلامبول لا يملك شيئا فلا تامن[1] أيها العاقل للملوك، ولو أنهم قربوك واذنوك. وجعلوك كنز خبياتهم، فالموت أسرع من تقلباتهم. كما قال الشاعر:

ومعاشر السلطان شبه سفينة
في البحر ترعد دايما من خوفه.
أن أدخلت من ماية في جرفها
ادخلها ومايها في جوفه

والله أعلم بغيبه واحكم. ثم ان مصطفى باشا عمل ديوانا في ثاني يوم، وهو يوم الأحد ثاني عشر محرم الحرام سنة ١١٥٠[2]. وأبرز خطين قريا بالديوان أحدهما: بأنكم أتخذتم عزلان وزرائي دابكم بغير الحق وهذا أمر يدل على استخفافكم بي كما عزلتم باكير باشا بغير

(١) بالاصل «فلا تأمل».

(٢) ١٢ مايو ١٧٣٧م.

الله. وهكذا كان هذا الاب يشترى نفوس الآتين اليه ويخلصهم بصلاته القوية من الضوايق والشدايد والخطايا كما اخبرنا بذلك احد اولاده الكهنة المعلمين انه كان وقع فى خطية صعبة مكتومة ولما حضر يعترف بها على هذا الاب اخذه خوف واستحا ان يعترف بها امامه. فكاشفه عنها بمفرده قائلاً انت فعلت الخطية الفلانية فلا تعود تفعلها وانا اقول لك من الان مغفورة لك خطاياك فلما سمع ذلك الكاهن كلامه تعجب ومجد الله

جرم ولم ترسلوا تعلمونا وكأنكم أنتم الملوك والسلاطين ونحن الرعايا والمساكين، وانا قد عفونا عنكم فى هذه المرة والحذر، ثم الحذر، أن تعودوا الى مثل هذه الفعلة فان فعلتم بعد هذه المرة فلا تلومون الا أنفسكم وتربة أجدادى. والثانى بقبض جميع بلاد الفارين والمقتولين وبيعهم بفايظ ثلاث سنوات وجميع علوفاتهم وجراياتهم واملاكهم وامتعتهم وتسلموا جميع ذلك الى مصطفى باشا ولا تتركوا من ذلك ولا الدرهم الواحد والحذر، ثم الحذر من المخالفة فقالوا: سمعنا وأطعنا ونزلوا يدبروا أنفسهم والله تعالى أعلم.

وفى يوم الخميس سادس عشر محرم[١]: طلب منهم جواب بيع البلاد، فلم يردوا له جوابا فأحضر جميع دفاتر الرزنامية والمعاملة وختم عليها.

وفى يوم الاحد تاسع عشر محرم[٢]: عزل محمد بيك بن درويش بيك من الدفتدارية وتولى محله عمر بيك الكبير الذى هو ساكن بيت رضوان بيك الذى بباب زويلة وعلى آغا الوالى عمل جربجى بباب العزب.

وفى يوم الخميس أخر محرم ا لحرام سنة ١١٥٠[٣]: برز باكير باشا بموكب عظيم من منزله الى العادلية متوجها الى جدة وجميع الصناجق والاغوات والوالى والمحتسب فى ركابه

(١) ١٦ مايو ١٧٣٧م. (٢) ١٩ مايو ١٧٣٧م.
(٣) ٣٠ مايو ١٧٣٧م.

لان تلك الخطية ما كان يعلم بها الا المسيح وحده، لما كاشفه عنها ازداد تعجبه وتحقق ان خطايا الشعب مكتومة [مكشوفه] امامه مثل زيت فى زجاجة ولا يرى ان يشهرها. بل اذا كان يريد يبكت احداً على خطية يكون ذلك فى خفية لان الخطية ايضاً كشرة على الناس. وكانوا كثير من الشعب اختلطوا وتنجسوا بنجسات كثيرة. وكان هذا الاب يتنهد ويبكى على الشقا الذى يحل بالمصريين حتى ان من زايد بكاه اخذ ينذر شعبه

والملازمين قدامه وكان الالاى عظيما، والسبب في ذلك انه جاءت الأخبار من الصعيد بأن الجماعة الهربانين جيشوا جيوشا الى مصر وصاروا من الشرق الى أن جاءوا الى شرونة وعدوا الى الغرب وصاروا ينهبون فى البلد، فلما أخبروا بمجيئهم الى مصر عملوا جمعية فى بيت عثمان بيك ليلة الخميس سلخ محرم فاجتمع رأيهم على خروج باكير باشا لكون مجئ العدو ومجئ الحاج وطلوع العسكر الى البركة وتصير البلاد خالية من العسكر والبلد فيها وزيرين فربما يحدث منهم حادث فأخذوا فرمانا من مصطفى باشا المتولى بخروجه فأخرجوه على حين غفلة كما ذكرنا. ثم انهم عينوا تجريدة الى الجماعة والبسوا حسن بيك تابع عثمان بيك وعمرآغا آغاة الجراكسة وأن يأخذوا ابراهيم بيك تابع مصطفى بيك بولفية من بنى سويف وبرزت التجريدة الى قدم النبى يوم الاثنين رابع صفر سنة ١١٥٠(١).

وفى يوم الخميس سابع صفر(٢) سارت التجريدة من الشرق وفى يومها أوكب محمد بيك صنجق السفرة من بولاق الى القلعة والبسه الوزير قفطانا وأبرز خطا بصنجقيته التى أنعم عليه بها السلطان عوضا عن مصطفى بيك أباظة حين توفى ثانى عشر رجب سنة ١١٤٩(٣).

وفى سابع عشر صفر(٤): وردت أخبار التجريدة بأنهم تقابلوا هم واياهم عند شرونه فلما

(١) ٣ يونية ١٧٣٧م.
(٢) ٦ يونية ١٧٣٧م.
(٣) ٥ نوفمبر ١٧٣٧م.
(٤) ١٦ يونية ١٧٣٧م.

قائلاً تيقظوا يا اولادى وتحذروا من ذلك اليوم الذى يأتي فيه الانتقام على المصريين لأن فى ذلك اليوم تنزل ناراً من السمآء تحرق كل مساكن المصريين حتى يعلو بخار تلك المدينة ومن بعد ينوحوا عليها قائلين اليوم سقطت بابل العظماء ام جميع المصريين. وكان هذا الاب كلما خاطبنا بهذا نحن لا نتحذر ولا نزداد الا طغيان ووقاحة وعدم خوف من الله ولم نسمع له فكان يحزن لذلك ويتنهد من عمق قلبه ويشتهى الموت لنفسه. حتى اثار

رأوا التجريدة صبروا لآخر الليل وهربوا ، ثم أن التجريدة هجموا عليهم فلم يجدوا غيرالخيام والثقل فنهبوه وأرسلوا أخبروا كما تقدم، ثم ان عمر بيك ومملوكه عمر بيك ومحمد بيك خزندار أبوه وزوج امه محمد بيك عدوا من بولاق الى الجيزة بجم غفر نحو الخمسماية، يوم الأربع عشرين صفر(١)، وآغاة مستحفظان، وقاسم آغا الوالى، وأوضباشا باشت البوابة عبدالله تابع داود صاحب عيار وفتشوا بيوت الخبرا جميعا فما وجدوا أحدا ورجعوا بالليل ونادى آغات مستحفظان لجميع المراكبية على أن لا أحد يعدى أحدا من بعد العصر الى الجيزة ولا الى انبابة ورجعت التجريدة من البهنسة في يوم الاحد غرة ربيع أول ولم يحصل بينهم قتال وأنما أدركوهم في صبيحة يوم، فلما رأوهم ولوا من وجوههم وعدوا الى الشرق من بحر يوسف ولم يصب أحد منهم سوى بعض خيام وبعض فرش وبعض نحاس مطبخهم ورجعوا كما ذكرنا والله أعلم.

وفى غرة ربيع أول سنة ١١٥٠(٢): اشترى باكير باشا القصر والحوض والسبيل والمكتب الذى أحدثهم يوسف كتخدا عزبان خارج قبة العزب بماية وخمسين ألف نصف فضة ديوانى من ورثة يوسف كتخدا واحدث فيهم زيادة واوقفهم ورتب لهم عشرين ألف نصف فضة وجعل النظر لباب العزب.

(١) ٢٣ يونية ١٧٣٧م. (٢) ٢٩ يونية ١٧٣٧م.

الشيطان على الشعب امير من عظماء المملكة يسمى جمال الدين وطلب من الشعب ما لا يقدروا عليه وكان هذا الاب كلما دافع عن الشعب لم يندفع [يقتنع] بل يطلب [ان] يجد عليه علة يقتله [بها]. وانه ارسل رسلا في خفية إلى ارض الحجاز واليمن ان يكتبوا في تلك البلاد محاضر على هذا ويقتبوا [يكتبوا] فيها انه في كل يوم يرسل رسله إلى بلاد الحبشة ويحث الملك على خراب مكه وما معها. ولما علم بالروح أن المحاضر

وفي خامس ربيع أول[1]: عزل عبدالله كتخدا قزدغلي وتولى محله عثمان جاويش تابع شعبان بيك وألبس مصطفى باشا قفطان الصنجقية الى سليمان الخزندار عوضا عن سيده خليل بيك في يوم الخميس سابع عشرين ربيع أول سنة ١١٥٠[2].

وفي هذا التاريخ تمم سليمان جاويش الجوخدار تابع عثمان كتخدا القزدغلي بقية بناء القصر الذى ببولاق والتكية التى بجوار الجوهرية التى جعلها للعميان والبير والمطهرة التى داخل رواق الترك الذى توفى عثمان كتخدا عنهم ولم يتممهم، وبنى المكتب الذى بتكية العميان بالجوهرية وجعل للحنابلة بالتكية محلا على حدة شبه البيت برواق مطل على السكة وبنى بيتا بجوار رواق السليمانية وارصده على الرواق[*].

وفي عشرين ربيع أول[3]: توفى خليل بيك تابع محمد بيك الكلفلى وزوج بنته وعزل ابراهيم أفندى الرزمنجي وتولى محله عبداللطيف أفندى الرزنمجي يوم الخميس ثامن جماد آخر.

وفي غرة ربيع أخر[4]: ورد ططرى وأخبر بموت محمد بيك الكلفلى صنجق الخزينة في انطاكية.

(١) ٣ يولية ١٧٣٧م. (٢) ٢٥ يولية ١٧٣٧م.
(*) بالاصل «الرفاق»، والتصويب من النص.
(٣) ١٨ يولية ١٧٣٧م. (٤) ٢٩ يولية ١٧٣٧م.

كتبت لأجله، وانه سبق قبل وصولها صلاً إلى الله وسأل ستنا السيده كعادته أن تأخذ نفسه اليها بغير سفك دم، وأن لا ينال شعبه في أثره شدة ولا صعوبة وان ستنا السيدة سمعت طلبته ولم تدع ذلك اليوم يعبر عنه حتى انهز بحمه صعبه في جسده فانطرح مكلوم ضعيف فلما اتصل بالأمير الذى كان يروم قتله خبره سكن غيظه قليلاً ولم يسكن عن الشغب بل لا برح يرسل يهدد هذا الاب ويتواعده من اجل شعبه الى ان حملوا له من

وفى يوم الاحد سابع ربيع آخر[١]: اجمع رأى أعيان البلد على أنهم قطعوا فرمانا على الأوجاقات السبعة أنهم لا يقبلوا أحد من الاوجاقات لأمر حصل لهم وكان ابراهيم أفندى هذا سبب عزلانه من الرزنامجية ولبسه أغاوية العزب كما فعل به وكما تدين تدان.

وفى يوم الجمعة بعد الصلاة ذبحوا السيد عبدالله الأمين وهو نازل الى مصر وكان ذلك فى تاسع جماد آخر سنة ١١٥٠[٢].

ثم أنهم فى ثالث يوم الذى هو يوم الأحد عاشر ربيع (آخر)[٣]: نفوا من أوجاق العزب، ومن أوجاق الانكشارية جماعة من جماعة المنلا ووقع النفى فى بقية الأوجاقات.

وفى يوم الأربع عاشر مسرى الموافق لسابع عشر ربيع آخر سنا ١١٥٠[٤] جبروا البحر وكان الوفا تاسع مسرى.

وفى[٥] يوم السبت وهو يوم عشرين ربيع آخر[٦]. مسكوا رضوان بيك فى خان النحاس الذى بخان الخليلى وصحبته جوخدار قطامش وجوخدار عثمان بيك الذى كان ضارب سيده عثمان بيك ومسكوا عثمان كاشف تابع جركس ورجل من السفط وقتلوهم جميعا.

(١) ٤ أغسطس ١٧٣٧م. (٢) ٤ أكتوبر ١٧٣٧م.
(٣) ٧ أغسطس ١٧٣٧م. الاضافة للتوضيح.
(٤) ١٤ أغسطس ١٧٣٧م. (٥) كرر الحرف بالاصل.
(٦) ١٧ أغسطس ١٧٣٧م. / كتب عنوان جانبى «أعرف موت رضوان بيك ومن معه».

مال هذا الاب نحو خمسمائة الف درهم وقدموها
له لعل يطيب قلبه ويكف عن الطلب لهذا الاب
فلم يكف ولا برح يطلب هذا الاب الى الساعة
الذى قارب فيها الموت وانه ارسل له رسلاً يحملوه
وياتوا به اليه. وان هذا الاب طيب قلبهم وقال لهم
تمهلوا على الى غدا يوم الاحد لعلى استريح قليلا
وتعالوا احملونى الى حيث تريدوا وكان يخاطبهم
بهدو وهو يعلم ان ساعته قد قربت ليخرج من
هذا العالم ويستريح من جور ذلك الامير وظلمه.

وفى يوم (الاثنين) ثانى عشرين ربيع آخر[1] مسكوا واحد بالليل من الشوايين واثنين من درب[*] الحبينة الذى بالموسكى وأدخلوهم القلة وأدخلوا فيها عشرين أوضباشا من أوجاق مستحفظان وخمسة عشر أوضباشا من العزب واثنين كواخى من الانكشارية الظربة وعمر جاويش الزللى وعثمان جاويش الجلالى وأثنى عشر أوضباشا، والظربة نفوه الى دمياط وعثمان جاويش الى جده والزللى الى دمياط وكذلك يوسف كاشف.

وفى يوم السبت سابع عشرين ربيع آخر[2]: أرسل على كتخدا الجلفى الى مصطفى كاشف الجيزة تابع يوسف كتخدا عزبان احضره. فلما أتاه أرسله إلى كتخدا الوقت عزبان، حسن كتخدا تابع المكانى، فلما ورد عليه حاشه فى القلة.

وفى ثانى يوم أرسله الى بولاق صحبة عشرين رجلا من العزب ومن جملتهم رجل يقال له ابرهيم القندقجى، ففى حال وروده على بيت حسين بيك الخشاب الذى هو بيت ابراهيم بيك أبو شنب أراد أن يهرب الى بيت حسين بيك فمنعه ابراهيم المذكور وضربه على وجهه، ثم أنهم قيدوه وأنزلوه فى مركب، فلما ذهبوا به الى ذلك البر أخرجوه من المركب ليقتلوه فطلب

(١) ١٩ أغسطس ١٧٣٧م.، الاضافة للتوضيح.

(*) بالأصل «ضرب».

(٢) ٢٥ يولية ١٧٣٧م. وبالأصل «ربيع أول» والتصويب من نفس النص.

فان الرسل مضوا كما قال لهم هذا الاب وحضروا الغد بعد الاحد ووجدوا هذا الاب قد اسلم الروح فى الهجعة الأولى من ليلة الاثنين قبل حضورهم بمهلة لطيفة. فلما عاينوا ماكان تعجبوا وتعجب الامير بالاكثر الذى خلص الله هذا الاب من يديه بغير سفك دم كما كان فى ضميره. ثم ان هذا الامير لم يمهله الله بل سلط عليه من سعاية عند الملك فقبض عليه وعاقبه وعصره واخذ منه عوضاً عن القدر الذى اخذه من هذا الاب اضعاف كثيرة

- -

الوضوء فتوضى وصلى، فلما سلم رأى ابراهيم الضارب له واقفا خلف ظهره يريد أن يقتله وفى وسطه خنجر يذب الموت فى جنباته فقفز مصطفى كاشف بعد السلام مد يده بسرعة الى الخنجر الذى فى وسط ابراهيم، وسحبه وضربه به فى صدره خرج من ظهره وهاج فيهم وهو مقيد فوقع أكثرهم (فى البحر)[1]، ثم أنهم ضربوه بالرصاص الى أن مات وكان أبوه معه فمات الآخرفرموهما فى البحر وأخذوا ابراهيم القندقجى وجابوه الى بولاق وغسلوه ودفنوه.

وفى يوم الاحد ثالث عشر جماد أول[2] توفى الشيخ الامام الفاضل الهمام سيدى محمد الدلجى الشافعى بن الشيخ الفاضل والولى الصالح الفرضى ابراهيم الدلجى رحمهما الله تعالى رحمة واسعة وأمطرعلى قبرهما سحايب رحمته الهامعة.

وفى يوم الجمعة قبل الغروب ثامن عشر جماد أولى سنة ١١٥٠[3]. توفى شيخ الاسلام والمسلمين ووارث علوم سيد الأولين والمرسلين الموصوف بمكارم الأخلاق وبسط الكف لكل الرفاق الشيخ محمد القلينى المالكى شيخ الابتغاوية.

وفى غرة جماد آخر توجه باكير باشا من قصره الذى اشتراه من ورثة يوسف كتخدا عزبان

(١) قدم وأخر، والاضافة للتوضيح.
(٢) ٨ سبتمبر ١٧٣٧م.
(٣) ١٣ سبتمبر ١٧٣٧م.

ثم لا برح في الضرب والعقوبة حتى مات أشر موتة. واما هذا الاب قبل موته ارسل ورا تلاميذه وأعلمهم بانتقاله ثم ارسلهم احضروا له جميع ما يحتاج لتكفينه من ثياب وبرانس(*) وهم ثوبين وبرنسين واسكيمين وقلنسونتين وسترتين وبلينين حتى التابوت الذى له اشار لهم صنعه ما يعملوه ثم اوصاهم انهم اذا ادرجوه ووضعوه في ذلك التابوت لا يكشفوا وجهه الا وقت التجنيز كعادة البطاركة ولا يمكنوا احداً يقبل قدميه بل يتركوه ملفوف في

(*) انظر في ملابس رجال الدين الاقباط كتاب «الكنايس» القبطية القديمة جـ٢ تأليف الفريد. ج بتلر ترجمة ابراهيم سلامه سلسلة الألف كتاب الثاني ١٣١. القاهرة ١٩٩٣.

الى السويس طالب جدة سنة ١١٥٠ كتب الله له السلامة ورحم من مضى من أموات المسلمين الى يوم القيامة.

الأحوال السياسية والاقتصادية لمصر تحت الاحتلال العثمانى

لقد أمكننا من خلال دراسة «تاريخ الجبرتى» وكذلك من خلال مؤلف أحمد أفندى الروزنامجى «ترتيب الديار المصرية في عهد الدولة العثمانية» .وكتاب «وصف مصر»، وكذلك بعض المؤلفات الحديثة التى اعتمدت على المؤلفات الثلاثة السابقة ، ان نحصل على العديد من المعلومات الهامة التى كانت تنظم الاحوال الاقتصادية والمالية لمصر في فترة الحكم العثمانى يمكن أن نستعرضها فى النقاط التالية:

(١) مرحلة تحطيم القوة العسكرية المملوكية والتمردات التالية لها [١٥١٧/١٥٢٥م=٩٢٣/٩٣٢هـ].

كان الهدف الاساسي للسلطان سليم من حملته العسكرية ضد السلطان الغورى هو القضاء على النفوذ المملوكي فى الشام ليكون ذلك دعماً له فى صراعه ضد الشاه اسماعيل الصفوى. ان هذا الهدف قد تم تحقيقة بهزيمة قوات السلطان الغورى في واقعة «مرج دابق» واحتلال العثمانين لحلب. وقد ادى ذلك الى انهيار مفزع للقوات المملوكية التى لم يكتف

اكفانه الصوف كمثل الرهبان، واكد عليهم انهم لا يدفنوه الا بين اولاده داخل الخندق(*) ثم بعد ما اوصاهم بهذا غطا جسده بوزرته واسلم الروح في الساعة الاولى من ليلة الاثنين [أى مساء يوم الاحد] الخامس من شهر طوبه سنة الف ومايه وخمسة وعشرين للشهدا وكان عمره يومئذ اثنين وسبعين سنة منها اربعين سنة راهباً واثنين وثلاثين بطريركاً. ثم اجتمع لتجنيزه في ذلك اليوم الكهنة والشماسة والاراخنه وكل الطوايف النصرانيه حتى

(*) دفن في كنيسة القديس رويس حيث بنيت الكتدرائيه المرقسية وقتها.

بعض قوادها بالتراخي في القتال، بل وانضمام بعضهم للقوات العثمانية ،مما شجع السلطان سليم على التوجه الى مصر وعبور سيناء وتحطيم بقية القوات المملوكية المنقسمة على نفسها متأثراً بتحليل خاير بك [الامير المملوكي الذى انضم له ضده سيده الغورى] المعتمد على ان النخبة الحاكمة المملوكية كانت منقسمة الى عصبيات وزمر متنافسة ومتناحرة . لقد كان الانهيار العسكرى هنا تابع للتفسخ السياسى داخل النخبة الحاكمة المملوكية ،ولم تكن مقاومة طومان باى بعد ذلك سوى تداعيات للانهيار وسلسلة من الخيانات انتهت بضرورة شنقه على باب زويله.

ولقد فرضت سياسة تحالف السلطان سليم مع جانب من العصبيات المملوكية التى ساندته في الغزو ضد العصبيات الأخرى ان يلزم نفسه بالحفاظ على نظام التجنيد المملوكى والعصبيات الموالية للسلطان سليم طمعاً في اقتسام السلطة. وقد نشأ عن ذلك ان عادت الزعامات المملوكية الى الساحة السياسية ومارست عادتها الاصلية في الصراع فيما بينها، حتى انه ما ان توفى خاير بك [الذى عينه السلطان سليم نائب له] وتم تعيين النائب العثمانى الجديد، حتى اندلعت ثورة قامت تحت قيادة أثنين من كبار الضباط المماليك هما: غانم السيفى وإينال السيفى سرعان ما تم القضاء عليها .ولكن في أعوام ١٥٢٣م، ١٥٢٤م= ٩٣١هـ انفجر السخط المملوكى في تمرد عسكرى كان على رأسه النائب العثمانى نفسه، وامكن

٨٧: متى [١٣٧٨ / ١٤٠٨م.]

طوايف اليهود وغيرهم وخلق لا يحصى لهم عدد وكان بكا وعويل حتى ان عمد البيعة كادت تبكى على فقده وهو راقد مطروح وصليبه في يده وكانوا يبكوا وينتحبوا لأجل حسن منظره وهيبته ومحبته وصدقته وافتقاده المساكين وعلى احتماله وصبره وهم ينوحوا ويبكوا الى ان اكملوا تجنيزه كالواجب ثم حملوه بالاكرام والتبجيل والوقار حتى كان حمله في التابوت كمثل حمل تابوت العهد. اين هو ذلك الرجل القوى الذى يستطيع

كذلك القضاء عليه. وفى العام التالى اى ١٥٢٥م جاء الصدر الأعظم العثمانى ابراهيم باشا فى زيادة قصيرة لمصر من أجل أن يضع الأمور فى نصابها ولكن دون جدوى واضحة.

(٢) استقرار الغزو العسكرى:

فى اعقاب احتلال السلطان سليم لمصر، وفى ظل المقاومة المملوكية المتقطعة أرسل عدداً من رجال المساحة للمناطق التى اصبحت تحت سيطرته فى الدلتا من أجل «قياس الاراضى، ومعرفة الاقطاعات الموجودة فيها والتى تخص المماليك والاوقاف وما شابه» . وكذلك تم إرسال عدداً أخر من هؤلاء الرجال فى ظل السلاطين التاليين للسلطان سليم الى الوجه القبلى وبقية الوجه البحرى. وفى عام ١٥٢٣ = ٩٢٩هـ ، ثم وضع سجل عام لمسح الأراضى. ولكن نطاق هذه السجلات كان محدوداً للغاية،وذلك من واقع ان الكتبه المستخدمين فى ذلك كانوا من الإدارة المملوكية السابقة، وهؤلاء استغلوا جهل سادتهم الجدد وأخفوا سجلات الروزنامة لتحقيق ثروات ومراكز قويه على حساب الفلاحين، فحدث نتيجة لذلك دمار واسع للزراعة وهروب الفلاحين من أراضيهم ،مما ساعد على قيام ثورة ضد الحكم العثمانى بدعم من الامراء المماليك للنائب احمد باشا الذى وعد المماليك بحكم مصر.

وعندما قضى على هذه الثورة عام ١٥٢٣ = ٩٢٩هـ. عثرت السلطات العثمانية على السجلات القديمة المملوكية فى الروزنامه والتى اظهرها الكتاب القدامى من اجل مساندة

يحمل ذلك التابوت من كثرة الخليقة المحيطة به مزدحمين عليه كانت الأجناد والعساكر امام ذلك التابوت تحجبه الى ان مضوا به الى دير الخندق حينئذا دفنوه في الموضع الذى اختاره لدفنه ثم بعد دفنه اظهر الله منه الأيات والعجائب، بعد انتقاله منها الليلة التى تنيح فيها اضطربت اجساد اخوته البطاركه الراقدين بدير القديس ابو مقار وان الرهبان سكان الدير الذين سمعوا اضطراب الاجساد صوت يدعوهم قائلاً: قوموا اخرجوا

احمد باشا فى جمع العوايد من الاقاليم. كما اعادت السلطات العثمانية أجراء المسح. ومن أجل توفير نفقات تنفيذه فرضت ضريبة خاصة على كل اقليم يتم مسحه. وهكذا كانت السجلات الجديدة تحتوى على متوسط عدد الفدادين التى تروى بالراحة ومتوسط للفدادين التى تروى بمشقة بحسب فيضان النيل، كما تحتوى على درجة خصوبة الاراضى ،ونوع العوائد التى تجبى من كل قريه ، وبحلول عام ١٥٧٦ = ٩٨٤هـ، كان قد تم عمل مسح شامل لكل الاراضى الزراعية المصرية.

أما بالنسبة لعملية سجلات مسح العوايد الحضرية فإنها لم تكتمل إلا فى عام ١٦٠٨= ١٠١٧هـ.

وهكذا فإنه بالرغم من شنق السلطان سليم للسلطان طومان باى على باب زويلة وفرض السيطرة العسكرية العثمانية على مصر، إلا أن المناطق الجنوبية فى الصعيد (حول الوادى وفى الصحارى) وكذلك المناطق الصحراوية فى شمال البلاد ظلت تشكل خطراً على السلطات العثمانية حتى عام ١٥٢٤ (٩٣١هـ) عندما قامت فلول المماليك والعربان بدعم النائب العثمانى أحمد باشا فى محاولته الاستقلال بمصر.

وفى عهد السلاطين التالين للسلطان سليم أرسل عدداً من رجال الإدارة العثمانية للصعيد

افتحوا الباب انبا متى حضر وهو قايم يقرع الباب فلما خرجوا الأخوة يفتحوا فلم يجدوا احداً تعجبوا وصاروا لا يعلموا ما الأمر الى ان وافهم الخبر من مصر أن هذا الاب تنيح فى الليلة الذى عبر عليهم فيها لاجل اخوته البطاركة القديسين حتى يتباركوا الارواح من بعضها، ولهذا اضطربت تلك الاجساد لعلمها ان المسكونة فقدت ذلك اليوم معلماً عظيماً. لان [حتى انه] من عظم اضطراب الاجساد وقع القنديل الذى يقد [يوقد]

لعمل تقارير حول الأحوال الاقتصادية ،وتوقيع اتفاقيات مع عدة قبائل .من أجل استقرار السلطة العثمانية التى لم تكن قد أقامت لها بعد حاميات عسكرية فى هذه المناطق حتى عام ١٥٢٨= ٩٣٥هـ، ففى نهاية هذا العام كان سليمان باشا الخادم عائدا من حملاته فى كل من اليمن والهند ، وإبان عودته هبط فى ميناء القصير المصرى على البحر الأحمر، وبدأ فى طرد القبائل النوبية من جنوب اسوان واحتل قلعتهم فى «ابريم» ثم طاردهم حتى وادى حلفا، وفى جزيرة وسط النيل هناك تسمى «صاى» بنيت قلعة عسكرية بهدف تحديد حدود مصر الجنوبية ،وتأسست ولاية على ساحل البحر الأحمر ما ين سواكن ومصوع تحت اسم ولاية «الحبش» وهى ليست الحبشه،واستكملت السلطات العثمانية نفوذها على بقية اقاليم مصر بعقد عدة اتفاق مع زعماء القبائل العربية المحيطة بالوادى فيما عدا ولاية البحيرة التى ظلت تحت النفوذ المباشر لزعماء القبائل حتى اواخر القرن ١٧ ، عندما عاد النفذ المباشر لزعماء القبائل العربية على مناطقهم القديمة واضيفت عليها الصفة الرسمية من السلطات العثمانية بتعيين زعماء القبائل واتباعهم كملتزمين يتوارثون التزاماتهم.

إن اكبر تلك القبائل من حيث القوة كانت قبيلة «هواره» التى كانت تشتمل على عدة بطون سيطرت على مصر الوسطى من المنيا حتى جرجا.ولكن نفوذها تم تدميره بشكل نهاية

٨٧: متى [١٣٧٨/ ١٤٠٨م.]

عليهم على الارض وانه انطفا ولم ينكسر. والمدة الثانية فانه بعد اربعين يوماً ترا بالثلاثة رجال عربان مجروحين عبروا بميت الخندق سحر يوم الاحد فوجدوا هذا الاب قايم متردى [يرتدى] ببرنس ابيض وهو ماشي يطوف بين الاموات في الليل مثل ما كان يمشي ويطوف بينهم في النهار فلما رأوه اولئك الرجال ولم يكلمهم ذهبوا إلى كنيسة ابو رويس و اخبروا رهبانه عنما أبصروا فعرفناهم انه هذا الأب فتعجبوا وسألونا النظر الى قبره

على يد على بك الكبير في عام ١٧٦٩= ١١٨٣هـ. بعد أن كانت قد انقسمت الى فرقتين متصارعتين هما «هواره بحرى» و«هواره قبلى».

(٣) مرحلة الصراع الداخلي [١٥٨٦/١٧١١م=٩٩٤/١١٢٣هـ].

ان اضمحلالا ملحوظاً في قوة وكفاءة الإدارة العثمانية أصبح يمثل ظاهرة عامة في كل أجزاء السلطنة في الاعوام الأخيرة من القرن السادس عشر وطوال القرن السابع عشر بسبب استمرار مشروعاتها العسكرية دون توقف ودون احراز انتصارات حاسمة سواء في الجبهة الروسية أو الجبهة الاوربية وما تبع ذلك من مصاريف باهظة انهكت السلطنة وانهكت موارد مصر ذاتها التي كانت تكلف دوماً بأعداد فرق عسكرية للحرب على الجبهتين الروسية والاوروبية ، وكذلك على الجبهة الفارسية، هذا بالأضافة الى الاضرار والخسائر التي لحقت بمرتبات الموظفين والعسكريين من جراء التضخم المالي الذى امتد لفترة طويلة وأدى إلى تمردات الفرق العسكرية وبخاصة الانكشارية سواء في مقر السلطنة أو في الولايات التابعة لها وكذلك مصر.

ان اوضح مظاهر انحلال السلطة العثمانية في مصر كان حدوث سلسلة من التمردات ضد النواب العثمانيين، وكان اولها في عام ١٥٨٦م= ٩٩٤ هـ، من جراء نقص الخزانة الاميرية التي كانت ترسل للسلطان ، فقد قام الجند بتمرد مسلح عزلوا فيه الباشا وانزلوه من

فمضوا وتباركوا منه. واما المدة الثالثة فانه كان رمز لتلاميذه قبل انتقاله ان يكون الاب انبا غبريال بطريركا بعده وكانوا بعض الشعب لا يصدقوا حتى ترآآ لهم هذا الاب في اليوم الذى دعوه فيه يكرزه قمصاً حينئذا الشعب المجتمعين فى المعلقة واذا بواحد من الشيوخ القديسين المجتمعين في ذلك اليوم ابصر هذا الاب بالروح قايم على جناح المذبح وهو يضع يده مع يد الآباء الاساقفة على رأس انبا غبريال فلما نظر الشيخ ذلك تعجب

القلعة . لقد كانت هذه اول مرة يعزل فيها الجند نائب السلطان فى مصر، بل أنهم اعتدوا على النائب التالي له سنة ١٥٨٩م= ٩٩٧هـ ونهبوا مسكنه واجبروه على تلبية مطالبهم. ثم زادت خطورة هذه التمردات منذ عام ١٥٩٨م= ١٠٠٦هـ، عندما تجمع جنود الاقاليم وزحفوا الى القاهرة وقضوا على قوات الباشا وأسروه،ولكنه تمكن من الفرار الى القلعة والتحصن بها، وبعد ذلك بثلاثة اعوام وبالتحديد فى عام ١٦٠٤م= ٢٩ ربيع أخر عام ١٠١٢هـ، قام الجند السباهية بقتل النائب السلطانى ابراهيم باشا بسبب ابطاله مطالبهم الغير شرعية (اموال الطلبة التى فرضوها لحسابهم) وعلقوا رأسه على باب زويله.وهو النائب الوحيد الذى يذكره الجبرتى باسم «المقتول».

ولقد وصلت هذه السلسلة من التمردات الى ذروتها إبان حكم محمد باشا [١٦٠٧/١٦١١=١٠١٦/١٠٢٠هـ] عندما قامت السباهية [وهم جند المماليك الشراكسة ذوى المرتبات الضعيفة] بالتجمع من كل اقاليم الوجه البحرى عند ضريح السيد البدوى بطنطا واقسموا على قتل الباشا العثمانى، وعينوا من بينهم (فى سابقة خطيرة) سلطاناً ووزيرا، معلنين استقلالهم عن السلطة العثمانية ،ثم زحفوا للقاهرة ، وعند الخانكه اصطدموا بقوات الباشا تحت قياده خوجا مصطفى بيك، واستمرت بينهم المناوشات دون ان يحقق اى منهما نصراً على الأخر، ثم تفرقت الجند المتمردة واعدم بعضهم ونفى أخرون الى اليمن . وعلى هذه

وقصد يتبارك منه قبل ان يخفا عنه فباركه وصنع
ايات وعجايب لم نستطع ان نشرحها. وعدد
الشهدا الذى استشهدوا فى زمانه تسعة واربعين
شهيد بركة صلاته وصلاة الجميع تكون معنا امين.

[غبريال البطرك الثامن والثمانون]

[١٤٠٩/١٤٢٧م]

غبريال البطرك وهو الثامن والثمانون من العدد
هذا الاب غبريال من دير القلمون بالفيوم أخبر

الحادثة يعلق ابن أبى السرور البكرى بقوله: «فى الحق انه الفتح الثانى لمصر على يد الحكومة العثمانية المباركة» . فقد كان هؤلاء الجند السباهية المشكلين من المماليك الشراكسة يسعون الى تأسيس سلطنة مستقلة.

وبالرغم من كل هذه التمردات فإن التحدى الحقيقى للسلطة العثمانية فى مصر كان يأتى ، ليس من الطموحات اللاستقلالية للفرسان المماليك (السباهية بالذات)، ولكن من البكوات المماليك الذين كانوا لايزالون ـ حتى ذلك الوقت ـ مستمرين على سياسة التعاون مع السلطنة العثمانية. ان منصب البكوية كان عبارة عن نظام يتكون من مجموعة موظفين عسكريين ذوى مقام عال على علاقة وثيقة مع الباشا العثمانى،ولكنهم لم يكونوا ضمن هيئة العسكريين المكونين للبلكات السبع التى كانت تشكل الحامية العثمانية، ولكنهم خلال القرن السابع عشر تمكنوا من الاستحواذ على مناصب هامة ورئيسية فى الهيئة الحاكمة مثل منصب «امير الحاج» ومنصب «الدفترداره المسؤل عن المالية، وكذلك نائب الباشا أى «القائمقام». وعلاوة على ذلك أصبح يتم تعيين البكوات كحكام على اهم ولايات الصعيد «ولاية جرجا» بالأضافة الى كونهم الحكام ا لعسكريين فى الولايات الأخرى.ومع ازدياد رسوخ هذه الاوضاع تدهور نفوذ فئة الكشاف فى الولايات وصاروا تابعين للبكوات المماليك، بل ان ضباط البلكات العثمانية صاروا يتوددون اليهم ويعملون بأمرهم وينفذون مطالبهم حتى لو تعارضت مع رغبات وأوامر الباشا.

عنه الاب متى المتنيح قبل نياحته. قدم بطركا فى السادس والعشرون من برموده سنة الف ومائة خمسة وعشرين للشهدا واقام بطركاً من [حتى] طوبه سنة الف ومائة ثلاثة واربعين للشهد.

[يوأنس البطرك التاسع والثمانون]

[١٤٢٧/ ١٤٥٢م]

يوانس البطرك وهو التاسع والثمانون من العدد

ان نيابة محمد قول قران [قول قران= قاهر المماليك] اثبتت أنها كانت حادثا عرضياً فى سياق تدهور السلطة العثمانية فى مصر، وليس أدل على ذلك من اختبار توازن القوى الذى جاء فى عام ١٦٢٣م= ١٠٣٢هـ، وذلك عندما رفض الجند قبول النائب الجديد على باشا وآعادوه الى الاستانه. وما هو مميز فى هذه المناسبة أن البكوات المماليك الذين كانوا حتى ذلك الوقت مؤيدين للسلطة الشرعية قد اشتركوا فى رفض النائب المرسل من الاستانه.

وفى اعقاب ذلك بسنوات قليلة وبوضوح وللمرة الاولى نجد ان البكوات قد تولوا زمام المبادرة وكونوا مقاومة جماعية فى مواجهة موسى باشا الذى دبر أغتيال واحد منهم عام ١٦٣١= ١٠٤٠هـ، وهو قيطاس بك فى ٩ الحجة ، واقاموا مقامه واحداً منهم هو حسن بك، وارسلوا بذلك خطاب للسلطان فلم يسعه إلا الموافقة على مافعلوه فأسسوا بذلك سابقة سوف تصبح بمثابة حق طبيعى لهم استخدموه كوسيلة للسيطره على الباشات التالين فأصبحت السلطة الحقيقة فى يدهم . ولكن معضلتهم الاساسية وهى العصبية التى ظلت تسيطر عليهم، فرقتهم الى عدة بيوت متصارعة جعلتهم فى بعض الاحيان العوبة فى يد بعض الباشات العابرين. ان البيوت المملوكية الاساسية التى كانت تتصارع فيما بينها كانت تتلخص فى بيتين، احدهما كان الفقارية الذى كان فى اساسه من العناصر الشركسية، والآخر كان القاسمية الذى تشكل فى اساسه من البوشناق القادمين مع الغزو العثمانى ولكن تم استيعابهم

هذا الاب يوانس البطريرك كرز بطركاً بالقاهرة فى السادس عشر والثمانون من العدد هذا الاب يوانس البطريرك كرز بطركاً بالقاهرة فى السادس عشر من بشنس سنة الف ومايه ثلاثة واربعين للشهدا واقام بطركاً خمسة وعشرين سنة وتنيح فى تاسع شهر بشنس سنة الف ومايه ثمانية وستين للشهدا [١٤٥٢م].

فى إطار بيئة البيت المملوكي.وكان بيت الفقارية له اليد العليا وعلى رأسه كان أحد الامراء الكبار «رضوان بك الفقارى»الذى تولى إمارة الحاج طول الفترة من عام ١٦٣١م= ١٠٤٠هـ، حتى وفاته عام ١٦٥٦م= ١٠٦٦هـ.

ان قوة رضوان بك جعلته هدفاً للمؤامرات من جانب السلطات العثمانية ومنافسيه ثم البيوت المملوكية الاخرى، فهو من ناحية كان يسعى للأستحواذ على السلطة السياسية من الباشا العثمانى، وفى ذات الوقت كان يسعى الى الانفراد بها دون البيوت المملوكية الأخرى .وهو فى سبيل ذلك كان حريصا على ان يمد نسبه الى قريش ،يتضح ذلك من مخطوط ينسب لمجهول توجد نسخة منه فى مكتبة جون رينلاندز ببريطانيا . اكتملت كتابتها فى ١٦٨١م= ١٠٩٢هـ، منقولة عن نسخة أقدم كتبت فى يناير ١٦٣٢م= رجب ١٠٤١هـ،كتبها أحد العلماء الذين كانوا فى حماية رضوان بك،واظن انه ابن ابى السرور البكرى. ان المؤلف يبدأ مخطوطه قائلاً أنه قام ببحث أمر أسلاف الجراكسة ابتداء من قريش وذلك بأمر من الامير رضوان بك الكبير،وأنه استعان فى ذلك برسالة كتبها «شهاب الدين احمد الصفدى» امام أحد المساجد [توفى عام ١٥١٧= ٩٢٣هـ] يورد ملخص لها فى اول المخطوط يتبعها بسبعة فصول قصيره يسرد فيها التاريخ الاسطورى للكعبة ابتداء من آدم حتى اسماعيل،ثم أصل قريش وارتباطهم بالكعبة،ثم رسالة الاسلام، ثم تشتت القبائل العربية فى

[متاوس البطرك التسعون]

[١٤٥٢/١٤٦٥م]

متاوس البطرك وهو التسعون من العدد هذا الاب متاوس البطرك من دير المحرق قدم بطركاً ثالث عشر شهر توت سنة الف ومايه تسعة وستون للشهدا واقام بطركاً ثلاثة عشر سنة وتنيح في ثالث عشر توت سنة الف ومايه اثنين وثمانين للشهدا [١٤٦٥م] .

الأمصار على عهد عمر بن الخطاب،وهذا يقود الى الفصل السابع محل الاهتمام ومقصد المؤلف ، وهو عبارة عن رواية اسطورية لاسلاف الجراكسة يذكر فيها أنه كانت توجد عشيرة من قريش تدعى «بنو عامر» كان رئيسها يدعى «قصى» [واسمه بالكامل «قصى بن عمر بن ود العامرى»] ،وفى اثناء استعراض بالخيول فى احد الاعياد واللعب بالسيوف، أصاب قصى عين احد البدو يدعى «فهيد» فأشتكى للخليفة عمر الذى أراد أن يقتص من «قصى» فهرب ، وعندما سئل عنه قيل انه «سرى» أى هرب بالليل مع اهله، فأصبح اسمه منذ ذلك الوقت «سرى قصى» التى حرفت الى «شراكسا» بعد ان ابدلت «السين» الاولى الى «شين» والقاف الى «كاف». وقد استمر «قصى» فى ترحاله حتى وصل الى بورصة ببلاد الروم ومعه اهله وجنده البالغ عددهم ٣٠٠,٠٠٠ شخص، وهناك أعطاه الامبراطور قسطنطين الامان وأمره ان يعبر مضيق القسطنطينية ويستوطن الارض التى يرغبها، فوصل الى ارض البلغار وقضى على من بها من الاروام ، وأقام خيامه وسمى أرضه أرض «البوسنه». وأستمر خلفاء الامير قصى من بعد وفاته فى ارضهم الجديدة تحكمهم العلاقات البدوية العربية. ثم حدث أن بعض بطون بنو عامر هاجروا الى مصر خاصة الى الشرقية ومنهم اشراف بنى عامر، وكذلك «العوامر» بمصر العليا،كما أن اصل دولة الشراكسه السلطانية بمصر أسسها السلطان الظاهر برقوق الجركسى. ان الرواية المتعلقة بالسلطان برقوق تظهره بوصفه الجد رقم ١٣أو ١٤ للأمير رضوان. ان

[غبريال البطرك الحادى والتسعون]

[١٤٦٦/ ١٤٧٤م]

غبريال البطرك وهو الحادى والتسعون من العدد هذا الاب غبريال البطرك من دير القديس انطونيوس قدم فى اليوم السادس والعشرين من امشير سنة الف ومايه اثنين وثمانين للشهدا واقام بطركاً ثمانية سنين وعشرة شهور وتنيح فى السادس والعشرين من امشير سنة الف ومايه واحد

* علامة السلطان قايتباى المحمودى تولى سنة ١١٨٤ق. = ٨٧٢هـ = ١٤٦٨م.

السلاطين الجراكسة الذين خلفوا برقوق لايبزهم سوى ابن عمه الاشرف بارسباى، وبعد الغزو العثمانى لمصر تشتت الجراكسه وعاد بعضهم الى موطنهم .ومن بين هؤلاء الجراكسة الامير رستم الذى تزوج بابنة عمه التى انجب منها العديد من الاطفال.وبعد ذلك أرسل الصدر الاعظم سنان باشا خطاباً الى رستم يطلب منه العودة ، ولكن رستم يرفض ذلك انه آمن بأرضه ولايطمع فى غيرها وان الله رزقه بأولاد ثلاث أكبرهم «خان فاضل» والاوسط «بارسباى بك» والأصغر «جان بك عزيز». ويذكره ابن ابى السرور البكرى فى مؤلفه «الروضة الزهية» وفى مؤلفه «الكواكب السائرة»، وهو استكمال للمؤلف السابق، فيورد معارك رضوان بك مع محمد باشا خاير زاده فى عام ١٦٤٨م= ١٠٥٨هـ.وفى مؤلف مجهول تحت اسم «زبدة اختصار تاريخ مصر» الذى ينتهى فى عام ١٦٩٩ يحدد تاريخ وفاة رضوان بك فى ٢٣ جماد ثان ١٠٦٦هـ= ١٨ابريل ١٦٥٦م. اما الجبرتى فيذكر انه توفى عام ١٠٦٥هـ دون تفاصيل مهمة عنه. ولقد كان الهدف من الربط بين رضوان بك وأصله القرشى الجركسى هو دعم مركزه فى السلطة باثبات الاستمرارية التاريخية للبكوات المماليك كامتداد للسلطنة المملوكية .وكان لاستحواذ رضوان بك على إمارة الحج لمدة طويلة هدف هام يتمثل فى انه احد أهم رموز السلطنة العثمانية، فمنذ انهيار دولة السلاطين المماليك الجراكسة، حصل سليم وخلفاءه على لقب «خادم الحرمين الشريفين» كمظهر من مظاهر دعم نفوذهم السياسى على العالم

وتسعين للشهدا [١٤٧٥م] بركاة صلاته تكون معنا آمين.

[ميخائيل البطرك الثانى والتسعون]

[١٤٧٥/ ١٤٧٨م]

ميخائيل البطرك وهو الثانى والتسعون من العدد هذا الاب قدم بطركاً فى الثالث والعشرين من امشير سنة الف ومايه اثنين وتسعين للشهدا واقام

• الفارس المملوكى

الاسلامى. وكان أمير الحاج مسؤلا كذلك عن غلال الحرمين وحماية قافلة الحجاج ذهاباً واياباً ومحاربة العرب البدو المغيرين عليها للسلب والنهب.وهكذا نرى على اساس من هذه الصورة، أن تأكيد نسب الأمير رضوان (الفقارى أمير الحاج) لقريش والجراكسة، كان بمثابة تحدى مزدوج للسلطنة العثمانية.وبالرغم من حيوية حكم السلطان مراد الرابع، إلا ان الامير رضوان مارس عمله بحيوية عالية معتبراً سلطته كأمير للحج مستمدة من نسبة القرشى/ الجركسى وليس بوصفه مندوب للسلطنة العثمانية .ولكن بقتله توقف هذا المشروع المملوكى. وفى سنة ١٦٦٠م=١٠٧١هـ تصرف الفقارية بطريقة تتصف بالحماقة عادت عليهم بالضرر، وعلى الباشا بأفضل الفوائد. فقد كان الباشا متحالفاً مع احمد بك البوشناقى زعيم القاسمية، وخاض معهم معركتهم ضد الفقارية، وتم له النصر عليم. ثم اغتال الباشا احمد بك [البوشناقى] كذلك عام ١٦٦٢م=١٠٧٢هـ، فتراجع بذلك نفوذ البكوات المماليك لمدة ثلاثين عاماً تالية.

ومنذ عام ١٦٧٦م= ١٠٨٧هـ،حتى عام ١٦٩٤م=١١٠٦هـ، ظهرت شخصية سياسية فقارية بارزة هى «كوجك محمد» الذى كان فى البداية مجرد انكشارى مغمورى، ولكنه بانتهاج سبل التآمر والخديعة تمكن من قيادة فرقته الاسباهية. وفى عام ١٦٩٢م= ١١٠٤هـ، والى عام ١٦٩٤م=١١٠٦هـ، اظهر بعضاً من خصائص القائد الشعبى فحارب التجار

على الكرسى سنة واحدة وثلاثة شهور وتنيح فى شـــهـــر برمـــوده سنة الف ومـــايه اربعـــة وتسعين[١٤٧٨م]

[يوانس البطرك الثالث والتسعون]

[١٤٧٨/ ١٤٨٣م]

يوانس البطرك النقادى [نقاده من اعمال قنا] وهو الثالث والتسعون من العدد هذا الاب قدم

- -

الجشعين وقضى على التجار المتلاعبين وأبطل أتاوت الفرقة العسكرية التى كانوا يجبونها لحسابهم من العامة والسقائين والتجار الصغار والبحارة فى النيل تحت اسم «الطلبة» .ولكن ذلك عاد عليه بعاقبة وخيمة، فقد تآمر عليه اصحاب المصالح وقتلوه عام ١٦٩٤م.

ان سلطة «كوجك محمد» كانت عابرة، وأهمية سيرته تكمن فى الحقيقة التاريخية القائلة بعودة الفقارية الى المسرح السياسى، وتجديدهم لصراعهم مع القاسمية مما تسبب فى خراب مصر لما يقرب من أربعين عاماً تالية. لقد قاد الفقارية فى ذلك الوقت ابراهيم بك الفقارى متحالفاً مع بيت القازدغلية الناشئ.وبلغت الصراعات ذروتها خلال عام ١٧١١م= ١١٢٣هـ بسبب ما اسماه الجبرتى بفتنة إفرنج احمد كبير الاسباهية والذى تمكن من الحصول على تأيد الفقارية ضد وجاق العزبان والقاسمية. وانتهى الصراع كما سرده الجبرتى فى الجزء الاول ص٣٣٩ بانتصار القاسمية وقتل عدد من امراء الفقارية وافرنج احمد. ولقد كانت هذه هى آخر الصراعات الكبرى التى لعب فيها الفقارية / الأنكشارية دوراً هاماً، فقد انتقل الحكم بعد ذلك الى الامراء العسكريين ونمى الحكم الذاتى المحلى القائم على سلطة البكوات.

(٤) مرحلة نمو الحكم الذاتى القائم على البكوات المماليك[١٧١١/١٧٩٨م=١١٢٣/١٢١٣هـ].

رغم أن الجزء الرئيسى من السلطة السياسة فى مصر كان قد انتقل الى ايدى الامراء المماليك من بدايات القرن الثامن عشر (الثانى عشر الهجرى) ، إلا أن هؤلاء الامراء استمروا

بطركاً فى الثالث والعشرين من برموده سنة الف وماية خمسة وتسعون واقام على الكرسى ثلاثة سنين واربعة شهور وتسعة عشر يوم وتنيح فى الخامس من توت سنة الف ومايه تسعه وتسعين[١٤٨٢م] وهذا الاب حضر له رسالة من البطريرك البابا بمدينة روميه(*) واعاد اليه الجواب برسالة ثلاثة كراريس ورق وفيها جوهر الكلام يتضمن ترك العناد والصلح والسلامه بين كامل طوايف المسيحين.

(*) رساله بمحاوله توحيد الكنايس المسيحية فى العالم.

فى كونهم يمثلون الإطار القديم للإدارة ولقد قبلوا سيادة العثمانيين الاسمية عليهم ،واخذوا فى السعى فيما بينهم من أجل الرئاسة، تلك التى كانت منذ وقت مبكر هدف إبراهيم بك الفقارى. إن الرئاسة المملوكية فى حد ذاتها ليست مفهوماً أو معياراً دستوريا بالمعنى الحديث ،انها فى الاساس نوع من الزعامة بين الأمراء يتم الاعتراف بها واقرارها عن طريق أحد الأمراء بمفرده أو عن طريق اثنين أو أكثر فى شكل ائتلاف سياسى. ولم تكن هناك قواعد أو قوانين تحكم تداول الرئاسة أو أنتقالها حتى أن سقوط أو وفاة رئاسة معينة كان يعقبه صراع بين البيوت المتصارعة على السلطة.

وفى اعقاب فتنة «افرنج احمد» نجد أن البكوات وكبار ضباط الوجاقات السبع المكونة للحامية العثمانية، كانوا على درجة متساوية من النفوذ.ولكن مع بدايات القرن الثامن عشر نجد أن كل النخب العسكرية الحاكمة فى مصر كان قد تم استيعابها فى إطار التنظيم والحماية المملوكية الثلاث الكبرى: الفقارية وهى المكونة من المماليك ذات الاصول الشركسية،ثم القاسمية بأصولها البوشناقية، والمماليك القازدغلية بزعامة الضباط الاتراك الذين اصبحوا ضمن النظام المملوكى، وأصبح تمركز السلطة داخل إطار هيئة البكوات اكثر منه داخل إطار الأمراء العسكريين . ولقد انعكس ذلك فى ظهور مصطلح خاص هو «صاحب الرياسة» أو «شيخ البلد» . لقد أطلق هذا اللقب أول ما أطلق على محمد بك الصابونجى الذى تولى هذا المنصب

٩٣: يوانس [١٤٧٨ / ١٤٨٣م.]

* ١ تـوت ١٢٠٢ = ٢٩ اغـسطس سنة ١٤٨٥ = الاثنين ١٧ شعبان سنة ٨٩٠.

* ١ يناير ١٤٨٦ = ٦طوبة ١٢٠٢ = الأحـد ٢٤ ذى الحـجـة سنة ٨٩٠.

* فيها ارتفع سعر البرسيم حتى وصل سعر الفدان الخضر اثنى عشر ديناراً، وبلغ سعر الأردب من الأرز من ستة اشرفيات الى اثنى عشر ديناراً.

* فيها اكتشف ليبر تلياوس دياس، البرتغالى، رأس عشم الخير، المسمى برأس الرجاء الصالح.

* فيها أعان مغاربة غرناطة بالأندلس الاسبانيولين النصارى حتى هزم قبودان باشا الدولة العثمانية دونمة من دونماتهم ونهب سواحل اسبانيا وايطاليا.

* ١ تـوت ١٢٠٣ = ٢٩ أغـسطس سنة ١٤٨٦ = الثلاث ٢٨ شعبان ٨٩١.

* فـيـهـا زاد النيل يوم فتح السد عشرين إصبعا من السابع عشر، واستمرت الزيادة بعد الوفـاء ثلاثة أيام زاد فيها ٤٩ إصبعا فعد ذلك من النوادر.

* ١ يناير ١٤٨٧ = ٦ طوبه ١٢٠٣ = الاثنين ٥ محرم سنة ٨٩٢.

* فيها بيع الرطل من الخبز بنصف فضة والأردب القمح بستة دنانير، ولعزة القمح بيع خبز الذرة، وكان لم يظهر فيما تقدم من سنى الغلاء، وصار الكثير من الفقراء يموت على الطرقات من شدة الجوع.

١ تـوت ١٢٠٤ = ٣٠ اغسطس ١٤٨٧ = الخميس ١٠ رمضان سنة ٨٩٢.

* ١ يناير ١٤٨٨ = ٥ طوبه

فى عقاب عام ١٧٥٦م= ١١٧٠هـ ، إلا أن فعالية حكم هيئة البكوات تناقصت بسبب الصراعات العصبية التى ميزت المجتمع المملوكى منذ العصور الوسطى.حتى أنه فى اعقاب انتصار القاسيمة على الفقارية فى فتنة إفرنج أحمد، عادت القاسمية وانقسمت الى عدة بيوت صغيرة متنافسة، سعى بعضها ممن هربوا الى الصعيد للانضمام الى الهوارة، فقويت بذلك شوكة الهوارة مرة أخرى.

الاقسام الإدارية

منذ الازمنة القديمة قسمت مصر الى ولايات كان فى الوجه البحرى منها : الغربية والمنوفية فى وسط الدلتا، والمنصورة فى الشرق،وللجنوب منها توجد ولايات الشرقية والقليوبية .اما فى غرب الدلتا فكانت ولاية البحيرة ،موطن العربان والقلاقل طوال الحكم العثمانى لمصر.

وفى الوجه القبلى جنوب القاهرة امتدت على جانبى النيل ولايات : الجيزه، البهنسا، أطفيح، المنيا منفلوط و اسيوط ،جرجا (وهى أهم ولايات الصعيد)،ثم أبريم،وأيضا واحة الفيوم .وفى ظل الحكم العثمانى ظل هذا التقسيم الادارى كما هو فيما عدا بعض التغييرات الطفيفة. فى عام ١٥٦٩/١٥٧٠=٩٧٧هـ تم فصل مدينة فارسكور وضواحيها من ولاية المنصورة وأصبحت ولاية مستقلة بسبب تحويل انتاجها الزراعى من الارز الفاخر من التزام القبائل العربية إلى التزام السلطان نفسه.وقد اعيد ضمها الى المنصورة سنة ١٨٧٥= ١٢٠٠هـ .وكانت

١٢٠٤ = الثلاث ١٦ محرم سنة ٨٩٣.

* فيها بلغ سعر الراوية من الماء ثلاثة انصاف فضة، وكان سبب ذلك عدم وجود الجمال عند السقائين.

* في ٣ ربيع الثاني عبرت البوسفور الحملة العثمانية التي حشدها السلطان بايزيد تحت قيادة على باشا لمحاربة الصربيين

* ١ تـوت ١٢٠٥= ٢٩ اغسطس سنة ١٤٨٨=الجمعة ٢١رمضان سنة ٨٩٣.

* ١ يناير سنة ١٤٨٩= ٦ طوبة ١٢٠٥= الخميس ٢٨ محرم سنة ٨٩٤.

* ١توت= ٢٩ أغسطس ١٤٨٩= السبت ٢ شوال سنة ٨٩٤.

* ١ يناير ١٤٩٠= ٦طوبه ١٢٠٦= الجمعة ٨صفر سنة ٨٩٥.

*١ تـوت ١٢٠٧= ٢٩ اغسطس ١٤٩٠= الأحد ١٢شوال سنة ٨٩٥.

* فيها حصل الرخاء وبيع كل أردب قمح بأشرفي.

* ١ يناير ١٤٩١= ٦طوبه ١٢٠٧= السبت ١٩ صفر ٨٩٦.

* فيها تنازل قايتباى إلى السلطان بايزيد عن طروس وادنه مراضاة له.

* فيها كان خضوع المغاربة الى فرديناند.

١ تـوت ١٢٠٨= ٣٠ اغسطس ١٤٩١= الثلاث ٢٤ شوال سنة ٨٩٦.

١ يناير سنة ١٤٩٢= ٥طوبه ١٢٠٨= الأحد ٢٩ صفر سنة ٨٩٧.

* فيها اخرجت المغاربة من

الاراضى الصحراواية الممتدة من ولاية الشرقية حتى سيناء ولاية مستقلة سميت باسم «قاطيه»، وكان دخل هذه الولاية فى الاساس ياتيها من الرسوم التى كانت تفرضها على القوافل التى تعبرها ذهاباً وإياباً من والى دمشق وحلب، لصرفها على القلاع العسكرية فى خان يونس والعريش ،وفى عام ١٧٠٦=١١١٨هـ انتهى وجود هذه الولاية وتم توزيع التزاماتها وأيضا عوائدها بين ولايات الشرقية والقليوبية ومدير الجمرك فى كل من القاهرة وبولاق.

اما فيما يختص بالاراضى الصحراوية الواقعة حول وادى النطرون حيث خام الفوسفات الجيد، فقد تم ضمها فى عام ١٥٩٠ = ٩٩٩هـ الى ولاية الطرانه التى ظلت مستقلة حتى عام ١٧٤٤= ١١٥٧هـ عندما تم ضمها الى ولاية البحيره. وفى صعيد مصر نجد ان كل الولايات الواقعة جنوب جرجا تم ضمها الى ولاية البحيره. وفى صعيد مصر نجد ان كل الولايات الواقعة جنوب جرجا تم ضمها اليها فى عام ١٥٧٤=٩٨٢هـ، اما فيما يختص باسوان والمنيا ومنفلوط فقد ضمت لولاية جرجا عام ١٦٩٧= ١١٠٩هـ.وفيما يختص بولاية البهنسا فقد ضمت الى ولاية أطفيح عام ١٦٤٠= ١٠٥٠هـ بعد تدميرها على يد القبائل البدوية العربية ونهبها.

إن توحيد ولايات الصعيد تحت يد حاكم واحد كان يهدف الى تقوية اليد الممثلة للحكومة العثمانية فى القاهرة ضد تمردات القبائل العربية وسرعة إرسال النجدات والحملات العسكرية إليها قد جعل هذا من حاكم جرجا الشخصية الثانية فى السلطة والثروة.

٩٣: يوانس [١٤٧٨ / ١٤٨٣م.]

غرناطة بعد أن تسلطنوا عليها ما يقرب من ٨٠٠ سنة.
* فيها كان نفى ١٦٠ الف يهودى من اسبانيا.
* فيها لما بلغ النيل ٦٧ إصبعاً من الذراع ١٨ وقف، وأخذ في النقص، فقلق الناس لذلك، ثم بعث الله تعالى بالزيادة.
* توت سنة ١٢٠٩ = ٢٩ اغسطس ١٤٩٢= الاربع ٥ ذو القعدة سنة ٨٩٧.
* في ١٧ ذى الحجة مع ليلة ١٨ اكتشف كريستوف كولومب سان سلفادور، من امريكا.
* ١ يناير ١٤٩٣ = ٦ طوبه ١٢٠٩ = الثلاث ١٢ ربيع أول سنة ٨٩٨.
* فيها اكتشف كريستوف كولومبو جزائر نتيلة، من أمريكا.

* ١توت سنة ١٢١٠ = ٢٩ اغسطس ١٤٩٢= الخميس ١٦ ذو القعدة سنة ٨٩٨.
* فيها وفى النيل، وكان وقف أياماً ونقص فقلق الناس، ثم بعث الله تعالى بالزيادة حتى وفى على العادة.
* ١ يناير ١٤٩٤= ٦طوبه سنة ١٢١٠= الأربع ٢٣ ربيع أول سنة ٨٩٩.
* ١ توت ١٢١١= ٢٩ اغسطس ١٤٩٤= الجمعة ٢٧ ذو القعدة سنة ٨٩٩.
* فيها أنشأ الأمير ازبك اليوسفى جامعه، بحارة أزبك، بشارع بركة الفيل.
* ١ يناير سنة ١٤٩٥= ٦طوبه ١٢١١= الخميس ٣ ربيع الثانى ٩٠٠.
* فيها أجرى الخواجه مصطفى بن محمود بن رستم الرومى عمارة الجامع الأزهر، وصرف عليه من ماله نحو خمسة عشر الف دينار.

وفيما يختص بالواحات الصحراوية فى الصحراء الغربية فقد كانت تشكل ولاية الواح «الواحات» التى كانت تحصل عوائدها من القوافل التى تعبرها سنويا قادمة من سنار ودارفور حاملة الذهب والعبيد لمصر ولبقية السلطنة العثمانية. وقد ظلت هذه الولاية مستقلة حتى عام ١٧٨٦= ١٢٠٠هـ عندما ضمت لولاية جرجا.

ملكية وعوايد الارض

كان للفلاح المصرى منذ القدم حق زراعة الارض مقابل جزء من عوايدها.وكانت هذه الارض تسمى «بالأثر» وكان يحق للفلاح زراعتها دون ملكيتها،ولكنه فى نفس الوقت يمكنه نقل حق الزراعة إلى أولاده، أو اشخاص آخرون يقوم هو باختيارهم.

وخلال القرن الاول من الحكم العثمانى فى مصر اعتبر أن الفلاح ملزم بأرض «الأثر» التى يزرعها. إن ابراهيم باشا الخادم وخلفاؤه كافحوا من أجل إعادة أراضى واسعه فى الدلتا كانت خربت أثناء الحروب بين العثمانيين والمماليك والبدو العرب. والفلاحون الذين هربوا من أراضيهم بسبب هذه الحروب تم اجبارهم على العودة الى زراعة الارض بحسب «قانون نامه مصر» أو إحضار بديل عنهم. ومن أجل إغراء الفلاحين على العودة إلى أرض «الاثر» صدر قانون ينص على ان الفلاحين لايجب أن يستغلوا فى العمل بأراض أخرى .ولأن يجبروا على العمل فى المشاريع العامة إلا بمقابل.

* فى ١ شـعـبـان ولادة السلطان سليمـان خـان ابن السلطان سليم.

* ١ تـوت ١٢١٢= ٣٠ اغسطس ١٤٩٥= الأحـد ٨ ذو الحجة سنة ٩٠٠.
* فيها بيع كل خمسة أرداب من القمح بدينار، والبطة الدقيق بثلاثة أنصاف فضة.
* فـيـهـا كـان دخـول داء الزهرى فى أوروبا.
* فيها انتصر كارلوس الثامن على الايطاليانية فى فورتو.
* يناير سنة ١٤٩٦= ٥ طوبه ١٢١٢= الجمعة ١٤ ربيع الثانى سنة ٩٠١.
* فى ٢٢ القـعـدة توفى السلطان قايتباى بعد أن حكم ٢٩ سنة وأربعة أشهر وعشرين يوما فبايعوا ابنه محمداً ابا السعادات، ولقب بالملك الناصر.

* ١ توت سنة ١٢١٣= ٢٩ اغسطس ١٤٩٦= الاثنين ١٩ ذو الحجة سنة ٩٠١.
* فيها ارتفع السعر فبيعت الراوية من الماء بثلاثة انصاف فضة، وبيع أردب القمح بألف درهم.
* فيها كان إنشاء جامع أم الغلام بشارع قصر الشوك.
* ١ يناير ١٤٩٧ = ٦ طوبه ١٢١٣= الاحـد ٢٦ ربيع الثانى سنة ٩٠٢.
* فيـهـا اكـتـشـف امـريكو أمريكا الجنوبية.
* فيها كان الحرب دائرا بين الأمير اقبردى الدوادار والناصر بن محمد بن الأشرف قايتباى.
* فيها وقف النيل عن الزيادة الى ٢٧ مسرى، وكسر فى ٢٨ مسرى، وقد ابطا النيل عن ميعاد الوفاء نحو عشرين يوما والناس لم يتلفتوا الى أمره، وبعد أن وفى

وحتى بداية القرن السابع عشر الميلادى (الحادى عشر الهجرى)، كانت عملية جمع العوايد من الفلاحين تتم عن طريق وكلاء يسمون «الأمناء» يحصلون على رواتب سنوية ثابته تدفع لهم من الخزانة الاميرية وذلك بغض النظر عن العوايد التى يجمعونها: ولهذا لم يكن لهم مصلحة فى جمع أى ضرايب أو عوايد جائرة.

ولكن خلال القرنين التاليين أدى ضعف سلطة الباشا العثمانى وسيطرة الأمراء المماليك على السلطة، إلى ظهور نظام جديد ومنافس خطير لنظام «الأمناء» وهو نظام «الألتزام» الذى منحت بمقتضاه الاراضى الزراعية «للملتزم» الذى يدفع عوايد الارض مقدماً ثم يجمعها من الفلاحين اضعافاً مضاعفه. فكان ذلك مصدر دعم مالى للأمراء المماليك واتباعهم بسبب احتكارهم لنظام الألتزام ، وسبباً فى ازدياد ضعف سلطة الباشا العثمانى خاصة منذ منتصف القرن السابع عشر، وداعياً لهروب الفلاحين من الارض، خاصة وأن أرض «الوسية» وهى الخاصة بالملتزم كان يجبر الفلاح على أن يعمل بها دون مقابل، وأن يدفع ضريبة للملتزم عندما يتنازل عن أرض «الأثر» لغيره أو لأولاده، أضف لذلك أن الاعمال العامة فى الترع والمصارف وغيرها صارت أجبارية وسخرة، كما أن البدو العرب لم يغلفوا عن نهب هذا الفلاح دون هوادة أو رحمة وأنضم إليهم عصابات من الجند العثمانيين، ان هذه الاوضاع كانت شديدة الوضوح والتأثير فى منطقة الدلتا بالذات، اما فى صعيد مصر فقد كان وضع

---

٩٣ : يوانس [١٤٧٨ / ١٤٨٣م.]

لم يمكث سوى أيام لم هبط بسرعة فاشرقت البلاد وارتفعت أسعار الغلال.

* ١ تـوت ١٢١٤= ٢٩ اغسطس سنة ٤٩٧= الثلاث ٣٠ ذو الحجة سنة ٩٠٢.
* فيها كان غلاء شديد، وبلغ سعر الأردب القمح ثلاث أشرفيات.
* فيها صارت معاملة الفلوس الجدد بالعدد وبطل الوزن فكثرت، وصار النصف فضة يصرف بأربعة عشر منها والدينار الذهب بثلاثين نصفاً من الفضة، وبيعت البضائع بسعرين بالفضة والفلوس.
* ١ يناير سنة ١٤٩٨= ٦ طوبه سنة ١٢١٤= الاثنين ٧ جماد أول سنة ٩٠٣.
* فيها كان ابتداء ظهور داء يقال له الحب الافرنجي (الزهرى) فاعيا الاطباء، ولم يظهر بمصر قط إلا في هذا التاريخ.
* فيها اكتشفت الانكليز كنادا.
*فيها سارت البورتغاليون الى الهند من طريق رأس عشم الخير
* فيها أكتشف كريستوف كولومبو جزءاً من قارة امريكا يقال له لاترينيت.
* ١ تـوت ١٢١٥= ٢٩ اغسطس ١٤٩٨= الأربع ١١ محرم ٩٠٤.
* في ١٦ ربيع أول قتل طومان باى السلطان محمداً أبا السعادات، الملقب بالملك الناصر، بالقرب من قرية الطالبية، من أعمال الجيزة، بعد أن حكم سنتين وثلاثة أشهر، فولى السلطنة بعده أبو سعيد قانصوه، ولقبوه بالملك الناصر،
* ١ يناير ١٤٩٩ = ٦ طوبه ١٢١٥= الثلاث ١٨ جماد أول سنة ٩٠٤.

الفلاح مختلفاً. فالقبائل العربية والهواره كان لهم نفوذ أقوى بسبب المساحات الصحراوية الشاسعة المحيطة بالوادى،وقيام بعض افرادهم بالزراعة إلى جانب الفلاحين المصريين ،كل ذلك ساعدهم على استقرار نفوذهم وقناعة السلطة المركزية في القاهرة بتوكيلهم بجمع العوايد وتوصليها إلى الخزانة الاميرية.

ان بعض هؤلاء البدو استمروا في حياة نصف بدوية، حيث كانوا يستقرون في أراضي «الأثر» في مواسم الرى ، ويقومون بعد ذلك بالعمل مع أخواتهم البدو في الصحارى باحثين عن القوت بأكثر الاساليب التقليدية أغراقاً في البداوة.

كما ان الفلاحين المصريين في هذه المناطق كان يمكنهم بعد موسم الرى أن يقوموا ببعض الاعمال الحرفية أو مزاولة بيع الخضر والفاكهة في المدن المجاورة وحتى في القاهرة نفسها. وفي النهاية كان ملتزموا الصعيد لا يمتلكون أرض «الوسية» التي يجبرون الفلاحين على العمل بها سخرة.

ولكن خلال حكم على بك الكبير وما بعده تم تدمير قوة القبائل البدوية وبخاصة الهوارة في الصعيد وتم توزيع أراضيهم على ملتزمين من القاهرة وجرجا، وهكذا خضع فلاحو الوجه القبلى لنفس الظروف التي خضع لها أخوانهم في الدلتا.

٩٣ : يوانس [١٤٧٨ / ١٤٨٣م.]

* فيها صار اكتشاف الساحل الشرقي لامريكا.
* فيها زاد النيل في ٣ مسرى ٣٠ إصبعاً، وفي ٤ مسرى ٤٠ دفعة واحدة. وفي ٥ مسرى ٢٠ إصبعاً ثم وفي خامس مسرى، وكسر في ٦ منه، واستمر في الزيادة والثبوت الى أواخر بابه.

* ١ تـوت ١٢١٦= ٣٠ اغسطس ١٤٩٩= الجمعة ٢٣ محرم سنة ٩٠٥.
*فيها أشهر السلطان بايزيد الحرب مع البنادقة، وكان تعطيل التجارة وصعوبتها سبباً في نقض الصلح وايقاع الحرب دائماً بينهم وبين السلطان.
*١ يناير ١٥٠٠= ٥طوبة ١٢١٦= الأربع ٢٩ جماد أول سنة ٩٠٥.
* فيها اكتشف البورتغاليون بريزيلة والمكتشف هو أيفارى كابرال.
* فيها كان الطاعون في انجلتره.
* فيها اكتشف متسان ينكوف نهر الامازون.
* فيها اكتشف البورتغاليون الساحل الشرقي من الأرض الجديدة.
* فيها فتح العثمانيون مدينتي مدون وقرون.
* وفي أواخرها صار خلع قانصوه الثاني وتولية قانصوه الثالث، الملقب بالملك الأشرف، وهو المعروف بالسلطان أبي النصر جانبلاط الأشرفي.

* ١ تـوت ١٢١٧= ٢٩ اغسطس ١٥٠٠= السبت ٣ صفر ٩٠٦.
* في ١٨ جمادى الآخرة صار خلع قنصوه الثالث، وتولية سيف الدين طومان، ولقبوه بالملك العادل.

حقوق استغلال إنتاج الارض

تبعاً للتقاليد العثمانية كانت العلامة الاساسية لسيادة السلطان هى ملكيته المطلقة لكل موارد الثروة في السلطنة،وهو الذى كان يمنح حق استغلال هذه الموارد ،ومنها الارض، إما بشكل ملكية خاصة (ملك) أو بشكل وديعه (وقف أو رزق)، أو بأعتبارها ملكية خاصة للسلطان (خواص همايون)، وهذه كان يوزعها كذلك من أجل استغلال عوايدها لصالح الخزانة السلطانية، أو من أجل القيام بخدمات خاصة يطلبها السلطان.

الاملاك الخاصة للسلطان (خواص همايون) في مصر.

لما كانت الارض الزراعية هي المصدر الاساسي للثروة في مصر، فقد استخدامتها السلطة العثمانية كمصدر اساسي للخزانة السلطانيه. لقد كانت مهمة الادارة المالية العثمانية الاساسية في مصر هى تنظيم وتشجيع استغلال الاراضي الزراعية وما له صلة بها وكذلك المصادر الأخرى الواقعة في املاك السلطنة.كانت السلطنة المملوكية تعالج هذا الموضوع عن طريق منح تفويض لأحد الوسطاء يسمى بتفويض «الاقطاع»، سمى في ظل السلطنة العثمانية باسم تفويض «المقاطعة».

ان السلطة الممنوحة في إطار «المقاطعة» كانت تتم بطرق ثلاث هى «التيمار» و«الأمانات» و«الالتزام».

* ١ يناير ١٥٠١ = ٦طوبة ١٢١٧ = الجمعة ١٠ جماد الثانى سنة ٩٠٦.
* في رمضان أنشأ الملك العادل أبو النصر طومان باى جامع العدلي بالعباسية.
* فيها أضمر المماليك مكيدة يقتلون بها طومان باى، فعلم بذلك ففر فأوى الى مكان ظنه ملجأ حصينا مكث فيه أربعين يوما، ثم علم به المماليك فضبطوه وقتلوه في ذى القعدة، وولوا الأمير قانصوه الرابع، الملقب بالغورى، ولقبوه بالملك الأشرف.

* في ٤ مسرى زاد النيل ٤٠ إصبعاً، ثم ٢ في الخامس، وفي ٨ منه زاد ١١ إصبعاً.

* ١ توت سنة ١٢١٨ = ٢٩ أغسطس ١٥٠١ = الأحد ١٤ صفر ٩٠٧.
* فيها توجه العثمانيون الى نهر الطونة لقتال لادسلاس ملك المجر، حيث كان يشاغلهم لمساعدة البنادقة.
* ١ يناير ١٥٠٢ = ٦ طوبه ١٢١٨ = السبت ٢١ جمساد الثاني سنة ٩٠٧.

* فيها اكتشف حنانوفا، البورتغالى، جزيرة سنت هيليه.
* فيها أنشأ ابو البقاء جلال الدين الصديقي جامع البكرية بالقرب من جامع الرطلى.

* ١ توت سنة ١٢١٩ = ٢٩ اغسطس ١٥٠٢ = الاثنين ٢٤ صفر ٩٠٨.
* فيها كانت محاربات بين الفرنساوية والاسبانيوليين
* ١ يناير سنة ١٥٠٣ = ٦طوبه ١٢١٩ = الأحد ٢ رجب سنة ٩٠٨.
* فيها كان الفراغ من بناء

اما «التيمار» فكان يتضمن توكيل يعطي لصاحبه حق الاستغلال الكامل للأراضي في مقابل خدمات يقدمها للسلطان ذات طبيعة عسكرية أوادارية .ومن ثم فقد كان «التيمار» شكلاً من اشكال «المرتب» يزول بزوال الخدمات التى يقدمها صاحب «التيمار».

ان النقيض الكامل لهذا الاسلوب هونظام «الامانات» ، فهو عباره عن توكيل يعطى لموظفين ذوى مرتبات ثابتة يسمون «الأمناء». وهؤلاء كانت مهتهم استغلال أحد موارد الثروة والقيام بجمع عوايدها وتسليمها بالكامل للخزانة السلطانية ،وبالتالى لم يشاركوا مباشرة فى العوايد التى كانت تأتى تبعاً لجهودهم.

اما الإلتزامات فقد جمع بين عناصر من «التيمار» و«الامانات» .فمثل «التيمار» كان الملتزم يحصل على حق الاستغلال مقابل خدماته الإدارية فى المناطق الخاضعة للالتزام.وفى نفس الوقت كان عليه ان يسلم مبلغا ثابتا سنويا للإدارة المالية ،وفى هذا كان واجبه يتشابه مع واجب «الامين». ولكن على عكس الأمين كانت عوايد الملتزم تأتيه من الاموال التى يقوم بجمعها، والتى كانت تختلف من عام لآخر،بينما كان الأمين يتلقى راتباً من الخزينة ليس له صلة مباشرة بما يجمعه.

وبايجاز شديد فإنه فى حالة «التيمار» كان الناتج الكلى يذهب إلى صاحب التيمار ،وفى حالة «الأمانات» كان الناتج الكلى يذهب إلى الخزانة السلطانية، بينما فى حالة «الألتزام» كان

مــدرســة الغــورى، التى برأس الشوايين.

* ١ توت سنة ١٢٢٠= ٣٠ اغـسطس ١٥٠٣= الأربع ٧ ربيع أول سنة ٩٠٩.

* فيها عقدت شروط صلح بـين الـسـلـطـان بـايـزيـد والبادقة،ومقتضاه صار البنادقة يبحرون علي البحر الأسود بلا معارضـة رخص لهم فى ارسال قنصل الى القسطنطينية، لكن نزعت من أيديهم مدائن قرون ومدون واينه يختى.

* ١ يناير ١٥٠٤= ٥طوبه ١٢٢٠= الاثنين ١٣ رجب ٩٠٩.

* ١ تـــوت ١٢٢١ = ٢٩اغسطس ١٥٠٤= الخميس ١٨ ربيع أول سنة ٩١٠.

* فيها ارسل الغورى جيشا من المماليك الى الهند بقصد طرد البرتغاليين عنها ورجوع التجارة الى طريق مصر. لأنها كانت أخذت مسلك طريق عشم الخير، ولكن لم ينجح فى هذا القصد، بل انكسرت عساكره البحرية.

* ١ يناير سنة ١٥٠٥= ٦طوبة سنة ١٢٢١= الأربع ٢٥رجب ـ ٩١٠.

* فيها كان أول ضرب عملة الشيلين فى انجلترا.

* فيها استولت الاسبانيول على حوران.

* فيها توفى أيوان الثالث، امبراطور الروسيا.

* ١ توت سنة ١٢٢٢= ٢٩ اغسطس ١٥٠٥= الجمعة ٢٨ ربيع أول سنة ٩١١.

* ١ يناير ١٥٠٦=٦ طوبه ١٢٢٢= الخميس ٥ شعبان سنة ٩١١.

الناتج يقسم بين «الملتزم» و«الخزانة». وفى كل هذه الحالات كانت «المقاطعات» تمنح أو تمنع بحسب الخدمات المتصلة بها. مع ملاحظة ان هذا النظام لم يتعرض لحق الفلاح فى أراضى «الأثر».

ويجب ان نلاحظ هنا ان الاشكال الثلاثة «للمقاطعات» تشكل تطوراً تاريخياً هاما فى الملكية الزراعية بمصر فى هذه الفترة.

فإذا نظرنا لنظام «التيمار» وهو النظام المملوكى السابق للغزو العثمانى نجد أنه بمضى الزمن أصبح يمثل «ملكية خاصة» للأرض، حتى أن السلطان الغورى كان يشترى ويمنح لنفسه عن طريق مماليكه أراض واسعة بواسطة نظام «التيمار»، فدخل بذلك فى منافسه شديدة مع الامراء المماليك أصحاب التيمارات الأخرى.

ان هذا النظام كان فريداً من نوعه،ولم يكن موجوداً إلا بمصر فى هذا العصر،ولكن بعد الغزو العثمانى انقرض تماماً، ذلك انه كان يشكل نوعاً من الملكية الخاص للأرض تسمح لحائزيها بسلطة اقتصادية وسياسة منافسة، وهذا يتعارض مع منطق الغزو العثمانى، ولذلك استبدلت السلطنة العثمانية بنظام «التيمار» نظام «الامانات».

ان نظام «الامانات» كان يمثل محاولة من سلطات الغزو العثمانى ان تضع يدها على

٩٣: يوانس [١٤٧٨ / ١٤٨٣م.]

* فيها حصلت ثورة في جنوا ضد أحكام الفرنساوية.
* فيها اكتشف لوران الميدا جزيرة سيلان.
* فيها توفي كريستوف كولومب في حالة الفقر والذل والنسيان.

* ١ تـوت ١٢٢٣= ٢٩ اغسطس ١٥٠٦= السبت ٩ ربيع أول سنة ٩١٢.
* في ٦ مسرى زاد النيل ٣٠ إصبعا، ثم ٢٠ في ٧ منه، ثم ٢٠ في ٨ منه، وكانت الزيادة ٧٠إصبعا في ثلاثة أيام.

* ١ ينـاير سنة ١٥٠٧= ٦طوبه ١٢٢٣= الجمعة ١٦ شعبان سنة ٩١٢.
* فيها لويز الثاني عشر أخمد ثورة الجنويين.
* فيها اكتشفت البورتغال مداغشقر.
* في ١١ مسرى زاد النيل ٥٠ إصبعا، ثم ٢٠ في ١٢ منه، ثم ٢٠ في ١٣منه، فكانت الزيادة ٩٠ إصبعا في ثلاثة أيام، ووفى في ١٤مسرى.

* ١تـوت ١٢٢٤= ٣٠ اغسطس ١٥٠٧= الاثنين ٢١ ربيع الثاني سنة ٩١٣.
* ١ ينـاير سنة ١٥٠٨=، طوبه ١٢٢٤= السبت ٢٧ شعبان سنة ٩١٣.
* فيها اكتشفت سبكيير، البورتغالي، جزيرة سوماترا وبحيث وجزيرة ملقا.
* فيها انقطع جسر أم دينار ليالي الوفاء فاضطربت احوال الناس وحصل بسببه ضرر وصاروا يمسكون الناس من الطرقات ويرمونهم في الحديد ويتجهون بهم إلى الجسر للسخرة في بناءه.

الاراضي الزراعية ومواردها في ظل سطوتها العسكرية، من اجل استنزاف موارد مصر لصالح الخزانه السلطانية العثمانية،ودعم نفوذها العسكرى في مصر.

ولكن مع ضعف نفوذ السلطنة العثمانية في مصر وصعود قوة الامراء المماليك ،الخاضعين لها اسمياً، ظهر وساد نظام «الالتزام» على حساب نظام «الامانات»، كمحاولة من الامراء المماليك للسيطرة على عوايد الاراضي الزراعية من اجل تأسيس نفوذ اقتصادى يدعم نفوذهم السياسى النامي في وجه السلطنة العثمانية بمصر وهذا ما تم قرب نهايات القرن السابع عشرة.

ولقد زاد الامراء المماليك (البكوات) من نفوذهم المادى عندما تمكنوا من السيطرة على عوايد «الحلوان» الناتجة عن بيع الالتزامات الشاغرة ، بسبب موت ملتزمها السابق أو سحبها منه بسبب اخلاله بتوريد العوايد. وهى العوايد التى كانت تجسد المظهر الرئيسى للسلطة العثمانية في مجال الادارة المالية .فمن المعروف انه بعد عام ١٥٨٦= ٩٩٥هـ كانت عوايد «الحلوان» تمنح للباشا كهبة من السلطان تحت اسم «خاص وزير». ولكنه في عام ١٦٧١ = ١٠٨٢هـ عندما أصبح على الباشا أن يدفع للخزانه السلطانية ضريبة سنوية على هذا «الحلوان» ،تحولت هذه الضريبة إلى الإدارة المالية في مصر كهبة من السلطان كذلك ، ولأن الباشا لم تكن له مصالح مالية مباشرة في رفع عوايد الحلوان- حتى لاترتفع الضريبة التى سيدفعها على هذه العوايد ـ كما أن نفوذه الذى أخذ في الضعف في مواجهة الأمراء

٩٣ : يوانس [١٤٧٨ / ١٤٨٣م.]

* ١ تـــوت ١٢٢٥ = ٢٩ اغسطس سنة ١٥٠٨ = الثلاث ٢ جماد أول ٩١٤.
*١ يناير ١٥٠٩ = ٦طوبه ١٢٢٥ = الاثنين ٩ رمضان ٩١٤.

* ١ تـــوت ١٢٢٦=٢٩ اغسطس ١٥٠٩ = الاربع ١٣ جماد أول ٩١٥.
* ١ يـنـايـر ١٥١٠ = ٦ طوبة ١٢٢٦ = الثـلاث ٢٠ رمضان ٩١٥.
* فيها رصد فيرنيوس ميل الكسوفية قال بأنه ٢٣ درجة و٢٨ دقيقة و٣٠ ثانية.

*وفيها وقف النيل ليالى الوفاء على خمسة أصابع فنزل السلطان وبات به وقرأ ختمة شريفة فوفى ثانى ليلة أربعة أصابع، واستمرت الزيادة الى ١٧ توت.

* ١ تـــوت ١٢٢٧ = ٢٩ اغسطس ١٥١٠ = الخميس ٢٤ جماد أول سنة ٩١٦.
* فيها أمر السلطان بسد خليج الزربية، فعمل عليه جسر، فأقام نحو سنتين ثم بطل ذلك وأعيد كما كان.
* ١ يناير ١٥١١ = ٦ طوبة ١٢٢٧ = الأربع غرة شوال سنة ٩١٦.

* ١ توت سنة ١٢٢٨ = ٣٠ اغسطس ١٥١١ = السبت ٥ جماد الثانى سنة ٩١٧.
* فيها اكتشف أبير، البورتغالى، جزائر السوند.
* فيها اجتاز الأمير سليم بغاز القسطنطينية، ومعه عشرون ألف، قاصد قتال ابيه السلطان بايزيد، فخاب سعيه، فالتجأ الى أرض القرم، ثم عاد للقتال فلم يقدر والده على مقاومته فعهد اليه

المماليك، قد حد المماليك من قدرته على تحديد قيمة هذه العوايد بما يوافق مصلحتهم، بل أحياناً كان هذا الاتفاق يتم مع الباشا نفسه،ولهذا نادراً ما كانت الخزانة السلطانية تعرف الحجم المالى لعوايد «الحلوان».

يضاف إلى ما سبق أنه خلال القرن الثامن عشر ظهرت عادة جديدة مضمونها أن يدفع مشترى الالتزام عربونا فى لحظة الشراء، ثم يسلم باقى المبلغ على اقساط يدفعها من ارباحه التالية .وكان الملتزم فى كثير من الاحيان يماطل فى دفع هذه «التقاسيط»، وكان الباشا يفشل فى جمعها بسبب ضعف نفوذه المستمر، حتى وصل الأمر إلى أنه كانت تمنح الألتزامات دون «حلوان» ، إما بموافقة الباشا تحت ضغوط الامراء المماليك ، أو بالتحايل على ذلك عن طريق ان يقوم الملتزم قبيل موته بالتخلى سراً عن حقه فى الالتزام لمن يرغب فى أن يجعله خليفة له، وحينئذ ، عندما يموت وتقوم الأدارة المالية العثمانية بمحاولة الإستيلاء على الالتزام يقوم المالك الجديد بإظهار صكوك تنازل الملتزم المتوفى فيمنع الالتزام من البيع ولايحصل عليه بالتالى عوايد «حلوان».

وفى حالات أخرى عندما كان الملتزمون يموتون فى ظروف غير متوقعه ـ كما فى الطواعين والحروب والمؤامرات ـ أو يهربون نجد ان ورثتهم كانوا قادرين على ان يجبروا الباشا على ان يبيع التزامه لهم مقابل أن يدفعوا عوايد «الحلوان» للباشا مباشرة، وكان هذا يسمى

٩٣ : يوانس [١٤٧٨ / ١٤٨٣م.]

بالسلطنة وخلع نفسه وطلب أن يذهب الى مدينة ادرنه ليقيم بها، فتوجه وسار معه السلطان سليم حتى وصل الى مكان معلوم فعند ذلك جثا على ركبته وسأل أباه الدعاء، لكن لما علم منه التوانى فى السير وقع منه فى نفسه شيء وقيل إنه أمر بسمه.

* ١ يناير ١٥١٢= ٥ طوبه ١٢٢٨= الخميس ١١ شوال سنة ٩١٧.

* فيها انهزمت الفرنساوية فى ايطاليا.

* فى ١٠ ربيع اول توفى السلطان بايزيد الثانى، وعمره: ٦٧ سنة، ومدة حكمه ٣٢ سنة، وتسلطن بعده ولده السلطان الغازى سليم خان.

* ١ توت ١٢٢٩= ٢٩ اغسطس سنة ١٥١٢= الاحد ١٦ جماد الثانى سنة ٩١٨.

* فيها اكتشف بونك، الاسبانولى، فلوريده.

* فيها جاء كركود، أخو السلطان سليم بن بايزيد (سليم الأول) الى مصر ملتجئا اليه بعد أن تخاصم معه أخوه على الملك

* ١ يناير ١٥١٣= ٦ طوبه ١٢٢٩= السبت ٢٣ شوال سنة ٩١٨.

* فيها اكتشف تنجومسى بالدور البحر الجنوبى.

* ١ توت ١٢٣٠ = ٢٩ اغسطس ١٥١٣= الاثنين ٢٦ جماد الثانى سنة ٩١٩.

* ١ يناير سنة ١٥١٤= ٦ طوبة سنة ١٢٣٠= الاحد ٤ ذو القعدة ٩١٩.

* فيها اغار السلطان سليم على دولة الصوفية فدخل بلاد الأرمن ثم التقى مع العجم تحت اسوار مدينة طوروس، فى سهل

«المصالحة» وكان العائد الذى يأخذ الباشا فى هذه الحالة يسمى «بمال المصالحة». ولقد حاول الباب العالى ان ينظم هذه العملية بان تمنع المصالحة على الملتزم الهارب أو الذى يعدم بسبب الجرائم الكبرى، ولكن ذلك لم يأت بنتيجة تذكر بسبب اختلال توازن القوى بين الباشا والامراء المماليك.

وعند نهاية القرن الثامن عشر نجد ان الاراضى التى كانت ـ من الوجهة النظرية ـ بمثابة ممتلكات للسلطنة العثمانية فى مصر،كانت فى الواقع تمتلك بوصفها ملكاً خاصاً للأمراء المماليك.

ومن اجل أن تكون هناك صفة شرعية لهذه الملكية الخاصة للارض، حدث تطور إدى إلى ايجاد اسلوب جديد لمنح «المقاطعات» سمى «الملكانى». إن الالتزام يظل نظريا قابل للبيع والإخلاء، بينما «الملكانى» بالإضافة إلى حقوق «الملتزم»، كان له الحق فى ان ينقل «مقاطعته» إلى غيره بالوراثة .، وهذا يشكل تطورا هاماً للغاية فى مجال الملكية الخاصة للأرض ، وبعد عام ١٧٦٥= ١١٧٠هـ تحولت معظم مقاطعات الإلتزام إلى نظام «الملكانى» بفضل إزديا قوة ونفوذ الأمراء المماليك.

وهكذا نجد أن أغلبية المقاطعات فى مصر قد جرى تطورها عبر ثلاثة أنماط من الحيازه هى «التيمار» و«الامانات» و«والإلتزام» حتى وصلت إلى «الملكانى» الذى يمثل نظام من الملكية

شلديران، فانهزم العجم لكثرة العثمانية، التي مع نصرتهم قتل منهم أربعون ألفا.

* ١ تـوت ١٢٣١= ٢٩ اغسطس سنة ١٥١٤= الثلاث ٨ رجب سنة ٩٢٠.
* ١ يناير سنة ١٥١٥= ٦ طوبة ١٢٣١ الاثنين ١٥ ذو القعدة سنة ٩٢٠.
* فيها كان اكتشاف بيرو.
* فيهـا أباد السلطان سليم البادوليت، حاكم أرمنستان، وعائلته عن اخرهم، لكونه خان في مبدأ حربه مع العجم.

* ١ تـوت ١٢٣٢= ٣٠ اغسطس ١٥١٥= الخميس ٢٠ رجب سنة ٩٢١.
* ١ يناير ١٥١٦= ٥طوبه ١٢٣٢= الثلاث ٢٦ ذو القعدة سنة ٩٢١.
* فيما أمر ملك الأمراء بأنه ينادى في القاهرة بأن الأشرفي العثماني والفرزق لا يصرف بأكثر من خمسين نصفا فضة، وأن النصف النحاس يرمي.
* فيها أنشأ الملك الأشراف قانصوه الغوري جامع الغوري، بعرب يسار، قريب من قره ميدان.

* فيها افتتح باربروس بلاد الجزائر.

* ١توت سنة١٢٣٣ = ٢٩ اغسطس١٥١٦= الجمعة ٣٠ رجبسنة٩٢٢.
* في ٢٥ رجب مات السلطان الغوري قتيلا تحت أرجل الخيل حال محاربته للعثمانيين بحلب، فبايعت الأمراء طومان باى الثاني، كان قد أستخلفه عند مبارحته القاهرة، وانعقدت له البيعة في ١٤ رمضان.
* فيها أستولت الاسبانيوليون على جميع بلاد أسبانيا.

الخاصة للأرض كان من الممكن أن يرتقى ويسود لو لا قيام نظام محمد على فيما بعد والذى فرض فيه نظام الاحتكار.

ان القوة المادية العسكرية والاقتصادية التى احتازها الأمراء المماليك عن طريق نظام «الملكاني» في الارض الزراعية وكذلك الإقطاعات الاقتصادية الاخرى التى تستغل الموارد التجارية والصناعية، عن طريق السيطرة على الوجاقات العسكرية، قد مكنها طوال القرن الثامن عشر من نقل السلطة المالية والاقتصادية والعسكرية والإدارية من يد الديوان والباشا الى ايديهم بفضل صلابتهم وسياسة النفس الطويل على المستوى الاقتصادى ـ كما سبق وذكرنا ـ وعلى المستوى العسكرى الذى تمثل فى دفع الامراء المماليك لعبيدهم المعتوقين إلى سلك الوجاقات والسيطرة عليها. فمن المعروف ان كل أمير كان يتملك جماعة (بيت) خاصة من العبيد يعملون ويدربون على القتال تحت يد نائبه (الكاشف) ، وخلال فترة تدريبهم كان الامير (الاستاذ) يدفع لهم معايشهم من خزانته الخاصة، وبعد ان يخدموا عنده عدة سنين يتم عتقهم والحاقهم بالفرق العسكرية (الوجاقات)، ان هذا لم يكن القصد منه اعدادهم لخدمة السلطان ـ كما يبدو من الظاهر- ولكن بقصد التخلص من عبئهم المالى من ناحية،وكسب ولاء الفرق العسكرية من ناحية أخرى. ولهذا فإنه عند نهاية القرن الثامن عشر نجد أن الفرق العسكرية العثمانية ـ أسماً ـ تشارك في نزاعات البيوت المملوكية- كما حدث فى فتنة افرنج

* فيها كان اكتشاف ريوجابتور وريودولا بلاط.

* ١ يناير سنة ١٥١٧ = ٦ طوبه ١٢٣٣ = الخميس ٧ ذو الحجة ٩٢٢.

* في محرم احضر للسلطان سليم مفاتيح القلعة وهو في بولاق، وفي ٣ منه دخل القاهرة من باب النصر، وفي ١١ محرم نودى بالأمان.

* في ٦ ربيع أول ضربت اعناق ٥٤ أميرا من المماليك، وفي ١٢ منه صار شنق طومان باى على باب زويلة فانقطع به الحبل مرتين، وفي الثالثة قضى عليه، وبقي معلقا ثلاثة أيام.

* فيها غلت أسعار الغلال وارتفع الخبز من الاسواق، لأخذ العساكر الغلال التى فى الأسواق وجعلها علفا للخيول، وقد بلغ ثمن الراوية من الماء أربعة انصاف فضة.

* ١ توت سنة ١٢٣٤ = ٢٩ اغسطس ١٥١٧ = السبت ١ شعبان ٩٢٣.

* في ٢٣ شعبان خرج السلطان سليم من مصر إلى القسطنطينية، واخذ معه ابن الغورى ومحمد المتوكل على الله الخليفة العباسي، وترك في مصر شخصا يقال له خيربك، لقبه باشا وجعله واليا عليه.

* فيها وقف النيل مرتين ستة أيام في أبيب وستة أيام في مسرى.

* فيها استولت الاسبانيوليون على جزيرة سيسليا.

* ١ يناير سنة ١٥١٨ = ٦طوبه ١٢٣٤ = الجمعه ١٨ذو الحجة سنة ٩٢٣.

* فيها مريدكوردو اكتشف المكسيكا.

* في شهر ابيب وقف النيل،

احمد وغيرها ـ وعندما كان السلطان يرسل إلى الباشا طالباً أمدادات من جنود الفرق العسكرية للحرب، كان الباشا يتصل بالأمراء المماليك لإعداد هذه الأمدادات ويحصلوا على عوايد مالية كافية من الخزانة السلطانية.

وهكذا عند نهاية القرن الثامن عشر نجد ان كل مراكز السلطة العثمانية قد اصبحت في يد الامراء المماليك «البكوات الصناجق» وكذلك العوايد المالية المنتزعة من الإقطاعات المختلفة. وكان زعيم اكبر البيوت المملوكية، ومن ثم اكثرها قوة، يصبح زعيماً للجميع «شيخ البلد» الذى كان بمثابة الحا كم الفعلى لمصر. وعندما وصل نابليون إلى الأسكندرية لم يحارب الباشا العثماني ، ولكنه كان يحارب شيخ البلد المملوكي.

والسلطان العثماني نفسه ضحى بالهيئة الحاكمة العثمانية التى سبق وأسسها من أجل مغازلة السلطة المملوكية، وذلك في مقابل طلب واحد هو وصول الخزانة السلطانية المنتزعة من الاقطاعات. وحتى هذا الطلب خضع في النهاية للمساومة والمصالحة حتى توقف في عهد على بك الكبير وانتهى على يد ابراهيم بك ومراد بك قبل الغزو الفرنسى بقيادة بونابرت.

بالإضافة إلى الاراضى التى سبق ذكرها، كانت هناك أراضي وممتلكات أخرى يتم نقل ملكيتها من إطار الممتلكات السلطانية إلى الأبد، وكذلك من إطار الخزانة الاميرية من أجل تدعيم المؤسسات الخيرية والدينية.

ثم تسلسل في الزيادة وصار يزيد كل يوم إصبعا وتارة إصبعين، وقد مضى من مسرى عشرة أيام، فاضطربت حوال الناس وغلت الغلال وبلغ سعر البطة الدقيق اثنى عشر نصفا فضة.

* ١ تـوت ١٢٣٥=٢٩ اغسطس ١٥١٨= الأحد ٢٢ شعبان سنة ٩٢٤.

* ١ يناير سنة ١٥١٩ = ٦ طوبه ١٢٣٥ = السبت ٢٩ ذو الحجة ٩٢٤.

* فيها وقف النيل عن الزيادة واستهل شهر ابيب والنيل مستمر على وقوفه، ولم تبتدئ الزيادة إلا في ١٠ أبيب.

* فيها قبض ملك الأمراء خاير بك على جماعة من اليهود، من معلمي دار الضرب، وأمرهم بالتوجه الى اسلامبول لاصلاح المعاملة.

* فيها وقع الغلاء وعز وجود الخبز في الأسواق وبلغ سعر الأردب القمح الى ألف درهم وسعر البطة من الدقيق ٢٠ نصف فضة، ولغلاء اللحم لم يطبخ إلا القليل، وبيع رطل اللحم البقرى بنصف فضة.

* ١ تـوت ١٢٣٦= ٣٠ اغسطس ١٥١٩= الثلاث ٤ رمضان سنة ٩٢٥.

* في أواخرها بلغ سعر الأردب القمح ثلاث أشرفيات واثنى عشر نصفا فضة، وبطة الدقيق باشرفي وخمسة انصاف فضة، وارتفعت أسعار الأشياء.

* في يناير ١٥٢٠م وقعت الحرب بين أسوج والدانيمارقة.

* في يناير ١٥٢٠م. استولى كرستيان الثاني على استكهلم.

* فى طوبه اول يناير ١٥٢٠م ساح مجلان أول سياحة ومكث لغاية سنة ١٥٢٢.

ان المؤسسات الخيرية كانت تملك نوعين من الاراضى .. الاول هو «الوقف» والثانى هو «الرزق».

١.الـوقـف: عندما استولى العثمانيون على مصر وجدوا بها مساحات واسعة من الاراضى الزراعية والنشاطات الحضرية تحت يد الاوقاف، وكان اكبر هذه الاوقات هى اوقاف السلاطين التى اوقفوها على المدن المقدسة [اوقاف الحرمين]. وقد حافظ السلطان سليم على كل ذلك وتبعه خاير بك الذى صادر بعض هذه الاوقاف لصالح الخزانة الاميرية عندما لم يعثر على حججها بسبب تدمير الدفتردارية المملوكية وتهريب سجلاتها.

وفى الاعوام من ٩٢٤هـ= ١٥١٨م إلى ٩٢٩هـ = ١٥٢٣م، تسبب انخفاض فيضان النيل ومتاعب ما بعد سقوط النظام المملوكى فى حدوث قصور شديد فى الخزانة السلطانية، مما دفع الحكام العثمانيين بمصر فى هذه الفترة إلى ضم العديد من املاك الاوقاف إلى الخزانة الاميرية ، وفرض ضرائب على ما تبقى منها موقوفاً.

وفى ظل تطبيق قانون نامه مصر سنة ٩٣١هـ = ١٥٢٥م، قام ابراهيم باشا الحاكم العثمانى بمصر بوضع كل الاوقاف تحت إشراف قاضى القضاه، والذى كان يمارس عمله من خلال ضابط يطلق عليه لقب «ناظر النظار» .هذا الضابط كان يجمع ريع هذه الاوقاف من ناظر كل وقف ويصرفها على الوجوه المقررة لها فى حجة الوقف.وكان كبار النظار بما فيهم

٩٣ : يوانس [١٤٧٨ / ١٤٨٣م.]

* فيها توفى رفائيل الرسيم الايطالياني الشهير.
* فيها كان افتتاح مكسيكو لفرنندكورتز.
* فيها اكتشف مجلان «تيرادلفويجو».
* وقف النيل عن الوفاء ثمانية أيام متوالية فاضطربت الناس من ذلك.

* ١ تسوت ١٢٣٧= ٢٩ اغسطس ١٥٢٠= الأربع ١٥ رمضان سنة ٩٢٦.
* في ٢٦ توت ٢٣ سبتمبر توفي السلطان سليم خان، وعمره: ٥١سنة، ومدة حكمه ٨سنين وتسعة أشهر، وتسلطن بعده ولده السلطان سليمان خان.
* فيها ضرب السلطان سليمان نقودا بالقسطنطينية.
* ١ يناير ١٥٢١= ٦طوبه ١٢٣٧= الثلاث ٢١ محرم سنة ٩٢٧.
* في يناير ١٥٢١ افتتح السلطان سليمان الثاني بلغراد.
* انشأ خيربك جامع خيربك بالخير بكية بباب الوزير.
* في مارس = برمهات= ربيع ثاني اكتشف مجلان جزائر الفلبين وجزائر لادرون.

* في ابرايل = بر موده= جماد اول نودى في القاهرة بأن الاشرفي الذهب يصرف بخمسة وأربعين نصفا، وقيل بخمسة وأربعين عثمانيا، وفي البيع والشراء بخمسة وأربعين نصفا، فسكن الاضطراب.

* ١ تسوت ١٢٣٨= ٢٩ اغسطس ١٥٢١= الخميس ٢٥ رمضان سنة ٩٢٧.
* ١ يناير ١٥٢٣= ٦ طوبة ١٢٣٩= الخميس ١٣ صفر ٩٢٩.
* في يناير = طوبه = ربيع

ناظر النظار يعينون من قبل الباب العالى، اما نظار الاوقاف الصغيرة فكانوا يعينيون من قبل البكوات المماليك أو قضاة المذاهب الاربعة في مصر.

إن أوقاف الاراضي الزراعية كان يتم استغلالها إما مباشرة على يد الناظر أو وكلاء ،واما على يد ملتزم في الغالب كان هو القائم على التزام أراضي المقاطعة المجاورة لأراضي الوقف. وخلال القرن الثامن عشر نجد أن هؤلاء الملتزمين كانوا يحتجزون لأنفسهم الكثير من عوائد الوقف، وذلك بالتضامن مع النظار، حيث كان الاثنين يقتسمان الايردات الزائدة. بالإضافة إلى ان هؤلاء الملتزمين كانوا يفرضون عوائد إضافية غير قانونية على فلاحي الاوقاف يدفعون جزاء منها لحاكم المقاطعة تحت اسم «مال حماية» ، حتى يتغاضى عن هذه العوائد غير القانونية.

وفي عام ١٠٨٢هـ= ١٦٧١م تم تحويل هذه العوائد من دخل الحاكم إلى الخزانه الاميرية.

٢-الـرزق:- جمعها ارزاق – يشبه الرزق الراتب وذلك من ناحية الهدف، اما من الناحية التاريخية والقانونية فعلينا أن نتذكر ما يلي:

في مصر الفاطمية لم يشجع الحكام عملية تحويل ملكية الاراضي الزراعية إلى شكل الاوقاف الدينية والخيرية ، وذلك من واقع أن الأرض هي المصدر الاساسي للثروة ، ونمو الاوقاف كان سيحرم خزانة الدولة من إيراد هام على مستوى الانتفاع والمستوى الضريبي، ولكن في نفس الوقت كان لابد من تواجد المؤسسات الدينية والخيرية، ومن هنا ظهر أسلوب

اول أبدل والى مصر مصطفى باشا بأحمد باشا، الذى كان صدارا عظيما للسلطان سليم، فلما تولى ولده السلطان سليمان جعل فى الصدارة ابراهيم باشا ونقل أحمد باشا الى ولاية مصر، وكانا اعداء لبعضهما.

* فى ابريل = برموده = جماد ثان استولت الفرنساوية على كندا.

* ١ تـوت ١٢٤٠=٣٠ اغسطس ١٥٢٣ = الأحد ١٨ شوال ٩٢٩.

* ١ يناير ٥٢٤= ٥ طوبه ١٢٤٠= الجمعة ٢٣ صفر سنة ٩٣٠

* فى يناير ١٥٢٤م أرسل الصدر الاعظم لأمراء القاهرة بقتل أحمد باشا الوالى، فقبض على التحارير قبل أن تصل لأصحابها، ثم استدعاهم واخبراهم انها اوامر من السلطان قاضية بقتلهم ثم صرح باستقلاله وأمر أن يخطب له وأن تضرب النقود باسمه، فثارت الأفكار عليه.

* فى ١١ مـايو = ١٦ بشنس = ٦ رجب ولادة السلطان سليم الثانى، ابن السلطان سليمان خان.

* فى ٤ يونيو= ١٠ بؤنه = ١ شعبان كان أحمد باشا فى الحمام فجاءه أميران، كان أمر بسجنهما وخرجا رافعين العلم السلطانى، ففر الباشا من السطح والتجا الى أحد مشايخ عربان الشرقية، واسمه ابن بقر، فتعقبوه وقطعوا رأسه وعلقوها على باب زويله.

* فيها أرسل السلطان قاسم باشا واليا على مصر، بدلا من أحمد باشا.

الرزق الاحباسية، وهو اسلوب يتم عن طريقه تحويل قسم من عوائد بعض الاراضى الزراعية إلى المؤسسات الدينية والخيرية، فكان الحاكم يفرض عائد سنوى محدد وثابت على حائزى الاقطاعات بوصفه رزقا بالإضافة إلى الضريبة الاساسية، ومن ثم فإن الرزق لم يكن يتضمن اى تنازل عن حق الانتفاع للأرض.

ولكن خلال القرون التى تلت ذلك، نجد أن الجهود التى بذلت من أجل التحكم فى الاوقاف قد فشلت ، ونجد انه فى العهد المملوكى أضحت الاوقاف بمثابة المصدر الرئيسى للمؤسسات الخيرية والدينية، مع استمرار اسلوب الرزق ولكن فى نطاق ضيق ومحدود.غير انه إلى جانب اسلوب الرزق الخيرى والدينى ظهر اسلوب الرزق الحربى «الرزق الجيوشى» والذى كان يمنح لاشخاص يقومون بمهام خاصة ومحددة مدى الحياه،ومن هنا كان يحق لصاحبه ان يبيعه أو يورثه أو يحوله إلى وقف خيرى أو دينى.

وكانت «الارزاق الجيوشيه» تصرف من «ديوان الجيوش» بوثيقة يمنحها السلطان تعرف باسم «المرابعه». وهى خلاف «المرابعه الشريفى» التى كان يقوم عليها القضاة المشرفين على «ديوان الاحباس».

وخلال الفترة الاولى من الحكم العثمانى كانت سياسة مراقبة الأرزاق تتأرجح بحسب الظروف. فعقب الغزو مباشرة امر السلطان سليم بترك الاوقاف والارزاق الجيوشة فى أيدى

* ١ توت سنة ١٢٤١= ٢٩ اغسطس ١٥٢٤= الاثنين ٢٨ شوال سنة ٩٣٠.
* في اكتوبر = هاتور = محرم كان انهزام الفرنساوية في ايطاليا.
*في نوفمبر كيهك = صفر أرسلت رأس أحمد باشا الى الاستانه.
* ١ يناير ١٥٢٥= ٦ طوبة ١٢٤١= الأحد ٦ ربيع أول سنة ٩٣١.
* بعد تسعة أشهر و١٤ يوما استبدل السلطان قاسم باشا بالصدر الأعظم ابراهيم باشا، وكان نشيطا محبا للاصلاح.
* في ١٤ مارس = برمهات= جماد ثان حصل صلح كراكوفي بين البروسيا وبولونيا.

* ١ توت ١٢٤٢= ٢٩ اغسطس ١٥٢٥= الثلاث ١٠ ذو القعدة سنة ٩٣١.
* ١ يناير ١٥٢٦= ٦ طوبة ١٢٤٢= الاثنين ١٧ ربيع أول سنة ٩٣٢.
* في يناير حصل صلح مدريد بن فرانسو الاول وشارلكان.
* فبراير= امشير= جماد الأول انتصر السلطان سليمان الثاني على المجر في موهاكنر.
* في مارس= برمهات= جماد ثان افتتح ميزار بلاد بيرو.
* في مايو = بشنس= شعبان معاهدات كونياك بني فرانسو الأول وأقاليم ايطاليا ضد شارلكان.
* ١ توت ١٢٤٣= ٢٩ اغسطس ١٥٢٦= الأربع ٢١ ذو القعدة سنة ٩٣٢.
* ١ يناير ١٥٢٧ = ٦ طوبة ١٢٤٣= الثلاث ٢٧ ربيع أول سنة ٩٣٣
* في يناير ١٥٢٧= طوبة

حائزيها، ولكن بعد ذلك، وفى نفس عام الغزو صودرت ايراداتها لصالح القوات العثمانية. وفى عام ٩٢٤هـ أعاد خاير بك إيرداتها لحائزيها، ولكن فى عام ٩٢٦هـ عاد وصادرها لصالح النفقات العامة. وفى عام ٩٢٧هـ قام مفتش الارزاق وصادر معظمها لصالح الخزانة الأميرية وعلى الأخص «الارزاق الجيشية»:

«وحضر الحائزون إلى منزل [منزل الحاكم] وفى ايديهم الاوراق و«المرابعات» وعندما قرؤها عليه طالبهم باثبات أصل هذه «المرابعات» وأصل أصولها.وعندما كانوا يفشلون فى ذلك كان يتوجه إلى قاضى الحنفية ويقول أن هؤلاء لايملكون سنداً شرعياً فى هذه الاوراق،ثم يأخذ هذه الاوراق ويرفعها إلى خاير بك .وهكذا حرم الكثير من حقوق «المرابعات» ومنهم النساء».

انظر ابن اياس ص ٤١٦.

هذا ما ذكره ابن اياس بالنسبة للارزاق الجيشية.ولكن فى شعبان ٩٢٨هـ= ١٥٢٢م صودرت بقية الارزاق بنفس الطريقة. وبعد شهرين من ذلك أعاد خاير بك الارزاق الجيوشية إلى من رضى عنهم، فاعاد حوالى الألفين من المرابعات إلى اصحابها.وخلال العام التالى كانت كل الارزاق الجيوشية قد عادت لحائزيها.

وبعد صدور قانون نامه فى عام ٩٣١هـ= ١٥٢٤م تم تكوين «قلم الرزق» وذلك فى إطار الإدارة المالية لمصر بهدف عمل حصر شامل لأسماء حائزى الارزاق لجمع عوائدها «مال خراج

ربيع الثانى استبدل السلطان والى مصر ابراهيم باشا بسليمان باشا الخادم، ومكث فى الحكم تسع سنوات و١١ شهراً.

* فى مارس = برمهات = جماد ثان كانت مهاجمة جيوش شارلكان رومية، ونهبهم وقبضهم على الباب ـ اكليمنوفس السابع وسجنه

* ١ توت ١٢٤٤= ٣٠ اغسطس ١٥٢٧= الجمعة ٢ ذو الحجة سنة ٩٣٣.

* ١ ينـاير ١٥٢٨= ٥ طوبة ١٢٤٤= الأربع ٨ ربيع الثانى سنة ٩٣٤

* فى يناير ١٥٢٨م كانت تجريدة الفرنساوية وحملتها على نابولى.

* فبراير = امشير = جماد ثان. قاس فرنيل قوسا من الخط الجنوبى.

* مارس= برمهات = رجب اكتشف اندريه فيدالينا، الاسبانيولى، بلاد غينا الجديدة.

* ١ توت ١٢٤٥= ٢٩ اغسطس ١٥٢٨= السبت ١٣ ذو الحجة سنة ٩٣٤.

* ١ يناير ١٥٢٩= ٦ طوبه ١٢٤٥= الجمعة ٢٠ ربيع الثانى ٩٣٥.

* فى طوبة = يناير ١٥٢٩ عاد السلطان سليمان الى بلاد المجر وتوغل حتى دخل بلاد النمسا وحاصر مدينة فينا فأجبرته مقاومة المحصورين على الانصراف والرجعة.

* في مارس ١٥٢٩= برمهات= رجب اقامت مسيحو الإصلاح الحجة على مقاوميهم، واطلاق لقب البروتستانت عليهم.

* فى ١٣ بؤنه = ٨ يونيو = ٢٩ القعدة كانت معاهدة

رزق» من الملتزمين ثم توزيعها على مستحقيها ، هذا القلم «قلم الرزق» كان مستقلاً عن الدفترداريه ولايخضع لماليتها ولاتضم إيراداته لها، ولكن كان على ملتزمى الأرزاق دفع معلوم للخزانه السلطانيه مقابل إثبات حقهم وحماية هذا الحق يسمى «مال حماية رزق».

نظام جمع الضرائب

أن عوائد الضرائب الزراعية فى مصر كانت تجبى عيناً من الفلاحين، وكان الملتزمون يأخذونها للبيع أما فى أسواق المقاطعة أو الولاية أو فى اسواق العواصم والمدن الكبرى، وذلك من أجل سدد الاموال الخاصة بالخزانة السلطانية. وفى حالات محدودة كان يسمح بدفع جزء من العوائد بشكل عينى للخزانة من بعض اقطاعات الوجه البحرى ،فى صورة قطن أو أرز أو خيار شنبر (قرون نباتية مسهلة للمعدة) أو سكر بعد تقيمه نقداً.

وعندما كان الفلاح يدفع للملتزم ما عليه نجد أن الملتزم كان يقوم بدفع مبلغ أقل للخزانة السلطانية، ومن ثم يحتفظ بالفارق بين المبلغين لنفسه.وكنتيجة لمثل هذه الممارسات، كان الفلاح يدفع المزيد من النقود بوصفها ضريبة أرض، وذلك المزيد اكثر مما كان فعلياً مربوط عليه للخزانة. وفي زمن الحملة الفرنسية قدر أن ما يقرب من ٢٥٪ من عوائد ضريبة الارض التى كان عليها أن تذهب إلى الخزانه، كان يتم الاستلاء عليها بمثل هذه الطريقة. وفى النهاية نجد أن الفلاحين كانوا مرغمين أن يسلموا كل ناتج عملهم ما عدا ذلك الكم الضرورى

كـامـبـرى، والمسـمـاة بصلح السـيـدات، لانهـا تمت بواسطة لويزة، سـيـدة سـافـوا، ومرجريته، سيدة أوستريا، وهي بين فـرانسـوا الأول وشـارلكان، مصدقه على صلح ٩٣٢.

* ١ تـوت ١٢٤٦= ٢٩ اغسطس ١٥٢٩= الأحد ٢٤ ذو الحجة سنة ٩٣٥.

* ١ تـوت ١٢٤٧= ٢٩ اغـسـطس ١٥٣٠= الاثنين ٥ محرم سنة ٩٣٧.

* في توت ١٢٤٧ = سبتمبر = صـفـر كـان الصلح الديني المسمى بصلح نورمبرج، وهو بين البروتستانت والكاثوليك، وقد صدق عليها امبراطور المانيا، وقد تجـدد هذا الصلح فى كل سنين ١٥٣٤ و١٥٣٩ و١٥٤٢ و١٥٤٤ مسيحية.

* ١ يناير ١٥٣١= ٦ طوبه ١٢٤٧= الأحد ١٢ جماد أول ٩٣٧.

* في فبراير ١٥٣١= امشير = رجب حصلت زلازل عظيمة في لسبون.

* ١ تـوت ١٢٤٨= ٣٠ اغـسـطس ١٥٣١= الأربع ١٦ محرم سنة ٩٣٨.

* في توت ١٢٤٨ = سبتمبر = صـفـر كـان ثمن كل جـمـل يسافر للحجاز ٣٦٠ نصفا فضه، وعـدة الجـمـال اللازمـة للحـاج ٧٩٥ جملاً.

* ١ يناير ١٥٣٢= ٥ طوبه ١٢٤٨= الاثنين ٢٢ جماد أول ٩٣٨.

* ١ تـوت ١٢٤٩ = ٢٩ اغسطس ١٥٣٢= الخميس ٢٧ محرم سنة ٩٣٩.

* ١ يناير ١٥٣٣= ٦ طوبة

لقوتهم الاساسي، وفي كثير من الاحيان كان الفلاحون وأولادهم يقومون بالخدمة الإلزامية عند الملتزمين على سبيل ضمان ولائهم وأدائهم لألتزاماتهم الضريبية المفروضة عليهم.

وعندما كان يزيد عسف وابتزاز الملتزمين للفلاحين خاصة في سنين هبوط فيضان النيل، كانت تندلع تمردات الفلاحين ويدمرون أجهزة الرى ويقتلون الملتزمين ومعاونيهم.

إن الألتزامات الضريبة على كل مقاطعة تجاه الخزانة كان يتم تدوينها في «تذكرة» بواسطة كاتب القسم المختص بالخزانة، وذلك بعد أن يستلم تقرير عن عدد الفدادين التي تم ريها وزراعتها في هذا العام.

هذه التذاكر كانت تسلم لفرقة من «أوجاق المتفرقة» بالقاهرة، وهؤلاء كانوا يسافرون للاقاليم لجمع المبالغ المطلوبة من حكام الأقاليم وتوصيلها للخزانة بالقاهرة ، وفي بعض المناطق كان هؤلاء الجنود يجمعون الضرائب مباشرة من القرى أو الملتزمين عن طريق جنود يعملون في خدمة حكام الأقاليم.وفي بعض الحالات كان الملتزمون يدفعون الضرائب المباشرة للخزانة في القاهرة بعد ان يبيعوا محاصيلهم بها،ويحصلون مقابل ذلك على إيصال يرسلونه إلى مناطق التزامهم حتى يمكن اثبات ذلك امام الجنود جامعى الضرائب .ولقد كان يتم جمع هذه الضرائب بشكل موسمي ، إما شتوى أو صيفي.

١٢٤٩= الأربع ٤ جماد الثاني ٩٣٩.
* في فبراير = برمهات = شعبان افتتح بيزار مملكه بيرو.
* في مارس كان التحزب العام ضد فرانسا.

* ١ تـوت ١٢٥٠= ٢٩ اغسطس ١٥٣٣= الجمعة ٨ صفر ٩٤٠.
* في توت ١٢٥٠= سبتمبر كان ثمن الجمل لسفر الحجاز ٢٥٠ نصفاً فضة وعدة الجمال ٥٠٢ جمل.
* ١ يناير ١٥٣٤ = ٦ طوبة ١٢٥٠= الخميس ١٥ جماد الثاني سنة ٩٤٠.
* في يناير ١٥٣٤ ترجم لوثير الانجيل الى اللغة الألمانية.
* فيها كان اتحاد أوجسبورج بين فرانسو الأول والبرنسانت البروتستانت من المانيا ضد شارلكان والكاثوليك.
* في مارس= برمهات= رمضان انعقدت معاهدة بين جمهورية البندقية والسلطان سليمان الأول.

* ١ تـوت ١٢٥١= ٢٩ اغسطس ١٥٣٤= السبت ١٨ صفر سنة ٩٤١.
* في سبتمبر كان استيلاء القرصان باربروس على تونس.
* ١ يناير ١٥٣٥ = ٦ طوبه ١٢٥١= الجمعة ٢٥ جماد الثاني سنة ٩٤١.
* في يناير ١٥٣٥م استقدم السلطان سليمان باشا، والى مصر، الى الأستانة، وسلمه قيادة حملة لمحاربة الفرس والهند، وقد اناب عنه في مدة غيابه خسرو باشا، فاقام نائباً عن سليمان باشا نحو سنه وعشرة أشهر.
* في ابريل انعقدت معاهدة

وكانت الضريبة الشتوية تمثل ثلاثة أرباع الضريبة الكلية،كل ربع يختص بضريبة ثلاثة شهور، والضريبة الصيفية وهى تسدد البقية الباقية من الضريبة فالضريبة الشتوية كانت هى الضريبة الرئيسية التى كانت تستخدم فى دفع الإلتزامات المالية الخاصة بأرض الحرمين ، أما الضريبة «الصيفى» وهى الضريبة الاصغر فكان يحتفظ بها من أجل سداد الألتزامات المفروضة تجاه «الباب العالى» .ولكن فى القرن الثامن عشر اصبحت هذه الضريبة تستخدم فى سداد الألتزامات المالية الخاصة بأراضى الحرمين.

كانت عملية جمع الضريبة «الشتوى» تبدأ مباشرة بعد انحسار مياه الفيضان، وكان ذلك عادة يتم في الشهر الثالث بعد وصول مياه النيل إلى قمة فيضانها ،ومن ثم بداية كسر الجسور النيلية. وبالنسبة لعملية جمع الضريبة العينية للخزانة، فقد كانت تبدأ في يوليو لترسل إلى الباب العالى عند بداية شهر ديسمبر.

وعندما كان الملتزمون فى وضع لايمكنهم من ان يدفعوا كل الضرائب المدونة فى التذاكر، كانت النقود الباقية تظل ديناً بوصفها «بواقى» يكلف جنود من أوجاق «الجاويشية» بجمعها ، ولذلك فإنه إبان الفترات التى يتم فيها جمع الضرائب أو المحاصيل كانت تحدث معارك وصدامات موسمية بين جنود اوجاق المتفرقة الذين كانوا يجمعون الضرائب الشتوية وجنود

بين فرانسو الأول، ملك فرانسا، والسلطان سليمان الأول.

* ١ تـوت ١٢٥٢ = ٣٠ اغسطس ١٥٣٥= الاثنين غرة ربيع أول ٩٤٢.
* في سبتمبر كان استيلاء شارلكان على تونس.
* فيها اكتشف لورتيز بلاد كاليفورنيا.
* ١ يناير ١٥٣٦= ٥ طوبة ١٢٥٢= السبت ٧ رجب ٩٤٢.
* في يناير ١٥٣٦م بسبب غيرة الوزراء وحسدهم للصدر الأعظم ابراهيم باشا، الذى ولى مصر، اغروا به السلطان سليم بالقول انه يريد الاستبداد والتغلب وقتل السلطان والقيام بالسلطنة، فقتله السلطان لذلك.

* ١ تـوت ١٢٥٣ = ٢٩ اغسطس ١٥٣٦= الثلاث ١٢ ربيع أول ٩٤٣.
* في سبتمبر نسجت أهالي جنوه الأقمشة الحريرية في معامل ليون.
* فيها كانت معاهدة بين فرانسو الأول وجاك الخامس الايقوسياني.
* ١ يناير ١٥٣٧= ٦ طوبه ١٢٥٣= الاثنين ١٩ رجب سنة ٩٤٣.
* في يناير ١٥٣٧م. عاد سليمان باشا والى مصر اليها .
* في فبراير ١٥٣٧م كانت معاهدة بين فرنسو الأول والسلطان سليمان الأول.
* ١ تـوت ١٢٥٤ = ٢٩ اغسطس ١٥٣٧= الأربع ٢٢ ربيع أول سنة ٩٤٤.
* سبتمبر كان الصلح بين بلاد أسوج والروسيا.
* ١ يناير ١٥٣٨= ٦ طوبه ١٢٥٤= الثلاث ٢٩ رجب سنة ٩٤٤.

الجاويشية الذين كانوا يجمعون «البواقي» ونتج عن ذلك أن الجنود من الفرقتين كانوا يهاجمون القرية وفي ايديهم المساوق والعصى الغليظة [العكاكيز] لجمع الأموال من الفلاحين، ومن هنا عرفوا «بارباب العكاكيز».

وبشكل عام كانت الضرائب لايمكن طلبها قبل أكتمال حصاد المحاصيل، ولكن في بعض الأحيان كان ضغط الألتزامات العسكرية في القرن الثامن عشر، خاصة الرواتب المتأخرة للجند،كان يؤدى إلى جمع الضرائب قبل عملية الحصاد، ومن ثم كان يتم الاستيلاء على بقايا المحصول السابق الذى حجز للبذار ،مما يضر بعملية الزراعة في الاعوام التالية.

وبعد عام ١١٨٣هـ= ١٧٦٩م أصبحت للبيوت المملوكية سيطرة كاملة على عملية جمع الضرائب وحسابها وتوريدها للخزانة وألغى النظام السابق. وهكذا أصبحت عملية تقدير العبء الضريبي وجمعه يتحكم فيه «شيخ البلد» أى الوالى والمماليك ، بالاتفاق مع الباشا العثماني ، وهؤلاء يحولون للخزانة المبالغ التى يحددونها حسب مصالحهم الشخصية مما أضر في النهاية بايرادات الخزانة السلطانية.

الى جانب العوائد السابقة التى كانت تجمع لصالح الخزانة السلطانية،كانت هناك عوائد

* في يناير ١٥٣٨م. أجتمعت مراكب البندقانيين مع مراكب العثمانيين واتحدوا على حرب البرتغاليين، وكانت التجارة اتبعت طريق عشم الخير، وتركت طريق مصر، فعمل البندقانيون عند عيون موسى مجارى من البناء لتوصيل مائها الى حوض عملوه على ساحل البحر الأحمر لينتفع به مراكبهم، وبعد العيون عن الساحل نحو ٥٠٠ متر، وآثار المجرى والحوض باقية الى الأن.

* في مايو = بؤنه = محرم عهدت ولاية مصر . وباشاويتها، إلى داود باشا.

* ١ تـــوت ١٢٥٥= ٢٩ أغسطس ١٥٣٨= الخميس ٣ ربيع الثاني سنة ٩٤٥.

* في توت ١٢٥٥= سبتمبر جماد أول انشا سيدى جمال الدين الخلوتي ابن السيد جاهين جامع سيد جاهين الخلوتي بسفح المقطم.

* ١ يناير ١٥٣٩= ٦ طوبة ١٢٥٥= الأربع ١٠ شعبان سنة ٩٤٥.

* في يناير ١٥٣٩م. كان ابتداء استعمال المدافع في السفن الاوربية.

* ١ تـــوت ١٢٦٠ = ٣٠ اغسطس سنة ١٥٤٣ = الخميس ٢٩ جماد أول سنة ٩٥٠.

* في توت ١٢٦٠ = سبتمبر = جماد ثان كان أول استعمال الدبابيس في انجلتره.

* ١ يناير سنة ١٥٤٤ = ٥ طوبه سنة ١٢٦٠ = الثلاث ٥ شوال سنة ٩٥٠.

* برمهات = مارس = محرم كان انتصار السلطان سليمان الثاني على المجر.

*١ تـــوت ١٢٦١ = ٢٩

أخرى تجمع كمصاريف ادارية لصالح القائمين على جمع أموال الخزانة السلطانية تسمى «مال كشوفية» ، وهي نوعان، كشوفيه قديم وكشوفيه جديد.

[١] «كشوفيه قديم» : تشمل ١- مال كشوفيه. ٢- حق طريق. ٣- تذاكر جاويشية.

٤- علوفه وطلبه . ٥- خادم عسكر. ٦- مال جهات.

١-مالكشوفيه: في قانون نامه مصر، كان من سلطة الكشاف حكام الاقاليم أن يجمعوا ضريبة محددة مقدارها عشرة بارات من كل قرية بوصفها«مال كشوفيه» وذلك على سبيل تعويضهم عن التكاليف التي يتحملونها من مقام وإعاله إبان رحيلهم في القرى للقيام بواجباتهم. إن هذه الضريبة النقدية قد تم وضعها كبديل لضريبة عينية كان مقدارها خروف عن كل قرية. ولكن مع مضي الوقت أضاف الكشاف إلى هذه الضريبة عوائد أخرى على الفلاح بنفس الأسم لتأخذ نفس شرعيتها.

٢-حقطريق: أعتمدت فكرة الضريبة على ما أقره الغزاة العرب لمصر من أنه كان لكل بدوى عربي يمر بقرى الفلاحين المصريين الحق في الإقامة والضيافة الإجبارية، يقوم بها الفلاحين صاغرين. وفي قانون نامه مصر كان من حق الجند القائمين على جمع الضرائب الحصول على نفقات الرحلة والإقامة من الفلاحين .وفي الأعوام التى تلت صدور قانون نامه

٩٣: يوانس [١٤٧٨ / ١٤٨٣م.]

اغسطس ١٥٤٤ = الجمعة ١٠ جماد الثاني سنة ٩٥١.

* توت ١٢٦١ = سبتمبر = رجب كان الصلح بين التركيا وبين جمهورية البندقانيين.

* ١ يناير ١٥٤٥ = ٦ طوبه ١٢٦١ = الخميس ١٧ شوال سنة ٩٥١.

* طوبه = يناير ١٥٤٥ = ذو القعدة. كان التئام المجمع التريدينتين.

* برمهات = مارس = محرم كان أول اصطناع الابر في انكلتره.

* ١ توت ١٢٦٢ = ٢٩ اغسطس ١٥٤٥ = السبت ٢٠ جماد الثاني سنة ٩٥٢.

* ١ يناير ١٥٤٦ = ٦ طوبه ١٢٦ = الجمعة ٢٧ شوال سنة ٩٥٢.

* في ١١ مسرى ٤ اغسطس = ٥ جماد ثان ولادة السلطان مراد خان الثالث ابن السلطان سليم الغازى.

* ١ توت ١٢٦٣ = ٢٩ اغسطس سنة ١٥٤٦ = الأحد ٢ رجب ٩٥٣.

* ١ يناير ١٥٤٧ = ٦ طوبه ١٢٦٣ = السبت ٩ ذو القعدة سنة ٩٥٣.

* في ١٧ برمهات = ١١ مارس = صفر حصلت معاهدة بين فرانسو الاول وادوار الثامن لانكلتره.

* في أواخر برمهات = ابريل = ربيع أول كانت قيمة الدنار خمسة وعشرون نصفاً، وكانت عوائد أمير الحج المقررة من الخزائن السلطانية ١٤ ألف دينار.

* ١ توت ١٢٦٤= ٣٠ اغسطس سنة ١٥٤٧ = الثلاث ١٤ رجب سنة ٩٥٤.

مصر نجد أن مصطلح «حق طريق» قد ضم اليه عوائد أخرى مفروضة على الفلاحين لصالح الديوان والوالي والملتزمين المحليين وغيرهم ، ومرة أخرى نجد أن عوائد جديدة قد تم إعطائها الشرعية عن طريق ربطها بالضرائب التى سمح بها القانون قبل ذلك.

٣-**تذاكرجاويشيه**:منذ ان اصبح «حق طريق» ضريبة عامه ثابته للعديد من الموظفين، تم فصل الجزء الخاص بالجند عنه وسمي «تذاكر جاويشية» وذلك إبتداء من عام ١١٠٦هـ = ١٦٩٤م،كان يجمعه الجند من الفلاحين بحسب تقديرهم لمسافة السفر ومدة الإقامة، وذلك بناء على «تذاكر» تمنح للجنود بصرف النظر عن أوجاقهم . وقد زادت الضرائب التى جمعت باسم هذه التذاكر بشكل هائل تحت سطوة العنف والاستبداد حتى بلغت ١،١١٨،٣٠١ باره في العام.

وذلك كما قررتها الميزانية التى اعتمدها الغازى حسن باشا عام ١٢٠١هـ= ١٧٨٦م. ولكنه مع الوقت صار من الصعب على الجند جمع قيمة هذه «التذاكر» بسبب صراعاتهم واهمالهم ، فقام الباشا في عام ١١٨٩هـ= ١٧٧٥م بناء على طلب الجند والمماليك بضم «تذاكر الجاويشية» إلى ضريبة الارض الزراعية ،ثم تخصم منها وتوزع على هيئة رواتب تدفعها الخزانة السلطانية.

٤-**علوفه وطلبه**:وهي تشبه ضريبة «حق طريق»، ولكن بينما كانت ضرائب «حق طريق»

* ١ يناير ١٥٤٨ = ٥ طوبه ١٢٦٤ = الأحد ٢٠ ذو القعدة سنة ٩٥٤.

* ١ تـــوت ١٢٦٥ = ٢٩ اغـسطس سنة ١٥٤٨ = الأربع ٢٤ رجب ٩٥٥.
* ١ يناير ١٥٤٩ = ٦ طوبه ١٢٦٥ = الثلاث غرة ذى الحجة سنة ٩٥٥.
* برمــودة = مــارس = ربيع اول توفى داود باشا، فتولى مكانه على باشـا، ولم يحكم إلا اربع سنوات وستة أشهر.

* ١ تـــوت ١٢٦٦ = ٢٩ أغـسطس ١٥٤٩ = الخميس ٥ شعبان سنة ٩٥٦.
* ١ يناير ١٥٥٠ = ٦ طوبه ١٢٦٦ = الأربع ١٢ ذى الحجة سنة ٩٥٦.

* ١ تـــوت ١٢٦٧ = ٢٩ أغسطس سنة ١٥٥٠ = الجمعة ١٥ شعبان سنة ٩٥٧.
* ١ يناير ١٥٥١ = ٦ طوبه ١٢٦٧ = الخـــمـيس ٢٢ ذى الحجة سنة ٩٥٧.
* امشير = صفر = فبراير كـان استيـلاء المسلمين على طرابلس.

* ١ تـــوت ١٢٦٨ = ٣٠ اغسطس ١٥٥١ = الأحد ٢٧ شعبان سنة ٩٥٨.
* ١ يناير ١٥٥٢ = ٥ طو به ١٢٦٨ = الجمعة ٤ محرم سنة ٩٥٩.
* في أمشير = يناير ١٥٥٢ = صفر كان إعدام كتب الجغرافيا وعلم الفلك فى انجلترە بدعوى أنها منجسة بالسحر.
* فى ٢٥ برمودة = ٢٢ مايو ١٥٥٢م. حصلت معاهدة هنرى

هذه ذات طابع شرعى، فإن العلوفة والطلبه لم تكن كذلك، وظلت غير شرعية بالرغم من أنها خلال القرن الثامن عشر وصلت فى متوسطها ما بين ٢٠٠٠ و٢٥٠٠ باره عن كل قرية، وفى زمن الحملة الفرنسية نجد أن ٦,٢١٧,٣١٢ باره كان يتم جمعها سنوياً على سبيل العلوفه والطلبه.

٥-خدم العسكر: هذه الضريبة فرضت على القرى الواقعة فى ولايات الوجه البحرى من أجل دعم أوجاقات التفكجيان الجومليان والجراكسه الذين كانوا يرسلون فى معية العسكر لخدمة حكام الولايات والمحافظة على أمنها. وقد كانت هذه الضريبة تجبى من الملتزم على أساس تذاكر يصدرها حكام الولايات. وفى زمن الحملة الفرنسية بلغت جملة الأموال التى جمعت تحت هذا الاسم ٤,٣٩٦,٣١٣ باره كان أغلبها يستحوذ عليه حكام الولايات.

٦-مال جهات: منذ منتصف القرن السادس عشر كانت هذه الضريبة تجمع من الولايات التى تتجمع خلالها قوافل الحاج المصرى وهى: الغربية والبحيرة والشرقية من اجل شراء المواد التموينية من هذه الولايات بهدف ارسالها إلى قلاع مدينتى العقبة والأزلم، ولكى تزود حراسة قافلة الحاج باحتياجاتها فى رحلة العودة من الحج.

كانت هذه الضريبة فى اول أمرها لاتزيد عن ٥٩٤,٠٠٠ باره [عام ١١٠٧هـ= ١٦٩٥م] تجمع من الولايات سابقة الذكر. ولكن فى عام ١١٨٢هـ= ١٧٦٨م تم رفعها إلى

٩٣: يوانس [١٤٧٨ / ١٤٨٣م].

الثاني، ملك فرانسا، والبابا جول الثاني.
كانت هدنة باسو الضامنة لحرية البروتستانت.

* ١ تـوت ١٢٦٩= ٢٩ أغسطس ١٥٥٢= الاثنين ٩ رمضان سنة ٩٥٩.
* ١ يناير ١٥٥٣= ٦ طوبة ١٢٦٩= الأحد ١٥ محرم ٩٦٠.
* في امشير = ربيع الأول – فبراير ١٥٥٣م. تبؤ إيفان الرابع على تخت الروسيا

* ١ تـوت ١٢٧٠= ٢٩ اغسطس ١٥٥٣= الثلاثاء ١٩ رمضان سنة ٩٦٠.
* ١ يناير سنة ١٥٥٤= ٦ طوبه ١٢٧٠= الاثنين ٢٦ محرم سنة ٩٦١.
* في طوبة = يناير ١٥٥٤ = صفر ابتدا الغلاء العظيم، واكلت الناس فيه بزر الكتان
* في امشير = فبراير = ربيع الأول تولى باشاوية مصر محمد باشا دوقراكين زاده وكان مبغوضا من الناس، ولم يحكم إلا ثلاث سنوات.
* في برووده = ابريل = جماد الأول كان استيلاء الروس على استرخان
* فيها كان استيلاء البورتغاليين على غنيا.

* ١ توت سنة ١٢٧١ = ٢٩ اغسطس ١٥٥٤ = الأربع ٣٠ رمضان سنة ٩٦١.
* ١ يناير ١٥٥٥ = ٦ طوبه ١٢٧١= الثلاث ٧ صفر سنة ٩٦٢.

* ١ توت سنة ١٢٧٢= ٣٠ اغسطس ١٥٥٥= الجمعة ١٢ شوال سنة ٩٦٢.

١,١٧٥,٠٠٠ باره، بالإضافة إلى ٣٠٠,٠٠٠ باره تم فرضها على ولاية المنصورة «مال جهات». ونظر لأن هذه الزيادات تم فرضها في القرن الثامن عشر فإنها كانت في الواقع تشكل جزاء من أموال مايسمى «كشوفيه جديده»، ولكنه تم ادراجها تحت بند الكشوفيه القديم لإعطائها الصفة الشرعية.

ولقد استمرت هذه الضريبة في الزيادة حتى بلغت ٢مليون باره سنويا في القرن الثامن عشر. ثم استغلت هذه الضريبة وأدرج تحت اسمها العديد من العوائد الباهظة ، التي ارهقت الفلاح المصرى ، حتى بلغت وقت الحملة الفرنسية ٦,٩٥١,٢٨٨ باره كان لاينفق منها على الغرض المحدد لها إلا النذر القليل.

[٢] **«كشوفيه جديد»**، وتشمل :١- مال رفع المظالم. ٢- فردة التحرير. ٣- علوفه جديدة.

من واقع ان ضرائب الكشوفيه القديمة قد تحولت إلى التزامات ذات طابع ثابت ومستقر، وأن معظمها قد صادرها حكام الولايات لأنفسهم، نجد أن مجموعة من الضرائب الجديدة قد أخذت في الظهور من أجل تكوين مصادر دخل جديدة لمراكز قوى جديده،بالرغم من انها قررت وتم جبايتها لنفس اسباب الكشوفيه القديمة . وأهم هذه الضرائب هي:

١- **مال رفع المظالم:** بعد أن قام محمد بك ابو الدهب بالقضاء على حركة على بك الكبير ،

* في ٢٤ توت ١٢٧٢ق.= ٢٢ سبتمبر ١٥٥٥م كان صلح أوجيرج، وهو ثاني صلح ديني بين الكاثوليك والبروتستانت. وقد تضمنت تلك المعاهدة مبدأ حرية الاعتقاد والذمة.

* ١ يناير ١٥٥٦ = ٥ طوبة سنة ١٢٧٢= الأربع ١٧ صفر سنة ٩٦٣.

* ١٨ طوبة = ١٤ يناير ١٥٥٦م استقدم السلطان سليمان محمد باشا الي الاستانه لكثرة ما حصل في حقه من الشكوك، ومن بعد محاكمته حكم عليه بالقتل.

* برمهات = مارس تولى مصر اسكندر باشا، فحكم ثلاث سنوات وثلاث أشهر ونصف.

* برمودة = ابريل = جماد ثاني كان استيلاد العثمانين على بلاد الموره.

* ١ توت ١٢٧٣= ٢٩ اغسطس ١٥٥٦= السبت ٢٢ شوال سنة ٩٦٣.

* ١ يناير سنة ١٥٥٧ = ٦ طوبه سنة ١٢٧٣= الجمعة ٢٩ صفر ٩٦٤.

* ١ توت ١٢٧٤= ٢٩ اغسطس ١٥٥٧= الأحد ٤ ذو القعدة سنة ٩٦٤.

* ١ يناير سنة ١٥٥٨= ٦ طوبه ١٢٧٤= السبت ١١ ربيع الأول سنة ٩٦٥.

* ١ توت سنة ١٢٧٥= ٢٩ اغسطس ١٥٥٨ = الاثنين ١٥ ذو القعدة سنة ٩٦٥.

* ١ يناير ١٥٥٩= ٦ طوبه سنة ١٢٧٥= الأحد ٢١ ربيع أول سنة ٩٦٦.

* في ٩، ١٠ برموده = ٤,٥ ابريل كان صلح كاميبرى بين هنرى الثاني، ملك فرنسا،

وأضحى هو نفسه شيخا وحاكماً للبلد، نجده يسعى لزيادة دخله وعوائده الشخصية ظلماً وعدواناً بتحميل الفلاحين المصريين عوائد ظالمة جديدة، منها ضريبة سماها «رفع المظالم»... فرضها على كل قرى مصر بعد أن قسمها بحسب عوائدها إلى فئات :عاليها يطلب منها ١٢,٦٠٠ باره سنوياً، ووسطى تدفع ٩,٦٠٠ باره سنويا، ودنيا تدفع ٤,٨٠٠ باره.

هذه الضرائب وصل عائدها إلى ١٢ مليون باره سنوياً، سيذهب ثلثها لحكام الولايات ، وثلث لقافله الحج، والثلث الأخير كان من نصيب شيخ البلد [محمد بك ابو الدهب]. وتحت حكم خلفاء محمد بك ابو الدهب [أى مراد بك وابراهيم بك] استمرت ضريبة رفع المظالم مع بقاء ضرائب الكشوفية القديمة المشابهة لها والمحددة لذات الاغراض . وعندما أتى المغازى حسن باشا الى مصر عام ١٢٠١هـ=١٧٨٦م من اجل أن يستعيد السيطرة على الإدارة المصرية ،نجده يصدر مرسوماً ينص على الغاء ضريبة «رفع المظالم» والعديد من ضرائب الكشوفيه الجديدة ، ولكنه وقبل أن يغادر مصر عائداً إلى اسلامبول نجده يعيد هذه الضرائب تحت اسم جديد هو «حق الحراس» أو «حق البياتات».

وقد ظلت هذه الضريبة فى زيادة مستمرة دون اى رادع أو ضابط حتى بلغت وقت دخول الحملة الفرنسية ١٦٫٢٧٤٤٫٨٣٩ باره.

٢-فردةتحرير: في اعقاب خروج الغازى حسن باشا عائداً الى اسلامبول حدث طاعون

٩٣: يوانس [١٤٧٨ / ١٤٨٣م.]

وايليزابيتة ملكة الانكليز، وفيليب الثاني، ملك اسبانيا.

* ١ تــــوت ١٢٧٦ = ٣٠ اغـــسطس سنة ١٥٥٩ = الأربع ٢٦ ذو القعدة سنة ٩٦٦.
* ١ يناير سنة ١٥٦٠ = ٥ طوبه سنة ١٢٧٦ = الأثنين ٢ ربيع الثاني سنة ٩٦٧.
* يناير سنة ١٥٦٠ نودى بان مدريد تكون عاصمة اسبانيا.
* في ٧ يوليـو ١٥٦٠ كـان صلح اندمبورج، بين فرانسو الثاني ومارى اسـتوارت الايقـوسـانيـة وايليزابيتة الانجليزية.

* ١ تــــوت ١٢٧٧ = ٢٩ اغسطس ١٥٦٠= الخميس ٧ ذو الحجة سنة ٩٦٧.
* ١ يناير ١٥٦١ = ٦ طوبه ١٢٧٧= الاربع ١٣ ربيع الثـانى سنة ٩٦٨.
* فـيـهـا تولى مـصـر علي باشا الخادم ولم يحكم إلا سبعة أشهر.

* ١ تـــوت ١٢٧٨= ٢٩ اغـسطس ١٥٦١= الجـمـعـة ١٧ ذو الحجة ٩٦٨.
* فيها تولى مصر مصطفى باشا الثاني.

* ١ يناير ١٥٦٢= ٦ طوبه ١٢٧٨ = الخـمـيس ٢٤ ربيع الثاني سنة ٩٦٩.
* فيها استولت الانجليز على هافر
* فيها كان أول استعمال دخان الشرب في فرانسا.

* ١ تـــوت ١٢٧٩= ٢٩ اغـسطس، ١٥٦٢= السبت ٢٨ ذو الحجة سنة ٩٦٩.
* فيها كان ذبح البروتستانت في فاسي.
* فـيـهـا كـان ابتداد الحروب الدينية.

كبير في مصر أدى إلى وفاة اعداد كبيرة من الامراء المماليك واصحاب الالتزامات كان من نتيجتة استيلاء مراد بك وابراهيم بك على معظم هذه الالتزامات ، وقاموا [عام ١٢٠٦هـ= ١٧٩١م] بفرض ضريبة «فردة تحرير» قسمت القرى على اساس ثروتها الإقتصادية ، فئة عليا تدفع ٩٠٠٠ باره سنويا، وفئة وسطى تدفع ٦٠٠٠ باره، وفئة دنيا تدفع ٣٠٠٠ باره، ثم زيدت هذه الفئات حتى بلغت عشرين الف باره على الفئة العليا ، وخمسة عشر الف باره على الوسطى ، وخمسة آلاف بارة على الفئة الدنيا.

٣- **علوفه جديده**: عندما فرض محمد بك ابو الدهب ضريبة «رفع مظالم» نجده يفوض القائمين على جمعها من الجند في ان يفرضوا ضريبة «حق طريق» إضافية نقداً من أجل سداد نفقاتهم و، وايضا ضريبة «علوفه» عيناً من أجل سد احتياجاتهم الغذائية . هذا الضرائب اقرها الغازى حسن باشا عندما أقر ضريبه «حق البياتات».

أضيف إلى ذلك عدة ضرائب وعوائد جديدة قررت على القرى لصالح الامراء المماليك والبكوات وغيرهم ممن يمرون عبر هذه القرى. ومن اجل الحصول على وضع شرعى لهذه العوائد والضرائب وضعت تحت اسم «علوفه جديده» وصل مجملها عند دخول الحملة الفرنسية إلى مصر ٨,٩٤٠,٥٤٧ باره.

***

* ١ يناير ١٥٦٣= ٦ طوبه ١٢٧٩= الجمعة ٦ جماد أول سنة ٩٧٠.

* ١ توت سنة ١٢٨٠= ٣٠ اغسطس ١٥٦٣= الاثنين ١٠ محرم ٩٧١.

* فيها تولى مصر علي باشا الصوفي مدة سنتين وثلاثة أشهر.

* ١ يناير ١٥٦٤= ٥ طوبه ١٢٨٠= السبت ١٦ جماد أول سنة ٩٧١.

* فيها كان تأسيس سراى التويليرى بباريس.

* ١ توت س ١٢٨١= ٢٩ اغسطس ١٥٦٤= الثلاث ٢١ محرم ٩٧٢.

* ١ يناير سنة ١٥٦٥ = ٦ طوبه ١٢٨١= الاثنين ٢٨ جماد أول سنة ٩٧٢.

* فيها رفعت العثمانيون الحصار عن مالطة.

* ١ توت سنة ١٢٨٢= ٢٩ اغسطس ١٥٦٥= الاربع ٢ صفر ٩٧٣.

* فيها تكرر هجوم الاتراك على مالطة.

* ١ يناير ١٥٦٦= ٦ طوبه ١٢٨٢= الثلاثاء ٩ جماد الثاني ٩٧٣.

* فيها كان قيام الاتحاد المقدس في فرنسا لأجل ملاشاة (مكافحة) الهرطقة.

* في ابريل استبدل علي باشا الصوفي بمحمود باشا، وهو آخر من تولى مصر في أيام السلطان سليمان.

* فيها نودى بان فارصوفيا تكون عاصمة بولونيا.

* ١ توت ١٢٨٣= ٢٩ اغسطس ١٥٦٦= الخميس ١٢ صفر ٩٧٤.

عوائد البراني:

والى جانب مال الكشوفيه القديم ومال الكشوفيه الجديدة كانت هناك عوائد أخرى يرهق بها كاهل الفلاح المصرى لصالح الملتزمين تسمى «عوائد براني».

ان الملتزمين من أجل أن يزيدوا دخولهم فرضوا على القرى مجموعة من ضرائب المخرجات على «المال الحر» أى مال الخراج سميت «براني قديم». هى ذاتها التى فرضوها بعد ذلك في القرن الثامن عشر تحت اسم «براني جديد».

ان عوائد البراني القديم والجديد كان يجمعها وكلاء الملتزمين كمقابل لأعمال مشروعات الرى والبذار. ولقد كانت متغيرة بحسب النفقات السنويه.

وقد أستمر جمع مال البراني القديم حتى بعد أنتفاء الهدف منها لسنين طويله، فكانت بذلك تمثل دخلاً للملتزمين دون مقابل. ولقد قدر علماء الحملة الفرنسية عوائد البراني ١٤٣,٩٥٠,٠١٦ باره تمثل حوالي ٣٥٪ من مجمل مال الخراج [الحر]، منها ٤٩,٨٨٠,٤٩٤ باره [اى الثلث تقريبا] يستولى عليها حكام الولايات، بينما ٩٤,٠٦٩,٥٢٢ باره الباقية كانت تذهب «عوائد براني» للملتزمين.

الفايظ:

كان من حق الملتزمين ان يحتفظوا بفائض الاموال بعد توريد مال الخراج والمخرجات، وتبعاً

* في ٩ سبتمبر كانت وفاة السلطان سليمان خان، وعمره: ٧٤ سنة، ومدة حكمه ٤٨ سنة. وفي ٩ ربيع اول تسلطن ولده السلطان سليم خان الثاني.

* فيها ضرب السلطان سليم الثاني نقودا في حلب.

* فيها كانت بداءة عصيان الهولنديين على فيليب ملك اسبانيا بسبب تعرضه لمذهبهم.

* في ١٧ مايو ١٥٦٧ = ٧ ذو القعدة ٩٧٤، ولادة السلطان الغازى محمد خان الثالث

* ١ توت سنة ١٢٨٤= ٣٠ اغسطس ١٥٦٧= السبت ٢٤ صفر سنة ٩٧٥.

* فيها كان اكتشاف جزائر سالمون.

* في ٣ ديسمبر ١٥٦٧= غرة جماد الثانى ٩٧٥، كان محمود باشا الوالى مارا بموكبة الاعتبادى بين البساتين فقتل برصاصة، ولم تقف الحكومة على القاتل، فاتهمت أثنين من الفلاحين وقتلتهما ظلما ولما بلغ السلطان سليم شاه موت محمود باشا أمر بنقل سنان باشا من باشوية حلب الى باشوية مصر، فتولاها في ٢٤ شعبان،

* ١ يناير ١٥٦٧= ٥ طوبه ١٢٨٤= الخميس غرة رجب سنة ٩٧٥.

* ١ توت ١٢٨٥= ٢٩ اغسطس ١٥٦٨= الأحد ٦ ربيع الأول سنة ٩٧٦.

* في ٢١ مارس = ٤ شوال ٩٧٦، سار سنان باشا من مصر لفتح اليمن ومعه حمزه بك ومراد بك وغيرهما واستخلف على مصر اسكندر باشا الجركسي.

* ١ توت ١٢٨٦= ٢٩

لأرقام الحملة الفرنسية نجد انه في عام ١٢١٣هـ= ١٧٩٨م وصل الفايظ الذى استولى عليه الملتزمين الى ١٨٠,١٥٨,٥٠٧ باره وذلك من اجمالى ٢٧٤,٢٢٨,٢٠٩ أى ٤٥٪ من مقدار المال الحر في هذا العام وذلك دون الفايظ العيني.

وفيما يلى جدول ببيان عوائد المال الحر المجبى من أراضى مصر الزراعية في عام ١٢١٣هـ= ١٧٩٨م اعده علماء الحملة الفرنسية:

الولايات	مال ميرى	كوربجى	تذاكر	مجموع المالى الميرى	مال أوقاف	مجموع مال خراج
منوف	١٢,٤٠٣,٩٠٤	١١٠,٠٤٦	٢٣٠,٨٨٦	١٢,٧٤٤,٨٤٠	١,٥٣٥,٧٧٩	١٤,٢٨٠,٦١٩
قليوب	٣,٨٣٨,٤٣٤	٣٠,٢٧٤	٦٢,٠٣٤	٣,٩٣٠,٧٤٢	١,٥٥٥,٧٧٦	٥,٤٨٦,٥١٨
غربية	١٥,٤٠٠,٥٣٥	١٢٥,١١٢	٢٦٠,٥٤٧	١٥,٧٨٦,١٩٤	١,٥٢٨,٨٥١	١٧,٣١٥,٠٤٥
منصورة	٩,٤٩٩,١٤٢	٥٢,٥٨١	١٥٦,١١٥	٩,٧٠٧,٨٣٨	٨٩٢,٠٥٧	١٠,٥٩٩,٨٩٥
شرقية	٥,٠١٢,٣٥٩	٣٩,٩٨٤	٩٤,٥٨٩	٥,١٤٦,٩٣٢	ـــــ	٥,١٤٦,٩٣٢
بحيرة	١١,١٤٤,٣٢٩	٤٢,٦٨٩	٩٢,٤٧٩	١١,٢٧٩,٤٩٧	٤٣٧,٣٤٥	١١,٧١٦,٨٤٢
جيزة	٤,٣٣١,٧٣٣	٣٣,٨٣٤	٧٧,٦٠٠	٤,٤٤٣,٢٠٧	٤٢٩,٤٤٨	٤,٨٧٢,٦٥٥
فيوم	٢,٧٩٣,٠٢١	٢١,٨١٦	٢٢,٣٧١	٢,٣٣٧,٢٠٨	٢٠١,٨٧٤	٢,٥٣٩,٠٨٢

←

اغسطس ١٥٦٩= الاثنين ١٦ ربيع أول سنة ٩٧٧

* فيها انعقدت معاهدة بين السلطان سليم الثاني وبين حكومة فرنسا.

* ١ يناير سنة ١٥٧٠= ٦ طوبه ١٢٨٦= الأحد ٢٣ رجب سنة ٩٧٧.

* فيها كانت معاهدة صلح استيتين، من مقتضاه أن الدانيمارقة تعترف باستقلال بلاد أسوج.

* ١ تـوت ١٢٨٧= ٢٩ اغسطس سنة ١٥٧٠= الثلاث ٢٧ ربيع أول سنة ٩٧٨.

* فيها كان صلح سان جرمان بين الكاثوليك والبروتستانت.

* ١ يناير ٥٧١= ٦ طوبه ١٢٨٧= الاثنين ٤ شعبان ٩٧٨.

* في ٢٥ يونيو = اول صفر ٩٧٩، عاد سنان باشا بعد ان مكث سنتين وأربعة أشهر في حملة فتح فيها اليمن ورجع مصر.

* ١ تـوت ١٢٨٨ = ٣٠ أغسطس ١٥٧١= الخميس ٨ ربيع الثاني ٩٧٩.

* فيها كان استيلاء العثمانين على قبرس، وانهزامهم في ليبانتو.

* ١ يناير ١٥٧٢ = ٥ طوبة ١٢٨٨= الثلاث ١٤ شعبان ٩٧٩.

* فيها قيل أن كرنيليوس دربيل اخترع المكروسكوب.

* ١ تـوت ١٢٨٩ = ٢٩ اغسطس ١٥٧٢= الجمعة ١٩ ربيع الثاني سنة ٩٨٠.

الولايات	مال ميرى	كوربجى	تذاكر	مجموع المالى الميرى	مال أوقاف	مجموع مال خراج
اطفيح	٦٣٢,٧٨٠	٦,٠٣٥	٨,١٥٦	٦٤٦,٩٧١	٨٥,٥٠٠	٧٣٢,٤٧١
اشمونين	٣٢٢,١٣٠	٢٣,٧٣٦	—	٣٤٥,٨٦٦	٤٠,٦٩٩	٣٨٦,٦٥٦
منفلوط	٨٠٦,٨٧٠	٢٠,٦٩٦	٩٦٦,٠٠	٨٢٨,٥٣٢	٣١,٣٢٠	٨٥٩,٨٥٢
البهنسا	٣,٤٣١,٠٠١	٤٩,٢٩٢	٣٧,٦٥١	٣,٥١٧,٩٤٤	,٧٨٩=٩٠٢	٤,٤٢٠,٧٣٣
جرجا	٩,١٩٥,٢٠٩	٧٦,٧٩٦	٣٠,١١٤	٩,٣٠٢,١١٩	٣٦,٠٠١	٩,٣٣٨,١٢٠
الإجمالي	٧٨,٣١١,٤٩١	٦٣٢,٨٩١	١,٠٧٣,٥٠٧	٨٠,٠١٧,٨٩٠	٧,٦٧٣,٤٥٩	٨٧,٦٩١,٣٤٩

بالإضافة الى عوائد المال الحر أو مال الخراج الزراعية كان هناك مال المقاطعات الحضرية في المدن والموانى.

وهذه كانت خلال الخمسين سنة الاولى من الاحتلال العثمانى لمصر تمنح في شكل امانات غالباً للأقباط واليهود المصريين لألمامهم بأساليب ادارة التجارة والحرف وغيرها، ثم بعد ذلك منحت كالتزامات .ومنذ بداية القرن الثامن عشر سيطر البكوات المماليك على هذه المقاطعات.

وعندما كانت تعرض هذه الألتزامات للبيع كان على الملتزم ان يدفع بارة واحدة في مقابل

* فيها كانت مذبحة البروتستانت الكبرى في باريس.
* ١ يناير ١٥٧٣ = ٦ طوبه ١٢٨٩ = الخميس ٢٦ شعبان سنة ٩٨٠.
* في ذى الحجة ٩٨٠= ابريل ١٥٧٣، خلف حسين باشا سنان باشا على ولاية مصر.
* فيها فتح سنان باشا حلق الوادى، ببلاد تونس، واستولى على قلعته التي بنيت في ٤٣ سنة، بعد أن حاربها ٤٣ يوما.
* فيها كان معاهدة صلح بين البندقية والترك الذين أبقوا قبرس في ملكهم.

* ١ توت سنة ١٢٩٠ = ٢٩ اغسطس ١٥٧١= السبت غرة جماد أول سنة ٩٨١.
* ١ يناير ١٥٧٤= ٦ طوبه ١٢٩٠= الجمعة ٨ رمضان سنة ٩٨١.
* وفيها كانت وفاة السلطان سليم الثانى ابن السلطان خان، وعمره: ٥٠سنة ومدة حكمة ٨ سنين و٥ أشهر. وفى ٢١ ديسمبر تسلطن ولده السلطان مراد خان الثالث.

* ١ توت ١٢٩١= ٢٩ اغسطس سنة ١٥٧٤= الأحد ١١ جماد أول سنة ٩٨٢.
* فيها ضرب السلطان مراد صنفين من النقود في القاهرة.
* ١ يناير ١٥٧٥= ٦ طوبه ١٢٩١= السبت ١٨ رمضان سنة ٩٨٢.
* فى ١٤ يناير ١٥٧٥ عين السلطان مراد خان الثالث حسين باشا مسيح واليا على مصر، فتصدى لكسح المفسدين وقتل منهم في ولايته عشرة آلاف نفس.
* فى فبراير ١٥٧٥ أنشا الوزير مسيح باشا جامعة، بقرب عرب يسار.

كل أربعة آلاف باره يوردها للخزانة السلطانية، تضاف الى «مال الحلوان» الذى كان يرسل إلى اسلامبول فى أول الأمر ثم صار الباشا يصادره لحسابه فيما بعد.وبالإضافة الى ذلك كان الملتزم يدفع للباشا«إلباسيه» سنويه، وضريبة كشوفيه سنوية في مقابل تعيينه.

ان حائزى التزامات المقاطعات الحضرية كانوا يقومون بكثير مما نسميه الآن بوظائف الحكومة الحضرية. ولكن تكاليف هذه الوظائف كان يقوم بدفعها هؤلاء الذين كانوا يستفيدون منها أو يتأثرون بها وذلك فى شكل ضريبه كان من حق حائز المقاطعة أن يجبيها منهم.

ان هذه الضرائب كانت توضع بالكامل فى الخزانة السلطانية إذا كان حائز المقاطعة من الأمناء، وجزئيا لو كان حائزها من الملتزمين، فقد كان من حقهم احتجاز جزء منها بوصفه فائظ ربح، وفي مقابل ذلك كان يطلب منهم دفع ضريبه كشوفيه للخزانه السلطانية كانت تسمى «كشوفيه كبيرة» من أجل تميزها عن الضريبة التى كانت تدفع من الملتزم للباشا وتسمى «كشوف صغير» ، والضريبتان لاصلة لهما بمال كشوفيه قديم وجديد.

وكما كان الحال فى مقاطعات الريف والقرى، فإن تولى المقاطعات الحضرية كان يوثق عن طريق أذونات رسمية تسمى «تقاسيط ديوانيه» تصدرها الخزانه السلطانية ويوقعها كلامن الباشا ومسؤل الألتزامات بالخزانة.

ولقد كانت المقاطعات الحضرية تنقسم الى :

* ١ تـــوت ١٢١٢ = ٣٠ اغـسطس ١٥٧٥ = الثلاث ٢٣ جماد أول سنة ٩٨٣.

* ١ يناير سنة ١٥٧٦ = ٥ طوبه سنة ١٢٩٢ = الأحـــد ٢٩ رمضان ٩٨٣.

* فيها كان اكتشاف بغاز قرويشر.

* ١ تـــوت ١٢٩٣ = ٢٩ اغسطس سنة ١٥٧٦ = الأربع ٤ جماد الثانى سنة ٩٨٤.

* ١ يناير سنة ١٥٧٧ = ٦ طوبه ١٢٩٣ = الثلاث ١١ شوال سنة ٩٨٤.

* فيها كانت سياحة دراك حول الدنيا.

* فى يوليو أنشا الأمير رجب اغا جامع نعمان، الذى بالداودية.

* ١ تـــوت ١٢٩٤ = ٢٩ اغسطس ١٥٧٧ = الخميس ١٤ جماد الثانى سنة ٩٨٥.

* ١ يناير ١٥٧٨ = ٦ طوبة ١٢٩٤ = الأربع ٢١ شــــوال ٩٨٥.

* ١ تـــوت ١٢٩٥ = ٢٩ اغـسطس ١٥٧٨ = الجمعة ٢٥ جماد الثانى سنة ٩٨٦.

* ١ يناير ١٥٧٩ = ٦ طوبه ١٢٩٥ = الخميس ٣ ذو القعدة سنة ٩٨٦.

* فيها انعقدت معاهدة بين السلطان مـراد الثـالث والملكة اليـزابيـثه ملكة انكلترا تقضى بالرخصة الى رعايها بالتجارة فى الممالك العثمانية.

* فيها انشأ القاضى بركات قراميط جامع القاضى بركات، بشارع المقاصيص، بقرب حارة اليهود.

* ١ توت سنة ١٢٩٦ = ٣٠ اغـــسطس ١٥٧٩ = الأحـــد ٧ رجب ٩٨٧.

---

(١) مقاطعة الجمرك:

وكانت تشمل جمارك موانى البحر المتوسط مثل الاسكندرية ورشيد ودمياط ، وهى الموانى التى كانت تتعامل مع تجاره اوربا وبقية السلطنة العثمانيه.وهناك أيضا جمرك ميناء البرلس الذى كان يتعامل مع شمال افريقيا، ثم السويس على البحر الأحمر الذى كان يتعامل مع تجارة الجزيرة العربية وافريقيا الشرقية والهند والشرق الأقصى، ثم بولاق التى كانت تستقبل البضائع الآتية الى القاهرة بالقوارب من كل مكان فى مصر وخاصة من الوجه البحرى، ثم ميناء مصر القديمة الذى كان يستقبل على وجه الخصوص غلال الوجه القبلى.

ان الملتزمين الذين كانوا يتولون مقاطعات هذه الجمارك كان يطلب منهم أن يفرضوا على التجار-أن يمروا بسلعهم وبضائعهم خلال هذه المراكز الجمركية ، وذلك إذا كانت حركتهم فى نطاقها الجغرافى .وأن يفحصوا ويقيموا البضائع ويكتبون بها قوائم ويحددوا ماعليها من ضرائب ، وان يسجلوا هذه القائمة لدى القاضى المحلى ،وبعد ذلك يرسلوا هذه القائمة ومعها الأموال التى تمت جبايتها الى الخزانة السلطانية بالقاهرة.

وكان كذلك يطلب منهم تنفيذ اللوائح والتعليمات السلطانية الخاصة بمنع شحن سلع معينه خارج نطاق السلطنة، وان يعاقبوا الذين ينتهكون اللوائح الجمركية ، وان ينفقوا على التنظيمات الجمركية من عوائد الجمارك [اخراجات] قبل ان تحول الى الخزانة السلطانية بالقاهرة.

* فيها كان استقلال الهولاندة واتحاد سبع ولايات منها.
* ١ يناير سنة ١٥٨٠= ٥ طوبة سنة ١٢٦٩= الجمعة ١٣ذو القعدة سنة٩٨٧.
* فى أواخر يونيو ولى مصر حسين باشا الخادم، وفى مدة حكمه كثرة الرشوة حتى صارت أمر معتاد، كان يحصل المال بكل حيلة، لايراعى حلالا ولاحرمة، وقد غير زى اليهود والنصارى، فالبس اليهود الطرطير السود والبس النصارى البرنيط السود، وكانت العمائم السود زى النصارى والعمائم الزرق زى اليهود.

* ١ توت ١٢٩٧= ٢٩ اغسطس ١٥٨٠= الاثنين ١٨ رجب سنة٩٨٨.
* فيها كان استيلاء فيليب، ملك اسبانيا، على مملكة البورتغال.
* فى ٢٥ نوفمبر كانت معاهدة فليكس، القاضية بانتهاء الحرب الدينية.
* ١ يناير سنة ١٥٨١ = ٦ طوبة ١٢٩٧ = الأحد ٢٥ ذو القعدة ٩٨٨.

* فيها كان أول استعمال النحاس فى فرانسا.
* فيها انعقدت معاهدة بين السلطان مراد الثالث وبين الحكومة فرانسا.

* ١ توت سنة ١٢٩٨= ٢٩ اغسطس ١٥٨١= الثلاث ٢٩ رجب سنة ٩٨٩.
* فيها بلغ قيمة الألطون والدوكة أغشا والفرنسه خمسين (١ قجه).
* ١ يناير سنة ١٥٨٢ = ٦ طوبه ١٢٩٨= الاثنين ٦ ذو الحجة ٩٨٩.

وكان من حقهم زيادة الرسم الجمركية بحسب قيمة العملة وهبوطها تحت اسم «فرط ريال».

وبشكل عام فإن ايرادات مقاطعة الجمرك كانت فى هبوط مستمر بسبب ضعف الحركة التجارية الناتج عن تدهور الاقتصاد المصرى منذ الغزو العثمانى ، وكثرة الحروب العثمانية الاوربية فى البحر المتوسط وانتشار القرصنة ، وذلك فيما عدا فترة على بك الكبير التى شهدت بعض الازدهار فى مجمل الاقتصاد المصرى بما فيه مقاطعة الجمرك.

ومن المقاطعات الجمركية الاربعة [دمياط، اسكندرية ، رشيد، بولاق] التى كانت تحت سيطرة أوجاق الانكشارية أبتداء من عام ١٠٨٣هـ=١٦٧٢م، كان مجمل الضرائب المجموعة عام ١١٥٢هـ= ١٧٣٩م يصل الى ٣٢٫١٢٥٫٠٠٠باره ، يذهب منها للخزانه السلطانية ١٤٫٦٤٨٫٨٥٢باره [٤٥٪]، و٦٫٧٥٠٫٠٠٠باره [٢٣٪] تذهب للباشا بوصفها «كشوفيه صغير»، والباقى ١٠٫٧٢٦٫١٤٨[٣٢٪] كان يحتفظ بها أوجاق الانكشارية كربح لهم . وفى سنة = ١٧٧٩م كان ٣٥٪ منها [١٥٫٣١٦٫٧٠١] يذهب للخزانه السلطانية، و١٥٪ [٦٫٧٥٠٫٠٠٠] تذهب للباشا، و٥٠٪ [٢٠٫٦٨٣٫٢٩٩باره] تذهب للملتزمين .ومن هذه الارقام نلاحظ انه فى الوقت الذى كانت فيه هذه الضرائب فى زيادة مستمرة كانت نسبة الخزانه السلطانية فى تناقص مستمر كذلك.

* فيها البابا جريجوريوس الثالث عشر اصدر ديكريتو مقتضاه أن غدوة الرابع من أكتوبر سنة ١٥٨٢ = يعتبر الخامس عشر من أكتوبر سنة ١٥٨٢ = يعتبر الخامس عشر من الشهر المذكور، وهذا هو مبدأ التاريخ الجريجورياني، المقول عنه التاريخ لافرنكي، أو الطرز الجديد المستعمل الآن عند اغلب الامم، والمعتبر في مصر من ابتداء سنة ١٨٧٥ ميلادية بمقتضى ديكريتو من خديو مصر وقتئذ اسماعيل باشا.

* ١ توت سنة ١٢٩٩ يوافق ٢٩ اغسطس سنة ١٥٨٢ حسب التاريخ الجريجورياني، ويوافق ٨ سبتمبر سنة ١٥٨٢، الموافق الاربع ٩ شعبان سنة ٩٩٠.

* فيها كانت الحملة الفرنساوية على جزائر اسوره.

* ١ يناير ١٥٨٣ = ٢٦ كيهك ١٢٩٩ = السبت ٦ ذو الحجة سنة ٩٩٠.

* فيها عزل السلطان مراد الثالث حسن باشا الخادم عن ولايه مصر، وولاها ابراهيم باشا.

* فيها كان ابتداء الحرب بين الاوستوريا (النمسا) والتركيا.

* من ١٠ رجب لغاية رمضان (من يوليو إلى سبتمبر) جعل ابراهيم باشا مأمورا خصوصيا في جامع السلطان فرج بن برقوق لسماع شكوى المتظلمين من الوالى السابق فاطلع على مظالم لا تحصى.

* ١ توت ١٣٠٠ = ٩ سبتمبر ١٥٨٣ = الجمعة ٢١ شعبان سنة ٩٩١.

* ١ يناير ١٥٨٤ = ٢٥ كيهك ١٣٠٠ = الأحد ١٧ ذو الحجة سنة ٩٩١.

* فيها كان انتصار

---

(٢) مقاطعات متنوعة:

وهى الجبايات التى فرضت على الطوائف الحرفية والنقابات الحضرية.

١ – مقاطعة احتساب نفس محروسة مصر أو «كسب سوق» : فى العصور الوسطى كان للمحتسب سلطات واسعة على الأسواق ونشاطات الطوائف الحرفية،لكن فى ظل الاحتلال العثمانى كانت مهتمه محددة بمتابعة عيارات الموازين والمكاييل والاسعار الخاصة بالمأكولات فى مدينة القاهرة ومعاقبة مخالفيها،وذلك بالأضافة الى نشاطه الخاص فى توسيع نفوذه بحكم العادات والتقاليد القديمة، ولكنه حتى بالنسبة للسلطات التى كانت لاتزال فى حوزته كان مضطرا للأعتماد على جند الشرطة الحضرية التى يقودها أغا الانكشارية من اجل دعم سلطانه، ومن ثم كان مضطرا لان يقدم لهم جزءاً من جباياته. وخلال النصف قرن الاول من الاحتلال العثمانى كانت مقاطعة احتساب القاهرة تمنح بوصفها «أمانة» لأحد القضاة الذين خدموا قبل ذلك فى إطار الإدارة المملوكية القديمة، ولكن بعد ذلك نجد أنها أصبحت تعطى عادة كالتزام لأحد ضباط أوجاق الجاويشيه، وفى النهاية مع حلول القرن الثامن عشر سيطر أوجاق الانكشارية على مقاطعة «الاحتساب» هذه يضاف إليها الضرائب المذكورة فى الهامش أدناه. ان المحتسب كان يحصل على عوائد ضخمة غير شرعية وذلك فى صورة «مال حمايه» مقابل السماح بأعمال الغش فى الميزان وجودة السلع.

٩٣: يوانس [١٤٧٨ / ١٤٨٣م.]

الاسبانيولين على الهولانديين (الفلمنك).

* فيها كانت وفاة إيفان الرابع، امبراطور الروسيا.

* ١ تـوت ١٣٠١= ٨ سبتمبر ١٥٨٤= السبت ٣رمضان ٩٩٢.

* فيها استقال إبراهيم باشا من منصبه، وتولى مكانه فى مصر سنان باشا ثانيا.

* ١ ينـاير ١٥٨٥= ٢٦ كيهك ١٣٠١= الثلاث ٢٩ ذو الحجة ٩٩٢.

* فيها كانت وفاة البابا جريجوا الثالث عشر.

* فيها تغلبت الأعجام على طوريس واخذتها من العثمانيين.

* ١ تـوت ١٣٠٢= ٨ سبتمبر ١٥٨٥ = الأحد ١٣ رمضان ٩٩٣.

* ١ ينـاير ١٥٨٦= ٢٦ كيهك ١٣٠٢= الأربع ١٠ محرم سنة ٩٩٤.

* فيها تولى مصر عويس باشا، الذى كان حضر من الآستانة ليتحرى أمر التشكيات التى رفعت ضد سنان باشا الثانى، الذى بمجرد ما علم بمجيء عويس باشا فر هاربا.

* فيها قامت العساكر العثملى على الوالى عدة مرات، ورفضوا طاعته، وأوقعوا السلب والنهب بالتجار والأهالى واشتدت الفتن بمصر.

* ١ توت سنة ١٣٠٣= ٨ سبتمبر ١٥٨٦= الاثنين ٢٤ رمضان سنة ٩٩٤.

* ١ ينـاير ١٥٨٧= ٢٦ كيهك ١٣٠٣= الخميس ٢١ محرم سنة ٩٩٥.

* فيها كان قطع رأس مارى

٢- مقاطعة خرده: تأسست هذه المقاطعة عام ٩٣٥هـ= ١٥٢٨م لجباية الضرائب على كل اعمال الملاهى فى القاهرة والوجه البحرى .وفى عام ١٠٥٣هـ= ١٦٤٣م أدمج فيها ضرائب طوائف الطبالين والسمكرية وبائعى الحديد وصناع الحشيش وغيرهم، وكانت هذه القطاعات مدموجة معاً بوصفها مقاطعة «طاستاخان»، وكذلك دمج فيها طوائف صناع السكر والحلوى [كانت قبل ذلك ضمن مقاطعة أميرى سكر]. وفى عام ١٠٨٣هـ= ١٦٧٢م كانت تقطع بوصفها التزاماً لأوجاق متفرقة وجويشيه،ولكنها بعد ذلك اصبحت تمتلك كالتزام لأوجاق عزبان ،وكانت هى الاداة الرئيسية التى تمكن بها من توسيع نفوذه داخل نظام الطوائف الحرفية فى القاهرة والوجه البحرى.

ومن عام ١١٧٥/١١٥٦هـ= ١٧٤٣/ ١٧٦١م نجد أن حقوق وعوائد أمين الخردة كانت كما يلى:(*)

* فى المدة بين عامى ١١٧٥/١١٥٦هـ= ١٧٦١/١٧٤٣م

نجد ان متوسط عوائد «الاحتساب» السنوية بمدينة القاهرة بالبارة كما يلى على الطوائف.

١- طائفه الخبازين ١٣,٠٠٠

٢- طائفة الجزارين ٤,٧٢٠

٣- طائفة النجارين. ٤,٧٢٠

٤- طائفة بائعى الزيت. ٤,٧٢٠=

استوارت ملكة اسكوتلاندة، بأمر اليزابيت، ملكة انجلترا.
* فيها كانت سلطنة عباس الأكبر، شاه العجم.
* فيها كان اكتشاف بغاز دافيس.

* ١ تــــوت ١٣٠٤= ٩ سبتمبر ١٥٨٧= الأربع ٦ شوال سنة ٩٩٥.
*١ ينـايـر ١٥٨٨= ٢٥ كيهك ١٣٠٤= الجمعة غرة صفر سنة ٩٩٦.

* ١ تــــوت ١٣٠٥= ٨ سبتمبر ١٥٨٨= الخميس ١٦ شوال ٩٩٦.
* ١ ينـايـر ١٥٨٩= ٢٦ كيهك ١٣٠٥= الاحد ١٣ صفر ٩٩٧.
* فيها عقدت معاهدة صلح بن الفرس العثمانين.
* فيها كان الفتك بحياة هنرى الثالث
* فيها كان اكتشاف سواحل بلاد شيلي.
* في ١٠ سبتمبر عصت الجند على عويس باشا وأهانوه ونهبوا بيعه وذبحوا قائد وجاق الجاويشية وأخربوا بيت قاضي وجاق الجاويشة وأخربوا بيت قاضي العسكر وقتلوا قاضين من قضاة مصر ثم نهبوا الحوانيت، ولم يكن لذلك من سبب سوى كون الباشا أراد أن يعيد تعليم العسكر، وقد أشتد الأمر حتى انهم قبضوا على أولاد الباشا رهنا.

* ١ تــــوت ١٣٠٦= ٨ سبتمبر ١٥٨٩= الجمعة ٢٧ شوال سنة ٩٩٧.
* فيها كان أول استعمال عربات الركوب في انكلترا.
* ١ ينـايـر ١٥٩٠= ٢٦

= ٥- طائفة بائعي السمك. ١,٦٢٠
٦- طائفة بائعي السردين. ١,٨٠٠
٧- طائفة بائعي الخضر. ٠,٣٠٠
٨- طائفة صانعي القناديل. ٠,١٢٠
٩- طائفة اصحاب محال الجزاره. ٠,١٢٠
١٠- طائفة بائي اللبن. ٠,١٢٠
وعلى السلع الواردة للأسواق فرضت ضريبة «باج بازار» «بائعي السلع والاطعمة» كما يلي بالبارة:
١- بلح قادم من ادكو/ من ٢ إلى ٥ للسبت + رطل بلح.
٢- بلح قادم من رشيد/ ١٠ للسبت +رطل بلح.
٣- بلح قادم من أبو قير / ١٠ للسبت+ رطل بلح.
٤- خيار شنبر من رشيد/ ١/٨ سعر البيع + ٥ أرطال.
٥- مشمش سعر البيع + ١/٨ سعر البيع + رطل مشمش.
٦- على كل قارب بلح ٣٠٠
٧- على كل قارب فواكه ١٠٠٠.
٨- كل شحنة تين من ادكو ٤٠٠.
٩- قرع رشيد سعر البيع ١/٨ سعر البيع + ١٠ أطار.
١٠- بلح من القاهرة ١/١٠ سعر البيع + رطل بلح.
١١- برتقال من رشيد ١/٥ سعر البيع + ٥ أطار.
١٢- ليمون رشيد ١/٥ سعر البيع + ٥ إطار.
١٣- بطيخ رشيد ١/٥ سعر البيع + ٢ بطيخة عن كل حمولة.=

٩٣: يوانس [١٤٧٨ / ١٤٨٣م.]

كيهك ١٣٠٦= الاثنين ٢٣ صفر سنة ٩٩٨.

* في ١٢ جماد ثان ولادة السلطان الغازى أحمد خان.

* فيها كان اختراع التيلسكوب في المانيا.

* ١ توت ١٣٠٧= ٨ سبتمبر ١٥٩٠= السبت ٨ ذو القعدة سنة ٩٩٨.

* فيها اخترع الهولندى زخريا جانس النظارة المعظمة، المسماة بالمكروسكوب.

* ١ يناير ١٥٩١= ٢٦ كيهك ١٣٠٧= الثلاث ٥ ربيع أول ٩٩٩.

* فيها تولى مصر احمد باشا، الملقب بالخادم، بدلا عن عويس باشا، الذى خابت مساعيه مع العسكر واجبر على الاستقالة.

* ١ توت ١٣٠٨= ٩ سبتمبر ١٥٩١= الاثنين ٢٠ ذو القعدة سنة ٩٩٩.

* ١ يناير ١٥٩٢= ٢٥ كيهك ١٣٠٨= الأربع ٦ ربيع أول سنة ١٠٠٠.

* ١ توت ١٣٠٩= ٨ سبتمبر ١٥٩٢= الثلاث غرة ذوالحجة سنة ١٠٠٠.

* ١ يناير ١٥٩٣= ٢٦ كيهك ١٣٠٩= الجمعة ٢٧ ربيع أول ١٠٠١.

* فيها ولادة السلطان مصطفى خان ابن السلطان محمد خان.

* فيها تملك هنرى الرابع على فرانسا بعد جحده الديانة البروتستانتية.

* ١ توت ١٣١٠= ٨

---

(١) حق فرض وجبايه ضرائب عن كل اعمال الملاهى الخاصة بالراقصين ذكوراً ونساء والعاهرات وسحرة الثعابين والقرداتيه وقارعي الطبول ولاعبى القمار والمنشدين وبائعى الحشيش والفتوات فى القاهرة والوجه البحرى .وكان ذلك يعود سنويا بحوالى ٧٠,٠٠٠بارة من القاهرة ، و٩٧٠٠٠بارة من الوجه البحرى.

(٢) حق الحصول على جلود واعضاء الحيوانات النافقة وبيعها لحسابه .وكان ذلك يعود على أمين الخردة سنويا ٦٢,٠٠٠ باره.

= ١٤- بطيخ ابو قير ٥/١سعر البيع + ٢بطيخة عن كل حمولة
١٥- بصل أخضر ٢,٠/١من السعر + ٤ عبوات عن كل حمولة.
١٦- قصب سكر ١,٠/١ السعر + ١,٠/١ الحمولة
١٧- بقول جافة ١٠للشوال.
١٨- ملوخية طازجة ١٥للشوال.
١٩- ملوخية جافة ١٠للشوال.
٢٠- بامية رطل عن كل شوال.
٢١- البيض ١٠للحمولة.
٢٢- جاموس ١٦رطل عينا عن كل جاموسة.
٢٣- بقرة ١٣بارة عن كل بقرة.
٢٤- زيت ٢٠/٣٠بارة لكل جرة زيت.

سبتمبر ١٥٩٣= الاربع ١١ ذو الحجة ١٠٠١.

* ١ يناير ١٥٩٤= ٢٦ كيهك ١٣١٠= السبت ٨ ربيع الثاني ١٠٠٢.

* فيها كان طرد الجزويت من فرانسا.

* فيها رصد بيروجيوس أن ميل الكسوفية هو ٢٣ درجة و ٣٠ دقيقة، ورصد نيكوراهى أن هذا الميل يبلغ ٢٣ درجة و٢٩ دقيقة و٢٥ ثانيه.

* ١ تـــوت ١٣١١= ٨ سبتمبر ١٥٩٤= الخميس ٢٢ ذو الحجة سنة ١٠٠٢.

* فيها كان اكتشاف جزائر ملونية، كذلك اكتشاف جزائر الماركيز.

* ١ يناير ١٥٩٥= ٢٦ كيهك ١٣١١= الأحد ١٩ ربيع الثاني ١٠٠٣.

* في ٨ منه وفاة السلطان مراد خان الثالث، وعمره: ٥٠ سنة، و٨ أشهر. وفي ١٦ جماد أول تسلطن ولده السلطان الغازى محمد خان الثالث بن مراد الثالث.

* فيها تولى مصر قورط باشا، بدلا عن أحمد باشا، الملقب بالخادم، الذى حكم مصر ٤ سنوات.

* فيها ضرب بمصر، في عهد السلطان محمد الثالث، زرمحبوب، بلغت قيمته سنة ١٣١٢ق. ٣٠٠ نصف فضة، تساوى أحد عشر فرنكا وثلاث أرباع الفرنك.

* ١ تـــوت ١٣١٢= ٩ سبتمبر ١٥٩٥= السبت ٤ محرم سنة ١٠٠٤.

* فيها تولى سنان باشا، وهو الذى فرش الحجر الأسود بعد

---

(٣) جباية ضرائب على مقامات الأثنى عشر قديساً في القاهرة وبولاق ومصر عتيقه،كل مقام عليه ١٢٫٦٨٧ باره سنوياً مجموعها ١٥٢٫٢٤٤ باره.

(٤) جباية ضرائب على تجار دخان سمنود والمحلة الكبرى مجملها ١٨٫٠٠٠باره سنويا.

(٥) جباية ضرائب على مصانع الحلوى في القاهرة ومصر عتيقه وبولاق ،كانت تدفع سنويا ٣٦,٠٠٠باره.

(٦) جباية ضرائب على الخمامير ، يجبى منها سنوياً ١٩,٠٣٠ باره.

(٧) جباية ضرائب على صانعي شوبك الدخان في مصر عتيقه مقدارها ١٠٫٤٠٠ باره سنويا.

(٨) جباية ضرائب على قاطعي فروع النخيل [تستخدم في صناعة الاثاث والسلال]مقدارها ١٠٫٥٦٧ باره سنويا، وقد كان لهم طائفه تتكون من شيخ للطائفة وسبعة اساتذه [معلمين] وتابعيهم من الحرفين.

(٩) حق فرض وجباية ضريبة حمايه على ملتزمى مصنع ملح النشادر بالقاهرة مقدارها ٣٫١٢٠ باره سنويا.

(١٠) جباية ضريبة على صناع عروق الخشب الخاصة بسقوف المنازل مقدارها ٧٫٠٠٠ باره سنويا.

صحن المطاف بالمسجد الحرام، وعمر سبيل التنعيم وأجرى اليه الماء من بئر بعيدة، وحفر آبار بالقرب من المدينة المنورة، وعد ذلك له مآثر جميلة واثارا حميدة وخيرات لا تنقطع بمقتضى وقفية تاريخها ٢٠ ربيع الأول سنة ٩٩٦.

* في يونيو أبدل قورط باشا، بعد أن حكم سنة وثمانية أيام، بالسيد محمد باشا الشريف، وبعد توليته بقليل حصلت محاربات في الرميلة وباب الوزير.

* وفيها صار تجديد ما تخرب من الجامع الأزهر، ورتب به جملة من العدس تطبخ للفقراء.

* ١ تـوت ١٣١٣= ٨ سبتمبر ١٥٩٦= الأحد ١٥ محرم سنة ١٠٠٥.

* فيها حصلت زلازل عظيمة فى بابونيا.

* فيها حصلت زلازلا عظيمة فى بابونيا.

* ١ ينـاير ١٥٩٧= ٢٦ كيهك ١٣١٣= الأربع ١٢ جماد أول سنة ١٠٠٥.

* ١ تـوت ١٣١٤= ٨ سبتمبر ١٥٩٧= الأثنين ٢٦ محرم ١٠٠٦.

* فيها انعقدت معاهدة بين حكومة فرنسا والسلطان محمد الثالث.

* ١ ينـاير ١٥٩٨= ٢٦ كيهك ١٣١٤= الخميس ٢٣ جماد أول ١٠٠٦.

* فى فبراير انتشبت ثورة عسكرية بمصر، فيها اطلق الاسباهية على السيد محمد باشا النار، ولم يتخلص من ايدى العصاة إلا بشق الأنفس، وعل

---

(١١) جباية ضريبة حمايه على دلالى بيع الجمال فى ميدان الرميلة مقدارها ٣٫٥٣٦ باره سنويا.

(١٢) جباية ضريبة حمايه على الحديقه المسورة فى القبة بالقاهرة حيث النساء المغنيات والعواهر مقدارها ١٫٦١٦ باره سنويا.

(١٣) جباية ضريبة على أسواق الحبوب والخضر والفاكهة والحيوانات فى مدينة الفيوم والواحات وكذلك الجزارين والمغنيات والراقصين [الغوازى] مقدارها ١٧٧٫٧١٦ باره سنوياً.

(١٤) جباية ضريبة جمركية على كل البضائع العابرة على معديات النيل فى بولاق ومصر عتيقه مقدارها٥٠٫٠٠٠ باره سنوياً.

(١٥) جباية ضريبة جمركية على كل البضائع العابرة بقناة الناصريه التى تربط الاسكندرية بالنيل مقدارها ١٫٠٠٧باره سنوياً.

(١٦) جباية ضرائب على الراقصات والعاهرات والغوازى بالصعيد مقدارها ٩٫٠٠٠ باره سنوياً.

(١٧) جباية ضرائب على صانعى القلل والأزيار مقدارها ١٠٫٣٣٠٠ باره سنوياً.

(١٨) جباية ضرائب على صانعى السروج مقدارها ٩٫٧٠٠ باره سنوياً

(١٩) جباية ضرائب على بائعى اسواق المأكولات فى بنى سويف مقدارها ٢٠٫٨٠٠باره سنوياً.

كل فر الى القلعة وقفل أبوابها، وتفرقت العصاة بالمدينة، وقتلوا الأمير محمد بك والدالي محمد، وعلقوا رأسيهما على باب زويلة.
* في يوليو أبدل السيد محمد باشا بخضر باشا، فحكم مصر ٣ سنوات و١٢ يوما.
* فيها كان تاسيس وإيجاد المدارس الابتدائية (المبتديان) بفرنسا.
* ١ تـوت ١٣١٥ = ٨ سبتمبر ١٥٩٨ = الثلاث ٦ صفر سنة ١٠٠٧.

* فيها حدث بمصر طاعون عظيم وقحط أليم.
* فيها حدثت محاربات عظيمة في الرميلة وباب الوزير.
* ١ ينـاير ١٥٩٩ = ٢٦ كيهك ١٣١٥ = الجمعة ٣ جماد الثاني ١٠٠٧.
* ١ تـوت ١٣١٦ = ٩ سبتمبر ١٥٩٩ = الخميس ١٨ صفر سنة ١٠٠٨.
* ١ ينـاير ١٦٠٠ = ٢٥ كيهك ١٣١٦ = السبت ١٤ جماد الثاني ١٠٠٨.
* فيها كان البدء في تأسيس القومبانيات الانكليزية للهند الشرقية.

* ١ تـوت ١٣١٧ = ٨ سبتمبر ١٦٠٠ = الجمعة ٢٨ صفر سنة ١٠٠٩. فيها تقريباً ـ كان ابتداء استعمال الترومزى (مقاس درجة الحرارة).
* ١ ينـاير ١٦٠١ = ٢٦ كيـهك ١٣١٧ = الاثنين ٢٥ جماد الثاني سنة ١٠٠٩.
* في ٢٥ مـارس ١٦٠١ = ٢٠ رمضان تجمهرت الضابطة والعلماء والفقراء بمصر بسبب

---

(٢٠) جباية ضرائب على صانعى دخان التمباك مقدارها ٧٫٠٠٠ باره سنوياً.

(٢١) جباية ضرائب على صناعى صباغى الحرير بالقاهرة مقدارها ٢٠٫٢٨٠ باره سنوياً.

٣ـ مقاطعة «سمسارية بحرين»: السمسرة التى تمارس فى مينائى مصر عتيقه وبولاق ،ومن ثم فقد كان حائز هذه المقاطعة يسمي «أمين البحرين» والى هذه المقاطعة أضيف حق جباية ضرائب على الملاحة فى النيل واستخدام الميناءين «مقاطعة تعريف مراكب» وذلك فى سنة ٩٧٣هـ = ١٥٦٥م، كما أضيف إليها حق رقابة نشاطات السمسرة فى سوق الحبوب والبذور وذلك فى عام ١١١١هـ = ١٦٩٩م لتحصيل ضرائب على وزن الغلال، لذلك كانت هذه المقاطعة أهم المقاطعات الحضرية ، وكان «امين البحرين» واحداً من أقوى المؤثرين فى شئون الحياة السياسة والأقتصادية بمدينة القاهرة.

وحتى عام ٩٨٨هـ = ١٥٨٠م. كانت هذه المقاطعة تمنح كأمانه لأوجاق متفرقة، ولكنها بعد هذا التاريخ أصبحت تمنح كالتزام، وخلال القرن السابع عشر كان يأخذها تجار من يهود القاهرة، ولكن خلال القرن الثامن عشر كان يأخذها اوجاق العزبان.

ومن عام ١١٥٦هـ = ٧٤٣م حتى عام ١٧٥هـ = ١٧٦١م كان متوسط عوائد «أمين البحرين» كما يلي:

قطع مرتباتهم، وساروا الى قاضي العسكر واتحدوامعه وتوجهوا الى الديوان فقتلوا كخيا الباشا وأمراء آخرين، فخاف الباشا واجاب طلباتهم، ثم استقال، وولي مكانه الوزير علي باشا السلحدار.

* ١ تـــوت ١٣١٨ = ٨ سبتمبر ١٦٠١ = السبت ١٠ ربيع أول سنة ١٠١٠.

* في اكتوبر من هذا العام فشا شرب الدخان في مصر، ولم يكن معروفا من قبل ذلك.

* ١ ينـاير ١٦٠٢ = ٢٦ كيهك سنة ١٣١٨ = الثلاث ٧ رجب سنة ١٠١٠.

* فيها كان تأسيس اسبتالية الصدقة (المجانية) بفرانسا.

* فيها كان البدء في تأسيس القومبانية الهولاندية للهند الغربية.

* ١ تـــوت ١٣١٩ = ٨ سبتمبر ١٦٠٢ = الأحد ٢١ ربيع أول سنة ١٠١١.

* ١ ينـاير ١٦٠٣ = ٢٦ كيهك سنة ١٣١٩ = الأربع ١٨ رجب ١٠١١.

* فيها كان اتحاد انكلترا بسكوتلانده في أيام جمس الأول، من عائلة استوارت.

* فيها استدعى الجزويت هنرى الرابع.

* فيها كانت وفاة ايليزابيت ملكة الانكليز، وتبوؤ جاك الايقوسى، المسمى جاك الأول.

* ١ تـــوت ١٣٢٠ = ٩ سبتمبر ١٦٠٣ = الثلاثاء ٢ ربيع الثاني سنة ١٠١٢.

* ١ ينـاير ١٦٠٤ = ٢٥ كيهك ١٣٢٠ = الخميس ٢٨ رجب سنة ١٠١٢.

بالنسبة لمقاطعة سمسارية البحرين:

(١) على كل مركب يصل إلى المنطقة المجاورة لميناء العقبة ٢٠ باره.

(٢) على كل مركب يأتي من إمبابه الى موانى بولاق ومصر العتيقة في رحلتها الأسبوعية تدفع ١٠ بار ة، أما المراكب الاربعة الكبيرة فتدفع اسبوعياً ٢٠ باره.

(٣) على كل جوال قمح يصل على المراكب ٢ باره.

(٤) على ملتزم شونة السكر في بولاق ٢٠٠٫٠٠٠ باره سنوياً.

(٥) على صباغي الحرير في بولاق ومصر عتيقه ٧٨٫٠٠٠ باره سنوياً.

(٦) على مصنع النشا بمصر عتيقه ١٥٫٠٠٠ بارة سنوياً.

(٧) على ملتزم شونة الحبوب في بولاق ٢٠٫٠٠٠ بارة سنوياً.

(٨) على كل قارب قمح يصل الى بولاق ومصر عتيقه باره واحده عيناً وخمسة بارات نقداً من أجل السماح له بأنزال حمولته على الرصيف.

وبالنسبة لمقاطعة كيالي غلال بولاق:

(١) نصف أدرب قمح على كل مائة أردب في حوزة التجار المتعاملين في القمح، ويتم ذلك مرة كل شهرين.

* فـــي ١٢ رجـــب = ١٦ ديسمبر كان وفاة السلطان محمد الثالث، وعمره: ٣٧ سنة، ومدة حكمـه ٩ سنين، وفي ١٨ رجب تسلطن بعده ولده السلطان أحمد الأول.
* فيها تولى مصر ابراهيم باشا، فحكم فيها مدة قصيرة.
* فيهـا كـانت حـرب بين اسوج وبولونيا.
* فيها كانت ولادة السلطان عثمان خان الثاني.
* فيها انعقدت معاهدة بين حكومة فرانسا والسلطان أحمد الأول

* ١ تـــــوت ١٣٢١= ٨ سبتمبر ١٦٠٤= الأربع ١٣ ربيع الثاني ١٠١٣.
* في ٢٩ ربيع اخـر تحـالف الجند بمصـر على قـتل البـاشـا بسبب ابطال طلبـاتهم. وفي الغدوة انتظروه عندما كان عائدا من ناحية الجسر أبي المنجى ثم هاجموه وقتلوه هو الأمير محمد بن خسرو ثم علقوهما على باب زويلة، وقيل إن ذلك كان في سنة ١٠١٢.

* ١ ينـــايـر ١٦٠٥= ٢٦ كـيـهك ١٣٢١= السبت ١٠ شعبان سنة ١٠١٣.
* فـيـهــا، لما علم ديوان الآستانه بقتل ابراهيم باشا، أرسل عوضا عنه الوزير محمد باشا الكورجي، الملقب بالخادم، الذى لم يحكم أكثر من سبعة أشهر وتسعة أيام.
* فيها قتل محمد باشا الكورجي زعماء الثورة، حتى انه قتل ما يزيد عن مائتى نفر في مدة حكمة القصيرة.

* ١ تـــــوت ١٣٢٢= ٨

---

(٢) في عام ١١٧٥هـ= ١٧٦١م، كان أردب القمح يباع رسميا بسعر ١٠٫٥ باره، يضاف الى ذلك أن البائع كان يجب عليه أن يدفع ١٫٧٥باره عن الاردب لأمين البحرين، وحوالى ٠٫٣٣ باره للدلال ، ونصف باره للصراف ونصف للكاتب الذى يسجل عملية البيع ،ونصف للحمالين. وهذا يجعل مجمل سعر الاردب للمشترى حوالى ١٤٫٦باره.

وترجع اهمية هذه العملية الى انه كان لايمكن لأى تاجر ان يبيع قمحه الذى يشحن للقاهرة إلا عن طريق أمين البحرين.

(٣) على القمح الذى يشحن من القاهرة [من مينائي مصر عتيقه وبولاق] الى خارج البلاد ٢باره لكل أردب لأمين البحرين ، وبارتان لموظيفه واتباعه، ونصف باره للكيال و ٠٫٢٥ باره للحمال.

(٤) على كل كيال في شونة القمح ببولاق ٣٥٠ بارة شهرياً.

(٥) كان من واجبات أمين البحرين استلام ١٦٠٫٠٠٠ باره سنويا من الخزانة السلطانية لشراء جزء من البارود الذى يصل للموانى لصالح السلطان [الباب العالى].

٤- مقاطعة كيالى الارز المبيض لبندر دمياط:

إن اقليم زراعة الارز الرئيسى في مصر كان يقع في المناطق المحيطة بمدينة دمياط، وكان أرز هذه المنطقة يرسل الى كل الأجزاء في السلطة العثمانية، وأيضاً الى أوربا. وفي عام

سبتمبر سنة ١٦٠٥ الخميس ٢٤ ربيع الثاني سنة ١٠١٤.
* فيها استبدل محمد باشا الكورجي بالوزير حسن باشا.
* فيها كان اكتشاف اوستراليا معرفة الهولنديين.
* ١ يناير سنة ١٦٠٦= ٢٦ كيهك سنة ١٣٢٢= الأحد ٢١ شعبان سنة ١٠١٤.
* فيها اكتشف جون سميث خليج شازبياك.
* فيها الفرنساوية تملكت كندا.
* فيها اخترع المعلم ليبرشي بمجد بورج النظارات المقربة، أى التيليسكوب.

* ١ توت ١٣٢٣= ٨ سبتمبر ١٦٠٦= الجمعه ٥ جماد أول سنة ١٠١٥.
* ١ يناير ١٦٠٧= ٢٦ كيهك ١٣٢٣= الاثنين ٢ رمضان سنة ١٠١٥.
* فيها كان أول استيطان الانجليز بأميركا.
* في صفر تولى مصر محمد باشا، بدلا من الوزير حسن باشا.
* فيها زاد الفساد وحصلت في بركة الحج بمصر حروب بين عساكر الوالي والعساكر القائمة مع الأمراء المماليك.

* ١ توت ١٣٢٤= ٩ سبتمبر ١٦٠٧= الأحد ١٧ جماد الأول سنة ١٠١٦.
* ١ يناير ١٦٠٨= ٢٥ كيهك ١٣٢٤= الثلاث ١٣ رمضان سنة ١٠١٦.
* فيها أسست مدينة كيبك بكندا، اسسها سمويل شامبلان.

* ١ توت ١٣٢٥= ٨

١٠٢١هـ=١٦١٢م، تم تأسيس «مقاطعة كيالي الارز المبيض»من أجل التحكم في جباية ضرائب هذا النشاط الذى كان يتركز أساساً في شونه الارز بدمياط.

وخلال القرن السابع عشر، نجد ان هذه المقاطعة كان يحوذها كألتزام أوجاق المتفرقة ، وبعد عام ١٠٨٣هـ= ١٦٧٢م أضحى يحوزها أوجاق عزبان . ومن عام ١١٥٦هـ= ١٧٤٣الى عام ١١٧٥هـ= ١٧٦١م كانت عوائد ملتزمى هذه المقاطعة كما يلى:

(١) على كل أردب أرز يشحن للخارج بحراً ٢٠ باره.

(٢) كل أردب أرز يباع في شونة الارز ٧ باره.

(٣) على كل أردب حبوب أو بقول يباع بمدينة دمياط باره واحده.

(٤) على كل عشرة أرادب سمسم تأتى من مصر ٤ باره.

(٥) على كل سبت سمسم يأتى من سوريا من أجل بيعه في دمياط ٤ باره.

(٦) على كل سبت سمسم يأتى من سوريا من أجل بيعه في القاهرة ٦ باره.

(٧) على كل عشرة أردب من البقول المباعة بدمياط نصف أردب عينا.

(٨) عى كل ثلاثة أرادب من البذور والحبوب باره واحده.

والى جانب هذه المقطاعات الأربع كانت توجد عدة مقاطعات صغيرة مثل مقاطعة «حمام

سبتمبر سنة ١٦٠٨= الاثنين ٢٧ جماد الأول ١٠١٧.

* ١ يناير ١٦٠٩= ٢٦ كيهك ١٣٢٥= الخميس ٢٤ رمضان سنة ١٠١٧.

* في أواخر رمضان ثارت العسكر على الوالي واجتمعوا في جامع أحمد البدوى بطنطا وتحالفوا على أن لا يوافقوه على إلقاء الضرائب غير العادلة، وولوا عليهم سلطانا، وتقاسموا مصر. وفي ذى القعدة قام محمد باشا وضم إليه العربان وردع العصاة وقتل منهم ٧٧ نفرا.

* فيها اكتشف هدسن البغاز المسمي باسمه في أمريكا الشمالية.

* في ١٨ جماد أول كانت ولادة السلطان الغازى مراد خان الرابع.

* ١ تـوت ١٣٢٦= ٨ سبتمبر سنة ١٦٠٩= الثلاث ٨ جماد الثاني سنة ١٠١٨.

* ١ يناير ١٦١٠= ٢٦ كيهك ١٣٢٦= الجمعة ٥ شوال سنة ١٠١٨.

* فيها قتل رافاليك اليسوعي المسيحى هنرى الرابع ملك فرانسا.

* ١ تـوت ١٣٢٧= ٨ سبتمبر سنة ١٦١٠= الاربع ١٩ جماد الثاني ١٠١٩.

* فيها اكتشف جاليليه البقع الشمسية ودوران الارض.

* فيها اكتشف جاليليه اقمار المشترى.

* ١ يناير ١٦١١= ٢٦ كيهك ١٣٢٧= السبت ١٦ ذو القعدة ١٠١٩.

* فيها كان طاعون بالآستانه

باشا» لجنود الاوجاقات في القلعة حتي لايختلطوا بالاهالى في حماماتهم، وهذه ضمت لمقاطعة جمرك بولاق مصر عتيقه عام ١٠٨٣هـ= ١٦٧٢م. ومقاطعة «الجزيرة» قرب بولاق، ضمت كذلك لمقاطعة «جمرك بولاق». ومقاطعة «مرتجع رشيد»، ومقاطعة «بحيرة سمك» المنزله. ومقاطعة «مال حمايه أرز ميرى» التى تأسست عام ١١٠٨هـ= ١٦٩٦م على معلم دمياط المتولى شئون مقاطعة الارز بدمياط . مقاطعة «مال جبايه اوغلى» خاصة بشراء الذهب لسك العملة. ومقاطعة «احتساب قباني بندر رشيد». ومقاطعة «احتساب قباني بندر دمياط». ومقاطعة «مال حماية ميزان قطن بندر رشيد». مقاطعة «مال حماية كتابة جمرك بندر اسكندرية». مقاطعة «حماية ميزان قطن بندر رشيد». مقاطعة «حماية دمغة سام وكاالخان سام» كانت تفرض على أمين الدمغة . مقاطعة «حماية جمرك بندر بولاق». مقاطعة «حماية كتان وقطن بندر بولاق» . مقاطعة «وكالة زبيب» في ميناء دمياط.مقاطعة «مال عشور» .على جمرك التوابل والسنامكي بميناء السويس تأسست في شعبان ١١٦٤هـ= ١٧٥٠م مقاطعة حماية «وكالة عصفر مصر المحروسة».

وحتى عام ١١٣٥هـ= ١٧٢٢م كانت مدفوعات الضرائب الخاصة بالمقاطعات الحضرية يتم نقلها للخزانة السلطانية. ولكن بعد ذلك ومن دافع استحواذ البكوات المماليك على معظم المقاطعات واستقلالهم عن سلطة الباشا، فقد كان من النادر أن يجمع أكثر من ٦٠٪

مـــــات به ٢٠٠,٠٠٠ نـفـس. وحصل فيها زلازل عظيمة.
* فـيـهـا طرد عـدد غـفـيـر من المغاربة من اسـبـانيا فى أيام ملكها فيليب الثالث.
* فـيـهـا طرأ على كـبلر أول فكرة بخصوص النظارات الفلكية ذات العدستين المحدبتين.

*١ توت ١٣٢٨= ٩ سبتمبر ١٦١١= الجمعة غرة رجب سنة ١٠٢٠.
* فيها اكتشف جاليلية أوجه الزهرة

* ١ يـنـايـر ١٦١٢= ٢٥ كـيـهك ١٣٢٨= الأحـد ٢٦ شوال سنة ١٠٢٠.
* فـيـهـا ـ وقيل فى صـفـر ـ تولى مصـر محـمـد باشـا، الملقب بالصوفى.
* فيها انعقدت معاهدة تجارية بين الـسـلـطـان أحـمـــد الأول وحكومـة الفلمنك مـصـرحـة لرعـاياها بالـتـجـارة فى المـمـالك العثمانية وإقامة قناصل وسفرائها.

* ١ تـــوت ١٣٢٩= ٨ سبتمبر سنة ١٦١٢= السبت ١٢ رجب سنة ١٠٢١.
* ١ يـنـايـر ١٦١٣= ٢٦ كـيـهك ١٣٢٩= الـثـلاث ٩ ذو القعدة سنة ١٠٢١.
* فـيـهـا كـان اخـتـراع اللوغاريتم.
* فيها استوطنت الفلمنكيون فى نيويورك.

* ١ تـــوت ١٣٣١= ٨ سبتمبر ١٦١٤= الاثنين ٣ شعبان سنة ١٠٢٣.
* ١ يـنـايـر ١٦١٥= ٢٦

من الضرائب المستحقة، وبعد ظهور على بك الكبير فى عام ١١٨٤هـ= ١٧٧٠م وحتى وصول الحملة الفرسية، كانت عملية دفع هذه الالتزامات مثلها فى ذلك مثل الضرائب الزراعية، يتم عن طريق اتفاق مباشر بين الباشا والبكوات المماليك يحقق مصالحهم الشخصية.

إلى جانب كل الضرائب السابقة والتى كان من المفروض توريدها للخزانة السلطانية كانت هناك مقاطعات أخرى لاتورد جباياتها للخزانة السلطانية بوصفها «تيمار» مقابل خدمات خاصة يؤديه أصحابها للسلطان . ومن هذه التيمارات ما يلى:

١ - ضريبة ميناء: كانت تجبى على كل سفينة على وشك الابحار.

٢ - حساب باجى بازار: كانت تجبى على الباعة فى الميناء.

٢ - ضريبة صيد السمك فى الميناء.

٤ - غرامات جنايات على ما يحدث من جرائم كان إيرادها حوالى ٢٥٠ر٠٠٠ بارة سنويا فى المتوسط.

وبعد عام ١١٧١هـ= ١٧٥٨م نجد أن البكوات المماليك استولوا على هذه التيمار ات وظل الأمر على ذلك حتى قدوم الحملة الفرنسية.بل استطاعوا أن يستولوا على العديد من الضرائب الأخرى مثل : ضرائب صيد الأسماك فى النيل ، واستغلال الملاحات، وانتاج النطرون ووكالات الأرز والكتان والقطن والتوابل والبذور والسكر ووكالات بيع الدواب والدخان والبن والحرير.

٩٣ : يوانس [١٤٧٨ / ١٤٨٣م.]

كيهك ١٣٣١= الخميس ٣٠ ذو القعدة سنة ١٠٢٢

* فيها ـ وقيل في سنة ١٠٢٧ ـ أرسل الصدر الأعظم عشرة الاف عسكرى الى اليمن عن طريق مصر، فلما وصلوها عصوا عن السفر واتخذوا لهم منازل عند باب النصر واقاموا لهم متاريس وتحصنوا بها، فحاصرهم الباشا بكل ما لديه، وجبرهم على التسليم والسفر من المدينة، وبعد قليل عزل محمد باشا الصوفى وتولى بعده أحمد باشا الدفتردار، وقد تسبب عن هذا التمرد خراب جهة الجمالية والخرنفش وباب الشعرية والحسينية وما جاور ذلك.

* ١ توت ١٣٣٠= ٨ سبتمبر ١٦١٣= الأحد ٢٣ رجب سنة ١٠٢٢.

* ١ يناير ١٦١٤= ٢٦ كيهك ١٣٣٠= الأربع ٢٠ ذو القعدة ١٠٢٢.

* ١ توت ١٣٣٢= ٩ سبتمبر ١٦١٥= الأربع ١٥ شعبان سنة ١٠٢٤.

* في ١٢ شوال كانت ولادة السلطان ابراهيم خان.

* ١ يناير ١٦١٦= ٢٥ كيهك ١٣٣٢= الجمعة ١١ ذو الحجة ١٠٢٤.

* فى يناير = المحرم، ورد للباشا أمر من الآستانه ان يرسل الفا من عسكر مصر لتنضم الى الجيش العثمانى الذاهب لمحاربة الفرس، فأرسلهم تحت قيادة صالح بك أمير الحج فساروا على اتم نظام.

* فيها أنشا البردينى جامع البردينى، بشارع الداودية النافذ الى شارع محمد على.

---

* إلى جانب ذلك كانت هناك أموال «كشوفية كبير» كانت تفرض منذ الاحتلال العثمانى على كل الموظفين العاملين في خدمة الديوان بمصر وتدفع إلى الباشا .وفي أواخر القر ن السادس عشر وبدايات القرن السابع ، كانت عوائد الكشوفية يصل متوسطها إلى ٤ مليون بارة فى العام كان يتم دفعها للباشا فى حفل رسمى يعقد فى بداية شهر «توت» وهو الشهر الأول من السنة المالية المصرية.

وفى عا م ١٠٤٢= ١٦٣٢م وصلت عوائد «كشوفية كبير» إلى ١٢,٤,٠٠٠بارة ولكن مع سقوط مصر بعد ذلك فى حالة من الفوضى الإدارية والسياسية نجد أن الرقم قد تدنى إلى ٧,٥٠٠,٠٠٠بارة تقريبا فى عام ١٠٦٣هـ= ١٦٥٢م. وفى عام ١٠٦٧هـ = ١٦٥٦م وصل الرقم إلى ٥,٥٠٠,٠٠٠ليس أكثر.

* والى جانب أموال «كشوفية كبير» كانت هناك الجزية أو مال جوالى التى يدفعها المصريون القبط:

خلال القرن السابع عشر كانت مقاطعة الجزية تمنح التزاما للأمراء المماليك ، وكان صاحب هذا الالتزام يسمى «امين الجوالى».

وفى عام ١١٥٢ =١٧٣٧م كان مجموعها ١٨مليون بارة، خصم منها. ٦٧٩,٧١٠بارة للباشا وبقية الموظفين باسم «كشوفية صغيرة» و«مرتبات» كما تخصص ٤٠٠,٠٠٠باره

* فيها اكتشف يعقوب لمير بحر بافين ورأس هورن.

* ١ توت سنة ١٣٣٣ = ٨ سبتمبر ١٦١٦ = الخميس ٢٦ شعبان سنة ١٠٢٥.

* في سبتمبر بعدها، انعقدت معاهدة تجارية بين الباب العالي وبين حكومة اوستريا تقضي بالتصريح لرعاياها بالتجارة داخل المماليك العثمانية.

* ١ ينـاير ١٦١٧ = ٢٦ كيهك ١٣٣٣ = الأحد ٢٣ ذي الحجة سنة ١٠٢٥.

* ١ توت سنة ١٣٣٤ = ٨ سبتمبر ١٦١٧ = الجمعة ٧ رمضان سنة ١٠٢٦.

* في ٢٣ القعدة = ٢٢ نوفمبر كانت وفاة السلطان أحمد خان وعمره: ٢٨ سنة، ومدة حكمه ١٤ سنة، وفي ٢٢ ذو القعدة تسلطن السلطان مصطفى خان ابن السلطان محمد خان، وبتوليته استبدل أحمد باشا بمصطفى باشا المنكلي، فكانت مدة أحمد باشا سنتين و١٠ شهر ١٢ يوم.

* ١ ينـاير ١٦١٨ = ٢٦ كيهك سنة ١٣٣٤ = الاثنين ٤ صفر سنة ١٠٢٧.

* في يناير ١٦١٨ كان خلع السلطان مصطفى خان بن محمد خان من السلطنة، ومدة حكمه ٣ شهور وثمانية أيام، وفيها تسلطن السلطان أبو النصر، عثمان خان الثاني ابن السلطان أحمد الأول.

* فيها كانت بداية حرب الثلاثين سنة في اوروبا.

* فيها انعقدت معاهدة بين حكومة فرانسا وبين السلطان عثمان خان.

* فيها ضرب في مصر، في

«كشوفية كبير» و١,٩١٦٠٠٠ بارة «باقي مال جوالي» أما الباقي وهو ١٥,٠٠٧٧,٢٩٠ باره تذهب للباب العالي.

* وإلى جانب ذلك كان يوجد «مال الحلوان»:

خلال القرن السادس عشر والسابع عشر، كانت عوائد بيع مقاطعات الممتلكات السلطانية تذهب مباشرة إلى الباشا والسلطان ولاتذهب للخزانة فيما عدا حالات خاصة. وفي عام ١٠٨٣هـ = ١٦٧٢م طلب من الباشا أن يدفع قسماً منها بوصفه «مال الحلوان» للخزانة السلطانية مقداره مليون باره، ثم ارتفع من واقع حدوث «زيادة» و«مضاف» إلى ٢,١١٣,٠٠٠، باره وقت وصول الحملة الفرنسية.

* مال «التفاوت» أو «وفر الكيل» :كانت هذه أحد العوائد الرئيسية للخزانة سواء نقداً أو عيناً. وكان هناك كذلك «تفاوت خاص» تحصله الخزانة على كل ما تدفعه كرواتب أو نفقات خزينه مقداره بارة واحدة على كل أربعين باره تدفعها الخزانة.

وفي عام ١٠٢٥ = ١٦١٦م كان مقدار ما حصلته الخزانة لصالحها حوالى ٩٣٦,١٥٢ بارة،وصل في عام ١٠٧٥ = ١٦٦٤م إلى ١٬٧٩٠٬٠١٦ بارة.

يضاف إلى ذلك أنه خلال القرن السابع عشر تم رفع نصيب الخزانة إلى حوالى ١٥ باره على كل أربعين باره تدفعها للأغراض السابق ذكرها تحت اسم «تفاوت خزنة» أو «تفاوت

عهد السلطان عثمان، زر محبوب قيمته سنة ١٢٠٣ أحد عشر فرنكا وثلاثة أرباع.

* ١ توت ١٣٣٥= ٨ سبتمبر ١٦١٨= السبت ١٨ رمضان سنة ١٠٢٧.

* في شوال= اكتوبر نشات تمردات عسكرية بمصر، فقتل عددا كبيرا من الاهالي، ولم يسكن الحال إلا بعزل مصطفى باشا، فتولى مكانه الوزير جعفر باشا، الذى لم يحكم إلا خمسة أشهر ونصفا.

* ١ يناير سنة ١٦١٩= ٢٦ كيهك سنة ١٣٣٥= الثلاث ١٤ محرم ١٠٢٨.

* في أواخر ربيع اول لغاية أول جماد الثانى انتشر بمصر وباء فتك بأهلها، واعظم من مات به كان بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين، وبلغت جملة من توفى بسببه ٦٣٥,٠٠٠ نفس.

* وفى ٢٢ ربيع الثانى عزل جعفر باشا، وتولى بعده مصطفى باشا، وقبض على زعيم ثورة السنة الماضية وأعدمه.

* فيها حصل غرق عظيم وتلاه وباء أليم وقحط شديد.

* ١ يناير سنة ١٦٢٠= ٢٥ كيهك ١٣٣٦= الأربع ٢٥ محرم سنة ١٠٢٩.

* فيها حصل غلاء ووباء فى مصر.

* فيها كان انضمام نافار الى فرنسا.

* فيها كان ظهور قوانين كبلر المشهورة.

* ١ توت سنة ١٣٣٧= ٨ سبتمبر ١٦٢٠= الثلاث ١٠ شوال سنة ١٠٢٩.

* ١ ينايـر ١٦٢١= ٢٦

فضة» بحسب العملة التى تدفع بها. أن هذا المبلغ وصل من ٧٥٤,٠٥٢باره عام ١٠١١= ١٦٠٢م إلى ١٣,٤٥٨,٤٩٩عام ١٠٤١=١٦٣١م.

*«تفاوت كيل : وكان عيناً على الحبوب للخزانة ، مقداره ١/٨ الاردب الذى تصرفه الخزانة، لتعويض الحبوب التى تفقد بسبب غرق المراكب التى تنقلها،ولتزويد عمال الشون بحاجتهم من الحبوب،وما يتبقى منها كان يمنح للباشا واتباعه.

وخلال القرن الثامن عشر كان مجمل «تفاوت كيل» يصل إلى ٣٦,٠٠٠أردب سنويا يذهب منها للباشا ٢٦,٠٠٠ أردب.

*«زيادة وفر كيل» بسبب زيادة «تفاوت كيل» من الحبوب كانت الخزانة تفضل أن يبيعها الملتزم ويسددها نقدا.

(٣) بيت المال: أن السلطان لم يكن له فقط حق الاستيلاء على كل الثروات التى ينتجها الذين يعشيون ويعملون فى أراضى السلطنة، ولكن كان من حقه أيضا أن يستولى على الأموال والممتلكات الخاصة لمن يموتون دون وارث.

أن حق السلطان هذا تم نقله فى صورة مقاطعة «بيت المال» وكان حائزها يسمى «بيت المال امين» أى أمين بيت المال.

ولكن فى عام ١٠٨٣= ١٦٧٢م تم ضم هذه المقاطعة إلى «مقاطعة مال خردة».

كيهك سنة ١٣٣٧= الجمعة ٧ صفر سنة ١٠٣٠.

* فيها كان ابتداء وجود حزبى الاحرار والمحافظين بانجلتراه.

* فيها كان تأسيس مدينة نيويورك، كذا تأسيس كلية بطراسبورج.

* فيها اثار الكاردينال ريشيليو، في فرانسا، حربا على البروتستانت، وحصرهم في قلعة روشيل واخضعهم.

* ١ توت ١٣٣٨= ٨ سبتمبر سنة ١٦٢١= الأربع ٢١ شوال سنة ١٠٣٠.

* فيها استمرت زيادة النيل إلى بابه، وأيست الناس من نزوله، وغلت الأسعار حتى وصلت وية القمح ٣٠ نصفا فضة ووقع الفناء، وكان ابتداؤه في ذى الحجة= اكتوبر.

* زاد النيل زيادة عظيمة واتلف الزروع واستمر الخليج يجرى بالقاهرة مائة يوم.

* ١ يناير سنة ١٦٢٢= ٢٦ كيهك سنة ١٣٣٨= السبت ١٧ صفر سنة ١٠٣١.

* فيها حصل غلاء، وبلغت وية القمح ٤٠ نصفا فضة، ووقع الطاعون، وأكثره في الغرباء.

* فيها ضربت العوائد أول مرة على الدخان في فرانسا.

* في برمهات = مارس كان انتهاء الفناء الذى ظهر في العام الماضي.

* في ١٩ مايو خلع السلطان عثمان خان الثانى، ومدة حكمه ٤ سنين و٤ أشهر، وعمره: ١٨ سنة، فتولى بعده السلطان مصطفى خان بن محمد خان، مرة ثانية، وهو الذى كان متسلطنا قبله.

---

(٤) «فايظ خيار شنبر»: وكان يعتقد وقتها أنه لاينمو إلا في مصر.وحتى عام ٩٧٤= ١٥٦٦م كانت عائلة شامية واحدة تملك حق التجارة فيه، فتجمعه من الفلاحين والبدو. وبعد ذلك التاريخ نقل الباشا هذا الحق إلى التجار اليهود في صورة التزام مقابل ٣٠٠٫٠٠٠ باره سنويا. وفي عام ٩٩١= ١٥٨٣م استعادت الخزانة هذا الحق ومنح على شكل «امانات» لوكلاء يرسلهم الباب العالى وأضيف لها مقاطعة جديدة خاصة باحتكار حق استيراد وبيع «السنامكي».

وقد زادت عوائد هذه المقاطعة مع الأيام بصورة سريعة مما دفع الأمراء المماليك إلى الاستيلاء عليها في صورة «التزام» ابتداء من عام ١٠٥٧ = ١٦٤٧م ودفعوا عوائده «كشوفية كبير» للخزانة. ومنذ هذا التاريخ أصبحت هذه العوائد تدرج تحت «عوائد كشوفية».

(٥) «فايظ مشاقي ميرى»: تأسست هذه المقاطعة كأمانة خلال القرن السادس عشر من أجل تزويد الباشا بالأموال اللازمة لإرسال الحبال وأدوات خاصة بالاسطول السلطانى. إن «أمين مشاقي» كان من حقه جباية ضريبة تتراوح بين عشرين باره ومائة باره من قرى محددة بالوجه البحرى، وذلك كجزء من «ألتزامات المخرجات» لصنع الحبال في بولاق وإرسالها إلى الباب العالى. وكان هذا الأمين ملزم بإعادة الفايظ من المبلغ الذى جمعه للخزانة . وبعد عام ١٠٥٧ = ١٦٤٧م أمتلك هذا الحق في صورة التزام مقابل «كشوفية كبيرة» للخزانة.

* وفيها استقدم حسين باشا، والى مصر، الى الآستانه، ولوصوله بعد خلع السلطان عثمان، رغب فيه السلطان مصطفى، وقلده الصدارة العظمى،، وتولى مصر محمد باشا، ولم يمكث إلا شهرين ونصفا، ثم عزل، وتولى بعده ابراهيم باشا.

* ١ تـوت ١٣٣٩= ٨ سبتمبر ١٦٢٢= الخميس ٢ ذو القعدة سنة ١٠٣١.

* فيها ضرب زر محبوب في عهد السلطان مراد، وقيمته سنة ١٣٢٩ أحد عشر فرنكا وثلاثة أرباع.

* ١ يناير ١٦٢٣= ٢٦ كيهك ١٣٣٩= الأحد ٢٨ صفرسنة ١٠٣٢.

* فيها خلع السلطان مصطفى خان مرة ثانية، بعد أن حكم سنة وشهرين، وفي ١٥ القعدة تسلطن بعده السلطان الغازى مراد خان الرابع.

* في ٢٥ يوليو تولى مصر مصطفى باشا، عوضا عن محمد باشا، الذى عزل في ١٥ الحجة، وتولى مكانه على باشا.

* ١ توت ١٣٤٠ = ٩ سبتمبر ١٦٢٣= السبت ١٤ ذو القعدة ١٠٣٢.

* ١ يناير ١٦٢٤= ٢٥ كيهك ١٣٤٠= الأثنين ١٠ ربيع اول ١٠٣٣.

* في يناير ورد الى القاهرة جواب محمول على حمامه يفيد قرب وصول مندوب عثماني ناقل لبعض الأوامر السلطانية مضمونها تثبيت مصطفى باشا ثانيا في ولاية مصر، حيث عند عزله تعصب الاجناد بسبب مرتباتهم المقررة

---

(٦) «فايظ مقاطعة البارود»: من أجل تزويد الديوان والباب العالى بالبارود تم تأسيس هذه المقاطعة في صورة أمانة يديرها «الجبجى باشي» وهو رئيس السلاحليك. وكان له حق تنظيم طوائف صانعى البارود بالقاهرة والاسكندرية. إن الضرائب التى كانت تفرض على القرى المنتجة للبارود كانت تؤخذ عيناً. وكان يتم أيضا تزويد «أمين بارود» بالاعتمادات المالية الإضافية من الخزانة لشراء بقية ما يحتاجه الباب العالى من البارود وذلك في الغالب عن طريق «أمين البحرين».

(٧) «مال سردار قافلة» سردار القافلة وكان يسمى «قافلة باشي» .وكانت مهمته تزويد القوافل بالجمال وغيرها من حيوانات الحمل وخاصة قوافل الحاج والإرساليات المصاحبة لها، وكذلك قوافل التجارة بين بندر السويس والقاهرة ، ثم أصبح من مهامه حماية هذا القوافل من البدو العرب القاطنين على طريقها وذلك عن طريق دفع أتاوات لهم يأخذونها من كل قافلة بما فيها قافلة الحاج.

ولما كان واجبه أن ينفق نفقاته هذه مسبقاً ، فقد كان يجمعها بعد ذلك من التجار المستفيدين من هذه القوافل. أما النقود التى كان يحتاجها من أجل المزيد من هذه النفقات فكانت تعطى له من الخزينة بصفة قرض عليه سداده من الضرائب التى سيجنيها لهذا الغرض.

عند تغيير الولاة التي لم تصرف لم بسبب تواتر التغيير.

* فيها كان استيلاء الهولانديين على سانسلفادور.

* ١ تـوت ١٣٤١= ٨ سبتمبر ١٦٢٤= الأحد ٢٥ ذو القعدة سنة ١٠٣٣.

* فيها طغى النيل وخافت الناس الغرق والقحط.

* ١ ينـاير ١٦٢٥= ٦ كيهك ١٣٤١= الأربع ٢١ ربيع أول سنة ١٠٣٤.

* فيها كان سعر الريال ٣٧ فضة، والقرش المشط ٣٦ فضة، والشريفي ٦٤ فضة، وثمن الجمل ٧ أمشاط، وأردب الشعير ٢٥ فضة، وسعر مثقال العنبر ٧٠ فضة، وأردب الملح باجرة نقله ١٩ نصف فضة.

* ١ تـوت ١٣٤٢= ٨ سبتمبر ١٦٢٥= الاثنين ٥ ذو الحجة سنة ١٠٣٤.

* فيها حدث وباء مات به أكثر من ٣٠٠,٠٠٠ نفس من القاهرة، ولتسكن روع الخلق حرج الباشا على الصياح، فكان أهل الميت يمر بالحارة ولا يسمع به، وكان الباشا يستحوز على التركات، وقيل كان انتشار الوباء في أوائل هاتور = ديسمبر.

* ١ ينـاير ١٦٢٦= ٢٦ كيهك ١٣٤٢= الخميس ٢ ربيع الثاني سنة ١٠٣٥.

* في أواخر برمودة = ابريل = شعبان، أخذ الوباء في النقص، وانقطع في بشنس.

* ١ تـوت ١٣٤٣= ٨ سبتمبر ١٦٢٦= الثلاث ١٦ ذو الحجة ١٠٣٥.

وفي النصف الأول من القرن السابع عشر ارتفعت ايراداتها من ١٣,٨٩٢ باره سنوياً إلى ٩٣,١٢٠ باره عام ١٠١٢= ١٦٠٣م. وبعد عام ١٠٢٣= ١٦١٤م أعطى «قافلة باشي» مهمة تزويد الحجاج بالجمال والدواب عند عودتهم من الحج،ومقابل ذلك منح أمانة «مقاطعة بيع الجمال» في القاهرة ، والفايظ الذى يتبقى بعد ذلك عليه أن يعيده للخزانة، وقد بلغ هذا المبلغ ١٥٣,٧٠٠ باره عـام ١٠٤٢= ١٦٣٢م، ثم وصل إلى ١٦٥,٥٣٥ باره عـام ١٠٥٨= ١٦٤٨م وبعد هذا التاريخ نجد أن هذه المقاطعة بدروها تحولت إلى التزام يسمح لقافلة باشي بأن يحتفظ بهذا الفايظ لنفسه مقابل أن يدفع ضريبة «كشوفية كبيرة» للخزانة.

(٨) «فايظ أمين سكر» : إن مقاطعة انتاج وتوزيع السكر في مصر تم تأسيسها على شكل «أمانة» يحوزها «أمين سكر» وكانت مهمته جمع السكر المدفوع للخزانة عيناً بوصفه ضريبة زراعية ، ويرسل إلى الباب العالي كمية السكر التي تلتزم بها تجاه الباب العالي . وكل الأرباح الناتجة عن البيع كان يجب أن يعيدها «أمين السكر» إلى الخزانة .وقد زاد هذا الإيراد من ٣٢,٦٠٠ باره إلى ١٩١,٥٣٩ باره عـام ١٠٢٣= ١٦١٤م، وبعد هذا التاريخ أصبح على «أمين السكر» أن يرسل للسلطان كل السلع التي يحتاجها من مصر، ومن ثم نجد أن لقبه قد تغير إلى «أمين خرج خاص».

* ١ يـنـايـر ١٦٢٧= ٢٦ كيهك ١٣٤٣ =الجمعه ١٣ ربيع الثاني سنة ١٠٣٦.

* فيها ـ لأخذ مصطفى باشا التركـات ـ تظلمت الورثة الى الآستانة، فعزله الباب العالي، وولي مكانه بيرام باشا، الذى أخذ في تحقيق ما اتهم به، ثم حكم عليه بدفع الأموال التى اختلسها، فبـاع كل مـا له من المتـاع والمقتنيات وسافر الى الآستانة.

* ١ توت سنة ١٣٤٤= ٩ سبتمبر ١٦٢٧= الخميس ٢٨ ذو الحجة ١٠٣٦.

* فـبـرايـر عندمـا وصل مصطفى باشا، الذى كـان والى مصر، حكم عليه بالاعدام.

* ١ يـنـايـر ١٦٢٨= ٢٥كيهك ١٣٤٤= السبت ٢٣ ربيع الثاني ١٠٣٧.

* ١توت ١٣٤٥= ٨ سبتمبر ١٦٢٨= الجـمـعـة ٩ مـحـرم ١٠٣٨.

* ١ يـنـايـر ١٦٢٩= ٢٦ كيهك ١٣٤٥= الاثنين ٦ جماد اول ١٠٣٨.

* في ٨ ابريل حـصـلـت معاهدة بين فرانسا وفينسيا والبابا ودوك السافوا تقضى باستقلال ايطاليا.

* فيها نشر ديكارت قوانين الانكسار.

* ١ توت سنة ١٣٤٦= ٨ سـبـتـمـبـر ١٦٢٩= السبت ١٩ محرم سنة ١٠٣٩.

* في المحرم سـافـر محـمـد باشا، الذى تولى مصر بعد بيرام

---

(٩) «فايظ أوقاف»: في القرن الثامن عشر خولت الخزانة حق تسلم ما يفيض أو يتبقى من عوائد الأوقاف العامة الكبيرة، وذلك بعد أن يكون قد تم أداء كل الالتزامات المحددة لهذه الأوقاف.

(١٠) «معلوم الناظر» : كان تعيين «ناظر النظار» يتم من أجل مراقبة «نظار» الأوقاف العامة. وبناء على ذلك أعطى الحق في فرض ضريبة عليهم بهدف سد احتياجاته ونفقات الأعمال التى يقوم بها، وما كان يتبقى بعد ذلك يرسل للخزانه السلطانية.

(١١) «مال قرض كسوة شريفة» :ان مقاطعات ريفية وحضرية عديدة خصصت كأوقاف لسداد نفقات الكسوه التى ترسل سنوياً مع قافلة الحج. أن هذه النفقات كانت تؤخذ على شكل قرض من الخزانة ، وكان هذا القرض تستعيده الخزانة من عوائد الأوقاف المخصصة لهذا الغرض . وقد أرتفع هذا القرض من ٧٢٫٨١٣ باره عام ١٠١٠=١٦٠١م إلى ٦٣٦٫١٥٢ عام ١٢٠١=١٧٨٦م.

كان ذلك هو الشكل الأساسى للضرائب الحضرية وإلى جانبها كان يوجد عدد من الضرائب الحضرية الأخرى بالمعنى الحرفي أقل أهمية ولذلك لم تكن محل نزاع بين البكوات والمماليك والباشا والفرق العسكرية.

باشا، تجريدة مركبة من ٣٠ ألف توفق هذا القائد عن السفر بعد أن قبض الأموال اللازمة للحملة، لكنه أذعن أخيراً.

* ١ يـنـايـر ١٦٣٠= ٢٦كيهك ١٣٤٦= الثلاث ١٦ جماد أول ١٠٣٩.

* فى ١٩ شعبان جاء سيل عظيم الى مكة المشرفة فخرب اغلبها وهدم حوائط الكعبة، فكتب السيد مسعود، شريف مكة الى الباشا والى مصر، ومن طرفه كاتب الآستانة، فأمر ببناء الكعبة، وأرسل من مصر جميع ما يلزم وصرف زيادة على ذلك مائة ألف قرش.

* ١ تـسـوت ١٣٤٧= ٨ سبتمبر ١٦٣٠= الأحد ٣٠ محرم سنة ١٠٤٠.

* فيها كان ارتفاع النيل قليلا، فجاء شهر توت ولم يبلغ ١٦ ذراعاً، ثم هبط مرة واحدة، فبلغ ثمن الأردب القمح ثمانية غروش.

* ١ يناير سنة ١٦٣١= ٢٦ كيهك ١٣٤٧= الأربع ٢٧ جماد أول ١٠٤٠.

* فيها استدعي محمد باشا الى الآستانة، وقلده السلطان منصب الوزارة وتولى مكانه موسى باشا.

* مارس= برمهات = شعبان طلب السلطان من والى مصر تجريدة لمحاربة الفرس، فجمعها جعلها تحت قيادة قيطاس بك، وضرب على البلاد ضريبة سماها إعانة حربية، ولما وصلت ليده أخذها لنفسه، وأخبر قيطاس بك

أوضاع المصريين من أهل الذمة فى ظل الاحتلال العثمانى

(١) الجزية:

تعتبر الجزية أحد أهم الشروط الواردة فى الشريعة الإسلامية لصحة عقد الذمة، وقد التزمت السلطنة العثمانية بتطبيق ذلك الشرط شانها فى ذلك شان الممالك الإسلامية السابقة التى غزت مصر، وقد أخذت السلطنة فى التطبيق بالتفسير الحنفى حيث ورد بشأن الجزية أنه «إذا وضعت بتراض أو صلح لاتغير، وإن فتحت بلدة عنوة وأقر أهلها عليها توضع على الظاهر الغنى فى السنة ثمانية وأربعون درهما، وعلى المتوسط نصفها، وعلى الفقير القادر على الكسب ربعها، وتوضع على كتابى ومجوسى ووثنى عجمى لاعربى ولاعلى مرتد فلايقبل منهما إلا الإسلام أو السيف وتسترق أنثاهما وطفلهما ، ولاجزية على صبى وامرأة ومملوك ومكاتب وشيخ كبير وذمى أعمى ومقعد وفقير لايكسب وراهب لايخالط.

وهكذا طبقت السلطنة العثمانية على مصرجزية الفتح عنوة.

وفى أوائل عام ١٥٢٥م عندما وصل الصدر الأعظم ابراهيم باشا الشهير بالاسكندرلى، جعل ضريبة الجوالى مقاطعة قائمة بذاتها أطلق عليها «مقاطعة الجوالى» وكان المتولى أمر تحصيلها وأنفاقها يعرف باسم «أمين الجوالى».

وكان الاعتبار الذى أخذت به السلطنة العثمانية ـ كما ورد فى الشريعة الإسلامية بالنسبة

بأن مصر لم يمكنها أن تقوم بمصاريف هذه الحملة، ثم أوجس موسى باشا خيفة من قيطاس بك بأن مصر لم يمكنها أن نقوم بمصاريف هذه الحملة، فاستدعاه للقلعة في ٩ يوليو وأمر رجاله بقتله فقتلوه، فتعصبت الجند والعلماء وخلعوا موسى باشا وأقاموا حسن بك مقامه موقتاً، وعرضوا للباب العالى فأقرهم على فعلهم.

* ١ تـــوت ١٣٤٨= ٩ سبتمبر ١٦٣١= الثلاث ١٢ صفر سنة ١٠٤١.

* توت ١٣٤٨= سبتمبر وصل الى مصر خليل باشا البستانجي واليا عليها، واستلم امورها.

* فيها زينت مصر خمسة أيام، وحصل الرخاء حتى بيع أردب القمح بغرشين، وزاد النيل زيادة عظيمة، وكان الشرفى يساوى ٦٦ فضة.

* ١ يناير سنة ١٦٣٢ - ٢٥ كيهك ١٣٤٨= الخميس ٨ جماد الثاني ١٠٤١.

* فيها ثارت جماعة من اللصوص تحت رياسة شخص يدعى الشريف، ويقال له نامي، ونهبوا مكه فجمع حينئذ باشا القاهرة تجريدة وأرسلها تحت قيادة قاسم بك لإخماد تلك الثورة، فساروا وحاربوهم وقتلوا زعماءهم.

* فيها احتلت أهالي أسوج مدينة مونيخ.

لأولئك الذين وقع عليهم عبء ضريبة الجوالى،ألا ينظر فقط إلى قدرتهم على الدفع بل أيضا ينظر الى القدر الذى يمكن أن يساهم به الفرد فى هذا الشأن،ولهذا فقد قسموا الى فئات ثلاث: غني، متوسط، وفقير.

وقد روعى تغيير قيمة العملة، لذلك تقرر أن تدفع الفئات الثلاث على التوالى ٤ ,٢ ,١، جنيه ذهبى (نقد) يعرف بالشريفي ـ الذى كان يساوى فى بداية العصر العثمانى ١٢ نصف فضة.

ولقد ذكر ستانفورد شو ـ أن الصدر الأعظم ابراهيم باشا منذ وصوله مصر، وضع جدولا مفصلا للنظام الذى يجب أن يتبع فى ايراد وانفاق أموال الجزية، ومن الشروط الواجبه فى ذلك النظام ألا يستخدم دخل الجزية فى نفقات كنيسية ومنها أيضا أنه فى السنة التى تحقق زيادة فى الايراد لا تضاف تلك الزيادة الى الخزانة بل تترك جانبا لاستخدامها فى النفقات والمصاريف فى السنوات التى تقل فيها متحصلات الجزية عن المعتاد.

وفى خلال القرن السابع عشر أصبحت مقاطعة الجوالى فى حيازة التزام أمراء مصر المماليك - كما هو متبع فى معظم المقاطعات المدنية والريفية الأخرى- ولقد أدى هذا النظام الى فقدان السلطات الدينية القبطية جزءا من ادارتها اذ كانت عملية الجباية فى بادئ الأمر من اختصاصها. فقد ورد فى احدى وثائق المحكمة الشرعية مايفيد أن البطريرك القبطى يؤانس

٩٣: يوانس [١٤٧٨ / ١٤٨٣م]

* ١ تـــــــوت ١٣٤٩ = ٨ سبتمبر سنة ١٦٣٢ = الأربع ٢٢ صفر ١٠٤٢.
* في صفـر عاد قاسم بك بجيشه الى القاهرة ظافراً.
* فيـهـا كـان الشـروع في تأسيس رصد خانة كوبنهاج.
* ١ ينـاير ١٦٣٣ = ٢٦ كـيـهك ١٣٤٩ = السبت ١٩ جماد الثاني ١٠٤٢.
* فيها استقال خليل باشا من ولايه مـصـر، وتعين واليـاً على الروملل، وولى على مصر الوزير أحمد باشا، الملقب بالكورجي.

* وفيـهـا شرعوا في ضرب النحـاس، كل درهم بجـديد، وكـانت المعـاملة السـابقـة كل درهمين بجديد، فخافت الناس، وغلت الأسعار.
* فيها اكتشف الفرنساويون لويزيانا بامريكا الشمالية.
* فيـهـا كـان سـعر الشريفي ٦٩ فـضـة، والقـرش الأبي طاقة ٣٤ فضة، والاصلاقي ٣١ فضة والقـرش المعـاملة ٣٠ فـضــة، والابراهيمي ٦٨ فضة، والبندقي ٣٧ فـضـة، والنصف الفـضـة يسـاوى نصـفـاً وثلث نصف نحاس،

* ١ تـــــــوت ١٣٥٠ = ٨ سبتمبر ١٦٣٣ = الخميس ٤ ربيع أول ١٠٤٣.
* في صـفـر = اغسطس وردت أوامر شاهانية بإرسال الفي عسكرى مصرى إلى سوريا لمحاربة دروزلبنان، مع إرسال خمسة آلاف قنطار بقسماط وأربعة آلاف قنطار بارود.

الرابع (١٥٧١ - ١٥٨٦م) كان ملزما بجزية النصارى الأقباط كذلك كان أمين الجوالى الذى أصبح في الحقيقة هو الملتزم بدفع مبلغ ثابت سنويا الى «مال الجوالى» والى «مال كشوفية كبير» و«كشوفية صغير»وكان يستبقي الفائض من الجباية لصالحه اذا ما بلغت الحد الأعلى من المقرر لها، وكان المتبع أن يسند أمين الجوالى مهمة الجباية في المناطق الريفية الى حكامها على أن يلتزموا بتسليمه مبلغا ثابتا كل سنة ،وفي نفس الوقت يحتفظون لأنفسهم بما يعود عليهم بالنفع والفائدة وحيث ان أمين الجوالى يدير جباية الجزيةمباشرةفي المدن الا أنه في الاسكندرية ودمياط والسويس كانت من اختصاص قائمقام القبطان العثماني في تلك الموانى.

ويستفاد من سجلات المحكمة الشرعية ـ المودعة في دار الوثائق القومية بالقلعة أنه كانت هناك ادارة مالية تابعة للخزانة السلطانية خاصة بالأموال التى تدفع بواسطة أمين الجوالى، وهذه الادارة تحتفظ بسجلات الجزية المفروضة على الذميين ـ وكان يطلق عليها «دفاتر بيان أوراق الجزية» ويتم تسجيل الايرادات والمصروفات بمعرفة كتبة يعرف الواحد منهم باسم «جوالى افندى».

ولقد أوضح أحمد شلبى في كتابة «أوضح الاشارات فيمن تولى مصر» من أنه في الربع الأخير من القرن السابع عشر كان مفروضا على الذميين جميعا دفع جزية موحدة مقدارها ١٢٠بارة، كان يتولى جبايتها جباة يعرفون باسم «الحشار» وكان هؤلاء يتركون للذمى بعد

* ١ يناير ١٦٣٤= ٢٦ كيهك ١٣٥٠= الأحد غرة رجب ١٠٤٣.

* فيها ورد، أيضا، أمر شاهاني مقتضاه إرسال ألفي نفر آخرين وثلاثة آلاف قنطار من البارود لمحاربة الفرس، فاعتذر أحمد باشا. والسلطان بعث له ١٢ ألف قنطار من النحاس ليضربها نقودا، وطلب منه أن يرسل عوضها الى الآستانة ثلثمائة ألف محبوب (كل محبوب يقرب من ٤٥ قرش)وهكذا كانت السلطنة العثمانية تضارب في العملة على حساب مصر.

* فيها صار تفريق النحاس على الأهالي ليدفعوا القيمة المطلوبة غصباً.

* فيها مع عدم المطر في مصر- قد نجح الزرع ولم يحصل له آفة.

* فيها كان تطبيق النظارات على الأقوس المدرجة، أى المنقسمة الى درج.

* ١ توت ١٣٥١= ٨ سبتمبر ١٦٣٤= الجمعة ١٥ ربيع أول سنة ١٠٤٤.

* فيها أنشأ سلامة بن أحمد بن علي، الشهير بالمعرف، جامع المعرف ببولاق.

* فيها عقدت معاهدة بين السلطان مراد الرابع وحكومة الفلمنك، مؤيدة للمعاهدة التجارية المنعقدة في سنة ١٦١٢ مسيحية.

* ١ يناير ١٦٣٥= ٢٦ كيهك ١٣٥١= الاثنين ١٢ رجب سنة ١٠٤٤.

سداد الضريبة - تذكرة من الورق الملون حاملة خاتم رئيسهم وحاوية اسم الذمى وبلدته ومديريته وسكنه وسنه وتاريخ اليوم والشهر والسنة التى سدد ضريبتها ، وكان على الذميين حمل تلك الورقة بصفة دائمة ليقدموها الى رجال الالتزام وقت المطالبة لأنها كانت تقوم مقام ايصال السداد.

وفي عام ١١٠٦هـ/١٦٩٤م وضع الصدر الأعظم محمد زاده باشا نظاما جديدا لجباية الجزية في الدولة العثمانية، ويقضى ذلك النظام بأن ترفع يد الملتزمين من المقاطعات المختصة بتحصيل ضريبة الجزية ومنحها لأولئك المعينين من قبل الإدارة المركزية لديوان الجزية في مدينة ادرنه، وعلى هذا النحو تصبح الجبايات في الدولة تجبى عن طريق متخصصين يعرف الواحد منهم باسم «ملتزم الجوالي» أو «جزية دار/ مأمور تحصيل». وهؤلاء يرسلون إلى الولايات بالدولة عن طريق «ديوان الجزية» كأمناء مكلفين بأن يسلموا ما تحصل من الجزية كاملة بعد عودتهم نظير مرتب ثابت.

ويقضى هذا النظام باجراء مسح شامل لجميع الذميين فى الأقليم، وتحديد عدد أشخاص كل فئه [عالي. متوسط. ادنى] سنويا، وعلى الرغم من تحديد عدد كل فئة الا أن ذلك كان عرضة لأن يتغير في السنة التالية غالبًا بالزيادة،كما يقضى هذا النظام أيضا بأن يقوم ديوان الجزية باصدار أوراق الجزية «تذاكر أو بطاقات» كل سنة هجرية بحيث يطابق أعداد كل فئة

٩٣: يوانس [١٤٧٨ / ١٤٨٣م.]

* في آخـــر يناير ١٦٣٥= طوبه صار تـميم جمع الثلثمائة ألف مـحـبـوب المطلوبة للبـاب العالى بدل النحاس، فكان ثقلا عظيماً على كاهل الأهالى، ولذا قلت النقود وغلت الحبوب وسائر المأكولات وقد زاد الأمر بعدم وفاء النيل وفاء حسناً.

* فيها كان النصف الفضة= نصفا وربعاً من الفلوس النحاس، وريال= قــرش= مـــشط= ٣٦ نصف فضة.

* فيها انعقدت معاهدة بين السلطان مـراد الرابع وحكومـة فرانسا.

* فيهـا أسس ريشيليـو نادى المعـارف بفـرانسـا (اكـادمى فارنسيز).

* فيهـا كانت الست ريالات تسـاوى سبـعـة قـروش معـاملة، وثمن الثور البقر ٢٤٥ فضة.

* ١ تـوت سـنـة ١٣٥٢= ٩ سبتمبر ١٦٣٥= الأحد ٤٦ ربيع أول سنة ١٠٤٥.

* فيـهـا كـان تأسيـس بسـتان البيانات في باريس.

* فيهـا موران كـان أول من رصـــد الكواكـب والنجـــوم فى النهار.

* فـيـهـا كـان أردب القـمـح يسـاوى ٤٥فضة، وأردب الشعير والذرة ٣٦ فضة.

* ١ يـنـايـر ١٦٣٦ = ٢٥ كـسـهك ١٣٥٢= الثـلاث ٢٢ رجب سنة ١٠٤٥.

* فيها استدعى أحـمد باشا الى الآسـتـانة، فـــار، وقد توقف

من الفئات الثلاث، وترسل الاوراق فى صرر الى جميع قضاة الأقاليم فى ولايات الدولة التى تخضع لضريبة الجزية، وتقضى التعليمات بألا تفض هذه الصرر ألا فى أول أيام السنة الجديدة فى شهر المحرم فى المحاكم الشرعية بتلك الأقاليم. ومن الأمور التى تتميز بها أوراق الجزية أنه مؤشر عليـها بالأحـرف الاولى ومـسـجله ومدموغة فى الادارة المالية بالقسم الثامن بخزانة الحكومة المعروفة باسم «جزية محاسبة سى» أو محاسبو الجزية. ويوجد على كل ورقة السنة واسم الدفتر دار واسم الجزية دار وختمه وختم اثنين من الشهود اللذين يصحبانه كمساعدين له واسم المقاطعة وبيان الفئة. وكانت ألوان الاوراق كالآتى: حمراء للفئة العليا، وبيضاء للفئة الوسطى وصفراء للفئة الدنيا.وكان عـلى الجزية دار طبقا لذلك النظام أن يقوم بتسليم تلك الأوراق الى الممولين بعد أن يسجل أسماءهم وبياناتهم. اذ أن تلك الأوراق تشكل بالنسبة لهم نوعا من الحماية . فلم يكن لهم أى حق فى حماية السلطان اذا أهملوا الاحتفاظ بها.

وقد روعى فى ذلك النظام ألا يترك ذمى بدون اعداد ورقة سداد له فى أى مكان وتقضى التعليمات بمنع الأشخاص القادرين على دفع الجزية من مغادرة بيوتهم خشية فرارهم وذلك قبل بدء عملية التحصيل كما يوقف أى ذمى فى الطريق ويطلب منه ابراز الورقة الدالة على سداد ضريبة الجزية.

وكان أول تطبيق لذلك النظام فى الأناضول و روم ايلى فى عام ١١٠٧هـ/١٦٩٦م، وفى

عن دفع المبالغ التى جمعت، فرفع المصريون التقارير اللازمة فحكم عليه بالاعدام، تولى مكانه الوزير حسين باشا فجاء مصر فى زمرة من رجاله الدروز التقطهم من كان ناد، فجعلوا يسومون المصريين أنواع العذاب.

* فيها، وفى التى بعدها، اضطربت الأحوال، وقفلت الحوانيت ووقفت حركة الأعمال بسبب ما كانت تاتيه الدروز اعوان الوالى من الاعمال.

* ١ تــوت ١٣٥٣= ٨ سبتمبر سنة ١٦٣٦= الاثنين ٧ ربيع الثانى سنة ١٠٤٦.

* فيها أبطل حسين باشا حقوق الوراثة، فكان إذا مات أحد الأهالى استولى هو على تركته وحرم الذين تركهم الفقيد من الأرامل والأيتام، وزاد على ذلك أنه كان لا يمر فى المدينة وتغيب الشمس قبل أن يقتل رجلا أو رجلين، وقيل إن الذين ذهبوا فريسة عتوه وظلمه فى مدة حكمه ما يبلغ ألفاً ومائتى نفس.

* ١ ينـاير ١٦٣٧= ٢٦ كيهك ١٣٥٣= الخميس ٤ شعبان سنة ١٠٤٦.

* فيها كان البندقى= ٣٧ فضة، ونصف نصف القرش المعاملة= ٤٠ نصف نحاس، أو ٣٠ نصف فضة، وقنطار النيلة عشر قرش معاملة

* فيها كانت وفاة فردينند الثانى امبراطور المانيا.

* ١ تــوت ١٣٥٤= ٨

السنة التالية اجرى تطبيقه فى سوريا ومعظم اجزاء من العراق ولقد كان لو فاة الصدر الأعظم محمد زاده باشا وكثرة المشاكل الداخلية والخارجية التى تعرضت لها السلطنة العثمانية وقتذاك أن تأجل تطبيق ذلك النظام فى مصر الى عهد السلطان محمد الأول (١٧٣٠- ١٧٥٤). فقد أصدر الباب العالى فى ربيع أول سنة ١١٤٧هـ/ اغسطس ١٧٣٤م ثلاث فرمانات الى السلطة الحاكمة فى مصر بخصوص تنظيم ضريبة الجوالى. يقضى الفرمان الأول بأن يؤخذ التزام الجوالى من الملتزمين المماليك ويعطى فى امانة الباشا العثمانى وأن تتولى الجوالى أوالجزية دار من سيأتى سنويا من قبل ديوان الجزية فى ادرانة لترتيب تسوية المتحصلات الفعلية للجزية دار. ويقضى الفرمان الثانى بتقسيم النصارى واليهود الى ثلاث فئات يدفع الشخص من الفئة العليا (عالى) ٤٠٠بارة ومن الفئة الوسطى (اوسط) ٢٠٠بارة من الفئة الدنيا (ادنى) ١٠٠بارة.إما الفرمان الثالث فيقضى بأن يتولى الجزية دار بعد أن يتم تسوية حسابات الجزية بعد الجباية تنظيم حسابات مع ديوان الروزنامة.

ويستفاد مما اورده أحمد شلبى أن النظام الجديد لتنظيم ضريبة الجزية فى مصر بدأ فى تنفيذه فى غرة جماد أخرسنة ١١٤٧هـ/٢٩اكتوبر ١٧٣٤م، فقد ذكر [وفى يوم الخميس خامس جماد آخر ورد رجل يقال له على أغا وكان دفتر دار القسطنطينية وصحبته سبعة خطوط شريفة قريت بالديوان بحضرة العلما وأرباب السجاجيد وشيخ الاسلام وقاضى مصر

سبتمبر ١٦٣٧= الثلاث ١٧ ربيع الثاني سنة ١٠٤٧.

* فيها كان الشريفي الجديد= ٧٠ نصف فضة، واردب القمح= ٤٢ فضة، واردب الأرز=- ١٨٦ فضة، وذراع الجوخ من ٦٠ إلى ١٠٠ نصف فضة، وذراع الأطلس = ٣٥ فضة، وكان النصف فضة=- فلسا وربع فلسا.

* ١ يناير سنة ١٦٣٨= ٢٦ كيهك سنة ١٣٥٤= الجمعة ١٤ شعبان ١٠٤٧.

* في شوال = فبراير= أمشير عزل الوزير حسين باشا، وتولى مصر مكانه، محمد باشا بن أحمد باشا وابن ابنة السلطان سليم.

* محرم= بشنس= مايو أرسل والي مصر أحمد باشا الفا وخمسمائه مقاتل، تحت قيادة قنصوه بك، لمساعدة الحملة العثمانية في الاستيلاء على بغداد، وذلك بناء على الأوامر التي وردت اليه من الآستانة.

* ١ توت ١٣٥٥= ٨ سبتمبر سنة ١٦٣٨= الأربع ٨ ربيع الثاني سنة ١٠٤٨.

* فيها كان الشريفي يساوى ٧٠ فضة، والبندقي ٣٦ فضة، وسعر الفدان الكتان عشرة قروش ريال.

١ يناير سنة ١٦٣٩= ٢٦ كيهك ١٣٥٥= السبت ٢٥ شعبان سنة ١٠٤٨. فيها العالم ميزرين وصف وشرح تيليسكوب ذو انعكاس.

* فيها وقف النيل ثم وفي آخر مسرى فيه رجعت حملة

عبد الله أفندى ونقيب الاشراف والصناجق والأغوات والعساكر واختياريهم ثلاث خطوط بسبب الجوالي، جوالي اليهود والنصارى بآيات قرآنية واحاديث نبوية وأن على أغا هذا يكون قائما بخدمتنا وقبضة من غرة جماد آخر سنة ١١٤٧ (٢٩اكتوبر ١٧٣٤) وأن يقبض من الأعلى أربعماية والأوسط مايتين والأدنى ماية ديواني (بارة) فأجابوا السمع والطاعة واخذوا الدفاتر من حسين كتخدا الدمياطي ارسلوها الى على أفندى».

[.. ثم ان القباض قبضوا من غرة جماد آخر سنة ١١٤٧ وكل من قبضوا منه يعطونه ورقة مختومة بأربعة ختوم، ختم التاريخ وختم باسم ابراهيم اغا دفتر دار اسلامبول وختم بالأعلى والأوسط والأدنى، وختم في ظهر الورقة وصاروا يكتبون شكل الذمي وملبوسه في الورقة].

ويبدوا واضحا مما رواه أحمد شلبي أن تطبيق النظام الجديد لسداد ضريبة الجزية قد الحق الضرر بفئات أهل الذمة. فقد روى [أن النصارى أجمعوا أمرهم بأن يطلعوا الى الديوان يراجعون في هذا الأمر وكانوا نحو ألف نصراني ، فهم في الرميلة واذا بالعسكر قامت عليهم فضربوهم ومات منهم اثنان ورجعوا معاكيس].

كما روى أيضا [ان الذميين قد أخذ منهم الحشار نحو نصف الجوالي واعطاهم الوصلات (الايصالات) على الحساب القديم، ماية وعشرون [كيسا] نصف فضة كل ذمي بالغ وغير بالغ من ستين الى ثلاثين فأبت خدمة الجوالي أن يقعدوا (يردوا) بشئ مما أخذوه منهم فرجع

بغداد، تحت إمرة قنسو بك، بعد الاستيلاء على بغداد. وفيها قصر النيل فزادت الأسعار، وتلاه وباء، وكثر السارقون وقطاع الطريق، فكانت لا تمضي ليلة إلا ونهبت فيهاحارة من الحارات.

* ١ تـوت ١٧٥٦= ٩ سبتمبر ١٦٣٩= الجمعة ١١ جماد أول سنة ١٠٤٩.

* فيها استبدل والي مصر محمد باشا، وهو آخر ولاة السلطان مراد على مصر، بمصطفى باشا، الملقب بالبستانجي، وفي مدته وقع الغلاء والقحط.

* ١ ينـاير ١٦٤٠= ٢٥ كيهك ١٣٥٦= الأحد ٧ رمضان ١٠٤٩.

* في ١٠ فبراير توفى السلطان مراد خان الرابع، وسنه ٣١سنة، ومدة حكمه ١٦ سنة و١١ شهراً، وفي يوم وفاته بويع أخوه السلطان ابراهيم بن السلطان أحمد الأول، وضرب نقوداً بالقاهرة.

* فيها وقع الغلاء والقحط فوصلت ربية القمح الى ٣٠ نصف فضة.

* فيها تسلطن فريدريك (جليوم الأول) على ألمانيا

* فيها كان ذبح أربعين الفاً من البروتستانت في ارلاندة.

* فيها انعقدت معاهدة بين السلطان ابراهيم وبين حكومة فرانسا.

* ١ تـوت ١٣٥٧= ٨ سبتمبر ١٦٤٠ كيهك ١٣٥٧= الثلاث ١٨ رمضان سنة ١٠٥٠.

* فيها تولى مصر مقصود

النصارى على حسين كتخدا الدمياطي فصار يأخذ منهم الوصول (الايصالات) ويدفع لهم أربعة ارباع ريال تعجز في الوزن عجزا فاحشا، فصار النصراني الفقير يأخذ وغير الفقير يتعفف عن الخمسين نصفا].

ومما لاشك فيه أن النظام الجديد لجباية الجزية الذى بدأ تطبيقة في مصر منذ عام ١٧٣٤ كان نتيجة جهود الباب العالي من أجل ضبط وأحكام نظام الجباية من أجل أن يحصل لنفسه على عائد من الجزية كان يذهب الى الملتزمين، فقد ذكر أحمد شلبي أن الجباة «قبضوا تلك العام (١٧٣٤م) ثمانمائة كيس ديواني وشيء وقد كانوا يأخذها الملتزمون بالجوالي من الوزير بثمانين كيسا ويأخذون من النصارى واليهود ماية وعشرين».

ومنذ أصدر الباب العالي الفرمانات الثلاثة في عام ١٧٣٤م صارت الجوالي خارجة عن التزام مصر ،وقد بدأ منذ ذلك العام اعداد حصر شامل لجميع الذميين المكفلين بدفع الجزية .ويذكر الجبرتي أن أمراء المماليك «تشاوروا فيمن ينزل بصحبة الاغا (على افندى) والكاتب من الأمراء الصناجق لتحرير بلاد قبلي فقال حسين بيك الخشاب: أنا مسافر بمنصب جرجا وينزل بصحبتي الأغا المعين وانظروا من يذهب الى بحرى. فقال محمد بيك قطامش: كل اقليم يتقيد بتحريره الكاشف المتولي عليه ومعه الأغا الكاتب . فاتفق الرأى على ذلك».

وقد أعد تقرير في عام ١١٤٩هـ/١٧٣٧م يتضمن وجود ١٢٠,٠٠٠ ذمي في مصر

باشا، وكان بها طاعون لم يسمع بمثله، وكان ابتداؤه ببولاق، ولم يظهر بالقاهرة إلا بعد شهرين، والذين ماتوا ٩٠٠,٠٠٠ نفس، وقد كثر الموت، وخرب بهذا الطاعون ٢٣٠ بلدة من الجهات البحرية.

* فيها قصر النيل وحصل شراقي فحصل الغلاء والقحط، ووصلت الويبة القمح الى ٣٠ نصفا فضة.

* فيها حصلت ثورة عظيمة في البورتغال.

* فيها تايدت المعاهدة المنعقدة سنة ٩٨٧ هجرة، الموافقة ١٥٧٩، بمعاهدة جديدة عقدت بين السلطان ابراهيم الأول وكارلوس الأول ملك انكلترا.

* ١ توت سنة ١٣٥٨= ٨ سبتمبر ١٦٤١= الأحد ٢ جماد الثاني ١٦٤١= الأحد ٢ جماد الثاني ١٠٥١.

* في ٢٩ رمضان ولادة السلطان الغازى محمد خان الرابع.

* كيهك= يناير ١٦٤٢= شوال ثارت الجهادية في السلطنة وجاهر الجاويشيون على رئيسهم بدعوى أنه لا يفرق الأعطيات إلا على كتبته، ولثورتهم ثار الجيش جميعا وادعى ان مخازن الحبوب فارغة.

* فيها ولد السلطان سليمان خان الثاني ابن السلطان ابراهيم.

* فيها تولى البرلمان الانكليزى الاحكام.

* فيها كانت بانكلترة محاربات أهلية.

* فيها حصل غلاء بمصر

يمكن أن يدفعوا ضريبة الجزية، منهم ١٢,٠٠٠ فى الفئة العليا، ٢٤,٠٠٠ فى الفئة الوسطى ٨٤,٠٠٠ في الفئة الدنيا. وعلى أساس هذا التقريرقرر الباب العالى في نفس هذا العام من بين كلماية ممول يدفع عشرة أشخاص من الفئة العليا لكل واحد ٤٠٠ بارة، وعشرون من الفئة الوسطى يدفع الواحد ٢٠٠ بارة، وسبعون من الفئة الدنيا يدفع الواحد ١٠٠ بارة،وعلى هذا النحو فقد قدرت الضريبة التي سوف يدفعها ١٢٠,٠٠٠ذمى بنحو ١٨,٠٠٠,٠٠٠ (ثمانية عشرة مليون بارة) على ان يستقطع من تلك الحصيلة الاجمالية مبلغ ٦٧٩,٧١٠بارة لحساب كاشفيه صغير ومرتبات تدفع للباشا العثماني ولآخرين في مصر حسبما تقرر في النظام الجديد. والى جانب ذلك يدفع الجزية دار مالا ميريا للخزانة السلطانية قدر بمبلغ ١,٩١٦,٠٠٠ بارة كما يدفع مبلغ ٤٠٠,٠٠٠ بارة بمثابة كاشفيه كبير وما تبقى بعد ذلك وقدره ١٥,٠٠٧,٢٩٠ بارة ترسل الى الباب العالي.

وبالاضافة الى ذلك كانت هناك رسوم اضافية تقدر بثلاثين بارة عن كل ذمى في الفئة العليا، وعشر بارات عن كل ذمى في الفئة الوسطى، وسبع بارات عن كل ذمى الفئة الدنيا، وكانت تجمع لتسديد مبلغ ٩٨٤,٠٠٠ بارة قيمة نفقات السفر والاقامة لأولئك الذين يتولون عملية الجباية.

وعلى أيه حال فأنه على الرغم من تطبيق النظام الجديد لجباية الجزية فى مصر فان أولئك

بيع فيه الأردب من القمح بستة غروش.

* ١ تـــــوت ١٣٥٩= ٨ سبتمبر ١٦٤٢= الاثنين ١٣ جماد الثاني سنة ١٠٥٢.

* فيها اكتشف ابيل تاسمان زيلاندة الجديدة وأراضي الماس.

* ١ يناير سنة ١٦٤٣= ٢٦ كيهك ١٣٥٩= الخميس ١٠ شوال ١٠٥٢.

* في ٦ ذو الحجة= أمشير = فبراير ولادة السلطان أحمد الثاني ابن السلطان ابراهيم.

* فيها اخترع تورشيللي البارومتر، وهو ميزان ضغط الجو.

* فيها غلت الاسعار وزاد سعر القمح زيادة مفرطة.

* ١ توت سنة ١٣٦٠= ٩ سبتمبر ١٦٤٣= الأربع ٢٤ جماد الثاني سنة ١٠٥٣.

* في ٢٠ القعدة حصلت ثورة بالاسكندرية وذلك أن ٦٠٠ من أسرى المسيحيين كانوا تحت طايلة القصاص، مغلولين في سجون الاسكندرية، ففي اليوم المذكور خرجوا من السجن بغتة، والمسلمون في الجوامع يصلون، فنهبوا الحوانيت والمخازن والبيوت، ثم نزلوا الى مركب كان بانتظارهم في البحر وأقلعوا يطلبون الفرار.

* ١ توت سنة ١٣٦١ يوافق ٨ سبتمبر سنة ١٦٤٤= الخميس ٦ رجب ١٠٥٤.

* ١ تـــــوت ١٣٦٢= ٨ سبتمبر ١٦٤٥= الجمعة ١١ رجب سنة ١٠٥٥.

* ١ ينـاير ١٦٤٦= ٢٦

الذين استفادوا في الماضي من حق الجباية ظلوا في حقيقة الأمر قادرين على الاحتفاظ بمعظم الفوائد التي كانت تعود عليهم ، بينما أصبحت الخزانة السلطانية في ظل النظام الجديد تحصل من المال على الأقل مما كانت تحصل عليه في ظل النظام القديم. فلقد بدا واضحا أن نظام الجباية الجديد قد تعمد أن يحرم الحكام المحليين والملتزمين ـ فعند اعداد بيان الحصر كان الملتزمون يخفون وجود أعداد كبيرة من الذميين في النواحي التابعة لهم لكي يستمروا هم في جمع ضريبة الجزية من هؤلاء لمصلحتهم. وكان يحدث عند الجباية من تلك الاعداد المدونة في بيان الحصرأن يقوم الجزية دار بتسليم ما يماثل تلك الاعداد من أوراق الجزية الى الملتزمين لجبايتها وكثيراً ما كان الملتزمون يجمعون الجزية لمصلحتهم ويردون الإوراق مدعين أن بعض الذميين الذين اشتمل عليهم بيان الحصر اما هربوا أو ماتوا وفي بعض الأحيان يقومون بجمع الضريبة المستحقة من رجال الفئة العليا ويعطونه أورق الفئة الوسطى ويردون أوراق الفئة العليا على أنها لم تحصل محتفظين بالفرق لأنفسهم.

وعلى هذا النحو فإنه يمكن القول بأن الباب العالي لم يكن في مقدروه – بالرغم من تطبيق النظام الجديد– ان يجمع من ضريبة الجزية اكثر مما يسمح به الملتزمون الذين كانوا يتحكمون في قيمة الفائض الذى كان يرسل اليه فلقد اثبت الاحصاء على مدى حوالي ربع قرن من عام ١١٤٩هـ/١٧٣٧م هـ إى عام ١١٧٧هـ/١٧٦٣م ـ ان عدد الذميين الممولين

٩٣: يوانس [١٤٧٨ / ١٤٨٣م.]

كيهك ١٣٦٢= الأثنين ١٤ ذو القعدة ١٠٥٥

* فيها كان بناء الكنيسة الكبيرة المعروفة بكنيسة سان سولبيس، في باريس.

* ١ توت ١٣٦٣= ٨ سبتمبر ١٦٤٦= السبت ٢٧ رجب سنة ١٠٥٦.

* ١ يناير سنة ١٦٤٧= ٢٦ كيهك سنة ١٣٦٣= الثلاث ٢٤ ذو القعدة ١٠٥٦.

* في جماد اول تولى مصر الوزير محمد باشا ابن حيدر بدلا عن الوالى السابق أيوب باشا، الذى استقال من الولاية بقصد الخلوة والعبادة.

* في ١٠ رجب ثارت فئة من الانكشارية فتهددهم والى لشرطة فزاد تمردهم وطلبوا من الباشا قتل ذلك الوالى فأجابهم لذلك، فتمردت الجاويشية وقاموا بصوت واحد يشكون من سوء تصرف الباشا، وصارت الشكوى من طرفه للباب العالى في حق رضوان بك وعلى بك، ومن طرفهم في حق قنسوه بك وعماى بك.

* ١ توت ١٣٦٤= ٩ سبتمبر ١٦٤٧= الاثنين ٩ شعبان ١٠٥٧ فيها أنشأ الأمير سليمان بك الخربوطلى جامع يحيى بالكعكين.

* ١ يناير ٦٤٨= ٢٥ كيهك ١٣٦٤= الأربع ٥ ذو الحجة سنة ١٠٥٧.

* فيها ورد الى على بك ورضوان بك أمر من الباب العالى بالنظر في مسالة الشكاوى، وفي

وأموال الجباية التى جمعت أقل بكثير مما قدر لها فى المراسيم السلطانية كما أثبتت تلك الاحصاءات مدى عجز الباب العالى فى الحصول على نصيبه من التزام جوالى مصر.وسوف نوضح ذلك على النحو التالى:

١- في عام ١١٤٩هـ/١٧٣٧م قدر الباب العالى ان هناك ٣٠٠,٠٠٠ذمى ارسلت لهم ٢٤٠,٠٠٠ورقة جزية لجبايتها ولم يستطع على افندى الجزية دار أن يكشف الا عن ١٢٠,٠٠٠ذمى من الممولين وبمهارة على أفندى الادارية وبأمانته وزعت ١٠٧,٨٠٠ورقة جزية وتم جمع مبلغ عشرة ملايين بارة.

٢- في الفترة من عام ١١٥٠هـ/١٧٣٧م الى عام ١١٥٣هـ / ١٧٤٠م امكن توزيع ٣٥,٠٠٠ورقة جمعت متحصلات قيمتها أربعة ملايين بارة في كل سنة وقد جمعت تلك المتحصلات على وجه التحديد من أشخاص الفئة الوسطى.

٣- في مطلع عام ١١٥٣/ ١٧٤٠م ارسل الباب العالى خليل أفندى - رئيس الكتاب بالباب العالى- ملتزما جديدا للجوالى في مصر.وقد قام بتعداد ٧٠,٠٠٠ذمى من الممولين، وازاء هذا الإحصاء الذى قورن بمتحصلات الجزية خلال السنوات الأربع الماضية، اصدر الباب العالى اوامراه بأن ضرائب الجزية لعام ١١٥٤هـ/١٧٤٢م وما بعد ذلك تدبر على أساس أن يتحمل معظم الضرائب اشخاص الفئة الوسطى وانه بالامكان جمع مبلغ

٩٣ : يوانس [١٤٧٨ / ١٤٨٣م.]

٢١ جمادى الأولى ورد فرمان للباشا الوالى بذلك، وفى ٢١ جمادى الأولى استدعى الباشا قنصوه بك ومماى بك الى القلعة وأمر بقتلها.

* فيها حسن باسكال الباومتر، وعمل أول بارومتر منتظم.

* فى ١٧ رجب كانت وفاة السلطان ابراهيم بن السلطان أحمد الأول من السلطنة، بعد أن حكم ٧ سنين و٩ أشهر وعمره: ١٤ سنة، ثم تسلطن بعده ولده السلطان محمد خان الرابع فى اليوم المذكور.

* ١ توت سنة ١٣٩٥= ٨ سبتمبر ١٦٤٨= الثلاث ١٩ شعبان سنة ١٠٥٨.

* فى ٨ رمضان وردت الأوامر الى على بك بترك القاهرة والتوجه الى حكومته بجرجا.

* فى ٦ الحجة أشيع فى القاهرة أن الوزير مصطفى باشا تعين الى مصر، وفى ١٦ منه وردت الأوامر بإعاة محمد باشا الى منصبه، ثم حضر الأمر بعزله، وتولية أحمد باشا.

* ١ يناير ١٦٤٩= ٢٦ كيهك ١٣٦٥= الجمعة ١٦ ذو الحجة سنة ١٠٥٨.

* فى ٣٠ يناير، القائد الانجليزى كرمويل أمر بقطع رأس كارسوس الأول ملك انكلترا.

* فيها انعقدت معاهدة بين السلطان محمد الرابع وبين حكومة فرانسا.

* ١ توت ١٣٦٦= ٨

١٣,٢٥٠,٠٠٠ بارة ومن هذا المبلغ يدفع ٢,٣١٦,٠٠٠ بارة إلى الخزينة السلطانية ويدفع مبلغ ٦٧٩,٧١٠ إلى الباشا والآخرين والباقي وقدره ١٠,٢٥٤,٢٩٠ بارة ترسل الى الباب العالى.

٤- فى عام ١١٥٤هـ/ ١٧٤١م أرسل الباب العالى - طبقا لما قدره فى العام الماضى- ٧٠,٠٠٠، ورقة- ومما هو جدير بالذكر أن الملتزمين لم يصرفوا منها سوى نصفها فقط ، وقد تمت جباية مبلغ ٦,٢٢٥,٠٠٠ بارة فى كل سنة.وقد أرسل الى الباب العالى مبلغ ٣,٢٢٩,٢٩٠ بارة بعد أن دفع الجزية دار مستحقات الخزانة السلطانية والوالى والآخرين.

٥- فى عام ١١٥٥هـ/ ١٧٤٢م هبط عدد الذميين الممولين الى ٣٥,٠٠٠ ذمى مما جعل الباب العالى يصدر أوامراه بزيادة الضريبة المفروضة على كل فئة من الفئات الثلاث، وأصبحت الفئة العيا يدفع الواحد منها٤٢٠ بارة والوسطى ٢١٠بارة والدنيا ١٠٥بارة وعلى هذا النحو يكون مجموع الجزية المستحقة ٧,٤٥٥,٠٠٠ بارة وقد زاد تبعا لذلك الميرى الى ١,٩٣٦,٦٠٠ بارة وكشوفية كبير الى ٤٥٠,٠٠٠ وكشوفية صغير والمرتبات الى ٦٨١,٠٠٠ بارة وما تبقى بعد ذلك وقدره ٤,٣٨٧,٤٠٠ بارة كان المفروض أن يرسل الى الباب العالى سنويا.

٦- وفى عام ١١٦٣هـ/ ١٧٤٩- ١٧٥٠م حاول الباب العالى زيادة أعداد الذميين الممولين

٩٣: يوانس [١٤٧٨ / ١٤٨٣م.]

سبتمبر ١٦٤٩= الأربع غرة رمضان سنة ١٠٥٩.

* فيها قصر النيل ولم يبلغ غير سته عشر ذراعا، فشرق ثلث الأراضي القبلية ولم يرو غالب أرض الوجه البحرى، وغلا السعر غلوا فاحشا، وتعطلت الأموال الميرية، وكثرت المظالم، وفشا النهب.

* ١ توت ١٣٦٧= ٨ سبتمبر ١٦٥٠= الخميس ١٢ رمضان سنة ١٠٦٠.

* فيها كانت وفاة ديكارت، الرياضي الشهير.

* ١ يناير ١٦٥١= ٢٦ كيهك ١٣٦٧= الأحد ٨ محرم سنة ١٠٦١..

* في ٦ صفر، وقيل في ربيع أول ورد أمر الباب العالى بعزل أحمد باشا وتولية الوزير عبد الرحمن باشا، الذى سجن سلفه في القلعة، ولم يفرج عنه حتى دفع للخزينة مبالغ وافرة.

* ١ توت ١٣٦٨= ٩ سبتمبر ١٦٥١= السبت ٢٣ رمضان سنة ١٠٦١.

* ١ يناير ١٦٥٢= ٢٥ كيهك ١٣٦٨= الاثنين ١٩ محرم سنة ١٠٦٢.

* ١ توت ١٣٦٩= ٨ سبتمبر ١٦٥٢= الأحد ٤ شوال سنة ١٠٦٢.

* فى شوال عزل عبد الرحمن باشا وتولى بدله الوزير محمد باشا.

* فى ٨ جماد أول كان دخول محمد باشا السلحدار، الوالي الجديد الى مصر.

* ١ يناير ١٦٥٣= ٢٦

الى ٤٠,٠٠٠ ذمى ممايمكنه من جمع مبلغ يصل الى ٨,٠٨٥,٠٠٠ بارة كل سنة وفي نفس الوقت تظل مستحقات الخزانة السلطانية والوالى والآخرين كما هي دون تغيير ، وعلى هذا تضاف الزيادة فى حصيلة الضرائب وقدرها ٦٣٠,٠٠٠بارة بكاملها الى المبلغ المرسل الى الباب العالي ونتيجة لذلك يصبح ما يخص الباب العالى مبلغ ٥,٠١٧,٤٠٠ بارة.

٧- استمرت ضرائب الجزية خلال السنوات - من ١١٧١هـ/١٧٥٦م الى١١٧٣هـ/ ١٧٥٩-١٧٦٠تجمع بالكامل الا أن البكوات المماليك أرادوا أن يخلوا لأنفسهم الحق في متحصلات الجزية ،ولكن تهديدا عثمانيا أتاها بغزو البلاد أرغمهم على قبول زيادة ضرائب الجزية، وقد صدر فرمان تلك الزيادة في عام ١١٧٤هـ/ ١٧٦٠م يقضي بأن يدفع الذمى فى الفئة العليا ٤٤٠بارة، ٢٢٠ بارة للوسطى، ١١٠بارة للفئة الدنيا.وهذا يجعل دخل الجزية السنوى يصل الى ٨,٤٧٠,٠٠٠بارة كما تقرر زيادة الميرى الذى يدافع الى الخزانة السلطانية الى ٢,٠٠٣,٦٦٤ بارة أما كشوفية كبير وقدر ه ٤٥٠,٠٠٠ بارة وكشوفية صغير ومرتبات وقدره ٦٨٩,٧١٠بارة فظلت مستحقاتهما كما هى دون تعديل وعلى هذا فان الفائض المخصص للباب العالي قد زيد تبعا لذلك الى مبلغ ٥,٣٢٦,٦٢٠ بارة منذ تلك السنة.

كيهك ١٣٦٩= الأربع غرة صفر ١٠٦٣.
* فيها صار كرمويل محاميا للجمهورية الانكليزية.
* ١ تـــوت ١٣٧٠= ٨ سبتمبر ١٦٥٣= الاثنين ١٥ شوال سنة ١٠٦٣.،
* ١ ينـاير ١٦٥٤= ٢٦ كيهك ١٣٧٠= الخميس ١١ صفر سنة ١٠٦٤.
* فيها انعقدت معاهدة صلح بين انكلترا والهولاندة الفلمنك.
* فيها كان تنازل كرستين ملك أسوج (السويد).

وفى حقيقة الأمر كان معدل المطلوب من متحصلات الجزية للخزانة مبلغ ١١,٠٥٠,٠٠٠ بارة سنويا بينما المبالغ الفعلية التى سددت خلال تلك المدة كان بمعدل ٦,٢٢٥,٠٠ بارة فقط أى بنسبة ٥٢٪ فقط من مجموع المبلغ المطلوب وهذا يعنى أن الملتزمين صرفوا ما مقداره نصف أوراق الجزية التى أرسلت، فى الوقت الذى كان يأمل فيه الباب العالي- كما أشارت بذلك الفرمانات الصادرة خلال تلك المدة - أن يحصل على ثلاثة ملايين بارة سنويا على الأقل.

ومهما يكن من أمر- فعلى حد قول شو- كانت معظم متحصلات الجزية تجد طريقها باستمرار الى الأمراء المماليك ، وكان على المصريين الذميين الممولين تبعا لتلك السياسة المالية أن يتحملوا تلك الزيادات التى كانت تتقرر فى سنة بعد أخرى وهذا كان - بطبيعة الحال - يمثل عبئا باهظا كما كان أحد العوامل الرئيسية فى زيادة ضيقهم وبؤسهم.

لقد بذلت مجهودات من جانب الباب العالى عام ١١٧٩هـ/ ١٧٦٥م لإعادة ترتيب نظام عام ١٧٩هـ/١٧٦٥ لإعادة ترتيب نظام الجزية فى مصر على أساس اعادة النظر فى نظام عام ١١٤٧هـ/١٧٣٤م بما يحقق لها عائداً أكبر من نهب المصريين، وقد رؤى أن تسترد إلى أمانة الباشا العثمانى الذى كان يدير أمرها من قبل، وذلك من خلال مدير ادارة الضرب فى مصر، وبهذا تحولت عملية ضبط وادارة الجزية مرة أخرى إلى الباب العالى ومندوبيه.

غزو الانجليز لجاميكا كان يسبقه التجار ومدعى نقل الحضارة للشعوب البدائية

وفى ذلك العالم حضر الى مصر أحمد أغا يحمل فرمان من الباب العالى للأشراف على تطبيق النظام الجديد وتوزيع أوراق الجزية على الممولين.

ولقد حدث فى عام ١١٨٢هـ/١٧٦٨م أن أجرى مسح شامل للذميين فى مصر اسفر عن وجود٩٠,٠٠٠ذمى ملزمين بدفع ضريبة الجزية، ولكن ظهور على بك الكبير فى السنة التالية- والذى جعل من نفسه حاكما مستقلا بمصر- أرجأ العمل بالنظام الجديد مدة خمس سنين.

وعندما استعيدت السلطة العثمانية على مصر عام ١١٨٨هـ/١٧٧٥أرسل درويش عبد الرحيم أفندى- رئيس الكتاب بالباب العالى- كجزية دار ولكى يتم تفعيل نظام الجزية الذى كان قد بدأ قبل حركة على بك الكبير أصبحت جزية المقاطعات تبعا لذلك النظام فى التزامات الباشا العثمانى كما أسند ادراتها الى مدير ادارة الضرب كأمين للجوالى.

ويبدو أن أعداد الجباة - الذين كانوا يرسلون الى النواحى لتحصيل ضريبة الجزية- كانت كبيرة للغاية مما كان يودى إلى خصم أموالا باهظة نظير نفقات سفر هؤلاء الجباة واقامتهم. ولهذا فقد أصدر الباشا العثمانى خليل باشا فرمان بتاريخ ١٥ذى القعدة ١١٨٨هـ/ ١٧يناير ١٧٧٥م يقضى بألا يزيد عدد الجباة المكلفين بجمع الجزية فى أى مقاطعة على خمسة أشخاص هم الجزية دار والكاتب - وهذان يمثلان أمانة الباشا العثمانى. وفرد واحد من فرقة الجاوشان أو المتفرقة وفرد واحد يمثل أمراء المماليك. وجندى واحد يرسل عن طريق شيخ

*١ يناير ١٦٥٦= ٢٥ كيهك ١٣٧٢= السبت ٤ ربيع أول ١٠٦٦.
* فيها أنشأ الوزير محمد باشا السلحدار جامع سيدى عقبة بالقرافة الصغرى، قريبا من الامام الليث.
* فيها كان استعمال البندول في الساعات.
* فيها، أول مرة، وضع قانون للعربات في باريس.
* فيها توجه كريستين، ملك السويد سابقا، الى باريس.

* ١ توت ١٣٧٣= ٨ سبتمبر ١٦٥٦= الجمعة ١٩ ذو القعدة سنة ١٠٦٦.
* فيها كان انتهاء وتتميم رصد خانة كوبنهاج.
* فيها عزل والى مصر غازى باشا. وتولى بعده عمر باشا.
* ١ يناير ١٦٥٧= ٢٦ كيهك ١٣٧٣= الاثنين ١٥ ربيع أول ١٠٦٧.

* ١ توت سنة ١٣٧٤= ٨ سبتمبر ١٦٥٧= السبت ٢٩ ذو القعدة سنة ١٠٦٧.

* ١ يناير ١٦٥٨= ٢٦ كيهك ١٣٧٤= الثلاث ٢٦ ربيع أول ١٠٦٨.
* فيها حاصر الاسويجيين مدينة كوبنهاجن.

* ١ توت ١٣٧٥= ٨ سبتمبر ١٦٥٨= الأحد ١٠ ذو الحجة سنة ١٠٦٨.
* فيها كانت وفاة اوليفر كرومويل.
* ١ يناير ١٦٥٩= ٢٦ كيهك ١٣٧٥= الأربع ٦ ربيع الثاني سنة ١٠٦٩.

البلد. كذلك يقضى الفرمان بألا يجمع هؤلاء من أجل مصاريف اقامتهم ـ أكثر من ١٣ بارة من كل ذمى فى الفئة العليا، و١٠ بارات من الفئة الوسطى، و٧بارات من الفئة الدنيا.

ولقد ذكر شو أن هناك زيادة تقررت على الفئات الثلاث فى عام ١٧٧٥ بحيث صارت الضريبة المفروضة على أشخاص الفئة العليا ٤٥٣ بارة والفئة الوسطى ٢٣٠ بارة والفئة الدنيا ١١٧ بارة. وقد يعنى هذا أن الرسوم الاضافية التى تقررت للجباة طبقا للفرمان- فرمان خليل باشا السابق ذكره - لم تكن تجمع مباشرة من الذميين وانما كانت تضاف الى الخزينة نفسها وقد ذكر شوا أيضا المبلغ الاجمالى لحصيلة الضرائب ارتفع طبقا لتلك الزيادة التى تقررت - حيث أشار الى أن هناك ٩٠,٠٠٠ ذمى ممول - ارتفع الى ٢٠,٤٥٠,٠٠٠ بارة.

كما أثبتت الوثائق الرسمية أنه فى خلال السنوات الأربع من ١١٩٧هـ/ ١٧٨٣الى ١٢٠٠هـ ١٧٨٦ قام إبراهيم بك ومراد بك- اللذان جعلا من نفسيهما حاكمين مستقلين على مصرـ بتحويل معدلا سنويا قدره ١,٥٠٠,٠٠٠ بارة فقط الى الخزانة السلطانية. أما الباقى فقد احتفظ به الأمراء المماليك لمصلحتهم وأثبتت الوثائق الرسمية أيضا بأن ابراهيم بك ومراد بك حينما استعادا سلطاتهم فى مصر عام ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م- بعد رحيل القبطان حسن باشا الجزائرلى ـ لم يحولا شيئا الى الباب العالى وأن جميع متحصلات الجزية التى بلغت فى ذلك العام مليون بارة خصصت للخزانه السلطانية علما بأن الجباة زادوا أعباء الجباية

* فيها هوجين فسر ووضح ماهية الظاهرة الخلقية.

* ١ تـــوت ١٣٧٦= ٩ سبتمبر ١٦٥٩= الثلاث ٢١ ذو الحجة سنة ١٠٦٩.

* فيها توجه كرستين، ملك أسوج سابقا الى رومه.

*١ يـنـايـر ١٦٦٠= ٢٥ كيهك ١٣٧٦= الخميس ١٧ ربيع الثانى ١٠٧٠.

* فيها كان عود شارلس الثاني الى الملك ببلاد الانكليز، بواسطة الجنرال موتك. وتعرف هذه المدة عند الانكليز بمدة العود ولاسترجاع.

* ١ تـــوت ١٣٧٧= ٨ سبتمبر ١٦٦٠- الأربع ٣ محرم سنة ١٠٧١.

* ١ يـنـايـر ١٦٦١= ٢٦ كيهك ١٣٧٧ السبت ٢٩ ربيع الثاني ١٠٧١.

* فيها حصلت وقعة الصناجق، وهي وقعة هائلة انقسمت فيها الأمراء احزابا، واشتعلت نيران الحرب في شوارع القاهرة وضواحيها وامتد ذلك الى الاقاليم القبلية، وجهز فيها عدة تجاريد، حتى انتهت بقتل اغلب الأمراء الفقارية.

* فيها انشأ أمير اللواء عابدين بك جامع عابدين بك، بمصر القديمة.

* ١ تـــوت ١٣٧٨= ٨ سبتمبر ١٦٦١=و الخميس ١٣ محرم سنة ١٠٧٢.

* فيها رصد هيفيليوس أن ميل الكسوفيه هو ٢٣ درجة و٢٩ دقيقة و٧ ثواني.

لمواجهة متطلبات الاقامة والسفر الى ١١٣بارة عن كل مصرى ذمى فى الفئة العليا، ٦٣بارة فى الفئة الوسطى و٣٣بارة للفئة الدنيا.

ولقد أوضح فرمان صادر من الباب العالى فى عام ١٢٠٩هـ/١٧٩٤م يتضمن المطلوب من الباشا العثمانى تحصيله من ضرائب الجزية وبعد دفع المستحقات المقررة يرسل الفائض الى الباب العالى. وقد جاء فى هذا الفرمان «المطلوب طرف حضرت وزير روش ضمير الحاج صالح باشا محافظ محروسة مصردامه الله ملتزم مقاطعة جوالى راى ديوان عاليشان بر موجب معتاد قديم وكشوفية صغير وذرارى عظام وعويدات ومرتبات سايرة بمو جب مفردات دفتر حكم محاسبة ديوان مصر واجب سنة ١٢٠٩هـ عن معتاد المتحصلات ونفقات كشوفية صغيرة والعوايد والمرتبات والوظائف الجارية للجباة وطبقا لما هو مدون لسنة ١٢٠٩هـ فى دفاتر المحاسبة بديوان مصر حسب التعليمات بخصوص نفقات كشوفية صغير والوزير (الباشا العثمانى) والعوايد والمرتبات والوظائف الجارية للجباة.

«ولقدجاء فى هذا الفرمان أيضا المبلغ المطلوب للخزانة السلطانية من مال الجوالى وقدره ٢,٥٩,٠٨٠بارة وللعوائد مبلغ قدره ١,١٢٢,٠٣٤بارة وما تبقى وقدره ١٥,٩٤٨,٨٨٥بارة فيرسل الى الباب العالى.

كذلك صدر فرمان آخر من الباب العالى آخر عام ١٢١٠هـ/١٧٩٥م يحمل نفس

* فيها كان تأسيس سراى فرساى.
* ١ يناير ١٦٦٢- ٢٦ كيهك ١٣٧٨- الأحد ١٠ جماد أول ١٠٧٢.

* ١ توت ١٣٧٩- ٨ سبتمبر ١٦٦٢= الجمعة ٢٤ محرم سنة ١٠٧٣.
* ١ يناير ١٦٦٣= ٢٦ كيهك ١٣٧٩= الاثنين ٢١ جماد أول سنة ١٠٧٣.

* ١ توت ١٣٨٠= ٩ سبتمبر ١٦٦٣= الأحد ٦ صفر ١٠٧٤.
* ١ يناير ١٦٦٤= ٢٥ كيهك ١٣٨٠= الثلاث ٢ جماد ثان ١٠٧٤.
* فيها كان اختراع المكرومتر ذى القرص.

* ١ توت سنة ١٣٨١= ٨ سبتمبر ١٦٦٤= الاثنين ١٦ صفر سنة ١٠٧٥.
* ١ يناير ١٦٦٥= ٢٦ كيهك سنة ١٣٨١= الخميس ١٣ جماد الثانى ١٠٧٥.

* فى ٦ فبراير أعظم درجة للبرودة بلغت فى باريس الى ٢١ درجة مائينية تحت الصفر.
* فيها توفى ٦٨ ألف نفس بالطاعون فى لوندرة وقيل مائة الف نفس.
* فيها اخترع كرشير المصباح السحرى.
* فيها اكتشف كاسينى دوران المشترى.

* ١ توت ١٣٨٢= ٨ سبتمبر ١٦٦٥= الثلاث ٢٧ صفر سنة ١٠٧٦.

عبارات كشوفية صغير ومرتبات وعوايد سايرة- لمواجهة نفقات جباية ومرتبات وعوايد سايرة - لمواجهة نفقات جباية الضرائب- فأصبحت ١,٢٥١,١١٩ بارة أما بقية المستقطعات فظلت كما هي دون تعديل. أما المتبقى بعد ذلك وقدره ١٥,٣١٩,٨٠٠ بارة فيرسل الى الباب العالى.

ويتضح من خلال البيانات السابقة مدى مساهمة ضرائب الجزية من المصريين فى المال الميرى كمصدر هام فى ايردات الخزانة السلطانية.

وقد أفاضت بعض المصادر التاريخية فى الحديث عما كان المصريين الذميون يعانون من ضيق بسبب أداء ضريبة الجوالى، وما كان يصاحب عملية الجباة من أساليب العنف والقسوة والبطش من جانب الجباة والعسكر مما دفع البعض منهم الى الهرب والاختفاء فى الجبال، فضلا عما ذاقه فقراء المصريين من مرارة ومهانة كانت تصل الى حد الحبس لغير القادرين على الدفع بل و حجز أولادهم للخدمة فى البيوت [انظر قصة الشيخ المهدى عند الجبرتى جـ٥ ص١١٩٥]،. وفى العادة كان يقوم أثرياء الأقباط من الأراخنة أمثال: المعلم نيروز والمعلم رزق الله شكر الله والمعلم ابراهيم جوهرى ـ الذين قيل عنهم فى المخطوطات القبطية أنهم «كانوا يشترون الفقراء شراوى من حبس الجوالى ويخلصونهم.» وقد قام بعض أولئك الأراخنة الأقباط بأحداث وقف يخصص لسداد المقرر على الأقباط المحبوسين غير القادرين على الدفع بسبب الجوالى أطلق عليه «وقف حبس الجوالى».

---

* فيها بمصر، كانت التسعة انصاف فضة تعدل ١٢ نصفا من الفلوس النحاس.

*١ ينـاير ١٦٦٦= ٢٦ كيهك ١٣٨٢= الجمعة ٢٤ جماد الثاني سنة ١٠٧٦

* فيها حصل طاعون وحريق هائل في لوندرة دمرت فيه النار ٣٠٠٠٠,٠٠٠ بيت و ٤٠٠ شارع.

*فيها كان أول إدخال الشاى في انكلترا

* فيها كان حرب بين انكلترا والهولاندة.

* فيها تولى مصر أحمد باشا، بعد عزل عمر باشا، واليها السابق.

* ١ تـوت ١٣٨٤= ٩ سبتمبر سنة ١٦٦٧= الجمعة ٢٠ ربيع أول سنة ١٠٧٨.

* فيها شنت التتار والقوقاز الغارة على بولونيا.

* ١ ينـاير سـنة ١٦٦٨= ٢٥ كيهك سنة ١٣٨٤= الأحد ١٦ رجب سنة ١٠٧٨.

* فيها حصل الاتحاد الثلاثي ضد الملك لويز الرابع عشر.

* فيـهـا كـان اسـتـقـلال البورتغال عن اسبانيا.

* ١ تـوت ١٣٨٥= ٨ سبتمبر ١٦٦٨= السبت غرة ربيع أول سنة ١٠٧٩.

* كـان وفـاء النيل في ١٧ مسرى (وقيل إن ذلك في زمن على باشا الملقب بابى الرخاء).

* فيها استولت العثمانيون على كانديا.

* ١ تـوت ١٣٨٦= ٨

---

(٢) المغارم والالتزامات المالية:

تعرض أهل الذمة المصريين ابان الحكم العثماني لمغارم وأعباء مالية أخرى غير ضريبة الجوالى كانت تفرض لتغطية نفقات الحملات العسكرية حينما تكون السلطنة العثمانية في حال حرب مع أعدائها خارج البلاد سواء من المسلمين أو غيرهم، من ذلك ما حدث في عام ١٥٦٦- في عهد السلطان سليمان القانوني - عندما احتاج السلطان الى مبالغ من المال لنفقات سفر الجيش العثماني بقيادة سنان باشا - لفتح بلاد اليمن فأصدر السلطان أوامره أن يجمع ذلك المبلغ من أقباط مصر وفرض على جميع التجار والافرنج واليهود ومن جملتهم قبط مصر ألفى دينار.

وكان هناك بعض رؤسا الطوائف الذمية يتعرضون لمغارم شخصية من جانب الحكام العثمانين فقد أشار مصدر قبطي معاصر الى أن خليل باشا أرسل في عام ١٠٤١هـ ١٣٤٨ق/ ١٦٣١م، رسولا يستدعي البابا متاوس الثالث (البطريك رقم ١٠٠) بسبب

* المهدى: شيخ الأزهر خاتمه وتوقيعه.

٩٣ : يوانس [١٤٧٨ / ١٤٨٣م.]

سبتمبر ١٦٦٩= الأحد ١١ ربيع الثاني سنة ١٠٨٠.

* ١ ينـاير ١٦٧٠= ٢٦ كيهك ١٣٨٦= الأربع ٨ شعبان سنة ١٠٨٠.

* فيها رصد منجولي أن ميل الكسوفيه هو ٢٣ درجة و٢٨ دقيقة و٢٤ ثانية، ورصد ديكران هذا الميل وقال ٢٣ درجة و٢٨ دقيقة و٥٤ ثانية.

* فيها حصل حريق هائل في جهة باب زويلة واستمر اياما حتى مات خلق كثيرون، وتخرب فيه عمائر تلك الجهة.

* ١ توت ١٣٨٧= ٨سبتمبر سنة ١٦٧٠= الاثنين ٢٢ ربيع الثاني ١٠٨١.

* فيها ارتفع ثمن الفضة، وكان الدرهم منها يباع بأربعة أنصاف، فاعطى الوزير لأمين دار الضرب بمصر جمل من معاملة جزيرة كريد النحاس، وكانت دار الضرب في مدته بطالة، فضربها، وصار الدرهم يباع بخمسة انصفا أو أكثر.

* ١ ينـاير ١٦٧١= ٢٦ كيهك ١٣٨٧= الخميس ١٩ شعبان سنة ١٠٨١.

* فيها كان أول استعمال البنادق ذات الشفطة أي ذات الحجر الصوان وعليها السونك.

* فيها ـ وقيل في سبتمبر ـ تم بناء رصد خانة باريس، وقد تكلفت مليونين فرنك.

* ١ تـوت ١٣٨٨= ٩ سبتمبر سنة ١٦٧١= الأربع ٥ جماد أول سنة ١٠٨٢.

* فيها اكتشف كاسين خامس اقمار زحل

* ١ ينـاير ١٦٧٢= ٢٥

عدم قيامه بدفع الرسوم المعتاد بعد أن صار بطريركا. ويذكر المصدر أن ذلك بسبب وشاية قام بها بعض الحاقدين على البابا وأنهم طلعوا الى خليل باشا وأخبروه أن الذى يصير بطريركا يقوم بدفع رسم كبير المقدار للمتولي على حكم مصر، فلما علم جماعة الأراخنة بتلك المؤامرة الخبيثة طلعوا الى القلعة وقابلوا خليل باشا الذى تكلم معهم فى شأن الرسوم وألزامهم بالقيام بدفع غرامة قدرها أربعة آلاف قرش، فنزل الأراخنة من عند الباشا ممتلئ غما. وتذكر المصادر أيضا أن أحد اليهود دفع المبلغ المذكور من عنده الى الباشا، وألزم جماعة الأراخنة أنفسهم بجمع هذا المبلغ ودفعه لليهودى.

كذلك كان الذميون المصريين يتعرضون لأعباء مالية أخرى أحيانا إلا أنه كان يحدث وسط اجراءات مالية عامة تشمل جميع فئات الشعب المختلفة. فقد حدث في عام ١٠٤٢هـ/ يونيو ١٦٣٥م فى عهد السلطان مراد الرابع وأثناء ولاية أحمد باشا الكورجى أن تقرر سك العملة من النحاس ويجمع بدلها العملة الذهبية فى البلاد لتغطية نفقات الحروب الخارجية للدولة فى لبنان وفارس فكان لهذا الاجراء عواقب وخيمة على حالة البلاد الاقتصادية فعمت بسببه كوارث اقتصادية شملت كل المصريين الغني والفقير والتاجر والصانع بلا تفرقه أو تمييز.

كيهك ١٣٨٨= الجمعة غرة رمضان سنه ١٠٨٢.

* فيها ١٥٠,٠٠٠= نفر من التتار والقرقاز والترك شنوا الغارة على بولونيا.

* فيها نكث كرولوس الثاني، ملك أنجلترا، معاهدته مع الفلمنكيين، ومحاربته لهم بعد اتحاده مع فرانسا.

* ١ تسوت ١٣٨٩= ٨ سبتمبر سنة ١٦٧٢= الخميس ١٥ جماد أول ١٠٨٣.

* فيها كان تشغيل تيلوسكوب نيوتون.

* فيها لمح كاسيني ثالث أقمار زحل.

* ١ يناير ١٦٧٣= ٢٦ كيهك ١٣٨٩= الأحد ١٢ رمضان ١٠٨٣.

* فيها كان أول معرض لرسومات الصور في باريس.

* فيها كانت ولادة السلطان أحمد خان الثالث ابن السلطان محمد خان الرابع.

* فيها عقدت معاهدة بين السلطان محمد الرابع وحكومة فرانسا.

* ١ تسوت ١٣٩٠= ٨ سبتمبر ١٦٧٣= الجمعة ٢٦ جماد أول سنة ١٠٨٤.

* ١ يناير ١٦٧٤= ٢٦ كيهك ١٣٩٠= الاثنين ٢٣ رمضان سنة ١٠٨٤.

* فيها كان الصلح بين انكلترا والهولاندة، وهو صلح ويستمنتسر.

* فيها صار عزل ابراهيم

ويصف الرحالة فانسليب ـ واقعة اضطهاد طائفة من الاقباط في حي الأزبكية في شهر سبتمبر من سنة ١٦٧٢ وذلك بقصد اجبارهم على دفع غرامة مالية لسلطات الحاكم فيذكر أن الأقباط قاسوا اضطهاد عظيما لأن بعض الجند العثمانية قاموا بذبح امرأة خليعة وألقوا جثتها بعيدا عند بركة الأزبكية فقام والي القاهرة ظلما وعدوانا بغلق كل بيوت القبط المتاخمة لتلك المنطقة وأجبرهم على دفع غرامة مالية قدرها ألفا قرشا ديه لهذا الدم المهدور اذا ارادوا أن يفتحوا بيوتهم ويسعوا الى معاشهم.

وكانت المغارم والأعباء المالية تحدث نتيجة الاضطرابات التي تعم البلاد بسبب الفتن الداخلية وأثناء الصراع الذى كان يدور بين العناصر الحاكمة للاستئثار بالسلطة ، فلقد حدث في السنة التالية لرسامة البابا بطرس السادس ـ البطريك (١٠٤) - في عام ١٧١٩م أن قامت فتنة بسبب الصراع على السلطة بين الصنجق محمد بك شركس وبعض الفرق العسكرية، ولقد بلغت الفتنة من شدتها أنها كانت أشبه بالحرب الأهلية وانتهز الرعاع الفتنة فقاموا بأعمال السلب والنهب واشعال الحرائق. ويعلق أحد المؤرخين الأوروبيين على تلك الفتنة بقوله أنها كانت بداية لسلسلة من القلاقل والمنازعات استمرت الى مجئ الحملة الفرنسية فلم تعد الخصومة قائمة بين حزب الوالي وحزب المماليك فحسب بل امتدت الخصومة بين أفراد الحزب

باشا، والي مصر، وتولى بعده حسين باشا.
* فيها كان استيلاء الانجليز على نيويورك.
* فيها طلبت أهالي مسينا من فرانسا أن تملكها.

* ١ تـــوت ١٣٩١= ٨ سبتمبر سنة ١٦٧٤= السبت ٧ جماد الثاني سنة ١٠٨٥.
* فيها حضر خط شريف يطلب ٣٠٠ كيس قروش كلاب، على حساب القرش الكلب ٣٠٠ نصف فضة، وكان وقتها القرش الكلب بأربعين نصف فضة، والريال ٤٢، والشريفي البندقي ٩٥ نصفا فضة، والشريفي المحمدى بخمسة وثمانين
* ١ ينـاير ١٦٧٥= ٢٦ كيهك ١٣٩١= الثلاث ٤ شوال سنة ١٠٨٥.
* فيها اكتشف رومير سرعة الضوء.
* فيها اتحدت الدنيمارقة والهولاندة على السويجيين.

* ١ تـــوت ١٣٩١= ٩ سبتمبر ١٦٧٥= الاثنين ١٨ جماد الثاني سنة ١٠٨٦.
* فيها عقدت معاهدة تجارية وسياسية بين السلطان محمد الرابع ودولة بريطانيا تحت حكم كارلوس الثاني، وبها تأيدت معاهدات ١٥٧٩ و١٦٠٦و١٦١٩و١٦٣٠المنعقدة بين الدولتين المذكورتين.
* ١ ينـاير ١٦٧٦= ٢٥ كيهك ١٣٩٢= الأربع ١٤ شوال ١٠٨٦.
* فيها تولى مصر حسن باشا الجنيلاط

الواحد للوصول الى الرياسة وبطبيعة الحال كان لهذه الفتن والقلاقل أو خم العواقب على أحوال البلاد الاقتصادية وكذلك على المسلمين وغير المسلمين وخاصة القبط منهم.

كما ذكرت المصادر أن تلك الفتن كانت تستهدف الأقباط المصريين- وخاصة فى الصعيد - حتى اشتد الكرب عليهم، اذ ضربت عليهم فى مطلع القرن الثامن عشر غرامة فادحة لم يعف منها أحد، وبيعت بسبب تلك الغرامة الجواهر الكريمة بأبخس الأثمان وألزم بهذه الغرامة القساوسة والرهبان والصبيان والفقراء وأرغم بطريرك الاقباط بدفعها عن القساوسة وخدام الدين.

وكانت المغارم تفرض وسط اجراءات سياسية صادرة من الباب العالي، فقد حدث نتيجة ازدياد نفوذ طائفة الكاثوليك وكثرة أعدادها وتوغلها فى كل أنحاء البلاد ورغبة الباب العالى فى الحد من ذلك النفوذ المتصاعد أن أصدر مرسوما عام ١٧٥٣ حمله بطريرك طائفة الملكية اليونانية الى السلطات الحاكمة فى مصر وذلك بمنع أبناء طائفة النصارى الشوام من دخول كنايس الكاثوليك الفرنج فإن دخلوا يدفعون للدولة ألف كيس ، وقد سير ابراهيم كتخدا فى طلب أربعة من القساوسة من دير الكاثوليك فجاءوا بهم فحبسهم وأخذ منهم مبلغا عظيما من المال.

٩٣: يوانس [١٤٧٨ / ١٤٨٣م.]

* فيها ـ وقيل في اغسطس ـ تم إنشاء رصد خانة جرنويتش، التي شرع في بنائها في حكم تشارلز الثاني
* فيها احترقت الدونانمة الهولاندية في بالرم.

* ١ توت ١٣٩٣ = ٨ سبتمبر ١٦٧٦ = الثلاث ٢٩ جماد الثاني سنة ١٠٨٧.
* فيه انعقدت معاهدة بين السلطان أحمد وتشارلز الثاني، مجددة لجميع الامتيازات السابقة.
* ١ يناير ١٦٧٧ = ٢٦ كيهك ١٣٩٣ = الجمعة ٢٦ شوال سنة ١٠٨٧.
* فيها بيع الأرب الأرز بمصر بتسعة قروش وبعشرة واستقر الاردب بثلثمائة نصف فضة.
* فيها غلا السعر في محروسة مصر حتى بلغ الأردب القمح ١٨٠ نصفا فضة، والأردب الشعير ١٢٠، الفول كذلك، والتبن حمل كل جمل ١٥٠ نصفا فضة، ومع هذا كان النيل في غاية الكمال.

* ١ توت ١٣٩٤ = ٨ سبتمبر ١٦٧٧ = الأربع ١٠ رجب سنة ١٠٨٨.
* ١ يناير ١٦٧٨ = ٢٦ كيهك ١٣٩٤ = السبت ٧ ذو القعدة ١٠٨٨.
* وفي ١٢ يناير من سنة ١٦٧٨ حصل في لونده ظلمة كبيرة وقت الظهر.

* ١ توت سنة ١٣٩٥ = ٨ سبتمبر ١٦٧٨ = الخميس ٢١ رجب سنة ١٠٨٩.
* ١ يناير سنة ١٦٧٩ = ٢٦

وقد لجأ بعض الحكام من البكوات المماليك الى ابتزاز الأموال وفرض المغارم على كافة طوائف الشعب المصرى وذلك حتى يمكنهم الانفاق على القوات المرتزقة التابعين لهم وعلى أعمال التسليح.

بعد وفاة على بك الكبير استمر الصراع بين البيوتات المملوكية وأمرائها من أجل الوثوب الى السلطة وكان الامراء المماليك في صراعهم هذا يطوفون بالبلاد يسلبون وينهبون ويفرضون الاتاوات على الأهلين من الأقباط المصريين مما كان يدفع ببعضهم الى الهرب تجنبا لماكان قد يصيبهم من ضرب واهانه وقتل. ولقد ذكر الجبرتي في حوادث ربيع الأولى عام ١٢٠٠هـ/ يناير ١٧٨٦م أن مراد بك – وكان على رأس السلطة آنذاك – شرع في السفر الى الوجه البحرى في جماعة من كشافه ومماليكه، وطاف ببعض المدن والقرى مطالبا أهليها بالأموال المقررة مضافا إليها حق الطريق ، فأن تأخرت قرية أو بلدة في أداء ما قرر عليها كان مصيرها الخراب والنهب والدمار. ولقد عين على الأسكندرية أحد كشافه يدعى صالح أغا ـ كتخدا الجاوشية سابقا – الذى قرر لنفسه حق طريق مقداره خمسه آلاف ريال، كما قرر على أهلها مائة ألف ريال وأمر بهدم الكنائس في حالة عدم دفع ما قرره.

وفي ظل حملة القبطان حسن باشا الجزائرلى (١٧٨٦–١٧٨٧م) ضد ابراهيم بك ومراد بك، أرسل يطلب من قاضي القضاة احصاء لما أوقفه المعلم ابراهيم جوهرى يومئذ على

كيهك ١٣٩٥= الأحد ١٧٨ ذو القعدة سنة ١٠٨٩.
* فيها كان ترتيب مدارس الحقوق في فرانسا.
* ١ توت سنة ١٣٩٦= ٩ سبتمبر ١٦٧٩= السبت ٣ شعبان سنة ١٠٩٠.
* ١ ينساير ١٦٨٠= ٢٥ كيهك ١٣٩٦= الاثنين ٢٩ ذو القعدة سنة ١٠٩٠.
* فيها تولى مصر عثمان باشا.
* فيها نودى على النيل من الجبل الى الجبل

* فيها أنشأ ذو الفقار بك جامع ذى الفقار بك، بشارع اللبودية، بدرب الجماميز.
* فيها كان انضمام الالزاس الى فرانسا.
* فيها عقدت معاهدة بين السلطان محمد الرابع وحكومة الفلمنك، مجددة لشروط سنة ١٦٣٤.

* ١ توت ١٣٩٧= ٨ سبتمبر ١٦٨٠= الأحد ١٣ شعبان سنة ١٠٩١.

* فيها كان النصف الفضة يعدل عثمانيين.
* ١ يناير ١٦٨١= ٢٦ كيهك سنة ١٣٩٧= الأربع ١٠ ذو الحجة سنة ١٠٩١.
* فيها اخترع رافرى، الاسكوتلاندى، الاستينوغرافيا، وهي طريقة الكتابة المختصرة، وابتدا استعمالها بمصر في سنة ١٨٩٢.

* ١ توت ١٣٩٨= ٨ سبتمبر ١٦٨١= الاثنين ٢٤ شعبان سنة ١٠٩٢.

الكنائس والديارات من أطيان ورزق وأملاك وغير ذلك. كما قبض العسكر على امرأته وفتحوا بيته عنوة واستولوا على كل ما فيه وكان شيئا كثيرا وقدموه الى حسن باشا الذى باعه فى المزاد الذى استمر عدة أيام متتالية. كذلك قرر حسن باشا على بيوت النصارى الذين خرجوا بصحبة ابراهيم بك ومراد بك الى الصعيد مبلغا كبيرا من المال قدر بخمسة وسبعين ألف ريال، كما أمر باحصاء بيوت جميع النصارى ودورهم وما هو فى ملكهم وأن يكتب جميع ذلك فى قوائم وقرر عليها أجره مثلها فى العام، وأن يكشف فى السجل على ما هو جار فى املاكهم، ثم قرر عليهم أيضا خمسمائة كيس فوزعوها على أفرادهم وقيل أنهم حسبوا الجوارى المأخوذة منهم من أصل هذا المبلغ على كل رأس أربعون ريالا، كما قرر أيضا على كل شخص - سواء كان فى الفئة العليا أو الدنيا جزية، وذلك خارج عن الجزية الديوانية المقررة.

وتتوالى موجات الابتزار، وتعدد صور المغارم والمصادرات فقد ذكر الجبرتى فى حوادث شهر ذى القعدة ١٢٠٠هـ/ سبتمبر ١٧٨٦م «فيه: قبض القبطان على راهب من رهبان النصارى واستخلص منه صندوقا من ودائع النصارى». كذلك ذكر الجبرتى فى حوادث هذا الشهر «قبض القبطان على المعلم واصف وحبسه وضربه وطالبه بأموال». وواصف هذا أحد الكتاب المباشرين المشهورين ويعرف الايراد والمصاريف وعنده نسخ من دفتر الروزنامة ويحفظ الكليات والجزئيات ولايخفى عن ذهنه شئ من ذلك ويعرف التركى».

* ١ يناير سنة ١٦٨٢ = ٢٦ كيهك سنة ١٣٩٨ = الخميس ٢١ ذو الحجة ١٠٩٢.

* فيها كان إطلاق القنابل على بلاد الجزائر وعلى جزيرة صاقز

* فيها أسس وليم بين مدينة فلادلفيا

* فيها تملك بطرس الأكبر على روسيا.

* فيها كانت ولادة كارلوس الثاني عشر، ملك أسوج ونروج.

* ١ توت سنة ١٣٩٩ = ٨ سبتمبر ١٦٨٢ = الثلاث ٦ رمضان سنة ١٠٩٣.

* فيها اكتشف نيوتون قوانين الجذب العام.

* في أول هاتور ١٣٩٩ حصلت زيادة في نهر النيل اخرت الزرع.

* ١ يناير ١٦٨٣ = ٢٦ كيهك سنة ١٣٩٩ = الجمعة ٢ محرم سنة ١٠٩٤.

* فيها حاصر العثمانيون مدينة ڤيانه عاصمة النمسا.

* فيها انجد سوبياسكى النمساويين، ومنع العثمانيين من الاستيلاء على ڤينه.

* ١ تـوت ١٤٠٠ = ٩ سبتمبر سنة ١٦٨٣ = الخميس ١٧ رمضان سنة ١٠٩٤.

* ١ يناير سنة ١٦٨٤ = ٢٥ كيهك سنة ١٤٠٠ = السبت ١٣ محرم سنة ١٠٩٥.

*
فيها كان إطلاق القنابل على بلاد الجزائر

* فيها كان إطلاق القنابل على جنوا.

وقد ترك القبطان حسن باشا الجزائرلى البلاد فى يد اسماعيل بك بعد رحيله فى عام ١٧٨٧ – بدون منازع له بعد ابعاد منافسيه ابرهيم بك ومراد بك الى الصعيد ، كما ترك أيضا عابدى باشا– قائد الجيوش العثمانية فى مصر لدعم سيادة الدولة عليها. ولقدأحدث عابدى باشا غرامة مالية كبيرة على القبط، يروى الجبرتى أسبابها – فى حوادث شهر ربيع الأولى ١٢٠٢ ديسمبر ١٧٨٧م– قائلا «حضر عابدى باشا واسماعيل بك الى بيت الشيخ البكرى باستدعاء بسبب المولد النبوى فلما استقر بهم الجلوس، التفت الباشا الى جهة حارة النصارى وسأل عنها فقيل له انها بيوت النصارى فأمر بهدمها والمناداة عليهم... فسعوا فى المصالحة وتمت على خمسة وثلاثين ألف ريال منها على الشوام سبعة عشر ألف وباقيها على الكتبة» القبط.

ولم يكف مراد بك – عندما استعاد سلطته فى مصر مع ابراهيم بك بعد رحيل حسن باشا – عن فرض المغارم على الذميين، فقد ذكر مارسيل ـ أحد علماء الحملة الفرنسية – أن مراد بك أظهر يوما أنه عازم على تجديد الملابس والأمتعة العسكرية وطلب ما يقوم بنفقاتها، ففرض على المصريين اليهود مبلغا كبيرا من المال اعانة لهذا المشروع، فاجتمع رؤسا اليهود وتناقشوا ماذا يصنعون لينجوا من تلك الغرامة الفادحة فاستقر رأيهم على أن يرسلوا الى مراد بك كبيرى أحبارهم يسعيان فيما ينجيهم من تلك الغرامة ، فسارا اليه ولما مثلا بين يديه قالا :«أيها الأمير

* فيها اكتشف كاسينين القمر الأول لزحل.

* ١ توت ١٤٠١ = ٨ سبتمبر ١٦٨٤ = الجمعة ٢٨ رمضان ١٠٩٥.

* ١ يناير ١٦٨٥ = ٢٦ كيهك ١٤٠١ = الاثنين ٢٥ محرم ١٠٩٦.

*١توت ١٤٠٢ = ٨ سبتمبر ١٦٨٥ - السبت ٩ شوال ١٠٩٦.

* ١ يناير ١٦٨٦ = ٢٦ كيهك ١٤٠٢ = الثلاث ٥ صفر سنة ١٠٩٧.

* فيها كان طبع ونشر فلسفة نيوتون الشهير.

* فيها تقهقر الجيش العثماني في الهونجوريا

* فيها كان اتحاد هولانداوأسبانيا وانكلتره على فرانسا في معاهدة اوكسبورج.

* ١ توت ١٤٠٣ = ٨ سبتمبر ١٦٨٦ = الأحد ١٩ شوال سنة ١٠٩٧.

* ١ يناير ١٦٨٧ = ٢٦ كيهك ١٤٠٣ = الأربع ١٦ صفر سنة ١٠٩٨.

* فيها أمر الوزير بمصر أن يكون وزن الألف نصف فضة ٢٣٠ درهما، وكل مائة درهم فضة يدخلها ٣٠ درهما من النحاس، وكان وزن الألف نصف فضة ٢٥٠ درهما، وداخلها خمسة وعشرون درهما من النحاس.

* وفيها بلغت الويبة القمح تسعة ثم عشرة ثم ثلاثة عشر نصفا فضة فأكثر، فضج الناس وقام أهل الرميلة وغيرهم واحرقوا

اننا فقراء، ولو بعنا ممتلكاتنا وأولادنا وأنفسنا لا تجمع عُشر ما تطلبه منا، فإذا أعفيتنا من هذه الضريبة التي يستحيل علينا دفعها نطلعك على كنز عظيم يكفيك مؤنة هذه المطالب، وهذا الكنز لا يعلم به أحد سوانا وقد تنقل هذا السر في طائفتنا حتى وصل الينا ونحن نوصله لأولادنا عندما تحضرنا الوفاة».

ولقد ذكر مارسيل في روايته أن الحبرين اليهوديين أخبرا مراد بك بأن هذا الكنز مدفون في جامع عمرو بن العاص في مصر القديمة وأن مراد بك تحايل بذكاءمن أجل الوصول الى هذا الكنز دون ما أثاره لأحد حوله وعند لحظة استخراج الكنز كان مراد بك والحبران اليهوديان يشهدون هذا الحدث الهام فاذا هو صندوق من حديد نصفه أحمر من الصدأ، ولما كسر الصندوق وجد فيه بعض أوراق الرق مكتوب عليها ايات قرآنية بخط كوفي - ويقول مارسيل أن الحبريين اليهوديين عندما رأيا ذلك فرا من بين الناس، وهربا قبل أن يظفر بهما مراد بك الذى استشاط غضبا، ولما عاد الى القاهرةضاعف الغرامة المالية على اليهود وأصر على أن يدفعوها حالا، وكما يقول «مارسيل» ان مراد بك استعمل الكرباج لحثهم على ذلك.

وتشير الوثائق الرسمية والمصادر القبطية الى أن الرهبان استمروا يتمتعون بالاعفاء من الجزية حتى عام ١١٤٧هـ/١٤٥٠ش/١٧٣٤م، حينما تقرر أن يصبح الرهبان من الممولين

٩٣: يوانس [١٤٧٨ / ١٤٨٣م.]

باب الرقعة التي أحدثوها بجانب باب قراميدان.

* ١ تـــــوت ١٤٠٤= ٩ سبتمبر ١٦٨٧= الثلاث ٢ ذو القعدة سنة ١٠٩٨.

* ١ يـنـايـر ١٦٨٨= ٢٥ كيهك ١٤٠٤= الخميس٢٦ صفر سنة ١٠٩٩.

* في ٢ محرم= ٨ نوفمبر تسلطن السلطان سليمان الثاني، بعد خلع السلطان الغازى محمد خان الرابع، الذى حكم ٤٠ سنة و٥ أشهر، وله من العمر ٦٣ سنة.

* فيها صار طلق القنابل على الجزائر.

* فيها تولي مصر حسن باشا السلحدار.

* فيها زعيم البافييره استولى على بلغراد من العثمانيين.

* فيها جدد الأمير مصطفى اغا ابن المرحوم حسين جوربجي جامع الزعفران، بشارع السيدة زينب، وقيل إن ذلك في ربيع الأول.

* ١ توت سنة ١٤٠٥= ٨ سبتمبر ١٦٨٨= الأربع ١٢ ذو القعدة ١٠٩٩.

* فيها أعلنت الفرنساوية الحرب على الهولاندة.

* فيها حصلت زلازلا هدمت ازمير.

* فيها حصلت ثورة في انجلترا، وتنازل جمس الثاني.

* ١ ينـايـر١٦٨٩= ٢٦ كيهك ١٤٠٥= السبت ٩ ربيع أول سنة ١١٠٠.

* فيها استدعت الانجليز الأمير أورانج الفلمنكي واقامته ملكا، ولقبته وليم الثالث.

للجزية شأنهم في ذلك شأن جميع الفئات الذمية وذلك خروجا على التقاليد السابقة . ولعل من الأسباب التي دعت الدولة التي اتخاذ هذا الاجراء ما جرى عليه العرف الاسلامي من اعفاء أملاك الكنائس والأديرة والمعابدمن الضرائب، مما دعا كثيرا من الاقباط الى اللجوء لوقف أملاكهم على الكنائس والأديرة. لكن تفطن إلى ذلك السلطات العثمانية فسعت إلى تجريد الأقباط المصريين من أى تراكم لأموالهم حتى لا تكون لهم مدخرات خاصة بهم تساندهم اقتصاديا وتسمح لهم بقدر لو ضئيل من الحرية. فشمل الاحصاء الذى أجراه على أفندى- ملتزم الجوالي - عام ١٧٣٤م كافة الرهبان لكي يدفعوا الجزية.

قيود الدولة على أهل الذمة:

كانت السلطة العثمانية وسلطات الحكم في مصر تصدر بين الحين والأخر أوامرها بأن يلتزم أهل الذمة المصريين بتلك القيود التي فرضت عليهم منذ الغزو العربي والتي ورد ذكرها في كتب الحنفية ، حيث جاء «ويميز الذمي في زيه ومركبه وسرجه، ولايركب خيلا ولايحمل سلاح ولا أن يترك يركب الا لضرورة ولايرحب بهم في المجامع ولايلبس ما يخص أهل العلم والزهد والشرف، وتميز أنثاه في الطريق والحمام، ويجعل على داره علامة لكيلا يستغفر له، ولا يبدأ بسلام ويضيق عليه الطريق».

ويتضح مما سبق أنه كان على أهل الذمة المصريين ونسائهم الالتزام ببعض القيود في

٩٣ : يوانس [١٤٧٨ / ١٤٨٣م.]

* فيها غلت الأسعار بمصر حتى بيع الأردب القمح بمائة وعشرين نصفا فضة، والأردب الشعير بثمانين والفول بخمسة وتسعين نصفا، واجره طحين ويبه القمح أربعة انصاف فضة.

* ١ توت سنة ١٤٠٦= ٨ سبتمبر ١٦٨٩= الخميس ٢٣ ذو القعدة ١١٠٠.
* فيها بلغت ويبة القمح ٣٩ نصفا فضة، والشعير ٢٠ والأردب الأرز بثمانية غروش، وهى ٣٢٠ نصفا فضة.

* ١ ينـاير ١٦٩٠= ٢٦ كيهك ١٤٠٦= الأحد ٢٠ ربيع أول ١١٠١.
* فيها افتتحت الترك مدينة بلغراد ثانيا.
* فيها كان انشاء رصد خان الميدن.
* فيها اخترع دينيس باپين الآلة البخارية

* ١ تـوت ١٤٠٧= ٨ سبتمبر ١٦٩٠= الجمعة ٤ ذو الحجة ١١٠١.
* ١ يناير سنة ١٦٩١= ٢٦ كيهك سنة ١٤٠٧= الاثنين ٣ ربيع أول ١١٠٢.
* فيها توفى أحمد باشا والى مصر، وتولى مكانه على باشا قلج، وكانت عادة الحمايات اتسعت حتى أن طائفة من العسكر تأخذ فى حمايتها جملة من التجار والمزارعين والملاحين، ولا يتمكن الحاكم من التعرض لهم، فاجتهد الوالى حتى أبطال ذلك، وحارب العرب، فهدأت الأمور بعد أن قمعهم وافنى منهم كثيراً.

الملابس ومظاهر حياتهم اليومية، ولقد تمثلت قيود الملابس فى الزامهم الغيار، فكان على النصارى لبس الأسود أو الأزرق ، وشد الزنا حول أوساطهم فوق الثياب بينما تعين على اليهود اللون الأصفر. وتحدد اللون الأحمر لفرقة السامرة، أما نساء أهل الذمة فقد الزمن بقيود الألوان في ملابسهن، ففرض على المرأة المسيحية أن تشد الزنار فوق ثيابها ومن تحت الازار .كما فرض أن تنتعل خفين من لونين متباينين لتميزها عن المرأة المسلمة ولتكون مسخة للناظرين.

ويستفاد مما أوردته المصادر المعاصرة أن أهل الذمة حرم عليها دخول الحمامات العامة دون أن يميزوا أنفسهم بصليب من الحديد أو الرصاص أو النحاس فى رقابهم لتمييزهم عن المسلمين، كما حرم عليهم ركوب الخيل الا أنه أجيز لهم ركوب البغال والحمير بالأكف عرضا – أى من ناحية واحدة – كذلك حرم عليهم حمل السلاح ولو للدفاع عن أنفسهم والتقلد بالسيوف. ولم يكن يسمح للذميين باتخاذ خدم من المسلمين اذ يعتبر ذلك اهانة للاسلام وأهله.

ولقد ذكر أحمد شلبى، وابن الراهب، أن الدولة أصدرت مرسوما فى عام ٩٨٨هـ/ ١٢٩٦ق/ ١٥٨٠م ابان ولاية حسن باشا الخادم – قررت فيه أن يلبس اليهود الطراطير الحمر، وأن يلبس النصارى البرانيط السود. كذلك ذكر احدى المصادر القبطية أنه نودى فى البلاد فى

٩٣: يوانس [١٤٧٨ / ١٤٨٣م.]

* فيها كانت وفاة السلطان سليمان خان الثاني، وعمره: ٥٠ سنة، بعد أن حكم منها ٣ سنين وثمانية أشهر، ثم تسلطن بعده السلطان أحمد خان الثالث، وذلك في ١٥ شوال.

* فيها انهزمت الانجليز أمام برست.

* ١ تـوت ١٤٠٨= ٩ سبتمبر ١٦٩١= الأحد ١٥ ذو الحجة سنة ١١٠٢.

* فيها كان انتهاء الحرب في ارلانده وتسليم ليمرك للملك وليم.

* فيها رصد لاستدان ميل الكسوفية وقال إنه ٢٣ درجة و٢٨ دقيقة و٣٢ ثانية.

* فيها اكتشف كاسينى تبطيط المشترى

* ١ ينـاير ١٦٩٢= ٢٥ كيهك ١٤٠٨= الثلاث ١١ ربيع الثاني ١١٠٤.

* فيها نودى بشوارع مصر ان القنطار الصابون بأربعمائة نصف فضة، وأن الشريفى المحمدى يصرف بخمسة وتسعين نصفا بالديوانى، والريال بخمسة وخمسين نصفا، والشريفى البندقى بمائة نصف.

* ١ توت سنة ١٤٠٩= ٨ سبتمبر ١٦٩٢= الاثنين ٢٦ ذو الحجة ١١٠٣.

* فيها كان إنشاء رصد خانة نورمبرج

* ١ يناير سنة ١٦٩٣= ٢٦ كيهك ١٤٠٩= الخميس ٢٣ ربيع الثاني ١١٠٤.

* فيها استولت العثمانيون على مدينة ازوق.

---

٢١ طوبة ١٣٦٥ق/٢٦يناير ١٦٤٩م «أن لايركب النصارى خيولا، ولايلبسون شدودا حمراء ولاطواقى جوخ حمراء ولامراكيب، وانما يلبسون شدودا زرقاء طول الواحد عشرون ذراعا».

ومن القيود التى فرضت على أهل الذمة أيضا في ظل الاحتلال العثمانى، أنه لم يكن يسمح للأقباط المصريين بالسير في الجنازات ودفن موتاهم الا بعد الحصول على اذن من الباشا العثمانى. ويذكر أحد المؤرخين الأقباط أنه عند وفاة البابا متاوس البطرك (١٠٢) في عام ١٦٧٥م اجتمع سائر الكهنة الأقباط في يوم جنازته ليطلبوا الاذن من الباشا بدفنه فسمح لهم بعد أن أخذ منهم أموالا كثيرة.

وقد عادت السلطات الحاكمة في عام ١٣٩٤ق/ ١٦٧٨م وزادت من التشديد على أهل الذمة بالالتزام بالقيود المفروضة عليهم فقد ذكرت احدى المصادر القبطية أنه نودى في ذلك العام بأن يعلق النصارى في رقبتهم جلجل، وفي رقبة اليهود جلجلين عند ولوجهم الحمامات، وأن يصبغ كل من اليهود والنصارى عمائمهم وألا يلبسوا أثوابا من الجوخ أوصوف، ولاتأتزر نساء النصارى بمآزر بيضاء، وتكون ملابس النصارى عموما سوداء، ولعل هذا هو السبب في أن معظم نساء مصر حتى اليوم يلبسون السواد.

ويروى أحمد شلبى طرفا من القيود التى فرضت على أهل الذمة في أوائل القرن الثامن عشر فيما يتعلق دخولهم الحمامات لتمييزهم عن المسلمين، فيقول :«وفي خامس محرم سنة

٩٣ : يوانس [١٤٧٨ / ١٤٨٣م.]

* فيها نودى بمصر وبجميع الأقاليم ان الشرفى البندقى بمائة نصف فضة، والمحمدى بتسعين، والريال بخمسين، والكلب بأربعين، فاصطلح الناس فى البيع والشراء على أن البندقى بمائة وخمسة انصاف، والمحمدى بخمسة وأربعين.

* وفيها بيع الرطل من الصابون باثنى عشر نصفا فضة، والرطل المغربى بستة أنصاف،

* ١ تـوت ١٤١٠=٨ سبتمبر ١٦٩٣= الثلاث ٧ محرم سنة ١١٠٥.

* فيها استعملت الفرنساوية البنادق ذات السونكي فى حربهم ضد الدول المتحدة فى تورينو.

* ١ يناير سنة ١٦٩٤= ٢٦ كيهك ١٤١٠= الجمعة ٤ جماد الأول ١١٠٥.

* ١ تـوت ١٤١١=٨ سبتمبر سنة ١٦٩٤= الأربع ١٨ محرم ١١٠٦.

* فيها وقف النيل ولم يحصل جبر ولم ترو البلاد ثم وفي ٢٧ مسرى بعد أن أمر وزير مصر علي باشا قلج سيدى يوسف السادات الوفائى ان يبيت في المقياس ويتلو حزبه كل ليلة حتى يحصل الوفاء.

* ١ ينـاير ١٦٩٥= ٢٦ كيهك ١٤١١= السبت ١٥ جماد أول ١١٠٦.

* في ٩ فبراير ١٦٩٥ تسلطن السلطان مصطفى خان الثانى، بعد وفاة السلطان أحمد خان الثانى، وله من العمر ٥٤ سنة حكم منها ٤ سنين وثمانية أشهر.

١١٣٦هـ(٥ أكتوبر ١٧٢٣م) نزل أغا مستحفظان الى القاهرة وأشهر فيها النداء لجميع الطوائف اليهود والنصارى أن كل من دخل الحمام فلا يدخل الحمام إلا وفى عنقه جلجل ليعرف الكافر من المؤمن». وكان من نتيجة ذلك أن «نادى بأن خدمة الحمام لايخدمون داخل الحرارة أولادا مردا» ويعلق أحمد شلبى بعد ذلك على تلك الواقعة بقوله: ولم تمكث الا مدة يسيرة وعاد كل شئ الى أصله».

ويبدو أن تلك القرارات قد أثارت أصحاب الحمامات الذين عقدوا اجتماعا فيما بينهم للتشاور فى أمر ذلك الفرمان الذى سوف يسبب لهم خسائر فادحة خاصة وأن معظم المترددين على الحمامات من أهل الذمة المصريين، وأن استعمالهم للحمامات مصدر رزق لهم، وقد قرروا فى ا جتماعهم أن يجمع منهم مبلغ كبير من المال يقدمونه رشوة الى الأغا لإلغاء ما جاء بالفرمان. ويقول أحمد شلبى فى ذلك الصدد «.. ثم أن الحمامية اجتمعوا مع بعضهم البعض وقالوا الأمر خمار علينا وان حمام من غير أمرد لايمكن، ثم اقتضى رأيهم أنهم جمعوا من بعضهم البعض ثمانية الآلاف فضة وأوردوها الى الأغا على عدم المعارضة من دخول أهل الذمة الى الحمامين من غير جلاجل فى أعناقهم ، فقطع لهم الأغا تذكرة بما أرادوا، ونزل شيخ الحمامين فرقها على كل حمام مايتى نصف فضة لأن جملة حمامين القاهرة ثلاث وسبعون حمام..».

* فيها بلغ الأردب القمح في بولاق مائة وعشرين، وبالرميله ١٨٠ نصفا فضة، والشعير بمائة وعشرين، والفول كذلك، ثم بلغ أردب القمح أربعة غروش، والشعير تسعين نصفا فضة، والفول ١٥٠، وحمل التبن مائة وعشرين نصفا.

* ١ توت ١٤١٢= ٩ سبتمبر ١٦٩٥= الجمعة ٢٩ محرم سنة ١١٠٧.

* فيها أخذت الأسعار في الزيادة فبلغ الفول ١٥ قرشا، والشعير عشرة قروش، وقل وجود العدس، وعم الغلاء واشتد الكرب، واكلت الناس الكلاب والقطط والخيل والحمير.

* ١ ينساير ١٦٩٦= ٢٥ كيهك ١٤١٢= الأحد ٢٥جماد أول ١١٠٧.

* فيها تولى مصر اسماعيل باشا، بدال عن واليها على باشا، الذى عزل.

* فيها كان تأسيس بنك لوندره.

* في ٤ محرم كانت ولادة السلطان محمود الأول ابن السلطان مصطفى الثاني.

* ١ توت ١٤١٣= ٨ سبتمبر ١٦٩٦= السبت ١٠ صفر سنة ١١٠٨.

* فيها كانت وقعة زنته، انتصر فيها البرنس أوجين على العثمانيين.

* ١ ينساير ١٦٩٧= ٢٦ كيهك ١٤١٣= الثلاث ٧ جماد الثاني ١١٠٨.

* فيها ضرب في مصر زرمحبوب، وسمى محبوبا، وكان

ولقد حدثت واقعة طريفة - في أعقاب ما جرى ذكره - رواها أحمد شلبي قائلا:«ومن جملة ما اتفق أن رجلا دخل الى حمام السكرية، واذا برجل [مصرى] ذمي دخل الى الحمام وقلع حوائجه فإذا بالناطور قدم له الفوطة وقدم له جلجلا، فقال له الذمي: ما هذا؟ فقال له الناطور: كما أمرنا الأغا، فأبى الذمي أن يضع الجلجل في عنقه ولبس حوائجه ولم يدخل وطلع يبربر..».

كذلك حدث في عام ١١٣٨هـ/ ١٧٢٦م- ابان ولاية على باشا- أن عاد وفرض على أهل الذمة بعض القيود على غطاء الرأس امعانا في إذلالهم والتمييز بينهم وبين المسلمين. فيذكر أحمد شلبي أنه «في رابع عشر جماد أول سنة ١١٣٨هـ، أعطى الباشا فرمان إلى أحمد أغا لهلوبه بأن اليهود يلبسوا الطراطير والطواقي الزرق، والنصراني يلبس القلايق، والافرنج قلايق وبرانيط، ولا يلبسون جوخا أحمر ولا بوابج صفر ولامزوز ولا شخاشين، وكل من خالف ولبس فللرعايا أخذه منه وللحكام أن يخرجوا من حقه ولجميع الغرباء كل من قعد بعد ثلاثة أيام يقتل ويكون دمه هدرا».

ولقد روى أحمد شلبي تلك الواقعة التي تمثل حلقه من حلقات القيود التي فرضت على أهل الذمة فيما يتعلق بالزام الذمي الترجل من على دابته عند مقابلة المسلمين وخاصة اذا كانوا من الحكام والسادة الكبار مهما كانت مكانة الراكب في طائفته ، اذ كان عدم ترجله يؤدى

٩٣ : يوانس [١٤٧٨ / ١٤٨٣م.]

يسمى بالقسطنطينية أشرفي الطون، أو زراسلانبول، وظهرت النصفية والربعية والفندقلي والبندقي.

* وفيها بيع الأردب القمح بستمائة نصف فضة، والشعير بثلثمائة نصف، والفول باربعمائة وخمسين نصفا، والأرز بثمانمائة نصف فضه، واشتد الغلاء حتى أكل الناس الجيف، ومات كثير من الجوع ثم عقب ذلك فناء عظيم فأمر الوالي بتكفين الفقراء والغرباء من بيت المال، فصاروا يحملون الموتى من الطرقات ويذهبون بهم الى مغسل السلطان عند سبيل المؤمنين الى انتهاء الوباء.

* ١ توت سنة١٤١٤= ٨ سبتمبر ١٦٩٧= الأحد ٢١ صفر سنة ١١٠٩.

* فيها كانت معاهدة تقسيم اسبانيا.

* فيها حضر أمر شريف بارسال الخزينة كلها شريفية وفضة ديوانية عيار الذهب ٢٠ قيراطا والوزن كل ١٠٠ شريفي ١١٠ درهم بالاسلامبولي، فتكون بالمصرى ١١٥ وخلاف ذلك فالبندقي بسعر ١٠٠ نصف فضة والأندلس والمغربي مثله والمحمدى ٩٠ نصفا والريال ٥٠ فتوقف الحال. أما المعاملة بين الأهالي فبقيت على ما كانت عليه بأسعار أعلى من ذلك.

* ١ يناير ١٦٩٨= ٢٦ كيهك ١٤١٤= الأربع ١٨ جماد الثاني ١١٠٩.

* فيها كان إنشاء ششنى جامع يوسف الفرغلي الكائن بشارع الزرايب.

* فيها تولى مصر حسين

الى الحاق الاهانة به ان لم يكن ضربه. يقول أحمد شلبي:«في يوم الجمعة واحد وعشرين محرم سنة ١١٤٩هـ(أول يونيو ١٧٣٦م) طلع عثمان كتخدا القزدغلي الى القرافة ففي حال رجوعه عند رأس الجودرية واذا بيترك (بطريك) الاروام (الملكانيين) مقابله فقال له القواص : انزل يابترك فأمر عثمان كتخدا بضربه فأنزلوه من فوق حماره وضربوه بالنبابيت فصارت الرهبان الذين صحبته يتلقون الضرب عنه، ثم انهم شالوه وهو مرضوض من النبابيت».

كما يذكر «شابرول» أيضا، أن من الأمور التي كان تحرم على أهل الذمة قبول شهادتهم أو شهادة أى رجل ليس دينه الاسلام أمام المحاكم الاسلامية ضد المسلمين لذ لايستدعى أهل الذمة مطلقا عند الفصل في الأمور المدنية أو الجنائية عند العثمانيين ومع ذلك فيمكن لقائد الشرطة أن يستعلم من أى ذمي عن أمور تدخل فى نطاق اختصاصه.

أما عن موقف الدولة من عمارة وترميم دور عبادة أهل الذمة فمن المعروف أن من الشروط التي وضعها الفقهاء المسلمون وألزموا أهل الذمة بوجوب اتباعها:«أنه لايجوز أن يحدثوا بيعة ولاكنيسة ولاصومعة ولابيت نار في دار الاسلام، ويعاد المنهدم من غير زيادة على البناء الأول ولايعدل عن النقص الأول أن كفي». فقد روت المصادر القبطية عن واقعة اضطهاد حدثت للأقباط اليعاقبة في شهر أبيب ١٤١٧. ق١ يوليو ١٧٠١، ابان ولاية أحمد قرة محمد باشا، بسبب شكوى رفعت اليه من بعض المسلمين بأن طائفة النصارى الأقباط أحدثت بنيان

باشا، بعد عزل اسماعيل باشا، واليها السابق.

* فيها صار عمل جشني ششني العملة الذهب فوجدوا في المائة شريفي الثلث فضة والثلثين ذهب.

* فيها تشكت العلماء والمشايخ والصناجق للحضرة السلطانية بقول أن على باشا، المعزول، أخذ عن ثمن غلال الحرمين الشريفين وجرايات العساكر وعلائق الخيول وغيرهم من كل أردب شريفين قيمتها ١٩٠ نصفا فضة.

* فيها كانت ولادة السلطان عثمان خان الثالث ابن السلطان مصطفى الثاني.

* ١ توت ١٤١٥= ٨ سبتمبر سنة ١٦٩٨= الاثنين ٢ ربيع أول سنة ١١١٠.

* ١ يناير ١٦٩٩= ٢٦ كيهك ١٤١٥= الخميس ٢٨ جماد الثاني ١١١٠.

* فيها أنشأ الأمير مصطفى جوربجي مرزه جامع مرزة، ببولاق.

*في ١٢ محرم= ١١ يوليو= ابيب تولى مصر محمد - [وقيل أحمد] - قره محمد باشا، بدلا عن واليها حسين باشا، الذى عزل.

* ١ توت ١٤١٦= ٩ ستمبر ١٦٩٩= الأربع ١٤ ربيع أول سنة ١١١١.

* ١ يناير سنة ١٧٠٠= ٢٥ كيهك سنة ١٤١٦= الجمعة ١٠ رجب ١١١١.

* فيها كانت توصية كارلوس الثانى ملك اسبانيا بملكه الى فيليب دى انجو، حفيد لويس

جديدا فى كنائسها، فعين الباشا أغا واشرك معه بعض المعمار يين وقضاة الشرع وكلفهم بالكشف عن أبنية النصارى، فنزلوا وكشفوا وأثبتوا أن الكنائس تحوى البناء المحدث الجديد، ولكن جماعة من أمراء المماليك تدخلوا وتشفعوا لدى الباشا، ففرض على الأقباط غرامة مالية كبيرة. واجتمع البابا يؤانس السادس عشر ـ البطريرك ـ بكبار الأراخنة الأقباط، واتفق الرأى بينهم على أن يطوف البطريرك بحارات النصارى ويدخل البيوت ويجمع منها ما تيسر الى أن يتم الحصول على الغرامة المفروضة بأكملها ولعلها كانت خطة للأبتزاز.

وحدث فى عام ١١٤٢هـ/ ١٧٢٩م ـ ابان عهد السلطان العثمانى أحمد الثالث (١٧٠٣-١٧٣٠) أن رفع إليه بعض المسلمين شكوى جاء فيها أنه اشيع بين الناس خبر ضم والحاق شئ من مقابر المسلمين لكنيسه النصارى الكائنة بمصر العتيقة الجارى تعميرها بموضعها القديم، ونرجو ونسترحم صاحب الدولة السلطان أفندينا باصداره أمره الكريم لصاحب العزة قاضى عسكر أفندى حتى يصير الكشف عن الأمر المذكور بمباشرة أحد من قبل الشرع».

وقد بعث السلطان العثمانى – ردا على تلك الشكوى– بفرمان فى نفس العام جاء فيه: (.. أنه بمصر القديمة دير مارى مينا الكائن بالقرب من فم الخليج بجوار تربة الأرمن ودير الملاك القبلى الكائن بدير الطين من الآثار الشريفة ودير منقريوس ودير قصر الشمع ودير النحلة المعدة

الرابع عشر ملك فرانسا، ووقوع الحروب المعروفة بحروب الوراثة الاسبانولية.

* فى ٤ شوال= ٢١ فبراير حصل بمصر حادث الفضة المغشوشة.

* ١ تـــوت ١٤١٧= ٩ سبتمبر سنة ١٧٠٠= السبت ٢١ رجب سنة ١١١٢.

* فيها استقلت البروسيا وصارت مملكة مستقلة.

* فيها تغلب كارلوس الثانى عشر، ملك أسوج، على الروسيين في نارفا

* فيها حدث حريق مهول فى ايدمبورج.

* ١ تـــوت ١٤١٨= ٩ سبتمبر ١٧٠١= الجمعه ٥ ربيع الثانى سنة ١١١٣.

* ١ ينـاير ١٧٠٢= ٢٥ كيهك ١٤١٨= الأحد غرة شعبان ١١٣.

* فيـها أعلنت الهولاندة وانجلترة والأوستوريا الحرب على فرانسا واسبانيا لمنع البربون عن التلمك فى أسبانيا وتغلب فرانسا عليهم.

* ١ تـــوت ١٤١٩= ٩ سبتمبر ١٧٠٢= السبت ١٦ ربيع الثانى سنة ١١١٤.

* فيها كان إعدام دونانمة اسبانيوليه فى بوغاز فيجو.

* ١ ينـاير ١٧٠٣= ٢٥ كيهك ١٤١٩= الاثنين ١٢ شعبان سنة ١١١٤.

* فيها رصد بيالتكينى ميل الكسوفية وقال إنه ٢٣ درجة و٢٨ دقيقة و٢٥ ثانية.

للنصارى القبط والأورام وان فى بعض من الأديرة المذكورة أدخلوا من تراب أموات المسلمين فى الأديرة المذكورة وبعضهم بنوا وجددوا بناء عاليا عن رسومها القديمة وأحدثوا فيها بدائع. ومن علو البناء صار يكشف على بيوت أمة محمد وأن فى ادخالهم القطعة من تربة أموات المسلمين وفى تجديدهم البناء العالى اهانة» وقد اشترط السلطان فى ذلك الفرمان».. ان المعينين لهذه المهمة يكونون من أهل الديانة لأجل الكشف عن ذلك وهدم ما أحدثوه من البناء واخراج ما أدخلوه من تربة أموات المسلمين وابقاء اديرتهم على رسومها القديمة على وجه الحق من غير غرض فى ذلك».

ولقد تعين لتلك المهمة عبد الرحيم عزى كشاف الاوقاف، ومصطفى أفندى كتخدا وشيخ الاسلام، والسيد الشريف يونس أفندى قاضى الديوان، والشيخ على كاتب الكشف ورفيقه الشيخ حسن، حيث تواجهوا الى مصر القديمة وبصحبتهم الأمير يوسف أغا معمار باشى، من أمراء المتفرقة، والسيد الشريف عاشور- رئيس المهندسين - والحاج عيد- المهندس - وذلك للكشف على دير مارمينا الكائن بالقرب من فم الخليج بمصر القديمة، ودير الملاك القبلى الكائن بدير الطين، ودير مارمينا الكائن بالقرب من فم الخليج بمصر القديمة، ودير النحلة والكنائس المعدة للنصارى القبط والنصارى الأورام التى بمصر القديمة. ولقد جاء فى الفتوى التى صدرت فى هذا الشأن بأن «أولئك المعينين لتك ا لمهمة وجدوا ان تلك الابنية على حالتها

* فيها كانت وفاة السلطان مصطفى خان الثاني ابن السلطان محمد الرابع، وله من العمر ٤٠ سنه، حكم منها ٨ سنين و٨ أشهر، وتسلطن بعده السلطان أحمد الثالث بن السلطان محمد الرابع وذلك في ٢ ربيع الثاني وضرب نقودا جديدة بالقاهرة.

* ١ توت سنة ١٤٢٠= ١٠ سبتمبر ١٧٠٣= الاثنين ٢٨ ربيع الثاني ١١١٥.

* فيها ضرب في القاهرة فندقلي مجوز قيمته وقت ضربه ٢٦٨ نصف فضة، وفي سنة ١٢١٣ كانت قيمة ٦٠٠ نصف فضة، وهذا يعدل ١٥ و ٢١ فرنك ووزنه درهمان وسدس درهم تقريبا.

*١ يناير سنة ١٧٠٤= ٢٤ كيهك سنة ١٤٢٠= الثلاث ٢٣ شعبان سنة ١١١٥.

* فيها أسس بطرس الأكبر مدينة سانبترسبورج، عاصمة الروسيا.

* فيها كان استيلاء الأميرال روك، الانجليزى، على جبل طارق.

* فيها كان انتصار الدول المتحدة على فرانسا بواسطة ملبروك الشهير في حرب بينهم.

* فيها استولت الأوستوريا على مدينة مونخ.

* فيها عزل محمد قره محمد باشا من ولاية مصر، وتولى بدله محمد رامى باشا، فكانت ولاية محمد قره محمد باشا خمس سنين.

* ١ توت ١٤٢١= ٩ سبتمبر ١٧٠٤= الثلاث ٩ جماد أول سنة ١١١٦.

القديمة من غير احداث حادثة ولاضرر بجار ولامار، ولا زيادة على ما كانت عليه من قديم الزمان، ولا بداخلها ترب أموات المسلمين وإنما بها مرمات وعمارات متفرقة جزئية من العلو والسفل على الصنعة التي كانت عليها قديما، ولم تكن خارجية عن أصلها ولابها بناء بارز عن أس جدرهم ولا علو عن قديم أصلها وأنها جميعا الآن على صفتها التي كانت عليه من قديم الزمان». وبناء على ذلك فقد أصدر القاضي - قاضي القضاة- تقريرا في هذا الشأن. أورد فيه أنه «لم يكن هناك مقتضى شرعي لهدم الديورة المذكورة كما أن المهندسين المذكورين أخبروا بأن البناء المذكور ليس مضرا على الجار والمار ولم يكن بارزا عن اس جدره وأن ما قيل عن ذلك هو بخلاف الحقيقة كما أن الكنيسة صار تعميرها بموضعها القديم وعليه لا لزوم للتعرض للكنيسة المذكورة بعد أن تبين عدم الحاق ولاضم شئ من مقابر المسلمين.

ولقد حدث في عام ١١٥٧هـ/١٧٤٢م أن أمر بالكشف على الزواية الكائنة بين كنيستي ابي سيفين وأنبا شنودة لادعاء بعض المسلمين في مصر القديمة أن النصارى اختلسوا أجزاء من الزواية المذكورة وأدخلوها بكنيستي أنبا شنودة ومرقوريوس، وتعين لتحقيق تلك الشكوى قاضي أوقاف مصر والمهندسين، والنظر أيضا في الترميم اللازم، وقد وجدوا بخلاف ما ادعوا به. وتصرح باجراء العمارة اللازمة لهذه الكنائس.

كذلك حدث في عام ١١٨٨هـ/ ١٧٧٤م أن تم تعيين من يلزم للكشف على أديرة النصارى ومن جملتها دير أبي رويس، وذلك بناء على شكوى بعض المسلمين من أن كنيسة

* فيها استولى بطرس الأكبر على نارفا.
* ١ يناير سنة ١٧٠٥= ٢٥ كيهك ١٤٢١= الخميس ٥ رمضان ١١١٦.
* فيها حصل بمصر نقصان شديد للنيل.
* فيها تبوأ يوسف الأول على كرسي سلطنة أوستوريا.
* في ٦ اغسطس أعظم درجة للحرارة في باريس كانت ٤و٣٩ درجة مئينية فوق الصفر.

* ١ توت سنة ١٤٢٢= ٩ سبتمبر ١٧٠٥= الأربع ٢٠ جماد الأول سنة ١١١٧.
* فيها أنشأ الأمير الجوربجي جامع الهياتم بحارة الهياتم بالحنفي.
* فيها عزل محمد رامي باشا، بعد أن حكم مصر سنتين، وتولى بدله على باشا.
* في ٢٢ يوليو، صار التوقيع على معاهدة توحيد انكلتره واسكوتلانده.

* ١ توت سنة ١٤٢٣= ٩ سبتمبر سنة ١٧٠٦= الخميس ٣٠ جماد أول ١١١٨
* في اغسطس أعظم درجة للحرارة في باريس كانت ٣٥ مئينية فوق الصفر.
* فيها كان انهزام الفرنساوية في ايطاليا.
* ١ ينايـر ١٧٠٧= ٢٥ كيهك ١٤٢٣= السبت ٢٦ رمضان سنة١١١٨.
* فيها كان انتصار الفرنساويين والاسبانيوليين على الدولة المتحدة.
* فيها ركب «دانيس باين»

أبي رويس القائمة بالقرب من مقام الشيخ الدمرداش قد تعدت حدود ترميمها باستحداث رسم جديدة لها. وقد أسفر الكشف عن أن الكنيسة المذكورة على ما هي عليه من قديم الزمان بخلاف المدعى به.

ويتضح - مما زوردناه من وثائق- أن العادات المتبعة خلال الاحتلال العثماني أن يجرى كشف دورى كل عام على دور عبادة أهل الذمة الكائنة في الديار المصرية بناء على فرمان يصدره السلطان العثماني ، وبمجرد وصول الفرمان يصير الكشف على الكنائس والأديرة كما يعد تقرير شامل ومفصل يحتوى على كافة البيانات والمعلومات عن صحتها،و عن جباية كافة رسومها وعوائدها القديمة.

فتوى شرعية لصالح الأقباط

محكمة الدقهلية س٥ص١٧٦م٤٦٨

صورة أمر شريف أحضره جماعة النصارى الشاكين بالمنصورة باللغة التركية وهم يذكرون انهم يسددون للادارة مال الميرى ومال الجزية ويشتكون من الأشياء التي سترد بعد ذلك .

م ٤٦٩ صور الفتوى التي بأيديهم في خصوص ذلك

ماذا يقول السادة العلماء رضى الله تعالى عنهم في طايفة من النصارى ساكنين بمدينة المنصورة بأملاكهم عن أبائهم وأجدادهم، وبجوارهم زاوية بابها للشارع المسلوك وأصلها كانت

---

٩٣ : يوانس [١٤٧٨ / ١٤٨٣م.]

آلته البخارية على سفينة صغيرة في وادى فولدا في كاسل، لكن قام عليه بعض الأوباش وكسروا له السفينة في وادى الوزير.
* فيها عزل علي باشا بعد أن حكم مصر سنة وحدة وتولى بعده حسين باشا كتخدا.
* فيها كان على القاهرة قاسم إيواظ بك بصفة شيخ بلد.

* ١ توت ١٤٢٤= ١٠ سبتمبر ١٧٠٧= السبت ١٢ جماد الثاني سنة ١١١٩.

* فيها اجتهد الوالي في منع العسكر مما كانوا يفعلونه فضجوا من ذلك وقاموا عليه قومه واحدة وحاصروه بالقلعة ونهبت البلد وأغلقت الحوانيت والخانات.
* ١ يناير ١٧٠٨= ٢٤ كيهك ١٤٢٤= الأحد ٧ شوال ١١١٩.
* فيها أمر الوالي بتحرير عيار الذهب على ٢٣ قيراط وأن يضربوا الزلاطة التي يقال لها الاخشه بدار الضرب، فامتنع المصريون ووافقوا على تصحيح عليار الذهب فقط.

* فيها كان طرد الروسيين من بولونيا بمعرفة كارلوس الثاني عشر.
* فيها اجتمع أهل الوجاقات الستة واتفقوا على إبطال المظالم المتجددة بمصر وضواحيها، وأن المحتسب لابد وأن ينظر في الأمور ويحرر الموازين، وأن لا يؤخذ شيء على ما يدخل مصر من البلاد باسم الأكل، وأن لايباع رطل اللبن بازيد من ١٧ نصفا فضة.

* ١ توت ١٤٢٥= ٩

ملكا لذمي، وفي كل قليل يتعرض لهم جماعة بالأذية والاضرار ويعينون عليهم معينا من الديوان بالتساويف الباطلة، ويتعللون عليهم بأنهم يعلون بنايهم (بنائهم) على المسلمين. انما يقصدون بذلك ظلمهم وغرامهم بغير وجه شرعي. فهل والحالة هذه يجوز للجماعة المذكورين أذية طايفة النصارى المذكورين بالتساويف الباطلة عليهم والتعللات الواهنة. ويحرم عليهم ذلك لكون الذميين المذكورين (معصومون) خصوصا وقد أوصى عليهم سيد الأنام ومصباح الظلام لقوله عليه الصلاة والسلام من آذى ذمياً أو انتقص ماله كنت حجيجه يوم القيامة. وان استحلوا ظلمهم بذلك هل يكفرون بذلك زوجاتهم بذلك. وهل يثاب ولي الأمر نصره الله تعالى على الإخذ(..) وعلى منع كل من يتعرض بظلامة أو غرامة أو غير ذلك أفيدوا الجواب؟

(الرد)

مادة ٤٧٠

لاتجوز للجماعة المذكورين أذية طايفة النصارى المذكورين بالتساويف الباطلة عليهم والتعللات الواهية ويحرم عليهم ذلك ويثاب ولي الأمر على منع من يتعرض لهم بغير وجه شرعي والله تعالى أعلم.

كتبه عبد المنعم البشبيشي الحنفي

مادة ٤٧١

يحرم على من سوف يعتدى على جماعة النصارى أوسعى في أذيتهم أوظلمهم أو تغريمهم

سـبتمبر ١٧٠٨= الأحد ٢٣ جماد الثاني سنة ١١٢٠.

* ١ يناير سنة ١١٠٩= ٢٥ كيهك سنة ١٤٢٥= الثلاث ١٩ شوال ١١٢٠.

* فيها كان انتصار بطرس الاكبر على كارلوس الثاني في بلتوفا وهروبه الى تركيا.

* في ١٣ يناير أعظم درجة للبرودة في باريس بلغت ٢٣ درجة مينية تحت الصفر،

* فيها كان اختراع الصيني في بلاد الساكس

* فيها كان إنشاء رصد خانة بولونيا.

* فيها عزل حسين باشا، بعد أن حكم مصر سنتين، وتولى ابراهيم باشا القبودان.

* ١ تـوت ١٤٢٦= ٩ سبتمبر ١٧٠٩= الاثنين ٤ رجب ١١٢١.

* ١ ينـاير ١٧١٠= ٢٥ كـيهك ١٤٢٦= الأربع ٢٩ شوال سنة ١١٢١.

* فيها كان إنشاء رصد خانة برلين.

* فيها تولى مصر خليل باشا، بعد عزل ابراهيم باشا القبودان، الذى لم يحكم إلا سنة واحدة فى مدتها قامت العسكر قومة شديدة وحاصروا الوالى وانقطع المرور من طريق الحجر وعرب اليسار والرميلة والصليبة والدروب الوصلة الى القلعة، واستمرت هذه الحادثة سبعين يوما خرب بسببها الدرب الأحمر وتمن قيصون وسوق السلاح والداودية والصليبة والسيوفية، وامتد ذلك الى مصر العتيقة وخط السيدة زينب رضي الله عنها.

- -

شيئا لقول الصادق المصدوق عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام من أذى ذميا أو أنقص ماله كنت حجيجه يوم القيامة الى غير ذلك مماروى فى هذا المعنى. وللنصارى المذكورين التصرف فى بنايتهم وان عرف من تسبب فى غرمهم كان لهم عليه الرجوع بجميع ماغرموه عليه لتسببه فى ذلك، وبيان من له ولاية الأمر فى ذلك على كف القهر عن الرعية وكل راع مسئول عن رعيته. والله الموفق وكتب أفقر العباد الى عفو الجواد محمد بن قمر الباب الأزهرى المالكي عفى ربه عنه.

مادة٤٧٢

نعم لايجوز للجماعة المذكورين أذية طايفة النصارى المذكورين ولا اضرارهم ولاظلمهم ولا التسبب فى تغريمهم بالتساويف الباطلة عليهم ولا التعلل عليهم بالأوهام الباطلة الواهنة، بل يحرم على الجماعة المذكورين ذلك، ويلزمهم التعذير الشديد اللايق بحالهم الزاجر لهم ولأمثالهم عن قبيح أفعالهم بما يراه الحاكم باجتهاده من حبس او ضرب أو نفى أو غير ذلك باجتهاد الحاكم. بل كل من استحل ظلمهم كفر وخرج عن الإسلام وجرت عليه أحكام المرتدين لأنهم (معصومون) فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يظلمهم لأمر سيد المرسلين محمد صلى الله وعليه وسلم بالوصية بهم فى أحاديث كثيرة. ويثاب ولى الأمر نصره الله تعالى على الأخذ بيدهم وعلى منع كل من يتعرض لهم بظلم أو غرم وغير ذلك والله أعلم.

كتبه محمد المرحومي الشافعي

* ١ توت سنة ١٤٢٧= ٩ سبتمبر ١٧٠= الثلاث ١٥ رجب سنة ١١٢٢.

* ١ ينـايـر ١٧١١= ٢٥ كيهك ١٤٢٧= الخميس ١١ ذو القعدة ١١٢٢.

* فيها تتابعت الفتن وكثرت بمصر، وعزل خليل باشا، واليها وتولى مكانه ولى باشا.

* فيهـا كـان إنشاء جـامع الخلوتي الكائن بقنطرة أق سنقر.

* ١ تـــوت ١٤٢٨= ١٠ سبتمبر ١٧١١= الخميس ٢٧ رجب سنة ١١٢٣.

* فيهـا انتصـر العثمـانيـون وتغلبـوا على بطرس الاكبـر عند نهر البروت.

* ١ ينـايـر ١٧١٢= ٢٤ كيهك ١٤٢٨= الجمعة ٢٢ ذو القعدة سنة ١١٢٣.

* ١ تـــوت ١٤٢٩= ٩ سبتمبر ١٧١٢= الجمعة ٧ شعبان سنة ١١٢٤.

* ١ يناير سنة ١٧١٣= ٢٥ كيهك ١٤٢٩= الأحد ٣ ذو الحجة سنة ١١٢٤.

* فيها كانت واقعة القاسمية وسبب تحزب الباشا لهم واخذوه في عمل الحيلة على قتل غيطاس بك (فتنة افرنج احمد)

* فيهـا كـان انتهاء حروب الوراثة الاسبانيولية بمصالحة اوترخت.

* ١ تـــوت ١٤٣٠= ٩ سبتمبر ١٧١٣= السبت ١٨ شعبان سنة ١١٢٥.

مادة ٤٧٣- الحمد لله

لايجوز للجماعة المذكورين أذية طايفة النصارى المذكورين بالتساويف الباطلة عليهم ويحرم عليهم ذلك لكون الذمين المذكورين (معصومون) ولايجوز لأحد أذيتهم بغير وجه شرعي والله أعلم.

كتبه حمدان المقدسي الحنبلي

صورة بيورلدى شريف بسبب رفع بنيان النصارى واليهود ومنعهم من علو البنيان المشرف على أمة محمد(أى منعهم من تعلية منازلهم عن منازل المسلمين) الى حكام وقضاة ولايات القليوبية والشرقية والمنصورة والغربية والمنوفية ودمياط والبحيرة والجيزة.

في ١٠م ١٠٨٢هـ

ملحق رقم (١)

الأوامر الصادرة من أمير اللواء السلطاني الى ناحية ملوى بالمنيا بفرض بعض القيود على الأقباط (١٣٦٥للشهداء/١٦٤٩م) «لما كان تاريخ يوم الثلاثاء ٢١ طوبة ١٣٦٥ للشهداء حضر الى ناحية ميلوى (ملوى) حضرة مولانا أمر (أمير) اللواء الشريف السلطاني الأمر على سبيل أمر اللواء وأخذ العبيد والجوارى(جوارى الأقباط) ونادى منادى أن لايركبوا النصارة

٩٣ : يوانس [١٤٧٨ / ١٤٨٣م.]

* فيها كان إنشاء رصد خانة التروف.
* ١ ينـــاير ١٧١٤ = ٢٥ كيــهك ١٤٣٠ = الاثنين ١٤ ذو الحج سنة ١١٢٥.
* فيها كان استيلاء الروسين على فـينلاندة، وأخـذتهـا من الاسويجيين.
* فيها حصل بمصر حادث (افرنج احمد).
* فيها كانت محاربات بين العثمانين والفينسيين.
* فيها كانت وفاة لويز الرابع عشر، وسلطنة لويز الخامس عشر.
* فيها افتتحت العثمانيون بلاد الموره.

* ١ تـــــوت ١٤٣١ = ٩ سبتمبر ١٧١٤ = لأحد ٢٩ شعبان سنة ١١٢٦.
* فيها استولت النمساويون على جزيرة سارديبا (صقلية):
* ١ ينـــاير ١٧١٥ = ٢٥ كيــهك ١٤٣١ = الثلاث ٢٥ ذوالحجة سنة ١١٢٦.
* فيـهـا اختـرع جـراهام البندول المتعادل.
* فيها عزل ولى باشا، بعد أن حكم مصر اربع سنين، وتولى عليها مكانه عابدين باشا.
* فيهـا رصد لوفيل ميل الكسوفية وقال إنه ٢٣ درجة و٢٨ دقيقة و٢٤ ثانية.
* ١ تـــــوت ١٤٣٢ = ١٠ سبتمبر ١٧١٥ = الثلاث ١١ رمضان سنة ١١٢٧.
* ١ ينــايىر ١٧١٦ = ٢٤ كيهك ١٤٣٢ = الأربع ٦ محرم سنة ١١٢٨.
* فيها أعظم درجة للبرودة

(النصارى) خيول ليلبسوا شدود زرق، وطول الشد عشرة أذرع من غير زيادة ، والله تعالى يحسن العاقبة والحمد لله وحده».

بطريركية، ٥٠ مقدسة ورقة ١٣٤ب

ملحق رقم (٢)

الأوامر الصادرة من المحتسب بفرض بعض القيود على الأقباط واليهود والمسلمين

«نادى (المحتسب) ان النصارة (النصارى) ما يدخلوا الحمام (الا) كل واحد بجلجل في رقبته واليهود بجلجين، وبعد قليل نادى النصارى واليهود يصبغوا عمايمهم (عمائمهم). وبعد قليل نادى المسلمين أن لا أحد يمشي حافى ولايدخلوا حمام الا بقباب، وكلمن (كل من) سمع الاذان ولايدخل يصلى يظربه (يضربه) ويجرسه. ونادى إن لاأحد من النسوان (النساء) يركب ببرقع وان نسوان النصارة ما يلبسوا ثياب بيض ولابفت بيض ولا أحزمة بيض ولا لباسات بيض الاكل شئ ان لبسوه يكون اسود، وهذا ما حصل، ونسأل من صاحب كنوز الرحمة أن يصلح أحواله شعبه،فان جميع هذه من كترة (كثيرة) خطايانا وقلت (قلة) المحبة وكتر الحسد والسلام.

١٣٩٤ للشهداء /٧٧، ١٦٧٨م

المتحف القبطى، ٩٤ مقدسة الورقة الثانية

٩٣: يوانس [١٤٧٨ / ١٤٨٣م].

فى باريس بلغت ١٨,٧ تحت الصفر.

* فيها كان إنشاء جامع يوسف عزبان الكائن بدرب البرابرة بالموسكى.

* فيها حاصرت العثمانيون جزيرة كورفو.

* ١ توت ١٤٣٣= ٩ سبتمبر ١٧١٦= الأربع ٢٢ رمضان سنة ١١٢٨.

* فيها ضربت سكة باسلانبول سميت طغرالى وزنجيرلى الطون كانت أعلى من البندقي وزنا وعيار المائة فيها المائة درهم وعشرة دراهم، فيكون وزن الواحدة درهما وقيراطا وحبتين وأربعين جزءا من مائة من الحبة، وهى المسماة بالآستانة باسم فندقى وفى مصر باسم فندقلى.

*١ يناير ١٧١٧= ٢٥ كيهك ١٤٣٣= الجمعة ١٧ محرم سنة ١١٢٩.

* فيها كانت ولادة السلطان مصطفى خان الثالث ابن السلطان أحمد الثالث.

* فيها عزل عابدين باشا بعد أن حكم مصر سنتين وتولى بعدها على باشا الازميرلى.

* فيها اتحدث فرانسا وانجلتراه والهولانده واستوريا ضد اسبانيا لمقاومة مقاصدها من الاستيلاء على فرانسا وبعض إيطاليا.

* ١ توت ١٤٣٤= ٩ سبتمبر ١٧١٧= الخميس ٢ شوال سنة ١١٢٩.

* فيها كانت موقعة بلغراد.

ملحق رقم (٢)

مشاكل تجاور المساجد والكنائس

حجة الكشف على المساجد والكنائس

الكائنين بقصر الجمعة وبحارة شنودة بمصر القديمة

بعد الاذن الكريم العالى من حضرة سيدنا ومولانا شيخ مشايخ الاسلام ملك العلماء الاعلام قاضي النقض والابرام محرر القضايا والاحكام مرجع عامة الفضلا الفخام مؤسس قواعد الشرع على أتم نظام رحمة الله الشاملة للخاص والعام ومؤيد شريعة سيد الأنام عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام الناظر فى الاحكام الشرعية والأمور الدينية بمدينة مصر المحمية دامت له الرتب العلية بخدمة سيدنا محمد خير البرية. آمين بنظر القضية بطرة المرفوعه لديه من قبل الشيخ شمس الدين محمد الشعرانى مضمونها ان بمصر القديمة بحارةالنصارى المعروفة بقصر الجمع كنايس مجاورة لمساجد وان النظار على الكنايس اخربوا المساجد وأخذوا غالب طوبهم وأحجارهم عمروا بها كنايسهم والمسئول من الصدقات العلية أمركم الشريف لنايبكم بمصر القديمة بان يكشف على ذلك ويكتب بذلك حجة ويعرضها على حضرتكم لترتبوا على كل أمر مقتضاه ولكم الدعا. فبرز أمره الشريف لنظر القصة المذكورة بالكشف، امتثل ذلك مولانا الحاكم المشار اليه أعلاه الى قصر الجمعة المذكورة وكشفوا جميعا على

[يوانس البطرك الرابع والتسعون]

[١٤٨٤/١٥٢٤م]

يوانس البطرك أبن المصرى(*) وهو الرابع والتسعون من العدد هذا الاب قدم بطركاً فى السابع عشر من امشير سنة الف ومابة تسعة وتسعون وتنيح فى الحادى عشر من امشير سنة الف ومائتين واربعين[١٥٢٤م] ومدة اقامته على الكرسى اربعين سنة واحدى عشر شهر وستة

(*) هو من بلدة صدفا بمديرية أسيوط.
تم اختياره فى وقت الملك الأشرف قايتباى واستمر حتى ما بعد الاحتلال العثمانى بمصر.
وفى عهده كان آخر أيام سلطنة بلاد النوبة.

الكنايس المذكورين أعلاه فوجدوا مسجدا بين كنيستين احداهما تعرف بكنيسة بربارة متعلقة بالنصارى والثانية تعرف بكنيسة (اليهود) ووجدوا حائط الكنيستين المذكورتين شاهقتا فى العلو على حائط المسجد المذكور، وجعلوا حايط كنيسة النصارى من المسجد المذكور وهو خر اب مستهدم بينهما وكشفوا أيضا على كنيسة تعرف بالمعلقة فوجدوا بجوارها مسجدا خراب مستهدما موضوع به بعض طوب وأتربة والكنيسة المذكورة عامرة متقنة البنا بجواره وكشف على كنيسة تعرف بأبو سرجة فوجدوا بجوارها مسجدا يعرف بوقف المرحوم ابراهيم النعمانى وعلوه آيل الى السقوط من الداخل وحائط الكنيسة شاهق عليه، وكشف على كنيسة تعرف بالسيدة فوجدوا بالقرب منها مسجدا (وأتربة)لم يظهر الآن منه غير معالم المحراب والمنار. ثم كشف أيضا على حارة شنودة فوجدوا بها كنيستين احداهما تعرف بمقريوس والثانية تعرف بالقلاية لم يوجد بجوارها مسجد ووجدوا أبواب الكنايس المذكرورين جميعهم مغلقين، فعند ذلك أمر مولانا الحاكم المشار إليه أعلاه بتسمير الكنايس المذكورين جميعهم. فسمروا جميعا بأمر منه. هذا ما تحرر من الكشف المذكور أعلاه وكتب ذلك ضبطا لما هو الواقع ليعرض على من له ولاية الأمر فى ذلك وغيره ليرتب على كل أمر مقتضاه تحريرا فى تاريخه.

مصر القديمة س١٠١ص ص ٧٠م ١٨٩

٢٦ذى القعدة ١٠٥٧هـ ـ ١٦٤٧/١٢/٢م

وعشرين يوم وفى مدة هذا الاب كان فتوح مصر بيد السلطان سليم سلالة آل عثمان وذلك من السلطان الغورى آخر ملوك الجراكسة وهو الذى اعمر الغورية والجامع المعروف به.

* سقوط السلطان الغورى تحت سنابك الخيل فى موقعة مرج دابق يوم الاحد ٢٤ أغسطس ١٥١٦م=٢٥ رجب ٩٢٢هـ = ١٢٣٣ق.

[غبريال البطرك الخامس والتسعون]

[١٥٢٥/ ١٥٦٨م]

غبريال البطرك وهو الخامس والتسعون من العدد هذا الاب من منشاه المحرق قدم فى سنة الف

مصر من سلطة

على بك الكبير حتى الحملة الفرنسية

عرفت هيئة أمراء المماليك التى أشركت فى حكم مصر العثمانية وإدارتها بهيئة «صناجق مصر» أو «بجماعة أمراء محافظين مصر المحروسة».

والصناجق (جمع صنجق) هم حكام الصنجقيات وهى المديريات المهمة أوالكبيرة، مثل الشرقية والغربية والمنوفية والبحيرة وجرجا. وكانت الصنجقية الأخيرة أرفع الصنجقيات شأنا، لأنها كانت تضم المنطقة الجنوبية من الصعيد كله، أوما عرف «بالصعيد الجوانى». ولذا تمتع باستقلال داخلى معتمداً على تأيد العصبيات المحلية فى صنجقيته.

وجدير بالذكر أن الصناجق لم يكونوا جميعاً حكاما لصنجقيات، فقد كانت الصنجقية رتبة أو لقباً يترتب عليه امتيازات معينة أكثر منها منصبا إداريا. ومن هنا نسمع فى العهد العثمانى المملوكى عن وجود وظيفة «صنجق الجزية»، وكانت مهمته ارسال الجزية السنوية إلى الاستانه.

ولم يكن عدد الصناجق ثابتاً على الدوام، ولكن بصفة عامة كانوا يبلغون أربعة وعشرين «صنجقا طبلخانة»[١]، مهمتهم الإشراف على الزراعة والرى وإقامة الجسور وتوطيد الأمن

(١) أى ما يحق أن تدق لهم الطبول لرفعة مقامهم عند ظهورهم فى الاحتفالات العامة أو عند وصولهم إلى قصورهم .وكان السلطان العثمانى يعين أربعة من الصناجق العثمانيين للاشتراك فى الحكم والإدارة مع =

ومأتين واحد واربعين واقام بطركاً اربعة واربعين سنة وتنيح فى سنة الف ومأتين خمسة وثمانين [٦٨/ ١٥٦٩م].

[يوحنا البطرك السادس والتسعين]

[١٥٧١/١٥٨٦م]

يوحنا البطرك المنفلوطي وهو السادس والتسعين من العدد هذا الاب كرز بطريركاً ليلة الأحد الجديد في الخمسين، سنة ألف ومأتين ستة وثمانين.

* كان أحد إنجازات عصر النهضة الأوربية إقامه هذه المسلة أمام كنيسة القديس بطرس في روما عام ١٥٨٦. احضرت هذه المسلة من مصر في عهد كاليجولا (٣٧ ـ ٤١م.)

والضرب على أيدى العربان ومنعهم من العبث بالمحاصيل والقوافل. وفضلا عن ذلك، فقد كان الصناجق يشرفون على أعمال أتباعهم الكشاف، الذين ينوبون عنهم فى حكم المديريات إذا ما آثروا البقاء فى القاهرة على الذهاب إلى مقر مديرياتهم، أو يحكمون بعض الأقاليم التى لم تبلغ مرتبة الصنجقية وتسمى كشوفيات(١)، كما أن الكشوفيات لم تكن متساوية من ناحية المساحة.

وإلى جانب الصنجقية والكشوفية، تولى بكوت المماليك عدة وظائف أخرى، منها إمارة الحج. وكان أمير الحج يتولى حماية قوافل الحجاج أثناء تأديتهم فريضة الحج. وكان أمير الحج المصرى آنذاك بحاجة إلى حماية عسكرية من القبائل العربية المنتشرة على طول الطريق من القاهرة إلى السويس من ناحية، ومن القبائل المعادية الضاربة فى إقليم الحجاز من ناحية ثانية. وكان من الوظائف التى تولاها المماليك أيضا وظيفة الوالى. والوالى فى هذا العصر غير الباشا. فقد كان الوالى يتولى ضبط الأمن وحماية المدن من اعتداء العربان.

على أن أهم وظيفة تولاها بكوات المماليك فى العصر العثمانى، كانت وظيفة «شيخ البلد»

= الصناجق من أمراء المماليك.وهؤلاء الأربعة كانوا صناجق الإسكندرية ودمياط والسويس وكتخدا الباشا. أما العشرون الآخرون فكانوا من أمراء المماليك، وكانوا يصلون إلى رتبة الصنجقية تبعاً لقوتهم وعصبيتهم.

(١) كانت أهم الكشوفيات: دمنهور والغلة والمنصورة ومنوف والجيزة والفيوم والبهنسا والأشمونين ومنفلوط وطما وطهطا وسوهاج وفرشوط والأقصر.

اقام على الكرسي خمسة عشر سنة وهذا الاب حضر له رسالة من بابا روميه ورد له جوابها وتنيح في ثالث النسيم سنة الف وثلثماية وواحد للشهدا.

[غبريال البطرك السابع والتسعون]

[١٥٨٧/ ١٦٠٣م]

غبريال البطرك وهو السابع والتسعون من العدد هذا الاب كان قبل قسمته يسما شنوده من

ويمثل حاكم القاهرة. وكانت «مشيخة البلد» من أرفع المناصب المملوكية، ولذلك كانت موضع تنافس شديد بين المماليك بعضهم بعضا. والواقع أن شيخ البلد كان يعتبر ثاني شخصية في مصر بعد الباشا، وفي بعض الأحيان كان يحل محل الباشا المخلوع حتى يأتي الباشا الجديد.

مدى تأثر مصر بالحكم العثماني:

ولاحاجة بنا إلى القول بأن النظام الذى وضعه العثمانيون لحكم مصر كانت الغاية منه استغلال البلاد لمصلحتهم قبل كل شئ وعدم ترك السلطة في أيدى حاكم بعيد عن مقر السلطنة، حتى لايجد الفرصة للاستقلال والانفصال بمصر عن جثمان الدولة. ولذلك لم تفد مصر شيئا من انتقال السيادة إلى العثمانيين بعد زوال حكم المماليك الشراكسة. وفي الحقيقة كانت مصر طوال العصر العثماني المملوكي، وهو عصر امتد حوالى ثلاثة قرون، فى حالة ركود تام. فلم يحدث فى تاريخها حتى مجئ الحملة الفرنسية أواخر القرن الثامن عشرما يسترعى النظر باستثناء حركة على بك الكبير.

ويرجع سبب ذلك إلى أن الدولة العثمانية بسبب خوفها من خطر الاستعمار الغربى الرابض على حدود الشرق الأدنى منذ بداية القرن السادس عشر، وقفت حاجزا أو حائلا بين العالم الأوروبى من جهة والمجتمع المصرى من جهة أخرى. وترتب على ذلك أن انعزلت مصر فى

(*) المنير: مركز بلبيس.

المنيـــر(*) وكان راهباً مجاهداً ببرية شيهات قدم بطريركاً فى سنة الف وثلثماية واثنين واقام بطركاً خمسة عشر سنة وتنيح ببرية شيهات ودفن بها.

[مرقس البطرك الثامن والتسعون]

[١٦٠٣/ ١٦١٩م]

(*) البياضية هناك اربع قرى بهذا الاسم في الصعيد.

مرقس البطرك وهو الثامن والتسعون من العدد هذا الاب كان من البياضية(*) وقدم بطركاً سنة

- -

حياتها السياسية والاقتصادية و الثقافية انعزالا يكاد يكون تاما عن التيارات السياسية والأقتصادية والثقافية[١] العالمية، فأصحبت حياتها تسير وفق أحداث محلية خاصة لا تتأثر بما يحدث فى العالم الخارجى.

ومن المؤكد أن العزلة التى فرضت على مصر العثمانية المملوكية ترجع كذلك إلى نتائج الانقلاب التجارى الذى حدث أواخر القرن الخامس عشر على أيدى البرتغال، والذى انتهى بتحول التجارة العالمية بين الشرق والغرب عن البحرين الأحمر والمتوسط إلى الطريق حول إفريقية، وهو الطريق الذى أصبح منذئذ يشكل المجرى الرئيسى للتجارة العالمية.وقد نجم عن هذا التحول، ليس فقط عزلة مصر تجاريا وحضاريا عن العالم الخارجى، بل كذلك نضوب منابع الثروة فى مصر على أواخر عهد الدولة المملوكية، وهى الدولة التى استطاعت أن تجنى فى أوائل عهدها أرباحا طائلة تمثلت فى الضرائب التى كانت تفرض على تجارة البحر الأحمر المارة بالأراضى المصرية فى طريقها إلى البحر المتوسط، فأوروبا.

ومع أن الدولة العثمانية لم تكن ـ كما زعم بعض المؤرخين الأوروبيين ـ بدخولها عسكرياً فى حوض البحر المتوسط مسئولة فى قليل أو كثير عن تحول النقل التجارى بين الشرق

(١) كانت العزلة الثقافية أبعد أثراً فى حياة المجتمع المصرى، لأن مصر رغم عزلتها السياسية والاقتصاية شاهدت نوعاً من النشاط الأوروبى فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر.

الف وثلثماية وثمانية عشر [١٦٠١ / ١٦٠٢م.]
اقام بطركاً ستة عشر سنة وتنيح بسلام.

[يوأنس البطرك التاسع والتسعون]

[١٦١٩/١٦٢٩م]

يوانس البطرك وهو من العدد التاسع والتسعون هذا الاب كان من ناحية ميلوى [ملوى] قدم بطركاً سنة الف وثلثماية وخمسين سنة.

والغرب عن طرقة القديمة إلى طريق رأى الرجاء الصالح، إلا إنها لم تسع بدورها إلى فتح هذه الطرق القديمة للنقل الأوروبى التجارى حين بسطت نفوذها على البحار، بل عمدت إلى تحريم الملاحة فى مياه البحر الأحمر الشمالية(ما بين جدة والسويس) على السفن التجارية الأوروبية، بدعوى أن هذه المنطقة تطل على الأراضى المقدسة الإسلامية، مما أسفر عن اختفاء حركة النشاط التجارى ا لعالمى من مصر اختفاء تاما، وعن عزلتها اقتصاديا وحضاريا. إذ كان هؤلاء العثمانيون يفهمون مسئوليات الدولية على أنها لاتتعدى حدوداً معينة، وهو نهب البلاد عن طريق الجبايات وصد القوى التى قد تسعى إلى فصلها عنها وضرب أى تمردات أو محاولات للفكاك من الأسر العثمانى. وهى مسؤليات تتطلب إنشاء حاميات للدفاع عن الولايات، كما تتطلب نظاما قضائيا وإدارة مالية. وكانت هذه فى مجموعها تمثل كل أجهزة الدولة. أما جوانب الحياة الأخرى فى المجتمع من ثقافية وصحية واقتصادية، فلم تكن تدخل فى اختصاصات الدولة. ولقد ترتب على فهم العثمانين لمسئوليات الحكومة (أو الدولة) على هذا النحو ثلاث نتائج:

أولا: ظهور المحلية أى أن يقوم الأفراد فى قطاعات المجتمع المختلفة بتنظيم حياتهم بعيداً عن تدخل الدولة وإ شرافها. ففى المدن كان الناس يقسمون إلى طوائف حسب مهنهم ووظيفتهم الاجتماعية. فالطائفة كانت تضم أصحاب المهنة الواحدة. ولها رئيس يسمى شيخ الطائفة ،

[متاوس البطرك المايه]

[١٦٣١/١٦٤٦م]

متاوس(*) البطرك الطوخى وهو الماية من العدد هذا الاب متاوس كان راهباً ناسكاً بدير السيده بالبرموس [بالمنصوره] ولما اختير للبطركية قدم فى سنة الف وثلثماية وواحد وخمسين واقام بطركاً خمسة عشر سنة وتنيح.

(*) كان والى مصر فى وقته خليل باشا. وفى عام ١٣٤٨ق.= ١٦٣١م. =١٠٤١هـ وهو عام تولى البطرك أرسل إليه خليل باشا يطالبه بأربعة آلاف قرش نظير توليه البطركية.

وهو يتولى تنظيم شئونها والفصل فى الخصومات بين أفرادها وتنظيم العلاقة بينها وبين الحكومة. وفى الريف كذلك كل قرية تمثل مجتمعاً قائما بذاته يكاد يكون معزولا عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية للقرى الأخرى.

ثانياً: أدت المحلية إلى إنعدام وجود المواطن والمواطنة أى ولاء الفرد للدولة. فولاء الفرد ينصب كلية فى المجتمع الصغير الذى يعيش فيه وينتمى إيه، وهو الطائفة فى المدينة والقرية فى الريف.

ثالثاً: انتهى الحكم العثمانى غير المباشر إلى أنعزال الطبقة الحاكمة التركية عن جماهير المصريين، الأمر الذى يفسر ضآلة تأثير الحكم العثمانى فى المجتمع المصرى بالايجاب، فتأثر العثمانيين فى مصر لايتناسب مطلقاً مع الفترة الطويلة التى قضوها فى حكم مصر.

الفوضى المملوكية:

ولقد سبق القول أن السلطة فى مصر إبان العهد العثمانى المملوكى كانت موزعة بين الباشا العثمانى من جهة وبين رجال الحامية أو رؤساء الجند الذين تركوا فى البلاد بعد غزوها من جهة أخرى. وعلاوة على ذلك. فقد أبقى العثمانيون المماليك كسلطة ثالثة للموازنة بين السلطتين السابقتين: سلطة الباشا وسلطة روساء الجند.

وفى القرن السادس عشر كان التفوق للباشا العثمانى، ثم حدث بسبب إكثار السلاطين من

[مرقس البهجورى البطرك مايه وواحد]

[١٦٤٦/١٦٥٦م]

* ضابط انكشارى ومساعداه

مرقس البطرك البهجورى وهو مائة وواحد من العدد هذا الاب من أهالى ناحية بهجورة [نجع حمادى] وكان عابداً ناسكاً بدير القديس العظيم انطونيوس فلما اختير للبطركيه قدموه فى سنة الف وثلثماية سبعة وستين [٥٠ / ١٦٥١م.] سنة واقام بطركاً عشرة سنوات وتنيح.

عزل الباشوات وتعيين غيرهم. وعدم السماح باستقرار أحد منهم فى الحكم مدة طويلة، خوفا من طمعه في الانفراد بالسلطة في مصر، أن تمكن رؤسا الجند ابتداء من القرن السابع عشر السيطرة على الموقف وسلب الباشا كل سلطته، بحيث لم تعد له القدرة على تصريف أمور البلاد.

غير أن الصراع لم يلبث أن أشتد بين الأوجاقات [الفرق العسكرية] العثمانية بعضها بعضا وبالذات بين أوجاق الانكشارية[1] وأوجاق العزب (عزبان)[2] مما أدى إلى إضعافهما معا لصالح المماليك. ولم يكن هذا الصراع هو العامل الوحيد فى إضعاف الأوجاقات العثمانية، ذلك أن استيلاء قادة الجند على رواتب جنودهم أو تأخر صرف هذه الرواتب لأى سبب من الأسباب، أدى إلى أن التحق الكثيرمن الجند بأعمال الحرف الصناعية، وانصرفوا عن أعمال الجندية والتصقوا بالحياة المدنية، حتى أنهم سرعان ما أصبحوا على حد قول الرحالة الفرنسى فولنى[3]«خليطا من الصناع والمرتزقة الذين يرتضون حراسة أى باب لقاء أجر يتقاضونه»،

(١) عرف بأوجاق السلطان، وكان أقوى الأوجاقات وأكثرها عدداً.

(٢) كان لرجال هذا الوجاق عدة اختصاصات، فمنهم بحارة ترسانة الاسكندرية والسويس، وكان من رجاله أمين البحرين، كما كانت لهم اختصاصات بوليسية، فتألف منهم مراكز البوليس بالقاهرة.

(٣) كانت رحلة فولنى أكثر الرحلات فى مصر انتشاراً، ويمتاز كتابه من ناحية العرض بالتنظيم، ومن ناحية الموضوع بأنه أميل إلى الواقع؛ انظر

Volney, C. F.' Voyage en Syrie et en Egypte, paris 1787.

[متاوس البطرك مايه واثنين]

[١٦٦٠ / ١٦٧٥م]

* الباشا العثمانى حاكم مصر

متاوس الميرى البطرك وهو ماية واثنين من العدد هذا الاب كان راهباً متعبداً بدير السيدة بالبراموس فلما اختير للبطركيه كرز فى الثلاثون من هاتور سنة الف وثلثماية سبعة وسبعين وتنيح فى اثنى عشر مسرى سنة الف وثلثماية واحد وتسعين واقام بطركاً على الكرسى اربعة عشر سنة وشهوراً.

وهذا رغم بقاء أسمائهم مقيدة فى دفاتر الأوجاقات. وقد أسفر هذا الوضع بالطبع عن فقدانهم صفتهم العسكرية. كذلك مما ساعد على تدهور الأوجاقات العثمانية أن المناصب فيها كانت وراثية كما كانت تباع وتشترى.

ولكن هذا التدهور الذى أصاب الأوجاقات العثمانية لم يحدث لأوجاق المماليك. ففى الوقت الذى فقد فيه الجند العثمانيون صفاتهم الحربية وألفوا الدعة والراحة ودبت بينهم الاختلافات، كان المماليك ـ بحكم تكوينهم وتربيتهم ـ يحتفظون بصفتهم العسكرية. وقد انتهى هذا الموقف فى القرن الثامن عشر إلى أن أصبح المماليك القوة العسكرية الوحيدة فى مصر، مما أفضى إلى سيطرتهم على شئون الحكم.

على أن العهد الذى سيطر فيه المماليك على الحكم فى البلاد، كان فى الحقيقة عهد فوضى اضطرب. ولعل أهم ما يلاحظ فى هذا العهد الذى استمر طيلة القرن الثامن عشر، ذلك النضال المستمر بين البكوات أنفسهم وجماعاتهم فى سبيل التمتع بالحكم ،مع ما يجره هذا النضال من إغفال تام للباشا العثمانى،الذى كان يقابل عند تنصيبه وحضوره إلى مصر بكل حفاوة واحترام ظاهرين، حتى إذا استقر به المقام قليلا بدت له الحقيقة الواضحة، وهى أنه مسلوب السلطة والنفوذ الفعلى. وأن الأمر كله فى أيدى البكوات المماليك.

ومما يجب الالتفات إليه أنه رغما من سيطرتهم واستئثارهم بشئون البلاد وإبعادهم المصريين

[يوانس البطرك المايه وثلاثه]

[١٦٧٦/١٧١٨م]

يوانس البطرك الطوخى وهو الماية وثلاثه من العدد هذا الاب كان من ناحية اهالى طوخ النصارى [مركز تلا] وكان قبل بطركيته اسمه ابراهيم وهذا الاب فى حال شبوبيته كان صراف يتعاطا قبض المال ذكروا عنه انه لما كان صراف تأخر عليه جانب من المال وانه تدارك فى غلاق

عن مناصب الحكم، إلا أنهم لم يستطيعوا الانفراد بحكم مصر تماما. ويرجع السبب فى ذلك إلى انقسامهم إلى جماعات أو فرق مملوكية متنافرة يطلق عليها « البيوت المملوكية»، وهى تنسب عادة إلى مؤسسها. ففى القرن الثامن عشر نسمع عن «القاسمية» نسبة إلى قاسم بك «والفقارية» نسبة إلى «ذو الفقار بك» و« العلوية» نسبة على بك الكبير و« المحمدية» نسبة إلى محمد بك أبو الدهب و«المرادية» نسبة إلى مراد بك و« الابراهمية» نسبة إلى إبراهيم بك و«الاسماعيلية» نسبة إلى اسماعيل بك. وكلها فرق أو بيوت متنافرة متصادمة فيما بينها حول مناصب ا لصنجقيات وإمارة الحج، وخصوصا منصب شيخ البلد، رمز الزعامة والسلطة المطلقة، فكثرت بينها الحروب الأهلية والفتن الداخلية حتى أصبحت هذه الحروب والفتن السمة الرئيسية للحياة السياسية اليومية لمصر .

ولقد وصف الرحاله الأجانب الذين زاروا مصر خلال القرن الثامن عشر ما سببته هذه الحروب والفتن من فوضى عمت أرجاء البلاد بصفة عامة والقاهرة بصفة خاصة، وذكروا أن خلافات المماليك وحروبهم الداخلية المستمرة كانت السبيل الذى حفظ للسلطان العثمانى ظلا من السلطة والسيادة، إذ كان روساء البيوت المملوكية وزعمائهم يفضلون وجود الباشا العثمانى الضعيف فى القاهرة على مجئ آخر قد يكون له من القوة ما يكفى للقضاء على

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

المبلغ وقدم خيرة الله تعالى ومضى الى جبل القديس العظيم انطونيوس طالب خلاص نفسه وبالاكثر كارهاً لهذه الصنعة لما فيها من وجوه الحل والخراب لان صاحب هذه الصفة يظلم نفسه لغيره ويأخذ شئ ما هو له يحطه في شئ ما هو عليه وانه اقام مدة بالدير واستحق لبس الشكل الملايكى ولما رأوا الاباء الشيوخ القديسين الرهبان بالدير صلاحه اوسموه قساً ولم يزل بالدير على هذا النظام النفيس الى ان تنيح الاب البطريرك انبا

نفوذهم وسلطتهم، ومع ذلك، فكثيراً ما كان بكوات المماليك يقدمون على حبس الباشا العثمانى فى القلعة، ويطلبون من السلطان عزله، فيعزله ويولى مكانه آخر.

ويحق لنا أن نتساءل: ماذا كان موقف الدولة العثمانية من هذه الفوضى المملوكية ومن استئثار المماليك بشئون البلاد؟ الواقع أن الدولة العثمانية إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر قد انشغلت بحروبها ضد النمسا والروسيا، مما أنهك قواها وأعاقها عن الالتفات نحو مصر وغيرها من ولايات الدولة. وليس معنى هذا أن الدولة العثمانية رضيت بالأمر الواقع ورضخت لقوة شيخ البلد الذى طغى نفوذه على نفوذ الباشا فى القرن الثامن عشر خصوصاً،بل على العكس من ذلك، فإنه الدولة العثمانية فى الأوقات التى لاتكون فيها مشغولة بحروبها فى أوروبا، كانت تحاول استرجاع سيطرتها الضائعة فى مصر. وفى سبيل ذلك، كانت تلجأ إلى وسائل خاصة:

أولا: إغلاق أسواق الرقيق فى البلقان ومناطق سواحل البحر الأسود أمام البكوات المماليك؛ وكانت هذه الوسيلة تضايق البكوات كثيراً، لأنهم كانوا يجددون دماءهم باستمرار عن طريق شراء الرقيق الأبيض من هذه الأسواق، ثم يقومون بتربيتهم وتدريبهم على أعمال الفروسية والقتال.

ثانياً: إرسال حملات تأديبية لردع البكوات المماليك المتمردين على سلطان الدولة. وكان المماليك بدورهم يضطرون أمام هذه الحملات إلى الفرار إلى الصعيد حتى إذا اضطرت الدولة

---

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

متاوس الذى كان قبله فطلعوا جماعة اراخنة من مصر الى الدير يطلبوا من يختاره الله يقدموه عليهم بطركاً فوقع اختيار الجميع على هذا الاب بارادة الله ومعرفة الشيوخ الرهبان فاخذوه من الدير وحضروا لمصر وأوسموه بطركاً فى سنة الف وثلثماية اثنين وتسعين للشهدا [١٦٧٦م] ولما استمر فى البطركية وقدس فى كنايس مصر على جارى العادة قدم خيرة الله تعالى وتوجه الى الصعيد بقصد زيارات المحلات المقدسة ولما حضر

إلى استدعاء حملاتها من مصر بسبب حاجتها إليها فى ميادين القتال الأوروبية، رجع المماليك بدورهم إلى القاهرة واستعادوا نفوذهم وسلطانهم.

وغنى عن البيان أن بكوات المماليك ما كانت تعنيهم شئون مصر إلا بقدر ما يبتزونه من أموال أهلها بشتى الأساليب والطرق، ولم يهتموا إلا ببناء قصورهم وشراء مماليكهم، فاختلت الأمور، وارتبك اقتصاد البلاد، وانتشرت بها المجاعات والأوبئة والأمراض. ومن ثم، فإن السؤال الذى يطرح نفسه: ماذا كان موقف الشعب المصرى من الحكم العثمانى المملوكى بصفة عامة ومن جور المماليك وظلمهم بصفة خاصة؟

والحقيقة أن الفكرة السائدة التى كانت تسيطر على جماهير المصريين إبان العهد العثمانى المملوكى، هى الفكرة الدينية. إذ كان المجتمع المصرى فى هذا العهد لايزال من مجتمعات العصور الوسطى التى يستحوذ الدين فيها على مكانة قوية، بل كان بمثابة المركز الذى تدور عليه حياة تلك المجتماعات. ولذا كان المصريون ينظرون إلى السلطان العثمانى على أنه «خليفة المسلمين وحامى حمى الإسلام »،كما كانوا ينظرون إلى الدولة العثمانية ذاتها على أنها حامية الإسلام من الفرنج (الكفرة) فى الغرب ومن الفرس (الشيعة) فى الشرق.

وفى جملة واحدة، لم يكن هناك تذمر من التبعية للخلافة العثمانية المسلمة، إلا بقدر ما تسئ هذه الخلافة تدبير أمور حياة الناس، كالعدل والاعتدال فى جمع الضرائب واقرار الأمن

من الصعيد طاف ايضاً الاقاليم البحرية ورجع لمصر بالسلامة وكان فى أيامه معلمين أراخنة مسيحيين كاملين فى فعل الخير والمعروف. وكان قبل بطركيته هذا الاب كانوا نظار الكنايس بمصر اناس صنايعيه. ولما تولا هذا الاب الرئاسة انتقلت جميع نظارة الكنايس الى المعلمين الأراخنة وجددوا ما يحتاج إلى الترميم والعمارة فى جميع الكنايس وتغايروا جميعاً فى جميع الاعمال الصالحة ورحمة المساكين وكساوى الفقرا فى كل عيد. وكانت

وهكذا. وبعبارة أخرى، لم يكن هناك رفض مسبق للحكم الأجنبى. طالما أنه إسلامى،وطالما أنه يتبع القيم الإسلامية التى عرفها المجتمع المصرى آنذاك.

ومع ذلك،فقد كان عامة الشعب المصرى فى هذا العهد لايترددون فى القيام بالثورات وبذل أقصى ما يستطيعون بذله من ضروب المقاومة متى اشتدت عليهم قسوة معاملة السلطات الحاكمة فى ذلك الوقت. ومن ذلك مارواه الرحالة سو نينى[١] فى كتابة «رحلة فى مصر العليا والسلفى» عن ثلاث ثورات قابلته أثناء مروره فى الصعيد. وكانت احداهما فى طهطا والثانية فى منفلوط والثالثة فى أبى تيج. وفى كل من هذه الثورات اعتصم الفلاحون ورفضوا دفع الضرائب وقاوموا السلطات الحاكمة بالقوة.

حركة على بك الكبير:

وفى خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر، برزت على مسرح الأحداث فى مصر شخصية قوية من بكوات المماليك، هى شخصية على بك الكبير، الذى ستطاع أن يقيم حكومة قوية فى مصر خلا السنوات التى خلصت له فيها السلطة.

(١) من بحاث العلوم الطبيعية، ويمتاز كتابه بأنه شمل الدلتا والصعيه كما يمتاز بدراسة تفصيلية لنباتات وحيوانات مصر، انظر

Sonnini, C' Voyage dans la Haute et Basse de Egypte. Paris 1796 .

ايامهم معتدلة رخا وسخا وربح. وكان هذا الاب اعمر قلاية بطركية بحارة الروم واوقفها الى [كنيسة] القيامة المعظمة ولم يزالوا على [حالهم] إلى سنة الف وماية وستة الخراجية الموافقة الى سنة الف وأربعمائه وتسعة للشهدا [١٦٩٣م] شرقت بلاد مصر كامل قبلي وبحرى ولم يبلغ النيل سوى ستة عشر ذراع وكان متولى مصر يومئذ يسماعيل على باشا قايمقام وكان بمصر ايضاً يومئذ واحد يدعى اسمه كوجك محمد باس

نقود السلطان مصطفى ابن أحمد وعلى بيك الكبير. ضربت فى مصر عام ١١٨٣هـ. =١٧٦٩م. = ١٤٨٥ق

ولقد انقسمت اراء الكتاب والمؤرخين واختلفت فى تقدير آثار حكومة على بك الكبير على مصر وعلى أهلها بوجه عام. ويبدو أن السبب في ذلك أن مصر خرجت في عهده ولفترة قصيرة، من الدائرة الضيقة التى فرضتها المنازعات أو الفوضى الداخلية حولها، فتطلعت إلى ماوراء حدودها ومدت سلطانها إلى البلدان المجاورة، وكانت لها صلات سياسية مع إحدى الدول الكبيرة وقتئذ وهى روسيا القيصرية، الأمر الذى دعا جماعة من المؤرخين إلى تحديد غرض على بك من نضاله المستمر الطويل بالانفصال عن الدولة العثمانية والاستقلال بمصر، تحقيقاً لرغبة «وطنية» وارضاءاً «لشعور قومي».

---

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

(*) انظر الجبرتى: عجايب الآثار جـ١ ص١٣٦ وما بعدها. تحقيق عبد العزيز جمال الدين.

[بـاش](*) اوضه باشا مستحفظان والمذكور كان محرج [حدد سعر] على القمح انه لا يزيد الأردب المصرى عن ستين نصف فضة فلم يمكث الا قليل وبأمر الله قتل كوجك محمد المذكور. وفى ثانى يوم موته وصل القمح ماية وعشرين نصف فضه الاردب المصـرى ولم يزل يتـدرج الى ان وصل ثلثماية وستين نصف فضه(*). واما بلاد الصعيد خليت من الفقراء وبلاد الريف ايضا وحضروا جميعاً لمصر المحروسة. ووصل القمح الى ثمانين

* حول ارتفاع الاسعار يذكر الجبرتى فى جـ١ ص١٣٨ أنهـا بلغت الاتى:
- اردب القمح ٦٠٠ نصف فضة. الشعير ٣٠٠ نصف فضه. الفول

- -

واستند أصحاب هذا الرأى فى قولهم على تمجيد المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى لهؤلاء «الامراء المصرية» عموماً وثنائه على حكومة على بك خصوصاً، وما ذكره الرحالة الفرنسى سـافارى[1] فى أحد خطاباته عن عدالة على بك الصارمة، فقال إنه أنشأ نوعا من الحكومة العادلة سعد بها المصريون، حتى أن عهد على بك ليعتبر بحق « العصر الذهبى» فى تاريخ هذه البلاد التى عرف أهلها البؤس أجيالا طويلة.

غير أن هناك جماعة أخرى من المؤرخين انصرفوا إلى غير هذا الرأى، لأنهم لايرون شيئاً من الوطنية والقومية فى نشاط على بك، لأن مصر فى القرن الثامن عشر ما كانت تعرف شيئاً عن الوطنية والقومية، ولم يسبب نوع الحكم الذى أنشأه على بك انتشار الرخاء فى مصر حتى «يسعد» المصريون فى هذا العصر الذهبى الموهوم. بل إن الرحالة الإسكتلندى جيمس بـروس[2] كان من أشد الناقمين على تلك الحكومة التى أقامها على بك، وعلى البكوات

(١) يمتاز سافارى بوصفه للآثار، كما تمتاز كتاباته عن مصر بصفة عامة بالطابع الرومانسى، ومع هذا يجب أن يقرأ سافارى بحذر شديد ، لأنه أخذ كثيرا عن غيره من الرحالين، ولأنه ادعى أنه زار الصعيد على الرغم من أن رحلته لم تتعد جنوب أهرام الجيزة، وهذا ما جعله موضع نقد عنيف من معاصريه. انظر

Savary, C' Lettres sur L'Egypte.. Paris 1785 .

(٢) زار مصر فى عامى ١٧٦٨ و ١٧٧٣ . انظر كتابه

Bruce, J' Travels to discover the Source of the Nile..., vols 1, 4. Edinburgh 1804 .

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

نصف فضه الويه واجرة طحينها خمسة عشر نصف فضة تكون الجملة الدينار لان كان قيمة الدينار المصرى يومئذ خمسة وتسعين نصف فضه وما كان الدينار ابو طره ظهر ولا الزنجير ولا الفندقلي الا الذهب المحمدى. وحصل غلا شديد الى ان اكلوا الفقرا الميته من الحمير والخيل والقطط وغير ذلك. ونعوذ بالله من تلك الايام وكانوا الناس مطروحين في الشوارع والازقة والكيمان من الجوع والوباء لان الله تعالى ضرب

٤٥٠ ـ الارز ٨٠٠ وانعدم العدس من السوق. وجاء بعد ذلك طاعون سنة١٦٩٥م= ١٤١١ق. =١١٠٧هـ. واكلت الناس الجيف والكلاب.

المماليك بصفة عامة. وكتب يقول إنه لايمكن أن يوجد على ظهر الأرض حكومة أشد قسوة وظلما وعدواناً وطغياناً من حكومة أولئك الأشرار الذين تتألف منهم حكومة القاهرة.

ومع ذلك، فقد يكون سافارى مغاليا في إعجابه وبروس متطرفاً في كراهيته، ولكنه يبدو على كل حال أن على بك استطاع أن يقيم نوعاً من العدالة التى فهمها أهل البلاد وقتئذ، وكانت ترضى بها معاييرهم التى درجوا على أن يقيسوا بها نجاح الحكومة وعدالتها.

ومن ناحية أخرى، فقد ذهبت جماعة من المؤرخين إلى أن غرض على بك من حركته هو الاستقلال بمصر عن الدولة العثمانية استقلالا تاماً وتأسيس دولة مملوكية جديدة في الديار المصرية يستأثر فيها المماليك بالسلطة المطلقة كما كان حالهم في العهود السابقة للغزو العثماني. غير أن الواقع يخالف ذلك تماماً، فلم يتطلع على بك إلى الإنفصال التام عن الدولة العثمانية، بل أن مصر في السنوات التى خلصت له فيها السلطة ، لم تستقل استقلالا تاما من الدولة العثمانية، بل ظلت تابعة لها. والأدله على ذلك مايلى:

أولا ـــ إن على بك لم يلقب نفسه أبداً بلقب « سلطان مصر وخاقان البحرين». ولم يشر المؤرخون والرحالون المعاصرون أى إشارة إلى استعمال على بك لهذا اللقب ، بل تحدثوا عنه دائما باسم على بك أو الجن على أو على بك الكبير أوالأمير على المصرى .كما أن جميع

المصريين بالغلا والوبا وكان الانسان يجوز عليهم في العشيه يجد الفقرا مسطحين جانب الحيطان ويصبح يجوز عليهم يجدهم اموات. وكان تولى بمصر يومئذ واحد يقال له اسماعيل باشا لما رأى كثرة موت الفقراء من الجوع واكل الميته وكان يفرق على الامراء الصناجق والأغوات كل منهم على مقدرته من الفقرا صاروا يطعموهم إلى أن أفرج الله على خليقته وجاء النيل عال في سنة الف وماية وسبعة الخراجية وزرعوا الناس واطمأنت

الوثائق الرسمية كالفرمانات وتقاسيط الإلتزام والأختام كانت تشير دائما إلى على بك «بقائمقام مصر» أو «قائمقام محروسة مصر».

ثانيا ـ أورد عبد الرحمن الجبرتي حادثة تنفى زوال سيادة الدولة العثمانية على مصر في عهد على بك وتثبت أن الأخير كان متمسكا ببقاء بعض مظاهر هذه السيادة فقد «اتفق أن على بك صلى الجمعة في أوائل شهر رمضان سنة ١١٨٣هـ(١٧٦٩) بجامع الداوادية. فخطب الشيخ عبد ربه، ودعا للسلطان، ثم دعا لعلى بك، فلما انفضت الصلاة وقام على بك يريد ا لإنصراف أحضر الخطيب، وكان رجلا من أهل العلم يغلب عليه البله والصلاح وقال له: من أمرك بالدعاء باسمى على المنبر، أقيل لك أنى سلطان؟ فقال نعم، أنت سلطان، وأنا أدعو لك . فأظهر الغيظ وأمر بضربه، فبطحوه وضربوه بالعصى. فقام بعد ذلك متألما من الضرب وركب حماراً وذهب إلى داره وهو يقول في طريقة:بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ».

ثالثا ـ كانت العملة الفضية التى أمر على بك بسكها عام ١٧٦٩، وكذلك العملة الذهبية التى أصدرها عام ١٧٧١، منقوشا على أحد وجهيها إسم السلطان العثمانى مصطفى الثالث (١٧٥٧ – ١٧٧٣)، وعلى الوجه الآخر عبارة «ضرب في مصر». وعلى ذلك، فمع أن على بك سمح لنفسه باصدار عملة جديدة تحمل طابعا مميزاً عن العملة المتداولة في مصر قبل ذلك، إلا أنه حرص على أن يظل إسم السلطان العثمانى منقوشاً على أحد وجهيها.

---

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

الخليقة. وفي مدة هذه السنتين الغلا ما كان هذا الاب يتخلا عن الرحمة وايضا المعلمين الاراخنة بمصر كانوا يتغايروا في الصالحات والرحمة وبالخصوص واحد أرخن يسما المعلم داوود الطوخي وولد أخيه المعلم جرجس وكانوا سكان بدرب الجنينه بحارة الأرمن شمال شرق الموسكي قرب شارع بين الصورين. وان المعلم جرجس كان له ولد وحيد اسمه منصور تنيح في تلك الأيام فلما حصل له هذا الأمر أخذ له بيت بحارة الروم

وأيا ما كان الأمر، فقد استطاع على بك الوصول إلى مشيخة البلد في عام ١٧٦٣، ولم يكد يستمتع بهذا المنصب قليلا حتى اضطره أعداؤه ومنافسوه إلى الفرار مرتين من مصر خلال أربع سنوات، فأقام في الحجاز تارة، وفي فلسطين في ضيافة الشيخ ظاهر العمر تارة أخرى، حتى أتيحت له فرصة العودة إلى القاهرة في عام ١٧٦٦، فانتقم من أعدائه، وأنزل العقاب الصارم بمحركي الفتن والاضطراب، واستخدم في ذلك أحد مماليكه الذي اشتهر فيما بعد باسم أحمد (الجزار) بسبب ما أظهره من قسوة وبطش عند إخماد ثورة عربان الدلتا (الحبايبة بشرق الدلتا ووسطها والهنادي بإقليم البحيرة) وهو أحمد باشا الجزار الذي دانت له فيما بعد باشوية عكا.

وكان سويلم بن حبيب زعيم الحبايبة والهنادي بالوجه البحري قد طغى وتجبر ونشر نفوذه بمعظم بلاد الشرقية والقليوبية، وتحكم في الطريق بين القاهرة والموانى الشمالية، ومارس القرصنة النيلية على نطاق واسع. ولما كان عربان البحيرة قد انضموا إلى أعداء على بك. فقد أرسل الأخير حملتين للقضاء عليهم. ونجحت هاتان الحملتان في القضاء على سويلم وقطعوا رأسه ورفعوها على رمح ثم علقوها على باب زويلة بالقاهرة.

وبعد أن خلص الوجه البحري لعلي بك، لم يلبث أن تطلع لاستخلاص الوجه القبلي، الذي كان يمد القاهرة بالمؤن والغلال من يد همام بن يوسف شيخ عربان الهوارة، الذي عُرف

١٠٣: يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

بجوار الكنيسة وأعمره وأخذ نظارت الكنيسة أيضا وبقى فى أيام الآحاد والأعيادوالمواسم وغيره يحضر معه إلى بيته الأب البطريرك والكهنة والفقرا وغيرهم ويفطروا ويشربوا القهوة، وفى أيام الأعياد والمواسم لابد عن الطعام المفتخر للجميع. وعلى الجملة انه لم كان فى زمانه من يشاكله على فعل الرحمة والخير. وهو الذى أعمر الكنيسة الفوقانية بحارة الروم على اسم الشهيد العظيم مارى جرجس وهو ايضا الذى اهتم بعمل الميرون

عنه أنه كان يحمى المماليك الفارين للصعيد فى اعقاب صراعاتهم المسلحة عن السلطة فى القاهرة ويقدم لهم المال والرجال والعتاد والسلاح وكل ما يلزم لعودتهم إلى القاهرة حيث المجد والسلطان.ولم يكن على بك فى الواقع يخشى من ازدياد نفوذ همام واتساع أملاكه، لأن همام لم يأت أمراً يخل بالأمن ،بل كان حريصا على إرسال الميرى بانتظام، كما كان يرسل بين الحين والآخر الهدايا للباشا العثمانى وشيخ البلد بالقاهرة، ،وكذلك لكشاف الأقاليم الخاضعة لسلطته، ولكن الذى ضايق على بك هو تحول الصعيد إلى وكر تنبت فيه الفتن ومورد يمد منافسيه على مشيخة البلد بالمؤن والعتاد والسلاح.

وعلى ذلك، فقد صمم على بك على التخلص من همام حتى لايجد من تسوله نفسه الخروج على طاعته مجيراً يحميه إذا انفاه إلى الصعيد. وأرسل على بك إلى الصعيد حملة بقيادة أحد مماليكه وهو محمد بك أبو الدهب لقتال همام. وفى خارج أسيوط، تقابل الفريقان وكتب النصر لأبى الدهب، وفرت فلول المهزومين إلى فرشوط.ولكن أبا الدهب استطاع أن يكسب إلى جانبه بالحيلة ابن عم همام المدعو أبو عبد الله، الذى مناه ووعده بحكم الصعيد؛ وصدق أبو عبد الله هذا الوعد ورفض مواصلة القتال. ولما علم همام بخيانة أقرب الناس إليه، مات حزناً وكمداً قرب إسناء، وتقرر بذلك النصر النهائى لأبى الدهب، وأصبح على بك سيد الوجهين البحرى القبلى وصاحب النفوذ المطلق فى جميع أنحاء القطر المصرى.

---

 ١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

المقـدس فى سنة ألف وأربعـمـائة وتسـعـة عـشـر للشـهـدا [١٧٠٢/ ١٧٠٣م] الموافق لسنة ألف ومـاية وستة عشر الخراجيه وأرسل أحضر جميع الآباء الأسـاقفة من كـراسيهم لأجل عمل الميرون المقدس مع الأب البطريرك وبعد تمام عمل الميرون دفع لكل اسقف بدله كهنوتية كاملة وعدة كاملة للقربان وعادوا الى كراسيهم مسرورين فرحين. وكان تولى على مصر فى سنة ألف ومـاية واحدة عشر خراجيه واحدا اسمه ترى [قـرا] محـمـد

وما كاد ينتهى على بك من توطيد نفوذه فى مصر حتى قامت الحرب الروسية التركية (٧٦٨- ٧٧٤)، وهى الحرب التى ا شتعلت بين تركيا وروسيا القيصرية بسبب عودة الأخيرة إلى محاولة تحقيق سياستها التقليدية بالتوسع صوب بحر البلطيق غرباً والبحر المتوسط جنوباً. وكان نفوذ الدولة العثمانية متدهوراً فى هذا الوقت فى ولاياتها الأسيوية. ومن أجل أرباك العثمانيين وتشتيت قواهم الحربية، قامت الروسيا بدعاية واسعة النطاق ضدهم فى ولاياتهم الأوروبية، مستغلة فرصة مساوئ الإدارة العثمانية واشتداد الروح القومية فيها. واستجابت ولايات البلقان لهذه الدعاية. فثارت الواحدة بعد الأخرى على الحكم العثمانى. وانتهزت الروسيا هذه الفرصة فهاجمت الدولة العثمانية من جميع النواحى من الشمال والجنوب ومن الشرق والغرب. وانتصرت الجيوش الروسية على الاتراك وطردتهم من الدانوب والقرم والأفلاق والبغدان والصرب. وخرج الأسطول الروسى من البحر الأسود إلى البحر المتوسط وهاجم بلاد الأناضول وسوريا وهدد مصر، واشتبك مع الأسطول العثمانى وقضى على معظم وحداته.

وهكذا كانت الحرب الروسية التركية فرصة لاظهار ضعف الدولة العثمانية الحربى، وهو الضعف الذى عول على بك على الاستفادة منه. إذ لم يلبث أن طرد الباشا العثمانى (محمد راقم) وامتنع عن دفع الجزية والمال الميرى، ثم طمع فى نشر سلطانه على بلاد العرب أملا فى

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

(*) انظر الجبرتى ج١ ص ١٤٣

باشـا(*) أقام متوليا على مصر خمسة سنوات وحصل منه أذيه للنصارى فى سنة ألف ومائة واثنى عشر خراجيه بسبب الكنايس ولكن من معونة الله تعالى ورحمته وصلاة هذا الاب لم يحصل ضرر بوجود المعلمين الأراخنة المباشرين بخدمة أكابر مصر وفضوا القضية من غير مشقة على النصارى جملة كافية. ولم يحصل بالمواضع المقدسة شئ ولا بطل قداس فى يوم من الأيام والله سبحانه وتعالى أبطل قوة الشيطان والمعاندين ولم

أن يتخذ من جدة مقراً لتجارة الهند، حتى تتحول تجارة الشرق إلى البحر الأحمر وبرزخ السويس، بدلا من ذهابها إلى أوروبا عن طريق رأس الرجاء الصالح، متأثراً فى ذلك ولاشك بآراء صديقه التاجر البندق كارلوروسيتى carlo Rosetti (راشته).

ونجحت الحملة التى أرسلها إلى الحجاز بقيادة مملوكه محمد بك أبو الدهب، ومد على بك بذلك سلطانه إلى الحجاز؛ وشجعه انتصاره فى حملة الحجاز إلى إرسال حملة أخرى إلى بلاد الشام، إذ كان قد وعد بنجده حليفه الشيخ ظاهر العمر. وعقد على بك آمالا عظيمة على إمكان التعاون مع الروسيا خصم الاتراك العنيد لتحقيق مآربه، واتخذ من تذمر أهل الشام من عثمان بك العظم الوالى العثمانى واقبال هذا الوالى على تشجيع خصوم على بك وأعدائه والترحيب بهم عند خروجهم إلى دمشق، ذريعة لغزو الديار الشامية.

ولقد تساءل المؤرخ شارل رو(١) عماد إذا كان على بك قد أراد بغزو الديار الشامية أن يصل إلى بلاد الأناضول والقسطنطينية عن طريق سوريا كما قيل عن نابليون بونابرت ومحمد على فيما بعد، فيعتلى عرش السلطان أم أراد فقط أن يؤمن ملكه فى مصر؟ومن المرجح أن حملة على بك على سوريا كانت مشروعا للتوسع يرمى من ورائه إلى غرضين أساسين: أو لهما

(1) Charles - Roux, F'Les Echelles de Syrie et de Palestine au XvIIIe siècle. Paris 1907 .

تزل الطمأنينة موجودة إلى سنة ألف وماية وسبعة عشر الخراجية شرقت أيضا أرض مصر وتسما الشراقى الصفرا. وأن البحر [النيل] لما توقف عن الزيادة توجه أبينا البطريرك إلى كنيسة ستنا العدره بالعدويه ومعه جماعة من الكهنة وبقى كل يوم يقدس ويصلي على قليل مآء في ماجور صغير ويرشمه بالميرون المقدس ويطرحه في البحر وان الله تعالى تحنن برحمته على عباده وأوفى النيل فى الثامن عشر من توت واطمأنت الخلايق وبلغ

تأمين أملاك حليفة الشيخ ظاهر، إذ أن سوريا هي باب مصر الشمالي الشرقي، وثانيهما القضاء على قوة باشا دمشق وغيره من الباشوات العثمانيين الذين قد تحرضهم الدولة على القضاء عليه في مصر. فقام بتلك الحملة الدفاعية التى اتخذت شكلا هجوميا لكي يقيم حول نفوذه بمصر سياج أمان دائم.

ولقد استطاع محمد بك أبو الذهب قائد الحملة أن يحرز انتصارات عديدة، وعاونه الشيخ ظاهر معاونة صادقة، فسقطت في يده ويد حليفه غزة ونابلس ويافا والرملة واللد وصيدا وغيرها، وسقطت دمشق ذاتها فى أبريل ١٧٧١.

وفي أثناء هذه الحملة، كان علي بك يعمل جاهداً لعقد المحالفات مع الروسيا والبندقية. ومع أنه أخفق في هذا المسعى، إلا أنه لقى تأييداً من الكونت ألكسيس أرلوفAlexis Orlow قائد الأسطول الروسي في البحر المتوسط. وكان علي بك قد كتب إلى القائد الروسي مبديا رغبته في عقد معاهدة تحالف وصداقة مع حكومته، ووعده بكل ما يحتاج إليه جيشه وأسطوله من مؤن، وطلب منه أن يزوده بمدافع للحصار ومهندسين، وقد رد عليه أرلوف مشجعاً له على حركته، ووعد بحمل مقترحاته بصدد المحالفة مع دولته، إلى كاترين قيصرة روسيا، ثم شكره على ما عرضه عليه من مساعدة ووعده بالا يتأخر في طلبها متى وجد نفسه في حاجة إليها.

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

القمح فى سنتها ثمانية قروش الأردب المصرى سعر الويبه أربعين نصف فضه وكانت الخلق مطمأنة ولم يحصل فيها شدة حكم الشراقى الكبرى وايضا توجه أبينا البطرك إلى الاسكندرية وزار كنيسة الأب البشير مارى مرقس الانجيلى.

ولما كان فى سنة ألف ومائة وعشرين الخراجية توجه هذا الأب إلى زيارة [كنيسة] القيامة المعظمة مع الأرخن المعلم جرجس الطوخى المذكور وكان

على أن خيانة مملوكه محمد بك أبى الذهب سرعان ماقضت على آمال على بك الكبير. ولم تفد معاونة الشيخ ظاهر أو الكونت ألكسيس أرلوف فى التخلص من منافسه. واستطاع أبو الذهب أن يؤلب ضده البكوات، فكان تارة يصفه بالكفر والإلحاد، وتارة أخرى يتهمه بالعمل على أخضاع هذه البلاد للكفرة حتى «يقضى على دين الرسول الكريم ويرغم أهلها على اعتناق المسيحية».

وبالقرب من الصالحية، دارت رحى تلك المعارك الحاسمة التى جرح على بك فى أثنائها. ووقع فى أسر أبى الذهب. ثم مالبث أن مات بعد ذلك بأيام معدودة فى ٨مايو ١٧٧٣.

وأفضى موت على بك إلى إستئثار محمد بك أبو الذهب بكل نفوذ وسلطة فى مصر. وأعتمد أبو الذهب على تأيد العثمانيين له فى الانتقام من الشيخ ظاهر صديق على بك. ونال أبو الذهب معاضدة الباب العالى، فاشتبك مع الشيخ ظاهر فى معارك حامية انتصر فيها، ولكنه مالبت أن توفى فجأة فى ٨يونيه ١٧٧٥بعد أن دانت له عكا.

انتشار الفوضى فى عهد إبراهيم ومراد:

وعلى أثر وفاة أبى الذهب، عمت الاضطرابات والمنازعات الداخلية بين أتباعه وأتباع على بك الكبير، الذين تنازعوا فيما بينهم للحصول على المشيخة والاستبداد بحكومة البلاد. ولما

١٠٣: يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

صحبتهم جملة من الكهنة والأراخنة والشعب(*) وكان توجههم على البر ما هو في البحر وكانت بهجة عظيمة لم يرى ولم يسمع بمثلها قط. ولما كان في سنة ألف ومااية ثلاثة وعشرين هلاليه(*) [١٧١٢/١٧١١م] كان تولا بمصر واحد يسما خليل باشا والمذكور ألقى فتنه عظيمة بين العسكر وكان في ذلك الوقت واحد صنجق يسما أيوب بك ملتجئ إلى باب الإنكجارية وواحد صنجق

(*) موكب حج قبطي إلى القدس.

(*) انظر الجبرتي جـ١ ص ١٥٩، وواقعة الصناجق (فتة افرج احمد)

انسحب أتباع على بك إلى أسوان، اندلعت المنافسة من جديد بين ابراهيم بك ومراد بك، حتى أصبحت القاهرة بين عامي ١٧٧٩ و١٧٨٩ مسرحا للمؤامرات والدسائس، وما يقترن بها من أنواع السلب والنهب والفوضى.

وفي مايو ١٨٨٦ أرسل الباب العالي حملة عثمانية بقيادة القبطان حسن باشا لردع البكوات وإخضاع البلاد للسيطرة العثمانية، وتخليصها من إبراهيم بك ومراد بك، اللذين اقتسما السلطة فيما بينهما منذ عام ١٧٧٩، وامتنعا بعد ذلك بأربع سنوات عن إرسال الجزية إلى القسطنطينية . وكاد النصر يتم لتركيا، عندما انهزم مراد بك، ودخل الأتراك القاهرة في أوائل أغسطس ١٧٨٦، وفر المماليك إلى الصعيد. ولكن القبطان حسن باشا لم يستطع إخضاع الصعيد. وفضلا عن ذلك، فقد بادرت تركيا باستدعائه عندما نشبت الحرب بينها وبين روسيا في سبتمبر من العام التالي. فاستعاد البكوات سلطانهم في القاهرة، وحاول الباشوات العثمانيون أن يصلوا إلى اتفاق مع ابراهيم بك ومراد بك بعد ذلك بصدد إرسال الجزية، وصرة الحرمين، ولكن دون جدوى.

ظللت الأمور تسيز من سئ إلى أسوأ، وارتبك اقتصاد البلاد، وانتشرت بها المجاعات والأوبئة والأمراض، وساعد على انتشار الضنك انخفاض النيل مرات عدة، وانصراف الفلاح عن العناية بأرضه وزراعته، عند ما ظلت غلات هذه الأرض نهباً للبكوات.

١٠٣: يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

اخر يسما غيطاس بك ملتجئ إلى باب العزب
وكل واحد منهم له جماعات أحباب وأصحاب
فلما وقعت الفتنة بينهم واشتدت وعظمت جدا
قفلت الاسواق وبطل البيع والشرى وأقامت
القاهرة سبعين يوم والاسواق مقفولة والمدافع
تضرب من باب الانكجارية على باب العزب ومن
باب العزب على الانكجارية وانحرقت بيوت ناس
كثير. وعلى الجملة انها كانت شدة شديدة وضيقة

- -

وفى الحقيقة لم تفد مصر بتاتاً من سيطرة عصبة المماليك، الذين كان همهم الأول استنزاف مواردها وجمع الأموال والتمتع بخيراتها مثلما كان يفعل السلطان العثمانى. ووقع عبء الإرهاق بأكمله على طبقة الفلاحين الذين تحملوا شظف العيش والبؤس. وكان أصحاب المتاجر من الأجانب: الإنجليز والفرنسيين والبنادقة الذين أقاموا فى الإسكندرية والقاهرة للتجارة، يعانون الشئ الكثير من تعسف المماليك الذين أساءوا معاملتهم وأرهقوهم بالضرائب . فأقفلت البيوت التجارية، ولم يبق للفرنسيين فى عام ١٧٨٥سوى ثلاثة بيوت تجارية فقط فى القاهرة، بعد أن كان لهم قبل ذلك خمسة عشر بيتاً تجارياً فى عام ١٧٧٠.

ووجد شارل مجالون Magallonالذى عينته حكومة المؤتمر الوطنى الفرنسية قنصلا عاماً لها فى مصر منذ أوائل عام ١٧٩٣، وجد صعوبة كبيرة فى الإقامة بالبلاد من غير أن يدفع للبكوات المماليك إتاوة سنوية. وفى أبريل ١٧٩٤أرغم ابراهيم بك التجار الأجانب على دفع أربعة عشر ألف ريال أسبانى، واستولى مراد بك على قدر كبير من البضائع، وتعرضت مخازن التجار من ذلك الحين للنهب والسلب. حتى اضطر التجار الفرنسيون فى يولية من العام نفسه إلى أغلاق بيوتهم التجارية فى القاهرة، والانسحاب إلى الإسكندرية، وأستطاع خمسة منهم حزم أمتعتهم والخروج إلى رشيد. ولكن مراد بك مالبث أن قبض عليهم وأرغمهم على العودة

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

عظيمة على كامل الناس خصوصا الفقرا وكانوا يشربون مياه الأبار من انقطاع الطرق وعدم السقايين لانهم ما كانوا يقدروا يتوجهوا يملوا من بولاق من كثرة العربان والعدى [الاعداء]. وبعد السبعين يوم أراد الله تعالى وأفرج على العباد بهروب أيوب بك وبعض جماعة صحبته إلى الديار الروميه وتوفى بالقسطنطينية وعزل خليل باشا واطمأنت الرعية وحصل الرضا والبيع والشرا

إلى القاهرة، فظل التجار بالقاهرة تحت رقابة مراد إبراهيم الصارمة مدة ثلاثة أشهر حتى أذن لهم البكوات بالذهاب إلى الإسكندرية، فبلغوها فى أبريل ١٧٩٥، وكان على رأس المنسحبين شارل مجالون نفسه.

وعلى الرغم من الأموال الطائلة التى ابتزها بكوات المماليك بشتى الأساليب والطرق من الأهالى والأجانب على السواء، إلا أنهم لم يعنوا بتدبير أمور البلاد التى سيطروا على حكومتها، فأهملوا شئون الرى، مما أدى إلى طغيان رمال الصحراء على الترع والقنوات وإتلاف قسم كبير من الأرض الصالحة للزراعة. وفضلا عن ذلك، فقد أهملوا تحصين البلاد التى تسلموا زمامها، وا ضمحلت فى عهدهم الإسكندرية، فأصبحت لاقيمة لها. هذا بينما كانت بحرية البلاد ـ كما قرر فولنى ـ «عبارة عن ثمانية وعشرين مركب فى السويس مسلحة بأسلحة ضعيفة المفعول، ولايعرف ملاحوها كيف يستخدمون تلك الأسلحة». وهكذا كانت مصر ضعيفة عسكرياً لاقدرة على المقاومة ومدافعة الغزو الأجنبى. وظهر هذا الضعف واضحاً عندما حضرت إلى البلاد الحملة الفرنسية فى عام ١٧٩٨.

•••

والأخــذ والعطاء ولم يحــصل أذية لأحــداً من
النصــارى بصــلاة هذا الاب لان الرضــا والمواهب
الذى منحهم الله لهذا الأب لم حصل لغيره من
الاباء البطاركه من مدة أنبا متى السابع والثمانون
إلى هذا الاب لأنه كــان من الــله فى جــمــيع
أعماله وفعله وكرز كنايس عدة بمــصر والريف
بعد ترميمها وأيضا كرز مطارنه واساقفه وقــسوس
وشــمــامــســه وأقــام مــدته كلــهــا فــى خــيــر

بونابرت فى مصر

استعدادت الحملة:

ناقشت حكومة الإدارة الفرنسية في أوائل مارس ١٧٩٨ مشروع غزو مصر إلى جانب مشروعات أخرى، وانتهت في يوم ٥ مارس إلى تقرير إرسال الحملة إلى مصر. ومن الثابت أن بونابرت قدم في هذا اليوم نفسه إلى حكومة الإدارة مذكرة تحدث فيها بإسهاب عن وسائل تنفيذ مشروع «الإستيلاء على مالطة وعلى مصر» وفي ١٢ أبريل ١٧٩٨ أصدرت حكومة الإدارة قرار بوضع «جيش الشرق» تحت قيادة بونابرت، وأشار في هذا القرار إلى الخطوط الأساسية لسياسة «جيش الشرق» في مصر وهي:

أولا– طر د الأنجليز من كافة ممتلكاتهم في الشرق، أو في الجهات التي يستطيع الوصول إليها، وعلى وجه الخصوص القضاء على مراكز الإنجليز التجارية في البحر الأحمر.

ثانياً – شق قناة في برزخ السويس وبسط سلطان حكومة الجمهورية على البحر الأحمر.

ثالثاً – العمل على تحسين أحوال المصريين والاحتفاظ بالعلاقات الودية مع الباب العالي.

ومنذ ٥ مارس ١٧٩٨ كانت الاستعداد قد بدأت لتجهيز الحملة المزمع إرسالها إلى مصر، بدأ

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

وعـافـية وطـمانيه واعمر دير القديس العظيم انبا بولا بعـدمـا دثـر مـن مـدة وتوجـه له وزاره وكـرز الكنيسـة واقام فيه رهبان وافرق وقفه من وقف القديس انطونيوس وايضا زار دير القديس انطونيوس مرتين دفعة وحده ودفعة مع المعلم جرجس الطوخي المذكور. ولما كان في سنة الف ومابة سبعة وعشرين خراجية حصل ايضاً فتنة بمصر وكان يومئذ عابدى باشا متولي(*) بمصـر

(*) انظر الجبرتى جـ١ ص ٢٣٦

- -

الجيش يتجمع في الشواطئ الجنوبية تحت اسم «الجناح الأيسر لجيش انجلترا» تضليلا للعدو وفي جو من الكتمان والسرية، تمت عملية إنزال الجند والمهمات إلى سفن الأسطول. وظل الجند والقواد ـ الذين طلبوا الانضواء تحت لواء بونابرت في هذه المغامرة الجديدة ـ يجهلون المكان الذى تقصده الحملة، حتى أن الجنرال كليبر Kleber كان يعتقد أن الغرض من هذه الحملة لم يكن سوى النزول في انجلترا لغزوها.

والواقع أن بونابرت لم يستعد لفتح مصر عسكرياً فحسب، بل استعد كذلك لفتحها فتحاً علميًا، يتناسب مع ما وصل إليه العلم الفرنسي في أواخر القرن الثامن عشر، فقرر أن يصطحب معه عدداً من المستشرقين والعلماء والجغرافيين والفنانين والرسامين، وأمر بصنع كل ما يحتاج إليه الرياضيون وعلماء الطبيعيات والكيمياء من أجهزة وأدوات . زد على ذلك أن بونابرت أدرك أن الدعاية هي السلاح الماضي الذى قد يكسب به قلوب المصريين.

فكان عليه أن يعد العدة لحملة من الدعاية يوطد أركانها بمطبعة يحملها معه. لتساعده فيما يرمي إليه . ولهذا طلب جمع كل ما يمكن العثور عليه من حروف الطباعة العربية[1] واليونانية والفرنسية في باريس.

(١) عرف الفرنسيون المطبعةالعربية في أوائل القرن السابع عشر.

وقتل الامير غيطاس بيك واراد يقتل الامير محمد بيك تابعه فتوجه هاربا إلى الديار الرومية وقتل جماعة كثيرة بمصر ولكن لم تبطى حكم الفتنة الأولى وزال الشر واطمأنت الرعية ولم يزل هذا الاب في هدو وطمانية وخير وسلامه باقى أيام حياته. وكان في سنة الف واربعماية أربعة وثلاثين للشهداء تشويطة [طاعون] بمصر. وتنيح هذا الأب في اليوم العاشر من بؤونة سنة تاريخه

بونابرت

محمد كريم

نلسون

الوصول إلى مصر واحتلال القاهرة:

وفى ١٩ مايو ١٧٩٨ خرجت الحملة من ميناء طولون ، وانضمت إليها فى الأيام التالية سائر السفن من جنوه وأجاكسيو. وفى ٩ يونيه وصلت الحملة إلى شواطئ مالطة، واستولت عليها فى ١٢ يونيه بعد أن سلم فرسان القديس يوحنا وتنازلوا لفرنسا عن سيادتهم على الجزيرة. وفى ١٩ يونيه تركت الحملة مالطة فى طريقها إلى مصر. ولما كان تفوق الأسطول البريطانى أمراً مسلماً به، فقد طلب بونابرت من الأميرال برويس Brueys ـ الذى كانت له قيادة الحملة البحرية ـ أن يعمل على تجنب الاحتكاك بالأسطول البريطانى ، باتخاذ طريق غير مباشر من مالطة إلى مصر.

١٠٣: يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

الموافق في ستة عشر شهر رجب سنة الف ومایة وثلاثين هلاليه(*) واقام اثنين واربعين سنة بطركا على الكرسي، الرب يحمنا بصلاته، وتنيح المعلم جرجس بعده بعشرة أيام وكان يوم انتقال هذا الأب يوم عظيم وجنزوه بكرامة عظيمة ودفن بكنيسة أبو مرقوره بمصر. بركة صلاة الجميع تكون معنا أمين.

(*) ١٤٣٤ق= ١٧١٧ / ١٧١٨م.

فسارت الحملة إلى جزيرة كريت، ثم اتجهت جنوبا بشرق، فوصلت الإسكندرية في ۲۷ يونيه. وأرسل بونابرت ـ وهو في عرض البحر أمام الاسكندرية ـ يطلب القنصل الفرنسي بمصر مجالون (ابن أخي شارل مجالون)، وعلم منه أن أسطولا إنجليزيا بقيادة نلسون Nelson، زار الاسكندرية قبل ذلك بثلاثة أيام فقط، ثم غادر ها للبحث عن الأسطول الفرنسي في مياه أزمير. ولذا قرر بونابرت إنزال جنوده على جناح السرعة في أول يوليه من جهة العجمي غرب الاسكندرية. وفي ٢ يوليه احتل الفرنسيون الاسكندرية بعد مقاومة ـ من جانب أهلها وحاكمها السيد محمد كريم ـ دامت بضع ساعات.

وفي مساء يوليه بدأ زحف الحملة على القاهرة من طريقين، وذلك بعد أن انقسمت قسمين:

١ ـ حملة برية وهي الحملة الرئيسية تسير من الاسكندرية فدمنهور فالرحمانية فشبراخيت فأم دينار على مسافة خمسة عشر ـ ميلا من الجيزة.

٢- حملة بحرية تتألف من مراكب الأسطول الخفيفة تسير في فرع رشيد لتقابل الحملة البرية قرب القاهرة.

وكان طريق الحملة البرية أو الرئيسية صعبا، لقي الجند فيه ألوانا من التعب والجوع والعطش، و أحسوا بأن الصورة التي كانت في أذهانهم عن خصوبة أرض مصر ووفرة خيراتها

* ١ ينـايـر ١٧١٨ = ٢٥ كـيـهك ١٤٣٤ = السـبت ٢٨ محرم ١١٣٠.
* في يناير ١٧١٨ = كيهك = صفر حصل بمصر حدث.
* في ٢ فـبـراير اسـتـقلت سردينيا وصارت مملكة يحكمها دوك سافوا.
* في مارس = امشير = ربيع ثان عـقـدت مـعـادة بين حكومـة أوسـتـوريا والسلطان أحـمـدخـان الثالث.
* ابريل = برمهات عزل على باشـا الأزمـيـرلى، بعـد أن حكم مصـر سنة واحدة، وتولى عليـها رجب باشا.
* في مايو = برمودة = جماد ثان تنازل العثمانيون عن بلغراد وبعض الصـرب والأفـلاق إلى أوستوريا واستولوا على المورة، من البندقية.

* ١ تـــوت ١٤٢٥ = ٩ سبتمبر ١٧١٨ = الجمعة ١٣ شوال سنة ١١٣٠.
فيها حصل في مصر حادث.
* ١ ينـايـر ١٧١٩ = ٢٥ كيهك ١٤٣٥ = الأحد ٩ صفر ١١٣١.
* في فبراير ١٧١٩ = امشير = ربيع ثان كـانت حـرب بين فرانسا واسبانيا.
* في ابريل = برمــودة = جماد ثان استولت الانجليز على فيجو، من إسبانيا.

* ١ تـوت سـنـة ١٤٣٦ = ١٠ سبتمبر ١٧١٩ = الأحد ٢٥ شوال سنة ١١٣١.
* ١ ينـايـر ١٧٢٠ = ٢٤ كـيـهك ١٤٣٦ = الاثنين ١٩ صفر ١١٣٢.
* في يناير ١٧٢٠ م استقرت

واعتدال مناخها، وهى الصورة التى استمدوها من كتابات الرحاله الفرنسيين وخصوصاً فولنى وسافارى، قد غررت بهم، وتاقت أنفسهم للعودة السريعة لفرنسا. وهكذا تكون في الحملة منذ البداية حزب المعارضة للبقاء فى مصر. ووضحت روح الاستياء فى خطابات كثيرين من ضباط الحملة وجنودها إلى ذويهم فى فرنسا، وهى الخطابات التى وقعت فى أيدى رجال البحر الإنجليز فيما بعد.

وفى أثناء زحف الحملة إلى القاهرة، حدثت فى ١٣يوليه مناوشات بين الفرنسيين وجيش مراد وأسطوله، كان الغرض منها هى أختبار قوى كل من الفريقين. وفى هذه المناوشات التى عرفت بموقعة شبراخيت، انهزم مراد واضطر إلى التقهقر صوب القاهرة ثم تلا ذلك فى ٢١يوليه موقعة إمبابة والأهرام، التى حلت فيها الهزيمة بجيش مراد، فانسحب بفلول جيشه إلى الصعيد، فى حين فر إبراهيم متجها إلى سوريا وقد حمل أمواله ونفائسه، وصحبه الباشا العثمانى والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف وقاضى القضاة العثمانى. وفى ٢٤يوليه دخل بونابرت القاهرة، ثم أرسل الجنرال رينيه Reynier لمطاردة قوات ابراهيم فى الشرقية ولكن الأخير تمكن من الفرار إلى سوريا عن طريق سيناء. وعاد بونابرت إلى القاهرة ، وعلم فى أثناء عودته بنبأ تحطيم الأسطول الفرنسى فى موقعة أبى قير البحرية.

الفـرنسـاوية وتملكت الجـزيرة المسماة جزيرة فرانسا.
* في فبراير = امشير = ربيع ثان ثارت العسكر وعزلت رجب باشا الوالي، بعد أن حكم مصر سنتين، وتولى مصر محمد باشا.
* في ابريل حـصلت زلازل عظيمة في الصين.
* في مايو كان الصلح بين أسوج وبولونيا والدانيمارقة والروسيا.

* ١ تـوت ١٤٣٧ = ٩ سبتمبر ١٧٢٠ = الاثنين ٦ ذو القعدة سنة ١١٣٢.

* فيها كان الطاعون بمرسيليا.
* في نوفمبر = بابه = محرم استولت السافوا (العائلة الحاكمة الآن على ايطاليا) على جزيرة سارديـنيا.
* ١ ينـاير ١٧٢١ = ٢٥ كيهك ١٤٣٧ = الأربع ٢ ربيع أول سنة ١١٣٣.

* ١ تـوت ١٤٣٨ = ٩ سبتمبر ١٧٢١ = الثلاث ١٧ ذو القعدة سنة ١١٣٣.

* ١ ينـاير ١٧٢٢ = ٢٥ كيهك ١٤٣٨ = الخميس ١٣ ربيع أول ١١٣٤.
* فيها كان إنشاء رصد خانة لشبون.
* ١ تـوت ١٤٣٩ = ٩ سبتمبر ١٧٢٢ = الأربع ٢٨ ذو القعدة سنة ١١٣٤.
* ١ ينـاير ١٧٢٣ = ٢٥ كيهك ١٤٣٩ = الجمعة ٢٣ ربيع أول ١١٣٥.
* ١ تـوت ١٤٤٠ = ١٠ سبتمبر ١٧٢٣ = الجمعة ٩ ذو الحجة سنة ١١٣٥.

موقعة ابي قير البحرية ونتائجها:

وكان «برويس» ـ قائد الأسطول الفرنسي الذى أقل الحملة إلى الاسكندرية ـ قد أبحر بأسطوله من مياه الإسكندرية إلى إبي قير في ٧يوليه، وذلك بعد أن أصر بونابرت على استبقاء الأسطول في الشواطئ المصرية، وبعد أن وجد «برويس» أن من المتعذر على بوارجه دخول ميناء الإسكندرية القديم. وفي خليج أبي قير، فأجاه نلسون الذى ظل يبحث عن الأسطول الفرنسي في البحر المتوسط ، فأنزل بالفرنسيين هزيمة بالغة في أول أغسطس ١٧٩٨.

ولقد كان لمعركة إبي قير البحرية أو معركة النيل نتائج خطيرة نلخصها فيما يلي:

١- كبدت البحرية الفرنسية خسارة جسيمة، و قضت على كل أمل في امكان إحياء هذه البحرية، التي كانت قد ضعفت ضعفاً كبيراً أثناء الحروب التي اندلعت بين انجلترا وفرنسا في المياه الأوروبية، وفي المياه الأمريكية، وفي مياه الهند الغربية على وجه الخصوص، فظل الإنجليز أصحاب السيطرة في البحار.

٢- فرض الإنجليز حصاراً شديداً على الشواطئ المصرية المطلة على البحر المتوسط، حتى أصبح من المتعذر تماما على فرنسا أن ترسل النجدات في شكل عتاد حربي أو أية إمدادات أخرى ـ إلى «جيش الشرق» في مصر.

٣- إضطر الفرنسيون في مصر إلى الاعتماد اعتمادا كليا في تدبير شئونهم وسد حاجتهم في

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

* ١ ينـــاير ١٧٢٤ = ٢٤ كيهك ١٤٤٠ = السبت ٤ ربيع الثاني ١١٣٦.

* في يناير ١٧٢٤م = طوبه = جماد أول قتل إسماعيل بك شيخ البلد ابن قاسم بك عيواظ شيخ البلد السابق، قتله شخص يقال له ذو الفقار بايعاز من الباشا الوالي ودسيسة من جركس بك الذى تولى المشيخة بعده، أما أمواله وتركته ونساء المتوفى فاعطيت إلى قاتله مكافأة لأتعابه.

* في مـــايو = بشنس = رمضان كان تتويج كاترينة ملكة الروسيا.

* ١ تـــوت ١٤٤١ = ٩ سبتمبر ١٧٢٤ = السبت ٢٠ ذو الحجة سنة ١١٣٦.

* فيها كانت ولادة السلطان الغازى عبدالحميد خان ابن السلطان أحمد الثالث.

* ١ ينـــاير ١٧٢٥ = ٢٥ كيهك ١٤٤١ = الاثنين ١٥ ربيع الثاني سنة ١١٣٧.

* فيها كان إنشاء رصد خانة سنبطر سبورج.

* ١ تـــوت ١٤٤٢ = ٩ سبتمبر ١٧٢٥ = الأحد غرة محرم سنة ١١٣٨.

* في اكتوبر = بابه = صفر تولي على مصر علي باشا، ولم يحكم إلا شهرين.

* ١ ينـــاير ١٧٢٦ = ٢٥ كيهك ١٤٤٢ = الثلاث ٢٦ ربيع الثاني ١١٣٨.

* في ينـــاير ١٧٢٦م = كيهك = جماد أول حصلت فتنة فعزلت العسكر علي باشا، وأعادوا محمد باشا الباشيمى قبل أن يسافر من مصر، وسافر على باشا.

هذه البلاد من موارد القطر الداخلية وحدها، وكان لذلك أكبر الأثر في تقرير بونابرت اتباع السياسة الإسلامية التي تهدف إلى استمالة المصريين إلى تأييد الحكم الفرنسي، واقناعهم بأن الفرنسيين ما حضروا إلى بلادهم إلا لتوفير أسباب الحياة السعيدة لهم.

سياسة بونابرت الاسلامية الوطنية:

كان لبونابرت عدة مبادئ وضعها نصب عينيه منذ دخوله الأرا ضى المصرية. وفي مقدمة هذه المبادئ ما اصطلح بتسميته بالسياسة الإسلامية، واستندت هذه السياسة إلى دعائم ثلاث:

١ - التظاهر باحترام الدين الاسلامي والمحافظة على تقاليد أهل البلاد وعاداتهم الدينية.

٢ - محاولة انتزاع المصريين من أحضان الخلافة العثمانية.

٣- إنشاء حكومة وطنية من «عقلاء وأفاضل المصريين.

وفيما يتعلق بالدعامة الأولى من هذه السياسة كان بونابرت قبل حضور إلى مصر قد اهتم بدراسة القرآن الكريم، وسيرة النبي محمد وتار يخ العرب. وبمجر د وصول الأسطول الفرنسي للشواطئ المصرية، أصدر بونابرت - وهو لايزال على ظهر «أوريان» بارجه القيادة ـ منشوراً إلى جنوده في ٢٢ يونيه ١٧٩٨ يطالبهم فيه باحترام شعائر الدين الإسلامي واحترام رجال الدين وأماكن العبادة، ثم أخذ يشرح لهم ظروف المجتمع المصرى الإسلامي واختلافها عن المجتمع الغربي، ولاسيما فيما يتعلق بمركز أوموضع المرأة وشرب الخمر، ثم حذرهم من السلب

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

* ١ توت سنة ١٤٤٣ = ٩ سبتمبر ١٧٢٦= الاثنين ١٢ محرم سنة ١١٣٩.
* ١ يناير ١٧٢٧ = ٢٥ كيهك سنة ١٤٤٣ = الأربع ٨ جماد أول ١١٣٩.
* فيها استقلت روسيا كمملكة، بعد أن كانت إمارة.
* فيها كانت وفاة نيوتن الشهير.

* ١ توت ١٤٤٤ = ١٠ سبتمبر ١٧٢٧ = الأربع ٢٣ محرم سنة ١١٤٠.

* في سبتمبر دوركى الفرنساوى كان أول من افتكر في اختراع رفاص للوابورات البحرية.
* في أكتوبر كان إنشاء رصد خانة أوترخت.
* ١ يناير ١٧٢٨ = ٢٤ كيهك ١٤٤٤ = الخميس ١٨ جماد أول سنة ١١٤٠.
* في فبراير كان اكتشاف بغاز بهرنج.
* في ابريل أطلقت الفرنساوية القنابل على تونس.

* ١ توت ١٤٤٥ = ٩ سبتمبر سنة ١٧٢٨ = الخميس ٤ صفر سنة ١١٤١.
* ١ يناير ١٧٢٩ = ٢٥ كيهك ١٤٤٥ = السبت ٣٠ جماد أول ١١٤١.
*في يناير ١٧٢٩م. أعظم درجة للبرودة في باريس بلغت ١٢,٢ متينية تحت الصفر.
* في يناير = طوبه = عزل العسكر محمد باشا الباشيمى، بعد أن حكم مصر تسع سنين، وتولاها بعده باكير باشا.
* في مارس = برمهات =

والنهب، وأكد لهم أن أكبر ضمان لبقاء النفوذ الفرنسي هو كسب عطف المصرين أو على الأقل عدم خسارة عطفهم أو حيادهم.

* معركة امبابة أو الأهرام

وكما رسم لجنوده خطوط تلك السياسة التى وطد العزم على اتباعها فى مصر، فقد شرع بونابرت يعد الخطة لتوضيح معالم تلك السياسة للمصريين أنفسهم، على أمل استمالتهم إلى جانب حكومته. فأعد منشوراً عى ظهر البارجة «أوريان» وأذاعه عند دخوله الإسكندرية فى ٢ يوليه ١٧٩٨. وتحدث فى هذا المنشور عن سبب مجيئه إ لى مصر، وهو تخليص أهلها من طغيان البكوات المماليك، الذين يتسلطون فى البلاد المصرية و يعاملون «الملة الفرنساوية» بكل احتقار ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدى. وحرص بونابرت على اظهار إسلام جنوده

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

رمضان ابتدئ بوضع النمر على منازل باريس.
* في آخرها عزلت العسكر باكير باشا، ولم يحكم، إلا لسنة واحدة.
* فيها حصل حادث بمصر.

* ١ تـوت ١٤٤٦ = ٩ سبتمبر ١٧٢٩ = الجمعة ١٥ صفر سنة ١١٤٢.
* في سبتمبر = توت ١٤٤٦ = ربيع أول تولى مصر عبدالله باشا الكبورلى، وحصل طاعون شديد يعرف في كتب الافرنج بطاعون كاوى واستمر مدة مع قحط شديد.
* ١ ينـاير ١٧٣٠ = ٢٥ كيهك ١٤٤٦ = الزحد ١١ جماد الثاني ١١٤٢.
* في يناير ١٧٣٠ = طوبه = رجب وقعت محاربات بين جركس بك وذو الفقار مات فيها جركس بك، وبعدها بيومين قتل ذو الفقار في وسط ديوانه بعيارين نارين أطلقا عليه دفعة واحدة بمكيدة من البكوات الذين حصلت بينهم مقتلة عظيمة بخصوص مشيخة البلد.
* في مايو = بشنس = ذو القعدة كانت وفاة بطرس الثاني، وسلطنة آن على الروسيا.
* في يونيو ١٧٣٠ عصت أهالي جزيرة قورسقة على الجنويين.

* ١ تـوت ١٤٤٧ = ٩ سبتمبر ١٧٣٠ = السبت ٢٥ صفر سنة ١١٤٣.
* ١ ينـاير ١٧٣١ = ٢٥ كيهك ١٤٤١ = الاثنين ٢١ جماد الثاني ١٤٣.
* ٢١ تـوت ١٤٤٧ = ٢٩

فبدأ المنشور بالشهادتين وأكد اعتناقه الدين الإسلامي، ودفع عن نفسه ماقد يلصقه به أعداؤه من تهمة المجئ إلى مصر للقضاء على دين أهلها، فذكر أنه «أكثر من المماليك يعبد الله سبحانه وتعالي ويحترم نبيه والقرآن الكريم» واهتم بونابرت باقناع المصريين بأن الفرنسيين أصدقاء للسلطان العثماني، واختتم هذا المنشور بدعوة المصريين إلى الهدوء والسكينة، كما حذرهم من الانحياز إلى جانب المماليك في النضال المنتظر أو مقاومة الفرنسيين.

ومنذ أن دان له الحكم في القاهرة حرص بونابرت على توصية قواده وضباطه في القاهرة والأقاليم، أن يظهروا على الدوام احترامهم العظيم لعقيدة أهل البلاد وشعائرهم الدينية وتقاليدهم. وفي مناسبات عدة، رأى بونابرت أن يظهر هذا الاحترام بصورة واضحة، فترأس مهرجان قطع الخليج وأقام الاحتفال بمولد النبوى. واحتفل الفر نسيون بالموالد الأخرى، وبأول أيام شهر رمضان وكان أسبق الأعياد التي أصر الفرنسيون على الاحتفال بها منذ نزولهم في مصر، إثبات هلال رمضان، وطوال شهر رمضان، ظل أكابر الفرنسيين «يدعوون أعيان الناس والمشايخ والتجار للافطار والسحور، ويعملون لهم الولائم، ويقدمون لهم الموائد على نظام المسلمين وعادتهم»، كما صار الفرنسيون من جانبهم يترددون على المشايخ وكبراء المصريين «ويحضرون عندهم الموائد ويأكلون معهم في وقت الإفطار»، وعند انتهاء شهر الصوم، احتفل الفرنسيون بالعيد الصغير.

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

سبتمبر = ١٥ ربيع أول تسلطن السلطان محمود الأول ابن السلطان مصطفى الرابع، بعد عزل السلطان الغازى أحمد خان الثالث، الذى حكم ٢٧ سنة و ١١ شهرا، وتوفى فى سنة ١١٤٩، وله من العمر ٦٥ سنة، وضرب فى القاهرة فندقلى كانت قيمته إذ ذاك ١٣٤ نصفا فضة، كان يتعامل بها فى سنة ١٢١٣ باعتبار ٣٠٠ نصف فضة عدتها ١٠ فرنكات ونصف، ووجد يومئذ نصف فندقلى وفندقلى ونصف بحساب ذلك، وكان الزر محبوب زمن الفرنساوية يساوى ١٨٠ نصف فضة = ٨ فرنكات ونصف، وكان إذ ذاك زر محبوب مجوز، ونصف زر محبوب، وضرب فى هذه السنة ميدى وزنه نصف جرام، وقيمته سنة ١٢١٢ تعدل ٥,١ سنتيم من الفرنك.

* ١ توت ١٤٤٨ = ١٠ سبتمبر ١٧٣١ = الاثنين ٨ ربيع أول سنة ١١٤٤.

* فى اكتوبر اخترع هاللى آلة الانعكاس المسماة بانسكستان.

* ١ يناير ١٧٣٢ = ٢٤ كيهك ١٤٤٨ = الثلاث ٣ رجب سنة ١١٤٤.

* فى يناير ١٧٣٢ كان نجاح الحملة الاسبانيولولية فى سواحل افريقية.

* فى مارس = برمهات = شوال عزل محمد باشا الكبورلى، بعد أن حكم سنتين، وتولى مصر محمد باشا السلحدار.

* فى أوائلها وصل مصر محمد باشا السلحدار، واليها الجديد.

الشيخ المهدى

الشيخ سليمان الفيومى

الشيخ الشرقاوى

* من أعضاء الديوان الذى أسسه بونابرت

وفيما يتعلق بالدعامة الثانية من دعامات سياسة بونابرت الإسلامية؛ وهى محاولة انتزاع المصريين من أحضان الخلافة العثمانية؛ فإنها أتضح منذ أن أنضمت تركيا إلى جانب انجلترا وروسيا فى إعلان الحرب ضد فرنسا، على أثر تحطيم الأسطول الفرنسى فى معركة أبى قير البحرية. فقد شرع بونابرت منذئذ يبذر بذور التفرقة بين المصريين والعثمانيين، ويظهر السلطان فى صورة من أصبح لايهتم بمصلحة الإسلام ولايحرص على الشريعة المحمدية. وكان من ادعاءاته فى ذلك أن السلطان ظل متمسكا بعلاقات الصداقة مع فرنسا، طالما كانت هذه أمة عريقة فى مسيحيتها، حتى إذا تبدلت الأحوال بها، وأضحى الفرنسيون أكثر عطفا على الإسلام والمسلمين ، وأقرب ميلا إلى تفهم العقيدة الإسلامية، نبذ السلطان صداقتهم.

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

* ١ تـــوت ١٤٤٩ = ٩ سبتمبر سنة ١٧٣٢ = الثلاث ١٩ ربيع أول ١١٤٥.
* في سبتمبر = توت ١٤٤٩ = ربيع ثان اخـتلس كـولي خـان تخت مملكة العجم وفتح مملكة المغول وعـاد مـعـه ٢٣١ مليـون جنيه انكليزي.
* ١ ينـايـر ١٧٣٣ = ٢٥ كيـهك ١٤٤٩ = الخميس ١٥ رجب سنة ١١٤٥.
* في طوبة = يناير ١٧٣٣ = شعبان أنشأ الحاج قاسم محمد الداده الشرايبي التاجر جامع الشرايبي، بشارع بركة الأزبكية.
* فيها كانت وفاة أوجست الثاني ملك بولونيـا، وسلطنة فـريدرك، المعـروف باوجـست الثالث.
* في ابريل = برمودة = ذو القعدة ضرب في مصر معاملة عيـارها كعيـار الفندقلي، وهي أصـغـر منه، ووزنهـا ثلاثة أرباع درهم، وبقي لها اسم زر محبوب واسم دينار.
* فيـهـا كـان طرد الجزويت من بارجوي.
* ١ تـــوت ١٤٥٠ = ٩ سبتمبر سنة ١٧٣٣ = الأربع ٢٩ ربيع أول سنة ١١٤٦.
* في سبتمبر = توت ١٤٥٠ = ربيع ثان تولى مصـر عثمان باشا الحلبي، عوضًا عن محمد باشا السلحدار، الذي حكمهـا سنتين وعزل.
* ١ ينـايـر ١٧٣٤ = ٢٥ كيـهك ١٤٥٠ = الجمعة ٢٥ رجب سنة ١١٤٦.
* فـيـهـا ورد قـابجي باشه بالسكة وإبطال سكة الذهب الفندقلي، وضرب الزر محبوب

ولم يلبث أن عمد بونابرت إلى نقل الوظائف الدينية التي كان يقوم بها العاملون باسم السلطان إلى العلماء والمشايخ المصريين، كما اضطلع هو الآخر بنصيب منها، على غرار ما فعل حين ترأس الاحتفال بحلول شهر رمضان، وهو الاحتفال الذى كان يرأسه الباشا العثماني من قبل.

وعندما خرج قاضي القضاة العثماني إلى الشام، اختار بونابرت لهذا المنصب أحد المصريين وهو الشيخ العريشي. وأفرط بونابرت في محاولته أنتزاع المصريين من أحضان الخلافة العثمانية ، فقال في منشوراته إن الآستانة مقر الخلافة لم يدخل فيها الإسلام ويعتنق أهلها العقيدة الإسلامية، إلا بعد أن كان قد مضى على وفاة الرسول ثلاثة أوأربعة قرون، بل إنه لو عاد النبي الكريم نفسه إلى الأرض مرة ثانية لما ظهر بها، ولما اتخذ مقامه بين أهلها، ولنزل حتما بأرض القاهرة المقدسة وعلى ضفاف النيل.

و لقد اقتضت هذه الدعامة الثانية من دعائم سياسة بونابرت الإسلامية، التقرب من الأمراء المسلمين في أنحاء الشرق الأدنى. فاتصل بأحمد باشا الجزار صاحب عكا، وبحاكم طرابلس، وبشريف مكة، وبسلطان دارفور. واتصل كذلك بامام مسقط (عمان).

وأما فيما يتعلق بالدعامة الثالثة من دعائم سياسة بونابرت الإسلامية، وهي إنشاء ديوان في القاهرة ودواوين في الأقاليم من المشايخ وأعيان البلاد والتجار من المسلمين والعناصر المسيحية

كـامـلا، وصـرفـه ١١٠ نصف فـضـة، وكـذلك سكة النصف محبوب، وصرفه ٥٥ نصفًا، وزاد الفندقلي الموجـود بأيدى الناس ١٢ نصفًا فضة فصار يصرف باعتبار ١٤٦ نصفًا فضة.

* ١ تـوت ١٤٥١ = ٩ سبتمبر ١٧٣٤ = الخميس ١٠ ربيع الثاني ١١٤٧.

* ١ ينـاير ١٧٣٥ = ٢٥ كيهك ١٤٥١ = السبت ٦ شعبان ١١٤٧.

* فيها أنشأ الأمير عثمان كتخدا جامع الكيخيا، بالأزبكية، بجوار ضريح الشيخ محمد أبي قوطة.

* فيها كان صلح فيينا بين الاوستوريا وفرانسا.

* فيها افتتحت الفرنساوية مملكة نابولي.

* فيـهـا أعلن بصيرورة كورسيكا جمهورية.

* ١ تـوت ١٤٥٢ = ١٠ سبتمبر ١٧٣٥ = السبت ٢١ ربيع الثاني ١١٤٨.

* فيها عزل عثمان باشا الحلبي، بعد أن حكم مصر سنتين، فتولى بعده باكير باشا، ثاني مرة، حيث سبق توليته في سنة ١١٤١، ولم يمكث إلا مدة قصيرة.

* ١ ينـاير ١٧٣٦ = ٢٤ كيهك ١٤٥٢ = الأحد ١٦ شعبان سنة ١١٤٨.

* فيها صرخت العامة في وجه باكير باشا لفساد المعاملة، وهي الأخشا والمرادى والمقصوص والفندقلي، فالأخشا صار يصرف ١٦ جـديدًا، والمرادى ١٢، والمقصوص ٨، وصار صرف

الشرقية وعناصر الفرنجة المستقرة في مصر، وذلك لإقامة نوع من الحكم يشرك العناصر الوطنية إشراكا محدوداً في إدارة شئون البلاد، إلى جانب الحكام الفرنسيين ، وتحت إشراف هؤلاء الحكام وسيطرتهم التامة.

ولاشك أن بونابرت لم يستهدف من إنشاء هذه الدواوين تعويد المصريين على الأنظمة النيابية كما يرى بعض المؤرخين الفرنسيين، لأن بونابرت لم يكن يؤ من بالحكم النيابي في فرنسا نفسها ،وإنما هدف من وراء إنشاءها تفهم آراء المصريين ومعر فة نواياهم، كما اراد أن يتخذ من المشايخ ـ أعضاء الدواوين ـ أداة تمكنه من انجاز المشروعات التى صح عزم الفرنسيين على تنفيذها ، وذلك لتجنب حدوث اصطدام بينهم وبين الأهالي.

وكان تأسيس ديوان القاهرة في ٢٥ يوليه ١٧٩٨ ، وتأسيس دواوين الأقاليم في ٢٧ يوليه؛ ثم صدر في ٣أكتو بر أمر بونابرت بتأسيس ديوان عام في القاهرة، يجمع مندوبين عن ديوان القاهرة ودواوين الأقاليم؛ وذلك حتى يستعين بهم في تنظيم شؤن القضاء وحقوق الملكية وطرق توريثها وتحديد الضرائب وجبايتها. وعقد الديوان العام أولى جلساته في ٥ أكتوبر ، واستمر يعقد جلساته حتى ٢٠أكتوبر. ولكن بونابرت لم يعمل باقتراحات الديوان ولاسيما في المسائل المالية. وفي ٢١أ كتوبر فوجئ الفرنسيون بحوادث الأزهر والعوام من المسلمين، وهي الحوادث التى عرفت بثورة القاهرة الأولى، والتى تعتبر دليلا على فشل سياسية بونابرت الإسلامية.

الفندقلي ٣٠٠ نصف، والخيرى ٢٠٠، وغلت بسبب ذلك الأسعار، وكان الذى يباع بالمقصوص يباع بالديوانى.
* فيها عزل باكير باشا، وتولى مصر مكانه مصطفى باشا.

* ١ توت ١٤٥٣ = ٩ سبتمبر سنة ١٧٣٦ = الأحد ٣ جماد أول سنة ١١٤٩.
* ١ يناير ١٧٣٧ = ٢٥ كيهك ١٤٥٣ = ٢٨ شعبان سنة ١١٤٩.
* فيها اتحدت النمسا والروسيا ضد العثمانيين.

* فيها كان ثمن المقطع القماش ٤٥ نصف فضة.

* ١ توت ١٤٥٤ = ٩ سبتمبر ١٧٣٧ = الاثنين ١٤ جماد أول سنة ١١٥٠.
* ١ يناير ١٧٣٨ = ٢٥ = كيهك ١٤٥٤ = الأربع ١٠ رمضان ١١٥٠.
* فيها كان إيجاد السخرة أو العونة فى فرانسا لحفظ الطرق.
* فيها حصلت معاهدة فيينا بين الأوستريا وفرانسا.

* ١ توت ١٤٥٥ = ٩ سبتمبر ١٧٣٨ = الثلاث ٢٤ جماد أول سنة ١١٥١.
* ١ يناير ١٧٣٩ = ٢٥ كيهك ١٤٥٥ = الخميس ٢٠ رمضان سنة ١١٥١.
* فيها هزم العثمانيون النمساويين فى كورتزكا.
* فيها كان التحاق الأفلاق والبغدان والسرب بالممالك العثمانية.
* فيها قاوم الأمراء على الباشا وتحصنوا بجامع السلطان حسن.
* فيها عزل مصطفى باشا،

تمردات القاهرة ١٧٩٨

منذ أن دخل بونابرت القاهرة. حاول بشتى الوسائل استرضاء القاهريين عامة واستمالتهم إلى الحكم الفرنسى الجديد. ولكن جميع أساليبه التى دخلت فى نطاق تلك السياسة الإسلامية التى تحدثنا عنها آنفا، فشلت فى تحقيق أهدافه. وآية ذلك تلك المقاومة العنيفة التى انطلقت تساجل جنوده أينما ساروا أو حلو فى الدلتا والصعيد خلال شهور أغسطس وسبتمبر واكتوبر عام ١٧٩٨، ثم الإضطرابات التى قام بها القاهريون فى أواخر اكتوبر ١٧٩٨. والتى عرفت بثورة القاهرة الأولى.

والسؤال الذى يطرح نفسه: ما هى أسباب تمردات القاهرة الأولى؟ لقد عزا الشيخ عبد الرحمن الجبرتى، قيام هذه الثورة إلى التنظيمات أو الإجراءات الإدارية والمالية الصارمة التى استحدثها الفرنسيون وأثارت الشعب، والتى لم يجد المصريون فى وجودها إلا وسيلة لابتزاز الأموال منهم. ومن أهم هذه الإجراءات: فرض الغرامات، ومصادرة الأملاك، وتحصيل الضرائب، وانشاء المحاكم التجارية أو محاكم القضايا التى تجبى من أصحاب القضايا رسوما تقدر باثنين فى المائة من المبالغ المحكوم بها، وتأسيس مصلحة التسجيلات التى تقوم بتسجيل مستندات التمليك وكل المستندات التى يحتمل أن تصبح موضوع نزاع قضائى، وكذلك تسجيل الوصايا وشهادات الميلاد والعرائض، وتنفيذ الأحكام والحجز وقسائم الطلاق.

١٠٣: يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

بعد أن حكم مصر ثلاث سنين، وتولى بعده سليمان باشا، الشهير بابن العظيم.

* فيها تجددت المعاهدة التجارية المنعقدة بين أوستوريا والباب العالي في سنة ١٦١٥ ميحية.

* ١ توت ١٤٥٦ = ١٠ سبتمبر ١٧٣٩ = الخميس ٦ جماد الثاني ١١٥٢.

* في ٢٣ أكتوبر ـ كان إعلان الحرب بين انكلترة وأسبانيا.

* فيها ضرب كولي خان بلاد الهندستان.

* ١ ينساير ١٧٤٠ = ٢٤ كيهك ١٤٥٦ = الجمعة غرة شوال ١١٥٢.

* فيها كانت حروب الوراثة النمساوية ضد الملكة ماريا تريزة.

* في ٢٣ بشنس = ٣٠ مايو عقدت معاهدة بين حكومة فرانسا، تحت سلطة لويس الخامس عشر، والسلطان محمود.

* فيها أنشى في انكلترة أول معمل لصب الحديد.

* ١ توت ١٤٥٧ = ٩ سبتمبر ١٧٤٠ = الجمعة ١٧ جماد الثاني سنة ١١٥٣.

* فيها ذبحت الهولانديون صينين جافا.

* فيها عزل سليمان باشا بعد أن حكم سنة، وتولى مصر بعده علي باشا حكيم أوغلي.

* ١ يناير سنة ١٧٤١ = ٢٥ كيهك ١٤٥٧ = الأحد ١٣ شوال سنة ١١٥٣.

* فيها اتحد لويس الخامس عشر مع دوك باڤاريا.

في جملة واحدة، كان السبب المباشر لاشتعال تمردات القاهرة الأولى كما يقول الجبرتي ، هو تلك الضرائب الجديدة التي أمر بها بونابرت في أكتوبر ١٧٩٨ (وأقرها الديوان العام في ٢٠ أكتوبر) بفرضها على الأملاك والقضايا والمباني: كالحمامات والخانات والحوانيت والمقاهي وطواحين الغلال والمعاصر والسيارج والبيوت والغرف.

ولكن هذه الضرائب وتلك الإجرءات والوسائل المالية الى ابتدعها الفرنسيون. لم تلحق ضرراً كبيراً إلا بالموسرين من القاهريين الذين حركوا العوام للتمردات.

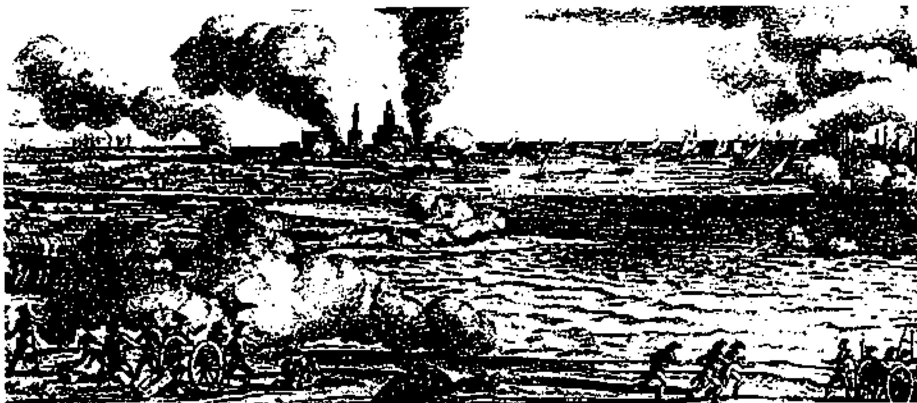

موقعة أبي قير البحرية وتحطم الاسطول الفرنسي

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

* فيها أعلن سلطنة شارل البرت على الهولاندة.
* فيها عزل على باشا حكيم أوغلى، بعد أن حكم سنة، وتولى مصر بعده يحيى باشا.

* ١ تـوت ١٤٥٨ = ٩ سبتمبر ١٧٤١ = السبت ٢٧ جماد الثاني سنة ١١٥٤.
* فيها كان خلع القيصر إيوان السادس.
* فيها كان تبوؤ إيليزابيته على كرسى سلطنة الروسيا.

* ١ يناير ١٧٤٢ = ٢٥ كيهك ١٤٥٨ = الاثنين ٢٣ شوال سنة ١١٥٤.
* فى ١٠ يناير أعظم درجة للبرودة في باريس بلغت ١٧ درجة مئينة تحت الصفر.
* فيها افتتح فريدريك الثانى جزيرة سيسيليا.
* فيها احتلت النمساويون فيتج.
* فيها الاسبانيوليون شنوا الغارة على السافوا.

* ١ تـوت ١٤٥٩ = ٩ سبتمبر ١٧٤٢ = الأحد ٩ رجب سنة ١١٥٥.
* ١ يناير ١٧٤٣ = ٢٥ كيهك سنة ١٤٥٩ = الثلاث ٤ ذو القعدة سنة ١١٥٥.
* فيها حصل طاعون شديد فى سيسيليا.
* فيها عزل يحيى باشا، بعد أن حكم مصر سنتين، وتولى بعده محمد باشا اليدكشى.
* فيها اخترع بوجيه الآلة المسماة بالهليومتر، وهى الآلة التى يقاس بها القطر الظاهرى للشمس.

والذين قاموا بالدور الأكبر فى هذه الثورة، هم عامة القاهريين، الذين أشار إليهم الجبرتى تارة «بالحرافيش» وتارة أخرى «بالزعر» وتارة ثالثة «بالغوغاء». وهؤلاء دون أدنى شك كانوا من الحر فين، بالإضافة إلى صغار مشايخ الأزهر، الذين كانوا بمثابة عقل الثورة المفكر.

فما هى الأسباب الحقيقة التى فجرت هذه التمردات؟ الواقع أنه يمكن تلخيص هذه الأسباب على النحو التالى:

أولا ـ الدعاية المضادة التى أطلقها رسل الجزار باشا (حاكم صيدا وعكا وصاحب السلطان فى فلسطين) وتحريضات بكوات المماليك الذين خرجوا من مصر إلى الشام، وكذلك تحريضات العثمانيين المتربصين على أبواب البلاد. فمن الشام، صار الجزار باشا وإبراهيم بك يرسلون إلى مصر رسلا، يحملون فرمانات السلطان سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧) التى دعا فيها المسلمين لإشعال حرب دينية مقدسة ضد الفرنسيين، وقرأها الأئمة علنا فى المساجد. ووصفت هذه الفرمانات الفرنسيين بأنهم كفر ة، وأعداء ليس فقط للاسلام بل لجميع الديانات، وأعلنت أن جيوش الإمبراطورية العثمانية سوف تأتى سريعاً لسحقهم. وقد لقيت دعوة الجهاد المقدس آذانا صاغية لدى جماهير المعممين، فأخذ أئمة المساجد يحرضون الناس فى خطبهم على الثورة، كما راح المؤذنون يعلنون من فوق المآذن الدعوة إلى الجهاد ضد الكفار الظالمين.

ثانياً ـ إشتداد المحتلين الفرنسيين فى التضييق على حياة الناس الخاصة وحرياتهم، فأوجدوا الشئ الكثير من المستحدثات التى لم يألفها المجتمع المصرى من قبل، التى عدها الناس تدخلا فى حياتهم ومعاشهم. ومن هذه المستحدثات:

---

* ١ تـــوت ١٤٦٠ = ١٠ سـبـتـمـبـر ١٧٤٣ = الثلاث ٢١ رجب ١١٥٦.

* فـيـهـا حـصلت فـتنة بين عـثـمـان بك، شـيـخ البلد، والبكوات، انتهت بفرار عثمان بك إلى سوريا ومنها إلى الآستانة، فولى بروحه حتى توفاه الله، وقد أحرقت الأهالي بيت عثمان بك واقتسموا أمواله وتركته بمصر، وبعد مقتلة عظيمة بين البكوات تولى إبراهيم كخيا مشيخة البلد، وسمي رضوان بك أميرا للحج.

* ١ يناير سنة ١٧٤٤ = ٢٤ كيهك سنة ١٤٦٠ = الأربع ١٦ ذو القعدة ١١٥٦.

* فيها كان إعلان الحرب بين فرانسا وانكلترة.

* فـيـهـا استولى فريدريك الثاني على براجواي.

* فـيـهـا برهنت علمـاء الفـرنسـاوية على فطحـة الكرة الأرضـية بقياس عدة درجات من الخطوط الجانبية.

* ١ توت سنة ١٤٦١ = ٩ سـبـتـمـبـر ١٧٤٤ = الأربع غرة شعبان سنة ١١٥٧.

* ١ يـنـايـر ١٧٤٥ = ٢٥ كيهك ١٤٦١ = الجمعة ٢٧ ذو القعدة سنة ١١٥٧.

* فيها عزل محمد باشا اليدكشي، بعد أن حكم مصر سنتين، وتولى بعده محمد راغب باشا.

* فيها أخذ الانكليز لويز بورج من الفرنساوين في أميركا.

* ١ تـــوت ١٤٦٢ = ٩ سـبـتـمبر سنة ١٧٤٥ = الخميس ١١ شعبان سنة ١١٥٨.

* ١ يـنـايـر ١٧٤٦ = ٢٥ كـيـهـك ١٤٦٢ = السبت ٨ ذو الحجة ١١٥٨.

* احتفال الفرنساوية بوفاء النيل

(أ) التراخيص التى ألزم الفرنسيون أصحاب المهن والأعمال باستخراجها حتى يتسنى لهم مزاولة أعمالهم؛ كان هؤلاء يحصلو عليها مقابل دفع رسوم معينة حدد الفرنسيون فياتها.

(ب) عمليات توسيع الطرق التى لجأ إليها الفرنسيون من أجل تسهيل تنقل جنودهم فى أحياء القاهرة. ترتب على هذه العمليات إزالة جميع أبواب الحارات التى تفصل أحياء المدينة عن بعضها . وهدم المنازل والمساجد التى تعترض عمليات التوسيع.

(ج) إرغام الأهالى على إضاءة الشوارع والحارات والأسواق بالقناديل (الفوانيس) وتوقيع العقوبات على المقصرين. وقد تعرض الفقراء بسبب ذلك إلى متاعب كثيرة، ذلك أن الحراس

١٠٣: بوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

* فيها وصل إبراهيم كيخيا للاستحواذ على مصر بكثرة رجاله وجيشه، لأنه كان من مماليكه ثمانية حكام بالمديريات اشترى مناصبهم لهم من الباشا الوالي، فكان ذلك داعيا لعلو كلمته، وصارت أوامر الوالي منبوذة، واستمر ذلك حتى مات.
* فيها كان استيلاء الماريشال دوساكي على بروكسيلة.
* فيها استولت النمساويون على جنوا وبليزانس.

* ١ تـــوت ١٤٦٣ = ٩ سبتمبر ١٧٤٦ = الجمعة ٢٢ شعبان سنة ١١٥٩.
* فيها استولت الانكليز على مدارس بالهند.
* فيها حصلت زلازل في ليما من بيرو.
* ١ ينـاير سنة ١٧٤٧ = ٢٥ كيهك سنة ١٤٦٣ = الأحد ١٨ ذو الحجة ١١٥٩.
* فيها اكتشف برادلي حركة محور الأرض.
* وفي ١٤ يناير أعظم درجة للبرودة في باريس بلغت ١٣,٦ درجة مئينية تحت الصفر.
* فيها كان قتل كولي خان غدرا.
* فيها كان اكتشاف سكر البنجر، المعروف بالسكر الأفرنكي، وهو أقل درجة من سكر القصب، أي أقل درجة من السكر المصري.

* ١ تـــوت ١٤٦٤ = ١٠ سبتمبر ١٧٤٧ = الأحد ٥ رمضان سنة ١١٦٠.
* ١ ينـاير ١٧٤٨ = ٢٤ كيهك ١٤٦٤ = الاثنين ٢٩ ذو الحجة ١١٦٠.

كانوا يطوفون في أثناء الليل لملاحظة القناديل المعلقة على البيوت، فإذا «وجدوا قنديلا أطفاه الهواء وفرغ زيته، سمروا الحانوت أو الدار التي هو عليها ، ولا يقلعون المسمار حتى يصالحهم صاحبها على ما أجروه من الدراهم، وربما تعمدوا كسر القناديل لأجل ذلك».

(د) الإجراءات الصحية التي استحدثها الفرنسيون بخصوص دفن الموتى ومكافحة الأوبئة ولاسيما وباء الطاعون، ورغم فوائد هذه الإجراءات من الناحية الصحية، فقد عظم شكوى الأهلين منها واعتبروها «بدعا» وتدخلا من السلطات المحتلة في صميم حياتهم. فقد منع الفرنسيون الأهالي من دفن موتاهم في المقابر القريبة من المساكن، و حتموا عليهم دفن الموتى في المقابر البعيدة وإذا دفنوا يبالغون في تسفيل الحفر، وأرغم الفرنسيون الأهالي كذلك على نشر متاعهم وملابسهم على أسطحة المنازل حتى تقتل الشمس جراثيم الأمراض، وتطهير منازلهم وتنظيفها ورشها، وعينوا «لكل حارة إمراة ورجلين ، يدخلون البيوت للكشف عن ذلك، فتصعد المرأة إلى أعلى الدار وتخبرهم عن صحة نشرهم الثياب، ثم يذهبوا بعد التأكيد على أهل المنزل والتحذير من تلك الفعل».

وعلى كل حال، فقد كان تجمهر الأزهريين وعامة القاهريين في صبيحة يوم ٢١أكتوبر ١٧٩٨للاحتجاج، هي الشرارة التي اندلعت منها تمردات القاهرة الأولى. إذ سرعان ما اتجهت

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

* فيها قامت فتنة بين الدمايطة ورئيسهم على بك الدمياطي وبين القطامشة ورئيسهم إبراهيم بك قطامش، وبعد هروبه انتصرت الدمايطة على أخصامهم.

* فيها عزل محمد راغب باشا، بعد أن حكم مصر سنتين ونصفا جرى فيها فتن كثيرة، فتولى بعده أحمد باشا، المعروف بكور وزير.

* فيها أعظم درجة للبرودة في باريس بلغت ١٥,٣ سنتيغراد تحت الصفر.

* بها اخترع لورواى الأشايمان، وهى الماشة المستعملة في الساعات الدقيقة.

* ١ توت ١٤٦٥ = ٩ سبتمبر ١٧٤٨ = الاثنين ١٦ رمضان سنة ١١٦١.

* ١ يناير ١٧٤٩ = ٢٥ كيهك ١٤٦٥ = الأربع ١١ محرم سنة ١١٦٢.

* في محرم وصل مصر واليها الجديد أحمد باشا، المعروف بكور وزير.

* ١ توت ١٤٦٦ = ٩ سبتمبر ١٧٤٩ = اللاث ٢٦ رمضان سنة ١١٦٢.

* ١ يناير ١٧٥٠ = ٢٥ كيهك ١٤٦٦ = الخميس ٢٢ محرم سنة ١١٦٣.

* فيها كانت سلطنة يوسف الأول على البورتغال.

* فيها عزل أحمد باشا، المعروف بكور وزير، بعد أن حكم مصر سنتين، وتولى بعده شريف عبدالله باشا.

* فيها كانت زلازل عظيمة في انجلترة.

الجموع الثائرة إلى حى الأزهر ، وامتلأت طرقات الحى بالجماهير المسلحة بالبنادق والرماح والسيوف والعصى. ثم انطلقوا إلى أحياء الفرنسيين ومهاجمتها؛ واستولوا على المواقع المحيطة بمعظم أحياء القاهرة، واخذوا يطلقون النار من خلالها.

وكان بونابرت وقت اندلاع التمرد خارج القاهرة، فعاد إليها مسرعاً ونصب المدافع على تلال المقطم لتعاون مدافع القلعة فى إطلاق القنابل على المتمردين فى حى الأزهر مركز التمرد. ويؤخذ من رواية الجبرتى ومن رواية الفرنسيين أنفسهم، أنه فى اليوم الثانى للثورة (٢٢أكتوبر) حين شرع العامة والمعممين فى مهاجمة حى الأزبكية مقر القيادة الفرنسية العامة، كان الجنود الفرنسيون يهاجمون حى الأزهر.

وظل الجنود الفرنسيو ن يحتلون الأزهر حتى ذهب وفد من المشايخ إلى بونابرت يطلبون منه الجلاء عنه ، فكان ذلك نهاية التمردات التى أستمرت ثلاثة إيام (٢١ - ٢٣أكتوبر ١٧٩٨).

وانتقم الفرنسيون من سكان القاهرة والضواحى الذين اشتركوا فى التمردات وهاجموا وحرقوا بيوت عرب قليوب وخيامهم، وذبحوا رجالهم وقتلوا نساءهم وأولادهم، وأعدموا شيخهم سليمان الشواربى الذى كان قد حضر إلى القاهرة مع بعض البدو وقاموا بأعمال

* فيها كانت ترتيب الجندرمة في فرانسا.

* ١ توت سنة ١٤٦٧ = ٩ ستمبر ١٧٥٠ = الأربع ٧ شوال ١١٦٣.

* فيه وصل مصر واليها الجديد شريف عبدالله باشا.

* ١ ينايـر ١٧٥١ = ٢٥ كيهك ١٤٦٧ = الجمعة ٢٣ ر سنة ١١٦٤.

* فيها كان ايجاد مهندسي القناطر والجسور في فرانسا.

* فيها كان تأسيس المدرسة الحربية الفرنساوية في سان دومارس.

* فيها كان بمصر سعر الأردب القمح ١٢٠ فضة، وطاقة الشاش ١١٠ فضة، ومقطع القماش ٦٠ فضة، والزر محبوب ١١٠ انصاف فضة.

* ١ توت سنة ١٤٦٨ = ١٠ سبتمبر ١٧٥١ = الجمعة ١٩ شوال ١١٦٤.

* فيها كان بمصر ثمن القنطار المسلى ٨٠ فضة، وثمن رأس الغنم كذلك.

* ١ ينـايـر ١٧٥٢ = ٢٤ كيهك ١٤٦٨ = السبت ١٣ صفر ١١٦٥.

* فيها أنشأ الأمير عبدالرحمن كتخدا جامع رحبة عابدين برحبة عابدين.

* فيها ابتدأت الانجليز باستعمال التقويم الجريجورياني.

* فيها اكتشف فرنكلين مانعة الصواعق.

*١ تـوت ١٤٦٩ = ٩ سبتمبر ١٧٥٢ = السبت ٢٩ شوال ١١٦٥.

النهب والسلب. وزيادة على ذلك، فقد أعدموا صغار المشايخ الذين حرضوا على التمرد. وأحاطوا القاهرة وضواحيها بالحصون والقلاع والمعاقل، وأبطل بونابرت جلسات الديوان مدة شهرين، ولم يعد تأليفه إلا في شهر ديسمبر ١٧٩٨، حين قرر الخروج بحملته في الشام.

حملة الشام:

تتصل هذه الحملة اتصالا مباشراً بموقف الدولة العثمانية من الحملة الفرنسية في مصر، و كانت الدولة العثمانية قد بدأت تحس بالانزعاج من نشاط الفرنسيين في الجزر الأيونية (اليونانية) عقب الحملة الفرنسية على ايطاليا، وازداد قلقها عند احتلال الفرنسيين لمالطة، ثم عند نزولهم في مصر. وكان أمام الباب العالي أن يختار بين ثلاثة مواقف:

أولا ــ أن يعلنها حربا سافرة على فرنسا لاعتدائها على إحدى الممتلكات العثمانية.

ثانياً ــ أن يعلن رضاءه عما فعلته فرنسا ويجرى مفاوضات لعقد تحالف معها.

ثالثاً ــ أن يتظاهر بر ضاه عن الاحتلال الفرنسي لمصر، ويسعى سراً لوضع كافة العراقيل الممكنة أمام الحملة دولياً، وداخل مصر، وفي الممتلكات العثمانية المجاورة لمصر.

وهذا الموقف الأخير أقرب إلى عقلية الساسة العثمانية، كما أنه أكثر ملاءمة لوضع الدولة

* فيها كان مايرأول من افتكر وتصور تكرار الزوايا.
* ١ يناير سنة ١٧٥٣ = ٢٥ كيهك سنة ١٤٦٩ = الاثنين ٢٥ صفر ١١٦٦.
* فيها كانت الأسعار بمصر رخية والأحوال مرضية.
* فيها عزل شريف عبدالله باشا، والى مصر، بعد أن حكمها ثلاث سنين، وتولى بعده محمد أمين باشا.
* فيها كان إنشاء المتحف (أى دار الانتيكات) البريطاني.
* فى ٧ يوليه أعظم درجة للحرارة في باريس كانت ٣٥,٦ مئينية فوق الصفر.
* فيه توفى والى مصر محمد أمين باشا، ولم يحكم إلا شهرين، فتولى عليها بعده مصطفى باشا.

* ١ توت ١٤٧٠ = ٩ سبتمبر ١٧٥٣ = الأحد ١١ ذو القعدة سنة ١١٦٦.
* ١ يناير ١٧٥٤ = ٢٥ كيهك ١٤٧٠ = الثلاث ٦ ربيع أول ١١٦٧.
* فى ٨ يناير أعظم درجة للبرودة فى باريس بلغت ١٤,١ مئينية تحت الصفر.
* فيها وقعت حروب بين الفرنساوية والانجليز فى كندا.
* فيها كانت معاهدة مادراس بين الفرنساوية والانجليز.
* فيها عصت أهالى قورسقة على الجنويين.
* فيها أعيد ترتيب البرلمان فى باريس.
* فى ١٤ يوليه أعظم درجة للحرارة بلغت فى باريس ٣٤,٧ مئينية فوق الصفر.

العثمانية المتدهور. وبقيت الدولة العثمانية على هذا الموقف، حتى وصلت أنباء هزيمة الأسطول الفرنسي فى موقعة أبى قير البحرية، فأصدرت الأوامر بالقبض على القائم بأعمال السفارة الفرنسية وجميع رعايا فرنسا فى العاصمة والقائهم فى السجون. فكان معنى ذلك التصرف انقطاع العلاقات بين البلدين وإعلان الحرب من جانب تركيا على فرنسا.

ولم تلبث وزارة الخارجية العثمانية أن دخلت مع انجلترا من جهة أخرى فى مفاوضات، أسفرت عن عقد محالفة دفاعية هجومية لمدة ثمان سنوات بين روسيا وتركيا (٢٥ ديسمبر ١٧٩٨) وعن عقد محالفة بين انجلترا وتركيا (٥يناير ١٧٩٩) . وبذا مهد عقد هاتين المعاهدتين لتأليف المحالفة الدولية الثانية ضد فرنسا. إذا أنه سرعان ما انضمت مملكة نابولي إلى الحلفاء ، كما ضغطت انجلترا وروسيا على الحكومة النمساوية، فأعلنت النمسا الحرب على فرنسا في ٢٤يناير ١٧٩٩، وظلت بروسيا وحدها خارجة عن نطاق هذه المحالفة.

و بينما كانت تجرى إجرءات تأليف المحالفة الدولية الثانية ضد فرنسا، كان الأتراك فى الشام يقومون باستعدادات ضد الحملة الفرنسية فى مصر ، مما جعل بونابرت يتأهب

* ١ توت سنة ١٤٧١ = ٩ سبتمبر ١٧٥٤ = الاثنين ٢١ ذو القعدة ١١٦٧.
* في ١٣ القعدة حصلت زلازل عظيمة في الآستانة ومصر.
* في ٢١ صفر كان وفاة السلطان محمود الأول ابن السلطان مصطفى الثاني، وله من العمر ٦٠ سنة، حكم منها ٢٥ سنة، وفي ٢٨ منه تسلطن بعده السلطان عثمان خان الثالث ابن السلطان مصطفى الثاني.
* ١ يناير سنة ١٧٥٥ = ٢٥ كيهك ١٤٧١ = الأربع ١٧ ربيع أول ١١٦٨.
* فيها بلغت أعظم درجة للبرودة في باريس إلى ١٥,٦ درجة مئينية تحت الصفر.
* فيها استولت الانكليز على ٣٠٠ سفينة تجارية فرنساوية.
* فيها كانت زلازل في كيتو وفي لشبون.
* فيها كان اكتشاف آثار بويمبيه.
* فيها أعظم درجة للحرارة في باريس كانت ٣٤,٧ مئينية فوق الصفر.
* ١ توت ١٤٧٢ = ١٠ سبتمبر ١٧٥٥ = الأربع ٣ ذو الحجة ١١٦٨.
* ١ يناير سنة ١٧٥٦ = ٢٤ كيهك ١٤٧٢ = الخميس ٢٨ ربيع أول ١١٦٩.
* فيها كان ابتداء حروب السبع سنين.
* فيها كان اتحد الانكليز والبروسيا.
* فيها عزل مصطفى باشا، بعد أن حكم مصر ثلاثين سنين، وتولى بعده على باشا حكيم

في يناير ١٧٩٩ للزحف على بلاد الشام. وحتى يسبق أعداءه بدء الهجوم من جانبه. وقبل أن يغادر بونابرت القاهرة على رأس حملة الشام، كتب إلى حكومة الإدارة مبيناً أسباب هذه الحملة، وهي:

١ - تأمين المستعمرة الفرنسية في مصر، بإنشاء معاقل عسكرية فرنسية وراء صحراء سيناء، لتقابل القوات العثمانية ، ولتحول بين اى اتصال بين هذه القوات العثمانية الموجودة في بلاد الشام من ناحية، وأى قوات عثمانية تنزل على الشواطئ المصرية ، أو أى قوات أجنبية آخرى تدفع بها انجلترا إلى الشواطى المصرية.

٢ - الضغط على الباب العالى لكي يتخذ موقفاً وديا نحو فرنسا، ولكي يوافق على فتح باب المفاوضات بين فرنسا والباب العالي.

٣ - حرمان الأسطول البريطاني من مراكز التموين على طول سواحل بلاد الشام.

وهكذا يتضح أن غرض هذه الحملة يرتبط بالموقف العسكرى في مصر، والرغبة في تأمين المستعمرة الفرنسية في هذه ا لبلاد ، وضرب القوات العثمانية المتجمعة في بلاد الشام، بالإضافة إلى الضغط على الباب العالي سياسياً.

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

أوغلي، وهذه هي ثانية ولاية له على مصر.
* فيها كان انهزام النمساويين في لو، أمام البروسيانين.
* فيها كانت معاهدة فرساليه بين الاوستوريا وفرانسا.

* ١ تـوت ١٤٧٣ = ٩ سبتمبر ١٧٥٦ = الخميس ١٤ ذو الحجة سنة ١١٦٩.
* ١ ينـاير ١٧٥٧ = ٢٥ كيهك ١٤٧٣ = السبت ٩ ربيع الثاني ١١٧٠.
* فيها مات إبراهيم كيخيا فانتقلت الكلمة لعتقائه.
* فيـهـا أنشـأ الأمـيـر عبـدالرحـمن كـتـخـدا جـامع الكردى بالحسينية.
* فيها كانت سيادة الانكليز في الهند بعد حرب بلاسى.

* ١ تـوت ١٤٧٤ = ٩ سبتمبر سنة ١٧٥٧ = الجمعة ٢٤ ذو الحجة ١١٧٠.
* في ١٦ منه كـانت وفـاة السلطان عثمان خان الثالث ابن السلطان مصطفى الثاني، وله من العمـر ٦٠ سنة، حكم منهـا ٣ سنين و ١١ شـهـرا، ثم تسلطن بعـده، في يومـهـا، السلطان مـصطفى خـان الثـالث ابن السلطان أحمد الثالث.
* ١ ينـايـر ١٧٥٨ = ٢٥ كيهك ١٤٧٤ = الأحد ٢٠ ربيع الثاني ١١٧١.
* فـيـهـا ضـرب مـيـدى وزنه يقـرب من عـشـر درهم وعـيـاره النصف فضة تقريبا، وقيمته ٣,١ سنتيم.
* فيها عزل علي باشا حكيم أوغلي، بعـد أن حكم مـصـر

وفي ١٠ فبراير ١٧٩٩، غادر بونابرت القاهرة على رأس الحملة، فاستولى على العريش في ٢٠ فبراير ثم غزة والرملة واللد ويافا في شهر مارس. وفي يافا وجد بونابرت عدداً كبيراً من المصريين المحتمين في قلعتها، ومن بينهم السيدعمر مكرم، فلم يتعرض لهم بسوء، بل أعطاهم الأمان، وأمر برجوعهم إلى بلدهم مكرمين.

غير ان وباء الطاعون سرعان ما انتشر بين الجند المرابطين في يافا، وزاد من خطره وجود

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

ستين، وتولى بعده محمد سعيد باشا.
* فيها نقص وزن الزر محبوب، فصار كل مائة محبوب ٨٤ درهما.
* فيها كان إنشاء بريد صغير لباريس.
* فيها كان بناء البانتليون.

* ١ توت ١٤٧٥ = ٩ سبتمبر ١٧٥٨ = السبت ٦ محرم سنة ١١٧٢.
* فيها اخترع دولاند النظارات الاكرومانية، أى التى ترى الصور بدون ألوان أجنبية.

* ١ يناير ١٧٥٩ = ٢٥ كيهك ١٤٧٥ = الاثنين ٢ جماد أول ١١٧٢.
* فيها كان طرد الجزويت من البورتغال.
* فيها أنشا الأمير عبدالرحمن كتخدا جامع الحنفى، بقنطرة الموسكى.
* فيها كان استيلاء الأنكليز على كويك.
* فيها كان انتصار الروسيين على البروسيانيين فى كوتر سدروق.

* ١ توت سنة ١٤٧٦ = ١٠ سبتمبر ١٧٥٩ = الاثنين ١٧ محرم سنة ١١٧٣.
* فيها كان انهدام بعلبك وطرابلس بسبب زلازل عظيمة حصلت فى ١٤ ربيع ثانى.
* فيها عزل محمد سعيد باشا، بعد أن حكم مصر ستين، وتولى بعده مصطفى باشا.
* ١ يناير ١٧٦٠ = ٢٤ كيهك ١٤٧٦ = الثلاث ١٢ جماد أول ١١٧٣.
* فيها جدد الأمير عبد الرحمن كتخدا رحاب السيدة

حوالى ثلاثة آلاف أسير من أسرى العثمانين فى حالة رثة سيئة ، فكثرت الإصابات بين الفرنسيين . ولما كان هؤلاء متذمرين من قلة ما لديهم من مؤن، وكان الجيش على وشك استئناف الزحف على العدو، فقد بات من واجب قائد الحملة أن يفصل فى أمر هؤلاء الأسرى. هل يرسلهم إلى مصر؟ إن ذلك يتطلب أن يرافقهم عدد من الجنود الفرنسيين كحراس ، ولم يكن بونابرت يستطيع أن يستغنى عن جندى واحد من جنوده. هل يطلق سراحهم بعد أن يأخذ عليهم تعهدات بألا ينضموا إلى القوات المعادية له؟ لايستطيع بونابرت أن يفعل ذلك أيضا، لأنه جرب هذا الأسلوب فى غزة، و تعهد له الأسرى بعدم محاربة الجيش الفرنسى لعام كامل، فعندما دخل يافا وجدهم هناك.

لجأ بونابرت إلى طريقة بربرية للتخلص من مشكلة هؤلاء الأسرى، فأعدمهم رمياً بالرصاص. ولاشك أن هذه الجريمة البشعة كانت وصمة عار فى جبين قائد الحملة، وذلك باعتراف المؤرخين الفرنسيين أنفسهم، لأنه مهما كانوا فقد آثرو التسليم، وفق شروط اتفقوا عليها مع قواد بونابرت، وما كان ينبغى بأى حال من الأحوال، ومهما كانت الدوافع أو الأسباب ، أن يخلف الفرنسيون وعودهم، وأن يخرقوا قوانين الحرب المعترف بها.

وبعد سقوط يافا، استأنف بونابرت زحفه، فاحتل حيفا، ثم وصل إلى عكا، وكانت ذات تحصينات منيعة. فبدأ بونابرت فى حصارها فى ١٨ مارس، وكان حصاراً شاقاً طويلا استمر ثلاثة شهور، صمدت فى أثنائه عكا أمام قوات بونابرت، بفضل ما أبداه أحمد باشا الجزار من

زينب، رضي الله عنها، ووسعه، وبنى بجوارها رحاب سيدى محمد العتريس، أخى سيدى إبراهيم الدسوقى، وفيها جدد المذكور جامع السيدة سكينة، بشارع الخليفة.

* فيها افتكر جورج بتراج، الفرنساوى، باصطناع آله التلغراف.

* فيها حاصرت البروسيانيون درسده بدون فائدة ولا طائل.

* فيها كان أول استعمال مانعة الصواعق التى اكتشفها فرنكلين سنة ١٧٥٢.

* ١ تـوت ١٤٧٧ = ٩ سبتمبر سنة ١٧٦٠ = الثلاث ٢٨ محرم سنة ١١٧٤.

* فيها استولت النمساويون على غلاتز، والروسيون على برلين. * فيها افتتحت الانكليز كندا.

* فيها كانت وفاة جورجى الثانى، وسلطنة جورجى الثالث على انكلترة.

* ١ ينـاير ١٧٦١ = ٢٥ كيهك ١٤٧٧ = الخميس ٢٤ جماد أول ١١٧٤.

* فيها عزل مصطفى باشا، بعد أن حكم مصر سنة واحدة، وتولاها بعده أحمد كامل باشا.

* فيها انهزمت الفرنساوية انهزاما بحريا فى الهندستان.

* فيها استولت الانجليز على بوندشيرى بالهند.

* ١ تـوت ١٤٧٨ = ٩ سبتمبر ١٧٦١ = الأربع ٩ صفر سنة ١١٧٥.

* فيها الأمير عبدالرحمن كتخدا أجرى عمارة عظيمة فى جامع سيدنا الحسين وزاد فى تحسينه وورنقه، كذا فى جامع

ضروب المقاومة العنيدة، وما أبدته حاميتها من ضروب البسالة، وبفضل مساعدة الأسطول البريطانى من البحر، الذى استطاع أن يبقى الطريق مفتوحاً لوصول النجدات من رودس إلى عكا، وأن يشتت أسطولا فرنسياً كان يحمل مدافع الحصار إلى بونابرت.

وفى أثناء الحصار استطاعت قوة فرنسية بقيادة كليبر أن تهزم قوات العثمانيين المحتشدة فى تل طابور (إلى الجنوب الشرقى من عكا) فى ١٦ أبريل ١٧٩٩، مما جعل الطريق مفتوح أمام بونابرت لاستئناف زحفه. ولكن وجود معقل الجزار باشا الحصين فى عكا، كان يهدد دائما مؤخرة الجيش الفرنسى، إذا استمر بونابرت فى زحفه شمالا. ومن ثم، فقد اضطر بونابرت فى ١٧ مايو إلى إعلان عزمه على العودة إلى مصر. وفى ٢٠ مايو صدرت الأوامر النهائية باتخاذ الترتيبات اللازمة لتنظيم تقهقر الجيش من عكا والعودة إلى مصر، فغادر الجيش عكا مقهقراً إلى يافا وغزة والعريش. وفى ١٤ يونيه دخل بونابرت القاهرة دخول المنتصر.

والسؤال الذى لابد أن يطرح : هل كان بونابرت محقا عندما اعتبر أنه حقق جميع أهداف حملة ا لشام؟ الواقع أنه فى إطار الاعتبارات التى أشار إليها بونابرت إلى حكومة الإدارة قبل مغادرته القاهرة فى طريق إلى العريش، يمكن القول بأن الحملة على بلاد الشام قد حققت آهم أهدافها، إذ ضربت بالفعل القوات العثمانية المتجمعة فى بلاد الشام، بحيث أنه كان لا مفر من انقضاء وقت طويل قبل أن تتجمع قوات عثمانية أخرى فى بلاد الشام . غير أن بونابرت لم يتمكن من تحطيم قوة أحمد باشا الجزار ، بسبب فشله فى الاستيلاء على عكا،

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

السيدة عائشة النبوية، بقرب ميدان محمد علي.

* في ١٢ ربيع الثاني حصلت زلازل عظيمة في سوريا.

* ١ يناير سنة ١٧٦٢ = ٢٥ كيهك سنة ١٤٧٨ = الجمعة ٥ جماد الثاني ١١٧٥.

* فيها كانت ولادة السلطان الغازي سليم خان الثالث.

* فيها عزل العسكر أحمد كامل باشا، بعد أن حكم سنة، وأرجعوا مصطفى باشا، الذي كان قبله، وعرضوا ذلك للدولة، فأمرت أن أحمد باشا يكون واليا في قونية ومصطفى باشا في حلب، وباكير باشا في مصر، فتولاها شهرين ثم توفي.

* فيها فقدت الفرنساويون والاسبانيوليون مستعمراتهم.

* فيها كانت نهاية المحاربات بين البروسيا وبين أسوج.

* ١ توت ١٤٧٩ = ٩ سبتمبر سنة ١٧٦٢ = الخميس ١٩ صفر سنة ١١٧٦.

* فيها تولى مصر حسن باشا بعد وفاة باكير باشا.

* فيها عزل بطرس الثالث الروسي وسجن ثم قتل.

* ١ يناير ١٧٦٣ = ٢٥ كيهك ١٤٧٩ = السبت ١٥ جماد الثاني سنة ١١٧٦.

* في ٢٦ منه عقدت معاهدة الصلح النهائي بين انجلترا وفرنسا واسبانيا والبورتغال، وذلك في باريس.

*فيها كان انتهاء الحرب السبع سنين ومعاهدة باريس.

* فيها جدد الأمير عبدالرحمن كتخدا جامع الإمام الشافعي بالقرافة الصغرى.

ولسوف يكون لهذا أثره فيما بعد، إذ ستظل عكا من المواقع التي تخرج منها القوات المعادية للفرنسيين في مصر كذلك يمكن القول بأن نجاح حملة الشام كان معنويا بالدرجة الأولى، لأنه رفع من الروح المعنوية «لجيش الشرق» بوجه خاص، والحكومة الإدارة والشعب الفرنسي بوجه عام.

مصطفى باشا: قائد الاسطول العثماني في أبو قير الذي اسره الفرنساوية

الشيخ البكري

الأدميرال سدني سميث قائد الاسطول الانجليزي في البحر المتوسط

موقعة ابي قير البرية:

ولقد شغل بونابرت بعد عودته إلى القاهرة بالقضاء على القلاقل والاضطرابات التي عمت

---

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

* فيها كان طرد الجزويت من فرانسا وإقامة الحجة من طرف البابا.

* ١ تـوت ١٤٨٠ = ١٠ سبتمبر ١٧٦٣ = السبت ٢ ربيع أول سنة ١١٧٧.

* فيها كان تأسيس مدرسة السوارى بسومور، من فرانسا.

* ١ ينـاير ١٧٦٤ = ٢٤ كيهك ١٤٨٠ = الأحد ٢٦ جماد الثانى ١١٧٧.

* فيها كان إنشاء مدرسة البيطرية فى التور، من فرانسا.

* فيها كان سعر الريال الأبى طاقة ٨٥ نصف فضة، وأن الريال المشط يعدل ٨٥ نصف فضة، وعليه فكلاهما واحد.

* ١ تـوت ١٤٨١ = ٩ سبتمبر ١٧٦٤ = الأحد ١٢ ربيع أول سنة ١١٧٨.

* فيها عزل حسن باشا، بعد أن حكم مصر سنتين.

* فيها عقدت معاهدة بين السلطان مصطفى وفريدريك الثانى ملك بروسيا.

* ١ ينـاير ١٧٦٥ = ٢٥ كيهك ١٤٨١ = الثلاث ٨ رجب سنة ١١٧٨.

* فيها المهندس وات حسن الآلة البخارية.

* فيها صار إنشاء مدرسة فن الرسم المجانية بباريس.

* فيها تولى مصر حمزة باشا، بعد حسن باشا، المعزول فى سنة ١١٧٨.

* ١ توت سنة ١٤٨٢ = ٩ سبتمبر ١٧٦٥ = الاثنين ٢٣ ربيع أول ١١٧٩.

* ١ ينـاير ١٧٦٦ = ٢٥

الدلتا، التى اندلعت أثناء غياب بونابرت فى حملة الشام بتحريض من العثمانيين والانجليز وبقيادة العربان. ولكن سرعان ماجاءته الأخبار بأن قوة عثمانية اتخذت طريقها من رودس إلى مصر. وكان بونابرت يتوقع مجئ هذه الحملة من مدة، وصار يتخذ العدة لإتمام التحصينات اللازمة، خصوصا فى العريش والاسكندرية، ويستعد لمقابلتها منذ عو دته إلى القاهرة.

وفى ١٤يوليه ١٧٩٩ نزلت الحملة العثمانية عند أبى قير ، ثم احتلت قلعتها فى ١٧يوليه. ولمواجهة الخطر الجديد، انتقل بونابرت من القاهرة إلى الرحمانية، ثم اتخذ مقر قيادته فى الاسكندرية . وفى ٢٥يوليه التحم الفرنسيون مع العثمانيين فى معركة أبى قير البرية، وكانت معركة شديدة انهزم فيها العثمانيون وجرح قائدهم مصطفى باشا. وفى ١١أغسطس عاد بونابرت إلى القاهرة ، بعد أن استرجع قلعة أبى قير. وكان من نتائج انتصار الفرنسيين فى هذه المعركة:

١ ـ امتناع ابراهيم بك الذى كان قد تمكن من جمع عدد كبير من مماليكه عن الزحف ناحية الشرق.

٢ـ اقتناع مراد بك باستحالة انتصار العثمانيين على الفرنسيين، وأدى ذلك إلى قبوله المفاوضة مع الفرنسيين للتوصل إلى اتفاق معهم، هى المفاوضة التى انتهت فى عهد كليبر بمنح مراد حكم الصعيد تحت السيادة الفرنسية.

---

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

كيهك سنة ١٤٨٢ = الأربع ٩ رجب سنة ١١٧٩.

* فيها فر على بك إلى اليمن عندما رأى أن منصبه في المشيخة مهدد، لعدم وجود من يسنده في الآستانة بعد وفاة راغب باشا، الذى كان واليا على مصر، وتولى الصدارة العظمى بالآستانة.

* فيها اخترع بيروبوروای الزنبلك الحلزونى المتساوى الرجات.

* فيها كانت سياحة بونجيفيل حول الدنيا.

* فيها كانت زلازل عظيمة بالآستانة.

* فيها حصلت ثورة فى انكلترة لعلو أسعار الحبوب.

* ١ توت ١٤٨٣ = ٩ سبتمبر ١٧٦٦ = الثلاث ٤ ربيع الثاني ١١٨٠.

* فيها كان طرد الجزويت من بوهيميا والدانيمارقة.

* فيها حصل انقلاب فى مدريد بسبب ترتيب ضرائب جديدة.

* ١ يناير سنة ١٧٦٧ = ٢٥ كيهك ١٤٨٣ = الخميس ٣٠ رجب ١١٨٠.

* فيها أعظم درجة للبرودة في باريس بلغت ١٥,٣ درجة مئينية تحت الصفر.

* فيها عاد على بك إلى القاهرة واسترجع منصبه بمساعدة أحزابه وأربعة من دعاة إبراهيم الشركسى.

* فيها أنشأ محمدبك أبو الدهب جامع محمد بك أبى الذهب، بجوار الجامع الأزهر.

على أنه كان من أهم نتائج موقعة أبى قير البرية، حصول بونابرت على معلومات عن الموقف العام فى أوروبا. فقد كان بونابرت وقتئذ حريصا على معرفة تفاصيل الموقف فى أوروبا سواء من العثمانيين أو من الانجليز. واستطاع أن يعرف من القائد العثمانى مصطفى باشا الذى وقع فى الأسر، أن الحرب العامة قامت فى أوروبا ضد فرنسا ، كما انتهز فرصة المفاوضة مع سير سدنى سمث ـ قائد بعض قطع الاسطول الانجليزى فى شرقى البحر المتوسط ـ من أجل تبادل الأسرى، ليعرف منه بعض أنباء الموقف الأوروبى.

وعلاوة على ذلك. فقد فهم بونابرت من بعض الصحف الأوروبية حديثة العهد بالصدور ، التى حملها سكرتير سير سدنى سمث الخاص إلى الشواطئ المصرية، أن الحالة سيئة جداً بالنسبة لفرنسا، وأن إيطاليا على وشك أن تضيع من قبضة الفرنسيين. وعندئذ قرر بونابرت الرحيل إلى فر نسا على الفور.

ولذلك أرسل بونابرت للصدر الأعظم خطابا يطلب فيه فتح باب المفاوضات، ثم ترك القاهرة فى ١٨ أغسطس، بحجة القيام برحلة تفتيشية فى الدلتا، وذلك بعد أن وصلته الأنباء عن ابتعاد الأسطول البريطانى عن سواحل مصر. وفى مساء ٢٢ أغسطس رحل بونابرت مع بعض رفاقه إلى فرنسا، بعد أن قابل منو ـ فى مكان ين أ بى قير والاسكندرية ـ وأطلعه على عزمه، وعهد إليه بالقيادة فى الاسكندرية ورشيد والبحيرة، وأمره بتكليف كليبر أن يتولى القيادة العامة للحملة. وفى ١٦ أكتوبر وصل بونابرت إلى باريس.

---

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

* فيها اخترع مايير دائرة الانعكاس.

* فيها كان طرد الجزويت من أسبانيا وفينيسيا وجنوه ونابولى.

* ١ تـوت ١٤٨٤ = ١٠ سبتمبر ١٧٦٧ = الخميس ١٥ ربيع الثانى سنة ١١٨١.

* فيها عزل حمزة باشا، بعد أن حكم مصر سنتين، وتولى بعده محمد راقم باشا.

* ١ يناير سنة ١٧٦٨ = ٢٤ كيهك ١٤٨٤ = الجمعة ١٠ شعبان ١١٨١.

* فيها أعظم درجة للبرودة فى باريس بلغت ١٧,١ درجة مئينية تحت الصفر.

* فيها سجن العثمانيون سفير الروسيا وأعلنوا الحرب عليها.

* فيها كان طرد الجزويت من نابولى ومالطة وبارمه.

* ١ تـوت ١٤٨٥ = ٩ سبتمبر سنة ١٧٦٨ = الجمعة ٢٦ ربيع الثانى ١١٨٢.

* فيها عزل العسكر محمد راقم باشا، بعد أن حكم مصر سنة واحدة، وتولى بعده محمد باشا الأورفلى.

* ١ يناير ١٧٦٩ = ٢٥ كيهك ١٤٨٥ = الأحد ٢٢ شعبان سنة ١١٨٢.

* فيها طلب الباب العالى من مصر ١٢ ألف نفر لمحاربة الروسيا، فاوقعت المماليك والباشا الفتن فى حق على بك، فورد فرمان شاهانى بقتله وارسال رأسه إلى الآستانة، لكنه لم يفد حيث علم بذلك على بك وتربص لحامل

خروج الفرنسيين من مصر

كليبر وقيادة الحملة:

إن مسألة اختيار كليبر لقيادة «جيش الشرق» مثار خلاف بين المؤرخين؛ فيرى فريق منهم أن بونابرت قد اضطر لهذا الاختيار اضطراراً، ويستندون فى هذا إلى أن العلاقات بين الرجلين لم تكن ودية ، بل كان يسيطر عليها الجفاء الذى بدأ فى عهد حكومة كليبر فى الإسكندرية وبالذات بعد معركة أبى قير البحرية. فبعد هذه المعركة ، كان بونابرت يريد أن يخصص المغارم التى جمعت من التجار لإصلاح ما تبقى من سفن الأسطول الفرنسى فى المياه المصرية، فى حين كان كليبر يرى أن تخصص الأموال المتحصلة من المغارم لدفع رواتب الجند المتأخرة ولسد نفقات الإدارة المختلفة.

والحق أن كليبر لم يكن متحمساً على الاطلاق لسياسة المغارم هذه، فلم يذعن لارشادات بونابرت، وتبودلت بينهما رسائل شديدة اللهجة. وفى إحدى هذه الرسائل ، كتب كليبر إلى بونابرت كلمته المشهورة: «إنك قد نسيت يا مواطنى الجنرال عندما تكتب إلى، إنك وإن كنت تمسك بيدك زمام التاريخ، إلا أنك تكتب إلى كليبر». وطلب كليبر من بونابرت أن يعفيه من منصبه ، لأنه ـ على حد قوله ـ لم يأت إلى مصر لجمع المال، وأنه تعود طوال حياته على احتقار المال.

ومع ذلك، فإن العلاقات بين الرجلين لم تتوتر فى أى وقت من الأوقات إلى حد يسئ إلى

الفرمان ورفقائه الأربعة وقتلوا بأمره، وأعلن استقلال مصر، وكتب إلى الشيخ ضاهر أمير عكا بذلك.

* فيها بلغ الباب العالى ما فعله على بك فأمر والى دمشق أن يسير بخمسة وعشرين ألفًا لمنع جنود عكا من معاضدة على بك، فسار الوالى بالعسكر فلاقاه الشيخ ضاهر في ستة آلاف ما بين جبل النيران وبحيرة طبريا ورده على أعقابه.

* فيها كانت ولادة نابليون الأول والماريشال أنى والحاج محمد على باشا، صاحب مصر.

۱ توت ١٤٨٦ = ٩ سبتمبر ١٧٦٩ = السبت ٨ جماد أول سنة ١١٨٣.

* فيها أبطلت الضرائب الانجليزية من المستعمرات الأمريكانية.

* فيها أرسل على بك محمد بك أبا الذهب لمحاربة الشيخ همام وقبيلته، وهى قبيلة الهوارة، فحاربهم وتغلب عليهم.

* ۱ يناير ١٧٧٠ = ٢٥ كيهك ١٤٨٦ = الاثنين ٤ رمضان ١١٨٣.

* فيها عزل محمد باشا الأرفلى، بعد أن حكم مصر سنة، وتولى بعده أحمد باشا، ولم يحكم إلا عدة أشهر.

* فيها كانت سياحة كوك حول الدنيا.

* فيها تولى مصر قرا خليل باشا.

* فيها ابتدأ القحط والشدة بمصر بسبب المصاريف المتسببة

مركز الحملة في مصر بصفة عامة. فقد اشترك كليبر فى حملة الشام، وانتصر على العثمانيين في تل طابور، وأبدى شجاعة فائقة كان يشيد بها بونابرت. وفي الحقيقة، لم يكن هناك خلاف حاد بين بونابرت وكليبر، على كالنحو الذى يصوره بعض المؤرخين. ومن هنا يمكن القول بأن بونابرت لم يكن مجبراً على اختيار كليبر لقيادة الحملة، وانما جاء هذا الاختيار لثقة بونابرت في كليبر واعتقاده بأنه أكفأ ضباط «جيش الشرق» بعد ديز يه، الذى كانت حكومة الإدارة ترغب فى عودته إلى فرنسا لكى يساعد على انقاذ الموقف العسكرى في أوروبا.

وحين تسلم كليبر القيادة العامة، كان «جيش الشرق» ينقسم إلى ثلاثة «أحزاب»، هى:

أولا ـ الحزب الاستعمارى أو حزب منو، وهو الحزب الذى كان يصر على بقاء مصر كمستعمرة فرنسية، ولذا لم يكن يؤمن بالجلاء، بل كان يرى أن تشكل سياسة الحملة فى مصر على أساس الاستقرار والبقاء على ضفاف النيل.

ثانيا: الحزب المتردد أو الساخط على بقاء الحملة في مصر. وكان هذا الحزب يرى أن الفشل قد حل بالحملة فعلا منذ موقعة أبى قير البحرية، ولو :أن هذا الإحساس فى الحقيقة بدأ ينمو قبل هذه الموقعة، بالذات أثناء سير الحملة فى الطريق الصحراوى بين الاسكندرية وشبراخيت. وكان يتزعم هذا الحزب كليبر. وبعد رحيل بونابرت إلى فرنسا، قوى شأن هذا الحزب لعاملين ، أولهما اعتبار رحيل بونابرت دليلا على تأزم الموقف بالنسبة للحملة فى مصر، وثانيهما تولى زعيم الحزب وهو كليبر القيادة العامة للحملة بعد سفر بونابرت، ومن الجدير

---

١٠٣ : بوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

عن الحروب التي أقامها علي بك ومحمد بك أبو الذهب، فإن تجريدة مكة تكلفت ٢٦ مليون فرنك.

* ١ تـــوت ١٤٨٧ = ٩ سبتمبر ١٧٧٠ = الأحد ١٨ جماد أول سنة ١١٨٤.

* فيها انتصرت الروسيا على الأتراك.

* ١ يناير سنة ١٧٧١ = ٢٥ كيهك سنة ١٤٨٧ = الاثنين ١٣ رمضان سنة ١١٨٤.

* فيها كان اقتسام بولونيا بين روسيا وبروسيا وأوستوريا.

* فيها أعظم درجة للبرودة في باريس بلغت ١٣,٥ درجة مئينية تحت الصفر.

* ١ تـــوت ١٤٨٨ = ١٠ سبتمبر ١٧٧١ = الثلاث ٣٠ جماد أول ١١٨٥.

فيها جرد علي بك تجريدة تحت إمرة محمد بك أبي الذهب فقامت من دمياط إلى الشام بطريق البحر فحاصروا يافا ثم

نقود السلطان مصطفى ابن احمد وعلى بيك الكبير.
ضربت في مصر عام ١١٧١هـ.

بالذكر أن أفراد هذا الحزب أخذوا يحملون على بونابرت بعد رحيله، ويرددون القول بأن رحيل بونابرت لم يكن بقصد انقاذ فرنسا بقدر ما كان «هروبا» من المعركة في مصر. فبونابرت بذلك قد تخلى عن مسئوليته وعن شرفه العسكرى ويجب لذلك محاكمته. و قد ساعد على ازدياد نفوذ هذا الحزب داخل صفوف الجيش، أن جماعة من الضباط المتحزبين لبونابرت قد ساءهم ألا يكونوا ضمن الجماعة التى اختارها بونابرت للرحيل معه إلى فرنسا.

ثالثاً - الحزب المعتدل الذى كان يرى أنه لا ينبغى على الفرنسيين أن يتركوا مصر، إلا إذ أرغموا على ذلك، أو أجبرتهم المصلحة الوطنية إلى التضحية ، كأن تهزم فرنسا فى أوروبا ويصبح التخلى عن مصر بمثابة الثمن الذى يدفعه الفرنسيون نظير الصلح العام فى أوروبا. وكان ديزيه على رأس هذا الحزب.

وبعد رحيل بونابرت إلى فرنسا، أقبل كليبر على تصريف الأمور بكل همة، فعقد الديوان، وأكد لأعضائه أنه لايقل عن بونابرت رغبة فى حماية الدين الإسلامى والسهر على سعادة المصريين. ثم انكب يدرس شئون الإدارة عامة والمالية خاصة، فأعاد تنظيم الحكومة ، وقسم القطر المصرى إلى ثمانية أقاليم إدارية، وأبقى الدواودين التى أنشأها بونابرت فى الأقاليم، كما نظم شئون تحصيل الضرائب، وعنى بضبط حسابات المديريات المختلفة ، إلى جانب عنايته بسائر فروع الإدرة والاهتمام بنشاط ديزيه العسكرى فى الصعيد.

على أن و جود كليبر بالقاهرة، سرعان ما جعله يلمس عن كثب مقدار السخط الذى أثاره

ملكوها، كذا ملكوا بقية المدن الشامية لحد حلب.
* فيه زينت مصر وبولاق ثلاثة أيام فرحا لهذه النصرة.
* وفيها أمر على بك محمد بك أبا الذهب أن يولى الولاة على البلاد التى افتتحها، ويمد فتوحاته حيث شاء، فتحالف أبو الذهب مع بقية الرؤساء على العودة إلى مصر ونبذ ما أمر به على بك.
* فيها كان انقسام بولونيا أول مرة بين روسيا وبروسيا وأوستوريا.
* وفى أواخر [جماد الثانى] كانت عودة تجريدة أبى الذهب إلى مصر.
* وفيها حصل طاعون بالتركيا. * وفى ١٤ شوال حاصر على بك وعلى بك الطنطاوى دار محمد بك أبى الذهب قاصدين الغدر به، فتقدمهم إلى البساتين وتوجه إلى الصعيد وقابل أيوب، المتحالف معه فى الشام، والذى أراد أن يغدر بأبى الذهب فلم ينجح فآل أمره إلى أن نزل فى أحد المراكب وقطع يمينه الذى حلفف به واشتد لسانه بسنارة فتخلص منها والقى بنفسه فى البحر فمات غريقا.
* ١ يناير ١٧٧٢ = ٢٤ كيهك ١٤٨٨ = الأربع ٢٥ رمضان سنة ١١٨٥.
* فى أواخر العقدة سنة ١١٨٥ كان قيام تجريدة من مصر تحت إمرة إسماعيل بك، الذى انضم بمن معه إلى أبى الذهب عندما تقابل معه. وفى محرم سنة ١١٨٦ عسكر على بك الطنطاوى بتجريدة كبيرة جهة البساتين ليصد محمد بك أبى الذهب ومن معه فحصلت بينهم مقتلة عظيمة عند البياضة أنهزم فيها على بك وجماعته وآل الأمر إلى أن على بك رجع القهقرى، ودخل

رحيل بونابرت الفجائى بين فريق كبير من جنود الحملة وضباطها، والذين كانت لا تزال عالقة باذهانهم ذكرى الأهوال التى صادفوها فى زحفهم الصحراوى على القاهرة، وبات شغلهم الشاغل تدبير كل وسيلة للخروج من هذا المأزق والعودة إلى فرنسا. فكان من أثر ذلك أن بدأ كليبر ينقد مسلك قائدة السابق ويتهكم عليه فى مجالسه الخاصة تهكما جارحا.

تقرير كليبر:

وكانت تحت تأثير هذه العوامل ، أن أرسل كليبر إلى حكومة الإدارة تقريره (١) المشهور عن مركز الحملة فى مصر عند رحيل بونابرت إلى فرنسا، وهذا التقرير هام جداً، لأنه يلقى أضواء على آراء كليبر فيما يتعلق بمركز الحملة ومستقبلها، وأهم ما جاء فى هذا التقرير ما يلى:

١ـ خالف كليبر قائده السابق فى كل ما ذهب إليه فى تعليماته التى تركها له، فادعى أن «جيش الشرق» قد نقص عدده إلى مايقرب من النصف، وأن الجند فى حاجة ماسة إلى الملابس والأسلحة، وأشار إلى أن المصريين على استعداد للثورة فى أية لحظة، وأن الجيوش العثمانية تتقدم لغزو مصر، وأن الاسكندرية تكاد تكون دون تحصينات منذ أن استولى الانجليز على المدفعية الثقيلة إبان حملة الشام، ومنذ أن استولى بونابرت على البقية الباقية منها لتسليح المركبين الحربيين اللذين خرج بهما إلى فرنسا. وأشار كليبر كذلك إلى موقف الحملة السئ من الناحية المالية بسبب فقر الخزانة، حتى أصبح المتأخر من رواتب ا لجند يكاد يصل إلى أربعة ملايين فرنك.

من باب القرافة إلى منزله، وبعد أن أخذ أمواله خرج وذهب إلى الشام وصحبته على بك الطنطاوى، وكان ذلك فى ليلة الخميس ٢٧ محرم، وفى صباح يوم الخميس أوقدوا النار فى الدير بعد أن نهبوه، وتملك مصر واستحضر عبدالله كتخدا وقطع رأسه، ونادى بابطال المعاملة التى ضربها المذكور وهى قروش مفرد ومجوز وقطع صغار تصرف بعشرة أنصاف وخمسة أنصاف ونصف القرش وأكثرها نحاس وعليها علامة على بك.

* ١ تـوت ١٤٨٩ = ٩ سبتمبر ١٧٧٢ = الأربع ١١ رجب ١١٨٦.

* ١ يناير ١٧٧٣ = ٢٥ كيهك ١٤٨٩ الجمعة ٧ شوال سنة ١١٨٦.

* فيها - أى فى سنة ١٧٧٣ - أفرنكية - انتصرت الأتراك على الروسيا.

* فى ١٦ محرم اقترب على بك بجيوشه، المحضرة معه من الشام، ال الصالحية، وفى ١٨ حصلت مقتلة بين عساكر على بك ومقدمة عساكر أبى الذهب كاد أن تظفر فيه عساكر على بك بعساكر أبى الذهب، وقد جرح على بك فى هذه الواقعة. وفى ٥ صفر قام ابو الذهب يقصد الصالحية، وبعد محاربة قتل فيها على بك الطنطاوى وغيره وفرت بقية العساكر، أما على بك فبقى بفسطاطه ودافع عن نفسه بقدر طاقته، لعدم قدرته على ركوب جواده بسبب ما أصابه من الجروح، وانتهى الأمر بقيامه إلى المحروسة مع أبى الذهب، فأنزل فى داره للمعالجة فلم تنجح فتوفى فى ليلة ١٦ صفر، وقيل إنه مات مسموماً.

* فى ٨ ربيع كانت وفاة

٢- ولهذا اعتقد كليبر أن الواجب يحتم عليه الاستمرار فى المفاوضات التى طلبها بونابرت من أجل إبرام الصلح، دون أن ينتظر على الإطلاق أن ينزل الوباء بالجيش، فيقضى على ١٥٠٠ جندى على الأقل ، كما كانت تنص على ذلك تعليمات بونابرت.

٣ - أوضح كليبر الخطط العسكرية التى ينوى اتباعها، وهى على عكس. خطط بونابرت التى كان قد اتبعها فى حملة الشام. فقد كان كليبر يرى البقاء فى مصر، وينتظر عبور الجيش العثمانى لصحراء سيناء، ثم يقضى عليه. وقد ذكر كليبر الاعتبارات الاستراتيجية التى دفعته إلى تفضيل هذه الخطة، كالقول بأن الجيش الفرنسى لا من ناحية العدد ولا من ناحية قدرة خطوط تموينه يستطيع أن يقطع شوطاً بعيداً فى زحفه إلى بلاد الشام، والقول بأنه يحسن أن ينتظر ا لجيش العثمانى فى مصر، بعد أن يكون قد أنهك إبان عملية عبور صحراء سيناء ، وابتعاده عن خطوط تموينه ومراكزه فى بلاد الشام.

والرأى المتفق عليه - حتى بين أنصار كليبر - أن هذا التقرير كان يتضمن تفصيلات غير دقيقة، ولاسيما فيما يتعلق بالوضع العسكرى الذى كانت عليه الحملة فى مصر. ومع أن كليبر كان محقاً فى شكواه من قلة المال، إلا أن تقريره كان يعيبه أموراً منها:

١- قلة معرفة كليبر بحالة «جيش الشرق» خاصة وبأحوال مصر عامة. إذ ظل كليبر طوال مدة إقامته فى مصر، وبعد دخوله الاسكندرية مباشرة، يقيم فى الاسكندرية كحاكم لها، الأمر الذى جعله بعيداً عن الاتصال الدقيق بمجريات الأمور فى القاهرة.

السلطان مصطفى خان الثالث، ومدة سلطنته ١٦ سنة و ٨ أشهر، وفي ١٠ منه جلوس السلطان الغازي عبدالحميد خان.
* وفي ١٧ ربيع الأول وصل خليل باشا الوزير إلى مصر عن طريق دمياط، وفي يوم ١٩ منه صعد القلعة، وكان في مدة علي بك محجوراً عليه كمال الحجر، والحل والعقد بيد علي بك.
* وفي هذه السنة الأفرنكية صار تبطيل عادة تقبيل رجل البابا.
* وفي [أوائل ذي الحجة] شرع أبو الذهب في تأسيس مدرسته بجوار الازهر.

* ١ توت ١٤٩٠ = ٩ سبتمبر ١٧٧٣ = الخميس ٢١ رجب سنة ١١٨٧.
* ١ يناير ١٧٧٤ = ٢٥ كيهك ١٤٩٠ = السبت ١٧ ذو القعدة سنة ١١٨٧.
* في هذه السنة صار عزل قرا خليل باشا، والي مصر، ومدته أربع سنين، ثم تولى على مصر مصطفى باشا النابلسي. * وفي ٢٧ [صفر] تبوأ لويز السادس عشر على سلطنة فرانسا، بدلا عن جده لويز الخامس عشر، المتوفي في هذه السنة الافرنكية (١٧٧٤م).
* فيها الكيارى الانكليزى بريستلي استكشف غاز الاوكسجين.
* وفي [ربيع الثاني] أقرت الدولة العلية محمد بك أبا الذهب على بكاويته بمصر. * في ١٢ [من جماد أول] معاهدة صلح كوجك قينارجي بين الترك

٢- تقليل كليبر من شأن قواته ومبالغته في شأن قوة أعدائه، على الرغم مما كان عليه كليبر من قلة الدراية بحالة الحملة خاصة وبالحالة في مصر عامة.

اتفاقية العريش:

وعلى ذلك، فقد بادر كليبر بالكتابة إلى الصدر الأعظم في ١٧ سبتمبر ١٧٩٩، ينفي رغبة فرنسا في انتزاع مصر من تركيا، ويذكر الأسباب التي جعلت فرنسا ترسل حملتها إلى مصر، وهي محاولة إلقاء الرعب في قلوب الانجليز وتهديد ممتلكاتهم في الهند، إرغامهم على قبول الصلح مع فرنسا، بالإضافة إلى الانتقام مما لحق بالفرنسيين من أذى على أيدى المماليك وتخليص مصر من سيطرة البكوات وإرجاعها إلى تركيا، ثم طلب كليبر من الصدر فتح باب المفاوضات من أجل جلاء الفرنسيين من مصر، وعقد معاهدة دفاعية هجومية بين فرنسا وتركيا، تستطيع انجترا الانضمام إليها فيما بعد للدفاع عن كيان الامبراطورية العثمانية ضد ورسيا . ولكن الصدر الأعظم رفض الدخول في أية مفاوضة إلا على أساس جلاء الفرنسيين عن مصر دون قيد أو شرط.

ولم تلبث أن وصلت مصر أنباء تفيد بأن فرنسا قد فقدت إيطاليا، وأن الأسطو ل الفرنسي انسحب من البحر المتوسط، وأن انجلترا قد استولت على هولندا حليفة فرنسا، وأن الحملة في مصر موضع نقدشامل بالصحف الفرنسية. وكان لهذه الأنباء أثرها على كليبر، فقرر أن يدخل المفاوضة من أجل الجلاء دون قيد أو شرط وذلك في الوقت الذى كان فيه الصدر الأعظم قد

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

والروسيا.* [في جماد الثاني] كان سفر قرا خليل باشا من القلزم بقصد جده.

* [في شعبان] كان انتهاء بناء مدرسة أبي الذهب وبناء جامع الخضيرى.

* فيها تمم جورج ليزاج اختراع الة التلغراف، ولعدم استيفائها لم يتيسر العمل بها.

* في هذه السنة تجهز أبو الذهب بجيش جرار للمسير إلى البلاد الشامية ومحاربة الظاهر عمر.

* وفيها كان تجديد جامع الخضيرى، جدده سليمان أفندى ابن الشيخ عبدالرحمن.

* ١ توت ١٤٩١ = ٩ سبتمبر ١٧٧٤ = الجمعة ٣ رجب سنة ١١٨٨.

* ١ يناير سنة ١٧٧٥ = ٢٥ كيهك ١٤٩١ = الأحد ٢٨ شوال سنة ١١٨٨.

* فى أوائله سافر محمد بك أبو الذهب إلى الشام وأناب عنه فى مصر إبراهيم بك، فحاصر يافا، وبعد محاربة تملكها بالقوة والاقتدار، ثم سار إلى عكا فدخلها بدون ممانع لهروب الظاهر عمر.

* وفى أوائل ربيع أول زينت مصر ثلاثة أيام إعلانًا بهذه النصرة. * وفى ٨ [ربيع أول] توفى محمد بك أبو الذهب فى عكا، ولم يعلم إن كان مات مقتولا أم مات بداء السكتة، وفى ٢٤ ربيع الثانى حضرت جثته مع العساكر تحت إمرة مراد بك، ودفن في الليوان الشرقى من

أكمل استعداداته لغزو مصر وبدأ عملياته العسكرية. فوصل إلى العريش منذ ٢٢ ديسمبر ١٧٩٩ وشرع فى تضييق الحصار عليها.

ولذلك فقد دارت المفاوضات فى العريش بين مندوبى كليبر ومندوبى الصدر الأعظم واشترك فيها سير سيدنى سمث كطرف غير رسمى ، وكانت هذه مفاوضات طويلة اعترضتها صعوبات عديدة، ولكنها انتهت فى ٢٤ يناير ١٨٠٠ بإبرام اتفاقية العريش، وفيها اتفق الطرفان على ما يلى:

١- جلاء الفرنسيين عن مصر بكامل أسلحتهم وعتادهم وعودتهم إلى فرنسا.

٢- هدنة ثلاثة شهور قد تطول مدتها إذا لزم الأمر ويتم فى أثنائها نقل الحملة.

٣- الحصول من الباب العالى أو حلفائه أى انجلترا وروسيا على جوازات مرور لضمان عدم الاعتداء على «جيش الشرق» فى أثناء نقله إلى الموانى الفرنسية.

٤- تجهز تركيا أو حلفاؤها السفن اللازمة لنقل «جيش الشرق» إلى بلاده، على أن تتعهد تركيا وحلفاؤها بعدم التعرض لهذا الجيش بأى أذى.

٥- فى حالة حدوث خلاف بين العثمانيين والفرنسيين حول تفسير الاتفاقية، ينتخب من قبل سير سدنى سمث رجل لينهى الخلاف حسب قواعد السياسة البحرية الإنجليزية.

وعلى هذا النحو جعل سير سدنى سمث من نفسه حكما بين الفرنسيين والعثمانيين، مع

مدرسته، تجاه الجامع الأزهر، وتولى مشيخة البلد على مصر بعده إسماعيل بك، رغمًا عن ادعاءات مراد بك وإبراهيم بك.

* فيها بعض المغاربة، القاصدين الحج، جدد الجزء الذى يلى القبلة والمقصورة من جامع سيدى أبى العباس بالاسكندرية.

* فى هذه السنة الافرنكية كان ابتداء الحرب بين انكلترا والولايات المتحدة من أمريكا، هؤلاء تحت إمرة واشنطون.

* فى هذه السنة الهجرية تعين مصطفى باشا النابلسى لولاية جدة، وتعين إبراهيم باشا عرب كيرلى بدله على مصر من قبل الدولة العلية، ومات فى السنة بعينها. * وبلغت درجة البرودة فى باريس ١٩,١ مئيية تحت الصفر.

* ١ تـوت ١٤٩٢ = ١٠ سبتمبر ١٧٧٥ = الأحد ١٤ جماد الثانى سنة ١١٨٩.

* ١ ينـاير ١٧٧٦ = ٢٤ كيهك ١٤٩٢ = الاثنين ٩ ذو القعدة سنة ١١٨٩.

* فى هذه السنة تولى مصر محمد باشا عزت من قبل الدولة العلية، ورئيس الأمراء إسماعيل بك، الذى كان متنزهًا ومتعكفًا عن الأشغال، التى كانت تقضى بواسطة الأمراء المحمدية وكبيرهم إبراهيم بك.

* وفيها توفى الأمير عبدالرحمان كتخدا، صاحب العمارات المشهورة بمصر، بعد أن

أنه لم يكن له فى البداية صفة الاشتراك فى مفاوضات العريش، ثم اشترك فيها كطرف غير رسمى. ولم يكن سدنى سمث فى الحقيقة يتمتع بالسلطة الدبلوماسية التى تخول له الكلام باسم بريطانيا مع وجود سفير بريطانى فى الآستانة. ولهذا فقد غضب الأخير (لورد إلجين Elgin)من تصرف سدنى سمث ، وأرسل إلى حكومته يحضها على رفض اتفاقية العريش كما أرسل إلى القائد العام للأسطول البريطانى فى البحر المتوسط (لورد كيث Keith) يطلب منه إرسال قوة بحرية إلى المياه المصرية أمام الاسكندرية لمنع خروج الفرنسيين من مصر، حتى توضع شروط جديدة للصلح مع الفرنسيين.

وقبل وصول رسائل السفير الانجليزى فى الآستانة، وحتى قبل التوقيع على اتفاقية العريش، كانت الحكومة البريطانية ـ عندما بلغها أنباء مفاوضات العريش ـ قد اتخذت موقفاً من شأنه تعطيل اتفاقية العريش عند إبرامها. إذ كانت حكومة لندن تخشى أن يعود«جيش الشرق» المحاصر فى مصر إلى ميادين القتال فى أوروبا ، فترجح كفة الجيوش الفرنسية، ويختل ميزان الموقف العسكرى فى القارة. ولما كان من المعتقد ـ فى ضوء تقرير كليبر الآنف إلى حكومة الإدارة ، ورسائل الضباط والجنود الفرنسيين، التى وقعت فى أيدى رجال ا لبحرية البريطانية ـ أن الحملة الفرنسية تصفى ببطء داخل الأراضى المصرية، فقد فضلت حكومة لندن أن يبقى الفرنسيون فى مصر أو يسلموا أنفسهم كأسرى حرب.

وفى ١٥ديسمبر ١٧٩٩أصدرت الحكومة البريطانية أوامر صريحة إلى لورد كيث ـ وصلته

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

أقام إثنتى عشرة سنة بالحجاز منفياً بأمر على بك.

* وفى ١١ يوليـــو ١٧٧٦ نادت الأمريكان باستقلالهم.

* فى هذه السنة الافـرنكيـة استيلاء الجنرال واشنطون على بوستن.

* ١ تـــــوت ١٤٩٣ = ٩ سـبتـمبـر ١٧٧٦ = الاثنين ٢٥ رجب سنة ١١٩٠.

* فـيـهـا اكـتـشف الطـبيب هنرى خيـر الانكليـزى تطعـيم وتلقـيح الجـدرى، وكـوفئ على ذلك بمبلغ ٣٠ ألف جنيه.

* وفى رمضان نفى مراد بك إبراهيـم بك طنـان، وأرسـله إلى المحلة الكبرى.

* فـيـهـا اخـتـرع روشـون الميكرومتر ذو البلور الصخرى.

* ١ يـنـايـر ١٧٧٧ = ٢٥ كـيـهك ١٤٩٣ = الأربع ٢١ ذو القعدة سنة ١١٩٠.

* فى ٢ و ٣ جـــمـــاد أول ثارت المغـاربة بالأزهر، وقـفلت العلمـاء أبواب الجـامع وأغلقت الدكـاكين والأسـواق وحـصلت مقتلة جرح فيها كثير من أتباع الأغـوات وقـتل فـيـهـا ثلاثة من المغـاربة، وذلك بسبب تعضـيد يوسف بك الجحف بحق المغاربة فى وقف آل لهم، وفى ٦ منه سكن اسماعيل بك الفتنة، وكان منتصراً الأهل الأزهر.

* وفى ١٤ جـمـادى الثـانيـة تآمر مراد بك وجماعته على قتل إسمـاعيل بك فـخـرج إلى جـهـة العـادليـه، فـتـملك إبراهيم بك ومراد بك القلعة، وبعد محاربة

فى أوائل يناير ١٨٠٠ - برفض أى اتفاق أو معاهدة بشأن الجلاء عن مصـر، طالما كان هذا الاتفاق لاينص على ضرورة أن يسلم الفرنسيون أنفسهم كأسرى حرب تسليما مطلقا دون قيد أو شرط ، فأعد كيث رسالة بهذا المعنى إلى كليبر، وصلته أوائل مارس ١٨٠٠ ، أى بعد أن كان كليبر قد شرع ينفذ اتفاقية العريش، فنقل عتاد الجيش وذخائره إلى الاسكندرية وبدأ الجيش يخلى الصـعـيد وينزح عن مراكزه فى الوجه البحرى، ودخل العـثمـانيـون الأراضى المصرية واحتلوا الصالحية وبلبيس ودمياط ، ورابطت طلائع جيش الصدر الأعظم فى الخانكة على بعد أربع ساعات من القاهرة.

وأمام هذا التحول المفاجئ ، لم يجد كليبر مفراً من وقف عملية الجلاء، ثم أسرع فى صبيحة ٢٠ مارس ١٨٠٠ بالزحف على رأس جيشه لوقف تقدم العثمانيين، الذين وصلت طلائعهم إلى المطرية على مسافة ساعتين من القاهرة ووقعت معركة هليوبوليس (عين شمس) ، التى امتد ميدانها من المطرية حتى جهات الصالحية، وهزم الفرنسيون فيها العثمانيين هزيمة شديدة.

تمردات القاهرة ١٨٠٠

وفى أثناء معركة هليوبوليس ، كان فريق من جيش الصدر الأعظم وبعض عناصر المماليك قد تسللوا إلى داخل القاهرة وأثاروا أهلها على الفرنسيين وعلى المصريين الأقباط وغيرهم، فكانت تمردات القاهرة، التى استمرت مدة شهر تقريباً من ٢٠ مارس إلى ٢٠ أبريل ١٨٠٠ .

ومحاصرة فر إبراهيم بك ومراد بك إلى البساتين وإلى الصعيد فدخل اسماعيل بك القلعة في ٢١ جمادى الثانية. * وفي ٢ رجب توجه عبدالرحمن بك العلوى وبعض من جماعته لمنزل يوسف بك وفتك به، وفي ١٨ منه قامت تجريدة تحت إمرة إسماعيل بك الصغير، وفي ٢١ رجب تقابلت التجريدة مع الأمراء القبالي فكانت الهزيمة على التجريدة فتحصن إسماعيل بك في متاريس برية بين حلوان والتبين فانتصر على القبالى بعد معركة شديدة رجعت على أثرها القبالى إلى الصعيد، ودخل إسماعيل بك منتصراً في شعبان.

* وفي ١٩ رمضان خنق إسماعيل بك الصغير.

* ١ توت ١٤٩٤ = ٩ سبتمبر ١٧٧٧ = الثلاث ٦ شعبان سنة ١١٩١.

* ١ يناير ١٧٧٨ = ٢٥ كيهك ١٤٩٤ = الخميس ٢ذو الحجة سنة ١١٩١.

* وفي ٨ القعدة سافرت تجريدة ثانية إلى جهة الصعيد، وفي ٢١ منه عزم إسماعيل بك على التوجه إلى الصعيد لمحاربة القبالى لمخامرة العساكر ورؤسائهم على إسماعيل بك، وانضمامهم إلى مراد بك وإبراهيم بك عاد إسماعيل بك وطلع القلعة في ٩ محرم ثم نزل وتجهز، وعلم بقدوم القبالى إلى الجيزة خرج إلى الشام

ولعب أعيان القاهرة وتجارها وكبار مشايخها في هذه الثورة دوراً أكبر مما لعبوه في تمردات القاهرة الأولى ، فلم يحجموا عن تزعم التمردات منذ الساعات الأولى لاشتعالها إذ ما كاد يعلن النفير العام حتى قام الحاج مصطفى البشتيلي ـ أحد أعيان وتجار بولاق ـ بتهييج العامة في حيه، «فهيئوا عصيهم وأسلحتهم ورمحوا وصفحوا»، وانقضوا على معسكر الفرنسيين بالقرب من الشاطئ النيل وقتلوا حراسه، و«نهبوا جميع مافيه من خيام ومتاع وغيره، ورجعوا إلى البلد ، وفتحوا مخازن الغلال والودائع التى للفرنساوية، وأخذوا ما أحبوا منها».

كذلك خرج السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والسيد أحمد المحروقي شهبندر التجار على رأس جماعة من عامة القاهريين وبعض الأتراك والمغاربة ، قاصدين التلال الواقعة خارج باب النصر، «وبأيدى الكثير منهم النبابيت والعصى والقليل معه السلاح»، ورحوا يهاجمون مواقع الفرنسيين.

ولم يلبث أن أحضر المتمردون ثلاثة مدافع كان الأتراك قد جاءوا بها إلى المطرية، كما جلبوا عدة مدافع أخرى«وجدت مدفونة في بعض بيوت الأمراء» من المماليك ، وأحضروا من «حوانيت العطارين من المثقلات (الموازين) التى يزنون بها البضائع، من حديد وأحجار» وتوجه المتمردون بهذه المدافع والموازين إلى معسكر الفرنسيين بالأزبكية، وصاروا يستعملون الموازين عوضا عن القذائف للمدافع، ويضربون بها مقر القيادة الفرنسية بالأزبكية.

١٠٣: يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

في ١٢ محرم، وفي ١٣ منه دخلت الأمراء مع إبراهيم بك، وفي ١٨ منه طلعوا القلعة وأقروا إبراهيم بك في مشيخة البلد.

* في هذه السنة الأفرنكية الجنرال كاستون الانكليزى فقد فلادلفيا من امريكة.

* في ١٧ جماد أول – منه – غدر مراد بك بعبد الرحمن فقتله فحصلت فتنة شديدة اطلقت بسببها المدافع على المدينة. * في ١٨ جماد الثانى تظاهرت العساكر وعزلت محمد باشا عزت الوالى وأنزلته من القلعة إلى محبسه الداوودية.

* في هذه السنة الافرنكية أعلنت فرانسا الحرب على انكلترة، وشرع الاسبانيوليون في حصار جبل طارق. * فيها كان اكتشاف جزائر ساندويتش. * في ٢٩ شوال قام محمد باشا عزت من الداوودية يقصد قصر العينى.

* في ٣ القعدة قام محمد عزت باشا من مصر.

* ١ توت ١٤٩٥ = ٩ سبتمبر ١٧٧٨ = الأربع ١٦ شعبان سنة ١١٩٢.

* ١ ينايـر ١٧٧٩ = ٢٥ كيهك ١٤٩٥ = الجمعة ١٢ ذو الحجة سنة ١١٩٢.

* في ٥ محرم وصل إسماعيل باشا، الوالى الجديد، إلى بر إنبابة، وفي ٨ منه صعد القلعة.

* فيها كان المحبوب يعدل مائة نصف وعشرة.

* وفي أوائل ربيع أول

* سليمان الحلبي على الخازوق

* سليمان الحلبي

* كليبر

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

حصلت معركة في الأزهر بين الشوام والأتراك، فعزل إبراهيم بك الشيخ العريشي ظلماً.

* وفي ٢٦ ربيع الثاني معاهدة صلح تيشين بين أوستوريا والبروسيا بتوسط فرانسا والروسيا.

* وفي جمـاد أول توفي الشيخ العريشي كمداً من ظلم إبراهيم بك.

* وفي رجب ظهر بمصر مرض سموه أبا الركب، وهو عبارة عن حمى مقدار شدتها ثلاثة أيام، وتزيد وتنقص حسب الأمزجة، وتحدث وجعًا في المفاصل والركب، تذهب بالعرق والحمام.

* وفي أواخر شعبان حضر قابوجي باشي وبيده فرمان قاض بنقل إسماعيل باشا والي مصر، إلى جدة، واستبداله بإبراهيم باشا، واليها، فنزل إسماعيل باشا، وأقام بالداوودية، ثم لوفاة إبراهيم باشا، والي جدة، أقر إسماعيل باشا في ولايته على مصر ثانيًا، فصعد القلعة في ٦ القعدة.

* ١ تـوت ١٤٩٦ = ١٠ سبتمبر ١٧٧٩ = الجمعة ٢٨ شعبان سنة ١١٩٣.

* ١ ينـاير ١٧٨٠ = ٢٤ كيهك ١٤٩٦ = السبت ٢٣ ذو الحجة ١١٩٣.

* في هذه السنة الافرنكية ابتداء السلطة الحقيقية ليوسف الثاني على مملكة المانيا، عوضًا عن والده المارى تريز الذى توفى.

* وفيها حصل في انجلترة تمرد وتعصب ضد الكاتولياك.

وأنشاء المتمردون بين يوم وليلة مصنعاً للبارود باخرنفش، وآخر لإصلاح المدافع والأسلحة التي عثر عليها في قصور المماليك، وثالثا لصنع القنابل وصب المدافع من الحديد الذى جمعوه من المساجد والحوانيت، كما صاروا يستخدمون بقايا القنابل المتساقطة من المدافع الفرنسية في صنع قذائف جديدة يطلقونها على الفرنسيين واستمر تبادل النيران بين المتمردون والمحتلين ليلا ونهارا ، حتى كان الناس ـ كما يقول الجبرتي ـ «لا يهنأ لهم نوم ولا راحة، وجلوس لحظة لطيفة من الزمن، ومقامهم دائماً أبداً بالأزقة والأسواق ، وكأنما على رؤوس الجميع الطير، وأما النساء والصبيان فمقامهم بأسفل الحواصل والعقودات تحت طباق الأبنية».

وأقام المتمردون معسكرا للأسرى بالجمالية. فكان كل من قبض على فرنسي» أخذه وذهب به إلى الجمالية. ويأخذ عليه البقشيش » ، كما كان يكافئ بسخاء كل «من قطع رأسا من رؤوس الفرنساوية». وبث الثوار العيون والأرصاد للتجسس «على البيوت التي بها الفرنسيس» ، ولم يتوانوا عن أخذ كل من تعاون مع الفرنسيس بالشدة والعنف، فقد «اتهم الشيخ خليل البكرى بأنه يوالى الفرنسيس» ويرسل إليهم الأطعمة، فهجم عليه طائفه من العسكر ونهبوا داره وسحبوه مع أولاده وحريمه، وأحضروه إلى الجمالية . وهو ماش على أقدامه ورأسه مكشوفة، وحصلت له إهانة بالغة وسمع من العامة المتعممين كلاماً مؤلماً وشتماً».

* وفيها ضرب في القاهرة ميدى كان عياره النصف فضة والنصف نحاس، وقيمته أربع ستيمات.

* في ٣ رجب تغلب إبراهيم بك علي ولاية مصر بعد أن أنزلت الأمراء إسماعيل باشا الوالي معزولا، وهذا الباشا في الأصل سيد مملوكه إبراهيم بك.

* وفي أواخر شعبان شرعت الأمراءفي جمع تجريدة تحت إمرة مراد بك لتلافي أمر حسن بك ورضوان بك الذى استفحل في الصعيد.

* ١ تـــوت ١٤٩٧ = ٩ سبتمبر ١٧٨٠ = السبت ١٠ شوال سنة ١١٩٤.

* في ٢٠ ديسمبر أعلنت انكلترة الحرب على الهولاندة.

* في محرم قبض إبراهيم بك على أمين بيت المال، المسمى إبراهيم أغا، وضربه بالنبابيت حتى مات، وألقي جثته في النيل.

* وفيها خنق مراد بك إبراهيم بك الأوده باشي.

* ١ ينـاير ١٧٨١ = ٢٥ كيهك ١٤٩٧ = الاثنين ٥ محرم ١١٩٥.

* في ٦ جماد أول رجع مراد بك إلى مصر بعد أن عقد صلحًا مع حسن بك ورضوان بك بالصعيد وأخذ منهم رهاين على ذلك.

* في ٦ شعبان صعد محمد باشا مالك، الوالي من قبل الدولة العلية، إلى القلعة.

وعلى ذلك ، فعندما عاد كليبر إلى القاهرة بعد ثمانية أيام من اشتعال الثورة ، وجدها قد تحولت إلى ثكنة عسكرية، فأمر قواته بتشديد الحصار عليها، ولجأ إلى استمالة الأتراك الذين دخلوا القاهرة، ففاوضهم على أن يخرجوا منها بسلاحهم، كما بعث إلى بكوات المماليك ـ الذين دخلوا القاهرة كذلك ـ بمن يطلب إليهم الكف عن القتال ، خصوصاً بعد توقيع الصلح بين مراد بك وكليبر، وما كاد ينجح في هذين الهدفين، حتى دك القاهرة بالمدافع من كل جانب، وشدد الضرب على حي بولاق، فاندلعت ألسنة النيران في كل مكان فيه، والتهمت الحرائق عدداً كبيراً من الوكائل والخانات ، فاضطر سكان بولاق إلى التسليم، وتلاهم سكان الأحياء الأخرى.

وانصرف كليبر بعد اخماد تمردات القاهرة الثانية إلى إجراء بعض الاصلاحات الإدارية والمالية، إلا أنه لم يمض أقل من شهرين على إخماد هذه التمردات ، حتى اغتيل كليبر في ١٤ يونيه ١٨٠٠ بطعنة قاتلة من أحد طلبه الأزهر السوريين، وهو سليمان الحلبي. ومن المعتقد أن السلطات العثمانية كانت لها يد في مصرع كليبر. وفي ١٧ يونيه احتفل «جيش الشرق» احتفالا رهيبا بتشييع رفات كليبر، وكان بعد أن ووريت الجثة التراب أن أعدم سليمان الحلبي.

---

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

«ختم مراد بيك»

ختم ابراهيم بيك

* ١ توت سنة ١٤٩٨ = ١٠ سبتمبر ١٧٨١ = الأحد ٢٠ رمضان سنة ١١٩٥.

* فيها اكتشف هرشيل حركة أورانوس.

* ١ يناير ١٧٨٢ = ٢٥ كيهك ١٤٩٨ = الثلاث ١٦ محرم ١١٩٦.

* في صفر ساح مراد بك في الأقاليم البحرية وضرب على الأهالي فرد وحق طرق معينة.

* في هذه السنة الافرنكية تغلبت الاسبانيوليون على جزيرة مينوركة. وكان انتصار الماركى دوسوفرين في الهند.

* في ١٢ ابريل انهزام الاسطول الفرنساوى أمام الأسطول الانكليزى. * في ١٤ سبتمبر عقدت معاهدة تجارية بين اسبانيا والباب العالى.

حرية تساوية
جمهور الفرنساوية
ساري عسكر منو حاكم ولايات ولاية
البحيرة وولاية سكندرية الى كامل
اهل البلاد والعرب من ولاية رشيد
يا اهل الولاية ناس من اهل الغش
والخديعة يخدعوكم في تصديقكم
كلامهم الكذب بتفرد الفرنساوية
واما مراد بيك وابراهيم بيك والانجليز
لم قصدهم الا هلاككم وهم سببا
[illegible]

* احد منشورات منو للمصريين من أهالى رشيد والبحيرة وسكندريه

* عبد الله مينو، عندما كان حاكماً لرشيد والبحيرة وسكندريه

سياسة منو:

كان الجنرال منو عند وفاة كليبرا أكبر قادة الحملة سنا، ولكنه أظهر ترددا كبيرا فى قبول القيادة العاملة، وكان يريد أن يتولاها أحد الجنرالات الآخرين، وهو Reynier رينييه. وكان

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

* منتصف رجب طلب محمد باشا مالك ليتولى الصدارة، فنزل من القلعة إلى قصر العيني.
* في غرته (شعبان) سافر محمد باشا مالك من مصر بقصد الآستانة عن طريق الاسكندرية، وفي منتصف (رمضان) حضر الوالي الجديد، وهو الشريف علي باشا القصاب، فوصل مصر في عشر شوال، وصعد القلعة في ١١ منه.

* ١ توت ١٤٩٩ = ٩ سبتمبر ١٧٨٢ = الاثنين غرة شوال سنة ١١٩٦.
* ١ يناير ١٧٨٣ = ٢٥ كيهك ١٤٩٩ = الأربع ٢٦ محرم سنة ١١٩٧.
* فيها فرت الرهاين وبعض من الآغوات إلى الصعيد، فعزم مراد بك على تجريدة إلى الصعيد.
* وفي ٢ ربيع أول كان انتهاء محاصرة الفرنساوية والاسبانيوليون لجبل طارق ضد الانكليز.

* وفي منتصف ربيع الثاني برز مراد بك إلى البساتين.
* وفي ٤ يونية سنة ١٧٨٣ = الموافق ٣ رجب من هذه السنة كان صعود أول قبة طيارة صنعها مونجلفية وأخوه من الورق وصعدت ٥٠٠ متر في ١٠ دقائق.
* وفي ٢٥ رجب تآمر مراد بك وبعض من جماعته على نفي إبراهيم بك الوالي وآخرين، وقد حصل ذلك بالفعل. * وفي شعبان وصل محمد باشا

رينييه من المقربين إلى كليبر ويثق به الجيش. غير أن القوانين المعمول بها في الجيش كانت تحتم أن يملأ هذا المنصب أكبر القواد سنا وأقدمهم في الرتبة العسكرية. وفضلا عن ذلك، فقد رفض رينييه نفسه القيادة العامة، إما لانه كان لايريد مخالفة القوانين العسكرية، وإما لأنه كان مترددا ويخشى من أن يقع على كاهله عبء مسؤليات هذا المنصب الخطيرة.

وعلى ذلك، فقد قبل منو القيادة العاملة مؤقتاً في ١٥ يونيه ١٨٠٠، ثم جاءه تثبيت الحكومة الفرنسية نهائيا في ٣ نوفمبر من العام نفسه.

وقد أثار تولى منو القيادة جزعا ودهشة . أما الدهشة، فكان سببها أن ضباط الجيش وقواده كانو ا يصفون منو بأنه «رجل البلاط القديم» وأحد مدبري المكائد على عهد الثورة الذى يجهل فنون الحرب جهلا تاما وتنقصه الكفاءة، وقال عنه بعض زملائه إنه كان موضع السخرية والاستهزاء من الجميع، فكان من النعوت التي وصفوه بها« الجنرال المضحك» و«جنرال المخادع»، أى أن جيش الشرق أو على الأقل شطر كبير من جنده وضباطه وقوداه، كانوا يرون أن منو لايصلح لتولى القيادة العامة.

وأما سبب الجزع ، فهو أن الجيش كان لاينتظر في عهد منو العودة السريعة إلى الوطن، وذلك لاعتناق منو الإسلام وزواجه من مسلمة، ولما عرف عنه من المعارضة للسياسة التي أفضت إلى عقد اتفاقية العريش ، فأصبح من المنتظر لذلك أن يبقى الجيش في «منفاه» طويلا . ولما كان منو قد اختار المضى في تجربته الاستعمارية، فقد أصدر في ٢٢ يونيه ١٨٠٠ نداء إلى

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

السلحدار، الوالي الجديد، إلى ثغر الاسكندرية.

* وفي ١٧ شعبان الماركي جوفروا سير أول مركب بخارية في نهر السادون بليون.

* وفي ٥ شوال معاهدة صلح باريس بين فرانسا واسبانيا وانجلترة.

* وفي ١٦ القعدة رجع إبراهيم بك وجماعة إلى مصر وسكنوا بيوتاً صغيرة غير بيوتهم.

* في هذه السنة حصلت زلزلة عظيمة في مسينا تضحى بسببها ٤٠,٠٠٠ نفس. وكان طاعون بالآستانة.

* ١ تــوت ١٥٠٠ = ١٠ سبتمبر ١٧٨٣ = الأربع ١٢ شوال سنة ١١٩٧.

* في محرم حضر محمد باشا السلحدار، والي مصر الجديد، وصعد القلعة، وسافر مراد بك إلى منية ابن خصيب مغضبا. * وفي ٥ محرم كانت معاهدة الصلح بين انكلترة والولايات المتحدة من أمريكا.

* ١ ينـاير ١٧٨٤ = ٢٤ كيهك ١٥٠٠ = الخميس ٧ صفر ١١٩٨.

* في أوله (ربيع ثان) حضر مراد بك بجمع كبير إلى بر الجيزة، وخرج الأمراء إلى المعادى، ومن بعد مكالمة في الصلح لم تثمر صار طلق نيران المدافع من الطرفين مدة ٢٠ يوماً، وبعدها رحل مراد بك بمن معه إلى الصعيد.

* وفي هذه السنة الافرنكية أسس فالنتين هاوى مدرسة

جيش الشرق، بسط فيه الأسس التي انتوى بناء سياسته عليها، وأهمها عدم الفصل في مسألة الجلاء عن مصر حتى تأتيه أوامر صريحة في هذا الشأن من حكومة باريس ذاتها ، فحطم هذا النداء آمال الجيش في العودة إلى فرنسا سريعاً.

على أن منو كان شديد الأمل في القدرة على العمل من أجل تهدئة الجيش واستتباب النظام بين جنود الحملة، وكانت وسيلته إلى ذلك:

أولا: أن يصارح جيش الشرق على نحو ما فعل بأن البت في مصير ا لحملة ، إنما هو من شأن حكومة باريس.

ثانيا: أن يدخل كل الاصلاحات التي من شأنها أن تحقق رفاهية الجند بقدر المستطاع. وقد بذل منو في هذه الناحية جهوداً صادقة، فقام بتنظيم الإدارة المالية، وكان غرضه من هذا التنظيم : ضبط حسابات الحملة، والوقوف على مقدار ما ينفق فعلا على الجيش ، والضرب على أيدى أولئك الذين أرادوا الثراء بسرعة على حساب جيش الشرق في مصر كالمتعهدين والموردين وغيرهم، والاقتصاد في النفقات ، وبات من المنتظر نتيجة لهذه الإجراءات وأمثالها أن ينال الجنود مرتباتهم بانتظام وتتحسن أحوال معيشتهم، وأن يخف تذمرهم تبعا لذلك.

وفضلا عما تقدم، فقد اهتم منوا أيضا بالشئون الصحية، فأصلح المستشفيات واختار لادراتها رجالا يثق في أمانتهم، وأمكن بفضل ذلك إن يتوفر الغذاء الصحي للمرضى في

للعميان في باريز. * وفيها اكتشف هرشيل تطيط كوكب المريخ. واكتشفا الفلكيون بركانًا في القمر.

* وفي ٩ رجب حضر مراد بك إلى غمازة، فتحصن إبراهيم في القلعة، فسار مراد بك إلى قناطر أبي المنجى ونزل هناك، ثم رجع إلى مصر، وفي أواخر شوال رحل إبراهيم بك مختفيًا إلى الوجه القبلي، وأصبح مراد بك منفردًا في مصر.

* ١ تـوت ١٥٠١ = ٩ سبتمبر ١٧٨٤ = الخميس ٢٢ شوال سنة ١١٩٨.

* في ١٥ ذى الحجة عزل مراد بك محمد باشا السلحدار، وولى نفسه قايمقامية مصر.

* ١ ينـاير ١٧٨٥ = ٢٥ كيهك ١٥٠١ = السبت ١٩ صفر ١١٩٩.

* في هذه السنة الافرنكية كانت معاهدة فونتين بلو بين الأوستوريا والهولاندة.

* وفي ٤ ربيع الثاني رجع إبراهيم بك من الوجه القبلي، مصطلحًا مع مراد بك، وفي ١١ منه تقلد إبراهيم بك القايمقامية، وفي منتصفه كان الطاعون بمصر، ومات به وبالحمى خلق كثير.

* في منتصف (رجب) خف أمر الطاعون.

* في أوائله (شعبان) حصلت فتنة بين أهالي الاسكندرية وأغاة القلعة بسبب قتيل قتله أحد أتباع رئيس العساكر فقبض عليه الأهالي

المستشفيات ، ووجدت الضمادات والأربطة وما إلى ذلك بوفرة. ثم ان منو لم يقصر كل عنايته على تحسين أحوال الجنود من الناحية المادية وحسب، ومن حيث المأكل والملبس والاهتمام بالمرضى والجرحى، بل إنه عنى كذلك بحالتهم المعنوية، فأجرى عدة ترقيات بين الضباط . ثم أكثر من إصدار المنشورات التي امتدح فيها مسلك الجنود وشجاعتهم تارة، أو صار يتخذها وسيلة لنشر أخبار الوطن وإذاعتها عليهم تارة أخرى. وكان غرضه أن يبين لجيش الشرق أن وجوده بعيداً عن فرنسا، لم يكن معناه أن القنصل الأول، قد بات لايهتم بجنده، أو أن الصلة قد انقطعت بين الجيش والوطن ، وأن من واجب الجند ألا يعتبروا أنفسهم في «منفى».

ومن ناحية أخرى، فقد انصرف منو إلى العناية بشئون مصر نفسها، فنظم الحكومة المركزية في القاهرة والحكومة الأقليمية في المديريات ، وأعاد تشكيل ديوان القاهرة وقصر نشاطه على الشئون القضائية ، واهتم بشئون الزراعة والصناعة والتجارة ، وحاول إلغاء نظام الالتزام فيما عرف «بالمشروع العظيم» Le Grand proiet الذى تعذر تنفيذه، بسبب قصر الفترة التي قضتها الحملة في مصر. وكان هذا المشروع يقر مبدأ المساواة بين المصريين فيما يؤدونه من ضرائب ، كما أن تنفيذه كان يقتضي حرمان الملتزمين من جميع حقوق التي كانوا يتمتعون بها من قديم الزمن. وقد أدى اهتمام منو بالزراعة إلى العناية بالري، بما في ذلك اصلاح القنوات واقامة الجسور، وانشاء حدائق للتجارب ولزراعة النباتات المجلوبة من فرنسا والاستكثار

وحلقوا نصف لحيته وجرسوه على حمار.

* وفي غرة رمضان حصلت ثورة في الأزهر قفلت بسببها الجوامع وصارت المجاورون بالأزهر تخطف ما تجده في الأسواق بسبب قطع رواتبهم.

* ١ تـوت ١٥٠٢ = ٩ سبتمبر ١٧٨٥ = الجمعة ٥ ذو القعدة سنة ١١٩٩.

* في أوله (محرم) وصل الوالي الجديد، وهو محمد باشا يكن، وطلع القلعة في ٤ منه.

* ١ يناير ١٧٨٦ = ٢٥ كيهك ١٥٠٢ = الأحد ٢٩ صفر ١٢٠٠.

* في منتصفه (ربيع أول) سافر مراد بك للوجه البحرى، ومأموريته كانت أخذ حق الطريق وهدم وحرث القرى التي تتأخر.

* وفيها اخترع المهندس يوردا دائرة التكرار الفلكية.

* في [جماد أول] ثارت أهل الحسينية بسبب ما فعله حسن بك الجفت من النهب والهجوم على البيوت، كذا ثارت المجاورون الصعايدة بسبب نهب سفينة لأحد التجار، كذا كانت معركة في طنطا بسبب النصف ريال الذى ضربه الكاشف على كل جمل يباع في السوق مدة المولد.* وفي شعبان حصل طاعون في الشام. * في ١٦ رمضان حضر إلى رشيد واسكندرية دونما عثمانية وجيش عثماني تحت قيادة قبودان باشا حسن لردع البكوات والزامهم حدهم، وفي ١٨ رمضان قام وفد

منها إلى جانب التوفر على العناية بأمر النباتات التي تنمو بالبلاد نفسها. وكان منو يأمل من ذلك كله إلى دعم أركان تلك المستعمرة الناجحة التي أراد تأسيسها في مصر.

ولما كان الاتصال بين فرنسا ومصر أصبح ممكنا بصورة ظاهرة، فقد استطاع منو بفضل ذلك أن يصدر الأوامر اليومية أو البلاغات التي حملت إلى جيش الشرق أخبار الانتصارات الفرنسية والهدنة التي عقدتها الحكومة الفرنسية مع النمسا والصلح الذى وقعته مع الروسيا . وكانت لهذه الأخبار المطمئنة أثر كبير في نفوس جند الحملة، لدرجة أن منو كاد ينجح في بث روح الطمانينة والهدوء بين جند الحملة، ومكافحة التذمر والقلق، وتعويد الجند أن يرضخوا للمطالب السيامة التي فرضت عليهم البقاء في مصر، حتى ظهر كأنما جيش الشرق قد بدأ يألف العيش في مصر. ووجد الجند شيئاً من التسلية في مشاهدة الروايات التمثيلية الكوميدية وغيرها وحضور الحفلات الموسقية ، وأنشا كثيرون منهم صلات وثيقة مع الأهلين.

غير أن ذلك كله لم يستمر طويلا. فقد أخفقت في النهاية هذه الجهود الكبيرة التي بذلها منو في سبيل توطيد أركان المستعمرة الجديدة، عندما كانت نفوس الجند قلقة وتنتشر الكآبة على وجوههم بسبب البقاء في مصر، ففتر حماسهم تدريجيا وصاروا لايهتمون بما يصدره منو من منشورات وأوامر يومية ، وأظهروا عدم الاكتراث بقائد الحملة نفسه، وظلت أنظارهم ـ على الرغم مما تقدم ذكره ـ تتجه دائماً صوب فرنسا. وكان من أهم أسباب إخفاق منو تلك المعارضة الشديدة التي أثارها أكثر قواد الحملة ضده.

من العلماء لمقابلة قبودان باشا، وفي ٢٦ رمضان سافر مراد بك مع رجاله لمصادمة قبودان باشا فلم ينجح، وفي ١٢ شوال وصل قبودان باشا حسن إلى مصر، وفي الغدوة صعد القلعة، أما مراد بك وإبراهيم بك فقد فرا إلى الصعيد.

* ١ تـــوت ١٥٠٣ = ٩ سبتمبر ١٧٨٦ = السبت ١٥ ذو القعدة سنة ١٢٠٠.

* فيها كاترينة الثانية، ملكة الروسيا، أسست مدينة سباستبول.

* في ٢١ ربيع أول كانت معاهدة سنبطر سبورج بين فرانسا والروسيا.

* ١ ينـاير ١٧٨٧ = ٢٥ كيهك ١٥٠٣ = الاثنين ١١ ربيع أول سنة ١٢٠١.

* في ٢٠ جماد الثاني نودى في مصر بإبطال المعاملة بالذهب الفندقلي الجديد، وعلى صرف الريال الفرانسا بمائة نصف فضة.

* في ١٢ رجب استلم عابدين باشا الشريف ولاية مصر بدلا عن محمد باشا يكن.

* فيها اكتشف هرشيل قمرى الكوكب أورانوس، وذلك في ٧ يونيو.

* فيها غلت الأسعار فعزت الأشياء وقل وجودها، وزاد الكرب بموت الأبقار في سائر الأقليم البحرى حتى وصل إلى مصر.

* ١ تـــوت ١٥٠٤ = ١٠ سبتمبر ١٧٨٧ = الاثنين ٢٧ القعدة ١٢٠١.

المعارضة ضد منو:

فقد كان منو على علاقات سيئة مع كبار قواد الحملة، كما أنه منذ أن أصدر إلى الجيش نداءه الذى سبقت الإشارة إليه (في ٢٢ يونيه ١٨٠٠) اتخذ موقف المعارضة الصريحة من سياسة سلفه كليبر، وصار يحرص في كل مناسبة على إظهار تمسكه بالولاء لبونابرت، حتى بات يعد من «البونابرتيين»، فأدت هذه «البونابرتية» إلى زيادة شكوك قواد الحملة في أغراضه وغاياته، لأنهم اعتبروها قائمة على التملق المزيف وحسب.

ثم تركزت المعارضة ضد سياسة منو، فانقسم جيش الشرق فريقين: الأقليلة (الاستعماريون) وهى التي عضدت قائد الحملة، والأكثرية (أنصار الجلاءعن مصر) ويعرفون باسم «الكليبريين»، باعتبار أن كليبر يمثل سياسة الجلاء، أو عدم الموافقة على إمكان تأسيس مستعمرة فرنسية في هذه البلاد وقد وجد قواد الحملة المعارضون في إصلاحات منو ومشروعاته مآخذ عدة، فصاروا ينقدونها بشدة، بل إن منهم من ذهب في النهاية إلى اعتبار منو بسبب الإصلاحات وغيرها غير كفء لتولى منصب القيادة العامة.

وكان من الحجج التي تذرع بها «الكليبريون» عموماً في معارضة منو، أن اعتبار مصر مستعمرة فرنسية يناقض الأغراض التي دفعت فرنسا إلى احتلال هذه البلاد. ذلك من جميع المنشورات والنداءات والمفاوضات التي صدرت أو جرت على أيام بونابرت وكليبر، فإن التصريح بأن مصر مستعمرة فرنسية من شأنه أن يقوى أواصر المحالفة بين تركيا وانجلترا، ويؤدى

١٠٣: يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

* في ١٧ اغسطس سجن سفير الروسيا في الآستانة.
* في محرم طلب الوالي مبالغ وافرة من الأهالي باسم قرضة، فتزعزعت، وأهانوا الشيخ العروسي وسعوا في قفل باب الجامع الأزهر.
* ١ ينساير ١٧٨٩ ٢٤ كيهك ١٥٠٤ = الثلاث ٢٢ ربيع أول ١٢٠٢.
* في ٨ جماد أول حصلت معركة بين أهالي بولاق والعسكر بسبب فسادهم وفسقهم وأذيتهم في الاسواق وخطفهم الأشياء بدون ثمن.
* وفيها بلغت قربة الماء خمسة عشر نصفاً فضة، وصادف ذلك في شهر رجب زيادة أمر الطاعون.
* في ٢٩ شعبان حصل كسوف للشمس وقت الضحوة، وكان المنكشف نحو ثلاثة أرباعها.
* وفي ٢٤ رمضان نهبت العرب قافلة الحجاج مع ٦٠٠٠ جمل للتجارة وأسروا النساء ثم باعوهم لأصحابهم عرايا. * في ٨ القعدة ثارت جماعة من المغاربة والشوام بسبب الجراية، وقفلوا في وجه الشيخ العروسي باب الجامع الأزهر.
* فيها ضرب في مصر زر محبوب قيمته وقتها ١٣٠ نصفاً فضة، وفي سنة ١٢١٣: ١٨٠ نصفاً فضة = ٦,٧ فرنك.
* ١ تسوت ١٥٠٥ = ٩ سبتمبر ١٧٨٨ = الثلاث ٨ القعدة سنة ١٢٠٢.

إلى زيادة جهود هاتين الدولتين لطرد الفرنسيين من مصر، فتفقد فرنسا ـ إذا كللت هذه الجهود بالنجاح ـ ذلك النفوذ الذى تمتعت به في هذه البلاد من أزمنة طويلة.

وقد أثيرت كل هذه الحجج مرة أخرى عندما لجأ القواد المعارضون في ٢٨أكتوبر ١٨٠٠إلى مقابلة منو، بقصد إبداء استيائهم من سياستة وتصرفاته وإصلاحاته، فاتخذت هذه المقابلة شكل مظاهرة احتجاج كبيرة، كان لها أسوأ الأثر على منو، كما أفضت إلى زيادة الانقسام ليس فقط بين هؤلاء القواد وبين منو، بل و بين مختلف الرتب وصفوف الجند أنفسهم . وانتشرت أعمال الجاسوسية نتيجة لهذه الانقسامات ، فصار كل فريق يتجسس على أعمال الآخر. وساء عقلاء الفرنسيين أن يروا جيش الشرق فريسة لهذه الخلافات.

وطالما كان منو قائد الحملة «المؤقت» ، فقد ظل بقية قواد الحملة يعتبرونه زميلا لهم يمارس سلطات القيادة العليا بصورة مؤقتة، ومن حقهم لذلك أن ينقدوا أعماله بكل حرية وصراحة، وكانوا في الحقيقة يترقبون أنتهاء هذه القيادة المؤقتة سريعاً بمجرد وصول أول بريد إلى مصر من فرنسا. وفي ٣ نوفمبر ١٨٠٠وصل البريد من فرنسا يحمل أخبار تثبيت منو في قيادة الحملة. وأعلن منو هذا النبأ في أمر يومي إلى الجيش بتاريخ ٤ نوفمبر ١٨٠٠.

وكان لتثبيت منو في القيادة العامة أسوأ الأثر على قواد الحملة، لأنهم إنما كانوا يعتمدون في معارضتهم له، على أنه إنما يتمتع بقيادة مؤقتة فقط. وأما الآن وقد صدر قرار حكومي بتثبيته في هذه القيادة، فقد أصبح من الواجب عليهم أن يحترموا هذا القرار الحكومي، وصار

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

* ١ يناير ١٧٨٩ = ٢٥ كيهك ١٥٠٥ = الخميس ٣٠ ربيع الثانى ١٢٠٣.

* فى سنة ١٧٨٨ ميلادية انتصرت العثمانيون على يوسف الثانى ملك الهونجوريا فى واقعة لوجوش.

* وفيها كان تأسيس جرنال التيمس الانكليزى.

* فيها أمر الباشا بأعمال تسعيرة جديدة كان فيها أردب القمح بثلاث ريالات ونصف، بعد تسعة ونصف.

* وفى ٣١ ديسمبر أعظم درجة للبرودة فى باريس بلغت ٢٢,٣ مئينية تحت الصفر.

* وفى ١١ جماد الثانى رفع عبادى باشا عن مصر، وتولى عليها اسماعيل باشا التونسى، بعد أن حكم سنة و ١١ شهراً. * وفى ١٢ رجب جلوس السلطان سليم خان الثالث ابن السلطان مصطفى بدلا عن الغازى السلطان عبدالحميد، المتوفى فى يومها، وعمره: ٦٦ سنة، ومدة سلطنته ١٥ سنة و ٨ أشهر.

* فيها اكتشف هرشيل دوران وتبطيط زحل.

* وفيها اكتشف هرشيل سادس وسابع أقمار زحل.

* وفى ٤ شوال قررت حكومة فرانسا حرية المطبوعات.

* ١ توت سنة ١٥٠٦ = ٩ سبتمبر ١٧٨٩ = الأربع ١٨ الحجة سنة ١٢٠٣.

* ١ يناير ١٧٩٠ = ٢٥ كيهك ١٥٠٦ = الجمعة ١٤ ربيع الثانى سنة ١٢٠٤.

لايمكن تفسير أيه معارضة من جانبهم الآن، إلا بأنها ثورة صريحة ضد حكومة الجمهورية ذاتها. ومعنى ذلك أنه بات من المتعذر عليهم القيام بأية مظاهرات شبيهة بتلك التى حدثت فى ٢٨أكتوبر ،أو أن يطمعوا فى الاستحواذ على السلطة وتقرير مصير الجيش حسب رغباتهم، مهما كانت هذه الرغبات سليمة ومجدية. ولما كان من المستحيل على القواد دفن أحقاد الماضى ولابد لهم من المضى فى معارضتهم على الرغم من القرار الحكومى ، فقد انحصرت خطتهم من ذلك الحين فى أمرين:

الأول ـ تبرير خطوة ٢٨ أكتوبر ١٨٠٠ ، مع إقامة البراهين المؤيدة لخطة المعارضة التى سلكوها ضد حكومة منو، لاستمالة سائر القواد فى مصر والحكومة فى فرنسا.

الثانى ـ رجاء بونابرت حتى يعزل منو من القيادة ، أو يرسل فى استدعائهم من هذه البلاد نهائياً.

وأما منو فقد نبذ سياسة اللين والتفاهم مع القواد منذ مجئ أمر تثبيته، وقرر أن يأخذ المعارضة بالشدة والصرامة ، وصار يحاول من جديد إبعاد القواد المعارضين له، إلى جانب تشويه سمعتهم فى فرنسا، واتهامهم بتحريك الثورة ضده فى جيش الشرق فى مصر . واستطاع بالفعل فى ديسمبر ١٨٠٠ إبعاد أحدهم(فردييه Verdier) ولكنه فشل فى إبعاد الآخرين .

---

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

* في ٩ منه (صفر) استيلاء الأوستوريا على بلغراد.
* فيه (ربيع ثان) اتحدت البروسيا مع التركية.
* فيها اخترع نيكلسون، الانكليزى، أول مطبعة ميكانيكية.
* في ٣٠ رجب حصلت معاهدة بين البروسيا وجمهورية بولونيا ضد روسيا.
* في ٨ رمضان قررت حكومة فرانسا أن الشعب هو الذى يأمر بالصلح أو بالحرب.

* ١ توت ١٥٠٧ = ٩ سبتمبر ١٧٩٠ = الخميس ٢٩ الحجة سنة ١٢٠٤.
في ٢١ محرم تبوأ ليوبولد الثانى امبراطورية المانيا. * فيها اكتشف هرشيل ثالث ورابع أقمار اورانوس. * وفي جماد أول ابتداء أمر الطاعون بمصر، وداخل الناس منه وهم عظيم، وقيل كان يموت منه بالقاهرة يوميا ١٠٠٠ نفس. * وفيها كانت قلاقل كبيرة في باريس واحيطت المدينة بعساكر وصار هدم سجن الباستيل الثورة الفرنسية.

* ١ يناير سنة ١٧٩١ = ٢٥ كيهك ١٥٠٧ = السبت ٢٥ ربيع الثانى ١٢٠٥.
* في رجب زاد الطاعون وقوى عمله، ولم يتدئ في الخفة الا أول رمضان بعد أن مات خلق كثير.
* وفي ٢٠ رجب قررت حكومة فرانسا ان في سن ١٨ سنة تعتبر الملوك بالغة الرشد.

وعمد منو إلى إذاعة الأقوال والرسائل في مصر وفرنسا التى من شأنها تحطيم مجد كليبر، وبالتالى تحطيم تلك الجماعة التى اعتقدت خطأ أو صوابا أنها تترسم خطوات القائد السابق؛ فعظمت هوة الخلاف بينه وبين القواد المعارضين. وفي ٢٧ فبراير ١٨٠١ كتب منو رسالة إلى بونابرت تحدث فيها عن الاختلافات الداخلية بصدد الاحتفاظ بمصر أو أخلائها، وطلب منه الرأفة والرحمة حيال أولئك الذين من المحتمل أنهم أثاروا في ذهن القنصل الأول الشكوك حول أشخاصهم.

غير أنه ما أن كتب منو هذه الرسالة الأخيرة، حتى كان العدو على أهبة الانقضاض على مصر، ذلك أن الحملة الانجليزية كانت في طريقها إلى مصر ووصلت إلى شواطئ هذه البلاد بعد أيام قلائل فقط، في وقت كان الاحتفاظ بمصر متوقفاً على اتحاد القوى وجمع الكلمة، وهو ما تعذر تحقيقة بسبب ذلك الانقسام الذى حدث في جيش الشرق وبين قواده، ثم اتسعت شقته حتى عظم خطره في مطلع عام ١٨٠١.

جلاء الفرنسيين:

فقد كان من النتائج التى ترتبت على محاولات القنصل الأول لمساعدة مواطنيه في مصر وامدادهم بالعتاد والرجال، أن تبدلت السياسة الانجليزية إزاء جيش الشرق. إ ذ عدلت الحكومة الانجليزية عن التمسك ببقاء الفرنسيين في مصر أو تسليمهم كأسرى حرب، إلى اتخاذ الوسائل العسكرية الكفيلة بإخراج جيش الشرق من مصر دون إبطاء، ومهما يكلفها إجلاؤه

١٠٣: يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

* في ١٣ شعبان كانت وفاة فرنكلين المشهور باختراعاته لمانعة الصواعق ومساعدته على حرية الاقاليم المتحدة.

* وفي رمضان صدر الأمر بتولية محمد عزت باشا بدلا عن اسماعيل باشا، الذى نزل من القلعة في ١٥ منه، وقصد السفر على الفور فعارضته الاختيارية ومنعته حتى حضر خلفه في غرة شوال وعمل حسابه، فكانت ولايته ٢ سنة و ٢ شهر و ٢٠ يوم.

* في ٢١ القعدة دخل مراد بك وابراهيم بك مصر، عائدين من الوجه القبلي.

* ١ توت ١٥٠٨ = ١٠ سبتمبر ١٧٩١ = السبت ١١ محرم سنة ١٢٠٦.

* في محرم هبط النيل مرة واحدة فشرقت الأراضي فارتفعت سعر الغلة من ريالين إلى ستة، فصار الحاكم يدق المسمار في آذان تجار الغلة ليبيعوا بالاثمان اللائقة فلم يفد ذلك شيئاً.

* ١ يناير ١٧٩٢ = ٢٤ كيهك ١٥٠٨ = الأحد ٦ جماد أول ١٢٠٦.

* في ١٤ جماد أول كانت معاهدة صلح ياسي بين كاترينة الثانية والسلطان سليم، وقد تحصلت الروسيا على القرم وجزيرة طمان وجزء من كوبان وجزءمن الباسارابيا وعلى اكسكوف والبلاد المحصورة بين نهر البوج والدينيستر، الذى تقرر بان يكون حدا فاصلا بين الاملاك الروسية والعثمانية.

عنها من جهد وتضحيات عظيمة. وفي سبتمبر ١٨٠٠ نوقشت هذه المسألة في مجلس الوزاراء البريطاني، وقر الرأى على الاشتراك بصورة جدية مع الأتراك في عملياتهم العسكرية ضد الفرنسيين في مصر. ووضع الانجليز والأتراك خطة لمهاجمة مصرمن نواح متعددة : من ناحية الشمال بجيش إنجليزى تركي، ومن ناحية الشرق بجيش تركي، ومن الجنوب بقوة حربية من الهند تهاجم مصر من ناحية البحر الأحمر.

قد وصلت هذه الحملات كلها واشتركت في القتال، ما عدا الحملة الهندية الإنجليزية التى نزلت بالفعل في القصير، ومنها إلى قنا، وأسرعت بالزحف شمالا تجاه القاهرة، لكنها وصلت متأخرة، لأن العمليات العسكرية كانت قد انتهت.

ومع أن منو كان يعلم منذ شهرى ديسمبر ١٨٠٠ ويناير ١٨٠١ أن الأتراك والإنجليز يستعدون لإرسال حملة كبيرة على مصر، ثم لم يلبث أن جاءته الأخبار في فبراير منبئة بعزم الإنجليز على النزول فى شاطئ البحر المتوسط ، وتوقع حدوث الغزو في جهة إبى قير والإسكندرية ، فقد ظل متمسكا بخطة العمليات العسكرية من أجل الدفاع عن مصر، مما دلّ على عدم درايته بفنون الحرب والقتال. وكانت خطته تدور عن الحدود الشرقية بإرسال جنزء من الجيش إلى بلبيس وآخر إلى دمياط ، والاكتفاء بإرسال النجدات القليلة إلى الإسكندرية . وكانت النتيجة أن تمكنت الحملة الإنجليزية من النزول في إبى قير في أوائل مارس ١٨٠١ .

وكان بعد لأى وتردد وإضاعة الوقت سدى، أن غادرمنو القاهرة للدفاع عن الإسكندرية .

---

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

* وفي ٢٦ من شعبان اعلنت فرانسا الحرب على فرانسوا الثانى امبراطور اوستوريا.

* في ٢٤ ذى الحجة سجنت الفرنساوية ملكهم لويز السادس عشر.

* ١ تسوت ١٥٠٩ = ٩ سبتمبر ١٧٩٢ = الأحد ٢٢ محرم سنة ١٢٠٧.

* في محرم هبط النيل، وكان ناقصًا عما يلزم للرى نحو ذراعين.

* وفي ٤ صفر كان تأسيس الجمهورية الفرنساوية.

* فيها عبرة الريال الأبى طاقة كانت تسعين نصفا فضة.

* في ١٩ ربيع الثانى كانت محاكمة لويز السادس عشر ملك فرانسا.

* ١ ينايـر ١٧٩٣ = ٢٥ كيهك ١٥٠٩ = الثلاث ١٨ جماد أول ١٢٠٧.

* في ٨ [جماد الثانى] اعدمت الفرنساوية ملكهم لويز السادس عشر، وفي ١٩ منه اعلنت فرنسا الحرب على الانكليز.

* فيها اشتد الغلاء بمصر حتى بيعت أوقية الخبز بريالين، وامتلأت الأسواق والأزقة بالرجال والنساء يصيحون من الجوع حتى صار يموت كل يوم جملة من شدة الجوع، ثم وردت غلال رومية فحصل للناس اطمئنان.

* في ٨ يوليه أعظم درجة

ولكن الانجليز تمكنوا من هزيمة الفرنسيين في «كانوب» في ٢١ مارس ١٨٠١، واعتصم منو بالإسكندرية. وقنع الانجليز بترك قوة لحصارها، وأغرقوا منخفض مريوط، حتى يجعلوا جيوش الفرنسيين منعزلة بعضها عن بعض. وتقدموا صوب القاهرة، في الوقت الذى كان يقترب منها الجيش العثماني بقيادة الصدر الأعظم.

وعلى ذلك فقد آثر - قائد حامية القاهرة - التسليم في أواخر يونيه ١٨٠١ للإنجليز والعثمانيين بشروط اتفاقية العريش. وشدد الإنجليز الحصار على الاسكندرية، فاضطر منو إلى التسليم في سبتمبر ١٨٠١ بشروط اتفاقية العريش كذلك. وعلى هذا النحو تم جلاء الفرنسيين عن مصر في أكتوبر من العام نفسه. ولما عقد الصلح الأوروبي في معاهدة أميان (مارس ١٨٠٢) عادت مصر إلى حظيرة الدولة العثمانية كما كانت قبل مجئ الحملة الفرنسية.

نتائج الحملة:

ومع أن الحملة فشلت في تحقيق أغراضها العسكرية، إلا أن نتائجها السياسة والعلمية كانت كبيرة:

أولا - مهدت الحملة للقضاء على النظام العثماني المملوكي في مصر، وزعزعت الدعائم العسكرية والسياسة لهذا النظام؛ بإضعاف عنصرية الأساسين: السيطرة العثمانية والاستبداد المملوكي. وكان المصريون قبل مجئ هذه الحملة لايشكون في قوة السلطنة العثمانية وبكوات

١٠٣: يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

للحرارة في باريس كانت ٣٨,٤ مئينية فوق الصفر.
* في ١٦ [الحجة] ابتدأ تقرير وضع التلغرافات في فرانسا.
* في ١٨ محرم استولت الانكليز على ليمان طولون.

* ١ توت ١٥١٠ = ٩ سبتمبر ١٧٩٣ = الاثنين ٢ صفر ١٢٠٨.
* و [في صفر] حصلت بهدلة عظيمة للحجاج بالقرب من مقابر شعيب. * وفي ٢٧ صفر قررت حكومة فرانسا أن الفرنساوية تؤرخ محرراتها اعتبارا من تأسيس الجمهورية، الذى هو ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٢.
* ١ يناير ١٧٩٤ = ٢٥ كيهك ١٥١٠ = الأربع ٢٨ جماد أول ١٢٠٨.
* وفي ١٤ منه استرجعت الفرنساوية ليمان طولون.
* في ٢ رجب قررت حكومة فرانسا إبطال الرق من جميع مستعمراتها.
* في ٧ شعبان صار إنشاء مدرسة المهندسخانه بباريز.
* في هذه السنة صار استكشاف العمود الكهربائي للمعلم فولتا.
* في ٩ ذو القعدة اعدمت الفرنساوية مدام اليزابيث، شقيقة ملكهم لويز السادس عشر، السابق إعدامه.

*١توت ١٥١١ = ٩ سبتمبر سنة ١٧٩٤ = الثلاث ١٣ صفر سنة ١٢٠٩.

المليك وقدرتهم على حماية بلادهم، فإذا بهم يرون مدافع الفرنسيين وقد عصفت بهم عصفاً، فتسرب الشك إلى نفوس المصريين في قوة النظام الذى خضعوا له قروناً، وبدأوا ويفقدون إيمانهم به، الأمر الذى مكن رجلا مغامراً من استغلال الموقف كله لصالحه، ألا وهو محمد علي.

ثانياً ـ هزت الحملة المفاهيم الفكرية والإجتماعية التى كان المجتمع المصرى يخضع لها في القرون السابقة؛ ومهدت بذلك لحركة الانقضاض عليها والعمل على تغييرها خاصة أفكار العدالة والقضاء والوطنية والديمقراطية.

ثالثا ـ نجحت الحملة في توجيه أضواء العلم الحديث إلى ماضى مصر وحاضرها بفضل الدراسات التى قام بها علماؤها. إذ عاش هؤلاء في مصر عيشة دأب وبحث وتنقيب، وانتشر أفرادهم وجماعاتهم في طول البلاد وعرضها يدرسون آثار البلاد القديمة وتاريخها، وطبيعة أرضها وأجناسها، وحيوانها وطيورها، وغلاتها الزراعية ، وصناعاتها وتجارتها وعادت أهلها، وغير ذلك من الموضوعات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والجغرافية والجيولوجية ، التى اشتمل عليها كتاب علماء الحملة المشهور «وصف مصر» Description de L,Egypte

رابعاً ـ فتحت الحملة حقبة طويلة من التنافس الاستعمارى الفرنسي الإنجليزى على مصر، وهو تنافس عرف في التاريخ باسم «المسألة المصرية».

* في ٢٠ ربيع أول وصول صالح باشا القيصرلي، الوالي الجديد، إلى المحروسة.
* فيها اكتشف هرشيل خامس وسادس أقمار أورانوس. * وفي ١٥ رجب معاهدة الصلح بين فرانسا والتوسكانه. * وفي ٢٥ يناير أعظم درجة للبرودة في باريس بلغت ٢٣,٥ مئينية تحت الصفر. * وفي ١٧ رمضان الحكومة العرفية الفرنساوية أقرت على استعمال المقايس والمكاييل والموازين والمعاملة بمقتضى الطريقة الاعشارية.

* ١ ينساير ١٧٩٥= ٢٥ كيهك ١٥١١= الخميس ٩ جماد الثاني ١٢٠٩.
* في ٩ شوال تولى صالح باشا القيصرلي بدلا عن محمد عزت باشا، الذى كان مدته ٤ سنة و ١ شهر و ٩ يوما.
* فيها كان سعر الريال الأبى طاقة ١٥٥ نصفا فضة، وكان ابتداء تسميته بريال فرانسا. * في [ذى القعدة] بسبب ما حصل من محمد بك الألفي من الظلم لأهل الشيخ الشرقاوى اجتمعت علماء الأزهر وقفلت أبوابه ونادت بغلق الأسواق.
* في ٢٣ يوليو معاهدة الصلح بين فرانسا واسبانيا صار إمضاها في مدينة بال.

* ١ تسوت ١٥١٢ = ١٠ سبتمبر ١٧٩٥ = الخميس ٢٥ صفر سنة ١٢١٠.
* في ٢٥ سبتمبر معاهدة سنبطر سبورج التي بمقتضاها صار تقسيم البولونيا بين الروسيا والنمسا والبروسيا.
* في ١٨ نوفمبر الجلاء الانكليز عن جزيرة أيلديو.

الجماهير المصرية في اعقاب انتهاء الاحتلال الفرنسي وبداية حكم محمد على

١.الانتكاسات الجماهيرية بعد خروج الفرنسيين من مصر: لعل ما جاء في مقدمة مظاهر التقديس من التعليقات الدالة على كراهية الوجود الأجنبي الفرنسي وإظهار الفرح بزوال الفرنسيين والإشادة بالدولة العثمانية والثناء عليها، يمثل تسجيلاً أميناً لشعور المصريين على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية.

ولكن هذه الفرحة التي عمت جماهير مصر وظنها الجبرتي تباشير عودة إلى العدالة وسلوك سواء السبيل، سرعان ما أصيبت بانتكاسة شديدة تحت وطأة هذا العهد من الفوضى السياسية الذى عقب جلاء الفرنسيين وامتد ما بين أعوام ١٢١٦ ـ ١٢٢٠ = ١٨٠١ـ ١٨٠٥. وذلك لأن العثمانيين عندما عادوا إلى مصر كانت الفكرة المسيطرة على أذهانهم أنهم يغزون بلاداً جديدة، ولهم بفضل هذا الغزو أن ينهبوا ويسلبوا أرزاق المصريين: وفي غضون هذه السنوات الخمس بلغ التذمر الجماهيرى مداه إثر خيبة الأمل العارمة التي منى بها الشعب المصرى الذى كان ينتظر العدل والإنصاف من العثمانيين المسلمين بعد جلاء الفرنسيين الملاحدة، وأعلن العلماء على لسان تلك الجماهير رفضهم للظلم أياً كان مصدره سواء أكان مصدره الفرنسيون

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

* ١ يناير ١٧٩٦ = ٢٤ كيهك ١٥١٢ = الجمعة ٢٠ جماد الثاني ١٢١٠.
* في ٨ مارس كان زواج نابليون بونابرطه بجوسوفينه.
* فيها كان للريال أبي طاقة قيمتان، إحداهما تسعون نصفا، وهي القيمة الديوانية، وسعر في المعاملة بين الناس، وهي مختلفة، تارة ١٣٢ وتارة ١٥٥ نصفا فضة.
* في ٢٣ مايو كان دخول الجيش الفرنساوي في ميلان.
* في أوله (ذو الحجة) عزل صالح باشا القيصرلي، ومدة ولايته ١ سنة و ٢ شهر.
* في ٧ أغسطس انتصر نابليون بونابرطة على النمسا في كاستيليون. * وفي هذه السنة تولى أبو بكر باشا الطرابلسي مصر. * في ١٩ أغسطس تحالفت فرانسا مع اسبانيا على التعرض والمدافعة معا.

* ١ توت ١٥١٣ = ٩ سبتمبر ١٧٩٦ = الجمعة ٦ ربيع أول ١٢١١.

* في ٧ ربيع الثاني حصل الصلح بين فرانسا وملك نابولي.
* في ١٤ جماد أول انتصار بونابراطة على أوستوريا في أركول. * وفي ١٦ منه كاترينة الثانية ملكة الروسيا توفت فجاة، وتبوأ بولس الأول على تخت الروسيا.
* ١ يناير ١٧٩٧ = ٢٥ كيهك ١٥١٣ = الأحد ٢ رجب ١٢١١.
* وفي ١٥ رجب انتصار بونابرطة على استوريا في ريفولي.
* فيها كانت وزن ميدى

أعداء الدين أم كان مصدره العثمانيون حماة الدين كماكانوا يدّعون. وسجل الجبرتي هذا التحول في الرأى العام المصرى في كتابه عجايب الآثار، وحمل فيه على الدولة العثمانية واعتبرها مسؤولة عن الشقاء الذى عاني منه المصريون، وعاد ليثني على الفرنسيين في مواضع عدّة من هذا الكتاب، وبلغت موجة العداء للعثمانيين درجة جعلت علماء الأزهر يرحبون في جماد ثاني سنة ١٢١٧ = أكتوبر عام ١٨٠٢ بمبعوث فرنسا المسيو سباستياني Sebastiani الوزير المفوض من قبل نابليون، ويصارحونه بتمنيهم عودة الحكم الفرنسي لمصر مرة أخرى: وعلق سباستياني على هذا الاجتماع في تقريره إلى حكومته بقوله: «إنه دهش مما أبداه المشايخ من شجاعة في إعلان رغبتهم في أن يصبحوا مرة أخرى رعايا القنصل الأول».

كان الشعب المصرى، بعد محنتين متتاليتين: محنة الحملة الفرنسية ثم محنة عودة العثمانيين، يفتش عن مجتمع تسوده العدالة، ولكن ما رآه الجبرتي من أعمال العثمانيين جعلته يتذكر الفرنسيين بالخير، ويذكر على لسان الفلاحين حنينهم لحكم بونابرت في مقارنته لما نزل بهم من المظالم العثمانية، لا بل إن المظالم التى أنزلها العثمانيون بالشعب المصرى رفعت من مستوى الوعي الجماهيرى عمومًا ووعى الطبقة المثقفة على وجه الخصوص. فالجبرتي ينقل حواراً عن المشايخ في أمر المفاضلة بين الفرنسيين والإنجليز الذين كانوا يتظاهرون بالدفاع عن المصريين بالاتفاق مع بعض المماليك وذلك في أحداث يوم الأربعاء ٢٩ محرم ١٢٢٢،

القاهرة ربع جرام والثلث فضة والباقي نحاس، وقيمته سنتيم ونصف وربع سنتيم.

* في ٢٩ يونيو استيلاء الفرنساوية على جزيرة كورفو.

* ١ تـوت ١٥١٤ = ٩ سبتمبر ١٧٩٧ = السبت ١٧ ربيع أول ١٢١٢.

* في ٩ أكتوبر استكشاف تلقيح الجدرى حقيقة، لأن تجارب مكتشفه ادوارجنير الحكيم الانكليزى كانت ابتدأت في سنة ١٧٦٦ وقد كافأته حكومة الانكليز بمبلغ ٣٠,٠٠٠ ليرة انجليزية.

* ١ ينـاير ١٧٩٨ = ٢٥ كيهك ١٥١٤ = الاثنين ١٣ رجب سنة ١٢١٢.

* فيها ظهر بالمشهد الزينبي خلل، ومال جانبه، فندب لعمارته عثمان بك، المعروف بالطنبورجي، فهدمه وكشف أنقاضه وشرعوا في بنائه فاقاموا جدرانه ونصبوا اعمدته وأرادوا عقد قناطره فحصلت حادثة الفرنسيس فبقي على حالته.

* في ١٩ مايو ١٧٩٨ = قامت التجريدة الفرنساوية المختصة بمصر من طولون، وفي ٢٥ منه استولت الفرنساوية على جزيرة مالطة.

* في ٢ يوليو = ١٨ محرم ١٢١٣ هـ وصل الجيش الفرنساوى إلى اسكندرية، وفي ١٩ محرم استولى عليها، وفي ٢٣ قام يقصد القاهرة، وفي ٢٦ وصل الرحمانية، وفي ٢٩ كانت واقعة شبرخيت، وهي أول واقعة بين برنابرطة والمماليك، وفي ٧ صفر كانت واقعة الأهرام بينهم، وفي ١١ منه دخلت الفرنساوية

ويخلصون من هذا الحوار إلى تفضيل الفريق الأول. ورد الجبرتي في تعليل هذا التفضيل يحمل مفهوماً جديداً للعدالة غير مرتبط بالدين: فالفرنسوية الذين لا دين لهم كانوا أعدل من حكام مصر والإنكليز المتحالفون مع المماليك لا يرجى الخير منهم لكونهم متعاونين مع حكام مصر الأولين وهو يدعو إلى عدم تصديق دعواهم في حماية مصر: «لا تصدقوا أقوالهم في ذلك، وإذا تملكوا البلاد لا يبقون على أحد من المسلمين وحالهم ليس كحال الفرنسوية، فالفرنسوية لا يتدينون بدين ويقولون بالحرية والتسوية أما هؤلاء الإنجليز نصارى على دينهم ولا تخفى عداوة الأديان ولا يصح الالتجاء إليهم».

والجبرتي يؤيِّد رأيه بعدالة الفرنسيين نتيجة للمقارنات بين أعمال هؤلاء وأعمال العثمانيين، لابل إن هذه المقارنات جعلته يعيد النظر فيما سجَّله من قبل في كتابه مظهر التقديس من تحامل على الفرنسيين فجاء كتابه عجايب الآثار، والذى كانت نواته مظهر التقديس بالذات، حاملاً لتعديلات شتى غيَّر فيها موقفه من الاحداث التي مرَّت بمصر منذ الغزو الفرنسي حتى عام ١٢٢٠هـ، وكان في هذه التعديلات جميعها مدفوعا بخيبة الأمل التي أصابته بعد عودة العثمانين من انتشار الفوضى والاضطراب، مدركًا من جرّاء المقابلة بين الحكمين أن الحكم العثماني لم يكن خيراً كله، وأن الحكم الفرنسي لم يكن شراً كله، بل ربما كان الحكم الفرنسي يفضله في بعض الوجوه. وقد لاحظ الدكتور محمود السروجي في دراسته لعجايب

المحروسة وهرب أبو بكر باشا، والوالي، إلى غزة. وفي ١٢ ربيع الأول ابتداء محاربة الفرنساوية للمماليك بالوجه القبلي. وفي ١٧ ربيع أول اعدم الأميرال نيلسون الانكليزي الدننما الفرنساوية في أبي قير. وفي ربيع الثاني أعلنت الدولة العلية الحرب على فرانسا. * في ١٠ [جماد أول] ثورة أهالي المحروسة على الفرنساوية وإطلاق قنابلهم على الثائرين بالجامع الأزهر وبجامع السلطان حسن. * وفي ٢٦ ديسمبر أعظم درجة للبرودة في باريس بلغت ١٧.٦ مئينية تحت الصفر. * من ١٦ إلى ١٩ [من رجب] أمر بونابرطة باستكشاف برزخ السويس بقصد إعمال قنال يجمع البحر الأحمر بالمتوسط على نية معاكسة الانكليز في الهند. وفي ٤ رمضان استيلاء الفرنساوية على العريش، وفي ٢٥ منه استيلاؤهم لغاية جزيرة أنس الوجود، وفي ٣٠ منه استولوا على يافا ثم قتلت المساجين بأمر بونابرطة. وفي ١٣ شوال ابتداء حصار عكا. * وفي ١١ [ذي القعدة] حاصرت العساكر العثمانية بدمشق الجنرال كليبر فخلصه بونابرطة. * وفي ٢ [من ذي الحجة] وصلت الدونمنا الانكليزية والعثمانية أمام عكا، وفي ١٤ منه كان آخر خروج أحمد باشا الجزار على الفرنساوية، وفي ٢٤ منه استولوا على القصير.

* في ١٧ يونيه ١٧٩٩ م = ١٢ بؤنه ١٥١٥ ق = ١٢ محرم رجع بونابرطة من الشام إلى مصر. * وفي هذه السنة كان اختراع الليتوغرافية، أي مطبعة الحجر. * وفي ٩ [من صفر]

الآثار أن الجبرتي كان فيه أقرب إلى الموضوعية وأشد بعدا عن الهوى. لابل إن كلاً من الكتابين يمثل تفكيراً مغايراً.

والجبرتي في ما كتبه عن الفرنسيين كان رائده مظاهر العدالة التي تجلّت في أعمال الفرنسيين، وإذا استثنينا ظروف الحرب والثورات، فتراه يندهش لنزاهة الفرنسيين في المعاملات اليومية، ودفعهم نقداًثمن ما يقدم لهم من خدمات أو بضائع، ومنعهم احتكار السلع وبيع الحاجات بأضعاف أثمانها، ويذكربإعجاب موقف السلطات الفرنسية وعدالتها في محاكمة سليمان الحلبي قاتل الجنرال كليبر«بخلاف ما رأيناه بعد ذلك من أفعال أو باش العساكر الذين يدّعون الإسلام ويزعمون أنهم مجاهدون وقتلهم الأنفس، وتجاريهم على هدم البنية الإنسانية بمجرد شهواتهم الحيوانية مما سيتلى عليك بعضه فيمابعد».

والجبرتي شاهد عيان لما عانته الجماهير المصرية على يد العثمانيين، والانتكاسة التي منيت بها هذه الجماهير. فالعثمانيون اعتبروا مصر دار حرب وكانت أولى فتاوى القاضي التركي أن أرض مصر جميعها للسلطان. ويصف الجبرتي أولئك الجند العثمانيين الذين عاثوا في الأرض فساداً بحجة أنهم طردوا الفرنسيين فيقول في بعضهم «أنهم شر من مشى على الأرض». ويتحدث عن بعضهم الآخر وهم الأرنؤود فيقول: «إن الواحد منهم لو رجع إلى بلاده لرجع

١٠٣: يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

وصل الجيش العثماني إلى أبي قير، ومن ضمنه كان المرحوم محمد على الكبير مؤسس الحكومة الخديوية الحالية، وفي ٢٠ منه كانت واقعة أبي قير. * وفي ٣٠ [من ربيع الزول] ترقى الجنرال كليبر قائدا عاما بمصر بدلا عن نابليون بونابرطة. * وفي ٣٠ [من ربيع الثنى] وصل إلى دمياط ٥٣ مركبا عثمانية.

* في ١ [من جماد الأول] ضبطت الانكليز أحد أبراج دمياط. * وفيها ظهر بمديرية البحيرة بدوى ادعى أنه المهدى، وأحرق ٦٠ عسكريا فرنساويا.

* وفي ١٧ اكتوبر ١٧٩٩ م. كانت وفاة واشنجون محرر الولايات المتحدة من أميركا.

* وفي ٢٧ شعبان كانت معاهدة العريش بين الجنرال كليبر ووزير الدولة العثمانية والأميرال سيدني سميث الانكليزى.

* وفي ٢٣ شوال كان واقعة المطرية، التي بعدها أطلقت الفرنساوية قنابلها على الثائرين من المحروسة، ولم يخضعوا لحكمهم إلا بعد محاربة عشرة أيام فيها ضربت الفرنساوية على العمد والأعيان أموالا قدرها عشرة آلاف ألف فرنك، عن كل فرنك ٢٨ نصف فضة = ٥٠٠,٠٠٠ بنتو، وذلك في نظير الأمان الذى اعطوه لهم.

* ١ تـوت ١٥١٦ = ١٠ سبتمبر ١٧٩٩ = الثلاث ٩ ربيع الثاني سنة ١٢١٤.

* ١ ينـاير ١٨٠٠ = ٢٤ كيهك ١٥١٦ = الأربع ٤ شعبان ١٢١٤.

إلى حالته التي كان عليها في السابق من الخدم الممتهنة والاحتطاب في الجبل والتكسب بالصنايع الدنية... ».ومنهم من يهاجم السيدات ويخطف ما في أيديهن من زينة، ويشترى السلع بالسعر الرسمي ويبيعها بسعر مضاعف، فإذا اشتكى القوم قيل لهم «أناس قاتلوا وجاهدوا أشهرًا وأيامًا وقاسوا ما قاسوه في الحر والبرد والطل حتى طردوا عنكم الكفّار وأجلوهم عن بلادكم أفلا تسَعُونهم في السكنى؟».

تلك صور لما آلت إليه حال الجماهير في القاهرة وسواها ولم تكن رشيد التي كانت تقاوم الإنجليز عام ١٢٢٢هـ=١٨٠٧م، ووصل إليه الجيش التركى بعد انتهاء القتال بمنأى عن الكوارث، فلما دخل الجيش العثمانى الحماد استباح أهلها ونساءها وأموالها ومواشيها زاعمًا أنها صارت دار حرب بنزول الإنكليز عليها وتملكها. ويمضى الجبرتى فيحكى ما حدث لرشيد فيقول: «وضربوا على أهلها الضرايب وطلبوا منها الأموال والكلف الشاقة، وأخذوا ما وجدوه بها من الأرز والعليق فخرج كبيرها السيد حسن كريت إلى حسن باشا وكتخدا بك وتكلّم معهما وشنّع عليهما، وقال: «أما كفانا ما وقع لنا من الحروب وهدم الدور، وكيف العساكر ومساعدتهم ومحاربتنا معهم ومعكم وما قاسيناه من التعب والسهر وإنفاق المال ونجازى منكم بعدها بهذه الأفاعيل فدعونا نخرج بعيالنا وأولادنا ولا نأخذ معنا شيئًا ونترك لكم البلدة افعلوا بها..».

١٠٣: يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

* في ٢١ محرم سليمان الحلبي قتل الجنرال كليبر غدرا بالأزبكية. * في يونيو كانت نصرة نابليون في واقعة مارنجو. * وفي يوليو رجوع بونابرطة إلى باريز. وفي أغسطس التحقت ايرلاندة بانكلترة. وفي ١٨ اغسطس أعظم درجة للحرارة في باريس كانت ٦٥,٥ مئينية فوق الصفر. * وفي سبتمبر تغلبت الانكليز على جزيرة مالطة. * وفيه زاد النيل زيادة مفرطة لم يعهد مثلها ومكث زائدا إلى آخر توت.

* وفيها وقع بمصر غلاء وصل فيه سعر كل شئ إلى عشرة أمثاله، فبلغ رطل اللوز إلى ٥٠٠ نصف فضة، وكان بقشرة. * ثم وقع طاعون بمصر والشام، وكان معظم عمله بالصعيد.

* فيها اخترع جاكر، الفرنساوى آلة النسج الميكانيكية، أى التى تنسج من نفسها دون الأيدى. * وفي ١٤ شوال ظهرت الدونمنا الانكليزية أمام الاسكندرية، وفي ٢٨ منه نزل ١٨٠٠ عسكرى انكليزى في الثغر.

* وفي ١٧ القعدة قطعت الانكليز سد أبي قير وغرقت القرى والأراضى المحيطة بالاسكندرية، وبذلك انحصر الجنرال مينو وجيشه في الاسكندرية. * وفي يوم ٨ القعدة مع ليلة ٩ توفي بولس الأول، امبراطور الروسيا، وتولى ابنه اسكندر الأول.

* ١ توت ١٥١٧ = ١٠ سبتمبر ١٨٠٠ = الأربع ٢٤ ربيع الثاني ١٢١٥.

* ١ يناير ١٨٠١ = ٢٤

٢.**عوامل اليقظة:** إن هذه المحن على تلُّون صورها، كما يصفها الجبرتي، كانت عامل يقظة جماهيرية وأخذت تُسقط تباعًا من أذهان الناس فكرة الدين الذى يجمع بين المصريين والعثمانيين وباتت فكرة الاستقلال، وهي الصورة المبهمة، تتبلور من خلال التناقضات المحلية والدولية خاصة بعد أن طرح المعلم يعقوب فكرة استقلال مصر كوطن للمصريين (انظر الهامش اعلاه ص١٣٠٩)، فالدولة العثمانية كانت تحلم بالعودة منفردة إللى مصر بعد أن زحزح الفرنسيون الأمراء المماليك وشردوهم وفتكوا بالكثيرين منهم، ولكن السياسة الإنكليزية لم تكن واثقة بقدرة العثمانيين على بسط الأمن بهذه القوة العسكريةمن المرتزقة القادمين من الولايات الاسيوية والولايات الأوربية، وهي قوة لا يربط فيما بينها سوى روابط السلب والنهب، واضطراب حبل الأمن قد يهيئ لعودة الفرنسيين، وكان الانجليز يرون فى حلفائهم المماليك عنصر ثبات يضمن لهم حقوقهم ويؤمّن لهم سبل تجارتهم مع مصر. ولذا وقف الإنكليز فى وجه مخطط محمد على في القضاء على المماليك واقامة حكومة يعود ملكها للسلطان العثماني دون شريك، وأرغموا الأتراك على إطلاق سراح الأمراء المماليك الذين عادوا من الصعيد. وعجز خسرو باشا، وأول ولاة مصر العثمانيين، عن تنظيم شؤون مصر المالية، فما كان يملك من الجند المنظم ما يسمح له بضبط واردات الدولة، ناهيك عن عدم توفر التنظيم الإدارى والمالى لدى وال ما يزال فى أول عهده بالمناصب الحكومية، ولم تكن سلطته تتجاوز

١٠٣: يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

كيهك ١٥١٧ = الخميس ١٥ شعبان ١٢١٥.

* في آخر محرم تصرح بفتح الأزهر ثانيا بعد أن قفلته الفرنساوية عقب واقعة سليمان الحلبي.

* في ١٣ صفر الجيش العثماني والانكليزى باتحادهما حصر الجنرال باليارد بمصر فانجبر على التسليم ومبارحة المدينة بشرف الحرب.

* فيها كان اكتشاف الكوكب المسمى سيريس.

* ١ تـوت ١٥١٨ = ١٠ سبتمبر ١٨٠١ = الخميس ٢ جماد أول ١٢١٦.

* في ٢٢ ربيع الثاني تم الاتفاق بين الجنرال مينو والأميرال كيث، الانكليزى، والصدر الأعظم على منطوق معاهدة العريش، التي لم يرض بها الجنرال كليبر، وفي أوائل ربيع ثان سافرت الفرنساوية إلى بلادهم، وتبعتهم الانكليز أيضا.

* ١ ينـاير ١٨٠٢ = ٢٤ كيهك ١٥١٨ = الجمعة ٢٦ شعبان ١٢١٦.

* وفي ١٠ جماد الثاني عقدت معاهدة مع التركية بخصوص السبع جزائر تحت كفالة فرانسا والروسيا.

* فيها كان اكتشاف الكوكب المسمى بالاس.

* فيها عزت الأقوات وشحت جدا، خصوصا السمن والجبن والأشياء.

* في ٢٨ مارس معاهدة صلح اميان بين فرانسا وأسبانيا من جهة وانكلتره من جهة أخرى تقضي برد جزيرة مالطة إلى كافليرة بيت المقدس.

حدود القاهرة ولا تتعداها إلى الصعيد مركز التموين الأساسى للعاصمة وأدى قيام سلطتين إحداهما فى الريف يسيطر عليها المماليك وثانيتهما فى العاصمة إلى اختلال فى تموين القاهرة التى ضجّ سكانها بنقص الوارادت الزراعية، كما اختل نظام جندها بسبب انقطاع الرواتب فأنزلوا خسروا باشا عن كرسيه وتولى طاهر باشا كبير الألبانيين قائمقامية مصر بانتظار قرار السلطنة. وخلال مدة إقامته القصيرة فى الولاية التى لم تتجاوز الستة وعشرين يوماً كاتب الأمراء المماليك فى الصعيد ليشركهم فى حكم القاهرة، مقابل فتح أبواب الصعيد للتموين.

لم يكن بين الأمر اء المماليك من يصلح اتخاذه أساسًا لنظام حكومى مصرى جديد كما توهم الانجليز، وكان جَلُّ أمرهم بلوغ سلطة لا تتعدّى أشخاصهم وتوفير العيش الهنىء للأمراء وأتباعهم: وفى سبيل هذه الغاية المغرقة فى الفردية كان نزاعهم فيما بينهم، وانحصر النزاع فيما بينهم بعد خروج الفرنسيين بين أميرين قويين عثمان البرديسى ومحمد بك الألفى الذى خرج مع الجيش الإنكليزى بعد معركة رشيد آملاً فى وساطة الحكومة الإنكليزية لترضى عن الأمراء. وعند عودته ترصد له البرديسى فى محاولة لاغتياله، وكانت أعمال البرديسى فى القاهرة مثار نقمة عليه وعلى أتباعه شارك فيها الفقراء والأعيان على حد سواء، وهذا ما سهّل للألبانيين إخراج المماليك من القاهرة إخراجًا شنيعًا وأقاموا حاكم الإسكندرية من قبل الباب العالى خورشيد باشا واليًا على مصر، «وكانت صعوبات خورشيد هى بالضبط صعوبات

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

* في ٢٠ مايو تأسيس وإيجاد النيشان الفرنساوى المسمى ليجيوندونور.
* في ٢٣ صفر معاهدة صلح باريس بين الباب العالى وفرانسا.
* في ٣ اغسطس ترقية بونابرطة إلى درجة قنصل أولا مدة حياته.

* ١ تـوت ١٥١٩ = ١٠ سبتمبر ١٨٠٢ = الجمعة ١٢ جماد أول سنة ١٢١٧.
* في ٨ اغسطس أعظم درجة للحرارة في باريس كانت ٣٦,٤ مينية فوق الصفر.
* فيها صدرت أوامر بعمل تسعيرة للمبيوعات، وأن يكون الرطل ١٢ أوقية في جميع الأوزان، وأبطلوا الرطل الزياتى الذى كان ١٤ أوقية.
* ١ يناير سنة ١٨٠٣ = ٢٤ كيهك ١٥١٩ = السبت ٧ رمضان سنة ١٢١٧.
* في ٢٨ فبراير، رفضت الانكليز رد جزيرة مالطة إلى كافاليترة بيت المقدس.
* في سنة ١٨٠٣ أعظم درجة للحرارة في باريس بلغت ٣٦,٧ مينية فوق الصفر.
* في ٣٠ ابريل باريس الاتفاقية القاضية ببيع مقاطعة لوازيانا من أميركا إلى الاقاليم المتحدة بمبلغ ٧٥ مليون فرنك.
* في هذه السنة الافرنكية صار تنزيل أول سفينة بخارية فى نهر السين بباريس، وضعها روبرت فلطن الامريكانى. * في ٢ صفر حاصرت الأرناؤود طاهر باشا، الذى كان استحل لنفسه الولاية على مصر مؤقتا، وقتلوه فى يومها، حيث استعمل معهم

سابقية. صعوباته: اكتساح الأمراء الصعيد وعجز رجاله عن إخضاعهم ونقصان الموارد باستيلاء الأمراء على الصعيد وعبث الجنود وتمردهم واعتداؤهم على الأرواح والأموال، أما حلوله: فالتجريدات السّخيفة، والمفاوضات الكيدية، والدس والضغط على الرعية لأجل المال والاستعانة باشقياء من أكراد سوريا يدعون الدلاة أو الدالاتية كانوا شر من رأى أهل مصر.

وقد يكون من المفيد مراجعة الصورة التى رسمها الدكتور شفيق غربال لهؤلاء الباشوات الذين تعاقبوا خلال فترة لا تزيد على خمس سنوات على حكم مصر بعد خروج الفرنسيين لإظهار مدى التفاوت الكبير الذى أحسه الشعب المصرى بين هؤلاء وبين رجالات الحملة الفرنسية نابليون وكليبر ومينو، وبين تنظيمهاتهم الإدارية وشمولية نظرتهم إلى حكم، وضيق أفق الحكام الأتراك واستهتارهم وعبثهم.

فمحمد خسرو باشا وهو أول ولاة مصر بعد جلاء الفرنسيين أصله من مماليك القبطان باشا وكان هذا أول عهده بالمناصب، لم يصب بعد الشهرة التى اكتسبها فى خدمة الدولة ـ ولم يفهم بعد من فن التنظيم أكثر من جمع «أنفار» من أخلاط الناس ووضعه أبدانهم في ثياب «مقمطة» تشبُّهًا بالجيش الفرنسى ومن فن الإدارة إلا قطع الرؤوس وما إليه من قواعد «البوليتيقا» ولم يقوَ خسرو على إعادة تنظيم الإدارة المالية بعد الاضطراب والاختلال والحروب

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

الخشونة والعنف ولم يدفع لهم مرتباتهم. * وفى ١٤ ربيع أول محمد على باشا وعثمان بك البرديسى هزما أعوان خسرو باشا، الوالى، وأرسلاه من دمياط إلى مصر وسجن فى القلعة، فالباب العالى أرسل جزائرلى على باشا، فلعدم تبصره قتله المماليك، وبمجرد موته اتحد محمد على مع العلماء ورؤساء العسكرية وعينوا خورشيد باشا، محافظ الاسكندرية، واليا، ومحمد على باشا قايمقام له، وأرسلوه بذلك مكاتبة إلى الباب العالى، الذى صادق على ذلك. * فى ١ ديسمبر تعاهدت فرانسا واسبانيا مع البرتغال على بقائهم ملازمين للحيادة.

* فيها عملوا تسعيرة للقمح والفول والشعير، فجعلوا الأردب القمح بستة ريالات فرانسا، والأردب الفول بخمسة، والشعير كذلك. وفيها وصل سعر الأردب القمح إلى ١٢٠٠ نصف فضة، ثم هبط السعر، ثم ارتفع فبلغ سعر الأردب القمح ١٥ ريالا.

* ١ توت ١٥٢٠ = ١ سبتمبر ١٨٠٣ = الأحد ٢٤ جماد أول سنة ١٢١٨.

نابليون بونابرت

كما أنه لم يقَو على إخضاع الأمراء وقد وضعوا أيديهم على الصعيد بعد أن أطلق الانجليز سراحهم..». وخسرو باشا هذا أنزله الألبانيون عن كرسيه ولكنه استطاع أن يهرب ويستقر فى دمياط مترقبًا فرصة الرجوع.

أما طاهر باشا كبير الألبانيين الذى تولى قائمقامية مصر بدلاً من خسرو باشا فأصله من قطاع الطريق فى بلاده، وصفه الجبرتى بأنه كان أسمر اللون نحيف البدن أسود اللحية قليل الكلام بالتركى فضلاً عن العربى ويغلب عليه لغة الأرنؤودية وفيه هوس وانسلاب وميل للمسلوبين والمجاذيب والدراويش. ولم تطل مدته أكثر من ستة وعشرين يومًا، فقد وثب عليها رجلان من الإنكشارية وقطعا رأسه انتقاماً مما جرى لخسرو واحتجاجًا على محاباته أبناء جنسه فى أمر دفع المرتبات المتأخرة. أما على باشا الجزايرلى أو الطربلسى الذى عيّنته الدولة واليًا جديدًا على مصر بدلاً من خسرو باشا المتخفى فى دمياط فقد كان رجلاً قبيح السيرة من رجال المغرب العثمانى، صديق قديم للأمراء، استدرجه البرديسى نحو القاهرة وقتله فى الطريق..».

تلك كانت صورة ولاة العثمانيين على مصر ناهيك عن غدر الأمراء المماليك بعضهم ببعض بدلاً من أن يتّحدوا بعد كل ألوان المحن التى أصابتهم.

١٠٣: يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

* ١ يناير ١٨٠٤ = ٢٣ كيهك ١٥٢٠ = الأحد ١٨ رمضان سنة ١٢١٨.

* في ٢٠ ابريل مجلس سيناتو قنصلية فرانسا قلد القنصل الأول بونابرطة لقب امبراطور، وسماه نابليون الأول.

* فيها قل وجود القمح بمصر وبلغ ثمن الأردب ستة عشر ريالا، ثم في آخر السنة ١٨ ريالا.

* وفي ٢٩ شعبان معاهدة ستخلتم بين انكلتره وأسوج ضد فرانسا، وقد انضمت إليهما أوستوريا.

* ١ توت ١٥٢١ = ١٠ ستمبر ١٨٠٤ = الاثنين ٤ جماد الثاني سنة ١٢١٩.

* ١ يناير ١٨٠٥ = ٢٤ كيهك سنة ١٥٢١ = الثلاث ٢٩ رمضان سنة ١٢١٩.

* وفي ١٣ ديسمبر أعلنت اسبانيا الحرب على انكلتره.

* في هذه السنة أنشا خورشيد باشا حرسا لنفسه من الدلاة، فبغوا وطغوا، فتشكت الأهالي لخورشيد باشا فلم يسمع، فزاد الجور وانتشر الهياج في انحاء البلاد، وقد زاد الأمر حينما طلبت العساكر ماهياتها قبل التوجه إلى جده مع محمد علي باشا، الذى تعين واليا عليها، وأمرهم خورشيد باشا الوالي بنهب القليوبية فوصل الحال إلى سبيهم النساء وبيعهم الأولاد فتغيرت قلوب الأهالي وأبغضوا الوالي، فألحت العلماء والأعيان على محمد علي باشا بعدم السفر، وانتخبوه واليا على مصر، وعرضوا عن ذلك للباب العالي، وأخبروا خورشيد باشا بذلك فلم يقبل وتحصن في القلعة، فحاصره محمد علي باشا بعساكر، وخفر من الأهالي مسلح، حيث أن الأرناؤود لم تمتثل لعدم صرف مرتباتهم.

إزاء هذه الأحداث ومقابل فوضى الحكام، كان شعب مصر هو الفريسة، ولم يكن له مكان بين أصحاب الحقوق من هؤلاء الدخلاء جميعًا. والشعب وجد نفسه من جديد في قبضة شراذم من الولاة والجند الذين لاهمّ لهم سوى تحصيل الغنائم بشتى الطرق، وبعد انتظار على البلوى دام خمس سنوات، لم تنفع فيها المراجعات لوقف أعمال التعدّى عادات الجماهير تتحفز للوثوب على ظالمها مفيدة من تجارب ثورتها على الفرنسيين، وكان يوم الحادى عشر من مايو عام ١٨٠٥ بداية لانطلاقة الثورة في وجه الوالي خورشيد باشا الذى فرض غرامات جديدة لم تنفع في رفعها المراجعات المتكررة والوساطات التي قام بها الشيوخ.

فالوالي الذى كان عاجزًا عن وقف أعمال التعدّى من قبل الجند الذين أعلنوا العصيان على فرماناته، ظل مصرًا على جباية الأموال من شعب لم يعد يملك القدرة على تحصيل قوته. وإن كانت الثورة على الفرنسيين اتخذت من الأزهر، كمرجعية دينية، انطلاقتها الكبرى، وكانت هذه الثورة ذات مضامين تحررية في الدرجة الأول، فإن الثورة هذه المرة كانت ذات مضامين اجتماعية إصلاحية تحتل فيها نزعة التحرر المرتبة الثانية والأزهريون كعادتهم انقطعوا عن الدروس كمظهر من مظاهر الاحتجاج، وكانت العامة تحمل همًا واحدًا هو الأمن والعدالة الاجتماعية. ويصف الجبرتي هذه الحال بقوله: «وزاد الضجيج والجمع، فاجتمع المشايخ في صبحها يوم الخميس في الأزهر وتركوا قراءة الدروس، وخرجت سرية من الأولاد يصرخون

---

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

محمد على

* فى ١٠ ربيع ثانى وصل إلى مصر فرمان من الباب العالى بجعل محمد على باشا واليا عليها، كاسترحام العلماء والأهالى، بدلا عن توجهه إلى ولاية جده، وبناء على تشديد قبودان باشا، الذى، أخرج خورشيد باشا من القلعة.

* فى ٢٢ اكتوبر انتصار الانكليز بحرا على الفرنساويين والاسبانيولين فى واقعة طرفلغار وموت الجنرال نلسون.

* فى ١٥ نوفمبر دخول نابليون الأول فى فينا.

* ١ توت ١٥٢٢ = ١٠ سبتمبر ١٨٠٥ = الثلاث ١٥ جماد الثانى ١٢٢٠.

* ١ يناير ١٨٠٦ = ٢٤ كيهك سنة ١٥٢٢ = الأربع ١٠ شوال ١٢٢٠.

* فى ٣ ديسمبر انتصار نابليون على النمساويين والروسين فى اوسترليتس.

* فى ٢٧ ديسمبر معاهدة صلح برسبورج بين فرانسا والنمسا * وفى أوايل عام ١٨٠٦ صار ابطال التقويم الجمهورى الفرنسى* وفى ٢٧ يناير ١٨٠٦ تلقب نابليون بالكبير.

* فى محرم طلبت الدولة الانكليزية من الباب العالى رفع محمدعلى باشا من ولاية مصر.

بالأسواق ويأمرون الناس بغلق الحوانيت، وحدثت فى البلدة ضجة... وتمر الأيام والمشايخ تاركون الحضور إلى الأزهر، فحضر الآغا فى الحادى عشر من مايو إلى الأزهر ونادى بالأمان وفتح الدكاكين فى العصر فلم يصدقه أحد، وكان تعليق الجماهير، وأىُّ شىء حصل وهو يريد سلب الفقراء ويعمل عليهم غرامات!.

وفى اليوم التالى ركب المشايخ إلى بيت القاضى واجتمع به كثير من المتعممين والعامة والأطفال، وصرخوا بقولهم: شَرعُ الله بيننا وبنى هذا الباشا الظالم..

وازاء عدالة مطالب الجماهير سار الشيوخ والعامة فى إتجاه واحد لا يعروه انقسام فى الرأى حول الجرائم التى يرتكبها الجنود ووضع حد لمظالم الباشا، وازاء هذا الرأى الموحّد بات للجماهير هدف واضح تسعى إلى تحقيقه وتميزت الثورة بالانضباط على ما يذكر الجبرتى، والمذكرة التى قدمها الشيوخ للوالى تتميز بالوضوح والدقة فى تحديد المطالب الجماهيرية هى:

- عدم مرابطة القوات العسكرية فى القاهرة وضرورة انتقالها إلى الجيزة.
- عدم السماح لأى جندى بدخول القاهرة حاملاً سلاحه.
- الامتناع عن فرض أية ضريبة على سكان القاهرة بدون موافقة المشايخ والأعيان.
- إعادة المواصلات بين القاهرة والوجه القبلى.

١٠٣ : بوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

* في ٢٤ مايو دخول الفرنساوية في برلين. * في ١٠ ربيع ثاني وصول فرمان شاهاني بتولية محمد على باشا على سلانيك وتنصيب موسى باشا على مصر بدلا عنه. * في ٢٢ جماد أول استرحمت العلماءوأشراف الأهالي من مراحم مولانا السلطان بقاء محمد على باشا على ولاية مصر.
* وفي ٢ جماد أول احترق معمل البارود بجهة المدابغ.

* ١ توت ١٥٢٣ = ١٠ سبتمبر ١٨٠٦ = الأربع ٢٦ جماد الثاني ١٢٢١.
* ١ يناير ١٨٠٧ = ٢٤ كيهك ١٥٢٣ = الخميس ٢١ شوال سنة ١٢٢١.
* في ٢٤ شعبان وصل فرمان من الدولة العلية مجيبا لاسترحام الأهالي وبقاء محمد على باشا واليا على مصر. في ٧ رمضان توفي عثمان بك البرديسي، وفي ٢٠ شوال توفي محمد بك الألفي، وهما زعيما المماليك، وبموتهما خلا الجو إلى محمد على باشا.
* في محرم وصل إلى اسكندرية ١٧ مركبا حربيا الانكليزية عليها ٥,٠٠٠ عسكرى تحت قيادة الجنرال فريزر، وفي ١٠ منه احتلت الانكليز مدينة الاسكندرية. * في ٨ صفر وصلت الانكليز إلى رشيد، وقد هزمتهم العساكر المصرية حتى التزموا بالنزول في مراكبهم.
* في ٢١ ربيع أول جلوس السلطان مصطفى الرابع. * في ١٤ يونيو انتصار نابليون على الروسيا في فريدلند. * في ٧ يوليو حصلت معاهدة صلح بين فرانسا والروسيا مرفوقة بمعاهدة سرية مهمة جداً. * في ٤

وهذه المذكرة إذا قرأناها على ضوء الظروف التاريخية التى كتبت فيها كانت تعنى ضمناً تسلُّم مقاليد الحكم وإعلان الاستقلال عن الباب العالى. فخورشيد باشا كان عاجزاً عن تنفيذ بنود هذه المذكرة حتى ولو أراد ذلك، إذ لم تكن له القدرة على تنفيذها. إذ ما هى وسيلته لمنع القوات العسكرية من المرابطة خارج القاهرة أو منع أى جندى من دخول القاهرة حاملاً سلاحه. ثم ما هى وسيلة الوالى فى فرض المركزية السياسية على بلاد مقسمة بين شراذم الجند وقوات المماليك المسيطرين على الوجه القبلى من البلاد وهو مركز تموين القاهرة بالضرورى من وسائل العيش؟ أما الامتناع عن فرض الضرائب إلاّ بإرادة الشيوخ والأعيان، فكان يعنى نقض التصور الذى كان قائماً فى أذهان العثمانيين وولاتهم فى أن مصر ملك للسلطان.

وهكذا برز لدى الجماهير المصرية تصور جديد لأصول الحكم، وأول حلقة فى هذا التصور مركزية السلطة ووحدة البلاد: إذن هنالك ثورة اجتماعية بالفعل تحتاج إلى قيادات جديدة قادرة على تنفيذ هذه التصورات الثورية، ولم يكن بين الشخصيات المصرية شخصية مهيأة للاضطلاع بهذا الدور السياسى الجديد: فالشيوخ لم يمارسوا من قبل سلطة سياسية مستقلة، فقبل الحملة الفرنسية كانوا وسطاء بين العامة والمماليك وكانوا منخرطين فى حياة الأمراء فى نموذج التفكير وطرق العيش، والذين شاركوا فى حكم البلاد إبّان الحملة الفرنسية لم يكونوا من المشاركين فى التخطيط السياسى بمقدار ما كانوا أداة تنفيذ لهذا التخطيط،، وحتى عمر

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

سبتمبر. أطلقت الانكليز قنابلها على كوبنهاج.
* وفي ٩ سنة أنزل فلطن، الأمريكاني، إلى البحر السفينة الأولى البخارية المسماة كلرمومه، وسافرت من نيويورك إلى فيلاديلفيا.
* في ١١ رجب خرجت عساكر الانكليز من الاسكندرية.

* ١ تـوت ١٥٢٤ = ١١ سبتمبر سنة ١٨٠٧ = الجمعة ٨ رجب سنة ١٢٢٢.
* ١ ينـاير ١٨٠٨ = ٢٣ كيهك سنة ١٥٢٤ = الجمعة ٢ ذو القعدة ١٢٢٢.
* فيه ديسمبر ورد فرمان من الباب العالي مقتضيا إرسال تجريدة مصرية لمحاربة الوهابيين.
* في هذه السنة شرع العزيز محمد علي بشا في بناء سراى شبرا.
* في ٢٣ منه ولادة نابليون الثالث.
* في ٢٩ يونيو جلوس السلطان محمود خان الثاني.
* في ١٥ يوليه أعظم درجة للحرارة في باريس كانت ٣٦,٢ مئينية فوق الصفر.
* ١ تـوت ١٥٢٥ = ١٠ سبتمبر ١٨٠٨ = السبت ١٩ رجب ١٢٢٣.
* في ٤ ديسمبر دخول نابليون الأول في مدريد.
* ١ ينـاير ١٨٠٩ = ٢٤ كيهك سنة ١٥٢٥ = الأحد ١٤ ذو القعدة ١٢٢٣.
* في ١٨ الحجة صلح الآستانة بين الباب العالى والانكليز.
* في هذه السنة حدثت التمغة في مصر على المنسوجات من الأقمشة والحصر وعلى المصاغات من الأواني والحلي.

مكرم الذى رفض التعاون مع الفرنسيين وكان الشخصية الأكثر نزاهة والأقرب إلى مشاعر الجماهير كان واحداً من التركيبة الإقطاعية العسكرية الموروثة من زمن المماليك، ولكن هؤلاء الشيوخ كانوا يحملون أماني التغيير الجزئى الذى لا يمس مصالحهم. كان هؤلاء الشيوخ يحملون تطلعًا إسلامياً فى أن تؤول تشريعات السلطة إلى الأئمة العلماء باعتبارهم القيمين على حفظ حقوق الأمة، وكان وقوفهم فى وجه خورشيد باشا منبعثا من هذا التصور الإسلامى الذى ليس له سند تاريخى فى حكم الدولة الإسلامية فى أى من عهودها، ولما تكررت محاولاتهم لدى خورشيد باشا فى النزول لدى رغبة الأمة ممثلة فى أئمتها ولكن دون جدوى، مالوا عن الوالى إلى محمد على طالبين إليه تولى أحكام البلاد بشروطهم لما يتوسمونه فيه من العدالة والخير فتردد فى بادىء الأمر ثم قبل نزولاً عند رغبة عمر مكرم والمشايخ كما يذكر الجبرتى.

وإن كنا سنرجىء الحديث عن الجفوة التى حدثت فيما بعد بين محمد على صاحب النظرة الشمولية الحديثة لأصول الحكم وبين العلماء فى مفاهيمهم التقليدية الموروثة، فلا بدّ لنا أن نقف عند ثلاثة مستويات من التصورات السياسية التى كانت سائدة قبل تولية محمد على، وأولَها التصور المبهم لدى العامة من الجمهور المصرى: فهذه العامة كان يصعب عليها الانتقال المفاجىء مما تعودته من سبل العيش إلى نوع من الحكم المنظم القائم على ترتيب

* وفيها رفع السيد عمر مكرم من نقابة الأشراف ونفي إلى دمياط، وكان السيد الحروقي وكيلا عنه على أولاده.
* فيه انتصار نابليون على النمسا في واقعة فاجرام.

* ١ تـوت ١٥٢٦ = ١٠ سبتمبر ١٨٠٩ = الأحد ٣٠ رجب سنة ١٢٢٤.
* فيها وصل سعر الأردب القمح إلى ٢٦٠٠ نصف فضة، وعز وجوده بالرقع.
* ١ ينـاير ١٨١٠ = ٢٤ كيهك ١٥٢٦ = الاثنين ٢٥ ذو القعدة ١٢٢٤.
* شرع محمد على باشا في أعمال مراكب في ساحل بولاق على ذمة سفرهم في البحر الأحمر، ثم أمر بنقلهم على ظهور الجمال إلى السويس.
* في انضمام رومه إلى مملكة الفرنساوية.
* في تزوج نابليـون الأول بالويز إبنة فرنسوا الأول امبراطور أوستوريا.
* فيها أحدث العزيز محمد على باشا في الضربخانة القروش النحاس.
* فيها كان احتكار الدخان في فرانسا.
* الروسية تغلبت واستولت على سلبستره.
* فيها ضرب العزيز محمد على باشا العشرين النحاس والعشرة والخمسة والميدى.

* ١ تـوت ١٥٢٧ = ١٠ سبتمبر سنة ١٨١٠ = الاثنين ١٠ شعبان سنة ١٢٢٥.
* فيـها حصلت فتنة بين إبراهيم بك الكبيـر والمرحـوم محمد على باشا بسبب عدم إطلاق المدافع لقدوم إبراهيم بك،

الأمور المالية والإدارية والعسكرية، وسبق لها أن ثارت على الفرنسيين باعتبارهم يتدخلون في شؤون لا تعنيهم حتى عندما حاولوا وقاية الأهلين من الأمراض: وهذه العامة كانت رافضة لمعاملة المماليك ولكنها كانت تتقبل تجاوزاتهم إلاَّ إذا فاقت حدود الاحتمال: ثم إن هذه العامة كانت تدرك بفعل الممارسة أن الشيوخ الأعلين كانوا شركاء المماليك في ابتزاز عرق جبين الطبقة الدنيا من الأهلين في الريف والمدينة، ولكنها كانت في الوقت نفسه تلجأ إلى أولئك الشيوخ في الوساطات لرفع المظالم عنها. وهكذا، فإن هذه العامة كانت تتوق إلى العدالة شرط ألا تبدل شروط حياتها: أى أنها كانت تطلب الشيء ونقيضه في آن معاً.

أما الطبقة العليا من الأعيان والشيوخ، فكانت تميل إلى عدالة تحمي مصالحها، مصالحها في المحافظة على حقوق الالتزام، ومصالحها في الإنتمان على أملاك الأوقاف تعطى من مغانهما شيئًا يصرف على أعمال البر وتحتفظ بما أمكن لاستمرار حياتها في بسطة من العيش، وكانت تعدّ نفسها هي الطبقة التي أوكلت إليها المحافظة شرعًا على حقوق الأمة. وقد لخص شفيق غربال هذا الوضع برغبة الجميع في أن يقام جكم عام يفيد منه المحكومون جميعاً، وإن أخل موقتًا بمصالح هذا الفريق أو ذاك. «ذلك لأن النظم الحكومية التي اعتادها المصريون كانت ترمي لأغراض ثلاثة أساسية: جمع الأموال المفروضة، والأيدى العاملة اللازمة لصيانة الأعمال العامة، واستتباب الأمن. وفيما عدا هذه الأمور الثلاثة، لا تتدخل الحكومة في أحوال

١٠٣: يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

وعدم زيارة محمد على باشا له، فترتب على ذلك عدة محاربات جهة الصعيد انتهت بنصرة رجال محمد على.

مذبحة القلعة

* ١ يناير ١٨١١ = ٢٤ كيهك ١٥٢٧ = الثلاث ٥ ذو الحجة سنة ١٢٢٥.

* فى ١٦ فبراير استيلاء الروسية على بلغراد.

* وفى ٦ صفر اجتمعت المماليك بالقلعة لحضورهم فى وقت تقليد طوسون باشا السيف المرسل له من قبل الحضرة السلطانية وتادية السلام له عند استلامه سر عسكرية تجريدة الوهابية، فصار الايقاع بهم حتى قطعوا عن آخرهم. (مذبحة القلعة).

* وفيها ظهرت أعظم نجمة ذات ذنب شوهدت فى القرن التاسع عشر، وظن الانجليز أن بها تأثيرا على الفصول والمزروعات.

* وفى ٢٥ جماد أول دخول الانكليز فى مملكة البرتوغال.

* فيها اخترع الفلكى الشهير أراجو البولاريسكوب. * فيها ولد كثير من التوائم فى بلاد الانجليز حتى أن امرأة وضعت أربعة فى بطن واحدة، ونسبوا ذلك لتأثير ذات الذنب.

* ١ توت ١٥٢٨ = ١١

الرعية، بل تدع كل ما يتعلق من هذه الأحوال بأغراضها تنظمه كما جرت به العادات. وإذا شئنا إجمال وصف ما اختص به نظام الحكم القائم قبل الاحتلال الفرنسى، قلنا بأنه يمتاز بقلّة التدخل الحكومى كما نفهمه الآن وبالعنف والتعسف. ويجب ألا يحملنا ما نراه من جنوح الحكام لهذا العنف والتعسف إلى تصور نظم الحكم على غير ما صورناه من ترك الرعية وشأنها فى كل ما يتعلق بأغراض الحكومة الأساسية. ويجب كذلك ألاّ يحملنا ما نسمع عنه من الظلم على الظن بأنه لم تكن أمام المحكومين وسائل مختلفة لتجنبه أو لتخفيفه، فإن ارتباك الإدارة الذى نجم عن الانقلابات المتتابعة وسوء ذمة العمال وفوضى السجلات وما إلى ذلك فتح للرعية أبواب الخلاص من الفرد والمغارم شرعية وغير شرعية.

أما الأمر فى عام ١٢٢٠هـ. = ١٠٨٥م، فقد وصل إلى حالة من الفوضى لم يعد يستقيم معها الأمن بدون حكم، بدون تدخُّل الدولة لتنظيم المجتمع على نمط جديد: والسؤال أىّ تنظيم هو المطلوب وما هى مصادره السياسية، ومن القيمون على وضعه وعلى تنفيذه؟. عندما ذهب وفد من الشيوخ إلى خورشيد باشا ينبهه بما تم عليه الاتفاق من اختيار محمد على واليًا من قبل العلماء كان رد الوالى «إنى مُولّى من طرف السلطان فلا أعزل بأمر من الفلاحين، ولا أنزل من القلعة إلاّ بأمر من السلطنة». وبمثل هذا الجواب رد كل من عمر الأرنؤودى وصالح أغا قوش المعضدين للوالى، فاجتمع المشايخ ببيت القاضى وكتبوا فتوى شرعية بما استقر عليه

سبتمبر ١٨١١ = الأربع ٢٢ شعبان سنة ١٢٢٦.

* وفي ١٤ شعبان قامت المراكب الحاملة لتجريدة الوهابية من السويس، وفي ١٧ منه قام طوسون باشا، نجل محمد على باشا، ومعه السوارى عن طريق البر.

* فيها حدثت زيادة فاحشة في صرف المعاملة ونقص في وزنها وعيارها.

* ١ ينساير ١٨٨٢ = ٢٣ كيهك ١٥٢٨ = الأربع ١٦ الحجة سنة ١٢٢٦.

* فيها ـ لأخذ الحمير للسخرة والرجال لخدمة العسكر المسافرين للحجاز، وغلو ثمن القرب حتى بلغ ثمنها ١٥٠٠ نصف فضة بدلا من ١٥٠ نصف فضة ـ بيعت قربة الماء بخمسة عشر فضة.

* وفيها كان احتكار الأحطاب الواردة من البلاد الرومية وبيعها على ذمة الميرى. وقد قلت الغلال فبيع الأردب بأربعة وعشرين قرشا.

* في مايو كانت معاهدة صلح بخارست بين الباب العالى والروسيا.

* في ١٨ يونيو الأقاليم المتحدة بأميركا أعلنت الحرب على الانكليز بسبب تعديات بحرية.

* فيها كان التزام الكمرك ١٥٠٠ كيس بعد أن كان ٣٠ كيسا، ولذا غلت الأسعار، فالدرهم الحرير بعد أن كان يباع بنصف فضة صار يباع بخمسة عشر نصفاً.

* وفي ١٥ سبتمبر دخلت الفرنساوية مدينة موسكو بالروسيا. * وفي ٢١ اكتوبر الجلاء الفرنساوية عن مدينة

الأمر فلم يتعقلوا ذلك واستمروا على خلافهم وعنادهم. ونحن هنا أمام تقليد رسمي جرى به العرف في ألاّ يعزل الوالى إلابأمر من السلطنة ولا فرق في أن يكون هذا الوالى حاكماً بالفعل أو أنه صورة شكلية لرمز السلطنة، ولم يسبق للعثمانيين أن عينوا ولاتهم عن طريق إجماع الأئمة، فالخليفة، وليس العلماء، هو صاحب الحق الشرعي في الحكم وفي انتداب ولاته، وقرار العلماء في تنصيب وال جديد كان بدعة ولكنها بدعة استطاعت أن تستمد قوتها من رغبة جماهيرية واسعة حملتها قيادة من العلماء مدعومة بقبول شخصية من طراز جديد هي شخصية محمد علي.

كان خلع خورشيد يمثل إرادة الأمة في ما اكتوت به من المظالم وعجز الوالى عن رد هذه المظالم. وفي رد هذا الظلم كان إجماع العلماء كاملاً وكان التخريج الشرعى لهذا الخلع يلقى قبولاً لدى جماهير الناس، وما نظن أن هذا التخريج النظرى القديم ما كان ليعمل به لو لم يترافق ضعف الوالى مع استبداده، ولو لم يتوافق هذا التخريج مع حاجة ملحة كانت الجماهير الشعبية تحس بها وتحمل استعداداً قوياً للدفاع عنها: فما أن أعلن النقيب عمر مكرم ثورته في يوم ٢٢ صفر ١٢٢٠=٢٢ مايو عام ١٠٨٥، حتى لبت هذه الجماهير النداء دون تحفظ، فركب هو والمشايخ إلى بيت محمد على كما يذكر الجبرتي، ومعهم الكثير من المتعممين تسندهم جماهير غفيرة من الشعب بالأسلحة والنبابيت والعصى، ولزموا الشوارع

١٠٣: يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

موسكو. * [في اكتوبر = شوال] أرسل طوسون باشا خبرا لوالده ليخبر الباب العالي بأن طريق حج بيت الله الحرام صار آمنا، فارسل مملوكه لطيف باشا بهذا القصد.

* ١ تـوت ١٥٢٩ = ١٠ سبتمبر ١٨١٢ = الخميس ٣ رمضان ١٢٢٧.

* ١ ينـاير ١٨١٣ = ٢٤ كيهك ١٥٢٩ = الجمعة ٢٧ ذو الحجة سنة ١٢٢٧.

* في هذه السنة ـ ولربما في آخرها ـ كانت ولادة المرحوم عباس باشا حلمي الأول بجدة، وهو نجل طوسون باشا، نجل محمد علي باشا. * فيها انتهاء محاربة فرانسا للروسيا.

* فيها محالفة انكلتره مع أسوج.* وفيها اتحاد أوستوريا مع الروسيا.

* فيها تقلد الحسبة الخواجه محمود حسن، وأمر برجوع ما كان أبطل من الموازين، فرسم برد الموازين في الأدهان والأرطال الزياتي، وكانت عبرة الرطل ١٤ أوقية في جميع الأدهان والخضر، ونقص من أسعار اللحوم وغيرها ففرح الناس بذلك، غير أنه لم يستمر.

* وفيها وفاق درسده، الذى قبل فيه نابليون توسط أوستوريا بقصد الصلح العام.

* وفي ١٨ شعبان قام محمد علي باشا من مصر يقصد مكة لامداد ولده طوسون باشا. * وفي ١٧ اعلنت أوستوريا الحرب على فرنسا.

* في ١٥ [شوال] صار ضرب عنق لطيف باشا وتعليقها على باب زويلة يوما كاملا، حيث أنه كمن بعد عوته من الآستانة

- -

والحارات طوال الليل دون نوم ويسرحون أحزابا وطوايف ومعهم المشاعل يطوفون بالجهات والنواحي وجهات السور واتفقوا على محاصرة القلعة.

وهنا يخطر بالبال تخريجان شرعيان كانت الجماهير مؤيدة لمن يضمن لها حقوقها في العدل. أما الأول فطاعة الرسول وأولي الأمر: وثانيهما حق الثورة على الحاكم الظالم. وهذان التخريجان يبدوان على جانب من الأهمية لأنهما أثيرا في وجه خورشيد باشا، كما جرت محاولة إثارتهما في وجه محمد علي. فرجحت كفة العلماء في عزل خورشيد وسقطت في مواجهة محمد علي سيد مصر الذى حاكم عمر مكرم ونفاه معتمداً صيغة «طاعة الرسول وأولي الأمر». ففي يوم السبت ٢٥ صفر ١٢٢٠هـ= الخامس والعشرين من مايو عام ١٨٠٥م، دار بين عمر مكرم وعمر الأرنؤودى حوار حول حق الشعب في عزل الحاكم الظالم قال فيه الأرنؤودى: كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم وقد قال الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾؟ وأجاب عمر مكرم: «أولو الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل، وهذا رجل ظالم وجرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلاد يعزلون الولاة، وهذا شي من زمان حتى الخليفة والسلطان إذا سار فيهم الجور فإنهم يعزلونه ويخلعونه».

تمرد وأراد أن يغتصب الحكومة لنفسه في غياب سيده محمد على باشا، الذى كان وقتئذ في الحجاز.

* ١ توت سنة ١٥٣٠ = ١٠ سبتمبر ١٨١٣ = الجمعة ١٤ رمضان ١٢٢٨.

* في ديسمبر وصل الشريف غالب مأسوراً إلى مصر.

* ١ يناير ١٨١٤ = ٢٤ كيهك سنة ١٥٣٠ = السبت ٩ محرم ١٢٢٩.

* في ٤ فبراير كان اختراع البارومتر الاترويد للمعلم فيدى.

* في ١ مارس معاهدة شومون بين النمسا والروسيا وانجلتره والبروسيا ضد فرانسا. * في ١٢ ابريل تنازل نابليون الأول عن حكومة فرانسا. *وفي ٢١ ابريل توفي زعيم الوهابية. * وفي شهر ابريل ودع نابليون عساكره في قصر «فونتين بلو»، وفي ٢٢ ابريل توجه نابليون إلى جزيرة البه.

* وفي ٤ مايو تقلد لويز الثامن عشر ملكا على فرانسا. * وفي ١ يونيو معاهدة صلح باريس بين فرانسا والدول التى كانت متحدة ضدها.

* فيها أخذ النحاس للضربخانة بلغ رطل القراضة ١٢٠ نصفا فضة. * وفي هذه السنة كان سن المرحوم محمد على باشا ٤٥ سنة، وابتدأ أن يتعلم القراءة والكتابة.

* وفي ٢٥ أغسطس استولت الانجليز على واشنجتون تخت الاقاليم المتحدة من أميركا.

* في هذه السنة اخترع استيفنسن، المهندس الانكليزى، وابور السكة الحديد.

وإذا ما تركنا جانبا فتوى العلماء والقاضى آنذاك بجواز قتال رجال الدولة العثمانية فى مصر لأنهم عصاة، فإن فكرة العدالة في وجه القوة الظالمة كانت محور التطلعات الشعبية فيما يقوم عليه الحكم. إذ كانت الجماهير بحسها متعطشة لهذه العدالة، ولكنها عاجزة عن إدراك ما هية هذه العدالة وسبل تحقيقها. كانت هذه الجماهير قادرة على تلمس الشرور فى جزئياتها والحكم عليها بأنها غير عادلة، كانت تحكم على ما تراه فى حياتها اليومية، فكان الفرنسيون فى نظر هذه الجماهير أناساً ظالمين لأنهم غزوا مصر وشردوا أهلها، وأدخلوا إليها العادات التى تتعارض مع تقاليد المصريين المسلمين وأنهم دخلوا الأزهر بخيولهم، وحجبت هذه الأعمال عن أعين الجماهير الجوانب النيرة من حضارة الفرنسيين ومفهومهم للعدالة، فتمنت عودة العثمانيين المسلمين، ولكنها أصيبت بخيبة الأمل عندما رأت العثمانيين يفرضون على أصحاب العقارات أن يشتروها مرة ثانية من الدولة العثمانية لأنها «صارت ملكًا للسلطان لأن مصر ملكها الحربيون وباحتلالها صارت ملكًا للسلطان فيحتاج أن أربابها يشترونها من الميرى ثانيا»، وعندما رأت الفساد يعود إلى القضاء، وأيدى الموظفين والعساكر تمتد إلى أموال الناس وأرزاقهم. وإن كان فريق من الجمهور قد انصاع لما كتب له فى لوح القدر، فإن غالبية الناس كانت ترى فى أعمال الحكم ما هو مخالف لما أنزل الله فى كتابه من الحث على الرأفة بالضعفاء وإعانة القوى للضعيف والتعاون على أعمال البر. وإن كانت الطبقة المثقفة من

١٠٣: يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

* وفى أوائل الحجة كان قيام طوسون باشا للمدينة المنورة.
* ١ تــوت ١٥٣١ = ١٠ سبتمبر ١٨١٤ = السبت ٣٤ رمضان سنة ١٢٢٩.
* فى ٢٧ محرم انتصار المرحوم محمد على باشا على جيوش الوهابية.
* ١ يناير ١٨١٥ = ٢٤ كيهك ١٥٣١ = الأحد ١٩ محرم ١٢٣٠.
* فيها نودى بنقص مصارفة أصناف المعاملة.
* وفيها ارتفع أثمان السكر والصابون وبلغ أردب الحنطة ١٢٠٠ نصف فضة خلاف التكاليف، والبطيخة التى كانت تباع بنصفين بلغت عشرين أو ثلاثين، وسبب ذلك كثرة المكس والاحتكار. * فى ٢١ [ربيع الثانى] دخل الأمير طامى، أمير قبائل العسير، مصر مغلولا بالحديد.
* فى ٩ [من جماد الأول] رجع المرحوم محمد على باشا إلى مصر عن طريق القصير، وفى يومها انهزام الفرنساوية فى واقعة واترلو، وفيه كان الشروع فى ترتيب العساكر النظامية.* وفى ٢٨ شعبان تمردت الجند وهجمت على منزل محمد على باشا بالأزبكية والقلعة ثم نهبت الغورية والسكرية والحمزاوية وخان الخليلى، فتدارك محمد على الأمر ودفع للتجار تعويضًا ينيف عن ١٥,٠٠٠ جنيه، وفى ٥ رمضان ابتدأ بتمرين الفرقة الأولى تحت قيادة ولده إسماعيل بك، وفيه صار تحرير الموازين بمصر.
* فى ١٩ سبتمبر وصول نابليون بونابرطة إلى منفاه الأخير

الشيوخ قد وعت جانبًا من الشروط التى توفر العدالة لدى الحاكم بإعطائه المرتبات المجزية التى تغنيه عن الإرتشاء كما كان يحدث لأعضاء الديوان فى زمن نابليون، واتباع نظام قضائى منضبط الأحكام وغير ذلك من المقاييس التى كان الشيوخ يجرون على أساسها المقارنة لبيان مفاسد النظام العثمانى، فإن هؤلاء الشيوخ ظلوا بعيدين عن التصور العقلانى لقيام الدولة العادلة، لا بل إن الكثيرين بينهم كانوا يفصلون بين عقيدة المسلم وعمله واتخاذ العقيدة الإسلامية منطلقًا للعمل الصالح، وكان الطابع الشديد المحافظة هو الطابع الغالب على من عرفوا بطبقة العلماء. فقد كان الجبرتى، مثلاً، يعتبر المساواة بين الناس مخالفة لأصول الشريعة، فتراه يعلق على ما جاء فى المنشور الذى وزعه الفرنسيون حال نزولهم فى أرض مصر من «أن جميع الناس متساوون عند الله» بأن هذا القول كذب وجهل وحماقة، ويتساءل كيف وقد فضل الله بعضهم على بعض وشهد بذلك أهل السموات والأرض ولعل الخوف من التغيير كان وراء موقف الجبرتى.

كان العدل عند هذه الفئة القائدة من المجتمع المصرى هو العدل الذى نصت عليه أحكام الكتاب الكريم الذى هو القانون السياسى والاجتماعى للمسلمين والعدل والظلم خاصتان وضعهما الله فى الإنسان أو ركزهما فى نفسه. والعدل ليس إرادة إنسانية، فالإنسان يسمى عادلاً لما وهبه الله قسطًا من عدله وجعله سببًا وواسطة لإيصال فضله واستخلفه بهذه الصفة

١٠٣: يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

في جزيرة سنت هيلينه. * في ٤ من [ذي القعدة] دخل طوسون باشا مصر فوجد ولدا ولدله في غيبته يدعى عباس بك، وعمره وقتئذ دون السنتين.

* ١ تـوت ١٥٣٢ = ١١ سبتمبر ١٨١٥ = الاثنين ٦ شوال ١٢٣٠.

* ١ يناير ١٨١٦ = ٢٣ كيهك ١٥٣٢ = الاثنين ٣٠ محرم ١٢٣١.

* في هذه السنة أمر محمد علي باشا بتصليح وعمل سد أبي قير الذي كسرته الانكليز واتلف معظم مديرية البحيرة، كذا أنشأ فابريقة الخرنفش.

* فيها عزت الأقوت وغلت الأسعار وانعدمت الأنصاف الفضية العددية، وكان لا يوجد منها إلا ماندر.

* في ٨ مايو صار لغو القانون الذي يجوز الطلاق في فرانسا. * في ١٢ شوال قيام المرحوم إبراهيم باشا من بولاق بقصد قنا ثم ينبع لمعاقبة الوهابية على نكث عهودهم.

* ١ توت سنة ١٥٣٣= ١٠ سبتمبر ١٨١٦ = الثلاث ١٧ شوال ١٢٣١.

* في ٧ القعدة توفي المرحوم طوسون باشا، وعمره عشرون سنة. * وفي ٩ [القعدة] وصل إبراهيم باشا إلى ينبع، وفي ٢٠ منه إلى المدينة المنورة.

* في ١١ الحجة أرسل محمد علي باشا أول رسالة علمية لكشف معدن الزمرد بالصحراء الشرقية.

* وفي ١٤ [الحجة] قيام إبراهيم باشا من المدينة.

حتى يحكم بين الناس. وخلائف الله في أرضه الذين يقومون بتطبيق العدل هم خمس فئات تتوزع في نظام طبقي هرمي هم «الأنبياء والعلماء وولاة الامور واوساط الناس وأخيرا القائمون بسياسة أنفسهم». وفكرة العدل هذه والمتخذة من فكرة العدل في الإسلام هي التي أسهب الجبرتي في شرحها في مقدمة كتابه عجايب الآثار، وجعلها أساسًا للحكم على أعمال العثمانيين والفرنسيين والباشوات ومحمد علي. وكان عمر مكرم أقرب العلماء إلى الأخذ بهذه المفاهيم، وبشعارتها قاد الجماهير في ثورته على خورشيد باشا، «فإذا حاد الحاكم عن العدل فلا طاعة له عند الرعية». وهذا الشعار نقله العلماء إلى محمد علي فقبله دستورا في إقامته للأحكام والشرائع، وتكلف عمر مكرم أن يزكيه عند سائر المشايخ فكانت ولايته. يقول الجبرتي إنه في تردد محمد علي على عمر مكرم نهارا وليلاً، كان يعاهده ويتعاقد معه سرا، بل ويحلف «الأيمان الكاذبة» على سيره بالعدل واقامة الأحكام والشرايع والإقلاع عن المظالم، ولا يفعل أمرا إلا بمشورته ومشورة العلما وانه متى خالف الشروط عزلوه وأخرجوه.

٢.محمد علي من مشورة العلماء إلى بناء الدولة الاستبدادية: جاء محمد علي إلى سدة الحكم بإرادة شعبية ممثلة بأهل العقد والحل من العلماء، وكان علماء الأزهر إلى جانبه يوم أرادت الدولة العثمانية إبعاده عن ولاية مصر ونقله إلى سالونيك عام ١٢٢١هـ=١٨٠٦م، وكان محمد علي منذ توليه عالمًا بأوضاع أولئك الشيوخ وموقعهم الاجتماعي والاقتصادي، فتقرب

١٠٣: يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

* ١ يناير سنة ١٨١٧ = ٢٤ كيهك ١٥٣٣ = الأربع ١٢ صفر ١٢٣٢.

* فيها عملوا تسعيرة للحم فجعلوا ثمن الرطل الذى يبيعه القصاب تسعة انصاف فضة وثمنه عليه من المذبح ثمانية أنصاف، وكان يباع قبل هذه التسعيرة بالزيادة الفاحشة.

* وفيها شحت الغلال من الرقع والسواحل فبلغ الأردب ١٢٥٠ نصفا فضة، وقل وجود الخبز في الأسواق.

* ١ تسوت ١٥٣٤ = ١٠ سبتمبر ١٨١٧ = الأربع ٢٨ شوال ١٢٣٢.

* في ٢١ الحجة أرسل محمد على باشا رسالة علمية ثانية لكشف معدن الزمرد في الصحراء الشرقية.

* ١ يناير سنة ١٨١٨ = ٢٤ كيهك ١٥٣٤ = الخميس ٢٢ صفر ١٢٣٣.

* في ٥ ربيع أول حاصر إبراهيم باشا بلدة الشقراء، وفي ١٤ منه استولى عليها.

* فيه وصل الريال الفرنسا إلى ٤٠٠ نصف فضة، والمحبوب كذلك، والبندقي ٩٠٠، والمجر ٨٠٠.

* في ٢٩ جماد أول وصلت عساكر إبراهيم باشا إمام الدرعية، وابتدأت في محاصرتها.

* وفي ٢ [جماد أول] صدر أول قانون يختص بالفرعة في فرانسا.

* في هذه السنة صار تصليح جسر الفرعونية وجسر القشيشة في الوجه البحرى.

* في ٢٤ يوليو أعظم درجة للحرارة في باريس كانت ٣٤,٥ مئينية فوق الصفر.

منهم باعطائهم التزام القرى التى كانت بأيدى الأمراء المماليك، و ضمن بذلك ثقتهم وتأييدهم في وجه من كان يخشى بأسهم وسطوتهم، ودأب في الوقت نفسه على طلب مشورة المشايخ في شؤن الحكم مما رفع مكانة هؤلاء الشيوخ في نظر العامة.

وفي ذروة الأزمة بين والى مصر والدولة العثمانية تمت صياغة المذكرة التى رفعت إلى الباب العالى ممهورة بأسماء المشايخ معلنة تمسكهم بولاية محمد على «بهجة الزمان وورنق عنوان اليمن والأمان.. ومحط صدر الصدور ومدبر مهمات الأمور..».

وفي هذه المذكرة الالتماس من السلطان إعفاء الشيوخ من العهد الذى قطعوه للدولة العلية بالتعاون مع المماليك بعد عفو السلطان عنهم «لأن شرط الكفيل قدرته على المكفول، ونحن لا قدرة لنا على ذلك لما تقدم من الأفعال الشهيرة والأحوال والتطورات الكثيرة فالصغير من أمراء المماليك لا يسمع كلام الكبير، والكبير لا يستطيع تنفيذ الأمر على الصغير..»، لابل إن أولئك الشيوخ كانوا في بادىء أمرهم يلتمسون الأعذار لمحمد على في كثرة جمعه للضرائب لتأسيس نواة جيشه.

ولدى إصرار السلطان على نقل محمد على من القاهرة، كان الرد الذى أملاه محمد على على الشيوخ من أن أهل مصر ورعيتها قوم ضعاف، وربما عصت العساكر أوامر الخروج

* في ٧ القعدة طلب عبدالله بن سعود المهادنة بعد حصار استمر نحو السبعة شهور، ثم سلم المدينة على شروط منها رد الكوكب الدرى إلى محله، وعدا ذلك لم يضمن إبراهيم باشا لعبد الله بن سعود حياته حيث كان أمره بيد مولانا السلطان.

* ١ تــوت ١٥٣٥ = ١٠ سبتمبر ١٨١٨ = الخميس ٩ القعدة سنة ١٢٣٣.

* في ١٨ محرم دخول عبدالله بن مسعود، شيخ الوهابية ، مصر مقبوضا عليه.

* في ١١ ديسمبر انجلى عساكر الدول المتحالفة عن أرض الفرنساوية.

* ١ ينـاير ١٨١٩ = ٢٤ كيهك ١٥٣٥ = الجمعة ٤ ربيع أول ١٢٣٤.

* في هذه السنة الافرنكية حصل هيجان في مانشستر، وخلل في ارلانده. * وفيها انتهت ضريبة حرب الروسيا.* والأقاليم المتحدة من أميركا استولت على جزائر فلوريدة التابعة لأسبانيا.

* من ٣٠ يونيو لغاية ٤ يوليو حصل هيجان وشغب بمدرسة الحقوق بباريس.

* فيه أرسل محمد على رسالة علمية بقصد استكشاف معدن الكبريت الذى كان محتاجا له لعمل البارود.

* ١ تــوت ١٥٣٦ = ١١ سبتمبر سنة ١٨١٩ = السبت ٢١ القعدة ١٢٣٤.

* ١ ينـاير ١٨٢٠ = ٢٣ كيهك ١٥٣٦ = السبت ١٥ ربيع أول ١٢٣٥.

* فيها بلغ صرف البندقى ١٠٠٠ نصف فضة، وقل وجود العسل النحل وشمعه فبلغ رطل

فيحصل لأهل البلد الضرر وخراب الدور وهتك الحرمات. وهكذا انتهت الأمور ببقاء محمد على واليًا على مصر.

وعندما أراد محمد على أن يحارب الإنجليز، وكان يخشى انضمام المماليك إليهم ومؤازرتهم في حروبهم، وسط محمد على المشايخ لإنهاء الحرب بينه وبين المماليك، كما أفتاهم بعدم جواز إعانة الكفار على المسلمين، لاسيما وأن هؤلاء الأمراء نشأوا في كفالة أسيادهم وتربوا في حجور الفقهاء فلا يجوز أن يعينوا الإنجليز، وكان لهذه الدعوة أثر كبير في تمكين محمد على من التفرغ لقتال الإنجليز عام ١٢٢٢هـ=١٨٠٧م.

كانت فترة الصفاء بين محمد على والشيوخ قصيرة. فما أن بدأ محمد على يشعر بالقوة حتى مال إلى الاستئثار بالملك على ما يذكر الجبرتي ويتخلص شيئًا فشيئًا من سيطرة العلماء. وكانت البداية بعد عودة الوالى إلى القاهرة منتصرًا على الإنجليز في رشيد. وفيما كان عمر مكرم بالقاهرة يحث الناس على الجهاد لطرد أعداء الدين، كان رد محمد على أن واجب الشيوخ في الدفاع قد سقط عنهم، وأن حسبهم من الدفاع أن يبذلوا من المال ما يكفى نفقات الجنود ومؤونة الحرب. «فليس على رعية البلد خروج وإنما عليهم المساعدة بالمال لعلايف العسكر». وأخذت الجفوة تتفاقم بين محمد على والزعامة الشعبية وحلت القطيعة

١٠٣: يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

الشمع ٦ قروش. * في ٢١ صفر وصل القاهرة إبراهيم باشا عائدا من الحجاز ودخل المحروسة في ٢٢ منه وقابل والده في سراى شبرا يومها. * في ٢٠ ربيع ثاني تمرد عالي باشا، والي بانينه، على الباب العالي. * وفي ٤ من [ربيع الثاني] صار افتتاح ترعة المحمودية. * وفي ٣ جماد الأول، أرسل محمد علي باشا حسن بك الشماشيرجي إلى واحات سيوه، وبعد أن أدب أهلها ألحقها بالحكومة المصرية.

* وفي هذه السنة الميلادية أرسل محمد على باشا سليمان باشا الفرنساوى لكشف معدن فحم الحجر، فعثر على بعر غاز بين القصير وأسوان.

* وفيها كانت اكتشافات المعلم أمبير على الكهربائية المغناطيسية. * وفيها توفي جورجي الثالث ملك انكلتره وتولية ولده جورجي الرابع على تخت الأراضي الانكليزية. * فيها حدثت ثورة في اسبانيا والبورتغال، وألغى التجسس الديني من اسبانيا.

* في ٩ شوال قيام إسماعيل باشا، نجل محمدعلي باشا وأركان حربه، من القاهرة بقصد فتح السودان. * في ١٧ اغسطس ابتداء محاكمة الملكة كارولتية، زوجة جورج الرابع ملك انكلتره، بناء على شكوى زوجها.

* ١ توت ١٥٣٧ = ١٠ سبتمبر ١٨٢٠ = الأحد ٢ ذو الحجة سنة ١٢٣٥.

* في ٢٨ محرم استيلاء اسماعيل باشا، نجل محمد على باشا، على كورتي. * في ٥ صفر حكمت المحكمة الانكليزية ببراءة ساحة الملكة كارولتيه، زوجة الملك جورج الرابع.

محل الوفاق عندما بدأ محمد علي ينظم دولته على أساس جديد، وامتدت يده إلى حقوق المشايخ المكتسبة في واردات الأوقاف التي كانوا نظاراً عليها، والرزق والأحباس التي رأى محمد علي أن يردها إلى «بيت المال»، ونقم عليه الفلاحون وأهل المدن لأنه سخرهم للعمل، وألزم من لا يعمل منهم بدفع ضريبة بدلية، وطالبهم بالحجج والوثائق التي تثبت مليكتهم للأرض التي يزرعونها، واحتكر إنتاجهم وأبطل تجارتهم وفرض على أصناف مزروعاتهم وتجارتهم مالا يطيقونه من الضرائب. أما محمد علي فقد نقم على هؤلاء لأنهم كسالى والأغنياء منهم يفرطون في اختزان أموالهم في صناديق تحت الأرض أو في آبار تحفر لهذه الغاية.

ويعطينا الجبرتي وصفاً لجمل ما لحق الجماهير وزعماءها من أذى محمد علي في حديثه عن طريقة ا لوالي في إعمار القاهرة فيقول: «حين كلفت طوايف الناس بتعمير القاهرة اجتمع على الناس عشرة أشياء من الرذائل وهي السخرة، والعونة، وأجرة الفعلة، والذل، ومهنة العمل، وتقطيع الثياب، ودفع الدراهم، وشماتة الأعداء، وتعطيل معاشهم وعاشرهم أجرة الحمام!. ويفصل الجبرتي من وجهة نظره مساوىء حكم محمد علي ويركز على تزييفه عمداً للعملة عن طريق سكه للنقد فكان يزغل العملة حتى أصبحت الفضية منها لا تكاد تحوى إلا كسراً ضئيلة من الفضة، وعلى الاحتكار الذى أفسد على الفلاحين رغبتهم في الزرع، فتنكروا

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

* ١ يناير ١٨٢١ = ٢٤ كيهك١٥٣٧ = الاثنين ٢٦ ربيع أول ١٢٣٦.
* وفي هذه السنة أرسل محمد علي باشا معدنجية من الانكليز للبحث عن الفحم الحجرى ما بين أسوان والسويس ورسالة أخرى لكشف معدن الذهب في شبه جزيرة الطور وخليج العقبة.
* وفيه ابتدأ شامبليون بترجمة الهيروجليف، أي القلم المصرى القديم. * وفيه ابتدأت المناوشات بين التركية واليونان بقصد استقلالهم.

* في ٢ جماد الثاني استيلاء اسماعيل باشا على مدينة بربر. * وفي ٢٥ مارس دخلت عساكر أوستوريا في نابولي.* وفي هذه السنة حكم محمد علي باشا على الشيخ إبراهيم باشا بالنفى إلى غزة لأمر حصل منه.* في ٥ مايو وفاة نابليون الأول في جزيرة سن هيلينه.
* وفي ٨ مايو دخل إسماعيل باشا مدينة شندى.
* في ٢٠ يوليو كان تتويج جورج الرابع ملك الانكليز.

* ١ توت ١٥٣٨ = ١٠ سبتمبر ١٨٢١ = الاثنين ١٢ ذو الحجة ١٢٣٦.
* في سبتمبر- تقريبا- أسس الجغرافي مالطبرون الجمعية الجغرافية بفرانسا.
* ١ يناير ١٨٢٢ - ٢٤ كيهك ١٥٣٨ = الثلاث ٧ ربيع الثاني ١٢٣٧.
* في ١٣ منه لما انتصر خورشيد باشا، المعين من قبل الباب العالي لمحاربة عالي باشا، والى يانينه، أمر بجز رأسه وأرسلها إلى دار الخلافة.
* في ٢٣ رجب استيلاء

لمعايشهم الأساسية فغلا الأرز والقمح والسيرج واللحم والخبز، وبات الجبرتي الذى كان قبل أيام محمد علي يرقب فيضان النيل ويتفاءل بخيره، لا يقيم لهذا الفيضان وزنًا لأن خيره يذهب إلى الوالي.

تلك هي الصورة القاتمة التى تبدت للجبرتي في تأريخه للخمسة عشر عامًا الأولى من ولاية محمد علي، والتى تراءى فيها للجبرتي أن هذا الوالي كان يمثل في تصرفاته الاستبداد العثماني في أبشع صوره، فلم يفعل شيئًا لوصل الفجوة بين الحكام والمحكومين، وجلّ ما فعله أنه سخر المجتمع المصرى لأغراضه الخاصة ، واستعان عليه بشراذم من الأغراب والإفرنج: وفي هذه الأحوال جميعها، كان الفرد المصرى ينحدر إلى هوة سحيقة من التأخر.

وكان الجبرتي يرى أن تطبيق سياسة الاحتكار حالت بين أفراد الشعب وتنمية أنفسهم بأنفسهم، ورأى أن نتيجة هذه السياسة دفعت بجحافل الفلاحين إلى الهرب إلى بلاد الشام، وكانت أوامر الباشا تتعقبهم في كل مكان، أما من بقوا في بلادهم فإن سياسة الاحتكار زادت من كسلهم وتواكلهم، فلم يهتموا بعمل لا يعود عليهم بثمرة.

والجبرتي يذهب في حكمه على محمد علي إلى أنه الرجل القوى المستبد الرجل المراوغ. ضرب الأزهريين بعضهم ببعض، وكان تحصيل المال همه الأكبر. فيقول في المحرم سنة

المصريين على كردفان والحاقها بالحكومة المصرية.
* في ١٤ شعبان ولادة السلطان عبدالمجيد خان.
* في ٢٧ رمضان أحرقت اليونان الدونما التركية.
* في هذه السنة ١٨٢١ انشئت الاشارات البرية بمصر.
* في ١٠ يونية أعظم درجة للحرارة في باريس بلغت ٣٣,٨ مئينية فوق الصفر.

* ١ توت سنة ١٥٣٩ = ١٠ سبتمبر ١٨٢٢ = الثلاث ٢٣ ذو الحجة سنة ١٢٣٧.

* في هذه السنة زاد النيل زيادة وافره حتى حصل منه غرق شديد.
* في محرم سافر إبراهيم باشا من السودان عائدا إلى المحروسة.
* في هذه السنة الافرنكية تعين عثمان بك حكمدارا على السودان، وكانت سنة ثورة وقحط في السودان.
* ١ يناير ١٨٢٣ = ٢٤ كيهك ١٥٣٩ = الأربع ١٧ ربيع الثاني ١٢٣٨.
* في هذه السنة زاد النيل زيادة كبيرة فحصل غرق شديد.

* وأعظم درجة للبرودة في باريس كانت ١٤,٦ تحت الصفر. * في ٣٠ فبراير أحدثت اليونان حريقة مهولة بالقسطنطينية.
* في ٩ ابريل دخول الجيش الفرنساوي في أسبانيا.
* في هذه السنة الافرنكية صار الشروع في تأسيس مدينة الخرطوم لجعلها مركزًا لحكمدارية السودان. * فيها صار إنشاء دار الطباعة ببولاق المسماة الآن بالمطبعة الأهلية.
* وفيها هاجرت الارلنديون إلى كندا. * وفيها بلغت قيمة الوارد إلى مصر ٨٠٤,٥٢٠ جنيه

١٢٣٢هـ= نوفمبر ١٨١٦ : «إن ولي الأمر لم يكن له من الشغل إلا صرف همته وعقله وفكرته في تحصيل المال والمكاسب وقطع أرزاق المسترزقين والحجر والاحتكار لجميع الأسباب. ولا يتقرب إليه من يريد قربة إلا بمساعدته على مراداته ومقاصده. ومن كان خلاف ذلك فلاحظ له معه مطلقًا، ومن تجاسر عليه من الوجهاء بنصح أو فعل مناسب، ولو على سبيل التشفع حقد عليه وربما أقصاه وأبعده وعاداه معاداة من لا يصفو أبدًا.. وعرفت طباعه وأخلاقه في ديارته وبطانته فلم يمكنهم إلا الموافقة في المساعدة على مشروعاته، إما رهبة أو خوفا على سيادتهم ورياستهم ومناصبهم وإما رغبة وطمعًا وتوصلاً للرياسة والسيادة - وهم الأكثر - وخصوصًا أعدا الله من نصارى الأرمن وأمثالهم الذين هم الآن أخصا لحضرته ومجالسته، وهم شركاه في أنواع المتاجره، وهم أصحاب الرأى والمشورة، وليس لهم شغل ودرس إلا فيما يزيد حظوتهم ووجاهتهم عند مخدومهم.

واذ لجأ الشيوخ إلى التجمهر في الأزهر لإثارة العامة أدان محمد على هذا التجمهر وهدد الشيوخ إن هم عادوا إلى مسلكهم في زمن المماليك «أما ما تفعلونه من التشيع والاجتماع بالأزهر فهذا لا يناسب منكم، وكأنكم تخوفونني بهذا الاجتماع، وتهييج الشرور وقيام الرعية كما كنتم تفعلون في زمن المماليك فأنا لا أفزع من ذلك». ثم هددهم بأنه إذا حدث شيء من ذلك فليس عنده إلا السيف والانتقام. وعندما رفض عمر مكرم التوقيع على كتاب محمد

١٠٣: يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

والصادر ٧٦٥، ١,٥٨٤ جنيه. * في هذه السنة بوشر العمل بالتغراف الكهربائي مورس (نسبة إلى مخترعه ساموبل مورس الأمريكاني) وهو الذى يرسم علامات على شريط من الورق تدل على الحروف.

*١ تسوت ١٥٤٠= ١١ سبتمبر ١٨٢٣ = الخميس ٥ محرم سنة ١٢٣٩.

* في ١٥ أكتوبر معاهدة مدريد القاضية بتأييد سلطة فردينند السابع على أسبانيا.

* في ١٤ نوفمبر رجوع فردينند السابع ملك أسبانى ودخوله مدريد عاصمة اسبانيا.

* ١ يناير ١٨٢٤ = ٢٣ كيهك سنة ١٥٤٠ = الخميس ٢٨ ربيع الثاني ١٢٣٩.

* في هذه السنة حصلت حريقة مهولة بالقلعة بمصر، ولشدتها وشهرتها صارت العامة تؤرخ بها مواليدهم ووفياتهم. * وفيها تعين محو بك حكمدار على السودان، وله آبار بقرب بربر تسمى باسمه الآن. * في ٥ رجب صدر فرمان شاهاني بتعيين محمد على باشا واليًا علي كريد والموره. * فيها بلغ قيمة الوارد إلى مصر ٢١٠، ١,١٩٥ جنيه والصادلر منها مبلغ ٦٧٨. ٢,٤٣١ جنيه. * فيها كان الريال أبو مدفع باربعة عشر قروشًا.

* في يونيو حصل شغب واختلت الراحة العمومية من جديد في اسبانيا.

* في ١٩ القعدة قيام الدنما المصرية وعليها ما يزيد عن ٢٠,٠٠٠ عسكرى تحت سر عسكرية إبراهيم باشا بقصد اخضاع وتاديب اليونان.

على للباب العالي للسماح له بإنفاقه أربعة آلاف كيس على الإعمار فصله الوالى من منصبه في نقابة الاشراف ونفاه إلى دمياط، وفصل مفتي الحنفية الشيخ أحمد الطهطاوى لأنه رفض التوقيع على صيغة إزاحة عمر مكرم: وباختفاء عمر مكرم عن المسرح السياسي باتت سلطة محمد على مطلقة من كل قيد. كان عمر مكرم الزعيم الشعبى الذى يصفه الرافعي بأنه صاحب نفس عالية وشجاعة ونزاهة وترفع عن الدنايا، هو الزعيم المطاع حقًا وبانكفائه انكفأ التأييد الجماهيرى للشيوخ لاسيما وأن أكثر هولاء خذل عمر مكرم في محنته فكان السيد المهدى يشجع محمد على عليه بقوله: «هو ليس إلا بنا واذا خلاعنا فلا يسوى بشي إن هو ليس إلا صاحب خرقة وجابي وقف..» ثم إن هؤلاء الشيوخ باستثناء عمر مكرم كثيرًا ما خذلوا الجماهير في تطلعاتها. وفي غمرة ثورة الجماهير المصرية على خورشيد كانوا يساومون في مواقفهم، وفيما كان رأى عمر مكرم أن يستمر حصار القلعة حتى يصفي الموقف مع خورشيد وعزله بالقوة وتنصيب محمد على مكانه، كان موقفالشرقاوى وبقية الشيوخ موقف المساوم. وتنفيذًا لرأيهم، ركب الآغا وصحبه بعض الشيوخ المتعممين ونادوا في المدينة بالأمن والأمان والبيع والشراء، وقوبل هذا النداء باستنكار الناس الذين كان تعليقهم «إيش هذا الكلام»» والله لا نترك أسلحتنا ولا نمتثل لهذا الكلام ولا هذه المناداه». ولما فتح الناس في ربيع

* فى ١ ٢٩١ أغسطس اجتمعت الدوننما العثمانية بالمصرية، وفى ١٢ منه هجمت دونانمة اليونان عليها. * وفى ٢٢ منه = ١٧ سبتمبر وفاة لويز الثامن عشر، وتولية كارلوس العاشر.

* وكان النيل قليلا حتى أنه حصل شراقى، أى لم يعم رى الأرض فى هذه السنة الافرنكية.

* ١ توت ١٥٤١ = ١٠ سبتمبر سنة ١٨٢٤ = الجمعة ١٦ محرم سنة ١٢٤٠.

* ١ ينايـر ١٨٢٥ = ٢٤ كيهك ١٥٤١ = السبت ١١ جماد أول سنة ١٢٤٠.

* حصلت فرضه سياسية ودينية فى بلاد السويسرا. * واعترفت الأقاليم المتحدة باستقلال البريزيله. * فى هذه السنة صار افتتاح مدرسة الاسكندرية برأس التين.

* وفيها حصل شراقى، وبلغ ربع القمح ٢ ٣٠ أعنى برغوته ذهب.

* فى ٧ [من رجب] أنزل إبراهيم باشا عساكره فى مينا سودون.

* فى ٢ [من شعبان] شرع إبراهيم باشا فى حصار نافارين.

* فى ٢٨ [من رمضان] استولت العساكر المصرية، تحت قيادة إبراهيم باشا، على مدينة نافرين. * فى ٨ يوليو دخول كارلوس العاشر ملك فرانسا فى باريس.

* فى ٦ [من ذى القعدة] دخل إبراهيم باشا وعساكره مدينة تريبوليستا. * فى ١٩ يوليه أعظم درجة للحرارة فى باريس بلغت ٣٦,٣ مئينية فوق الصفر.

آخر ١٢٢٠هـ = الرابع عشر من يوليو عام ١٠٨٥ بعض الحوانيت ونزل المشايخ إلى الأزهر وقرأوا بعض الدروس فترت همم الناس ورموا الأسلحة وأخذوا يسبون المشايخ ويشتمونهم لتخذيلهم إياهم وشمخ عليهم العسكر وشرعوا فى أذيتهم وتعرضوا لقتلهم وأذيتهم. فقد قتل الجنود أشخاصا من جهات متفرقة حتى ضج الناس وأغلقوا الدكاكين وكثرت شكاويهم إلى عمر مكرم حتى اضطر أن يصرح لهم بأن عليهم أن يشكوا إلى الشيخ الشرقاوى والشيخ محمد الأمير فهما اللذان أمرا الناس برمى السلاح.

كانت الجماهير ضعيفة الثقة بقادتها لعلمها بانشغالهم عنها بتنافساتهم الشخصية وأغراضهم النفسية التى أشار إليها الجبرتى فى مواضع كثيرة من كتابه عجايب الآثار. وظلت الجماهير المصرية حافظة لعمر مكرم مواقفه حاقدة على من أوقع به من الشيوخ، وظل ا لمجلس الذى انعقد لإدانة هذا الزعيم حديث الناس لحقبة طويلة من الزمان. إذ تألب على هذا الزعيم مجموعة من الشيوخ وانحازوا إلى محمد على ضده وعملوا مجلس شرع قرروا فيه خروج عمر مكرم على ولى الأمر، وهو الحكم الذى استند إليه محمد على فى عزل عمر مكرم ونفيه إلى دمياط، ثم رفعوا كتابا إلى الباب العالى مليئابالاتهامات لعمر مكرم منها أنه أدخل فى سجل الأشراف أسماء أشخاص أسلموا من القبط واليهود، ومنها أنه سبق أن أخذ من إبراهيم

* في ٨ سبتمبر اعترفت البورتوغال باستقلال مملكة البريزيله.

* ١ تــوت ١٥٤٢ = ١٠ سبتمبر ١٨٢٥ = السبت ٢٦ محرم سنة ١٢٤١.

* فيها بلغ قيمة الصادر إلى مصر من التجارة ١,١٥٥,٦٦٤ جنيه.

* في ١ ديسمبر وفاة اسكندر الأول امبراطور الروسيا، وتولية نقولا الأول بدلا عنه.

* في ٨ يناير حصل هيجان في سنبطرسبورج عاصمة الروسيا.

* ١ يناير ١٨٢٦ = ٢٤ كيهك ١٥٤٢ = الأحد ٢١ جماد أول ١٢٤١.

* في هذه السنة تعين خورشيد باشا حكمدارا للسودان،

* في هذه السنة الافرنكية بلغ قيمة الصادر من تجارة مصر ٨٠٨,٥٥٩ جنيه.

* فيها كانت البرغوته الذهب بقرشين وثلاثين نصف فضة.

* في ١٤ [من رمضان] استيلاء إبراهيم باشا على مدينة ميسولونجي، من مدن اليونان.

* في ٩ [من شوال] فتك السلطان محمود بجيش الانكشارية وتخلص وأراح العالم منهم.

* وفي ٣ يوليو اتفقت فرانسا وانكلتره والروسيا على تداخلهم حربيا في مسألة استقلال اليونان.

* في ١٨ اغسطس أعظم درجة للحرارة في باريس كانت ٣٦,٢ مئينية فوق الصفر.

* ١ تــوت ١٥٤٣ = ١٠

الألفي مبلغًا من المال ليساعده على تملك البلاد، ومنها أنه راسل المماليك في سنوات الاضطراب حين كانوا بالقرب من مصر ليحضروا على حين غفلة في يوم قطع الخليج وحدث منهم ما حدث، ومنها أنه أراد تحريض الجنود لينقضوا على محمد علي. والحامل لهم على ذلك كله كما يقول الجبرتي «الحظوظ النفسانية والحسد، مع أن السيد عمر كان ظلاً ظليلاً عليهم وعلى أهل البلدة ويدافع عنهم وعن غيرهم».

وكان محمد علي عليماً بدخايل أولئك الشيوخ. فكان يقرّب بعضهم ويبعد بعضاً. فيذكر الجبرتي عن الشيخ المهدى أن الباشا أنعم عليه ببعض من وظائف عمر مكرم فتنظر على أوقاف الإمام الشافعي ووقف سنان باشا ببولاق وذلك نظير اجتهاده في خيانة السيد عمر!! أما الشيخ السادات فقد قلده محمد علي نقابة الأشراف، ومثل هذا التزلف ظهر شديداً إثر قضاء محمد علي على المماليك. ولكن الباشا عرف كيف يسحب من هولاء جميعاً القيادة السياسية والقيادة الثقافية وتجرأ عليهم واحداً إثر واحد[1].

•••

(١) انظر: الحركات الجماهيرية في الوطن العربي. الهيئة القومية للبحث العلمي. طرابلس/ ليبيا. بيروت ١٩٩١.

سبتمبر ١٨٢٦ = الأحد ٧ صفر سنة ١٢٤٢.
* في هذه السنة صار تأسيس مدرسة الطب بأبي زعبل.
* وفيها أرسل العزيز ٤٠ تلميذا إلى باريس وبهم تأسست المدرسة المصرية.
* ١ يناير ١٨٢٧ = ٢٤ كيهك ١٥٤٣ = جماد الثاني سنة ١٢٤٢.
* في ١٨ فبراير أعظم درجة للبرودة في باريس بلغت ١٢.٨ مئينية تحت الصفر.

* فيها بلغ قيمة الصادر من تجارة مصر ٨٣٤. ٨٥٣ جنيه.
* في ٧ يوليو صار امضاء وفاق في لوندره بين فرانسا وانكلتره والروسيا قاضي باستقلال اليونان.
* في ٢٨ محرم واقعة نافارين البحرية التي فيها دونماتي فرانسا وانكلترا ضربا الدونما التركية والمصرية.

* ١ توت سنة ١٥٤٤ = ١١ سبتمبر ١٨٢٧ = الثلاث ١٩ صفر سنة ١٢٤٣.

* في ٢ أغسطس أعظم درجة للحرارة في باريس بلغت ٣٣ درجة مئينية فوق الصفر.
* ١ يناير ١٨٢٨ = ٢٣ كيهك سنة ١٥٤٤ = الثلاث ١٣ جماد الثاني ١٢٤٣.
* فيها بلغ قيمة الصادر من تجارة مصر ٥٩٢. ٣٠١ جنيه.
* في ١١ شوال أعلنت الروسيا الحرب على تركية.
* في ٢٨ القعدة استولت الروسيا على قلعة أنابا.

* ١ توت ١٥٤٥ = ١٠

الفوضى السياسية وظهور محمد على

لم يكن معنى خروج الفرنسيين أن السلام قد عاد إلى مصر، والسبب في ذلك أن استقرار الأحوال في هذه البلاد كان مرتهنا بتقرير السلام العام في أوروبا من جهة ، ومتوقفاً على قيام الحكومة الموطدة القوية في مصر ذاتها من جهة أخرى.

أما عن الأمر الأول، فقد ظل النضال مستمراً بين فرنسا وبين انجلترا وحلفائها مدة طويلة، حتى انتصر الانجليز وحلفاؤهم على نابليون في معركة «ووترلو» woterloo في يونيه عام ١٨١٥ . وفي أثناء هذا النضال ظلت مصر تحتل مكانا ظاهرا من تفكير ومجهودات السياسيين والعسكريين من كلا الفريقين، بصورة جدية على الأقل حتى عام ١٨٠٧. هذا بينما استطاعت الدولة العثمانية ذاتها أن تنجو بأعجوبة من أشد الأخطار التي تعرضت لها وكانت تهدد كيانها بين عامي ١٨٠٧ و١٨١٢. وكان السبب في خلاصها انفصام العلاقات بين روسيا وفرنسا، ثم انصراف نابليون إلى مواصلة النضال القاري العنيف الذي انتهى بخلعه ونفيه.

ومن الجدير بالذكر أن هذه الحوادث جميعها – سواء ما وقع منها قبل عام ١٨٠٧ أوبعد عام ١٨٠٧ ـ كانت ذات أثر فعال – بفضل ما نجم عنها من عوامل أثرت على مجرى

---

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

سبتمبر ١٨٢٨ = الأربع ٢٩ صفر سنة ١٢٤٤.

* في ١٨ اغسطس ذهاب التجريدة الفرنساوية لليونان.

* في ٧ أكتوبر الجلاء إبراهيم باشا وعساكره عن بلاد اليونان بناء على التداخل الأوروباوى.

* في ١٢ أكتوبر استيلاء الروسيا على وارنا، وفي ٢٥ رفعت الروسيا الحصار عن سيلسترا.

* ١ يناير ١٨٢٩ = ٢٤ كيهك ١٥٤٥ = الخميس ٢٤ جماد الثاني ١٢٤٤.

* في ٢٤ يناير أعظم درجة للبرودة في باريس بلغت ١٧ مئينية تحت الصفر.

* في ٦ شعبان استيلاء الجيش الروسى على طرنوه، وفي ٧ منه ذبح المتدينون الروسيين في طهران.

* فيما تمت أول طريق حديدية تامة محكمة تجرى عليها العربات في بلاد الانكليز.

* فيها أمر العزيز محمد على بتعميق مينا الاسكندرية وشرع في ذلك بالفعل.

* في ٢٤ مايو تتويج نيقولا الأول امبراطور الروسيا ملكا على بولونيا.

* في ١ يوليو استيلاء الروس على سيلستره.

* في ١٠ يوليو استيلاء الروس على أرض روم.

* في هذه السنة النيل عم جميع الأراضى وبلغ أقصى درجته. * في ١٥ سبتمبر معاهدة أدرنه التى تبيح للروسيا الملاحة من البحر الأسود للمتوسط والاعتراف باستقلال اليونان.

الوقائع في مصر- في ظهورمحمد علي[١]. وقدشاهد محمد على الفوضى التى حلت في البلاد إثر جلاء الفرنسيين عنها، كما رأى النضال الشديد بين السلطات الثلاث التى خلفتها الحملة في مصر، وهي قوات الإنجليز والعثمانيين المماليك من أجل الاستئثار بالسلطة والنفوذ، فقرر الاستفادة من هذه الظروف واستخدامها لمصلحته.

المماليك والباب العالى:

وكان من المنتظر بعد جلاء الفرنسيين، أن يعظم رجاء البكوات المماليك، في أن تعود الأمور إلى نصابها، حتى يستأثروا من جديد بكل سلطة ونفوذ في حكم البلاد، ويستعيدوا مكانتهم السابقة التى كانت لهم قبل مجيء الحملة. والواقع أن هذا كان غرضهم الثابت الذى عملوا على تحقيقه في المدة التالية.

غير أن هذه الرغبة سرعان ما اصطدمت برغبة أخرى، كانت لا تقل عنها صلابة وعنادا،

(١) ولد محمد علي في قوله عام ١٧٦٩ من أبوين فقيرين، وتعلم أساليب التجارة في صغره، ثم تزوج من إحدى قريبات حاكم قوله،وكانت أرملة ذات ثروة، فأنجب منها إبراهيم وطوسون واسماعيل، وتاجر في الدخان إلى أن أرسل ضمن القوة التى رأت الحليفتان تركيا وانجلترا إرسالها إلى مصر عام ١٨٠١ لإخراج الفرنسيين من البلاد. وكان بسبب بلائه في المعارك التى اشترك فيها، أن رقى إلى رتبة قائد، وألحق بمعية محمد خسرو باشا أول وال عثمانى بعد خروج الحملة الفرنسية من مصر.

* في هذه السنة صار إنشاء الوقائع المصرية.
* ١ يناير سنة ١٨٣٠ = ٢٤ كيهك ١٥٤٦ = الجمعة ٦ رجب ١٢٤٥.
* في ١٧ يناير أعظم درجة للبرودة في باريس بلغت ١٧,٣ مئينية تحت الصفر.
* في ١٥ شعبان ولادة السلطان عبدالعزيز خان.
* وفي ٣ يناير ١٨٣٠ صار إعلان استقلال اليونان.
* فيها صار تسيير قطارات السكة الحديد التي تمت في العام الماضي من ليفربول إلى مانشستر، وهي من اختراع جورج وروبرت استيفانسون من انكلترا.
* فيها كان كل من أبي مدفع وأبي طاقة بخمسة عشر غرش، والجنيه الافرنكي ٧٢ غرش.
* في ٢٦ مايو قيام الدونمنا الفرنساوية من طولون وعليها التجريدة العسكرية ضد الجزائر.
* في ٦ يوليو احتلت الفرنساوية مدينة الجزائر. * في أول أغسطس ثورة عظيمة في باريس.
* وفي ٢ أغسطس انكار حكم كرلوس العاشر، وفي ٤ منه تنازل كرلوس العاشر عن تخت فرانسا، وفي ٦ منه سفره إلى انكلتره وفي ٩ أغسطس تولية لويز فيليب على تخت فرانسا. * في ٢٩ سبتمبر ظهرت الكوليرا في موسكو. * وفي ٢٤ أكتوبر أعلن باستقلال مملكة البلجيكة عن الهولانده.
* في هذه السنة توفي جورج الرابع وتولى جيليوم الثالث بدلا عنه على تخت انكلتره. * كذا توفي فرانسوا الأول وتولى فوديندر

هي رغبة الباب العالي، الذي أراد انتهاز ضعف المماليك على أيدى الحملة الفرنسية، كي يستعيد نفوذه الفعلي في البلاد، ويشرف على حكومتها اشرافا وثيقًا، كمقاطعة عادية من مقاطعات الدولة العثمانية.

وكان يمثل الباب العالي بعد خروج الحملة الفرنسية: الباشا العثماني محمد خسرو وكان هذا الباشا الجديد يعتمد على قوات العثمانيين المرابطة في القاهرة بقيادة الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا. وعلى الأسطول العثماني المرابط في أبي قير بقيادة القبطان حسين باشا وقد لجأ العثمانيون إلى حبك خيوط المكائد للتخلص من البكوات المماليك في أكتوبر عام ١٨٠١، فهلكت منهم جماعة، كما أسرت جماعة أخرى، ولم يخلص هؤلاء الأسرى سوى توسط القائد الانجليزي هتشنسون(١) Hutchinson، الذي ظل هو الآخر مرابطا بجنده في القاهرة والإسكندرية.وقد غادر بعد هذا الحادث إلى الآستانة، كل من الصدر الأعظم والقبطان باشا.

وكان من أثر رغبة العثمانيين في التخلص من المماليك وتدبير المكائد للقضاء عليهم، أن انعدم كل أمل في إمكان حدوث التفاهم بين العثمانيين والبكوات المماليك، بل أن هذه

(١) تولى قيادة الحملة الإنجليزية أو حملة البحر المتوسط التي أرسلت لإخراج الحملة الفرنسية من مصر، وذلك بعد وفاة أبر كرومبي في موقعه كانوب في ٢١ مارس عام ١٨٠١.

الثانى على تخت نابولى. * وفيها أنشأ العزيز محمد على ترسانة اسكندرية، ورتب البحرية، وأمر بحفر حياض الترسانة، وأعاد تنظيم الجيش ثانيا، وأنشأ مدرسة الطب، والاسبتالية العسكرية باخانقاه، كذا أنشأ مدرسة السوارى بالجيزة، ومدرسة الطوبجية فى طرة، ومدرسة البيطرية فى شبرا.

* وفى ١٦ رجب ولادة إسماعيل باشا، خديوى مصر سابقا، وهو جد عباس حلمى الثانى.

* فيها ابتدأ محمد على باشا فى عمارة جامع القلعة، المعروف بجامع محمد عل.

* فى ٥ مايو ١٨٣١ صار انتخاب ليوبولد، أحد أمراءبلاد الساكس، ملكا للبلجيكية باسم ليوبولد الأول.

* ١ تــوت ١٥٤٧ = ١٠ سبتمبر سنة ١٨٣٠ = الجمعة ٢٢ ربيع أول ١٢٤٦.

* ١ ينــاير ١٨٣١ = ٢٤ كيهك ١٥٣٧ = السبت ١٧ رجب سنة ١٢٤٦.

* فى ٣ يونيه أنزل من ترسانة الاسكندرية أول سفينة، وكانت تحمل ١٠٠ مدفع.

* فى ٢ أغسطس الهولاندة شنت الغارة على البلجيكة. * وفى [أواخر صفر] ظهر الريح الأصفر بمصر، وهو أول ظهوره بها، وكانت حركته من خمسة دقايق إلى ثلاث أيام، وأى بلد حل بها كان يتزايد إلى ثمانية أيام وفى التاسع ينقص وفى السادس عشر ينتهى، وبلغت الوفيات اليومية إلى ٢,٥٠٠ نفس، ومجموعها ٥٥,٠٠٠ نفس.

المكائد كانت مؤذنة فى الحقيقة ببداية الحرب الأهلية، وظهور عهد من الفوضى السياسية فى البلاد، جعل من المتعذر قيام حكومة موطدة قوية تستطيع الدفاع عن مصر ضد أى غزو أجنبى جديد، كما أفسح المجال لتدخل كل من الدولتين المتنافستين، أى فرنسا وانجلترا، فى شئون البلاد لخدمة مصالحهما.

فى عام ١٨١٥ تمكن محمد على من حكم مصر وفى شهر يونيو من نفس العام كانت هزيمة نابليون فى موقعة واترلوا على يد انجلترا وحلفاؤها

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

* في ٢٦ جماد أول قيام تجريدة الشام ضد عبدالله باشا الجزار والي عكا، وكانت مركبة من ٢٤,٠٠٠ نفس. * وغب ٢٧ أكتوبر ظهرت الكوليره في انجلتره. * وفي ٢٠ جماد الثاني ابتدا إبراهيم باشا حصار عكا. * ثم إن النيل كان متوسطا في هذه السنة ١٥٤٨ ق.

* في ٣١ يناير ١٨٣٢ فرانسا وانجلتره صادقا على انفصال البلجيكة من الهولاندة. * في ٢٣ فبراير احتلت الفرنساوية مدينة انكونه في ايطاليا. * في ٢٢ مارس ظهرت الكوليره في باريس. * في ٢٨ مايو استولى إبراهيم باشا على مدينة عكا وأخذ عبدالله باشا الجزار أسيرا وأرسله إلى محروسة مصر.

* ١ توت ١٥٤٨ = ١١ سبتمبر ١٨٣١ = الأحد ٣ ربيع الثاني سنة ١٢٤٧.

* ١ يناير ١٨٣٢ = ٢٨ كيهك ١٥٤٨ = الأحد ٧ رجب سنة ١٢٤٧.

* في ١٦ محرم استيلاء العساكر المصرية على دمشق.

* في ٩ صفر استيلاء العساكر المصرية، تحت قيادة إبراهيم باشا، على مدينة حمص، وفي ١٨ منه وصل الجيش المصري مدينة حلب. * في ١٤ يوليه أعظم درجة للحرارة في باريس كانت ٣٤,٨ فوق الصفر.

* في هذه السنة صار إنشاء مدرسة الألسن تحت نظارة رفاعة بك رافع الطحطاوي.

* في ٢٧ [من جماد الثاني] انتصر إبراهيم باشا على الصدر

السياسة الفرنسية:

فمع أن فرنسا اضطرت إلى الجلاء عن مصر في اكتوبر عام ١٨٠١، ثم عقدت الصلح في أميان مع إنجلترا في ٢٥ مارس عام ١٨٠٢، ونص هذا الصلح على ضرورة المحافظة على كيان الامبراطورية العثمانية وضرورة جلاء الحملة الإنجليزية عن مصر، فقد ساء فرنسا أن ترى الإنجليز لا يزالون مرابطين بقواتهم في البلاد، وعلاوة على ذلك، فقد حرصت فرنسا على ابقاء صلاتها التجارية والسياسية مع مصر، عن طريق استمالة جماعة من البكوات المماليك إلى تأييد نفوذها.

ولذا فقد أرسل القنصل الأول (نابليون) بعد عقد الصلح مع انجلترا أحد الضباط الفرنسيين (هوراس سبستياني Horace Sebastiani) في بعثة إلى مصر، الغرض منها اقناع الإنجليز بتعجيل جلائهم، ثم السعي لعقد السلام بين الباشا العثماني وبين البكوات المماليك، واظهار مقدار ما يكنه نابليون من صداقة للمشايخ المصريين، دون توريط حكومة القنصل الأول بأية ارتباطات معهم. فقام سبستياني بهذه المهمة، وأرسل تقريراً مطولاً نشرته حكومته في يناير عام ١٨٠٣.

وكان لهذا التقرير أهمية عظيمة، بفضل ما اشتمل عليه من مسائل، كان أظهرها أن محمد خسرو باشا يصر على مواصلة حرب الفناء ضد المماليك، وأن المماليك يصرون من

الأعظم رشيد باشا في قونية وأخذه أسيرا. * وفي ٤ يناير ١٨٣٣ احتلت الانكليز جزائر ملوينه، وهي بالمحيط الاطلانطيقي، بالقرب من جنوب أميركا الجنوبية.

* في هذه السنة صار إنشاء مدرسة المهندسخانة، ببولاق، تحت نظارة لمبير بك.

* في ٢٤ الحجة وقع السلطان محمود على معاهدة كوتاهية، التي من مقتضاها أن محمد على باشا يأخذ، علاوة على مصر، ولاية الشام ومقاطعة أدنه، ويدفع خراجًا سنويًا للباب العالي.

* ١ توت ١٥٤٩ = ١٠ سبتمبر ١٨٣٢ = الاثنين ١٤ ربيع الثاني سنة ١٢٤٨.

* ١ يناير سنة ١٨٣٣ = ٢٤ كيهك سنة ١٥٤٩ = الثلاث ٩ شعبان ١٢٤٨.

* في ٢٩ مايو حصل عصيان في مكسيكا. * وفي هذه السنة كان النيل قليلا جدًا، وبلغ ١٩ ذراع، وتأخر في الطلوع وأسرع في النزول، وروى الربع في الأقاليم الوسطى وبأسيوط وجرجا الخمس وبقنا واسنا النباري فقط.

* في اوائل سبتمبر وفاة فردبند السابع ملك اسبانيا. * وفي ١٢ [من جماد الأول] حصل هيجان في مدريد عاصمة اسبانيا.

* فيها كانت ميزانية البرية والبحرية معا ٤,٤، ١,٢٨٨ جنيه مصرى.

* في هذه السنة، بالنسبة لما رآه محمد على باشا من تهديدات دولة بريطانيا، رفض مسألة حفر

جانبهم على ضرورة استعادة مراكزهم السابقة. ويطلبون من فرنسا أن تتوسط لهم في ذلك. وكان على رأس هذه الجماعة: عثمان بك البرديسي.

والى جانب ذلك، تناول تقرير سبستياني: بحث أحوال جيش الاحتلال الإنجليزى، ثم الجيش العثماني الموزع بين ثغور البلاد ومدنها الهامة، والذى كان قوامه الجند الألبانيون بقيادة طاهر باشا ومحمد علي، ثم جيش المماليك الذى يتزعمه كل من إبراهيم بك والألفى بك وعثمان بك البرديسى. وكان الأخير يعد من أشد البكوات ميلا إلى فرنسا. وقد ذكر سبستيانى أن جماعة من الفرنسيين الذين بقوا فى البلاد بعد انسحاب جيش الشرق، التحقوا بجيش المماليك وصاروا يؤلفون فرقة مدفعية صغيرة. وكان من قوله إنه يكفى لفتح البلاد قوة من الفرنسيين لا تزيد عن ستة آلاف فقط.

وكان لذيوع هذا التقرير ومعرفة ما جاء به في تركيا وانجلترا آثار خطيرة، من ذلك أن محتوياته كانت تدل على أن فرنسا ما تزال مهتمة بأمر مصر، بل ساد الاعتقاد بأن فرنسا لا تزال ذات أطماع صريحة في امتلاك البلاد مرة أخرى. وقد أثر هذا الاعتقاد على سياسة كل من تركيا وانجلترا نحو فرنسا تأثيراً مباشراً. ثم ساعد على ذيوع هذا الاعتقاد أن اهتمام القنصل الأول بمصر، ما لبث حتى اتخذ شكلاً عمليًا في أوائل عام ١٨٠٣، حين تم تعيين ماثيولسبس Mathieu Lessps مندوبا تجاريا للجمهورية الفرنسية في مصر، يعاونه مواطن آخر في هذه المهمة هو برناردينو دروفتي Bernardino Drovetti .

قنال السويس جملة كافية، وشرع في أعمال القناطر الخيرية.
* فيها بلغ قيمة التجارة الواردة إلى مصر ٨٢٤,٥٤٠ جنيه، والصادرة ٨٥٨,٠٦٣ جنيه.

* ١ توت ١٥٥٠ = ١٠ سبتمبر ١٨٣٣ = الثلاث ٢٤ ربيع الثاني ١٢٤٩.
* ١ يناير ١٨٣٤ = ٢٤ كيهك ١٥٥٠ = الأربع ١٩ شعبان سنة ١٢٤٩.
* في الحجة اعلنت القبائل المجاورة لبيت المقدس العصيان وجاهروا بطلب الاستقلال، فسافر إبراهيم باشا، فلما وصل لوادى الأردن أذعنوا لمرغوبه فطلب منهم تجنيد شبانهم ونزع الأسلحة من أيديهم فلم يرض بذلك، فتفاقم الخطب.
* في ربيع أول أجتازت المصريون جبال يهودا واحتلت جميع الطرق فوصلوا مدينة أورشليم ودخلوها في ٢٣ منه، ثم قام إبراهيم باشا لمقابلة والده محمد على باشا في يافا.
* فيها كانت قيمة الريال أبي مدفع ١٩ غرش، والدبلون ٣٠٤ غرش، والجنيه الافرنكي ٥٢ غرش، والمجر ٤٤ غرش، والبندقي ٤٥ غرش.

* ١ توت ١٥٥١ = ١٠ سبتمبر ١٨٣٤ = الأربع ٦ جماد أول ١٢٥٠.
* وفي رمضان صار لم عساكر من حماه * فيها كانت كمية المطر في القطر المصرى سبعة عشر ميلليمتر ونصف.
* ١ يناير ١٨٣٥ = ٢٤ كيهك ١٥٥١ = الخميس ١ رمضان سنة ١٢٥٠.

وكانت مهمة ماثيولسبس أن يؤكد لأصحاب السلطة الشرعية في البلاد، إخلاص وصداقة الحكومة الفرنسية، وأن يسعى حتى ينال احترام وثقة الحكام الذين ينوبون عن السلطان العثماني في حكم هذه البلاد. وذلك بأن يتجنب التدخل في المنازعات القائمة بينهم وبين المماليك. ووجد ماثيولسبس عند وصوله إلى الإسكندرية في يونيه عام ١٨٠٣، أن الإنجليز قد غادروا البلاد منذ شهر مارس الماضي، وأن أصحاب السلطة الفعلية هم الجنود الألبان بزعامة محمد علي.

فقد كان الباشا العثماني محمد خسرو - كما وصفه معاصروه - رجلاً لا يدرى شيئًا من فنون الحرب والسياسة والإدارة، فحاول أن يستأثر بالسلطة عن طريق الوقيعة بزعماء الألبان، الذين تعذر عليه إخضاعهم لسلطته. ولكن الألبان سرعان ماثاروا عليه في القاهرة، بسبب تأخر رواتبهم، وأرغموه على الفرار من القاهرة إلى دمياط، ونادى الجند بطاهر باشا قائمقاما في أوائل مايو عام ١٨٠٣. وعندما عجز الأخير عن دفع مرتبات الجند، قتله هؤلاء في أواخر الشهر نفسه، وخلصت قيادة الألبان لمحمد علي. وفي ٩ يوليه وصل الباشا الجديد المعين من قبل الباب العالى إلى الإسكندرية، وهو على باشا الجزائرلي، وقام باحتلال الإسكندرية بقواته، وكانت تبلغ ١٥٠٠ رجل.

وفي هذه الظروف، وجد ماثيولسبس نفسه أمام أمرين، عليه أن يختار بين أحدهما: إما

* في هذه السنة كان النيل عاليا.* وفي الحجة ومحرم سنة ١٢٥١ حل بالقطر الطاعون، ولم يحل بمديرية أسنا، ومكث ثلاث سنوات، وحصل غلاء، وأكل الفول، وبلغت الكيلة من القمح تسعة غروش.

* فيها حصل حادث وشوطة.

* في ٢٣ يوليه أعظم درجة للحرارة في باريس بلغت ٣٤ مئينية فوق الصفر.

* في ٣ ربيع أول انتصار الماريشال تربريل على الأمير عبدالقادر، وفي ١٢ منه تعين الماريشال كلوزيل حاكما على الجزائر. * وفي ٢٠ ربيع الثاني صدر دكريتو من المرحوم محمد على باشا بمنع خروج الانتيقات من مصر وبتأسيس انتيكخانه بمنزل الدفتردار.

* في هذه السنة ترتيب مراكب البوسطة الفرنساوية بين مرسيليا والقسطنطينية واسكندرية. * وفيها صار استعمال الآلة المسماة بالرفاص في المراكب البخارية.

* فيها بلغت قيمة التجارة الواردة لمصر ١,٠٢٤,١١٩ جنيه، والصادرة ١.٣٦٧.٠٢٣ جنيه.

* فيها كانت كمية المطر في القطر المصرى أحدا وعشرين ميلليمترا.

* ١ توت ١٥٥٢ = ١١ سبتمبر ١٨٣٥ = الجمعة ١٨ جماد أول ١٢٥١.

* ١ يناير ١٨٣٦ = ٢٣ كيهك ١٥٥٢ = الجمعة ١٢ رجب سنة ١٢٥١.

* في هذه السنة حصل بمصر شراقي وحادث.

البقاء بالإسكندرية حيث يوجد الباشا العثماني، فيكون ماثيولسبس بذلك قد نفذ التعليمات المعاطة له، وإما أن يذهب إلى القاهرة حيث يقيم أصحاب السلطة الفعلية في البلاد، وهم محمد علي والبكوات المماليك، الذين حرص محمد على محالفتهم والاتفاق معهم وقتذاك، وكانت محالفة مثمرة، لأن البرديسي لم يلبث أن ذهب إلى دمياط واقتاد محمد خسرو إلى القلعة، فظل معتقلا بها(١).

اختار ماثيولسبس الذهاب إلى القاهرة. وهناك لاحظ أن الوكلاء الإنجليز كانوا لا يقلون نشاطًا عن الفرنسيين في استمالة جماعة من المماليك لتأييد مصالحهم، وأمكنه من جهة أخرى أن يطمئن إلى إنحياز جماعة أخرى من المماليك نهائيًا إلى جانب فرنسا بزعامة البرديسي وإبراهيم بك، ثم شاهد اجتماع كلمة المماليك عمومًا ومحمد علي على الخلاص من الباشا الجديد (علي باشا الجزائرلي) حينما علموا بعزمه على الحضور إلى القاهرة، وانتهى الأمر بأسره وقتله في يناير عام ١٨٠٤.

وكان ماثيولسبس موفقًا في مساعيه، عندما أخبره إبراهيم بك أن المماليك يطلبون رئاسة

---

(١) وظهر أثر هذه المحالفة كذلك، حين انتهز الفرصة أحمد باشا والي المدينة وينبع، وكان في طريقه إلى الحجاز، فنصب نفسه واليا على مصر. ولكن الألبان وحلفاءهم المماليك اتفقت كلمتهم على طرده؛ فتم لهم ذلك.

* وفيها بلغت التجارة الوردة لمصـــر ١,٣٠١,٣٨٤ جنيـــه، والصـــادرة منهـــا ١,٧٦٢,٠٧١ جنيه.
* في ا يوليـه أعظم درجـة للحرارة في باريس كانت ٣٤,٣ مئية فوق الصفر.

* ١ تـــوت ١٥٥٣ = ١٠ سبتمبر ١٨٣٦ = السبت ٢٨ جماد أول سنة ١٢٥٢.
* في ٣ اكـتـوبر مـؤامـرة ستراسبورج الصادرة من البرنس لويز نابليون.

* في ٨ نوفمبر وفاة كرلوس العاشر الذى كان ملك فرانسا.
* ١ ينـايـر سـنـة ١٨٣٧ = ٢٤ كيهك ١٥٥٣ = الأحد ٢٣ رمضان سنة ١٢٥٢.
* فيها تكلمت الانكليز مع المرحـوم مـحـمـد على الكبير بخصوص مد سكة حديدية من القاهرة إلى السويس فأجاب بذلك.
* في ٣ مـارس تقلد وان بارت رياسة جمهورية الأقاليم المتحدة من أمريكا.

* فيها كان عدد السياحين الواردين إلى مصر ١٠١٧٦ نفس.
* في ابريل صار افتتاح سكة الحديد من لبسك إلى درزده. * وفيها حصلت شوطة بمصر.
* وفي ١ يونيو معاهدة تافنا بين فرانسا والأمير عبدالقادر. * وفي ٢١ يونيو وفاة جيليوم الثالث ملك انكلتـره، وسلطنة الملكة فيكتوريا، * في ٣ يوليو حصلت ثورة في بلاد البورتوغال. * في هذه السنة تعين أحمدباشا أبودان حكمدارا على السودان، بدلا عن خورشيد باشا. * في ١٢ رجب

«السلطان العظيم بونابرت» ويضعون أنفسهم تحت حمايته، وأنهم على استعداد لقبول ما يعرضه بونابرت عليهم: «فإذا شاء أن يعطيهم الشام، تركوا له مصر وفتحو الشام، وإذا شاء أن يبقوا في القاهرة كما كانوا سابقًا في نظير أن يدفعوا الميرى، كانوا طوع أرادته، وإذا شاء أن يعودوا إلى الصعيد، أجابوه إلى ذلك، وإذا شاء أن يساعدهم سرًا دون أن تفسد علاقته بالباب العالى، قبلوا مساعدته وإرشاداته، وإذا شاء أن يستقلوا استقلالا ظاهرًا واضحًا، حاربوا من أجله، وإلى جانبه، وهم واثقون من النصر. فهم يطيعون كل ما يمليه عليهم من شروط دائمًا.

غير أن ماثيولسبس لم يلبث أن وجد عرضا آخر، ومن جانب آخر غير بكوات المماليك. ذلك أن محمدًا عليا سرعان ما أدرك هو كذلك، فائدة الاستعانة بالنفوذ الفرنسي لتحقيق غرضين واضحين، أولهما التخلص من أعدائه وعلى وجه الخصوص جماعة المماليك المنحازين إلى جانب إنجلترا بزعامة الألفي بك، وثانيهما تصحيح مركزه حيال الباب العالى بعد أن اشترك في الحوادث الأخيرة، التي أفضت إلى اعتقال محمد خسرو في القلعة ثم إلى قتل على باشا الجزائرلي.

ومع ذلك، فإن فرنسا لم تستطع الافادة من هذه الظروف المواتية لتأييد نفوذها في مصر. ومرد ذلك إلى أسباب عدة، كانت مرتبطة بأغراض فرنسا السياسية المباشرة من جهة، وبموقف ماثيولسبس نفسه من محمد على، وبما كانت تبذله انجلترا من مساع للتأثير بصورة

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

استيلاء الفرنساوية على مدينة قسطنطينية بالجزائر.

* ١ تـوت ١٥٥٤ = ١٠ سبتمبر ١٨٣٧ = الأحد ٩ جماد الثاني سنة ١٢٥٣.

* في هذه السنة صار وضع أول تلغراف في فرانسا. وتشكلت قومبانية السفن التجارية المسماة الايداوتريشين. وصار افتتاح سكة حديد البلجيكة.* ثم حصلت زلزلة في يافا هلك بسببها ١٣,٠٠٠ نفس. * فيها اخترع وانستون، الانكليزى، النظارة ذات العينين التى تستعمل لرؤية الصور الفوتوغرافيا، وهى المسماة ستيريوسكوب. * ودرجة البرودة في باريس كانت ١٩ درجة تحت الصفر.

* ١ ينـاير ١٨٣٨ = ٢٤ كيهك ١٥٥٤ = الاثنين ٤ شوال سنة ١٢٥٣.

* فيها بلغت قيمة التجارة الواردة لمصر ٣,٨٠٠,٠٠٠ جنيه، وعدد السياحين ١٤,٤٣٨ نفس. * وفى ٧ مايو انعقدت معاهدة بين الباب العالى والولايات المتحدة من أمريكا.

* وبتوسط الروسيا، فى هذه السنة ١٨٣٨ صار وضع نظام القورنتينات بأراضى الدولة العلية. * وفى ٢٨ يونيو صار تتويج الملكة فكتوريا. * وفى ١٣ يوليه أعظم درجة للحرارة فى باريس كانت ٣٤,٣ مئينية فوق الصفر. * وفى ١ سبتمبر تتويج امبراطور أوستوريا فى ميلانو. * وفى ٢٨ رجب قيام محمد على باشا من المحروسة بقصد الأقطار السودانية. * وفى ١ شعبان محاصرة شاه العجم لمدينة هراه. * وفى ٤ [من شعبان] وصول محمد على باشا

واضحة على مجرى الحوادث في مصر بفضل السياسة التي اتبعتها في هذا الحين، وكانت سياسة إيجابية عملية وتختلف اختلافا كبيراً عن سياسة فرنسا التي كانت سلبية في جوهرها.

فقد كان كل ما اهتم به بونابرت من الشئون المصرية في السنوات القليلة التالية لجلاء الفرنسيين مباشرة، لايعدو حمل إنجلترا على التعجيل بسحب جنودها من البلاد، ومحاولة إنشاء الصلات الودية مع المماليك لخدمة مصالح فرنسا التجارية، ثم مراقبة الإنجليز بعين السهر واليقظة بعد صلح أميان، حتى لا يفعلوا كما فعل الفرنسيون أنفسهم من قبل، وينزلوا حملة إنجليزية بالبلاد، تهديد مصالح فرنسا في البحر المتوسط الشرقي. وكان لا معدى عن هذه اليقظة خصوصاً عندما بات منتظراً استئناف الحرب قريباً بين انجلترا وفرنسا.

وعندما قامت الحرب فعلاً منذ مايو عام ١٨٠٣ بين إنجلترا وفرنسا، انحصرت خطة القنصل الأول في أن يظهر للعثمانيين الأخطار التي تتعرض لها سلطة الباب العالي في مصر، من جراء العلاقات القائمة بين الإنجليز وبين طائفة المماليك التي بزعامة الألفي. ولكن بونابرت لم يعرض حلولاً إيجابية أو عملية على العثمانيين لازالة هذه الأخطار.

وزيادة على ذلك، فقد كان موقف الحكومة الفرنسية سلبيًا أيضًا حيال عروض طائفة المماليك الذين كانوا موالين لفرنسا. فقد اكتفى بأن صار يبذل لهؤلاء الوعود بمساعدتهم في مصر، والسعي في الآستانة لإزالة العداء المستحكم بينهم وبين الباب العالي. وكانت الحكومة

إلى أسوان، وفى ١٣ منه وصوله إلى حلفه، وفى ٢٧ شعبان وصل دنجله (دنقله)، وفى ٦ رمضان وصوله إلى الخرطوم، وفى ٢ شوال وصل محمد على باشا إلى سنار، وفى ١٨ القعدة ابتدأ محمد على باشا فى السفر عائداً إلى المحروسة فوصل الخرطوم فى ٢٧ منه، وفى ٧ الحجة وصل محمدعلى باشا إلى أبى حمد، وفى ٢١ منه إلى كروسكو، وفى ٢٩ منه إلى المحروسة.

* ١ تـوت ١٥٥٥ = ١٠ سبتمبر ١٨٣٨ = الاثنين ٢٠ جماد الثانى ١٢٥٤.

* ١ ينـاير ١٨٣٩ = ٢٤ كيهك ١٥٥٥ = الثلاث ١٥ شوال سنة ١٢٥٤.

* ١ تـوت ١٥٥٦ = ١١ سبتمبر ١٨٣٩ = الأربع ٢ رجب سنة ١٢٥٥.

* ١ ينـاير ١٨٤٠ = ٢٣ كيهك ١٥٥٦ = الأربع ٢٥ شوال سنة ١٢٥٥.

* فيها كانت قوة مصر البرية ٢٣٥,٩٨٠ والبحرية ٤٠,٦٣٦ ويكون القوة ٢٧٦,٦١٦ نفر، * وفى هذه السنة الافرنكية اخترع المعلم داجير، الباريزى، فن رسم الصور بتأثير ضوءالشمس على صفايح من نحاس مطلية بمركبات كيماوية، وهذا الاختراع هو المسمى بالداجريوتيبى، وهو أساس فكرة اختراع الفتوغرافية الموجودة الآن. * وفى ١١ ربيع ثانى كان انتصار إبراهيم باشا فى واقعة نزب (نصيبين). * وفى ١٩ [من ربيع ثاني] جلوس السلطان عبدالمجيد خان، وعمره وقتئذ ١٧ سنة، وهو

الفرنسية فى كل ذلك، تحرص قبل أى شىء آخر على منع تركيا من الانضمام إلى انجلترا فى الحرب القائمة، ولا تريد لهذا السبب التورط مع المماليك فى أى عمل يبدو منه ولو قليلاً المعارضة لمصالح الباب العالى.

تلك كانت سياسة فرنسا نحو مصر خصوصًا فى عامى ١٨٠٣ و١٨٠٤، والتى كانت السبب الأكبر فى فشل ماثيولسبس فى مهمته. إذ لم يستطيع الوكيل الفرنسى أن يحصل على نتائج فعلية من مساعيه فى مصر، لأن التعليمات التى أعطتها له حكومته منعته من التورط مع المماليك المنحازين إلى جانب فرنسا بأية ارتباطات عملية، ولأنه عجز كذلك عن إدراك أن السلطة فى مصر لا مفر من نصيب محمد على عاجلاً أو آجلاً، فلم يقبل ماثيولسبس على تأييده حتى غادر البلاد فى خريف عام ١٨٠٤، وفى رسالة إلى تاليران وزير الخارجية الفرنسية فى ٢٣ فبراير عام ١٨٠٤، أعرب ماثيولسبس عن رأيه فى محمد على فقال: «إن محمداً عليا زعيم الألبان يريد حماية فرنسا وتوسطها لدى السلطان العثمانى. وفى وسعى أن أؤكد لك سلفًا أنه لا لبس ولا إبهام فى مقاصده، وأنه يريد الاستيلاء على السلطة العليا، ولكنى لا أعتقد بتاتا أن هذا الزعيم (الألبانى)، ولو أنه يقل قسوة وتوحشا عن نظرائه ويبدو مواليا لنا، يتمتع بعبقرية أو نبوغ يمكنه من ابتكار خطة واسعة وبرنامج شامل والوسائل اللازمة لتنفيذه».

والواقع أن الوكلاء الفرنسيين ظلوا بعد رحيل ماثيولسبس نفسه إلى فرنسا لا يغيرون

ابن السلطان محمود خان، الذى حكم سلطانا مدة ٣٢ سنة و ١٠ أشهر، وتوفى وعمره: ٥٥ سنة. * وفى ٢ جماد أول سلم قبودان باشا الدونما العثمانية إلى محمد على باشا. * وفيها التجارة الواردة ٣,٣٠,٠٠٠ جنيه. * وفيها كانت كمية المطر بالقطر المصرى ثلاثة ميلليمتر فقط. * وتعداد الأجانب بالقطر المصرى ١٦,١٥٠ نفس. * فى ٨ رمضان قامت من الخرطوم أول رسالة أرسلها محمد على باشا لاستكشاف النيل الأبيض. * وفى ٣ ديسمبر وفاة فريدريك السادس ملك الدانيمارقة. * وفى ٢٥ فبراير أعظم درجة للبرودة فى باريس بلغت ١٣,٢ مئينية تحت الصفر. * وفى ٧ فبراير عقد زواج الملكة فيكتوريا على البرنس البرت، بمرتب قدر ٣٠,٠٠٠ جنيه لمدة حياته تدفع ثلاثة أقساط كل سنة.

* ١ توت ١٥٥٧ = ١٠ سبتمبر ١٨٤٠ = الخميس ١٣ رجب سنة ١٢٥٦.

* ١ يناير ١٨٤١ = ٢٤ كيهك ١٥٥٧ = الجمعة ٨ ذو القعدة سنة ١٢٥٦.

* وفى ٢٥ محرم عودة الارسالية التى توجهت لكشف النيل الأبيض. * وفى ١٥ جماد أول سنة ١٢٥٦ أمضيت معاهدة بلوندرة بين انكلترة والروسيا والبروسيا والنمسا من جهة والتركية من جهة أخرى مقتضاها التحالف على إرجاع محمد على باشا لحدود مصر ولو استدعى ذلك إلى القوة الفعالة. * وفى ١٥ جماد الثانى بلغت القناصل، باسم دولهم، ما حوته هذه

مسلكهم نحو محمد على، واستمر الحال على ذلك حتى نودى بمحمد على واليا على مصر فى مايو عام ١٨٠٥. وعندئذ بدأوا يبدلون من سياستهم نحوه ـ وكان من أسباب تبدل مسلكهم ما لاحظوه من نتائج تلك السياسة العملية التى اتبعها منافسوهم الوكلاء الإنجليز فى مصر.

السياسة الإنجليزية:

وكانت السياسة الإنجليزية على عكس الفرنسية سياسة إيجابية، وضحت آثارها فى هذه الفترة وضوحًا بينا. وترتد هذه السياسة الإيجابية فى أصولها القريبة إلى معاهدة التحالف التى عقدتها انجلترا مع تركيا فى ٥ يناير عام ١٧٩٩. وكان سبب إبرامها رغبة الإنجليز فى إخراج الفرنسيين فى مصر، ثم تعطيل مشروعات بونابرت فى «الشرق» عمومًا. فقد ضمنت انجلترا لتركيا فى هذه المعاهدة احتفاظها بجميع ممتلكاتها كما كانت قبل الغزو الفرنسى أى إرجاع مصر بعد طرد الفرنسيين منها إلى حظيرة الامبراطورية العثمانية. وقد أكد الإنجليز هذه الرغبة بعد ذلك. وعندما نصت معاهدة الصلح فى أميان فى ٢٥ مارس عام ١٨٠٢ بين انجلترا وفرنسا على مبدأ المحافظة على كيان الإمبراطورية العثمانية وضرورة جلاء الحملة الإنجليزية عن هذه البلاد، بات انسحاب القوات الانجليزية فى مصر أمرًا لامناص منه.

ومع ذلك، فإن أحدًا لم ينظر إلى صلح أميان إلا كهدنة مسلحة فحسب. ووجدت إنجلترا

المعاهدة إلى محمد علي باشا وعرضوا عليه ولاية مصر له ولورثته وولاية عكا لمدة حياته، وامهلوه عشرة أيام، وفي نهايتهم أجاب بالنفي والمدافعة حتى الممات، فأخبرته القناصل بأن لا حق له إذن من الآن فصاعدًا في ولاية عكا.

* وفي ٥ رجب، أي قبل نهاية الميعاد الثاني، اجتمع مجلس عند شيخ الإسلام بالآستانة وأفتى بسقوط حكم محمد علي باشا من الشام، وقرئت هذه الفتوى في جميع مساجد اسلامبول. * وفي ٧ رجب صرح محمد علي على لسان سكرتيره وناظر خارجيته، لانحراف مزاجه، أن أمر الولاية على مصر هو أمر مقرر من الميعاد الأول، وأنه أرسل بجوابه إلى الدولة العلية عما يختص بالشام. التي هي أمر ثانوي، وأنه يتأسف على عدم حسن معاملة الدول، ويطلب منهم الانصاف، وفي محرره للدولة طلب ولايته على الشام مدة حياته. * وفي صباح ١٢ رجب وصل الأميرال استيفورد ومعه ٨ مراكب وتقابل مع نابيير ولحقتهم التجريدة العثمانية آتية من قبرص، وهي ٥,٣٧٣ عسكري على ٢٨ مركبا تحت قيادة الأميرال والكر. * وفي ١٥ رجب أطلق نابيير قنابله على بيروت، وبعدكم طلقة طلب من سليمان باشا الفرنساوي التسليم، فأجابه: لا تدخلوها إلا خرابا بلقعا. * وفي ١٦ منه، لحسن استحكام المصريين، وانجبروا على طلق الصواريخ الحربية، والارشيدوق فريدريك أطلق مدافعه على الاسبتالية التي كان فوقها راية سوداء.

* وفي ٢٢ نوفمبر ١٨٤٠

لذلك أنه من الواجب عليها قبل أن تجلو عن مصر نهائيًا أن تتحقق من أمرين: أولهما أن فرنسا لن تستطيع إنزال قوات جديدة في مصر، وثانيهما أن يصبح في استطاعة تركيا الدفاع بصورة جديه عن مصر، وأن تستطيع البلاد ذاتها منع الفرنسيين من غزوها.

وقد ظلت الرغبة في تحقيق هذين الأمرين، توجه السياسة الإنجليزية طوال المدة التي سيطر في أثنائها الخوف من مشروعات بونابرت «الشرقية»، على تفكير رجال السياسة والحرب في انجلترا، وبخاصة عندما كان جلاء الإنجليز من البلاد معناه أن أمر الدفاع عنها سوف يعهد به إلى العثمانيين، الذين برهنت الحوادث السابقة على عجزهم منفردين ودون معاونة عن طرد الفرنسيين في مصر، وقد ساور العسكريين الإنجليز القلق بسبب ذلك، وكان في مقدمة هولاء هتشنسون، لما شاهده ـ على حد قوله ـ من اختلال النظام في الجيش العثماني، الذي كان عبارة عن مجرد جماعات ليست لها أي قيمة حربية، ويكرههم الأهلون ويحتقرونهم.

وكان من رأي هتشنسون من وقت مبكر أن البكوات المماليك وحدهم ـ لما كان لديهم من قوات عسكرية مدربة ـ هم الذين في وسعهم الدفاع عن البلاد ضد أي غزو يأتي من جانب فرنسا في المستقبل. ولذلك فقد تقدم هتشنسون في أثناء النضال لطرد الفرنسيين من مصر في مايو عام ١٨٠١ على ما يرجح، بمشروع كان ينص على ما يلي:

أولاً: أن يكون للأتراك وحدهم امتلاك الإسكندرية ورشيد ودمياط، وأن يحتفظوا بحامية في قلعة القاهرة.

١٠٣: يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

ولدت الملكة فيكتوريا برنسيسة في الساعة واحدة ونصف أفرنكى ليلا، وهى والدة امبراطور ألمانيا الحالى. * وفى ٢ شوال أمضيت المعاهدة بين اكومودر نابيير وبوغوص بك، القاضية باخلاء الشام واسترجاع الدونتما العثمانية بشروط التصديق على الولاية الوراثية لمصر. * وفى ١٣ الحجة سنة ١٢٥٦ قامت الدونتما العثمانية من الاسكندرية. * وفى ٢١ [من الحجة] صدر فرمان شاهانى لمحمد على باشا بالتطبيق للخط الهمايونى الشريف المحرر فى كلخانه.

* فى ٨ يوليو ١٨٤١ قيام الفرقاطون الفرنساوى المسمى نيل بول إلى جزيرة سنت هيلينه بقصد جلب تراب نابليون الأول، وفى ١ ديسمبر رجعت الفرقاطة المذكورة إلى ليمان شيربورج، وفى ١٥ منه صار تشييع جنازة الامبراطور نابليون فى باريس.

* فى هذه السنة الافرنكية صار إطفاء ثورة السودان وتقسيمه إلى سبع مديريات. * وفى ٩ مارس استرحم محمد على باشا تحرير شروط الوراثة وجعلها لأكبر عائلته من بعده وتحديد مبلغ الويركو وجعله مبلغا ثابتا سنويا، كذا أعطاه الرخصة فى ترقية ضابطان جيشه لغاية رتبة الأميرالاى.

* وفيها قيمة التجارة الواردة لمصر ١,٧٠٦.١٢٠ جنيه والصادرة منها ١,٥٤٠,٨٠٠ جنيه.

* وفى ١ يوليو تكرمت الحضرة السلطانية وأجابت استرحام محمد على باشا وأصدرت له فرمانها العالى بذلك،

ثانيًا: أن يعين الباب العالى كما كان يحدث فى الماضى باشا (أى واليا) يفصل فى المنازعات التى تقوم بين البكوات، ويعين رئيسهم (أو زعيمهم) عند خلو هذا المنصب، وأن يكون له (أى لهذا الباشا) حكومة البلاد العامة.

ثالثًا: أن تزاد قيمة الميرى أو الخراج الذى يدفعه البكوات، وأن يدفع هذا الميرى دون أى استنزال منه، فيتسلمه محصل عام يعينه الباب العالى.

رابعًا: أن يسترد البكوات جميع أملاكهم، وأن يعود لهم الحق كاملاً فى تصريف شئون هذه الأملاك كما كان الحال سابقًا، وأن يحتفظوا بعدد معين من الرجال يتناسب مع اتساع أملاك كل «بك» منهم.

وظاهر من هذا المشروع أن القاعدة الأساسية التى ارتكز عليها كانت استرجاع البكوات المماليك لجميع امتيازاتهم وحقوقهم التى تمتعوا بها قبل مجىء الحملة الفرنسية، ثم وضع حكومة البلاد الفعلية فى أيديهم، مع بقائهم تحت سيادة تركيا الإسمية، التى يمثلها رسميًا وجود الباشا العثمانى فى مصر، ودفع الخراج للباب العالى، وذلك فى نظير أن يقوم البكوات المماليك بالدفاع عن البلاد بعد جلاء القوات الإنجليزية عنها.

على أنه حتى يمكن تنفيذ هذا المشروع، لم يكن هناك مفر من التوصل مبدئيًا إلى اتفاق بين الباب العالى وبين البكوات المماليك بالطرق السلمية، كما أنه كان ضروريا أن يقتنع

وعليه انتهى كل أمر وزالت كل صعوبة. * وفى ٥ يوليو صار حل الجيش المصرى ولم يبقى منه إلا القدر المحدد فى الفرمان. * وفى ٢١ أغسطس صار استقبال قنصل جنرال انكلتره فى مصر رسميا. * وفى ٢٣ رفعت بقية القناصل أعلامها. * وفى ١٢ أكتوبر وصل سراى شبرا ياور سلطانى لتقديم سيف وأفخر نياشين الدولة هدية من السدة الملوكية إلى محمد على باشا فاحتفل به فى يوم ١٣ منه بالقلعة العامرة.

* وفى يوم ٢٧ نوفمبر قيام ثانى رسالة لكشف النيل الأبيض.

* فيها تعين أحمدباشا المنيكلى. حكمدار عموم السودان.

* ١ توت ١٥٥٨ = ١٠ سبتمبر ١٨٤١ = الجمعة ٢٣ جماد ثانى سنة ١٢٥٧.

* ١ يناير ١٨٤٢ = ٣٤ كيهك ١٥٥٨ = السبت ١٨ القعدة سنة ١٢٥٧.

* فى ٣ يوليو ١٨٤٢ وفاق لوندرة بين أعضاء الاتحاد الرباعى القاضية بقفل الدردانيل وبوغاز البوسفور للمراكب الحربية من أى دولة كانت.

* وفى ١٠ ديسمبر معاهدة لوندرة بين انكلترا وفرانسا وأستوريا والبروسيا والروسيا التى تقرر الخطوات المقتضى اتباعها لمنع بيع الرقيق.

* فى هذه السنة صار رفع القناطر من على فم ومصب المحمودية ووضع هويسات بدلها.

* فيها بلغت قيمة التجارة الواردة لمصر ٢,٤٧٠,٩٢٠ جنيه والصادرة منها ١,٨٦٠,٨٨٠ جنيه.

السياسيون الإنجليز إلى جانب العسكريين، بأن البكوات المماليك هم الذين فى قدرتهم حقيقة أن يدافعوا عن البلاد. وفى شهرى يناير وفبراير من عام ١٨٠٢، وأفقت الحكومة الإنجليزية نهائيًا على أن بكوات المماليك هم الذين فى وسعهم الدفاع من مصر. كما وافقت على ضرورة السعى لدى الباب العالى فى سبيل التوصل إلى اتفاق ودى بينه وبين بكوات المماليك، أى أولئك البكوات الموالين لانجلترا، والذين بدأت المحاولات من أجل استمالتهم إلى جانب انجلترا من أيام النضال لإخراج الفرنسيين من مصر، وكانت هذه المحاولات على يد هتشنسون نفسه.

ونشطت السياسة الإنجليزية بالفعل فى كل من الآستانة والقاهرة، من أجل التوصل إلى اتفاق سلمى بين الباب العالى وبكوات المماليك الموالين لانجلترا، حتى يقوم الأخيرون بالدفاع عن مصر. وأوفدت الحكومة الإنجليزية لهذا الغرض سير جون ستيوارت John Stewart إلى الآستانة، فبلغها فى بداية أغسطس عام ١٨٠٢. ولكنه أخفق فى مهمته أمام رغبة الأتراك الجلية فى القضاء على بكوات المماليك قضاء مبرمًا، وكذلك فقد ألح الأتراك على أن يخلى الإنجليز البلاد وبكل سرعة عملاً بنصوص معاهدة أميان، وكان يدفع الأتراك إلى ذلك أيضًا خوفهم من إغضاب القنصل الأول.

وعندما وصل ستيوارت إلى مصر لم يستطع إصلاح ذات البين بين العثمانيين الموجودين

١٠٣: يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

* فيها كان عدد السياحين الورادين لمصر ١٨,٧٠٠ نفس.
* في ١٨ اغسطس أعظم درجة للحرارة في باريس بلغت ٣٧,٢ متينية فوق الصفر.
* في هذ هالسنة معاهدة بين انكلترة وأمريكا تقضى بلغو بيع الرقيق.

*١ توت ١٥٥٩ = ١٠ سبتمبر ١٨٤٢ = السبت ٤ شعبان سنة ١٢٥٨.
* ١ يناير ١٨٤٣ = ٢٤ كيهك ١٥٥٩ = الأحد ٢٩ القعدة سنة ١٢٥٨.
* في ٢٦ مارس انعقدت معاهدة تجارية بين الباب العالى وحكومة البورتغال.
* فيها كان عدد السياحين الواردين لمصر ١٣,٠٩٧.
* في هذه السنة حصل بالقطر موت المواشي، واستمر نحو شهرين، ولم يبق من جنس البقر إلا جزءمن خمسة عشر.
* وفي ٤ سبتمبر زارت الملكة فيكتوريا ملك الفرنساوية لويز فيليب في سراى هو من أعمال السين السفلى.
* ١ توت سنة ١٥٦٠ = ١١ سبتمبر ١٨٤٣ = الاثنين ١٦ شعبان سنة ١٢٥٩.
* ١ يناير ١٨٤٤ = ٢٣ كيهك ١٥٦٠ = الاثنين ١٠ الحجة ١٢٥٩.
* فيها وضع أول سلك تلغرافي بين واشنجتون وبالتيمور.
* فيها أنجز المهندس اريكسون السويدى، رقاص الوابورات المسماة هيليس.
*فيها كان فتح شارع الباب الأخضر المار من شرقى الاسبتالية باسكندرية إلى المحمودية.

بها وبين بكوات المماليك. وكان كل ما ظفر به أنه قابل محمد الألفي بك متزعم حزب المماليك الموالين لانجلترا. وطلب منه الألفي بك باسم عثمان بك البرديسي وابراهيم بك كذلك، أن تتوسط انجلترا في الصلح بينهم وبين السلطات العثمانية.

وفي الفترة التالية، استأنف ستيورات مساعيه لدى الآستانة، ولكنه لم يكن موفقاً. ذلك أن الباب العالى رضى فقط بأن يعطى بكوات المماليك حق الإقامة في أسوان فحسب، ورفض البكوات من جانبهم هذا العرض. ولما كان ستيوارت قد قابل في الإسكندرية سبستياني، الذى أظهر له دهشته من بقاء الإنجليز وعدم جلائهم من مصر، فقد قرر ستيوارت الانسحاب بجنده من البلاد في مارس عام ١٨٠٣. وكان محمد بك الألفي من الذين خرجوا أيضاً مع الإنجليز في رعاية أسطولهم إلى انجلترا.

سفارة الألفي في لندن:

فمع أن بكوات المماليك كانوا قد وثقوا كل الثقة في العثمانيين، منذ أن دبر هؤلاء لهم مكائد أكتوبر عام ١٨٠١، فإن الرغبة في استعادة سلطتهم السابقة، وعجزهم عن النضال ضد الدولة العثمانية التى عاونها الإنجليز على استرجاع سيادتها على البلاد ـ كل ذلك جعلهم يحاولون الإفادة من الاختلاف الظاهر في المصالح بين انجلترا وفرنسا، وهما الدولتان المهتمتان بمصر. وهذا حتى يتمكنوا من تحقيق أغراضهم إذا أمكن بالوسائل السلمية، أى بطريق التفاهم

١٠٣: يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

* في ٢٠ يونيو استولت الفرنساوية على الجزائر.
* فيها كان عدد السياحين الواردين لمصر ١٣,٠٩٧.

* ١ تـوت ١٥٦١ = ١٠ سبتمبر ١٨٤٤ = الثلاث ٢٦ شعبان سنة ١٢٦٠.
* وفي ١٠ سبتمبر معاهدة طنجة بين فرانسا ومراكش، القاضية بعدم مساعدة مراكش للأمير عبدالقادر. وفي ١٢ سبتمبر زيارة لويز فيليب ملك فرانسا للملكة فيكتوريا.
* ١ ينـاير ١٨٤٥ = ٢٤ كيهك ١٥٦١ = الأربع ٢١ الحجة ١٢٦٠.
* في هذه السنة تعين خالد باشا حكمدارًا للسودان. * فيها تم إنشاء محيط الجامع العالى بالقلعة.
* في ٢٥ فبراير أعظم درجة للبرودة في باريس كانت ١١,٨ مئينية تحت الصفر.
* فيها صار إنشاء ديوان المرور في محل سوق الخضار القديم، وذلك لإدارة حركة سفرية السياحين الواردين من السويس إلى مصر بالعربيات الخيالى. * فيها كان عدد السياحين الواردين لمصر ١٤,٠١٥.
* في ٢٤ جماد الثاني وصل الدوك رومونيا نسيبه بن الملك لويز فيليب، ملك فرانسا وقتئذ، إلى اسكندرية.

* ١ تـوت ١٥٦٢ = ١٠ سبتمبر ١٨٤٥ = الأربع ٨ رمضان سنة ١٢٦١.
* في ٨ يوليو وصل الدوك إلى مصر ونزل ضيفًا بسراى

مع الباب العالى. فكان أن صار جانب منهم بزعامة الألفي يصغى إلى مساعى هتشنسون، في حين استمع جانب آخر بزعامة البرديسي إلى مساعى سبستياني، ولم يقرب بين هاتين الجماعتين سوى مصلحة واحدة، هي متابعة القتال ضد العثمانيين في مصر.

ولكن بكوات المماليك فشلوا في أن يجمعوا كلمتهم طويلا. فظلت «الجماعة الفرنسية» تعتمد على فرنسا في تحقيق أطماعها، في حين ظلت «الجماعة الإنجليزية» تثق بالوعود التى يبذلها الإنجليز للوساطة بينهم وبين الباب العالى. وعندما قرر ستيوارت الجلاء، أرسلت «الجماعة الإنجليزية» إليه خطابًا في فبراير عام ١٨٠٣ يطلبون فيه أن يسمح لأحد زملائهم وهو محمد بك الألفي بالسفر معه إلى انجلترا، حتى يبسط قضيتهم أمام الحكومة الإنجليزية، على أمل أن يتوسط ملك الإنجليز في أمر عودة السلام بينهم وبين الباب العالى. وبالفعل غادر الألفي بك الإسكندرية في طريقه إلى انجلترا في ١١ مارس عام ١٨٠٣ مع الأسطول الإنجليزى.

غير أن استئناف الحرب مع فرنسا منذ مايو عام ١٨٠٣ وخوف انجلترا من إغضاب تركيا فتنضم هذه إلى فرنسا، أحاط بعثة الألفي بك في أول الأمر بعدة صعوبات. فاستبقى الألفي بجزيرة مالطة فترة، إلى أن وصلت الأخبار من مصر عن قيام الإضطرابات بها وطرد خسرو باشا من القاهرة وعصيان الجند الألبان وتوقع اشتراك بكوات المماليك في الحوادث المقبلة

شبرا. * وفي أوائل سبتمبر سافر إبراهيم باشا إلى حمامات ايطاليا ومنها إلى فرانسا. * في ٣ نوفمبر وصل إلى مصر نيشان الجران كردون، المرسل من ملك فرانسا، إلى محمد على باشا . * في نوفمبر وصل إبراهيم باشا إلى طولون.

*١ يناير ١٨٤٦ = كيهك ١٥٦٢ = الخميس ٣ محرم سنة ١٢٦٢.

* وعدد السياحين ١٨,٩١٣.

* في هذه السنة أخوان ابادى توجها لكشف منبع النيل. * وفي ٢٥ مايو فرار لويز نابليون من سجن حسام. * وفي ٢٠ اغسطس المعلم لوفريه اكتشف الكوكب نبتون.

* كذا صار استكشاف آلة الخياطة.

* وفيها كان مقدار الأجانب في مصر ٥٠,٠٠٠ نفس.

* وفي ٢٧ إبريل تناول إبراهيم باشا الطعام مع لويز فيليب، ملك فرانسا، وفي ٢٨ منه زار قبر الأمبراطور نابليون الأول. * وفي ٢ يونيو سافر إبراهيم باشا من باريس فوصل لوندرة في ٦ منه، وفي ٦ يوليو تناول إبراهيم باشا الطعام على مائدة ملكة انكلترة، وفي ١٤ منه بارح مدينة لوندرة بقصد الآستانة فوصلها في ١٨ يوليو فرحب به مولانا السلطان ولم يسمح له بتقبيل اعتابه وأجلسه بجانبه وتحدث معه نحو ساعة، ثم بارح الآستانة في ٢٤ رمضان.

* في ١٩ ديسمبر أعظم درجة للبرودة في باريس كانت ١٤,٧ منينية تحت الصفر.

اشتراكًا فعليًا. فكان من أثر ذلك أن عجل حاكم مالطة ألكسندر بول بترحيل الألفي إلى انجلترا:

ومع ذلك، فقد ظلت الحكومة الإنجليزية على حذر من إثارة مخاوف وشكوك الباب العالي،ولا تريد تعكير صفو علاقاتها مع تركيا، فظلت مترددة إلى منتصف ديسمبر عام ١٨٠٣ . وفي هذا التاريخ قررت أن تجيب الألفي إلى مطالبه، أى التوسط حتى يعود الصفاء بين بكوات المماليك وبين الباب العالي من جهة، ثم من جهة أخرى «تأييد مصالح البكوات المماليك» في مصر على أساس تمتعهم بمركز لا يقل في فائدته عن ذلك الذى كان لهم في الوقت الذى غزا فيه الفرنسيون البلاد»، وفي آخر ديسمبر عام ١٨٠٣ غادر الألفي انجلترا. ونزل في ١٤ فبراير من العام التالي في أدكو بين الإسكندرية ورشيد[١].

وأما أسباب نجاح مساعي الألفي في لندن، فكانت عدم اطمئنان الإنجليز على حالة الدفاع عن مصر وخوفها من أن يغزوها الفرنسيون مرة ثانية، وبخاصة عندما أخفقت مساعي الإنجليز

(١) تأثر الألفي بمشاهداته وتجاربه في هذه السفارة، فقال الجبرتي: إنه كان من أثر رحلته إلى بلاد الإنجليز وغيابه بها سنة وشهوراً، أن تهذبت أخلاقه، بما اطلع عليه من عمارة بلادهم وحسن سياسة أحكامهم وكثرة أموالهم ورفاهيتهم وصنائعهم وعدلهم في رعيتهم مع كفرهم، بحيث لا يوجد فيهم فقير ولا مستجد ولا ذو فاقة ولا محتاج، وقد أهدوا له هدايا وجواهر والات فلكية وأشكالاً هندسية واسطرلابات وكرات ونظارات... ومن أنواع الأسلحة الحربية أشياء كثيرة.

* ١ تـــوت ١٥٦٣ = ١٠ سبتمبر ١٨٤٦ = الخميس ١٩ رمضان سنة ١٢٦٢.
* ١ يـنـايـر ١٨٤٧ = ٢٤ كيـهك ١٥٦٣ = الجـمعة ١٣ محرم ١٢٦٣.
* فيها كان عدد السياحين الواردين لمصر ١٥,٦٥٣ نفس.
* في ١١ ابريل وضع على باشا أول حجر من أساس القناطر الخيرية.
* في هذه السنة توفت مارى لويز زوجة نابليون الأول.
* في ١٧ يوليه أعظم درجة للحرارة في باريس كانت ٣٥,١ مئينية فوق الصفر.

* ١ تـــوت ١٥٦٤ = ١١ سـبتمبر ١٨٤٧ = السبت ٣٠ رمضان سنة ١٢٦٣.
* في ١٥ سبتمبر استيلاء الأقاليم المتحدة من أمريكا على مكسيكو عاصمة بلاد المكسيك.
* في ٤ نوفـمـبـر غلبـة الفرنساوية التامة على الجزائر، وتسليم بى أموسى والأسير عبدالقادر.
* وفي هذه السنة كملت قبة الجامع العامر بالقلعة.
* ١ يـنـايـر ١٨٤٨ = ٢٣ كـيـهك ١٥٦٤ = السبت ٢٤ محرم ١٢٦٤.
* من ١٤ يوليه إلى أغسطس من هذه السنة حل بالقطر الريح الأصفر، فكانت الوفيات اليومية ٣٢٥ نفس، والمجموع ٦,٦٢٠.
* في أوائل فبراير سافر محمد على باشا قاصداً جزيرة مالطة لتغيير الهواء. * وفي ٢٣ فبراير تنازل لويز فيليب عن تخت فرانسا، وفي ٢٥ منه أعلنت

في التوفيق بين الباب العالي وبين بكوات المماليك، اقترن هذا الاخفاق باصرار الحكومة الفرنسية ـ في الفترة التي سبقت خروج الإنجليز من مصر ـ على نشر تقرير سبستياني، وذيوع الاعتقاد بسبب ذلك بأن فرنسا ما تزال طامعة في احتلال مصر. وعلاوة على ذلك؛ فإن الميجور مسيت Misett ـ وهو الوكيل الإنجليزي الذى ظل في مصر بعد جلاء الإنجليز عنهاـ كان لا يتوانى لحظة في إظهار مخاوفه من نتائج ما يبديه الوكلاء الفرنسيون من نشاط في البلاد، وانحياز جماعة البرديسى إلى فرنسا نهائياً، واستعداد جماعة أخرى من المماليك بزعامة إبراهيم بك للترحيب بالفرنسيين، إذا استطاع هؤلاء أن ينزلوا إلى الإسكندرية مرة ثانية، فيقبلون عندئذ حماية فرنسا، باعتبار أنه من المعتذر عليهم ـ دون الاستناد إلى قوة أو وساطة دولة أوروبية ـ الاحتفاظ بمصر لأنفسهم من ناحية والتوصل إلى اتفاق مع الباب العالي من ناحية أخرى.

وكان من أثر هذه المخاوف والاحتمالات جميعها، أن ظهر في الدوائر الإنجليزية منذ شهر أكتوبر عام ١٨٠٣ على الأقل، مشروع صريح يرمى إلى شد أزر بكوات المماليك والاعتماد عليهم في الدفاع عن البلاد بسبب عجز العثمانيين، ويرمى كذلك إلى احتلال الإسكندرية كخطوة لا غنى عنها لا مكان الدفاع عن البلاد، إذا حدث الفرنسيون أنفسهم بغزو مصر مرة ثانية. وكان من أصحاب هذا الرأى سير ألكسندر بول حاكم مالطة.

١٠٣: يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

الجمهورية. * فى نحو ٢٩ فبراير رجع محمد على باشا إلى اسكندرية.* وفى جماد أول ابتدأ إبراهيم باشا يتعاطى الأحكام بالنسبة لمرض والده. * وفى ٢٧ ابريل قررت فرانسا بلغو الرقيق من مستعمراتها.

* وفى هذه السنة صار استكشاف معادن الذهب فى كاليفورنيا. * وفى ١٤ يونيو تقرر بانتخاب لويز نابليون لرياسة الجمهورية الفرنساوية. * وفى منتصف يوليو حضر مظلوم بك من دار الخلافة وبيده فرمان بتولية إبراهيم باشا قرئ فى ١٨ منه. * وفى رمضان سافر إبراهيم باشا إلى القسطنطينية فوصلها فى ٢٤ منه فتمثل بين يدى الحضرة السلطانية ونال كل رعاية والتفات.

* وفى ٤ سبتمبر قيام إبراهيم باشا من القسطنطينية، وفى ١٠ منه وصل إلى اسكندرية.

* وفى ١٣ الحجة توفى إبراهيم باشا إلى رحمة الله، وعمره ستون سنة هلالية، وحكمه ٧ أشهر و ١٣ يوم، ٣ أشهر و ٢٥ يوم بمقتضى الفرمان.

* ١ توت ١٥٦٥ = ١٠ سبتمبر ١٨٤٨ = الأحد ١١ شوال سنة ١٢٦٤.

* فى ٢٥ نوفمبر ولاية عباس باشا حلمي الأول على مصر. * وفى ١٢ نوفمبر تقلد لويز نابليون رياسة الجمهورية.

* فيها تعين عبداللطيف باشا حكمدارا للسودان.

* ١ يناير ١٨٤٩ = ٢٤ كيهك ١٥٦٥ = الاثنين ٦ صفر سنة ١٢٦٥.

مشروع الكسندربول:

وكان من رأى بول أن من المتعذر أن تصبح مصر مستعمرة فرنسية من غير استيلاء الفرنسيين على ميناء الإسكندرية. ولذا فقد قدم إلى حكومته فى أكتوبر عام ١٨٠٣ مذكرة مطولة، بحث فيها ضرورة تحصين الإسكندرية وتقويتها حتى تستطيع دفع أى هجوم عليها ومقاومة كل حصار يضرب عليها لبضعة شهور، حيث أن «الموقف فى مصر حرج ودقيق بسبب الحرب الأخيرة بين المماليك والأتراك، ومن المنتظر وقوعها قريبًا فريسة فى قبضة أول غاز يغزوها، وذلك إذا امتنع الإنجليز عن تأسيس نفوذ لهم فى مصر وعن اعطاء حكومتها الاستقرار اللازم، الأمر الذى يجب أن يتم مع اتخاذ الحيطة والحذر لعدم إثارة الأتراك أو أية دولة أوروبية أخرى، والمماليك يشعرون تمامًا بأنهم فى حاجة إلى حليف يحميهم، حتى أن وجود حامية قوية بالإسكندرية من قبل دولة أوروبية سوف يكون مبعث سرور وارتياح لهم».

ولما كان بول لا يريد أن تتكلف حكومته جهدا وعناء كبيرا، فقد اقترح فى مشروعه هذا أن تحتل الإسكندرية حامية تتألف من جنود أجانب ـ أى من غير الإنجليز ـ تدفع الحكومة الإنجليزية نفقاتهم ومرتباتهم، ثم تتألف هيئة من الضباط يؤخذ أكثرهم من بين فرق (الجيش البريطاني) الأجنبية، لكى تتولى قيادتهم والإشراف عليهم.

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

* وفي ٢٠ مارس تنازل كارلوس البرت وتولية فيكتور ايمانويل على مملكة ايطاليا.
* وفي ٢١ ابريل صار إنشاء مدرسة المفروزة بالعباسية بامر عباس باشا الأول.
* وفيها صار تحجير ودقمشة طريق السويس بأمر المرحوم عباس باشا الأول، وذلك بالابتداء من باب الحسينية، تسهيلا للسياحين الواردين بالعربات الخيالي.
* وفيها كان عدد السياحين الواردين لمصر ١٧,٤٣٥ نفس.
* في ١٣ اغسطس توفي محمد علي باشا، وعمره ٨٣ سنة هلالية.

* ١ توت ١٥٦٦ = ١٠ سبتمبر ١٨٤٩ = الاثنين ٢٢ شوال ١٢٦٥.
* فيها كانت قيمة الجنية الافرنكي ١٠٣ غروش، والمصرى ١٠٦ والبنتو ٧٩,٢٥ غرش.
* وفي هذه السنة صار إنشاء مدرسة الخرطوم تحت نظارة رفاعة بك.
* وفيها صدر البيان الشيوعي.

* ١ يناير ١٨٥٠ = ٢٤ كيهك ١٥٦٦ = الثلاث ١٦ صفر ١٢٦٦.
* فيها أبتدأ رياض باشا ـ إذ ذاك رياض بك ـ مدير الجيزة برفع السخرة عن بلاد المديرية حتى تتمكن أهلها من إصلاح اطيانهم. * وفي هذه السنة تعين رستم بك حكمدارا للسودان، وهو الذى رتب مجلس الخرطوم واستحضر له أعضاء ورئيسا من مصر. * وفيها سافرت أول مركب بخارية من هافر إلى نيويورك (بأمريكا). * وصار وضع

وواضح أن الهدف الرئيسي من مشروع ألكسندر بول منع تعرض مصر للغزو الفرنسي وتهيئة وسائل الدفاع عنها، وأن بكوات المماليك كانوا هم القوة التى اعتمد عليها هذا المشروع في الدفاع عن مصر. كما أنه من الواضح كذلك أن الإشراف على شئون الدفاع سوف يكون من نصيب بريطانيا، وهي أيضًا التي سوف تتحمل نفقاته. وزيادة على ذلك، فقد استند المشروع بأكمله على اتخاذ الإسكندرية قاعدة للدفاع ضد الغزو المنتظر.

آثار مشروع بول فى القاهرة والآستانة:

وكان لهذا المشروع آثار معينة في كل من القاهرة والآستانة. أما في مصر، فقد بدأت مفاوضات جدية بين بكوات المماليك والإنجليز لبحث مسألة احتلال الإسكندرية، لم تلبث أن أخفقت، ولكنها نجحت في إثارة انتباه ماثيولسبس ـ ولم يكن قد غادر مصر ـ إلى ضرورة السعي من أجل استمالة زعماء الجند الألبان، كخطوة ضرورية للمحافظة على التوازن بين النفوذين الفرنسي والإنجليزى في مصر. فكان هذا السعي من جانبه هوا بداية تلك الصلة التي نشأت بين القواد الألبان ـ ولا سيما محمد علي ـ وبين الوكلاء الفرنسيين، خصوصًا في الفترة التالية.

وعلاوة على ذلك، فقد ساعد مشروع بول على اتساع شقة الانقسام بين جماعة المماليك «الفرنسية» بزعامة البرديسي وبين جماعتهم «الإنجليزية» بزعامة الألفي، و هو انقسام ساعد

التلغراف البحرى من كاليه إلى دوفير. * وفى ٢٠ ابريل حصل وفاق بين انكلترة والأقاليم المتحدة بقصد أعمال قنال يوصل المحيط الايطلانطيقى بالباسفيكى بواسطة نهر نيكاراجوا والبحيرة المسماة باسمه أو بواسطة بحيرة مانجوا أو بهما معًا. * وفى ٤ يوليو وفاق لوندرة، القاضى بجعل تاج مملكة الدانيمارقة تحت ضمان فرانسا وانكلترا والروسيا وأسوج.

* وفى ٥ أغسطس أعظم درجة للحرارة فى باريس كانت ٣٣,٦ مئينية فوق الصفر.

* وفى هذه السنة عمر عباس باشا مسجد السيدة سكينة وعمل على الضريح مقصورة من النحاس.

* فى ٢ نوفمبر استكشف المسيو ماريت مدافن العجول بسقارة، وهو أول استكشاف له بمصر.

* ١ توت ١٥٦٧ = ١٠ سبتمبر ١٨٥٠ = الثلاث ٣ القعدة ١٢٦٦.

* فيها كان عدد السياحين الواردين لمصر ١٧,٥٧٤ نفس.

* ١ يناير ١٨٥١ = ٢٤ كيهك ١٥٦٧ = الأربع ٢٧ صفر سنة ١٢٦٧.

* وفيها توفى رستم باشا حكمدار السودان، وتعين بدله سليم باشا، رغمًا عن ارادته.

* فيها تقرر بأن لويز نابليون بونابرطة يكون رئيسًا للجمهورية الفرنساوية لمدة عشر سنين، كذا قررت الحكومة الفرنساوية باستعمال الطريقة المترية.

* فيها جدد المرحوم عباس باشا الأول جامع العشماوى، بشارع العشماوى بالأزبكية.

محمدًا عليا دون ريب على المضى فى طريقه خطوة أخرى نحو الاستئثار بالسلطة. فقد ظهر الألفى بعد عودته من «سفارته» بمظهر الزعيم الذى يعتد بمساعدة الإنجليز له. وخشى البرديسى من ازدياد سطوته، فصار يمعن فى مطاردته لدرجة أن اضطر الألفى إلى الفرار إلى الصعيد طلبًا للنجاة.

ولكن البرديسى لم يحسن تصريف الأمور، فساءت إدارته واشتط فى طلب المال حتى يدفع رواتب الجند الألبان المتأخرة. وعندما لجأ فى ٧ مارس عام ١٨٠٤ إلى فرض ضرائب جديدة على الأهلين، ثار القاهريون ـ الذين اشتد حنقهم على حكومة البكوات وتحملوا مظالمها على مضض ـ فى اليوم التالى، فاجتمعت الجماهير فى الجوامع، وخرج الفقراء والعامة والنساء «طوائف يصرخون وبأيديهم دفوف يضربون عليها، والنساء يندبن وينعين ويقلن كلامًا على (البكوات) مثل قولهن: إيش تأخذ من تفليسى يا برديسى. وصبغن أيديهن بالنيلة».

وانتهز محمد على فرصة «ثورة القاهريين فى ٨ مارس، فبدأ يدبر انقلابًا للاطاحة بحكومة البكوات، فبادر بالنزول وسط الجماهير، يجتمع بالمشايخ، ويسير معهم فى الشوارع، ويختلط بالجماهير الصاخبة والهائجة، ويتعهد لهم بابطال الضرائب الجديدة،ففرح الناس وانحرفت طبائعهم عن البكوات وجهروا بالدعاء عليهم و«مالوا إلى العسكر». وبذا كسب محمد على

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

* في ٣٠ مايو معاهدة بين مملكة البرزيلة تقضي بحفظ استقلالية الأقاليم الشرقية.
* فيها اكتشف لاسيل سابع وثامن أقمار أورانوس.

* ١ توت سنة ١٥٦٨ = ١١ سبتمبر ١٨٥١ = الخميس ١٥ القعدة ١٢٦٧.
* في ٢٦ أكتوبر صار مد محور السكة الحديدية الموصلة من مصر إلى الاسكندرية.
* استكشف المسيو ماريت المغارة التي كانت مقبرة للعجل أبيس وهو أحد رموز المعبودات المصرية.
* ١ يناير ١٨٥٢ = ٢٣ كيهك ١٥٦٨ = الخميس ٨ ربيع أول سنة ١٢٦٨.
* وفيها كان عدد السياحين الواردين لمصر ١٧,٦٠٣.
* في ٨ فبراير صار تأسيس البنك العقارى بفرانسا.
* في هذه السنة حصل ثورة وهيجان من الدروز في سوريا.
* في ١ مايو ولادة المغفور له محمد توفيق باشا ابن اسماعيل باشا ابن إبراهيم باشا ابن محمد على باشا، وهو والد عباس باشا حلمي الثاني، خديوى مصر الآن.
* في ١٦ يوليه أعظم درجة للحرارة في باريس كانت ٣٥,١ مئينية فوق الصفر.

* ١ توت ١٥٦٩ = ١٠ سبتمبر ١٨٥٢ = الجمعة ٢٥ القعدة سنة ١٢٦٨.
* ١ يناير ١٨٥٣ = ٢٤ كيهك ١٥٦٩ = السبت ٢٠ ربيع أول ١٢٦٩.
* وفيها تعين على باشا سرى حكمدار للسودان. * وفيها كان

الشعب والمشايخ إلى جانبه، وأسرع جنده بمهاجمة بيوت بكوات المماليك في ١٣ مارس، واضطر البرديسي وابراهيم بك إلى الفرار من القاهرة، وتشتت جموع أتباعهما.

وعلى هذا النحو أنهى انقلاب ٨ ـ ١٣ مارس عام ١٨٠٤ حكومة البكوات في مصر، وقضى قضاء مبرما على كل أمل للبكوات في استرجاع سلطانهم السابق، بالرغم من كل المحاولات التي قاموا بها لاسترداد هذا السلطان المفقود بعد ذلك.

وأما في الآستانة فقد رغب رجال السفارة الإنجليزية من أجل تنفيذ مشروع بول أن يطلب الباب العالي نفسه من انجلترا ارسال حملة إنجليزية لاحتلال الإسكندرية. فكانت هذه الرغبة سببا في إثارة شكوك الباب العالي ومخاوفه. ذلك أن تركيا كانت تريد التزام خطة الحياد في الحرب القائمة بين انجلترا وفرنسا ولا تريد إغضاب الحكومة الفرنسية. وكانت هذه قد توسطت من قبل بين الباب العالي وبكوات المماليك ورفض الباب العالي وساطتها.

وعلى ذلك، فقد امتنعت تركيا عن تلبية طلب الإنجليز، وترتب على امتناعها أمران:

الأول: أنه أصبح من المتعذر على انجلترا أن تتوسط بنجاح في إبرام أى اتفاق بين بكوات المماليك وبين الأتراك.

الثاني: أن نظرية احتلال الإسكندرية في هذه الظروف على وجه الخصوص، سرعان ما وجدت مؤيدين كثيرين لها من جانب السياسيين والعسكريين الإنجليز.

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

عند السياحين الواردين لمصر ١٨,٣٠٣. * كذا فيها حفر المسيو ماريبت حول أبي الهول واستكشف أقدم المعابد المصرية بجوار الأهرام، وهو المعروف ببيت أبي الهول. * وفي ١٨ فبراير توجها البرنس منسيكوف، ناظر بحرية الروسيا، إلى الآستانة، واستقبله اليونان بتهليل كبير، وفي ٣٠ منه توجه عند الصدر الأعظم بدون اكتراث لابسا للبالتو، وأخبره بأن القيصر لا يحمل معاكسة ابناء دينه ولا بقاء معاهدة الأراضي المقدسة بدون تنفيذ، وانصرف بدون مقابلة ناظر الخارجية، فالباب العالي أخبر الدول بذلك، فانضمت له فرانسا وانكلترا، أما البروسيا والنمسا فبقيا على الحيادة. * وفي ٢٦ يونيو سفير الروسيا أخبر الدولة العلية بأن جيوشهم ستتعدى الحدود، وفي ١ يوليو اجتاز البرنس كورتشاكوف نهر البروته واحتل مقاطعة الدانوب.

* ١ يناير ١٨٥٤ = ٢٥ كيهك ١٥٧٠ = الأحد ٢٥ ربيع الثاني ١٢٧٠.

* فيها قيمة الجنيه الافرنكي ١١٤ غرشًا، والمصرى ١١٧ غرشًا، والبنتو ٩٠ غرشًا.

* في ٨ أكتوبر أعلن الباب العالي الجنرال الروسي بالانسحاب، فلم يصغ، وفي ٢٢ منه دخلت الدونما الانكليزية والفرنساوية في الدردانيل. * وفي ٤ نوفمبر الجيوش العثمانية والمصرية صدت العدو واقتفت أثره وأجبرته على عبور البطاح وأسرت منه ١,٢٠٠ نفرًا، وفي ٣٠ منه الدونما الروسية هجمت بغتة على الدنما التركية وأتلفتها،

وانتهى الأمر بأن أصبحت الحكومة الإنجليزية تعتقد أن من الواجب عليها أن تضع نظرية احتلال الإسكندرية موضع التنفيذ، سواء رضي الباب العالي وكان احتلال الإسكندرية بموافقته، أم لم يرضى وكان الاحتلال في هذه الحالة من خصائص السياسة الإنجليزية، وفي صميم الوسائل التي يجب عليها اتخاذها لمنع الفرنسيين من غزو البلاد وللدفاع عن مطامعها في مصر عمومًا.

توطيد سلطان محمد علي

المناداة بولاية محمد علي:

ولقد كان في الشهور التالية لظهور مشروع ألكسندر بول، أن قوى اقتناع الحكومة الإنجليزية بأهمية احتلال الإسكندرية، عندما أسفرت الحوادث الداخلية في البلاد عن ازدياد الفوضى السياسية، وأصبح من الواضح أن مصر لا تستطيع بسبب انقسام قواتها وتوزع السلطة بين رؤساء وزعماء هذه القوات المقاتلة، الدفاع عن نفسها إذا أرسل الفرنسيون جيشًا جديدًا على أرضها.

فقد حدث بعد فرار البكوات المماليك من القاهرة عقب انقلاب ٨ ـ ١٣ مارس عام ١٨٠٤، وهو انقلاب راح ضحيته حوالي ٣٥٠ من البكوات وأتباعهم، أن أطلق محمد علي سراح خسرو باشا الذى صارت له الولاية، ولكن الجند الألبان لم يرضوا به، فاضطر محمد

أما الفرقطون المصرى ففضل الفرق عن التسليم.
* وفى ٤ ابريل الدونغما الفرنساوية والانكليزية دخلا البحر الأسود وخربا قلاع وقشلاقات ومخازن أوديسا، أما الجيش الفرنساوى والانكليزى فرتبا على مدرجات من جهة الشمال والغرب جاعلين مركزهم العام فى وارنه منتظرين هجوم الروس عليهم فى كل لحظة، لكن بسالة محافظى سيليستره أخرت هجوم العدو عليهم.
* فى هذه السنة أراد عباس باشا تجديد المسجد الزينبى، وشرع فى ذلك، ووضع الأساس بيده. * وفى ٢٠ ابريل فتح الشرم فى استحكامات سيليستره، لكن كل هجوم رد خائبًا. * فى ٢٩ ابريل هجمت الروس بشدة على سيليستره، ولبسالة المصريين والأتراك رموا العدو فى الخندق حتى تواجد فى آخر النهار ١٢,٠٠٠ نفرًا ملقين فى الدانوب والغيطان.
* وفى ١٤ يوليو توفى عباس باشا حلمى الأول فى سراى بنها، وفى ١٦ منه تولى عمه محمد سعيد باشا ابن محمد على باشا.
* وفى ١٧ اغسطس استولى المتحالفون على بومارسوند، فى بحر البلطيق.
* وفى ٢١ سبتمبر انتصار الانجليز والفرنساوية على الروسيين فى ألما، من القرم.

* ١ توت ١٥٧١ = ١٠ سبتمبر سنة ١٨٥٤ = الأحد ١٧ ذو الحجة سنة ١٢٧٠.
* ١ ينساير ١٨٥٥ = ٢٤ كيهك ١٥٧١ = الأحد ١١ ربيع الثانى ١٢٧١.

على إلى ترحيله إلى الآستانة، واستقدم بدلاً منه خورشيد باشا حاكم الإسكندرية. وبدأ خورشيد حكمه فى القاهرة والمصاعب تحيط به من كل جانب، مما هدد بالقضاء على باشويته من البداية، وكان من أسباب هذه المصاعب:

أولاً: استمرار مقاومة بكوات المماليك واصرارهم على الظفر بحكومة القاهرة ودعم سلطانهم فى جميع أرجاء البلاد.

ثانيًا: وجود الجنود الألبان فى مصر وبقاء الحاجة إليهم لقتال بكوات المماليك.

ثالثًا: خلوا الخزانة من المال لدفع مرتبات الألبان واقناعهم بالخروج لقتال البكوات.

رابعًا: رغبة محمد على فى فرض نفوذه على حكومة خورشيد ووضع العراقيل أمامها والتخلص منها فى النهاية معتمدًا فى ذلك كله على جنوده الألبان.

خامسًا: توثق صلات محمد على بالمشايخ والعلماء وأعيان المصريين وخصوصًا السيد عمر مكرم، مما ترتب عليه أن أصبحت السلطة الفعلية فى يد محمد على.

ومنذ أن تسلم مهام منصبه فى القاهرة، رأى خورشيد أن قتال المماليك وإخضاعهم لسلطان الدولة هو الطريقة الوحيدة لكسب رضاء الباب العالى من جهة وتثبيت باشويته ودعم أركانها من جهة أخرى. ومع أن خورشيد أدرك أن استقرار باشويته لن يتم إلا بالتخلص من الجند الألبان وقائدهم محمد على، إلا أنه اضطر إلى الاعتماد عليهم بصفتهم القوة الموجودة فى مصر لقتال المماليك، ريثما يستقدم جندًا آخرين لهذه الغاية.

---

* في ١٧ أكتوبر ابتداء طلق النيران ومحاصرة سباستبول الذى مكث ٣٢٧ يوم، وأطلق فيها مليون ونصف بمبه و ٢٥ مليون رصاصة. * وفي ٢٥ أكتوبر واقعة بلافلاوا، وبعدها واقعة نيكرمان. * وفي ١٥ نوفمبر أول محادثة بين سعيد باشا والمسيو دولسيبس بخصوص قنال السويس، ووعده بالقبول، وفي ٣٠ نوفمبر أصدر أول براءة موقتة بهذا الالتزام. * وفي ٢٧ ديسمبر صدر أول قانون للمعاشات بمصر، وهو مرعى الاجراء للآن في حق المدنيين الذين خدموا قبل وبعد صدوره لغاية صدور قانون المعاشات المسمى بقانون معاشات إسماعيل باشا.

* وفي ١٢ مارس وضع محمد سعيد باشا بيده أساس القلعة السعيدية.

* في هذه السنة صار لغو مدرسة المهندسخانة ببولاق وارسال ناظرها وقتئذ على مبارك إلى محاربة القرم، كذا صار لغو مدرسة المفروزة وارسال الأيتام والأطفال منها إلى مدرسة اسكندرية برأس التين.

* وفي ابتداء ٨ يوليو استعملت التواريخ القبطية بحسابات مصر.

* في ١٩ اغسطس زيارة الملكة فيكتوريا إلى باريس.

* وفي ٢٠ مايو استولت الجيوش المتحالفة على ماملون فرت، من القرم. * وفي ٢٧ مايو ظهرت الكوليره بمصر فتوفي بها ٣,٧٦٤ و ٤٥ أورباوى، فالمجموع ٤,٠٦٣ بالشوطة وعدا ذلك ٢,٤٨٨ بأسباب أخرى،

وعلى ذلك، فقد اضطر خورشيد إلى استئناف تحصيل المغارم المالية الثقيلة وجمع الأموال من الأهلين والأوروبيين المقيمين بالقاهرة، حتى يسدد مرتبات الألبان المتأخرة ويستحثهم على الخروج لقتال بكوات المماليك، فأثار بعمله هذا غضب القاهريين وتذمرهم، واشتد الضيق بهم خصوصًا بسبب انتشار المجاعة في القاهرة، كنتيجة لتجمع بكوات المماليك في الصعيد ومنعهم الغلال عن العاصمة. وعلى كل حال، فقد نجح خورشيد في تدبير بعض المال من المغارم والاتاوات، ودفع من هذا المال جزاء من مرتبات الألبان المتأخرة وفي أكتوبر عام ١٨٠٤ خرج الألبان بقيادة محمد على إلى الصعيد.

وانتهز خورشيد هذه الفرصة، فاستقدم ـ بموافقة الباب العالي ـ جنود الدلاة (الدلاتية) من كل أنحاء الامبراطورية، ومن الاناضول. وبعد أن تجمع هولاء الدلاة في طرف الشام الغربى واحتشد منهم قوات كافية، اتجهوا إلى مصر، فدخلوا القاهرة في ٢٩ فبراير ١٨٠٥ ،ونزلوا في مصر القديمة، وفي القرى المجاورة. وكان الدلاة من العتاه المفسدين، الذين أثاروا الرعب في قلوب أهل القاهرة بسبب فظائعهم، فأغلقت المحال وعم الاضطراب.

وأما محمد على، فإنه بمجرد أن علم بقدوم الدلاة، أوقف عملياته العسكرية في الصعيد، وأسرع في الحضور إلى القاهرة (أبريل عام ١٨٠٥)، واستهل نضاله ضد خورشيد باللجوء إلى المطالبة بمرتبات جنده، أى باثارة تلك المسألة الشائكة التى كانت مبعث الصعوبات والمشاكل

فالمجموع العمومى ٦،٥٥١ واليومى ٣٥٠.

* ١ توت ١٥٧٢ = ١١ سبتمبر ١٨٥٥ = الثلاث ٢٨ الحجة سنة ١٢٧١.

* فى ١٠ سبتمبر استولى الماريشال ماكماهون على ملاكوف (قرم) وانتهى حصار سواستبول.

* ١ يناير ١٨٥٦ = ٢٣ كيهك ١٥٧٢ = الأربع ٢٢ ربيع الثانى ١٢٧٢.

* فى هذه السنة صار افتتاح المدرسة الحربية بالقلعة تحت نظارة رفاعة بك. * وفى ١٤ نوفمبر قدمت اوستوريا لفرانسا وانكلتره التصميم على الشروط التى يلزم طلبها من الروسيا لأجل التكلم والمخابرة فى الصلح.

* وفى ٦ يناير ١٨٥٦ سعيد باشا أعطى الأذن النهائى إلى المسيو دولسبس بخصوص فحت قنال السويس. * وفى هذه السنة تعين المسيو أراكيل حكمدارا للسودان. * كذا صار تكميل وافتتاح السكة الحديد من مصر إلى اسكندرية. * وفى ٣٠ مارس انعقد مؤتمر باريس، وفى يومها أمضى معاهدة بين فرانسا وانكلترة وأوستوريا والروسيا، قاضية بنهاية حرب القرم وبحرية الملاحة فى نهر الطونة والتجارة فى البحر الأسود، كذا تقرر بأن الدول التى يحصل بها خلاف فى المستقبل تستعان بتوسط أحد الدول المتحاربة قبل استعمال القوة الحربية.

* وفيها بلغ عدد السياحين الواردين لمصر ٤٢٩، ٣٣. * وفى ١٧ يوليو صدر أمر كريم قاضى باحتساب مدة الأونباشية والصف

التى صادفها الولاة جميعهم وخورشيد باشا على وجه الخصوص منذ تسلمه مهام منصبه. وازداد موقف خورشيد سوءاً، حين اشتد هياج القاهرة فى الأسبوع الأول من شهر مايو، بسبب تعسف الدلاة وانطلاقهم فى وحشية شنيعة فى أحياء مصر القديمة يقتحمون المنازل، ويطردون السكان، ويغتصبون النساء ويقتلونهن، ويخطفون الأطفال، ويأخذون ثياب الأهالى ومتاعهم.

وطفق محمد على يعمل من جهته على كسب ثقة المشايخ وأهل القاهرة. واسترشدت جماهير الشعب بغرائزها الصحيحة دائماً، والتى جعلتهم يرون فى محمد على سيد الغد، وان كان خورشيد صاحب الحكم اليوم، فانفض الناس من حول خورشيد، بينما قصدوا من مختلف الطبقات إلى بيت محمد على يشكون إلى الرجل الذى واساهم فى محنتهم أيام حكومة البكوات المماليك خصوصًا ما يلاقونه من عنت وارهاق، وما حل بهم من نكبات المماليك وما حل بهم من نكبات وكوارث على أيدى هؤلاء الدلاة الذين جلبهم خورشيد، ويتشاور المشايخ معه فى أحدى الوسائل لعلاج هذه الحالة التعسة علاجاً حاسماً سريعاً.

وفى هذه الأثناء كان خورشيد يدبر أمر نقل محمد على من مصر مع جنده الألبان، فقرأ فى ١٠ مايو فرمانا ـ وصل منذ شهرين ـ باعطاء محمد على ولاية جدة، ولكن قراءة هذا الفرمان سرعان ما أفضت إلى زيادة الاضطرابات، فثار الألبان ضد خورشيد، وانحاز الدلاة إلى جانب محمد على. وعندئذ أسقط فى يد خورشيد وتحصن بالقلعة. وطلب المشايخ أن ترفع

---

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

ضباط بالمدرسة من سنين الخدمة.
* وفي ٢٠ يوليو ١٨٥٦ صدر أمر كريم بتشغيل الفلاحين سخرة في فحت قنال السويس.

* ١ تسوت ١٥٧٣ = ١٠ سبتمبر ١٨٥٦ = الأربع ٢٠ محرم سنة ١٢٧٣.
* في ٨ نوفمبر قيام محمد سعيد باشا من مصر بقصد الخرطوم.
* ١ ينساير ١٨٥٧ = ٢٤ كيهك ١٥٧٣ = ٥ جماد أول ١٢٧٣.

* في ١٩ يناير ١٨٥٧ وصل سعيد باشا إلى الخرطوم.
* في هذه السنة ابتدأت محاربة الانكليز للعجم والهند.
* فيها بلغ عدد السياحين الواردين لمصر ٣٦,٦٨٥.
* فيها كانت قيمة الجنية الافرنكي ١١٩ غرشًا، والمصرى ١٢٣، والبنتو ٩٧ غرشًا.
* في مايو صار وضع التلغراف بين مرسيليا والجزائر.
* ١ تسوت ١٥٧٤ = ١٠ سبتمبر ١٨٥٧ = الثلاث ٢٠ محرم سنة ١٢٧٤.

* فيها تعين حسن بك حكمدار للسودان. * وفي مارس ١٨٥٨ م صار افتتاح المهندسخانة السعيدية في بولاق وتم نقلهافي فبراير ١٨٥٨. من بولاق إلى القلعة السعيدية.
* ١ ينساير ١٨٥٨ = ٢٤ كيهك ١٥٧٤ = الجمعة ١٥ جماد أول سنة ١٢٧٤.
* وفي هذه السنة عارضت الانكليز مشروع قنال السويس، وانتهت محاربتها في الهند، وألغت القومبانية الهندية، ووضعت أول تلغراف بين انكلترة وأمريكا.

عنهم المظالم، و عدم جباية أموال جديدة، ثم طلبوا أن يقيم الجنود في المستقبل في الجيزة، فلا يسمح لهم بدخلو القاهرة ومعهم أسلحتهم رغبة في التخلص من شرورهم، كما طلبوا كذلك فتح المواصلات بين القاهرة والصعيد. ولما رفض خورشيد هذه المطالب، قر الرأى في١٣ مايو عام ١٨٠٥ على طرده من الولاية وتولية محمد على مكانه، وقصد المشايخ إلى محمد على في داره.

ويصف الجبرتي ما وقع بين محمد علي وبين المشايخ الذين «قالوا له: «إنا لا نريد هذا الباشا حاكمًا علينا ولابد من عزله من الولاية (فلما سألهم) ومن تريدونه يكون واليا؟ قالوا له: لا نرضى إلا بك، وتكون واليا علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير. فامتنع أولاً ثم رضى، وأحضروا له كركا عليه قفطان، وقام إليه السيد عمر (مكرم) والشيخ الشرقاوى، فألبساه له وذلك وقت العصر، ونادوا بذلك في تلك الليلة في المدينة».

وعندما رفض خورشيد اعتزال الحكم نزولاً على إرادة «الفلاحين» ـ كما قال ـ حاصره الألبان في القلعة، فظل سجينا بها حتى صدر فرمان الباب العالى بولاية محمد على في مصر وعزل خورشيد باشا. وكان وصول فرمان الولاية في ٩ يوليو عام ١٨٠٥. وفي أوائل أغسطس نزل خورشيد من القلعة، ثم غادر البلاد، وخلص الأمر في القاهرة لمحمد على نهائيًا وكان لهذه الحوادث أعظم الأثر على سياسة كل من انجلترا وفرنسا في مصر.

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

* وفى ١٥ مـــايو ١٨٥٨ م غرق البـرنس أحمـد باشا، أكبر أبناء إبراهيم باشا، ومعه كثير من الذوات حـــال توجــهـــهـم إلى اسكندرية بسبب حادثة حصلت فى كوبرى كفر الزيات.

الخديوى توفيق

* صدرت لايحة تكفل فصل مشاكل الأطيان الخراجية بالديار المصرية.

* فيها كان عدد السياحين الواردين لمصر ٣٥,٤٨٧.

* ١ تـــوت ١٥٧٥ = ١٠ سبتمبر ١٨٥٨ = الجمعة ١ صفر سنة ١٢٧٥.

* فى نوفمبر صار اكتتاب سهام قنال السـويس عن مبلغ ٢٠٠ مليـون فـرنك، واكـتـتب المرحوم سعيد باشا للحكومة المصرية عنه.

* ١ ينـايـر ١٨٥٦٩ = ٢٤ كيـهك ١٥٧٥ = السـبت ٢٦ جماد أول ١٢٧٥.

* وفى ٢٠ ديسمبر تشكلت قومبانية قنال السويس.

* فيها عمل بالمشهد الزينبى عـمـارة على واقع الرسم الذى كان عمل بأمر المرحوم عباس باشا الأول ولم يتـمـمـه حيث اخترمه المنون.

* فى ابريل بداية الأشـغـال الحقيقية بقنال السويس.

سياسة انجلترا بعد عام ١٨٠٥:

فقد راقب الوكيل الإنجليزى مسيت الحوادث الآنفة، وكان من رأيه منذ مايو عام ١٨٠٤ أنه لا يمكن أن يكون هناك أى استقرار أو هدوء فى مصر، إلا إذا أقدمت الحكومة الإنجليزية على اتخاذ الوسائل الفعالة للدفاع عن إقليم أصبح صاحب السيادة عليه، وهو الباب العالى، عاجزًا عن صونه والدفاع عنه. وفى الواقع كان من آثار الفوضى السياسية التى سبقت المناداة بولاية محمد على، أن ازدادت مخاوف الإنجليز من وقوع البلاد فريسة سلهة فى أيدى الفرنسيين عند غزوها.

وعلى ذلك، فقد استأنفت الحكومة الإنجليزية مساعيها فى الآستانة، لاقناع الباب العالى بضرورة الأسراع فى اتخاذ الوسائل اللازمة بالاشتراك مع انجلترا لتأييد سلامة مصر. وعندما امتنعت تركيا عن إجابة هذه الرغبة لعدم إغضاب نابليون الذى نودى به امبراطورا منذ مايو عام ١٨٠٤، إزداد اقتناع الإنجليز بضرورة احتلال الإسكندرية فى النهاية، سواء رضى الباب العالى أو تم هذا الاحتلال على غير رغبة منه. ولم يرجىء تنفيذ هذا المشروع سوى انتصار الأسطول الإنجليزى بقيادة نلسون فى معركة الطرف الأغر فى أكتوبر عام ١٨٠٥. ذلك أن هذا الانتصار أكسب الإنجليز السيادة على البحار، فزال مؤقتًا بسبب ذلك الخطر الذى كان يهدد «الشرق» من جانب فرنسا.

* في ١٠ مايو توجه نابليون الثالث إلى تورينو، من أمهات مدن ايطاليا.
* في ٤ يونيو واقعة ماجنتا، وفي ٢٧ منه واقعة سولفرينو، وفيها انتصرت الفرنساوية على الايطاليانين.

* ١ توت ١٥٧٦ = ١١ سبتمبر ١٨٥٩ = الأحد ١٣ صفر سنة ١٢٧٦.
* في ١١ أكتوبر معاهدة الصلح بين فرانسا وأوستوريا وساردينيا.

* فيها كانت محاربة الفرنساوية لمراكش.
* * فيها كان عدد السياحين الواردين لمصر ٢٩,٠١٥.
* ١ يناير ١٨٧٠ = ٢٣ كيهك ١٥٧٦ = الأحد ٧ جماد الثاني ١٢٧٦.
* في ٢٥ مارس ١٨٦٠م. معاهدة تقضي بتنازل ساردينيا إلى فرنسا عن مقاطعتي السافوا وتيبس.
* فيها كانت قيمة الجنية الافرنكي في المعاملة ١٤٧ غرشًا، والمصرى ١٥٠ والبنتو ١١٦ والمجر ٦٩ غرشًا وربع، والبندقي ٧٢ والمجيدى ١٣١ والريال ابو طاقة ٣٠ وأبو مدفع ٢٨ والخيرية المصرية ٨ غروش.
* في ١٧ أغسطس وصلت الفرنساوية إلى الشام لمساعدة المارونيين ضد الدروز. * وفيه توجه نابليون الثالث إلى الجزائر.
* وفيه وفاة المرحوم إبراهيم الهامي باشا، والد صاحبة العفة والدة الخديوى عباس باشا الثاني.
* في ٦ نوفمبر صدر أمر عال من سعيد باشا يجيز للأوروباويين بناءوابورات لحليج القطن في

ومع ذلك، فإن استلام محمد على لأزمة الحكم في القاهرة، كان مصدر قلق مستمر للحكومة الإنجليزية، عندما رفض وكيلها مسيت أن يرى في وصول محمد على إلى الولاية باعثا على استتباب الأمور في مصر، ومن عوامل قيام الحكومة الموطدة التي تستطيع دفع الغزو الفرنسي عن البلاد. فقد اعتبر مسيت أن تولية محمد على لا تلبث أن تزيد من خطورة الفوضى المنتشرة، ومن عوامل إضعاف البلاد وإنهاك قواها وتعريضها لخطر الغزو الفرنسي.

وعلى ضوء هذه الاعتبارات، اتخذ مسيت من بادئ الأمر خطة المناوءة لمشروعات محمد على. من ذلك أنه بذل كل مالديه من جهد وسعة حيلة حتى يمنع محمداً علياً من الاستيلاء على الإسكندرية. وكانت الإسكندرية حتى ذلك الوقت خارجة عن نطاق الولاية وتخضع مباشرة للباب العالي، يعين لحكومتها من يشاء.

وفضلاً عن ذلك، فإن مسيت كان يعتبر محمدا عليا من أكبر الموالين لفرنسا. وحينما أحرز الإمبراطور نابليون انتصاراته الباهرة على النمسا، واضطرت هذه إلى قبول الصلح في ديسمبر عام ١٨٠٥، بشروط أعطت فرنسا مواقع جديدة في الإدرياتيك وفي البحر المتوسط تمكنها لو أرادت من إرسال حملة إلى مصر، ازدادت مخاوف مسيت، وانحصرت جهوده من ذلك الحين في محاولة توثيق صلاته بالمماليك الموالين لانجلترا بزعامة الألفي، والاعتماد عليهم في تعطيل مشروعات المماليك المولين لفرنسا، وفي تعطيل حركة محمد على نفسه. وكان من أغراض

الأراضي التي يحوزون منفعتها. * وفيها ورد لمصر ٢٨,٩٠٤ من السياحين. * وفيها تعين محمد بك حكمدار للسودان. * وفي ٢٤ يناير قيام المرحوم محمد سعيد باشا من مصر بقصد الحج، وفي ٢٧ منه قام من السويس على وابور نجد، وفي ١٨ فبراير قام سعيد باشا من المدينة المنورة، وفي ٢٥ منه وصل ينبع، وفي ٢٩ منه وصل السويس.

* وفي هذه السنة صار فرز النجباء من المدرستين الحربيتين بالقلعة واسكندرية وضمهم إلى مدرسة المهندسخانة السعيدية، بعد أن جعلت مدرسة حربية بيادة تحت نظارة دوبرناردى باشا كذا صار لغو مدرستي القلعة واسكندرية وصار إنشاء مدرسة في قصر النيل تسمى بمدرسة المعية كانت تتبع ركاب المرحوم سعيد باشا أين توجه. * وفي ٢٧ يونيو جلوس السلطان عبدالعزيز خان بعد أخيه السلطان عبدالمجيد خان، المتوفي في يومها، وعمره: ٤٠ سنة و ٤ أشهر و ١٦ يوم، وحكمه ٢٢ سنة و ٦ أشهر.

* ١ تـوت ١٥٧٧ = ١٠ سبتمبر ١٨٦٠ = الاثنين ٢٣ صفر سنة ١٢٧٧.

* ١ يناير ١٨٦١ = ٢٤ كيهك ١٥٧٧ = الأربع ١٨ جماد الثاني ١٢٧٧.

* في هذه السنة صار لغو مدرسة المعية.

* وظهرت أول مركب مدرعة في انكلترة.

* في ٣٠ أغسطس انهزام غاريبالدى في أسيرومنت.

* ١ تـوت ١٥٧٨ = ١٠

مسيت أن يتم الاتفاق بين الباب العالي وبين الألفي وجماعته واقصاء محمد على من الولاية. وانحاز إلى تأييده في ذلك تشارلز أربثنوت Charles Arbuthnot السفير الإنجليزى في الآستانة.

ولازم التوفيق مساعى الانجليز، فأصدر الباب العالى فرمانا بتولية موسى باشا على مصر وتقليد محمد على على سالونيك وغادر القبطان صالح باشا الآستانة فى أسطول لإرغام الألبان فى هذه المرة على إعطاء البلاد إلى المماليك؛ وبلغ الإسكندرية فى آخر يونيه عام ١٨٠٦.

غير أنه كان لابد لنجاح هذه المساعي من إذعان محمد على لأوامر السلطان. وهذا ما رفض محمد على أن يفعله، بل إنه لم يلبث أن صمم على المقاومة إذا اقتضى الأمر. واستند على تأييد المشايخ والعلماء له فى موقفه، كما صار يعمل لاستمالة القبطان صالح باشا وحاشيته بالاغداق عليهم بالهدايا، ثم أخذ يستعد فى الوقت نفسه لمنازلة القائد المملوكى الموالى للانجليز الألفى. ومع أن الأخير انتصر على محمد على فى معارك ١٢ أغسطس و٢٠ سبتمبر عام ١٨٠٦ ، فإن هذه الانتصارات لم تمكنه من دخول القاهرة. وحينما ضاع كل أمل لديه فى إخضاع القاهرة، بدأ يفكر فى عقد صلح منفرد مع محمد على، وفاتح مسيت فى هذه الرغبة. وعلاوة على ذلك، فإن مساعى محمد على مع القبطان باشا مالبثت حتى

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

سبتمبر ١٨٦١ = الثلاث ٥ ربيع أول سنة ١٢٧٨.

* في ١٢ أكتوبر افتتاح التلغراف بين مالطة واسكندرية.

* ١ يناير ١٨٦٢ = ٢٤ كيهك ١٥٧٨ = الثلاث ٥ ربيع أول سنة ١٢٧٨.

* فى هذه السنة الافرنكية عين موسى باشا حمادى حكمدار للسودان، وهو الذى ابتدأ بوضع الضرائب على الأهالى. * وفيها ارتفع ثمن القطن بسبب محاربة الأمريكا. * وفيها بلغ عدد السياحين الواردين بمصر ٣٢,٧٢٢. * وفى ٢٣ إبريل صار إمضاءشروط إنشاء حوض السويس بأمر المرحوم سعيد باشا بمقاولة فى الابتداء كانت خمسة ملايين فرنك وبتجديد أعمال إضافية بلغت المقاولة ٢٣ مليون و ٤٠٠ فرنك، وفيه توجه المرحوم سعيد باشا للسياحة فى أوربا.

* فيها حصل موت للمواشى واستمر إلى سنة ١٨٧٥ م وهو يتردد وينتقل من مديرية إلى أخرى، وقد تردد على البلدان نحو أربع مرات.

* ١ توت ١٥٧٩ = ١٠ سبتمبر ١٨٦٢ = الأربع ١٥ ربيع أول ١٢٧٩.

* وفى ٢ أغسطس عودة المرحوم سعيد باشا من سياحته فى أوربا. * وفى ٢٠ نوفمبر صار توصيل مياه البحر المتوسط لبركة التمساح. * وفى ١٨ يناير تولى مصر إسماعيل باشا ابن إبراهيم باشا ابن محمدعلى باشا، وهو جد الخديوى عباس باشا الثانى، بدلا عن عمه سعيد باشا المتوفى فى يومها، وعمره: ٤٢ سنة، ومدة حكمه ٨ سنين و٩ أشهر و

أثمرت، فأصدر الباب العالى فرمانا يثبت محمدا عليا فى الولاية فى سبتمبر عام ١٨٠٦. وفى أكتوبر أقلع الأسطول العثمانى من المياه المصرية.

وعلى هذا النحو وجد مسيت أن الموقف قد تحول بصورة حاسمة لمصلحة محمد على. وعزا مسيت هذا التحول إلى مساعى الوكيل الفرنسى دروفتى، فكتب منذ أغسطس عام ١٨٠٦ إلى حكومته يقول: «يؤيد الوكيل الفرنسى فى مصر بصورة علنية وبحماسة ظاهرة مصلحة محمد على، ويساعده بابداء النصح والارشاد له من وقت لأخر. أضف إلى ذلك أنه قد أوصى القائم بأعمال السفارة الفرنسية فى القسطنطينية بأن يؤيد هو الآخر مصلحة محمد على لدى الباب العالى.

ولم يكن الفشل من نصيب السياسة الإنجليزية فى مصر فقط بل أخفقت جهود الإنجليز كذلك فى القسطنطينية فى الفترة التى تلت نجاح مساعيهم الأخيرة، والتى أسفرت عن إرسال صالح باشا وموسى باشا فى الأسطول العثمانى إلى مصر. والسبب فى ذلك أن تركيا التى كانت تريد التزام خطة الحياد فى النزاع بين فرنسا وأعدائها أولاً، ثم جددت محالفتها مع روسيا منذ سبتمبر عام ١٨٠٥ بعد إعلان الحرب الأوروبية فى يوليو. وشرعت كذلك فى تجديد محالفتها مع انجلترا، لم تلبث أن اضطرت إلى تغيير موقفها من فرنسا بمجرد أن ذاعت أنباء الانتصارات التى أحرزها نابليون على النمسا، لأن هذه الانتصارات سببت خوف تركيا من

٦ أيام. * وفي يناير صـــار نقل المدرسـة الحـربيـة من القلعـة السعيدية إلى قصر النيل.

*١ يـنـايـر ١٨٦٣ = ٢٤ كـيهك ١٥٧٩ = الخميس ١٠ رجب ١٢٧٩.

* فيها بلغ عدد السـياحين الواردين لمصر ٤٣,٣٣٣.

* في ١٠ يونيـو دخـــول الفرنساوية في مكسيكو، عاصمة بلاد المكسيك.

* فيها قيمة الجنيه الافرنكى ١٦٦ والمصـــرى ١٧١ والبنتـــو ١٣٤ والمجيدى ١٥٦ غرشًا.

* في ١٠ يوليـــو توليـــة مكسيمليان على مكسيكا.

* وفيه ـ تقريبًا ـ صار نقل المدرسة الحربية من قصر النيل إلى العباسية، وافتتاح مدرسة التجهيزية والمبتديان ومدرسة للأنجال، وكان المغفور له توفيق باشا الأول تلميذًا فيها مع إخوته وابن عمه، وفيه صار افتتاح الانتقخانة ببولاق رسميًا.

* فيـهـا جـدد أحـمـد بك الدخاخنى، شيخ طايفة البنايين باسكندرية، جامع سيدى ياقوت العرش.

* وفيها توفى موسى باشا، ودفن في الخـرطوم، وتعين بدله عثمان بك فخرى.

* ١ تـــوت ١٥٨٠ = ١١ سبتمبر ١٨٦٣ = الخميس ٢٧ ربيع أول ١٢٨٠.

* ١ يناير ١٨٦٤م. صـــار اتصال البحر الأحمر بالبحر المتوسط بطريق قابل للملاحة فيه.

* فـيـهـا جـدد الخـديوى

فرنسا خوفًا شديدًا، فترتب على ذلك أن فترت المفاوضات مع انجلترا ولم تجد تهديدات الإنجليز. شيئًا.

وفي أوائل فبراير عام ١٨٠٦ اعترف الباب العالى بلقب نابليون الإمبراطورى رسميًا، ثم فقدت روسيا نفوذها في تركيا تمامًا. وشعر السفير الإنجليزى في القسطنطينية بضرورة دعوة الأسطول الإنجليزى إلى المياه العثمانية، لكى يساعده على تأييد مركزه واستعادة هيبة دولته لدى الباب العالى. بل إن الباب العالى لم يلبث أن رحب ترحيبًا كبيرًا بالسفير الفرنسى الجديد في القسطنطينية، وهو سبستيانى في أغسطس عام ١٨٠٦، ثم نقض اتفاقًا بينه وبين روسيا متعلقًا بولاية الأفلاق والبغدان، وتحرجت الأمور بين تركيا وروسيا لدرجة أن قيام الحرب بين الدولتين صار متوقعًا في سبتمبر عام ١٨٠٦. وقررت الحكومة الإنجليزية في هذه الظروف أن تقوم بعمل حاسم ضد تركيا.

الحرب ضد تركيا وحملة فريزر:

وعلى ذلك، فقد أصدرت الحكومة الإنجليزية تعليماتها في نوفمبر عام ١٨٠٦ لقيام قسم من أسطولها في البحر المتوسط إلى المياه العثمانية بقيادة جون دكورث Joha Duckworth لتأييد السفير الإنجليزى في مفاوضاته، وللقيام بالعمل الحربى في حالة فشل هذه المفاوضات، ثم أصدرت في الوقت نفسه أوامر مشابهة إلى قواتها في صقلية لإرسال حملة أخرى إلى المياه

إسماعيل باشا جامع الشيخ صالح أبي حديد بخط الحنفي.
* مارس حضرت بعثة فرنساوية تحت رياسة مرشير بك وانقسمت المدرسة الحربية إلى بيادة وسوارى وطوبجية ومهندسين حربية وأركان حرب.
* وفي ٩ مايو صدر أمر عال مقتضاه أن الحجج الشرعية المعتبرة والمسجلة بالسجل المصان لا يسمع فيها دعوى.
* في هذه السنة كانت محاربة البروسيا والأوستوريا ضد الدانيمارقه. * كذا محاربة أهالي شمال الولاية المتحدة من أمريكا مع أهالي جنوبها وانتصار أهالي الشمال على الجنوبين، (الحرب الأهلية الأمريكية) وبسبب تلك المحاربة ارتفعت أسعار القطن بمصر.

* ١ توت ١٥٨١ = ١٠ سبتمبر ١٨٦٤ = السبت ٨ ربيع الثاني ١٢٨١.
* وفي ١١ سبتمبر صدر خط سلطاني ومعه صورة الذات الشاهانية وصلا على باخرة مخصوصة عن يد على بك رئيس قرناء الذات الملوكية.

* وفيها بلغ عدد السياحين الواردين لمصر ٥٦,٢١٢.
* ١ يناير ١٨٦٥ = ٢٤ كيهك ١٥٨١ = الأحد ٤ شعبان سنة ١٢٨١.
* وفيها جعل الخديوى إسماعيل عيار الذهب ٢١ قيراطا. * فيها استجدت قطعة نقدية قيمتها ٥٠٠ غرش ميرية. * وفي هذه السنة حصل تمرد من عساكر التاكا بسبب عدم صرف استحقاقاتهم مدة ١٨ شهراً. * وفيها استجدت قطعة من الفضة قيمتها ١٠ غروش ونصفها ٥، وضربت غروش النحاس.

المصرية لتنفيذ مشروع احتلال الإسكندرية، وهي الحملة التي ترأس قواتها البرية الجنرال ماكينزى فريزر Mackenzie Fraser ويتلوه في القيادة الجنرال ووكوب Wauchope ، في حين ترأس قواتها البحرية بنيامين هولول Benjamin Hollowll من أصدقاء نلسون، ومن الذين اشتركوا في معركة النيل (أبي قير البحرية) ثم حمل الألفي بك عند عودته من انجلترا إلى مصر، وكان يعرف البلاد معرفة طيبة.

وكانت الأوامر التي صدرت لحملة فريزر صريحة، في أن الغرض منها إنما هو احتلال الإسكندرية فقط لمنع نزول الفرنسيين فيها،م وليس الغرض فتح مصر. كما كان من واجب الحملة تأييد وحماية تلك الأحزاب أو الجماعات التي أرادت الاحتفاظ بالعلاقات الودية مع بريطانيا. وكان لتحقيق هذه الغاية الأخيرة خصوصاً أن نصت التعليمات على ضرورة استماع قائد هذه الحملة لكل ما يبديه الوكيل الإنجليزى مسيت من آراء، بسبب ما كان له من خبرة ومعرفة تامتين بأحوال البلاد.

ووصلت حملة فريزر إلى الإسكندرية بعد ظهر يوم ٢٦ مارس عام ١٨٠٧ وفي ٢٠ مارس استسلم أمين أغا حاكم الإسكندرية التركي، ووافق على أن ينتقل هو وصالح أغا قومندان البحرية وسائر موظفي الحكومة وجميع العسكر في السفن العثمانية إلى ميناء تركي بسلاحهم

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

* في هذه السنة الافرنكية بلغ عدد السياحين الواردين لمصر ٧٤,٩٩٠.
* في هذه السنة صار إنشاء مدرسة أركان حرب بالعباسية تحت نظارة شحاته بك عيسى. * وفي يونيو اشتد تمرد عساكر التاكا حتى أطلقوا الرصاص على ضباطهم، فتعين جعفر باشا مظهر لاخماد هذه الفتنة. * وفي ١٥ اغسطس اجتازت قنال السويس أول مركب تجارية.
* وحصل ريح أصفر ابتدأ في مايو فتوفي ٥,٦٧٦ من المسلمين و ٢٦٣ من الأقباط و ١٦٥ من الأوروباوين فالمجموع ٦,١٠٤ بخلاف ٦,٣٢٥ بأسباب أخرى، فيكون الوفيات ١٢,٤٢٩ وكانت الوفيات اليومية ٥٤٠ ثم انتهى في سبتمبر.
* وفي ٣٠ يناير ١٨٦٦ اشترى إسماعيل باشا من قومبانية قنال السويس الترعة الحلوة، كذا اشترى منها بمبلغ ١٠ مليون فرنك جفلك الوادى الذى اشترته القومبانية من سعيد باشا بمبلغ ٢ مليون فرنك. * وفي ٢٠ مارس صدر فرمان شاهاني مصدقا نهائيًا على عمل قنال السويس وانحسرت المشاكل التي كانت تواجدت بخصوصه. * وفيها بلغ عدد السياحين الواردين لمصر ٥٠,٣١٧.
* في ٢٨ مايو صدر فرمان شاهاني بجعل حكومة مصر وراثية تنتقل من إسماعيل باشا لأكبر أبنائه ثم للأكبر من أولاد ذلك البكر وهلم جرا. * وفي ١٧ يونيو صدر فرمان شاهاني يبين ويحدد الإجراءات المقتضى اتباعها عندما يكون الوارث

وعتادهم كأسرى حرب. ولم يكلف الإنجليز الاستيلاء على الإسكندرية سوى ستة قتلى وثمانية جرحى فحسب. ويرجع هذا النصر الرخيص الذى أحرزه الإنجليز في الإسكندرية إلى عدة أسباب، لعل أهمها ما يلي:

أولاً: كانت الإسكندرية وقتئذ مستقلة عن باشوية القاهرة وتابعة رأسًا للقسطنطينية. وكان أمين أغا حاكم المدينة لا يميل إلى الاعتراف بسلطة محمد علي، الذى وصل إلى باشوية القاهرة ضد رغبة الباب العالي. وكان هذا الحاكم وأهل الإسكندرية عمومًا يخشون أن تخضع مدينتهم لسطوة الألبان، فينهبونها ويعيثون فيها فسادًا.

ثانيًا: كانت الإسكندرية ميدانًا لدسائس الوكلاء الإنجليز، الذين راحوا يبثون روح التخاذل بين الأهالي ورؤسائهم ومشايخهم.

ثالثًا: ضعف تحصينات الإسكندرية وحاميتها وقلة الجند بها، ثم ضعف القوة البحرية التي عهد إليها بالدفاع عن الساحل بأسره.

وبذلك تكون الظروف قد ساقت الإنجليز لتحقيق ذلك المشروع الذى رغبوا في تنفيذه من مدة طويلة وهم أصدقاء للباب العالي وفشلوا وقتذاك في تحقيقه.وكان نزول الإنجليز في الإسكندرية من أكبر الأخطار التي هددت مركز محمد علي.

---

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

للحكومة قاصرا، أى لم يبلغ سن الثمانية عشر سنة. * وفيه صار وضع التلغراف ما بين انكلترة وأمريكا. * ومن ربيع ثانى لغاية رجب كان خروج عساكر الفرنساوية من المكسيكة. * وفى هذه السنة ابتدأ ضعف النفوذ الفرنساوى فى أوروبا.

* ١ توت ١٥٨٣ = ١٠ سبتمبر ١٨٦٦ = الاثنين ٢٩ ربيع الثانى سنة ١٢٨٣.
* ١ يناير ١٨٦٧ = ٢٤ كيهك ١٥٨٣ = الثلاث ٢٤ شعبان ١٢٨٣.

* صار افتتاح مجلس شورى النواب، وهى أول مرة تواجد فيها ذلك المجلس بمصر.
* فى هذه السنة صار إنشاء مدرسة الطب البيطرى بالعباسية. * فيها بلغت كمية المطر فى الاسكندرية وسواحل البحر الأحمر ٢٢٦,٧ ميلليمتر.
* فيها بلغ عدد السياحين الواردين لمصر ٤٥,٩٥٠. * فيها كانت قيمة الجنية الافرنكى ١٧٩ والمصرى ١٨٤ والبنتو ١٤٢ والمجيدى ١٦١ غر شا دارجة.
* فى ٢٠ مايو إعدام الملك مكسمليان بالرصاص. وهو امبراطور مكسيكا. * فى ٣ يوليو صدر فرمان شاهانى بجعل حكومة مصر خديوية، وخول لها بعض امتيازات جديدة. * وفى ١٠ يوليو سافر الخديوى اسماعيل باشا لحضور المعرض العمومى فى باريس إجابة لدعوة امبراطور الفرنساوية نابليون الثالث.

* ١ توت ١٥٨٤ = ١١ سبتمبر ١٨٦٧ = الأربع ١٢ جماد أول ١٢٨٤.
* فى ٣١ أغسطس أولم

جيش محمد على، خليط من الأجناس

السياسة الفرنسية بعد عام ١٨٠٥:

ولعل ما تجدر ملاحظته فى أثناء ذلك كله، هو التحول الذى طرأ على السياسة الفرنسية التى ظلت «سلبية» حتى عام ١٨٠٥. فقد أتبعت فرنسا بعد ذلك التاريخ خطة إيجابية، كان محورها الإقبال على تأييد محمد على ومساعدته، والانصراف عن تعضيد جماعة المماليك من حزب البرديسى. وأسباب هذا التحول متعددة، أهمها:

أولاً: حادث المناداة بولاية محمد على فى مايو عام ١٨٠٥. ومع أن هذا الحادث لم يكن

١٠٣: يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

الخديوى إسماعيل وليمة بسرايته بدار الخلافة حضرها ساكن الجنان السلطان عبدالعزيز وأكبر رجال الدولة.

* وفيها كانت قيمة الجنية الافرنكى ١٨٥ والمصرى ١٨٩ والبنتو ١٤٧ والمجيدى ١٦٦ والمجر ٨٩ قرشا.

* في ١٨٦٧ كارل ماركس ينشر كتابه «رأس المال».

* ١ يناير ١٨٦٨ = ٢٣ كيهك ١٥٨٤ = الأربع ٦ رمضان ١٢٨٤.

* وفيها صار إنشاء مدرسة المحاسبة والزراعة بالعباسية. * وفيها بلغت كمية المطر فى اسكندرية وسواحل البحر الأحمر ٣٤٣,٧ ميلليمتر. * فيها بلغ عدد السياحين الواردين لمصر ٤٣,٥٣٨.

* في هذه السنة كان النيل قليلا، وبلغ الشراقى (يعنى عدم رى الأرض) بالأقاليم القبلية نحو الثمن وذلك لكثرة الأعمال.

* ١ توت سنة ١٥٨٥ = ١٠ سبتمبر ١٨٦٨ = الخميس ١٣ جماد أول ١٢٨٥.

* فيها كانت قيمة الجنية الافرنكى ١٩٢ والمصرى ١٩٧ والبنتو ١٥٢ والمجيدى ١٧٢ غرشا وثلاثون نصفا فضة والمجر ٩١ غرشا.

* ١ يناير ١٨٦٩ = ٢٤ كيهك ١٥٨٥ = الجمعة ١٧ رمضان سنة ١٢٨٥.

* فيها بلغت كمية المطر باسكندرية وسواحل البحر الأحمر ١٨٥ ميلليمتر.

* فى ابريل تعين السير سامويل باكر إلى مأمورية خط الاستواء. * فيها جددت المرحومة الست خوشيار، والدة الخديوى اسماعيل، جامع الرفاعى، ودفنت

سوى مغامرة كبرى، استندت على أكبر تمويه عرفه التاريخ ارتكبه متطلع إلى العرش فى حق البلاد التى يريد حكومتها، إلا أنه كان يعنى أن محمداً علياً قد أصبح يستأثر بالسلطة الفعلية فى البلاد، بينما كان من الواضح أن بكوات المماليك يفقدون نفوذهم بكل سرعة.

ثانيـــا: انضمام الباب العالى إلى فرنسا،وقطع علاقاته مع روسيا، وقيام الحرب بينه وبين روسيا (منذ ديسمبر عام ١٨٠٦) ثم بينه وبى انجلترا. فقد جعل هذا كله من مصلحة فرنسا تأيد صاحب السلطة الفعلية فى مصر. ومعاونته على دفع خطر الغزو الإنجليزى.

وأيًا ما كان الأمر، فقد كان القائمون على هذا التحول الذى طرأ على السياسة الفرنسية: المندوب التجارى فى الإسكندرية برناردينو دروفتى ونائبه فى القاهرة فليكس مانجان Felix Mengin الذى أرخ فيما بعد لعصر محمد على.

وكان دور فتى يمضى فى سياسته مسترشداً بما قد يشير إليه وقوع الحوادث فى مصر من يوم لآخر، وربما كان يعتبره تأييداً لمصلحة فرنسا. وهذه المصلحة كما رآها دروفتى فى ذلك الحين، كانت تدور حول غرض رئيسى ومباشر، هو القضاء على جميع المشروعات الإنجليزية وهدم كل نفوذ لهم فى البلاد، بالقضاء إذا أمكن على جماعة المماليك الموالين لهم. وعلى ضوء هذه الاعتبارات، انحصرت فى الفترة التالية خطة دروفتى فى أمور ثلاثة:

أولاً: تعطيل كل اتفاق وتفاهم بين الألفى بك زعيم جماعة المماليك «الإنجليزية» وبين

به. * وفى ٦ يوليو توجهت رتبة المشيرية من الحضرة الشاهانية للمرحوم الخديوى توفيق باشا، وكان إذ ذاك ولى عهد الخديوية المصرية. * وفى ربيع ثانى صار وضع السلك البحرى ما بين برست ونويورك.

* فيها كان الجنية الافرنكى ١٩٩ والمصرى ٢٠٣ والبنتو ١٥٨ والمجيدى ١٧٩ والمجر ٩٥ غرشا.

* ١ تـوت ١٥٨٦ = ١٠ سبتمبر ١٨٦٩ = الجمعة ٣ جماد الثانى سنة ١٢٨٦.

* وفيها بلغ عدد السياحين الواردين لمصر ٧٧,٧٦٧. * وفى ١٧ نوفمبر انتهى حفر قنال السويس وصار افتتاحه رسميا. * وفى ٣٠ نوفمبر صدر فرمان شاهانى للخديوى إسماعيل باشا مؤيدا لجميع الفرمانات السابق صدورها له من السدة السلطانية.

* وفى ٨ فبراير ابتدأ مأمورية السيرساموبيل باكر باشا إلى خط الاستواء.

* وفيها عملت تعريفة عمومية للنقود مقتضاها أن القيمة الدارجة ضعف القيمة الميرية.

* ١ ينـاير ١٨٧٠ = ٢٤ كيهك ١٥٨٦ = السبت ٢٨ رمضان ١٢٨٦.

* فيها الحقت أراضى بوغوص من الحبشة بالحكومة المصرية. * فيها بلغت كمية المطر باسكندرية وسواحل البحر الأحمر ٧٢,٧ ميلليمتر. * فيها بلغ تعداد الأجانب فى بر مصر ١٥٠,٠٠٠ نفس. * فيها بلغ عدد السياحين الواردين لمصر ٦٤,٣٢٨.

محمد على، وهو الرجل الذى استطاع أن يصل إلى منصب الولاية على الرغم من إرادة الباب العالى، ويتمتع فوق ذلك بنفوذ عظيم مكنه من السيطة على تفكير زعماء الشعب والعلماء فى القاهرة.

ثانيًا: منع كل اتصال أو تفاهم قد يحدث بين محمد على وبين مسيت الوكيل الإنجليزى فى مصر. وهذه كانت مهمة سهلة فى الحقيقة بالنسبة لما هو معروف عن موقف مسيت من محمد على وآرائه عنه.

ثالثًا: استمالة محمد على إلى جانب فرنسا، ولو أن دروفتى ظل حتى بعد المنادة بولاية محمد على لا يريد أن يتورط بصورة نهائية بأية عهود لتأييد محمد على. والسبب فى ذلك أن المسألة التى كان دروفتى يهتم بها قبل أى شىء آخر، هى المحافظة على مصلحة فرنسا، سواء كان فى الحكم محمد على أو الباشا العثمانى أو اية جماعة من بكوات المماليك، ما دامت هذه الجماعات تدين بالولاء لفرنسا. بل إن دروفتى كان يرى أن أفضل الوسائل المجدية لاستتباب الأمور فى مصر، هى أن يبذل الباب العالى قصارى جهده حتى يخضع البلاد لسيادته تماماً. وكان فى رأى دروفتى أن استتباب الأمور فى مصر لا غنى عنه بتاتًا حتى يمكن أن تصان البلاد من اعتداءات الإنجليز عليها، أو ترويج هؤلاء لمشروعاتها بها.

وهكذا انتقلت السياسة الفرنسية فى مصر من مجرد سياسة «سلبية» قائمة على بذل

* ١ تـــوت ١٥٨٧ = ١٠ ســبتـمـبـر ١٨٧٠ = السبت ١٣ جماد الثانى ١٢٨٦.

* فيها صار ترميم مقياس النيل بأسوان، وصار إبقاء التقاسيم القـديمة على أصلهـا، وعـمل المرحـوم مـحـمـود باشـا الفلكى تقاسيم بجوارها طول كل ذراع ٠,٥٤ مثل ذراع مقياس جزيرة الروضة.

* ١ يـنـايـر ١٨٧١ = ٢٤ كـيهك سنة ١٥٨٧ = الأحد ٨ شوال سنة ٢٨٧ ,٠.

* فيها كانت أيام المطر فى القاهرة تسعة أيام، ومدته تسع ساعات وعشر ساعة.

* فى ١٩ مـارس ١٨٧١م. وصل السير ساموبل باكر باشا بمأموريته فى النيل إلى جوندكرو.

* ١ تـــوت ١٥٨٨ = ١١ سـبـتـمـبـر سنة ١٨٧١ = الاثنين ٢٥ جماد الثانى ١٢٨٨.

* ١ يـنـايـر ١٨٧٢ = ٢٣ كـيـهك ١٥٨٨ = الاثنين ١٩ شوال سنة ١٢٨٨.

* فيها أقر الخديو إسماعيل باشا بعمارية مدينة حلوان وبناء الأوتيل وأعمال الطرق ومجارى لتوصيل مياه النيل لها. * وفى ٢٦ مايو أعلن السير ساموبل باكر باشا الحاق المقاطعات الاستوائية بالحكومة المصرية.

* فيها بلغت كمية المطر باسكندرية وسواحل البحر الأحمر ١٦٨ ميلليمتر. * فيها بلغ عدد السـياحين الوادرين لمصـر ٥١,٤٨٢. * وفى ٣١ أغسطس صدر أمر عال بخصوص لايحة

الوعود لمختلف الجماعات والأفراد، مع عدم التورط فى إعطاء العهود القاطعة لفريق دون آخر، وبصورة يستلزم تنفيذها بطريق القوة إذا اقتضى الأمر، انتقلت هذه السياسة «السلبية» على يد دروفتى إلى سياسة أخرى «إيجابية» عملية ذات أغراض معينة ثابتة.

ومنذ أن شهد الحوادث تمر مسرعة فى مصر وتسير جميعها نحو تأييد مصلحة محمد على، انحصر اهتمام دروفتى فى أن يظفر من حكومته بتعليمات جلية واضحة ترشده إلى ما يجب عليه أن يفعله إذا تم النصر لمحمد على، واستتب له الحكم فى مصر نهائيًا؛ وضاع كل نفوذ لرجال السلطان العثمانى وممثليه بصورة حاسمة.

ولكن دروفتى لم يكن موفقًا فى هذا المسعى. ذلك أن الحكومة الفرنسية فى باريس كانت على نحو ما يبدو حتى فى هذا الوقت، لا تريد أن تتخذ أية سياسة «إيجابية» وعملية فى المسألة المصرية فاكتفى وزير خارجيتها تاليران بأن يطلب من دروفتى عدم الاعتراف بأية سلطة تقوم فى مصر، طالما أن هذه تعجز عن دعم نفوذها، فلا يعترف بها إلا إذا تأيد سلطانها بفضل ما قد تناله من انتصارات قاطعة على أعدائها. وهذه كانت تعليمات غير محددة فى الحقيقة، وتترك الميدان حرًا للوكيل الفرنسى فى مصر حتى يعمل فقط وهو يستند إلى خبرته الشخصية وذكائه فحسب، دون أى توجيه عملى من جانب حكومته.

غير أن ما وقع من حوادث فى مصر خلال عام ١٨٠٦، كان من شأنه تأييد وجهة نظر

---

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

المقابلة التي تتعلق بتأسيس اصلاحات مالية البلاد المصرية. * في هذه السنة الافرنكية تعين ممتاز باشا حكمدارا للسودان، وهو وان كان شجاعا وقدم زراعة القطن، إلا أنه لسوء تصرفه سجن حتى توفى بالخرطوم. * وفى ٣٠ ديسمبر صدر أمر عال بترتيب مجالس تفتيش الزراعة بحالة مستديمة بدلا عما كانت في مواسم معينة من السنة.

* فيها بلغ تعداد الاغراب في مصر واسكندرية والوجه البحرى ٧٩,٦٩٦ نفس، وتعداد أهالي اسكندرية ٢١٢,٠٤٣ منهم ٤٧,٣١٦ نفس أغراب.

* في ١٤ مايو توجه السير ساموبل باكر وأسس محطات عسكرية قبل جوندكرو واستمال كمتيزا ملك أوجاندة للحكومة المصرية فبلغت سلطنها حتى الأراضى الكائنة على درجتين من شمال خط الاستواء. * فيها بلغت كمية المطر في اسكندرية وسواحل البحر الأحمر ٢٨٣ ميلليمتر. * فيها بلغ عدد السياحين الواردين لمصر ٦٧,٧٧٢.

* ١ توت ١٥٨٩ = ١٠ سبتمبر ١٨٧٢ = الثلاث ٧ رجب سنة ١٢٨٩.

* وفي سبتمبر صدر فرمان شاهاني بمنح خديوية مصر امتيازات جيدة، مع بقاء امتيازاتها السابقة.

* وفي ٢٦ أكتوبر صدر خط شريف شاهاني يخول للخديوية استقراض مبالغ من الخارج بدون إذن من السدة الملوكية متى كان ذلك لازمًا لعمارية البلاد. * وفي يناير ١٨٧٣م. كان زواج توفيق باشا وأخويه حسين وكامل باشا والمرحوم حسن باشا.

دروفتي. ثم ازداد الوكيل الفرنسي اقتناعًا بضرورة مؤازرة محمد على، عندما أسفرت مساعي الألفي والإنجليز في الآستانة عن إرسال القبطان صالح باشا (يونيه ١٨٠٦) إلى مياه الإسكندرية على نحو ما تقدم. ومن ذلك الحين اندفع دروفتي قلباوقالبا نحو تأييد محمد على. وظهر أثر ذلك واضحًا خلال الحوادث التالية وخصوصًا عند مجيء حملة فريزر إلى الإسكندرية.

وفاة البرديسي والألفي:

وكان منشأ الصعوبات التي واجهت محمداً عليا مباشرة بعد اقلاع الاسطول العثماني من أبي قير(أكتوبر عام ١٨٠٦) أن الصراع ما لبث حتى تجدد بينه وبين بكوات المماليك. وكان سبب تجدد الصراع أن الباب العالي في الوقت الذي أصدر فيه فرمان تثبيت محمد على في الولاية (في سبتمبر عام ١٨٠٦) أصدر كذلك فرمان يعطي للبكوات بعض الأقاليم لاقامتهم، وهي مديريات الوجه القبلي من جرجا حتى الشلال الأول،وذلك أملاً في حسم النزاع معهم ، غير أنه لما كان هؤلاء يملكون فعلا هذه الأقاليم، فقد اعتبروا هذه التسوية غير كافية.

وحاول محمد على من جانبه أن يصل إلى صلح مع الألفي، وأن يعقد معه معاهدة سلام، وطلب الألفي ـ بواسطة مسيت ـ مطالب وصفها الوكيل الإنجليزي نفسه بأنها «غير معقولة»، وكانت هذه على النحو التالي:

١٠٣: يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

* وفي ١٤ فبراير اعلنت الجمهورية في اسبانيا.
* ١ يناير ١٨٧٣ = ٢٤ كيهك ١٥٨٩ = الأربع ٢ القعدة ١٢٨٩.
* في هذه السنة تعين إسماعيل باشا أيوب حكمدارا للسودان. * في ١١ يونيو صدر فرمان شاهاني شاملا لجميع الفرمانات السابقة مع إضافة بعض امتيازات جديدة.
* وفي ٢٩ اغسطس دخل الزبير رحمت العباسي وجماعته أرض شكا وكاتب حكمدارا السودان إسماعيل أيوب باشا عن رغبته في ضم ما فتحه من الأراضي على مصاريف نفسه إلى الحكومة الخديوية.

* ١ توت ١٥٩٠ = ١٠ سبتمبر ١٨٧٣ = الأربع ٧ رجب سنة ١٢٩٠.
* في ٢٩ أكتوبر وفاة ليفنجستون السواح الشهير في أواسط افريقية.
* في ٢٢ نوفمبر عينت الحكومة الخديوية الزبير رحمت حاكما للبلاد التي فتحها، وربطت عليه ١٥ ألف جنيه سنويا وأحسنت عليه برتبة القائمقام.
* ١ يناير ١٨٧٤ = ٢٤ كيهك ١٥٩٠ = الخميس ١٢ القعدة سنة ١٢٩٠.
* يناير وصل الكولونيل غردون، أول مرة، إلى مصر، وتعين إلى السودان.

* ١ توت سنة ١٥٩١ = ١٠ سبتمبر ١٨٧٤ = الخميس ٢٨ رجب سنة ١٢٩١.
* ١ يناير ١٨٧٥ = ٢٤

---

١ – إن هناك طريقين للوصول إلى الصلح، فإما أن يقبل محمد علي دخول الألفي إلى القاهرة، وعندئذ لا يطلب الأخير لعيشه هو وأهله سوى قراه التي يمتلكها، وإما أن يرفض محمد علي دخوله القاهرة، وفي هذه الحالة يطلب الألفي مديرية البحيرة وجزيرة السبكية ورشيد، وأن يسمح له في هذه السنة فقط بتحصيل اتاوات معتدلة من الشرقية والمنوفية، لكي يدفع من المال المتحصل مرتبات رجاله وجنده المستحقة عليه من جملة شهور.

٢ – يتعهد الألفي بملاحظة ارتباطاته مع محمد علي بإخلاص.

٣ – يقترح الألفي إرسال مندوب من قبل محمد علي وآخر من قبله إلى الآستانة بمجرد عقد الصلح لإبلاغ الباب العالي بهذا الترتيب الجديد.

٤ – يتعهد الألفي ببذل قصارى جهده لاقناع سائر البكوات في الصعيد بعقد الصلح مع محمد علي، وأن يستخدم كل ما لديه من نفوذ وسمعة عند الباب العالي حتى يمكن محمداً عليا من الاحتفاظ دائماً بولايته في مصر.

غير أنه لما كانت هذه المطالب أو الشروط «صعبة» و«غير معقولة» فقد رفضها محمد علي، وذهبت من ثم مساعيه لعقد الصلح مع الألفي سدى. ولم يلبث أن انحصر الصراع بين محمد علي وبين الألفي، وبعد ذلك عندما توفي عثمان البرديسي في منفلوط في ١٩ نوفمبر عام ١٨٠٦، ووجد الألفي أن الفرصة باتت ملائمة بعد وفاة البرديسي لأن يجمع كلمة بكوات المماليك حول شخصه، ويحاول دخول القاهرة.

---

١٠٣ : يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

كيهك سنة ١٥٩١ = الجمعة ٢٨ رجب سنة ١٢٩١.

* في ٢١ فبراير صدر أمر عال بأخذ عوايد على سائر الأملاك بمصر والثغور والبنادر والجفالك باعتبار السنة الهلالية. * وفي ٤ مارس إنشاءمدرسة الصف ضباط.

* وفي ١٢ مارس إنشاءمدرسة الخطرية. * وفي ١٠ ابريل سافر الكولونيل غردون، أول مرة، كحكمدار خط الاستواء. * وفي ١٨ منه اقترحت قومبانية قنال السويس تعريفة مستجدة على كل طونلاته من حمولة المراكب، لكن لم تنجح في اقتراحها. * في يوم الثلاثاء ١٤ يوليه سنة ١٨٧٤ الساعة ثلاثة عربي نهاراً ولادة عباس باشا حلمي خديوى مصر. وهذا اليوم يوافق غرة جماد الثاني.

* وفي شهر أغسطس، فرار بازين من سجنه في جزيرة سانت مرجريت. * وفيه حارب الزبير الأمير حسب الله، عم السلطان إبراهيم، سلطان دارفور ثلاث مرات وانتصر عليهم. * وفي ١٨ أكتوبر قتل السلطان إبراهيم أولاده في المحاربة، وفي ٤ نوفمبر دخل الزبير بك بندر الفاشر. * وفي أوايل ديسمبر أرسلت مأمورية من أركان حرب بقصد استكشاف كردفان، وفيه وصل اسماعيل باشا أيوب الحكمدار إلى بندر الفاشر. * وفي ٩ ديسمبر كان إجراء أرصاد فلكية في سائر أقطار الدنيا، وبالجملة على الجبل المقطم في مصر لرصد مرور الزهرة على قرص الشمس.

فبدأت من ثم العمليات العسكرية بين الفريقين. ولم يكن الألفي موفقا، إذا اضطر إلى رفع الحصار عن دمنهور التي وقف عليها مدة طويلة، كما اضطر إلى اخلاء البحيرة وقرر الانسحاب إلى الفيوم والصعيد، يبغي الانضمام إلى البكوات «القبالي» والترؤس عليهم. لكن الحظ خدم محمداً عليا، فتوفي الألفي فجأة في دهشور في ٢٧ يناير عام ١٨٠٧. وهو ما يزال في طريقه إلى الفيوم.

وبوفاة الألفي تخلص محمد علي من أشد خصومه عداوة له، وأعظمهم خطراً على ولايته. ولقد كان محمد علي نفسه يقول: «ما دام هذا الألفي موجود لايهنأ لي عيش، ومثالي أنا وهو مثال بهلوانين يلعبان على الحبال، لكن هو في رجليه قبقاب». وعندما أتاه المبشر بموته، قال بعد أن تحقق من ذلك: «الآن طابت لي مصر ـ أو الآن ملكت مصر - وما عدت أحسب لغيره حساباً». وقد عد الجبرتي موت الألفي «من تمام سعد محمد علي باشا الدنيوي».

ومن جهة أخرى، فقد اختفى من الميدان غريم كانت انجلترا تعقد عليه آمالاً كبيرة. وبذا استطاع محمد علي أن يوجه اهتمامه إلى الإنجليز،الذين نزلت حملتهم في الإسكندرية واحتلوهاعلى نحو ما تقدم في ٢٠ مارس عام ١٨٠٧.

١٠٣: يوانس [١٦٧٦ / ١٧١٨م].

[بطرس البطرك المايه واربعه]

[١٧١٨/١٧٢٦م]

بطرس البطرك وهو الماية وأربعة من العدد هذا الأب القديس من ناحية أهالى سيوط وطلع على جبل القديس العظيم انبا بولا وهو شاب واقام مدة ولبس الاسكيم المقدس واستحق أن يكون قسا من يد الاب انبا يوانس المتنيح واقامه رئيسا على دير

فشل حملة فريزر

وكان فريزر بعد استيلائه على الإسكندرية لا يريد القيام بعلميات عسكرية جديدة، لاعتقاده بأن القوات التى لديه لا تكفى لاحتلال الإسكندرية، ثم الاشتباك فى معارك جديدة مع العدو، لا سيما وأن بكوات المماليك ـ جماعة الألفى المتوفى ـ لم يستقبلوا جيش الحملة أو يتقدموا لمعاونتها بعد استيلائها على الإسكندرية، على خلاف ما كان يؤكده مسيت قبل حضور الحملة. وطلب فريزر من الأخير أن يكتب إلى البكوات ليستعجلهم فى الحضور. وفى ٢٢ مارس بعث مسيت إلى البكوات برسالة أبلغهم فيها نبأ استيلاء الإنجليز على الإسكندرية،وطلب منهم إرسال شخص يثقون فيه ليبسط مطالبهم أمام قائد الحملة.

ولم ينتظر مسيت رد البكوات على رسالته، بل راح يلح على فريزر بضرورة احتلال رشيد، وعدم الوقوف جامداً فى الإسكندرية. وكان مسيت يعتقد أن احتلال الجيش البريطانى لرشيد ودخوله فى عمليات عسكرية نشيطة من شأنه أن يدفع البكوات إلى العمل، ويكون حافزاً لهم على التعجيل بالحضور من الصعيد.

ولكن فريزر تردد فى أول الأمر فى إرسال حملة رشيد، لأن ذلك يتعارض مع التعليمات الصادرة إليه، والتى طلبت منه احتلال الإسكندرية فقط.وسرعان ما غير فريزر رأيه بسبب الحاح

القديس العظيم انبا بولا. واقام زمانا الى ان تنيح الآب انبا يوانس فلم يتوجه احداً من الأراخنة إلى الديورة ولم يحصل تفتيش بل ارادة الله تعالى انذرتهم على هذا الاب وكان المجتهد في ذلك واحد أرخن يسما المعلم لطف الله كان متزوج بنت أخي انبا يوانس المتنيح وارسله إلى [المتولي] فارسل قايمقام ناحية بوش(*) قبض على هذا الاب وارسله في الحديد إلى مصر واوسموه بطركاً

(*) بوش: شمال مدينة بنى سويف غرب النيل على الترعة الابراهيمية.

مسيت المستمر، وبرر لوزير الحربية البريطانية مخالفته للتعليمات التى لديه، واصداره الأوامر بالزحف على رشيد بعدة أسباب، منها:

أولاً: الاعتقاد بأن جنود الحملة بالاسكندرية معرضون لخطر الموت جوعًا إذا لم يحتل رشيد والرحمانية.

ثانيًا: انشغال محمد على بنزاعه مع بكوات المماليك، وعدم توقع مساندة الشعب له إذا حاول الدفاع عن رشيد.

ثالثًا: الاعتقاد بأن نجاح هذه الحملة سيحمل البكوات على النزول من الصعيد لمؤازرة جيش الاحتلال.

وعلى ذلك، ففى ٢٩ مارس أرسل فريزر من الإسكندرية قوة تتألف من حوالى ١٤٠٠ جندى بقيادة الجنرال ووكوب للاستيلاء على رشيد. وهناك أصيب الإنجليز فى ٣١ مارس بهزيمة كبيرة، و اضطروا إلى التقهقر إلى الإسكندرية عن طريق أبى قير.

وكان لهذه الهزيمة وقع كبير على نفوس أهل القاهرة. فقد خرجوا «للفرجة» على أسرى الإنجليز، عند وصولهم إلى العاصمة يوم ٥ أبريل. ولا ريب أن انتصار أهل رشيد على الانجليز قد أزال الوهم الذى كان مستوليًا على القاهريين، إذ لم يكن أحد منهم يعتقد أن من السهل الانتصار على الجيش الإنجليزى المزود بأسلحة الحرب الحديثة. فقد ذكر الجبرتى أنه «لما شاع

بكنيسة القديس ابو مرقوره بمصر فى السابع عشر
من شهر مسرى سنة الف واربعمائة أربعة وثلاثين
للشهداء [١٧١٨م] الموافق في الرابع والعشرين
من شهر رمضان سنة الف ومائة وثلاثين، وكان فى
ذلك اليوم خير النيل بمصر وكان فرح وبهجة
عظيمة، واقام بمصر نحو جمعة زمان وحضر إلى
القلاية البطركية بحارة الروم على جارى العادة
وأوسم أبينا الاسقف المكرم انبا اثناسيوس على

أخذ (الإنجليز) للإسكندرية، داخل العسكر والناس وهم عظيم، وعزم أكثر العسكر على الفرار جهة الشام، وذلك لأنه «لم يخطر فى الظن حصول هذا الواقع (أى هزيمة الإنجليز فى رشيد) ولا أن الرعايا والعسكر لم لهم قدرة على حرب الانكليز.. وخصوصًا شهرتهم باتقان الحروب».

وحاول فريزر أن يمحو أثر هذه الهزيمة و«استعادة شرف بريطانيا وسمعتها العسكرية» فأرسل حملة ثانية تتألف من ٢٥٠٠ جندى بقيادة الجنرال وليم ستيورات William Stewart ، ولكنها أخفقت كالأولى؛ فاتخذ الإنجليز مواقعهم فى الحماد. وهناك انتظروا من غير طائل مساعدة بكوات المماليك لهم. وفى الحماد انهزم الإنجليز فى معركة كبيرة فى ٢١ أبريل عام ١٨٠٧ ، فاعتصموا بالإسكندرية ، ثم حاولوا تحريك البكوات لمساعدتهم، ولكن دون طائل.

ولما كانت الفكرة السائدة لدى رجال الحرب والسياسة من الإنجليز أنه لا يمكن الاحتفاظ بالإسكندرية من غير الاستيلاء على رشيد، لضمان تموين حامية الاحتلال فى الإسكندرية، بسبب وقوع رشيد على مصب النيل وسهولة الاتصال بطريقها بين داخل البلاد وبين الإسكندرية، بالإضافة إلى ما تبين من أن وجود حامية الاحتلال منعزلة بالإسكندية، وفى حالة

كـرسى اورشليم. وفي تلك الايام حـضـر رسـل من ملك الحبـشـة تطلب لهم مطران فـوسم الاب انبـا اخرسطوطولو اسقف اورشليم سابقا وتوجه صحبة الرسل في البحر من بندر السويس على مدينة جدا [جـده]. وتوجـه هذا الأب إلى الأقـاليم البـحـرية وطاف بهم. وكـان يريد زيارة بيـعـة مـارى مـرقس الانجيلى بالأسكندرية فحصل فتنة بمصر بين واحد صنجق يسـمـا اسـمـاعـيل بك ابن ايواز وواحـد

الضعف التي هي عليها، لا يفيد سوى فائدة ضئيلة في الجهود الحربي في البحر المتوسط، وأن من الواجب أن تشترك بدور إيجابي في العمليات التي تقتضيها استراتيجية المحافظة على المواقع العسكرية البريطانية في هذا البحر وخصوصاً في صقلية، وفي مناوأة الجيش الفرنسي الرابض في إيطاليا، فقد رغبت الحكومة الإنجليزية في سحب حملتها من الإسكندرية.

وقويت هذه الرغبة لدى حكومة لندن، عندما وصلت بريطانيا أخبار المعاهدة التي وقعها نابليون مع قيصر روسيا اسكندر الأول في تلست في يوليه عام ١٨٠٧ لاقتسام النفوذ بينهما في القارة الأوروبية. وخشيت حكومة لندن من إنهيار الإمبراطورية العثمانية ووقوعها في قبضة روسيا وفرنسا، فوجدت من المصلحة عدم الامعان في نضالها مع الباب العالي.

وعلى ذلك، فإن فريزر ما لبث حتى طلب الصلح من محمد علي، على أساس الجلاء من الإسكندرية، مقابل تبادل الأسرى والجرحى، فتم ذلك في اتفاق بتاريخ ١٤ سبتمبر عام ١٨٠٧. وفي ١٩ سبتمبر كان قد تم جلاء الإنجليز عن الإسكندرية.

على أن فشل حملة فريزر كان قطعًا في مصلحة محمد علي. فقد كان من أهم النتائج المباشرة لهذه الحملة، أن تمكن محمد علي من الاستيلاء على الإسكندرية، التي كانت خارجة عن حكمه قبل مجيء الحملة. وفضلاً عن ذلك، فإن تخلص محمد علي من منافسيه وأعدائه بعد زوال خطر الغزو الإنجليزي أصبح مسألة وقت فقط.

صنجق يسما محمد بك(*) جركس فرجع إلى مصر ولم يتوجه إلى الاسكندرية فى تلك السنة وكان المتولى بمصر يومئذ يسما رجب باشا(*) سعوا له جماعة بالمعلم لطف الله بأنه أعمر بيعة الملاك ميخائيل (*) القبلى وبيعة الشهيد ابو مينا بمصر وبالحقيقة أنه أعمرهم من ماله أخير مماكانوا فى الاول لأن بيعة الشهيد ابو مينا ما كانوا يقدروا يدخلوا من بابا الخورس بالنهار إلا بفتيلة فعمرها

(*) انظر الجبرتى جـ١ ص ٢٣٨ وما بعدها وص٣٧٤.

(*) الجبرتى جـ١ ص ٢٤١ .

(*) لعلها كنيسة فم الخليج.

التخلص من الزعامة الشعبية:

فقد كان أقوى منافسى محمد على وقتئذ، هم المشايخ والعلماء أصحاب الكلمة الظاهرة فى القاهرة، والذين وصل دورهم السياسى إلى ذروته فى مطلع القرن التاسع عشر: فهم الذين لعبوا الدور الأكبر فى تولية محمد على، وهم الذين ساعدوه كثيراً فى تخطى العقبات التى واجهته فى السنوات الأولى من حكمه، سواء فى نضاله ضد البكوات المماليك أو فى الإصرار على بقائه فى باشوية القاهرة ضد رغبة الباب العالى عام ١٨٠٦ (أزمة النقل إلى سالونيك) أو فى تحريك جماهير الشعب ضد الغزو البريطانى عام ١٨٠٧ (حملة فريزر).

ولا ريب أن المشايخ والعلماء قد كسبوا من وراء هذا كله نفوذاً سياسيًا كبيراً، مما جعلهم يتمسكون بفرض مشورتهم وإرادتهم على محمد على. وفى غضون عامى ١٨٠٦ و١٨٠٧ لم يبد من جانب محمد على ما يجعلهم يشعرون بأنه لا يريد مشاورتهم. فقد كانت هذه المشاورة ضرورية لاجتياز الأزمات العصيبة التى اعترضت حكمه، والتى استلزمت فرض الضرائب وجمع الاتاوات من الأهلين لسد حاجته من المال، وإرسال الهدايا إلى الباب العالى لتثبيت ولايته، ولدفع متأخرات رواتب الجند.

ولكن محمداً عليا لم ينظر بعين الارتياح إلى ازدياد نفوذ المشايخ والعلماء من جهة، وإلى تمسكهم من جهة أخرى بفرض مشورتهم عليه، لأن هذه المشاورة كانت تتعارض مع رغبته

وبناها كنيسة عظيمة منيره وبنا فيها قلالى للفقراء
وغيرهم وان رجب باشا المذكور اوقع الطلب على
المعلم لطف الله باجتهاد وان جماعة اكابر من
محبين المعلم لطف الله طيبوا خاطر الوزير المذكور
بنحو أربعين كيس ودفعها من عنده من ماله حكم
ما ذكروا ولم يأخذ من الأراخنة شئ وايضا
المصروف الذى اصرفه فى إقامة هذا الاب بطركا
لم يأخذ من أحداً شئ وجميع ذلك من عنده لان

فى الانفراد بالسلطة وحكم البلاد حكمًا مطلقًا. واضطر محمد على إلى مداراتهم لكى يسهموا فى تطويع الأهالى، حتى إذا تم له ما أراد، وثبت دعائم حكمه فى البلاد، ضرب بالشعب وبزعمائه من المشايخ والعلماء عرض الحائط.

ولجأ محمد على فى القضاء على زعامة المشايخ الشعبية إلى طرق متعددة، كاشاعة الفرقة بين صفوفهم وضربهم بعضهم ببعض، واغرائهم على التمتع بملاذ الدنيا وهجر عيشة الورع والتقوى، حتى ينحط حالهم وتزول هيبتهم لدى الشعب. فقد قام محمد على بتوزيع القرى والدساكر التى كانت بأيدى المماليك ودخلت فى حوزة الحكومة على المشايخ وكبار العلماء، فصار لهؤلاء «حصص التزام» كثيرة، ينتفعون «بفائظها» أى بإيراداتها بعد دفع مال الميرى عنها. وتغافل عن انصرافهم إلى إنماء ثرواتهم الخاصة بطرق غير مشروعة، كشرائهم حصص الالتزام بأثمان بخسة من أصحابها الذين عجزوا لسبب أو آخر عن الاحتفاظ بما كان لديهم من هذه الحصص، ثم استغلالهم «لمسموح المشايخ» وهى الأراضى التى امتلكوها وأعفيت من المغارم والشهريات التى صار محمد على يفرضها على القرى.

وكان من نتيجة هذا كله أن استكثر المشايخ من شراء الأملاك والمنازل وما إليها، وعاشوا فى بذخ وترف وجمعوا حولهم الاتباع والخدم، وانصرفوا تدريجياً عن تأدية وظائفهم التقليدية فى المجتمع من حيث وعظ الناس وارشادهم والاهتمام بمشاكلهم والتوسط لقضاء حاجاتهم.

لم كـان في زمـانه من يعـادله في المال وأيضـا في
الجاه وقـوة القلب. وان الشيطان عدو الخيـر خزاه
الله أثار عليـه من قتله وهو جاى إلي بيتـه في يوم
الجمعة حصة الفطور وكان ذلك في شهر مسرى
سنة ألف وأربعـمائة وستة وثلاثين للشـهدا الموافق
سنة الف ومـاية اثنين وثلاثين خـراجيـة[١٧٢٠م].
نيح الله نفسـه وانهم كفنوه ودفنـوه وعمل له هذا
الاب ألف قـداس باسـمـه. ولما كـان في سنة الف

ووصل استغلالهم للنفوذ بسبب علو مكانتهم حدا جعل الجبرتي يسميهم «مشايخ الوقت»، أى الانتهازيين الذين آثروا منفعتهم الخاصة على كل ما عداها.

وبانحطاط حال معظم المشايخ إلى هذا الدرك، لم يعد محمد على يأبه لهم أو يستجيب لنصحهم وإرشادهم. وسرعان ما وقع الاصطدام بين المشايخ وبين محمد على بسبب حاجة الأخير إلى المال. فقد عمد الباشا بعد انسحاب حملة فريزر من الإسكندرية إلى أبطال «مسموح المشايخ»، ثم فرض في أغسطس عام ١٨٠٨ ضريبة ٤٪ على الحبوب والمأكولات. وتدخل المشايخ باسم الأهلين يطلبون من محمد على أن يرفع المظالم بسبب سوء الأحوال الاقتصادية ويذكر الجبرتي أنه عندما قال الشيخ عبد الله الشرقاوى لمحمد على: «ينبغي أن ترفقوا بالناس وترفعوا الظلم»، رد الباشا بقوله: «أنا لست بظالم وحدى، وأنتم أظلم منى، فاني رفعت عن حصصكم الفرض والمغارم إكرامًا لكم، وأنتم تأخذونها من الفلاحين». ولما هدد محمد على المشايخ برفع حصص الالتزام منهم، سكتوا أمام هذا التهديد.

واعتقد المشايخ بالرغم من تهديد محمد على الظاهر لهم، أنه لن يجرؤ على المساس بأكبر مصدر لا يرادتهم، وهو أراضى الوقف والعقارات الموقوفة على المساجد والسبل وبعض طلبة العلم من الفقراء. وكان المشايخ يتنافسون فيما بينهم على الاستئثار بالتنظر على هذه الأراضى والعقارات التى كانت معافة من الضرائب. ولكن محمدا عليا لم يلبث أن قرر في يونيه عام ١٨٠٩ فرض الضرائب عليها وتحصل المال منها، وأمر كذلك بفرض الضرائب على أطيان

ومـاية ثلاثه وثلاثين الخراجيـة توجـه هذا الاب إلى مـدينة الاسكندرية وزار كنيسـة الاب البـشيـر مـارى مـرقس الانجيلى واقام بهـا نحو ستين يوم فى فـرح وسرور وبهـجـة وجاب معه هدية إلى مارى مرقس قنديل فـضة ونحو عـشرين أردب قمح زار وحـصل المراد وحـصـل له جبـر الخـاطر بزيادة من الأراخنة المبـاشـرين بديوان اسكندرية رجع لمصـر بالسـلامـة وكـانت أيامـه كلهـا هادية وشـعبـه مـرتـاح بصـلاته.

الوسية، وهى التى أعطيت للملتزمين وأعفيت أصلا من الضريبة، وذلك نظير قيام هولاء بأعباء الالتزام، وأصدر أيضًا تعليمات بفحص «فائض الالتزام»، وهو المال المتبقى للملتزمين بعد تأدية الميرى للحكومـة. وكـان غـرض مـحـمـد على من هذا كله أن يحـصـل على فـائض إيرادات الأملاك الموقوفة جميعها، ثم على نصف فائض الملتزمين.

ووجد المشايخ والعلماء وطائفة كبيرة من ذوى الأصول الأجنبية ممن اعتمدوا فى معاشهم وبذخهم على ريع هذه الأملاك والأراضى المرصدة عليهم، أنهم صاروا محرومين من مورد ظلوا يتمتعون به من قرون طويلة. فازدحمت أحياء القاهرة بالمتذمرين والمتظاهرين الصاخبين، ومن بينهم السيدات والأطفال، الذين صاروا مهددين بالحرمان من استحقاقاتهم فى الأوقاف أو خيراتها. وقصد المتظاهرون إلى الجامع الأزهر.

وفى ٣٠ يونيه عـام ١٨٠٩ احـتـشـد كـثيـر من النسـاء والأطفـال بالجامع الأزهر، وراحوا يصرخون ويستغيثون، وأبطلوا الدروس، وأرسل المشايخ إلى السيد عمر مكرم[١]، وطالبـوه بالتدخل لانصافهم. وفى أول يوليه اجتمع السيد عمر بالمشايخ، وكان اجتماعًا تحمس فيه

---

(١) مما يذكر أن السيد عمر مكرم حاول أن يستعين بالإنجليز أثناء وجود حملة فريزر بالإسكندرية للتخلص من حكومة محمد على، فاتصل لهذا الغرض بقنصل روسيا والنمسا فى مصر ويدعى «ما كاردل» ولكنه أخفق فى مسعاه، لأن الإنجليز لم يكونوا يريدون التوغل فى البلاد.

وكـــان في ايام هذا الاب ارخن يســمــا المعلم مرقوريوس الشهير بديك أبيض كان يومئذ بخدمة واحد جوريجي اختيار من اكابر مصر يسما ابراهيم جوربجي الصابونجى عزبان(*) وأن الأرخن المذكور كـان ناظراً على كنيسـة السـيـدة المعـروفـة بدير العدوية وأن قدرة الله تعالى أعانته بشفاعة الست السـيـدة واعـمـر الدير المذكور تامه [تمامة] أخيـر منمـا [مما] كـان في الاول ودعى هذا الاب وكـرز

(*) انظر الجبرتى جـ١ ص ٢٥٢.

- -

الأخيـرون «وتعـاهدوا وتقـاسـمـوا على الاتحـاد وترك المنافـرة»، وذلك من أجل الدفـاع عن امتيازاتهم وعظم حماس بعض الحاضرين، فأعلنوا أنه إذا أصر الباشا على المضى فى طريقه الذى يسلكه، وجب عليهم أن يكتبوا فى شأنه للباب العالى، وأن يثيروا الشعب على هذا الطاغية الجديد، وأن يخلعوه من العرش الذى أجلسوه عليه. وكتب المجتمعون عرضحالاً إلى الباشا ذكروا فيه «المحدثات من المظالم والبدع» التى فرضها على كاهل الشعب، وطالبوه برفعها.

ولكن محمدا عليا أغفل أمر هذا العرضحال وتظاهر بعدم الاهتمام به ولم تمض أيام قلائل فحسب، حتى كان هذا البرود البادى من ناحيته قد أشاع القلق فى نفوس عدد من المشايخ. وعمل محمد على فى نفس الوقت للتفرقة بين المشايخ حتى لا يتكتلوا ضده، واستطاع أن يحقق غرضه، بسبب ما بين المشايخ من منافسات وأحقاد، فاستمال إلى جانبه بسهولة الشيخ المهدى والشيخ الدواخلى، ثم الشيخين الشرقاوى وسليمان الفيومى.

وحاول محمد على استمالة السيد عمر مكرم، ولكنه رفض مقابلته، ونعى على المشايخ نقضهم للقسم الذى أقسموه وللعهد الذى قطعوه على أنفسهم بالاتحاد فى وجه الباشا. وحلف السيد عمر بأن «لا يطلع إليه (فى القلعة) ولا يجتمع به ولا يرى له وجها، إلا إذا أبطل هذه

الكنيســة المذكـورة وأيضـا كـرز بيع غيـرها وكـرز
قسوس وشمامسة بكثرة وكان سمح النفس فى
المأكل والمشرب شبه انبا يوانس الذى قبله وكان
يتشبه به فى جميع افعاله وفى الرحمة وغيره وكان
الشعب جميعه فى ايامه بخير وعافية وطمانية
ويتغـايروا فى الرحمـه والاعمـال الصـالحـة
وبالخصوص واحد ارخن يسما المعلم جرجس أبو

الأحدوثات»، وهدد إذا استمر الباشا فى فعاله بأن يحيل الأمر إلى الباب العالى، وأن يؤلب الشعب ويحركه للثورة عليه، وقال: «وكما أصعدته إلى الحكم، فإنى كفيل بإنزاله منه».

ولا ريب أن السيد عمر مكرم كان يعتمد فى موقفه من محمد على على أمرين، أولهما اعتقاده بأنه لا يزال فى وسعه تأليب القاهريين وتحريكهم للثورة ضد الباشا، وثانيهما بقاء نفر من المشايخ والعلماء معه. وكان هؤلاء ضمن من أقسموا على الاتحاد والتآزر فى اجتماعهم الأول فى أول يوليه عام ١٨٠٩، ثم جددوا هذا القسم بعد ذلك. ولكن السيد عمر مكرم كان مخطئا ولا شك فى هذا التقدير، لأن الموقف فى عام ١٨٠٩ كان يختلف عما كان عليه فى عام ١٨٠٥، عندما لعب المشايخ ـ والسيد عمر مكرم على وجه الخصوص ـ الدور الأكبر فى توليه محمد على. ومع أن السيد عمر مكرم ونفرا من المشايخ والعلماء ظلوا موضع احترام وتبجيل أفراد الشب، فقد انقضى العهد الذى كان فيه للمشايخ والعلماء نفوذ كبير على جماهير الشعب، الذين لم يعودوا يتأثرون بتوجيهاتهم، حينما شاهدوا لمصر سيدًا واحدًا بحكم الواقع، ألا وهو محمد على. وفضلاً عن ذلك، فلم يعمل السيد عمر مكرم حسابًا لحقد وحسد أعدائه من المشايخ، الذين صاروا يسعون لنيل عطف الباشا، وعلى حساب السيد عمر مكرم نفسه أضف لهذا أن سلطة المشايخ كانت مستمدة من دورهم الوسيط بين السلطة الحاكمة والجماهير، وقبول الطرفين لهذه الوساطة، ولكن فى عام ١٨٠٩

شحاته من ناحية ابنوب بالصعيد وجاء وتوطن بمصر وكان ارمل وتزوج بأخت المعلم لطف الله وكان اهل رحمة قوى ويصنع خيرات كثيرة مع الفقراء والكهنة وغيرهم ومع ذلك ان ماله كان عند الصناجق بمصر والأغوات، ولما تنيح وجدوا عليه ديون كثيرة نيح الله نفسه واقام هذا الأب بطركا ثمانية سنين وشهورا وتنيح فى شهر برمهات

كان هذا القبول من الطرفين قد سقط سواء من محمد على أو الجماهير، وبالتالى سقط دور وسلطة المشايخ.

ومنذ منتصف يوليه عام ١٨٠٩، استحكمت الأزمة بين محمد على والسيد عمر مكرم، حين طلب الباشا منه التوقيع على مذكرة يعتذر فيها للباب العالى عن دفع المبالغ المطلوبة من جانب السلطنة، للإنفاق منها على تجهيز الحملات التى تقرر إرسالها لمحاربة الوهابيين، والتى أخذ يبين فيها الوجوه التى أنفق فيها أموالاً طائلة منذ وصوله إلى الحكم. ولم يكتف السيد عمر مكرم بالامتناع عن التوقيع على هذه المذكرة، بل راح يطعن فى صحة البيانات التى تضمنتها.

وعندئذ أصدر محمد على فى ٩ أغسطس أمراً بعزل السيد عمر مكرم من نقابة الأشراف ونفيه إلى دمياط. وفى ١٢ أغسطس غادر السيد عمر مكرم القاهرة إلى منفاه فى دمياط. وقال الجبرتى: «وشيعه الكثير من المتعممين وغيرهم يتباكون حوله حزنًا على فراقه» وفى ١٢ سبتمبر كتب المشايخ عرضحالاً فى حق السيد عمر مكرم- بأمر الباشا- لإرساله إلى الباب العالى، وذكروا فى هذا العرضحال أسباب عزل عمر مكرم ونفيه من القاهرة، وعددوا له «مثالب ومعايب وذنوباً عديدة». ومع أن الجبرتى وصف ما جاء بهذا العرضحال بأنه «زور وبهتان»، إلا أنه لم يشعر بعطف على عمر مكرم فى محنته هذه، فعلق على نفيه وتجريده من

سنة الف واربعـــمـــائة اثنين واربعين للشـــهـــدا [١٧٢٦م] الموافق في سنة الف ومـــاية ثمـــانيـــة وثلاثين خراجية وكان ايامها تشويطه [طاعون] ودفن بكنيسة ابو مرقورة بمصر. الرب يرحمنا صلاته، وتنيح ابو شحاته بعده في التشويطه المذكوره. الرب ينيح نفوس الجميع ويرحمنا بصلواتهم أمين.

نقابة الأشراف، ثم كتابة العرضحال في حقه بقوله: «إن من أعان ظالمًا سلط عليه، وإن الذى وقع له بعض ما يستحقه، ولا يظلم ربك أحدًا».

وأيًا ما كان الأمر، فبنفي السيد عمر مكرم تقلص نفوذ المشايخ تمامًا، واختفى دورهم تقريبًا من الحياة العامة في مصر، وخصوصًا الحياة السياسية.

التخلص من المماليك (مذبحة القلعة):

وفي المدة التالية تفرغ محمد على لمناجزة أعدائه البكوات المماليك. وكان هؤلاء هم خصومه الأقوياء ، الذين توقع من جانبهم أعظم الخطر على ذلك البرنامج الذى ارتسمت معالمه بصورة قاطعة في ذهن محمد على منذ عام ١٨٠٧ أى أثناء وجود حملة فريزر بالإسكندرية، والذى استهدف تقرير الباشوية الوراثية في أسرته في مصر منذ ذلك الوقت المبكر، والذى كانت ـ دعامتاه والمكملتان لبعضهما بعضًا: تدبير المال الذى كانت حكومته تتزايد حاجتها إليه بصورة مستمرة[1]، ثم بسط سلطانه الداخلي على كل أنحاء باشويته، الأمر الذى استتبع حتما القضاء على المماليك.

وكان محمد على أثناء وجود حملة فريزر بالإسكندرية قد بدأ مساعى التفاهم والصلح مع بكوات المماليك من بيت الألفى، وأثمرت هذه المساعى ثمرتها المطلوبة في وقوف البكوات

(١) من هنا أخذ محمد على يتفنن في ابتداع الأساليب التى صار يبتز بها المال من كل الطوائف والطبقات.

[يوأنس البطرك المايةوخمسه]

[١٧٢٧ / ١٧٤٥م]

انبا يوانس البطرك وهو الماية وخمسة من العدد هذا الاب من اهالى ناحية ميلوى وطلع إلى دير القديس العظيم انبا بولا وأقام فيه زمانا ولبس الشكل الملايكى واستحق ان يكون قسا وكان اسمه عبد السيد ولما تنيح الاب انبا بطرس الذى

موقف الحياد في أثناء الحرب ضد الإنجليز. ولم يلبث شاهين بك (الألفى) أن أنشق على إخوانه بعد ذلك وفضل الاتفاق مع محمد على، فحضر بأتباعه إلى الجيزة في ديسمبر عام ١٨٠٧، ورحب به الباشا وأقطعه لقاء خضوعه واعترافه بسلطانه: اقليم الفيوم، إلى جانب ثلاثين بلدة من أقليم البهنسا، وعشرة بلاد من أقليم البحيرة. وأثر هذا الصلح والسخاء الذى اقترن به على عدد آخر من البكوات، الذين ما لبثوا أن حذوا حذو شاهين بك.

ووسط محمد على شاهين بك مع سائر البكوات (من بيت مراد والبرديسى) الذين أقاموا بالصعيد: إبراهيم بك الكبير وعثمان بك حسن وشاهين بك المرادى (خليفة البرديسى) وغيرهم. فذهب رسل شاهين بك في ١٦ ديسمبر يعرضون مقترحات الصلح على إبراهيم بك وزملائه، ويحملون إليهم رسائل من شاهين بك، لإقناعهم بالحضور إلى القاهرة والاعتراف بسلطان «سيد القاهرة» الجديد على غرار ما فعل شاهين بك نفسه.

وكان محمد على يعلق آمالاً كبيرة على توفيقه في هذه الخطوة لأسباب عديدة، منها أن الصلح مع البكوات المماليك إذا تم سوف يضع حداً «لشرور المماليك وغوائلهم»، ويمكنه من بسط سلطانه على الصعيد. وكان لخضوع بكوات الصعيد في هذا الحين بالذات أهمية كبيرة، لأن الباب العالى الذى كان قد عهد إليه رسيمًا منذ العام السابق بمهمة «إنقاذ» الحرمين الشريفين من الوهابيين، صار يستعجله الآن بإلحاح متزايد للخروج بجيشه إلى الحجاز كما أن الباب العالي قد ظل يطلب منه منذ وصوله إلى الولاية ـ وكما فعل مع أسلافه منذ صح عزمه

قـبله وقـع الاختـيـار عليه وأرسلوا أحضـروه إلى مصـر وأوسـموه بطـركـا بكـنيسـة الشـهيـد ابو مـرقـوره في بـدو [بـداية] سـنة ألـف واربعمـائة ثـلاثة واربـعين للشـهـدا الموافق سنة الف ومـاية تسـعـة وثلاثـين خـراجـيـة وأقـام جـمـعـة زمـان بمـصـر ورجع القـلاية البطركـيـة بحـارة الروم وحـصل في ايامـه زيادة الجـوالى على النصـارى واليـهـود من ابتـدا سنة الـف ومـاية سبـعـة

على محاربة الوهابيين ـ إرسال الإمدادات من مال ومؤمن ومهمات لمساعدة الدولة، وحرم امتلاك البكوات للصعيد محمداً علياً من إيرادات هذا الإقليم الغني بحاصلاته وغلاله الوفيرة، فهو يستطيع إذا قبل هؤلاء الصلح معه على أساس الاعتراف بسلطاته[1] أن يظفر بإيرادات الصعيد.

واستمرت المفاوضات مدة بين محمد على ومندبى بكوات الصعيد في القاهرة. وحدث في أثنائها أن توفي شاهين بك المرادى بمنفلوط فى ١٦ مايو عام ١٨٠٨، فعين الباشا رئيساً على البكوات المرادية سليم بك المحرمجي فى ١٥ يونيه من العام نفسه، كما قلد مرزوق بك (المندوب الآخر وابن إبراهيم بك الكبير) حكومة جرجا وإمارة الصعيد، مقابل أن يرسل المال والغلال (الميرية) من الصعيد. وفي يوليه غادر كلاهما القاهرة.

وكان تعين سليم بك المحرمجي رئيساً على المرادية (بيت مراد والبرديسى) عملاً جريئاً وخطوة خطيرة ولا شك، لأن البكوات في الصعيد كانوا يسلكون مسلك المستقلين ويتفاوضون كالأنداد مع باشا القاهرة، ولم يحدث قط أن اعتبروا الباشوات الذين تولوا بالقاهرة أو الباب العالى نفسه في الآستانة أن من حقهم التدخل في مسألة تعتبرها هذه الطائفة المملوكية

(١) كان معنى الاعتراف بسلطانه، كما أوضح محمد على نفسه فى شتى المناسبات التى حصلت فيها مفاوضات الصلح، أن يدفع البكوات المال أو الميرى أى الضرائب الحكومية لخزانة الباشا.

واربعين خراجية، الاعلا يدفع اربعمائة نصف فضة وستون نصف فضة براني والاوسط يدفع مائتين نصف فضه وثلاثون نصف فضه براني وقبضوا الجوالي من الأباء الأساقفة والرهبان والقسوس ولم يكرموا أحدا وكان المعينين بقبض ذلك جماعة بشتليه(*) يحضروا في كل سنة من الروم من طرف السلطنة الشريفة معينين بقبض ذلك وكانت ايام

(*) البشتليه: جمع باشت أوباشا ولعلها هنا جمع «باشي أغاء وكان بعضهم يأتي من دار السلطنة العثمانية لجمع الأموال من مصر.

العسكرية مسألة عائلية، ومن أخص شئونهم وحدهم. فكان معنى تدخل محمد على الآن في هذه المسألة أنه قد صار لديه من القوة ما يجعله قادراً على هذا التدخل.

ولكن هذا التدخل أدهش البكوات، بل وأثار في نفوسهم الخوف في الوقت نفسه، لأنه كان المرة الأولى التي يحدث فيها هذا التدخل من «أجنبي» عنهم في شئونهم، ولأنه كان يدل على أن «السلطة» الجديدة قد بلغت درجة من الاستقرار والقوة جعلتها «تجرؤ وتتجاسر» وهي في مكانها البعيد في القاهرة على اتخاذ هذه الخطوة. وأحدث هذا الخوف أثره فقد ثار عديدون من البكوات ضد تعيين سليم المحرمجي رئيساً للمرادية غير أنه لم يلبث أن تغلب رأى فريق آخر رأى من الحكمة ـ تجنبًا لاتساع شقة الخلاف بينهم ـ تلافى الموقف باختيار سليم المحرمجي والتصديق على تعيينه.

ومع ذلك، فقد امتنع البكوات عن دفع الميرى المطلوب منهم لا نقداً ولا عيناً (أي غلالا). وكرر محمد على مطالبتهم بالدفع ولكن دون جودى. وظن البكوات أن في استطاعتهم التأثير على الباشا بالهدايا وبذل الوعود الطيبة فحسب حتى يعدل عن تشدده، ولكنه ظل مصمما على مطالبتهم بالوفاء بعهودهم، وهدد في آخر الأمر بإرسال تجريدة ضدهم، وشرع في تجهيزها فعلاً. ولم يكن البكوات حتى شهر مارس عام ١٨٠٩ قد أوفوا بعهودهم، بل استمروا يسعون للتخلص من التزاماتهم.

واخطأ البكوات بعدم الوفاء بعهودهم خطأ كبيراً، لأن محمداً عليًا في أبريل عام ١٨٠٩

شــدة وحزن على كامل الفقرا وأرباب الصــناعة، وأيضـا حصل غـلا شـديد فى سنة الف ومـاية اثنين وخـمــسين وســنة الــف ومــاية ثلاثة وخـمــسين وانبيع القمح الأردب المــصرى(*) بســتــة دهــب محــبوب كل ويــبة دهب محبوب وقاسوا الخلق شدايد صعبة خصــوصا النصــارى الفقــرا هــام [هــمّ] من الغلا وهام من طلب الجوالى بلا رحمة وكـان بمــصـر يومـئـذ أراخنة محبين فى المسيح:

(*) الاردب المصرى يساوى ستة ويبات.

كان قد بسط سلطانه فى القاهرة تمامًا وعلى الوجه البحرى بأجمعه والإسكندرية. زد على ذلك أن الباب العالى فرغ نهائيًا ـ كما أبلغ الباشا فى مايو عام ١٨٠٩ ـ من وضع الخطة اللازمة لمحاربة الوهابيين، وطلب من محمد على أن يتحرك للهجوم على جدة وينبع. وإزاء هذا التبليغ وخروج مشروع حملة الباب العالى ضد الوهابيين إلى حيز الوجود، لم يعد هناك مناص من إرغام البكوات على الخضوع والوفاء بالتزاماتهم، عندها توقع محمد على أنه سوف يضطر بدوره إلى إرسال جيشه إلى الحجاز عاجلاً أو آجلاً.

وعلى ذلك، فقد واصل محمد على فى إنجاز تجهيزات حملته ضد البكوات وفرغ من ذلك فى أواخر أغسطس عام ١٨٠٩. وفى خلال العام التالى (١٨١٠) اشتبك محمد على معهم وانتصر عليهم فى معركتى اللاهون (يوليه عام ١٨١٠) والبهنسا (أغسطس عام ١٨١٠). وفى أول سبتمبر عاد محمد على القاهرة. «وفى صبيحة ١٤ سبتمبر دخل العساكر القاهرة وبصحبتهم الكثير من الأجناد المصرية (البكوات) أسرى ومستأمنين».

ورحب محمد على بالبكوات الذين انشقوا على إخوانهم، وأغدق العطايا عليهم، وأسكنهم الدور بالقاهرة. ولكن هؤلاء «المستأمنين» من البكوات لم يلبثوا أن نقضوا عهودهم، فاستأنفوا مؤامراتهم ضد الباشا، وصاروا يتراسلون مع البكوات بالصعيد. فكان غدر «مستأمنى» البكوات، بالإضافة إلى عوامل أخرى، من الأسباب التى جعلت محمدًا عليًا يقرر فى مطلع عام ١٨١١ أن ينزل بهم ضربة ساحقه لا تقوم لهم قيامة بعدها.

المعلم نيروز والمعلم زرق [رزق] الله البدوى والمعلم بانوب الزفتاوى وغيرهم. كانوا يشروا الفقرا شراوى من حبس الجوالى ويخلصوهم. وايضا فى سنة الف وماية خمسة وخمسين الخراجية حصل فتنة بمصر مع واحد صنجق يسما عثمان بيك من اكابر مصر وقاموا عليه جماعة العسكر فطلع هاربا إلى الوجه القبلى ونهبوا بيته وبعد ذلك رجع إلى الديار الرومية ولم تزل مصر واهلها فى تعب

واستطاع محمد على بالفعل أن يدبر لهم مذبحة القلعة المعروفة، عندما جاءته الدعوة من الباب العالى لإرسال الحملة للقضاء على الوهابيين فى بلاد العرب. فدعا زعماء المماليك (الأمراء المصرية الألفية) ـ بالإضافة إلى كبار العسكر والأعيان وكل ذى حيثية ـ للطلوع إلى القلعة، من أجل الاحتفال بتقليد ابنه طوسون القيادة العامة لحملة الحجاز، وأوقع بالبكوات فى أول مارس عام ١٨١١.

وبمجرد أن انتشر خبر هذه المذبحة المروعة، قتل من المماليك عدد عظيم فى القاهرة والأقاليم[1]، وفى العام (١٨١٢) أوقع إبراهيم ابن محمد على بالمماليك فى مذبحة أخرى كبيرة فى إسنا.

ولقد كانت مذبحة القلعة من الناحية القومية ذات أضرار بالغة، لأنها ألقت الرعب والفزع فى قلوب المصريين، حتى أن أحداً من أفراد الشعب ما عاد يتصدى لمعارضة محمد على طوال المدة التى قضاها فى حكم البلاد.

(١) تبقى من بكوات المماليك بعد مذبحة القلعة والفتك بهم فى الأقاليم حوالى الخمسمائة أو الستمائة فحسب. ومع أن هؤلاء لم يلبثوا أن تجمعوا فى أعالى الصعيد، وظلوا مثابرين على مناوأتهم لمحمد على ورجاله الذين تسلموا الحكم فى الصعيد، إلا أنه سهل على محمد على إخماد حركهم تماماً وتشتيت ما بقى من فلولهم، ثم إرغامهم فى النهاية على التشرد إلى السودان انظر ترجمة إبراهيم بك الكبير فى الجبرتى: (عجايب الآثار جـ٥ ص١٢٧٨) وكذلك ترجمة أحمد بك الألفى ص ١٤٨٥. تحقيق: عبد العزيز جمال الدين.

وضـنك وشـدايد صـعـبـه والرب الاله يتـحنن
عليـهم برحـمـتـه واقام هذا الاب بطركـا ثمانيـة
عـشـر سنة وشـهـورا وتنـيح فـى يوم اثنين
البـصـخـة ثالث عـشـر شـهـر برمـوده سنة الف
وأربعمائة واحد وستين الموافق في سبعة عشر شهر
ربيع الأول سنة الف وماية سبعة وخمسين هلالية
ودفن بكنيسـة ابو مـرقـوره بمصـر الرب يرحـمنا
بصلاته آمين.

كان من نتائج هذه المذبحة، أن دخلت أقاليم مصر الوسطى والصعيد فى حوزة محمد على نهائياً، وأن استأصل محمد على شأفة بكوات المماليك من مصر إلى الأبد.

مذبحة المماليك بالقلعة

[مرقس البطرك المايه وسته]

[١٧٤٥ / ١٧٦٩م]

مرقس البطرك وهو الماية وستة من العدد هذا الأب من أهالي ناحية قلوصنا [قويسنا] من أعمال ولاية البهنسا وكان اسمه سمعان طلع إلى دير القديس العظيم انبا بولا وهو شاب صغير أقام فيه مدة وكان يتردد من دير الاب انطونيوس إلى دير القديس انبا بولا ولبس الشكل الملايكي واستحق

محمد على وبناء دولته

السياسة الداخلية

لم تكن علاقة السلطان العثماني بمحمد علي والي مصر علاقة طيبة منذ البداية، بل كانت علاقة تقوم على التباغض والنفور، مما جعل السلطان يحاول التخلص من واليه وابعاده عن مصر، فأرسل لهذا الغرض القبطان باشا يحمل أمر نقل محمد على إلى سالونيك (١٨٠٦) لولا تدخل المشايخ والعلماء وتفرق كلمة بكوات المماليك وبذل المال، حتى انتهى الأمر بتثبيت الوالي الجديدفي ولايته، سواء رغب في ذلك الباب العالي أم لم يرغب.

ولذا فقد عزم محمد علي على تدعيم وتثبيت الولاية المصرية في شخصه وفي أسرته، حتى يخفف من تدخل الباب العالي في شئونها كما كان يفعل في الماضي، غير أن تنفيذ هذه الأغراض كان يتطلب توطيد حكومته في البلاد وتنمية مواردها، حتى يأمن شر القلاقل والاضطرابات في الداخل، حتى يعينه المال الوفير على أن يتبع سياسة نشيطة في الخارج، ومن ثم كان اهتمامه بأن يجعل مصر دولة قوية وأن يصلح مرافقها وينمي ثروتها.

ولما كانت هذه أغراضه، إلى جانب ما عرف عنه من نزعة أوتوقراطية تعتمد على بيروقراطية نشطة، فقد كانت من المنتظر أن ينهج محمد على في حكومته نهج الحاكم «المستبد المستنير»، أي الحاكم الذي يقوم بكافة أعباء الحكومة في الدولة الحديثة النشأة

أن يكون كاهنا ولما تنيح انبا يوانس الذى كان قبله وقع الاختيار عليه فارسلوا أحضروه إلى مصر واوسموه بطركا فى اليوم الرابع والعشرين من شهر بشنس سنة ألف واربعمائة واحد وستين الموافق إلى سنة ألف ومايه سبعة وخمسين [هلالية] وأقام سنتين والعسكر هادين بمصر وبعد ذلك حصل فتنة عظيمة بين العسكر بمصر. وقتل فيها خليل بيك امير الحاج وعلى بيك الدمياطى الدفتردار وعمر بيك غيطاس ومحمد بيك ذاده[زاده] وهربوا

والتكوين، ويضطلع بكل مسئولياتها، معتمداً على أساليب الحكم المطلق دون الاستناد إلى سلطة الشعب.

والواقع أن محمداً عليًا لم يبتكر نوع هذه الحكومة ابتكاراً، بل كانت «الملكية المستبدة المستنيرة» هى قوام الكيان السياسى الأوروبى حتى انفجار الثورة الفرنسية فى عام ١٧٨٩. وكانت محاولات الطبقة البورجوازية من أجل ا لاشتراك فى الحكم وانشاء الحكومات الدستورية والبرلمانية ما تزال فى مراحلها الأولى فى جميع الدول الأوروبية، باستثناء انجلتر التى استطاعت إجراء الإصلاح النيابى المعروف فى عام ١٨٣٢ بعد تاريخ دستورى حافل.

ولما كانت الإدارة المصرية فى أواخر العهد العثمانى المملوكى قد استحالت إلى ضرب من الفوضى والفساد، فقد كان من الطبيعى أن يوجه محمد على عنايته إلى تنظيم إدارة البلاد فى مركزية بيروقراطية، على أساس أن هذا التنظيم من شأنه أن يمكنه من السيطرة على البلاد وتحقيق أغراضه.

أولاً: التنظيم الادارى:

وقد بدأ محمد على بإنشاء إدارة قوية، فمسح الأراضى المصرية عام ١٨١٣، وقسم القطر إلى سبع مديريات، وكل مديرية منها إلى مراكز بلغت جميعها أربعًا وستين، وقسم المراكز إلى أقسام أو أخطاط، وهذه إلى نواح أو قرى، فكفل له هذا التقسيم الجديد الإشراف التام على

جماعة من الامرا الصناجق إلى الصعيد وهم الامير عمر بيك وأخيه و حسن بيك تابع ابراهيم بيك وعمر بيك حاكم بجرجا [جرجا] التم عليهم واقاموا مدة ثمانية شهور بالصعيد وذلك في سنة الف وماية واحد وستين هلالية [١٧٤٨م] وبعد ذلك اهتم به شيخ العرب همام وجهزلهم قومانية من قمح ودقيق وسمن وعسل وغيره وارسلهم إلى بلاد الحجاز في المراكب من بندر القصير السامي وبعد ذلك أيضا لم تزل الفتنه إلى

إدارة البلاد. إذ كانت الحكومة المركزية في القاهرة تشرف على المديرين في المديريات، وهؤلاء يشرفون على مأموري المراكز، والمأمورون يشرفون على النظار في الأخطاط وهكذا.

كذلك أعاد محمد على في عام ١٨٢٤ تنظيم الحكومة المركزية في القاهرة، فأنشأ الديوان العالي برئاسة الكتخدا بك (وهو نائب أو وكيل الباشا). وعرف هذا الديوان بأسماء أخرى، منها مجلس القلعة وديوان الخديوى، وكانت مهمته البحث في شئون البلاد الداخلية. ورغم نزعة محمد على الأوتوقراطية، فقد أنشأ عام ١٨٢٩ مجلس المشورة (أو الشورى). وكان يتألف من كبار موظفي الحكومة والعلماء والذوات أو الأعيان، وينعقد مرة واحدة في السنة، لاستشارته في مسائل الإدارة والتعليم والأشغال العمومية.

ولم يكن الديوان العالي ومجلس المشورة هما كل ما أنشأه محمد على من هيئات تعاونه في إدارة الشئون العامة، مع احتفاظه لنفسه بالرأى النهائي في جميع تلك المسائل، بل أنشأ عام ١٨٣٤ مجلسًا سمى «بالمجلس العالي»[١]، ثم عدة دواوين ألفها على التعاقب لكل فرع من فروع الحكومة، فكان منها ما اختص بشئون البحرية والحربية والتجارة والمدارس والشئون الخارجية... إلخ.

(١) كان يتألف من نظار الدواوين ورؤساء المصالح، واثنين من العلماء، واثنين من التجار، واثنين من الأعيان عن كل مديرية من مديريات مصر السبع.

ان الله رحم عباده وازال هذه الشدة. و ان في يوم
الخميس المبارك الذى هو الثانى عشر من شهر
بشنس المبارك سنة الف واربعمائة خمسة وثمانين
قبطية للشهدا الاطهار الموافق إلى احدى عشر شهر
محرم الحرام سنة الف ومايه ثلاثة وثمانين هلالية
تنيح الاب الفاضل المكرم انبا مرقس بطريرك
المدينة العظمى الاسكندرية والحبشة والنوبة بكنيسة
الست السيدة والدة خلاص العالم بدير
العدوية فى ثانى ساعة فى ذلك اليوم كان عيد

وفى يوليه عام ١٨٣٧، أصدر محمد على اللائحة الإدارية الشهيرة «بالسياستنامة» لتنظيم شئون الحكومة الداخلية وتوزيع الاختصاصات والأعمال بين دواوينها ووزاراتها إذا جاز لنا أن نستخدم تعبيرا حديثا. وقد حصرت تلك اللائحة الدواوين فى سبعة، هى: الديوان العالى (أو الخديوى)، وديوان الإيرادات، وديوان الجهادية، وديوان المدارس، وديوان البحر، وديوان الأمور الأفرنكية والتجارة المصرية، وديوان الفابريقات.

وفى عام ١٨٤٧ ألف محمد على «المجلس العمومى» للنظر فى شئون الحكومة العامة، على أن تعرض قراراته على هيئة أخرى هى «المجلس المخصوص» أو الخصوصى، ووظيفته إلى جانب بحث الشئون المدنية الكبرى، سن اللوائح والقوانين وإصدار التعليمات للمصالح المختلفة، فإذا وافق هذا المجلس على قرارات المجلس العمومى، أحالها على الباشا ليأمر بتنفيذها، إذا نالت من لدنه الموافقة.

ثانيا: السياسة الاقتصادية:

ولقد أعان التنظيم الإدارى البيروقراطى الآنف محمداً عليا على أن يجمع السلطة فى يده، وأن يتجه إلى العناية بترقية شئون البلاد، مثله فى ذلك مثل الحكومات المستبدة المستنيرة فى أوروبا. فوضع برنامجًا للأصلاح واسع النطاق يقتضى نفقات طائلة، مما جعله يهتم منذ البداية بموارد البلاد ودخلها خاصة.

ستنا العفيفة الفاضلة فى الكرامة الست دميانة وتذكار رئيس الملائكة ميخائيل رئيس طغمات السموات ونياحة الشهيد العظيم يوحنا فم الذهب. وفى ذلك الساعة نظر الاب الفاضل المكرم البطريرك عند طلوع الروح من الجسد الابا القديسين انطونيوس وانبا بولا. وانتقل الاب البطريرك من كنيسة الست السيدة بدير العدويه وهو متنيح حملوه الاخوة المسيحيين إلى دير الشهيد العظيم كوكب الصبح المنير العظيم فى

وكما أن محمدا عليا أخذ نظام الحكومة المركزية عن العصر الذى عاش فيه، فقد أخذ عنه فى سياسته الاقتصادية مبدأ «الاكتفاء الذاتى»، وهو شديد الارتباط بالنظام التجارى The Mercentile System الذى ظلت الحكومات المستبدة فى أوروبا تعتمد عليه فى انعاش نشاطها الاقتصادى واستثمار مواردها الداخلية وإنماء علاقاتها التجارية مع غيرها من البلدان المجاورة حتى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر.

وخلاصة هذا النظام أن الدولة يجب أن تصدر إلى جاراتها أكثر مما تستورد منها، لأن دخل الدولة يزيد بقدر من المال يوازى الفرق الناتج عن زيادة الصادرات على الواردات، ويعتبر هذا الفرق ربحا للدولة المصدرة وخسارة على الدولة المستوردة، ودليلاً على أن الميزان التجارى فى مصلحة الأولى وضد مصلحة الثانية ولما كان هذا النظام يقوم على تشجيع التصدير بكل الوسائل والحد من الاستيراد بشتى الطرق، فقد اقترن بإقامة الحواجز الجمركية العالية وفرض المكوس وغير ذلك من الأمور التى يقتضيها العمل بمبدأ حماية التجارة.

ولقد كان زوال ذلك النظام التجارى يسير فى النصف الأول من القرن التاسع عشر بخطى وئيدة وانية فى القارة الأوروبية، بسبب ذيوع وانتشار مبادئ آدم سمث Adam Smith الاقتصادية الحرة من ناحية، وحدوث الانقلاب الاقتصادى الذى كان يقتضى تدبير وسائل جديدة لسد حاجات الصناعة الحديثة الناشئة من ناحية أخرى. واذا كانت هذه الحال فى أوروبا، فلم يكن غريبًا إذن ومصر بعيدة عن ميدان الانقلاب الصناعى، أن تأخذ الحكومة

الشهدا الشجيع البطل سيدى الملك مارى جرجس بدير البنات بات الأب البطريرك وهو متنيح تحت أيقونة الشهيد العظيم بالغداه [بالقراءة] والصلوات والبشاير ومزامير النبى داوود الكبار. وفى صبيحة يوم الجمعة الذى هو الثالث عشر من شهر بشنس سنة الف واربعماية خمسة وثمانين قبطية حضروا اليه الآباء المطارنة الاب المكرم انبا يوساب مطران الحبشة وذلك الاب المذكور مقسوم بيد الاب البطريرك قبل نياحته بستة أشهر والاب المكرم انبا

المصرية مجاراة لروح العصر بالنظام التجارى فى سياستها الاقتصادية، كما اعتمدت على المركزية فى إدارتها.

وترتب على العمل بمبدأ «الاكتفاء الذاتى» الشديد الارتباط بالنظام التجارى، أن صارت الحكومة المصرية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر تعتمد فى إنماء ثروة البلاد، على ثلاث مصادر أساسية:

١ – الأرض وما يتصل بها من شئون الملكية والعناية بالرى.

٢ – الاحتكار التجارى وما ارتبط به من ضرورة الهيمنة على وسائل النقل.

٣ – الضرائب ويدخل فى هذا الباب ما جمعته الحكومة من احتكاراتها المتعددة.

***

لهذا كله اتجه محمد على أولا إلى تدعيم قوته فى مصر والاحتفاظ بها لشخصه ولذريته من بعده، وذلك بالنهوض بالبلاد وتنمية مواردها، وبناء جيش حديث يدعمه قوة المال والعلم الحديث، يفتح به إمبراطورية كبيرة فى اسيا وفى إفريقية، فيصبح بفضل فتوحه الجديدة قوة لا تتمكن الدولة من ابتلاعها، ويدرأ عن نفسه خطر التقسيم وضياع مصر من قبضته من جهة، ويسبق من جهة أخرى الدول الاوروبية ذاتها بفضل قوته الجديدة إلى طرح المسألة الشرقية على بساط البحث من جديد، بهدف التوصل إلى حل يكفل له الاعتراف بامبراطوريته الحديثة وراثية فى ذريته، سواء تم ذلك فى نطاق الدولة العثمانية أو خارجا عنها.

بطرس مطران الوجه القبلى اختاره الاب البطريرك خوفا على الرعية ليرعا قطيعه الصالح خوفا عليهم من الدياب الخاطفة، وكامل القمامصة والقسوس والأراخنة والمعلمين وكامل الشعب المسيحيين ماشين على اقدامهم والكهنة بيدهم المجامر بالبخور الذكى والاطياب الفاخرة ولابسين البرانس من دير الشهيد العظيم مارى جرجس إلى دير الشهيد العظيم محب ابويه مرقوريوس ابو السيفين وعملوا الاباء المطارنة والقمامصة والقسوس إلى

ولكن محمداً علياً ما لبث أدرك فى السنوات الأولى من حكمه معارضة الدول له إذا هو أقدم على الانفصال عن تركيا، مما كان له أثره فى علاقاته المستقبلة مع الدولة العثمانية من جانب ومع الدول الأوروبية من جانب آخر خصوصا انجلترا وفرنسا. ولذا تأثرت سياسة محمد على الخارجية باعتبارات عديدة جعلت من السهل تميزها إجمالا فى دورين : الدور الأول من تاريخ وصوله إلى الولاية حتى عام ١٨٣٠ تقريبا، عندما استقلت اليونان وانفصلت نهائيا عن السلطنة العثمانية،والدور الثانى وينتهى بأزمة حكمه العصيبة عام ١٨٤٠، وهى الأزمة التى أسفرت عن تحقيق مآرب محمد على الجوهرية بضمان الولاية الوراثية لذريته من بعده، ولكنها أخضعت مصر من جهة أخرى لنفوذ الوصاية الأوروبية».

فقد انصرفت همة محمد على فى الدور الأول - لاستمالة السلطان صاحب السيادة الشرعية عليه، حتى يطمئن إلى إستقرار حكومته وصيانة ولايته، فلم يدخر وسعا فى مرضاته، وسير الحملات للقضاء على الثورات التى نشبت فى أطراف السلطنة المترامية. وكان يرجو من وراء ذلك أن تتسع رقعة ممتلكاته وأن يقوى مركزه بفضل فتوحه الجديدة تحقيقا لغرضه الأعلى.

وفى خلال الدور الأول، كان السلطان مرتاحاً إلى ولاء محمد على وإن لم يرغ مطلقا لزيادة قوة تابعة، فلم يشأ إذن أن يضم إلى الباشوية المصرية أملاكا جديدة، ومن ثم فقد تحرجت العلاقات تدريجيا بين السلطان وتابعه حتى ساءت تماما خلال الدور الثانى.

وفى الدور الثانى ازدادت متاعب محمد على بسبب سوء علاقته مع الباب العالى، أولا

ذلك الاب البطريرك بما يصلح بالآباء البطاركـة وقبـر فى ثانى ساعـة من يوم الجمعة، وذالك الاب كـان اول قـسمتـه فى اليـوم الرابع والعشـرين من شـهـر بشنس سنة الف واربعـمـائة واحـد وسـتين للشـهـدا الاطهـار يوم دخـول السـيـد أرض مـصـر ونياحته فى اليوم الثانى عشر من شهر بشنس سنة ألف واربعـمائة خمسة وثمانين قبطية ومدة حياة الاب البطريرك على الكرسى المرقـــسى أربعـــة وعشرين سنة وثلاثة اشهر واربعة عشر يوما وقاسا

بسبب العداء الدفين الذى أضمرته له انجلترا، منذ أن رأت فى ازدياد قوته من أول الأمر خطراً يهدد أطماعها فى بلاد العرب وفى الحبشة، ويرمى بتركيا إلى فوضى الإنحلال، ويهدد مواصلات الامبراطورية البريطانية فى الشرق، كما يمهد لانتشار النفوذ الفرنسى فى مصر وفى ممتلكاتها، وللنفوذ الروسى فى آسيا وأوروبا عموما.

وفى خلال الدور الثانى، لم يتصور محمد على مستقبل مصر السياسى كوحدة قائمة بنفسها، ولكنه رسم ذلك المستقبل على أساس تكوين ملك واسع منفصل من جثمان الدولة العثمانية، ويتألف من مصر والسودان وبلاد العرب والشام والعراق.

ولقد دل نشاط إبراهيم باشا الحربى ـ خلال الدور الثانى خصوصا ـ على أن محمداً عليا إنما كان يسير بخطوات حثيثة نحو إنشاء هذه الإمبراطورية الكبيرة، فكتب باركر Barker القنصل الإنجليزى إلى حكومته فى يناير ١٨٣٢ : «إن محمداً عليا إنما يهدف مباشرة إلى دعم سلطانه فى باشوية عكا وباشوية دمشق، كما يعمل لبسط نفوذه على حلب وبغداد وجميع تلك الأقاليم».

وأياما كان الأمر ، فقد كان محمد على طوال هذه الدور ـ كما كان الحال خلال الدور السابق ـ يعتمد على صداقة فرنسا وعطفها فى نزاعه السياسى مع تركيا وبريطانيا، بينما كان دوما يسعى لاستمالة الإنجليز بمختلف الوسائل ولكنه لم يوفق فى هذا المسعى الأخير، فى حين

الاب البطـريرك المتنيح المذكـور فى ذلك الأيام أهوالا لا يحـصى لها عـدد تارة من الخلفا وتارة من الشـعب الملتـوى الاعـوج، ولو شـرحنا لكم ذلك لطال الشـرح ونسـأل الاهنا ومـتـولى خـلاصنا بشـفـاعـة ذات الشـفـاعـات مـعـدن الطهـر والجـود والبـركـات سـتنا الشـريفـة البـتـول الزكـيـة والدة خـلاص العـالم بصلوات هذا الاب نحن واياكم يا أباى واخوتى آمين.

أنه لم يلق التأييد الكافى من فرنسا، بسبب الخطة السياسية التى اتخذتها حيال المسألة الشرقية، وخصوصا عندما وجهت عنايتها إلى أنتشال السلطنة العثمانية من براثن روسيا القيصرية بعد معاهدة هنكاراسكلسى Uasisr - Skelessi المشهورة فى عام ١٨٣٣، فتركت محمداً علياً فى كفاحه المنفرد ضد تركيا وضد انجلترا حتى كانت حرب الشام الثانية وتقهقر الجيش المصرى بقيادة ابنه ابراهيم من سوريا وتعرضت الولاية المصرية ذاتها للخطر، فأسرعت فرنسا عندئذ لملافاة ما أهملت، وتمكن محمد على فى النهاية ـ بفضل تدخلها ـ من الحصول على فرمانات عام ١٨٤١ التى حفظت له ولذريته الولاية الوراثية فى مصر.

ولماكان فرمان ١٣ فبراير ١٨٤١ الخاص بالولاية فى مصر يتضمن قيوداً بشأن ترتيب الوراثة وتقدير الجزية، فقد تدخلت الدول ثانية وأرغمت الباب العالى على تعديله فى مصلحة محمد على، فأصدر بموافقة الدول فرمانا نهائياً فى أول يونيه ١٨٤١ يجعل الولاية من حق الأكبر من أولاد وأحفاد محمد على الذكور[1]، ويحدد قيمة الجزية السنوية (٨٠,٠٠٠ كيس) وعدد الجيش (١٨,٠٠٠ جندى) والتعيينات العسكرية أو الرتب فى الجيش، فصار للوالى الحق فى منح الرتب العسكرية لدرجة القائمقام، فى حين منع من بناء السفن الحربية من غير موافقة السلطان.

(١) أى انتفاء حق الاختيار الذى كان للسطان بموجب فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ ولكن على شريطة أن يصدر التقليد بالولاية دائماً من الباب العالى.

[يوحنا البطرك السابع من بعد المايه]

[١٧٧٠/ ١٧٩٦م]

انبا يوحنا البطريرك وهو السابع من بعد الماية من عدد البطاركة ومن أمره أنه كان راهباً فى دير القديس انبا انطونيوس فلما توفى سلفه الأب مرقس أجمع رأى العموم على تكريسه بطريركا فكرس سنة ١٤٨٦ للشهداء الموافقة لسنة ١٧٧٠ مسيحية. ولا تسأل عما اصابه واصاب شعبه من

---

* اهتم محمد على بتحويل أراضى رى الحياض إلى الرى الدائم لزراعة الأرض أكثر من مرة فى السنة لزيادة انتاجها.

* مراد بك وخاتمه

البلاء الفادح الذى حمله على أن يتوارى ويختفى هربا من ظلم الحكام وجور الولاة الذين اثقلوا كاهل المسيحيين وشددوا الوطأة خصوصا بزيادة الضرائب ونخص بالذكر من تلك المصائب ما هو بالاجمال. لما عزم ابراهيم [بك و] مراد [بك] شيخا مصر من المماليك أن يستقلا بالحكومة بغير أن يبقى للباب العالى أعنى الدولة العثمانية فيها يد وطردوا وزير السلطنة وعلما أن الدولة لا تسكت بل تشهر سيف الحرب عليهما شرعا يضربان

نقدالتسوية

ولقد استمرت مصر بفضل هذا الفرمان «مقاطعة» من مقاطعات السلطنة العثمانية، بالرغم اعطاء الحكم الوراثى فيها إلى أسرة محمد على.وكان على الولاة أن ينفذوا كافة المعاهدات التى يعقدها الباب العالى مع الدول الأخرى، وأن يتبعوا فى حكومتهم الداخلية المبادىء التى تضمنها خط شريف كلخانة الصادر فى ٣ نوفمبر ١٨٣٩ ، وهو أول عهد دستورى أصدره السلاطين العثمانيون(١). فإذا أخل الولاة المصريون بإحدى شروط هذا الفرمان. ألغيت منحة الحكم الوراثى تماماً.

ويلاحظ حول التسوية الدولية التى وضعت للمسألة المصرية ما يلى:

أولا: إن الدول نجحت نهائياً فى تقرير المبدأ الجوهرى الذى أرادت منه خدمة مصالحها الذاتية قبل أى اعتبار آخر، وهو بقاء مصر جزءاً من أجزاء الامبراطورية العثمانية ، لأن الحكم الوراثى الذى أعطى لأسرةمحمد على فى نطاق الدولة العثمانية،كان لا يتعارض فى نظرها مع مبدأ المحافظةعلى سلامة الامبراطورية العثمانية.

(١) كان خط شريف كلخانة يكفل الحريات والضمانات التى أعطيت للشعوب العثمانية، ويتضمن برنامجاً لإصلاح الإدارة فى أقاليم الامبراطورية على قواعد جديدة تؤمن الأفراد على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم، وتجرى بمقتضاها فرض وجباية الضرائب بطريقة عادلةومنظمة، ثم اتباع طريقة منظمة فى التجنيد مع تحديد مدة الخدمة العسكرية.

على المصريين الضرايب الفادحة بصفة تشبه النهب والسلب فتضايقوا واستغاثوا ولا ساعة مغيث. لكن خطوة الظلم التى خطاها المماليك لم تكن لتعد شيئا بازاء ماصنعه حسن (*) باشا لما حاربهم وانتصر عليهم ودخل إلى القاهرة فائزا. فصنع عسكره ما تأبى ذكره النفس وينكره العقل. فانهم وطأوا بيوت المسيحيين وفضلا عن انتهاكهم حرمة الأدب ونقضهم ناموس الانسانية فى اساءة تصرفهم مع النصارى فانهم احضروا امتعتهم على

(*) الجبرتى جـ٣ ص ٢٤٤ وما بعدها حتى ص٢٥٦.

* السلطان عبد الحميد الأول تولى من ١٧٧٤/١٧٨٩م.

ثانياً: إن الدول الأوروبية اشتركت اشتراكاً فعلياً فى تحديد «الوضع» Status النهائى الذى كفلته تسوية ١٨٤٠ - ١٨٤١ لوادى النيل بشطريه: مصره وسودانه.وقد اكتسبت هذه «التسوية» صبغة دولية ظاهرة، بمعنى أنه إذا كانت معاهدة لندن والعقد المفرد الملصوق بها ـ وهما أساس التسوية ـ قد صار إبرامهما باتفاق دولى، فان اتفاقاً جديداً بين الدول الأوروبية الكبرى، هو وحده الذى يجرى بمقتضاه تعديل الحقوق والامتيازات التى أوجدتها معاهدةلندن والعقد المفرد.وبعبارة أخرى،فكما يقول دى مارتنس de Martens وهو من كبار علماء القانون الدولى ـ إن الوضع الذى صار لحكومة مصر كما حددته وعينته معاهدة لندن فى ١٥ يوليه ١٨٤٠ يظل قائماً ولا يمكن المساس به اطلاقاً، ولابد من حصول اتفاق الدول سلفاً حتى يمكن تعديله أو إبطاله والغاؤه.

ثالثاً: وضعت التسوية مصر تحت الإشراف أو الوصايا الأوروبية، حيث كان فى مقدور الدول الأوروبية وحدها تغيير أو إلغاء الوضع الذى صار لمصر بموجب هذه التسوية ذاتها، أضف إلى هذا أن من بين المعاهدات والاتفاقات المبرمة بين الباب العالى والدول، والتى طلب تطبيقها فى مصر، معاهدات «الامتيازات الأجنبية» السائدة فى الامبراطورية العثمانية، والتى كانت تقيد سيادة السلطان العثمانى فى داخل ممتلكاته بشكل لا نظير له.

اخـتـلاف انواعـهـا وباعـوها بأمـر البـاشـا الموميء اليـه على مـشـهـد من الناس فكم بذلك اقـفـرت بـيـوت وكم بيـوت ومـنـازل نـعـت أهلـهـا لهـجرهـم لها. ومن ذلك أن العسكر قبضـوا على امـرأة المعلم الفـاضل ابراهيم الجـوهرى(*) أمـين احتـسـاب مـصـر واجـبـروها علـى ان تـخـبـرهم عن مـخـابى زوجـهـا من النقـود وغيـرها فـفـعلت ذلك كـرهـا فـنـهـبـوا بيته وتركوه قـاعا صـفـصـفـا. وزاد الطين بلة الوباء الذى دهم مـصـر بخيـوله

(*) ابراهيم الجوهرى. انظر الجبرتى جـ٣ ص ٢٥٦، ٢٦٤.

نص اتفاقيات لندن المبرمة فى سنة ١٨٤٠
معاهدة لندن الرباعية

اتفاق مبرم بين حكومات بريطانيا العظمى والنمسـا وبروسـيا وروسيا، من جهة، والباب العالى من جهة أخرى، لإقرار السلام فى الشرق، وموقعة بلندن فى الخامس عشر من يوليو سنة ١٨٤٠.

«أما بعد فإنه حيث لجأ جلالة السلطان إلى جلالة ملكة بريطانيا العظمى وارلندا، وجلالة إمبـراطور النمسـا وملك المجر وبوهيـميا، وجلالة ملك بروسـيا، وجلالة قيـصـر الروس. طالبًا مساعدتهم ومعاونتهم فى درء المصاعب التى ألمت بالباب العالى، بسبب أعمال الاعتداء التى أبداها محمد على حاكم مصر، ومن مقتضاها تهديدالدولة العثمانية فى حقوق ولاية السلطان واستقلاله، فقد اجتمع أصحاب الجلالة الملوك البادى ذكرهم، وبالنظر لشعائر المحبة المتبادلة بينهم وبين الحضرة السلطانية الفخيمة، وما هم عليـه من الرغبة فى حفظ ممالك السلطنة السنية واستقلالها، إذ أن فى ذلك ما يوجب استتباب السلام فى أوربا، وقيامًا بما تعهدوا به بموجب التحريرات المسلمة للباب العالى، بوساطة سفرائهم فى الآستانة، وتاريخها ٢٧ يوليو سنة ١٨٣٩، ولما كانت رغبتهم جميعًا منع سفك الدماء الذى تسببه مداومة حوادث الاعتداء التى انتشرت أخيرًا فى سوريا، بين حكومة الباشا المشار إليه ورعايا الحضرة السلطانية الفخيمة،

وجيوشه وضرب جميع بلادها نحو سنة ١٥٠٧ للشهداء الموافقة ١٧٨٣ ميلادية قبطية و١٧٩١ افرنجية فكان يموت من القاهرة في اليوم الواحد نحو الالف وهذا الوبا كان يعرف عند العوام بالكبه(*) لعظمه وثقله حتى افنى الناس ومن ذلك أن الوبا اصاب اسماعيل بيك الذى ولاه الصدر الاعظم على مصر فمات به وأقيم آخر بدله فمات أيضا في ذلك اليوم عينه وهلم

(*) طاعون الكبه: انظر الجبرتى جـ٣ ص٤٣٤ وما بعدها.

لذلك قررت الدولة المشار إليها والباب العالى، بقصد بلوغ الغايات المذكورة، وجوب تحرير هذا الاتفاق بينهم جميعا، فعينوا من قبلهم مندوبين مفوضين هم:

حضرة صاحبة الجلالة ملكة مملكة بريطانيا العظمى وارلندا المتحدة، نائبا عنها حضرة صاحب الشرف الرفيع هنرى جون فيسكونت بالمرستون، بارون تمبل، لورد إرلندا، مستشار حضرة صاحبة الجلالة البريطانية في مجلسها الخاص، الحائز على وسام الحمام الرفيع الشأن من درجة فارس وصليب أكبر، وعضو البرلمان، ورئيس مجلس وزراء دولتها، المتولى شؤون وزارة الخارجية.

حضرة صاحب الجلالة إمبراطور النمسا وملك المجر وبوهيميا، نائبا عنه السيد فيليب، بارون دى نيومان، الحائز على وسام ليوبولد النمسوى من درجة قومندان، وعلى وسام الصليب الأكبر للخدمات المدنية، وعلى وسامى الحصن والسيف البرتغاليين من درجة كومندور، وعلى صليب جنوب البرازيل، وعلى وسام القديس ستانيسلاس الروسى من الطبقة الثانية، من درجة فارس وصليب أكبر، ومستشار مجلس جلالته الخاص، ووزيره المفوض لدى حضرة صاحبة الجلالة البريطانية.

حضرة صاحب الجلالة ملك بروسيا، نائبا عنه السيد هنرى غليوم بارون دى بولاو، الحائز على وسام النسر الروسى الأحمر من الطبقة الأولى من درجة فارس، وعلى وسامى ليوبولد

جرا إلى أن فنى جميع أقارب اسماعيل بيك فاغتنم هذه الفرصة ابراهيم ومراد وعادا إلى القاهرة ومسكا أزمة الاحكام فدارت رحاهما على محورها الاول اذ شرعا يعتسفان طرق الظلم مع المسيحيين الذين أصبحت حالتهم تستدعى احتلال فرنسا لهذا القطر كما سيأتى. أما انبا يوحنا فتوفى سنة ١٥١٢ للشهدا الموافقه سنة ١٧٨٨ مسيحية قبطية. ١٧٩٦م.

* نابليون بونابرت

النمسوى وجيلف الهانوفرى من درجة صليب أكبر، وعلى وسام القديس ستانيسلاس الروسى من الطبقة الثانية من درجة فارس وصليب أكبر، وعلى وسام القديس فلاديمير الروسى من الطبقة الرابعة، وعلى وسام صقر ساكس ويمار من درجة كومندور، وأمين جلالته ومستشاره الخاص، وحاليًا مندوبًا فوق العادة ووزيرًا مفوضًا لدى حضرة صاحبة الجلالة البريطانية.

حضرة صاحب الجلالة إمبراطور جميع الأقطار الروسية، نائبًا عنه السيد فيليب بارون دى بروناو، الحائز على وسام القديسة حنة من الطبقة الأولى من درجة فارس، وعلى وسام القديس ستانيسلاس من الدرجة الأولى، وعلى وسام القديس فلاديمير من الطبقة الثالثة، وعلى وسام القديس إسطفان المجرى من درجة كومندور، وعلى وسامى النسر الأحمر والقديس يوحنا الأورشليمى من درجة فارس، ومستشار جلالته الخاص، ومندوبًا فوق العادة ووزيرًا مفوضًا لدى حضرة صاحبة الجلالة البريطانية.

وحضرة صاحب الجلالة الفخيمة السلطان عبدالمجيد المعظم، إمبراطور العثمانيين، نائبًا عنه حضرة شكيب أفندى، الحائز على وسام الافتخار من الطبقة الأولى، وعلى لقب بيلكجى الديوان السلطانى، والمستشار الخاص لديوان الخارجية، والسفير فوق العادة لجلالة لدى حضرة صاحبة الجلالة البريطانية.

وبعد أن تبادل المفوضون المذكورون الأوراق المثبتة لانتدابهم لعقد الاتفاق وتحقق أنها مستوفاة أصولها، قرروا البنود الآتية وأمضوها:

[يوأنس البطرك الثامن بعد المائة]

[١٧٩٦/١٨٠٩م]

* الجبرتي. المؤرخ المصري

انبـا يوانس وهو الثـامن من بعـد المائة من عـدد البطاركة ومن أمره أنه كان أحد رهبان دير القديس أنبا انطونيوس فلما توفي سلفه أجمع رأى الكهنة ورؤســاء الكهنة وأراخنة الشــعب على تقــديمه بطريركا ورسم سنة ١٥١٣ للشهدا الموافقه سنة ١٧٨٩ [مسيحية قبطية] وقد نظر شيئا من البلايا

المادة الأولى - حيث اتفقت الحضرة السلطانية الفخمية مع جلالة ملكة بريطانيا العظمى، وجلالة إمبراطور النمسا وملك المجر وبوهيميا، وجلالة ملك بروسيا وجلالة قيصر روسيا، على ما يجب وضعه من شروط الصلح التي أرادت الحضرة السلطانية أن تمنحها إلى محمد على باشا، وهي تلك الشروط المبينة في ملحق هذا الاتفاق، فقد تعهدت الدول المشار إليها، بأن تعمل بالاتحاد التام فيما بينها، وتبذل ما في وسعها، لتقنع محمد على باشا بقبول الصلح المنوه عنه. وقد حفظت كل دولة من الدول المشار إليها حقها في أن تتصرف في هذا الأمر، بما في إمكان كل منها إجراؤه من الوسائل، للوصول إلى الغاية المذكورة.

المادة الثانية - إذا لم يقبل محمد على باشا إجراء الصلح على الصورة التي يعلنه بها الباب العالي، بواسطة أصحاب الجلالة الملوك المشار إليها، يتعهد حينئذ هؤلاء الملوك بأن يتخذوا بناء على طلب الحضرة السلطانية الفخمية ما يتفقون عليه من التدابير، وما يقررونه بينهم من الإجراءات كي يصلوا إلى تنفيذ هذا الصلح؛ في هذه الأثناء، طلب الحضرة الفخيمة السلطانية من حلفائها الملوك المذكورون، الانضمام إليها لمساعدتها على قطع المواصلات بحراً بين مصر وسوريا، ومنع إرسال العساكر والخيل والأسلحة والذخائر الحربية على اختلاف أنواعها، من إحدى هاتين المقاطعتين للأخرى، بناء على ذلك تعهد أصحاب الجلالة الملوك البادي ذكرهم، بإصدار أوامرهم إلى قواتهم البحرية في البحر المتوسط، لأجل هذه الغاية. وقد

التى حاقت بسلفه قاسم المومنين مصايب ذلك الجيل المشئوم الطالع وتفطرت احشاؤه حزنا وقاسى بسماع الاذن ونظر العين تلك الصروف التى ابهظت ظهور المسيحيين وقد ازدادت طينتها بللا وشدتها قساوة ومرارتها علقما حينما احتلت عساكر نابليون برنابرت هذا القطر سنة ١٥١٤ للشهدا أى سنة ١٧٩٨ افرنجية وذلك أن أرجل جنود فرنسا لما وطأت أرض ابو قير والاسكندرية هاج فى القاهرة رعاع المسلمين وشرعوا يجرعون

* محمد كريم حاكم الاسكندرية يسلم سيفه للفرنساوية

وعدوا، ـ فضلا على ما ذكر ـ بأن يعطى رؤساء أساطيلهم ـ حسب ما لديهم من الوسائل، وباسم المحالفة المنوه عنها ـ كافة ما يستطيعون من أنواع المساعدة لرعايا السلطنة العثمانية، الذين يظهرون صدق أمانتهم، وخضوعهم لمليكهم.

المادة الثالثة ـ وإذا وجه محمد على باشا قواته البحرية والبرية نحو الآستانة، بعد أن يكون قد رفض الصلح المذكور، فالملوك المشار إليهم متفقون ـ إذا مست الحاجة ـ على تلبية طلب الحضرة السلطانية الفخيمة، فيدافعون عن عرش سلطنته، إذا طلب ذلك منهم بوساطة سفرائهم فى الآستانة. فيقومون بالعمل، بالاتحاد فيما بينهم، لوقاية خليج القسطنطينية والطونة، وعاصمة الدولة العثمانية، من كل تعد. ومن المتفق عليه، فضلا عن ذلك، أن القوات التى سترسلها الدول المشار إليها، للأماكن المذكورة، لأجل الغاية المار ذكرها، ستبقى فى تلك الأماكن ما دامت الحضرة السلطانية تؤيد بقاءها فيها. ومتى تراءى لجلالة السلطان أن وجودها غير لازم، فتسحب كل دولة حينئذ قواتها، وترجع جميعها إلى حيث أتت، إما فى البحر الأسود، وإما فى البحر المتوسط.

المادة الرابعة ـ وقد تقرر بنوع خاص أن مساعدة الدول فى العمل المذكور فى البند السابق ـ ومن شأنها وضع خليج القسطنطينية والطونة وعاصمة السلطنة السنية تحت ملاحظة الدول المشار إليها وقتيا لمقاومة كل تعد يحصل من قبل محمد على باشا ـ لا تعتبر إلا كأنها مساعدة

النصارى كاسات المرارة رغما عن اجتهاد امرائهم الذين اخبروهم بأن هؤلاء المسيحيين من جملة رعايا الدولة وأن من مس شرفهم فقد مس شرف الدولة نفسها فلم يرهبهم ذلك ولم يخشوا سطوة بونابرت وجنوده الباطشه وذلك أن هؤلاء لما حاربوا المماليك وانتصروا عليهم وملكوا القاهرة وظن النصارى أن الجو المعكر صفا لهم قام على أثر ذلك معظم المسلمين شيوخ الجامع الأزهر وتجمعوا فيه وارسلوا القراء يطوفون في الأسواق منادين

* محمد كريم إلى اليمين واحد أعضاء ديوان الاسكندرية

غير اعتيادية، سمحت بها الدول المشار إليها، بناء على طلب السلطنة السنية، للدفاع عنها فى الظرف المذكور وحده دون سواه. وعلى ذلك، فقد اتفقت الدول البادى ذكرها، بأن إجراءاتها الآنفة الذكر فى الظروف المذكورة، لا تنفى أصالة القاعدة القديمة التى سنتها السلطة السنية، ومن مقتضاها منع سفن الدول الأجنبية الحربية منذ القدم، من الدخول فى مضيق خليج القسطنطينية والطونة. وقد أقرت الحضرة السلطانية بموجب هذا الاتفاق، أنها فى ما خلا الظرف المنوه عنه، شديدة العزم على استمرار الإجراءات بمقتضى القاعدة المذكورة، المؤسسة بنوع لا يقبل التغيير، لأنها قاعدة قديمة اتخذتها السلطنة، وما دام الباب العالى بسلام، فلا يقبل أن تدخل ولا سفينة واحدة حربية أجنبية فى خليج القسطنطينية والطونة. وقد أقر أصحاب الجلالة ملكة بريطانيا العظمى وارلندا، وامبراطور النمسا، وملك المجر وبوهيميا، وملك بروسيا، وقيصر روسيا، باحترام إرادة الحضرة السلطانية، فيما يختص بالقاعدة الآنفة الذكر، وباتباع الإجراء على مقتضاها.

المادة الخامسة ـ سيجرى التصديق على هذا الاتفاق، ويتبادل فى لندن فى ظرف شهرين أو أقرب من ذلك، إن أمكن، وعلى ذلك، أمضى المفوضون هذا الاتفاق وأمهروه بأختامهم.

صدر فى الخامس عشر من يوليه سنة ١٨٤٠.

بالمرستون * نيومان * بولاو * بروناو * شكيب

* الشيخ بونابرته

(فليـذهـب كل من يوحـد الله إلى الجـامع الأزهر هذا هو يوم الجـهاد فى محـاربة الكفار وأخـذ الثار) فـهـاجت المدينة لذلك وماجت وقـفل المسلمـون حوانيتهم وتقلدوا أسلحتهم واجتمعوا فى الجامع الازهر ثم جـالوا ينهـبـون بيـوت المسيـحيين على اختـلاف أجناسـهم ويقتلون كل من صادفوه بغير تمييـز بين الرجل والمرأة والطفل والشيخ وكـان الوجـه القبلى الذى صار عـادة ملجـأ لكل متـمـرد ومـهـربا لكل عـاص ليس بأقل وطأة فانه لما هرب

عقد منفصل

ملحق

بالاتفاق المبرم فى لندن فى الخامس عشر من يوليه

بين حكومات بريطانيا العظمى والنمسا وبروسيا من جهة، والباب العالى العثمانى من جهة أخرى

المادة الأولى ـ عزمت الحضـرة السلطانية الفخيمة على أن تسمح لمحمد على باشا بشـروط الصلح الآتية، وتعلنها إليه:

وعدت الحضرة السلطانيةبأن تسمح لمحمد على باشا ثم إلى أولاده من صلبه، بولاية باشاوية مصر بالتوارث بينهم. ووعدت جلالتها بأن تسمح لمحمد على باشا طول حياته بلقب باشاوية عكا، وتولية قلعتها، وبولاية الجهة الجنوبية من سوريا. فتبتدئ من رأس النقار، على شواطئ البحر المتوسط، وتمتد من هناك حتى مصب نهر السيسبان، والطرف الشمالى من بحيرة طبرية، ثم تمتد على طول شاطىء البحيرة المذكورة الغربى، وتتبع شاطئ نهر الأردن الأيمن، وشاطئ البحر الميت الغربى، ثم تمتد من هناك على خط مستقيم، حتى البحر الأحمر، فتنتهى إلى رأس خليج العقبة الشمالى، وتتبع ساحل هذا الخليج الغربى، وساحل خليج السويس الغربى، حتى السويس.

المماليك أخذوا يعيشون فى الناس ظلما وينهبون أموال النصارى. وما ظن النصارى أنهم نجوا من تلك الرزيه حتى وقعوا بأشر منها وذلك أنه لما نقضت المعاهدة التى عقدت بين القائد كليبر الفرنساوى والصدر الأعظم بأمر من الباب العالى ودارت رحى القتال بين الجانبين فى المطرية اغتنم المسلمون فرصة خروج عسكر فرنسا من القاهرة وثاروا على النصارى وكان ناصيف باشا أحد قواد الجيش العثمانى جاء إلى المدينة بجماعة من

* الجنرال كليبر

على أن الحضرة السلطانية، فى عرضها ذلك على محمد على باشا، تقترح عليه شرطًا: وهو أن يقبل ما عرضته عليه فى بحر عشرة أيام من إعلانها إليه فى الإسكندرية، بوساطة مندوب يرسله جلالته، فيسلمه محمد على فى الوقت نفسه التعليمات اللازمة لرؤساء قواته البرية والبحرية، بالجلاء حالا عن بلاد العرب والحرمين الشريفين، وجزيرة كاندية، ومقاطعة أطنه، وباقى أنحاء الممالك العثمانية غير الداخلة فى التخوم المصرية، ولا فى حدود باشوية عكا، المعينة أعلاه.

المادة الثانية ـ إذا لم يقبل محمد على شروط الصلح المذكورة فى خلال هذه العشرة أيام، فيرجع الباب العالى عما عرضه فى تولية الباشا المشار إليه وباشاوية عكا، ولكنه يبقى ما سمح له ولورثته من بعده، من تولية باشاوية مصر، بشرط أن يقبل ذلك فى ظرف عشرة أيام أخرى، أى فى بحر عشرين يومًا تبتدئ من يوم إعلانه بشروط الصلح، وأن يسلم لمندوب الباب العالى التعليمات اللازمة، القاضية على قواد قواته البرية بالجلاء والدخول فى حدود مصر ومرافئها.

المادة الثالثة ـ أما الخراج السنوى الواجب على محمد على باشا تأديته إلى الحضرة السلطانية الفخيمة، فيكون بنسبة الأراضى التى يتحصل على ولايتها، على حسب ما يقبله من أحد الشرطين السالف ذكرهما.

* كليبر يستعد لمطاردة العثمانين على ابواب القاهرة.

المماليك ونادى فيها بأنهم غلبوا الافرنج وامر بقتل باقى النصارى فشرعوا يجزرونهم غير مميزين بين القبطى والسورى والافرنجى فاستدرك حالهم عثمان بك أحد ضباط الأتراك وجاء إلى ناصيف باشا وقال له (ليس من العدالة أن تهرقوا دماء رعايا الدولة فانذلك مخالف للإرادة السنية) فأمر عند ذلك بكف أيدى المسلمين من قتلهم. واخر ضيق طرأ على الأقباط فى أيام هذا الأب [هو] رفت المستخدمين منهم فى دواوين الحكومة وذلك أن

المادة الرابعة ـ وفضلا عن ذلك، فإنه من المقرر حتما أن فى كلتا الحالتين، فى حالة قبول الشرط الأول أو الثانى ـ وقبل مضى مدتى العشرة أيام والعشرين يوما ـ يلتزم محمد على باشا بان يسلم الأسطول العثمانى ببحارته ومهماته الكاملة، إلى المندوب العثمانى المكلف بتسلمه. ويحضر رؤساء الأساطيل المتحالفة هذا التسليم.

ومن المقرر أيضا أن ليس لمحمد على باشا، فى أى حال من الأحوال، أن يحتسب على الباب العالى ما أنفقه على الأسطول العثمانى من المصاريف، طول مدة إقامته فى الموانى المصرية، ولا يخصم هذه المصاريف من الخراج الواجب دفعه.

المادة الخامسة ـ إن جميع معاهدات وقوانين الدولة العثمانية تجرى فى مصر وباشاوية عكا، المحددة تخومها أعلاه، كما هو جارى العمل بها فى كافة أنحاء الممالك العثمانية. ولكن الحضرة السلطانية الفخيمة تقبل بمجرد قيام محمد على باشا بتأدية الخراج فى أوقاته، إن يحصّل هو وورثته من بعده، باسم السلطنة السنية، وبصفة كونهم مندوبى الحضرة السلطانية، الأموال والضرائب فى كافة المقاطعات التى توكل إليهم ولايتها. ومن المعلوم، فضلا على ما ذكر خاصا بما يحصله محمد على وورثته من بعده من الضرائب والأموال المذكورة، أنهم يقومون بكافة النفقات اللازمة للإدارة المدنية والحربية فى المقاطعات المذكورة.

المادة السادسة ـ ولما كانت القوات البرية والبحرية التى يسمح لباشاويتى مصر وعكا باتخاذها، معتبرة جميعها قوات عثمانية، فهى تعد كأنها متخذة لخدمة السلطنة السنية.

الجنرال مينو(*) لما تولى قيادة الجيش الفرنساوى بعد موت كلابر [كليبر] قتلا اعتنق الدين الاسلامي ودعى نفسه عبد الله وولد له غلام أسماه سليمان وكان ديوان القاهرة مولفا وقتئذ من الاقباط والاسلام فرفت الأول [الأقباط] وترك الدواوين للأخر وعهد اليهم جباية الخراج. وكانت إقامة الفرنساويين في مصر ثلاث سنين ثم خرجوا وكانوا يعرفون عند العامة بالفرنسيس. أما الاب

(*) حول اغتيال كليبر انظر الجبرتى جـ٤ ص٤٦١. وحول اسلام مينو انظر الجبرتى جـ٤ ص٥١٣.

* عبد الله چاك مينو

المادة السابعة ـ إذا مضى عشرون يوماً من تاريخ الإعلان (كما جاء في المادة الثانية السابق ذكرها) ولم يوافق محمد على على شروط الصلح المقترحة، ولم يقبل باشاليك مصر بالتوريث، فسيعتبر السلطان نفسه حراً في الرجوع عما عرضه، وفي اتخاذ أية خطوة تالية، تمليها عليه مصالحه الخاصة، والنصائح التى يسديها حلفاؤه إليه.

المادة الثامنة ـ ولو أن هذا العقد مستقل، إلا أنه ذو مفعول ونفوذ كما لو كان مدرجًا بالحرف الواحد في اتفاق هذا اليوم. وسيجرى التصديق عليه وتبادل التصديقات بشأنه، في لندن، عند مبادلة التصديق على الاتفاق الآنف الذكر.

وقد أمضى المفوضون هذا العقد وأمهروه بأختامهم.

صدر في لندن في الخامس والعشرين من يوليه سنة ١٨٤٠

بالمرستون * نيومان * بولاو * بروناو * شكيب

بروتوكول

وقعه في لندن مفوضو الدول الأربع

في الخامس عشر من يوليه سنة ١٨٤٠

قرر مفوضو الدولة العلية العثمانية ما يأتى، عند توقيع الاتفاق المبرم بتاريخ اليوم:

إن الباب العالى، مع إثباته بموجب المادة الرابعة من الاتفاق المذكور، القاعدة التى سنتها

مرقس فتوفى سنة ١٥٢٦ للشهدا الموافقه سنة ١٨٠٢ [قبطيه =١٨٠٩م]. وكان فى ايام هذا الاب الأمير الشهير فى أعيان المسيحيين ابراهيم الجوهرى(*) رئيس كتاب البر المصرى الوجيه الكامل صاحب المآثر السعيده والآثار الحميدة وله فى كل دير وكنيسة أثر يذكر فيشكر واليه ينسب تأسيس كنيسة الأزبكية والى أخيه جرجس بنائها وذلك أن الاقباط صاروا فى الأزمنة الأخيرة لا يتحصلون على

(*) ابراهيم الجوهرى: انظر ترجمته وترجمة شقيقه عند الجبرتى جـ٥ ص٩٠٩، وهم الأقباط الوحيدين الذين اهتم الجبرتى بكتابة ترجمة لهم

السلطة السنية، ومن مقتضاها منع سفن الدول الأجنبية الحربية منذ القدم من الدخول فى مضيق خليج القسطنطينية والطونة، يحفظ لنفسه الحق كسابق عهده، فى إصدار فرمانات إلى السفن الخفيفة، الرافعة أعلامًا حربية، المستخدمة وفاقا للمتبع، فى خدمة مكاتبات الدول الصديقة.

وقد أحيط مفوضو حكومات بريطانيا العظمى إلخ.. بهذا الإقرار، للإنهاء به إلى حكوماتهم.

(التوقيعات) بالمرستون * شكيب * نيومان * بولاو * بروناو.

بروتوكول خاص

وقعه فى لندن مفوضو الدول الأربع

فى الخامس عشر من يوليه سنة ١٨٤٠

حيث أن مفوضى دول بريطانيا العظمى إلخ.. بمقتضى السلطة التامة المخولة إليهم، قد أبرموا ووقعوا بتاريخ اليوم، اتفاقا بين ملوك كل من هذه الدول، لإحلال السلام فى الشرق.

وحيث أنه، نظرًا إلى المسافة التى تفصل عواصم هذه الدول بعضها عن بعض، يجب أن تنقضى فترة من الزمن، قبل أن يتم تبادل التصديق على الاتفاق المذكور، وقبل أن يتسنى تنفيذ ما يصدر من الأوامر، استنادًا على هذا التعاقد.

اذن مـن الحكومـة بناء كنيسـة إلا بشق الأنفس فاتفـق أن احدى السيدات مـن العائلة السلطانية قدمت إلى مصـر قاصدة الحـج ولكـون ابراهـيم الجـوهرى هو المتـقـدم فى الحكـومـة المصـرية تقـدمـا مشهورا باشر بنفسه اداء الخدمات لها فى الذهاب والإياب وقدم لها هدايا فاخرة فأرادت أن تكافئه على خدمته التى أبداها مع شهرة صداقته فى خدمة الحكومة فسألت عن مرغوباته فالتمس منها المساعدة فى اصدار فرمان سلطانى بالرخصة

* جرجس الجوهرى

ولما كان المفوضون المذكورون متيقنين تيقناً عميقاً، نظراً إلى الحالة السائدة فى سوريا، من أن مصالح الإنسانية والاعتبارات السياسية الأوربية الخطيرة ـ التى هى موضع عناية مشتركة من جانب الدول موقعة الاتفاق المبرم اليوم ـ تتطلب حتما، وعلى قدر المستطاع، تجنب أى تأخير فى تحقيق السلام الذى يرمى إليه الاتفاق المذكور.

وبمقتضى السلطات التامة المخولة إليهم، اتفق المفوضون المذكورون، فيما بينهم، على أن التدابير الواردة فى المادة الثانية من الاتفاق المذكور، ستنفذ فى الحال، دون انتظار تبادل التصديق. وقد قبلوا صراحة، بمقتضى هذا العقد وبرضا حكوماتهم، تنفيذ هذه التدابير فى الفور.

وقد تم الاتفاق، فضلا عن ذلك، بين المفوضين المذكورين، على أن يوجه عظمة السلطان حالا إلى محمد على، الرسالة والعروض المبينة فى العقد المنفصل، الملحق باتفاق اليوم.

وقد تم الاتفاق، علاوة على ذلك، على أن يتصل الوكلاء القنصليون لبريطانيا العظمى والنمسا وبروسيا وروسيا، بالوكيل الذى سيوفد من السلطان، لكى يوجهوا إلى محمد على الرسالة والعروض السابق ذكرها، وأن يسدى القناصل المذكورون إلى هذا الوكيل، كل ما فى وسعهم من المعونة والتعضيد، وأن يستخدموا جميع ما لديهم من طرق التأثير، لحمل محمد على على قبول التسوية التى ستقترح عليه، بأمر عظمة السلطان.

في انشاء كنيسة في الأزبكية حيث مستقر سكنه فلبت دعواه وصدر له بواسطتها الاذن بذلك غير أنه توفي قبل أن يشرع في البناء فلما تولى أخوه جرجس افندى منصبه اتحد مع الأب مرقس(*) المومئ إليه وكبار الطائفة وبنوا الكنيسة حيث نقلوا مركز البطريركية في ملك الامير يعقوب(*) والمعلم ملطي الذين كانا متوظفين في مدة حكم بونابرت بوظايف عالية.

(*) مرقس : كان يعرف بجون قبل تنصيبه بطركا.

(*) فيما يلي المشروع الذى طرحه المعلم يعقوب لاستقلال مصر، وهذا الجزء ليس من متن مخطوط «تاريخ البطاركة» ولكنى وضعته هنا من أجل السياق التاريخي.

وسيتلقى أميرالات كل من الأساطيل في البحر المتوسط، التعليمات اللازمة للاتصال بالقناصل المذكورين في هذا الشأن.

(توقيع) بالمرستون (توقيع) شكيب (توقيع) نيومان (توقيع) بولاو (توقيع) بروناو.

وقد تبادل التصديق على هذه الاتفاقات في لندن في الخامس عشر من سبتمبر سنة ١٨٤٠.

بروتوكول لندن

الموقع في سنة ١٨٤١

مؤتمر مفوضي النمسا وبريطانيا العظمى وبروسيا وروسيا العثماني، الخاص بشؤون الشرق، المنعقد في لندن في العاشر من يوليو سنة ١٨٤١.

نظرًا إلى أن المصاعب التي ألمت بعظمة السلطان، فحملته على طلب المساعدة والمعاونة من دول النمسا وبريطانيا العظمى وبروسيا وروسيا، قد سويت؛ ونظرًا إلى أن محمدًا عليًا قد قدم إلى عظمة السلطان فروض الخضوع التي كان يرمي إليها اتفاق الخامس عشر من يوليو سنة ١٨٤٠، فقد أقر ممثلو الدول الموقعة لهذا الاتفاق، بأنه ما عدا تنفيذ التدابير المؤقتة الناجمة عن هذا الاتفاق، ينبغي بوجه خاص أن يقرر بصراحة تامة الاحترام الواجب للقاعدة القديمة التي سنتها المملكة السنية، ومن مقتضاها منع سفن الدول الأجنبية الحربية، منذ القدم، من الدخول في مضيق خليج القسطنطينية والطونة.

الجنرال يعقوب

ومشروع استقلال

مصر فى سنة ١٨٠١

لمحمد شفيق غربال

مضت خمسة قرون تحول فيها فارس العصور الوسطى كما عرفه سان لويس والظاهر بيبرس إلى الرجل الغربى الذى سيعرفه مراد والألفي والبرديسى فى ١٧٩٨. خمسة قرون زال فيها النظام الإقطاعي وما ترتب عليه من طرق الحكم والحرب وعلاقات طبقات الأمة بعضها ببعض، خمسة قرون رأت انفصام وحدة الغرب الدينية والسياسية وظهور مناهج العلم الحديثة وطرق التنظيم السياسي والاقتصادى الجديدة. أما مماليك مصر فكانوا فى ١٧٩٨ كما كانوا ١٢٥٠ فى الحرب والتفكير أو كانوا على حال أسوأ بفقدان استقلالهم ودولتهم وما كانوا يجبونه من مكوس مفروضة على تجارة الشرق المارة فى أرضهم كذلك أهل مصر لم يصلهم عن انقلابات الغرب إلا أضعف الأنباء وظلموا فى كل مقومات الحياة الوطنية حيث كانوا أباؤهم.

اصطدم المماليك فى صيف ١٧٩٨ بغرب غير الغرب الذى

ونظراً إلى أن هذا المبدأ، بحكم طبيعته، ذو تطبيق عام دائم، فقد رأى مفوضو كل من هذه الدول ـ وهم مزودون لهذا بأوامر حكوماتهم ـ أنه، رغبة فى إظهار الوفاق والوئام السائدين فى نيات جميع الحكومات، إزاء أهمية توطيد السلام الأوربى، يحسن إثبات الاحترام الواجب للمبدأ السابق ذكره، وذلك بوساطة تسوية يطلب إلى فرنسا المشاركة فيها، بناء على دعوة عظمة السلطان، ووفاقا لرغبته.

وبما أن هذه التسوية من شأنها أن تقدم لأوربا برهاناً على اتحاد الدول الخمس، فقد أخذ رئيس مجلس وزراء حضرة صاحبة الجلالة البريطانية، المتولى شؤون وزارة الخارجية، على عاتقه، الإنهاء بهذا الأمر إلى الحكومة الفرنسية، مع دعوتها إلى الاشتراك فى التسوية التى بمقتضاها سيقرر السلطان إصراره القوى على إبقاء المبدأ السابق ذكره فى المستقبل، من جهة، والتى بمقتضاها ستعلن الدول الخمس، من جهة أخرى، عزمها الإجماعى على احترام هذا المبدأ، والعمل به.

(التوقيعات)

استرهازى	بالمرستون
نيومان	بولاو
بروناو	شكيب

عرفوه أيام الحروب الصليبيه وسرعان ما رأوا أن لا أساس لما زعموه من أنه إذا جاءت جميع الأفرنج لايقفون في قابلتهم وأنهم يدرسونهم بخيولهم» [الجبرتي: حوادث المحرم ١٢١٣] وتمكن الفرنسيون من احتلال مصر وحكم الفرنسيون مصر مدة تزيد قليلاً على ثالثة أعوام، وقد تخللت هذه المدة محاولة من جانبهم لفتح الولايات السورية وضيق عليهم أثناءها حصار بحرى انجليزى وقام المصريون على حكمهم كلما أمكن ذلك وأباد منهم الطاعون وغيره من الأمراض الوبائية عدداً لا يستهان به. وظل مراد ومماليكه ومن انضم اليه من عرب مصر والجزيرة العربية شهوراً عديدة ينازعونهم دارفور وسنار وفزان برقةوغيرهما من بلاد المغرب. ولم تطب للفرنسيين الإقامة بمصر فقد وجدوها دون ما توقعوا وشق عليهم البعد عن وطنهم وبخاصة بعد ما بلغهم من تألب الدول الأوربية من جديد ضد فرنسا وارغامها على التخلى عن فتوحها في ايطاليا وغيرها، وحتى مصر نفسها، عرفوا معرفة أكيدة أن السلطان قد أعتزم ألا يتخلى عنها، وأرسل نحوها من ناحيتى البحر والشام جموعاً من جنده قد لا تكون قيمتها الحربية مما يأبه له الغربيون ولكنها، ولابد، لها مع الزمن أثر.

لابد من تذكر هذه الظروف عند الحكم على الاحتلال الفرنسى ولابد إذن من الفصل

الخط الشريف الهمايونى المانح محمد على ولاية مصر بطريق التوارث

تحت شروط معلومة

مؤرخ ذلك الخط فى ١٣ فبراير سنة ١٨٤١

الموافق ٢١ ذى القعدة سنة ١٢٥٦ هـ

رأينا بسرور ما عرضتموه من البراهين على خضوعكم، وتأكيدات أمانتكم، وصدق عبوديتكم، لذاتنا الشاهانية، ولمصلحة بابنا العالى؛ فطول اختباركم وما لكم من الدراية بأح،نال البلاد المسلمة إدارتها لكم من مدة مديدية، لا يتركان لنا ريبًا بأنكم قادرون، بما تبدونه من الغيرة، والحكمة فى إدارة شؤون ولايتكم، على الحصول من لدنّا الشاهانى على حقوق جديدة، فى تعطفاتنا الملوكية، وثقتنا بكم، فتقدرون فى الوقت نفسه إحساساتنا إليكم قدرها، وتجتهدون ببث هذه المزايا التى امتزتم بها فى أولادكم.

وبمناسبة ذلك، صممنا على تثبيتكم فى الحكومة المصرية، المبينة حدودها فى الخريطة المرسولة لكم من لدن صدرنا الأعظم، ومنحناكم فضلا على ذلك ولاية مصر بطريق التوارث، بالشروط الآتى بيانها:

متى خلا منصب الولاية المصرية، تعهد الولاية إلى من تنتخبه سدّتنا الملكية من أولادكم

بين أمرين مختلفين تماماً، الحكم الفرنسي كما يمكن أن يكون لو خلص مما انتابه من ظروف الحرب والفتن واتسع له الزمن ليجرى على أسس الاستعمار الحديث.

ولايمكن الشك في أن الفرنسيين لو خلص لهم ملك مصر لحكموها كما ينتظر من حكومة جمهورية قائمة على قواعد الثورة الفرنسية أتيح لها في عصر بدأ فيه الانقلاب الاقتصادى الكبير أن تحكم قطراً زراعياً خصباً ذا مركز جغرافي فذ كوادى النيل وأمة ذات تاريخ مفعم بعبير الدهر كالأمة المصرية لو خلص لهم حكم مصر لبذلوا جهداً صادقاً في تنمية الموارد بتنظيم الرى وضبط النيل وقد كتب بونابرت في مذاكراته فصلاً رائعاً عن ضبط النيل بإنشاء سدين على فرعيه عند رأس الدلتا. ولو دامت مدتهم في مصر لعملوا كل ما يستطيعون للاستفاده من مركز مصر الجغرافي، ولوصلوا بين البحرين المتوسط والأحمر. وكتاب وصف مصر يشتمل على الدراسات العلمية الأولى لهذا المشروع الخطير واستعمار مصر كان لابد له أن يؤدى إلى اتساع النفوذ الفرنسي على ساحل البحر الأحمر وإلى ما وراء سيناء من ناحية فلسطين والشام وأن يؤدى أيضاً للتقدم نحو منابع النيل وجعل مصر المدخل والمخرج لتلك الأرجاء الأفريقية الواسعة وحل اللغز الجغرافي القديم. وقد سجل تاريخ القرن التاسع عشر تحقيق الكثير من هذا على يد محمد على مما يدل على أن خطط الحكومات ليست مما يستنبط من بطون الكتب ولا مما تجود به القرائح إنما هى مما يمليه الواقع

الذكور، وتجرى هذه الطريقة نفسها بحق أولاده، وهلم جراً. وإذا انقرضت ذريتكم المذكورة، لا يكون لأولاد نساء عائلتكم الذكور حق أيا كان فى الولاية وإرثها.

ومن وقع عليه من أولادكم الانتخاب لولاية مصر بالإرث بعدكم، يجب عليه الحضور إلى الآستانة لتقليده الولاية المذكورة. على أن حق التوارث الممنوح لوالى مصر لا يمنحه رتبة ولا لقباً أعلى من سائر الوزراء ولقبهم، ولاحقاً فى التقدم عليم، بل يعامل بذات معاملة زملائه.

وجميع أحكام حظنا الشريف الهمايونى الصادر فى كلخانة، وكافة القوانين الإدارية الجارى العمل بها، أو تلك التى يجرى العمل بموجبها فى ممالكنا العثمانية، وجميع العهود المعقودة أو التى ستعقد فى مستقبل الأيام بين بابنا العالى والدول المتحابة، يتبع الإجراء على مقتضاها جميعها فى ولاية مصر أيضاً. وكلما هو مفروض على المصرين من الأموال والضرائب، يجرى تحصيله باسمنا الملوكى. ولكى أن لا يكون أهالى مصر، وهم من بعض رعايا بابنا العالى، معرضين للمضار والأموال والضرائب غير القانونية، يجب أن تنظم تلك الأموال والضرائب المذكورة بما يوافق حالة ترتيبها فى سائر الممالك العثمانية. وربع الإيرادات الناتجة من الرسوم الجمركية، ومن باقى الضرائب التى تحصل فى الديار المصرية، يتحصل بتمامه ولا يخصم منه شيء، ويؤدى إلى خزينة بابنا العالى العامر. والثلاثة أرباع الباقية تبقى لولايتكم، تقوم بمصاريف التحصيل والإدارة المدنية والجهادية، وبنفقات الوالى، وبأثمان الغلال الملزومة مصر تقديمها سنوياً إلى البلاد المقدسة، مكة والمدينة.

الجغرافى ويكرره التاريخ فى أدواره المتباينة.

ولو دام الاحتلال الفرنسى لسلك نحو المصريين مسلكا يكون من أثره تحسين كثير من أحوالهم ثم يعمد بعد هذا التحسين إلى أبطال النمو - أو إلى إبطاله فى بعض النواحى وتوجهه فى الاتجاه الذى يريد ولم يكن بد من اهتمام الفرنسيين بهذا التحسين الأبتر بحكم منفعتهم ويقاوم الأوبئة بإنشاء المستشفيات وما تستلزمه من مدارس الطب والمحاجر الصحية حفظاً للقوى العاملة فى الإنتاج الزراعى الذى يغذى الخزانه العامة ويمون التجارة والمعاملات الغربية ويؤدى هذا لتنظيم القضاء على أساس غربى ولدخول التجارة والمعاملات الغربية ويعنى بإعداد طائفة من أبناء البلاد تسد حاجة الإدارة من صغار الموظفين. ولو دام الاحتلال الفرنسى لاعتمد بعض الاعتماد فى الدفاع عن البلاد على جيش وطنى من أبنائها.

ولو دام الاحتلال الفرنسى لاحتاط أشد الحيطة فى كل ماله علاقة بالتفكير الدينى من المسائل الاجتماعية وموضوعات البحث العلمى فالحكم الغربى يحب أن تكون قواعد الإنتاج الاقتصادى غربية صرفة لأن هذه القواعد تزيد الإنتاج والزيادة مما يهمه. ولكنه يكره من المحكومين الشرقيين الانقلاب الاجتماعى والبحث العلمى الحر. وذلك لأسباب: منها حرصه على أن لا يظهر للعامة مظهر الهادم للعادات المشجع على التحرر من قواعد الدين ومنها ظنه أن تلك الانقلابات لابد وأن تؤدى فى

ويبقى هذا الخراج مستمرا دفعه من الحكومة المصرية، بطريقة تأديته المشروحة، مدة خمس سنوات تبتدئ من عام ١٢٥٧، أى من يوم ١٢ فبراير سنة ١٨٤١. ومن الممكن ترتيب حالة أخرى بشأنها فى مستقبل الأيام، وتكون أكثر موافقة لحالة مصر المستقبلة، ونوع الظروف التى ربما تجدّ عليها.

ولما كان من واجبات بابنا العالى الوقوف على مقدار الإيرادات السنوية، والطرق المستعملة فى تحصيل العشور وباقى الضرائب، وكان الوقوف على هذه الأحوال يستلزم تعيين لجنة مراقبة وملاحظة فى تلك الولاية، فينظر فى ذلك فيما بعد، ويجرى ما يوافق إرادتنا السلطانية.

ولما كان من اللزوم أن يعين بابنا العالى ترتيبًا لسك النقود، لما فى ذلك من الأهمية، بحيث لا يعود يحدث فيها خلاف، لا من جهة العيار ولا من جهة القيمة، اقتضت إرادتى السنية أن تكون النقود الذهبية والفضية الجائز لحكومة مصر ضربها باسمنا الشاهانى، معادلة للنقود المضروبة فى ضربخانتنا العامرة بالآستانة، سواء كان من قبيل عيارها، أو من قبيل هيئتها وطرزها.

ويكفى أن يكون لمصر فى أوقات السلم ثمانية عشر ألف نفر من الجند للمحافظة فى داخلية مصر. ولا يجوز أن تتعدى ولا يتكم هذا العدد. ولكن حيث أن قوات مصر العسكرية معدة لخدمة الباب العالى. كأسوة قوات المملكة العثمانية الباقية. فيسوغ أن يزاد هذا العدد فى زمن الحرب، بما يرى موافقاً فى ذلك الحين.

النهاية إلى الرغبة في الاستقلال ومنهـا الميل إلى المحـافظة على المظاهر الشرقية من قبل الاحتفاظ باللطائف والتحف.

أما عن نظام الحكم فالمنتظر من الاحتـلال الفـرنسي لو أن أيامـه دامت أن يـبقي حكم القرى على ما عـرفتـه مصـر في عـصـورها المختلفه في أيدى العمد والمشايخ، وأن يعـهـد للفـرنسـيين في إدارة الأقـاليم وأن تسـود المركـزية الشديدة وأن يبقي الفرنسيون على الدواوين التى أنشـأها فـعـلاً بونابرت ولم يرم بهـا إلى خلق النظام البرلماني كما توهم البعض فبونابرت لم يكن مما يعجبون به أو يرتضيه لفرنسا دع عنك مصر. بل رمي بهـا إلى إنشـاء وسـائل تمكنه من الاتصـال بالزعـمـاء المصـريين وتفـهـم مـا يجـرى في نفـوسـهم وتفهـيـمـهم حقـيقـة مـشـروعـاته ونواياه حتى لا يـبقى مجال لدس الدساسين ولا لسوء الفهم.

هذا بعض مـا نتـصـوره عن تطور الحكم الفرنسي في مصـر لو استقام للفرنسيين أمرها. وليس هذا التـصـور مما يخلو من الفـائدة التاريخية أو مما لا يقوم على أساس من الواقع فأكثره مستمد مما كتبه بونابرت وغـيـره من نواياهم ومما شرعوا في تحقيقه فعلاً ومما رأيناه من طرق الحكم الفرنسي في غير مـصـر ولكن الزمن لم يتـسـع لتحقيق ما صورناه ووجد القواد الثلاثة الذين تعاقبوا على حكم مصر- بونابرت وكليبر ومينو- أنفسهم مضطرين لتوجيه كل جـهـدهم للتـغـلب على الأخطار الداخلية والخـارجـيـة المحـدقـة بجيشهم وحكمهم، ولم يكن ما

على أنه، بحسب القاعدة الجديدة المتبعة في كافة ممالكنا بشأن الخدمة العسكرية، بعد أن تخدم الجند مدة خمس سنوات، يستبدلون بسواهم من العسـاكر الجديدة الموجودة في الخدمة حالا، عشرون ألف رجل ليبتدئون الخدمة. فيحفظ منها ثمانية عشر ألف رجل في مصر، وترسل الألفـان لهنا، لأداء مـدة خدمتـهم. وحـيث أن خـمس العشـرين ألف رجل واجب استبدالهم سنويًا، فيؤخذ سنويًا من مصر أربعة آلاف رجل حسب القاعدة المقررة في نظام العسكرية، حين سحب القرعة، بشرط أن يستعمل في ذلك مواجب الإنسانية والنزاهة والسرعة اللازمة، فيبقي في مصر ثلاثة آلاف وستمائة جندى من الجنود الجديدة والأربعمائة يرسلون إلى هنا. ومن أتم مدة خدمته من الجنود المرسولة إلى هذا الطرف ومن الجنود الباقية في مصر، يرجعون إلى مسكنهم ولا يسوغ طلبهم للخدمة مرة ثانية. ومع كون مناخ مصر، ربما يستلزم أقمشة خلاف الأقمشة المستعملة لملبوسات العساكر، فلا بأس من ذلك؛ فقط يجب أن لا تختلف هيئة الملابس والعلايم التمييزية ورايات الجنود المصريين، عن مثلها من ملابس ورايات باقي الجنود العثمانية. وكذا ملابس الضابطان وعلائم امتيازهم وملابس الملاحين وعساكر البحرية المصرية ورايات سفنها، يجب أن تكون مماثلة لملابس ورايات وعلائم رجالنا وسفننا. وللحكومة المصرية أن تعين ضباطًا برية وبحرية حتى رتبة الملازم. أما ما كان أعلى من هذه الرتبة، فالتعيين إليها راجع لإرادتنا الشاهانية.

قام به أولهم بونابرت وثالثهم مينو من التجارب الإدارية الأداة الحقيقية لحكم البلاد ولم تتغير في أيامهم كلها طرق الجباية ولا الضرائب ولا العمال بل ظلت كما كانت أيام المماليك ولذلك لم تكن الأعوام الثلاثة التي قضاها الفرنسيون في حكم مصر عهداً سعيداً لسكانها حقيقة أن المصريين أعتادوا قبل قدومهم الانقلابات السياسية: اعتادها أهل الريف وأهل الحواضر، وعرفها بصفة خاصة أهل القاهرة. وكانت الانقلابات التي عرفوها مما يصحبه الشيء الكثير من أختلال الأمن وضروب العنف والتعسف وأعادة الطلب عليهم فيما أدوه من الضرائب والمغارم. إلا أن هذه الانقلابات كلها كانت على نمط واحد. لا يأتي واحد منها بجديد ولا يصطدم بمألوف لديهم؛ فمثلا يتغلب على بك الكبير على خصومه ويحكم البلاد كما حكمهم خصومه؛ ثم يتغلب عليه أبو الذهب ويحكم كما حكم على وهكذا دواليك.

أما الحكم الفرنسي فكان انقلاباً من نوع لم يعرفه المصريون. اذا لما زال حكم مراد وابراهيم حل محلهما بونابرت ولم يكن مسلماً ولا مملوكه.

كذلك ترك الوالي العثماني مصر عند الاغارة الفرنسية وزال بغيابه مظهر التبعية للسلطان العثماني خليفة المسلمين وسمع المصريون عن تبعية بلادهم لدولة غربية فرنجية سمي لهم نظامها السياسي بأسماء شتى لا تدلهم تجاربهم السياسية على معانيها فنشر عليهم منشور «من طرف الفرنساوية المبنى على أساس

ولا يسوغ لوالي مصر أن ينشئ من الآن فصاعداً سفناً حربية، إلا بأذننا الخصوصي.

وحيث أن الامتياز المعطى بوراثة ولاية مصر خاضع للشروط الموضحة أعلاه، ففي عدم تنفيذ أحد هذه الشروط موجب لإبطال الامتياز وإلغائه للحال. وبناء على ذلك ، أصدرنا خطنا هذا الشريف الملوكي، كي تقدروا أنتم وأولادكم قدر إحساننا الشاهاني، فتعتنون كل الاعتناء بإتمام الشروط المقررة فيه، وتحمون أهالي مصر من كل فعل إكراهي، وتكفلون أمنيتهم وسعادتهم، مع التحذر من مخالفة أوامرنا الملوكية، وإخبار بابنا العالي عن كل المسائل المهامة المتعلقة بالبلاد المعهودة ولايتها لكم.

فرمان سلطاني

رقم ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ الموافق ٢١ ذي القعدة سنة ١٢٥٦

لوزيري محمد علي باشا والي مصر، والمعهود إليه مجدداً ولاية مقاطعات لوبيا والدارفور وكوردوفان وسنار.

إن سدّتنا الملوكية كما توضح في فرماننا السلطاني السابق، قد ثبّتتكم على ولاية مصر بطريق التوارث، بشروط معلومة وحدود معينة. وقد قلدتم فضلا على ولاية مصر، ولاية مقاطعات النوبيا والدارفور وكوردوفان وسنار وجميع توابعها وملحقاتها الخارجة على حدود مصر، ولكن بغير حق التوارث. فبقوة الاختبار والحكمة التي امتزتم بهما، تقومون بإدارة هاته

الحرية والتسوية» وارخت لهم الحوادث بشهور غريبة من سنين تبدأ «من انتشار الجمهور الفرنساوى»[انظر مثل الجبرتي حوادث المحرم ١٢١٥].

وفى أيام الاحتلال الفرنسى حرر غير المسلمين من وطنيين وأجانب أنفسهم من قيود مختلفه من المذلة كان المسلمون يعدونها اذا ذاك شرطا من شروط بقاء الإسلام وقد عرف بونابرت ما فى هذا التحرر من إساءة للشعور الإسلامى وبين فى مذكراته تقديره أهمية هذا الأمر بيانا واضحا فقال: «لا فائدة فى إظهارنا الاحترام العميق للدين الإسلامى إذا كنا نسمح للأقباط والروم والمسيحيين الغربيين بقدر من التحرر يغير من منزلتهم الماضية وقد أردت أن يكونوا أكثر خضوعاً وأكثر احتراما لكل ما يتعلق بالإسلام وبالمسلمين مما كانوا فى الماضى» نجد فى الجبرتى تأييداً لصدق هذه الرغبة. فيذكر فى حوادث رمضان سنة ١٢١٣ «رجوع نصارى الشوام إلى لبس العمائم السود والزرق والى ترك لبس العمائم البيض والشيلان الكشميرى الملونة والمشجرات وذلك بمنع الفرنسيس لهم من ذلك وتبهوا (أى الفرنسيون) أيضا بالمناداة فى أول رمضان بأن نصارى البلد يمشون على عادتهم مع المسلمين أولاً ولا يتجاهرون بالأكل والشرب فى الأسواق ولا يشربون الدخان....».

ولم يكن للحكم الفرنسى فى مدته القصيرة وفى ظروف الحرب والفتن الملابسة له، من المآثر ما يحمل الخاصة والعامة من أهل مصر على الاغضاء عما صحبه من الانقلاب الاجتماعى فقد كان

المقاطعات، وترتيب شؤونها بما يوافق عدالتنا، وتوفير الأسباب الآيلة لسعادة الآهلين. وترسلون فى كل سنة قائمة إلى بابنا العالى، حاوية بيان الإيرادات السنوية جميعها.

وحيث أنه يحدث من وقت لآخر أن يتهجّم الجنود على قرايا المقاطعات المذكورة، فيأسرون الفتيان من ذكور وإناث، ويبقونهم فى قبضة أيديهم لقاء رواتبهم، وحيث أن هذه الأمور مما تقضى معها الحال ليس فقط لانقراض أهالى تلك البلاد وخرابها، بل أنها أمور مخالفة للشريعة الحقة المقدسة، وكلا هاتين الحالتين ليست أقل فظاعة من أمر آخر كثير الوقوع، وهو تشويه الرجال ليقوموا بخفر الحريم، ذلك مما لا ينطبق على إرادتنا السنية مع مناقضته كل المناقضة لمبادئ العدل والإنسانية المنتشرة من يوم جلوسنا المأنوس على عرش السلطنة السنية، فعليكم مداركة هذه الأمور بما ينبغى من الاعتناء، لمنع حدوثها فى المستقبل. ولا يبرح عن بالكم أن فيها عدا بعض أشخاص توجهوا إلى مصر على أسطولنا الملوكى، قد عفوت عن جميع الضابطان والعساكر وباقى المأمورين الموجودين فى مصر.

نعم أنه بموجب فرماننا السلطانى تسميته، الضابطان المصرية لما فوق رتبة معاون يستلزم العرض عنها لأعتابنا الملوكية، إلا أنه لا بأس من إرسال بيان باسم من رقيتم من ضباط جنودكم إلى بابنا العالى، كى ترسل لهم الفرمانات المؤذنة بتثبيتهم فى رتبهم. هذا ما نطقت به إرادتنا السامية. فعليكم الإسراع فى الإجراء على مقتضاها.

حكماً عسكرياً شديداً عنيفاً، ولم يكن الإصلاح الذى فكر فيه الفرنسيون، وما استحدثوه من الدواوين وغيرها، والبحث العلمى الذى شرعوا فى إقامة قوعده مما يجتذب إليهم المحكومين إلا بعد زمن طويل ذلك لأن النظم الحكوميه التي اعتادها المصريون وغيرهم من أهل الشرق فى آخر القرن الثامن عشر كانت ترمى لأغراض ثلاثة أساسية: جمع الأموال المفروضة ، والأيدى العاملة اللازمة للأعمال العامة، واستتباب الأمن وفيما عدا هذه الأمور الثلاثة لا تتدخل الحكومة فى أحوال الرعية؛ بل تدع كل ما لا يتعلق من هذه الأحوال بأغراضها تنظمه الجماعات أو لا تنظمه كما جرت به العادات وإذا شئنا اجمال وصف ما اختص به نظام الحكم المملوكي، قلنا أنه يمتاز بقلة التدخل الحكومى كما نفهمه الآن وبالعنف والتعسف ويجب ألا يحملنا ما نراه من جنوح الحكام لهذا العنف والتعسف إلى تصور نظم الحكم على غير ما صورناها من ترك الرعية وشأنها في ما لم يتعلق بأغراض الحكومة الاساسية، ويجب كذلك ألا يحملنا ما نسمع عنه من الظلم على الظن بانه لم تكن أمام المحكومين وسائل مختلفه لتجنبه أو لتخفيفه فان ارتباك الإدارة الذى نجم عن الانقلابات المتتابعة، وسوء ذمة العمال، وفوضى السجلات، وما إلى ذلك فتح للرعية أبواب الخلاص من الفرد والغرامات المختلفه سواء منها الشرعية وغير الشرعية.

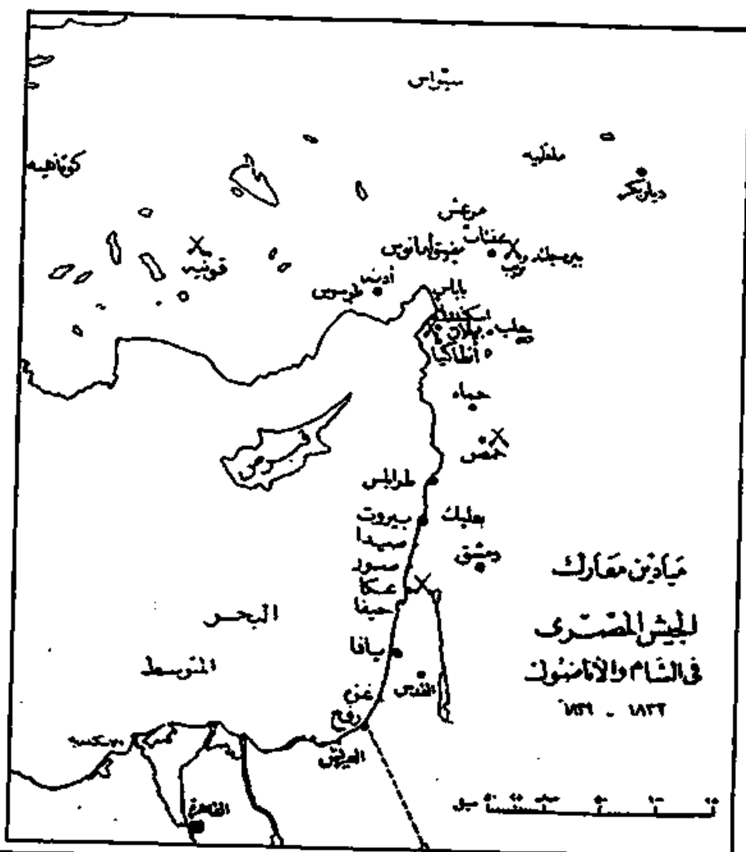

لا ننتظر إذن أن يرحب المصريون في ١٧٩٨ بالتدخل الحكومي وبما يصحبه من النظم الدقيقة ولا أن يعدوها ـ كما نعدها الآن ـ ضماناً لحقوقهم لأنه على العكس كرهوا ضبط الدفاتر، وأعتبروه اشتطاطا في الطلب، ولم يروا فيما اتخذته الحكومة من الوسائل لمنع الأمراض، كتخطيط المدن من جديد، ومنع الدفن فيها حيثما اتفق، وكنس الطرقات، وعزل المرضى عن الأصحاء إلا استبداداً لا يطاق وفضولاً لا يفهم. كره المصريون الحكم الفرنسي وقاوموه، وثار أهل القاهرة ثورتين عنيفتين وقام الفلاحون في الأقاليم كلما أتيحت لهم فرصة، وقد ذكرنا من الأسباب ما يكفي لتفسير هذا الكره دون أن نلجأ إلى تعليله بانتحال تعبيرات من تاريخ الغرب في القرن التاسع عشر والتاريخ الصحيح لا يجد في الفتن الشعبية بالقاهرة والأقاليم إلا باعثاً إيجابيا واحداً، هو الرغبة في العودة لما ألفه الناس ولا يمكن تسمية ما ألفوه استقلالاً إنما اسمه الوحيد حكم المماليك تحت السيادة العثمانية.

وصفنا الفتن بأنها كانت شعبية كرهها كبار العلماء دون أن يحبوا الحكم الفرنسي وحاولوا أن يقوا الناس أذى بطش الفرنسيين جهدا استطاعتهم فكان موقفهم في أيام الاحتلال الفرنسي هو نفس موقفهم في الانقلابات الماضية إلا أن منهم ومن كبار الخاصة من عمل على التخلص من الحكم الفرنسي وإعادة الحالة التي سبقته. يذكر التاريخ مثلاً السيد عمر مكرم الذي ترك مصر عند الاحتلال

كتاب وزيري

مقدم إلى محمد علي باشا بتاريخ ١٣ فبراير سنة ١٨٤١

الموافق ٢١ ذي القعدة سنة ١٢٥٦هـ

إن الحضرة السلطانية الفخيمة راضية عن اعتنائكم في تقديم مواجب الخضوع الحقيقية، والقيام بفرائض الطاعة لسدتها الملوكية، فثبتكم على ولاية مصر بطريق التوارث. وقد أصدرت خطاً شريفًا حاويًا بعض شروط متعلقة بهذا الشأن، مرفوقا بوسام وزيرى وطربوش مرصع بالحجارة الكريمة. وكل ذلك يرسله إليكم سعادة وكيل العدلية حالا، السيد مهيب أفندى، من قبل جلالة السلطان المعظم. على أن حكمتكم وحسن تدبيركم لا يسمحان لكم قط بأن تتعدوا حدود الخضوع والأمانة اللذان هما ينبوع السعادة في الدارين. أما الباب العالى، فله بكم ثقة تامة. ولم تكن سنّت الشروط المحكي عنها بسبب سوء مقاصد نحو سعادتكم. ولكن الإحسان العظيم الذى منحتم بتوليتكم مصر بطريقة التوارث كان لابد فيه من اقتراح بعض شروط يتقيد بها. وما المقصود من اقتراحها سوى منع المنازعات التي ربما تحدث في مستقبل مجهول غير معلوم، وضمان سعادة أهالي مصر. فلم يبق بعد ذلك ما يمكن أن يكون سببًا لشكوك الباب العالي، وقلق سعادتكم، لا عمّا خصكم شخصيًا، ولا عمّا كان مختصًا بعائلتكم. لأن أنواع الخلاف التي دامت زمنا طويلا، زالت اليوم والحمد لله بتمامها.

الفرنسى واشترك فى ثورة القاهرة الثانية عند قدوم الجيش العثمانى لتسلم البلا من الفرنسيين بحسب اتفاق العريش وكان للسيد عمر فيما بعد نصيب فى قيام العامة على خورشيد باشا الوالى العثمانى وتنصيب محمد على واليا على مصر. وجرى له أثناء هذه الحوادث حديث مع مندوب خورشيد باشا ينص على حق الرعية فى مقاومة الظلم [الجبرتى فى حوادث صفر ١٥٥٠] ولكن لا يمكن وصف جهود السيد عمر لإخراج الفرنسيين من مصر وتسليمها للسلطان سعيا لاستقلال مصر. والظاهر أن السيد عمر كان على جانب من علو الهمة وقوة الشخصية بعثه على العمل للنفوذ السياسى وقد رأى عاقبة أطماعه لما حاول أن يتحكم فى محمد على كما تحكم فى خورشيد من قبل فذاق النفى عن القاهرة وانتهاء حياته السياسية [الجبرتى: فى حوادث جماد الأولى والثانية سنة ١٢٢٤..

وكان السيد أحمد المحروقى ممن ظهر أيضا فى فتنة القاهرة الثانية ولكنه لم يتصف بصفات الزعامة التى ظهرت فى السيد عمر مكرم مثلاً بل كان رجلاً من رجال المال وأصدق وصف له قول البرديسى له «مثلك من يخدم الملوك» [ترجمة المحروقى فى الجبرتى جزء خامس سنة ١٢١٩].

وظهر فى هذه الفتنة أيضاً السيد السادات وكان من أكثر العلماء نفوراً من الفرنسيين وما أحدثوه، ومن أشدهم سعياً لإعادة الحكم العثمانى ثم تبين له خطؤه عند فرار الجيش العثمانى بعد

ولا ريب عندى بأن ما فطرتم عليه من الحكمة، يجعلكم أن تقدروا إحسانات الحضرة الفخيمة السلطانية نحوكم حق قدرها، فتبذلون قصارى جهدكم فى سبيل معرفة هذا الجميل، بحيث مع مشيئة الرحمن، لا نكون جميعًا إلا جسداً واحداً، فلا يقسمنا عن بعضنا شيء، ونشتغل كلنا فى ظل ظليل الحضرة السلطانية، فى خدمة الدين والسلطنة السنية والوطن والأمة. وأهنئ نفسى بذلك، أنا وجميع وزراء الباب العالى، تهنئة صادقة.

تعليمات محمد على إلى نجله إبراهيم بمناسبة سفره

فى خلال سفر إبراهيم إلى أوربا، وقبيل مغادرته توسكانيا للذهاب إلى فرنسا وإنجلترا، تلقى من والده، الولى، التعليمات الآتية، وقد نقلها المسيو جاستون فييت عن «محفوظات قصر عابدين العامر ـ سجل ٢١٥، رقم ٢٥٣ ـ ٤» ونشرها مترجمة إلى اللغة الفرنسية فى «مجلة القاهرة».

إرادة إلى السر عسكر فى السابع عشر من ذى القعدة سنة ١٢٦١

(الموافق السابع عشر من نوفمبر سنة ١٨٤٥) بعابدين

بلغنى كتاب دولتكم المرقوم فى سلخ شوال سنة ١٢٦١ (الثلاثين من أكتوبر سنة ١٨٤٥)

هزيمتـــه في واقـعـــة المرج أو هليـوبوليس وترك رجـال الدولة العثمانية أهل القاهرة وشأنهم مع الفـرنـسـيين بعـد أن أثاروهم وحمـمـوهم. فكتب لعثمان كتخدا كتاباً جاء فيه: ألزمتهم الغنى والفقير والكبير والصغير إطعـام عـسـكركم الذى أوقع بالمؤمنين الذل وبلغ النهب غاية الغايات فكان جهادكم فى أماكن الموبقات والملاهى.. أخفتم أهل البلد بعد أمنها وأشعلتم نار الفتنة ثم فررتم فرار الفيران من السنور [الجبرتى حوادث شوال وذى القعدة ١٢١٤].

وتبين لأهل القاهرة بعد هذه الفتنة كما سيتبين لهم بعد جلاء الجيش الفـرنسى أنهم كـانوا مخدوعين فى قيامهم على الحكم الفـرنسى من أجل العـثمـانيين وأنهم كانوا فى فتنتهم ضحـية «الدجاجلة» كما سماهم الجبرتى الذى اختص منهم رجلاً مغربياً لاناقه له فيـها ولا جـمل يدعـو للجهـاد ويحـرص على الابتعـاد عن مـواطن القـتـال، يهـدد من يتكلم فى الصلح برمى العنق ولا يأكل إلا الدجاج[الجبرتى حوادث شوال ١٢١٤].

وإذن فـلا يرى التـاريخ الصـحـيح فى مـوقف العـامـة وزعـمـائها وأهل الرأى فيـها أثراً لفكرة الاسـتـقـلال الوطنى ولا يـسجل إلا لمصرى واحد من أهل هذا العصر فضل اعتبار الاحتلال الفـرنـسى لا فـتـرة نحس يرجى زوالها وعود ما سـبـقهـا. بل بدء حيـاة جـديدة لمصـر والمصـريين مهدت لها الحملة الفرنسية بقطع

الذى جاءت فيه بشرى اكتسابكم الصحة والعافية يوما فيوم، وأخبرتم أنكم ستذهبون بعد مرور خمسة وأربعين يومًا إلى الحمامات الكبريتية، الواقعة بين فرنسا وأسبانيا، فأوجب خبر عافيتكم زيادة سرورى الأبوى.

وبما أن دولتكم ستسافرون بعد انقضاء مدة إقامتكم فى تلك الحمامت إلى باريس وإنجلترا، فقد وضعنا وصايا (تعليمات) مكونة من ستة بنود، وأرسلناها إليكم طى كتابنا، لتكونوا على خبرة وبصيرة بأصل المحادثات التى تتصل بالمصلحة، فتجيدوا الإجابة عنها. والمأمول أن تقرأوه، فتجيبوا عند اللزوم، طبق ما تقتضيه تلك البنود. وتسرونا بعد ذلك ببشائر صحتكم.

تعليمات

(١)

إذا سافرتم إلى فرنسا، والتقيتم بمليكها ووزرائها وسائر كبرائها، ودار الحديث حول أحوال مصـر السياسية، فينبغى أن تقولوا: «إن والدى قد أيقن منذ أن ولى الحكم، درجة محبة الفرنسيين واحترامهم لشخصه وأسرته، وأنهم لم يضنوا عليه بتقديم المساعدات اللازمة فى سبيل تقدم البلاد، فأدى واجب الشكر فى كل مناسبة، ولم يأل جهدًا فى توصية أسرته وأتباعه وقرابته، وإسداء النصح لهم، بأن يقدروا قيمة حسن معاملة الفرنسيين لمصر. ولا ريب أننا سنظل عاملين بوصية والدى ونصحه، فنفوز بمحبة الفرنسيين ومودتهم.

التبعية العثمانية وهدم قوة المماليك وذلك المصرى هو المعلم يعقوب حنا.
لا أحب أن أغلوا فأزعم أن يعقوب فهم تماما كل الاحتمالات التى انطوى عليها هدم النظم القائمة فى مصر وحكم أمة غريبة لها أو انه تحول فى هذه الأشهر القليلة التى قضاها مخالطاً للفرنسيين من جاب من جباة الأموال نشأ ودرج فى بيت من بيوت الأمراء المماليك فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر إلى داع من دعاة الحركات الوطنية التى يعرفها الغرب فى القرن التاسع عشر، بل أجد يعقوب يحتفظ حتى بعد مخالطة الفرنسين ببعض صفات الجباة وعمال الإدارة المالية من أبناء طائفته فى ذلك الوقت(تجد إشارات مناورات مالية من جانب يعقوب فى خطاب من لاسكاريس للجنرال مينو نشره ميسو أوريان فى رسالته عن لاسكاريس فى مجلة [Mercurede france] بتاريخ ١٥ يونيه ١٩٢٤ ص ٥٨٧.

(المعلم يعقوب)

---

(٢)

ولكم بعد سرد هذه المقدمة، أن تبسطوا أحوال مصر السابقة، وتدخلوا فى تفصيل المساعى والجهود، التى بذلت فى توطيد الأمن والطمأنينة فيها، وتأسيس عمرانها.

(٣)

وإذا فاتحوكم فى مسألة قناة السويس، فقولوا لهم إن حقيقة الحال أنه ليس هناك صعوبة ما فى حسن حصول تحقيق هذا الأمل. إلا أن حفر هذه القناة قد يصادف أثناء الأشغال الجسيمة، الدائرة فى إنشاء القناطر الخيرية. وقد اضطررنا إلى تأجيل حفرها، إلى الوقت المرهون. ومع ذلك، فإننا نرمى راغبين فى حفر هذه القناة من كل جانب، حتى إذا تم إنشاء القناطر، فلا صعوبة على مصر أن تقوم بحفرها.

(٤)

وإذا تكلموا عن ترتيبات الأسطول، فعليكم أن تردوا عليهم بالجواب التالى: «كانت الحاجة قد دعت من قبل إلى اقتناء طائفة من السفن، ولم يبق لها ضرورة فى الزمن الحاضر. غير أنه من الأسف أن تترك، فتكون عرضة للتلف بأسرها. من أجل ذلك، رأينا من المناسب أن تبذل الجهود فى إصلاحها ومرمتها. وانى لأعلم أن والدى مصمم على إنشاء عدد من البواخر، كلما سمحت الحالة بذلك، لشدة الحاجة إلى البواخر فى هذه الآونة.»

يذكر الجبرتي عنه تأييده الحكم الفرنسى أثناء ثورة القاهرة الثانية بينما الرويسا الأقباط الآخرون بمافيهم أكبرهم جميعا جرجس جوهرى يدارون الثوار ويمدونهم بالمال واللوازم صيانة لأرواحهم لا عطفاً على حركتهم «أما يعقوب ـ كما سجل الجبرتي في حوادث شوال سنة ١٢١٤ ـ فانه كسرنك في داره بالدرب الواسع جهة الرويعي واستعد استعداداً كبيراً بالعسكر والسلاح وتحصن بقلعته التي كان شيدها بعد الواقعة الأولى (أى ثورة القاهرة الأولى أيام بونابرت) فكان معظم حرب حسن بك الجداوى معه».

ويصف الجبرتي اهتمام يعقوب بتحصين القاهرة عند اقتراب العثمانيين منها للمرة الثانية، في الأيام الأخيرة من العهد الفرنسي فيقول في حوادث المحرم سنة ١٢١٦: «في عشرينه توكل رجل قبطي يدعى عبد الله من طرف يعقوب يجمع طائفة الناس للعمل في المتاريس فتعدى على بعض الأعيان وأنزلهم من على داوبهم، وسب وضرب بعض الناس على وجهة حتى أسال دمه، فتشكى الناس من ذلك القبطي وأنهو شكواهم إلى بليار قايمقام فأمر بالقبض على ذلك القبطي وحبسه بالقلعة».

ولكن القارىء لا يجد في الجبرتي ولا في غيره أن يعقوب في سنة ١٨٠١ لما انتهى الاحتلال الفرنسي هاجر وتبع الجيش الفرنسي إلى فرنسا لتحقيق مشروع خطير هو

---

(٥)

وإذا قدمتم إنجلترا، فقولوا للإنجليز، كلما وقعت مناسبة: «إن والدى قد علم وقدر مدى أهمية صداقة إنجلترا لمصر، وأيقن ذلك، نظراً لموقع مصر الجغرافي. ويعلم بذلك من الكتاب الذى كتبه الدوق ولنكتون حوالى سنة ١٨٣٠ ميلادية، إلى المستر باركر، قنصل انجلترا بمصر في ذلك العهد، بأن الدولة الانجليزية اعتبرت الأجوبة الصائبة التى أجاب بها على إفادات وإشارات الدولة المشار إليها، بشأن موضوع الجزائر مقبولة. وبناء على ذلك، لم يخل والدى من تلقينى، أنا وجميع أفراد العائلة، وملء آذاننا بأن صداقة دولة إنجلترا لمصر، وخدمة مصر في مقابل صداقتها، هما من قبيل اللازم والملزوم. كما أنه، بصفة خاصة، لم ينقطع أبداً عن التنبيه عليّ، المرة بعد الأخرى، قائلا: «اسع جهدك في تلقين هذه الفكرة إلى أسماع أفراد عائلتنا، واملأ أذهانهم بها». وأنا بفضل الله وكرمه، لم أخرج عن نصيحته، كما أننا نعتبر صداقة دولة عظيمة كإنجلترا، نعمة عظمى لنا على الدوام».

(٦)

وإذا سألوكم عن مسألة المواصلات (الامرارية) في الوقت الحاضر، فأجيبوهم بأن الصعوبات التى كانت قائمة في سبيلها قد أزيلت، وتقرر أن تتولى الحكومة أعمال المواصلات. وسينفذ هذا القرار. غير أنه قد نيط بتنفيذ هذا القرار التماس تفويض أمر البريد إلى الحكومة المصرية، ذهاباً وإياباً، أسوة بغيرها من الحكومات من سائر البلاد. ونحن نرجو أن تنتهى هذه المسألة أيضاً إلى نتيجة حسنة.

الحصول على اعتراف الدول باستقلال مصر.

عثرت على الأوراق الخاصة بهذا فى سجلات وزارتى الخارجية الإنجليزية والفرنسية بعد أن كدت أطرح الأمل فى العثور على تفكير مصرى أو غير مصرى فى حل المسألة المصرية بالاعتراف باستقلال مصر[هذه الوثائق أربعة الأولى كتاب بالإنجليزية من القبطان أدموندس للورد الأول للبحرية الإنجليزية مؤرخ عن جزيرة منورقه فى ٤ أكتوبر ١٨٠١ يتضمن أحاديثه مع يعقوب فى الطريق إلى فرنسا - الثانية مذكرة مشروع استقلال مصر مكتوبة بالفرنسية وملحقة بالكتاب المذكور بقلم الفارس لاسكاريس والوثيقتان فى أوراق وزارة الخارجية الإنجليزية فى المراسلات الخاصة بالدولة العثمانية تحت الرقم الآتى F.O. 78. Turkey 33(September _December 1801). والوثيقة الثالثة كتاب من لاسكاريس موقع عليه بتوقيع نمر أفندى للقنصل الأول بتاريخ أول فنديميير من السنة العاشرة (الموافقة ٢٣ سبتمبر ١٨٠١) والرابعة بنفس التوقيع والتاريخ لتليران وزير الخارجية والوثيقتان الثالثة والربعة فى سجل المراسلات الخاصة بالدولة العثمانية فى أوراق وزارة الخارجية الفرنسية فى المجلد رقم ٢٠٣ وقد نقلهما الميو أورbان فى مقالة عن لاسكاريس فى مجلة Mer cure de france بتاريخ ١٥ يونيه ١٩٢٤ ص ٥٩٣ -

---

مصر من ١٨٤٨ إلى ١٨٥٤

حكومة إبراهيم والشئون الداخلية:

ظل محمد على قابضًا على ناصية الأمور الداخلية فى مصر فى السنوات التالية لتسوية المسألة المصرية وصدور فرمانات الوراثة حتى أنهكت الشيخوخة قواه وساءت حالته الصحية عام ١٨٤٨[(١)]، فتشكل فى ٩ أبريل من هذا العام مجلس فوق العادة للاضطلاع بتبعات الحكم باسم محمد على، وهو المجلس الذى ترأسه ابنه إبراهيم باشا. ومن ذلك الحين بدأت حكومة إبراهيم. وفى مايو عام ١٨٤٨ أى بعد مضى بضعة أسابيع على استلام إبراهيم أزمة الحكم، كتب القنصل الإنجليزى شارلس مرى Murray إلى حكومته يقول: «إن لإبراهيم راية وخبرة عملية بشئون التجارة والمال تفوق دراية أبيه وخبرته، مما يحمل على الاعتقاد بأن حكومته سوف تكون أكثر تدبرًا فى انفاق المال من الحكومة السابقة».

وفى العهد الجديد اهتمت الحكومة بإنجاز أعمال القناطر الخيرية وتنشيط التجارة، فبنت عددًا كبيرًا من السفن وأصلحت عددًا آخر من السفن القديمة لنقل المحصولات والمتاجر، ووجهت عنايتها إلى شئون الصحة العامة، فبادرت باتخاذ التدابير الصحية اللازمة لوقاية البلاد

---

(١) يستثنى من ذلك فترة قصيرة من الزمن فى غضون عام ١٨٤٤، مالبث حتى استأنف محمد على نشاطه بعدها.

١٥٩٥ وقد حرف الميسو أوربان اسم الموقع إلى Hemir .

وبدأت بعد العثور على هذه الأوراق في تكوين رأى آخر في يعقوب وفي طبيعة علاقاته بالفرنسيين.

خدمات يعقوب للحكم الفرنسي من نوعين: خدمات من نوع ما كان قوم به للفرنسيين جرجس جوهرى وملطي وأبو طاقية وغيرهم من كبار الأقباط أساسها السعى للنفع الشخصي من جهة والخلاص مما كانوا فيه من استهان لا يرفعهم من حضيضه ما ملكوه من مال وجاه ولا يفارقهم مهما زادت حاجة الحكام اليهم، وخدمات من نوع آخر أساسها التمهيد لمستقبل البلاد السياسي بالتعضيد المؤقت للحكم الفربي».

ومن حقق النظر في أحوال الشعوب الشرقية الخاضعة لحكم السلطان العثماني أثناء القرن التاسع عشر لم يجد أن الطوائف الغير الإسلامية منها نظرت في أول الأمر للتدخل الغربي في شئونها بالعين التي نظر بها إليه يعقوب في آخر القرن الثامن عشر.

«أول ما في تأييد يعقوب للتدخل الغربي تخليص وطنه من حكم لا هو عثماني ولا هو مملوكي وانما هو مزيج من مساوئ الفوضى والعنف والإسراف ولا خير فيه للمحكومين ولا للحاكمين إذا اعتبرناهم دولة قائمة مستمرة» «فرأى يعقوب أن أى نوع من أنواع الحكم لا يمكن أن يكون

من انتشار وباء الكوليرا «الريح الأصفر» في مصر إبان شهرى أغسطس وسبتمبر من عام ١٨٤٨.

وفضلاً عن ذلك، فقد عنيت الحكومة بأمر التعليم وطبع الكتب النافعة، وحرصت على أن يتعلم الجند القراءة والكتابة، وأن يحذق الضباط اللغتين العربية والتركية إلى جانب معرفتهم بالقوانين العسكرية، فلا يرقى أحدهم أو يعطى رتبة إلا بعد امتحانه ونجاحه. ونالت مصلحة المرور والنقل كل عناية الحكومة. وكانت هذه المصلحة تتولى إدارة الطريق البرى بين الإسكندرية والقاهرة والسويس ويهيمن عليها عدد من المالطيين وغيرهم من الأجانب، فأقصت حكومة إبراهيم كثيرين منهم واستبدلت بهم طائفة من المصريين المشهود لهم بالقدرة والكفاءة.

حكومة إبراهيم والشئون الخارجية:

ولم تصرف حكومة إبراهيم هذه العناية بإدارة شئون البلاد الداخلية عن الاهتمام بعلاقات البلاد الخارجية مع الدول الأوروبية من جانب ومع الباب العالى من جانب آخر.

وكانت المحافظة على الوضع السياسى الذى حصلت عليه مصر، حسبما جاء في تسوية المسألة المصرية في عامى ١٨٤٠ ـ ١٨٤١، أهم ما يشغل إبراهيم ويستأثر بالشطر الأكبر من تفكيره. ذلك أن هذه التسوية كانت قد كفلت خروج مصر من مجرد باشوية أو ولاية بسيطة

أسوأ مما خضعت له مصر قبل قدوم بونابرت.

وثاني ما في تأييده للاحتلال الفرنسي أنه أتاح فرصة الاتصال بالغرب والتعلم منه؛ ولا يقلل عن هذا شأنا ـ في نظره ـ ما أتاحه هذا الاحتلال من إنشاء قوة حربية مصرية (قبطية في ذلك العهد) مدربة على النظم العسكرية الغربية).

وكان وجود الفرقة القبطية إذن أول شرط أساسي يمكن رجلاً من أفراد الأمة المصرية يتبعه جند من أهل الفلاحة والصناعة من أن يكون له أثر من أحوال هذه الأمة إذا تركها الفرنسيون وعادت للعثمانيين والمماليك يتنازعونها يعيثون فيها فساداً. على الرغم من أنه لا ينتمي لأهل السيف من المماليك والعثمانيين، وبغير هذه القوة يبقى المصريون حيثما كانوا بالأمس: الصبر على مضض أو الالتجاء لوساطة المشايخ أو الهياج الشعبي الذى لايؤدى لتغيير جوهرى، والذى يدفعون هم ثمنه دون سواهم، وهنا الفرق الأكبر بين يعقوب وعمر مكرم يعقوب يرمي إلى الاعتماد على القوة المدربة والسيد عمر يعتمد على الهياج الشعبى الذى تسهل إثارته ولا يسهل كبح جماحه والذى قد يصل سريعاً لتحقيق أغراض حاسمة ولكنه لا يصلح قاعدة للعمل السياسي الدائم المثمر. فكما أن العامة سريعة الهياج في أوقات الخلل واضطراب الحكم فهى أيضاً سريعة القنوط خصوصاً إذا اصطدمت بجند مسلحين حتى لو

من ولايات الإمبراطورية العثمانية إلى باشوية وراثية ذات امتيازات ضمنت لها شطراً من الاستقلال الداخلي في الإدارة وفرض الضرائب الداخلية الرسوم الجمركية والقيام بالإصلاحات وممارسة شئون الحكم الداخلي أو الذاتي عموماً، حتى صار لا يربطها بتركيا سوى مظاهر التبعية لصاحب السيادة الشرعية عليها. ولم يكن سراً مكتوماً أن السلطان العثماني لم يقبل هذه التسوية إلا مرغماً، وأن الباب العالي كان يتحين الفرص لإلغاء بعض امتيازات فرمانات الوراثة أو إلغاء هذه الإمتيازات برمتها وإرجاع مصر كما كانت ولاية بسيطة أو عادية من ولايات الدولة العثمانية. وفطن محمد على نفسه إلى هذه الحقيقة، فشغل في سنوات الحكم الأخيرة بتحصين الشواطئ واستئناف الاستعدادات العسكرية. وفي الحقيقة لم يصرف السلطان العثماني من التفكير في تحقيق مآربه إزاء مصر سوى ما كان يخشاه من معارضة الدول الأوروبية.

أما الآن وقد انزوى محمد على من الميدان، واشتعلت الثورات المعروفة في أوروبا خلال عام ١٨٤٨، وشغلت الدول بأمرها، فقد خشي إبراهيم أن يجد السلطان في ذلك كله ما يساعده على تحقيق مآربه. وفي يونيه ١٨٤٨ كتب شارلس مرى إلى لورد بلمرستون يقول: «إن الباشوات وكبار رجال الدولة في الآستانة ما يزالون ـ على ما بلغه ـ حانقين على إبراهيم، بسبب ما أنزله بهم من هزائم إبان الحملة الشامية، ولذلك فإنهم لن يحجموا عن انتهاز الفرصة عند سنوحها للانتقام منه».

وعلى ذلك، فقد وجد إبراهيم أن يسلك في علاقاته مع الباب العالي مسلك الحيطة

كان أولئك الجند من نوع ما كان في مصر في أوئل القرن التسع عشر من ترك والبانيين ومن ماثلهم.

وقد رأينا ما كان من أمر السيد عمر لما وجد امامه محمد على لا خورشيد. هذا الفرق بين الأداة التي اختارها يعقوب وتلك التي اختارها السيد عمر، ليس في الواقع إلا مظهراً لفروق أعمق إذا ما حاجة هذا السيد نقيب الأشرف إلى جيش، والرجل لا يتصور مصر إلا خاضعة لحكم المماليك تحت سيادة السلطان ولا يرمي إلى بعد من أن يملي إرادته على القائمين بالأمر فيها مدافعاً عن أفراد الرعية كلما زاد الفساد؟ وهو لهذا يكفيه قيام أهل القاهرة واجتماع كلمة العلماء «أما يعقوب فله شأنه آخر. إذا أنه لايريد عودة المماليك والعثمانيين وانما يعمل على أن تكون لفئة من المصريين يد في تقرير مصير البلاد بدلاً من أن يبقى حظهم كما كان في الحوادث الماضية مقصوراً على التفرج أو الاشتراك في نهب المهزومين».

ذكر الجبرتي حوادث المحرم سنة ١٢١٨ في كلامه عن اشتباك الألبانيين بأتراك الوالي العثماني خسرو ـ ذلك الاشتباك الذى انتهى آخر الأمر بولاية محمد على، ذكر أن الألبانيين كانوا يقولوا للعامة من أهل القاهرة: «نحن مع بعضنا وأنتم رعية فلا علاقة بكم بناه أنتم رعيه تخضعون لمن ينتصر منا. أراد يعقوب أن يكون الأمر غير

والحذر، فاهتمت حكومته بإنجاز أعمال التحصينات في الشاطئ الشمال، وشرعت تنظم الجيش المصرى، فكتب مرى في شهر مايو أن حكومة إبراهيم تولى الجيش عناية فائقة وتعمل لإصلاح وتقوية التحصينات في دمياط ورشيد، ثم كتب مرى مرة أخرى في بداية شهر يونيه أن حكومة إبراهيم ما تزال مهتمة بأمر التحصينات في الشواطئ الشمالية وتنظيم الجيش حتى أنها أعادت التجنيد. وفي بداية شهر يوليه كتب مرى مرة ثالثة أن حكومة إبراهيم ما تزال مشغولة بهذه التحصينات التى قام إبراهيم نفسه بزيارتها والتفتيش عليها في الإسكندرية ورشيد ودمياط، كما تم نصب المدافع في جميع الموانى الشمالية.

واعتمد إبراهيم من ناحية أخرى على استمالة الباب العالي وعدم تكدير صفو العلاقات بينه وبين السلطان العثماني. وفضلاً عن ذلك، فقد صار إبراهيم يبذل قصارى جهده حتى يحصل على تعديل فرمانات الوراثة بصورة تكفل انتقال الوراثة إلى ابنة الأمير أحمد رفعت، وغرضه من ذلك حصر الوراثة في صلبه، بدعوى ضمان استقرار الهدوء في مصر. وقد اعتمد إبراهيم على تعضيد الدول له في هذا المسعى. كما كان مما يكفل نجاح هذا المشروع ولا شك أن يصدر الباب العالي فرمان الولاية لإبراهيم سريعًا ودون إثارة صعوبات أو مشاكل. وعلى ذلك، فقد قصد إبراهيم الآستانة في آخر يوليه عام ١٨٤٨ لمقابلة السلطان والحصول على فرمان الولاية وعاد من رحلته في سبتمبر، فوصل القاهرة في اليو م الثاني عشر من الشهر نفسه. وفي ٢٦ سبتمبر نشرت الوقائع المصرية أنباء الاحتفال الذى أقيم لقراءة الفرمان، وكان احتفالاً كبيراً حضره إبراهيم نفسه.

ذلك. وعول على أن تكون القوة الحربية المصرية الجديدة مدربة على النظم الغربية فكان سباقاً إلى تفهم الدرس الذى ألقاه انتصار الفرنسيين على المماليك أو قل إلى إدراك ما أدركه محمد على بعد قليل من أن سر انتصار الغربيين في جوده نظمهم وبخاصة نظمهم العسكرية فسرق البرق من الآلهة وكان له ما كان. كيف كان للاتصال بالفرنسين هذا الأثر كله في نفس فرد واحد من أفراد الأمة في آخر القرن الثامن عشر؟ ذلك لأن يعقوب كان على استعداد لتعلم دروس الحملة الفرنسية وقد ثبت من القليل الذى وصل إلى علمنا من أخباره قبل ١٧٩٨ أن يعقوب لم يكن كغيره من المبرزين من أبناء طائفته في ذلك العهد وأن معاصريه منهم أحسوا باختلافه عنهم، وأثبتوا عليه شذوذه عن مألوفهم، ورواه عنهم المعمرون لصاحب تاريخ الأمة القبطية يعقوب بك نخله رفيله المولود في غضون سنة ١٨٤٧ والمتوفى في أبريل ١٩٠٥.

قال صاحب هذا التاريخ:«يظهر أن يعقوب لم يحترف بحرفة الكتاب في الدواوين مثل باقي عظماء أبناء أمته، بل كان من أصحاب الأملا والتجارة»[الثابت غير هذا. وهو أنه عمل في تدبير التزام سليمان بك الأغا في الوجه القبلي راجع [Homsy Le genral Jacob.P17: وأنه سار في مسلكه أزاء الحكم

غير أن جميع هذه الجهود التي بذلها إبراهيم لجعل الوراثة من حق ابنه الأكبر، لم تلبث أن ذهبت سدى ولم تسفر عن أية نتيجة، والسبب في ذلك هو مرض إبراهيم نفسه، ثم وفاته في ١ نوفمبر عام ١٨٤٨ في حياة أبيه[1]، فتولى الحكم من بعده ابن أخيه طوسون وهو عباس الأول، الذى لم يكن له طموح محمد على وأحلامه، فتخلى عن مشروعات جده الباهظة التكاليف.

حكومة عباس الأول والشئون الداخلية:

كان عباس الأول (١٨٤٨ ـ ١٨٥٤) أقل ميلاً لمشروعات محمد على التي كانت خزانة مصر تنوء بعبئها، كما أنه كان ينظر بعين الاستياء إلى تدخل الأجانب في شئون البلاد. فقد شاهد عباس مدى تغلغل النفوذ الفرنسي في مصر في عهد محمد على، كنتيجة لاستقدام الاخصائيين الفرنسيين لكي ينظموا ويوجهوا برنامج الدولة في التجديد والأخذ عن الغرب، وراءه تأثر كبار رجال الحكومة المصرية بالآراء والاتجاهات الفرنسية نتيجة لدراساتهم في فرنسا، وبسبب الجهود التي صارت تبذلها فرنسا ذاتها لكسب مودة رجال الحكومة، لدرجة أن صارت البلاد في أواخر عهد محمد على تتبع نصائح فرنسا وإرشاداتها، واستولى العدد الوفير من الرعايا الفرنسيين على المناصب الكبيرة.

وظهر نفور عباس من هذه السيطرة الفرنسية حتى قبل أن يتولى الحكم، وازداد هذا النفور

(١) توفى محمد على في ٢ أغسطس عام ١٨٤٩ في عهد عباس الأول.

الفرنسي «في خطة تخالف ما كان عليه أبناء جنسه من حيث الهدوء والسكينة والصبر والاحتمال وفداء أرواحهم وأعراضهم في بعض الأحوال يبذل المال والعطايا فانه فضلاً عن مخالفته لهم في الزى والحركات اتخذ له امرأة من غير جنسه بطريقة غير شرعية [تزوج يعقوب مرتين كانت زوجته الأولى قريبه له اسمها مختارة الطويل وبعد موتها تزوج من مريم بن نعمه الله وأصلها من حلب وكان هذا في سنة ١٧٨٢ ـ والظاهر أن هذا الزواج لم تتم إجراءاته الدينية إلا في سنة ١٧٠١ على يد البطريك ـ وقد مات يعقوب عن زوجته هذه وبنت ولدت له في ١٧٩٣ ـ والظاهر أن الأرملة لم تملك وثيقة بزواجها فحصلت في سنة ١٨١٨ على وثيقة من مسجلي العقود بمرسيليا راجع Homsy Le general Jacob PP.30 _32 على أن رجال الدين ولا سيما البطريك لم يكونوا راضين عن تصرفاته وأحواله، وقد سمع صاحب التاريخ من بعض شيوخ الأقباط المسنين ان البطريك «نصحه المرات العديدة بالعدول عن هذه الخطة وأن يعيش كسائر إخوانه فلم يقبل عاوده، بالنصيحة مرة أخرى فجاوبه جواباً عنيفاً فسخط عليه وسمع أيضاً ما كان من تجرئ يعقوب على الدخول في الكنيسة مرة راكباً جواده ورافعاً سلاحه وطلبه أن يناول السر المقدس وهو على ظهر جواده معتذراً عن هذه

عباس الأول

لديه بسبب اعتقاده الجازم بحاجة البلاد إلى الاستجمام والخلود إلى السكينة التامة بعد الحرب الطويلة التي خاضت غمارها في العهد السابق، وضرورة توفرها الآن للتخلص من مضار المظاهر التي اقترنت بإدخال الحضارة الأوروبية في مصر وانعدمت ثقة عباس تماما في الأجانب، عندما بدأ قناصل الدول بعدئذ يعملون لنشر نفوذهم في البلاد توطئة للسيطرة على شئونها وخدمة لمصالح رعاياهم، مستندين في ذلك على «الحقوق» الواسعة التي كفلتها لهم الامتيازات الأجنبية السائدة في ممتلكات الدولة العثمانية، ومتخذين من الضعف الذى ألم بمصر بعد تسوية ١٨٤٠ ـ ١٨٤١ وسيلة للمحافظة على هذه المصالح.

ومع أن عباس حاول التخلص من مخالب هذا النفوذ، إلا أن مساعيه باءت بالفشل بسبب التأييد الذى ناله القناصل من حكوماتهم، مما أوغر صدره ضد الأجانب(١) عموما، وحمله على اقصائهم من حاشيته، ومن الخدمة في مرافق الدولة.

---

(١) بلغ عدد الأجانب المقيمين في مصر ٦١٥٠ نفساً في عام ١٨٤٣، منهم ٢٠٠٠ يوناني و٢٠٠٠ إيطالي و١٠٠٠ مالطي و٨٠٠ فرنسي و١٠٠ إنجليزى و١٠٠ نمساوى و٣٠ روسيا و٢٠ أسبانيا و١٠٠ من أجناس مختلفة. وفي عام ١٨٤٧ كان عدد الأجانب في مصر لا يزيد عن ستة الاف.

الجسارة بأن من كان جندياً مثله يلزم أن يكون على الدوام في أهبه واستعداده.

«رفض يعقوب إذن أن يلتزم الهدوء والصبر والاحتمال وفداء النفس والعرض ببذل المال وأحب أن يكون رجل حرب». وقد ثبت للتاريخ ميله أيام شبابه؟ لأعمال القتال والفروسية على طريقة المماليك واشترك أيام أن كان يدبر التزام سليمان بك الأغا في الصعيد في بعض حروب المماليك ضد جنود القبطان باشا حسن الذى نزل بمصر في ١٧٨٦ لتثبيت الحكم العثماني. واهتم بدراسة بعض تلك الحروب وأتقن أساليب المماليك في ركوب الخيل واستعمال السيف.

ثم جاء الفرنسيون وعين لمرافقة الجنرال ديزيه في فتح الصعيد وهنا أيضاً رفض يعقوب أن يقصر همه على ما عين له من تدبير المال والغذاء ونقل الرسائل بل راقب سير الحرب، وحارب مرة من المرات تحت عيني ديزيه نفسه على رأس طائفة من الفرسان الفرنسيين جماعة من المماليك وأبلى بلاءً حسناً حمل قائده على تقليده سيفا ولم يكن المعلمون الأقباط يقلدون السيوف بل يكسون الفراء أو ينفحون بالمال.

وتعلق يعقوب بديزيه ـ السلطان العادل كما سماه أهل الصعيد ـ تعلقاً خالصاً وكان لهذا الاتصال أثر كبير في تكوين يعقوب جديد قال بليار ـ وكان من ضابط ديزيه في حمله الصعيد ـ يصف فترة من الفترات

والواقع أن الأجانب قد فقدوا بتولية عباس الأول التشجيع الذى كانوا يلقونه في عهد محمد على، وكان مجيء الأجانب قد تزايد نتيجة لانتشار الانقلاب الصناعي في أوروبا واتجاه الدول إلى البحث عن مواطن للخامات جديدة أو أسواق لتصريف مصنوعاتها، ثم الاعتقاد بأن مصر موطن الذهب أو كاليفورنيا الجديدة، والبلد الذى يستطيع الإنسان فيه الثراء بسرعة. ولما كان عباس يخشى توطد النفوذ الفرنسي في مصر، فقد أخرج عدداً من الفرنسيين المشتغلين في المعامل والمصانع وأعادهم إلى بلادهم. وقد قدر القنصل الأمريكي ماكولى Mc Cauley عدد الموظفين الأوروبيين الذين طردهم عباس في أوائل عهده (مارس ١٨٤٩) بحوالي ستمائة. ولم يلبث أن انتهز عباس فرصة قطع العلاقات السياسية والتجارية بين الباب العالي واليونان في عام ١٨٥٤، فأمر اليونانيين في مصر ـ وعددهم إذ ذاك ٣,٠٠٠ نسمة ـ بمغادرة البلاد في مدى ١٥ يوماً، وبالفعل غادر اليونانيون مصر ما عدا ثلاثمائة منهم كانوا يشتغلون بالتجارة، فسمح لهم بالبقاء نتيجة لتوسط القنصل الأمريكي إدوين دى ليون Ed-win de Leon ، وبشريطة أن يقدموا الضمان اللازم، فيحصلوا في نظير ذلك على «تذاكر للترخيص تدون فيها أشكالهم وأسماؤهم منعاً للغش والتزوير».

وعلى هذا النحو طرد عباس أغلب الفنيين الأوروبيين الذين أحضرهم محمد على، وصار يعارض دواما محاولات رجال الأعمال الغربيين لتوسيع ميدان نشاطهم في مصر. وفي الحقيقة

التى انتهزها القائد لراحة عسكره: «أقمنا فى سيوط وكنا نجتمع كل مساء فى منزل ديزيه، وكانت احاديثنا تدور حول موضوعات شتى. وكان كل منا يدلى برأى أو آراء فى السلم والحرب وفى النظم والتواريخ».

ولابد أن يعقوب استمع لكل ما كان يدور وفهم القدر الذى استطاع أن يفهمه ولابد أن ما استطاع أن يسمع أو يفهم أثار شتى الأفكار فى نفسه وكشف له عن عالم من المعانى غير الذى نشأ فيه وعرفه ويعجز يعقوب عن الإفصاح عما يجول فى خاطره ويقيض الله له رجلاً من أغرب أهل عصره يتولى عنه التعبير ذلك الرجل هو الفارس ثيودور لاسكاريس دى فنتميل.

رددت ذكر لاسكاريس هذا كتب الرحلات وأذاع أمره. لامارتين فى قصة «فتح الله الصغير بين بدو الصحراء». واقترن اسمه أثناء إقامته بلبنان باسم سيدة انجليزية نبيلة لا تقل عنه غرابة أطوار وهى ليدى هستر ستانهوب حفيدة الوزير الكبير شاتهام وربة بيت خالها، وليم بت مدة وزارته تركت انجلتره وقضت باقى أيامها فى لبنان. ولا يعرف التاريخ لم كان ذلك أكانت هجرة نفس أبيه إلى حيث الحرية التامة؟ أم كان ذلك لمس ظهر فيها شذوذاً وتجلى فى جدها وخالها عظمة وزعامة؟ ومهما يكن من الأمر فقد تركها التاريخ حتى الآن لأهل القصص.

وكاد يترك لاسكاريس أيضاً للمصير نفسه وقد تمنى باريس

كانت سياسة عباس حجر عثرة فى سبيل هجرة الأوروبيين إللى مصر. كما كان تقييد حرية التجارة الداخلية فى عهده مانعًا للأوروبيين ـ وبخاصة اليونانيين ـ من النفاذ إلى داخلية البلاد، ومن ترك القاهرة والإسكندرية للانتشار فى الريف والاتجار مع الفلاحين.

وكان لهذا التطور الذى شعر به عباس نحو الأجانب الأثر الكبير فى تاريخ البلاد فى عهده، سواء فى شئونها الداخلية أو فى علاقاتها مع الدول ومع الباب العالى إذا أنه لما كان الأجانب ـ والفرنسيون خاصة ـ قد ساعدوا حكومة محمد على فى مشروعاتها الاصلاحية وفى نهضة البلاد عمومًا، فقد اقترن طرد الأجانب والاستغناء عن خدماتهم بالقضاء على كافة مظاهر الحضارة الحديثة ومنع البلاد من التمتع بنتائج الجهود التى بذلت طوال النصف الأول من القرن التاسع عشر فى سبيل نهضتها.

ولهذا كان عهد عباس عهد جمود وركود انطفأت فيه البقية الباقية من جذرة النهضة السابقة. فأغلق الوالى المدارس الابتدائية والمداس التجهيزية، ولم يبق من المدارس الخصوصية سوى المهندسخانة والطب، وشرد المتعلمين وشتت شمل مدرسيهم، فاقصى خيارهم إلى السودان بحجة إنشاء مدرسة نظامية جديدة فى الخرطوم[1] ، بينما انتقى نفراً محدوداً من

---

(١) كان رفاعة رافع الطهطاوى ـ أحد أعلام النهضة العلمية المصرية ـ من بين المصريين الذين أرسلهم عباس الأول إلى الخرطوم.

لوتولى بيبربنوا كتابة سيرته كما يكتب بنوا السير. ولكن أنقذه للتاريخ محقق فاضل هو الميسوأوربان فكتب فصلاً ممتعاً تتبع فيه هذه الحياة الضالة في البر والبحر، في الغرب والشرق، وليس هذا بالأمر اليسير.

فيودور لاسكاريس من بيت إيطالى نبيل يتصل قديماً بقياصرة بيزنطة. دخل هو وأخوه في سلك فرسان القديس يوحنا الذين كانوا يحكمون جزر مالطة إلى أن انتزعها بونابرت منهم في طريقة إلى مصر ١٧٩٨ درس في صباه الموسيقى وفنون العمارة وقرأ كل ما استطاع أن يقرأ وغذى بهذه القراءات خيالاً قوياً وكان ذا نفس أبيه تواقة للعلا يريد أن يخلد اسماً خليقاً بسليل القياصرة ولكن حظه كان الخمول والفقر والتنقل من مكان لآخر وانتهى به المطاف إلى مصر يكسب قوته بتعليم الفرنسيه لإسماعيل ابن محمد على فاتح السودان ثم الموت في القاهرة في سنة ١٨١٧ في ظروق مريبة،وقدر له أن يموت كما بدأ وكما وصف نفسه. «صاحب مشروعات».

تحقق الكثير من هذه المشروعات فيما بعد على أيدى أفراد وحكومات. ولكنها في أيام صاحبها كانت سابقة لأوانها.

رجل هذا حاله تضيق به مالطة ويضيق ذراعاً بالفرسان تركها وتبع بونابرت إلى مصر. حيث تقلد بعض المناصب الإدارية تعلم العربية وتزوج من قوقازية من جوارى أحد الأمراء وأطلق

التلاميذ في مدرسة واحدة أسماها «المفروزة» واستعاض بها عن المدارس الحربية. وعلاوة على ذلك، فقد أهملت في عهد عباس حركة التأليف والترجمة، وأوقف العمل في بناء القناطر الخيرية.

ولما كان عباس يقضى وقته مع مماليكه وخيوله وكلابه في عزلة منفردة في قصوره بعيداً عن القاهرة، فقد اختلت الإدارة وساءت مالية الدولة، وصار المديرون يستبدون بالأهالى في المديريات والأقاليم، وسام جباة الضرائب الفلاحين العسف والجور، فساءت حال الفلاح، وأصبح يؤدى العشورية ـ وهى الضريبة النوعية ـ من غير حساب أو ضباط، وتصرف عباس في مالية الدولة تصرفاً مطلقاً، وأنفق الآلاف من الجنيهات على قصوره الخاصة، وعاش عيشة البذخ والترف ينفق من غير حاسب، مما مهد ولا شك الطريق لخلفه سعيد للاستدانة من البيوت الأجنبية. وفي الحقيقة لم يعن عباس بغير ثروته الخاصة، فأخذ يعمل من أجل إنمائها، وانصرف بذلك عن التفرغ لشئون الدولة، فاضمحلت البحرية وأهمل شأن الجيش واختل نظامه، وألغيت المصانع الباقية من عهد محمد على، ولو أن تخفيض قوات الجيش(١) والبحرية أدى إلى إعادة عشرات الألوف من الرجال إلى الأرض، مما أسفر عن ارتفاع محصول القطن.

(١) أنقص عدد الجيش إلى نصف العدد اللذى سمح به فرمان ١٨٤١ حتى نشبت حرب القرم فزيد عدده.

خيـاله العنان في هذا الوادى التاريخي الرحيب.

وفي مصـر فكر وكتب في طرق حكمها ودرس فكرة إقامة قناطر حاجزة عند تفرع النيل في رأس الدلتا وعندها يقيم عاصمة البـلاد تحت اسم مينو بوليس إجلالاً للجنرال مينو، يحميها الماء من جوانب الثلاثة وتجذب إليها خيـرات الوادى من منابع النيل هذا الاجتذاب والتقدم نحو منابع النيل من مشروعات لاسكاريس العزيزة. ألا يمكن أن نجد مغزى خاصاً في أن إسماعيل فاتح السودان كان تلميذاً للاسكاريس قبيل الفتح؟ وقد ثبت أن المعلم صرف في بث هذه الأفكار وما يماثلها في تلميذه أكثر مما صرف في تعليمه تصريف الأفعال.

ورأى لاسكاريس أن مصـر يجب أن تستقل وأنها خليقة بالاستقلال بحكم موقعها وتاريخها ومواردها. ورأى إن الحكومة الفرنسية يجب أن تعمل على تحقيق استقلال مصر إذا ما قررت الجلاء عنها بأن تقوى الفرقة المصرية تحت قيادة يعقوب وأن تمدها بحيث تكون العنصر المرجح في تقاتل العثمانين والمماليك على تملك هذه البلاد وأشار أيضاً بأن يترك الفرنسيون إذا ما اضطروا للجلاء ذخيرة وقوة فرنسية يظهرون أنها عاصية ترفض الانسحاب مع بقية الجيش ويدعونها تنسحب نحو الأقاليم النوبية تفتحها وتهبط منها على مصر عند اللزوم.

وجاء وقت الجلاء وسلمت الحامية الفرنسية المرابطة في

غير أنه حدث في عهد عباس أن ضعف تدريجيًا نظام الاحتكار الذى أوجده محمد علي، فإنه بالرغم من الأوامر المشددة التى أرسلها عباس إلى المديرين حتى لا يتصل التجار الأجانب بالأهالي والفلاحين، فقد تمكن هؤلاء التجار من النفاذ إلى الداخل والاتصال مباشرة بالأهالي في القرى يشترون منهم ما فاض عن حاجاتهم بعد تأدية الضريبة. وقد كان للمساعى التى بذلتها الدول لإلغاء احتكار تجارة الصمغ الأثر الأكبر في القضاء على نظام الاحتكار، وهذا بينما كان التجار إلى جانب ذلك عمومًا يحاولون دائمًا الاستفادة من المعاهدة التى عقدتها بريطانيا في عام ١٨٣٨ مع الباب العالى لإلغاء نظام الاحتكار جملة في ممتلكات الدولة.

ومع ذلك كله، فهناك ملاحظة جديرة بالذكر بالنسبة لسياسة عباس الأول الداخلية، إذ يرى دافيد لاندز(١) أن برنامج عباس في التوفير والتمصير لم يكن بالعنف الذى صوره السياسيون والمؤرخون الغربيون. فقد شهدت السنوات الأخيرة لعهد محمد على بداية التقهقر عن الخطط الطموحة التى تجلت في العشرينيات والثلاثينيات من القرن التاسع عشر. ولما

(1) Landes, D.Bankers and Pachas, Lnterngtional Financ and Economic. Lmperialism in Egypt. London 1958.

وقد ترجم الدكتور عبد العظيم أنيس هذا الكتاب إلى اللغة العربية بعنوان: «بنوك وباشوات»، القاهرة ١٩٦٦؛ أنظر ص٧٦ من الترجمة العربية.

القاهرة تحت قيادة الجنرال بليار المدينة للإنجليز والعثمانيين وكان من شروط التسليم أن يكون لاى مصرى أردا حق الخروج مع الجيش الفرنسي دون أن يتعرض أحد للإضطهاد ممن خدم السلطات الفرنسية وآثر أن يبقى في مصر بعد زوال أمرها.

وأرسل إبراهيم بك أمانا للأقباط الذين ينطبق عليهم هذا الشرط الثاني فخرجوا إليه وسلموا وعادوا إلى دورهم. أما يعقوب فقد صمم على الرحيل مع الفرنسيين والظاهر أنه حاول أن يستصحب عدداً كبيراً من شبان القبط الذين كانوا تحت قيادته، فقد جاء في الجبرتي في وقائع صفر ١٢١٦ «أما يعقوب فانه خرج بمتاعه وعازقه وعدى إلى الروضة وكذلك جمع إليه عسكر القبط وهرب الكثير منهم واختفى واجتمعت نساؤهم وأهلهم وذهبوا إلى قامقام (أى بليار) وبكوا وولولا وراجعوه في إبقائهم عند عيالهم وأولادهم فانهم فقراء وأصحاب مصانع ما بين نجار وبناء وصائغ وغير ذلك فوعدهم بأنه يرسل إلى يعقوب أن لا يقهر منهم من لايريد الذهاب والسفر معه». ولم يخرج معه إلا أهله، زوجته مريم نعمه الله وبنته مريم وأخوه حنين وابنا أخته ولقبهما سيداروس. وكان من الخارجين بعض الأقباط وجماعة من المترجمين وبعض المسلمين ممن خاف على نفسه كعبد العال الأغا الذى طلق زوجته وباع متاعه وفراشه وما ثقل عليه حمله وخرج أيضاً كثير من نصارى

كانت قد أغلقت مثلاً بعض المدارس في أواخر عهد محمد على، فقد مضى عباس ببساطة في نفس هذا الاتجاه.

حكومة عباس الأول والشئون الخارجية:

اعتقد المؤرخون أن استبداد عباس الأول في شئون البلاد الداخلية إنما يرجع إلى قسوته وضعفه الخلقي فحسب، ولذلك أغفلوا البحث عن العامل الأول في رجعية عباس والجمود الذى أصاب مصر في عهده. حقيقة كان خلق عباس الشخصي ونشأته الأولى وتربيته العثمانية المحصنة وعدم معرفته الغرب من قريب أو بعيد، من المؤثرات التي دفعت الوالي في سياسته الرجعية غير أنه من الخطأ الاكتفاء بهذا التفسير لقسوته وبطشه بأعدائه، ثم لكراهيته الشديدة للأجانب، تلك الكراهية التي جعلت بعض الكتاب يطلقون عليه «المتعصب» الغشوم.

فإن عباس بالرغم من حياة العزلة التي عاشها واحتجابه عن قناصل الدول، كان ملمًايحقيقة «وضع» البلاد تبعًا لفرمانات الولاية، مما جعله ولا شك يوطد العزم منذ البداية على الاستئثار بالسلطة المطلقة في شئون مصر. وقد استرشد عباس الأول بهذا المبدأ طول حياته، سواء كان ذلك في علاقاته مع الباب العالي صاحب السيادة الشرعية العليا، أو حيال الدول الأوروبية عامة، لدرجة أن أصبحت الرغبة في هذا الاستئثار بالسلطة المطلقة الداخلية موضع الارتكاز لكافة الحوادث والتطورات التي وقعت في عهده.

الشوام والأورام مثل يني وبرطلمي (فرط الرمان) وغيرهما.

لم يبق يعقوب بمصر يعمل في تقرير مصيرها كما حسب. وليس أمامنا إلا أن نعلل ذلك بأسباب لابأس بها أولها ما رآه من تشتت الجند القبطي وعزم بنائيهم وتجاريهم على ترك الجند القبطي وعزم بنائيهم وتجاريهم على ترك الجندية والعودة لعيالهم ثانيها أن القيادة الفرنسية لم تعد شيئاً ما لمستقبل الفرقة القبطية، ولا لمستقبل النفوذ الفرنسي في مصر. بل كان همها الانسحاب وتنظيم هذا الانسحاب وربما كان سبب هذا الإهمال ما حدث من تقسيم الجيش الفرنسي إلى قسمين قسم يدافع عن القاهرة تحت قيادة بليار وآخر عن الاسكندرية تحت القائد العام مينو ثم أصبح الاتصال بين القسمين صعباً. وسلم بليار القاهرة في اتفاق عقده مع الأعداء وأعقبه تسليم مينو. أما ثالث الأسباب فهو الهجرة لتحقيق مشروع خطير: السعي لدى الحكومات الأوربية لتحقيق استقلال مصر. ولا أظن أن خروج يعقوب كان للخلاص بنفسه فمثله ممن يمكنهم تصفيه الحساب الماضي مع العثمانيين المنتصرين. وقد حاول القبطان باشا حسين أن يغريه بالبقاء في مصر ووعده ومناه ولكنه رفض وآثر الرحيل للعمل في ميدان جديد.

ركب يعقوب السفينة الحربية الإنجليزية بلاس وربانها أدموندس وكان على ظهرها أيضا الفارس لاسكاريس وقدعرف أدموندس

ومع أن تاريخ البلاد الداخلي في هذه الفترة كان يشوبه لهذا السبب نفسه الشيء الكثير من الرجعية والجمود كما قدمنا، فإن عباس الأول قد بذل جهوداً كبيرة للتخلص من التدخل القنصلي في عهده. ومع أن مساعيه في هذا السبيل لم تنجح حيال جبهة الدول المتحدة، فقد تمكن في نواح أخرى من الاحتفاظ بسلطته الداخلية وبفرمانات الولاية السابقة. ولم يكتف عباس في الواقع بمجرد تحقيق هذه الرغبة. إذ كان يدرك مدى الضعف الذى ألم بتركيا خلال القرن التاسع عشر، ولم يخف عنه استعداد الدول الأوروبية عامة لاقتسام ممتلكات العثمانيين ومنها مصر ذاتها إذا سنحت الفرصة ولذلك كان عباس يتخذ العدة دائمًا للانفصال عن جثمان الدولة وتحقيق استقلاله، إذا نجحت أطماع الدول في القضاء على تركيا أو رجل أوروبا المريض وتقسيم ممتلكاته.

غير أن عباس وقد شاهد تدخل الدول في عهد جده محمد علي، لم يشأ لذلك استثارتها ضده، فقر رأية على اتخاذ الوسيلة التى تمكنه من تحقيق آماله، وهي توثيق علاقاته مع تركيا في حدود الفرمانات: أى من غير الرضوخ لتدخلها في شئون البلاد الداخلية، مع التمسك بسيادتها الشرعية في الوقت ذاته وكان عباس ولا شك يرجو من هذه الصلة الوثيقة معاونة الباب العالي لإبطال مساعي الدول وتدخل قناصلها في شئونه، بينما كان يدرك إلى جانب

قدر يعقوب وأنه زعيم في عشيرته وأن الفرنسيين لقبوه «جنرالا» حرصا على نيل تأييده فأحسن لقاءه مما دعا يعقوب للتحدث معه في شئون مصر وقال له أنه يعتقد أن حكومة العثمانيين في مصر أسوأ أنواع الحكم وأنه لم يؤيد الاحتلال الفرنسي إلا لتقليل ما حاق بمواطنية من أذى وأنه صدق ما أدعاه الفرنسيون من أن دولتهم أقوى الدول الأوروبية ولم يكن يدرك إذا ذالك مدى القوة البحرية الإنجليزية ثم قال أنه يرجو أن يسعى لدى الحكومات الأوروبية لتحقيق استقلال بلاده وأن هجرته لأروبا قد تنفع في هذا السبيل، على أنه يعلم ان ادراك الغاية مستحيل بلا موافقة الحكومة الإنجليزية.

هذا مجمل ما قرره يعقوب لأدموندس وزاد عليه لاسكاريس وكان يترجم بين الرجلين أن يعقوب على رأس وفد مصرى اختاره أعيانها ليفاوض الحكومات في أمر الاستقلال.

بعد هذا الحادث اشتد المرض على يعقوب وتوفى في السادس عشر من أغسطس سنة ١٨٠١ والسفينة على مقربة من سواحل الاناضول الجنوبية الغربية وقد راعى أدموندس مقامه ورجاء أهله فلم يلق جثته في البحر بل وضعها في دن من «الروم» حفظها حتى مرسيليا حيث دفنت وفي إحدى مقابرها يرقد الآن الجنرال يعقوب في قبر معروف.

ولم يكن موته نهايه الأمر فقد قرر لاسكاريس أن الوفد باق رغم موت رئيسه وأعد مذكره مفصلة

ذلك مغبة التنازع مع السلطان. فقد خشي أن يلحق البلاد الضعف بهذا التنازع، مما يجعلها لقمة سائغة تتمكن أوروبا من ابتلاعها بسهولة[١].

ولكن تركيا لم تقابل بالمثل ولاء عباس، بل على العكس من ذلك فقد أخذت تتذرع بكافة الطرق للقضاء على سلطته الداخلية واستعادة نفوذها وسيادتها في مصر. وسرعان ما خدمتها الظروف للخروج من موقفها السلبي الذى اتخذته حيال البلاد في عهد محمد على واتباع سياسة محكمة غرضها إثارة الصعوبات والمشاكل في وجه الوالى الجديد، وتعطيل إدارة الحكومة وإضعافها حتى يتسنى لها التدخل وإلغاء امتيازات الفرمانات السالفة، إن لم تتمكن من القضاء على الولاية الوراثية ذاتها.

فقد أثار عباس بإقصائه الفرنسيين من خدمته وإبعاده الوطنيين المتأثرين بالحياة الفرنسية من البلاد، عداوة فرنسا، فحملت صحافتها حملات عنيفة ضد عباس واتهمته بالظلم والاستبداد وقلة الدراية والعجز عن إدارة شئون الحكم وروجت فرنسا هذه الاتهامات ضده في الآستانة

(١) في أبريل عام ١٨٤٩ أرسل عباس الأول مركبين حربيين وعدة سفن صغيرة تقل ٣٠٠٠ جندى و١٥٠ بحار استعدادًا لمعاونة الباب العالى في وقت حدث فيه سوء التفاهم بين تركيا وروسيا وتوقع الوالى نشوب الحرب بينهما، وهى الحرب التى لم تلبث أندلعت وعرفت بحرب القرم (١٨٥٤ ـ ١٨٥٦). ووعد عباس إلى جانب ما تقدم بإرسال نجدات جديدة عند الحاجة.

بالموضوعات التى تحدث فيها يعقوب مع أدموندس وسلمها فى مرسيليا لذلك الإنجليزى لتبليغها لحكومته فتعهد أدموندس بذلك وبالمحافظة على سر هذا الأحاديث عن نفسه وعن حكومته.

ما رأى أدموندس فى كل هذا؟ قال أولاً أنه لا يملك تحديد مدى التفويض الذى تكلم عنه لاسكاريس وثانياً أنه لا يدرى إن كان عضواً فى الوفد أو سكرتيراً مترجماً له وأنه على كل حال لم يستطع أن يصفه إلا بأنه رجل «خيالى».

قام أدموندس بما وعد به فأرسل لحكومته مذكرة استقلال مصر التى أعدها لاسكاريس.

بدأ الكاتب بإهداء التحية للورد الأول للبحرية الإنجليزية (الموجه إليه الخطاب) وتذكيره بأن اهتمامه بما تضمنته المذكرة فيه نفع دولته وأن ما قد يقوم به لتحقيق استقلال مصر أجمل ما يجدر بلورد إنجليزى أن يسعى له. ثم أطنب فى وصف عظم هذا المشروع - تحقيق استقلال مصر وأن هذا الاستقلال يبدد سحب الجهل التى تكاثفت على هذا الوادى الذائع الصيت حيث مهد الحضارة، فيه تعلم الإغريق وعن الإغريق ورثت أوروبا علومها وفنونها واستثارة أهلها ألا يثير ذلك فى نفوس الغربيين شيئاً من عرفان الجميل فيردوا لمصر الإستقلال الذى به تستعيد ما كان لها؟

ثم بين لاسكاريس أن مصر المستقلة لن تضر أحداً. وأن استقلالها وقد أصبحت موضوع أطماع الدول خير حل للمسألة

وفى العواصم الأوروبية. ومهدت بذلك الطريق لتدخل الباب العالى بحجة «تقييد» سلطة الوالى «المطلقة» وتحسين أحوال رعاياه.

وفى الواقع اتخذ الباب العالى وجود جماعة الموظفين «المصريين» الأثرياء الذين اضطرهم عباس إلى الالتجاء إلى الآستانة، وسيلة لحبك خيوط الدسائس والمؤامرات ضده. وانبث أعوان السلطان فى القرى والأقاليم لتشويه سمعة عباس، ونشر حكايات البطش والقسوة واظهار عداوة السلطان له ورغبته فى خلعه. وفى الاستانة، استمع الباب العالى لسعايات أعداء عباس الذين كانوا يبذلون المساعى لإقامة مجلس جديد من بين أفرادهم يكون أداة صالحة لكبح جماح الوالى وتقييد سلطته.

ولذلك رأت تركيا أن تتخذ من مساعى أعداء عباس واتهاماتهم مبرراً للتدخل فى شئون الباشوية المصرية وتجريدها من الامتيازات التى تمتعت بها بفضل فرمانات عام ١٨٤١ وارجاعها إلى حظيرة الدولة ولاية عادية حتى تستقيم أحوالها. وكانت وسيلة الباب العالى إلى ذلك هى مطالبة عباس بتطبيق التنظيمات العثمانية فى ولايته. وعلى ذلك، ففى مارس عام ١٨٥٠ طلب الباب العالى من عباس أن يدخل التنظيمات العثمانية ويطبقها بحذافيرها فى مصر، واعطاء الضمانات الكافية لحماية الأرواح والأعراض والأموال باقامة الإدارة العادلة فى البلاد.

وهكذا ظهر السلطان بمظهر المصلح المستنير مما أحرج عباس، الذى ازداد موقفه صعوبة

المصرية تلك المسألة التى أثارتها الحملة الفرنسية والتى يحتم انهيار بناء الدولة العثمانية مواجهتها وذكر أن مراد بك قبيل موته أدرك مدى هذا التطور الأخير فى تاريخ بلاده وعبر عنه فى قوله «أن مصر قد عرفها كفار الغرب فلن ينفكوا عن السعى للاستيلاء عليها».

وتناول أيضاً فى مذكرته بحث ما تصيبه الدولة الإنجليزية من نفع فى تحقيق هذا المشروع فأكد صداقة المصريين للأمة الإنجليزية بعد أن عرفوا جنودها وبعد أن خبروا الحكم الفرنسى وأن سيدة البحار لابد وأن تسيطر بنفوذها على مصر وتكون أكبر من يستفيد من موقعها الجغرافى.

ولم يغفل لاسكاريس الكلام عن أمرين جوهريين وقد جاء كلامه عنهما أضعف ما فى مذكراته: الأول نوع الحكومة المصرية المستقلة، الثانى ما تتخذه هذه الحكومة للدفاع عن كيانها أما عن نوع الحكومة فأكتفى بعد مراوغة كلامية بالقول بأنها ستكون وطنية عادلة حازمة وانها بذلك تنال احترام الأمة وطاعتها وحبها كما أحب أهل الصعيد فى الماضى القريب حكم همام وكان عادلاً حازماً.

«أما عن وسائل الدفاع فنجده، يقرر أن الحكومة الوطنية لن تقوى على صد إعتداء أوروبى إلا بعد مضى زمن طويل ولكنها تستطيع أن تصد الترك وتسحق المماليك بجيشها الوطنى تشد أزره قوة حربية أوروبية ببذل المال لرجال الباب العالى».

وتؤكد المذكرة فى النهاية أن

بسبب مؤازرة فرنسا للباب العالى ولكن عباس عارض بشدة فى تطبيق «التنظيمات» بحذافيرها دون تعديل، واستند فى معارضته على أساسين جوهريين:

أولاً: إن تطبيق التنظيمات بالصورة المطلوبة متعارض مع الحقوق التى هى من أركان الحكومة الوراثية كما رسمها فرمان فبراير ١٨٤١، وكما ضمنتها الدول بموافقتها عليها، فمن حق الوالى بفضل الفرمانات أن يمارس السلطة الداخلية فى شئون ولايته كاملة غيرمنقوصة. وأما إذا طبقت التنظيمات كما هى فى مصر، فإنها سوف تطغى على كل حقوقه فى الإدارة الداخلية باخضاع كل شئون القضاء والإدارة والمال رأسا للديوان العثمانى بالآستانة، الأمر الذى يترتب عليه خفض مركز الوالى فى مصر إلى مستوى الباشوات العادين فى الولايات أو المقاطعات العادية فى الدولة.

ثانيًا: إن تطبيق التنظيمات العثمانية على علاتها فى مصر لا يتفق اطلاقا مع ظروف هذا القطر وأحواله وحاجاته من ذلك ما نصت عليه التنظمات بشأن عدم توقيع عقوبة الإعدام (القصاص) على القتلة والمتمردين من غير أن يجيز ذلك فرمان يصدر من السلطان. وكان من رأى عباس أن الاعراب فى الصحراء والفلاحين بالصعيد والأهلين فى النوبة وسنار، لا يأبهون للأوامر التى يصدرها الباب العالى، وهو الذى يعد بعداً شاسعًا عنهم، ولا يخشون بأسه وسطوته، ولكنهم يخشون الحكومة التى تقتص منهم فى التو والساعة إذا حصل ما يوجب الاقتصاص منهم.

الفكرة الاستقلالية لها أنصار فى مصر وأن هؤلاء الأنصار يخفونها حــذر الموت، وطلب صــاحب المذكـرة حميـاتهم من اضطهاد العثمانين إذا ما رفضت الدولة إنشاء دولة مصرية مستقلة.

«أمــا عن خطة «الوفــد المصـرى» فى القـريب فـانهـا ستكون السعى لدى الحكومة الفرنسية لاقناعها بقبول قاعدة الاستقلال فى مفاوضاتها مع الحكومة الإنجليـزية على مـصـر ويرجــو لاسكاريس أن لا يكون مـصـدر الاقتـراح الفـرنسى مما يحـمل الحكومة الانجليـزية على رفـضـه ويطلب فى النهـاية أن تكون مخابرات انجلترا مع الوفد شفوية وعن طريق الكونت أنطون كاسيس المقيم فى تريستا والذى كان يعمل فى إدارة الجمارك فى الاسكندرية أيام الممــاليك ولما أرادت حكومـة الأمــبـراطورية الرومانية المقدسة (دولة النمسا) أن تفتح طريق مصر لتجارة الهند لمصلحتها اجتذبت لتحقيق ذلك أنطون قــيس هذا فـمنحـتـه حمايتها وأنعم عليه الأمبـراطور يوسف الثانى بلقب بارون وكونت فى الأمـبـراطورية ولما فـشل هذا المشروع النمســاوى وعـلا نفوذ اعدائه غادر قـيس مصـر واتخذ تريستا مـوطناً له وكـان هذا فى ١٧٨٤].

ونجد لاسكاريس فعلا يقدم للقنصل الأول بونابرت مـذكـرة مـوقـعـاً عليهـا من «نمر أفندى» بالنيـابة عن الوفـد المصـرى وهذه

ولما كان ادخال التنظيمات العثمانية فى مصر بحذافيرها ودون تعديل معناه الغاء الباشوية الوراثية كآخر خطوات هذا التدخل من جانب الباب العالى، فقد قرر عباس أن يستعين بالنفوذ الأجنبى وأن يستخدم لمصلحته المنافسة القائمة بين الدول وخصوصاً بين انجلترا وفرنسا.

فقد استمرت فى عهد عباس تدور المنافسة بين انجلترا وفرنسا حول المفاضلة بين الطريقين البرى والبحرى بين أوروبا والشرق كما كان الحال فى عهد محمد على. غير أن عباس كان فى أول حكمه معادياً لكلا المشروعين: لا يرغب فى شق القناة بين البحر المتوسط والبحر الأحـمـر (المشـروع الفـرنسى) أو مـد السكة الحديدية بين الإسكندرية والسـويس (المشـروع الإنجليزى). ولهذا تضامنت المصلحة بين فرنسا وانجلترا لمعارضة عباس والكيد له. وازدادت مخاوف عباس من انجلترا خصوصاً عندما تكررت مساعيها لانشاء سكة حديدية بين السويس والإسكندرية لتسهيل تجارتها وبريدها مع الهند عبر الطريق البرى، مما أقلق عباس ودفعه إلى التشديد فى معارضة رغباتها. ولما شاهد القنصل الإنجليزى (مرى) يسعى لجذب البدو إليه فى شبه جزيرة سيناء لأغراض قد تكون متصلة برغبة الإنجليز فى تأمين مواصلاتهم البرية، بادر عباس فى عام ١٨٥٠ بإنشاء مركز حربى فى «الطور» ليحول دون تأسيسهم مراكز أو مناطق نفوذ فى تلك الجهات يهددون منها حدود مصر الشرقية. وفى الآستانة، انضم السفير الإنجليزى ستراتفورد كانـنج Stratford Canning إلى جانب أعدا عباس، وكان كاننج يتمتع بسمعة

المذكرة خالية طبعاً من التعريض بالحكم الفرنسى ومن تفضيل المصريين للإنجليز ذلك التفضيل الوارد فى المذكرة لانجلترا على أنه تتفق معها فى الغاية الاستقلالية وتطلب تحقيقها باسم التاريخ لمجد بونابرت».

وأردف هذه المذكرة بأخرى لوزير خارجية فرنسا ـ تاليران ـ يقرر فيها الغرض الأسمى ويعتذر عن الإجمال تاركاً التفصيل إلى أن يستقبلهم الوزير فى باريس إذا العرب يجيدون الكلام أكثر مما يجيدون الكتابة وطلب من الوزير أن يستقبلهم بزيهم الشرقى إذا أن المسلمون منهم يعز عليهم إبدال غيره به، فضلاً عن أن هذا الزى يشير فى نفس بونابرت ذكرى فتوحه ويعرف من لم يرى مصر من الفرنسيين بالشرق وأهله.

لا اللورد الأول للبحرية الإنجليزية ولا القنصل الأول ولا وزير الخارجية الفرنسية اهتم بما فى هذه المذكرات بل أودعوها سجلات الحكومة.

وفى «مقدمات الصلح» بين فرنسا وانجلتره اتفق على إعادة مصر للدولة العثمانية وأدمج هذا الاتفاق فى معاهدة الصلح النهائية: معاهدة أميان وفى سياسة الحكومتين قبل أميان وبعدها لم يتعد اهتمامهما بأحوال مصر ونوع حكومتها ما تعلق منها بعلاقة الدولة العثمانية بالمماليك وحتى فى هذا لم يكن الاهتمام بها إلا من حيث تأثيرها فى تسهيل ـ أو منع ـ وقوع مصر فى حكم انجلترة أو فى حكم فرنسا لا من حيث تأثيرها فى رفاهية أو سعادة الشعب المصرى.

ونفوذ كبيرين فى العاصمة العثمانية ولدى دوائر الباب العالى. وكان من نتيجة هذا كله أن ساءت العلاقة بين عباس وانجلترا، واستمر الحال على ذلك إلى أن ظهرت أزمة التنظيمات العثمانية الآنفة.

وأدرك عباس فى هذه الآونة أن من مصلحته التفاهم مع انجلترا وترضيتها والاستعانة بالنفوذ الانجليزى لاجتياز أزمة التنظيمات. ولذلك اتخذ عباس منذ بداية الأزمة خطة التفاهم مع انجلترا وتخلى عن موقف المعارضة السابقة، وأظهر استعداده للاستجابة إلى مطالبها. ولتحقيق هذا الغرض، عقد عباس فى فبراير عام ١٨٥١ مع القنصل الإنجليزى مرى اتفاق ينص على أن تتدخل انجلترا لدى الباب العالى للمحافظة على حقوق الوالى كما جاءت فى فرمانات الوراثة، وأن يتفاوض عباس مع المهندس الإنجليزى سير روبرت ستفنسون Robert stephenson لمد السكة الحديد فى الطريق البرى من الإسكندرية إلى السويس، وأن يعمل عباس على تشجيع التجارة البريطانية وتأمين المواصلات مع الهند. وهذا بالرغم من تحذير الباب العالى، الذى ثارت ثائرته عندما علم بعدذلك بأمر هذا الاتفاق، فأرسل إلى الوالى إنذارًا شديدًا فى سبتمبر من العام نفسه.

غير أن خطوة عباس لم تلبث أن أسفرت عن ارتياح الوزير الإنجليزى بلمرستون وتعضيده للوالى، فكتب بلمرستون فى مارس عام ١٨٥١ إلى مرى لكى «يؤكد لعباس باشا استجابة

ملحق (١)
رسالة من القبطان جوزيف إدموندس قائد الفرقاطه بالاس إلى فخامة الإيرل سانت فنست وزير البحرية البريطانية على ظهر الفرقاطة بلاس جزيرة مينورقا فى ٤ من أكتوبر ١٨٠١.

سيدى اللورد

استبحت لنفسى أن أرفع إليكم مباشرة المذكرات المرفقة بكتابى هذا، اعتقادا، منى بأنه قد يكون من المفيد لحكومة بلادى أن تعلم أن بعض الأشخاص الذين يطلقون على أنفسهم «الوفد المصرى» موجودون الآن فى باريس.

لقد كان ممن استقل السفينة بالاس التى اتولى قيادتها من مصررجل قبطى ذو سمعة طيبة، وهو من زعماء طائفته وله بينها نفوذ كبير وقد نصبه الفرنسيون قائدا على فيلق برتبة جنرال لكى يعاونهم.

أوليت هذا المنفى العاثر الحظ بعض الرعاية فأخذ يحدثنى فى شئون وطنه وقد أعرب لى عن اعتقاده بأن أى نوع من الحكم لبلاده أفضل من حكم الترك (العثمانيين) لها، وأنه انضم إلى الفرنسيين بدافع وطنى حتى يمكنه أن يخفف عن مواطنيه ماعانوه فى ظل السلطنة العثمانية، ولكن الفرنسيين خدعوهم فأصبح المصريون الآن يحتقرونهم كما كانوا يحتقرون الترك، وأنه ما يزال يأمل فى خدمة بلاده عن طريق الحكومات الأوروبية، ويرى أن ارتحاله إلى فرنسا قد يمكنه من ذلك وقال إن الفرنسيون جعلوه يعتقد أن دولتهم أقوى دول أوروبا، وأنه لم

الحكومة الإنجليزية لرغباته» ولتبليغه «أنها أصدرت تعليماتها إلى سفيرها بالآستانة ليقدم كل مساعدة فى استطاعته لعباس لدى الباب العالى».

أو على هذا النحو عاونت إنجلترا عباس فى الآستانة، ولم تحفل باحتجاجات فرنسا التى اشتدت مساعيها ضد الوالى فى الآستانة، يدفعها إلى ذلك الخوف من استئثار الانجليز بالنفوذ الأعلى فى مصر ونجاح الطريق البرى ووقوعه فى قبضتهم[1].

غير أن المعارضة الفرنسية ضد عباس لم تلبث أن خفت حدتها فى الآستانة، ويرجع ذلك إلى نشاط الدبلوماسية الإنجليزية فى العواصم الأوروبية من جهة، والى الانقلاب الذى حدث فى فرنسا ذاتها فى ديسمبر عام ١٨٥١ من جهة أخرى، وهو الانقلاب الذى أسفر عن استيلاء لويس نابليون على زمام الحكم فى فرنسا ومهد لإنشاء إمبراطورية نابليون الثالث أو الامبراطورية الثانية، وكانت سياستها ـ على حد قول الإمبراطور نابليون الثالث ـ هى العمل من أجل السلام فى الخارج[2]، مما ترتب عليه أن طفق الإمبراطور يعمل فى سبيل توثيق عرى الود والتفاهم مع بريطانيا.

(١) انضمت إلى فرنسا فى أزمة التنظيمات كل من روسيا والنمسا بهدف تعطيل المصالح البريطانية، عندما أولت انجلترا مؤازرتها لعباس الأول رغبة فى الاستفادة من الطريق البرى: السويس ـ القاهرة – الإسكندرية وبقائه مفتوحاً لمواصلاتها الإمبراطورية مع الهند.

(٢) L' Empire c'est la paix.

يكن يعرف إلا قليلا عن القوة البحرية الهائلة لبريطانيا، ولكنه مع ذلك كان على يقين من أنه بغير موافقة بريطانيا فإن رغبته في أن تتمتع بلاده بحكومة مستقلة لن يقدر لها أن تتحقق. وقد أبلغني صديقه لاسكاريس الذى كان يترجم أقواله لي أن الجنرال المعلم يعقوب يرأس وفدا فوضه أعيان مصر لمفاوضة الدول الأوربية في أمر استقلالها وفي أثناء الرحلة مات الجنرال وقام ترجمانه بتحرير المذكرة المرفقة بكتابي هذا وهي مكونة من أجزاء تتضمن خلاصة بما دار بيننا من أحاديث، إذا كان الجنرال قبل وفاته قد أعرب عن رغبته في أن أبلغ فحوى هذه الأحاديث إلى القائد العام كي يبلغه بدوره إلى الحكومة البريطانية وقد أكد لي السيد لاسكاريس أن الوفد ما زال قائما وأن أعضاءه مسافرون معنا على ظهر السفينة ولم استطع أن أتبين هل لاسكاريس نفسه عضوا في هذا الوفد أو أنه لم يكن سوى سكرتير مترجم له غير أني أعتقد أنه رجل مغرق في الخيال، وأظن أن أصله يرجع إلى إقليم بيدمونت وأنه من فرسان جزيرة مالطة الذين تركوا الجزيرة مع جيش بونابرت وقد تعهدت للمعلم يعقوب بألا استعمل أو تستعمل الحكومة البريطانية مضمون أحاديثه في أى وقت من الأوقات بها، فقد رأيت من الضرورى ابلاغكم راسا بهذه المذكرات والمعلومات، إذا قد يمضى بعض الوقت قبل أن تتاح لي فرصة إبلاغها أولا إلى قائدى

ولذلك نجحت المساعي الإنجليزية في الآستانة، وتوصل الوالي والسلطان بفضل هذه الوساطة إلى حل مسألة «التنظيمات» نهائيا في أبريل عام ١٨٥٢، بشكل لا يخل بفحوى فرمانات الولاية (١٨٤١). وفي ٢٣ أغسطس عام ١٨٥٢ قرىء رسميا فرمان السلطان في القاهرة، وهو الفرمان الذى أقر حق الوالي في القصاص ـ أى إصدار أحكام الإعدام ـ لمدة سبع سنوات من غير استصدار موافقة الباب العالى مقدما على نصوص الأحكام التى يصدرها. ومع أن هذا الحق ذاته كان مقيدا بشروط عديدة[١]، فقد ظل عباس محتفظا بكل سلطاته الداخلية كاملة حسب ما جاء في فرمانات الولاية.

وفي عام ١٨٥٢، بدأت حكومة عباس تمد السكة الحديد بين الأسكندرية والقاهرة[٢]، فوصلت إلى كفر الزيات بعد عامين (١٨٥٤)، وعبدت إلى جانب ذلك الطريق البرى الواقع بين القاهرة والسويس.

(١) منها ضرورة تشكيل مجلس خاص لفحص كل حالة قبل تنفيذ الحكم، وضرورة إرسال إعلام شرعى بالأحكام ومحاضرها بعد نفاذ الأحكام إلى الآستانة.

(٢) كان السلطان قد أصدر في أكتوبر عام ١٨٥١ فرمانا يتضمن الشروط التى رآها ضرورية لإنشاء السكة الحديدية، وفحواها الا يعهد بإنشاء السكة الحديدية إلى شركات، وألا يسخر الأهالى فى بنائها، وألا تفرض ضرائب جديدة أو تعقد قروض أجنبية بسببها، وأن يخصص للانفاق عليها فائض الإيرادات فحسب بعد تأدية الجزية ودفع نفقات الإدارة الداخلية العادية.

العام اللورد كيث وأرجو أن تفضلو فتقروا مسلكى هذا.

ولى عظيم الشرف يا سيدى اللورد.

ملحق (٢)

مذكرات مرفوعة للقبطان جوزيف إدموندس لتذكيره مستقبلا بالنقاط الرئيسية لأحاديثنا السياسية على ظهر السفينة.

١ـ إن الكتاب المرفقة به هذه المذكرات موجه إلى فخامة اللورد [كيث] وهو يبدو للوهلة الأولى مجرد التماس بسيط يرجوه أن يهتم بنا نحن المصريين التعساء. ولكن من الضرورى فى الحقيقة أن ينظر إليه على أنه ملخص للأحاديث السياسية التى دارت بيننا على ظهر السفينة. ولما كان من عدم التبصر فى الوقت الحاضر عرض خطتنا بشكل أكثر تفصيلا، فإن هذه المذكرات الموجزة المكتوبة على عجل يمكن أن تكون كافية لتذكيرك بأهم نقاط أحاديثنا وعندما يحين الوقت الملائم لرفعك إياها مباشرة إلى حكومتك أو لابلاغها لفخامة اللورد، فإا المصريين، لوثوقهم فى سجاياك الكريمة، يتركون لحسن فطنتك أن تشير اهتمام فخامة اللورد بقضيتهم، حتى يمكن أن يكون لنا سندا، سواء بما سوف يكتبه إلى مجلس الوزراء البريطانى، أو بما سوف يقوم به عند عودته إلى إنجلترا وإننا لنؤكد أن فخامة اللورد سوف ينتصر بذلك لقضية فيها نفع لبلاده، وليس هناك ما يمكن أن يكون أسمى غاية لسعى لورد نبيل مثله.

٢ـ إذا افترضنا أن ما سوف

ومع أن عباس كان يكره كل نفوذ أجنبى سواء كان فرنسيا أم انجليزيا، إلا أن استعانته بالنفوذ الإنجليزى إبان أزمة «التنظيمات» للوقوف أمام محاولات الباب العالى لإعادة مصر إلى باشوية عادية تحت الحكم العثمانى المباشر، كان لها نتائجها من حيث أن النفوذ الإنجليزى أخذ يشتد تدريجيا فى مصر، وخشيت الدول الأوروبية أن ينتهى الأمر باحتلال الإنجليز للبلاد. بيد أن عباس نفسه لم يرتح قطعا لتمتع الإنجليز بهذا النفوذ الكبير، وشعر بضعف مركز الباشوية؛ لدرجة أن اشتد به القلق فى أواخر عهده، وازداد فزعه خلال الحوادث التى سبقت وقوع الحرب بين تركيا وروسيا فى القرم والبلقان. فقد تمثل أمام عينيه الخطر الذى ينتظر مصر إذا انهارت السلطنة العثمانية وأقدمت الدول على تقسيم ممتلكاتها، فإن مصر فى هذه الآونة كانت ضعيفة بسبب التدخل القنصلى واستفحال النفوذ الإنجليزى، ولا تتمكن لذلك من الاحتفاظ بكيانها منفردة حيال أطماع الدول.

ولا ريب أن هذا هو السبب الذى دعا عباس للتمسك بتبعيته للسلطان صاحب السيادة الشرعية فى البلاد وإسراعه إلى نجدته فى محنته العصيبة عند انفجار حرب القرم المشهورة (١٨٥٤ ـ ١٨٥٦). فقد رأى الوالى أن المحافظة على كيان الدولة العثمانية حيال أعدائها خير وسيلة فى الواقع للمحافظة على «وضع» البلاد وعدم وقوعها فى قبضة الدول. ولذلك أسرع عباس بتجنيد ثمانية آلاف مقاتل، وأرسلهم على ظهر الأسطول المصرى للاشتراك فى المعارك

يعرضه «الوفد المصرى لدى الحكومات الأوروبية»، باسم المصريين الذين فوضوه؛ يبدو قليل الأهمية فى نظر تلك الحكومات، فإنكم يا سيادة القبطان توافقوننا على الأقل على أن الدولة الأوربية لن تفعل أمجد أو أكرم من أن تبدد بقرار سياسى بسيط ظلمات الجهل والهمجية التى تخيم على هذه البلاد الذائعة الصيت لقد كانت هذه البلاد مهدا لاستنارتنا ولعلومنا وفنوننا ومجمل القول أنها كانت المركز الأول للحضارة التى نقلها عنها اليونان ومنها وصلت إلينا وإذا كانت مصر بماضيها المزدهر العظيم لا تستطيع أن تثير فى دول أوروبا شعور العرفان بصنيعها وما لها من فضل، فهى تستطيع على الأقل أن تثير فيها شعور العطف عليها، فإذا ما تحقق ذلك ردوا إليها أمرها أمكنها أن ترضى كل الدول الطامعة فيها، دون أن تهدد واحدة منها فى مصالحها.

٣- لن يمضى وقت طويل حتى تؤيد بريطانيا حل القضية المصرية على هذه الأسس.. وفى هذه الأثناء قد تتقدم الحكومة الفرنسية نفسها باقتراح ذلك، وعندئذ ينبغى ألا تنسى الحكومة الإنجليزية أن ما يقترح إنما هو نتيجة جهود الوفد المصرى فى باريس، ومن ثم فليس هناك ما يدعو إلى أن تنظر الحكومة الإنجليزية إلى ذلك بشىء من الريبة إذا ما تقدمت فرنسا بمثل هذا المشروع السياسى، فإنها سوف تفعل ذلك على سبيل المجاملة، لأن مصلحتها فى نجاح

الدائرة في البلقان. وقد دافع المصريون حينئذ عن بعض المواقع التى كان يحاصرها الروس فى يونيه عام ١٨٥٤ دفاعًا مجيدًا. ولكن عباس لم يشهد ختام هذا النضال؛ فقد مات فجأة فى ١٣ يوليه عام ١٨٥٤ بقصره فى بنها على أثر نوبة من الصرع[١]، فخلفه عمه محمد سعيد.

مصر من ١٨٥٤ - ١٨٦٣

حكومة سعيد والشئون الداخلية:

كان سعيد عند وفاة أخيه إبراهيم المرشح للوراثة بعد عباس الأول تبعًا لفرمانات الوراثة. ولكن عباس كان يسعى دائمًا لضمان الوراثة لابنه الأكبر الهامى، فنقم على عمه واتهمه بالتآمر ضده، واضطره إلى الابتعاد عن مقر الحكم وانعزاله بقصره فى الإسكندرية. ومع ذلك،

(١) انتشرت عقب وفاة عباس روايات عن «مقتل» الوالى، ولكن يتضح من دراسة الوثائق الأمريكية والإنجليزية أن القنصل الأمريكى فى مصر «إدوين دى ليون» والقنصل الإنجليزى «بروس» يخالفان الرأى القائل بأن عباس مات مقتولاً. فقد كتبا إلى حكومتهما أن الوفاة كانت طبيعية. فمثلاً كتب بروس إلى حكومته فى ١٧ يوليه عام ١٨٥٤ أنه عندما مات عباس فجأة فى قصره فى بنها مساء ١٣ يوليه استدعى طبيبان إيطاليان، فقررا أن الوفاة طبيعية، وأنها وقعت على أثر نوبة حادة من الصرع. وفى رسالة أخرى فى ١٣ أغسطس عاد القنصل إلى موضوع الوفاة، فقال إن كافة الإشاعات التى راجت عن مقتل عباس لا أساس لها من الصحة، ثم ذكر كيف أن أطباء عباس كانوا يتوقعون أن تحدث الوفاة مفاجأة على أثر إحدى نوبات الصرع التى اشتدت وطأتها على عباس فى سنواته الأخيرة.

المشروع أقل من مصلحة بريطانيا، والذى لا شك فيه أن حكومة الجمهورية الفرنسية لاتزال راغبة فى امتلاك مصر مرة أخرى.

٤ـ توشك الإمبراطورية العثمانية على الانهيار ولذا فيهم الإنجليز قبل أن تقع الواقعة أن يلتمسوا لأنفسهم من الوسائل المؤكدة ما يكفل لهم الإفادة من ذلك الحدث عند وقوعه فيحققوا مصالحهم السياسية وإذكان من المستحيل عليهم أن يستعمروا مصر ـ كما استحال ذلك من قبل على فرنسا ـ فيكفى أن تخضع مصر المستقلة لنفوذ بريطانيا صاحبة التفوق فى البحار المحيطة بها. ولا شك فى أن استقلال مصر سوف يحقق لها رخاءها، ولكنها لن تكون إلا دولة زراعية غنية بحاصلاتها الوفيرة التى تنتجها تربتها الخصبة وبتجارتها التى تنفرد بها مع أفريقيا الوسطى.

وهذه المزايا سوف تعود بالفائدة على بريطانيا التى يهمها ـ بحكم مركزها فى الهند ـ أن تتاجر مع مصر وما حولها.

٥ـ لقد كان مراد بك يقول ـ وربما كان على حق ـ إن كفار الغرب (هكذا كان يسمى الدول الأوربية) أصبحوا يعرفون مصر معرفة تامة، وأن الكل يسعى للاستيلاء عليها، مما سيجعل منها موضوعا دائما للخلاف فيما بينهم، وقد يقال إن بريطانيا لا حاجة بها إلى استيلاء على مصر إذا أن لها من سيادتها البحرية ما يجعلها تستأثر بتجارة مصر الخارجية ويضمن لها بالتالى أن يكون لها ما تريد من نفوذ فيها

فلم تنجح مجهودات عباس، بسبب غيبة إبنه إلهامى خارج البلاد عند وفاته فجأة، وبسبب معارضة جماعة من كبار موظفى الحكومة لكافة المساعى التى قام بها أنصار عباس لتغيير الوراثة وحصرها فى ابنه الأكبر، فتمكن سعيد عندئذ من اعتلاء الولاية، وذهب من فوره إلى القاهرة بعد وفاة عباس ببضعة أيام فى ٢٠ يوليه عام ١٨٥٤ حيث استلم زمام الأمور.

وكان سعيد على عكس ابن أخيه عباس الانعزالى العبوس ودودًا شديد الإعجاب بالحياة الغربية، ويتظاهر بالثقافة والاعتقاد فى صلاح الآراء الحرة الحديثة، وفى مبدأ الحرية التجارية عمومًا. ولذلك لم تمر شهور قليلة على وصوله إلى الحكم حتى ألغى الدخولية أو المكوس التى كانت تعرقل سير التجارة بين مدن القطر وأقاليمه، وأرباح بيع الغلال وتصديرها إلى الخارج، ثم قضى ـ سواء عن اقتناع أو تحت تأثير ضغط الأجانب من الأوروبيين ـ على البقية الباقية من نظام الاحتكار، الذى أخذ يضعف منذ عهد سلفه، وذلك بإلغائه جملة والسماح للتجار الأجانب بأن يتعاملوا مباشرة مع المزارعين.

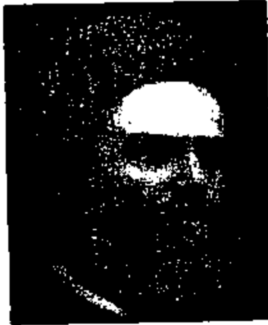
سعيد باشا

ولما كان كثير من المزارعين ينوءون تحت عبء الضرائب المتأخرة وعجزوا عن سدادها منذ مدة طويلة، فقد تنازلت حكومة سعيد عنها، كما ألغت مبدأ تضامن القرى فى تحمل الضرائب وأعفت القرى العديدة من سدادها.

ولكن ماذا سيكون من أمر هذا النفوذ إذا ماعدت فرنسا من جديد الحليفة الطبيعية للباب العالي، وإذا ما عمل الباب العالي من ناحيته على إرضاء فرنسا أكثر من بريطانيا؟ وكيف يكون الوضع إذا ما مضت الدولة العثمانية في إجراءاتها فاغلقت مرافقها في وجه الإنجليز؟ ثم أليس من المحتمل كذلك أن يضغط الفرنسيون على حلفائهم ليتخذوا - برا - تدابير عدائية أكثر من الإنجليز، يمكن أن تقضي على تجارتهم في بلاد الشام وفي البحر الأحمر؟

٦- إن مشاعر المصريين نحو الفرنسيين ترجع إلى أساليب هؤلاء في الحكم في أثناء احتلالهم لمصر، ولست في حاجة إلى إعادة الكلام في هذا الموضوع، إذا أعتقد إنكم يمكن أن تستعيدوا بسهولة ما دار بيننا من حدث حوله. وعلى هذا فإن كل شيء، بما في ذلك مشاعر المصريين تجاه الفرنسيين وما يمكن أن يشعروا به تجاه الإنجليز كلما ازدادت معرفتهم لهم، يثبت أن مصر المستقلة لن تكن إلا موالية لبريطانيا. ومن ثم فعلى بريطانيا أن تعمل على استقلال مصر أو على الأقل أن تؤيد هذا الاستقلال بعد حدوثه وذلك على ضوء ما هو متوقع من تطورات في مستقبل الأيام.

٧- إذا فرضنا أن حكومات الدولة الأوربية سمحت باستقلال مصر، فكيف يحكم المصريون أنفسهم؟ وكيف يدافعون عن استقلالهم؟

أولا: لا يسمح المجال في هذه

وكان من أثر هذه الخطوة الإصلاحية أن أخذ الفلاح يشعر بشيء من الطمأنية، كما نشطت التجارة الداخلية إجمالاً، وبدأت مظاهر الانتعاش تبدو تدريجًا خلال السنوات الأولى من عهد الوالي الجديد.

وقد ساعد على إطراد هذا الانتعاش ما شهدته البلاد في عهد سعيد من تطور خطير في نظام ملكية الأرض فقد أصدر الوالي في ٥ أغسطس عام ١٨٥٨ قانونًا أولائحة (اللائحة السعيدية) زادت من حقوق الفلاح على أرضه فقضت بأن كل من مضت عليه خمس سنوات وهو يزرع أرضه ويدفع الميري أو الخراج لا تنتزع من يده، وإذا مات الفلاح يرث أرضه ورثته الشرعيون من الذكور والإناث. وعلى ذلك، فقد تقيدت «حصص الفلاحين في سجلات خاصة، وأصبح للفلاح الحق في أن يوقف أرضه أو يرهنها، وأن يكون له مطلق التصرف في زراعتها وبيع حاصلاتها، ولو أن الحكومة احتفظت بملكية الأرض، ولم يكن للفلاح - قانونًا - سوى حق الانتفاع بها. أما الأبعاديات التي أنعم بها محمد على على بعض القواد والموظفين والأجانب والمقربين إليه، فقد فرضت حكومة سعيد عليها الضرائب وثبتت ملكيتها لأصحابها.

وتابعت حكومة سعيد إصلاحها الاقتصادي، فاستبدلت الضرائب النقدية بالضرائب العينية مثل العشورية وغيرها، ووضعت نظامًا ثابتًا للضرائب، فصار الجباة في مبدأ الأمر يحصلون

المذكرات المحررة على عجل بالدخول في تفصيلات مشروع الوفد المصرى لحكم البلاد ويكفى الآن أن نلاحظ أن قيام حكم الاستقلال لن يكون نتيجة انقلاب مبعثه وعي أمة اصطرعت فيها مختلف الآراء الفلسفية، ولكنه سيكون نتيجة تغيير جبرى تفرضه القوة القاهرة على قوم مسالمين جهلاء يكادون لا يعرفون سوى عاطفتين تحركان سلوكهم، هما المصلحة والخوف فإذا استطاعت الحكومة الجديدة أن تسبغ على حياة الناس شيئا من الرخاء وأن تعمل على زيادة دخولهم، وهو أمر ليس بالعسير، فمن المؤكد أنها ستنال تأييدهم بحماس وكيف لا يكون الأمر كذلك، فلتكن الحكومة الجديدة إذا عادلة وحازمة ووطنية كما كانت حكومة شيخ العرب همام في الصعيد التى رويت لك قصتها ولا شك أنها عندئذ سوف تكون موضع الاحترام والطاعة والحب.

ثانيا: كيف يدافع المصريون عن استقلالهم؟ وهل سيكون هذا الدفاع ضد دولة أوربية؟ إن من غير المتوقع حدوث ذلك إلا بعد وقت طويل يكون قد تم فى خلاله تنظيم جيش وطنى قادر على رد الاعتداء أما إذا كان الاعتداء من جانب الترك أو المماليك فنعتقد أن الدول الأوربية لن تسمح بحدوث ذلك. ومن جهة أخرى فإن المصريين يمكنهم أن يعتمدوا على قوات أجنبية تعمل لحسابهم يتراوح عددها بين ١٢٠٠ و١٥٠٠٠ جندى يكفون

الضرائب الجديدة فى أوقات معينة تبعًا للقواعد والقوانين التى وضعت لجبايتها، فنتج عن هذا كله ارتفاع الإنتاج الزراعى وزيادة محصولات البلاد الزراعية، وانتعاش التجارة الداخلية تبعًا لذلك، كما ارتفعت صادرات مصر الخارجية.

وكان من أسباب الانتعاش التجارى العناية التى بذلتها حكومة سعيد لتحسين النقل المائى فى داخل البلاد، فقد قامت بتطهير ترعة المحمودية ـ التى تربط النيل بميناء الإسكندرية ـ فى نحو ثلاثين يومًا، وأزالت الطمى الذى كان يسد قاع الترعة ويعوق مرور السفن ويمنع وصول الماء الكافى لرى الأراضى الزراعية. وفى عام ١٨٥٦ استكمل الخط الحديدى بين الإسكندرية والقاهرة، وهو الخط الذى كان قد بدىء العمل به فى عهد عباس ووصل فى عام ١٨٥٤ إلى كفر الزيات، ثم أنشىء بين عامى ١٨٥٦ ـ ١٨٥٨ خط آخر من القاهرة إلى السويس، فاستكمل بذلك الاتصال البرى بين أوروبا والهند. وفى الوقت نفسه وجهت العناية إلى مصلحة النقل، فأصلحت شؤونها وانتظم حالها، واختير لقيادة القطارات بين الإسكندرية والقاهرة مهرة المصريين.

وأدى النهوض بمصلحة النقل وإنشاء الخط الحديدى بين القاهرة والإسكندرية، ثم بين القاهرة والسويس، إلى إصلاح وتوسيع ميناء السويس وانتعاش حركة العمران فى هذا الميناء، فلم تعد حركة السفن فيه مقصورة على موسم الحج، بل أصبحت ترد إليه على مدار السنة.

تماما لصد الترك عند الصحراء ولسحق المماليك داخل مصر، وتكون هذه القوات في الوقت نفسه نواة الجيش الوطني ولما كان العثمانيون يفعلون أى شيء من أجل المال فمن الممكن بذله لهم لردهم عن مصر ولقد كان المماليك يستعملون هذا السلاح كلما رأوا سحب السياسة تتلبد ضدهم في القسطنطينية.

وينبغي ألا يفوتنا أن نذكر في هذا الصدد أن المصريين منقسمون إلى عدة طوائف، وأن هذا الإنقسام من شأنه أن يساعد على دفع هذه الطوائف بعضها ببعض من أجل حفظ التوازن بينها وللوفد المصرى صلات بهذه الطوائف جميعا دون انحياز لواحدة منها على الأخرى وهذه الصلات قائمة في الخفاء وستظل خافية تماما عن الحكومة التركية في مصر. وهذه الحيطة أمر لابد منه تجاه حكم مستبد متربص بالناس، ولن يتوانى عن البطش بالأخوة دعاة الاستقلال والفتك بهم عن آخرهم إذا استطاع أن يكشفهم ولقد استطاع الذين هاجروا مصر من هؤلاء الأخوة مع الجيش الفرنسى أن يتحدوا طغيان الترك، ولكن الأمر ليس كذلك بالنسبة للأخوة الذين بقوا في مصر، فهؤلاء يعيشون تحت السيف والعصا، ولا يملكون إلا إخفاء حقيقتهم والظهور بمظهر عبيد السلطان المخلصين.

٨ـ إن المصريين كافة، والوفد المصرى لدى الدول الأوربية بوجه خاص، سيبذلون كل ما في وسعهم من جهد ليحرروا أنفسهم

وفضلاً عن ذلك، فقد تقدم عمران الإسكندرية ميناء القطر الأول، بسبب نشاط التجارة وانشاء شركات الملاحة التجارية. فقد أنشئت عام ١٨٥٤ شركة للملاحة النيلية لنقل المسافرين والمتاجر والحاصلات على البواخر في النيل بدلاً من المراكب الشراعية اقتصاداً للوقت وتسهيا للمواصلات. وكانت هذه الشركة أجنبية تعهدت في نظير الامتياز المعطى لها أن تقوم ببعض الإصلاحات في ترعة المحمودية. وفي عام ١٨٥٧ أسست شركة أخرى للملاحة البحرية عرفت باسم «الشركة المجيدية» لحمل المتاجر والمسافرين والحجاج في البحر الأحمر وفي البحر المتوسط. وكان يقوم بإدراة هذه الشركة الأخيرة خليط من الوطنيين والأجانب.

وقد أتخذ سعيد من «عطفه» على الفلاحين سببًا لتقليل سلطة المديرين ومشايخ البلد في مبدأ الأمر، ثم لإلغاء وظائف المديرين في النهاية فصارت الحكومة المركزية ـ ومقرها في القاهرة ـ هي المشرفة على دقائق الإدارة في الأقاليم والبلاد النائية. وكان يعاون الوالى في مهامه التشريعية «المجلس الخصوصي»، وهو المجلس الحكومي الذى أوجده محمد على ثم أعيد تأليفه بعد ذلك في عهد عباس الأول في عام ١٨٤٩.

وكان سعيد هو صاحب السلطة العليا القضائية، بالرغم من وجود «مجلس الأحكام» ومهمته الفصل نهائيًا في القضايا المستأنفة إليه، وبالرغم كذلك من وجود «مجالس الأقاليم» ومهمتها النظر في قضايا المديريات المختلفة، وذلك لأن الوالى كان من وقت إلى آخر يلغى هذه

بطريقة مامن النير الذى يثقل كاهل بلادهم التعسة. ولكن إذا خاب سعيهم وجاءت اتفاقيات الصلح العام بعكس ما يرغبون، وشاء القدر أن يعودالترك إلى امتلاك هذه الأقاليم الجميلة الشهيرة وتعريضها بذلك لتجدد العدوان عليها، فأقل ما يلتمسه المهاجرون المصريون من الدول المتعاقدة أن تكفل لهم من الضمانات ما يدرأ عنهم شر انتقام الترك إذا ما عادوا لوطنهم.

٩- بالرغم من أن الوفد المصرى لا يعمل إلا من أجل تحقيق مشروع سياسى فيه نفع لجميع الحكومات بما فى ذلك الحكومة التركية (وبالرغم مما يدو من غرابة هذا القول فيمكننا البرهنة على صحته) فقد تعرض فيها من المحافظة على أسرار المفاوضات ولذلك فإننا نرفق بهذا «شفرة» يمكن استعمالها فى مراسلاتنا إذا اقتضى الأمر ذلك.

١٠- يرى الوفد المصرى حرصا منه على نجاح المفاوضات المزمعة ضرورة كتمان أمر ما فاتحناكم فيه من مقدمات لها، وكذلك ما يمكن أن تبلغوه لفخامة اللورد، عن فرنسا وعن أى طرف يستطيع عرقلتها إن خطة الوفد أن يعمل فى أوروبا على أن تكون فرنسا هى التى تبدأ بعرض المقترحات الأولى على بريطانيا، تكون بريطانيا عندئذ قد اقتنعت بما فى مشروع الاستقلال المقترح من مزايا فيؤيده، وبهذه الطريقة فان الوفد المصرى لن يتعرض لأن يرى الحكومة الإنجليزية ترفض المشروع بمجرد

المجالس أو يعيد تشكيلها حسب مشيئته ورغباته. ولعل أهم ما حدث فى أيام سعيد من ضروب الإصلاح القضائى، هو ما حصل عليه من الباب العالى من حق تعيين القضاة، بعد أن كان قاضى القضاة الذى يوليه السلطان دائماً هو الذى يعين بقية القضاة فى البلاد، فاستقام بهذا الإصلاح سير العدالة بعض الشيء وقلت أسباب الرشوة، ومن أعمال التنظيم التى ابتدعها سعيد هو ما فعله فى فبراير عام ١٨٥٧ حيث نظم الدواوين وأنشأ النظارات الجديدة، فصارت هناك أربع نظارات للمالية والحربية والخارجية والداخلية. وكان للنظارة الأخيرة الحق فى الإشراف المباشر على المأمورين فى الأقسام وعلى مشايخ البلد فى القرى، فتوطدت سلطة الحكومة المركزية.

ولعل أهم ما قام سعيد على مستوى العلاقات بين الدولة والشعب هو الغاء الجزية عن المصريين القبط.

غير أن تجمع السلطة بالشكل المتقدم فى شخص فرد واحد، كان يستلزم بذل الجهود الجسيمة للاضطلاع بأعباء الحكومة على خير وجه، ثم المران والخبرة الكافية حتى لا يساء استعمالها. ولكن سعيد ابالرغم من رغبته فى إتمام العمل الذى بدأه والده محمد على، كان لا يتمتع بصفات الجلد والمثابرة والحزم والعزم، ضعيفًا متردداً، يصغى لا طراء الأجانب ومديح

علمها به بسبب العداء التقليدى بين الأمتين الإنجليزية والفرنسية، أو شكا منها فى وجود دسيسه ما من دسائس فرنسا.

١١ـ لكل تسهل مراسلتنا من فرنسا أو من غيرها يمكنك ياسيدى القبطان أن ترسل ما تريد إلى السنيور الكونت انطون كاسيس (قسيس) المقيم فى تريستا، وهو يقوم بتحويلها إلى حيث يقيم الوفد، على أن يوضح ذلك بوضع اسمى تحت اسمه على كل رسالة. أما الرسائل التى قد توجه إلينا من إنجلترا، فان وصولنا إلى باريس سوف يشيع أمره فتتيسر عندئذ معرفة أين نقيم، وبهذا يمكن أن أتسلم رسائل حكومتكم بسهولة ولكن تلزم الحيطة التامة فيما يتصل بهذه النقطة الأخيرة حتى لا تتسرب أية شكوك إلى الحكومة الفرنسية.

ملحق (٣)

من [لطفى] نمر أفندى نيابة عن الوفد المصرى إلى القنصل الأول بونابرت.

إلى القنصل الأول للجمهورية الفرنسية من الوفد المصرى الذى يكن له أعظم التقدير.

الحجر الصحى بمارسيليا فى أول فنديميير من السنة العاشرة لجمهورية (٢٣ سبتمبر ١٨٠١) ١٨ صفر ١٢١٦ [كذا فى الأصل و٢٣ سبتمبر سنة ١٨٠١م توافق ١٥ جماد أول ١٢١٦].

فى قديم الزمان، إبان تلك العصور الموغلة فى القدم، عندما كانت فرنسا فى حالة الفطرة تكسوها الثلوج والغابات، كانت

رجال حاشيته، ويميل لمعيشة الترف والبذخ، ولا يفقه غير القليل من القواعد والمبادىء الاقتصادية.

ومما يؤخذ على سعيد عدم اهتمامه بالتعليم وتنوير أذهان أبناء الشعب، وكان السبب فى ذلك خوفه من وجود طبقة مثقفة كبيرة بين أفراد الشعب قد تنبه الأذهان إلى ضرورة إصلاح الحكومة ووسائل الحكم السائدة. ولذلك بدأ سعيد حكمه بإلغاء ديوان المدارس، كما ألغى الكثير من المدارس القائمة، واستعاض عنها بمدرسة حربية بالقلعة جعل نظارتها لرفاعة رافع الطهطاوى الذى استدعاه من الخرطوم، ومدرسة للمهندس خانة بالقلعة السعيدية التى أنشأها بالقناطر الخيرية. واضطربت حال الدارسة فى مدرسة الطب بالقصر العينى، هذا بينما قلل سعيد من إرسال البعثات العلمية إلى الخارج. وفى عام ١٨٥٥ أغلق سعيد «المفروزة»، وهى المدرسة التى أنشأها سلفه، فكان عهده من هذه الناحية عهد جمود، شابه فى ركوده وجموده عهد عباس الأول ذاته.

ورغم عدم اهتمام سعيد بالتعليم وتنوير أذهان أبناء الشعب من المصريين، فقد حظيت فى عهده المدارس التى أنشأتها الجاليات الأجنبية والإرساليات الكاثوليكية(١) ....

(١) ليست هذه الإرساليات فرنسية أو إيطالية فحسب، وانما هيئات دينية عالمية تقدم معظمها البابا فى روما. ونذكر من هذه الهيئات على سبيل المثال لا الحصر: الفرنسسكان والفرير والراعى الصالح والقلب=

مصر متحضرة مزدهرة ينهل مشرعوا الإغريق من معين علمها ومعرفتها ثم دار الزمان دورته وشاء القدر أن يفد مصريو العصر الحاضر أحفاد رواد الحضارة فى الماضى إلى فرنسا وهى تنعم بحكمك الرشيد، ليتعرفوا على نظم أمة يحبونها وليقفوا على ما استحدثته من وسائل لم تسبقها إليها أمة أخرى، مكنتها ـ وهى الجمهورية الناشئة ـ من المحافظة على مكاسبها الحربية بما سنته من نظم سياسية جديدة... وكما أن سولون (Solon) عند عودته لبلاده من مصر شرع للإغريق ما اقتبسه من النظم المصرية، فإن الوفد المصرى الذى فوضه المصريون الباقون على ولائهم لك سيشرع لمصر ما ترضاه لها من نظم عندما يعود إليها من فرنسا.

إن هذا سوف يحدث يافخامة القنصل الأول إذا تفضلت ـ من أجل مجدك ومن أجل المصلحة السياسية للجمهورية الفرنسية فمددت يد المساعدة للمصريين التعساء الذين وضعت عنهم من قبل أغلالهم التى عادوا ينوءون بها من جديد، وتكرمت فأحسنت استقبال وكلائهم فى باريس إننا نأمل أن يكون استقبالنا فى العاصمة الفرنسية بمثابة اجتماع شرقى يجدد لك ذكرى الفتح العظيم الذى افاء الله به عليك ثم ضاع منك ولابد أنك ـ يا سيدى ـ القنصل الأول ـ شديد الإحساس بألم مافقدت، ولكنك إذا عملت فى معاهدات الصلح على أن تكون مصر مستقلة فسوف

والبروتستنتية[1] فى مصر بكل رعاية وعناية وتشجيع. وكانت هذه الإرساليات تهتم بالدعوة إلى الدين المسيحى وتحويل الأقباط الأرثوذكس إلى الكاثوليكية أو البروتستنتيه.

واتبعت فى ذلك طرقًا متعددة ـ منها الدعوة الدينية فى كنائسها، والتمريض وعلاج المرضى، والتعليم. وكان معظم رجال التعليم من الأجانب يعملون فى مدارس الإرساليات والجاليات الأجنبية. وقد نحت كل مدرسة من مدارس الجاليات الأجنبية منحى قوميًا، كما عنيت أغلبها بتعليم اللغة الفرنسية، وهى لغة الدبلوماسية وقتذاك. وتغلبت الصفة الدينية على بعض مدارس الجاليات الأجنبية، وهى المدارس التى أنشأها وقام بالتعليم فيها بعض رجال الدين

= المقدس وغيرها. وقد امتد نشاط الهيئات والإرساليات الكاثوليكية إلى مصر منذ القرن الثالث عشر، حين وفد الفرنسسكان إلى البلاد. غير أنه بدأ وفود الإرساليات الأجنبية إلى مصر بشكل منتظم وعلى نطاق واسع عقب خروج الحملة الفرنسية من مصر. وقد افتتحت أول مدرسة أجنبية كاثوليكية للبنات بالقاهرة، وهى مدرسة الراعى الصالح، فى ٦ يناير عام ١٨٤٦.

(١) كانت الإرساليات البروتستنتية تابعة للولايات المتحدة الأمريكية وبروسيا وبريطانيا وقد بدأت الإرسالية الأمريكية تعمل بجد فى مصر منذ عام ١٨٥٥ حينما أنشأت أول مدرسة للبنين بالقاهرة، ثم أنشأت مدرسة أخرى للبنات عام ١٨٦٠. أما بالإسكندرية فقد أنشأت مدرسة للبنين فى عام ١٨٥٦ ومدرسة أخرى للبنات. ولم يلبث أن اتجه نشاط الإرسالية نحو أسيوط، فأنشأت هناك مكتبة لبيع الإنجيل والكتب الدينية، كما أنشأت أول مدرسة بأسيوط فى عام ١٨٦٥، ثم انتشرت مدارس الإرسالية فى القرى والصعيد بشكل كبير. وقد نجحت تلك الإرسالية فى تحويل بعض الأقباط الأرثوذكس إلى البروتستنتية.

تعوض خسارتك فيهامائة مرة إن هذه هي أمانينا التي أخذنا على أنفسنا عهدا بالسعي إلى تحقيقها.

عن الوفد المصرى وكيله
نمر أفندى

حاشية: أغا الانكشارية [عبد العال الانكشارية] وعضو الوفد الذى سبق أن عرفه فخامة القنصل الأول فى القاهرة يرجونى أن أذكرك بأنه لن ينسى ماغمرته به من عطف حينذاك.

ملحق (٤)

من نمر أفندى إلى وزير الخارجية الفرنسية (تاليران)

(تاريخ الملحق السابق نفسه)

سيهبط إلى موانيء الجمهورية الفرنسية عدد كبير من المهاجرين الشرقين الذين غادروا بلادهم مع قوات جيش الشرق التى تم جلاؤها عن مصر والوفد المصرى، بالرغم من أنه فقد رئيسه الجنرال يعقوب الذى قضى نحبه فى أثناء السفر، يعلن كل ما يشعر به من ولاء وتقدير للجمهورية الفرنسية، ويرى من الضرورى أن يلجأ إليك باسعادة الوزير لتتفضل وتضعه هو وأولئك المهاجرين تحت رعايتك وتشملهم بكرمك وعانيتك.

لقد كان لويس الرابع عشر يعمل فى الظاهر على ضم كنيسة إثيوبيا إلى الكنيسة الرومانية (الكاثولكية) ولكنه كان يسعى فى الحقيقة لمد نفوذة السياسى نحو أقاليم وسط أفريقيا الجذابة الغامضة، ومن ثم بذل عدة جهود لم يقدر لها النجاح لكى يتعلم فى فرنسا عدد من شباب القبط المصريين، لأن بطريك الأقباط هو نفسه رأس الكنيسة

من كل جالية، فى حين تغلبت على البعض الآخر الصفة العلمانية، وهى المدارس التى أنشأها وقام بالتعليم فيها أفراد أو جمعيات من كل جالية. وقد أحجم المصريون فى أول الأمر عن دخول مدارس الإرساليات والجاليات الأجنبية.

ومع ذلك، فقد شجع سعيد ـ وإسماعيل من بعده ـ قيام هذه الإرساليات والجاليات الأجنبية بإنشاء المدارس، وقاما بمنحها الأموال والهبات والأراضى الكثيرة، بهدف خطب ود الدول الأجنبية واستجلاب رضاها وعطفها عليهما. ومما يذكر أن سعيد قد منح مدرسة الراهبات اليسوعية» مقادير من القمح قدرها ٦٥ أرد باسنويًا، كما منح فى أواخر عام ١٨٦١ الإرسالية الأمريكية بناء من أبنية الحكومة فى الموسكى بالقاهرة، يطل على ميدان الأزبكية، ويتكون من ٢٥ حجرة واسعة على الأقل، وتبلغ قيمته زهاء ٥٠,٠٠٠ دولار.

على أن إهمال سعيد لتعليم أبناء الشعب، يقابله من ناحية أخرى عنايته بالجيش، بسبب الخوف الذى ظل مستوليًا عليه من انقلاب الباب العالى والدول الأوروبية ضده وضياع حق الوراثة من أسرته. ومن هنا فقد وجه سعيد عنايته إلى الجند، فكان الجيش لذلك ـ وبالرغم من تقلبات سعيد العديدة ـ شغله الشاغل، حيث راح يقضى بين الجند معظم وقته، متنقلاً معهم من جهة إلى أخرى، وكون منهم فرقًا خاصة دعاها «الفرق السعيدية» ، وصار ينتقى لأفرادها اللباس الفاخر والغذاء الطيب، ويعنى براحتهم ويشرف بنفسه على تدريبهم فى الصحراء وفى

الإليوبية وإذ كان الملك قد أخفق في مسعاه، فإن الجمهورية الفرنسية اليوم في ظل حكم القنصل الأول استطاعت أن تحقق ما عجزت عن تحقيقه الملكية الاستبدادية.

وإن الوفد المصرى الذى ينوب عن الأمة المصرية ليجسد وحده كل ما يختلج في نفوس الذين أنابوه عنهم من شعور بالمصلحة المشتركة، وما يحتشد في قلوبهم من أمان وما يملكون من فطنة وما يتمتعون به من نفوذ وثروة. وهو ما يعبر عما أجمعوا عليه مما يتمثل في رغبتين: الأولى هي القضاء على القوة الغشوم التي عادت تستبد بهم من جديد، والثانية هي وضع ثقتهم في فرانسا ليقينهم أن مصلحة الجمهورية الفرنسية ذاتها تقتضي ألا تخيب أملهم وبناء على ذلك فنحن نقدم إلى سعادة الوزير باقتراح: لقد تكبدت فرنسا في الشرق خسارة جسيمة، فلم لا تتخذ من هذا الوفد وسيلة لتعويض ما خسرته؟ إنك إذا تفضلت فدعوت الوفد إلى لقائك في باريس قبل توقيع الاتفاق التمهيدى مع بريطانيا، فإننا نستطيع أن نؤكد لك أن فرنسا سوف تحتفظ بنفوذها السياسى في الشرق وتحميه مما قد يفقدها إياه زمنا طويلا نتيجة للجلاء عن مصر وما تطور إليه أمرها الآن، ونتيجة للجلاء لمؤامرات الدول التي تخشى بحق زيادة نفوذ فرنسا بل نستطيع أكثر من ذلك أن نتأكد ان فرنسا - اذا أرادت - يمكنها عن طريق الأمة المصرية التي ستكون موالية لها مد نفوذها نحو أواسط افريقيا وهكذا يتحول تركّكم مصر

الدلتا، حيث بنى القلعة السعيدية في القناطر الخيرية لصد هجمات المغيرين على القاهرة، وكل ذلك استعداداً للدفاع عن البلاد وقت الحاجة.

ونتج عن هذه العناية بالجيش أن تحسنت أحواله في عهد سعيد، وترقى كثير من الضباط المصريين إلى المراكز العالية بعد أن كانت منحصرة في الأتراك والجراكسة[١]. وفضلاً عن ذلك، فقد عمم سعيد الخدمة العسكرية، فجعلها إجبارية وقصر مدتها، فارتفع شأنها، وأقبل المصريون لذلك ينخرطون في سلك الجندية عن طيب خاطر. وأظهر الجنود المصريون البسالة والأقدام وضروب التضحية في كافة المعارك التي اشتركوا فيها في البلقان والقرم والمكسيك.

وبقدر اهتمام سعيد بالجندية، كانت رغبته في إصلاح أحوال البحرية المصرية، ولكنه ما بدأ في تجديد بقايا الأسطول العائد إلى مصر بعد حرب القرم حتى تدخل الإنجليز لدى الباب العالى، كي يمنع الوالى من إنشاء سفن جديدة أو تراميم السفن القديمة. ولما كان الباب العالى ذاته يخشى من إزدياد قوة سعيد، فقد استمع حينئذ إلى سعايات الإنجليز ودسائسهم. ولذا اضطر سعيد إلى الاذعان لمشيئة السلطان، وأهمل من ثم أمر الأسطول والبحرية. كذلك

(١) يعزى اهتمام سعيد بفتح مجال الترقى واسعا أمام الضباط المصريين إلى رغبته في التخلص من سيطرة النفوذ التركى والجركسى على الجيش. ويقول أحمد عرابى في مذكراته إن سعيد «كان محبا لتقدم المصريين» أى لترقيتهم في الجيش.

للإنجليز من نكبة إلى سبب لمجد القنصل الأول ومصدر رفاهية للأقاليم الفرنسية في الجنوب.

ولا يرى الوفد المصرى الوقت الحالي داعيا للإطالة فهو يستطيع في جلسة واحدة في باريس أن يوضح مقاصده بما لا يستطيع في عشرين مذكرة مكتوبة ونحن المصريون نقدر في الحديث على التعبير عما نريد، وإن كنا في الكتابة قد لا نستطيع أن نبلغ الغاية في يسر. وبالإضافة إلى هذا فنحن مدركون لما تفرضه علينا كثرة مشاغلك السياسية من ضرورة الإيجاز في الرسائل إننا نرجو التفضل بالرد على كتابنا هذا، وأن تسمح لنا إذا تكرمت باستقبالنا في باريس وأن نقابلك بزينا الشرقي، فالمسلمون منا بالذات ليس من اليسير عليهم تغيير زيهم، ثم إن هذه الأزياء الشرقية قد تذكر فخامة القنصل الأول بفتوحه السابقة وترضى حب الاستطلاع لدى من لم يتبعوه للشرق.

إن الوفد المصرى يعلم تماماً أن وقت القنصل الأول، الذى يدير بنفسه شئون الحكم حتى في أدق جزئياتها وتنعم الدولة برعايته، أثمن من أن ينفقه في التندر بقراءة مايرد إليه من الرسائل الخاصة ولكننا نرجوه أن يقدر أن وفدنا ينفرد بطبيعة خاصة، وأنه يصل إلى فرنسا في ظروف معينة، وأن كتابنا له المرفق بهذا (يقصد بهذا الكتاب الملحق رقم (٣)) له أهمية، فليتفضل بتسلمه وينعم النظر فيه بحكمته العميقة.

ضاق سعيد ذرعًا بالجيش في عام ١٨٦١، فأقدم على تسريحه وصرف الجند إلى بلادهم[١]، مكتفيًا بقوة رمزية من ٢٥٠٠ جندى.

تغلغل النفوذ الأجنبي والقنصلي:

اشتهر عن سعيد حبه للأجانب وتساهله معهم وتشجيعه لهم على النزوح إلى مصر، لاستخدام أموالهم الوفيرة في استثمار مواردها. ولذلك فتح باب الهجرة إلى مصر على مصراعية، ووفد إلى البلاد سيل عظيم من الأجانب الذين رأوا. فيها ميدانًا واسعًا للاستغلال. وقد استرعى تدفق الأجانب على البلاد ونشاطهم غير المشروع انتباه القنصل الفرنسي ساباتيه Sabatier الذى كتب في ٢ أكتوبر عام ١٨٥٤ ـ أى بعد مضي حوالي ثلاثة شهور فحسب من بداية حكم سعيد ـ يقول: «لقد تدفق على البلاد

(١) يفسر أحمد عرابي أسباب تسريح الجيش في أواخر عهد سعيد بأن الوالي «رأى أن الحكومة مديونة لمعامل ألمانيا وفرنسا بنحو ثلاثة ملايين من الجنيهات ثمن بناء حوض للسفن بالسويس ومدافع كروب من ألمانيا وملبوسات ومهمات حربية وأسلحة جديدة من فرنسا. فاستعظم (الوالي) هذا الدين وأمر بصرف عساكر الجيش إلى بلادهم وبيع ما في الخزائن الأميرية من الأمتعة الثمينة، وبيع جميع المعامل والورش القديمة الكائنة بالعاصمة والمحافظات والمديريات... وأمر بإعطاء من يرغب في الخروج من خدمة الحكومة أرضا معاشا له ولأولاده من بعده، وبإحالة الضباط إلى المديريات والمحافظات مستوديعين بنصف مرتباتهم.».

[بطرس البطرك التاسع بعد المايه]

[١٨٠٩/١٨٥٢م]

انبا بطرس البطرك وهو التاسع من بعد الماية من عدد البطاركة قد اختير هذا الأب للبطريركية بعد وفـاة الأب مـرقس [يوانس] سلفـه وكـرس سنة ١٥٢٦ للشـهـداء الموافـقـه سنة ١٨١٢ [قـبطيـة/ اثيـوبيـة] ومن امـره أنه كـان أحـد رهبـان [دير] القـديس انطونيـوس فـاختيـر أن يكون مطرانا على

من جميع أنحاء أوروبا، بمجرد ذيوع الخبر عن وفاة عباس باشا ـ جمهور كبير انقض على مصر كما لو كانت هذه كاليفورنيا جديدة».

وعلى هذا النحو عاد الفرنسيون واليونانيون إلى مصر فى عهد سعيد، وانتشر اليونانيون خصوصًا في القرى يقدمون القروض والسلفيات بالربا الفاحش. وعلاوة على ذلك، فقد وفد إلى مصر فى هذا العهد لاجئون من البلاد التى اندلعت فيها الثورات حينذاك مثل الأرمن وشرق أوروبا وغرب آسيا. وجدير بالذكر أن غالبية الأجانب الذين وفدوا إلى مصر فى هذا العهد لم يكونوا من خيار القوم، بل كانوا من المغامرين والأفاقين الذين دأبوا على تقديم المشروعات الخيالية والخطط الجنونية إلى سعيد. ولم تكن هذه المشروعات المزعومة إلا وسيلة للتحايل على الحكومة ومطالبتها بتعويضات مالية طائلة، بدعوى أن الحكومة بعد قبولها هذه المشروعات قد تعمدت تعطيلها أو أخطأت فى تنفيذها، إلى غير ذلك من الدعاوى والتلفيقات التى كان يساعد هؤلاء المغامرين عليها قناصل دولهم، الذين كانوا يتاجرون لحسابهم الخاص[١] ويحصلون على نصيب من التعويضات، والذين كانت تحركهم أطماعهم الشخصية لاستغلال مراكزهم وملء جيوبهم، مستندين فى ذلك كله على «الحقوق» الواسعة التى كانوا يتمتعون بها فى أنحاء الامبراطورية العثمانية بفضل «الامتيازات الأجنبية» العديدة.

(١) كان نظام التمثيل القنصلى وقتذ لا يمنع القناصل من مزاولة التجارة.

الحبشة فتأجلت رسامته بتدبير من الله ثم كرس مطرانا عاما للكرازة المرقسية واستمر [في] البطريركخانة إلى [أن] توفى سلفه فانتخبه العموم أن يكون بطريركا خليفة له ورسم بعد نياحة سلفه بثلاثة أيام. ومن أوصافه الحميدة أنه كان محبا للدرس في الكتب الالهيه ومواظبا على تعليم الشعب غير محب الطمع حليما وضيعا متواضعا حكيما ذا فطنة عظيمة وذكاء فائق وسياسة لرعاية الشعب سامية. وقد ألف كتابا احتج به عن تعليم

والحق أنه لم يكن هناك مكان فى الامبراطورية العثمانية أسيء فيه استعمال الامتيازات الأجنبية مثل مصر، فإلى جانب الامتيازات العادية التى يتمتع بها الغربى أو الأوروبى بفضل القوة العسكرية لدولته، كان هنالك الضعف السياسى الذى لحق بنظام الحكم فى مصر، كنتيجة للتسوية التى وضعتها الدول للمسألة المصرية فى عام ١٨٤٠ ـ ١٨٤١، وهى التسوية التى اتسمت بالشذوذ ووضعت مصر تحت الاشراف أو الوصاية الأوروبية، تلك الوصاية التى جعلت حكام مصر من أسرة محمد على حريصين على إرضاء الأوروبيين وبالتالى معرضين لضغطهم.

وبمجرد أن أدرك القناصل أن الوالى غير قادر على مقاومة التهديد بالقوة وأن مجرد انزال العلم القنصلى، كان كافيًا لأن يجثو على ركبتيه. أصبحت أبواب الفساد مفتوحة على مصراعيها. ووجد الوالى نفسه مضطراً حيال تغلغل النفوذ القنصلى فى عهده إلى عقد الصفقات المجحفة مع الأفراد والشركات الأجنبية للقيام بالأعمال العامة، فانتشر فى عهده الاستغلال الأجنبى بانتشار الشركات الأجنبية، واضطر سعيد فى كثير من الأحايين بتأثير ضغط القناصل[1] إلى دفع التعويضات الباهظة عن أعطال موهومة أو خسائر متعمدة للأفراد والشركات الأجنبية معاً.

(١) كان من بين ذوى السمعة السيئة فى هذا الميدان القنصل الأمريكى ادوين دى ليون الذى خرج بمغانم=

الكنيسة. وفي مدته فتح محمد علي باشا(*) السودان فعاد من أهله كثيرون إلى الدين المسيحي فرسم لهم اسقفين على التعاقب ورسم من الاساقفه نحو ٢٣ اسقفا. ومما يستحق الذكر العجائب التي حدثت على يديه وفي زمانه ومنها أن ابنة محمد علي باشا زهرى(*) باشا زوجة احمد بك الدفتردار كان اعتراها روح نجس فعاني الأطباء أتعابا شاقة في معالجتها فلم يستطيعوا أن يشفوها إذ لم يكن ذلك مرضا طبيعيا وكان صيت

(*) محمد على وفتح السودان، انظر الجبرتي جـ٥ ص١٤٥٣ إلى ص١٤٨٩ وما بعدها.

(*) معجزته مع زهرى ابنه محمد على. تذكر صوفيا لين بول في كتابها حريم محمد علي باشا أن اسمها نظله. وكانت تدعى بالأبنة الكبرى للباشا انظر ص

- -

وهكذا أصبحت مصر ميدانا للنهب والسلب، فلم يكن هناك شيء مستحيل لا يصلح كعذر للاغارة على الخزانة المصرية. فإذا سرق أجنبي بسبب اهماله هو، فإن الحكومة هي المخطئة بسبب عجزها عن المحافظة على النظام والأمن، ثم يرفع قضية(١) ضد الحكومة يطالبها بالتعويض. وإذا أبحر شخص بقاربه وتسبب باهماله في جنوحه، فإن الحكومة هي المخطئة لأنها تركت رمالاً على الشاطئ في تلك الجهة، ثم يرفع قضية ضد الحكومة يطالبها بالتعويض. ومن أشهر القضايا في هذه العهد قضية كستلاني Castellani النمساوى الجنسية. وتتلخص هذه القضية في أنه طالب وحصل من الحكومة المصرية على تعويض قدره ٧٠٠,٠٠٠ فرنك، على أساس أن ثمانية وعشرين صندوقا من شرانق الحرير كان قد أحضرها من الصين لحساب بعض المصانع الإيطالية والفرنسية، فتلفت بسبب تعرضها للشمس أثناء نقلها. عبر الأراضي المصرية إلى أوروبا. وقد أيد هذه الدعوى القنصل النمساوى شراينر Schriener .

وكان سعيد يواسي نفسه بالضحك حتى لا يبكي. في إحدى المناسبات قطع حديثه مع

=طائلة، والقنصل البلچيكي واتحاد الهانسا «زيزينيا» Zizinia وقنصل اليونان باستريه Pastre والقنصل الفرنسي ساباتيه والقنصل النمساوى شراينر.

(١) كان يتولى نظر هذه القضايا المحاكم القنصلية، التي اتبعت خطة لا تحيد عنها هي الحكم دائماً لمصلحة رعاياها المتخاصمين مع الحكومة، والفائدة للقناصل أنفسهم.

السرابمون اسقف المنوفية بما أعطى من قوة اخراج الأرواح الشريرة مالنا القطر المصرى فذكر لمحمد على باشا عن امكان ائمة النصارى فى شفاء ابنته ما جعله يدعو الاب بطرس البطريرك إلى مباشرة، ذلك فالاب إذ كان يعلم أن ابنته معتراة من روح نجس استدعى الاب سرابمون وأمره أن يتوجه إلى السراى حيث سكن زهرى باشا، فلبى دعوته وتوجه اليها، وكانت السراى غاصة بالجنود والجماهير رجالا ونساء فلما ابتداء أن يصلى على

١٨٢ وما بعدها ترجمة: د. عزه كراره نشر: سطور. القاهرة ١٩٩٩. كذلك يذكرها الجبرتى فى جـ٥ ص١٠٥٣، ١١٠٨، ١١١٠، ولكنه لا يذكر اسمها، وإن كان يذكر زوجها باسم محمد بك الدفتردار..

أحد رجال الأعمال الأوروبين لكى يأمر خادمه باغلاق النافذة وقال: «إذا أصيب هذا السيد بالبرد فسوف يكلفنى ذلك عشرة آلاف جنيه انجليزى».

ولا ريب أن سعيد كان يشعر بخطورة هذه الحال العصيبة، وكثيراً ما كان يلجأ إلى الباب العالى لانتشاله من مخالب التدخل القنصلى واستغلال الدول، ولكن سعيد - كما قدمنا - كان ضعيفاً لا قبل له على الجلد والمثابرة، مما جعله يفضل الخلاص من متابعة المباشرة بدفع التعويضات المطلوبة، فكان هذا التصرف من الأسباب التى ساعدت على ازدياد ضغط القناصل ومطالبة رعاياهم بالأموال الطائلة فى مدة حكمه. ولذلك كان التدخل القنصلى فى عهد من العوامل التى ساعدت على ارتباك مالية الدولة ومهدت الطريق للأزمة المالية العصيبة خلال حكم إسماعيل.

الازمة المالية:

ولقد كان اخفاق سعيد فى مقاومة أصحاب الإدعاءات فى التعويضات الجسيمة على الحكومة المصرية، من الأجانب الجشعين، الذين لقوا مساندة وتأييداً من جانب قناصل دولهم، احد العوامل التى أدت إلى استحكام الأزمة المالية، وهى التى كانت قد بدأت تتجمع أسبابها من مدة سابقة.

---

١٠٩ : بطرس [١٨٠٩ / ١٨٥٢م.]

الاميرة تحرك الشيطان فيها والقاها صرعى الارض فازبدت وشرعت تصرخ باصوات ارتجت لها السراى فارتعب الاب من ذلك وخاف من سوء العاقبة وصار يستغيث بقوة المسيح صارخا بصوت محزن زارفا العبرات قائلا: (عظيمة خطيتك يا صليب) يا يسوع مجد يمينك وانصر كنيستك. حينئذ اكمل الصلاة ورسم علامة الصليب على ماء وضرب به وجه الاميرة فصرخ الشيطان بصوت مزعج وخرج منها فعند ذلك قامت الاميرة

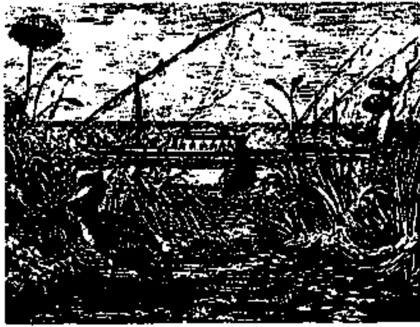

* قوات مصرية تتقدم للسودان عن طريق النيل.

إذ أنه لما كانت تنقص سعيد الخبرة والدراية المالية اللازمة، ويميل إلى البذخ والاسراف وشراء الأراضى الواسعة والقصور، وينفق عن سعة ومن غير ضابط[1]، فقد تحملت الدولة المبالغ الطائلة بسبب حفلاته العديدة ورحلاته وخصوصاً رحلته المشهورة إلى السودان، كما بذل الأموال الكثيرة لمساعدة صديقه فردنند دى لسبس Ferdinand de Lesseps فى تنفيذ مشروع قناة السويس، مما سوف يأتي ذكره في موضعه.

لذلك لجأ سعيد إلى وسائل متعددة لتفادى أزماته المالية المتتابعة، واضطر فى النهاية إلى إهمال مشروعاته الإصلاحية. فقد استعان على سداد نفقاته المتزايدة تباعاً بفرض الضرائب الباهظة على الأهالى حتى أنَّت الطبقات العاملة من فداحتها، وتعطل النظام الجديد الذى وضع لتوزيع الضرائب وتحصيلها. وكان موظفوا الدولة المصريون ـ كبارهم وصغارهم على السواء، ومن عسكريين ومدنيين ـ هم أول من خبر محاولات سعيد لتوفير مصروفات الحكومة، لخلو خزانة الدولة وافلاسها، ولاقدام الوالى على قطع مرتباتهم وتأخيرها لمدد

(١) لم تكن عند سعيد أدنى فكرة عن قيمة النقود، فقد كلفه تزيين إحدى حجرات لاستقبال فى قصر عابدين عشرة ملايين فرنك. وفى إحدى المناسبات اشتكى أحد صنائعه ويدعى برافاى من قلة تقدير شيء معين بالليرة الإيطالية، فما كان من سعيد إلا أن طلب منه أن يجعل المبلغ بالجنيه الإنجليزى وفى حين كان دائنون يقدمون القروض بأسعار خيالية كان هو يقرض بدون فائدة، وفى بعض الأحيان يرفض استرداد الدين نفسه.

* محمد علي باشا

صحيحة وضربت الموسيقى فرحا فبشر محمد على بذلك وجاء إلى ابنته فوجدها متعافية فرغب أن يكافئ الاب سرابمون فصر صرة من النقود تبلغ أربعة آلاف جنيه وقدمها للاب فأبى أن يقبلها واعتذر إليه قائلا: ليس من شؤون وظيفتى أن أربح بمواهب الرب ما لا يحوجنى إليه فلباسى كما ترى فرجيه صوف احمر وطعامى الخبز وطبيخى العدس فعوض ذلك اسأل دولتكم أن تميلوا تعطفاتكم نحو أبناء الطائفة القبطية وتخدموا بنيها المرفوتين

تراوحت بين ١٢ و١٨ شهراً تارة وتخفيض هذه المرتبات تارة أخرى، كوسيلة ضرورية للاقتصاد فى النفقات العامة من جهة، ولسد مطالب الاجانب الجشعين والتزامات الشركات الاجنبية وخصوصاً شركة قناة السويس من جهة أخرى.

غير أن حاجة سعيد للمال كانت لا تزال شديدة، مما اضطره فى عام ١٨٥٨ أن يصدر سندات أو أذونات على الخزانة بلغت قيمتها قبل نهاية عام ١٨٥٩ حوالى مليونين من الجنيهات الإنجليزية، وبعد ستة شهور ٣,٥ مليون جنيه إنجليزى. وكانت هذه السندات عبارة عن ديون على الحكومة قصيرة الأجل، نصح بها فردنند دى لسبس تخلصًا من ضرورة الالتجاء إلى طلب موافقة الباب العالي التى كانت ضرورية فى حالة عقد القروض الطويلة الأجل وقد أعطت الحكومة هذه السندات لموظفيها خاصة، بدلاً من مرتباتهم. فأشتهرت لذلك باسم سندات الموظفين.

ولم يخفف إصدار هذه السندات من شدة الأزمة، بل على العكس من ذلك كان سببًا فى زيادتها. فقد انخفضت قيمة هذه السندات الحقيقية كثيراً عند التعامل بها فى السوق. إذا صارت الحكومة تدفع بها أثمان مشترياتها من التجار: بضائع ومؤن ومهمات عسكرية وعربات سكة حديد، مما ترتب عليه غمر السوق بهذه السندات واضطر حائزوها إلى بيعها فى مايو عام ١٨٦٠ بخصم ١٧٪ و ١٨٪ من قيمتها. ولما كانت خزانة الحكومة خاوية، فقد اضطر سعيد

فأجابه إلى ذلك والح عليه أن يقبل تلك العطية فأخذ منها شيئا قليلا وفرقه اثناء مروره على العسكر. ومن ذلك أن النيل لم يف في احدى السنين مقداره فخاف الناس من وطأة الغلاء ورزية الجوع واستغاثوا بالباشا طالبين إليه أن يأمر الرؤساء الروحانيين بأن يرفعوا الادعية والصلوات من أجل النيل ليبارك الله في مائه وتروى الارض، ففعل واحتفل اولا المسلمون بالصلاة ثم اليهود ثم الروم السوريون ثم الافرنج فلم ينتقل النهر من مكانه ثم

* جندى مشاة من النظام الجديد

أن يخفض نفقات السكك الحديدية، وأن يبيع بأسعار منخفضة بعض التحف التى دفع فيها أثمانا جنونية، وأن يفصل عدداً كبيراً من رجال الشرطة، ففصل من القاهرة وحدها ثلثى رجال الشرطة، مما أدى إلى زيادة السرقات.

ولكي يخرج سعيد من مأزقه، اضطر أن يولي وجهه شطر البيوت الاجنبية في أوروبا للاستدانة، واستطاع ـ بتأييد الحكومة الفرنسية ـ أن يعقد قرضه الخارجي الأول في ١٧ يوليه عام ١٨٦٠ مع بيت الكومبتوار دى اسكورويت Comptoir d'Escoropte بباريس، وكانت قيمة القرض الأسمية ٢٨ مليون فرنك والحقيقة ٢١ مليون فرنك، وذلك في مقابل سندات مالية بقدر قيمة القرض الاسمية يحتفظ بها الممولون الذين أقرضوا سعيد، على أن يستحق سدادها في أقساط كل ثلاثة شهور ابتداء من ٣٠ سبتمبر ١٨٦١ لغاية ٣٠ يونيه ١٨٦٥. وعلى هذا النحو لم يصبح سعيد مدينا بمبلغ الثمانية وعشرين مليونا في مقابل الواحد وعشرين مليونا من الفرنكات التي تسلمها فحسب، ولكنه تعهد بألا يصدر سندات قصيرة الأجل بدون إذن دائنيه الفرنسيين.

ومع ذلك، فإنه لم يلبث سعيد أن أصدر العدد الوفير من السندات. بدعوى تغطية الديون السابقة على القرض الفرنسى، وذلك رغم احتجاج الدائنين الفرنسيين. ولكن الخزانة ظلت في حالة إفلاس متزايد واضطر الوالى أن يبيع خيوله وأن يفصل الموظفين بالجملة وأن يخفض عدد

طلبت الحكومة من الاب بطرس ان يصنع نظير ماصنع باقي الطوائف فاستدعى لفيف الاكليروس وجماعة الاساقفة وخرج بهم إلى شاطئ النهر واحتفل بتقديم سر الافخارستيا ثم اتم ذلك وغسل أواني الخدمة وطرح ماءها مع قربانه من البركة فى النهر فعجت للحال أمواجه واضطربت وفارت كدست [كوعاء] يغلي وفاضت فبادر تلاميذ البطريرك رافعين أدوات الاحتفال فلم يتموا ذلك

الجيش وأن يغرق السوق بأطنان الملابس والعتاد العسكرى. وفى الوقت نفسه، راح سعيد ينفق المال من غير حساب[1]، مما أدى إلى زيادة ديونه. وكان مما أغراه على عدم التبصر فى عواقب الأمور. عطف فرنسا واستعدادها لمساعدته وتشجيعه على الاستدانة الخارجية، بسبب ما كانت تبغيه من توطيد نفوذها السياسى فى البلاد.

وقبل نهاية عام ١٨٦١ كانت الخزانة المصرية قد بلغت نهاية المطاف، وأصبح لا مناص من عقد قرض خارجى جديد، وفى هذه المرة، وجه سعيد نظره شطر بيت فرولنج - جوش Fruling _ Goschn الإنجليزى الألمانى بلندن، وعقد معه فى ١٨ مارس عام ١٨٦٢ قرضاً[2] بلغت قيمته الأسمية ٣,٢٩٢,٨٠٠ جنيه انجليزى والحقيقية ٢,٥٠٠,٠٠٠ جنيه انجليزى، أى ٧٦٪ من قيمة القرض، وفائدة ٧٪ على قيمته الاسمية. وكانت ضمانة القرض دخل مديريات

(١) عقد سعيد اتفاقا ماليا مع فرد نند دى لسبس فى ٦ اغسطس ١٨٦٠ تعهد فيه بسداد ديونه لشركة قناة السويس ابتداء من عام ١٨٦٣؛ ودفع فى سبتمبر ١٨٦٠ تعويضاً لزيزينيا عن وعد كان محمد على قد وعده به (وهو وعد يعطيه حق نقل المتاجر فى منطقة الترانزيت إلى خليج السويس) ثم ألغاه؛ ثم دفع ٥٠٠,٠٠٠ فرنك لابن أخيه مصطفى باشا و١,٢٥٠,٠٠٠ فرنك لاخته نازلى لثمن عمارة كبيرة.

(٢) صرح الباب العالى فى يناير ١٨٦٢ بعقد هذا القرض بسبب ضغط الممولين الانجليز والألمان عليه. وقد تكلف هذا القرض نفقات قدرها ٧٩٢,٨٠٠ جنيه انجليزى، أى بواقع ٢٤٪ من قيمته.

إلا وقد ادركتهم المياه فعظمت منزلة البطريرك وطائفته لدى الباشا وزاد في اعتبارهم. ومن ذلك ما شاع على ألسنة العامة أن ابراهيم باشا عندما ملك البلاد الشامية وملك اورشليم دعا الأب بطرس ليباشر خدمة خروج النور من ضريح السيد المسيح نظير ما يفعل بطاركة الروم فى كل سنة فقبل عذره. وطلب اليه أن يكون مع بطريرك الروم وهو ثالثهم داخل القبر وكان الباشا مرتابا بحقيقة

* الاحتفال بوفاء النيل

الوجه البحرى الخصيبة، ويصير سداده فى ٣٠ عاما على دفعتين فى كل عام، تبدأ فى أول سبتمبر ١٨٦٢ وتنتهى فى أول مارس ١٨٩٢.

وقبل وفاة سعيد بحوالى أسبوعين، بعث القنصل النمساوى شراينر فى ٥ يناير ١٨٦٣ إلى حكومته بتقرير مطول، كان مما تناوله فيه مسألة ديوان سعيد من سائدة وثابتة[1]، فقدرها بسبعة ملايين وأربعمائة ألف جنيه إنجليزى.

حكومة سعيد والشئون الخارجية:

واجهت سعيد نفس المصاعب التى اعترضت عباس الأول من قبل فى علاقاته مع تركيا ومع الدول الأوروبية، فإن مصر كانت لا تزال ضعيفة. فى حين كان القناصل يبذلون الجهود المتواصلة لاستغلال مرافقها الداخلية ولتواطيد نفوذهم فى البلاد. وزاد من مصاعب سعيد ازدياد نفوذ الإنجليز فى السنوات الأخيرة من حكم سلفه، ثم ما أقدمت عليه مصر من الاشتراك إلى جانب القوات العثمانية فى حرب القرم (١٨٥٤-١٨٥٦)، وذلك ولا شك دفعاً

---

(١) الدين السائر Le Dette Flottante عبارة عن المبالغ المتبقية على الوالى والحكومة عند العجز عن دفع كافة النفقات المتفق عليها مع الشركات والأفراد المختلفين للقيام بالأعمال والمشروعات العامة. أما الدين الثابت La Dette Consolidée فهو عبارة عن القروض التى اقترضها الوالى من المصارف الأوروبية بضمان ثابت كدخل بعض المصالح الحكومية أو المديريات.

النور فخاف الاب بطرس من تأخير طلوع النور وسوء العاقبة وأخذ يستغيث بقدرة يسوع وكانت كنيسة القيامة قد غصت بالجماهير وتضايق الناس من الازدحام فأمر الباشا أن يخرج الفقراء إلى خارج القيامة حيث فسحة كبيرة ودخل فى القبر وصحبته بطريرك الروم وبطريرك الأقباط فلما صار الوقت انبثق النور من المقبرة بأمر ارتعب منه الباشا ووقع عليه ذهول واندهاش وصرخ مرددا هذه

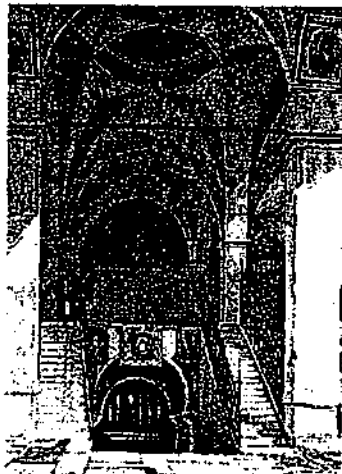

* كنيسة القيامة من الداخل

لتعرض الباشوية المصرية لخطر الضياع عند انهيار الإمبراطورية العثمانية وتوزيع أملاكها بين الدول.

وعلى هذا النحو بدت عناصر الموقف السياسى فى مصر عند تولية سعيد فى عام ١٨٥٤ مشابهة لعناصر الموقف عند تولية عباس الأول فى عام ١٨٤٨. فكان من المتوقع أن تعمل حكومة سعيد لتحقيق نفس الأغراض التى عملت حكومة عباس الأول لتحقيقها، من حيث تقوية مركز الباشوية عن نفس الطريقين المعهودين: تعديل نظام الوراثة بجعل الوراثة صلبية، وتوسيع نطاق الاستقلال الداخلى. وعلاوة على ذلك، فقد كان من المتوقع أن تسلك حكومة سعيد نفس المسلك الذى سلكه سلفه فى علاقاته مع تركيا ومع الدول الأوروبية، وذلك من جهة بأن يستمد تعاونها مع تركيا وإرسال النجدات إليها فى حربها ضد روسيا، فيظل بنيان الدولةالعثمانية متماسكاً ولا تضيع الباشوية المصرية عند تقسيم أملاك الرجل المريض بين الدول الأوروبية.

وعلى ذلك فبمجرد اعتلائه للولاية بادر سعيد بإرسال عشرة آلاف جندى ومعونة مالية كبيرة للباب العالى، واستمر الجيش المصرى يحارب فى القرم، وتمكن من الدفاع عن بعض المواقع هناك دفاعاً مجيداً فى عام ١٨٥٥، كما اشترك فى المعارك الدائرة فى البلقان.

غير أنه رغم النجدات التى أرسلتها مصر إلى تركيا، فأن خطة سعيد فى الاعتماد على

العبـاره (امـان بابا) وكـاد يسـقط على الارض فاحتضنه الاب بطرس إلى ان استفاق. أما الفقراء التعسـاء الذين خارج القيامة فصـاروا اسعـد حظا ممن كان داخلها فان احد اعمدة باب القيامة انشق وخـرج لهم منه النور فتبـركوا به. وقـد سـعى فى ايامـه محـمـد على باشـا بضم كنيسـة مـصـر إلى كنيسـة روميه(*) وذلك أن التنظيمات الجديدة التى صـارت فى مـصـر كـانت بواسطة رجـال فرنسـا

(*) محاولة ضم الكنيسه القبطية إلى كنيسة روما.

مؤازرة دولة أجنبية. جعل السلطان العثماني عبد المجيد (١٨٣٩-١٨٦١) يتمسك بسياسته نحو مصر، وهى السياسة التى استهدفت إرجاع مصر إلى مجرد إيالة عادية. ومن ثم فلم يمض سوى شهرين فقط على بداية حكم سعيد حتى بدأ الباب العالي يحاول فرض إشرافه على شئون مصر الداخلية، فأرسل «دفتر دار» للإشراف على الأعمال فى مصر. والتجسس على الوالي فى الوقت نفسه. وهذا على ما يبدو هو الذى دفع سعيد للتفكير فى الوسائل التى تضمن له استتباب الأمر فى الولاية والتخلص من قيود الرقابة العثمانية وتدخل الباب العالى فى شئونها، وذلك إما بالاستقلال أو الانفصال تماماً عن تركيا، وإما بالتمتع بأوفى قسط من السلطة الداخلية، مع قدر كبير من الحرية فى علاقات مصر مع الدول الأجنبية، إذاكان الاستقلال والانفصال التام عن الدولة متعذراً.

ولما كان من المتعذر فعلاً بحكم تسوية ١٨٤٠-١٨٤١ إجراء أى تعديل أو تغيير فى «الوضع» القائم فى مصر من غير موافقة الدول، فقد رأى سعيد أن يستعين بمؤزارة دولة أجنبية فى سبيل تحقيق أغراضه. وساعدت نشأة سعيد الأولى وميوله الفرنسية، ثم إدراكه للمنافسة القائمة بين فرنسا وانجلترا فى المسألة المصرية عموماً، على التخلص مباشرة من النفوذ الإنجليزى فى البلاد بالإلتجاء إلى فرنسا. فقد أخذت الحكومة الفرنسية تسترد مكانتها السابقة فى العلاقات الدولية منذ آن تسلم لويس نابليون زمام الحكم فيها. وكما أن سلفة عباس الأول

* إبراهيم [باشا] ابن محمد على

وعلمائها فلما رأى محمد على باشا نفسه مغمور بجزيل معروفهم رام أن يقابلهم بمثله، واذ احتار فيما يقوم نظير ذلك نصحه أحد قواد الجيش وكان بابويا بأن يسعى فى ضم نصارى مصر إلى كنيسة رومية فيجد ذلك الافرنج فعلا حميدا ومعروفا يوازى معروفهم. فاستدعى المعلم غالى وابنه باسيليوس بك رئيس المالية وأمرهما أن يفعلا ذلك فوقعا فى حيص بيص وخافا من وقوع الفتن بين

قد دفع الثمن لكسب التأييد الإنجليزى في شكل موافقته على مد الخط الحديدى من الأسكندرية إلى القاهرة، فقد دفع سعيد الثمن لكسب التأييد الفرنسى، وذلك فى الأشكال الآتية:

* انشاء سكك حديد القاهرة الاسكندرية في عهد سعيد باشا سنة ١٨٦٣م.

* عباس باشا

الطائفة فأجابا الباشا قائلين : ان استمالة الطائفة جميعها إلى مذهب كنيسة روميه دفعة واحدة لا تنتهى بدون قلاقل وسفك دماء كثيرين فنرى الأحسن أن يكون ذلك بسياسة وتدريب. وذلك اننا نعتنق نحن اولا المذهب البابوى بشرط أن لا نكره على تغيير طقوسنا وعوايدنا الشرقيه وبذلك يمكن أن نميل أفراد الطائفة رويدا. فقبل الباشا هذا الرأى واخبر الافرنج ففرحوا وشكروا فعله فانقلب من ثم

أولاً: إعطاء امتياز حفر قناة السويس إلى فرنسى، وهو فردنند ديلسبس.

ثانياً: إرسال أورطة سودانية إلى المكسيك لمساعدة الفرنسيين في حربهم هناك.

ثالثاً: فتح أبواب مصر والسودان على مصراعيها للنفوذ القنصلى والاستغلال الأجنبى(١).

على أن مفاوضة دى لسبس مع سعيد بصدد القناة، جاءت في الواقع مؤذنة ببداية مرحلة جديدة في التطور الذى حدث في علاقة مصر الخارجية، ذلك أن انجلترا قد أغضبتها مفاوضة القناة ثم توقيع عقد الامتياز الأول في ٣٠ نوفمبر ١٨٥٤ والعقد الثانى في ٥ يناير ١٨٥٦، فإنه إلى جانب خوفها من ضياع نفوذها في مصر، كانت إنجلترا تخشى أن يهدد الطريق الجديد مصالحها في الهند وفي «الشرق» عموماً، بوقوعه في قبضة فرنسا. هذا بينما كانت

(١) تحدثنا من قبل عن تغلغل النفوذ القنصلى والأجنبى في مصر. أما تغلغل هذا النفوذ في السودان فكان أكثر خطورة، لأنه اتخذ لنفسه ميداناً غير المطالبة بالتعويضات المالية الجسيمة، وهو مؤازرة تجار العاج لاستدرار الأرباح الوفيرة منها، ثم مؤازرة تجار الرقيق والانغماس فيها عندما نضب معين تجارة العاج، فكان أن تأسست على أيدى المغامرين الأوروبيين المحطات المسلحة التى كانت مستودعات للذخائر والأسلحة والرقيق، واغتصب تجار الرقيق السلطة تدريجياً من حكومة الخرطوم في أصقاع شاسعة من السودان، حتى أنه لم يعد باقياً للحكومة أى نفوذ خارج الخرطوم والجهات القريبة منها.

المعلم غالى وابنه باسيليوس بك ورهط قليل من أشياعهما في مصر واخميم باباويين فى الظاهر وهم يضمروا بأنهم بعد حين يعودون إلى حضن كنيستهم ومع ذلك ما زالوا يعتبرون كهنة الارثوذكسيين حق الاعتبار ويعمدون أولادهم عندهم. واما انبا بطرس فتوفى سنة ١٥٦٨ للشهداء الموافقة سنة ١٨٤٤ مسيحية قبطية [حسب التقويم الاثيوبى].

إنجلترا تبذل كافة جهودها لمنع الفرنسيين من النفاذ إلى البحر الأحمر أو بسط نفوذهم في المحيط الهندى. ولذا عملت انجلترا لتعطيل المشروع الجديد. فأخذت تثير الباب العالى وتبث الدسائس ضد سعيد في الآستانة، مما أحرج الوالى وأغضب تركيا عليه. وكان هذا الموقف من جانب انجلترا أحد الأسباب الهامة التى أدت فى السنوات التالية إلى توتر العلاقات بينه وبين الباب العالى.

وازدادت مصاعب سعيد عندما تقدم لويس نابليون نفسه إلى انجلترا فى عام ١٨٥٦ بمشروع لتقسيم ممتلكات الدولة العثمانية،على أن تصبح مصر من نصيب بريطانيا. ومع أن انجلترا عارضت التقسيم المقترح-خدمة لمصالحها- واستمرت تتبع سياسة المحافظة على كيان الدولة العثمانية، ووافقت الدول الأخرى فى النهاية على هذه السياسة بتوقيع معاهدة باريس فى ٣٠ مارس عام ١٨٥٦ ، إلا أن سعيد لم يفارقه - بسبب كل ما تقدم - القلق على مصير ولايته، بل وأخذ يستعد جدياً لمواجهة الظروف المستقبلة.

فقد أرسل سعيد فى هذه الآونة أخاه الأمير محمد بن عبد الحليم إلى السودان، بحجة التفتيش على إدارة تلك الربوع النائية وإصلاح شئونها، بينما كان ذلك فى الواقع بهدف اتخاذ العدة اللازمة عند الحاجة والتحصن في السودان إذا انقلبت تركيا أو الدول الأوروبية

[كيرلس البطرك العاشر بعد المايه(*)]

[١٨٥٢ / ١٨٦١م]

انبا كيرلس البطريرك وهو العاشر بعد الماية من عدد البطاركة ومن أمره أنه كان رئيسا على دير أنبا أنطونيوس فلما انتخب للبطريركية وقع خلاف بين الشعب فالبعض قبل ذلك والبعض الآخر رفضه فتأجلت قسمته ثم استقر رأى العموم عليهِ ورسم

(*) فى عهده الغى سعيد باشا حوالى سنة ١٨٥٨م الجزية التى كانت مفروضة على المصريين من اهل الذمة منذ غزو العرب لمصر.

ضده، وقرر سعيد الانفصال عن الدولة[1]. ولذلك أحدث رحيل الأمير عبد الحليم إلى السودان الأثر السيىء لدى الباب العالى. الذى اعتبر هذا العمل بمثابة خطوة جريئة تنذر بجنوح سعيد إلى تحين الفرص لانفصاله عن السلطنة وإعلان استقلاله. وفى الواقع تابع سعيد استعداده، وصار يرقب مجريات الأمور فى أوروبا إلى أن قامت حرب التحرير الإيطالية فى عام ١٨٥٩، وهى الحرب التى أثارها السياسى الإيطالى كافور Cavour لطرد النمسا من إيطاليا بمعاونة فرنسا، فانتهز سعيد فرصة هذا الاضطراب الدولى ووطد العزم على إعلان استقلاله[2]، ولكنه سرعان ما رأى كسلفة عباس الأولى مغبة الاصطدام مع الدول الأوروبية وتريث فى أمره.

(١) كان بعد ذهاب عبد الحليم إلى الخرطوم بأشهر قليلة أن كتب القنصل الأمريكى إدوين دى ليون فى أول مايو ١٨٥٦ يصف لحكومته الغرض السياسى من مهمة هذا الأمير، فقال: «لا مجال للشك وأن سعيد باشا سيكون مستعدا عند سنوح الفرصة للقيام بنفس الدور الذى قام به محمد على من قبل. ذلك أنه قد نصب أخاه عبد الحليم باشا حكمدارا على الأقليم السودانية، تلك الأقاليم التى تعتبر المدخل إلى قلب أفريقية الوسطى والطريق الموصل إلى بلاد العرب. على أن سعيد يقف موقف الملاحظ الدقيق الذى يرقب فى حذر وانتباه نتائج ما ألم بتركيا من ضعف يتزايد على الأيام، كما يرقب آثار تلك المنافسة الظاهرة بين الدول الأوروبية».

(٢) ألقى سعيد فى ١٩ نوفمبر ١٨٥٩ خطابه المشهور بقصر النيل بين مكبار رجال الحكومة، تحدث فيه=

مطرانا عاما سنة ١٥٧٠ للشهدا الموافقه لسنة ١٨٤٦ [قبطية/ اثيوبية] واستمر سنة وشهرين فظهر من حسن تصرفه ما جعله أهلا ليكون بطريركا فرسم سنة ١٥٧١ للشهدا أى سنة ١٨٤٧ مسيحية [قبطية/ اثيوبية]. والى هذا الاب يرجع تمدن الشعب القبطى وارتقاوه فى مراقى النجاح وذلك بما صبه من قصارى جهده فى سبيل تهذيب شبانه وتعليمهم العلوم فانه انشأ

ولعل عدم قدرة سعيد هذه على تحقيق غايته وإعلان انفصاله عن تركيا، هو ما حمله فى الواقع من مبدأ الأمر على تعضيد «صديقه» دى لسبس لإنجاز مشروع القناة، لإقتناع سعيد بأن فتح القناة هو الوسيلة الناجحة لتحقيق آماله لعدة أسباب، كان أهمها ما توقعه سعيد من معاونة فرنسا - ذات المصلحة الكبرى فى هذا المشروع الحيوى - واهتمامها لصيانة مصالحها بمساعدة مصر على الخروج من الرقابة والسيطرة العثمانية، ثم ما كان ينتظره الوالى أيضاً من إزدياد ثروة البلاد عند نجاح الطريق التجارى الجديد، الأمر الذى سوف يساعده على المضى فى جهوده السياسية. وقد رأى سعيد أن شق القناة فى برزخ السويس سوف يحمل الدول الأوروبية على احترام «وضع» البلاد وصيانة ولايته الوراثية فيها. وأخيرا فقد رأى سعيد أن ضمان الدول لحياد القناة عند شقها سوف يستتبعه حتماً ضمان الدول - كما اعتقد - لحياد مصر ذاتها.

غير أنه كان يحوط مشروع القناة صعوبات عديدة، بسبب مساعي الإنجليز، الذين استمرت معارضتهم للمصالح المصرية فى الأستانة، فكانت مصدر فزع لسعيد طوال هذه المدة. ولذلك

=عن تصميمه على تحرير البلاد، وذلك بتربية الشعب وتهذيبه تهذيبا يجعله صالحا لأن يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة ويستغنى بنفسه عن الأجانب. واعتبر أحمد عرابى هذا الخطاب أول حجر فى أساس نظام «مصر للمصريين».

المدرسة الكبرى القبطية فى البطركخانه وفتح مدرسه أخرى في حارة السقايين (*)وجدد فيها تعليم اللغة القبطية بعدما كادت تندرس رسومها إذ لم يكن في ذلك الوقت يتكلم بها أحد البتة [من العامة] وانما كانت تستعمل فقط فى كل كنايس القطر المصرى وما كان يفهم معانيها الا أناس قلايل. وأدخل من ضمن ذلك لغات أجنبية لاسيما اللغة العربية(*) وجدد كنيسة بحارة السقايين ثم

(*) مازالت قائمة حتى اليوم تحت اسم الملاك جبريل.

(*) اللغة العربية لغة اجنبية.

بذل الوالى جهوداً كبيرة لجذب عطفهم، فوافق على إنشاء «بنك مصر» الإنجليزى فى عام ١٨٥٥ بالرغم من احتجاجات فرنسا، ثم أتم السكة الحديد التى بدأها عباس الأول من الأسكندرية إلى القاهرة، وعهد بالعمل إلى شركة إنجليزية تمكنت من إيصال سكة جديدة بين القاهرة والسويس أيضاً فى عام ١٨٥٨ .ولكن كافة هذه الجهود ذهبت سدى، لأن الإنجليز استمروا يستثيرون الباب العالى ضده(١)، ولذا لم تتحسن العلاقة بين الباب العالى وسعيد خلال السنوات التالية، بل ساءت هذه العلاقة لدرجة أن رفض سعيد فى عام ١٨٦١ تلبية دعوة السلطان لزيارة الأستانة، فى حين أنه أقدم على زيارة الأراضى المقدسة فى غير موسم الحج(٢).

وفى الواقع كان سعيد يستند فى علاقاته حيال تركيا وبريطانيا معاً على صداقة فرنسا ومعاونتها الأدبية والسياسية له فقد أخذت فرنسا تعمل بعد حرب القرم خصوصاً، وعندما فشل مشروع تقسيمها لممتلكات الدولة العثمانية، إلى اجتذاب صداقة سعيد بغية توطيد

(١) أثرت المساعى الإنجليزية فى الأستانة عندما منع الباب العالى سعيد من تجديد بقايا الأسطول المصرى الذى اشترك فى حرب القرم. ووجدت المساعى الإنجليزية قبولاً لدى الباب العالى لأنه كان يخشى من ازدياد القوة المصرية بعد عودة الجنود المصريين (٢٠,٠٠٠ جندى) إلى مصرعند انتهاء حرب القرم.
(٢) غادر سعيد القاهرة فى يناير عام ١٨٦١ إلى السويس، ومنها ذهب إلى الحجاز حيث زار المدينة المنورة، ولكنه عجل فى العودة، فوصل إلى السويس ثانية فى أواخر الشهرالتالى.

شرع في اخر حياته بانشاء الكنيسة الكبرى (الكاتدرائية الحالية)(*) بعدما نقض الكنيسة القديمة وكان بغرمه [بعزمه] أن يشاهدها [يشيدها] على ما هى عليه من الرونق الجميل والمنظر الحسن الآن فحال دون ذلك غيابه فى الحبس(*) الذى صادف فيه مخاطر مهولة كادت تذهب بأجله. وذلك أن بعض الانكليز بعدما توجه إلى الحبشة سعوا به عند النجاشي تاودروس

(*) انشاء الكنيسة الكبرى (الكاتدرائية).

(*) عندما تولى سعيد باشا حكم مصر في يوليو ١٨٥٤، كان «كاسا» يضع اللمسات الاخيرة لتوحيد اليوبيا تحت حكمه وتسمى باسم الامبراطور تاودوروس، واتجه

نفوذها فى مصر، ثم لإنجاز مشروع القناة وضمان السيطرة الفرنسية على هذا الطريق البحرى العظم. ومن ثم، فقد راح لويس نابليون (الإمبراطور نابليون الثالث) يشجع الوالى على عقد القروض الخارجية من غير موافقة الباب العالى، وعاونته فرنسا فعلاً فى عقد قرضه الخارجى الأولى فى عام ١٨٦٠ كما قدمنا.

غير أنه حدث من جراء التفاهم بين مصر وفرنسا أن تمتعت حكومة نابليون الثالث بنفوذ كبير فى البلاد، وتمكنت بفضل هذا النفوذ من خدمة مصالحها وتحقيق مآربها بشكل دعا أوروبا وقتئذ إلى اعتبار سعيد آلة تحركها أطماع فرنسا ورغباتها. وتلمس العالم مظهر هذا النفوذ فى تلبية سعيد السريعة لدعوة نابليون الثالث له حتى يمده بقوة من الجند السودانيين لمعاونة فرنسا فى الحرب الخاسرة التى أثارتها أطماعها فى المكسيك[1]. فقد طلب الإمبراطور الفرنسى من والى مصر أن يمده بفرقة سودانية كاملة (١٢٠٠ من الجند والضباط) يتحمل رجالها قسوة المناخ فى المكسيك، فوافق سعيد على إرسال أورطة سودانية إلى المكسيك

(١) كانت فرنسا على أيام نابليون الثالث تريدة إنشاء إمبراطورية بالمكسيك تحت النفوذ الفرنسى على أنقاض حكومة المكسيك الوطنية، فتصدى الوطنيون لمقاومة الفرنسيين الذين نصبوا الأرشيدوق مكسمليان النمساوى إمبراطوراً على البلاد. وتكبد الفرنسيون خسائر فادحة بسبب حرارة الشمس المحرقة وانتشار الحميات. وظلت فرنسا تحارب فى المكسيك إلى أن انهزمت واضطرت إلى الانسحاب فى النهاية.

[تيودور] وادعوا عليه انه في عزمه أن يجعل الحبشه خاضعة للحكومة المصرية وأنه سار إلى الحبشة وعساكر مصر تتبعه من ورائه. فطار النجاشي عند ذلك جنونا وأمر بحرق البطريرك حيا فتصدت له الملكة واثنت بحزمها عزمه وسفرت البطريرك إلى مصر سالما ثم توفي عقب ذلك بقليل - ومن صفاته أنه كان عالما شديد القساوة على الاكليروس والشعب شديد الاعتصام

للتوسع في السودان، فاتجه سعيد باشا الى اعداده العدة لمحاربته. ولكن أشير عليه بإرسال البطرك «كيرلس» للوساطة. وبالفعل سافر البطرك «كيرلس» للوساطة. ولكن «كاسا» قبض عليه وسجنه تمهيدا لحرقه بحجة أنه جاسوسا أرسله سعيد باشا، وانه مسلم في قلبه وينوى أن يسلم اليوبيا لمصر.

- -

لمساعدة القوات الفرنسية في حربها ضد القوات الوطنية. وبالفعل غادرت الأورطة السودانية - وقوامها ٤٥٣ جندياً بقيادة البكباشي جبر الله محمد - الأسكندرية في صباح ٨ يناير ١٨٦٣ على ظهر السفينة الفرنسية «لاسين» La seine، فوصلت فيراكروز بالمكسيك في ٢٣ فبراير[١].

ومن الجدير بالذكر أن سعيد لم يستأذن من السلطان العثماني عبد العزيز (١٨٦١-١٨٧٦) في إرسال هذه الأورطة السودانية إلى المكسيك. بل جعل المسألة سرية ومفاجئة حتى يضع السلطان أمام الأمر الواقع. ولكن الوالى لم يلبث أن أرسل إلى السلطان - بعد سفر الأورطة وانتشار الخبر -رسالة تلغرافية في ١٦ يناير يعتذر فيها عن إرسال الأورطة بدون موافقته. ولما علم السلطان بما فعله سعيد، ثارت ثائرته، باعتبار أن اشتراك مصر في الحرب بدون موافقة السلطان يعتبر إعلان حرب منها على المكسيك، وهذا مخالف لشروط تسوية ١٨٤٠-١٨٤١ التي تقوم بموجبها الولاية أو الباشوية المصرية.

(١) اشتركت الأورطة السودانية في الحرب في المكسيك من عام ١٨٦٣ إلى عام ١٨٦٧، وقامت هناك بأعمال الحاميات واشتركت في بعض الحملات التي قام بها الفرنسيون للاستيلاء على بعض البلاد أو تعقب القوات الوطنية. وكان السودانيون هم دائماً القائمين بالعبء الأكبر في الصراع ضد القوات الوطنية.

بقوانين الكنيسة واعتقادها وكان مألوفا عند جميع الطوائف محبوبا لدى حكومة مصر مكرما. [و] عند ما بنى كنيسته رسم ستة أساقفة من ضمنهم انبا باسيليوس مطران اورشليم وانبا يوانس مطران المنوفية وانشئت في مدته عدة كنايس وتوفى سنة ألف وخمسمائة وسبع وسبعين للشهدا الموافقة سنة ألف وثمانمائة وثلاث وخمسين مسيحية قبطية و ١٨٦١ مسيحية افرنجية.

ومع أن كثيرين من المعاصرين والمؤرخين يرون بحق أن اشتراك مصر فى هذه الحرب البعيدة كان لا مبرر له؛ إلا أن سعيد كان يرى فى المفاوضة التى تمت سراً بينه وبين فرنسا ما يحمله على إجابة الدعوة التى قدمها له نابليون الثالث، وذلك لما تضمنته هذه المفاوضة ذاتها من معنى اعتراف فرنسا الظاهر باستقلال الوالى الفعلى فى علاقاته الخارجية عن سيطرة الباب العالى.

ولم يكن من المنتظر أن تمر مسألة اشتراك مصر فى حرب المكسيك دوّن احتجاج الباب العالى، وبالفعل أرسل الصدر الأعظم إلى سعيد رسائل شديدة اللهجة بهذا الصدد. غير أن الوالى لم يلبث أن توفى فى ١٨ يناير ١٨٦٣، وتولى الحكم بعده إسماعيل، فانتهت المسألة عند هذا الحد.

مصر من ١٨٦٣ إلى ١٨٧٩

انتهى بتسوية لندن ١٨٤٠ - ١٨٤١ دور النزع الأول الذى آثاره محمد على فى سبيل استقلال مصر والنهوض بها بوصفها من الدول الفتية الحديثة. وأعقبت هذه التسوية فترة طويلة ظلت حوالى ربع قرن (١٨٤٠ - ١٨٦٣) تطورت خلالها السياسة المصرية فى أدوار ومراحل معينة، كان لكل منها طابعه الخاص به، ولو أن السلطة المصرية فى هذه الأدوار كلها كانت تخضع فى الحقيقة لمؤثر واحد مترتب على تسوية لندن الآنفة، وهو ضرورة تحرير مصر من النفوذ والاستغلال العثمانى من جهة. ثم من نفوذ أو تدخل «الوصاية الأوروبية» من جهة أخرى.

فهرس الجزء التاسع

• رقم الإيداع: ٢٦٤٣/ ٢٠١٢
• الترقيم الدولي: 978-977-704-939-9

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقا)
ت: 23904096 - 23952496